(٢٩) سورة العنكبوت مكية وآياتها تسع وستون

وقيل مدنية وقيل نزلت من أولها إلى رأس عشر بمكة وباقيها بالمدينة أو نزل إلى آخر العشر بالمدينة وباقيها بمكة بالعكس ، وهي سبعون أو تسع وستون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾

(وأوتيت من كل شئ) أو يحمل قوله (أكلها دائم) على أن زمان فنائهما لما كان قليلا بالنسبة إلى زمان بقائهما لا جرم أطلق لفظ الدوام عليه .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قوله (كل شئ هالك) يدل على أن الذات ذات بالفعل ، لأنه حكم بالهلاك على الشئ فدل على أن الشئ فى كونه شيئاً قابل للهلاك ، فوجب أن لا يكون المعدوم شيئاً والله أعلم . والحمد لله رب العالمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الم ، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ﴾ فى تفسير الآية وفيها يتعلق بالتفسير مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى تعلق أول هذه السورة بما قبلها وفيه وجوه (الأول) لما قال الله تعالى قبل هذه السورة (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) وكان المراد منه أن يرده إلى مكة ظاهراً غالباً على الكفار ظافراً طالباً للثأر ، وكان فيه احتمال مشاق القتال صعب على البعض ذلك فقال الله تعالى (الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا) ولا يؤمروا بالجهاد (الوجه الثانى) هو أنه تعالى لما قال فى أواخر السورة المتقدمة (وادع إلى ربك) وكان فى الدعاء إليه الطعان والحراب والضراب ، لأن النبى عليه السلام وأصحابه كانوا مأمورين بالجهاد إن لم يؤمن الكفار بمجرد الدعاء فشق على البعض ذلك فقال (أحسب الناس أن يتركوا) (الوجه الثالث) هو أنه تعالى لما قال فى آخر السورة المتقدمة (كل شئ هالك إلا وجهه) ذكر بعده ما يبطل قول المنكرين للحشر فقال (له الحكم وإليه ترجعون) يعنى ليس كل شئ هالكا من غير رجوع بل كل هالك وله رجوع إلى الله . إذا تبين هذا ، فاعلم أن منكرى الحشر يقولون لا فائدة فى التكاليف فإنها مشاق فى الحال ولا فائدة لها فى المآل إذ لا مآل ولا مرجع بعد الهلاك والزوال ، فلا فائدة فيها . فلما بين الله أنهم إليه يرجعون بين أن الأمر ليس على ما حسبوه ، بل حسن التكليف ليثيب

الشكور ويعذب الكفور فقال (أحسب الناس أن يتركوا) غير مكلفين من غير عمل يرجعون به إلى ربهم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى حكمة افتتاح هذه السورة بحروف من التهجى ، ولنقدم عليه كلاماً كلياً فى افتتاح السور بالحروف فنقول : الحكيم إذا خاطب من يكون محل الغفلة أو من يكون مشغول البال بشغل من الأشغال يقدم على الكلام المقصود شيئاً غيره ليلتفت المخاطب بسببه إليه ويقبل بقلبه عليه ، ثم يشرع فى المقصود . إذا ثبت هذا فنقول ذلك المقدم على المقصود قد يكون كلاماً له معنى مفهوم ، كقول القائل اسمع ، واجعل بالك إلى ، وكن لى . وقد يكون شيئاً هو فى معنى الكلام المفهوم كقول القائل أزيد ويازيد وألا يازيد ، وقد يكون ذلك المقدم على المقصود صوتاً غير مفهوم كمن يصفر خاف إنسان ليلتفت إليه ، وقد يكون ذلك الصوت بغير الفم كما يصفق الإنسان بيديه ليقبل السامع عليه . ثم إن موقع الغفلة كلما كان أتم والكلام المقصود كان أهم ، كان المقدم على المقصود أكثر . ولهذا ينادى القريب بالهمزة فيقال أزيد والبعيد بيا فيقال يا زيد ، والغافل ينبه أولا فيقال إلا يازيد . إذا ثبت هذا فنقول إن النبى ﷺ وإن كان يقظان الجنان لكنه انسان يشغله شأن عن شأن فكان يحسن من الحكيم أن يقدم على الكلام المقصود حروفاً هى كالمنبهات ، ثم إن تلك الحروف إذا لم تكن بحيث يفهم معناها تكون أتم فى إفادة المقصود الذى هو التنبيه من تقديم الحروف التى لها معنى ، لأن تقديم الحروف إذا كان لإقبال السامع على المتكلم لسماع ما بعد ذلك فاذا كان ذلك المقدم كلاماً منظوماً وقولا مفهوماً فاذا سمعه السامع ربما يظن أنه كل المقصود ولا كلام له بعد ذلك فيقطع الإلتفات عنه ، أما إذا سمع منه صوتاً بلا معنى يقبل عليه ولا يقطع نظره عنه ما لم يسمع غيره لجزمه بأن ما سمعه ليس هو المقصود ، فاذن تقديم الحروف التى لا معنى لها فى الوضع على الكلام المقصود فيه حكمه بالغة ، فإن قال قائل فما الحكمة فى اختصاص بعض السور بهذه الحروف ؟ فنقول عقل البشر عن إدراك الأشياء الجزئية على تفاصيلها عاجز والله أعلم بجميع الأشياء ، لكن نذكر ما يوفقنا الله له فنقول كل سورة فى أوائلها حروف التهجى فإن فى أوائلها ذكر الكتاب أو التنزيل أو القرآن كقوله تعالى (الم ذلك الكتاب) (الم الله لا إله إلا هو الحى القيوم نزل عليك الكتاب) ، (المص كتاب أنزل إليك) ، (يس والقرآن) ، (ص والقرآن) (ق والقرآن) ، (الم تنزيل الكتاب) ، (حم تنزيل الكتاب) إلا ثلاثة سور (كهيعص) ، (الم أحسب الناس) ، (الم غلبت الروم) والحكمة فى افتتاح السور التى فيها القرآن أو التنزيل أو الكتاب بالحروف هى أن القرآن عظيم والإنزال له ثقل والكتاب له عبء كما قال تعالى (إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا) وكل سورة فى أولها ذكر القرآن والكتاب والتنزيل قدم عليها منبه يوجب ثبات المخاطب لاستماعه ، لا يقال كل سورة قرآن واستماعه استماع القرآن سواء كان فيها ذكر القرآن لفظاً أو لم يكن ، فكان الواجب أن يكون فى أوائل كل سورة منبه ، وأيضاً فقد ورد

سور فيها ذكر الإنزال والكتاب ولم يذكر قبلها حروف كقوله تعالى (الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب) وقوله (سورة أنزلناها) وقوله (تبارك الذى نزل الفرقان) وقوله (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) لأنا نقول جواباً عن الأول لا ريب فى أن كل سورة من القرآن لكن السورة التى فيها ذكر القرآن والكتاب مع أنها من القرآن تنبه على كل القرآن فإن قوله تعالى (طه ما أنزلنا عليك القرآن) مع أنها بعض القرآن فيها ذكر جميع القرآن فيصير مثاله مثال كتاب يرد من ملك على مملوكه فيه شغل ما ، وكتاب آخر يرد منه عليه فيه : إنا كتبنا إليك كتباً إليك كتباً فيها أوامرنا فامتثلها ، لا شك أن عبء الكتاب الآخر أكثر من ثقل الأول وعن الثانى أن قوله (الحمد لله ، وتبارك الذى) تسبيحات مقصودة وتسبيح الله لا يغفل عنه العبد فلا يحتاج إلى منبه بخلاف الأوامر والنواهى ، وأما ذكر الكتاب فيها فلبيان وصف عظمة من له التسبيح (وسورة أنزلناها) قد بينا أنها من القرآن فيها ذكر انزالها وفى السورة التى ذكرناها ذكر جميع القرآن فهو أعظم فى النفس وأثقل .

وأما قوله تعالى (إنا أنزلناه) فنقول هذا ليس وارداً على مشغول القلب بشىء غيره بدليل أنه ذكر الكناية فيها وهى ترجع إلى مذكور سابق أو معلوم وقوله (إنا أنزلناه) الهاء راجع إلى معلوم عند النبى ﷺ فكان متنبهاً له فلم ينبه ، واعلم أن التنبيه قد حصل فى القرآن بغير الحروف التى لا يفهم معناها كما فى قوله تعالى (ياأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم) وقوله (ياأيها النبى اتق الله ، ويا أيها النبى لم تحرم) لأنها أشياء هائلة عظيمة ، فإن تقوى الله حق تقاته أمر عظيم فقدم عليها النداء الذى يكون للبعيد الغافل عنها تنبيهاً ، وأما هذه السورة افتتحت بالحروف وليس فيها الإبتداء بالكتاب والقرآن ، وذلك لأن القرآن ثقله وعبئه بما فيه من التكاليف والمعانى ، وهذه السورة فيها ذكر جميع التكاليف حيث قال (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا) يعنى لا يتركون بمجرد ذلك بل يؤمرون بأنواع من التكاليف فوجد المعنى الذى فى السور التى فيها ذكر القرآن المشتمل على الأوامر والنواهى فان قيل مثل هذا الكلام ، وفى معناه ورد فى سورة التوبة وهو قوله تعالى ؟ (أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم) ولم يقدم عليه حروف التهجى فنقول الجواب عنه فى غاية الظهور ، وهو أن هذا ابتداء كلام ، ولهذا وقع الاستفهام بالهمزة فقال (أحسب) وذلك وسط كلام بدليل وقوع الاستفهام بأم والتنبيه يكون فى أول الكلام لا فى أثنائه ، وأما (ألم غلبت الروم) فسيجىء فى موضعه إن شاء الله تعالى هذا تمام الكلام فى الحروف .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى إعراب (ألم) وقد ذكر تمام ذلك فى سورة البقرة مع الوجوه المنقولة فى تفسيره ونزيد ههنا على ما ذكرناه أن الحروف لا إعراب لها لأنها جارية مجرى الأصوات المنبهة .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ فى سبب نزول هذه الآيات وفيه أقوال : (الأول) أنها نزلت فى عمار ابن ياسر وعياش بن أبى ربيعة والوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وكانوا يعذبون بمكة (الثانى)

أنها نزلت فى أقوام بمكة هاجروا وتبعهم الكفار فاستشهد بعضهم ونجا الباقون (الثالث) أنها نزلت فى مهجع بن عبد الله قتل يوم بدر .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ فى التفسير قوله (أحسب الناس أن يتركوا) يعنى أظنوا أنهم يتركون بمجرد قولهم (آمنا وهم لا يفتنون) لا يبتلون بالفرائض البدنية والمالية ، واختلف أئمة النحو فى قوله (أن يقولوا) فقال بعضهم : أن يتركوا بأن يقولوا ، وقال بعضهم : أن يتركوا يقولون آمنا ، ومقتضى ظاهر هذا أنهم يمنعون من قولهم آمنا ، كما يفهم من قول القائل تظن أنك تترك أن تضرب زيد أى تمنع من ذلك ، وهذا بعيد فان الله لا يمنع أحداً من أن يقول آمنت ، ولكن مراد هذا المفسر هو أنهم لا يتركون يقولون آمنا من غير ابتلاء فيمنعون من هذا المجموع بايجاب الفرائض عليهم .

﴿ المسألة السادسة ﴾ فى الفوائد المعنوية وهى أن المقصود الأقصى من الخلق العبادة والمقصد الأعلى فى العبادة حصول محبة الله كما ورد فى الخبر « لا يزال العبد يتقرب إلى بالعبادة حتى أحبه وكل من كان قلبه أشد امتلاء من محبة الله فهو أعظم درجة عند الله ، لكن للقلب ترجمان وهو اللسان ، وللسان مصدقات هى الأعضاء ، ولهذه المصدقات مزكيات فاذا قال الانسان آمنت باللسان فقد ادعى محبة الله فى الجنان ، فلا بد له من شهود فاذا استعمل الأركان فى الإتيان بما عليه بنيان الإيمان حصل له على دعواه شهود مصدقات فاذا بذل فى سبيل الله نفسه وماله ، وزكى بترك ما سواه أعماله ، زكى شهوده الذين صدقوه فيما قاله ، فيحرر فى جرائد المحبين اسمه ، ويقرر فى أقسام المقربين قسمه ، وإليه الإشارة بقوله (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا) يعنى أظنوا أن تقبل منهم دعواهم بلا شهود وشهودهم بلا مزكين ، بل لابد من ذلك جميعه ليكونوا من المحبين .

﴿فائدة ثانية﴾ وهى أن أدنى درجات العبد أن يكون مسلماً فان مادونه دركات الكفر ، فالإسلام أول درجة تحصل للعبد فاذا حصل له هذه المرتبة كتب اسمه وأثبت قسمه ، لكن المستخدمين عند الملوك على أقسام منهم من يكون ناهضاً فى شغله ماضياً فى فعله ، فينقل من خدمة إلى خدمة أعلى منها مرتبة ، ومنهم من يكون كسلاناً متخلفاً فينقل من خدمة إلى خدمة أدنى منها ، ومنهم من يترك على شغله من غير تغيير ، ومنهم من يقطع رسمه ويمحى من الجرائد اسمه ، فكذلك عباد الله قد يكون المسلم عابداً مقبلا على العبادة مقبولا للسعادة فينقل من مرتبة المؤمنين إلى درجة الموقنين وهى درجة المقربين ومنهم من يكون قليل الطاعة مشتغلا بالخلاعة ، فينقل إلى مرتبة دونه وهى مرتبة العصاة ومنزلة القساة ، وقد يستصغر العيوب ويستكثر الذنوب فيخرج من العبادة محروماً ويلحق بأهل العناد مرجوماً ، ومنهم من يبقى فى أول درجة الجنة وهم البله ، فقال الله بشارة للمطيع الناهض (أحسب الناس أن يتركوا) يعنى أظنوا أنهم يتركون فى أول المقامات لا ، بل ينقلون إلى أعلى الدرجات كما قال تعالى (والذين أوتوا العلم درجات) (فضل الله المجاهدين على القاعدين درجة) . وقال بضده للكسلان (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا) يعنى إذا قال آمنت ويتخلف

وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾

بالعصيان يترك ويرضى منه ، لا بل ينقل إلى مقام أدنى وهو مقام العاصى أو الكافر .

ثم قال تعالى : ﴿ ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ .

ذكر الله ما يوجب تسليتهم فقال كذلك فعل الله بمن قبلكم ولم يتركهم بمجرد قولهم (آمنا) بل فرض عليهم الطاعات وأوجب عليهم وفى قوله (فليعلمن الله الذين صدقوا) وجوه : (الأول) قول مقاتل فليرين الله (الثانى) فليظهرن الله (الثالث) فليميزن الله ، فالحاصل على هذا هو أن المفسرين ظنوا أن حمل الآية على ظاهرها يوجب تجدد علم الله والله عالم بالصادق والكاذب قبل الامتحان ، فكيف يمكن أن يقال بعلمه عند الامتحان فنقول الآية محمولة على ظاهرها وذلك أن علم الله صفة يظهر فيها كل ما هو واقع كما هو واقع ، فقبل التكليف كان الله يعلم أن زيداً مثلا سيطيع وعمراً سيعصى ، ثم وقت التكليف والاتيان يعلم أنه مطيع والآخر عاص وبعد الاتيان يعلم أنه أطاع والآخر عصى ولا يتغير علمه فى شىء من الأحوال ، وإنما المتغير المعلوم ونبين هذا بمثال من الحسيات ولله المثل الأعلى ، وهو أن المرآة الصافية الصقيله إذا علقت من موضع وقوبل بوجهها جهة ولم تحرك ثم عبر عليها زيد لابساً ثوباً أبيض ظهر فيها زيد فى ثوب أبيض ، وإذا عبر عليها عمرو فى لباس أصفر يظهر فيها كذلك فهل يقع فى ذهن أحد أن المرآة فى كونها حديداً تغيرت ، أو يقع له أنها فى تدويرها تبدلت ، أو يذهب فهمه إلى أنها فى صقالتها اختلفت أو يخطر بباله أنها عن مكانها انتقلت ، لا يقع لأحد شىء من هذه الأشياء ويقطع بأن المتغير الخارجات ، فافهم علم الله من هذا المثال بل أعلى من هذا المثال ، فان المرآة ممكنة التغير وعلم الله غير ممكن عليه ذلك فقوله (فليعلمن الله الذين صدقوا) يعنى يقع ممن يعلم الله أن يطيع الطاعة فيعلم أنه مطيع بذلك العلم (وليعلمن الكاذبين) يعنى من قال أنا مؤمن وكان صادقاً عند فرض العبادات يظهر منه ذلك ويعلم ومن قال ذلك وكان منافقاً كذلك يبين ، وفى قوله (الذين صدقوا) بصيغة الفعل وقوله (الكاذبين) باسم الفاعل فائدة مع أن الاختلاف فى اللفظ أدل على الفصاحة ، وهى أن اسم الفاعل يدل فى كثير من المواضع على ثبوت المصدر فى الفاعل ورسوخه فيه والفعل الماضى لا يدل عليه كما يقال فلان شرب الخمر وفلان شارب الخمر وفلان نفذ أمره وفلان نافذ الأمر فانه لا يفهم من صيغة الفعل التكرار والرسوخ ، ومن اسم الفاعل يفهم ذلك إذا ثبت هذا فنقول وقت نزول الآية كانت الحكاية عن قوم قريبى العهد بالاسلام فى أوائل إيجاب التكاليف وعن قوم مستديمين للكفر مستمرين عليه فقال فى حق المؤمنين (الذين صدقوا) بصيغة الفعل أى وجد منهم الصدق وقال فى حق الكافر (الكاذبين) بالصيغة المنبئة عن الثبات والدوام ولهذا قال (يوم ينفع الصادقين صدقهم) بلفظ اسم الفاعل ، وذلك لأن فى اليوم المذكور الصدق قد يرسخ فى قلب

أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾

المؤمن وهو اليوم الآخر ولا كذلك فى أوائل الإسلام .

ثم قال تعالى : ﴿ أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون ﴾

لما بين حسن التكليف بقوله (أحسب الناس أن يتركوا) بين أن من كلف بشيء ولم يأت به يعذب وإن لم يعذب فى الحال فسيعذب فى الإستقبال ولا يفوت الله شيء فى الحال ولا فى المآل ، وهذا إبطال مذهب من يقول التكاليف إرشادات والإيعاد عليه ترغيب وترهيب ولا يوجد من الله تعذيب ولو كان يعذب ما كان عاجزاً عن العذاب عاجلا فلم كان يؤخر العقاب فقال تعالى (أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا) يعنى ليس كما قالوا بل يعذب من يعذب ويثيب من يثيب بحكم الوعد والإيعاد والله لا يخلف الميعاد ، وأما الإمهال فلا يفضى إلى الإهمال والتعجيل فى جزاء الأعمال شغل من يخاف الفوت لولا الإستعجال .

ثم قال تعالى (ساء ما يحكمون) يعنى حكمهم بأنهم يعصون ويخالفون أمر الله ولا يعاقبون حكم سيئ فإن الحكم الحسن لا يكون إلا حكم العقل أو حكم الشرع والعقل لا يحكم على الله بذلك فإن الله له أن يفعل ما يريد والشرع حكمه بخلاف ما قالوه ، فحكمهم حكم فى غاية السوء والرداءة .

ثم قال ﴿ من كان يرجو لقاء الله فان أجل الله لآت وهو السميع العليم ﴾

لما بين بقوله : أحسب الناس أن العبد لا يترك فى الدنيا سدى ، وبين فى قوله (أم حسب الذين يعملون السيئات) أن من ترك ما كلف به يعذب كذا بين أن يعترف بالآخرة ويعمل لها لا يضيع عمله ولا يخيب أمله ، وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أنا ذكرنا فى مواضع أن الأصول الثلاثة وهى الأول وهو الله تعالى ووحدانيته والأصل الآخر وهو اليوم الآخر والأصل المتوسط وهو النبى المرسل من الأول الموصل إلا الآخر لا يكاد ينفصل فى الذكر الإلهى بعضها عن بعض ، فقوله (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا) فيه إشارة إلى الأصل الأول يعنى أظنوا أنه يكفى الأصل الأول وقوله (وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم) يعنى بإرسال الرسل وإيضاح السبل فيه إشارة إلى الأصل الثانى وقوله (أم حسب الذين يعملون السيئات) مع قوله (من كان يرجو لقاء الله) فيه إشارة إلى الأصل الثالث وهو الآخر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكر بعض المفسرين فى تفسير لقاء الله أنه الرؤية وهو ضعيف فان اللقاء والملاقاة بمعنى وهو فى اللغة بمعنى الوصول حتى أن جمادين إذا تواصلا فقد لاقى أحدهما الآخر .

وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال بعض المفسرين المراد من الرجاء الخوف والمعنى من قوله (من كان يرجو لقاء الله) من كان يخاف الله وهو أيضاً ضعيف ، فان المشهور فى الرجاء هو توقع الخير لاغير ولأنا أجمعنا على أن الرجاء ورد بهذا المعنى يقال أرجو فضل الله ولا يفهم منه أخاف فضل الله ، وإذا كان وارداً لهذا لا يكون لغيره دفعاً للاشتراك .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ يمكن أن يكون المراد بأجل الله الموت ويمكن أن يكون هو الحياة الثانية بالحشر ، فان كان هو الموت فهذا ينبئ عن بقاء النفوس بعد الموت كما ورد فى الأخبار وذلك لأن القائل إذا قال من كان يرجو الخير فان السلطان واصل يفهم منه أن متصلا بوصول السلطان يكون هو الخير حتى أنه لو وصل هو وتأخر الخير يصح أن يقال للقائل، أما قلت ماقلت ووصل السلطان ولم يظهر الخير ، فلولم يحصل اللقاء عند الموت لما حسن ذلك كما ذكرنا فى المثال ، وإذا تبين هذا فلولا البقاء لما حصل اللقاء .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قوله (من كان يرجو) شرط وجزاؤه (فان أجل الله لآت) والمعلق بالشرط عدم عند عدم الشرط فمن لا يرجو لقاء الله لا يكون أجل الله آتياً له ، وهذا باطل فما الجواب عنه ؟ نقول المراد من ذكر إتيان الأجل وعد المطيع بما بعده من الثواب ، يعنى من كان يرجو لقاء الله فان أجل الله لآت بثواب الله يثاب على طاعته عنده ولا شك أن من لا يرجوه لا يكون أجل الله آتياً على وجه يثاب هو .

﴿ المسألة السادسة ﴾ قال (وهو السميع العليم) ولم يذكر صفة غيرهما كالعزيز الحكيم وغيرهما ، وذلك لأنه سبق القول فى قوله (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا) وسبق الفعل بقوله (وهم لا يفتنون) وبقوله (فليعلمن الله الذين صدقوا) وبقوله (أم حسب الذين يعملون السيئات) ولا شك أن القول يدرك بالسمع والعمل منه ما لا يدرك بالبصر ومنه ما يدرك به كالقصود والعلم يشملهما وهو السميع يسمع ما قالوه وهو العليم يعلم من صدق فيما قال (ممن كذب) وأيضاً عليم يعلم ما يعمل فيثيب ويعاقب وههنا لطيفة وهى أن العبد له ثلاثة أمور هى أصناف حسناته (أحدها) عمل قلبه وهو التصديق وهو لا يرى ولا يسمع ، وإنما يعلم وعمل لسانه وهو يسمع وعمل أعضائه وجوارحه وهو يرى فاذا أتى بهذه الأشياء يجعل الله لمسموعه ما لا أذن سمعت ، ولمرئيه ما لا عين رأت ، ولعمل قلبه ما لا خطر على قلب أحد ، كما وصف فى الخبر فى وصف الجنة .

ثم قال تعالى : ﴿ ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه إن الله لغنى عن العالمين ﴾

لما بين أن التكليف حسن واقع وأن عليه وعداً وإيعاداً ليس لهما دافع ، بين أن طلب الله ذلك

من المكلف ليس لنفع يعود إليه فإنه غنى مطلقاً ليس شىء غيره يتوقف كما له عليه ومثل هذا كثير فى القرآن كقوله تعالى (من عمل صالحاً فلنفسه) وقوله تعالى (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم) وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الآية السابقة مع هذه الآية يوجبان إكثار العبد من العمل الصالح واتقانه له ، وذلك لأن من يفعل فعلا لأجل ملك ويعلم أن الملك يراه ويبصره يحسن العمل ويتقنه ، وإذا علم أن نفعه له ومقدر بقدر عمله يكثر منه ، فإذا قال الله إنه سميع عليم فالعبد يتقن عمله ويخلصه له وإذا قال بأن جهاده لنفسه يكثر منه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لقائل أن يقول هذا يدل على أن الجزاء على العمل لأن الله تعالى لما قال (من جاهد فإنما يجاهد لنفسه) فهم منه أن من جاهد ربح بجهاده ما لولاه لما ربح فنقول هو كذلك ولكن بحكم الوعد لا بالإستحقاق ، وبيانه هو أن الله تعالى لما بين أن المكلف إذا جاهد يثيبه فاذا أتى به هو يكون جهاداً نافعاً له ولا نزاع فيه ، وإنما النزاع فى أن الله يجب عليه أن يثيب على العمل لولا الوعد ، ولا يجوز أن يحسن إلى أحد إلا بالعمل ولا دلالة للآية عليه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (فإنما) يقتضى الحصر فينبغى أن يكون جهاد المرء لنفسه فحسب ولا ينتفع به غيره وليس كذلك فان من جاهد ينتفع به ومن يريده ونفعه ، حتى أن الوالد والولد ببركة المجاهد وجهاده ينتفعان فنقول ذلك نفع له فان انتفاع الولد انتفاع للأب والحصر ههنا معناه أن جهاده لا يصل إلى الله منه نفع ويدل عليه قوله تعالى (إن الله لغنى عن العالمين) وفيه مسائل :

﴿ الأولى ﴾ تدل الآية على أن رعاية الأصلح لا يجب على الله لأنه بالأصلح لا يستفيد فائدة وإلا لكان مستكملا بتلك الفائدة وهى غيره وهى من العالم فيكون مستكملا بغيره فيكون محتاجاً إليه وهو غنى عن العالمين ، وأيضاً أفعاله غير معللة لما بينا .

﴿ المسألة الثانية ﴾ تدل الآية على أنه ليس فى مكان وليس على العرش على الخصوص فانه من العالم والله غنى عنه والمستغنى عن المكان لا يمكن دخوله فى مكان لأن الداخل فى المكان يشار إليه بأنه ههنا أو هناك على سبيل الإستقلال ، وما يشار إليه بأنه ههنا أو هناك يستحيل أن لا يوجد لا ههنا ولا هناك وإلا لجوز العقل إدراك جسم لا فى مكان وإنه محال .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لو قال قائل ليست قادريته بقدرة ولا عالميته بعلم وإلا لكان هو فى قادريته محتاجا إلى قدرة هى غيره وكل ما هو غيره فهو من العالم فيكون محتاجاً وهو غنى ، نقول لم قلتم إن قدرته من العالم وهذا لأن العالم كل موجود سوى الله بصفاته أى كل موجود هو خارج عن مفهوم الإله الحى القادر المريد العالم السميع البصير المتكلم والقدرة ليست خارجة عن مفهوم القادر ، والعلم ليس خارجاً عن مفهوم العالم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ الآية فيها بشارة وفيها إنذار ، أما الإنذار فلان الله إذا كان غنياً عن

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

العالمين فلو أهلك عباده بعذابه فلاشيء عليه لغناه عنهم وهذا يوجب الخوف العظيم ، وأما البشارة فلأنه إذا كان غنياً ، فلو أعطى جميع ما خلقه لعبد من عباده لاشيء عليه لاستغنائه عنه . وهذا يوجب الرجاء التام .

ثم قال تعالى : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذين كانوا يعملون ﴾

لما بين إجمالا أن من يعمل صالحاً فلنفسه بين مفصلا بعض التفصيل أن جزاء المطيع الصالح عمله فقال (والذين آمنوا) وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أنها تدل على أن الأعمال مغايرة للايمان لأن العطف يوجب التغاير .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أنها تدل على أن الأعمال داخلة فيما هو المقصود من الإيمان لأن تكفير السيئات والجزاء بالأحسن معلق عليها وهى ثمرة الايمان ، ومثال هذا شجرة مثمرة لاشك فى أن عروقها وأغصانها منها ، والماء الذى يجرى عليها والتراب الذى حواليها غير داخل فيها لكن الثمرة لا تحصل إلا بذلك الماء والتراب الخارج فكذلك العمل الصالح مع الايمان وأيضاً الشجرة لو احتفت بها الحشائش المفسدة والأشواك المضرة ينقص ثمرة الشجرة وإن غلبتها عدمت الثمرة بالكلية وفسدت فكذلك الذنوب تفعل بالايمان .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الايمان هو التصديق كما قال (وما أنت بمؤمن لنا) أى بمصدق واختص فى استعمال الشرع بالتصديق بجميع ما قال الله وقال رسول الله ﷺ على سبيل التفصيل إن علم مفصلا أنه قول الله أو قول الرسول أو على سبيل الإجمال فيما لم يعلم ، والعمل الصالح عندنا كل ما أمر الله به صار صالحاً بأمره ، ولو نهى عنه لما كان صالحاً فليس الصلاح والفساد من لوازم الفعل فى نفسه ، وقالت المعتزلة ذلك من صفات الفعل ويترتب عليه الأمر والنهى ، فالصدق عمل صالح فى نفسه ويأمر الله به لذلك ، فعندنا الصلاح والفساد والحسن والقبح يترتب على الأمر والنهى ، وعندهم الأمر والنهى يترتب على الحسن والقبح والمسألة بطولها فى [كتب] الأصول .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ العمل الصالح باق لأن الصالح فى مقابلة الفاسد والفاسد هو الهالك التالف ، يقال فسدت الزروع إذا هلكت أو خرجت عن درجة الانتفاع ويقال هى بعد صالحة أى باقية على ما ينبغى . إذا علم هذا فنقول العمل الصالح لا يبقى بنفسه لأنه عرض ، ولا يبقى بالعامل أيضاً لأنه هالك كما تعالى (كل شيء هالك) فبقاؤه لابد من أن يكون بشيء باق ، لكن الباقى هو وجه الله

لقوله (كل شئ هالك إلا وجهه) فينبغي أن يكون العمل لوجه الله حتى يبقى فيكون صالحاً ، وما لا يكون لوجهه لا يبقى لا بنفسه ولا بالعامل ولا بالمعمول له فلا يكون صالحاً ، فالعمل الصالح هو الذى أتى به المكلف مخلصاً لله .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ هذا يقتضى أن تكون النية شرطاً فى الصالحات من الأعمال وهى قصد الإيقاع لله ، ويندرج فيها النية فى الصوم خلافاً لزفر ، وفى الوضوء خلافاً لأبى حنيفة رحمه الله .

﴿ المسألة السادسة ﴾ العمل الصالح مرفوع لقوله تعالى (العمل الصالح يرفعه) لكنه لا يرتفع إلا بالكلم الطيب فانه يصعد بنفسه كما قال تعالى (إليه يصعد الكلم الطيب) وهو يرفع العمل فالعمل من غير المؤمن لا يقبل ، ولهذا قدم الإيمان على العمل ، وههنا لطيفة ، وهى أن أعمال المكلف ثلاثة عمل قلبه وهو فكره واعتقاده وتصديقه ، وعمل لسانه وهو ذكره وشهادته ، وعمل جوارحه وهو طاعته وعبادته . فالعبادة البدنية لا ترتفع بنفسها وإنما ترتفع بغيرها ، والقول الصادق يرتفع بنفسه كما بين فى الآية ، وعمل القلب وهو الفكر ينزل إليه كما قال النبى صلى الله عليه وسلم «إن الله ينزل إلى السماء الدنيا ويقول هل من تائب» والتائب النادم بقلبه . وكذلك قوله عليه السلام «يقول الله عز وجل أنا عند المنكسرة قلوبهم» يعنى بالفكرة فى عجزه وقدرتى وحقارته وعظمتى ومن حيث العقل من تفكر فى آلاء الله وجد الله وحضر ذهنه ، فعلم أن لعمل القلب يأتى الله وعمل اللسان يذهب إلى الله وعمل الأعضاء يوصل إلى الله ، وهذا تنبيه على فضل عمل القلب .

﴿ المسألة السابعة ﴾ ذكر الله من أعمال العبد نوعين : الإيمان والعمل الصالح ، وذكر فى مقابلتهما من أفعال الله أمرين تكفير السيئات والجزاء بالأحسن حيث قال (لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن) فتكفير السيئات فى مقابلة الإيمان ، والجزاء بالأحسن فى مقابلة العمل الصالح ، وهذا يقتضى أموراً (الأول) المؤمن لا يخلد فى النار لأن بإيمانه تكفر سيئاته فلا يخلد فى العذاب (الثانى) الجزاء الأحسن المذكور ههنا غير الجنة ، وذلك لأن المؤمن بإيمانه يدخل الجنة إذ تكفر سيئاته ومن كفرت سيئاته أدخل الجنة ، فالجزاء الأحسن يكون غير الجنة وهو مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ولا يبعد أن يكون هو الرؤية .

(الأمر الثالث) هو أن الإيمان يستر قبح الذنوب فى الدنيا فيستر الله عيوبه فى الأخرى ، والعمل الصالح يحسن حال الصالح فى الدنيا فيجزيه الله الجزاء الأحسن فى العقبى ، فالإيمان إذن لا يبطله العصيان بل هو يغلب المعاصى ويسترها ويحمل صاحبها على الندم ، والله أعلم .

﴿ المسألة الثامنة ﴾ قوله (لنكفرن عنهم سيئاتهم) يستدعى وجود السيئات حتى تكفر (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) بأسرها من أين يكون لهم سيئة ؟ فنقول (الجواب عنه) من وجهين (أحدهما) أن وعد الجميع بأشياء لا يستدعى وعد كل واحد بكل واحد من تلك الأشياء ، مثاله : إذا قال الملك لأهل بلد إذا أطعتمونى أكرم آباءكم واحترم أبناءكم وأنعم عليكم وأحسن

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

إليكم ، لا يقتضى هذا أنه يكرم آباء من توفى أبوه ، أو يحترم ابن من لم يولد له ولد ، بل مفهومه أنه يكرم أب من له أب ، ويحترم ابن من له ابن ، فكذلك يكفر سيئة من له سيئة (الجواب الثانى) ما من مكلف إلا وله سيئة . أما غير الأنبياء فظاهر ، وأما الأنبياء فلأن ترك الأفضل منهم كالسيئة من غيرهم ، ولهذا قال تعالى (عفا الله عنك لم أذنت لهم) .

﴿ المسألة التاسعة ﴾ قوله (ولنجزينهم أحسن) يحتمل وجهين (أحدهما) لنجزينهم بأحسن أعمالهم (وثانيهما) لنجزينهم أحسن من أعمالهم . وعلى الوجه الأول معناه نقدر أعمالهم أحسن ماتكون ونجزيهم عليها لا أنه يختار منها أحسنها ويجزى عليه ويترك الباقى ، وعلى الوجه (الثانى) معناه قريب من معنى قوله تعالى (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) وقوله (فله خير منها) .

﴿ المسألة العاشرة ﴾ ذكر حال المسىء مجملا بقوله (أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا) إشارة إلى التعذيب مجملا . وذكر حال المحسن مجملا بقوله (ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه) ومفصلا بهذه الآية ، ليكون ذلك إشارة إلى أن رحمته أتم من غضبه وفضله أعم من عدله .

قوله تعالى : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسناً وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعمهما إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعلمون ﴾ وفى الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ ماوجه تعلق الآية بماقبلها ؟ نقول : لما بين الله حسن التكاليف ووقوعها ، وبين ثواب من حقق التكاليف أصولها وفروعها تحريضاً للمكلف على الطاعة ، ذكر المانع ومنعه من أن يختار اتباعه ، فقال الانسان إن انقاد لأحد ينبغى أن ينقاد لأبويه ، ومع هذا لو أمراه بالمعصية لا يجوز اتباعهما فضلا عن غيرهما فلا يمنعن أحدكم شىء من طاعة الله ولا يتبعن أحد من يأمر بمعصية الله .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى القراءة قرىء حسناً وإحساناً وحسناً أظهرههنا ، ومن قرأ إحساناً فمن قوله تعالى (وبالوالدين إحساناً) والتفسير على القراءة المشهورة هو أن الله تعالى وصى الإنسان بأن يفعل مع والديه حسن التأتى بالفعل والقول ، ونكر حسناً ليدل على الكمال ، كما يقال إن لزيد مالا .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى قوله (ووصينا الإنسان بوالديه حسناً) دليل على أن متابعتهم فى الكفر لا يجوز ، وذلك لأن الإحسان بالوالدين وجب بأمر الله تعالى فلو ترك العبد عبادة الله تعالى بقول الوالدين لترك طاعة الله تعالى فلا ينقاد لما وصاه به فلا يحسن إلى الوالدين ، فاتباع العبد أبويه

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾

لأجل الإحسان إليهما يفضى إلى ترك الإحسان إليهما ، وما يفضى وجوده إلى عدمه باطل فالاتباع باطل ، وأما إذا امتنع من الشرك بقي على الطاعة والإحسان إليهما من الطاعة فيأتى به فترك هذا الاحسان صورة يفضى إلى الاحسان حقيقة .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ الإحسان بالوالدين مأمور به ، لأنهما سبب وجود الولد بالولادة وسبب بقائه بالتربية المعتادة فهما سبب مجازاً ، والله تعالى سبب له فى الحقيقة بالإرادة ، وسبب بقائه بالإعادة للسعادة ، فهو أولى بأن يحسن العبد حاله معه ، ثم قال تعالى (وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما) فقوله (ماليس لك به علم) يعنى التقليد فى الإيمان ليس بجيد فضلا عن التقليد فى الكفر ، فاذا امتنع الانسان من التقليد فيه ولا يطيع بغير العلم لا يطيعهما أصلا ، لأن العلم بصحة قولهما محال الحصول ، فاذا لم يشرك تقليداً ويستحيل الشرك مع العلم ، فالشرك لا يحصل منه قط .

ثم قال تعالى (إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون) يعنى عاقبتكم ومآلكم إلى ، وإن كان اليوم مخالطتكم ومجالستكم مع الآباء والأولاد والأقارب والعشائر ، ولا شك أن من يعلم أن مجالسته مع واحد خالية منقطعة ، وحضوره بين يدى غيره دائم غير منقطع لا يترك مراضى من تدوم معه صحبته لرضا من يتركه فى زمان آخر .

ثم قوله تعالى (فأنبئكم) فيه لطيفة وهى أن الله تعالى يقول لا تظنوا أنى غائب عنكم وآباؤكم حاضرون فتوافقون الحاضرين فى الحال اعتماداً على غيبتى وعدم علمى بمخالفتكم إياى فانى حاضر معكم أعلم ما تفعلون ولا أنسى فأنبئكم بجميعه .

قوله تعالى : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم فى الصالحين ﴾ . وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ماالفائدة فى إعادة (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) مرة أخرى ؟ نقول الله تعالى ذكر من المكلفين قسمين مهتدياً وضالا بقوله (فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) وذكر حال الضال مجملا وحال المهتدى مفصلا بقوله (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم) ولما تم ذلك ذكر قسمين آخرين هادياً ومضلا فقوله (ووصينا الإنسان بوالديه حسناً) يقتضى أن يهتدى بهما وقوله (وإن جاهداك لتشرك) بيان إضلالهما وقوله (إلى مرجعكم فأنبئكم) بطريق الإجمال تهديد المضل وقوله (والذين آمنوا) على سبيل التفصيل وعد الهادى فذكر (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) مرة لبيان حال المهتدى ، ومرة أخرى لبيان حال الهادى والذى يدل عليه هو أنه قال (أولا) (لنكفرن عنهم سيئاتهم) ، وقال (ثانياً) (لندخلنهم فى الصالحين) والصالحون هم الهداة لأنه مرتبة الأنبياء ولهذا قال كثير من الأنبياء (ألحقنى بالصالحين)

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾

﴿ المسألة الثانية ﴾ قد ذكرنا أن الصالح باق والصالحون باقون وبقاؤهم ليس بأنفسهم بل بأعمالهم الباقية فأعمالهم باقية . والمعمول له وهو وجه الله باق ، والعاملون باقون ببقاء أعمالهم وهذا على خلاف الأمور الدنيوية ، فان فى الدنيا بقاء الفعل بالفاعل وفى الآخرة بقاء الفاعل بالفعل .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قيل فى معنى قوله (لندخلنهم فى الصالحين) لندخلنهم فى مقام الصالحين أو فى دار الصالحين والأولى أن يقال لاحاجة إلى الاضمار بل يدخلهم فى الصالحين أى يجعلهم منهم ويدخلهم فى عدادهم كما يقال الفقيه داخل فى العلماء .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال الحكماء عالم العناصر عالم الكون والفساد ومافيه يتطرق إليه الفساد فان الماء يخرج عن كونه ماء ويفسد ويتكون منه هواء ، وعالم السموات لا كون فيه ولا فساد بل يوجد من عدم ولا يعدم ولا يصير الملك تراباً بخلاف الانسان فانه يصير تراباً أو شيئاً آخر وعلى هذا فالعالم العلوى ليس بفاسد فهو صالح فقوله (تعالى لندخلنهم فى الصالحين) أى فى المجردين الذين لا فساد لهم .

ثم قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم أوليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين ، وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين ﴾ .

نقول أقسام المكلفين ثلاثة مؤمن ظاهر بحسن اعتقاده ، وكافر مجاهر بكفره وعناده ، ومذبذب بينهما يظهر الإيمان بلسانه ويضمر الكفر فى فؤاده ، والله تعالى لما بين القسمين بقوله تعالى (فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) وبين أحوالهما بقوله (أم حسب الذين يعملون السيئات) إلى قوله (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) بين القسم الثالث وقال (ومن الناس من يقول آمنا بالله) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال (ومن الناس من يقول آمنا) ولم يقل آمنت مع أنه وحد الأفعال التى بعده كقوله تعالى (فاذا أوذى فى الله) وقوله (جعل فتنة الناس) وذلك لأن المنافق كان يشبه

نفسه بالمؤمن ، ويقول إيمانى كايمانك فقال (آمنا) يعنى أنا والمؤمن حقاً آمنا ، إشعاراً بأن إيمانه كايمانه ، وهذا كما أن الجبان الضعيف إذا خرج مع الأبطال فى القتال ، وهزموا خصومهم يقول الجبان خرجنا وقاتلناهم وهزمناهم ، فيصح من السامع لكلامه أن يقول وماذا كنت أنت فيهم حتى تقول خرجنا وقاتلنا ؟ وهذا الرد يدل على أنه يفهم من كلامه أن خروجه وقتاله كخروجهم وقتالهم ، لانه لا يصح الإنكار عليه فى دعوى نفس الخروج والقتال ، وكذا قول القائل أنا والملك ألفينا فلاناً واستقبلناه ينكر ، لأن المفهوم منه المساواة فهم لما أرادوا إظهار كون إيمانهم كايمان المحقين كان الواحد يقول (آمنا) أى أنا والحق .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (فاذا أوذى فى الله) هو فى معنى قوله (وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى) غير أن المراد بتلك الآية الصابرون على أذية الكافرين والمراد ههنا الذين لم يصبروا عليها فقال هناك (وأوذوا فى سبيلى) وقال ههنا (أوذى فى الله) ولم يقل فى سبيل الله واللطيفة فيه أن الله أراد بيان شرف المؤمن الصابر وخسة المنافق الكافر فقال هناك أوذى المؤمن فى سبيل الله ليترك سبيله ولم يتركه ، وأوذى المنافق الكافر فترك الله بنفسه ، وكان يمكنه أن يظهر موافقتهم إن بلغ الايذاء إلى حد الاكراه ، ويكون قلبه مطمئناً بالايمان فلا يترك الله ، ومع هذا لم يفعله بل ترك الله بالكلية ، والمؤمن أوذى ولم يترك سبيل الله بل أظهر كلمتى الشهادة وصبر على الطاعة والعبادة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (جعل فتنة الناس كعذاب الله) قال الزمخشرى جعل فتنة الناس صارفة عن الايمان كما أن عذاب الله صارف عن الكفر ، وقيل جزعوا من عذاب الناس كما جزعوا من عذاب الله ، وبالجملة معناه أنهم جعلوا فتنة الناس مع ضعفها وانقطاعها كعذاب الله الأليم الدائم حتى ترددوا فى الأمر ، وقالوا إن آمنا نتعرض للتأذى من الناس وإن تركنا الايمان نتعرض لما توعدنا به محمد عليه الصلاة والسلام ، واختاروا الاحتراز عن التأذى العاجل ولا يكون التردد إلا عند التساوى ومن أين إلى أين تعذيب الناس لا يكون شديداً ، ولا يكون مديداً لأن العذاب إن كان شديداً كعذاب النار وغيره يموت الانسان فى الحال فلا يدوم التعذيب ، وإن كان مديداً كالحبس والحصر لا يكون شديداً وعذاب الله شديد وزمانه مديد ، وأيضاً عذاب الناس له دافع وعذاب الله ماله من دافع ، وأيضاً عذاب الناس عليه ثواب عظيم ، وعذاب الله بعده عذاب أليم ، والمشقة إذا كانت مستعقبة للراحة العظيمة تطيب ولا تعد عذاباً كما تقطع السلعة المؤذية ولا تعد عذاباً .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال (فتنة الناس) ولم يقل عذاب الناس لأن فعل العبد ابتلاء وامتحان من الله وفتنته تسليط بعض الناس على من أظهر كلمة الايمان ليؤذيه فتبين منزلته كما جعل التكاليف ابتلاء وامتحاناً وهذا إشارة إلى أن الصبر على البلية الصادرة ابتلاء وامتحاناً من الانسان كالصبر على العبادات .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ لو قال قائل هذا يقتضى منع المؤمن من إظهار كلمة الكفر بالإكراه ، لأن من أظهر كلمة الكفر بالإكراه احترازاً عن التعذيب العاجل يكون قد جعل فتنة الناس كعذاب الله ، فنقول ليس كذلك ، لأن من أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان لم يجعل فتنة الناس كعذاب الله ، لأن عذاب الله يوجب ترك ما يعذب عليه ظاهراً وباطناً ، وهذا المؤمن المكره لم يجعل فتنة الناس كعذاب الله ، بحيث يترك ما يعذب عليه ظاهراً وباطنا ، بل فى باطنه الإيمان ، ثم قال تعالى (ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم) يعنى دأب المنافق أنه إن رأى اليد للكافر أظهر ما أضمر وأظهر المعية وادعى التبعية ، وفيه فوائد نذكرها فى مسائل :

﴿ الأولى ﴾ قال(ولئن جاء نصر من ربك)ولم يقل من الله ، مع أن ما تقدم كان كله بذكر الله كقوله (أوذى فى الله) وقوله (كعذاب الله) وذلك لأن الرب اسم مدلوله الخاص به الشفقة والرحمة ، والله اسم مدلوله الهيبة والعظمة ، فعند النصر ذكر اللفظ الدال على الرحمة والعاطفة ، وعند العذاب ذكر اللفظ الدال على العظمة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لم يقل ولئن جاءكم أو جاءك بل قال (ولئن جاء نصر من ربك) والنصر لو جاءهم ما كانوا يقولون (إنا كنا معكم) وهذا يقتضى أن يكونوا قائلين : إنا معكم إذا جاء نصر سواء جاءهم أو جاء المؤمنين ، فنقول هذا الكلام يقتضى أن يكونوا قائلين إنا معكم إذا جاء النصر ، لكن النصر لا يجىء إلا للمؤمن ، كما قال تعالى (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) ولأن غلبة الكافر على المسلم ليس بنصر ، لأن النصر ما يكون عاقبته سليمة بدليل أن أحد الجيشين إن انهزم فى الحال . ثم كر المنهزم كرة أخرى وهزموا الغالبين ، لا يطلق اسم المنصور إلا على من كان له العاقبة ، فكذلك المسلم وإن كسر فى الحال فالعاقبة للمتقين ، فالنصر لهم فى الحقيقة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى ليقولن قراءتان : (إحداهما) الفتح حملا على قوله (من يقول آمنا) يعنى من يقول آمنا إذا أوذى يترك ذلك القول ، وإذا جاء النصر يقول إنا كنا معكم (وثانيتهما) الضم على الجمع إسناداً للقول إلى الجميع الذين دل عليهم المفهوم . فإن المنافقين كانوا جماعة ، ثم بين الله تعالى أنهم أرادوا التلبيس ولا يصح ذلك لهم . لأن التلبيس إنما يكون عند ما يخالف القول القلب ، فالسامع يبنى الأمر على قوله ولا يدرى ما فى قلبه فيلتبس الأمر عليه . وأما الله تعالى فهو عليم بذات الصدور ، وهو أعلم بما فى صدر الإنسان من الإنسان فلا يلتبس عليه الأمر ، وهذا إشارة إلى أن الاعتبار بما فى القلب ، فالمنافق الذى يظهر الإيمان ويضمر الكفر كافر ، والمؤمن المكره الذى يظهر الكفر ويضمر الإيمان مؤمن والله أعلم بما فى صدور العالمين ، ولما بين أنه أعلم بما فى قلوب العالمين ، بين أنه يعلم المؤمن المحق وإن لم يتكلم ، والمنافق وإن تكلم فقال (وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين) وقد سبق تفسيره ، لكن فيه مسألة واحدة وهى أن الله قال هناك (فليعلمن الله الذين صدقوا) وقال ههنا (وليعلمن الله الذى آمنوا) فنقول لما كان الذكر هناك للمؤمن

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾

والكافر ، والكافر فى قوله كاذب ، فإنه يقول : الله أكثر من واحد ، والمؤمن فى قوله صادق فإنه كان يقول الله واحد ، ولم يكن هناك ذكر من يضمر خلاف ما يظهر ، فكان الحاصل هناك قسمين صادقاً وكاذباً وكان ههنا المنافق صادقاً فى قوله فانه كان يقول الله واحد ، فاعتبر أمر القلب فى المنافق فقال (وليعلمن المنافقين) واعتبر أمر القلب فى المؤمن وهو التصديق فقال (وليعلمن الله الذين آمنوا) .

ثم قال تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شىء إنهم لكاذبون ﴾ .

لما بين الله تعالى الفرق الثلاثة وأحوالهم ، وذكر أن الكافر يدعو من يقول آمنت إلى الكفر بالفتنة ، وبين أن عذاب الله فوقها ، وكان الكافر يقول للمؤمن تصبر فى الذل وعلى الإيذاء لأى شىء ولم لا تدفع عن نفسك الذل والعذاب بموافقتنا ؟ فكان جواب المؤمن أن يقول خوفاً من عذاب الله على خطيئة مذهبكم ، فقالوا لا خطيئة فيه وإن كان فيه خطيئة فعلينا ، وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ولنحمل صيغة أمر ، والمأمور غير الآمر ، فكيف يصح أمر النفس من الشخص ؟ فنقول الصيغة أمر والمعنى شرط وجزاء ، أى إن اتبعتمونا حملنا خطاياكم ، قال صاحب الكشاف : هو فى معنى قول من يريد اجتماع أمرين فى الوجود ، فيقول ليكن منك العطاء وليكن منى الدعاء ، فقوله ولنحمل ، أى ليكن منا الحمل وليس هو فى الحقيقة أمر طلب وإيجاب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال (وما هم بحاملين من خطاياهم) وقال بعد هذا (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم) فهناك نفى الحمل ، وههنا أثبت الحمل ، فكيف الجمع بينهما ، فنقول قول القائل : فلان حمل عن فلان يفيد أن حمل فلان خف ، وإذا لم يخف حمله فلا يكون قد حمل منه شيئاً ، فكذلك ههنا ماهم بحاملين من خطاياهم يعنى لا يرفعون عنهم خطيئة وهم يحملون أوزاراً بسبب إضلالهم ويحملون أوزاراً بسبب ضلالتهم ، كما قال النبى عليه السلام «من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من وزره شىء» .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الصيغة أمر ، والأمر لا يدخله التصديق والتكذيب ، فكيف يفهم قوله (إنهم لكاذبون) نقول قد تبين أن معناه شرط وجزاء ، فكأنهم قالوا إن تتبعونا نحمل خطاياكم وهم كذبوا فى هذا فانهم لا يحملون شيئاً .

وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ

ثم قال تعالى : ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون ﴾ فى الذى كانوا يفترونه يحتمل ثلاثة أوجه (أحدها) كان قولهم (ولنحمل خطاياكم) صادراً لاعتقادهم أن لا خطيئة فى الكفر ، ثم يوم القيامة يظهر لهم خلاف ذلك فيسألون عن ذلك الافتراء (وثانيها) أن قولهم (ولنحمل خطاياكم) كان عن اعتقاد أن لا حشر ، فاذا جاء يوم القيامة ظهر لهم خلاف ذلك فيسألون ويقال لهم أما قلتم أن لا حشر (وثالثها) أنهم لما قالوا إن تتبعونا نحمل يوم القيامة خطاياكم ، يقال لهم فاحملوا خطاياهم فلا يحملون فيسألون ويقال لهم لم افتريتم .

ثم قال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ﴾ .

وجه تعلق الآية بما قبلها هو أن الله تعالى لما بين التكليف وذكر أقسام المكلفين ووعد المؤمن الصادق بالثواب العظيم ، وأوعد الكافر والمنافق بالعذاب الأليم ، وكان قد ذكر أن هذا التكليف ليس مختصاً بالنبى وأصحابه وأمته حتى صعب عليهم ذلك ، بل قبله كان كذلك كما قال تعالى (ولقد فتنا الذين من قبلهم) ذكر من جملة من كلف جماعة منهم نوح النبى عليه السلام وقومه ومنهم ابراهيم عليه السلام وغيرهما ، ثم قال تعالى (فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما) وفى الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ ما الفائدة فى ذكر مدة لبثه ؟ نقول كان النبى عليه السلام يضيق صدره بسبب عدم دخول الكفار فى الاسلام وإصرارهم على الكفر فقال إن نوحاً لبث ألف سنة تقريباً فى الدعاء ولم يؤمن من قومه إلا قليل ، وصبر وما ضجر فأنت أولى بالصبر لقلة مدة لبثك وكثرة عدد أمتك ، وأيضاً كان الكفار يغترون بتأخير العذاب عنهم أكثر ومع ذلك ما نجوا فبهذا المقدار من التأخير لا ينبغى أن يغتروا فان العذاب يلحقهم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال بعض العلماء الاستثناء فى العدد تكلم بالباقى ، فاذا قال القائل لفلان على عشرة إلا ثلاثة ، فكأنه قال على سبعة ، إذا علم هذا فقوله (ألف سنة إلا خمسين عاماً) كقوله تسعمائة وخمسين سنة ، فما الفائدة فى العدول عن هذه العبارة إلى غيرها ؟ فنقول قال الزمخشرى فيه فائدتان (إحداهما) أن الاستثناء يدل على التحقيق وتركه قد يظن به التقريب فإن من قال

ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾

عاش فلان ألف سنة يمكن أن يتوهم أن يقول ألف سنة تقريباً لا تحقيقاً ، فاذا قال إلا شهراً أو إلا سنة يزول ذلك التوهم ويفهم منه التحقيق (الثانية) هى أن ذكر لبث نوح عليه السلام فى قومه كان لبيان أنه صبر كثيراً فالنبى عليه السلام أولى بالصبر مع قصر مدة دعائه وإذا كان كذلك فذكر العدد الذى فى أعلى مراتب الأعداد التى لها اسم مفرد موضوع ، فان مراتب الأعداد هى الآحاد إلى العشرة والعشرات إلى المائة والمئات إلى الألف ، ثم بعد ذلك يكون التكثير بالتكرير فيقال عشرة آلاف ، ومائة ألف ، وألف ألف .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال بعض الأطباء العمر الانسانى لا يزيد على مائة وعشرين سنة والآية تدل على خلاف قولهم . والعقل يوافقها فان البقاء على التركيب الذى فى الانسان ممكن لذاته ، وإلا لما بقى ، ودوام تأثير المؤثر فيه ممكن لأن المؤثر فيه إن كان واجب الوجود فظاهر الدوام وإن كان غيره فله مؤثر ، وينتهى إلى الواجب وهو دائم ، فتأثيره يجوز أن يكون دائماً فاذن البقاء ممكن فى ذاته ، فان لم يكن فلعارض لكن العارض ممكن العدم وإلا لما بقى هذا المقدار لوجوب وجود العارض المانع فظهر أن كلامهم على خلاف العقل والنقل (ثم نقول) لا نزاع بيننا وبينهم لأنهم يقولون العمر الطبيعى لا يكون أكثر من مائة وعشرين سنة ونحن نقول هذا العمر ليس طبيعياً بل هو عطاء إلهى ، وأما العمر الطبيعى فلا يدوم عندنا ولا لحظة ، فضلا عن مائة أو أكثر

قوله تعالى : ﴿ فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ﴾

فيه إشارة إلى لطيفة وهى أن الله لا يعذب على مجرد وجود الظلم وإلا لعذب من ظلم وتاب ، فان الظلم وجد منه ، وإنما يعذب على الاصرار على الظلم ، فقوله (وهم ظالمون) يعنى أهلكهم وهم على ظلمهم ، ولو كانوا تركوه لما أهلكهم .

قوله تعالى : ﴿ فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين ﴾

فى الراجع إليه الهاء فى قوله (جعلناها) وجهان (أحدهما) أنها راجعة إلى السفينة المذكورة وعلى هذا فى كونها آية وجوه (أحدها) أنها اتخذت قبل ظهور الماء . ولولا إعلام الله نوحاً وإنباؤه إياه به لما اشتغل بها فلا تحصل لهم النجاة (وثانيها) أن نوحاً أمر بأخذ قوم معه ورفع قدر من القوت والبحر العظيم لا يتوقع أحد نضوبه ، ثم إن الماء غيض قبل نفاد الزاد ولولا ذلك لما حصل النجاة فهو بفضل الله لا بمجرد السفينة (وثالثها) أن الله تعالى كتب سلامة السفينة عن الرياح المرجفة والحيوانات المؤذية ، ولولا ذلك لما حصلت النجاة (والثانى) أنها راجعة إلى

وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾

الواقعة أو إلى النجاة أى جعلنا الواقعة أو النجاة آية للعالمين .

ثم قال تعالى : ﴿وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ لما فرغ من الاشارة إلى حكاية نوح ذكر حكاية إبراهيم وفى ابراهيم وجهان من القراءة (أحدهما) النصب وهو المشهور ، و(الثانى) الرفع على معنى ومن المرسلين إبراهيم ، و(الأول) فيه وجهان أحدهما أنه منصوب بفعل غير مذكور وهو معنى اذكر ابراهيم ، والثانى أنه منصوب بمذكور وهو قوله (ولقد أرسلنا) فيكون كأنه قال وأرسلنا ابراهيم ، وعلى هذا ففى الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ قوله (إذ قال لقومه) ظرف أرسلنا أى أرسلنا ابراهيم إذ قال لقومه لكن قوله (لقومه اعبدوا الله) دعوة والارسال يكون قبل الدعوة فكيف يفهم قوله ، وأرسلنا إبراهيم حين قال لقومه مع أنه يكون مرسلا قبله ؟ نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن الإرسال أمر يمتد فهو حال قوله لقومه اعبدوا الله كان مرسلا ، وهذا كما يقول القائل وقفنا للأمير إذ خرج من الدار وقد يكون الوقوف قبل الخروج ، لكن لما كان الوقوف ممتداً إلى ذلك الوقت صح ذلك (الوجه الثانى) هو أن إبراهيم بمجرد هداية الله إياه كان يعلم فساد قول المشركين وكان يهديهم إلى الرشاد قبل الارسال ، ولما كان هو مشتغلا بالدعاء إلى الاسلام أرسله الله تعالى وقوله (اعبدوا الله واتقوه) اشارة إلى التوحيد لأن التوحيد إثبات الإله ونفى غيره فقوله (اعبدوا الله) إشارة إلى الاثبات ، وقوله (واتقوه) اشارة إلى نفى الغير لأن من يشرك مع الملك غيره فى ملكه يكون قد أتى بأعظم الجرائم ، ويمكن أن يقال (اعبدوا الله) إشارة إلى الاتيان بالواجبات ، وقوله (واتقوه) إشارة إلى الامتناع عن المحرمات ويدخل فى الأول الاعتراف بالله ، وفى الثانى الامتناع من الشرك ، ثم قوله (ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) يعنى عبادة الله وتقواه خير ، والأمر كذلك لأن خلاف عبادة الله تعالى تعطيل وخلاف تقواه تشريك وكلاهما شر عقلا واعتباراً ، أما عقلا فلأن الممكن لابد له من مؤثر لايكون ممكناً قطعاً للتسلسل وهو واجب الوجود فلا تعطيل إذ لنا إله ، وأما التشريك فبطلانه عقلا وكون خلافه خيراً وهو أن شريك الواجب إن لم يكن واجباً فكيف يكون شريكا وإن كان واجباً لزم وجود واجبين فيشتركان فى الوجوب ويتباينان فى الإلهية ، وما به الاشتراك غير ما به الامتياز فيلزم التركيب فيهما فلا يكونان واجبين لكونهما مركبين فيلزم التعطيل ، واما اعتباراً فلأن الشرف ان يكون ملكا أو قريب ملك ، لكن الانسان لايكون ملكا للسموات والأرضين

إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾

فأعلى درجاته أن يكون قريب الملك لكن القربة بالعبادة كما قال تعالى (واسجد واقترب). وقال «لن يتقرب المتقربون إلى بمثل أداء ماافترضت عليهم» وقال « لايزال العبد يتقرب بالعبادة إلى » فالمعطل لاملك ولا قريب ملك لعدم اعتقاده بملك فلا مرتبة له أصلا ، وأما التشريك فلأن من يكون سيده لا نظير له يكون أعلى رتبة ممن يكون سيده له شركاء خسيسة ، فإذن من يقول إن ربى لايماثله شيء أعلى مرتبة ممن يقول سيدى صنم منحوت عاجز مثله ، فثبت أن عبادة الله وتقواه خير وهو خير لكم أى خير للناس إن كانوا يعلمون ما ذكرناه من الدلائل والاعتبارات .

ثم قال تعالى : ﴿ إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكا ﴾ .

ذكر بطلان مذهبهم بأبلغ الوجوه ، وذلك لأن المعبود إنما يعبد لأحد أمور ، إما لكونه مستحقاً للعبادة بذاته كالعبد يخدم سيده الذى اشتراه سواء أطعمه من الجوع أو منعه من الهجوع ، وإما لكونه نافعاً فى الحال كمن يخدم غيره لخير يوصله إليه كالمستخدم بأجرة ، وإما لكونه نافعاً فى المستقبل كمن يخدم غيره متوقعاً منه أمراً فى المستقبل ، وإما لكونه خائفاً منه . فقال إبراهيم (إنما تعبدون من دون الله أوثاناً) إشارة إلى أنها لاتستحق العبادة لذاتها لكونها أوثاناً لاشرف لها .

قوله تعالى : ﴿ إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون ﴾ .

إشارة إلى عدم المنفعة فى الحال وفى المآل ، وهذا لأن النفع ، إما فى الوجود ، وإما فى البقاء لكن ليس منهم نفع فى الوجود ، لأن وجودهم منكم حيث تخلقونها وتنحتونها ، ولا نفع فى البقاء لأن ذلك بالرزق ، وليس منهم ذلك ، ثم بين أن ذلك كله حاصل من الله فقال (فابتغوا عند الله الرزق) فقوله (الله) إشارة إلى استحقاق عبوديته لذاته وقوله (الرزق) إشارة إلى حصول النفع منه عاجلا وآجلا وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال (لا يملكون لكم رزقاً) نكرة ، وقال (فابتغوا عند الله الرزق) معرفاً فما الفائدة ؟ فنقول قال الزمخشرى قال (لايملكون لكم رزقاً) نكرة فى معرض النفى أى لارزق عندهم أصلا ، وقال معرفة عند الإثبات عند الله أى كل الرزق عنده فاطلبوه منه ، وفيه وجه آخر وهو أن الرزق من الله معروف بقوله (ومامن دابة فى الأرض إلا على الله رزقها) والرزق

وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾

أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾

من الأوثان غير معلوم فقال (لا يملكون لكم رزقاً) لعدم حصول العلم به وقال (فابتغوا عند الله الرزق) الموعود به ، ثم قال (فاعبدوه) أى اعبدوه لكونه مستحقاً للعبادة لذاته واشكروا له أى لكونه سابق النعم بالخلق وواصلها بالرزق (وإليه ترجعون) أى اعبدوه لكونه مرجعاً منه يتوقع الخير لا غير .

ثم قال تعالى : ﴿ وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ .

لما فرغ من بيان التوحيد أتى بعده بالتهديد فقال (وإن تكذبوا) وفى المخاطب فى هذه الآية وجهان : (أحدهما) أنه قوم إبراهيم والآية حكاية عن قوم إبراهيم كأن إبراهيم قال لقومه (إن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وأنا أتيت بما على من التبليغ ، فان الرسول ليس عليه إلا البلاغ والبيان (والثانى) أنه خطاب مع قوم محمد عليه السلام ووجهه أن الحكايات أكثرها إنما تكون لمقاصد لكنها تنسى لطيب الحكاية ولهذا كثيراً ما يقول الحاكى لأى شىء حكيت هذه الحكاية فالنبى عليه السلام كان مقصوده تذكير قومه بحال من مضى حتى يمتنعوا من التكذيب ويرتدعوا خوفا من التعذيب ، فقال فى أثناء حكايتهم يا قوم إن تكذبوا فقد كذب قبلكم أقوام وأهلكوا فان كذبتم أخاف عليكم ما جاء على غيركم ، وعلى الوجه الأول فى الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ أن قوله (فقد كذب أمم) كيف يفهم ، مع أن إبراهيم لم يسبقه إلا قوم نوح وهم أمة واحدة ؟ (والجواب) عنه من وجهين : (أحدهما) أن قبل نوح كان أقوام كقوم إدريس وقوم شيث وآدم (والثانى) أن نوحا عاش ألفاً وأكثر وكان القرن يموت ويجىء أولاده والآباء يوصون الأبناء بالامتناع عن الاتباع فكفى بقوم نوح أمماً .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ما (البلاغ) وما (المبين) ؟ فنقول البلاغ هو ذكر المسائل ، والإبانة هى إقامة البرهان عليه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الآية تدل على أن تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز لأن الرسول إذا بلغ شيئاً ولم يبينه فانه لم يأت بالبلاغ المبين ، فلا يكون آتياً بما عليه .

ثم قال تعالى : ﴿ أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير ﴾ .

لما بين الأصل الأول وهو التوحيد ، وأشار إلى الأصل الثانى وهو الرسالة بقوله (وما على

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ

الرسول إلا البلاغ المبين) شرع فى بيان الأصل الثالث وهو الحشر ، وقد ذكرنا مراراً أن الأصول الثلاثة لايكاد ينفصل بعضها عن بعض فى الذكر الإلهى ، فأينما يذكر الله تعالى منها اثنين يذكر الثالث . وفى الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ الانسان متى رأى بدء الخلق حتى يقال (أو لم يروا كيف يبدىء الله) ؟ فنقول المراد العلم الواضح الذى كالرؤية والعاقل يعلم أن البدء من الله لأن الخلق الأول لا يكون من مخلوق وإلا لما كان الخلق الأول خلقاً أول ، فهو من الله هذا إن قلنا إن المراد إثبات نفس الخلق ، وإن قلنا إن المراد بالبدء خلق الآدمى أولا وبالاعادة خلقه ثانيا ، فنقول العاقل لايخفى عليه أن خالق نفسه ليس إلا قادر حكيم يصور الأولاد فى الأرحام ، ويخلقه من نطفة فى غاية الإتقان والإحكام ، فذلك الذى خلق أولا معلوم ظاهر فأطلق على ذلك العلم لفظ الرؤية ، وقال (أولم يروا) أى ألم يعلموا علماً ظاهراً واضحاً (كيف يبدىء الله الخلق) يخلقه من تراب يجمعه فكذلك يجمع أجزاءه من التراب ينفخ فيه روحه بل هو أسهل بالنسبة اليكم ، فان من نحت حجارات ووضع شيئا بجنب شىء ففرقه أمر ما فانه يقول وضعه شيئا بجنب شىء فى هذه النوبة أسهل على لأن الحجارات منحوتة ، ومعلوم أن آية واحدة منها تصلح لأن تكون بجنب الأخرى ، وعلى هذا المخرج خرج كلام الله فى قوله (وهو أهون) وإليه الاشارة بقوله (إن ذلك على الله يسير) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال (أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق) علق الرؤية بالكيفية لا بالخلق وما قال : أو لم يروا أن الله خلق ، أو بدأ الخلق ، والكيفية غير معلومة ؟ فنقول هذا القدر من الكيفية معلوم ، وهو أنه خلقه ولم يك شيئا مذكوراً ، وأنه خلقه من نطفة هى من غذاء هو من ماء وتراب وهذا القدر كاف فى حصول العلم بإمكان الاعادة فان الاعادة مثله .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لم قال (ثم يعيده إن ذلك على الله يسير) فأبرز اسمه مرة أخرى ، ولم يقل إن ذلك عليه يسير كما قال ثم يعيده من غير ابراز ؟ نقول مع إقامة البرهان على أنه يسير فأكده باظهار اسمه فانه يوجب المعرفة أيضاً بكون ذلك يسيراً ، فان الإنسان إذا سمع لفظ الله وفهم معناه أنه الحى القادر ، بقدرة كاملة ، لايعجزه شىء ، العالم بعلم محيط بذرات كل جسم ، نافذ الإرادة لاراد لما أراده ، يقطع بجواز الاعادة .

ثم قال تعالى : ﴿ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة

ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٠﴾

إن الله على كل شيء قدير ﴾

الآية المتقدمة كانت إشارة إلى العلم الحدسي وهو الحاصل من غير طلب فقال (أو لم يروا) على سبيل الاستفهام بمعنى استبعاد عدمه ، وقال فى هذه الآية إن لم يحصل لكم هذا العلم فتفكروا فى أقطار الأرض لتعلموا بالعلم الفكرى ، وهذا لأن الانسان له مراتب فى الادراك بعضهم يدرك شيئاً من غير تعليم وإقامة برهان له ، وبعضهم لا يفهم إلا بإبانة وبعضهم لا يفهمه أصلا فقال : إن كنتم لستم من القبيل الأول فسيروا فى الأرض ، أى سيروا فكركم فى الأرض وأجيلوا ذهنكم فى الحوادث الخارجة عن أنفسكم لتعلموا بدء الخلق وفى الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ قال فى الآية الأولى بلفظ الرؤية وفى هذه بلفظ النظر ما الحكمة فيه ؟ نقول العلم الحدسى أتم من العلم الفكرى كما تبين ، والرؤية أتم من النظر لأن النظر يفضى إلى الرؤية ، يقال نظرت فرأيت والمفضى إلى الشيء دون ذلك الشيء ، فقال فى الأول أما حصلت لكم الرؤية فانظروا فى الأرض لتحصل لكم الرؤية ،

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكر هذه الآية بصيغة الأمر وفى الآية الأولى بصيغة الاستفهام لأن العلم الحدسى إن حصل فالأمر به تحصيل الحاصل ، وإن لم يحصل فلا يحصل إلا بالطلب لأن بالطلب يصير الحاصل فكرياً فيكون الأمر به تكليف ما لا يطاق ، وأما العلم الفكرى فهو مقدور فورد الأمر به .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أبرز اسم الله فى الآية الأولى عند البدء حيث قال (كيف يبدىء الله) وأضمره عند الاعادة وفى هذه الآية أضمره عند البدء وأبرزه عند الاعادة حيث قال (ثم الله ينشىء) لأن فى الآية الأولى لم يسبق ذكر الله بفعل حتى يسند إليه البدء فقال (كيف يبدىء الله) ثم قال (ثم يعيده) كما يقول القائل ضرب زيد عمراً ثم ضرب بكراً ولا يحتاج إلى إظهار اسم زيد اكتفاء بالأول ، وفى الآية الثانية كان ذكر البدء مسنداً إلى الله فاكتفى به ولم يبرزه كقول القائل أما علمت كيف خرج زيد ، اسمع منى كيف خرج ، ولا يظهر اسم زيد ، وأما إظهاره عند الانشاء ثانياً حيث قال (ثم الله ينشىء) مع أنه كان يكفى أن يقول : ثم ينشىء النشأة الآخرة ، فلحكمة بالغة وهى ما ذكرنا أن مع إقامة البرهان على إمكان الاعادة أظهر اسماً من يفهم المسمى به بصفات كماله ونعوت جلاله يقطع بجواز الاعادة فقال الله مظهراً مبرزاً ليقع فى ذهن الانسان من اسمه كمال قدرته وشمول علمه ونفوذ إرادته ويعترف بوقوع بدئه وجواز إعادته ، فان قيل فلم لم يقل ثم الله يعيده لعين ما ذكرت من الحكمة والفائدة ؟ نقول لوجهين (أحدهما) أن الله كان مظهراً مبرزاً بقرب منه وهو فى قوله (كيف يبدىء الله الخلق) ولم يكن بينهما إلا لفظ الخلق وأما ههنا فلم يكن

يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾

مذكوراً عند البدء فأظهره (وثانيهما) أن الدليل ههنا تم على جواز الاعادة لأن الدلائل منحصرة في الآفاق وفى الأنفس ، كما قال تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم) وفى الآية الأولى أشار إلى الدليل النفسى الحاصل لهذا الانسان من نفسه ، وفى الآية الثانية أشار إلى الدليل الحاصل من الآفاق بقوله (قل سيروا فى الأرض) وعندهما تم الدليلان ، فأكده باظهار اسمه ، وأما الدليل الأول فأكده بالدليل الثانى ، فلم يقل ثم الله يعيده .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ فى الآية الأولى ذكر بلفظ المستقبل فقال (أو لم يروا كيف يبدئ) وههنا قال بلفظ الماضى فقال (فانظروا كيف بدأ) ولم يقل كيف يبدأ ، فنقول الدليل الأول هو الدليل النفسى الموجب للعلم الحدسى وهو فى كل حال يوجب العلم ببدء الخلق ، فقال إن كان ليس لكم علم بأن الله فى كل حال يبدأ خلقاً فانظروا إلى الأشياء المخلوقة ليحصل لكم علم بأن الله بدأ خلقاً ، ويحصل المطلوب من هذا القدر فانه ينشئ كما بدأ ذلك .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قال فى هذه الآية (إن الله على كل شئ قدير) وقال فى الآية الأولى (إن ذلك على الله يسير) وفيه فائدتان (احداهما) أن الدليل الأول هو الدليل النفسى ، وهو وإن كان موجبه العلم الحدسى التام ولكن عند انضمام دليل الآفاق إليه يحصل العلم العام ، لأنه بالنظر فى نفسه علم نفسه وحاجته إلى الله ووجوده منه ، وبالنظر إلى الآفاق علم حاجة غيره إليه ووجوده منه ، فتم علمه بأن كل شئ من الله فقال عند تمام ذكر الدليلين (إن الله على كل شئ قدير) وقال عند الدليل الواحد (إن ذلك) وهو إعادته (على الله يسير) (الثانية) هى أنا بينا أن العلم الأول أتم وإن كان الثانى أعم وكون الأمر يسيراً على الفاعل أتم من كونه مقدوراً له بدليل أن القائل يقول فى حق من يحمل مائة من أنه قادر عليه ولا يقول إنه سهل عليه ، فاذا سئل عن حمله عشرة أمنان يقول إن ذلك عليه سهل يسير ، فنقول قال الله تعالى إن لم يحصل لكم العلم التام بأن هذه الأمور عند الله سهل يسير فسيروا فى الأرض لتعلموا أنه مقدور ، ونفس كونه مقدوراً كاف فى إمكان الاعادة .

ثم قال تعالى : ﴿ يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون ، وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير ﴾

لما ذكر النشأة الآخرة ذكر ما يكون فيه وهو تعذيب أهل التكذيب عدلا وحكمة ، وإثابة أهل الانابة فضلا ورحمة ، وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قدم التعذيب فى الذكر على الرحمة مع أن رحمته سابقة كما قال عليه السلام حاكياً عنه «سبقت رحمتى غضبى» فنقول ذلك لوجهين (أحدهما) أن السابق ذكر الكفار فذكر العذاب لسبق ذكر مستحقيه بحكم الإيعاد وعقبه بالرحمة ، وكما ذكر، بعد إثبات الأصل الأول وهو التوحيد ـ التهديد بقوله (وإن تكذبوا فقد كذب أمم وأهلكوا بالتكذيب) كذلك ذكر بعد إثبات الأصل الآخر التهديد بذكر التعذيب ، وذكر الرحمة وقع تبعاً لئلا يكون العذاب مذكوراً وحده وهذا يحقق قوله (سبقت رحمتى غضبى) وذلك لأن الله حيث كان المقصود ذكر العذاب لم يمحضه فى الذكر بل ذكر الرحمة معه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إذا كان ذكر هذا لتخويف العاصى و تفريح المؤمن فلو قال يعذب الكافر ويرحم المؤمن لكان أدخل فى تحصيل المقصود وقوله (يعذب من يشاء) لا يزجر الكافر لجواز أن يقول لعلى لا أكون ممن يشاء الله عذابه ، فنقول : هذا أبلغ فى التخويف ، وذلك لأن الله أثبت بهذا إنفاذ مشيئته إذا أراد تعذيب شخص فلا يمنعه منه مانع ، ثم كان من المعلوم للعباد بحكم الوعد والإيعاد أنه شاء تعذيب أهل العناد ، فلزم منه الخوف التام بخلاف ما لو قال يعذب العاصى ، فانه لا يدل على كمال مشيئته ، لأنه لا يفيد أنه لو شاء عذاب المؤمن لعذبه ، فاذا لم يفد هذا فيقول الكافر إذا لم يحصل مراده فى تلك الصورة يمكن أن يحصل فى صورة أخرى ، ولنضرب له مثلا فنقول : إذا قيل إن الملك يقدر على ضرب كل من فى بلاده وقال من خالفنى أضربه يحصل الخوف التام لمن يخالفه ، وإذا قيل إنه قادر على ضرب المخالفين ولا يقدر على ضرب المطيعين ، فاذا قال من خالفنى أضربه يقع فى وهم المخالف أنه لا يقدر على ضرب فلان المطيع ، فلا يقدر على أيضاً لكونى مثله ، وفى هذا فائدة أخرى وهو الخوف العام والرجاء العام ، لأن الأمن الكلى من الله يوجب الجراءة فيفضى إلى صيرورة المطيع عاصياً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال (ثم إليه تقلبون) مع أن هذه المسألة قد سبق إثباتها و تقريرها فلم أعادها ؟ فنقول لما ذكر الله التعذيب والرحمة وهما قد يكونان عاجلين ، فقال تعالى فان تأخر عنكم ذلك فلا تظنوا أنه فات ، فان إليه إيابكم وعليه حسابكم وعنده يدخر ثوابكم وعقابكم ، ولهذا قال بعدها (وما أنتم بمعجزين) يعنى لا تفوتون الله بل الانقلاب إليه ولا يمكن الإنفلات منه ، وفى تفسير هذه الآية لطائف (إحداها) هى إعجاز المعذب عن التعذيب إما بالهرب منه أو الثبات له والمقاومة معه للدفع ، وذكر الله القسمين فقال (وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء) يعنى بالهرب لو صعدتم إلى محل السماك فى السماء أو هبطتم إلى موضع السموك فى الماء لا تخرجون من قبضة قدرة الله فلا مطمع فى الإعجاز بالهرب ، وأما بالثبات فكذلك لأن الإعجاز إما أن يكون بالاستناد إلى ركن شديد يشفع ولا يمكن للمعذب مخالفته فيفوته المعذب ويعجز عنه أو بالانتصار بقوم يقوم معه بالدفع وكلاهما محال ، فانكم مالكم من دون الله ولى يشفع ولا نصير يدفع فلا إعجاز

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾

لا بالهروب ولا بالثبات (الثانية) قال (وما أنتم بمعجزين) ولم يقل لا تعجزون بصيغة الفعل ، وذلك لأن نفي الفعل لا يدل على نفي الصلاحية ، فان من قال إن فلاناً لا يخيط لا يدل على ما يدل عليه قوله إنه ليس بخياط (الثالثة) قدم الأرض على السماء ، والولي على النصير ، لأن هربهم الممكن في الأرض ، فان كان يقع منهم هرب يكون في الأرض ، ثم إن فرضنا لهم قدرة غير ذلك فيكون لهم صعود في السماء ، وأما الدفع فان العاقل ما أمكنه الدفع بأجمل الطرق فلا يرتقي إلى غيره ، والشفاعة أجمل . ولأن ما من أحد في الشاهد إلا ويكون له شفيع يتكلم في حقه عند ملك ولا يكون كل أحد له ناصر يعادي الملك لأجله .

ثم قال تعالى : ﴿والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم﴾

لما بين الأصلين التوحيد والإعادة وقررهما بالبرهان وهدد من خالفه على سبيل التفصيل فقال (والذين كفروا بآيات الله ولقائه) إشارة إلى الكفار بالله ، فان لله في كل شيء آية دالة على وحدانيته ، فاذا أشرك كفر بآيات الله وإشارة إلى المنكر للحشر فان من أنكره كفر بلقاء الله فقال (أولئك يئسوا من رحمتي) لما أشركوا أخرجوا أنفسهم عن محل الرحمة . لأن من يكون له جهة واحدة تدفع حاجته لا غير يرحم ، وإذا كان له جهات متعددة لا يبقى محلا للرحمة ، فاذا جعلوا لهم آلهة لم يعترفوا بالحاجة إلى طريق متعين فييأسوا من رحمة الله ، ولما أنكروا الحشر وقالوا لا عذاب فناسب تعذيبهم تحقيقاً للأمر عليهم ، وهذا كما أن الملك إذا قال أعذب من يخالفني فأنكره بعيد عنه وقال هو لا يصل إلي ، فاذا أحضر بين يديه يحسن منه أن يعذبه ويقول هل قدرت وهل عذبت أم لا ، فإذن تبين أن عدم الرحمة يناسب الإشراك ، والعذاب الأليم يناسب إنكار الحشر . ثم إن في الآية فوائد (إحداها) قوله (أولئك يئسوا) حتى يكون منبئاً عن حصر الناس فيهم وقال أيضاً (وأولئك لهم عذاب أليم) لذلك ، ولو قال : أولئك الذين كفروا بآيات الله ولقائه يئسوا من رحمتي ولهم عذاب أليم ، ما كان يحصل هذه الفائدة فان قال قائل لو اكتفى بقوله (أولئك) مرة واحدة كان يكفي في إفادة ما ذكر ، ثم قلنا لا وذلك لأنه لو قال أولئك يئسوا ولهم عذاب ، كان يذهب وهم أحد إلى أن هذا المجموع منحصر فيهم ، فلا يوجد المجموع إلا فيهم ولكن واحداً منهما وحده يمكن أن يوجد في غيرهم ، فاذا قال أولئك يئسوا وأولئك لهم عذاب أفاد أن كل واحد لا يوجد إلا فيهم (الثانية) عند ذكر الرحمة أضافها إلى نفسه فقال رحمتي وعند العذاب لم يضفه لسبق رحمته وإعلاماً لعباده بعمومها لهم ولزومها له (الثالثة) أضاف اليأس اليهم

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾

بقوله (أولئك يئسوا) فحرمها عليهم ولو طمعوا لأباحها لهم ، فلو قال قائل ما ذكرت من مقابلة الأمرين وهما اليأس والعذاب بأمرين وهما الكفر بالآيات والكفر باللقاء يقتضى أن لا يكون العذاب الأليم لمن كفر بالله واعترف بالحشر ، أو لا يكون اليأس لمن كفر بالحشر وآمن بالله فنقول : معنى الآية أنهم يئسوا ولهم عذاب أليم زائد بسبب كفرهم بالحشر ، ولا شك أن التعذيب بسبب الكفر بالحشر لا يكون إلا للكافر بالحشر ، وأما الآخر فالكافر بالحشر لا يكون مؤمناً بالله ، لأن الإيمان به لا يصح إلا ذا صدقه فيما قاله والحشر من جملة ذلك .

ثم قال ﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ .

لما أتى إبراهيم عليه السلام ببيان الأصول الثلاثة وأقام البرهان عليه ، بقى الأمر من جانبهم . إما الإجابة أو الإتيان بما يصلح أن يكون جوابه فلم يأتوا إلا بقولهم (اقتلوه أو حرقوه) وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ كيف سمى قولهم (اقتلوه) جواباً مع أنه ليس بجواب ؟ فنقول (الجواب عنه) من وجهين (أحدهما) أنه خرج منهم مخرج كلام المتكبر كما يقول الملك لرسول خصمه جوابكم السيف ، مع أن السيف ليس بجواب ، وإنما معناه لا أقابله بالجواب ، وإنما أقابله بالسيف فكذلك قالوا لا تجيبوا عن براهينه واقتلوه أو حرقوه (الثانى) هو أن الله أراد بيان ضلالهم وهو أنهم ذكروا فى معرض الجواب هذا مع أنه ليس بجواب ، فتبين أنهم لم يكن لهم جواب أصلا وذلك لأن من لا يجيب غيره ويسكت ، لا يعلم أنه لا يقدر على الجواب لجواز أن يكون سكوته لعدم الالتفات ، أما إذا أجاب بجواب فاسد ، علم أنه قصد الجواب وما قدر عليه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ القائلون الذين قالوا اقتلوه هم قومه والمأمورون بقولهم اقتلوه أيضاً هم ، فيكون الآمر نفس المأمور ؟ فنقول (الجواب عنه) من وجهين (أحدهما) أن كل واحد منهم قال لمن عداه اقتلوه ، فحصل الأمر من كل واحد وصار المأمور كل واحد ولا اتحاد ، لأن كل واحد أمر غيره (وثانيهما) هو أن الجواب لا يكون إلا من الأكابر والرؤساء ، فاذا قال أعيان بلد كلاما يقال اتفق أهل البلدة على هذا ولا يلتفت إلى عدم قول العبيد والأرذال ، فكان جواب قومه وهم الرؤساء أن قالوا لأتباعهم وأعوانهم اقتلوه ، لأن الجواب لا يباشره إلا الأكابر والقتل لا يباشره إلا الأتباع .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أو يذكر بين أمرين الثانى منهما ينفك عن الأول كما يقال زوج أو فرد ، ويقال هذا إنسان أو حيوان ، يعنى إن لم يكن إنساناً فهو حيوان ، ولا يصح أن يقال هذا حيوان

أو إنسان إذ يفهم منه أنه يقول هو حيوان فان لم يكن حيواناً فهو إنسان وهو محال لكن التحريق مشتمل على القتل فقوله اقتلوه أو حرقوه كقول القائل حيوان أو إنسان ، (الجواب عنه) من وجهين (أحدهما) أن الاستعمال على خلاف ما ذكر شائع ويكون (أو) مستعملا فى موضع بل ، كما يقول القائل أعطيته ديناراً أو دينارين ، وكما يقول القائل أعطه ديناراً بل دينارين قال الله تعالى (قم الليل إلا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أوزد عليه) فكذلك ههنا اقتلوه أو زيدوا على القتل وحرقوه (الجواب الثانى) هو أنا نسلم ما ذكرتم والأمر هنا كذلك ، لأن التحريق فعل مفض إلى القتل وقد يتخلف عنه القتل فان من ألقى غيره فى النار حتى احترق جلده بأسره وأخرج منها حياً يصح أن يقال احترق فلان وأحرقه فلان وما مات ، فكذلك ههنا قالوا اقتلوه أو لا تعجلوا قتله وعذبوه بالنار ، وإن ترك مقالته خلوا سبيله وإن أصر خلوا فى النار مقيله .

ثم قال تعالى (فأنجاه الله من النار) اختلف العقلاء فى كيفية الإنجاء ، بعضهم قال برد النار وهو الأصح الموافق لقوله تعالى (يا نار كونى بردا) وبعضهم قال خلق فى إبراهيم كيفية استبرد معها النار وقال بعضهم ترك إبراهيم على ماهو عليه والنار على ماكانت عليه ومنع أذى النار عنه ، والكل ممكن والله قادر عليه ، وأنكر بعض الأطباء الكل ، أما سلب الحرارة عن النار ، قالوا الحرارة فى النار ذاتية كالزوجية فى الأربعة لا يمكن أن تفارقها ، وأما خلق كيفية تستبرد النار فلأن المزاج الإنسانى له طرفا تفريط وإفراط ، فلو خرج عنهما لا يبقى إنساناً أو لا يعيش . مثلا المزاج إن كان البارد فيه عشرة أجزاء يكون إنساناً فان صار أحد عشر لا يكون إنساناً وإن صارت الأجزاء الباردة خمسة يبقى إنساناً فاذا صارت أربعة لا يبقى إنساناً لكن البرودة التى يستبرد معها النار مزاج السمندل فلو حصل فى الإنسان لمات أو لكان ذلك فان النفس تابعة للمزاج ، وأما الثالث فمحال أن تكون القطنة فى النار والنار كما هى ، والقطنة كما هى ولا تحترق ، فنقول الآية رد عليهم والعقل موافق للنقل ، أما الأول فلوجهين (أحدهما) أن الحرارة فى النار تقبل الاشتداد والضعف ، فان النار فى الفحم إذا نفخ فيه يشتد حتى يذيب الحديد وإن لم ينفخ لا يشتد لكن الضعف هو عدم بعض من الحرارة التى كانت فى النار ، فاذا أمكن عدم البعض جاز عدم بعض آخر من ذلك عليها إلى أن ينتهى إلى حد لا يؤذى الانسان ، ولا كذلك الزوجية فانها لا تشتد ولا تضعف (والثانى) وهو أن فى أصول الطب ذكر أن النار لها كيفية حارة كما أن الماء له كيفية باردة لكن رأينا أن الماء تزول عنه البرودة وهو ماء فكذلك النار تزول عنها الحرارة وتبقى ناراً وهو نور غير محرق ، وأما الثانى فأيضاً ممكن وقولهم مدفوع من وجهين (أحدهما) منع أصلهم من كون النفس تابعة للمزاج بل الله قادر على أن يخلق النفس الإنسانية فى المزاج الذى مثل مزاج الجمد (وثانيهما) أن نقول على أصلكم لا يلزم المحال لأن الكيفية التى ذكرناها تكون فى ظاهر الجلد كالأجزاء الرشية عليه ولا يتأدى إلى القلب والأعضاء الرئيسة ، ألا ترى أن الإنسان

وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾

إذا مس الجمد زماناً ثم مس جمرة نار لا تؤثر النار فى إحراق يده مثل ما تؤثر فى إحراق يد من أخرج يده من جيبه ، ولهذا تحترق يده قبل يد هذا . فاذا جاز وجود كيفية فى ظاهر جلد الانسان تمنع تأثير النار فيه بالإحراق زماناً فيجوز أن تتجدد تلك الكيفية لحظة فلحظة حتى لا تحترق ، (وأما الثالث) فمجرد استبعاد بيان عدم الاعتياد ونحن نسلم أن ذلك غير معتاد لأنه معجز والمعجز ينبغى أن يكون خارقا للعادة .

ثم قال تعالى : ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ يعنى فى إنجائه من النار لآيات ، وهنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال فى إنجاء نوح وأصحاب السفينة (جعلناها آية) وقال ههنا (لآيات) بالجمع لأن الإنجاء بالسفينة شيء تتسع له العقول فلم يكن فيه من الآية إلا بسبب إعلام الله إياه بالاتخاذ وقت الحاجة ، فانه لولاه لما اتخذه لعدم حصول علمه بما فى الغيب ، وبسبب أن الله صان السفينة عن المهلكات كالرياح العاصفة ، وأما الإنجاء من النار فعجيب فقال فيه آيات .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال هناك (آية للعالمين) وقال ههنا (لقوم يؤمنون) خص الآيات بالمؤمنين لأن السفينة بقيت أعواماً حتى مر عليها الناس ورأوها فحصل العلم بها لكل أحد ، وأما تبريد النار [فإنه] لم يبق فلم يظهر لمن بعده إلا بطريق الايمان به والتصديق ، وفيه لطيفة : وهى أن الله لما برد النار على إبراهيم بسبب اهتدائه فى نفسه وهدايته لأبناء جنسه ، وقد قال الله للمؤمنين بأن لهم أسوة حسنة فى إبراهيم ، فحصل للمؤمنين بشارة بأن الله يبرد عليهم النار يوم القيامة ، فقال إن فى ذلك التبريد لآيات لقوم يؤمنون .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال هناك (جعلناها) وقال ههنا (جعلناه) لأن السفينة ما صارت آية فى نفسها ولولا خلق الله الطوفان لبقى فعل نوح سفها ، فالله تعالى جعل السفينة بعد وجودها آية ، وأما تبريد النار فهو فى نفسه آية إذا وجدت لا تحتاج إلى أمر آخر كخلق الطوفان حتى يصير آية .

ثم قال تعالى : ﴿ وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين ﴾

لما خرج إبراهيم من النار عاد إلى عذل الكفار وبيان فساد ما هم عليه ، وقال إذا بينت لكم فساد مذهبكم وما كان لكم جواب ولا ترجعون عنه ، فليس هذا إلا تقليداً ، فان بين بعضكم وبعض مودة

فلا يريد أحدكم أن يفارقه صاحبه فى السيرة والطريقة أو بينكم وبين آبائكم مودة فورثتموهم وأخذتم مقالتهم ولزمتم ضلالتهم وجهالتهم فقوله (إنما اتخذتم . . . مودة بينكم) يعنى ليس بدليل أصلا وفيه وجه آخر وهو تحقيق دقيق ، وهو أن يقال قوله (إنما إتخذتم . . . مودة بينكم) أى مودة بين الأوثان وبين عبدتها ، وتلك المودة هى أن الإنسان مشتمل على جسم وعقل ، ولجسمه لذات جسمانية ولعقله لذات عقلية ،ثم إن من غلبت فيه الجسمية لا يلتفت إلى اللذات العقلية ، ومن غلبت عليه العقلية لا يلتفت إلى اللذات الجسمانية ، كالمجنون إذا احتاج إلى قضاء حاجة من أكل أو شرب أو إراقة ماء وهو بين قوم من الأكابر فى مجمع يحصل ما فيه لذة جسمه من الأكل وإراقة الماء وغيرهما ولا يلتفت إلى اللذة العقلية من حسن السيرة وحمد الأوصاف ومكرمة الأخلاق ..والعاقل يحمل الألم الجسمانى ويحصل اللذة العقلية ، حتى لو غلبت قوته الدافعة على قوته الماسكة وخرج منه ريح أو قطرة ماء يكاد يموت من الخجالة ، والألم العقلى . إذا ثبت هذا فهم كانوا قليلى العقل غلبت الجسمية عليهم فلم يتسع عقلهم لمعبود لايكون فوقهم ولاتحتهم ، ولا يمينهم ولا يسارهم ، ولا قدامهم ولاوراءهم ، ولايكون جسما من الأجسام ، ولاشيئاً يدخل فى الأوهام ، ورأوا الأجسام المناسبة للغالب فيهم مزينة بجواهر فودوها فاتخاذهم الأوثان كان مودة بينهم وبين الأوثان ، ثم قال تعالى (ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض) يعنى يوم يزول عمى القلوب وتتبين الأمور للبيب والغفول يكفر بعضكم ببعض ويعلم فساد ما كان عليه فيقول العابد ما هذا معبودى ، ويقول المعبود ماهؤلاء عبدتى ويلعن بعضكم بعضاً ، ويقول هذا لذاك أنت أوقعتنى فى العذاب حيث عبدتنى ، ويقول ذاك لهذا أنت أوقعتنى فيه حيث أضللتنى بعبادتك ، ويريد كل واحد أن يبعد صاحبه باللعن ولايتباعدون ، بل هم مجتمعون فى النار كما كانوا مجتمعين فى هذه الدار كما قال تعالى (ومأواكم النار) ثم قال تعالى (وما لكم من ناصرين) يعنى ليس تلك النار مثل ناركم التى أنجى الله منها إبراهيم ونصره فأنتم فى النار ولاناصر لكم ، وههنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال قبل هذا (وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير) على لفظ الواحد ، وقال ههنا على لفظ الجمع (وما لكم من ناصرين) والحكمة فيه أنهم لما أرادوا إحراق إبراهيم السلام قالوا نحن ننصر آلهتنا كما حكى الله تعالى عنهم (حرقوه وانصروا آلهتكم) فقال أنتم ادعيتم أن لهؤلاء ناصرين فما لكم ولهم ، أى للأوثان وعبدتها من ناصرين ، وأما هناك ماسبق منهم دعوى الناصرين فنفى الجنس بقوله (ولانصير) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال هناك (مالكم من دون الله من ولى ولانصير) وما ذكر الولى ههنا فنقول : قد بينا أن المراد بالولى الشفيع يعنى ليس لكم شافع ولا نصير دافع ، وههنا لما كان الخطاب دخل فيه الأوثان أى ما لكم كلكم لم يقل شفيع لأنهم كانوا معترفين أن كلهم ليس لهم شافع لأنهم كانوا يدعون أن آلهتهم شفعاء ، كما قال تعالى عنهم (هؤلاء شفعاؤنا) والشفيع لا يكون

فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾

له شفيع ، فما نفى عنهم الشفيع لعدم الحاجة إلى نفيه لاعترافهم به ، وأما هناك فكان الكلام معهم وهم كانوا يدعون أن لأنفسهم شفعاء فنفى .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال هناك (مالكم من دون الله) فذكر على معنى الاستثناء فيفهم أن لهم ناصراً ووليا هو الله وليس لهم غيره ولى وناصر وقال ههنا (ما لكم من ناصرين) من غير استثناء فنقول كان ذلك وارداً على أنهم فى الدنيا فقال لهم فى الدنيا . لا تظنوا أنكم تعجزون الله فما لكم أحد ينصركم ، بل الله تعالى ينصركم إن تبتم ، فهو ناصر معد لكم متى أردتم استنصرتموه بالتوبة وهذا يوم القيامة كما قال تعالى ثم يوم القيامة (يكفر بعضكم ببعض) وعدم الناصر عام لأن التوبة فى ذلك اليوم لا تقبل فسواء تابوا أو لم يتوبوا أو لم يتوبوا لا ينصرهم الله ولا ناصر لهم غيره فلا ناصر لهم مطلقاً .

ثم قال تعالى : ﴿ فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم ﴾

يعنى لما رأى لوط معجزته آمن (وقال) إبراهيم (إنى مهاجر إلى ربى) أى إلى حيث أمرنى بالتوجه إليه (إنه هو العزيز الحكيم) عزيز يمنع أعدائى عن إيذائى بعزته ، وحكيم لا يأمرنى إلا بما يوافق لكمال حكمته ، وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (فآمن له لوط) أى بعد ما رأى منه المعجز القاهر ودرجة لوط كانت عالية ، وبقاؤه إلى هذا الوقت مما ينقص من الدرجة ألا ترى أن أبا بكر لما قبل دين محمد ﷺ وكان نير القلب قبله قبل الكل ، من غير سماع تكلم الحصى ولا رؤية انشقاق القمر ، فنقول إن لوطاً لما رأى معجزته آمن برسالته ، وإما بالوحدانية فآمن حيث سمع حسن مقالته ، وإليه أشار بقوله (فآمن له لوط) وما قال فآمن لوط .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ما تعلق قوله وقال (إنى مهاجر إلى ربى) بما تقدم ؟ فنقول لما بالغ إبراهيم فى الإرشاد ولم يهتد قومه ، وحصل اليأس الكلى حيث رأى القوم الآية الكبرى (ولم يؤمنوا) وجبت المهاجرة ، لأن الهادى إذا هدى قومه ولم ينتفعوا فبقاؤه فيهم مفسدة لأنه إن دام على الإرشاد كان اشتغالا بما لا ينتفع به مع علمه فيصير كمن يقول للحجر صدق وهو عبث أو يسكت والسكوت دليل الرضا فيقال بأنه صار منا ورضى بأفعالنا ، وإذا لم يبق للاقامة وجه وجبت المهاجرة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال (مهاجر إلى ربى) ولم يقل مهاجر إلى حيث أمرنى ربى مع أن المهاجرة إلى الرب توهم الجهة ، فنقول قوله (مهاجر) إلى حيث أمرنى ربى ليس فى الاخلاص كقوله (إلى ربى) لأن الملك إذا صدر منه أمر برواح الأجناد إلى الموضع الفلانى ، ثم إن واحداً منهم سافر إليه لغرض [فى] نفسه يصيبه فقد هاجر إلى حيث أمره الملك ولكن لا مخلصاً لوجهه فقال (مهاجر إلى ربى) يعنى توجهى إلى الجهة المأمور بالهجرة اليها ليس طلباً للجهة إنما هو طلب لله .

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾

ثم قال تعالى : ﴿ ووهبنا له إسحق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾ .

قدذكرنا فى تفسير قوله تعالى (لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم) أن أثر رحمة الله فى أمرين فى الأمان من سوء العذاب والامتنان بحسن الثواب وهو واصل إلى المؤمن فى الدار الآخرة قطعاً بحكم وعد الله نفى العذاب عنه لنفيه الشرك وإثبات الثواب لاثباته الواحد ، ولكن هذا ليس بواجب الحصول فى الدنيا ، فان كثيراً مايكون الكافر فى رغد والمؤمن جائع فى يومه متفكر فى أمر غده لكنهما مطلوبان فى الدنيا ، أما دفع العذاب العاجل فلأنه ورد فى دعاء النبى ﷺ ، قوله «وقنا عذاب الفقر والنار» فعذاب الفقر إشارة إلى دفع العذاب العاجل ، وأما الثواب العاجل ففى قوله (ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة) إذا علم هذا فنقول إن ابراهيم عليه السلام لما أتى ببيان التوحيد أولا دفع الله عنه عذاب الدنيا وهو عذاب النار . ولما أتى به مرة بعد مرة مع إصرار القوم على التكذيب وإضرارهم به بالتعذيب ، أعطاه الجزاء الآخر ، وهو الثواب العاجل وعدده عليه بقوله (ووهبنا له إسحاق ويعقوب) وفى الآية لطيفة : وهى أن الله بدل جميع أحوال إبراهيم فى الدنيا بأضدادها لما أراد القوم تعذيبه بالنار وكان وحيداً فريداً فبدل وحدته بالكثرة حتى ملأ الدنيا من ذريته ، ولما كان أولا قومه وأقاربه القريبة ضالين مضلين من جملتهم آزر ، بدل الله أقاربه بأقارب مهتدين هادين وهم ذريته الذين جعل الله فيهم النبوة والكتاب ، وكان أولا لاجاه له ولا مال وهما غاية اللذة الدنيوية آتاه الله أجره من المال والجاه ، فكثر ماله حتى كان له من المواشى ماعلم الله عدده ، حتى قيل إنه كان له اثنا عشر ألف كلب حارس بأطواق ذهب ، وأما الجاه فصار بحيث يقرن الصلاة عليه بالصلاة على سائر الأنبياء إلى يوم القيامة ، فصار معروفاً بشيخ المرسلين بعد إن كان خاملا . حتى قال قائلهم (سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم) وهذا الكلام لايقال إلا فى مجهول بين الناس ، ثم إن الله تعالى قال (وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) يعنى ليس له هذا فى الدنيا فحسب كما يكون لمن قدم له ثواب حسناته أو أملى له استدراجاً ليكثر من سيئاته بل هذا له عجالة وله فى الآخرة ثواب الدلالة والرسالة وهو كونه من الصالحين ، فان كون العبد صالحاً أعلى مراتبه ، لما بينا أن الصالح هو الباقى على ماينبغى ، يقال الطعام بعد صالح ، أى هو باق على ماينبغى ، ومن بقى على ماينبغى لايكون فى عذاب ، ويكون له كل مايريد من حسن ثواب وفى الآية مسألتان :

﴿ إحداهما ﴾ أن إسماعيل كان من أولاده الصالحين ، وكان قد أسلم لأمر الله بالذبح وانقاد

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾

لحكم الله ، فلم لم يذكر؟ فيقال هو مذكور فى قوله (وجعلنا فى ذريته النبوة) ولكن لم يصرح باسمه لأنه كان غرضه تبيين فضله عليه بهبة الأولاد والأحفاد ، فذكر من الأولاد واحداً وهو الأكبر ، ومن الأحفاد واحداً وهو الأظهر . كما يقول القائل إن السلطان فى خدمته الملوك والأمراء الملك الفلانى والأمير الفلانى ولا يعدد ا[كل] لأن ذكر ذلك الواحد لبيان الجنس لا لخصوصيته ولو ذكر غيره لفهم منه التعديد واستيعاب الكل بالذكر ، فيظن أنه ليس معه غير المذكورين .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أن الله تعالى جعل فى ذريته النبوة إجابة لدعائه والوالد يستحب منه أن يسوى بين ولديه ، فكيف صارت النبوة فى أولاد اسحاق أكثر من النبوة فى أولاد اسماعيل ؟ فنقول : الله تعالى قسم الزمان من وقت إبراهيم إلى القيامة قسمين والناس جمعين ، فالقسم الأول من الزمان بعث الله فيه أنبياء فيهم فضائل جمة وجاؤا تترى واحداً بعد واحد ، ومجتمعين فى عصر واحد كلهم من ورثة اسحاق عليه السلام ، ثم فى القسم الثانى من الزمان أخرج من ذرية ولده الآخر وهو إسماعيل واحداً جمع فيه ما كان فيهم وأرسله إلى كافة الخلق وهو محمد صلى الله عليه وسلم وجعله خاتم النبيين ، وقد دام الخلق على دين أولاد اسحاق أكثر من أربعة آلاف سنة فلا يبعد أن يبقى الخلق على دين ذرية اسماعيل مثل ذلك المقدار .

ثم قال تعالى : ﴿ ولوطاً إذ قال لقومه أئنكم لتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من أحد من العالمين ، أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر ، فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ، قال رب انصرنى على القوم المفسدين ﴾ .

الإعراب فى لوط ، والتفسير كما ذكرنا فى قوله (وإبراهيم إذ قال لقومه) وههنا مسائل :

﴿ الأولى ﴾ قال إبراهيم لقومه (اعبدوا الله) وقال عن لوط ههنا أنه قال لقومه (لتأتون الفاحشة) فنقول لما ذكر الله لوطاً عند ذكر ابراهيم وكان لوط فى زمان ابراهيم لم يذكر عن لوط أنه أمر قومه بالتوحيد مع أن الرسول لابد من أن يقول ذلك فنقول حكاية لوط وغيرها

ههنا ذكرها الله على سبيله الاختصار ، فاقتصر على ما اختص به لوط وهو المنع من الفاحشة ، ولم يذكر عنه الأمر بالتوحيد وإن كان قاله فى موضع آخر حيث قال (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) لأن ذلك كان قد أتى به إبراهيم وسبقه فصار كالمختص به ولوط يبلغ ذلك عن ابراهيم . وأما المنع من عمل قوم لوط كان مختصاً بلوط ، فان ابراهيم لم يظهر ذلك [فى زمنه] ولم يمنعهم منه فذكر كل واحد بما اختص به وسبق به غيره .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لم سمى ذلك الفعل فاحشة ؟ فنقول الفاحشة هو القبيح الظاهر قبحه ، ثم إن الشهوة والغضب صفتا قبح لولا مصلحة ما كان يخلقهما الله فى الانسان ، فمصلحة الشهوة الفرجية هى بقاء النوع بتوليد الشخص ، وهذه المصلحة لاتحصل إلا بوجود الولد وبقائه بعد الأب ، فانه لو وجد ومات قبل الأب كان يفنى النوع بفناء القرن الأول ، لكن الزنا قضاء شهوة ولا يفضى إلى بقاء النوع ، لأنا بينا أن البناء بالوجود وبقاء الولد بعد الأب لكن الزنا وإن كان يفضى إلى وجود الولد ولكن لايفضى إلى بقائه ، لأن المياه إذا اشتبهت لا يعرف الوالد ولده فلا يقوم بتربيته والانفاق عليه فيضيع ويهلك ، فلا يحصل مصلحة البقاء ، فاذن الزنا شهوة قبيحة خالية عن المصلحة التى لأجلها خلقت ، فهو قبيح ظاهر قبحه حيث لاتستره المصلحة فهو فاحشة ، وإذا كان الزنا فاحشة مع أنه يفضى إلى وجود الولد ولكن لا يفضى إلى بقائه ، فاللواطة التى لا تفضى إلى وجوده أولى بأن تكون فاحشة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الآية دالة على وجوب الحد فى اللواطة ، لأنها مع الزنا اشتركت فى كونهما فاحشة حيث قال الله تعالى (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة) واشتراكهما فى الفاحشة يناسب الزجر عنه ، فما شرع زاجراً هناك يشرع زاجراً ههنا ، وهذا وإن كان قياساً إلا أن جامعه مستفاد من الآية ، ووجه آخر ، وهو أن الله جعل عذاب من أتى بها إمطار الحجارة حيث أمطر عليهم حجارة عاجلا ، فوجب أن يعذب من أتى به بإمطار الحجارة به عاجلا وهو الرجم ، وقوله (ماسبقكم بها من أحد) يحتمل وجهين (أحدهما) أن قبلهم لم يأت أحد بهذا القبيح وهذا ظاهر ، (والثانى) أن قبلهم ربما أتى به واحد فى الندرة لكنهم بالغوا فيه ، فقال لهم ما سبقكم بها من أحد ، كما يقال إن فلاناً سبق البخلاء فى البخل ، وسبق اللئام فى اللؤم إذا زاد عليهم ، ثم قال تعالى (أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل) بياناً لما ذكرنا ، يعنى تقضون الشهوة بالرجال مع قطع السبيل المعتاد مع النساء المشتمل على المصلحة التى هى بقاء النوع ، حتى يظهر أنه قبيح لم يستر قبحه مصلحة ، وحينئذ يصير هذا كقوله تعالى (أتأتون الرجال شهوة من دون النساء) يعنى إتيان النساء شهوة قبيحة مستترة بالمصلحة فلكم دافع لحاجتكم لا فاحشة فيه وتتركونه وتأتون الرجال شهوة مع الفاحشة وقوله (وتأتون فى ناديكم المنكر) يعنى ما كفا لم قبح فعلكم حتى تضمون إليه قبح الاظهار، وقوله (فما كان جواب قومه) فى التفسير ، كقوله فى قصة إبراهيم (وما كان جواب قومه) وفى الآية مسائل :

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾

﴿ الأولى ﴾ قال قوم إبراهيم (اقتلوه أو حرقوه) وقال قوم لوط (ائتنا بعذاب الله) وما هددوه ، مع أن إبراهيم كان أعظم من لوط ، فإن لوطاً كان من قومه ، فنقول إن إبراهيم كان يقدح فى دينهم ويشتم آلهتهم بتعديد صفات نقصهم بقوله : لا يسمع ، ولا يبصر ، ولا يغنى . والقدح فى الدين صعب ، فجعلوا جزاءه القتل والتحريق ، ولوط كان ينكر عليهم فعلهم وينسبهم إلى ارتكاب المحرم وهم ما كانوا يقولون إن هذا واجب من الدين ، فلم يصعب عليهم مثل ما صعب على قوم إبراهيم قول إبراهيم ، فقالوا إنك تقول إن هذا حرام والله يعذب عليه ونحن نقول لا يعذب ، فإن كنت صادقاً فأتنا بالعذاب ، فان قيل إن الله تعالى قال فى موضع آخر (فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم) وقال ههنا (فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا) فكيف الجمع ؟ فنقول لوط كان ثابتاً على الارشاد مكرراً عليهم التغيير والنهى والوعيد ، فقالوا أولا ائتنا ، ثم لما كثر منه ذلك ولم يسكت عنهم قالوا أخرجوا ، ثم إن لوطاً لما يئس منهم طلب النصرة من الله وذكرهم بما لا يحب الله (فقال رب انصرنى على القوم المفسدين) فان الله لا يحب المفسدين ، حتى ينجز النصر .

واعلم أن نبياً من الأنبياء ما طلب هلاك قوم إلا إذا علم أن عدمهم خير من وجودهم ، كما قال نوح (إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً) يعنى المصلحة إما فيهم حالا أو بسببهم مآلا ولا مصلحة فيهم ، فانهم يضلون فى الحال وفى المآل فانهم يوصون الأولاد من صغرهم بالامتناع من الاتباع . فكذلك لوط لما رأى أنهم يفسدون فى الحال واشتغلوا بما لا يرجى معه منهم ولد صالح يعبد الله ، بطلت المصلحة حالا ومآلا ، فعدمهم صار خيراً ، فطلب العذاب .

ثم قال تعالى : ﴿ ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين ، قال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾

لما دعا لوط على قومه بقوله (رب انصرنى) استجاب الله دعاءه ، وأمر ملائكته باهلاكهم وأرسلهم مبشرين ومنذرين ، فجاءوا إبراهيم وبشروه بذرية طيبة وقالوا (إنا مهلكوا أهل هذه القرية) يعنى أهل سدوم ، وفى الآية لطيفتان : (إحداهما) أن الله جعلهم مبشرين ومنذرين ،

لكن البشارة أثر الرحمة والإنذار بالاهلاك أثر الغضب ، ورحمته سبقت غضبه ، فقدم البشارة على الانذار . وقال (جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى) ثم قال (إنا مهلكوا) (الثانية) حين ذكروا البشرى ماعللوا وقالوا إنا نبشرك لأنك رسول ، أولأنك مؤمن أولأنك عادل ، وحين ذكروا الإهلاك عللوا ، وقالوا (إن أهلها كانوا ظالمين) لأن ذا الفضل لايكون فضله بعوض ، والعادل لا يكون عذابه إلا على جرم ، وفيه مسألتان :

﴿ إحداهما ﴾ لو قال قائل أى تعلق لهذه البشرى بهذا الإنذار ، نقول لما أراد الله إهلاك قوم وكان فيه إخلاء الأرض عن العباد قدم على ذلك إعلام إبراهيم بأنه تعالى يملأ الأرض من العباد الصالحين حتى لايتأسف على إهلاك قوم من أبناء جنسه .

﴿ والثانية ﴾ قال فى قوم نوح (فأخذهم الطوفان) وقد قلت إن ذلك إشارة إلى أنهم كانوا على ظلمهم حين أخذهم ، ولم يقل فأخذهم وكانوا ظالمين ، وههنا قال (إن أهلها كانوا ظالمين) ولم يقل وإنهم ظالمون ، فنقول لا فرق فى الموضعين فى كونهم مهلكين وهم مصرون على الظلم ، لكن هناك الإخبار من الله وعن الماضى حيث قال (فأخذهم) وكانوا ظالمين ، فقال أخذهم وهم عند الوقوع فى العذاب ظالمون ، وههنا الاخبار من الملائكة وعن المستقبل حيث قالوا (إنا مهلكوا) فالملائكة ذكروا ما يحتاجون إليه فى إبانة حسن الأمر من الله بالإهلاك ، فقالوا (إنا مهلكوهم) لأن الله أمرنا ، وحال ما أمرنا به كانوا ظالمين ، فحسن أمر الله عند كل أحد ، وأما نحن فلا نخبر بما لا حاجة لنا إليه ، فان الكلام عن الملك بغير إذنه سوء أدب ، فنحن ما احتجنا إلا إلى هذا القدر ، وهو أنهم كانوا ظالمين حيث أمرنا الله باهلاكهم بياناً لحسن الأمر ، وأما أنهم ظالمون فى وقتنا هذا أو يبقون كذلك فلا حاجة لنا إليه ، ثم إن إبراهيم لما سمع قولهم قال لهم إن فيها لوطاً إشفاقاً عليه ليعلم حاله ، أو لأن الملائكة لما قالوا (إنا مهلكوا) وكان إبراهيم يعلم أن الله لا يهلك قوماً وفيهم رسوله ، فقال تعجباً إن فيهم لوطاً فكيف يهلكون ، فقالت الملائكة نحن أعلم بمن فيها ، يعنى نعلم أن فيهم لوطاً فلننجينه وأهله ونهلك الباقين ، وههنا لطيفة : وهو أن الجماعة كانوا أهل الخير ، أعنى إبراهيم والملائكة ، وكل واحد كان يزيد على صاحبه فى كونه خيراً . أما إبراهيم فلما سمع قول الملائكة (إنا مهلكوا) أظهر الإشفاق على لوط ونسى نفسه وما بشروه ولم يظهر بها فرحاً ، وقال (إن فيها لوطاً) ثم إن الملائكة لما رأوا ذلك منه زادوا عليه ، وقالوا إنك ذكرت لوطاً وحده ونحن ننجيه وننجى معه أهله ، ثم استثنوا من الأهل امرأته ، وقالوا (إلا امرأته كانت من الغابرين) أى من المهلكين ، وفى استعمال الغابر فى المهلك وجهان ، وذلك لأن الغابر لفظ مشترك فى الماضى ، وفى الباقى يقال فيما غبر من الزمان أى فيما مضى ويقال الفعل ماض وغابر أى باق . وعلى الوجه الأول نقول إن ذكر الظالمين سبق فى قولهم (إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين) ثم جرى ذكر لوط بتذكير إبراهيم وجواب الملائكة ، فقالت الملائكة (إنها

وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٣٥﴾

من الغابرين) أى الماضى ذكرهم لا من الذين ننجى منهم ، أو نقول المهلك يفنى ويمضى زمانه والناجى هو الباقى فقالوا (إنها من الغابرين) أى من الرائحين الماضين لا من الباقين المستمرين ، وأما على الوجه الثانى فنقول لما قضى الله على القوم بالإهلاك كان الكل فى الهلاك إلا من ننجى منه فقالوا إنا ننجى لوطاً وأهله ، وأما امرأته فهى من الباقين فى الهلاك .

ثم قال تعالى : ﴿ ولما أن جاءت رسلنا لوطاً سىء بهم وضاق بهم ذرعاً وقالوا لاتخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين ، إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون ، ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون ﴾ .

ثم إنهم جاؤا من عند ابراهيم إلى لوط على صورة البشر فظنهم بشراً فخاف عليهم من قومه لأنهم كانوا على أحسن صورة خلق الله والقوم كما عرف حالهم فسىء بهم أى جاءه ماساءه وخاف ثم عجز عن تدبيرهم فحزن وضاق بهم ذرعاً كناية عن العجز فى تدبيرهم ، قال الزمخشرى يقال طال ذرعه وذراعه للقادر وضاق للعاجز ، وذلك لأن من طال ذراعه يصل إلى مالا يصل إليه قصير الذراع والاستعمال يحتمل وجهاً معقولا غير ذلك ، وهو أن الخوف والحزن يوجبان انقباض الروح ويتبعه اشتمال القلب عليه فينقبض هو أيضاً والقلب هو المعتبر من الانسان ، فكان الانسان انقبض وانجمع وما يكون كذلك يقل ذرعه ومساحته فيضيق ، ويقال فى الحزين ضاق ذرعه والغضب والفرح يوجبان انبساط الروح فينبسط مكانه وهو القلب ويتسع فيقال اتسع ذرعه ، ثم إن الملائكة لما رأوا خوفه فى أول الأمر وحزنه بسبب تدبيرهم فى ثانى الأمر قالوا لاتخف علينا ولا تحزن بسبب التفكر فى أمرنا ثم ذكروا مايوجب زوال خوفه وحزنه فان مجرد قول القائل لاتخف لايوجب زوال الخوف فقالوا معرضين بحالهم (إنا منجوك وأهلك) وإنا منزلون عليهم العذاب حتى يتبين له أنهم ملائكة فيطول ذرعه ويزول روعه وفى الآية مسائل :

﴿ إحداها ﴾ أنه تعالى قال من قبل (ولما جاءت رسلنا ابراهيم) وقال ههنا (ولما أن جاءت رسلنا) فما الحكمة فيه ؟ فنقول حكمة بالغة وهى أن الواقع فى وقت المجىء هناك قول

الملائكة (إنا مهلكوا) وهو لم يكن متصلا بمجيئهم لأنهم بشروا أولا ولبثوا ، ثم قالوا إنا مهلكوا وأيضاً فالتأنى واللبث بعد المجيء ثم الاخبار بالاهلاك حسن فان من جاء ومعه خبرهائل يحسن منه أن لا يفاجيء به ، والواقع ههنا هو خوف لوط عليهم ، والمؤمن حين مايشعر بمضرة تصل بريئاً من الجناية ينبغى أن يحزن ويخاف عليه من غير تأخير ، إذا علم هذا فقوله ههنا (ولما أن جاءت رسلنا) يفيد الاتصال يعنى خاف حين المجيء ، فان قلت هذا باطل بما أن هذه الحكاية جاءت فى سورة هود ، وقال (ولما جاءت رسلنا لوطاً) من غير أن ، فنقول هناك جاءت حكاية إبراهيم بصيغة أخرى حيث قال هناك (ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى) فقوله هنالك (ولقد جاءت) لايدل على أن قولهم (إنا أرسلنا) كان فى وقت المجيء . وقوله (ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم) دل على أن حزنه كان وقت المجيء . إذا علم هذا فنقول : هناك قد حصل ماذكرنا من المقصود بقوله فى حكاية إبراهيم (ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى) ثم جرى أمور من الكلام وتقديم الطعام ، ثم قالوا (لا تخف) ولا تحزن (إنا أرسلنا إلى قوم لوط) فحصل تأخير الانذار ، وبقوله فى حكاية لوط (ولما جاءت رسلنا) حصل بيان تعجيل الحزن ،وأما هنا لما قال فى قصة ابراهيم (ولما جاءت) قال فى حكاية لوط (ولما أن جاءت) لما ذكرنا من الفائدة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال هنا (إنا منجوك وأهلك) وقال لابراهيم (لننجينه) بصيغة الفعل فهل فيه فائدة ؟ قلنا مامن حرف ولا حركة فى القرآن إلا وفيه فائدة ، ثم إن العقول البشرية تدرك بعضها ولا تصل إلى أكثرها ، وما أوتى البشر من العلم إلا قليلا ، والذى يظهر لعقل الضعيف أن هناك لما قال لهم إبراهيم (إن فيها لوطاً) وعدوه بالتنجية ووعد الكريم حتم ، وههنا لما قالوا للوط وكان ذلك بعد سبق الوعد مرة أخرى قالوا (إنا منجوك) أى ذلك واقع منا كقوله تعالى (إنك ميت) لضرورة وقوعه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قولهم (لاتخف ولا تحزن) لايناسبه (إنا منجوك) لأن خوفه ماكان على نفسه ، نقول بينهما مناسبة فى غاية الحسن ، وهى أن لوطاً لما خاف عليهم وحزن لأجلهم قالوا له لاتخف علينا ولا تحزن لأجلنا فانا ملائكة ، ثم قالوا له : يالوط خفت علينا وحزنت لأجلنا ، ففى مقابلة خوفك وقت الخوف نزيل خوفك وننجيك ، وفى مقابلة حزنك نزيل حزنك ولا نتركك تفجع فى أهلك فقالوا (إنا منجوك وأهلك) .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ القوم عذبوا بسبب ماصدر منهم من الفاحشة وامرأته لم يصدر منها تلك فكيف كانت من الغابرين معهم ؟ فنقول الدال على الشر له نصيب كفاعل الشر ، كما أن الدال على الخير كفاعله وهى كانت تدل القوم على ضيوف لوط حتى كانوا يقصدونهم ، فبالدلالة صارت واحدة منهم ، ثم إنهم بعد بشارة لوط بالتنجية ذكروا أنهم منزلون على أهل هذه القرية العذاب فقالوا (إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء) واختلفوا فى ذلك ، فقال بعضهم حجارة

وقيل نار وقيل خسف ، وعلى هذا فلا يكون عينه من السماء وإنما يكون الأمر بالخسف من السماء أو القضاء به من السماء ، ثم اعلم أن كلام الملائكة مع لوط جرى على نمط كلامهم مع إبراهيم قدموا البشارة على الانذار حيث قالوا (إنا منجوك) ثم قالوا (إنا منزلون على أهل هذه القرية) ولم يعللوا التنجية ، فما قالوا إنا منجوك لأنك نبي أو عابد ، وعللوا الاهلاك بقولهم (بما كانوا يفسقون) وقالوا بما كانوا ، كما قالوا هناك (إن أهلها كانوا ظالمين) ثم قال تعالى (ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون) أي من القرية فان القرية معلومة وفيها الماء الأسود وهي بين القدس والكرك وفيها مسائل :

﴿ إحداها ﴾ جعل الله الآية فى نوح وإبراهيم بالنجاة حيث قال (فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية) وقال (فأنجاه الله من النار إن فى ذلك لآيات) وجعل ههنا الهلاك آية فهل عندك فيه شيء ؟ نقول نعم، أما إبراهيم فلأن الآية كانت فى النجاة لأن فى ذلك الوقت لم يكن إهلاك ، وأما فى نوح فلأن الإنجاء من الطوفان الذى علا الجبال بأسرها أمر عجيب إلهى ، وما به النجاة وهو السفينة كان باقياً ، والغرق لم يبق لمن بعده أثره فجعل الباقى آية ، وأما ههنا فنجاة لوط لم يكن بأمر يبقى أثره للحس والهلاك أثره محسوس فى البلاد فجعل الآية الأمر الباقى وهو ههنا البلاد وهناك السفينة وههنا لطيفة : وهي أن الله تعالى آية قدرته موجودة فى الإنجاء والإهلاك فذكر من كل باب آية وقدم آيات الانجاء لأنها أثر الرحمة وأخر آيات الاهلاك لأنها أثر الغضب ورحمته سابقة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال فى السفينة (وجعلناها آية) ولم يقل بينة وقال ههنا آية بينة نقول لأن الانجاء بالسفينة أمر يتسع له كل عقل وقد يقع فى وهم جاهل أن الانجاء بالسفينة لا يفتقر إلى أمر آخر ، وأما الآية ههنا الخسف وجعل ديار معمورة عاليها سافلها وهو ليس بمعتاد ، وإنما ذلك بإرادة قادر يخصصه بمكان دون مكان وفى زمان دون زمان ، فهي بينة لا يمكن لجاهل أن يقول هذا أمر يكون كذلك وكان له أن يقول فى السفينة النجاة بها أمر يكون كذلك إلى أن يقال له فمن أين علم أنه يحتاج إليها ولو دام الماء حتى ينفد زادهم كيف كان يحصل لهم النجاة ؟ ولو سلط الله عليهم الريح العاصفة كيف يكون أحوالهم ؟ .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال هناك للعالمين وقال ههنا (لقوم يعقلون) قلنا لأن السفينة موجودة فى جميع أقطار العالم فعند كل قوم مثال لسفينة نوح يتذكرون بها حاله ، وإذا ركبوها يطلبون من الله النجاه ولا يثق أحد بمجرد السفينة ، بل يكون دائماً مرتجف القلب متضرعاً إلى الله تعالى طلباً للنجاة ، وأما أثر الهلاك فى بلاد لوط ففى موضع مخصوص لا يطلع عليه إلا من يمر بها ويصل إليها ويكون له عقل يعلم أن ذلك من الله المريد، بسبب اختصاصه بمكان ، دون مكان ووجوده فى زمان بعد زمان .

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾

ثم قال تعالى : ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً فقال يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ، فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين ﴾

لما أتم الحكاية الثانية على وجه الاختصار لفائدة الاعتبار شرع فى الثالثة وقال (وإلى مدين أخاهم) واختلف المفسرون فى مدين ، فقال بعضهم إنه اسم رجل فى الأصل وحصل له ذرية فاشتهر فى القبيلة كتميم وقيس وغيرهما ، وقال بعضهم اسم ماء نسب القوم إليه ، واشتهر فى القوم ، والأول كأنه أصح وذلك لأن الله أضاف الماء إلى مدين حيث قال (ولما ورد ماء مدين) ولو كان اسماً للماء لكانت الاضافة غير صحيحة أو غير حقيقة والأصل فى الاضافة التغاير حقيقة ، وقوله (أخاهم) قيل لأن شعيباً كان منهم نسباً ، وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال الله تعالى فى نوح (ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه) قدم نوحا فى الذكر وعرف القوم بالإضافة إليه وكذلك فى إبراهيم ولوط ، وههنا ذكر القوم أولا وأضاف إليهم أخاهم شعيباً ، فنقول الأصل فى جميع المواضع أن يذكر القوم ثم يذكر رسولهم لأن المرسل لا يبعث رسولا إلى غير معين ، وإنما يحصل قوم أو شخص يحتاجون إلى إنباء من المرسل فيرسل إليهم من يختاره غير أن قوم نوح وإبراهيم ولوط لم يكن لهم اسم خاص ولا نسبة مخصوصة يعرفون بها ، فعرفوا بالنبي فقيل قوم نوح وقوم لوط ، وأما قوم شعيب وهود وصالح فكان لهم نسب معلوم اشتهروا به عند الناس فجرى الكلام على أصله وقال الله (وإلى مدين أخاهم شعيباً) وقال (وإلى عاد أخاهم هوداً) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لم يذكر عن لوط أنه أمر قومه بالعبادة والتوحيد ، وذكر عن شعيب ذلك ؟ قلنا قد ذكرنا أن لوطاً كان له قوم وهو كان من قوم إبراهيم وفى زمانه ، وإبراهيم سبقه بذلك واجتهد فيه حتى اشتهر الأمر بالتوحيد عند الخلق من إبراهيم فلم يذكره عن لوط وإنما ذكر منه ما اختص به من المنع عن الفاحشة وغيرها ، وإن كان هو أيضاً يأمر بالتوحيد ، إذ ما من رسول إلا ويكون أكثر كلامه فى التوحيد ، وأما شعيب فكان بعد انقراض القوم فكان هو أصلا أيضاً فى التوحيد فبدأ به وقال (اعبدوا الله) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الايمان لا يتم إلا بالتوحيد ، والأمر بالعبادة لا يفيده لأن من يعبد الله

ويعبد غيره فهو مشرك فكيف اقتصر على قوله (اعبدوا الله) ؟ فنقول: هذا الأمر يفيد التوحيد، وذلك لأن من يرى غيره يخدم زيداً وعمرو هناك وهو أكبر أوهو سيد زيد، فاذا قال له اخدم عمراً يفهم منه أنه يأمره بصرف الخدمة إليه ، وكذا إذا كان لواحد دينار واحد ، وهو يريد أن يعطيه زيداً ، فاذا قيل له أعطه عمراً يفهم منه لا تعطه زيداً ، فنقول هم كانوا مشتغلين بعبادة غير الله والله مالك ذلك الغير فقال لهم شعيب (اعبدوا الله) ففهموا منه ترك عبادة غيره أو نقول لكل واحد نفس واحدة ويريد وضعها فى عبادة غير الله فقال لهم شعيب ضعوها فى موضعها وهو عبادة الله ففهموا منه التوحيد ، ثم قال (وارجوا اليوم الآخر) قال الزمخشرى معناه افعلوا ما ترجون به العاقبة إذ قد يقول القائل لغيره كن عاقلا ، ويكون معناه افعل فعل من يكون عاقلا . وقوله (وارجوا اليوم الآخر) فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ هذا يدل على صحة مذهبنا ، فان عندنا من عبد الله طول عمره يثيبه الله تفضلا ولا يجب عليه ذلك لأن العابد قد وصل إليه من النعم ما لو زاد على ما أتى به لما خرج عن عهدة الشكر ، ومن شكر المنعم على نعم سبقت لا يلزم المنعم أن يزيده ، وإن زاده يكون إحساناً منه إليه وإنعاماً عليه ،فنقول قوله (وارجوا اليوم) بعد قوله (اعبدوا الله) يدل على التفضل لا على الوجوب فإن الفضل يرجى والواجب من العادل يقطع به .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال (وارجوا اليوم الآخر) ولم يقل وخافوه مع أن ذلك اليوم مخوف عند الكل وغير مرجو عند كثير من الناس ، لفسقه وفجوره ومحبته الدنيا ولا يرجوه إلا قليل من عباده ، فنقول لما ذكر التوحيد بطريق الإثبات وقال (اعبدوا) ولم يذكره بطريق النفى وما قال ولا تعبدوا غيره قال بلفظ الرجاء لأن عبادة الله يرجى منها الخير فى الدارين ، وفيه وجه آخر وهو أن الله حكى فى حكاية إبراهيم أنه قال إنكم اتخذتم الأوثان مودة بينكم فى الحياة الدنيا ، وأما فى الآخرة فتكفرون بها ، وقال ههنا لا تكونوا كالذين سبق ذكرهم لم يرجوا اليوم الآخر ، فاقتصروا على مودة الحياة الدنيا ، وارجوا اليوم الآخر واعملوا له ، ثم قال (ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) يمكن أن يقال نصب مفسدين على المصدر كما يقال قم قائماً أى قياماً ويكون قوله (ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) كقول القائل إجلس قعوداً لأن العيث والفساد بمعنى ، وجمع الأوامر والنواهى فى قوله (اعبدوا الله) وقوله (ولا تعثوا) ثم إن قومه كذبوه بعد ما بلغ وبين ، فحكى الله عنهم ذلك بقوله (فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين) وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما حكى عن شعيب أمر ونهى والأمر لا يصدق ولا يكذب ، فان من قال لغيره قم لا يصح أن يقول له كذبت ، فنقول كان شعيب يقول الله واحد فاعبدوه ، والحشر كائن فارجوه ، والفساد محرم فلا تقربوه ، وهذه الأشياء فيها إخبارات فكذبوه فيما أخبرهم به .

وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾

﴿ **المسألة الثانية** ﴾ قال ههنا وفى الأعراف (فأخذتهم الرجفة) وقال فى هود (فأخذتهم الصيحة) والحكاية واحدة ، نقول لا تعارض بينهما فإن الصيحة كانت سبباً للرجفة ، إما لرجفة الأرض إذ قيل إن جبريل صاح فتزلزلت الأرض من صيحته ، وإما لرجفة الأفئدة فان قلوبهم ارتجفت منها ، والإضافة إلى السبب لا تنافى الإضافة إلى سبب السبب ، إذ يصح أن يقال روى فقوى ، وأن يقال شرب فقوى فى صورة واحدة .

﴿ **المسألة الثالثة** ﴾ حيث قال (فأخذتهم الصيحة) قال (فى ديارهم) وحيث قال (فأخذتهم الرجفة) قال (فى دارهم) فنقول المراد من الدار هو الديار ، والإضافة إلى الجمع يجوز أن تكون بلفظ الجمع ، وأن تكون بلفظ الواحد إذا أمن الإلتباس ، وإنما اختلف اللفظ للطيفة ، وهى أن الرجفة هائلة فى نفسها فلم يحتج إلى مهول ، وأما الصيحة فغير هائلة فى نفسها لكن تلك الصيحة لما كانت عظيمة حتى أحدثت الزلزلة فى الأرض ذكر الديار بلفظ الجمع ، حتى تعلم هيبتها . والرجفة بمعنى الزلزلة عظيمة عند كل أحد فلم يحتج إلى معظم لأمرها ، وقيل إن الصيحة كانت أعم حيث عمت الأرض والجو ، والزلزلة لم تكن إلا فى الأرض فذكر الديار هناك غير أن هذا ضعيف لأن الدار والديار موضع الجثوم لا موضع الصيحة والرجفة ، فهم ما أصبحوا جاثمين إلا فى ديارهم .

قوله تعالى : ﴿ وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين ، وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض وما كانوا سابقين ﴾

ثم قال تعالى (وعاداً وثمود) أى وأهلكنا عاداً وثمود لأن قوله تعالى (فأخذتهم الرجفة) دل على الإهلاك (وقد تبين لكم من مساكنهم) الأمر وما تعتبرون منه ، ثم بين سبب ما جرى عليهم فقال (وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل) فقوله (وزين لهم الشيطان أعمالهم) يعنى عبادتهم لغير الله (وصدهم عن السبيل) يعنى عبادة الله (وكانوا مستبصرين) يعنى بواسطة الرسل يعنى فلم يكن لهم فى ذلك عذر فان الرسل أوضحوا السبل . ثم قال تعالى (وقارون وفرعون وهامان) عطفاً عليهم أى : وأهلكنا قارون وفرعون وهامان .

فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾

مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا

ثم قال تعالى (ولقد جاءهم موسى بالبينات) كما قال فى عاد وثمود (وكانوا مستبصرين) أى بالرسل ، ثم قال تعالى (فاستكبروا) أى عن عبادة الله وقوله (فى الأرض) إشارة إلى مايوضح قلة عقلهم فى استكبارهم ، وذلك لأن من فى الأرض أضعف أقسام المكلفين ، ومن فى السماء أقواهم ، ثم إن من فى السماء لا يستكبر على الله وعن عبادته ، فكيف [يستكبر] من فى الأرض . ثم قال تعالى (وماكانوا سابقين) أى ماكانوا يفوتون الله لأنا بينا فى قوله تعالى (وما انتم بمعجزين فى الأرض) أن المراد أن أقطار الأرض فى قبضة قدرة الله .

ثم قال تعالى : ﴿ فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وماكان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ .

ذكر الله أربعة أشياء العذاب بالحاصب ، وقيل إنه كان بحجارة محماة يقع على واحد منهم وينفذ من الجانب الآخر ، وفيه إشارة إلى النار والعذاب بالصيحة وهوهواء متموج ، فان الصوت قيل سببه تموج الهواء ووصوله إلى الغشاء الذى على منفذ الأذن وهوالصماخ فيقرعه فيحس ، والعذاب بالخسف وهو الغمر فى التراب ، والعذاب بالإغراق وهو بالماء . فحصل العذاب بالعناصر الأربعة والإنسان مركب منها وبها قوامه وبسببها بقاؤه ودوامه ، فاذا أراد الله هلاك الإنسان جعل مامنه وجوده سبباً لعدمه ، وما به بقاؤه سبباً لفنائه ، ثم قال تعالى (وماكان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) يعنى لم يظلمهم بالهلاك ، وإنما هم ظلموا أنفسهم بالإشراك وفيه وجه آخر ألطف وهو أن الله ماكان يظلمهم أى ماكان يضعهم فى غير موضعهم فان موضعهم الكرامة كما قال تعالى (ولقد كرمنا بنى آدم) لكنهم ظلموا أنفسهم حيث وضعوها مع شرفهم فى عبادة الوثن مع خسته .

ثم قال تعالى : ﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ﴾ .

لما بين الله تعالى انه أهلك من أشرك عاجلا وعذب من كذب آجلا ، ولم ينفعه فى الدارين معبوده ولم يدفع ذلك عنه ركوعه وسجوده ، مثل اتخاذه ذلك معبوداً باتخاذ العنكبوت بيتاً لايجير آوياً ولا يريح ثاوياً ، وفى الآية لطائف نذكرها فى مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما الحكمة فى اختيار هذا المثل من بين سائر الأمثال ؟ فنقول فيه وجوه

(الأول) ان البيت ينبغي أن يكون له أمور : حائط حائل ، وسقف مظل ، وباب يغلق ، وأمور ينتفع بها ويرتفق ، وإن لم يكن كذلك فلا بد من أحد أمرين . إما حائط حائل يمنع من البرد وإما سقف مظل يدفع عنه الحر ، فان لم يحصل منهما شيء فهو كالبيداء ليس ببيت لكن بيت العنكبوت لا يجنها ولا يكنها وكذلك المعبود ينبغي أن يكون منه الخلق والرزق وجر المنافع وبه دفع المضار ، فان لم تجتمع هذه الأمور فلا أقل من دفع ضر أو جر نفع ، فان من لا يكون كذلك فهو والمعدوم بالنسبة اليه سواء ، فاذن كما لم يحصل للعنكبوت باتخاذ ذلك البيت من معاني البيت شيء ، كذلك الكافر لم يحصل له باتخاذ الأوثان أولياء من معاني الأولياء شيء (الثاني) هو أن أقل درجات البيت أن يكون للظل فان البيت من الحجر يفيد الاستظلال ويدفع أيضاً الهواء والماء والنار والتراب . والبيت من الخشب يفيد الاستظلال ويدفع الحر والبرد ولا يدفع الهواء القوي ولا الماء ولا النار . والخباء الذي هو بيت من الشعر أو الخيمة التي هي من ثوب ان كان لا يدفع شيئاً يظل ويدفع حر الشمس لكن بيت العنكبوت لا يظل فان الشمس بشعاعها تنفذ فيه ، فكذلك المعبود أعلى درجاته أن يكون نافذ الأمر في الغير ، فان لم يكن كذلك فيكون نافذ الأمر في العابد ، فان لم يكن فلا أقل من أن لا ينفذ أمر العابد فيه لكن معبودهم تحت تسخيرهم إن أرادوا أجلوه وإن أحبوا أذلوه (الثالث) أدنى مراتب البيت أنه إن لم يكن سبب ثبات وارتفاق لا يصير سبب شتات وافتراق ، لكن بيت العنكبوت يصير سبب انزعاج العنكبوت ، فان العنكبوت لو دام في زاوية مدة لا يقصد ولا يخرج منها ، فاذا نسج على نفسه واتخذ بيتاً يتبعه صاحب الملك بتنظيف البيت منه والمسح بالمسوح الخشنة المؤذية لجسم العنكبوت ، فكذلك العابد بسبب العبادة ينبغي أن يستحق الثواب ، فان لم يستحقه فلا أقل من أن لا يستحق بسببها العذاب ، والكافر يستحق بسبب العبادة العذاب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ مثل الله اتخاذهم الأوثان أولياء باتخاذ العنكبوت نسجه بيتاً ولم يمثله بنسجه وذلك لوجهين (أحدهما) أن نسجه فيه فائدة له ، لولاه لما حصل وهو اصطيادها الذباب به من غير أن يفوته ما هو أعظم منه ، واتخاذهم الأوثان وإن كان يفيدهم ما هو أقل من الذباب من متاع الدنيا ، لكن يفوتهم ما هو أعظم منها وهو الدار الآخرة التي هي خير وأبقى فليس اتخاذهم كنسج العنكبوت (الوجه الثاني) هو أن نسجه مفيد لكن اتخاذها ذلك بيتاً أمر باطل فكذلك هم لو اتخذوا الأوثان دلائل على وجود الله وصفات كماله وبراهين على نعوت اكرامه وأوصاف جلاله لكان حكمة ، لكنهم اتخذوها أولياء كجعل العنكبوت النسج بيتاً وكلاهما باطل .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ كما أن هذا المثل صحيح في الأول فهو صحيح في الآخر ، فان بيت العنكبوت إذا هبت ريح لا يرى منه عين ولا أثر بل يصير هباء منثوراً ، فكذلك أعمالهم للأوثان كما قال تعالى (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً) .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء) ولم يقل آلهة إشارة إلى إبطال الشرك الخفي أيضاً ، فان من عبد الله رياء لغيره فقد اتخذ ولياً غيره فمثله مثل العنكبوت يتخذ نسجه بيتاً .

وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ

ثم قال تعالى : ﴿ وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون ﴾ .

إشارة إلى ما بينا أن كل بيت ففيه إما فائدة الاستظلال أو غير ذلك ، وبيته يضعف عن إفادة ذلك لأنه يخرب بأدنى شيء ولا يبقى منه عين ولا أثر (فكذلك عملهم لو كانوا يعلمون) .

ثم قال تعالى : ﴿ إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم ﴾

قال الزمخشري : هذا زيادة توكيد على التمثيل حيث إنهم لا يدعون من دونه من شيء ، بمعنى ما يدعون ليس بشيء وهو عزيز حكيم . فكيف يجوز للعاقل أن يترك القادر الحكيم ويشتغل بعبادة ما ليس بشيء أصلا ، وهذا يفهم منه أنه جعل ما نافية ، وهو صحيح ، والعلم يتعلق بالجملة كما يقول القائل : إني أعلم أن الله واحد حق ، يعني أعلم هذه الجملة ، وإن كنا نجعل ما خبرية فيكون معناه ما يدعون من شيء فالله يعلمه وهو العزيز الحكيم قادر على إعدامه وإهلاكهم ، لكنه حكيم يمهلهم ليكون الهلاك عن بينة والحياة عن بينة ، ومن ههنا يكون الخطاب مع أمة محمد ﷺ وعلى هذا لو قال قائل ما وجه تعلق هذه الآية بالتمثيل السابق ؟ فنقول لما قال إن مثلهم كمثل العنكبوت، فكان للكافر أن يقول أنا لا أعبد هذه الأوثان التي أتخذها وهي تحت تسخيري ، وإنما هي صورة كوكب أنا تحت تسخيره ومنه نفعي وضري وخيري وشري ووجودي ودوامي فله سجودي واعظامي ، فقال الله تعالى الله يعلم أن كل ما يعبدون من دون الله هو مثل بيت العنكبوت لأن الكوكب والملك وكل ما عـــدا الله لا ينفع ولا يضر إلا بإذن الله فعبادتكم للغائب كعبادتكم للحاضر ولا معبود إلا الله ولا إله سواه .

ثم قال تعالى : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس ﴾

قال الكافرون كيف يضرب خالق الأرض والسموات الأمثال بالهوام والحشرات كالبعوض والذباب والعنكبوت ؟ فيقال الأمثال تضرب للناس إن لم تكونوا كالإنعام يحصل لكم منه إدراك ما يوجب نفرتكم مما أنتم فيه وذلك لأن التشبيه يؤثر في النفس تأثيراً مثل تأثير الدليل ، فاذا قال الحكيم لمن يغتاب إنك بالغيبة كأنك تأكل لحم ميت لأنك وقعت في هذا الرجل وهو غائب لا يفهم ما تقول ولا يسمع حتى يجيب كمن يقع في ميت يأكل منه وهو لا يعلم ما يفعله ولا يقدر على دفعه إن كان يعلمه فينفر طبعه منه كما ينفر إذا قال له إنه يوجب العذاب ويورث العقاب .

وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾

ثم قال تعالى : ﴿ وما يعقلها إلا العالمون ﴾

يعنى حقيقتها وكون الأمر كذلك لا يعلمه إلا من حصل له العلم ببطلان ما سوى الله وفساد عبادة ما عداه ، وفيه معنى حكمى وهو أن العلم الحدسى يعلمه العاقل والعلم الفكرى الدقيق يعقله العالم ، وذلك لأن العاقل إذا عرض عليه أمرظاهر أدركه كما هو بكنهه لكون المدرك ظاهراًوكون المدرك عاقلا ، ولا يحتاج إلى كونه عالماً بأشياء قبله ، وأما الدقيق فيحتاج إلى علم سابق فلابد من عالم ، ثم إنه قد يكون دقيقاً فى غاية الدقة فيدركه ولا يدركه بتمامه ويعقله إذا كان عالماً . إذا علم هذا فقوله (وما يعقلها إلا العالمون) يعنى هو ضرب للناس أمثالا وحقيقتها ومافيها من الفوائدبأسرها فلا يدركها إلا العلماء .

ثم إنه تعالى لما أمر الخلق بالايمان وأظهر الحق بالبرهان . ولم يأت الكفار بما أمرهم به وقص عليهم قصصاً فيها عبرة وأنذرهم على كفرهم بإهلاك من غبر ، وبين ضعف دليلهم بالتمثيل ، ولم يهتدوا بذلك إلى سواء السبيل ، وحصل يأس الناس عنهم سلى المؤمنين بقوله :

﴿ خلق الله السموات والأرض بالحق إن فى ذلك لآية للمؤمنين ﴾ .

يعنى إن لم يؤمنوا هم لا يورث كفرهم شكا فى صحة دينكم ، ولا يؤثر شكهم فى قوة يقينكم ، فان خلق الله السموات والأرض بالحق للمؤمنين بيان ظاهر ، وبرهان باهر ، وإن لم يؤمن به على وجه الأرض كافر ، وفى الآية مسألة يتبين بها تفسير الآية ، وهى أن الله تعالى كيف خص الآية فى خلق السموات والأرض بالمؤمنين مع أن فى خلقهما آية لكل عاقل كما قال الله تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) وقال الله تعالى (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار - إلى أن قال - لآيات لقوم يعقلون) فنقول خلق السموات والأرض آية لكل عاقل وخلقهما بالحق آية للمؤمنين فحسب ، وبيانه من حيث النقل والعقل ، أما النقل فقوله تعالى (ماخلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون) أخرج أكثر الناس عن العلم بكون خلقهما بالحق مع أنه أثبت علم الكل بأنه خلقهما حيث قال (ولئن سألتهم من خلق السموات الأرض ليقولن الله) وأما العقل فهو أن العاقل أول ماينظر إلى خلق السموات والأرض ويعلم ن لهما خالقاً وهو الله ثم من يهديه الله لا يقطع النظر عنهما عند مجرد ذلك ، بل يقول إنه خلقهما تقنا محكما وهو المراد بقوله بالحق ، لأن ما لا يكون على وجه الإحكام يفسد ويبطل فيكون اطلا ، وإذا علم أنه خلقهما متقناً يقول إنه قادر كامل حيث خلق وعالم علمه شامل حيث أتقن

اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ

فيقول لايعزب عن علمه أجزاء الموجودات فى الأرض ولا فى السموات ولا يعجز عن جمعها كما جمع أجزاء الكائنات والمبدعات . فيجوز بعث من فى القبور و بعثة الرسول ، و يعلم وحدانية الله لأنه لو كان أكثر من واحد لفسدتا ولبطلتا وهما بالحق موجودان فيحصل له الإيمان بتمامه ، من خلق ما خلقه على أحسن نظامه ، ثم إن الله تعالى لما سلى المؤمنين بهذه الآية سلى رسوله :

بقوله تعالى ﴿ أتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ .

يعنى إن كنت تأسف على كفرهم فاتل ما أوحى إليك لتعلم أن نوحاً ولوطاً وغيرهما كانوا على ما أنت عليه بلغوا الرسالة وبالغوا فى إقامة الدلالة ولم ينقذوا قومهم من الضلالة والجهالة ولهذا قال (اتل) وما قال عليهم ، لأن التلاوة ما كانت بعد اليأس منهم إلا لتسلية قلب محمد عليه الصلاة والسلام وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أن الرسول إذا كان معه كتاب وقرأ كتابه مرة ولم يسمع لم يبق له فائدة فى قراءته لنفسه فنقول الكتاب المنزل مع النبى المرسل ليس كذلك ، فان الكتب المسيرة مع الرسل على قسمين قسم يكون فيه سلام وكلام ، مع واحد يحصل بقراءته مرة تمام المرام . وقسم يكون فيه قانون كلى تحتاج إليه الرعية فى جميع الأوقات كما إذا كتب الملك كتاباً فيه إنا رفعنا عنكم البدعة الفلانية ووضعنا فيكم السنة الفلانية وبعثنا إليكم هذا الكتاب فيه جميع ذلك فليكن ذلك كمنوال ينسج عليه وال بعد وال . فمثل هذا الكتاب لا يقرأ ويترك بل يعلق من مكان عال ، وكثيراً ما تكتب نسخته على لوح ويثبت فوق المحاريب ، ويكون نصب الأعين ، فكذلك كتاب الله مع رسوله محمد قانون كلى فيه شفاء للعالمين فوجب تلاوته مرة بعد مرة ليبلغ إلى حد التواتر وينقله قرن إلى قرن ويأخذه قوم من قوم ويثبت فى الصدور على مرور الدهور (الوجه الثانى) هو أن الكتب على ثلاثة أقسام كتاب لا تكره قراءته إلا للغير كالقصص فان من قرأ حكاية مرة لايقرؤها مرة أخرى إلا لغيره ، ثم إذا سمعه ذلك الغير لايقرؤها إلا لآخر لم يسمعه ولو قرأه عليه لسئموه ، وكتاب لايكرر عليه إلا للنفس كالنحو والفقه وغيرهما وكتاب يتلى مرة بعد مرة للنفس وللغير كالمواعظ الحسنة فانها تكرر للغير وكلما سمعها يلتذ بها ويرق لها قلبه ويستعيدها وكلما تدخل السمع يخرج الوسواس مع الدمع وتكرر أيضا لنفس المتكلم فان كثيراً ما يلتذ المتكلم بكلمة طيبة وكلما يعيدها يكون أطيب وألذ وأثبت فى القلب وأنفذ

حتى يكاد يبكي من رقته دماً ولو أورثه البكاء عمى ، إذا علم هذا فالقرآن من القبيل الثالث مع أن فيه القصص والفقه والنحو فكان في تلاوته في كل زمان فائدة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لم خصص بالأمر هذين الشيئين تلاوة الكتاب وإقامة الصلاة ؟ فنقول لوجهين (أحدهما) أن الله لما أراد تسلية قلب محمد عليه السلام قال له الرسول واسطة بين طرفين من الله إلى الخلق ، فاذا لم يتصل به الطرف الواحد ولم يقبلوه فالطرف الآخر متصل ، ألا ترى أن الرسول إذا لم تقبل رسالته توجه نحو مرسله ، فاذا تلوت كتابك ولم يقبلوك فوجه وجهك إلى وأقم الصلاة لوجهي (الوجه الثاني) هو أن العبادات المختصة بالعبد ثلاثة : وهي الاعتقاد الحق ولسانية وهي الذكر الحسن وبدنية خارجية وهي العمل الصالح ، لكن الاعتقاد لا يتكرر فان من اعتقد شيئاً لا يمكنه أن يعتقده مرة أخرى بل ذلك يدوم مستمراً والنبي عليه السلام كان ذلك حاصلا له عن عيان أكمل مما يحصل عن بيان ، فلم يؤمر به لعدم إمكان تكراره ، لكن الذكر ممكن التكرار ، والعبادة البدنية كذلك . فأمره بهما فقال : اتل الكتاب وأقم الصلاة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ كيف تنهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر ؟ نقول قال بعض المفسرين المراد من الصلاة القرآن وهو ينهى أي فيه النهي عنهما وهو بعيد لأن إرادة القرآن من الصلاة في هذا الموضع الذي قال قبله (اتل ما أوحي إليك) بعيد من الفهم ، وقال بعضهم أراد به نفس الصلاة وهي تنهى عنهما مادام العبد في الصلاة ، لأنه لا يمكنه الاشتغال بشيء منهما ، فنقول هذا كذلك لكن ليس المراد هذا وإلا لا يكون مدحاً كاملا للصلاة ، لأن غيرها من الأشغال كثيراً ما يكون كذلك كالنوم في وقته وغيره فنقول : المراد أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر مطلقاً وعلى هذا قال بعض المفسرين الصلاة هي التي تكون مع الحضور وهي تنهى ، حتى نقل عنه صلى الله عليه وسلم « من لم تنهه صلاته عن المعاصي لم يزدد بها إلا بعداً » ونحن نقول الصلاة الصحيحة شرعا تنهى عن الأمرين مطلقاً وهي التي أتى بها المكلف لله حتى لو قصد بها الرياء لا تصح صلاته شرعا وتجب عليه الاعادة ، وهذا ظاهر فإن من نوى بوضوئه الصلاة والتبرد قيل لا يصح فكيف من نوى بصلاته الله وغيره إذا ثبت هذا فنقول الصلاة تنهى من وجوه (الأول) هو أن من كان يخدم ملكا عظيم الشأن كثير الإحسان ويكون عنده بمنزلة ، ويرى عبداً من عباده قد طرده طرداً لا يتصور قبوله ، وفاته الخير بحيث لا يرجى حصوله ، يستحيل من ذلك المقرب عرفا أن يترك خدمة الملك ويدخل في طاعة ذلك المطرود فكذلك العبد إذا صلى لله صار عبداً له ، وحصل له منزلة المصلي يناجي ربه ، فيستحيل منه أن يترك عبادة الله ويدخل تحت طاعة الشيطان المطرود ، لكن مرتكب الفحشاء والمنكر تحت طاعة الشيطان فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر (الثاني) هو أن من يباشر القاذورات كالزبال والكناس يكون له لباس نظيف إذا لبسه لا يباشر معه القاذورات وكلما كان ثوبه أرفع يكون امتناعه وهو لابسه عن القاذورات أكثر فاذا لبس واحد منهم ثوب ديباج

مذهب يستحيل منه مباشرة تلك الأشياء عرفاً ، فكذلك العبد إذا صلى لبس لباس التقوى لأنه واقف بين يدى الله واضع يمينه على شماله ، على هيئة من يقف بمرأى ملك ذى هيبة ، ولباس التقوى خيرلباس يكون نسبته إلى القلب أعلى من نسبة الديباج المذهب إلى الجسم ، فإذن من لبس هذا اللباس يستحيل منه مباشرة قاذورات الفحشاء والمنكر . ثم إن الصلوات متكررة واحدة بعد واحدة فيدوم هذا اللبس فيدوم الامتناع (الثالث) من يكون أمير نفسه يجلس حيث يريد فإذا دخل فى خدمة ملك وأعطاه منصباً له مقام خاص لا يجلس صاحب ذلك المنصب إلا فى ذلك الموضع ، فلو أرادأن يجلس فى صف النعال لا يترك . فكذلك العبد إذا صلى دخل فى طاعة الله ولم يبق بحكم نفسه وصار له مقام معين ، إذ صار من أصحاب اليمين ، فلو أراد أن يقف فى غير موضعه وهو موقف أصحاب الشمال لا يترك ، لكن مرتكب الفحشاء والمنكر منأصحاب الشمال وهذا الوجه إشارة إلى عصمة الله يعنى من صلى عصمه الله عن الفحشاء والمنكر (الرابع) وهو موافق لما وردت به الأخبار وهو أن من يكون بعيداً عن الملك كالسوقى والنادى والمتعيش لا يبالى بما فعل من الأفعال يأكل فى دكان الهراس والرواس ويجلس مع أحباش الناس ، فاذا صارت له قربة يسيرة من الملك كما إذا صار واحداً من الجندارية والقواد والسواس عند الملك لا تمنعه تلك القربة من تعاطى ماكان يفعله ، فاذا زادت قربته وارتفعت منزلته حتى صار أميراً حينئذ تمنعه هذه المنزلة عن الأكل فى ذلك المكان والجلوس مع أولئك الخلان ، كذلك العبد إذا صلى وسجد صار له قربة ما لقوله تعالى (واسجد واقترب) فاذا كان ذلكالقدر من القربة يمنعه من المعاصى والمناهى ، فبتكرر الصلاة والسجود تزداد مكانته ، حتى يرى على نفسه من آثار الكرامة ما يستقذر معه من نفسه الصغائر فضلا عن الكبائر ، وفى الآية وجه آخر معقول يؤكده المنقول وهو أن المراد من قوله (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) هو أنها تنهى عن التعطيل والإشراك ، والتعطيل هو إنكار وجود الله ، والإشراك إثبات ألوهية لغير الله . فنقول التعطيل عقيدة فحشاء لأن الفاحش هو القبيح الظاهر القبح ، لكن وجود الله أظهر من الشمس وما من شىء إلا وفيه آية على الله ، ظاهرة وإنكارالظاهرظاهر الإنكار ، فالقول بأن لا إله قبيح والإشراك منكر ، وذلك لأن الله تعالى لما أطلق اسم المنكر على من نسب نفساً إلى غير الوالد مع جواز أن يكون له ولد حيث قال (إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول) فالمشرك الذى يقول الملائكة بنات الله وينسب إلى من لم يلد ، ولا يجوزأن يكون له ولد ، ولداً كيف لايكون قوله منكراً ؟ فالصلاة تنهى عنهذه الفحشاء ، وهذا المنكر وذلك لأنالعبد أول ما يشرع فى الصلاة يقول الله أكبر ، فبقوله الله ينفى التعطيل وبقوله أكبر ينفى التشريك لأن الشريك لا يكون أكبر منالشريك الآخر فيما فيه الاشتراك ، فاذا قال بسم الله نفى التعطيل ، وإذا قالالرحمن الرحيمنفى الإشراك ، لأنالرحمن من يعطى الوجود بالخلق بالرحمة ، والرحيم من

وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾

يعطى البقاء بالرزق بالرحمة . فاذا قال الحمد لله رب العالمين ، أثبت بقوله الحمد لله خلاف التعطيل وبقوله (رب العالمين) خلاف الإشراك ، فإذا قال (إياك نعبد) بتقديم إياك نفى التعطيل والإشراك وكذا بقوله (وإياك نستعين) فإذا قال (إهدنا الصراط) نفى التعطيل لأن طالب الصراط له مقصد والمعطل لا مقصد له ، وبقوله (المستقيم) نفى الإشراك لأن المستقيم هو الأقرب والمشرك يعبد الأصنام حتى يعبد صورة صورها إله العالمين ، ويظنون أنهم يشفعون لهم رعبادة الله من غير واسطة أقرب ، وعلى هذا إلى آخر الصلاة يقول فيها أشهد أن لا إله إلا الله فينفى الإشراك والتعطيل ، وههنا لطيفة وهى أن الصلاة أولها لفظة الله وآخرها لفظة الله فى قوله (أشهد أن لا إله إلا الله ليعلم المصلى أنه من أول الصلاة إلى آخرها مع الله ، فإن قال قائل فقد بقى من الصلاة قوله وأشهد أن محمداً رسول الله والصلاة على الرسول والتسليم ، فنقول هذه الأشياء فى آخرها دخلت لمعنى خارج عن ذات الصلاة ، وذلك لأن الصلاة ذكر الله لاغير ، لكن العبد إذا وصل بالصلاة إلى الله وحصل مع الله لا يقع فى قلبه أنه استقل واستبد واستغنى عن الرسول ، كمن تقرب من السلطان فيغتر بذلك ولا يلتفت إلى النواب والحجاب ، فقال أنت فى هذه المنزلة الرفيعة بهداية محمد ﷺ وغير مستغن عنه فقل مع ذكرى محمد رسول الله ، ثم إذا علمت أن هذا كله ببركة هدايته فاذكر إحسانه بالصلاة عليه ، ثم إذا رجعت من معراجك وانتهيت إلى إخوانك فسلم عليهم وبلغهم سلامى كما هو ترتيب المسافرين ، واعلم أن هيئة الصلاة هيئة فيها هيبة فان أولها وقوف بين يدى الله كوقوف المملوك بين يدى السلطان ، ثم إن آخرها جثو بين يدى الله كما يجثو بين يدى السلطان من أكرمه بالإجلاس ، كأن العبد لما وقف وأثنى على الله أكرمه الله وأجلسه فجثا ، وفى هذا الجثو لطيفة وهى أن من جثا فى الدنيا بين يدى ربه هذا الجثو لا يكون له جثو فى الآخرة ، ولا يكون من الذين قال الله فى حقهم (ونذر الظالمين فيها جثياً) .

ثم قال تعالى : ﴿ ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون ﴾ .

لما ذكر أمرين وهما تلاوة الكتاب وإقامة الصلاة بين ما يوجب أن يكون الإتيان بهما على أبلغ وجوه التعظيم ، فقال (ولذكر الله أكبر) وأنتم إذا ذكرتم آباءكم بما فيهم من الصفات الحسنة تنبشوا لذلك وتذكروهم بملء أفواهكم وقلوبكم ، لكن ذكر الله أكبر ، فينبغى أن يكون على أبلغ وجوه التعظيم ، وأما الصلاة فكذلك لأن الله يعلم ما تصنعون ، وهذا أحسن صنعكم فينبغى أن يكون على وجه التعظيم ، وفى قوله (ولذكر الله أكبر) مع حذف بيان ما هو أكبر منه لطيفة وهى أن الله لم يقل أكبر من ذكر فلان لأن ما نسب إلى غيره بالكبر فله إليه نسبة ، إذ لا يقال الجبل أكبر من خردلة ، وإنما يقال هذا الجبل أكبر من ذلك الجبل فأسقط المنسوب كأنه قال ولذكر

وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ
ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ
﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ
وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾

الله له الكبر لا لغيره ، وهذا كما يقال فى الصلاة الله أكبر أى له الكبر لا لغيره .

ثم قال تعالى : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون ، وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون ﴾

لما بين الله طريقة إرشاد المشركين ونفع من انتفع وحصل اليأس ممن امتنع بين طريقة إرشاد أهل الكتاب فقال (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن) قال بعض المفسرين المراد منه لا تجادلوهم بالسيف ، وإن لم يؤمنوا إلا إذا ظلموا وحاربوا ، أى إذا ظلموا زائداً على كفرهم، وفيه معنى ألطف منه وهو أن المشرك جاء بالمنكر على ما بيناه فكان اللائق أن يجادل بالأخشن ويبالغ فى تهجين مذهبه وتوهين شبهه ، ولهذا قال تعالى فى حقهم (صم بكم عمى) وقال (لهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها) إلى غير ذلك . وأما أهل الكتاب فجاءوا بكل حسن إلا الاعتراف بالنبى عليه السلام فوحدوا وآمنوا بإنزال الكتب وإرسال الرسل والحشر، فلمقابلة إحسانهم يجادلون أولا بالأحسن ولا تستخف آراؤهم ولا ينسب إلى الضلال آباؤهم ، بخلاف المشرك ، ثم على هذا فقوله (إلا الذين ظلموا) تبيين له حسن آخر ، وهوأن يكون المراد إلا الذين أشركوا منهم بإثبات الولد لله والقول بثالث ثلاثة . فانهم ضاهوهم فى القول المنكر فهم الظالمون ، لأن الشرك ظلم عظيم ، فيجادلون بالأخشن من تهجين مقالتهم وتبيين جهالتهم ، ثم إنه تعالى بين ذلك الأحسن فقدم محاسنهم بقوله (وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون) فيلزمنا اتباع ما قاله لكنه بين رسالتى فى كتبكم فهو دليل مضىء ، ثم بعد ذلك ذكر دليلا قياسياً فقال (وكذلك أنزلنا إليك الكتاب) يعنى كما أنزلنا على من تقدمك أنزلنا عليك وهذا قياس ، ثم قال (فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به) لوجود النص ومن هؤلاء كذلك ، واختلف المفسرون فقال بعضهم : المراد بالذين آتيناهم الكتاب من آمن بنبينا من أهل الكتاب كعبد الله بن سـلام وغيره وبقوله (ومن هؤلاء) أى من أهل مكة وقال بعضهم : المراد بالذين

وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾

آتيناهم الكتاب هم الذين سبقوا محمداً ﷺ زماناً من أهل الكتاب ، ومن هؤلاء الذين هم فى زمان محمد ﷺ من أهل الكتاب وهذا أقرب ، فإن قوله (هؤلاء) صرفه إلى أهل الكتاب أولى ، لأن الكلام فيهم ولا ذكر للمشركين ههنا ، إذكان هذا الكلام بعد الفراغ من ذكرهم والإعراض عنهم لإصرارهم على الكفر ، وههنا وجه آخر أولى وأقرب إلى العقـــل والنقل ، وأقرب إلى الأحسن من الجدال المأمور به ، وهو أن نقول المراد بالذين آتيناهم الكتاب هم الأنبياء وبقوله (ومن هؤلاء) أى من أهل الكتاب وهو أقرب ، لأن الذين آتاهم الكتاب فى الحقيقة هم الأنبياء ، فان الله ما آتى الكتاب إلا للأنبياء ، كما قال تعالى(أولئك الذين آتيناهم الكتاب) وقال (.وآتينا داود زبوراً) وقال (وآتانى الكتاب) وإذا حملنا الكلام على هذا لا يدخله التخصيص ، لأن كل الأنبياء آمنوا بكل الأنبياء ، وإذا قلنا بما قالوا به يكون المراد من الذين آتيناهم الكتاب عبد الله ابن سلام واثنين أو ثلاثة معه أو عدداً قليلا ، ويكون المراد بقوله (ومن هؤلاء) غير المذكورين ، وعلى ما ذكرنا يكون مخرج الكلام كأنه قسم القوم قسمين أحدهما المشركين وتكلم فيهم وفرغ منهم والثانى أهل الكتاب وهو بعد فى بيان أمرهم ، والوقت وقت جريان ذكرهم ، فإذا قال هؤلاء يكون منصرفاً إلى أهل الكتاب الذين هم فى وصفهم ، وإذا قال أولئك يكون منصرفاً إلى المشركين الذين سبق ذكرهم وتحقق أمرهم ، وعلى هذا التفسير يكون الجدال على أحسن الوجوه ، وذلك لأن الخلاف فى الأنبياء والأئمة قريب من الخلاف فى فضيلة الرؤساء والملوك ، فاذا اختلف حزبان فى فضيلة ملكين أو رئيسين ، وأدى الاختلاف إلى الاقتتال يكون أقوى كلام يصلح بينهم أن يقال لهم هذان الملكان متوافقان متصادقان ، فلا معنى لنزاعكم فكذلك ههنا قال النبى ﷺ نحن آمنا بالأنبياء وهم آمنوا بى فلا معنى لتعصبكم لهم وكذلك أكابركم وعلماؤكم آمنوا ، ثم قال تعالى (وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون) تنفيراً لهم عما هم عليه ، يعنى أنكم آمنتم بكل شىء ، وامتزتم عن المشركين بكل فضيلة ، إلا هذه المسألة الواحدة ، وبإنكارها تلتحقون بهم وتبطلون مزاياكم ، فان الجاحد بآية يكون كافراً .

قوله تعالى : ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون ، بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون ﴾ .

وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾

ثم قال تعالى (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك) هذه درجة أخرى بعد ماتقدم على الترتيب ، وذلك لأن المجادل إذا ذكر مسألة مختلفاً فيهـا كقول القائل : الزكاة تجب فى مال الصغير ، فاذا قيل له لم ؟ فيقول كما تجب النفقة فى ماله ، ولا يذكر أولا الجامع بينهما ، فان قنع الطالب بمجرد التشبيه وأدرك من نفسه الجامع فذاك ، وإن لم يدرك أو لم يقنع يبدى الجامع ، فيقول كلاهما مال فضل عن الحاجة فيجب فكذلك هنا ذكر أولا التمثيل بقوله (وكذلك أنزلنا إليك) ثم ذكر الجامع وهو المعجزة ، فقال ما علم كون تلك الكتب منزلة إلا بالمعجزة ، وهذا القرآن ممن لم يكتب ولم يقرأ عين المعجزة ، فيعرف كونه منزلا ، وقوله تعالى (إذن لارتاب المبطلون) فيه معنى لطيف ، وهو أن النبى إذا كان قارئاً كاتباً ما كان يوجب كون هذا الكلام كلامه ، فان جميع كتبة الأرض وقرائها لا يقدرون عليه ، لكن على ذلك التقدير يكون للمبطل وجه ارتياب ، وعلى ما هو عليه لا وجه لارتيابه فهو أدخل فى الإبطال وهذا كقوله تعالى (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله) أى من مثل محمد عليه السلام وكقوله (الم ذلك الكتاب لاريب فيه) .

ثم قال تعالى (بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم) قوله فى صدور الذين أوتوا العلم إشارة إلى أنه ليس من مخترعات الآدميين ، لأن من يكون له كلام مخترع يقول هذا من قلبى وخاطرى ، وإذا حفظه من غيره يقول إنه فى قلبى وصدرى ، فاذا قال (فى صدور الذين أوتوا العلم) لا يكون من صدر أحـــد منهم ، والجاهل يستحيل منه ذلك فلا ظهور له من الصدور ويلتحقون عند هذه الأمة بالمشركين ، فظهوره من الله .

ثم قال تعالى (وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون) قال ههنا الظالمون ، ومن قبل قال الكافرون ، مع أن الكافر ظالم ولا تنافى بين الكلامين وفيه فائدة ، وهى أنهم قبل بيـان المعجزة قيل لهم إن لـكم المزايا فلا تبطلوها بانكار محمد فتكونوا كافرين ، فلفظ الكافر هنـاك كان بليغاً يمنعهم من ذلك لاستنكافهم عن الكفر ، ثم بعد بيان المعجزة قال لهم إن جحدتم هذه الآية لزمكم إنكار إرسال الرسل فتلتحقون فى أول الأمر بالمشركين حكما ، وتلتحقون عند هذه الآية بالمشركين حقيقة فتكونوا ظالمين ، أى مشركين ، كما بينا أن الشرك ظلم عظيم ، فهذا اللفظ ههنا أبلغ وذلك اللفظ هناك أبلغ .

ثم قال تعالى : ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنانذير مبين ﴾

أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾

لما فرغ من ذكر دليل من جانب النبي عليه السلام ذكر شبهتهم وهى بذكر الفرق بين المقيس عليه والمقيس ، فقالوا إنك تقول إنه أنزل إليك كتاب كما أنزل إلى موسى وعيسى ، وليس كذلك لأن موسى أوتى تسع آيات علم بها كون الكتاب من عند الله وأنت ما أوتيت شيئاً منها ، ثم إن الله تعالى أرشد نبيه إلى أجوبة هذه الشبهة منها قوله (إنما الآيات عند الله) ووجهه أن النبي ﷺ ادعى الرسالة وليس من شرط الرسالة الآية المعجزة ، لأن الرسول يرسل أولا ويدعو إلى الله ، ثم إن توقف الخلق فى قبوله أو طلبوا منه دليلا ، فالله إن رحمهم بين رسالته وإن لم يرحمهم لا يبين ، فقال أنا الساعة رسول وأما الآية فالله إن أراد ينزلها وإن لم يرد لا ينزلها ، وهذا لأن ما هو من ضرورات الشئ إذا خلق الله الشئ لابد من أن يخلقها كالمكان من ضرورات الإنسان فلا يخلق الله إنساناً إلا ويكون قد خلق مكاناً أو يخلقه معه ، لكن الرسالة والمعجزة ليستا كذلك فالله إذا خلق رسولا وجعله رسولا ليس من ضروراته أن تعلم له معجزة ، ولهذا علم وجود رسل كشيث وإدريس وشعيب ولم تعلم لهم معجزة فإن قيل علم رسالتهم ، نقول من ثبتت رسالته بلا معجزة فنبينا كذلك لا حاجة له إلى معجزة لأن رسالته علمت بقول موسى وعيسى فتبين بطلان قولهم لم لم ينزل عليه آية ؟ وهذا لأنهم طلبوا سبق الآية وليست شرطاً حتى تسبقها ، بلى إن كان لهم سؤال فطريقه أن يقولوا يا أيها المدعى نحن لا نكذبك ولا نصدقك لكنا نريد أن يبين الله لنا آية تخلصنا من تصديق المتنبي وتكذيب النبي . ونعلم بها كونك نبياً ونؤمن بك . فبعد ذلك ما كان يبعد من رحمة الله أن ينزل آية .

ثم قوله (وإنما أنا نذير مبين) معناه أن الآية عند الله ينزلها أو لا ينزلها لا تتعلق بى ما أنا إلا نذير وليس لى عليه حكم بشئ ثم إنه بعد بيان فساد شبهتهم من وجه بين فسادها من وجه آخر ، وقال هب أن إنزال الآية شرط لكنه وجد وهو فى نفس الكتاب .

قوله تعالى : ﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ، قل كفى بالله بينى وبينكم شهيداً يعلم مافى السموات والأرض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون ﴾

فقال تعالى (أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) يعنى إن كان إنزال الآية شرطاً

فلا يشترط إلا إنزال آية وقد أنزل وهو القرآن فإنه معجزة ظاهرة باقية وقوله (أو لم يكفهم) عبارة تنبيء عن كون القرآن آية فوق الكفاية ، وذلك لأن القائل إذا قال أما يكفي للمسيء أن لا يضرب حتى يتوقع الإكرام ينبيء عن أن ترك الضرب في حقه كثير فكذلك قوله (أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب) وهذا لأن القرآن معجزة أتم من كل معجزة تقدمتها لوجوه : (أحدها) أن تلك المعجزات وجدت وما دامت فان قلب العصا ثعباناً وإحياء الميت لم يبق لنا منه أثر ، فلو لم يكن واحد يؤمن بكتب الله ويكذب بوجود هذه الأشياء لا يمكن إثباتها معه بدون الكتاب ، وأما القرآن فهو باق لو أنكره واحد فنقول له فأت بآية من مثله (الثاني) هو أن قلب العصا ثعباناً كان في مكان واحد ولم يره من لم يكن في ذلك المكان ، وأما القرآن فقد وصل إلى المشرق والمغرب وسمعه كل أحد ، وههنا لطيفة وهي أن آيات النبي عليه السلام كانت أشياء لا تختص بمكان دون مكان لأن من جملتها انشقاق القمر وهو يعم الأرض ، لأن الخسوف إذا وقع عم وذلك لأن نبوته كانت عامة لا تختص بقطر دون قطر وغاضت بحيرة ساوة في قطر وسقط ايوان كسرى في قطر وانهدت الكنيسة بالروم في قطر آخر إعلاماً بأنه يكون أمر عام (الثالث) هو أن غير هذه المعجزة الكافر المعاند يقول إنه سحر عمل بدواء ، والقرآن لا يمكن هذا القول فيه .

ثم إنه تعالى قال (إن في ذلك لرحمة) إشارة إلى أنا جعلناه معجزة رحمة على العباد ليعلموا بها الصادق ، وهذا لأنا بينا أن إظهار المعجزة على يد الصادق رحمة من الله ، وكان له أن لا يظهر فيبقى الخلق في ورطة تكذيب الصادق أو تصديق الكاذب ، لأن النبي لا يتميز عن المتنبي لولا المعجزة ، لكن الله له ذلك يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد وقوله (وذكرى) إشارة إلى أنه معجزة باقية يتذكر بها كل من يكون ما بقي الزمان .

ثم قال تعالى (لقوم يؤمنون) يعني هذه الرحمة مختصة بالمؤمنين لأن المعجزة كانت غضباً على الكافرين لأنها قطعت أعذارهم وعطلت إنكارهم .

ثم قال تعالى (قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً) لما ظهرت رسالته وبهرت دلالته ولم يؤمن به المعاندون من أهل الكتاب قال كما يقول الصادق إذا كذب وأتى بكل ما يدل على صدقه ولم يصدق الله يعلم صدقي وتكذيبك أيها المعاند وهو على ما أقول شهيد يحكم بيني وبينكم ،كل ذلك إنذار وتهديد يفيده تقريراً وتأكيداً ،ثم بين كونه كافياً بكونه عالماً بجميع الأشياء . فقال (يعلم ما في السموات والأرض) وههنا مسألة : وهي أن الله تعالى قال في آخر الرعد (ويقول الذين كفروا لست مرسلا قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب) فأخر شهادة أهل الكتاب ، وفي هذه السورة قدمها حيث قال (فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به) ومن هؤلاء من يؤمن به أي من أهل الكتاب فنقول الكلام هناك مع المشركين ، فاستدل عليهم بشهادة غيرهم ثم

إن شهادة الله أقوى فى إلزامهم من شهادة غيرالله ، وههنا الكلام مع أهل الكتاب . وشهادة المرء على نفسه هو إقراره وهو أقوى الحجج عليه فقدم ما هو ألزم عليهم .

ثم إنه تعالى لما بين الطريقين فى إرشاد الفريقين المشركين وأهل الكتاب عاد إلى الكلام الشامل لهما والانذار العام فقال تعالى (والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون) أى الذين آمنوا بما سوى الله لأن ماسوى الله باطل لأنه هالك بقوله (كل شئ هالك إلا وجهه) وكل ماهلك فقد بطل فكل هالك باطل وكل ما سوى الله باطل ، فمن آمن بما سوى الله فقد آمن بالباطل ، وفيه مسائل :

﴿ الأولى ﴾ قوله (أولئك هم الخاسرون) يقتضى الحصر أى من أتى بالإيمان بالباطل والكفر بالله فهو خاسر فمن يأتى بأحدهما دون الآخر ينبغى أن لا يكون خاسراً فنقول يستحيل أن يكون الآتى بأحدهما لا يكون آتياً بالآخر ، أما الآتى بالايمان بما سوى الله فلأنه أشرك بالله فجعل غير الله مثل غيره لكن غيره عاجز جاهل ممكن باطل فيكون الله كذلك فيكون إنكاراً لله وكفراً به ، وأما من كفر به وأنكره فيكون قائلا بأن العالم ليس له إله موجد فوجود العالم من نفسه ، فيكون قائلا بأن العالم واجب والواجب إله ، فيكون قائلا بأن غير الله إله فيكون إثباتاً لغير الله وإيماناً به .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إذا كان الإيمان بما سوى الله كفراً به ، فيكون كل من آمن بالباطل فقد كفر بالله ، فهل لهذا العطف فائدة غير التأكيد الذى هو فى قول القائل قم ولا تقعد واقرب منى ولا تبعد ؟ نقول نعم فيه فائدة غيرها ، وهو أنه ذكر الثانى لبيان قبح الأول كقول القائل أتقول بالباطل وتترك الحق لبيان أن القول باطل قبيح .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ هل يتناول هذا أهل الكتاب أى هل هم آمنوا بالباطل وكفروا بالله ؟ نقول نعم ، لأنهم لما صح عندهم أن معجزة النبى من عند الله وقطعوا بها وعاندوا وقالوا إنها من عند غير الله ، يكون كمن رأى شخصاً يرمى حجارة ، فقال إن رامى الحجارة زيد يقطع بأنه قائل بأن هذا الشخص زيد حتى لو سئل عن عين ذلك الشخص وقيل له من هذا الرجل يقول زيد ، فكذلك هم لما قطعوا بأن مظهر المعجزة هو الله وقالوا بأن محمداً مظهر هذا يلزمهم أن يقولوا محمد هو الله تعالى فيكون إيماناً بالباطل ، وإذا قالوا بأن من أظهر المعجزة ليس بإله مع أنهم قطعوا بخصوص مظهر المعجزة يكونون قائلين بأن ذلك المخصوص الذى هو الله ليس بإله فيكون كفراً به ، وهذا لا يرد علينا فيمن يقول . فعل العبد مخلوق الله تعالى أو مخلوق العبد ، فانه أيضاً ينسب فعل الله إلى الغير ، كما أن المعجزة فعل الله وهم نسبوها إلى غيره لأن هذا القائل جهل النسبة ، كمن يرى حجارة رميت ولم ير عين راميها ، فيظن أن راميها زيد فيقول زيد هو رامى هذه الحجارة ، ثم إذا رأى راميها بعينه ويكون غير زيد لا يقطع بأن يقول هو زيد ، وأما إذا رأى عينه ورميه للحجارة وقال رامى الحجارة زيد ، يقطع بأنه يقول هذا الرجل زيد فظهر الفرق من

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾

حيث إنهم كانوا معاندين عالمين بأن الله مظهر تلك المعجزة ، ويقولون بأنها من عند غير الله .

ثم قوله (هم الخاسرون) كذلك بأتم وجوه الخسران ، وهذا لأن من يخسر رأس المال ولا تركبه ديون يطالب بها دون من يخسر رأس المال وتركبه تلك الديون ، فهم لما عبدوا غير الله أفنوا العمر ولم يحصل لهم فى مقابلته شىء ما أصلا من المنافع ، واجتمع عليهم ديون ترك الواجبات يطالبون بها حيث لا طاقة لهم بها .

ثم قال تعالى : ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لايشعرون ﴾ .

لما أنذرهم الله بالخسران وهو أتم وجوه الإنذار لأن من خسر لايحصل له فى مقابلة قدر الخسران شىء من المنافع وإلا لما كان الخسران ذلك القدر بل دونه ، مثاله إذا خسر واحد من العشرة درهماً لا ينبغى أن يكون حصل له فى مقابلة الدرهم مايساوى نصف درهم ، وإلا لايكون الخسران درهما بل نصف درهم ، فإذن هم لما خسروا أعمارهم لاتحصل لهم منفعة تخفيف عذاب وإلا يكون ذلك القدر من العمر له منفعة فيكون للخاسر عذاب أليم ، فقوله (وأولئك هم الخاسرون) تهديد عظيم فقالوا إن كان علينا عذاب فأتنا به ، إظهاراً لقطعهم بعدم العذاب ، ثم إنه أجاب بأن العذاب لا يأتيكم بسؤالكم ولا يعجل باستعجالكم ، لأنه أجله الله لحكمة ورحمة فلكونه حكيما لا يكون متغيراً منقلباً ، ولكونه رحيما لا يكون غضوباً منزعجاً ، ولولا ذلك الأجل المسمى الذى اقتضته حكمته وارتضته رحمته لما كان له رحمة وحكمة ، فيكون غضوباً منقلباً فيتأثر باستعجالكم ويتغير من سؤالكم فيعجل وليس كذلك فلا يأتيكم بالعذاب وأنتم تسألونه ولا يدفع عنكم العذاب حين تستعيذون به منه ، كما قال تعالى (كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها) .

ثم قال تعالى (وليأتينهم بغتة) اختلف المفسرون فيه ، فقال بعضهم ليأتينهم العذاب بغتة ، لأن العذاب أقرب المذكورين ، ولأن مسئولهم كان العذاب ، فقال إنه ليأتينهم ، وقال بعضهم ليأتينهم بغتة أى الأجل ، لأن الآتى بغتة هو الأجل وأما العذاب بعد الأجل يكون معاينة ، وقد ذكرنا أن فى كون العذاب أو الأجل آتياً بغتة حكمة ، وهى أنه لو كان وقته معلوماً ، لكان كل أحد يتكل على بعده وعلمه بوقته فيفسق ويفجر معتمداً على التوبة قبل الموت .

وقوله تعالى (وهم لايشعرون) يحتمل وجهين (أحدهما) تأكيد معنى قوله بغتة كما يقول القائل أتيته على غفلة منه بحيث لم يدر ، فقوله بحيث لم يدر أكد معنى الغفلة (والثانى) هو كلام

يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾

يفيد فائدة مستقلة ، وهى أن العذاب يأتيهم بغتة وهم لايشعرون هذا الأمر ، ويظنون أن العذاب لايأتيهم أصلا .

ثم قال تعالى : ﴿ يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ ذكر هذا للتعجب ، وهذا لأن من توعد بأمر فيه ضرر يسير كلطمة أو لكمة ، فيرى من نفسه الجلد ويقول باسم الله هات ، وأما من توعد بإغراق أو إحراق ويقطع بأن المتوعد قادر لا يخلف الميعاد ، لايخطر ببال العاقل أن يقول له هات ما تتوعدنى به ، فقال ههنا (يستعجلونك بالعذاب) والعذاب بنار جهنم المحيطة بهم ، فقوله (ويستعجلونك) أولا إخبار عنهم وثانياً تعجب منهم ، ثم ذكر كيفية إحاطة جهنم ، فقال تعالى :

﴿ يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ الأولى ﴾ لم خص الجانبين بالذكر ولم يذكر اليمين والشمال وخلف وقدام ؟ فنقول لأن المقصود ذكر ما تتميز به نار جهنم عن نار الدنيا ونار الدنيا تحيط بالجوانب الأربع ، فان من دخلها تكون الشعلة خلفه وقدامه ويمينه ويساره وأما النار من فوق فلا تنزل وإنما تصعد من أسفل فى العادة العاجلة وتحت الأقدام لا تبقى الشعلة التى تحت القدم ، ونار جهنم تنزل من فوق ولا تنطفىء بالدوس موضع القدم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال (من فوقهم ومن تحت أرجلهم) ولم يقل من فوق رءوسهم ، ولا قال من فوقهم ومن تحتهم ، بل ذكر المضاف إليه عند ذكر تحت ولم يذكره عند ذكر فوق ، فنقول لأن نزول النار من فوق سواء كان من سمت الرءوس وسواء كان من موضع آخر عجيب ، فلهذا لم يخصه بالرأس ، وأما بقاء النار تحت القدم فحسب عجيب ، وإلا فمن جوانب القدم فى الدنيا يكون شعل وهى تحت فذكر العجيب وهو ماتحت الأرجل حيث لم ينطق بالدوس وما فوق على الإطلاق

ثم قال تعالى (ونقول ذوقوا ما كنتم تعملون) لما بين عذاب أجسامهم بين عذاب أرواحهم وهو أن يقال لهم على سبيل التنكيل والإهانة ذوقوا عذاب ما كنتم تعملون ، وجعل ذلك عين ما كانوا يعملون للمبالغة بطريق إطلاق اسم المسبب على السبب ، فإن عملهم كان سبباً لجعل الله إياه سبباً لعذابهم ، وهذا كثير النظير فى الاستعمال .

يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾

ثم قال تعالى : ﴿ ياعبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة فإياى فاعبدون ﴾ .

وجه التعلق هو أن الله تعالى لما ذكر حال المشركين على حدة وحال أهل الكتاب على حدة وجمعهما فى الإنذار وجعلهما من أهل النار اشتد عنادهم وزاد فسادهم وسعوا فى إيذاء المؤمنين ومنعوهم من العبادة فقال مخاطباً للمؤمنين (ياعبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة فإياى فاعبدون) إن تعذرت العبادة عليكم فى بعضها فهاجروا ولا تتركوا عبادتى بحال، وبهذا علم أن الجلوس فى دار الحرب حرام والخروج منها واجب ، حتى لو حلف بالطلاق أنه لا يخرج لزمه الخروج ، و [ر]دع حتى يقع الطلاق ثم فى الآية مسائل :

﴿ إحداها ﴾ (ياعبادى) لم يرد إلا المخاطبة مع المؤمنين مع أن الكافر داخل فى قوله (ياعبادى) نقول ليس داخلا فى قوله (ياعبادى) نقول ليس داخلا فيه لوجوه : (أحدها) أن من قال فى حقه (عبادى) ليس للشيطان عليهم سلطان بدليل قوله تعالى (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) والكافر تحت سلطنة الشيطان فلا يكون داخلا فى قوله (ياعبادى) (الثانى) هو أن الخطاب بعبادى أشرف منازل المكلف ، وذلك لأن الله تعالى لما خلق آدم آتاه اسماً عظيما وهو اسم الخلافة كما قال تعالى (إنى جاعل فى الأرض خليفة) والخليفة أعظم الناس مقداراً وأتم ذوى البأس اقتداراً ،ثم إن إبليس لم يرهب من هذا الاسم ولم ينهزم ، بل أقدم عليه بسببه وعاداه وغلبه كما قال تعالى (فأزلهما الشيطان) ثم إن من أولاده الصالحين من سمى بعبادى فانخنس عنهم الشيطان وتضاءل ، كما قال تعالى (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) وقال هو بلسانه (لأغوينهم أجمعين إلا عبادك) فعلم أن المكلف إذا كان عبداً لله يكون أعلى درجة مما إذا كان خليفة لوجه الأرض ولعل آدم كداود الذى قال الله تعالى فى حقه (إنا جعلناك خليفة فى الأرض) لم يتخلص من يد الشيطان إلا وقت ما قال الله تعالى فى حقه عبدى وعندما ناداه بقوله (ربنا ظلمنا أنفسنا) واجتباه بهذا النداء ، كما قال فى حق داود (واذكر عبدنا داود ذا الأيد) إذا علم هذا فالكافر لا يصلح للخلافة فكيف يصلح لما هو أعظم من الخلافة ؟ فلا يدخل فى قوله (ياعبادى) إلا المؤمن (الثالث) هو أن هذا الخطاب حصل للمؤمن بسعيه بتوفيق الله ، وذلك لأن الله تعالى (قال ادعونى أستجب لكم) فالمؤمن دعا ربه بقوله (ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا) فأجابه الله تعالى بقوله (ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) فالإضافة بين الله وبين العبد بقول العبد إلهى وقول الله عبدى تأكدت بدعاء العبد ، لكن الكافر لم يدع فلم يجب ، فلا يتناول ياعبادى غير المؤمنين .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إذا كان عبادى لا يتناول إلا المؤمنين فما الفائدة فى قوله (الذين آمنوا)

كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾

مع أن الوصف إنما يذكر لتمييز الموصوف ، كما يقال يا أيها المكلفون المؤمنون ، ويا أيها الرجال العقلاء تمييزاً عن الكافرين والجهال ، فنقول الوصف يذكر لا للتمييز بل لمجرد بيان أن فيه الوصف كما يقال الأنبياء المكرمون والملائكة المطهرون ، مع أن كل نبي مكرم وكل ملك مطهر ، وإنما يقال لبيان أن فيهم الإكرام والطهارة ، ومثل هذا قولنا الله العظيم وزيد الطويل ، فههنا ذكر لبيان أنهم مؤمنون .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إذ قال (ياعبادى) فهم يكونون عابدين فما الفائدة فى الأمر بالعبادة بقوله فاعبدون ؟ فنقول فيه فائدتان (إحداهما) المداومة أى يامن عبدتمونى فى الماضى اعبدونى فى فى المستقبل (الثانية) الإخلاص أى يامن تعبدنى أخلص العمل لى ولا تعبد غيرى .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ الفاء فى قوله (فاياى) تدل على أنه جواب لشرط فما ذلك؟ فنقول قوله (إن أرضى واسعة) إشارة إلى عدم المانع من عبادته فكأنه قال إذا كان لا مانع من عبادتى فاعبدونى ، وأما الفاء فى قوله تعالى (فاعبدون) فهو لترتيب المقتضى على المقتضى كما يقال هذا عالم فأكرموه فكذلك ههنا لما أعلم نفسه بقوله (فإياى) وهو لنفسه يستحق العبادة قال فاعبدون .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قال العبد مثل هذا فى قوله (إياك نعبد) وقال عقيبه (وإياك نستعين) والله تعالى وافقه فى قوله (فإياى فاعبدون) ولم يذكر الإعانة نقول بل هى مذكورة فى قوله (ياعبادى) لأن المذكور بعبادى لما كان الشيطان مسدود السبيل عليه مسدود القبيل عنه كان فى غاية الإعانة .

﴿ المسألة السادسة ﴾ قدم الله الإعانة وأخر العبد الاستعانة ، قلنا لأن العبد فعله لغرض وكل فعل لغرض ، فان الغرض سابق على الفعل فى الإدراك ، وذلك لأن من يبنى بيتاً للسكنى يدخل فى ذهنه أولا فائدة السكنى فيحمله على البناء ، لكن الغرض فى الوجود لا يكون إلا بعد فعل الواسطة ، فنقول الاستعانة من العبد لغرض العبادة فهى سابقة فى إدراكه ، وأما الله تعالى فليس فعله لغرض فراعى ترتيب الوجود ، فان الإعانة قبل العبادة .

ثم قال تعالى : ﴿ كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون ﴾ .

لما أمر الله تعالى المؤمنين بالمهاجرة صعب عليهم ترك الأوطان ومفارقة الإخوان ، فقال لهم إن ما تكرهون لابد من وقوعه (فان كل نفس ذائقة الموت) والموت مفرق الأحباب فالأولى أن يكون ذلك فى سبيل الله فيجازيكم عليه ، فان إلى الله مرجعكم ، وفيه وجه أرق وأدق ، وهو أن الله تعالى قال كل نفس إذا كانت غير متعلقة بغيرها فهى للموت ، ثم إلى الله ترجع فلا تموت كما قال تعالى (لايذوقون فيها الموت) إذا ثبت هذا فمن يريد ألا يذوق الموت لا يبقى مع نفسه فان

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾

النفس ذائقته بل يتعلق بغيره وذلك الغير إن كان غير الله فهو ذائق الموت ومورد الهلاك بقوله (كل نفس ذائقة الموت ، وكل شيء هالك إلا وجهه) فإذاً التعلق بالله يريح من الموت فقال تعالى (فإياى فاعبدون) أى تعلقوا بى ، ولا تتبعوا النفس فإنها ذائقة الموت (ثم إلينا ترجعون) أى إذا تعلقتم بى فموتكم رجوع إلى وليس بموت كما قال تعالى (ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء) وقال عليه السلام « المؤمنون لايموتون بل ينقلون من دار إلى دار » فعلى هذا الوجه أيضاً يتبين وجه التعلق .

ثم قال تعالى : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفاً تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين ﴾ .

بين ما يكون للمؤمنين وقت الرجوع اليه كما بين من قبل ما يكون للكافرين بقوله (وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) فبين أن للمؤمنين الجنان فى مقابلة ما أن للكافرين النيران ، وبين أن فيها غرفاً تجرى من تحتها الأنهار فى مقابلة ما بين أن تحت الكافرين النار ، وبين أن ذلك أجر عملهم بقوله تعالى (نعم أجر العاملين) فى مقابلة ما بين أن ما تقدم جزاء عمل الكفار بقوله (ذوقوا ما كنتم تعملون) ثم فى الآيتين اختلافات فيها لطائف منها أنه تعالى ذكر فى العذاب أن فوقهم عذاباً أى ناراً ، ولم يذكر ههنا فوقهم شيئاً ، وإنما ذكر ما فوق من غير إضافة وهو الغرف ، وذلك لأن المذكور فى الموضعين العقاب والثواب الجسمانيان ، لكن الكافر فى الدرك الأسفل من النار ، فيكون فوقه طبقات من النار ، فأما المؤمنون فيكونون فى أعلى عليين ، فلم يذكر فوقهم شيئاً إشارة إلى علو مرتبتهم وارتفاع منزلتهم .

وأما قوله تعالى (لهم غرف من فوقها غرف) لا ينافى لأن الغرف فوق الغرف لا فوقهم والنار فوق النار وهى فوقهم ، ومنها أن هناك ذكر من تحت أرجلهم النار ، وههنا ذكر من تحت غرفهم الماء ، وذلك لأن النار لا تؤلم إذا كانت تحت مطلقاً ما لم تكن فى مسامتة الأقدام ومتصلة بها ، أما إذا كان الشعلة مائلة عن سمت القدم وإن كانت تحتها ، أو تكون مسامتة ولكن تكون غير ملاصقة بل تكون أسفل فى وهدة لا تؤلم ، وأما الماء إذا كان تحت الغرفة فى أى وجه كان وعلى أى بعد كان يكون ملتذاً به ، فقال فى النار من تحت أرجلهم ليحصل الألم بها ، وقال ههنا من تحت الغرف لحصول اللذة به كيف كان ، ومنها أن هناك قال ذوقوا لإيلام قلوبهم بلفظ الأمر وقال ههنا (نعم أجر العاملين) لتفريغ قلوبهم لا بصيغة الأمر وذلك لأن لفظ الأمر يدل على انقطاع التعلق

ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾

بعده ، فان من قال لأجيره خذ أجرتك يفهم منه أن بذلك ينقطع تعلقه عنه ، وأما إذا قال ما أتم أجرتك عندى أو نعم مالك من الأجر يفهم منه أن ذلك عنده ولم يقل ههنا خذوا أجرتكم أيها العاملون وقال هناك (ذوقوا ما كنتم تعملون) فان قال قائل ذوقوا إذا كان يفهم منه الانقطاع فعذاب الكافر ينقطع ، قلنا ليس كذلك لأن الله إذا قال ذوقوا دل على أنه أعطاهم جزاءهم وانقطع ما بينه وبينهم لكن يبقى عليهم ذلك دائماً ولا ينقص ولا يزداد ، وأما المؤمن إذا أعطاه شيئاً فلا يتركه مع ما أعطاه بل يزيد له كل يوم فى النعم وإليه الاشارة بقوله (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) أى الذى يصل إلى الكافر يدوم من غير زيادة والذى يصل إلى المؤمن يزداد على الدوام ، وأما الخلود وإن لم يذكره فى حق الكافر لكن ذلك معلوم بغيره من النصوص .

ثم قال تعالى : ﴿ الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ﴾

ذكر أمرين الصبر والتوكل لأن الزمان ماض وحاضر ومستقبل لكن الماضى لاتدارك له ولا يؤمر العبد فيه بشىء ، بقى الحاضر واللائق به الصبر والمستقبل واللائق به التوكل ، فيصبر على ما يصيبه من الأذى فى الحال ، ويتوكل فيما يحتاج إليه فى الاستقبال .

واعلم أن الصبر والتوكل صفتان لا يحصلان إلا مع العلم بالله والعلم بما سوى الله ، فمن علم ما سواه علم أنه زائل فيهون عليه الصبر إذ الصبر على الزائل هين ، وإذا علم الله علم أنه باق يأتيه بأرزاقه فان فاته شىء فانه يتوكل على حى باق ، وذكر الصبر والتوكل ههنا مناسب ، فان قوله (ياعبادى) كان لبيان أنه لا مانع من العبادة ، ومن يؤذى فى بقعة فليخرج منها . فحصل الناس على قسمين قادر على الخروج وهو متوكل على ربه ، يترك الأوطان ويفارق الاخوان ، وعاجز وهو صابر على تحمل الأذى ومواظب على عبادة الله تعالى .

ثم قال تعالى ﴿ وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم ﴾

لما ذكر الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ذكر مايعين على التوكل وهو بيان حال الدواب التى لا تدخر شيئاً لغد . ويأتيها كل يوم برزق رغد . وفى الآية مسائل .

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى كأين لغات أربع [لا] غير هذه [و] كائن على وزن راع وكأين على وزن ريع وكى على دع ولم يقرأ إلا كأين وكائن قراءة ابن كثير .

﴿ المسألة الثانية ﴾ كأين كلمة مركبة من كاف التشبيه وأى التى تستعمل استعمال من وما ركبتا وجعل المركب بمعنى كم ، ولم تكتب إلا بالنون ليفصل بين المركب وغير المركب ، لأن كأى

يستعمل غير مركب كما يقول القائل رأيت رجلا لا كأى رجل يكون ، فقد حذف المضاف إليه ويقال رأيت رجلا لا كأى رجل، وحينئذ لايكون كأى مركباً ، فاذا كان كأى ههنا مركباً كتبت بالنون للتمييز كما تكتب معد يكرب و بعلبك موصولا للفرق . وكما تكتب ثمة بالهاء تمييزاً بينها و بين ثمت .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ كأين بمعنى كم لم تستعمل مع من إلا نادراً وكم يستعمل كثيراً من غير من ، يقال كم رجلا وكم من رجل ، وذلك لما بينا من الفرق بين كأين بمعنى كم وكأى التى ليست مركبة ، وذلك لأن كأى إذا لم تكن مركبة لا يجوز إدخال من بعدها إذ لا يقال رأيت رجلا لا كأى من رجل ، والمركبة بمعنى كم يجوز ذلك فيها فالتزم للفرق . قوله تعالى (لا تحمل رزقها) قيل لا تحمل لضعفها وقيل هى كالقمل والبرغوث والدود وغيرها وقيل لا تدخر (الله يرزقها وإياكم) بطريق القياس أى لا شك فى أن رزقها ليس إلا بالله فكذلك يرزقكم فتوكلوا ، فان قال قائل من قال بأن الله يرزق الدواب بل النبات فى الصحراء مسبب والحيوان يسعى إليه ويرعى ، فنقول الدليل عليه من ثلاثة أوجه نظراً إلى الرزق وإلى المرتزق وإلى مجموع الرزق والمرتزق، أما بالنظر إلى الرزق فلأن الله تعالى لو لم يخلق النبات لم يكن للحيوان رزق، وأما بالنظر إلى المرتزق فلأن الاغتذاء ليس بمجرد الابتلاع بل لا بد من تشبثه بالأعضاء حتى يصير الحشيش عظماً ولحماً وشحماً ، وما ذاك إلا بحكمة الله تعالى حيث خلق فيه جاذبة وماسكة وهاضمة ودافعة وغيرها من القوى و بمحض قدرة الله وإرادته فهو الذى يرزقها ، وأما بالنظر إلى المرتزق والرزق ، فلأن الله لو لم يهد الحيوان إلى الغذاء ليعرفه من الشم ما كان يحصل له اغتذاء ، ألا ترى أن من الحيوان ما لا يعرف نوعاً من أنواع الغذاء حتى يوضع فى فمه بالشدة ليذوق فيأكله بعد ذلك ، فان كثيراً ما يكون البعير لا يعرف الخبز ولا الشعير حتى يلقم مرتين أو ثلاثة فيعرفه فيأكله بعد ذلك ، فان قال قائل كيف يصح قياس الانسان على الحيوان فيما يوجب التوكل والحيوان رزقه لا يتعرض إليه إذا أكل منه اليوم شيئاً وترك بقية يجدها غداً ، ما مد إليه أحد يداً ، والانسان إن لم يأخذ اليوم لا يبقى له غداً شىء ؟ وأيضاً حاجات الانسان كثيرة فانه يحتاج إلى أجناس اللباس وأنواع الأطعمة ولا كذلك الحيوان وأيضاً قوت الحيوان مهيأ وقوت الانسان يحتاج إلى كلف كالزرع والحصاد والطحن والخبز فلو لم يجمعه قبل الحاجة ما كان يجده وقت الحاجة ، فنقول نحن لا نقول إن الجمع يقدح فى التوكل ، بل قد يكون الزارع الحاصد متوكلا والراكع الساجد غير متوكل ، لأن من يزرع يكون اعتماده على الله واعتقاده فى الله أنه إن كان يريد يرزق من غير زرع ، وإن كان يريد لا يرزق من ذلك الزرع فيعمل وقلبه مع الله هو متوكل حق التوكل ، ومن يصلى وقلبه مع ما فى يد زيد وعمرو هو غير متوكل. وأما قوله حاجات الإنسان كثيرة ، فنقول مكاسبه كثيرة أيضاً ، فانه يكتسب بيده كالخياط والنساج ، وبرجله كالساعى وغيره ، وبعينه كالناطور، وبلسانه كالحادى والمنادى ، وبفهمه كالمهندس والتاجر،

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٦١) ﴾

وبعلمه كالطبيب والفقيه ، وبقوة جسمه كالعتال والحمال ، والحيوان لامكاسب له ، فالرغيف الذى يحتاج إليه الإنسان غداً أو بعد غد ، بعيد أن لا يرزقه الله مع هذه المكاسب ، فهو أولى بالتوكل . وأيضاً الله تعالى خلق الإنسان بحيث يأتيه الرزق وأسبابه ، فان الله ملك الإنسان عمائر الدنيا وجعلها بحيث تدخل فى ملكه شاء أم أبى ، حتى أن نتاج الأنعام وثمار الأشجار تدخل فى الملك وإن لم يرده مالك النعم والشجر ، وإذا مات قرن ينتقل ذلك إلى قرن آخر قهراً شاؤا أم أبوا ، وليس كذلك حال الحيوان أصلا ، فان الحيوان إن لم يأت الرزق لا يأتيه رزقه ، فاذن الإنسان لو توكل كان أقرب إلى العقل من توكل الحيوان ، ثم قال (وهو السميع العليم) سميع إذا طلبتم الرزق ، يسمع ويجيب ، عليم إن سكتم ، لا تخفى عليه حاجتكم ومقدار حاجتكم .

ثم قال تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون ﴾ .

نقول لما بين الله الأمر للمشرك مخاطباً معه ولم ينتفع به وأعرض عنه وخاطب المؤمن بقوله (ياعبادى الذين آمنوا) وأتم الكلام معه ذكر معه ما يكون إرشاداً للمشرك بحيث يسمعه وهذا طريق فى غاية الحسن ، فان السيد إذا كان له عبدان ، أو الوالد إذا كان له ولدان وأحدهما رشيد والآخر مفسد ، ينصح أولا المفسد ، فان لم يسمع يقول معرضاً عنه ، ملتفتاً إلى الرشيد ، إن هذا لا يستحق الخطاب فاسمع أنت ولا تكن مثل هذا المفسد ، فيتضمن هذا الكلام نصيحة المصلح وزجر المفسد ، فان قوله هذا لا يستحق الخطاب يوجب نكاية فى قلبه ، ثم إذا ذكر مع المصلح فى أثناء الكلام والمفسد يسمعه ، إن هذا أخاك العجب منه أنه يعلم قبح فعله ويعرف الفساد من الصلاح وسبيل الرشاد والفلاح ويشتغل بضده ، يكون هذا الكلام أيضاً داعياً له إلى سبيل الرشاد مانعاً له من ذلك الفساد ، فكذلك الله تعالى قال مع المؤمن العجب منهم أنهم إن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ثم لا يؤمنون ، وفى الآية لطائف (إحداها) ذكر فى السموات والأرض الخلق ، وفى الشمس والقمر التسخير ، وذلك لأن مجرد خلق الشمس والقمر ليس حكمة ، فان الشمس لو كانت مخلوقة بحيث تكون فى موضع واحد لا تتحرك ماحصل الليل والنهار ولا الصيف ولا الشتاء ، فاذاً الحكمة فى تحريكهما وتسخيرهما (الثانية) فى لفظ التسخير ، وذلك لأن التحريك يدل على مجرد الحركة وليس مجرد الحركة كافياً ، لأنها لو كانت تتحرك مثل حركتنا لما كانت تقطع الفلك بألوف من السنين ، فالحكمة فى تسخيرهما تحركهما فى قدر ما يتنفس الانسان

ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾

آلافاً من الفراسخ ، ثم لم يجعل لهما حركة واحدة بل حركات : إحداها حركتها من المشرق إلى المغرب فى كل يوم وليلة مرة ، والأخرى حركتها من المغرب الى المشرق ، والدليل عليها أن الهلال يرى فى جانب الغرب على بعد مخصوص من الشمس ، ثم يبعد منه إلى جانب الشرق حتى يرى القمر فى نصف الشهر فى مقابلة الشمس ، والشمس على أفق المغرب ، والقمر على أفق المشرق ، وحركة أخرى حركة الأوج وحركة المائل والتدوير فى القمر ، ولولا الحركة التى من المغرب إلى المشرق لما حصلت الفصول ، ثم اعلم أن أصحاب الهيئة قالوا الشمس فى الفلك مركوزة والفلك يديرها بدورانه وأنكره المفسرون الظاهريون ، ونحن نقول لا بعد فى ذلك إن لم يقولوا بالطبيعة ، فإن الله تعالى فاعل مختار إن أراد أن يحركهما فى الفلك والفلك ساكن يجوز ، وإن أراد أن يحركهما بحركة الفلك وهما ساكنان يجوز ولم يرد فيه نص قاطع أو ظاهر ، وسنذكر تمام البحث فى قوله تعالى (وكل فى فلك يسبحون) (الثالثة) ذكر أمرين أحدهما خلق السموات والأرض والآخر تسخير الشمس والقمر ، لأن الإيجاد قد يكون للذوات وقد يكون للصفات ، فخلق السموات والأرض إشارة إلى إيجاد الذوات ، وتسخير الشمس والقمر إشارة الى إيجاد الصفات وهى الحركة وغيرها ، فكأنه ذكر من القبيلين مثالين ، ثم قال تعالى (فأنى يؤفكون) يعنى هم يعتقدون هذا فكيف يصرفون عن عبادة الله ، مع أن من علمت عظمته وجبت خدمته ، ولا عظمة فوق عظمة خالق السموات والأرض ، ولا حقارة فوق حقارة الجماد ، لأن الجماد دون الحيوان ، والحيوان دون الانسان ، والانسان دون سكان السموات فكيف يتركون عبادة أعظم الموجودات ويشتغلون بعبادات أخس الموجودات .

ثم قال تعالى : ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شىء عليم ﴾

قوله تعالى (الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده) لما بين الخلق ذكر الرزق لأن كمال الخلق ببقائه وبقاء الانسان بالرزق ، فقال المعبود إما أن يعبد لاستحقاقه العبادة ، وهذه الأصنام ليست كذلك والله مستحقها ، وإما لكونه على الشأن والله الذى خلق السموات على الشأن جلى البرهان فله العبادة ، وإما لكونه ولى الاحسان والله يرزق الخلق فله الطول والاحسان والفضل والامتنان فله العبادة من هذا الوجه أيضاً وقوله (لمن يشاء) إشارة إلى كمال الاحسان ، وذلك لأن الملك إذا أمر الخازن باعطاء شخص شيئاً ، فاذا أعطاه يكون له منة ما يسيرة حقيرة ، لأن الآخذ يقول هذا ليس بإرادته وإنما هو بأمر الملك ، وأما إن كان مختاراً بأن قال له الملك إن شئت فأعطه وإن شئت فلا تعطه ، فإن أعطاه يكون له منة جليلة لا قليلة ، فقال الله تعالى الرزق منه وبمشيئته فهو إحسان تام يستوجب شكراً تاماً وقوله تعالى (ويقدر له) أى يضيق له إن أراد ، ثم قال تعالى

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾

وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟

(ان الله بكل شيء عليم) أى يعلم مقادير الحاجات ومقادير الأرزاق وفى إثبات العلم ههنا لطائف (إحداها) أن الرازق الذى هو كامل المشيئة إذا رأى عبده محتاجاً وعلم جوعه لا يؤخر عنه الرزق ، ولا يؤخر الرازق الرزق إلا لنقصان فى نفوذ مشيئته كالملك إذا أراد الاطعام والطعام لايكون بعد قد استوى ، أو لعدم علمه بجوع العبيد (الثانية) وهى أن الله باثبات العلم استوعب ذكر الصفات التى هى صفات الاله ومن أنكرها كفر وهى أربعة الحياة والقدرة والارادة والعلم وأما السمع والبصر والكلام القائم به من ينكرها يكون مبتدعاً لا كافراً ، وقد استوفى الأربع ، لأن قوله (خلق السموات والأرض) إشارة إلى كمال القدرة ، وقوله (يبسط الرزق لمن يشاء) إشارة الى نفوذ مشيئته وإرادته ، وقوله (إن الله بكل شيء عليم) إشارة إلى شمول علمه ، والقادر المريد العالم لايتصور إلا حياً ، ثم إنه تعالى لما قال (الله يبسط الرزق) ذكر اعترافهم بذلك . فقال :

﴿ ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله ، قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون ﴾

يعنى هذا سبب الرزق وموجد السبب موجد المسبب ، فالرزق من الله ، ثم قال تعالى (وقل الحمد لله) وهو يحتمل وجوهاً (أحدها) أن يكون كلاما معترضاً فى أثناء كلام كأنه قال : فأحيا به الأرض من بعد موتها (بل أكثرهم لا يعقلون) فذكر فى أثناء هذا الكلام (الحمد) لذكر النعمة ، كما قال القائل :

إن الثمانين وبلغتها قد أحوجت سمعى إلى ترجمان

(الثانى) أن يكون المراد منه كلاماً متصلا ، وهو أنهم يعرفون بأن ذلك من الله ويعترفون ولا يعملون بما يعلمون ، وأنت تعلم وتعمل فكذلك المؤمنون بك فقل الحمد لله وأكثرهم لايعقلون أن الحمد كله لله فيحمدون غير الله على نعمة هى من الله (الثالث) أن يكون المراد أنهم يقولون إنه من الله ويقولون بإلهية غير الله فيظهر تناقض كلامهم وتهافت مذهبهم (فقل الحمد لله) على ظهور تناقضهم (وأكثرهم لايعقلون) هذا التناقض أو فساد هذا التناقض .

ثم قال تعالى : ﴿ وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهى الحيوان

يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾

لو كانوا يعلمون ﴾ .

لما بين أنهم يعترفون بكون الله هو الخالق وكونه هو الرزاق وهم يتركون عبادته ولا يتركونها إلا لزينة الحياة الدنيا بين أن ما يميلون إليه ليس بشيء بقوله (وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو) وفى الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ ما الفرق بين اللهو واللعب ، حتى يصح عطف أحدهما على الآخر ؟ فنقول الفرق من وجهين (أحدهما) أن كل شغل يفرض ، فان المكلف إذا أقبل عليه لزمه الإعراض عن غيره ومن لايشغله شأن عن شأن هو الله تعالى ، فالذى يقبل على الباطل للذة يسيرة زائلة فيه يلزمه الاعراض عن الحق فالاقبال على الباطل لعب والاعراض عن الحق لهو ، فالدنيا لعب أى إقبال على الباطل ، ولهو أى إعراض عن الحق (الثانى) هو أن المشتغل بشيء يرجح ذلك الشيء على غيره لامحالة حتى يشتغل به ، فإما أن يكون ذلك الترجيح على وجه التقديم بأن يقول أقدم هذا وذلك الآخر آتى به بعده أو يكون على وجه الاستغراق فيه والاعراض عن غيره بالكلية فالأول لعب والثانى لهو ، والدليل عليه هو أن الشطرنج والحمام وغيرهما مما يقرب منهما لاتسمى آلات الملاهى فى العرف ، والعود وغيره من الأوتار تسمى آلات الملاهى لأنها تلهى الانسان عن غيرها لما فيها من اللذة الحالية ، فالدنيا للبعض لعب يشتغل به ويقول بعد هذا الشغل أشتغل بالعبادة والآخرة ، وللبعض لهو يشتغل به وينسى الآخرة بالكلية .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الله تعالى فى سورة الأنعام (وما الحياة الدنيا) ولم يقل وما هذه الحياة وقال ههنا (وما هذه) فنقول لأن المذكور من قبل ههنا أمر الدنيا ، حيث قال تعالى (فأحيا به الأرض من بعد موتها) فقال هذه والمذكور قبلها هناك الآخرة حيث قال (ياحسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم) فلم تكن الدنيا فى ذلك الوقت فى خاطرهم فقال (وما الحياة الدنيا) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال هناك (إلا لعب ولهو) وقال ههنا (الا لهو ولعب) فنقول لما كان المذكور هناك من قبل الآخرة وإظهارهم للحسرة ، ففى ذلك الوقت يبعد الاستغراق فى الدنيا بل نفس الاشتغال بها فأخر الأبعد ، وأما ههنا لما كان المذكور من قبل الدنيا وهى خداعة تدعو النفوس إلى الاقبال عليها والاستغراق فيها ، اللهم إلا لمانع يمنعه من الاستغراق فيشتغل بها من غير استغراق فيها ، ولعاصم يعصمه فلا يشتغل بها أصلا ، فكان ههنا الاستغراق أقرب من عدمه فقدم اللهو .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال هناك (وللدار الآخرة خير) وقال ههنا (وإن الدار الآخرة

فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾

لهى الحيوان) فنقول لما كان الحال هناك حال إظهار الحسرة ماكان المكلف يحتاج إلى رادع قوى فقال الآخرة خير ، ولما كان ههنا الحال حال الاشتغال بالدنيا احتاج إلى رادع قوى فقال لاحياة إلا حياة الآخرة ، وهذا كما أن العاقل إذا عرض عليه شيئان فقال فى أحدهما هذا خير من ذلك يكون هذا ترجيحاً لحسب ، ولو قال هذا جيد وهذا الآخر ليس بشىء يكون ترجيحاً مع المبالغة فكذلك ههنا بالغ لكون المكلف متوغلا فيها .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قال هناك (خير للذين يتقون) ولم يقل ههنا إلا لهى الحيون ، لأن الآخرة خير للتق لحسب أى المتق عن الشرك ، وأما الكافر فالدنيا جنته فهى خير له من الآخرة ، وأما كون الآخرة باقية فيها الحياة الدائمة فلا يختص بقوم دون قوم .

﴿ المسألة السادسة ﴾ كيف أطلق الحيوان على الدار الآخرة مع أن الحيوان نام مدرك ؟ فنقول الحيوان مصدر حى كالحياة لكن فيها مبالغة ليست فى الحياة والمراد بالدار الآخرة هى الحياة الثانية ، فكأنه قال الحياة الثانية هى الحياة المعتبرة أو نقول لما كانت الآخرة فيها الزيادة والنمو كما قال تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) وكانت هى محل الادراك التام الحق كما قال تعالى (يوم تبلى السرائر) أطلق عليها الاسم المستعمل فى النامى المدرك .

﴿ المسألة السابعة ﴾ قال فى سورة الأنعام (أفلا تعقلون) وقال ههنا (لو كانوا يعلمون) وذلك لأن المثبت هناك كون الآخرة خيراً وأنه ظاهر لا يتوقف إلا على العقل والمثبت ههنا أن لاحياة إلا حياة الآخرة ، وهذا دقيق لا يعرف إلا بعلم نافع .

ثم قال تعالى ﴿ فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾

إشارة إلى أن المانع من التوحيد هو الحياة الدنيا ، وبيان ذلك هو أنهم إذا انقطع رجاؤهم عن الدنيا رجعوا إلى الفطرة الشاهدة بالتوحيد ووحدوا وأخلصوا ، فإذا أنجاهم وأرجاهم عادوا إلى ما كانوا عليه من حب الدنيا وأشركوا .

ثم قال تعالى ﴿ ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون ﴾ وفيه وجهان : (أحدهما) أن اللام لام كى ، أى يشركون ليكون إشراكهم كفراً بنعمة الإنجاء ، وليتمتعوا بسبب الشرك فسوف يعلمون بوبال عملهم حين زوال أملهم (والثانى) أن تكون اللام لام الأمر ويكون المعنى ليكفروا على التهديد ، كما قال تعالى (اعملوا ما شئتم) وكما قال (اعملوا على مكانتكم إنى عامل

أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾

فسوف تعلمون) فساد ما تعملون .

ثم قال تعالى : ﴿ أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمنا ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمت الله يكفرون ﴾ .

التفسير ظاهر ، وإنما الدقيق وجه تعلق الآية بما قبلها ، فنقول الانسان فى البحر يكون على أخوف ما يكون وفى بيته يكون على آمن ما يكون لاسيما إذا كان بيته فى بلد حصين فلما ذكر الله المشركين حالهم عند الخوف الشديد ورأوا أنفسهم فى تلك الحالة راجعة الى الله تعالى ذكرهم حالهم عند الأمن العظيم وهى كونهم فى مكة فإنها مدينتهم وبلدهم وفيها سكناهم ومولدهم ، وهى حصين بحصن الله حيث كل من حولها يمتنع من قتال من حصل فيها ، والحصول فيها يدفع الشرور عن النفوس ويكفها يعنى أنكم فى أخوف ما كنتم دعوتم الله وفى آمن ماحصلتم عليه كفرتم بالله ، وهذا متناقض لأن دعاءكم فى ذلك الوقت على سبيل الاخلاص ما كان إلا لقطعكم بأن النعمة من الله لاغير فهذه النعمة العظيمة التى حصلت وقد اعترفتم بأنها لاتكون إلا من الله كيف تكفرون بها ؟ والأصنام التى قطعتم فى حال الخوف أن لا أمن منها كيف آمنتم بها فى حال الأمن ؟ .

ثم قال تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بالحق لما جاءه أليس فى جهنم مثوى للكافرين ﴾ .

لما بين الله الأمور على الوجه المذكور ولم يؤمن به أحد بين أنهم أظلم من يكون ، لأن الظلم على ما بين وضع الشىء فى غير موضعه ، فاذا وضع واحد شيئاً فى موضع ليس هو موضعه يكون ظالماً فاذا وضعه فى موضع لايمكن أن يكون ذلك موضعه يكون أظلم لأن عدم الامكان أقوى من عدم الحصول ، لأن كل ما لا يمكن لايحصل وليس كل مالايحصل لايمكن ، فالله تعالى لايمكن أن يكون له شريك وجعلوا له شريكا فلو كان ذلك فى حق ملك مستقل فى الملك لكان ظلماً يستحق من الملك العقاب الأليم فكيف إذا جعل الشريك لمن لايمكن أن يكون له شريك ، وأيضاً من كذب صادقاً يجوز عليه الكذب يكون ظلماً فمن يكذب صادقاً لا يجوز عليه الكذب كيف يكون حاله؟ فاذا ليس أظلم ممن يكذب على الله بالشرك ويكذب الله فى تصديق نبيه والنبى فى رسالة ربه والقرآن المنزل من الله إلى الرسول ، والعجب من المشركين أنهم قبلوا المتخذ من خشب منحوت

وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

بالالهية ، ولم يقبلوا ذا حسب منعوت بالرسالة ، والآية تحتمل وجهاً آخر وهو أن الله تعالى لما بين التوحيد والرسالة والحشر وقرره ووعظ وزجر قال لنبيه ليقول للناس (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً)أى إنى جئت بالرسالة وقلت إنها من الله وهذا كلام الله ، وأنتم كذبتمونى فالحال دائر بين أمرين ، أما أنا مفتر متنبىء ان كان هذا من عند غير الله أو أنتم مكذبون بالحق إن كان من عنده لكنى معترف بالعذاب الدائم عارف به فلا أقدم على الافتراء لأن (جهنم مثوى للكافرين) والمتنبىء كافر، وأنتم كذبتمونى فجهنم مثواكم إذ هى مثوى للكافرين ، وهذا حينئذ يكون كقوله تعالى (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) .

ثم قال تعالى : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهديهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾ .

لما فرغ من التقرير والتقريع ولم يؤمن الكفار سلى قلوب المؤمنين بقوله (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) أى من جاهد بالطاعة هداه سبل الجنه (وإن الله لمع المحسنين) إشارة إلى ماقال (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) فقوله (لنهدينهم) إشارة الى الحسنى وقوله (وإن الله لمع المحسنين) إشارة إلى المعية والقربة التى تكون للمحسن زيادة على حسناته ، وفيه وجه آخر حكمى وهو أن يكون المعنى (والذين جاهدوا فينا) أى الذين نظروا فى دلائلنا (لنهدينهم سبلنا) أى لنحصل فيهم العلم بنا . ولنبين هذا فضل بيان ، فنقول أصحابنا المتكلمون قالوا إن النظر كالشرط للعلم الاستدلالى والله يخلق فى الناظر علماً عقيب نظره ووافقهم الفلاسفة على ذلك فى المعنى وقالوا النظر معد للنفس لقبول الصورة المعقولة ، وإذا استعدت النفس حصل لها العلم من فيض واهب الصور الجسمانية والعقلية ، وعلى هذا يكون الترتيب حسناً ، وذلك لأن الله تعالى لما ذكر الدلائل ولم تفدهم العلم والايمان قال (إنهم لم ينظروا فلم يهتدوا وإنما هو هدى للمتقين) الذين يتقون التعصب والعناد فينظرون فيهديهم وقوله (وإن الله لمع المحسنين) إشارة الى درجة أعلى من الاستدلال كأنه تعالى قال من الناس من يكون بعيداً لا يتقرب وهم الكفار ، ومنهم من يتقرب بالنظر والسلوك فيهديهم ويقربهم ومنهم من يكون الله معه ويكون قريباً منه يعلم الأشياء منه ولا يعلمه من الأشياء ، ومن يكون مع الشيء كيف يطلبه فقوله (ومن أظلم) إشارة إلى الأول وقوله (والذين جاهدوا فينا) إشارة إلى الثانى وقوله (وإن الله لمع المحسنين) إشارة إلى الثالث .

والله أعلم بأسرار كتابه ، والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيدنا محمد النبى وآله وصحبه أجمعين.

سورة العنكبوت

مكيةٌ كلُّها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر. ومدنيةٌ كلُّها في أحد قولَي ابن عباس وقتادة. وفي القول الآخر لهما وهو قول يحيى بن سلَّام أنها مكيةٌ إلا عشر آيات من أولها، فإنها نزلت بالمدينة في شأن من كان من المسلمين بمكة. وقال علي بن أبي طالب ﷺ: نزلت بين مكة والمدينة(١). وهي تسعٌ وستون آية(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ﴾(٣) تقدَّم القولُ في أوائل السور. وقال ابن عباس: المعنى: أنا الله أعلم. وقيل: هو اسمٌ للسورة. وقيل: اسمٌ للقرآن.

﴿أَحَسِبَ﴾ استفهامٌ أُريدَ به التقرير والتوبيخ، ومعناه الظن(٤). ﴿أَن يُتْرَكُوٓاْ﴾ في موضع نصب بـ«حَسِبَ» وفيه وَصِلتُها مقامُ المفعولين على قول سيبويه. و«أَنَّ» الثانية من «أَن يَقُولُوا» في موضع نصبٍ على إحدى جهتين، بمعنى: لأَنْ يقولوا، أو: بأن يقولوا، أو: على أن يقولوا. والجهة الأخرى أن يكون على التكرير، والتقدير: ﴿الٓمٓ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ﴾ أحَسِبُوا ﴿أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾(٥). قال ابن عباس وغيره: يُريد بالناس قوماً من المؤمنين كانوا بمكة، وكان الكفار من قريشٍ يؤذونهم

(١) النكت والعيون ٢/ ٢٧٤.

(٢) الوسيط ٢/ ٤١٢ وتفسير البغوي ٣/ ٤٦٠ .

(٣) في (م) ذكرت الآية بتمامها، والمثبت من باقي النسخ.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٧٤ .

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٧ .

ويُعذِّبونهم على الإسلام، كسلمةَ بن هشام، وعيَّاش بن أبي ربيعة، والوليد بن الوليد، وعمّار بن ياسر، وياسرٍ أبيه، وسُمية أمِّه، وعدةٍ من بني مخزوم وغيرِهم، فكانت صدورهم تضيق لذلك، وربما استُنكِرَ أن يُمكنَ اللهُ الكفارَ من المؤمنين؛ قال مجاهدٌ وغيره: فنزلت هذه الآية مسلِّيةً ومعلِّمةً أن هذه هي سيرة الله في عباده اختباراً للمؤمنين وفتنة. قال ابن عطية[١]: وهذه الآية وإن كانت نزلت بهذا السبب أو ما في معناه من الأقوال، فهي باقيةٌ في أمة محمد ﷺ، موجودٌ حكمُها بقية الدهر، وذلك أنَّ الفتنةَ من الله تعالى باقيةٌ في ثغور المسلمين بالأسر ونكاية العدو وغير ذلك. وإذا اعتُبِرَ أيضاً كلُّ موضعٍ ففيه ذلك بالأمراض وأنواع المحن، ولكن التي تشبه نازلةَ المسلمين مع قريشٍ هي ما ذكرناه من أمر العدوِّ في كل ثغر.

قلت: ما أحسن ما قاله، ولقد صدق فيما قال ﷺ. وقال مقاتل: نزلت في مِهجَع مولى عمر بن الخطاب؛ كان أول قتيلٍ من المسلمين يوم بَدر، رماه عامر بن الحضرمي بسهمٍ فقتله، فقال النبيُّ ﷺ يومئذٍ: «سيدُ الشهداء مِهْجَع، وهو أوَّلُ من يُدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة». فجزع عليه أبواه وامرأته، فنزلت: ﴿الٓمٓ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ﴾[٢]. وقال الشَّعبي: نزل مُفتتحُ هذه السورة في أُناسٍ كانوا بمكة من المسلمين، فكتب إليهم أصحاب النبيِّ ﷺ من الحديبية أنه لا يُقبَلُ منكم إقرارُ الإسلام[٣] حتى تهاجروا، فخرجوا، فأتبعهم المشركون فآذوهم، فنزلت فيهم هذه الآية ﴿الٓمٓ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ﴾ فكتبوا إليهم: نزلت فيكم آية كذا. فقالوا: نخرج وإن اتبعنا أحدٌ قاتلناه. فاتبعهم المشركون فقاتلوهم، فمنهم من قُتِلَ، ومنهم من نجا، فنزل فيهم: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ﴾[٤].

---

(١) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٥ ، وما قبله منه ومن الوسيط٣/ ٤١٢ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٦٠ .

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٣٠ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٦٠ .

(٣) في النسخ سوى (م): إقرار ولا إسلام، والمثبت من (م) والمصادر.

(٤) أخرجه الطبري ١٨/ ٣٥٨-٣٥٩ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧١٣١) وهو تفسير البغوي ٣/ ٤٦٠ .

﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ يُمتحنون، أي: أظنَّ الذين جَزِعوا من أذى المشركين أن يُقنَع منهم أن يقولوا: إنَّا مؤمنون، ولا يُمتحنون في إيمانهم وأنفسهم وأموالهم بما يتبيّن به حقيقةُ إيمانهم[١]؟.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: ابتلينا الماضين، كالخليل أُلقي في النار، وكقومٍ نُشروا بالمناشير في دين الله فلم يرجعوا عنه[٢]. وروى البخاري[٣] عن خَبَّاب من الأرت: قالوا شكَونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسِّدٌ بردةً له في ظِلِّ الكعبة، فقلنا له: ألا تستنصِرُ لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان مَنْ قبلكم يُؤخَذُ الرجلُ فيُحفَرُ له في الأرض فيُجعَلُ فيها، فيُجاء بالمِنشارِ فيُوضَعُ على رأسه فيُجعَلُ نصفين، ويُمشَط بأمشاط الحديد لحمُه وعظمُه، فما يصرِفُه ذلك عن دينه، ولَيُتِمَّنَّ اللهُ[٤] هذا الأمرَ حتى يسيرَ الراكبُ من صنعاء إلى حَضرَمَوت لا يخافُ إلا الله والذئبَ على غنمه، ولكنَّكم تستعجِلون». وخرَّج ابن ماجه[٥] عن أبي سعيد الخدري قال: دخلتُ على النبيِّ ﷺ وهو يُوعَكُ، فوضعتُ يدي عليه، فوجدْتُ حرَّه بين يديَّ فوق اللِّحاف. فقلتُ: يا رسول الله، ما أشدَّها عليك! قال: «إنَّا كذلك يُضعَّفُ لنا البلاءُ ويُضعَّفُ لنا الأجر» قلت: يا رسول الله، أيُّ الناسِ أشدُّ بلاءً؟ قال: «الأنبياء» قلت: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «ثم الصالحون؛ أن كان أحدُهم ليُبتلى بالفقر حتى ما يجدَ إلاَّ العباءةَ يَجوبُها[٦]، وأن كان أحدُهم لَيفرحُ بالبلاء كما يَفرحُ أحدُكم بالرَّخاء». وروى سعد بن

(١) الوجيز للواحدي على هامش مراح لبيد ٢/ ١٥٢ .

(٢) الوسيط ٣/ ٤١٢-٤١٣ .

(٣) في صحيحه (٣٨٥٢)، وهو في مسند أحمد (٢١٠٥٧).

(٤) في النسخ: والله ليتمنَّ، والمثبت من صحيح البخاري.

(٥) في سننه (٤٠٢٤)، وهو في مسند أحمد (١١٨٩٣)، والأدب المفرد (٥١٠).

(٦) كذا في (م) وكذا ضبطها السندي في شرحه لابن ماجه ٢/ ٤٩٠ وقال: أي: يجعل لها جيباً. والذي في النسخ الخطية ومطبوع ابن ماجه «يُحوِّيها». والتَّحوية فيما ذكر ابن الأثير في النهاية (حوا): أن يُديرَ كساءً حول سنام البعير ثم يركبه. قلنا: وهذا لا يناسب المعنى، فلعله «يجوبها» كما في المسند ومطبوع الأدب المفرد، فيكون المعنى كما قال السندي في حاشيته على المسند: أي: يقطعها ليلبسها في عنقه.

أبي وقَّاصٍ قال: قلتُ: يا رسول الله، أيُّ الناس أشدُّ بلاءً؟ قال: «الأنبياء، ثم الأمثلُ فالأمثلُ، يُبتلى الرجلُ على حسب دينهِ، فإنْ كان في دينه صُلباً اشتدَّ بلاؤه، وإن كان في دينه رقَّةٌ ابتُلِيَ على حسب دينِه، فما يبرَحُ البلاءُ بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه من خطيئة»[١]. وروى عبد الرحمن بن زيد أنَّ عيسى عليه السلام كان له وزير، فركب يوماً، فأخذه السَّبُعُ فأكله، فقال عيسى: يا ربِّ وزيري في دينك، وعوني على بني إسرائيل، وخليفتي فيهم، سلَّطْتُ عليه كلباً فأكله. قال: «نعم، كانت له عندي منزلةٌ رفيعةٌ لم أجِدْ عملَه يبلغها فابتليته بذلك لأبلغه تلك المنزلة»[٢]. وقال وهب: قرأتُ في كتاب رجلٍ من الحواريِّين: إذا سُلِكَ بكَ سبيلُ البلاء فقرَّ عيناً، فإنه سُلِكَ بِكَ سبيلُ الأنبياء والصالحين، وإذا سُلِكَ بِكَ سبيلُ الرَّخاء فابْكِ على نفسك، فقد خُولِفَ بِكَ عن سبيلهم[٣].

قوله تعالى: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ أي: فليَرينَّ اللهُ الذين صدقوا في إيمانهم. وقد مضى هذا المعنى في «البقرة»[٤] وغيرها. قال الزجَّاج: ليعلمَ صدقَ الصادقِ بوقوعِ صدقِه منه، وقد عَلِمَ الصادقَ من الكاذبِ قبل أن يخلُقَهما، ولكنِ القصدُ قصدُ وقوعِ العلم بما يُجازى عليه[٥]. وإنما يعلم صدقَ الصادقِ واقعاً كائناً وقوعُه، وقد علِمَ أنه سيقع. وقال النحَّاس[٦]: فيه قولان: أحدهما ـ أن يكون «صَدَقُوا» مشتقًّا من الصِّدق و«الكاذبينَ» مشتقًّا من الكَذِب الذي هو ضِدُّ الصِّدق، ويكون المعنى: فلَيُبيِّنَنَّ اللهُ الذي صدقوا فقالوا: نحن مؤمنون واعتقدوا مثلَ ذلك، والذين كذبوا حين اعتقدوا غيرَ ذلك. والقول الآخر ـ أن يكون صدَقوا مشتقًّا من

---

(١) أخرجه أحمد (١٤٨١).

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٧/ ٤٠٧ .

(٣) أخرجه أحمد في الزهد ص٧١ .

(٤) ٣/ ١٤٠ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٦٠ .

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٢٤٧-٢٤٨ .

الصِّدق: وهو الصُّلب، والكاذبين مشتقًّا من كَذَّب إذا انهزم، فيكون المعنى: فليعلمَنَّ اللهُ الذي ثبتوا في الحرب والذين انهزموا، كما قال الشاعر:

لَيثٌ بِعَثَّرَ يصطادُ الرجالَ إذا ... ما اللَّيثُ كَذَّبَ عن أقرانِه صَدَقَا[1]

فجعل «لَيَعْلَمَنَّ» في موضع فليُبيِّننَّ مَجازاً.

وقراءة الجماعة: «فَلَيَعْلَمَنَّ» بفتح الياء واللام، وقرأ علي بن أبي طالب بضمِّ الياء وكسر اللام[2]، وهي تُبيِّنُ معنى ما قاله النحَّاس. ويَحتملُ ثلاثةَ معان: الأوَّل ـ أن يُعلِمَ في الآخرة هؤلاء الصادقين والكاذبين بمنازلهم من ثوابه وعقابه وبأعمالهم في الدنيا، بمعنى: يُوقفهم على ما كان منهم. الثاني ـ أن يكون المفعولُ الأوَّلُ محذوفاً تقديرُه: فليُعلمنَّ الناسَ والعالَمَ هؤلاء الصادقين والكاذبين، أي: يفضحهم ويشهرهم؛ هؤلاء في الخبر، وهؤلاء في الشر، وذلك في الدنيا والآخرة. الثالث ـ أن يكون ذلك من العلامة، أي: يضع لكلِّ طائفةٍ علامةً يشتهر بها. فالآية على هذا تنظر إلى قول النبيِّ ﷺ: «مَنْ أسرَّ سريرةً ألبَسَهُ اللهُ رداءَها»[3].

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: الشرك. ﴿أَن يَسْبِقُونَاۚ﴾ أي:

---

(١) قائله زهير، وهو في ديوانه ص٥٤ . عَثَّر: بلدٌ في اليمن. معجم البلدان ٤/ ٨٤ .

(٢) المحتسب ٢/ ١٥٩ ، والشاذة ص١١٤ عن علي والزهري. وفي زاد المسير ٦/ ٢٥٥ عن علي وجعفر بن محمد.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٦ . والحديث أخرجه الطبراني في الكبير (١٧٠٢)، وفي الأوسط (٧٩٠٢) من حديث جندب بن سفيان ﷺ، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٢٥ : فيه حامد بن آدم، وهو كذاب. وأخرجه الطبراني بنحوه ١٠/ ١٢٧ من حديث عثمان بن عفان ﷺ. وفي إسناده سليمان بن أرقم، وهو متروك. ميزان الاعتدال ٢/ ١٩٦ وقال العجلوني في كشف الخفا ٢/ ٣٥٠: قيل: ليس بحديث، لكن معناه صحيح .

يفوتونا ويعجزونا قبل أن نؤاخذهم بما يفعلون. قال ابن عباس: يريد الوليد بن المغيرة وأبا جهل والأسود والعاص بن هشام وشيبة وعتبة والوليد بن عتبة وعقبة بن أبي معيط وحنظلة بن أبي سفيان والعاص بن وائل[١]. ﴿مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: بئس الحكم ما حكموا في صفات ربهم أنه مسبوقٌ والله القادر على كلِّ شيء.

و«ما» في موضع نصب بمعنى ساء شيئاً أو حكماً يحكمون. ويجوز أن تكون «ما» في موضع رفعٍ بمعنى ساء الشيء، أو الحكمُ حكمُهم. وهذا قول الزجَّاج. وقدَّرها ابنُ كيسان تقديرين آخرين خلاف ذَينِكَ: أحدهما ـ أن يكون موضع «ما» [مع] «يَحْكُمُونَ» بمنزلة شيءٍ واحد، كما تقول: أعجبني ما صنعتَ، أي: صنيعُكَ، فـ«ما» والفعل مصدرٌ في موضع رفع، التقدير: ساء حُكمُهم. التقدير: ساء حُكمُهم. والتقدير الآخر أن تكون «ما» لا موضعَ لها من الإعراب، وقد قامت مقامَ الاسمِ لِساء، وكذلك نِعْمَ وبِئْسَ. قال أبو الحسن بن كَيْسان: وأنا أختار أن أجعل لـ«ما» موضعاً في كلِّ ما أقدِرُ عليه، نحو قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وكذا ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾ [المائدة: ١٣] وكذا ﴿أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ [القصص: ٢٨] «ما» في موضع خفضٍ في هذا كلِّه وما بعده تابعٌ لها، وكذا ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً﴾ [البقرة: ٢٦] «ما» في موضع نصبٍ و«بَعُوضَةً» تابعٌ لها[٢].

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ «يَرْجُو» بمعنى: يخاف، من قول الهُذَليِّ في وصف عَسَّال:

إذا لَسَعَتهُ النَّحلُ لم يَرْجُ لسعَها[٣]

وأجمع أهل التفسير على أنَّ المعنى: من كان يخافُ الموت فليعمل عملاً صالحاً

---

(١) الوسيط ٣/ ٤١٣ بنحوه.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٨، وما بين حاصرتين منه. وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٦٠.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٣٠٢. وهذا صدر لبيت قائله أبو ذؤيب الهذلي، وعجزه: وخالفَها في بيت نُوبٍ عواملِ. وقد سلف ٣/ ٤٣٣.

فإنه لابُدَّ أن يأتيه. ذكره النحّاس[١]. قال الزجّاج: معنى «يَرجُو لِقَاءَ الله» ثواب الله[٢]، و«من» في موضع رفعٍ بالابتداء و«كَانَ» في موضع الخبر، وهي في موضع جزم بالشرط، و«يَرْجُو» في موضع خبر كان، والمجازاة ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ أي: ومَنْ جاهد في الدِّين، وصبرَ على قتال الكفار وأعمال الطاعات، فإنما يسعى لنفسه، أي: ثوابُ ذلك كلُّه له، ولا يرجع إلى الله نفعٌ من ذلك. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: عن أعمالهم. وقيل: المعنى: مَنْ جاهدَ عدوَّه لنفسه لا يريد وجهَ اللهِ فليسَ لله حاجةٌ بجهاده.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: صدَّقوا. ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ أي: لنُغطِّينَّها عنهم بالمغفرة لهم. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: بأحسن أعمالهم وهو الطاعات. ثم قيل: يَحتمِلُ أن تُكفَّرَ عنهم كلُّ معصيةٍ عملوها في الشرك، ويُثابوا على ما عملوا من حسنةٍ في الإسلام[٤]. ويَحتمِلُ أن تُكفَّرَ عنهم سيئاتُهم في الكفر والإسلام، ويُثابوا على حسناتهم في الكفر والإسلام.

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًاۖ﴾ نزلت في سعد بن أبي وقَّاص فيما روى التِّرمذيُّ قال: أُنزلت فيَّ أربعُ آياتٍ فذكَر قصةً؛ فقالت أمُّ سعد: أليسَ قد أمرَ الله بالبرِّ؟! واللهِ لا أطعَمُ طعاماً، ولا أشربُ شراباً حتى أموتَ أو تكفر. قال: فكانوا إذا

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٢٤٩ .
(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٦٠ .
(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٩ .
(٤) مجمع البيان ٢٠/ ٣٤٠ .

أرادوا أن يُطعموها شَجَرُوا فَاها[١]، فنزلت هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ الآية. قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح[٢]. وَرُوِيَ عن سعدٍ أنه قال: كنتُ بارًّا بأمي فأسلمتُ، فقالت: لتدَعَنَّ دينَكَ أو لا آكلُ ولا أشربُ حتى أموتَ فتُعَيَّرَ بي، ويُقال: يا قاتِلَ أمِّه. وبقِيَتْ يوماً ويوماً فقلتُ: يا أمَّاه، لو كانت لكِ مئةُ نفس، فخرجتْ نفساً نفساً ما تركتُ ديني هذا، فإن شئتِ فكلي، وإن شئتِ فلا تأكلي. فلمَّا رأتْ ذلك أكلَتَ ونزلَتْ: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى﴾ الآية[٣]. وقال ابن عباس: نزلت في عيَّاش بن أبي ربيعة أخي أبي جهلٍ لأمِّه وقد فعلَتْ أمُّه مثلَ ذلك[٤]. وعنه أيضاً: نزلت في جميع الأمة؛ إذ لا يصبر على بلاء الله إلاَّ صِدِّيق.

و«حُسْنًا» نُصِبَ عند البصريين على التكرير، أي: ووصيناه حُسناً. وقيل: هو على القطع، تقديره: ووصيناه بالحُسن، كما تقول: وصَّيتُه خيراً، أي: بالخير. وقال أهل الكوفة: تقديره: ووصَّينا الإنسانَ أن يفعل حسناً فيُقدَّرُ له فعل. وقال الشاعر:

عَـجِـبـتُ مـن دَهْـمَـاءَ إذ تَـشـكـونـا ... ومـن أبـي دَهـمَـاءَ إذ يُـوصـيـنـا

خـيـراً بـهـا كـأنَّـمـا خـافـونـا

أي: يوصينا أن نفعلَ بها خيراً، كقوله: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًۢا﴾ [ص:٣٣] أي: يمسحُ مَسْحاً. وقيل: تقديره: ووصَّيناه أمراً ذا حُسنٍ، فأُقيمتِ الصِّفةُ مقامَ الموصوف، وحُذِفَ المضافُ وأُقيمَ المضافُ إليه مقامَه[٥]. وقيل: معناه: ألزمناه حسناً[٦].

(١) أي: أدخلوا في شَجْره عوداً حتى يفتحوه به، والشَّجْر: مفتح الفم. النهاية (شجر).

(٢) سنن الترمذي (٣١٨٩). وهو في مسند أحمد (١٦١٤)، وأخرجه مسلم بنحوه ٤/١٨٧٨ (٤٤).

(٣) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص٣٥٧ ، والوسيط ٣/ ٤١٤ ، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٠/ ٣٣١ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/٣٠٧ ، وزاد المسير ٦/٢٥٧ من غير نسبة. وساق القصة الطبرسي في مجمع البيان ٢٠/٣٣٩ عن الكلبي.

(٥) تفسير الطبري ١٨/ ٣٦٢ .

(٦) النكت والعيون ٤/٢٧٦ عن السدي.

وقراءة العامة: «حُسْناً» بضمِّ الحاء وإمكان السين. وقرأ أبو رجاء وأبو العالية والضحَّاك: بفتح الحاء والسين[1]. وقرأ الجحدري: «إحساناً» على المصدر، وكذلك في مصحف أُبيّ[2]، التقدير: ووصَّينا الإنسانَ أن يُحسنَ إليهما إحساناً[3]، ولا ينتصبُ بوصَّينا؛ لأنه قد استوفى مفعوليه.

﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ وعيدٌ في طاعة الوالدين في معنى الكفر. ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ كرَّر تعالى التمثيل بحالة المؤمنين العاملين لتحرُّكِ النفوس إلى نيل مراتبهم. وقوله: ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ مبالغةٌ على معنى: فالذين هم في نهاية الصلاح وأبعد غاياته. وإذا تحصَّلَ للمؤمن هذا الحكم تحصَّلَ ثمرتُه وجزاؤه وهو الجنة[4].

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ الآية نزلت في المنافقين كانوا يقولون: آمنَّا بالله ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ﴾ أي: أذاهم ﴿كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ في الآخرة، فارتدَّ عن إيمانه[5]. وقيل: جزِعَ من ذلك كما يجزَعُ من عذاب الله ولا يصبر على الأذيَّةِ في الله[6]. ﴿وَلَئِن جَاءَ﴾ المؤمنين ﴿نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ﴾ هؤلاء المرتدون: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ وهم كاذبون، فقال الله لهم: ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي

(١) الشاذة ص١١٤ عن عيسى والجحدري، وزاد المسير ٦/ ٢٥٦ عن ابن مسعود وأبي رجاء.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٨، وزاد المسير ٦/ ٢٥٦ ونسبها أيضاً إلى أبي مجلز، وهي قراءة شاذة.
(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٩.
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٨.
(٥) سيرد معناه قريباً عن الضحاك.
(٦) الوسيط ٣/ ٤١٤.

صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يعني: اللهُ أعلَمُ بما في صدورهم منهم بأنفسهم. وقال مجاهد: نزلت في ناسٍ كانوا يؤمنون بألسنتهم، فإذا أصابهم بلاءٌ من الله أو مصيبةٌ في أنفسهم افتُتِنوا[(١)]. وقال الضحَّاك: نزلت في ناسٍ من المنافقين بمكة كانوا يؤمنون، فإذا أُوذوا رجعوا إلى الشرك[(٢)]. وقال عكرمة: كان قومٌ قد أسلموا فأكرههم المشركون على الخروج معهم إلى بدر، فقُتِلَ بعضُهم، فأنزل الله: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النحل:٢٨] فكتبَ بها المسلمون من المدينة إلى المسلمين بمكة، فخرجوا، فلحِقَهم المشركون، فافتتنَ بعضهم، فنزلت هذه الآية فيهم[(٣)]. وقيل: نزلت في عيَّاش ابن أبي ربيعة؛ أسلم وهاجر، ثم أوذي وضُرِبَ، فارتَدَّ. وإنما عذَّبه أبو جهل والحارث وكانا أخويه لأمه. قال ابن عباس: ثم عاش بعد ذلك بدهرٍ وحَسُنَ إسلامه[(٤)]. ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ قال قتادة: نزلت في القوم الذين ردَّهم المشركون إلى مكة[(٥)].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا﴾ أي: ديننا. ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ جزمٌ على الأمر[(٦)]. قال الفرَّاء والزجَّاج: هو أمرٌ في تأويل

---

(١) أخرجه الطبري ١٨/ ٣٦٥ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧١٧١)، وهو في تفسير البغوي ٣/ ٤٦٢ ، وزاد المسير ٦/ ٢٥٩ .

(٢) أخرجه الطبري ٨/ ٣٦٥ ، وهو في زاد المسير ٦/ ٢٥٩ ، ومجمع البيان ٢٠/ ٣٣٩ .

(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٩٥-٩٦ عن عكرمة . وأخرجه الطبري ١٨/ ٣٦٦ ، وابن أبي حاتم (١٧١٧٠) عن عكرمة عن ابن عباس.

(٤) زاد المسير ٦/ ٢٥٩ ، ومجمع البيان ٢٠/ ٣٣٩ .

(٥) أخرجه الطبري ١٨/ ٣٦٦ ، وهو في تفسير البغوي ٣/ ٤٦٢ ، ومجمع البيان ٢/ ٣٣٩ .

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٤٦٢ .

الشرط والجزاء، أي: إن تتَّبعوا سبيلَنا نحمِلْ خطاياكم، كما قال:

فـقـلـتُ ادعِـي وأدعُ إنَّ أنـدَى لِـصَـوتٍ أن يُـنَـاديَ داعـيـانِ(١)

أي: إن دعوتِ دعوتُ(٢). قال المهدويّ: وجاء وقوع ﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ بعدَه على الحمل على المعنى؛ لأنَّ المعنى: إن اتبعتم سبيلنا حملنا خطاياكم. فلما كان الأمر يرجع في المعنى إلى الخبر وقع عليه التكذيب كما يوقع عليه الخبر. قال مجاهد: قال المشركون من قريش: نحن وأنتم لا نُبعَثُ، فإن كان عليكم وزرٌ فعلينا. أي: نحن نحمل عنكم ما يلزمكم(٣). والحمل هاهنا بمعنى الحَمالة لا الحمل على الظهر. ورُوي أنَّ قائل ذلك الوليدُ بن المغيرة(٤).

﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ يعني: ما يحمل عليهم من سيئات من ظلموه بعد فراغ حسناتهم. روي معناه عن النبيّ ﷺ، وقد تقدَّم في «آل عمران»(٥). قال أبو أمامة الباهلي: «يُؤتى بالرجل يومَ القيامة وهو كثير الحسنات، فلا يزالُ يقتَصُّ منه حتى تفنى حسناتُه، ثم يُطالبُ فيقول الله عزَّ وجلَّ: اقتصُّوا من عبدي. فتقول الملائكة: ما بَقِيَتْ له حسناتٌ. فيقول: خُذوا من سيئات المظلوم فاجعلوا عليه» ثم تلا رسولُ الله ﷺ: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾. وقال قتادة: من دعا إلى ضلالةٍ كان عليه وزْرُها وَوِزرُ مَن عملَ بها ولا يُنقَصُ من أوزارهم شيء. ونظيره

---

(١) نسبه سيبويه في الكتاب ٣/ ٤٥ إلى الأعشى، ولم نقف عليه في ديوانه. ونُسب في شرح الفصل ٧/ ٣٣ إلى ربيعة بن هشيم، وفي أمالي القالي ٢/ ٩٠ إلى الفرزدق، وفي المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٩ ، واللسان (ندي) إلى دثار بن شيبان النمري.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٤٩-٢٥٠ ، وينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٣١٤ ، ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ١٦١ - ١٦٢ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢١٥ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٩ .

(٥) ٥/ ٣٩١ - ٣٩٢ .

قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥][(١)]. ونظير هذا قوله عليه السلام: «مَنْ سنَّ في الإسلام سُنَّةً سيئةً فعليه وزرُها وَوِزرُ مَنْ عملَ بها بعده من غير أن ينقُصَ من أوزارهم شيء»[(٢)] ورُوِيَ من حديث أبي هريرة وغيره[(٣)]. وقال الحسن: قال النبيُّ ﷺ: «مَن دعا إلى هدًى فاتُّبِعَ عليه وعُمِلَ به فله مثلُ أجورِ مَنِ اتَّبعه ولا يَنقُصُ ذلك من أجورهم شيئاً، وأيُّما داعٍ دعا إلى ضلالةٍ فاتُّبعَ عليها وعُمِلَ بها بعدَه فعليه مثلُ أوزارِ مَنْ عملَ بها ممن اتَّبعه لا يَنقُصُ ذلك من أوزارهم شيئاً» ثم قرأ الحسن: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾[(٤)].

قلت: هذا مرسل، وهو معنى حديث أبي هريرة. خرَّجه مسلم[(٥)]. ونصُّ حديث أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أيُّما داعٍ دعا إلى ضلالةٍ فاتُّبعَ فإنَّ له مثلَ أوزارِ مَنِ اتَّبعه ولا يَنقُصُ من أوزارهم شيئاً، وأيُّما داعٍ دعا إلى هدًى فاتُّبعَ فإنَّ له مثلَ أجور مَنِ اتَّبعَه ولا يَنقُصُ من أجورهم شيئاً» خرَّجه ابن ماجه في السنن[(٦)]. وفي الباب عن أبي جُحَيفة وجرير[(٧)]. وقد قيل: إنَّ المرادَ أعوانُ الظَّلمة. وقيل: أصحابُ البدع إذا اتُّبِعوا عليها. وقيل: مُحدِثو السنن الجائرة إذا عُمِلَ بها من بعدهم[(٨)]. والمعنى متقاربٌ، والحديث يجمع ذلك كلَّه.

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/٢١٦-٢١٧ . وحديث أبي أمامة ﷺ أخرجه بنحوه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧١٨٦). وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/٩٦ .

(٢) أخرجه أحمد (١٩١٧٤)، ومسلم (١٠١٧) من حديث جرير بن عبد الله ﷺ. وقد سلف ٣/٣٣٦ .

(٣) كما سيأتي قريباً.

(٤) عزاه السيوطي في الدر المنثور ٥/١٤٣ إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٥) في صحيحه (٢٦٧٤)، وهو في مسند أحمد (٩١٦٠).

(٦) برقم (٢٠٥).

(٧) حديث أبي جحيفة ﷺ أخرجه ابن ماجه (٢٠٧)، وحديث جرير ﷺ سلف آنفاً.

(٨) النكت والعيون ٤/٢٧٨. وفي (د) و(م): السنن الحادثة. وفي (ظ): الجارية.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ ذكر قصة نوحٍ تسليةً لنبيِّه ﷺ، أي: ابتُلِي النبيون قبلَكَ بالكفار فصبرا. وخصَّ نوحاً بالذكر، لأنَّه أوَّلُ رسولٍ أُرسِلَ إلى أهل[1] الأرض وقد امتلأت كفراً على ما تقدَّم بيانُه في «هود»[2]. وأنه لم يلقَ نبيٌّ من قومه ما لقيَ نوحٌ على ما تقدَّم في «هود» عن الحسن. ورُويَ عن قتادة عن أنس أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «أوّلُ نبيٍّ أُرسِلَ نوح»[3] قال قتادة: وبُعِثَ من الجزيرة[4]. واختُلِفَ في مبلَغِ عمره، فقيل: مبلَغُ عمره ما ذكره الله تعالى في كتابه. قال قتادة: لبِثَ فيهم قبل أن يدعوهم ثلاث مئة سنة، ودعاهم ثلاث مئة سنة، ولبِثَ بعد الطوفان ثلاث مئةٍ وخمسين سنة[5]. وقال ابن عباس: بُعِثَ نوحٌ لأربعين سنة، ولبِثَ في قومه ألف سنةٍ إلاَّ خمسين عاماً، وعاش بعد الغرق ستين سنةً حتى كثُرَ الناس وفشَوا[6]. وعنه أيضاً: أنه بُعِثَ وهو ابن مئتين وخمسين سنة، ولبِثَ فيهم ألفَ سنةٍ إلاَّ خمسين عاماً[7]، وعاش بعد الطوفان مئتي سنة. وقال وهب: عُمِّرَ نوحٌ ألفاً وأربع مئة سنة. وقال كعب الأحبار: لبِثَ نوحٌ في قومه ألفَ سنةٍ إلاَّ خمسين

---

(١) كلمة أهل من (ظ).

(٢) ١١/١٢٩ .

(٣) أخرجه بهذا اللفظ ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠٤٧٨)، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٦٢/ ٢٤٣ . وأخرجه بنحوه أحمد (١٢١٥٣)، والبخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣) من طريق قتادة أيضاً، به.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٨٦٢٢) و(١٠٤٧٨) و(١٠٥٠٣).

(٥) النكت والعيون ٤/ ٢٧٨ . وقول قتادة أخرجه ابن أبي حاتم (١٧١٩٦).

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٦١ ، وابن أبي حاتم (١٧١٩٤)، والواحدي في الوسيط ٣/ ٤١٥ . وهو في النكت والعيون ٤/٢٧٨-٢٧٩ . وسلف ٩/ ٢٥٩ .

(٧) كلمة عاماً من (ظ).

عاماً، وعاش بعد الطُّوفان سبعين عاماً، فكان مبلَغُ عمره ألفَ سنةٍ وعشرين عاما[(١)]. وقال عون بن أبي شدَّاد: بُعِثَ نوحٌ وهو ابن خمسين وثلاث مئة سنة، ولبِثَ في قومه ألفَ سنةٍ إلاَّ خمسين عاماً، وعاش بعد الطُّوفان ثلاث مئة سنة وخمسين سنة، فكان مبلغُ عمره ألفَ سنةٍ وستَّ مئة سنة وخمسين سنة[(٢)]. ونحوه عن الحسن؛ قال الحسن: لمَّا أتى ملَكُ الموت نوحاً ليقبضَ روحه قال: يا نوحُ، كم عشْتَ في الدنيا؟ قال: ثلاث مئةٍ قبل أن أُبعث، وألفَ سنةٍ إلاَّ خمسين عاماً في قومي، وثلاث مئة سنة وخمسين سنة بعد الطُّوفان. قال ملَكُ الموت: فكيف وجدتَ الدنيا؟ قال نوح: مثلَ دارٍ لها بابان، دخلتُ من هذا وخرجتُ من هذا[(٣)]. ورُوي من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لمَّا بَعثَ الله نوحاً إلى قومه بعثَه وهو ابن خمسين ومئتي سنة، فلبثَ في قومه ألف سنةٍ إلاَّ خمسين عاماً، وبقي بعد الطُّوفان خمسين ومئتي سنة، فلَّما أتاه ملَكُ الموت قال: يا نوح، يا أكبر الأنبياء، ويا طويل العمر، ويا مُجابَ الدعوة، كيف رأيتَ الدنيا؟ قال: مثلَ رجلٍ بُنيَ له بيتٌ له بابان، فدخل من واحدٍ وخرجَ من الآخر» وقد قيل: «دخلَ من أحدهما وجلسَ هُنيهةً، ثم خرج من الباب الآخر»[(٤)]. وقال ابن الورد[(٥)]. : بَنَى نوحٌ بيتاً من قصب، فقيل له: لو بنيتَ غير هذا. فقال: هذا كثيرٌ لمن يموت[(٦)]. وقال أبو المهاجر: لبثَ نوحٌ في قومه ألفَ سنةٍ إلاَّ خمسينَ عاماً في بيتٍ من شَعر، فقيل له: يا نبيَّ الله، ابنِ بيتاً. فقال: أموتُ اليوم[(٧)]، أموتُ

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٧٩ .

(٢) أخرجه الطبري ١٨/ ٣٧٠ ، وابن أبي حاتم (١٧١٩٨). وهو في النكت والعيون ٤/ ٢٧٩ ، وسلف مختصراً ٩/ ٢٥٩ .

(٣) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٢/ ٢٨١ .

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٢٢٩)، وابن عساكر ٦٣/ ٢٨١ .

(٥) في (د) و(م): الوردي، والتصويب من (ز) و(ظ)، وهو الموافق لما في الصادر، واسمه وهب بن الورد.

(٦) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٨/ ١٤٥ ، والبيهقي في الشعب (١٠٧٥١)، وابن عساكر ٦٢/ ٢٨٠ .

(٧) بعدها في (م) كلمة أو، وهي ليست في النسخ الخطية ولا في المصادر.

غداً[(١)]. وقال وهب بن مُنبِّه: مرَّتْ بنوحٍ خمسُ مئة سنةٍ لم يقرَبِ النساءَ وَجَلاً من الموت[(٢)]. وقال مقاتل وجُويبر: إنَّ آدم عليه السلام حين كبِرَ ورقَّ عظمُه قال: يا ربِّ إلى متى أكدُّ وأسعى؟ قال: يا آدم، حتى يولَدَ لكَ ولدٌ مختون. فوُلِدَ له نوحٌ بعد عشرةِ أبطُنٍ، وهو يومئذٍ ابنُ ألف سنةٍ إلاَّ ستين عاماً. وقال بعضهم: إلاَّ أربعين عاماً. والله أعلم. فكان نوح بن لامك بن متوشلخ بن إدريس وهو أخنوخ بن يرد بن مهلاييل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم. وكان اسمُ نوحٍ السكن. وإنَّما سُمِّي السكن؛ لأنَّ الناس بعد آدم سكنوا إليه، فهو أبوهم[(٣)]. ووُلِدَ له سامٌ وحامٌ ويافث، فولَدَ سامٌ العربَ وفارسَ والروم، وفي كل هؤلاء خير، وولَدَ حامٌ القبطَ والسودانَ والبربر. وولَدَ يافثُ التركَ والصقالبةَ ويأجوجَ ومأجوج. وليس في شيء من هؤلاء خير[(٤)]. وقال ابن عباس: في ولد سامٍ بياضٌ وأُدمة، وفي ولدِ حامٍ سوادٌ وبياضٌ قليل. وفي ولَدِ يافث - وهم الترك والصقالبة - الصُّفرةُ والحُمرة. وكان له ولدٌ رابعٌ وهو كنعان الذي غرق، والعرب تسمِّيه يام[(٥)]. وسُمِّي نوحٌ نوحاً لأنه ناحَ على قومه ألفَ سنةٍ إلاَّ خمسين عاماً، يدعوهم إلى الله تعالى، فإذا كفروا بكى وناحَ عليهم[(٦)]. وذكر القشيري أبو القاسم عبد الكريم في كتاب «التخبير» له: يُروى أنَّ نوحاً عليه السلام كان اسمُه يشكُر، ولكن لكثرة بكائه على خطيئته أوحى الله إليه: يا نوح، كم تنوح؟ فسُمِّي نوحاً، فقيل: يا رسول الله، فأيُّ شيءٍ كانت خطيئته؟ فقال: «إنَّه مرَّ بكلبٍ

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (١٠٧٥٠)، وابن عساكر ٦٢/ ٢٨٠ .

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٤/ ٣٩ ، وابن عساكر ٦٢/ ٢٨٠ .

(٣) أخرجه ابن عساكر ٦٢/ ٢٤٢ .

(٤) أخرجه البزار (كشف الأستار) (٢١٨)، وابن عدي ٧/ ٢٧٢٥ من طريق محمد بن يزيد بن سنان، عن أبيه، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة مرفوعاً. محمد بن يزيد بن سنان وأبوه ضعيفان. ميزان الاعتدال ٤/ ٦٩ و٤٢٧ .

(٥) أخرجه ابن سعد ١/ ٤٠-٤١ عن هشام بن السائب الكلبي، عن أبيه، عن أبي صالح، عن ابن عباس ﷺ. هشام بن السائب وأبوه متروكان.

(٦) هو تتمة قول مقاتل وجويبر الآنف الذكر.

فقال في نفسه: ما أقبحَه! فأوحى الله إليه: اخلُقْ أنتَ أحسنَ من هذا». وقال يزيد الرَّقاشي: إنما سُمِّي نوحاً لطول ما ناحَ على نفسه[1]. فإن قيل: فلِمَ قال: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ ولم يقل: تسع مئة وخمسين عاماً؟ ففيه جوابان: أحدهما ـ أنَّ المقصودَ به تكثيرُ العدد، فكان ذِكرُه الألفَ أكثرَ في اللفظ وأكثرَ في العدد. الثاني ـ ما رُوي أنه أُعطيَ من العمر ألفَ سنة، فوهبَ من عمره خمسين سنةً لبعض ولده، فلمَّا حضرته الوفاة رجع في استكمال الألف، فذكر اللهُ تعالى ذلك تنبيهاً على أنَّ النَّقيصةَ كانت من جهته ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جُبير وقتادة: المطر. الضحَّاك: الغرق. وقيل: الموت. روَته عائشة رضي الله عنها عن النبيِّ ﷺ. ومنه قول الشاعر:

أفناهُمُ طوفانُ موتٍ جارفُ[2]

قال النحَّاس[3]: يُقال لكلِّ كثيرٍ مُطيفٍ بالجميع من مطرٍ أو قتلٍ أو موتٍ: طُوفان.

﴿وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ﴾ جملة في موضع الحال و«أَلْفَ سَنَةٍ» منصوبٌ على الظرف «إِلَّا خَمسِينَ عَامًا» منصوبٌ على الاستثناء من الموجب. وهو عند سيبويه بمنزلة المفعول؛ لأنه مستغنًى عنه كالمفعول. فأما المبرّد أبو العباس محمد بن يزيد فهو عنده مفعولٌ مَحْضٌ. كأنَّك قلت: استثنيتُ زيداً[4].

تنبيه ـ روى حسان بن غالب بن نَجيح أبو القاسم المصري، حدثنا مالك بن أنس، عن الزُّهريِّ، عن ابن المسيِّب، عن أُبيّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٨٦٢٦) و(١٥٧٦٥)، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ٥١ ، وابن عساكر ٦٢/ ٢٤١ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٧٨-٢٧٩ . وقول الضحاك أخرجه الطبري ١٨/ ٣٧١ ، وابن أبي حاتم (١٧٢٠٢). وحديث عائشة رضي الله عنها أخرجه ابن أبي حاتم أيضاً (١٧١٩٩).

(٣) في معاني القرآن ٥/ ٢١٧ .

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٠ و٢٥٢ .

«كان جبريلُ يُذاكرني فَضْلَ عمرَ، فقلتُ: يا جبريلُ، ما بلَغَ فضلُ عمر؟ قال لي: يا محمد، لو لبثْتُ معكَ ما لبِثَ نوحٌ في قومه ما بلَغْتُ لكَ فضل عمر» ذكره الخطيب أبو بكر أحمد بن ثابت البغدادي، وقال: تفرَّدَ بروايته حسان بن غالب عن مالك، وليس بثابتٍ من حديثه[1].

قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ معطوف على الهاء[2]. ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ الهاء والألف في «جَعَلنَاهَا» للسفينة، أو للعقوبة، أو للنجاة؛ ثلاثة أقوال[3].

قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ قال الكسائي: «وإبرَّاهيمَ» منصوبٌ بـ«أنجَينا» يعني أنه معطوفٌ على الهاء. وأجاز الكسائي أن يكون معطوفاً على نوح، والمعنى: وأرسلنا إبراهيم. وقول ثالث: أن يكون منصوباً بمعنى: واذكُرْ إبراهيم[4]. ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: أفردوه بالعبادة. ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ أي: اتَّقوا عقابه وعذابه. ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: من عبادة الأوثان. ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[5].

---

(١) وأخرجه الدارقطني في غرائب مالك كما في لسان الميزان ٢/ ١٨٩، وتمام الرازي في فوائده (١٤٦٣)، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٤/ ١٣٧-١٣٨ من طريق الفتح بن نصر، عن حسان بن غالب، به. قال الدارقطني: هذا لا يصح عن مالك، وفتح وحسان ضعيفان، وهذا الحديث موضوع.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٢.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٠.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٢.

(٥) زاد المسير ٦/ ٢٣٦.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾ أي: أصناما[(١)]. قال أبو عبيدة: الصَّنم: ما يُتَّخذُ من ذهبٍ أو من فضةٍ أو نحاس، والوثن: ما يُتَّخذُ من جَصٍّ أو حجارة[(٢)]. الجوهري: الوثن: الصنم والجمع وُثنٌ وأوثانٌ، مثل أُسْد وآساد[(٣)]. ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ قال الحسن: معنى «تَخلُقُونَ»: تنحتون[(٤)]. فالمعنى: إنما تعبدون أوثاناً وأنتم تصنعونها[(٥)]. وقال مجاهد: الإفك: الكذب[(٦)]. والمعنى: تعبدون الأوثان وتخلقون الكذب[(٧)]. وقرأ أبو عبد الرحمن: «وَتخَلَّقُونَ»[(٨)]. وقُرِئ: «تُخَلِّقُونَ» بمعنى الكثير من خَلَّق و«تَخَلَّقُونَ» من تخَلَّق بمعنى تَكَذَّب وتخرَّص. وقُرِئ: «أفِكًا» وفيه وجهان: أن يكون مصدراً نحو كذِب ولعِب، والإفك مخففاً منه كالكذب واللعب. وأن يكون صفةً على فَعِل أي خَلِقاً أفِكًا، أي: ذا إفكٍ وباطل[(٩)]. و«أوثَانًا» نُصِبَ بـ«تَعبُدُونَ» و«ما» كافة. ويجوز في غير القرآن رفعُ أوثانٍ على أن تُجعَلَ «ما» اسماً؛ لأنَّ و«تَعبُدُونَ» صِلتُه، وحُذفتِ الهاء لطول الاسم، وجُعِلَ أوثان خبر إنَّ. فأمَّا «وتَخلُقُونَ إفكًا» فهو منصوبٌ بالفعل لا غير[(١٠)]. وكذا ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ أي: اصرفوا رغبتَكم في أرزاقكم إلى الله، فإيَّاه فاسألوه وحدَه دون غيره.

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٦٥ . ونسبه في زاد المسير ٦/ ٢٦٤ إلى مقاتل. وأخرجه الطبري ١٨/ ٣٧٣ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٢١٠) عن قتادة.

(٢) مجاز القرآن ٢/ ١١٤ مختصراً.

(٣) الصحاح (وثن).

(٤) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٩٦.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٦٥ .

(٦) أخرجه الطبري ١٨/ ٣٧٤ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٣١١ بنحوه.

(٨) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣١٥ ، والمحتسب ٢/ ١٦٠ وزاد نسبتها إلى زيد بن علي، والشاذة ص١١٤ وزاد نسبتها إلى علي بن أبي طالب وابن الزبير، والمحرر الوجيز ٤/ ٣١١ وزاد نسبتها إلى عون العقيلي وقتادة وابن أبي ليلى.

(٩) الكشاف ٣/ ٢٠١ . وقراءة: «تُخلِّقون» لم نقف عليها عند غير المصنِّف، وهي قراءة شاذة. وقراءة: «أفِكًا» في المحتسب ٢/ ١٦٠ عن فضيل بن مرزوق وابن الزبير، والشاذة ص١١٤ عن ابن الزبير.

(١٠) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٢-٢٥٣ .

﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ فقيل: هو من قول(١) إبراهيم أي التكذيب عادة الكفار وليس على الرسل إلا التبليغ.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ﴾ قراءةُ العامَّة بالياء على الخبر والتوبيخ لهم، وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم. قال أبو عبيد: لِذكْرِ الأمم، كأنه قال: أوَلَم يرَ الأممُ كيف. وقرأ أبو بكر والأعمش وابن وثَّاب وحمزة والكسائي: «تَرَوْا» بالتاء خطاباً؛ لقوله: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟﴾(٢). وقد قيل: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟﴾ خطابٌ لقريش ليس من قول إبراهيم. ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ يعني الخلق والبعث. وقيل: المعنى: أوَ لَم يروا كيفَ يُبدِئُ اللهُ الثمارَ فتحيا، ثم تفنى، ثم يُعيدها أبداً. وكذلك يبدأ خلق الإنسان ثم يهلكه بعد أن خلق منه ولداً، وخلق من الولدِ ولداً، وكذلك سائر الحيوان. أي: فإذا رأيتم قدرتَه على الإبداء والإيجاد فهو القادر على الإعادة ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لأنه إذا أراد أمراً قال له: كُنْ فيكون.

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: قُلْ لهم يا محمد: سيروا في الأرض

(١) في (م): قوله. والمثبت من النسخ الخطية.

(٢) قراءة حمزة والكسائي وأبو بكر في المشهور عنه عن عاصم في السبعة ص٤٩٨، والتيسير ص١٧٣.

﴿فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ على كثرتِهم وتفاوتِ هيئاتِهم واختلافِ ألسنتهم وألوانهم وطبائعهم، وانظروا إلى مساكن القرون الماضية وديارهم وآثارهم كيف أهلكم؛ لتعلموا بذلك كمالَ قدرة الله. ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ وقرأ أبو عمرو وابن كثير: «النَّشَاءَةَ» بفتح الشين[1]، وهما لغتان مثل الرأفةِ والرآفةِ وشِبْهِه[2]. الجوهري: أنشأه اللهُ خلقَه، والاسم النَّشأة، والنَّشاءة بالمدِّ عن أبي عمرو بن العلاء[3]. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ أي: بعدله. ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ أي: بفضله. ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ ترجعون وتُرَدُّون[4].

﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ قال الفرَّاء: معناه: ولا مَنْ في السماء بمعجزين الله. وهو غامضٌ في العربية؛ للضمير الذي لم يظهر في الثاني، وهو كقول حسان[5]:

فمَنْ يَهْجو رسولَ اللهِ منكم ويَمْدَحُهُ ويَنْصُرُهُ سَواءُ

أرادَ: ومَنْ يمدحه وينصره سواء، فأضمرَ مَنْ[6]. وقاله عبد الرحمن بن زيد[7]. ونظيره قوله سبحانه: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤] أي: مَنْ له. والمعنى: إنَّ الله لا يُعجزُه أهلُ الأرض في الأرض ولا أهلُ السماءِ إن عَصَوه. وقال قُطْرُب: ولا في السماء لو كنتم فيها، كما تقول: لا يفوتُني فلانٌ بالبصرةِ ولا هاهنا، بمعنى: لا يفوتني بالبصرة لو صارَ إليها. وقيل: لا يستطيعون هرباً في الأرض ولا في

(١) السبعة ص٤٩٨، والتيسير ص١٧٣.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣١١.
(٣) الصحاح (نشأ).
(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٦٤.
(٥) في ديوانه ص٦٤.
(٦) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣١٥.
(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٢.

السماء[1]. وقال المبرِّد: والمعنى: ولا مَنْ في السماء، على أنَّ مَنْ ليست موصولةً ولكن تكون نكرةً، و«في السَّمَاءِ» صفةً لها، فأُقيمتِ الصفةُ مقام الموصوف. وردَّ ذلك عليُّ بن سليمان، وقال: لا يجوز. وقال: إنَّ مَنْ إذا كانت نكرةً فلابُدَّ مِنْ وَصْفِها، فصِفَتُها كالصِّلة، ولا يجوز حذفُ الموصولِ وتركُ الصلة؛ قال: والمعنى: إنَّ الناسَ خُوطبوا بما يعقلون، والمعنى: لو كنتم في السماء ما أعجزتُمُ الله، كما قال: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨][2]. ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ويجوز «نَصِيرٌ» بالرفع على الموضع، وتكون «مِن» زائدة.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ أي: من الجنة، ونسبَ اليأسَ إليهم والمعنى: أُويِسوا. وهذه الآيات اعتراضٌ من الله تعالى تذكيراً وتحذيراً لأهل مكة. ثم عاد الخطاب إلى قصة إبراهيم فقال: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾حين دعاهم إلى الله تعالى ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ ثم اتَّفقوا على تحريقه ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: من إذايتها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في إنجائه من النار العظيمة حتى لم تحرِقْه بعد ما أُلقِيَ فيها ﴿لَأَيَٰتٍ﴾.

وقراءة العامة: «جَوَابَ» بنصب الباء على أنه خبر كان و «أنْ قَالُوا» في محلِّ الرفع اسم كان. وقرأ سالم الأفطس وعمرو بن دينار: «جَوَابُ» بالرفع إلى أنه اسم «كان» و«أنْ» في موضع الخبر نصباً[3].

﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وقرأ حفص وحمزة: «مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ». وابن كثير وأبو عمرو والكسائي: «مَوَدَّةُ

(١) قول قطرب وما بعده في تفسير البغوي ٣/ ٤٦٤ .

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٣ .

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٣ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٣١٢ . ونسبة قراءة الرفع إلى عمرو بن دينار لم نقف عليها إلا عند المصنف، وهي قراءة شاذة.

بَيْنِكُمْ»[١]. والأعشى عن أبي بكر عن عاصم وابن وثّاب والأعمش: «مَوَدَّةٌ بَينَكُم»[٢]. الباقون. «مَوَدَّةَ بَينَكُم». فأما قراءة ابن كثير ففيها ثلاثة أوجه، ذكر الزجَّاج منها وجهين: أحدهما ـ أنَّ المودة ارتفعت على خبر إنَّ، وتكون «ما» بمعنى الذي. والتقدير: إنَّ الذي اتَّخذتموه من دون الله أوثاناً مودّةُ بينِكم. والوجه الآخر: أن يكون على إضمار مبتدأ، أي: هي مودَّةٌ، أو تلك مودَّةُ بينِكم. والمعنى: آلهتكم أو جماعتكم مودَّةُ بينِكم[٣]. قال ابن الأنباري: «أوثَاناً» وقفٌ حسنٌ لمن رفعَ المودَّةَ بإضمار ذلك مودَّة بينكم، ومن رفعَ المودَّةَ على أنها خبرُ إنَّ لم يقف[٤]. والوجه الثالث الذي لم يذكره أن يكون «مَوَدَّةُ» رفعا بالابتداء و«فِي الحيَاةِ الدُّنيَا» خبره؛ فأما إضافة «مَوَدَّةُ» إلى «بَيْنَكُم» فإنه جعل «بَينَكُم» اسماً غير ظرف، والنَّحويُّون يقولون: جعله مفعولاً على السَّعة. وحكى سيبويه: يا سارقَ الليلةِ أهلَ الدار. ولا يجوز أن يُضافَ إليه وهو ظرف؛ لعلةٍ ليس هذا موضع ذِكْرُها. ومن رفعَ «مَوَدَّةٌ» ونوَّنَها فعلى معنى ما ذكر، و«بَيْنَكُم» بالنصب ظرفاً[٥]. ومن نصب «مَوَدَّةَ» ولم ينوِّنْها جعلها مفعولةً بوقوع الاتخاذ عليها، وجعل «إنَّما» حرفاً واحداً ولم يجعلها بمعنى الذي[٦]. ويجوز نصبُ المودَّة على أنه مفعولٌ من أجله، كما تقول: جئتُكَ ابتغاءَ الخير، وقصدتُ فلاناً مودَّةً له. «بينكم» بالخفض[٧]. ومن نوَّن «مَوَدَّةً» ونصبها فعلى ما ذُكِرَ «بَيْنَكُم»

---

(١) السبعة ص٤٩٨-٤٩٩، والتيسير ص١٧٣ .

(٢) رواية الأعشى عن أبي بكر عن عاصم في الشاذة ص١١٥ ، والمشهور في رواية أبي بكر عن عاصم: «مودَّةً بينَكم»، وهي قراءة نافع وابن عامرٍ أيضاً. السبعة ص٤٩٩ ، والتيسير ص١٧٣ . قلنا: وقد نسب ابن الجوزي تلك القراءة الشاذة في زاد المسير ٦/ ٢٦٧ إلى ابن عباس وسعيد بن المسيب وعكرمة وابن أبي عبلة.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٤ ، وينظر معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٦٧ .

(٤) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٢٧ .

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٤ . وقول سيبويه في الكتاب ١/ ١٧٥ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٣ .

(٧) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٤ .

بالنصب من غير إضافة[١]. قال ابن الأنباري: ومن قرأ: «مَوَدَّةً بَينَكُمْ» و«مَوَدَّةَ بَينِكُمْ» لم يقف على الأوثان، ووقفَ على «الحياة الدنيا»[٢]. ومعنى الآية: جعلتُم الأوثانَ تتحابون عليها وعلى عبادتها في الحياة الدنيا ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ تتبرأ الأوثان من عُبَّادها والرؤساء من السَّفلة[٣]، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٦٧]. ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ هو خطابٌ لعبَدةِ الأوثان الرؤساء منهم والأتباع. وقيل: تدخل فيه الأوثان، كقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء:٩٨].

قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ ولُوطٌ أوَّلُ مَنْ صدَّق إبراهيمَ حين رأى النارَ عليه برداً وسلاماً[٤]. قال ابن إسحاق: آمنَ لوطٌ بإبراهيمَ وكان ابنَ أخته، وآمنت به سارَّة وكانت بنتَ عمِّه[٥]. ﴿وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ قال النَّخعيُّ وقتادة: الذي قال: ﴿إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ هو إبراهيم عليه السلام[٦]. قال قتادة: هاجر من كوثا وهي قريةٌ من سواد الكوفة إلى حرَّان ثم إلى الشام، ومعه ابن أخيه لوط بن هاران بن تارخ، وامرأته سارة[٧]. قال الكلبي: هاجر من أرض حرَّان إلى فلسطين، وهو أول من هاجر من أرض الكفر. قال مقاتل: هاجر إبراهيم وهو ابن خمسٍ وسبعين سنة[٨].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٣.
(٢) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٢٧.
(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٦٥.
(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٣٥.
(٥) النكت والعيون ٤/ ٢٨١.
(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٤.
(٧) النكت والعيون ٤/ ٢٨١، وتفسير البغوي ٣/ ٤٦٦.
(٨) تفسير البغوي ٣/ ٤٦٦.

وقيل: الذي قال: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ لوطٌ عليه السلام[١]. ذكر البيهقيُّ عن قتادة قال: أوَّلُ مَنْ هاجر إلى الله عزَّ وجلَّ بأهله عثمان بن عفان ﷺ. قال قتادة: سمعتُ النَّضرَ بن أنس يقول: سمعتُ أبا حمزة يعني أنس بن مالك يقول: خرج عثمان بن عفان ومعهُ رقيَّةُ بنتُ رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة، فأبطأ على رسول الله ﷺ خبرُهم، فقَدِمتِ امرأةٌ من قريش فقالت: يا محمد، رأيتُ خَتنكَ ومعه امرأتُه. قال: «على أيِّ حالٍ رأيتِهما؟» قالت: رأيتُه وقد حملَ امرأتَه على حمارٍ من هذه الدَّبَّابة[٢] وهو يسوقُها، فقال رسول الله ﷺ: «صحِبَهُما الله، إنَّ عثمانَ لأوّلُ مَنْ هاجر بأهلِه بعد لوط» قال البيهقي: هذا في الهجرة الأولى، وأما الهجرة الثانية إلى الحبشة فهي فيما زعم الواقدي سنة خمس من مَبعثِ رسول الله ﷺ[٣]. ﴿إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ أي: إلى رضا ربي وإلى حيث أمرني[٤]. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تقدَّم. وتقدَّم الكلامُ في الهجرة في «النساء»[٥] وغيرها.

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ﴾ أي: مَنَّ الله عليه بالأولاد، فوهبَ له إسحاق ولداً ويعقوبَ ولدَ ولدٍ. وإنما وهبَ له إسحاق من بعد إسماعيل ويعقوب من إسحاق.

﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ فلم يبعثِ اللهُ نبيًّا بعد إبراهيم إلاَّ من صُلبه. ووحَّدَ الكتاب؛ لأنه أراد المصدر كالنبوة، والمراد التوراة والإنجيل [والفرقان]، فهو عبارةٌ عن الجمع، فالتوراة أُنزلت على موسى من ولد إبراهيم، والإنجيل على عيسى من ولده، والفرقان على محمدٍ من ولده ﷺ وعليهم أجمعين[٦]. ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٤.

(٢) أي: الضِّعاف التي تدِبُّ في المشي ولا تسرع. النهاية (دبب).

(٣) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٢٩٧. والحديث أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١٣١١)، والأوائل (١٢٦)، والآحاد والمثاني (١٢٣) و(٢٩٧٨)، والطبراني (١٤٣) من طريق بشار بن موسى الخفاف، عن الحسن ابن زياد البرجمي، عن قتادة، به. قال الهيثمي في المجمع ٩/ ٨١: فيه الحسن بن زياد البرجمي، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات! قلنا: وبشار بن موسى قال فيه الحافظ في التقريب: ضعيف، كثير الغلط، كثير الحديث.

(٤) زاد المسير ٦/ ٢٦٨.

(٥) ٧/ ٦٧ فما بعد.

(٦) مجمع البيان ٢٠/ ٣٥٥ بنحوه. وما بين حاصرتين منه.

﴿ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ يعني اجتماع أهل الملل عليه. قاله عكرمة. وروى سفيان عن حُميد بن قيس قال: أمر سعيد بن جُبير إنساناً أن يسأل عكرمة عن قوله جلَّ ثناؤه: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ فقال عكرمة: أهل الملل كلِّها تدَّعيه وتقول: هو مِنَّا. فقال سعيد بن جبير: صدق. وقال قتادة: هو مثل قوله: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ﴾ [النحل: ١٢٢] أي: عاقبةً وعملاً صالحاً وثناءً حسناً. وذلك أنَّ أهل كلِّ دينٍ يتولَّونه[١]. وقيل: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ أنَّ أكثرَ الأنبياء من ولده[٢]. ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ليس ﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ داخلاً في الصِّلة وإنما هو تبيين[٣] وقد مضى في «البقرة»[٤] بيانُه. وكلُّ هذا حثٌّ على الاقتداء بإبراهيم في الصبر على الدِّينِ الحقِّ.

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٩ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٣٠ وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ٣١ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٢ وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٣ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ٣٤ وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٣٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ﴾ قال الكسائي: المعنى: وأنجينا لوطاً، أو:

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٢٠.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٨١.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٤-٢٥٥.

(٤) ٢/ ٤٠٦.

أرسلنا لوطاً. قال: وهذا الوجه أحبُّ إليَّ[١]. ويجوز أن يكون المعنى: واذكر لوطاً إذ قال لقومه موبِّخاً أو مُحذِّراً: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ تقدَّم القراءة في هذا وبيانُها في سورة «الأعراف»[٢]. وتقدَّم قصة لوطٍ وقومِه في «الأعراف»[٣] و«هود»[٤] أيضاً.

﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ قيل: كانوا قُطَّاعَ الطريق. قال ابن زيد. وقيل: كانوا يأخذون الناس من الطرق لقضاء الفاحشة. حكاه ابن شجرة. وقيل: إنه قَطْعُ النَّسل بالعدول عن النساء إلى الرجال. قاله وهب بن مُنبِّه. أي: استغنوا بالرجال عن النساء[٥].

قلتُ: ولعلَّ الجميعَ كان فيهم، فكانوا يقطعون الطريق لأخذ الأموال والفاحشة، ويستغنون عن النساء بذلك.

﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ النادي: المجلس. واختُلِفَ في المنكر الذي كانوا يأتونه فيه، فقالت فرقة: كانوا يخذِفون الناس[٦] بالحصى، ويستَخِفُّون بالغريب والخاطر عليهم[٧]. وروتْه أمُّ هانئ عن النبيِّ ﷺ؛ قالت أمُّ هانئ: سألتُ رسول الله ﷺ عن قولِ الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ قال: «كانوا يخذِفون مَنْ يمرُّ بهم ويسخرون منه، فذلك المنكر الذي كانوا يأتونه» أخرجه أبو داود الطيالسي في «مسنده»[٨]، وذكره النحَّاس والثعلبي والمهدي والماوردي[٩]. وذكر الثعلبي:

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٣٥٥.
(٢) ٩/ ٢٧٨.
(٣) ٩/ ٢٧٣ فما بعد.
(٤) ١١/ ١٧٣ فما بعد.
(٥) النكت والعيون ٤/ ٢٨٢
(٦) في (د) و(م): النساء. والمثبت من (ظ) والمحرر الوجيز.
(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٥.
(٨) (١٦١٧)، وأخرجه أحمد (٢٦٨٩١)، والترمذي (٣١٩٠) من طريق سماك بن حرب، عن أبي صالح مولى أم هانئ، عن أم هانئ، به. إسناده ضعيف لضعف أبي صالح مولى أم هانئ، واسمه باذام، ويقال: باذان.
(٩) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٢٠ ، والنكت والعيون ٥٤/ ٢٨٢ ولم يسُقْ لفظه.

وقال معاوية قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ قومَ لوطٍ كانوا يجلسون في مجالسهم وعند كلِّ رجلٍ قصعةٌ فيها الحصى للخذف، فإذا مرَّ بهم عابرٌ قذفوه، فأيُّهم أصابَه كان أولى به» يعني: يذهَبُ به للفاحشة، فذلك قوله: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾. وقالت عائشة وابن عباس والقاسم بن أبي بَزَّة والقاسم بن محمد: إنهم كانوا يتضارطون في مجالسهم[١]. وقال منصور عن مجاهد[٢]: كانوا يأتون الرجال في مجالسهم وبعضُهم يرى بعضاً[٣]. وعن مجاهد: كان من أمرهم لعبُ الحمام، وتطريفُ الأصابع بالحِنَّاء، والصَّفير، والخذف، ونبذُ الحياء في جميع أمورهم. قال ابن عطية[٤]: وقد توجد هذه الأمور في بعض عُصاةِ أمة محمدٍ ﷺ؛ فالتناهي واجب. قال مكحول: في هذه الأمة عشرةٌ من أخلاق قوم لوط: مضغ العلك، وتطريفُ الأصابع بالحِنَّاء، وحلُّ الإزار، وتنقيض الأصابع[٥]، والعمامةُ التي تُلَفُّ حول الرأس، والتشابك، ورميُ الجُلاهِق[٦]، والصفير، والخذف، واللُّوطية[٧]. وعن ابن عباس قال: إنَّ قوم لوطٍ كانت فيهم ذنوبٌ غير الفاحشة، منها أنهم يتظالمون فيما بينهم، ويشتمُ بعضُهم بعضاً، ويتضارطون في مجالسهم، ويخذفون، ويلعبون بالنَّرد والشِّطرَنج، ويلبسون المصبغات، ويتناقرون بالدِّيَكة، ويتناطحون بالكباش، ويُطرِّفون أصابعهم بالحِنَّاء، وتتشبُّه الرجالُ بلباس النساء، والنساءُ بلباس الرجال، ويضربون المكوسَ على كلِّ عابر، ومع هذا كلِّه كانوا يشركون بالله، وهم أوَّلُ مَنْ ظهر على أيديهم اللُّوطيةُ

(١) أخرجه الطبري ٨/ ٣٨٩ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٢٧٢) عن عائشة، وابن أبي حاتم (١٧٢٧٣) عن القاسم بن محمد، وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣١٥ عن ابن عباس.

(٢) في (د) و (ظ): وقال مجاهد ومنصور. والمثبت من (م) والمصادر.

(٣) أخرجه الطبري ١٨/ ٣٩١ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٢٧٤)، والخرائطي في مساوئ الأخلاق (٤٤٧).

(٤) في المحرر الوجيز ٤/ ٣١٥ ، وما قبله منه.

(٥) أي: فرقعتها. الصحاح (فرقع).

(٦) أي: البندق الذي يرمى. معجم الألفاظ الفارسية المعربة ص٤٣ .

(٧) ذكره البغوي في تفسيره ٣/ ٤٦٦ مختصراً.

والسِّحاق. فلما وقفهم لوط عليه السلام على هذه القبائح رجعوا إلى التكذيب واللَّجاج فقالوا: ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ﴾ أي: إنَّ ذلك لا يكون ولا يقدِرُ عليه. وهم لم يقولوا هذا إلاَّ وهم مصمِّمون على اعتقاد كَذِبه. وليس يصِحُّ في الفطرة أن يكون معاندٌ يقول هذا. ثم استنصر لوطٌ عليه السلام ربَّه، فبعثَ عليهم ملائكةً لعذابهم، فجاؤوا إبراهيمَ أوّلاً مبشِّرين بنصرة لوطٍ على قومه حسبما تقدَّم بيانُه في «هود»[١] وغيرها.

وقرأ الأعمش ويعقوب وحمزة والكسائي: ﴿لَنُنْجِينَّه وأهلَهُ﴾ بالتخفيف. وشدَّد الباقون. وقرأ ابن كثير وأبو بكر وحمزة والكسائي: ﴿إنَّا مُنْجُوكَ وأهلَكَ﴾ بالتخفيف. وشدَّد الباقون. وهما لغتان: أنْجَى ونَجَّى بمعنى. وقد تقدَّم[٢]. وقرأ ابن عامر: ﴿إنَّا مُنَزِّلونَ﴾ بالتشديد، وهي قراءة ابن عباس. الباقون بالتخفيف[٣]. وقوله: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ قال قتادة: هي الحجارة التي أُبقيت[٤]. وقاله أبو العالية. وقيل: إنه يُرجَمُ بها قومٌ من هذه الأمة[٥]. وقال ابن عباس: هي آثارُ منازلهم الخَرِبة. وقال مجاهد: هو الماء الأسود على وجه الأرض[٦]. وكلٌّ ذلك باقٍ فلا تعارض.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أي: وأرسلنا إلى مدين. وقد تقدَّم

---

(١) ١١/ ١٨٥.

(٢) ٨/ ٤١٣.

(٣) السبعة ص٥٠٠، والتيسير ص٩٠ و١٧٣، والنشر ٢/ ٢٥٩. وقرأ خلف وهو من العشرة: «لننجينه» و«مُنجوك» بالتخفيف.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٦٧. وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٩٨، والطبري ١٨/ ٣٩٧، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٢٩٤).

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٢٥.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٤٦٧، ومجمع البيان ٢٠/ ٣٥٨.

ذِكرُهم وفسادُهم في «الأعراف»[١] و«هود»[٢].

﴿وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ قال يونس النَّحوي[٣]: أي: اخشوا الآخرةَ التي فيها الجزاء على الأعمال[٤]. ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ أي: لا تكفروا فإنه أصلُ كلِّ فساد. والعُثُوُّ والعِثيُّ أشدُّ الفساد. عَثِيَ يَعثَى وعَثَا يَعثُو بمعنى واحد[٥]. وقد تقدَّم[٦]. وقيل: ﴿وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ أي: صدِّقوا به، فإنَّ القوم كانوا يُنكرونه.

قوله تعالى: ﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ٣٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ﴾ قال الكسائي: قال بعضهم: هو راجعٌ إلى أوَّل السورة، أي: ولقد فتنَّا الذين من قبلهم وفتنَّا عاداً وثمود. قال: وأحبُّ إليَّ أن يكون معطوفاً على «فأخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ» وأخذت عاداً وثموداً. وزعم الزجَّاج أن التقدير: وأهلكنا عاداً وثموداً[٧]. وقيل: المعنى: واذكُرْ عاداً إذ أرسلنا إليهم هوداً فكذَّبوه فأهلكناهم، وثموداً أيضاً أرسلنا إليهم صالحاً فكذَّبوه فأهلكناهم بالصيحة كما أهلكناهم بالصيحة كما أهلكنا عاداً بالريح العقيم. ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم﴾ يا معشر الكفار ﴿مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ﴾ بالحِجْرِ والأحقاف آياتٌ في إهلاكهم، فَحُذِفَ فاعلُ التبيُّن[٨]. ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أي: أعمالهم الخسيسة فحسبوها رفيعة.

---

(١) ٩/ ٢٨٢-٢٨٣.

(٢) ١١/ ١٩١-١٩٧.

(٣) هو يونس بن يحيى بن نباتة القرشي المدني، وهو من رواة الحديث، توفي سنة ٢٠٦هـ. الكاشف ٢/ ٤٠٤.

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٤١٩ عن مقاتل.

(٥) تهذيب اللغة ٣/ ١٥٠.

(٦) ٩/ ٢٦٩.

(٧) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٦. وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٦٨.

(٨) الوسيط ٣/ ٤٢٠، وزاد المسير ٦/ ٢٧١-٢٧٢، ومجمع البيان ٢٠/ ٣٦٠ بنحوه.

﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي: عن طريق الحق[١]. ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ فيه قولان: أحدهما وكانوا مستبصرين في الضلالة. قاله مجاهد. والثاني ـ كانوا مستبصرين قد عرفوا الحقَّ من الباطل بظهور البراهين. وهذا القول أشبه؛ لأنَّه إنَّما يُقال: فلانٌ مستبصِرٌ إذا عرف الشيء على الحقيقة[٢]. قال الفرَّاء[٣]: كانوا عقلاءَ ذوي بصائر، فلم تنفعهم بصائرهم. وقيل: أتوا ما أتوا وقد تبيَّنَ لهم أن عاقبتَهم العذاب[٤].

قوله تعالى: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ﴾ قال الكسائي: إن شئتَ كان محمولاً على عاد، وكان فيه ما فيه، وإن شئت كان على ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ وصدَّ قارونَ وفرعونَ وهامانَ[٥]. وقيل: أي: وأهلكنا هؤلاء بعد أن جاءتهم الرسل ﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ عن الحقِّ وعن عبادة الله.

﴿وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ أي: فائتين[٦]. وقيل: سابقين في الكفر[٧]. بل قد سبقهم للكفر قرونٌ كثيرةٌ فأهلكناهم. ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ﴾ قال الكسائي: «فَكُلًّا» منصوبٌ بـ«أَخَذْنَا»[٨] أي: أخذنا كُلًّا بذنبه. ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ يعني قوم لوط.

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٦٧.
(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٦.
(٣) في معاني القرآن له ٢/ ٣١٧.
(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٦٩.
(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٦.
(٦) تفسير البغوي ٣/ ٤٦٧.
(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٧.
(٨) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٦.

والحاصب: ريحٌ يأتي بالحصباء وهي الحصى الصِّغار[١]. وتُستعمل في كلِّ عذاب. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ يعني ثموداً وأهل مدين. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ يعني قارون ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ قوم نوح وقوم فرعون[٢]. ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ لأنه أنذرهم وأمهلَهم وبعثَ إليهم الرسل وأزاح العذر.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ قال الأخفش: ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ وقفٌ تام، ثم قصَّ قِصَّتَها فقال: ﴿ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ قال ابن الأنباري: وهذا غلط؛ لأنَّ «اتَّخذَتْ بَيتاً» صلةٌ للعنكبوت، كأنه قال: «كمثل التي اتخذت بيتاً»، فلا يَحسُنُ الوقفُ على الصلة دون الموصول، وهو بمنزلة قوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥] فيحمل صلةٌ للحمار، ولا يحسن الوقف على الحمار دون يحمل. قال الفرَّاء: هو مثلٌ ضربَه الله سبحانه لمنِ اتَّخذَ من دونه آلهةً لا تنفعه ولا تضرُّه؛ كما أنَّ بيتَ العنكبوت لا يقيها حرًّا ولا برداً. ولا يَحسُنُ الوقفُ على العنكبوت؛ لأنه لمَّا قصد بالتشبيه لبيتها الذي لا يقيها من شيء، فشُبِّهتِ الآلهةُ التي لا تنفع ولا تضرُّ به[٣].

﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ﴾ أي: أضعف البيوت[٤] ﴿لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ قال الضحاك:

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٦٧-٤٦٨.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٦٩.

(٣) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٢٧ - ٨٢٨. وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣١٧.

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٣٨.

ضرب مثلاً لضعف آلهتهم ووهنها فشبَّهها ببيت العنكبوت[١]. ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ «لَوْ» متعلقةٌ ببيت العنكبوت. أي: لو علموا أنَّ عبادة الأوثان كاتِّخاذِ بيت العنكبوت التي لا تغني عنهم شيئاً، وأنَّ هذا مثَلُهم لَمَا عبدوها، لا أنَّهم يعلمون أنَّ بيت العنكبوت ضعيف[٢]. وقال النُّحاة: إنَّ تاء العنكبوت في آخرها مزيدة؛ لأنها تسقط في التصغير والجمع. وهي مؤنثة، وحكى الفرَّاءُ تذكيرها وأنشد:

علـى هَطَّالِهِمْ منهم بُيوتٌ كأنَّ العنكبوتَ قدِ ابتناها[٣]

ويُروى:

علـى أهطالهم منهم بيوتٌ

قال الجوهري: والهَطَّال: اسم جبل[٤]. والعنكبوت: الدُّوَيِّبةُ المعروفةُ التي تنسج نسجاً رقيقاً مُهلهلاً بين الهواء[٥]. ويُجمع عناكِيب وعَنَاكِب وعِكَاب وعُكُب وأعكُب. وقد حُكِيَ أنه يُقال: عَنكَب[٦] وعَكَنْبَاة[٧]؛ قال الشاعر:

كأنَّما يَسقُطُ من لُغَامِها[٨] بيتُ عَكَنْبَاةٍ على زِمَامِها

وتُصغَّر فيقال: عُنَيكِب[٩]. وقد حُكي عن يزيد بن مَرْثد[١٠] أنَّ العنكبوت شيطانٌ

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٧.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٦٩ بنحوه.

(٣) من قوله: وهي مؤنثة.... إلى نهاية البيت من إعراب القرآن ٣/ ٢٥٧. وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣١٧.

(٤) الصحاح (هطل)، وما قبله منه.

(٥) تهذيب اللغة ٣/ ٣٠٩.

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٧.

(٧) وهي في لغة أهل اليمن فيما نقل الأزهري في تهذيب اللغة ٣/ ٣٠٩ عن الليث.

(٨) أي: زبدها. الصحاح (لغم).

(٩) تهذيب اللغة ٣/ ٣٠٩.

(١٠) في النسخ: يزيد بن ميسرة، وهو تحريف.

مسخها الله تعالى[١]. وقال عطاء الخراساني: نسجَتِ العنكبوتُ مرتين مرةً على داود حين كان جالوت يطلبه، ومرةً على النبيِّ ﷺ؛ ولذلك نهى عن قتلها[٢]. ويُروى عن عليٍّ ﷺ أنه قال: طهِّروا بيوتكم من نَسْجِ العنكبوت، فإنَّ تركَه في البيوت يُورِثُ الفقر، ومنع الخمير يورث الفقر[٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٍۚ﴾ «ما» بمعنى الذي[٤]، و«مِنْ» للتبعيض، ولو كانت زائدة للتوكيد لانقلب المعنى[٥]، والمعنى: إنَّ الله يعلم ضِعْفَ ما يعبدون من دونه.

وقرأ عاصم وأبو عمرو ويعقوب: «يَدْعُونَ» بالياء، وهو اختيار أبي عبيد؛ لذِكْرِ الأممِ قبلها. الباقون بالتاء على الخطاب[٦].

قوله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا﴾ أي: هذا المثل وغيره مما ذُكِرَ في «البقرة»[٧] و«الحج»[٨] وغيرهما ﴿نَضۡرِبُهَا﴾ نُبيِّنُها ﴿لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ﴾ أي: يفهمها ﴿إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ أي: العالمون بالله، كما روى جابرٌ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «العالمُ مَنْ عقَلَ عن الله، فعمِلَ بطاعتِه، واجتنب سخطَه»[٩].

---

(١) أخرجه أبو داود في المراسيل (٥٠٠) و(٥٠٤) من طريق بقية بن الوليد، عن الوضين بن عطاء، عن يزيد بن مرثد مرفوعاً بلفظ: «العنكبوت شيطان فاقتلوه». إسناده منقطع، وبقية مدلس وقد عنعن فيه، والوضين سيئ الحفظ.

وأخرجه ابن عدي في الكامل ٦/ ٢٣١٧ من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ مرفوعاً بلفظ: «العنكبوت شيطان مسخه الله فاقتلوه». وفي إسناده مسلمة بن علي الخشني، وهو متروك، قال ابن عدي: وعامة أحاديثه غير محفوظة.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٣٢٣) دون قوله: ولذلك نهى عن قتلها.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٨ دون قوله: ومنع الخمير يورث الفقر.

(٤) البيان ٢/ ٢٤٥ .

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٧ .

(٦) السبعة ص٥٠١ ، والتيسير ص١٧٤ ، والنشر ٢/ ٣٤٣ .

(٧) ١/ ٣٦٥ .

(٨) ١٤/ ٤٤٦-٤٤٧ .

(٩) تفسير البغوي ٣/ ٤٦٨ . والحديث أخرجه داود بن المحبر في كتاب العقل فيما ذكر الزيلعي في =

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالعدل والقسط. وقيل: بكلامه وقدرته وذلك هو الحق. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ أي: علامةً ودلالةً ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ المصدِّقين.

قوله تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ٱتْلُ﴾ أمرٌ بالتلاوة[١] والدُّؤوب عليها. وقد مضى في «طه»[٢] الوعيدُ فيمن أعرضَ عنها، وفي مقدَّمة الكتاب[٣] الأمرُ بالحضِّ عليها. والكتاب يُراد به القرآن.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الخطاب للنبيِّ ﷺ وأمَّتِهِ، وإقامةُ الصلاة أداؤها في أوقاتها بقوامتها وركوعها وسجودها وقعودها وتشهُّدها وجميع شروطها. وقد تقدَّم بيانُ ذلك في «البقرة»[٤] فلا معنى للإعادة.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ يريدُ: إنَّ

= تخريج الأحاديث والآثار ٣/ ٤٣ ، وأخرجه من طريقه الحارث بن أبي أسامة كما في بغية الباحث (٨٣٧)، والواحدي في الوسيط ٣/ ٤٢٠ . وداود بن المحبر متروك فيما قاله الدارقطني في الضعفاء والمتروكين ١/ ٢٠٢ . ونقل ابن الجوزي في الموضوعات ٢/ ٢١٩ عن الدارقطني أنه قال: كتاب العقل وضعه أربعة أولهم ميسرة بن عبد ربه، ثم سرقه منه داود بن المحبر، فركبه بأسانيد غير أسانيد ميسرة، وسرقه عبد العزيز بن أبي رجاء فركبه بأسانيد أخر، ثم سرقه سليمان بن عيسى السجزي فأتى بأسانيد أخر.

(١) في (د) و(م): من التلاوة، والمثبت من (ز) و(ظ).

(٢) ١٤/ ١٥٧ .

(٣) ١/ ٦ فما بعد.

(٤) ١/ ٢٥٣ فما بعد.

الصلاة الخمس هي التي تكفِّر ما بينها من الذنوب، كما قال عليه الصلاة والسلام: «أرأيتُم لو أنَّ نهراً ببابِ أحدِكم يغتسلُ فيه كلَّ يومٍ خمسَ مرَّاتٍ هل يبقى من دَرَنه شيء؟» قالوا: لا يبقى من دَرَنه شيء. قال: «فذلِكَ مَثَلُ الصلواتِ الخمس يمحو الله بهنَّ الخطايا» خرَّجه الترمذي من حديث أبي هريرة، وقال فيه: حديثٌ حسنٌ صحيح[١]. وقال ابن عمر: الصلاة هنا القرآن[٢]. والمعنى: الذي يُتلى في الصلاة ينهى عن الفحشاء والمنكر، وعن الزنى والمعاصي.

قلت: ومنه الحديث الصحيح: «قسمتُ الصلاةَ بيني وبين عبدي نصفين»[٣] يريد قراءةَ الفاتحة. وقال حماد بن أبي سليمان وابن جُريج والكلبي: العبدُ مادامَ في صلاته لا يأتي فحشاءَ ولا منكراً، أي: إنَّ الصلاةَ تنهى ما دمتَ فيها. قال ابن عطية[٤]: وهذه عُجمةٌ، وأينَ هذا ممَّا رواه أنس بن مالك قال: كان فتًى من الأنصار يُصلِّي مع النبيِّ ﷺ ولا يدَعُ شيئاً من الفواحش والسرقة إلَّا رَكِبَه، فذُكِرَ للنبيِّ ﷺ فقال: «إنَّ الصلاةَ ستنهاه» فلم يلبَثْ أن تابَ وصلحت حالُه، فقال رسول الله ﷺ: «ألم أقُلْ لكم؟»[٥].

وفي الآية تأويلٌ ثالث، وهو الذي ارتضاه المحقِّقون وقال به المشيخة الصوفية وذكره المفسرون، فقيل: المرادُ بـ«أقِمِ الصَّلاةَ» إدامتُها والقيامُ بحدودها، ثم أخبر حُكماً منه بأنَّ الصلاة تنهى صاحبَها وممتثِلَها عن الفحشاء والمنكر؛ وذلك لِما فيها من تلاوة القرآن المشتمل على الموعظة، والصلاة تشغَلُ كلَّ بدن المصلِّي، فإذا دخل

---

(١) سنن الترمذي (٢٨٦٨). وأخرجه أحمد (٨٩٢٤)، والبخاري (٥٢٨)، ومسلم (٦٦٧).

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣١٩-٣٢٠ .

(٣) وقد سلف ١/ ١٤٥-١٤٦ .

(٤) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٠ وما قبله منه، وقول حماد بن أبي سليمان أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٣٤٦).

(٥) لم نقف على من أخرجه من حديث أنس ﷺ. وأخرجه أحمد (٩٧٧٨) من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً بلفظ: جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: إن فلاناً يصلي بالليل، فإذا أصبح سرق! قال: «إنه سينهاه ما تقول».

المصلِّي في محرابه وخشعَ وأخبَتَ لربِّه وادَّكر أنه واقفٌ بين يديه، وأنه مُطَّلعٌ عليه ويراه، صلُحَتْ لذلك نفسُه وتذلَّلت، وخامَرها ارتقابُ الله تعالى، وظهرت على جوارحه هيبتُها، ولم يكَدْ يفتر من ذلك حتى تُظِلَّه صلاةٌ أخرى يرجع بها إلى أفضل حالة. فهذا معنى هذه الأخبار؛ لأنَّ صلاة المؤمن هكذا ينبغي أن تكون.

قلتُ: لاسيما وإن أشعر نفسَه أنَّ هذا ربما يكون آخرَ عمله، وهذا أبلَغُ في المقصود وأتَمُّ في المراد؛ فإنَّ الموت ليس له سِنٌّ محدود، ولا زمنٌ مخصوص، ولا مرضٌ معلوم، وهذا مما لا خلافَ فيه. ورُويَ عن بعض السلف أنه كان إذا قام على الصلاة ارتعد واصفرَّ لونُه، فكُلِّم في ذلك فقال: إني واقفٌ بين يدي الله تعالى، وحُقَّ لي هذا مع ملوك الدنيا فكيف مع ملك الموت؟! فهذه صلاةٌ تنهى ولابُدَّ عن الفحشاء والمنكر، ومَنْ كانت صلاتُه دائرةً حول الإجزاء، لا خشوعَ فيها ولا تذكُّرَ ولا فضائل، كصلاتنا - وليتَها تُجزئ - فتلك تترك صاحبَها من منزلته حيث كان، فإن كان على طريقةِ معاصٍ تُبعده من الله تعالى تركَتْه الصلاةُ يتمادى على بعده. وعلى هذا يُخرَّج الحديثُ المرويُّ عن ابن مسعود وابن عباس والحسن والأعمش قولهم: مَنْ لم تنْهَه صلاتُه عن الفحشاء والمنكر لم تَزِده من الله إلاَّ بُعداً[1]. وقد رُويَ أنَّ الحسنَ أرسله عن النبي ﷺ وذلكَ غيرُ صحيح السند[2]. قال ابن عطية[3]: سمعت أبي ﵁

(١) أخرجه أحمد في الزهد ص١٩٩ ، والطبري ١٨/ ٤٠٩ ، والطبراني (٨٥٤٣)، والبيهقي في الشعب (٣٢٦٤) عن ابن مسعود ﵁. وأخرجه الطبري ١٨/ ٤٠٨ عن ابن عباس ﵁. والطبري ١٨/ ٤١٠ عن الحسن.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٩٨ ، والطبري ١٨/ ٤٠٩ ، والبيهقي في الشعب (٣٢٦٢) عن الحسن مرفوعاً.

وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٣٣٩) من طريق عمر بن أبي عثمان، عن الحسن، عن عمران بن حصين مرفوعاً. عمر بن أبي عثمان مجهول، والحسن لم يسمع من عمران. المراسيل ص٤٠ .

وأخرجه ابن أبي حاتم (١٧٣٤٠)، والطبراني (١١٠٢٥)، والقضاعي في مسند الشهاب (٥٠٩) من طريق ليث - وهو ابن أبي سليم - عن طاوس، عن ابن عباس مرفوعاً. ليث ضعيف. ميزان الاعتدال ٣/ ٤٢٠ .

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٣١٩ ، وما قبله وما بعده منه.

يقوله، فإذا قرَّرنا ونُظِرَ معناه فغيرُ جائزٍ أن يقول: إنَّ نفسَ صلاةِ العاصي تُبعِدُه من الله حتى كأنَّها معصية، وإنما يتخرَّج ذلك على أنها لا تؤثِّر في تقريبه من الله، بل تتركُه على حاله ومعاصيه، من الفحشاء والمنكر والبُعد، فلم تزِدْه الصلاةُ إلاَّ تقريرَ ذلك البُعدِ الذي كان بسبيله[1]؛ فكأنَّها بعَّدته حين لم تَكُفَّ بُعدَه عن الله. وقيل لابن مسعود: إنَّ فلاناً كثيرُ الصلاة. فقال: إنها لا تنفعُ إلاَّ مَنْ أطاعها[2].

قلت: وعلى الجملة فالمعنى المقصود بالحديث: «لم تزِدْه من الله إلاَّ بُعداً، ولم يزدَدْ بها من الله إلاَّ مقتاً» إشارةٌ إلى أنَّ مرتكبَ الفحشاء والمنكر لا قَدرَ لصلاته؛ لغلبة المعاصي على صاحبها، وقيل: هو خبرٌ بمعنى الأمر. أي: لِينتَهِ المصلِّي عن الفحشاء والمنكر. والصلاةُ بنفسها لا تنهى، ولكنَّها سببُ الانتهاء، وهو كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٩] وقوله: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٥].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: ذِكْرُ الله لكم بالثواب والثناء عليكم أكبرُ من ذِكرِكم له في عبادتكم وصلواتكم. قال معناه ابن مسعود وابن عباس وأبو الدرداء وأبو قُرَّة وسلما والحسن[3]، وهو اختيار الطبري[4]. ورُوِيَ مرفوعاً من حديث موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر، أنَّ النبيَّ ﷺ قال في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ قال: «ذِكْرُ الله إيَّاكم أكبرُ من ذكرِكم إيَّاه»[5]. وقيل: ذِكْرُكم

(١) في (م): سبيله، والمثبت من النسخ الخطية والمحرر الوجيز.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٢٩٨، والطبري ٨/ ٤٠٨-٤٠٩، وابن أبي حاتم (١٧٣٤٢)، والبيهقي في الشعب (٣٢٦٣).

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٠، وقول ابن مسعود أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٢٩٨، وأحمد في الزهد ص٢٦٧، والطبري ١٨/ ٤١٤. وقول ابن عباس أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٩٨، والطبري ١٨/ ٤١١-٤١٤، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٣٥٠) و(١٧٣٥٢)، والحاكم ٢/ ٤٠٩. وأخرجه الطبري ١٨/ ٤١٣-٤١٤ عن أبي الدرداء، و١٨/ ٤١٤ عن أبي قرة، و١٨/ ٤١٣ عن سلمان والحسن.

(٤) في تفسيره ١٨/ ٤١٧.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٠. وأخرجه الديلمي في الفردوس ٤/ ٤٠٦.

الله في صلاتكم وفي قراءة القرآن أفضلُ من كلِّ شيء[١]. وقيل: المعنى: إنَّ ذِكْرَ الله أكبرُ مع المداومة من الصلاة في النهي عن الفحشاء والمنكر[٢]. وقال الضحَّاك: ولَذِكرُ الله: عند ما يُحرِمُ فيتركُ أجَلَّ الذِّكر. وقيل: المعنى ولذِكرُ الله للنهي عن الفحشاء والمنكر أكبر، أي: كبير، وأكبر يكون بمعنى كبير[٣]. وقال ابن زيد وقتادة: ولَذِكرُ الله أكبرُ من كلِّ شيءٍ، أي: أفضل من العبادات كلِّها بغير ذكر[٤]. وقيل: ذِكرُ الله يمنع من المعصية، فإنَّ مَنْ كان ذاكراً له لا يُخالِفه[٥]. قال ابن عطية[٦]: وعندي أنَّ المعنى: ولَذِكرُ الله أكبرُ على الإطلاق، أي: هو الذي ينهى عن الفحشاء والمنكر، فالجزء الذي منه في الصلاة يفعل ذلك، وكذلك يفعل في غير الصلاة؛ لأنَّ الانتهاء لا يكون إلَّا من ذاكرِ اللهَ مراقبٍ له. وثوابُ ذلك أنْ يذكره اللهُ تعالى، كما في الحديث: «مَنْ ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي، ومَنْ ذكرني في ملإٍ ذكرتُه في ملإٍ خيرٍ منهم»[٧] والحركات التي في الصلاة لا تأثيرَ لها في نهي، والذِّكرُ النافع هو مع العلم وإقبال القلب وتفرُّغِه إلاَّ من الله. وأما ما لا يتجاوز اللسان ففي رتبةٍ أخرى. وذِكرُ الله تعالى للعبد هو إفاضةُ الهدى ونور العلم عليه، وذلك ثمرةٌ لذكر العبد ربَّه. قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]. وباقي الآية ضَرْبٌ من الوعيد والحثِّ على المراقبة.

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٨٥، وزاد المسير ٦/ ٢٧٥.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٠.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٧-٢٥٨.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٠.

(٥) الوسيط ٣/ ٤٢١، وتفسير أبي الليث ٢/ ٥٣٩ بمعناه.

(٦) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٠.

(٧) سلف ١٤/ ٢٩.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ٤٧﴾

فيه مسألتان:

الأولى: اختلف العلماء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ فقال مجاهد: هي مُحكمةٌ فيجوز مجادلةُ أهل الكتاب بالتي هي أحسن على معنى الدعاء لهم إلى الله عزَّ وجلَّ، والتنبيه على حججه وآياته؛ رجاء إجابتهم إلى الإيمان، لا على طريق الإغلاظ والمخاشنة. وقوله على هذا: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ معناه: ظلموكم، وإلاَّ فكلُّهم ظَلَمةٌ على الإطلاق(١). وقيل: المعنى: لا تجادلوا مَنْ آمن بمحمدٍ ﷺ من أهل الكتاب المؤمنين كعبد الله بن سلاَم ومَنْ آمن معه(٢). ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ أي: بالموافقة فيما حدَّثوكم به من أخبار أوائلهم وغير ذلك. وقوله على هذا التأويل: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ يريد به مَنْ بقي على كفره منهم، كمنْ كفرَ وغدرَ من قريظة والنَّضِير وغيرهم. والآية على هذا أيضاً محكمة. وقيل: هذه الآية منسوخةٌ بآية القتال؛ قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٢٨]. قاله قتادة(٣).

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي: جعلوا لله ولداً، وقالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ﴾ [المائدة: ٦٤] و﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ﴾ [آل عمران: ١٨](٤) فهؤلاء المشركون(٥). قال النحَّاس وغيره: من قال

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٠.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٠.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٠-٣٢١. وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٩٨، والطبري ١٨/ ٤٢٠، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٣٥٥)، والنحاس في الناسخ والمنسوخ (٧٤٦).

(٤) أخرجه الطبري ١٨/ ٤٢٣ عن مجاهد.

(٥) بعدها في النسخ عبارة: «في سقوط الجزية فانتصروا» ولم نتبيَّنها.

هي منسوخة، احتجَّ بأنَّ الآية مكية، ولم يكن في ذلك الوقت قتالٌ مفروض، ولا طلب جزية، ولا غير ذلك. وقولُ مجاهدٍ حسن؛ لأنَّ أحكام الله عزَّ وجلَّ لا يُقال فيها: إنها منسوخةٌ إلاَّ بخبرٍ يقطع العذر، أو حُجَّةٍ من معقول[1]. واختار هذا القول ابن العربي[2]. قال مجاهد وسعيد بن جُبير: وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ معناه: إلاَّ الذين نصبوا للمؤمنين الحرب فجدالهم بالسيف حتى يؤمنوا، أو يُعطوا الجزية[3].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ روى البخاري[4] عن أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويُفسِّرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تُصدِّقوا أهل الكتاب ولا تُكذِّبوهم وقُولُوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٦]». وروى عبد الله بن مسعود أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيءٍ فإنهم لن يهدوكم وقد ضلُّوا، إمَّا أن تُكذِّبوا بحقٍّ، وإمَّا أن تُصدِّقوا بباطل»[5]. وفي البخاري[6]: عن حُمَيد ابن عبد الرحمن سمع معاويةَ يُحدِّث رهطاً من قريشٍ بالمدينة، وذَكَر كعبَ الأحبار فقال: إن كان من أصدق هؤلاء المحدِّثين الذين يُحدِّثون عن أهل الكتاب، وإن كُنَّا مع ذلك لَنَبلُو عليه الكذب.

---

(١) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥٧٦ دون قوله: «ولم يكن في ذلك الوقت قتال مفروض» فهو في المحرر الوجيز ٤/ ٣٢١.

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٧٥.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٠، وزاد المسير ٦/ ٢٧٥ من غير نسبة.

(٤) في صحيحه (٤٤٨٥)، وقد سلف ٢/ ٤١٥.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢١. وأخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٠١٦٢) و(١٩٢١٢)، والطبري ١٨/ ٤٢٣ من طريق حريث بن ظهير، عن عبد الله بن مسعود ﷺ موقوفاً. وحريث بن ظهير مجهول. قلنا: وقد رُوي مرفوعاً كما في مسند أحمد (١٤٦٣١) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ، وفي إسناده مجالد بن سعيد الهمداني، وهو ضعيف.

(٦) في صحيحه (٧٣٦١).

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ﴾ الضمير في «قَبْلِهِ» عائدٌ إلى الكتاب، وهو القرآن المُنَزَّل على محمد ﷺ، أي: وما كنتَ يا محمد تقرأ قبله، ولا تختلف إلى أهل الكتاب، بل أنزلناه إليكَ في غاية الإعجاز والتضمين للغيوب وغير ذلك، فلو كنتَ ممَّن يقرأُ كتاباً، ويَخطُّ حروفاً ﴿لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي: من أهل الكتاب، وكان لهم في ارتيابهم متعلَّق، وقالوا: الذي نجده في كتبنا أنه أميٌّ لا يكتبُ ولا يقرأُ وليس به. قال مجاهد: كان أهل الكتاب يجدون في كتبهم أنَّ محمداً ﷺ لا يخُطُّ ولا يقرأ، فنزلت هذه الآية[1]؛ قال النحَّاس[2]: دليلاً على نبوَّتِهِ لقريش؛ لأنَّه لا يقرأ ولا يكتب ولا يخالط أهلَ الكتاب، ولم يكن بمكة أهل الكتاب، فجاءهم بأخبار الأنبياء والأمم، وزالتِ الرِّيبةُ والشَّكُّ.

الثانية: ذكر النقَّاش في تفسير هذه الآية عن الشَّعبي أنه قال: ما ماتَ النبيُّ ﷺ حتى كتب[3]. وأسندَ أيضاً حديثَ أبي كَبشة السَّلُولي؛ مضمنه: أنه ﷺ قرأ صحيفةً لعُيينَةَ[4] بن حِصن، وأخبر بمعناها. قال ابن عطية[5]: وهذا كلُّه ضعيف، وقول الباجي رحمه الله منه.

قلت: وقع في «صحيح مسلم» من حديث البراء في صلح الحديبية أنَّ النبيَّ ﷺ قال لعلي: «اكتُبِ الشَّرطَ بيننا: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما قاضى عليه محمدٌ رسولُ الله» فقال له المشركون: لو نعلم أنَّكَ رسولُ الله تابعناك ـ وفي رواية بايعناك ـ

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢١-٣٢٢.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٢٥٨.

(٣) أخرجه البيهقي ٧/ ٤٢-٤٣ وقال: هذا حديث منقطع، وفي رواية جماعة من الضعفاء والمجهولين.

(٤) أخرجه أبو داود (١٦٢٩).

(٥) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٢، والمسألة كلها منه.

ولكن اكتُبْ: محمدُ بن عبد الله. فأمرَ عليًّا أن يمحوَها، فقال عليٌّ: والله لا أمحاه. فقال رسول الله ﷺ: «أرني مكانَها» فأراه، فمحاها وكتب: ابن عبد الله[١]. قال علماؤنا ﵏: وظاهر هذا أنه عليه الصلاة والسلام محا تلك الكلمة التي هي رسول الله - ﷺ - بيده، وكتب مكانها: ابن عبد الله. وقد رواه البخاري بأظهرَ من هذا، فقال: فأخذَ رسولُ الله ﷺ الكتابَ فكتب[٢]. وزاد في طريق أخرى: ولا يحسن أن يكتب[٣]. فقال جماعةٌ بجواز هذا الظاهر عليه وأنه كتب بيده، منهم السمناني وأبو ذرّ والباجي، ورأوا أنَّ ذلك غيرُ قادحٍ في كونه أُميًّا، ولا مُعارِضٌ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ ولا لقوله: «إنَّا أمةٌ أميَّةٌ لا نكتب ولا نحسب»[٤] بل رأوه زيادة في معجزاته، واستظهاراً على صدقه وصحة رسالته، وذلكَ أنه كتب من غير تعلُّمٍ لكتابة، ولا تعاطٍ لأسبابها، وإنَّما أجرى الله تعالى على يده وقلمه حركاتٍ كانت عنها خطوطٌ مفهومُها ابنُ عبد الله لمن قرأها، فكان ذلك خارقاً للعادة، كما أنه عليه الصلاة والسلام عَلِمَ الأوَّلين والآخرين من غير تعلُّمٍ ولا اكتساب، فكان ذلك أبلغَ في معجزاته، وأعظمَ في فضائله. ولا يزول عنه اسمُ الأميِّ بذلك؛ ولذلك قال الراوي عنه في هذه الحالة: ولا يُحسنُ أن يكتب[٥]. فبقي عليه اسمُ الأميِّ مع كونه قال: كتب. قال شيخنا أبو العباس أحمد بن عمر: وقد أنكر هذا كثيرٌ من متفقِّهة الأندلس وغيرهم، وشدَّدوا النكير فيه، ونسبوا قائله إلى الكفر، وذلك دليلٌ على عدم العلوم النظرية، وعد التوقُّفِ في تكفير المسلمين، ولم يتفطَّنوا؛ لأنَّ تكفير المسلم كقتله على ما جاء عنه عليه الصلاة والسلام في الصحيح[٦]، لاسيما

(١) صحيح مسلم (١٧٨٣). وهو في مسند أحمد (١٨٥٦٧)، والبخاري (٢٦٩٨).

(٢) صحيح البخاري (٢٦٩٩).

(٣) صحيح البخاري (٤٢٥١).

(٤) سلف ٢/٢١٦ .

(٥) في المفهم ٣/ ٦٣٧-٦٣٨ ، وما قبله منه، يعني من قوله: وظاهر هذا أنه....

(٦) أخرجه أحمد (١٦٣٨٥)، والبخاري (٦١٠٥) من حديث ثابت بن الضحاك ﵁ مرفوعاً بلفظ: «من رمى مؤمناً بكفرٍ فهو كقتله».

رميُ مَنْ شهِدَ له أهل العصر بالعلم والفضل والإمامة، على أنَّ المسألة ليست قطعية، بل مستندُها ظواهِرُ أخبار أحادٍ صحيحة، غير أن العقل لا يُحيلها، وليس في الشريعة قاطعٌ يُحيلُ وقوعَها.

قلتُ: وقال بعض المتأخِّرين: مَنْ قال: هي آيةٌ خارقة، فيقال له: كانت تكون آيةً لا تُنكرُ لولا أنَّها مناقضَةٌ لآيةٍ أخرى وهي كونه أمياً لا يكتب، وبكونه أميًّا في أمَّةٍ أميَّةٍ قامت الحج، وأُفحِمَ الجاحدون، وانحسمتِ الشُّبهة، فكيف يُطلِقُ الله تعالى يده فيكتب وتكون آية. وإنَّما الآيةُ ألاَّ يكتب، والمعجزات يستحيل أن يدفَعُ بعضُها بعضاً. وإنما معنى كتب وأخذ القلم، أي: أمرَ مَنْ يكتبُ به من كُتَّابه، وكان من كَتَبةِ الوحي بين يديه ﷺ ستةٌ وعشرون كاتباً[1].

الثالثة: ذكر القاضي عياض عن معاوية أنه كان يكتب بين يدي النبي ﷺ فقال له: «ألقِ الدَّواةَ، وحرِّفِ القلَمَ، وأقِم الباءَ، وفرِّقِ السينَ، ولا تُعوِّرِ الميمَ، وحَسِّنِ الله، ومُدَّ الرحمنَ، وجَوِّدِ الرحيم»[2] قال القاضي: وهذا وإن لم تصحَّ الروايةُ أنه ﷺ كتبَ فلا يَبعُدُ أن يُرزَقَ عِلمُ هذا، ويُمنعَ القراءةَ والكتابة[3].

قلت: هذا هو الصحيح في الباب أنه ما كتب ولا حرفاً واحداً، وإنما أمر من يكتب وكذلك ما قرأ ولا تهجَّى. فإن قيل: فقد تهجَّى النبيُّ ﷺ حين ذكر الدجَّال فقال: «مكتوبٌ بين عينيه: ك ا ف ر»[4] وقلتُم: إنَّ المعجزة قائمةٌ في كونه أميًّا؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ﴾ الآية، وقال: «إنَّا أمةٌ أميَّةٌ لا نكتب

(١) الروض الأنف ٤/ ٣٦.

(٢) ذكره الديلمي في الفردوس ٥/ ٣٩٤. وأخرجه السمعاني في أدب الإملاء والاستملاء ص١٧٠ من طريق الوليد بن مسلم، عن يزيد بن يزيد بن جابر، عن مكحول، عن معاوية ﷺ. الوليد بن مسلم يدلس التسوية ولم يصرح بالتحديث في كل طبقات الإسناد. ومكحول لم يسمع من معاوية فيما ذكر ابن أبي حاتم في المراسيل ص١٦٦.

(٣) المسألة في الشفا ١/ ٧٠٢-٧٠٣.

(٤) أخرجه أحمد (١٢٠٠٤)، والبخاري (٧١٣١)، ومسلم (٢٩٣٣) من حديث أنس ﷺ.

ولا نحسب» فكيف هذا؟ فالجواب ما نصَّ عليه رسول الله ﷺ في حديث حذيفة، والحديث كالقرآن يفسِّرُ بعضُه بعضاً، ففي حديث حذيفة: «يقرؤه كلُّ مؤمن كاتبٍ وغيرِ كاتب»[١] فقد نصَّ في ذلك على غير الكتاب ممن يكون أميًّا. وهذا من أوضح ما يكون جليًّا.

قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ يعني القرآن. قال الحسن: وزعمَ الفرَّاء في قراءة عبد الله: «بَلْ هيَ آياتٌ بَيِّناتٌ» المعنى: بل آياتُ القرآن آياتٌ بيِّنات. قال الحسن: ومثله ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ﴾ [الأعراف: ٢٠٣] ولو كانت هذه لجاز، نظيره: ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى﴾ [الكهف: ٩٨][٢] قال الحسن: أُعطيتْ هذه الأمة الحِفظ، وكان مَنْ قبلها لا يقرؤون كتابَهم إلاَّ نظراً، فإذا أطبقوه لم يحفظوا ما فيه إلاَّ النبيُّون، فقال كعب في صفة هذه الأمة: إنهم حكماءُ علماءُ، وهم في الفقه أنبياء[٣]. ﴿فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أي: ليس هذا القرآن كما يقوله المبطلون من أنه سحرٌ أو شعر، ولكنه علاماتٌ ودلائلُ يُعرَفُ بها دينُ اللهِ وأحكامُه. وهي كذلك في صدور الذين أوتوا العلم، وهم أصحاب محمدٍ ﷺ والمؤمنون به، يحفظونه ويقرؤونه. ووصفهم بالعلم؛ لأنهم ميَّزوا بأفهامهم بين كلام الله وكلام البشر والشياطين. وقال قتادة وابن عباس: ﴿بَلْ هُوَ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ من أهل الكتاب يجدونه مكتوباً عندهم في كتبهم بهذه الصفة أميًّا لا يقرأ ولا يكتب، ولكنهم ظلموا أنفسهم وكتموا[٤]. وهذا اختيار الطبري[٥]. ودليلُ هذا القول قراءةُ ابن مسعود

(١) أخرجه أحمد (٢٣٢٧٩)، ومسلم (٢٩٣٤): (١٠٥).

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٨، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣١٧، وقراءة عبد الله هذه شاذة.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٨٧.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٧١ بنحوه.

(٥) في تفسيره ١٨/ ٤٢٧.

وابن السَّمَيفَع: «بَلْ هَذَا آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ»[١] وكان عليه الصلاة والسلام آياتٍ لا آيةً واحدة؛ لأنه دلَّ على أشياءَ كثيرةٍ من أمر الدين؛ فلهذا قال: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾. وقيل: بل هو ذو آيات بيِّنات، فحذف المضاف. ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: الكفار؛ لأنهم جحدوا نبوَّته وما جاء به.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ هذا قول المشركين لرسول الله ﷺ، ومعناه: هلاَّ أُنزِلَ عليه آيةٌ كآيات الأنبياء[٢]. قيل: كما جاء صالحٌ بالناقة، وموسى بالعصا، وعيسى بإحياء الموتى[٣]، أي: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ فهو يأتي بها كما يريد، إذا شاء أرسلها وليست عندي ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[٤].

وقرأ ابن كثير وأبو بكر وحمزة والكسائي: «آيةٌ» بالتوحيد. وجمع الباقون[٥]. وهو اختيار أبي عبيد؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾[٦].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ هذا جوابٌ

(١) وهي قراءة شاذة.

(٢) الوسيط ٣/ ٤٢٣ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٨٨ .

(٤) الوسيط ٣/ ٤٢٣ ، وزاد المسير ٦/ ٢٧٩ .

(٥) السبعة ص٥٠١ ، والتيسير ص١٧٤ .

(٦) وردَّ هذا الاختيار أبو علي الفارسي في الحجة للقراء السبعة ٥/ ٤٣٥ .

لقولهم: «لَولا أُنزِلَ عَلَيهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ»[١]. أي: أوَ لم يكفِ المشركين من الآيات هذا الكتابُ المعجزُ الذي قد تحدَّيتَهُم بأن يأتوا بمثله و بسورةٍ منه، فعجزوا، ولو أتيتَهم بآيات موسى وعيسى لقالوا: سحرٌ ونحن لا نعرف السحر، والكلام مقدورٌ لهم، ومع ذلك عجزوا عن المعارضة.

وقيل: إنَّ سبب نزول هذه الآيات ما رواه ابن عُيَينة عن عَمرو بن دينار عن يحيى ابن جَعدة قال: أُتيَ النبيُّ ﷺ بكتفٍ فيه كتاب، فقال: «كفى بقومٍ ضلالةً أن يرغبوا عمَّا جاء به نبيُّهم إلى ما جاء به نبيٌّ غيرُ نبيِّهم أو كتابٌ غيرُ كتابهم» فأنزل الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أخرجه أبو محمد الدارميُّ في «مسنده»[٢]. وذكره أهل التفسير في كتبهم[٣]. وفي مثل هذا قال ﷺ لعمر ﷺ: «لو كان موسى بن عمران حيًّا لَما وسِعَه إلاَّ اتِّباعي»[٤] وفي مثله قال ﷺ: «ليس مِنَّا منْ لم يَتغَنَّ بالقرآن»[٥] أي: يستغني به عن غيره. وهذا تأويل البخاري رحمه الله في الآية[٦]. وإذا كان لقارِئهِ بكلِّ حرفٍ عشرُ حسناتٍ فأكثر على ما ذكرناه في مقدمة الكتاب، فالرغبة عنه إلى غيره ضلالٌ وخُسرانٌ وغُبنٌ ونقصان.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في القرآن ﴿لَرَحْمَةً﴾ في الدنيا والآخرة. وقيل: رحمةً في

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٢.

(٢) (٤٧٨)، وأخرجه أبو داود في المراسيل (٤٥٤)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٣٨٠). وإسناده مرسل.

(٣) ذكره النحاس في معاني القرآن ٥/ ٢٣٣، وأبو الليث في تفسيره ٢/ ٥٤١، والماوردي في النكت والعيون ٤/ ٢٨٨ - ٢٨٩، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٢، وابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٢٧٩.

(٤) أخرجه أحمد (١٥١٥٦) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ، وفي إسناده مجالد بن سعيد الهمداني، وهو ضعيف.

وأخرجه أيضاً بنحوه (١٥٨٦٤) من حديث عبد الله بن ثابت ﷺ، وفي إسناده جابر بن يزيد الجعفي، وهو ضعيف أيضاً.

(٥) سلف ١/ ٢١.

(٦) إنما هو تأويل سفيان بن عيينة فيما نقل عنه البخاري في صحيحه عقب الحديث (٥٠٢٤).

الدنيا باستنقاذهم من الضلالة. ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ في الدنيا بإرشادهم به إلى الحق ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[١].

قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ أي: قُلْ للمكذِّبين لكَ: كفى بالله شهيداً يشهدُ لي بالصدق فيما أدَّعِيه من أني رسولُه، وأنَّ هذا القرآنَ كتابُه[٢].

﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: لا يخفى عليه شيء. وهذا احتجاجٌ عليهم في صحة شهادته عليهم؛ لأنهم قد أقرُّوا بعلمه فلزمهم أن يُقِرُّوا بشهادته. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ﴾ قال يحيى بن سلاَّم: بإبليس. وقيل: بعبادة الأوثان والأصنام. قاله ابن شجرة. ﴿وَكَفَرُوا بِاللَّهِ﴾ أي: لتكذيبهم برسله، وجَحْدِهم لكتابه. وقيل: بما أشركوا به من الأوثان، وأضافوا إليه من الأولاد والأضداد. ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أنفسهم وأعمالهم في الآخرة[٣].

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٣ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ۝٥٤ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٥٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ لمَّا أنذرهم بالعذاب قالوا لفرط الإنكار: عَجِّلْ لنا هذا العذاب. وقيل: إنَّ قائل ذلك النَّضر بن الحارث وأبو جهل حين قالا: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] وقولهم: ﴿رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦].

وقوله: ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ في نزول العذاب. قال ابن عباس: يعني: هو ما وعدتُكَ ألاَّ أُعذِّبَ قومك وأؤخرهم إلى يوم القيامة. بيانه: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٨٩ .

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٧١ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٨٩ .

[القمر: ٤٦]. وقال الضحَّاك: هو مدَّة أعمارهم في الدنيا(١). وقيل: المراد بالأجل المسمى النفخة الأولى. قاله يحيى بن سلاّم(٢). وقيل: الوقت الذي قدَّره الله لهلاكهم وعذابهم. قاله ابن شجرة. وقيل: هو القتل يوم بدر(٣). وعلى الجملة فلكلِّ عذابٍ أجلٌ لا يتقدَّم ولا يتأخَّر. دليله قوله: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام: ٦٧]. ﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ يعني: الذي استعجلوه. ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ أي: فجأة. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: لا يعلمون بنزوله عليهم(٤). ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ أي: يستعجلونك وقد أعدَّ لهم جهنم وأنها ستحيط بهم لا محالة، فما معنى الاستعجال. وقيل: نزلت في عبد الله بن أبي أمية وأصحابه من المشركين حين قالوا ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ [الإسراء: ٩٢].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ قيل: هو متَّصلٌ بما هو قبله، أي: يوم يصيبهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم، فإذا غشيهم العذاب أحاطت بهم جهنم(٥). وإنما قال: ﴿وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ للمقاربة، وإلَّا فالغشيان من فوق أعَمُّ، كما قال الشاعر:

عَلَفْتُها تِبْنًا وماءً بارِدا(٦)

وقال آخر:

لقد كان قَوَّادَ الجيادِ إلى العِدا ... عليهِنَّ غابٌ من قَنًى ودروعِ(٧)

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٧١، وقول الضحاك في الوسيط ٣/ ٤٢٤، وزاد المسير ٦/ ٢٨٠.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٩٠.

(٣) زاد المسير ٦/ ٢٨٠ عن الثعلبي.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٩٠.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٢.

(٦) هذا صدر بيت عجزه: حتى شتت همَّالةً عيناها. وقد سلف ١/ ٢٩١.

(٧) قائله الفرزدق، وهو في ديوانه ص٤١٠، وفيه: الوغى بدل العدا.

﴿وَيَقُولُ ذُوقُوا﴾ قرأ أهل المدينة والكوفة: «نَقُولُ» بالنون. الباقون بالياء. واختاره أبو عبيد؛ لقوله: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ﴾ ويحتمل أن يكون الملَك الموكَّل بهم يقول: «ذُوقُوا» والقراءتان ترجع إلى معنى. أي: يقول الملَكُ بأمرنا: ذوقوا[(١)].

قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ﴾ هذه الآية نزلت في تحريض المؤمنين الذين كانوا بمكة على الهجرة ـ في قول مقاتل والكلبي ـ فأخبرهم الله تعالى بِسَعة أرضه، وأنَّ البقاء في بقعةٍ على أذى الكفار ليس بصواب، بل الصواب أن تُتلمَّسَ عبادةُ الله في أرضه مع صالحي عباده[(٢)]، أي: إن كنتم في ضيقٍ من إظهار الإيمان بها فهاجروا إلى المدينة فإنها واسعة؛ لإظهار التوحيد بها[(٣)]. وقال ابن جُبير وعطاء: إنَّ الأرض التي فيها الظلمُ والمنكرُ تترتَّبُ فيها هذه الآية، وتلزم الهجرة عنها إلى بلد حق. وقاله مالك[(٤)]. وقال مجاهد: ﴿إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ﴾ فهاجروا وجاهدوا[(٥)]. وقال مُطرِّف[بن عبد الله] بن الشِّخِّير: المعنى: إنَّ رحمتي واسعة. وعنه أيضاً: إنَّ رزقي لكم واسعٌ فابتغوه في الأرض[(٦)]. قال سفيان الثوري: إذا كنتَ بأرضٍ غاليةٍ

(١) السبعة ص٥٠١ ، والتيسير ص١٧٤ . وينظر الحجة للقراء السبعة ٥/ ٤٣٦ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٤ . وذكر مقاتل والكلبي من تفسير البغوي ٣/ ٤٧٢ .

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٤٢ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٧٢ ، وزاد المسير ٦/ ٢٨١ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٤ .

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٢ .

(٦) النكت والعيون ٤/ ٢٩١ . والقول الثاني في تفسير البغوي ٣/ ٤٧٢ ، وزاد المسير ٦/ ٢٨١ . وما بين حاصرتين من تلك المصادر.

فانتقِلْ إلى غيرها تملأُ فيها جِرابَكَ خبزاً بدرهم. وقيل: المعنى: إنَّ أرضي التي هي أرض الجنة واسعة. ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾ حتى أورثكموها[١]. ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ «إيَّايَ» منصوبٌ بفعلٍ مضمر، أي: فاعبدوا إيَّايَ فاعبدون، فاستغنى بأحد الفعلين عن الثاني، والفاء في قوله: «فَإِيَّايَ» بمعنى الشرط[٢]، أي: إنْ ضاقَ بكم موضعٌ فإيَّايَ فاعبدوني [في غيره][٣]؛ لأن أرضي واسعة.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ تقدَّم في «آل عمران»[٤]. وإنما ذكره هاهنا تحقيراً لأمر الدنيا ومخاوفها. كأنَّ بعض المؤمنين نظر في عاقبةٍ تلحقه في خروجه من وطنه من مكة أن يموت أو يجوع أو نحو هذا، فحقَّرَ اللهُ شأن الدنيا. أي: أنتم لا مَحالةَ ميِّتون ومحشورون إلينا، فالبِدار إلى طاعة الله والهجرة إليه وإلى ما يمتثل. ثم وعد المؤمنين العاملين بسكنى الجنة تحريضاً منه تعالى، وذكر الجزاء الذي ينالونه، ثم نعتهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾[٥]. وقرأ أبو عمرو ويعقوب والجحدري وابن أبي إسحاق وابن مُحيصن والأعمش وحمزة والكسائي وخلف: «يا عِبادِي» بإسكان الياء. وفتحها الباقون[٦]. «إنَّ أرْضِي» فتحَها ابن عامر، وسكَّنها الباقون[٧].

ورويَ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ فَرَّ بدينه من أرضٍ إلى أرضٍ ولو قيدَ شبرٍ استوجبَ الجنة، وكان رفيقَ محمد وإبراهيم» عليهما السلام[٨].

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٣٤ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٧٢-١٧٣ .

(٣) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.

(٤) ٥/ ٤٤٧ فما بعده.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٤ .

(٦) قراءة أبي عمرو وحمزة والكسائي في السبعة ص٥٠١-٥٠٢ ، وقراءتهم وقراءة يعقوب وخلف وهما من العشرة في النشر ٢/ ١٧٠ .

(٧) السبعة ص٥٠٢ ، والتيسير ص١٧٤ .

(٨) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٤٢ ، والكشاف ٣/ ٢١٠ ، وقد سلف ٧/ ٦٤ .

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ وقرأ السُّلميُّ وأبو بكر عن عاصم: «يُرْجَعُونَ» بالياء؛ لقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ وقرأ الباقون بالتاء؛ لقوله: ﴿يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾[1] وأنشد بعضهم:

الموتُ في كلِّ حينٍ يَنشدُ الكَفنَا ونحنُ في غفلةٍ عَمَّا يُرادُ بِنا
لا تَركنَنَّ إلى الدُّنيا وزَهرتِها وإنْ توشَّحْتَ من أثوابِها الحَسنا
أينَ الأحبةُ والجيرانُ ما فَعَلُوا أينَ الذين هُمُو كانوا لها سَكَنا
سقَاهُمُ الموتُ كأساً غيرَ صافيةٍ صيَّرهم تحتَ أطباقِ الثَّرَى رُهُنا

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ وقرأ ابن مسعود والأعمش ويحيى بن وثَّاب وحمزة والكسائي: ﴿لَنُثْوِينَّهم﴾ بالثاء مكان الباء من الثُّويِّ: وهو الإقامة[2]، أي: لَنُعطينَّهم غُرفاً يثوون فيها[3]. وقرأ رويس عن يعقوب والجحدري والسُّلمي: «لَيُبَوئَنَّهُمْ» بالياء مكان النون[4]. الباقون ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ أي: لنُنزلَنَّهم ﴿غُرَفًا﴾[5] جمع غرفة وهي العُلِّيَّة المُشرِفة[6]. وفي «صحيح مسلم»[7] عن سعيد الخدري[8] أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ أهل الجنة لَيتراءَون أهلَ الغُرَفِ من فوقهم كما تتراءونَ الكوكبَ الدُّرِّيَّ الغابِرَ من الأفق من المشرق أو المغرب لِتفاضُلِ ما بينهم» قالوا: يا رسول الله، تلك منازلُ الأنبياء لا يبلُغُها غيرُهم. قال: «بلى،

(١) قراءة أبي بكر عن عاصم في السبعة ص٥٠٢ ، والتيسير ص١٧٤ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٤ دون ذكر الأعمش. وقراءة حمزة والكسائي في السبعة ص٥٠٢، والتيسير ص١٧٤ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٣٤ .

(٤) المشهور عن يعقوب: لنبوِّئَنَّهم. النشر ٢/ ٣٤٤ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٣٤ .

(٦) الصحاح (غرف).

(٧) (٢٨٣١). وأخرجه البخاري (٣٢٥٦).

(٨) في النسخ: سهل بن سعد، والتصويب من الصحيحين.

والذي نفسي بيده رجالٌ آمنوا بالله وصدَّقوا المرسلين». وخرَّج التِّرمذي[١] عن عليٍّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ في الجنة لَغُرفاً يُرى ظهورُها من بطونِها وبطونُها من ظهورِها» فقام إليه أعرابيٌّ فقال: لِمن هي يا رسولَ الله؟ قال: «هي لمن أطابَ الكلام، وأطعمَ الطعام، وأدام الصيام، وصلَّى للهِ بالليلِ والناسُ نِيام» وقد زِدْنا هذا المعنى بياناً في كتاب «التذكرة»[٢] والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ﴾ أسند الواحديُّ عن يزيد بن هارون قال: حدَّثنا الجرَّاح[٣] بن المِنهال، عن الزُّهري ـ وهو عبد الرحمن بن عطَّاف[٤] ـ عن عطاء، عن ابن عمر قال: خرَجْنا مع رسول الله ﷺ حتى دخلَ بعضَ حيطان الأنصار، فجعلَ يلتقط من الثمر [ويأكل] فقال: «يا ابن عمر، مالَكَ لا تأكل؟» فقلتُ: لا أشتهيه يا رسول الله. فقال: «لكنِّي أشتهيه، وهذه صبيحةُ رابعةٍ لم أذُقْ طعاماً، ولو شئتُ لَدَعوتُ ربي فأعطاني مثلَ ملك كسرى وقيصر، فكيف بِكَ يا ابن عمر إذا بقيتَ في قوم يُخبِئون رزقَ سَنَتهم ويَضْعُفُ اليقين» قال: واللهِ ما بَرِحْنا حتى نزلت: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[٥].

قلت: وهذا ضعيفٌ يُضعِفه أنه عليه الصلاة والسلام كان يدَّخِرُ لأهله قوتَ

---

(١) في سننه (١٩٨٤) و(٢٥٢٧)، وهو في مسند أحمد من زوائد ابنه عبد الله (١٣٣٨).

(٢) ص٤٦١-٤٦٤ .

(٣) في النسخ: حجاج، والتصويب من المصادر.

(٤) في النسخ: عبد الرحيم بن عطاء، وفي أسباب النزول: عبد الرحمن بن عطاء، وفي الوسيط: عبد الرحيم بن عطاف، والتصويب من تهذيب التهذيب ٢/ ٥٣٤ ، وثقات ابن حبان ٧/ ٧٠ .

(٥) أسباب النزول ص٣٥٨-٣٥٩ ، والوسيط ٣/ ٤٢٥ ، وما بين حاصرتين منهما. وأخرجه ـ أيضاً ـ عبد بن حميد (٨١٦)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٤٧١٤)، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤/ ١٢٧ من طريق يزيد بن هارون، به. إلا أنهم قالوا: عن رجل، بدل: عطاء. والجراح بن منهال متروك. ميزان الاعتدال ١/ ٣٩٠ . وعبد الرحمن بن عطاف مجهول الحال، تفرد بالرواية عنه اثنان، ولم يوثقه غير ابن حبان على عادته في توثيق المجاهيل.

سَنَتِهِم. اتَّفق عليه البخاري ومسلم[١]. وكانت الصحابةُ يفعلون ذلك وهم القدوة، وأهلُ اليقين والأئمةُ لمن بعدهم من المتقين المتوكلين. وقد روى ابن عباسٍ أنَّ النبيَّ ﷺ قال للمؤمنين بمكة حين آذاهم المشركون: «اخرجوا إلى المدينة وهاجِروا ولا تجاوروا الظَّلَمة» قالوا: ليس لنا بها دارٌ ولا عقارٌ ولا مَنْ يُطعِمُنا ولا مَنْ يسقينا. فنزلت: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾[٢] أي: ليسَ معها رزقُها مُدَّخراً، وكذلك أنتم يرزقكم الله في دار الهجرة[٣]. وهذا أشبهُ من القول الأوَّل. وتقدَّم الكلامُ في «كَأَيِّنْ» وأنَّ هذه «أيّ» دخلت عليه كاف التشبيه وصارَ فيها معنى كم. والتقدير عند الخليل وسيبويه كالعدد. أي: كشيءٍ كثيرٍ من العدد من دابة[٤]. قال مجاهد: يعني الطير والبهائم تأكل بأفواهها ولا تحمل شيئاً. الحسن: تأكل لوقتها ولا تدَّخِرُ لغد[٥]. وقيل: ﴿لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ أي: لا تقدِرُ على رزقها[٦] ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا﴾ أينما توجَّهت ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾[٧]. وقيل: الحملُ بمعنى الحَمالة[٨]. وحكى النقَّاش: أنَّ المُرادَ النبيُّ ﷺ يأكلُ ولا يدَّخر[٩].

قلت: وليس بشيء؛ لإطلاق لفظ الدابة، وليس مستعملاً في العُرفِ إطلاقُها على الآدميّ فكيف على النبيِّ ﷺ. وقد مضى هذا في «النمل» عند قوله: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ [الآية: ٨٢]. قال ابن عباس: الدوابُّ: هو كلُّ

(١) صحيح البخاري (٥٣٥٧)، وصحيح مسلم (١٧٥٧) (٥٠) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.
(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٩٣، وتفسير البغوي ٣/ ٤٧٣.
(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٤ بنحوه.
(٤) سلف ٥/ ٣٤٩.
(٥) النكت والعيون ٤/ ٢٩٣.
(٦) مجمع البيان ٢٠/ ٣٧٧.
(٧) زاد المسير ٦/ ٢٨٣.
(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٥.
(٩) النكت والعيون ٤/ ٢٩٣.

ما دبَّ من الحيوان، فكلُّه لا يَحمِلُ رِزقَه ولا يَدَّخِرُ إلاَّ ابنُ آدم والنملُ والفأر(١). وعن بعضهم: رأيتُ البلبل يحتكر في مِحضَنِه. ويُقال: للْعَقْعَقِ مَخابئ إلاَّ أنه ينساها(٢). ﴿ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ﴾ يسوِّي بين الحريص والمتوكل في رزقه، وبين الراغب والقانع، وبين الحَيُول والعاجز حتى لا يغتَّر الجَلِدُ أنه مرزوقٌ بجَلَده، ولا يتصوَّرَ العاجزُ أنه ممنوعٌ بَعجزِه(٣). وفي الصحيح عن النبيِّ ﷺ: «لو أنَّكم تَوَكَّلون على الله حقَّ تَوكُّلِه لَرزَقَكم كما يرزقُ الطيرَ تغدو خِماصاً وتروحُ بِطاناً»(٤). ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لدعائِكم وقولِكم: لا نجِدُ ما نُنفِقُ بالمدينة ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بما في قلوبكم(٥).

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ۝٦١ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ۝٦٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ الآية. لما عيَّر المشركون المسلمين بالفقر وقالوا: لو كنتم على حقٍّ لم تكونوا فقراء. وكان هذا تمويهاً، وكان في الكفار فقراء أيضاً أزال الله هذه الشبهة. وكذا قول من قال: إنْ هاجرنا لم نجِدْ ما نُنفِقُ. أي: فإذا اعترفتم بأن الله خالق هذه الأشياء، فكيفَ تشكُّون في الرزق، فمَنْ بيده تكوين الكائنات لا يعجز عن رزق العبد؛ ولهذا وصلَه بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ﴾. ﴿فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ أي: كيف يكفرون بتوحيدي وينقلبون عن عبادتي. ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أي: لا يختلف أمرُ الرزق بالإيمان والكفر، فالتوسيع والتقتير منه فلا تعيير بالفقر، فكلُّ شيءٍ بقضاءٍ وقدر. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ

(١) المصدر السابق.

(٢) الكشاف ٣/ ٢١١.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٩٣.

(٤) سلف ٧/ ٢٩٧ و١٠/ ١٥٩.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٣، وزاد المسير ٦/ ٢٨٣.

شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ من أحوالكم وأموركم. وقيل: عليمٌ بما يُصلحكم من إقتارٍ أو توسيع.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي: من السحاب مطراً. ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾ أي: جَدْبِها وقَحْطِ أهلها. ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ أي: فإذا أقررتُم بذلك فلِمَ تشركون به وتنكرون الإعادة. وإذا قَدَر على ذلك فهو القادر على إغناء المؤمنين، فكرَّرَ تأكيداً. ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: على ما أوضح من الحُججِ والبراهين على قدرته. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: لا يتدبَّرون هذه الحجج. وقيل: «الحَمْدُ للهِ» على إقرارهم بذلك[1]. وقيل: على إنزال الماء وإحياء الأرض.

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ أي: شيءٌ يلْهَى به ويُلعَب. أي: ليس ما أعطاه اللهُ الأغنياء من الدنيا إلا وهو يضمحِلُّ ويزول، كاللعب الذي لا حقيقةَ له ولا ثبات، قال بعضهم: الدنيا إن بقيت لكَ لم تبْقَ لها. وأنشد:

تروحُ لنا الدنيا بغيرِ الذي غَدَتْ وتَحدُثُ من بعدِ الأمورِ أمورُ
وتجري الليالي باجتماعٍ وفُرقَةٍ وتطلُعُ فيها أنجمٌ وتَغُورُ
فمن ظنَّ أنَّ الدهرَ باقٍ سرورُهُ فذاكَ مُحالٌ لا يَدُومُ سرورُ
عَفَا اللهُ عَمَّن صَيَّرَ الهمَّ واحداً وأيقَنَ أنَّ الدائراتِ تَدُورُ

قلت: وهذا كلُّه في أمور الدنيا والجاه والملبس الزائد على الضروري الذي به قوام العيش، والقوَّةُ على الطاعات. وأما ما كان منها لله فهو من الآخرة، وهو الذي يبقى كما قال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧] أي: ما ابتُغيَ به ثوابُه ورضاه. ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ أي: دار الحياة الباقية التي لا تزول ولا

(١) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٤٣، وتفسير البغوي ٣/ ٤٧٤.

موتَ فيها[١]. وزعم أبو عبيدة: أنَّ الحيوانَ والحياةَ والحيَّ ـ بكسر الحاءِ ـ واحدٌ، كما قال:

وقـــد تـــرى إذِ الـــحـــيـــاةُ حِـــيُّ

وغيره يقول: إنَّ الحِيَّ جمعٌ على فِعول مثل عِصي[٢]. والحيوان يقع على كلِّ شيءٍ حيٍّ. وحيوان عينٌ في الجنة. وقيل: أصلُ حَيَوان حَبيان، فأُبدِلَتْ إحداهُما واواً؛ لاجتماع المثلين[٣]. ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أنها كذلك.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ يعني السفن وخافوا الغرق ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: صادقين في نيَّاتهم، وتركوا عبادة الأصنام ودعاءها[٤]. ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي: يدعون معه غيره، وما لم يُنزِّل به سلطاناً. وقيل: إشراكهم أن يقولَ قائلُهم: لولا اللهُ والرئيسُ أو الملاَّحُ لَغرقنا، فيجعلون ما فعل الله لهم من النجاة قسمةً بين الله وبين خلقه.

قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟﴾ قيل: هما لام كي، أي: لكي يكفروا ولكي يتمتعوا. وقيل: ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ ليكون ثمرة شِركهم أن يجحدوا نِعَمَ الله ويتمتعوا بالدنيا. وقيل: هما لام أمرٍ معناه التهديد والوعيد[٥]. أي اكفروا بما أعطيناكم من النعمة والنجاة من البحر وتمتَّعوا. ودليل هذا قراءة أُبيٍّ: «وتَمَتَّعُوا»[٦].

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣١٨، وتفسير البغوي ٣/ ٤٧٤.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٥٩-٢٦٠، وقول أبي عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ١١٧، والرجز للعجاج كما في اللسان (حيا) وتتمته: وإذ زمان الناس دغفليُّ.

(٣) المحكم لابن سيده (حي).

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٦٣، وتفسير البغوي ٣/ ٤٧٤.

(٥) الوسيط ٣/ ٤٢٦، وتفسير البغوي ٣/ ٤٧٤، وزاد المسير ٦/ ٢٨٤.

(٦) تفسير أبي الليث ٢/ ٥٤٤، وهي قراءة شاذة.

ابن الأنباري: ويقوّي هذا قراءة الأعمش ونافع وحمزة: ﴿ولْيتمتَّعوا﴾ بجزم اللام. النحاس: «وَلِيتَمَتَّعُوا» لام كي، ويجوز أن تكون لام أمر؛ لأنَّ أصل لام الأمر الكسر، إلا أنه أمر فيه معنى التهديد. ومن قرأ: ﴿ولْيتمتَّعوا﴾ بإسكان اللام لم يجعلها لام كي؛ لأن لام كي لا يجوز إسكانها[١]. وهي قراءة ابن كثير والمسيّبي وقالون عن نافع، وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم. الباقون بكسر اللام[٢]. وقرأ أبو العالية: «لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ»[٣] تهديد ووعيد.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ قال عبد الرحمن بن زيد: هي مكة وهم قريش أمَّنهم الله تعالى فيها .﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْۚ﴾ قال الضحاك: يقتل بعضهم بعضاً ويَسبي بعضهم بعضاً[٤]. والخطف: الأخذ بسرعة. وقد مضى في «القصص»[٥] وغيرها. فأذكرهم الله عزَّ وجلَّ هذه النعمة ليذعنوا له بالطاعة. أي: جعلتُ لهم حرماً آمناً أمِنوا فيه من السَّبي والغارة والقتل، وخلَّصتُهم في البر كما خلصتُهم في البحر، فصاروا يُشركون في البرِّ ولا يُشركون في البحر. فهذا تعجُّبٌ من تناقض أحوالهم.

﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ قال قتادة: أفبالشرك. وقال يحيى بن سلاَّم: أفبإبليس. ﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ قال ابن عباس: أفبعافية الله. وقال ابن شجرة: أفبعطاءِ الله وإحسانه.

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٠ .

(٢) السبعة ص٥٠٢ ، والتيسير ص١٧٤ .

(٣) الشاذة ص١١٥ .

(٤) النكت والعيون ٤/ ٢٩٤ .

(٥) ١٦/ ٢٩٩ .

وقال ابن سلاّم: أفبما جاء به النبيُّ ﷺ من الهدى. وحكى النقَّاش: أفبإطعامهم من جوعٍ، وأمنهم من خوفٍ يكفرون. وهذا تعجُّبٌ وإنكارٌ خرج مخرج الاستفهام(١).

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: لا أحدَ أظلمُ ممَّنْ جعلَ مع الله شريكاً وولداً، وإذا فعل فاحشة قال: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف:٢٨]. ﴿أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾ قال يحيى بن سلاّم: بالقرآن. وقال السُّدِّي: بالتوحيد. وقال ابن شجرة: بمحمدٍ ﷺ(٢). وكلُّ قول يتناول القولين .﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: مستقر. وهو استفهام تقرير(٣).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا﴾ أي: جاهدوا الكفار فينا. أي: في طلب مرضاتنا. وقال السُّدِّيُّ وغيره: إنَّ هذه الآية نزلت قبل فرض القتال. قال ابن عطية: فهي قبل الجهاد العُرفي، وإنما هو جهادٌ عامٌّ في دين الله وطلب مرضاته. قال الحسن ابن أبي الحسن: الآية في العُبَّاد. وقال ابن عباس وإبراهيم بن أدهم: هي في الذين يعملون بما يعلمون. وقد قال ﷺ: «مَنْ عَمِلَ بما عَلِمَ علَّمه اللهُ ما لم يعلم»(٤) ونزع بعضُ العلماء إلى قوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ﴾ [البقرة:٢٨٢]. وقال عمر بن عبد العزيز: إنما قصَّر بنا عن علم ما جهلنا تقصيرُنا في العلم بما علمنا، ولو عملنا ببعض ما علمنا لأورثنا علماً لا تقوم به أبداننا؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ﴾. وقال أبو سليمان الداراني: ليس الجهادُ في الآية قتالَ الكفار فقط، بل هو نصرُ الدين، والردُّ على المبطلين، وقمعُ الظالمين، وعُظْمُه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنه مجاهدة النفوس في طاعة الله، وهو الجهاد الأكبر. وقال

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٢٩٤ .

(٢) المصدر السابق.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٤ ، ومجمع البيان ٢٠/ ٣٨٢ .

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١٠/ ١٥ من حديث أنس بن مالك ﷺ.

سفيان بن عُيَينة لابن المبارك: إذ رأيتَ الناسَ قدِ اختلفوا فعليكَ بالمجاهدين وأهل الثغور، فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ﴾. وقال الضحَّاك: معنى الآية: والذين جاهدوا في الهجرة لنهدينَّهم سُبُلَ الثبات على الإيمان(١). ثم قال: مثَلُ السُّنَّة في الدنيا كمثل الجنة في العُقبى، مَنْ دخل الجنة في العُقبى سَلِمَ، كذلك مَنْ لَزِمَ السُّنةَ في الدنيا سَلِمَ. وقال عبد الله بن عباس: والذين جاهدوا في طاعتنا لنهدينَّهم سُبُلَ ثوابنا(٢). وهذا يتناول بعموم الطاعة جميعَ الأقوال، ونحوُه قولُ عبد الله بن الزبير قال: تقول الحكمة: مَنْ طلبني فلم يجدْني فليطلُبْني في موضعين: أن يعمل بأحسنَ ما يعلَمُه، ويجتنبَ أسوأ ما يعلَمُه. وقال الحسن بن الفضل: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ، أي: الذين هديناهم هم الذين جاهدوا فينا.

﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أي: طريق الجنة. قاله السُّدِّيُّ. النقَّاش: يوفِّقهم لدين الحق. وقال يوسف بن أسباط: المعنى: لنُخْلِصنَّ نيَّاتِهم وصدقاتِهم وصلَواتِهم وصيامَهم(٣). ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ لامُ تأكيدٍ، ودخلت في «مَعَ» على أحد وجهين: أن يكون اسماً، ولامُ التوكيد إنما تدخل على الأسماء، أو حرفاً فتدخل عليها؛ لأنَّ فيها معنى الاستقرار، كما تقول: إنَّ زيداً لفي الدار. و«مَعَ» إذا سُكِّنتْ فهي حرفٌ لا غير. وإذا فُتِحتْ جاز أن تكون اسماً، وأن تكون حرفاً، والأكثرُ أن تكون حرفاً جاء لمعنى(٤). وتقدَّم معنى الإحسان والمحسنين في «البقرة»(٥) وغيرها. وهو سبحانه معهم بالنُّصرة والمعونة، والحفظ والهداية، ومع الجميع بالإحاطة والقدرة. فبين المعيَّتين بَونٌ.

تمت سورة العنكبوت، والحمد لله وحده

---

(١) من بداية الآية إلى هنا من المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٦.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٥.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٩٥.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٠.

(٥) ٣/ ٢٦٣.

تفسير سورة العنكبوت

[وهى] [١] مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝٣ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤ ﴾ .

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم فى أول سورة « البقرة ».

وقوله : ﴿ **أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ** ﴾ استفهام إنكار ، ومعناه: أن الله سبحانه وتعالى لابد أن يبتلى عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان ، كما جاء فى الحديث الصحيح : « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان فى دينه صلابة زيد فى البلاء »[٢] وهذه الآية كقوله : ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ**[٣] ﴾ [آل عمران : ١٤٢] ،ومثلها فى سورة « براءة » وقال فى البقرة :﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ** ﴾ [البقرة : ٢١٤] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ **وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ** ﴾ أى : الذين صدقوا فى دعواهم الإيمان ممن هو كاذب فى قوله ودعواه . والله سبحانه وتعالى يعلم ما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون [٤] . وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة ؛ ولهذا يقول ابن عباس وغيره فى مثل : ﴿ **إِلَّا لِنَعْلَمَ** ﴾ [البقرة :١٤٣] : إلا لنرى ؛ وذلك أن الرؤية إنما تتعلق بالموجود ، والعلم أعم من الرؤية، فإنه [يتعلق] [٥] بالمعدوم والموجود .

وقوله :﴿ **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** ﴾ أى : لا يحسبن الذين لم يدخلوا فى الإيمان أنهم يتخلصون من هذه الفتنة والامتحان ، فإن من ورائهم من العقوبة والنكال ما

(١) زيادة من ف ، أ .

(٢) المسند (١ / ١٧٢) ، والترمذى فى السنن برقم (٢٣٩٨)،من طريق مصعب بن سعد عن أبيه سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ، وقال الترمذى : « حديث حسن صحيح » .

(٣) هكذا وقعت الآية فى جميع المخطوطات ، والصواب بعدم إثبات قوله تعالى :﴿ **وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ** ﴾ ؛ لأنها ليست نهاية تزييل الآية ونهاية تزييل الآية : ﴿ **وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ .

(٤) فى ف ، أ : « كيف كان يكون » .

(٥) زيادة من ف ، أ .

هو أغلظ من هذا وأطم ؛ ولهذا قال :﴿ **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا** ﴾ أى :يفوتونا ، ﴿ **سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ**﴾ أى : بئس ما يظنون .

﴿ مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٥) وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٧) ﴾ .

يقول تعالى :﴿ **مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ** ﴾ أى : فى الدار الآخرة ، وعمل الصالحات رجاء ما عند الله من الثواب الجزيل ، فإن الله سيحقق له رجاءه ويوفيه عمله كاملا موفوراً (١) ، فإن ذلك كائن لا محالة ؛ لأنه سميع الدعاء ، بصير بكل الكائنات (٢) ؛ ولهذا قال :﴿ **مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾.

وقوله :﴿ **وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ** ﴾ ، كقوله : ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ** ﴾ [فصلت: ٤٦] أى : من عمل صالحاً فإنما يعود نفع عمله على نفسه ، فإن الله غنى عن أفعال العباد ، ولو كانوا كلهم على أتقى قلب رجل [واحد] (٣) منهم ، ما زاد ذلك فى ملكه شيئاً ؛ ولهذا قال : ﴿ **وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ** ﴾.

قال الحسن البصرى : إن الرجل ليجاهد ، وما ضرب يوما من الدهر بسيف.

ثم أخبر أنه مع غناه عن الخلائق جميعهم من إحسانه وبره بهم يجازى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أحسن الجزاء، وهو أنه يكفر عنهم أسوأ الذى عملوا ، ويجزيهم أجرهم بأحسن ما (٤) كانوا يعملون ، فيقبل القليل من الحسنات ، ويثيب عليها الواحدة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، ويجزى على السيئة بمثلها أو يعفو ويصفح ، كما قال تعالى :﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ [النساء : ٤٠] ، وقال هاهنا :﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾.

﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (٩) ﴾ .

يقول تعالى آمراً عباده بالإحسان إلى الوالدين بعد الحث على التمسك بتوحيده ، فإن الوالدين هما سببُ وجود الإنسان ،ولهما عليه (٥) غاية الإحسان ، فالوالد بالإنفاق والوالدة بالإشفاق ؛ ولهذا قال تعالى :﴿ **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل**

(١) فى أ : « موفراً » .
(٢) فى ت : « بصير بالكائنات » .
(٣) زيادة من أ .
(٤) فى ت ،ف ، أ : « الذى » .
(٥) فى أ : « إليه ».

لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا . وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ [الإسراء : ٢٣، ٢٤] .

ومع هذه الوصية بالرأفة والرحمة والإحسان إليهما ، فى مقابلة إحسانهما المتقدم ، قال: **﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا ﴾** أى : وإن حرَصا عليك أن تتابعهما فى دينهما إذا كانا مشركين ،فإياك وإياهما ، لا تطعهما فى ذلك ، فإن مرجعكم إلى يوم القيامة ، فأجزيك بإحسانك إليهما، وصبرك على دينك ، وأحشرك مع الصالحين لا فى زمرة والديك ، وإن كنت أقرب الناس إليهما فى الدنيا ، فإن المرء إنما يحشر يوم القيامة مع من أحب ، أى:حباً دينيا ؛ ولهذا قال :**﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴾**.

وقال [١] الترمذى عند تفسير هذه الآية : حدثنا محمد بن بشار ومحمد بن المثنى ، حدثنا محمد ابن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن سمَاك بن حرب قال : سمعت مُصعَب بن سعد يحدث عن أبيه سعد ، قال : نزلت فيَّ أربع آيات . فذكَر قصة ، وقالت أم سعد : أليس قد أمرك الله بالبر ؟ والله لا أطعَمُ طعاما ولا أشرب شرابا حتى أموت أو تكفر، قال : فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شَجَروا فاها ،فأنزل الله[٢] **﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ ﴾** الآية .

وهذا الحديث رواه الإمام أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائى أيضا[٣] ، وقال الترمذى : حسن صحيح .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (١١) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن صفات قوم من [المكذبين] [٤] الذين يدعون الإيمان بألسنتهم ، ولم يثبت الإيمان فى قلوبهم ، بأنهم إذا جاءتهم فتنة ومحنة فى الدنيا ، اعتقدوا أن هذا من نقمة الله تعالى بهم، فارتدوا عن الإسلام؛ ولهذا قال : **﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾** .

قال ابن عباس: يعنى: فتنته أن يرتد عن دينه إذا أوذى فى الله . وكذا قال غيره من علماء السلف. وهذه الآية كقوله تعالى : **﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾** [الحج : ١١] .

ثم قال : **﴿ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾** أى : ولئن جاء نصر قريب من ربك ـ يا محمد ـ وفتح ومغانم، ليقولن هؤلاء لكم: إنا كنا معكم ،أى [كنا] [٥] إخوانكم فى الدين، كما

(١) فى ت : « وروى » . (٢) فى ت ، ف : « فنزلت ».
(٣) سنن الترمذى برقم (٣٠٧٩) ، والمسند (١/ ١٨١) ، وصحيح مسلم برقم (١٧٤٨) ، وسنن أبى داود برقم (٢٧٤٠) .
(٤) زيادة من ف ، أ . (٥) زيادة من ف .

قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النساء : ١٤١] ، وقال تعالى: ﴿ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾ [المائدة : ٥٢] .

وقال تعالى مخبرا عنهم هاهنا : ﴿ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ ، ثم قال تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴾ أى: أو ليس الله بأعلم بما فى قلوبهم ،وما تُكنّه ضمائرهم ، وإن أظهروا لكم الموافقة ؟

وقوله : ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ أى : وليختبرَنّ الله الناس بالضراء والسراء،ليتميز هؤلاء من هؤلاء ، ومن يطيع الله فى الضراء والسراء ، إنما يطيعه فى حظ نفسه ، كما قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد : ٣١]، وقال تعالى بعد وقعة أحد ، التى كان فيها ما كان من الاختبار والامتحان : ﴿ مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ الآية [آل عمران : ١٧٩] ، [والله أعلم] (١) .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٢) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣) ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن كفار قريش : أنهم قالوا لمن آمن منهم واتبع الهدى :ارجعوا عن دينكم إلى ديننا، واتبعوا سبيلنا ،﴿ وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ ﴾ أى : وآثامكم ـ إن كانت لكم آثام فى ذلك ـ علينا وفى رقابنا ، كما يقول القائل : « افعل هذا وخطيئتك فى رقبتى ». قال الله تكذيبا لهم : ﴿ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أى : فيما قالوه : إنهم يحملون عن أولئك خطاياهم ، فإنه لا يحمل أحد وزر أحد ، ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ [فاطر : ١٨]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا . يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ [المعارج : ١٠ ، ١١] .

وقوله : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ : إخبار عن الدعاة إلى الكفر والضلالة ، أنهم يوم القيامة يحملون أوزار أنفسهم ،وأوزاراً أخَر بسبب من أضلوا من الناس ، من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئا ، كما قال تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [النحل : ٢٥] .

وفى الصحيح :« من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة ، من غير أن ينقص من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم

(١) زيادة من ف .

القيامة ، من غير أن ينقص من آثامهم شيئا » [١] وفى الصحيح : « ما قتلت نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفْل من دمها ؛ لأنه أول من سَنّ القتل» [٢] .

وقوله : ﴿ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أى : يكذبون ويختلقون من البهتان .

وقد ذكر [٣] ابن أبى حاتم هاهنا حديثا فقال: حدثنا أبى ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا صدقة ، حدثنا عثمان بن حفص بن أبى العالية ،حدثنى سليمان بن حبيب المحاربى [٤] ، عن أبى أمامة ،رضى الله عنه ، قال : إن رسول الله ﷺ بلغ ما أرسل به ، ثم قال :« إياكم والظلم ، فإن الله يعزم يوم القيامة فيقول: وعزتى لا يجوزنى اليوم ظلم ! ثم ينادى مناد فيقول : أين فلان ابن فلان؟ فيأتى يتبعه من الحسنات أمثال الجبال ، فيشخص الناس إليها أبصارهم حتى يقوم بين يدى الله الرحمن عز وجل ثم يأمر المنادى فينادى [٥] : من كانت له تبَاعة ـ أو : ظُلاَمة ـ عند فلان ابن فلان ، فهلمّ . فيقبلون حتى يجتمعوا قياماً بين يدى الرحمن، فيقول الرحمن : اقضوا عن عبدى . فيقولون : كيف نقضى عنه ؟ فيقول لهم : خذوا لهم من حسناته . فلا يزالون يأخذون منها حتى لا يبقى له حسنة ، وقد بقى من أصحاب الظلامات ، فيقول : اقضوا عن عبدى . فيقولون : لم يبق له حسنة . فيقول : خذوا من سيئاتهم فاحملوها عليه » . ثم نزَع النبى ﷺ بهذه الآية الكريمة :﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ .

وهذا الحديث له شاهد [٦] فى الصحيح [٧] من غير هذا الوجه .

وقال [٨] ابن أبى حاتم :حدثنا أحمد بن أبى الحوارى ، حدثنا أبو بشر الحذاء ، عن أبى حمزة [٩] الثمالى ، عن معاذ بن جبل ، رضى الله عنه ،قال: قال لى رسول الله ﷺ : « يا معاذ ، إن المؤمن يسأل يوم القيامة عن جميع سعيه ، حتى عن كُحْل عينيه ، وعن فتات الطينة بإصبعيه [١٠] ، فلا أَلْفينَّكَ تأتى يوم القيامة وأحد أسعد بما آتاك [١١] الله منك» [١٢] .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١٤) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٥) ﴾ .

هذة تسلية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه ، يخبره عن نوح [١٣] ، عليه السلام ، : أنه مكث [١٤] فى قومه هذه المدة يدعوهم إلى الله ليلا ونهاراً، وسراً ، وجهاراً ،

(١) تقدم تخريج الحديث عند الآية : ٢ من سورة المائدة .

(٢) تقدم تخريج الحديث عند الآية : ٣٠ من سورة المائدة .

(٣) فى ت: « روى » . (٤) فى أ : « البخارى » . (٥) فى ت ، ف : « أن ينادى » .

(٦) فى ف ، أ : « شواهد » .

(٧) بعدها فى ت ، أ : « إن الرجل ليأتى يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال وقد ظلم هذا ، وأخذ مال هذا ، وأخذ من عرض هذا ، فأخذ هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإذا لم يبق له حسنة ، أخذ من سيئاتهم ، فطرح عليه » .

(٨) فى ت : « وروى » . (٩) فى أ : « عن أبى النسائى » .

(١٠) فى أ : « بإصبعه » . (١١) فى ت ، ف : « أتاه » .

(١٢) ورواه أبو نعيم فى الحلية (١٠/ ٣١) من طريق إسحاق بن أبى حسان عن أحمد بن أبى الحوارى به .

(١٣) فى ت : « قوم نوح» . (١٤) فى أ : « لبث » .

ومع هذا ما زادهم ذلك إلا فراراً عن الحق ،وإعراضا عنه وتكذيبا له ، وما آمن معه منهم إلا قليل ؛ ولهذا قال : ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ أى : بعد هذه المدة الطويلة ما نجع فيهم البلاغ والإنذار ، فأنت ـ يا محمد ـ لا تأسف على من كفر بك من قومك ، ولا تحزن عليهم ؛ فإن الله يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، وبيده الأمر وإليه ترجع [١] الأمور ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧] ، واعلم أن الله سيظهرك وينصرك ويؤيدك ، ويذل عدوك ، ويكبتهم ويجعلهم أسفل السافلين .

قال حماد بن سلمة ، عن على بن زيد ، عن يوسف بن ماهَك[٢] ، عن ابن عباس قال : بعث نوح وهو لأربعين سنة ، ولبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ،وعاش بعد الطوفان ستين عاما ، حتى كثر الناس وفشوا .

وقال قتادة :يقال إن عمره كله [كان] [٣] ألف سنة إلا خمسين عاماً ،لبث فيهم قبل أن يدعوهم ثلثمائة سنة،ودعاهم ثلثمائة ولبث بعد الطوفان ثلثمائة وخمسين سنة .

وهذا قول غريب ، وظاهر السياق من الآية أنه مكث فى قومه يدعوهم إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاما .

وقال عون بن أبى شداد : إن الله أرسل نوحا إلى قومه وهو ابن خمسين وثلثمائة سنة ، فدعاهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، ثم عاش بعد ذلك ثلثمائة وخمسين سنة .

وهذا أيضا غريب ، رواه ابن أبى حاتم ، وابن جرير ، وقول ابن عباس أقرب ، والله أعلم .

وقال الثورى ،عن سلمة بن كُهَيْل ، عن مجاهد قال : قال لى ابن عمر:كم لبث نوح فى قومه ؟ قال: قلت: ألف سنة إلا خمسين عاما . قال : فإن الناس لم يزالوا فى نقصان من أعمارهم وأحلامهم وأخلاقهم إلى يومك هذا .

وقوله : ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ ﴾ أى : الذين آمنوا بنوح عليه السلام . وقد تقدم ذكر ذلك مفصلا فى سورة « هود » ، وتقدم تفسيره بما أغنى عن إعادته .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ أى : وجعلنا تلك السفينة باقية ، إما عينها كما قال قتادة : إنها بقيت إلى أول الإسلام على جبل الجودى ، أو نوعها جعله للناس تذكرة لنعمه على الخلق ، كيف نجّاهم من الطوفان ، كما قال تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ . وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ .وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنقَذُونَ. إِلاَّ رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [يس: ٤١ ـــ ٤٤] ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ . لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١١ ، ١٢] ،وقال هاهنا : ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ ، وهذا من باب التدريج من الشخص إلى الجنس ، كقوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ

(١) فى ف : « يرجع » . (٢) فى أ : « وائل » . (٣) زيادة من ت ، ف ، أ .

﴿ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ﴾ [الملك : ٥] أي : وجعلنا نوعها ، فإن التي يرمى [١] بها ليست هي التي زينة للسماء [٢] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ [المؤمنون : ١٢ ، ١٣] ، ولهذا نظائر كثيرة .

وقال ابن جرير : لو قيل : إن الضمير فى قوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا [٣] ﴾ ، عائد إلى العقوبة ، لكان وجهاً ، والله أعلم .

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٨) ﴾ .

يخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء : أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، والإخلاص له فى التقوى ، وطلب الرزق منه وحده لا شريك له ، وتوحيده فى الشكر [٤] ، فإنه المشكور على النعم ، لا مُسْدىَ لها غيره ، فقال لقومه: ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ﴾ أى : أخلصوا له العبادة والخوف ، ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى:إذا فعلتم ذلك حصل لكم الخير فى الدنيا والآخرة ، واندفع عنكم الشر فى الدنيا والآخرة .

ثم أخبرهم أن الأصنام التى يعبدونها والأوثان ، لا تضر ولا تنفع ، وإنما اختلقتم أنتم لها أسماء ، سميتموها [٥] آلهة،وإنما هى مخلوقة مثلكم . هكذا روى العوفى عن ابن عباس . وبه قال مجاهد ، والسدى .

وروى الوالبى [٦] ، عن ابن عباس : وتصنعون إفكا ، أى : تنحتونها أصناماً . وبه قال مجاهد ـ فى رواية ـ وعكرمة ، والحسن ، وقتادة وغيرهم ، واختاره ابن جرير ، رحمه الله .

وهى لا تملك لكم رزقا ، ﴿ فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ ﴾ وهذا أبلغ فى الحصر ، كقوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : ٥] ، ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ﴾ [التحريم : ١١] ؛ ولهذا قال : ﴿ فَابْتَغُوا ﴾ أى فاطلبوا ﴿ عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ ﴾ أى : لا عند غيره ، فإن غيره لا يملك شيئاً ، ﴿ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾ أى : كلوا من رزقه واعبدوه وحده [٧] ، واشكروا له على ما أنعم به عليكم ، ﴿ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أى : يوم القيامة ، فيجازى كل عامل بعمله .

وقوله : ﴿ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ﴾ أى : فبلغكم ما حل بهم من العذاب والنكال فى مخالفة الرسل ، ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾ يعنى : إنما على الرسول أن يبلغكم ما أمره الله تعالى

(١) فى ف : « ترمى » . (٢) فى أ: « السماء » . (٣) فى ت : « وجعلناها آية للعالمين » .
(٤) فى أ : « الشرك » . (٥) فى ف :« فسميتموها » . (٦) فى أ : « البخارى » .
(٧) فى ف ، أ : « وحده لا شريك له » .

به من الرسالة ،والله يضل من يشاء ويهدى من يشاء ، فاحرصوا [١] لأنفسكم أن تكونوا من السعداء .

وقال قتادة فى قوله : ﴿ **وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ** ﴾ قال : يُعزى نبيه ﷺ . وهذا من قتادة يقتضى أنه قد انقطع الكلام الأول ، واعترض بهذا إلى قوله : ﴿ **فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ** ﴾ . وهكذا نص على ذلك ابن جرير أيضا [٢] .

والظاهر من السياق أن كل هذا من كلام إبراهيم الخليل ، عليه السلام [لقومه] [٣] يحتج عليهم لإثبات المعاد ، لقوله بعد هذا كله : ﴿ **فما كَانَ جَوَابَ قَوْمِه** ﴾ ، والله أعلم .

﴿ **أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٢٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣)** ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن الخليل ، عليه السلام ، أنه أرشدهم إلى إثبات المعاد الذى ينكرونه ، بما يشاهدونه فى أنفسهم من خلق الله إياهم ، بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا ، ثم وجدوا وصاروا أناساً سامعين مبصرين، فالذى بدأ هذا قادر على إعادته ؛ فإنه سهل عليه يسير لديه .

ثم أرشدهم إلى الاعتبار بما فى الآفاق من الآيات المشاهدة [٤] من خلق الله الأشياء : السماوات وما فيها من الكواكب النيرة : الثوابت ، والسيارات ، والأرضين وما فيها من مهاد وجبال ، وأودية وبرارىّ وقفار ، وأشجار وأنهار ، وثمار وبحار ، كل ذلك دال على حدوثها فى أنفسها ، وعلى وجود صانعها الفاعل المختار، الذى يقول للشىء : كن ، فيكون ؛ولهذا قال : ﴿ **أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** ﴾ ، كقوله : ﴿ **وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ** ﴾ [الروم : ٢٧] .

ثم قال تعالى : ﴿ **قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ** ﴾ أى : يوم القيامة ، ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ . وهذا المقام شبيه بقوله تعالى : ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ** ﴾ [فصلت : ٥٣] ، وكقوله تعالى : ﴿ **أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ . أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ** ﴾ [الطور : ٣٥ ، ٣٦] .

وقوله : ﴿ **يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ** ﴾ أى : هوالحاكم المتصرف ، الذى يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد ، لا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، فله الخلق والأمر ، مهما فعل فَعَدْلٌ ؛ لأنه

---

(١) فى ت : « فأخلصوا » .
(٢) تفسير الطبرى (٢٠ / ٨٩) .
(٣) زيادة من أ .
(٤) فى أ : « الباهرة » .

المالك الذى لا يظلم مثقال ذرة ، كما جاء فى الحديث الذى رواه أهل السنن :« إن الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه ، لعذبهم وهو غير ظالم لهم »[(١)] ولهذا قال تعالى :﴿ **يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ** ﴾ أى : ترجعون يوم القيامة .

وقوله : ﴿ **وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ** ﴾ أى : لا يعجزه أحد من أهل سماواته وأرضه ، بل هو القاهر فوق عباده ، وكل شىء خائف منه ، فقير إليه ، وهو الغنى عما سواه .

﴿ **وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ** ﴾ أى : جحدوها[(٢)] وكفروا بالمعاد ، ﴿ **أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي** ﴾ أى : لا نصيب لهم فيها ، ﴿ **وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ أى :موجع فى الدنيا والآخرة .

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٥) ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن قوم إبراهيم فى كفرهم وعنادهم ومكابرتهم ، ودفعهم الحق بالباطل : أنه ما كان لهم جواب بعد مقالة إبراهيم هذه المشتملة على الهدى والبيان،﴿ **إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ** ﴾ ، وذلك لأنهم قام عليهم البرهان ، وتوجهت عليهم الحجة ، فعدلوا إلى استعمال جاههم وقوة ملكهم، ﴿ **قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ . فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ** ﴾ [الصافات : ٩٧ ، ٩٨] ، وذلك أنهم حَشَدوا فى جمع أحطاب عظيمة مدة طويلة ،وحَوّطوا حولها ،ثم أضرموا فيها النار، فارتفع لها لهب إلى عَنَان السماء : ولم توقد[(٣)] نار قط أعظم منها ، ثم عمدوا إلى إبراهيم فكتفوه وألقوه فى كفَّة المنجنيق ، ثم قذفوا به فيها ، فجعلها الله عليه برداً وسلاماً ، وخرج منها سالماً بعدما مكث فيها أياماً . ولهذا وأمثاله جعله الله للناس إماماً . فإنه بذل نفسه للرحمن ، وجَسَده للنيران ، وسخا بولده للقربان ، وجعل ماله للضيفان ، ولهذا اجتمع على محبته جميع أهل الأديان .

وقوله :﴿ **فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ** ﴾ أى : سَلَّمه[الله][(٤)] منها ، بأن جعلها عليه برداً وسلاماً ، ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ يقول لقومه مقرّعاً لهم وموبخاً على سوء صنيعهم ، فى عبادتهم الأوثان : إنما اتخذتم هذه لتجتمعوا على عبادتها فى الدنيا ، صداقة وألفة منكم ، بعضكم لبعض فى الحياة الدنيا . وهذا على قراءة من نصب ﴿**مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ**﴾ ، على أنه مفعول له ، وأما على قراءة الرفع فمعناه : إنما اتخاذكم[(٥)] هذا يُحَصّل لكم المودة

---

(١) رواه أبو داود فى السنن برقم (٤٦٩٩) وابن ماجه فى السنن برقم (٧٧) من حديث أبى بن كعب وزيد بن ثابت رضى الله عنهما.
(٢) فى ت ، ف ، أ : « جحدوا بها ».
(٣) فى ت : « توجد ».
(٤) زيادة من ت ، ف .
(٥) فى ف ، أ : « إنما اتخذتم » .

فى الدنيا فقط ، ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ، ينعكس هذا الحال ،فتبقى هذه الصداقة والمودة بَغْضَة وشنآنا ، فـ ﴿ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ ﴾ أى : تتجاحدون ما كان بينكم ،﴿ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً ﴾ أى : يلعن الأتباع المتبوعين ، والمتبوعون [1] الأتباع ، ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ [الأعراف : ٣٨]، وقال تعالى : ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف : ٦٧] ، وقال هاهنا :﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ أى: ومصيركم ومرجعكم بعد عرصات القيامة إلى النار ، وما لكم من ناصر ينصركم ، ولا منقذ ينقذكم من عذاب الله . وهذا حال الكافرين ، فأما المؤمنون فبخلاف ذلك .

قال [2] ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن إسماعيل الأَحْمَسى[3] ،حدثنا أبو عاصم الثقفى [حدثنا][4] الربيع بن إسماعيل بن عمرو بن سعيد بن جعدة بن هُبَيْرة المخزومى ، عن أبيه ، عن جده [5] ، عن أم هانئ ـ أخت على بن أبى طالب ـ قالت : قال لى النبى ﷺ : « أخبرك أن الله تعالى يجمع الأولين والآخرين يوم القيامة فى صعيد واحد ، فمن يدرى أين الطرفان [6]»، فقالت الله ورسوله أعلم « ثم ينادى مناد من تحت العرش : يا أهل التوحيد ، فيشرئبون » قال أبو عاصم : يرفعون رؤوسهم « ثم ينادى يا أهل التوحيد، ثم ينادى الثالثة : يا أهل التوحيد ، إن الله قد عفا عنكم » قال: « فيقوم الناس قد تعلق بعضهم ببعض فى ظُلامات الدنيا ـ يعنى : المظالم ـ ثم ينادى: يا أهل التوحيد ، ليعف بعضكم عن بعض ، وعلى الله الثواب » [7] .

﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم :أنه آمن له لوط ، يقال :إنه ابن أخى إبراهيم ،يقولون هو:لوط ابن هاران بن آزر ، يعنى : ولم يؤمن به من قومه سواه ، وسارة امرأة [إبراهيم] [8] الخليل .لكن يقال: كيف الجمع بين هذه الآية ،وبين الحديث الوارد فى الصحيح [9] : أن إبراهيم حين مَرّ على ذلك الجبار، فسأل إبراهيم عن سارة : ما هى منه ؟ فقال: [هى] [10] أختى،ثم جاء إليها فقال لها: إنى قد قلت له : « إنك: أختى» ، فلا تكذبينى ، فإنه ليس على وجه الأرض[أحد] [11] مؤمن غيرك وغيرى [12] ، فأنت أختى فى الدين . وكأن المراد من هذا ـ والله وأعلم ـ أنه ليس على وجه

(١) فى ت، ف : « المتبوعين » وهو خطأ . (٢) فى ت : « روى » . (٣) فى أ : « الأحمصى » .
(٤) زيادة من ف ، أ . (٥) فى ت : « بإسناده » . (٦) فى ت ، ف : « الطرفين » .
(٧) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٤٨٠٣) من طريق محمد بن إسماعيل الأحمسى به ، وقال :« لا يروى عن أم هانئ إلا بهذا الإسناد ، تفرد به أبو عاصم » . وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٣٥٥) : « فيه أبو عاصم ـ الربيع بن إسماعيل ـ منكر الحديث، قاله أبو حاتم ».
(٨) زيادة من ف ، أ .
(٩) صحيح مسلم برقم (٢٣٧١) .
(١٠) زيادة من ت .
(١١) زيادة من ت ، أ . (١٢) فى ت : « غيرى وغيرك» .

الأرض زوجان على الإسلام غيرى وغيرك ، فإن لوطاً ، عليه السلام ، آمن به من قومه ، وهاجر معه إلى بلاد الشام ، ثم أرسل فى حياة الخليل إلى أهل « سَدوم » وإقليمها ، وكان من أمرهم (١) ما تقدم وما سيأتى .

وقوله :﴿ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ : يحتمل عود الضمير فى قوله :﴿ وَقَالَ ﴾ ، على لوط ، لأنه(٢) أقرب المذكورين ، ويحتمل عوده إلى إبراهيم ـ قال(٣) ابن عباس ، والضحاك: هو المكنى عنه بقوله :﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ﴾ أى : من قومه .

ثم أخبر عنه بأنه اختار المهاجرة من بين أظهرهم ، ابتغاء إظهار الدين والتمكن من ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أى : له العزة ولرسوله وللمؤمنين به ،﴿ الْحَكِيمُ ﴾ ، فى أقواله وأفعاله وأحكامه القدرية والشرعية .

وقال قتادة : هاجرا جميعاً من « كوثى » ، وهى من سواد (٤) الكوفة إلى الشام . قال : وذُكر لَنا أن نبىّ الله ﷺ قال : « إنها ستكون هجرة بعد هجرة ، ينحاز أهل الأرض إلى مُهَاجَرَ إبراهيم ، ويبقى فى الأرض شرار أهلها ،حتى تلفظهم أرضهم وتقذرُهم روح الله ، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير،تبيت معهم إذا باتوا ، وتَقيل معهم إذا قالوا ، وتأكل ما سقط منهم » .

وقد أسند الإمام أحمد هذا الحديث ، فرواه مطولا من حديث عبد الله بن عمرو بْن العاص ، قال(٥) :

حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا مَعْمَر ، عن قتادة ، عن شَهْر بن حَوْشَب قال : لما جاءتنا بيعة يزيد ابن معاوية ، قدمت الشام فأخبرت بمقام يقومه نوف البِكَالى ، فجئته؛ إذ جاء رجل ، فانتبذَ الناس وعليه خَميصة ، وإذا (٦) هو عبد الله بن عمرو بن العاص . فلما رآه نوف أمسك عن الحديث ، فقال عبد الله: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إنها ستكون هجرة بعد هجرة ،فينحاز الناس إلى مُهَاجَرَ إبراهيم ، لا يبقى فى الأرض إلا شرار أهلها ، فتلفظهم (٧) أرضوهم ، تقْذَرهم نفسُ الرحمن ، تحشرهم النار مع القردة والخنازير فتبيت معهم إذا باتوا ، وتَقيل معهم إذا قالوا ، وتأكل منهم من تَخَلَّف » . قال : و سمعت رسول الله ﷺ يقول : « سيخرج أناس (٨) من أمتى من قبل المشرق ، يقرؤون القرآن لا يجاوز تَرَاقيهم ،كلما خرج منهم قرن قُطع ، كلما خرج منهم قرن قطع » حتى عَدّها زيادة على عشرين مرة « كلما خرج منهم قرن قطع ، حتى يخرج الدجال فى بقيتهم »(٩) .

ورواه أحمد عن أبى داود ، وعبد الصمد ، كلاهما عن هشام الدَّسْتُوائى ، عن قتادة ، به (١٠) .

وقد رواه أبو داود فى سننه ، فقال فى كتاب الجهاد ، باب ما جاء فى سكنى الشام :

حدثنا عبيد الله بن عمر ، حدثنا معاذ بن هشام ،حدثنى [أبى] (١١) ، عن قتادة ، عن شهر بن

(١) فى ت : « إبراهيم » . (٢) فى ت ، ف :« الذى هو » . (٣) فى أ : « قاله » .
(٤) فى ف ، أ : « من أرض سواد » . (٥) فى أ : « فقال » . (٦) فى ف : « فإذا » .
(٧) فى ف : « تلفظهم » . (٨) فى ت : « ناس » .
(٩) المسند (٢/١٩٨) .
(١٠) المسند (٢/٢٠٩) .
(١١) زيادة من سنن أبى داود .

حوشب، عن عبد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول:« ستكون هجرة بعد هجرة ، فخيار أهل الأرض ألزمهم مُهاجَر إبراهيم ، ويبقى فى الأرض شرار أهلها تلفظهم أرضهم وتَقْذرهم نفس الرحمن ، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير » (١) .

وقال (٢) الإمام أحمد أيضاً :حدثنا يزيد ،أخبرنا أبو جَنَاب يحيى بن أبى حيَّة ، عن شهر بن حوشب قال : سمعت (٣) عبد الله بن عُمَر يقول (٤) : لقد رأيتُنا وما صاحب الدينار والدرهم بأحق من أخيه المسلم ، ثم لقد رأيتنا بآخرَة الآن ،والدينار والدرهم أحب إلى أحدنا من أخيه المسلم ، ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: « لئن أنتم اتبعتم أذناب البقر ، وتبايعتم بالعينة ، وتركتم الجهاد فى سبيل الله ،ليلزمنكم الله مذلّة فى أعناقكم ، ثم لا تنزع منكم حتى ترجعوا إلى ما كنتم عليه ، وتتوبوا إلى الله عز وجل» . وسمعت رسول الله ﷺ يقول : « لتكونن هجرة بعد هجرة إلى مُهاجر أبيكم إبراهيم حتى لا يبقى فى الأرضين (٥) إلا شرار أهلها وتلفظهم أرضوهم ، وتقذرهم روح الرحمن ، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير ، تقيل حيث يقيلون (٦) ، وتبيت حيث يبيتون ، وما سقط منهم فلها » . ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول:« يخرج من أمتى قوم يسيئون الأعمال ، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم ـ قال يزيد : لا أعلمه إلا قال ـ : يحقر أحدكم علمه مع علمهم، يقتلون أهل الإسلام ، فإذا خرجوا فاقتلوهم ، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم ، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم ، فطوبى لمن قتلهم ،وطوبى لمن قتلوه .كلما طلع منهم قرن قَطعَه الله » . فردد ذلك رسول الله ﷺ عشرين مرة ، أو أكثر،وأنا أسمع (٧) .

وقال الحافظ أبو بكر البيهقى : أخبرنا أبو الحُسَيْنْ بن الفضل ، أخبرنا عبد الله بن جعفر ، حدثنا يعقوب بن سفيان ، حدثنا أبو النضر إسحاق بن يزيد وهشام بن عمار الدمشقيان قالا : حدثنا يحيى ابن حمزة ، حدثنا الأوزاعى ، عن نافع ـ وقال أبو النضر ، عمن حدثه ، عن نافع ـ عن عبد الله بن عمر : أن رسول الله ﷺ قال : « سيهاجر أهل الأرض هجرة بعد هجرة ، إلى مهاجَر إبراهيم ، حتى لا يبقى إلا شرار أهلها ، تلفظهم الأرضون (٨) وتقذرهم روح الرحمن ، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير ، تبيت معهم حيث باتوا ، وتقيل معهم حيث قالوا ، لها ما سقط منهم » .

غريب من حديث نافع . والظاهر أن الأوزاعى قد رواه عن شيخ له من الضعفاء ، والله أعلم . وروايته من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أقرب إلى الحفظ .

وقوله : ﴿ **وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ** ﴾ ،كقوله تعالى: ﴿ **فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا** ﴾[مريم : ٤٩] أى : إنه لما فارق قومَه أقرّ الله عينه بوجود ولد صالح نبى [وولد له ولد صالح] (٩) فى حياة جده .وكذلك (١٠) قال الله: ﴿ **وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ**

(١) سنن أبى داود برقم (٢٤٨٢) .
(٢) فى ت : « وروى » . (٣) فى ت : « عن » . (٤) فى أ : «سمعت عبد الله بن عمرو قال » .
(٥) فى ت ، ف : « الأرض » . (٦) فى ، هـ، ت ، ف ، أ : « تقيل معهم حيث قالوا » والمثبت من المسند .
(٧) المسند (٢/ ٨٤) وقال الهيثمى فى المجمع (٥/ ٢٥١) : « فيه أبو جناب الكلبى وهو ضعيف » . وقال الحافظ ابن حجر فى الفتح (١١ / ٣٨٠) : «سنده لا بأس به ».
(٨) فى ف : « الأرض » . (٩) زيادة من ت ، ف . (١٠) فى ف : « ولذلك ».

وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ [الأنبياء : ٧٢] أى : زيادة ، كما قال : ﴿ **فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ** ﴾ أى : ويولد لهذا الولد ولد فى حياتكما ، تقر به أعينكما . وكون يعقوب ولد لإسحاق نص عليه القرآن ، وثبتت به السنة النبوية ، قال الله : ﴿ **أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** ﴾ [البقرة : ١٣٣] ، وفى الصحيحين : « إن الكريم ابنَ الكريم ابنِ الكريم ابن الكريم يوسفُ بنَ يعقوبَ بن إسحاقَ بن إبراهيم » (١) .

فأما ما رواه العوفى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ** [**نَافِلَةً**] (٢) ﴾ ، قال : « هما ولدا إبراهيم » . فمعناه : أن ولد الولد بمنزلة الولد ؛ فإن هذا أمر لا يكاد يخفى على من هو دون ابن عباس .

وقوله : ﴿ **وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ** ﴾ ، هذه خلْعَة (٣) سنية عظيمة ، مع اتخاذ الله إياه خليلا ، وجعله للناس إماما ، أن جعل فى ذريته النبوة والكتاب ، فلم يوجد نبى بعد إبراهيم عليه السلام ، إلا وهو من سلالته ، فجميع أنبياء بنى إسرائيل من سُلالة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، حتى كان آخرهم عيسى ابن مريم ، فقام فى ملئهم مبشراً بالنبى العربى القرشى الهاشمى ، خاتم الرسل على الإطلاق ، وسيد ولد آدم فى الدنيا والآخرة ، الذى اصطفاه الله من صميم العرب العَرْباء ، من سلالة إسماعيل بن إبراهيم ، عليهم السلام : ولم يوجد نبى من سلالة إسماعيل سواه ، عليه أفضل الصلاة والسلام [من الله تعالى] (٤) .

وقوله : ﴿ **وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ** ﴾ أى : جمع الله له بين سعادة الدنيا الموصولة بسعادة الآخرة ، فكان له فى الدنيا الرزق الواسع الهنىّ والمنزل الرَّحْب ، والمورد العذب ، والزوجة الحسنة الصالحة ، والثناء الجميل ، والذكر الحسن ، فكل أحد يحبه ويتولاه ، كما قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم ، مع القيام بطاعة الله من جميع الوجوه ، كما قال تعالى : ﴿ **وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى** ﴾ [النجم : ٣٧] ، أى : قام بجميع ما أمر به ، وكمل طاعة ربه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ **وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ** ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ . وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ** ﴾ [النحل : ١٢٠ ـ ١٢٢] .

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٨) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ

(١) صحيح البخارى برقم (٤٦٨٨) من حديث ابن عمر ، ولم أجده عند مسلم .

(٢) زيادة من ف ، أ . (٣) فى أ : « خلقة » . (٤) زيادة من ت ، وفى أ : « من الله » .

الْمُفْسِدِينَ (٣٠) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن نبيه لوط ، عليه السلام، أنه أنكر على قومه سُوء صنيعهم ،وما كانوا يفعلونه من قبيح الأعمال ، فى إتيانهم الذكران من العالمين ، ولم يسبقهم إلى هذه الفعلة أحد من بنى آدم قبلهم وكانوا مع هذا يكفرون بالله ، ويكذبون رسوله ويخالفون ويقطعون السبيل ، أى : يقفون فى طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم ،﴿ **وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ** ﴾ ، أى : يفعلون ما لا يليق من الأقوال والأفعال فى مجالسهم التى يجتمعون فيها ، لا ينكر بعضهم على بعض شيئاً من ذلك ، فمن قائل : كانوا يأتون بعضهم بعضا فى الملأ ، قاله مجاهد. ومن قائل : كانوا يتضارطون ويتضاحكون ؛ قالته عائشة ، رضى الله عنها ، والقاسم . ومن قائل : كانوا يناطحون بين الكباش ، ويناقرون بين الديوك ، وكل ذلك كان يصدر عنهم ، وكانوا شراً من ذلك .

وقال الإمام أحمد: حدثنا حماد بن أسامة ،أخبرنى حاتم بن أبى صغيرة ،حدثنا سِمَاك بن حرب، عن أبى صالح ـ مولى أم هانئ ـ عن أم هانئ [١] قالت :سألت رسول الله ﷺ عن قَوله عز وجل : ﴿ **وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ** ﴾ ، قال : « يحذفون أهل الطريق ،ويسخرون منهم ، وذلك المنكر الذى كانوا يأتونه » .

ورواه الترمذى ، وابن جرير ، وابن أبى حاتم من حديث أبى أسامة حماد بن أسامة عن أبى يونس القُشَيرى ، حاتم بن أبى صَغيرة [٢] ، به [٣] . ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث حاتم بن أبى صغيرة [٤] ، عن سِمَاك .

وقال [٥] ابن أبى حاتم : حدثنا الحسن بن عرفة ، حدثنا محمد بن كثير ، عن عمرو بن قيس ، عن الحكم [٦] ، عن مجاهد :﴿ **وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ** ﴾ قال : الصفير ، ولعب الحمام [٧] والجُلاهق ، والسؤال فى المجلس ، وحل أزرار القباء .

وقوله : ﴿ **فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** ﴾ ، وهذا من كفرهم واستهزائهم وعنادهم؛ولهذا استنصر عليهم نبى الله فقال :﴿ **رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ** [٨] ﴾ .

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢) وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣) إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ

---

(١) فى ت :« وروى الإمام أحمد بإسناده عن أم هانئ ».
(٢) فى أ : « حيوة » .
(٣) المسند (٦ / ٣٤١) وسنن الترمذى برقم (٣١٩٠) .
(٤) فى أ : « حيوة » . (٥) فى ت : « وروى » . (٦) فى ت : « بإسناده » .
(٧) فى أ : « الحمار » . (٨) فى أ : « الفاسقين » وهو خطأ .

رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤) وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٣٥) ﴾ .

لما استنصر لوط ، عليه السلام ، الله عليهم ، بعث الله لنصرته ملائكة فمروا على إبراهيم ، عليه السلام ، في هيئة أضياف ، فجاءهم بما ينبغي للضيف ، فلما رأى أنه لا همَّة لهم إلى الطعام نكرهم وأوجس منهم خيفة ،فشرعوا يؤانسونه ويبشرونه بوجود ولد صالح من امرأته سارة ـ وكانت حاضرة ـ فتعجبت من ذلك ، كما تقدم بيانه في سورة « هود » و « الحجر»٠فلما جاءت إبراهيم بالبشرى ، وأخبروه بأنهم أرسلوا لهلاك قوم لوط ، أخذ يدافع لعلهم يُنظَرون،لعل الله أن يهديهم ،ولما قالوا : **﴿ إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ﴾ ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾** أي : من الهالكين ؛ لأنها كانت تمالئهم على كفرهم وبغيهم ودبرهم ٠ ثم ساروا من عنده فدخلوا على لوط في صورة شباب حسان ،فلما رآهم كذلك ، **﴿ سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾** ، أي : اهتم [1] بأمرهم ، إن هو أضافهم خاف [2] عليهم من قومه،وإن لم يضفهم خشي عليهم منهم ، ولم يعلم بأمرهم في الساعة الراهنة ٠ **﴿ قَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِين . إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾** ، وذلك أن جبريل عليه السلام اقتلع قراهم من قرار الأرض ، ثم رفعها إلى عَنَان السماء ،ثم قلبها عليهم٠ وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضود ، مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد ، وجعل [الله][3]مكانها بحيرة خبيثة منتنة ، وجعلهم عبرة إلى يوم التناد (٤) ، وهم من أشد الناس عذابا يوم المعاد ؛ ولهذا قال تعالى : **﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً ﴾** أي : واضحة ، **﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُون ﴾** ، كما قال : **﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾** [الصافات : ١٣٧ ، ١٣٨] ٠

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٣٧) ﴾ .

يخبر تعالى عن عبده ورسوله شعيب ، عليه السلام ، أنه أنذر قومه أهل مَدين ، فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له ، وأن يخافوا بأس الله ونقمته وسطوته يوم القيامة، فقال : **﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ ﴾** .

قال ابن جرير : قال بعضهم : معناه :واخشوا اليوم الآخر ، وهذا كقوله تعالى :**﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِر ﴾** [الممتحنة : ٦] ٠

ثم نهاهم عن العيث في الأرض بالفساد ،وهو السعي فيها والبغي على أهلها ، وذلك أنهم كانوا ينقصون المكيال والميزان ، ويقطعون الطريق على الناس ، هذا مع كفرهم بالله ورسوله ، فأهلكهم الله

---

(١) في ف ، أ : « اغتم »٠ (٢) في أ : « خوفا » ٠ (٣) زيادة من ت ، ف ، أ ٠
(٤) في ت : « القيامة » ٠

برجفة عظيمة زلزلت عليهم بلادهم ، وصيحة أخرجت القلوب من حناجرها [١] ، وعذاب يوم الظلة الذى أزهق الأرواح من مستقرها ، إنه كان عذاب يوم عظيم ٠وقد تقدمت قصتهم مبسوطة فى سورة « الأعراف ، وهود ، والشعراء »٠

وقوله :﴿ **فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِين** ﴾ ، قال قتادة : ميتين ٠ وقال غيره : قد ألقى بعضهم على بعض ٠

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨) وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩) فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾ .

يخبر تعالى عن هؤلاء الأمم المكذبة للرسل كيف أبادهم وتنوع فى عذابهم،فأخذهم [٢] بالانتقام منهم ، فعاد قوم هود ، وكانوا يسكنون الأحقاف وهى قريبة [٣] من حضرموت بلاد اليمن ، وثمود قوم صالح، وكانوا يسكنون الحجر قريباً من وادى القرى ٠ وكانت العرب تعرف مساكنهما [٤] جيدا ، وتمر عليها كثيراً ٠ وقارون صاحب الأموال الجزيلة ومفاتيح الكنوز الثقيلة ٠وفرعون ملك مصر فى زمان موسى ووزيره هامان القبطيان الكافران بالله ورسوله ،﴿ **فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ**﴾ أى : كانت عقوبته بما يناسبه ، ﴿ **فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا**﴾ ، وهم عاد ، وذلك أنهم قالوا : من أشد منا قوة ؟ فجاءتهم ريح صرصر باردة شديدة البرد، عاتية شديدة الهبوب جدا، تحمل عليهم حصباء الأرض فتقلبها عليهم ، وتقتلعهم من الأرض فترفع الرجل منهم إلى عَنَان السماء ، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه فيبقى بدناً بلا رأس ، كأنهم أعجاز نخل منقعر [٥] . ﴿ **وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ** ﴾ ، وهم ثمود ، قامت عليهم الحجة وظهرت لهم [٦] الدلالة ، من تلك الناقة التى انفلقت عنها الصخرة ، مثل ما سألوا سواء بسواء ، ومع هذا ما آمنوا بل استمروا على طغيانهم وكفرهم ، وتهددوا نبى الله صالحاً ومن آمن معه ، وتوعدوهم بأن يخرجوهم ويرجموهم ، فجاءتهم صيحة أخمدت الأصوات منهم والحركات .

﴿ **وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ** ﴾ ، وهو قارون الذى طغى وبغى وعتا ، وعصى الرب الأعلى ، ومشى فى الأرض مرحاً ، وفرح ومرح وتاه بنفسه ، واعتقد أنه أفضل من غيره ، واختال فى مشيته ، فخسف الله به وبداره الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ٠ ﴿ **وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا** ﴾ ، وهم [٧] فرعون ووزيره هامان ، وجنوده عن آخرهم ، أغرقوا فى صبيحة واحدة ، فلم ينج منهم مخبر ، ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ** ﴾ أى : فيما فعل بهم ، ﴿ **وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾ أى : إنما فعل ذلك

(١) فى ت : « حناجرهم » ٠ (٢) فى ت ، ف : « وأخذهم » ٠ (٣) فى أ : « قرية » ٠
(٤) فى ت : « مساكنهم » ٠ (٥) فى ف ، أ : « خاوية » ٠ (٦) فى ف ، أ : « عليهم »٠
(٧) فى ف ، أ : « وهو » ٠

بهم جزاء وفاقا بما كسبت أيديهم .

وهذا الذى ذكرناه ظاهر سياق الآية ، وهو من باب اللف والنشر ، وهو أنه ذكر الأمم المكذبة ، ثم قال: ﴿ فَكُلاًّ (١) أَخَذْنَا بِذَنْبِه ﴾ [الآية] (٢) ، أى : من هؤلاء المذكورين ، وإنما نَبهتُ على هذا لأنه قد روى أن ابن جُرَيج قال :قال (٣) ابن عباس فى قوله : ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾ ،قال : قوم لوط . ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ ، قال : قوم نوح .

وهذا (٤) منقطع عن ابن عباس ؛ فإن ابن جُرَيج لم يدركه . ثم قد ذكر فى هذه السورة إهلاك قوم نوح بالطوفان ، وقوم لوط بإنزال الرجز من السماء ، وطال السياقُ والفصلُ بين ذلك وبين هذا السياق.

وقال قتادة :﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾ قال:قوم لوط ، ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ﴾، قوم شعيب . وهذا بعيد أيضاً لما تقدم ، والله أعلم .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤٢) وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ (٤٣) ﴾ .

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين فى اتخاذهم آلهة من دون الله ، يرجون نصرهم ورزقهم ، ويتمسكون بهم فى الشدائد ، فهم فى ذلك كبيت العنكبوت فى ضعفه ووهنه (٥) فليس فى أيدى هؤلاء من آلهتهم إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت، فإنه لا يجدى عنه شيئاً ، فلو عَلموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء، وهذا بخلاف المسلم المؤمن قلبه لله ، وهو مع ذلك يحسن العمل فى اتباع الشرع فإنه مستمسك (٦) بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، لقوتها وثباتها .

ثم قال تعالى متوعداً لمن عبد غيره وأشرك به : إنه تعالى يعلم ما هم عليه من الأعمال ، ويعلم ما يشركون به من الأنداد ، وسيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم .

ثم قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُون ﴾ أى : وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون فى العلم المتضلعون منه .

قال (٧) الإمام أحمد : حدثنا إسحاق بن عيسى ، حدثنى ابن لَهيعة ، عن أبى قَبيل (٨) ، عن عمرو بن العاص ، رضى الله عنه ، قال : عَقَلْتُ عن رسول الله ﷺ ألف مثل (٩) .

وهذه منقبة عظيمة لعمرو بن العاص ـ رضى الله عنه ـ حيث يقول [الله] (١٠) تعالى :

---

(١) فى ت : « فمنهم » وهو خطأ . (٢) زيادة من أ . (٣) فى ت : « عن » .
(٤) فى ت : « وهو » . (٥) فى ت : « وذهابه » . (٦) فى ف : « متمسك » .
(٧) فى ت : « روى » . (٨) فى ت : « بإسناده » .
(٩) المسند (٤/ ٢٠٣) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٢٦٤) : « إسناده حسن » .
(١٠) زيادة من ت ، وفى ف :« تبارك و » .

﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾ .

وقال [١] ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن ، حدثنا أبى ، حدثنا ابن سنَان ، عن عمرو بن مُرّة قال : ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها إلا أحزننى ، لأنى سمعت الله تعالى يقول : ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾ .

﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٤٤) اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥) ﴾ .

يقول تعالى [مخبراً][٢] عن قدرته العظيمة : أنه خلق السموات والأرض بالحق ، يعنى : لا على وجه العبث واللعب ، ﴿ لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ [طه : ١٥]، ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ [النجم : ٣١] .

وقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : لدلالة واضحة على أنه تعالى المتفرد بالخلق والتدبير والإلهية .

ثم قال تعالى آمرا رسوله والمؤمنين بتلاوة القرآن،وهو قراءته وإبلاغه للناس : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ يعنى : أن الصلاة تشتمل على شيئين : على ترك الفواحش والمنكرات ، أى : إن مواظبتها تحمل على ترك ذلك . وقد جاء فى الحديث من رواية عمْران،وابن عباس مرفوعا :« من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر،لم تزده من الله إلا بعدا »[٣].

[ذكر الآثار الواردة فى ذلك][٤] :

قال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن هارون المخرمى الفلاس ، حدثنا عبد الرحمن بن نافع أبو زياد ، حدثنا عمر بن أبى عثمان ، حدثنا الحسن ، عن عمران بن حُصين قال : سُئل النبى ﷺ عن قول الله : ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ ، قال : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر ، فلا صلاة له » [٥] .

---

(١) في ت : « رواه » . (٢) زيادة من ف ، أ .

(٣) أما حديث عمران بن حصين ، فقد أخرجه ابن أبى حاتم ـ كما سيأتى ـ من طريق عمر بن أبى عثمان عن الحسن عن عمران به ، والحسن لم يسمع من عمران بن حصين . وأما حديث ابن عباس ، فقد رواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١١/ ٥٤) من طريق ليث عن طاوس عن ابن عباس به .

(٤) زيادة من ف ، أ .

(٥) وهذا الحديث فيه علتان ذكرهما الشيخ ناصر الدين الألبانى فى الضعيفة وهما :

١ - الانقطاع بين الحسن ـ وهو البصرى ـ وعمران بن حصين ، فإنهم اختلفوا فى سماعه منه فإنه ثبت ، فعلته عنعنته الحسن فإنه مدلس معروف بذلك .

٢ ـ جهالة عمر بن أبى عثمان ، ذكره ابن أبى حاتم فى الجرح والتعديل (٣/ ١/ ١٢٣) وقال : « سمع طاوساً قوله ، روى عنه يحيى ابن سعيد » .

وحدثنا على بن الحسين ، حدثنا يحيى بن أبى طلحة اليربوعى حدثنا أبو معاوية ، عن ليث ، عن طاوس ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر ، لم يزدد بها من الله إلا بعدا » ورواه الطبرانى من حديث أبى معاوية (١) .

وقال ابن جرير : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنا خالد بن عبد الله ، عن العلاء بن المسيب ، عمن ذكره ،عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ** ﴾ ، قال : فمن لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهه عن المنكر ، لم يزدد بصلاته من الله إلا بعدا. فهذا موقوف (٢) .

قال ابن جرير : وحدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنا على بن هاشم بن (٣) البريد ، عن جُوَيبر، عن الضحاك ، عن ابن مسعود ، عن النبى ﷺ أنه قال : « لا صلاة لمن لم يطع الصلاة ، وطاعة الصلاة أن تنهى عن الفحشاء والمنكر » قال: وقال سفيان : ﴿ **قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ** ﴾ [هود : ٨٧] قال: فقال سفيان : أى والله ، تأمره وتنهاه (٤) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشَجّ ، حدثنا أبو خالد ،عن جويبر ، عن الضحاك ،عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ ـ وقال أبو خالد مَرّة : عن عبد الله ـ :« لا صلاة لمن لم يطع الصلاه ، وطاعة الصلاة تنهاه (٥) عن الفحشاء والمنكر » (٦) .

والموقوف أصح ، كما رواه الأعمش ، عن مالك بن الحارث ، عن عبد الرحمن بن يزيد قال : قيل لعبد الله : إن فلانا ليطيل الصلاة ؟ قال : إن الصلاة لا تنفع إلا من أطاعها (٧) .

وقال ابن جرير : قال على: حدثنا إسماعيل بن مسلم (٨) ، عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ : « من صلى صلاة لم تنهه عن الفحشاء والمنكر ، لم يزدد بها من الله إلا بعداً » (٩) .

والأصح فى هذا كله الموقوفات عن ابن مسعود ، وابن عباس ، والحسن وقتادة ، والأعمش وغيرهم ، والله أعلم .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا يوسف بن موسى ، حدثنا جَرير ـ يعنى ابن عبد الحميد ـ عن الأعمش ، عن أبى صالح قال : أراه عن جابر ـ شك الأعمش ـ قال : قال رجل للنبى ﷺ : إن فلانا يصلى فإذا أصبح سرق ، قال : « سينهاه (١٠) ما يقول » (١١) .

---

(١) المعجم الكبير (١١/ ٥٤) وقال الحافظ العراقى فى تخريج الإحياء : « إسناده لين ».

(٢) تفسير الطبرى (٢٠/ ٩٩) .

(٣) فى ف : « عن » .

(٤) تفسير الطبرى (٢٠ / ٩٩) وفيه جويبر وهو متروك .

(٥) فى ف : « تنهى » .

(٦) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٦ / ٤٦٥) مرفوعا ، وقال : « أخرج عبد بن حميد وابن جرير ،وابن مردويه بسند ضعيف » فذكر الرواية التى قبلها .

(٧) ورواه ابن أبى شيبة فى المصنف (١٣ / ٢٩٨) من طريق زائدة عن عاصم عن شقيق عن ابن مسعود قال : « لا تنفع الصلاة إلا من أطاعها ثم قرأ عبد الله : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ .... ﴾ الآية » .

(٨) فى هـ ، ت ، ف ، أ : « وقال ابن جرير : حدثنا على بن إسماعيل بن مسلم » والمثبت من الطبرى .

(٩) تفسير الطبرى (٢٠ / ٩٩) وهو من مراسيل الحسن .

(١٠) فى ف : « ستنهاه » .

(١١) مسند البزار برقم (٧٢١) « كشف الأستار » .وقال الهيثمى فى المجمع (٢ / ٢٥٨) : « رجاله ثقات » .

وحدثنا محمد بن موسى الحَرَشى [١] ، حدثنا زياد بن عبد الله ، عن الأعمش عن أبى صالح ، عن جابر ، عن النبى ﷺ بنحوه ـ ولم يشك[٢] ـ ثم قال : وهذا الحديث قد رواه غير واحد عن الأعمش واختلفوا فى إسناده ، فرواه غير واحد عن الأعمش ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة أو غيره ،وقال قيس عن الأعمش ، عن أبى سفيان ، عن جابر ، وقال جرير وزياد : عن عبد الله، عن الأعمش ، عن أبى صالح ، عن جابر ·

وقال الإمام أحمد :حدثنا وَكِيع ، حدثنا الأعمش قال :أنا أبو صالح [٣] ، عن أبى هريرة قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : إن فلانا يصلى بالليل فإذا أصبح سرق ؟ فقال : « إنه سينهاه ما يقول [٤] » [٥] .

وتشتمل الصلاة أيضاً على ذكر الله تعالى ، وهو المطلوب الأكبر ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ **وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ** ﴾ أى : أعظم من الأول ، ﴿ **وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ** ﴾ أى : يعلم جميع أقوالكم وأعمالكم·

وقال أبو العالية فى قوله : ﴿ **إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ** ﴾ ، قال:إن الصلاة فيها ثلاث خصال [٦] ، فكلّ صلاة لا يكون فيها شىء من هذه الخلال فليست بصلاة:الإخلاص، والخشية،وذكر الله· فالإخلاص يأمره بالمعروف ، والخشية تنهاه عن المنكر ، وذكر القرآن يأمره وينهاه ·

وقال ابن عَوْن الأنصارى : إذا كنت فى صلاة فأنت فى معروف ، وقد حجزتك عن الفحشاء والمنكر ، والذى أنت فيه من ذكر الله أكبر ·

وقال حماد بن أبى سليمان :﴿ **إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ** ﴾ يعنى : ما دمت فيها ·

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله :﴿ **وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ** ﴾ ، يقول : ولذكر الله لعباده أكبر،إذا ذكروه من ذكرهم إياه ·

وكذا رَوَى غير واحد عن ابن عباس . وبه قال مجاهد ، وغيره ·

وقال ابن أبى حاتم :حدثنا أبو سعيد الأشَجّ ، حدثنا أبو خالد الأحمر ، عن داود بن أبى هند ، عن رجل ، عن ابن عباس : ﴿**وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ**﴾ قال : ذكر الله عند طعامك وعند منامك ·قلت : فإن صاحبا لى فى المنزل يقول غير الذى تقول: قال : وأى شىء يقول ؟ قلت : قال : يقول الله : ﴿ **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ** ﴾ [البقرة :١٥٢] ، فلذكر الله إيانا أكبر من ذكرنا إياه · قال :صدق ·

قال : وحدثنا أبى ، حدثنا النفيلى ، حدثنا إسماعيل ، عن خالد ، عن عِكْرِمة ، عن ابن عباس

---

(١) فى ف ، أ : « الجرشى » ·

(٢) مسند البزار برقم (٧٢٢) « كشف الأستار » ·

(٣) فى هـ ، ت ، ف : « أبو صالح أخبرنا » ،والمثبت من المسند ·

(٤) فى ف : « ستنهاه ما تقول » ·

(٥) المسند (٢ / ٤٤٧)،ورواه البزار فى مسنده برقم (٧٢٠) « كشف الأستار » من طريق الأعمش به ، وقال الهيثمى فى المجمع (٢ / ٢٥٨) : « رجاله رجال الصحيح » ·

(٦) فى أ : « خلال » ·

في قوله : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ ،قال : لها وجهان ، قال : ذكر الله عندما حرمه ، قال : وذكر الله إياكم أعظم من ذكركم إياه ·

وقال ابن جرير : حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا هُشَيْم ، أخبرنا عطاء بن السائب ، عن عبد الله بن ربيعة قال:قال لى ابن عباس : هل تدرى ما قوله تعالى :﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَر ﴾ ؟ قال : قلت : نعم · قال : فما هو ؟ قلت : التسبيح والتحميد والتكبير فى الصلاة ، وقراءة القرآن، ونحو ذلك . قال: لقد قلت قولاً عجباً ، وما هو كذلك ، ولكنه إنما يقول : ذكر الله إياكم عند ما أمر به أو نهى عنه إذا ذكرتموه ، أكبر من ذكركم إياه [١] ·

وقد روى هذا من غير وجه عن ابن عباس · وروى أيضا عن ابن مسعود ، وأبى الدرداء ، وسلمان الفارسى ، وغيرهم · واختاره ابن جرير ·

﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) ﴾ ·

قال قتادة وغير واحد: هذه الآية منسوخة بآية السيف ، ولم يبق معهم مجادلة ، وإنما هو الإسلام أو الجزية أو السيف ·

وقال آخرون : بل هى باقية أو محكمة لمن أراد الاستبصار منهم فى الدين ، فيجادل بالتى هى أحسن ، ليكون أنجع فيه ، كما قال تعال :﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل : ١٢٥] ، وقال تعالى لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون: ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه :٤٤]. وهذا القول اختاره ابن جرير [٢] ، وحكاه عن ابن زيد ·

وقوله :﴿ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ أى :حادوا عن وجه الحق [٣] ،وعَمُوا عن واضح المحجة، وعاندوا وكابروا ، فحينئذ ينتقل من الجدال إلى الجلاد ، ويقاتلون بما يردعهم ويمنعهم ، قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحديد : ٢٥] ·

قال جابر : أمرنَا من خالف كتاب الله أن نضربه بالسيف ·

قال مجاهد : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُم ﴾ ، يعنى: أهل الحرب ،ومن امتنع منهم عن أداء الجزية ·

وقوله :﴿ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُم ﴾ ، يعنى: إذا أخبروا بما لا يعلم صدقه ولا كذبه ، فهذا لا نُقدم على تكذيبه لأنه قد يكون حقاً ، ولا على تصديقه ، فلعله أن يكون باطلا ،

(١) تفسير الطبرى (٢٠/ ٩٩) ·
(٢) تفسير الطبرى (٢١ / ٢) ·
(٣) فى ف ، أ : « الحجة » ·

ولكن نؤمن به إيمانا مجملا معلقا على شرط وهو أن يكون منزلا ، لا مبدلاً ولا مؤولاً ·

وقال البخارى ، رحمه الله : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا عثمان بن عُمَر ، أخبرنا على بن المبارك ، عن يحيى بن أبى كثير ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة [١] ، رضى الله عنه ، قال : كان أهل الكتاب [٢] يقرؤون التوراة بالعبرانية ، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا : آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون »: وهذا الحديث تفرد [٣] به البخارى [٤] ·

وقال الإمام أحمد: حدثنا عثمان بن عُمَر ، أخبرنا يونس، عن الزهرى ، أخبرنى ابن أبى نملة [٥] : أن أبا نَملَةَ الأنصارى أخبره ، أنه بينما هو جالس عند رسول الله ﷺ ، جاءه رجل من اليهود ، فقال : يا محمد ، هل تتكلم هذه الجنازة ؟ قال رسول الله ﷺ : « الله أعلم » : قال اليهودى أنا أشهد أنها تتكلم · فقال رسول الله ﷺ : « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم ، وقولوا : آمنا بالله ورسله وكتبه ، فإن كان حقاً لم [٦] تكذبوهم ، وإن كان باطلاً لم [٧] تصدقوهم » [٨] ·

قلت : وأبو نَمْلَةَ هذا هو : عُمَارة · وقيل : عمار. وقيل: عمرو بن معاذ بن زُرَارة الأنصارى ، رضى الله عنه ·

ثم ليعلم أن أكثر ما يُحدّثون به غالبُه كذب وبهتان ؛ لأنه قد دخله تحريف وتبديل وتغيير وتأويل ، وما أقل الصدق فيه ، ثم ما أقل فائدة كثير منه لو كان صحيحا ·

قال ابن جرير : حدثنا ابن بشار ، حدثنا أبو عاصم ، حدثنا سفيان ، عن سليمان بن عامر ، عن عمارة بن عمير ، عن حُرَيْث [٩] بن ظُهَيْر ، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ قال : لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا ، إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل ، فإنه ليس أحد من أهل الكتاب إلا وفى قلبه تالية ، تدعوه إلى دينه كتالية المال [١٠] ·

وقال البخارى : حدثنا موسى بن إسماعيل [١١] ، حدثنا إبراهيم بن سعد ، أخبرنا ابن شهاب ، عن عُبَيْد الله بن عبد الله [١٢] ، عن ابن عباس قال : كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء ، وكتابكم الذى أنزل على رسوله ﷺ أحدث [١٣] تقرؤونه محضا لم يُشَب ، وقد حدَّثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله ، وغيروه وكتبوا بأيديهم الكتاب ، وقالوا : هو [١٤] من عند الله ، ليشتروا به ثمنا قليلاً؟ ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن [١٥] مسألتهم ؟ لا والله ما رأينا منهم رجلا يسألكم عن الذى أنزل عليكم [١٦] .

(١) فى ت : « روى البخارى بإسناده عن أبى هريرة » ·
(٢) فى هـ ، ت ، ف : « كان أهل التوراة » والمثبت من البخارى ·
(٣) فى ت : « انفرد » ·
(٤) صحيح البخارى برقم (٤٤٨٥ ، ٧٣٦٢) ·
(٥) فى ت : « روى الأمام أحمد بإسناده » ·
(٦ ، ٧) فى ت : « فلا » ·
(٨) المسند (٤/ ١٣٦) ·
(٩) فى أ : « حرب » ·
(١٠) تفسير الطبرى (٢١ / ٤) ·
(١١) فى أ : « سليمان » ·
(١٢) فى ت : « روى البخارى بإسناده » ·
(١٣) فى ت : « أحدث الكتب » ·
(١٤) فى ف ، أ : « وقالوا : هذا هو » ·
(١٥) فى ف : « من » ·
(١٦) صحيح البخارى برقم (٧٣٦٣) ·

وقال البخارى : وقال أبو اليمان : أخبرنا شعيب ، عن الزهرى،أخبرنى حُمَيد بن عبد الرحمن: أنه سمع معاوية يحدث رهطا من قريش بالمدينة ـ وذكرَ كعبَ الأحبار ـ فقال : إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب ، وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب (١) .

قلت: معناه أنه يقع منه الكذب لغة من غير قصد؛ لأنه يحدث عن صحف هو يحسن بها الظن ، وفيها أشياء موضوعة ومكذوبة ؛ لأنهم لم يكن فى ملتهم حفاظ متقنون كهذه الأمة العظيمة ، ومع ذلك وقرب العهد وضعت (٢) أحاديث كثيرة فى هذه الأمة ، لا يعلمها إلا الله ومن منحه الله علما بذلك ، كُلٌّ بحسبه ، ولله الحمد والمنة .

﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ (٤٧) وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ (٤٩) ﴾ .

قال ابن جرير : يقول الله تعالى : كما أنزلنا الكُتُب (٣) على من قبلك ـ يا محمد ـ من الرسل ، كذلك أنزلنا إليك هذا الكتاب .

وهذا الذى قاله حسن ومناسبة وارتباط (٤) جيد .

وقوله : **﴿ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾** أى : الذين أخذوه فتلَوْه حق تلاوته من أحبارهم العلماء الأذكياء ، كعبد الله بن سلام ،وسلمان الفارسى ، وأشباههما .

وقوله: **﴿ وَمِنْ هَؤُلاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ ﴾** ، يعنى العرب من قريش وغيرهم ، **﴿ومايَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ ﴾** ، أى : ما يكذب بها ويجحد حقها إلا من يستر الحق بالباطل ، ويغطى ضوء الشمس بالوصائل ، وهيهات .

ثم قال تعالى : **﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾** ، أى: قد لبثت فى قومك ـ يا محمد ـ ومن قبل أن تأتى بهذا القرآن عُمراً لا تقرأ كتابا ولا تحسن الكتابة ، بل كل أحد من قومك وغيرهم يعرف أنك رجل أمى لا تقرأ ولا تكتب (٥) . وهكذا صفته فى الكتب المتقدمة ، كما قال تعالى: **﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾** الآية [الأعراف:١٥٧]. وهكذا كان،صلوات الله وسلامه عليه [دائماً أبداً] (٦) إلى يوم القيامة (٧) ، لا يحسن الكتابة ولا يخط سطراً ولا حرفاً بيده ، بل كان له كتاب يكتبون بين

(١) صحيح البخارى برقم (٧٣٦١) .
(٢) فى ت : « وضعفت » .
(٣) فى أ : « الكتاب » . (٤) فى ف : « ومناسبته وارتباطه » . (٥) فى ف : « لا يقرأ ولا يكتب » .
(٦) زيادة من ف ، و فى أ : « دائماً » . (٧) فى ف ، أ : « الدين » .

يديه الوحى والرسائل إلى الأقاليم . ومن زعم من متأخرى الفقهاء ، كالقاضى أبى الوليد الباجى ومن تابعه أنه ،عليه السلام (١) ،كتب يوم الحديبية : «هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله » : فإنما حمله على ذلك رواية فى صحيح البخارى : « ثم أخذ فكتب » : وهذه محمولة على الرواية الأخرى : « ثم أمر فكتب ». ولهذا اشتد النكير بين فقهاء المغرب والمشرق على من قال بقول الباجى، وتبرؤوا منه، وأنشدوا فى ذلك أقوالا ، وخطبوا به فى محافلهم :وإنما أراد الرجل ـ أعنى الباجى ، فيما يظهر عنه ـ أنه كتب ذلك على وجه المعجزة ،لا أنه كان يحسن الكتابة ،كما قال ،عليه الصلاة والسلام (٢) ، إخباراً عن الدجال : « مكتوب بين عينيه كافر » وفى رواية : « ك ف ر ، يقرؤها كل مؤمن» (٣) ،وما أورده بعضهم من الحديث أنه لم يمت ، عليه السلام (٤) ،حتى تعلم الكتابة ، فضعيف لا أصل له؛قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو ﴾ أى : تقرأ ﴿ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ ﴾ ، لتأكيد النفى، ﴿ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾ تأكيد أيضا ، وخرج مخرج الغالب ،كقوله تعالى :﴿وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾[الأنعام : ٣٨] .

وقوله :﴿ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ أى:لو كنت تحسنها (٥) لارتاب بعض الجهلة من الناس فيقول: إنما تعلم هذا من كُتب قبله مأثورة عن الأنبياء ،مع أنهم قالوا ذلك مع علمهم بأنه أمى لا يحسن الكتابة: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [الفرقان : ٥] ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ [الفرقان : ٦] ،وقال هاهنا: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ أى : [هذا] (٦) القرآن آيات بينة واضحة فى الدلالة على الحق ، أمرا ونهيا وخبرا ، يحفظه العلماء ، يَسَّره الله عليهم حفظاً وتلاوةً وتفسيراً ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر : ١٧] ، وقال رسول الله ﷺ: « ما من نبى إلا وقد أعطى ما آمن على مثله البشر و إنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً » (٧).

وفى حديث عياض بن حمار (٨) ، فى صحيح مسلم : « يقول الله تعالى : إنى مبتليك ومبتل بك ، ومنزل عليك كتاباً لا يغسله الماء ، تقرؤه نائما ويقظانَ » (٩) . أى : لو غسل الماء المحلَّ المكتوب فيه لما احتيج إلى ذلك المحل ، كما جاء فى الحديث الآخر : « لو كان القرآن فى إهاب ، ما أحرقته النار» (١٠) لأنه محفوظ فى الصدور، ميسر (١١) على الألسنة ، مهيمن على القلوب ،معجز لفظا ومعنى؛ولهذا جاء فى الكتب المتقدمة ، فى صفة هذه الأمة :« أناجيلهم فى صدورهم» .

---

(١) فى ف ، أ : « ﷺ » . (٢) فى ف ، أ : « ﷺ » .
(٣) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧١٣١) من حديث أنس رضى الله عنه .
(٤) فى أ : « ﷺ » . (٥) فى ت : « تحسن الكتابة » . (٦) زيادة من ت ، ف ، أ .
(٧) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧٢٧٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وسيأتى إن شاء الله .
(٨) فى أ : « حماد » .
(٩) صحيح مسلم برقم (٢٨٦٥) .
(١٠) رواه أحمد فى مسنده (٤/ ١٥١) من حديث عقبة بن عامر وتقدم الكلام عليه فى فضائل القرآن .
(١١) فى ت : « وميسر » .

واختار ابن جرير أن المعنى فى قوله تعالى : ﴿ **بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ** ﴾ ، بل العلم بأنك ما كنت تتلو من قبل هذا الكتاب كتاباً ولا تخطه بيمينك ، آياتٌ بينات فى صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب [١] . ونقله عن قتادة ، وابن جُرَيج . وحكى الأول عن الحسن [البصرى] [٢] فقط .

قلت: وهو الذى رواه العوفى عن عبد الله بن عباس، وقاله الضحاك ، وهو الأظهر، والله أعلم .

وقوله : ﴿ **وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ** ﴾ أى : ما يكذب بها ويبخس حقها ويردها إلا الظالمون، أى :المعتدون المكابرون ، الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه ،كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ** ﴾ [يونس : ٩٦ ، ٩٧] .

﴿ **وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٥٢)** ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن المشركين فى تعنتهم وطلبهم آيات ـ يعنون ـ ترشدهم إلى أن محمدا رسول الله كما جاء صالح بناقته، قال الله تعالى : ﴿ **قُلْ** ﴾ يا محمد :﴿ **إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ** ﴾ أى : إنما أمر ذلك إلى الله ، فإنه لو علم أنكم تهتدون لأجابكم إلى سؤالكم ؛ لأن ذلك سهل عليه ، يسير لديه ، ولكنه يعلم منكم أنما قصدكم التعنت والامتحان ، فلا يجيبكم إلى ذلك ، كما قال تعالى :﴿ **وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا** ﴾[الإسراء : ٥٩] .

وقوله: ﴿ **وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ** ﴾ أى: إنما بعثت نذيراً لكم بَيِّنَ النِّذارة فَعلَىَّ أن أبلغكم رسالة الله و ﴿ **مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا** ﴾ [الكهف : ١٧]،وقال تعالى: ﴿ **لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ** ﴾ [البقرة : ٢٧٢] .

ثم قال تعالى مبينا كثرة جهلهم ، وسخافة عقلهم ، حيث طلبوا آيات تدلهم على صدق محمد فيما جاءهم [به] [٣] ـ وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، الذى هو أعظم من كل معجزة ،إذ عجزت الفصحاء والبلغاء عن معارضته ، بل عن معارضة عشر سور من مثله ، بل عن معارضة سورة منه ـ فقال تعالى: ﴿ **أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ** ﴾ أى : أو لم يكفهم آية أنا أنزلنا عليك هذا الكتاب العظيم ، الذى فيه خبر ما قبلهم ، ونبأ ما بعدهم ، وحكم ما بينهم ، وأنت رجل أمى لا تقرأ ولا تكتب ، ولم تخالط أحدا

---

(١) تفسير الطبرى (٢١ / ٥) .

(٢) زيادة من ف ، أ .

(٣) زيادة من ف .

من أهل الكتاب، فجئتهم بأخبار ما فى الصحف الأولى ، ببيان الصواب مما اختلفوا فيه ، وبالحق الواضح البين الجلى، كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء : ١٩٧] وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلا يَأْتِينَا بِآيَةٍ (١) مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأُولَى ﴾ [طه : ١٣٣] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حجاج ، حدثنا ليث ، حدثنى سعيد بن أبى سعيد ، عن أبيه (٢) عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من الأنبياء من نبى إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامه » . أخرجاه (٣) من حديث الليث (٤) .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أى : إن فى هذا القرآن : ﴿ لَرَحْمَةً ﴾ أى : بياناً للحق ، وإزاحة للباطل و ﴿ ذِكْرَى ﴾ بما فيه حلول النّقْمات ونزول العقاب بالمكذبين والعاصين ، ﴿ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

ثم قال تعالى: قل: ﴿ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا (٥) ﴾ أى: هو أعلم بما تفيضون فيه من التكذيب، ويعلم ما أقول لكم من إخبارى عنه ، بأنه أرسلنى ، فلو كنت كاذبا عليه لانتقم منى ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ . لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ [الحاقة : ٤٤ ـ ٤٧] ، وإنما أنا صادق عليه فيما أخبرتكم به ، ولهذا أيدنى بالمعجزات الواضحات ، والدلائل القاطعات .

﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [أى] (٦) : لا تخفى عليه خافية .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ أى : يوم معادهم سيجزيهم على ما فعلوا ، ويقابلهم على ما صنعوا ، من تكذيبهم بالحق واتباعهم الباطل ، كذبوا برسل الله مع قيام الأدلة على صدقهم ، وآمنوا بالطواغيت والأوثان بلا دليل ، سيجازيهم على ذلك ، إنه حكيم عليم .

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٥) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن جهل المشركين فى استعجالهم عذاب الله أن يقع بهم ، وبأس الله أن يحل

---

(١) فى جميع النسخ : ﴿ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ ﴾ والصواب ما أثبتناه .
(٢) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده » .
(٣) فى ت : « أخرجه البخارى ومسلم » .
(٤) المسند (٢ / ٣٤١) وصحيح البخارى برقم (٤٩٨١) وصحيح مسلم برقم (١٥٢) .
(٥) فى أ : « كفى بالله شهيداً بينى وبينكم » وهو خطأ .
(٦) زيادة من ت ، أ .

عليهم ، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : ٣٢] ، وقال هاهنا: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ أى : لولا ما حتّم الله من تأخير العذاب إلى يوم القيامة لجاءهم العذاب قريبا سريعا كما استعجلوه .

ثم قال ﴿ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً ﴾ أى : فجأة ، ﴿ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ . يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ أى : يستعجلون بالعذاب ، وهو واقع بهم لا محالة .

قال شعبة،عن سِمَاك ،عن عِكْرِمة قال فى قوله :﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ ،قال: البحر .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا عمر بن إسماعيل بن مجالد ، حدثنا أبى عن مجالد ، عن الشعبى ؛ أنه سمع ابن عباس يقول :﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ :وجهنم هو هذا البحر الأخضر ، تنتثر الكواكب فيه ،وتُكور فيه الشمس والقمر،ثم يستوقد فيكون هو جهنم .

وقال الإمام أحمد:حدثنا أبو عاصم،حدثنا عبد الله بن أمية ، حدثنى محمد بن حُيَى ، حدثنا[(١)] صفوان بن يعلى ، عن أبيه ، أن النبي ﷺ قال : « البحر هو جهنم » ، قالوا : ليعلى ، فقال : ألا ترون أن الله يقول : ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف : ٢٩] ، قال : لا ، والذى نفس يعلى بيده لا أدخلها أبدا حتى أعرض على الله ، ولا يصيبنى منها قطرة حتى أعرض على الله عز وجل[(٢)] .

هذا تفسير غريب ، وحديث غريب جداً ، والله أعلم .

ثم قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ [الأعراف : ٤١] ، وقال : ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ [الزمر : ١٦]،وقال : ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَن ظُهُورِهِمْ ﴾ [الأنبياء : ٣٩] ، فالنار تغشاهم من سائر جهاتهم ، وهذا أبلغ فى العذاب الحسى .

وقوله:﴿ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ، تهديد وتقريع وتوبيخ ، وهذا عذاب معنوى على النفوس ، كقوله : ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ . إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر ٤٨ ، ٤٩] ، وقال:﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا . هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ . أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لا تُبْصِرُونَ . اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور: ١٣ ـ ١٦] .

﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا

---

(١) فى ت : « وروى الإمام أحمد بسنده عن » .

(٢) المسند (٤ / ٢٣٣) ،وقال الهيثمى فى المجمع (١٠ / ٣٨٦) : « رجاله ثقات » .

الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٥٨) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩) وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٠) ﴾ .

هذا أمر من الله لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذى لا يقدرون فيه على إقامة الدين ، إلى أرض الله الواسعة ،حيث يمكن إقامة الدين ، بأن يوحدوا الله ويعبدوه كما أمرهم؛ولهذا قال : ﴿ **يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ** ﴾ .

قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن عبد ربه ، حدثنا بَقِيَّةُ بن الوليد ، حدثنى جُبَيْر بن عمرو القرشى ، حدثنى أبو سعد الأنصارى ، عن أبى يحيى مولى [١] الزبير بن العوام قال : قال رسول الله ﷺ : « البلاد بلاد الله ،والعباد عباد الله ، فحيثما أصبتَ خيراً فأقم » [٢] .

ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها ، خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ، ليأمنوا، على دينهم هناك ، فوجدوا هناك خير المنزلين ، أصحمة النجاشى ملك الحبشة ، رحمه الله ، آواهم وأيدهم بنصره ، وجعلهم سُيُوما ببلاده . ثم بعد ذلك هاجر رسول الله ﷺ وأصحابه الباقون إلى المدينة النبوية يثرب المطهرة [٣] .

---

(١) فى ت : « روى الإمام أحمد بإسناده عن » .

(٢) المسند (١ / ١٦٦) ،وقال الهيثمى فى المجمع (٤ / ٧٢) : « فيه جماعة لم أعرفهم » .

(٣) بعدها فى ت ـ وأظنها من الناسخ ـ ما يلى : « أما قصة هجرة الحبشة ، فقال ابن إسحاق : حدثنى الزهرى ، عن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، عن أمه أم سلمة بنت أبى أمية بن المغيرة زوج النبى ﷺ قالت : لما نزلنا بأرض الحبشة جاورنا خير جار النجاشى ، آمنا على ديننا ، وعبدنا الله لا نؤذى ، ولا نسمع شيئا نكرهه فلما بلغ ذلك قريشا ائتمروا بينهم ، أن يبعثوا إلينا رجلين جلدين ، وأن يهدوا إلى النجاشى هدايا مما يُستطرف من متاع مكة ، وكان أعجب ما يأتيه منها الأدم ، فجمعوا له أدما كثيرا ، ولم يتركوا من بطارقته بطريقا إلا أهدوا له هدية وقالوا لهما : ادفعوا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلموا النجاشى ، ثم قدموا إلى النجاشى هداياه ، ثم سلوه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم .

قالت : فخرجنا حتى قدمنا عليه ، ونحن عنده بخير دار ، عند خير جار فلم يبق بطريق من بطارقته إلا دفعوا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشى ، ثم قالا لكل بطريق : إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينكم، وجاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردوهم إليهم ، فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه أن يسلمهم إلينا ، ولا يكلمهم فإن قومهم أعلا بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم ؛ فقالوا لهما : نعم ، ثم أنهما قدما هداياهما إلى النجاشى فقبلها منهما ثم كلماه فقالا :أيها الملك إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا فى دينك ، جاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم وآباءهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم فهم أعلا بهم عينا ، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه .

قالت : ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشى،فقالت بطارقته حوله : صدقوا أيها الملك قومهم أعلا بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم إليهم ليردوهم إلى بلادهم وقومهم ،فغضب النجاشى وقال : لاها الله لا أسلمهم إليهم أبدا ولا أُكادُ ،قوم جاورونى ، ونزلوا بلادى ، واختارونى على من سواى حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان الرجلان . فإن كانوا كما يقولون أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى بلادهم ، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم وأحسنت جوارهم ما جاورونى ونزلوا بلادى .

قالت : ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ ، فدعاهم فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ، ثم قال بعضهم لبعض : ما تقولون لهذا الرجل إذا جئتموه ؟ قالوا : نقول : والله ما علمنا وما أمرنا به نبينا ﷺ، كائناً فى ذلك ما هو كائن ، قال : فلما جاؤوه وقد دعا النجاشى أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله ،فلما دخلوا عليه سألهم ،فقال: ما هذا الذى فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا فى دينى ولا دين أحد من هذه الملل . =

ثم قال : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ أى : أينما كنتم يدرككم الموت ، فكونوا فى طاعة الله وحيث أمركم الله ، فهو خير لكم ، فإن الموت لا بد منه ، ولا محيد عنه ، ثم إلى الله

= قالت : فكان الذى كلمه جعفر بن أبى طالب . فقال: أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف فكنا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ، ونخلع ما كنا نعبد وآباؤنا من دونه ، الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث، وآداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام . قالت : فعد عليه أمور الإسلام . فصدقناه وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله عز جل ، فعبدنا الله لا نشرك به شيئاً ،وحرمنا ما حرم علينا،وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا ،فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ؛ ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله ، وأن نستحل كما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلدك ، واخترناك على من سواك، ورغبنا فى جوارك ، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك . قال : فقال له النجاشى : وهل عندك مما جاء به من عند الله شىء ؟ قالت : فقال له جعفر : نعم . فقال له النجاشى : فاقرأه على ، فقرأ عليه صدراً من ﴿ كهيعص ﴾ .

قالت : فبكى النجاشى حتى اخضلت لحيته ، وبكى أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم ، حين سمعوا ما يتلى عليهم . وقال النجاشى : إن هذا والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة . انطلقا . لا والله لا أسلمهم إليكما ولا أُكاد . قالت : فلما خرجا من عنده . قال عمرو بن العاص:والله لآتينه غدا بما أستأصل به خضراءهم .

قالت : فقال له عبد الله بن أبى ربيعة ـ وكان أتقى الرجلين فينا ـ : لا تفعل فإن لهم أرحاماً ، وإن كانوا قد خالفونا . قال : والله لأخبرنه أنهم يقولون فى عيسى قولاً عظيماً . فأرسل إليهم فسألهم عما يقولون فيه . قالت : فأرسل إليهم ليسألهم عنه. قالت : ولم ينزل بنا مثلها ، فاجتمع القوم . فقال بعضهم لبعض:ما تقولون فى عيسى إن سألكم عنه .قالوا : نقول فيه ما قال الله عز وجل ، وما جاء به نبينا ، كائناً فى ذلك ما هو كائن . قالت : فلما دخلوا عليه . قال لهم : ما تقولون فى عيسى ابن مريم ، قالت : فقال جعفر بن أبى طالب : نقول فيه الذى جاء به نبينا ﷺ . يقول فيه : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول . قالت : فضرب النجاشى يده إلى الأرض ، فأخذ منها عوداً ، ثم قال له : ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود .

قالت : فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال . فقال : وإن تناخرتم اذهبوا فأنتم شيوم بأرضى . والشيوم : الآمنون . من سبكم غُرِّم ، من سبكم غرم، ما أحب أن لى دبراً من ذهب ، وأنى آذيت رجلاً منكم . والدبر : بلسان الحبشة الجبل . ورددوا عليهما هداياهما ، فلا حاجة لى بها ، فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين رد على ملكى ، فآخذ الرشوة فيه ،وما أطاع الناس فى، فأطيعهم فيه . قالت : فخرجا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما . قالت أم سلمة : فكنت أتعرض لهم ليسبونى فأغرمهم ، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار .

قالت : فوالله ما أغلا لعلى ذلك ، إذ انبرى له رجل من الحبشة ينازعه ملكه . قالت : فوالله، ما أعلمنا حزناً قط كان أشد من حزن حزناه ، عند ذلك تخوفاً من أن يظهر ذلك الرجل على النجاشى . فيأتى رجلاً لا يعرف من حقنا ما كان النجاشى يعرف منه . قالت : وسار إليه النجاشى وبينهما عرض النيل . قالت : فقال أصحاب رسول الله ﷺ : من رجل يخرج حتى يشهد وقعة القوم ثم يأتينا بخبر القوم ؟ قالت : فقال الزبير بن العوام : أنا، قالت : وكان من أحدث القوم سناً . قالت : فنفخوا له قربة فجعلوها فى صدره ، ثم سبح حتى خرج إلى النيل التى بها ملتقى القوم ، ثم انطلق حتى حضرهم . قالت : ودعونا الله عز وجل للنجاشى بالظهور على عدوه ، والتمكين له من بلاده .

قالت : فوالله إنا لعلى ذلك الحال متوقعين لما هو كائن ، إذا طلع الزبير يسعى ، ويليح بثوبه ،ألا أبشروا ، قد ظهر النجاشى، وقد أهلك الله عدوه ، فوالله ما أعلمنا فرحنا فرحة قط مثلها . قالت : ورجع النجاشى وأهلك الله عدوه ، ومكن له فى بلاده ، واستوسق عليه أمر الحبشة ، فكنا عنده فى خير منزل ، حتى قدمنا على رسول الله ﷺ وهو بمكة .

وروى عن الزبير قال : لما نزل بالنجاشى عدوه من أهل أرضه ، جاءه المهاجرون فقالوا : إنا نحب أن نخرج إليهم فنقاتل معك، وترى جرائتنا ، ونجزيك بما صنعت بنا فقال : ذو ينصره الله خير من الذى ينصره الناس ، فأنى ذلك عليهم » .

المرجع [والمآب] (١) ، فمن كان مطيعا له جازاه أفضل الجزاء ، ووافاه أتم (٢) الثواب ؛ ولهذا قال : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أى : لنسكننهم منازلَ عاليةً فى الجنة تجرى من تحتها الأنهار ، على اختلاف أصنافها ، من ماء وخمر ، وعسل ولبن ، يصرفونها ويجرونها حيث شاؤوا ، ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أى: ماكثين فيها أبدا لا يبغون عنها حولا ، ﴿ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ : نعمت هذه الغرفُ أجراً على أعمال المؤمنين، ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ أى : على دينهم ، وهاجروا إلى الله ، ونابذوا الأعداء ، وفارقوا الأهل والأقرباء ، ابتغاء وجه الله ، ورجاء ما عنده وتصديق موعوده .

قال ابن أبى حاتم ، رحمه الله : حدثنى أبى ، حدثنا صفوان المؤذنَ ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا معاوية بن سلام ، عن أخيه زيد بن سلام ، عن جده أبى سلام الأسود ، حدثنى أبو معَانق (٣) الأشعرى ،أن أبا مالك الأشعرى حدثه أن (٤) رسول الله ﷺ حدثه أن فى الجنة غُرَفا يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها ، أعدها الله لمن أطعم الطعام ، وأطاب الكلام ، وأباح الصيام ، وأقام الصلاة (٥) والناس نيام (٦) .

[قوله] (٧) : ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ،فى أحوالهم كلها ، فى دينهم ودنياهم .

ثم أخبرهم تعالى أن الرزق لا يختص ببقعة ، بل رزقه تعالى عام لخلقه حيث كانوا وأين كانوا ، بل كانت أرزاق المهاجرين حيث هاجروا أكثر وأوسع وأطيب ، فإنهم (٨) بعد قليل صاروا حكام البلاد فى سائر الأقطار والأمصار ؛ ولهذا قال : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ﴾ أى: لا تطيق جمعه وتحصيله ولا تؤخر (٩) شيئاً لغد ، ﴿ اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ أى : الله يقيض لها رزقها على ضعفها ، وييسره عليها، فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه ،حتى الذر فى قرار الأرض ، والطير فى الهواء والحيتان فى الماء، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود : ٦] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عبد الرحمن الهروى ، حدثنا يزيد ـ يعنى ابن هارون ـ حدثنا الجراح بن مِنْهَال الجزرى ـ هو أبو العطوف ـ عن الزهرى ، عن رجل(١٠) ، عن ابن عمر قال : خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان المدينة ،فجعل يلتقط من التمر ويأكل ،فقال لى : « يا ابن عمر ، مالك لا تأكل ؟ » قال : قلت : لا أشتهيه يا رسول الله ،قال :« لكنى أشتهيه ،

(١) زيادة من أ . (٢) فى ت : « ووفاه تمام » .

(٣) فى هـ ، ت : « أبو معاوية » ،والصواب ما أثبتناه من ف ، أ ،والمسند (٥ / ٣٤٣) .

(٤) فى ت : «روى ابن أبى حاتم بإسناده عن أبى مالك الأشعرى » .

(٥) فى أ : « وتابع الصلاة والصيام وقام بالليل » .

(٦) ورواه الإمام أحمد فى مسنده (٥ / ٣٤٣) من طريق أبى معانق عن أبى مالك به ، وسيأتى عند الآية : ٢٠ من سورة الزمر .

(٧) زيادة من ت . (٨) فى ف : « فهم » . (٩) فى أ : « ولا يدخر » .

(١٠) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بإسناده » .

وهذه صبح رابعة منذ لم أزق طعاما ولم أجده ، ولو شئت لدعوت ربى فأعطانى مثل ملك قيصر وكسرى فكيف بك يا ابن عمر إذا بَقيتَ فى قوم يَخْبئون رزق سنتهم بضعف اليقين ؟ » قال : فو الله ما برحنا ولا رِمْنا حتى نزلت : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ فقال رسول الله ﷺ: « إن الله لم يأمرنى بكنز الدنيا ، ولا باتباع الشهوات ، فمن كنز دنياه يريد بها حياة باقية فإن الحياة بيد الله ، ألا وإنى لا أكنز ديناراً ولا درهما ، ولا أخبئ رزقا لغد [1] » [2] .

وهذا حديث غريب ، وأبو العطوف الجزرى ضعيف .

وقد ذكروا أن الغراب إذا فَقسَ عن فراخه البَيض ، خرجوا وهم بيضٌ فإذا رآهم أبواهم كذلك ، نفرا عنهم أياما حتى يسود الريش ، فيظل الفرخ فاتحاً فاه يتفقد أبويه ، فيقيض الله له طيراً [3] صغاراً كالبَرغَش فيغشاه فيتقوت منه تلك الأيام حتى يسود ريشه ، والأبوان يتفقدانه كل وقت ، فكلما رأوه أبيض الريش نفرا عنه ، فإذا رأوه قد اسود ريشه عطفا عليه بالحضانة والرزق ، ولهذا قال الشاعر :

يارازق النعَّاب [4] فى عُشه ... وجَابر العَظْم الكَسير المهيض

وقد قال الشافعى فى جملة كلام له فى الأوامر ، كقول النبى ﷺ : « سافروا تصحوا وترزقوا » .

قال البيهقى أخبرنا إملاء أبو الحسن على بن عبدان ، أخبرنا أحمد بن عبيد ، أخبرنا محمد بن غالب ، حدثنى محمد بن سنان ، حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن رَدَّاد ـ شيخ من أهل المدينة ـ حدثنا عبد الله بن دينار [5] ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « سافروا تصحوا وتغنموا » . قال : ورويناه عن ابن عباس [6] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة ، حدثنا ابن لَهيعة ، عن دَرَّاج ، عن عبد الرحمن بن حُجَيرة ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « سافروا تربحوا ، وصوموا تصحوا ، واغزوا تغنموا » [7] .

وقد ورد مثل حديث ابن عمر عن ابن عباس مرفوعا ، وعن معاذ بن جبل موقوفاً [8] . وفى

---

(١) فى ت : « إلى غد » .

(٢) ورواه البغوى فى تفسيره (٦ / ٢٥٣) من طريق إسماعيل بن زرارة عن الجراح بن المنهال به ـ وقال الشوكانى فى فتح القدير (٤/ ٢١٣) : « وهذا الحديث فيه نكارة شديدة لمخالفته لما كان عليه النبى ﷺ فقد كان يعطى نساءه قوت العام كما ثبت ذلك فى كتب الحديث المعتبرة ، وفى إسناده أبو العطوف الجزرى وهو ضعيف » . أ . هـ مستفاداً من حاشية تفسير البغوى .

(٣) فى ت : « طيوراً » .

(٤) فى ت : « البغاب » وفى أ : « النعام » .

(٥) فى ت : « وروى البيهقى بسنده » .

(٦) السنن الكبرى (٧ / ١٠٢) ورواه ابن عدى فى الكامل (٦ / ١٩٠) من طريق محمد بن عبد الرحمن بن رواد به ، وقال : « لا أعلم يرويه غير الرواد هذا ، وعامة ما يرويه غير محفوظ » وقال ابن أبى حاتم فى العلل (٢ / ٣٠٦) : « سألت أبى عن هذا الحديث فقال : هذا حديث منكر » .

(٧) المسند (٢ / ٣٨٠) وفيه ابن لهيعة ودراج ضعيفان .

(٨) أما حديث ابن عباس ، فرواه البيهقى فى السنن الكبرى (٧ / ١٠٢)، من طريق بسطام بن حبيب عن القاسم عن أبى حازم عن ابن عباس مرفوعا ، ورواه ابن عدى فى الكامل (٧ / ٥٧) من طريق نهشل، عن الضحاك، عن ابن عباس، مرفوعاً . وقال : « هذه الأحاديث كلها عن الضحاك غير محفوظة » . ولم أجده عن معاذ موقوفاً ، وسيأتى مرفوعاً ، وجاء من حديث أبى سعيد الخدرى مرفوعاً . ورواه ابن عدى فى الكامل (٣ / ٤٥٤) عن سوار بن مصعب ، عن عطية ، عن أبى سعيد ، مرفوعاً وقال : « سوار هذا عامة مايرويه غير محفوظ » .

لفظ : « سافروا مع ذوى الجدود والميسرة » (١) .

وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أى : السميع لأقوال عباده ، العليم بحركاتهم وسكناتهم .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٦١) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (٦٣) ﴾ .

يقول تعالى مقررا (٢) أنه لا إله إلا هو ؛ لأن المشركين ـ الذين يعبدون معه غيره ـ معترفون أنه (٣) المستقل بخلق السموات والأرض والشمس والقمر،وتسخير الليل والنهار ، وأنه الخالق الرازق لعباده،ومقدر آجالهم ، واختلافها واختلاف أرزاقهم ففاوت بينهم ، فمنهم الغنى والفقير ، وهو العليم بما يصلح كلا منهم ، ومن يستحق الغنى ممن يستحق الفقر ، فذكر أنه المستبد بخلق الأشياء (٤) المتفرد بتدبيرها ، فإذا كان الأمر كذلك فلم يُعبد غيره ؟ ولم يتوكل على غيره ؟ فكما أنه الواحد فى ملكه فليكن الواحد فى عبادته ، وكثيراً ما يقرر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية . وقد كان المشركون يعترفون بذلك ، كما كانوا يقولون فى تلبيتهم : « لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك » .

﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦) ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها ، وأنها لا دوام لها ، وغاية ما فيها لهو ولعب : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ﴾ أى : الحياة الدائمة الحق الذى لا زوال لها ولا انقضاء ، بل هى مستمرة أبد الآباد .

وقوله : ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : لآثروا ما يبقى على ما يفنى .

ثم أخبر تعالى عن المشركين أنهم عند الاضطرار يدعونه وحده لا شريك له ، فهلا يكون هذا

---

(١) رواه الديلمى فى مسند الفردوس برقم (٣٣٨٧) من حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه ، وذكره السيوطى فى الجامع ورمز له بالضعف وأعله المناوى بإسماعيل بن زياد .

(٢) فى ت : « مخبراً » . (٣) فى ف : « بأنه » . (٤) فى ت : « الأصنام » .

منهم دائما ، ﴿ **فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ** ﴾ ،كقوله: ﴿ **وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ** (١) **إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ** ﴾ [الإسراء : ٦٧] .وقال هاهنا : ﴿ **فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ** ﴾ .

وقد ذكر محمد بن إسحاق ، عن عكرمة بن أبى جهل : أنه لما فتح رسول الله ﷺ مكة ذهب فاراً منها ، فلما ركب فى البحر ليذهب إلى الحبشة ، اضطربت بهم السفينة ، فقال أهلها : ياقوم ، أخلصوا لربكم الدعاء ، فإنه لا يُنَجّى ههنا إلا هو . فقال عكرمة : والله إن كان لا ينجى فى البحر غيره ، فإنه لا ينجى غيره فى البر أيضا ، اللهم لك علىَّ عهد لئن خرجتُ لأذهبن فلأضعَنّ يدى فى يد محمد فلأجدنه رؤوفاً رحيما ، وكان (٢) كذلك .

وقوله : ﴿ **لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا** ﴾ : هذه اللام يسميها كثير من أهل العربية والتفسير وعلماء الأصول لام العاقبة ؛ لأنهم لا يقصدون ذلك ، ولا شك أنها كذلك بالنسبة إليهم ، وأما بالنسبة إلى تقدير الله عليهم ذلك وتقييضه إياهم لذلك فهى لام التعليل . وقد قدمنا تقرير ذلك فى قوله : ﴿ **لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا** ﴾ [القصص : ٨] .

﴿ **أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (٦٧) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٦٨) وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩)** ﴾ .

يقول تعالى ممتنا على قريش فيما أحلهم من حرمه ، الذى جعله للناس سواء العاكف فيه والبادى، ومن دخله كان آمنا ، فهم فى أمن عظيم ، والأعراب حوله ينهب بعضهم بعضا ويقتل بعضهم بعضا، كما قال تعالى : ﴿ **لإِيلافِ قُرَيْشٍ . إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ . فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ . الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ** ﴾[قريش : ١ ـ ٤] .

وقوله : ﴿ **أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ** ﴾ أى : أفكان شكرهم على هذه النعمة العظيمة أن أشركوا به ، وعبدوا معه [غيره من] (٣) الأصنام والأنداد ، و ﴿ **بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ** ﴾ [إبراهيم : ٢٨] ، وكفروا بنبى الله وعبده ورسوله ، فكان اللائق بهم إخلاص العبادة لله ، وألا يشركوا به ، وتصديقَ الرسول وتعظيمه وتوقيره ، فكذبوه وقاتلوه وأخرجوه من بين ظهرهم ؛ ولهذا سلبهم الله ما كان أنعم به عليهم ، وقتل من قتل منهم ببدر ، وصارت الدولة لله ولرسوله وللمؤمنين ، ففتح الله على رسوله مكة ، وأرغم آنافهم وأذل رقابهم .

ثم قال تعالى:﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ** ﴾ ، أى : لا أحد أشد

(١) فى ت : « أنجاكم » وهو خطأ .
(٢) فى ت ، ف : « فكان » .
(٣) زيادة من أ .

عقوبة ممن كذب على الله فقال : إن الله أوحى إليه شيء · ولم يوح إليه شيء · ومن قال : سأنزل مثل ما أنزل الله ·وهكذا لا أحد أشد عقوبة ممن كذب بالحق لما جاءه ،فالأول مفتر ،والثانى مكذب ؛ ولهذا قال : ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ ·

ثم قال ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا ﴾ ، يعنى : الرسول ،صلوات الله وسلامه عليه ، وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين ، ﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ ،أى:لنُبَصرنهم سبلنا ،أى : طرقنا فى الدنيا والآخرة ·

قال ابن أبى حاتم :حدثنا أبى ، حدثنا أحمد بن أبى الحَوارى، حدثنا عباس الهمدانى أبو أحمد ـ من أهل عكا ـ فى قول الله (١) : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ قال : الذين يعملون بما يعلمون ، يهديهم لما لا يعلمون · قال أحمد بن أبى الحوارى : فحدثت به أبا سليمان الدارانى فأعجبه ، وقال : ليس ينبغى لمن أُلهم شيئا من الخير أن يعمل به حتى يسمعه فى الأثر، فإذا سمعه فى الأثر عمل به ، وحمد الله حين وافق ما فى نفسه (٢) .

وقوله : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ، قال ابن أبى حاتم :

حدثنا أبى،حدثنا عيسى بن جعفر ـ قاضى الرى ـ حدثنا أبو جعفر الرازى ،عن المغيرة ، عن (٣) الشعبى قال : قال عيسى ابن مريم ،عليه السلام : إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك ،ليس (٤) الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك · [وفى حديث جبريل لما سأل رسول الله ﷺ عن الإحسان قال : « أخبرنى عن الإحسان » · قال : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » ·

[انتهى تفسير سورة العنكبوت ، ولله الحمد والمنة (٥)] (٦)

(١) فى ت ، أ : « قوله تعالى » . (٢) فى أ : « قلبه » .
(٣) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بإسناده إلى » .
(٤) فى ت : « وليس » . (٥) فى هـ : « والله أعلم » . (٦) زيادة من ت .

٢٩ — سورة العنكبوت

(مكية وهى تسع وستون آية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ٢٩ العنكبوت

أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا أَن يَقُولُوٓا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ ٢٩ العنكبوت

وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ٢٩ العنكبوت

﴿ سورة العنكبوت ﴾

مكية وهى تسع وستون آية

(بسم الله الرحمن الرحيم) (الم) الكلام فيه كالذى مر مراراً فى نظائره من الفواتح الكريمة خلا أن ١
مابعده لا يحتمل أن يتعلق به تعلقاً إعرابياً (أحسب الناس) الحسبان ونظائره لا يتعلق بمعانى المفردات بل ٢
بمضامين الجمل المفيدة لثبوت شىء لشىء أو انتفاء شىء عن شىء بحيث يتحصل منها مفعولاه إما بالفعل كما فى عامة المواقع وإما بنوع تصرف فيها كما فى الجمل المصدرة بأن والواقعة صلة للموصول الاسمى أو الحرفى فإن كلا منها صالحة لأن يسبك منها مفعولاه لأن قوله تعالى أحسب الناس (أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم *
لا يفتنون) فى قوة أن يقال أحسبوا أنفسهم متروكين بلا فتنة بمجرد أن يقولوا آمنا أو أن يقال أحسبوا تركهم غير مفتونين بقولهم آمنا حاصلا متحققاً والمعنى إنكار الحسبان المذكور واستبعاده وتحقيق أنه تعالى يمتحنهم بمشاق التكاليف كالمهاجرة والمجاهدة ورفض ما تشتهيه النفس ووظائف الطاعات وفنون المصائب فى الأنفس والأموال ليتميز المخلص من المنافق والراسخ فى الدين من المتزلزل فيه ويجازيهم بحسب مراتب أعمالهم فإن مجرد الإيمان وإن كان عن خلوص لا يقتضى غير الخلاص من الخلود فى النار روى أنها نزلت فى ناس من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين جزعوا من أذية المشركين وقيل فى عمار قد عذب فى الله وقيل فى مهجع مولى عمر بن الخطاب رضى الله عنهما رماه عامر بن الحضرمى بسهم يوم بدر فقتله فجزع عليه أبواه وامرأته وهو أول من استشهد يومئذ من المسلمين فقال رسول الله ﷺ سيد الشهداء
مهجع وهو أول من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة (ولقد فتنا الذين من قبلهم) متصل بقوله تعالى ٣
أحسب أو بقوله تعالى لا يفتنون والمعنى أن ذلك سنة قديمة مبنية على الحكم البالغة جارية فيما بين الأمم كلها فلا ينبغى أن يتوقع خلافها والمعنى أن الأمم الماضية قد أصابهم من ضروب الفتن والمحن ما هو أشد مما أصاب هؤلاء فصبروا كما يعرب عنه قوله تعالى وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا الآيات وعن النبى ﷺ قد كان من قبلكم يؤخذ فيوضع المنشار

أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ ٢٩ العنكبوت

مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ ٢٩ العنكبوت

وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ ٢٩ العنكبوت

على رأسه فيفرق فرقتين مايصرفه ذلك عن دينه ويمشط بأمشاط الحديد مادون عظمه من لحم وعصب
مايصرفه ذلك عن دينه (فليعلمن الله الذين صدقوا) أى فى قولهم آمنا (وليعلمن الكاذبين) فى ذلك والفاء
لترتيب مابعدها على مايفصح عنه ماقبلها من وقوع الامتحان واللام جواب القسم والالتفات إلى الاسم
الجليل لإدخال الروعة وتربية المهابة وتكرير الجواب لزيادة التأكيد والتقرير أى فو الله ليتعلقن علمه
بالامتحان تعلقاً حالياً يتميز به الذين صدقوا فى الإيمان الذى أظهروه والذين هم كاذبون فيه مستمرون
على الكذب ويترتب عليه أجزيتهم من الثواب والعقاب ولذلك قيل المعنى ليميزن أو ليجازين وقرىء
وليعلمن من الاعلام أى وليعرفنهم الناس أو ليسمنهم بسمة يعرفون بها يوم القيامة كبياض الوجوه
٤ وسوادها (أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا) أى يفوتونا فلا نقدر على مجازاتهم بمساوى
أعمالهم وهو ساد مسد مفعولى حسب لاشتماله على مسند ومسند إليه وأم منقطعة وما فيها من معنى بل
للإضراب والانتقال عن التوبيخ بإنكار حسبانهم متروكين غير مفتونين إلى التوبيخ بإنكار ماهو أبطل من
الحسبان الأول وهو حسبانهم أن لايجازوا بسيئاتهم وهم وإن لم يحسبوا أنهم يفوتونه تعالى ولم يحدثوا
نفوسهم بذلك لكنهم حيث أصروا على المعاصى ولم يتفكروا فى العاقبة نزلوا منزلة من يطمع فى ذلك كما فى
قوله تعالى يحسب أن ماله أخلده (ساء مايحكمون) أى بئس الذى يحكمونه حكمهم ذلك أو بئس حكما يحكمونه
٥ حكمهم ذلك (من كان يرجو لقاء الله) أى يتوقع ملاقاة جزائه ثواباً أو عقاباً أو ملاقاة حكمه يوم القيامة وقيل
يرجو لقاء الله عز وجل فى الجنة وقيل يرجو ثوابه وقيل يخاف عقابه وقيل لقاؤه تعالى عبارة عن الوصول
إلى العاقبة من تلقى ملك الموت والبعث والحساب والجزاء على تمثيل تلك الحال بحال عبد قدم على سيده
بعد عهد طويل وقد علم مولاه بجميع ماكان يأتى ويذر فإما أن يلقاه ببشر وكرامة لما رضى من أفعاله
أو بضده لما سخطه (فإن أجل الله) الأجل عبارة عن غاية زمان ممتد عينت لأمر من الأمور وقد يطلق
على كل ذلك الزمان والأول هو الأشهر فى الاستعمال أى فإن الوقت الذى عينه تعالى لذلك (لآت)
لامحالة من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه لأن أجزاء الزمان على التقضى والتصرم دائماً فلابد من
إتيان ذلك الجزاء أيضاً البتة وإتيان وقته موجب لإتيان اللقاء حتما والجواب محذوف أى فليختر من
الأعمال مايؤدى إلى حسن الثواب وليحذر مايسوقه إلى سوء العذاب كما فى قوله تعالى فمن كان يرجو
لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً وفيه من الوعد والوعيد مالايخفى وقيل فليبادر إلى
مايحقق أمله ويصدق رجاءه أو مايوجب القربة والزلفى (وهو السميع) لأقوال العباد (العليم) بأحوالهم
٦ من الأعمال الظاهرة والعقائد (ومن جاهد) فى طاعة الله عز وجل (فإنما يجاهد لنفسه) لعود منفعتها

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ ٢٩ العنكبوت

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ٢٩ العنكبوت

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٩﴾ ٢٩ العنكبوت

إليها (إن الله لغنى عن العالمين) فلا حاجة له إلى طاعتهم وإنما أمرهم بها تعريضاً لهم للثواب بموجب رحمته
٧ (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم) الكفر بالإيمان والمعاصى بما يتبعها من
الطاعات (ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون) أى أحسن جزاء أعمالهم لا جزاء أحسن أعمالهم فقط
٨ (ووصينا الإنسان بوالديه حسناً) أى بإيتاء والديه وإيلائهما فعلا ذا حسن أو ماهو فى حد ذاته حسن
لفرط حسنه كقوله تعالى وقولوا للناس حسناً ووصى يجرى مجرى أمر معنى وتصرفا غير أنه يستعمل
فيما كان فى المأمور به نفع عائد إلى المأمور أوغيره وقيل هو بمعنى قال فالمعنى وقلنا أحسن بوالديك حسناً
وقيل انتصاب حسناً بمضمر على تقدير قول مفسر للتوصية أى وقلنا أولهما أو افعل بهما حسناً وهو
* أوفق لما بعده وعليه يحسن الوقف على بوالديه وقرىء حسناً وإحساناً (وإن جاهداك لتشرك بى ماليس
لك به علم) أى بالهيته عبر عن نفيها بنفى العلم بها للإيذان بأن مالا يعلم صحته لايجوز اتباعه وإن لم يعلم
* بطلانه فكيف بما علم بطلانه (فلا تطعهما) فى ذلك فإنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ولا بد من إضمار
القول إن لم يضمر فيما قبل وفى تعليق النهى عن طاعتهما بمجاهدتهما فى التكاليف إشعار بأن موجب النهى
فيما دونها من التكليف ثابت بطريق الأولوية (إلى مرجعكم) أى مرجع من آمن منكم ومن أشرك ومن
* بر بوالديه ومن عق (فأنبئكم بما كنتم تعملون) بأن أجازى كلا منكم بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر
والآية نزلت فى سعد بن أبى وقاص رضى الله تعالى عنه عند إسلامه حيث حلفت أمه حمنة بنت أبى سفيان
ابن أمية أن لا تنتقل من الضح إلى الظل ولا تطعم ولا تشرب حتى يرتد فلبثت ثلاثة أيام كذلك وكذا
التى فى سورة لقمان وسورة الأحقاف وقيل نزلت فى عياش بن أبى ربيعة المخزومى وذلك أنه هاجر مع
عمر بن الخطاب رضى الله عنه حتى نزلا المدينة فخرج أبو جهل والحرث أخواه لأمه أسماء فنزلا بعياش
وقالا له إن من دين محمد ﷺ صلة الأرحام وبر الوالدين وقد تركت أمك لا تطعم ولا تشرب ولا تأوى
بيتاً حتى تراك فاخرج معنا وفتلا منه فى الذروة والغارب واستشار عمر رضى الله عنه فقال هما يخدعانك
ولك على أن أقسم مالى بينى وبينك فما زالا به حتى أطاعهما وعصى عمر رضى الله عنه فقال عمر رضى الله
عنه أما إذا عصيتنى فخذ ناقتى فليس فى الدنيا بعير يلحقها فإن رابك منهما ريب فارجع فلما انتهوا إلى البيداء
قال أبو جهل إن ناقتى قد كلت فاحملنى معك فنزل ليوطىء لنفسه وله فأخذاه فشداه وثاقا وجلده كل
٩ واحد مائة جلدة وذهبا به إلى أمه فقالت لا تزال فى عذاب حتى ترجع عن دين محمد (والذين آمنوا وعملوا

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ٢٩ العنكبوت

وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ ٢٩ العنكبوت

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ ٢٩ العنكبوت

الصالحات لندخلنهم فى الصالحين) أى فى زمرة الراسخين فى الصلاح والكمال فى الصلاح منتهى درجات
المؤمنين وغاية مأمول أنبياء الله المرسلين قال الله تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام وأدخلنى برحمتك
فى عبادك الصالحين وقال فى حق إبراهيم عليه السلام وإنه فى الآخرة لمن الصالحين أو فى مدخل الصالحين
١٠ وهو الجنة (ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذى فى الله) أى فى شأنه تعالى بأن عذبهم الكفرة
على الإيمان (جعل فتنة الناس) أى ما يصيبه من أذيتهم (كعذاب الله) فى الشدة والهول فيرتد عن الدين
مع أنه لا قدر لها عند نفحة من عذابه تعالى أصلا (ولئن جاء نصر من ربك) أى فتح وغنيمة (ليقولن)
بضم اللام نظراً إلى معنى من كما أن الإفراد فيما سبق بالنظر إلى لفظها وقرىء بالفتح (إنا كنا معكم)
أى مشايعين لكم فى الدين فأشركونا فى المغنم وهم ناس من ضعفة المسلمين كانوا إذا مسهم أذى من الكفار
وافقوهم وكانوا يكتمونه من المسلمين فرد عليهم ذلك بقوله تعالى (أو ليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين)
أى بأعلم منهم بما فى صدورهم من الإخلاص والنفاق حتى يفعلوا ما يفعلون من الارتداد والإخفاء عن
١١ المسلمين وادعاء كونهم منهم لنيل الغنيمة وهذا هو الأوفق لما سبق ولما لحق من قوله تعالى (وليعلمن الله
الذين آمنوا) أى بالإخلاص (وليعلمن المنافقين) سواء كان كفرهم بأذية الكفرة أو لا أى ليجزينهم
١٢ بما لهم من الإيمان والنفاق (وقال الذين كفروا للذين آمنوا) بيان لحملهم للمؤمنين على الكفر بالاستمالة
بعد بيان حملهم لهم عليه بالأذية والوعيد وصفهم بالكفر ههنا دون ما سبق لما أن مساق الكلام لبيان
جناياتهم وفيما سبق لبيان جناية من أضلوه واللام للتبليغ أى قالوا مخاطبين لهم (اتبعوا سبيلنا) أى
اسلكوا طريقتنا التى نسلكها فى الدين عبر عن ذلك بالاتباع الذى هو المشى خلف ماش آخر تنزيلا
للمسلك منزلة السالك فيه أو اتبعونا فى طريقتنا (ولنحمل خطاياكم) أى إن كان ذلك خطيئة يؤاخذ عليها
بالبعث كما تقولون وإنما أمروا أنفسهم بالحمل عاطفين له على أمرهم بالاتباع للمبالغة فى تعليق الحمل
بالاتباع والوعد بتخفيف الأوزار عنهم إن كان ثمة وزر فرد عليهم بقوله تعالى (وما هم بحاملين من
خطاياهم من شىء) وقرىء من خطيآتهم أى وما هم بحاملين شيئاً من خطاياهم التى التزموا أن يحملوا كلها
على أن من الأولى للتبيين والثانية مزيدة للاستغراق والجملة اعتراض أو حال (إنهم لكاذبون) حيث
أخبروا فى ضمن وعدهم بالحمل بأنهم قادرون على إنجاز ما وعدوا فإن الكذب كما يتطرق إلى الكلام باعتبار

وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ ٢٩ العنكبوت

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ ٢٩ العنكبوت

فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ ٢٩ العنكبوت

وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ ٢٩ العنكبوت

منطوقه يتطرق إليه باعتبار مايلزم مدلوله كما مر فى قوله تعالى أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين
١٣ (وليحملن أثقالهم) بيان لما يستتبعه قولهم ذلك فى الآخرة من المضرة لأنفسهم بعد بيان عدم منفعته
لمخاطبيهم أصلا والتعبير عن الخطايا بالأثقال للإيذان بغاية ثقلها وكونها فادحة واللام جواب قسم مضمر
أى وبالله ليحملن أثقال أنفسهم كاملة (وأثقالا) أخر (مع أثقالهم) لما تسببوا بالإضلال والحمل على
الكفر والمعاصى من غير أن ينتقص من أثقال من أضلوه شيء ما أصلا (وليسألن يوم القيامة) سؤال
تقريع وتبكيت (عما كانوا يفترون) أى يختلقونه فى الدنيا من الأكاذيب والأباطيل التى من جملتها كذبهم
١٤ هذا (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما) شروع فى بيان افتتان الأنبياء
عليهم الصلاة والسلام بأذية أممهم إثر بيان افتتان المؤمنين بأذية الكفار تأكيداً للإنكار على الذين
يحسبون أن يتركوا بمجرد الإيمان بلا ابتلاء وحثاً لهم على الصبر فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام
حيث ابتلوا بما أصابهم من جهة أممهم من فنون المكاره وصبروا عليها فلأن يصبر هؤلاء أولى وأحرى
قالوا كان عمر نوح عليه السلام ألفاً وخمسين عاما بعث على رأس أربعين سنة ودعا قومه تسعمائة وخمسين
سنة وعاش بعد الطوفان ستين سنة وعن وهب أنه عاش ألفاً وأربعمائة سنة ولعل ماعليه النظم الكريم
للدلالة على كمال العدد فإن تسعمائة وخمسين قد يطلق على مايقرب منه ولما فى ذكر الألف من تخييل طول
المدة فإن المقصود من القصة تسلية رسول الله ﷺ وتثبيته على ما كان عليه من مكابدة ماينا له من الكفرة
وإظهار ركاكة رأى الذين يحسبون أنهم يتركون بلا ابتلاء واختلاف المميز لما فى التكرير من نوع بشاعة
(فأخذهم الطوفان) أى عقب تمام المدة المذكورة والطوفان يطلق على كل مايطوف بالشيء على كثرة وشدة
من السيل والريح والظلام وقد غلب على طوفان الماء (وهم ظالمون) أى والحال أنهم مستمرون على الظلم لم
يتأثروا بما سمعوا من نوح عليه السلام من الآيات ولم يرعووا عما هم عليه من الكفر والمعاصى هذه
١٥ المدة المتمادية (فأنجيناه) أى نوحا عليه السلام (وأصحاب السفينة) أى ومن ركب فيها معه من أولاده
وأتباعه وكانوا ثمانين وقيل ثمانية وسبعين وقيل عشرة وقيل ثمانية نصفهم ذكور ونصفهم إناث (وجعلناها)
١٦ أى السفينة أو الحادثة والقصة (آية للعالمين) يتعظون بها (وإبراهيم) نصب بالعطف على نوحا وقيل

إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ
لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ٢٩ العنكبوت
وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ ٢٩ العنكبوت
أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ ٢٩ العنكبوت

بإضمار اذكر وقرىء بالرفع على تقدير ومن المرسلين إبراهيم (إذ قال لقومه) على الأول ظرف للإرسال أى أرسلناه حين تكامل عقله وقدر على النظر والاستدلال وترقى من رتبة الكمال إلى درجة التكميل حيث تصدى لإرشاد الخلق إلى طريق الحق وعلى الثانى بدل اشتمال من إبراهيم (اعبدوا الله) أى وحده (واتقوه) أن تشركوا به شيئاً (ذلكم) أى ماذكر من العبادة والتقوى (خير لكم) أى مما أنتم عليه ومعنى التفضيل مع أنه لاخيرية فيه قطعاً باعتبار زعمهم الباطل (إن كنتم تعلمون) أى الخير والشر وتميزون أحدهما من الآخر أو إن كنتم تعلمون شيئاً من الأشياء بوجه من الوجوه فإن ذلك كاف فى
١٧ الحكم بخيرية ماذكره من العبادة والتقوى (إنما تعبدون من دون الله أوثاناً) بيان لبطلان دينهم وشريته فى نفسه بعد بيان شريته بالنسبة إلى الدين الحق أى إنما تعبدون من دونه تعالى أوثاناً هى فى نفسها تماثيل مصنوعة لكم ليس فيها وصف غير ذلك (وتخلقون إفكا) أى وتكذبون كذباً حيث تسمونها آلهة وتدعون أنها شفعاؤكم عند الله تعالى أو تعملونها وتنحتونها للإفك وقرىء تخلقون بالتشديد للتكثير فى الخلق بمعنى الكذب والافتراء وتخلقون بحذف إحدى التاءين من تخلق بمعنى تكذب وتخرص وقرىء أفكا على أنه مصدر كالكذب واللعب أو نعت بمعنى خلقاً ذا إفك (إن الذين تعبدون من دون الله) بيان لشرية مايعبدونه من حيث إنه لا يكاد يجديهم نفعاً (لا يملكون لكم رزقا) أى لا يقدرون على أن يرزقوكم شيئاً من الرزق (فابتغوا عند الله الرزق) كله فإنه هو الرزاق ذو القوة المتين (واعبدوه) وحده (واشكروا له) على نعمائه متوسلين إلى مطالبكم بعبادته مقيدين بالشكر للعتيد ومستجلبين للمزيد (وإليه ترجعون)
١٨ أى بالموت ثم بالبعث لا إلى غيره فافعلوا ماأمرتكم به وقرىء ترجعون من رجع رجوعاً (وإن تكذبوا) أى تكذبونى فيما أخبرتكم به من أنكم إليه ترجعون بالبعث (فقد كذب أمم من قبلكم) تعليل للجواب أى فلا تضروننى بتكذيبكم فإن من قبلكم من الأمم قد كذبوا من قبلى من الرسل وهم شيث وإدريس ونوح عليهم السلام فلم يضرهم تكذيبهم شيئاً وإنما ضر أنفسهم حيث تسبب لما حل بهم من العذاب فكذا تكذيبكم (وما على الرسول إلا البلاغ المبين) أى التبليغ الذى لا يبقى معه شك وما عليه أن يصدقه قومه
١٩ البتة وقد خرجت عن عهدة التبليغ بما لامزيد عليه فلايضرنى تكذيبكم بعد ذلك أصلا (أولم يروا كيف يبدىء الله الخلق) كلام مستأنف مسوق من جهته تعالى للإنكار على تكذيبهم بالبعث مع وضوح دليله وسنوح سبيله والهمزة لإنكار عدم رؤيتهم الموجب لتقريرها والواو للعطف على مقدر أى ألم ينظروا

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ٢٩ العنكبوت

يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ ٢٩ العنكبوت

وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ ٢٩ العنكبوت

ولم يعلموا علماً جارياً مجرى الرؤية فى الجلاء والظهور كيفية خلق الله تعالى الخلق ابتداء من مادة ومن غير مادة أى قد علموا ذلك وقرىء بصيغة الخطاب لتشديد الإنكار وتأكيده وقرىء يبدأ وقوله تعالى (ثم يعيده) عطف على أولم يروا لا على يبدىء لعدم وقوع الرؤية عليه فهو إخبار بأنه تعالى يعيد الخلق قياساً على الإبداء وقد جوز العطف على يبدىء بتأويل الإعادة بإنشائه تعالى كل سنة مثل ما أنشأه فى السنة السابقة من النبات والثمار وغيرهما فإن ذلك مما يستدل به على صحة البعث ووقوعه من غير ريب (إن ذلك) أى ما ذكر من الإعادة (على الله يسير) إذ لا يفتقر فعله إلى شىء أصلا (قل سيروا فى الأرض)
٢٠ أمر لإبراهيم عليه السلام أن يقول لهم ذلك أى سيروا فيها (فانظروا كيف بدأ الخلق) أى كيف خلقهم ابتداء على أطوار مختلفة وطبائع متغايرة وأخلاق شتى فإن ترتيب النظر على السير فى الأرض مؤذن بتتبع أحوال أصناف الخلق القاطنين فى أقطارها (ثم الله ينشىء النشأة الآخرة) بعد النشأة الأولى التى شاهدتموها والتعبير عن الإعادة التى هى محل النزاع بالنشأة الآخرة المشعرة بكون البدء نشأة أولى للتنبيه على أنهما شأن واحد من شؤون الله تعالى حقيقة واسماً من حيث إن كلا منهما اختراع وإخراج من العدم إلى الوجود ولا فرق بينهما إلا بالأولية والآخرية وقرىء النشاءة بالمد وهما لغتان كالرأفة والرآفة ومحلها النصب على أنها مصدر مؤكد لينشىء بحذف الزوائد والأصل الإنشاءة أو بحذف العامل أى ينشىء فينشأون النشأة الآخرة كما فى قوله تعالى وأنبتها نباتاً حسناً والجملة معطوفة على جملة سيروا فى الأرض داخلة معها فى حيز القول وإظهار الاسم الجليل وإيقاعه مبتدأ مع إضماره فى بدأ لإبراز مزيد الاعتناء ببيان تحقق الإعادة بالإشارة إلى علة الحكم وتكرير الإسناد وقوله تعالى (إن الله على كل شىء قدير) تعليل لما قبله بطريق التحقيق فإن من علم قدرته تعالى على جميع الأشياء التى من جملتها الإعادة لا يتصور
٢١ أن يتردد فى قدرته عليها ولا فى وقوعها بعد ما أخبر به (يعذب) أى بعد النشأة الآخرة (من يشاء) أن يعذبه وهم المنكرون لها حتما (ويرحم من يشاء) أن يرحمه وهم المصدقون بها والجملة تكملة لما قبلها وتقديم التعذيب لما أن الترهيب أنسب بالمقام من الترغيب (وإليه تقلبون) عند ذلك لا إلى غيره فيفعل بكم ما يشاء
٢٢ من التعذيب والرحمة (وما أنتم بمعجزين) له تعالى عن إجراء حكمه وقضائه عليكم (فى الأرض ولا فى السماء) أى بالتوارى فى الأرض أو الهبوط فى مهاويها ولا بالتحصن فى السماء التى هى أفسح منها لو استطعتم الرقى فيها كما فى قوله تعالى إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا أو

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ ٢٩ العنكبوت

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ ٢٩ العنكبوت

وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ٢٩ العنكبوت

القلاع الذاهبة فيها وقيل فى السماء صفة لمحذوف معطوف على أنتم أى ولا من فى السماء (وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير) يحرسكم مما يصيبكم من بلاء يظهر من الأرض أو ينزل من السماء ويدفعه عنكم
٢٣ (والذين كفروا بآيات الله) أى بدلائله التكوينية والتنزيلية الدالة على ذاته وصفاته وأفعاله فيدخل فيها النشأة الأولى الدالة على تحقق البعث والآيات الناطقة به دخولا أوليا وتخصيصها بدلائل وحدانيته تعالى لا يناسب المقام (ولقائه) الذى تنطق به تلك الآيات (أولئك) الموصوفون بما ذكر من الكفر بآياته تعالى ولقائه (يئسوا من رحمتى) أى ييأسون منها يوم القيامة وصيغة الماضى للدلالة على تحققه أو يئسوا منها فى الدنيا لإنكارهم البعث والجزاء (وأولئك لهم عذاب أليم) وفى تكرير اسم الإشارة وتكرير الإسناد وتنكير العذاب ووصفه بالأليم من الدلالة على كمال فظاعة حالهم مالا يخفى أى أولئك الموصوفون بالكفر بآيات الله تعالى ولقائه وباليأس من رحمته الممتازون بذلك عن سائر الكفرة لهم بسبب تلك
٢٤ الأوصاف القبيحة عذاب لا يقادر قدره فى الشدة والإيلام (فما كان جواب قومه) بالنصب على أنه خبر كان واسمها قوله تعالى (إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه) وقرىء بالرفع على العكس وقد مر ما فيه فى نظائره وليس المراد أنه لم يصدر عنهم بصدد الجواب عن حجج إبراهيم عليه السلام إلا هذه المقالة الشنيعة كما هو المتبادر من ظاهر النظم الكريم بل إن ذلك هو الذى استقر عليه جوابهم بعد اللتيا والتى فى المرة الأخيرة وإلا فقد صدر عنهم من الخرافات والأباطيل ما لا يحصى (فأنجاه الله من النار) الفاء فصيحة أى فألقوه فى النار فأنجاه الله تعالى منها بأن جعلها عليه عليه الصلاة والسلام برداً وسلاماً حسبما بين فى مواضع أخر وقد مر فى سورة الأنبياء بيان كيفية إلقائه عليه الصلاة والسلام فيها وإنجائه تعالى إياه تفصيلا قيل لم ينتفع يومئذ بالنار فى موضع أصلا (إن فى ذلك) أى فى إنجائه منها (لآيات) بينة عجيبة هى حفظه تعالى إياه من حرها وإخمادها فى زمان يسير وإنشاء روض فى مكانها (لقوم يؤمنون) وأما
٢٥ من عداهم فهم عن اجتلائها غافلون ومن الفوز بمغانم آثارها محرومون (وقال) أى إبراهيم عليه السلام مخاطباً لهم (إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم فى الحياة الدنيا) أى لتتوادوا بينكم وتتواصلوا لاجتماعكم على عبادتها وائتلافكم وثانى مفعولى اتخذتم محذوف أى أوثاناً آلهة ويجوز أن يكون مودة هو المفعول بتقدير المضاف أو بتأويلها بالمودودة أو بجعلها نفس المودة مبالغة أى اتخذتم أوثاناً سبب المودة

فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ ٢٩ العنكبوت

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ ٢٩ العنكبوت

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ٢٩ العنكبوت

بينكم أو مودودة أو نفس المودة وقرىء مودة منونة منصوبة ناصبة الظرف وقرئت بالرفع والإضافة على أنها خبر مبتدأ محذوف أى هى مودودة أو نفس المودة أو سبب مودة بينكم والجملة صفة أوثاناً أو خبر إن على أن ما مصدرية أو موصولة قد حذف عائدها وهو المفعول الأول وقرئت مرفوعة منونة ومضافة بفتح بينكم كما قرىء لقد تقطع بينكم على أحد الوجهين وقرىء إنما مودة بينكم والمعنى أن اتخاذكم إياها مودة بينكم ليس إلا فى الحياة وقد أجريتم أحكامه حيث فعلتم بى ما فعلتم لأجل مودتكم لها انتصاراً منى كما ينبىء عنه قوله تعالى وانصروا آلهتكم (ثم يوم القيامة) تنقلب الأمور ويتبدل التواد تباغضاً والتلاطف تلاعناً حيث (يكفر بعضكم) وهم العبدة (ببعض) وهم الأوثان (ويلعن بعضكم بعضاً) أى يلعن كل فريق منكم ومن الأوثان حيث ينطقها الله تعالى الفريق الآخر (ومأواكم النار) أى هى منزلكم الذى تأوون إليه ولا ترجعون منه أبداً (وما لكم من ناصرين) يخلصونكم منها كما خلصنى ربى من النار التى ألقيتمونى فيها وجمع الناصر لوقوعه فى مقابلة الجمع أى ما لأحد منكم من ناصر أصلا (فآمن له لوط) أى صدقه فى جميع مقالاته لا فى نبوته وما دعا إليه من ٢٦
التوحيد فقط فإنه كان منزها عن الكفر وما قيل إنه آمن له حين رأى النار لم تحرقه ينبغى أن يحمل على ما ذكرنا أو على أن يراد بالإيمان الرتبة العالية منها وهى التى لا يرتقى إليها إلا همم الأفراد الكمل ولوط هو ابن أخيه عليهما السلام (وقال إنى مهاجر) أى من قومى (إلى ربى) إلى حيث أمرنى ربى (إنه هو العزيز) الغالب على أمره فيمنعنى من أعدائى (الحكيم) الذى لا يفعل فعلا إلا وفيه حكمة ومصلحة فلا يأمرنى إلا بما فيه صلاحى روى أنه هاجر من كوثى سواد الكوفة مع لوط وسارة ابنة عمه إلى حران ثم منها إلى الشأم فنزل فلسطين ونزل لوط سدوم (ووهبنا له إسحاق ويعقوب) ولداً ونافلة حين أيس من ٢٧
عجوز عاقر (وجعلنا فى ذريته النبوة) فكثر منهم الأنبياء (والكتاب) أى جنس الكتاب المتناول للكتب الأربعة (وآتيناه أجره) بمقابلة هجرته إلينا (فى الدنيا) بإعطاء الولد والذرية الطيبة واستمرار النبوة فيهم وانتماء أهل الملل إليه والثناء والصلاة عليه إلى آخر الدهر (وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) أى الكاملين فى الصلاح (ولوطاً) منصوب إما بالعطف على نوحا أو على إبراهيم والكلام فى قوله تعالى (إذ ٢٨
قال لقومه) كالذى مر فى قصة إبراهيم عليه السلام (إنكم لتأتون الفاحشة) أى الفعلة المتناهية فى القبح وقرىء أئنكم (ما سبقكم بها من أحد من العالمين) استئناف مقرر لكمال قبحها فإن إجماع جميع افراد العالمين على التحاشى عنها ليس إلا لكونها مما تشمئز منه الطباع وتنفر منه النفوس .

أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ ٢٩ العنكبوت

قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ ٢٩ العنكبوت

وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ ٢٩ العنكبوت

قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ ٢٩ العنكبوت

٢٩ (أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل) وتتعرضون للسابلة اى بالفاحشة حيث روى أنهم كانوا كثيراً مايفعلونها بالغرباء وقيل تقطعون سبيل النساء بالإعراض عن الحرث وإتيان ماليس بحرث وقيل تقطعون السبيل بالقتل واخذ المال (وتأتون فى ناديكم) أى تفعلون فى مجلسكم الجامع لأصحابكم (المنكر) كالجماع والضراط وحل الإزار وغيرها مما لاخير فيه من الأفاعيل المنكرة وعن ابن عباس رضى الله عنهما هو الحذف بالحصى والرمى بالبنادق والفرقعة ومضغ العلك والسواك بين الناس وحل الإزار والسباب والفحش فى المزاح وقيل السخرية بمن مر بهم وقيل المجاهرة فى ناديهم بذلك العمل (فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين) أى فما كان جواباً من جهتهم شىء من الأشياء إلا هذه الكلمة الشنيعة أى لم يصدر عنهم فى هذه المرة من مرات مواعظ لوط عليه السلام وقد كان أوعدهم فيها بالعذاب وأما مافى سورة الأعراف من قوله تعالى وماكان جواب قومه إلا أن قالوا اخرجوهم من قريتكم الآية وما فى سورة النمل من قوله تعالى فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم الآية فهو الذى صدر عنهم بعده هذه المرة وهى المرة الأخيرة من مرات

٣٠ المقاولات الجارية بينهم وبينه عليه الصلاة والسلام وقدمر تحقيقه فى سورة الأعراف (قال رب انصرنى) أى بإنزال العذاب الموعود (على القوم المفسدين) بابتداع الفاحشة وسنها فيمن بعدهم والإصرار عليها

٣١ واستعجال العذاب بطريق الاستهزاء وإنما وصفهم بذلك مبالغة فى استنزال العذاب عليهم (ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى) أى بالبشارة بالولد والنافلة (قالوا) أى لإبراهيم عليه السلام فى تضاعيف الكلام حسبما فصل فى سورة هود وسورة الحجر (إنا مهلكوا اهل هذه القرية) أى قرية سدوم والإضافة اللفظية لأن المعنى على الاستقبال (إن أهلها كانوا ظالمين) تعليل للإهلاك بإصرارهم على الظلم وتماديهم

٣٢ فى فنون الفساد وأنواع المعاصى (قال إن فيها لوطاً) فكيف تهلكونها (قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله) أرادوا أنهم غير غافلين عن مكان لوط عليه السلام فيها بل عمن لم يتعرض له إبراهيم عليه السلام من أتباعه المؤمنين وأنهم معتنون بشأنهم أتم اعتناء حسبما ينبىء عنه تصدير الوعد بالتنجية بالقسم أى والله لننجينه وأهله (إلا امراته كانت من الغابرين) أى الباقين فى العذاب أو القرية .

وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ ٢٩ العنكبوت

إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ ٢٩ العنكبوت

وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ ٢٩ العنكبوت

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ ٢٩ العنكبوت

فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ ٢٩ العنكبوت

٣٣ (ولما أن جاءت رسلنا) المذكورون بعد مفارقتهم لإبراهيم عليه السلام (لوطاً سيء بهم) اعتراه المساءة
بسببهم مخافة أن يتعرض لهم قومه بسوء وكلمة أن صلة لتأكيد مابين الفعلين من الاتصال (وضاق بهم
ذرعا) أى ضاق بشأنهم وتدبير أمرهم ذرعه أى طاقته كقولهم ضاقت يده وبإزائه رحب ذرعه بكذا
إذا كان مطيقاً به قادراً عليه وذلك أن طويل الذراع ينال مالا يناله قصير الذراع (وقالوا) ريثما شاهدوا
فيه مخايل التضجر من جهتهم وعاينوا أنه قد عجز عن مدافعة قومه بعد اللتيا والتى حتى آلت به الحال إلى
أن قال لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد (لاتخف) أى من قومك علينا (ولا تحزن) أى على شيء
وقيل بإهلاكنا إياهم (إنا منجوك وأهلك) مما يصيبهم من العذاب (إلا امرأتك كانت من الغابرين)
وقرىء لننجينك ومنجوك من الإنجاء وأياً ماكان فمحل الكاف الجر على المختار ونصب أهلك بإضمار فعل
٣٤ أو بالعطف على محلها باعتبار الأصل (إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء) استئناف مسوق
لبيان ماأشير إليه بوعد التنجية من نزول العذاب عليهم والرجز العذاب الذى يقلق المعذب أى يزعجه من قولهم
٣٥ ارتجز إذا ارتجس واضطرب وقرىء منزلون بالتشديد (بما كانوا يفسقون) بسبب فسقهم المستمر (ولقد
تركنا منها) أى من القرية (آية بينة) هى قصتها العجيبة وآثار ديارها الخربة وقيل الحجارة الممطورة
فإنها كانت باقية بعدها وقيل الماء الأسود على وجه الأرض (لقوم يعقلون) يستعملون عقولهم فى
٣٦ الاستبصار والاعتبار وهو متعلق إما بتركنا أو بينة (وإلى مدين أخاهم شعيباً) متعلق بمضمر معطوف على
أرسلنا فى قصة نوح عليه السلام أى وأرسلنا إلى مدين شعيباً (فقال ياقوم اعبدوا الله) وحده (وارجوا
اليوم الآخر) أى توقعوه وماسيقع فيه من فنون الأهوال وافعلوا اليوم من الأعمال ماتأمنون غائلته
وقيل وارجوا ثوابه بطريق إقامة المسبب مقام السبب وقيل الرجاء بمعنى الخوف (ولا تعثوا فى
٣٧ الأرض مفسدين) (فكذبوه فأخذتهم الرجفة) أى الزلزلة الشديدة وفى سورة هود وأخذت الذين
ظلموا الصيحة أى صيحة جبريل عليه السلام فإنها الموجبة للرجفة بسبب تمويجها للهواء ومايجاورها من

وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ ٢٩ العنكبوت

وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ ٢٩ العنكبوت

فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ٢٩ العنكبوت

مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٢٩ العنكبوت

الأرض (فأصبحوا فى درامم) أى بلدهم أو منازلهم والإفراد لأمن اللبس (جاثمين) باركين على الركب
٣٨ ميتين (وعاداً وثمود) منصوبان بإضمار فعل ينبىء عنه ماقبله أى أهلكنا وقرىء ثموداً بتأويل الحى (وقد
تبين لكم من مساكنهم) أى وقد ظهر لكم إهلا كنا إياهم من جهة مساكنهم بالنظر إليها عند اجتيازكم
بها ذهاباً إلى الشأم وإياباً منه (وزين لهم الشيطان أعمالهم) من فنون الكفر والمعاصى (فصدهم عن
السبيل) السوى الموصل إلى الحق (وكانوا مستبصرين) متمكنين من النظر والاستدلال ولكنهم
لم يفعلوا ذلك أو متبينين أن العذاب لاحق بهم بإخبار الرسل عليهم الصلاة والسلام لهم ولكنهم لجوا
٣٩ حتى لقوا مالقوا (وقارون وفرعون وهامان) معطوف على عاداً قيل تقديم قارون لشرف نسبه (ولقد
جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض وماكانوا سابقين) مفلتين فائتين من قولهم سبق طالبه إذا
٤٠ فاته ولم يدركه ولقد أدركهم أمر الله عز وجل أى إدراك فتداركوا نحو الدمار والهلاك (فكلا) تفسير
لما ينبىء عنه عدم سبقهم بطريق الإبهام أى فكل واحد من المذكورين (أخذنا بذنبه) أى عاقبناه بجنايته
لا بعضه دون بعض كما يشعر به تقديم المفعول (فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً) تفصيل للأخذ أى ريحاً
عاصفاً فيها حصباء وقيل ملكاً رماهم بها وهم قوم لوط (ومنهم من أخذته الصيحة) كمدين وثمود (ومنهم
من خسفنا به الأرض) كقارون (ومنهم من أغرقنا) كقوم نوح وفرعون وقومه (وما كان الله ليظلمهم)
بما فعل بهم فإن ذلك محال من جهته تعالى (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) بالاستمرار على مباشرة
٤١ مايوجب ذلك من أنواع الكفر والمعاصى (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء) أى فيما اتخذوه
معتمداً ومتكلا (كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً) فيما نسجته فى الوهن والخور بل ذلك أوهن من هذا
لأن له حقيقة وانتفاعا فى الجملة أو مثلهم بالإضافة إلى الموحد كمثله بالإضافة إلى رجل بنى بيتاً من حجر
وجص والعنكبوت يقع على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث والغالب فى الاستعمال التأنيث وتاؤه

إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ ٢٩ العنكبوت

وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ٢٩ العنكبوت

خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٢٩ العنكبوت

ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ٢٩ العنكبوت

كتاه طاغوت ويجمع على عناكب وعنكبوتات وأما العكاب والعكب والإعكب فأسماء الجموع (وإن
أوهن البيوت لبيت العنكبوت) حيث لا يرى شيء يدانيه فى الوهن والوهى (لو كانوا يعلمون) أى شيئاً *
من الأشياء لجزموا أن هذا مثلهم أو أن دينهم أوهى من ذلك ويجوز أن يجعل بيت العنكبوت عبارة عن
٤٢ دينهم تحقيقاً للتمثيل فالمعنى وإن أوهن ما يعتمد به فى الدين دينهم (إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء)
على إضمار القول أى قل للكفرة إن الله الخ وما استفهامية منصوبة بيدعون معلقة ليعلم ومن للتبيين أو
نافية ومن مزيدة وشيء مفعول يدعون أو مصدرية وشيء عبارة عن المصدر أو موصولة مفعول ليعلم
ومفعول يدعون عائده المحذوف وقرىء تدعون بالتاء والكلام على الأولين تجهيل لهم وتأكيد للمثل
وعلى الأخيرين وعيد لهم (وهو العزيز الحكيم) تعليل على المعنيين فإن إشراك مالا يعد شيئاً بمن هذا *
شأنه من فرط الغباوة وأن الجماد بالنسبة إلى القادر القاهر على كل شيء البالغ فى العلم وإتقان الفعل الغاية
٤٣ القاصية كالمعدوم البحت وأن من هذه صفاته قادر على مجازاتهم (وتلك الأمثال) أى هذا المثل وأمثاله
(نضربها للناس) تقريباً لما بعد من أفهامهم (وما يعقلها) على ما هى عليه من الحسن واستتباع الفوائد
(إلا العالمون) الراسخون فى العلم المتدبرون فى الأشياء على ما ينبغى وعنه ﷺ أنه تلا هذه فقال العالم
٤٤ من عقل عن الله تعالى وعمل بطاعته واجتنب سخطه (خلق الله السموات والأرض بالحق) أى محقاً
مراعياً للحكم والمصالح على أنه حال من فاعل خلق أو ملتبسة بالحق الذى لا محيد عنه مستتبعة للمنافع
الدينية والدنيوية على أنه حال من مفعوله فإنها مع اشتمالها على جميع ما يتعلق به معايشهم شواهد دالة على
شئونه تعالى المتعلقة بذاته وصفاته كما يفصح عنه قوله تعالى (إن فى ذلك لآية للمؤمنين) دالة لهم على ما ذكر *
من شئونه سبحانه وتخصيص المؤمنين بالذكر مع عموم الهداية والإرشاد فى خلقهما للكل لأنهم المنتفعون
٤٥ بذلك (اتل ما أوحى إليك من الكتاب) تقرباً إلى الله تعالى بقراءته وتذكراً لما فى تضاعيفه من المعانى
وتذكيراً للناس وحملا لهم على العمل بما فيه من الأحكام ومحاسن الآداب ومكارم الأخلاق (وأقم
الصلاة) أى داوم على إقامتها وحيث كانت الصلاة منتظمة للصلوات المكتوبة المؤداة بالجماعة وكان أمره
عليه الصلاة والسلام بإقامتها متضمناً لأمر الأمة بها علل بقوله تعالى (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء

وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ٢٩ العنكبوت

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ ٢٩ العنكبوت

والمنكر) كأنه قيل وصل بهم إن الصلاة تنهاهم عن الفحشاء والمنكر ومعنى نهيها عنهما أنها سبب للانتهاء عنهما لأنها مناجاة لله تعالى فلابد أن تكون مع إقبال تام على طاعته وإعراض كلى عن معاصيه قال ابن مسعود وابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى الصلاة منتهى ومزدجر عن معاصى الله تعالى فمن لم تأمره صلاته بالمعروف ولم تنهه عن المنكر لم يزدد بصلاته من الله تعالى إلا بعداً وقال الحسن وقتادة من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فصلاته وبال عليه وروى أنس رضى الله عنه أن فتى من الأنصار كان يصلى مع رسول الله ﷺ ثم لا يدع شيئاً من الفواحش إلا ركبه فوصف له ﷺ حاله فقال إن صلاته ستنهاه فلم يلبث أن تاب وحسن حاله (ولذكر الله أكبر) أى وللصلاة أكبر من سائر الطاعات وإنما عبر عنها به كما فى قوله تعالى فاسعوا إلى ذكر الله للإيذان بأن ما فيها من ذكر الله تعالى هو العمدة فى كونها مفضلة على الحسنات ناهية عن السيئات وقيل ولذكر الله تعالى عند الفحشاء والمنكر وذكر نهيه عنهما ووعيده عليهما أكبر فى الزجر عنهما وقيل ولذكر الله إياكم برحمته أكبر من ذكركم إياه بطاعته (والله يعلم ما تصنعون) منه ومن سائر الطاعات فيجازيكم بها أحسن المجازاة

٤٦ (ولا تجادلوا أهل الكتاب) من اليهود والنصارى (إلا بالتى هى أحسن) أى بالخصلة التى هى أحسن كمقابلة الخشونة باللين والغضب بالكظم والمشاغبة بالنصح والسورة بالأناة على وجه لا يدل على الضعف ولا يؤدى إلى إعطاء الدنية وقيل منسوخ بآية السيف (إلا الذين ظلموا منهم) بالإفراط فى الاعتداء والعناد أو بإثبات الولد وقولهم يد الله مغلولة ونحو ذلك فإنه يجب حينئذ المدافعة بما يليق بحالهم (وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا) من القرآن (وأنزل إليكم) أى وبالذى أنزل إليكم من التوراة والإنجيل وقد مر تحقيق كيفية الإيمان بهما فى خاتمة سورة البقرة وعن النبى ﷺ لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وبكتبه وبرسله فإن قالوا باطلا لم تصدقوهم وإن قالوا حقاً لم تكذبوهم (وإلهنا وإلهكم واحد) لا شريك له فى الألوهية (ونحن له مسلمون) مطيعون خاصة وفيه تعريض بحال الفريقين حيث اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله

٤٧ (وكذلك) تجريد للخطاب إلى رسول الله ﷺ وذلك إشارة إلى مصدر الفعل الذى بعده وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلة المشار إليه فى الفضل أى مثل ذلك الإنزال البديع الموافق لإنزال سائر الكتب (أنزلنا إليك الكتاب) أى القرآن الذى من جملته هذه الآية الناطقة بما ذكر من المجادلة بالحسنى (فالذين آتيناهم الكتاب) من الطائفتين (يؤمنون به) أريد بهم عبد الله بن سلام وأضرابه من أهل الكتابين خاصة كأن من عداهم لم يؤتوا الكتاب حيث لم يعملوا بما فيه أو من تقدم عهد رسول الله

وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ٢٩ العنكبوت

بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ ٢٩ العنكبوت

وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ ٢٩ العنكبوت

أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ٢٩ العنكبوت

ﷺ منهم حيث كانوا مصدقين بنزوله حسبما شاهدوا فى كتابيهما وتخصيصهم بإيتاء الكتاب للإيذان بأن من بعدهم من معاصرى رسول الله ﷺ قد نزع عنهم الكتاب بالنسخ فلم يؤتوه والفاء لترتيب مابعدها على ماقبلها فإن إيمانهم به مترتب على إنزاله على الوجه المذكور (ومن هؤلاء) أى ومن العرب أو أهل مكة على الأول أو ممن فى عصره ﷺ على الثانى (من يؤمن به) أى بالقرآن (وما يجحد بآياتنا) عبر عن الكتاب بالآيات للتنبيه على ظهور دلالتها على معانيها وعلى كونها من عند الله تعالى وأضيفت إلى نون العظمة لمزيد تفخيمها وغاية تشنيع من يجحد بها (إلا الكافرون) المتوغلون فى الكفر المصممون عليه فإن ذلك يصدهم عن التأمل فيما يؤديهم إلى معرفة حقيتها وقيل هم كعب بن الأشرف وأصحابه (وما كنت
٤٨ تتلو من قبله) أى ما كنت قبل إنزالنا إليك الكتاب تقدر على أن تتلو شيئاً من كتاب (ولا تخطه) أى ولا تقدر على أن تخطه (بيمينك) حسبما هو المعتاد أو ما كانت عادتك أن تتلوه ولا أن تخطه (إذاً لارتاب المبطلون) أى لو كنت ممن يقدر على التلاوة والخط أو ممن يعتادهما لارتابوا وقالوا لعله التقطه من كتب الأوائل وحيث لم تكن كذلك لم يبق فى شأنك منشأ ريب أصلا وتسميتهم مبطلين فى ارتيابهم على التقدير المفروض لكونهم مبطلين فى اتباعهم للاحتمال المذكور مع ظهور نزاهته ﷺ عن ذلك (بل هو) أى
٤٩ القرآن (آيات بينات) واضحات ثابتة راسخة (فى صدور الذين أوتوا العلم) من غير أن يلتقط من كتاب يحفظونه بحيث لا يقدر أحد على تحريفه (وما يجحد بآياتنا) مع كونها كما ذكر (إلا الظالمون) المتجاوزون للحدود فى الشر والمكابرة والفساد (وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه) مثل ناقة صالح وعصا موسى
٥٠ ومائدة عيسى عليهم السلام وقرىء آية (قل إنما الآيات عند الله) ينزلها حسبما يشاء من غير دخل لأحد فى ذلك قطعاً (وإنما أنا نذير مبين) ليس من شأنى إلا الإنذار بما أوتيت من الآيات (أو لم يكفهم) كلام
٥١ مستأنف وارد من جهته تعالى رداً على اقتراحهم وبياناً لبطلانه والهمزة للإنكار والنفى والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أقصر ولم يكفهم آية مغنية عن سائر الآيات (أنا أنزلنا عليك الكتاب) الناطق بالحق المصدق لما بين يديه من الكتب السماوية وأنت بمعزل عن مدارستها وممارستها (يتلى عليهم) فى كل زمان ومكان فلا يزال معهم آية ثابتة لا تزول ولا تضمحل كما تزول كل آية بعد كونها وتكون فى مكان دون مكان أو يتلى على اليهود بتحقيق ما فى أيديهم من نعتك ونعت دينك (إن فى ذلك) الكتاب العظيم

قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾ ٢٩ العنكبوت

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ ٢٩ العنكبوت

يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ ٢٩ العنكبوت

الشأن الباقي على مر الدهور (لرحمة) أى نعمة عظيمة (وذكرى) أى تذكرة (لقوم يؤمنون) أى لقوم همهم الإيمان لا التعنت كأولئك المقترحين وقيل إن ناساً من المؤمنين أتوا رسول الله ﷺ بكتف فيها بعض ما يقوله اليهود فقال كفى بها ضلالة قوم أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إلى ما جاء به غير نبيهم فنزلت
٥٢ (قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً) بما صدر عنى وعنكم (يعلم ما فى السموات والأرض) أى من الأمور التى من جملتها شأنى وشأنكم فهو تقرير لما قبله من كفايته تعالى شهيداً (والذين آمنوا بالباطل) وهو ما يعبد من دون الله تعالى (وكفروا بالله) مع تعاضد موجبات الإيمان به (أولئك هم الخاسرون) المغبونون فى صفقتهم حيث اشتروا الكفر بالإيمان بأن ضيعوا الفطرة الأصلية والأدلة السمعية الموجبة للإيمان والآية من قبيل المجادلة بالتى هى أحسن حيث لم يصرح بنسبة الإيمان بالباطل والكفر بالله والخسران إليهم بل ذكر على منهاج الإبهام كما فى قوله تعالى وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين
٥٣ (ويستعجلونك بالعذاب) على طريقة الاستهزاء بقولهم متى هذا الوعد وقولهم أمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب ونحو ذلك (ولولا أجل مسمى) قد ضربه الله تعالى لعذابهم وبينه فى اللوح (لجاءهم العذاب) المعين لهم حسبما استعجلوا به قيل المراد بالأجل يوم القيامة لما روى أنه تعالى وعد رسول الله ﷺ أن لا يعذب قومه بعذاب الاستئصال وأن يؤخر عذابهم إلى يوم القيامة وقيل يوم بدر وقيل وقت فنائهم بآجالهم وفيه بعد ظاهر لما أنهم ما كانوا يوعدون بفنائهم الطبيعى ولا كانوا يستعجلون به (وليأتينهم) جملة مستأنفة مبينة لما أشير إليه فى الجملة السابقة من مجىء العذاب عند محل الأجل أى وبالله ليأتينهم العذاب الذى عين لهم عند حلول الأجل (بغتة) أى فجأة (وهم لا يشعرون) أى بإتيانه ولعل المراد بإتيانه كذلك أنه لا يأتيهم بطريق التعجيل عند استعجالهم والإجابة إلى مسئولهم فإن ذلك إتيان برأيهم وشعورهم لا أنه يأتيهم وهم غارون آمنون لا يخطرونه بالبال كدأب بعض العقوبات النازلة على بعض الأمم بياتاً وهم نائمون أو ضحى وهم يلعبون لما أن إتيان عذاب الآخرة وعذاب يوم بدر ليس من هذا القبيل
٥٤ (يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) استئناف مسوق لغاية تجهيلهم وركاكة رأيهم وفيه دلالة على أن ما استعجلوه عذاب الآخرة أى يستعجلونك بالعذاب والحال أن محل العذاب الذى لا عذاب فوقه محيط بهم كأنه قيل يستعجلونك بالعذاب وإن العذاب لمحيط بهم أى سيحيط بهم وإنما

يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ ٢٩ العنكبوت

يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ٢٩ العنكبوت

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ ٢٩ العنكبوت

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٢٩ العنكبوت

جيء بالجملة الاسمية دلالة على تحقق الإحاطة واستمرارها أو تنزيلا لحال السبب منزلة حال المسبب فإن
الكفر والمعاصي الموجبة لدخول جهنم محيطة بهم وقيل إن الكفر والمعاصي هي النار في الحقيقة لكنها
ظهرت في هذه النشأة بهذه الصورة وقد مر تفصيله في سورة الأعراف عند قوله تعالى والوزن يومئذ
الحق ولام الكافرين إما للعهد ووضع الظاهر موضع المضمر للإشعار بعلة الحكم أو للجنس وهم داخلون
٥٥ فيه دخولا أوليا (يوم يغشاهم العذاب) ظرف لمضمر قد طوى ذكره إيذانا بغاية كثرته وفظاعته كأنه
قيل يوم يغشاهم العذاب الذي أشير إليه بإحاطة جهنم بهم يكون من الأحوال والأهوال مالا يفي به
المقال وقيل ظرف للإحاطة (من فوقهم ومن تحت أرجلهم) أي من جميع جهاتهم (ويقول) أي الله عز
وجل ويعضده القراءة بنون العظمة أو بعض ملائكته بأمره (ذوقوا ما كنتم تعملون) أي جزاء
٥٦ ما كنتم تعملونه في الدنيا على الاستمرار من السيئات التي من جملتها الاستعجال بالعذاب (ياعبادى
الذين آمنوا) خطاب تشريف لبعض المؤمنين الذين لا يتمكنون من إقامة أمور الدين كما ينبغي للممانعة
من جهة الكفرة وإرشاد لهم إلى الطريق الأسلم (إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون) أي إذا لم يتسهل لكم •
العبادة في بلد ولم يتيسر لكم إظهار دينكم فهاجروا إلى حيث يتسنى لكم ذلك وعنه ﷺ من فر بدينه من
أرض إلى أرض ولو كان شبرا استوجب الجنة وكان رفيق إبراهيم ومحمد عليهما السلام والفاء جواب
شرط محذوف إذ المعنى إن أرضي واسعة إن لم تخلصوا العبادة لي في أرض فأخلصوها في غيرها ثم حذف
٥٧ الشرط وعوض عنه تقديم المفعول مع إفادة تقديمه معنى الاختصاص والإخلاص (كل نفس ذائقة الموت
ثم إلينا ترجعون) جملة مستأنفة جيء بها حثا على المسارعة في الامتثال بالأمر أي كل نفس من النفوس
واجدة مرارة الموت وكربه فراجعة إلى حكمنا وجزائنا بحسب أعمالها فمن كانت هذه عاقبته فليس له بد
٥٨ من التزود والاستعداد لها وقرىء يرجعون (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم) لننزلنهم (من
الجنة غرفا) أي علالى وهو مفعول ثان للتبوئة وقرىء لنثوينهم من الثواء بمعنى الإقامة فانتصاب غرفا
حينئذ إما بإجرائه مجرى لننزلنهم أو بنزع الخافض أو بتشبيه الظرف الموقت بالمبهم كما في قوله تعالى لأقعدن
لهم صراطك المستقيم (تجري من تحتها الأنهار) صفة لغرفا (خالدين فيها) أي في الغرف أو في الجنة
(نعم أجر العاملين) أي الأعمال الصالحة والمخصوص بالمدح محذوف ثقة بدلالة ما قبله عليه وقرىء فنعم

ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ ٢٩ العنكبوت

وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ ٢٩ العنكبوت

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ
يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٢٩ العنكبوت

ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ ٢٩ العنكبوت

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ
بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ ٢٩ العنكبوت

---

٥٩ (الذين صبروا) إما صفة للعاملين أو نصب على المدح أى صبروا على أذية المشركين وشدائد المهاجرة
وغير ذلك من المحن والمشاق (وعلى ربهم يتوكلون) أى ولم يتوكلوا فيما يأتون ويذرون إلا على الله تعالى
٦٠ (وكأين من دابة لاتحمل رزقها) روى أن النبي ﷺ لما أمر المؤمنين الذين كانوا بمكة بالمهاجرة إلى
المدينة قالوا كيف نقدم بلدة ليس لنا فيها معيشة فنزلت أى وكم من دابة لا تطيق حمل رزقها لضعفها أولا
تدخره وإنما تصبح ولا معيشة عندها (الله يرزقها وإياكم) ثم إنها مع ضعفها وتوكلها وإياكم مع قوتكم
واجتهادكم سواء فى أنه لا يرزقها وإياكم إلا الله تعالى لأن رزق الكل بأسباب هو المسبب لها وحده فلا
تخافوا الفقر بالمهاجرة (وهو السميع) المبالغ فى السمع فيسمع قولكم هذا (العليم) المبالغ فى العلم فيعلم
٦١ ضمائركم (ولئن سألتهم) أى أهل مكة (من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله)
إذ لا سبيل لهم إلى إنكاره ولا إلى التردد فيه (فأنى يؤفكون) إنكار واستبعاد من جهته تعالى لتركهم
العمل بموجبه أى فكيف يصرفون عن الإقرار بتفرده تعالى فى الإلهية مع إقرارهم بتفرده تعالى فيما
٦٢ ذكر من الخلق والتسخير (الله يبسط الرزق لمن يشاء) أن يبسطه له (من عباده ويقدر له) أى يقدر لمن
يشاء أن يقدر له منهم كائناً من كان على أن الضمير مبهم حسب إبهام مرجعه أو يقدر لمن يبسطه له على
التعاقب (إن الله بكل شىء عليم) فيعلم من يليق ببسط الرزق فيبسطه له ومن يليق بقدره فيقدره له أو فيعلم
٦٣ أن كلا من البسط والقدر فى أى وقت يوافق الحكمة والمصلحة فيفعل كلا منهما فى وقته (ولئن سألتهم من
نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله) معترفين بأنه الموجد للممكنات بأسرها أصولها
وفروعها ثم إنهم يشركون به بعض مخلوقاته الذى لا يكاد يتوهم منه القدرة على شىء ما أصلا (قل الحمد لله)
على أن جعل الحق بحيث لا يجترىء المبطلون على جحوده وأنه أظهر حجتك عليهم وقيل على أن عصمك من
أمثال هذه الضلالات ولا يخفى بعده (بل أكثرهم لا يعلمون) أى شيئاً من الأشياء فلذلك لا يعلمون بمقتضى
قولهم هذا فيشركون به سبحانه أخس مخلوقاته وقيل لا يعقلون ما تريد بتحميدك عند مقالهم ذلك .

وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ٢٩ العنكبوت

فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ٢٩ العنكبوت

لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ٢٩ العنكبوت

أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ
يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ ٢٩ العنكبوت

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى
لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ ٢٩ العنكبوت

---

٦٤ (وما هذه الحياة الدنيا) إشارة تحقير وازدراء الدنيا وكيف لا وقد قال رسول الله ﷺ لوكانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ماسقى الكافر منها شربة ماء (إلا لهو ولعب) أى إلا كما يلهى ويلعب به الصبيان يجتمعون عليه ويبتهجون به ساعة ثم يتفرقون عنه (وإن الدار الآخرة لهى الحيوان) أى لهى دار الحياة الحقيقية لامتناع طريان الموت والفناء عليها أو هى فى ذاتها حياة للمبالغة والحيوان مصدر حيي سمى به ذو الحياة وأصله حييان فقلبت الياء الثانية واواً لما فى بناء فعلان من معنى الحركة والاضطراب اللازم للحيوان ولذلك اختير على الحياة فى هذا المقام المقتضى للمبالغة (لوكانوا يعلمون) أى لما آثروا عليها الدنيا
٦٥ التى أصلها عدم الحياة ثم مايحدث فيها من الحياة عارضة سريعة الزوال وشيكة الاضمحلال (فإذا ركبوا فى الفلك) متصل بما دل عليه شرح حالهم والركوب هو الاستعلاء على الشىء المتحرك وهو متعد بنفسه كما فى قوله تعالى والخيل والبغال والحمير لتركبوها واستعماله ههنا وفى أمثاله بكلمة فى للإيذان بأن المركوب فى نفسه من قبيل الأمكنة وحركته قسرية غير إرادية كما مر فى سورة هود والمعنى أنهم على ماوصفوا من الإشراك فإذا ركبوا فى البحر ولقوا شدة (دعوا الله مخلصين له الدين) أى كائنين على صورة المخلصين لدينهم من المؤمنين حيث لايدعون غير الله تعالى لعلمهم بأنه لا يكشف الشدائد عنهم إلا هو (فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون)
٦٦ أى فاجئوا المعاودة إلى الشرك (ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا) أى يفاجئون الإشراك ليكونوا كافرين بما آتيناهم من نعمة الإنجاء التى حقها أن يشكروها (فسوف يعلمون) أى عاقبة ذلك وغائلته حين يرون العذاب
٦٧ (أو لم يروا) أى ألم ينظروا ولم يشاهدوا (أنا جعلنا) أى بلدهم (حرما آمناً) مصوناً من النهب والتعدى سالماً أهله من كل سوء (ويتخطف الناس من حولهم) أى والحال أنهم يختلسون من حولهم قتلاً وسبياً إذ كانت العرب حوله فى تغاور وتناهب (أفبالباطل يؤمنون) أى أبعد ظهور الحق الذى لاريب فيه بالباطل خاصة يؤمنون دون الحق (وبنعمة الله يكفرون) وهى المستوجبة للشكر حيث يشركون به
٦٨ غيره وتقديم الصلة فى الموضعين لإظهار كمال شناعة مافعلوا (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً) بأن

وَالَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ٢٩ العنكبوت

زعم أن له شريكا أى هو أظلم من كل ظالم وإن كان سبك النظم دالا على نفى الأظلم من غير تعرض
لنفى المساوى وقد مر مراراً (أو كذب بالحق لما جاءه) أى بالرسول أو بالقرآن وفى لما تسفيه لهم
بأن لم يتوقفوا ولم يتأملوا حين جاءهم بل سارعوا إلى التكذيب آثر ذى أثير (أليس فى جهنم مثوى
للكافرين) تقرير لثوائهم فيها كقول من قال [ألستم خير من ركب المطايا] أى ألا يستوجبون الثواء
فيها وقد فعلوا ما فعلوا من الافتراء على الله تعالى والتكذيب بالحق الصريح أو إنكار واستبعاد لاجترائهم
على ما ذكر من الافتراء والتكذيب مع علمهم بحال الكفرة أى ألم يعلموا أن فى جهنم مثوى للكافرين حتى
٦٩ اجترءوا هذه الجراءة (والذين جاهدوا فينا) أى فى شأننا ولوجهنا خالصاً أطلق المجاهدة ليعم جهاد
الأعادى الظاهرة والباطنة (لنهدينهم سبلنا) سبل السير إلينا والوصول إلى جنابنا أو لنزيدنهم هداية إلى
سبل الخير وتوفيقها لسلوكها كقوله تعالى والذين اهتدوا زادهم هدى وفى الحديث من عمل بما علم ورثه
الله علم مالم يعلم (وإن الله لمع المحسنين) معية النصر والمعونة . عنه ﷺ من قرأ سورة العنكبوت كان له
من الأجر عشر حسنات بعدد كل المؤمنين والمنافقين .

سُورَةُ العَنْكَبُوتِ

ترتيبها ٢٩ — آياتها ٦٩

أخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنها نزلت بمكة، وأخرج ابن مردويه عن عبدالله بن الزبير نحو ذلك، وروي القول بأنها مكية عن الحسن وجابر وعكرمة؛ وعن بعضهم أنها آخر ما نزل بمكة. وفي البحر عن الحبر وقتادة أنها مدنية؛ وقال يحيى بن سلام: هي مكية إلا من أولها إلى قوله: ﴿وليعلمن المنافقين﴾ [العنكبوت: ١١] وذكر ذلك الجلال السيوطي في الإتقان ولم يعزه، وأنه لما أخرجه ابن جرير في سبب نزولها ثم قال: قلت ويضم إلى ذلك ﴿وكأين من دابة﴾ [العنكبوت: ٦٠] الآية لما أخرجه ابن أبي حاتم في سبب نزولها وسيأتي إن شاء الله تعالى الكلام في ذلك وهي تسع وستون آية بالإجماع كما قال الداني والطبرسي، وذكر الجلال في وجه اتصالها بما قبلها أنه تعالى أخبر في أول السورة السابقة عن فرعون أنه ﴿علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم﴾ [القصص: ٤] وافتتح هذه بذكر المؤمنين الذين فتنهم الكفار وعذبوهم على الإيمان بعذاب دون ما عذب به فرعون بني إسرائيل بكثير تسلية لهم بما وقع لمن قبلهم وحثاً على الصبر، ولذا قيل هنا: ﴿ولقد فتنا الذين من قبلهم﴾ [العنكبوت: ٣] وأيضاً لما كان في خاتمة الأولى الإشارة إلى هجرة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أي في قوله تعالى: ﴿إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد﴾ [القصص: ٨٥] على بعض الأقوال، وفي خاتمة هذه الإشارة إلى هجرة المؤمنين بقوله تعالى: ﴿يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة﴾ [العنكبوت: ٥٦] ناسب تتاليهما.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ

كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ
﴿١٠﴾ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ
سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾
وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا
نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ
وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ
خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ
تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ
تُرۡجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٨﴾
أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿١٩﴾ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ
فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن
يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم
مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي
وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ
مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٤﴾

﴿ **ألم** ﴾ سبق الكلام فيه وفي نظائره ولم يجوز بعضهم هنا ارتباط ما بعده به ارتباطاً إعرابياً لأن الاستفهام مانع منه وبحث فيه بأن اللازم في الاستفهام تصدره في جملته وهو لا ينافي وقوع تلك الجملة خبراً ونحوه كقولك: زيد هل قام أبوه؟ فلو قيل هنا المعنى المتلو عليك ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ إلى آخر السورة صح فلا يقال أيضاً إن المانع منه عدم صحة ارتباطه بما قبله معنى. نعم الارتباط خلاف الظاهر، والاستفهام للإنكار، والحسبان مصدر كالغفران مما يتعلق بمضامين الجمل لأنه من الأفعال الداخلة على المبتدأ والخبر وذلك للدلالة على وجه ثبوتها في الذهن أو في الخارج من كونها مظنونة أو متيقنة فتقتضي مفعولين أصلهما المبتدأ والخبر أو ما يسد مسدهما وقد سد مسدهما هنا على ما قاله الحوفي وابن عطية وأبو البقاء: قوله تعالى: ﴿أَن يُتۡرَكُوٓاْ﴾ وسد أن المصدرية الناصبة للفعل مع مدخولها مسد الجزأين مما قاله ابن مالك، ونقله عنه الدماميني في شرح التسهيل، وزعم بعضهم أن ذلك إنما هو في أن المفتوحة مشددة ومثقلة مع مدخولها، والترك هنا على ما ذكره الزمخشري بمعنى التصيير المتعدي لمفعولين كما في قوله تعالى: ﴿تركهم في ظلمات لا يبصرون﴾ [البقرة: ١٧] وقول الشاعر:

فتركته جزر السباع ينشنه يقضمن قلة رأسه والمعصم

فضمير الجمع نائب مفعول أول والمفعول الثاني متروك بدلالة الحال الآتية أي كما هم أو على ما هم عليه كما في قوله تعالى: ﴿أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا﴾ [التوبة: ١٦] على ما قدره الزمخشري فيه وقوله سبحانه: ﴿أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا﴾ بمعنى لأن يقولوا متعلق بيتركوا على أنه غير مستقر، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ﴾ في موضع الحال من ضمير يتركوا، ويجوز أن لا يعتبر كون المفعول الثاني ليتركوا متروكاً بل تجعل هذه الجملة الحالية سادة مسده، ألا ترى أنك لو قلت: علمت ضربي زيداً قائماً صح، على أن ترك ليس كأفعال القلوب في جميع الأحكام، بل القياس أن يجوز الاكتفاء فيه بالحال من غير نظر إلى أنه قائم مقام الثاني لأن قولك: تركته وهو جزر السباع كلام صحيح كما تقول أبقيته على هذه الحالة، وهو نظير سمعته يتحدث في أنه يتم بالحال بعده أو الوصف، وهاهنا زاد أنه يتم أيضاً بما يجري مجرى الخبر، وجوز أن تكون هذه الجملة هي المفعول الثاني لا سادة مسده وتوسط الواو بين المفعولين جائز كما في قوله:

وصيرني هواك وبي لحيني يضرب المثل

وقد نص شارح أبيات المفصل على أنه حكي عن الأخفش أنه كان يجوز كان زيد وأبوه قائم على نقصان كان وجعل الجملة خبراً مع الواو تشبيهاً لخبر كان بالحال فمتى جاز في الخبر عنده فليجز في المفعول الثاني وهو كما نرى، واستظهر الطيبي كون الترك هنا متعدياً لواحد على أنه بمعنى التخلية وليس بذاك؛ وجوز الحوفي وأبو البقاء أن يكون **﴿أن يقولوا﴾** بدلاً من أن يتركوا وجوز أن يكون **﴿أن يتركوا﴾** هو المفعول الأول لحسب و **﴿هم لا يفتنون﴾** في موضع الحال من الضمير **﴿وأن يقولوا﴾** بتقدير اللام هو المفعول الثاني، وكونه علة لا ينافي ذلك كما في قولك: حسبت ضربه للتأديب، والتقدير أحسب الناس تركهم غير مفتونين لقولهم: آمنا، والمفعول الثاني ليتركوا متروك بدلالة الحال، واعترضه صاحب التقريب بما حاصله أن الحسبان لتعلقه بمضامين الجمل إذا أنكر يكون باعتبار المفعول الثاني فإذا قلت: أحسبته قائماً فالمنكر حسبان قيامه وكذلك إذا قيل: أحسب الناس تركهم غير مفتونين لقولهم آمنا أفاد إنكار حسبان أن الترك غير مفتونين لهذه العلة بل إنما هو لعلة أخرى ولا يلائم سبب النزول ولا مقصود الآية.

واختار أن يكون **﴿أن يتركوا﴾** ساداً مسد المفعولين و **﴿أن يقولوا﴾** علة للحسبان أي أحسبوا لقولهم آمنا أن يتركوا غير مفتونين، وأجيب بأن أصل الكلام ألا يفتنون لقولهم آمنا على إنكار أن يكون سبباً لعدم الفتن، ثم قيل: أيتركون غير مفتونين لقولهم آمنا مبالغة في إنكار أن يبقوا من غير فتن لذلك ثم أدخل على حسبان الترك مبالغة على مبالغة، وإنما يرد ما أورد إذا لم يلاحظ أصل الكلام ويجعل مصب الإنكار الحسبان من أول الأمر.

وقيل: إنما يلزم ما ذكر لو لم يقدر أحسبوا تركهم غير مفتونين بمجرد قولهم: آمنا دون إخلاص وعمل صالح أما لو قدر ذلك استقام كما صرح به الزجاج، على أن ذلك مبني على اعتبار المفهوم، واعترض ذلك بعضهم من حيث اللفظ بأن فيه الفصل بين الحال وذيها بثاني مفعولي حسب وهو أجنبي؛ وأجيب بأن الفصل غير ممتنع بل الأحسن أن لا يقع فصل إلا إذا اعترض ما يوجبه، وهاهنا الاهتمام بشأن الخبر حسن التقديم لأن مصب الإنكار ذلك، ولا يخفى أنه يحتاج إلى مثل هذا الجواب على ما يقتضيه الظاهر من جعل **﴿أن يتركوا﴾** في تأويل مصدر وقع مفعولاً أولاً **﴿وأن يقولوا﴾** في تأويل مصدر أيضاً مجرور بلام مقدرة والجار والمجرور في موقع المفعول الثاني، وأما على ما ذكره بعض المحققين من أنهما لم يجعلا كذلك وإنما جعل **﴿أن يقولوا﴾** معمولاً ليتركوا بتقدير اللام وجعل **﴿أن يتركوا﴾**

ساداً مسد المفعولين واقتضى المعنى أن يقال أحسب الناس تركهم غير مفتونين لقولهم آمنا بجعل تركهم مفعولاً أولاً ولقولهم مفعولاً ثانياً فلا يحتاج إليه لأنه إن جرينا مع اللفظ كان ﴿أن يتركوا﴾ ساداً مسد المفعولين فلا يكون فيه مفعول ثان فاصل بين الحال وذيها وإن جرينا مع المعنى واعتبرنا الكلام مجرداً عن أن المصدرية وجيء به كما سمعت كانت الحال متصلة بذيها، وقيل: يجوز أن يكون المفعول الأول لحسب محذوفاً أي أحسب الناس أنفسهم و ﴿أن يتركوا﴾ في موضع المفعول الثاني على أنه في تأويل مصدر وهو في تأويل اسم المفعول أي متروكين وهم لا يفتنون في موضع الحال كما تقدم وأن يؤمنوا بتقدير لأن يؤمنوا متعلق بيتركوا فكأنه قيل: أحسب الناس أنفسهم متروكين غير مفتونين لقولهم آمنا، وقيل: إن هذا المعنى حاصل على تقدير سد ﴿أن يتركوا﴾ مسد المفعولين فتأمل فيه وفيما قبله، ولعل الأبعد عن التكلف ما ذكرناه أولاً، والمراد إنكار حسبانهم أن يتركوا غير مفتونين بمجرد أن يقولوا آمنا واستبعاد له وتحقيق أنه تعالى يمتحنهم بمشاق التكاليف كالمهاجرة والمجاهدة ورفض الشهوات ووظائف الطاعات وفنون المصائب في الأنفس والأموال ليتميز المخلص من المنافق والراسخ في الدين من المتزلزل فيه فيعامل كل بما يقتضيه ويجازيهم سبحانه بحسب مراتب أعمالهم فإن مجرد الإيمان وإن كان عن خلوص لا يقتضي غير الخلاص من الخلود في النار.

وذكر بعضهم أنه سبحانه لو أثاب المؤمن يوم القيامة من غير أن يفتنه في الدنيا لقال الكافر المعذب: ربي لو أنك كنت فتنته في الدنيا لكفر مثلي فإيمانه الذي تثيبه عليه مما لا يستحق الثواب له فبالفتنة يلجم الكافر عن مثل هذا القول ويعوض المؤمن بدلها ما يعوض بحيث يتمنى لو كانت فتنته أعظم مما كانت والآية على ما أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الشعبي نزلت في أناس كانوا بمكة قد أقروا بالإسلام فكتب إليهم أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من المدينة لما نزلت آية الهجرة أنه لا يقبل منكم إقرار ولا إسلام حتى تهاجروا فخرجوا عامدين إلى المدينة فاتبعهم المشركون فردوهم فنزلت فيهم هذه الآية فكتبوا إليهم أنزلت فيكم آية كذا وكذا فقالوا: نخرج فإن اتبعنا أحد قاتلناه فخرجوا فاتبعهم المشركون فقاتلوهم فمنهم من قتل ومنهم من نجا فأنزل الله تعالى فيهم ﴿ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾ [النحل: ١١٠].

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال سمعت ابن عمير وغيره يقولون: كان أبو جهل يعذب عمار بن ياسر وأمه ويجعل على عمار درعاً من حديد في اليوم الصائف وطعن في فرج أمه برمح ففي ذلك نزلت ﴿أحسب الناس﴾ إلخ، وقيل: نزلت في مهجع مولى عمر بن الخطاب قتل ببدر فجزع عليه أبواه وامرأته «وقال فيه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: سيد الشهداء مهجع وهو أول من يدعى إلى باب الجنة»، وقيل: نزلت في عياش أخي أبي جهل غدر وعذب ليرتد كما سيأتي خبره إن شاء الله تعالى، وفسر الناس بمن نزلت فيهم الآية، وقال الحسن الناس هنا المنافقون.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ حال من الناس أو من ضمير يفتنون، وعلى الأول يكون علة لإنكار الحسبان أي أحسبوا ذلك وقد علموا أن سنة الله تعالى على خلافه ولن تجد لسنة الله تعالى تبديلاً، وعلى الثاني بياناً لأنه لا وجه لتخصيصهم بعدم الافتتان، وحاصله أنه على الأول تنبيه على الخطأ، وعلى الثاني تخطئة، والمراد بالذين من قبلهم المؤمنون أتباع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أصابهم من ضروب الفتن والمحن ما أصابهم فصبروا وعضوا على دينهم بالنواجذ كما يعرب عنه قوله تعالى: ﴿وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا﴾ [آل عمران: ١٤٦] الآيات.

وروى البخاري وأبو داود والنسائي عن خباب بن الأرت قال: «شكونا إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ولقد لقينا من المشركين شدة فقلنا: ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا؟ فقال: قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا﴾ أي في قولهم آمنا ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَاذِبِينَ﴾ في ذلك؛ والفاء لترتيب ما بعدها على ما يفصح عنه ما قبلها من وقوع الامتحان، واللام واقعة في جواب القسم، والالتفات إلى الاسم الجليل لإدخال الروعة وتربية المهابة، وتكرير الجواب لزيادة التأكيد والتقرير، ويتوهم من الآية حدوث علمه تعالى بالحوادث وهو باطل. وأجيب بأن الحادث تعلق علمه تعالى بالمعدوم بعد حدوثه، وقال ابن المنير: الحق أن علم الله تعالى واحد يتعلق بالموجود زمان وجوده وقبله وبعده على ما هو عليه، وفائدة ذكر العلم هاهنا وإن كان سابقاً على وجود المعلوم التنبيه بالسبب على المسبب وهو الجزاء فكأنه قيل: فوالله ليعلمن بما يشبه الامتحان والاختبار الذين صدقوا في الإيمان الذي أظهروه والذين هم كاذبون فيه مستمرون على الكذب فليجازين كلاً بحسب علمه فيه، وفي معناه ما قاله ابن جني من أنه من إقامة السبب مقام المسبب، والغرض فيه ليكافئن الله تعالى الذين صدقوا وليكافئن الكاذبين وذلك أن المكافأة على الشيء إنما هي مسببة عن علم، وقال محيي السنة: أي فليظهرن الله تعالى الصادقين من الكاذبين حتى يوجد معلوماً لأن الله تعالى عالم بهم قبل الاختبار.

وقرأ علي كرّم الله تعالى وجهه وجعفر بن محمد والزهري رضي الله تعالى عنهم «فَلَيُعْلِمن» بضم الياء وكسر اللام على أنه مضارع أعلم المنقولة بهمزة التعدية من علم المتعدية إلى واحد وهي التي بمعنى عرف فيكون الفعل على هذه القراءة متعدياً لاثنين والثاني هنا محذوف أي فليعلمن الله الذين صدقوا منازلهم من الثواب وليعلمن الكاذبين منازلهم من العقاب وذلك في الآخرة، أو الأول محذوف أي فليعلمن الله الناس الذين صدقوا وليعلمنهم الكاذبين أي يشهدهم هؤلاء في الخير وهؤلاء في الشر، والظاهر أن ذلك في الآخرة أيضاً، وقال أبو حيان: في الدنيا والآخرة، وجوز أن يكون ذلك من الاعلام وهو وضع العلامة والسمة فيتعدى لواحد أي يسمهم بعلامة يعرفون بها يوم القيامة كبياض الوجوه وسوادها، وقيل: يسمهم سبحانه بعلامة يعرفون بها في الدنيا كقوله عليه الصلاة والسلام: «من أسر سريرة ألبسه الله تعالى رداءها».

وقرأ الزهري الفعل الأول كما قرأ الجماعة، والفعل الثاني كما قرأ علي كرّم الله تعالى وجهه وجعفر والزهري رضي الله تعالى عنهم ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا﴾ قال مجاهد: أي يعجزونا فلا نقدر على مجازاتهم على أعمالهم والانتقام منهم وأصل السبق الفوت، ثم أريد منه ما ذكر وقيل: أي يعجلونا محتوم القضاء، والأول أولى.

وفسر قتادة على ما أخرجه عنه عبد بن حميد وابن جرير ﴿السيئات﴾ بالشرك والجمع باعتبار تعدد المتصفين به وإطلاق العمل على الشرك سواء قلنا إنه ما كان عن فكر وروية كما قيل: أو عن قصد كما قال الراغب: أم لا لا ضير فيه لأنه يكون بعبادة الأصنام وغيرها، وقيل: المراد بالسيئات المعاصي غير الكفر فالآية في المؤمنين قطعاً، وهم وإن لم يحسبوا أن يفوتوه تعالى ولم تطمع نفوسهم في ذلك لكن نزل جريهم على غير موجب العلم وهو غفلتهم وإصرارهم على المعاصي منزلة من لم يتيقن الجزاء، ويحسب أنه يفوت الله عز وجل.

وعمم بعضهم فحمل السيئات على الكفر والمعاصي، وتعليق العمل بها بناء على تسليم تخصيصه بما سمعت

يحتمل أن يكون باعتبار التغليب، وظاهر الآثار يدل على أن هذه الآية نزلت في شأن الكفرة، فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: يريد سبحانه بالذين يعملون السيئات الوليد بن المغيرة وأبا جهل والأسود والعاصي بن هشام وشيبة وعتبة والوليد بن عتبة وعتبة بن أبي معيط وحنظلة بن وائل وأنظارهم من صناديد قريش، وفي البحر أن الآية وإن نزلت على سبب فهي تعم جميع من يعمل السيئات من كافر ومسلم، والظاهر أن ﴿أم﴾ منقطعة بمعنى بل التي للإضراب بمعنى الانتقال وهو انتقال من إنكار حسبان عدم الفتن لمجرد الإيمان إلى إنكار حسبان عدم المجازاة على عمل السيئات.

وقال ابن عطية: ﴿أم﴾ معادلة للهمزة في قوله تعالى: ﴿أحسب﴾ وكأنه سبحانه قرر الفريقين، قرر المؤمنين على ظنهم أنهم لا يفتنون، وقرر الكافرين الذين يعملون السيئات في تعذيب المؤمنين وغير ذلك على ظنهم أنهم يسبقون نقمات الله تعالى ويعجزونه انتهى. ورد بأنها لو كانت معادلة للهمزة لكانت متصلة والتالي باطل لأن شرط المتصلة أن يكون ما بعدها مفرداً نحو أزيد قائم أم عمرو أو ما هو في تقدير المفرد نحو أقام زيد أم قعد وجوابها تعيين أحد الشيئين أو الأشياء وبعدها هنا جملة؛ ولا يمكن الجواب هنا أيضاً بأحد الشيئين فالحق أنها منقطعة والاستفهام الذي تشعر به إنكاري لا يحتاج للجواب كما لا يخفى، والظاهر أن الحسبان متعد إلى مفعولين وأن ﴿أن يسبقونا﴾ ساد مسدهما.

وجوز الزمخشري هنا أن يضمن معنى التقدير فيكون متعدياً لواحد وإن يسبقونا هو ذلك الواحد، وتعقبه أبو حيان بأن التضمين ليس بقياس ولا يصار إليه إلا عند الحاجة وهنا لا حاجة إليه ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي بئس الذي يحكمونه حكمهم ذلك على أن ساء بمعنى بئس و ﴿ما﴾ موصولة و ﴿يحكمون﴾ صلتها، والعائد محذوف وهي فاعل ساء، والمخصوص بالذم محذوف أو بئس حكماً يحكمونه حكمهم ذلك على أن ما موصوفة ويحكمون صفتها والرابط محذوف وهي تمييز وفاعل ساء ضمير مفسر بالتمييز والمخصوص محذوف أيضاً.

وقال ابن كيسان: ﴿ما﴾ مصدرية، والمصدر المؤول مخصوص بالذم فالتمييز محذوف، وجوز كون ساء بمعنى قبح وما إما مصدرية أو موصولة أو موصوفة، والمضارع للاستمرار إشارة إلى أن دأبهم ذلك أو هو واقع موقع الماضي لرعاية الفاصلة وكلا الوجهين حكاهما في البحر، والأول أولى، وعندي أن مثل هذا لا يقال: إلا في حق الكفرة ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقاءَ اللَّهِ﴾ أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير أنه قال: أي من كان يخشى البعث في الآخرة فالرجاء بمعنى الخوف كما في قول الهذلي في وصف عسال:

إذا لسعته الدبر لم يرج لسعها ... وخالفها في بيت نوب عوامل

ولعل إرادة البعث من لقائه عز وجل لأنه من مباديه، وقيل: لعله جعل لقاء الله تعالى عبارة عن الوصول إلى العاقبة إلا أنه لما كان البعث من أعظم ما يتوقف ذلك عليه خصه بالذكر، وفي الكشاف أن لقاء الله تعالى مثل للوصول إلى العاقبة من تلقي ملك الموت والبعث والحساب والجزاء، مثلت تلك الحال بحال عبد قدم على سيده بعد عهد طويل؛ وقد اطلع مولاه على ما كان يأتي ويذر فإما أن يلقاه ببشر وترحيب لما رضي من أفعاله أو بضد ذلك لما سخطه منها، فمعنى ﴿من كان﴾ إلخ من كان يأمل تلك الحال وأن يلقى فيها الكرامة من الله تعالى والبشرى، فالكلام عنده من باب التمثيل والرجاء بمعنى الأمل والتوقع.

وجوز أن يكون بمعنى ذلك إلا أن الكلام بتقدير مضاف أي من كان يتوقع ملاقاة جزاء الله تعالى ثواباً أو عقاباً أو

ملاقاة حكمه عز وجل يوم القيامة وأن يكون بمعنى الخوف، والمضاف محذوف أيضاً أي من كان يخاف ملاقاة عقاب الله تعالى، وأن يكون بمعنى ظن حصول ما فيه مسرة وتوقعه كما هو المشهور، والمضاف كذلك أيضاً، أي من كان يرجو ملاقاة ثواب الله تعالى، ويجوز أن لا يقدر مضاف، ويجعل لقاء الله تعالى مجازاً عن الثواب لما أنه لازم له.

واختار بعضهم أن الرجاء بمعناه المشهور وأن لقاء الله تعالى مشاهدته سبحانه على الوجه اللائق به عز وجل كما يقوله أهل السنة والجماعة إذ لا حاجة للخروج عن الظاهر من غير ضرورة وما حسبه المعتزلي منها فليس منها كما بين في علم الكلام أي من كان يتوقع مشاهدة الله تعالى يوم القيامة التي لا نعيم يعدلها ويلزمها الفوز بكل خير ونعيم ﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ﴾ الأجل غاية لزمان ممتد عينت لأمر من الأمور، وقد يطلق على كل ذلك الزمان، والأول أشهر في الاستعمال أي فإن الوقت الذي عينه جل شأنه لذلك ﴿لآتٍ﴾ لا محالة من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه لأن أجزاء الزمان على التقضي والتصرم دائماً، ومجيء ذلك الوقت كناية عن إتيان ما فيه ووقوعه، والجملة الاسمية قائمة مقام جواب الشرط وهي في الحقيقة دليل الجواب المحذوف أي فليبادر ما ينفقه من امتثال الأوامر واجتناب المناهي أو فليبادر ما يحقق أمله ويصدق رجاءه أو نحو ذلك مما يلائم الشرط فتدبر.

وقيل: يجوز أن تكون هي الجواب على أن المراد بها المعنى الملائم للشرط كما ذكر ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ جل شأنه لأقوال العباد ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم من الأعمال الظاهرة والعقائد والصفات الباطنة، والجملة تذييل لتحقيق حصول المرجو والمخوف وعداً ووعيداً ﴿وَمَنْ جَاهَدَ﴾ في طاعة الله عز وجل.

﴿فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ لعود المنفعة من الثواب المعد لذلك إليها ﴿إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ فلا حاجة له إلى طاعتهم وإنما أمرهم سبحانه بها تعريضاً لهم للثواب بموجب رحمته وحكمته.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ الكفر الأصلي أو العارضي بالإيمان والمعاصي بما يتبعها من الطاعات ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي أحسن جزاء أعمالهم والجزاء الحسن أن يجازي بحسنة حسنة، وأحسن الجزاء أن تجازى الحسنة الواحدة بالعشر وزيادة، وقيل: لو قدر لنجزينهم بأحسن أعمالهم أو جزاء أحسن أعمالهم لإخراج المباح جاز ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً﴾ أي أمرناه بتعهدهما ومراعاتهما، وانتصب حسناً على أنه وصف لمصدر محذوف أي إيصاء حسناً أي ذا حسن أو هو في حد ذاته حسن لفرط حسنه كقوله تعالى: ﴿وقولوا للناس حسناً﴾ [البقرة: ٨٣] وهذا ما اختاره أبو حيان ولا يخلو عن حسن، وقال الزمخشري: حسناً مفعول به لمصدر محذوف مضاف إلى والديه أي وصيناه بإيتاء والديه أو بإيلاء والديه حسناً، وفيه إعمال المصدر محذوفاً وإبقاء عمله وهو لا يجوز عند البصريين، وجوز أن يكون حسناً مصدراً لفعل محذوف أي أحسن حسناً، والجملة في موضع المفعول لوصي لتضمنه معنى القول، وهذا على مذهب الكوفيين القائلين بأن ما يتضمن معنى القول يجوز أن يعمل في الجمل من غير تقدير للقول، وعند البصريين يقدر القول في مثل ذلك وعليه يجوز أن يكون مفعولاً به لفعل محذوف والجملة مقول القول وجملة القول مفسرة للتوصية أي قلنا أولهما أو افعل بهما حسناً، وعلى هذا يحسن الوقف على بوالديه لاستئناف الجملة بعده، ورجح تقدير الأمر بأنه أوفق لما بعده من الخطاب والنهي الذي هو أخوه لكن ضعف ما فيه كثرة تقدير بكثرة التقدير، ونقل ابن عطية عن الكوفيين أنهم يجعلون حسناً مفعولاً لفعل محذوف ويقدرون أن يفعل حسناً، وفيه حذف أن وصلتها وإبقاء المعمول وهو لا يجوز عند البصريين، وقيل: إن حسناً منصوب بنزع الخافض وبوالديه متعلق بوصينا والباء فيه بمعنى في أي وصينا الإنسان في أمر والديه بحسن وهو كما

ترى، وقرأ عيسى والجحدري «حَسَناً» بفتحتين وفي مصحف أبي «إحساناً» ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا﴾ عطف على ما قبله ولا بد من إضمار القول إن لم يضمر قبل أي وقلنا: إن جاهداك إلخ لئلا يلزم عطف الإنشاء على الخبر لأن الجملة الشرطية إذا كان جوابها إنشاء فهي إنشائية كما صرحوا به فإذا لم يضمر القول لا يليق عطفها على وصينا لما ذكر ولا على ما عمل فيه لكونه في معنى القول وهو أحسن وإن توافقا في الإنشائية لأنه ليس من الوصية بالوالدين لأنه منهي عن مطاوعتهما، وأما عطفه على قلنا المفسر للتوصية فلا يضر لما فيه من تقييدها بعدم الإفضاء إلى المعصية مآلاً فكأنه قيل: أحسن إليهما وأطعهما ما لم يأمراك بمعصية فتأمل، والظاهر الذي يقتضيه المقام أن ﴿ما﴾ عام لما سواه تعالى شأنه وقوله سبحانه: ﴿به﴾ على حذف مضاف أي ما ليس لك بإلهيته علم، وتنكير علم للتحقير.

والمراد لتشرك بي شيئاً لا يصح أن يكون إلهاً ولا يستقيم، وفي العدول عنه إلى ما في النظم الجليل إيذان بأن ما لا يعلم صحته ولو إجمالاً كما في التقليد لا يجوز اتباعه وإن لم يعلم بطلانه فكيف بما علم على أتم وجه بطلانه، وجعل العلامة الطيبي نفي العلم كناية عن نفي المعلوم، وعلل ذلك بأن هذا الأسلوب يستعمل غالباً في حق الله تعالى نحو «أتعلمون الله بما لا يعلم»(١) ثم قال: وفيه إشارة إلى أن نفي الشرك من العلوم الضرورية وأن الفطرة السليمة مجبولة عليه على ما ورد «كل مولود يولد على الفطرة» وذلك أن المخاطب بقوله تعالى: ﴿ووصينا الإنسان﴾ جنس الإنسان انتهى، وفيه بحث. ومتعلق تطعهما محذوف لوضوح دلالة الكلام عليه أي وإن استفرغا جهدهما في تكليفك لتشرك بي غيري مما لا إلٰهية له فلا تطعهما في ذلك فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وفي تعليق النهي عن طاعتهما بمجاهدتهما في التكليف إشعار بأن موجب النهي فيما دونها من التكليف ثابت بطريق الأولوية وكذا موجبه في مجاهدة أحدهما ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي مرجع من آمن منكم ـ ومن أشرك ـ ومن بر ـ ومن عق والجملة مقررة لما قبلها ولذا لم تعطف ﴿فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بأن أجازي كلاً منكم بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر. والآية نزلت في سعد بن أبي وقاص، وذلك أنه رضي الله تعالى عنه حين أسلم قالت أمه حمنة بنت أبي سفيان بن أمية بن عبد شمس: يا سعد بلغني أنك صبأت فوالله تعالى لا يظلني سقف بيت من الضح والريح وأن الطعام والشراب عليَّ حرام حتى تكفر بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم وكان أحب ولدها إليها فأبى سعد وبقيت ثلاثة أيام كذلك فجاء سعد إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فشكا إليه فنزلت هذه الآية والتي في لقمان والتي في الأحقاف فأمره رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يداريها ويترضاها بالإحسان.

وروي أنها نزلت في عياش بن أبي ربيعة المخزومي، وذلك أنه هاجر مع عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنهما متوافقين حتى نزلا المدينة فخرج أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام أخواه لأمه أسماء بنت مخرمة امرأة من بني تميم من بني حنظلة فنزلا بعياش وقالا له: إن من دين محمد صلة الأرحام وبر الوالدين وقد تركت أمك لا تطعم ولا تشرب ولا تأوي بيتاً حتى تراك وهي أشد حباً لك منا فاخرج معنا وفتلا منه في الذروة والغارب فاستشار عمر رضي الله تعالى عنه فقال هما يخدعانك ولك عليَّ أن أقسم ما لي بيني وبينك فما زالا به حتى أطاعهما وعصى عمر رضي الله عنه تعالى عنه فقال عمر رضي الله تعالى عنه: أما إذ عصيتني فخذ ناقتي فليس في الدنيا بعير يلحقها فإن رابك منهم ريب فارجع، فلما انتهوا إلى البيداء قال أبو جهل: إن ناقتي قد كلت فاحملني معك، قال: نعم. فنزل ليوطىء لنفسه

(١) نص الآية ٧٩ من سورة آل عمران: ﴿قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم...﴾.

وله فأخذاه فشداه وثاقاً وجلده كل واحد مائة جلدة وذهبا به إلى أمه، فقالت: لا تزال بعذاب حتى ترجع عن دين محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فنزلت.

﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّالِحَات لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي ٱلصَّالِحِينَ﴾ أي في زمرة الراسخين في الصلاح الكاملين فيه، والصلاح ضد الفساد وهو جامع لكل خير، وله مراتب غير متناهية ومرتبة الكمال فيه مرتبة عليا، ولذا طلبها الأنبياء عليهم السلام كما قال سليمان عليه السلام ﴿وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾ [النمل: ١٩] ويحتمل أن يكون الكلام بتقدير مضاف أي في مدخل الصالحين وهي الجنة، والموصول مبتدأ ولندخلنهم الخبر على ما ذكره أبو البقاء، وجوز أن يكون في موضع نصب على تقدير لندخلن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم ﴿وَمِنَ ٱلنَّاس﴾ أي بعضهم ﴿مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِٱللهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي ٱللهِ﴾ أي لأجله عز وجل على أن في للسببية، أو المراد في سبيل الله تعالى بأن عذبهم المشركون على الإيمان به تعالى ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاس﴾ أي نزلوا ما يصيبهم من أذيتهم ﴿كَعَذَاب ٱللهِ﴾ أي منزلة عذابه تعالى في الآخرة فجزعوا من ذلك ولم يصبروا عليه وأطاعوا الناس وكفروا بالله تعالى كما يطيع الله تعالى من يخاف عذابه سبحانه فيؤمن به عز وجل.

﴿وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ﴾ بأن حصل للمؤمنين فتح وغنيمة ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ بضم اللام الثانية وحذف ضمير الجمع لالتقاء الساكنين، وهذا الضمير عائد إلى من والجمع بالنظر إلى معناها، كما أن إفراد الضمائر العائدة إليها فيما سبق بالنظر إلى لفظها، وحكى أبو معاذ النحوي أنه قرىء «لَيقولن» بفتح اللام على إفراد الضمير كما فيما سبق ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ أي مشايعين لكم في الدين فأشركونا فيما حصل من الغنيمة، وقيل: أي مقاتلين معكم ناصرين لكم فالمراد الصحبة في القتال. ورد بأنها غير واقعة، والآية نزلت في ناس من ضعفة المسلمين كانوا إذا مسهم أذى من الكفار وافقوهم وكانوا يكتمونه من المسلمين وبذلك يكونون منافقين، ولذا قال ابن زيد والسدي: إن الآية في المنافقين فرد الله تعالى عليهم ذلك بقوله سبحانه:

﴿أَوَ لَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَالَمِينَ﴾ وهو في الظاهر عطف على مقدر أي أيخفى حالهم وليس إلخ أو أليس المتفرسون الذين ينظرون بنور الله تعالى بأحوالهم عالمين وليس إلخ، و ﴿أعلم﴾ إما على أصله أي أليس هو عز وجل أعلم من العالمين بما في صدور العالمين من الأخلاق والنفاق حتى يفعلوا ما يفعلون من الارتداد والإخفاء عن المسلمين وادعاء كونهم منهم لنيل الغنيمة أو هو بمعنى عالم. وقال قتادة: نزلت فيمن هاجر فردهم المشركون إلى مكة، وقيل: نزلت في ناس مؤمنين أخرجهم المشركون إلى بدر فارتدوا وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم﴾ [النساء: ٩٧] الآية، وما تقدم هو الأوفق لما سبق من الآية وما لحق من قوله سبحانه: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ﴾ بالإخلاص ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ﴾ سواء كان كفرهم بأذية أو لا، والمراد بالعلم المجازاة أي ليجزينهم بما لهم من الإيمان والنفاق، وكأن تلوين الخطاب في الذين آمنوا والمنافقين لرعاية الفواصل، والظاهر أن الآية بناء على أن النفاق ظهر في المدينة مدنية، وهو يؤيد ما تقدم من عدها من المستثنيات، ولعل من يقول إنها مكية لظاهر إطلاق جمع القول بمكية السورة، وأن تعذيب الكفرة المسلمين إنما كان في الأغلب بمكة يمنع ذلك أو يذهب إلى أنها من الاخبار بالغيب فتدبر ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُواْ﴾ بيان لحملهم المؤمنين على الكفر بالاستمالة بعد بيان حملهم إياهم عليه بالأذية والوعيد، ووصفهم بالكفر هاهنا دون ما سبق لما أن مساق الكلام لبيان جناياتهم وفيما سبق لبيان جناية من أضلوه، واللام للتبليغ أي قالوا مخاطبين لهم ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا﴾ أي اسلكوا طريقتنا التي نسلكها في الدين، عبر عن ذلك بالاتباع الذي هو المشي خلف ماش آخر تنزيلاً للمسلك منزلة

السالك فيه أو اتبعونا في طريقتنا ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ أي إذا كان ذلك الاتباع خطيئة يؤاخذ عليها يوم القيامة كما تقولون أو ولنحمل ما عليكم من الخطايا إن كان بعث ومؤاخذة، وإنما أمروا أنفسهم بالحمل عاطفين له على الأمر بالاتباع للمبالغة في تعليق الحمل بالاتباع، فكأن أصل الكلام اتبعوا سبيلنا نحمل خطاياكم بجزم نحمل على أنه جواب الأمر، فيكون المعنى إن تتبعوا نحمل فعدل عنه إلى ما في النظم الجليل للمبالغة المذكورة، ومنشؤها الإشارة إلى أن الحمل لتحققه كأنه أمر واجب أمروا به من آمر مطاع، والتعليق على الشرط الذي تضمنه الأمر كما في قولهم: أكرمني أنفعك لا يفيد ذلك، والداعي لهم إلى المبالغة التشجيع على الاتباع، والحمل هنا مجاز، وفي البحر شبه القيام بما يتحصل من عواقب الإثم بالحمل على الظهر والخطايا بالمحمول، وقال مجاهد: الحمل هنا من الحمالة لا من الحمل انتهى.

والآية على ما أخرج جماعة عن مجاهد نزلت في كفار قريش قالوا لمن آمن منهم: لا نبعث نحن ولا أنتم فاتبعونا فإن كان عليكم شيء فعلينا. وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن ابن الحنفية قال كان أبو جهل وصناديد قريش يتلقون الناس إذا جاؤوا إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يسلمون يقولون: إنه يحرم الخمر ويحرم الزنا ويحرم ما كانت تصنع العرب فارجعوا فنحن نحمل أوزاركم فنزلت هذه الآية، وقيل: قائل ذلك أبو سفيان بن حرب وأمية بن خلف قالا لعمر رضي الله تعالى عنه: إن كان في الإقامة على دين الآباء إثم فنحن نحمله عنك.

وقيل: قائله الوليد بن المغيرة، ونسبة ما صدر عن الواحد للجمع شائعة، وقد تقدم الكلام غير مرة في وجه ذلك، وقرأ الحسن وعيسى ونوح القارىء «ولِتحمل» بكسر لام الأمر، ورويت عن علي كرّم الله تعالى وجهه ﴿وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ نفي مؤكد عن سبيل الاستمرار لكونهم حاملين شيئاً ما من خطاياهم التي التزموا حملها، فالباء زائدة لتأكيد النفي والاستمرار الذي تفيده الجملة الاسمية معتبر بعد النفي، ومن الأولى للبيان وهو مقدم من تأخير، ومن الثانية مزيدة لتأكيد الاستغراق، وهذه الجملة اعتراض أو حال.

وقرأ داود بن أبي هند فيما ذكر أبو الفضل الرازي «من خطيئتهم» على التوحيد قال: ومعناه الجنس، ودل على ذلك اتصافه بضمير الجماعة، وذكر ابن خالويه وأبو عمرو الداني أن داود هذا قرأ «من خطيئاتهم» جمع خطيئة جمع السلامة بالألف والتاء، وذكر ابن عطية عنه أنه قرأ من «خطيهم» بفتح الطاء وكسر الياء، وينبغي أن يحمل كسر الياء على أنها همزة سهلت بين بين فأشبهت الياء لأن قياس تسهيلها هو ذلك؛ وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ استئناف مقرر للنفي السابق، والكذب قيل راجع إلى تعليق الحمل بالاتباع فإنه إخبار لا إلى الأمر السابق لأنه إنشاء ولا يجري الكذب فيه، وتعقب بأن التعليق لا يلزمه أن يكون إخبار بل هو ضمان معلق أي إنشاء الضمان عند وجود الصفة، ولذا قال الزمخشري: إن ضامن ما لا يعلم اقتداره على الوفاء به لا يسمى كاذباً لا حين ضمن ولا حين عجز لأنه في الحالين لا يدخل تحت حد الكاذب وهو المخبر عن الشيء لا على ما هو عليه؛ وجعل هذا سؤالاً عن وجه التعبير بكاذبون، وأجاب عن ذلك بوجهين، ثانيهما على ما في الكشف هو الوجه، وحاصله أن الكذب ليس راجعاً إلى أنهم غير حاملين ليقال: إن الضامن لا يسمى كاذباً بل أخبر الله تعالى أنهم عجزوا عما ضمنوه ومع ذلك هم كاذبون في وعد إنشاء الضمان عند وجود الوصف، والمحصل أن من وعد الضمان إن ضمن ولم يحقق لا يسمى كاذباً وإن لم يضمن سمي كاذباً، وأولهما أنه شبه الله تعالى حالهم حيث علم أن ما ضمنوه لا طريق لهم إلى أن يفوا به فكان ضمانهم عنده سبحانه لا على ما هو عليه المضمون بالكاذبين الذين خبرهم لا على ما عليه المخبر عنه.

وقال بعض المحققين: الكذب راجع إلى الخبر الذي في ضمن وعدهم بالحمل وهم أنهم قادرون على إنجاز ما وعدوا، والكذب كما يتطرق إلى الكلام باعتبار منطوقه يتطرق إليه باعتبار ما يلزم مدلوله، وفي الانتصاف أن في قوله تعالى: ﴿إنهم لكاذبون﴾ نكتة حسنة يستدل بها على صحة مجيء الأمر بمعنى الخبر فإن من الناس من أنكره والتزم تخريج جميع ما ورد في ذلك على أصل الأمر ولم يتم له ذلك في هذه الآية لأنه سبحانه أردف قولهم ﴿ولنحمل خطاياكم﴾ على صيغة الأمر بقوله تعالى: ﴿إنهم لكاذبون﴾ والتكذيب إنما يتطرق إلى الاخبار انتهى، ويعلم منه وجه كونهم كاذبين في قولهم ذلك مع إخراجهم له مخرج الأمر إلا أن في كون الآية دليلاً على ما ذكره نظراً كما لا يخفى.

﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ بيان لما يستتبعه قولهم ذلك في الآخرة من المضرة لأنفسهم بعد بيان عدم منفعته لمخاطبيهم أصلاً، والتعبير عن الخطايا بالأثقال للإيذان بغاية ثقلها وكونها فادحة، واللام واقعة في جواب قسم محذوف أي وبالله ليحملن أثقال أنفسهم كاملة ﴿وَأَثْقَالاً﴾ أخر ﴿مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ وهي أثقال ما تسببوا بالإضلال والحمل على الكفر والمعاصي من غير أن ينقص من أثقال من أضلوه شيء ما. فقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «أيما داع دعا إلى هدي فاتبع عليه وعمل به فله مثل أجور الذين اتبعوه ولا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً وأيما داع دعا إلى ضلالة فاتبع عليها وعمل بها فعليه مثل أوزار الذين اتبعوه ولا ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً» قال عون: وكان الحسن يقرأ عليها وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم، وللإشارة إلى استقلال أثقال أنفسهم وأنها نهضتهم واستفرغت جهدهم وأن الأثقال الأخر كالعلاوة عليها اختير ما في النظم الجليل على أن يقال وليحملن أثقالاً مع أثقالهم.

﴿وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾ سؤال تقريع وتبكيت ﴿عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي يختلقونه في الدنيا من الأكاذيب والأباطيل التي من جملتها كذبهم هذا.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً﴾ شروع في بيان افتتان الأنبياء عليهم السلام بأذية أممهم إثر بيان افتتان المؤمنين بأذية الكفار تأكيداً للإنكار على الذين يحسبون أن يتركوا بمجرد الإيمان بلا ابتلاء وحثاً لهم على الصبر فإن الأنبياء عليهم السلام حيث ابتلوا بما أصابهم من جهة أممهم من فنون المكاره وصبروا عليها فلأن يصبر هؤلاء المؤمنون أولى وأحرى، والظاهر أن الواو للعطف وهو من عطف القصة على القصة، قال ابن عطية: والقسم فيها بعيد يعني أن يكون المقسم به قد حذف وبقي حرفه وجوابه فإن فيه حذف المجرور وإبقاء الجار، وهم قالوا: لا بد من ذكر المجرور، والفاء للتعقيب فالمتبادر أنه عليه السلام لبث في قومه عقيب الإرسال المدة المذكورة وقد جاء مصرحاً به في بعض الآثار.

أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه عن ابن عباس قال: بعث الله تعالى نوحاً عليه السلام وهو ابن أربعين سنة، ولبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله تعالى وعاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثر الناس وفشوا، وعلى هذه الرواية يكون عمره عليه السلام ألف سنة وخمسين سنة، وقيل: إنه عليه السلام عمر أكثر من ذلك، أخرج ابن جرير عن عون بن أبي شداد قال: إن الله تعالى أرسل نوحاً عليه السلام إلى قومه وهو ابن خمسين وثلاثمائة سنة فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ثم عاش بعد ذلك خمسين وثلاثمائة سنة فيكون عمره ألف سنة وستمائة وخمسين سنة، وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة قال: كان

عمر نوح عليه السلام قبل أن يبعث إلى قومه وبعدما بعث ألفاً وسبعمائة سنة، وعن وهب أنه عليه السلام عاش ألفاً وأربعمائة سنة، وفي جامع الأصول كانت مدة نبوته تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الغرق خمسين سنة، وقيل: مائتي سنة وكانت مدة الطوفان ستة أشهر آخرها يوم عاشوراء.

وقال ابن عطية: يحتمل أن يكون ما ذكر الله عز وجل مدة إقامته عليه السلام من لدن مولده إلى غرق قومه، وقيل: يحتمل أن يكون ذلك جميع عمره عليه السلام، ولا يخفى أن المتبادر من الفاء التعقيبية ما تقدم؛ وجاء في بعض الآثار أنه عليه السلام أطول الأنبياء عليهم السلام عمراً، أخرج ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الدنيا عن أنس بن مالك قال: جاء ملك الموت إلى نوح عليهما السلام فقال: يا أطول النبيين عمراً كيف وجدت الدنيا ولذتها؟ قال: كرجل دخل بيتاً له بابان فقال وسط الباب هنيهة ثم خرج من الباب الآخر، ولعل ما عليه النظم الكريم في بيان مدة لبثه عليه السلام للدلالة على كمال العدد وكونه متعيناً نصاً دون تجوز فإن تسعمائة وخمسين قد يطلق على ما يقرب منه ولما في ذكر الألف من تخييل طول المدة لأنها أول ما تقرع السمع فإن المقصود من القصة تسلية رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وتثبيته على ما كان عليه من مكابدة ما يناله من الكفرة وإظهار ركاكة رأي الذين يحسبون أنهم يتركون بلا ابتلاء، واختلاف المميزين لما في التكرير في مثل هذا الكلام من البشاعة، والنكتة في اختيار السنة أولاً أنها تطلق على الشدة والجدب بخلاف العام فناسب اختيار السنة لزمان الدعوة الذي قاسى عليه السلام فيه ما قاسى من قومه ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ أي عقيب تمام المدة المذكورة، والطوفان قد يطلق على كل ما يطوف بالشيء على كثرة وشدة من السيل والريح والظلام قال العجاج:

حتى إذا ما يومها تصبصبا ... وغم طوفان الظلام الأثأبا(١)

وقد غلب على طوفان الماء وهو المراد هنا ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي والحال هم مستمرون على الظلم لم يتأثروا بما سمعوا من نوح عليه السلام من الآيات ولم يرعووا عما هم عليه من الكفر والمعاصي هذه المدة المتمادية ﴿فَأَنجَيْنَاهُ﴾ أي نوحاً عليه السلام ﴿وَأَصْحَابَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ أي من ركب فيها معه من أولاده وأتباعه، وكانوا ثمانين، وقيل: ثماني وسبعين نصفهم ذكور ونصفهم إناث منهم أولاد نوح سام وحام ويافث ونساؤهم، وعن محمد بن إسحاق كانوا عشرة خمسة رجال وخمس نسوة، وروي مرفوعاً كانوا ثمانية نوح وأهله وبنوه الثلاثة أي مع أهليهم ﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾ أي السفينة ﴿آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ عبرة وعظة لهم لبقائها زماناً طويلاً على الجودي يشاهدها المارة ولاشتهارها فيما بين الناس، ويجوز كون الضمير للحادثة والقصة المفهومة مما قبل وهي عبرة للعالمين لاشتهارها فيما بينهم ﴿وَإِبْرَاهِيمَ﴾ نصب بإضمار اذكر معطوفاً على ما قبله عطف القصة على القصة فلا ضير في اختلافهما خبراً وإنشاء وإذ في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ بدل اشتمال منه لأن الأحيان تشتمل على ما فيها، وقد جوز ذلك الزمخشري وابن عطية، وتعقب ذلك أبو حيان بأن إذ لا تتصرف فلا تكون مفعولاً به والبدلية تقتضي ذلك. ثم ذكر أن إذ إن كانت ظرفاً لما مضى لا يصح أن تكون معمولة لأذكر لأن المستقبل لا يقع في الماضي فلا يجوز قم أمس، وإذا خلعت من الظرفية الماضوية وتصرف فيها جاز أن تكون مفعولاً به ومعمولاً لأذكر، وجوز غير واحد أن يكون نصباً بالعطف على نوحاً فكأنه قيل: وأرسلنا إبراهيم فإذ حينئذ ظرف للإرسال، والمعنى على ما قيل أرسلناه حين تكامل عقله وقدر على النظر والاستدلال وترقى من رتبة الكمال إلى درجة التكميل حيث تصدى لإرشاد الخلق إلى طريق الحق، وهذا

---

(١) قوله الأثأبا هو شجر الأثل ا هـ منه.

على ما قاله بعض المحققين لما أن القول المذكور في حيز إذ إنما كان منه عليه السلام بعد ما راهق قبل الإرسال، وأنت تعلم أن قوله تعالى: ﴿وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ [العنكبوت: ١٨] إلخ إذا كان من قوله عليه السلام لقومه كالنص في أن القول المحكي عنه عليه السلام كان بعد الإرسال؛ وفي الحواشي السعدية أن ذلك إشارة إلى دفع ما عسى أن يقال: الدعوة تكون بعد الإرسال والمفهوم من الآية تقدمها عليه، وحاصله أنه ليس المراد من الدعوة ما هو نتيجة الإرسال بل ما هو نتيجة كمال العقل وتمام النظر، مع أن دلالة الآية على تقدمها غير مسلمة ففي الوقت سعة، ويجوز أن يكون القصد هو الدلالة على مبادرته عليه السلام للامتثال ا هـ فتدبر.

وجوز أبو البقاء، وابن عطية أن يكون نصباً بالعطف على مفعول أنجيناه وهو كما ترى، والأوفق بما يأتي إن شاء الله تعالى من قوله تعالى: ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً﴾ [الأعراف: ٨٥، هود: ٨٤، العنكبوت: ٣٦] أن يكون النصب بالعطف على نوحاً وقرأ أبو حنيفة، والنخعي وأبو جعفر وإبراهيم بالرفع على أن التقدير ومن المرسلين إبراهيم، وقيل: التقدير ومما ينبغي ذكره إبراهيم، وقيل: التقدير وممن أنجينا إبراهيم، وعلى الأول المعول لدلالة ما قبل وما بعد عليه، ويتعلق بذلك المحذوف ﴿إذ قال لقومه﴾ ﴿ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ﴾ وحده ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ أن تشركوا به سبحانه شيئاً ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي ما ذكر من العبادة والتقوى ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ من كل شيء فيه خيرية أو مما أنتم عليه على تقدير الخيرية فيه على زعمكم، ويجوز كون خير صفة لا اسم تفضيل ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي الخير والشر وتميزون أحدهما من الآخر، أو إن كنتم تعلمون شيئاً من الأشياء بوجه من الوجوه فإن ذلك كاف في الحكم بخيرية ما ذكر من العبادة والتقوى ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَاناً﴾ بيان لبطلان دينهم وشريته في نفسه بعد بيان شريته بالنسبة إلى الدين الحق، أي ما تعبدون من دونه تعالى إلا أوثاناً هي في نفسها تماثيل مصنوعة لكم ليس فيها وصف غير ذلك ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً﴾ أي وتكذبون كذباً حيث تسمونها آلهة وتدعون أنها شفعاؤكم عند الله سبحانه؛ أو تعملونها وتنحتونها للإفك والكذب، واللام لام العاقبة وإلا فهم لم يعملوها لأجل الكذب، وجوز أن يكون ذلك من باب التهكم. وقال بعض الأفاضل: الأظهر كون إفكاً مفعولاً به والمراد به نفس الأوثان وجعلها كذباً مبالغة، أو الإفك بمعنى المأفوك وهو المصروف عما هو عليه، وإطلاقه على الأوثان لأنها مصنوعة وهم يجعلونها صانعاً. وقرأ علي كرّم الله تعالى وجهه والسلمي وعون العقيلي وعبادة وابن أبي ليلى وزيد بن علي رضي الله تعالى عنهما «تَخَلَّقُونَ» بفتح التاء والخاء واللام مشددة، قال ابن مجاهد: ورويت عن ابن الزبير وأصله تتخلقون فحذفت إحدى التاءين وهو من تخلق بمعنى تكذب وصيغة التكلف للمبالغة. وزعم بعضهم جواز أن يكون تفعل بمعنى فعل، وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما أيضاً «تخلقون» من خلق بالتشديد للتكثير في الخلق بمعنى الكذب والافتراء، وقرأ ابن الزبير وفضيل بن زرقان «أفكاً» بفتح الهمزة وكسر الفاء على أنه مصدر كالكذب واللعب أو وصف كالحذر وقع صفة لمصدر مقدر أي خلقاً أفكاً أي ذا أفك ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً﴾ بيان لشرية ما يعبدونه من حيث إنه لا يكاد يجديهم نفعاً، و ﴿رزقاً﴾ يحتمل أن يكون مصدراً مفعولاً به ليملكون، والمعنى لا يستطيعون أن يرزقوكم شيئاً من الرزق، وأن يكون بمعنى المرزوق أي لا يستطيعون، إيتاء شيء من الرزق وجوز على المصدرية أن يكون مفعولاً مطلقاً ليملكون من معناه ولمحذوف والأصل لا يملكون أن يرزقوكم رزقاً وهو كما ترى ونكر. وقال بعض الأجلة: للتحقير والتقليل مبالغة في النفي، وخص الرزق لمكانته من الخلق ﴿فَٱبْتَغُوا عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ أي كله على أن تعريف الرزق للاستغراق. قال الطيبي: هذا من المواضع التي ليست المعرفة المعادة عين الأول فيها، وجوز أن تكون عين الأول بناء

على أن كلاً منهما مستغرق ﴿وَٱعْبُدُوهُ﴾ عز وجل وحده ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ على نعمائه متوسلين إلى مطالبكم بعبادته مقيدين بشكره تعالى للعتيد ومستجلبين به للمزيد، فالجملتان ناظرتان لما قبلهما، وجوز أن يكونا ناظرتين لقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ كأنه قيل: استعدوا للقائه تعالى بالعبادة والشكر فإنه إليه ترجعون، وجوز بعض المحققين أن تكون هذه الجملة تذييلاً لجملة ما سبق مما حكي عن إبراهيم عليه السلام أو لأوله، والمعنى إليه تعالى لا إلى غيره سبحانه ترجعون بالموت ثم بالبعث فافعلوا ما أمرتكم به وما بينهما اعتراض لتقرير الشرية كما سمعت. وقرىء «تَرْجِعُون» بفتح التاء من رجع رجوعاً ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا﴾ عطف على مقدر تقديره فإن تصدقوني فقد فزتم بسعادة الدارين وإن تكذبوا أي تكذبوني فيما أخبرتكم به من أنكم إليه تعالى ترجعون بالبعث ﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ من قَبْلِكُمْ﴾ وهذا تعليل للجواب في الحقيقة، والأصل فلا تضرونني بتكذيبكم فإنه قد كذب أمم قبلكم رسلهم وهم شيث وإدريس ونوح وهود وصالح عليهم السلام فلم يضرهم تكذيبهم شيئاً وإنما ضر أنفسهم حيث تسبب لما حل بهم من العذاب فكذا تكذيبكم إياي ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ ٱلبَلاَغُ ٱلمُبِينُ﴾ أي التبليغ الذي لا يبقى معه شك وما عليه أن يصدقه قومه البتة وقد خرجت عن عهدة التبليغ بما لا مزيد عليه فلا يضرني تكذيبكم بعد ذلك أصلاً.

وهذه الآية أعني ﴿وإن تكذبوا﴾ إلخ على ما ذكرنا من جملة قصة إبراهيم عليه السلام وكذا ما بعد على ما قيل إلى قوله تعالى: ﴿فما كان جواب قومه﴾ [الأعراف: ٨٢، النمل: ٥٦، العنكبوت: ٢٤، ٢٩] وجوز أن يكون ذلك اعتراضاً بذكر شأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقريش وهدم مذهبهم والوعيد على سوء صنيعهم توسط بين طرفي القصة من حيث إن مساقها لتسلية رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم والتنفيس عنه بأن أباه خليل الرحمن كان مبتلي بنحو ما ابتلي به من شرك القوم وتكذيبهم وتشبيه حاله فيهم بحال إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، قالوا: وفي ﴿وإن تكذبوا﴾ اعتراضية، والخطاب منه تعالى أو من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على معنى وقل لقريش ﴿إن تكذبوا﴾ إلخ.

وذهب بعض المحققين إلى أن قوله تعالى: ﴿إن تكذبوا﴾ إلخ من كلام إبراهيم عليه السلام، وقوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ﴾ إلخ كلام مستأنف مسوق من جهته تعالى للإنكار على تكذيبهم بالبعث مع وضوح دليله، والهمزة لإنكار عدم رؤيتهم الموجب لتقريرها، والواو للعطف على مقدر أي ألم ينظروا ولم يعلموا كيفية خلق الله تعالى الخلق ابتداء من مادة ومن غير مادة أي قد علموا ذلك.

وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر بخلاف عنه «ألم تروا» بتاء الخطاب، وهو على ما قال هذا البعض لتشديد الإنكار وتأكيده ولا يحتاج عليه إلى تقدير قول؛ ومن لم يجعل ذلك كلاماً مستأنفاً مسوقاً من جهته تعالى للإنكار على تكذيبهم بالبعث قال: إن الخطاب على تقدير القول أي قال لهم رسلهم: «ألم تروا».

ووجه ذلك بأنه جعل ضمير ﴿أولم يروا﴾ على قراءة الغيبة لأمم في قوله تعالى: ﴿أمم من قبلكم﴾ فيجعل في قراءة الخطاب له أيضاً ليتحد معنى القراءتين، وحينئذ يحتاج لتقدير القول ليحكي خطاب رسلهم معهم إذ لا مجال للخطاب بدونه.

وقيل: إن ذاك لأنه لا يجوز أن يكون الخطاب لمنكري الإعادة من أمة إبراهيم أو نبينا عليهما الصلاة والسلام وهم المخاطبون بقوله تعالى: ﴿وإن تكذبوا﴾ لأن الاستفهام للإنكار أي قد رأوا فلا يلائم قوله تعالى: ﴿قل سيروا﴾ إلخ لأن المخاطبين فيها هم المخاطبون أولاً، يعني إن كانت الرؤية علمية فالأمر بالسير والنظر لا يناسب لمن حصل

له العلم بكيفية الخلق، والقول بأن الأول دليل أنفسي، والثاني آفاقي مخالف للظاهر من وجوه اهـ فتدبر، ولعل الأظهر والأبعد عن القيل والقال في نظم الآيات ما نقلناه عن بعض المحققين.

وقرأ الزبيري وعيسى وأبو عمرو بخلاف عنه ﴿كيف يبدأ﴾ على أنه مضارع بدأ الثلاثي مع إبدال الهمزة ألفاً كما ذكره الهمداني، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ عطف على ﴿أولم يروا﴾ لا على يبدىء لأن الرؤية إن كانت بصرية فهي واقعة على الإبداء دون الإعادة فلو عطف عليه لم يصح وكذا إذا كانت علمية لأن المقصود الاستدلال بما علموه من أحوال المبدأ على المعاد لإثباته فلو كان معلوماً لهم كان تحصيلاً للحاصل.

وجوز العطف عليه بتأويل الإعادة بإنشائه تعالى كل سنة مثل ما أنشأه سبحانه في السنة السابقة من النبات والثمار وغيرهما فإن ذلك مما يستدل به على صحة البعث ووقوعه على ما قيل من غير ريب، وعن مقاتل أن الخلق هنا الليل والنهار وليس بشيء ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي ما ذكر من الإعادة، وجوز أن يكون المشار إليه ما ذكر من الأمرين ﴿عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ إذ لا يحتاج فعله تعالى إلى شيء خارج عن ذاته عز وجل.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أمر لإبراهيم عليه السلام أن يقول لقومه ذلك عند بعض المحققين، وكذا جعله من جعل جميع ما تقدم من قصة إبراهيم عليه السلام، ومن جعل قوله تعالى: ﴿وإن تكذبوا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فما كان جواب قومه﴾ اعتراضاً جعل هذا أمراً لنبينا ﷺ أن يقول ذلك لقريش.

وجوز أن يجعل نظم الآيات السابقة على ما نقل عن بعض المحققين ويجعل هذا أمراً للنبي عليه الصلاة والسلام أن يقول ذلك لهم فإنهم مثل قوم إبراهيم عليه السلام والأمم الذين من قبلهم في التكذيب بالبعث والإنكار له، وما في حيز هذا القول متضمن ما يدل على صحته، وعدم اتحاده مع ما سبق لا يضر. وأياً ما كان فإضافة الرحمة إلى ضمير المتكلم فيما يأتي إن شاء الله تعالى لما أن ذلك حكاية كلامه عز وجل على وجهه ومثله في القرآن الكريم كثير، والسير كما قال الراغب: المضي في الأرض، وعليه يكون في الآية تجريد، والظاهر أن المراد به المضي بالجسم، وجوز أن يراد به إجالة الفكر. وحمل على ذلك فيما يروى في وصف الأنبياء عليهم السلام أبدانهم في الأرض سائرة وقلوبهم في الملكوت جائلة، ومنهم من حمل ذلك على الجد في العبادة المتوصل بها إلى الثواب، والمعنى على ما قلنا أولاً امضوا في الأرض وسيحوا فيها ﴿فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ﴾ الله تعالى ﴿الْخَلْقَ﴾ أي كيف خلقهم ابتداء على أطوار مختلفة وطبائع متغايرة وأخلاق شتى، فإن ترتيب النظر على السير في الأرض مؤذن بتتبع أحوال أصناف الخلق القاطنين في أقطارها، وعلى هذا تتغاير الكيفية في الآية السابقة والكيفية في هذه الآية لما أن الأولى كما علمت باعتبار المادة وعدمها وهذه باعتبار تغاير الأحوال. ولعل التعبير في الآية الأولى بالمضارع أعني ﴿يبدأ﴾ دون الماضي كما هنا لاستحضار الصورة الماضية لما أن بدء الخلق من مادة وغيرها أغرب من بدء الخلق على أطوار مختلفة على معنى أن خلق الأشياء أغرب من جعل أطوارها مختلفة، وأنت إذا لاحظت أن خلق الأشياء يعود في الآخرة إلى إيجادها من كتم العدم من غير سبق مادة دفعاً للتسلسل وأن جعل أطوارها مختلفة إنما هو بعد سبق المادة ولو سبقاً ذاتياً وهو ما قام به الاختلاف أعني ذوات الأشياء لا تشك في أن الأول أغرب من الثاني، ولذا ترى التمدح بأصل الخلق في القرآن العظيم أكثر من التمدح بالجعل المذكور. وقد وافق الصيغة في الإشعار بالغرابة بناء الفعل من باب الافعال فإنه غير مستعمل ولذا قالوا: إنه مخل بالفصاحة لولا وقوعه مع ﴿يعيد﴾، ومما يقرب من هذا السر ما قيل في وجه حذف الياء من يسر في قوله تعالى: ﴿والليل إذا يسر﴾ [الفجر: ٤] من أن ذلك لأن الليل يسرى فيه لا يسري أي ليدل مخالفة الظاهر في اللفظ على مخالفته في المعنى وهو معنى دقيق.

وقيل في وجه التعبير بما ذكر إفادة الاستمرار التجددي وهو بناء على المعنى الثاني في الآية. وقال بعضهم في تغاير الدليلين: إن هذا عيني وذلك علمي أو هذا آفاقي والأول أنفسي وقرأ الزهري «كيف بدأ الخلق» بتخفيف الهمزة بإبدالها ألفاً ثم حذفها في الوصل. قال أبو حيان: وهو تخفيف غير قياسي كما قال: فارعي فزارة لا هناك المرتع، وقياس تخفيف هذا التسهيل بين بين ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ أي بعد النشأة الأولى التي شاهدتموها والنشأة الإيجاد والخلق، والتعبير عن الإعادة التي هي محل النزاع بالنشأة الآخرة المشعرة بكون البدء نشأة أولى للتنبيه على أنهما شأن واحد من شؤون الله تعالى حقيقة واسماً من حيث إن كلاً منهما اختراع وإخراج من العدم إلى الوجود ولا فرق بينهما إلا بالأولية والأخروية كذا قيل.

والظاهر أنه مبني على أن الجسد يعدم بالكلية ثم يعاد خلقاً جديداً لا أنه تتفرق أجزاؤه ثم تجمع بعد تفرقها وإلى كل ذهب بعض، والأدلة متعارضة، والمسألة كما قال ابن الهمام عند المحققين ظنية، وفي كتاب الاقتصاد في الاعتقاد لحجة الإسلام الغزالي، فإن قيل: فما تقولون أتعدم الجواهر والاعراض ثم تعادان جميعاً أو تعدم الأعراض دون الجواهر وإنما تعاد الأعراض؟ قلنا: كل ذلك ممكن ولكن ليس في الشرع دليل قاطع على تعيين أحد هذه الممكنات انتهى، وذهب ابن الهمام إلى أن الحق وقوع الكيفيتين إعادة ما انعدم بعينه وتأليف ما تفرق من الأجزاء، وقد يقال: إن بدء الإنسان ونحوه ليس اختراعاً محضاً وإخراجاً من كتم العدم إلى الوجود في الحقيقة لما أنه مخلوق من التراب وسائر العناصر، والظاهر أن فناءه ليس عبارة عن صيرورته عدماً محضاً بل هو عبارة عن انحلاله إلى ما تركب منه ورجوع كل عنصر إلى عنصره. نعم لا شك في فناء بعض الأعراض وانعدامها بالكلية، وقد يستثنى منه بعض الأجزاء فلا ينحل إلى ما منه التركيب بل يبقى على ما كان عليه وهو عجب الذنب لظاهر حديث الصحيحين «ليس شيء من الإنسان لا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب منه يركب الخلق يوم القيامة» وتأويله بما أوله به ملا صدرا في أسفاره مما لا ينبغي أن يلتفت إليه، وحينئذ فالإعادة تكون بتركيب ما انحل من العناصر وضمه إلى هذا الجزء فلا تكون اختراعاً محضاً وإخراجاً من كتم العدم إلى الوجود في الحقيقة، لكن لكل من البدء والإعادة شبه تام بالاختراع والإخراج المذكور، وبه يصح أن يقال لكل اختراع وإخراج من العدم إلى الوجود فلا تغفل، والجملة معطوفة على جملة ﴿سيروا في الأرض﴾ داخلة معها في حيز القول، ولا يضر تخالفهما خبراً وإنشاءاً فإنه جائز بعد القول وما له محل من الإعراب، ولا يصح عطفها على بدأ الخلق لأنها لا تصلح أن تكون موقعاً للنظر أما إن كان بمعنى الإبصار فظاهر وأما إن كان بمعنى التفكر فلأن التفكر في الدليل لا في النتيجة، وإظهار الاسم الجليل وإيقاعه مبتدأ مع إضماره في بدأ لإبراز مزيد الاعتناء ببيان تحقق الإعادة بالإشارة إلى علة الحكم فإنه الاسم الجامع لصفات الكمال ونعوت الجلال وتكرير الإسناد ورد ما تقدم على مقتضى الظاهر فلا يحتاج للتوجيه؛ وكون المراد منه ليس إثبات الإعادة لمن أنكرها فلذا لم ينسج على هذا المنوال غير مسلم، وقرأ أبو عمرو وابن كثير «النشاءة» بالمد وهما لغتان كالرأفة والرآفة والقصر أشهر، ومحلها النصب على أنها مصدر مؤكد لينشيء بحذف الزوائد والأصل الإنشاءة أو بحذف العامل أي ينشيء فينشؤون النشأة الآخرة نحو ﴿أنبتكم من الأرض نباتاً﴾ [نوح: ١٧] ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تعليل لما قبله بطريق التحقيق فإن من علم قدرته عز وجل على جميع الممكنات التي من جملتها الإعادة لا يتصور أن يتردد في قدرته سبحانه عليها ولا في وقوعها بعدما أخبر به، ثم اعلم أن أكثر المنكرين للبعث لا يقولون باستحالته كجمع النقيضين بل غاية ما عندهم استبعاده، والرد على هؤلاء بهذه الآيات ونحوها ظاهر لما فيها مما يزيل الاستبعاد من الإبداء الذي هو في الشاهد أشق من الإعادة، ومنهم من يقول باستحالته عقلاً فلا يصلح متعلقاً للقدرة، وهؤلاء هم

القائلون باستحالة إعادة المعدوم، والرد عليهم بعد تسليم أن ما نحن فيه من إعادة المعدوم وليس من جمع المتفرق بإبطال ما استدلوا به على الاستحالة، وقد تكفلت الكتب الكلامية بذلك، وأما الرد عليهم بهذه الآيات ونحوها فلما فيها من الإشارة إلى تزييف أدلة الاستحالة فتدبر ﴿**يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ**﴾ جملة مستأنفة لبيان ما بعد النشأة الآخرة أي يعذب بعد النشأة الآخرة من يشاء تعذيبه وهم المنكرون لها ﴿**وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ**﴾ رحمته وهم المقرون بها ﴿**وَإِلَيْه**﴾ سبحانه لا إلى غيره ﴿**تُقْلَبُونَ**﴾ أي تردون، والجملة تقرير للإعادة وتوطئة لما بعد، وتقديم التعذيب لما أن الترهيب أنسب بالمقام من الترغيب ﴿**وَمَا أَنتُم بِمُعجزِينَ**﴾ له تعالى عن إجراء حكمه وقضائه عليكم ﴿**فِي الأَرضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ**﴾ أي بالهرب في الأرض الفسيحة أو الهبوط في مكان بعيد الغور والعمق بحيث لا يوصل إليه فيها ولا بالتحصن في السماء التي هي أفسح منها أو التي هي أمنع لمن حل فيها عن أن تناله أيدي الحوادث فيما ترون لو استطعتم الرقي إليها كما في قوله تعالى: ﴿إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا﴾ [الرحمن: ٣٣] أو البروج والقلاع المرتفعة في جهتها على ما قيل، وهو خلاف الظاهر، وقال ابن زيد والفراء: إن ﴿**في السماء**﴾ صلة موصول محذوف هو مبتدأ محذوف الخبر؛ والتقدير ولا من في السماء بمعجز، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها، وضعف بأن فيه حذف الموصول مع بقاء صلته وهو لا يجوز عند البصريين إلا في الشعر كقول حسان:

أمن يهجو رسول الله منكم ... ويمدحه وينصره سواء

على ما هو الظاهر فيه، على أن ابن مالك اشترط في جوازه عطف الموصول المحذوف على موصول آخر مذكور كما في هذا البيت، وبأن فيه حذف الخبر أيضاً مع عدم الحاجة إليه، ولهذا جعل بعضهم الموصول معطوفاً على أنتم ولم يجعله مبتدأ محذوف الخبر ليكون العطف من عطف الجملة على الجملة، وزعم بعضهم أن الموصول محذوف في موضعين وأنه مفعول به لمعجزين وقال: التقدير وما أنتم بمعجزين من في الأرض أي من الإنس والجن ولا من في السماء أي من الملائكة عليهم السلام فكيف تعجزون الله عز وجل، ولا يخفى أن هذا في غاية البعد ولا ينبغي أن يخرج عليه كلام الله تعالى.

وقيل ليس في الآية حذف أصلاً، والسماء هي المظلة إلا أن ﴿**أنتم**﴾ خطاب لجميع العقلاء فيدخل فيهم الملائكة ويكون السماء بالنظر إليهم والأرض بالنظر إلى غيرهم من الإنس والجن وهو كما ترى.

﴿**وَمَا لَكُم مِن دُونِ اللهِ مِن وَلِي**﴾ يحرسكم من بلاء أرضي أو سماوي ﴿**وَلاَ نَصِير**﴾ يدفعه عنكم ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا بآيَاتِ الله**﴾ أي بدلائله التكوينية والتنزيلية الدالة على ذاته وصفاته وأفعاله، فيدخل فيها النشأة الأولى الدالة على صحة البعث والآيات الناطقة به دخولاً أولياً، وتخصيصها بدلائل وحدانيته تعالى لا يناسب المقام ﴿**وَلقَائه**﴾ الذي تنطق به تلك الآيات ﴿**أُولَئكَ**﴾ الموصوفون بما ذكر من الكفر بآياته تعالى ولقائه عز وجل ﴿**يَئسُوا مِن رَحمَتي**﴾ أي ييأسون منها يوم القيامة على أنه وعيد، وإلا فالكافر لا يوصف باليأس في الدنيا لأنه لا رجاء له، وصيغة الماضي للدلالة على التحقق، وجوز أن يكون المراد إظهار مباينة حالهم وحال المؤمنين لأن حال المؤمن الرجاء والخشية وحال الكافر الاغترار واليأس فهو لا يخطر بباله رجاء ولا خوفاً؛ إن أخطر المخوف بباله كان حاله اليأس بدل الخوف وإن أخطر المرجو كان حاله الاغترار بدل الرجاء، فكأنه تنصيص على كفرهم وتعريف لحالهم، وأن يكون الكلام على الاستعارة.

شبهوا بالآيسين من الرحمة وهم الذين ماتوا على الكفر لأنه ما دامت الحياة لا يتحقق اليأس من الرحمة لرجاء الإيمان، أو من قدر آيساً من الرحمة على الفرض دلالة على توغلهم في الكفر وعدم ارعوائهم وقرأ الذماري وأبو جعفر، «ييسوا» بغير همز بل بياء بدل الهمزة ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في تكرير اسم الإشارة وتكرير الإسناد وتنكير العذاب ووصفه بالأليم من الدلالة على فظاعة حالهم ما لا يخفى لكن قال الإمام: إنه تعالى أضاف الرحمة إلى نفسه عز وجل دون العذاب ليؤذن بأن رحمته جل وعلا سبقت غضبه سبحانه، وأنت تعلم أن في الآية على هذا دلالة على سوء حالهم أيضاً لإفادتها أنهم حرموا تلك الرحمة العظيمة بما ارتكبوه من العظائم ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ بالنصب على أنه خبر كان واسمها قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾.

وقرأ الحسن: وسالم الأفطس بالرفع على العكس، وقد مر ما فيه في نظائره، والمراد بالقتل ما كان بسيف ونحوه فتظهر مقابلة الإحراق له، ولا حاجة إلى جعل أو بمعنى بل، والآمرون بذلك إما بعضهم لبعض أو كبرائهم قالوا لأتباعهم: اقتلوه فتستريحوا منه عاجلاً أو حرقوه بالنار فإما أن يرجع إلى دينكم إذا مضته النار وإما أن يموت بها إن أصر على قوله ودينه، وأياً ما كان ففيه إسناد ما للبعض إلى الكل، وجاء هنا الترديد بين قتله عليه السلام وإحراقه فقد يكون ذلك من قائلين ناس أشاروا بالقتل وناس بالإحراق، وفي اقترب قالوا حرقوه اقتصروا على أحد الشيئين وهو الذي فعلوه رموه عليه السلام في النار ولم يقتلوه ثم إنه ليس المراد أنهم لم يصدر عنهم بصدد الجواب عن حججه عليه السلام إلا هذه المقالة الشنيعة كما هو المتبادر من ظاهر النظم الكريم، بل إن ذلك هو الذي استقر عليه جوابهم بعد اللتيا والتي في المرة الأخيرة، وإلا فقد صدر عنهم من الخرافات والأباطيل ما لا يحصى ﴿فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾ الفاء فصيحة أي فألقوه في النار فأنجاه الله تعالى منها بأن جعلها سبحانه عليه برداً وسلاماً حسبما بين في مواضع أخر، وقد مر بيان كيفية إلقائه عليه السلام فيها وإنجائه تعالى إياه منها، وكان ذلك في كوثى من سواد الكوفة، وكونه في المكان المشهور اليوم من أرض الرها وعنده صورة المنجنيق وماء فيه سمك لا يصطاد ولا يؤكل حرمة له لا أصل له ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي في إنجائه عليه السلام منها ﴿لَآيَاتٍ﴾ بينة عجيبة وهي حفظه تعالى إياه من حرها وإخمادها في زمان يسير وإنشاء روض في مكانها.

وعن كعب أنه لم يحترق بالنار إلا الحبل الذي أوثقوه عليه السلام به، ولولا وقوع اسم الإشارة في أثناء القصة لكان الأولى كونه إشارة إلى ما تضمنته ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ خصهم بالذكر لأنهم المنتفعون بالفحص عنها، والتأمل فيها.

وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ
بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾
۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ
وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا
إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾
أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ
قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ

ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ
أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا
ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا
وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ
عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةً
لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَلَا
تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ
﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ
فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ
بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ
حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا
كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ
أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ
يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

﴿**وَقَالَ**﴾ إبراهيم عليه السلام مخاطباً لهم بعد أن أنجاه الله تعالى من النار.

﴿**إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ من دُون الله أوثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ في الحَياة الدُّنْيَا**﴾ أي لتتوادوا بينكم وتتواصلوا لاجتماعكم على عبادتها واتفاقكم عليها وائتلافكم كما يتفق الناس على مذهب فيكون ذلك سبب تحابهم وتصادقهم، فالمفعول له غاية مترتبة على الفعل ومعلول له في الخارج، أو المعنى إن مودة بعضكم بعضاً هي التي دعتكم إلى اتخاذها بأن رأيتم بعض من تودّونه اتخذها فاتخذتموها موافقة له لمودتكم إياه، وهذا كما يرى الإنسان من يوده يفعل شيئاً فيفعله مودّة له، فالمفعول له على هذا علة باعثة على الفعل وليس معلولاً له في الخارج، والمراد نفى أن يكون فيها نفع أو ضر وأن الداعي لاتخاذها رجاء النفع أو خوف الضر، وكأنه لم يعتبر ما جعلوه علة لاتخاذها علة وهو ما أشاروا إليه في قولهم: ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ [الزمر: ٣] للإشارة إلى أن ذلك لكونه أمراً موهوماً لا حقيقة له مما لا ينبغي أن يكون علة باعثة وسبباً حاملاً لمن له أدنى عقل.

وقال بعضهم: يجوز أن يكون المخاطبون في هذه الآية أناساً مخصوصين، والقائلون: ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ أناساً غيرهم، وقيل: إنّ الأوثان أول ما اتخذت بسبب المودة، وذلك أنه كان أناس صالحون فماتوا وأسف عليهم أهل زمانهم فصوروا أحجاراً بصورهم حباً لهم فكانوا يعظمونها في الجملة ولم يزل تعظيمها يزداد جيلاً

فجيلاً حتى عبدت، فالآية إشارة إلى ذلك، والمعنى إنما اتخذ أسلافكم من دون الله أوثاناً إلخ، ومثله في القرآن الكريم كثير، وثاني مفعولي اتخذتم محذوف تقديره آلهة.

وقال مكي: يجوز أن يكون اتخذ متعدياً إلى مفعول واحد كما في قوله تعالى: ﴿إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب﴾ [الأعراف: ١٥٢] ورد بأنه مما حذف مفعوله الثاني أيضاً، وجوز أن يكون مودة هو المفعول الثاني بتقدير مضاف أي ذات مودة وكونها ذات مودة باعتبار كونها سبب المودة، وظاهر كلام الكشاف أن المضاف المحذوف هو لفظ سبب، وقد يستغنى عن التقدير بتأويل مودة بمودودة، أو بجعلها نفس المودة مبالغة، واعترض جعل مودة المفعول الثاني بأنه معرفة بالإضافة إلى المضاف إلى الضمير والمفعول الأول نكرة وذلك غير جائز لأنهما في الأصل مبتدأ وخبر. وأجيب بأنه لا يلزم من غير جواز ذلك في أصلهما عدم جوازه فيهما، وإذا سلم اللزوم فلا يسلم كون المفعول الثاني هنا معرفة بالإضافة لما أنها على الاتساع فهي من قبيل الإضافة اللفظية التي لا تفيد تعريفاً وإنما تفيد تخفيفاً في اللفظ، كذا قيل: وهو كما ترى.

وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر «مودةً» بالنصب والتنوين بينكم بالنصب، والوجه أن مودة منصوب على أحد الوجهين السابقين و «بينكم» منصوب به أو بمحذوف وقع صفة له، وابن كثير وأبو عمرو والكسائي ورويس «مودة بينكم» برفع مودة مضافة إلى بين وخفض بين بالإضافة، وخرج الرفع على أن مودة خبر مبتدأ محذوف أي هي مودة على أحد التأويلات المعروفة؛ والجملة صفة أوثاناً، وجوز كونها المفعول الثاني أو على أنها خبر إن على أن ما مصدرية، أي إن اتخاذكم، أو موصولة قد حذف عائدها وهو المفعول الأول، أي إن الذي اتخذتموه من دون الله أوثاناً مودة بينكم، ويجري فيه التأويلات التي أشرنا إليها.

وقرأ الحسن وأبو حيوة وابن أبي عبلة وأبو عمرو في رواية الأصمعي والأعشى عن أبي بكر «مودة» بالرفع والتنوين «بينَكُم» بالنصب، ووجه كل معلوم مما مر. وروي عن عاصم «مودة» بالرفع من غير تنوين و «بينكم» بفتح النون، جعله مبنياً لإضافته إلى لازم البناء فمحله الجر بإضافة مودة إليه، ولذا سقط التنوين منها. وفي قوله تعالى: ﴿**في الحياة الدنيا**﴾ على هذه القراءات والأوجه فيها أوجه من الإعراب ذكرها أبو البقاء. الأول: أن يتعلق باتخذتم على جعل ما كافة ونصب مودة لا على جعلها موصولة أو مصدرية، ورفع مودة لئلا يؤدي إلى الفصل بين الموصول وما في حيز الصلة بالخبر. الثاني: أن يتعلق بنفس مودة إذا لم يجعل بين صفة لها بناء على أن المصدر إذا وصف لا يعمل مطلقاً، وأجاز ابن عطية هذا التعلق وإن جعل بين صفة لما أنه يتسع بالظرف ما لم يتسع في غيره، فيجوز عمل المصدر به بعد الوصف. الثالث: أن يتعلق بنفس بينكم لأن معناه اجتماعكم أو وصلكم. الرابع: أن يجعل حالاً من بينكم لتعرفه بالإضافة. وتعقب أبو حيان هذين الوجهين بعد نقلهما عن أبي البقاء كما ذكرنا بأنهما إعرابان لا يتعقلان. الخامس: أن يجعل صفة ثانية لمودة إذا نونت وجعل بينكم صفة لها، وأجاز ذلك مكي وأبو حيان أيضاً. السادس: أن يتعلق بمودة ويجعل بينكم ظرفاً متعلقاً بها أيضاً، وعمل مودة في ظرفين لاختلافهما. السابع: أن يجعل حالاً من الضمير في بينكم إذا جعل وصفاً لمودة والعامل الظرف لأن العامل في ذي الحال هو العامل في الحال، ولا يجوز أن يكون العامل مودة لذلك. وقال مكي: لأنك قد وصفتها ومعمول المصدر متصل به فيكون قد فرقت بين الصلة والموصول بالصفة. وعن ابن مسعود أنه قرأ «إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً إنما مودة بينكم في الحياة الدنيا» بزيادة «إنما» بعد أوثاناً ورفع «مودةُ» بلا تنوين وجر بين بالإضافة وخرجت على أن مودة مبتدأ وفي الحياة الدنيا خبره، والمعنى إنما توادكم عليها أو مودتكم إياها كائن أو كائنة في الحياة الدنيا ﴿**ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ**﴾ يتبدل الحال حيث ﴿**يَكْفُرُ بَعْضُكُم**﴾ وهم العبدة ﴿**بِبَعْضٍ**﴾

وهم الأوثان ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً﴾ أي يلعن كل فريق منكم ومن الأوثان حيث ينطقها الله تعالى الفريق الآخر، وفيه تغليب الخطاب وضمير العقلاء، وجوز أن يكون الخطاب للعبدة لا غير، والمراد بكفر بعضهم ببعض التناكر أي ثم يوم القيامة يظهر التناكر والتلاعن بينكم أيتها العبدة للأوثان.

﴿وَمَأْوَاكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي هي منزلكم الذي تأوون إليه ولا ترجعون منه أبداً.

﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ يخلصونكم منها كما خلصني ربي من النار التي ألقيتموني فيها، وجمع الناصرين لوقوعه في مقابلة الجمع، أي ما لأحد منكم من ناصر أصلاً ﴿فَأَمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ أي صدقه عليه السلام في جميع مقالاته أو بنبوته حين ادعاها لا أنه صدقه فيما دعا إليه من التوحيد ولم يكن كذلك•قبل، فإنه عليه السلام كان متنزهاً عن الكفر، وما قيل: إنه آمن له عليه السلام حين رأى النار لم تحرقه ضعيف رواية وكذا دراية، لأنه بظاهره يقتضي عدم إيمانه قبل وهو غير لائق به عليه السلام، وحمله بعضهم على نحو ما ذكرنا أو على أن يراد بالإيمان الرتبة العالية منها وهي التي لا يرتقي إليها إلا الأفراد، ولوط على ما في جامع الأصول ابن أخيه هاران بن تارح، وذكر بعضهم أنه ابن أخته بالتاء الفوقية ﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام: كما ذهب إليه قتادة والنخعي؛ وقيل: الضمير للوط عليه السلام وليس بشيء لما يلزم عليه من التفكيك، والجملة استئناف بياني كأنه قيل: فماذا كان منه عليه السلام؟ فقيل: قال ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾ أي من قومي ﴿إِلَى رَبِّي﴾ أي إلى الجهة التي أمرني ربي بالهجرة إليها، وقيل: إلى حيث لا أمنع عبادة ربي، وقيل: المعنى مهاجر من خالفني من قومي متقرباً إلى ربي ﴿إِنَّهُ﴾ عز وجل ﴿هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره فيمنعني من أعدائي ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل فعلاً إلا وفيه حكمة ومصلحة فلا يأمرني إلا بما فيه صلاحي.

روي أنه عليه السلام هاجر من كوثى من سواد الكوفة مع لوطاً وسارة ابنة عمه إلى حران، ثم منها إلى الشام فنزل قرية من أرض فلسطين، ونزل لوط سذوم وهي المؤتفكة على مسيرة يوم وليلة من قرية إبراهيم عليهما السلام، وكان عمره إذ ذاك على ما في الكشاف والبحر خمساً وسبعين سنة، وهو أول من هاجر في الله تعالى ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ولداً ونافلة حين أيس من عجوز عاقر، والجملة معطوفة على ما قبل ولا حاجة إلى عطفها على مقدر كأصلحنا أمره، ولم يذكر سبحانه إسماعيل عليه السلام، قيل لأن المقام مقام الامتنان وذكر الإحسان وذلك بإسحاق ويعقوب لما أشرنا إليه بخلاف إسماعيلُ وقيل لأنه لا يناسب ذكره هاهنا لأنه ابتلي بفراقه ووضعه بمكة مع أمه دون أنيس، وقال الزمخشري: إنه عليه السلام ذكر ضمناً وتلويحاً بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَابَ﴾ ولم يصرح به لشهرة أمره وعلو قدره، هذا مع أن المخاطب نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم وهو من أولاده وأعلم به، والمراد بالكتاب جنسه المتناول للكتب الأربعة ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ﴾ على ما عمل لنا ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ قال مجاهد: بإنجائه من النار ومن الملك الجبار والثناء الحسن عليه بحيث يتولاه كل أمة، وضم إلى ذلك ابن جريج الولد الذي قرت به عينه.

وقد يضم إلى ذلك أيضاً استمرار النبوة في ذريته، وقال السدي: إن ذلك إراءته عليه السلام مكانه من الجنة، وقال بعضهم: هو التوفيق لعمل الآخرة، وقيل: هو الصلاة عليه إلى آخر الدهر، وقال الماوردي: هو بقاء ضيافته عند قبره وليس ذلك لنبي غيره، ولا يخفى حال بعض هذه الأقوال، وذكر بعضهم أن المراد آتيناه أجره بمقابلة هجرته إلينا، وعليه لا يصح عد الإنجاء من النار من الأجر بل يعد إعطاء الولد والذرية الطيبة واستمرار النبوة فيهم ونحوه ذلك مما كان له عليه السلام بعد الهجرة من الأجر، وعطف هذا وما بعده من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّالِحِينَ﴾

أي لفي عداد الكاملين في الصلاح من التعميم بعد التخصيص، بأنه لما عدد ما أنعم به عليه من النعم الدينية والدنيوية قال سبحانه: وجمعنا له مع ما ذكر خير الدارين ﴿وَلُوطاً﴾ عطف على إبراهيم أو على نوحاً والكلام في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِه﴾ كالذي في القصة السابقة.

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَاحِشَةَ﴾ الفعلة البالغة في القبح، وقرأ الجمهور «أئنكم» على الاستفهام الإنكاري: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَد مِنَ ٱلْعَالَمِينَ﴾ استئناف مقرر لكمال قبحها، فإن إجماع جميع أفراد العالمين على التحاشي عنها ليس إلا لكونها مما تشمئز منه الطباع السليمة وتنفر منه النفوس الكريمة، وجوز أبو حيان كون الجملة حالاً من ضمير تأتون، كأنه قيل: إنكم لتأتون الفاحشة مبتدعين لها غير مسبوقين بها ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ أي تنكحونهم ﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي وتقطعون الطريق بسبب تكليف الغرباء والمارة تلك الفعلة القبيحة وإتيانهم كرهاً أو وتقطعون سبيل النسل بالإعراض عن الحرث وإتيان ما ليس بحرث، وقيل: تقطعون الطريق بالقتل وأخذ المال، وقيل: تقطعونه بقبح الأحدوثة ﴿وَتَأْتُونَ﴾ أي تفعلون ﴿فِي نَادِيكُمْ﴾ أي في مجلسكم الذي تجتمعون فيه، وهو اسم جنس إذ أنديتهم في مجالسهم كثيرة، ولا يسمى نادياً إلا إذا كان فيه أهله فإذا ناموا عنه لم يطلق عليه ناد ﴿ٱلْمُنْكَرَ﴾ أخرج أحمد والترمذي وحسنه، والحاكم وصححه والطبراني والبيهقي في الشعب وغيرهم عن أم هانىء بنت أبي طالب قالت: «سألت رسول الله ﷺ عن قول الله تعالى: ﴿وتأتون في ناديكم المنكر﴾ فقال: كانوا يجلسون بالطريق فيخذفون أبناء السبيل ويسخرون منهم، وعن مجاهد ومنصور والقاسم بن محمد وقتادة وابن زيد هو إتيان الرجال في مجالسهم يرى بعضهم بعضاً، وعن مجاهد أيضاً هو لعب الحمام وتطريف الأصابع بالحناء والصفير والخذف ونبذ الحياء في جميع أمورهم، وعن ابن عباس هو تضارطهم وتصافعهم فيها، وفي رواية أخرى عنه هو الخذف بالحصى والرمي وبالبنادق والفرقعة ومضغ العلك والسواك بين الناس وحل الإزار والسباب والفحش في المزاح ولم يأت في قصة لوط عليه السلام أنه دعا قومه إلى عبادة الله تعالى كما جاء في قصة إبراهيم وكذا في قصة شعيب الآتية لأن لوطاً كان من قوم إبراهيم وفي زمانه وقد سبقه إلى الدعاء لعبادة الله تعالى وتوحيده واشتهر أمره عند الخلق فذكر لوط عليه السلام ما اختص به من المنع من الفاحشة وغيرها، وأما إبراهيم وشعيب عليهما السلام فجاءا بعد انقراض من كان يعبد الله عز وجل ويدعو إليه سبحانه فلذلك دعا كل منهما قومه إلى عبادته تعالى كذا في البحر.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِه إِلاَّ أَنْ قَالُوا ٱئْتِنَا بِعَذَابِ الله إِنْ كُنْتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ﴾ أي فيما تعدنا من نزول العذاب على ما في الكشاف وغيره، وهذا ظاهر في أنه عليه السلام كان أوعدهم بالعذاب، وقيل: أي في دعوى استحقاقنا العذاب على ما نحن عليه المفهومة من التوبيخ المعلوم من الاستفهام الإنكاري، وقيل: أي في دعوى استقباح ذلك الناطق بها كلامك وهذا الجواب صدر عنهم في المرة الأولى من مرات مواعظ لوط عليه السلام، وما في سورة الأعراف المذكور في قوله تعالى: ﴿وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم﴾ [الأعراف: ٨٢] الآية وما في سورة النمل المذكور في قوله تعالى: ﴿فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم﴾ [النمل: ٥٦] الآية فقد صدر عنهم بعد هذه المرة فلا منافاة بين الحصر هنا والحصر هناك، قاله أبو حيان وتبعه أبو السعود. وتعقب بأن هذا التعيين يحتاج إلى توقيف. وأجيب بأن مضموني الجوابين يشعران بالتقدم والتأخر، وذلك أن ﴿ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين﴾ من باب التكذيب والسخرية وهو أوفق بأوائل المواعظ والتوبيخات و ﴿أخرجوهم من قريتكم﴾ ونحوه من باب التعذيب والانتقام، وهو أنسب بأن يكون بعد تكرر الوعظ والتوبيخ الموجب لضجرهم ومزيد تألمهم مع قدرتهم على التشفي، وهذا القدر يكفي لدعوى التقدم والتأخر، وقيل

في دفع المنافاة بين الحصرين: إن ما هنا جواب قومه عليه السلام له إذ نصحهم، وما هناك جواب بعضهم لبعض إذ تشاوروا في أمره، وقيل: إن أحد الجوابين صدر عن كبار قومه وأمرائهم والآخر صدر عن غيرهم، وظاهر صنيع بعض الأجلة يقتضي اختيار أن يكون كل من الحصرين بالإضافة إلى الجواب الذي يرجوه عليه السلام في متابعته فتأمل.

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي﴾ أي بإنزال العذاب الموعود ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ بابتداع الفاحشة وسنها فيما بعدهم والإصرار عليها واستعجال العذاب بطريق السخرية، وإنما وصفهم بذلك مبالغة في استنزال العذاب ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾ أي البشارة بالولد والنافلة ﴿قَالُوا﴾ أي لإبراهيم عليه السلام في تضاعيف الكلام ﴿إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ أي قرية سذوم وهي أكبر قرى قوم لوط وفيها نشأت الفاحشة أولاً على ما قيل، ولذا خصت بالذكر، وفي الإشارة بهذه إشارة إلى أنها كانت قريبة من محل إبراهيم عليه السلام وإضافة ﴿مهلكو﴾ إلى ﴿أهل﴾ لفظية لأن المعنى على الاستقبال، وجوز كونها معنوية لتنزيل ذلك منزلة الماضي لقصد التحقيق والمبالغة ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ تعليل للإهلاك بإصرارهم على الظلم وتماديهم في فنون الفساد وأنواع المعاصي، والتأكيد في الموضعين للاعتناء بشأن الخبر وقال سبحانه: ﴿إن أهلها﴾ دون إنهم مع أنه أظهر وأخصر تنصيصاً على اتفاقهم على الفساد كما اختاره الخفاجي.

وقال بعض المدققين: إن ذلك للدلالة على أن منشأ فساد جبلتهم خبث طينتهم، ففيه إشارة خفية إلى أن المراد من أهل القرية من نشأ فيها فلا يتناول لوطاً عليه السلام، واعترض بأنه يبعد كل البعد خفاؤها لو كانت على إبراهيم عليه السلام كما هو ظاهر قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً﴾ وقيل: يجوز أن يكون عليه السلام علم ما أشاروا إليه من عدم تناول أهل القرية إياه لكنه أراد التنصيص على حاله ليطمئن قلبه لكمال شفقته عليه، وقيل: أراد أن يعلم هل يبقى في القرية عند إهلاكهم أو يخرج منها ثم يهلكون، وكأن في قوله: ﴿إن فيها﴾ دون إن منهم إشارة إلى ذلك، وأفهم كلام بعض المحققين أن قوله: ﴿إن فيها لوطاً﴾ اعتراض على الرسل عليهم السلام بأن في القرية من لم يظلم بناء على أن المتبادر من إضافة الأهل إليها العموم، وحمل الأهل على من سكن فيها وإن لم يكن تولده بها، أو معارضة للموجب للهلاك وهو الظلم بالمانع وهو أن لوطاً بين ظهرانيهم وهو لم يتصف بصفتهم، وأن جواب الرسل المحكي بقوله تعالى: ﴿قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ تسليم لقوله عليه السلام في لوط مع ادعاء مزيد العلم به باعتبار الكيفية وأنهم ما كانوا غافلين عنه، وجواب عنه بتخصيص الأهل بمن عداه وأهله على الاعتراض، أو بيان وقت إهلاكهم بوقت لا يكون لوط وأهله بين ظهرانيهم على المعارضة، وفيه ما يدل على جواز تأخير البيان عن الخطاب في الجملة، والذي يغلب على الظن أنهم أرادوا بأهل القرية من نشأ بها على ما هو المتعارف فلا يكون لوط عليه السلام داخلاً في الأهل، ويؤيد ذلك تأييداً ما قول قومه ﴿أخرجوا آل لوط من قريتكم﴾ وفهم إبراهيم عليه السلام ما أرادوه وعلم أن لوطاً ليس من المهلكين إلا أنه خشي أن يكون هلاك قومه وهو بين ظهرانيهم في القرية فيوحشه ذلك ويفزعه.

ولعله عليه السلام غلب على ظنه ذلك حيث لم يتعرضوا لإخراجه من قرية المهلكين مع علمهم بقرابته منه ومزيد شفقته عليه فقال: ﴿إن فيها لوطاً﴾ على سبيل التحزن والتفجع كما في قوله تعالى: ﴿إني وضعتها أنثى﴾ [آل‌عمران: ٣٦] وجل قصده ان لا يكون فيها حين الإهلاك فأخبروه أولاً بمزيد علمهم به وأفادوه ثانياً بما يسره ويسكن جأشه نظير ما في قوله تعالى: ﴿والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى﴾ [آل عمران: ٣٦] وأكدوا الوعد بالتنجية إما للإشارة إلى مزيد اعتنائهم بشأنه وإما لتنزيلهم إبراهيم عليه السلام منزلة من ينكر تنجيته لما شاهدوا منه في

حقه، وتحمل التنجية على إخراجه من بين القوم وفصله عنهم وحفظه مما يصيبهم فإنها بهذا المعنى الفرد الأكمل، ويلائم هذا ما قيل في قوله تعالى: ﴿إِلاَّ آمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ آلْغَابِرِينَ﴾ أي من الباقين في القرية وهو أحد تفسيرين، ثانيهما ما روي عن قتادة وهو تفسيره الغابرين بالباقين في العذاب فتأمل، فكلام الله تعالى ذو وجوه، وفسر الأهل هنا بأتباع لوط عليه السلام المؤمنين، وجملة ﴿كانت من الغابرين﴾ مستأنفة وقد مر الكلام في ذلك وكذا في الاستثناء فارجع إليه ﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا﴾ المذكورون بعد مفارقتهم إبراهيم عليه السلام ﴿لُوطاً سيء بهمْ﴾ أي اعتراه المساءة والغم بسبب الرسل مخافة أن يتعرض لهم قومه بسوء كما هو عادتهم مع الغرباء، وقد جاؤوا إليه عليه السلام بصور حسنة إنسانية.

وقيل: ضمير ﴿بهم﴾ للقوم أي سيء بقومه لما علم من عظيم البلاء النازل بهم، وكذا ضمير ﴿بهم﴾ الآتي وليس بشيء، و ﴿أن﴾ مزيدة لتأكيد الكلام التي زيدت فيه فتؤكد الفعلين واتصالهما المستفاد من لما حتى كأنهما وجدا في جزء واحد من الزمان فكأنه قيل: لما أحس بمجيئهم فاجأته المساءة من غير ريث.

﴿وَضَاقَ بهمْ ذَرْعاً﴾ أي وضاق بشأنهم وتدبير أمرهم ذرعه أي طاقته كقولهم: ضاقت يده، ويقابله رحب ذرعه بكذا إذا كان مطيقاً له قادراً عليه، وذلك أن طويل الذراع ينال ما لا يناله قصير الذراع.

﴿وَقَالُوا لاَ تَخَفْ وَلاَ تَحْزَنْ﴾ عطف على سيء، وجوز أن يكون عطفاً على مقدر أي قالوا: ﴿إنا رسل ربك﴾ [هود: ٨١] وقالوا إلخ، وأياً ما كان فالقول كان بعد أن شاهدوا فيه مخايل التضجر من جهتهم وعاينوا أنه عليه السلام قد عجز عن مدافعة قومه حتى آلت به الحال إلى أن قال: ﴿لولا أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد﴾ [هود: ٨٠] والخوف للمتوقع والحزن للواقع في الأكثر، وعليه فالمعنى لا تخف من تمكنهم منا ولا تحزن على قصدهم إيانا وعدم اكترائهم بك، ونهيهم عن الخوف من التمكن إن كان قبل إعلامهم إياه أنهم رسل الله تعالى فظاهر، وإن كان بعد الإعلام فهو لتأنيسه وتأكيد ما أخبروه به.

وقال الطبرسي: المعنى لا تخف علينا وعليك ولا تحزن بما نفعله بقومك ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾ فلا يصيبكم ما يصيبهم من العذاب ﴿إِلاَّ آمْرَأَتَكَ﴾ إنها ﴿كَانَتْ﴾ في علم الله تعالى ﴿مِنَ آلْغَابِرِينَ﴾ وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب «لننجينه» و «منجوك» بالتخفيف من الإنجاء، ووافقهم ابن كثير في الثاني.

وقرأ الجمهور بشد نون التوكيد، وفرقة بتخفيفها، وأياً ما كان فمحل الكاف من منجوك الجر بالإضافة ولذا حذفت النون عند سيبويه و «أهلَك» منصوب على إضمار فعل أي وننجي أهلك، وذهب الأخفش وهشام إلى أن الكاف في محل النصب وأهلك معطوف عليه وحذفت النون لشدة طلب الضمير الاتصال بما قبله للإضافة، وقال بعض الأجلة: لا مانع من أن يكون لمثل هذا الكاف محلان الجر والنصب ويجوز العطف عليها بالاعتبارين، وقرأ نافع وابن كثير والكسائي «سيء» بإشمام السين الضم، وقرأ عيسى وطلحة «سُوء» بضمها وهي لغة بني هذيل وبني دبير يقولون في نحو قيل وبيع قول وبوع وعليه قوله:

حوكت على نولين إذ تحاك ... تختبط الشوك ولا تشاك

﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذه آلْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ آلسَّمَاءِ﴾ استئناف مسوق لبيان ما أشير إليه بوعد التنجية من نزول العذاب عليهم، والرجز العذاب الذي يقلق المعذب أي يزعجه من قولهم: ارتجز إذا ارتجس واضطرب وقرأ ابن عامر «منزِّلون» بالتشديد. وابن محيصن «رُجزاً» بضم الراء ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي بسبب فسقهم المعهود المستمر،

وقرأ أبو حيوة والأعمش بكسر السين ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا﴾ أي من القرية على ما عليه الأكثر ﴿آيَةً بَيِّنَةً﴾ قال ابن عباس: هي آثار ديارها الخربة، وقال مجاهد: هي الماء الأسود على وجه الأرض، وقال قتادة: هي الحجارة التي أمطرت عليهم وقد أدركتها أوائل هذه الأمة، وقال أبو سليمان الدمشقي: هي أن أساسها أعلاها وسقوفها أسفلها إلى الآن؛ وأنكر ذوو الأبصار ذلك، وقال الفراء: المعنى تركناها آية كما يقال: إن في السماء آية ويراد أنها آية. وتعقبه أبو حيان بأنه لا يتجه إلا على زيادة ﴿من﴾ في الواجب نحو قوله:

أمـــرهـــت مـــنـــهـــا جـــبـــة وتـــيـــســـا

يريد أمهرتها. وقال بعضهم: إن ذلك نظير قولك: رأيت منه أسداً، وقيل: الآية حكايتها العجيبة الشائعة، وقيل: ضمير ﴿منها﴾ للفعلة التي فعلت بهم والآية الحجارة، أو الماء الأسود والظاهر ما عليه الأكثر.

ولا يخفى معنى ﴿من﴾ على هذه الأقوال ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي يستعملون عقولهم في الاستبصار والاعتبار، فالفعل منزل منزلة اللازم و ﴿لقوم﴾ متعلق بتركنا أو ببينة، واستظهر الثاني هذا، وفي الآيات من الدلالة على ذم اللواطة وقبحها ما لا يخفى، فهي كبيرة بالإجماع، ونصوا على أنها أشد حرمة من الزنا. وفي شرح المشارق للأكمل أنها محرمة عقلاً وشرعاً وطبعاً، وعدم وجوب الحد فيها عند الإمام أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه لعدم الدليل عنده على ذلك لا لخفتها، وقال بعض العلماء: إن عدم وجوب الحد للتغليظ لأن الحد مطهر، وفي جواز وقوعها في الجنة خلاف، ففي الفتح قيل: إن كانت حرمتها عقلاً وسمعاً لا تكون في الجنة وإن كانت سمعاً فقط جاز أن تكون فيها والصحيح أنها لا تكون لأن الله تعالى استبعدها واستقبحها فقال سبحانه: ﴿إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ [العنكبوت: ٢٨] وسماها خبيثة فقال عز وجل ﴿كانت تعمل الخبائث﴾ [الأنبياء: ٧٤] والجنة منزهة عنها. وتعقب هذا الحموي بأنه لا يلزم من كون الشيء خبيثاً في الدنيا أن لا يكون له وجود في الجنة ألا ترى أن الخمر أم الخبائث في الدنيا ولها وجود في الجنة، وفيه بحث، لأن خبث الخمر في الدنيا لإزالتها العقل الذي هو عقال عن كل قبيح وهذا الوصف لا يبقى لها في الجنة ولا كذلك اللواطة. وفي الفتوحات المكية في صفة أهل الجنة أنهم لا أدبار لهم لأن الدبر إنما خلق في الدنيا لخروج الغائط وليست الجنة محلاً للقاذورات، وعليه فعدم وجودها في الجنة ظاهر، ولا أظن ذا غيرة صادقة تسمح نفسه أن يلاط به في الجنة سراً أو علناً، وجواز وقوعها فيها قد ينجر إلى أن تسمح نفسه بذلك أو يجبر عليه وذلك إذا اشتهى أحد أن يلوط به إذ لا بد من حصول ما يشتهيه، وهذا وإن لم يكن قطعياً في عدم وقوع اللواطة مطلقاً في الجنة إلا أنه يقوي القول بعدم الوقوع فتأمل ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ﴾ متعلق بأرسلنا مقدر معطوف على أرسلنا في قصة نوح أي وأرسلنا إلى مدين ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ﴾ لهم ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ﴾ وحده ﴿وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ﴾ أي توقعوه وما سيقع فيه من فنون الأهوال وافعلوا اليوم من الأعمال ما تأمنون به غائلته، أو الأمر بالرجاء أمر بفعل ما يترتب عليه الرجاء إقامة المسبب مقام السبب، وفي الكلام مضاف مقدر فالمعنى افعلوا ما ترجون به ثواب اليوم الآخر، وجوز أن لا يقدر مضاف، وإرادة الثواب من إطلاق الزمان على ما فيه، وقيل: الأمر برجاء الثواب أمر بسببه اقتضاء بلا تجوز فيه بعلاقة السببية.

وقال أبو عبيدة: الرجاء هنا بمعنى الخوف والمعنى وخافوا جزاء اليوم الآخر من انتقام الله تعالى منكم إن لم تعبدوه ﴿وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ حال مؤكدة لأن العثو الفساد ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فيما تضمنه كلامه من أنهم إن لم يمتثلوا أمره ونهيه وقع بهم العذاب وإليه ذهب أبو حيان، وقيل: من أنه تعالى مستحق لأن يعبد وحده سبحانه وأن اليوم الآخر متحقق الوقوع أو نحو ذلك ﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾ بسبب تكذيبهم إياه ﴿الرَّجْفَةُ﴾ أي الزلزلة الشديدة وفي سورة

هود ﴿وأخذت الذين ظلموا الصيحة﴾ [هود: ٩٤] أي صيحة جبريل عليه السلام فإنها الموجبة للرجفة بسبب تمويجها للهواء وما يجاورها من الأرض، وفسر مجاهد الرجفة هنا بالصيحة، فقيل: لذلك؛ وقيل: لأنها رجفت منها القلوب ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ﴾ أي بلدهم فإن الدار تطلق على البلد، ولذا قيل: للمدينة دار الهجرة أو المراد مساكنهم وأقيم فيه الواحد مقام الجمع لأمن اللبس لأنهم لا يكونون في دار واحدة؛ ولعل فيه إشارة إلى أن الرجفة خربت مساكنهم وهدمت ما بينها من الجدران فصارت كمسكن واحد ﴿جَاثِمِينَ﴾ أي باركين على الركب، والمراد ميتين على ما روي عن قتادة.

وفي مفردات الراغب هو استعارة للمقيمين من قولهم: جثم الطائر إذا قعد ولطىء بالأرض ويرجع هذا إلى ميتين أيضاً ﴿وَعَاداً وَثَمُودَ﴾ منصوبان بإضمار فعل ينبىء عنه ما قبله من قوله تعالى: ﴿فأخذتهم الرجفة﴾ أي وأهلكنا عاداً وثمود، وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ﴾ عطف على ذلك المضمر أي وقد ظهر لكم أتم ظهور إهلاكنا إياهم من جهة مساكنهم أو بسببها. وذلك بالنظر إليها عند اجتيازكم بها ذهاباً إلى الشام وإياباً منه، وجوز كون ﴿من﴾ تبعيضية، وقيل: هما منصوبان بإضمار اذكروا أي واذكروا عاداً وثمود.

والمراد ذكر قصتهما أو بإضمار اذكر خطاباً له صلى الله تعالى عليه وسلم، وجملة ﴿قد تبين﴾ حيالية، وقيل: هي بتقدير القول أي وقل: قد تبين، وجوز أن تكون معطوفة على جملة واقعة في حيز القول أي اذكر عاداً وثمود قائلاً قد مررتم على مساكنهم وقد تبين لكم إلخ، وفاعل تبين الإهلاك الدال عليه الكلام أو مساكنهم على أن ﴿من﴾ زائدة في الواجب ، ويؤيده قراءة الأعمش «مساكنهم» بالرفع من غير من، وكون ﴿من﴾ هي الفاعل على أنها اسم بمعنى بعض مما لا يخفى حاله.

وقيل: هما منصوبان بالعطف على الضمير في ﴿فأخذتهم الرجفة﴾ والمعنى يأباه، وقال الكسائي: منصوبان بالعطف على الذين من قوله تعالى: ﴿ولقد فتنا الذين من قبلهم﴾ وهو كما ترى، والزمخشري لم يذكر في ناصبهما سوى ما ذكرناه أولاً وهو الذي ينبغي أن يعول عليه. وقرأ أكثر السبعة «وثموداً» بالتنوين بتأويل الحي، وهو على قراءة ترك التنوين بتأويل القبيلة، وقرأ ابن وثاب «وعاد وثمود» بالخفض فيهما والتنوين عطفاً على مدين على ما في البحر أي وأرسلنا إلى عاد وثمود ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ بوسوسته وإغوائه ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ القبيحة من الكفر والمعاصي ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي الطريق المعهود وهو السوى الموصل إلى الحق، وحمله على الاستغراق حصراً له في الموصل إلى النجاة تكلف ﴿وَكَانُوا﴾ أي عاد وثمود لا أهل مكة كما توهم: ﴿مُسْتَبْصِرِينَ﴾ أي عقلاء يمكنهم التمييز بين الحق والباطل بالاستدلال والنظر ولكنهم أغفلوا ولم يتدبروا وقيل: عقلاء يعلمون الحق ولكنهم كفروا عناداً وجحوداً، وقيل: متبينين أن العذاب لاحق بهم بإخبار الرسل عليهم السلام لهم ولكنهم لجوا حتى لقوا ما لقوا.

وعن قتادة والكلبي كما في مجمع البيان أن المعنى كانوا مستبصرين عند أنفسهم فيما كانوا عليه من الضلالة يحسبون أنهم على هدى وأخرج ابن المنذر وجماعة عن قتادة أنه قال: أي معجبين بضلالتهم وهو تفسير بحاصل ما ذكر، وهو مروي كما في البحر عن ابن عباس ومجاهد، والضحاك، والجملة في موضع الحال بتقدير قد أو بدونها ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ﴾ معطوف على عاداً، وتقديم قارون لأن المقصود تسلية النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فيما لقي من قومه لحسدهم له، وقارون كان من قوم موسى عليه السلام وقد لقي منه ما لقي، أو لأن حاله أوفق بحال عاد وثمود فإنه كان من أبصر الناس وأعلمهم بالتوراة ولم يفده الاستبصار شيئاً كما لم يفدهم كونهم مستبصرين شيئاً،

أو لأن هلاكه كان قبل هلاك فرعون وهامان فتقديمه على وفق الواقع، أو لأنه أشرف من فرعون وهامان لإيمانه في الظاهر وعلمه بالتوراة وكونه ذا قرابة من موسى عليه السلام، ويكون في تقديمه لذلك في مقام الغضب إشارة إلى أن نحو هذا الشرف لا يفيد شيئاً ولا ينقذ من غضب الله تعالى على الكفر ﴿وَلَقَدْ جَاءهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عن الايمان والطاعة ﴿فِي ٱلأَرْضِ﴾ إشارة إلى قلة عقولهم لأن من في الأرض لا ينبغي له أن يستكبر.

﴿وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ أي فائتين أمر الله تعالى، من قولهم: سبق طالبه أي فاته ولم يدركه، ولقد أدركهم أمره تعالى أي إدراك فتداركوا نحو الدمار والهلاك، وقال أبو حيان: المعنى وما كانوا سابقين الأمم إلى الكفر أي تلك عادة الأمم مع رسلهم عليهم السلام، وليس بذاك وأياً ما كان فالظاهر أن ضمير كانوا لقارون وفرعون وهامان، وقيل: الجملة عطف على أهلكنا المقدر سابقاً وضمير ـ كانوا ـ لجميع المهلكين، وفيه تبر للنظم الجليل ﴿فَكُلاً أَخَذْنَا بِذَنْبِه﴾ هذا وما بعده كالفذلكة للآيات المتضمنة تعذيب من كفر ولم يمتثل أمر من أرسل إليه، وقال أبو السعود: هذا تفسير لما ينبىء عنه عدم سبقهم بطريق الإبهام وما بعده تفصيل للأخذ، وفي القلب منه شيء. وكأنه اعتبر رجوع ضمير ـ كانوا ـ إلى المهلكين، وقد علمت حاله وتقديم المفعول للاهتمام بأمر الاستيعاب والاستغراق، وقال الفاضل: المذكور للحصر أي كل واحد من المذكورين عاقبناه بجنايته لا بعضاً دون بعض، وبحث فيه بأن كلاً متكفلة بهذا المعنى قدمت أو أخرت، وأجيب بأنا لا نسلم أنه يفهم منها لا بعضاً إذا أخرت وإنما يفهم منها بواسطة التقديم فتأمل، والكلام في مرجع ضمير بذنبه سؤالاً وجواباً لا يخفى على من أحاط علماً بما قيل في قولهم: كل رجل وضيعته. وقولهم: الترتيب جعل كل شيء في مرتبته، وهو شهير بين الطلبة ﴿فمنهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْه حَاصباً﴾ أي ريحاً عاصفاً فيها حصباء، وقيل: ملكاً رماهم بالحصباء وهم قوم لوط.

وقال ابن عطية: يشبه أن يدخل عاد في ذلك لأن ما أهلكوا به من الريح كانت شديدة وهي لا تخلو عن الحصب بأمور مؤذية، والحاصب هو العارض من ريح أو سحاب إذا رمي بشيء ﴿وَمنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْه الصَّيْحَةُ﴾ هم مدين وثمود ولم يقل أخذناه بالصيحة ليوافق ما قبله وما بعده في إسناد الفعل إليه تعالى الأوفق بقوله تعالى: ﴿فكلاً أخذنا بذنبه﴾ دفعاً لتوهم أن يكون سبحانه هو الصائح ﴿وَمنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا به الأَرْضَ﴾ وهو قارون ﴿وَمنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾ وهو فرعون ومن معه، وذكر بعضهم قوم نوح عليه السلام أيضاً. واعترض بأنهم ليسوا من المذكورين، وتعقب بأنهم أول المذكورين في هذه السورة من الأمم السالفة؛ ولعل المعترض أراد بالمذكورين المذكورين متناسقين أي بلا فصل بأمة لم تفد قصتها إهلاكها، وقوم نوح وإن ذكروا أولاً لكن فصل بينهم وبين نظائرهم من المهلكين بقصة قوم إبراهيم عليه السلام وهي لم تفد أنهم أهلكوا، وذكر النيسابوري أنه سبحانه قرر بقوله تعالى: ﴿فكلاً﴾ إلخ أمر المذنبين بإجمال آخر يفيد أنهم عذبوا بالعناصر الأربعة فجعل ما منه تركيبهم سبباً لعدمهم وما منه بقاؤهم سبباً لفنائهم، فالحاصب وهو حجارة محماة تقع على كل واحد منهم فتنفذ من الجانب الآخر إشارة إلى التعذيب بعنصر النار، والصيحة وهي تموج شديد في الهواء إشارة إلى التعذيب بعنصر الهواء، والخسف إشارة إلى التعذيب بعنصر التراب، والغرق إشارة إلى التعذيب بعنصر الماء ا هـ ولا يخفى ما فيه ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ ليَظْلمَهُمْ﴾ أي ما كان سبحانه مريداً لظلمهم وذلك بأن يعاقبهم من غير جرم لأنه خلاف ما تقتضيه الحكمة. وفي أنوار التنزيل أي ما كان سبحانه ليعاملهم معاملة الظالم فيعاقبهم بغير جرم إذ ليس ذلك من سنته عز وجل، ويفيد ذلك أنه لو وقع منه تعالى تعذيبهم من غير جرم لا يكون ظلماً لأنه تعالى مالك الملك يتصرف به كما يشاء فله أن يثيب العاصي ويعذب المطيع، وهذا أمر مشهور بين الأشاعرة والكلام في تحقيقه يطلب من علم الكلام. وقد أسلفنا في تفسير قوله تعالى:

﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾ [الأنبياء: ٢٣] ما ينفعك في هذا المقام تذكره فتذكر ﴿**وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾ بالاستمرار على مباشرة ما يوجب ذلك من الكفر والمعاصي باختيارهم، وقال مولانا الشيخ إبراهيم الكوراني ما حاصله: إن ظلم الكفرة أنفسهم إنما هو لسوء استعدادهم الذي هم عليه في نفس الأمر من غير مدخل للجعل فيه وبلسان ذلك الاستعداد طلبوا من الجواد المطلق جل وعلا ما صار سبباً لظهور شقائهم ا هـ، والبحث في ذلك طويل الذيل فليطلب من محله، وتقديم المعمول لرعاية رؤوس الآي ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ**﴾ استئناف متضمن تقبيح حال أولئك المهلكين الظالمين لأنفسهم وأضرابهم ممن تولى غير الله عز وجل، وفيه إشارة إلى أعظم أنواع ظلمهم فالمراد بالموصول جميع المشركين الذين عبدوا من دون الله عز وجل الأوثان.

وجوز أن يكون جميع من اتخذ غيره تعالى متكلاً ومعتمداً آلهة كان ذلك أو غيرها، ولذا عدل إلى أولياء من آلهة أي صفتهم أو شبههم ﴿**كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ**﴾ أي كصفتها أو شبهها.

﴿**اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ**﴾ بيان لصفة العنكبوت التي يدور عليها أمر التشبيه، والجملة على ما نقل عن الأخفش من لزوم الوقف على العنكبوت مستأنفة لذلك ﴿**وإن أوهن البيوت**﴾ إلخ في موضع الحال من فاعل اتخذت المستكن فيه، وجوز كونه في موضع الحال من مفعوله بناء على جواز مجيء الحال من النكرة، وعلى الوجهين وضع المظهر موضع الضمير الراجع إلى ذي الحال، والجملة من تتمة الوصف. واللام في البيوت للاستغراق، والمعنى مثل المتخذين لهم من دون الله تعالى أولياء في اتخاذهم إياهم كمثل العنكبوت وذلك أنها اتخذت لها بيتاً والحال أن أوهن كل البيوت وأضعفها بيتها، وهؤلاء اتخذوا لهم من دون الله تعالى أولياء والحال أن أوهن كل الأولياء وأضعفها أولياؤهم، وإن شئت فقل: إنها اتخذت بيتاً في غاية الضعف وهؤلاء اتخذوا لها أو متكلاً في غاية الضعف فهم وهي مشتركان في اتخاذ ما هو في غاية الضعف في بابه، ويجوز أن تكون جملة اتخذت حالاً من العنكبوت بتقدير قد أو بدونها أو صفة لها لأن أل فيها للجنس، وقد جوزوا الوجهين في الجمل الواقعة بعد المعرف بأل الجنسية نحو قوله تعالى: ﴿كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾ [الجمعة: ٥] وعن الفراء أن الجملة صلة لموصول محذوف وقع صفة ﴿**العنكبوت**﴾ أي التي اتخذت، وخرج الآية التي ذكرناها على هذا واختار حذف الموصول في مثله ابن درستويه، وعليه لا يوقف على العنكبوت، وأنت تعلم أن كون الجملة صفة أظهر. والمعنى حينئذ مثل المشرك الذي عبد الوثن بالقياس إلى الموحد الذي عبد الله تعالى كمثل عنكبوت اتخذت بيتاً بالإضافة إلى رجل بنى بيتاً بآجر وجص أو نحته من صخر وكما أن أوهن البيوت إذا استقريتها بيتاً بيتاً بيت العنكبوت كذلك أضعف الأديان إذا استقريتها ديناً ديناً عبادة الأوثان، وهو وجه حسن ذكره الزمخشري في الآية، وقد اعتبر فيه تفريق التشبيه، والغرض إبراز تفاوت المتخذين والمتخذ مع تصوير توهين أمر أحدهما وإدماج توطيد الآخر، وعليه يجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿**وإن أوهن البيوت**﴾ جملة حالية لأنه من تتمة التشبيه، وإن يكون اعتراضية لأنه لو لم يؤت به لكان في ضمنه ما يرشد إلى هذا المعنى وإلى كونه جملة حالية ذهب الطيبي.

وقال صاحب الكشف: كلام الزمخشري إلى كونه اعتراضية أقرب لأن قوله: وكما أن أوهن البيوت إلخ ليس فيه إيماء إلى تقييد الأول، وقد تعقب أبو حيان هذا الوجه بأنه لا يدل عليه لفظ الآية، وإنما هو تحميل اللفظ ما لا يحتمله كعادته في كثير من تفسيره، وهذه مجازفة على صاحب الكشاف كما لا يخفى، ويجوز أن يكون المعنى مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء فيما اتخذوه معتمداً ومتكلاً في دينهم وتولوه من دون الله تعالى كمثل العنكبوت فيما نسجته واتخذنه بيتاً، والتشبيه على هذا من المركب فيعتبر في جانب المشبه اتخاذ ومتخذ واتكال عليه، وكذلك في

الجانب الآخر ما يناسبه ويعتبر تشبيه الهيئة المنتزعة من ذلك كله بالهيئة المنتزعة من هذا بالأسر، والغرض تقرير وهن أمر دينهم وأنه بلغ الغاية التي لا غاية بعدها، ومدار قطب التشبيه أن أولياءهم بمنزلة منسوج العنكبوت ضعف حال وعدم صلوح اعتماد، وعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿**إن أوهن البيوت**﴾ تذييلاً يقرر الغرض من التشبيه.

وجوز أن يكون المعنى والغرض من التشبيه ما سمعت إلا أنه يجعل التذييل استعارة تمثيلية ويكون ما تقدم كالتوطئة لها، فكأنه قيل: وإن أوهن ما يعتمد عليه في الدين عبارة الأوثان، وهي تقرر الغرض من التشبيه بتبعية تقرير المشبه، وكأن التقرير في الوجه السابق بتبعية تقرير المشبه به، وهذا قريب من تجريد الاستعارة وترشيحها، ونظير ذلك قولك: زيد في الكرم بحر والبحر لا يخيب من أتاه إذا كان البحر الثاني مستعاراً للكريم، وذكر الطرفين إنما يمنع من كونه استعارة لو كان في جملته، ورجح السابق لأن عادة البلغاء تقرير أمر المشبه به ليدل به على تقرير المشبه، ولأن هذا إنما يتميز عن الألغاز بعد سبق التشبيه.

وجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿**مثل الذين**﴾ إلخ كالمقدمة الأولى، وقوله سبحانه: ﴿**وإن أوهن البيوت**﴾ كالثانية وما هو كالنتيجة محذوف مدلول عليه بما بعد كما في الكشف، والمجموع يدل على المراد من تقرير وهن أمر دينهم وأنه بلغ الغاية التي لا غاية بعدها على سبيل الكناية الإيمائية فتأمل، والظاهر أن المراد بالعنكبوت النوع الذي ينسج بيته في الهواء ويصيد به الذباب لا النوع الآخر الذي يحفر بيته في الأرض ويخرج في الليل كسائر الهوام، وهي على ما ذكره غير واحد من ذوات السموم فيسن قتلها لذلك، لا لما أخرج أبو داود في مراسيله عن يزيد بن مرثد من قوله ﷺ: «العنكبوت شيطان مسخها الله تعالى فمن وجدها فليقتلها» فإنه كما ذكر الدميري ضعيف.

وقيل: لا يسن قتلها فقد أخرج الخطيب عن علي كرّم الله تعالى وجهه قال: «قال رسول الله ﷺ دخلت أنا وأبو بكر الغار فاجتمعت العنكبوت فنسجت بالباب فلا تقتلوهن» ذكر هذا الخبر الجلال السيوطي في الدر المنثور، والله تعالى أعلم بصحته وكونه مما يصلح للاحتجاج به، ونصوا على طهارة بيتها لعدم تحقق كون ما تنسج به من غذائها المستحيل في جوفها مع أن الأصل في الأشياء الطهارة، وذكر الدميري أن ذلك لا تخرجه من جوفها بل من خارج جلدها، وفي هذا بعد. وأنا لم أتحقق أمر ذلك ولم أعين كونه من فمها أو دبرها أو خارج جلدها لعدم الاعتناء بشأن ذلك لا لعدم إمكان الوقوف على الحقيقة ، وذكر أنه يحسن إزالة بيتها من البيوت لما أسند الثعلبي وابن عطية وغيرهما عن علي كرّم الله تعالى وجهه أنه قال: «طهروا بيوتكم من نسج العنكبوت فإن تركه في البيوت يورث الفقر» وهذا إن صح عن الإمام علي كرّم الله تعالى وجهه فذاك، وإلا فحسن الإزالة لما فيها من النظافة ولا شك بندبها. والتاء في العنكبوت زائدة كتاء طالوت فوزنه فعللوت وهو يقع على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، ومن استعماله مذكراً قوله:

على هطالهم منهم بيوت ... كأن العنكبوت هو ابتناها

واستظهر الفاضل سعدي جلبي كون المراد به هنا الواحد، وذهب إلى تأنيثه أيضاً فذكر أنه اختير هنا تأنيثه لأنه المناسب لبيان الخور والضعف فيما يتخذه، وقال مولانا الخفاجي معرضاً به: الظاهر أن المراد الجمع لا الواحد لقوله تعالى: ﴿**الذين**﴾ وأما أفراد البيت فلأن المراد الجنس، ولذلك أنث ﴿**اتخذت**﴾ لا لأن المراد المؤنث، وفي القاموس العنكبوت معروف وهي العنكباة والعكنباة والعنكبوة والعنكباء، والذكر عنكب وهي عنكبة، وجمعه عنكبوتات وعناكب، والعكاب، والعكب والأعكب أسماء الجموع، وتعقب بأن عد ما عدا ما ذكره أولاً اسم جمع لا وجه له لأن

أعكب لا يصح فيه ذلك، وذكروا في جمعه أيضاً عناكيب، واختلف في نونه فقيل أصلية، وقيل: زائدة كالتاء، وجمعه على عكاب يدل على ذلك. وذكر السجستاني في غريب سيبويه أنه ذكر عناكب في موضعين فقال في موضع: وزنه فناعل وفي آخر فعالل، فعلى الأول النون زائدة وهو مشتق من العكب وهو الغلظ ا هـ المراد منه، ولعل الأقرب على ذلك كونه مشتقاً من العكب بالفتح بمعنى الشدة في السير فكأنه لشدة وثبه لصيد الذباب أو لشدة حركته عند قراره أطلق عليه اسم العنكبوت ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي لو كانوا يعلمون شيئاً من الأشياء لعلموا أن هذا مثلهم أو أن أمر دينهم بالغ هذه الغاية من الوهن، وقيل: أي لو كانوا يعلمون وهن الأوثان لما اتخذوها أولياء من دون الله تعالى، وفي الكشف أن قوله تعالى: ﴿لو كانوا يعلمون﴾ على جميع التقادير أي المذكورة في الكشاف وقد ذكرناها فيما مر من الإيغال، جهلهم سبحانه في الاتخاذ ثم زادهم جل وعلا تجهيلاً أنهم لا يعلمون هذا الجهل البين الذي لا يخفى على من له أدنى مسكة، و ﴿لو﴾ شرطية وجوابها محذوف على ما أشرنا إليه، وجوز بعضهم كونها للتمني فلا جواب لها وهو غير ظاهر.

إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يعلم ما يَدْعُونَ مِنْ دُونه مِنْ شَيْءٍ﴾ على إضمار القول أي قل للكفرة إن الله إلخ، وقيل: لا حاجة إلى إضماره لجواز أن يكون ﴿تدعون﴾ من باب الالتفات للإيذان بالغضب، وفيه بحث. وقرأ أبو عمرو وسلام «يعلم ما» بالإدغام. وأبو عمرو وعاصم بخلاف «يدعون» بياء الغيبة حملاً على ما قبله، و ﴿ما﴾ استفهامية منصوبة بتدعون و ﴿يعلم﴾ معلقة عنها فالجملة في موضع نصب بها و ﴿من﴾ الأولى متعلقة بتدعون على ما هو الظاهر و ﴿من﴾ الثانية للتبيين؛ وجوز كونها للتبعيض، ويجوز كون ما نافية ومن الثانية مزيدة وشيء مفعول تدعون، أي لستم تدعون من دونه تعالى شيئاً، كأن ما يدعونه من دونه عز وجل لمزيد حقارته لا يصلح أن يسمى شيئاً، وجوز كونها مصدرية وهي وما بعدها في تأويل مصدر مفعول يعلم على أنها بمعنى يعرف ناصبة لمفعول واحد ومن تبعيضية، أي يعرف دعاءكم وعبادتكم بعض شيء من دونه وقيل: ﴿من﴾ للتبيين و ﴿شيء﴾ بمعنى ذلك المصدر وتنوينه للتحقير، أي يعرف دعوتكم من دونه هي دعوة حقيرة، وجوز كونها موصولة مفعول يعلم بمعنى يعرف ومفعول تدعون عائدها المحذوف ومن إما بيان للموصول أو تبعيضية.

وجوز زيادتها على هذا الوجه وما بعده، ولا يخفى ما فيه. والكلام على الوجهين الأولين في ﴿ما﴾ تجهيل للكفرة المتخذين من دون الله تعالى أولياء لما فيهما من نفي الشيئية عما اتخذوه ولياً؛ والاستفهام عنه الذي هو في معنى النفي لأنه إنكار، وفيه توكيد للمثل لأن كون معبودهم ليس بشيء يعبأ به مناسب ولذا لم يعطف، وعلى الوجهين الأخيرين فيها وعيد لهم لأن العلم بدعوتهم وعبادتهم عبارة عن مجازاتهم عليها وكذا العلم بما يدعونه عبارة عن مجازاتهم على دعائهم إياه، وترك العطف فيه لأنه استئناف، ويجوز إرادة التجهيل والوعيد في الوجوه كلها، وقوله

تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ في موضع الحال ويفهم منه التعليل على المعنيين، فإن من فرط الغباوة إشراك ما لا يعد شيئاً بمن هذا شأنه، وإن الجماد بالإضافة إلى القادر القاهر على كل شيء البالغ في العلم واتقان الفعل الغاية القاصية كالمعدوم البحت، وإن من هذا صفته قادر على مجازاتهم.

﴿وَتِلْكَ ٱلأَمْثَالُ﴾ أي هذا المثل ونظائره من الأمثال المذكورة في الكتاب العزيز. ﴿نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ تقريباً لما بعد من أفهامهم ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا﴾ على ما هي عليه من الحسن واستتباع الفوائد ﴿إِلاَّ ٱلْعَالِمُونَ﴾ الراسخون في العلم المتدبرون في الأشياء على ما ينبغي. وروى محيي السنة بسنده عن جابر «أن النبي ﷺ تلا هذه الآية ﴿وتلك الأمثال﴾ الآية فقال العالم من عقل عن الله تعالى فعمل بطاعته واجتنب سخطه» ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي محقاً مراعياً للحكم والمصالح على أنه حال من فاعل خلق أو ملتبسة بالحق الذي لا محيد عنه مستتبعة للمنافع الدينية والدنيوية على أنها حال من مفعوله، فإنها مع اشتمالها على جميع ما يتعلق به معاشهم شواهد دالة على شؤونه تعالى المتعلقة بذاته سبحانه وصفاته كما يفصح عنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ دالة لهم على ما ذكر من شؤونه عز وجل، وتخصيص المؤمنين بالذكر مع عموم الهداية والإرشاد في خلقهما للكل لأنهم المنتفعون بذلك ﴿ٱتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَابِ﴾ أي دم على تلاوة ذلك تقرباً إلى الله تعالى بتلاوته وتذكراً لما في تضاعيفه من المعاني وتذكيراً للناس وحملاً لهم على العمل بما فيه من الأحكام ومحاسن الآداب ومكارم الأخلاق ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلاَةَ﴾ أي داوم على إقامتها. وحيث كانت الصلاة منتظمة للصلوات المكتوبة المؤداة بالجماعة وكان أمره صلى الله تعالى عليه وسلم بإقامتها متضمناً لأمر الأمة بها علل بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلاَةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنْكَرِ﴾ كأنه قيل: وصل بهم إن الصلاة تنهاهم عن الفحشاء والمنكر، ومعنى نهيها إياهم عن ذ لك أنها لتضمنها صنوف العبادة من التكبير والتسبيح والقراءة والوقوف بين يدي الله عز وجل والركوع والسجود له سبحانه الدال على غاية الخضوع والتعظيم كأنها تقول لمن يأتي بها لا تفعل الفحشاء والمنكر ولا تعص رباً هو أهل لما أتيت به، وكيف يليق بك أن تفعل ذلك وتعصيه عز وجل وقد أتيت مما يدل على عظمته تعالى وكبريائه سبحانه من الأقوال والأفعال بما تكون به إن عصيت وفعلت الفحشاء أو المنكر كالمتناقض في أفعاله، وبما ذكر ينحل الإشكال المشهور وهو أنا نرى كثيراً من المرتكبين للفحشاء والمنكر يصلون ولا ينتهون عن ذلك، فإن نهيها إياهم عن الفحشاء والمنكر بهذا المعنى لا يستلزم انتهاءهم. ألا ترى أن الله تعالى ينهى عن ذلك أيضاً كما قال سبحانه: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي﴾ [النحل: ٩٠] والناس لا ينتهون وليس نهي الصلاة بأعظم من نهيه سبحانه وتعالى، فإذا لم يكن هناك استلزام فكيف يكون هنا. وما أرى هذا الإشكال إلا مبنياً على توهم استلزام النهي للانتهاء، وهو توهم باطل وتخيل عاطل لا يشهد له عقل ولا يؤيده نقل. ونقل أبو حيان عن ابن عباس والكلبي وابن جريج وحماد بن أبي سليمان أن الصلاة تنهى عن ذلك ما دام المصلي فيها، وكأنهم أرادوا أنها كالناهية للمصلي القائلة له لا تفعل ذلك ما دام فيها لأنه إذا فرغ منها فقد انقطعت الأقوال والأفعال التي كان النهي بما تدل عليه من العظمة والكبرياء. ونقل عن القطب أنه قال في جواب الإشكال: إن الصلاة تقام لذكر الله تعالى كما قال عز من قائل: ﴿أقم الصلاة لذكري﴾ [طه: ١٤] ومن كان ذاكراً لله عز وجل منعه ذلك عن الإتيان بما يكرهه منه تعالى مما قل أو كثر وكل من تراه يصلي ويأتي الفحشاء والمنكر فهو بحيث لو لم يكن يصلي لكان أشد إتياناً فقد أثرت الصلاة في تقليل فحشائه ومنكره، وهو كما ترى، وقيل: إن المراد أن الصلاة سبب للانتهاء عن ذلك، وليس هذا كلياً لما أن الصلاة في حكم النكرة وهي في الإثبات لا يجب أن تعم فينحل الإشكال، وعلى ما قلنا لا يضر دعوى الكلية. نعم

النهي الذي ذكرناه يتفاوت بحسب تفاوت أداء الصلاة فهو في صلاة أديت على أتم ما يكون من الخشوع والتدبر لما يتلى فيها مع الإتيان بفروضها وواجباتها وسننها وآدابها على أحسن أحوالها أتم، وقد يضعف النهي فيها حتى كأنه لا تنهى كما في الصلاة التي تؤدى مع الغفلة التامة والإخلال بما يليق فيها وهي الصلاة المردودة التي تلف كما يلف الثوب الخلق ويرمى بها وجه صاحبها فتقول له: ضيعك الله تعالى كما ضيعتني، وكأن مراد القائل: إن المراد بالصلاة التي تنهى عما ذكر هي الصلاة المقبولة هو هذا.

وقد يجعل الانتهاء علامة القبول. روى بعض الإمامية عن أبي عبدالله رضي الله تعالى عنه أنه قال: من أحب أن يعلم قبلت صلاته أم لم تقبل فلينظر هل منعته عن الفحشاء والمنكر فبقدر ما منعته قبلت منه، وأخرج عبد بن حميد وابن جرير والبيهقي في شعب الإيمان عن الحسن قال: «قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له» وفي لفظ: «لم يزدد بها من الله تعالى إلا بعداً» وأخرجه بهذا اللفظ ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما مرفوعاً.

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه قيل له: إن فلاناً يطيل الصلاة فقال: إن الصلاة لا تنفع إلا من أطاعها ثم قرأ ﴿**إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر**﴾ وقد يتفق لمن يكثر الصلاة أن تقع بعض صلاته على الوجه اللائق فتقبل لطفاً من الله تعالى وكرماً، ويظهر أثر ذلك بالانتهاء عن المعاصي، ويشير إلى هذا ما أخرج أحمد وابن حيان والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: «جاء رجل إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقال: إن فلاناً يصلي بالليل فإذا أصبح سرق قال سينهاه ما تقول» وأصرح منه فيما ذكرنا ما روي أن فتى من الأنصار كان يصلي مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الصلاة ولا يدع شيئاً من الفواحش إلا ركبه فوصف له، فقال عليه الصلاة والسلام: إن صلاته ستنهاه» فلم يلبث إلا أن تاب، إلا أن ابن حجر ذكر فيه أنه لم يجده في كتب الحديث. ثم إن حمل الصلاة في الآية على الصلاة المعروفة هو الظاهر المؤيد بالآثار والأخبار الصحيحة، وأخرج ابن جرير عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن المراد بها هنا القرآن، وقال ابن بحر : إن المراد بها الدعاء أي أقم الدعاء إلى أمر الله تعالى إن الدعاء إلى أمره سبحانه ينهى عن الفحشاء والمنكر، وكل منهما عدول عن الظاهر من غير داع. وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الربيع بن أنس أنه كان يقرأ «إن الصلاة تأمر بالمعروف وتنهى عن الفحشاء والمنكر» ﴿**وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ**﴾.

قال ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وأبو قرة ومجاهد وعطية: المعنى لذكر الله تعالى إياكم أكبر من ذكركم إياه سبحانه، وفي لفظ لذكر الله تعالى العبد أكبر من ذكر العبد لله تعالى، وعن ابن عباس أنه قال ذلك ثم قرأ ﴿فاذكروني أذكركم﴾ [البقرة: ١٥٢].

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن أبي مالك أنه قال ذكر الله تعالى العبد في الصلاة أكبر من الصلاة، فذكر مصدر مضاف إلى الفاعل والمفعول محذوف وكذا المفضل عليه وهو خاص على ما سمعت، وجوز أن يكون عاماً أي أكبر من كل شيء، وقيل: المعنى ولذكر العبد لله تعالى في الصلاة أكبر من سائر أركان الصلاة، وقيل: أي ولذكر العبد لله تعالى في الصلاة أكبر من ذكره إياه سبحانه خارج الصلاة، وقيل: أي ولذكر العبد لله تعالى أكبر من سائر أعماله، وروي عن جماعة من السلف ما يقتضيه. أخرج أحمد في الزهد وابن المنذر عن معاذ بن جبل قال: «ما عمل آدمي عملاً أنجى له من عذاب الله تعالى من ذكر الله تعالى، قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله تعالى قال: ولا أن يضرب بسيفه حتى ينقطع لأن الله تعالى يقول في كتابه ﴿**ولذكر الله أكبر**﴾.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن أبي الدرداء قال: «ألا أخبركم بخير أعمالكم وأحبها إلى مليككم وأسماها في درجاتكم وخير من أن تغزوا عدوكم فيضربوا رقابكم وتضربوا رقابهم وخير من إعطاء الدنانير والدراهم قالوا: وما هو يا أبا الدرداء؟ قال ذكر الله تعالى ﴿ولذكر الله أكبر﴾». وأخرج ابن جرير عن سلمان أنه سئل أي العمل أفضل؟ قال: أما تقرأ القرآن؟ ﴿ولذكر الله أكبر﴾ لا شيء أفضل من ذكر الله، ونسب في البحر إلى أبي الدرداء. وسلمان رضي الله تعالى عنهما القول الذي ذكرناه أولاً عمن سمعت، ولعل ذلك إحدى روايتين عنهما، وجاء عن ابن عباس أيضاً رواية تشعر بأن المراد بذكر الله تعالى ذكر العبد له سبحانه.

أخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر والحاكم في الكنى والبيهقي في شعب الإيمان عن عنترة قال: قلت لابن عباس رضي الله تعالى عنهما أي العمل أفضل؟ قال: ذكر الله أكبر وما قعد قوم في بيت من بيوت الله تعالى يدرسون كتاب الله ويتعاطونه بينهم إلا أظلتهم الملائكة بأجنحتها وكانوا أضياف الله تعالى ما داموا فيه حتى يفيضوا في حديث غيره وما سلك رجل طريقاً يلتمس فيه العلم إلا سهل الله تعالى له طريقاً إلى الجنة.

وقيل: المراد بذكر الله الصلاة كما في قوله تعالى: ﴿فاسعوا إلى ذكر الله﴾ [الجمعة: ٩] أي وللصلاة أكبر من سائر الطاعات وإنما عبر عنها به للإيذان بأن ما فيها من ذكر الله تعالى هو العمدة في كونها مفضلة على الحسنات ناهية عن السيئات، وقيل: المعنى ولذكر الله تعالى عند الفحشاء والمنكر، وذكر نهيه عنهما ووعيده عليهما أكبر في الزجر من الصلاة، ﴿فذكر﴾ على هذه الأقوال مصدر مضاف للمفعول والمفضل عليه محذوف، وجوز أن لا يكون أفعل للتفضيل سواء كانت إضافة المصدر للفاعل أم للمفعول كما في الله أكبر ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ من الخير والطاعة فيجازيكم بذلك أحسن المجازاة، وقال أبو حيان: ﴿يعلم ما تصنعون﴾ من الخير والشر فيجازيكم بحسبه ففيه وعد ووعيد وحث على المراقبة.

---

(١) تم الجزء العشرين ويتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الحادي والعشرون أوله قوله تعالى: ﴿ولا تجادلوا﴾ إلخ

بسم الله الرحمن الرحيم

۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ
إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ
فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾
وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ
بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ
عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا
عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلۡ كَفَىٰ
بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ
وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ
وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ
ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي
وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ
صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾

﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ من اليهود والنصارى، وقيل: من نصارى نجران **﴿إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾** بالخصلة التي هي أحسن كمقابلة الخشونة باللين، والغضب بالكظم، والمشاغبة بالنصح، والسورة بالأناة كما قال سبحانه: ادفع بالتي هي أحسن [المؤمنون: ٩٦، فصلت: ٣٤] **﴿إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾** بالإفراد في الاعتداء والعناد، ولم يقبلوا النصح، ولم ينفع فيهم الرفق فاستعملوا معهم الغلظة.

وأخرج ابن جرير عن مجاهد أن الذين ظلموا هم الذين أثبتوا الولد والشريك أو قالوا يد الله تعالى مغلولة، أو الله سبحانه فقير، أو آذوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهذه الغلظة التي تفهم الآية الإذن بها لا تصل إلى القتال لأولئك الظالمين من أهل الكتاب على أي وجه من الوجوه المذكورة كان ظلمهم لأن ظاهر كون السورة مكية أن هذه الآية مكية، والقتال في المشهور لم يشرع بمكة وليست الغلظة محصورة فيه كما لا يخفى، وقيل: المعنى ولا تجادلوا في الداخلين في الذمة المؤدين للجزية إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا فنبذوا الذمة ومنعوا الجزية فإن أولئك مجادلتهم بالسيف.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ما يقرب منه، وتعقب بأن السورة مكية والحرب والجزية مما شرع بالمدينة، وكون الآية بياناً لحكم آت بعد بعيد وأيضاً لا قرينة على التخصيص.

وقيل: يجوز أن يكون القائل بذلك ذاهباً إلى أن الآية مدنية ومكية السورة باعتبار أغلب آياتها؛ أو ممن يقول: بأن الحرب شرع بمكة في آخر الأمر، والسورة آخر ما نزل بها إلا أنه لم يقع وعدم الوقوع لا يدل على عدم المشروعية.

وعن ابن زيد أن المراد بأهل الكتاب مؤمنوا أهل الكتاب وبالتي هي أحسن موافقتهم فيما حدثوا به من أخبار أوائلهم وبالذين ظلموا من بقي منهم على كفره وهو كما ترى، واختلف في نسخ الآية. فأخرج أبو داود في ناسخه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في المصاحف عن قتادة أنه قال: نهى في هذه الآية عن مجادلة أهل الكتاب، ثم نسخ ذلك فقال سبحانه: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾ [التوبة: ٢٩] الآية ولا مجادلة أشد من السيف، وقال في مجمع البيان: الصحيح أنها غير منسوخة لأن المراد بالجدال المناظرة وذلك على الوجه الأحسن هو الواجب الذي لا يجوز غيره.

وقال بعض الأجلة: إن المجادلة بالحسنى في أوائل الدعوة لأنها تتقدم القتال فلا يلزم النسخ ولا عدم القتال بالكلية، وأما كون النهي يدل على عموم الأزمان فيلزم النسخ فلا يتم ما ذكر فيدفعه أن من يقاتل كمانع الجزية داخل في المستثنى فلا نسخ وإنما هو تخصيص بمتصل، وكون ذلك يقتضي مشروعية القتال بمكة ليس بصحيح لأنه مسكوت عنه فتأمل.

وقرأ ابن عباس «ألا بالتي» الخ، على أن «الا» حرف تنبيه واستفتاح، والتقدير، ألا جادلوهم التي هي أحسن ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ من القرآن ﴿وَ﴾ الذي ﴿أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ أي وبالذي أنزل إليكم من التوراة والإنجيل، وهذا القول نوع من المجادلة بالتي هي أحسن، وعن سفيان بن حسين أنه قال: هذه مجادلتهم بالتي هي أحسن، وأخرج البخاري، والنسائي، وغيرهما عن أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرؤون الكتاب بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم» الآية، والتصديق والتكذيب ليسا نقيضين فيجوز ارتفاعهما.

﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ﴾ لا شريك له في الألوهية ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أي مطيعون خاصة كما يؤذن بذلك تقديم ﴿له﴾، وفيه تعريض باتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله تعالى.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ تجريد للخطاب لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وذلك إشارة إلى مصدر الفعل الذي بعده، وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلة المشار إليه في الفضل أي مثل ذلك الإنزال البديع الشأن الموافق لإنزال سائر الكتب أنزلنا إليك القرآن الذي من جملته هذه الآية الناطقة بما ذكر من المجادلة بالتي هي أحسن، وقيل: الإشارة إلى ما تقدم لذكر الكتاب وأهله أي وكما أنزلنا الكتب إلى من قبلك أنزلنا إليك الكتاب.

﴿فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ﴾ من الطائفتين اليهود والنصارى على أن المراد بالكتاب جنسه الشامل للتوراة والإنجيل والكلام على ظاهره، وقيل: هو على حذف مضاف أي آتيناهم علم الكتاب ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ بالكتاب الذي أنزل إليك، وقيل: الضمير له صلى الله تعالى عليه وسلم وهو كما ترى، والمراد بهم في قول من تقدم عهد النبي صلى تعالى عليه وسلم من أولئك حيث كانوا مصدقين بنزول القرآن حسبما علموا مما عندهم من الكتاب، والمضارع لاستحضار تلك الصورة في الحكاية وتخصيصهم بإيتاء الكتاب للإيذان بأن ما بعدهم من معاصري رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد نزع عنهم الكتاب بالنسخ، وفي قول آخر معاصروه عليه الصلاة والسلام العاملون بكتابهم من عبد الله بن سلام وأضرابه، وتخصيصهم بإيتاء الكتاب لما أنهم هم المنتفعون به فكأن من عداهم لم يؤتوه، قيل: هذا يؤيد القول: بأن الآيات المذكورة مدنية إذ كونها مكية وعبد الله ممن أسلم بعد الهجرة بناء على أنه إعلام من الله تعالى بإسلامهم في المستقبل، والتفصيل باعتبار الإعلام بعيد جداً، وجوز الطبرسي أن يراد بالموصول المسلمون من هذه الأمة وضمير ﴿به﴾ للقرآن، ولا يخفى ما فيه، ولعل الأظهر كون المراد به علماء أهل الكتابين الحريون بأن ينسب إليهم إيتاء الكتاب كعبد الله بن سلام، وأضرابه، ولا بعد في كون الآيات مكية بناء على ما سمعت، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها فإن إيمانهم به مترتب على إنزاله على الوجه المذكور ﴿وَمِنْ هَؤُلَاءِ﴾ أي ومن العرب أو من أهل مكة على أن المراد بالموصول عبد الله، واضرابه، أو ممن في عصره صلى الله تعالى عليه وسلم من اليهود والنصارى على أن المراد به من تقدم ﴿مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ أي بالكتاب الذي أنزل إليك، ﴿ومن﴾ على ما استظهره بعضهم تبعيضية واقعة موقع المبتدأ وله نظائر في الكتاب الكريم ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا﴾ أي ﴿وما يجحد﴾ به، وأقيم هذا الظاهر مقام الضمير للتنبيه على ظهور دلالة الكتاب على مافيه وكونه من عند الله عزَّ وجلَّ، والإضافة إلى نون العظمة لمزيد التفخيم، وفيما ذكر غاية التشنيع على من يجحد به.

والجحد كما قال الراغب: نفي ما في القلب ثباته وإثبات ما في القلب نفيه، وفسر هنا بالإنكار عن علم فكأن قيل: وما ينكر آياتنا مع العلم بها ﴿إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ أي المتوغلون في الكفر المصممون عليه فإن ذلك يمنعهم عن الإقرار والتسليم، وقيل: يجوز أن يفسر بمطلق الإنكار، ويراد بالكافرين المتوغلون في الكفر أيضاً لدلالة فحوى الكلام، والتعبير بآياتنا على ذلك أي وما ينكر آياتنا مع ظهورها وارتفاع شأنها إلا المتوغلون في الكفر لأن ذلك يصدهم عن الاعتناء بها والالتفات إليها والتأمل فيها يؤديهم إلى معرفة حقيتها، والمراد بهم من اتصف بتلك الصفة من غير قصد إلى معين، وقيل: هم كعب بن الأشرف، وأصحابه.

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ﴾ أي وما كنت من قبل أنزلنا إليك الكتاب تقدر على أن تتلو ﴿مِن كِتَابٍ﴾ أي كتاباً على أن ﴿من﴾ صلة ﴿وَلَا تَخُطُّهُ﴾ ولا تقدر على أن تخطه ﴿بِيَمِينِكَ﴾ أو ما كانت عادتك أن تتلوه ولا تخطه، وذكر اليمين زيادة تصوير لما نفى عنه صلى الله تعالى عليه وسلم من الخط فهو مثل العين في قولك: نظرت بعيني في تحقيق الحقيقة وتأكيدها حتى لا يبقى للمجاز مجاز ﴿إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ أي لو كنت ممن يقدر على التلاوة والخط أو ممن يعتادهما لارتاب مشركو مكة وقالوا: لعله التقطه من كتب الأوائل، وحيث لم تكن كذلك لم يكن لارتيابهم وجه، وكأن احتمال التعلم مما لم يلتفت إليه لظهور أن مثله من الكتاب المفصل الطويل لا يتلقى ويتعلم إلا في زمان طويل بمدارسة لا يخفى مثلها، ووصف مشركي مكة بالإبطال باعتبار ارتيابهم وكفرهم وهو عليه الصلاة والسلام أميّ فكأنه قيل: إذن لارتاب هؤلاء المبطلون الآن وكان إذ لارتيابهم وجه، وقيل: وصفهم بذلك باعتبار ارتيابهم، وهو صلى الله تعالى عليه وسلم أميّ وباعتبار ارتيابهم وهو عليه الصلاة والسلام ليس بأميّ أما كونهم مبطلين

بالاعتبار الأول فظاهر، وأما كونهم كذلك بالاعتبار الثاني فلأن غاية ما يلزم من عدم أميته ﷺ انتفاء أحد وجوه الإعجاز، ويكفي الباقي في الغرض فيكون المرتاب مبطلاً كالمرتاب في نبوة الأنبياء الذين لم يكونوا أميين وصحة ما جاؤوا به.

والأول أظهر، وكون المراد بالمبطلين مشركي مكة هو المروي عن مجاهد، وقال قتادة: هم أهل الكتاب أي لو كنت تتلو من قبل أو تخط لارتاب أهل الكتاب لأن نعتك في كتابهم أميّ، ووصفهم بالإبطال قيل: باعتبار ارتيابهم وهو عليه الصلاة والسلام أميّ كما هو الواقع، وإلا فهم ليسوا بمبطلين في ارتيابهم على فرض عدم كونه صلى الله تعالى عليه وسلم أمياً، وفي الكشف هذا فرض وتمثيل دلالة على أن مدار الأمر على المعجز، وأن كونه عليه الصلاة والسلام أمياً لا يخط ليس مما لا يتم دعواه به، وتلك الدلالة لا تختلف والمنكر مبطل ا هـ فتأمل.

هذا واختلف في أنه صلى الله تعالى عليه وسلم هل كان بعد النبوة يقرأ ويكتب أم لا؟ فقيل: إنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يحسن الكتابة واختاره البغوي في التهذيب وقال: إنه الأصح، وادعى بعضهم أنه صلى الله تعالى عليه وسلم صار يعلم الكتابة بعد أن كان لا يعلمها وعدم معرفتها بسبب المعجزة لهذه الآية. فلما نزل القرآن واشتهر الإسلام وظهر أمر الارتياب تعرف الكتابة حينئذ، وروى ابن أبي شيبة، وغيره: «ما مات صلى الله تعالى عليه وسلم حتى كتب وقرأ».

ونقل هذا للشعبي فصدقه وقال: سمعت أقواماً يقولونه وليس في الآية ما ينافيه، وروى ابن ماجة عن أنس قال: «قال صلى الله تعالى عليه وسلم: رأيت ليلة أسري بي مكتوباً على باب الجنة الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر» والقدرة على القراءة فرع الكتابة ورد باحتمال إقدار الله تعالى إياه عليه الصلاة والسلام عليها بدونها معجزة أو فيه مقدر وهو فسألت عن المكتوب فقيل: الخ، ويشهد للكتابة أحاديث في صحيح البخاري وغيره كما ورد في صلح الحديبية فأخذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الكتاب وليس يحسن يكتب فكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله الحديث، وممن ذهب إلى ذلك أبو ذر عبد بن أحمد الهروي، وأبو الفتح النيسابوري، وأبو الوليد الباجي من المغاربة، وحكاه عن السمناني، وصنف فيه كتاباً، وسبقه إليه ابن منية، ولما قال أبو الوليد ذلك طعن فيه ورمي بالزندقة وسُب على المنابر ثم عقد له مجلس فأقام الحجة على مدعاة وكتب به إلى علماء الأطراف فأجابوا بما يوافقه، ومعرفة الكتابة بعد أميته ﷺ لا تنافي المعجزة بل هي معجزة أخرى لكونها من غير تعليم، وردّ بعض الأجلة كتاب الباجي لما في الحديث الصحيح ـ إنا أمية لا نكتب ولا نحسب ـ، وقال: كل ما ورد في الحديث من قوله: كتب فمعناه أمر بالكتابة كما يقال: كتب السلطان بكذا لفلان، وتقديم قوله تعالى: ﴿**من قبله**﴾ على قوله سبحانه: ﴿**ولا تخطه**﴾ كالصريح في أنه عليه الصلاة والسلام لم يكتب مطلقاً وكون القيد المتوسط راجعاً لما بعده غير مطرد، وظن بعض الأجلة رجوعه إلى ما قبله وما بعده فقال: يفهم من ذلك أنه عليه الصلاة والسلام كان قادراً على التلاوة والخط بعد إنزال الكتاب ولولا هذا الاعتبار لكان الكلام خلواً عن الفائدة، وأنت تعلم أنه لو سلم ما ذكره من الرجوع لا يتم أمر الإفادة إلا إذا قيل بحجية المفهوم والظان ممن لا يقول بحجيته، ولا يخفى أن قوله عليه الصلاة والسلام: «إنّا أمّة أمّية لا نكتب ولا نحسب» ليس نصاً في استمرار نفي الكتابة عنه عليه الصلاة والسلام، ولعل ذلك باعتبار أنه بعث عليه الصلاة والسلام وهو كذا وأكثر من بعث إليهم وهو بين ظهرانيهم من العرب أميون لا يكتبون ولا يحسبون فلا يضر عدم بقاء وصف الأمية في الأكثر بعد، وأما ما ذكر من تأويل كتب بأمر بالكتابة فخلاف الظاهر، وفي شرح صحيح مسلم للنواوي عليه الرحمة نقلاً عن القاضي عياض أن قوله في الرواية التي ذكرناها: ولا يحسن يكتب فكتب

كالنص في أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كتب بنفسه فالعدول عنه إلى غيره مجاز لا ضرورة إليه ثم قال: وقد طال كلام كل فرقة في هذه المسألة وشنعت كل فرقة على الأخرى في هذا فالله تعالى أعلم.

ورأيت في بعض الكتب ولا أدري الآن أي كتاب هو أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن يقرأ ما يكتب لكن إذا نظر إلى المكتوب عرف ما فيه بإخبار الحروف إياه عليه الصلاة والسلام عن أسمائها فكل حرف يخبره عن نفسه أنه حرف كذا وذلك نظير إخبار الذراع إياه صلى الله تعالى عليه وسلم بأنها مسمومة.

وأنت تعلم أن مثل هذا لا يقبل بدون خبر صحيح ولم أظفر به ﴿**بَلْ هُوَ**﴾ أي القرآن، وهذا إضراب عن ارتيابهم، أي ليس القرآن مما يرتاب فيه لوضوح أمره بل هو ﴿**آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ**﴾ واضحات ثابتة راسخة ﴿**فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ**﴾ من غير أن يلتقط من كتاب يحفظونه بحيث لا يقدر على تحريفه بخلاف غيره من الكتب، وجاء في وصف هذه الأمة صدورهم أناجيلهم، وكون ضمير هو للقرآن هو الظاهر، ويؤيده قراءة عبد الله «بل هي آيات بينات»، وقال قتادة: الضمير للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقرأ «بل هو آية بينة» على التوحيد، وجعله بعضهم له عليه الصلاة والسلام على قراءة الجمع على معنى بل النبي وأموره آيات، وقيل: الضمير لما يفهم من النفي السابق أي كونه لا يقرأ لا يخط آيات بينات في صدور العلماء من أهل الكتاب لأن ذلك نعت النبي عليه الصلاة والسلام في كتابهم، والكل كما ترى، وفي الأخير حمل ﴿**الذين أوتوا العلم**﴾ على علماء أهل الكتاب وهو مروي عن الضحاك والأكثرون على أنهم علماء الصحابة أو النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وعلماء أصحابه، وروي هذا عن الحسن وروى بعض الإمامية عن أبي جعفر وأبي عبد الله رضي الله تعالى عنهما أنهم الأئمة من آل محمد ﷺ ﴿**وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا**﴾ مع كونها كما ذكر ﴿**إِلَّا الظَّالِمُونَ**﴾ المتجاوزون للحد في الشر والمكابرة والفساد ﴿**وَقَالُوا**﴾ أي كفار قريش بتعليم بعض أهل الكتاب.

وقيل: الضمير لأهل الكتاب ﴿**لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ**﴾ مثل ناقة صالح وعصا موسى، وقرأ أكثر أهل الكوفة «آية» على التوحيد ﴿**قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ**﴾ ينزلها حسبما يشاء من غير دخل لأحد في ذلك قطعاً ﴿**وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ**﴾ ليس من شأني إلا الإنذار بما أوتيت من الآيات لا الإتيان بما اقترحتموه فالقصر قصر قلب ﴿**أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ**﴾ كلام مستأنف وارد من جهته تعالى رداً على اقتراحهم وبياناً لبطلانه والهمزة للإنكار والنفي والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي أقصر ولم يكفهم آية مغنية عن سائر الآيات ﴿**أَنَّا أَنزَلْنَا**﴾ ﴿**عَلَيْكَ الْكِتَابَ**﴾ الناطق بالحق المصدق لما بين يديه من الكتب السماوية وأنت بمعزل من مدارستها وممارستها ﴿**يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ**﴾ تدوم تلاوته عليهم متحدين به فلا يزال معهم آية ثابتة لا تزول ولا تضمحل كما تزول كل آية بعد كونها، وقيل: ﴿**يتلى عليهم**﴾ أي أهل الكتاب بتحقق ما في أيديهم من نعتك ونعت دينك، وله وجه إن كان ضمير قالوا فيما تقدم لأهل الكتاب وأما إذا كان لكفار قريش فلا يخفى ما فيه.

﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ**﴾ أي الكتاب العظيم الشأن الباقي على ممر الدهور، وقيل: الذي هو حجة بينة ﴿**لَرَحْمَةً**﴾ أي نعمة عظيمة ﴿**وَذِكْرَىٰ**﴾ أي تذكرة ﴿**لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ أي همهم الإيمان لا التعنت فالجار والمجرور متعلق بذكرى والفعل مراد به الاستقبال، ويجوز أن يكون ﴿**رحمة وذكرى**﴾ مما تنازعا في الجار والمجرور فيجوز أن يكون الفعل للحال، وأخرج الفريابي، والدارمي، وأبو داود في مراسيله، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن يحيى بن جعدة قال: «جاء ناس من المسلمين بكتف قد كتبوا فيها بعض ما سمعوه من اليهود فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: كفى بقوم حمقاً أو ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم فنزلت ﴿**أو لم**

يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب ﴾ الآية». وأخرج الإسماعيلي في معجمه وابن مردويه عن يحيى هذا ما هو قريب مما ذكر مروياً عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه. و﴿يؤمنون ﴾ على هذا على ظاهره لا غير، وتعقب بأن السياق والسباق مع الكفرة وإن الظاهر كون ﴿أو لم يكفهم ﴾ الآية جواباً لقولهم: ﴿لولا أنزل ﴾ الخ، وفي جعل سبب النزول ما ذكر خروج عن ذلك فتأمل.

وعليه تكون الآية دليلاً لمن منع تتبع التوراة ونحوها. وروي هذا المنع عن عائشة رضي الله تعالى عنها.

أخرج ابن عساكر عن أبي مليكة قال: أهدى عبد الله بن عامر بن ركن إلى عائشة رضي الله تعالى عنها هدية فظنت أنه عبد الله بن عمرو فردتها وقالت: يتتبع الكتب وقد قال الله تعالى: ﴿أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم﴾ فقيل لها: «إنه عبد الله بن عامر فقبلتها» وجاء في عدة أخبار ما يقتضي المنع، أخرج عبد الرزاق في المصنف والبيهقي في شعب الإيمان، عن الزهري أن حفصة جاءت الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بكتاب من قصص يوسف في كتف فجعلت تقرأه عليه والنبي عليه الصلاة والسلام يتلون وجهه فقال: «والذي نفسي بيده لو أتاكم يوسف وأنا بينكم فاتبعتموه وتركتموني ضللتم أنا حظكم من النبيين وأنتم حظي من الأمم».

وأخرج عبد الرزاق والبيهقي أيضاً عن أبي قلابة «أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه مرّ برجل يقرأ كتاباً فاستمعه ساعة فاستحسنه فقال للرجل: اكتب لي من هذا الكتاب قال: نعم فاشترى أديماً فهيأه ثم جاء به إليه فنسخ له في ظهره وبطنه ثم أتى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فجعل يقرأه عليه وجعل وجه رسول الله ﷺ يتلون فضرب رجل من الأنصار الكتاب وقال: «ثكلتك أمك يا ابن الخطاب ألا ترى وجه رسول الله ﷺ منذ اليوم وأنت تقرأ عليه هذا الكتاب فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عند ذلك: إنما بعثت فاتحاً وخاتماً وأعطيت جوامع الكلم وخواتمه واختصر لي الحديث اختصاراً فلا يهلكنكم المتهوكون» أي الواقعون في كل أمر بغير رويّة، وقيل: المتحيرون إلى ذلك من الأخبار، وحقق بعضهم أن المنع إنما هو عند خوف فساد في الدين وذلك مما لا شبهة فيه في صدر الإسلام، وعليه تحمل الأخبار، وقد تقدم الكلام في ذلك فتذكر.

﴿قُلْ كَفَى باللهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً﴾ أي عالماً بما صدر عني من التبليغ والإنذار وبما صدر عنكم من مقابلتي بالتكذيب والإنكار فيجازي سبحانه كلاً بما يليق به ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السماوات وَالأَرْضِ﴾ أي من الأمور التي من جملتها شأني وشأنكم فهو تقرير لما قبله من كفايته تعالى شهيداً، وجوز أن يكون المعنى كفى به عزَّ وجلَّ شاهداً بصدقي أي مصدقاً لي فيما ادعيته بالمعجزات تصديق الشاهد لدعوى المدعي، وجملة ﴿يعلم ﴾ إما صفة ﴿شهيداً﴾ أو حال أو استئناف لتعليل كفايته، وقيل عليه: إن هذا الوجه لا يلائمه قوله تعالى: ﴿بيني وبينكم ﴾ سواء تعلق بكفى أو بشهيداً ولا قوله سبحانه: ﴿يعلم ما في السماوات ﴾ الخ، وفيه تأمل.

وقد يؤيد ذلك بما روي أن كعب بن الأشرف، وأصحابه قالوا: يا محمد من يشهد بأنك رسول الله فنزلت ﴿قل كفى ﴾ الآية إلا أن في القلب من صحة هذه الرواية شيئاً لما أن السياق والسباق مع كفرة قريش فلا تغفل.

وأياً ما كان فلا منافاة بين هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿وادعوا شهداءكم من دون الله ﴾ [البقرة: ٢٣] بناء على أن المعنى لا تستشهدوا بالله تعالى ولا تقولوا الله تعالى يشهد أن ما ندعيه حق كما يقوله العاجز عن إقامة البينة إما لأن الشهيد هاهنا بمعنى العالم والكلام وعد ووعيد، وإما بمعنى المصدق بالمعجزات وليست الشهادة بأحد المعنيين هناك، والباء في ﴿بالله ﴾ زائدة والاسم الجليل فاعل ﴿كفى﴾، وقال الزجاج: «إن الباء دخلت لتضمن كفى معنى اكتف فالباء كما قال اللقاني معدية لا زائدة، قال ابن هشام في المغني: وهو من الحسن بمكان ويصححه قولهم: اتقى

الله تعالى امرؤ فعل خيراً يثب عليه أي ليتق بدليل جزم يثب ويوجبه قولهم: «كفى بهند بترك التاء فإن احتج بالفاصل فهو مجوز لا موجب بدليل وما تسقط من ورقة فإن عورض بأحسن بهند فالتاء لا تلحق صيغ الأمر وإن كان معناها الخبر ا هـ».

وتعقب ذلك الشيخ يس الحمصي في حواشيه على التصريح فقال: «أقول تفسير ﴿كفى﴾ على هذا القول باكتف غير صحيح إذ فاعل ﴿كفى﴾ حينئذ ضمير المخاطب، و﴿كفى﴾ ماض وهو لا يرفع ضمير المخاطب المستتر ا هـ وفيه بعد بحث لا يخفى على المتأمل».

وظن بعض الناس أن ﴿كفى﴾ على هذا القول اسم فعل أمر يخاطب به المفرد المذكر وغيره نحو حي في حي على الصلاة فالمعنى هنا اكتفوا بالله، وأنت تعلم أن هذا بعيد الإرادة من كلام الزجاج ويأباه كلام ابن هشام، وقال ابن السراج: الفاعل ضمير الاكتفاء، قال ابن هشام: وصحة قوله موقوفة على جواز تعلق الجار بضمير المصدر وهو قول الفارسي، والرماني أجازوا مروري بزيد حسن وهو بعمرو قبيح، وأجاز الكوفيون أعماله في الظرف وغيره، ومنع جمهور البصريين أعماله مطلقاً ا هـ.

وتعقب ذلك ابن الصائغ فقال: لا نسلم توقف الصحة على ذلك لجواز أن تكون الباء للحال، وعليه يكون المعنى ﴿كفى﴾ هو أي الاكتفاء حال كونه ملتبساً بالله تعالى، ولا يخفى أنه ما لم يبطل هذا القول لا يتم ما ادعاه ابن هشام من أن ترك التاء في كفى بهند يوجب كون كفى مضمناً معنى اكتف فتدبر ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ﴾ قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أي بغير الله عزَّ وجلَّ وهو شامل لنحو عيسى والملائكة عليهم السلام.

والباطل في الحقيقة عبادتهم وليس الباطل هنا مثله في قول حسان: ألا كل شيء ما خلا الله باطل، وقال مقاتل: أي بعبادة الشيطان، وقيل: أي بالصنم ﴿وَكَفَرُوا بِاللَّهِ﴾ مع تعاضد موجبات الإيمان به عزَّ وجلَّ ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ المغبونون في صفقتهم حيث اشتروا الكفر بالإيمان فاستوجبوا العقاب يوم الحساب، وفي الكلام على ما قيل: استعارة مكنية شبه استبدال الكفر بالإيمان المستلزم للعقاب باشتراء مستلزم للخسران، وفي الخسران استعارة تخييلية هي قرينتها لأن الخسران متعارف في التجارات، وهذا الكلام ورد مورد الإنصاف حيث لم يصرح بأنهم المؤمنون بالباطل الكافرون بالله عزَّ وجلَّ بل أبرزه في معرض العموم ليهجم به التأمل على المطلوب فهو كقوله تعالى: ﴿إنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾ [سبأ: ٢٤] وكقول حسان:

فشركما لخيركما الفداء

وهذا من قبيل المجادلة بالتي هي أحسن ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ أي ويستعجلك كفار قريش ﴿بالعذاب﴾ على طريقة الاستهزاء والتعجيز والتكذيب به بقولهم: ﴿متى هذا الوعد﴾ وقولهم: أمطر علينا حجارة أو ائتنا بعذاب ونحو ذلك ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ قد ضربه الله تعالى لعذابهم وسماه وأثبته في اللوح ﴿لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ المعين لهم حسبما استعجلوا به، وقال ابن جبير: المراد بالأجل يوم القيامة لما روي أنه تعالى وعد رسوله ﷺ أن لا يعذب قومه بعذاب الاستئصال وأن يؤخر عذابهم إلى يوم القيامة، وقال ابن سلام: المراد به أجل ما بين النفختين، وقيل: يوم بدر، وقيل: وقت فنائهم بآجالهم، وفيه بعد ظاهر لما أنهم ما كانوا يوعدون بفنائهم الطبيعي ولا كانوا يستعجلون به ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ﴾ جملة مستأنفة مبينة لما أشير إليه في الجملة السابقة من مجيء العذاب عند حلول الأجل، أي وبالله تعالى ﴿ليأتينهم﴾ العذاب الذي عين لهم عند حلول الأجل ﴿بَغْتَةً﴾ أي فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي بإتيانه، ولعل المراد بإتيانه كذلك أنه لا يكون بطريق التعجيل عند استعجالهم والإجابة إلى مسؤولهم فإن ذلك إتيان برأيهم

وشعورهم لا أنه يأتيهم وهم قارّون آمنون لا يحظرونه بالبال كدأب بعض العقوبات النازلة على بعض الأمم بياتاً وهم نائمون أو ضحى وهم يلعبون لما أن إتيان عذاب الآخرة وعذاب يوم بدر ليس من هذا القبيل قاله بعضهم، وقال آخرون: إتيانه كذلك من حيث إنه غير متوقع لهم وإتيان عذاب الآخرة ونحوه كذلك لإنكارهم البعث، وكذا عذاب القبر أو اعتقادهم شفاعة آلهتهم لهم في دفع العذاب عنهم، وكذا إتيان عذاب يوم بدر لأنهم لغرورهم كانوا لا يتوقعون غلبة المسلمين ولا تخطر لهم ببال على ما بين في السير.

﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ استئناف مسوق لغاية تجهيلهم وركاكة رأيهم وهو ظاهر في أن ما استعجلوه عذاب الآخرة، وجملة ﴿أن جهنم﴾ الخ في موضع الحال أي يستعجلونك بالعذاب والحال أن محل العذاب الذي لا عذاب فوقه محيط بهم كأنه قيل: يستعجلونك بالعذاب وأن العذاب لمحيط بهم أي سيحيط بهم على إرادة المستقبل من اسم الفاعل، أو كالمحيط بهم الآن لإحاطة الكفر والمعاصي الموجبة إياه بهم على أن في الكلام تشبيهاً بليغاً أو استعارة أو مجازاً مرسلاً أو تجوزاً في الإسناد، وقيل: إن الكفر والمعاصي هي النار في الحقيقة لكنها ظهرت في هذه النشأة بهذه الصورة، والمراد بالكافرين المستعجلون، ووضع الظاهر موضع الضمير للإشعار بعلة الحكم أو جنس الكفرة وهم داخلون فيه دخولاً أوليا ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ﴾ ظرف لمضمر قد طوي ذكره ايذاناً بغاية كثرته وفظاعته كأنه قيل: يوم يأتيهم ويجللهم العذاب الذي أشير إليه بإحاطة جهنم بهم يكون من الأحوال والأهوال ما لا يفي به المقال، وقيل: ظرف لمحيطة على معنى وإن جهنم ستحيط بالكافرين يوم يغشاهم العذاب ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ أي من جميع جهاتهم فما ذكر للتعميم كما في الغدو والآصال، قيل: وذكر الأرجل للدلالة على أنهم لا يقرون ولا يجلسون وذلك أشد العذاب ﴿وَيَقُولُ﴾ أي الله عزَّ وجلَّ، وقيل: الملك الموكل بهم.

وقرأ ابن كثير وابن عامر والبصريون «ونقول» بنون العظمة وهو ظاهر في أن القائل هو الله تعالى.

وقرأ أبو البرهسم «وتقول» بالتاء على أن القائل جهنم، ونسب القول إليها هنا كما نسب في قوله تعالى: ﴿وتقول هل من مزيد﴾ [ق: ٣٠] وقرأ ابن مسعود وابن أبي عبلة «ويُقال» مبنياً للمفعول ﴿ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي جزاء ما كنتم تعملونه في الدنيا على الاستمرار من السيئات التي من جملتها الاستعجال بالعذاب.

﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُون﴾ نزلت على ما روي عن مقاتل والكلبي في المستضعفين من المؤمنين بمكة أمروا بالهجرة عنها وعلى هذا أكثر المفسرين، وعمم بعضهم الحكم في كل من لا يتمكن من إقامة أمور الدين كما ينبغي في أرض لممانعة من جهة الكفرة أو غيرهم فقال: تلزمه الهجرة إلى أرض يتمكن فيها من ذلك، وروي هذا عن ابن جبير وعطاء ومجاهد. ومالك بن أنس، وقال مطرف بن الشخير: إن الآية عدة منه تعالى بسعة الرزق في جميع الأرض، وعلى القولين فالمراد بالأرض الأرض المعروفة، وعن الجبائي أن الآية عدة منه عزَّ وجلَّ بادخال الجنة لمن أخلص له سبحانه العبادة وفسر الأرض بأرض الجنة، والمعول عليه ما تقدم، والفاء في ﴿فإياي﴾ فاء التسبب عن قوله تعالى: ﴿إن أرضي واسعة﴾ كما تقول: إن زيداً أخوك فأكرمه وكذلك لو قلت: إنه أخوك فإن أمكنك فأكرمه، و﴿إياي﴾ معمول لفعل محذوف يفسره المذكور، ولا يجوز أن يكون معمولاً له لاشتغاله بضميره وذلك المحذوف جزاء لشرط حذف وعوض عنه هذا المعمول، والفاء في ﴿فاعبدون﴾ هي الفاء الواقعة في الجزاء إلا أنه لما وجب حذفه جعل المفسر المؤكد له قائماً مقامه لفظاً وأدخل الفاء عليه إذ لا بد منها للدلالة على الجزاء، ولا تدخل على معمول المحذوف أعني إياي وإن فرض خلوه عن فاء لتمحضه عوضاً عن فعل الشرط فتعين الدخول على المفسر؛ وأيضاً ليطابق المذكور المحذوف من كل وجه، ولزم أن يقدر الفعل المحذوف

العامل في ﴿إياي﴾ مؤخراً لئلا يفوت التعويض عن فعل الشرط مع إفادة ذلك معنى الاختصاص والإخلاص، فالمعنى إن أرضي واسعة فإن لم تخلصوا إلى العبادة في أرض فأخلصوها لي في غيرها، وجعل الشرط إن لم تخلصوا لدلالة الجواب المذكور عليه، ولا منع من أن تكون الفاء الأولى واقعة في جواب شرط آخر ترشيحاً للسببية على معنى أن أرضي واسعة وإذا كان كذلك فإن لم تخلصوا لي الخ، وقيل: الفاء الأولى جواب شرط مقدر وأما الثاني فتكرير ليوافق المفسر، المفسر فيقال حينئذ: المعنى إن أرضي واسعة إن لم تخلصوا لي العبادة في أرض فأخلصوها لي في غيرها، وتكون جملة الشرط المقدرة أعني إن لم تخلصوا الخ مستأنفة عرية عن الفاء، وما تقدم أبعد مغزى. وجعل بعض المحققين الفاء الثانية لعطف ما بعدها على المقدر العامل في ﴿إياي﴾ قصداً لنحو الاستيعاب كما في خذ الأحسن فالأحسن. وتعقب بأنه حينئذ لا يصلح المذكور مفسر لعدم جواز تخلل العاطف بين مفسر ومفسراً البتة، وأما ما ذكره الإمام السكاكي في قوله تعالى: ﴿فإياي فارهبون﴾ [النحل: ٥١] من أن الفاء عاطفة والتقدير فإياي ارهبوا فارهبون فإنه أراد به أنها في الأصل كذلك لا في الحال على ما حققه صاحب الكشف، هذا وقد أطالوا الكلام في هذا المقام وقد ذكرنا جملة منه في أوائل تفسير سورة البقرة فراجعه مع ما هنا وتأمل والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل ﴿كُلُّ نَفْس ذَائِقَةُ الْمَوْت ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ جملة مستأنفة جيء بها حثاً على إخلاص العبادة والهجرة لله تعالى حيث أفادت أن الدنيا ليست دار بقاء وأن وراءها دار الجزاء أي كل نفس من النفوس واجدة مرارة الموت ومفارقة البدن البتة فلا بد أن تذوقوه ثم ترجعون إلى حكمنا وجزائنا بحسب أعمالكم فمن كانت هذه عاقبته فلا بد له من التزود والاستعداد، وفي قوله تعالى: ﴿ذائقة الموت﴾ استعارة لتشبيه الموت بأمر كريه الطعم مره، والعدول عن تذوق الموت للدلالة على التحقق، و﴿ثم﴾ للتراخي الزماني أو الرتبي.

وقرأ أبو حيوة «ذائقة» بالتنوين «الموت» بالنصب، وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه «تَرْجَعُون» مبنياً للفاعل، وروى عاصم «يرجعون» بياء الغيبة ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمَلُوا الصَّالِحات لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ أي لننزلنهم على وجه الإقامة، وجملة القسم وجوابه خبر المبتدأ أعني ﴿الذين﴾ ورد به وبأمثاله على ثعلب المانع من وقوع جملة القسم والمقسم عليه خبراً للمبتدأ، وقوله تعالى: ﴿مِنَ الْجَنَّة غُرَفاً﴾ أي علالي وقصوراً جليلة لا قصور فيها، وهي على ما روي عن ابن عباس من الدر والزبرجد والياقوت، مفعول ثان للتبوئة.

وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه، وعبد الله، والربيع بن خيثم، وابن وثاب، وطلحة، وزيد بن علي، وحمزة، والكسائي «لنثوينهم» بالثاء المثلثة الساكنة بعد النون وإبدال الهمزة ياء من الثواء بمعنى الإقامة فانتصاب ﴿غرفاً﴾ حينئذ إما بإجرائه مجرى لننزلنهم فهو مفعول به له أو بنزع الخافض على أن أصله بغرف فلما حذف الجار انتصب أو على أنه ظرف والظرف المكاني إذا كان محدوداً كالدار والغرفة لا يجوز نصبه على الظرفية إلا أنه أجري هنا مجرى المبهم توسعاً كما في قوله تعالى ﴿لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ [الأعراف: ١٦] على ما فصل في النحو.

وروي عن ابن عامر انه قرأ «غرفاً» بضم الراء ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ صفة لغرفا ﴿خَالدين فيها﴾ أي في الغرف، وقيل: في الجنة ﴿نعْمَ أَجْرُ الْعَاملينَ﴾ أي الأعمال الصالحة والمخصوص بالمدح محذوف ثقة بدلالة ما قبله عليه أي نعم أجرى العاملين الغرف أو أجرهم، ويجوز كون التمييز محذوفاً أي نعم أجراً أجر العاملين، وقرأ ابن وثاب «فنعم» بفاء الترتيب ﴿الَّذينَ صَبَرُوا﴾ صفة للعاملين أو خبر مبتدأ محذوف أو نصب على المدح أي صبروا على أذية المشركين وشدائد المهاجرة وغير ذلك من المحن والمشاق ﴿وَعَلَى رَبِّهِم يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي ولم يتوكلوا فيما يأتون ويذرون إلا على الله تعالى.

وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ
عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ
بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ
وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ
مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ
ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى
لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ لما روي أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أمر المؤمنين الذين كانوا بمكة المهاجرة إلى المدينة قالوا: كيف نقدم بلدة ليس لنا فيها معيشة؟ فنزلت، أي وكم من دابة لا تطيق حمل رزقها لضعفها أو لا تدخره وإنما تصبح ولا معيشة عندها. عن ابن عيينة ليس شيء يخبأ إلا الإنسان والنملة والفأرة، وعن ابن عباس لا يدخر إلا الآدمي والنمل والفأرة والعقعق ويقال للعقعق مخابي إلا أنه ينساها، وعن بعضهم رأيت البلبل يحتكر في حضنيه والظاهر عدم صحته، وذكر لي بعضهم أن أغلب الكوامن من الطير يدخر والله تعالى أعلم بصحته.

﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ ثم إنها مع ضعفها وتوكلها وإياكم مع قوتكم واجتهادكم سواء في أنه لا يرزقها وإياكم إلا الله تعالى لأن رزق الكل بأسباب هو عزَّ وجلَّ المسبب لها وحدة فلا تخافوا على معاشكم بالمهاجرة ولما كان المراد إزالة ما في أوهامهم من الهجرة على أبلغ وجه قيل: **﴿يرزقها وإياكم﴾** دون يرزقكم وإياها **﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾** البالغ في السمع فيسمع قولكم هذا **﴿ٱلْعَلِيمُ﴾** البالغ في العلم فيعلم ما انطوت عليه ضمائركم **﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾** أي أهل مكة **﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾** إذ لا سبيل لهم إلى إنكاره ولا التردد فيه، والاسم الجليل مرفوع على الابتداء والخبر محذوف لدلالة السؤال عليه أو على الفاعلية لفعل محذوف لذلك أيضاً **﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾** إنكار واستبعاد من جهته تعالى لتركهم العمل بموجبه، والفاء للترتيب أو واقعة في جواب شرط مقدر أي إذا كان الأمر كذلك فكيف يصرفون عن الإقرار بتفرده عزَّ وجلَّ في الألوهية مع إقرارهم بتفرده سبحانه فيما ذكر من الخلق والتسخير.

وقدر بعضهم الشرط فإن صرفهم الهوى والشيطان لمكان بناء **﴿يؤفكون﴾** للمفعول، ولعل ما ذكرناه أولى.

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أن يبسطه له لا غيره **﴿من عباده وَيَقْدِرُ لَهُ﴾** أي يضيق عليه، والضمير عائد على **﴿من يشاء﴾** الذي يبسط له الرزق أي عائد عليه مع ملاحظة متعلقة فيكون المعنى أنه تعالى شأنه يوسع على شخص واحد رزقه تارة ويضيقه عليه أخرى، والواو لمطلق الجمع فقد يتقدم التضييق على التوسيع أو عائد على **﴿من**

يشاء ﴾ بقطع النظر عن متعلقه فالمراد من يشاء آخر غير المذكور فهو نظير عندي درهم ونصفه أي نصف درهم آخر، وهذا قريب من الاستخدام، فالمعنى أنه تعالى شأنه يوسع على بعض الناس ويضيق على بعض آخر، وقرأ علقمة «ويقدر» بضم الياء وفتح القاف وشد الذال ﴿إن الله بكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فيعلم أن كلاً من البسط والقدر في أي وقت يوافق الحكمة والمصلحة فيفعل كلا منهما في وقته أو فيعلم من يليق ببسط الرزق فيبسطه له ومن يليق بقدره له فيقدر له، وهذه الآية أعني قوله تعالى: ﴿الله يبسط ﴾ الخ تكميل لمعنى قوله سبحانه: ﴿الله يرزقها وإياكم ﴾ لأن الأول كلام في المرزوق وعمومه وهذا كلام في الرزق وبسطه وقترته، وقوله سبحانه: ﴿ولئن سألتهم ﴾ الخ معترض لتوكيد معنى الآيتين وتعريض بأن الذين اعتمدتم عليهم في الرزق مقرون بقدرتنا وبقوتنا كقوله تعالى: ﴿إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ [الذاريات: ٥٨] قاله العلامة الطيبي.

وقال صاحب الكشف قدس سره: اعترض ليفيد أن الخالق هو الرزاق وأن من أفاض ابتداء وأوجد أولى أن يقدر على الإبقاء وأكد به ما ضمن في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وعلى ربهم يتوكلون ﴾.

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ الله ﴾ معترفين بأنه عزَّ وجلَّ الموجد للممكنات بأسرها أصولها وفرعها ثم إنهم يشركون به سبحانه بعض مخلوقاته الذي لا يكاد يتوهم منه القدرة على شيء ما أصلاً ﴿قُلِ الحَمْدُ لله ﴾ على إظهار الحجة واعترافهم بما يلزمهم، وقيل: حمده عليه الصلاة والسلام على العصمة مما هم عليه من الضلال حيث أشركوا مع اعترافهم بأن أصول النعم وفروعهما منه جلَّ جلاله فيكون كالحمد عند رؤية المبتلى، وقيل: يجوز أن يكون حمداً على هذا وذاك ﴿بَلْ أَكْثَرُهُم لا يَعْقِلُونَ ﴾ ما يقولون وما فيه من الدلالة على بطلان الشرك وصحة التوحيد أو لا يعقلون شيئاً من الأشياء فلذلك لا يعملون بمقتضى قولهم هذا فيشركون به سبحانه أخس مخلوقاته، قيل: إضراب عن جهلهم الخاص في الإتيان بما هو حجة عليهم إلى أن ذلك لأنهم مسلوبو العقول فلا يبعد عنهم مثله، وقوله تعالى: ﴿قل الحمد الله ﴾معترض وجعله الزمخشري في سورة لقمان إلزاماً وتقريراً لاستحقاقه تعالى العبادة، وقيل: ﴿لا يعقلون ﴾ ما تريد بتحميدك عند مقالهم ذلك، ولم يرتضه بعض المحققين لخفائه وقلة جدواه وتكلف توجيه الإضراب فيه.

﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ إشارة تحقير وكيف لا والدنيا لا تزن عند الله تعالى جناح بعوضة، فقد أخرج الترمذي عن سهل بن سعد قال: «قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لو كانت الدنيا تعدل عند الله تعالى جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء».

وقال بعض العارفين: الدنيا أحقر من ذراع خنزير ميت بال عليها كلب بيد مجذوم، ويعلم مما ذكر حقارة ما فيها من الحياة بالطريق الأولى ﴿إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ أي إلاَّ كما يلهو ويلعب به الصبيان يجتمعون عليه ويبتهجون به ساعة ثم يتفرقون عنه، وهذا من التشبيه البليغ ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ ﴾ أي لهي دار الحياة الحقيقية إذ لا يعرض الموت والفناء لمن فيها أو هي ذاتها حياة للمبالغة، و ﴿الحيوان ﴾ مصدر حي سمي به ذو الحياة في غير هذا المحل، وأصله حييان فقلبت الياء الثانية واواً على خلاف القياس فلامه ياء وإلى ذلك ذهب سيبويه.

وقيل: إن لامه واو نظراً إلى ظاهر الكلمة وإلى حياة علم رجل، ولا حجة على كونه ياء في حي لأن الواو في مثله تبدل ياء لكسر ما قبلها نحو شقي من الشقوة، وهو أبلغ من الحياة لما في بناء فعلان من معنى الحركة والاضطراب اللازم للحياة ولذلك اختير عليها في هذا المقام المقتضى للمبالغة وقد علمتها في وصف الحياة الدنيا المقابلة للدار الآخرة ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ شرط جوابه محذوف أي لو كانوا يعلمون لما داروا عليها الدنيا التي

أصلها عدم الحياة، ثم ما يحدث فيها من الحياة عارضة سريعة الزوال وشيكة الاضمحلال وكون ﴿لو﴾ للتمني بعيد ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ﴾ متصل بما دلَّ عليه شرح حالهم، والركوب الاستعلاء على الشيء المتحرك وهو متعد بنفسه كما في ﴿لتركبوها﴾ [النحل: ٨] واستعماله هاهنا وفي أمثاله نفي للإيذان بأن المركوب في نفسه من قبيل الأمكنة وحركته قسرية غير إرادية، والفاء للتعقب وفي الكلام معنى الغاية فكأنه قيل: هم مصروفون عن توحيد الله تعالى مع إقرارهم بما يقتضيه لاهون بما هو سريع الزوال ذاهلون عن الحياة الأبدية حتى إذا ركبوا في الفلك ولقوا الشدائد ﴿دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي كائنين في صورة من أخلص دينه وملته أو طاعته من المؤمنين حيث لا يذكرون إلاَّ الله تعالى ولا يدعون سواه سبحانه لعلمهم بأنه لا يكشف الشدائد إلاَّ هو عزَّ وجلَّ وفيه تهكم به سواء أريد بالدين الملة أو الطاعة أما على الأول فظاهر، وأما على الثاني فلأنهم لا يستمرون على هذه الحال فهي قبيحة باعتبار المآل ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُون﴾ أي فاجؤوا المعاودة إلى الشرك ولم يتأخروا عنها ولا وقتاً.

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ الظاهر أن اللام في الموضعين لام كي أي يشركون ليكونوا كافرين بما آتيناهم من نعمة النجاة بسبب شركهم وليتمتعوا باجتماعهم على عبادة الأصنام وتوادهم عليها فالشرك سبب لهذا الكفران، وأدخلت لام كي على مسببه لجعله كالغرض لهم منه فهي لام العاقبة في الحقيقة، وقيل: اللام فيهما لام الأمر والأمر بالكفران والتمتع مجاز في التخلية والخذلان والتهديد كما تقول عند الغضب على من يخالفك: افعل ما شئت، ويؤيده قراءة ابن كثير، والأعمش، وحمزة، والكسائي «وليتمتعوا» بسكون اللام فإن لام كي لا تسكن، وإذا كانت الثانية لذلك لام الأمر فالأولى مثلها ليتضح العطف، وتخالفهما محوج الى التكلف بأن يكون المراد كما قال أبو حيان عطف كلام على كلام لا عطف فعل على فعل، وقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي عاقبة ذلك حين يعاقبون عليه يوم القيامة مؤيد للتهديد ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ ألم ينظروا ولم يشاهدوا ﴿أَنَّا جَعَلْنَا﴾ أي بلدهم ﴿حَرَماً﴾ مكاناً حرم فيه كثير مما ليس بمحرم في غيره من المواضع ﴿آمناً﴾ أهله عما يسوءهم من السبي والقتل على أن أمنه كناية عن أمن أهله أو على أن الإسناد مجازي أو على أن في الكلام مضافاً مقدراً، وتخصيص أهل مكة وأن أمن كل من فيه حتى الطيور والوحوش لأن المقصود الامتنان عليهم ولأن ذلك مستمر في حقهم. وأخرج جويبر عن الضحاك عن ابن عباس أن أهل مكة قالوا: يا محمد ما يمنعنا أن ندخل في دينك إلا مخافة أن يتخطفنا الناس لقلتنا والعرب أكثر منَّا فمتى بلغهم أنَّا قد دخلنا في دينك اختطفنا فكلنا أكلة رأس فأنزل الله تعالى: ﴿أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً﴾ ﴿وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ يختلسون من حولهم قتلاً وسبياً إذا كانت العرب حوله في تغاور وتناهب. والظاهر أن الجملة حالية بتقدير مبتدأ أي وهم يتخطف الخ ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ أن أبعد ظهور الحق الذي لا ريب فيه أو أبعد هذه النعمة المكشوفة وغيرها بالصنم، وقيل: بالشيطان يؤمنون ﴿وبنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُون﴾ وهي المستوجبة للشكر حيث يشركون به تعالى غيره سبحانه، وتقديم الصلة في الموضعين للاهتمام بها لأنها مصب الإنكار أو للاختصاص على طريق المبالغة لأن الإيمان إذا لم يكن خاصاً لا يعتد به ولأن كفران غير نعمته عزَّ وجلَّ بجنب كفرانها لا يعد كفراناً.

وقرأ السلمي، والحسن «تؤمنون» و «تكفرون» بتاء الخطاب فيهما ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً﴾ بأن زعم أن له سبحانه شريكاً وكونه كذبا على الله تعالى لأنه في حقه فهو كقولك: كذب على زيد اذا وصفه بما ليس فيه ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ﴾ يعني الرسول أو الكتاب ﴿لَمَّا جَاءَهُ﴾ أي حين مجيئه إياه، وفيه تسفيه لهم حيث لم يتأملوا ولم يتوقفوا حين جاءهم بل سارعوا إلى التكذيب أول ما سمعوه.

﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِّلْكَافِرِينَ﴾ أي ثواء وإقامة لهم أو مكان يثوون فيه ويقيمون، والكلام على كلا الوجهين تقرير لثوائهم في جهنم لأن الاستفهام فيه معنى النفي وقد دخل على نفي ونفي النفي إثبات كما في قول جرير:

ألستم خير من ركب المطايا ... وأندى العالمين بطون راح

أي ألا يستوجبون الثواء أو المكان الذي يثوى فيه فيها وقد افتر وأمثل هذا الكذب على الله تعالى وكذبوا بالحق مثل هذا التكذيب أو إنكار واستبعاد لاجترائهم على ما ذكر من الافتراء والتكذيب مع علمهم بحال الكفرة أي ألم يعلموا أن في جهنم مثوى للكافرين حتى اجترؤوا هذه الجرأة، وجعلهم عالمين بذلك لوضوحه وظهوره فنزلوا منزلة العالم به، والتعريف في ﴿الكافرين﴾ على الأول للعهد فالمراد بهم أولئك المحدث عنهم وهم أهل مكة، وأقيم الظاهر مقام الضمير لتعليل استيجابهم المثوى، ولا ينافي كون ظاهره أن العلة افتراؤهم وتكذيبهم لأنه لا يغايره والتعليل يقبل التعدد، وعلى الثاني للجنس فالمراد مطلق جنس الكفرة ويدخل أولئك فيه دخولاً أولياً برهانياً ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ في شأننا ومن أجلنا ولوجهنا خالصاً ففيه مضاف مقدر، وقيل: لا حاجة إلى التقدير بحمل الكلام على المبالغة بجعل ذات الله سبحانه مستقراً للمجاهدة واطلقت المجاهدة لتعم مجاهدة الأعادي الظاهرة والباطنة بأنواعهما ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ سبل السير إلينا والوصول إلى جنابنا، والمراد نزيدنهم هداية إلى سبل الخير وتوفيقاً لسلوكها فإن الجهاد هداية أو مرتب عليها، وقد قال تعالى: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى﴾ [محمد: ١٧] وفي الحديث «من عمل بما علم ورثه الله تعالى علم ما لم يعلم».

ومن الناس من أول ﴿جاهدوا﴾: بأرادوا الجهاد وأبقى ﴿لنهدينهم﴾ على ظاهره، وقال السدي: المعنى والذين جاهدوا بالثبات على الإيمان لنهدينهم سبلنا الى الجنة، وقيل: المعنى والذين جاهدوا في الغزو لنهدينهم سبل الشهادة والمغفرة، وما ذكر أولاً أولى، والموصول مبتدأ وجملة القسم وجوابه خبره نظير ما مر من قوله: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفاً﴾ [العنكبوت: ٥٨].

﴿وَإِنَّ اللهَ﴾ المتصف بجميع صفات الكمال الذي بلغت عظمته في القلوب ما بلغت ﴿لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ معية النصرة والمعونة وتقدم الجهاد المحتاج لهما قرينة قوية على إرادة ذلك، وقال العلامة الطيبي: إن قوله تعالى: ﴿لمع المحسنين﴾ قد طابق قوله سبحانه: ﴿جاهدوا﴾ لفظاً ومعنى، أما اللفظ فمن حيث الإطلاق في المجاهدة والمعية، وأما المعنى فالمجاهد للأعداء يفتقر الى ناصر ومعين، ثم إن جملة قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إن الله لمع المحسنين﴾ تذييل للآية مؤكد بكلمتي التوكيد محلى باسم الذات ليؤذن بأن من جاهد بكليته وشراشره في ذاته جلَّ وعلا تجلى له الرب عزَّ اسمه الجامع في صفة النصرة والإعانة تجلياً تاماً، ثم إن هذه خاتمة شريفة للسورة لأنها مجاوبة لمفتتحها ناظرة الى فريدة قلادتها ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون﴾ [العنكبوت: ٢] لامحة الى واسطة عقدها ﴿يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون﴾ [العنكبوت: ٥٦] وهي في نفسها جامعة فاذة ا هـ.

و﴿أل﴾ في المحسنين يحتمل أن تكون للعهد فالمراد بالمحسنين الذين جاهدوا، ووجه إقامة الظاهر مقام الضمير ظاهر وإلى ذلك ذهب الجمهور، ويحتمل أن يكون للجنس فالمراد بهم مطلق جنس من أتى بالأفعال الحسنة ويدخل أولئك دخولاً أولياً برهانياً. وقد روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه فسر ﴿المحسنين﴾ بالموحدين وفيه تأييد ما للاحتمال الثاني والله تعالى أعلم.

ومن باب الإشارة في الآيات **﴿أحسب الناس أن يتركوا﴾** الآية قال ابن عطاء: ظن الخلق أنهم يتركون مع دعاوى المحبة ولا يطالبون بحقائقها وهي صب البلاء على المحب وتلذذه بالبلاء الظاهر والباطن، وهذا كما قال العارف ابن الفارض قدس سره:

وتعذيبكم عذب لديّ وجوركم ... علي بما يقضي الهوى لكم عدل

وذكروا أن المحبة والمحنة توأمان «وبالامتحان يكرم الرجل أو يهان» **﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله﴾** إشارة إلى حال الكاذبين في دعوى المحبة وهم الذين يصرفون عنها بأذى الناس لهم **﴿إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون﴾** قال ابن عطاء: أي اطلبوا الرزق بالطاعة والإقبال على العبادة، وقال سهل: اطلبوه في التوكل لا في المكسب فإن طلب الرزق فيه سبيل العوام **﴿وقال إني مهاجر إلى ربي﴾** أي مهاجر من نفسي ومن الكون إليه عزَّ وجلَّ، وقال ابن عطاء: أي راجع إلى ربي من جميع ما لي وعليّ، والرجوع إليه عزَّ وجلَّ بالانفصال عما دونه سبحانه، ولا يصح لأحد الرجوع إليه تعالى وهو متعلق بشيء من الكون بل لا بد أن ينفصل من الأكوان أجمع **﴿وتأتون في ناديكم المنكر﴾** سئل الجنيد قدس سره عن هذه الآية فقال: كل شيء يجتمع الناس عليه إلا الذكر فهو منكر **﴿مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت﴾** أشار سبحانه وتعالى إلى من اعتمد على غير الله عزَّ وجلَّ في أسباب الدنيا والآخرة فهو منقطع عن مراده غير واصل إليه، قال ابن عطاء: من اعتمد شيئاً سوى الله تعالى كان هلاكه في نفس ما اعتمد عليه، ومن اتخذ سواه علَّ وجلَّ ظهيراً قطع عن نفسه سبيل العصمة ورد إلى حوله وقوته.

﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾ فيه إشارة إلى أن دقائق المعارف لا يعرفها إلا أصحاب الأحوال العالمون به تعالى وبصفاته وسائر شؤونه سبحانه لأنهم علماء المنهج، وذكر أن العالم على الحقيقة من يحجزه علمه عن كل ما يبيحه العلم الظاهر، وهذا هو المؤيد عقله بأنوار العلم اللدني **﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾** ذكر أن حقيقة الصلاة حضور القلب بنعت الذكر والمراقبة بنعت الفكر فالذكر في الصلاة يطرد الغفلة التي هي الفحشاء والفكر يطرد الخواطر المذمومة وهي المنكر، هذا في الصلاة وبعدها تنهى هي إذا كانت صلاة حقيقية وهي التي انكشف فيها لصاحبها جمال الجبروت وجلال الملكوت وقرت عيناه بمشاهدة أنوار الحق جلَّ وعلا عن رؤية الأعمال والأعواض، وقال جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه: الصلاة إذا كانت مقبولة تنهى عن مطالعات الأعمال والأعواض **﴿ولذكر الله أكبر﴾** قال ابن عطاء: أي ذكر الله تعالى لكم أكبر من ذكركم له سبحانه لأن ذكره تعالى بلا علة وذكركم مشوب بالعلل والأماني والسؤال، وأيضاً ذكره تعالى صفته وذكركم صفتكم ولا نسبة بين صفة الخالق جل شأنه وبين صفة المخلوق وأين التراب من رب الأرباب **﴿بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم﴾** فيه إشارة إلى أن عرائس حقائق القرآن لا تنكشف إلا لأرواح المقربين من العارفين والعلماء الربانيين لأنها أماكن أسرار الصفات وأوعية لطائف كشوف الذات، قال الصادق على آبائه وعليه السلام: لقد تجلى الله تعالى في كتابه لعباده ولكن لا يبصرون **﴿يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون﴾** قال سهل: إذا عمل بالمعاصي والبدع في أرض فاخرجوا منها إلى أرض المطيعين، وكأن هذا لئلا تنعكس ظلمة معاصي العاصين على قلوب الطائعين فيكسلوا عن الطاعة، وذكروا أن سفر المريد سبب للتخلية والتحلية، وإليه الإشارة بما أخرجه الطبراني والقضاعي، والخطيب، والشيرازي في الألقاب، والخطيب وابن النجار، والبيهقي عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما

قال: «قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: سافروا تصحوا وتغنموا كل نفس ذائقة الموت فلا يمنعكم خوف الموت من السفر ﴿وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله برزقها وإياكم﴾ فلا يمنعكم عنه فقد الزاد أو العجز عن حمله ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ قال ابن عطاء: أي الذين جاهدوا في رضانا لنهدينهم إلى محل الرضا، والمجاهدة كما قال: الافتقار الى الله تعالى بالانقطاع عن كل ما سواه، وقال بعضهم: أي الذين شغلوا ظواهرهم بالوظائف لنوصلن أسرارهم إلى اللطائف، وقيل: أي الذين جاهدوا نفوسهم لأجلنا وطلباً لنا لنهدينهم سبل المعرفة بنا والوصول إلينا، ومن عرف الله تعالى عرف كل شيء ومن وصل إليه هان عنده كل شيء، كان عبد الله بن المبارك يقول: من اعتاصت عليه مسألة فليسأل أهل الثغور عنها لقوله تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ وجهاد النفس هو الجهاد الأكبر نسأل الله تعالى التوفيق لما يحب ويرضى والحفظ التام من كل شر بحرمة حبيبه سيد البشر صلى الله تعالى عليه وسلم.

(٣٠) سُورَةُ الرُّومِ مَكِّيَّةٌ
وَآيَاتُهَا سِتُّونَ

ستون آية مكية إلا آية ١٧ فمدنية ، نزلت بعد الانشقاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ألم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، فى بضع سنين ﴾

وجه تعلق أول هذه السورة بما قبلها يتبين منه سبب النزول ، فنقول لما قال الله تعالى فى السورة المتقدمة (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن) وكان يجادل المشركين بنسبتهم إلى عدم العقل كما فى قوله (صم بكم عمى فهم لا يعقلون) وكان أهل الكتاب يوافقون النبى فى الإله كما قال (وإلهنا وإلهكم واحد) وكانوا يؤمنون بكثير مما يقولهبل كثير منهم كانوا مؤمنين به كما قال (والذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به) أى أبغض المشركون أهل الكتاب وتركوا مراجعتهم وكانوا من قبل يراجعونهم فى الأمور ، فلما وقعت الكرة عليهم حين قاتلهم الفرس المجوس فرح المشركون بذلك ، فأنزل الله تعالى هذه الآيات لبيان أن الغلبة لا تدل على الحق ، بل الله تعالى قد يريد مزيد ثواب فى المحب فيبتليه ويسلط عليه الأعادى ، وقد يختار تعجيل العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر قبل يوم الميعاد للمعادى ، وفى الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ ما الحكمة فى افتتاح هذه السورة بحروف التهجى؟ فنقول قد سبق منا أن كل سورة افتتحت بحروف التهجى فإن فى أوائلها ذكر الكتاب أو التنزيل أو القرآن كما فى قوله تعالى (الم ذلك الكتاب) ، (المص كتاب) ، (طه ما أنزلنا عليك القرآن) ، (الم تنزيل الكتاب) ، (حم تنزيل من الرحمن الرحيم) ، (يس والقرآن) ، (ص والقرآن) إلا هذه السورة وسورتين أخريين ذكرناهما فى العنكبوت وقد ذكرنا ما الحكمة فيهما فى موضعهما فنقول ما يتعلق بهذه السور وهو أن السورة التى فى أوائلها التنزيل والكتاب والقرآن فى أوائلها ذكر ما هو معجزة فقدمت عليها الحروف على ماتقدم بيانه فى العنكبوت وهذه ذكر فى أولها ماهو معجزة وهو الإخبار عن الغيب ، فقدمت الحروف التى لايعلم معناها ليتنبه السامع فيقبل بقلبه على الاستماع ، ثم ترد عليه المعجزة وتقرع الأسماع .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله تعالى (فى أدنى الأرض) أى أرض العرب ، لأن الألف واللام

فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾

للتعريف والمعهود عندهم أرضهم وقوله تعالى (وهم من بعد غلبهم) أية فائدة فى ذكره مع أن قوله (سيغلبون) بعد قوله (غلبت الروم) لا يكون إلا من بعد الغلبة؟ فنقول الفائدة فيه إظهار القدرة وبيان أن ذلك بأمر الله لأن من غلب بعد غلبه لا يكون إلا ضعيفاً ، فلو كان غلبتهم لشوكتهم لكان الواجب أن يغلبوا قبل غلبهم فاذا غلبوا بعد ما غلبوا ، دل على أن ذلك بأمر الله ، فذكر من بعد غلبهم ليتفكروا فى ضعفهم ويتذكروا أنه ليس بزحفهم ، وإنما ذلك بأمر الله تعالى وقوله (فى أدنى الأرض) لبيان شدة ضعفهم ، أى انتهى ضعفهم إلى أن وصل عدوهم إلى طريق الحجاز وكسروهم وهم فى بلادهم ثم غلبوا حتى وصلوا إلى المدائن وبنوا هناك الرومية لبيان أن هذه الغلبة العظيمة بعد ذلك الضعف العظيم باذن الله .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال تعالى (فى بضع سنين) قيل هى ما بين الثلاثة والعشرة ، أبهم الوقت الوقت مع أن المعجزة فى تعيين الوقت أتم فنقول السنة والشهر واليوم والساعة كلها معلومة عند الله تعالى وبينها لنبيه وما أذن له فى إظهارها لأن الكفار كانوا معاندين والأمور التى تقع فى البلاد النائية تكون معلومة الوقوع بحيث لا يمكن إنكارها لكن وقتها يمكن الاختلاف فيه فالمعاند كان يتمكن من أن يرجف بوقوع الواقعة قبل الوقوع ليحصل الخلف فى كلامه ولما وردت الآية ذكر أبو بكر رضى الله عنه أن الروم ستغلب وأنكره أبى بن خلف وغيره ، وناحبوا أبا بكر أى خاطروه على عشرة قلائص إلى ثلاث سنين فقال عليه السلام لأبى بكر البضع ما بين الثلاثة والعشرة فزايده فى الإبل وماده فى الأجل فجعلا القلائص مائة والأجل سبعاً ، وهذا يدل على علم النبي عليه السلام بوقت الغلبة .

قوله تعالى : ﴿ لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون ﴾

ثم قال تعالى (لله الأمر من قبل ومن بعد) أى من قبل الغلبة ومن بعدها أو من قبل هذه المدة ومن بعدها ، يعنى إن أراد غلبهم غلبهم قبل بضع سنين وإن أراد غلبهم غلبهم بعدها ، وما قدر هذه المدة لعجز وإنما هى إرادة نافذة ، وبنيا على الضم لما قطعا عن الاضافة لأن غير الضمة من الفتحة والكسرة يشتبه بما يدخل عليهما وهو النصب والجر ، أما النصب ففى قولك جئت قبله أو بعده ، وأما الجر ففى قولك من قبله ومن بعده فنيا على الضم لعدم دخول مثلهما عليه فى الاعراب وهو الرفع (ويومئذ يفرح المؤمنون) قيل يفرحون بغلبة الروم على الفرس كما فرح المشركون بغلبة الفرس على الروم ، والأصح أنهم يفرحون بغلبتهم المشركين وذلك لأن غلبة الروم كانت يوم غلبة المسلمين المشركين ببدر، ولو كان المراد ما ذكروه لما صح لأن فى ذلك اليوم بعينه لم يصل إليهم خبر الكسر فلا يكون فرحهم يومئذ بل الفرح يحصل بعده .

بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ

ثم قال تعالى : ﴿ بنصر الله ينصر من يشاء [وهو العزيز الرحيم ، وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ .

قوله] تعالى (بنصر الله ينصر من يشاء) قدم المصدر على الفعل حيث قال (بنصر الله ينصر) وقدم الفعل على المصدر فى قوله (وأيدك بنصره) وذلك لأن المقصود ههنا بيان أن النصرة بيد الله إن أراد نصر وإن لم يرد لا ينصر ، وليس المقصود النصرة ووقوعها والمقصود هناك إظهار النعمة عليه بأنه نصره ، فالمقصود هناك الفعل ووقوعه فقدم هناك الفعل ، ثم بين أن ذلك الفعل مصدره عند الله ، والمقصود ههنا كون المصدر عند الله إن أراد فعل فقدم المصدر .

ثم قال تعالى (وهو العزيز الرحيم) ذكر من أسمائه هذين الأسمين لأنه إن لم ينصر المحب بل سلط العدو عليه فذلك لعزته وعدم افتقاره ، وإن نصر المحب فذلك لرحمته عليه ، أو نقول إن نصر الله المحب فلعزته واستغنائه عن العدو ورحمته على المحب ، وإن لم ينصر المحب فلعزته واستغنائه عن المحب ورحمته فى الآخرة واصلة إليه .

ثم قال تعالى (وعد الله لا يخلف الله وعده) يعنى سيغلبون وعدهم الله وعداً ووعد الله لا خلف فيه ، قوله تعالى (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أى لا يعلمون وعده وأنه لا خلف فى وعده .

ثم قال تعالى (يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا) يعنى علمهم منحصر فى الدنيا وأيضاً لا يعلمون الدنيا كما هى وإنما يعلمون ظاهرها وهى ملاذها وملاعبها ، ولا يعلمون باطنها وهى مضارها ومتاعبها ويعلمون وجودها الظاهر ، ولا يعلمون فناءها (وهم عن الآخرة هم غافلون) والمعنى هم عن الآخرة غافلون ، وذكرت هم الثانية لتفيد أن الغفلة منهم وإلا فأسباب التذكر حاصلة وهذا كما يقول القائل لغيره غفلت عن أمرى ، فإذا قال هو شغلنى فلان فيقول ما شغلك ولكن نت اشتغلت .

ثم قال تعالى : ﴿ أو لم يتفكروا فى أنفسهم [ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق

لَكَـٰفِرُونَ ﴿٨﴾

وأجل مسمى وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون ﴾ .

قوله] تعالى (أو لم يتفكروا فى أنفسهم) لما صدر من الكفار الإنكار بالله عند إنكار وعد الله وعدم الخلف فيه كما قال تعالى (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) والإنكار بالحشر كما قال تعالى (وهم عن الآخرة هم غافلون) بين أن الغفلة وعدم العلم منهم بتقدير الله وإلا فأسباب التذكر حاصلة وهو[أن] أنفسهم لو تفكروا فيها لعلموا وحدانية الله وصدقوا بالحشر ، أما الوحدانية فلأن الله خلقهم على أحسن تقويم ، ولنذكر من حسن خلقهم جزأ من ألف ألف جزء وهو أن الله تعالى خلق للانسان معدة فيها ينهضم غذاؤه لتقوى به أعضاؤه ولها منفذان أحدهما لدخول الطعام فيه ، والآخر لخروج الطعام منه ، فإذا دخل الطعام فيها انطبق المنفذ الآخر بعضه على بعض بحيث لايخرج منه ذرة ولا بالرشح ، وتمسكه الماسكة إلى أن ينضج نضجاً صالحاً، ثم يخرج من المنفذ الآخر ، وخلق تحت المعدة عروقاً دقاقاً صلاباً كالمصفاة التى يصفى بها الشيء فينزل منها الصافى إلى الكبد وينصب الثفل إلى معى مخلوق تحت المعدة مستقيم متوجهاً إلى الخروج ، وما يدخل فى الكبد من العروق المذكورة يسمى الماساريقا بالعبرية ، والعبرية عربية مفسودة فى الأكثر ، يقال لموسى ميشا وللاله إيل إلى غير ذلك ، فالماساريقا معناها ماساريق اشتمل عليه الكبد وأنضجه نضجاً آخر ، ويكون مع الغذاء المتوجه من المعدة إلى الكبد فضل ماء مشروب ليرقق وينذرق فى العروق الدقاق المذكورة ، وفى الكبد يستغنى عن ذلك الماء فيتميز عنه ذلك الماء وينصب من جانب حدبة الكبد إلى الكلية ومعه دم يسير تغتذى به الكلية وغيرها ، ويخرج الدم الخالص من الكبد فى عرق كبير ، ثم يتشعب ذلك النهر إلى جداول ، والجداول إلى سواق ، والسواقى إلى رواضع ويصل فيها إلى جميع البدن ، فهذه حكمة واحدة فى خلق الإنسان ، وهذه كفاية فى معرفة كون الله فاعلا مختاراً قادراً كاملا عالماً شاملا علمه ، ومن يكون كذلك يكون واحداً وإلا لكان عاجزاً عند إرادة شريكه ضد ما أراده . وأما دلالة الإنسان على الحشر فذلك لأنه إذا تفكر فى نفسه يرى قواه صائرة إلى الزوال ، وأجزاءه مائلة إلى الانحلال فله فناء ضرورى ، فلو لم يكن له حياة أخرى لكان خلقه على هذا الوجه للفناء عبثاً ، وإليه أشار بقوله (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً) وهذا ظاهر ، لأن من يفعل شيئاً للعبث فلو بالغ فى إحكامه وإتقانه يضحك منه ، فإذا خلقه للبقاء ولا بقاء دون اللقاء فالآخرة لابد منها ، ثم إنه تعالى ذكر بعد دليل الأنفس دليل الآفاق فقال (ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى) فقوله (إلا بالحق) إشارة إلى وجه دلالتها على الوحدانية ، وقد بينا ذلك فى قوله (خلق الله السموات والأرض بالحق إن فى ذلك لآية للمؤمنين) ونعيده فإن التكرير فى الذهن يفيد التقرير لذى الذهن ، فنقول إذا كان بالحق لايكون فيها بطلان

فلا يكون فيها فساد . لأن كل فاسد باطل وإذا لم يكن فيها فسادلا تكون آلهة وإلا لكان فيهافساد . كما قال تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) وقوله (وأجل مسمى) يذكر بالأصل الآخر الذى أنكروه

ثم قال تعالى (وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون) يعنى لا يعلمون أنه لا بد بعد هذه الحياة من لقاء وبقاء إما فى إسعاد أو شقاء ، وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قدم ههنا دلائل الأنفس على دلائل الآفاق ، وفى قوله تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم) قدم دلائل الآفاق ، وذلك لأن المفيد إذا أفاد فائدة يذكرها على وجه جيد يختاره فإن فهمه السامع المستفيد فذلك وإلا يذكرها على وجه أبين منه وينزل درجة فدرجة، وأما المستفيد فإنه يفهم أولا الأبين ، ثم يرتقى إلى فهم ذلك الأخفى الذى لم يكن فهمه فيفهمه بعد فهم الأبين المذكور آخراً ، فالمذكور من المفيد آخراً مفهوم عند السامع أولا ، إذا علم هذا فنقول ههنا الفعل كان منسوباً إلى السامع حيث قال (أولم يتفكروا فى أنفسهم) يعنى فيما فهموه أولا ولم يرتقوا إلى ما فهموه ثانياً ، وأما فى قوله (سنريهم) الأمر منسوب إلى المفيد المسمع فذكر (أولا) الآفاق فان لم يفهموه فالأنفس لأن دلائل الأنفس لاذهول للانسان عنها ، وهذا الترتيب مراعى فى قوله تعالى(الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم) أى يعلمون الله بدلائل الأنفس فى سائر الأحوال (ويتفكرون فى خلق السموات والأرض) بدلائل الآفاق .

﴿ المسألة الثانية ﴾ وجه دلالة الخلق بالحق على الوحدانية ظاهر . وأما وجه دلالته على الحشر فكيف هو؟ فنقول وقوع تخريب السموات وعدمها لا يعلم بالعقل إلا إمكانه ، وأما وقوعه فلا يعلم إلا بالسمع ، لأن الله قادر على إبقاء الحادث أبداً كما أنه يبقى الجنة والنار بعد إحداثهما أبداً ، والخلق دليل إمكان العدم . لأن المخلوق لم يجب له القدم فجاز عليه العدم ، فاذا أخبر الصادق عن أمر له إمكان وجب على العاقل التصديق والإذعان ، ولأن العالم لما كان خلقه بالحق فينبغى أن يكون بعد هذه الحياة حياة أخرى باقية لأن هذه الحياة ليست إلا لعباً ولهواً كما بين بقوله تعالى (وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب) وخلق السموات والأرض للهو واللعب عبث ، والعبث ليس بحق وخلق السموات والأرض بالحق فلا بد من حياة بعد هذه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال ههنا(كثيراً من الناس) وقال من قبل (ولكن أكثر الناس) وذلك لأنه من قبل لم يذكر دليلا على الأصلين ، وههنا قد ذكر الدلائل الواضحة والبراهين اللائحة ولاشك فى أن الإيمان بعد الدليل أكثر من الإيمان قبل الدليل ، فبعد الدلائل لابد من أن يؤمن من ذلك الأكثر جمع فلا يبقى الأكثر كما هو ، فقال بعد إقامة الدليل (وإن كثيراً) وقبله (ولكن أكثرهم) ثم بعد الدليل الذى لا يمكن الذهول عنه ، والدليل الذى لا يقع الذهول عنه وإن أمكن هو السموات والأرض لأن من البعيد أن يذهل الإنسان عن السماء التى فوقه والأرض التى تحته ، ذكر ما يقع الذهول عنه وهو أمر أمثالهم وحكاية أشكالهم .

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (١٠)

فقال تعالى ﴿ أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ .

وقال فى الدليلين المتقدمين (أو لم يروا) ولم يقل (أو لم يسيروا) إذ لا حاجة هناك إلى السير بحضور النفس والسماء والأرض وقال ههنا (أو لم يسيروا فينظروا) ذكرهم بحال أمثالهم ووبال أشكالهم ، ثم ذكر أنهم أولى بالهلاك لأن من تقدم من عاد وثمود كانوا أشد منهم قوة ولم تنفعهم قواهم وكانوا أكثر مالا وعمارة ، ولم يمنع عنهم الهلاك أموالهم وحصونهم ، واعلم أن اعتماد الإنسان على ثلاثة أشياء قوة جسمية فيه أو فى أعوانه إذ بها المباشرة وقوة مالية إذا بها التأهب للمباشرة ، وقوة ظهرية يستند اليها عند الضعف والفتور وهى بالحصون والعمائر ، فقال تعالى :كانوا أشد منهم قوة فى الجسم وأكثر منهم مالا لأنهم أثاروا الأرض أى حرثوها ، ومنه بقرة تثير الأرض ، وقيل منه سمى ثوراً ، وأنتم لا حراثة لكم فأموالهم كانت أكثر ، وعمارتهم كانت أكثر لأن أبنيتهم كانت رفيعة وحصونهم منيعة ، وعمارة أهل مكة كانت يسيرة ثم هؤلاء جاءتهم رسلهم بالبينات وأمروهم ونهوهم ، فلما كذبوا أهلكوا فكيف أنتم ، وقوله (فما كان الله ليظلمهم) يعنى لم يظلمهم بالتكليف ، فان التكليف شريف لا يؤثر له إلا محل شريف ولكن هم ظلموا أنفسهم بوضعها فى موضع خسيس ، وهو عبادة الأصنام واتباع إبليس ، فكأن الله بالتكليف وضعهم فيما خلقوا له وهو الربح ، لأنه تعالى قال خلقتكم لتربحوا على لالأربح عليكم ، والوضع فى[أى]موضع كان الخلق له ليس بظلم ، وأماهم فوضعوا أنفسهم فى مواضع الخسران ولم يكونوا خلقوا إلا للربح فهم كانوا ظالمين ، وهذا الكلام منا وإن كان فى الظاهر يشبه كلام المعتزلة لكن العاقل يعلم كيف يقوله أهل السنة ، وهو أن هذا الوضع كان بمشيئة الله وإرادته ، لكنه كان منهم ومضافاً إليهم .

ثم قال تعالى : ﴿ ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوآى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون ﴾

ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ

كما قال (للذين أحسنوا الحسنى) وقوله تعالى (أن كذبوا) قيل معناه بأن كذبوا أى كان عاقبتهم ذلك بسبب أنهم كذبوا ، وقيل معناه أساءوا وكذبوا فكذبوا يكون تفسيراً لأساؤا وفى هذه الآية لطائف (إحداها) قال فى حق الذين أحسنوا (للذين أحسنوا الحسنى) وقال فى حق من أساء (ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوآى) إشارة إلى أن الجنة لهم من ابتداء الأمر فان الحسنى اسم الجنة والسوآى اسم النار ، فاذا كانت الجنة لهم ومن الابتداء ، ومن له شىء كلما يزداد وينمو فيه فهو له ، لأن ملك الأصل يوجب ملك الثمرة ، فالجنة من حيث خلقت تربو وتنمو للمحسنين ، وأما الذين أساؤا ، فالسوآى وهى جهنم فى العاقبة مصيرهم إليها (الثانية) ذكر الزيادة فى حق المحسن ولم يذكر الزيادة فى حق المسىء لأن جزاء سيئة سيئة مثلها (الثالثة) لم يذكر فى المحسن أن له الحسنى بأنه صدق ، وذكر فى المسىء أن له السوآى بأنه كذب ، لأن الحسنى للمحسنين فضل والمتفضل لو لم يكن تفضله لسبب يكون أبلغ ، وأما السوآى للمسىء عدل والعادل إذا لم يكن تعذيبه لسبب لايكون عدلا فذكر السبب فى التعذيب وهو الإصرار على التكذيب ، ولم يذكر السبب فى الثواب .

ثم قال تعالى : ﴿ الله يبدؤ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون ﴾ .

لما ذكر أن عاقبتهم إلى الجحيم وكان فى ذلك إشارة إلى الإعادة والحشر لم يتركه دعوى بلا بينة فقال يبدأ الخلق ، يعنى من خلق بالقدرة والارادة لايعجز عن الرجعة والإعادة فإليه ترجعون ، ثم بين ما يكون وقت الرجوع إليه فقال :

﴿ ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين ﴾ .

فى ذلك اليوم يتبين إفلاسهم ويتحقق إبلاسهم ، والإبلاس يأس مع حيرة ، يعنى يوم تقوم الساعة يكون للمجرم يأس محير لايأس هو إحدى الراحتين ، وهذا لأن الطمع إذا انقطع باليأس فاذا كان المرجو أمراً غير ضرورى يستريح الطامع من الانتظار وإن كان ضرورياً بالإبقاء له بوونه ينفطر فؤاده أشد انفطار ، ومثل هذا اليأس هو الإبلاس ولنبين حال المجرم وإبلاسه بمثال ، وهو أن نقول مثله مثل من يكون فى بستان وحواليه الملاعب والملاهى ، ولديه مايفتخر به ويباهى ، فيخبره صادق بمجىء عدو لايرده راد ، ولا يصده صاد ، إذا جاءه لايبلعه ريقاً ، ولا يترك له الى الخلاص طريقاً ، فيتحتم عليه الاشتغال بسلوك طريق الخلاص فيقول له طفل أو

وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾

مجنون إن هذه الشجرة التى أنت تحتها لها من الخواص دفع الأعادى عمن يكون تحتها ، فيقبل ذلك الغافل على استيفائه ملاذه معتمداً على الشجرة بقول ذلك الصبى فيجيئه العدو ويحيط به ، فأول مايريه من الأهوال قلع تلك الشجرة فيبقى متحيراً آيساً ، مفتقراً ، فكذلك المجرم فى دار الدنيا أقبل على استيفاء اللذات وأخبره النبى الصادق بأن الله يجزيه ، ويأتيه عذاب يخزيه ، فقال له الشيطان والنفس الأمارة بالسوء إن هذه الأخشاب التى هى الأوثان دافعة عنك كل باس ، وشافعة لك عند خمود الحواس ، فاشتغل بما هو فيه واستمر على غيه حتى إذا جاءته الطامة الكبرى فأول ما أرته إلقاء الأصنام فى النار فلا يجد إلى الخلاص من طريق ، ويحق عليه عذاب الحريق ، فييأس حينئذ أى إياس ويبلس أشد إبلاس . وإليه الإشارة بقوله تعالى (ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين) يعنى يكفرون بهم ذلك اليوم .

ثم قال تعالى : ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون ﴾

ثم بين أمراً آخر يكون فى ذلك اليوم وهو الافتراق كما قال تعالى فى آية أخرى (وامتازوا اليوم أيها المجرمون) فكان هذه الحالة مترتبة على الإبلاس ، فكأنه أولا يبلس ثم يميز ويجعل فريق فى الجنة وفريق فى السعير ، وأعاد قوله (ويوم تقوم الساعة) لأن قيام الساعة أمر هائل فكرره تأكيداً للتخويف ، ومنه اعتاد الخطباء تكرير يوم القيامة فى الخطب لتذكير أهواله .

ثم بين كيفية التفرق فقال تعالى :

﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون ﴾ أى فى جنة يسرون بكل مسرة ﴿ وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك فى العذاب محضرون ﴾

يعنى لاغيبة لهم عنه ولا فتور له عنهم كما قال تعالى (كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها) وقال (لا يفتر عنهم العذاب) وفى الآيتين مسائل فيها لطائف :

﴿ المسألة الأولى ﴾ بدأ بذكر حال الذين آمنوا مع أن الموضع موضع ذكر المجرمين ، وذلك لأن المؤمن يوصل إليه الثواب قبل أن يوصل إلى الكافر العقاب حتى يرى ويتحقق أن المؤمن وصل إلى الثواب فيكون أنكى ، ولو أدخل الكافر النار أولا لكان يظن أن الكل فى العذاب مشتركون ، فقدم ذلك زيادة فى إيلامهم ،

فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكر فى المؤمن العمل الصالح ولم يذكر فى الكافر العمل السيء ، لأن العمل الصالح معتبر مع الإيمان ، فإن الإيمان المجرد مفيد للنجاة دون رفع الدرجات ولا يبلغ المؤمن الدرجة العالية إلا بإيمانه وعمله الصالح ، وأما الكافر فهو فى الدركات بمجرد كفره فلو قال : والذين كفروا وعملوا السيئات فى العذاب محضرون ، لكان العذاب لمن يصدر منه المجموع ، فان قيل فمن يؤمن ويعمل السيئات غير مذكور فى القسمين ، فنقول له منزلة بين المنزلتين لا على مايقوله المعتزلة ، بل هو فى الأول فى العذاب ولكن ليس من المحضرين دوام الحضور ، وفى الآخرة هو فى الرياض ولكنه ليس من المحبورين غاية الحبور كل ذلك بحكم الوعد .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال فى الأول (فى روضة) على التنكير ، وقال فى الآخر فى العذاب على التعريف ، لتعظيم الروضة بالتنكير ، كما يقال لفلان مال وجاه ، أى كثير وعظيم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال فى الأول (يحبرون) بصيغة الفعل ولم يقل محبورون ، وقال فى الآخر (محضرون) بصيغة الإسم ولم يقل يحضرون ، لأن الفعل ينبيء عن التجدد والاسم لا يدل عليه فقوله (يحبرون) يعنى يأتيهم كل ساعة أمر يسرون به . وأما الكفار فهم إذا دخلوا العذاب يبقون فيه محضرين .

ثم قال تعالى : ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، وله الحمد فى السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون ، يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون ﴾

لما بين الله تعالى عظمته فى الابتداء بقوله (ماخلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق) وعظمته فى الانتهاء ، وهو حين تقوم الساعة ويفترق الناس فريقين ، ويحكم على البعض بأن هؤلاء للجنة ولا أبالى ، وهؤلاء إلى النار ولا أبالى ، أمر بتنزيهه عن كل سوء ويحمده على كل حال فقال (فسبحان الله) أى سبحوا الله تسبيحاً ، وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى معنى سبحان الله ولفظه ، أما لفظه ففعلان اسم للمصدر الذى هو التسبيح ، سمى التسبيح بسبحان وجعل علماً له . وأما المعنى فقال بعض المفسرين : المراد منه الصلاة ، أى صلوا ، وذكروا أنه أشار إلى الصلوات الخمس ، وقال بعضهم أراد به التنزيه ، أى نزهوه عن

صفات النقص وصفوه بصفات الكمال ، وهذا أقوى والمصير إليه أولى ، لأنه يتضمن الأول . وذلك لأن التنزيه المأمور به يتناول التنزيه بالقلب ، وهو الاعتقاد الجازم وباللسان مع ذلك ، وهو الذكر الحسن وبالأركان معهما جميعاً وهو العمل الصالح ، والأول هو الأصل ، والثانى ثمرة الأول والثالث ثمرة الثانى ، وذلك لأن الإنسان إذا اعتقد شيئاً ظهر من قلبه على لسانه ، وإذا قال ظهر صدقه فى مقاله من أحواله وأفعاله ، واللسان ترجمان الجنان والأركان برهان اللسان ، لكن الصلاة أفضل أعمال الأركان ، وهى مشتملة على الذكر باللسان والقصد بالجنان ، وهو تنزيه فى التحقيق ، فاذا قال نزهونى ، وهذا نوع من أنواع التنزيه ، والأمر المطلق لا يختص بنوع دون نوع فيجب حمله على كل ما هو تنزيه فيكون أيضاً هذا أمراً بالصلاة ، ثم إن قولنا يناسب ما تقدم ، وذلك لأن الله تعالى لما بين أن المقام الأعلى والجزاء الأوفى لمن آمن وعمل الصالحات حيث قال (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون) قال إذا علمتم أن ذلك المقام لمن آمن وعمل الصالحات والإيمان تنزيه بالجنان وتوحيد باللسان والعمل الصالح استعمال الأركان والكل تنزيهات وتحميدات ، فسبحان الله أى فأتوا بذلك الذى هو الموصل إلى الحبور فى الرياض ، والحضور على الحياض .

﴿ المسألة الثانية ﴾ خص بعض الأوقات بالأمر بالتسبيح وذلك لأن أفضل الأعمال أدومها ، لكن أفضل الملائكة ملازمون للتسبيح على الدوام كما قال تعالى (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) والانسان مادام فى الدنيا لا يمكنه أن يصرف جميع أوقاته إلى التسبيح لكونه محتاجاً إلى أكل وشرب وتحصيل مأكول ومشروب وملبوس ومركوب فأشار الله تعالى إلى أوقات إذا أتى العبد بتسبيح الله فيها يكون كأنه لم يفتر وهى الأول والآخر والوسط أول النهار وآخره ووسطه فأمر بالتسبيح فى أول الليل ووسطه ، ولم يأمر بالتسبيح فى آخر الليل لأن النوم فيه غالب والله من على عباده بالاستراحة بالنوم ، كما قال (ومن آياته منامكم بالليل) فاذا صلى فى أول النهار تسبيحتين وهما ركعتان حسب له صرف ساعتين إلى التسبيح ، ثم إذا صلى أربع ركعات وقت الظهر حسب له صرف أربع ساعات أخر فصارت ست ساعات ، وإذا صلى أربعاً فى أواخر النهار وهو العصر حسب له أربع أخرى فصارت عشر ساعات ، فاذا صلى المغرب والعشاء سبع ركعات أخر حصل له صرف سبع عشرة ساعة إلى التسبيح وبقى من الليل والنهار سبع ساعات وهى ما بين نصف الليل وثلثيه لأن ثلثيه ثمان ساعات ونصفه ست ساعات وما بينهما السبع ، وهذا القدر لو نام الانسان فيه لكان كثيراً وإليه أشار تعالى بقوله (قم الليل إلا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه) وزيادة القليل على النصف هى ساعة فيصير سبع ساعات مصروفة إلى النوم والنائم مرفوع عنه القلم ، فيقول الله عبدى صرف جميع أوقات تكليفه فى تسبيحى فلم يبق لكم أيها الملائكة عليهم المزية التى إدعيتم بقولكم (نحن نسبح بحمدك ونقدس لك) على سبيل الانحصار بل هم مثلكم

فقامهم مثل مقامكم فى أعلى عليين ، واعلم أن فى وضع الصلاة فى أوقاتها وعدد ركعاتها واختلاف هيئاتها حكمة بالغة ، أما فى عدد الركعات فما تقدم من كون الإنسان يقظان فى سبع عشرة ساعة ففرض عليه سبع عشرة ركعة ، وأما على مذهب أبى حنيفة حيث قال بوجوب الوتر ثلاث ركعات وهو أقرب للتقوى ، فنقول هو مأخوذ من أن الإنسان ينبغى أن يقلل نومه فلا ينام إلا ثلث الليل مأخوذاً من قوله تعالى (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه) ويفهم من هذا أن قيام ثلثى الليل مستحسن مستحب مؤكد باستحباب ولهذا قال عقيبه (علم أن لن تحصوه فتاب عليكم) ذكر بلفظ التوبة ، وإذا كان كذلك يكون الإنسان يقظان فى عشرين ساعة فأمر بعشرين ركعة ، وأما النبى عليه السلام فلما كان من شأنه أن لا ينام أصلا كما قال « تنام عيناى ولا ينام قلبى » جعل له كل الليل كالنهار فزيد له التهجد فأمر به ، وإلى هذا أشار تعالى فى قوله (ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا) أى كل الليل لك للتسبيح فصار هو فى أربع وعشرين ساعة مسبحاً ، فصار من الذين لا يفترون طرفة عين ، وأما فى أوقاته فما تقدم أيضاً أن الأول والآخر والوسط هو المعتبر فشرع التسبيح فى أول النهار وآخره ، وأما الليـــل فاعتبر أوله ووسطه كما اعتبر أول النهار ووسطه ، وذلك لأن الظهر وقته نصف النهار والعشاء وقته نصف الليل لأنا بينا أن الليل المعتبر هو المقدار الذى يكون الإنسان فيه يقظان وهو مقدار خمس ساعات فجعل وقته فى نصف هذا القدر وهو الثلاثة من الليل ، وأما أبو حنيفة لما رأى وجوب الوتر كان زمان النوم عنده أربع ساعات وزمان اليقظة بالليل ثمان ساعات وأخر وقت العشاء الآخرة إلى الرابعة والخامسة ، ليكون فى وسط الليل المعتبر ، كما أن الظهر فى وسط النهار ، وأما النبى ﷺ لما كان ليله نهاراً ونومه انتباهاً قال « لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك وتأخير العشاء إلى نصف الليل » ليكون الأربع فى نصف الليل كما أن الأربع فى نصف النهار ، وأما التفصيل فالذى يتبين لى أن النهار اثنتا عشرة ساعة زمانية والصلاة المؤداة فيها عشر ركعات فيبقى على المكلف ركعتان يؤديهما فى أول الليل ويؤدى ركعة من صلاة الليل ليكون ابتداء االيل بالتسبيح كما كان ابتداء النهار بالتسبيح ، ولما كان المؤدى من تسبيح النهار فى أوله ركعتين كان المؤدى من تسبيح الليل فى أوله ركعة لأن سبح النهار طويل مثل ضعف سبح الليل ، لأن المؤدى فى النهار عشرة والمؤدى فى الليل من تسبيح الليل خمس .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى فضيلة السبحلة والحدلة فى المساء والصباح ، ولنذكرها من حيث النقل والعقل ، أما النقل فأخبرنى الشيخ الورع الحافظ الأستاذ عبد الرحمن بن عبد الله بن علوان بحلب مسنداً عن النبى ﷺ أنه قال لبعض أصحابه « أتعجز عن أن تأتى وقت النوم بألف حسنة ؟ فتوقف فقال النبى عليه السلام قل سبحان الله والحمد لله والله أكبر مائة مرة يكتب لك بها ألف حسنة » وسمعته يقول رحمه الله مسنداً « من قال خلف كل صلاة مكتوبة عشر مرات سبحان الله وعشر

مرات الله أكبر أدخل الجنة » وأما العقل فهو أن الله تعالى له صفات لازمة لا من فعله وصفات ثابتة له من فعله ، أما الأولى فهى صفات كمال وجلال خلافها نقص ، فاذا أدرك المكلف الله بأنه لا يجوز أن يخفى عليه شئ لكونه عالماً بكل شئ فقد نزهه عن الجهل ووصفه بضده ، وإذا عرفه بأنه لا يعجز عن شئ لكونه قادراً على كل شئ فقد نزهه عن العجز ، وإذا علم أنه لا يجرى فى ملكه إلا مايشاء لكونه مريداً لكل كائن فقد وصفه ونزهه ، وإذا ظهر له أنه لا يجوز عليه الفناء لكونه واجب البقاء فقد نزهه ، وإذا بان له أنه لا يسبقه العدم لاتصافه بالقدم فقد نزهه ، وإذا لاح له أنه لا يجوز أن يكون عرضاً أو جسما أو فى مكان لكونه واجباً بريئاً عن جهات الإمكان فقد نزهه . لكن صفاته السلبية والإضافية لا يعدها عاد ولو اشتغل بها واحد لأفنى فيها عمره ولا يدرك كنهها . فاذا قال قائل مستحضراً بقلبه سبحان الله متنبهاً لما يقوله من كونه منزهاً له عن كل نقص فإتيانه بالتسبيح على هذا الوجه من الإجمال يقوم مقام إتيانه به على سبيل التفصيل ،لكن لا ريب فى أن من أتى بالتسبيح عن كل واحد على حدة مما لا يجوز على الله يكون قد أتى بما لا تفى به الأعمار ، فيقول هذا العبد أتى بتسبيحى طول عمره ومدة بقائه فأجازيه بأن أطهره عن كل ذنب وأزينه بخلع الكرامة وأنزله بدار المقامة مدة لا انتهاء لها ، وكما أن العبد ينزه الله فى أول النهار وآخره ووسطه ، فإن الله تعالى يطهره فى أوله وهو دنياه وفى آخره وهو عقباه . وفى وسطه وهو حالة كونه فى قبره الذى يحويه إلى أوان حشره وهو مغناه . وأما الثانية وهو صفات الفعل فالإنسان إذا نظر إلى خلق الله السموات يعلم أنها نعمة وكرامة فيقول الحمد لله ، فاذا رأى الشمس فيها بازغة فيعلم أنها نعمة وكرامة فيقول الحمد لله ، وكذلك القمر وكل كوكب والأرض وكل نبات وكل حيوان يقول الحمد لله ، لكن الإنسان لو حمد الله على كل شئ على حدة لا يفى عمره به ، فاذا استحضر فى ذهنه النعم التى لا تعد كما قال تعالى (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) ويقول الحمد لله على ذلك فهذا الحمد على وجه الإجمال يقوم منه مقام الحمد على سبيل التفصيل ، ويقول عبدى استغرق عمره فى حمدى وأنا وعدت الشاكر بالزيادة فله على حسنة التسبيح الحسنى وله على حمده الزيادة ثم إن الإنسان إذا استغرق فى صفات الله قد يدعوه عقله إلى التفكر فى الله تعالى بعد التفكر فى آلاء الله ، فكل ما يقع فى عقله من حقيقته فينبغى أن يقول الله أكبر مما أدركه ، لأن المدركات وجهات الإدراكات لا نهاية لها ، فان أراد أن يقول على سبيل التفصيل الله أكبر من هذا الذى أدركته من هذا الوجه وأكبر مما أدركته من ذلك الوجه وأكبر مما أدركته من وجه آخر يفنى عمره ولا يفى بادراك جميع الوجوه التى يظن الظان أنه مدرك لله بذلك الوجه ، فاذا قال مع نفسه الله أكبر أى من كل ما أتصوره بقوة عقلى وطاقة إدراكى يكون متوغلا فى العرفان وإليه الإشارة بقوله :

العجز عن درك الإدراك إدراك

فقول القائل المستيقظ « سبحان الله والحمد لله والله أكبر » مفيد لهذه الفوائد ، لكن شرطه

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾

أن يكون كلاماً معتبراً وهو الذى يكون من صميم القلب لا الذى يكون من طرف اللسان :

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (وعشياً) عطف على (حين) أى سبحوه حين تمسون وحين تصبحون وعشياً ، وقوله (وله الحمد فى السموات والأرض) كلام معترض بين المعطوف والمعطوف عليه وفيه لطيفة وهو أن الله تعالى لما أمر العباد بالتسبيح كأنه بين لهم أن تسبيحهم الله لنفعهم لا لنفع يعود على الله فعليهم أن يحمدوا الله إذا سبحوه وهذا كما فى قوله تعالى (يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان) .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قدم الإمساء على الاصباح ههنا وأخره فى قوله (وسبحوه بكرة وأصيلا) وذلك لأن ههنا أول الكلام ذكر الحشر والإعادة من قوله (الله يبدأ الخلق ثم يعيده) إلى قوله (فأولئك فى العذاب محضرون) وآخر هذه الآية أيضاً ذكر الحشر والإعادة بقوله (وكذلك تخرجون) والامساء آخر فذكر الآخر ليذكر الآخرة .

﴿ المسألة السادسة ﴾ فى تعلق إخراج الحى من الميت والميت من الحى بما تقدم عليه هو أن عند الاصباح يخرج الانسان من شبه الموت وهو النوم إلى شبه الوجود وهو اليقظة . وعند العشاء يخرج الانسان من اليقظة إلى النوم ، واختلف المفسرون فى قوله (يخرج الحى من الميت) فقال أكثرهم يخرج الدجاجة من البيضة والبيضة من الدجاجة ، وكذلك الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان ، وقال بعضهم المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن ، ويمكن أن يقال المراد (يخرج الحى من الميت) أى اليقظان من النائم والنائم من اليقظان ، وهذا يكون قد ذكره للتمثيل أى إحياء الميت عنده وإماتة الحى كتنبيه النائم وتنويم المنتبه .

ثم قال تعالى (ويحيى الارض بعد موتها وكذلك تخرجون) وفى هذا معنى لطيف وهو أن الإنسان بالموت تبطل حيوانيته وأما نفسه الناطقة فتفارقه وتبقى بعده كما قال تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا) لكن الحيوان نام متحرك حساس لكن النائم لا يتحرك ولا يحس والأرض الميتة لا يكون فيها نماء ، ثم إن النائم بالانتباه يتحرك ويحس والأرض الميتة بعد موتها تنمو بنباتها فكما أن تحريك ذلك الساكن وإنماء هذا الواقف سهل على الله تعالى كذلك إحياء الميت سهل عليه وإلى هذا أشار بقوله (وكذلك تخرجون) .

ثم قال تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾

لما أمر الله تعالى بالتسبيح عن الأسواء وذكر أن الحمد له على خلق جميع الأشياء وبين قدرته على الاماتة والاحياء بقوله (فسبحان الله) إلى قوله (وكذلك تخرجون) ذكر ما هو حجة ظاهرة وآية

باهرة على ذلك ومن جملتها خلق الإنسان من تراب وتقريره هو أن التراب أبعد الأشياء عن درجة الأحياء ، وذلك من حيث كيفيته فانه بارد يابس والحياة بالحرارة والرطوبة ، ومن حيث لونه فانه كدر والروح نير ، ومن حيث فعله فانه ثقيل والأرواح التى بها الحياة خفيفة ، ومن حيث السكون فانه بعيد عن الحركة والحيوان يتحرك يمنة ويسرة وإلى خلف وإلى قدام وإلى فوق وإلى أسفل ، وفى الجملة فالتراب أبعد من قبول الحياة عن سائر الأجسام لأن العناصر أبعد من المركبات لأن المركب بالتركيب أقرب درجة من الحيوان والعناصر أبعدها التراب لأن الماء فيه الصفاء والرطوبة والحركة وكلها على طبع الأرواح والنار أقرب لأنها كالحرارة الغريزية منضجة جامعة مفرقة ثم المركبات وأول مراتبها المعدن فانه ممتزج ، وله مراتب أعلاها الذهب وهو قريب من أدنى مراتب النبات وهى مرتبة النبات الذى ينبت فى الأرض ولا يبرزولا يرتفع ، ثم النباتات وأعلى مراتبها وهى مرتبة الأشجار التى تقبل التعظيم ، ويكون لثمرها حب يؤخذ منه مثل تلك الشجرة كالبيضة من الدجاجة والدجاجة من البيضة قريبة من أدنى مراتب الحيوانات وهى مرتبة الحشرات التى ليس لها دم سائل ولا هى إلى المنافع الجليلة وسائل كالنباتات ، ثم الحيوان وأعلى مراتبها قريبة من مرتبة الانسان فان الأنعام ولا سيما الفرس تشبه العتال والحمال والساعى ، ثم الانسان ، وأعلى مراتب الانسان قريبة من مرتبة الملائكة المسبحين لله الحامدين له فالله الذى خلق من أبعد الأشياء عن مرتبة الأحياء حياً هو فى أعلى المراتب لايكون إلا منزهاً عن العجز والجهل ، ويكون له الحمد على إنعام الحياة ، ويكون له كمال القدرة ونفوذ الارادة فيجوز منه الابداء والاعادة ، وفى الآية لطيفتان : (إحداهما) قوله (إذا) وهى للمفاجأة يقال خرجت فإذا أسد بالباب وهو إشارة إلى أن الله تعالى خلقه من تراب بكن فكان لا أنه صار معدناً ثم نباتاً ثم حيواناً ثم إنساناً وهذا إشارة إلى مسألة حكمية ، وهى أن الله تعالى يخلق أولا إنساناً فينبهه أنه يحى حيواناً ونامياً وغير ذلك لا أنه خلق أولا حيواناً ، ثم يجعله إنساناً فخلق الأنواع هو المراد الأول ، ثم تكون الأنواع فيها الأجناس بتلك الارادة الأولى ، فالله تعالى جعل المرتبة الأخيرة فى الشىء البعيد عنها غاية من غير انتقال من مرتبة إلى مرتبة من المراتب التى ذكرناها (اللطيفة الثانية) قوله (بشر) إشارة إلى القوة المدركة لأن البشر بشر لا بحركته ، فإن غيره من الحيوانات أيضاً كذلك وقوله (تنتشرون) إلى القوة المحركة وكلاهما من التراب عجيب ، إما الادراك فلكثافته وجموده ، وأما الحركة فلثقله وخموده وقوله (تنتشرون) إشارة إلى أن العجيبة غير مختص بخلق الإنسان من التراب بل خلق الحيوان المنتشر من التراب الساكن عجيب فضلا عن خلق البشر ، وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ وهى أن الله خلق آدم من تراب وخلقنا منه فكيف قال (خلقكم من تراب) نقول الجواب عنه من وجهين : (أحدهما) ماقيل إن المراد من قوله (خلقكم) أنه خلق أصلكم (والثانى) أن نقول : إن كل بشر مخلوق من التراب ، أما آدم فظاهر ، وأما نحن فلأنا خلقنا من

نطفة والنطفة من صالح الغذاء الذى هو بالقوة بعض من الأعضاء ، والغذاء إما من لحوم الحيوانات وألبانها وأسمانها ، وإما من النبات والحيوان أيضاً له غذاء هو النبات لكن النبات من التراب ، فإن الحبة من الحنطة والنواة من الثمرة لاتصير شجرة إلا بالتراب وينضم اليها أجزاء مائية ليصير ذلك النبات بحيث يغذو .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال تعالى فى موضع آخر (وخلق من الماء بشراً) وقال (من ماء مهين) وههنا قال من (تراب) فكيف الجمع ؟ قلنا أما على (الجواب الأول) فالسؤال زائل ، فإن المراد منه آدم . وأما على (الثانى) فنقول ههنا قال ماهو أصل أول ، وفى ذلك الموضع قال ماهو أصل ثان لأن ذلك التراب الذى صار غذاء يصير مائعاً وهو المنى ، ثم ينعقد ويتكون بخلق الله منه إنساناً أو نقول الإنسان له أصلان ظاهران الماء والتراب فان التراب لا ينبت إلا بالماء ففى النبات الذى هو أصل غذاء الإنسان تراب وماء فان جعل التراب أصلا والماء لجمع أجزائه المتفتتة فالأمر كذلك وإن جعل الأصل هو الماء والتراب لتثبيت أجزائه الرطبة من السيلان فالأمر كذلك ، فإن قال قائل الله تعالى يعلم كل شىء فهو يعلم أن الأصل ماذا هو منهما ، وإنما الأمر عندنا مشتبه يجوز هذا وذاك ، فإن كان الأصل هو التراب فكيف قال (من الماء بشراً) وإن كان الماء فكيف قال (خلقكم من تراب) وإن كاناهما أصلين فلم لم يقل خلقكم منهما فنقول فيه لطيفة ، وهى أن كون التراب أصلا والماء أصلا ليس لذاتيهما ، وإنما هو بجعل الله تعالى فإن الله نظراً إلى قدرته كان له أن يخلق أول ما يخلق الانسان ثم يفنيه ويحصل منه التراب ثم يذوبه ويحصل منه الماء ، لكن الحكمة اقتضت أن يكون الناقص وسيلة إلى الكامل لا الكامل يكون وسيلة إلى الناقص فخلق التراب والماء أولا ، وجعلهما أصلين لمن هو أكمل منهما بل للذى هو أكمل من كل كائن وهو الإنسان ، فان كان كونهما أصلين ليس أمراً ذاتياً لهما بل بجعل جاعل فتارة جعل الأصل التراب وتارة الماء ليعلم أنه بإرادته واختياره ، فإن شاء جعل هذا أصلا وإن شاء جعل ذلك أصلا ، وإن شاء جعلهما أصلين .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال الحكماء إن الإنسان مركب من العناصر الأربعة وهى التراب والماء والهواء والنار ، وقالوا التراب فيه لثباته ، والماء لاستمساكه ، فان التراب يتفتت بسرعة ، والهواء لاستقلاله كالزق المنفوخ يقوم بالهواء ولولاه لما كان فيه استقلال ولا انتصاب ، والنار للنضج والالتئام بين هذه الأشياء ، فهل هذا صحيح أم لا ؟ فان كان صحيحاً فكيف اعتبر الأمرين فحسب ولم يقل فى موضع آخر إنه خلقكم من نار ولا من ريح ؟ فنقول أما قولهم فلا مفسدة فيه من حيث الشرع فلا ننازعهم فيه إلا إذا قالوا بأنه بالطبيعة كذلك ، وأما إن قالوا بأن الله بحكمته خلق الإنسان من هذه الأشياء فلا ننازعهم فيه ، وأما الآيات فنقول ماذكرتم لا يخالف هذا لأن الهواء جعلتموه للاستقلال والنار للنضج فهما يكونان بعد امتزاج الماء بالتراب ، فالأصل الموجود أولاهما لاغير

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾

فلذلك خصهما ولأن المحسوس من العناصر فى الغالب هو التراب والماء ولا سيما كونهما فى الإنسان ظاهر لكل أحد فخص الظاهر المحسوس بالذكر .

ثم قال تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ .

لما بين الله خلق الانسان بين أنه لما خلق الإنسان ولم يكن من الأشياء التى تبقى وتدوم سنين متطاولة أبقى نوعه بالأشخاص وجعله بحيث يتوالد ، فاذا مات الأب يقوم الابن مقامه لئلا يوجب فقد الواحد ثلمة فى العمارة لا تنسد ، وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (خلق لكم) دليل على أن النساء خلقن كخلق الدواب والنبات وغير ذلك من المنافع ، كما قال تعالى (خلق لكم ما فى الأرض) وهذا يقتضى أن لا تكون مخلوقة للعبادة والتكليف فنقول خلق النساء من النعم علينا وخلقهن لنا وتكليفهن لإتمام النعمة علينا لا لتوجيه التكليف نحوهن مثل توجيهه إلينا وذلك من حيث النقل والحكم والمعنى ، أما النقل فهذا وغيره ، وأما الحكم فلأن المرأة لم تكلف بتكاليف كثيرة كما كلف الرجل بها ، وأما المعنى فلأن المرأة ضعيفة الخلق سخيفة فشابهت الصبى لكن الصبى ، لم يكلف فكان يناسب أن لا تؤهل المرأة للتكليف ، لكن النعمة علينا ما كانت تتم إلا بتكليفهن لتخاف كل واحدة منهن العذاب فتنقاد للزوج وتمتنع عن المحرم ، ولولا ذلك لظهر الفساد .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (من أنفسكم) بعضهم قال : المراد منه أن حواء خلقت من جسم آدم والصحيح أن المراد منه من جنسكم كما قال تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) ويدل عليه قوله (لتسكنوا إليها) يعنى أن الجنسين الحيين المختلفين لا يسكن أحدهما إلى الآخر أى لا تثبت نفسه معه ولا يميل قلبه إليه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ يقال سكن إليه للسكون القلبى ويقال سكن عنده للسكون الجسمانى ، لأن كلمة عند جاءت لظرف المكان وذلك للأجسام وإلى للغاية وهى للقلوب .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (وجعل بينكم مودة ورحمة) فيه أقوال قال بعضهم مودة بالمجامعة ورحمة بالولد تمسكا بقوله تعالى (ذكر رحمة ربك عبده زكريا) وقال بعضهم محبة حالة حاجة نفسه ، ورحمة حالة حاجة صاحبه إليه ، وهذا لأن الإنسان يحب مثلا ولده ، فاذا رأى عدوه فى شدة من جوع وألم قد يأخذ من ولده ويصلح به حال ذلك ، وما ذلك لسبب المحبة وإنما هو لسبب

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾

الرحمة ويمكن أن يقال ذكر من قبل أمرين (أحدهما) كون الزوج من جنسه (والثانى) ما تفضى إليه الجنسية وهو السكون إليه فالجنسية توجب السكون وذكر ههنا أمرين (أحدهما) يفضى إلى الآخر فالمودة تكون أولا ثم إنها تفضى إلى الرحمة ، ولهذا فان الزوجة قد تخرج عن محل الشهوة بكبر أو مرض ويبقى قيام الزوج بها وبالعكس وقوله (إن فى ذلك) يحتمل أن يقال المراد إن فى خلق الأزواج لآيات ، ويحتمل أن يقال فى جعل المودة بينهم آيات (أما الأول) فلا بد له من فكر لأن خلق الإنسان من الوالدين يدل على كمال القدرة ونفوذ الإرادة وشمول العلم لمن يتفكر ولو فى خروج الولد من بطن الأم ، فإن دون ذلك لو كان من غير الله لأفضى إلى هلاك الأم وهلاك الولد أيضاً لأن الولد لوسل من موضع ضيق بغير إعانة الله لمات (وأما الثانى) فكذلك لأن الإنسان يجد بين القرينين من التراحم مالا يجده بين ذوى الأرحام وليس ذلك بمجرد الشهوة فانها قد تنتفى وتبقى الرحمة فهو من الله ولو كان بينهما مجرد الشهوة والغضب كثير الوقوع وهو مبطل للشهوة والشهوة غير دائمة فى نفسها لكان كل ساعة بينهما فراق وطلاق فالرحمة التى بها يدفع الانسان المكاره عن حريم حرمه هى من عند الله ولا يعلم ذلك إلا بفكر .

ثم قال تعالى : ﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين ﴾

لما بين دلائل الأنفس ذكر دلائل الآفاق وأظهرها خلق السموات والأرض ، فان بعض الكفار يقول فى خلق البشر وغيره من المركبات إنه بسبب ما فى العناصر من الكيفيات وما فى السموات من الحركات وما فيها من الاتصالات فاذا قيل له فالسماء والأرض لم تكن لامتزاج العناصر واتصالات الكواكب فلا يجد بداً من أن يقول ذلك بقدرة الله وإرادته ثم لما أشار إلى دلائل الأنفس والآفاق ذكر ما هو من صفات الأنفس بالاختلاف الذى بين ألوان الانسان فان واحداً منهم مع كثرة عددهم وصغر حجم خدودهم وقدودهم لا يشتبه بغيره والسموات مع كبرها وقلة عددها مشتبهات فى الصورة (والثانى) اختلاف كلامهم فان غريبين هما أخوان إذا تكلما بلغة واحدة يعرف أحدهما من الآخر حتى أن من يكون محجوباً عنهما لا يبصرهما يقول هذا صوت فلان وهذا صوت فلان الآخر وفيه حكمه بالغة وذلك لأن الانسان يحتاج إلى التمييز بين الأشخاص ليعرف صاحب الحق من غيره والعدو من الصديق ليحترز قبل وصول العدو إليه ، وليقبل على الصديق قبل أن يفوته الإقبال عليه ، وذلك قد يكون بالبصر فخلق

وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣)

اختلاف الصور وقد يكون بالسمع لخلق اختلاف الأصوات . وأما اللمس والشم والذوق فلا يفيد فائدة فى معرفة العدو والصديق فلا يقع بها التمييز ، ومن الناس من قال المراد اختلاف اللغة كالعربية والفارسية والرومية وغيرها والأول أصح ، ثم قال تعالى (لآيات للعالمين) لما كان خلق السموات والأرض لم يحتمل الاحتمالات البعيدة التى يقولها أصحاب الطبائع واختلاف الألوان كذلك واختلاف الأصوات كذلك قال (للعالمين) لعموم العلم بذلك .

ثم قال تعالى : ﴿ ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ .

لما ذكر بعض العرضيات اللازمة وهو الاختلاف ذكر الأعراض المفارقة ومن جملتها النوم بالليل والحركة طلباً للرزق بالنهار ، فذكر من اللوازم أمرين ، ومن المفارقة أمرين ، وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (منامكم بالليل والنهار) قيل أراد به النوم بالليل والنوم بالنهار وهى القيلولة : ثم قال (وابتغاؤكم) أى فيهما فان كثيراً ما يكتسب الانسان بالليل ، وقيل أراد منامكم بالليل وابتغاؤكم بالنهار فلف البعض بالبعض ، ويدل عليه آيات أخر . منها قوله تعالى (وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا) وقوله (وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً) ويكون التقدير هكذا : ومن آياته منامكم وابتغاؤكم بالليل والنهار من فضله ، فأخر الابتغاء وقرنه فى اللفظ بالفعل إشارة إلى أن العبد ينبغى أن لايرى الرزق من كسبه وبحذقه ، بل يرى كل ذلك من فضل ربه ، ولهذا قرن الابتغاء بالفضل فى كثير من المواضع ، منها قوله تعالى (فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله) وقوله (ولتبتغوا من فضله) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قدم المنام بالليل على الابتغاء بالنهار فى الذكر ، لأن الاستراحة مطلوبة لذاتها والطلب لايكون إلا لحاجة ، فلا يتعب إلا محتاج فى الحال أو خائف من المآل .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال (آيات لقوم يسمعون) وقال من قبل (لقوم يتفكرون) وقال (للعالمين) فنقول المنام بالليل والابتغاء من فضله يظن الجاهل أو الغافل أنهما مما يقتضيه طبع الحيوان فلا يظهر لكل أحد كونهما من نعم الله فلم يقل آيات للعالمين ولأن الأمرين الأولين وهو اختلاف الألسنة والألوان من اللوازم والمنام والابتغاء من الأمور المفارقة فالنظر إليهما لا يدوم لزوالهما فى بعض الأوقات ولا كذلك اختلاف الألسنة والألوان ، فانهما يدومان بدوام الإنسان

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾

لجعلهما آيات عامة . وأما قوله (لقوله يتفكرون) فاعلم أن من الأشياء مايعلم من غير تفكر ، ومنها مايكفى فيه مجرد الفكرة ، ومنها مالا يخرج بالفكر بل يحتاج إلى موقف يوقفه عليه ومرشد يرشد إليه ، فيفهمه إذا سمعه من ذلك المرشد ، ومنها مايحتاج إلى بعض الناس فى تفهمه إلى أمثلة حسية كالأشكال الهندسية لكن خلق الأزواج لايقع لأحد أنه بالطبع إلا إذا كان جامد الفكر خامد الذكر ، فاذا تفكر علم كون ذلك الخلق آية ، وأما المنام والابتغاء فقد يقع لكثير أنهما من أفعال العباد ، وقد يحتاج إلى مرشد بغير فكرة ، فقال (لقوم يسمعون) ويجعلون بالهم إلى كلام المرشد

ثم قال تعالى : ﴿ ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ .

لما ذكر العرضيات التى للأنفس اللازمة والمفارقة ذكر العرضيات التى للآفاق ، وقال (يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء) وفى الآية مسائل :

﴿ إحداها ﴾ لما قدم دلائل الأنفس ههنا قدم العرضيات التى للأنفس وأخر العرضيات التى للآفاق كما أخر دلائل الآفاق ، بقوله (ومن آياته خلق السموات والأرض) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قدم لوازم الأنفس على العوارض المفارقة حيث ذكر أولا اختلاف الألسنة والألوان ثم المنام والابتغاء ، وقدم فى الآفاق العوارض المفارقة على اللوازم حيث قال (يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل) وذلك لأن الانسان متغير الحال والعوارض له غير بعيدة ، وأما اللوازم فيه فقريبة . وأما السموات والأرض فقليلة التغير فالعوارض فيها أغرب من اللوازم ، فقدم ماهو أعجب لكونه أدخل فى كونه آية ونزيده بياناً فنقول : الانسان يتغير حاله بالكبر والصغر والصحة والسقم وله صوت يعرف به لايتغير وله لون يتميز عن غيره ، وهو يتغير فى الأحوال وذلك لايتغير وهو آية عجيبة ، والسماء والأرض ثابتان لايتغيران ، ثم يرى فى بعض الأحوال أمطار هاطلة وبروق هائلة ، والسماء كما كانت والأرض كذلك ، فهو آية دالة على فاعل مختار يديم أمراً مع تغير المحل ويزيل أمراً مع ثبات المحل .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ كما قدم السماء على الأرض قدم ماهو من السماء وهو البرق والمطر على ما هو من الأرض وهو الإنبات والاحياء .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ كما أن فى إنزال المطر وإنبات الشجر منافع ، كذلك فى تقدم البرق والرعد على المطر منفعة ، وذلك لأن البرق إذا لاح ، فالذى لايكون تحت كن يخاف الابتلال

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾

فيستعد له ، والذى له صهريج أو مصنع يحتاج إلى الماء أو زرع يسوى مجارى الماء ، وأيضاً العرب من أهل البوادى فلا يعلمون البلاد المعشبة إن لم يكونوا قد رأوا البروق اللائحة من جانب دون جانب ، واعلم أن فوائد البرق وإن لم تظهر للمقيمين بالبلاد فهى ظاهرة للبادين ولهذا جعل تقديم البرق على تنزيل الماء من السماء نعمة ، وآية ، وأما كونه آية فظاهر فان فى السحاب ليس إلا ماء وهواء وخروج النار منها بحيث تحرق الجبال فى غاية البعد فلا بد له من خالق هو الله ، قالت الفلاسفة السحاب فيه كثافة ولطافة بالنسبة إلى الهواء والماء . فالهواء ألطف منه والماء أكثف فاذا هبت ريح قوية تخرق السحاب بعنف فيحدث صوت الرعد ويخرج منه النار كمساس جسم جسما بعنف ، وهذا كما أن النار تخرج من وقوع الحجر على الحديد فان قال قائل الحجر والحديد جسمان صلبان والسحاب والريح جسمان رطبان ، فيقولون لكن حركة يد الانسان ضعيفة وحركة الريح قوية تقلع الأشجار ، فنقول لهم البرق والرعد أمران حادثان لا بد لهما من سبب ، وقد علم بالبرهان كون كل حادث من الله فهما من الله ، ثم إنا نقول هب أن الأمر كما تقولون فهبوب تلك الريح القوية من الأمور الحادثة العجيبة لا بد له من سبب وينتهى إلى واجب الوجود ، فهو آية للعاقل على قدرة الله كيفما فرضتم ذلك .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قال ههنا (لقوم يعقلون) لما كان حدوث الولد من الوالد أمراً عادياً مطرداً قليل الاختلاف كان يتطرق إلى الأوهام العامية أن ذلك بالطبيعة ، لأن المطرد أقرب إلى الطبيعة من المختلف ، لكن البرق والمطر ليس أمراً مطرداً غير متخلف إذ يقع ببلدة دون بلدة وفى وقت دون وقت وتارة تكون قوية وتارة تكون ضعيفة فهو أظهر فى العقل دلالة على الفاعل المختار ، فقال هو آية لمن له عقل إن لم يتفكر تفكراً تاماً .

ثم قال تعالى : ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾ .

لما ذكر من العوارض التى للسماء والأرض بعضها ، ذكر من لوازمها البعض وهى قيامها ، فان الأرض لثقلها يتعجب الانسان من وقوفها وعدم نزولها وكون السماء يتعجب من علوها وثباتها من غير عمد ، وهذا من اللوازم ، فان الأرض لا تخرج عن مكانها الذى هى فيه والسماء كذلك لا تخرج عن مكانها الذى هى فيه فان قيل إنها تتحرك فى مكانها كالرحى ولكن اتفق العقلاء على أنها فى مكانها لا تخرج عنه ، وهذه آية ظاهرة لأن كونهما فى الموضع الذى هما فيه وعلى الموضع

الذى هما عليه من الأمور الممكنة ، وكونهما فى غير ذلك الموضع جائز ، فكان يمكن أن يخرجا منه فلما لم يخرجا كان ذلك ترجيحاً للجائز على غيره ، وذلك لا يكون إلا بفاعل مختار ، والفلاسفة قالوا كون الأرض فى المكان الذى هى فيه طبيعى ها لا ‍ﻬ اهل الاشياء والثقيل يطلب المركز والخفيف يطلب المحيط والسماء كونها فى مكانها إن كانت ذات مكان فلذاتها فقيامهما فيهما بطبعهما ، فنقول قد تقدم مراراً أن القول بالطبيعة باطل ، والذى نزيده ههنا أنكم وافقتمونا بأن ماجاز على أحد المثلين جاز على المثل الآخر ، لكن مقعر الفلك لا يخالف محدبه فى الطبع فيجوز حصول مقعره فى موضع محدبه ، وذلك بالخروج والزوال فاذن الزوال عن المكان ممكن لاسيما على السماء الدنيا فانها محددة الجهات على مذهبكم أيضاً والأرض كانت تجوز عليها الحركة الدورية ، كما تقولون على السماء فعدمها وسكونها ليس إلا بفاعل مختار وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكر الله من كل باب أمرين ، أما من الأنفس فقوله (خلق لكم) استدل بخلق الزوجين ومن الآفاق السماء والأرض فى قوله (خلق السموات والأرض) ومن لوازم الإنسان اختلاف اللسان واختلاف الألوان ومن عوارضه المنام والابتغاء ومن عوارض الآفاق البروق والأمطار ومن لوازمها قيام السماء وقيام الأرض ، لأن الواحد يكفى للاقرار بالحق . (والثانى) يفيد الاستقرار بالحق ، ومن هذا اعتبر شهادة شاهدين فان قول أحدهما يفيد الظن وقول الآخر يفيد تأكيده ولهذا قال ابراهيم عليه السلام (بلى ولكن ليطمئن قلبى) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (بأمره) أى بقوله (قوما) أو بارادته قيامهما ، وذلك لأن الأمر عند المعتزلة موافق للارادة ، وعندنا ليس كذلك ولكن النزاع فى الأمر الذى للتكليف لا فى الأمر الذى للتكوين ، فانا لا ننازعهم فى أن قوله (كن) وكونوا (ويانار كونى) موافق للارادة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال ههنا (ومن آياته أن تقوم) وقال قبله (ومن آياته يريكم) ولم يقل أن يريكم ، وإن قال بعض المفسرين إن أن مضمرة هناك معناه من آياته (أن يريكم) ليصير كالمصدر بأن ، وذلك لأن القيام لما كان غير متغير أخرج الفعل بأن عن الفعل المستقبل وجعله مصدراً ، لأن المستقبل ينبىء عن التجدد ، وفى البرق لما كان ذلك من الأمور التى تتجدد فى زمان دون زمان ذكره بلفظ المستقبل ولم يذكر معه شيئاً من الحروف المصدرية .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ ذكر ستة دلائل ، وذكر فى أربعة منها إن فى ذلك لآيات ، ولم يذكر فى الأول وهو قوله (ومن آياته أن خلقكم من تراب) ولا فى الآخر وهو قوله (ومن آياته أن تقوم السماء والأرض) أما فى الأول فلأن قوله بعده (ومن آياته أن خلق لكم) أيضاً دليل الأنفس ، فخلق الأنفس وخلق الأزواج من باب واحد ، على ما بينا ، غير أنه تعالى ذكر من كل باب أمرين للتقرير بالتكرير ، فاذا قال (إن فى ذلك لآيات) كان عائداً اليهما ، وأما فى قيام السماء والأرض فنقول فى الآيات السماوية ذكر أنها آيات للعالمين ولقوم يعقلون لظهورها

وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

فلما كان فى أول الأمر ظاهراً فنى آخر الأمر بعد سرد الدلائل يكون أظهر ، فلم يميز أحداً عن أحد فى ذلك ، وذكر ماهو مدلوله وهو قدرته على الاعادة ، وقال (ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون) وفيها مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ماوجه العطف بثم ، وبم تعلق ثم ؟ فنقول معناه والله أعلم إنه تعالى إذا بين لكم كمال قدرته بهذه الآيات بعد ذلك يخبركم ويعلمكم أنه إذا قال للعظام الرميمة اخرجوا من الأجداث يخرجون أحياء .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ، قول القائل دعا فلان فلانا من الجبل يحتمل أن يكون الدعاء من الجبل كما يقول القائل يافلان إصعد إلى الجبل ، فيقال دعاه من الجبل ويحتمل أن يكون المدعو يدعى من الجبل كما يقول القائل يافلان انزل من الجبل ، فيقال دعاه من الجبل ، ولا يخفى على العاقل أن الدعاء لا يكون من الأرض إذا كان الداعى هو الله ، فالمدعو يدعى من الأرض يعنى أنتم تكونون فى الأرض فيدعوكم منها فتخرجون .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله تعالى (إذا أنتم) قد بينا أنه للمفاجأة يعنى يكون ذلك بكن فيكون .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال ههنا إذا أنتم تخرجون ، وقال فى خلق الانسان أولا (ثم إذا أنتم بشر تنتشرون) فنقول هناك يكون خلق وتقدير وتدريج وتراخ حتى يصير التراب قابلا للحياة فينفخ فيه روحه ، فاذا هو بشر ، وأما فى الاعادة لايكون تدريج وتراخ بل يكون نداء وخروج ، فلم يقل ههنا ثم .

ثم قال تعالى : ﴿ وله من فى السموات والأرض كل له قانتون ، وهو الذى يبدؤ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ .

لما ذكر الآيات وكان مدلولها القدرة على الحشر التى هى الأصل الآخر ، والوحدانية التى هى الأصل الأول ، أشار اليها بقوله (وله من فى السموات والأرض) يعنى لاشريك له أصلا لأن كل من فى السموات وكل من فى الأرض ، ونفس السموات والأرض له وملكه ، فكل له منقادون قانتون ، والشريك يكون منازعا مماثلا ، فلا شريك له أصلاثم ذكر المدلول الآخر ، فقال تعالى (وهو الذى يبدؤ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) أى فى نظركم الاعادة أهون من الابداء

لأن من يفعل فعلا أولا يصعب عليه ، ثم إذا فعل بعد ذلك مثله يكون أهون ، وقيل المراد هو هين عليه كما قيل فى قول القائل الله أكبر أى كبير ، وقيل المراد هو أهون عليه أى الاعادة أهون على الخالق من الابداء لأن فى البدء يكون علقة ثم مضغة ثم لحماً ثم عظاماً ثم يخلق بشراً ثم يخرج طفلا يترعرع إلى غير ذلك فيصعب عليه ذلك كله ، وأما فى الاعادة فيخرج بشراً سوياً بكن فيكون أهون عليه ، والوجه الأول أصح وعليه نتكلم فنقول هو أهون يحتمل أن يكون ذلك لأن فى البدء خلق الأجزاء وتأليفها والاعادة تأليف ولا شك أن الأمر الواحد أهون من أمرين ولا يلزم من هذا أن يكون غيره فيه صعوبة ، ولنبين هذا فنقول إلهين هو مالا يتعب فيه الفاعل ، والأهون ما لا يتعب فيه الفاعل بالطريق الأولى ، فإذا قال قائل إن الرجل القوى لا يتعب من نقل شعيرة من موضع إلى موضع وسلم السامع له ذلك ، فاذا قال فكونه لا يتعب من نقل خردلة يكون ذلك كلاماً معقولا مبق على حقيقته .

ثم قال تعالى : ﴿ وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ أى قولنا هو أهون عليه يفهم منه أمران (أحدهما) هو ما يكون فى الآخر تعب كما يقال إن نقل الخفيف أهون من نقل الثقيل (والآخر) هو ما ذكرنا من الأولوية من غير لزوم تعب فى الآخر فقوله (وله المثل الأعلى) إشارة إلى أن كونه أهون بالمعنى الثانى لا يفهم منه الأول وههنا فائدة ذكرها صاحب الكشاف وهى أن الله تعالى قال فى موضع آخر (هو على هين) وقال ههنا وهو أهون عليه فقدم هناك كلمة على وأخرها هنا ، وذلك لأن المعنى الذى قال هناك إنه هين هو خلق الولد من العجوز وأنه صعب على غيره وليس بهين إلا عليه فقال (هو على هين) يعنى لا على غيرى ، وأما ههنا المعنى الذى ذكر أنه أهون هو الاعادة والاعادة على كل مبدئ أهون فقال وهو أهون عليه لا على سبيل الحصر ، فالتقديم هناك كان للحصر ، وقوله تعالى (وله المثل الأعلى فى السموات والأرض) على الوجه الأول وهو قولنا أهون عليه بالنسبة إليكم له معنى وعلى الوجه الذى ذكرناه له معنى أما على الوجه الأول فلما قال (وله المثل الأعلى) وكان ذلك مثلا مضروباً لمن فى الأرض من الناس فيفيد ذلك أن له المثل الأعلى من أمثلة الناس وهم أهل الأرض ولا يفيد أن له المثل الأعلى من أمثلة الملائكة فقال (وله المثل الأعلى فى السموات والأرض) يعنى هذا مثل مضروب لكم (وله المثل الأعلى) من هذا المثل ومن كل مثل يضرب فى السموات ، وأما على الوجه الثانى فمعناه أن له المثل الأعلى أى فعله وإن شبهه بفعلكم ومثله به ، لكن ذاته ليس كمثله شئ فله المثل الأعلى وهو منقول عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما . وقيل المثل الأعلى أى الصفة العليا وهى لا إله إلا الله ، وقوله تعالى (وهو العزيز الحكيم) أى كامل القدرة على الممكنات ، شامل العلم بجميع الموجودات ، فيعلم الأجزاء فى الأمكنة ويقدر على جمعها وتأليفها .

ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾

ثم قال تعالى : ﴿ ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ﴾

لما بين الاعادة والقدرة عليها بالمثل بعدالدليلين بين الواحدانية أيضاً بالمثل بعدالدليل، ومعناه أن يكون له مملوك لا يكون شريكا له فى ماله ولا يكون له حرمة مثل حرمة سيده فكيف يجوز أن يكون عباد الله شركاء له وكيف يجوز أن يكون لهم عظمة مثل عظمة الله تعالى حتى يعبدوا ، وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ينبغى أن يكون بين المثل والممثل به مشابهة ما ،ثم إن كان بينهما مخالفة فقد يكون مؤكدا لمعنى المثل وقد يكون موهنا له وههنا وجه المشابهة معلوم ، وأما المخالفة فموجودة أيضاً وهى مؤكدة وذلك من وجوه (أحدها) قوله (من أنفسكم) يعنى ضرب لكم مثلامن أنفسكم مع حقارتها ونقصانها وعجزها ، وقاس نفسه عليكم مع عظمها وكمالها وقدرتها (وثانيها) قوله (مما ملكت أيمانكم) يعنى عبدكم لكم عليهم ملك اليد وهوطار[ى ء] قابل للنقل والزوال ، أما النقل فبالبيع وغيره والزوال بالعتق ومملوك الله لاخروج له من ملك الله بوجه من الوجوه ، فاذا لم يجز أن يكون مملوك يمينكم شريكا لكم مع أنه يجوز أن يصير مثلكم من جميع الوجوه ، بل هو فى الحال مثلكم فى الآدمية حتى أنكم ليس لكم تصرف فى روحه وآدميته بقتل وقطع وليس لكم منعهم من العبادة وقضاء الحاجة ، فكيف يجوز أن يكون مملوك الله الذى هو مملوكه من جميع الوجوه شريكا له (وثالثها) قوله (من شركاء فيما رزقناكم) يعنى الذى لكم هو فى الحقيقة ليس لكم بل هو من الله ومن رزقه والذى من الله فهو فى الحقيقة له فاذا لم يجز أن يكون لكم شريك فى مالكم من حيث الاسم ، فكيف يجوزأن يكون له شريك فيما له من حيث الحقيقة وقوله (فأنتم فيه سواء) أى هل أنتم ومماليككم فى شىء مما تملكون سواء ليس كذلك فلا يكون لله شريك فى شىء مما يملكه ، لكن كل شىء فهو لله فما تدعون إلهيته لا يملك شيئاً أصلا ولا مثقال ذرة من خردل فلايعبد لعظمته ولالمنفعة تصل إليكم منه ، وأما قولكم هؤلاء شفعاؤنا فليس كذلك ، لأن المملوك هل له عندكم حرمة كحرمة الأحرار وإذا لم يكن للملوك مع مساواته إياكم فى الحقيقة والصفة عندكم حرمة ، فكيف يكون حال المماليك الذين لا مساواة بينهم وبين المالك بوجه من

بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾

الوجوه وإلى هذا أشار بقوله (تخافونهم كخيفتكم أنفسكم) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ بهذا نفى جميع وجوه حسن العبادة عن الغير لأن الأغيار إذا لم يصلحوا للشركة فليس لهم ملك ولا ملك ، فلا عظمة لهم حتى يعبدوا لعظمتهم ولا يرتجى منهم منفعة لعدم ملكهم حتى يعبدوا لنفع وليس لهم قوة وقدرة لأنهم عبيد والعبد المملوك لا يقدر على شيء فلا تخافوهم كما تخافون أنفسكم ، فكيف تخافونهم خوفاً أكثر من خوفكم بعضاً من بعض حتى تعبدوهم للخوف .

ثم قال تعالى (كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون) أى نبينها بالدلائل والبراهين القطعية والأمثلة والحكايات الاقناعية لقوم يعقلون ، يعنى لا يخفى الأمر بعد ذلك إلا على من لايكون له عقل .

ثم قال تعالى : ﴿ بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدى من أضل الله وما لهم من ناصرين ﴾ أى لايجوز أن يشرك بالمالك مملوكه ولكن الذين أشركوا اتبعوا أهواءهم من غير علم وأثبتوا شركاء من غير دليل ، ثم بين أن ذلك بإرادة الله بقوله (فمن يهدى من أضل الله) أى هؤلاء أضلهم الله فلا هادى لهم ، فينبغى أن لايحزنك قولهم ، وههنا لطيفة وهى أن قوله (فمن يهدى من أضل الله) مقو لما تقدم وذلك لأنه لما قال لأن الله لاشريك له بوجه ما ثم قال تعالى بل المشركون يشركون من غير علم ، يقال فيه أنت أثبت لهم تصرفاً على خلاف رضاه والسيد العزيز هو الذى لايقدر عبده على تصرف يخالف رضاه ، فقال إن ذلك ليس باستقلاله بل بإرادة الله وما لهم من ناصرين ، لما تركوا الله تركهم الله ومن أخذوه لايغنى عنهم شيئاً فلا ناصر لهم .

ثم قال تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ﴾ أى إذا تبين الأمر وظهرت الوحدانية ولم يهتد المشرك فلا تلتفت أنت إليهم وأقم وجهك للدين ، وقوله (فأقم وجهك للدين) أى أقبل بكلك على الدين عبر عن الذات بالوجه كما قال تعالى (كل شيء هالك إلا وجهه) أى ذاته بصفاته ، وقوله (حنيفاً) أى مائلا عن كل ما عداه أى أقبل على الدين ومل عن كل شيء أى لايكون فى قلبك شيء آخر فتعود إليه ، وهذا قريب من معنى قوله (ولا تكونوا من المشركين) ثم قال الله تعالى (فطرت الله) أى ألزم فطرة الله وهى التوحيد

مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾

فان الله فطر الناس عليه حيث أخذهم من ظهر آدم وسألهم (ألست بربكم) ؟ فقالوا بلى ، وقوله تعالى (لاتبديل لخلق الله) فيه وجوه ، قال بعض المفسرين هذه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم عن الحزن حيث لم يؤمن قومه فقال هم خلقوا للشقاوة ومن كتب شقياً لايسعد ، وقيل (لاتبديل لخلق الله) أى الوحدانية مترسخة فيهم لاتغير لها حتى إن سألتهم من خلق السموات والأرض يقولون الله ، لكن الإيمان الفطرى غير كاف . ويحتمل أن يقال خلق الله الخلق لعبادته وهم كلهم عبيده لاتبديل لخلق الله أى ليس كونهم عبيداً مثل كون المملوك عبداً لإنسان فانه ينتقل عنه إلى غيره ويخرج عن ملكه بالعتق بل لاخروج للخلق عن العبادة والعبودية ، وهذا لبيان فساد قول من يقول العبادة لتحصيل الكمال والعبد يكمل بالعبادة فلا يبقى عليه تكليف ، وقول المشركين إن الناقص لايصلح لعبادة الله ، وإنما الانسان عبد الكواكب والكواكب عبيد الله ، وقول النصارى إن عيسى كان يحل الله فيه وصار إلهاً فقال (لاتبديل لخلق الله) بل كلهم عبيد لاخروج لهم عن ذلك .

ثم قال تعالى (ذلك الدين القيم) الذى لاعوج فيه (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أن ذلك هو الدين المستقيم .

ثم قال تعالى : ﴿ منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين ، من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ .

لما قال حنيفاً أى مائلا عن غيره قال (منيبين إليه) أى مقبلين عليه ، والخطاب فى قوله (فأقم وجهك) مع النبى والمراد جميع المؤمنين ، وقوله (واتقوه) يعنى إذا أقبلتم عليه وتركتم الدنيا فلا تأمنوا فتتركوا عبادته بل خافوه وداوموا على العبادة وأقيموا الصلاة . أى كونوا عابدين عند حصول القربة كما قلتم قبل ذلك ، ثم إنه تعالى قال (ولا تكونوا من المشركين) قال المفسرون يعنى ولا تشركوا بعد الايمان أى ولا تقصدوا بذلك غير الله ، وههنا وجه آخر وهو أن الله بقوله (منيبين) أثبت التوحيد الذى هو مخرج عن الاشراك الظاهر وبقوله (ولا تكونوا من المشركين) أراد اخراج العبد عن الشرك الخفى أى لا تقصدوا بعملكم إلا وجه الله ولا تطلبوا به إلا رضاء الله فان الدنيا والآخرة تحصيل وإن لم تطلبوها إذا حصل رضا الله وعلى هذا فقوله (من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً) يعنى لم يجتمعوا على الاسلام ، وذهب كل أحد إلى مذهب ، ويحتمل أن يقال وكانوا شيعاً يعنى بعضهم عبد الله للدنيا وبعضهم للجنة وبعضهم

وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

للخلاص من النار ، وكل واحد بما فى نظره فرح ، وأما المخلص فلا يفرح بما يكون لديه ، وإنما يكون فرحه بأن يحصل عند الله ويقف بين يديه وذلك لأن كل مالدينا نافد لقوله تعالى (ماعندكم ينفد وما عند الله باق) فلا مطلوب لكم فيما لديكم حتى تفرحوا به وإنما المطلوب ما لدى الله وبه الفرح كما قال تعالى (بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله) جعلهم فرحين بكونهم عند ربهم ويكون ما أوتوا من فضله الذى لا نفاد له ، ولذلك قال تعالى (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا) لا بما عندهم فان كل ماعند العبد فهو نافد ، أما فى الدنيا فظاهر ، وأما فى الآخرة فلأن ماوصل إلى العبد من الالتذاذ بالمأكول والمشروب فهو يزول ، ولكن الله يجدد له مثله إلى الأبد من فضله الذى لانفاد له فالذى لانفاد له هو فضله .

ثم قال تعالى : ﴿ وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون ﴾ .

لما بين التوحيد بالدليل وبالمثل ، بين أن لهم حالة يعرفون بها ، وإن كانوا ينكرونها فى وقت وهى حالة الشدة ، فان عند انقطاع رجائه عن الكل يرجع إلى الله ، ويجد نفسه محتاجة إلى شىء ليس كهذه الأشياء طالبة به النجاة (ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون) يعنى إذا خلصناه يشرك بربه ويقول تخلصت بسبب اتصال الكوكب الفلانى بفلان ، وبسبب الصنم الفلانى ، لا ، بل ينبغى أن لا يعتقد أنه تخلص بسبب فلان إذا كان ظاهراً فانه شرك خفى ، مثاله رجل فى بحر أدركه الغرق فيهىء الله له لوحا يسوقه إليه ريح فيتعلق به وينجو . فيقول تخلصت بلوح ، أورجل أقبل عليه سبع فيرسل الله إليه رجلا فيعينه فيقول خلصنى زيد ، فهذا إذا كان عن اعتقاد فهو شرك خفى ، وإن كان بمعنى أن الله خلصنى على يد زيد فهو أخفى ، وفيه مسائل :

﴿ الأولى ﴾ قوله تعالى (أذاقهم) فيه لطيفة وذلك لأن الذوق يقال فى القليل فإن العرف [أن] من أكل مأكولا كثيراً لا يقول ذقت ، ويقال فى النفى ماذقت فى بيته طعاماً نفياً للقليل ليلزم نفى الكثير بالأولى ، ثم إن تلك الرحمة لما كانت خالية منقطعة ولم تكن مستمرة فى الآخرة إذلهم فى الآخرة عذاب قال أذاقهم ولهذا قال فى العذاب (ذوقوا مس سقر ، ذوقوا ما كنتم تعملون ، ذق إنك أنت العزيز الكريم) لأن عذاب الله الواصل إلى العبد بالنسبة إلى الرحمة الواصلة إلى عبيد آخرين فى غاية القلة

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله تعالى (منه) أى من الضر فى هذا التخصيص ماذكرناه من الفائدة وهى أن الرحمة غير مطلقة لهم إنما هى عن ذلك الضر وحده ، وأما الضر المؤخر فلا يذوقون منه رحمة

لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤) أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥)

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال ههنا (إذا فريق منهم) ، قال فى العنكبوت (فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون) ولم يقل فريق وذلك لأن المذكور هناك ضر معين ، وهو ما يكون من هول البحر والمتخلص منه بالنسبة إلى الخلق قليل ، والذى لايشرك به بعد الخلاص فرقة منهم فى غاية القلة .فلم يجعل المشركين فريقاً لقلة من خرج من المشركين ، وأما المذكور ههنا الضر مطلقاً فيتناول ضر البر والبحر والأمراض والأهوال والمتخلص من أنواع الضر خلق كثير بل جميع الناس يكونون قد وقعوا فى ضر ما وتخلصوا منه ، والذى لا يبقى بعد الخلاص مشركا من جميع الأنواع إذا جمع فهو خلق عظيم ، وهو جميع المسلمين فانهم تخلصوا من ضر ولم يبقوا مشركين ، وأما المسلمون فلم يتخلصوا من ضر البحر بأجمعهم ، فلما كان الناجى من الضر من المؤمنين جمعاً كثيراً ، جعل الباقى فريقاً .

ثم قال تعالى : ﴿ ليكفروا بما أتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون ، أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون ﴾ .

قوله تعالى (ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون) قد تقدم تفسيره فى العنكبوت بقى بيان فائدة الخطاب ههنا فى قوله (فتمتعوا) وعدمه هناك فى قوله (وليتمتعوا فسوف يعلمون) فنقول لما كان الضر المذكور هناك ضراً واحداً جاز أن لا يكون فى ذلك الموضع من المخلصين من ذلك الضر أحد ، فلم يخاطب ولما كان المذكور ههنا مطلق الضر ولا يخلو موضع من المخلصين عن الضر ، فالحاضر يصح خطابه بأنه منهم مخاطب .

ثم قال تعالى (أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون) لما سبق قوله تعالى (بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم) أى المشركون يقولون ما لا علم لهم به بل هم عالمون بخلافه فانهم وقت الضر يرجعون إلى الله حقق ذلك بالاستفهام بمعنى الانكار ، أى ما أنزلنا بما يقولون سلطاناً ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أم للاستفهام ولا يقع إلا متوسطاً ، كما قال قائلهم :

أيا ظبية الوعساء بين جلاجل وبين النقا آأنت أم أم سالم

فما الاستفهام الذى قبله ؟ فنقول تقديره إذا ظهرت هذه الحجج على عنادهم فماذا نقول ، أهم يتبعون الأهواء من غير علم ؟ أم لهم دليل على ما يقولون ؟ وليس الثانى فيتعين الاول .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (فهو يتكلم) مجاز كما يقال إن كتابه لينطق بكذا ، وفيه معنى لطيف

وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾

وهو أن المتكلم من غير دليل كأنه لا كلام له ، لأن الكلام هو المسموع وما لا يقبل فكأنه لم يسمع فكان المتكلم لم يتكلم به ، وما لا دليل عليه لا يقبل ، فاذا جاز سلب الكلام عن المتكلم عند عدم الدليل وحسن جاز إثبات التكلم للدليل وحسن .

ثم قال تعالى : ﴿ وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون ﴾

قوله تعالى (وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها) لما بين حال المشرك الظاهر شركه بين حال المشرك الذى دونه وهو من تكون عبادته الله للدنيا ، فاذا آتاه رضى وإذا منعه سخط وقنط ولا ينبغى أن يكون العبد كذلك ، بل ينبغى أن يعبد الله فى الشدة والرخاء ، فمن الناس من يعبد الله فى الشدة كما قال تعالى (وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم) ومن الناس من يعبده إذا آتاه نعمة كما قال تعالى (وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها) والأول كالذى يخدم مكرها مخافة العذاب والثانى كالذى يخدم أجيراً لتوقع الأجر وكلاهما لا يكون من المثبتين فى ديوان المرتبين فى الجرائد الذين يأخذون رزقهم سواء كان هناك شغل أو لم يكن . فكذلك القسمان لا يكونان من المؤمنين الذين لهم رزق عند ربهم ، وفيه مسألة : وهى أن قوله تعالى (فرحوا بها) اشارة إلى دنو همتهم وقصور نظرهم فان فرحهم يكون بما وصل إليهم لا بما وصل منه إليهم ، فان قال قائل الفرح بالرحمة مأمور به فى قوله تعالى (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا) وههنا ذمهم على الفرح بالرحمة . فكيف ذلك ؟ فنقول هناك قال فرحوا برحمة الله من حيث إنها مضافة إلى الله تعالى وههنا فرحوا بنفس الرحمة حتى لو كان المطر من غير الله لكان فرحهم به مثل فرحهم بما إذا كان من الله ، وهو كما أن الملك لو حط عند أمير رغيفاً على السماط أو أمر الغلمان بأن يحطوا عنده زبدية طعام يفرح ذلك الأمير به . ولو أعطى الملك فقيراً غير ملتفت إليه رغيفاً أو زبدية طعام أيضاً يفرح لكن فرح الأمير بكون ذلك من الملك وفرح الفقير بكون ذلك رغيفاً وزبدية .

ثم قال تعالى (وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم) لم يذكر عند النعمة سبباً لها لتفضله بها وذكر عند العذاب سبباً لأن الأول يزيد فى الإحسان والثانى يحقق العدل . قوله (إذا هم يقنطون) إذا للمفاجأة أى لا يصبرون على ذلك قليلا لعل الله يفرج عنهم وإنه يذكرهم به .

ثم قال تعالى : ﴿ أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾

فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾

أى لم يعلموا أن الكل من الله فالمحقق ينبغي أن لا يكون نظره على مايوجد بل إلى من يوجد وهو الله ، فلا يكون له تبدل حال ، وإنما يكون عنده الفرح الدائم ، ولكن ذلك مرتبة المؤمن الموحد المحقق ، ولذلك قال (إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) .

ثم قال تعالى : ﴿ فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون ﴾ .

وجه تعلق الآية بما قبلها هو أن الله تعالى لما بين أن العبادة لا ينبغى أن تكون مقصورة على حالة الشدة بقوله (وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم) ولا أن تكون مقصورة على حالة أخذ شئ من الدنيا كما هوعادة المدوكر المتسلس(١) يعبد الله إذا كان فى الخوانق والرباط للرغيف والزبدية وإذا خلا بنفسه لايذكرالله ، بقوله (وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها) وبين أنه ينبغى أن يكون ، فى حالة بسط الرزق وقدره عليه ، نظره على الله الخالق الرازق ليحصل الإرشاد إلى تعظيم الله والإيمان قسمان تعظيم لأمر الله وشفقة على خلق الله فقال بعد ذلك فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ، وفيه وجه آخر هو أن الله تعالى لما بين أن الله يبسط الرزق ويقدر ، فلا ينبغى أن يتوقف الانسان فى الاحسان فان الله إذا بسط الرزق لا ينقص بالانفاق ، وإذا قدر لا يزداد بالامساك ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى تخصيص الأقسام الثلاثة بالذكر دون غيرهم مع أن الله ذكر الأصناف الثمانية فى الصدقات فنقول أراد ههنا بيان من يجب الاحسان إليه على كل من له مال سواء كان زكويا أولم يكن ، وسواء كان بعد الحول أوقبله لأن المقصود ههنا الشفقة العامة ، وهؤلاء الثلاثة يجب الاحسان إليهم وإن لم يكن للمحسن مال زائد ، أما القريب فتجب نفقته وان كان لم تجب عليه زكاة كعقار أو مال لم يحل عليه الحول والمسكين كذلك فان من لا شىء له إذا بقى فى ورطة الحاجة حتى بلغ الشدة يجب على من له مقدرة دفع حاجته ، وإن لم يكن عليه زكاة ، وكذلك من انقطع فى مفازة ومع آخر دابة يمكنه بها إيصاله إلى مأمن يلزمه ذلك ، وإن لم تكن عليه زكاة والفقير داخل فى المسكين لأن من أوصى للمساكين شيئاً يصرف إلى الفقراء أيضاً ، وإذا نظرت إلى الباقين من الأصناف رأيتهم لا يجب صرف المال إليهم إلا على الذين وجبت الزكاة عليهم

(١) المدوكر المتسلس : لعله اسم لطائفة من بنى ساسان وهم المكدون والمتسولون . يعبدون الله رياء وسمعة والخوانق أو الخوانيق جمع خانقاه كلمة أعجمية وهى مكان للعبادات وأما الرباطات فهى جمع رباط وهو المكان يجتمع فيه المجاهدون فى سبيل الله على الثغور الاسلامية للحماية على الثغور .

واعتبر ذلك فى العامل والمكاتب والمؤلفة والمديون . ثم اعلم أن على مذهب أبى حنيفة رحمه الله حيث قال : المسكين من له شىء مافنقول ، وإن كان الأمر كذلك لكن لانزاع فى أن إطلاق المسكين على من لا شىء له جائز فيكون الاطلاق ههنا بذلك الوجه ، والفقير يدخل فى ذلك بالطريق الأولى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى تقدم البعض على البعض فنقول لما كان دفع حاجة القريب واجباً سواء كان فى شدة ومخمصة ، أو لم يكن كان مقدماً على من لا يجب دفع حاجته من غير مال الزكاة إلا إذا كان فى شدة ، ولما كان المسكين حاجته ليست مختصة بموضع كان مقدماً على من حاجته مختصة بموضع دون موضع .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ذكر الأقارب فى جميع المواضع كذا اللفظ وهو ذوو القربى ، ولم يذكر المسكين بلفظ ذى المسكنة ، وذلك لأن القرابة لا تتجدد فهى شىء ثابت ، وذو كذا لا يقال إلا فى الثابت ، فان من صدر منه رأى صائب مرة أو حصل له جاه يوماً واحداً أو وجد منه فضل فى وقت لا يقال ذو رأى وذو جاه وذو فضل ، وإذا دام ذلك له أو وجد منه ذلك كثيراً يقال له ذو الرأى وذو الفضل ، فقال (ذا القربى) إشارة إلى أن هذا حق متأكد ثابت ، وأما المسكنة فتطرأ وتزول ولهذا المعنى قال (مسكيناً ذا متربة) فان المسكين يدوم له كونه ذا متربة مادامت مسكنته أو يكون كذلك فى أكثر الأمر .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال (فآت ذا القربى حقه) ثم عطف المسكين وابن السبيل ولم يقل فآت ذا القربى والمسكين وابن السبيل حقهم ، لأن العبارة الثانية لكون صدور الكلام أولا للتشريك والأولى لكون التشريك وارداً على الكلام ، كأنه يقول أعط ذا القربى حقه ثم يذكر المسكين وابن السبيل بالتبعية ولهذا المعنى إذا قال الملك خل فلاناً يدخل ، وفلاناً أيضاً يكون فى التعظيم فوق ما إذا قال خل فلاناً وفلاناً يدخلان ، وإلى هذا أشار النبى عليه الصلاة والسلام بقوله « بئس خطيب القوم أنت » حيث قال الرجل من أطاع الله ورسوله فقد اهتدى ، ومن عصاهما فقد غوى . ولم يقل ومن عصى الله ورسوله .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قوله (ذلك خير) يمكن أن يكون معناه ذلك خير من غيره ويمكن أن يقال ذلك خير فى نفسه ، وإن لم يقس إلى غيره لقوله تعالى (وافعلوا الخير ، فاستبقوا الخيرات) والثانى أولى لعدم احتياجه إلى إضمار ولكونه أكثر فائدة لأن الخير من الغير قد يكون نازل الدرجة ، عند نزول درجة ما يقاس إليه ، كما يقال السكوت خير من الكذب ، وما هو خير فى نفسه فهو حسن ينفع وفعل صالح يرفع .

﴿ المسألة السادسة ﴾ قوله تعالى (للذين يريدون وجه الله) إشارة إلى أن الاعتبار بالقصد لا بنفس الفعل ، فان من أنفق جميع أمواله رياء الناس لا ينال درجة من يتصدق برغيف لله ، وقوله (وجه الله) أى يكون عطاؤه لله لا غير ، فمن أعطى للجنة لم يرد به وجه الله ، وإنما أراد مخلوق الله .

﴿ المسألة السابعة ﴾ كيف قال (وأولئك هم المفلحون) مع أن للافلاح شرائط أخر ، وهى

وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾

المذكورة فى قوله (قد أفلح المؤمنون) فنقول كل وصف مذكور هناك يفيد الافلاح ، فقوله (والذين هم للزكاة فاعلون) وقوله (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) إلى غير ذلك عطف على المفلح أى هذا مفلح ، وذاك مفلح ، وذاك الآخر مفلح لا يقال لا يحصل الافلاح لمن يتصدق ولا يصلى . فنقول هذا كقول القائل العالم مكرم أى نظراً إلى علمه ثم إذا حد فى الزنا على سبيل النكال وقطعت يده فى السرقة لا يبطل ذلك القول حتى يقول القائل . إنما كان ذلك لأنه أتى بالفسق ، فكذلك إيتاء المال لوجه الله يفيد الافلاح ، اللهم إلا إذا وجد مانع من ارتكاب محظور أو ترك واجب .

﴿ المسألة الثامنة ﴾ لم لم يذكر غيره من الأفعال كالصلاة وغيرها ؟ فنقول الصلاة مذكورة من قبل لأن الخطاب ههنا بقوله (فآت) مع النبى ﷺ وغيره تبع ، وقد قال له من قبل (فأقم وجهك للدين حنيفاً) وقال (منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة) .

﴿ المسألة التاسعة ﴾ قوله تعالى (وأولئك هم المفلحون) يفهم منه الحصر وقد قال فى أول سورة البقرة (وأولئك هم المفلحون) إشارة إلى من أقام الصلاة وآتى الزكاة ، وآمن بما أنزل على رسوله وبما أنزل من قبله وبالآخرة . فلو كان المفلح منحصراً فى أولئك المذكورين فى سورة البقرة فهذا خارج عنهم فكيف يكون مفلحاً ؟ فنقول هذا هو ذاك لأنا بينا أن قوله (فأقم وجهك للدين) متصل بهذا الكلام فاذا أتى بالصلاة وآتى المال وأراد وجه الله ، فقد ثبت أنه مؤمن مقيم للصلاة مؤت للزكاه معترف بالآخرة فصار مثل المذكور فى البقرة .

قوله تعالى : ﴿ وما آتيتم من رباً ليربوا فى أموال الناس فلا يربوا عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ﴾

ذكر هذا تحريضاً يعنى أنكم إذا طلب منكم واحد باثنين ترغبون فيه وتؤتونه وذلك لا يربوا عند الله والزكاة تنمو عند الله كما أخبر النبى عليه الصلاة والسلام « إن الصدقة تقع فى يد الرحمن فتربوا حتى تصير مثل الجبل » فينبغى أن يكون إقدامكم على الزكاة أكثر . وقوله تعالى (وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون) أى أولئك ذوو الاضعاف كالموسر لذى اليسار وأقل ذلك عشرة أضعاف كل مثل لما آتى فى كونه حسنة لا فى المقدار فلا يفهم أن من أعطى رغيفاً يعطيه الله عشرة أرغفة بل معناه أن ما يقتضيه فعله من الثواب على وجه الرحمة يضاعفه الله عشرة مرات على وجه التفضل . فبالرغيف الواحد يكون له قصر فى الجنة فيه من كل شىء ثواباً

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾

ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾

نظراً إلى الرحمة ، وعشر قصورمثله نظراً إلى الفضل . مثاله فى الشاهد ، ملك عظيم قبل من عبده هدية قيمتها درهم لو عوضه بعشرة دراهم لا يكون كرماً ، بل إذا جرت عادته بأنه يعطى على مثل ذلك ألفاً . فاذا أعطى له عشرة آلاف فقد ضاعف له الثواب .

قوله تعالى : ﴿ الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ .

قوله تعالى (الله الذى خلقكم) أى أوجدكم (ثم رزقكم) أى أبقاكم ، فان العرض مخلوق وليس يبقى (ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء) جمع فى هذه الآية بين إثبات الأصلين الحشر والتوحيد ، أما الحشر فبقوله (ثم يحييكم) والدليل قدرته على الخلق ابتداء ، وأما التوحيد فبقوله (هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء) . ثم قال تعالى (سبحانه وتعالى عما يشركون) فقوله سبحانه أى سبحوه تسبيحاً أى نزهوه ولا تصفوه بالإشراك ، وقوله (وتعالى) أى لايجوز عليه ذلك وهذا لأن من لا يتصف بشيء قد يجوز عليه فاذا قال سبحوه أى لاتصفوه بالإشراك . وإذا قال وتعالى فكأنه قال ولا يجوز عليه ذلك .

قوله تعالى : ﴿ ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون ﴾ .

وجه تعلق هذه الآية بما قبلها هو أن الشرك سبب الفساد كما قال تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) وإذا كان الشرك سببه جعل الله إظهارهم الشرك مورثاً لظهور الفساد ولو فعل بهم مايقتضيه قولهم (لفسدت السموات والأرض) كما قال تعالى (تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً) وإلى هذا أشار بقوله تعالى (ليذيقهم بعض الذى عملوا) واختلفت الأقوال فى قوله (فى البر والبحر) فقال بعض المفسرين : المراد خوف الطوفان فى البر والبحر ، وقال بعضهم عدم إنبات بعض الأراضى وملوحة مياه البحار ، وقال آخرون : المراد من البحر المدن ، فان العرب تسمى المدائن بحوراً لكون مبنى عمارتها على الماء . ويمكن أن يقال

قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾

إن ظهور الفساد فى البحر قلة مياه العيون فإنها من البحار ، واعلم أن كل فساد يكون فهو بسبب الشرك لكن الشرك قد يكون فى العمل دون القول والاعتقاد فيسمى فسقاً وعصياناً وذلك لأن المعصية فعل لا يكون لله بل يكون للنفس ، فالفاسق مشرك بالله بفعله ، غاية ما فى الباب أن الشرك بالفعل لا يوجب الخلود لأن أصل المرء قلبه ولسانه ، فاذا لم يوجد منهما إلا التوحيد يزول الشرك البدنى بسببهما ، وقوله تعالى (ليذيقهم بعض الذى عملوا) قد ذكرنا أن ذلك ليس تمام جزائهم وكل موجب افترائهم ، وقوله (لعلهم يرجعون) يعنى كما يفعله المتوقع رجوعهم مع أن الله يعلم أن من أضله ، لا يرجع لكن الناس يظنون أنه لو فعل بهم شيء من ذلك لكان يوجد منهم الرجوع ، كما أن السيد إذا علم من عبده أنه لا يرتدع بالكلام ، فيقول القائل لماذا لا تؤدبه بالكلام ؟ فاذا قال لا ينفع ربما يقع فى وهمه أنه لا يبعد عن نفع ، فاذا زجره ولم يرتدع يظهر له صدق كلام السيد ويطمئن قلبه .

قوله تعالى : ﴿ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين ﴾ .

لما بين حالهم بظهور الفساد فى أحوالهم بسبب فساد أفوالهم بين لهم هلاك أمثالهم وأشكالهم الذين كانت أفعالهم كأفعالهم فقال (قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل) أى قوم نوح وعاد وثمود ، وهذا ترتيب فى غاية الحسن وذلك لأنه فى وقت الامتنان والإحسان قال (الله الذى خلقكم ثم رزقكم) أى آتاكم الوجود ثم البقاء ووقت الخذلان بالطغيان قال (ظهر الفساد فى البر والبحر) أى قلل رزقكم ، ثم قال تعالى (سيروا فى الأرض) أى هو أعدمكم كما أعدم من قبلكم ، فكأنه قال أعطاكم الوجود والبقاء ، ويسلب منكم الوجود والبقاء ، أما سلب البقاء فبإظهار الفساد ، وأما سلب الوجود فبالإهلاك ، وعند الإعطاء قدم الوجود على البقاء ، لأن الوجود أولا ثم البقاء ، وعند السلب قدم البقاء ، وهو الاستمرار ثم الوجود .

وقوله (كان أكثرهم مشركين) يحتمل وجوهاً ثلاثة (أحدها) أن الهلاك فى الأكثر كان بسبب الشرك الظاهر وإن كان بغيره أيضاً كالإهلاك بالفسق والمخالفة كما كان على أصحاب السبت (الثانى) أن كل كافر أهلك لم يكن مشركا بل منهم من كان معطلا نافياً لكنهم قليلون ، وأكثر الكفار مشركون (الثالث) أن العذاب العاجل لم يختص بالمشركين حين أتى ، كما قال تعالى (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) بل كان على الصغار والمجانين ، ولكن أكثرهم كانوا مشركين .

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾

لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله يومئذ يصدعون ، من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون ﴾ .

لما نهى الكافر عما هو عليه ، أمر المؤمن بما هو عليه وخاطب النبى عليه السلام ليعلم المؤمن فضيلة ماهو مكلف به فانه أمر به أشرف الأنبياء ، وللمؤمنين فى التكليف مقام الأنبياء كما قال عليه الصلاة والسلام « إن الله أمر عباده المؤمنين بما أمر به عباده المرسلين » وقد ذكرنا معناه ، وقوله (من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله) يحتمل وجهين (الأول) أن يكون قوله (من الله) متعلقاً بقوله (يأتى) والثانى أن يكون المراد (لا مرد له من الله) أى الله لا يرد وغيره عاجز عن رده فلا بد من وقوعه (يومئذ يصدعون) أى يتفرقون . ثم أشار إلى التفرق بقوله (من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون) وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال (من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً) ولم يقل ومن آمن وذلك لأن العمل الصالح به يكمل الإيمان فذكره تحريضاً للمكلف عليه ، وأما الكفر إذا جاء فلا زنة للعمل معه ، ووجه آخر : وهو أن الكفر قسمان : (أحدهما) فعل وهو الاشراك والقول به ، (والثانى) ترك وهو عدم النظر والإيمان فالعاقل البالغ إذا كان فى مدينة الرسول ولم يأت بالإيمان فهو كافر سواء قال بالشرك أولم يقل ، لكن الايمان لابد معه من العمل الصالح ، فان الاعتقاد الحق عمل القلب ، وقول لا إله إلا الله عمل اللسان وشيء منه لا بد منه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال (فعليه) فوحد الكناية وقال (فلأنفسهم) جمعها إشارة إلى أن الرحمة أعم من الغضب فتشمله وأهله وذريته ، أما الغضب فمسبوق بالرحمة ، لازم لمن أساء .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال (فعليه كفره) ولم يبين وقال فى المؤمن (فلأنفسهم يمهدون) تحقيقاً لكمال الرحمة فانه عند الخير بين وفصل ببشارة ، وعند غيره أشار إليه إشارة .

قوله تعالى : ﴿ ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله إنه لا يحب الكافرين ﴾

ذكر زيادة تفصيل لما يمهده المؤمن لفعله الخير وعمله الصالح ، وهو الجزاء الذى يجازيه به الله

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾

والملك إذا كان كبيراً كريماً ، ووعد عبداً من عباده بأنى أجازيك يصل إليه منه أكثر مما يتوقعه ثم أكده بقوله (من فضله) يعنى أنا المجازى فكيف يكون الجزاء ، ثم إنى لا أجازيك من العدل وإنما أجازيك من الفضل فيزداد الرجاء ، ثم قال تعالى (إنه لايحب الكافرين) أوعدهم بوعيد ولم يفصله لما بينا وإن كان عند المحقق هذا الإجمال فيه كالتفصيل ، فان عدم المحبة من الله غاية العذاب ، وأفهم ذلك بمن يكون له معشوق فانه إذا أخبر العاشق بأنه وعدك بالدراهم والدنانير كيف تكون مسرته ، وإذا قيل له إنه قال إنى أحب فلاناً كيف يكون سروره .

وفيه لطيفة وهى أن الله عندما أسند الكفر والايمان إلى العبد قدم الكافر فقال (من كفر فعليه كفره) وعند ما أسند الجزاء إلى نفسه قدم المؤمن فقال (ليجزى الذين آمنوا) ثم قال تعالى (إنه لا يحب الكافرين) لأن قوله (من كفر) فى الحقيقة لمنع الكافر عن الكفر بالوعيد ونهيه عن فعله بالتهديد وقوله (من عمل صالحاً) لتحريض المؤمن فالنهى كالايعاد والتحريض للتقرير والايعاد مقدم عند الحكيم الرحيم ، وأما عند ما ذكر الجزاء بدأ بالاحسان إظهاراً للكرم والرحمة ، فان قال قائل هذا إنما يصح أن لو كان الذكر فى كل موضع كذلك وليس كذلك فان الله كثير من المواضع قدم إيمان المؤمن على كفر الكافر وقدم التعذيب على الاثابة ، فنقول إن كان الله يوفقنا لبيان ذلك نبين ما اقتضى تقديمه ، ونحن نقول بأن كل كلمة وردت فى القرآن فهى لمعنى وكل ترتيب وجد فهو لحكمة ، وما ذكر على خلافه لايكون فى درجة ما ورد به القرآن فلنبين من جملته مثالا وهو قوله تعالى (يومئذ يتفرقون ، فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة) قدم المؤمن على الكافر ، وههنا ذكر مثل ذلك المعنى فى قوله (يومئذ يصدعون) أى يتفرقون فقدم الكافر على المؤمن فنقول هناك أيضاً قدم الكافر فى الذكر لأنه قال من قبل (ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون) فذكر الكافر وإبلاسه ، ثم قال تعالى (ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون) فكان ذكر المؤمن وحده لابد منه ليبين كيفية التفرق بمجموع قوله (يبلس المجرمون) وقوله فى حق المؤمن (فى روضة يحبرون) لكن الله تعالى أعاد ذكر المجرمين مرة أخرى للتفصيل فقال (وأما الذين كفروا) .

قوله تعالى : ﴿ ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجرى الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات ﴾ لما ذكر أن ظهور الفساد والهلاك

بسبب الشرك ذكر ظهور الصلاح ولم يذكر أنه بسبب العمل الصالح ، لما ذكرنا غير مرة أن الكريم لا يذكر لاحسانه عوضاً ، ويذكر لأضراره سبباً لئلا يتوهم به الظلم فقال (يرسل الرياح مبشرات) قيل بالمطر كما قال تعالى (بشراً بين يدى رحمته) أى قبل المطر ويمكن أن يقال مبشرات بصلاح الأهوية والأحوال ، فان الرياح لو لم تهب لظهر الوباء والفساد .

ثم قال تعالى (وليذيقكم من رحمته) عطف على ما ذكرنا ، أى ليبشركم بصلاح الهواء وصحة الأبدان (وليذيقكم من رحمته) بالمطر ، وقد ذكرنا أن الإذاقة تقال فى القليل ، ولما كان أمر الدنيا قليلا وراحتها نزر قال (وليذيقكم) ، وأما فى الآخرة فيرزقهم ويوسع عليهم ويديم لهم (ولتجرى الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) لما أسند الفعل إلى الفلك عقبه بقوله (بأمره) أى الفعل ظاهراً عليه ولكنه بأمر الله ، ولذلك لما قال (ولتبتغوا) مسنداً إلى العباد ذكر بعده (من فضله) أى لا استقلال لشىء بشىء وفى الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ فى الترتيب فنقول فى الرياح فوائد ، منها إصلاح الهواء ، ومنها إثارة السحاب ، ومنها جريان الفلك بها فقال (مبشرات) باصلاح الهواء فان إصلاح الهواء يوجد من نفس الهبوب ثم الأمطار بعده ، ثم جريان الفلك فإنه موقوف على اختيار من الآدمى بإصلاح السفن وإلقائها على البحر ثم ابتغاء الفضل بركوبها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال فى قوله تعالى (ظهر الفساد ... ليذيقهم بعض الذى عملوا) وقال ههنا (وليذيقكم من رحمته) فخاطب ههنا تشريفاً (ولأن رحمته قريب من المحسنين) فالمحسن قريب فيخاطب والمسىء بعيد فلم يخاطبهم ، وأيضاً قال هناك بعض الذى عملوا وقال ههنا (من رحمته) فأضاف ما أصابهم إلى أنفسهم وأضاف ما أصاب المؤمن إلى رحمته وفيه معنيان : (أحدهما) ماذكرنا أن الكريم لايذكر لاحسانه ورحمته عوضاً . وإن وجد فلا يقول أعطيتك لأنك فعلت كذا بل يقول هذا لك منى . وأما ما فعلت من الحسنة فجزاؤه بعد عندى (وثانيهما) أن ما يكون بسبب فعل العبد قليل ، فلو قال أرسلت الرياح بسبب فعلكم لا يكون بشارة عظيمة ، وأما إذا قال (من رحمته) كان غاية البشارة ، ومعنى ثالث وهو أنه لو قال بما فعلتم لكان ذلك موهماً لنقصان ثوابهم فى الآخرة ، وأما فى حق الكفار فإذا قال بما فعلتم ينبىء عن نقصان عقابهم وهو كذلك .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال هناك (لعلهم يرجعون) وقال ههنا (ولعلكم تشكرون) قالوا وإشارة إلى أن توفيقهم للشكر من النعم فعطف على النعم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ إنما أخر هذه الآية لأن فى الآيات التى قد سبق ذكرها قلنا إنه ذكر من كل باب آيتين فذكر من المنذرات (يريكم البرق) والحادث فى الجو فى أكثر الأمر نار وريح فذكر الرياح ههنا تذكيراً وتقريراً للدلائل ، ولما كانت الريح فيها فائدة غير المطر وليس فى البرق فائدة إن لم يكن مطر ذكر هناك خوفاً وطمعاً ، أى قد يكون وقد لا يكون وذكر ههنا (مبشرات)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾

لأن تعديل الهواء أو تصفيته بالريح أمر لازم ، وحكمه به حكم جازم .

قوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾ .

لما بين الأصلين ببراهين ذكر الأصل الثالث وهو النبوة فقال (ولقد أرسلنا من قبلك رسلا) أى إرسالهم دليل رسالتك فانهم لم يكن لهم شغل غير شغلك ، ولم يظهر عليهم غير ما ظهر عليك ومن كذبهم أصابهم البوار ومن آمن بهم كان لهم الانتصار وله وجه آخر يبين تعلق الآية بما قبلها وهو أن الله لما بين البراهين ولم ينتفع بها الكفار سلى قلب النبي ﷺ وقال حال من تقدمك كان كذلك وجاءوا أيضا بالبينات . وكان فى قومهم كافر ومؤمن كما فى قومك فانتقمنا من الكافرين ونصرنا المؤمنين ، وفى قوله تعالى (وكان حقاً) وجهان : (أحدهما) فانتقمنا ، وكان الانتقام حقاً واستأنف وقال علينا نصر المؤمنين وعلى هذا يكون هذا بشارة للمؤمنين الذين آمنوا بمحمد ﷺ أى علينا نصركم أيها المؤمنون (والوجه الثانى) (وكان حقاً علينا) أى نصر المؤمنين كان حقاً علينا وعلى الأول لطيفة وعلى الآخر أخرى ، أما على الأول فهو أنه لما قال فانتقمنا بين أنه لم يكن ظلماً وإنما كان عدلا حقاً ، وذلك لأن الانتقام لم يكن إلا بعد كون بقائهم غير مفيد إلا زيادة الاثم وولادة الكافر الفاجر وكان عدمهم خيراً من وجودهم الخبيث ، وعلى الثانى تأكيد البشارة . لأن كلمة على تفيد معنى اللزوم يقال على فلان كذا ينبىء عن اللزوم ، فإذا قال حقاً أكد ذلك المعنى ، وقد ذكرنا أن النصر هو الغلبة التى لا تكون عاقبتها وخيمة ، فان إحدى الطائفتين إذا انهزمت أولا ، ثم عادت آخراً لا يكون النصر إلا للمنهزم ، وكذلك موسى وقومه لما انهزموا من فرعون ثم أدركه الغرق لم يكن انهزامهم إلا نصرة ، فالكافر إن هزم المسلم فى بعض الأوقات لا يكون ذلك نصرة إذ لا عاقبة له .

قوله تعالى : ﴿ الله الذى يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فاذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ، وإن كانوا من

وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾

قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين ، فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير ﴾

بين دلائل الرياح على التفصيل الأول فى إرسالها قدرة وحكمة . أما القدرة فظاهرة فان الهواء اللطيف الذى يشقه الودق يصير بحيث يقلع الشجر وهو ليس بذاته كذلك فهو بفعل فاعل مختار ، وأما الحكمة فى نفس الهبوب فيما يفضى إليه من إثارة السحب ، ثم ذكر أنواع السحب فمنه ما يكون متصلا ومنه ما يكون منقطعاً ، ثم المطر يخرج منه والماء فى الهواء أعجب علامة للقدرة ، وما يفضى إليه من إنبات الزرع وإدرار الضرع حكمة بالغة ، ثم إنه لا يعم بل يختص به قوم دون قوم وهو علامة المشيئة . وقوله تعالى (وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله) اختلف المفسرون فيه ، فقال بعضهم هو تأكيد كما فى قوله تعالى (فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيهما) وقال بعضهم من قبل التنزيل من قبل المطر ، والأولى أن يقال من قبل أن ينزل عليهم من قبله ، أى من قبل إرسال الرياح ، وذلك لأن بعد الإرسال يعرف الخبير أن الريح فيها مطر أو ليس ، فقبل المطر إذا هبت الريح لا يكون مبلساً ، فلما قال من قبل أن ينزل عليهم لم يقل إنهم كانوا مبلسين ، لأن من قبله قد يكون راجياً غالباً على ظنه المطر برؤية السحب وهبوب الرياح فقال من قبله ، أى من قبل ماذكرنا من إرسال الريح وبسط السحاب ، ثم لما فصل قال (فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى) لما ذكر الدلائل قال لمحيي باللام المؤكدة وباسم الفاعل ، فان الانسان إذا قال إن الملك يعطيك لا يفيد ما يفيد قوله إنه معطيك ، لأن الثانى يفيد أنه أعطاك فكان وهو معط متصفاً بالعطاء ، والأول يفيد أنه سيتصف به ويتبين هذا بقوله إنك ميت فانه آكد من قوله إنك تموت (وهو على كل شيء قدير) تأكيد لما يفيد الاعتراف .

ثم قال تعالى : ﴿ ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفراً لظلوا من بعده يكفرون ، فانك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ﴾

وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾

﴿ وما أنت بهاد العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴾

لما بين أنهم عند توقف الخير يكونون مبلسين آيسين ، وعند ظهوره يكونون مستبشرين ، بين أن تلك الحالة أيضاً لايدومون عليها ، بل لو أصاب زرعهم ريح مصفر لكفروا فهم منقلبون غير ثابتين لنظرهم إلى الحال لا إلى المآل ، وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال فى الآية الأولى (يرسل الرياح) على طريقة الإخبار عن الإرسال ، وقال ههنا (ولئن أرسلنا) لا على طريقة الإخبار عن الإرسال ، لأن الرياح من رحمته وهى متواترة ، والريح من عذابه وهو تعالى رءوف بالعباد يمسكها ، ولذلك نرى الرياح النافعة تهب فى الليالى والأيام فى البرارى والآكام ، وريح السموم لا تهب إلا فى بعض الأزمنة وفى بعض الأمكنة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ سمى النافعة رياحاً والضارة ريحاً لوجوه (أحدها) النافعة كثيرة الأنواع كثيرة الأفراد فجمعها ، فإن كل يوم وليلة تهب نفحات من الرياح النافعة ، ولا تهب الريح الضارة فى أعوام ، بل الضارة فى الغالب لا تهب فى الدهور (الثانى) هو أن النافعة لا تكون إلا رياحاً فان ما يهب مرة واحدة لايصلح الهواء ولا ينشىء السحاب ولا يجرى السفن ، وأما الضارة بنفحة واحدة تقتل كريح السموم (الثالث) هو أن الريح المضرة إما أن تضر بكيفيتها أو بكميتها ، أما الكيفية فهى إذا كانت حارة أو متكيفة بكيفية سم ، وهذا لا يكون للريح فى هبوبها وإنما يكون بسبب أن الهواء الساكن فى بقعة فيها حشائش رديئة أو فى موضع غائر وهو حار جداً ، أو تكون متكونة فى أول تكونها كذلك وكيفما كان فتكون واحدة ، لأن ذلك الهواء الساكن إذا سخن ثم ورد عليه ريح تحركه وتخرجه من ذلك المكان فتهب على مواضع كاللهيب ، ثم ما يخرج بعد ذلك من ذلك المكان لا يكون حاراً ولا متكيفاً ، لأن المكث الطويل شرط التكيف ، ألا ترى أنك لو أدخلت إصبعك فى نار وأخرجتها بسرعة لاتتأثر ، والحديد إذا مكث فيها يذوب ، فإذا تحرك ذلك الساكن وتفرق لا يوجد فى ذلك الوقت غيره من جنسه ، وأما المتولدة كذلك فنادرة وموضع ندرتها واحد . وأما الكمية فالرياح إذا اجتمعت وصارت واحدة صارت كالخلجان ، ومياه العيون إذا اجتمعت تصير نهراً عظيما لا تسده السدود ولا يرده الجلمود ، ولا شك أن فى ذلك تكون واحدة مجتمعة من كثير ، فلهذا قال فى المضرة ريح وفى النافعة رياح .

ثم إنه تعالى لما علم رسوله أنواع الأدلة وأصناف الأمثلة ووعد وأوعد ولم يزدهم دعاؤه إلا

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ ٥٤

فراراً ، وإنباؤه إلا كفراً وإضراراً ، قال له (فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى الترتيب فنقول إرشاد الميت محال ، والمحال أبعد من الممكن ، ثم إرشاد الأصم صعب فانه لا يسمع الكلام وإنما يفهم ما يفهمه بالإشارة لا غير ، والإفهام بالإشارة صعب ، ثم إرشاد الأعمى أيضاً صعب ، فانك إذا قلت له الطريق على يمينك يدور إلى يمينه ، لكنه لا يبقى عليه بل يحيد عن قريب وإرشاد الأصم أصعب ، فلهذا تكون المعاشرة مع الأعمى أسهل من المعاشرة مع الأصم الذى لا يسمع شيئاً ، لأن غاية الإفهام بالكلام ، فإن مالا يفهم بالإشارة يفهم بالكلام وليس كل ما يفهم بالكلام يفهم بالإشارة ، فان المعدوم والغائب لا إشارة إليهما فقال أولا لا تسمع الموتى ، ثم قال ولا الأصم ولا تهدى الأعمى الذى دون الأصم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال فى (الصم إذا ولوا مدبرين) ليكون أدخل فى الامتناع ، وذلك لأن الأصم وإن كان يفهم فانما يفهم بالإشارة ، فاذا ولى ولا يكون نظره إلى المشير فإنه يسمع ولا يفهم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال فى الأصم (لا تسمع الصم الدعاء) ولم يقل فى الموتى ذلك لأن الأصم قد يسمع الصوت الهائل كصوت الرعد القوى ولكن صوت الداعى لا يبلغ ذلك الحد فقال إنك داع لست بملجىء إلى الإيمان والداعى لا يسمع الأصم الدعاء .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال (وما أنت بهادى العمى) أى ليس شغلك هداية العميان كما يقول القائل فلان ليس بشاعر وإنما ينظم بيتاً وبيتين ، أى ليس شغله ذلك فقوله (إنك لا تسمع الموتى) نفى ذلك عنه ، وقوله (وما أنت بهادى العمى) يعنى ليس شغلك ذلك ، وما أرسلت له .

ثم قال تعالى : ﴿ إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴾ لما نفى إسماع الميت والأصم وأثبت إسماع المؤمن بآياته لزم أن يكون المؤمن حياً سميعاً وهو كذلك لأن المؤمن ترد على قلبه أمطار البراهين فتنبت فى قلبه العقائد الحقة ، ويسمع زواجر الوعظ فتظهر منه الأفعال الحسنة ، وهذا يدل على خلاف مذهب المعتزلة فانهم قالوا الله يريد من الكل الإيمان ، غير أن بعضهم يخالف إرادة الله ، وقوله (إن تسمع إلا من يؤمن) دليل على أنه يؤمن فيسمعه النبى صلى الله عليه وسلم ما يجب أن يفعل فهم مسلمون مطيعون كما قال تعالى عنهم (قالوا سمعنا وأطعنا)

قوله تعالى : ﴿ الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق مايشاء وهو العليم القدير ﴾ .

وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾

لما أعاد من الدلائل التى مضت دليلا من دلائل الآفاق وهو قوله (الله الذى يرسل الرياح فتثير سحاباً) وذكر أحوال الريح من أوله إلى آخره أعاد دليلا من دلائل الأنفس وهو خلق الآدمى وذكر أحواله ، فقال (خلقكم من ضعف) أى مبنا كم على الضعف كما قال تعالى (خلق الإنسان من عجل) ومن ههنا كما تكون فى قول القائل فلان زين فلانا من فقره وجعله غنياً أى من حالة فقره ، ثم قال تعالى (ثم جعل من بعد ضعف قوة) فقوله من ضعف إشارة إلى حالة كان فيها جنيناً وطفلا مولوداً ورضيعاً ومفطوما فهذه أحوال غاية الضعف ، وقوله (ثم جعل من بعد ضعف قوة) إشارة إلى حالة بلوغه وانتقاله وشبابه واكتهاله ، وقوله (ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير) .

إشارة إلى ما يكون بعد الكهولة من ظهور النقصان والشيبة هى تمام الضعف ، ثم بين بقوله (يخلق مايشاء) إن هذا ليس طبعاً بل هو بمشيئة الله تعالى كما قال تعالى فى دلائل الآفاق (فيبسطه فى السماء كيف يشاء وهو العليم القدير) لم قدم العلم على القدرة ؟ وقال من قبل (وهو العزيز الحكيم) فالعزة إشارة إلى تمام القدرة والحكمة إلى العلم ، فقدم القدرة هناك وقدم العلم على القدرة ههنا . فنقول هناك المذكور الاعادة بقوله (وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم) لأن الاعادة تكون بكن فيكون ، فالقدرة هناك أظهر وههنا المذكور الابداء وهو أطوار وأحوال والعلم بكل حال حاصل فالعلم ههنا أظهر ، ثم إن قوله تعالى (وهو العليم القدير) تبشير وإنذار لأنه إذا كان عالماً بأعمال الخلق كان عالماً بأحوال المخلوقات فان عملوا خيراً علمه وإن عملوا شراً علمه ، ثم إذا كان قادراً فاذا علم الخير أثاب وإذا علم الشر عاقب ، ولما كان العلم بالأحوال قبل الاثابة والعقاب الذين هما بالقدرة قدم العلم ، وأما فى الآخرة فالعلم بتلك الأحوال مع العقاب فقال (وهو العليم الحكيم) وإلى مثل هذا مثل هذا أشار فى قوله (فتبارك الله أحسن الخالقين) عقيب خلق الانسان ، فنقول أحسن إشارة إلى العلم لأن حسن الخلق بالعلم ، والخلق المفهوم من قوله (الخالقين) إشارة إلى القدرة ، ثم لما بين ذكر الابداء والاعادة كالابداء ذكره بذكر أحوالها وأوقاتها .

فقال تعالى ﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون ﴾ قيل مالبثوا فى الدنيا غير ساعة . وقيل مالبثوا فى القبور ، وقيل ما لبثوا من وقت فناء الدنيا إلى وقت النشور (كذلك كانوا يؤفكون) يصرفون من الحق إلى الباطل ومن الصدق إلى الكذب

وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾

فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولـكنكم كنتم لاتعلمون ﴾ .

قوله (وقال الذين أوتو العلم والإيمان) من الملائكة وغيرهم (لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث) وتحن نبين ماهو المعنى اللطيف فى هاتين الآيتين ، فنقول الموعود بوعد إذا ضرب له أجل يستكثر الأجل ويريد تعجيله ،والموعد بوعيد إذا ضرب له أجل يستقل المدة ويريد تأخيرها ، لـكن المجرم إذا حشر علم أن مصيره إلى النار فيستقل مدة اللبث ويختار تأخير الحشر والإبقاء فى القبر ، والمؤمن إذا حشر علم أن مصيره إلى الجنة فيستكثر المدة ولا يريد التأخير فيختلف الفريقان ويقول أحدهما إن مدة لبثنا قليل وإليه الإشارة بقوله (يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة) ويقول الآخر لبثنا مديداً وإليه الاشارة بقوله تعالى (وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث) يعنى كان فى كتاب الله ضرب الأجل إلى يوم البعث ونحن صبرنا إلى يوم البعث (فهذا يوم البعث ولـكنكم كنتم لاتعلمون) يعنى طلبكم التأخير ، لأنكم كنتم لاتعلمون البعث ولا تعترفون به ، فصار مصيركم إلى النار فتطلبون التأخير .

ثم قال تعالى : ﴿ فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون ﴾ أى لايطلب منهم الإعتاب وهو إزالة العتب يعنى التوبة التى تزيل آثار الجريمة لاتطلب منهم لأنها لاتقبل منهم .

ثم قال تعالى : ﴿ ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون ﴾ .

قوله (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من مثل) إشارة إلى إزالة الأعذار والإتيان بما فوق الـكفاية من الإنذار ، وإلى أنه لم يبق من جانب الرسول تقصير ، فان طلبوا شيئاً آخر فذلك عناد ومن هان عليه تكذيب دليل لايصعب عليه تكذيب الدلائل ، بل لايجوز للمستدل أن يشرع فى دليل

كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

آخر بعد ماذكر دليلاجيداً مستقيماً ظاهراً لاغبار عليه وعانده الخصم ، لأنه إما أن يعترف بورود سؤال الخصم عليه أولا يعترف ، فان اعترف يكون انقطاعا وهو يقدح فى الدليل أوالمستدل ، إما بأن الدليل فاسد ، وأما بأن المستدل جاهل بوجه الدلالة والاستدلال ، وكلاهما لايجوز الاعتراف به من العالم فكيف من النبى عليه الصلاة والسلام ، وإن لم يعترف يكون الشروع فى غيره موهماً أن الخصم ليس معانداً فيكون اجتراؤه على العناد فى الثانى أكثر لأنه يقول العناد أفاد فى الأول حيث التزم ذكر دليل آخر . فان قيل فالأنبياء عليهم السلام ذكروا أنواعامن الدلائل ، نقول سردوها سرداً ، ثم قرروها فرداً فرداً ، كمن يقول الدليل عليه من وجوه : الأول كذا ، والثانى كذا ، والثالث كذا ، وفى مثل هذا الواجب عدم الالتفات إلى عناد المعاند لأنه يزيده بعناده حتى يضيع الوقت فلا يتمكن المستدل من الإتيان بجميع ماوعد من الدلائل فتنحط درجته فاذن لكل مكان مقال . وإلى هذا وقعت الإشارة بقوله تعالى (ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون) وفى توحيد الخطاب بقوله (ولئن جئتهم) والجمع فى قوله (إن أنتم) لطيفة وهى أن الله تعالى قال (ولئن جئتهم بكل آية) جاءت بها الرسل ويمكن أن يجاء بها يقولون أنتم كلكم أيها المدعون للرسالة مبطلون . ثم بين تعالى أن ذلك بطبع الله على قلوبهم بقوله (كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون) فان قيل من لا يعلم شيئاً أية فائدة فى الإخبار عن الطبع على قلبه ؟ نقول المعنى هو أن من لايعلم الآن فقد طبع الله على قلبه من قبل ، ثم إنه تعالى سلى قلب النبى ﷺ بقوله (فاصبر إن وعد الله حق) أى أن صدقك يبين وقوله (ولا يستخفنك الذين لا يوقنون) اشارة إلى وجوب مداومة النبى عليه الصلاة والسلام على الدعاء إلى الإيمان فانه لو سكت لقال الكافر إنه متقلب الرأى ، لاثبات له . والله أعلم بالصواب . وإليه المرجع والمآب . والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيد المرسلين . وآله وصحبه أجمعين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الروم

سورة الروم مكيةٌ كلُّها من غير خلاف[1]، وهي ستون آية[2]

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ . غُلِبَتِ ٱلرُّومُ . فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ روى الترمذِيُّ عن أبي سعيد الخُدرِيِّ قال: لمَّا كان يوم بدرٍ ظهرتِ الرومُ على فارسٍ، فأَعجَبَ ذلك الْمُؤمنين، فنزلت: ﴿الٓمٓ . غُلِبَتِ ٱلرُّومُ . فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ إلى قوله: ﴿يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ . بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾. قال: فَفَرِحَ المؤمنون بظهور الروم على فارس. قال: هذا حديثٌ غريبٌ من هذا الوجه. هكذا قرأ نصرُ بن عليٍّ الجَهْضَمِيُّ «غَلَبَتِ الرُّومُ»[3]. ورواه أيضاً من حديث ابن عباس بأتمَّ منه. قال ابن عباس في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿الٓمٓ . غُلِبَتِ ٱلرُّومُ . فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ قال: غَلَبَتْ وغُلِبَتْ؛ قال: كان المشركون يُحِبُّون أن يظهر أهل فارس على الروم؛ لأنهم وإيَّاهم أهلُ أوثان، وكان المسلمون يُحِبُّون أن تظهر الروم على فارس؛ لأنهم أهلُ كتاب، فذكروه لأبي بكر، فذكره أبو بكرٍ لرسول الله ﷺ، فقال: «أما إنهم سيَغلِبون» فذكره أبو بكر لهم فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلاً، فإن ظهرنا كان لنا كذا، وإن ظهرتُم كان لكم كذا وكذا. فجعل أجل خمس سنين، فلم يظهروا، فذُكِرَ ذلك

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٧.

(٢) الوسيط ٣/ ٤٢٧، وتفسير البغوي ٣/ ٤٧٥.

(٣) سنن الترمذي (٣١٩٢). وهذه القراءة شاذة، وسيوردها المصنف قريباً عن أبي سعيد الخدري وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وعن معاوية بن قرة.

للنبيِّ ﷺ فقال: «ألا جَعَلْتَه إلى دون» ـ أراه قال: العشر ـ قال: قال أبو سعيد: والبِضْعُ ما دون العشرة. قال: ثم ظهرتِ الرومُ بعدُ. قال: فذلك قوله: ﴿الٓمٓ . غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾. قال سفيان: سمعتُ أنهم ظهروا عليهم يوم بدر. قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريب[1]. ورواه أيضاً عن نِيَار بن مُكْرَمٍ الأسْلَميِّ قال: لمَّا نزلت: ﴿الٓمٓ . غُلِبَتِ ٱلرُّومُ . فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ وكان فارسُ يومَ نزلت هذه الآية قاهرين للروم، وكان المسلمون يُحِبُّون ظهورَ الروم عليهم؛ لأنهم وإيَّاهم أهلُ كتاب، وفي ذلك نزل قول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وكانت قريشٌ تُحِبُّ ظهورَ فارسَ؛ لأنهم وإيَّاهم ليسوا بأهلِ كتابٍ ولا إيمانٍ ببعثٍ، فلمَّا أنزل اللهُ هذه الآية خرج أبو بكرٍ الصدِّيقُ ﷺ يصيح في نواحي مكة: ﴿الٓمٓ . غُلِبَتِ ٱلرُّومُ . فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾. قال ناسٌ من قريشٍ لأبي بكر: فذلكَ بيننا وبينكم، زعم صاحبكم[2] أنَّ الرومَ ستَغلِبُ فارسَ في بضع سنين! أفلا نُراهِنُك على ذلك؟ قال: بلى. وذلك قبل تحريم الرِّهان، فارتهن أبو بكرٍ والمشركون وتواضعوا الرِّهان. وقالوا لأبي بكر: كم تجعلُ؟ البِضْعُ ثلاثُ سنينَ إلى[3] تسعِ سنين، فَسمِّ بيننا وبينك وسطاً تنتهي إليه. قال: فَسمَّوا بينهم ستَّ سنين. قال: فمضَتِ السِّتُ سنينَ قبل أن يظهروا، فأخذ المشركون رهنَ أبي بكر، فلما دخلتِ السنةُ السابعةُ ظهرتِ الرومُ على فارس، فعابَ المسلمون على أبي بكر تسميةَ سِتِّ سنين. قال: لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾ قال: وأسلم عند ذلك ناسٌ كثير. قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريب[4]. وروى القُشَيْرِيُّ وابن عطية وغيرهما: أنه لمَّا نزلتِ الآياتُ خرجَ أبو بكرٍ بها إلى المشركين فقال: أَسَرَّكُم أن

---

(١) سنن الترمذي (٣١٩٣).

(٢) في النسخ: صاحبك. والمثبت من سنن الترمذي.

(٣) في النسخ: أو. والمثبت من سنن الترمذي.

(٤) سنن الترمذي (٣١٩٤).

غُلبتِ الروم؟ فإنَّ نبيَّنا أخبرنا عن الله تعالى أنهم سيغلبون في بضع سنين. فقال له أُبيُّ ابن خلف وأُميَّةُ أخوه ـ وقيل: أبو سفيان بن حرب ـ : يا أبا فَصِيل[(١)] ـ يُعرِّضون بكنيته بالبَكر[(٢)] ـ فلْنَتَنَاحَبْ ـ أي: نتراهن في ذلك، فراهنهم أبو بكر. قال قتادة: وذلك قبل أن يُحرَّم القمار، وجعلوا الرِّهان خمسَ قلائِصَ، والأجلَ ثلاث سنين. وقيل: جعلوا الرِّهان ثلاثَ قلائِصَ. ثم أتى النبيَّ ﷺ فأخبره، فقال: «فهلَّا احتطْتَ، فإنَّ البِضْعَ ما بين الثلاث إلى التسع[(٣)] والعشر، ولكنِ ارجِعْ فزِدْهم في الرِّهانِ واستزِدْهم في الأجل» ففعل أبو بكر، فجعلوا القلائصَ مئةً، والأجلَ تسعةَ أعوام، فغلبتِ الرومُ في أثناء الأجل[(٤)]. وقال الشَّعبيُّ: فظهروا في تسع سنين[(٥)]. القشيريُّ: المشهور في الروايات أنَّ ظهورَ الروم كان في السابعة من غَلبَةِ فارس للروم، ولعلَّ روايةَ الشَّعبي تصحيفٌ من السبع إلى التسع من بعض النَّقَلة. وفي بعض الروايات: أنه جعل القلائِصَ سبعاً إلى تسع سنين. ويقال: إنه آخر فتوحِ كسرى أبروِيز فَتَحَ فيه القسطنطينية حتى بنى فيها بيت النار، فأُخبِرَ رسولُ الله ﷺ فساءه ذلك، فأنزل الله تعالى هاتين الآيتين. وحكى النقَّاش وغيره: أنَّ أبا بكرٍ الصِّدِّيقَ ﵁ لمَّا أراد الهجرة مع النبيِّ ﷺ تعلَّقَ به أُبيُّ بن خلف وقال له: أعطني كفِيلاً بالخَطَرِ[(٦)] إن غلَبتُ. فكفِلَ به ابنُه عبد الرحمن[(٧)]، فلمَّا أراد أُبيٌّ الخروجَ إلى أُحدٍ طلبه عبد الرحمن بالكفيل، فأعطاه

---

(١) والفصيل: ولد الناقة إذا فُصل عن أمه. الصحاح (فصل).

(٢) في (ظ): بكنية أبا بكر، وفي (م): بكنيته يا أبا بكر. والمثبت من (د) و(ز) والمحرر الوجيز.

(٣) في (ظ) و(م): والتسع، والمثبت من (د) و(ز)، وكذلك وقع في رواية الترمذي (٣١٩١) من حديث ابن عباس ﵄، ولم يذكر: والعشر. قلنا: والقول في أن البضع ما بين الثلاث إلى التسع أو العشر هو قول قتادة والأصمعي فيما ذكر النحاس في معاني القرآن ٣/ ٤٣٠ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٨ دون قوله: جعلوا الرهان ثلاث قلائص. والقلائص جمع قلوص: وهي الناقة الشابة. الصحاح (قلص).

(٥) تفسير عبد الرزاق ٢/ ١٠١ .

(٦) أي: بالسبق الذي يُتراهن عليه. الصحاح (خطر).

(٧) النكت والعيون ٤/ ٢٩٦ - ٢٩٧ .

كفيلاً، ثم مات أُبيٌّ بمكة من جرحٍ جرحَه النبيُّ ﷺ، وظهرتِ الرومُ على فارس يوم الحديبية على رأسِ تسع سنينَ من مُناحبتهم. وقال الشَّعبيُّ: لم تمضِ تلكَ المدَّةُ حتى غلبتِ الرومُ فارسَ، وربطوا خيلَهم بالمدائن، وبنَوا رومِيَة؛ فقَمَر[1] أبو بكرٍ أُبَيًّا، وأخذ مالَ الخَطَرِ من وَرَثَتِه، فقال له النبيُّ ﷺ: «تصدَّق به» فتصدَّق به[2].

وقال المفسِّرون: إنَّ سببَ غَلَبَةِ الرومِ فارسَ امرأةٌ كانت في فارسَ لا تلِدُ إلَّا الملوكَ والأبطال، فقال لها كسرى: أُريدُ أن أستعمل أحدَ بنيكِ على جَيشٍ أُجهِّزُه إلى الروم. فقالت: هذا هُرْمُز أرْوَغُ من ثعلب، وأحذَرُ من صقر، وهذا فَرُّخان أحَدُّ من سِنان، وأنفَذُ من نَبْل، وهذا شهربزان أحلَمُ من كذا، فاخْتَرْ. قال: فاختار الحليم وولَّاه، فسار إلى الروم بأهل فارس، فظهر على الروم. وقال عكرمة وغيره: إن شهربزان لمَّا غلبَ الرومَ خرَّب ديارها حتى بلغ الخليج، فقال أخوه فَرُّخان: لقد رأيتني جالساً على سريرِ كسرى، فكتب كسرى إلى شهربزان أن[3] أرسل إليَّ برأس فَرُّخان. فلم يفعل، فكتب كسرى إلى فارس: إني قد استعملتُ عليكم فَرُّخان، وعزلتُ شهربزان، وكتب إلى فَرُّخان إذا ولي أن يقتل شهربزان، فأراد فَرُّخان قتل شهربزان، فأخرج له شهر بزان ثلاثَ صحائف من كسرى يأمره بقتل فَرُّخان، فقال شهربزان لفَرُّخان: إنَّ كسرى كتبَ إليَّ أن أقتُلَكَ ثلاث صحائف وراجعتُه أبداً في أمرك، أفتقتلني أنت بكتابٍ واحد؟! فرَدَّ المُلْكَ إلى أخيه، وكتب شهربزان إلى قيصر ملك الروم، فتعاونا على كسرى، فغلبتِ الرومُ فارس ومات كسرى، وجاء الخبر إلى النبيِّ ﷺ يوم الحديبية، ففرح مَنْ معه من المسلمين، فذلك قوله تعالى: ﴿الٓمٓ . غُلِبَتِ ٱلرُّومُ . فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني أرض الشام. عكرمة: بأذْرِعات[4]، وهي ما بين بلاد

---

(١) أي: غلب. الصحاح (قمر).

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٦ .

(٣) كلمة أن من (د) و(ز).

(٤) من قوله: وقال عكرمة وغيره... إلى هذا الموضع من تفسير البغوي ٣/ ٤٧٦ - ٤٧٧ .

العرب والشام. وقيل: إنَّ قيصر كان بعثَ رجلاً يُدعى يُحنَّس، وبعث كسرى شهربزان، فالتقيا بأذرِعاتَ وبصرى، وهي أدنى بلاد الشام إلى أرض العرب والعجم. مجاهد: بالجزيرة، وهو موضعٌ بين العراق والشام. مقاتل: بالأردنّ وفلسطين[١]. و«أدنى» معناه أقرب[٢]. قال ابن عطية: فإن كانت الواقعة بأذرعات فهي من أدنى الأرض بالقياس إلى مكة، وهي التي ذكرها امرؤ القيس[٣] في قوله:

تنوَّرْتُها من أذْرِعاتَ وأهلُها   بيثربَ أدنى دارِها نَظَرٌ عالِ

وإن كانت الواقعة بالجزيرة فهي أدنى بالقياس إلى أرض كسرى، وإن كانت بالأردنّ فهي أدنى إلى أرض الروم. فلمَّا طرأ ذلك وغلبتِ الرومُ سُرَّ الكفارُ، فبشَّرَ اللهُ عباده بأنَّ الرومَ سيغْلِبون وتكونَ الدُّولةُ لهم في الحرب.

وقد مضى الكلام في فواتح السور. وقرأ أبو سعيد الخدريّ وعلي بن أبي طالب ومعاوية بن قُرّة: «غَلَبَتِ الرُّومُ» بفتح الغين واللام[٤]. وتأويلُ ذلك أن الذي طرأ يوم بدر إنما كانتِ الروم غلبت، فعزَّ ذلك على كفار قريش، وسُرَّ بذلك المسلمون، فبشَّرَ اللهُ تعالى عباده أنهم سيغْلِبون أيضاً في بضع سنين. ذكر هذا التأويل أبو حاتم[٥]. قال أبو جعفر النحَّاس: قراءة أكثر الناس: «غُلِبت الروم» بضمِّ الغين وكسر اللام. ورُويَ عن ابن عمر وأبي سعيد الخدري أنهما قرأا «غَلَبَتِ الروم» وقرأا: «سيُغلبون»[٦]. وحكى أبو حاتم أنَّ عِصْمة روى عن هارون أنَّ هذه قراءة أهل الشام، وأحمد بن حنبل يقول: إنَّ عِصْمةَ هذا ضعيف، وأبو حاتم كثيرُ الحكاية عنه، والحديث يدلُّ

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٧ دون قوله: إن قيصر... والعجم.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٧ .

(٣) في ديوانه ص ٣١ ، وقد سلف ٣/ ٣٣٢ .

(٤) وهي في الشاذة ص ١١٦ عن علي وابن عمر رضي الله عنهما. وقد سلفت قريباً عن نصر بن علي الجهضمي.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٧ .

(٦) قراءة: «سيُغلبون» في الشاذة ص ١١٦ عن علي وابن عمر رضي الله عنهما، وعن معاوية بن قرة.

على أنَّ القراءة «غُلِبتْ» بضَمِّ الغين، وكان في هذا الإخبار دليلٌ على نبوَّة محمدٍ ﷺ؛ لأنَّ الروم غلبَتْها فارس، فأخبر الله عزَّ وجلَّ نبيَّه محمداً ﷺ أنَّ الرومَ ستغلِبُ فارسَ في بضع سنين، وأنَّ المؤمنين يفرحون بذلك؛ لأن الرومَ أهلُ كتاب، فكان هذا من علم الغيب الذي أخبر الله عزَّ وجلَّ به مما لم يكن[1]، وأمر أبا بكرٍ أن يُراهنهم على ذلك وأن يُبالِغَ في الرهان، ثم حُرِّم الرِّهانُ بعدُ، ونُسِخَ بتحريم القِمار[2]. قال ابن عطية[3]: والقراءةُ بضمِّ الغين أصحُّ، وأجمع الناس على «سيغلِبون» أنه بفتح الياء، يُراد به الروم. ويُروى عن ابن عمر أنه قرأ أيضاً بضمِّ الياء في «سيغلِبون»، وفي هذه القراءة قلبٌ للمعنى الذي تظاهرتِ الرواياتُ به. قال أبو جعفر النحَّاس[4]: ومن قرأ: «سيُغلبون» فالمعنى عنده: وفارسُ من بعدِ غَلَبِهم ـ أي: من بعد أن غَلَبوا ـ سيُغلبون.

ورُوِيَ أنَّ إيقاع الروم بالفرس كان يوم بدر، كما في حديث أبي سعيد الخدري حديثِ الترمذيّ، ورُويَ أنَّ ذلك كان يوم الحُديبِية، وأنَّ الخبرَ وصلَ يوم بيعة الرِّضوان. قاله عكرمة وقتادة. قال ابن عطية[5]: وفي كلا اليومين كان نصرٌ من الله للمؤمنين. وقد ذكر الناسُ أنَّ سببَ سرورِ المسلمين بغَلَبة الرومِ وهمِّهم أن تُغلَبَ إنَّما هو أنَّ الرومَ أهلُ كتابٍ كالمسلمين، وفارس من أهل الأوثان كما تقدَّم بيانُه في الحديث. قال النحَّاس[6]: وقولٌ آخر وهو أولى: أنَّ فَرَحَهم إنَّما كان لإنجاز وعدِ الله تعالى؛ إذ كان فيه دليلٌ على النبوَّة؛ لأنه أخبر تبارك وتعالى بما يكون في بضع سنين، فكان فيه. قال ابن عطية[7]: ويُشبه أن يُعلَّلَ ذلك بما يقتضيه النظرُ من محبة أن

(١) بعدها في (م) كلمة «علموه» وهي ليست في النسخ ولا في إعراب القرآن.
(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٦١ - ٢٦٢ .
(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٧ .
(٤) في معاني القرآن ٥/ ٢٤٣ .
(٥) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٨ ، وما قبله منه.
(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٢٦٥ .
(٧) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٨ .

يغلِبَ العدوُّ الأصغر؛ لأنه أيسرُ مؤونةً، ومتى غلبَ الأكبرُ كثُرَ الخوفُ منه. فتأمَّل هذا المعنى، مع ما كان رسول الله ﷺ ترجَّاه من ظهور دينه وشَرْعِ الله الذي بعثَه به وغلبته على الأمم، وإرادة كفار مكة أن يرميه الله بملكٍ يستأصله ويُريحهم منه.

وقيل: سرورهم إنما كان بنصر رسول الله ﷺ على المشركين؛ لأنَّ جبريل أخبر بذلك النبيَّ عليه الصلاة والسلام يوم بدر. حكاه القُشَيْرِيُّ.

قلت: ويَحتمِلُ أن يكون سرورُهم بالمجموع من ذلك، فسُرُّوا بظهورهم على عدوِّهم وبظهور الروم أيضاً وبإنجاز وعد الله.

وقرأ أبو حَيْوَة الشاميُّ ومحمد بن السَّمَيْفَع: «من بعد غَلْبِهم» بسكون اللام[1]، وهما لغتان، مثل الظَّعْن والظَّعَن.

وزعم الفرَّاء أنَّ الأصل «من بعد غلبتهم» فحُذِفت التاءُ كما حُذفتْ في قوله عزَّ وجلَّ: «وَإِقَامِ الصَّلَاةِ» وأصلُه: وإقامة الصلاة. قال النحَّاس: وهذا غلط لا يُخِيل على كثيرٍ من أهل النحو؛ لأنَّ «إقام الصلاة» مصدرٌ قد حُذِفَ منه لاعتلالِ فعله، فجُعِلَتِ التاءُ عوضاً من المحذوف، و«غلب» ليس بمعتَلٍّ ولا حُذِفَ منه شيء. وقد حكى الأصمعِيُّ: طَرَدَ طَرَدًا، وجَلَبَ جَلَبًا، وحَلَبَ حَلَبًا، وغَلَبَ غَلَبًا، فأيُّ حذفٍ في هذا، وهل يجوز أن يُقالَ في أَكَلَ أَكْلاً وما أشبَهه: حُذِفَ منه[2]؟

﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ حُذِفَتِ الهاءُ من «بِضع» فرقاً بين المذكر والمؤنث، وقد مضى الكلام فيه في سورة «يوسف»[3]. وفُتِحَتِ النونُ من «سِنِينَ» لأنه جمعٌ مُسَلَّم. ومن العرب من يقول في «بضع سنين» كما يقول في «غِسلِين». وجاز أن يُجمعَ سنة جَمعَ من يعقِلُ بالواو والنون والياء والنون؛ لأنَّه قد حُذِفَ منها شيءٌ فجُعِلَ هذا الجمعُ عِوَضاً من النقص الذي في واحده؛ لأنَّ أصل «سنة» سنهة أو سنوة، وكُسِرَتِ السينُ

(١) وهي في الشاذة ص ١١٦ عن علي بن أبي طالب ﷺ.
(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٢ ، وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣١٩ .
(٣) ١١/ ٣٥٨ - ٣٥٩ .

منه دلالةً على أنَّ جمعَه خارجٌ عن قياسه ونمطه. هذا قول البصريين. ويلزم الفرَّاءُ أن يضُمَّها؛ لأنه يقول: الضمةُ دليلٌ على الواو وقد حُذِفَ من سنة واوٌ في أحد القولين، ولا يضُمُّها أحدٌ علِمناه[1].

قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ أخبر تعالى بانفراده بالقدرة، وأنَّ ما في العالم من غلَبةٍ وغيرها إنما هي منه وبإرادته وقدرته، فقال: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: إنفاذ الأحكام. ﴿مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ أي: مِنْ قبلِ هذه الغلَبةِ ومِنْ بعدِها[2]. وقيل: من قبلِ كلِّ شيءٍ ومن بعد كلِّ شيء[3]. و﴿مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ ظرفان بُنيا على الضمِّ، لأنَّهما تعرَّفا بحذفِ ما أُضيفا إليهما، وصارا مُتضمَّنين ما حُذِفَ، فخالفا تعريفَ الأسماء، وأشبَها الحروفَ في التضمين فبُنيا، وخُصَّا بالضمِّ لشبههما بالمنادى المفرد في أنه إذا نُكِّر وأُضيفَ زالَ بناؤه، وكذلك هما فَضُمَّا[4].

ويقال: «من قبلٍ ومِن بعدٍ»، وحكى الكسائيُّ عن بعضِ بني أسد: «لِلهِ الأَمْرُ مِن قبلِ ومن بعدِ» مخفوضين بغير تنوين، والثاني مضمومٌ بلا تنوين. وحكى الفرَّاء: «مِن قبلِ ومن بعدِ» مخفوضتين بغير تنوين. وأنكره النحَّاسُ وردَّه. وقال الفرَّاء في كتابه: في القرآن أشياءُ كثيرة، الغلطُ فيها بيِّن، منها أنه زعم أنه يجوز «من قبلِ ومن بعدِ» وإنما يجوز «من قبلٍ ومن بعدٍ» على أنهما نكرتان. قال الزجَّاج: المعنى: من متقدِّمٍ ومن متأخِّرٍ[5].

﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ تقدَّم ذِكْرُه. ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ يعني: من أوليائه؛ لأنَّ نصرةَ مختصٌ بغلبَةِ أوليائه لأعدائه، فأمَّا غلَبةُ أعدائِه لأوليائه فليس

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٢ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/٣٢٨ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٤٤ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/٣٢٨ .

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٢ - ٢٦٤ . وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٧٦ .

بنصره، وإنَّما هو ابتلاءٌ، وقد يُسمَّى ظَفَراً. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في نِقمته ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ لأهل طاعته.

قوله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ لأن كلامه صدق. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهم الكفار، وهم أكثر(١). وقيل: المراد مشركو مكة. وانتصب «وَعْدَ اللهِ» على المصدر، أي: وعدَ ذلك وعداً(٢).

ثم بيَّن تعالى مقدار ما يعلمون، فقال: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني: أمر معايشهم ودنياهم؛ متى يزرعون، ومتى يحصدون، وكيف يغرِسون، وكيف يبنون. قاله ابن عباس وعِكرمة وقتادة. وقال الضحَّاك: هو بنيان قصورها، وتشقيق أنهارها، وغرس أشجارها. والمعنى واحد. وقيل: هو ما تُلقيه الشياطين إليهم من أمور الدنيا عند استراقهم السمع من سماء الدنيا. قاله سعيد بين جُبير. وقيل: الظاهر والباطن، كما قال في موضعٍ آخر ﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾(٣) [الرعد: ٣٣].

قلتُ: وقولُ ابن عباس أشبَهُ بظاهر الحياة الدنيا، حتى لقد قال الحسن: بلغَ ـ واللهِ ـ من علمِ أحدِهم بالدنيا أنه ينقد الدرهم فيُخبرك بوزنه ولا يُحسِنُ أن يُصلِّي(٤). وقال أبو العباس المبرِّد: قسمَ كسرى أيامَه فقال: يَصلح يومُ الريح للنوم، ويومُ الغيم للصيد، ويومُ المطر للشرب واللهو، ويومُ الشمس للحوائج. قال ابن خالَوَيْه: ما كان أعرفهم بسياسة دنياهم، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا. ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: عن العلم بها والعمل لها ﴿هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ قال بعضهم:

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٥.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٧٧ - ١٧٨.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٢٩٩ - ٣٠٠.

(٤) قول الحسن في الوسيط ٣/ ٤٢٨، وزاد المسير ٦/ ٢٨٩.

ومن البليَّة أن ترى لكَ صاحباً في صورةِ الرجلِ السميعِ المُبصرِ
فَطِنٍ بكلِّ مصيبةٍ في مالِهِ وإذا يُصابُ بدينهِ لم يَشعُرِ[(١)]

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ۝٨﴾

قوله: ﴿فِي أَنفُسِهِم﴾ ظرفٌ للتفكُّرِ وليس بمفعول، تعدَّى إليه «يَتَفَكَّرُوا» بحرف جرّ؛ لأنهم لم يؤمروا أن يتفكروا في خلقِ أنفسهم، إنما أُمروا أن يستعملوا التفكُّرَ في خلق السماوات والأرض وأنفُسِهم، حتى يعلموا أنَّ الله لم يخلُقِ السماوات وغيرَها إلَّا بالحق[(٢)]. قال الزجَّاج: في الكلام حذفٌ، أي: فيعلموا؛ لأنَّ في الكلام دليلاً عليه[(٣)]. ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ قال الفرَّاء: معناه: إلا للحق، يعني: الثواب والعقاب[(٤)]. وقيل: إلَّا لإقامة الحق[(٥)]. وقيل: «بِالْحَقِّ»: بالعدل. وقيل: بالحكمة. والمعنى متقارب[(٦)]. وقيل: «بِالْحَقِّ» أي: أنه هو الحقُّ وللحقِّ خلقَها، وهو الدلالة على توحيده وقدرته. ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي: للسماوات والأرض أجلٌ ينتهيان إليه، وهو يوم القيامة[(٧)]. وفي هذا تنبيهٌ على الفناء، وعلى أنَّ لكلِّ مخلوقٍ أجلاً، وعلى ثواب المحسن وعقاب المسيء[(٨)]. وقيل: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي: خَلقَ ما خلَقَ في وقتٍ سمَّاه لأن يخلق ذلك الشيء فيه.

---

(١) نسبهما في بهجة المجالس ٢/ ٨٠١ لعبد الله بن المبارك أو لغيره، ووقع صدر البيت الأول فيه: أُلْخيَّ إنَّ من الرجال بهيمةً.

(٢) الكشاف ٣/ ٢١٥ بمعناه.

(٣) زاد المسير ٦/ ٢٨٩، وينظر معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٧٨.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٣٠٠، وينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٢٢.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٧٨.

(٦) النكت والعيون ٤/ ٣٠٠.

(٧) الوسيط ٣/ ٤٢٩ عن مقاتل.

(٨) النكت والعيون ٤/ ٣٠٠.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ اللام للتوكيد، والتقدير: لَكافرون بلقاء ربهم، على التقدير والتأخير، أي: لَكافرون بالبعث بعد الموت. وتقول: إنَّ زيداً في الدار لَجالس. ولو قلت: إنَّ زيداً لفي الدار لجالسٌ، جاز. فإن قلتَ: إنَّ زيداً جالسٌ لفي الدار، لم يَجُزْ؛ لأنَّ اللامَ إنما يؤتى بها توكيداً لاسم إنَّ وخبرِها، وإذا جئتَ بهما لم يَجُزْ أن تأتي بها. وكذا إن قلتَ: إنَّ زيداً لجالس لفي الدار، لم يَجُزْ[1].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟﴾ ببصائرهم وقلوبهم. ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: قلبوها للزراعة[2]؛ لأنَّ أهل مكة لم يكونوا أهلَ حرث[3]؛ قال الله تعالى: ﴿تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٧١]. ﴿وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أي: وعمروها أولئك أكثرَ ممَّا عمروها هؤلاءِ فلم تنفعْهم عمارتُهم ولا طولُ مُدَّتهم. ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالمعجزات. وقيل: بالأحكام، فكفروا ولم يؤمنوا. ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ بأن أهلكهم بغير ذنبٍ ولا رسلٍ ولا حُجَّة. ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالشرك والعصيان.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ السُّوءى فُعْلَى من السوء تأنيث الأسوأ وهو الأقبح، كما أنَّ الحُسنى تأنيث الأحسن[4]. وقيل: يعني بها هاهنا النار.

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٦.

(٢) زاد المسير ٦/ ٢٩٠.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٧٩.

(٤) الكشاف ٣/ ٢١٦.

قاله ابن عباس[١]. ومعنى «أساؤوا»: أشركوا؛ دلَّ عليه: ﴿أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾[٢]. «السُّوءى» اسمُ جهنم، كما أنَّ الحُسنى اسم الجنة[٣]. ﴿أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: لأن كذبوا. قاله الكسائي[٤]. وقيل: بأن كذبوا[٥]. وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ﴾ بالرفع اسم كان، وذُكِّرتْ لأنَّ تأنيثَها غيرُ حقيقي. و«السُّوءَى» خبر كان. والباقون بالنصب على خبر كان. «السوءى» بالرفع اسم كان[٦]. ويجوز أن يكون اسمُها التكذيب[٧]، فيكون التقدير: ثمَّ كان التكذيبُ عاقبةَ الذين أساؤوا[٨]، ويكون السُّوءى مصدرًا لأساؤوا، أو صفةً لمحذوف، أي: الخَلَّة السوءى[٩]. ورُوي عن الأعمش أنه قرأ: «ثمَّ كان عاقبةَ الذين أساؤوا السوءُ» برفع السوء[١٠]. قال النحَّاس: السُّوء أشدُّ الشر، والسُّوءى الفُعلى منه[١١]. ﴿أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ قيل: بمحمدٍ والقرآن. قاله الكلبيُّ. مقاتل: بالعذاب أن ينزِلَ بهم. الضحَّاك: بمعجزات محمدٍ ﷺ. ﴿وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾[١٢].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣١.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٤٧.

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٧، وتفسير البغوي ٣/ ٤٧٨. وهو قول ابن قتيبة في غريب القرآن ص ٣٤٠.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٤٧.

(٥) تفسير الرازي ٢٥/ ١٠١.

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٦، وينظر السبعة ص ٥٠٦، والتيسير ص ١٧٤.

(٧) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٦٠.

(٨) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٨.

(٩) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣١.

(١٠) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٦، وهي قراءة شاذة.

(١١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٤٧.

(١٢) النكت والعيون ٤/ ٣٠١.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝١١ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝١٢ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ۝١٣﴾

قرأ أبو عمرو وأبو بكر «يرجعون» بالياء. الباقون بالتاء[1].

﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَميُّ «يُبْلَسُ» بفتح اللام[2]، والمعروف في اللغة: أبلَسَ الرجلُ إذا سكتَ وانقطعت حُجَّتُه، ولم يؤمِّلْ أن تكون له حُجَّة. وقريبٌ منه: تحيَّر؛ كما قال العجَّاج[3]:

يا صاحِ هل تَعرِفُ رَسْمًا مُكْرَسا قال نعم أعرِفُهُ وأبْلَسا

وقد زعمَ بعضُ النَّحْويين أنَّ إبليس مشتَقٌّ من هذا، وأنه أبلس لأنه انقطعت حُجَّتُه. النحَّاس: ولو كان كما قال لوجَبَ أن ينصَرِفَ، وهو في القرآن غيرُ منصرف[4]. وقال الزجَّاج[5]: المُبلِسُ: الساكتُ المُنقطِعُ في حُجَّتِه، اليائسُ من أن يهتدي إليها.

﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ﴾ أي: ما عبدوه من دون الله ﴿شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ قالوا: ليسوا بآلهة[6]. فتبرَّؤوا منها وتبرَّأت منهم، حسبما تقدَّم في غير موضع.

قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ۝١٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ۝١٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ﴾ يعني المؤمنين من الكافرين.

---

(١) السبعة ص ٥٠٦، والتيسير ص ١٧٥.
(٢) وهي في الشاذة ص ١١٦ عن السُّلمي وعليٍّ رضي الله عنه.
(٣) في ديوانه ص ٥٦، وسلف ٨/ ٣٨١.
(٤) من بداية الآية إلى هذا الموضع من إعراب القرآن ٣/ ٢٦٦ - ٢٦٧.
(٥) في معاني القرآن له ٤/ ١٧٩.
(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٧.

ثم بيَّن كيفَ تفريقهم فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ قال النحَّاس: سمعتُ الزجَّاج يقول معنى «أمّا»: دَعْ ما كُنَّا فيه وخُذْ في غيره. وكذا قال سيبويه: إنَّ معناها: مهما يَكُنْ من[1] شيءٍ فخُذْ في غير ما كُنَّا فيه. ﴿فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ قال الضحَّاك: الروضة: الجنة، والرِّياض: الجِنان. وقال أبو عبيد: الروضةُ: ما كان في تَسفُّلٍ، فإذا كانت مرتفعةً فهي تُرْعة. وقال غيره: أحسَنُ ما تكون الروضةُ إذا كانت في موضعٍ مرتفعٍ غليظ، كما قال الأعشى:

ما رَوْضَةٌ من رياضِ الحَزْنِ مُعْشِبَةٌ ... خَضْراءُ جَادَ عليها مُسْبِلٌ هَطِلُ
يُضاحِكُ الشمسَ منها كوكَبٌ شَرِقٌ ... مُؤَزَّرٌ بعميمِ النَّبْتِ مُكْتَهِلُ
يوماً بأطْيَبَ منها نَشْرَ رائحةٍ ... ولا بأحسنَ منها إذ دَنا الأُصُلُ[2]

إلا أنه لا يُقال لها: روضة، إلَّا إذا كان فيها نبتٌ، فإن لم يكن فيها نبتٌ وكانت مرتفعةً فهي تُرعة. وقد قيلَ في التُّرعة غيرُ هذا[3]. وقال القُشَيْرِيُّ: والروضةُ عند العرب: ما ينبتُ حول الغدير من البقول، ولم يكن عند العرب شيءٌ أحسنَ منه. الجوهريُّ: والجمع رَوْضٌ ورِياض، صارتِ الواوُ ياءً لكسرِ ما قبلها. والرَّوض: نحوٌ من نصف القِرْبَة ماء. وفي الحوض رَوْضةٌ من ماءٍ إذا غطَّى أسفله[4]. وأنشد أبو عمرو:

---

(١) في (م): كنا في، والمثبت من النسخ الخطية وإعراب القرآن.

(٢) ديوان الأعشى ص ١٠٧. الحَزْن: ما غلظ من الأرض في ارتفاع. يضاحك الشمس: يدور معها، ومضاحكته إياها حُسنٌ له ونضرة. والكوكب: معظم النبات. والشَّرِق: الريَّان الممتلئ ماءً. والمؤزَّر: الذي صار النبات كالإزار له. والعميم: النبات الكثيف الحسن. والمكتهِل من اكتهل: إذا تمَّ طوله. والنشر: الريح الطيبة. والأُصُل جمع أصيل: وهو الوقت بعد العصر حتى المغرب. تهذيب اللغة ٤/ ٣٦٥ و٦/ ١٩ و١١/ ٣٣٨، والصحاح (أصل).

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٧. والأبيات ذكرها الماوردي أيضاً في النكت والعيون ٤/ ٣٠٢.

(٤) الصحاح (روض).

ورَوْضـةٍ سَقَـيْتُ منـهـا نِضْـوَتـي[١].

﴿يُحۡبَرُونَ﴾ قال الضحاك وابن عباس: يُكْرَمون. وقيل: يُنعَّمون. قاله مجاهد وقتادة. وقيل: يُسَرُّون. السُّدِّي: يفرحون. والحَبْرَة عند العرب: السرور والفرح. ذكره الماوردي[٢]. وقال الجوهري: الحَبْر: الحُبُور وهو السرور، ويقال: حبرَه يحبُره ـ بالضَمِّ ـ حَبْراً وحَبَرَةً؛ قال تعالى: ﴿فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ﴾ أي: يُنعَّمون ويُكرَمون ويُسَرُّون. ورجلٌ يَحْبُور يَفْعول من الحبور[٣]. النحَّاس: وحكى الكسائيُّ: حَبَرْتُه أي: أكرمتُه ونعَّمتُه، وسمعتُ عليَّ بن سليمان يقول: وهو مشتَقٌّ من قولهم: على أسنانه حَبْرةٌ، أي: أثر، فـ «يُحبرون» يَتَبَيَّن عليهم أثر النعيم. والْحَبْرُ مشتقٌّ من هذا[٤]. قال الشاعر:

لا تـمـلأِ الـدّلْـوَ وعَـرِّقْ فـيـهـا[٥] أمـا تَـرَى حَـبـارَ مـن يَـسْـقـيـهـا

وقيل: أصله من التَّحبير: وهو التَّحسين، فـ «يُحبَرُونَ»: يُحسَّنون[٦]. يقال: فلانٌ حَسَنُ الحِبْرِ والسِّبْرِ إذا كان جميلاً حسنَ الهيئة. ويُقال أيضاً: فلانٌ حسن الحَبْرِ والسَّبْرِ بالفتح، وهذا كأنه مصدرُ قولِك: حَبَرْتُه حَبراً إذا حسَّنتُه. والأوَّل اسمٌ؛ ومنه الحديث: «يخرج رجلٌ من النار ذهبَ حِبْرُه وسِبْرُه»[٧]. وقال يحيى بن أبي كثير: ﴿فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ﴾ قال: السَّماع في الجنة. وقاله الأوزاعِيُّ؛ قال: إذا أخذَ أهل الجنة في السماع لم تبقَ شجرةٌ في الجنة إلَّا رَدَّدَتِ الغناء بالتسبيح والتقديس. وقال

(١) قائله هميان كما في تاج العروس (روض). والنِّضوة: هي الناقة المهزولة، مذكرها نِضو. الصحاح (نضو).

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٠٢، دون قوله: وقيل: يُسرُّون، فقد ذكره ابن قتيبة في غريب القرآن ص ٣٤٠.

(٣) الصحاح (حبر).

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٨.

(٥) أي: اجعل فيها دون الملء. الصحاح (عرق).

(٦) سلف هذا المعنى ٧/ ٤٩٥.

(٧) تهذيب اللغة ٥/ ٣٢ - ٣٣. والحديث أخرجه ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث ص ٣ - ٥.

الأوزاعِيُّ: ليسَ أحدٌ من خَلْقِ الله أحسنَ صوتاً من إسرافيل، فإذا أخذ في السماع قطعَ على أهل سبع سماواتِ صلاتَهم وتسبيحَهم[١]. زاد غير الأوزاعِيّ: ولم تبقَ شجرةٌ في الجنة إلا ردَّدت، ولم يبقَ سِترٌ ولا بابٌ إلا ارتَجَّ وانفتح، ولم تبقَ حلقةٌ إلا طنَّتْ بألوان طنينها، ولم تبقَ أَجَمَةٌ من آجام الذهب إلَّا وقع أُهبوبُ الصوت في مقاصبها، فَزَمَرت تلك المقاصبُ بفنون الزمر، ولم تبقَ جاريةٌ من جواري الحورِ العينِ إلَّا غنَّت بأغانيها، والطير بألحانها، ويُوحي اللهُ تبارك وتعالى إلى الملائكة أن جاوِبوهم وأسمِعوا عبادي الذين نزَّهوا أسماعَهم عن مزامير الشيطان، فيُجابون بألحانٍ وأصواتٍ روحانيين، فتختلط هذه الأصوات فتصيرُ رجَّةً واحدة، ثم يقول الله جَلَّ ذِكْرُه: يا داودُ قُمْ عند ساقِ عرشي فمجِّدْني. فيندفع داودُ بتمجيد ربِّه بصوتٍ يغمرُ الأصواتَ ويُجليها، وتتضاعف اللذة؛ فذلك قوله تعالى: ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾. ذكره الترمذيُّ الحكيم رحمه الله[٢]. وذكر الثعلبيُّ من حديث أبي الدَّرداء أنَّ رسول الله ﷺ كان يُذكِّر الناس، فذكر الجنة وما فيها من الأزواج والنعيم، وفي أُخريات القوم أعرابيٌّ فقال: يا رسول الله، هل في الجنة من سماع؟ فقال: «نعم يا أعرابِيُّ، إنَّ في الجنة لَنهراً حافَتاه الأبكارُ من كلِّ بيضاءَ خِمصانية يتغَنَّين بأصواتٍ لم تَسمعِ الخلائقُ بمثلها قطُّ، فذلك أفضلُ نعيم الجنة» فسأل رجلٌ أبا الدَّرداء: بماذا يتغَنَّينَ؟ فقال: بالتسبيح. والخِمصانية: المُرهَفَةُ الأعلى، الخِمصانةُ البطن، الضخمةُ الأسفل[٣].

قلت: وهذا كلُّه من النعيم والسرور والإكرام، فلا تعارضَ بين تلك الأقوال.

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٧٩.

(٢) لم نقف عليه في القسم المطبوع من نوادر الأصول.

(٣) أخرجه ابن حبان في المجروحين ١/ ٣٣١ - ٣٣٢ من طريق سليمان بن عطاء، عن مسلمة بن عبد الله الجهني، عن عمه أبي مشجعة، عن أبي الدرداء مرفوعاً. قال ابن حبان: سليمان بن عطاء يروي عن مسلمة بن عبد الله الجهني بأشياء موضوعة لا تشبه حديث الثقات، فلست أدري التخليط فيها منه أو من مسلمة بن عبد الله.

وأين هذا من قوله الحق: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧] على ما يأتي. وقوله عليه الصلاة والسلام: «فيها ما لا عينٌ رأتْ، ولا أُذنٌ سمِعتْ، ولا خطرَ على قلبِ بشر»(١). وقد رُوِي: «إنّ في الجنة لأشجاراً عليها أجراسٌ من فضة، فإذا أرادَ أهلُ الجنةِ السماعَ بعثَ اللهُ ريحاً من تحت العرش فتقعُ في تلك الأشجار، فتُحرِّكُ تلك الأجراسَ بأصواتٍ لو سمِعَها أهلُ الدنيا لماتوا طرباً». ذكره الزمخشريّ(٢).

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ تقدَّم الكلام فيه. ﴿وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: بالبعث. ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ أي: مقيمون. وقيل: مجموعون. وقيل: مُعذَّبون. وقيل: نازلون؛ ومنه قوله تعالى: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [البقرة:١٨] أي: نزَل به. قاله ابن شجرة، والمعنى متقارب(٣).

قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾

فيه ثلاثُ مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ﴾ الآية، فيه ثلاثة أقوال: الأوّل ـ أنه خطابٌ للمؤمنين بالأمر بالعبادة والحضّ على الصلاة في هذه الأوقات(٤). قال ابن عباس: الصلوات الخمس في القرآن. قيل له: أين؟ فقال: قال الله تعالى: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ

---

(١) سلف ١/ ١٢٢.

(٢) في الكشاف ٣/ ٢١٧.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٣٠٣، وفيه أن قول ابن شجرة: يقيمون.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٢.

تُمْسُونَ﴾ صلاة المغرب والعشاء ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ صلاة الفجر ﴿وَعَشِيًّا﴾ العصر ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ الظهر[1]. وقاله الضحَّاك وسعيد بن جُبير[2]. وعن ابن عباس أيضاً وقتادة: أنَّ الآية تنبيهٌ على أربع صلوات: المغرب والصبح والعصر والظهر؛ قالوا: والعشاء الآخرة هي في آيةٍ أخرى في ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ [هود: ١١٤] وفي ذكر أوقات العورة[3]. وقال النحَّاس: أهل التفسير على أنَّ هذه الآية ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ في الصلوات. وسمعتُ عليَّ بن سليمان يقول: حقيقتُه عندي: فسبِّحوا اللهَ في الصَّلوات؛ لأنَّ التسبيحَ يكون في الصلاة. وهو القول الثاني[4]. والقول الثالث ـ فسبِّحوا الله حين تُمسون وحين تُصبحون. ذكره الماورديُّ، وذكر القولَ الأوّل، ولفظه فيه: فصلُّوا للهِ حين تُمسون وحين تُصبحون[5]. وفي تسمية الصلاة بالتسبيح وجهان: أحدهما ـ لِما تضمَّنها من ذكر التسبيح في الركوع والسجود. الثاني ـ مأخوذٌ من السُّبحة، والسُّبحة: الصلاة؛ ومنه قول النبيِّ ﷺ: «تكون لهم سبحةً يوم القيامة» أي صلاةً[6].

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ اعتراضٌ بين الكلام بدؤوب الحمد على نعمِه وآلائه. وقيل: معنى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ أي: الصلاةُ له؛

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٧٧٢)، والطبري ١٨/ ٤٧٤، والطبري (١٠٥٩٦)، والحاكم ٢/ ٤١٠ - ٤١١.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٠٣.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٢.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٨.

(٥) لم نقف على هذا الكلام عند الماوردي في النكت والعيون ولا عند أحد ممَّن ينقل عنه. وقد ذكر ابن الجوزي الكلام الأخير في زاد المسير ٦/ ٢٩٣ من غير نسبة.

(٦) النكت والعيون ٤/ ٣٠٣. والحديث لم نقف عليه بهذا اللفظ، وقد ورد معنى السُّبحة أنها الصلاة في أحاديث عدة منها ما أخرجه أحمد (٢٤٥٥٩)، والبخاري (١١٧٧) ومسلم (٧١٨) عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما سبَّح رسول الله ﷺ سبحة الضحى، وإني لأُسبِّحها. ومنها ما أخرجه أحمد (١٢٤٨٦) عن أنس بن مالك ﷺ قال: رأيت رسول الله ﷺ سُبحة الضحى ثمان ركعات.

لاختصاصها بقراءة الحمد. والأوَّل أظهر؛ فإنَّ الحمدَ لله من نوع التعظيم لله تعالى والحضِّ على عبادته ودوام نعمته، فيكون نوعاً آخرَ خلافَ الصلاة، والله أعلم[١].

وبدأ بصلاة المغرب؛ لأنَّ الليلَ يتقدَّم النهار. وفي سورة «سبحان» بدأ بصلاة الظهر؛ إذ هي أوَّلُ صلاةٍ صلَّاها جبريل بالنبيِّ ﷺ. قال الماورديُّ[٢]: وخصَّ صلاة الليل باسم التسبيح وصلاةَ النهار باسم الحمد؛ لأنَّ للإنسان في النهار متقلَّباً في أحوالٍ تُوجِبُ حمدَ الله تعالى عليها، وفي الليل على خلوةٍ تُوجِبُ تنزيهَ الله من الأسواء فيها؛ فلذلك صارَ الحمدُ بالنهار أخصَّ فسُمِّيتْ به صلاةُ النهار، والتسبيحُ بالليل أخصَّ فسُمِّيتْ به صلاةُ الليل.

الثالثة - قرأ عكرمة: «حِينًا تُمْسُونَ وَحِينًا تُصْبِحُونَ» والمعنى: حيناً تُمسون فيه وحيناً تُصبحون فيه؛ فحذف «فيه» تخفيفاً، والقول فيه كالقول في ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة:٤٨][٣]. ﴿وَعَشِيًّا﴾ قال الجوهريُّ: العَشِيُّ والعَشِيَّةُ من صلاة المغرب إلى العتمة؛ تقول: أتيتُه عشِيةَ أمسٍ وعَشِيَّ أمسٍ. وتصغير العَشِيِّ: عُشَيَّان، على غير [قياسِ] مُكَبَّرِه، كأنهم صغَّروا عَشْيَانًا، والجمع عُشَيَّانات. وقيل أيضاً في تصغيره: عُشَيْشِيَان، والجمع عُشَيْشِيَات. وتصغير العَشِيَّة عُشَيْشِيَة، والجمع عُشَيْشِيات. والعِشاءُ - بالكسر والمدِّ - مثلُ العَشِيِّ. والعِشاءان المغربُ والعَتْمة. وزعم قومٌ أنَّ العِشاءَ من زوال الشمس إلى طلوع الفجر، وأنشدوا:

غدونا غدوةً سَحَراً بليلٍ عِشاءً بعد ما انتصفَ النهارُ[٤]

الماوردِيُّ[٥]: والفرقُ بين المساء والعِشاء: أنَّ المساءَ بُدُوُّ الظلام بعد المغيب،

(١) النكت والعيون ٤/ ٣٠٣، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٣٢.

(٢) في النكت والعيون ٤/ ٣٠٣.

(٣) الكشاف ٣/ ٢١٧، وينظر إعراب القرآن ٣/ ٢٦٨، وقراءة عكرمة في المحتسب ٢/ ١٦٣، والشاذة ص ١١٦.

(٤) الصحاح (عشا)، وما بين حاصرتين منه.

(٥) في النكت والعيون ٤/ ٣٠٤.

والعِشاءَ آخرُ النهار عند ميل الشمس للمغِيب، وهو مأخوذٌ من عشا العين: وهو نقصُ النور من الناظر كنقص نور الشمس.

قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾

بيَّن كمالَ قدرته؛ أي: كما أحيا الأرض بإخراج النبات بعد همودها، كذلك يُحييكم بالبعث. وفي هذا دليل على صحة القياس، وقد مضى في «آل عمران»[1] بيانُ ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أي: من علامات رُبُوبيَّتِهِ ووَحْدانيَّته أنْ خلقكم من تراب[2]، أي: خلقَ أباكم منه، والفرع كالأصل، وقد مضى بيانُ هذا في «الأنعام»[3]. و«أنْ» في موضع رفعٍ بالابتداء، وكذا ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم

(١) ٥/ ٨٦ - ٨٧.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٨١.

(٣) ٨/ ٣١٨.

﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾[١].

﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ ثم أنتم عقلاءُ ناطقون تتصرَّفون فيما هو قِوامُ معايشكم، فلم يكن ليخلقكم عَبَثًا، ومن قَدَر على هذا فهو أهلٌ للعبادة والتسبيح.

ومعنى: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي: نساءً تسكنون إليها. ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: من نِطَفِ الرجال ومن جنسكم. وقيل: المراد حوَّاء، خلقها من ضِلَع آدم. قاله قتادة[٢]. ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ قال ابن عباس ومجاهد: المودَّة: الجماع، والرحمة: الولد. وقاله الحسن. وقيل: المودَّة والرحمة عَطْفُ قلوبِهم بعضِهم على بعض[٣]. وقال السُّدِّي: المودةُ: المحبةُ، والرحمةُ: الشفقة[٤]. ورُوي معناه عن ابن عباس قال: المودَّةُ: حبُّ الرجل امرأتَه، والرحمة: رحمتُه إيَّاها أن يُصيبَها بسوء[٥]. ويُقال: إنَّ الرجل أصلُه من الأرض، وفيه قوَّةُ الأرض، وفيه الفَرْجُ الذي منه بُدئ خَلْقُه، فيحتاج إلى سَكَن، وخُلقتِ المرأةُ سكناً للرجل؛ قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ الآية، وقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ فأوَّلُ ارتفاقِ الرجل بالمرأة سكونُه إليها مما فيه من غليَان القوَّة، وذلك أنَّ الفرجَ إذا تُحمِّلَ فيه هيَّجَ ماءَ الصلب إليه، فإليها يسكن، وبها يتخلص من الهِياج، وللرجال خُلِقَ البُضْعُ منهنَّ؛ قال الله تعالى: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ [الشعراء:١٦٦] فأعلمَ اللهُ عزَّ وجلَّ الرجالَ أنَّ ذلك الموضعَ خُلِقَ منهنَّ للرجال، فعليها بذلُه في كلِّ وقتٍ يدعوها الزوج، فإن منعَتْه فهي ظالمةٌ وفي حرجٍ عظيم، ويكفيك من ذلك ما ثبت في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة قال:

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٩ .

(٢) مجمع البيان ٢١/ ١٩ ، وقول قتادة في النكت والعيون ٤/ ٣٠٥ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٥٣ ، وذكر القول الأول عن مجاهد، وهو في النكت والعيون ٤/ ٣٠٥ عن الحسن، وفي المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٣ عن مجاهد والحسن وعكرمة.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٣٠٥ ، ومجمع البيان ٢١/ ١٩ .

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٩ .

قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، ما مِنْ رجلٍ يدعو امرأته إلى فراشها فتأبى عليه، إلَّا كان الذي في السماء ساخطاً عليها حتى يرضى عنها»[١]. وفي لفظٍ آخر: «إذا باتَتِ المرأةُ هاجرةً فِراشَ زوجِها لعنَتْها الملائكةُ حتى تُصبح»[٢].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تقدَّم في «البقرة»[٣] وكانوا يعترفون بأنَّ الله تعالى هو الخالق. ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ اللِّسان في الفم، وفيه اختلاف اللغات: من العربية والعجمية والتركية والرومية. واختلاف الألوان في الصور: من البياض والسواد والحمرة، فلا تكادُ ترى أحداً إلا وأنتَ تُفرِّقُ بينه وبين الآخر. وليس هذه الأشياء من فعل النُّطفة ولا من فعل الأبوين، فلا بُدَّ من فاعل، فعُلِمَ أنَّ الفاعِلَ هو الله تعالى، فهذا مِنْ أدلِّ دليلٍ على المدبِّر البارئ[٤]. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ أي للبَرِّ والفاجر[٥]. وقرأ حفص: «للعالِمِينَ» بكسر اللام، جمع عالِم[٦].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ قيل: في هذه الآية تقديمٌ وتأخير[٧]، والمعنى: ومن آياته منامكم بالليل وابتغاؤكم من فضله بالنهار؛ فحُذِفَ حرفُ الجرِّ لاتصاله بالليل وعَطْفِه عليه، والواو تقوم مقامَ حرف الجرِّ إذا اتصلت بالمعطوف عليه في الاسم الظاهر خاصةً، فجُعلَ النومُ بالليل دليلاً على الموت، والتصرفُ بالنهار دليلاً على البعث. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ يريدُ سماعَ تفهُّمٍ وتدبُّر[٨].

---

(١) صحيح مسلم (١٤٣٦): (٢١).

(٢) صحيح مسلم (١٤٣٦): (٢٠)، وأخرجه أحمد (١٠٩٤٦)، والبخاري (٥١٩٤)، وقد سلف ٦/ ٢٨٣.

(٣) ١/ ٣٧٦ فما بعدها.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٩.

(٥) زاد المسير ٥/ ٣٩٨ عن ابن عباس ﵄ عند تفسير الآية (١٠٧) من سورة الأنبياء.

(٦) السبعة ص ٥٠٦، والتيسير ص ١٧٥.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٣.

(٨) تفسير البغوي ٣/ ٤٨١.

وقيل: يسمعون الحقَّ فيتبعونه. وقيل: يسمعون الوعظ فيخافونه. وقيل: يسمعون القرآن فيُصدِّقونه. والمعنى متقارب[١]. وقيل: كان منهم من إذا تُلي القرآن وهو حاضرٌ سَدَّ أذنيه حتى لا يسمع، فبيَّنَ اللهُ عزَّ وجلَّ هذه الدلائل عليه[٢].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ قيل: المعنى: أن يُريكم، فحذف «أن» لدلالة الكلام عليه؛ قال طرفة:

أَلَا أيُّهذا اللائِمي أحْضُرُ الوَغَى ... وأنْ أشْهَدَ اللَّذَاتِ هل أنت مُخْلِدي[٣]

وقيل: هو على التقديم والتأخير، أي: ويُريكم البرقَ من آياته. وقيل: أي: ومن آياته آيةٌ يريكم بها البرق، كما قال الشاعر:

وما الدَّهرُ إلَّا تارتانِ فمنهما ... أموتُ وأُخْرَى أبتغي العيشَ أكْدَحُ[٤]

وقيل: أي: من آياته أنه يُريكم البرقَ خوفاً وطمعاً من آياته. قاله الزجَّاج[٥]، فيكون عطفَ جملةٍ على جملة. ﴿خَوْفًا﴾ أي: للمسافر. ﴿وَطَمَعًا﴾ للمقيم. قاله قتادة. الضحَّاك: «خَوْفًا» من الصواعق، «وَطَمَعًا» في الغيث. يحيى بن سلام: «خَوْفًا» من البرد أن يُهلِكَ الزرعَ، «وَطَمَعًا» في المطر أن يُحييَ الزرعَ. ابن بحر: «خَوْفًا» أن يكون البرقُ بَرْقًا خُلَّبًا لا يُمطر، «وَطَمَعًا» أن يكون ممطراً، وأنشد قولَ الشاعر:

لا يكُنْ بَرْقُكَ برقًا خُلَّبا ... إنَّ خيرَ البرقِ ما الغيثُ معه[٦]

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٣٠٧ دون قوله: فحذف حرف الجر ... إلى قوله: خاصةً. ودون قوله: يريد سماع تفهم وتدبر.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٩ .

(٣) البيان ٢/ ٢٥٠ . والبيت في ديوان طرفة ص ٣٢ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٥٣ - ٢٥٤ . والبيت قائله تميم بن أبي بن مقبل، وهو في ديوانه ص٢٤ .

(٥) في معاني القرآن له ٤/ ١٨٢ ، والعبارة التي بعده منه.

(٦) نسب هذا البيت إلى أبي الأسود الدؤلي كما في عيون الأخبار ص ٢٧٦ ، وجمهرة الأمثال ٣/ ١٥٦ ، ونسب إلى عبد الله بن كريز كما في الحماسة البصرية ٢/ ١٠ ، ونسب إلى أنس بن زنيم كما في خزانة الأدب ٦/ ٤٧١ .

وقال آخر:

فقد أردُ المياهَ بغير زادِ ... سوى عَدِّي لها برقَ الغمامِ[(١)]

والبرقُ الخُلَّبُ: الذي لا غيثَ فيه كأنه خادع؛ ومنه قيل لمن يَعِدُ ولا يُنْجز: إنما أنت كبرقٍ خُلَّب. والخُلَّب أيضاً: السحابُ الذي لا مطر فيه. ويقال: بَرْقُ خُلَّبٍ، بالإضافة[(٢)]. ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ تقدَّم.

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ﴾ «أنْ» في محلِّ رفعٍ كما تقدم، أي: قيامها واستمساكها بقدرته بلا عمد[(٣)]. وقيل: بتدبيره وحكمته، أي: يمسكها بغير عمدٍ لمنافع الخلق. وقيل: «بأمرِهِ» بإذنه. والمعنى واحد[(٤)]. ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ أي: الذي فعلَ هذه الأشياء قادرٌ على أن يبعثكم من قبوركم[(٥)]، والمرادُ سرعةُ وجودِ ذلك من غير توقُّفٍ ولا تلبُّث؛ كما يُجيبُ الداعي المطاعَ مَدْعُوُّهُ، كما قال القائل:

دَعَوْتُ كُلَيباً باسمهِ فكأنَّما ... دعوتُ برأسِ الطَّودِ أو هو أسرعُ

يريد برأس الطود: الصَّدى، أو الحجرَ إذا تَدَهْدَه. وإنما عطفَ هذا على قيام السماوات والأرض بـ«ثمَّ» لِعظَمِ ما يكون من ذلك الأمر واقتدارِه على مثله، وهو أن يقول: يا أهل القبور قوموا، فلا تبقَى نسمةٌ من الأوّلين والآخرين إلا قامت تنظر، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨]. و«إذا» الأولى في

(١) قائله المتنبي، وهو في ديوانه ٤/ ١٤٣، وفيه: «هاد» بدل «زاد». ومن قوله: ﴿خوفاً﴾.. إلى هذا الموضع من النكت والعيون ٤/ ٣٠٧ - ٣٠٨.

(٢) الصحاح (خلب).

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٩.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٣٠٨.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٩.

قوله تعالى: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ للشرط، والثانية في قوله تعالى: ﴿إِذَآ أَنتُمْ﴾ للمفاجأة، وهي تنوبُ منابَ الفاء في جواب الشرط[١]. وأجمع القرَّاء على فتح التاء هنا في «تُخْرَجُونَ»، واختلفوا في التي في «الأعراف» [الآية: ٢٥] فقرأ أهل المدينة: «ومنها تُخرجون» بضمِّ التاء، وقرأ أهل العراق: بالفتح، وإليه يميل أبو عبيد، والمعنيان متقاربان، إلَّا أنَّ أهل المدينة فرَّقوا بينهما لِنَسقِ الكلام، فنَسَقُ الكلام في التي في «الأعراف» بالضمِّ أشبه؛ إذ كان الموتُ ليس من فعلهم، وكذا الإخراج. والفتح في سورة الروم أشبَهُ بنَسقِ الكلام، أي: إذا دعاكم خرجتُم، أي: أطعمتم؛ فالفِعْلُ [بهم] أشبه[٢]. وهذا الخروج إنما هو عند نفخة إسرافيل النفخة الآخرة[٣]، على ما تقدَّم ويأتي. وقُرِئ: «تخرجون» بضمِّ التاء وفتحِها، ذكره الزَّمَخْشَرِيُّ[٤] ولم يزِدْ على هذا شيئاً، ولم يذكر ما ذكرناه من الفرق، والله أعلم.

﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خَلقاً وملكاً وعبداً. ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ رُوي عن أبي سعيد الخدريِّ، عن النبيِّ ﷺ قال: «كلُّ قنوتٍ في القرآن فهو طاعة». قال النحَّاس: مطيعون طاعة انقياد[٥]. وقيل: «قَانِتُونَ» مُقِرُّون بالعبودية، إما قالةً وإما دِلالةً. قاله عِكرمة وأبو مالك والسُّدِّي. وقال ابن عباس: «قَانِتُونَ»: مُصلُّون. الربيع بن أنس: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ أي: قائمٌ يوم القيامة، كما قال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

---

(١) الكشاف ٣/ ٢١٩ - ٢٢٠.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٩ - ٢٧٠، وما بين حاصرتين منه. وينظر النشر ٢/ ٢٠٧.

(٣) زاد المسير ٦/ ٢٩٦.

(٤) في الكشاف ٣/ ٢٢٠.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٠، والحديث أخرجه - بهذا اللفظ - الطبراني في الأوسط (١٨٢٩) من طريق رشدين بن سعد، عن عمرو بن الحارث، عن دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري، به. وأخرجه أحمد (١١٧١١) من طريق ابن لهيعة، عن دراج، به. بلفظ: «كل حرف من القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة». رشدين وابن لهيعة ضعيفان، وكذلك دراج أبو السمح في روايته عن أبي الهيثم العتواري. قلنا: وقد رُوي هذا من كلام قتادة فيما أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ١١٦.

[المطففين:٦] أي: للحساب. الحسن: كلٌّ له قائمٌ بالشهادة أنه عبدٌ له. سعيد بن جُبير. «قَانِتُونَ»: مخلصون[1].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أمَّا بدْءُ خلقِه فبِعُلوقه في الرَّحم قبل ولادته، وأمَّا إعادتُه فإحياؤه بعد الموت بالنفخة الثانية للبعث، فجعل ما علم من ابتداء خلقِه دليلاً على ما يخفى من إعادته؛ استدلالاً بالشاهد على الغائب، ثم أكَّدَ ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[2]. وقرأ ابن مسعود وابن عمر: «يُبْدِئُ الخَلْقَ»[3] من أبدأ يُبدئ؛ دليلُه قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج:١٣]. ودليلُ قراءة العامَّة قولُه سبحانه: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف:٢٩]. و«أَهْوَنُ» بمعنى هيِّن، أي: الإعادةُ هيِّنٌ عليه. قاله الرَّبيع بن خُثيم والحسن[4]. فأهوَنُ بمعنى هيِّن؛ لأنه ليس شيءٌ أهونَ على الله من شيء. قال أبو عبيدة: ومَنْ جعلَ أهونَ يُعبِّر عن تفضيل شيء على شيءٍ فقولُه مردودٌ بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء:٣٠] وبقوله: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة:٢٥٥]. والعرب تحمِلُ أفعل على فاعل، ومنه قول الفرزدق[5]:

إنَّ الذي سَمَكَ السماءَ بنى لنا ... بيتاً دعائِمُه أعزُّ وأطوَلُ

أي: دعائمه عزيزةٌ طويلة. وقال آخر:

لَعَمْرُكَ ما أدري وإنِّي لأَوْجَلُ ... على أيِّنا تَغْدُو المنيَّةُ أَوَّلُ[6]

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٣٠٩.

(٢) المصدر السابق.

(٣) وهي قراءة شاذة لم نقف عليها إلا عند المصنف.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٥ عن ابن عباس والربيع، وتفسير البغوي ٣/ ٤٨١ عن الربيع وقتادة والكلبي. وزاد المسير ٦/ ٢٩٨ عن الحسن وقتادة.

(٥) في ديوانه ص ٧١٤.

(٦) قائله معن بن أوس المزني، وهو في الكامل ٢/ ٧٥٠، والحماسة البصرية ٢/ ٧، وخزانة الأدب ٦/ ٥٠٥.

أراد: إني لوَجِلٌ. وأنشد أبو عبيدةَ أيضاً:

إنـي لأمْـنَـحُـكَ الـصُّـدودَ وإنَّـنـي قَـسَـمًا إلـيكَ مع الـصُّـدود لَأمْيَـلُ[1]

أراد: لَمائل. وأنشد أحمد بن يحيى:

تَـمـنَّـى رجـالٌ أن أمـوتَ وإن أمُـتْ فـتـلـكَ سبيلٌ لـستُ فـيـها بأوْحَـدِ[2]

أراد: بواحد. وقال آخر:

لَـعَـمْـرُكَ إنَّ الـزِّبْـرقـانَ لَـبـاذلٌ لـمعـروفـهِ عـنـد الـسنـيـنَ وأفـضَـلُ[3]

أي: وفاضل. ومنه قولهم: الله أكبر، إنما معناه: الله الكبير. وروى معمر عن قتادة قال: في قراءة عبد الله بن مسعود: «وهو عليه هيِّن»[4]. وقال مجاهد وعكرمة والضحَّاك: إنَّ المعنى أن الإعادة أهونُ عليه ـ أي: على الله ـ من البداية، أي: أيسر، وإن كان جميعُه على الله تعالى هيناً. وقاله ابن عباس[5]. ووجهُه أنَّ هذا مَثَلٌ ضربه اللهُ تعالى لعباده؛ يقول: إعادة الشيء على الخلائق أهوَنُ من ابتدائه، فينبغي أن يكون البعثُ لمن قدَرَ على البداية عندكم وفيما بينكم أهونَ عليه من الإنشاء. وقيل: الضمير في «عَلَيْهِ» للمخلوقين، أي: هو أهوَنُ عليه، أي: على الخلق، يُصاح بهم صيحةً واحدةً فيقومون ويُقال لهم: كونوا فيكونون؛ فذلك أهوَنُ عليهم من أن

(١) إلى هذا الموضع من مجاز القرآن ٢/ ١٢١ - ١٢٢ ، وهذا البيت قائله الأحوص بن محمد الأنصاري، وهو في كتاب سيبويه ١/ ٣٨٠ ، وخزانة الأدب ٢/ ٤٨ .

(٢) نسبه أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٣٠١، والطبري ٢٤/ ٤٧٨ ، وابن عبد البر في بهجة المجالس ٢/ ٧٤٦ - ٧٤٧ إلى طرفة، وذكر أن الشافعي رحمه الله تمثل به عندما دعا عليه أشهب بالموت. ونسبه الأخفش في الاختيارين ص١٦١ إلى مالك بن القين.

(٣) ذكره الطبري ١٨/ ٤٨٧ من غير نسبة.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٥٦ ، ووقع فيه وفي المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٥ : «وهو هينٌ عليه». وأخرجها عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ١٠٢ بمثل ما أثبتناه، وهي قراءة شاذة.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٥ عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة، وتفسير البغوي ٣/ ٤٨١ عن مجاهد وعكرمة، وزاد المسير ٦/ ٢٩٧ عن مجاهد وأبي العالية.

يكونوا نُطَفاً، ثم عَلَقاً، ثم مُضَغاً، ثم أجِنَّةً، ثم أطفالاً، ثم غلماناً، ثم شُبَّاناً، ثم رجالاً أو نساءً. وقاله ابن عباس وقُطْرُب. وقيل: أهون: أسهل[1]؛ قال:

وهانَ على أسماءَ أن شطَّتِ النَّوَى يحِنُّ إليها والِهٌ ويتوقُ

أي: سهلٌ عليها. وقال الربيع بن خُثَيم في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ قال: ما شيءٌ على الله بعزيز[2]. عِكرمة: تعجَّبَ الكفار من إحياء الله الموتى، فنزلت هذه الآية[3]. ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ أي: ما أراده جلَّ وعزَّ كان. وقال الخليل: المثلُ: الصفة[4]، أي: وله الوصف الأعلى ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كما قال: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد: ٣٥] أي: صفتها. وقد مضى الكلام في ذلك. وعن مجاهد: ﴿الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ قولُ: لا إله إلا الله؛ ومعناه: أي: الذي له الوصفُ الأعلى، أي: الأرفع الذي هو الوصف بالواحدانية. وكذا قال قتادة: إنَّ المثلَ الأعلى شهادةُ أن لا إله إلا الله، ويَعْضُده قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [الروم: ٢٨] على ما نُبيِّنُه آنفاً إن شاء الله تعالى. وقال الزجَّاج: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ قد ضربَه لكم مثلاً فيما يصعب ويسهل؛ يريد التفسير الأوَّل[5]. وقال ابن عباس: أي ليس كمثله شيء[6] ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تقدَّم[7].

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٨١ ، وزاد المسير ٦/ ٢٩٨ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣١٠ ، والبيت قائله عمرو بن الأهتم كما في المفضليات ص ١٢٥ ، وقول الربيع أخرجه الطبري ١٨/ ٤٨٥ .

(٣) أخرجه الطبري ١٨/ ٤٨٦ .

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٠ .

(٥) الكشاف ٣/ ٢٢١ دون قول قتادة، وقد أخرجه الطبري ١٨/ ٤٨٩ . وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٨٤ .

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٥٧ ، وأخرجه الطبري ١٨/ ٤٨٨ - ٤٨٩ .

(٧) ١/ ٤٢٩ .

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ ثم قال: ﴿مِّن شُرَكَآءَ﴾ ثم قال: ﴿مِّمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ فـ «من» الأولى للابتداء، كأنه قال: أخذَ مثلاً وانتزعه من أقرب شيءٍ منكم وهي أنفسكم. والثانية للتبعيض، والثالثة زائدة لتأكيد الاستفهام[١]. والآيةُ نزلت في كفار قريش، كانوا يقولون في التلبية: لبيكَ لا شريكَ لك، إلَّا شريكاً هو لك، تملِكُه وما مَلَكَ. قاله سعيد بن جُبير[٢]. وقال قتادة: هذا مثلٌ ضربَه الله للمشركين، والمعنى: هل يرضى أحدُكم أن يكون مملُوكه في ماله ونفسه مِثلَه، فإذا لم ترضَوا بهذا لأنفسكم فكيف جعلتم لله شركاء[٣]؟!

الثانية: قال بعض العلماء: هذه الآية أصلٌ في الشركة بين المخلوقين؛ لافتقار بعضهم إلى بعض ونفيها عن الله سبحانه، وذلك أنه لمَّا قال جلَّ وعزَّ: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ الآية، فيجب أن يقولوا: ليسَ عبيدُنا شركاءَنا فيما رزقتَنا. فيُقال لهم: فكيف يُتصوَّرُ أن تُنزِّهوا نفوسَكم عن مشاركة عبيدكم وتجعلوا عبيدي شركائي في خلقي، فهذا حكمٌ فاسدٌ وقِلةُ نظرٍ وعَمَى قلب! فإذا بطلتِ الشركةُ بين العبيد وساداتهم فيما يملكه السادةُ - والخلقُ كلُّهم عبيدٌ لله تعالى - فيبطل أن يكون شيءٌ من العالَم شريكاً لله تعالى في شيء من أفعاله، فلم يبقَ إلَّا أنه واحدٌ يستحيلُ أن يكون له شريك، إذِ الشركة تقتضي المعاونة، ونحن مفتقرون إلى معاونة بعضنا بعضاً بالمال والعمل، والقديمُ الأزليُّ منزَّهٌ عن ذلك جَلَّ وعزَّ.

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٢١ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣١١ ، وزاد المسير ٦/ ٢٩٨ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٥٧ ، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ١٠٢ ، والطبري ١٨/ ٤٩٠ .

وهذه المسألة أفضَلُ للطالب من حفظ ديوانٍ كاملٍ في الفقه؛ لأنَّ جميعَ العبادات البدنية لا تصِحُّ إلا بتصحيح هذه المسألة في القلب، فافهم ذلك.

قوله تعالى: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ لمَّا قامتْ عليهم الحُجَّةُ ذكر أنهم يعبدون الأصنام باتباع أهوائهم في عبادتها وتقليد الأسلاف في ذلك. ﴿فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ أي: لا هاديَ لمن أضلَّه اللهُ تعالى. وفي هذا ردٌّ على القدرية. ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ﴾ **فيه ثلاث مسائل:**

الأولى ـ قال الزجَّاج: «فِطْرَةَ» منصوبٌ بمعنى: اتَّبِعْ فطرةَ الله. قال: لأن معنى ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾: اتَّبِعِ الدِّينَ الحنيفَ واتَّبِعْ فطرةَ الله. وقال الطبري: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ﴾ مصدر من معنى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ لأن معنى ذلك: فطرَ اللهُ الناس على ذلك فِطرةً. وقيل: معنى ذلك: اتَّبعوا دينَ الله الذي خَلَقَ الناسَ له، وعلى هذا القول يكون الوقفُ على «حَنِيفًا» تامًّا. وعلى القولين الأوَّلين يكون متَّصلاً، فلا يُوقَفُ على «حنيفاً». وسُمِّيتِ الفِطْرَةُ دِيناً لأن الناسَ يُخلَقون له قال جلَّ وعزَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. ويقال: «عَلَيْهَا» بمعنى لها، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾[1] [الإسراء: ٧]. والخطاب بـ «أقِمْ وَجْهَكَ» للنبيِّ ﷺ، أمرَه بإقامة وجهه للدِّين المستقيم، كما قال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ [الروم: ٤٣] وهو دين الإسلام.

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٧١ - ٢٧٢ دون قوله: وعلى هذا القول يكون الوقف.. إلى قوله: فلا يوقف على «حنيفاً». وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٨٤، وقول الطبري في تفسيره ١٨/ ٤٩٣.

وإقامة الوجه هو تقويمُ المقصد، والقوَّة على الجِدِّ في أعمال الدين .وخصَّ الوجه بالذكر؛ لأنه جامعُ حواسِّ الإنسان وأشرفُه. ودخل في هذا الخطاب أُمَّتُه باتِّفاقٍ من أهل التأويل. و«حَنِيفًا» معناه: معتدلاً مائلاً عن جميع الأديان المحرَّفة المنسوخة[١].

الثانية ـ في الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولودٍ إلَّا يُولَدُ على الفِطرة ـ في رواية: على هذه الملة ـ فأبواه يُهوِّدانه ويُنصِّرانه ويُمَجِّسَانه، كما تُنْتَجُ البهيمةُ بهيمةً جمعاء هل تُحِسُّون فيها من جدعاء» ثم يقول أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾[٢]. في رواية: «حتى تكونوا أنتم تجدعونَها» قالوا: يا رسول الله، أفرأيتَ مَنْ يموتُ صغيراً؟ قال: «الله أعلمُ بما كانوا عاملين». لفظ مسلم[٣].

الثالثة ـ واختلف العلماء في معنى الفطرة المذكورة في الكتاب والسنة على أقوال متعدِّدة، منها الإسلام. قاله أبو هريرة وابن شهاب وغيرُهما؛ قالوا: وهو المعروف عند عامَّة السلف من أهل التأويل، واحتجُّوا بالآية وحديث أبي هريرة، وعَضَدوا ذلك بحديث عِياض بن حِمار المُجَاشِعِيِّ أنَّ رسول الله ﷺ قال للناس يوماً: «ألَا أُحدِّثكم بما حدَّثني اللهُ في كتابه، أنَّ الله خلق آدمَ وبَنِيه حُنفاءَ مسلمين، وأعطاهمُ المالَ حلالاً لا حرامَ فيه، فجعلوا ممَّا أعطاهم اللهُ حلالاً وحراماً...» الحديث[٤].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/٣٣٦.

(٢) صحيح البخاري (١٣٥٨)، وصحيح مسلم (٢٦٥٨): (٢٢). وهو في مسند أحمد (٧٧١٢). ورواية: «على الملة» في صحيح مسلم (٢٦٥٨): (٢٣)، وهي في مسند أحمد (٧٤٤٣). وقد سلف بعضه ١٤٨/٧.

(٣) في صحيحه (٢٦٥٨): (٢٤).

(٤) أخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٨٧٨)، والطبراني ١٧/(٩٩٧)، وابن عبد البر في التمهيد ١٨/ ٧٣ من طريق محمد بن إسحاق، عن ثور بن يزيد، عن يحيى بن جابر، عن عياض بن حمار ﷺ، به. محمد بن إسحاق مدلس، وقد رواه بالعنعنة. وأخرجه أحمد (١٧٤٨٤)، ومسلم (٢٨٦٥) بغير هذا السياق.

وبقوله ﷺ: «خمسٌ من الفطرة..»[(١)] فذكر منها قصَّ الشارب، وهو من سنن الإسلام، وعلى هذا التأويل فيكون معنى الحديث: أنَّ الطفل خُلِقَ سليماً من الكفر على الميثاق الذي أخذه الله على ذرية آدم حين أخرجهم من صلبه، وأنهم إذا ماتوا قبل أن يُدرِكوا في الجنة؛ أولادَ مسلمين كانوا أو أولادَ كفار. وقال آخرون: الفطرةُ: هي البداءةُ التي ابتدأهم الله عليها، أي: على ما فطرَ اللهُ عليه خَلْقَه من أنه ابتدأهم للحياة والموت والسعادة والشقاء، وإلى ما يصيرون إليه عند البلوغ. قالوا: والفطرة في كلام العرب: البداءة، والفاطر: المبتدئ. واحتجُّوا بما رُويَ عن ابن عباس أنه قال: لم أكُنْ أدري ما فاطرُ السماوات والأرض حتى أتى أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتُها، أي ابتدأتُها. قال الْمَرْوَزِيُّ: كان أحمد بن حنبل يذهب إلى هذا القول ثم تركه. قال أبو عمر في كتاب «التمهيد» له: ما رسمَه مالكٌ في «موطَّئه»[(٢)] وذكرَ في أبواب[(٣)] القدر فيه من الآثار يَدلُّ على أنَّ مذهبَه في ذلك نحوُ هذا، والله أعلم. ومما احتجُّوا به ما رُوِيَ عن [محمد بن][(٤)] كعب القُرَظيِّ في قول الله تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [الأعراف: ٣٠] قال: مَنِ ابتدأ اللهُ خلْقَه للضلالة صيَّره إلى الضلالة وإن عمِلَ بأعمال الهدى، ومَنِ ابتدأ اللهُ خَلْقَه على الهدى صيَّره إلى الهدى وإن عمِلَ بأعمال الضلالة، ابتدأ اللهُ خَلْقَ إبليس على الضلالة وعمل بأعمال السعادة مع الملائكة، ثم ردَّه اللهُ إلى ما ابتدأ خَلْقَه،[(٥)] قال: وكان من الكافرين.

---

(١) وقد سلف ٢/ ٣٦٣ .

(٢) ٢/ ٨٩٨ - ٩٠١ .

(٣) في (م) : باب، والمثبت من النسخ الخطية.

(٤) ما بين حاصرتين من المصادر، وهو ليس في النسخ.

(٥) أخرجه الطبري ١٠/ ١٤٣، وابن أبي حاتم في تفسيره (٨٣٦٧) ، وابن عبد البر في التمهيد ١٨/ ٨٠ من طريق موسى بن عبيدة، عن محمد بن كعب القرظي. موسى بن عبيدة ضعيف فيما قال ابن حجر في التقريب. والكلام من أول المسألة إلى هذا الموضع من التمهيد ١٨/ ٦٦ و٧٢ و٧٣ و٧٦ - ٨٠ .

قلت: قد مضى قول [محمد بن] كعب هذا في «الأعراف»[(١)]، وجاء معناه مرفوعاً من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: دُعِيَ رسولُ الله ﷺ إلى جنازة غلامٍ من الأنصار، فقلتُ: يا رسول الله، طُوبى لهذا، عصفورٌ من عصافير الجنة، لم يعملِ السوءَ ولم يُدرِكْه. قال: «أوَغيرَ ذلكَ يا عائشة، إنَّ الله خلق للجنة أهلاً خلقَهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلقَ للنارِ أهلاً خلقَهم لها وهم في أصلاب آبائهم» خرَّجه ابن ماجه في «السنن»[(٢)]. وخرج أبو عيسى الترمذيُّ عن عبد الله بن عمرو قال: خرجَ علينا رسولُ الله ﷺ وفي يده كتابان، فقال: «أتدرونَ ما هذان الكتابان؟» فقلنا: لا يا رسول الله، إلا أن تُخبِرَنا، فقال للذي في يده اليمنى: «هذا كتابٌ من ربِّ العالمين، فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أُجْمِلَ على آخِرهم فلا يُزادُ فيهم ولا يُنقَصُ منهم أبداً...» ثم قال للذي في شماله: «هذا كتابٌ من ربِّ العالمين، فيه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أُجمِلَ على آخِرهم فلا يُزادُ فيهم ولا يُنقَصُ منهم أبداً...» وذكر الحديث، وقال فيه: حديث حسن[(٣)].

وقالت فرقةٌ: ليس المراد بقولِه تعالى: ﴿فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾ ولا قوله عليه الصلاة والسلام: «كلُّ مولودٍ يولَدُ على الفطرة» العمومَ، وإنما المرادُ بالناس المؤمنون؛ إذ لو فُطِرَ الجميعُ على الإسلام لمَا كفر أحد، وقد ثبت أنه خلقَ أقواماً للنار، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ﴾ [الأعراف:١٧٩] وأخرجَ الذُّرِّيةَ من صلب آدم سوداء وبيضاء. وقال في الغلام الذي قتله الخَضِر: طُبِعَ يوم طُبِعَ كافراً[(٤)]. وروى أبو سعيد الخُدْرِيُّ قال: صلَّى بنا رسول الله ﷺ العصر بنهار، وفيه: وكان فيما حفِظْنا أن قال:

(١) ٩/ ١٩١، وما بين حاصرتين من المصادر.

(٢) سنن ابن ماجه (٨٢)، وأخرجه أحمد (٢٥٤٧٢)، ومسلم (٢٦٦٢): (٣١).

(٣) سنن الترمذي (٢١٤١)، وهو في مسند أحمد (٦٥٦٣)، وفي إسناده أبو قبيل حيي بن هانئ المعافري، وهو مختلف فيه، وضعفه الحافظ في تعجيل المنفعة ص ٢٧٧، وذكر أنه كان يكثر النقل عن الكتب القديمة.

(٤) التمهيد ١٨/ ٥٩ و٦١ دون قوله: إذ لو فطر... إلى قوله: سوداء وبيضاء.

«ألَا إنَّ بني آدم خُلِقوا على طبقاتٍ شتَّى، فمنهم مَنْ يولَدُ مؤمناً ويحيا مؤمناً ويموت مؤمناً، ومنهم من يولَدُ كافراً ويحيا كافراً ويموت كافراً، ومنهم من يولَدُ مؤمناً ويحيا مؤمناً ويموت كافراً، ومنهم من يولَدُ كافراً ويحيا كافراً ويموت مؤمناً، ومنهم حَسَنُ القضاء حَسَنُ الطلب». ذكره حماد بن زيد قال[١]: حدثنا عليُّ بن زيد، عن أبي نَضْرةَ، عن أبي سعيد[٢]. قالوا: والعموم بمعنى الخصوص كثيرٌ في لسان العرب، ألا ترى إلى قوله عزَّ وجلَّ: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٥] ولم تدمِّرِ السماواتِ والأرض، وقولِهِ: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤] ولم تفتح عليهم أبواب الرحمة[٣]. وقال إسحاق بن رَاهْوَيه الحنظلي: تمَّ الكلامُ عند قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ ثم قال: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ أي: فطَرَ اللهُ الخلقَ فِطرةً إمَّا بجنةٍ أو نار، وإليه أشار النبيُّ ﷺ في قوله: «كلُّ مولودٍ يولَدُ على الفطرة» ولهذا قال: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ قال شيخُنا أبو العباس[٤]: من قال: هي سابقةُ السعادة والشقاوة، فهذا إنَّما يليقُ بالفِطرةِ المذكورةِ في القرآن؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ وأما في الحديث فلا؛ لأنَّه قد أخبر في بقية الحديث بأنها تُبدَّلُ وتُغيَّر.

وقالت طائفة من أهل الفقه والنظر: الفطرةُ: هي الخِلقةُ التي خُلِقَ عليها المولودُ في المعرفة بربِّه، فكأنه قال: كلُّ مولودٍ يولَدُ على خِلْقةٍ يعرِفُ بها ربَّه إذا بلغَ مبلَغَ المعرفة؛ يريد خِلقةً مخالفةً لخِلقة البهائم التي لا تصِلُ بخلقتها إلى معرفته، واحتَجُّوا على أنَّ الفِطرةَ الخِلقةُ، والفاطِرَ الخالقُ؛ لقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) المثبت من (ز). وفي (ظ): ذكره حماد بن زيد كذا قال. وفي (د): ذكره حماد بن أسلم الطيالسي قال: وفي (م): ذكره حماد بن زيد بن سلمة في مسند الطيالسي قال.

(٢) أخرجه ـ بهذا اللفظ ـ الترمذي (٢١٩١) من طريق حماد بن زيد، به.

وأخرجه أحمد (١١١٤٣) والطيالسي (٢١٥٦) من طريق حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، به. علي بن زيد: هو ابن جدعان، وهو ضعيف، وقد تكلم فيه شعبة كما سيذكر المصنف.

(٣) التمهيد ١٨/ ٦٢.

(٤) في المفهم ١/ ٦٧٥ - ٦٧٦.

﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [فاطر:١] يعني: خالقهنَّ، وبقوله: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ [يس:٢٢] يعني: خلقني، وبقوله: ﴿ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ [الأنبياء:٥٦] يعني: خلقهنَّ. قالوا: فالفطرةُ: الخِلقَةُ، والفاطرُ الخالق، وأنكروا أن يكون المولودُ يُفْطَرُ على كفرٍ أو إيمانٍ أو معرفةٍ أو إنكار. قالوا: وإنما المولود على السلامة في الأغلب خِلْقةً وطبعاً وبِنيةً ليس معها إيمانٌ ولا كفرٌ ولا إنكارٌ ولا معرفة، ثم يعتقدون الكفرَ والإيمانَ بعد البلوغ إذا ميَّزوا، واحتجُّوا بقوله في الحديث: «كما تُنْتَجُ البَهيمةُ بهيمةً جَمعاءَ - يعني سالمة - هل تُحِسُّون فيها من جَدْعاء» يعني مقطوعةَ الأذن. فمثَّلَ قلوبَ بني آدم بالبهائم؛ لأنها تولَدُ كاملةَ الخَلْق ليس فيها نقصان، ثم تُقطَعُ آذانُها بعدُ وأنوفُها، فيقال: هذه بحائر وهذه سوائب. يقول: فكذلك قلوب الأطفال في حين ولادتهم ليس لهم كفرٌ ولا إيمان، ولا معرفةٌ ولا إنكار، كالبهائم السائمة، فلمَّا بلغوا استهوتهم الشياطينُ فكفر أكثرهم، وعصمَ اللهُ أقلَّهم. قالوا: ولو كان الأطفال قد فُطِروا على شيءٍ من الكفر والإيمان في أوَّلِيَّة أمورهم ما انتقلوا عنه أبداً، وقد نَجِدُهم يؤمنون ثم يكفرون [ويكفرون ثم يؤمنون]. قالوا: ويستحيلُ في المعقول أن يكون الطفلُ في حين ولادته يعقلُ كفراً أو إيماناً؛ لأنَّ الله أخرجهم في حالٍ لا يفقهون معها شيئاً؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ [النحل:٧٨] فمَنْ لا يعلمُ شيئاً استحالَ منه كفرٌ أو إيمان، أو معرفةٌ أو إنكار. قال أبو عمر بن عبد البر: هذا أصَحُّ ما قيل في معنى الفطرة التي يولَدُ الناسُ عليها. ومن الحجَّة أيضاً في هذا قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الطور:١٦] و﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر:٣٨] ومن لم يبلُغْ وقتَ العمل لم يرتهن بشيء. وقال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء:١٥] ولمَّا أجمعوا على دفعِ القَوَد والقصاصِ والحدود والآثام عنهم في دار الدنيا كانت الآخرة أولى بذلك، والله أعلم. ويستحيل أن تكون الفِطرةُ المذكورةُ الإسلامَ، كما قال ابن شهاب؛ لأنَّ الإسلام والإيمان: قولٌ باللسان، واعتقادٌ بالقلب، وعملٌ بالجوارح، وهذا معدومٌ من الطفل، لا يجهل ذلك ذو عقل.

وأما قول الأوزاعي: سألتُ الزهرِيَّ عن رجلٍ عليه رَقَبَةٌ أيُجزِئُ عنه الصبيُّ أن يَعتِقَه وهو رضيع؟ قال: نعم؛ لأنه وُلِدَ على الفِطرة يعني الإسلام، فإنما أجزَى عتقه عند من أجازه؛ لأنَّ حُكمَه حُكمُ أبويه. وخالفهم آخرون فقالوا: لا يجزِي في الرقابِ الواجبةِ إلَّا مَنْ صام وصلَّى، وليس في قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩] ولا في «أن يختمَ اللهُ للعبد بما قضاه له وقدَّره عليه» دليلٌ على أنَّ الطفل يولَدُ حين يولَدُ مؤمناً أو كافراً؛ لِما شهدتْ له العقولُ أنه في ذلك الوقت ليس ممَّن يعقِلُ إيماناً ولا كفراً، والحديث الذي جاء فيه: «أنَّ الناس خُلِقوا على طبقات» ليس من الأحاديث التي لا مَطعنَ فيها؛ لأنَّه انفرد به عليُّ بن زيد بن جُدْعان، وقد كان شعبة يتكلَّم فيه، على أنه يحتمل قوله: «يولَدُ مؤمناً» أي: يُولَدَ ليكون مؤمناً، ويُولَدَ ليكون كافراً على سابق علم الله فيه، وليس في قوله في الحديث: «خلقتُ هؤلاء للجنة، وخلقتُ هؤلاء للنار» أكثرَ من مراعاة ما يُختَمُ به لهم، لا أنهم في حين طفولتهم ممَّن يستحِقُّ جنةً أو ناراً، أو يعقِلُ كفراً أو إيماناً(١).

قلت: وإلى ما اختاره أبو عمر واحتجَّ له ذهبَ غيرُ واحدٍ من المحقِّقين، منهم ابن عطية في «تفسيره» في معنى الفطرة، وشيخُنا أبو العباس؛ قال ابن عطية(٢): والذي يُعتمد عليه في تفسير هذه اللفظة أنها الخِلْقةُ والهيئةُ التي في نفس الطفل التي هي مُعدَّةٌ ومهيَّأةٌ لِأَنْ يُميِّزَ بها مصنوعات الله تعالى، ويستدِلَّ بها على ربِّه، ويعرفَ شرائعه ويؤمن به، فكأنه تعالى قال: أقِمْ وجهَك للدِّين الذي هو الحنيف، وهو فِطْرةُ الله الذي على الإعداد له فِطَرُ البشر، لكن تَعرِضُهم العوارض؛ ومنه قول النبيِّ ﷺ: «كلُّ مولودٍ يولَدُ على الفطرة، فأبواه يُهوِّدانه أو يُنَصِّرانه» فذِكْرُ الأبوين إنما هو مثالٌ للعوارض التي هي كثيرة. وقال شيخنا في عبارته(٣): إنَّ الله تعالى خلقَ قلوب بني آدم

---

(١) التمهيد ١٨/ ٦٨ و٧٠ و٧١ و٧٦ و٧٧ و٨٢ و٨٣، وما بين حاصرتين منه.

(٢) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٦.

(٣) في المفهم ١/ ٦٧٦.

مؤهَّلَةً لقبول الحق، كما خلق أعينَهم وأسماعَهم قابلةً للمرئيات والمسموعات، فما دامَتْ باقيةً على ذلك القبول وعلى تلك الأهلية أدركتِ الحقَّ ودينَ الإسلام وهو الدِّين الحق. وقد دلَّ على هذا المعنى قوله: «كما تُنْتَجُ البهيمةُ بهيمةً جَمْعاء، هل تُحِسُّون فيها من جَدْعاء» يعني أن البهيمة تَلِدُ ولدَها كاملَ الخِلْقةِ سليماً من الآفات، فلو تُرِكَ على أصل تلك الخِلْقةِ لبقي كاملاً بريئاً من العيوب، لكن يُتصرَّف فيه، فتُجدَعُ أذنُه ويُوسَمُ وجهُه، فتطرأ عليه الآفاتُ والنقائصُ فيخرج عن الأصل، وكذلك الإنسان، وهو تشبيهٌ واقعٌ، ووجهه واضح.

قلت: وهذا القول مع القول الأوَّل موافقٌ له في المعنى، وأنَّ ذلك بعد الإدراك حين عقَلوا أمر الدنيا، وتأكَّدت حُجَّةُ الله عليهم بما نصب من الآيات الظاهرة، من خلق السماوات والأرض، والشمس والقمر، والبرِّ والبحر، واختلاف الليل والنهار، فلما عمِلَتْ أهواؤهم فيهم أتتهم الشياطين فدعَتْهم إلى اليهودية والنصرانية، فذهبت بأهوائهم يميناً وشمالاً، وأنهم إن ماتوا صغاراً في الجنة، أعني جميعَ الأطفال؛ لأنَّ الله تعالى لمَّا أخرجَ ذريةَ آدمَ من صلبه في صورة الذَّرِّ أقرُّوا له بالربوبية، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. ثم أعادهم في صُلبِ آدم بعد أن أقرُّوا له بالرُّبوبية، وأنه اللهُ لا إله غيرُه، ثم يُكتَبُ العبدُ في بطن أمِّه شقِيًّا أو سعيداً على الكتاب الأوَّل، فمن كان في الكتاب الأوَّل شقيًّا عُمِّرَ حتى يجري عليه القلمُ، فينقضَ الميثاق الذي أُخِذَ عليه في صُلب آدم بالشرك، ومن كان في الكتاب الأوَّلِ سعيداً عُمِّر حتى يجري عليه القلمُ فيصيرُ سعيداً، ومن ماتَ صغيراً من أولاد المسلمين قبل أن يجري عليه القلمُ فهم مع آبائهم في الجنة، ومن كان من أولاد المشركين فماتَ قبل أن يجري عليه القلم، فليس يكونون مع آبائهم؛ لأنهم ماتوا على الميثاق الأوَّل الذي أُخِذَ عليهم في صُلب آدم ولم ينقُضِ الميثاق. ذهب إلى هذا جماعةٌ من أهل التأويل، وهو يجمع بين الأحاديث، ويكون معنى قوله عليه الصلاة والسلام لمَّا سُئِلَ عن أولاد

المشركين، فقال: «الله أعلمُ بما كانوا عاملين»[١] يعني: لو بلغوا.

ودلَّ على هذا التأويل أيضاً حديثُ البخاريِّ[٢] عن سَمُرة بن جُنْدَبُ عن النبي ﷺ... الحديثُ الطويل حديثُ الرؤيا، وفيه قوله عليه الصلاة والسلام: «وأمَّا الرجلُ الطويلُ الذي في الروضة فإبراهيمُ عليه السلام، وأما الوِلدانُ حولَه فكلُّ مولودٍ يولَدُ على الفطرة». قال: فقيل: يا رسول الله، وأولاد المشركين؟ فقال رسول الله ﷺ: «وأولادُ المشركين». وهذا نصٌّ يرفع الخلاف، وهو أصحُّ شيءٍ رُوي في هذا الباب، وغيرُه من الأحاديث فيها عِلَلٌ وليست من أحاديث الأئمة الفقهاء. قاله أبو عمر بن عبد البر[٣]. وقد رُوِيَ من حديث أنس قال: سُئِلَ رسولُ الله ﷺ عن أولاد المشركين، فقال: «لم تكُنْ لهم حسناتٌ فيُجْزَوْا بها فيكونوا من ملوك الجنة، ولم تكن لهم سيئاتٌ فيُعاقبوا عليها فيكونوا من أهل النار، فهم خَدَمٌ لأهل الجنة» ذكره يحيى بن سلاَّم في التفسير له[٤]. وقد زدنا هذه المسألة بياناً في كتاب «التذكرة»[٥]، وذكرنا في كتاب «المقتبس في شرح موطأ مالك بن أنس» ما ذكره أبو عمر من ذلك، والحمد لله. وذكر إسحاق بن راهويه قال: حدَّثنا يحيى بن آدم قال: أخبرنا جرير بن حازم، عن أبي رجاء العُطَارِديِّ قال: سمعتُ ابنَ عباسٍ يقول: لا يزالُ أمرُ هذه الأمة مواتياً أو متقارباً ـ أو كلمة تشبه هاتين ـ حتى يتكلموا أو ينظروا في الأطفال والقَدَر. قال يحيى بن آدم: فذكرتُه لابن المبارك، فقال: أيسكتُ الإنسانُ على الجهل؟ قلتُ: فتأمرُ بالكلام؟ قال: فسكت[٦]. وقال أبو بكر الوراق: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ

(١) أخرجه أحمد (٣٠٣٤)، والبخاري (٦٥٩٧)، ومسلم (٢٦٦٠) عن ابن عباس ﷺ، وأخرجه أحمد (٧٣٢٥)، والبخاري (١٣٨٤)، ومسلم (٢٦٥٩) عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) في صحيحه (٧٠٤٧)، وهو في مسند أحمد (٢٠٠٩٤)، وقد سلف بعضه ٢/ ٣٤٩.

(٣) في التمهيد ١٨/ ١١٨ و١٣٠.

(٤) وأخرجه الطيالسي (٢١١١)، وأبو نعيم في الحلية ٦/ ٣٠٨ من طريق يزيد الرقاشي، عن أنس ﷺ، به. يزيد الرقاشي: هو ابن أبان، وهو ضعيف. ميزان الاعتدال ٤/ ٤١٨ - ٤١٩.

(٥) ص ٥١١ - ٥١٧.

(٦) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ١٨/ ١٣١.

عَلَيْهَا﴾: هي الفقر والفاقة. وهذا حسن؛ فإنه منذُ وُلِدَ إلى حين يموت فقيرٌ محتاج، نعم! وفي الآخرة.

قوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ أي: هذه الفطرةُ لا تبديلَ لها من جهة الخالق. ولا يجيء الأمرُ على خلاف هذا بوجه، أي: لا يشقى مَنْ خَلَقَه سعيداً، ولا يسعَدُ مَنْ خَلَقَه شقيًّا. وقال مجاهد: المعنى: لا تبديلَ لدين الله. وقاله قتادة وابن جُبير والضحَّاك وابن زيد والنَّخَعيّ؛ قالوا: هذا معناه في المعتقدات. وقال عكرمة: ورُوي عن ابن عباس وعمر بن الخطاب أنَّ المعنى: لا تغييرَ لخلق الله من البهائم أن تُخصى فحولُها، فيكون معناه النهيَ عن خِصاء الفحول من الحيوان[1]. وقد مضى هذا في «النساء»[2]. ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي: ذلك القضاء المستقيم. قاله ابن عباس. وقال مقاتل: ذلك الحسابُ البيِّن[3]. وقيل: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي: دينُ الإسلام هو الدينُ القيِّمُ المستقيم[4]. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يتفكرون فيعلمون أنَّ لهم خالقاً معبوداً، وإلهاً قديماً سبق قضاؤه ونَفَذَ حُكمُه.

قوله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ اختُلِفَ في معناه، فقيل: راجعينَ إليه بالتوبة والإخلاص[5]. وقال يحيى بن سلاَّم والفرَّاء: مُقبلين إليه. وقال عبد الرحمن بن زيد: مُطيعين له. وقيل: تائبين إليه من الذنوب؛ ومنه قول [أبي] قيس بن الأَسْلَت:

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٣١٢، وقول مجاهد ومن وافقه أخرجه الطبري عنهم ١٨/ ٤٩٤ - ٤٩٦، وكذلك أخرج القول الذي يليه عن ابن عباس وعكرمة ومجاهد.

(٢) ٧/ ١٤٧.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٣١٢.

(٤) الوسيط ٣/ ٤٣٣.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٤٨٣.

فـإن تـابـوا فـإنَّ بـنـي سُـلَـيـمٍ وقـومَـهُـمُ هـوازنَ قـد أنـابـوا

والمعنى واحد؛ فإن «ناب وتاب ثاب وآب» معناه الرجوع. قال الماورديُّ[١]: وفي أصل الإنابة قولان: أحدهما ـ أنَّ أصلَه القطع، ومنه أُخِذَ اسمُ النَّاب؛ لأنه قاطع، فكأنَّ الإنابةَ هي الانقطاع إلى الله عزَّ وجلَّ بالطاعة. الثاني ـ أصله الرجوع، مأخوذٌ من نابَ ينوبُ إذا رجع مرةً بعد أخرى، ومنه النَّوْبة؛ لأنها الرجوعُ إلى عادة. الجوهري[٢]: وأناب إلى الله: أقبل وتاب. والنَّوْبة واحدةُ النُّوَب، تقول: جاءت نَوْبَتُك ونيابتُك، وهم يتناوبون النَّوْبة فيما بينهم في الماء وغيره.

وانتصب على الحال؛ قال محمد بن يزيد: لأنَّ معنى: «أَقِمْ وَجْهَكَ»: فأقيموا وجوهَكم منيبين. وقال الفرَّاء: المعنى: فأَقِمْ وجهَكَ ومَنْ معكَ منيبين[٣]. وقيل: انتصبَ على القطع، أي: فأَقِمْ وجهَكَ أنتَ وأمتكَ المنيبين إليه؛ لأنَّ الأمرَ له أمرٌ لِأُمَّته، فَحسُنَ أن يقول: منيبين إليه، وقد قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾[٤] [الطلاق: ١]. ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ أي: خافوه وامتثِلوا ما أمركم به. ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بيَّن أنَّ العبادة لا تنفع إلَّا مع الإخلاص؛ فلذلك قال: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وقد مضى هذا مُبيَّناً في «النساء»[٥] و«الكهف»[٦]. وغيرهما.

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾ تأوَّله أبو هريرة وعائشة وأبو أمامة: أنه لأهل القبلة من

---

(١) في النكت والعيون ٤/ ٣١٣، وما قبله منه.

(٢) في الصحاح (نوب).

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٢.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٤٨٣، وينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٢٥.

(٥) ٦/ ٢٩٧ فما بعد.

(٦) ١١/ ٢٠٦ فما بعد.

أهل الأهواء والبِدَع[١]. وقد مضى في الأنعام[٢] بيانُه. وقال الربيع بن أنس: الذين فرَّقوا دينَهم أهلُ الكتاب من اليهود والنصارى[٣]. وقاله قتادة ومَعْمَر[٤].

وقرأ حمزة والكسائي: ﴿فارقُوا دِينَهم﴾، وقد قرأ بذلك عليُّ بن أبي طالب[٥]، أي: فارقوا دينَهم الذي يجب اتباعه، وهو التوحيد[٦]. ﴿وَكَانُوا شِيَعًا﴾ أي: فِرَقاً. قاله الكَلْبيُّ. وقيل: أدياناً. قاله مقاتل. ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي: مسرورون مُعجَبون[٧]؛ لأنهم لم يتبيَّنوا الحقَّ وعليهم أن يتبيَّنوه[٨]. وقيل: كان هذا قبل أن تنزل الفرائض[٩]. وقول ثالث: أنَّ العاصي لله عزَّ وجلَّ قد يكون فَرِحاً بمعصيته، فكذلك الشيطانُ وقُطَّاعُ الطريق وغيرُهم، والله أعلم. وزعم الفرَّاء أنه يجوز أن يكون التمام ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ويكون المعنى: من الذين فارقوا دينَهم ﴿وَكَانُوا شِيَعًا﴾ على الاستئناف، وأنه يجوز أن يكون متصلاً بما قبله. النحَّاس[١٠]: وإذا كان متَّصلاً بما قبله فهو عند البصريين على البدل بإعادة الحرف، كما قال جلَّ وعزَّ: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأعراف: ٧٥] ولو كان بلا حرف لجاز.

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٢ .

(٢) ٩/ ١٣٣ فما بعد.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٢ .

(٤) النكت والعيون ٤/ ٣١٣ ، وأخرجه الطبري ١٨/ ٤٩٨ عن قتادة.

(٥) النكت والعيون ٤/ ٣١٣ ، وقراءة حمزة والكسائي في السبعة ص ٢٧٤ ، والتيسير ص ١٠٨ .

(٦) الكشاف ٣/ ٢٢٢ .

(٧) النكت والعيون ٤/ ٣١٤ .

(٨) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٢ .

(٩) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٦١ .

(١٠) في إعراب القرآن ٣/ ٢٧٣ ، وما قبله منه. وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣٢٥ .

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ﴾ أي: قَحْطٌ وشِدَّة[1] ﴿دَعَوْاْ رَبَّهُم﴾ أن يرفع ذلك عنهم ﴿مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ قال ابن عباس: مُقبِلين عليه بكلِّ قلوبهم لا يشركون[2]. ومعنى هذا الكلام التعجُّب؛ عجب نبيُّه من المشركين في ترك الإنابة إلى الله تعالى مع تتابع الحُجج عليهم؛ أي إذا مسَّ هؤلاء الكفارَ ضرٌّ من مرضٍ وشدَّةٍ دَعَوْا ربَّهم، أي: استغاثوا به في كشف ما نزلَ بهم، مُقبلين عليه وحدَه دون الأصنام؛ لعلمهم بأنَّه لا فَرَج عندها. ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ أي: عافية ونعمة. ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي: يشركون به في العبادة.

قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ قيل: هي لامُ كي. وقيل: هي لامُ أمرٍ فيه معنى التهديد، كما قال جلَّ وعزَّ: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[3] [الكهف: ٢٩]. ﴿فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تهديدٌ ووعيد[4]. وفي مصحف عبد الله: «وَليتَمَتَّعُوا»[5]، أي: مكَّناهم من ذلك لكي يتمتَّعوا، فهو إخبارٌ عن غائب، مثل: «لِيَكْفُرُوا». وهو على خطِّ المصحف خطابٌ بعد الإخبار عن غائب، أي: تمتَّعوا أيها الفاعلون لهذا[6].

قوله تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾ استفهامٌ فيه معنى التوقيف. قال الضحَّاك:

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٨٣ .

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٣ .

(٣) المصدر السابق.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٨٦ .

(٥) الكشاف ٣/ ٢٢٢ ، وهي قراءة شاذة.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٨٦ .

«سُلْطَاناً» أي: كتاباً[١]. وقاله قتادة والربيع بن أنس[٢]. وأضافَ الكلامَ إلى الكتاب توسُّعًا. وزعم الفرَّاءُ أنَّ العربَ تؤنِّث السلطان؛ تقول: قضَتْ به عليكَ السلطانُ. فأما البصريون فالتذكيرُ عندهم أفصحُ، وبه جاء القرآن، والتأنيث عندهم جائزٌ؛ لأنه بمعنى الحجة[٣]، أي: حُجَّةٌ تنطقُ بشِرْكِكم. قاله ابن عباس والضحَّاك أيضاً[٤]. وقال عليُّ بن سليمان عن أبي العباس محمد بن يزيد قال: سُلطان جمع سَليط؛ مثل رَغيف ورُغْفان، فتذكيرُه على معنى الجمع، وتأنيثُه على معنى الجماعة[٥]. وقد مضى في «آل عمران»[٦] الكلامُ في السلطان أيضاً مستوفى. والسلطان: ما يدفَعُ به الإنسانُ عن نفسه أمراً يستوجب به عقوبة، كما قال تعالى: ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٢١].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا ۖ﴾ يعني الخِصْبَ والسَّعةَ والعافية. قاله يحيى بن سلاَّم. النَّقَّاش: النعمة والمطر. وقيل: الأمن والدَّعَة. والمعنى متقارب. ﴿فَرِحُواْ بِهَا ۖ﴾ أي: بالرحمة. ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ﴾ أي: بلاءٌ وعقوبة. قاله مجاهد. السُّدِّي: قحط المطر. ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ﴾ أي: بما عملوا من المعاصي. ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ أي: ييأسون من الرحمة والفَرَج. قاله الجمهور. وقال الحسن: إنَّ القنوطَ تركُ فرائضِ الله سبحانه وتعالى في السرِّ[٧]. قَنِطَ يَقْنَطُ، وهي قراءة العامَّة. وقَنَطَ

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٣ .
(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٨٤ عن قتادة، وأخرجه الطبري ١٨/ ٥٠٠ .
(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٣ - ٢٧٤ .
(٤) تفسير أبي الليث ٣/ ١٢ من غير نسبة.
(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٤ .
(٦) ٣٥٧/١ .
(٧) النكت والعيون ٤/ ٣١٥ .

يَقْنِطُ، وهي قراءة أبي عمرو والكسائي ويعقوب[1]. وقرأ الأعمش: «قَنِطَ يَقْنِطُ» بالكسر فيهما، مثل حَسِبَ يَحْسِبُ. والآية صفة للكافر، يقنط عند الشدَّة، ويبطَر عند النعمة، كما قيل:

كـحـمـارِ الـسَّـوءِ إن أعـلَـفْـتَـهُ رَمَـحَ الـنـاسَ[2] وإن جـاعَ نَـهَـقْ[3]

وكثيرٌ ممن لم يرسُخِ الإيمانُ في قلبه بهذه المثابة، وقد مضى في غير موضع. فأما المؤمن فيشكر ربَّه عند النعمة، ويرجوه عند الشدَّة.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يوسِّعُ الخير في الدنيا لمن يشاء ويُضيِّق لمن يشاء، فلا يجب أن يدعوهم الفقر إلى القنوط .﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ **فيه ثلاث مسائل:**

الأولى ـ لمَّا تقدَّم أنه سبحانه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدِرُ أمرَ مَنْ وسَّعَ عليه الرزقَ أن يُوصِلَ إلى الفقير كفايتَه؛ ليمتحِنَ شكرَ الغنيِّ. والخطابُ للنبيِّ عليه الصلاة والسلام والمرادُ هو وأمتُه؛ لأنه قال: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾. وأمرَ بإيتاء ذي القربى؛ لِقُرْب رَحِمِه، وخيرُ الصدقة ما كان على القريب، وفيها صلةُ الرِّحِم. وقد

---

(١) السبعة ص ٣٦٧، والتيسير ص ١٣٦، والنشر ٢/ ٣٠٢.

(٢) أي: ضرب الناس بحافره. اللسان (رمح).

(٣) قائله مسكين الدارمي، وهو في الشعر والشعراء ص ٥٤٤، وبهجة المجالس ١/ ١٠٤، وخزانة الأدب ٣/ ٧٠.

فضَّل رسولُ الله ﷺ الصدقةَ على الأقارب على عتق الرقاب، فقال لميمونة وقد أعتقت وليدةً: «أما إنَّكِ لو أعطيْتِها أخوالَكِ كان أعظَمَ لأجْرِك»[١].

الثانية ـ واختُلِفَ في هذه الآية، فقيل: إنها منسوخةٌ بآية المواريث. وقيل: لا نسخَ، بل للقريب حقٌّ لازمٌ في البرِّ على كل حال، وهو الصحيح.

قال مجاهد وقتادة: صِلةُ الرَّحِم فرضٌ من الله عزَّ وجلَّ، حتى قال مجاهد: لا تُقبَلُ صدقةٌ من أحدٍ ورَحِمُه محتاجة. وقيل: المرادُ بالقربى أقرباءُ النبيِّ ﷺ[٢]. والأوَّل أصحُّ؛ فإنَّ حقَّهم مُبيَّنٌ في كتاب الله عزَّ وجلَّ في قوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الأنفال: ٤١]. وقيل: إنَّ الأمرَ بالإيتاء لذي القُربى على جهة النَّدب. قال الحسن: «حقَّه» المواساة في اليسر، وقولٌ ميسورٌ في العسر[٣]. ﴿وَٱلْمِسْكِينَ﴾ قال ابن عباس: أي أطعمِ السائلَ الطوَّاف[٤]. «وابن السبيل»: الضيف[٥]، فجعل الضيافةَ فرضاً، وقد مضى جميعُ هذا مبسوطاً مُبيَّنًا في مواضعه[٦]، والحمد لله.

الثالثة ـ ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ أي: إعطاءُ الحقِّ أفضلُ من الإمساك إذا أُريدَ بذلك وجهُ الله والتقرُّبُ إليه. ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الفائزون بمطلوبهم من الثواب في الآخرة. وقد تقدَّم في «البقرة»[٧] القولُ فيه.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ﴾

---

(١) أخرجه أحمد (٢٦٨٢٢)، والبخاري (٢٥٩٢)، ومسلم (٩٩٩).

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٤.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٨.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢١٥ من غير نسبة.

(٥) النكت والعيون ٤/ ٣١٦.

(٦) ٢/ ٢٣٢ و٣/ ٥٩ و١٠/ ٢١ - ٢٢.

(٧) ١/ ٢٧٨ - ٢٧٩.

فيه أربع مسائل:

الأولى - لمَّا ذكر ما يُراد به وجهُه ويُثيبُ عليه ذكرَ غيرَ ذلك من الصفة وما يُراد به أيضاً وجهُه.

وقرأ الجمهور: «آتَيْتُمْ» بالمدِّ بمعنى: أعطيتُم. وقرأ ابن كثير ومجاهد وحُميد بغير مدّ، بمعنى: ما فعلتُم من رِبًا لِيَرْبُو؛ كما تقول: أتيتُ صواباً وأتيتَ خطأً. وأجمعوا على المدِّ في قوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ﴾. والربا الزيادة[1]. وقد مضى في «البقرة» معناه[2]، وهو هناك مُحرَّمٌ وها هنا حلال. وثبتَ بهذا أنه قسمان: منه حلالٌ ومنه حرام[3]. قال عكرمة في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ قال: الرِّبا رِبَوان، ربا حلال وربا حرام؛ فأما الرِّبا الحلال فهو الذي يُهْدَى، يُلتمس ما هو أفضلَ منه. وعن الضحَّاك في هذه الآية: هو الرِّبا الحلال الذي يُهدى لِيُثَابَ ما هو أفضلُ منه، لا له ولا عليه، ليس له فيه أجرٌ وليس عليه فيه إثم. وكذلك قال ابن عباس: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا﴾ يريدُ هديةَ الرجلِ الشيءَ يرجو أن يُثابَ أفضلَ منه، فذلك الذي لا يربو عند الله، ولا يُؤجَرُ صاحبه، ولكن لا إثمَ عليه، وفي هذا المعنى نزلت الآية[4]. قال ابن عباس وابن جُبير وطاوس ومجاهد: هذه آيةٌ نزلت في هِبة الثواب. قال ابن عطية[5]: وما جرى مجراها ممَّا يصنعه الإنسان لِيُجازى عليه كالسلام وغيره، فهو وإن كان لا إثمَ فيه فلا أجرَ فيه ولا زيادةَ عند الله تعالى. وقاله القاضي أبو بكر بن العربي[6]. وفي كتاب النَّسائي عن عبد الرحمن بن علقمة قال: قدمَ وفدُ ثَقيفٍ على رسول الله ﷺ ومعهم هديَّةٌ فقال: «أهديةٌ أم صدقة؟ فإن كانت

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٩ ، وقراءة الجمهور وقراءة ابن كثير في السبعة ص ٥٠٧ ، والتيسير ص٣٠ .

(٢) ٤/ ٣٨١ - ٣٩٠ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٧٩ .

(٤) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٣٥٠ - ٣٥١ . وقول الضحاك أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ١٠٤ .

(٥) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٩ ، وما قبله منه.

(٦) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٧٩ .

هديةً فإنَّما يُبْتَغى بها وجهُ رسولِ الله ﷺ وقضاءُ الحاجة، وإن كانت صدقةً فإنما يُبْتَغى بها وجهُ الله عزَّ وجلَّ» قالوا: لا بل هدية. فقَبِلها منهم، وقعدَ معهم يُسائلهم ويسألونه[1]. وقال ابن عباس أيضاً وإبراهيم النَّخَعي: نزلت في قومٍ يُعطون قراباتِهم وإخوانَهم على معنى نفعِهم وتمويلِهم والتفضُّلِ عليهم، وليزيدوا في أموالهم على وجهِ النفع لهم. وقال الشَّعبيُّ: معنى الآية: أنَّ ما خدمَ الإنسانُ به أحداً وخفَّ له لينتفع به في دنياه فإنَّ ذلك النفعَ الذي يَجزي به الخدمةَ لا يربو عند الله[2]. وقيل: كان هذا حراماً على النبيِّ ﷺ على الخصوص؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر:٦] فنهى أن يُعطى شيئاً فيأخذَ أكثرَ منه عِوضاً[3]. وقيل: إنَّه الربا المحرَّم[4]، فمعنى: «لا يَرْبُو عِنْدَ اللهِ» على هذا القول لا يُحكَمُ به لآخذِه، بل هو للمأخوذِ منه[5]. قال السُّدِّي: نزلت هذه الآية في ربا ثَقيف؛ لأنهم كانوا يعملون بالربا وتعمله فيهم قريش[6].

الثانية ـ قال القاضي أبو بكر بن العربي: صريح الآية فيمَنْ يَهبُ يطلُبُ الزيادة من أموال الناس في المكافأة[7]. قال المُهلَّب: اختلفَ العلماءُ فيمن وَهَب هبةً يطلبُ ثوابَها وقال: إنما أردتُ الثواب، فقال مالكٌ: يُنظَرُ فيه؛ فإن كان مثلُه ممن يطلبُ الثوابَ من الموهوبِ له فله ذلك، مثلُ هبة الفقير للغنيِّ، وهبةُ الخادم لصاحبه، وهبةُ

---

(١) سنن النسائي ٦/ ٢٧٩ ، وسنن النسائي الكبرى (٦٥٥٧) من طريق أبي حذيفة، عن عبد الملك بن محمد بن نُسَير، عن عبد الرحمن بن علقمة، به. أبو حذيفة وعبد الملك مجهولان فيما ذكره الحافظ في التقريب.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٩ .

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٥ عن الضحاك.

(٤) زاد المسير ٦/ ٣٠٤ عن الحسن البصري.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٥ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٩ .

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٨٠ .

الرجل لأميره ومَن فوقه. وهو أحد قَولي الشافعي. وقال أبو حنيفة: لا يكون له ثوابٌ إذا لم يشترط. وهو قول الشافعيِّ الآخر؛ قال: والهبةُ باطلةٌ لا تنفعه؛ لأنها بيعٌ بثمنٍ مجهول. واحتجَّ الكوفيُّ بأنَّ موضوع الهبة التبرُّع، فلو أوجَبْنا فيها العِوضَ لَبطلَ معنى التبرُّعِ وصارت في معنى المعاوضات، والعرب قد فرَّقت بين لفظ البيع ولفظ الهبة، فجعلت لفظَ البيع على ما يُستَحقُّ فيه العِوَض، والهبةُ بخلاف ذلك. ودليلُنا ما رواه مالك في «موطَّئه» عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: أيُّما رجلٍ وهَبَ هبةً يرى أنها للثواب فهو على هِبته حتى يرضى منها[1]. ونحوه عن عليٍّ ﷺ قال: المواهبُ ثلاثةٌ: مَوْهبةٌ يُرادُ بها وجهُ الله، وموهبةٌ يُرادُ بها وجوهُ الناس، وموهبةٌ يُرادُ بها الثواب؛ فموهبةُ الثواب يرجع فيها صاحبُها إذا لم يُثَبْ منها[2]. وترجم البخارِيُّ رحمه الله (باب المكافأة في الهبة) وساقَ حديث عائشة قالت: كانَ رسول الله ﷺ يقبلُ الهديةَ ويُثيبُ عليها[3]. وأثابَ على لِقْحةٍ[4] ولم يُنْكِرْ على صاحبها حين طلب الثواب، وإنما أنكر سخطه للثواب وكان زائداً على القيمة. خرَّجه الترمذي[5].

الثالثة ـ ما ذكره عليٌّ ﷺ وفصَّله من الهبة صحيح، وذلك أنَّ الواهبَ لا يخلو في هبته من ثلاثة أحوال: أحدها ـ أن يُريدَ بها وجهَ الله تعالى ويبتغي عليها الثوابَ منه. والثاني ـ أن يُريدَ بها وجوهَ الناس رياءً؛ ليحمدوه عليها، ويُثنوا عليه من أجلها. والثالث ـ أن يُريد بها الثوابَ من الموهوب له، وقد مضى الكلامُ فيه. وقال ﷺ: «الأعمالُ بالنيات، وإنَّما لكلِّ امرئٍ ما نوى»[6]. فأمَّا إذا أراد بهبتِه وجهَ الله تعالى، وابتغى عليه الثواب من عنده، فله ذلك عند الله بفضله ورحمته؛ قال الله عزَّ وجلَّ:

---

(١) الموطأ ٢/ ٧٥٤ .
(٢) أخرجه مالك في المدونة الكبرى ٦/ ١٠٩ و١٤١ .
(٣) صحيح البخاري (٢٥٨٥) ، وهو في مسند أحمد (٢٤٥٩١).
(٤) جمع لقاح: وهي ذوات الألبان من النوق. اللسان (لقح).
(٥) في سننه (٣٩٤٥) ، وهو في مسند أحمد (٧٩١٨).
(٦) سلف ٣/ ٢٧٠ .

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾.

وكذلك مَنْ يصِلُ قرابتَه ليكون غنيًا حتى لا يكون فقيراً[١] كَلَّا فالنية في ذلك متبوعة؛ فإن كان ليتظاهرَ بذلك ديناً فليس لوجه الله، وإن كان لِما له عليه من حقِّ القرابة وبينهما من وشيجة الرحم فإنه لوجه الله.

وأمَّا من أراد بهبتِه وجوهَ الناس رياءً ليحمدوه عليها ويثنوا عليه من أجلها، فلا منفعةَ له في هبته، لا ثوابَ في الدنيا ولا أجرَ في الآخرة؛ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ الآية: [البقرة: ٢٦٤].

وأمَّا مَنْ أراد بهبته الثوابَ من الموهوب له فله ما أرادَ بهبته، وله أن يرجع فيها ما لم يُثَبْ بقيمتها، على مذهب ابن القاسم، أو ما لم يرضَ منها بأزْيَدَ من قيمتها، على ظاهر قول عمرَ وعليٍّ، وهو قول مُطَرِّف في الواضحة: أنَّ الهبةَ ما كانت قائمةَ العين، وإن زادت أو نقصت فللواهب الرجوعُ فيها وإن أثابه الموهوبُ فيها أكثرَ منها. وقد قيل: إنها إذا كانت قائمةَ العين لم تتغيَّر فإنه يأخذ ما شاء. وقيل: تلزمه القيمةُ كنكاح التفويض، وأما إذا كان بعد فَوْتِ الهبة فليس له إلا القيمة اتفاقاً. قاله ابن العربي[٢].

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿لِّيَرْبُوَاْ﴾ قرأ جمهور القرَّاء السبعة: «ليربو» بالياء وإسناد الفعل إلى الربا. وقرأ نافعٌ وحده: بضمِّ التاء [والواو] ساكنةٌ على المخاطبة، بمعنى: تكونوا ذَوي زيادات، وهذه قراءة ابن عباس والحسن وقتادة والشَّعبي. قال أبو حاتم: هي قراءتُنا. وقرأ أبو مالك: «لتربوها» بضمير مؤنث[٣]. ﴿فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يزكو ولا يُثيبُ عليه؛ لأنه لا يقبلُ إلَّا ما أُريدَ به وجهُه وكان خالصاً له، وقد تقدَّم في

(١) كلمة فقيراً من (ظ).

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٨٠ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٩ ، وما بين حاصرتين ليس فيه ولا في النسخ، وهو من زاد المسير ٦/ ٣٠٤ . وقراءة نافع في السبعة ص ٥٠٧ ، والتيسير ص ١٧٥ . وقراءة أبي مالك شاذة.

«النساء»(١). ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ﴾ قال ابن عباس: أي: من صدقة(٢). ﴿تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ﴾ أي: ذلك الذي يقبله ويضاعفه له عشرةَ أضعافه أو أكثر، كما قال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وقال: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، وقال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ﴾ ولم يقُلْ: فأنتم المضعفون؛ لأنه رجعَ من المخاطبة إلى الغيبة؛ مثل قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾ [يونس: ٢٢].

وفي معنى المُضْعِفِين قولان: أحدهما ـ أنه تُضاعف لهم الحسنات كما ذكرنا. والآخر ـ أنهم قد أُضعِفَ لهم الخير والنعيم، أي: هم أصحابُ أضعاف، كما يُقال: فلانٌ مُقْوٍ إذا كانت إبلُه قويةً، أوْلَه أصحابُ أقوياء(٣). ومُسْمِنٌ إذا كانت إبلُه سِماناً، ومُعْطِشٌ إذا كانت إبلُه عِطاشاً، ومُضعِفٌ إذا كانت إبلُه ضعيفةً؛ ومنه قولُ النبيِّ ﷺ: «اللهمَّ إنِّي أعوذُ بكَ من الخبيثِ المُخْبِثِ الشيطانِ الرجيم»(٤). فالمُخبِثُ: الذي أصابه خبث، يقال: فلانٌ رديء أي هو رَدِيء في نفسه. ومُرْدِئ: أصحابُه أردِئاء(٥).

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۖ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٤٠﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ ابتداءٌ وخبر. وعادَ الكلامُ إلى الاحتجاج على

---

(١) ٧/ ١٧٢.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٦٦، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ١٠٣ - ١٠٤، والطبري ١٨/ ٥٠٧ - ٥٠٨.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٤.

(٤) أخرجه ابن ماجه (٢٩٩) من طريق عبيد الله بن زَحْر، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة ﷺ مرفوعاً. قال البوصيري: إسناده ضعيف؛ قال ابن حبان: إذا اجتمع في إسناد خبرٍ عبيد الله ابن زَحر وعلي بن يزيد والقاسم، فذاك مما عملته أيديهم.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٤ ببعضه.

المشركين، وأنه الخالقُ الرازقُ المميتُ المُحيي. ثم قال على جهة الاستفهام: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾ لا يفعل. ثم نزَّه نفسَه عن الأنداد والأضداد والصاحبة والأولاد بقوله الحق: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وأضافَ الشركاءَ إليهم لأنهم كانوا يسمُّونهم بالآلهة والشركاء، ويجعلون لهم من أموالهم.

قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ اختلف العلماء في معنى الفسادِ والبرِّ والبحر، فقال قتادة والسُّدِّي: الفساد: الشرك، وهو أعظم الفساد[(١)]. وقال ابن عباس وعِكرمة ومجاهد: فسادُ البرِّ قتلُ ابنِ آدم أخاه؛ قابيلُ قتلَ هابيل. وفي البحر بالْمَلِك الذي كان يأخذ كلَّ سفينةٍ غصباً[(٢)]. وقيل: الفسادُ: القحطُ وقِلَّةُ النبات وذهابُ البركة[(٣)]. ونحوه قال ابن عباس قال: هو نقصانُ البركة بأعمال العباد كي يتوبوا. قال النحَّاس: وهو أحسن ما قيل في الآية[(٤)]. وعنه أيضاً: أنَّ الفساد في البحر: انقطاعُ صيدِه بذنوب بني آدم[(٥)]. وقال عطية: فإذا قلَّ المطرُ قَلَّ الغَوْصُ عنده، وأخفقَ الصيادون، وعميت دوابُّ البحر[(٦)]. وقال ابن عباس: إذا مطرتِ السماءُ تفتحتِ الأصدافُ في البحر، فما وقع فيها من السماء فهو لؤلؤ[(٧)]. وقيل: الفسادُ: كسادُ الأسعار وقِلَّةُ المعاش. وقيل: الفسادُ: المعاصي وقطعُ السبيل والظلم[(٨)]، أي: صار

(١) زاد المسير ٦/ ٣٠٥.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ٩/ ٣٦٤، والطبري ١٨/ ٥١١ - ٥١٢ عن مجاهد، وهو كذلك في معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٦٦، وذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٢٤ عن ابن عباس ﷺ.

(٣) الوسيط ٣/ ٤٣٥، والوجيز على هامش مراح لبيد ٢/ ١٦٧.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٦٦.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٠.

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ١٤، وزاد المسير ٦/ ٣٠٦ مختصراً، وكذلك أخرجه الطبري ١٨/ ٥١٢.

(٧) أخرجه الطبري ٢٢/ ٢٠٨ - ٢٠٩.

(٨) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٥.

هذا العملُ مانعاً من الزرع والعمارات والتجارات، والمعنى كلُّه متقارب. والبرُّ والبحرُ هما المعروفان المشهوران في اللغة وعند الناس، لا ما قاله بعض العُبَّاد: أنَّ البرَّ اللسانُ، والبحرَ القلبُ؛ لظهور ما على اللسان وخفاءِ ما في القلب. وقيل: البَرُّ: الفَيافي، والبحر: القُرى. قاله عكرمة. والعرب تسمِّي الأمصارَ البحار. وقال قتادة: البَرُّ: أهل العمود، والبحر: أهل القرى والريف. وقال ابن عباس: إنَّ البرَّ ما كان من المدن والقرى على غير نهر، والبحر ما كان على شطِّ نهر[(١)]. وقاله مجاهد؛ قال: أمَا واللهِ ما هو بحرُكم هذا، ولكن كلُّ قريةٍ على ماءٍ جارٍ فهي بحر[(٢)]. وقال معناه النحَّاس؛ قال: في معناه قولان: أحدهما ـ ظهر الجَدْب في البر، أي: في البوادي وقُراها، وفي البحر أي: في مدن البحر، مثل: ﴿وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]. أي: ظهر قِلَّةُ الغيث وغلاءُ السعر. ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ﴾ أي: عقاب بعض ﴿ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ ثم حذف. والقول الآخر ـ أنه أظهرتِ المعاصي مِنْ قطع السبيل والظلم، فهذا هو الفساد على الحقيقة، والأوَّلُ مجاز إلا أنه على الجواب الثاني، فيكون في الكلام حذفٌ واختصارٌ دَلَّ عليه ما بعده، ويكون المعنى: ظهرتِ المعاصي في البَرِّ والبحر، فحبس اللهُ عنهما الغيثُ، وأغلى سعرهم؛ ليذيقهم عقابَ بعضِ الذي عملوا. ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لعلَّهم يتوبون[(٣)]. وقال: ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ لأنَّ معظمَ الجزاء في الآخرة.

والقراءة «لِيُذِيقَهُمْ» بالياء. وقرأ ابن عباس بالنون، وهي قراءة السُّلَمي وابن مُحَيْصِن وقُنْبُل ويعقوب على التعظيم، أي: نُذيقهم عقوبةَ بعض ما عملوا[(٤)].

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٣١٧ - ٣١٨ .

(٢) أخرجه الطبري ٣/ ٥٨٣ و١٨/ ٥١٠ ، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٩٣١).

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٥ .

(٤) زاد المسير ٦/ ٣٠٦ عنهم وعن عكرمة وقتادة، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٤٠ عن قنبل والسلمي والأعرج. ورواية قنبل عن ابن كثير في السبعة ص ٥٠٧ ، والتيسير ص ١٧٥ . وقراءة يعقوب وهو من العشرة في رواية روح عنه في النشر ٢/ ٣٤٥ .

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: قل لهم يا محمد: سيروا في الأرض ليعتبروا بمَنْ قبلهم، وينظروا كيف كان عاقبةُ مَنْ كذَّب الرسل ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ أي: كافرين فأُهلِكوا.

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ قال الزجَّاج: أي: أقِمْ قصدَك، واجعل جهتَك اتِّباعَ الدّين القيِّم، يعني الإسلام[1]. وقيل: المعنى: أوضحِ الحقَّ، وبالِغْ في الإعذار، واشتغِلْ بما أنت فيه، ولا تحزَنْ عليهم.

﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: لا يردُّه الله عنهم، فإذا لم يرُدَّه لم يتهيَّأْ لأحدٍ دفْعُه. ويجوز عند غير سيبويه «لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ» وذلك عند سيبويه بعيد، إلَّا أن يكون في الكلام عطف[2]. والمراد يوم القيامة.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ قال ابن عباس: معناه: يتفرَّقون. وقال الشاعر:

وكُنَّا كنَدْمانَيْ جَذيمةَ حِقْبةً ... من الدهرِ حتى قيلَ لن يتصدَّعا

أي: لن يتفرَّقا؛ نظيره قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ فريقٌ في الجنَّةِ وفريقٌ في السَّعير[3]. والأصل يتصدَّعون، ويقال: تصدَّع القومُ إذا تفرَّقوا؛ ومنه اشتُقَّ الصُّداعُ؛ لأنه يُفرِّق شُعَبَ الرأس[4].

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٨٨ .

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٦ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ٣١٨ - ٣١٩ ، والبيت قائله متمم بن نويرة، وهو في المفضليات ص٢٦٧ ، والشعر والشعراء ١/ ٣٣٨ ، والكامل ٣/ ١٤٤٠، وبهجة المجالس ٢/ ٨٠٥ .

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٦ .

قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ أي: جزاء كفره[1]. ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ أي: يوطِّئون لأنفسهم في الآخرة فراشاً ومسكناً وقراراً بالعمل الصالح[2]. ومنه: مهدُ الصبيّ. والمهادُ: الفراشُ، وقد مَهَدْتُ الفراشَ مَهْدًا: بسطتُه ووطَّأته. وتمهيدُ الأمور: تسويتُها وإصلاحُها. وتمهيدُ العُذرِ: بسطُه وقبولُه. والتمهُّد: التمكُّن[3]. وروى ابن أبي نَجِيحٍ عن مجاهد: ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ قال: في القبر[4].

قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: يَمهدون لأنفسهم ليجزيهم الله من فضله. وقيل: يصَّدَّعون ليجزيهم الله، أي: ليميِّز الكافر من المسلم. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ أي: ومن أعلام كمال قدرته إرسالُ الرياح مبشِّراتٍ، أي: بالمطر لأنها تتقدَّمه[5]. وقد مضى في «الحجر»[6] بيانه. ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ يعني الغيث والخصب[7]. ﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ﴾ أي: في البحر عند هبوبها. وإنما زاد «بِأَمْرِهِ» لأن الرياح قد تَهُبُّ ولا تكون مواتية، فلا بُدَّ من إرساء

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ١٤، وزاد المسير ٦/ ٣٠٧.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣١٩ عن يحيى بن سلام.

(٣) الصحاح (مهد).

(٤) أخرجه الطبري ١٨/ ٥١٦ - ٥١٧، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ٢٩٧، والبيهقي في إثبات عذاب القبر (١٥٥).

(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ١٥.

(٦) ١٢/ ١٩٤.

(٧) الوسيط ٣/ ٤٣٦، وزاد المسير ٦/ ٣٠٨.

السفن والاحتيال بحبسها، وربما عصفت فأغرقتْها بأمره. ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ يعني الرزق بالتجارة[١] ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم بالتوحيد والطاعة. وقد مضى هذا كلُّه مبيناً.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: المعجزات والحجج النيِّرات ﴿فَٱنتَقَمْنَا﴾ أي: فكفروا فانتقمنا ممَّن كفر. ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ «حقًّا» نصب على خبر كان، و«نصر» اسمها[٢]. وكان أبو بكر يقف على «حَقًّا» أي: وكان عقابُنا حقًّا، ثم قال: «علينا نصرُ المؤمنين» ابتداء وخبر[٣]؛ أي: أخبر بأنه لا يخلف الميعاد، ولا خُلْف في خبرنا.

ورُوِيَ من حديث أبي الدَّرداء، قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «ما مِنْ مسلمٍ يَذُبُّ عن عرضِ أخيه إلَّا كان حقًّا على اللهِ تعالى أن يَرُدَّ عنه نارَ جهنم يوم القيامة» ثم تلا: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. ذكره النحَّاس والثعلبيُّ والزَّمخشريُّ وغيرهم[٤].

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ قرأ ابن مُحَيصن وابن كثير وحمزة

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٢٥.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٦.

(٣) الكشاف ٣/ ٢٢٥ بمعناه.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٦، والكشاف ٣/ ٢٢٥ - ٢٢٦. وأخرجه الطبراني في مكارم الأخلاق (١٣٤) والبغوي في تفسيره ٣/ ٤٨٦ من طريق ليث بن أبي سليم، عن شهر بن حوشب، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء ﷺ، به. ليث وشهر ضعيفان. وهو في مسند أحمد (٢٧٥٣٦) دون ذكر الآية.

والكسائي: «الريح» بالتوحيد. والباقون بالجمع[١]. قال أبو عمرو: وكلُّ ما كان بمعنى الرحمة فهو جمع، وما كان بمعنى العذاب فهو موحَّد[٢]. وقد مضى في «البقرة»[٣] معنى هذه الآية وفي غيرها.

«كِسَفًا» جمع كِسْفة: وهي القطعة. وفي قراءة الحسن وأبي جعفر وعبد الرحمن الأعرج وابن عامر «كِسْفًا» بإسكان السين، وهي أيضاً جمع كِسْفة؛ كما يقال: سِدْرة وسِدْر؛ وعلى هذه القراءة يكون المُضمَرُ الذي بعده عائداً عليه، أي: فترى الودقَ ـ أي المطر ـ يخرج من خلال الكِسَف؛ لأنَّ كلَّ جَمْعٍ بينه وبين واحده الهاء لا غير، فالتذكيرُ فيه حَسَن. ومن قرأ: «كِسَفًا» فالمضمر عنده عائدٌ على السحاب. وفي قراءة الضحَّاك وأبي العالية وابن عباس: «فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَلِهِ» ويجوز أن يكون خَلَل جمعَ خِلال[٤]. ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ﴾ أي: بالمطر ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يفرحون بنزول المطر عليهم[٥].

﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ﴾ أي: يائسين مكتئبين قد ظهر الحزنُ عليهم لاحتباس المطرِ عنهم[٦]. و«مِنْ قَبْلِهِ» تكريرٌ عند الأخفش معناه التأكيد، وأكثر النَّحويين على هذا القول. قاله النحَّاس. وقال قُطْرُب: إن «قبل» الأولى للإنزال

---

(١) السبعة ص ١٧٢، والتيسير ص ٧٨ سوى قراءة ابن محيصن.

(٢) ذكره النحاس في معاني القرآن ٥/ ٣٣ دون نسبة، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣١٩ ونسبه إلى أبي بن كعب ﷺ.

(٣) ٢/ ٤٩٩ - ٥٠٢.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٦ - ٢٧٧. وقراءة: «كِسْفاً» بسكون السين عن ابن عامر برواية هشام عنه في السبعة ص ٥٠٨، والتيسير ص ١٧٥ وعن أبي جعفر وهو من العشرة في النشر ٢/ ٣٤٥. وقراءة: «يخرج من خَلَلِهِ» في المحتسب ٢/ ١٦٤ عن ابن عباس والضحاك والحسن، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٤٢ بمثله وزاد في نسبتها إلى علي، وزاد المسير ٦/ ٣٠٩ عن ابن عباس وأبي العالية وزاد في نسبتها إلى ابن مسعود ومجاهد، وهي قراءة شاذة.

(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ١٥.

(٦) تفسير الطبري ١٨/ ٥٢١.

والثانية للمطر، أي: وإن كانوا من قبل التنزيل من قبل المطر. وقيل: المعنى: من قبل تنزيل الغيث عليهم من قبل الزرع، ودلَّ على الزرع المطرُ؛ إذ بسببه يكون. ودلَّ عليه أيضاً ﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ على ما يأتي. وقيل: المعنى: من قبل السحاب من قبل رؤيته. واختار هذا القول النحَّاس، أي: من قبل رؤية السحاب ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ أي: ليائسين. وقد تقدَّم ذِكْرُ السَّحاب[1].

قوله تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ يعني المطر[2]، أي: انظروا نظرَ استبصارٍ واستدلال، أي: استدِلُّوا بذلك على أنَّ من قدِرَ عليه قادرٌ على إحياء الموتى.

وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائي: «آثَارِ» بالجمع. الباقون بالتوحيد؛ لأنه مضافٌ إلى مفرد. والأثرُ فاعل «يُحْيي»، ويجوز أن يكون الفاعلُ اسمَ الله عزَّ وجلَّ. ومن قرأ: «آثَارِ» بالجمع فلأنَّ رحمةَ الله يجوز أن يُرادَ بها الكثرة، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[3] [إبراهيم: ٣٤]. وقرأ الجحدريُّ وأبو حَيوة وغيرهما: «كَيْفَ تُحْيي الأرضَ» بتاء، ذهب بالتأنيث إلى لفظ الرحمة؛ لأنَّ أثرَ الرحمة يقومُ مقامَها فكأنه هو الرحمة، أي: كيفَ تُحيي الرحمةُ الأرضَ أوِ الآثارُ. و«يُحيي» أي: يُحيي اللهُ عزَّ وجلَّ، أو المطرُ أو الأثرُ فيمن قرأ بالياء. و﴿كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ﴾ في موضع نصبٍ على الحال على الحمل على المعنى؛ لأنَّ اللفظَ لفظُ الاستفهام، والحالَ خبرٌ؛ والتقدير: فانظر إلى أثر رحمة الله مُحييةً للأرض بعد

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٦٨ - ٢٦٩ دون قوله: وقيل: المعنى من قبل تنزيل الغيث... إلى قوله: على ما يأتي. وكلام الأخفش في معاني القرآن له ٢/ ٦٥٨ . وذكر السحاب سلف ٢/ ٥٠٢ - ٥٠٤ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٦٩ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٤٢ .

(٣) الحجة للقراء السبعة ٥/ ٤٤٨ - ٤٤٩ ، وينظر السبعة ص ٥٠٨ ، والتيسير ص ١٧٥ .

موتها[1]. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ استدلالٌ بالشاهد على الغائب.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ يعني الريح، والريح يجوز تذكيرُه. قال محمد بن يزيد: لا يمتنعُ تذكيرُ كلِّ مؤنثٍ غيرِ حقيقي، نحو أعجبني الدارُ وشبهه. وقيل: فرأوا السحاب. وقال ابن عباس: الزرع، وهو الأثر. والمعنى: فرأوا الأثرَ مصفرًّا، واصفرارُ الزرعِ بعد اخضراره يدلُّ على يبسه، وكذا السحاب يدلُّ على أنه لا يمطر، والريح على أنها لا تُلقح. ﴿لَّظَلُّوا مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾ أي: لَيَظَلُّنَّ؛ وحَسُنَ وقوعُ الماضي في موضع المستقبل لِما في الكلام من معنى المجازاة، والمجازاة لا تكونُ إلَّا بالمستقبل. قاله الخليل وغيره[2].

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: وَضَحتِ الحُججُ يا محمد؛ لكنَّهم لإِلْفِهم تقليد الأسلاف في الكفر ماتت عقولُهم وعمِيت بصائرُهم، فلا يتهيَّأ لكَ إسماعُهم وهدايتُهم. وهذا ردٌّ على القدرية. ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: لا تُسمع مواعظَ الله إلَّا المؤمنين الذين يُصغون إلى أدلة التوحيد وخَلقتُ لهم الهداية. وقد مضى هذا في «النمل»[3] ووقع قوله ﴿بِهَٰدِ ٱلْعُمْيِ﴾ هنا بغير ياء[4].

---

(١) المحتسب ٢/ ١٦٥، ونسب قراءة: «كيف تُحيي الأرض» أيضاً إلى محمد بن السَّميفع، وذكرها ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٣١٠ ونسبها إلى عثمان بن عفان وأبي رجاء وأبي عمران الجوني وسليمان التيمي، وهي قراءة شاذة.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٦ - ٢٧٧ دون قوله: واصفرار الزرع... إلى قوله: لا تلقح.

(٣) ١٦/ ٢٠٧.

(٤) الحجة في القراءات لابن زنجلة ص ٥٣٧.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ ذكر استدلالاً آخر على قدرته في نفس الإنسان ليعتبر. ومعنى: «مِنْ ضَعْفٍ» من نطفةٍ ضعيفة. وقيل: «مِنْ ضَعْفٍ» أي: في حال ضعف، وهو ما كانوا عليه في الابتداء من الطفولة والصغر. ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ يعني الشبيبة. ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا﴾ يعن الهرم[١].

وقرأ عاصم وحمزة بفتح الضاد فيهنَّ، الباقون بالضم، لغتان، والضمُّ لغة النبيِّ ﷺ[٢]. وقرأ الجَحدرِيُّ: «من ضَعْفٍ ثم جعل من بعد ضَعْفٍ» بالفتح فيهما، «ضُعْفًا» بالضمِّ خاصةً؛ أراد أن يجمع بين اللغتين[٣]. قال الفرَّاء: الضم لغة قريش، والفتح لغة تميم[٤]. الجوهري: الضَّعْف والضُّعْف: خلاف القوّة[٥]. وقيل: الضَّعفُ بالفتح في الرأي، وبالضمِّ في الجسد[٦]؛ ومنه الحديث في الرجل الذي كان يُخدَعُ في البيوع... أنه يبتاع وفي عقْدَتِه ضُعف[٧].

﴿وَشَيْبَةً﴾ مصدر كالشَّيب، والمصدر يصلح للجملة، وكذلك القول في الضعف والقوّة. ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ يعني: من قوّةٍ وضعف. ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بتدبيره ﴿ٱلْقَدِيرُ﴾ على إرادته.

وأجاز النَّحْويون الكوفيون «من ضَعَفٍ» بفتح العين، وكذا كلُّ ما كان فيه حرفٌ

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٥٢٥ - ٥٢٦ بمعناه.

(٢) الحجة للقراء السبعة ٥/ ٤٥٠، وينظر السبعة ص ٥٠٨، والتيسير ص ١٧٥ - ١٧٦.

(٣) ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٣ عن الجحدري وأبي عبد الرحمن والضحاك عكس ذلك بأنهم ضمُّوا الضاد في الأول والثاني وفتحوا «ضعفاً».

(٤) زاد المسير ٣/ ٣٧٨.

(٥) الصحاح (ضعف).

(٦) تهذيب اللغة ١/ ٤٨٢.

(٧) سلف ٤/ ٤٣٥ و٦/ ٦٦.

من حروف الحلق ثانياً أو ثالثاً[١].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: يحلف المشركون[٢]. ﴿مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ ليس في هذا ردٌّ لعذاب القبر؛ إذ كان قد صحَّ عن النبيِّ ﷺ من غير طريقٍ أنه تعوَّذ منه، وأمر أن يُتعوَّذ منه، فمن ذلك ما رواه عبد الله بن مسعود قال: سمع النبيُّ ﷺ أمَّ حبيبة وهي تقول: اللَّهُمَّ أمتعني بزوجي رسولِ الله، وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية. فقال لها النبيُّ ﷺ: «لقد سألتِ اللهَ لآجالٍ مضروبةٍ، وأرزاقٍ مقسومة، ولكن سلِيه أن يُعيذَكِ من عذاب جهنَّم وعذابِ القبر» في أحاديثَ مشهورةٍ خرَّجها البخاريُّ ومسلم وغيرهما[٣]. وقد ذكرنا منها جملةً في كتاب «التذكرة»[٤]. وفي معنى: ﴿مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ قولان: أحدهما ـ أنه لا بُدَّ من خمدةٍ قبل يوم القيامة، فعلى هذا قالوا: ما لَبِثنا غيرَ ساعةٍ. والقول الآخر ـ أنهم يَعنون في الدنيا لزوالها وانقطاعها، كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦] كأن لم يلبثوا إلَّا ساعةً من نهار، وإن كانوا قد أقسموا على غيبٍ وعلى غيرِ ما يدرون؛ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كانوا يكذِّبون في الدنيا[٥]؛ يقال: أُفِكَ الرجلُ إذا صُرِفَ عن الصِّدقِ والخير، وأرضٌ مأفوكة: ممنوعةٌ من المطر[٦].

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٨.

(٢) زاد المسير ٦/ ٣١١.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٩، والحديث الذي ذكره المصنف أخرجه أحمد (٣٧٠٠)، ومسلم (٢٦٦٣). ووقع في النسخ سوى (ظ): خرجها مسلم والبخاري وغيرهما.

(٤) ص ١١٥ و١٤٢.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٩.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٧٢.

وقد زعمَ جماعةٌ من أهل النظر أنَّ القيامة لا يجوز أن يكون فيها كَذِبٌ لما هم فيه، والقرآن يدلُّ على غير ذلك؛ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كما صُرِفوا عن الحقِّ في قَسَمِهم أنهم ما لَبِثوا غيرَ ساعةٍ كذلك كانوا يُصرفون عن الحقِّ في الدنيا، وقال جلَّ وعزَّ: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [المجادلة:١٨] وقال: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ . ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟﴾[١] [الأنعام:٢٣-٢٤].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ﴾ اختُلِفَ في الذين أوتوا العلم، فقيل: الملائكة. وقيل: علماء الأمم. وقيل: مؤمنو هذه الأمة. وقيل: جميع المؤمنين[٢]. أي: يقول المؤمنون للكفار ردًّا عليهم: لقد لبِثتُم في قبوركم إلى يوم البعث[٣]. والفاء في قوله: ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ جوابٌ لشرطٍ محذوفٍ دلَّ عليه الكلام؛ مجازه: إن كنتم مُنكرين البعث فهذا يوم البعث[٤]. وحكى يعقوب عن بعض القُرَّاء ـ وهي قراءة الحسن ـ «إلى يوم البعَث» بالتحريك، وهذا ممَّا فيه حرفٌ من حروف الحلْق[٥]. وقيل: معنى ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۚ﴾: في حكم الله. وقيل: في الكلام تقديمٌ وتأخير، أي: وقال الذين أوتوا العلم في كتاب الله والإيمانَ: لقد

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٩ ببعضه.

(٢) زاد المسير ٥/ ٩٧ و٦/ ٣١٢ و٧/ ٤٠٢ ، ومجمع البيان ٢١/ ٤٢ . وذكر الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣٢٣ القول الأول ونسبه للكلبي.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٧٢ .

(٤) الكشاف ٣/ ٢٢٧ .

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٩ دون نسبة القراءة إلى الحسن، وقد نُسبت إليه في المحتسب ٢/ ١٦٦ ، والكشاف ٣/ ٢٢٧ ، وهي قراءة شاذة.

لبثتُم إلى يوم البعث. قاله مقاتل وقتادة والسُّدِّي[١]. القشيري: وعلى هذا «أُوتُوا الْعِلْمَ» بمعنى كتاب الله. وقيل: الذين حكم لهم في الكتاب بالعلم ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ أي: اليوم الذي كنتم تُنكرونه[٢].

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أي: لا ينفعهم العلمُ بالقيامة ولا الاعتذارُ يومئذٍ[٣]. وقيل: لمَّا ردَّ عليهم المؤمنون سألوا الرجوع إلى الدنيا واعتذروا فلم يُعذَروا. ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: ولا حالُهم حالُ من يَستعتِبُ ويَرجع[٤]؛ يقال: استعتبتُه فأعتبني، أي: استرضيتُه فأرضاني[٥]، وذلك إذا كنتُ جانياً عليه، وحقيقةُ أعتبتُه: أزلْتُ عتبه[٦]. وسيأتي في «فصلت»[٧] بيانُه. وقرأ عاصم وحمزة والكسائي: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ﴾ بالياء، والباقون بالتاء[٨].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ﴾ أي: من كلِّ مَثَلٍ

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٨٨ . وأخرجه الطبري ١٨/ ٥٢٧ عن قتادة.

(٢) زاد المسير ٦/ ٣١٢ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٤ ، ومجمع البيان ٢١/ ٤٢ .

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٠ .

(٥) الصحاح (عتب).

(٦) الكشاف ٣/ ٢٢٧ .

(٧) عند تفسير الآية (٢٤).

(٨) السبعة ص ٥٠٩ ، والتيسير ص ١٧٦ .

يدلُّهم على ما يحتاجون إليه، ويُنبِّههم على التوحيد وصِدْقِ الرسل[١]. ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ أي: معجزةٍ، كفلقِ البحر والعصا وغيرهما ﴿لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ﴾ يا معشر المؤمنين[٢] ﴿إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أي: تتبعون الباطلَ والسحر.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما طبعَ اللهُ على قلوبهم حتى لا يفهموا الآياتِ عن الله، فكذلك ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أدلَّةَ التوحيد[٣].

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: اصبِرْ على أذاهم فإنَّ الله ينصرك[٤] ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ أي: لا يستفِزَّنَّكَ عن دينك[٥] ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ قيل: هو النضر بن الحارث. والخطاب للنبيِّ ﷺ والمراد أمتُه؛ يقال: استخَفَّ فلانٌ فلاناً أي: استجهلَه حتى حملَه على اتِّباعه في الغيِّ[٦]. وهو في موضع جزمٍ بالنهي، أُكِّد بالنون الثقيلة، فبُنِيَ على الفتح كما يُبنى الشيئانِ إذا ضُمَّ أحدُهما إلى الآخر. ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ في موضع رفع، ومن العرب من يقول: اللذون في موضع الرفع[٧]. وقد مضى في «الفاتحة»[٨].

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٠، ومجمع البيان ٢١/ ٤٢.

(٢) الوسيط ٣/ ٤٣٩، وزاد المسير ٦/ ٣١٢.

(٣) الوجيز على هامش مراح لبيد ٢/ ١٦٩.

(٤) مجمع البيان ٢١/ ٤٣ بمعناه.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٩٢.

(٦) تهذيب اللغة ٧/ ٩.

(٧) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٠.

(٨) ١/ ٢٢٩.

تفسير سورة الروم

مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧) ﴾.

[نزلت] (١) هذه الآيات حين غلب (٢) سابور ملك الفرس على بلاد الشام وما والاها من بلاد الجزيرة وأقاصى بلاد الروم ، واضطر هرقل مَلك الروم حتى ألجأه إلى القسطنطينية ، وحاصره فيها مدة طويلة ، ثم عادت الدولة لهرقل ، كما سيأتى .

قال الإمام أحمد : حدثنا معاوية بن عمرو ، حدثنا أبو إسحاق ، عن سفيان ، عن حبيب بن أبى عمرة ، عن سعيد بن جُبَيْر ، عن ابن عباس (٣) ، رضى الله عنهما ، فى قوله تعالى : **﴿ الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ . فى أَدْنَى الأَرْضِ ﴾** قال : غُلِبَت وغَلَبَت . قال : كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم؛ لأنهم أصحاب أوثان ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر (٤) الروم على فارس ؛ لأنهم أهل كتاب، فذُكر (٥) ذلك لأبى بكر، فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « أما إنهم سيغلبون »، فذكره أبو بكر لهم ، فقالوا : اجعل بيننا وبينك أجلا ، فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا ، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا . فجعل أجلا خمس(٦) سنين، فلم يظهروا ، فذكر ذلك أبو بكر للنبى ﷺ فقال : « ألا جعلتها إلى دُون » أراه قال : « العشر » . قال سعيد بن جبير : البضع ما دون العشر . ثم ظهرت الروم بعد ، قال : فذلك قوله : **﴿ الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ . فى أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فى بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ من قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾.**

هكذا رواه (٧) الترمذى والنسائى جميعا ، عن الحسين (٨) بن حُرَيْث ، عن معاوية بن عمرو ، عن أبى إسحاق الفزارى ، عن سفيان بن سعيد الثورى (٩) به، وقال الترمذى : حسن غريب ، إنما نعرفه من حديث سفيان ، عن حبيب .

---

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى أ : « غلبت » . (٣) فى ت : « فروى الإمام أحمد بإسناده إلى » .
(٤) فى ف : « يظهر » . (٥) فى ت : « فذكروه » ، وفى ف ، أ : « فذكروا » . (٦) فى ت : « خمسين » .
(٧) فى ت : « ورواه » . (٨) فى أ : « الحسن » .
(٩) المسند (١/ ٢٧٦) وسنن الترمذى برقم (٣١٩٣) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٣٨٩) .

ورواه ابن أبى حاتم ، عن محمد بن إسحاق الصاغانى (١) ، عن معاوية بن عمرو ، به . ورواه ابن جرير :

حدثنا محمد بن المثنى ، حدثنا محمد بن سعيد ـ أو سعيد (٢) الثعلبى الذى يقال له: أبو سعد من أهل طرسوس ـ حدثنا أبو إسحاق الفزارى ، فذكره . وعندهم : قال سفيان : فبلغنى أنهم غلبوا يوم بدر (٣) .

حديث آخر : قال سليمان بن مِهْران الأعمش ، عن مسلم ، عن مسروق، قال : قال عبد اللّه : خمس قد مضين : الدخان ، واللزام ، والبطشة ، والقمر ، والروم . أخرجاه (٤) (٥) .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن وكِيع ، حدثنا المحاربى ، عن داود بن أبى هند ، عن عامر ـ هو الشعبى ـ عن عبد اللّه ـ هو(٦) ابن مسعود رضى اللّه عنه ـ قال : كان فارس ظاهراً على الروم ، وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم . وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس ؛ لأنهم أهل كتاب وهم أقرب إلى دينهم ، فلما نزلت : ﴿**الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ . فى أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فى بِضْعِ سِنِينَ**﴾ قالوا : يا أبا بكر ، إن صاحبك يقول : إن الروم تظهر على فارس فى بضع سنين ؟! قال : صدق . قالوا : هل لك إلى أن نقامرك . فبايعوه على أربع قلائص إلى سبع سنين ، فمضت السبع ولم يكن شىء ، ففرح المشركون بذلك وشق على المسلمين ، فذُكِر (٧) ذلك للنبى ﷺ ، فقال :« ما بضع سنين عندكم » ؟ قالوا : دون العشر . قال: « اذهب فزايدهم وازدد سنتين فى الأجل » . قال : فما مضت السنتان حتى جاءت الركبان بظهور الروم على فارس ، ففرح المؤمنون بذلك ،وأنزل اللّه:﴿**الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّوم**﴾ إلى قوله:﴿[**وَعْدَ اللَّهِ**] (٨) **لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ**﴾(٩).

حديث آخر : قال (١٠) ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا أحمد بن عمر الوَكِيعى، حدثنا مُؤَمَّل ، عن إسرائيل، عن أبى إسحاق ، عن البراء ،قال : لما نزلت : ﴿**الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ**﴾ ، قال المشركون لأبى بكر : ألا ترى إلى ما يقول صاحبك ؟ يزعم أن الروم تغلب فارس . قال : صدق صاحبى . قالوا : هل لك أن نخاطرك ؟ فجعل بينه وبينهم أجلا ، فحل الأجل قبل أن تغلب الرومُ فارسَ ، فبلغ ذلك النبى ﷺ فساءه ذلك وكرهه ، وقال لأبى بكر : « ما دعاك إلى هذا ؟ » قال : تصديقاً للّه ولرسوله . فقال : « تَعَرَّض لهم وأعظم الخَطَر واجعله إلى بضع سنين » . فأتاهم أبو بكر فقال لهم : هل لكم فى العود ، فإن العود أحمد ؟ قالوا:

---

(١) فى أ : « الصنعانى » . (٢) فى ف ، أ : « أبو سعد » .
(٣) تفسير الطبرى (٢١/ ١٢) .
(٤) فى ت : « البخارى ومسلم » .
(٥) صحيح البخارى برقم (٤٧٦٧) وصحيح مسلم برقم (٢٧٩٨) .
(٦) فى ت : « وروى ابن جرير عن » . (٧) فى ت : « فذكروا » . (٨) زيادة من ت ، أ .
(٩) تفسير الطبرى (٢١/ ١٤) .
(١٠) فى ت : « روى » .

نعم . [قال] (١) : فلم تمض تلك السنين حتى غلبت الروم فارسَ ، وربطوا خيولهم بالمدائن ، وبنوا الرومية ، فجاء به أبو بكر إلى النبى ﷺ فقال : هذا السحت ، قال : « تصدق به » (٢).

حديث آخر : قال أبو عيسى الترمذى : حدثنا محمد بن إسماعيل ، حدثنا إسماعيل بن أبى أويس، أخبرنى ابنِ أبى الزِّنَاد ، عن عروة بن الزبير (٣) ، عن نِيَار بن مُكْرَم الأسلمى قال : لما نزلت، ﴿ **الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بِضْعِ سِنِينَ** ﴾ ، فكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم ، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم ؛ لأنهم وإياهم أهل كتاب، وفى ذلك قول اللّه : ﴿ **وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** ﴾، وكانت قريش تحب ظهور فارس؛ لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان ببعث ، فلما أنزل اللّه هذه الآية خرج أبو بكر يصيح فى نواحى مكة : ﴿ **الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بِضْعِ سِنِينَ** ﴾، قال(٤) ناس من قريش لأبى بكر : فذاك بيننا وبينك (٥) . زعم صاحبك أن الروم ستغلب فارس فى بضع سنين ، أفلا نراهنك على ذلك ؟ قال : بلى ـ وذلك قبل تحريم الرهان ـ فارتهن أبو بكر والمشركون ، وتواضَعُوا الرهان ، وقالوا لأبى بكر : كم تَجعل البضع : ثلاث سنين إلى تسع سنين ، فَسمِّ بيننا وبينك وَسَطاً ننتهى إليه . قال : فسموا بينهم ست سنين . قال : فمضت ست السنين قبل أن يظهروا ، فأخذ المشركون رهن أبى بكر ، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس ، فعاب المسلمون على أبى بكر تسمية ست سنين ، قال : لأن اللّه قال : ﴿ **فِي بِضْعِ سِنِينَ** ﴾. قال : فأسلم عند ذلك ناس كثير (٦) .

هكذا ساقه الترمذى ، ثم قال : هذا (٧) حديث حسن صحيح ، لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن أبى الزناد . وقد روى نحو هذا مرسلا عن جماعة من التابعين ، مثل عِكْرِمة ، والشعبى، ومجاهد ، وقتادة ، والسُّدِّى ، والزهرى ، وغيرهم .

ومن أغرب هذه السياقات ما رواه الإمام سُنَيد بن داود فى تفسيره حيث قال : حدثنى حجاج ، عن أبى بكر بن عبد اللّه ، عن عكرمة قال : كانت فى فارس امرأة لاتلد إلا الملوك الأبطال ، فدعاها كسرى فقال : إنى أريد أن أبعث إلى الروم جيشاً وأستعمل عليهم رجلا من بنيك ، فأشيرى عَلَيَّ ، أيّهم أستعمل ؟ فقالت : هذا فلان ، وهو أروغ من ثعلب ، وأحذر من صقر . وهذا فرخان ، وهو أنفذ من سنان . وهذا شهريراز (٨)، وهو أحلم من كذا ـ تعنى أولادها الثلاثة ـ فاستعمل أيهم شئت. قال : فإنى قد استعملت الحليم . فاستعمل شهريراز (٩)، فسار إلى الروم بأهل فارس ، فظهر عليهم فقتلهم ، وخرّب مدائنهم ، وقطع زيتونهم .

---

(١) زيادة من ت ، أ .

(٢) ورواه أبو يعلى فى المسند الكبير ،كما فى إتحاف المهرة للبوصيرى (ق١٨٣ سليمانية) من طريق إبراهيم بن محمد بن عرعرة ،عن المؤمل بنحوه ، وقال البوصيرى : « وله شاهد من حديث نيار بن مكرم رواه الترمذى » . وهو الآتى بعده .

(٣) فى ت : « رواه أبو عيسى الترمذى » . (٤) فى ت ، ف : « فقال » . (٥) فى ت ، ف : « وبينكم » .

(٦) سنن الترمذى برقم (٣١٩٤) .

(٧) فى ت : « وقال الترمذى » . (٨ ، ٩) فى ت : « شهريزار » .

قال أبو بكر بن عبد الله : فحدثت بهذا الحديث عطاء الخراسانى فقال : أما رأيت بلاد الشام ؟ قلت : لا ، قال : أما إنك لو رأيتها (١) لرأيت المدائن التى خربت ، والزيتون الذى قطع . فأتيت الشام بعد ذلك فرأيته (٢) .

قال عطاء الخراسانى : حدثنى يحيى بن يَعْمَر : أن قيصر بعث رجلا يدعى قطمة بجيش من الروم، وبعث كسرى شهريراز (٣) ، فالتقيا بأذرعات وبُصرى ، وهى أدنى الشام إليكم ، فلقيت فارس الروم ، فغلبتهم فارس . ففرحت بذلك كفار قريش وكرهه المسلمون .

قال عكرمة : ولقى المشركون أصحاب النبى ﷺ وقالوا : إنكم أهل كتاب ، والنصارى أهل كتاب، [ونحن أميون ، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الكتاب] (٤) ، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرَنّ عليكم ، فأنزل الله : ﴿ **الٓمٓ . غُلِبَت الرُّومُ . فِى أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِى بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ** ﴾ ، فخرج أبو بكر الصديق إلى الكفار فقال : أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا ، فلا تفرحوا، ولا يُقِرَّن الله أعينكم ، فوالله ليظهرن الله الروم على فارس ، أخبرنا بذلك نبينا ﷺ . فقام إليه أبىّ بن خَلَف فقال : كذبت يا أبا فضيل . فقال له أبو بكر : أنت أكذب ياعدو الله . فقال: أناحبُكَ عشر قلائص منى وعشر قلائص منك ، فإن ظهرت الروم على فارس غَرِمتُ ، وإن ظهرت فارس غرمتَ إلى ثلاث سنين . ثم جاء (٥) أبو بكر إلى النبى ﷺ فأخبره ، فقال : « ما هكذا ذكرت، إنما البضع ما بين الثلاث إلى التسع ، فزايدْه فى الخَطَر ومادّه فى الأجل » . فخرج أبو بكر فلقى أبيّا فقال : لعلك ندمت ؟ فقال : لا ، تعال أزايدك فى الخَطَر وأمادُّك فى الأجل ، فاجعلها مائة قلوص لمائة قلوص إلى تسع سنين . قال : قد فعلت . فظهرت الروم على فارس قبل ذلك ، فغلبهم المسلمون .

قال عكرمة : لما أن ظهرت فارس على الروم ، جلس فرخان يشرب وهو أخو شهريراز (٦) ، فقال لأصحابه : لقد رأيت كأنى جالس على سرير كسرى . فبلغت كسرى فكتب إلى شهريراز (٧) : إذا أتاك كتابى [هذا] (٨) فابعث إلىَّ برأس فرخان . فكتب إليه : أيها الملك ، إنك لن تجد مثل فرخان ، له نكاية وصوت فى العدو ، فلا تفعل . فكتب إليه : إن فى رجال فارس خلفاً منه ، فعجّل إلىَّ برأسه. فراجعه ، فغضب كسرى فلم يجبه ، وبعث بريدا إلى أهل فارس : إنى قد نزعت (٩) عنكم شهريراز ، واستعملت عليكم فرخان. ثم دفع إلى البريد صحيفة لطيفة صغيرة فقال : إذا ولى فرخان الملك ، وانقاد له أخوه ، فأعطه هذه. فلما قرأ شهريراز الكتاب قال : سمعا وطاعة ، ونزل عن سريره ، وجلس فرخان ، ودفع إليه الصحيفة ، قال (١٠) : ائتونى بشهريراز (١١) ، وقَدَّمَه ليضرب عنقه ، قال: لا تعجل [علىَّ] (١٢) حتى أكتب وصيتى، قال : نعم . فدعا بالسَّفَط فأعطاه

---

(١) فى ف : « لو أتيتها » .
(٢) رواه الطبرى فى تفسيره (٢١/١٣) من طريق سنيد به .
(٣) فى ت : « شهريزار » ، وفى ف ، أ : « بشهريراز » .
(٤) زيادة من ت ، ف .
(٥) فى ت : « فجاء » .
(٦ ، ٧) فى ت : « شهريزار » .
(٨) زيادة من ف .
(٩) فى ف : « عزلت » .
(١٠) فى ف : « فقال » .
(١١) فى ت : « بشهريزار » .
(١٢) زيادة من ت .

الصحائف(١) وقال : كل هذا راجعتُ فيك كسرى ، وأنت أردت أن تقتلنى بكتاب واحد . فرد الملك إلى أخيه شهريراز (٢) ، وكتب شهريراز إلى قيصر ملك الروم : إن لى إليك حاجة لا تحملها البُرُد ولا تحملها الصّحف ، فالقنى،ولا تلقنى إلا فى خمسين روميا ، فإنى ألقاك فى خمسين فارسيا . فأقبل قيصر فى خمسمائة ألف رومى ، وجعل يضع العيون بين يديه فى الطريق ، وخاف أن يكون قد مكر به ، حتى أتاه عيونه أنه ليس معه إلا خمسون رجلا . ثم بسط لهما والتقيا فى قبة ديباج ضربت لهما، مع كل واحد منهما سكين ، فدعيا (٣) ترجمانا بينهما ، فقال شهريراز (٤) : إن الذين خربوا مدائنك أنا وأخى بكيدنا وشجاعتنا ، وإن كسرى حَسَدنا وأراد أن أقتل أخى فأبيت ، ثم أمر أخى أن يقتلنى . وقد خلعناه جميعا ، فنحن نقاتله معك . قال : قد أصبتما . ثم أشار أحدهما إلى صاحبه أن السر بين اثنين فإذا جاوز اثنين فشا . قال : أجل . فقتلا الترجمان جميعا بسكينيهما . [قال] (٥): فأهلك الله كسرى، وجاء الخبر إلى رسول الله ﷺ يوم الحديبية، ففرح والمسلمون معه .

فهذا سياق غريب ، وبناء عجيب . ولنتكلم على كلمات هذه الآيات الكريمة،فقوله تعالى: ﴿الٓمٓ. غُلِبَتِ الرُّومُ﴾، قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة فى أوائل السور ، فى أول سورة « البقرة » . وأما الروم فهم من سلالة العيص بن إسحاق بن إبراهيم ، وهم أبناء عم بنى إسرائيل ، ويقال لهم : بنو الأصفر . وكانوا على دين اليونان ، واليونان من سلالة يافث بن نوح ، أبناء (٦) عم الترك . وكانوا يعبدون الكواكب السيارة السبعة ، ويقال لها : المتحيرة ، ويصلون إلى القطب الشمالى ، وهم الذين أسسوا دمشق ، وبنوا معبدها ، وفيه محاريب إلى جهة الشمال ، فكان (٧) الروم على دينهم إلى مبعث المسيح بنحو من ثلاثمائة سنة ، وكان من ملك الشام مع الجزيرة منهم يقال له : قيصر . فكان أول من دخل فى دين النصارى من الملوك قسطنطين بن قسطس ، وأمه مريم الهيلانية الشدقانية (٨) من أرض حران ، كانت قد تنصرت قبله ، فدعته إلى دينها ، وكان قبل ذلك فيلسوفا ، فتابعها ـ يقال: تَقِيَّة ـ واجتمعت به النصارى ، وتناظروا فى زمانه مع عبد الله بن أريوس ، واختلفوا اختلافا [كثيراً](٩) منتشرا متشتتا لا ينضبط ، إلا أنه اتفق من جماعتهم (١٠) ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً، فوضعوا لقسطنطين العقيدة ، وهى التى يسمونها الأمانة الكبيرة ، وإنما هى الخيانة الحقيرة ، ووضعوا له القوانين ـ يعنون كتب الأحكام من تحليل وتحريم وغير ذلك مما يحتاجون إليه ، وغَيَّروا دين المسيح، عليه السلام ، وزادوا فيه ونقصوا منه . وفصلوا إلى المشرق (١١) واعتاضوا عن السبت بالأحد ، وعبدوا الصليب وأحلوا الخنزير . واتخذوا أعياداً أحدثوها كعيد الصليب والقداس (١٢) والغطاس ، وغير ذلك من البواعيث والشعانين ، وجعلوا له الباب وهو كبيرهم ، ثم البتاركة ، ثم المطارنة ، ثم الأساقفة والقساقسة ، ثم الشمامسة . وابتدعوا الرهبانية . وبنى لهم الملك الكنائس

---

(١) فى ت ، ف ، أ : « ثلاث صحائف » . (٢) فى ت : « شهريزار » . (٣) فى ت ، ف : « فدعا» .
(٤) فى ت : « شهريزار » . (٥) زيادة من ت . (٦) فى أ : « أتباع » .
(٧) فى ف : « وكان » . (٨) فى ت : « القندقانية » ، وفى ف : « الغندقانية » . (٩) زيادة من ت ، ف ، أ .
(١٠) فى ت : « جماعته » . (١١) فى ت ، ف ، أ : « وصلوا إلى الشرق » . (١٢) فى ف ، أ : « والقرابين » .

والمعابد ، وأسس المدينة المنسوبة إليه وهى القسطنطينية ، يقال : إنه بنى فى أيامه [١] اثنى عشر ألف كنيسة ، وبنى بيت لحم بثلاثة [٢] محاريب ، وبنت أمه القمامة ، وهؤلاء هم الملكية ، يعنون الذين هم على دين الملك .

ثم حدثت بعدهم اليعقوبية أتباع يعقوب الإسكاف ، ثم النسطورية أصحاب نسطورا ، وهم فرق وطوائف كثيرة ، كما قال رسول الله ﷺ : « إنهم افترقوا على اثنتين وسبعين فرقة » [٣] . والغرض أنهم استمروا على النصرانية ، كلما هلك قيصر خلفه آخر بعده ، حتى كان آخرهم هرقل . وكان من عقلاء الرجال ، ومن أحزم الملوك وأدهاهم ، وأبعدهم غورا وأقصاهم رأيا ، فتملَّكَ عليهم فى رياسَة عظيمة وأبهة كبيرة ، فناوأه كسرى ملك الفرس ، ومَلَكَ البلاد كالعراق وخراسان والرّى ، وجميع بلاد العجم ، وهو سابور ذو الأكتاف . وكانت مملكته أوسع من مملكة قيصر ، وله رياسة العجم وحماقة الفرس ، وكانوا مجوسا يعبدون النار . فتقدم عن عكرمة أنه بعث إليه نوابه وجيشه فقاتلوه ، والمشهور أن كسرى غزاه بنفسه فى بلاده فقهره وكَسَرَه وقصره ، حتى لم يبق معه سوى مدينة قسطنطينية . فحاصره بها مدة طويلة حتى ضاقت عليه ، وكانت النصارى تعظمه تعظيما زائدا ، ولم يقدر كسرى على فتح البلد ، ولا أمكنه ذلك لحصانتها ؛ لأن نصفها من ناحية البر ونصفها الآخر من[٤] ناحية البحر ، فكانت تأتيهم الميرة والمَدَد من هنالك . فلما طال الأمر دبر قيصر مكيدة ، ورأى فى نفسه خديعة ، فطلب من كسرى أن يقلع عن بلاده على مال يصالحه عليه ، ويشترط عليه ما شاء. فأجابه إلى ذلك ، وطلب منه أموالا عظيمة لا يقدر عليها أحد من ملوك الدنيا [٥] ، من ذهب وجواهر وأقمشة وجوار وخدام وأصناف كثيرة . فطاوعه قيصر ، وأوهمه أن عنده جميع ما طلب ، واستقل عقله لما طلب منه ما طلب ، ولو اجتمع هو وإياه لعجزت قدرتهما عن جمع عُشْره ، وسأل كسرى أن يُمكّنه من الخروج إلى بلاد الشام وأقاليم مملكته ، ليسعى فى تحصيل ذلك من ذخائره وحواصله ودفائنه ، فأطلق سراحه ، فلما عزم قيصر على الخروج من مدينة قسطنطينية ، جمع أهل ملته وقال : إنى خارج فى أمر قد أبرمته ، فى جند قد عينته من جيشى ، فإن رجعت إليكم قبل الحول فأنا ملككم ، وإن لم أرجع إليكم قبلها فأنتم بالخيار ، إن شئتم استمررتم على بيعتى ، وإن شئتم وليتم عليكم غيرى . فأجابوه بأنك ملكنا ما دمت حيا ، ولو غبت عشرة أعوام . فلما خرج من القسطنطينية خرج جريدة فى جيش متوسط ، هذا وكسرى مُخَيّم على القسطنطينية ينتظره ليرجع ، فركب قيصر من فوره وسار مسرعا حتى انتهى إلى بلاد فارس ، فعاث فى بلادهم قتلا لرجالها ومن بها من المقاتلة ، أولاً فأولاً ، ولم يزل يقتل حتى انتهى إلى المدائن ، وهى كرسى مملكة كسرى ، فقتل من بها ،وأخذ جميع حواصله وأمواله ، وأسر نساءه وحريمه ، وحلق رأس ولده ، وركّبه على

---

(١) فى أ : « زمانه » . (٢) فى ف : « بثلاث » .

(٣) سنن أبى داود برقم (٤٥٩٦) وابن ماجه فى السنن برقم (٣٩٩٢) وقال البوصيرى فى الزوائد : « إسناد عوف بن مالك فيه مقال ، وراشد بن سعد قال فيه أبو حاتم : صدوق . وعباد بن يوسف لم يخرج له أحد سوى ابن ماجه ، وليس له عندى سوى هذا الحديث قال ابن عدى : روى أحاديث تفرد بها . وذكره ابن حبان فى الثقات وباقى رجال الإسناد ثقات » .

(٤) فى ت : « فى » . (٥) فى ت : « الأرض » .

حمار وبعث معه من الأساورة من قومه فى غاية الهوان والذلة ، وكتب إلى كسرى يقول : هذا ما طلبت فخُذه . فلما بلغ ذلك كسرى أخذه من الغم ما لا يحصيه إلا الله عز وجل ، واشتد حنقه على البلد ، فاشتد (١) فى حصارها بكل ممكن فلم يقدر على ذلك . فلما عجز ركب ليأخذ عليه الطريق من مخاضة جيحون ، التى لا سبيل (٢) لقيصر إلى القسطنطينية إلا منها ، فلما علم قيصر بذلك احتال بحيلة عظيمة لم يسبق إليها ، وهو أنه أرصد جنده وحواصله التى معه عند فم المخاضة ، وركب فى بعض الجيش ، وأمر بأحمال من التبن والبعر والروث فحملت معه ، وسار إلى قريب من يوم فى الماء مصعدا ، ثم أمر بإلقاء تلك الأحمال فى النهر ، فلما مرت بكسرى ظن هو وجنده أنهم قد خاضوا من هنالك ، فركبوا فى طلبهم فشغرت المخاضة عن الفرس ، وقدم قيصر فأمرهم بالنهوض فى الخوض ، فخاضوا وأسرعوا السير ففاتوا كسرى وجنوده ، ودخلوا القسطنطينية . وكان ذلك يوما مشهوداً عند النصارى ، وبقى كسرى وجيوشه (٣) حائرين لا يدرون ماذا يصنعون . لم يحصلوا على بلاد قيصر ، وبلادُهم قد خَرّبتها الروم وأخذوا حواصلهم ، وسبوا ذراريهم ونساءهم . فكان هذا من غَلَب الروم فارسَ ، وكان ذلك بعد تسع (٤) سنين من غلب الفرس للروم (٥) .

وكانت الواقعة الكائنة بين فارس والروم حين غلبت الروم بين أذرعات وبُصرى ، على ما ذكره ابن عباس وعكرمة وغيرهما ، وهى طرف بلاد الشام مما يلى بلاد الحجاز .

وقال مجاهد : كان ذلك فى الجزيرة ، وهى أقرب بلاد الروم من فارس ، فالله (٦) أعلم .

ثم كان غلب الروم لفارس بعد بضع سنين ، وهى تسع ؛ فإن البِضْعَ فى كلام العرب ما بين الثلاث إلى التسع . وكذلك جاء فى الحديث الذى رواه الترمذى ،وابن جرير وغيرهما ، من حديث عبد الله بن عبد الرحمن الجُمَحى ، عن الزهرى ،عن عبيد الله بن عبد الله ، عن ابن عباس ؛ أن رسول الله ﷺ قال لأبى بكر فى مُنَاحَبَة (٧) :﴿ الٓمٓ. غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ : « ألا احتطت يا أبا بكر ، فإن البضع ما بين ثلاث إلى تسع؟»،ثم قال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه (٨) .

وروى ابن جرير ، عن عبد الله بن عمرو : أنه قال ذلك (٩) .

وقوله : ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ أى : من قبل ذلك ومن بعده ، فبنى على الضم لما قُطع المضاف ، وهو قوله:﴿قبلٍ﴾ عن الإضافة ، ونُويت .

﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ أى : للروم أصحاب قيصر ملك الشام ، على فارس أصحاب كسرى ،وهم المجوس . وقد كانت نصرة الروم على فارس يوم وقعة بدر فى قول طائفة كبيرة من العلماء ،كابن عباس ،والثورى، والسُّدِّى ، وغيرهم .وقد ورد فى الحديث الذى رواه الترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم والبزار ، من حديث الأعمش ، عن عطية (١٠) ، عن أبى سعيد قال : لما

---

(١) فى أ : « فجدَّ » . (٢) فى أ : « لا مسلك » . (٣) فى ت ، ف ، أ : « وجنوده » .
(٤) فى ت : « ثلاث » . (٥) فى ت ، ف : « من غلب فارس للروم » ، وفى أ : « من غلب فارس الروم » .
(٦) فى ف : « والله » . (٧) فى ت : « مبايعته » .
(٨) سنن الترمذى برقم (٣١٩١) ،وتفسير الطبرى (٢١/١٢) .
(٩) تفسير الطبرى (٢١/١٦) .
(١٠) فى ت : « وقد روى مالك » .

كان يوم بدر ، ظهرت الروم على فارس ، فأعجب ذلك المؤمنين وفرحوا به ، وأنزل اللّه : ﴿**وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ**﴾[١] .

وقال آخرون : بل كان نصرة الروم على فارس عام [٢] الحديبية ؛ قاله عكرمة ، والزهرى ، وقتادة ، وغيرهم [٣] ، ووجه بعضهم هذا القول بأن قيصر كان قد نذر لئن أظفره اللّه بكسرى ليمشين من حمص إلى إيليا ـ وهو بيت المقدس ـ شكراً [٤] اللّه عز وجل ، ففعل ، فلما بلغ بيت المقدس لم يخرج منه حتى وافاه كتاب رسول اللّه ﷺ ، الذى بعثه مع دحية بن خليفة ، فأعطاه دحية لعظيم بصرى ، فدفعه عظيم بصرى إلى قيصر . فلما وصل إليه سأل من بالشام من عَرَب الحجاز ، فأحضرَ له أبو سفيان صخر بن حرب الأموى فى جماعة من كفار قريش كانوا فى غزة ، فجىء بهم إليه ، فجلسوا بين يديه ، فقال : أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ؟ فقال أبو سفيان : أنا . فقال لأصحابه ـ وأجلسهم خلفه ـ : إنى سائل هذا عن هذا الرجل ، فإن كذب فكذّبوه . فقال أبو سفيان : فوالله لولا أن يَأثُرُوا علىّ الكذب لكذبت . فسأله هرقل عن نسبه وصفته ، فكان فيما سأله أن قال : فهل يغدر ؟ قال : قلت : لا ، ونحن منه فى مُدّة لا ندرى ما هو صانع فيها ـ يعنى بذلك الهدنة التى كانت قد وقعت بين رسول اللّه ﷺ وكفار قريش يوم [٥] الحديبية على وضع الحرب بينهم عشر سنين ، فاستدلوا بهذا على أن نصر الروم على فارس كان عام الحديبية ؛ لأن قيصر إنما وفى بنذره بعد الحديبية ، واللّه أعلم .

ولأصحاب القول الأول أن يجيبوا عن هذا بأن بلاده كانت قد خربت وتشعثت ، فما تمكن من وفاء نذره حتى أصلح ما ينبغى إصلاحه وتفقد بلاده ، ثم بعد أربع سنين من نصرته وفَّى بنذره ، واللّه أعلم .

والأمر [٦] فى هذا سهل قريب ، إلا أنه لما انتصرت فارس على الروم ساء ذلك المؤمنين ، فلما انتصرت الروم على فارس فرح المؤمنون بذلك ؛ لأن الروم أهل كتاب فى الجملة ، فهم أقرب إلى المؤمنين من المجوس ، كما قال [الله] [٧] تعالى : ﴿**لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ . وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ**﴾ [المائدة : ٨٢ ، ٨٣] ، وقال تعالى ههنا : ﴿**وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ**﴾ .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا صَفْوان ، حدثنا الوليد ، حدثنى أسيد الكلابى ، قال : سمعت [٨] العلاء بن الزبير الكلابى يحدث عن أبيه ، قال : رأيت غلبة فارس الروم ، ثم رأيت غلبة الروم فارس ، ثم رأيت غلبة المسلمين فارس والروم ، كل ذلك فى خمس عشرة سنة .

---

(١) سنن الترمذى برقم (٣١٩٢) وتفسير الطبرى (٢١/١٦).
(٢) فى ف : « يوم » . (٣) فى أ : « وغير واحد » . (٤) فى ت : « تشكراً » .
(٥) فى ت ، ف : « عام » . (٦) فى ت : « فالأمر » . (٧) زيادة من ت .
(٨) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم عن » .

وقوله : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أى : فى انتصاره وانتقامه من أعدائه ، ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ بعباده المؤمنين .

وقوله : ﴿ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ أى : هذا (١) الذى أخبرناك به ـ يا محمد ـ من أنا سننصر الروم على فارس ، وعد من اللّه حق ، وخَبَر صدق لا يخلف ، ولابد من كونه ووقوعه ؛ لأن اللّه قد جرت سنته أن ينصر أقرب الطائفتين المقتتلتين إلى الحق ، ويجعل لها العاقبة ، ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : بحكم اللّه فى كونه وأفعاله المحكمة الجارية على وفق العدل .

وقوله : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ أى : أكثر الناس ليس لهم علم إلا بالدنيا وأكسابها وشؤونها وما فيها ، فهم حذاق أذكياء فى تحصيلها ووجوه مكاسبها ، وهم غافلون عما ينفعهم فى الدار الآخرة ، كأن أحدهم مُغَفّل لا ذهن (٢) له ولا فكرة .

قال الحسن البصرى : واللّه لَبَلَغَ (٣) من أحدهم بدنياه أنه يقلب الدرهم على ظفره ، فيخبرك بوزنه ، وما يحسن أن يصلى .

وقال ابن عباس فى قوله : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ يعنى : الكفار ، يعرفون عمران الدنيا ، وهم فى أمر الدين جهال .

﴿ أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨) أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (١٠) ﴾ .

يقول تعالى منبهاً على التفكر في مخلوقاته ، الدالة على وجوده وانفراده بخلقها ، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه ، فقال : ﴿ أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ﴾ يعنى به : النظر والتدبر والتأمل لخلق الله الأشياء من العالم العلوى والسفلى ، وما بينهما من المخلوقات المتنوعة ، والأجناس المختلفة ، فيعلموا(٤) أنها ما خلقت سُدًى ولا باطلا ، بل بالحق ، وأنها مؤجلة (٥) إلى أجل مسمى ، وهو يوم القيامة ؛ ولهذا قال : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾ .

ثم نبههم على صدق رسله فيما جاؤوا به عنه ، بما أيدهم به من المعجزات ، والدلائل (٦) الواضحات ، من إهلاك من كفر بهم ، ونجاة من صدقهم ، فقال : ﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ ﴾ أى : بأفهامهم وعقولهم ونظرهم وسماع أخبار الماضين ؛ ولهذا قال : ﴿ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ

---

(١) فى أ : « هو » . (٢) فى أ : « لا ذكر » . (٣) فى ت ، ف ، أ : « ليبلغ » .

(٤) جميع النسخ : « فيعلموا » وهو خطأ ، والصواب : « فيعلمون » لعدم جواز النصب فيها ؛ لأنها لم تسبق بطلب ، فتكون الفاء ناصبة.

(٥) فى ت : « وأنهما مؤجلين » . (٦) فى ت ، ف ، أ : « والدلالات » .

كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ أى :كانت الأمم الماضية والقرون السالفة أشد منكم ـ أيها المبعوث إليهم محمد صلوات اللّه وسلامه عليه (١) ،وأكثر أموالا وأولادا ، وما أوتيتم معشار ما أوتوا ، ومُكنوا فى الدنيا تمكينا لم تبلغوا إليه ، وعمروا فيها أعماراً طوالاً ، فعمروها أكثر منكم . واستغلوها أكثر من استغلالكم ، ومع هذا لما جاءتهم رسلهم بالبينات وفرحوا بما أوتوا ، أخذهم اللّه بذنوبهم ، وما كان لهم من اللّه من واق ، ولا حالت أموالهم ولا أولادهم بينهم وبين بأس (٢) اللّه ، ولا دفعوا عنهم مثقال ذرة ، وما كان اللّه ليظلمهم فيما أحل بهم من العذاب والنكال،﴿ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أى : وإنما أوتوا من أنفسهم حيث كذبوا بآيات اللّه ، واستهزؤوا بها ، وما ذاك إلا بسبب ذنوبهم السالفة وتكذيبهم المتقدم؛ ولهذا قال : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾، كما قال تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام : ١١٠] ، وقوله (٣) : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف : ٥] ، وقال :﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ﴾ [المائدة : ٤٩] .

وعلى هذا تكون (٤) السوأى منصوبة مفعولا لأساؤوا .وقيل : بل المعنى فى ذلك : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَىٰ ﴾ أى : كانت السوأى عاقبتهم ؛ لأنهم كذبوا بآيات اللّه وكانوا بها يستهزئون. فعلى هذا تكون السوأى منصوبة خبر كان . هذا توجيه ابن جرير (٥) ، ونقله (٦) عن ابن عباس وقتادة . ورواه ابن أبى حاتم عنهما وعن الضحاك بن مُزاحم ، وهو الظاهر ، واللّه أعلم ، ﴿ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (١٢) وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (١٣) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (١٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (١٦) ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ أى:كما هو قادر على بَداءته فهو قادر على إعادته ، ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾، أى : يوم القيامة ، فيجازى كل عامل بعمله .

ثم قال :﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ قال ابن عباس : ييأس المجرمون .

وقال مجاهد : يفتضح المجرمون . وفى رواية : يكتئب المجرمون .

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ ﴾ أى : ما شفعت فيهم الآلهة التى كانوا يعبدونها من دون اللّه، وكفروا بهم وخانوهم أحوج ما كانوا إليهم .

---

(١) فى ت : « ﷺ » .   (٢) فى ت : « أمر » .   (٣) فى ت ، ف : « وقال » .

(٤) فى ف : « يكون » .

(٥) تفسير الطبرى (١٨/٢١) .

(٦) فى ت : « ومنقول » .

ثم قال :﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُون ﴾ ، قال قتادة : هى ـ واللّه ـ الفرقة التى لا اجتماع بعدها ، يعنى : إذا رفع هذا إلى عليين ، وخفض هذا إلى أسفل السافلين ، فذاك آخر العهد بينهما ؛ ولهذا قال: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ قال مجاهد وقتادة : ينعمون.

وقال يحيى بن أبى كثير : يعنى سماع الغناء . والحبرة أعم من هذا كله ، قال العجاج :

الحمد (١) للّه الذى أعطَى الحَبَرْ مَوَالِيَ الْحَقّ إن المَوْلى شكَر (٢)

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩) ﴾.

هذا تسبيح منه تعالى لنفسه المقدسة ، وإرشاد لعباده إلى تسبيحه وتحميده ، فى هذه الأوقات المتعاقبة الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه : عند المساء ، وهو إقبال الليل بظلامه ، وعند الصباح وهو إسفار النهار عن ضيائه .

ثم اعترض بحمده ، مناسبة للتسبيح وهو التحميد ، فقال :﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أى : هو المحمود على ما خلق فى السموات والأرض .

ثم قال : ﴿ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُون ﴾، فالعشاء (٣) هو : شدة الظلام ، والإظهار : قوة الضياء. فسبحان خالق هذا وهذا ، فالق الإصباح وجاعل الليل سكنا ، كما قال : ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا . وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾ [الشمس :٣ ، ٤] ،وقال :﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ . وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴾ [الليل : ١ ، ٢] ، وقال :﴿ وَالضُّحَىٰ . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴾ [الضحى : ١ ، ٢] ، والآيات فى هذا كثيرة .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لَهيعة ، حدثنا زَبَّان بن فائد ، عن سهل بن معاذ ابن أنس الجُهَنى ، عن أبيه (٤) ، عن رسول اللّه ﷺ ، أنه قال:« ألا أخبركم لم سمى اللّه إبراهيم خليله الذى وفى ؟ لأنه كان يقول كلما أصبح وأمسى : سبحان اللّه حين تمسون وحين تصبحون ، وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون » (٥) .

وقال الطبرانى : حدثنا مطلب بن شُعَيب الأزدى ، حدثنا عبد اللّه بن صالح ، حدثنى الليث بن سعد ، عن سعيد بن بشير ، عن محمد بن عبد الرحمن بن البيلمانى ، عن أبيه (٦) ، عن عبد اللّه بن عباس ، عن رسول اللّه ﷺ قال :« من قال حين يصبح :﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ.

(١) فى ت : « فالحمد » .

(٢) البيت فى تفسير الطبرى (٢١/١٩) ،ولسان العرب لابن منظور مادة « حبر » .

(٣) فى ت : « فالعشى » . (٤) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده عن أنس الجهنى » .

(٥) المسند (٣/٤٣٩) .

(٦) فى ت : « وروى الطبرانى بإسناده » .

وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾الآية بكمالها ، أدرك ما فاته فى يومه، ومن قالها حين يمسى أدرك ما فاته فى ليلته » . إسناد جيد (١) ، ورواه أبو داود فى سننه (٢).

وقوله :﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ : هو ما نحن فيه من قدرته على خلق الأشياء المتقابلة . وهذه الآيات المتتابعة الكريمة كلها من هذا النمط ، فإنه يذكر فيها خلقه الأشياء وأضدادها ، ليدل خلقه على كمال قدرته ، فمن ذلك إخراج النبات من الحب ، والحب من النبات ، والبيض من الدجاج ، والدجاج من البيض ،والإنسان من النطفة ، والنطفة من الإنسان ، والمؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن .

وقوله : ﴿ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ ، كقوله : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ . وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴾ [يس : ٣٣ ، ٣٤] ، وقـال :﴿ وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ . ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴾ [الحج : ٥ ـ ٧] ، وقـال :﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف : ٥٧] ؛ولهذا قال ههنا :﴿ وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾.

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) ﴾.

يقول تعالى :﴿وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ الدالة على عظمته وكمال قدرته أنه خلق أباكم آدم من تراب ، ﴿ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ ، فأصلكم من تراب ، ثم من ماء مهين ، ثم تَصَوَّر فكان علقة ، ثم مضغة ، ثم صار عظاما ، شكله على شكل الإنسان ، ثم كسا اللّه تلك العظام لحما ، ثم نفخ فيه الروح ، فإذا هو سميع بصير . ثم خرج من بطن أمه صغيرا ضعيف القوى والحركة ، ثم كلما طال عمره تكاملت قواه وحركاته حتى آل به الحال إلى أن صار يبنى المدائن والحصون ، ويسافر فى أقطار الأقاليم ، ويركب متن البحور ، ويدور أقطارَ الأرض ويتكسب ويجمع الأموال ، وله فكرة وغور ، ودهاء ومكر، ورأى وعلم ، واتساع فى أمور الدنيا والآخرة كل بحسبه . فسبحان من أقدرهم وسَيَّرهم وسخرهم وصرفهم فى فنون المعايش والمكاسب ، وفاوت بينهم فى العلوم والفكرة ، والحسنِ والقبحِ، والغنى والفقر ، والسعادة والشقاوة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم

(١) فى أ : « إسناد ضعيف » ، وهو الصواب .

(٢) المعجم الكبير (١٢/٢٣٩) وسنن أبى داود برقم (٥٠٧٦) .

بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾.

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد وغُنْدَر ،قالا : حدثنا عَوْف ، عن قسامة بن زهير [(١)]، عن أبى موسى قال : قال رسول اللّه ﷺ :« إن اللّه خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك ، والخبيث والطيب ، والسهل والحزن ، وبين ذلك ».

ورواه أبو داود والترمذى من طرق ، عن عوف الأعرابى ، به[(٢)] . وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح . وقوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ أى : خلق لكم من جنسكم إناثا يكُنّ لكم أزواجا ،﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف : ١٨٩] يعنى بذلك: حواء ، خلقها اللّه من آدم من ضِلَعه الأقصر الأيسر . ولو أنه جعل بنى آدم كلهم ذكورا وجعل إناثهم من جنس آخر [من غيرهم] [(٣)] إما من جان أو حيوان ، لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج ، بل كانت تحصل نَفْرَة لو كانت الأزواج من غير الجنس . ثم من تمام رحمته ببنى آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم ، وجعل بينهم وبينهن مودة : وهى المحبة ، ورحمة : وهى الرأفة ، فإن الرجل [(٤)] يمسك المرأة إما لمحبته لها ،أو لرحمة بها ، بأن يكون لها منه ولد ، أو محتاجة إليه فى الإنفاق ، أو للألفة بينهما ، وغير ذلك ، ﴿إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) ﴾ .

يقول تعالى : ومن آيات قدرته العظيمة ﴿ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أى : خلق السموات فى ارتفاعها واتساعها ، وشفوف أجرامها وزهارة كواكبها ونجومها الثوابت والسيارات ، والأرض فى انخفاضها وكثافتها وما فيها من جبال وأودية ، وبحار وقفار ، وحيوان وأشجار .

وقوله :﴿ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ ﴾ يعنى : اللغات ، فهؤلاء بلغة العرب ، وهؤلاء تَتَرٌ لهم لغة أخرى، وهؤلاء كَرَج ، وهؤلاء روم ، هؤلاء إفرنج ، وهؤلاء بَرْبر ، وهؤلاء تكْرور ، وهؤلاء حبشة ، وهؤلاء هنود ، وهؤلاء عجم ، وهؤلاء صقالبة ، وهؤلاء خزر ، وهؤلاء أرمن ، وهؤلاء أكراد ، إلى غير ذلك مما لا يعلمه إلا اللّه من اختلاف لغات بنى آدم ، واختلاف ألوانهم وهى حُلاَهم ، فجميع أهل الأرض ـ بل أهل الدنيا ـ منذ خلق اللّه آدم إلى قيام الساعة : كل له عينان وحاجبان ، وأنف وجبين،

(١) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده » .
(٢) المسند (٤/ ٤٠٠) وسنن أبى داود برقم (٣٦٩٣) وسنن الترمذى برقم (٢٩٥٥) .
(٣) زيادة من ت ، ف .
(٤) فى ت ، ف : « فالرجل » .

وفم وخدان . وليس يشبه واحد منهم الآخر ، بل لابد أن يفارقه بشيء من السمت أو الهيئة أو الكلام ، ظاهرا كان أو خفيا ، يظهر عند التأمل ، كل وجه منهم أسلوب بذاته وهيئة لا تشبه الأخرى. ولو توافق جماعة في صفة من جمال أو قبح (١) ، لابد من فارق بين كل واحد منهم وبين الآخر ، ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ . وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ** ﴾ أي : ومن الآيات ما جعل لكم من صفة النوم في الليل والنهار ، فيه تحصل الراحة وسكون الحركة ، وذهاب الكلال والتعب ، وجعل لكم الانتشار والسعي في الأسباب والأسفار في النهار ، وهذا ضد النوم، ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ** ﴾ أي : يعون .

قال الطبراني : حدثنا حجاج بن عمران السدوسي ، حدثنا عمرو بن الحصين العقيلي ، حدثنا محمد بن عبد الله بن عُلاثة ، حدثني ثور بن يزيد ، عن خالد بن مَعْدان ، سمعت عبد الملك بن مروان يحدث عن أبيه (٢) ، عن زيد بن ثابت ، رضي الله عنه ، قال : أصابني أرق من الليل ، فشكوت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال : « قل : اللهم غارت النجوم ، وهدأت العيون ، وأنت حي قيوم، يا حي ياقيوم ، [أنم عيني و] (٣) أهدئ ليلي » فقلتها ، فذهب عني (٤) .

﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥)** ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ** ﴾ الدالة على عظمته أنه ﴿ **يُرِيكُمُ الْبَرْقَ** [**خَوْفًا وَطَمَعًا** ﴾ أي :] (٥) تارة تخافون مما يحدث بعده من أمطار مزعجة، أو صواعق متلفة ، وتارة ترجون وَميضَه وما يأتي بعده من المطر المحتاج إليه ؛ ولهذا قال: ﴿ **وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا** ﴾ أي : بعد ما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شيء ، فلما جاءها الماء ﴿ **اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ** ﴾ [الحج : ٥]. وفي ذلك عبرة ودَلالَة واضحة على المعاد وقيام الساعة ؛ ولهذا قال : ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ .

ثم قال : ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ** ﴾ ، كقوله : ﴿ **وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ** ﴾ [الحج : ٦٥] ، وقوله : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا** ﴾ [فاطر : ٤١] . وكان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه ، إذا اجتهد في اليمين يقول : لا ، والذي تقوم السماء والأرض بأمره ، أي: هي قائمة ثابتة بأمره لها وتسخيره إياها ، ثم إذا كان يوم القيامة بُدلت الأرض

---

(١) في أ : « قبيح » . (٢) في ت : « وروى الطبراني بإسناده » . (٣) زيادة من ت ، ف ، ومعجم الطبراني .

(٤) المعجم الكبير (٥/ ١٢٤) ، ورواه ابن السني في عمل اليوم والليلة برقم (٧٤٥) وابن عدي في الكامل (٥/ ١٥٠) من طريق عمرو بن الحصين به ، وقال ابن عدي : « تفرد به عمرو بن الحصين وهو مظلم الحديث ، ويروى عن قوم معروفين » . وله شاهد من حديث أنس ، حسنه الحافظ ابن حجر كما في الفتوحات الربانية لابن علان (٣/ ١٧٧) .

(٥) زيادة من ت .

غير الأرض والسموات ، وخرجت الأموات من قبورها أحياء بأمره تعالى ودعائه إياهم ؛ ولهذا قال : ﴿ ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾ ، كما قال تعالى :﴿ يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلا ﴾ [الإسراء : ٥٢] .

وقال تعالى : ﴿ فإنما هي زجرة واحدة . فإذا هم بالساهرة ﴾ [النازعات : ١٣، ١٤] ، وقال : ﴿ إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون ﴾ [يس : ٥٣] .

﴿ وله من في السموات والأرض كل له قانتون (٢٦) وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم (٢٧) ﴾.

يقول تعالى : ﴿ وله من في السموات والأرض ﴾ أى : ملكه وعبيده ،﴿ كل له قانتون ﴾ أى : خاضعون خاشعون طوعاً وكرهاً .

وفى حديث درّاج ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد ، مرفوعا : « كل حرف فى[1] القرآن يُذكرُ فيه القنوت فهو الطاعة » [2] .

وقوله : ﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ قال [على] [3] بن أبى طلحة عن ابن عباس : يعنى : أيسر عليه.

وقال مجاهد : الإعادة أهون عليه من البداءة ، والبداءة عليه هيّنٌ . وكذا قال عكرمة وغيره .

وقال البخارى : حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، أخبرنا أبو الزّناد ، عن الأعرج [4] ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « قال الله : كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياى فقوله : لن يعيدنى كما بدأنى ، وليس أو الخلق بأهونَ علىّ من إعادته . وأما شتمه إياى فقوله : اتخذ الله ولدا ، وأنا الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » [5] .

انفرد بإخراجه البخارى كما انفرد بروايته ـ أيضا ـ من حديث عبد الرزاق عن مَعْمَر ، عن همام، عن أبى هريرة ، به [6] . وقد رواه الإمام أحمد منفردا به عن حسن بن موسى ، عن ابن لهيعة ، حدثنا أبو يونس سليم بن جُبَيْر ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ بنحوه ، أو مثله [7] .

وقال آخرون : كلاهما بالنسبة إلى القدرة على السواء .

---

(١) فى ت : « من » .

(٢) رواه الإمام أحمد فى مسنده (٣/ ٧٥)،وتقدم الحديث عند تفسير الآية : ١١٦ من سورة البقرة . قال الحافظ ابن كثير : « ولكن هذا الإسناد ضعيف لا يعتمد عليه ، ورفع هذا الحديث منكر وقد يكون من كلام الصحابى ، أو من دونه ، والله أعلم » .

(٣) زيادة من أ .

(٤) فى ت : « وقال البخارى بإسناده » .

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٩٧٤) .

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٩٧٥) .

(٧) المسند (٢/ ٣٥٠) .

قال العَوْفى ، عن ابن عباس : كل عليه هين . وكذا قال الربيع بن خُثَيْم . ومال إليه ابن جرير، وذكر عليه شواهد كثيرة ، قال : ويحتمل أن يعود الضمير فى قوله : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ إلى الخلق ، أى : وهو أهون على الخلق .

وقوله : ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾: قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس كقوله :﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : ١١] .

وقال قتادة : مَثَله أنه لا إله إلا هو ، ولا رب غيره ، وقال مثل هذا ابن جرير .

وقد أنشد بعض المُفَسرين عند ذكر هذه الآية لبعض أهل المعارف :

إذَا سكَن الغَديرُ عَلَى صَفَاء ... وَجُنبَ أنْ يُحَرّكَهُ النَّسيمُ
تَرى فيه السَّمَاء بَلا امْترَاء ... كَذَاكَ الشَّمْسُ تَبْدو وَالنّجُومُ
كَذاكَ قُلُوبُ أرْبَاب التَّجَلى ... يُرَى فى صَفْوها اللّهُ العَظيمُ

﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾: الذى [(١)] لا يغالب ولا يمانع ، بل قد غلب كل شىء ، وقهر كل شىء بقدرته وسلطانه،﴿الْحَكِيمُ ﴾ فى أفعاله وأقواله ، شَرْعاً وقَدَرا .

وعن مالك فى تفسيره المروى عنه ، عن محمد بن المنْكَدِر ، فى قوله تعالى : ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ﴾، قال : لا إله إلا اللّه .

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٩) ﴾ .

هذا مثل ضربه اللّه تعالى للمشركين به ، العابدين معه غيره ، الجاعلين له شركاء وهم مع ذلك معترفون أن شركاءه من الأصنام والأنداد عبيد له ،ملك له ، كما كانوا فى تلبيتهم يقولون : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك . فقال تعالى : ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ أى: تشهدونه وتفهمونه من أنفسكم ،﴿ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِى مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ﴾ أى:لا يرتضى أحد منكم أن يكون عبده شريكا له فى ماله،فهو وهو فيه على السواء ﴿ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ أى :تخافون أن يقاسموكم الأموال .

قال أبو مِجْلَز : إن مملوكك لا تخاف أن يقاسمك مالك ، وليس له ذاك [(٢)] ، كذلك اللّه لا شريك له .

---

(١) فى ت : « أى » . (٢) فى ت : « ذلك » .

والمعنى: أن أحدكم يأنف من ذلك ، فكيف تجعلون للّه الأنداد من خلقه . وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ [النحل : ٦٢] أى : من البنات ، حيث جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ، وجعلوها بنات اللّه ، وقد كان أحدهم إذا بُشر بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ، فهم يأنفون من البنات . وجعلوا الملائكة بنات اللّه ، فنسبوا إليه ما لا يرتضونه لأنفسهم ، فهذا أغلظ الكفر . وهكذا فى هذا المقام جعلوا له شركاء من عبيده وخلقه ، وأحدهم يأبى غاية الإباء ويأنف غاية الأنفة من ذلك، أن يكون عبدهُ شريكَه فى ماله ، يساويه فيه . ولو شاء لقاسمه عليه ، تعالى اللّه عن ذلك علوا كبيرا .

قال الطبرانى : حدثنا محمود بن الفرج الأصبهانى ، حدثنا إسماعيل بن عمرو البجلى ، حدثنا حماد بن شعيب ، عن حبيب بن أبى ثابت ، عن سعيد بن جبير [(١)] ، عن ابن عباس قال : كان يلبى أهل الشرك: لبيك اللهم [لبيك] [(٢)] ، لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك. فأنزل اللّه: ﴿ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾[(٣)] .

ولما كان التنبيه بهذا المثل على براءته تعالى ونزاهته بطريق الأولى والأحرى ، قال : ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾.

ثم قال تعالى مبينا أن المشركين إنما عبدوا غيره سَفَهاً من أنفسهم وجهلا : ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أى : المشركون ﴿ أَهْوَاءَهُم ﴾ أى: فى عبادتهم الأنداد بغير علم ، ﴿ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ﴾ [أى: فلا أحد يهديهم إذا كَتَب اللّه إضلالهم] [(٤)] ، ﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ أى : ليس لهم من قدرة اللّه منقذ ولا مجير، ولا محيد لهم عنه ؛ لأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢) ﴾.

يقول تعالى : فسدد وجهك واستمر على الذى شرعه اللّه لك ، من الحنيفية ملة إبراهيم ، الذى هداك اللّه لها ، وكملها لك غاية الكمال ، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة ، التى فطر اللّه الخلق عليها ، فإنه تعالى فطر خلقه على [معرفته وتوحيده ، وأنه لا إله غيره ، كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ [الأعراف : ١٧٢]، وفى الحديث : « إنى خلقت

---

(١) فى ت : « روى الطبرانى بإسناده » . (٢) زيادة من ت .
(٣) المعجم الكبير (١٢/ ٢٠) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٣/ ٢٢٣) : « وفيه حماد بن شعيب وهو ضعيف » .
(٤) زيادة من ت ، أ .

عبادى حُنَفاء ، فاجتالتهم الشياطين عن دينهم » . وسنذكر فى الأحاديث أن اللّه تعالى فطر خلقه على] (١) الإسلام ، ثم طرأ على بعضهم الأديان الفاسدة كاليهودية أو النصرانية أو المجوسية (٢) .

وقوله : ﴿ **لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ** ﴾ : قال بعضهم : معناه لا تبدلوا خلق اللّه ، فتغيروا الناس عن فطرتهم التى فطرهم اللّه عليها . فيكون خبرا بمعنى الطلب ، كقوله تعالى : ﴿ **وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا** ﴾ [آل عمران : ٩٧] ، وهذا معنى حسن صحيح .

وقال آخرون : هو خبر على بابه ، ومعناه : أنه تعالى ساوى بين خلقه كلهم فى الفطرة على الجبلة المستقيمة ، لا يولد أحد إلا على ذلك ، ولا تفاوت بين الناس فى ذلك ؛ ولهذا قال ابن عباس، وإبراهيم النَّخَعى ، وسعيد بن جُبَيْر ، ومجاهد ، وعِكْرِمة ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد(٣) فى قوله : ﴿ **لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ** ﴾ أى : لدين اللّه .

وقال البخارى: قوله : ﴿ **لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ** ﴾: لدين اللّه ، خَلْقُ الأولين : [دين الأولين] (٤) ، والدين والفطرة: الإسلام .

حدثنا عبدان ، أخبرنا عبد اللّه ، أخبرنا يونس ، عن الزهرى ، أخبرنى أبو سلمة بن عبد الرحمن (٥) : أن أبا هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ : « ما من مولود يولد إلا على الفطرة ، فأبواه يُهَوِّدَانه أو يُنَصِّرانه أو يُمَجسانه ، كما تنْتَج البهيمة بهيمة جَمْعاء ، هل تحِسون فيها من جدعاء » ؟ ثم يقول : ﴿ **فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ** ﴾ .

ورواه مسلم من حديث عبد اللّه بن وهب ، عن يونس بن يزيد الأيْلى ، عن الزهرى ، به (٦). وأخرجاه ـ أيضا ـ من حديث عبد الرزاق ، عن مَعْمَر ، عن همام ، عن أبى هريرة ، رضى اللّه عنه، عن النبى ﷺ (٧) .

وفى معنى هذا الحديث قد وردت أحاديث عن جماعة من الصحابة ، فمنهم الأسودُ بن سَرِيع التميمى . قال (٨) الإمام أحمد :

حدثنا إسماعيل ، حدثنا يونس ، عن الحسن (٩) ، عن الأسود بن سَرِيع [التميمى] (١٠) قال: أتيت رسول اللّه ﷺ وغزوت معه ، فأصبت ظهرا (١١) ، فقتل الناس يومئذ ، حتى قتلوا الولدان . فبلغ ذلك رسول اللّه ﷺ فقال : « ما بال أقوام جاوزهم القتل اليوم حتى قتلوا الذرية ؟ » . فقال رجل: يا رسول اللّه،أماهم أبناء المشركين ؟فقال :« ألا إنما خياركم أبناء المشركين ».ثم قال: «لا تقتلوا ذرية ، لا تقتلوا ذرية» . وقال : « كل نسمة تولد على الفطرة ، حتى يُعرب عنها لسانها ، فأبواها يهودانها أو ينصرانها » .

---

(١) زيادة من ت ، أ . (٢) فى ت ، ف : « والنصرانية والمجوسية » . (٣) فى ت : « وسعيد بن جبير وغيرهم » .
(٤) زيادة من ت ، أ . (٥) فى ت : « ثم روى بسنده » .
(٦) صحيح البخارى برقم (٤٧٧٥) وصحيح مسلم برقم (٢٦٥٨) .
(٧) صحيح البخارى برقم (٦٥٩٩) وصحيح مسلم برقم (٢٦٥٨) .
(٨) فى ت : « فروى » . (٩) فى ت : « بإسناده » . (١٠) زيادة من ف .
(١١) فى ت ، ف : « ظفرا » .

ورواه النسائى فى كتاب السير ، عن زياد بن أيوب ، عن هُشَيْم ، عن يونس ـ وهو ابن عبيد ـ عن الحسن البصرى ، به (١) (٢) .

ومنهم جابر بن عبد اللّه الأنصارى ، قال الإمام أحمد :

حدثنا هاشم ، حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع بن أنس ، عن الحسن ، عن جابر بن عبد اللّه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة ، حتى يُعرب عنه لسانه ، فإذا عبر (٣) عنه لسانه إما شاكراً وإما كفورا » (٤) .

ومنهم عبد اللّه بن عباس الهاشمى ، قال الإمام أحمد :

حدثنا عفان ، حدثنا أبو عَوَانة ، حدثنا أبو بشر ، عن سعيد بن جبير (٥) ، عن ابن عباس ، رضى اللّه عنهما ، أن رسول اللّه ﷺ سُئل عن أولاد المشركين ، فقال: « اللّه أعلم بما كانوا عاملين إذ خلقهم » . أخرجاه فى الصحيحين ، من حديث أبى بشر جعفر بن إياس اليَشْكُرِى ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس مرفوعا بذلك (٦) .

وقد قال (٧) أحمد أيضا : حدثنا عفان ، حدثنا حماد ـ يعنى ابن سلمة ـ أنبأنا عمار بن أبى عمار، عن ابن عباس قال : أتى علىَّ زمان وأنا أقول : أولاد المسلمين مع أولاد المسلمين ، وأولاد المشركين مع المشركين. حتى حدثنى فلان عن(٨) فلان : أن رسول اللّه ﷺ سئل (٩) عنهم فقال : « اللّه أعلم بما كانوا عاملين » . قال : فلقيت الرجل فأخبرنى . فأمسكت عن قولى (١٠) .

ومنهم عياض بن حِمار المجاشعى ، قال (١١) الإمام أحمد :

حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا هشام ، حدثنا قتادة ، عن مُطَرِّف ، عن عياض بن حمار أن رسول اللّه ﷺ خطب ذات يوم فقال فى خطبته : « إن ربى ،عز وجل، أمرنى أن أعلمكم ما جهلتم مما علمنى فى يومى هذا ، كل مال نحلته عبادى حلال ، وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فأضلتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا ، ثم إن اللّه ،عز وجل، نظر إلى أهل الأرض فمقتهم ، عربهم وعجمهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب ،وقال : إنما بعثتك لأبتليك وأبتلى بك،وأنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء،تقرؤه نائما ويقظان.

(١) فى ت : « وروى أيضا بإسناده » .
(٢) المسند (٣/ ٤٣٥) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٨٦١٦) .
(٣) فى ف : « عرب » .
(٤) المسند (٣/ ٣٥٣) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٢١٨) : « وفيه أبو جعفر الرازى وهو ثقة وفيه خلاف ، وبقية رجاله ثقات » .
(٥) فى ت : « وروى أيضا بإسناده » .
(٦) المسند (١/ ٣٢٨) وصحيح البخارى برقم (١٣٨٣) وصحيح مسلم برقم (٢٦٦٠) .
(٧) فى ت : « وروى » .
(٨) فى ت ، ف : « ابن » .
(٩) فى أ : « عن رسول الله ﷺ أنه سئل » .
(١٠) المسند (٥/ ٧٣) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٢١٨) : « رجاله رجال الصحيح » .
(١١) فى ت : « وقال » .

ثم إن اللّه أمرنى أن أحرق قريشا ، فقلت : يارب ، إذًا يَثْلَغُوا رأسى فيدعوه خبُزَةً . قال (١) : استخرجهم كما استخرجوك ، واغزهم نُغْزك ، وأنفق عليهم فسننفق عليك . وابعث جيشا نبعث خمسة مثله ، وقاتل بمن أطاعك من عصاك » . قال : « وأهل الجنة ثلاثة : ذو سلطان مُقسط متصدق موفق ، ورجل رحيم رقيق القلب بكل ذى قربى ومسلم ، ورجل عفيف فقير متصدق . وأهل النار خمسة : الضعيف الذى لا زَبْرَ له ، الذين هم فيكم تَبَعاً ، لا يبتغون أهلا ولا مالا . والخائن الذى لا يخفى له طمع وإن دق إلا خانه . ورجل لا يصبح ولا يمسى إلا وهو يخادعك عن(٢) أهلك ومالك » . وذكر البخيل ، أو الكذاب ، والشنظير : الفحاش (٣) .

انفرد بإخراجه مسلم ، فرواه من طرق عن قتادة ، به (٤) .

وقوله تعالى : ﴿ **ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّم** ﴾ أى : التمسك بالشريعة (٥) والفطرة السليمة هو الدين القويم المستقيم ، ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ أى : فلهذا لا يعرفه أكثر الناس ، فهم عنه ناكبون ، كما قال تعالى : ﴿ **وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ** ﴾ [يوسف : ١٠٣] ، ﴿ **وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ الآية [الأنعام : ١١٦] .

وقوله : ﴿ **مُنِيبِينَ إِلَيْهِ** ﴾ : قال ابن زيد ، وابن جُرَيْج : أى راجعين إليه ، ﴿ **وَاتَّقُوه** ﴾ أى : خافوه وراقبوه ، ﴿ **وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ** ﴾ وهى الطاعة العظيمة ، ﴿ **وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِين** ﴾ أى : بل من الموحدين المخلصين له العبادة ، لا يريدون بها سواه .

قال ابن جرير :[حدثنا ابن حُمَيد] (٦) ،حدثنا يحيى بن واضح ، حدثنا يونس بن أبى إسحاق ، عن يزيد (٧) بن أبى مريم قال : مر عمر ، رضى اللّه عنه ، بمعاذ بن جبل فقال : ما قوام هذه الأمة(٨)؟ قال معاذ : ثلاث ، وهن [من] (٩) المنجيات : الإخلاص ، وهى الفطرة ،فطرة اللّه التى فَطرَ الناس عليها ، والصلاة وهى الملة ، والطاعة وهى العصمة . فقال عمر : صدقت .

حدثنى يعقوب ، حدثنا ابن عُلَيَّةَ ، حدثنا أيوب ، عن أبى قِلاَبة : أن عمر ، رضى اللّه عنه ، قال لمعاذ : ما قوام هذا الأمر ؟ فذكره نحوه (١٠) .

وقوله :﴿ **مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُم وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ** ﴾ أى : لا تكونوا من المشركين الذين قد فرقوا دينهم ، أى : بدلوه وغيروه وآمنوا ببعض وكفروا ببعض .

وقرأ بعضهم : « فارقوا دينهم » أى: تركوه وراء ظهورهم ، وهؤلاء كاليهود والنصارى والمجوس وعَبَدة الأوثان ، وسائر أهل الأديان الباطلة ، مما عدا أهل الإسلام ، كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُم وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** ﴾ [الأنعام:١٥٩]، فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء ومِلَل باطلة ، وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شىء ،

---

(١) فى ت ، ف : « فقال » . (٢) فى ت : « على » . (٣) فى ت ، ف : « الفاحش » .
(٤) المسند (٤/ ١٦٢) ،وصحيح مسلم برقم (٢٨٦٥) .
(٥) فى ت : « المتمسك بالشرعة » . (٦) زيادة من ف ، أ ، والطبرى .
(٧) فى أ : « زيد » . (٨) فى ت : « الآية » . (٩) زيادة من ت .
(١٠) تفسير الطبرى (٢١/ ٢٦) .

وهذه الأمة[١] أيضاً اختلفوا فيما بينهم على نحل كلها ضلالة [٢] إلا واحدة ، وهم أهل السنة والجماعة ، المتمسكون بكتاب اللّه وسنة رسول اللّه [٣] ﷺ، وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين ، وأئمة المسلمين فى قديم الدهر وحديثه ، كما رواه الحاكم فى مستدركه أنه سئل ، عليه السلام [٤] ، عن الفرقة الناجية منهم ، فقال : « ما أنا عليه [اليوم] [٥] وأصحابى»[٦].

﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤) أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥) وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن الناس أنهم فى حال الاضطرار يدعون اللّه وحده لا شريك له ، وأنه إذا أسبغ عليهم النعم،إذا فريق منهم ، [أى] [٧] فى حالة الاختيار يشركون باللّه ، ويعبدون معه غيره .

وقوله :**﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ﴾** ، هى لام العاقبة عند بعضهم،ولام التعليل عند آخرين،ولكنها تعليل لتقييض اللّه لهم ذلك .

ثم توعدهم بقوله : **﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُون[٨]﴾**، قال بعضهم : واللّه لو توعدنى حارس دَرْب لخفت منه، فكيف والمتوعد ههنا [هو] [٩] الذى يقول للشىء : كن ، فيكون .

ثم قال منكراً على المشركين فيما اختلقوه من عبادة الأوثان بلا دليل ولا حجة ولا برهان : **﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾** أى : حجة ،**﴿فَهُوَ يَتَكَلَّم﴾** أى : ينطق **﴿بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُون﴾**؟ وهذا استفهام إنكار ، أى : لم يكن [لهم] [١٠] شىء من ذلك .

ثم قال : **﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُون ﴾**، هذا إنكار على الإنسان من حيث هو،إلا مَنْ عَصَمه اللّه ووفقه ؛ فإن الإنسان إذا أصابته نعمة بَطر وقال :**﴿ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾** [هود : ١٠] ، أى : يفرح فى نفسه ويفخر على غيره، وإذا أصابته شدة قَنط وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير بالكلية ؛ قال اللّه :**﴿إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات﴾**[هود : ١١] ،أى : صبروا فى الضراء ، وعملوا الصالحات فى الرخاء ، كما ثبت فى الصحيح : « عجبا للمؤمن ، لا يقضى اللّه له قضاء إلا كان خيراً له ، إن أصابته سراء شكر فكان

---

(١) فى ت : « الآية » . (٢) فى أ : « ضالة » . (٣) فى ف : « رسوله » .
(٤) فى ف ، أ : « ﷺ » . (٥) زيادة من أ ، والمستدرك .
(٦) المستدرك (١/١٢٨ ، ١٢٩) ،وقال الحافظ ابن حجر فى تخريج الكشاف ص (٦٣) : « إسناده حسن » .
(٧) زيادة من أ . (٨) فى ت : « يعلمون » . (٩) زيادة من ت ، ف ، أ .
(١٠) زيادة من أ .

خيراً له ، وإن أصابته ضَرَّاء (١) صبر فكان خيراً له»(٢).

وقوله تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أى : هو المتصرف الفاعل لذلك بحكمته وعدله ، فيوسع على قوم ويضيّق على آخرين ، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨) وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠) ﴾.

يقول تعالى آمراً بإعطاء ذى ﴿ الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ ﴾ أى : من البر والصلة ، ﴿ وَالْمِسْكِينَ ﴾ وهو : الذى لا شىء له ينفق عليه ، أو له شىء لا يقوم بكفايته ، ﴿ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾ وهو المسافر المحتاج إلى نفقة وما يحتاج إليه فى سفره ، ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ أى : النظر إليه يوم القيامة ، وهو الغاية القصوى ، ﴿ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أى : فى الدنيا وفى الآخرة (٣) .

ثم قال :﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ ﴾ أى : من أعطى عطية يريد أن يرد الناس عليه أكثر مما أهدى لهم ، فهذا لا ثواب له عند اللّه ـ بهذا فسره ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، وعكرمة ، ومحمد بن كعب ، والشعبى ـ وهذا الصنيع مباح (٤) ، وإن كان لا ثواب فيه (٥) ، إلا أنه قد نهى عنه رسول اللّه ﷺ خاصة، قاله الضحاك ، واستدل بقوله :﴿ وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ [المدثر : ٦] أى : لا تعط العطاء تريد أكثر منه .

وقال ابن عباس : الربا رباءان ، فربا لا يصح (٦) ، يعنى : ربا البيع ؟ وربا لا بأس به ، وهو هدية الرجل يريد فضلها (٧) وأضعافها . ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ ﴾.

وإنما الثواب عند اللّه فى الزكاة ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ أى : الذين يضاعف اللّه لهم الثواب والجزاء، كما [جاء] (٨) فى الصحيح : « وما تصدق أحد بعَدْل تمرة من كسب طيب إلا أخذها الرحمن بيمينه ، فَيُرَبِّيها لصاحبها كما يُرَبِّى أحدكم فَلُوّه أو فَصِيله ، حتى تصير التمرة أعظم من أُحُد » (٩) .

---

(١) فى ت : « الضراء » .

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٩٩٩) من حديث صهيب الرومى رضى الله عنه .

(٣) فى ت ، ف : « الأخرى » . (٤) فى ت : « فسره ابن عباس وغيره » . (٥) فى ت : « به » .

(٦) فى أ : «لا يصلح » . (٧) فى أ : « أفضلها » . (٨) زيادة من أ .

(٩) صحيح البخارى برقم (١٤١٠) .

وقوله : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ﴾ أي : هو الخالق الرازق [(١)] ، يخرج الإنسان من بطن أمه عريانا لا علم له ولا سمع ولا بصر ولا قُوَى ، ثم يرزقه جميع ذلك بعد ذلك ، والرياش واللباس والمال والأملاك والمكاسب ، كما قال [(٢)] الإمام أحمد :

حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن سلام أبي شرحبيل ، عن حَبَّة وسواء ابني خالد قالا : دخلنا على النبي ﷺ وهو يصلح شيئا فأعنَّاه ، فقال : « لا تيأسا من الرزق ما تَهَزَّزَتْ رؤوسكما ؛ فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشرة ، ثم يرزقه اللّه عز وجل » [(٣)] .

وقوله : ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾أي : بعد هذه الحياة ، ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ أي : يوم القيامة .

وقوله : ﴿ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم ﴾ أي : الذين تعبدونهم من دون اللّه ، ﴿ مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ ﴾ أي : لايقدر أحد منهم على فعل شيء من ذلك ، بل اللّه سبحانه وتعالى هو المستقل بالخلق والرزق، والإحياء والإماتة ، ثم يبعث الخلائق يوم القيامة ؛ ولهذا قال بعد هذا كله : ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي : تعالى وتقدس وتنزه وتعاظم وجل وعَزَّ عن أن يكون له شريك أو نظير أو مساوٍ ، أو ولد أو والد ، بل هو الأحد الفرد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ (٤٢) ﴾ .

قال ابن عباس ، وعكرمة ، والضحاك ، والسُّدِّي ، وغيرهم : المراد بالبر ههنا : الفَيَافي ، وبالبحر : الأمصار والقرى ، وفي رواية عن ابن عباس وعكرمة: البحر : الأمصار والقرى ، ما كان منها على جانب نهر .

وقال آخرون : بل المراد بالبر هو البر المعروف ، وبالبحر : البحر المعروف .

وقال زيد [(٤)] بن رُفَيْع : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ ﴾، يعني :انقطاع المطر عن البر يعقبه القحط ، وعن البحر تعمى [(٥)] دوابه . رواه ابن أبي حاتم .

وقال : حدثنا محمد بن عبد اللّه بن يزيد المقرى ، عن سفيان ، عن حُمَيد بن قيس الأعرج ، عن مجاهد : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ ، قال : فساد البر : قتل ابن آدم ، وفساد[(٦)] البحر : أخذ السفينة غصبا .

وقال عطاء الخراساني : المراد بالبر: ما فيه من المدائن والقرى ،وبالبحر : جزائره .

---

(١) في أ : « الرزاق » . (٢) في ت : « كما روى » .
(٣) المسند (٣/٤٦٩) .
(٤) في أ : « يزيد ». (٥) في ت ، ف : « يعني » . (٦) في ت ، ف : « وفي » .

والقول الأول أظهر ، وعليه الأكثر ، ويؤيده ما ذكره محمد بن إسحاق فى السيرة : أن رسول اللّه ﷺ صَالَح ملك أيلة ، وكتب له ببحره ، يعنى : ببلده .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاس ﴾ أى : بان النقص فى[1] الثمار والزروع بسبب المعاصى .

وقال أبو العالية : من عصى اللّه فى الأرض فقد أفسد فى الأرض ؛ لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة ؛ ولهذا جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود : « لَحَدٌّ يقام فى الأرض أحبّ إلى أهلها من أن يمطروا أربعين صباحا » [2] . والسبب فى هذا أن الحدود إذا أقيمت ، انكف الناس ـ أو أكثرهم ، أو كثير منهم ـ عن تعاطى المحرمات ، وإذا ارتكبت المعاصى كان سببا فى محاق [3] البركات من السماء والأرض ؛ ولهذا إذا نزل عيسى [ابن مريم] [4]، عليه السلام ، فى آخر الزمان فحكم بهذه الشريعة المطهرة فى ذلك الوقت ، من قتل الخنزير وكسر الصليب ووضع الجزية ، وهو تركها ـ فلا يقبل إلا الإسلام أو السيف، فإذا أهلك اللّه فى زمانه الدجال وأتباعه ويأجوج ومأجوج ، قيل للأرض : أخرجى بركاتك. فيأكل من الرمانة الفئَام من الناس ، ويستظلون بقَحْفها ، ويكفى لبن اللّقحة الجماعةَ من الناس . وما ذاك إلا ببركة تنفيذ شريعة رسول اللّه ﷺ ، فكلما أقيم العدل كثرت البركات والخير؛ [ولهذا] [5] ثبت فى الصحيح [6] : « إن الفاجر إذا مات تستريح منه العباد والبلاد ، والشجر والدواب » [7] .

ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل : حدثنا محمد والحسين قالا : حدثنا عَوْف ، عن أبى قحذم قال[8] : وجد رجل فى زمان زياد ـ أو : ابن زياد ـ صرة فيها حَبّ ، يعنى من بر أمثال النوى ، عليه مكتوب : هذا نبت فى زمان كان يعمل فيه بالعدل[9] .

وروى مالك ، عن زيد بن أسلم : أن المراد بالفساد هاهنا الشرك . وفيه نظر .

وقوله : ﴿ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُون ﴾ أى : يبتليهم بنقص الأموال والأنفس والثمرات ، اختبارا منه ، ومجازاة على صنيعهم ، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُون ﴾ أى : عن المعاصى ، كما قال تعالى : ﴿ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُون ﴾ [الأعراف : ١٦٨] .

ثم قال تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْل ﴾ أى: من قبلكم ، ﴿ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِين ﴾ أى : فانظروا ماذا حل بهم من تكذيب الرسل وكفر النعم.

---

(١) فى ت : « من » .

(٢) رواه أحمد فى المسند (٢/ ٣٦٢) ،والنسائى فى السنن (٨/ ٧٥) من حديث أبى هريرة ، ولم يقع لى فى سنن أبى داود .

(٣) فى ت ، ف ، أ : « حصول » . (٤) زيادة من ت ، ف ، أ . (٥) زيادة من أ .

(٦) فى ت ، أ : « الصحيحين » .

(٧) صحيح البخارى برقم (٦٥١٢) .

(٨) فى ت : « وروى أنه » .

(٩) المسند (٢/ ٢٩٦) .

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (٤٣) مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٤٥) ﴾ .

يقول تعالى آمراً عباده بالمبادرة إلى الاستقامة فى طاعته ، والمبادرة إلى الخيرات :﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ** ﴾ أى : يوم القيامة، إذا أراد كونه فلا راد له ، ﴿ **يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ** ﴾ أى :يتفرقون ،ففريق فى الجنة وفريق فى السعير ؛ولهذا قال :﴿ **مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ . لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ** ﴾ أى : يجازيهم مجازاة الفضل : الحسنة بعشر أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف ، إلى ما يشاء اللّه ،﴿ **إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ** ﴾ . ومع هذا هو العادل فيهم ، الذى لا يجور .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) ﴾ .

يذكر تعالى نعَمه على خلقه ، فى إرساله الرياح مبشرات بين يدى رحمته ، بمجىء الغيث (١) عقيبها ؛ ولهذا قال : ﴿ **وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ** ﴾ أى : المطر الذى ينزله فيحيى به العباد والبلاد ، ﴿ **وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ** ﴾ أى : فى البحر ، وإنما سيرها بالريح ، ﴿ **وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ** ﴾ أى : فى التجارات والمعايش ، والسير من إقليم إلى إقليم ، وقطر إلى قطر،﴿ **وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ أى : تشكرون اللّه على ما أنعم به عليكم من النعم الظاهرة والباطنة ، التى لا تعد ولا تحصى .

ثم قال : ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا** ﴾ هذه تسلية من اللّه لعبده ورسوله محمد ، صلوات اللّه وسلامه عليه (٢) ، بأنه وإن كذبه كثير من قومه ومن الناس ، فقد كُذّبت الرسل المتقدمون مع ما جاؤوا أممهم به من الدلائل الواضحات ، ولكن اللّه انتقم ممن كذبهم وخالفهم ، وأنجى المؤمنين بهم ،﴿ **وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ ،هو حق أوجبه على نفسه الكريمة ، تكرما وتفضلا ،كقوله تعالى:﴿ **كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ** ﴾ [الأنعام: ٥٤].

قال (٣) ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا ابن نفيل ، حدثنا موسى بن أعين ، عن ليث ،عن شَهْر بن حَوْشَب (٤) ، عن أم الدرداء ، عن أبى الدرداء قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « ما

(١) فى ت ، ف : « بمجىء المطر والغيث » .
(٢) فى ت : « ﷺ » .
(٣) فى ت : « وروى » .
(٤) فى ت : « بإسناده » .

من امرئ مسلم يَرُدُّ عن عرض أخيه ، إلا كان حقا على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة » . ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (٤٩) فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠) وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (٥١) ﴾ .

يبين تعالى كيف يخلق السحاب التى (٢) ينزل منها الماء (٣) فقال : ﴿ اللَّهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ ، إما من البحر على ما ذكره غير واحد ، أو مما يشاء الله عز وجل ، ﴿ فَيَبْسُطُهُ فِى السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ أى : يَمُدُّه فيكثّرهُ ويُنَمّيه ، ويجعل من القليل كثيرا ، ينشئ سحابة فترى فى رأى العين مثل الترس ، ثم يبسطها حتى تملأ أرجاء الأفق . وتارة يأتى السحاب من نحو البحر ثقالا مملوءة ماء ، كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ٥٧] ، وكذلك قال ههنا : ﴿ اللَّهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِى السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا ﴾ .

قال مجاهد ، وأبو عمرو بن العلاء ، ومطر الورّاق ، وقتادة : يعنى قطعا .

وقال غيره : متراكما ، قاله الضحاك .

وقال غيره : أسود من كثرة الماء ، تراه مدلهما ثقيلا قريبا من الأرض .

وقوله : ﴿ فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ﴾ أى : فترى المطر ـ وهو القطر ـ يخرج من بين ذلك السحاب ، ﴿ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ أى : لحاجتهم إليه يفرحون بنزوله عليهم ووصوله إليهم .

وقوله : ﴿ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴾ ، معنى الكلام : أن هؤلاء القوم الذين أصابهم هذا المطر كانوا قَنطين أزلين من نزول المطر إليهم قبل ذلك ، فلما جاءهم ، جاءهم على فاقة ، فوقع منهم موقعا عظيما .

وقد اختلف النحاة فى قوله : ﴿ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴾ ، فقال ابن جرير : هو

---

(١) ورواه أحمد فى المسند (٦/٤٤٨) من طريق إسماعيل ، وابن أبى الدنيا فى الغيبة والنميمة برقم (١٠٢) من طريق جرير كلاهما عن ليث ــ وهو ابن أبى سليم ــ به ولم يذكر الآية .

(٢) فى أ : « الذى » . (٣) فى ت : « المطر » .

تأكيد . وحكاه عن بعض أهل العربية .

وقال آخرون :[وإن كانوا] (١) من قبل أن ينزل عليهم المطر ،﴿ مِّن قَبْلِه ﴾ أى : الإنزال﴿ لَمُبْلِسِينَ ﴾ .

ويحتمل أن يكون ذلك من دلالة التأسيس ، ويكون معنى الكلام : أنهم كانوا محتاجين إليه قبل نزوله ، ومن قبله ـ أيضا ـ قد فات عندهم نزوله وقتا بعد وقت ، فترقبوه فى إبانه فتأخر ، فمضت مدة فترقبوه فتأخر ، ثم جاءهم بغتة بعد الإياس منه والقنوط ، فبعد ما كانت أرضهم مقشعرة هامدة أصبحت وقد اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج ؛ ولهذا قال :﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ ﴾ يعنى : المطر ، ﴿ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ .

ثم نبه بذلك على إحياء الأجساد بعد موتها وتفرقها وتمزقها ، فقال : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾ أى: إن الذى فعل ذلك لقادر على إحياء الأموات ،﴿ إنه عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِير ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾ ، يقول :﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا ﴾ ،يابسة على الزرع الذى زرعوه ، ونبت وشب واستوى على سوقه ، فرأوه مصفرا ، أى : قد اصفر وشرع فى الفساد ، لظلوا من بعده ، أى : بعد هذا الحال يكفرون ، أى : يجحدون ما تقدم [إليهم] (٢) من النعم ، كما قال :﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ . أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ . لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ . إِنَّا لَمُغْرَمُونَ . بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ [الواقعة : ٦٣ ـ ٦٧] .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا محمد بن عيسى بن الطباع ، حدثنا هُشَيْم (٣) ، عن يَعْلَى ابن عطاء ، عن أبيه (٤) ، عن عبد اللّه بن عمرو ، قال : الرياح ثمانية ، أربعة منها رحمة ، وأربعة عذاب ، فأما الرحمة فالناشرات والمبشرات والمرسلات والذاريات . وأما العذاب فالعقيم والصرصر ، وهما فى البر ، والعاصف والقاصف ، وهما فى البحر [فإذا شاء سبحانه وتعالى حركه بحركة الرحمة فجعله رخاء ورحمة وبشرى بين يدى رحْمته ، ولاقحاً للسحاب تلقحه بحمله الماء ، كما يلقح الذكر الأنثى بالحمل ، وإن شاء حركه بحركة العذاب فجعله عقيماً ، وأودعه عذاباً أليماً ،وجعله نقمة على من يشاء من عباده ، فيجعله صرصراً وعاتياً ومفسداً لما يمر عليه ، والرياح مختلفة فى مهابها : صبا ودبور ، وجنوب ،وشمال ، وفى منفعتها وتأثيرها أعظم اختلاف ، فريح لينة رطبة تغذى النبات وأبدان الحيوان ، وأخرى تجففه ،وأخرى تهلكه وتعطبه ،وأخرى تسيره وتصلبه ،وأخرى توهنه وتضعفه](٥).

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو(٦) عبيد اللّه ابن أخى ابن وهب ، حدثنا عمى ، حدثنا عبد اللّه ابن عَيّاش (٧) ، حدثنى عبد اللّه بن سليمان ، عن دراج ، عن عيسى بن هلال الصدَفى ، عن عبد اللّه بن عمرو قال : قال رسول اللّه ﷺ : « الريح مسخرة من الثانية ـ يعنى الأرض الثانية ـ فلما أراد اللّه أن يهلك عادا ، أمر خازن الريح أن يرسل عليهم ريحا تهلك عاداً ، فقال : يارب ، أرسل عليهم من الريح قدر منخر الثور . قال له الجبار تبارك وتعالى : لا ، إذاً تكفأ الأرض وما عليها ،

---

(١) زيادة من أ. (٢) زيادة من أ . (٣) فى أ : « هاشم » .
(٤) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بإسناده » . (٥) زيادة من ت .
(٦) فى أ : « ابن » . (٧) فى أ : « عباس ».

ولكن أرسل عليهم بقدر خاتم » ، فهى التى قال الله فى كتابه : ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ (١) [الذاريات : ٤٢]. هذا حديث غريب ، ورفعه منكر . والأظهر أنه من كلام عبد الله ابن عمرو ، رضى الله عنه .

﴿ فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٥٣) ﴾.

يقول تعالى : كما أنك ليس فى قدرتك أن تسمع الأموات فى أجداثها ، ولا تبلغ (٢) كلامَك الصم الذين لا يسمعون ، وهم مع ذلك مُدْبِرُون عنك ، كذلك لا تقدر على هداية العميان عن الحق، وردهم عن ضلالتهم ، بل ذلك إلى الله تعالى ، فإنه بقدرته يسمع الأموات أصوات الأحياء إذا شاء ، ويهدى من يشاء ، ويضل من يشاء ، وليس ذلك لأحد سواه ؛ ولهذا قال : ﴿ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أى : خاضعون مستجيبون مطيعون ، فأولئك هم الذين يستمعون (٣) الحق ويتبعونه ، وهذا حال المؤمنين ، والأول مَثَلُ الكافرين ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٦] .

وقد استدلت أم المؤمنين عائشة ، رضى الله عنها ، بهذه الآية : ﴿ إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾، على توهيم عبد الله بن عمر فى روايته مخاطبة النبى ﷺ القتلى الذين ألقوا فى قَلِيب بدر (٤) ، بعد ثلاثة أيام ، ومعاتبته إياهم وتقريعه لهم ، حتى قال له عمر : يا رسول الله ، ما تخاطب من قوم قد جَيَّفوا؟ فقال : « والذى نفسى بيده ، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكن لا يجيبون » . وتأولته عائشة على أنه قال : « إنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق » (٥) .

وقال قتادة : أحياهم الله له حتى سمعوا مقالته تقريعاً وتوبيخاً ونقمة .

---

(١) سيأتى تخريج الحديث عند تفسير الآية : ٤٢ من سورة الذاريات .

(٢) فى ت : « ولا يبلغ » . (٣) فى ت : « يسمعون » .

(٤) فى ت ، أ : « فى روايته أن النبى ﷺ خاطب القتلى الذين ألقوا فى القليب ،قليب بدر » .

(٥) قال الإمام الزركشى رحمه الله فى كتابه « الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة » ص (١٢١) : « أخرج البخارى عن ابن عمر قال : وقف النبى ﷺ على قَلِيب بدر فقال : « هَلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقا » ، ثم قال : « إنهم الآن يسمعون ما أقول » ، فذكر لعائشة فقالت : إنما قال النبى ﷺ : « إنهم ليعلمون الآن أن ما كنت أقول لهم حق » . قال السهيلى فى الروض : « وعائشة لم تحضر، وغيرها ممن حضر أحفظ للفظه ﷺ ، وقد قالوا له: يا رسول الله ، أتخاطب قوماً قد جيفوا أو أجيفوا ؟ فقال : « ما أنتم بأسمع لما أقول منهم » ، وإذا جاز أن يكونوا فى تلك الحال عالمين ،جاز أن يكونوا سامعين ، إما بآذان رؤوسهم ،إذا قلنا : إن الروح تعاد إلى الجسد أو إلى بعضه عند المسألة. وهو قول جمهور أهل السنة ، وإما بأذن القلب أو الروح على مذهب من يقول بتوجه السؤال إلى الروح من غير رجوع إلى الجسد أو إلى بعضه . قال : وقد روى أن عائشة احتجت بقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴾ وهذه الآية كقوله : ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ ﴾ أى : إن الله هو الذى يهدى ويوفق ويدخل الموعظة إلى آذان القلوب لا أنت ، وجعل الكفار أمواتاً وصمّا على جهة التشبيه بالأموات وبالصم ، فالله هو الذى يسمعهم على الحقيقة إذا شاء ، فلا تعلق لها فى الآية لوجهين : أحدهما : أنها إنما نزلت فى دعاء الكفار إلى الإيمان ، الثانى : أنه إنما نفى عن نبيه أن يكون هو المسمع لهم، وصدق الله ، فإنه لايسمعهم إذا شاء إلا هو » .

والصحيح عند العلماء رواية ابن عمر ، لما لها من الشواهد على صحتها من وجوه كثيرة ، من أشهر ذلك ما رواه ابن عبد البر مصححاً [له] (١) ، عن ابن عباس مرفوعاً :« ما من أحد يمر بقبر أخيه المسلم ،كان يعرفه فى الدنيا ، فيسلم عليه ،إلا رد اللّه عليه روحه ، حتى يرد عليه السلام» (٢).

[وثبت عنه ﷺ أن الميت يسمع قرع نعال المشيعين له ، إذا انصرفوا عنه ، وقد شرع النبى ﷺ لأمته إذا سلموا على أهل القبور أن يسلموا عليهم سلام من يخاطبونه فيقول المسلم : السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل ، ولولا هذا الخطاب لكانوا بمنزلة خطاب المعدوم والجماد، والسلف مجمعون على هذا ،وقد تواترت الآثار عنهم بأن الميت يعرف بزيارة الحى له ويستبشر، فروى ابن أبى الدنيا فى كتاب القبور عن عائشة ، رضى اللّه عنها ، قالت : قال رسول اللّه ﷺ : « ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده ، إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم » .

وروى عن أبى هريرة ، رضى اللّه عنه ، قال : إذا مر رجل بقبر يعرفه فسلم عليه ، رد عليه السلام .

وروى ابن أبى الدنيا بإسناده عن رجل من آل عاصم الجَحْدَرى قال : رأيت عاصماً الجحدرى فى منامى بعد موته بسنتين ، فقلت : أليس قد متّ ؟ قال : بلى ، قلت : فأين أنت ؟ قال : أنا ـ واللّه ـ فى روضة من رياض الجنة ، أنا ونفر من أصحابى نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى بكر بن عبد اللّه المزنى ، فنتلقى أخباركم . قال : قلت : أجسامكم أم أرواحكم ؟ قال : هيهات ! قد بليت الأجسام ، وإنما تتلاقى الأرواح ، قال : قلت : فهل تعلمون بزيارتنا إياكم ؟ قال : نعلم بها عشية الجمعة ويوم الجمعة كله ويوم السبت إلى طلوع الشمس ، قال : قلت : فكيف ذلك دون الأيام كلها؟ قال : لفضل يوم الجمعة وعظمته .

قال : وحدثنا محمد بن الحسين ، ثنا بكر بن محمد ، ثنا حسن القصاب قال : كنت أغدو مع محمد بن واسع فى كل غداة سبت حتى نأتى أهل الجبان ، فنقف على القبور فنسلم عليهم ، وندعو لهم ثم ننصرف ، فقلت ذات يوم : لو صيرت هذا اليوم يوم الاثنين ؟ قال : بلغنى أن الموتى يعلمون بزوارهم يوم الجمعة ويوماً قبلها ويوماً بعدها . قال : ثنا محمد ، ثنا عبد العزيز بن أبان قال : ثنا سفيان الثورى قال : بلغنى عن الضحاك أنه قال : من زار قبراً يوم السبت قبل طلوع الشمس علم الميت بزيارته ، فقيل له : وكيف ذلك ؟ قال : لمكان يوم الجمعة .

حدثنا خالد بن خِداَش ، ثنا جعفر بن سليمان ،عن أبى التَّيَّاح يقول : كان مُطَرِّف يغدو ، فإذا كان يوم الجمعة أدلج . قال : وسمعت أبا التياح يقول : بلغنا أنه كان ينزل بغوطة ، فأقبل ليلة حتى إذا كان عند المقابر يقوم وهو على فرسه ، فرأى أهل القبور كل صاحب قبر جالساً على قبره ، فقالوا: هذا مطرف يأتى الجمعة ويصلون عندكم يوم الجمعة ؟ قالوا : نعم ، ونعلم ما يقول فيه الطير . قلت: وما يقولون ؟ قال: يقولون :سلام عليكم ؛ حدثنى محمد بن الحسن ، ثنا يحيى بن أبى بكر،

(١) زيادة من أ .

(٢) الاستذكار لابن عبد البر من طريق بشر بن بكير ،عن الأوزاعى ،عن عطاء ،عن عبيد بن عمير ،عن ابن عباس ،مرفوعاً . ولفظه: « ما من أحد مرَّ بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه فى الدنيا فسلم عليه إلا عرفه ورد عليه السلام » .

ثنا الفضل بن الموفق ابن خال سفيان بن عيينة قال : لما مات أبى جزعت عليه جزعاً شديداً ، فكنت آتى قبره فى كل يوم ، ثم قصرت عن ذلك ما شاء اللّه ، ثم إنى أتيته يوماً ، فبينا أنا جالس عند القبر غلبتنى عيناى فنمت ، فرأيت كأن قبر أبى قد انفرج ، وكأنه قاعد فى قبره متوشح أكفانه ،عليه سِحنَة الموتى ، قال : فكأنى بكيت لما رأيته . قال : يا بنى ، ما أبطأ بك عنى ؟ قلت : وإنك لتعلم بمجيئى؟ قال : ما جئت مرة إلا علمتها ، وقد كنت تأتينى فأسر بك ويسر من حولى بدعائك ، قال : فكنت آتيه بعد ذلك كثيراً .

حدثنى محمد ، حدثنا يحيى بن بَسْطام ، ثنا عثمان بن سُوَيْد الطُّفَاوى قال : وكانت أمه من العابدات ، وكان يقال لها : راهبة ، قال : لما احتضرت رفعت رأسها إلى السماء فقالت : يا ذخرى وذخيرتى من عليه اعتمادى فى حياتى وبعد موتى ، لا تخذلنى عند الموت ولا توحشنى . قال : فماتت . فكنت آتيها فى كل جمعة فأدعو لها وأستغفر لها ولأهل القبور ، فرأيتها ذات يوم فى منامى، فقلت لها : يا أمى ، كيف أنت ؟ قالت : أى بنى ، إن للموت لكربة شديدة ، وإنى بحمد اللّه لفى برزخ محمود يفرش فيه الريحان ، ونتوسد السندس والإستبرق إلى يوم النشور ، فقلت لها : ألك حاجة ؟ قالت : نعم ، قلت : وما هى ؟ قالت : لا تدع ما كنت تصنع من زياراتنا والدعاء لنا ، فإنى لأبشر بمجيئك يوم الجمعة إذا أقبلت من أهلك ، يقال لى : يا راهبة ، هذا ابنك ، قد أقبل ،فأسر ويسر بذلك من حولى من الأموات .

حدثنى محمد ، حدثنا محمد بن عبد العزيز بن سليمان ، حدثنا بشر بن منصور قال : لما كان زمن الطاعون كان رجل يختلف إلى الجبان ، فيشهد الصلاة على الجنائز ، فإذا أمسى وقف على المقابر فقال : آنس اللّه وحشتكم ، ورحم غربتكم ، وتجاوز عن مسيئكم ، وقبل حسناتكم ، لا يزيد على هؤلاء الكلمات ، قال : فأمسيت ذات ليلة وانصرفت إلى أهلى ولم آت المقابر فأدعو كما كنت أدعو ، قال : فبينا أنا نائم إذا بخلق قد جاؤونى ، فقلت : ما أنتم وما حاجتكم ؟ قالوا : نحن أهل المقابر ، قلت : ما حاجتكم ؟ قالوا : إنك عودتنا منك هدية عند انصرافك إلى أهلك ، قلت : وما هى ؟ قالوا : الدعوات التى كنت تدعو بها ، قال : قلت : فإنى أعود لذلك ، قال : فما تركتها بعد .

وأبلغ من ذلك أن الميت يعلم بعمل الحى من أقاربه وإخوانه . قال عبد اللّه بن المبارك : حدثنى ثور بن يزيد ، عن إبراهيم ، عن أيوب قال : تعرض أعمال الأحياء على الموتى ، فإذا رأوا حسناً فرحوا واستبشروا وإن رأوا سوءاً قالوا : اللهم راجع به .

وذكر ابن أبى الدنيا عن أحمد بن أبى الحوارى قال : ثنا محمد أخى قال : دخل عباد بن عباد على إبراهيم بن صالح وهو على فلسطين فقال : عظنى ، قال : بم أعظك ،أصلحك اللّه ؟ بلغنى أن أعمال الأحياء تعرض على أقاربهم من الموتى ، فانظر ما يعرض على رسول اللّه ﷺ من عملك ، فبكى إبراهيم حتى أخضل لحيته . قال ابن أبى الدنيا : وحدثنى محمد بن الحسين ، ثنا خالد بن عمرو الأموى ، ثنا صدقة بن سليمان الجعفرى قال : كانت لى شِرَّة سَمِجَة ، فمات أبى فتبت وندمت على ما فرطت ، ثم زللت أيما زلة ، فرأيت أبى فى المنام ، فقال : أىَ بنى ،ما كان أشد فرحى بك

وأعمالك تعرض علينا ، فنشبهها بأعمال الصالحين ، فلما كانت هذه المرة استحييت لذلك حياء شديداً، فلا تخزنى فيمن حولى من الأموات ، قال : فكنت أسمعه بعد ذلك يقول فى دعائه فى السحر ،وكان جاراً لى بالكوفة : أسألك إيابة لا رجعة فيها ولا حور ، يا مصلح الصالحين ،وياهادى المضلين ، ويا أرحم الراحمين .

وهذا باب فيه آثار كثيرة عن الصحابة . وكان بعض الأنصار من أقارب عبد اللّه بن رواحة يقول: اللهم إنى أعوذ بك من عمل أخزى به عند عبد اللّه بن رواحة ، كان يقول ذلك بعد أن استشهد عبد اللّه .

وقد شرع السلام على الموتى ، والسلام على من لم يشعر ولا يعلم بالمسلم محال ، وقد علم النبى ﷺ أمته إذا رأوا القبور أن يقولوا :« سلام عليكم أهل الديار من المؤمنين ،وإنا إن شاء اللّه بكم لاحقون ، يرحم اللّه المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين ، نسأل اللّه لنا ولكم العافية » ، فهذا السلام والخطاب والنداء لموجود يسمع ويخاطب ويعقل ويرد ،وإن لم يسمع المسلم الرد ،واللّه أعلم][(١)].

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤) ﴾.

ينبه تعالى على تنقل الإنسان فى أطوار الخلق حالا بعد حال ، فأصله من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة ، ثم يصير عظاما ثم يُكسَى لحما ، ويُنفَخ فيه الروح ، ثم يخرج من بطن أمه ضعيفا نحيفاً واهن القوى . ثم يشب قليلا قليلا حتى يكون صغيراً ، ثم حدَثا ، ثم مراهقاً ، ثم شابا . وهو القوة بعد الضعف ، ثم يشرع فى النقص فيكتهل [(٢)] ، ثم يشيخ ثم يهرم ، وهو الضعف بعد القوة . فتضعف الهمة والحركة والبطش ، وتشيب اللِّمَّة ، وتتغير الصفات الظاهرة والباطنة ؛ ولهذا قال : **﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾** أى: يفعل ما يشاء ويتصرف فى عبيده بما يريد ، **﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾**.

قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، عن فضيل ويزيد ، حدثنا فضيل بن مرزوق [(٣)] ، عن عطية العوفى، قال : قرأت على ابن عمر : **﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا [(٤)] ﴾** ،فقال : **﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضُعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضُعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضُعْفًا ﴾** ،ثم قال : قرأتُ على رسول اللّه ﷺ كما قرأت على ، فأخذ على كما أخذتُ عليك .

ورواه أبو داود والترمذى ـ وحَسَّنه ـ من حديث فضيل ، به[(٥)] .ورواه أبو داود من حديث عبد اللّه بن جابر ، عن عطية ، عن أبى سعيد ، بنحوه [(٦)] .

---

(١) زيادة من ت ، أ .
(٢) فى ت ، ف ، أ : « فيتكهل » .
(٣) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده ».
(٤) فى أ : «ضعفا وشيبة » .
(٥) المسند (٢/٥٨) ،وسنن أبى داود برقم (٣٩٧٨) ،وسنن الترمذى برقم (٢٩٣٦) .
(٦) سنن أبى داود برقم (٣٩٧٩) .

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٥٦) فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧) ﴾.

يخبر تعالى عن جهل الكفار فى الدنيا والآخرة ، ففى الدنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الأوثان ، وفى الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضا ، فمنه إقسامهم باللّه أنهم ما لبثوا فى الدنيا إلا ساعة واحدة، ومقصودهم هم بذلك عدم قيام الحجة عليهم ، وأنهم لم يُنْظَروا حتى يُعذَر إليهم . قال اللّه تعالى : ﴿ **كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُون . وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْث** ﴾ أى : فيرد عليهم المؤمنون العلماء فى الآخرة ، كما أقاموا عليهم حجة اللّه فى الدنيا ، فيقولون لهم حين يحلفون ما لبثوا غير ساعة : ﴿ **لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّه** ﴾ أى : فى كتاب الأعمال ، ﴿ **إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْث** ﴾ أى: من يوم خلقتم إلى أن بعثتم ، ﴿ **وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُون** ﴾.

قال اللّه تعالى : ﴿ **فَيَوْمَئِذ** ﴾ أى : يوم القيامة، ﴿ **لاَّ يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُم** ﴾ أى : [لا ينفعهم][1] اعتذارهم عما فعلوا ، ﴿ **وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُون** ﴾ أى : ولاهم يرجعون إلى الدنيا ، كما قال تعالى: ﴿ **وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِين** ﴾ [فصلت: ٢٤].

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ (٥٨) كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (٥٩) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ (٦٠) ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَل** ﴾ أى : قد بينا لهم الحق ، ووضحناه لهم ، وضربنا لهم فيه الأمثال ليتبينوا الحق ويتبعوه . ﴿ **وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ** ﴾ أى : لو رأوا أى آية كانت ، سواء كانت باقتراحهم أو غيره ، لا يؤمنون بها ، ويعتقدون أنها سحر وباطل ، كما قالوا فى انشقاق القمر ونحوه ، كما قال [اللّه] [2] تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ** ﴾ [يونس : ٩٦ ، ٩٧] ؛ ولهذا قال ههنا : ﴿ **كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ . فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ** ﴾ أى : اصبر على مخالفتهم وعنادهم ، فإن اللّه منجز لك ما وعدك من نصره إياك، وجعله العاقبة لك ولمن اتبعك فى الدنيا والآخرة ، ﴿ **وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُون** ﴾ أى : بل اثبت على ما بعثك اللّه به ، فإنه الحق الذى لا مرية فيه ، ولا تعدل عنه وليس فيما سواه هُدًى يتبع ، بل الحق كله منحصر فيه .

قال سعيد عن قتادة : نادى رجل من الخوارج عليا ، رضى اللّه عنه ، وهو فى الصلاة ـ صلاة

(١ ، ٢) زيادة من أ .

الغداة ـ فقال : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر : ٦٥] ، فأنصت له على حتى فهم ما قال ، فأجابه وهو فى الصلاة: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ﴾. رواه ابن جرير ، وابن أبى حاتم .وقد رواه ابن جرير من وجه آخر فقال :

حدثنا ابن وكيع ، حدثنا يحيى بن آدم ، عن شَرِيك ، عن عثمان بن أبى زُرْعَة ، عن على بن ربيعة قال : نادى رجل من الخوارج عليا وهو فى صلاة الفجر ، فقال :﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ، فأجابه على وهو فى الصلاة : ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ ﴾(١) .

طريق أخرى : قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا على بن الجَعْد ، أخبرنا شريك ، عن عمران بن ظَبْيان ، عن أبى تحيا قال : صلى على (٢) رضى الله عنه ، صلاة الفجر ، فناداه رجل من الخوارج : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾، فأجابه على (٣) ، وهو فى الصلاة : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ ﴾.

[ما روى فى فضل هذه السورة الشريفة ، واستحباب قراءتها فى الفجر] (٤) :

قال الإمام أحمد :حدثنا محمد بن جعفر ، عن شعبة ، عن عبد الملك بن عمير ،سمعت شبيب ـ أبا روح ـ يحدث عن رجل (٥) من أصحاب النبى ﷺ ، أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح ، فقرأ فيها الرّوم فأوهم ، فقال :«إنه يلبس علينا القرآن ، فإن أقواما منكم يصلون معنا لا يحسنون الوضوء، فمن شهد الصلاة معنا فليحسن الوضوء» (٦) .

وهذا إسناد حسن ومتن حسن (٧) ، وفيه سر عجيب ،ونبأ غريب ، وهو أنه ، عليه السلام (٨) ، تأثر بنقصان وضوء من ائتم به ، فدل ذلك أن صلاة المأموم متعلقة (٩) بصلاة الإمام .

[آخر تفسير سورة « الروم »] (١٠)

---

(١) تفسير الطبرى (٢١/٣٨) .
(٢ ، ٣) فى ف ، أ : « على بن أبى طالب » .
(٤) زيادة من ف ، أ .
(٥) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده عن رجل » .
(٦) المسند (٣/ ٤٧١) .
(٧) فى ت : « إسناده حسن ومتنه حسن » .
(٨) فى أ : « ﷺ » .
(٩) فى هـ : « معدوقة » .
(١٠) زيادة من ت .

٣٠ — سورة الروم
(مكية وهى ستون آية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ٣٠ الروم

غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ ٣٠ الروم

فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ ٣٠ الروم

فِى بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ ٣٠ الروم

﴿ سورة الروم ﴾
مكية إلا قوله فسبحان الله الآية . وهى ستون آية

(بسم الله الرحمن الرحيم) (الم) الكلام فيه كالذى مر فى أمثاله من الفواتح الكريمة (غلبت الروم) ١ ، ٢
(فى أدنى الأرض) أى أدنى أرض العرب منهم إذ هى الأرض المعهودة عندهم وهى أطراف الشام ٣
أو فى أدنى أرضهم من العرب على أن اللام عوض عن المضاف إليه قال مجاهد هى أرض الجزيرة وهى أدنى أرض الروم إلى فارس وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما الأردن وفلسطين وقرىء أدانى الأرض (وهم) أى الروم (من بعد غلبهم) أى من بعد مغلوبيتهم وقرىء بسكون اللام وهى لغة كالجلب والجلب (سيغلبون) أى سيغلبون فارس (فى بضع سنين) روى أن فارس غزوا الروم فوافوهم ٤
بأذرعات وبصرى وقيل بالجزيرة كما مر فغلبوا عليهم وبلغ الخبر مكة ففرح المشركون وشمتوا بالمسلمين وقالوا أنتم والنصارى أهل كتاب ونحن وفارس أميون وقد ظهر إخواننا على إخوانكم فلنظهرن عليكم فقال أبو بكر رضى الله عنه لا يقرر الله أعينكم فو الله ليظهرن الروم على فارس بعد بضع سنين فقال له أبى بن خلف اللعين كذبت اجعل بيننا أجلا أناحبك عليه فناحبه على عشر قلائص من كل منهما وجعلا الأجل ثلاث سنين فأخبر به أبو بكر رسول الله ﷺ فقال البضع ما بين الثلاث إلى التسع فزيدوه فى الخطر وماده فى الأجل فجعلاها مائة قلوص إلى تسع سنين ومات أبى من جرح رسول الله ﷺ وظهرت الروم على فارس عند رأس سبع سنين وذلك يوم الحديبية وقيل كان النصر للفريقين يوم بدر فأخذ أبو بكر الخطر من ذرية أبى فجاء به رسول الله ﷺ فقال تصدق به وكان ذلك قبل تحريم القمار وهذه الآيات من البينات الباهرة الشاهدة بصحة النبوة وكون القرآن من عند الله عز وجل حيث أخبرت عن الغيب الذى لا يعلمه إلا العليم الخبير وقرىء غلبت على البناء للفاعل وسيغلبون على البناء للمفعول والمعنى أن الروم

بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ٣٠ الروم

وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ٣٠ الروم

يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ٣٠ الروم

غلبت على ريف الشام وسيغلبهم المسلمون وقد غزاهم المسلمون فى السنة التاسعة من نزولها ففتحوا بعض بلادهم فإضافة الغلب حينئذ إلى الفاعل (لله الأمر من قبل ومن بعد) أى فى أول الوقتين وفى آخرهما حين غلبوا وحين يغلبون كأنه قيل من قبل كونهم غالبين وهو وقت كونهم مغلوبين ومن بعد كونهم مغلوبين وهو وقت كونهم غالبين والمعنى أن كلا من كونهم مغلوبين أولا وغالبين آخراً ليس إلا بأمر الله تعالى وقضائه وتلك الأيام نداولها بين الناس وقرىء من قبل ومن بعد بالجر من غير تقدير مضاف إليه واقتطاعه كأنه قيل قبلا وبعداً بمعنى أولا وآخراً (ويومئذ) أى يوم إذ يغلب الروم على فارس ويحل

٥ ما وعده الله تعالى من غلبتهم (يفرح المؤمنون) (بنصر الله) وتغليبه من له كتاب على من لا كتاب له وغيظ من شمت بهم من كفار مكة وكون ذلك من دلائل غلبة المؤمنين على الكفار وقيل نصر الله إظهار صدق المؤمنين فيما أخبروا به المشركين من غلبة الروم على فارس وقيل نصره تعالى أنه ولى بعض الظالمين بعضاً وفرق بين كلمتهم حتى تناقصوا وتفانوا وفل كل منهم شوكة الآخر وفى ذلك قوة وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه وافق ذلك يوم بدر وفيه من نصر الله العزيز للمؤمنين وفرحهم بذلك مالا يخفى

والأول هو الأنسب لقوله تعالى (ينصر من يشاء) أى من يشاء أن ينصره من عباده على عدوه ويغلبه عليه فإنه استئناف مقرر لمضمون قوله تعالى لله الأمر من قبل ومن بعد (وهو العزيز) المبالغ فى العزة

والغلبة فلا يعجزه من يشاء أن ينصر عليه كائناً من كان (الرحيم) المبالغ فى الرحمة فينصر من يشاء أن ينصره أى فريق كان والمراد بالرحمة هى الدنيوية أما على القراءة المشهورة فظاهر لما أن كلا الفريقين لا يستحق الرحمة الأخروية وأما على القراءة الأخيرة فلأن المسلمين وإن كانوا مستحقين لها لكن المراد

٦ ههنا نصرهم الذى هو من آثار الرحمة الدنيوية وتقديم وصف العزة لتقدمه فى الاعتبار (وعد الله) مصدر مؤكد لنفسه لأن ماقبله فى معنى الوعد كأنه قيل وعد الله وعداً (لا يخلف الله وعده) أى وعد كان مما يتعلق بالدنيا والآخرة لاستحالة الكذب عليه سبحانه وإظهار الاسم الجليل فى موقع الإضمار لتعليل الحكم وتفخيمه والجملة استئناف مقرر لمعنى المصدر وقد جوز أن تكون حالا منه فيكون كالمصدر الموصوف كأنه قيل وعد الله وعداً غير مخلف (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أى ماسبق من شئونه

٧ تعالى (يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا) وهو مايشاهدونه من زخارفها وملاذها وسائر أحوالها الموافقة لشهواتهم الملائمة لأهوائهم المستدعية لانهماكهم فيها وعكوفهم عليها لا تمتعهم بزخارفها وتنعمهم بملاذها كما قيل فإنهما ليسا مما علموه منها بل من أفعالهم المترتبة على علومهم وتنكير ظاهراً للتحقير والتخسيس

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ ٣٠ الروم

دون الواحدة كما توهم أى يعلمون ظاهراً حقيراً خسيساً من الدنيا (وهم عن الآخرة) التى هى الغاية
القصوى والمطلب الأسنى (هم غافلون) لا يخطرونها بالبال ولا يدركون من الدنيا مايؤدى إلى معرفتها *
من أحوالها ولا يتفكرون فيها كما سيأتى والجملة معطوفة على يعلمون وإيرادها اسمية الدلالة على
استمرار غفلتهم ودوامها وهم الثانية تكرير للأولى أو مبتدأ وغافلون خبره والجملة خبر الأولى وهو على
الوجهين مناد على تمكن غفلتهم عن الآخرة المحققة لمقتضى الجملة المتقدمة تقريراً لجهالتهم وتشبيهاً لهم
بالبهائم المقصور إدراكها من الدنيا على ظواهرها الخسيسة دون أحوالها التى هى مبادى العلم بأمور
الآخرة وإشعاراً بأن العلم المذكور وعدم العلم رأساً سيان (أولم يتفكروا) إنكار واستقباح لقصر ٨
نظرهم على ماذكر من ظاهر الحياة الدنيا مع الغفلة عن الآخرة والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام
وقوله تعالى (فى أنفسهم) ظرف للتفكر وذكره مع ظهور استحالة كونه فى غيرها لتحقيق أمره
وتصوير حال المتفكرين وقوله تعالى (ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما) الخ متعلق إما *
بالعلم الذى يؤدى إليه التفكر ويدل عليه أو بالقول الذى يترتب عليه كما فى قوله تعالى ويتفكرون فى
خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا أى أعلموا ظاهر الحياة الدنيا فقط أو أقصروا النظر
عليه ولم يحدثوا التفكر فى قلوبهم فيعلموا أنه تعالى ما خلقهما وما بينهما من المخلوقات التى هم من جملتها
ملتبسة بشىء من الأشياء (إلا) ملتبسة (بالحق) أو يقولوا هذا القول معترفين بمضمونه إثر ما علموه *
والمراد بالحق هو الثابت الذى يحق أن يثبت لا محالة لابتنائه على الحكمة البالغة والغرض الصحيح الذى هو
استشهاد المكلفين بذواتها وصفاتها وأحوالها المتغيرة على وجود صانعها عزوجل ووحدته وعلمه وقدرته
وحكمته واختصاصه بالمعبودية وصحة أخباره التى من جملتها إحياؤهم بعد الفناء بالحياة الأبدية ومجازاتهم
بحسب أعمالهم غب ماتبين المحسن من المسىء وامتازت درجات أفراد كل من الفريقين حسب امتياز
طبقات علومهم واعتقاداتهم المترتبة على أنظارهم فيما نصب فى المصنوعات من الآيات والدلائل
والأمارات والمخايل كما نطق به قوله تعالى وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه
على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا فإن العمل غير مختص بعمل الجوارح ولذلك فسره ﷺ بقوله أيكم
أحسن عقلا وأورع عن محارم الله وأسرع فى طاعة الله وقد مر تحقيقه فى أوائل سورة هود عليه السلام
وقوله تعالى (وأجل مسمى) عطف على الحق أى وبأجل معين قدره الله تعالى لبقائها لا بد لها من أن تنتهى *
إليه لا محالة وهو وقت قيام الساعة هذا وقد جوز أن يكون قوله تعالى فى أنفسهم صلة للتفكر على معنى
أولم يتفكروا فى أنفسهم التى هى أقرب المخلوقات إليهم وهم أعلم بشئونها وأخبر بأحوالها منهم بأحوال
ماعداها فيتدبروا ما أودعها الله تعالى ظاهراً وباطناً من غرائب الحكم الدالة على التدبير دون الإهمال

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ٣٠ الروم

ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (١٠) ٣٠ الروم

وأنه لابد لها من انتهاء إلى وقت يجازيها فيه الحكيم الذى دبر أمرها على الإحسان إحساناً وعلى الإساءة مثلها حتى يعلموا عند ذلك أن سائر الخلائق كذلك أمرها جار على الحكمة والتدبير وأنه لابد لها من الانتهاء إلى ذلك الوقت وأنت خبير بأن أمر معاد الإنسان ومجازاته بما عمل من الإساءة والإحسان هو المقصود بالذات والمحتاج إلى الإثبات لجعله ذريعة إلى إثبات معاد ما عداه مع كونه بمنزل من الجزاء لعكيس الأمر فتدبر وقوله تعالى (وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون) تذييل مقرر لما قبله ببيان أن أكثرهم غير مقتصرين على ماذكر من الغفلة عن أحوال الآخرة والإعراض عن التفكر فيما يرشدهم إلى معرفتها من خلق السموات والأرض وما بينهما من المصنوعات بل هم منكرون جاحدون بلقاء حسابه تعالى وجزائه بالبعث (أولم يسيروا) توبيخ لهم بعدم اتعاظهم بمشاهدة

٩ أحوال أمثالهم الدالة على عاقبتهم ومآلهم والهمزة لتقرير المنفى والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أقعدوا فى أماكنهم ولم يسيروا (فى الأرض) وقوله تعالى (فينظروا) عطف على يسيروا داخل فى حكم التقرير والتوبيخ والمعنى أنهم قد ساروا فى أقطار الأرض وشاهدوا (كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) من الأمم المهلكة كعاد وثمود وقوله تعالى (كانوا أشد منهم قوة) الخ بيان لمبدأ أحوالهم ومآلها يعنى أنهم كانوا أقدر منهم على التمتع بالحياة الدنيا حيث كانوا أشد منهم قوة (وأثاروا الأرض) أى قلبوها للزراعة والحرث وقيل لاستنباط المياه واستخراج المعادن وغير ذلك (وعمروها) أى عمرها أولئك بفنون العمارات من الزراعة والغرس والبناء وغيرها مما يعد عمارة لها (أكثر مما عمروها) أى عمارة أكثر كما وكيفاً وزماناً من عمارة هؤلاء إياها كيف لا وهم أهل واد غير ذى زرع لا تبسط لهم فى غيره وفيه تهكم بهم حيث كانوا مغترين بالدنيا مفتخرين بمتاعها مع ضعف حالهم وضيق عطنهم إذ مدار أمرها على التبسط فى البلاد والتسلط على العباد والتقلب فى أكناف الأرض بأصناف التصرفات وهم ضعفة ملجئون إلى واد لا نفع فيه يخافون أن يتخطفهم الناس (وجاءتهم رسلهم بالبينات) بالمعجزات أو الآيات الواضحات (فما كان الله ليظلمهم) أى فكذبوهم فأهلكهم فما كان الله ليهلكهم من غير جرم يستدعيه من قبلهم والتعبير عن ذلك بالظلم مع أن إهلاكه تعالى إياهم بلا جرم ليس من الظلم فى شىء على ماتقرر من قاعدة أهل السنة لإظهار كمال نزاهته تعالى عن ذلك بإبرازه فى معرض ما يستحيل صدوره عنه تعالى وقد مر فى سورة الأنفال وسورة آل عمران (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) بأن

١٠ اجترءوا على اقتراف مايوجبه من المعاصى العظيمة (ثم كان عاقبة الذين أساءوا) أى عملوا السيئات

ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ٣٠ الروم

وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ ٣٠ الروم

وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ ٣٠ الروم

وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ ٣٠ الروم

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ ٣٠ الروم

وضع الموصول موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالإساءة والإشعار بعلة الحكم (السوأى) أى العقوبة التى
هى أسوأ العقوبات وأفظعها التى هى العقوبة بالنار فإنها تأنيث الأسوأ كالحسنى تأنيث الأحسن أو مصدر
كالبشرى وصف به العقوبة مبالغة كأنها نفس السوأى وهى مرفوعة على أنها اسم كان وخبرها عاقبة وقرىء
على العكس وهو أدخل فى الجزالة وقوله تعالى (أن كذبوا بآيات الله) علة لما أشير إليه من تعذيبهم الدنيوى
والأخروى أى لأن كذبوا أو بأن كذبوا بآيات الله المنزلة على رسله عليهم الصلاة والسلام ومعجزاته
الظاهرة على أيديهم وقوله تعالى (وكانوا بها يستهزءون) عطف على كذبوا داخل معه فى حكم العلية وإيراد
الاستهزاء بصيغة المضارع للدلالة على استمراره وتجدده هذا هو اللائق بجزالة النظم الجليل وقد قيل
١١ وقيل (الله يبدأ الخلق) أى ينشئهم (ثم يعيده) بعد الموت بالبعث (ثم إليه ترجعون) إلى موقف الحساب
١٢ والجزاء والالتفات للمبالغة فى الترهيب وقرىء بالياء (ويوم تقوم الساعة) التى هى وقت إعادة الخلق
ورجعهم إليه (يبلس المجرمون) أى يسكتون متحيرين لا ينبسون يقال ناظرته فأبلس إذا سكت وأيس
١٣ من أن يحتج وقرىء بفتح اللام من أبلسه إذا أفحمه وأسكته (ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء) يجيرونهم
من عذاب الله تعالى كما كانوا يزعمونه وصيغة الجمع لوقوعها فى مقابلة الجمع أى لم يكن لواحد منهم شفيع
أصلا (وكانوا بشركائهم كافرين) أى بإلهيتهم وشركتهم لله سبحانه حيث وقفوا على كنه أمرهم وصيغة
الماضى للدلالة على تحققه وقيل كانوا فى الدنيا كافرين بسببهم وليس بذاك إذ ليس فى الإخبار به فائدة
١٤ يعتد بها (ويوم تقوم الساعة) أعيد لتهويله وتفظيع مايقع فيه وقوله تعالى (يومئذ يتفرقون) تهويل
له إثر تهويل وفيه رمز إلى أن التفرق يقع فى بعض منه وضمير يتفرقون لجميع الخلق المدلول عليهم بما
تقدم من بدئهم وإعادتهم ورجعهم لا المجرمون خاصة وليس المراد بتفرقهم افتراق كل فرد منهم عن
الآخر بل تفرقهم إلى فريقى المؤمنين والكافرين كما فى قوله تعالى فريق فى الجنة وفريق فى السعير وذلك
١٥ بعد تمام الحساب وقوله تعالى (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون) تفصيل وبيان
لأحوال ذينك الفريقين والروضة كل أرض ذات نبات وماء ورونق ونضارة وتنكيرها للتفخيم والمراد
بها الجنة والحبور السرور يقال حبره إذا سره سرورا تهلل له وجهه وقيل الحبرة كل نعمة حسنة والتحبير
التحسين واختلفت فيه الأقاويل لاحتماله وجوه جميع المسار فعن ابن عباس ومجاهد يكرمون وعن قتادة

وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ ٣٠ الروم

فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ ٣٠ الروم

وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ ٣٠ الروم

ينعمون وعن ابن كيسان يحلون وعن بكر بن عياش التيجان على رءوسهم وعن وكيع السماع فى الجنة وعن النبى ﷺ أنه ذكر الجنة وما فيها من النعيم وفى آخر القوم أعرابى فقال يارسول الله هل فى الجنة من سماع قال ﷺ ياأعرابى إن فى الجنة لنهراً حافتاه الأبكار من كل بيضاء خوصانية يتغنين بأصوات لم يسمع الخلائق بمثلها قط فذلك أفضل نعيم الجنة قال الراوى فسألت أبا الدرداء رضى الله عنه بم يتغنين قال بالتسبيح وروى إن فى الجنة لأشجارا عليها أجراس من فضة فإذا أراد أهل الجنة السماع بعث الله تعالى ريحاً من تحت العرش فتقع فى تلك الأشجار فتحرك تلك الأجراس بأصوات لو سمعها أهل الدنيا لماتوا
١٦ طرباً (وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا) التى من جملتها هذه الآيات الناطقة بما فصل (ولقاء الآخرة) صرح بذلك مع اندراجه فى تكذيب الآيات للاعتناء بأمره وقوله تعالى (فأولئك) إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة من الكفر والتكذيب بآياته تعالى وبلقاء الآخرة للإيذان بكمال تميزهم بذلك عن غيرهم وانتظامهم فى سلك المشاهدات وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإشعار ببعد منزلتهم فى الشر أى أولئك الموصوفون بما فصل من القبائح (فى العذاب محضرون) على الدوام
١٧،١٨ لا يغيبون عنه أبداً (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون) (وله الحمد فى السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون) إثر ما بين حال فريقى المؤمنين العاملين للصالحات والكافرين المكذبين بالآيات وما لهما من الثواب والعذاب أمروا بما ينجى من الثانى ويفضى إلى الأول من تنزيه الله عزوجل عن كل ما لا يليق بشأنه سبحانه ومن حمده تعالى على نعمه العظام وتقديم الأول على الثانى لما أن التخلية متقدمة على التحلية والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها أى إذا علمتم ذلك فسبحوا الله تعالى أى نزهوه عما ذكر سبحانه أى تسبيحه اللائق به فى هذه الأوقات واحمدوه فإن الإخبار بثبوت الحمد له تعالى ووجوبه على المميزين من أهل السموات والأرض فى معنى الأمر به على أبلغ وجه وآكده وتوسيطه بين أوقات التسبيح للاعتناء بشأنه والإشعار بأن حقهما أن يجمع بينهما كما ينبىء عنه قوله تعالى ونحن نسبح بحمدك وقوله تعالى فسبح بحمد ربك وقوله ﷺ من قال حين يصبح وحين يمسى سبحان الله وبحمده مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر وقوله ﷺ من قال حين يصبح وحين يمسى سبحان الله وبحمده مائة مرة لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به إلا أحد قال مثل ما قال أوزاد عليه وقوله ﷺ كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم وغير ذلك مما لا يحصى من الآيات والأحاديث وتخصيصهما بتلك الأوقات للدلالة على أن ما يحدث فيها من آيات قدرته وأحكام

يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ ٣٠ الروم

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ ٣٠ الروم

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ٣٠ الروم

رحمته ونعمته شواهد ناطقة بتنزهه تعالى واستحقاقه الحمد وموجبة لتسبيحه وتحميده حتما وقوله تعالى وعشياً عطف على حين تمسون وتقديمه على حين تظهرون لمراعاة الفواصل وتغيير الأسلوب لما أنه لايجيء منه الفعل بمعنى الدخول فى العشى كالمساء والصباح والظهيرة ولعل السر فى ذلك أنه ليس من الأوقات التى تختلف فيها أحوال الناس وتتغير تغيراً ظاهراً مصححاً لوصفهم بالخروج عما قبلها والدخول فيها كالأوقات المذكورة فإن كلا منها وقت تتغير فيه الأحوال تغيراً ظاهراً أما فى المساء والصباح فظاهر وأما فى الظهيرة فلأنها وقت يعتاد فيه التجرد عن الثياب للقيلولة كما مر فى سورة النور وقيل المراد بالتسبيح والحمد الصلاة لاشتمالها عليهما وقد روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن الآية جامعة للصلوات الخمس تمسون صلاتا المغرب والعشاء وتصبحون صلاة الفجر وعشياً صلاة العصر وتظهرون صلاة الظهر ولذلك ذهب الحسن إلى أنها مدنية إذ كان يقول إن الواجب بمكة ركعتان فى أى وقت اتفقتا وإنما فرضت الخمس بالمدينة والجمهور على أنها فرضت بمكة وهو الحق لحديث المعراج وفى آخره هن خمس صلوات كل يوم وليلة . عن النبى ﷺ من سره أن يكال له بالقفيز الأوفى فليقل فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون الآية وعنه ﷺ من قال حين يصبح فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون إلى قوله تعالى وكذلك تخرجون أدرك ما فاته فى يومه ومن قالها حين يمسى أدرك ما فاته فى ليلته وقرىء حينا تمسون وحينا تصبحون أى

١٩ تمسون فيه وتصبحون فيه (يخرج الحى من الميت) كالإنسان من النطفة والطير من البيضة (ويخرج الميت من الحى) النطفة والبيضة من الحيوان (ويحيى الأرض) بالنبات (بعد موتها) يبسها (وكذلك) ومثل ذلك الإخراج (تخرجون) من قبوركم وقرىء تخرجون بفتح التاء وضم الراء وهذا نوع تفصيل لقوله تعالى

٢٠ الله يبدأ الخلق ثم يعيده (ومن آياته) الباهرة الدالة على أنكم تبعثون دلالة أوضح مما سبق فإن دلالة بدء خلقهم على إعادتهم أظهر من دلالة إخراج الحى من الميت وإخراج الميت من الحى ومن دلالة إحياء الأرض بعد موتها عليها (أن خلقكم) أى فى ضمن خلق آدم عليه السلام لما مر مراراً من أن خلقه ﷺ منطو على خلق ذرياته انطواء إجمالياً (من تراب) لم يشم رائحة الحياة قط ولا مناسبة بينه وبين ما أنتم عليه فى ذاتكم وصفاتكم (ثم إذا أنتم بشر تنتشرون) أى فاجأتم بعد ذلك وقت كونكم بشراً تنتشرون فى الأرض وهذا مجمل ما فصل فى قوله تعالى يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب

٢١ ثم من نطفة الآية (ومن آياته) الدالة على ما ذكر من البعث وما بعده من الجزاء (أن خلق لكم) أى

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ
لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ٣٠ الروم

لأجلكم (من أنفسكم أزواجا) فإن خلق أصل أزواجكم حواء من ضلع آدم عليه السلام متضمن لخلقهن من أنفسكم على ماعرفته من التحقيق أو من جنسكم لا من جنس آخر وهو الأوفق لقوله تعالى (لتسكنوا إليها) أى لتألفوها وتميلوا إليها وتطمئنوا بها فإن المجانسة من دواعى التضام والتعارف كما أن المخالفة من أسباب التفرق والتنافر (وجعل بينكم) أى بين الأزواج إما على تغليب الرجال على النساء فى الخطاب أو على حذف ظرف معطوف على الظرف المذكور أى جعل بينكم وبينهن كما مر فى قوله تعالى لا نفرق بين أحد من رسله وقيل أو بين أفراد الجنس أى بين الرجال والنساء ويأباه قوله تعالى (مودة ورحمة) فإن المراد بهما ماكان منهما بعصمة الزواج قطعاً أى جعل بينكم بالزواج الذى شرعه لكم توادا وتراحما من غير أن يكون بينكم سابقة معرفة ولا رابطة مصححة للتعاطف من قرابة أو رحم قيل المودة والرحمة من قبل الله تعالى والفرك من الشيطان وعن الحسن رحمه الله المودة كناية عن الجماع والرحمة عن الولد كما قال تعالى ورحمة منا (إن فى ذلك) أى فيما ذكر من خلقهم من تراب وخلق أزواجهم من أنفسهم وإلقاء المودة والرحمة بينهم وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإشعار ببعد منزلته (لآيات) عظيمة لا يكتنه كنهها كثيرة لا يقادر قدرها (لقوم يتفكرون) فى تضاعيف تلك الأفاعيل المتينة المبنية على الحكم البالغة والجملة تذييل مقرر لمضمون ماقبله مع التنبيه على أن ماذكر ليس بآية فذة كما ينبىء عنه قوله تعالى ومن
٢٢ آياته بل هى مشتملة على آيات شتى (ومن آياته) الدالة على ماذكر من أمر البعث ومايتلوه من الجزاء (خلق السموات والأرض) إما من حيث إن القادر على خلقهما بما فيهما من المخلوقات بلا مادة مستعدة لها أظهر قدرة على إعادة ما كان حياً قبل ذلك وإما من حيث إن خلقهما وما فيهما ليس إلا لمعاش البشر ومعاده كما يفصح عنه قوله تعالى هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعاً وقوله تعالى وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا (واختلاف ألسنتكم) أى لغاتكم بأن علم كل صنف لغته وألهمه وضعها وأقدره عليها أو أجناس نطقكم وأشكاله فإنك لا تكاد تسمع منطقين متساويين فى الكيفية من كل وجه (وألوانكم) ببياض الجلد وسواده وتوسطه فيما بينهما أو تخطيطات الأعضاء وهيآتها وألوانها وحلاها بحيث وقع بها التمايز بين الأشخاص حتى أن التوأمين مع توافق موادهما وأسبابهما والأمور المتلاقية لهما فى التخليق يختلفان فى شىء من ذلك لا محالة وإن كانا فى غاية التشابه وإنما نظم هذا فى سلك الآيات الآفاقية من خلق السموات والأرض مع كونه من الآيات الأنفسية الحقيقة بالانتظام فى سلك ماسبق من خلق أنفسهم وأزواجهم للإيذان باستقلاله والاحتراز عن توهم كونه من تتمات خلقهم (إن فى ذلك) أى فيما ذكر من خلق السموات والأرض واختلاف الألسنة والألوان (لآيات) عظيمة فى أنفسها كثيرة فى عددها (للعالمين) أى المتصفين بالعلم كما فى قوله تعالى وما يعقلها

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ ٣٠ الروم

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ ٣٠ الروم

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ ٣٠ الروم

إلا العالمون وقرىء بفتح اللام وفيه دلالة على كمال وضوح الآيات وعدم خفائها على أحد من الخلق
٢٣ كافة (ومن آياته منامكم بالليل والنهار) لاستراحة القوى النفسانية وتقوى القوى الطبيعية (وابتغاؤكم
من فضله) فيهما فإن كلا من المنام وابتغاء الفضل يقع فى الملوين وإن كان الأغلب وقوع الأول فى الأول
والثانى فى الثانى أو منامكم بالليل وابتغاؤكم بالنهار كما هو المعتاد والموافق لسائر الآيات الواردة فى ذلك
خلا أنه فصل بين القرينين الأولين بالقرينين الأخيرين لأنهما زمان والزمان مع ماوقع فيه كشىء
واحد مع إعانة اللف على الاتحاد (إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون) أى شأنهم أن يسمعوا الكلام
٢٤ سماع تفهم واستبصار حيث يتأملون فى تضاعيف هذا البيان ويستدلون بذلك على شئونه تعالى (ومن
آياته يريكم البرق) الفعل إما مقدر بأن كما فى قول من قال [ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى] أى أن
أحضر أو منزل منزلة المصدر وبه فسر المثل المشهور تسمع بالمعيدى خير من أن تراه أو هو على حاله صفة
لمحذوف أى آية يريكم بها البرق كقول من قال [وما الدهر إلا تارتان فمنهما * أموت وأخرى أبتغى العيش
أكدح] أى فمنهما تارة أموت فيها وأخرى أبتغى فيها أو ومن آياته شىء أو سحاب يريكم البرق (خوفا)
من الصاعقة أو للمسافر (وطمعا) فى الغيث أو للمقيم ونصبهما على العلة لفعل يستلزمه المذكور فإن
إراءتهم البرق مستلزمة لرؤيتهم إياه أو للمذكور نفسه على تقدير مضاف نحو إراءة خوف وطمع أو على
تأويل الخوف والطمع بالإخافة والإطماع كقولك فعلته رغما للشيطان أو على الحال نحو كلمته شفاها
(وينزل من السماء ماء) وقرىء بالتخفيف (فيحيى به الأرض) بالنبات (بعد موتها) يبسها (إن فى ذلك
لآيات لقوم يعقلون) فإنها من الظهور بحيث يكفى فى إدراكها مجرد العقل عند استعماله فى استنباط
٢٥ أسبابها وكيفية تكونها (ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره) أى بإرادته تعالى لقيامهما والتعبير عنها
بالأمر للدلالة على كمال القدرة والغنى عن المبادى والأسباب وليس المراد بإقامتهما إنشاءهما لأنه قد بين حاله
بقوله تعالى ومن آياته خلق السموات والأرض ولا إقامتهما بغير مقيم محسوس كما قيل فإن ذلك من تتمات
إنشائهما وإن لم يصرح به تعويلا على ما ذكر فى غير موضع من قوله تعالى خلق السموات بغير عمد ترونها الآية

وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ ٣٠ الروم

وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ٣٠ الروم

بل قيامهما واستمرارهما على ما هما عليه إلى أجلهما الذى نطق به قوله تعالى فيما قبل ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وحيث كانت هذه الآية متأخرة عن سائر الآيات المعدودة متصلة بالبعث فى الوجود أخرت عنهن وجعلت متصلة به فى الذكر أيضاً فقيل (ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون) فإنه كلام مسوق للإخبار بوقوع البعث ووجوده بعد انقضاء أجل قيامهما مترتب على تعداد آياته الدالة عليه غير منتظم فى سلكها كما قيل كأنه قيل ومن آياته قيام السموات والأرض على هيآتهما بأمره تعالى إلى أجل مسمى قدره الله تعالى لقيامهما ثم إذا دعاكم أى بعد انقضاء الأجل من الأرض وأنتم فى قبوركم دعوة واحدة بأن قال أيها الموتى اخرجوا فاجأتم الخروج منها وذلك قوله تعالى يومئذ يتبعون الداعى ومن الأرض متعلق بدعاكم إذ يكفى فى ذلك كون المدعو فيها يقال دعوته من أسفل الوادى فطلع إلى لا بتخرجون لأن ما بعد إذا لا يعمل فيما قبلها
٢٦ (وله) خاصة (من فى السموات والأرض) من الملائكة والثقلين خلقاً وملكاً وتصرفاً ليس لغيره شركة فى ذلك بوجه من الوجوه (كل له قانتون) أى منقادون لفعله لا يمتنعون عليه فى شأن من شئونه
٢٧ تعالى (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده) بعد موتهم وتكريره لزيادة التقرير والتمهيد لما بعده من قوله تعالى (وهو أهون عليه) أى بإضافة إلى قدركم والقياس على أصولكم وإلا فهما عليه سواء وقيل أهون بمعنى هين وتذكير الضمير مع رجوعه إلى الإعادة لما أنها مؤولة بأن يعيد وقيل هو راجع إلى الخلق وليس بذاك وأما ما قيل من أن الإنشاء بطريق التفضل الذى يتخير فيه الفاعل بين الفعل والترك والإعادة من قبيل الواجب الذى لا بد من فعله حتماً فكان أقرب إلى الحصول من الإنشاء المتردد بين الحصول وعدمه فبمعزل من التحصيل إذ ليس المراد بأهونية الفعل أقربيته إلى الوجود باعتبار كثرة الأمور الداعية للفاعل إلى إيجاده وقوة اقتضائها لتعلق قدرته به بل أسهلية تأتيه وصدوره عنه بعد تعلق قدرته بوجوده وكونه واجباً بالغير ولا تفاوت فى ذلك بين أن يكون ذلك التعليق بطريق الإيجاب أو بطريق الاختيار (وله المثل الأعلى) أى الوصف الأعلى العجيب الشأن من القدرة العامة والحكمة التامة وسائر صفات الكمال التى ليس لغيره ما يدانيها فضلا عما يساويها ومن فسره بقول لا إله إلا الله أراد به الوصف بالواحدانية (فى السموات والأرض) متعلق بمضمون الجملة المتقدمة على معنى أنه تعالى قد وصف به وعرف فيهما على ألسنة الخلائق وألسنة الدلائل وقيل متعلق بالأعلى وقيل بمحذوف هو حال منه أو من المثل أو من ضميره فى الأعلى (وهو العزيز) القادر الذى لا يعجز عن بدء ممكن وإعادته

ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ
فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ٣٠ الروم
بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ ٣٠ الروم

٢٨ (الحكيم) الذى يجرى الأفعال على سنن الحكمة والمصلحة (ضرب لكم مثلا) يتبين به بطلان الشرك (من أنفسكم) أى منتزعا من أحوالها التى هى أقرب الأمور إليكم وأعرفها عندكم وأظهرها دلالة على ماذكر من بطلان الشرك لكونها بطريق الأولوية وقوله تعالى (هل لكم) الخ تصوير للمثل أى هل لكم (مما ملكت أيمانكم) من العبيد والإماء (من شركاء فيما رزقناكم) من الأموال وما يجرى مجراها مما تتصرفون فيها فمن الأولى ابتدائية والثانية تبعيضية والثالثة مزيدة لتأكيد النفى المستفاد من الاستفهام فقوله تعالى (فأنتم فيه سواء) تحقيق لمعنى الشركة وبيان لكونهم وشركائهم متساوين فى التصرف فيما ذكر من غير مزية لهم عليها على أن هناك محذوفا معطوفا على أنتم لا أنه عام للفريقين بطريق التغليب أى هل ترضون لأنفسكم والحال أن عبيدكم أمثالكم فى البشرية وأحكامها أن يشاركوكم فيما رزقناكم وهو معار لكم فأنتم وهم فيه سواء يتصرفون فيه كتصرفكم من غير فرق بينكم وبينهم (تخافونهم) خبر آخر لأنتم أو حال من ضمير الفاعل فى سواء أى تهابون أن تستبدوا بالتصرف فيه بدون رأيهم (كخيفتكم أنفسكم) أى خيفة كائنة مثل خيفتكم من الأحرار المساهمين لكم فيما ذكر والمعنى نفى مضمون مافصل من الجملة الاستفهامية أى لاترضون بأن يشارككم فيما هو معار لكم مماليككم وهم أمثالكم فى البشرية غير مخلوقين لكم بل لله تعالى فكيف تشركون به سبحانه فى المعبودية التى هى من خصائصه الذاتية مخلوقه بل مصنوع مخلوقه حيث تصنعونه بأيديكم ثم تعبدونه (كذلك) أى مثل ذلك التفصيل الواضح (نفصل الآيات) أى نبينها ونوضحها لا تفصيلا أدنى منه فإن التمثيل تصوير للمعانى المعقولة بصورة المحسوس وإبراز لأوابد المدركات على هيئة المأنوس فيكون فى غاية الإيضاح والبيان (لقوم يعقلون) أى يستعملون عقولهم فى تدبر الأمور وتخصيصهم بالذكر مع عموم تفصيل الآيات للكل لأنهم المنتفعون بها

٢٩ (بل اتبع الذين ظلموا) إعراض عن مخاطبتهم ومحاولة إرشادهم إلى الحق بضرب المثل وتفصيل الآيات واستعمال المقدمات الحقة المعقولة وبيان لاستحالة تبعيتهم للحق كأنه قيل لم يعقلوا شيئا من الآيات المفصلة بل اتبعوا (أهواءهم) الزائغة ووضع الموصول موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بأنهم فى ذلك الاتباع ظالمون واضعون للشىء فى غير موضعه أو ظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد (بغير علم) أى جاهلين ببطلان ماأتوا مكبين عليه لايلويهم عنه صارف حسبما يصرف العالم إذا اتبع الباطل علمه ببطلانه (فمن يهدى من أضل الله) أى خلق فيه الضلال بصرف اختياره إلى كسبه أى لا يقدر على هدايته أحد (وما لهم) أى لمن أضله الله تعالى والجمع باعتبار المعنى (من ناصرين) يخلصونهم من الضلال ويحفظونهم من تبعاته وآفاته على معنى ليس لواحد منهم ناصر واحد على ماهو قاعدة مقابلة الجمع بالجمع .

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ
ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ٣٠ الروم

مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ ٣٠ الروم

مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ ٣٠ الروم

٣٠ (فأقم وَجهك للدين) تمثيل لإقباله على الدين واستقامته وثباته عليه واهتمامه بترتيب أسبابه فإن من اهتم بشيء محسوس بالبصر عقد عليه طرفه وسدد إليه نظره وقوم له وجهه مقبلا به عليه أى فقوم وجهك له وعدله غير ملتفت يميناً وشمالا وقوله تعالى (حنيفاً) حال من المأمور أو من الدين (فطرة الله) الفطرة الخلقة وانتصابها على الإغراء أى الزموا أو عليكم فطرة الله فإن الخطاب للكل كما يفصح عنه قوله تعالى منيبين والأفراد فى أقم لما أن الرسول ﷺ إمام الأمة فأمره ﷺ مستتبع لأمرهم والمراد بلزومها الجريان على موجبها وعدم الإخلال به باتباع الهوى وتسويل الشياطين وقيل على المصدر أى فطر الله فطرة وقوله تعالى (التى فطر الناس عليها) صفة لفطرة الله مؤكدة لوجوب الامتثال بالأمر فإن خلق الله الناس على فطرته التى هى عبارة عن قبولهم للحق وتمكنهم من إدراكه أو عن ملة الإسلام من موجبات لزومها والتمسك بها قطعاً فإنهم لو خلوا وما خلقوا عليه أدى بهم إليها وما اختاروا عليها ديناً آخر ومن غوى منهم فباغواء شياطين الإنس والجن ومنه قوله ﷺ حكاية عن رب العزة كل عبادى خلقت حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم وأمروهم أن يشركوا بى غيرى وقوله ﷺ كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه وينصرانه وقوله تعالى (لا تبديل لخلق الله) تعليل الأمر بلزوم فطرته تعالى أو لوجوب الامتثال به أى لا صحة ولا استقامة لتبديله بالإخلال بموجبه وعدم ترتيب مقتضاه عليه باتباع الهوى وقبول وسوسة الشيطان وقيل لا يقدر أحد على أن يغيره فلا بد حينئذ من حمل التبديل على تبديل نفس الفطرة بإزالتها رأساً ووضع فطرة أخرى مكانها غير مصححة لقبول الحق والتمكن من إدراكه ضرورة أن التبديل بالمعنى الأول مقدور بل واقع قطعاً فالتعليل حينئذ من جهة أن سلامة الفطرة متحققة فى كل أحد فلا بد من لزومها بترتيب مقتضاها عليها وعدم الإخلال به بما ذكر من اتباع الهوى وخطوات الشيطان (ذلك) إشارة إلى الدين المأمور بإقامة الوجه له أو إلى لزوم فطرة الله المستفاد من الإغراء أو إلى الفطرة إن فسرت بالملة والتذكير بتأويل المذكور أو باعتبار الخبر (الدين القيم)
٣١ المستوى الذى لا عوج فيه (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ذلك فيصدون عنه صدوداً (منيبين إليه) حال من الضمير فى الناصب المقدر لفطرة الله أو فى أقم لعمومه للأمة حسبما أشير إليه وما بينهما اعتراض أى راجعين إليه من أناب إذا رجع مرة بعد أخرى وقوله تعالى (واتقوه) أى من مخالفة أمره عطف على المقدر المذكور وكذا قوله تعالى (وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين) المبدلين لفطرة الله تعالى
٣٢ تبديلا (من الذين فرقوا دينهم) بدل من المشركين بإعادة الجار وتفريقهم لدينهم اختلافهم فيما يعبدونه على

وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ٣٠ الروم

لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ٣٠ الروم

أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ ٣٠ الروم

وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ ٣٠ الروم

أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ ٣٠ الروم

اختلاف أهوائهم وفائدة الإبدال التحذير عن الانتماء إلى حزب من أحزاب المشركين ببيان أن الكل
على الضلال المبين وقرىء فارقوا أى تركوا دينهم الذى أمروا به (وكانوا شيعاً) أى فرقا تشايع كل
منها إمامها الذى أضلها (كل حزب بما لديهم) من الدين المعوج المؤسس على الرأى الزائغ والزعم الباطل
(فرحون) مسرورون ظناً منهم أنه حق وأنى له ذلك فالجملة اعتراض مقرر لمضمون ماقبله من تفريق
دينهم وكونهم شيعاً وقد جوز أن يكون فرحون صفة لكل على أن الخبر هو الظرف المقدم أعنى من
٣٣ الذين فرقوا ولا يخفى بعده (وإذا مس الناس ضر) أى شدة (دعوا ربهم منيبين إليه) راجعين إليه من
دعاء غيره (ثم إذا أذاقهم منه رحمة) خلاصاً من تلك الشدة (إذا فريق منهم بربهم) الذى كانوا دعوه
منيبين إليه (يشركون) أى فاجأ فريق منهم الإشراك وتخصيص هذا الفعل ببعضهم لما أن بعضهم ليسوا
كذلك كما فى قوله تعالى فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد أى مقيم على الطريق القصد أو متوسط فى الكفر
٣٤ لانزجاره فى الجملة (ليكفروا بما آتيناهم) اللام فيه للعاقبة وقيل للأمر التهديدى كقوله تعالى (فتمتعوا)
غير أنه التفت فيه للمبالغة وقرىء وليتمتعوا (فسوف تعلمون) عاقبة تمتعكم وقرىء بالياء على أن تمتعوا ماض
٣٥ والالتفات إلى الغيبة فى قوله تعالى (أم أنزلنا عليهم) للإيذان بالإعراض عنهم وتعديد جناياتهم لغيرهم بطريق
المباثة (سلطاناً) أى حجة واضحة وقيل ذا سلطان أى ملكا معه برهان (فهو يتكلم) تكلم دلالة كما فى قوله تعالى هذا
كتابنا ينطق عليكم بالحق أو تكلم نطق (بما كانوا به يشركون) باشراكهم به تعالى أو بالأمر الذى بسببه
٣٦ يشركون (وإذا أذقنا الناس رحمة) أى نعمة من صحة وسعة (فرحوا بها) بطراً وأشراً لاحمداً وشكراً (وإن
تصبهم سيئة) شدة (بما قدمت أيديهم) بشؤم معاصيهم (إذا هم يقنطون) فاجئوا القنوط من رحمته
٣٧ تعالى وقرىء بكسر النون (أو لم يروا) أى ألم ينظروا ولم يشاهدوا (أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر)
فما لهم لم يشكروا ولم يحتسبوا فى السراء والضراء كالمؤمنين (إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) فيستدلون

فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ ٣٠ الروم

وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٣٠ الروم

ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ٣٠ الروم

ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ٣٠ الروم

---

٣٨ بها على كمال القدرة والحكمة (فآت ذا القربى حقه) من الصلة والصدقة وسائر المبرات (والمسكين وابن
السبيل) ما يستحقانه والخطاب للنبي ﷺ أو لمن بسط له كما تؤذن به الفاء (ذلك خير للذين يريدون وجه
الله) ذاته أو جهته ويقصدون بمعروفهم إياه تعالى خالصاً أو جهة التقرب إليه لا جهة أخرى (وأولئك
٣٩ هم المفلحون) حيث حصلوا بما بسط لهم النعيم المقيم (وما آتيتم من رباً) زيادة خالية عن العوض عند
المعاملة وقرىء أتيتم بالقصر أى غشيتموه أو رهقتموه من إعطاء ربا (ليربو فى أموال الناس) ليزيد
ويزكو فى أموالهم (فلا يربو عند الله) أى لا يبارك فيه وقرىء لتربوا أى لتزيدوا أو لتصيروا ذوى ربا
• (وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله) أى تبتغون به وجهه تعالى خالصاً (فأولئك هم المضعفون) أى
ذوو الأضعاف من الثواب ونظير المضعف المقوى والموسر لذى القوة واليسار أو الذين ضعفوا ثوابهم
٤٠ وأموالهم بالبركة وقرىء بفتح العين وفى تغيير النظم الكريم والالتفات من الجزالة ما لا يخفى (الله الذى
خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء) أثبت له تعالى
لوازم الألوهية وخواصها ونفاها رأساً عما اتخذوه شركاء له تعالى من الأصنام وغيرها مؤكداً بالإنكار
• على ما دل عليه البرهان والعيان ووقع عليه الوفاق ثم استنتج منه تنزهه عن الشركاء بقوله تعالى (سبحانه
وتعالى عما يشركون) وقد جوز أن يكون الموصول صفة والخبر هل من شركائكم والرابط قوله
تعالى من ذلكم لأنه بمعنى من أفعاله ومن الأولى والثانية تفيدان شيوع الحكم فى جنس الشركاء
٤١ والأفعال والثالثة مزيدة لتعميم المنفى وكل منها مستقلة بالتأكيد وقرىء تشركون بصيغة الخطاب (ظهر
الفساد فى البر والبحر) كالجدب والموتان وكثرة الحرق والغرق وإخفاق الغاصة ومحق البركات وكثرة
• المضار أو الضلالة والظلم وقيل المراد بالبحر قرى السواحل وقرىء البحور (بما كسبت أيدى الناس)
بشؤم معاصيهم أو بكسبهم إياها وقيل ظهر الفساد فى البر بقتل قابيل أخاه هابيل وفى البحر بأن جلندى

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ ٣٠ الروم

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ ٣٠ الروم

مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ ٣٠ الروم

لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾ ٣٠ الروم

وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا
مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ ٣٠ الروم

كان يأخذ كل سفينة غصباً (ليذيقهم بعض الذي عملوا) أي بعض جزائه فإن إتمامه في الآخرة واللام
للعلة أو العاقبة وقرىء لنذيقهم بالنون (لعلهم يرجعون) عما كانوا عليه (قل سيروا في الأرض فانظروا ٤٢
كيف كان عاقبة الذين من قبل) ليشاهدوا آثارهم (كان أكثرهم مشركين) استئناف للدلالة على أن
ما أصابهم لفشو الشرك فيما بينهم أو كان الشرك في أكثرهم وما دونه من المعاصي في قليل منهم (فأقم
وجهك للدين القيم) أي البليغ الاستقامة (من قبل أن يأتي يوم لا مرد له) لا يقدر أحد على رده (من ٤٣
الله) متعلق بيأتي أو بمرد لأنه مصدر والمعنى لا يرده الله تعالى لتعلق إرادته القديمة بمجيئه (يومئذ يصدعون)
أصله يتصدعون أي يتفرقون فريق في الجنة وفريق في السعير (من كفر فعليه كفره) أي وبال كفره وهو النار ٤٤
المؤبدة (ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون) أي يسوون منزلاً في الجنة وتقديم الظرف في الموضعين
للدلالة على الاختصاص (ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله) متعلق بيصدعون وقيل ٤٥
بيمهدون أي يتفرقون بتفريق الله تعالى فريقين ليجزي كلا منهما بحسب أعمالهم وحيث كان جزاء
المؤمنين هو المقصود بالذات أبرز ذلك في معرض الغاية وعبر عنه بالفضل لما أن الإثابة بطريق التفضل
لا الوجوب وأشير إلى جزاء الفريق الآخر بقوله تعالى (إنه لا يحب الكافرين) فإن عدم محبته تعالى كناية •
عن بغضه الموجب لغضبه المستتبع للعقوبة لا محالة (ومن آياته أن يرسل الرياح) أي الشمال والصبا ٤٦
والجنوب فإنها رياح الرحمة وأما الدبور فريح العذاب ومنه قوله ﷺ اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها
ريحاً وقرىء الريح على إرادة الجنس (مبشرات) بالمطر (وليذيقكم من رحمته) وهي المنافع التابعة لها •
وقيل الخصب التابع لنزول المطر المسبب عنها أو الروح الذي هو مع هبوبها واللام متعلقة بيرسل والجملة
معطوفة على مبشرات على المعنى كأنه قيل ليبشركم بها وليذيقكم أو بمحذوف يفهم من ذكر الإرسال
تقديره وليذيقكم وليكون كذا وكذا يرسلها لا لأمر آخر لا تعلق له بمنافعكم (ولتجري الفلك) بسوقها •
(بأمره ولتبتغوا من فضله) بتجارة البحر (ولعلكم تشكرون) ولتشكروا نعمة الله فيما ذكر من

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) ٣٠ الروم

اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) ٣٠ الروم

وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (٤٩) ٣٠ الروم

فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠) ٣٠ الروم

---

٤٧ الغايات الجليلة (ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم) كما أرسلناك إلى قومك (فجاءوهم بالبينات) أى جاء كل رسول قومه بما يخصه من البينات كما جئت قومك ببيناتك والفاء فى قوله تعالى (فانتقمنا من الذين أجرموا) فصيحة أى فكذبوهم فانتقمنا منهم وإنما وضع موضع ضميرهم الموصول للتنبيه على مكان المحذوف والإشعار بكونه علة للانتقام وفى قوله تعالى (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) مزيد تشريف وتكرمة للمؤمنين حيث جعلوا مستحقين على الله تعالى أن ينصرهم وإشعار بأن الانتقام من الكفرة لأجله وقد يوقف على حقاً على أنه متعلق بالانتقام ولعل توسيط الآية الكريمة بطريق الاعتراض بين ماسبق وما لحق من أحوال الرياح وأحكامها لإنذار الكفرة وتحذيرهم عن الإخلال بواجب الشكر المطلوب بقوله تعالى لعلكم تشكرون بمقابلة النعم المعدودة المنوطة بإرسالها كيلا يحل بهم مثل ماحل

٤٨ بأولئك الأمم من الانتقام (الله الذى يرسل الرياح) استئناف مسوق لبيان ماأجمل فيما سبق من أحوال الرياح (فتثير سحاباً فيبسطه) متصلا تارة (فى السماء) فى جوها (كيف يشاء) سائراً وواقفاً مطبقاً وغير مطبق من جانب دون جانب إلى غير ذلك (ويجعله كسفاً) تارة أخرى أى قطعاً وقرىء بسكون السين على أنه مخفف جمع كسفة أو مصدر وصف به (فترى الودق) المطر (يخرج من خلاله) فى التارتين (فإذا أصاب به من يشاء من عباده) أى بلادهم وأراضيهم (إذاهم يستبشرون) فاجئوا الاستبشار بمجىء الخصب

٤٩ (وإن كانوا) إن مخففة من إن وضمير الشأن الذى هو اسمها محذوف أى وإن الشأن كانوا (من قبل أن ينزل عليهم) أى المطر (من قبله) تكرير للتأكيد والإيذان بطول عهدهم بالمطر واستحكام يأسهم منه وقيل الضمير المطر أو السحاب أو الإرسال وقيل للكسف على القراءة بالسكون وليس بواضح وأقرب من ذلك أن يكون الضمير للاستبشار ومن متعلقة بينزل لتفيد سرعة تقلب قلوبهم من اليأس إلى الاستبشار بالإشارة إلى غاية تقارب زمانيهما ببيان اتصال اليأس بالتنزيل المتصل بالاستبشار

٥٠ بشهادة إذا الفجائية (لمبلسين) خبر كانوا واللام فارقة أى آيسين (فانظر إلى آثار رحمة الله) المترتبة على تنزيل المطر من النبات والأشجار وأنواع الثمار والفاء للدلالة على سرعة ترتبها عليه وقرىء أثر

وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (٥١) ٣٠ الروم

فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) ٣٠ الروم

وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٥٣) ٣٠ الروم

بالتوحيد وقوله تعالى (كيف يحيى) أى الله تعالى (الأرض بعد موتها) فى حيز النصب بنزع الخافض وكيف *
معلق لانظر أى فانظر إلى إحيائه البديع للأرض بعد موتها وقيل على الحالية بالتأويل وأياً ما كان فالمراد
بالأمر بالنظر التنبيه على عظم قدرته تعالى وسعة رحمته مع ما فيه من التمهيد لما يعقبه من أمر البعث وقرىء
تحيى بالتأنيث على الإسناد إلى ضمير الرحمة (إن ذلك) العظيم الشأن الذى ذكر بعض شئونه (لمحيى الموتى) *
لقادر على إحيائهم فإنه إحداث لمثل ما كان فى مواد أبدانهم من القوى الحيوانية كما أن إحياء الأرض
إحداث لمثل ما كان فيها من القوى النباتية أو لمحييهم البتة وقوله تعالى (وهو على كل شىء قدير) تذييل *
مقرر لمضمون ما قبله أى مبالغ فى القدرة على جميع الأشياء التى من جملتها إحياؤهم لما أن نسبة قدرته إلى
الكل سواء (ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه) أى الأثر المدلول عليه بالآثار أو النبات المعبر عنه بالآثار فإنه اسم ٥١
جنس يعم القليل والكثير (مصفراً) بعد خضرته وقد جوز أن يكون الضمير للسحاب لأنه إذا كان مصفراً
لم يمطر ولا يخفى بعده واللام فى لئن موطئة للقسم دخلت على حرف الشرط والفاء فى فرأوه فصيحة واللام
فى قوله تعالى (لظلوا) لام جواب القسم ساد مسد الجوابين أى وبالله لئن أرسلنا ريحاً حارة أو باردة
فضربت زرعهم بالصفار فرأوه مصفراً ليظلن (من بعده يكفرون) من غير تلعثم وفيه من ذمهم بعد *
تثبيتهم وسرعة تزلزلهم بين طرفى الإفراط والتفريط مالا يخفى حيث كان الواجب عليهم أن يتوكلوا
على الله تعالى فى كل حال ويلجئوا إليه بالاستغفار إذا احتبس عنهم القطر ولا ييأسوا من روح الله تعالى
ويبادروا إلى الشكر بالطاعة إذا أصابهم برحمته ولا يفرطوا فى الاستبشار وأن يصبروا على بلائه إذا
اعترى زرعهم آفة ولا يكفروا بنعمائه فعكسوا الأمر وأبوا ما يجديهم وأتوا بما يرديهم (فإنك ٥٢
لا تسمع الموتى) لما أنهم مثلهم لانسداد مشاعرهم عن الحق (ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين) *
تقييد الحكم بما ذكر لبيان كمال سوء حال الكفرة والتنبيه على أنهم جامعون لخصلتى السوء نبو أسماعهم
عن الحق وإعراضهم عن الإصغاء إليه ولو كان فيهم إحداهما لكفاهم ذلك فكيف وقد جمعوهما فإن
الأصم المقبل إلى المتكلم ربما يفطن من أوضاعه وحركاته لشىء من كلامه وإن لم يسمعه أصلا وأما إذا
كان معرضاً عنه فلا يكاد يفهم منه شيئاً وقرىء بالياء المفتوحة ورفع الصم (وما أنت بهادى العمى عن ٥٣
ضلالتهم) سموا عمياً إما لفقدهم المقصود الحقيقى من الإبصار أو لعمى قلوبهم وقرىء تهدى العمى
(إن تسمع) أى ما تسمع (إلا من يؤمن بآياتنا) فإن إيمانهم يدعوهم إلى التدبر فيها وتلقيها بالقبول أو
إلا من يشارف الإيمان بها ويقبل عليها إقبالا لائقاً (فهم مسلمون) منقادون لما تأمرهم به من الحق

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ٣٠ الروم

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ ٣٠ الروم

وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ ٣٠ الروم

فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ ٣٠ الروم

---

٥٤ (الله الذى خلقكم من ضعف) مبتدأ وخبر أى ابتدأكم ضعفاء وجعل الضعف أساس أمركم كقوله تعالى وخلق الإنسان ضعيفاً أى خلقكم من أصل ضعيف هو النطفة (ثم جعل من بعد ضعف قوة) وذلك عند بلوغكم الحلم أو تعلق الروح بأبدانكم (ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة) إذا أخذ منكم السن وقرىء بضم الضاد فى الكل وهو أقوى لقول ابن عمر رضى الله عنهما قرأتها على رسول الله ﷺ فأقرأنى من ضعف وهما لغتان كالفقر والفقر والتنكير مع التكرير لأن المتقدم غير المتأخر (يخلق مايشاء) من الأشياء التى من جملتها ماذكر من الضعف والقوة والشيبة (وهو العليم القدير) المبالغ فى العلم والقدرة فإن الترديد فيما
٥٥ ذكر من الأطوار المختلفة من أوضح دلائل العلم والقدرة (ويوم تقوم الساعة) أى القيامة سميت بها لأنها تقوم فى آخر ساعة من ساعات الدنيا أو لأنها تقع بغتة وصارت علماً لها كالنجم للثريا والكوكب للزهرة (يقسم المجرمون مالبثوا) أى فى القبور أو فى الدنيا والأول هو الأظهر لأن لبثهم مغياً بيوم البعث كما سيأتى وليس لبثهم فى الدنيا كذلك وقيل فيما بين فناء الدنيا والبعث وانقطاع عذابهم وفى الحديث مابين فناء الدنيا والبعث أربعون وهو محتمل للساعات والأيام والأعوام وقيل لا يعلم أهى أربعون سنة أو أربعون ألف سنة (غير ساعة) استقلوا مدة لبثهم نسياناً أو كذباً أو تخميناً (كذلك كانوا يؤفكون)
٥٦ مثل ذلك الصرف كانوا يصرفون فى الدنيا عن الحق والصدق (وقال الذين أوتوا العلم والإيمان) فى الدنيا من الملائكة والإنس (لقد لبثتم فى كتاب الله) فى علمه أو قضائه أو ما كتبه وعينه أو فى اللوح أو القرآن وهو قوله تعالى ومن ورائهم برزخ (إلى يوم البعث) ردوا بذلك ماقالوه وأيدوه باليمين كأنهم من فرط حيرتهم لم يدروا أن ذلك هو البعث الموعود الذى كانوا ينكرونه وكانوا يسمعون أنه يكون بعد فناء الخلق كافة ويقدرون لذلك زماناً مديداً وإن لم يعتقدوا تحققه فرد العالمون مقالتهم ونبهوهم على أنهم لبثوا إلى غاية بعيدة كانوا يسمعونها وينكرونها ويكتوهم بالإخبار بوقوعها حيث قالوا (فهذا يوم البعث) الذى كنتم توعدون فى الدنيا (ولكنكم كنتم لا تعلمون) أنه حق فتستعجلون به استهزاء والفاء جواب شرط محذوف كما فى قول من قال [قالوا خراسان أقصى مايراد بنا * ثم القفول فقد جئنا خراسانا]
٥٧ (فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم) أى عذرهم وقرىء تنفع بالتاء محافظة على ظاهر اللفظ وإن توسط

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ ٣٠ الروم

كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ ٣٠ الروم

فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ٣٠ الروم

بينهما فاصل (ولا هم يستعتبون) لايدعون إلى مايقتضى إعتابهم أى إزالة عتبهم من التوبة والطاعة كما
دعوا إليه فى الدنيا من قولهم استعتبنى فلان فأعتبته أى استرضانى فأرضيته (ولقد ضربنا للناس فى هذا ٥٨
القرآن من كل مثل) أى وبالله لقد بينا لهم كل حال ووصفنالهم كل صفة كأنها فى غرابتها مثل وقصصنا عليهم
كل قصة عجيبة الشأن كصفة المبعوثين يوم القيامة وقصتهم وما يقولون وما يقال لهم ويفعل بهم من رد
اعتذارهم (ولئن جئتهم بآية) من آيات القرآن الناطقة بأمثال ذلك (ليقولن الذين كفروا) لفرط عتوهم
وعنادهم وقساوة قلوبهم مخاطبين للنبى ﷺ والمؤمنين (إن أنتم إلا مبطلون) أى مزورون (كذلك) ٥٩
مثل ذلك الطبع الفظيع (يطبع الله على قلوب الذين لايعلمون) لايطلبون العلم ولا يتحرون الحق بل
يصرون على خرافات اعتقدوها وترهات ابتدعوها فإن الجهل المركب يمنع إدراك الحق ويوجب
تكذيب المحق (فاصبر) على ماتشاهد منهم من الأقوال الباطلة والأفعال السيئة (إن وعد الله حق) ٦٠
وقد وعدك بالنصرة وإظهار الدين وإعلاء كلمة الحق ولا بد من إنجازه والوفاء به لامحالة (ولا يستخفنك)
لايحملنك على الخفة والقلق (الذين لايوقنون) بماتتلو عليهم من الآيات البينة بتكذيبهم إياها وإيذائهم
لك بأباطيلهم التى من جملتها قولهم إن أنتم إلا مبطلون فإنهم شاكون ضالون ولا يستبعد منهم أمثال
ذلك وقرىء بالنون المخففة وقرىء ولا يستحقنك من الاستحقاق أى لا يفتننك فيملكوك ويكونوا
أحق بك من المؤمنين وأياً ماكان فظاهر النظم الكريم وإن كان نهياً للكفرة عن استخفافه ﷺ
واستحقاقه لكنه فى الحقيقة نهى له ﷺ عن التأثر من استخفافهم والافتتان بفتنتهم على طريق الكناية
كما فى قوله تعالى ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا . عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة الروم
كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل ملك يسبح الله تعالى بين السماء والأرض وأدرك ماضيع
فى يومه وليلته .

ترتيبها ٣٠ — **سُورَةُ الرُّومِ** — آياتها ٦٠

مكية كما روي عن ابن عباس، وابن الزبير رضي الله تعالى عنهم بل قال ابن عطية، وغيره: لا خلاف في مكيتها ولم يستثنوا منها شيئاً، وقال الحسن: هي مكية إلا قوله تعالى: ﴿فسبحان الله حين تمسون﴾ [الروم: ١٧] الآية وهو خلاف مذهب الجمهور والتفسير المرضي كما سيأتي إن شاء الله تعالى بيانه، وآيها ستون وعند بعض تسع وخمسون، ووجه اتصالها بالسورة السابقة على ما قاله الجلال السيوطي أنها ختمت بقوله تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ [العنكبوت: ٦٩] وافتتحت هذه بوعد من غُلب من أهل الكتاب بالغلبة والنصر وفرح المؤمنين بذلك وأن الدولة لأهل الجهاد فيه ولا يضرهم ما وقع لهم قبل ذلك من هزيمة، هذا مع تواخيها لما قبلها في الافتتاح ـ بالم ـ ولا يخفى أن قتال أهل الكتاب ليس من المجاهدة في الله عزَّ وجلَّ وبذلك تضعف المناسبة، ومن وقف على أخبار سبب النزول ظهر له أن ما افتتحت به هذه السورة متضمناً نصرة المؤمنين بدفع شماتة أعدائهم المشركين وهم لم يزالوا مجاهدين في الله تعالى ولأجله ولوجهه عزَّ وجلَّ ولا يضر عدم جهادهم بالسيف عند النزول، وهذا في المناسبة أوجه فيما أرى من الوجه الذي ذكره الجلال فتأمل.

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ
ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ
ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا
بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ
مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ
كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ
يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ

شُفَعَـٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآئِ
ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ
فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ
ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ
﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ
فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ
وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ
فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ الۤمۤ﴾ الكلام فيه كالذي مرَّ في أمثاله من الفواتح الكريمة ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ هي قبيلة عظيمة من ولد رومي بن يونان بن علجان بن يافث نوح عليه السلام وقيل: من ولد يافان بن يافث،وقيل: من ولد رعويل بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، وقال الجوهري: من ولد روم بن عيص المذكور صارت لها وقعة مع فارس على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فغلبتها وقهرتها فارس ﴿فِي أَدْنَى الأَرْضِ﴾ أي أقربها.

والمراد بالأرض أرض الروم على أن (أل) نائبة مناب الضمير المضاف إليه والأقربية بالنظر إلى أهل مكة لأن الكلام معهم أو المراد بها أرض مكة ونواحيها لأنها الأرض المعهودة عندهم والأقربية بالنظر إلى الروم أو المراد بالأرض أرض الروم لذكرهم والأقربية بالنظر إلى عدوهم أعني فارس لحديث المغلوبية، وقد جاء من طرق عديدة أن الحرب وقع بين اذرعات وبصرى، وقال ابن عباس، والسدي: بالأردن وفلسطين، وقال مجاهد: بالجزيرة يعني الجزيرة العمرية لا جزيرة العرب، وجعل كل قول موافقاً لوجه من الأوجه الثلاثة على الترتيب، وصحح ابن حجر القول الأول.

وقرأ الكلبي «في أداني الأرض» ﴿وَهُمْ﴾أي الروم ﴿مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ﴾ أي غلب فارس إياهم على أنه مصدر مضاف إلى مفعوله أو إلى نائب فاعله إن كان مصدر المجهول ورجحه بعضهم بموافقته للنظم الجليل.

وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه، وابن عمر رضي الله تعالى عنهما، ومعاوية بن قرة «غَلْبِهِمْ» بسكون اللام، وعن أبي عمرو أنه قرأ «غلابهم» على وزن كتاب والكل مصادر غلب، والجار والمجرور متعلق بقوله تعالى: ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ وفي ذلك تأكيد لما يفهم من السين ولكون مغلوبهم من كان غالبهم، وفي بناء الجملة على الضمير تقوية للحكم أي سيغلبون فارس البتة، وقوله تعالى: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ متعلق بسيغلبون أيضاً.

والبضع ما بين الثلاث إلى العشرة عن الأصمعي، وفي المجمل ما بين الواحد: إلى التسعة، وقيل: «هو ما فوق

الخمس ودون العشر» وقال المبرد: ما بين العقدين في جميع الأعداد. روي أن فارس غزوا الروم فوافوهم بأذرعات وبصرى فغلبوا عليهم فبلغ ذلك النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه وهم بمكة فشق ذلك عليهم وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يكره أن يظهر الأميون من المجوس على أهل الكتاب من الروم وفرح الكفار بمكة وشمتوا فلقوا أصحاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقالوا: إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الكتاب وأنكم قاتلتمونا لنظهرن عليكم الله فأنزل الله تعالى ﴿الم غلبت الروم﴾ الآيات فخرج أبو بكر رضي الله تعالى عنه إلى الكفار فقال: أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا فلا تفرحوا ولا يفرِسنَّ الله تعالى عينكم فوالله ليَظْهَرَنَّ الرومُ على فارس أخبرنا بذلك نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم فقام إليه أُبَيُّ بنُ خلف فقال: كذبت فقال له: أبو بكر رضي الله تعالى عنه: أنت أكذب يا عدو الله تعال أناحبك[1] عشر قلائص مني وعشر قلائص منك فإن ظهرت الروم على فارس غرمت وإن ظهرت فارس غرمت إلى ثلاث سنين فناحبه ثم جاء أبو بكر إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فأخبره فقال عليه الصلاة والسلام: ما هكذا ذكرت إنما البعض ما بين الثلاث إلى التسع فزايده في الخطر وماده في الأجل فخرج أبو بكر فلقي أبياً فقال: لعلك ندمت؟ قال: لا تعال أزايدك في الخطر وأمادك في الأجل فاجعلها مائة قلوص إلى تسع سنين قال: قد فعلت فلما أراد أبو بكر الهجرة طلب منه أُبيّ كفيلاً بالخطر إن غلب فكفل به ابنه عبد الرحمن فلما أراد أبي الخروج إلى أحد طلبه عبد الرحمن بالكفيل فأعطاه كفيلاً ومات أبي من جرح جرحه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وظهرت الروم على فارس لما دخلت السنة السابعة.

وجاء في الروايات أنهم ظهروا عليهم يوم الحديبية، وأخرج الترمذي وحسنه أنه لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس فأخذ أبو بكر رضي الله تعالى عنه الخطر من ورثة أبي وجاء به إلى النبي ﷺ فقال عليه الصلاة والسلام: تصدق به، وفي رواية أبي يعلى، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وابن عساكر عن البراء بن عازب أنه عليه الصلاة والسلام قال:« هذا السحت تصدق به».

واستشكل بأنه إن كان ذلك قبل تحريم القمار كما أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن قتادة، والترمذي وصححه عن نيار بن مكرم السلمي وهو الظاهر لأن السورة مكية وتحريم الخمر والميسر من آخر القرآن نزولاً فما وجه كونه سحتاً؟ وإن كان بعد التحريم فكيف يؤمر بالتصدق بالحرام الغير المختلط بغيره وصاحبه معلوم وفي مثل ذلك يجب رد المال عليه، فإن قيل: إنه مال حربي والحادثة وقعت بمكة وهي قبل الفتح دار حرب والعقود الفاسدة تجوز فيها عند أبي حنيفة ومحمد عليهما الرحمة لم يظهر قوله سحتاً، وكأني بك تمنع صحة هذه الرواية وإذا لم تثبت صحتها يبقى الأمر بالتصدق، وحينئذ يجوز أن يكون لمصلحة رآها رسول الله ﷺ وهو تصدق بحلال؛ أما إذا كان ذلك قبل تحريم القمار كما هو المعول عليه فظاهر، وأما إن كان بعد التحريم فلأن أبا حنيفة، ومحمداً قالا بجواز العقود الفاسدة في دار الحرب بين المسلمين والكفار واحتجا على صحة ذلك بما وقع من أبي بكر في هذه القصة، وقد تظافرت الروايات أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لم ينكر عليه المناحبة وإنما أنكر عليه التأجيل بثلاث سنين وأرشده إلى أن يزايدهم، وربما يقال على تقدير الصحة: إن السحت ليس بمعنى الحرام بل بمعنى ما يكون سبباً للعار والنقص في المروءة حتى كأنه يسحتها أي يستأصلها كما في قوله ﷺ: «كسب الحجام سحت» فقد قال الراغب: إن هذا لكونه ساحتاً للمروءة لا للدين فكأنه ﷺ رأى أن تمول ذلك وإن كان حلالاً مخل بمروءة أبي بكر رضي الله

---

(١) قوله أناحبك أي أراهنك ا هـ منه.

تعالى عنه فأطلق عليه السحت، ولا يأبى ذلك إذنه عليه الصلاة والسلام في المناحبة لما أنها لا تضر بالمروءة أصلاً وفيها من إظهار اليقين بصدق ما جاء به النبي ﷺ ما فيها وكان عليه الصلاة والسلام على ثقة من صلاح الصديق رضي الله تعالى عنه وأنه إذا أمره بالتصدّق بما يأخذه ونهاه عن تموله لم يخالفه، وقيل: السحت هنا بمعنى ما لا شيء على من استهلكه وهو أحد اطلاقاته كما في النهاية، والمراد هذا الذي لا شيء عليك إذا استهلكته وتصرفت فيه حسبما تشاء تصدق به كأنه عليه الصلاة والسلام بعد أن أخبر الصديق رضي الله تعالى عنه بأنه لا مانع له من التصرف فيه حسبما يريد أرشده إلى ما هو الأولى والأحرى فقال: تصدق به، وهو كما ترى، وقيل: إن السحت كما في النهاية يرد في الكلام بمعنى الحرام مرة وبمعنى المكروه أخرى ويستدل على ذلك بالقرائن فيجوز أن يكون في الخبر إذا صح فيه بمعنى المكروه إذ الأمر بالتصدق يمنع أن يكون بمعنى الحرام فيتعين كونه بمعنى المكروه، وفيه نظر، وأما تفسير السحت بالحرام والتزام القول بجواز التصدق بالحرام لهذا الخبر فمما لا يلتفت إليه أصلاً فتأمل. وكانت كلتا الغلبتين في سلطنة خسرو برويز، قال في روضة الصفا ما ترجمته: إنه لما مضى من سلطنة خسرو أربعة عشر سنة غدر الروميون بملكهم وقتلوه مع ابنه بناطوس وهرب ابنه الآخر إلى خسرو فجهز معه ثلاثة رؤساء أولي قدر رفيع مع عسكر عظيم فدخلوا بلاد الشام وفلسطين وبيت المقدس وأسروا من فيها من الأساقفة وغيرهم وأرسلوا إلى خسرو الصليب الذي كان مدفوناً عندهم في تابوت من ذهب وكذلك استولوا على الإسكندرية وبلاد النوبة إلى أن وصلوا إلى نواحي القسطنطينية وأكثروا الخراب وجهدوا على إطاعة الروميين لابن قيصر فلم تحصل، قيل: إن الروميين جعلوا عليهم حاكماً شخصاً اسمه هرقل وكان سلطاناً عادلاً يخاف الله تعالى فلما رأى تخريب فارس قد شاع في بلاد الروم من النهب والقتل تضرع وبكى وسأل الله تعالى تخليص الروميين فصادف دعاؤه هدف الإجابة فرأى في ليالي متعددة في منامه أنه قد جيء إليه بخسرو في عنقه سلسلة، وقيل له: عجل بمحاربة برويز لأنه يكون لك الظفر والنصرة فجمع هرقل عسكره بسبب تلك الرؤيا وتوجه من قسطنطينية إلى نصيبين فسمع خسرو فجهز اثني عشر ألفاً مع أمير من أمرائه فقابلهم هرقل فكسرهم وقتل منهم تسعة آلاف مع رؤسائهم.

وفي بعض الروايات أنهم ربطوا خيولهم بالمدائن، ورأيت في بعض الكتب أن سبب ظهور الروم على فارس أن كسرى بعث إلى أميره شهريار وهو الذي ولاه على محاربة الروم أن اقتل أخاك فرخان لمقالة قالها وهو قوله: لقد رأيتني جالساً على سرير كسرى فلم يقتله فبعث إلى فارس إني قد عزلت شهريار ووليت أخاه فرخان فاطلع فرخان على حقيقة الحال فرد الملك إلى أخيه وكتب شهريار إلى قيصر ملك الروم فتعاونا على كسرى فغلبت الروم فارس وجاء الخبر ففرح المسلمون وكان ذلك من الآيات البينات الباهرة الشاهدة بصحة النبوة وكون القرآن من عند الله عزَّ وجلَّ لما في ذلك من الإخبار عن الغيب الذي لا يعلمه الله تعالى العليم الخبير، وقد صح أنه أسلم عند ذلك ناس كثير. وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه، وابن عباس، وابن عمر، وأبو سعيد الخدري، والحسن، ومعاوية بن قرة «غَلَبت الروم» على البناء للفاعل و ﴿سيغلبون﴾ على البناء للمفعول، والمعنى على ما قيل: إن الروم غلبوا على ريف الشام وسيغلبهم المسلمون وقد غزاهم المسلمون في السنة التاسعة من نزول الآية ففتحوا بعض بلادهم، وإضافة «غَلَب» عليه من إضافة المصدر إلى الفاعل، ووفق بين القراءتين بأن الآية نزلت مرتين مرة بمكة على قراءة الجمهور ومرة يوم بدر كما رواه الترمذي وحسنه عن أبي سعيد على هذه القراءة.

وقال بعض الأجلة: الصواب أن يبقى نزولها على ظاهره ويراد بغلب المسلمين إياهم ما كان في غزوة مؤتة وكانت في جمادى الأولى سنة ثمان وذلك قريب من التاريخ الذي ذكروه لنزول الآية أولاً ولا حاجة إلى تعدد النزول

فإنه يجوز تخالف معنى القراءتين إذا لم يتناقضا، وكون فريق غالباً ومغلوباً في زمانين غير متدافع فتأمل انتهى.

ولا يخفى على من سبر السبر أن هذا مما لا يكاد يتسنى لأن الروم لم يغلبهم المسلمون في تلك الغزوة بل انصرفوا عنهم بعد أن أصيبوا بجعفر بن أبي طالب، وزيد بن حارثة، وعبد الله بن رواحة، وعباد بن قيس في آخرين من الصحابة رضي الله تعالى عنهم أجمعين كالمغلوبين، بل ذكر ابن هشام أنهم لما أتوا المدينة جعل الناس يحثون على الجيش التراب ويقولون: يا فرار فررتم في سبيل الله تعالى وكان رسول الله ﷺ يقول: «ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى» وروي أن أم سلمة قالت لامرأة سلمة بن هشام بن العاص بن المغيرة: مالي لا أرى سلمة يحضر الصلاة مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ومع المسلمين؟ فقالت: والله ما يستطيع أن يخرج كلما خرج صاح به الناس يا فرار فررتم في سبيل الله حتى قعد في بيته ولم يخرج، وذكر أبياتاً لقيس اليعمري يعتذر فيها مما صنع يومئذ وصنع الناس وقد تضمنت كما قال بيان أن القوم حاجزوا وكرهوا الموت وأن خالد بن الوليد انحاز بمن معه، على أن فيما ذكر أنه الصواب بحثا بعد: فلعل الأول في التوفيق إذا صحت هذه القراءة ما ذكر أولاً فتأمل..

وفي البحر كان شيخنا الأستاذ أبو جعفر بن الزبير يحكي عن أبي الحكم بن برجان أنه استخرج من قوله تعالى: ﴿الـم غلبت الروم ـ إلى ـ سنين﴾ افتتاح المسلمين بيت المقدس معيناً زمانه ويومه وكان إذ ذاك بيت المقدس قد غلبت عليه النصارى وإن ابن برجان مات قبل الوقت الذي عينه للفتح وإنه بعد موته بزمان افتتحه المسلمون في الوقت الذي عينه أبو الحكم وكان أبو جعفر يعتقد في أبو الحكم هذا أنه كان يتطلع على أشياء من المغيبات يستخرجها من كتاب الله تعالى انتهى، واستخرج بعض العارفين كمحيي الدين قدس سره، والعراقي، وغيرهم المغيبات من القرآن العظيم أمر شهير وهو مبني على قواعد حسابية وأعمال حرفية لم يرد شيء منها عن سلف الأمة ولا حجر على فضل الله عزَّ وجلَّ وكتاب الله تعالى فوق ما يخطر للبشر، وقد سئل علي كرم الله تعالى وجهه هل أسر إليكم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم شيئاً كتمه عن غيركم فقال: لا إلاّ أن يؤتي الله تعالى عبداً فهما في كتابه، هذا ونسأل الله سبحتانه أن يوفقنا لفهم أسرار كتابه بحرمة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه.

﴿لله الأَمْرُ منْ قَبْلُ وَمنْ بَعْدُ﴾ أي من قبل هذه الحالة ومن بعدها وهو حاصل ما قيل أي من قبل كونهم غالبين وهو وقت كونهم مغلوبين ومن بعد كونهم مغلوبين وهو وقت كونهم غالبين، وتقديم الخبر للتخصيص، والمعنى أن كلاً من كونهم مغلوبين أولاً وغالبين آخراً ليس إلا بأمر الله تعالى شأنه وقضائه عزَّ وجلَّ ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾ [آل عمران: ١٤٠] وقرأ أبو السمال، والجحدري عن العقيلي «من قبلٍ ومن بعدٍ» بالكسر والتنوين فيهما فليس هناك مضاف إليه مقدر أصلاً على المشهور كأنه قيل: لله الأمر قبلاً وبعداً أي في زمان متقدم وفي زمان متأخر، وحذف بعضهم الموصوف، وذكر السكاكي أن المضاف إليه مقدر في مثل ذلك أيضاً والتنوين عوض عنه، وجوز الفراء الكسر من غير تنوين، وقال الزجاج: إنه خطأ لأنه إما أن لا يقدر فيه الإضافة فينون أو يقدر فيبنى على الضم، وأما تقدير لفظه قياساً على قوله: بين ذراعي وجبهة الأسد فقياس مع الفارق لذكره فيه بعد وما نحن فيه ليس كذلك، وقال النحاس للفراء في كتابه: في القرآن أشياء كثيرة الغلط، منها أنه زعم أنه يجوز «من قبلِ ومن بعدِ» بالكسر بلا تنوين وإنما يجوز «من قبل ومن بعد» على أنهما نكرتان أي من متقدم ومن متأخر، وذهب إلى قول الفراء بن هشام في بعض كتبه، وحكى الكسائي عن بعض بني أسد «لله الأمر من قبلٍ ومن بعدُ» على أن الأول مخفوض منون والثاني مضموم بلا تنوين.

﴿وَيَوْمَئذ﴾ أي ويوم إذ يغلب الروم فارساً ﴿يَفْرَحُ الـمُؤْمنُونَ بِنَصْر الله﴾ وتغليبه من له كتاب على من لا

كتاب له وغيظ من شمتهم من كفار مكة وكون ذلك مما يتفاءل به لغلبة المؤمنين على الكفار، وقيل: نصر الله تعالى صدق المؤمنين فيما أخبروا به المشركين من غلبة الروم على فارس، وقيل: نصره عزَّ وجلَّ أنه ولّى بعض الظالمين بعضاً وفرق بين كلمتهم حتى تناقضوا وتحاربوا وقلل كل منهما شوكة الآخر، وعن أبي سعيد الخدري أنه وافق ذلك يوم بدر، وفيه من نصر الله تعالى العزيز للمؤمنين وفرحهم بذلك ما لا يخفى، والأول أنسب لقوله تعالى: ﴿يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي من يشاء أن ينصره من عباده على عدوه ويغلبه عليه فإنه استئناف مقرر لمضمون قوله تعالى: ﴿لله الأمر من قبل ومن بعد﴾ والظاهر أن ﴿يوم﴾ متعلق بيفرح وكذا ﴿بنصر﴾ وجوز تعلق ﴿يوم﴾ به، وكذا جوز تعلق ﴿بنصر﴾ بالمؤمنين، وقيل: ﴿يومئذ﴾ عطف على قبل أو بعد كأنه حصر الأزمنة الثلاثة الماضي والمستقبل والحال ثم ابتدأ الاخبار بفرح المؤمنين ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ المبالغ في العزة والغلبة فلا يعجزه من شاء أن ينصر عليه كائناً من كان ﴿الرَّحِيمُ﴾ المبالغ في الرحمة فينصر من يشاء أن ينصره أي فريق كان، والمراد بالرحمة هنا هي الدنيوية، أما على القراءة المشهورة فظاهر لأن كلا الفريقين لا يستحق الرحمة الأخروية، وأما على القراءة الأخيرة فلأن المسلمين وإن كانوا مستحقين لها لكن المراد هاهنا نصرهم الذي هو من آثار الرحمة الدنيوية، وتقديم وصف ﴿العزيز﴾ لتقدمه في الاعتبار.

﴿وَعْدَ اللَّهُ﴾ مصدر مؤكد لمضمون الجملة المتقدمة من قوله تعالى: ﴿سيغلبون﴾ وقوله سبحانه: ﴿يفرح المؤمنون﴾ ويقال له المؤكد لنفسه لأن ذلك في معنى الوعد وعامله محذوف وجوباً كأنه قيل: وعد الله تعالى ذلك وعداً ﴿لا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ﴾ أي وعد كان مما يتعلق بالدنيا والآخرة لما في خلفه من النقص المستحيل عليه عزَّ وجلَّ، وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار للتعليل الحكمي وتفخيمه، والجملة استئناف مقرر لمعنى المصدر، وجوز أن يكون حالاً منه فيكون كالمصدر الموصوف كأنه سبحانه يقول: وعد الله تعالى وعداً غير مخلف ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ أنه تعالى لا يخلف وعده لجهلهم بشؤونه عزَّ وجلَّ وعدم تفكرهم فيما يجب له جلَّ شأنه وما يستحيل عليه سبحانه أو لا يعلمون ما سبق من شؤونه جلَّ وعلا، وقيل: لا يعلمون شيئاً أو ليسوا من أولي العلم حتى يعلموا ذلك ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وهو ما يحسون به من زخارفها وملاذها وسائر أحوالها الموافقة لشهواتهم الملائمة لأهوائهم المستدعية لانهماكهم فيها وعكوفهم عليها.

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يعلمون منافعها ومضارها ومتى يزرعون ومتى يحصدون وكيف يجمعون وكيف يبنون أي ونحو ذلك مما لا يكون لهم منه أثر في الآخرة، وروي نحوه عن قتادة، وعكرمة.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الحسن أنه قال في الآية: بلغ من حذق أحدهم بأمر دنياه أنه يقلب الدرهم على ظفره فيخبرك بوزنه وما يحسن يصلي، وقال الكرماني: كل ما يعلم بأوائل الروية فهو الظاهر وما يعلم بدليل العقل فهو الباطن وقيل: هو هنا التمتع بزخارفها والتنعم بملاذها، وتعقب بأنهما ليسا مما علموه منها بل من أفعالهم المرتبة على علمهم، وعن ابن جبير أن الظاهر هو ما علموه من قبل الكهنة مما تسترقه الشياطين، وليس بشيء كما لا يخفى، وأياً ما كان فالظاهر أن المراد بالظاهر مقابل الباطن، وتنويه للتحقير والتخسيس أي يعلمون ظاهراً حقيراً خسيساً؛ وقيل: هو بمعنى الزائل الذاهب كما في قول الهذلي:

وعيرها الواشون أني أحبها ... وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

أي يعلمون أمراً زائلاً لا بقاء له ولا عاقبة من الحياة الدنيا ﴿وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ﴾ التي هي الغاية القصوى والمطلب الأسنى ﴿هُمْ غَافِلُونَ﴾ لا تخطر ببالهم فكيف يتفكرون فيها وفيما يؤدي إلى معرفتها من الدنيا وأحوالها،

والجملة معطوفة على ﴿يعلمون﴾ وإيرادها اسمية للدلالة على استمرار غفلتهم ودوامها، و﴿هم﴾ الثانية تكرير للأولى وتأكيد لفظي لها دافع للتجوز وعدم الشمول، والفصل بمعمول الخبر وإن كان خلاف الظاهر لكن حسنه وقوع الفصل في التلفظ والاعتناء بالآخرة أو هو مبتدأ و ﴿غافلون﴾ خبره والجملة خبر ﴿هم﴾ الأولى، وجملة ﴿يعلمون﴾ الخ بدل من جملة ﴿لا يعلمون﴾ على ما ذهب إليه صاحب الكشف فإن الجاهل الذي لا يعلم أن الله لا يخلف وعده أو لا يعلم شؤونه تعالى السابقة ولا يتفكر في ذلك هو الذي قصر نظره على ظاهر الحياة الدنيا، والمصحح للبدلية اتحاد ما صدقا عليه، والنكتة المرجحة له جعل علمهم والجهل سواء بحسب الظاهر، وجملة ﴿وهم عن الآخرة﴾ الخ مناد على تمكن غفلتهم عن الآخرة المحققة لمقتضى الجملة السابقة تقريراً لجهالتهم وتشبيهاً لهم بالبهائم المقصور إدراكها على ظواهر الدنيا الخسيسة دون أحوالها التي هي من مبادىء العلم بأمور الآخرة. واختار العلامة الطيبي أن جملة ﴿يعلمون﴾ الخ استئنافية لبيان موجب جهلهم بأن وعد الله تعالى حق وأن لله سبحانه الأمر من قبل ومن بعد وأنه جلَّ شأنه ينصر المؤمنين على الكافرين ولعله الأظهر ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ إنكار واستقباح لقصر نظرهم على ما ذكر من ظاهر الحياة الدنيا مع الغفلة عن الآخرة، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام، وقوله سبحانه: ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ ظرف للتفكر، وذكره مع أن التفكر لا يكون إلا في النفس لتحقيق أمره وزيادة تصوير حال المتفكرين كما في اعتقده في قلبك وأبصره بعينك، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ متعلق إما بالعلم الذي يؤدي إليه التفكر ويدل عليه أو بالقول الذي يترتب عليه كما في قوله تعالى: ﴿ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً﴾ [آل عمران: ١٩١] أي أعلموا ظاهر الحياة الدنيا فقط أو أقصروا النظر على ذلك ولم يحدثوا التفكر في قلوبهم فيعلموا أنه تعالى ما خلق السماوات والأرض وما بينهما من المخلوقات التي هُمْ من جملتها ملتبسة بشيء من الأشياء إلا ملتبسة بالحق أو يقولوا هذا القول معترفين بمضمونه إثر ما علموه، والمراد بالحق هو الثابت الذي يحق أن يثبت لا محالة لابتنائه على الحكم البالغة التي من جملتها استشهاد المكلفين بذواتها وصفاتها وأحوالها على وجود صانعها ووحدته وعلمه وقدرته واختصاصه بالمعبودية وصحة أخباره التي من جملتها إحياؤهم بعد الفناء بالحياة الأبدية ومجازاتهم بحسب أعمالهم عما يتبين المحسن من المسيء ويمتاز درجات افراد كل من الفريقين حسب امتياز طبقات علومهم واعتقاداتهم المترتبة على أنظارهم فيما نصب في المصنوعات من الآيات والدلائل والإمارات والمخايل كما نطق به قوله تعالى: ﴿وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ [الملك: ٢] فإن العمل غير مختص بعمل الجوارح ولذلك فسره عليه الصلاة والسلام بقوله: «أيكم أحسن عقلاً وأورع عن محارم الله تعالى وأسرع في طاعة الله عزَّ وجلَّ».

وقوله سبحانه: ﴿وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ عطف على الحق أي وبأجل معين قدره الله تعالى لبقائها لا بد لها من أن تنتهي إليه لا محالة وهو وقت قيام الساعة وتبدل الأرض غير الأرض والسماوات، هذا وجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿في أنفسهم﴾ متعلقاً بيتفكروا ومفعولاً له بالواسطة على معنى أو لم يتفكروا في ذواتهم وأنفسهم التي هي أقرب المخلوقات إليهم وهم أعلم بشؤونها وأخبر بأحوالها منهم بأحوال ما عداها فيتدبروا ما أودعها الله تعالى ظاهراً أو باطناً من غرائب الحكم الدالة على التدبير دون الإهمال وأنه لا بد لها من انتهاء إلى وقت يجازيها الحكيم الذي دبر أمرها على الإحسان إحساناً وعلى الإساءة مثلها حتى يعلموا عند ذلك أن سائر الخلائق كذلك أمرها جار على الحكمة والتدبير وأنه لا بد لها من الانتهاء إلى ذلك الوقت. وتعقب بأن أمر معاد الإنسان ومجازاته بما عمل من الإساءة

والإحسان هو المقصود بالذات والمحتاج إلى الإثبات فجعله ذريعة إلى إثبات معاد ما عداه مع كونه بمعزل من الأجزاء تعكيس للأمر فتدبر. وجوز أبو حيان أن يكون ﴿ما خلق﴾ الخ مفعول ﴿يتفكروا﴾ معلقاً عنه بالنفي، وأنت تعلم أن التعليق في مثله ممنوع أو قليل، وقوله تعالى:

﴿وَإِنَّ كَثيراً مِنَ النَّاسِ بِلقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ تذييل مقرر لما قبله ببيان أن أكثرهم غير مقتصرين على ما ذكره من الغفلة من أحوال الآخرة والإعراض عن التفكر فيما يرشدهم إلى معرفتها من خلق السماوات والأرض وما بينهما من المصنوعات بل هم منكرون جاحدون لقاء حسابه تعالى وجزائه عزَّ وجلَّ بالبعث، وهم القائلون بأبدية الدنيا كالفلاسفة على المشهور ﴿أَوَلَمْ يَسيرُوا في الأرْض﴾ توبيخ لهم بعدم اتعاظهم بمشاهدة أحوال أمثالهم الدالة على عاقبتهم ومآلهم؛ والهمزة للإنكار التوبيخي أو الإبطالي وحيث دخلت على النفي وإنكار النفي إثبات قيل: إنها لتقرير المنفي والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي أقعدوا في أماكنهم ولم يسيروا في الأرض، وقوله تعالى: ﴿فَيَنْظُرُوا﴾ عطف على يسيروا داخل في حكمه والمعنى أنهم قد ساروا في أقطار الأرض وشاهدوا ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم المهلكة كعاد، وثمود، وقوله تعالى: ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُم قُوَّةً﴾ إلخ بيان لمبدأ أحوالهم ومآلها يعني أنهم كانوا أقدر منهم على التمتع بالحياة الدنيا حيث كانوا أشد منهم قوة ﴿وَأَثَارُوا الأَرْضَ﴾ أي قلبوها للحرث والزراعة كما قال الفراء، وقيل: لاستنباط المياه واستخراج المعادن وغير ذلك.

وقرأ أبو جعفر «وآثاروا» بمدة بعد الهمزة، وقال ابن مجاهد: ليس بشيء وخرج ذلك أبو الفتح على الإشباع كقوله.

ومن ذم الزمان بمنتزاح *

وذكر أن هذا من ضرورة الشعر ولا يجيء في القرآن، وقرأ أبو حيوة وأثروا من الأثرة وهو الاستبداد بالشيء وآثروا الأرض أي أبقوا فيها آثاراً ﴿وَعَمَرُوهَا﴾ أي وعمرها أولئك الذين كانوا قبلهم بفنون العمارات من الزراعة والغرس والبناء وغيرها، وقيل: أي أقاموا بها، يقال عمرت بمكان كذا وعمرته أي أقمت به ﴿أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أي عمارة أكثر من عمارة هؤلاء إياها والظاهر أن الأكثرية اعتباراً لكم وعممه بعضهم فقال: أكثر كماً وكيفاً وزماناً، وإذا أريد العمارة بمعنى الإقامة فالمعنى أقاموا بها إقامة أكثر زماناً من إقامة هؤلاء بها، وفي ذكر أفعل تهكم بهم إذ لا مناسبة بن كفار مكة وأولئك الأمم المهلكة فإنهم كانوا معروفين بالنهاية في القوة وكثرة العمارة وأهل مكة ضعفاً ملجؤون إلى واد غير ذي زرع يخافون أن يتخطفهم الناس، ونحو هذا يقال إذا سرت العمارة بالإقامة فإن أولئك كانوا مشهورين بطول الأعمار جداً وأعمار أهل مكة قليلة بحيث لا مناسبة يعتد بها بينها وبين أعمال أولئك المهلكين.

﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَات﴾ بالمعجزات أو الآيات الواضحات ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي فكذبوهم فأهلكهم فما كان الله تعالى شأنه ليهلكهم من غير جرم يستدعيه من قبلهم، وفي التعبير عن ذلك بالظلم اظهار لكمال نزاهته تعالى عنه وإلا فقد قال أهل السنة: إن إهلاكه تعالى من غير جرم ليس من الظلم في شيء لأنه عزَّ وجلَّ مالك والمالك يفعل بملكه ما يشاء والنزاع في المسألة شهير ﴿وَلكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث ارتكبوا باختيارهم من المعاصي ما أوجب بمقتضى الحكمة ذلك، وتقديم ﴿أنفسهم﴾ على ﴿يظلمون﴾ للفاصلة؛ وجوز أن يكون للحصر بالنسبة إلى الرسل الذين يدعونهم ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤوا﴾ أي عملوا السيئات، ووضع الموصول موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالإساءة والإشعار بعلة الحكم، و﴿ثم﴾ للتراخي الحقيقي أو للاستبعاد والتفاوت في الرتبة ﴿السُّوأَى﴾ أي العقوبة السوأى وهي العقوبة بالنار فإنها تأنيث الأسوأ كالحسنى تأنيث الأحسن أو مصدر كالبشرى وصف به العقوبة مبالغة كأنها نفس السوء، وهي مرفوعة على أنها اسم وكان خبرها ﴿عاقبة﴾.

وقرأ الحرميان، وأبو عمرو «عاقبة» بالرفع على أنه اسم كان و«السوأى» بالنصب على الخبرية، وقرأ الأعمش، والحسن «السوى» بإبدال الهمزة واوا وإدغام الواو فيها، وقرأ ابن مسعود «السوء» بالتذكير ﴿أَن كَذَّبُوا بآيَات الله﴾ علة للحكم المذكور أي لأن أو بأن كذبوا وهو في الحقيقة مبين لما أشعر به وضع الموصول موضع الضمير لأنه مجمل.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا بهَا يَسْتَهْزئونَ﴾ عطف على ﴿كذبوا﴾ داخل معه في حكم العلية وإيراد الاستهزاء بصيغة المضارع للدلالة على استمراره وتجدده، وجوز أن يكون ﴿السوأى﴾ مفعولاً مطلقاً لأساؤوا من غير لفظه أو مفعولاً به له لأن أساؤوا بمعنى اقترفوا واكتسبوا، والسوأى بمعنى الخطيئة لأنه صفة أو مصدره مؤول بها وكونه صفة مصدر أساؤوا من لفظه أي الإساءة السوأى بعيد لفظاً مستدرك معنى و ﴿إن كذبوا﴾ اسم كان. وكون التكذيب عاقبتهم مع أنهم لم يخلوا عنه إما باعتبار استمراره أو باعتبار أنه عبارة عن الطبع، وجوز أن يكون أن كذبوا بدلاً من ﴿السوأى﴾ الواقع اسماً لكان أو عطف بيان لها أو خبر مبتدأ محذوف أي هي أن كذبوا، وأن تكون ﴿أن﴾ تفسيرية بمعنى أي والمفسر إما أساؤوا أو ﴿السوأى﴾ فإن الإساءة تكون قولية كما تكون فعلية فإذن قبلها مضمن معنى القول دون حروفه ويظهر ذلك التضمن بالتفسير، وإذا جاز ﴿وانطلق الملأ منهم أن امشوا﴾[ص: ٦] فهذا أجوز فليس هذا الوجه متكلفاً خلافاً لأبي حيان. وجوز في قراءة الحرميين، وأبي عمرو وأن تكون ﴿السوأى﴾ صلة الفعل ﴿وأن كذبوا﴾ تابعاً له أو خبر مبتدأ محذوف أو على تقدير حرف التعليل وخبر كان محذوفاً تقديره وخيمة ونحوه وتعقب ذلك في البحر فقال: هو فهم أعجمي لأن الكلام مستقل في غاية الحسن بلا حذف وقد تكلف له محذوف لا يدل عليه دليل، وأصحابنا لا يجيزون حذف خبر كان ﴿الله يَبْدَأُ الْـخَلْقَ﴾ أي ينشئهم.

وقرأ عبد الله وطلحة «يُبْدِىء» بضم الياء وكسر الدال، وقد تقدم الكلام في ذلك فتذكر فما بالعهد من قدم.

﴿ثُمَّ يُعيدُهُ﴾ بالبعث ﴿ثُمَّ إلَيْه تُرْجَعُونَ﴾ للجزاء، وتقديم المعمول للتخصيص، وكان الظاهر يرجعون بياء الغيبة إلا أنه عدل عنه إلى خطاب المشركين لمكافحتهم بالوعيد ومواجهتهم بالتهديد وإيهام إن ذلك مخصوص بهم فهو التفات للمبالغة في الوعيد والترهيب. وقرأ أبو عمرو، وروح «يرجعون» بياء الغيبة كما هو الظاهر ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَة﴾ التي هي وقت إعادة الخلق ومرجعهم إليه عزَّ وجلَّ ﴿يُبْلسُ الْـمُـجْرمُونَ﴾ أي يسكتون وتنقطع حجتهم، قال الراغب: الإبلاس الحزن المعترض من شدة اليأس ومنه اشتق إبليس فيما قيل، ولما كان المبلس كثيراً ما يلزم السكوت وينسى ما يعنيه قبل أبلس فلان إذا سكت وانقطعت حجته وأبلست الناقة فهي مبلاس إذا لم ترغ من شدة الضبعة[1] وقال ابن ثابت: يقال أبلس الرجل إذا يئس من كل خير، وفي الحديث «وأنا مبشرهم إذا أبلسوا» والمراد بالمجرمين على ما أفاده الطيبي أولئك الذين أساؤوا والسوأى لكنه وضع الظاهر موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بهذا الوصف الشنيع والإشعار بعلة الحكم.

وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه، والسلمي «يُبْلَسُ» بفتح اللام وخرج على أن الفعل من أبلسه إذا أسكته، وظاهره أنه يكون متعدياً وقد أنكره أبو البقاء، والسمين، وغيرهما حتى تكلفوا وقالوا: أصله يبلس إبلاس المجرمين على إقامة المصدر مقام الفاعل ثم حذفه وإقامة المضاف إليه مقامه. وتعقبه الخفاجي عليه الرحمة فقال: لا يخفى عدم صحته لأن إبلاس المجرمين مصدر مضاف لفاعله وفاعله هو فاعل الفعل بعينه فكيف يكون نائب الفاعل فتأمل.

وأنت تعلم أنه متى صحت القراءة لا تسمع دعوى عدم سماع استعمال أبلس متعدياً.

---

(١) قوله «الضبعة» هي شدة شهوة الناقة للفحل ا هـ منه.

﴿وَلَمْ يَكُن لَهُم مِّنْ شُرَكَائِهِمْ﴾ممن أشركوهم بالله سبحانه في العبادة ولذا أضيفوا إليهم. وقيل: إن الإضافة لإشراكهم إياهم بالله تعالى في أموالهم والمراد بهم الأوثان، وقال مقاتل: الملائكة عليهم السلام، وقيل: الشياطين، وقيل: رؤساؤهم ﴿شُفَعَاءُ﴾ يجيرونهم من عذاب الله تعالى كما كانوا يزعمون، وجيء بالمضارع منفياً بلم التي تقلبه ماضياً للتحقق، وصيغة الجمع لوقوعها في مقابلة الجمع لوقوعها في مقابلة أي لم يكن لواحد منهم شفيع أصلاً.

وقرأ خارجة عن نافع، وابن سنان عن أبي جعفر، والأنطاكي عن شيبة «ولم تكن» بالتاء الفوقية.

﴿وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ﴾ أي بإلهيتهم وشركتهم كما يشير إليه العدول عن وكانوا بهم ﴿كَافِرِينَ﴾ حيث يئسوا منهم ووقفوا على كنه أمرهم، ﴿وكانوا﴾ للدلالة على الاستمرار لا للمحافظة على رؤوس الفواصل كما توهم.

وقيل: إنها للمضي كما هو الظاهر، والباء في ﴿بشركائهم﴾ سببية أي وكانوا في الدنيا كافرين بالله تعالى بسببهم ولم يرتضه بعض الأجلة إذ ليس في الأخبار بذلك فائدة يعتد بها، ولأن المتبادر أن ﴿يوم تقوم الساعة﴾ ظرف للإبلاس وما عطف عليه ولذا قيل: إن المناسب عليه جعل الواو حالية ليكون المعنى أنهم لم يشفعوا لهم مع أنهم سبب كفرهم في الدنيا وهو أحسن من جعله معطوفاً على مجموع الجملة مع الظرف، مع أنه عليه ينبغي القطع للاحتياط إلاّ أن يقال: إنه ترك تعويلاً على القرينة العقلية، وهو خلاف الظاهر، وكتب «شفعواء» في المصحف بواو بعدها ألف وهو خلاف القياس والقياس ترك الواو أو تأخيرها عن الألف لكن الأول أحسن كما ذكر في الرسم، وكذا خولف القياس في كتابة ﴿السوأى﴾ حيث كتبت بالألف قبل الياء والقياس كما في الكشف الحذف لأن الهمز يكتب على نحو ما يسهل ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ أعيد لتهويله وتفظيع ما يقع فيه وهو ظرف للفعل بعده، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ على ما ذكره الطبرسي بدل منه.

وفي البحر التنوين في «يومئذ» تنوين عوض من الجملة المحذوفة أي ويوم تقوم الساعة يوم إذ يبلس المجرمون ﴿يَتَفَرَّقُونَ﴾ وظاهره أن «يومئذ» ظرف لتقوم، ولا يخفى ما في جعل الجملة المعوض عنها التنوين حينئذ ما ذكره من النظر.

وفي إرشاد العقل السليم أن قوله تعالى: ﴿يومئذ يتفرقون﴾ تهويل ليوم قيام الساعة إثر تهويل وفيه رمز إلى أن التفرق يقع في بعض منه، وفي وجه الرمز إلى ذلك بما ذكر خفاء، وضمير ﴿يتفرقون﴾ للمسلمين والكافرين الدال عليهما، ما قبل من عموم الخلق وما بعد من التفصيل، وذهب إلى ذلك الزمخشري، وجماعة.

وقال في الإرشاد: هو لجميع الخلق المدلول عليهم بما تقدم من مبدئهم ومرجعهم وإعادتهم لا المجرمون خاصة، وقال أبو حيان: يظهر أنه عائد على الخلق قبله وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿الله يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ والمراد بتفرقهم اختلافهم في المحال والأحوال كما يؤذن به التفصيل، وليس ذلك باعتبار كل فرد بل باعتبار كل فريق، فقد أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن أنه قال في ذلك هؤلاء في عليين وهؤلاء في أسفل سافلين، والتفصيل يؤذن بذلك أيضاً، وهذا التفرق بعد تمام الحساب.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَملُوا الصالحات فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ الروضة الأرض ذات النبات والماء، وفي المثل أحسن من بيضة في روضة يريدون بيضة النعامة، وباعتبار الماء قيل: أراض الوادي واستراض أي كثر ماؤه وأراضهم أرواهم بعض الري من أراضي الحوض إذا صب فيه من الماء ما يوارى أرضه، ويقال: شربوا حتى أراضوا أي شربوا عللاً بعد نهل. وقيل: معنى أراضوا صبوا اللبن على اللبن، وظاهر تفسير الكثير للروضة اعتبار النبات والماء فيها، وأظن أن ابن قتيبة صرح بأنه لا يقال الأرض ذات نبات بلا ماء روضة.

وقيل: هي البستان الحسن، وقيل: موضع الخضرة، وقال الخفاجي: الروضة البستان وتخصيصها بذات الأنهار

بناء على العرف، وأياً ما كان فتنوينها هنا للتفخيم والمراد بها الجنة، والحبر السرور يقال: حبره يحبره بالضم حبراً وحبرة وحبوراً إذا سره سروراً تهلل له وجهه وظهر فيه أثره، وفي المثل امتلأت بيوتهم حبرة فهم ينتظرون العبرة، وحكى الكسائي حبرته أكرمته ونعمته، وقيل: الحبرة كل نعمة حسنة والتحبير التحسين، ويقال: فلان حسن الحبر والسبر بالفتح إذا كان جميلاً حسن الهيئة، واختلفت الأقوال في تفسيره هنا فأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس، وابن أبي حاتم عن الضحاك أنهما قالا: يحبرون يكرمون.

وأخرج جماعة عن مجاهد يحبرون ينعمون، وقال أبو بكر بن عياش: يتوجهون على رؤوسهم.

وقال ابن كيسان: يحلون، وقال الأوزاعي، ووكيع، ويحيى بن أبي كثير: يسمعون الأغاني، وأخرج عبد بن حميد عن الأخير أنه قال: قيل يا رسول الله ما الحبر؟ فقال عليه الصلاة والسلام: اللذة والسماع.

وذكر بعضهم أن الظاهر يسرون ولم يذكر ما يسرون به إيذاناً بكثرة المسار وما جاء في الخبر فمن باب الاقتصار على البعض، ولعل السائل كان يحب السماع فذكره صلى الله تعالى عليه وسلم له لذلك، والتعبير بالمضارع للإيذان بتجدد السرور لهم ففي كل ساعة يأتيهم ما يسرون به من متجددات الملاذ وأنواعها المختلفة.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ التي من جملتها الآيات الناطقة بما فصل ﴿وَلِقَاءِ الآخِرَةِ﴾ أي وكذبوا بالبعث، وصرح بذلك مع اندراجه في تكذيب الآيات للاعتناء به، وقوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما في حيز الصلة من الكفر والتكذيب بآياته تعالى وبلقاء الآخرة للإيذان بكمال تميزهم بذلك عن غيرهم وانتظامهم في سلك المشاهدات، وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإشعار ببعد منزلتهم في الشر أي فأولئك الموصوفون بما ذكر من القبائح ﴿فِي العَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ على الدوام لا يغيبون عنه أبداً، والظاهر أن الفسقة من أهل الإيمان غير داخلين في أحد الفريقين أما عدم دخولهم في الذين كفروا وكذبوا بالآيات والبعث فظاهر وأما عدم دخولهم في الذين آمنوا وعملوا الصالحات فإما لأن ذلك لا يقال في العرف إلاَّ على المؤمنين المجتنبين المفسقات على ما قيل، وإما لأن المؤمن الفاسق يصدق على المؤمن الذي لم يعمل شيئاً من الصالحات أصلاً فهم غير داخلين في ذلك باعتبار جميع الأفراد وحكمهم معلوم من آيات أخر فلا تغفل.

﴿فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ أثر ما بين حال فريقي المؤمنين العاملين بالصالحات والكافرين المكذبين بالآيات وما لهما من الثواب والعقاب أرشد سبحانه إلى ما ينجي من الثاني ويفضي إلى الأول من تنزيه الله عزَّ وجلَّ عن كل ما لا يليق بشأنه جلَّ شأنه ومن حمده تعالى والثناء عليه ووصفه بما هو أهله من الصفات الجميلة والشؤون الجليلة، وتقديم الأول على الثاني لما أن التخلية متقدمة على التحلية مع أنه أول ما يدعي إليه الذين كفروا المذكورون قبل بلا فصل، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، وظاهر كلامهم أن ﴿سبحان﴾ هنا منصوب بفعل أمر محذوف فكأنه قيل: إذا علمتم ذلك أو إذا صح واتضح حال الفريقين، ومآلهما فسبحوا سبحان الله الخ أي نزهوه تعالى تنزيهه اللائق به عزَّ وجلَّ في هذه الأوقات، قال في الكشف: وفيه إشكال لأن سبحان الله لزم طريقة واحدة لا ينصبه فعل الأمر لأنه إنشاء من نوع آخر، والجواب أن ذلك توضيح للمعنى وأن وقوعه جواب الشرط على منوال إن فعلت كذا فنعم ما فعلت فإنه إنشاء أيضاً لكنه ناب مناب الخبر وأبلغ، كذلك هو لإنشاء تنزيهه تعالى في الأوقات هرباً من وبيل عقابه وطلباً لجزيل ثوابه، والشرط والجواب مقول على ألسنة العباد انتهى، وفي حواشي شيخ زاده أن الأمر بل الجملة الإنشائية مطلقاً لا يصح تعليقها بالشرط لأن الإنشاء إيقاع المعنى بلفظ يقارنه ولو جاز تعليقه للزم تأخره عن زمان التلفظ وأنه غير جائز وإنما المعلق بالشرط هو الإخبار عن إنشاء التمني والترجي وإنشاء المدح والذم والاستفهام ونحوها فإذا قلت: إن فعلت كذا غفر الله تعالى لك

أو فنعم ما فعلت كان المعنى فقد فعلت ما تستحق بسببه أن يغفر الله تعالى لك أو أن تمدح بسببه إلاَّ أن الجملة الإنشائية أقيمت مقامه للمبالغة للدلالة على الاستحقاق فمعنى الآية إذا كان الأمر كما تقرر فأنتم تسبحون الله تعالى في الأوقات المذكورة وهو في معنى الأمر بالتسبيح فيها انتهى.

ولعله أظهر مما في الكشف بل لا يظهر ما ذكر فيه من دعوى أن الشرط والجواب مقول على ألسنة العباد.

ويوهم كلام بعضهم أن الكلام بتقدير القول حيث قال: كأنه قيل إذا صح واتضح عاقبة المطيعين والعاصين فقولوا: نسبح سبحان الخ، والمعنى فسبحوه تسبيحاً في الأوقات، ولا يخفى ما فيه، وكأني بك تمنع لزوم سبحان طريقة واحدة وهي التي ذكرت أولاً، ويجوز نصب فعل الأمر لها إذا اقتضاه المقام وأشعر به الكلام، ولكن كأنك تميل إلى اعتبار كون الجملة خبرية لفظاً إنشائية معنى بأن يراد بها الأمر لتوافق جملة ﴿**له الحمد**﴾ فإنها وإن كانت خبرية إلاَّ أن الأخبار بثبوت الحمد له تعالى ووجوبه على المميزين من أهل السماوات والأرض كما يشعر به اتباع ذلك. ذكر الوعد والوعيد وتفريعه عليه بالفاء في معنى الأمر به على أبلغ وجه على ما صرح به بعض الأجلة فكأنه حينئذ قد قيل: فسبحوا الله تعالى تسبيحه اللائق به سبحانه في هذه الأوقات واحمدوه، وظاهر كلام الأكثرين أن جملة ﴿**له الحمد**﴾ الخ معطوفة على الجملة التي قبلها وأن ﴿**عشياً**﴾ معطوف على ﴿**حين تمسون**﴾ بل هم صرحوا بهذا، وعلى ما ذكر يكون جملة ﴿**له الحمد**﴾ فاصلة بين المعطوف والمعطوف عليه، وما أشبه الآية حينئذ بآية الوضوء على ماذهب إليه أهل السنة. وفي الكشاف أن ﴿**عشياً**﴾ متصل بقوله تعالى: ﴿**حين تمسون**﴾ وقوله تعالى: ﴿**وله الحمد**﴾ إلخ اعتراض بينهما، ومعناه أن على المميزين كلهم من أهل السماوات والأرض أن يحمدوه.

وإلى كون الجملة معترضة ذهب أبو البقاء أيضاً، وجعل قوله تعالى: ﴿**في السماوات**﴾ حالاً من الحمد، وفي جواز مجيء الحال منه على احتمال كونه مبتدأ وهو الظاهر خلاف، ولعل من لا يجوّز ذلك يجعل الجار متعلقاً بالثبوت الذي تقتضيه النسبة، والمراد بالتسبيح والحمد ظاهرهما على ما ذهب إليه جمع من الأجلة، وقيل: المراد بالتسبيح الصلاة وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن جرير، وابن المنذر،وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه عن أبي رزين قال: جاء نافع بن الأزرق إلى ابن عباس فقال: هل تجد الصلوات الخمس في القرآن؟ فقال: نعم فقرأ ﴿**فسبحان الله حين تمسون**﴾ صلاة المغرب ﴿**وحين تصبحون**﴾ صلاة الصبح ﴿**وعشياً**﴾ صلاة العصر ﴿**وحين تظهرون**﴾ صلاة الظهر، وقرأ «ومن بعد صلاة العشاء» وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عنه قال: جمعت هذه الآية مواقيت الصلاة ﴿**فسبحان الله حين تمسون**﴾ المغرب والعشاء ﴿**وحين تصبحون**﴾ الفجر﴿**وعشياً**﴾ العصر ﴿**وحين تظهرون**﴾ الظهر، وذهب الحسن إلى ذلك حتى أنه ذهب إلى أن الآية مدنية لما أنه يرى فرضية الخمس بالمدينة وأنه كان الواجب بمكة ركعتين في أي وقت اتفقت الصلاة فيه، والصحيح أنها فرضت بمكة ويدل عليه حديث المعراج دلالة بينة.

واختار الإمام الرازي حمل التسبيح على التنزيه فقال: إنه أقوى والمصير إليه أولى لأنه يتضمن الصلاة وذلك لأن التنزيه المأمور به يتناول التنزيه بالقلب وهو الاعتقاد الجازم وباللسان مع ذلك وهو الذكر الحسن وبالأركان معهما جميعاً وهو العمل الصالح، والأول هو الأصل والثاني ثمرة الأول والثالث ثمرة الثاني، وذلك لأن الإنسان إذا اعتقد شيئاً ظهر من قلبه على لسانه وإذا قال ظهر صدقه في مقاله من أحوال أفعاله واللسان ترجمان الجنان والأركان برهان اللسان لكن الصلاة أفضل أعمال الأركان وهي مشتملة على الذكر باللسان والقصد بالجنان فهو تنزيه في التحقيق، فإذا قال سبحانه نزهوني وهذا نوع من أنواع التنزيه والأمر المطلق لا يختص بنوع دون نوع فيجب حمله على كل ما هو تنزيه

فيكون هذا أمراً بالصلاة، ثم إن قولنا يناسبه ما تقدم وذلك لأن الله تعالى لما بين أن المقام الأعلى والجزاء الأوفى لمن آمن وعمل الصالحات حيث قال عزَّ وجلَّ: ﴿**فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون**﴾ قال سبحانه: إذا علمتم أن ذلك المقام لمن آمن وعمل الصالحات والإيمان تنزيه بالجنان وتوحيد باللسان والعمل الصالح استعمال الأركان فالكل تنزيهات وتحميدات فسبحان الله أي فأتوا بذلك الذي هو الموصل إلى الحبور في الرياض والحضور على الحياض ا هـ، وأنا بالإمام أقتدي في دعوى أولوية الحمل على الظاهر، واختار أيضاً أن قوله تعالى: ﴿**وله الحمد**﴾ اعتراض مؤكد بين المعطوف والمعطوف عليه مطلقاً ومعناه على ما سمعت عن الكشاف أن على المميزين كلهم أن يحمدوه فإن حمل التسبيح على الصلاة فهو كلام يؤكد الوجوب لأن الحمد يتجوز به عن الصلاة كالتسبيح، ووجه التأكيد دلالته على أنه أمر عم المكلفين من أهل السماوات والأرض، وأن حمل على الظاهر فوجهه أن ذلك جار مجرى الاستدراك للأمر بالتسبيح، ولما كان من واد واحد كان كل منهما مؤكداً للآخر فدل على دوام وجوب الحمد في الأوقات ووجوب التسبيح على أهل السماوات والأرض، وأما الدلالة على الوجوب فمن اتباع ﴿**سبحان الله**﴾ الخ ذكر الوعد والوعيد بالفاء فإنه يفهم تعين ذلك طريقاً للخلاص عن الدركات والوصول إلى الدرجات وما يتعين طريقاً لذلك كان واجباً كذا في الكشف.

وذكر الإمام أن في هذا الاعتراض لطيفة وهو أن الله تعالى لما أمر العباد بالتسبيح كأنه قال جلَّ وعلا: بين لهم أن تسبيحهم الله تعالى لنفعهم لا لنفع يعود إلى الله عزَّ وجلَّ فعليهم أن يحمدوا الله تعالى إذا سبحوه جلَّ شأنه، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا عليَّ إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان﴾ [الحجرات: ١٧].

وجوز بعضهم كون ﴿**عشياً**﴾ معطوفاً على قوله تعالى: ﴿**في السماوات**﴾ ورد بأنه لا يعطف ظرف الزمان على المكان ولا عكسه، وقيل: يحتمل أن يكون معطوفاً على مقدر أي وله الحمد في السماوات والأرض دائماً وعشياً على أنه تخصيص بعد تعميم والجملة اعتراضية أو حالية وهو كما ترى، وتخصيص الأوقات المذكورة بالذكر لظهور آثار القدرة والعظمة والرحمة فيها، وقدم الإمساء على الإصباح لتقدم الليل والظلمة، وقدم العشي على الإظهار لأنه بالنسبة إلى الإظهار كالإمساء بالنسبة إلى الإصباح. وفي البحر قوبل بالعشي الإمساء وبالإظهار الإصباح لأن كلاً منهما يعقب بما قابله فالعشي يعقبه الإمساء والإصباح يعقبه الإظهار، وقال العلامة أبو السعود: إن تقديم ﴿**عشياً**﴾ على ﴿**حين تظهرون**﴾ لمراعاة الفواصل وليس بذاك وذكر الإمام أنه قدم الإمساء على الإصباح هاهنا وأخر في قوله تعالى: ﴿سبحوه بكرة وأصيلاً﴾ [الأحزاب: ٤٢] لأن أول الكلام هاهنا ذكر الحشر والإعادة وكذا آخره والإمساء آخر فذكر الآخر أولاً لتذكر الآخرة، وتغيير الأسلوب في ﴿**عشياً**﴾ لما أنه لا يجيء منه الفعل بمعنى الدخول في العشي كالمساء والصباح والظهيرة، ولعل السر في ذلك على ما قيل: إنه ليس من الأوقات التي تختلف فيها أحوال الناس وتتغير تغيراً ظاهراً مصححاً لوصفهم بالخروج عما قبلها والدخول فيها كالأوقات المذكورة فإن كلاً منها وقت يتغير فيه الأحوال تغيراً ظاهراً، أما في المساء والصباح فظاهر. وأما في الظهيرة فلأنها وقت يعاد فيه التجرد عن الثياب للقيلولة كما مرت إليه الإشارة في سورة النور، هذا وفضل التسبيح والتحميد أظهر من أن يستدل عليه، وذكروا في فضل ما تضمنته الآية عدة أخبار، فأخرج الإمام أحمد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن السني في عمل اليوم والليلة والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في الدعوات عن معاذ بن أنس عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «ألا أخبركم لم سمى الله تعالى إبراهيم خليله الذي وفى لأنه يقول كلما أصبح وأمسى سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السماوات والأرض وعشياً وحين تظهرون».

وأخرج أبو داود، والطبراني، وابن السني، وابن مردويه عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «من قال حين يصبح سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون إلى قوله تعالى: وكذلك تخرجون أدرك ما فاته في يومه ومن قالها حين يمسي أدرك ما فاته من ليلته» إلى غير ذلك من الأخبار، ولعل فيه تأييداً لكون ﴿فسبحان﴾ الخ مقولاً على ألسنة العباد فتأمل. وقرأ عكرمة «حيناً تمسون وحيناً تصبحون» بتنوين حين فالجملة صفة حذف منها العائد والتقدير تمسون فيه وتصبحون فيه، وعلى قراءة الجمهور الجملة مضاف إليها ولا تقدير للضمير أصلاً ﴿يُخرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّت﴾ الإنسان من النطفة ﴿وَيُخرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ النطفة من الإنسان وهو التفسير المأثور عن ابن عباس، وابن مسعود، ولعل مرادهما التمثيل، وعن مجاهد يخرج المؤمن من الكافر ويخرج الكافر من المؤمن، وقيل: أي يعقب الحياة بالموت وبالعكس ﴿وَيُحْيِي الأَرْضَ﴾ بالنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِها﴾ يبسها فالإحياء والموت مجازان ﴿وكذلك﴾ أي مثل ذلك الإخراج البديع الشأن ﴿تُخرَجُونَ﴾ من قبوركم. وقرأ ابن وثاب، وطلحة، والأعمش «تَخرُجون» بفتح التاء وضم الراء، وهذا على ما قيل نوع تفصيل لقوله تعالى: ﴿يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ [الروم: ١١] ﴿وَمِنْ آيَاتِه﴾ الباهرة الدالة على أنكم تبعثون دلالة أوضح من دلالة ما سبق فإن دلالة بدأ خلقهم على إعادتهم أظهر من دلالة إخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي ومن دلالة إحياء الأرض بعد موتها عليها ﴿أَنْ خَلَقَكُمْ﴾ أي في ضمن خلق آدم عليه السلام لما مر مراراً من أن خلقه عليه السلام منطوٍ على خلق ذرياته انطواء إجمالياً ﴿مِنْ تُرَاب﴾ لم يشم رائحة الحياة قط ولا مناسبة بينه وبين ما أنتم عليه في ذاتكم وصفاتكم، وقيل: خلقهم من تراب لأنه تعالى خلق مادتهم منه فهو مجاز أو على تقدير مضاف ﴿ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ أي في الأرض تتصرفون في أغراضكم وأسفاركم، ﴿وإذا﴾ فجائية و﴿ثم﴾ على ما ذهب إليه أبو حيان للتراخي الحقيقي لما بين الخلق والانتشار من المدة، وقال العلامة الطيبي: إنها للتراخي الرتبي لأن المفاجأة تأبى الحقيقي. ورد بأنه لا مانع من أن يفاجىء أحداً أمر بعد مضي مدة من أمر آخر أو أحدهما حقيقي والآخر عرفي. وتعقب بأنه على تسليم صحته يأباه الذوق فإنه كالجمع بين الضب والنون فما ذكره الطيبي أنسب بالنظم القرآني، والظاهر أن الجملة معطوفة على المبتدأ قبلها وهي بتأويل مفرد كأنه قيل: ومن آياته خلقكم من تراب ثم مفاجأتكم وقت كونكم بشراً منتشرين كذا قيل، وفي وقوع الجملة مبتدأ بمثل هذا التأويل نظر إلا أن يقال: إنه يغتفر في التابع ما لا يغتفر في المتبوع ويتخيل من كلام بعضهم أن العطف على ﴿خلقكم﴾ بحسب المعنى حيث قال: أي ثم فاجأتم وقت كونكم بشراً منتشرين، ويفهم من كلام صاحب الكشف في نظير الآية أعني قوله تعالى الآتي: ﴿ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون﴾ أنه أقيمت الجملة مقام المفرد من حيث المعنى لأنها تفيد فائدته، والكلام على أسلوب ﴿مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً﴾ [آل عمران: ٩٧] لأنه في معنى وأمن داخله، وأما من حيث الصورة فهي جملة معطوفة على قوله تعالى: ﴿ومن آياته أن خلقكم﴾ وفائدة هذا الأسلوب الإشعار بأن ذلك آية خارجة من جنس الآيات مستقلة بشأنها مقصودة بذاتها فتأمل ﴿ومن آياته﴾ الدالة على البعث أيضاً ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُمْ﴾ أي لأجلكم ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً﴾ فإن خلق أصل أزواجكم حواء من ضلع آدم عليه السلام متضمن لخلقهن من أنفسكم على ما عرفت من التحقيق ـ فمن ـ تبعيضية والأنفس بمعناها الحقيقي، ويجوز أن تكون ﴿من﴾ ابتدائية والأنفس مجاز عن الجنس أي خلق لكم من جنسكم لا من جنس آخر، قيل: وهو الأوفق بقوله تعالى: ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيها﴾ أي لتميلوا إليها يقال: سكن إليه إذا مال فإن المجانسة من دواعي النظام والتعارف كما أن المخالفة من أسباب التفرق والتنافر ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ﴾ أي بين الأزواج إما على تغليب الرجال على النساء في الخطاب أو على حذف ظرف معطوف على الظرف المذكور أي جعل بينكم وبينهن كما في قوله تعالى: ﴿لا نفرق بين أحد من

رسله﴾ [البقرة: ٢٨٥] وقيل: بين أفراد الجنس أو بين الرجال والنساء، وتعقب بأنه يأباه قوله تعالى: ﴿مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ فإن المراد بهما ما كان منهما بعصمة الزواج قطعاً أي جعل بينكم بالزواج الذي شرعه لكم تواداً وترحماً من غير أن يكون بينكم سابقة معرفة ولا مرابطة مصححة للتعاطف من قرابة أو رحم. قيل: المودة والرحمة من الله تعالى والفرك وهو بغض أحد الزوجين الآخر من الشيطان.

وقال الحسن ومجاهد وعكرمة المودة كناية عن النكاح والرحمة كناية عن الولد، وكون المودة بمعنى المحبة كناية عن النكاح أي الجماع للزومها له ظاهر، وأما كون الرحمة كناية عن الولد للزومها له فلا يخلو عن بعد، وقيل: مودة للشابة ورحمة للعجوز، وقيل: مودة للكبير ورحمة للصغير، وقيل: هما اشتباك الرحم والكل كما ترى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي فيما ذكر من خلقهم من تراب وخلق أزواجهم من أنفسهم وإلقاء المودة والرحمة فهو إشارة إلى جميع ما تقدم، وقيل: إلى ما قبله وليس بذاك، وما فيه من معنى البعد مع قرب المشار إليه للإشعار ببعد منزلته ﴿لآيات﴾ عظيمة لا يكتنه كنهها كثيرة لا يقادر قدرها ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في تضاعيف تلك الأفاعيل المبنية على الحكم، والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبله مع التنبيه على أن ما ذكر ليس بآية فذة بل هي مشتملة على آيات شتى وإنها تحتاج إلى تفكر كما تؤذن بذلك الفاصلة. وذكر الطيبي أنه لما كان القصد من خلق الأزواج والسكون إليها وإلقاء المحبة بين الزوجين ليس مجرد قضاء الشهوة التي يشترك بها البهائم بل تكثير النسل وبقاء نوع المتفكرين الذين يؤديهم الفكر إلى المعرفة والعبادة التي ما خلقت السماوات والأرض إلا لها ناسب كون المتفكرين فاصلة هنا ﴿وَمِنْ آيَاته خَلْقُ السَّمَاوَات وَالأَرْض وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ أي لغاتكم بأن علم سبحانه كل صنف لغته أو ألهمه جلَّ وعلا وضعها وأقدره عليها فصار بعض يتكلم بالعربية وبعض بالفارسية وبعض بالرومية إلى غير ذلك مما الله تعالى أعلم بكميته. وعن وهب أن الألسنة اثنان وسبعون لساناً في ولد حام سبعة عشر وفي ولد سام تسعة عشر، وفي ولد يافث ستة وثلاثون، وجوز أن يراد بالألسنة أجناس النطق وأشكاله فقد اختلف ذلك اختلافاً كثيراً فلا تكاد تسمع منطقين متساويين في الكيفية من كل وجه، ولعل هذا أولى مما تقدم. والإمام حكى الوجه الأول وقدم عليه ما هو ظاهر في أن المراد بالألسنة الأصوات والنغم ونص على أنه أصح من المحكي ﴿وَأَلْوَانِكُمْ﴾ بياض الجلد وسواده وتوسط فيما بينهما أو تصوير الأعضاء وهيئاتها وألوانها وحلاها بحيث وقع التمايز بين الأشخاص حتى أن التوأمين مع توافق موادهما وأسبابهما والأمور الملاقية لهما في التخليق يختلفان في شيء من ذلك لا محالة وإن كانا في غاية التشابه، فالألوان بمعنى الضروب والأنواع كما يقال: ألوان الحديث وألوان الطعام، وهذ التفسير أعم من الأول، وإنما نظم اختلاف الألسنة والألوان في سلك الآيات الافاقية من خلق السماوات والأرض مع كونه من الآيات الأنفسية الحقيقة بالانتظام في سلك ما سبق من خلق أنفسهم وأزواجهم للإيذان باستقلاله والاحتراز عن توهم كونه من متممات خلقهم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي فيما ذكر من خلق السماوات والأرض واختلاف الألسنة والألوان ﴿لآيَات﴾ عظيمة كثيرة ﴿لِلْعَالِمِينَ﴾ أي المتصفين بالعلم كما في قوله تعالى: ﴿وما يعقلها إلاَّ العالمون﴾ [العنكبوت: ٤٣] وقرأ الكثير «العالمين» بفتح اللام، وفيه دلالة على وضوح الآيات وعدم خفائها على أحد من الخلق كافة﴿وَمِنْ آيَاته مَنَامُكُم﴾ أي نومكم ﴿بِاللَّيْل وَالنَّهَار﴾ لاستراحة القوى النفسانية وتقوي القوى الطبيعية ﴿وَابْتِغَاؤُكُمْ﴾ أي طلبكم ﴿مِنْ فَضْله﴾أي بالليل والنهار، وحذف ذلك لدلالة ما قبل عليه، ونظيره قوله:

عجبت لهم إذ يقتلون نفوسهم ... ومقتلهم عند الوغى كان أغدرا

فإنه أراد يقتلون نفوسهم عند السلم وحذف لدلالة الوغى في الشطر الثاني عليه، والنوم بالليل والابتغاء من

الفضل أي الكسب بالنهار أمران معتادان، وأما النوم بالنهار فكنوم القيلولة، وأما الكسب بالليل فكما يقع من بعض المكتسبين، وأهل الحرف من السعي والعمل ليلاً لا سيما في أطول الليالي وعدم وفاء نهارهم بأغراضهم، ومن ذلك حراسة الحوانيت بالأجرة وكذا قطع البراري في الأسفار ليلاً للتجارة ونحوها، وقال الزمخشري: وهذا من باب اللف وترتيبه ومن آياته منامكم وابتغاؤكم من فضله بالليل والنهار إلاّ أنه فصل بين القرينين الأولين أعني منامكم وابتغاؤكم بالقرينين الآخرين أعني الليل والنهار لأنهما ظرفان والظرف والواقع فيه كشيء واحد مع إعانة اللف على الاتحاد وهو الوجه الظاهر لتكرره في القرآن وأسد المعاني ما دلّ عليه القرآن انتهى؛ والظاهر أنه أراد باللف الاصطلاحي ولا يأبى ذلك توسيط الليل والنهار لأنهما في نية التأخير وإنما وسطاً للاهتمام بشأنهما لأنهما من الآيات في الحقيقة لا المنام والابتغاء على ما حققه في الكشف مع تضمن توسيطهما مجاورة كل لما وقع فيه فالجار والمجرور وقيل حال مقدمة من تأخير أي كائنين بالليل والنهار، وقيل: خبر مبتدأ محذوف أي ذلك بالليل والنهار، والجملة في النظم الكريم معترضة، وعلى كلا القولين لا يرد على الزمخشري لزوم كون النهار معمولاً للابتغاء مع تقدمه عليه وعطفه على معمول ﴿منامكم﴾ وفي اقتران الفضل بالابتغاء إشارة إلى أن العبد ينبغي أن لا يرى الرزق من نفسه وبحذقه بل يرى كل ذلك من فضل ربه جلَّ وعلا.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي شأنهم أن يسمعوا الكلام سماع تفهم واستبصار، وفيه إشارة إلى ظهور الأمر بحيث يكفي فيه مجرد السماع لمن له فهم وبصيرة ولا يحتاج إلى مشاهدة وإن كان مشاهداً.

وقال الطيبي: جيء بالفاصلة هكذا لأن أكثر الناس منسدحون بالليل كالأموات ومتردّدون بالنهار كالبهائم لا يدرون فيم هم ولم ذلك لكن من ألقى السمع وهو شهيد يتنبه لوعظ الله تعالى ويصغي إليه لأن مر الليالي وكر النهار ينادينان بلسان الحال الرحيل الرحيل من دار الغرور إلى دار القرار كما قال تعالى: ﴿وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً﴾ [الفرقان: ٦٢] وذكر الإمام أن من الأشياء ما يحتاج في معرفته إلى موقف يوقف عليه ومرشد يرشد إليه فيفهم إذا سمع من ذلك المرشد، ولما كان المنام والابتغاء قد يقع لكثير أنهما من أفعال العباد فيحتاج معرفة أنهما من آياته تعالى إلى مرشد يعين الفكر قيل: ﴿لقوم يسمعون﴾ فكأنه قيل: لقوم يسمعون ويجعلون بالهم إلى كلام المرشد انتهى؛ ولعل الاحتياج إلى مرشد يعين الفكر في أن الليل والنهار من الآيات بناء على ما سمعت في بيان نكتة التوسيط أظهر فتأمل ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ﴾ ذهب أبو علي إلى أنه بتقدير أن المصدرية والأصل أن يريكم فحذف أن وارتفع الفعل وهو الشائع بعد الحذف في مثل ذلك، وشذ بقاؤه منصوباً بعده وقد روي بالوجهين قول طرفة:

ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى ... وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي

وجوز كونه مما نزل فيه الفعل منزلة المصدر فلا تقدر أن بل الفعل مستعمل في جزء معناه وهو الحدث مقطوع فيه النظر عن الزمان فيكون اسماً في صورة الفعل فيريكم بمعنى الرؤية، وحمل على ذلك في المشهور قولهم: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه، وجوز فيه أن يكون مما حذف فيه أن وأيد بأنه روي فيه تسمع بالنصب أيضاً ولم يرتضه بعض الأجلة لأن المعنى ليس على الاستقبال، وأما أن تراه فالاستقبال فيه بالنسبة إلى السماع فلا ينافيه، ومثله قوله:

فقالوا ما تشاء فقلت ألهو ... إلى الإصباح آثر ذي أثير

ورجح الحمل على التنزيل منزلة اللازم دلالة على أنه كالحال اهتماماً بشأن المراد لقوله: آثر ذي أثير، والتعليل بأن ما تشاء سؤال عما يشاؤوه في الحال وأن للاستقبال ليس بالوجه لأن المشيئة تتعلق بالمستقبل أبداً، وقال الجامع

الأصفهاني: تقدير الآية ومن آياته آية يريكم البرق على أن ﴿يريكم﴾ صفة وحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه كما في قوله:

وما الدهر إلا تارتان فمنهما ... أموت وأخرى أبتغي العيش أكدح

أي فمنهما تارة أموت قيل فلا بد من راجع فقدر فيها أو بها، ونص على الثاني الرماني كما في البحر وكلاهما لا يسد ـ كما في الكشف ـ عليه المعنى، وقيل: التقدير ومن آياته البرق ثم استؤنف يريكم البرق، وقيل: ﴿من آياته﴾ حال من البرق أي يريكم البرق حال كونه من آياته، وجوز أبو حيان تعلقه بيريكم و﴿من﴾ لابتداء الغاية وفيه مخالفة لنظرائه.

وفي الكشف لعل الأوجه أن يكون من آياته خبر مبتدأ محذوف أي من آياته ما يذكر أو ما يتلى عليكم ثم قيل: ﴿يريكم البرق﴾ بياناً لذلك ثم قال: وهذا أقل تكلفاً من الكل، وأنت تعلم أن الأوجه ما توافق الآية به نظائرها.

﴿خَوْفاً﴾ أي من الصواعق ﴿وطمعاً﴾ في المطر قاله الضحاك، وقال قتادة: خوفاً للمسافر لأنه علامة المطر وهو يضره لعدم ما يكنه ولا نفع له فيه وطمعاً للمقيم، وقيل: خوفاً أن يكون خلباً وطمعاً أن يكون ماطراً وقال ابن سلام: خوفاً من البرد أن يهلك الزرع وطمعاً في المطر، ونصبهما على العلة عند الزجاج، وهو على مذهب مَن لا يشترط في نصب المفعول له اتحاد المصدر والفعل المعلل في الفاعل ظاهر؛ وأما على مذهب الأكثرين المشترطين لذلك فقيل في توجيهه: إن ذلك على تقدير مضاف أي إرادة خوف وطمع أو على تأويل الخوف والطمع بالإخافة والأطماع إما بأن يجعل أصلهما ذلك على حذف الزوائد أو بأن يجعلا مجازين عن سببيهما.

وقيل: إن ذلك لأن إراءتهم تستلزم رؤيتهم فالمفعولون فاعلون في المعنى فكأنه قيل: لجعلكم رائين خوفاً وطمعاً.

واعترض بأن الخوف والطمع ليسا غرضين للرؤية ولا داعيين لها بل يتبعانها فكيف يكونان علة على فرض الاكتفاء بمثل ذلك عند المشترطين، ووجه بأنه ليس المراد بالرؤية مجرد وقوع البصر بل الرؤية القصدية بالتوجه والالتفات فهو مثل قعدت عن الحرب جبناً ولم يرتض ذلك أبو حيان أيضاً ثم قال: لو قيل على مذهب المشترطين أن التقدير يريكم البرق فترونه خوفاً وطمعاً فحذف العامل للدلالة عليه لكان إعراباً سائغاً، وقيل: لعل الأظهر نصبهما على العلة للإراءة لوجود المقارنة والاتحاد في الفاعل فإن الله تعالى هو خالق الخوف والطمع، وكون معنى قول النحاة لا بد أن يكون المفعول له فعل الفاعل أنه لا بد من كونه متصفاً به كالإكرام في قولك: جئتك إكراماً لك أن سلم فلا حجر من الانتصاب على التشبيه في المقارنة والاتحاد المذكور.

وتعقب بأن كون المعنى ما ذكر مما لا شبهة فيه وقد ذكره صاحب الانتصاف وغيره فإن الفاعل اللغوي غير الفاعل الحقيقي فالتوقف فيه وادعاء أنه لا حجر من الانتصاب على التشبيه مما لا وجه له، وأنا أميل إلى عدم اشتراط الاتحاد في الفاعل لكثرة النصب مع عدم الاتحاد كما يشهد بذلك التتبع والرجوع إلى شرح الكافية للرضي، والتأويل مع الكثرة مما لا موجب له، وجوز أن يكون النصب هنا على المصدر أي تخافون خوفاً وتطمعون طمعاً على أن تكون الجملة حالاً، وأولى منه أن يكونا نصباً على الحال أي خائفين وطامعين.

﴿وَيُنَزِّلُ من السَّمَاء مَاءً﴾ وقرأ غير واحد بالتخفيف ﴿فَيُحْيي به﴾ أي بسبب الماء ﴿الأَرْضَ﴾ بأن يخرج سبحانه به النبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يبسها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولهم في استنباط أسبابها وكيفية تكونها ليظهر لهم كمال قدرة الصانع جلَّ شأنه وحكمته سبحانه، وقال الطيبي: لما كان ما ذكر تمثيلاً لإحياء

الناس وإخراج الموتى وكان التمثيل لإدناء المتوهم المعقول وإراءة المتخيل في صورة المحقق ناسب أن تكون الفاصلة لقوم يعقلون. ﴿وَمِنْ آيَاتِه أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ والأَرْضُ بِأَمْرِه﴾. أي بقوله تعالى قوماً أو بإرادته عزّ وجلّ، والتعبير عنها بالأمر للدلالة على كمال القدرة والغنى عن المبادىء والأسباب، وليس المراد بإقامتهما إنشاءهما لأنه قد بين حاله بقوله تعالى: ﴿ومن آياته خلق السماوات والأرض﴾ ولا إقامتهما بغير مقيم محسوس كما قيل فإن ذلك من تتمات إنشائهما وإن لم يصرح به تعويلاً على ما ذكر في موضع آخر من قوله تعالى: ﴿خلق السموات بغير عمد ترونها﴾ [لقمان: ١٠] الآية بل قيامهما وبقاؤهما على ما هما عليه إلى أجلهما الذي أشير إليه بقوله تعالى فيما قبل: ﴿ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى﴾ [الروم: ٨].

ولما كان البقاء مستقبلاً باعتبار أواخره وما بعد نزول هذه الآية أظهرت هنا كلمة ﴿أن﴾ التي هي علم في الاستقبال. والامام ذهب إلى أن القيام بمعنى الوقوف وعدم النزول ثم قال على ما لخصه بعضهم: ذكرت ﴿إن﴾ ها هنا دون قوله تعالى: ﴿ومن آياته يريكم البرق﴾ لأن القيام لما كان غير متغير أخرج الفعل ـ بأن ـ العلم في الاستقبال وجعل مصدراً ليدل على الثبوت، وإراءة البرق لما كانت من الأمور المتجددة جيء بلفظ المستقبل ولم يذكر معه ما يدل على المصدر ا هـ ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً من الأَرْض إِذَا أَنْتُم تَخْرُجُونَ﴾ ﴿إذا﴾ الأولى شرطية والثانية فجائية نائية مناسب الفاء في الجزاء لاشتراكهما في التعقيب. والجملة الشرطية قيل: معطوفة على ﴿أن تقوم﴾ على تأويل مفرد كأنه قيل: ومن آياته قيام السماء والأرض بأمره ثم خروجكم من قبوركم بسرعة إذا دعاكم، وصاحب الكشف يقول: إنها أقيمت مقام المفرد من حيث المعنى وأما من حيث الصورة فهي جملة معطوفة على قوله تعالى: ﴿ومن آياته أن تقوم﴾ وذلك على أسلوب ﴿مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً﴾ [آل عمران: ٩٧] وفائدته ما سمعته قريباً، وظاهر كلام بعض الأفاضل أن العطف عليه ظاهر في عدم قصد عد ما ذكر آية. واختار أبو السعود عليه الرحمة كون العطف من عطف الجمل وأن المذكور ليس من الآيات قال: حيث كانت آية قيام السماء والأرض بأمره تعالى متأخرة عن سائر الآيات المعدودة متصلة بالبعث في الوجود أخرت عنهن وجعلت متصلة به في الذكر أيضاً فقيل: ﴿ثم إذا دعاكم﴾ الآية، والكلام مسوق للأخبار بوقوع البعث ووجوده بعد انقضاء أجل قيامهما مترتب على تعدد آياته تعالى الدالة عليه غير منتظم في سلكها كما قيل كأنه قيل: ومن آياته قيام السماء والأرض على هيئتهما بأمره عزّ وجلّ إلى أجل مسمى قدره الله تعالى لقيامهما ثم إذا دعاكم أي بعد انقضاء الأجل في الأرض وأنتم في قبوركم دعوة واحدة بأن قال سبحانه: أيها الموتى أخرجوا فجأتم الخروج منها، ولعل ما أشار إليه صاحب الكشف أدق وأبعد مغزى فتأمل، ﴿ ومن الأرض﴾ متعلق بدعا و﴿من﴾ لابتداء الغاية ويكفي في ذلك إذا كان الداعي هو الله تعالى نفسه لا الملك بأمره سبحانه كون المدعو فيها يقال دعوته من أسفل الوادي فطلع إلي لا بدعوة فإنه إذا جاء نهر الله جلّ وعلا بطل نهر معقل. نعم جوز كون ذلك صفة لها وأن يكون حالاً من الضمير المنصوب ولا يتخرجون لأن ما بعد إذا لا يعمل فيما قبلها، وقال ابن عطية: إن ﴿من﴾ عندي لانتهاء الغاية وأثبت ذلك سيبويه، وقال أبو حيان: إنه قول مردود عند أصحابنا، وظواهر الأخبار أن الموتى يدعون حقيقة للخروج من القبور، وقيل: المراد تشبيه ترتب حصول الخروج على تعلق إرادته بلا توقف واحتياج إلى تجشم عمل بسرعة ترتب إجابة الداعي المطاع على دعائه، ففي الكلام استعارة تمثيلية أو تخييلية ومكنية بتشبيه الموتى بقوم يريدون الذهاب إلى محل ملك عظيم متهيئين لذلك وإثبات الدعوة لهم قرينتها أو هي تصريحية تبعية في قوله تعالى: ﴿دعاكم﴾ إلى آخرها، وثم إما للتراخي الزماني أو للتراخي الرتبي، والمراد عظم ما في المعطوف من إحياء الموتى في نفسه وبالنسبة إلى المعطوف عليه فلا ينافي قوله تعالى الآتي: ﴿وهو

أهون عليه ﴾ وكونه أعظم من قيام السماء والأرض لأنه المقصود من الايجاد والانشاء وبه استقرار السعداء والأشقياء في الدرجات والدركات وهو المقصود من خلق الأرض والسماوات، فاندفع ما قاله ابن المنير من أن مرتبة المعطوف عليه هنا هي العليا مع إن كون المعطوف في مثله ارفع درجة أكثري لا كلي كما صرح به الطيبي فلا مانع من اعتبار التراخي الرتبي لو لم يكن المعطوف أرفع درجة، ويجوز حمل التراخي على مطلق البعد الشامل للزماني والرتبي.

وقرأ السبعة ما عدا حمزة والكسائي «تُخْرَجُون» بضم التاء وفتح الراء، وهذه الآية ذكر أنها مما تقرأ على المصاب، أخرج ابن أبي حاتم عن الأزهر بن عبد الله الجرازي قال: يقرأ على المصاب إذا أخذ.

وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى
ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ
ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا
مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَـٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ
كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن
يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ
عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ
إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟
شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ
رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا
عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ
بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ
لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ
وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن
زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ
يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾

﴿**ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون**﴾ وذكر الإمام. وأبو حيان في وجه ترتيب الآيات وتذييل كل منهما بما ذيل كلاماً طويلاً أن احتجته فارجع إليه.

﴿**وَلَهُ**﴾ عزَّ وجلَّ خاصة كل ﴿**مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْض**﴾ من الملائكة والثقلين خلقاً وملكاً وتصرفاً ليس لغيره سبحانه شركة في ذلك بوجه من الوجوه ﴿**كُلٌّ لَهُ**﴾ لا لغيره جلَّ وعلا ﴿**قَانِتُونَ**﴾ منقادون لفعله لا يمتنعون عليه

جلَّ شأنه من الشؤون وإن لم ينقد بعضهم لأمره سبحانه فالمراد طلعة الإرادة لا طاعة الأمر بالعبادة، وهذا حاصل ما روي عن ابن عباس، وقال الحسن: ﴿قانتون﴾ قائمون بالشهادة على وحدانيته تعالى كما قال الشاعر:

وفـــي كـــل شـــيء لـــه آيـــة تـــدل عـــلـــى أنـــه واحـــد

وقال ابن جبير: ﴿قانتون﴾ مخلصون، وقيل: مقرون بالعبودية، وعليهما ليس العموم على ظاهره ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ بعد الموت؛ والتكرير لزيادة التقرير لشدة إنكارهم البعث والتمهيد لما بعده من قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ الضمير المرفوع للإعادة وتذكيره لرعاية الخبر أو لأنها مؤولة بأن والفعل وهو في حكم المصدر المذكر أو لتأويلها بالبعث ونحوه، وكونه راجعاً إلى مصدر مفهوم من ﴿يعيد﴾ وهو لم يذكر بلفظ الإعادة لا يفيد على ما قيل لأنه اشتهر به فكأنه إذا فهم منه يلاحظ فيه خصوص لفظه والضمير المجرور لله تعالى شأنه، و﴿أهون﴾ للتفضيل أي والإعادة أسهل على الله تعالى من المبدأ، والأسهلية على طريقة التمثيل بالنسبة لما يفعله البشر مما يقدرون عليه، فإن إعادة شيء من مادته الأولى أهون عليهم من إيجاده ابتداء، والمراد التقريب لعقول الجهلة المنكرين للبعث وإلا فكل الممكنات بالنسبة إلى قدرته تعالى عزَّ وجلَّ سواء فكأنه قيل: وهو أهون عليه بالإضافة إلى قدركم والقياس على أصولكم.

وذكر الزمخشري وجهاً آخر للتفضيل وهو أن الانشاء من قبيل التفضل الذي يتخير فيه الفاعل بين أن يفعله وأن لا يفعله والإعادة من قبيل الواجب الذي لا بد من فعله لأنها لجزاء الأعمال وجزاؤها واجب والأفعال أما محال والمحال ممتنع أصلاً خارج عن المقدور، وأما ما يصرف الحكيم عن فعله صارف وهو القبيح وهو رديف المحال لأن الصارف يمنع وجود الفعل كما تمنعه الإحالة، وأما تفضل والتفضل حاله بين بين للفاعل أن يفعله وأن لا يفعله، وأما واجب لا بد من فعله ولا سبيل إلى الإخلال به فكان الواجب أبعد الأفعال من الامتناع وأقربها من الحصول فلما كانت الإعادة من قبيل الواجب كانت أبعد الأفعال من الامتناع وإذا كانت أبعدها منه كانت أدخلها في التأتي والتسهل فكانت أهون منها وإذا كانت كذلك كانت أهون من الإنشاء ا هـ. قال في التقريب: وفيه نظر لأنه مبني على الوجوب العقلي ولأن الوجوب إذا كان بالذات نافي القدرة كالامتناع وإلا كان ممكناً فتساوى الفعلان لاشتراكهما في مصحح المقدورية وهو الإمكان.

وتعقبه في الكشف بقوله أقول: أنه غير واجب بالذات ولا يلزم منه المساواة مع التفضل في سهولة التأتي وأما المساواة في مصحح المقدورية فلا مدخل لها فيما نحن فيه، والحاصل منه أنه لو سلم منه أن الداعي إلى فعله أقوى فلا شك أنه أقرب إلى الوجود مما لا يكون الداعي كذلك. نعم إذا خلص الداعي إلى القسمين صارا سواء، وليس البحث على ذلك التقدير ا هـ.

والحق ما قاله أبو السعود من أنه ليس المراد بأهونية الفعل أقربيته إلى الوجود باعتبار كثرة الأمور الداعية للفاعل إلى إيجاده وقوة اقتضائها لتعلق قدرته به بل أسهلية تأتيه وصدوره عنه عند تعلق قدرته بوجوده وكونه واجباً بالغير، ولا تفاوت في ذلك بين أن يكون ذلك التعلق بطريق الإيجاب أو بطريق الاختيار. وروى الزجاج عن أبي عبيدة وكثير من أهل اللغة أن ﴿أهون﴾ ها هنا بمعنى هين، وروي ذلك عن ابن عباس، والربيع، وكذا هو في مصحف عبد الله، وهذا كما يقال: الله تعالى أكبر أي كبير وأنت أوحد الناس أي واحدهم وإني لأوجل أي وجل. وفي الكشف التحقيق أنه من باب الزيادة المطلقة، وإنما قيل بمعنى الهين لأنه يؤدي مؤداه، وقيل: أفعل على ظاهره وضمير عليه عائد على الخلق على معنى أن الإعادة أيسر على المخلوق لأن البداءة فيها تدريج من طور إلى طور إلى أن يصير إنساناً والإعادة لا

تحتاج إلى التدريجات في الأطوار إنما يدعوه الله تعالى فيخرج * وأما على معنى أن الإعادة أسهل على المخلوق أي أن يعيدوا شيئاً ويفعلوه ثانياً بعد ما زاولوا فعله وعرفوه أولاً أسهل من أن يفعلوه أولاً قبل المزاولة وإذا كان هذا حال المخلوق فما بالك بالخالق، ولا يخفى أن الظاهر رجوع الضمير إليه تعالى، ثم إن الجار والمجرور صلة ﴿أهون ﴾ وقدمت الصلة في قوله تعالى: ﴿هو عليّ هين ﴾ [مريم: ٢١,٩] وأخرت هنا لأنه قصد هنالك الاختصاص وهو محزه فقيل ﴿هو عليّ هين ﴾ وإن كان صعباً عندكم أن يولد بين هم وعاقر وأما ها هنا فلا معنى للاختصاص كيف والأمر مبني على ما يعقلون من أن الإعادة أسهل من الابتداء فلو قدمت الصلة لتغير المعنى، ولما أخبر سبحانه بأن الإعادة أهون عليه على طريق التمثيل عقب ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ﴾ تعالى شأنه خاصة ﴿الْمَثَلُ ﴾ أي الوصف العجيب الشأن كالقدرة العامة والحكمة التامة وسائر صفات الكمال ﴿الأَعْلَى ﴾ الذي ليس لغيره ما يدانيه فضلاً عما يساويه فكأنه قيل هذا لتفهيم العقول القاصرة إذ صفاته تعالى عجيبة وقدرته جلّ شأنه عامة وحكمته سبحانه تامة فكل شيء بدأ وإعادة وإيجاداً وإعداماً على حد سواء ولا مثل له تعالى ولا ند، وعن قتادة، ومجاهد أن ﴿المثل الأعلى ﴾ لا إله إلاّ الله، ولعلهما أرادا بذلك الوحدانية في ذاته تعالى وصفاته سبحانه، والكلام عليه مرتبط بما قبله أيضاً كأنه قيل: ما ذكر لتفهيم العقول القاصرة لأنه تعالى لا يشاركه أحد في ذاته تعالى وصفاته عزَّ وجلَّ، وقيل: مرتبط بما بعده من قوله تعالى: ﴿ضرب لكم مثلاً من أنفسكم ﴾ وقال الزجاج: المثل قوله تعالى: ﴿هو أهون عليه ﴾ قد ضربه الله تعالى مثلاً فيما يسهل ويصعب عندكم وينقاس على أصولكم فاللام في المثل للعهد وهو محمول على ظاهره غير مستعار للوصف العجيب الشأن ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ متعلق بمضمون الجملة المتقدمة على معنى أنه سبحانه قد وصف بذلك وعرف به فيهما على ألسنة الخلائق وألسنة الدلائل، وقيل: بالأعلى، وقيل: بمحذوف هو حال منه أو من ﴿المثل ﴾ أو من ضميره في ﴿الأعلى ﴾ وقيل: متعلق بما تعلق به ﴿له ﴾ أي له في السماوات والأرض المثل الأعلى، والمراد أن دلالة خلقهما على عظيم القدرة أتم من دلالة الإنشاء فهو أدل على جواز الإعادة ولهذا جعل أعلى من الإنشاء فتأمل ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ القادر الذي لا يعجز عن بدء ممكن وإعادته ﴿الحَكِيمُ ﴾ الذي يجري الأفعال على سنن الحكمة والمصلحة ﴿ضَرَبَ لَكُم مثلاً ﴾ يتبين به بطلان الشرك ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ أي منتزعاً من أحوالها التي هي أقرب الأمور إليكم وأعرفها عندكم وأظهرها دلالة على ما ذكر من بطلان الشرك لكونها بطريق الأولوية، و ﴿من ﴾ لابتداء الغاية وقوله تعالى: ﴿هَل لَكُمْ ﴾ إلى آخره تصوير للمثل، والاستفهام إنكاري بمعنى النفي و﴿لكم ﴾ خبر مقدم وقوله تعالى: ﴿مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ في موضع الحال من ﴿شركاء ﴾ بعد لأنه نعت نكرة تقدم عليها؛ والعامل فيها كان في البحر هو العامل في الجار والمجرور الواقع خبراً و ﴿من ﴾ للتبعيض و ﴿ما ﴾ واقعة على النوع، وقوله تعالى: ﴿مِنْ شُرَكَاءَ ﴾ مبتدأ و ﴿من ﴾ مزيدة لتأكيد النفي المستفاد من الاستفهام، وقوله تعالى: ﴿فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ متعلق بشركاء أي هل شركاء فيما رزقناكم من الأموال وما يجري مجراها مما تنصرفون فيه كائنون من النوع الذي ملكته أيمانكم من نوع العبيد والإماء كائنون لكم.

وجوز أن يكون ﴿لكم ﴾ متعلقاً بشركاء ويكون ﴿فيما رزقناكم ﴾ في موضع الخبر كما تقول: لزيد في المدينة مبغض فلزيد متعلق بمبغض الذي هو مبتدأ وفي المدينة الخبر أي هل شركاء لكم كائنون مما ملكته إيمانكم كائنون فيما رزقناكم، وقوله تعالى: ﴿فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ﴾ جملة في موضع الجواب للاستفهام الإنكاري ﴿وفيه ﴾ متعلق بسواء، وفي الكلام محذوف معطوف على ﴿أنتم ﴾ أي فأنتم وهم أي المماليك مستوون فيه لا فرق بينكم وبينهم في التصرف فيه، وقيل: لا حذف ﴿وأنتم ﴾ شامل للمماليك بطريق التغليب، وقوله تعالى: ﴿تَخَافُونَهُمْ ﴾

خبر آخر لأنتم، وقال أبو البقاء: حال من ضمير ﴿أنتم﴾ الفاعل في ﴿سواء﴾ وقوله تعالى: ﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ في موضع الصفة لمصدر محذوف أي تخافونهم أن تستبدوا بالتصرف فيه بدون رأيهم خيفة كائنة مثل خيفتكم من هو من نوعكم يعني الأحرار المساهمين لكم، والمقصود نفي مضمون ما فصل من الجملة الاستفهامية أي لا ترضون بأن يشارككم فيما رزقناكم من الأموال ونحوها مماليككم وهم أمثالكم في البشرية غير مخلوقين لكم بل لله تعالى فكيف تشركون به سبحانه في المعبودية التي هي من خصائصه تعالى الذاتية مخلوقه سبحانه بل مصنوع مخلوقه جلَّ وعلا حيث تصنعونه بأيديكم ثم تعبدونه.

وقرأ ابن أبي عبلة «أنفسكم» بالرفع على أن المصدر مضاف للمفعول ﴿وأنفسكم﴾ فاعلة، قال أبو حيان: وهو وجه حسن ولا قبح في إضافة المصدر إلى المفعول مع وجود الفاعل ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك التفصيل الواضح ﴿نُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ أي نبينها ونوضحها لا تفصيلاً أدنى منه فإن التمثيل تصوير للمعاني المعقولة بصورة المحسوس وإبراز لأوابد المدركات على هيئة المأنوس فيكون في غاية الإيضاح والبيان.

﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي يستعملون عقولهم في تدبير الأمثال، وقيل: في تدبير الأمور مطلقاً ويدخل في ذلك الأمثال دخولاً أولياً، وخصهم بالذكر مع عموم تفصيل الآيات للكل لأنهم المنتفعون بها، وذكر العرمة الطيبي أنه لما كان ضرب الأمثال لإدناء المتوهم إلى المعقول وإراءة المتخيل في صورة المحقق ناسب أن تكون الفاصلة ﴿لقوم يعقلون﴾ وهذه النكتة هنا أظهر منها فيما تقدم فتذكر.

وقرأ عباس عن أبي عمرو «يُفَصِّل» بياء الغيبة رعياً لضرب إذ هو مسند لما يعود للغائب وقراءة الجمهور بالنون للحمل على ﴿رزقناكم﴾ وذكر بعض العلماء أن في هذه الآية دليلاً على صحة أصل الشركة بين المخلوقين لافتقار بعضهم إلى بعض كأنه قيل: الممتنع المستقبح شركة العبيد لساداتهم أما شركة السادات بعضهم لبعض فلا تمتنع ولا تستقبح ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أعراض عن مخاطبتهم ومحاولة إرشادهم إلى الحق بضرب المثل وتفصيل الآيات واستعمال المقدمات الحقة المعقولة وبيان لإستحالة تبعيتهم للحق كأنه قيل: لم يعقلوا شيئاً من الآيات المفصلة بل اتبعوا ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ الزائغة، ووضع الموصول موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بأنهم في ذلك الاتباع ظالمون واضعون للشيء في غير موضعه أو ظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي جاهلين ببطلان ما أتوا منكبين عليه لا يصرفهم عنه صارف حسبما يصرف العالم اذا اتبع الباطل علمه ببطلانه ﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ﴾ أي خلق فيه الضلال وجعله كاسباً له باختياره ﴿وَمَا لَهُمْ﴾ أي لمن أضله الله تعالى، والجمع باعتبار المعنى ﴿مِن نَاصِرِينَ﴾ يخلصونهم من الضلال ويحفظونهم من تبعاته وآفاته على معنى ليس لواحد منهم ناصر واحد على ما هو المشهور في مقابلة الجمع بالجمع، و﴿من﴾ مزيدة لتأكيد النفي، والكلام مسوق لتسلية رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وتوطئة لأمره عليه الصلاة والسلام بقوله سبحانه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً﴾ قال العلامة الطيبي: إنه تعالى عقيب ما عدد الآيات البينات والشواهد الدالة على الوحدانية ونفي الشرك وإثبات القول بالمعاد وضرب سبحانه المثل وقال سبحانه: ﴿كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون﴾ أراد جلَّ شأنه أن يسلي حبيبه صلوات الله تعالى وسلامه عليه ويوطنه على اليأس من إيمانهم فأضرب تعالى عن ذلك وقال سبحانه: ﴿بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم﴾ وجعل السبب في ذلك أنه عزَّ وجلَّ ما أراد هدايتهم وأنه مختوم على قلوبهم ولذلك رتب عليه قوله تعالى: ﴿فمن يهدي من أضل الله﴾ على التقريع والإنكار ثم ذيل سبحانه الكل بقوله تعالى: ﴿وما لهم من ناصرين﴾ يعني إذا أراد الله تعالى منهم ذلك فلا مخلص لهم منه ولا أحد ينقذهم لا أنت ولا غيرك فلا تذهب نفسك عليهم حسرات فاهتم بخاصة نفسك ومن

تبعك وأقم وجهك الخ اهـ، ومنه يعلم حال الفاء في قوله تعالى: ﴿فمن﴾ وكذا في قوله سبحانه: ﴿فأقِم﴾ وقدر النيسابوري للثانية إذا تبين الحق وظهرت الوحدانية فأقم الخ، ولعل ما أشار إليه الطيبي أولى، ثم إنه يلوح من كلامه احتمال أن يكون الموصول قائماً مقام ضمير ﴿الذين ظلموا﴾ فتدبر.

و«أقم» من أقام العود ويقال قوم العود أيضاً إذا عدله، والمراد الأمر بالإقبال على دين الإسلام والاستقامة والثبات عليه والاهتمام بترتيب أسبابه على أن الكلام تمثيل لذلك فإن من اهتم بشيء محسوس بالبصر عقد إليه طرفة وسدد إليه نظره وأقبل عليه بوجه غير ملتفت عنه فكأنه قيل: فعدل وجهك للدين وأقبل عليه إقبالاً كاملاً غير ملتفت يميناً وشمالاً، وقال بعض الأجلة: إن إقامة الوجه للشيء كناية عن كمال الاهتمام به، ولعله أراد بالكناية المجاز المتفرع على الكناية فإنه لا يشترط فيه إمكان إرادة المعنى الحقيقي، ونصب ﴿حنيفاً﴾ على الحال من الضمير في ﴿أقم﴾ أو من الدين، وجوز أبو حيان كونه حالاً من الوجه، وأصل الحنف الميل من الضلال إلى الاستقامة وضده الجنف بالجيم ﴿فطْرَةَ اللهِ﴾ نصب على الإغراء أي الزموا فطرة الله تعالى، ومن أجاز إضمار أسماء الأفعال جوز أن يقدر هنا عليكم اسم فعل، وقال مكي: هو نصب بإضمار فعل أي اتبع فطرة الله ودل عليه قوله تعالى: ﴿فأقم وجهك للدين﴾ لأن معناه اتبع الدين، واختاره الطيبي وقال: أنه أقرب في تأليف النظم لأنه موافق لقوله تعالى: ﴿بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم﴾ ولترتب قوله تعالى: ﴿فأقم وجهك﴾ عليه بالفاء.

وجوز أن يكون نصباً بإضمار أعني وأن يكون مفعولاً مطلقاً لفعل محذوف دل عليه ما بعد أي فطركم فطرة الله، ولا يصح عمل فطر المذكور بعد فيه لأنه من صفته، وأن يكون منصوباً بما دل عليه الجملة السابقة على أنه مصدر مؤكد لنفسه. وأن يكون بدلاً من ﴿حنيفاً﴾والمتبادر إلى الذهن النصب على الإغراء، وإضمار الفعل على خطاب الجماعة مع أن المتقدم ﴿فأقم﴾ هو ما اختاره الزمخشري ليطابق قوله تعالى: ﴿منيبين إليه﴾ وجعله حالاً من ضمير الجماعة المسند إليه الفعل، وجعل قوله تعالى: ﴿واتقوا﴾ ﴿وأقيموا﴾ ﴿ولا تكونوا﴾ معطوفاً على ذلك الفعل.

وقال الطيبي: بعدما اختار تقرير اتبع ورجحه بما سمعت: وأما قوله تعالى: ﴿منيبين﴾ فهو حال من الضمير في ﴿أقم﴾ وإنما جمع لأنه مردد على المعنى لأن الخطاب للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهو خطاب لأمته فكأنه قيل: أقيموا وجوهكم منيبين.

وقال الفراء: أي أقم وجهك ومن تبعك كقوله تعالى: ﴿فاستقم كما أمرت ومن تاب معك﴾ [هود: ١١٢] فلذلك قال سبحانه: ﴿منيبين﴾ وفي المرشد أن ﴿منيبين﴾ متعلق بمضمر أي كونوا منيبين لقوله تعالى بعد: ﴿ولا تكونوا من المشركين﴾ اهـ. ولا يخفى على المنصف حسن كلام الزمخشري، وما أن ذكر من خطابه صلى الله تعالى عليه وسلم خطاب الأمة يؤكد الدلالة وعلى ذلك المضمر لا أنه يجوز أن يكون ﴿منيبين﴾ حالاً من الضمير في ﴿أقم﴾ وظاهر كلام الفراء يقتضي كون الحال من مذكور ومحذوف وهو قليل في الكلام، وإضمار كونوا مع إضمار فعل ناصب لفطرة الله موجب لكثرة الإضمار، وإضماره دون إضمار فيما قيل موجب لارتكاب خلاف المتبادر هناك، والفطرة على ما قال ابن الأثير للحالة كالجلسة والركبة من الفطر بمعنى الابتداء والاختراع، وفسرها الكثير هنا بقابلية الحق والتهيىء لإدراكه، وقالوا: معنى لزومها الجريان على موجبها وعدم الإخلال به باتباع الهوى وتسويل شياطين الأنس والجن، ووصفها بقوله تعالى: ﴿الَّتي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ لتأكيد وجوب امتثال الأمر، وعن عكرمة تفسيرها بدين الإسلام.

وفي الخبر ما يدل عليه، أخرج ابن مردويه عن حماد بن عمر الصفار قال: سألت عن قتادة عن قوله تعالى: ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾ فقال: حدثني أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: «قال رسول الله صلى الله

تعالى عليه وسلم فطرة الله التي فطر الناس عليها دين الله تعالى» والمراد بفطرهم على دين الإسلام خلقهم قابلين له غير نابين عنه ولا منكرين له مجاوباً للعقل مساوقاً للنظر الصحيح حتى لو تركوا لما اختاروا عليه ديناً آخر، ففي الصحيحين عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما من مولود يولد إلاَّ على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء» والمراد بالناس على التفسيرين جميعهم.

وزعم بعضهم أن المراد بهم على التفسير الثاني المؤمنون وليس بشيء. واستشكل الاستغراق بأنه ورد في الغلام الذي قتله الخضر عليه السلام أنه طبع على الكفر. وأجيب بأن معنى ذلك أنه قدر أنه لو عاش يصير كافراً بإضلال غيره له أو بآفة من الآفات البشرية، وهذا على ما قيل هو المراد من قوله عليه الصلاة والسلام: «الشقي شقي في بطن أمه» وذلك لا ينافي الفطر على دين الإسلام بمعنى خلقه متهيأً له مستعداً لقبوله فتأمل فالمقام محتاج بعد إلى تحقيق، وقيل: فطرة الله العهد المأخوذ على بني آدم، ومعنى فطرهم على ذلك على ما قيل خلقهم مركوزاً فيهم معرفته تعالى كما أشير إليه بقوله سبحانه: ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله﴾ [لقمان: ٢٢٥، الزمر: ٣٨] وقوله سبحانه: ﴿**لا تَبديلَ لخَلْق الله**﴾ تعليل للأمر بلزوم فطرته تعالى أو لوجوب الامتثال به فالمراد بخلق الله فطرته المذكورة أولاً ففيه إقامة المظهر مقام المضمر من غير لفظه السابق، والمعنى لا صحة ولا استقامة لتبديل فطرة الله تعالى بالإخلال بموجبها وعدم ترتيب مقتضاها عليها باتباع الهوى وقبول وسوسة الشياطين، وقيل: المعنى لا يقدر أحد على أن يغير خلق الله سبحانه وفطرته عزَّ وجلَّ فلا بد من حمل التبديل على تبديل نفس الفطرة بإزالتها رأساً ووضع فطرة أخرى مكانها غير مصححة لقبول الحق والتمكن من إدراكه ضرورة، فإن التبديل بالمعنى الأول مقدور بل واقع قطعاً فالتعليل حينئذٍ من جهة أن سلامة الفطرة متحققة في كل أحد فلا بد من لزومها بترتيب مقتضاها عليها وعدم الإخلال به بما ذكر من اتباع الهوى ووسوسة الشياطين، وقال الإمام: يحتمل أن يقال: إن الله تعالى خلق خلقه للعبادة وهم كلهم عبيده لا تبديل لخلق الله أي ليس كونهم عبيداً مثل كون المملوك عبداً للإنسان فإنه ينتقل عنه إلى غيره ويخرج عن ملكه بالعتق بل لا خروج للخلق عن العبادة والعبودية، وهذا لبيان فساد قول من يقول: العبادة لتحصيل الكمال وإذا كمل للعبد بها لا يبقى عليه تكليف.

وقول المشركين: إن الناقص لا يصلح لعبادة الله تعالى وإنما يعبد نحو الكواكب وهي عبيد الله تعالى، وقول النصارى: إن عيسى عليه السلام كمل بحلول الله تعالى فيه وصار إلهاً ا هـ وفيه ما فيه، ومما يستغرب ما روي عن ابن عباس من أن معنى ﴿**لا تبديل لخلق الله**﴾ النهي عن خصاء الفحول من الحيوان، وقيل: إن الكلام متعلق بالكفرة كأنه قيل: فأقم وجهك للدين حنيفاً والزم فطرة الله التي فطر الناس عليها فإن هؤلاء الكفرة خلق الله تعالى لهم الكفر ولا تبديل لخلق الله أي أنهم لا يفلحون. وأنت تعلم أنه لا ينبغي حمل كلام الله تعالى على نحو هذا ﴿**ذلك**﴾ إشارة إلى الدين المأمور بإقامة الوجه له أو إلى لزوم فطرة الله تعالى المستفاد من الإغراء أو إلى الفطرة والتذكير باعتبار الخبر أو بتأويل المشار إليه بمذكر ﴿**الدِّينُ الْقَيِّمُ**﴾ المستوي الذي لا عوج فيه ولا انحراف عن الحق بوجه من الوجوه كما ينبيء عنه صيغة المبالغة، وأصله قيوم على وزن فيعل اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت الياء فيها ﴿**وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**﴾ ذلك فيصدون عنه صدوداً.

وقيل: أي لا علم لهم أصلاً ولو علموا لعلموا ذلك على أن الفعل منزل منزلة اللازم ﴿**منيبين إليه**﴾ أي راجعين إليه تعالى بالتوبة وإخلاص العمل من ناب نوبة ونوباً إذا رجع مرة بعد أخرى، ومن النواب أي النحل سميت

بذلك لرجوعها إلى مقرها، وقيل: أي منقطعين إليه تعالى من الناب السن خلف الرباعية لما يكون بها من الانقطاع ما لا يكون بغيرها. وتعقب بأنه بعيد لأن الناب يأتي وهذا واوي، وقد تقدم غير بعيد عدة أقوال في وجه نصبه، وزاد عليها في البحر القول بكونه نصباً على الحال من ﴿الناس﴾ في قوله تعالى: ﴿فطر الناس﴾ وقدمه على سائر الأقوال وهو كما ترى، وتقدم أيضاً ما قيل في عطف قوله تعالى: ﴿واتقوه﴾ أي من مخالفة أمره تعالى ﴿وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين﴾ المبدلين لفطرة الله سبحانه تبديلاً، والظاهر أن المراد بهم كل من أشرك بالله عزَّ وجلَّ، والنهي متصل بالأوامر قبله، وقيل: بأقيموا الصلاة، والمعنى ولا تكونوا من المشركين بتركها وإليه ذهب محمد بن أسلم الطوسي وهو كما ترى، وقوله تعالى: ﴿من الذين فرقوا دِينهم﴾ بدل من المشركين بإعادة الجار، وتفريقهم لدينهم اختلافهم فيما يعبدونه على اختلاف أهوائهم، وقيل: اختلافهم في اعتقاداتهم مع اتحاد معبودهم، وفائدة الإبدال التحذير عن الانتماء إلى حزب من أحزاب المشركين ببيان أن الكل على الضلال المبين.

وقرأ حمزة، والكسائي «فارقوا» أي تركوا دينهم الذي أمروا به أو الذي اقتضته فطرتهم ﴿وَكَانُوا شيعاً﴾ أي فرقاً تشايع كل فرقة أمامها الذي مهد لها دينها وقرره ووضع أصوله ﴿كُلُّ حزب بمَا لَدَيْهِمْ﴾ من الدين المعوج المؤسس على الرأي الزائغ والزعم الباطل ﴿فَرِحُونَ﴾ مسرورون ظناً منهم أنه حق، والجملة قيل اعتراض مقرر لمضمون ما قبله من تفريق دينهم وكونهم شيعاً، وقيل: في موضع نصب على أنها صفة ﴿شيعاً﴾ بتقدير العائد أي كل حزب منهم، وزعم بعضهم كونها حالاً. وجوز أن يكون ﴿فرحون﴾ صفة لكل كقول الشماخ:

وكل خليل غير هاضم نفسه ... لوصل خليل صارم أو معارز

والخبر هو الظرف المتقدم أعني قوله تعالى: ﴿من الذين فرقوا دينهم﴾ فيكون منقطعاً عما قبله، وضعف بأنه يوصف المضاف إليه في نحوه صرح به الشيخ ابن الحاجب في قوله:

وكل أخ مفارقه أخوه ... لعمر أبيك إلا الفرقدان

وفي البحر أن وصف المضاف إليه في نحوه هو الأكثر وأنشد قوله:

جادت عليه كل عين ثرة ... فتركن كل حديقة كالدرهم

وما قيل: إنه إذا وصف به ﴿كل﴾ دل على أن الفرح شامل للكل وهو أبلغ ليس بشيء بل العكس أبلغ لو تؤمل أدنى تأمل ﴿وإذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ﴾ أي شدة ﴿دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنيبينَ إليهْ﴾ راجعين إليه تعالى من دعاء غيره عزَّ وجلَّ من الأصنام وغيرها ﴿ثُمَّ إذَا أَذَاقَهُمْ منْهُ رَحْمَةً﴾ خلاصاً من تلك الشدة ﴿إذَا فَريقٌ منْهُمْ بربِّهِمْ﴾ الذي كانوا دعوه منيبين إليه ﴿يُشْرِكُونَ﴾ أي فاجأ فريق منهم الإشراك وذلك بنسبة خلاصهم إلى غيره تعالى من صنم أو كوكب أو نحو ذلك من المخلوقات؛ وتخصيص هذا الفعل ببعضهم لما أن بعضهم ليسوا كذلك، وتنكير ﴿ضر﴾ و﴿رحمة﴾ للتعليل إشارة إلى أنهم لعدم صبرهم يجزعون لأدنى مصيبة ويطغون لأدنى نعمة، و«ثم» للتراخي الرتبي أو الزماني ﴿ليَكْفُرُوا بمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ اللام فيه للعاقبة وكونها تقتضي المهلة ولذا سميت لام المآل والشرك والكفر متقاربان لا مهلة بينهما كما قيل لا وجه له، وقيل: للأمر وهو للتهديد كما يقال عند الغضب اعصني ما استطعت وهو مناسب لقوله سبحانه: ﴿فَتَمتَّعُوا﴾ فإنه أمر تهديدي، واحتمال كونه ماضياً معطوفاً على ﴿يشركون﴾ لا يخفى حاله، والفاء للسببية، والتمتع التلذذ، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وبال تمتعكم. وقرأ أبو العالية «فيمتعوا» بالياء التحتية مبنياً للمفعول وهو معطوف على ﴿يكفروا﴾ ﴿فسوف يعلمون﴾ بالياء التحتية أيضاً، وعن أبي العالية أيضاً «فيتمتعوا» بياء تحتية قبل التاء وهو معطوف على ﴿يكفروا﴾ أيضاً، وعن ابن مسعود «وليتمتعوا» باللام والياء

التحتية وهو عطف على «ليكفروا» ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِم سُلْطَاناً﴾ التفات من الخطاب إلى الغيبة إيذاناً بالإعراض عنهم وتعديداً لجناياتهم لغيرهم بطريق المباثة، و﴿أم﴾ منقطعة، والسلطان لحجة فالإنزال مجاز عن التعليم أو الإعلام، وقوله تعالى: ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ بمعنى فهو يدل على أن التكلم مجاز عن الدلالة، ولك أن تعتبر هنا جميع ما اعتبروه في قولهم: نطقت الحال من الاحتمالات، ويجوز أن يراد بسلطاناً ذا سلطان أي ملكاً معه برهان فلا مجاز أولاً وآخراً.

وجملة ﴿هو يتكلم﴾ جواب للاستفهام الذي تضمنته ﴿أم﴾ إذ المعنى بل أأنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم ﴿بِمَا كَانُوا به يُشْرِكُونَ﴾ أي بإشراكهم بالله عزَّ وجلَّ، وصحته على أن ﴿ما﴾ مصدرية وضمير ﴿به﴾ له تعالى أو بالأمر الذي يشركون بسببه وألوهيته على أن ﴿ما﴾ موصولة وضمير ﴿به﴾ لها والباء سببيه، والمراد نفي أن يكون لهم مستمسك يعول عليه في شركهم ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾ أي نعمة من صحة وسعة ونحوهما ﴿فَرحوا بهَا﴾ بطراً وأشراً فإنه الفرح المذموم دون الفرح حمداً وشكراً، وهو المراد في قوله تعالى: «قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا» وقال الامام: المذموم الفرح بنفس الرحمة والممدوح الفرح برحمة الله تعالى من حيث إنها مضافة إلى الله تعالى ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ شدة ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بشؤم معاصيهم ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ أي فاجؤوا القنوط من رحمته عزَّ وجلَّ، والتعبير بإذا أولاً لتحقق الرحمة وكثرتها دون المقابل، وفي نسبة الرحمة إليه تعالى دون السيئة تعليم للعباد أن لا يضاف إليه سبحانه الشر وهو كثير كقوله تعالى: ﴿أنعمت﴾ و﴿المغضوب﴾ في [الفاتحة: ٧]، وعدم بيان سبب إذاقة الرحمة وبيان سبب إصابة السيئة إشارة إلى أن الأول تفضل والثاني عدل، والتعبير بالمضارع في ﴿إذا هم يقنطون﴾ لرعاية الفاصلة والدلالة على الاستمرار في القنوط، والمراد بالناس إما فريق آخر غير الأول على أن التعريف للعهد أو للجنس وإما الفريق الأول لكن الحكم الأول ثابت لهم في حال تدهشهم كمشاهدة الغرق وهذا الحكم في حال آخر لهم فلا مخالفة بين قوله تعالى: «وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه» وقوله سبحانه: «وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم ينقطون» فلا يحتاج إلى تكلف التوفيق بأن الدعاء اللساني جار على العادة فلا ينافي القنوط القلبي ولذا سمع بعض الخائضين في دم عثمان رضي الله تعالى عنه يدعو في طوافه ويقول: اللهم اغفر لي ولا أظنك تفعل، أو المراد يفعلون فعل القانطين كالاهتمام بجمع الذخائر أيام الغلاء، ولا يخفى أن في المفاجأة نبوة ما عن هذا فتأمل.

وقرىء «يَقْنِطُون» بكسر النون ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا﴾ أي ألم ينظروا ولم يشاهدوا ﴿أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أن يبسطه تعالى له ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي ويضيقه على من يشاء أن يضيقه عليه، وهذا إما باعتبار شخصين أو باعتبار شخص واحد في زمانين، والمراد إنكار فرحهم وقنوطهم في حالتي الرخاء والشدة أي أو لم يروا ذلك فما لهم لم يشكروا ولم يحتسبوا في السراء والضراء كالمؤمنين ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور أي البسط وضده أو جميع ما ذكر ﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فيستدلون بها على كمال القدرة والحكمة ولله تعالى در من قال:

نكد الأريب وطيب عيش الجاهل ... قد أرشداك إلى حكيم كامل

قال الطيبي: كانت الفاصلة قوله تعالى: ﴿لقوم يؤمنون﴾ إيذاناً بأنه تعالى يفعل ذلك بمحض مشيئته سبحانه وليس الغنى بفعل البعد وجهده ولا العدم بعجزه وتقاعده ولا يعرف ذلك إلا من آمن بأن ذلك تقدير العزيز العليم كما قال:

كم من أريب فهم قلبه ... مستكمل العقل مقلّ عديم
ومن جهول مكثر ماله ... ذلك تقدير العزيز العليم

﴿فآت ذَا القُربَى حَقَّهُ﴾ من الصلة والصدقة وسائر المبرات **﴿وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾** ما يستحقانه، والخطاب للنبي ﷺ على أنه عليه الصلاة والسلام المقصود أصالة وغيره من المؤمنين تبعاً، وقال الحسن: هو خطاب لكل سامع، وجوز غير واحد أن يكون لمن بسط له الرزق، ووجه تعلق هذا الأمر بما قبله واقترانه بالفاء على ما ذكره الزمخشري أنه تعالى لما ذكر أن السيئة أصابتهم بما قدمت أيديهم أتبعه ذكر ما يجب أن يفعل وما يجب أن يترك، وحاصله على ما في الكشف أن امتثال أوامره تعالى مجلبة رضاه والحياة الطيبة تتبعه كما أن عصيانه سبحانه مجلبة سخطه والجدب والضيقة من روادفه فإذا استبان ذلك فآت يا محمد ومن تبعه أو فآت يا من بسط له الرزق ذا القربى حقه الخ، وذكر الإمام وجهاً آخر مبنياً على أن الأمر متفرع على حديث البسط والقدر وهو أنه تعالى لما بين أنه سبحانه يبسط ويقدر أمر جلَّ وعلا بالإنفاق إيذاناً بأنه لا ينبغي أن يتوقف الإنسان في الإحسان فإن الله تعالى إذا بسط الرزق لا ينقص بالإنفاق وإذا قدر لا يزداد بالإمساك كما قيل:

إذ جادت الدنيا عليك فجد بها ... على الناس طرّاً إنها تتقلب
فلا الجود يفنيها إذا هي أقبلت ... ولا البخل يبقيها إذا هي تذهب

قال صاحب الكشف روح الله تعالى روحه: إن ما ذكره الزمخشري أوفق لتأليف النظم الجليل فإن قوله تعالى: **﴿أولم يروا أن الله يبسط الرزق﴾** لتتميم الإنكار على من فرح بالنعمة عن شكر المنعم ويئس عند زوالها عنه، والظاهر على ما ذكره الإمام أن المراد بالحق الحق المالي وكذا المراد به في جانب المسكين وابن السبيل، وحمل ذلك بعضهم على الزكاة المفروضة. وتعقب بأن السورة مكية والزكاة إنما فرضت بالمدينة واستثناء هذه الآية ودعوى أنها مدنية يحتاج إلى نقل صحيح، وسبق النزول على الحكم بعيد ولذا لم يذكر هنا بقية الأصناف، وحكي أن أبا حنيفة استدل بالآية على وجوب النفقة لكل ذي رحم محرم ذكراً كان أو أنثى إذا كان فقيراً أو عاجزاً عن الكسب، ووجه بأن **﴿آت﴾** أمر للوجوب، والظاهر من الحق بقرينة ما قبله أنه مالي ولو كان المراد الزكاة لم يقدم حق ذوي القربى إذ الظاهر من تقديمه المغايرة، والشافعية أنكروا وجوب النفقة على من ذكر وقالوا: لا نفقة بالقرابة إلاّ على الولد والوالدين على ما بين في الفقه، والمراد بالحق المصرح به في ذي القربى صلة الرحم بأنواعها وبالحق المعتبر في جانب المسكين وابن السبيل صدقة كانت مفروضة قبل فرض الزكاة أو الزكاة المفروضة والآية مدنية أو مكية والنزول سابق على الحكم. واعترض على هذا بأنه إذا فسر حق الأخيرين بالزكاة وجب تفسير الأول بالنفقة الواجبة لئلا يكون لفظ الأمر للوجوب والندب، ولذا استدل أبو حنيفة عليه الرحمة بالآية على ما تقدم، وفيه بحث.

وقال بعض أجلّة الشافعية راداً على الاستدلال: إنه كيف يتم مع احتمال أن يكون الأمر بإيتاء الصدقة أيضاً بدليل ما تلاه، ثم إن **﴿ذا القربى﴾** مجمل عند المستدل ومن أين له أنه بين بذي الرحم المحرم، وكذلك قوله تعالى: **﴿حقه﴾** ثم قال: والحق أنه أمر بتوفير حقه من الصلة لا خصوص النفقة وصلة الرحم من الواجبات المؤكدة انتهى، والحق أحق بالاتباع، ودليل الإمام عليه الرحمة ليس هذا وحده كما لا يخفى على علماء مذهبه.

وخص بعض الخطاب به صلى الله تعالى عليه وسلم وقال: المراد بذي القربى بنو هاشم وبنو المطلب أمر صلى الله تعالى عليه وسلم أن يؤتيهم حقهم من الغنيمة والفيء، وفي مجمع البيان للطبرسي من الشيعة المعنى وآت يا محمد ذوي قرابتك حقوقهم التي جعلها الله تعالى لهم من الأخماس. وروى أبو سعيد الخدري وغيره أنه لما نزلت هذه الآية أعطى عليه الصلاة والسلام فاطمة رضي الله تعالى عنها فدكاً وسلمه إليها، وهو المروي عن أبي جعفر، وأبي عبد الله انتهى؛ وفيه أن هذا ينافي ما اشتهر عند الطائفتين من أنها رضي الله تعالى عنها ادعت فدكاً بطريق

الإرث، وزعم بعضهم أنها ادعت الهبة وأتت على ذلك بعلي والحسن والحسين رضي الله تعالى عنهم وبأم أيمن رضي الله تعالى عنها فلم يقبل منها لمكان الزوجية والبنوة وعدم كفاية المرأة الواحدة في الشهادة في هذا الباب فادعت الإرث فكان ما كان وهذا البحث مذكور على أتم وجه في التحفة إن أردته فارجع إليه، وخص بعضهم ﴿ابن السبيل﴾ بالضيف وحقه بالإحسان إليه إلى أن يرتحل والمشهور أنه المنقطع عن ماله وبين المعنيين عموم من وجه، وقدم ذو القربى اعتناء بشأنه وهو السر في تقديم المفعول الثاني على العطف والعدول عن وآت ذا القربى والمسكين وابن السبيل حقهم، وعبر عن القريب بذي القربى في جميع المواضع ولم يعبر عن المسكين بذي المسكنة لأن القرابة ثابتة لا تتجدد وذو كذا لا يقال في الأغلب إلا في الثابت ألا ترى أنهم يقولون لمن تكرر منه الرأي الصائب فلان ذو رأي ويكاد لا تسمعهم يقولون لمن أصاب مرة في رأيه كذلك وكذا نظائر ذلك من قولهم: فلان ذو جاه وفلان ذو إقدام، والمسكنة لكونها مما تطرأ وتزول لم يقل في المسكين ذو مسكنة كذا قال الإمام: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الإيتاء المفهوم من الأمر ﴿خَيْرٌ﴾ في نفسه أو خير من غيره ﴿لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ أي ذاته سبحانه أي يقصدونه عزَّ وجلَّ بمعروفهم خالصاً أو جهته تعالى أي يقصدون جهة التقرب إليه سبحانه لا جهة أخرى والمعنيان كما في الكشف متقاربان ولكن الطريقة مختلفة.

﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ المتصفون بالإيتاء ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ حيث حصلوا بإنفاق ما يفنى النعيم المقيم، والحصر إضافي على ما قيل: أي أولئك هم المفلحون لا الذين بخلوا بما لهم ولم ينفقوا منه شيئاً.

وقيل: هو حقيقي على أن المتصفين بالإيتاء المذكور هم الذين آمنوا وأقاموا الصلاة وأنابوا إليه تعالى واتقوه عزَّ وجلَّ فلا منافاة بين هذا الحصر والحصر المذكور في أول سورة البقرة فتأمل ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّباً﴾ الظاهر أنه أريد به الزيادة المعروفة في المعاملة التي حرمها الشارع إليه ذهب الجبائي وروي ذلك عن الحسن ويشهد له ما روي عن السدي من أن الآية نزلت في رباً ثقيف كانوا يرون وكذا كانت قريش، وعن ابن عباس ومجاهد، وسعيد بن جبير، والضحاك، ومحمد بن كعب القرظي، وطاوس وغيرهم أنه أريد به العطية التي يتوقع بها مزيد مكافأة وعليه فتسميتها رباً مجاز لأنها سبب للزيادة، وقيل: لأنها فضل لا يجب على المعطي.

وعن النخعي أن الآية نزلت في قوم يعطون قراباتهم وإخوانهم على معنى نفعهم وتمويلهم والتفضيل عليهم وليزيدوا في أموالهم على جهة النفع لهم وهي رواية عن ابن عباس فالمراد بالربا العطية التي تعطى للأقارب للزيادة في أموالهم، ووجه تسميتها بما ذكر معلوم مما ذكرنا، وأياً ما كان ـ فمن ـ بيان ـ لما ـ لا للتعليل.

وقرأ ابن كثير «أتيتم» بالقصر ومعناه على قراءة الجمهور أعطيتم وعلى هذه القراءة جئتم أي ما جئتم به من عطاء رباً ﴿لِّيَرْبُوَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ﴾ أي ليزيد ذلك الربا ويزكو في أموال الناس الذين آتيتموهم إياه، وقال ابن الشيخ: المعنى على تفسير الربا بالعطية ليزيد ذلك الربا في جذب أموال الناس وجلبها، وفي معناه ما قيل ليزيد ذلك بسبب أموال الناس وحصول شيء منها لكم بواسطة العطية، وعن ابن عباس، والحسن، وقتادة، وأبي رجاء، والشعبي، ونافع، ويعقوب، وأبي حيوة «لتربوا» بالتاء الفوقية مضمومة وإسناد الفعل إليهم وهو باب الأفعال المتعدية لواحد بهمزة التعدية والمفعول محذوف أي لتربوه وتزيدوه في أموال الناس أو هو من قبيل يجرح في عراقيبها نصلى أي لتربوا وتزيدوا أموال الناس، ويجوز أن يكون ذلك للصيرورة أي لتصيروا ذوي رباً في أموال الناس. وقرأ أبو مالك «لتربوها» بضمير المؤنث وكان الضمير للربا على تأويله بالعطية أو نحوها ﴿فَلاَ يَرْبُوا عِنْدَ اللهِ﴾ أي فلا يبارك فيه في تقديره تعالى وحكمه عزَّ وجلَّ ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ﴾ أي من صدقة ﴿تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ تبتغون به وجهه تعالى خالصاً ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ

الْمُضْعِفُونَ﴾ أي ذوو الأضعاف على أن مضعفاً اسم فاعل من أضعف أي صار ذا ضعف بكسر فسكون بأن يضاعف له ثواب ما أعطاه كما قوى وأيسر إذا صار ذا قوة ويسار فهو لصيرورة الفاعل ذا أصله، ويجوز أن يكون من أضعف والهمزة للتعدية والمفعول محذوف أي الذين ضعفوا ثوابهم وأموالهم ببركة الزكاة. ويؤيد هذا الوجه قراءة أبي «المضعفون» اسم مفعول، وكان الظاهر أن يقال: فهو يربو عند الله لأنه الذي تقتضيه المقابلة إلا أنه غير في العبارة إذا أثبت غير ما قبله وفي النظم إذا أتى فيما قبل بجملة فعلية وهنا بجملة اسمية مصدرة باسم الإشارة مع ضمير الفصل لقصد المبالغة فأثبت لهم المضاعفة التي هي أبلغ من مطلق الزيادة على طريق التأكيد بالإسمية والضمير وحصر ذلك فيهم بالاستحقاق مع ما في الإشارة من التعظيم لدلالته على علو المرتبة وترك ما أتوا وذكر المؤتى إلى غير ذلك، والالتفات عن الخطاب حيث قيل: فأولئك دون فأنتم للتعظيم كأنه سبحانه خاطب بذلك الملائكة عليهم السلام وخواص الخلق تعريفاً لحالهم، ويجوز أن يكون التعبير بما ذكر للتعميم بأن يقصد بأولئك هؤلاء وغيرهم، والراجع في الكلام إلى ﴿ما﴾ محذوف إن جعلت موصولة وكذلك إن جعلت شرطية على الأصح لأنه خبر على كل حال أي فأولئك هم المضعفون به أو فمؤتوا على صيغة اسم الفاعل أولئك المضعفون، والحذف لما في الكلام من الدليل عليه، وعلى تقدير مؤتوه العام لا يكون هناك التفات بالمعنى المتعارف، واعتبار الالتفات أولى، وفي الكشاف أن الكلام عليه أملأ بالفائدة وبين ذلك بأن الكلام مسوق لمدح المؤتين حثاً في الفعل وهو على تقدير الالتفات من وجوه. أحدها الإشارة بأولئك تعظيماً لهم والثاني تقريه الملائكة عليهم السلام بمدحهم. والثالث ما في نفس الالتفات من الحسن. والرابع ما في أولئك على هذا من الفائدة المقررة في نحو * فذلك أن يهلك فحسبي ثناؤه * بخلافه إذا جعل وصفاً للمؤتين وعلى ذلك التقدير يفيد تعظيم الفعل لا الفاعل وإن لزم بالعرض فلا يعارض ما يفيده بالأصالة فتأمل، والآية على المعنى الأول للربا في معنى قوله عزَّ وجلَّ: يمحق الله الربا ويربي الصدقات [البقرة: ٢٧٦] سواء بسواء، والذي يقتضيه كلام كثير أنها تشعر بالنهي عن الربا بذلك المعنى لكن أنت تعلم أنها لو أشعرت بذلك لأشعرت بحرمة الربا بمعنى العطية التي يتوقع بها مزيد مكافأة على تقدير تفسير الربا بها مع أنهم صرحوا بعدم حرمة ذلك على غيره صلى الله تعالى عليه وسلم وحرمتها عليه عليه الصلاة والسلام لقوله تعالى: ولا تمنن تستكثر [المدثر: ٦] وكذا صرحوا بأن ما يأخذه المعطي لتلك العطية من الزيادة على ما أعطاه ليس بحرام ودافعه ليس بآثم لكنه لا يثاب على دفع الزيادة لأنها ليست صلة مبتدأة بل بمقابلة ما أعطي أولاً ولا ثواب فيما يدفع عوضاً وكذا لا ثواب في إعطاء تلك العطية أولاً لأنها شبكة صيد، ومعنى قول بعض التابعين الجانب المستغزر يثاب من هبته أن الرجل الغريب إذا أهدى إليك شيئاً لتكافئه وتزيده شيئاً فأثبه من هديته وزده.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثم يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾

الظاهر أن الاسم الجليل مبتدأ و **﴿الذي﴾** خبره والاستفهام إنكاري و **﴿من شركائكم﴾** خبر مقدم و **﴿من﴾** مبتدأ مؤخر و **﴿من﴾** فيه للتبعيض و **﴿من ذلكم﴾** صفة **﴿شيء﴾** قدمت عليه فأعربت حالاً و **﴿من﴾** فيه للتبعيض أيضاً و **﴿شيء﴾** مفعول يفعل و **﴿من﴾** الداخلة عليه مزيدة لتأكيد الإستغراق، وجوز الزمخشري أن يكون الاسم الجليل مبتدأ و **﴿الذي﴾** صفته والخبر **﴿هل من شركائكم﴾** الخ والرابط اسم الإشارة المشار به إلى أفعاله تعالى السابقة ـ فمن ذلكم ـ بمعنى من أفعاله، ووقعت الجملة المذكورة خبراً لأنها خبر منفي معنى وإن كانت استفهامية ظاهراً فكأنه قيل: الله الخالق الرازق المميت المحيي لا يشاركه شيء ممن لا يفعل أفعاله هذه، وبعضهم جعلها خبراً بتقدير القول فكأنه قيل: الله الموصوف بكونه خالقاً ورازقاً ومميتاً ومحيياً مقول في حقه هل من شركائكم من هو موصوف بما هو موصوف به.

وتعقب ذلك أبو حيان بأن اسم الإشارة لا يكون رابطاً إلاَّ إذا أشير به إلى المبتدأ وهو هنا ليس إشارة إليه لكنه شبيه بما أجازه الفراء من الربط بالمعنى وخالفه الناس وذلك في قوله تعالى: ﴿**والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن**﴾ [البقرة: ٢٣٤] فإن التقدير يتربصن أزواجهم فقدر الضمير بمضاف إلى ضمير ﴿**الذين**﴾ فحصل به الربط.

وكذلك قدر الزمخشري من ذلكم بمن أفعاله المضاف إلى ضمير المبتدأ لكن لا يخفى أن الإضافة غير معتبرة وعلى تقدير اعتبارها يلزم تقدير مضاف آخر، وجوز أن تكون ﴿**من**﴾ الأولى لبيان من يفعل ومتعلقها محذوف و ﴿**من يفعل**﴾ فاعل لفعل محذوف أي هل حصل واستقر من يفعل كائناً من شركائكم، وكذا جوز في ﴿**من**﴾ الثانية أن تكون لبيان المستغرق، وقيل: إن من الأولى ومن الثانية زائدتان كالثالثة وهو كما ترى، والآية على ما قلناه أولاً متضمنة جملتين دلت الأولى على إثبات ما هو من اللوازم المساوية للألوهية من الخلق والرزق والإماتة والإحياء له عزَّ وجلَّ وأفادت الثانية بواسطة عكس السالبة الكلية نفيها رأساً عن شركائهم الذين اتخذوهم شركاء له سبحانه من الأصنام وغيرها مؤكداً بالإنكار، والعقل حاكم بأن ما يتخذ شريكاً كالذي اتخذ في الحكم المذكور أعني نفي تلك الأفعال منه، وإن شئت جعلت ﴿**شركائكم**﴾ شاملاً للصنفين ويفهم من ذلك عدم صحة الشركة إذ لا يعقل شركة ما ليس باله لعدم وجود لازم الألوهية فيه لمن هو إله في الألوهية ولتأكيد ذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿**سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ أي عن شركهم، والتعبير بالمضارع لما في الشرك من الغرابة أو للإشعار باستمراره وتجدده منهم، وأشار بعضهم إلى أن تينك الجملتين يؤخذ منهما مقدمتان موجبة وسالبة كلية مرتبتان على هيئة قياس من الشكل الثاني وأن قوله تعالى: ﴿**سبحانه**﴾ الخ يؤخذ منه سالبة كلية هي نتيجة ذلك القياس فتكون الجملتان المذكورتان في حكم قياس من الشكل الثاني، وقوله تعالى: ﴿**سبحانه**﴾ الخ في حكم النتيجة له، ولا يخفى احتياج ذلك إلى تكلف فتأمل جداً، وقرأ الأعمش، وابن وثاب «تشركون» بتاء الخطاب

ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ
سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ
ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا
فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ
ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا
عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ
كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن
قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ
إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ
يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن

ضَلَٰلَتِهِمْۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ
بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةًۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ
ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ
لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا
يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ
مَثَلٍۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ
ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

﴿ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ﴾ كالجدب والموتان وكثرة الحرق والغرق وإخفاق الصيادين والغاصة ومحق البركات من كل شيء وقلة المنافع في الجملة وكثرة المضارع، وعن ابن عباس أجدبت الأرض وانقطعت مادة البحر وقالوا: إذا انقطع القطر عميت دواب البحر، وقال مجاهد: ظهر الفساد في البر بقتل ابن آدم أخاه وفي البحر بأخذ السفن غصباً، وفي رواية عن ابن عباس بأخذ جلندي كل سفينة غصباً، ولعل المراد التمثيل، وكذا يقال في قتل ابن آدم أخاه وكان أول معصية ظهرت في البر؛ قال الضحاك: كانت الأرض خضرة مونقة لا يأتي ابن آدم شجرة إلا وجد عليها ثمرة وكان ماء البحر عذباً وكان لا يفترس الأسد البقر ولا الذئب الغنم فلما قتل قابيل هابيل اقشعر ما في الأرض وشاكت الأشجار وصار ماء البحر ملحاً زعافاً وقصد الحيوان بعضه بعضاً.

وذكر أن أول معصية في البحر غصب جلندي كل سفينة تمر عليه فكأن تخصيص الآمرين بالذكر لذلك، وأياً ما كان فالبر والبحر على ظاهرهما، وعن مجاهد البر البلاد البعيدة من البحر والبحر السواحل والمدن التي عند البحر والأنهار، وقال قتادة: البر الفيافي ومواضع القبائل وأهل الصحارى والعمود والبحر المدن، والعرب تسمي الأمصار بحاراً لسعتها، ومنه قول سعد بن عبادة في عبد الله بن أبي ابن سلول، ولقد أجمع أهل هذه البحيرة يعني المدينة ليتوجوه.

قال أبو حيان: ويؤيد هذا قراءة عكرمة «والبحور» بالجمع ورويت عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وجوز النحاس أن يكون البحر على ظاهره إلا أن الكلام على حذف مضاف أي مدن البحر فهو مثل ﴿واسأل القرية﴾ [يوسف: ٨٢] وجوز أيضاً أن يراد بالفساد المعاصي من قطع الطريق والظلم وغيرهما، و ﴿أل﴾ في ﴿البر والبحر﴾ للجنس وكذا في ﴿الفساد﴾ أي ظهر جنس الفساد من الجدب والموتان ونحوهما في جنس البر وجنس البحر ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ أي بسبب ما فعله الناس من المعاصي والذنوب وشؤمه وهذا كقوله تعالى: ﴿وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم﴾ [الشورى: ٣٠] وهو على التفسير الأول للفساد ظاهر وأما على تفسيره بالمعاصي فالمعنى ظهرت المعاصي في البر والبحر بكسب الناس إياها وفعلهم لها، ومعنى قوله تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ على الأول ظاهر وهو أن الله تعالى قد أفسد أسباب دنياهم ومحقها وبال بعض أعمالهم في الدنيا قبل أن يعاقبهم بجميعها في الآخرة لعلهم يرجعون عما هم عليه وأما على الثاني فاللام مجاز على معنى أن ظهور المعاصي بسببهم مما استوجبوا به أن يذيقهم الله تعالى وبال أعمالهم إرادة الرجوع فكأنهم إنما فسدوا وتسببوا لفشو المعاصي في الأرض لأجل ذلك.

وقرأ السلمي، والأعرج، وأبو حيوة، وسلام، وسهل، وروح، وابن حسان، وقنبل من طريق ابن مجاهد، وابن الصباح، وأبي الفضل الواسطي عنه ومحبوب عن أبي عمرو «لنذيقهم» بالنون، وظهور الفساد المذكور على ما أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة كان قبل أن يبعث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فلما بعث عليه الصلاة والسلام رجع من رجع من الناس عن الضلال والظلم، وقيل: كان أوائل البعثة وذلك أن كفار قريش فعلوا ما فعلوا من المعاصي والإصرار على الشرك وإيذاء الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فدعا صلى الله تعالى عليه وسلم عليهم فأقحطوا وحل بهم من البلاء ما حل فأخبر الله سبحانه أن ذلك بسبب معاصيهم ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون.

وفسر هذا القائل: ﴿النّاس﴾ بكفار قريش، وقيل: كان في زمان سابق على زمان النزول أعم من أن يكون الزمان الذي قبيل البعثة أو بعيدها أو غير ذلك، وحكم الآية عام في كل فساد يظهر إلى يوم القيامة، ومن هنا قيل: من أذنب ذنباً يكون جميع الخلائق من الإنس والدواب والوحوش والطيور والذر خصماءه يوم القيامة لأنه تعالى يمنع المطر بشؤم المعصية فيتضرر بذلك أهل البر والبحر جميعاً، وروي عن شقيق الزاهد أنه قال: من أكل الحرام فقد خان جميع الناس، ووجه تعلق الآية بما قبلها أن فيها نعي ما يعم الشرك وغيره من المعاصي وفيما قبل نعي الشرك وفيها من تخويف المشركين ما فيها.

وقال الإمام: في وجه التعلق هو أن الشرك سبب الفساد كما قال تعالى: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ [الأنبياء: ٢٢] وإذا كان الشرك سببه جعل الله تعالى إظهارهم الشرك مورثاً لظهور الفساد ولو فعل بهم ما يقتضيه قولهم لفسدت السماوات والأرض كما قال سبحانه: ﴿تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً﴾ [مريم: ٩٠] وإلى هذا أشار عزَّ وجلَّ بقوله سبحانه: ﴿ليذيقهم بعض الذي عملوا﴾ انتهى، فتأمل وانصف. وقوله تعالى: ﴿قل سيروا في الأرض فانظُرُوا كيف كان عاقبة الّذين من قبل﴾ مسوق لتأكيد تسبب المعاصي لغضب الله تعالى ونكاله حيث أمروا بأن يسيروا فينظروا كيف أهلك الله تعالى الأمم وأذاقهم سوء العاقبة بمعاصيهم ويتحققوا صدق ما تقدم، وقوله تعالى: ﴿كان أكثرهم مشركين﴾ استئناف للدلالة على أن الشرك وحده لم يكن سبب لتدمير جميعهم بل هو سبب للتدمير في أكثرهم وما دونه من المعاصي سبب له في قليل منهم.

وجوز أن يكون للدلالة على أن سوء عاقبتهم لفشو الشرك وغلبته فيهم ففيه تهويل لأمر الشرك بأنه فتنة لا تصيب الذين ظلموا خاصة ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ أي إذا كان الأمر كذلك فأقم وتمام الكلام فيما هنا يعلم مما تقدم في هذه السورة الكريمة ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ﴾ جوز أن يتعلق بمرد وهو مصدر بمعنى الرد، والمعنى لا يرده سبحانه بعد أن يجيء به ولا رد له من جهته عزَّ وجلَّ فيفيد انتفاء رد غيره تعالى له بطريق برهاني، واعترض بأنه لو كان كذلك للزم تنوين ﴿يومٌ﴾ لمشابهته للمضاف.

وأجيب بأنه مبني على ما قاله ابن مالك في التسهيل من أنه قد يعامل الشبيه بالمضاف معاملته فيترك تنوينه وحمل عليه قوله عليه الصلاة والسلام «لا مانع لما أعطيت» وتفصيله في شرحه، وبعضهم جعله متعلقاً بمحذوف يدل عليه ﴿مرد﴾ أي لا يرد من جهته تعالى أي لا يرده هو عزَّ وجلَّ؛ وقيل: هو خبر مبتدأ محذوف والتقدير هو أي الرد المنفي كائن من الله تعالى، والجملة استئناف جواب سؤال تقديره ممن ذلك الرد المنفي؟ وقيل: هو متعلق بمحذوف وقع حالاً من الضمير في الظرف الواقع خبراً للا، وقيل: متعلق بالنفي أو بما دلَّ عليه، وقيل: متعلق بمحذوف وقع صفة اليوم، وجوز كثير تعلقه بيأتي أي من قبل أن يأتي من الله تعالى يوم لا يقدر أحد أن يرده.

وتعقب بأن ذلك خلاف المتبادر من اللفظ والمعنى وهو مع ذلك قليل الفائدة وارتضاه الطيبي فقال: هذا الوجه

أبلغ لإطلاق الرد وتفخيم اليوم وإن إتيانه من جهة عظيم قادر ذي سلطان قاهر ومنه يعلم أن ذلك ليس قليل الفائدة. نعم إن فيه الفصل الملبس وحال سائر الأوجه لا يخفى على ذي تمييز ﴿يَوْمَئِذ﴾ أي يوم إذ يأتي ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾ أصله يتصدعون فقلبت تاؤه صاداً وأدغمت والتصدع في الأصل تفرق أجزاء الأواني ثم استعمل في مطلق التفرق أي يتفرقون فريق في الجنة وفريق في السعير، وقيل: يتفرقون تفرق الأشخاص على ما ورد في قوله تعالى: ﴿يوم يكون الناس كالفراش المبثوث﴾ [القارعة: ٤] لا تفرق الفريقين فإن المبالغة في التفرق المستفادة من ﴿يصدعون﴾ إنما تناسب الأول، ورجح الثاني بأنه المناسب للسياق والسباق إذا الكلام في المؤمنين والكافرين فما ذكر بيان لتباينهم في الدارين ويكفي للمبالغة شدة بعد ما بين المنزلتين حساً ومعنى وهو تفسير رواه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة، وروي أيضاً عن ابن زيد ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْه كُفْرُهُ﴾ أي وبال كفره وهي النار المؤبدة ففي الكلام مضاف مقدر أو الكفر مجاز عن جزائه بل عن جميع المضار التي لا ضرر وراءها، وأفراد الضمير باعتبار لفظ ﴿من﴾ وفيه إشارة إلى قلة قدرهم عند الله تعالى وحقارتهم مع ما علم من كثرة عددهم، وجمعه في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَملَ صالحاً فَلأَنْفُسهمْ يَمْهَدُونَ﴾ باعتبار معناها، وفيه مع رعاية الفاصلة إشارة إلى كثرة قدرهم وعظمهم عند الله تعالى، و ﴿يمهدون﴾ من مهد فراشه وطأه أي يوطؤون لأنفسهم كما يوطىء الرجل لنفسه فراشه لئلا يصيبه في مضجعه ما ينبيه وينغص عليه مرقده من نتوء أو ق أو بعض ما يؤذي الراقد فكأنه شبه حالة المكلف مع عمله الصالح وما يتحصل به من الثواب ويتخلص من العقاب بحالة من يمهد فراشه ويوطؤه ليستريح عليه ولا يصيبه في مضجعه ما ينغص عليه، وجوز أن يكون المعنى فعلى أنفسهم يشفقون على أن ذلك من قولهم في المثل للمشفق أم فرشت فأنامت فيكون الكلام كناية إيمائية عن الشفقة والمرحمة والأولى أظهر، والظاهر أن هذه التوطئة لما بعد الموت من القبر وغيره، وأخرج جماعة عن مجاهد أنه قال: فلأنفسهم يمهدون أي يسوون المضاجع في القبر وليس بذاك. وتقديم الظرف في الموضعين للدلالة على الاختصاص وقيل: للاهتمام، ومقابلة من ﴿كفر﴾ ـ بمن عمل صالحاً ـ لا بمن آمن إما للتنويه بشأن الإيمان بناءً على أنه المراد بالعمل الصالح وإما لمزيد الاعتناء بشأن المؤمن العامل بناءً على أن المراد بالعمل الصالح ما يشمل العمل القلبي والقالبي ويشعر بأن المراد بمن عمل صالحاً المؤمن العالم قوله تعالى: ﴿ليَجزيَ الَّذينَ آمَنُوا وَعَملُوا الصَّالحَات منْ فَضْله﴾ فإنه علّة ليمهدون وأقيم فيه الموصول مقام الضمير تعليلاً للجزاء لما أن الموصول في معنى المشتق والتعليق به يفيد عليه مبدأ الاشتقاق، وذكر ﴿من فضله﴾ للدلالة على أن الإثابة تفضل محض؛ وتأويله بالعطاء أو الزيادة على ما يستحق من الثواب عدول عن الظاهر، وجوز أن يكون ذلك علّة ليصدعون والاقتصار على جزاء المؤمنين للإشعار بأنه المقصود بالذات والاكتفاء بفحوى قوله تعالى: ﴿إنَّهُ لا يُحبُّ الْكَافرينَ﴾ فإن عدم المحبة كناية عن البغض في العرف. وهو يقتضي الجزاء بموجبه فكأنه قيل: وليعاقب الكافرين. وفي الكشاف أن تكرير الذين آمنوا وعملوا الصالحات وترك الضمير إلى الصريح لتقرير أنه لا يفلح عنده تعالى إلاّ المؤمن الصالح، وقوله تعالى: ﴿إنه﴾ الخ تقرير بعد تقرير على الطرد والعكس ويعني بذلك كل كلامين يقرر الأول الثاني وبالعكس سواء كان صريحاً وإشارة أو مفهوماً ومنطوقاً وذلك كقول ابن هانىء:

فما جازه جود ولا حل دونه ... ولكن يصير الجود حيث يصير

وبيانه فيما نحن فيه أن قوله تعالى: ﴿ليجزي الذين آمنوا﴾ يدل بمنطوقه على ما قرر على اختصاصهم بالجزاء التكريمي وبمفهومه على أنهم أهل الولاية والزلفى، وقوله سبحانه: ﴿إنه لا يحب الكافرين﴾ لتعليل الاختصاص يدل بمنطوقه على أن عدم المحبة يقتضي حرمانهم وبمفهومه على أن الجزاء لأضدادهم. موفر فهو جلّ وعلا محب

للمؤمنين، وذكر العلامة الطيبي الظاهر أن قوله تعالى: ﴿فأقم وجهك للدين القيم﴾ الآية بتمامها كالمورد للسؤال والخطاب لكل أحد من المكلفين وقوله تعالى: ﴿من كفر فعليه كفره﴾ الآية وارد على الاستئناف منطو على الجواب فكأنه لما قيل: أقيموا على الدين القيم قبل مجيء يوم يتفرقون فيه فقيل: ما للمقيمين على الدين وما على المنحرفين عنه وكيف يتفرقون، فأجيب من كفر فعليه كفره الآية، وأما قوله سبحانه: ﴿ليجزي الذين آمنوا﴾ الآية فينبغي أن يكون تعليلاً للكل ليفصل ما يترتب على مالهم وعليهم لكن يتعلق بيمهدون وحده لشدة العناية بشأن الإيمان والعمل الصالح وعدم الأعباء بعمل الكافر ولذلك وضع موضعه ﴿إنه لا يحب الكافرين﴾ انتهى فلا تغفل، وفي الآية لطيفة نبّه عليها الإمام قدس سره وهي أن الله عزَّ وجلَّ عندما أسند الكفر والإيمان إلى العبيد قدم الكافر وعندما أسند الجزاء إلى نفسه قدم المؤمن لأن قوله تعالى: ﴿من كفر﴾ وعيد للمكلف ليمتنع عما يضره لينقذه سبحانه من الشر وقوله تعالى: ﴿ومن عمل صالحاً﴾ تحريض له وترغيب في الخير ليوصله إلى الثواب والإنقاذ مقدم عند الحكيم الرحيم وأما عند الجزاء فابتدأ جلَّ شأنه بالإحسان إظهاراً للكرم والرحمة.

هذا ولما ذكر سبحانه ظهور الفساد والهلاك بسبب المعاصي ذكر ظهور الصلاح ولم يذكر عزَّ وجلَّ أنه بسبب العمل الصالح لأن الكريم يذكر لعقابه سبباً لئلا يتوهم منه الظلم ولا يذكر لإحسانه فقال عزَّ من قائل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ﴾ الجنوب ومهبها من مطلع سهيل إلى مطلع الثريا والصبا ومهبها من مطلع الثريا إلى بنات نعش، والشمال ومهبها من بنات نعش إلى مسقط النسر الطائر فإنها رياح الرحمة وأما الدبور ومهبها من مسقط النسر الطائر إلى مطلع سهيل فريح العذاب، وذكر أن الثلاثة الأول تلقح السحاب الماطر وتجمعه فلذا كانت رحمة، وعن أبي عبيدة الشمال عند العرب للروح والجنوب للأمطار والأنداء والصبا لإلقاح الأشجار والدبور للبلاء وأهونه أن تثير غباراً عاصفاً يقذي العين وهي أقلهن هبوباً، وروى الطبراني، والبيهقي في سننه عن ابن عباس من حديث ذكر فيه ما كان يفعله ويقوله ﷺ إذا هاجت ريح: «اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً» وهو مبني على أن الرياح للرحمة والريح للعذاب، وفي نهاية العرب تقول: لا تلقح السحاب إلاَّ من رياح مختلفة فكأنه قال صلى الله تعالى عليه وسلم اللهم اجعلها لقاحاً للسحاب ولا تجعلها عذاباً ثم قال: وتحقيق ذلك مجيء الجمع في آيات الرحمة والواحد في قصص العذاب كالريح العقيم وريحاً صرصراً، وقال بعضهم: إن ذاك لأن الريح إذا كانت واحدة جاءت من جهة واحدة فصدمت جسم الحيوان والنبات من جهة واحدة فتؤثر فيه أثراً أكثر من حاجته فتضره ويتضرر الجانب المقابل لعكس ممرها ويفوته حظه من الهواء فيكون داعياً إلى فساده بخلاف ما إذا كانت رياحاً فإنها تعم جوانب الجسم فيأخذ كل جانب حظه فيحدث الاعتدال، وأنت تعلم أنه قد تفرد الريح حيث لا عذاب كما في قوله تعالى: ﴿وجرين بهم بريح طيبة﴾ [يوسف: ٢٢] وقوله سبحانه: ﴿ولسليمان الريح﴾ [الأنبياء: ٨١] والحديث مختلف فيه فرمز السيوطي لحسنه، وقال الحافظ الهيثمي: في سنده حسين بن قيس وهو متروك وبقية رجاله رجال الصحيح، ورواه ابن عدي في الكامل من هذا الوجه وأعله بحسين المذكور، ونقل تضعيفه عن أحمد والنسائي. نعم إن الحافظ عزاه في الفتح لأبي يعلى وحده عن أنس رفعه، وقال إسناده صحيح فليحفظ ذلك.

وقرأ ابن كثير، والكسائي، والأعمش «الريح» مفرداً على إرادة معنى الجمع ولذا قال سبحانه: ﴿مُبَشِّرَاتٍ﴾ أي بالمطر ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ يعني المنافع التابعة لها كتذرية الحبوب وتخفيف العفونة وسقي الأشجار إلى غير ذلك من اللطف والنعم، وقيل: الخصب التابع لنزول المطر المسبب عنها أو الروح الذي هو مع هبوبها، ولأوجه التخصيص، والواو للعطف، والعطف على علة محذوفة دلّ عليها ﴿مبشرات﴾ أي ليبشركم وليذيقكم أو على

﴿مبشرات﴾ باعتبار المعنى فإن الحال قد يقصد بها التعليل نحو أهن زيداً مسيئاً أي لإساءته فكأنه قيل: لتبشركم وليذيقكم، وكونه من عطف التوهم أو توهم على ﴿يرسل﴾ بإضمار فعل معلل والتقدير ويرسلها ليذيقكم، وكون التقدير ويجري الرياح ليذيقكم بعيد قيل: أو على جملة ومن آياته الخ بتقدير وليذيقكم أرسلها أو فعل ما فعل، ولم يعتبره بعضهم لأن المقصود اندراج الإذاقة في الآيات، وقيل: الواو زائدة ﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ﴾ في البحر عند هبوبها ﴿بأمره﴾ عزَّ وجلَّ وإنما جيء بهذا القيد لأن الريح قد تهب ولا تكون مؤاتية فلا بد من انضمام إرادته تعالى وأمره سبحانه للريح حتى يتأتى المطلوب، وقيل: للإشارة إلى أن هبوبها مواتية أمر من أموره تعالى التي لا يقدر عليها غيره عزَّ وجلَّ ﴿وَلِتَبْتَغُوا من فَضْله﴾ بتجارة البحر ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي ولتشكروا نعمة الله تعالى فيما ذكر ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا من قَبْلك رُسُلاً إلى قَوْمهمْ﴾ اعتراض لتسليته ﷺ بمن قبله على وجه يتضمن الوعد له عليه الصلاة والسلام والوعيد لمن عصاه، وفي ذلك أيضاً تحذير عن الإخلال بمواجب الشكر.

والمراد بقومهم أقوامهم والإفراد للاختصار حيث لا لبس والمعنى ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى أقوامهم كما أرسلناك إلى قومك ﴿فَجَاؤوهُمْ بالبَيِّنَات﴾ أي جاء كل قوم رسولهم بما يخصه من البينات كما جئت قومك ببيناتك ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذين أَجْرَمُوا﴾ الفاء فصيحة أي فآمن بعض وكذب بعض فانتقمنا، وقيل: أي فكذبوهم فانتقمنا منهم ووضع الموصول موضع ضميرهم للإشعار بالعلة والتنبيه على مكان المحذوف، وجوز أن تكون تفصيلاً للعموم بأن فيهم مجرماً مقهوراً ومؤمناً منصوراً ﴿وَكَانَ حَقاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمنينَ﴾ فيه مزيد تشريف وتكرمة للمؤمنين حيث جعلوا مستحقين على الله تعالى أن ينصرهم وإشعار بأن الانتقام لأجلهم، والمراد بهم ما يشمل الرسل عليهم الصلاة والسلام، وجوز تخصيص ذلك بالرسل بجعل التعريف عهدياً، وظاهر الآية أن هذا النصر في الدنيا، وفي بعض الآثار ما يشعر بعدم اختصاصه بها وأنه عام لجميع المؤمنين فيشمل من بعد الرسل من الأمة.

أخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من امرىء مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقاً على الله تعالى أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة ثم تلا عليه الصلاة والسلام وكان حقاً علينا نصر المؤمنين» وفي هذا إشعار بأن ﴿حقاً﴾ خبر كان و ﴿نصر المؤمنين﴾ الاسم كما هو الظاهر، وإنما آخر الاسم لكون ما تعلق به فاصلة وللاهتمام بالخبر إذ هو محط الفائدة على ما في البحر.

قال ابن عطية: ووقف بعض القراء على ﴿حقاً﴾ على أن اسم كان ضمير الانتقام أي وكان الانتقام حقاً وعدلا لا ظلماً، ورجوعه إليه على حد ﴿اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾ [المائدة: ٨] و ﴿علينا نصر المؤمنين﴾ جملة مستأنفة وهو خلاف الظاهر المؤيد بالخبر وإن لم يكن فيه محذور من حيث المعنى ﴿اللَّهُ الَّذي يُرْسلُ الرِّيَاحَ﴾ استئناف مسوق لبيان ما أجمل فيما سيق من أحوال الرياح ﴿فَتُثيرُ سَحَاباً﴾ تحركه وتنشره ﴿فَيَبْسُطُهُ﴾ بسطاً تاماً متصلاً تارة ﴿في السَّمَاء﴾ في سمتها لا في نفس السماء بالمعنى المتبادر ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾ سائراً وواقفاً مطبقاً وغير مطبق من جانب دون جانب إلى غير ذلك فالجملة الإنشائية حال بالتأويل ﴿وَيَجْعَلُهُ كسفاً﴾ أي قطعاً تارة أخرى.

وقرأ ابن عامر بسكون السين على أنه مخفف من المفتوح أو جمع كسفة أي قطعة أو مصدر كعلم وصف به مبالغة أو بتأويله بالمفعول أو بتقدير ذا كسف ﴿فَتَرَى﴾ يا من يصح منه الرؤية ﴿الْوَدْقَ﴾ أي المطر ﴿يَخْرُجُ منْ خلاله﴾ أي فرجه جمع خلل في التارتين الاتصال والتقطع فالضمير للسحاب وهو اسم جنس يجوز تذكيره وتأنيثه، وجوز على قراءة «كِسْفاً» بالسكون أن يكون له، وليس بشيء.

﴿فَإذَا أَصَابَ به مَنْ يَشَاءُ من عباده﴾ بلادهم وأراضيهم، والباء في ﴿به﴾ للتعدية ﴿إذَا هُمْ يَسْتَبْشرونَ﴾

فاجاؤوا الاستبشار بمجيء الخصب ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ﴾ الودق ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي التنزيل ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ أي آيسين، والتكرير للتأكيد، وأفاد كما قال ابن عطية الإعلام بسرعة تقلب قلوب البشر من الإبلاس إلى الاستبشار، وذلك أن ﴿من قبل أن ينزل عليهم﴾ يحمل الفسحة في الزمان فجاء ﴿من قبله﴾ للدلالة على الاتصال ودفع ذلك الاحتمال، وقال الزمخشري: أكد ليدل على بعد عهدهم بالمطر فيفهم منه استحكام يأسهم، وما ذكره ابن عطية أقرب لأن المتبادر من القبلية الاتصال وتأكيد دال على شدته. وأبو حيان أنكر على كلا الشيخين وقال: ما ذكراه من فائدة التأكيد غير ظاهر وإنما هو عندي لمجرد التأكيد ويفيد رفع المجاز فقط، وقال قطرب: ضمير ﴿قبله﴾ للمطر فلا تأكيد. وأنت تعلم أنه يصير التقدير من قبل تنزيل المطر من قبل المطر وهو تركيب لا يسوغ في كلام فصيح فضلاً عن القرآن، وقيل: الضمير للزرع الدال عليه المطر أي من قبل تنزيل المطر من قبل أن يزرعوا، وفيه أن ﴿من قبل أن ينزل﴾ متعلق بمبلسين ولا يمكن تعلق ﴿من قبله﴾ به أيضاً لأن حرفي جر بمعنى لا يتعلقان بعامل واحد إلاّ أن يكون بوساطة حرف العطف أو على جهة البدل ولا عاطف هنا ولا يصح البدل ظاهراً، وجوز بعضهم فيه بدل الاشتمال مكتفياً فيه يكون الزرع ناشئاً عن التنزيل فكان التنزيل مشتملاً عليه وهو كما ترى.

وقال المبرد: الضمير للسحاب لأنهم لما رأوا السحاب كانوا راجين المطر، والمراد من قبل رؤية السحاب، ويحتاج أيضاً إلى حرف عطف حتى يصح تعلق الحرفين بمبلسين، وقال علي بن عيسى: الضمير للإرسال، وقال الكرماني: للاستبشار لأنه قرن بالإبلاس ومن عليهم به، وأورد عليهما أمر التعلق من غير عطف كما أورد على من قبلهما فإن قالوا بحذف حرف العطف ففي جوازه في مثل هذا الموضع قياساً خلاف. واختار بعضهم كونه للاستبشار على أن ﴿من﴾متعلقة بينزل و﴿من﴾ الأولى متعلقة بمبلسين لأنه يفيد سرعة تقلب قلوبهم من اليأس إلى الاستبشار بالإشارة إلى غاية تقارب زمانيهما ببيان اتصال اليأس بالتنزيل المتصل بالاستبشار بشهادة إذا الفجائية فتأمل، و﴿إن﴾ مخففة من الثقيلة واللام في لمبلسين هي الفارقة، ولا ضمير شأن مقدراً لإن، لأنه إنما يقدر للمفتوحة وأما المكسورة فيجب إهمالها كما فصله في المغني، وبعض الأجلة قال بالتقدير ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثار رحمة الله﴾ المترتبة على تنزيل المطر من النبات والأشجار وأنواع الثمار، والفاء للدلالة على سرعة ترتبها عليه.

وقرأ الحرميان، وأبو عمرو، وأبو بكر «أثر» بالإفراد وفتح الهمزة والثاء، وقرأ سلام «إثر» بكسر الهمزة وإسكان الثاء، وإسكان الثاء، وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يُحْيِي﴾ أي الله تعالى ﴿الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ في حيز النصب بنزع الخافض و﴿كيف﴾ معلق لانظر أي فانظر لإحيائه تعالى البديع للأرض بعد موتها، وقال ابن جني: على الحالية بالتأويل أي محييا، وأياً ما كان فالمراد بالأمر بالنظر التنبيه علي عظيم قدرته تعالى وسعة رحمته عزَّ وجلَّ مع ما فيه من التمهيد لما يعقبه من أمر البعث.

وقرأ الجحدري، وابن السميفع، وأبو حيوه «تحي» بتاء التأنيث والضمير عائد على الرحمة، وجوز على قراءة الحرميين ومن معهما أن يكون الضمير للأثر على أنه اكتسب التأنيث من المضاف إليه، وليس بشيء كما لا يخفى ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾العظيم الشأن ﴿لَمُحْيِي الْمَوْتَى﴾ لقادر على إحيائهم فإنه إحداث لمثل ما كان في مواد أبدانهم من القوى الحيوانية كما أن إحياء الأرض إحداث لمثل ما كان فيها من القوى النباتية، وقيل: يحتمل أن يكون النبات الحادث من أجزاء نباتية تفتتت وتبدَّدت واختلطت بالتراب الذي فيه عروقها في بعض الأعوام السالفة فيكون كالإحياء بعينه بإعادة المواد والقوى لا بإعادة القوى فقط، وهو احتمال واهي القوى بعيد، ولا نسلم أن المسلم المسترشد يعلم وقوعه، وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تذييل مقرِّر لمضمون ما قبله أي مبالغ في القدرة على جميع

الأشياء التي من جملتها إحياؤهم لما أن نسبة قدرته عزَّ وجلَّ إلى الكل سواء.

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً﴾ أي النبات المفهوم من السياق كما قال أبو حيان أو الأثر المدلول عليه بالآثار أو النبات المعبر عنه بها على ما قاله بعضهم، والنبات في الأصل مصدر يقع على القليل والكثير ثم سمي به ما ينبت، وقال ابن عيسى: الضمير للسحاب لأنه إذا كان مصفراً لم يمطر، وقيل: للريح وهي تذكر وتؤنث، وكلا القولين ضعيفان كما في البحر.

وقرأ جناح بن حبيش «مصفاراً» بألف بعد الفاء، واللام في ﴿لئن﴾ موطئة للقسم دخلت على حرف الشرط، والفاء في ﴿فرأوه﴾ فصيحة، واللام في قوله تعالى: ﴿لَظَلُّوا﴾ لام جواب القسم الساد مسد الجوابين؛ والماضي بمعنى المستقبل كما قاله أبو البقاء، ومكي، وأبو حيان، وغيرهم، وعلل ذلك بأنه في المعنى جواب ﴿إن﴾ وهو لا يكون إلاَّ مستقبلاً، وقال الفاضل اليمني: إنما قدروا الماضي بمعنى المستقبل من حيث إن الماضي إذا كان متمكناً متصرفاً ووقع جواباً للقسم فلا بد فيه من قد واللام معاً فالقصر على اللام لأنه مستقبل معنى وفيه نظر، وقدروه بمضارع مؤكد بالنون أي وبالله تعالى لئن أرسلنا ريحاً حارة أو باردة فضربت زرعهم بالصفار فرأوه مصفراً بعد خضرته ونضارته ليظلنّ ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي من بعد الإرسال أو من بعد اصفرار زرعهم، وقيل: من بعد كونهم راجين مستبشرين ﴿يَكْفُرُونَ﴾ من غير تلعثم نعمة الله تعالى، وفيما ذكر من ذمهم بعدم تثبتهم وسرعة تزلزلهم بين طرفي الإفراط والتفريط ما لا يخفى حيث كان الواجب عليهم أن يتوكلوا على الله سبحانه في كل حال ويلجؤوا إليه عزَّ وجلَّ بالاستغفار إذا احتبس عنهم المطر ولا ييأسوا من روح الله تعالى ويبادروا إلى الشكر بالطاعة إذا أصابهم جلَّ وعلا برحمته ولا يفرطوا في الاستبشار وأن يصبروا على بلائه تعالى إذا اعترى زرعهم آفة ولا يكفروا بنعمائه جلَّ شأنه فعكسوا الأمر وأبوا ما يجديهم وأتوا بما يؤذيهم، ولا يخفى ما في الآيات من الدلالة على ترجيح جانب الرحمة على جانب العذاب فلا تغفل.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ تعليل لما يفهم من الكلام السابق كأنه قيل: لا تحزن لعدم اهتدائهم بتذكيرك فإنك الخ، وفي الكشف اعلم أن قوله تعالى: ﴿الله الذي يرسل الرياح﴾ كلام سبق مقرر لما فهم من قوله سبحانه: ﴿ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم﴾ [الروم: ٤٧] الآية لدلالته على أنه عزَّ وجلَّ ينتقم من المكذبين برسول الله ﷺ وينصر متابعيه فذكر فيه من البينات ما أجمل هنالك مما يدل على القدرة والحكمة والرحمة واختير من الأدلة ما يجمع الثلاثة وفيه ما يرشد إلى تحقيق طرفي الإيمان أعني المبدأ والمعاد وصرح بكفرانهم بالنعمة وذمهم في الحالات الثلاث لأن ذلك مما يعرفه أهل الفطرة السليمة ويتخلق به وأدمج فيه دلالته على المعاد بقوله تعالى: ﴿فانظر إلى آثار رحمة الله﴾ ولما فرغ من حديث ذمهم بنى على هذا المدمج وما دل عليه سياق الكلام من تماديهم في الضلالة مثل هذه البينات التي لا أتم منها في الدلالة فقال سبحانه: ﴿فإنك لا تسمع﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فهم مسلمون﴾ وفيه أنهم إذا لا محالة من الذين ينتقم منهم وأنك وأشياعك من المنصورين والله تعالى أعلم ا هـ، فتأمله مع ما ذكرنا.

وقد تقدم الكلام في هذه الجملة خالية عن الفاء في سورة النمل وكذا في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوا مُدْبِرِينَ وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلاَلَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ بيد أنا نذكر هنا ما ذكره الأجلة في سماع الموتى وفاء بما وعدنا هنالك فنقول ومن الله تعالى التوفيق: نقل عن العلامة ابن الهمام أنه قال: أكثر مشايخنا على أن الميت لا يسمع استدلالاً بقوله تعالى: ﴿إنك لا تسمع الموتى﴾ ونحوها يعني من قوله تعالى: ﴿وما أنت بمسمع من في القبور﴾ [فاطر: ٢٢] ولذا لم يقولوا بتلقين القبر وقالوا: لو حلف لا

يكلم فلاناً فكلمه ميتاً لا يحنث، وحكى السفاريني في البحور الزاخرة أن عائشة ذهبت إلى نفي سماع الموتى ووافقها طائفة من العلماء على ذلك، ورجحه القاضي أبو يعلى من أكابر أصحابنا ـ يعني الحنابلة ـ في كتابه الجامع الكبير واحتجوا بقوله تعالى: ﴿**إنك لا تسمع الموتى**﴾ ونحوه، وذهبت طوائف من أهل العلم إلى سماعهم في الجملة.

وقال ابن عبد البر: إن الأكثرين على ذلك وهو اختيار ابن جرير والطبري وكذا ذكر ابن قتيبة، وغيره، واحتجوا بما في الصحيحين عن أنس عن أبي طلحة رضي الله تعالى عنهما قال: «لما كان يوم بدر وظهر عليهم ـ يعني مشركي قريش ـ رسول الله ﷺ أمر ببضعة وعشرين رجلاً وفي رواية أربع وعشرين رجلاً من صناديد قريش فألقوا في طوى أي بئر من أطواء بدر وأن رسول الله ﷺ ناداهم يا أبا جهل بن هشام، يا أمية بن خلف يا عتبة بن ربيعة أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقاً فإني قد وجدت ما وعد ربي حقاً؟ فقال عمر رضي الله تعالى عنه: يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها فقال: والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، زاد في رواية لمسلم عن أنس «ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا» وبما أخرجه أبو الشيخ من مرسل عبيد بن مرزوق قال: «كانت امرأة بالمدينة تقمُّ المسجد فماتت فلم يعلم بها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فمر على قبرها فقال عليه الصلاة والسلام: ما هذا القبر؟ فقالوا: أم محجن قال: التي كانت تقم المسجد؟ قالوا: نعم فصف الناس فصلى عليها فقال ﷺ: أي العمل وجدت أفضل؟ قالوا يا رسول الله أتسمع؟ قال: ما أنتم بأسمع منها فذكر عليه الصلاة والسلام أنها أجابته قم المسجد» وبما رواه البيهقي، والحاكم وصححه وغيرهما عن أبي هريرة أن النبي ﷺ وقف على مصعب بن عمير وعلى أصحابه حين رجع من أحد فقال: «أشهد أنكم أحياء عند الله تعالى فزوروهم وسلموا عليهم فوالذي نفسي بيده لا يسلم عليهم أحد إلا ردوا عليه إلى يوم القيامة» وبما أخرج ابن عبد البر وقال عبد الحق الإشبيلي إسناده صحيح عن ابن عباس مرفوعاً «ما من أحد يمر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه في الدنيا يسلم عليه إلا عرفه ورد عليه» وبما أخرج ابن أبي الدنيا عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: «الروح بيد ملك يمشي به مع الجنازة يقول له: أتسمع ما يقال لك؟ فإذا بلغ حفرته دفنه معه» وبما في الصحيحين من قوله ﷺ: «إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه أنه ليسمع قرع نعالهم» وأجابوا عن الآية فقال السهيلي: إنها كقوله تعالى: ﴿**أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي**﴾أي إن الله تعالى هو الذي يسمع ويهدي.

وقال بعض الأجلة: إن معناها لا تسمعهم إلاّ أن يشاء الله تعالى أو لا تسمعهم سماعاً ينفعهم، وقد ينفى الشيء لانتفاء فائدته وثمرته كما في قوله تعالى: ﴿**ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها**﴾ [الأعراف: ٢٧٩] الآية، وهذا التأويل يجوز أن يعتبر في قوله تعالى: ﴿**ولا تسمع الصم**﴾ ويكون نكتة العدول عن ـ فإنك لا تسمع الموتى ولا الصم ـ إلى ما في النظم الجليل العناية بنفي الإسماع ويجوز أن لا يعتبر فيه ويبقى الكلام على ظاهره ويكون نكتة العدول الإشارة إلى أن ﴿**لا تسمع**﴾ في كل من الجملتين بمعنى.

وقال الذاهبون إلى عدم سماعهم: الأصل عدم التأويل والتمسك بالظاهر إلى أن يتحقق ما يقتضي خلافه، وأجابوا عن كثير مما استدل به الآخرون فقال بعضهم: إن ما وقع في حديث أبي طلحة رضي الله تعالى عنه يجوز أن يكون معجزة له صلى الله تعالى عليم وسلم، وهو مراد من قال: إنه من خصوصياته عليه الصلاة والسلام وهي من خوارق العادة، والكلام في موافقها وهو الذي نفي في آية ﴿**إنك لا تسمع الموتى**﴾ ونحوها وفي قوله عليه الصلاة والسلام: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم» دون ما أنتم بأسمع لما يقال ونحوه منهم تأييد ما لذلك، وحديث أبي الشيخ مرسل وحكم الاستدلال به معروف، على أن احتمال الخصوصية قائم فيه أيضاً: وفي صحيح البخاري قال قتادة:

أحياهم الله تعالى يعني أهل الطوى حتى أسمعهم قوله صلى الله تعالى عليه وسلم توبيخاً وتصغيراً ونقمة وحسرة وندماً، ويؤيد ما أخرج البخاري، ومسلم، والنسائي وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عمر قال: «وقف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على قليب بدر فقال: هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟ ثم قال عليه الصلاة والسلام: إنهم الآن يسمعون ما أقول» حيث قيد صلى الله تعالى عليه وسلم سماعهم بالآن، وإذا قلنا، بأن الميت يسأل سبعة أيام في قبره مؤمناً كان أو منافقاً أو كافراً وإنه حين السؤال تعاد إليه روحه كان لك أن تقول: يجوز أن يكون خطاب أهل القليب حين إعادة أرواحهم إلى أبدانهم للسؤال فإنه كما في حديث أخرجه أحمد، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي كان في اليوم الثالث من قتلهم، ويحتمل أن يكون خطابه صلى الله تعالى عليه وسلم لأم محجن كان وقت السؤال بأن يكون ذلك قبل مضي سبعة أيام عليها، وعليه لا يكون سماعهم من المتنازع فيه لأنهم حين سمعوا أحياء لا موتى، ويرد على هذا أن عمر رضي الله تعالى عنه قال عليه الصلاة والسلام: ما تكلم من أجساد لا أرواح لها، ولم ينكر ذلك عليه صلى الله تعالى عليه وسلم بل قال له عليه الصلاة والسلام له: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم» ولو كان الأمر كما قال قتادة لكان الظاهر أن يقول صلى الله تعالى عليه وسلم له رضي الله تعالى عنه: ليس الأمر كما تقول إن الله عزَّ وجلَّ أحياهم لي أو نحو ذلك، وعائشة رضي الله تعالى عنها أنكرت ما وقع في الحديث مما استدل به على المقصود، ففي صحيح البخاري عن هشام عن أبيه قال: ذكر عند عائشة أن ابن عمر رفع إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم «إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه، فقالت: وهل ابن عمر إنما قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «إنه ليعذب بخطيئته وذنبه وإن أهله ليبكون عليه الآن» قالت: وذلك مثل قوله: إن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قام على القليب وفيه قتلى بدر من المشركين فقال لهم ما قال إنهم ليسمعون ما أقول إنما قال: «إنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق» ثم قرأت ﴿**إنك لا تسمع الموتى**﴾ ﴿وما أنت بمسمع من في القبور﴾ [فاطر: ٢٢] وتعقب ذلك السهيلي فقال: عائشة رضي الله تعالى عنها لم تحضر قول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فغيرها ممن حضر أحفظ للفظه عليه الصلاة والسلام، وقد قالوا له: يا رسول الله أتخاطب قوماً قد جيفوا؟ فقال ما أنتم بأسمع لما أقول منهم قالوا: وإذا جاز أن يكونوا في تلك الحالة عالمين يعني كما تقول عائشة جاز أن يكونوا سامعين ا هـ هو كلام قوي، ولا يقدح عدم حضورها في روايتها لأنه مرسل صحابي وهو محمول على أنه سمع ذلك ممن حضره أو من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، ولو كان ذلك قادحاً في روايتها لقدح في رواية ابن عمر السابقة فإنه لم يحضر أيضاً، ولا مانع من أن يكون النبي عليه الصلاة والسلام قال اللفظين جميعاً فإنه كما علم من كلام السهيلي لا تعارض بينهما، وقال بعضهم فيما رواه البيهقي، والحاكم وصححه، وغيرهما: إنا لا نسلم صحته وتصحيح الحاكم محكوم عليه بعدم الاعتبار، وإن سلمنا صحته نلتزم القول بأن الموتى الذين لا يسمعون هم من عدا الشهداء أما الشهداء فيسمعون في الجملة لامتيازهم على سائر الموتى بما أخبر عنهم من أنهم أحياء عند الله عزَّ وجلَّ، وقيل في حديث ابن عبد البر: إن عبد الحق وإن قال إسناده صحيح إلا أن الحافظ ابن رجب تعقبه وقال: إنه ضعيف بل منكر وفي حديث ابن أبي الدنيا إنه على تسليم صحته لا يثبت المطلوب لأن خطاب الملك عليه السّلام للروح الذي بيده وهو ليس بميت، وفي حديث الصحيحين من سماع العبد قرع نعال أصحابه إذا دفنوه وانصرفوا عنه إنه إذ ذاك تعود إليه روحه للسؤال فيسمع وهو حي والجمهور على عود الروح إلى الجسد أو بعضه وقت السؤال على وجه لا يحس به أهل الدنيا إلا من شاء الله تعالى منهم ووراء ذلك مذاهب، فمذهب ابن جرير وجماعة من الكرامية أن السؤال في القبر على البدن فقط وأن الله تعالى يخلق فيه إدراكاً بحيث يسمع ويعلم ويلذ ويألم، وعلى هذا المذهب يمكن أن يقال نحو ما قيل على الأول، ومذهب ابن حزم وابن ميسرة إنه على الروح فقط، ومذهب أبي الهذيل واتباعه أن الميت لا يشعر بشيء

أصلاً إلا بين النفختين، والحق أن الموتى يسمعون في الجملة وهذا على أحد وجهين، أولهما أن يخلق الله عزَّ وجلَّ في بعض أجزاء الميت قوة يسمع بها متى شاء الله تعالى السلام ونحوه مما يشاء الله سبحانه سماعه إياه ولا يمنع من ذلك كونه تحت أطباق الثرى وقد انحلت منه هاتيك البنية وانفصمت العرى ولا يكاد يتوقف في قبول ذلك من يجوز أن يرى أعمى الصين بقة أندلس، وثانيهما أن يكون ذلك السماع للروح بلا وساطة قوة في البدن ولا يمتنع أن تسمع بل أن تحس وتدرك مطلقاً بعد مفارقتها البدن بدون وساطة قوى فيه وحيث كان لها على الصحيح تعلق لا يعلم حقيقته وكيفيته إلا الله عزَّ وجلَّ بالبدن كله أو بعضه بعد الموت وهو غير التعلق بالبدن الذي كان لها قبلة أجرى الله سبحانه عادته بتمكينها من السمع وخلقه لها عند زيارة القبر وكذا عند حمل البدن إليه وعند الغسل مثلاً ولا يلزم من وجود ذلك التعلق والقول بوجود قوة السمع ونحوه فيها نفسها أن تسمع كل مسموع لما أن السماع مطلقاً وكذا سائر الاحساسات ليس الا تابعاً للمشيئة فما شاء الله تعالى كان وما لم يشأ لم يكن فيقتصر على القول بسماع ما ورد السمع بسماعه من السلام ونحوه، وهذا الوجه الذي يترجح عندي ولا يلزم عليه التزام القول بأن أرواح الموتى مطلقاً في أفنية القبور لما أن مدار السماع عليه مشيئة الله تعالى والتعلق الذي لا يعلم كيفيته وحقيقته إلا هو عزَّ وجلَّ فلتكن الروح حيث شاءت أو لا تكن في مكان كما هو رأي من يقول بتجردها.

ويؤخذ من كلام ذكره العارف ابن مرجان في شرح اسماء الله تعالى الحسنى تحقيق على وجه آخر وهو أن للشخص نفساً مبرأة من باطن ما خلق منه الجسم وهي روح الجسم وروحاً أوجدها الله تبارك وتعالى من باطن ما برأ منه النفس وهي للنفس بمنزلة النفس للجسم فالنفس حجابها وبعد المفارقة في العبد المؤمن تجعل الحقيقة الروحانية عامرة العلو من السماء الدنيا إلى السماء السابعة بل إلى حيث شاء الله تعالى من العلو في سرورر ونعيم وتجعل الحقيقة النفسانية عامرة السفل من قبره إلى حيث شاء الله تعالى من الجو ولذلك لقي رسول الله ﷺ موسى قائماً يصلي في قبره وإبراهيم عليه السلام تحت الشجرة قبل صعوده عليه الصلاة والسلام إلى السماء ولقيهما عليهما السلام بعد الصعود في السماوات العلا فتلك أرواحهما وهذه نفوسهما وأجسادهما في قبورهما وكذا يقال في الكافر إلا أن الحقيقة الروحانية له لا تكون عامرة العلو فلا تفتح لهم أبواب السماء بل تكون عامرة دار شقائها والعياذ بالله تعالى، وبين الحقيقتين اتصال وبوساطة ذلك ومشيئته عزَّ وجلَّ يسمع من سلم عليه في قبره السلام ولا يختص السماع في السلام عند الزيارة ليلة الجمعة ويومها وبكرة السبت أو يوم الجمعة ويوماً قبلها ويوماً بعدها بل يكون ذلك في السلام عند الزيارة مطلقاً فالميت يسمع الله تعالى روحه السلام عليه من زائره في أي وقت كان ويقدره سبحانه على رد السلام كما صرح في بعض الآثار.

وما أخرجه العقيلي من أنهم يسمعون السلام ولا يستطيعون رده محمول على نفي استطاعة الرد على الوجه المعهود الذي يسمعه الاحياء، وقيل: رد السلام وعدمه مما يختلف باختلاف الأشخاص فرب شخص يقدره الله تعالى على الرد ولا يثاب عليه لانقطاع العمل وشخص آخر لا يقدره عزَّ وجلَّ، وعندي أن التعلق أيضاً مما يتفاوت قوة وضعفاً بحسب الأشخاص بل وبحسب الأزمان أيضاً وبذلك يجمع بين الاخبار والآثار المختلفة.

وأما الجواب عن الآية التي الكلام فيها ونحوها مما يدل بظاهره على نفي السماع فيعلم مما تقدم فليفهم والله تعالى أعلم ﴿**اللهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِن ضَعْفٍ**﴾ مبتدأ وخبر أي ابتدأكم ضعفاء وجعل الضعف أساس أمركم كقوله تعالى: ﴿وخلق الإنسان ضعيفاً﴾ [النساء: ٢٨] فمن ابتدائية وفي الضعف استعارة مكنية حيث شبه بالأساس والمادة وفي ادخال من عليه تخييل، ويجوز أن يراد من الضعف الضعيف بإطلاق المصدر على الوصف مبالغة أو بتأويله به أو

يراد من ذي ضعف والمراد بذلك النطفة أي الله تعالى الذي ابتدأ خلقكم من أصل ضعيف وهو النطفة كقوله تعالى: ﴿من ماء مهين﴾ [السجدة: ٨، المرسلات: ٢٠] وهذا التفسير وإن كان مأثوراً عن قتادة إلا أن الأول أولى وأنسب بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ منْ بعد ضَعْف قُوَّةً﴾ وذلك عند بلوغكم الحلم أو تعلق الروح بأبدانكم ﴿ثُمَّ جَعَلَ منْ بَعْد قُوَّة ضَعْفاً وَشَيْبَةً﴾ إذا أخذ منكم السن والمراد بالضعف هنا ابتداؤه ولذا أخر الشيب عنه أو الأعم فقوله سبحانه: ﴿شيبة﴾ للبيان أو للجمع بين تغيير قواهم وظواهرهم، وفتح عاصم وحمزة ضاد «ضعف» في الجمع وهي قراءة عبد الله: وأبي رجاء.

وقرأ الجمهور بضمها فيه والضم والفتح لغتان في ذلك كما في الفقر والفقر الفتح لغة تميم والضم لغة قريش، ولذا اختار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قراءة الضم كما ورد حديث رواه أبو داود والترمذي وحسنه، وأحمد وابن المنذر والطبراني والدارقطني وغيرهم عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما انه قال: قرأت على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿الله الذي خلقكم من ضعف﴾ أي بالفتح فقال: ﴿من ضعف﴾ يا بني أي بالضم لأنها لغة قومه عليه الصلاة والسلام ولم يقصد صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك رد القراءة الأخرى لأنها ثابتة بالوحي أيضاً كالقراءة التي اختارها، وروي عن عاصم الضم أيضاً، وعنه أيضاً الضم في الأولين والفتح في الأخير، وروي عن أبي عبد الرحمن والجحدري، والضحاك الضم في الأول والفتح فيما بعد.

وقرأ عيسى بضم الضاد والعين وهي لغة أيضاً فيه. وحكي عن كثير من اللغويين أن الضعف بالضم ما كان في البدن والضعف بالفتح ما كان في العقل، والظاهر انه لا فرق بين المضموم والمفتوح وكونهما مما يوصف به البدن والعقل، والمراد بضعف الثاني عين الأول، ونكر لمشاكلة ﴿قوة﴾ وبالأخير غيره فإنه ضعف الشيخوخة وذاك ضعف الطفولية، والمراد بقوة الثانية عين الأولى ونكرت لمشاكلة ﴿ضعفاً﴾ وحديث النكرة إذا أعيدت كانت غير أغلبي، وتكلف بعضهم لتحصيل المغايرة فيما نكر وكرر في الآية فتدبر ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاء﴾ خلقه من الأشياء التي من جملتها ما ذكر من الضعف والقوة والشيبة وخلقها أما بمعنى خلق أسبابها أو محالها واما إيجادها أنفسها وهو الظاهر ولا داعي للتأويل فإنها ليست بعدم صرف ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ المبالغ في العلم والقدرة فإن الترديد فيما ذكر من الأحوال المختلفة مع إمكان غيره من أوضح دلائل العلم والقدرة.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ أي القيامة سميت بها لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا أو لأنها تقع بغتة وصارت علماً لها بالغلبة كالنجم للثريا والكوكب للزهرة، والمراد بقيامها وجودها أو قيام الخلائق فيها ﴿يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا﴾ أي ما أقاموا في القبور كما روي عن الكلبي ومقاتل، والمراد به ما أقاموا بعد الموت ﴿غَيْرَ سَاعة﴾ أي قطعة من الزمان قليلة، وروى غير واحد عن قتادة أنهم يعنون ما لبثوا في الدنيا غير ساعة، ورجح الأول بأنه الأظهر لأن لبثهم مغيّاً بيوم البعث كما سيأتي إن شاء الله تعالى وليس لبثهم في الدنيا كذلك، وقيل: يعنون ما لبثوا فيما بين فناء الدنيا والبعث وهو ما بين النفختين، وفي الحديث الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم «ما بين النفختين أربعون قيل أربعون يوماً يا أبا هريرة قال أبيت قيل أربعون شهراً قال أبيت قيل أربعون سنة قال أبيت» وعنى بقوله رضي الله تعالى عنه أبيت: امتنعت من بيان ذلك لكم أو أبيت أن أسأل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عن ذلك، ولهذا الحديث قيل لا يعلم أهي أربعون سنة أم أربعون ألف سنة. وحكى السفاريني في البحور الزاخرة عن بعضهم دعوى اتفاق الروايات على أن ما بين النفختين أربعون عاماً، وأنا أقول: الحق أنه لا يعلمه إلا الله تعالى ودعوى الاتفاق لم يقم عندي دليل عليها.

وذكر الزمخشري أن ذلك وقت ينقطع عذابهم فيه واستقلوا مدة لبثهم كذباً على ما روي عن الكلبي أو نسياناً لما عراهم من هول المطلع على ما قيل، وجوز أن يكون استقلالهم تلك المدة بالإضافة إلى مدة عذابهم يومئذ ولا يبعد علمهم بها سواء كان هذا القول في أول وقت الحشر أو في أثنائه أو بعد دخول النار، وجوز أن يكونوا عدواً مدة بقائهم في الدنيا ساعة لعدم انتفاعهم بها والكثير بلا نفع قليل كما أن القليل مع النفع كثير فالكلام تأسف وتحسر على إضاعتهم أيام حياتهم، وبين الساعة وساعة جناس تام مماثل كما أطبق عليه البلغاء إلا من لا يعتد به ولا يضر في ذلك اختلاف الحركة الإعرابية ولا وجود أل في إحدى الكلمتين لزيادتها على الكلمة، وكذا لا يضر اتحاد مدلولهما في الأصل لأن المعرف فيه كالمنكر بمعنى القطعة من الزمان لمكان النقل في المعرف وصيرورته علماً على القيامة كسائر الأعلام المنقولة وأخذ أحدهما من الآخر لا يضر أيضاً كما يوضح ذلك ما قرروه في جناس الاشتقاق، وظن بعضهم أن الساعة في القيامة مجاز ولذا أنكر التجنيس هنا إذ التجنيس المذكور لا يكون بين حقيقة ومجاز فلا تجنيس في نحو ركبت حماراً ولقيت حماراً معهما تعني رجلاً بليداً واشتهر أنه لم يقع في القرآن الكريم هذا النوع من الجناس إلا في هذا الموضع، واستنبط شيخ الإسلام ابن حجر عليه الرحمة موضعاً آخر وهو قوله تعالى ﴿يكاد سنا برقة يذهب بالأبصار يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾ [النور: ٤٣، ٤٤] لأن الأبصار الأول جمع بصر والابصار الثاني مراد به ما هو جمع بصيرة، وتعقب بأنه وإن كان الأبصار الثاني مراد به ما هو جمع بصيرة إلا أنه ليس من باب الحقيقة بل بطريق المجاز والاستعارة لأن البصيرة ما تجمع على أبصار بل على بصائر، فقد قال علماء العربية: إن صيغة أفعال من جموع القلة لا تطرد إلا في اسم ثلاثي مفتوح الفاء كبصر وأبصار أو مكسورها كعنب وأعناب أو مضمومها كرطب وأرطاب ساكن العين كثوب وأثواب أو محركها كما تقدم وكعضد وأعضاد وفخذ وأفخاذ، وصيغة فعائل من جموع الكثرة لا تطرد إلا في اسم رباعي مؤنث بالتاء أو بالمعنى ثالثة مدة كسحابة وسحائب وبصيرة وبصائر وحلوبة وحلائب وشمال وشمائل وعجوز وعجائز وسعيد علم امرأة وسعائد فاستعيرت الأبصار للبصائر بجامع ما بينهما من الإدراك والتمييز وقد سمعت أن هذا النوع لا يكون بين حقيقة ومجاز فليحفظ ﴿**كَذَٰلِكَ**﴾ أي مثل ذلك الإفك ﴿**كَانُوا**﴾ أي في الدنيا ﴿**يُؤْفَكُونَ**﴾ أي يصرفون عن الصدق والتحقيق، والغرض من سوق الآية الإغراق في وصف المجرمين بالتمادي في التكذيب والاصرار على الباطل أو مثل ذلك الإفك كانوا يؤفكون في الاغترار بما تبين لهم الآن أنه ما كان إلا ساعة فسوق الكلام للتعجب من اغترارهم بلا مع السراب والغرض أن يحقر عندهم ما فيه من التمتعات وزخارف الدنيا كي يقلعوا عن العناد ويرجعوا إلى سبيل الرشاد فكأنه: قيل مثل ذلك الإفك العجيب الشأن كانوا يؤفكون في الدنيا اغترار بما عدده ساعة استقصاراً والصارف لهم هو الله تعالى أو الشيطان أو الهوى، وأياً ما كان فليس ذاك إلا لسوء اختيارهم وخباثة استعدادهم، وفي الآية على أحد الأقوال دليل على وقوع الكذب في الآخرة من الكفرة.

واستدل بها بعضهم على نفي عذاب القبر، وليس بشيء ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ**﴾ في الدنيا من الملائكة أو الإنس أو منهما جميعاً ﴿**لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ**﴾ أي في علمه وقضائه أو ما كتبه وعينه سبحانه أو اللوح المحفوظ أو القرآن وهو قوله تعالى: ﴿ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾ [المؤمنون: ١٠٠] وأياً ما كان فالجار والمجرور متعلق بما عنده.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ـ وفيه من البعد ما فيه ـ إن الكلام على التقديم والتأخير والأصل وقال الذين أوتوا العلم والإيمان في كتاب الله لقد لبثتم ﴿**إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ**﴾ والكلام ولما قالوه مؤكد

باليمين أو توبيخ وتفضيح وتهكم بهم فتأمل ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾ الذي كنتم توعدون في الدنيا والفاء فصيحة كأنه قيل: إن كنتم منكرين البعث فهذا يومه أي فنخبركم أنه قد تبين بطلان إنكاركم وجوز أن تكون عاطفة والتعقب ذكرى أو تعليلة ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنه حق لتفريطكم في النظر فتستعجلون به استهزاء، وقيل: لا تعلمون البعث ولا تتعرفون به فلذا صار مصيركم إلى النار.

وقرأ الحسن «البَعَث» بفتح العين فيهما، وقرىء بكسرهما وهو اسم والمفتوح مصدر، وفي الآية من الدلالة على فضل العلماء ما لا يخفى ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي إذ يقع ذلك من أقسام الكفار وقول أولي العلم لهم ﴿لَا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أي عذرهم.

وقرأ الأكثر «تنفع» بالتاء محافظة على ظاهر الأمر للفظ وإن توسط بينهما فاصل ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ الاستيعاب طلب العتبى وهي الاسم من الإعتاب بمعنى إزالة العتب كالعطاء والاستعطاء أي لا يطلب منهم إزالة عتب الله تعالى، والمراد به غضبه سبحانه عليهم بالتوبة والطاعة فإنه قد حق عليهم العذاب وإن شئت قلت: أي لا يقال ارضوا ربكم بتوبة وطاعة كما كان يقال لهم ذلك في الدنيا، وقيل: أي لا يستقيلون فيستقالون بردهم إلى الدنيا.

وقال ابن عطية: هذا إخبار عن هول يوم القيامة وشدة أحواله على الكفرة بأنهم لا ينفعهم الاعتذار ولا يعطون عتبى وهي الرضا ﴿يستعتبون﴾ بمعنى يعتبون كما تقول يملك ويستملك والباب في استفعل أنه طلب الشيء وليس هذا منه لأن المعنى يفسد إذ كان المفهوم منه ولا يطلب منهم عتبى انتهى، فجعل استفعل بمعنى فعل.

وحاصل المعنى عليه على ما في البحر هم من الإهمال وعدم الالتفات إليهم بمنزلة من لا يؤهل للعتب، وقيل: المعنى عليه هم لا يعاتبون على سيئاتهم بل يعاقبون، وما ذكرناه أولاً هو الذي ينبغي أن يعول عليه، وياليت شعري أين ما ادعاه ابن عطية من الفساد إذا كان المفهوم منه لا يطلب منهم عتبى على ما سمعت.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي وبالله تعالى لقد وصفنا للناس من كل صفة كأنها مثل في غرابتها وقصصنا عليهم كل صفة عجيبة الشأن كصفة المبعوثين يوم القيامة وما يقولون وما يقال لهم وما لا ينفع من اعتذارهم ولا يسمع من استعتابهم، فضرب المثل اتخاذه وصنعه من ضرب الخاتم واللبن.

والمثل مجاز عن الصفة الغريبة، والمراد بهذا القرآن إما هذه السورة الجليلة الشأن أو المجموع وهو الظاهر، و ﴿مِن﴾ تبعيضيه وجوزت الزيادة وقيل: المعنى وبالله تعالى لقد بينا للناس من كل مثل ينبؤهم عن التوحيد والبعث وصدق الرسول عليه الصلاة والسلام، فضرب بمعنى بين والمثل على أصله، وقيل: بمعنى الدليل العجيب والقرآن بمعنى المجموع ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ﴾ أي مع ضربنا لهم من كل مثل في هذا القرآن الجليل الشأن لئن جئتهم بآية من آياته ﴿لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لفرط عتوهم وعنادهم وقساوة قلوبهم مخاطبين لك وللمؤمنين ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أي مزورون، وجوز حمل الآية على المعجزة أي لئن جئتهم بمعجزة من المعجزات التي اقترحوها ليقولن الذين كفروا الخ، والاتيان بالموصول دون الضمير لبيان السبب الحامل على القول المذكور، وإذا أريد بالناس ما يعم الكفرة غيرهم فوجه الإظهار ظاهر، وتوحيد الخطاب في ﴿جئتهم﴾ على ما يقتضيه الظاهر، وأما جمعه في قولهم: ﴿إن أنتم﴾ فلئلا يبقى بزعمهم له عليه الصلاة والسلام شاهد من المؤمنين حيث جعلوا الكل مدعين، وقال الإمام: في توحيد الخطاب في ﴿جئتهم﴾ وجمعه في ﴿أنتم﴾ لطيفة وهي أن الله تعالى قال: إن جئتهم بكل آية جاءت بها الرسل عليهم السلام ويمكن أن يجاء بها يقولوا: أنتم كلكم أيها المدعون للرسالة مبطلون انتهى، ولا يخفى أن ما ذكرناه أحسن وألطف ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الطبع الفظيع، وجوز أن يكون المعنى مثل ذلك القول ﴿يَطْبَعُ﴾ أي يختم ﴿اللَّهُ﴾ الذي

جلت عظمته وعظمت وقدرته ﴿**عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾ أي لا يطلبون العلم ولا يتحرون الحق بل يصرون على خرافات اعتقدوها وترهات ابتدعوها، فإن الجهل المركب يمنع إدراك الحق ويوجب تكذيب المحق، ومن هنا قالوا: هو شر من الجهل البسيط، وما ألطف ما قيل:

قال حمار الحكيم توما … لو أنصفوني لكنت أركب
لأنني جاهل بسيط … وصاحبي جاهل مركب

وإطلاق العلم على الطلب مجاز لما أنه لازم له عادة، وقيل: المعنى يطبع الله تعالى على قلوب الذين ليسوا من أولي العلم، وليس بذاك، والمراد من ﴿**الذين لا يعلمون**﴾ يحتمل أن يكون الذين كفروا فيكون قد وضع الموصول موضع ضميرهم بما في حيز الصلة، ويحتمل أن يكون عاماً ويدخل فيه أولئك دخولاً أولياً.

وظاهر كلام بعض الأجلة يميل إلى الاحتمال الأول، وقد تقدم الكلام في طبعه وختمه عزَّ وجلَّ على القلب.

﴿**فَاصْبِرْ**﴾ أي إذا علمت حالهم وطبع الله تعالى على قلوبهم فاصبر على مكارههم من الأقوال الباطلة والأفعال السيئة ﴿**إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ**﴾ وقد وعدك عزَّ وجلَّ بالنصرة وإظهار الدين وإعلاء كلمة الحق ولا بد من إنجازه والوفاء به لا محالة ﴿**وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ**﴾ لا يحملنك على الخفة والقلق ﴿**الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ**﴾ بما تتلو عليهم من الآيات البينة بتكذيبهم إياها وإيذائهم لك بأباطيلهم التي من جملتها قولهم: ﴿**إن أنتم إلا مبطلون**﴾ فإنهم شاكون ضالون ولا يستبدع أمثال ذلك منهم، وقيل: أي لا يوقنون بأن وعد الله حق وهو كما ترى، والحمل وإن كان لغيره صلى الله تعالى عليه وسلم لكن النهي راجع إليه عليه الصلاة والسلام فهو من باب لا أرينك ها هنا وقد مرَّ تحقيقه فكأنه قيل: لا تخف لهم جزعاً، وفي الآية من إرشاده تعالى لنبيه صلى الله تعالى عليه وسلم وتعليمه سبحانه له كيف يتلقى المكاره بصدر رحيب ما لا يخفى.

وقرأ ابن أبي إسحاق ويعقوب «ولا يستحقنك» بحاء مهملة وقاف من الاستحقاق، والمعنى لا يفتننك الذين لا يوقنون ويكونوا أحق بك من المؤمنين على أنه مجاز عن ذلك لأن من فتن أحداً استماله إليه حتى يكون أحق به من غيره، والنهي على هذه القراءة راجع إلى أمته عليه الصلاة والسلام دونه صلى الله تعالى عليه وسلم لمكان العصمة، وقد تقدّم نظائر ذلك وما للعلماء من الكلام فيها.

وقرأ الجمهور بتشديد النون وخففها ابن أبي عبلة، ويعقوب، ومن لطيف ما يروى ما أخرجه ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، والبيهقي في سننه عن علي كرّم الله تعالى وجهه أن رجلاً من الخوارج ناداه وهو في صلاة الفجر فقال: ﴿**ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين**﴾ فأجابه كرّم الله تعالى وجهه وهو في الصلاة ﴿**فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون**﴾ ولا بدع في هذا الجواب من باب مدينة العلم وأخي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هذا.

ومن باب الإشارة في الآيات ﴿**الم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون**﴾ إلى آخره، قيل: الألف إشارة إلى إلفة طبع المؤمنين واللام إلى لؤم طبع الكافرين والميم إلى مغفرة رب العالمين جلَّ شأنه، والروم إشارة إلى القلب، وفارس المشار إليهم بالضمير النائب عن الفاعل إشارة إلى النفس، والمؤمنون إشارة إلى الروح والسر والعقل، ففي الآية إشارة إلى أن حال أهل الطلب يتغير بتغير الأوقات فيغلب فارس النفس روم القلب تارة ويغلب روم القلب فارس النفس بتأييد الله تعالى ونصره سبحانه تارة أخرى وذلك في بضع سنين أيام الطلب ويومئذ يفرح المؤمنون

الروح والسر والعقل، وعلى هذا المنهاج سلك النيسابوري: ﴿**يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا**﴾ فيه إشارة إلى حال المحجوبين ووقوفهم على ظواهر الأشياء، وما من شيء إلاَّ له ظاهر وهو ما تدركه الحواس الظاهرة منه، وباطن وهو ما يدركه العقل بإحدى طرق الإدراك من وجوه الحكمة فيه، ومنه ما هو وراء طور العقل وهو ما يحصل بواسطة الفيض الإلهي وتهذيب النفس أتم تهذيب وهو وإن لم يكن من مستنبطات العقل إلاَّ أن العقل يقبله، وليس معنى أنه ما وراء طور العقل أن العقل يحيله ولا يقبله كما يتوهم، ومما ذكرنا يعلم أن الباطن لا يجب أن يتوصل إليه بالظاهر بل قد يحصل لا بواسطته وذلك أعلى قدراً من حصوله بها، فقول من يقول: إنه لا يمكن الوصول إلى الباطن إلا بالعبور على الظاهر لا يخلو عن بحث ﴿**فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون**﴾ أي يسرون بالسماع في روضة الشهود وذلك غذاء أرواحهم ونعيمها، وأعلى أنواع السماع في هذه النشأة عند السادة الصوفية ما يكون من الحضرة الإلهية بالأرواح القدسية والأسماع الملكوتية، وهذه الأسماع لم يفارقها سماع ﴿ألست بربكم﴾ [الأعراف: ١٧٢] واشتهر عندهم السماع في سماع الأصوات الحسنة وسماع الأشياء المحركة لما غلب عليهم من الأحوال من الخوف والرجاء والحب والتعظيم وذلك كسماع القرآن والوعظ والدف والشبابة والأوتار والمزمار والحداء والنشيد وفي ذلك الممدوح والمذموم. وفي قواعد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام الكبرى تفصيل الكلام في ذلك على أتم وجه، وسنذكر إن شاء الله تعالى قريباً ما يتعلق بذلك والله تعالى هو الموفق للصواب ﴿**فسبحان الله حين تمسون**﴾ الخ فيه إشارة إلى أنه ينبغي استغراق الأوقات في تنزيه الله سبحانه والثناء عليه جلَّ وعلا بما هو سبحانه وتعالى أهله فإن ذلك روضة هذه النشأة، وفي الأثر أن حلق الذكر رياض الجنة ﴿**يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي**﴾ فيه إشارة إلى أن الفرع لا يلزم أن يكون كأصله:

إنما الورد من الشوك ولا ... ينبت النرجس إلاَّ من بصل

﴿**ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها**﴾ فيه إشارة إلى أن الاشتراك في الجنسية من أسباب الإلفة * إن الطيور على أشباهها تقع * ﴿**كل حزب بما لديهم فرحون**﴾ فيه إشارة إلى أنه عزَّ وجلَّ لم يكره أحداً ما هو عليه إن حقاً وإن باطلاً، وإنما وقع التعاشق بين النفوس بحسب استعدادها وما هي عليه فأعطى سبحانه جلت قدرته كل عاشق معشوقه الذي هام به قلب استعداده وصار حبه ملء فؤاده وهذا سرح الفرح، وما ألطف ما قال قيس بن ذريح:

تعلق روحي روحها قبل خلقنا ... ومن قبل ما كنا نطافاً وفي المهد

فزاد كما زدنا فأصبح نامياً ... وليس إذا متنا بمنفصم العقد

ولكنه باقٍ على كل حادث ... وزائرنا في ظلمة القبر واللحد

﴿**وإذا مس الناس**﴾ الآية فيها إشارة إلى أن طبيعة الإنسان ممزوجة من هداية الروح وإطاعتها ومن ضلال النفس وعصيانها، فالناس إذا أظلتهم المحنة ونالتهم الفتنة ومستهم البلية وانكسرت نفوسهم وسكنت دواعيها وتخصلت أرواحهم عن أسر ظلمة شهواتها رجعت أرواحهم إلى الحضرة ووافقتها النفوس على خلاف طباعها فدعوا ربهم منيبين إليه فإذا جاد سبحانه عليهم بكشف ما نالهم ونظر جلَّ وعلا باللطف فيما أصابهم عاد منهم من تمرد إلى عادته المذمومة وطبيعته الدنية المشؤومة ﴿**ظهر الفساد في البر والبحر**﴾ الخ في إشارة إلى أن الشرور ليست مرادة لذاتها بل هي كبط الجرح وقطع الأصبع التي فيها آكلة ﴿**فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون**﴾ فيه إشارة لأهل الوراثة المحمدية أهل الإرشاد بأن يصبروا على مكاره المنكرين المحجوبين الذين لا يوقنون بصدق

أحوالهم ولذا يستخفون بهم وينظرون إليهم بنظر الحقارة ويعيرونهم وينكرون عليهم فما يقولون ويفعلون، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من الموقنين وأن يحفظنا وأولادنا وإخواننا من الأمراض القلبية والقالبية بحرمة نبيه الأمين صلى الله تعالى وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

(٣١) سورة لقمان مكية
وآياتها أربع وثلاثون

إلا آيتين نزلتا بالمدينة وهما (ولو أن ما فى الأرض من شجرة) الآيتين وإلا آية نزلت بالمدينة وهى (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة) لأن الصلاة والزكاة نزلتا بالمدينة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الم ، تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾

وجه ارتباط أول هذه السورة بآخر ما قبلها هو أن الله تعالى لما قال (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل) إشارة إلى كونه معجزة وقال (ولئن جئتهم بآية) إشارة إلى أنهم يكفرون بالآيات بين ذلك بقوله (الم تلك آيات الكتاب الحكيم) ولم يؤمنوا بها ، وإلى هذا أشار بعد هذا بقوله (وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً) .

وقوله ﴿ هدى ورحمة للمحسنين ، الذين يقيمون الصلوة ويؤتون الزكوة وهم بالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾

فقوله (هدى) أى بياناً وفرقاناً ، وأما التفسير فمثل تفسير قوله تعالى (الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى) وكما قيل هناك إن المعنى بذلك هذا ، كذلك قيل بأن المراد بتلك هذه ، ويمكن أن يقال كما قلنا هناك إن تلك إشارة إلى الغائب معناها آيات القرآن آيات الكتاب الحكيم وعند إنزال هذه الآيات التى نزلت مع (الم تلك آيات الكتاب الحكيم) لم تكن جميع الآيات نزلت فقال تلك إشارة إلى الكل أى آيات القرآن تلك آيات ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال فى سورة البقرة (ذلك الكتاب) ولم يقل الحكيم ، وههنا قال (الحكيم) فلما زاد ذكر وصف الكتاب زاد ذكر أمر فى أحواله فقال (هدى ورحمة) وقال هناك

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾

(هدى للمتقين) فقوله (هدى) فى مقابلة قوله (الكتاب) وقوله (ورحمة) فى مقابلة قوله (الحكيم) ووصف الكتاب بالحكيم على معنى ذى الحكمة كقوله تعالى (فى عيشة راضية) أى ذات رضا .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال هناك (للمتقين) وقال ههنا (للمحسنين) لأنه لما ذكر أنه هدى ولم يذكر شيئاً آخر قال (للمتقين) أى يهتدى به من يتق الشرك والعناد والتعصب ، وينظر فيه من غير عناد ، ولما زاد ههنا رحمة قال (للمحسنين) أى المتقين الشرك والعناد الآتين بكلمة الإحسان فالمحسن هو الآتى بالإيمان والمتقى هو التارك للكفر ، كما قال تعالى (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) ومن جانب الكفر كان متقياً وله الجنة ، ومن أتى بحقيقة الإيمان كان محسناً وله الزيادة لقوله تعالى (للذين أحسنوا الحسنى) وزيادة ولأنه لما ذكر أنه رحمة قال (للمحسنين) لأن رحمة الله قريب من المحسنين .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال هناك (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة) وقال ههنا (الذين يقيمون الصلاة) ولم يقل يؤمنون لما بينا أن المتقى هو التارك للكفر ويلزمه أن يكون مؤمناً والمحسن هو الآتى بحق الإيمان ، ويلزمه أن لا يكون كافراً ، فلما كان المتقى دالا على المؤمن فى الالتزام صرح بالإيمان هناك تبييناً ولما كان المحسن دالا على الإيمان بالتنصيص لم يصرح بالايمان وقوله تعالى (الذين يقيمون الصلاة) قد ذكرنا ما فى الصلاة وإقامتها مراراً وما فى الزكاة والقيام بها ، وذكرنا فى تفسير الأنفال فى أوائلها أن الصلاة ترك التشبه بالسيد فإنها عبادة صورة وحقيقة والله تعالى تجب له العبادة ولا تجوز عليه العبادة ، وترك التشبه لازم على العبد أيضاً فى أمور فلا يجلس عند جلوسه ولا يتكئ عند اتكائه ، والزكاة تشبه بالسيد . فانها دفع حاجة الغير والله دافع الحاجات ، والتشبه لازم على العبد أيضاً فى أمور ، كما أن عبد العالم لا يتلبس بلباس الأجناد ، وعبد الجندى لا يتلبس بلباس الزهاد ، وبهما تتم العبودية .

قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين ﴾

لما بين أن القرآن كتاب حكيم يشتمل على آيات حكمية بين من حال الكفار أنهم يتركون ذلك ويشتغلون بغيره ، ثم إن فيه ما يبين سوء صنيعهم من وجوه (الأول) أن ترك الحكمة والاشتغال بحديث آخر قبيح (الثانى) هو أن الحديث إذا كان لهواً لا فائدة فيه كان أقبح

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾

(الثالث) هو أن اللهو قد يقصد به الإحماض كما ينقل عن ابن عباس أنه قال أحمضوا ونقل عن النبي ﷺ أنه قال « روحوا القلوب ساعة فساعة » رواه الديلمي عن أنس مرفوعا ويشهد له مافي مسلم « ياحنظلة ساعة وساعة » والعوام يفهمون منه الأمر بما يجوز من المطايبة ، والخواص يقولون هو أمر بالنظر إلى جانب الحق فان الترويح به لا بغير فلما لم يكن قصدهم إلا الإضلال لقوله (ليضل عن سبيل الله) كان فعله أدخل في القبح .

ثم قال تعالى (بغير علم) عائد إلى الشراء أي يشتري بغير علم ويتخذها أي (يتخذ السبيل هزواً أولئك لهم عذاب مهين) قوله (مهين) إشارة إلى أمر يفهم منه الدوام ، وذلك لأن الملك إذا أمر بتعذيب عبد من عبيده ، فالجلاد إن علم أنه ممن يعود إلى خدمة الملك ولا يتركه الملك في الحبس يكرمه ويخفف من تعذيبه ، وإن علم أنه لا يعود إلى ما كان عليه وأمره قد انقضى ، فانه لا يكرمه . فقوله (عذاب مهين) إشارة إلى هذا وبه يفرق بين عذاب المؤمن وعذاب الكافر ، فان عذاب المؤمن ليطهر فهو غير مهين .

قوله تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً ، فبشره بعذاب أليم ﴾ .

أي يشتري الحديث الباطل ، والحق الصراح يأتيه مجاناً يعرض عنه ، وإذا نظرت فيه فهمت حسن هذا الكلام من حيث إن المشتري يطلب المشترى مع أنه يطلبه ببذل الثمن ، ومن يأتيه الشيء لا يطلبه ولا يبذل شيئاً ، ثم إن الواجب أن يطلب العاقل الحكمة بأي شيء يجده ويشتريها ، وهم ما كانوا يطلبونها ، وإذا جاءتهم مجاناً ما كانوا يسمعونها ، ثم إن فيه أيضاً مراتب (الأولى) التولية عن الحكمة وهو قبيح (والثاني) الاستكبار ، ومن يشتري حكاية رستم وبهرام ويحتاج إليها كيف يكون مستغنياً عن الحكمة حتى يستكبر عنها ؟ وإنما يستكبر الشخص عن الكلام وإذا كان يقول أنا أقول مثله ، فمن لا يقدر يصنع مثل تلك الحكايات الباطلة كيف يستكبر على الحكمة البالغة التي من عند الله ؟ (الثالث) قوله تعالى (كأن لم يسمعها) شغل المتكبر الذي لا يلتفت إلى الكلام ويجعل نفسه كأنها غافلة (الرابع) قوله (كأن في أذنيه وقراً) أدخل في الإعراض . ثم قال تعالى (فبشره بعذاب أليم) أي له عذاب مهين فبشره أنت به وأوعده ، أو يقال إذا كان حاله هذا (فبشره بعذاب أليم) .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ

قوله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم ، خالدين فيها وعد الله حقاً وهو العزيز الحكيم ﴾ .

لما بين حال من إذا تتلى عليه الآيات ولى ، بين حال من يقبل على تلك الآيات ويقبلها وكما أن ذلك له مراتب من التولية والاستكبار ، فهذا له مراتب من الاقبال والقبول والعمل به ، فان من سمع شيئاً وقبله قد لا يعمل به فلا تكون درجته مثل من يسمع ويطيع ثم إن هذا له جنات النعيم ولذلك عذاب مهين وفيه لطائف : (إحداها) توحيد العذاب وجمع الجنات إشارة إلى أن الرحمة واسعة أكثر من الغضب (الثانية) تنكير العذاب وتعريف الجنة بالإضافة إلى المعرف إشارة إلى أن الرحيم يبين النعمة ويعرفها إيصالا للراحة إلى القلب ، ولا يبين النقمة ، وإنما ينبه عليها تنبيهاً (الثالثة) قال عذاب ، ولم يصرح بأنهم فيه خالدون ، وإنما أشار إلى الخلود بقوله (مهين) وصرح فى الثواب بالخلود بقوله (خالدين فيها) ، (الرابعة) أكد ذلك بقوله (وعد الله حقاً) ولم يذكره هناك (الخامسة) قال هناك لغيره (فبشره بعذاب) وقال ههنا بنفسه (وعد الله) ، ثم لم يقل أبشركم به لأن البشارة لا تكون إلا بأعظم ما يكون ، لكن الجنة دون ما يكون للصالحين بشارة من الله ، وإنما تكون بشارتهم منه برحمته ورضوانه كما قال تعالى (يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم) ولولا قوله (منه) لما عظمت البشارة ، ولو كانت (منه) مقرونة بأمر دون الجنة لكان ذلك فوق الجنة من غير إضافة ، فان قيل فقد بشر بنفس الجنة بقوله (وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون) نقول البشارة هناك لم تكن بالجنة وحدها ، بل بها وبما ذكر بعدها إلى قوله تعالى (نزلا من غفور رحيم) والنزل ما يهيأ عند النزول والاكرام العظيم بعده وهو (العزيز الحكيم) كامل القدرة يعذب المعرض ويثيب المقبل ، كامل العلم يفعل الأفعال كما ينبغى ، فلا يعذب من يؤمن ولا يثيب من يكفر .

ثم قال تعالى : ﴿ خلق السموات بغير عمد ترونها ﴾ .

بين عزته وحكمته بقوله (خلق السموات بغير عمد) اختلف قول العلماء فى السموات فمنهم من قال إنها مبسوطة كصفيحة مستوية ، وهو قول أكثر المفسرين ومنهم من قال إنها مستديرة وهو قول جميع المهندسين ، والغزالى رحمه الله قال نحن نوافقهم فى ذلك فان لهم عليها دليلا من المحسوسات ومخالفة الحس لا تجوز ، وإن كان فى الباب خبر نؤوله بما يحتمله ، فضلا من أن ليس فى القرآن والخبر ما يدل على ذلك صريحاً ، بل فيه ما يدل على الاستدارة كما قال تعالى (كل فى فلك

رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾

يسبحون) والفلك اسم لشيء مستدير ، بل الواجب أن يقال بأن السموات سواء كانت مستديرة أو مصفحة فهي مخلوقة بقدرة الله لا موجودة بإيجاب وطبع ، وإذا علم هذا فنقول السماء فى مكان وهو فضاء والفضاء لا نهاية له وكون السماء فى بعضه دون بعض ليس إلا بقدرة مختارة وإليه الإشارة بقوله (بغير عمد) أى ليس على شيء يمنعها الزوال من موضعها وهى لاتزول إلا بقدرة الله تعالى وقال بعضهم المعنى أن السموات بأسرها وبمجموعها لامكان لها لأن المكان ما يعتمد عليه ما فيه فيكون متمكناً والحيز ما يشار إلى ما فيه بسببه يقال ههنا ، وهناك وعلى هذا قالوا إن من يقع من شاهق جبل فهو فى الهواء فى حيز إذ يقال له هوههنا وهناك ، وليس فى مكان إذ لا يعتمد على شيء ، فاذا حصل على الأرض حصل فى مكان ، إذا علم هذا فالسموات ليست فى مكان تعتمد عليه فلا عمد لها وقوله (ترونها) فيه وجهان : (أحدهما) أنه راجع إلى السموات أى ليست هى بعمد وأنتم ترونها كذلك بغير عمد (والثانى) أنه راجع إلى العمد أى بغير عمد مرئية ، وإن كان هناك عمد غير مرئية فهى قدرة الله وإرادته .

ثم قال تعالى : ﴿ وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم ﴾ .

أى جبالا راسية ثابتة (أن تميد) أى كراهية أن تميد وقيل المعنى أن لاتميد ، واعلم أن الأرض ثباتها بسبب ثقلها ، وإلا كانت تزول عن موضعها بسبب المياه والرياح ، ولو خلقها مثل الرمل لما كانت تثبت للزراعة كما نرى الأراضى الرملة ينتقل الرمل الذى فيها من موضع إلى موضع ، ثم قال تعالى (وبث فيها من كل دابة) أى سكون الأرض فيه مصلحة حركة الدواب فاسكنا الأرض وحركنا الدواب ولو كانت الأرض متزلزلة وبعض الأراضى يناسب بعض الحيونات لكانت الدابة التى لاتعيش فى موضع تقع فى ذلك الموضع فيكون فيه هلاك الدواب ، أما إذا كانت الأرض ساكنة والحيوانات متحركة تتحرك فى المواضع التى تناسبها وترعى فيها وتعيش فيها ، ثم قال تعالى (وأنزلنا من السماء ماء) هذه نعمة أخرى أنعمها الله على عباده ، وتمامها بسكون الأرض لأن البذر إذا لم يثبت إلى أن ينبت لم يكن يحصل الزرع ولو كانت أجزاء الأرض متحركة كالرمل لما حصل الثبات ولما كمل النبات ، والعدول من المغايبة إلى النفس فيه فصاحة وحكمة ، أما الفصاحة فمذكورة فى باب الالتفات من أن السامع إذا سمع كلاماً طويلا من نمط واحد ، ثم ورد عليه نمط آخر يستطيبه ألا ترى أنك إذا قلت قال زيد كذا وكذا ، وقال خالد كذا وكذا ، وقال عمرو كذا . ثم إن

هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾

بكراً قال قولا حسناً يستطاب لما قد تكرر القول مراراً . وأما الحكمة فمن وجهين (أحدهما) أن خلق الأرض ثقيل ، والسماء فى غير مكان قد يقع لجاهل أنه بالطبع ، وبث الدواب يقع لبعضهم أنه باختيار الدابة ، لأن لها اختيار ، فنقول الأول طبيعي والآخر اختياري للحيوان ، ولكن لا يشك أحد فى أن الماء فى الهواء من جهة فوق ليس طبعاً فان الماء لا يكون بطبعه فوق ولا اختياراً ، إذ الماء لا اختيار له فهو بارادة الله تعالى ، فقال (وأنزلنا من السماء) (الثانى) هو أن إنزال الماء نعمة ظاهرة متكررة فى كل زمان ، متكثرة فى كل مكان ، فأسنده إلى نفسه صريحاً ليتنبه الإنسان لشكر نعمته فيزيد له من رحمته ، وقوله تعالى (فأنبتنا فيها من كل زوج) أى من كل جنس ، وكل جنس فتحته زوجان ، لأن النبات إما أن يكون شجراً ، وإما أن يكون غير شجر ، والذى هو الشجر إما أن يكون مثمراً ، وإما أن يكون غير مثمر ، والمثمر كذلك ينقسم قسمين ، وقوله تعالى (كريم) أى ذى كرم ، لأنه يأتى كثيراً من غير حساب أو مكرم مثل بغيض للمبغض .

قوله تعالى : ﴿ هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه ، بل الظالمون فى ضلال مبين ﴾

قوله تعالى : ﴿ هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه ﴾ يعنى الله خالق وغيره ليس بخالق فكيف تتركون عبادة الخالق وتشتغلون بعبادة المخلوق .

ثم قال تعالى (بل الظالمون فى ضلال مبين) أى بين أو مبين للعاقل أنه ضلال ، وهذا لأن ترك الطريق والحيد عنه ضلال ، ثم إن كان الحيد يمنة أو يسرة فهو لا يبعد عن الطريق المستقيم مثل ما يكون المقصد إلى وراء فانه يكون غاية الضلال ، فالمقصد هو الله تعالى ، فمن يطلبه ويلتفت إلى غيره من الدنيا وغيرها فهو ضال ، لكن من وجهه إلى الله قد يصل إلى المقصود ولكن بعد تعب وطول مدة ، ومن يطلبه ولا يلتفت إلى ماسواه يكون كالذى على الطريق المستقيم يصل عن قريب من غير تعب . وأما الذى تولى لا يصل إلى المقصود أصلا ، وإن دام فى السفر ، والمراد بالظالمين المشركون الواضعون لعبادتهم فى غير موضعها أو الواضعون أنفسهم فى عبادة غير الله .

ثم قال تعالى : ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان الله غنى حميد ﴾

قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله) لما بين الله فساد اعتقادهم بسبب عنادهم

ياشراك من لا يخلق شيئاً بمن خلق كل شيء بقوله (هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه﴾ وبين أن المشرك ظالم ضال ، ذكر ما يدل على أن ضلالهم وظلمهم بمقتضى الحكمة وإن لم يكن هناك نبوة وهذا إشارة إلى معنى ، وهو أن اتباع النبى عليه السلام لازم فيما لا يعقل معناه إظهاراً للتعبد فكيف ما لا يختص بالنبوة ، بل يدرك بالعقل معناه وما جاء به النبى عليه السلام مدرك بالحكمة وذكر حكاية لقمان وأنه أدركه بالحكمه وقوله (ولقد آتينا لقمان الحكمة) عبارة عن توفيق العمل بالعلم ، فكل من أوتى توفيق العمل بالعلم فقد أوتى الحكمة ، وإن أردنا تحديدها بما يدخل فيه حكمة الله تعالى ، فنقول حصول العمل على وفق المعلوم ، والذى يدل على ماذكرنا أن من تعلم شيئاً ولا يعلم مصالحه ومفاسده لا يسمى حكيما وإنما يكون مبخوتاً ، ألا ترى أن من يلقى نفسه من مكان عال ووقع على موضع فانخسف به وظهر له كنز وسلم لا يقال إنه حكيم ، وإن ظهر لفعله مصلحة وخلوعن مفسدة ، لعدم علمه به أولا ، ومن يعلم أن الإلقاء فيه إهلاك النفس ويلقى نفسه من ذلك المكان وتنكسر أعضاؤه لا يقال إنه حكيم وإن علم ما يكون فى فعله . ثم الذى يدل على ماذكرنا قوله تعالى (أن اشكر لله) فان أن فى مثل هذا تسمى المفسرة ففسر الله إيتاء الحكمة بقوله (أن اشكر لله) وهو كذلك ، لأن من جملة ما يقال إن العمل موافق للعلم ، لأن الإنسان إذا علم أمرين أحدهما أهم من الآخر ، فان اشتغل بالأهم كان عمله موافقاً لعلمه وكان حكمة ، وإن أهمل الأهم كان مخالفاً للعلم ولم يكن من الحكمة فى شيء ، لكن شكر الله أهم الأشياء فالحكمة أول ما تقتضى . ثم إن الله تعالى بين أن بالشكر لا ينتفع إلا الشاكر بقوله (ومن يشكر فانما يشكر لنفسه) وبين أن بالكفران لا يتضرر غير الكافر بقوله (ومن كفر فان الله غنى حميد) أى الله غير محتاج إلى شكر حتى يتضرر بكفران الكافر وهو فى نفسه محمود سواء شكره الناس أو لم يشكروه ، وفى الآية مسائل ولطائف (الأولى) فسر الله إيتاء الحكمة بالأمر بالشكر ، لكن الكافر والجاهل مأموران بالشكر فينبغى أن يكون قد أوتى الحكمة (والجواب) أن قوله تعالى (أن اشكر لله) أمر تكوين معناه آتيناه الحكمة بأن جعلناه من الشاكرين ، وفى الكافر الأمر بالشكر أمر تكليف .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال فى الشكر ومن يشكر بصيغة المستقبل ، وفى الكفران ومن كفر فان الله غنى ، وإن كان الشرط يجعل الماضى والمستقبل فى معنى واحد ، كقول القائل : من دخل دارى فهو حر ، ومن يدخل دارى فهو حر ، فنقول فيه إشارة إلى معنى وإرشاد إلى أمر ، وهو أن الشكر ينبغى أن يتكرر فى كل وقت لتكرر النعمة ، فمن شكر ينبغى أن يكرر ، والكفر ينبغى أن ينقطع فمن كفر ينبغى أن يترك الكفران ، ولأن الشكر من الشاكر لا يقع بكماله ، بل أبداً يكون منه شيء فى العدم يريد الشاكر إدخاله فى الوجود ، كما قال (رب أوزعنى أن أشكر نعمتك) وكما قال تعالى (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) فأشار إليه بصيغة المستقبل . تنبيهاً على أن الشكر بكماله لم يوجد . وأما الكفران فكل جزء يقع منه تام ، فقال بصيغة الماضى .

وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال تعالى هنا (ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه) ومن كفر بتقديم الشكر على الكفران ، وقال فى سورة الروم (ومن كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون) فنقول هناك كان الذكر للترهيب لقوله تعالى من قبل (فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله يومئذ يصدعون) وههنا الذكر للترغيب ، لأن وعظ الأب للابن يكون بطريق اللطف والوعد ، وقوله (ومن عمل صالحاً) يحقق ما ذكرنا أولا ، لأن المذكور فى سورة الروم لما كان بعد اليوم الذى لامرد له تكون الأعمال قد سبقت فقال بلفظ الماضى ومن عمل ، وههنا لما كان المذكور فى الابتداء قال ومن يشكر بلفظ المستقبل وقوله (ومن كفر فان الله غنى) عن حمد الحامدين ، حميد فى ذاته من غير حمدهم ، وإنما الحامد ترتفع مرتبته بكونه حامداً لله تعالى .

ثم قال تعالى : ﴿ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ﴾

عطف على معنى ما سبق وتقديره آتينا لقمان الحكمة حين جعلناه شاكراً فى نفسه وحين جعلناه واعظاً لغيره وهذا لأن علو مرتبة الانسان بأن يكون كاملا فى نفسه ومكملا لغيره فقوله (أن اشكر) إشارة إلى الكمال وقوله (وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه) إشارة إلى التكميل ، وفى هذا لطيفة وهى أن الله ذكر لقمان وشكر سعيه حيث أرشد ابنه ليعلم منه فضيلة النبى عليه السلام الذى أرشد الأجانب والأقارب فان إرشاد الولد أمر معتاد ، وأما تحمل المشقة فى تعليم الأباعد فلا ، ثم إنه فى الوعظ بدأ بالأهم وهو المنع من الإشراك وقال (إن الشرك لظلم عظيم) أما أنه ظلم فلأنه وضع للنفس الشريف المكرم بقوله تعالى (ولقد كرمنا بنى آدم) فى عبادة الخسيس أولأنه وضع العبادة فى غير موضعها وهى غير وجه الله وسبيله ، وأما أنه عظيم فلأنه وضع فى موضع ليس موضعه ، ولا يجوز أن يكون موضعه ، وهذا لأن من يأخذ مال زيد ويعطى عمراً يكون ظلماً من حيث إنه وضع مال زيد فى يد عمرو ، ولكن جائز أن يكون ذلك ملك عمرو أو يصير ملكه ببيع سابق أو بتمليك لاحق . وأما الإشراك فوضع المعبودية فى غير الله تعالى ولا يجوز أن يكون غيره معبوداً أصلا .

ثم قال تعالى : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير ﴾

لما منعه من العبادة لغير الله والخدمة قريبة منها فى الصورة بين أنها غير ممتنعة ، بل هى واجبة

وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾

لغير الله فى بعض الصور مثل خدمة الأبوين ، ثم بين السبب فقال (حملته أمه) يعنى لله على العبيد نعمة الإيجاد ابتداء بالخلق ونعمة الابقاء بالرزق وجعل بفضله للأم ماله صورة ذلك وإن لم يكن لها حقيقة فان الحمل به يظهر الوجود ، وبالرضاع يحصل التربية والبقاء فقال حملته أمه أى صارت بقدرة الله سبب وجوده . وفصاله فى عامين ، أى صارت بقدرته أيضاً سبب بقائه ، فاذا كان منها ماله صورة الوجود والبقاء وجب عليه ماله شبه العبادة من الخدمة ، فان الخدمة لها صورة العبادة ، فان قال قائل وصى الله بالوالدين وذكر السبب فى حق الأم فنقول خص الأم بالذكر وفى الأب ماوجد فى الأم فان الأب حمله فى صلبه سنين ورباه بكسبه سنين فهو أبلغ وقوله (أن اشكرلى ولوالديك) لما كان الله تعالى بفضله جعل من الوالدين صورة ما من الله ، فان الوجود فى الحقيقة من الله وفى الصورة يظهر من الوالدين جعل الشكر بينهما فقال (أن اشكرلى ولوالديك) ثم بين الفرق وقال (إلى المصير) يعنى نعمتهما مختصة بالدنيا ونعمتى فى الدنيا والآخرة ، فان إلى المصير أو نقول لما أمر بالشكر لنفسه وللوالدين قال الجزاء على وقت المصير إلى .

ثم قال تعالى : ﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾

يعنى أن خدمتهما واجبة وطاعتهما لازمة ما لم يكن فيها ترك طاعة الله ، أما إذا أفضى إليه فلا تطعهما ، وقد ذكرنا تفسير الآية فى العنكبوت ، وقال ههنا (واتبع سبيل من أناب إلى) ، يعنى صاحبهما بجسمك فان حقهما على جسمك ، واتبع سبيل النبى عليه السلام بعقلك ، فانه مربى عقلك ، كما أن الوالد مربى جسمك .

ثم قال تعالى : ﴿ يابنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير ﴾

لما قال (فأنبئكم بما كنتم تعملون) وقع لابنه أن مايفعل فى خفية يخفى فقال (يا بنى إنها) أى الحسنة والسيئة إن كانت فى الصغر مثل حبة خردل وتكون مع ذلك الصغر فى موضع حريز كالصخرة لا تخفى على الله ، وفيه مسائل :

يَـٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (فتكن) بالفاء لإفادة الاجتماع يعنى إن كانت صغيرة ومع صغرها تكون خفية فى موضع حريز كالصخرة لاتخفى على الله لأن الفاء للاتصال بالتعقيب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لو قيل الصخرة لابد من أن تكون فى السموات أو فى الأرض فما الفائدة فى ذكرها ؟ ولأن القائل لو قال هذا رجل أو امرأة أو ابن عمرو لا يصح هذا الكلام لكون ابن عمرو داخلا فى أحد القسمين فكيف يفهم هذا ، فنقول الجواب عنه من أوجه (أحدها) ما قاله بعض المفسرين وهو أن المراد بالصخرة صخرة عليها الثور وهى لا فى الأرض ولا فى السماء (والثانى) ما قاله الزمخشرى وهو أن فيه إضماراً تقديره فتكن فى صخرة أو فى موضع آخر فى السموات أو فى الأرض (والثالث) أن نقول تقديم الخاص وتأخير العام فى مثل هذا التقسيم جائز وتقديم العام وتأخير الخاص غير جائز ، أما الثانى فلما بينتم أن من قال هذا فى دار زيد أو فى غيرها أو فى دار عمرو لا يصح لكون دار عمرو داخلة فى قوله أو فى غيرها ، وأما الأول فلأن قول القائل هذا فى دار زيد أو فى دار عمرو أو فى غيرها صحيح غير قبيح فكذلك ههنا قدم الأخص أو نقول خفاء الشىء يكون بطرق منها أن يكون فى غاية الصغر ومنها أن يكون بعيداً ، ومنها أن يكون فى ظلمة ، ومنها أن يكون من وراء حجاب ، فان انتفت الأمور بأسرها بأن يكون كبيراً قريباً فى ضوء من غير حجاب فلا يخفى فى العادة ، فأثبت الله الرؤية والعلم مع انتفاء الشرائط فقوله (إنها إن تك مثقال حبة) إشارة إلى الصغر وقوله (فتكن فى صخرة) اشارة إلى الحجاب وقوله (أو فى السموات) إشارة إلى البعد فإنها أبعد الأبعاد وقوله (أو فى الأرض) إشارة إلى الظلمات فإن جوف الأرض أظلم الأماكن وقوله (يأت بها الله) أبلغ من قول القائل يعلمها الله لأن من يظهر له الشىء ولا يقدر على إظهاره لغيره يكون حاله فى العلم دون حال من يظهر له الشىء ويظهره لغيره فقوله (يأت بها الله) أى يظهرها الله للأشهاد وقوله (إن الله لطيف) أى نافذ القدرة (خبير) أى عالم ببواطن الأمور .

قوله تعالى : ﴿ يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ﴾

لما منعه من الشرك وخوفه بعلم الله وقدرته أمره بما يلزمه من التوحيد وهو الصلاة وهى العبادة لوجه الله مخلصاً ، وبهذا يعلم أن الصلاة كانت فى سائر الملل غير أن هيئتها اختلفت .

ثم قال تعالى (وأمر بالمعروف وانه عن المنكر) أى إذا كملت أنت فى نفسك بعبادة الله فكمل

وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾

غيرك ، فان شغل الأنبياء وورثتهم من العلماء هو أن يكملوا فى أنفسهم ويكملوا غيرهم ، فان قال قائل كيف قدم فى وصيته لابنه الأمر بالمعروف على النهى عن المنكر ، وقبل قدم النهى عن المنكر على الأمر بالمعروف فانه أول ماقال (يابنى لا تشرك) ثم قال (يابنى أقم الصلاة)؟ فنقول هو كان يعلم من ابنه أنه معترف بوجود الله فما أمره بهذا المعروف ونهاه عن المنكر الذى يترتب على هذا المعروف ، فان المشرك بالله لايكون نافياً لله فى الاعتقاد وإن كان يلزمه نفيه بالدليل فكان كل معروف فى مقابلته منكر والمعروف فى معرفة الله اعتقاد وجوده والمنكر اعتقاد وجود غيره معه ، فلم يأمره بذلك المعروف لحصوله ونهاه عن المنكر لأنه ورد فى التفسير أن ابنه كان مشركا فوعظه ولم يزل يعظه حتى أسلم ، وأما ههنا فأمره أمراً مطلقاً والمعروف مقدم على المنكر ، ثم قال تعالى (واصبر على ما أصابك) يعنى أن من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يؤذى فأمره بالصبر عليه ، وقوله (إن ذلك من عزم الأمور) أى من الأمور الواجبة المعزومة أى المقطوعة ويكون المصدر بمعنى المفعول ، كما تقول أكلى فى النهار رغيف خبز أى مأكولى .

قوله تعالى : ﴿ ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا إن الله لايحب كل مختار فخور ﴾ .

لما أمره بأن يكون كاملا فى نفسه مكملا لغيره وكان يخشى بعدهما من أمرين (أحدهما) التكبر على الغير بسبب كونه مكملا له (والثانى) التبختر فى النفس بسبب كونه كاملا فى نفسه فقال (ولا تصعر خدك للناس) تكبراً (ولا تمش فى الأرض مرحا) تبختراً (إن الله لايحب كل مختال) يعنى من يكون به خيلاء وهو الذى يرى الناس عظمة نفسه وهو التكبر (فخور) يعنى من يكون مفتخراً بنفسه وهو الذى يرى عظمة لنفسه فى عينه ، وفى الآية لطيفة وهو أن الله تعالى قدم الكمال على التكميل حيث قال (أقم الصلاة) ثم قال (وأمر بالمعروف) وفى النهى قدم مايورثه التكميل على مايورثه الكمال حيث قال (ولا تصعر خدك) ثم قال (ولا تمش فى الأرض مرحا) لأن فى طرف الإثبات من لا يكون كاملا لايمكن أن يصير مكملا فقدم الكمال ، وفى طرف النفى من يكون متكبرا على غيره يكون متبختراً لأنه لايتكبر على الغير إلا عند اعتقاده أنه أكبر منه من وجه ، وأما من يكون متبخترا فى نفسه قد لايتكبر ، ويتوهم أنه يتواضع للناس فقدم نفى التكبر ثم نفى التبختر ، لأنه لو قد نفى التبختر للزم منه نفى التكبر فلا يحتاج إلى النهى عنه ، ومثاله أنه لايجوز أن يقال لاتفطر ولا تأكل ، لأن من لا يفطر لا يأكل ، ويجوز أن يقال لاتأكل

وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

ولا تفطر ، لأن من لا يأكل قد يفطر بغير الأكل ، ولقائل أن يقول أن مثل هذا الكلام يكون للتفسير فيقول لا تفطر ولا تأكل أى لا تفطر بأن تأكل ولا يكون نهيين بل واحداً .

قوله تعالى : ﴿واقصد فى مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾ لما قال (ولا تمش فى الأرض مرحا) وعدم ذلك قد يكون بضده وهو الذى يخالف غاية الاختلاف ، وهو مشى المتماوت الذى يرى من نفسه الضعف تزهداً فقال (واقصد فى مشيك) أى كن وسطاً بين الطرفين المذمومين ، وفى الآية مسائل :

﴿الأولى﴾ هل للأمر بالغض من الصوت مناسبة مع الأمر بالقصد فى المشى ؟ فنقول : نعم سواء علمناها نحن أو لم نعلمها ، وفى كلام الله من الفوائد مالا يحصره حد ، ولا يصيبه عد ، ولا يعلمه أحد والذى يظهر وجوه (الأول) هو أن الإنسان لما كان شريفاً تكون مطالبه شريفة فيكون فواتها خطراً فأقدر الله الإنسان على تحصيلها بالمشى ، فان عجز عن إدراك مقصوده ينادى مطلوبه فيقف له أو يأتيه مشياً إليه فإن عجزعن إبلاغ كلامه إليه ، وبعض الحيوانات يشارك الإنسان فى تحصيل المطلوب بالصوت كما أن الغنم تطلب السخلة والبقرة العجل والناقة الفصيل بالثغاء والخوار والرغاء ولكن لا تتعدى إلى غيرها ، والانسان يميز البعض عن البعض فاذا كان المشى والصوت مفضيين إلى مقصود واحد لما أرشده إلى أحدهما أرشده إلى الآخر (الثانى) هو أن الإنسان له ثلاثة أشياء عمل بالجوارح يشاركه فيه الحيوانات فانه حركة وسكون ، وقول باللسان ولا يشاركه فيه غيره وعزم بالقلب وهو لا اطلاع عليه إلا لله ، وقد أشار إليه بقوله (إنها إن تك مثقال حبة من خردل) أى أصلح ضميرك فان الله خبير ، بقى الأمران فقال (واقصد فى مشيك واغضض من صوتك) إشارة إلى التوسط فى الأفعال والأقوال (الثالث) هو أن لقمان أراد إرشاد ابنه إلى السداد فى الأوصاف الانسانية والأوصاف التى هى للملك الذى هو أعلى مرتبة منه ، والأوصاف التى للحيوان الذى هو أدنى مرتبة منه . فقوله (وأمر بالمعروف وانه عن المنكر) إشارة إلى المكارم المختصة بالانسان فان الملك لا يأمر ملكا آخر بشىء ولا ينهاه عن شىء . وقوله (ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا) الذى هو إشارة إلى عدم التكبر والتبختر إشارة إلى المكارم التى هى صفة الملائكة فان عدم التكبر والتبختر صفتهم . وقوله (واقصد فى مشيك واغضض من صوتك) إشارة إلى المكارم التى هى صفة الحيوان ثم قال تعالى (إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) وفيه مسائل :

أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾

﴿ الأولى ﴾ لم ذكر المانع من رفع الصوت ولم يذكر المانع من سرعة المشى ، نقول أما على قولنا إن المشى والصوت كلاهما موصلان إلى شخص مطلوب إن أدركه بالمشى إليه فذاك ، وإلا فيوقفه بالنداء ، فنقول رفع الصوت يؤذى السامع ويقرع الصماخ بقوة ، وربما يخرق الغشاء الذى داخل الأذن . وأما السرعة فى المشى فلا تؤذى أو إن كانت تؤذى فلا تؤذى غير من فى طريقه والصوت يبلغ من على اليمين واليسار ، ولأن المشى يؤذى آلة المشى . والصوت يؤذى آلة السمع وآلة السمع على باب القلب ، فان الكلام ينتقل من السمع إلى القلب ولا كذلك المشى ، وأما على قولنا الاشارة بالشىء والصوت إلى الأفعال والأقوال فلان القول قبيحه أقبح من قبيح الفعل وحسنه أحسن لأن اللسان ترجمان القلب والاعتبار يصحح الدعوى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ كيف يفهم كونه أنكر مع أن مس المنشار بالمبرد وحت النحاس بالحديد أشد تنفيراً ؟ نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن المراد أن أنكر أصوات الحيوانات صوت الحمير فلا يرد ماذكرتم وماذكرتم فى أكثر الأمر لمصلحة وعمارة فلا ينكر ، بخلاف صوت الحمير وهذا وهو الجواب (الثانى) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أنكر هو أفعل التفضيل فمن أى باب هو ؟ نقول يحتمل أن يكون من باب أطوع له من بنانه ، بمعنى أشدها طاعة فان أفعل لا يجىء فى مفعل ولا فى مفعول ولا فى باب العيوب إلا ماشذ ، كقولهم أطوع من كذا للتفضيل على المطيع ، وأشغل من ذات النحيين للتفضيل على المشغول ، وأحمق من فلان من باب العيوب ، وعلى هذا فهو فى باب أفعل كأشغل فى باب مفعول فيكون للتفضيل على المنكر ، أو نقول هو من باب أشغل مأخوذاً من نكر الشىء فهو منكر ، وهذا أنكر منه ، وعلى هذا فله معنى لطيف ، وهو أن كل حيوان قد يفهم من صوته بأنه يصيح من ثقل أو تعب كالبعير أو غير ذلك ، والحمار لو مات تحت الحمل لا يصيح ولو قتل لا يصيح ، وفى بعض أوقات عدم الحاجة يصيح وينهق فصوته منكور ، ويمكن أن يقال هو من نكير كأجدر من جدير .

قوله تعالى : ﴿ ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة ، وباطنة ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴾ .

لما استدل بقوله تعالى (خلق السموات بغير عمد) على الوحدانية ، وبين بحكاية لقمان أن

معرفة ذلك غير مختصة بالنبوة بل ذلك موافق للحكمة ، وما جاء به النبي عليه السلام من التوحيد والصلاة ومكارم الأخلاق كلها حكمة بالغة ، ولو كان تعبداً محضاً للزم قبوله ، فضلا عن أنه على وفق الحكمة ، استدل على الوحدانية بالنعمة لأنا بينا مراراً أن الملك يخدم لعظمته ، وإن لم ينعم ويخدم لنعمته أيضاً ، فلما بين أنه المعبود لعظمته بخلقه السموات بلا عمد وإلقائه فى الأرض الرواسى . وذكر بعض النعم بقوله (وأنزلنا من السماء ماء) ذكر بعده عامة النعم فقال (سخر لكم ما فى السموات) أى سخر لأجلكم ما فى السموات ، فإن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمر الله وفيها فوائد لعباده ، وسخر ما فى الأرض لأجل عباده ، وقوله (وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة) وهى مافى الأعضاء من السلامة (وباطنة) وهى مافى القوى فان العضو ظاهر وفيه قوة باطنة ، ألا ترى أن العين والأذن شحم وغضروف ظاهر ، واللسان والأنف لحم وعظم ظاهر ، وفى كل واحد معنى باطن من الابصار والسمع والذوق والشم ، وكذلك كل عضو ، وقد تبطل القوة ويبقى العضو قائماً ، وهذا أحسن مما قيل فإن على هذا الوجه يكون الاستدلال بنعمة الآفاق وبنعمة الأنفس فقوله (مافى السموات وما فى الأرض) يكون إشارة إلى النعم الآفاقية ، وقوله (وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) يكون إشارة إلى النعم الأنفسية ، وفيهما أقوال كثيرة مذكورة فى جميع كتب التفاسير ، ولا يبعد أن يكون ما ذكرناه مقولا منقولا ، وإن لم يكن فلا يخرج من أن يكون سائغاً معقولا .

ثم قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يجادل فى الله ﴾ يعنى لما ثبت الوحدانية بالخلق والإنعام فمن الناس من يجادل فى الله ويثبت غيره ، إما إلهاً أو منعماً (بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) هذه أمور ثلاثة مرتبة العلم والهدى والكتاب ، والعلم أعلى من الهدى والهدى من الكتاب ، وبيانه هو أن العلم تدخل فيه الأشياء الواضحة اللائحة التى تعلم من غير هداية هاد ، ثم الهدى يدخل فيه الذى يكون فى كتاب والذى يكون من إلهام ووحى ، فقال تعالى (يجادل) ذلك المجادل لا من علم واضح ، ولا من هدى أتاه من هاد ، ولا من كتاب وكأن الأول إشارة إلى من أوتى من لدنه علماً كما قال تعالى (وعلمك ما لم تكن تعلم) (والثانى) إشارة إلى مرتبة من هدى إلى صراط مستقيم بواسطة كما قال تعالى (علمه شديد القوى) (والثالث) إشارة إلى مرتبة من اهتدى بواسطتين ولهذا قال تعالى (الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين) وقال فى هذه السورة (هدى ورحمة للمحسنين) وقال فى السجدة (ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى إسرائيل) فالكتاب هدى لقوم النبي عليه السلام ، والنبي هداه من الله تعالى من غير واسطة أو بواسطة الروح الأمين ، فقال تعالى : يجادل من يجادل لابعلم آتيناه من لدنا كشفاً ، ولا بهدى أرسلناه إليه وحياً ، ولا بكتاب يتلى عليه وعظا . ثم فيه لطيفة أخرى وهو أنه تعالى قال فى الكتاب (ولا كتاب منير) لأن المجادل منه من كان يجادل من كتاب ولكنه محرف مثل التوراة بعد التحريف ، فلو قال

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾

ولا كتاب لكان لقائل أن يقول لا يجادل من غير كتاب ، فان بعض ما يقولون فهو فى كتابهم ولأن المجوس والنصارى يقولون بالتثنية والتثليث عن كتابهم ، فقال (ولا كتاب منير) فان ذلك الكتاب مظلم ، ولما لم يحتمل فى المرتبة الأولى والثانية التحريف والتبديل لم يقل بغير علم ولا هدى منير أو حق أو غير ذلك .

ثم قال تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير . ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور ﴾ .

قوله تعالى (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ماوجدنا عليه آباءنا) بين أن مجادلتهم مع كونها من غير علم فهى فى غاية القبح فان النبى عليه السلام يدعوهم إلى كلام الله ، وهم يأخذون بكلام آبائهم ، وبين كلام الله تعالى وكلام العلماء بون عظيم فكيف ما بين كلام الله وكلام الجهلاء . ثم إن ههنا شيئاً آخر وهو أنهم قالوا (بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا) يعنى نترك القول النازل من الله ونتبع الفعل ، والقول أدل من الفعل لأن الفعل يحتمل أن يكون جائزاً ، ويحتمل أن يكون حراماً ، وهم تعاطوه ، ويحتمل أن يكون واجباً فى اعتقادهم والقول بين الدلالة ، فلو سمعنا قول قائل افعل ورأينا فعله يدل على خلاف قوله ، لكان الواجب الأخذ بالقول . فكيف والقول من الله والفعل من الجهال ، ثم قال تعالى (أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير) استفهاماً على سبيل التعجب فى الإنكار يعنى الشيطان يدعوهم إلى العذاب والله يدعو إلى الثواب ، وهم مع هذا يتبعون الشيطان . ثم قال تعالى (ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى ، وإلى الله عاقبة الأمور) لما بين حال المشرك والمجادل فى الله بين حال المسلم المستسلم لأمر الله فقوله (ومن يسلم وجهه إلى الله) إشارة إلى الإيمان وقوله (وهو محسن) إشارة إلى العمل الصالح فتكون الآية فى معنى قوله تعالى (من آمن وعمل صالحاً) وقوله (فقد استمسك بالعروة الوثقى) أى تمسك بحبل لا انقطاع له وترقى بسببه إلى أعلى المقامات وفى الآية مسائل :

(الأولى) قال ههنا (ومن يسلم وجهه إلى الله) وقال فى سورة البقرة (بلى من أسلم وجهه لله) فعدى ههنا بإلى وهناك باللام ، قال الزمخشرى معنى قوله (أسلم لله) أى جعل نفسه لله سالماً أى خالصاً

وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾

والوجه بمعنى النفس والذات ، ومعنى قوله (يسلم وجهه إلى الله) يسلم نفسه إلى الله كما يسلم واحد متاعاً إلى غيره ولم يزد على هذا ، ويمكن أن يزاد عليه ويقال من أسلم لله أعلى درجة ممن يسلم إلى الله ، لأن إلى للغاية واللام للاختصاص ، يقول القائل أسلمت وجهى إليك أى توجهت نحوك وينبئ هذا عن عدم الوصول لأن التوجه إلى الشئ قبل الوصول وقوله (أسلمت وجهى لك) لك يفيد الاختصاص ولا ينبئ عن الغاية التى تدل على المسافة وقطعها للوصول ، إذا علم هذا فنقول فى البقرة قالت اليهود والنصارى (لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى) فقال الله رداً عليهم (تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم) ثم بين فساد قولهم بقوله تعالى (بلى من أسلم وجهه لله) أى أنتم مع أنكم تتركون الله للدنيا وتولون عنه للباطل وتشترون بآياته ثمناً قليلا تدخلون [النار] ومن كان بكليته لله لا يدخلها ، هذا كلام باطل فأورد عليهم من أسلم لله ولا شك أن النقض بالصورة التى هى الزم أولى فأورد عليهم المخلص الذى ليس له أمر إلا الله وقال أنتم تدخلون الجنة وهذا لا يدخلها ، ثم بين كذبهم وقال بلى وبين أن له فوق الجنة درجة وهى العندية بقوله (فله أجره عند ربه) وأما ههنا أراد وعد المحسن بالثواب والوصول إلى الدرجة العالية فوعد من هو دونه ليدخل فيه من هو فوقه بالطريق الأولى ويعم الوعد وهذا من الفوائد الجليلة . ثم قال تعالى (فقد استمسك بالعروة الوثقى) أوثق العرى جانب الله لأن كل ما عداه هالك منقطع وهو باق لا انقطاع له ، ثم قال تعالى (وإلى الله عاقبة الأمور) يعنى استمسك بعروة توصله إلى الله وكل شئ عاقبته إليه فاذا حصل فى الحال ما إليه عاقبته فى عاقبته فى غاية الحسن وذلك لأن من يعلم أن عاقبة الأمور إلى واحد ثم يقدم إليه الهدايا قبل الوصول إليه يجد فائدته عند القدوم عليه ، وإلى هذا وقعت الإشارة بقوله (وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله) .

قوله تعالى : ﴿ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور ونمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾

لما بين حال المسلم رجع إلى بيان حال الكافر فقال (ومن كفر فلا يحزنك) أى لا تحزن إذا كفر كافر فان من يكذب وهو قاطع بأن صدقه يتبين عن قريب لا يحزن ، بل قد يؤنب المكذب على الزيادة فى التكذيب إذا لم يكن من الهداة ويكون المكذب من العداة ليخجله غاية التخجيل ، وأما إذا كان لا يرجو ظهور صدقه يتألم من التكذيب ، فقال فلا يحزنك كفره ، فان المرجع إلى فأنبئهم بما عملوا فيخجلون وقوله (إن الله عليم بذات الصدور) أى لا يخفى عليه سرهم وعلانيتهم

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾

فينبئهم بما أضمرته صدورهم ، وذات الصدور هي المهلك ، ثم إن الله تعالى فصل ما ذكرنا وقال (نمتعهم قليلا) أي بقاؤهم مدة قليلة ثم بين لهم وبال تكذيبهم وكفرهم بقوله (ثم نضطرهم) أي نسلط عليهم أغلظ عذاب حتى يدخلوا بأنفسهم عذاباً غليظاً فيضطرون إلى عذاب النار فراراً من الملائكة الغلاظ الشداد الذين يعذبونهم بمقامع من نار، وفيه وجه آخر لطيف وهو أنهم لما كذبوا الرسل ثم تبين لهم الأمر وقع عليهم من الخجالة ما يدخلون النار ولا يختارون الوقوف بين يدى ربهم بمحضر الأنبياء ، وهو يتحقق بقوله تعالى (فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا) .

ثم قال تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾

الآية متعلقة بما قبلها من جهين (أحدهما) أنه تعالى لما استدل بخلق السموات بغير عمد وبنعمه الظاهرة والباطنة بين أنهم معترفون بذلك غير منكرين له وهذا يقتضى أن يكون الحمد كله لله ، لأن خالق السموات والأرض يحتاج إليه كل ما فى السموات والأرض ، وكون الحمد كله لله يقتضى أن لا يعبد غيره ، لكنهم لا يعلمون هذا (والثانى) أن الله تعالى لما سلى قلب النبى ﷺ بقوله (فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم) أى لا تحزن على تكذيبهم فان صدقك وكذبهم يتبين عن قريب عند رجوعهم إلينا ، قال وليس لا يتبين إلا ذلك اليوم بل هو يتبين قبل يوم القيامة لأنهم معترفون بأن خلق السموات والأرض من الله ، وهذا يصدقك فى دعوى الوحدانية ويبين كذبهم فى الاشراك (فقل الحمد لله) على ظهور صدقك وكذب مكذبيك (بل أكثرهم لا يعلمون) أى ليس لهم علم يمنعهم من تكذيبك مع اعترافهم بما يوجب تصديقك وعلى هذا يكون لا يعلمون استعمالا للفعل مع القطع عن المفعول بالكلية كما يقول القائل فلان يعطى ويمنع ولا يكون فى ضميره من يعطى بل يريد أن له عطاء ومنعاً فكذلك ههنا قال لا يعلمون أى ليس لهم علم وعلى الأول يكون لا يعلمون له مفعول مفهوم وهو أنهم لا يعلمون أن الحمد كله لله ، والثانى أبلغ لأن قول القائل : فلان لا علم له بكذا ، دون قوله فلان لا علم له ، وكذا قوله فلان : لا ينفع زيداً ولا يضره ، دون قوله : فلان لا يضر ولا ينفع .

ثم قال تعالى : ﴿ لله ما فى السموات والأرض إن الله هو الغنى الحميد ﴾

وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾

ذكر بما يلزم منه ، وهو أنه يكون له ما فيهما والأمر كذلك عقلا وشرعا ، أما عقلا فلأن مافى السموات المخلوقة مخلوق وإضافة خلقه إلى من منه خلق السموات والأرض لازم عقلا لأنها ممكنة ، والممكن لا يقع ولا يوجد إلا بواجب من غير واسطة كما هو مذهب أهل السنه أو بواسطة كما يقوله غيرهم ، وكيفما فرض فكله من الله لأن سبب السبب سبب ، وأما شرعاً فلأن من يملك أرضا وحصل منها شئ ما يكون ذلك لمالك الأرض فكذلك كل ما فى السموات والأرض حاصل فيهما ومنهما فهو لمالك السموات والأرض وإذا كان الأمر كذلك تحقق أن الحمد كله لله . ثم قوله تعالى (إن الله هو الغنى الحميد) فيه معان لطيفة (أحدها) أن الكل لله وهو غير محتاج إليه غير منتفع به وفيها منافع فهى لكم خلقها فهو غنى لعدم حاجته حميد مشكور لدفعه حوائجكم بها (وثانيها) أن بعد ذكر الدلائل على أن الحمد كله لله ولا تصلح العبادة إلا لله افترق المكلفون فريقين مؤمن وكافر ، والكافر لم يحمد الله والمؤمن حمده فقال إنه غنى عن حمد الحامدين فلا يلحقه نقص بسبب كفر الكافرين ، وحميد فى نفسه فيتبين به إصابة المؤمنين وتكمل بحمده الحامدون (وثالثها) هو أن السموات ومافيها والأرض ومافيها اذا كانت لله ومخلوقة له فالكل محتاجون فلا غنى إلا الله فهو الغنى المطلق وكل محتاج فهو حامد ، لاحتياجه الى من يدفع حاجته فلا يكون الحميد المطلق إلا الغنى المطلق فهو الحميد ، وعلى هذا [يكون] الحميد بمعنى المحمود ، والله إذا قيل له الحميد لا يكون معناه إلا الواصف ، أى وصف نفسه أو عباده بأوصاف حميدة ، والعبد إذا قيل له حامد يحتمل ذلك المعنى ، ويحتمل كونه عابداً شاكراً له .

ثم قال تعالى : ﴿ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم ، ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير﴾

لما قال تعالى (لله ما فى السموات والأرض) وكان ذلك موهماً لتناهى ملكه لانحصار ما فى السموات وما فى الأرض فيهما ، وحكم العقل الصريح بتناهيهما بين أن فى قدرته وعلمه عجائب لا نهاية لها فقال (ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام) ويكتب بها والأبحر مداد لا تفنى عجائب صنع الله ، وعلى هذا فالكلمة مفسرة بالعجيبة ، ووجهها أن العجائب بقوله كن وكن كلمة وإطلاق اسم السبب على المسبب جائز . يقول الشجاع لمن يبارزه أنا موتك ، ويقال للدواء فى حق المريض

هذا شفاؤك ، ودليل صحة هذا هو أن الله تعالى سمى المسيح كلمة لأنه كان أمراً عجيباً وصنعاً غريباً لوجوده من غير أب ، فإن قال قائل الآية واردة فى اليهود حيث قالوا الله ذكر كل شىء فى التوراة ولم يبق شىء لم يذكره ، فقال الذى فى التوراة بالنسبة إلى كلام الله تعالى ليس إلا قطرة من بحار وأنزل هذه الآية ، وقيل أيضاً إنها نزلت فى واحد قال للنبى عليه السلام إنك تقول(وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) وتقول (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً) فنزلت الآية دالة على أنه خير كثير بالنسبة إلى العباد ، وبالنسبة إلى الله وعلومه قليل ، وقيل أيضاً إنها نزلت رداً على الكفار حيث قالوا بأن مايورده محمد سينفد ، فقال إنه كلام الله وهو لاينفد . وما ذكر من أسباب النزول ينافى ماذكرتم من التفسير ، لأنها تدل على أن المراد الكلام ، فنقول ما ذكرتم من اختلاف الأقوال فيه يدل على جواز ما ذكرنا ، لأنه إذا صلح جواباً لهذه الأشياء التى ذكرتموها وهى متباينة علم أنها عامة وما ذكرنا لا ينافى هذا . لأن كلام الله عجيب معجز لا يقدر أحد على الإتيان بمثله ، وإذا قلنا بأن عجائب الله لا نهاية لها دخل فيها كلامه ، لا يقال إنك جعلت الكلام مخلوقاً ، لأنا نقول المخلوق هو الحروف والتركيب وهو عجيب ، وأما الكلمات فهى من صفات الله تعالى واعلم أن الآية وإن كانت نازلة على ترتيب غير الذىهو مكتوب ، ولكن الترتيب المكتوب عليه القرآن بأمر الله ، فإنه بأمر الرسول كتب كذلك ، وأمر الرسول من أمر الله وذلك محقق متيقن من سنن الترتيب الذى فيه ، ثم إن الآية فيها لطائف (الأولى) قال (ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام) وحد الشجرة وجمع الأقلام ولم يقل ولو أن ما فى الأرض من الأشجار أقلام ولا قال ولو أن ما فى الأرض من شجرة قلم إشارة إلى التكثير ، يعنى ولو أن بعدد كل شجرة أقلاماً (الثانية) قوله والبحر يمده تعريف البحر باللام لاستغراق الجنس وكل بحر مداد ، ثم قوله (يمده من بعده سبعة أبحر)إشارة إلى بحار غير موجودة ، يعنىلو مدت البحار الموجودة بسبعة أبحر أخر وقوله (سبعة) ليس لانحصارها فى سبعة ، وإنما الإشارة إلى المدد والكثرةولو بألف بحر، والسبعة خصصت بالذكرمن بين الأعداد ، لأنها عدد كثير يحصر المعدودات فى العادة ، والذى يدل عليه وجوه (الأول) هو أن ما هو معلوم عند كل أحد لحاجته إليه هو الزمان والمكان ، لأن المكان فيه الأجسام والزمان فيه الأفعال ، لكن المكان منحصر فى سبعة أقاليم والزمان فى سبعة أيام ، ولأن الكواكب السيارة سبعة ، وكان المنجمون ينسبون اليها أموراً ، فصارت السبعة كالعدد الحاصر للكثرات الواقعة فى العادة فاستعملت فى كل كثير (الثانى) هو أن الآحاد إلى العشرة وهى العقدالأول وما بعده يبتدىء من الآحاد مرة أخرى فيقال أحد عشر واثنا عشر ، ثم المئات من العشرات والألوف من المئات ، إذا علم هذا فنقول أقل ما يلتئم منه أكثر المعدودات هو الثلاثة ، لأنه يحتاج إلى طرفين مبدأ ومنتهى ووسط ، ولهذا يقال أقل ما يكون الإسم والفعل منه هو ثلاثة أحرف ، فاذا كانت الثلاثة هو القسم الأول من العشرة التى هو العدد الأصلى تبقى

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾

السبعة القسم الأكثر ، فاذا أريد بيان الكثرة ذكرت السبعة ، ولهذا فإن المعدودات فى العبادات من التسبيحات فى الانتقالات فى الصلوات ثلاثة ، والمرار فى الوضوء ثلاثة تيسيراً للأمر على المكلف اكتفاء بالقسم الأول ، إذا ثبت هذا فنقول قوله عليه السلام « المؤمن يأكل فى معى والكافر يأكل فى سبعة أمعاء » إشارة إلى قلة الأكل وكثرته من غير إرادة السبعة بخصوصها ، ويحتمل أن يقال إن لجهنم سبعة أبواب بهذا التفسير ، ثم على هذا فقولنا للجنة ثمانية أبواب إشارة إلى زيادتها فان فيها الحسنى وزيادة فلها أبواب كثيرة وزائدة على كثرة غيرها ، والذى يدل على ماذكرنا فى السبعة أن العرب عند الثامن يزيدون واواً ، يقول الفراء إنها واو الثمانية وليس ذلك إلا للاستئناف لأن العدد بالسبعة يتم فى العرف ، ثم بالثامن استئناف جديد (اللطيفة الثالثة) لم يقل فى الأقلام المدد لوجهين (أحدهما) هو أن قوله (ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام) بينا ان المراد منه هو أن يكون بعدد كل شجرة موجودة أقلام فتكون الأقلام أكثر من الأشجار الموجودة وقوله فى البحر (والبحر يمده سبعة أبحر) إشارة إلى أن البحر لو كان أكثر من الموجود لاستوى القلم والبحر فى المعنى (والثانى) هو أن النقصان بالكتابة يلحق المداد أكثر فانه هو النافد والقلم الواحد يمكن أن يكتب به كتب كثيرة فذكر المدد فى البحر الذى هو كالمداد .

ثم قال تعالى (إن الله عزيز حكيم) لما ذكر أن ملكوته كثيراً أشار إلى مايحقق ذلك فقال (إنه عزيز حكيم) أى كامل القدرة فيكون له مقدورات لانهاية لها وإلا لانتهت القدرة إلى حيث لاتصلح للايجاد وهو حكيم كامل العلم فى علمه ما لا نهاية له فتحقق أن البحر لو كان مداداً لما نفد مافى علمه وقدرته .

ثم قال تعالى (ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) لما بين كمال قدرته وعلمه ذكر مايبطل استبعادهم للحشر وقال (ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) ومن لا نفاد لكلماته يقول للموتى كونوا فيكونوا .

ثم قال تعالى (إن الله سميع بصير) سميع لما يقولون بصير بما يعملون فاذا كونه قادراً على البعث ومحيطاً بالأقوال والأفعال يوجب ذلك الاجتناب التام والاحتراز الكامل .

قوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير ﴾ .

يحتمل أن يقال : إن وجه الترتيب هو أن الله تعالى لما قال (ألم تر أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض) على وجه العموم ذكر منها بعض ماهو فيهما على وجه الخصوص بقوله (يولج الليل فى النهار) وقوله (وسخر الشمس والقمر) إشارة إلى مافى السموات . وقوله بعد هذا (ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله) إشارة إلى مافى الأرض . ويحتمل أن يقال إن وجهه هو أن الله تعالى لما ذكر البعث وكان من الناس من يقول (وما يهلكنا إلا الدهر) والدهر هو الليالى والأيام ، قال الله تعالى هذه الليالى والأيام التى تنسبون إليها الموت والحياة هى بقدرة الله تعالى فقال (ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) ثم إن قائلا لو قال إن ذلك اختلاف مسير الشمس تارة تكون القوس التى هى فوق الأرض أكثر من التى تحت الأرض فيكون الليل أقصر والنهار أطول وتارة تكون بالعكس وتارة يتساويان فيتساويان فقال تعالى (وسخر الشمس والقمر) يعنى إن كنتم لاتعترفون بأن هذه الأشياء كلها فى أوائلها من الله فلا بد من الاعتراف بأنها بأسرها عائدة إلى الله تعالى ، فالآجال إن كانت بالمدد والمدد بسير الكواكب فسير الكواكب ليس إلا بالله وقدرته ، وفى الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ إيلاج الليل فى النهار يحتمل وجهين (أحدهما) أن يقال المراد إيلاج الليل فى زمان النهار أى يجعل فى الزمان الذى كان فيه النهار الليل ، وذلك لأن الليل إذا كان مثلا اثنى عشرة ساعة ثم يطول يصير الليل موجودا فى زمان كان فيه النهار (وثانيهما) أن يقال المراد إيلاج زمان الليل فى النهار أى يجعل زمان الليل فى النهار وذلك لأن الليل إذا كان كما ذكرنا اثنى عشرة ساعة إذا قصر صار زمان الليل موجوداً فى النهار ولا يمكن غير هذا لأن إيلاج الليل فى النهار محال الوجود فما ذكرنا من الإضمار لابد منه لكن الأول أولى لأن الليل والنهار أفعال والأفعال فى الأزمنة لأن الزمان ظرف فقولنا الليل فى زمان النهار أقرب من قولنا زمان الليل فى النهار لأن الثانى يجعل الظرف مظروفاً . إذا ثبت هذا فنقول قوله تعالى (يولج الليل فى النهار) أى يوجده فى وقت كان فيه النهار والله تعالى قدم إيجاد الليل على إيجاد النهار فى كثير من المواضع كما فى قوله تعالى (وجعلنا الليل والنهار آيتين) وقوله (وجعل الظلمات والنور) وقوله (واختلاف الليل والنهار) ومن جنسه قوله (خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا) وهذا إشارة إلى مسألة حكمية ، وهى أن الظلمة قد يظن بها أنها عدم النور والليل عدم النور والليل عدم النهار والحياة عدم الموت وليس كذلك إذ فى الأزل لم يكن نهار ولا نور ولا حياة لممكن ولا يمكن أن يقال كان فيه موت أو ظلمة أو ليل فهذه الأمور كالأعمى والأصم فالعمى والصمم ليس بمجرد عدم البصر وعدم السمع إذ الحجر والشجر لابصر لهما ولا سمع ولا يقال لشىء منهما إنه أصم أو أعمى إذا علم هذا فنقول ما يتحقق فيه العمى والصمم لا بد من أن يكون فيه اقتضاء لخلافهما وإلا لما كان يقال له أعمى وأصم وما يكون فيه اقتضاء شىء ، ويترتب عليه مقتضاه

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾

لا تطلب النفس له سبباً ، لأن من يرى المتعيش فى السوق ، لا يقول لم دخل السوق وما يثبت على خلاف المقتضى تطلب النفس له سبباً ، كمن يرى ملكا فى السوق يقول لم دخل ، فاذن سبب العمى والصمم يطلبه كل واحد فيقول لم صار فلان أعمى ولا يقول لم صار فلان بصيراً ، وإذا كان كذلك قدم الله تعالى ماتطلب النفس سببه وهو الليل الذى هو على وزان العمى والظلمة والموت لكون كل واحد طالباً سببه ثم ذكر بعده الأمر الآخر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال (يولج) بصيغة المستقبل وقال فى الشمس والقمر سخر بصيغة الماضى لأن إيلاج الليل فى النهار أمر يتجدد كل فصل بل كل يوم وتسخير الشمس والقمر أمر مستمر كما قال تعالى (حتى عاد كالعرجون القديم) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قدم الشمس على القمر مع تقدم الليل الذى فيه سلطان القمر على النهار الذى فيه سلطان الشمس لما بينا أن تقديم الليل كان لأن الأنفس تطلب سببه أكثر مما تطلب سبب النهار ، وههنا كذلك ، لأن الشمس لما كانت أكبر وأعظم كانت أعجب ، والنفس تطلب سبب الأمر العجيب أكثر مما تطلب سبب الأمر الذى لا يكون عجيباً .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ ماتعلق قوله تعالى (وأن الله بما تعملون خبير) بما تقدم؟ نقول لما كان الليل والنهار محل الأفعال بين أن مايقع فى هذين الزمانين اللذين هما بتصرف الله لا يخفى على الله .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قوله تعالى (ألم تر) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون الخطاب مع النبى صلى الله عليه وسلم وعليه الأكثرون ، وكأنه ترك الخطاب مع غيره ، لأن من هو غيره من الكفار لافائدة للخطاب معهم لإصرارهم ، ومن هو غيره من المؤمنين فهم مؤتمرون بأمر النبى عليه الصلاة والسلام ناظرون إليه (الوجه الثانى) أن يقال المراد منه الوعظ والواعظ يخاطب ولا يعين أحداً فيقول لجمع عظيم : يا مسكين إلى الله مصيرك ، فمن نصيرك ، ولماذا تقصيرك . فقوله (ألم تر) يكون خطاباً من ذلك القبيل أى يا أيها الغافل ألم تر هذا الأمر الواضح .

ثم قال تعالى : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأن مايدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلى الكبير ﴾

ولما ذكر تعالى أوصاف الكمال بقوله (إن الله هو الغنى الحميد) وقوله (إن الله عزيز حكيم) وقوله (إن الله سميع بصير) وأشار إلى الإرادة والكمال بقوله (مانفدت كلمات الله) وبقوله (يولج الليل فى النهار) وعلى الجملة فقوله (هو الغنى) إشارة إلى كل صفة سلبية فانه إذا كان غنياً لايكون عرضاً محتاجا إلى الجوهر فى القوام ، ولا جسما محتاجاً إلى الحيز فى الدوام ، ولا شيئاً من

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾

الممكنات المحتاجة الى الموجد ، وذكر بعده جميع الأوصاف الثبوتية صريحاً وتضمناً ، فان الحياة فى ضمن العلم والقدرة قال ذلك بأن الله هو الحق أى ذلك الاتصاف بأنه هو الحق والحق هو الثبوت والثابت الله وهو الثابت المطلق الذى لازوال له وهو الثبوت ، فان المذهب الصحيح أن وجوده غير حقيقته فكل ما عداه فله زوال نظراً إليه والله له الثبوت والوجود نظراً اليه فهو الحق وما عداه الباطل لأن الباطل هو الزائل يقال بطل ظله إذا زال وإذا كان له الثبوت من كل وجه يكون تاماً لانقص فيه .

ثم اعلم أن الحكماء قالوا الله تام وفوق التمام وجعلوا الأشياء على أربعة أقسام ناقص ومكتف وتام وفوق التمام (فالناقص) ماليس له ماينبغى أن يكون له كالصبى والمريض والأعمى (والمكتفى) وهو الذى أعطى ما يدفع به حاجته فى وقته كالإنسان والحيوان الذى له من الآلات ما يدفع به حاجته فى وقتها لكنها فى التحلل والزوال (والتام) ما حصل له كل ما جاز له ، وإن لم يحتج إليه كالملائكة المقربين لهم درجات لا تزداد ولا ينقص الله منها لهم شيئاً كما قال جبريل عليه السلام « لو دنوت أنملة لاحترقت » لقوله تعالى (وما منا إلا له مقام معلوم) (وفوق التمام) هو الذى حصل له ماجاز له وحصل لما عداه ماجاز له أو احتاج إليه لكن الله تعالى حاصل له كل ما يجوز له من صفات الكمال ونعوت الجلال ، فهو تام وحصل لغيره كل ما جاز له أو احتاج إليه فهو فوق التمام إذا ثبت هذا فنقول قوله (هو الحق) إشارة إلى التمام وقوله (وأن الله هو العلى الكبير) أى فوق التمام وقوله (وهو العلى) أى فى صفاته وقوله (الكبير) أى فى ذاته وذلك ينافى أن يكون جسما فى مكان لانه يكون حينئذ جسداً مقدراً بمقدار فيمكن فرض ما هو أكبر منه فيكون صغيراً بالنسبة إلى المفروض لكنه كبير من مطلقاً أكبر من كل مايتصور .

ثم قال تعالى : ﴿ ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمت الله ليريكم من آياته إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ .

ثم قال تعالى (ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمت الله ليريكم من آياته) لما ذكر آية سماوية بقوله (ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر) وأشار الى السبب والمسبب ذكر آية أرضية ، وأشار إلى السبب والمسبب فقوله (الفلك تجرى) إشارة إلى المسبب وقوله (بنعمت الله) إشارة إلى السبب أى إلى الريح التى هى بأمر الله (ليريكم من آياته) عنى يريكم بإجرائها بنعمته (من آياته) أى بعض آياته ، ثم قال تعالى (إن فى ذلك لآيات لكل

وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾

صبار شكور) صبار فى الشدة شكور فى الرخاء ، وذلك لأن المؤمن متذكر عند الشدة والبلاء عند النعم والآلاء فيصبر إذا أصابته نقمة ويشكر إذا أتته نعمة وورد فى كلام النبى صلى الله عليه وسلم «الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر» إشارة إلى أن التكاليف أفعال وتروك والتروك صبر عن المألوف كما قال عليه الصلاة والسلام « الصوم صبر والأفعال شكر على المعروف » .

ثم قال تعالى : ﴿ واذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا الا كل ختار كفور ﴾ .

لما ذكر الله أن فى ذلك لآيات ذكر أن الكل معترفون به غير أن البصير يدركه أولا ومن فى بصره ضعف لايدركه أولا ، فاذا غشيه موج ووقع فى شدة اعترف بأن الكل من الله ودعاه مخلصاً أى يترك كل من عداه وينسى جميع من سواه ، فاذا نجاه من تلك الشدة قد يبقى على تلك الحالة وهو المراد بقوله (فمنهم مقتصد) وقد يعود الى الشرك وهو المراد بقوله (وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور) وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (موج كالظلل) وحد الموج وجمع الظلل ، وقيل فى معناه كالجبال ، وقيل كالسحاب إشارة الى عظم الموج ، ويمكن أن يقال الموج الواحد العظيم يرى فيه طلوع ونزول وإذا نظرت فى الجرية الواحدة من النهر العظيم تبين لك ذلك فيكون ذلك كالجبال المتلاصقة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال فى العنكبوت (فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله) ثم قال (فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون) وقال ههنا (فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد فنقول لما ذكر ههنا (أمراً عظيما) وهو الموج الذى كالجبال بقى أثر ذلك فى قلوبهم فخرج منهم مقتصد أى فى الكفر وهو الذى انزجر بعض الانزجار ، أو مقتصد فى الإخلاص فبقى معه شىء منه ولم يبق على ما كان عليه من الإخلاص ، وهناك لم يذكر مع ركوب البحر معاينة مثل ذلك الأمر فذكر إشراكهم حيث لم يبق عنده أثر .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (وما يجحد بآياتنا) فى مقابلة قوله تعالى (إن فى ذلك لآيات) يعنى يعترف بها الصبار الشكور ، ويجحدها الختار الكفور والصبار فى موازنة الختار لفظاً ، ومعنى والكفور فى موازنة الشكور ، أما لفظاً فظاهر ، وأما معنى فلأن الختار هو الغدار الكثير الغدر أو الشديد الغدر ، والغدر لا يكون إلا من قلة الصبر ، لأن الصبور إن لم يكن يعهد مع أحد لا يعهد منه الاضرار ، فانه يصبر ويفوض الأمر إلى الله وأما الغدار فيعهد ولا يصبر على

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ



العهد فينقضه ، وأما أن الكفور فى مقابلة الشكور معنى فظاهر .

ثم قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحيوة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ .

لما ذكر الدلائل من أول السورة إلى آخرها وعظ بالتقوى لأنه تعالى لما كان واحداً أوجب التقوى البالغة فإن من يعلم أن الأمر بيد اثنين لا يخاف أحدهما مثل ما يخاف لو كان الأمر بيد أحدهما لا غير ، ثم أكد الخوف بذكر اليوم الذى يحكم الله فيه بين العباد ، وذلك لأن الملك إذا كان واحداً ويعهد منه أنه لا يعلم شيئاً ولا يستعرض عباده ، لا يخاف منه مثل ما يخاف إذا علم أن له يوم استعراض واستكشاف ، ثم أكده بقوله (لا يجزى والد عن ولده) وذلك لأن المجرم إذا علم أن له عند الملك من يتكلم فى حقه ويقضى ما يخرج عليه برفد من كسبه لا يخاف ، مثل ما يخاف إذا علم أنه ليس له من يقضى عنه ما يخرج عليه ، ثم ذكر شخصين فى غاية الشفقة والمحبة وهما الوالد والولد ليستدل بالأدنى على الأعلى ، وذكر الولد والوالد جميعاً فيه لطيفة ، وهى أن من الأمور ما يبادر الأب إلى التحمل عن الولد كدفع المال وتحمل الآلام والولد لا يبادر إلى تحمله عن الوالد مثل ما يبادر الوالد إلى تحمله عن الولد ، ومنها ما يبادر الولد إلى تحمله عن الوالد ولا يبادر الوالد إلى تحمله عن الولد كالإهانة ، فإن من يريد إحضار والد أحد عند وال أو قاض يهون على الإبن أن يدفع الإهانة عن والده ويحضر هو بدله ، فإذا انتهى الأمر إلى الإيلام يهون على الأب أن يدفع الإيلام عن ابنه ويتحمله هو بنفسه فقوله (لا يجزى والد عن ولده) فى دفع الآلام (ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً) فى دفع الاهانة ، وفى قوله (لا يجزى) وقوله (ولا مولود هو جاز) (لطيفة أخرى) وهى أنا ذكرنا أن الفعل يتأتى وإن كان ممن لا ينبغى ولا يكون من شأنه لأن الملك إذا كان يخيط شيئاً يقال إنه يخيط ولا يقال هو خياط ، وكذلك من يحيك شيئاً ولا يكون ذلك صنعته يقال هو يحيك ولا يقال هو حائك ، اذا علمت هذا فنقول الإبن من شأنه أن يكون جازياً عن والده لما له عليه من الحقوق والوالد يجزى لما فيه من الشفقة وليس بواجب عليه ذلك فقال فى الوالد لا يجزى وقال فى الولد (ولا مولود هو جاز) .

ثم قال تعالى (إن وعد الله حق) وهو يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون تحقيقاً لليوم يعنى

إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾

اخشوا يوماً هذا شأنه وهو كائن لوعد الله به ووعده حق (والثانى) أن يكون تحقيقاً لعدم الجزاء يعنى (لا يجزى والد عن ولده) لأن الله وعد به (ألا تزر وازرة وزر أخرى) ووعد الله حق ، فلا يجزى والأول أحسن وأظهر .

ثم قال تعالى : ﴿ فلا تغرنكم الحياة الدنيا ﴾ يعنى إذا كان الأمر كذلك فلا تغتروا بالدنيا فإنها زائلة لوقوع [ذلك] اليوم المذكور بالوعد الحق .

ثم قال تعالى (ولا يغرنكم بالله الغرور) يعنى الدنيا لا ينبغى أن تغركم بنفسها ولا ينبغى أن تغتروا [بها] وإن حملكم على محبتها غار من نفس أمارة أو شيطان فكان الناس على أقسام منهم من تدعوه الدنيا إلى نفسها فيميل إليها ومنهم من يوسوس فى صدره الشيطان ويزين فى عينه الدنيا ويؤمله ويقول إنك تحصل بها الآخرة أو تلتذ بها ثم تتوب فتجتمع لك الدنيا والآخرة ، فنهاهم عن الأمرين وقال كونوا قسما ثالثاً ، وهم الذين لا يلتفتون إلى الدنيا ولا إلى من يحسن الدنيا فى الأعين .

قوله تعالى : ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير ﴾

يقول بعض المفسرين إن الله تعالى نفى علم أمور خمسة بهذه الآية عن غيره وهو كذلك لكن المقصود ليس ذلك ، لأن الله يعلم الجوهر الفرد الذى كان فى كثيب رمل فى زمان الطوفان ونقله الريح من المشرق إلى المغرب كم مرة ، ويعلم أنه أين هو ولا يعلمه غيره ، ولأنه يعلم أنه يوجد بعد هذه السنين ذرة فى برية لا يسلكها أحد ولا يعلمه غيره ، فلا وجه لاختصاص هذه الأشياء بالذكر وإنما الحق فيه أن نقول لما قال الله (اخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده) وذكر أنه كائن بقوله (إن وعد الله حق) كأن قائلا قال فمتى يكون هذا اليوم فأجيب بأن هذا العلم مما لم يحصل لغير الله ولكن هو كائن ، ثم ذكر الدليلين اللذين ذكرناهما مراراً على البعث (أحدهما) إحياء الأرض بعد موتها كما قال تعالى (وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين ، فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى) وقال تعالى (ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون) وقال ههنا يا أيها السائل إنك لا تعلم وقتها ولكنها كائنة والله قادر عليها كما هو قادر على إحياء الأرض حيث قال (وهو الذى ينزل الغيث) وقال (ويحيي الأرض)

(وثانيهما) الخلق ابتداء كما قال (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده) وقال تعالى (قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة) إلى غير ذلك فقال ههنا (ويعلم ما فى الأرحام) إشارة إلى أن الساعة وإن كنت لا تعلمها لكنها كائنة والله قادر عليها ، وكما هو قادر على الخلق فى الأرحام كذلك يقدر على الخلق من الرغام ، ثم قال لذلك الطالب علمه : يا أيها السائل إنك تسأل عن الساعة أيان مرساها ، فلك أشياء أهم منها لا تعلمها ، فانك لا تعلم معاشك ومعادك ، ولا تعلم ماذا تكسب غداً مع أنه فعلك وزمانك ، ولا تعلم أين تموت مع أنه شغلك ومكانك ، فكيف تعلم قيام الساعة متى تكون ، فالله ما أعلمك كسب غدك مع أن لك فيه فوائد تبنى عليها الأمور من يومك ، ولا أعلمك أين تموت مع أن لك فيه أغراضاً تهيئ أمورك بسبب ذلك العلم وإنما لم يعلمك لكى تكون فى وقت بسبب الرزق راجعاً إلى الله تعالى متوكلا على الله ولا أعلمك الأرض التى تموت فيها كى لا تأمن الموت وأنت فى غيرها ، فاذا لم يعلمك ما تحتاج إليه كيف يعلمك ما لا حاجة لك إليه ، وهى الساعة ، وإنما الحاجة إلى العلم بأنها تكون وقد أعلمت الله على لسان أنبيائه .

ثم قال تعالى (إن الله عليم خبير) لما خصص أولا علمه بالأشياء المذكورة ، بقوله (إن الله عنده علم الساعة) ذكر أن علمه غير مختص بها ، بل هو عليم مطلقاً بكل شئ ، وليس علمه علما بظاهر الأشياء فحسب ، بل خبير علمه واصل إلى بواطن الأشياء ، والله أعلم بالصواب .

تفسير سورة لقمان

وهي مكية غير آيتين؛ قال قتادة: أولهما ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ إلى آخر الآيتين. وقال ابن عباس: ثلاث آيات، أولهن ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾(١). وهي أربعٌ وثلاثون آية(٢).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ . تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ مضى الكلام في فواتح السُّوَر. و«تِلْكَ» في موضع رفعٍ على إضمار مبتدأ، أي: هذه تلك. ويقال: «تِيكَ آياتُ الكتابِ الحكيم» بدلاً من تلك(٣). والكتاب: القرآن. والحكيم: المُحْكِم، أي: لا خللَ فيه ولا تناقُض. وقيل: ذو الحكمة. وقيل: الحاكم(٤) ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ بالنصب على الحال، مثل: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ [الأعراف: ٧٣] وهذه قراءة المدنيين وأبي عمرو وعاصم والكسائي. وقرأ حمزة: «هُدًى وَرَحْمَةٌ» بالرفع، وهو من وجهين: أحدهما ـ على إضمار مبتدأ؛ لأنه أوَّلُ آية. والآخر ـ أن يكون خبر «تِلْكَ»(٥).

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٥.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٤٨٩.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٨١.

(٤) سلفت هذه المعاني ١/ ٢٤٣ و٤٢٩ و٥/ ١٥.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٨١، وينظر السبعة ص ٥١٢، والتيسير ص ١٧٦.

والمحسن: الذي يعبدُ اللهَ كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه[1]. وقيل: هم المحسنون في الدِّين وهو الإسلام؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ الآية [النساء: ١٢٥]. ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ في موضع الصفة، ويجوز الرفع على القطع بمعنى: هم الذين، والنصب بإضمار أعني[2]. وقد مضى الكلام في هذه الآية والتي بعدها في «البقرة»[3] وغيرها.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ «مَنْ» في موضع رفع بالابتداء [أو بالصفة]. و«لَهْوَ الْحَدِيثِ»: الغناء؛ في قول ابن مسعود وابن عباس وغيرهما. النحَّاس: وهو ممنوعٌ بالكتاب والسنة، والتقدير: من يشتري ذا لهوٍ أو ذاتَ لهوٍ، مثل: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]. أو يكون التقدير: لمَّا كان إنما اشتراها يشتريها ويبالغ في ثمنها كأنَّه اشترى اللَّهو[4].

قلت: هذه إحدى الآيات الثلاث التي استدلَّ بها العلماء على كراهة الغناء والمنع منه. والآية الثانية قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ [النجم: ٦١]. قال ابن عباس: هو الغناء بالْحِمْيرِيّة؛ اسمدي لنا، أي: غنِّي لنا[5].

والآية الثالثة قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤]. قال

---

(١) هكذا ورد تعريفه في حديث جبريل المشهور الذي أخرجه أحمد (٣٦٧)، ومسلم (٨) من حديث عمر ابن الخطاب ﷺ.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٨١.

(٣) ١/ ٢٥٣ - ٢٧٩.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٢، وما بين حاصرتين منه، ووقع في النسخ: كأنه اشتراها للَّهو.

(٥) زاد المسير ٨٦/٨، وأخرجه البيهقي في السنن ١٠/ ٢٢٣، وابن الجوزي في تلبيس إبليس ص ٢٢٥.

مجاهد: الغناء والمزامير. وقد مضى في «سبحان»[١] الكلامُ فيه. وروى الترمذِيُّ عن أبي أُمامةَ عن رسول الله ﷺ قال: «لا تَبيعوا القَيْنات ولا تشتروهنَّ ولا تُعلِّموهنَّ، ولا خيرَ في تجارةٍ فيهنَّ وثمنُهنَّ حرام، في مثل هذا أُنزلت هذه الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إلى آخر الآية. قال أبو عيسى: هذا حديثٌ غريبٌ، إنما يُروى من حديث القاسم عن أبي أُمامة، والقاسم ثقةٌ وعليُّ بن يزيد يُضعَّف في الحديث. قاله محمد بن إسماعيل[٢]. قال ابن عطية[٣]: وبهذا فسَّر ابن مسعود وابن عباس وجابر بن عبد الله ومجاهد، وذكره أبو الفرج الْجَوْزي[٤] عن الحسن وسعيد بن جُبير وقتادة والنَّخَعيّ.

قلت: هذا أعلى ما قيل في هذه الآية، وحلفَ على ذلك ابنُ مسعودٍ بالله الذي لا إله إلا هو ـ ثلاث مرات ـ إنه الغناء. وروى سعيد بن جُبير عن أبي الصَّهباء البكري قال: سُئِلَ عبد الله بن مسعود عن قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ فقال: الغناء واللهِ الذي لا إله إلا هو. يُردِّدها ثلاثَ مرات[٥]. وعن ابن عمر أنه الغناء. وكذلك قال عكرمة وميمون بن مِهران ومكحول[٦]. وروى شعبة وسفيان عن الحكم وحماد عن إبراهيم قال: قال عبد الله بن مسعود: الغناء يُنبِتُ النفاقَ في القلب[٧]. وقاله مجاهد، وزاد: إنَّ لهوَ الحديث في الآية الاستماعُ إلى الغناء وإلى

(١) ١١٨/١٣ .

(٢) سنن الترمذي (٣١٩٥)، وعلل الترمذي الكبير ١/ ٥١١ - ٥١٢ وفي إسناده - أيضاً - عبيد الله بن زحر، وهو ضعيف. والحديث في مسند أحمد (٢٢٢٨٠).

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٥ .

(٤) في تلبيس إبليس ص ٢٢٥ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٧٧ ، وأخرجه ابن أبي شيبة ٦/ ٣٠٩ ، والطبري ١٨/ ٥٣٤ - ٥٣٥ ، والحاكم ٢/ ٤١١ .

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٧٨ . وأخرجه الطبري ١٨/ ٥٣٨ عن عكرمة.

(٧) أخرجه المروزي في تعظيم قدر الصلاة (٦٨٠) ، والبيهقي ١٠/ ٢٢٣ . قلنا: وأخرجه أبو داود (٤٩٢٧) عن ابن مسعود ﷺ مرفوعاً، لكن في إسناده مجهول.

مثله من الباطل[١]. وقال الحسن: لهوُ الحديث المعازِفُ والغناء[٢]. وقال القاسم بن محمد: الغناء باطل، والباطل في النار[٣]. وقال ابن القاسم: سألتُ مالكاً عنه فقال: قال الله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢] أفحقٌّ هو[٤]؟! وترجم البخاري (بَابٌ: كلُّ لهوٍ باطلٌ إذا شغلَ عن طاعة الله، ومن قال لصاحبه: تعالَ أُقامِرْكَ)، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾[٥]. فقوله: (إذا شَغَل عن طاعة الله) مأخوذٌ من قوله تعالى: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾. وعن الحسن أيضاً: هو الكفر والشرك[٦]. وتأوَّله قومٌ على الأحاديث التي يَتَلَهَّى بها أهل الباطل واللعِب. وقيل: نزلت في النضر بن الحارث؛ لأنه اشترى كُتبَ الأعاجم: رستم، وأسفنديار، فكان يجلس بمكة، فإذا قالت قريشٌ: إنَّ محمداً قال كذا، ضَحِك منه، وحدَّثهم بأحاديثَ ملوك الفرس، ويقول: حديثي هذا أحسنُ من حديث محمد. حكاه الفرَّاء والكلبي وغيرهما[٧]. وقيل: كان يشتري المغنِّيات فلا يظفَرُ بأحدٍ يريد الإسلام إلَّا انطلق به إلى قَيْنَتِهِ فيقول: أطعميه وأسقيه وغنِّيه، ويقول: هذا خيرٌ ممَّا يدعوك إليه محمدٌ من الصلاة والصيام وأن تقاتل بين يديه. وهذا القول والأوَّل ظاهرٌ في الشراء[٨]. وقالت طائفة: الشراء في هذه الآية

---

(١) أخرجه الطبري ١٨/ ٥٣٦ و٥٣٧ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٥ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٧٩ .

(٤) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٨/٢٧ من طريق حرملة بن عبد العزيز، عن مالك بنحوه.
وفي الموطأ ٢/ ٩٥٨ قال يحيى الليثي: سمعت مالكاً يقول: لا خير في الشطرنج وكرهها، وسمعته يكره اللعب بها وبغيرها من الباطل، ويتلو هذه الآية: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾.

(٥) صحيح البخاري قبل الحديث (٦٣٠١).

(٦) النكت والعيون ٤/ ٣٢٨ عن الضحاك وابن زيد، وأخرجه الطبري ١٨/ ٥٣٨ - ٥٣٩ عنهما.

(٧) النكت والعيون ٤/ ٣٢٣ ، وهو في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٢٦ - ٣٢٧ ، وذكره البغوي ٣/ ٤٨٩ عن الكلبي.

(٨) الكشاف ٣/ ٢٢٩ .

مستعار، وإنما نزلتِ الآيةُ في أحاديثَ قريشٍ وتلَهِّيهم بأمر الإسلام وخوضهم في الباطل. قال ابن عطية: فكان تركُ ما يجب فِعْلُه، وامتثالُ هذه المنكرات شراءً لها؛ على حدِّ قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾(١) [البقرة:١٦]؛ اشتروا الكفر بالإيمان، أي: استبدلوه منه واختاروه عليه(٢). وقال مُطَرِّف: شراءُ لهوِ الحديث استحبابُه. قتادة: ولعلَّه لا يُنفقُ فيه مالاً، ولكِنْ سماعُه شراؤه(٣).

قلت: القولُ الأوَّلُ أولى ما قيل به في هذا الباب؛ للحديث المرفوع فيه، وقول الصحابة والتابعين فيه. وقد زاد الثعلبيُّ والواحِديُّ في حديث أبي أُمامة: «وما من رجلٍ يرفع صوتَه بالغناء إلَّا بعثَ الله عليه شيطانين أحدَهما على هذا المَنْكِب والآخر على هذا المَنْكِب، فلا يزالان يضربانِ بأرجلهما حتى يكون هو الذي يسكت»(٤). وروى الترمذي وغيرُه من حديث أنسٍ وغيرِه عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «صَوتانِ ملعونانِ فاجرانِ أنهَى عنهما: صوتُ مزمارٍ ورنَّةُ شيطانٍ عند نغمةٍ ومَرَحٍ، ورَنَّةٌ عند مصيبةٍ لطمُ خدودٍ وشقُّ جيوب»(٥). وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جدِّه عن عليٍّ عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «بُعِثْتُ بكسر المزامير» خرَّجه أبو طالب الغَيْلاني(٦).

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٥ - ٣٤٦ .

(٢) الكشاف ٣/ ٢٢٩ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٦ .

(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ٤٤١ ، وتفسير البغوي ٣/ ٤٨٩ من طريق الثعلبي، كلاهما من طريق عبيد الله بن زحر، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة ﷺ مرفوعاً. وكذلك أخرجه الحارث بن أبي أسامة كما في بغية الباحث (٨٩٢). وإسناده ضعيف كما تقدم آنفاً. وأخرجه الطبراني (٧٧٤٩) من طريق آخر فيه الوليد بن الوليد؛ قال فيه الدارقطني: منكر الحديث.

(٥) لم نقف عليه عند الترمذي من حديث أنس، وأخرجه البزار كشف الآثار (٧٩٥)، والضياء المقدسي في المختارة (٢٢٠٠) و(٢٢٠١) من حديث أنس بن مالك ﷺ. وأخرجه الطيالسي (١٦٨٣)، وعبد بن حميد (١٠٠٦)، والترمذي (١٠٠٥) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ. وأخرجه ابن سعد ١/ ١٣٨ ، والبزار في مسنده (١٠٠١)، والحاكم ٤/ ٤٠ من حديث عبد الرحمن بن عوف ﷺ.

(٦) هو محمد بن محمد بن إبراهيم بن غيلان، أحد شيوخ الخطيب البغدادي، ولد سنة ٣٤٨هـ، وتوفي سنة ٤٤٠هـ. السير ١٧/ ٥٩٨ - ٦٠٠ . والحديث أخرجه أبو بكر الشافعي في الغيلانيات (٨٤)، وابن =

وخرَّج ابن بشران[١] عن عكرمة عن ابن عباس أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «بُعثتُ بِهَدْمِ المزامير والطبل»[٢]. وروى الترمذيُّ من حديث عليٍّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا فعلَتْ أُمَّتي خمسَ عشرةَ خَصْلةً حَلَّ بها البلاء..» فذكر منها: «اتُّخِذَتِ القَيْناتُ والمعازِف»[٣]. وفي حديث أبي هريرة: «وظهرتِ القِيانُ والمعازِفُ»[٤]. وروى ابن المبارك، عن مالك بن أنس، عن محمد بن الْمُنْكَدِر، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من جلَس إلى قَينةٍ يسمَعُ منها صُبَّ في أُذنِه الآنُكُ[٥] يومَ القيامة»[٦]. وروى أسد بن موسى، عن عبد العزيز بن أبي سلمة، عن محمد بن المُنكدِر قال: بلغَنا أنَّ الله تعالى يقول يوم القيامة: «أينَ عبادي الذين كانوا يُنزِّهون أنفسَهم وأسماعَهم عن اللهو ومزامير الشيطان، أحِلُّوهم رياضَ المسكِ، وأخبِروهم أنِّي قد أحللتُ عليهم رضواني». وروى ابن وهب، عن مالك، عن محمد بن المنكدر مثلَه، وزاد بعد قوله: «المسك» ثم يقول للملائكة: أسمِعوهم حمدي وشكري وثنائي، وأخبروهم ألَّا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون»[٧]. وقد رُويَ مرفوعاً هذا المعنى من

= الجوزي في تلبيس إبليس ص ٢٢٧ من طريق موسى بن عمير، عن جعفر بن محمد، به. موسى بن عمير كذبه أبو حاتم وضعفه ابن عدي. الميزان ٤/ ٢١٥ . ومحمد بن علي بن الحسين والد جعفر روايته عن علي مرسلة. التهذيب ٣/ ٦٥٠ .

(١) هو عبد الملك بن محمد بن عبد الله بن بشران إمام محدث، وهو مسند العراق، ولد سنة ٣٣٩هـ، وتوفي سنة ٤٣٠هـ، ودفن في حلب. السير ١٧/ ٤٥٠ - ٤٥١ .

(٢) أخرجه ابن الجوزي في تلبيس إبليس ص ٢٢٦ - ٢٢٧ من طريق ابن بشران، به. وأخرجه تمام في فوائده (١٢٣٧).

(٣) سنن الترمذي (٢٢١٠) وقال: هذا حديث غريب، لا نعلم أحداً رواه غير الفرج بن فضالة، وقد تكلَّم فيه بعض أهل الحديث وضعَّفه من قبل حفظه.

(٤) سنن الترمذي (٢٢١١) وفي إسناده رُميح الجذامي، وهو مجهول فيما قاله الحافظ في التقريب.

(٥) أي: الرصاص. النهاية (أنك).

(٦) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٥١/ ٢٦٣ من طريق أبي نعيم الحلبي، عن ابن المبارك، به. وذكره ابن الجوزي في العلل المتناهية ٢/ ٧٨٦ وقال: قال أحمد بن حنبل: هذا حديث باطل.

(٧) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٤٣) عن مالك، به. وإسناده منقطع.

حديث أبي موسى الأشعري أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «منِ استمعَ إلى صوت غناءٍ لم يؤذَنْ له أن يسمع الرُّوحانيين» فقيل: ومَنِ الرُّوحانيون يا رسولَ الله؟ قال: «قُرَّاء أهل الجنة» خرَّجه الترمذيُّ الحكيم أبو عبد الله في «نوادر الأصول»(١) وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»(٢) مع نظائره: «فمن شرِبَ الخمرَ في الدنيا لم يشرَبْها في الآخرة، ومن لبسَ الحريرَ في الدنيا لم يلبَسْه في الآخرة»(٣). إلى غير ذلك. وكلُّ ذلك صحيحُ المعنى على ما بيَّنَّاه هناك. ومن رواية مكحول عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ مَات وعنده جاريةٌ مغنِّيةٌ فلا تُصلُّوا عليه»(٤). ولهذه الآثار وغيرها قال العلماء بتحريم الغناء. وهي المسألة:

الثانية - وهو الغناء المُعتاد عند المشتَهِرين به، الذي يُحرِّك النفوس ويبعثها على الهوى والغَزَل، والمُجُون الذي يُحرِّك الساكنَ ويبعثُ الكامنَ، فهذا النوع إذا كان في شعرٍ يُشَبَّب فيه بذكر النساء ووصف محاسنهنَّ، وذكر الخمور والمُحرَّمات لا يُختلف في تحريمه؛ لأنَّه اللهوُ والغناءُ المذمومُ بالاتِّفاق. فأمَّا ما سلِمَ من ذلك فيجوز القليلُ منه في أوقات الفرح، كالعرس والعيد وعند التنشيط على الأعمال الشاقة، كما كان في حفر الخَنْدَق وحَدْوِ أنْجشَة وسَلَمة بن الأكْوع. فأمَّا ما ابتدعَتْه الصوفيةُ اليومَ من الإدمان على سماع المغاني بالآلات المطربة من الشبَّابات والطار والمعازف والأوتار فحرام. ابن العربيّ: فأمَّا طبل الحرب فلا حرجَ فيه؛ لأنَّه يقيمُ النفوسَ، ويُرهِبُ

---

(١) ١/ ١٥٤.

(٢) ص ٤٤٨ - ٤٤٩.

(٣) أخرجه بتمامه النسائي في الكبرى (٦٨٤٠)، والحاكم ٤/ ١٤١ من حديث أبي هريرة ﵁.
والطرف الأول أخرجه أحمد (٤٦٩٠)، والبخاري (٥٥٧٥)، ومسلم (٢٠٠٣) من حديث ابن عمر ﵄.
والطرف الثاني أخرجه أحمد (١١١٧٩) من حديث أبي سعيد الخدري ﵁. و(١١٩٨٥)، والبخاري (٥٨٣٢)، ومسلم (٢٠٧٣) من حديث أنس ﵁. وأحمد (١٦١١٨)، والبخاري (٥٨٣٣) من حديث عبد الله بن الزبير ﵄. ومسلم (٢٠٧٤) من حديث أبي أمامة ﵁.

(٤) ذكره ابن حزم في المحلى ٩/ ٥٧ من طريق عمر بن موسى، عن مكحول، به. وقال: عمر بن موسى مجهول، ومكحول لم يلق عائشة.

العدوّ[١]. وفي اليَرَاعة تردُّد. والدُّفُّ مباح. الجوهريّ: وربما سمُّوا قصبة الراعي التي يَزْمُر بها هَيْرعةً ويَراعةً[٢]. قال القشيريّ: ضُرِبَ بين يدي النبيِّ ﷺ يومَ دخل المدينة، فهَمَّ أبو بكر بالزَّجر، فقال رسول الله ﷺ: «دَعْهُنَّ يا أبا بكرٍ حتى تعلمَ اليهودُ أنَّ ديننَا فَسيح» فكُنَّ يضرِبْنَ ويقُلْنَ: نحنُ بناتُ النجّار، حبَّذا محمدٌ من جارٍ[٣]. وقد قيل: إنَّ الطبلَ في النكاح كالدُّفِّ، وكذلك الآلات المُشْهِرة للنكاح يجوز استعمالُها فيه بما يَحسُنُ من الكلام ولم يكن فيه رَفَثٌ.

الثالثة ـ الاشتغال بالغناء على الدوام سَفَهٌ تُرَدُّ به الشهادة، فإن لم يَدُمْ لم تُردَّ. وذكر إسحاق بن عيسى الطباع قال: سألتُ مالك بن أنس عمَّا يُرخِّص فيه أهلُ المدينة من الغناء، فقال: إنما يفعلُه عندنا الفُسَّاق. وذكر أبو الطيب طاهر بن عبد الله الطبريّ قال: أمَّا مالك بن أنس فإنَّه نهى عن الغناء وعن استماعِه، وقال: إذا اشترى جاريةً ووجدها مغنيةً كان له ردُّها بالعيب، وهو مذهب سائر أهل المدينة، إلا إبراهيم بن سعد فإنه حكى عنه زكريا السَّاجي أنه كان لا يرى به بأساً. وقال ابن خُوَيْزِمَنْداد: فأمَّا مالكٌ فيُقال عنه: إنَّه كان عالماً بالصناعة، وكان مذهبُه تحريمَها. ورُوِيَ عنه أنه قال: تعلمتُ هذه الصناعةَ وأنا غلامٌ شاب، فقالت لي أمي: أيْ بُنيَّ، إنَّ هذه الصناعةَ يَصلُح لها من كان صبيحَ الوجه ولستَ كذلك، فاطلُبِ العلومَ الدينية. فصحبتُ ربيعةَ، فجعلَ اللهُ في ذلك خيراً. قال أبو الطيب الطبريّ: وأمَّا مذهب أبي حنيفة فإنه يكره الغناءَ مع إباحته شرب النَّبيذ، ويجعلُ سماع الغناء من الذنوب. وكذلك مذهب سائر أهل الكوفة: إبراهيم والشَّعبيّ وحماد والثوري وغيرِهم، لا اختلافَ بينهم في ذلك. وكذلك لا يُعرَفُ بين أهل البصرة خلافٌ في كراهية ذلك والمنع منه، إلَّا ما

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٨٢.

(٢) الصحاح (هرع).

(٣) طرفه الأول أخرجه أحمد (٢٤٨٥٥) بنحوه من حديث عائشة رضي الله عنها. وطرفه الثاني أخرجه ابن ماجه (١٨٩٩) بنحوه من حديث أنس بن مالك ﷺ.

رُوِيَ عن عُبيد الله بن الحسن العنبري أنه كان لا يرى به بأساً. قال: وأما مذهب الشافعيِّ فقال: الغناء مكروهٌ يُشبه الباطل، ومنِ استكثرَ منه فهو سفيهٌ تُردُّ شهادتُه. وذكر أبو الفرج الجَوْزي عن إمامه أحمد بن حنبل ثلاثَ رواياتٍ؛ قال: وقد ذكر أصحابُنا عن أبي بكر الخَلَّال وصاحبِه عبد العزيز إباحةَ الغناء، وإنما أشاروا إلى ما كان في زمانهما من القصائد الزُّهديَّات؛ قال: وعلى هذا يُحمَلُ ما لم يكره أحمد، ويدلُّ عليه أنه سُئِلَ عن رجلٍ ماتَ وخلَفَ ولداً وجاريةً مغنيةً، فاحتاج الصبيُّ إلى بيعها فقال: تُباعُ على أنها ساذجةٌ لا على أنها مُغنِّية. فقيل لها: إنها تساوي ثلاثين ألفاً، ولعلَّها إن بيعَتْ ساذجةً تُساوي عشرين ألفاً؟ فقال: لا تُباع إلَّا على أنها ساذَجةٌ. قال أبو الفرج: وإنما قال أحمد هذا؛ لأنَّ هذه الجارية المغنيَّة لا تُغنِّي بقصائد الزهد، بل بالأشعار المُطربةِ المُثيرةِ إلى العشق. وهذا دليلٌ على أنَّ الغناء محظورٌ؛ إذ لو لم يكن محظوراً ما جاز تفويتُ المال على اليتيم. وصار هذا كقول أبي طلحةَ للنبيِّ ﷺ: عندِي خمرٌ لأيتام؟ فقال: «أرِقْها»[١]. فلو جازَ استصلاحُها لَمَا أُمِر بتضييع مال اليتامى. قال الطبريّ: فقد أجمعَ علماءُ الأمصار على كراهةِ الغناء والمنعِ منه، وإنَّما فارق الجماعةَ إبراهيمُ بن سعد وعبيد الله العنبري؛ وقد قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالسوادِ الأعظم»[٢] و«من فارق الجماعة ماتَ ميتةً جاهلية»[٣]. قال أبو الفرج: وقال القفَّال من أصحابنا: لا تُقبَلَ شهادةُ المُغنِّي والرقَّاص[٤].

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد (١٢١٨٩)، وأبو داود (٣٦٧٥) من حديث أنس بن مالك ﷺ. وهو في صحيح مسلم (١٩٨٣) وفيه أن السائل رجل، ولم تتعين تسميته بأبي طلحة.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٩٥٠) من حديث أنس ﷺ. قال البوصيري: في إسناده أبو خلف الأعمى، واسمه حازم بن عطاء، وهو ضعيف. قلنا: وفي إسناده معان بن رفاعة، وهو لين الحديث فيما قاله الحافظ في التقريب.

(٣) أخرجه أحمد (٢٤٨٧)، والبخاري (٧٠٥٤)، ومسلم (١٨٤٩) من حديث ابن عباس ﷺ. وأخرجه أحمد (٧٩٤٤)، ومسلم (١٨٤٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) من بداية المسألة إلى هذا الموضع من تلبيس إبليس ص ٢٢٢ - ٢٢٤ دون قوله: وقال ابن خويز منداد... فجعل الله في ذلك خيراً.

قلت: وإذ قد ثبت أنَّ هذا الأمر لا يجوز فأَخْذُ الأجرةِ عليه لا تجوز. وقدِ ادَّعى أبو عمر بن عبد البر[١] الإجماع على تحريم الأجرة على ذلك. وقد مضى في الأنعام عند قوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ [الأنعام: ٥٩] وحسْبُك.

الرابعة ـ قال القاضي أبو بكر بن العربي: وأمَّا سماعُ القَيناتِ فيجوز للرجل أن يسمع غناء جاريته؛ إذ ليس شيءٌ منها عليه حراماً لا من ظاهرها ولا من باطنها، فكيف يُمنَعُ من التلذُّذِ بصوتها. أمَا أنه لا يجوز انكشافُ النساء للرجال، ولا هَتْكُ الأستار، ولا سماعُ الرَّفَث، فإذا خرج ذلك إلى ما لا يَحِلُّ ولا يجوز، مُنِعَ من أوَّله، واجتُثَّ من أصله[٢]. وقال أبو الطيِّب الطبريّ: أمَّا سماع الغناء من المرأة التي ليست بمحرَمٍ فإنَّ أصحاب الشافعيِّ قالوا: لا يجوز، سواء كانت حرَّةً أو مملوكة. قال: وقال الشافعيُّ: وصاحبُ الجارية إذا جمع الناس لسماعها فهو سفيهٌ تُرَدُّ شهادتُه، ثم غلَّظ القول فيه فقال: فهي دِياثة. وإنَّما جعل صاحبَها سفيهاً لأنه دعا الناس إلى الباطل، ومن دعا الناس إلى الباطل كان سفيهاً[٣].

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قراءة العامة بضمِّ الياء، أي: ليُضِلَّ غيرَه عن طريق الهدى، وإذا أضلَّ غيرَه فقد ضلَّ. وقرأ ابن كثير وابن مُحيصن وحميد وأبو عمرو ورُوَيْس وابن أبي إسحاق بفتح الياء على اللازم، أي: لِيُضِلَّ هو نفسه[٤]. ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ قراءةُ المدنيِّين وأبي عمرو وعاصم بالرفع عطفًا على «مَنْ يَشْتَرِي» ويجوز أن يكون مُستأنَفاً. وقرأ الأعمش وحمزة والكسائي: «وَيَتَّخِذَها»

(١) في الكافي ١/ ٤٤٤ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٨٢ .

(٣) تلبيس إبليس ص ٢٣٤ .

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٢ ، وينظر السبعة ص ٢٦٧ ، والتيسير ص ١٣٤ ، والنشر ٢/ ٢٩٩ . وينظر ما سلف ١٢/ ١٤٢ .

بالنصب عطفًا على «لِيُضلَّ»[١]. ومن الوجهين جميعاً لا يَحسُنُ الوقفُ على قوله: «بِغَيْرِ عِلْمٍ» والوقف على قوله: «هُزُوًا»[٢]، والهاء في «يَتَّخذَها» كنايةٌ عن الآيات. ويجوز أن يكون كنايةً عن السبيل؛ لأنَّ السبيلَ يؤنَّثُ ويُذكَّر[٣]. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ أي: شديدٌ يُهينهم. قال الشاعر:

ولقد جزِعْتُ إلى النَّصارى بعد ما لَقيَ الصليبُ من العذابِ مُهينا[٤]

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا﴾ يعني القرآن. ﴿وَلَّىٰ﴾ أي: أعرض[٥] ﴿مُسۡتَكۡبِرٗا﴾ نصب على الحال[٦]. ﴿كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ﴾ ثِقَلاً وصَمَماً. وقد تقدَّم[٧]. ﴿فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ تقدَّم أيضاً[٨].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ لمَّا ذكر عذابَ الكفار ذكر نعيمَ المؤمنين. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾ أي: دائمين. ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ﴾ أي: وعدَهم اللهُ هذا وعداً حقًّا لا خُلْفَ فيه. ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ تقدَّم أيضاً[٩].

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٢ . وقد اختلف في القراءة عن عاصم، ففي رواية أبي بكر عنه بالرفع، وفي رواية حفص بالنصب. وينظر السبعة ص ٥١٢ ، والتيسير ص ١٧٦ .

(٢) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٣٧ .

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٢ .

(٤) قائله جرير، وهو في الكامل ٣/ ١٠٧٥ .

(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ١٩ .

(٦) البيان ٢/ ٢٥٤ .

(٧) ٨/ ٣٤٥ .

(٨) ١/ ٣٠١ .

(٩) معنى «العزيز» سلف ٤٠٣ - ٤٠٤ ، ومعنى «الحكيم» سلف ١/ ٤٢٩ .

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ تكون «تَرَوْنَها» في موضع خفضٍ على النعت لـ «عَمَد» فيُمكن أن يكون ثَمَّ عَمَدٌ ولكن لا تُرى. ويجوز أن تكون في موضع نصبٍ على الحال من «السَّماوات» ولا عَمَدَ ثَمَّ البتّة[١]. النحَّاس: وسمعتُ علي بن سليمان يقول: الأولى أن يكونَ مُستأنَفاً[٢]، ولا عَمَدَ ثَمَّ. قاله مكيّ[٣]. ويكون «بِغَيْرِ عَمَدٍ» التمام[٤]. وقد مضى في «الرعد»[٥] الكلامُ في هذه الآية. ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ أي: جبالاً ثوابت[٦]. ﴿أَن تَمِيدَ﴾ في موضع نصب؛ أي: كراهية أن تميد. والكوفيون يُقدِّرونه بمعنى: لئلَّا تميد. ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ عن ابن عباس: من كلِّ لونٍ حَسَن. وتأوَّله الشَّعبيُّ على الناس؛ لأنَّهم مخلوقونَ من الأرض؛ قال: مَنْ كان منهم يصير إلى الجنة فهو الكريم، ومَن كان منهم يصير إلى النار فهو اللئيم. وقد تأوَّلَ غيرُه أنَّ النُّطفةَ مخلوقةٌ من تراب، وظاهرُ القرآن يدلُّ على ذلك.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ وخبر[٧]. والخلق بمعنى المخلوق[٨]، أي: هذا الذي ذكرتُه مما تُعاينون «خَلْقُ اللهِ»[٩] أي: مخلوقُ الله، أي: خلقَها من غير

---

(١) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٦٤ .
(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٢ .
(٣) في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٦٤ .
(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٢ .
(٥) ١٢/ ٦ - ٧ .
(٦) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٩٥ .
(٧) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٣ ، والكلام الذي قبله منه.
(٨) الكشاف ٣/ ٢٣٠ .
(٩) تفسير البغوي ٣/ ٤٩٠ .

شريك. ﴿فَأَرُونِي﴾ معاشرَ المشركين ﴿مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ يعني الأصنام. ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: المشركون ﴿فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: خُسرانٍ ظاهر[1]. و«ما» استفهامٌ في موضع رفعٍ بالابتداء، وخبرُه «ذا»، وذا بمعنى الذي. و«خلق» واقعٌ على هاءٍ محذوفة[2]، تقديره: فأروني أيَّ شيءٍ خَلَقَ الذين من دونه، والجملة في موضع نصبٍ بـ «أروني» وتُضمَرُ الهاءُ مع «خلق» تعودُ على الذين، أي: فأروني الأشياءَ التي خلقَها الذين من دونه[3]. وعلى هذا القول تقول: ماذا تعلمتَ، أنحوٌ أم شِعرٌ؟ ويجوز أن تكون «ما» في موضع نصبٍ بـ «أروني» و«ذا» زائدة، وعلى هذا القول يقول: ماذا تعلمتَ، أنحواً أم شعراً؟

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ مفعولان. ولم ينصرِفْ «لُقْمان» لأنَّ في آخره ألفاً ونوناً زائدتين، فأشبهَ فُعلانَ الذي أُنثاه فُعلَى، فلم ينصرِفْ في المعرفة؛ لأنَّ ذلك ثِقَلٌ ثانٍ، وانصرفَ في النكرة؛ لأنَّ أحدَ الثِّقَلين قد زال. قاله النحَّاس[4]. وهو لقمان بن باعوراء بن ناحور بن تارَح، وهو آزر أبو إبراهيم. كذا نسبه محمد بن إسحاق[5]. وقيل: هو لقمان بن عنقاء بن سرون، وكان نُوبيًّا من أهل أيلة. ذكره السُّهيليُّ[6]. قال وهب: كان ابنَ أخت أيوب. وقال مقاتل: ذُكِرَ أنه كان ابنَ خالة أيوب[7]. الزَّمخشريُّ: وهو لقمان بن باعوراء ابن أخت أيوب أو ابن خالته. وقيل:

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٥٤٤ - ٥٤٥، وتفسير أبي الليث ٣/ ٢٠ بمعناه.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٣.

(٣) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٦٥.

(٤) في إعراب القرن ٣/ ٢٨٣ وما قبله منه.

(٥) عرائس المجالس ص ٣٥٠.

(٦) في التعريف والإعلام ص ١٣٤. ووقع في مطبوعه: «يثرون» بدل «سرون».

(٧) عرائس المجالس ص ٣٥٠.

كان من أولاد آزر، عاش ألف سنةٍ، وأدركه داود عليه السلام وأخذَ عنه العلم، وكان يُفتي قبل مَبعثِ داود، فلمَّا بُعِثَ قطع الفتوى فقيل له، فقال: لا أكتفِي إذ كُفيتُ[١]. وقال الواقدي: كان قاضياً في بني إسرائيل[٢]. وقال سعيد بن المسيِّب: كان لقمانُ أسودَ من سودان مصر، ذا مشافر، أعطاهُ اللهُ تعالى الحكمةَ، ومنعَه النبوَّة[٣]. وعلى هذا جمهور أهل التأويل إنه كان وليًّا ولم يكن نبيًّا. وقال بنبوَّته عِكرمةُ والشَّعبيُّ، وعلى هذا تكون الحكمةُ النبوَّةَ. والصواب أنه كان رجلاً حكيماً بحكمةِ الله تعالى ـ وهي الصواب في المعتقدات والفقه في الدِّين والعقل ـ قاضيًا في بني إسرائيل، أسودَ مشقَّقَ الرِّجلين ذا مشافر، أي: عظيم الشفتين. قاله ابن عباس وغيره. ورُوِيَ من حديث ابن عمر قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لم يكُنْ لقمانُ نبيًّا، ولكن كان عبداً كثيرَ التفكُّرِ، حَسَن اليقين، أحبَّ اللهَ تعالى فأحبَّه، فمنَّ عليه بالحكمة، وخيَّره في أن يجعلَه خليفةً يحكم بالحق، فقال: ربِّ، إنْ خيَّرتني قبلتُ العافية وتركتُ البلاء، وإن عزمتَ عليَّ فسمعًا وطاعةً فإنك ستعصمني». ذكره ابن عطية[٤]. وزاد الثعلبيُّ[٥]: فقالت له الملائكة بصوتٍ لا يراهم: لِمَ يا لقمان؟ قال: لأنَّ الحاكمَ بأشدِّ المنازلِ وأكدرِها، يغشاه المظلومُ من كلِّ مكان، إن يُعَنْ فبالْحَرِيِّ أن ينجو، وإن أخطأ أخطأ طريقَ الجنة، ومن يكُنْ في الدنيا ذليلاً خيرٌ من أن يكون فيها شريفاً، ومن يَخْتَرِ الدنيا على الآخرة نفَتْه الدنيا ولا يُصيبُ الآخرة. فعجبتِ الملائكةُ من حُسنِ مَنطقِه، فنام نومةً، فأُعطِيَ الحكمةَ فانتبه يتكلَّم بها، ثم نُودِيَ داودُ بعده فقَبِلها ـ يعني الخلافة ـ ولم يَشْتَرِطْ ما اشترطَه لقمان، فهَوى في الخطيئة غيرَ مرة، كلُّ ذلك يعفو الله عنه. وكان لقمانُ يُوازِرُه بحكمته، فقال له داود: طوبى لك يا لقمان،

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٣١ .

(٢) عرائس المجالس ص ٣٥٠ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ٣٣١ ، وأخرجه الطبري ٣٨/ ٥٤٧ مختصراً.

(٤) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٧ .

(٥) في عرائس المجالس ص ٣٥١ ، وأخرجه بتمامه ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٦/ ٨٥ - ٨٦ .

أُعطيتَ الحكمةَ، وصُرِفَ عنك البلاءُ، وأُعطي داودُ الخلافةَ، وابتُلي بالبلاءِ والفتنة.

وقال قتادة: خيَّر اللهُ تعالى لقمانَ بين النبوَّة والحكمة، فاختار الحكمةَ على النبوَّة، فأتاه جبريلُ عليه السلام وهو نائمٌ فذَرّ عليه الحكمةَ، فأصبح وهو ينطِقُ بها، فقيل له: كيفَ اخترتَ الحكمة على النبوَّةِ وقد خيَّرك ربُّكَ؟ فقال: إنه لو أرسل إليَّ بالنبوَّة عَزْمةً[1] لرَجَوْتُ فيها العونَ منه، ولكنه خيَّرني فخِفتُ أن أضعُفَ عن النبوَّة، فكانتِ الحكمةُ أحبَّ إليَّ[2].

واختُلِفَ في صَنعته؛ فقيل: كان خياطاً. قاله سعيد بن المسيِّب[3]، وقال لرجلٍ أسود: لا تحزَنْ من أنَّكَ أسود، فإنَّه كان مِنْ خيرِ الناس ثلاثةٌ من السودان: بلال، ومِهْجع مولى عمر، ولقمان[4]. وقيل: كان يحتطب كلَّ يومٍ لمولاه حُزْمةَ حطب. وقال لرجلٍ ينظر إليه: إن كنتَ تراني غليظَ الشَّفتينِ فإنه يخرج من بينهما كلامٌ رقيق، وإن كنتَ تراني أسودَ فقلبي أبيض[5]. وقيل: كان راعياً، فرآه رجلٌ كان يعرفه قبل ذلك، فقال له: ألستَ عبدَ بني فلان؟ قال: بلى. قال: فما بَلغَ بِكَ ما أرى؟ قال: قَدَرُ الله، وأدائي الأمانة، وصِدقُ الحديث، وتركُ ما لا يعنيني. قاله عبد الرحمن بن زيد بن جابر[6].وقال خالد الرَّبَعي: كان نجاراً، فقال له سيِّدُه: اذبَحْ لي شاةً وائتني بأطيبها مُضْغتين. فأتاه باللسان والقلب، فقال له: ما كان فيها شيءٌ أطيبَ من هذين؟ فسكت، ثم أمره بذبْحِ شاةٍ أخرى، ثم قال له: ألْقِ أخبثَها مُضْغتين. فألقى اللسان والقلب، فقال له: أمرتُكَ أن تأتيني بأطيبَ مضغتين فأتيتني باللسان والقلب، وأمرتُكَ أن تُلقي أخبثَها فألقيتَ اللسان والقلب؟! فقال له: إنه ليس شيءٌ أطيبَ منهما إذا

(١) أي: حقًّا من حقوقه، وواجباً من واجباته. النهاية (عزم).
(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٣١ .
(٣) أخرجه أحمد في الزهد ص ٦٤ ، وهو في تفسير البغوي ٣/ ٤٩١ ، وزاد المسير ٦/ ٣١٨ .
(٤) أخرجه الطبري ١٨/ ٥٤٧ - ٥٤٨ .
(٥) الكشاف ٣/ ٢٣١ .
(٦) النكت والعيون ٤/ ٣٣١ - ٣٣٢.

طابا، ولا أخبثَ منهما إذا خَبُثا[١].

قلت: هذا معناه مرفوعٌ في غير ما حديث، من ذلك قولُه ﷺ: «ألا وإنَّ في الجسدِ مضغةً إذا صَلُحتْ صَلُحَ الجسدُ كلُّه، وإذا فسدَتْ فسدَ الجسدُ كلُّه، ألا وهي القلب»[٢]. وجاء في اللسان آثارٌ كثيرةٌ صحيحةٌ وشهيرة؛ منها قوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ وقاه اللهُ شرَّ اثنتين وَلَج الجنة: ما بين لَحْيَيْه ورجليه»... الحديث[٣]. وَحِكَم لقمانَ كثيرةٌ مأثورةٌ هذا منها. وقيل له: أيُّ الناس شرٌّ؟ قال: الذي لا يُبالي أن رآه الناس مُسيئاً[٤].

قلتُ: وهذا أيضاً مرفوعٌ معنًى؛ قال ﷺ: «كلُّ أمتي معافًى إلَّا المُجاهِرون، وإنَّ من المُجاهرة أن يعملَ الرجلُ بالليل عملاً ثم يصبحُ وقد ستَره اللهُ فيقول: يا فلان، عملتُ البارحةَ كذا وكذا. وقد باتَ يستره ربُّه، ويُصبح يَكْشِفُ سِترَ الله عنه». رواه أبو هريرة، خرَّجه البخاري[٥]. وقال وهب بن مُنبِّه: قرأتُ من حكمة لقمان أرجَحَ من عشرة آلاف باب[٦]. ورُويَ أنه دخل على داودَ عليه السلام وهو يَسْرُد الدروع، وقد ليَّن الله له الحديد كالطين، فأراد أن يسألَه، فأدركَتْه الحكمةُ فسكت، فلما أتمَّها لبِسَها وقال: نِعْمَ لُبوسُ الحربِ أنتِ. فقال: الصمتُ حكمة، وقليلٌ فاعِلُه. فقال له داود: بحقٍّ ما سُمِّيتَ حكيماً[٧].

قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ فيه تقديران: أحدهما أن تكون «أن» بمعنى أي مفسِّرة، أي: قلنا له: اشكر. والقول الآخر أنها في موضع نصب، والفعل داخلٌ في

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٢١٤، وأحمد في الزهد ص ٦٥، والطبري ٣٨/ ٥٤٨.

(٢) سلف ١/ ٢٨٧.

(٣) سلف ١٢/ ٨٥.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٧.

(٥) في صحيحه (٦٠٦٩)، وهو في صحيح مسلم (٢٩٩٠).

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٨٣.

(٧) الكشاف ٣/ ٢٣١.

صلتها، كما حكى سيبويه: كتبتُ إليه أن قُمْ. إلّا أن هذا الوجه عنده بعيد(١). وقال الزجَّاج: المعنى: ولقد آتينا لقمانَ الحكمة لأنْ يشكر الله تعالى(٢). وقيل: أي: بأنِ اشكُرْ لله تعالى فشكر، فكان حكيماً بشكره لنا. والشكر لله: طاعتُه فيما أمر به. وقد مضى القول في حقيقته لغةً ومعنًى في «البقرة»(٣) وغيرها. ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ أي: من يُطع الله تعالى فإنما يعمل لنفسه؛ لأنَّ نفع الثواب عائدٌ إليه. ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي: كفر النعم فلم يوحِّد الله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عن عبادة خلقه ﴿حَمِيدٌ﴾ عند الخلق؛ أي: محمود(٤). وقال يحيى بن سلاَّم: «غَنِيٌّ» عن خلقه «حَمِيدٌ» في فعله(٥).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ قال السُّهَيْليُّ: اسم ابنه ثاران؛ في قول الطبري والقُتَبيّ(٦). وقال الكلبي: مشكم. وقيل: أنعم. حكاه النقَّاش(٧).

وذكر القُشيريُّ أنَّ ابنَه وامرأَته كانا كافرين، فما زال يعِظُهما حتى أسلما. قلت: ودلَّ على هذا قوله: ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾. وفي «صحيح مسلم»(٨) وغيره عن عبد الله قال: لمَّا نزلت ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] شَقَّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أيُّنا لا يظلِمُ نفسَه؟ فقال رسول الله ﷺ: «ليس هو كما تظنُّون، إنما هو كما قال لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٣ . وكلام سيبويه في الكتاب ٣/ ١٦٢ .
(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٩٥ .
(٣) ٢/ ١٠٤ - ١٠٦ .
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٨ .
(٥) النكت والعيون ٤/ ٣٣٣ .
(٦) التعريف والإعلام ص ١٣٤ ، وهو في المعارف لابن قتيبة ص ٥٥ .
(٧) النكت والعيون ٤/ ٣٣٣ .
(٨) (١٢٤) ، وقد سلف ٨/ ٤٤٥ .

بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

واختُلِفَ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ فقيل: إنه من كلام لقمان. وقيل: هو خبرٌ من الله تعالى منقطعاً من كلام لقمان متصلاً به في تأكيد المعنى، ويؤيد هذا الحديث المأثور أنه لمَّا نزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ أشفقَ أصحابُ رسول الله ﷺ وقالوا: أيُّنا لم يظلم؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ فسكنَ إشفاقُهم، وإنما يسكن إشفاقُهم بأن يكون خبراً من الله تعالى، وقد يسكن الإشفاقُ بأن يذكرَ اللهُ ذلك عن عبدٍ قد وصفَه بالحكمة والسَّداد[1].

و«إذ» في موضع نصبٍ بمعنى اذكر. وقال الزجَّاج في كتابه في القرآن: إنَّ «إذ» في موضع نصبٍ بـ«آتينا» والمعنى: ولقد آتينا لقمانَ الحكمةَ إذ قال. النحَّاس: وأحسبه غلطاً؛ لأنَّ في الكلام واواً تمنع من ذلك. وقال: ﴿يَٰبُنَيِّ﴾ بكسر الياء؛ لأنَّها دالَّةٌ على الياء المحذوفة، ومَنْ فتحَها فلِخفَّة الفتحة عنده[2]، وقد مضى في «هود»[3] القولُ في هذا. وقوله: «يا بني» ليس هو على حقيقة التصغير وإن كان على لفظه، وإنَّما هو على وجه الترقيق، كما يقُال للرجل: يا أُخَيَّ، وللصبي: هو كُوَيْس.

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾

فيه ثماني مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ هاتان الآيتان اعتراضٌ بين أثناء

---

(١) المحرر الوجيز ٤/٣٤٨.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٤، وكلام الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٩٦.

(٣) ١١/ ١٢٣، ووقع في النسخ الخطية: يوسف.

وصيَّة لقمان. وقيل: إنَّ هذا ممَّا أوصى به لقمانُ ابنَه؛ أخبر الله به عنه، أي: قال لقمان لابنه[١]: لا تُشْرِك بالله ولا تُطِعْ في الشرك والديك، فإنَّ الله وصَّى بهما في طاعتهما ممَّا لا يكون شركاً ومعصيةً لله تعالى. وقيل: أي: وإذ قال لقمان لابنه، فقلنا للقمان فيما آتيناه من الحكمة ووصيَّنا الإنسان بوالديه، أي: قلنا له: اشكُرْ لله، وقلنا له: ووصَّينا الإنسان. وقيل: وإذا قال لقمان لابنه: لا تُشرك، ونحن وصَّينا الإنسان بوالديه حسناً، وأمرنا الناس بهذا، وأمر لقمان به ابنَه. ذكر هذه الأقوال القشيريُّ. والصحيح أنَّ هاتين الآيتين نزلتا في شأن سعد بن أبي وَقَّاص، كما تقدَّم في «العنكبوت»[٢]، وعليه جماعة المفسرين.

وجملةُ هذا الباب أنَّ طاعة الأبوين لا تُراعى في ركوب كبيرةٍ ولا في ترك فريضةٍ على الأعيان، وتلزم طاعتهُما في المباحات، ويُستحسن في ترك الطاعات الندب، ومنه أمر الجهاد الكفاية، والإجابة للأم في الصلاة مع إمكان الإعادة؛ على أنَّ هذا أقوى من الندب، لكن يُعلَّلُ بخوف هلكةٍ عليها، ونحوه مما يُبيح قطع الصلاة فلا يكون أقوى من الندب. وخالف الحسن في هذا التفصيل فقال: إن منعَتْه أمُّه من شهود العِشاء شفقةً فلا يُطِعْها[٣].

الثانية ـ لمَّا خصَّ تعالى الأم بدرجة ذكر الحمل وبدرجة ذكر الرَّضاع حصلَ لها بذلك ثلاث مراتب، وللأب واحدة، وأشبهَ ذلكَ قولَه ﷺ حين قال له رجلٌ: من أَبَرُّ؟ قال: «أمَّك» قال: ثمَّ من؟ قال: «أمَّك» قال: ثمَّ من؟ قال: «أمَّك» قال: ثمَّ من؟ قال: «أبوك» فجعل له الرُّبعَ من المَبَرَّة كما في هذه الآية[٤]، وقد مضى هذا كلُّه في «سبحان»[٥].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/٣٤٨، وزاد المسير ٦/ ٣٢٠.

(٢) ١٦/ ٣٣٩-٣٤٠.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٩.

(٤) المحرر الوجيز ٤/٣٤٨.

(٥) ١٣/ ٥٢ - ٥٣.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ أي: حملَتْه في بطنها وهي تزداد كلَّ يوم ضعفاً على ضعف. وقيل: المرأة ضعِيفةُ الخِلقة، ثم يُضْعِفها الحمل[(١)]. وقرأ عيسى الثَّقفيّ: «وَهَناً على وَهَن» بفتح الهاء فيهما، ورُويت عن أبي عمرو، وهما بمعنًى واحد[(٢)]. قال قَعْنَب ابن أم صاحب:

هل للعواذلِ من ناهٍ فَيزْجُرَها ... إنَّ العواذِلَ فيها الأَيْنُ والوَهَنُ[(٣)]

يقال: وَهَن يَهِنُ، ووَهُنَ يَوْهَنُ، ووَهِنَ يَهِنُ، مثلُ وَرِمَ يَرِمُ[(٤)].

وانتصب «وَهْناً» على المصدر، ذكره القشيري. النحَّاس[(٥)]: على المفعول الثاني بإسقاط حرف الجر، أي: حملته بضعفٍ على ضعف.

وقرأ الجمهور: «وَفِصَالُهُ»، وقرأ الحسن ويعقوب: «وفَصْله» وهما لغتان، أي: وفصاله في انقضاء عامين، والمقصود من الفصام الفطام، فعبَّر بغايته ونهايته[(٦)]. ويقال: انفصلَ عن كذا أي: تميَّز، وبه سُمِّيَ الفَصِيلُ.

الرابعة ـ الناسُ مُجْمِعون على العامين في مدة الرضاع في باب الأحكام والنفقات، وأما في تحريم اللبن فحدَّدتْ فرقةٌ بالعام لا زيادةَ ولا نقص. وقالت فرقةٌ: العامان وما اتَّصل بهما من الشهر ونحوه إذا كان متَّصلَ الرضاع. وقالت فرقة: إنَّ

---

(١) مجمع البيان ٢١/ ٥٣ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٩ ، والقراءة في المحتسب ٢/ ١٦٧ ، والشاذة ص ١١٦ - ١١٧ ، والمشهور عن أبي عمرو بمثل قراءة العامة.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٣٣٤ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٨٤ .

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٢٨٥ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٩ ، وزاد المسير ٦/ ٣١٩ ، وقراءة «وفصله» في المحتسب٢/ ١٦٧ عن الحسن ويعقوب وأبي رجاء والجحدري وقتادة، وفي الشاذة ص ١١٦ عن الجحدري. وزاد في زاد المسير نسبتها إلى طلحة بن مصرف.

فُطمَ الصبيّ قبل العامين وتركَ اللبن، فإنَّ ما شرب بعد ذلك في الحولين لا يحرِّم[(١)]؛ وقد مضى هذا في «البقرة»[(٢)] مستوفًى.

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي﴾ «أن» في موضع نصبٍ في قول الزجّاج، وأن المعنى: ووصينا الإنسان بوالديه أن اشكر لي. النحَّاس: وأجوَدُ منه أن تكون «أن» مفسِّرة، والمعنى قلنا له: أنِ اشكُرْ لي ولوالديك[(٣)]. قيل: الشكر لله على نعمة الإيمان، وللوالدين على نعمة التربية[(٤)]. وقال سفيان بن عُيَيْنة: من صلَّى الصلوات الخمس فقد شكر الله تعالى، ومن دعا لوالديه في أدبار الصلوات فقد شكرهما[(٥)].

السادسة ـ قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قد بيَّنّا أنَّ هذه الآية والتي قبلها نزلتا في شأن سعد بن أبي وقاص لمَّا أسلم، وأنَّ أمَّه ـ وهي حَمْنة بنت أبي سفيان بن أُميَّة ـ حلفت ألَّا تأكل؛ كما تقدَّم في الآية قبلها.

السابعة ـ قوله تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ نعتٌ لمصدرٍ محذوف[(٦)]، أي: مصاحِباً معروفاً؛ يقال: صاحبتُه مُصاحبةً ومُصاحَباً. و«مَعْرُوفاً» أي: ما يَحْسُن[(٧)].

والآية دليلٌ على صلة الأبوين الكافرَيْن بما أمكن من المال إن كانا فقيرين،

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٩.
(٢) ٤/ ١٠٦ - ١١١.
(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٥، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ١٩٦.
(٤) النكت والعيون ٤/ ٣٣٥.
(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٩، وتفسير البغوي ٣/ ٤٩١.
(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٥.
(٧) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٨٦.

وإلانة القول والدعاء إلى الإسلام برفق؛ وقد قالت أسماء بنت أبي بكر الصدِّيق للنبيِّ عليه الصلاة والسلام وقد قَدِمت عليها خالتُها ـ وقيل: أمُّها من الرضاعة ـ فقالت: يا رسول الله، إنَّ أمِّي قدِمَتْ عليَّ وهي راغبةٌ، أفأَصِلُها؟ قال: «نعم». وراغبة قيل: معناه: عن الإسلام. قال ابن عطية: والظاهر عندي أنها راغبةٌ في الصِّلة، وما كانت لِتقْدَم على أسماء لولا حاجتُها. ووالدة أسماء هي قُتيلة بنت عبد العُزَّى بن عبد أسد، وأمُّ عائشة وعبد الرحمن هي أم رُومان، قديمةُ الإسلام[(١)].

الثامنة ـ قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ وصيَّةٌ لجميع العالم؛ كأن المأمور الإنسان. و«أَنَابَ» معناه: مال ورجع إلى الشيء، وهذه سبيل الأنبياء والصالحين. وحكى النقَّاش أنَّ المأمور سعد، والذي أناب أبو بكر؛ وقال: إنَّ أبا بكرٍ لمَّا اسلمَ أتاه سعدٌ وعبد الرحمن بن عوف وعثمان وطلحة وسعيد والزُّبير فقالوا: آمنتَ؟ قال: نعم. فنزلت فيه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩] فلمَّا سمعَها الستة آمنوا، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ١٧-١٨][(٢)]. وقيل: الذي أناب النبيُّ ﷺ[(٣)]. وقال ابن عباس: ولمَّا أسلم سعد أسلم معه أخواه عامر وعُوَيْمر، فلم يبقَ منهم مشركٌ إلا عُتبة.

ثم توعَّد عزَّ وجلَّ بِبَعثِ مَن في القبور والرجوع إليه للجزاءِ والتوقيفِ على صغيرِ الأعمال وكبيرِها[(٤)].

قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾

المعنى: وقال لقمان لابنه: يا بُنَيَّ. وهذا القول من لقمان إنَّما قُصِدَ به إعلامُ ابنه

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٩ ، والحديث سلف ٦/ ١٤ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٩ .

(٣) زاد المسير ٦/ ٣٢٠ ، ونسبه إلى ابن السائب.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٩ .

بقدر قدرة الله تعالى. وهذه الغاية التي أمكنَه أن يفهَمَه؛ لأنَّ الخردلَةَ يقال: إنَّ الحِسَّ لا يُدرِكُ لها ثِقَلًا؛ إذ لا تُرجِّحُ ميزاناً[1]. أي: لو كان للإنسان رزقٌ مثقالَ حبَّةِ خَرْدَلٍ في هذه المواضع جاء الله بها حتى يسوقَها إلى مَنْ هي رِزقُه، أي: لا تهتمَّ للرزق حتى تشتغِلَ به عن أداء الفرائض، وعن اتباع سبيل من أناب إليَّ.

قلت: ومن هذا المعنى قولُ النبيِّ ﷺ لعبد الله بن مسعود: «لا تُكثِرْ هَمَّكَ، ما يُقَدَّرُ يكون، وما تُرْزَقُ يأتيك»[2]. وقد نطقتْ هذه الآية بأنَّ الله تعالى قد أحاط بكلِّ شيءٍ علماً، وأحصى كلَّ شيءٍ عدداً، سبحانه لا شريكَ له. ورُوِيَ أنَّ ابنَ لقمان سأل أباه عن الحبَّةِ تقع في سُفل البحر أيعلَمُها الله؟ فراجعه لقمانُ بهذه الآية. وقيل: المعنى أنه أراد الأعمال، المعاصي والطاعات، أي: إن تَكُ الحسنةُ أو الخطيئةُ مثقالَ حبةٍ يأتِ بها الله، أي: لا تفوتُ الإنسانَ المقدَّرَ وقوعُها منه. وبهذا المعنى يتحصَّل في الموعظة ترجيةٌ وتخويفٌ مضافٌ ذلك إلى تبيين قدرة الله تعالى. وفي القول الأوّل ليس فيه ترجيةٌ ولا تخويف.

قوله تعالى: ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾ عبارةٌ تصلح للجواهر، أي: قدر حبة، وتصلح للأعمال، أي: ما يزِنُه على جهة المماثلة قَدْرُ حبة. ومما يؤيِّد قولَ من قال: هي من الجواهر، قراءةُ عبد الكريم الجَزَري «فتِكِنَّ» بكسر الكاف وشدِّ النون، من الكِنِّ الذي هو الشيء المُغطَّى. وقرأ جمهور القُرَّاء: «إِنْ تَكُ» بالتاء من فوق «مِثْقَالَ» بالنصب على خبر كان، واسمُها مضمرٌ تقديره: مسألتك، على ما رُوي، أو المعصية والطاعة على القول الثاني[3]، ويدلُّ على صحته قولُ ابن لقمان لأبيه: يا أبتِ إن عملتُ الخطيئةَ حيث لا يراني أحدٌ كيف يعلمُها الله؟ فقال لقمان له: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٠.

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٨٠٦)، واللالكائي في شرح أصول السنة (١٠٨٠) عن مالك بن عبد الله المعافري أن رسول الله ﷺ... فذكره. إسناده منقطع.

(٣) من قوله: وقد نطقت هذه الآية... إلى هذا الموضع من المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٠، وما بين حاصرتين منه.

﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ الآية[١]. فما زال ابنه يضطرب حتى مات قاله مقاتل.

والضمير في «إِنَّهَا» ضمير القصة، كقولك: إنها هندٌ قائمةٌ، أي: القصة إنها إن تَكُ مثقالَ حبة. والبصريون يُجيزون: إنها زيدٌ ضربَتْه؛ بمعنى إن القصة. والكوفيون لا يُجيزون هذا إلا في المؤنث كما ذكرنا[٢].

وقرأ نافع: «مِثقالُ» بالرفع[٣]، وعلى هذا «تكُ» يرجع إلى معنى خردلة، أي: إن تَكُ حبةً من خردل. وقيل: أسند إلى المثقال فِعلاً فيه علامةُ التأنيث من حيث انضاف إلى مؤنثٍ هو منه[٤]؛ لأنَّ مثقالَ الحبة من الخردل إمَّا سيئة أو حسنة، كما قال: ﴿فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] فأنَّث وإن كان المِثلُ مذكراً؛ لأنه أراد الحسنات، وهذا كقول الشاعر:

مَشَيْنَ كما اهتزَّتْ رِماحٌ تسفَّهَتْ أعالِيَها مَرُّ الرياحِ النَّواسِمِ[٥]

و«تَكُ» ها هنا بمعنى تقع، فلا تقتضي خبراً.

قوله تعالى: ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ قيل: معنى الكلام: المبالغةُ والانتهاء في التفهيم، أي: أنَّ قدرتَه تعالى تنال ما يكون في تضاعيف صخرةٍ وما يكون في السماء والأرض[٦]. وقال ابن عباس: الصخرة تحت الأرَضين السبع وعليها الأرض[٧]. وقيل: هي الصخرة على ظهر الحوت[٨]. وقال السُّدِّي: هي صخرةٌ ليست في

(١) تفسير البغوي ٣/ ٤٩٢ .
(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٤ .
(٣) السبعة ص ٥١٣ ، والتيسير ص ١٥٥ .
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٠ .
(٥) قائله ذو الرمة، وقد سلف ١/ ٣١١ .
(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٠ .
(٧) تفسير البغوي ٣/ ٤٩٢ .
(٨) أخرجه الطبري ١٨/ ٥٥٦ عن عبد الله بن الحارث، وهو في النكت والعيون ٤/ ٣٣٧ .

السماوات والأرض[١]، بل هي وراءَ سبع أَرَضين عليها مَلَك قائم؛ لأنه قال: ﴿صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وفيهما غُنْيةٌ عن قوله: ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ وهذا الذي قاله ممكن، ويمكن أن يُقال: قوله: ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ تأكيدٌ، كقوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ . خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾، وقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وصَّى ابنَه بعُظْم الطاعات وهي الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهذا إنما يُريد به بعد أن يمتثل ذلك هو في نفسه ويزدجر عن المنكر، وهنا هي الطاعات والفضائل أجمع[٢]. ولقد أحسن من قال:

وابدأ بنفسِكَ فانْهَهَا عن غَيِّها   فإذا انتهتْ عنه فأنتَ حكيمُ

في أبياتٍ تقدَّم في «البقرة»[٣] ذِكرُها.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ يقتضي حضًّا على تغيير المنكر وإن نَالَكَ ضرر، فهو إشعارٌ بأن المغيِّر يؤذَى أحياناً، وهذا القَدْرُ على جهة النَّدبِ والقوَّة في ذات الله، وأما على اللزوم فلا[٤]، وقد مضى الكلام في هذا مستوفًى في «آل عمران» و«المائدة»[٥]. وقيل: أمره بالصبر على شدائد الدنيا كالأمراض وغيرها،

(١) زاد المسير ٦/ ٣٢١ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥١ .

(٣) ٢/ ٥٩ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥١ .

(٥) ٥/ ٧٣ و٨/ ١٠٥ - ١٠٦ .

وألَّا يخرج من الجزَع إلى معصية الله عزَّ وجلَّ[١]. وهذا قولٌ حسنٌ لأنه يعمُّ.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ قال ابن عباس: من حقيقة الإيمان الصبرُ على المكاره. وقيل: إنَّ إقامةَ الصلاة والأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر من عزم الأمور، أي: ممَّا عزمَه اللهُ وأمرَ به. قاله ابن جُريج. ويَحتمل أن يريد أنَّ ذلك من مكارم الأخلاق وعزائم أهل الحَزم السالكين طريق النجاة. وقول ابن جُريج أصوب[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي وابن مُحَيْصِن: «تصاعر» بالألف بعد الصاد. وقرأ ابن كثير وعاصم وابن عامر والحسن ومجاهد: «تُصَعِّر»[٣]. وقرأ الجَحدرِيُّ: «تُصْعر» بسكون الصاد[٤]، والمعنى متقارب. والصَّعَر: الميل، ومنه قول الأعرابي: وقد أقام الدهرُ صعري، بعد أن قمتُ صعرَه. ومنه قول عمرو بن حُنَيّ التَّغلبي[٥]:

وكنا إذا الجبَّار صَعَّرَ خدَّهُ ... أقمنا له من مَيْلِهِ فَتقوَّمِ

وأنشده الطبري: «فتقوَّمَا». قال ابن عطية: وهو خطأ؛ لأنَّ قافيةَ الشعر مخفوضة.

وفي بيتٍ آخر:

---

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٦ بقسمه الثاني.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥١ دون قول ابن عباس.

(٣) ينظر السبعة ص ٥١٣، والتيسير ص ١٧٦.

(٤) الشاذة ص ١١٧، وزاد المسير ٦/ ٣٢٢ ونسبها أيضاً إلى أبي بن كعب وأبي رجاء وابن السميفع.

(٥) كما في الشعر والشعراء ص ١٣.

أقمنا له من خَدِّهِ المُتصعِّرِ[١]

قال الهروي: «ولا تُصاعِرْ» أي: لا تُعرِضْ عنهم تكبُّراً عليهم؛ يقال: أصاب البعيرَ صَعَرٌ وصَيَدٌ إذا أصابه داء يَلْوي منه عنقَه. ثم يُقال للمتكبِّر: فيه صَعَرٌ وصَيَدٌ، فمعنى: «لا تُصَعِّر» أي: لا تُلزِمْ خدَّكَ الصَّعَر. وفي الحديث: «يأتي على الناس زمانٌ ليس فيهم إلا أَصْعَرُ أو أبتر» والأصعر: المُعرِضُ بوجهِه كِبْراً، وأراد رُذالةَ الناس الذين لا دينَ لهم. وفي الحديث: «كُلُّ صعَّارٍ ملعونٌ» أي: كلُّ ذي أُبَّهةٍ وكِبْرٍ.

الثانية - معنى الآية: ولا تُمِلْ خدَّكَ للناس كِبْراً عليهم وإعجاباً واحتقاراً لهم. وهذا تأويل ابن عباس وجماعة[٢]. وقيل: هو أن تلوِيَ شِدقَكَ إذا ذُكِرَ الرجلُ عندك كأنك تحتقره[٣]، فالمعنى: أقبِلْ عليهم متواضعاً مؤنساً مستأنساً، وإذا حدَّثكَ أصغرُهم فأصغِ إليه حتى يُكمِلَ حديثَه، وكذلك كان النبيُّ ﷺ يفعل[٤].

قلت: ومن هذا المعنى ما رواه مالك، عن ابن شهاب، عن أنس بن مالك، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا تَباغضوا، ولا تَدابروا، ولا تحاسدوا، وكونوا عبادَ الله إخواناً، ولا يحِلُّ لمسلمٍ أن يهجُرَ أخاه فوقَ ثلاث»[٥]. فالتدابرُ: الإعراضُ وتركُ الكلام والسلامُ ونحوه. وإنما قيل للإعراض تدابر؛ لأنَّ مَنْ أبغضْتَه أعرضْتَ عنه وولَّيتَه دُبُرَك، وكذلك يصنع هو بك. ومن أحببتَه أقبلتَ عليه بوجهك، وواجهتَه لتسُرَّه ويَسُرَّك، فمعنى التدابر موجودٌ فيمن صَعَّر خدَّه، وبه فسَّر مجاهدُ الآية. وقال ابن خُوَيْزِ مَنْدَاد: قوله: «ولا تُصاعِرْ خَدَّكَ للنَّاسِ» كأنه نهى أن يُذِلَّ نفسَه من غير حاجة، ونحو ذلك رُوِيَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «ليسَ للإنسان أن يُذِلَّ نفسَه»[٦].

---

(١) من بداية المسألة إلى هذا الموضع من المحرر الوجيز ٤/ ٣٥١ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥١ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ٣٣٩ عن أبي الجوزاء.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٨٥ .

(٥) أخرجه أحمد (١٢٠٧٣) ، والبخاري (٦٠٦٥) ، ومسلم (٢٥٥٩).

(٦) سلف ٥/ ٧٤ - ٧٥ .

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: مُتبختراً متكبراً، مصدر في موضع الحال[١]، وقد مضى في «سبحان»[٢]. وهو النشاط والمشي فَرَحاً في غير شغلٍ وفي غير حاجة. وأهلُ هذا الخُلُق ملازمون للفخر والخُيَلاء، فالمَرِحُ مختالٌ في مشيته[٣]. روى يحيى بن جابر الطائي عن ابن عائذ الأزْدي، عن غُضيف بن الحارث قال: أتيتُ بيتَ المقدس أنا وعبد الله بن عُبيد بن عُمير قال: فجلسنا إلى عبد الله بن عمرو بن العاص، فسمعتُه يقول: إنَّ القبرَ يُكلِّمُ العبدَ إذا وُضِعَ فيه فيقول: يا ابنَ آدمَ ما غرَّك بي؟! ألم تعلم أني بيتُ الوَّحدة؟! ألم تعلم أني بيتُ الظُّلمة؟! ألم تعلم أني بيتُ الحق؟! يا ابن آدم ما غَرَّكَ بي؟ لقد كنتَ تمشي حولي فَدَّاداً. قال ابن عائذ: قلتُ لغُضيف: ما الفدَّادُ يا أبا أسماء؟ قال: كبعض مِشيتِكَ يا ابن أخي أحياناً[٤]. قال أبو عبيد: والمعنى ذا مالٍ كثيرٍ وذا خُيلاء[٥]. وقال ﷺ: «مَنْ جرَّ ثوبَه خُيَلاء لا ينظر الله إليه يوم القيامة»[٦]. والفخور: هو الذي يُعدِّدُ ما أُعطِيَ، ولا يشكر اللهَ تعالى. قاله مجاهد[٧]. وفي اللفظة الفخرُ بالنسب وغير ذلك[٨].

قوله تعالى: ﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾

فيه ستُّ مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ لمَّا نهاه عن الخُلُق الذميم رسَمَ له

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٦ .
(٢) ١٣/ ٨٥ .
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥١ .
(٤) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ١٨/ ١٤٥ من طريق يحيى بن جابر، به.
(٥) غريب الحديث ١/ ٢٠٤ .
(٦) أخرجه أحمد (٥٣٥١)، والبخاري (٣٦٦٥)، ومسلم (٢٠٨٥) من حديث ابن عمر ﷺ.
(٧) أخرجه الطبري ١٨/ ٥٦٢ .
(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥١ .

الخُلقَ الكريم الذي ينبغي أن يستعمله فقال: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾ أي: توسَّط فيه. والقصد: ما بين الإسراع والبطء[١]، أي: لا تَدِبَّ دبيبَ المُتَماوِتين، ولا تَثِبْ وثبَ الشطار؛ وقال رسول الله ﷺ: «سرعةُ المشي تُذهِبُ بهاءَ المؤمن». فأما ما رُويَ عنه عليه الصلاة والسلام أنه كان إذا مشى أسرع، وقول عائشة في عمر رضي الله عنهما: كان إذا مشى أسرع؛ فإنما أرادت السرعةَ المرتفعةَ عن دبيب المتماوِت، والله أعلم[٢]. وقد مدح اللهُ سبحانه مَنْ هذه صفته حسبما تقدَّم بيانُه في «الفرقان»[٣].

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ أي: انقُصْ منه[٤]، أي: لا تتكلف رفع الصوت وخُذْ منه ما تحتاج إليه، فإنَّ الجهرَ بأكثر من الحاجة تكلُّفٌ يؤذي. والمراد بذلك كلِّه التواضع؛ وقد قال عمر لمؤذِّنٍ تكلَّف رفْعَ الأذان بأكثرَ من طاقته: لقد خشيتُ أن ينشقَّ مُرَيْطَاؤك. والمؤذِّن هو أبو محذورة سَمُرة بن مِعْيَر. والمُرَيْطاء: ما بين السُّرَّة إلى العانة[٥].

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ أي: أقبحُها وأوحشُها؛ ومنه: أتانا بوجهٍ منكر[٦]. والحمارُ مَثَلٌ في الذَّمِّ البليغ والشتيمة، وكذلك نُهاقُه، ومن

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٣٤، والحديث: «سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن» أخرجه أبو نعيم في الحلية ١٠/ ٢٩٠ من حديث أبي هريرة ﷺ، وفي إسناده أبو معشر نجيح بن عبد الرحمن، وهو ضعيف. وأخرجه ابن عدي في الكامل ٥/ ١٧٢٧ من حديث أبي هريرة أيضاً، وفي إسناده عمار بن مطر، وهو متروك. وأخرجه ٧/ ٢٥٣٩ من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، وفي إسناده الوليد بن سلمة، وهو متروك، وكذبه غير واحد.

وأخرجه ٥/ ١٦٧٣ من حديث ابن عمر ﷺ، وفي إسناده عمر بن محمد بن صهبان، وهو متروك. وأخرجه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (١٩٩) من حديث أنس بن مالك ﷺ، وفي إسناده مجهولون، وفيه أيضاً عبد السلام بن صالح بن سليمان الأزدي، وهو صاحب مناكير.

(٣) ١٥/ ٤٦٥.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٨٩.

(٥) غريب الحديث لأبي عبيد ٣/ ٢٩٧ - ٢٩٨.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٨٩.

استفحاشِهم لذكره مجرَّداً أنهم يكنون عنه ويرغبون عن التصريح فيقولون: الطويل الأذنين؛ كما يكنى عن الأشياء المستقذرة. وقد عُدَّ في مساوئ الآداب أن يجريَ ذِكْرُ الحمار في مجلس قومٍ من أولي المروءة. ومن العرب من لا يركب الحمار استنكافاً وإن بلغت منه الرُّجْلة[1]. وكان عليه الصلاة والسلام يركبه تواضعاً وتذلُّلاً لله تبارك وتعالى.

الرابعة - في الآية دليلٌ على تعريف قُبحِ رفع الصوت في المخاطبة والمُلاحاة بقبح أصوات الحمير؛ لأنها عالية[2]. وفي الصحيح عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «وإذا سمعتُم نهيقَ الحمير فتعوَّذوا بالله من الشيطان، فإنَّها رأَتْ شيطاناً»[3]. وقد رُوِيَ: أنه ما صاح حمارٌ ولا نبحَ كلبٌ إلَّا أن يرى شيطاناً[4]. وقال سفيان الثَّوري: صياحُ كلِّ شيءٍ تسبيحٌ إلَّا نهيق الحمير. وقال عطاء: نهيقُ الحمير دعاءٌ على الظَّلَمة[5].

الخامسة - وهذه الآية أدبٌ من الله تعالى بترك الصياح في وجوه الناس تهاوناً بهم[6]، أو بترك الصياح جملةً؛ وكانت العرب تَفْخَر بجهارة الصوت الجَهِير وغيرِ ذلك[7]، فمن كان منهم أشدَّ صوتاً كان أعزَّ، ومن كان أخفضَ كان أذلَّ[8]، حتى قال شاعرهم:

جَهِيرُ الكلامِ جهيرُ العُطاس ... جهِيرُ الرُّواء جهيرُ النَّغَمْ

(١) الكشاف ٣/ ٢٣٤ ، والرُّجلة: فعل الرجل الذي لا دابة له. تهذيب اللغة ١١/ ٣٢ .

(٢) غريب القرآن لابن قتيبة ص ٣٤٤ .

(٣) صحيح البخاري (٣٣٠٣)، وصحيح مسلم (٢٧٢٩) من حديث أبي هريرة ﷺ، وهو في مسند أحمد (٨٢٦٨).

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٦ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥١ .

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٦ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥١ .

(٨) النكت والعيون ٤/ ٣٤١ .

وَيَعْدُو على الأيْنَ عَدْوَى الظَّلِيم ويعلو الرجالَ بخَلْقٍ عَمَمْ[١]

فنهى الله سبحانه وتعالى عن هذه الخلق الجاهلية بقوله: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ أي: لو أنَّ شيئاً يُهابُ لصوته لكان الحمار، فجعلهم في المثلِ سواء[٢].

السادسة ـ قوله تعالى: ﴿لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ اللام للتأكيد، ووحَّد الصوتَ وإن كان مضافاً إلى الجماعة؛ لأنَّه مصدرٌ، والمصدر يدلُّ على الكثرة، وهو مصدرُ صاتَ يَصُوتُ صَوْتاً، فهو صائت. ويُقال: صوَّت تصويتاً فهو مُصوِّتٌ. ورجل صاتٌ أي: شديد الصوت، بمعنى صائت[٣]، كقولهم: رجل مالٌ ونالٌ، أي: كثير المال والنوال.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ذكرَ نِعمَه على بني آدم، وأنه سخَّر لهم «ما في السَّماواتِ» من شمسٍ وقمرٍ ونجومٍ وملائكةٍ تحوطُهم وتجرُّ إليهم منافعهم[٤]. «وما في الأرض» عامٌّ في الجبال والأشجار والثمار وما لا يُحصى. ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ﴾ أي: أكملَها وأتمَّها. وقرأ ابن عباس ويحيى بن عمارة: «وأصْبَغَ» بالصاد على بدلها من السين؛ لأنَّ حروف الاستعلاءِ تجتذب السين من

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٢ ، والشعر للراجز العماني كما في البيان والتبيين ١/ ١٢٦ ؛ قال الجاحظ: الأين: الإعياء. والظليم: ذكر النعام. ويقال: إنه لقمم الجسم، وإن جسمه لَعمم، إذا كان تاماً.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٤١ .

(٣) تهذيب اللغة ١٢/ ٢٢٣ .

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٦ .

سُفْلِها إلى عُلوِّها فتردُّها صاداً. والنِّعَم: جمع نِعمة كسِدْرة وسِدَر بفتح الدال[1]، وهي قراءة نافع وأبي عمرو وحفص. الباقون: «نِعمةً» على الإفراد[2]، والإفراد يدلُّ على الكثرة، كقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]. وهي قراءة ابن عباس من وجوهٍ صحاح. وقيل: إن معناها الإسلام[3]؛ قال النبيُّ ﷺ لابن عباس وقد سأله عن هذه الآية: «الظاهرةُ الإسلام وما حَسُن من خَلْقك، والباطنةُ ما سترَ عليك من سيِّئ عملِك»[4]. النحَّاس: وشرحُ هذا أن سعيد بن جُبير قال في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٦] قال: يُدخلكم الجنة. وتمام نعمة الله عزَّ وجلَّ على العبد أن يدخله الجنة، فكذا لمَّا كان الإسلامُ يؤول أمرُه إلى الجنة سُمِّيَ نعمة[5]. وقيل: الظاهرة: الصحة وكمال الخلق، والباطنة: المعرفة والعقل[6]. وقال المُحاسبي: الظاهرة: نِعَمُ الدنيا، والباطنة: نِعَمُ العُقْبى. وقيل: الظاهرة: ما يُرى بالأبصار من المال والجاه والجمال في الناس وتوفيق الطاعات، والباطنة: ما يجده المرءُ في نفسه من العلم بالله وحسن اليقين وما يدفع اللهُ تعالى عن العبد من الآفات. وقد سرد الماوَرْديُّ[7] في هذا أقوالاً تسعةً، كلُّها ترجعُ إلى هذا.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ تقدَّم معناها في «الحج»[8] وغيرِها. نزت في يهوديٍّ جاء إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا محمد، أخبرني عن ربِّكَ، مِن أيِّ شيءٍ هو؟ فجاءت صاعقةٌ فأخذَتْه. قاله مجاهد[9]. وقد مضى هذا في «الرعد»[10].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٢ ، وقراءة «وأصبغ» شاذة.
(٢) السبعة ص ٥١٣ ، والتيسير ص ١٧٧ .
(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٧ - ٢٨٨ .
(٤) أخرجه الديلمي في الفردوس ٤/ ٤٠٢ موقوفاً على ابن عباس ﷺ.
(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٨ .
(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٢ بنحوه.
(٧) في النكت والعيون ٤/ ٣٤٢ - ٣٤٣ .
(٨) ١٤/ ٣٢٦ - ٣٢٧ .
(٩) النكت والعيون ٤/ ٣٤٣ .
(١٠) ١٢/ ٣٥ .

وقيل: إنها نزلت في النَّضر بن الحارث، كان يقول: إنَّ الملائكةَ بناتُ الله. قاله ابن عباس[١]. ﴿يُجَٰدِلُ﴾ يخاصم ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ أي: بغير حُجَّة[٢] ﴿وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ أي: نيِّرٌ بيِّن، إلا الشيطان فيما يُلقي إليهم. ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾ [الأنعام: ١٢١] وإلا تقليد الأسلاف كما في الآية بعدُ. ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ يتبعونه.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٢٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: يخلص عبادته وقصده إلى الله تعالى. ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ لأنَّ العبادةَ من غير إحسانٍ ولا معرفةِ القلب لا تنفع؛ نظيره: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ [طه: ١١٢]. وفي حديث جبريل قال: فأخبِرْني عن الإحسان؟ قال: «أن تعبدَ الله كأنَّك تراه، فإن لم تكُنْ تراه فإنه يراك»[٣]. ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ قال ابن عباس: لا إله إلا الله. وقد مضى في «البقرة»[٤]. وقد قرأ عليُّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه والسُّلَمِيُّ وعبدا لله بن مسلم بن يسار: «وَمَنْ يُسَلِّم»[٥]. النحَّاس: و«يُسلِم» في هذا أعرف، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ٢٠] ومعنى: ﴿أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ﴾ قصدت بعبادتي إلى الله عزَّ وجلَّ،[٦] ويكون «يُسلِّم» على التكثير، إلَّا أنَّ المستعملَ في سلَّمتُ أنه بمعنى دفعتُ؛

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٣٤٣ لكن نسبه إلى أبي مالك.

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٣.

(٣) سلف ٢/ ١٣١.

(٤) ٤/ ٢٨٤.

(٥) الشاذة ص ١١٧، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٥٣ عن أبي عبد الرحمن السلمي وعبد الله بن مسلم، والكشاف ٣/ ٢٣٥ عن علي بن أبي طالب، وفي زاد المسير ٦/ ٣٢٥ عن أبي عبد الرحمن وأبي العالية وقتادة.

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٢٨٧.

يقال: سلَّمتُ في الحنطة، وقد يُقال: أسلمتُ. الزمخشريُّ(١): قرأ عليٌّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: «وَمَنْ يُسَلِّم» بالتشديد؛ يقال: أسلِمْ أمرَكَ وسلِّمْ أمرَكَ إلى الله تعالى، فإن قلتَ: ماله عُدِّيَ بإلى، وقد عدّى باللام في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١١٢]؟ قلتُ: معناه مع اللام أنه جعل وجهه وهو ذاتُه ونفسُه سالماً لله، أي: خالصاً له. ومعناه معَ إلى راجعٌ إلى أنه سلَّم إليه نفسَه كما يُسلِّم المتاعَ إلى الرجل إذا دفع إليه. والمراد التوكيل عليه والتفويض إليه.(٢)

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: مصيرها.

قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾ أي: نجازيهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾. ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾ أي: نُبقيهم في الدنيا مدَّةً قليلةً يتمتَّعون بها. ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ أي: نُلجئهم ونسوقهم. ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ وهو عذاب جهنم. ولفظ «مَنْ» يصلح للواحد والجمع، فلهذا قال: «كُفْرُهُ» ثم قال: «مَرْجِعُهُمْ» وما بعده على المعنى.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ أي: هم يعترفون بأنَّ الله خالقهم فلِمَ يعبدون غيره؟! ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: على ما هدانا له من دينه، وليس الحمد لغيره. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا ينظرون ولا يتدبَّرون. ﴿لِلَّهِ مَا

---

(١) في الكشاف ٣/ ٢٣٥.

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٤ .

﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ملكاً وخلقاً. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ أي: الغنيُّ عن خلقه وعن عبادتهم، وإنما أمرَهم لينفعهم. ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ أي: المحمود على صنعه.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾

لمَّا احتجَّ على المشركين بما احتجَّ بيَّن أن معاني كلامِه سبحانه لا تنفد، وأنها لا نهايةَ لها. وقال القَفَّال: لمَّا ذكر أنه سخَّر لهم ما في السماوات وما في الأرض وأنه أسبغَ النِّعم نبَّه على أنَّ الأشجار لو كانت أقلاماً، والبحارَ مداداً، فكُتِبَ بها عجائبُ صُنْعِ الله الدالَّةِ على قدرته ووحدانيته لم تنفد تلك العجائب. قال القُشَيْرِيُّ: فردَّ معنى تلك الكلمات إلى المقدورات، وحملُ الآية على الكلام القديم أوْلى، والمخلوق لا بُدَّ له من نهاية، فإذا نُفيتِ النهايةُ عن مقدوراته فهو نفيُ النهاية عما يُقَدَّر في المستقبل على إيجاده، فأمَّا ما حصره الوجودُ وعدَّه فلا بُدَّ من تناهيه، والقديمُ لا نهايةَ له على التحقيق. وقد مضى الكلام في معنى «كَلِمَاتُ اللهِ» في آخر «الكهف». وقال أبو عليٍّ: المرادُ بالكلمات ـ والله أعلم ـ ما في المقدور دون ما خرج منه إلى الوجود. وهذا نحوٌ ممَّا قاله القَفَّال، وإنَّما الغرضُ الإعلام بكثرة معاني كلمات الله وهي في نفسها غيرُ متناهية، وإنما قرَّب الأمر على أفهام البشر بما يتناهى، لأنه غايةُ ما يعهده البشر من الكثرة، لا أنها تنفذ بأكثر من هذه الأقلام والبحور. ومعنى نزول الآية يدلُّ على أن المُرادَ بالكلمات الكلامُ القديم.

قال ابن عباس: إنَّ سببَ هذه الآية أنَّ اليهود قالت: يا محمد، كيف عُنينا بهذا القول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] ونحن قد أوتينا التوراةَ فيها كلامُ الله وأحكامُه، وعندك أنها تبيانُ كلِّ شيء؟ فقال لهم رسول الله ﷺ: «التوراةُ قليلٌ من كثير» ونزلت هذه الآية، والآية مدنية[1]. قال أبو جعفر النحَّاس[2]: فقد تبيَّنَ أنَّ

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٤.

(٢) في معاني القرآن ٥/ ٢٩١ - ٢٩٢.

الكلماتِ ها هنا يُرادُ بها العلمُ وحقائقُ الأشياء؛ لأنَّه عزَّ وجلَّ عَلِم قبل أن يخلق الخلق ما هو خالقٌ في السماوات والأرض من كلِّ شيء، وعلم ما فيه من مثاقيل الذَّرِّ، وعلم الأجناس كلَّها وما فيها من شعرةٍ وعضوٍ، وما في الشجرة من ورقة، وما فيها من ضروب الخلق، وما يتصرَّف فيه من ضروب الطَّعم واللون، فلو سَمَّى كلَّ دابةٍ وحدَها، وسَمَّى أجزاءها على ما علم من قليلها وكثيرها وما تحوَّلت عليه من الأحوال، وما زاد فيها في كلِّ زمان، وبيَّنَ كلَّ شجرةٍ وحدَها وما تفرَّعت إليه، وقدَّر ما يَيبسُ من ذلك في كلِّ زمان، ثم كتب البيان على كلِّ واحدٍ منها ما أحاط الله جلَّ ثناؤه به منها، ثم كان البحر مداداً لذلك البيان الذي بيَّن الله تبارك وتعالى عن تلك الأشياء يمدُّه من بعده سبعةُ أبحُرٍ لكان البيانُ عن تلك الأشياء أكثر.

قلت: هذا معنى قول القفَّال، وهو قولٌ حسنٌ إن شاء الله تعالى. وقال قومٌ: إنَّ قريشاً قالت: سيتِمُّ هذا الكلامُ لمحمدٍ وينحسر، فنزلت. وقال السُّدِّي: قالت قريشٌ: ما أكثرَ كلام محمد! فنزلت[1].

قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ﴾ قراءة الجمهور بالرفع على الابتداء، وخبره في الجملة التي بعدها، والجملة في موضع الحال، كأنه قال: والبحرُ هذه حالُه. كذا قدَّرها سيبويه. وقال بعض النَّحويين: هو عطفٌ على «أنَّ» لأنها في موضع رفعٍ بالابتداء. وقرأ أبو عمرو وابن أبي إسحاق: «وَالْبَحْرَ» بالنصب على العطف على «ما» وهي اسمُ «أنَّ»[2]. وقيل: أي: ولو أنَّ البحر يمدُّه أي: يزيدُ فيه[3]. وقرأ ابن هُرْمُز والحسن: «يُمِدُّه» من أمدَّ. قالت فرقة: هما بمعنًى واحد. وقالت فرقة: مدَّ الشيءُ بعضَه بعضاً[4]، كما تقول: مدَّ النيلُ الخليجَ، أي: زادَ فيه[5]. وأمدَّ الشيءُ ما ليس

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٤.

(٢) المصدر السابق، وكلام سيبويه في الكتاب ٢/ ١٤٤، وقراءة أبي عمرو في السبعة ص ٥١٣، والتيسير ص ١٧٧.

(٣) زاد المسير ٦/ ٣٢٦.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٤، والقراءة في المحتسب ٢/ ١٦٩، وهي قراءة شاذة.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٨.

منه[(١)]. وقد مضى هذا في «البقرة» و«آل عمران»[(٢)]. وقرأ جعفر بن محمد: «والبحرُ مِدادُه»[(٣)]. ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ تقدَّم[(٤)]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ تقدَّم أيضاً[(٥)]. وقال أبو عبيدة[(٦)]: البحر ها هنا الماءُ العذبُ الذي يُنبِتُ الأقلامَ، وأمَّا الماءُ الملح فلا يُنبِتُ الأقلامَ.

قوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ قال الضحَّاك: المعنى: ما ابتداءُ خلقكم جميعاً إلَّا كخلقِ نفسٍ واحدة، وما بَعثُكم يومَ القيامة إلَّا كبعثِ نفسٍ واحدة. قال النحَّاس: وهكذا قدَّره النَّحويون بمعنى إلا كخلق نفس واحدة، مثل: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾[(٧)] [يوسف: ٨٢]. وقال مجاهد: لأنَّه يقول للقليل والكثير: كن فيكون[(٨)]. ونزلت الآية في أبيّ بن خلف وأبي الأشدين[(٩)] ومُنَبِّه ونبيه ابني الحجاج بن السباق، قالوا للنبيِّ ﷺ: إنَّ الله تعالى قد خلقَنا أطواراً، نطفةً ثم علقةً ثم مضغةً ثم عِظاماً، ثم تقول: إنا نُبعث خَلْقاً جديداً جميعاً في ساعةٍ واحدة! فأنزل الله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾؛ لأنَّ الله تعالى لا يصعب عليه ما يصعب على العباد، وخلْقُه للعالم كخلقه لنفس واحدة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما يقولون ﴿بَصِيرٌ﴾ بما يفعلون[(١٠)].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٤.
(٢) ١/ ٣١٦ - ٣١٧ و٥/ ٣٠٠.
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٤، وهي قراءة شاذة.
(٤) عند تفسير الآية (١٠٩) من سورة الكهف.
(٥) معنى العزيز سلف ٢/ ٤٠٣-٤٠٤، ومعنى الحكيم سلف ١/ ٤٢٩.
(٦) في مجاز القرآن ٢/ ١٢٨.
(٧) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٨.
(٨) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٢٩٢.
(٩) في (م): الأسدين.
(١٠) النكت والعيون ٤/ ٣٤٥.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ تقدَّم في «الحج» و«آل عمران»[1]. ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أي: ذلَّلهما بالطُّلوع والأُفول تقديراً للآجال وإتماماً للمنافع. ﴿كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ قال الحسن: إلى يوم القيامة. قتادة: إلى وقته في طلوعه وأُفوله لا يَعْدوه ولا يَقْصر عنه[2]. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: مَنْ قدر على هذه الأشياء فلا بُدَّ من أن يكون عالماً بها، والعالم بها عالمٌ بأعمالكم.

وقراءة العامَّة «تعملون» بالتاء على الخطاب. وقرأ السُّلَميُّ ونصر بن عاصم والدُّوريُّ عن أبي عمرو بالياء على الخبر[3].

﴿ذَلِكَ﴾ أي: فعلَ اللهُ تعالى ذلك لتعلموا وتُقِرُّوا ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾ أي الشيطان. قاله مجاهد. وقيل: ما أشركوا به الله تعالى من الأصنام والأوثان. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ العليُّ في مكانته، الكبيرُ في سلطانه[4].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ﴾ أي السفن ﴿تَجْرِي﴾ في موضع الخبر. ﴿فِي الْبَحْرِ

---

(١) في النسخ الخطية: الحج والأنعام. وقد سلف ١٤/٤٣٨ - ٤٣٩ و٥/ ٨٥ - ٨٦ .
(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٤٦ .
(٣) الشاذة ص ١١٧ من رواية عباس الدوري عن أبي عمرو، والمشهور عن أبي عمرو مثل قراءة العامة.
(٤) النكت والعيون ٤/ ٣٤٦ .

﴿بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ أي: بلطفه بكم وبرحمته لكم في خلاصكم منه.

وقرأ ابن هُرْمُز: «بِنعماتِ الله»[١] جمع نعمة، وهو جمع السلامة، وكان الأصلُ تحريك العين فأُسكنت.

﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ «مِنْ» للتبعيض، أي: ليريكم جَرْيَ السفن. قاله يحيى بن سلاَّم. وقال ابن شجرة: «مِنْ آياتِهِ» ما تشاهدون من قدرة الله تعالى فيه. النقَّاش: ما يرزقهم اللهُ منه. وقال الحسن: مفتاح البحار السفن، ومفتاح الأرض الطرق، ومفتاح السماء الدُّعاء. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: صبَّارٌ لقضائه، شكورٌ على نعمائه[٢]. وقال أهل المعاني: أراد لكل مؤمن بهذه الصفة؛ لأنَّ الصبر والشكر من أفضل خصال الإيمان[٣]. والآية: العلامة، والعلامةُ لا تستبينُ في صدر كلِّ مؤمن، إنما تستبينُ لمن صبر على البلاء، وشكر على الرخاء. قال الشعبيُّ: الصبرُ نصفُ الإيمان، والشكرُ نصفُ الإيمان، واليقينُ الإيمان كلُّه، ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ وقوله: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾[٤] وقال عليه السلام: «الإيمانُ نصفان، نصفٌ صبرٌ، ونصفٌ شكرٌ»[٥].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾ قال مقاتل: كالجبال. وقال الكلبي: كالسَّحاب ـ وقاله قتادة ـ جمع ظُلَّة؛ شبَّه الموجَ بها؛ لكبرها وارتفاعها[٦]. قال النابغة في وصف بحر:

---

(١) المحتسب ٢/ ١٧٠، والشاذة ص ١١٧ ونسبها أيضاً للأعمش.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٤٧.

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٥.

(٤) من قوله: قال الشعبي.. إلى هذا الموضع من النكت والعيون ٤/ ٣٤٧.

(٥) سلف ١٢/ ١٠٧.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٤٩٥ دون قول قتادة، وهو في النكت والعيون ٤/ ٣٤٧.

يـمـاشـيـهـنَّ أخـضـرُ ذو ظـلالٍ على حـافـاتـهِ فِـلَـقُ الـدِّنـانِ[١]

وإنما شبَّه الموجَ وهو واحد بالظُّلِّ وهو جمع؛ لأنَّ الموجَ يأتي شيئاً بعد شيءٍ ويركبُ بعضُه بعضاً كالظُّلل[٢]. وقيل: هو بمعنى الجمع، وإنما لم يُجْمَع لأنه مصدر. وأصلُه من الحركة والازدحام، ومنه: ماجَ البحر، والناس يموجون. قال كعب[٣]:

فـجئـنـا إلـى مـوجٍ مـن الـبحـر وَسْـطُـهُ أحـابـيـشُ مـنـهـا حـاسِـرٌ ومُـقـنَّـعُ

وقرأ محمد ابن الحنفية: «مَوْجٌ كالظِّلال» جمع ظِلّ[٤]. ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ موحِّدين له لا يدعون لخلاصهم سواه. وقد تقدَّم. ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ﴾ يعني من البحر[٥]. ﴿إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ قال ابن عباس: مُوفٍ بما عاهدَ عليه الله في البحر[٦]. النقاش يعني: عدلَ في العهد، وفَى في البَرِّ بما عاهد الله عليه في البحر. وقال الحسن: «مُقْتَصِدٌ» مؤمنٌ متمسِّكٌ بالتوحيد والطاعة. وقال مجاهد: «مُقْتَصِدٌ» في القول، مضمِرٌ للكفر[٧]. وقيل: في الكلام حذف، والمعنى: فمنهم مقتصدٌ ومنهم كافر. ودلَّ على المحذوف قوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ الختَّار: الغدار. والخَتْرُ: أسوأ الغدر[٨]. قال عمرو بن معدِ يكرِب:

فـإنَّـكَ لـو رأيـتَ أبـا عُـمـيـرٍ مـلأتَ يـديـكَ مـن غـدْرٍ وخَـتْـرِ

وقال الأعشى:

---

(١) مجاز القرآن ٢/ ١٢٩ ، وقال: ويروى: يعارضهن. قلنا: وكذلك هو في ديوان النابغة ـ وهو الجعدي ـ ص ١٦٣ ، ووقع في النسخ الخطية: وغاشيهنَّ. والدِّنان جمع دَنّ: وهو وعاء ضخمٌ للخمر ونحوها. المعجم الوسيط (دنن).

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٣٠ .

(٣) وهو ابن مالك في ديوانه ص ١٨٢ .

(٤) الشاذة ص ١١٧ .

(٥) النكت والعيون ٤/ ٣٤٨ ، وقد سلف ما أشار إليه المصنف ١٠/ ٤٧٥ .

(٦) مجمع البيان ٢١/ ٦٩ .

(٧) النكت والعيون ٤/ ٣٤٨ .

(٨) تهذيب اللغة ٧/ ٢٩٤ .

بالأبْلَقِ الفَرْدِ من تَيْماءَ منزِلُهُ حِصنٌ حَصينٌ وجارٌ غيرُ خَتَّارِ

قال الجوهري: الخَتْرُ الغدر؛ يقال: خترَه فهو ختَّار[1]. الماورديُّ: وهو قول الجمهور. وقال عطية: إنه الجاحد. ويقال: خَتَرَ يَخْتُرُ ويَخْتِرُ - بالضم والكسر - خَتْراً. ذكره القُشَيريُّ. وجحدُ الآيات إنكارُ أعيانها. والجَحدُ بالآيات إنكارُ دلائلها.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ يعني الكافر والمؤمن، أي: خافوه ووحِّدوه.[2] ﴿وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ تقدَّم معنى «يَجْزِي» في البقرة[3] وغيرها. فإن قيل: فقد قال النبيُّ ﷺ: «مَنْ مَاتَ له ثلاثةٌ من الولد لم يبلغوا الحِنْثَ لم تَمَسَّه النارُ إلا تَحِلَّة القسم»[4]. وقال: «من ابتُلي بشيءٍ من هذه البنات فأحسنَ إليهنَّ كُنَّ له حجاباً من النار»[5]. قيل له: المعنيُّ بهذه الآية أنه لا يحمل والدٌ ذنبَ ولده، ولا مولودٌ ذنبَ والده، ولا يؤاخَذُ أحدُهما عن الآخر. والمعنيُّ بالأخبار أنَّ ثوابَ الصبرِ على الموت والإحسانِ إلى البنات يحجبُ العبدَ عن النار، ويكون الولدُ سابقاً له إلى الجنة. ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: البعث[6] ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾ أي: تخدعنَّكم ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بزينتها وما تدعوا إليه فتتَّكلوا عليها وتركنوا إليها وتتركوا العمل للآخرة ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ قراءة العامة هنا وفي

(١) الصحاح (ختر).

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٤٨ .

(٣) ٢/ ٧٥ - ٧٦ .

(٤) سلف ٤/ ١٢ .

(٥) أخرجه أحمد (٢٦٠٦٠)، والبخاري (١٤١٨)، ومسلم (٢٦٢٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٦ .

سورة الملائكة[(١)] والحديد[(٢)] بفتح الغين، وهو الشيطان في قول مجاهدٍ وغيره[(٣)]، وهو الذي يغرُّ الخلقَ ويُمنِّيهم الدنيا ويُلهيهم عن الآخرة، وفي سورة «النساء» [الآية: ١٢٠]: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾.

وقرأ سماك بن حرب وأبو حيوة وابن السَّمَيْفَع بضمِّ الغين[(٤)]، أي: لا تغترُّوا. كأنه مصدرُ غرَّ يَغُرُّ غُروراً. قال سعيد بن جُبير: هو أن يعمل بالمعصية ويتمنَّى المغفرة[(٥)].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾

زعم الفرَّاء أنَّ هذا معنى النفي، أي: ما يعلمه أحدٌ إلا الله تعالى. قال أبو جعفر النحَّاس: وإنَّما صارَ فيه معنى النفي والإيجاب بتوقيف الرسول ﷺ على ذلك؛ لأنَّه ﷺ قال في قول الله عزَّ وجلَّ ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾: أنَّها هذه[(٦)]. قلت: قد ذكرنا في سورة «الأنعام» حديثَ ابن عمر في هذا، خرَّجه البخاري[(٧)]. وفي حديث جبريل عليه السلام قال: أخبرني عن الساعة؟ فقال رسول الله ﷺ: «ما المسؤول عنها بأعلمَ من السائل» هُنَّ خمسٌ لا يعلمهُنَّ إلى اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ قال: «صدقت». لفظ أبي داود الطيالسيّ[(٨)]. وقال عبد الله بن

---

(١) يعني سورة فاطر الآية (٥).

(٢) الآية (١٤).

(٣) مجمع البيان ٢١/ ٦٩ .

(٤) المحتسب ٢/ ١٧٢ عن سماك، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٥٦ عن سماك وأبي حيوة، وهي قراءة شاذة.

(٥) النكت والعيون ٤/ ٣٤٩ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٥٦ .

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٢٨٩ ، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣٣٠ .

(٧) في صحيحه (٤٦٩٧)، وقد سلف ٨/ ٤٠١ .

(٨) في مسنده (٢١) ، وأخرجه بغير هذا السياق أحمد (٣٦٧)، ومسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.

مسعود: كلُّ شيءٍ أوتي نبيُّكم ﷺ غير خمس: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾.. الآية إلى آخرها[(١)]. وقال ابن عباس: هذه الخمسة لا يعلمُها إلا الله تعالى، ولا يعلمُها مَلَكٌ مُقرَّبٌ ولا نبيٌّ مرسل[(٢)]. فمنِ ادَّعى أنه يعلم شيئاً من هذه فقد كفر بالقرآن؛ لأنه خالفه. ثم إنَّ الأنبياء يعلمون كثيراً من الغيب بتعريف الله تعالى إيَّاهم. والمرادُ إبطالُ كونِ الكَهنة والمنجِّمين ومن يستسقي بالأنواء، وقد يُعرَفُ بطول التجارب أشياءُ من ذكورة الحمل وأنوثته إلى غير ذلك، حسبما تقدَّم ذِكرُه في الأنعام[(٣)]. وقد تختلف التجربةُ وتنكسر العادة ويبقى العلم لله تعالى وحده. وروي أنَّ يهودياً كان يحسب حساب النجوم، فقال لابن عباس: إن شئتَ نبَّأتُكَ نجمَ ابنك، وأنه يموت بعد عشرة أيام، وأنت لا تموتُ حتى تعمى، وأنا لا يحول عليَّ الحولُ حتى أموت. قال: فأين موتُكَ يا يهودِيُّ؟ فقال: لا أدري. فقال ابن عباس: صدقَ الله ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ﴾ فرجعَ ابنُ عباس فوجدَ ابنَه محموماً، وماتَ بعد عشرة أيام. وماتَ اليهوديُّ قبل الحول، ومات ابن عباس أعمى. قال عليُّ بن الحسين راوي هذا الحديث: هذا أعجَبُ الأحاديث. وقال مقاتل: إنَّ هذه الآية نزلت في رجلٍ من أهل البادية اسمُه الوارث بن عمرو بن حارثة، أتى النبيَّ ﷺ فقال: إنَّ امرأتي حُبلى فأخبرني ماذا تلد، وبلادنا جدبةٌ فأخبرني متى ينزل الغيث، وقد علمتُ متى وُلدتُ فأخبرني متى أموتُ، وقد علمتُ ما علمتُ اليوم فأخبرني ماذا أعملُ غداً، وأخبرني متى تقوم الساعة؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية. ذكره القُشَيْرِيُّ والماوَرْدِيُّ[(٤)]. وروى أبو المَلِيح، عن أبي عَزَّة الهُذليِّ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أرادَ الله تعالى قَبْضَ رُوحِ عبدٍ بأرضٍ جعلَ له إليها حاجةً فلم ينتهِ حتى يَقْدَمَها» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ الله

(١) أخرجه أحمد (٣٦٥٩).

(٢) زاد المسير ٦/ ٣٣١ .

(٣) ٨/ ٤٠٢ - ٤٠٦ .

(٤) في النكت والعيون ٤/ ٣٥١ .

عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ..﴾ إلى قوله: ﴿بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ ذكره الماورديُّ[١]، وخرَّجه ابن ماجه[٢] من حديث ابن مسعود بمعناه. وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»[٣] مستوفًى.

وقراءة العامة: «وَيُنَزِّلُ» مُشدَّداً. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي مخفَّفاً[٤]. وقرأ أُبَيُّ بن كَعْب: «بِأَيَّةِ أَرْضٍ»[٥] الباقون «بِأَيِّ أَرْضٍ». قال الفرَّاء: اكتفى بتأنيث الأرض من تأنيث أيّ[٦]. وقيل: أراد بالأرض المكان فذكَّر؛ قال الشاعر:

فـــلا مُـــزْنـــةٌ وَدَقَـــتْ وَدْقَـــهـــا ولا أرضَ أبـــقَـــلَ إبـــقـــالَـــهـــا[٧]

وقال الأخفش: يجوز: مررتُ بجاريةٍ أيِّ جاريةٍ، وأيَّة جارية[٨]. وشبَّه سيبويه تأنيث «أيّ» بتأنيث كُلٍّ في قولهم: كُلَّتُهُنَّ[٩]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ «خَبيرٌ» نعتٌ لـ«عليم» أو خبرٌ بعد خبر[١٠]. والله تعالى أعلم.

تم الجزء السادس عشر من تفسير القرطبي
ويليه الجزء السابع عشر، ويبدأ بتفسير سورة السجدة

---

(١) في النكت والعيون ٤/ ٣٥٠، وأخرجه أحمد (١٥٥٣٩)، والترمذي (٢١٤٧).

(٢) في سننه (٤٢٦٣).

(٣) ص ٤ - ٧١.

(٤) السبعة ص ١٦٤ - ١٦٥، والتيسير ص ٧٥.

(٥) زاد المسير ٦/ ٣٣٠ - ٣٣١ عن أبي بن كعب وابن مسعود وابن أبي عبلة، وهي قراءة شاذة.

(٦) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٣٠.

(٧) قائله عامر بن جوين الطائي، وقد سلف ٩/ ٢٥١.

(٨) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٥٩ بنحوه.

(٩) الكشاف ٣/ ٢٣٩، وينظر الكتاب لسيبويه ٢/ ٤٠٧.

(١٠) إعراب القرآن ٣/ ٢٩٠.

تفسير سورة لقمان

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾ .

تقدم فى أول سورة « البقرة » عامة الكلام على ما يتعلق بصدر هذه السورة ،وهو أنه تعالى جعل هذا القرآن هدى وشفاء ورحمة للمحسنين ، وهم الذين أحسنوا العمل فى اتباع الشريعة ، فأقاموا الصلاة المفروضة بحدودها وأوقاتها ، وما يتبعها من نوافل راتبة وغير راتبة ، وآتوا الزكاة المفروضة عليهم إلى مستحقيها ، ووصلوا قراباتهم وأرحامهم ، وأيقنوا بالجزاء فى الدار الآخرة ، فرغبوا إلى اللّه فى ثواب ذلك ، لم يراؤوا به ولا أرادوا جزاء من الناس ولا شكورا ، فمن فعل ذلك كذلك فهو من الذين قال الله تعالى: ﴿ أُوْلَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ أى:على بصيرة وبينة ومنهج واضح وجلى، ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أى : فى الدنيا والآخرة .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾ .

لما ذكر تعالى حال السعداء ، وهم الذين يهتدون بكتاب اللّه وينتفعون بسماعه ، كما قال [الله](١) تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر:٢٣]، عطف بذكر حال الأشقياء ، الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام اللّه ، وأقبلوا على استماع المزامير والغناء بالألحان وآلات الطرب ، كما قال ابن مسعود فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ قال : هو ـ واللّه ـ الغناء .

قال ابن جرير : حدثنى يونس بن عبد الأعلى ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرنى يزيد بن يونس ، عن أبى صخر ، عن أبى معاوية البجلى ، عن سعيد بن جبير ، عن أبى الصهباء البكرى ، أنه سمع عبد اللّه بن مسعود ـ وهو يسأل عن هذه الآية :﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ـ فقال عبد اللّه : الغناء ، واللّه الذى لا إله إلا هو ، يرددها (٢) ثلاث مرات (٣) .

(١) زيادة من أ . (٢) فى ت : « فرددها » .
(٣) تفسير الطبرى (٢١/٣٩) .

حدثنا عمرو بن على ، حدثنا صفوان بن عيسى ، أخبرنا حُمَيْد الخراط ، عن عمار ، عن سعيد ابن جبير ، عن أبى الصهباء : أنه سأل ابن مسعود عن قول الله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ قال : الغناء [١].

وكذا قال ابن عباس ، وجابر ، وعِكْرِمة ، وسعيد بن جُبَيْر ، ومجاهد ، ومكحول ، وعمرو بن شعيب ، وعلى بن بَذِيمة .

وقال الحسن البصرى : أنزلت هذه الآية :﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فى الغناء والمزامير .

وقال قتادة : قوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ : والله لعله لا ينفق فيه مالا ، ولكن شراؤه استحبابه ، بحَسْب المرء من الضلالة أن يختارَ حديثَ الباطل على حديث الحق ، وما يضر على ما ينفع .

وقيل : عنى بقوله : ﴿ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ : اشتراء المغنيات من الجوارى .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن إسماعيل الأحْمَسى : حدثنا وكيع ، عن خَلاد الصفار ، عن عُبَيد الله بن زَحْر ، عن على بن يزيد ، عن القاسم بن عبد الرحمن [٢] ، عن أبى أمامة ، عن النبى ﷺ قال : « لا يحل بيع المغنيات ولا شراؤهن ،وأكل أثمانهن حرام ،وفيهن أنزل الله عز وجل عَلَىّ : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ » .

وهكذا رواه الترمذى وابن جرير ، من حديث عُبَيد الله بن زحر بنحوه [٣] ، ثم قال الترمذى : هذا حديث غريب . وضُعف[٤] على بن يزيد المذكور .

قلت : على ، وشيخه ، والراوى عنه ، كلهم ضعفاء . والله أعلم .

وقال الضحاك فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴾ يعنى : الشرك . وبه قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ؛ واختار ابن جرير أنه كل كلام يصد عن آيات الله واتباع سبيله .

وقوله : ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى : إنما يصنع هذا للتخالف للإسلام وأهله .

وعلى قراءة فتح الياء ، تكون اللام لام العاقبة ، أو تعليلا للأمر القدرى ، أى : قُيضوا لذلك ليكونوا كذلك .

وقوله : ﴿ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ قال مجاهد : ويتخذ سبيل الله هزوا ، يستهزئ بها .

وقال قتادة : يعنى : ويتخذ آيات الله هزوا . وقول مجاهد أولى .

وقوله تعالى :﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أى : كما استهانوا بآيات الله وسبيله ، أهينوا يوم القيامة فى العذاب الدائم المستمر .

---

(١) تفسير الطبرى (٢١/ ٣٩) .

(٢) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بإسناده » .

(٣) سنن الترمذى برقم (٣١٩٥) ، وتفسير الطبرى (٢١/ ٤٠) .

(٤) فى ت : « وفى إسناده » .

ثم قال تعالى :﴿ وَإِذَا تتلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِى أُذُنَيْهِ وَقْراً ﴾ أى : هذا المقبل على اللهو واللعب والطرب ، إذا تليت عليه الآيات القرآنية ، ولى عنها وأعرض وأدبر وتَصَامّ وما به من صَمَم ، كأنه ما يسمعها ؛ لأنه يتأذى بسماعها ، إذ لا انتفاع له بها ، ولا أَرَبَ له فيها ، ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أى : يوم القيامة يؤلمه ، كما تألم بسماع كتاب اللّه وآياته .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (٨) خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) ﴾ .

هذا ذكر مآل الأبرار من السعداء فى الدار الآخرة ، الذين آمنوا باللّه وصَدّقوا المرسلين ،وعملوا الأعمال الصالحة المتابعة [١] لشريعة اللّه ﴿ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ أى : يتنعمون فيها بأنواع الملاذ والمسارّ، من المآكل والمشارب ، والملابس والمساكن ، والمراكب والنساء ، والنضرة والسماع الذى لم يخطر ببال أحد ، وهم فى ذلك مقيمون دائما فيها ، لا يظعنون ولا يبغون عنها حولا .

وقوله :﴿ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ أى : هذا كائن لا محالة ؛ لأنه من وعد اللّه ، واللّه لا يخلف الميعاد؛ لأنه الكريم المنان ، الفعال لما يشاء ، القادر على كل شىء ، ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ ، الذى قد قهر كل شىء ، ودان له كل شىء ، ﴿الْحَكِيمُ ﴾ ، فى أقواله وأفعاله ، الذى جعل القرآن هدى للمؤمنين﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِى آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ [فصلت : ٤٤] ، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا﴾ [الإسراء : ٨٢] .

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (١١) ﴾ .

يبين سبحانه بهذا قدرته العظيمة على خلق السموات والأرض ، وما فيهما وما بينهما ، فقال: ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ ، قال الحسن وقتادة : ليس لها عَمَد مرئية ولا غير مرئية .

وقال ابن عباس ، وَعكرِمة ، ومجاهد : لها عمد لا ترونها . وقد تقدم تقرير هذه المسألة فى أول سورة « الرعد » بما أغنى [٢] عن إعادته .

﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ يعنى : الجبال أرست الأرض وثقلتها لئلا تضطرب بأهلها على وجه الماء ؛ ولهذا قال : ﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أى : لئلا تميد بكم .

وقوله : ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾ أى : وذرأ فيها من أصناف الحيوانات مما لا يعلم عدد أشكالها

---

(١) فى ف : « التابعة » ، وفى أ : « المتابعة » .

(٢) فى ت : « بما يغنى » .

وألوانها إلا الذى خلقها.

ولما قرر أنه الخالق نبه على أنه الرازق بقوله تعالى ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ أى : من كل زوج من النبات كريم ، أى : حسن المنظر .

وقال الشعبى : والناس ـ أيضاً ـ من نبات الأرض ، فمن دخل الجنة فهو كريم ، ومن دخل النار فهو لئيم .

وقوله : ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ ﴾ أى : هذا الذى ذكره تعالى من خلق السموات ، والأرض وما بينهما، صادر عن فعل اللّه وخلقه وتقديره ، وحده لا شريك له فى ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ أى : مما تعبدون وتدعون من الأصنام والأنداد ، ﴿ بَلِ الظَّالِمُونَ ﴾ يعنى: المشركين باللّه العابدين معه غيره ، ﴿ فِي ضَلالٍ ﴾ أى : جهل وعمى ، ﴿ مُّبِينٍ ﴾ أى : واضح ظاهر لا خفاء به .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢) ﴾ .

اختلف السلف فى لقمان ، عليه السلام : هل كان نبياً ، أو عبداً صالحا من غير نبوة ؟ على قولين ، الأكثرون على الثانى .

وقال سفيان الثورى ، عن الأشعث ، عن عِكْرِمَة ، عن ابن عباس قال : كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً .

وقال قتادة ، عن عبد اللّه بن الزبير، قلت لجابر بن عبد اللّه : ما انتهى إليكم من شأن لقمان ؟ قال : كان قصيراً أفطس من النوبة .

وقال يحيى بن سعيد الأنصارى ، عن سعيد بن المسيب قال : كان لقمان من سودان مصر ، ذا مشافر ، أعطاه اللّه الحكمة ومنعه النبوة .

وقال الأوزاعى ، رحمه اللّه : حدثنى عبد الرحمن بن حَرْمَلة قال : جاء أسود إلى سعيد بن المسيب يسأله ، فقال له سعيد بن المسيب : لا تحزن من أجل أنك أسود ، فإنه كان من أخير الناس ثلاثة من السودان : بلال ، ومهْجَع مولى عمر بن الخطاب ، ولقمان الحكيم ، كان أسوداً نوبياً ذا مشافر (١) .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن وَكِيع ، حدثنا أبى ، عن أبى الأشهب (٢) ، عن خالد الرَّبعىّ قال : كان لقمان عبداً حبشيا نجارا ، فقال له مولاه : اذبح لنا هذه الشاة . فذبحها ، فقال : أخْرجْ أطيب مُضغتين فيها . فأخرج اللسان والقلب ، فمكث ما شاء الله ثم قال : اذبح لنا هذه الشاة . فذبحها ، فقال : أخرج أخبث مضغتين فيها . فأخرج اللسان والقلب ، فقال له مولاه : أمرتك أن تخرج أطيب

---

(١) تفسير الطبرى (٢١/٤٣) .

(٢) فى أ : « الأشعث » .

مضغتين فيها فأخرجتهما ، وأمرتك أن تخرج أخبث مضغتين فيها فأخرجتهما . فقال لقمان : إنه ليس من شيء أطيب منهما إذا طابا ، ولا أخبث منهما إذا خَبُثا (١) .

وقال شعبة ، عن الحكم ، عن مجاهد : كان لقمان عبداً صالحاً ، ولم يكن نبيا .

وقال الأعمش : قال مجاهد : كان لقمان عبدا أسود عظيم الشفتين ، مشقق القدمين .

وقال حَكَّام بن سَلْم ، عن سعيد الزبيدى ، عن مجاهد : كان لقمان الحكيم عبدا حبشيا غليظ الشفتين ، مُصَفح القدمين ، قاضيا على بنى إسرائيل .

وذكر غيره : أنه كان قاضيا على بنى إسرائيل فى زمن (٢) داود ، عليه السلام .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حُمَيد ، حدثنا الحكم ، حدثنا عمرو بن قيس قال : كان لقمان ، عليه السلام ، عبداً أسود غليظ الشفتين ، مُصَفَّح القدمين ، فأتاه رجل وهو فى مجلس أناس يحدثهم ، فقال له : ألست الذى كنت ترعى معى الغنم فى مكان كذا وكذا ، قال : نعم . فقال : فما بلغ بك ما أرى ؟ قال : صدق الحديث ، والصمت عما لا يعنينى (٣).

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا صفوان ، حدثنا الوليد ، حدثنا (٤) عبد الرحمن ابن يزيد (٥) عن جابر قال : إن الله رفع لقمان الحكيم بحكمته ، فرآه رجل كان يعرفه قبل ذلك ، فقال له : ألست عبد بنى فلان الذى كنت ترعى بالأمس ؟ قال: بلى . قال : فما بلغ بك ما أرى ؟ قال : قَدَرُ الله ، وأداء الأمانة ، وصدق الحديث ، وتركى ما لا يعنينى .

فهذه الآثار منها ما هو مُصرَّح فيه بنفى كونه نبيا ، ومنها ما هو مشعر بذلك ؛ لأن كونه عبداً قد مَسَّه الرق ينافى كونه نبيا ؛ لأن الرسل كانت تبعث فى أحساب قومها ؛ ولهذا كان جمهور السلف على أنه لم يكن نبيا ، وإنما ينقل كونه نبيا عن عكرمة ـ إن صح السند إليه ، فإنه رواه ابن جرير ، وابن أبى حاتم من حديث وَكِيع (٦) ، عن إسرائيل ، عن جابر ، عن عكرمة فقال : كان لقمان نبياً. وجابر هذا هو ابن يزيد الجعفى ، وهو ضعيف ، والله (٧) أعلم .

وقال عبد الله بن وهب : أخبرنى عبد الله بن عياش القتْبَانى ، عن عُمَر مولى غُفْرَة قال : وقف رجل على لقمان الحكيم فقال : أنت لقمان ، أنت عبد بنى الحسحاس ؟ قال : نعم . قال : أنت راعى الغنم ؟ قال : نعم .قال : أنت الأسود ؟ قال : أما سوادى فظاهر ، فما الذى يعجبك من أمرى ؟ قال : وَطْء الناس بسَاطك ، وغَشْيُهم بابك ، ورضاهم بقولك . قال :يا ابن أخى(٨)، إن صَغَيتَ (٩) إلى ما أقول لك كنت كذلك . قال لقمان : غضى بصرى ، وكفى لسانى ، وعفة طعمتى، وحفظى فرجى ، وقولى بصدق ، ووفائى بعهدى ، وتكرمتى ضيفى ، وحفظى جارى ، وتركى ما لا يعنينى ، فذاك الذى صيرنى إلى ما (١٠) ترى .

---

(١) تفسير الطبرى (٢١/ ٤٣) .
(٢) فى أ : « زمان » .
(٣) تفسير الطبرى (٢١/ ٤٤) .
(٤) فى أ : « بن » .
(٥) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بسنده » .
(٦) فى ت : « عن وكيع » .
(٧) فى ت : « فالله » .
(٨) فى ف ، أ : « أبى » .
(٩) فى ف ، أ : « إن صنعت » .
(١٠) فى ت ، ف ، أ : « كما » .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا ابن نُفَيل ، حدثنا عمرو بن واقد ، عن عَبْدَةَ بن رَبَاح، عن ربيعة ، عن (١) أبى الدرداء ، رضى اللّه عنه ، أنه قال يوماً ـ وذُكرَ لقمان الحكيم ـ فقال : ما أوتى ما أوتى عن أهل ولا مال ، ولا حسب ولا خصال ، ولكنه كان رجلا صَمْصَامة سكيتا ، طويل التفكر ، عميق النظر ، لم ينم نهاراً قط ، ولم يره أحد قط يبزق ولا يتنخَّع ، ولا يبول ولا يتغوط، ولا يغتسل ، ولا يعبث ولا يضحك ، وكان لا يعيد منطقاً نطقه إلا أن يقول حكمة يستعيدها إياه أحد، وكان قد تزوج وولد له أولاد ، فماتوا فلم يبك عليهم . وكان يغشى السلطان ، ويأتى الحكام، لينظر ويتفكر ويعتبر (٢) ، فبذلك أوتى ما أوتى .

وقد ورد أثر غريب عن قتادة ، رواه ابن أبى حاتم ، فقال :

حدثنا أبى ، حدثنا العباس بن الوليد ، حدثنا زيد بن يحيى بن عبيد الخزاعى ، حدثنا سعيد بن بشير ، عن قتادة قال : خيّر اللّه لقمان الحكيم بين النبوة والحكمة ، فاختار الحكمة على النبوة . قال: فأتاه جبريل وهو نائم فَذرَّ عليه الحكمة ـ أو : رش عليه الحكمة ـ قال : فأصبح ينطق بها .

قال سعيد : فسمعت عن قتادة يقول : قيل للقمان : كيف اخترت الحكمة على النبوة وقد خيَّرك ربك ؟ فقال : إنه لو أرسل إليَّ بالنبوة عَزْمَة لرجوت فيه الفوز منه ، ولكنت أرجو أن أقوم بها ، ولكنه خيّرنى فخفت أن أضعف عن النبوة ، فكانت الحكمة أحب إليَّ.

فهذا من رواية سعيد بن بشير ، وفيه ضعف قد تكلموا فيه بسببه ، فاللّه أعلم .

والذى رواه سعيد بن أبى عَرُوبة ، عن قتادة ، فى قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ** ﴾ أى: الفقه فى الإسلام ، ولم يكن نبياً ، ولم يوح إليه .

وقوله : ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ**﴾ أى : الفهم والعلم والتعبير ، ﴿ **أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ** ﴾ أى : أمرناه أن يشكر اللّه ، عز وجل ، على ما آتاه اللّه ومنحه ووهبه من الفضل ، الذى خصه (٣) به عمن سواه من أبناء جنسه وأهل زمانه .

ثم قال تعالى : ﴿ **وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ** ﴾ أى : إنما يعود نفع ذلك وثوابه على الشاكرين(٤) لقوله (٥) تعالى: ﴿ **وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ** ﴾ [الروم : ٤٤] .

وقوله : ﴿ **وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ** ﴾ أى : غنى عن العباد ، لا يتضرر بذلك ، ولو كفر أهل الأرض كلهم جميعاً ، فإنه الغنى عما سواه ؛ فلا إله إلا اللّه ، ولا نعبد إلا إياه .

﴿ **وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا**

(١) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بسنده إلى » . (٢) فى ت : « ويعتب » . (٣) فى أ : « خصصه »
(٤) فى ت ، ف : « الشاكر » . (٥) فى ف : « كقوله » .

فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن وصية لقمان لولده ـ وهو : لقمان بن عنقاء بن سدون . واسم ابنه : ثاران فى قول حكاه السهيلى . وقد ذكره [اللّه] (١) تعالى بأحسن الذكر ، فإنه آتاه الحكمة ، وهو يوصى ولده الذى هو أشفق الناس عليه وأحبهم إليه ، فهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف ؛ ولهذا أوصاه أولا بأن يعبد اللّه وحده ولا يشرك به شيئاً ، ثم قال محذراً له : ﴿ **إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴾ أى: هو أعظم الظلم.

قال البخارى حدثنا قتيبة ، حدثنا جرير ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن علقمة (٢) ، عن عبد اللّه ، رضى اللّه عنه ، قال : لما نزلت : ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ** ﴾ [الأنعام:٨٢] ، شق ذلك على أصحاب رسول اللّه ﷺ ، وقالوا : أينا لم يَلْبِس إيمانه بظلم ؟ فقال رسول اللّه ﷺ : «إنه ليس بذاك ، ألا (٣) تسمع إلى قول لقمان : ﴿ **يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴾ » .

ورواه مسلم من حديث الأعمش ، به (٤) .

ثم قَرَنَ بوصيته إياه بعبادة اللّه وحده البرّ بالوالدين . كما قال تعالى : ﴿ **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا** ﴾ [الإسراء : ٢٣] . وكثيرا ما يقرن تعالى بين ذلك فى القرآن وقال ههنا : ﴿ **وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ** ﴾ . قال مجاهد : مشقة وَهْن الولد .

وقال قتادة : جهداً على جهد .

وقال عطاء الخراسانى : ضعفا على ضعف .

وقوله : ﴿ **وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ** ﴾ أى : تربيته وإرضاعه بعد وضعه فى عامين ، كما قال تعالى: ﴿ **وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ** ﴾ [البقرة : ٢٣٣] .

ومن ههنا استنبط ابن عباس وغيره من الأئمة أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ؛ لأنه قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ **وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا** ﴾ [الأحقاف : ١٥] .

وإنما يذكر تعالى تربيةَ الوالدة وتعبها ومشقتها فى سهرها ليلاً ونهاراً ، ليُذكّر الولد بإحسانها المتقدم إليه ، كما قال تعالى :﴿ **وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا** ﴾ [الإسراء : ٢٤] ؛ولهذا قال: ﴿ **أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ** ﴾ أى : فإنى سأجزيك (٥) على ذلك أوفر الجزاء .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا عبد اللّه بن أبى شيبة ، ومحمود بن غَيْلان قالا : حدثنا عبيد اللّه ، أخبرنا إسرائيل ، عن أبى إسحاق (٦) ، عن سعيد بن وهب قال : قدم علينا معاذ ابن جبل ، وكان بعثه النبى ﷺ ، فقام فحمد اللّه وأثنى عليه ثم قال: إنى [رسول] (٧) رسول اللّه ﷺ إليكم : أن تعبدوا اللّه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تطيعونى لا آلوكم خيراً ، وأن المصير إلى

---

(١) زيادة من ت . (٢) فى ت : « روى البخارى بسنده » . (٣) فى أ : « ألم » .

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٧٧٦) وصحيح مسلم برقم (١٢٤) .

(٥) فى أ : « سأجازيك » .

(٦) فى ت : « روى ابن أبى حاتم بسنده » . (٧) زيادة من ت ، أ .

الله، وإلى الجنة أو إلى النار ، إقامة فلا ظعن ، وخلود فلا موت .

وقوله : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا ﴾ أي : إن حرصا عليك كل الحرص على أن تتابعهما (١) على دينهما ، فلا تقبل منهما ذلك ،ولا يمنعنَّك ذلك من أن تصاحبهما في الدنيا معروفا ، أي : محسناً إليهما ، ﴿ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ يعنى : المؤمنين ، ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

قال الطبراني فى كتاب العشرة : حدثنا أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن حنبل ، حدثنا أحمد بن أيوب بن راشد ، حدثنا مسلمة بن علقمة ، عن داود بن أبى هند [عن أبى عثمان النهدى](٢) : أن سعد بن مالك قال : أنزلت فيَّ هذه الآية : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا ﴾ الآية ، وقال : كنت رجلا براً بأمى ، فلما أسلمت قالت : يا سعد ، ما هذا الذى أراك قد أحدثت ؟ لَتَدَعَنَّ دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت ، فَتُعَيَّر بى ، فيقال : «ياقاتل أمه ». فقلت : لا تفعلى يا أمَه ، فإنى لا أدع دينى هذا لشىء . فمكثت يوماً وليلة لم تأكل فأصبحت قد جهدت ، فمكثت يوماً [آخر] (٣) وليلة أخرى لا تأكل ، فأصبحت قد اشتد جهدها، فلما رأيت ذلك قلت: يا أمه ، تعلمين والله لو كانت لكى مائة نفس فخرَجت نَفْساً نَفْساً،ما تركت دينى هذا لشىء ،فإن شئت فكلى ، وإن شئت لا تأكلى .فأكلت (٤) .

﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (١٧) وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩) ﴾ .

هذه وصايا نافعة قد حكاها الله تعالى عن لقمان الحكيم ؛ ليمتثلها الناس ويقتدوا بها ، فقال : ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾ أى : إن المظلمة أو الخطيئة لو كانت مثقال حبة [من] (٥) خردل . وجوز بعضهم أن يكون الضمير فى قوله : ﴿ إِنَّهَا ﴾ ضمير الشأن والقصة .وجوز على هذا رفع ﴿ مِثْقَالَ ﴾ والأول أولى .

وقوله :﴿ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ﴾ أى : أحضرها الله يوم القيامة حين يضع الموازين القسط ، وجازى عليها إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . كما قال تعالى :﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء : ٤٧] ، وقال تعالى :

(١) فى أ : « تبايعهما » . (٢) زيادة من أسد الغابة ، والدر المنثور . (٣) زيادة من ت ، ف .
(٤) وذكره ابن الأثير فى أسد الغابة (٢/ ٢١٦) عن داود بن أبى هند .
(٥) زيادة من ت ، أ .

﴿فمن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه﴾ [الزلزلة : ٧، ٨] ، ولو كانت تلك الذرة محصنة محجبة فى داخل صخرة صَمَّاء ، أو غائبة ذاهبة فى أرجاء السموات أو الأرض (١) ، فإن اللّه يأتى بها ؛ لأنه لا تخفى عليه خافية ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض؛ ولهذا قال :﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أى : لطيف العلم ، فلا تخفى عليه الأشياء وإن دقت ولطفت وتضاءلت ، ﴿خَبِيرٌ﴾ بدبيب النمل فى الليل البهيم .

وقد زعم بعضهم أن المراد بقوله :﴿ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ : أنها صخرة تحت الأرضين (٢) السبع ، ذكره السُّدِّى بإسناده ذلك المطروق عن ابن عباس وابن مسعود وجماعة من الصحابة إن صح ذلك ، ويروى هذا عن عطية العوفى ، وأبى مالك ، والثورى ، والمنهال بن عمرو ، وغيرهم . وهذا واللّه أعلم ، كأنه متلقى من الإسرائيليات التى لا تصدق ولا تكذب ، والظاهر ـ واللّه أعلم ـ أن المراد : أن هذه الحبة فى حقارتها لو كانت داخل صخرة ، فإن اللّه سيبديها ويظهرها بلطيف علمه ، كما قال(٣) الإمام أحمد :

حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا ابن لَهيعة ، حدثنا دَراج ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد الخدرى ، رضى اللّه عنه ، عن رسول اللّه ﷺ قال : « لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صَمَّاء، ليس لها باب ولا كُوَّة ، لخرج عمله للناس كائناً ما كان » (٤) .

ثم قال : ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ﴾ أى : بحدودها وفروضها وأوقاتها ،﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ أى : بحسب طاقتك وجهدك،﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ﴾ ،علم أن الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر ، لابد أن يناله من الناس أذى ، فأمره بالصبر .

وقوله : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ أى : إن الصبر على أذى الناس لمن عزم الأمور .

وقوله :﴿ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ يقول : لا تُعرِضْ بوجهك عن الناس إذا كلمتهم أو كلموك ، احتقاراً منك لهم ، واستكباراً عليهم ولكن ألِنْ جانبك ، وابسط وجهك إليهم ، كما جاء فى الحديث: « ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه مُنْبَسِط ، وإياك وإسبال الإزار فإنها من المخِيلَة ، والمخيلة لا يحبها اللّه » .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله :﴿ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ يقول : لا تتكبر فتحقرَ (٥) عبادَ اللّه ، وتعرض عنهم بوجهك إذا كلموك . وكذا روى العوفى وعكرمة عنه .

وقال مالك ، عن زيد بن أسلم :﴿ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ : لا تكلَّم وأنت معرض . وكذا رُوى عن مجاهد ، وعِكْرِمة ، ويزيد بن الأصم ، وأبى الجوزاء ، وسعيد بن جُبَيْر ، والضحاك ، وابن يزيد ، وغيرهم.

وقال إبراهيم النَّخعِى : يعنى بذلك : التشديق فى الكلام .

---

(١) فى ف : « والأرض » . (٢) فى ف ،أ : « الأرض » . (٣) فى ت : « كما روى » .
(٤) المسند (٣/٢٨) ، وحسنه الهيثمى فى المجمع (١٠/٢٢٥) وفيه ابن لهيعة عن دراج وهما ضعيفان .
(٥) فى ت ، أ : « فتحتقر » .

والصواب القول الأول .

قال ابن جرير : وأصل الصَّعَر: داء يأخذ الإبل فى أعناقها أو رؤوسها ، حتى تُلفَتَ (١) أعناقُها عن رؤوسها ، فشبه به الرجل المتكبر ، ومنه قول عمرو بن حُنى التَّغْلَبى :

وَكُنَّا إذَا الجَبَّارُ صَعَّر خَدَّه أقَمْنَا لَه مِنْ مَيْلِه فَتَقَوّمَا (٢)

وقال أبو طالب فى شعره :

وَكُنَّا قَديماً لا نقر ظُلامَة إذ ما ثَنوا صُعْر الرؤوس نُقِيمها (٣)

وقوله : ﴿وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا﴾ أى : جذلا متكبراً جباراً عنيداً ، لا تفعل ذلك يبغضك الله؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي : مختال معجب فى نفسه ، فخور : أى على غيره ، وقال تعالى (٤) : ﴿ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ [الإسراء : ٣٧] ، وقد تقدم الكلام على ذلك فى موضعه .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى : حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمى ، حدثنا محمد بن عمران ابن أبى ليلى ، حدثنا أبى ، عن ابن أبى ليلى ، عن عيسى ، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى (٥) ، عن ثابت بن قيس بن شَمَّاس قال : ذكر الكبر عند رسول الله ﷺ فشدد فيه ، فقال : «إن الله لا يحب كل مختال فخور » . فقال رجل من القوم : والله يا رسول الله إنى لأغسل ثيابى فيعجبنى بياضها ، ويعجبنى شراك نعلى ، وعِلاقة سَوْطى ، فقال : « ليس ذلك الكبر ، إنما الكبر أن تَسفَه الحق وتَغْمط(٦) النَاس » (٧).

ورواه من طريق أخرى بمثله ، وفيه قصة طويلة ، ومقتل ثابت ووصيته بعد موته (٨).

وقوله : ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾ أى : امش مشياً مقتصدا ليس بالبطىء المتثبط ، ولا بالسريع المفرط، بل عدلاً وسطاً بين بين .

وقوله : ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ أى : لا تبالغ فى الكلام ، ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ ، قال مجاهد وغير واحد: إن أقبح الأصوات لصوت الحمير ، أى : غاية مَنْ رفع صوته أنه يُشبه بالحمير فى علوه ورفعه ، ومع هذا هو بغيض إلى الله تعالى . وهذا التشبيه فى هذا بالحمير يقتضى تحريمه وذمه غاية الذم ؛ لأن رسول الله ﷺ قال: « ليس لنا مثل السوء ، العائد فى هبته كالكلب يقىء ثم يعود فى قيئه » .

وقال النسائى عند تفسير هذه الآية : حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا الليث ، عن جعفر بن ربيعة، عن الأعرج (٩) ،عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ [أنه] (١٠) قال : « إذا سمعتم صياح الديكة

(١) فى ت : « تلتفت » ، وفى أ : « بلغت » .
(٢) البيت فى مجاز القرآن لأبى عبيدة (٢/ ١٢٧) .
(٣) البيت فى السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٦٩) .
(٤) فى أ : « وقد قال الله تعالى » . (٥) فى ت : « وروى الطبرانى بإسناده » . (٦) فى ت ، ف : « تغمص » .
(٧) المعجم الكبير (٢/ ٦٩) وفيه انقطاع بين ابن أبى ليلى وثابت .
(٨)المعجم الكبير (٢/ ٧٠) من طريق عبد الرحمن بن يزيد، عن عطاء، عن بنت ثابت بقصة أبيها ، وقال الهيثمى فى المجمع (٩/ ٣٢٢): «وبنت ثابت بن قيس لم أعرفها ، وبقية رجاله رجال الصحيح» .
(٩) فى ت : « وروى النسائى عند تفسير هذه الآية بإسناده » . (١٠) زيادة من أ .

فاسألوا اللّه من فضله،وإذا سمعتم نهيق الحمير (١) فتعوذوا باللّه من الشيطان ،فإنها رأت شيطاناً » .

وقد أخرجه بقية الجماعة سوى ابن ماجه ، من طرق ، عن جعفر بن ربيعة به (٢) ، وفي بعض الألفاظ : « بالليل » ، فاللّه أعلم .

فهذه وصايا نافعة جداً ، وهي من قَصص القرآن العظيم عن لقمان الحكيم . وقد روى عنه من الحكم والمواعظ أشياء كثيرة ، فلنذكر منها أنموذجاً ودستوراً إلى ذلك .

قال الإمام أحمد : حدثنا ابن إسحاق ، أخبرنا ابن المبارك ، أخبرنا سفيان ، أخبرني نَهْشَل بن مُجَمِّع الضبي عن قزعة ، عن ابن عمر (٣) ، رضي اللّه عنه (٤) ، قال : أخبرنا رسول اللّه ﷺ قال: « إن لقمان الحكيم كان يقول : إن اللّه إذا استودع شيئا حفظه » (٥) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا عيسى بن يونس ، عن الأوزاعي ، عن موسى بن سليمان ، عن القاسم [بن مُخَيْمرة يحدث عن أبي موسى الأشعري] (٦) أن رسول اللّه ﷺ قال : « قال لقمان لابنه وهو يعظه : يابني ، إياك والتقنع فإنه مخوفة بالليل ، مذلة بالنهار»(٧).

وقال : حدثنا أبي ، حدثنا عمرو بن عثمان ، عن ضَمْرَة ، حدثنا السَّرِيّ بن يحيى (٨) قال : قال لقمان لابنه : يا بني ، إن الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك .

وقال : حدثنا أبي ، حدثنا عبدة بن سليمان ، أخبرنا ابن المبارك ، حدثنا عبد الرحمن المسعودي(٩) ، عن عَوْن بن عبد اللّه قال : قال لقمان لابنه : يا بني ، إذا أتيت نادي قوم فارمهم بسهم الإسلام ـ يعني السلام ـ ثم اجلس في ناحيتهم ، فلا تنطق حتى تراهم قد نطقوا ، فإن أفاضوا في ذكر اللّه فَأجِلْ سهمك معهم ، وإن أفاضوا في غير ذلك فتحول عنهم إلى غيرهم .

وحدثنا أبي ، حدثنا عمرو بن عثمان بن سعيد بن كثير بن دينار ، حدثنا ضمرة (١٠) ، عن حفص ابن عمر ، رضي اللّه عنه ، قال : وضع لقمان جراباً من خردل إلى جانبه ، وجعل يعظ ابنه وعظة ويخرج خردلة ، حتى نفذ الخردل ، فقال : يا بني ، لقد وعظتك موعظة لو وُعظَها جبل لتفطر . قال : فتفطر ابنه .

وقال أبو القاسم الطبراني : حدثنا يحيى بن عبد الباقي المِصِّيصي، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الحراني ، حدثنا عثمان بن عبد الرحمن الطرائفي ، حدثنا أبينَ (١١) بن سفيان المقدسي ، عن خليفة ابن سلام ، عن عطاء بن أبي رباح (١٢) ، عن ابن عباس قال : قال رسول اللّه ﷺ : « اتخذوا

---

(١) في ت : « الحمار» .

(٢) النسائي في السنن الكبرى (١١٣٩١) وصحيح البخاري برقم (٣٣٠١)، وصحيح مسلم برقم (٢٧٧٩) وسنن أبي داود برقم (٥١٠٢) وسنن الترمذي برقم (٣٤٥٩) .

(٣) في ت : « فروى الإمام أحمد بإسناده » .

(٤) في ت ، ف : « عنهما » .

(٥) المسند (٢/ ٨٧) .

(٦) زيادة من أ ، و المستدرك .

(٧) ورواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤١١) وقال : « هذا متن شاهده إسناد صحيح » وأقره الذهبي.

(٨) في ت : « وروى أيضا بإسناده عن السري بن يحيى » .

(٩) في ت : « وروى ابن أبي حاتم بإسناده عن القاسم بن مخيمرة ».

(١٠) في ت : « وروى أيضا » .

(١١) في ت ،أ ،ف ،هـ : « أنس » ، والتصويب من المعجم الكبير وكتب الرجال .

(١٢) في ت : « وروى الطبراني بسنده » .

السودان فإن ثلاثة منهم من سادات أهل الجنة : لقمان الحكيم ، والنجاشى ، وبلال المؤذن » (١) .

قال أبو القاسم الطبرانى : أراد الحبش .

فصل فى الخمول والتواضع

وذلك متعلق بوصية لقمان ، عليه السلام ، لابنه ، وقد جمع فى ذلك الحافظ أبو بكر بن أبى الدنيا كتاباً مفرداً [و] (٢) نحن ، نذكر منه مقاصده ، قال :حدثنا إبراهيم بن المنذر،حدثنا عبد الله ابن موسى المدنى ، عن أسامة بن زيد ، عن حفص بن عبيد الله بن أنس بن مالك : سمعت رسول الله ﷺ يقول :«رُبَّ أشعثَ ذى طِمْرَين يُصْفَح عن أبواب الناس ،إذا (٣) أقسم على الله لأبره»(٤).

ثم رواه من حديث جعفر بن سليمان ، عن ثابت وعلى بن زيد ، عن أنس ، عن النبى ﷺ ، فذكره ، وزاد ، منهم البراء بن مالك (٥).

[وروى أيضا عن أنس ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « طوبى للأتقياء الأثرياء الذين إذا حضروا لم يعرفوا ، وإذا غابوا لم يفتقدوا ، أولئك مصابيح مجردون من كل فتنة غبراء مشينة »] (٦) .

وقال أبو بكر بن سهل التميمى : حدثنا ابن أبى مريم ، حدثنا نافع بن يزيد ، عن عياش بن عباس ، عن عيسى بن عبد الرحمن ، عن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن عمر ، رضى الله عنه ، أنه دخل المسجد فإذا هو بمعاذ بن جبل يبكى عند قبر رسول الله ﷺ ، فقال له : ما يبكيك يا معاذ ؟ قال: حديث سمعته من رسول الله ﷺ ، سمعته يقول : « إن اليسير من الرياء شرك ، وإن الله يحب الأتقياء الأخفياء الأثرياء ، الذين إذا غابوا لم يفتقدوا ، وإذا حضروا لم يعرفوا ، قلوبهم مصابيح الهدى ، ينجون من كل غبراء مظلمة » (٧) .

حدثنا الوليد بن شجاع ، حدثنا عَثَّام بن على ، عن حميد بن عطاء الأعرج ، عن عبد الله بن الحارث ، عن عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال :« رُبَّ ذى طمرين لا يُؤبَه له، لو أقسم على الله لأبره ، لو قال :اللهم إنى أسألك الجنة لأعطاه الجنة ، ولم يعطه من الدنيا شيئاً » (٨) .

وقال أيضا : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن سالم بن أبى الجعد قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من أمتى من لو أتى باب أحدكم يسأله ديناراً أو درهما أو

---

(١) المعجم الكبير (١١/١٩٨) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٤/ ٢٣٥) : « فيه أيمن بن سفيان وهو ضعيف »

(٢) زيادة من ت ، ف . (٣) فى ت ، ف: « لو » .

(٤) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٥٠٥٤) « مجمع البحرين » قال : « حدثنا أحمد بن يحيى الحلوانى ، حدثنا إبراهيم بن المنذر، فذكر مثله ـ ثم قال ـ : لم يروه عن حفص إلا أسامة » ، وله شاهد فى صحيح مسلم برقم (٢٦٢٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

تنبيه : سقط هذا الحديث من مخطوطة التواضع والخمول لابن أبى الدنيا ، وكذا الرواية بعده .

(٥) ورواه الترمذى فى السنن برقم(٣٨٥٤) من طريق سيار عن جعفر بن سليمان به،وقال:« هذا حديث حسن صحيح من هذا الوجه »

(٦) زيادة من ت ، أ .

(٧) التواضع والخمول لابن أبى الدنيا برقم(٨) .

(٨) سقط الحديث من مخطوطة التواضع والخمول ، ورواه الديلمى فى مسند الفردوس برقم (٣٢٤٦) من طريق ابن أبى الدنيا .

فلساً لم يعطه ، ولو سأل الله الجنة لأعطاه إياها ، ولو سأله (١) الدنيا لم يعطه إياها ، ولم يمنعها إياه لهوانه عليه ، ذو طمرين لايؤبه له ، لو أقسم على الله لأبره » (٢) .

وهذا مرسل من هذا الوجه .

وقال أيضا : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، أخبرنا جعفر بن سليمان ، حدثنا عَوْف قال : قال أبو هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من ملوك الجنة كُل (٣) أشعثَ أغبر ذى طمرين لا يُؤبَه له، الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم ، وإذا خطبوا النساء لم ينكحوا ، وإذا قالوا لم يُنصَت لهم، حوائج أحدهم تتجلجل فى صدره ، لو قسم نوره يوم القيامة بين الناس لوسعهم » (٤).

قال : وأنشدنى عمر بن شَبَّةَ ، عن ابن عائشة قال : قال عبد الله بن المبارك :

ألا رُبّ ذى طمْرَيــن فى مَنْزل غَداً ... زرَابيــــه مَبْـثُــوثَــةً ونَـمَــارقُـــه
قَد اطّرَدَتْ أنهــاره حَــوْلَ قَصــْره ... وَأَشرَقَ والتــفَّتْ عَلَـيه حَدَائقُه (٥)

وروى ـ أيضا ـ من حديث عُبَيد الله بن زَحْر ، عن على بن زيد ، عن القاسم ، عن أبى أمامة مرفوعا : « قال الله : منْ أغبط أوليائى عندى : مؤمن خفيف الحاذ ، ذو حظ من صلاة ، أحسن عبادة ربه ، وأطاعه فى السر ، وكان غامضا فى الناس ، لا يشار إليه بالأصابع . إن صبر على ذلك». قال : ثم نَقَد رسول الله بيده وقال : « عُجّلت منيته ، وقل تراثه ، وقلت بواكيه » (٦) .

وعن عبد الله بن عمرو قال : أحب عباد الله (٧) إلى الله الغرباء . قيل : ومن الغرباء ؟ قال : الفرارون بدينهم ، يجمعون يوم القيامة إلى عيسى ابن مريم (٨) .

وقال الفضيل بن عياض : بلغنى أن الله تعالى (٩) يقول للعبد يوم القيامة : ألم أنعم عليك ؟ ألم أعطك ؟ ألم أسترك ؟ ألم . . ؟ألم . . ؟ ألم أخمل ذكرك ؟ ثم قال الفضيل : إن استطعت ألا تُعرَف فافعل ، وما عليك ألا يُثنى عليك ، وما عليك أن تكون مذموما عند الناس محموداً عند الله.

وكان ابن مُحَيْرِيز يقول : اللهم إنى أسألك ذكرا خاملا .

وكان الخليل بن أحمد يقول : اللهم اجعلنى عندك من أرفع خلقك ، واجعلنى فى نفسى من أوضع خلقك ، وعند الناس من أوسط خلقك .

ثم قال (١٠) :

باب ما جاء فى الشهرة

حدثنا أحمد بن عيسى المصرى ، حدثنا ابن وهب ، عن عمر بن الحارث وابن لَهيعة ، عن يزيد ابن أبى حبيب ، عن سِنَان بن سعد ، عن أنس ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « حَسب امرئ من

(١) فى ت : « ولو سأل الله » .
(٢) التواضع والخمول لابن أبى الدنيا برقم (١) ، وهو مرسل .
(٣) فى ت ، ف ، أ : « من هو » .
(٤) ورواه ابن أبى الدنيا فى الأولياء برقم (٩) عن الحسن مرسلاً بنحوه ، وقد سقط هذا الحديث من مخطوطة التواضع والخمول .
(٥) التواضع والخمول لابن أبى الدنيا برقم (٥) .
(٦) التواضع والخمول برقم (١٣) وقد قال ابن حبان :«إذا روى عبيد الله بن زحر عن على بن يزيد عن القاسم فهو مما عملته أيديهم».
(٧) فى أ : « أحب العباد » .
(٨) التواضع والخمول برقم (١٦) .
(٩) فى ت ، أ : « عز وجل » .
(١٠) أى ابن أبى الدنيا .

الشر ـ إلا من عصم اللّه ـ أن يشير الناس إليه بالأصابع فى دينه ودنياه ، وإن اللّه لا ينظر إلى صوركم ولكن إلى قلوبكم وأعمالكم » (١) .

وروى مثله عن إسحاق بن البهلول ، عن ابن أبى فُدَيْك ، عن محمد بن عبد الواحد الأخْنَسِىّ، عن عبد الواحد بن أبى كثير ، عن جابر بن عبد اللّه مرفوعا ، مثله (٢) .

وروى عن الحسن مرسلا نحوه (٣) ، فقيل للحسن : فإنه يشار إليك بالأصابع ؟ فقال : إنما المراد من يشار إليه فى دينه بالبدعة وفى دنياه بالفسق (٤) .

وعن على ، رضى اللّه عنه ، قال : لا تبدأ لأن تشتهر ، ولا ترفع شخصك لتذكر ، وتعلم واكتم ، واصمت تسلم ، تَسُر الأبرار ، وتغيظ الفجار .

وقال إبراهيم بن أدهم ، رحمه اللّه : ما صدق اللّه من أحب الشهرة .

وقال أيوب : ما صدق اللّه عبده إلا سره ألا يشعر بمكانه .

وقال محمد بن العلاء : من أحب اللّه أحب ألا يعرفه الناس .

وقال سِمَاك بن سلمة : إياك وكثرة الأخلاء .

وقال أبَان بن عثمان : إن أحببت أن يسلم لك دينك فأقل من المعارف؛ كان أبو العالية إذا جلس إليه أكثر من ثلاثة نهض وتركهم .

وقال : حدثنا على بن الجَعْد ، أخبرنا شعبة ، عن عَوْف ، عن أبى رَجَاء قال : رأى طلحة قوما يمشون معه ، فقال : ذباب طمع ، وفراش النار .

وقال ابن إدريس ، عن هارون بن عنترة (٥) ، عن سليم بن حنظلة قال : بينا نحن حول أبى إذ علاه عمر بن الخطاب بالدرة وقال : إنها مذلة للتابع ، وفتنة للمتبوع .

وقال ابن عون ، عن الحسن : خرج ابن مسعود فاتبعه أناس ، فقال : واللّه لو تعلمون ما أغلِقُ عليه بابى ، ما اتبعنى منكم رجلان .

وقال حماد بن زيد : كنا إذا مررنا على المجلس ، ومعنا أيوب ، فسلم ، ردوا ردا شديدا ، فكان ذلك يَغُمه .

وقال عبد الرزاق ، عن مَعْمَر : كان أيوب يطيل قميصه ، فقيل له فى ذلك ، فقال : إن الشهرة فيما مضى كانت فى طول القميص ، واليوم فى تشميره . واصطنع مرة نعلين على حذو نعلى النبى ﷺ ، فلبسهما أياما ثم خلعهما ، وقال : لم أر الناس يلبسونهما .

وقال إبراهيم النَّخَعى: لا تلبس من الثياب ما يُشهر فى الفقهاء ، ولا ما يزدريك السفهاء .

وقال الثورى : كانوا يكرهون من الثياب الجياد ، التى يُشتَهر بها ، ويرفع الناس إليه فيها أبصارهم . والثياب الرديئة التى يحتقر فيها ، ويستذل دينه .

---

(١) التواضع والخمول برقم (٣٠) وفيه سنان بن سعد ضعيف .

(٢) التواضع والخمول برقم (٣١) وقال العراقى : « ليس معروفاً من حديث جابر إنما هو معروف من حديث أبى هريرة » .

(٣) التواضع والخمول برقم (٣٢) .

(٤) التواضع والخمول برقم (٣٣) .

(٥) فى أ : « هارون بن أبى عشيرة » .

وحدثنا خالد بن خِداش : حدثنا حماد ، عن أبى حسنة ـ صاحب الزيادى ـ قال : كنا عند أبى قِلابة إذ دخل عليه رَجل عليه أكسية ، فقال : إياكم وهذا الحمار النهاق .

وقال الحسن ، رحمه الله : إن قوما جعلوا الكبر فى قلوبهم ، والتواضع فى ثيابهم ، فصاحب الكساء بكسائه أعظم من صاحب المطرف بمطرفه (١) ، مالهم تفاقدوا .

وفى بعض الأخبار أن موسى ، عليه السلام ، قال لبنى إسرائيل : ما لكم تأتونى عليكم ثياب الرهبان ، وقلوبكم قلوب الذئاب ، البسوا ثياب الملوك ، وألينوا قلوبكم بالخشية .

فصل فى حسن الخلق

قال أبو التياح ، عن أنس ، رضى الله عنه : كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقا (٢) .

وعن عطاء، عن ابن عمر: قيل : يارسول الله ، أىّ المؤمنين أفضل ؟ قال : « أحسنهم خلقا»(٣).

وعن نوح بن عباد ، عن ثابت ، عن أنس مرفوعا : « إن العبد ليبلغ بحسن خلقه درجات الآخرة وشرف المنازل ، وإنه لضعيف العبادة . وإنه ليبلغ بسوء خلقه دَرَك جهنم وهو عابد »(٤). وعن سِنَان بن هارون ، عن حميد ، عن أنس مرفوعا : « ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة»(٥) ، وعن عائشة مرفوعا : « إن العبد ليبلغ بحسن خلقه درجة قائم الليل وصائم النهار » (٦).

وقال ابن أبى الدنيا: حدثنى أبو مسلم عبد الرحمن بن يونس، حدثنا عبد الله بن إدريس، أخبرنى أبى وعمى، عن جدى، عن أبى هريرة، رضى الله عنه: سُئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يُدخلُ الناسَ الجنة، فقال: « تقوى الله وحسن الخلق» . وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار ، فقال: « الأجوفان: الفم والفرج » (٧) .

وقال أسامة بن شَريك : كنت عند رسول الله ﷺ ، فجاءته الأعراب من كل مكان ، فقالوا : يارسول الله ، ما خير ما أعطى الإنسان ؟ قال : « حسن الخلق » (٨) .

وقال يعلى بن مملك (٩) ، عن أم الدرداء ، عن أبى الدرداء ـ يبلغ به ـ قال : « ما [من] (١٠) شىء أثقل فى الميزان من حسن الخلق » (١١) ، وكذا رواه عطاء ، عن أم الدرداء ، به (١٢) .

وعن مسروق ، عن عبد الله بن عمرو مرفوعا : « إن من خياركم أحاسنكم أخلاقا » (١٣).
حدثنا عبد الله بن أبى بدر ، حدثنا محمد بن عبيد (١٤) ، عن محمد بن أبى سارة ، عن الحسن

(١) فى ت ، أ : « المطرق بمطرقه » .
(٢) التواضع والخمول برقم (١٦٣) .
(٣) التواضع والخمول برقم (١٦٤) .
(٤) التواضع والخمول برقم (١٦٨).
(٥) التواضع والخمول برقم (١٦٩) .
(٦) التواضع والخمول برقم (١٦٦) .
(٧) التواضع والخمول برقم (١٧٠) .
(٨) التواضع والخمول برقم (١٧١) .
(٩) فى ت ، أ ، ف ، هـ: « سماك » والصواب ماأثبتناه من كتب الرجال .
(١٠) زيادة من أ .
(١١) التواضع والخمول برقم (١٧٢) .
(١٢) التواضع والخمول برقم (١٧٣) .
(١٣) التواضع والخمول برقم (١٧٤) .
(١٤) فى ت ، ف : « عنين » ، وفى أ : « عيسى » والصواب ما أثبتناه من التواضع والخمول لابن أبى الدنيا ، وكتب الرجال .

ابن على قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إن اللّه ليعطى العبد من الثواب على حسن الخلق ، كما يعطى المجاهد فى سبيل اللّه ، يغدو عليه الأجر ويروح » (١) .

وعن مكحول، عن أبى ثعلبة مرفوعا: «إن أحبكم إلىّ وأقربكم منى مجلساً ،أحاسنكم أخلاقا، وإن أبغضكم إلىّ وأبعدكم منى منزلا فى الجنة مساويكم أخلاقا، الثرثارون المتشدقون المتفيهقون » (٢) .

وعن أبى أويس ، عن محمد بن المُنْكَدر ، عن جابر مرفوعا : « ألا أخبركم بأكملكم إيمانا ، أحاسنكم أخلاقا ، الموطئون أكنافا ، الذين يؤلفون ويألفون » (٣) .

وقال الليث ، عن يزيد بن عبد اللّه بن أسامة ، عن بكر بن أبى الفرات قال : قال رسول اللّه ﷺ : « ما حسَّن اللّه خَلْق رجل وخُلُقه فَتَطْعَمَه النار » (٤) .

وعن عبد اللّه بن غالب الحُدَّانى ، عن أبى سعيد مرفوعا : « خصلتان لا يجتمعان فى مؤمن : البخل ، وسوء الخلق » (٥) ، وقال ميمون بن مهْرَان ، عن رسول اللّه ﷺ : « ما من ذنب أعظم عند اللّه من سوء الخلق ؛ وذلك أن صاحبه لا يخرج من ذنب إلا وقع فى آخر » (٦) .

حدثنا على بن الجعد ، حدثنا أبو المغيرة الأحْمَسىّ ، حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق ، عن رجل من قريش قال : قال رسول اللّه ﷺ : « مامن ذَنب أعظم عند اللّه من سوء الخلق ؛ إن الخلق الحسن ليذيب الذنوب كما تذيب الشمس الجليد ،وإن الخلق السيىء ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل»(٧) .

وقال عبد اللّه بن إدريس ، عن أبيه ، عن جده ، عن أبى هريرة مرفوعا : « إنكم لا تَسَعُون الناس بأموالكم ، ولكن يَسَعُهم منكم بسط وجوه وحسن خلق » (٨) .

وقال محمد بن سيرين : حسن الخلق عون على الدين .

فصل فى ذم الكبر

قال علقمة ، عن ابن مسعود ـ رفعه ـ : « لا يدخل الجنة مَنْ فى قلبه (٩) مثقال حبة من كِبْر ، ولا يدخل النار من فى قلبه مثقال حبة (١٠) من إيمان » (١١) .

وقال إبراهيم بن أبى عَبْلَة ، عن أبى سلمة ، عن عبد اللّه بن عمرو مرفوعا : « من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر ، أكبه اللّه على وجهه فى النار » (١٢) .

حدثنا إسحاق بن إسماعيل، حدثنا أبو معاوية، عن عمر بن راشد، عن إياس بن سلمة، عن أبيه مرفوعا: «لايزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب عند اللّه من الجبارين، فيصيبه ما أصابهم من العذاب»(١٣) .

وقال مالك بن دينار : ركب سليمان بن داود ، عليهما (١٤) السلام ، ذات يوم البساط فى مائتى

(١) التواضع والخمول برقم (١٧٦) .
(٢) التواضع والخمول برقم (١٧٧) .
(٣) التواضع والخمول برقم (١٧٨) .
(٤) التواضع والخمول برقم (١٨٠)
(٥) التواضع والخمول برقم (١٨٢) .
(٦) التواضع والخمول برقم (١٨٣) .
(٧) التواضع والخمول برقم (١٨٤) .
(٨) التواضع والخمول برقم (١٩٠) .
(٩) فى ت ، ف ، أ : « ذرة » .
(١٠) فى ف ، أ : « ذرة » .
(١١) التواضع والخمول برقم (١٩٢) .
(١٢) التواضع والخمول برقم (١٩٦) .
(١٣) التواضع والخمول برقم (١٩٨) .
(١٤) فى ت : « عليه » .

ألف من الإنس ، ومائتى ألف من الجن ، فَرُفع حتى سمع تسبيح الملائكة فى السماء ، ثم خفضوه حتى مست قدمه ماء البحر ، فسمعوا صوتا لوكان فى قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر لخسف به أبعد مما رفع .

حدثنا أبو خَيْثَمة، حدثنا يزيد بن هارون، عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس قال : كان أبو بكر يخطبنا فيذكر بدء خلق الإنسان، حتى إن أحدنا ليُقذر نفسه، يقول: خرج من مجرى البول مرتين (١) .

وقال الشعبى : من قتل اثنين فهو جبار ، ثم تلا : ﴿ **أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ** ﴾ [القصص:١٩] وقال الحسن : عجبا لابن آدم، يغسل الخرء بيده فى اليوم مرتين ثم يتكبر ! يعارض جبار السموات، قال : حدثنا خالد بن خداَش، حدثنا حماد بن زيد، عن على بن الحسن، عن الضحاك بن سفيان، فذكر الحديث . ضرب مثل الدنَيا بما يخرج من ابن آدم (٢) .

وقال الحسن، عن يحيى ، عن أبى قال : إن مطعم ابن آدم ضرب مثل للدنيا وإن قَزّحَه ومَلَّحه.

وقال محمد بن الحسين بن على ـ من ولد على رضى اللّه عنه ـ : ما دخل قلبَ رجل شىء من كبر إلا نقص من عقله بقدر ذلك .

وقال يونس بن عبيد : ليس مع السجود كبر ، ولا مع التوحيد نفاق .

ونظر طاوس إلى عمر بن عبد العزيز وهو يختال فى مشيته ، وذلك قبل أن يستخلف ، فطعنه طاوس فى جنبه بأصبعه ، وقال : ليس هذا شأن (٣) من فى بطنه خرء ؟ . فقال له كالمعتزر إليه: يا عم، لقد ضرب كل عضو منى على هذه المشية حتى تعلمتها .

قال أبو بكر بن أبى الدنيا : كانت بنو أمية يضربون أولادهم حتى يتعلموا (٤) هذه المشية .

فصل فى الاختيال

عن أبى ليلى ، عن ابن بُرَيْدة ، عن أبيه مرفوعا : «مَنْ جَرَّ ثوبه خيلاء لم ينظر اللّه إليه » (٥).

ورواه عن إسحاق بن إسماعيل ، عن سفيان ، عن زيد بن أسلم ، عن ابن عمر مرفوعا مثله(٦).

وحدثنا محمد بن بكَّار ، حدثنا عبد الرحمن بن أبى الزِّنَاد ، عن أبيه ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة مرفوعاً : « لا ينظر اللّه يوم القيامة إلى من جر إزاره »(٧). و «بينما رجل يتبختر فى برديه ، أعجبته نفسه ، خسف اللّه به الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة» (٨) .

وروى الزهرى عن سالم ، عن أبيه : « بينما رجل ... » إلى آخره (٩) .

﴿ **أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٢٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ**

(١) التواضع والخمول برقم (٢٠٠) .
(٢) التواضع والخمول برقم (٢١٠) .
(٣) فى ف ، أ : « مشى » .
(٤) فى ف ، أ : « يتعلمون » .
(٥) التواضع والخمول برقم (٢٣٨) .
(٦) التواضع والخمول برقم (٢٣٩) .
(٧) التواضع والخمول برقم (٢٣٢) .
(٨) التواضع والخمول برقم (٢٣٣).
(٩) التواضع والخمول برقم (٢٣٤) .

اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٢١) ﴾ .

يقول تعالى منبها خلقه على نعمه عليهم فى الدنيا والآخرة ، بأنه سخر لهم ما فى السموات من نجوم يستضيؤون بها فى ليلهم ونهارهم ، وما يخلق فيها من سحاب وأمطار وثلج وبرد ، وجعله إياها لهم سقفا محفوظا ، وما خلق لهم فى الأرض من قرار وأنهار وأشجار وزروع وثمار . وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة من إرسال الرسل وإنزال الكتب ، وإزاحة الشبه والعلل ، ثم مع هذا كله ما آمن الناس كلهم ، بل منهم من يجادل فى الله ، أى : فى توحيده وإرسال الرسل . ومجادلته فى ذلك بغير علم ،ولا مستند من حجة صحيحة ، ولا كتاب مأثور صحيح ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ**﴾ أى : مبين يضىء . ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ**﴾ أى : لهؤلاء المجادلين في توحيد اللّه :﴿**اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ**﴾ أى : على رسوله من الشرائع المطهرة،﴿ **قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا**﴾ أى : لم يكن لهم حجة إلا اتباع الآباء الأقدمين ، قال اللّه :﴿ **أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ** ﴾ [البقرة : ١٧٠] أى : فما ظنكم أيها المحتجون بصنيع آبائهم ، أنهم كانوا على ضلالة وأنتم خلف لهم فيما كانوا فيه ؛ ولهذا قال : ﴿ **أَوَ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ** ﴾ .

﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ (٢٢) وَمَن كَفَرَ فَلا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٢٤) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عمن أسلم وجهه للّه ، أى : أخلص له العمل وانقاد لأمره واتبع شرعه ؛ ولهذا قال :﴿ **وَهُوَ مُحْسِنٌ**﴾ أى : فى عمله ، باتباع ما به أمر ، وترك ما عنه زجر ، ﴿**فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى**﴾ أى : فقد أخذ موثقا من اللّه متيناً أنه لا يعذبه ، ﴿**وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ . وَمَن كَفَرَ فَلا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ**﴾ أى : لا تحزن يا محمد عليهم فى كفرهم باللّه وبما جئت به ؛ فإن قدر اللّه نافذ فيهم ، إلى اللّه مرجعهم فينبئهم بما عملوا ، أى : فيجزيهم عليه ،﴿ **إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾ ، فلا تخفى عليه خافية .

ثم قال :﴿ **نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلا**﴾ أى : فى الدنيا ، ﴿**ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ** ﴾ أى : نلجئهم ﴿ **إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ**﴾ أى : فظيع صعب مشق على النفوس ، كما قال تعالى :﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ . مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ**﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠].

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٥) لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٦) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء المشركين به : إنهم يعرفون أن اللّه خالقُ السموات والأرض ، وحدهَ لا شريك له ، ومع هذا يعبدون معه شركاء يعترفون أنها خَلْقٌ له وملك له ؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ [أى :إذْ قامت عليكم الحجة باعترافكم][(١)]، ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ .

ثم قال :﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أى : هو خلقه وملكه ،﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ أى: الغنى عما سواه ، وكل شىء فقير إليه ، الحميد فى جميع ما خلق ، له الحمد فى السموات والأرض على ما خلق وشرع ، وهو المحمود فى الأمور كلها.

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧) مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن عظمته وكبريائه وجلاله ، وأسمائه الحسنى وصفاته العلا وكلماته التامة التى لا يحيط بها أحد ، ولا اطلاع لبشر على كنهها وإحصائها ، كما قال سيد البشر وخاتم الرسل : « لا أحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك »، فقال تعالى :﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ [أى : ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاما ، وجعل البحر مداداً ومَده سبعة أبحر] [(٢)] معه ، فكتبت بها كلمات اللّه الدالة على عظمته وصفاته وجلاله لتكسرت الأقلام ، ونَفدَ ماء البحر ، ولو جاء أمثالها مَدَدا .

وإنما ذكرت « السبعة » على وجه المبالغة ، ولم يرد الحصر ولا [أن] [(٣)] ثم سبعة أبحر موجودة تحيط بالعالم ، كما يقوله من تلقاه من كلام الإسرائيليين التى لا تصدق ولا تكذب ، بل كما قال تعالى فى الآية الآخرى :﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ [الكهف : ١٠٩] ، فليس المراد بقوله : ﴿ بِمِثْلِهِ ﴾ آخر فقط ، بل بمثله ثم بمثله ثم بمثله ، ثم هلم جرا ؛ لأنه لا حصر لآيات اللّه وكلماته .

وقال الحسن البصرى : لو جعل شجر الأرض أقلاما ، وجعل البحر مدادا ، وقال اللّه : « إن من أمرى كذا ، ومن أمرى كذا » لنفد ما فى البحور ، وتكسرت الأقلام .

وقال قتادة : قال المشركون : إنما هذا كلام يوشك أن ينفد ، فقال اللّه تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ ﴾ أى : لو كان شجر الأرض أقلاما ، ومع البحر سبعة أبحر ، ما كان لتنفد عجائب ربى وحكمته وخلقه وعلمه .

---

(١) زيادة من ت ، ف ، أ .

(٢، ٣) زيادة من ت ، ف ، أ .

وقال الربيع بن أنس : إن مثل علم العباد كلهم فى علم اللّه كقطرة من ماء البحور كلها ، وقد أنزل اللّه ذلك : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ ﴾ الآية .

يقول : لو كان ذلك البحر مدادا لكلمات اللّه والأشجار كلها أقلاما ، لا نكسرت الأقلام ، وفنى ماء البحر ، وبقيت . كلمات اللّه قائمة لا يفنيها شىء ؛ لأن أحدا لا يستطيع أن يقدر قدره ، ولا يثنى عليه كما ينبغى ، حتى يكون هو الذى يثنى على نفسه . إن ربنا كما يقول ، وفوق ما نقول .

وقد روى أن هذه الآية نزلت جوابا لليهود ، قال ابن إسحاق : حدثنى ابن أبى محمد ، عن سعيد بن جبير أو عكرمة ، عن ابن عباس ؛ أن أحبار يهود قالوا لرسول اللّه ﷺ بالمدينة :يا محمد، أرأيت قولك : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ ؟ [الإسراء : ٨٥] ، إيانا تريد أم قومك ؟ فقال رسول اللّه ﷺ: « كلا » . فقالوا : ألست تتلو فيما جاءك أنا قد أوتينا التوراة فيها تبيان لكل شىء ؟ فقال رسول اللّه ﷺ : « إنها فى علم اللّه قليل، وعندكم من ذلك ما يكفيكم » .وأنزل اللّه فيما سألوه عنه من ذلك: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ ﴾ الآية .

وهكذا روى عن عكرمة ، وعطاء بن يَسَار . وهذا يقتضى أن هذه الآية مدنية لا مكية ، والمشهور أنها مكية ، واللّه (١) أعلم .

وقوله :﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أى : عزيز قد عزَ كلَّ شىء وقهره وغلبه ، فلا مانع لما أراد ولا مخالف ولا معقب لحكمه ، ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فى خلقه وأمره ، وأقواله وأفعاله ، وشرعه وجميع شؤونه .

وقوله :﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ أى : ما خَلْقُ جميع الناس وبعثهم يوم المعاد بالنسبة إلى قدرته إلا كنسبة [خلق] (٢) نفس واحدة ، الجميع هين عليه و﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] ، ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ [القمر : ٥٠] أى : لا يأمر بالشىء إلا مرة واحدة ، فيكون ذلك الشىء لا يحتاج إلى تكرره وتَوكده (٣) . ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ [النازعات : ١٣ ، ١٤] .

وقوله :﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ أى : كما هو سميع لأقوالهم بصير بأفعالهم كسمعه وبصره بالنسبة إلى نفس واحدة كذلك قدرته عليهم كقدرته على نفس واحدة ؛ ولهذا قال : ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ [إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ] (٤) ﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠) ﴾ .

يخبر تعالى أنه ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ ﴾ بمعنى : يأخذ منه فى النهار ، فيطولُ ذلك ويقصر هذا،

---

(١) فى ت ، ف : « فاللّه » .   (٢) زيادة من ت ، ف ، أ .   (٣) فى ت ، ف ، أ : « وتوكيده » .
(٤) زيادة من ت ، ف ، أ ، وفى هـ: « الآية » .

وهذا يكون زمن الصيف يطول النهار إلى الغاية ، ثم يسرع فى النقص فيطول الليل ويقصر النهار ، وهذا يكون فى الشتاء ، ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ قيل : إلى غاية محدودة . وقيل : إلى يوم القيامة . وكلا المعنيين صحيح ، ويستشهد للقول الأول بحديث أبى ذر ، رضى اللّه عنه ، الذى فى الصحيحين : أن رسول اللّه ﷺ قال : « يا أبا ذر ، أتدرى أين تذهب هذه الشمس؟» . قلت : اللّه ورسوله أعلم . قال : « فإنها تذهب فتسجد تحت العرش ، ثم تستأذن ربَّها فيوشك أن يقال لها : ارجعى من حيث جئت » (١) .

وقال ابن أبى الحاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو صالح ، حدثنا يحيى بن أيوب ، عن ابن جُرَيْج، عن عَطَاء بن أبى رباح (٢) ، عن ابن عباس أنه قال : الشمس بمنزلة الساقية ، تجرى بالنهار فى السماء فى فلكها ، فإذا غربت جرت بالليل فى فلكها تحت الأرض حتى تطلع من مشرقها ، قال : وكذلك القمر . إسناده صحيح .

وقوله :﴿ وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ ، كقوله : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ (٣) وَالْأَرْضِ﴾ [الحج : ٧٠] . ومعنى هذا : أنه تعالى الخالق العالم بجميع الأشياء ، كقوله : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق : ١٢] .

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ ﴾ أى : إنما يظهر لكم آياته لتستدلوا بها على أنه الحق ، أى : الموجود الحق ، الإله الحق ، وأن كل ما سواه باطل ؟ فإنه الغنى عما سواه، وكل شىء فقير إليه ؛ لأن كل ما (٤) فى السموات والأرض الجميع خلقه وعبيده ، لا يقدر أحد منهم على تحريك ذَرّة إلا بإذنه ، ولو اجتمع كل أهل الأرض على أن يخلقوا ذبابا لعجزوا عن ذلك ؛ ولهذا قال :﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ أى: العلى: الذى لا أعلى منه ، الكبير : الذى هو أكبر من كل شىء ، فكل (٥) شىء خاضع حقير بالنسبة إليه .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١) وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢) ﴾ .

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٨٠٣) وصحيح مسلم برقم (١٥٩) .
(٢) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بإسناده » .
(٣) فى ت : « السموات » وهو خطأ .
(٤) فى ت : « من » .
(٥) فى ت ، ف : « وكل » .

يخبر تعالى أنه هو الذى سَخَّر البحر لتجرى فيه الفلك بأمره ، أى : بلطفه وتسخيره ؛ فإنه لولا ما جعل فى الماء من قوة يحمل بها السفن لما جرت ؛ ولهذا قال : ﴿ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ ﴾ أى : من قدرته ، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أى : صبار فى الضراء ، شكور فى الرخاء .

ثم قال : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ ﴾ أى : كالجبال والغمام ، ﴿ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء : ٦٧] ، وقال : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٥] .

ثم قال : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ قال مجاهد : أى كافر . كأنه فسر المقتصد ههنا بالجاحد ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦٥] .

وقال ابن زيد : هو المتوسط فى العمل .

وهذا الذى قاله ابن زيد هو المراد فى قوله : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ [فاطر : ٣٢] ، فالمقتصد ههنا هو : المتوسط فى العمل . ويحتمل أن يكون مراداً هنا أيضا ، ويكون من باب الإنكار على من شاهد تلك الأهوال و الأمور العظام والآيات الباهرات فى البحر ، ثم بعد ما أنعم اللّه عليه من الخلاص ، كان ينبغى أن يقابل ذلك بالعمل التام ، والدؤوب فى العبادة ، والمبادرة إلى الخيرات . فمن اقتصد بعد ذلك كان مقصراً والحالة هذه ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ : فالخَتَّار : هو الغَدَّار . قاله مجاهد ، والحسن ، وقتادة ، ومالك عن [١] زيد بن أسلم ، وهو الذى كلما عاهد نقض عهده ، والخَتْر : أتَم الغدر وأبلغه ، قال عمرو بن معد يكرب :

وَإِنَّكَ لَو رَأَيْتَ أَبَا عُمَيْرٍ مَلأْتَ يَدَيْكَ مِنْ غَدْرٍ وَخَتْرِ [٢]

وقوله : ﴿ كَفُورٍ ﴾ أى : جحود للنعم لا يشكرها ، بل يتناساها ولا يذكرها .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٣٣) ﴾ .

يقول تعالى منذرا للناس يوم المعاد ، وآمرا لهم بتقواه والخوف منه ، والخشية من يوم القيامة حيث ﴿ لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ ﴾ أى : لو أراد أن يفديه بنفسه لما قبل منه . وكذلك الولد لو أراد فداء والده بنفسه لم يتقبل منه .

ثم عاد بالموعظة عليهم بقوله : ﴿ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ [أى : لا تلهينكم بالطمأنينة فيها عن الدار الآخرة] [٣] ، ﴿ وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ يعنى : الشيطان . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة . فإنه يغر ابن آدم ويَعِدهُ ويمنيه ، وليس من ذلك شىء بل كما قال تعالى :

---

(١) فى أ : « و » .
(٢) البيت فى تفسير الطبرى (٢١/ ٥٤) .
(٣) زيادة من ت ، ف ، أ .

﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا ﴾ [النساء : ١٢٠] .

قال وهب بن منبه : قال عزير ، عليه السلام : لما رأيت بلاء قومى اشتد حزنى وكثر همى ، وأرق نومى ، فضرعت (١) إلى ربى وصليت وصمت فأنا فى ذلك أتضرع أبكى إذ أتانى الملك فقلت له : أخبرنى هل تشفع أرواح المصدقين (٢) للظلمة ، أو الآباء لأبنائهم ؟ قال : إن القيامة فيها (٣) فصل القضاء وملك ظاهر ، ليس فيه رخصة ، لا يتكلم فيه أحد إلا بإذن الرحمن ، ولا يؤخذ فيه والد عن ولده ، ولا ولد عن والده ، ولا أخ عن أخيه ، ولا عبد عن سيده ، ولا يهتم أحد بغيره(٤) ولا يحزن لحزنه ، ولا أحد يرحمه ، كل مشفق على نفسه ، ولا يؤخذ إنسان عن إنسان ، كل يَهُم همه ويبكى عَوله ، ويحمل وزره ، ولا يحمل وزره معه غيره . رواه ابن أبى حاتم .

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤) ﴾ .

هذه مفاتيح الغيب التى استأثر اللّه تعالى بعلمها، فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى بها؛ فعلم وقت الساعة لا يعلمه نبى مرسل ولا ملك مقرب ،﴿ لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ [الأعراف:١٨٧]، وكذلك إنزال الغيث لايعلمه إلا اللّه ، ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك ومن شاء اللّه من خلقه . وكذلك لا يعلم ما فى الأرحام مما يريد أن يخلقه [اللّه] (٥) تعالى سواه ، ولكن إذا أمر بكونه ذكرا أو أنثى ، أو شقيا أو سعيدا علم الملائكة الموكلون بذلك ، ومن شاء اللّه من خلقه . وكذلك لا تدرى نفس ماذا تكسب غدا فى دنياها وأخراها ، ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ فى بلدها أو غيره من أى بلاد اللّه كان ، لاعلم لأحد بذلك . وهذه شبيهة بقوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ الآية [الأنعام : ٥٩] . وقد وردت السنة بتسمية هذه الخمس : مفاتيح الغيب .

قال الإمام أحمد : حدثنا زيد بن الحباب ، حدثنى حسين بن واقد ، حدثنى عبد اللّه بن بُرَيدة ، سمعت أبى ـ بَرَيدة ـ (٦) يقول : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «خمس لا يعلمهن إلا الله عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ مَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ » (٧) .

هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجوه .

حديث ابن عمر : قال الإمام أحمد : حدثنا وَكيع ، حدثنا سفيان ، عن عبد اللّه بن دينار ، عن ابن عمر (٨) قال : قال رسول اللّه (٩) ﷺ : « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا اللّه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ

---

(١) فى ف : « وتضرعت » (٢) فى ت ، ف : « الصديقين » . (٣) فى ت ، ف ، أ : « إن يوم القيامة فيه ».
(٤) فى ت « ولا يهتم بهم أحد » . (٥) زيادة من ت ، ف ، أ . (٦) فى ت:«وروى الإمام أحمد بإسناده عن بريدة » .
(٧) المسند (٥/٣٥٣) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٩٠) : « رجال أحمد رجال الصحيح » .
(٨) فى ت : « وروى البخارى عن عبد اللّه بن عمر » . (٩) فى ت : « النبى » .

أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ » .

انفرد بإخراجه البخارى فرواه فى « كتاب الاستسقاء » من صحيحه ، عن محمد بن يوسف الفريابى ، عن سفيان بن سعيد الثورى ، به (١) . ورواه فى التفسير من وجه آخر فقال :

حدثنا يحيى بن سليمان ، حدثنا ابن وهب ، حدثنى عمر بن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر: أن أباه حدثه أن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « مفاتيح الغيب خمس » . ثم قرأ : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ** ﴾ ، انفرد به أيضا (٢) .

ورواه الإمام أحمد عن غُنْدَر ، عن شعبة ، عن عمر بن محمد ؛ أنه سمع أباه يحدث ، عن ابن عمر ، عن النبى ﷺ قال : « أوتيت مفاتيح كل شيء إلا الخمس : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ » (٣) .

[**حديث ابن مسعود** ، رضى الله عنه : قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى ، عن شعبة ، حدثنى عمرو بن مُرَّة ، عن عبد الله بن سلمة قال : قال عبد الله (٤) : أوتى نبيكم ﷺ مفاتيح كل شيء غير خمس : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾] (٥) (٦) .

وكذا رواه عن محمد بن جعفر ، عن شعبة ، عن عمرو بن مرة ، به . وزاد فى آخره : قال: قلت له : أنت سمعته من عبد الله ؟ قال : نعم . أكثر من خمسين مرة (٧).

ورواه أيضا عن وَكِيع ، عن مِسْعَر ، عن عمرو بن مرة به (٨) .

وهذا إسناد حسن على شرط أصحاب السنن ولم يخرجوه .

حديث أبى هريرة : قال البخارى عند تفسير هذه الآية : حدثنا إسحاق ، عن جرير ، عن أبى حيان ، عن أبى زُرْعَةَ ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه (٩) ؛ أن رسول الله ﷺ كان يوما بارزا للناس ، إذ أتاه رجل يمشى ، فقال : يا رسول الله ، ما الإيمان ؟ قال : « الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه ، وتؤمن بالبعث الآخر » . قال : يارسول الله ، ما الإسلام ؟ قال : «الإسلام :أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان». فقال : يا رسول الله ، ما الإحسان ؟ قال : « الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . قال : يا رسول الله، متى الساعة ؟ قال : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، ولكن سأحدثك عن أشراطها : إذا ولدت الأَمَةُ رَبَّتَهَا ، فذاك من أشراطها . وإذا كان الحفاة

---

(١) المسند (٢/ ٢٤) وصحيح البخارى برقم (١٠٣٥) .
(٢) صحيح البخارى برقم (٤٦٩٧) .
(٣) المسند (٢/ ٨٥) .
(٤) فى ت : « وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال » .
(٥) زيادة من ف ، أ .
(٦) المسند (١/ ٣٨٦)
(٧) المسند (١/ ٤٣٨) .
(٨) المسند (١/ ٤٤٥) .
(٩) فى ت : « وروى البخارى » .

العُرَاة رؤوس الناس ، فذاك من أشراطها ، فى خمس لا يعلمهن [١] إلا الله : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ** .... ﴾ » ، ثم انصرف الرجل فقال : « ردوه علَىَّ » . فأخذوا ليردوه ، فلم يروا شيئاً ، فقال : « هذا جبريل ، جاء ليعلم الناس دينهم» [٢] .

ورواه البخارى أيضا فى « كتاب الإيمان » ، ومسلم من طرق ، عن أبى حيان ، به [٣] . وقد تكلمنا عليه فى أول شرح البخارى . وذكرنا ثم حديثَ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى ذلك بطوله، وهو من أفراد مسلم [٤] .

حديث ابن عباس : قال الإمام أحمد : حدثنا أبو النضر ، حدثنا عبد الحميد ، حدثنا شَهْر ، حدثنا عبد الله بن عباس ، رضى الله عنهما ، قال : جلس رسول الله ﷺ مجلسا له ، فأتاه جبريل فجلس بين يدى رسول الله ﷺ [٥] واضعاً كفيه على ركبتى النبى ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، [حدثنى] [٦] ما الإسلام ؟ قال رسول الله ﷺ : « الإسلام : أن تسلم وجهك لله عز وجل ، وتشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله » . قال : فإذا فعلت ذلك فقد أسلمت ؟ قال : « إذا فعلت ذلك فقد أسلمت » . قال : يا رسول الله ، فحدثنى ما الإيمان ؟ قال : « الإيمان: أن تؤمن بالله ، واليوم الآخر ، والملائكة ، والكتاب ، والنبيين ، وتؤمن بالموت ، وبالحياة بعد الموت ، وتؤمن بالجنة والنار ، والحساب والميزان ، وتؤمن بالقدر كله خيره وشره » . قال: فإذا فعلت ذلك فقد آمنت ؟ قال : « إذا [٧] فعلت ذلك فقد آمنت » . قال : يا رسول الله ، حدثنى ما الإحسان ؟ قال رسول الله ﷺ : « الإحسان: أن تعمل لله كأنك تراه ، فإن كنت لا تراه فإنه يراك ». قال : يا رسول الله ، فحدثنى متى الساعة ؟ قال رسول الله ﷺ : « سبحان الله . فى خمس لا يعلمهن إلا هو [٨] : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ ، ولكن إن شئت حدثتك بمعالم لها دون ذلك ؟ » . قال : أجل ، يا رسول الله ، فحدثنى . قال رسول الله ﷺ : « إذا رأيت الأَمَة ولدت ربَّتَها ـ أو : ربها ـ ورأيت أصحاب الشاء يتطاولون فى البنيان ، ورأيت الحفاة الجياع العالة [كانوا رؤوس الناس، فذلك من معالم الساعة وأشراطها » . قال : يا رسول الله ، ومن أصحاب الشاء والحفاة الجياع العالة؟ قال : « العرب »] [٩] [١٠] .

حديث غريب ، ولم يخرجوه

حديث رجلٍ من بنى عامر : روى الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن منصور ، عن ربعى بن حِرَاش ، عن رجل من بنى عامر ؛ أنه استأذن على النبى ﷺ فقال : أألج ؟ فقال النبى ﷺ لخادمه : « اخرُجى إليه ، فإنه لا يحسن الاستئذان فقولى له : فليقل : « السلام عليكم ، أأدخل ؟ » قال : فسَمعتُه يقول ذلك ، فقلت : السلام عليكم ، أأدخل ؟ فأذن، فدخلت، فقلت : بم أتيتنا به ؟ قال : « لم آتكم إلا بخير ، أتيتكم أن تعبدوا الله وحده لا شريك له ، وأن

---

(١) فى ت : « لا يعلمهم » .
(٢) صحيح البخارى برقم (٤٧٧٧) .
(٣) صحيح البخارى برقم (٥٠) وصحيح مسلم برقم (٩) .
(٤) صحيح مسلم برقم (٨) .
(٥) فى ف ، أ : « بين يديه » .
(٦) زيادة من ت ، ف ، أ ، والمسند .
(٧) فى ف : « فإذا » .
(٨) فى أ : « الله » .
(٩) زيادة من ت ، ف ، أ ، والمسند
(١٠) المسند (١/٣١٨) .

تَدَعوا اللات والعزى ، وأن تصلوا بالليل والنهار خمس صلوات ؛ وأن تصوموا من السنة شهراً ، وأن تحجوا البيت ، وأن تأخذوا الزكاة من مال أغنيائكم فتردوها على فقرائكم » . قال : فقال : فهل بقى من العلم شىء لا تعلمه ؟ قال : « قد عَلم اللّه عز وجل خيراً ، وإن من العلم ما لا يعلمه إلا اللّه عز وجل : الخمس : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ »(١). وهذا إسناد صحيح .

وقال ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد : جاء رجل من أهل البادية فقال : إن امرأتى حبلى ، فأخبرنى ما تلد ؟ وبلادنا جَدبَةٌ ، فأخبرني متى ينزل الغيث ؟ وقد عَلمتُ متى وُلدتُ فأخبرنى متى أموت ؟ فأنزل اللّه عز وجل :﴿ **إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ [وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ]**(٢) ﴾ ، إلى قوله : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ . قال مجاهد : وهى(٣) مفاتيح الغيب التى قال اللّه تعالى : ﴿ **وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ** ﴾ [الأنعام : ٥٩] .رواه ابن أبى حاتم ، وابن جرير .

وقال الشعبى ، عن مسروق ، عن عائشة ، رضى اللّه عنها ، أنها قالت : من حدثك أنه يعلم ما فى غد فقد كذب ، ثم قرأت : ﴿ **وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا** ﴾ (٤) .

وقوله : ﴿ **وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ** ﴾ : قال قتادة : أشياء استأثر اللّه بهن ، فلم يُطلع عليهن مَلَكا مقرباً ، ولا نبيا مرسلا : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ** ﴾ ، فلا يدرى أحد من الناس متى تقوم الساعة ، فى أى سنة أو فى أى شهر ، أو ليل أو نهار ، ﴿ **وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ** ﴾ ، فلا يعلم أحد متى ينزل الغيث ، ليلا أو نهاراً ، ﴿ **وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ** ﴾ ، فلا يعلم أحد ما فى الأرحام ، أذكر أم أنثى، أحمر أو أسود ، وما هو ،﴿ **وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا** ﴾ ، أخير أم شر ، ولا تدرى يا ابن آدم متى تموت ؟ لعلك الميت غدا ، لعلك المصاب غدا ، ﴿ **وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ** ﴾ ليس أحد من الناس يدرى أين مضجعه من الأرض ، أفى بحر أم بر ، أو سهل أو جبل ؟

وقد جاء فى الحديث : « إذا أراد اللّه قبض عبد بأرض ، جعل له إليها حاجة » ، فقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى فى معجمه الكبير ، فى مسند أسامة بن زيد :

حدثنا إسحاق بن إبراهيم،أخبرنا عبد الرزاق،أخبرنا مَعْمَر،عن أيوب،عن أبى المليح،عن أسامة(٥) بن زيد قال : قال رسول اللّه ﷺ : « ما جعل اللّه ميتَة (٦) عبد بأرض إلا جعل له فيها حاجة » (٧) .

وقال عبد اللّه بن الإمام أحمد : حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، حدثنا أبو داود الحَفَرىّ ، عن

---

(١) المسند (٥/٣٦٨) .
(٢) زيادة من ت ، ف ، أ . (٣) فى أ : « وهن » .
(٤) تفسير الطبرى (٢١/٥٦) .
(٥) فى ت : « فروى أبو القاسم الطبرانى فى معجمه الكبير فى مسند أسامة » .
(٦) فى ت ، ف ، أ : « منية » .
(٧) المعجم الكبير (١/١٧٨) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/١٩٦) ، « ورجاله رجال الصحيح» وفيها: « منية » بدل : « ميتة » .

سفيان ، عن أبي إسحاق ، عن مَطَر بن عُكَامِس قال : قال رسول الله ﷺ [(١)] : « إذا قضى الله ميتة عبد بأرض ، جعل له إليها حاجة » .

وهكذا رواه الترمذى فى « القدر » ، من حديث سفيان الثورى ، به [(٢)] . ثم قال : « حسن غريب ، ولا يعرف لمطر عن النبى ﷺ غير هذا الحديث . وقد رواه أبو داود فى « المراسيل » [(٣)] ، فالله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل ، حدثنا أيوب ، عن أبى المليح بن أسامة [(٤)] ، عن أبى عزة [(٥)] قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله قبض روح عبد بأرض جعل له فيها ـ أو قال : بها ـ حاجة » .

وأبو عزة هذا هو : يَسَار [(٦)] بن عبد الله ، ويقال : ابن عبد الهُذَلى .

وأخرجه الترمذى من حديث إسماعيل [بن إبراهيم ـ وهو ابن عُلَيّة [(٧)] ، وقال : صحيح .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن عصام الأصفهانى ، حدثنا المؤمل بن إسماعيل] [(٨)] ، حدثنا عبيد الله بن أبى حميد ، عن أبى المليح ، عن أبى عزة الهذلى قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا أراد الله قبض عبد بأرض ، جعل له إليها حاجة ، فلم ينته حتى يقدمها » . ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ [(٩)] .

حديث آخر : قال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا أحمد بن ثابت الجَحْدَرِىّ ومحمد بن يحيى القُطَعى قالا : حدثنا عُمَر بن على ، حدثنا إسماعيل ، عن قيس ، عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله قبض عبد بأرض جعل له إليها حاجة » . ثم قال البزار : وهذا الحديث لا نعلم أحداً يرفعه إلا عُمَر بن على المُقَدّمى [(١٠)] . وقال ابن أبى الدنيا : حدثنى سليمان بن أبى مسيح [(١١)] قال : أنشدنى محمد بن الحكم لأعشى هَمْدان :

فَمَا تَزَوَّدَ مِمَّا كَانَ يَجْمَعُه ... سِوَى حَنُوط غَدَاةَ البَيْن مَعْ خرَق
وَغَيْرَ نَفْحَة أعْوَاد تُشَبّ لَهُ ... وَقَلّ ذَلكَ مِنْ زَاد لمُنْطَلق !
لاَ تَأسَيَنّ عَلَى شَىْء فَكُلّ فَتَى ... إلَى مَنيّته سَيَّارُ فى عَنَق [(١٢)]
وَكُلّ مَنْ ظَنّ أنّ الموتَ يُخْطئُه ... مُعَلّلٌ بأعَاليل مِنَ الحَمق
بأيّمَا بَلْدَة تُقْدَرْ منيته ... إنْ لا يُسَيَّرْ إلَيها طَائعاً يُسَق

(١) فى ت : «روى عبد الله بن الإمام أحمد بإسناده أن رسول الله ﷺ قال » .
(٢) زوائد المسند (٥/٢٢٧) وسنن الترمذى برقم (٢١٤٦) .
(٣) لم أجده فى المطبوع من المراسيل .
(٤) فى ت : « وروى الإمام أحمد » . (٥) فى أ : « عن أبى عزة الهذلى » . (٦) فى ف : « بشار » .
(٧) المسند (٣/٤٢٩) وسنن الترمذى برقم (٢١٤٧) .
(٨) زيادة من ت ، ف ، أ .
(٩) ورواه الطبرانى فى الأوسط برقم (٣٢٤٨) « مجمع البحرين » من طريق عباد بن صهيب، عن عبيد الله بن أبى حميد به، وعباد ابن صهيب متروك .
(١٠) ورواه الحاكم فى المستدرك (١/٣٦٧) من طريق محمد بن خالد الوهبى ، عن إسماعيل بن أبى خالد بنحوه .
(١١) فى ت ، ف ، أ : « شيخ » . (١٢) فى ت : « يسير فى غنق » .

أورده الحافظ ابن عساكر ، رحمه الله ، فى ترجمة عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث (١) ، وهو أعشى هَمْدَان ، وكان الشعبى زوجَ أخته ، وهو مُزَوّج بأخت الشعبى أيضا ، وقد كان ممن طلب العلم وتَفَقَّه ، ثم عدل إلى صناعة الشعر فعُرف به .

وقد رواه ابن ماجه عن أحمد بن ثابت وعُمَر بن شَبَّة ، كلاهما عن عمر بن على (٢) مرفوعا : «إذا كان أجل أحدكم بأرض أوثَبَتْه (٣) إليها حاجة ، فإذا بلغ أقصى أثره (٤) ، قبضه الله عز وجل ، فتقول الأرض يوم القيامة : رب ، هذا ما أودعتنى » (٥) .

قال الطبرانى : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن أيوب ، عن أبى المليح ، عن أسامة أن رسول الله ﷺ قال : « ما جعل الله منية عبد بأرض ، إلا جعل له إليها حاجة » (٦) .

[آخر تفسير سورة « لقمان » والحمد لله رب العالمين ، وهو حسبنا ونعم الوكيل] (٧)

---

(١) لم أجد الأبيات فيما بين يدى من تاريخ دمشق ولا فى المختصر لابن منظور .
(٢) فى ت ، ف : « عكرمة » .
(٣) فى ف : « أتت » .
(٤) فى ت ، ف : « أمره » .
(٥) سنن ابن ماجه برقم (٤٢٦٣) وقال البوصيرى فى الزوائد (٢/ ٢٦٤) : « هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات ». والكلام هنا متعلق برواية البزار ولم أستسغ تقديمها ؛ لورودها هكذا فى النسخ .
(٦) المعجم الكبير (١/ ١٧٨) وقد مر ذكره .
(٧) زيادة من ت ، ف ، أ .

٣١ ــ سورة لقمان

مكية وهى أربع وثلاثون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ٣١ لقمان

تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ ٣١ لقمان

هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٣١ لقمان

ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ ٣١ لقمان

أُولَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ٣١ لقمان

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰٓئِكَ
لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ ٣١ لقمان

﴿ سورة لقمان ﴾

(مكية وقيل إلا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة فإن وجوبهما بالمدينة وهو ضعيف لأنه ينافى
شرعيتهما بمكة وقيل إلا ثلاثاً من قوله ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام وهى أربع وثلاثون آية)
(بسم الله الرحمن الرحيم) (الم تلك آيات الكتاب) سلف بيانه فى نظائره (الحكيم) أى ذى الحكمة ٢،١
لاشتماله عليها أو هو وصف له بنعته تعالى أو أصله الحكيم منزله أو قائله فحذف المضاف وأقيم المضاف
إليه مقامه فانقلب مرفوعاً فاستكن فى الصفة المشبهة وقيل الحكيم فعيل بمعنى مفعل كما قالوا أعقدت اللبن
فهو عقيد أى معقد وهو قليل وقيل بمعنى فاعل (هدى ورحمة) بالنصب على الحالية من الآيات والعامل ٣
فيهما معنى الإشارة وقرئا بالرفع على أنهما خبران آخران لاسم الإشارة أو لمبتدأ محذوف (للمحسنين)
أى العاملين الحسنات فإن أريد بها مشاهيرها المعهودة فى الدين فقوله تعالى (الذين يقيمون الصلاة ٤
ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون) بيان لما عملوها من الحسنات على طريقة قوله [الألمعى الذى يظن
بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا] وإن أريد بها جميع الحسنات فهو تخصيص لهذه الثلاث بالذكر من
بين سائر شعبها لإظهار فضلها وإنافتها على غيرها وتخصيص الوجه الأول بصورة كون الموصول صفة
للمحسنين والوجه الأخير بصورة كونه مبتدأ مما لا وجه له (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم ٥
المفلحون) الفائزون بكل مطلوب والناجون من كل مهروب لحيازتهم قطرى العلم والعمل وقد مر ما فيه
من المقال فى مطلع سورة البقرة بما لا مزيد عليه (ومن الناس) محله الرفع على الابتداء باعتبار مضمونه ٦

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ ٣١ لقمان

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ ٣١ لقمان

أو بتقدير الموصوف ومن فى قوله تعالى (من يشترى لهو الحديث) موصولة أو موصوفة محلها الرفع على •
الخبرية والمعنى وبعض الناس أو وبعض من الناس الذى يشترى أو فريق يشترى على أن مناط الإفادة
والمقصود بالإصالة هو اتصافهم بما فى حيز الصلة أو الصفة لا كونهم ذوات أولئك المذكورين كما مر فى قوله
تعالى ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر الآيات ولهو الحديث مايلهى عما يعنى من المهمات
كالأحاديث التى لا أصل لها والأساطير التى لا اعتداد بها والمضاحك وسائر مالاخير فيه من فضول الكلام
والإضافة بمعنى من التبيينة إن أريد بالحديث المنكر وبمعنى التبعيضية إن أريد به الأعم من ذلك وقيل نزلت
الآية فى النضر بن الحرث اشترى كتب الأعاجم وكان يحدث بها قريشاً ويقول إن كان محمد ﷺ يحدثكم بحديث
عاد وثمود فأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار والأكاسرة وقيل كان يشترى القيان ويحملهن على معاشرة
من أراد الإسلام ومنعه عنه (ليضل عن سبيل الله) أى دينه الحق الموصل إليه تعالى أو عن قراءة كتابه •
الهادى إليه تعالى وقرىء ليضل بفتح الياء أى ليثبت ويستمر على ضلاله أو ليزداد فيه (بغير علم) أى
بحال مايشتريه أو بالتجارة حيث استبدل الشر البحت بالخير المحض (ويتخذها) بالنصب عطفاً على
يضل والضمير للسبيل فإنه مما يذكر ويؤنث وهو دين الإسلام أو القرآن أى ويتخذها (هزواً) مهزواً
به وقرىء ويتخذها بالرفع عطفاً على يشترى وقوله تعالى (أولئك) إشارة إلى من والجمع باعتبار معناها •
كما أن الإفراد فى الفعلين باعتبار لفظها وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بذكر المشار إليه للإيذان
ببعد منزلتهم فى الشرارة أى أولئك الموصوفون بما ذكر من الاشتراء للإضلال (لهم عذاب مهين) لما
٧ اتصفوا به من إهانتهم الحق بإيثار الباطل عليه وترغيب الناس فيه (وإذا تتلى عليه) أى على المشترى
أفرد الضمير فيه وفيما بعده كالضمائر الثلاثة الأول باعتبار لفظة من بعد ماجمع فيما بينهما باعتبار معناها
(آياتنا) التى هى آيات الكتاب الحكيم وهدى ورحمة للمحسنين (ولى) أعرض عنها غير معتدبها
(مستكبراً) مبالغاً فى التكبر (كأن لم يسمعها) حال من ضمير ولى أو من ضمير مستكبراً والأصل •
كأنه لحذف ضمير الشأن وخففت المثقلة أى مشبها حاله حال من لم يسمعها وهو سامع وفيه رمز إلى أن
من سمعها لا يتصور منه التولية والاستكبار لما فيها من الأمور الموجبة للإقبال عليها والخضوع لها على
طريقة قول من قال [كأنك لم تجزع على ابن طريف] (كأن فى أذنيه وقراً) حال من ضمير لم يسمعها •
أى مشبها حاله حال من فى أذنيه ثقل مانع من السماع ويجوز أن يكونا استئنافين وقرىء فى أذنيه بسكون
الذال (فبشره بعذاب أليم) أى فأعلمه بأن العذاب المفرط فى الإيلام لاحق به لامحالة وذكر البشارة
٨ للتهكم (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) بيان لحال المؤمنين بآياته تعالى إثر بيان حال الكافرين بها
أى الذين آمنوا بآياته تعالى وعملوا بموجبها (لهم) بمقابلة ماذكر من إيمانهم وأعمالهم (جنات النعيم) أى

خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ ٣١ لقمان

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ
وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ ٣١ لقمان

هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ ٣١ لقمان

نعيم جنات فعكس للمبالغة والجملة خبر إن والأحسن أن يجعل لهم هو الخبر لأن وجنات النعيم مرتفعا
٩ به على الفاعلية وقوله تعالى (خالدين فيها) حال من الضمير في لهم أو من جنات النعيم لاشتماله على ضميرهما
والعامل ما تعلق به اللام (وعد الله حقاً) مصدران مؤكدان الأول لنفسه والثاني لغيره لأن قوله تعالى
لهم جنات النعيم في معنى وعدهم الله جنات النعيم فأكد معنى الوعد بالوعد وأما حقاً فدال على معنى
الثبات أكد به معنى الوعد ومؤكدهما جميعاً لهم جنات النعيم (وهو العزيز) الذي لا يغلبه شيء ليمنعه من
١٠ إنجاز وعده أو تحقيق وعيده (الحكيم) الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة (خلق السموات
بغير عمد) الخ استئناف مسوق للاستشهاد بما فصل فيه على عزته تعالى التي هي كمال القدرة وحكمته التي
هي كمال العلم وتمهيد قاعدة التوحيد وتقريره وإبطال أمر الإشراك وتبكيت أهله والعمد جمع عماد
كأهب جمع إهاب وهو ما يعمد به أي يسند يقال عمدت الحائط إذا دعمته أي بغير دعائم على أن الجمع
لتعدد السموات وقوله تعالى (ترونها) استئناف جيء به للاستشهاد على ما ذكر من خلقه تعالى لها غير
معمودة بمشاهدتهم لها كذلك أو صفة لعمد أي خلقها بغير عمد مرئية على أن التقييد للرمز إلى أنه تعالى
عمدها بعمد لا ترونها هي عمد القدرة (وألقى في الأرض رواسي) بيان لصنعه البديع في قرار الأرض
إثر بيان صنعه الحكيم في قرار السموات أي ألقى فيها جبالا ثوابت وقد مر ما فيه من الكلام في سورة
الرعد (أن تميد بكم) كراهة أن تميل بكم فإن بساطة أجزائها تقتضي تبدل أحيازها وأوضاعها لامتناع
اختصاص كل منها لذاته أو لشيء من لوازمه بحيز معين ووضع مخصوص (وبث فيها من كل دابة) من
كل نوع من أنواعها (وأنزلنا من السماء ماء) هو المطر (فأنبتنا فيها) بسبب ذلك الماء (من كل زوج كريم)
١١ من كل صنف كثير المنافع والالتفات إلى نون العظمة في الفعلين لإبراز مزيد الاعتناء بأمرها (هذا) أي
ما ذكر من السموات والأرض وما تعلق بهما من الأمور المعدودة (خلق الله) أي مخلوقه (فأروني
ماذا خلق الذين من دونه) مما اتخذتموهم شركاء له سبحانه في العبادة حتى استحقوا به المعبودية وماذا نصب
بخلق أو ما مرتفع بالابتداء وخبره ذا بصلته وأروني متعلق به وقوله تعالى (بل الظالمون في ضلال مبين)
إضراب عن تبكيتهم بما ذكر إلى التسجيل عليهم بالضلال البين المستدعي للإعراض عن مخاطبتهم
بالمقدمات المعقولة الحقة لاستحالة أن يفهموا منها شيئاً فيهتدوا به إلى العلم ببطلان ما هم عليه أو يتأثروا
من الإلزام والتبكيت فينزجروا عنه ووضع الظاهر موضع ضميرهم للدلالة على أنهم بإشراكهم

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ ٣١ لقمان

وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ٣١ لقمان

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ٣١ لقمان

واضعون للشيء في غير موضعه ومتعدون عن الحدود وظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد
١٢ (ولقد آتينا لقمان الحكمة) كلام مستأنف مسوق لبيان بطلان الشرك وهو لقمان بن باعوراء من أولاد
آزر ابن أخت أيوب عليه السلام أو خالته وعاش حتى أدرك داود عليه السلام وأخذ عنه العلم وكان يفتي
قبل مبعثه وقيل كان قاضياً في بني إسرائيل والجمهور على أنه كان حكيما ولم يكن نبياً والحكمة في عرف
العلماء استكمال النفس الإنسانية باقتباس العلوم النظرية واكتساب الملكة التامة على الأفعال الفاضلة
على قدر طاقتها ومن حكمته أنه صحب داود عليه السلام شهوراً وكان يسرد الدرع فلم يسأله عنها فلما أتمها
لبسها وقال نعم لبوس الحرب أنت فقال الصمت حكمة وقليل فاعله فقال له داود عليه السلام بحق ما سميت
حكيما وأن داود عليه السلام قال له يوما كيف أصبحت فقال أصبحت في يدي غيري فتفكر داود فيه
فصعق صعقة وأنه أمره مولاه بأن يذبح شاة ويأتي بأطيب مضغتين منها فأتى باللسان والقلب ثم بعد أيام
أمره بأن يأتي بأخبث مضغتين منها فأتى بهما أيضاً فسأله عن ذلك فقال هما أطيب شيء إذا طابا وأخبث
شيء إذا خبثا ومعنى (أن اشكر لله) أي اشكر له تعالى على أن أن مفسرة فإن إيتاء الحكمة في معنى القول
وقوله تعالى (ومن يشكر) الخ استئناف مقرر لمضمون ما قبله موجب للامتثال بالأمر أي ومن يشكر
له تعالى (فإنما يشكر لنفسه) لأن منفعته التي هي ارتباط العتيد واستجلاب المزيد مقصورة عليها (ومن
كفر فإن الله غني) عن كل شيء فلا يحتاج إلى الشكر ليتضرر بكفر من كفر (حميد) حقيق بالحمد وإن
لم يحمده أحد أو محمود بالفعل ينطق بحمده جميع المخلوقات بلسان الحال وعدم التعرض لكونه تعالى
مشكوراً لما أن الحمد متضمن للشكر بل هو رأسه كما قال ﷺ الحمد رأس الشكر لم يشكر الله عبد لم يحمده
١٣ فإثباته له تعالى إثبات للشكر له قطعاً (وإذ قال لقمان لابنه) أنعم وقيل أشكم وقيل ماثان (وهو يعظه
يابني) تصغير إشفاق وقرىء يابني بإسكان الياء وبكسرها (لا تشرك بالله) قيل كان ابنه كافراً فلم يزل به
حتى أسلم ومن وقف على لا تشرك جعل بالله قسما (إن الشرك لظلم عظيم) تعليل للنهي أو للانتهاء عن
١٤ الشرك (ووصينا الإنسان بوالديه) الخ كلام مستأنف اعترض به على نهج الاستطراد في أثناء وصية
لقمان تأكيداً لما فيها من النهي عن الشرك وقوله تعالى (حملته أمه) إلى قوله في عامين اعتراض بين المفسر
والمفسر وقوله تعالى (وهناً) حال من أمه أي ذات وهن أو مصدر مؤكد لفعل هو الحال أي تهن وهناً

وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ
سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٣١ لقمان

يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ
بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ ٣١ لقمان

يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ
ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ٣١ لقمان

وقوله تعالى (على وهن) صفة للمصدر أى كائناً على وهن أى تضعف ضعفاً فوق ضعف فإنها لاتزال
يتضاعف ضعفها وقرىء وهناً على وهن بالتحريك يقال وهن يهن وهناً ووهن يوهن وهناً (وفصاله
فى عامين) أى فطامه فى تمام عامين وهى مدة الرضاع عند الشافعى وعند أبى حنيفة رحمهما الله تعالى هى
ثلاثون شهراً وقد بين وجهه فى موضعه وقرىء وفصله (أن اشكر لى ولوالديك) تفسير لوصينا وما
بينهما اعتراض مؤكد للوصية فى حقها خاصة ولذلك قال ﷺ لمن قال له من أبر : أمك ثم أمك ثم أمك
ثم قال بعد ذلك ثم أباك (إلى المصير) تعليل لوجوب الامتثال أى إلى الرجوع لا إلى غيرى فأجازيك
على ماصدر عنك من الشكر والكفر (وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به) أى بشركته له ١٥
تعالى فى استحقاق العبادة (علم فلا تطعهما) فى ذلك (وصاحبهما فى الدنيا معروفا) أى صحاباً معروفاً يرتضيه
الشرع وتقتضيه المروءة (واتبع سبيل من أناب إلى) بالتوحيد والإخلاص فى الطاعة (ثم إلى مرجعكم)
أى مرجعك ومرجعهما ومرجع من أناب إلى (فأنبئكم) عند رجوعكم (بما كنتم تعملون) بأن أجازى
كلا منكم بما صدر عنه من الخير والشر وقوله تعالى (يابنى) الخ شروع فى حكاية بقية وصايا لقمان إثر ١٦
تقرير مافى مطلعها من النهى عن الشرك وتأكيده بالاعتراض (إنها إن تك مثقال حبة من خردل) أى
إن الخصلة من الإساءة أو الإحسان إن تك مثلا فى الصغر كحبة الخردل وقرىء برفع مثقال على أن
الضمير للقصة وكان تامة والتأنيث لإضافة المثقال إلى الحبة كما فى قول من قال [كما شرقت صدر القناة من
الدم] أو لأن المراد به الحسنة أو السيئة (فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض) أى فتكن
مع كونها فى أقصى غايات الصغر والقماءة فى أخفى مكان وأحرزه كجوف الصخرة أو حيث كانت فى العالم
العلوى أو السفلى (يأت بها الله) أى يحضرها ويحاسب عليها (إن الله لطيف) يصل علمه إلى كل خفى
(خبير) بكنهه وبعد ما أمره بالتوحيد الذى هو أول مايجب على الإنسان فى ضمن النهى عن الشرك ونبهه على
كمال علم الله تعالى وقدرته أمره بالصلاة التى هى أكمل العبادات تكميلا له من حيث العمل بعد تكميله من
حيث الاعتقاد فقال مستميلاله (يابنى أقم الصلاة) تكميلا لنفسك (وأمر بالمعروف وانه عن المنكر) ١٧
تكميلا لغيرك (واصبر على ماأصابك) من الشدائد والمحن لاسيما فيما أمرت به (إن ذلك) إشارة إلى

وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ ٣١ لقمان

وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ٣١ لقمان

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً
وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ ٣١ لقمان

كل ماذكر وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان مرارا من الإشعار ببعد منزلته فى الفضل
(من عزم الأمور) أى مما عزمه الله تعالى وقطعه على عباده من الأمور لمزيد مزيتها مصدر أطلق على
المفعول وقد جوز أن يكون بمعنى الفاعل من قوله تعالى فإذا عزم الأمر أى جد والجملة تعليل لوجوب
الامتثال بما سبق من الأمر والنهى وإيذان بأن ما بعدها ليس بمثابته (ولا تصعر خدك للناس) أى لاتمله ١٨
ولا تولهم صفحة وجهك كما هو ديدن المتكبرين من الصعر وهو الصيد وهو داء يصيب البعير فيلوى
منه عنقه وقرىء ولا تصاعر وقرىء ولا تصعر من الإفعال والكل بمعنى مثل علاه وعالاه وأعلاه
(ولا تمش فى الأرض مرحا) أى فرحا مصدر وقع موقع الحال أو مصدر مؤكد لفعل هو الحال أى
تمرح مرحا أو لأجل المرح والبطر (إن الله لا يحب كل مختال فخور) تعليل للنهى أو موجبه وتأخير
الفخور مع كونه بمقابلة المصعر خده عن المختال وهو بمقابلة الماشى مرحا لرعاية الفواصل (واقصد فى ١٩
مشيك) بعد الاجتناب عن المرح فيه أى توسط بين الدبيب والإسراع وعنه ﷺ سرعة المشى تذهب
بهاء المؤمن وقول عائشة فى عمر رضى الله عنهما كان إذا مشى أسرع فالمراد به مافوق دبيب المتماوت وقرىء
بقطع الهمزة من أقصد الرامى إذا سدد سهمه نحو الرمية (واغضض من صوتك) وانقص منه واقصر
(إن أنكر الأصوات) أى أوحشها (لصوت الحمير) تعليل للأمر على أبلغ وجه وآكده مبنى على
تشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير وتمثيل أصواتهم بالنهاق وإفراط فى التحذير عن رفع الصوت والتنفير
عنه وإفراد الصوت مع إضافته إلى الجمع لما أن المراد ليس بيان حال صوت كل واحد من آحاد هذا
الجنس حتى يجمع بل بيان حال صوت هذا الجنس من بين أصوات سائر الأجناس وقوله تعالى (ألم تروا ٢٠
أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض) رجوع إلى سنن ما سلف قبل قصة لقمان من خطاب
المشركين وتوبيخ لهم على إصرارهم على ما هم عليه مع مشاهدتهم لدلائل التوحيد والمراد بالتسخير إما
جعل المسخر بحيث ينفع المسخر له أعم من أن يكون منقاداً له يتصرف فيه كيف يشاء ويستعمله حسبما
يريد كعامة ما فى الأرض من الأشياء المسخرة للإنسان المستعملة له من الجماد والحيوان أو لا يكون
كذلك بل يكون سبباً لحصول مراده من غير أن يكون له دخل فى استعماله كجميع ما فى السموات
من الأشياء التى نيطت بها مصالح العباد معاشاً ومعاداً وما جعله منقاداً للأمر مذللا على أن معنى لكم

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ٣١ لقمان

وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ ٣١ لقمان

وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ ٣١ لقمان

نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ ٣١ لقمان

لأجلكم فإن جميع مافى السموات والأرض من الكائنات مسخر لله تعالى مستتبعة لمنافع الخلق وما يستعمله الإنسان حسبما يشاء وإن كان مسخراً له بحسب الظاهر فهو فى الحقيقة مسخر لله تعالى * (وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) محسوسة ومعقولة معروفة لكم وغير معروفة وقد مر شرح النعمة وتفصيلها فى الفاتحة وقرىء أصبغ بالصاد وهو جار فى كل سين قارنت الغين أوالخاء أو القاف كما تقول فى سلخ صلخ وفى سقر صقر وفى سالغ صالغ وقرىء نعمة (ومن الناس من يجادل فى الله) فى توحيده وصفاته (بغير علم) مستفاد من دليل (ولا هدى) من جهة الرسول ﷺ (ولا كتاب منير)

٢١ أنزله الله سبحانه بل بمجرد التقليد (وإذا قيل لهم) أى لمن يجادل والجمع باعتبار المعنى (اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا) يريدون به عبادة الأصنام (أولو كان الشيطان يدعوهم) أى آباءهم لا أنفسهم كما قيل فإن مدار إنكار الاتباع واستبعاده كون المتبوعين تابعين للشيطان لا كون

* أنفسهم كذلك أى أيتبعونهم ولو كان الشيطان يدعوهم فيما هم عليه من الشرك (إلى عذاب السعير) فهم متوجهون إليه حسب دعوته والجملة فى حيز النصب على الحالية وقد مر تحقيقه فى قوله تعالى أولو كان

٢٢ آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون من سورة البقرة بما لا مزيد عليه (ومن يسلم وجهه إلى الله) بأن فوض إليه مجامع أموره وأقبل عليه بكليته وحيث عدى باللام قصد معنى الاختصاص وقرىء بالتشديد

* (وهو محسن) أى فى أعماله آت بها جامعة بين الحسن الذاتى والوصفى وقدمر فى آخر سورة النحل (فقد استمسك بالعروة الوثقى) أى تعلق بأوثق مايتعلق به من الأسباب وهو تمثيل لحال المتوكل المشتغل بالطاعة بحال من أراد أن يترقى إلى شاهق جبل فتمسك بأوثق عرى الحبل المتدلى منه (وإلى الله) لا إلى

٢٣ أحد غيره (عاقبة الأمور) فيجازيه أحسن الجزاء (ومن كفر فلا يحزنك كفره) فإنه لا يضرك فى الدنيا ولا فى الآخرة وقرىء فلا يحزنك من أحزن المنقول من حزن بكسر الزاى وليس بمستفيض (إلينا مرجعهم) لا إلى غيرنا (فننبئهم بما عملوا) فى الدنيا من الكفر والمعاصى بالعذاب والعقاب والجمع فى الضمائر الثلاثة باعتبار معنى من كما أن الإفراد فى الأول باعتبار لفظها (إن الله عليم بذات الصدور)

٢٤ تعليل للتنبئة المعبر بها عن التعذيب (نمتعهم قليلا) تمتيعاً أو زماناً قليلا فإن مايزول وإن كان بعد أمد

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ٣١ لقمان

لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ ٣١ لقمان

وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ٣١ لقمان

مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ ٣١ لقمان

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ
مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ٣١ لقمان

طويل بالنسبة إلى مايدوم قليل (ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ) يثقل عليهم ثقل الأجرام الغلاظ أو يضم
إلى الإحراق الضغط والتضييق (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) لغاية وضوح ٢٥
الأمر بحيث اضطروا إلى الاعتراف به (قل الحمد لله) على أن جعل دلائل التوحيد بحيث لا يكاد ينكرها
المكابرون أيضاً (بل أكثرهم لا يعلمون) شيئاً من الأشياء فلذلك لا يعملون بمقتضى اعترافهم وقيل لا يعلمون
أن ذلك يلزمهم (لله مافى السموات والأرض) فلا يستحق العبادة فيهما غيره (إن الله هو الغنى) عن العالمين ٢٦
(الحميد) المستحق للحمد وإن لم يحمده أحد أو المحمود بالفعل يحمده كل مخلوق بلسان الحال (ولو أن مافى ٢٧
الأرض من شجرة أقلام) أى لو أن الأشجار أقلام وتوحيد الشجرة لما أن المراد تفصيل الآحاد (والبحر
يمده من بعده) أى من بعد نفاده (سبعة أبحر) أى والحال أن البحر المحيط بسعته يمده الأبحر السبعة مداً
لا ينقطع أبداً وكتبت بتلك الأقلام وبذلك المداد كلمات الله (مانفدت كلمات الله) ونفدت تلك الأقلام
والمداد كما فى قوله تعالى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى وقرىء يمده من الإمداد بالياء والتاء وإسناد المد
إلى الأبحر السبعة دون البحر المحيط مع كونه أعظم منها وأطم لأنها هى المجاورة للجبال ومنابع المياه الجارية
وإليها تنصب الأنهار العظام أولا ومنها ينصب إلى البحر المحيط ثانياً وإيثار جمع القلة فى الكلمات للإيذان بأن
ماذكر لا يفى بالقليل منها فكيف بالكثير (إن الله عزيز) لا يعجزه شىء (حكيم) لا يخرج عن علمه وحكمته
أمر فلا تنفد كلماته المؤسسة عليهما (ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) أى إلا كخلقها وبعثها فى ٢٨
سهولة التأتى إذ لا يشغله شأن عن شأن لأن مناط وجود الكل تعلق إرادته الواجبة مع قدرته الذاتية حسبما
يفصح عنه قوله تعالى إنما أمرنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون (إن الله سميع) يسمع كل مسموع
(بصير) يبصر كل مبصر لا يشغله علم بعضها عن علم بعض فكذلك الخلق والبعث (ألم تر) قيل الخطاب ٢٩
لرسول الله ﷺ وقيل عام لكل أحد ممن يصلح للخطاب وهو الأوفق لما سبق وما لحق أى ألم تعلم علماً

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ ٣١ لقمان

قوياً جارياً مجرى الرؤية (أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) أى يدخل كل واحد منهما فى الآخر ويضيفه إليه فيتفاوت بذلك حاله زيادة ونقصاناً (وسخر الشمس والقمر) عطف على يولج والاختلاف بينهما صيغة لما أن إيلاج أحد الملوين فى الآخر متجدد فى كل حين وأما تسخير النيرين فأمر لا تعدد فيه ولا تجدد وإنما التعدد والتجدد فى آثاره وقد أشير إلى ذلك حيث قيل (كل يجرى) أى بحسب حركته الخاصة وحركته القسرية على المدارات اليومية المتخالفة المتعددة حسب تعدد الأيام جرياً مستمراً (إلى أجل مسمى) قدره الله تعالى لجريهما وهو يوم القيامة كما روى عن الحسن رحمه الله فإنه لا ينقطع جريهما إلا حينئذ والجملة على تقدير عموم الخطاب اعتراض بين المعطوفين لبيان الواقع بطريق الاستطراد وعلى تقدير اختصاصه به ﷺ يجوز أن يكون حالا من الشمس والقمر فإن جريانهما إلى يوم القيامة من جملة ما فى حيز رؤيته ﷺ هذا وقد جعل جريانهما عبارة عن حركتهما الخاصة بهما فى فلكهما والأجل المسمى عن منتهى دورتهما وجعل مدة الجريان للشمس سنة وللقمر شهراً فالجملة حينئذ بيان لحكم تسخيرهما وتنبيه على كيفية إيلاج أحد الملوين فى الآخر وكون ذلك بحسب اختلاف جريان الشمس على مداراتها اليومية فكلما كان جريانها متوجهاً إلى سمت الرأس تزداد القوس التى هى فوق الأرض كبراً فيزداد النهار طولا بانضمام بعض أجزاء الليل إليه إلى أن يبلغ المدار الذى هو أقرب المدارات إلى سمت الرأس وذلك عند بلوغها إلى رأس السرطان ثم ترجع متوجهة إلى التباعد عن سمت الرأس فلا تزال القسى التى هى فوق الأرض تزداد صغراً فيزداد النهار قصراً بانضمام بعض أجزائه إلى الليل إلى أن يبلغ المدار الذى هو أبعد المدارات اليومية عن سمت الرأس وذلك عند بلوغها برج الجدى وقوله تعالى (وأن الله بما تعملون خبير) عطف على أن الله يولج الخ داخل معه فى حيز الرؤية على تقديرى خصوص الخطاب وعمومه فإن من شاهد مثل ذلك الصنع الرائق والتدبير الفائق لا يكاد يغفل عن

٣ كون صانعه عز وجل محيطاً بجلائل أعماله ودقائقها (ذلك) إشارة إلى ما تلى من الآيات الكريمة وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتها فى الفضل وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (بأن الله هو الحق) أى بسبب بيان أنه تعالى هو الحق إلهيته فقط ولأجله لكونها ناطقة بحقية التوحيد (وأن ما يدعون من دونه الباطل) أى ولأجل بيان بطلان إلهية ما يدعونه من دونه تعالى لكونها شاهدة بذلك شهادة بينة لا ريب فيها وقرىء بالتاء والتصريح بذلك مع أن الدلالة على اختصاص حقية الإلهية به تعالى مستتبعة للدلالة على بطلان إلهية ما عداه لإبراز كمال الاعتناء بأمر التوحيد وللإيذان بأن الدلالة على بطلان ما ذكر ليست بطريق الاستتباع فقط بل بطريق الاستقلال أيضاً (وأن الله هو العلى الكبير) أى وبيان أنه تعالى هو المترفع عن كل شىء المتسلط عليه فإن ما فى تضاعيف الآيات الكريمة مبين لاختصاص العلو والكبرياء به تعالى أى بيان هذا وقيل ذلك أى ما ذكر من سعة العلم وشمول القدرة وعجائب الصنع واختصاص البارى تعالى به بسبب أنه الثابت فى ذاته الواجب من جميع جهاته أو الثابت إلهيته وأنه

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ ٣١ لقمان

وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ ٣١ لقمان

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا ۚ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ ٣١ لقمان

خبير بأن حقيته تعالى وعلوه وكبرياءه وإن كانت صالحة لمناطية ماذكر من الأحكام المعدودة لكن بطلان إلهية الأصنام لادخل له فى المناطية قطعاً فلا مساغ لنظمه فى سلك الأسباب بل هو تمكيس للأمر ضرورة أن الأحكام المذكورة هى المقتضية لبطلانها لا أن بطلانها يقتضيها .

٣١ (ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله) بإحسانه فى تهيئة أسبابه وهو استشهاد آخر على باهر قدرته وغاية حكمته وشمول إنعامه والباء إما متعلقة بتجرى أو بمقدر هو حال من فاعله أى ملتبسة بنعمته تعالى وقرىء الفلك بضم اللام وبنعمات الله وعين فعلات يجوز فيه الكسر والفتح والسكون (ليريكم من آياته) أى بعض دلائل وحدته وعلمه وقدرته وقوله تعالى (إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) تعليل لما قبله أى إن فيما ذكر لآيات عظيمة فى ذاتها كثيرة فى عددها لكل من يبالغ فى الصبر على المشاق فيتعب نفسه فى التفكر فى الأنفس والآفاق ويبالغ فى الشكر على نعمائه وهما صفتا المؤمن فكأنه قيل لكل مؤمن

٣٢ (وإذا غشيهم) أى علاهم وأحاط بهم (موج كالظلل) كما يظل من جبل أو سحاب أو غيرهما وقرىء كالظلال جمع ظلة كقلة وقلال (دعوا الله مخلصين له الدين) لزوال ماينازع الفطرة من الهوى والتقليد بما دهاهم من الدواهى والشدائد (فلما نجاهم إلى البر فنهم مقتصد) أى مقيم على القصد السوى الذى هو التوحيد أو متوسط فى الكفر لانزجاره فى الجملة (وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار) غدار فإنه نقض العهد الفطرى أو

٣٣ رفض لما كان فى البحر والختر أشد الغدر وأقبحه (كفور) مبالغ فى كفران نعم الله تعالى (ياأيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لايجزى والد عن ولده) أى لايقضى عنه وقرىء لايجزى من أجزأ إذا أغنى والعائد إلى الموصوف محذوف أى لايجزى فيه (ولا مولود) عطف على والد أو هو مبتدأ خبره (هو جاز عن والده شيئاً) وتغيير النظم للدلالة على أن المولود أولى بأن لايجزى وقطع طمع من توقع من المؤمنين أن ينفع أباه الكافر فى الآخرة (إن وعد الله) بالثواب والعقاب (حق) لا يمكن إخلافه أصلا (فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) أى الشيطان المبالغ فى الغرور بأن يحملكم على المعاصى

إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾ ٣١ لقمان

٣٤ بتزيينها لكم وبرجيكم التوبة والمغفرة (إن الله عنده علم الساعة) علم وقت قيامها لما روى أن الحرث بن
عمرو أتى رسول الله ﷺ فقال متى الساعة وإنى قد ألقيت حباتى فى الأرض فمتى السماء تمطر وحمل امرأتى
ذكر أم أنثى وما أعمل غداً وأين أموت فنزلت وعنه ﷺ مفاتح الغيب خمس وتلا هذه الآية (وينزل
الغيث) فى إبانه الذى قدره وإلى محله الذى عينه فى علمه وقرىء ينزل من الإنزال (ويعلم ما فى الأرحام)
من ذكر أو أنثى تام أو ناقص (وما تدرى نفس) من النفوس (ماذا تكسب غداً) من خير أو شر
وربما تعزم على شىء منهما فتفعل خلافه (وما تدرى نفس بأى أرض تموت) كما لا تدرى فى أى وقت
تموت. روى أن ملك الموت مر على سليمان عليهما السلام فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر
إليه فقال الرجل من هذا قال ملك الموت فقال كأنه يريدنى فمر الريح أن تحملنى وتلقينى ببلاد الهند ففعل
ثم قال الملك لسليمان عليهما السلام كان دوام نظرى إليه تعجباً منه حيث كنت أمرت بأن أقبض روحه
بالهند وهو عندك ونسبة العلم إلى الله تعالى والدراية إلى العبد للإيذان بأنه إن أعمل حيله وبذل فى التعرف
وسعه لم يعرف ما هو لاحق به من كسبه وعاقبته فكيف بغيره مما لم ينصب له دليل عليه وقرىء بأية
أرض وشبه سيبويه تأنيثها بتأنيث كل فى كلتهن (إن الله عليم) مبالغ فى العلم فلا يعزب عن علمه شىء من
الأشياء التى من جملتها ما ذكر (خبير) يعلم بواطنها كما يعلم ظواهرها. عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة
لقمان كان له لقمان رفيقاً يوم القيامة وأعطى من الحسنات عشراً بعدد من عمل بالمعروف ونهى عن المنكر.

سورة لقمان

ترتيبها ٣١ — آياتها ٣٤

أخرج ابن الضريس، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: أنزلت سورة لقمان بمكة، ولا استثناء في هذه الرواية. وفي رواية النحاس في تاريخه عنه استثناء ثلاث آيات منها وهي ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام ﴾ [لقمان: ٢٧] إلى تمام الثلاث فإنها نزلن بالمدينة، وذلك أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لما هاجر قال له أحبار اليهود: بلغنا أنك تقول: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ [الإسراء: ٨٥] أعنيتنا أم قومك؟ قال: كلًّا عنيت فقالوا: إنك تعلم أننا أوتينا التوراة وفيها بيان كل شيء فقال عليه الصلاة والسلام: ذلك في علم الله تعالى قليل فأنزل الآيات.

ونقل الداني عن عطاء، وأبو حيان عن قتادة أنهما قالا: هي مكية إلا آيتين هما ﴿ولو أن ما في الأرض ﴾ إلى آخر الآيتين، وقيل: هي مكية إلاّ آية وهي قوله تعالى: ﴿الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ﴾ [لقمان: ٤] فإن إيجابهما بالمدينة، وأنت تعلم أن الصلاة فرضت بمكة ليلة الإسراء كما في صحيح البخاري وغيره فما ذكر من أن إيجابها بالمدينة غير مسلم، ولو سلم فيكفي كونهم مأمورين بها بمكة ولو ندبا فلا يتم التقريب فيها، نعم المشهور أن الزكاة إيجابها بالمدينة فلعل ذلك القائل أراد أن إيجابهما معاً تحقق بالمدينة لا أن إيجاب كل منهما تحقق فيها، ولا يضر في ذلك أن إيجاب الصلاة كان بمكة، وقيل: إن الزكاة إيجابها كان بمكة كالصلاة وتقدير الأنصباء هو الذي كان بالمدينة؛ وعليه لا تقريب فيهما، وآيها ثلاث وثلاثون في المكي والمدني وأربع وثلاثون في عدد الباقين.

وسبب نزولها على ما في البحر أن قريشاً سألت عن قصة لقمان مع ابنه وعن بر والديه فنزلت. ووجه مناسبتها لما قبلها على ما فيه أيضاً أنه قال تعالى فيما قبل: ﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ﴾ [الروم: ٥٨] وأشار إلى ذلك في مفتتح هذه السورة، وأنه كان في آخر ما قبلها ﴿ولئن جئتهم بآية ﴾ [الروم: ٥٨] وفيها ﴿وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً ﴾ [لقمان: ٧] وقال الجلال السيوطي: ظهر لي في اتصالها بما قبلها مع المؤاخاة في الافتتاح ـ بألم إن قوله تعالى: ﴿هدى ورحمة للمحسنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون﴾ [لقمان: ٤٣] متعلق بقوله تعالى فيما قبل: ﴿وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث ﴾ [الروم: ٥٦] الآية فهذا عين إيقانهم بالآخرة وهم المحسنون الموصوفون بما ذكر، وأيضاً ففي كلتا السورتين جملة من الآيات وابتداء الخلق.

وذكر في السابقة ﴿في روضة يحبرون ﴾ [الروم: ١٥] وقد فسر بالسماع وذكر هنا ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث ﴾ [لقمان: ٦] وقد فسر بالغناء وآلات الملاهي ا هـ.

وسيأتي إن شاء الله تعالى الكلام في ذلك، وأقول في الاتصال أيضاً: إنه قد ذكر فيما تقدم قوله تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾ [الروم: ٢٧] وهنا قوله سبحانه: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلاّ كنفس واحدة﴾ [لقمان: ٢٨] وكلاهما يفيد سهولة البعث وقرر ذلك هنا بقوله عزَّ وجلَّ قائلاً: ﴿إن الله سميع بصير﴾ وذكر سبحانه هناك قوله تعالى: ﴿وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون﴾ [الروم: ٣٣] وقال عزَّ وجلَّ هنا: ﴿وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخصلين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد﴾ [لقمان: ٣٢] فذكر سبحانه في كل من الآيتين قسماً لم يذكره في الأخرى إلى غير ذلك.

وما ألطف هذا الاتصال من حيث إن السورة الأولى ذكر فيها مغلوبية الروم وغلبتهم المبنيتين على المحاربة بين ملكين عظيمين من ملوك الدنيا تحاربا عليها وخرج بذلك عن مقتضى الحكمة فإن الحكيم لا يحارب على دنيا دنية لا تعدل عند الله تعالى جناح بعوضة وهذه ذكر فيها قصة عبد مملوك على كثير من الأقوال حكيم زاهد في الدنيا غير مكترث بها ولا ملتفت إليها أوصى ابنه بما يأبى المحاربة ويقتضي الصبر والمسالمة وبين الأمرين من التقابل ما لا يخفى.

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ
ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن
يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا
تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ
مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ
ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾

﴿بسْم الله الرَّحمن الرحيم الم تلْكَ آيَاتُ الْكتَاب الْحَكِيم﴾ أي ذي الحكمة، ووصف الكتاب بذلك عند بعض المغاربة مجاز لأن الوصف بذلك للتملك وهو لا يملك الحكمة بل يشتمل عليها ويتضمنها فلأجل ذلك وصف بالحكيم بمعنى ذي الحكمة، واستظهر الطيبي أنه على ذلك من الاستعارة المكنية. والحق أنه من باب ﴿عيشة راضية﴾ [الحاقة: ٢١] على حد لابن وتامر.

نعم يجوز أن يكون هناك استعارة بالكناية أي الناطق بالحكمة كالحي، ويجوز أن يكون الحكيم من صفاته عزَّ وجلَّ ووصف الكتاب به من باب الإسناد المجازي فإنه منه سبحانه بدا، وقد يوصف الشيء بصفة مبدئه كما في قول الأعشى:

قد قلتها ليقال من ذا قالها وغريبة تأتي الملوك حكيمة

وأن يكون الأصل الحكيم مُنزله أو قائله فحذف المضاف إلى الضمير المجرور وأقيم المضاف إليه مقامه فانقلب مرفوعاً ثم استكن في الصفة المشبهة وأن يكون ﴿الحكيم﴾ فعيلاً بمعنى مفعل كما قالوا: عقدت العسل فهو عقيد أي معقد وهذا قليل، وقيل: هو بمعنى حاكم، وتمام الكلام في هذه الآية قد تقدم في الكلام على نظيرها ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ بالنصب على الحالية من ﴿آيات﴾ والعامل فيهما معنى الإشارة على ما ذكره غير واحد وبحث فيه.

وقرأ حمزة، والأعمش، والزعفراني، وطلحة، وقنبل من طريق أبي الفضل الواسطي، ونظيف بالرفع على الخبر بعد الخبر ـ لتلك ـ على مذهب الجمهور أو الخبر لمحذوف أي هي أو هو هدى ورحمة عظيمة ﴿لِلْمُحْسِنِينَ﴾ أي العاملين الحسنات، والجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع صفة للمتعاطفين، وقوله تعالى:

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ ويُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بالآخرةَ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ إما مجرور على أنه صفة كاشفة أو بدل أو بيان لما قبله، وإما منصوب أو مرفوع على القطع وعلى كل فهو تفسير للمحسنين على طريقة قول أوس بن حجر:

كأن قد رأى وقد سمعا الألمعي الذي يظن بك الظن

فقد حكي عن الأصمعي أنه سأل عن الألمعي فأنشده ولم يزد عليه، وهذا ظاهر على تقدير أن يراد بالحسنات مشاهيرها المعهودة في الدين، وأما على تقدير أن يراد بها جميع ما يحسن من الأعمال فلا يظهر إلا باعتبار جعل المذكورات بمنزلة الجميع من باب «كل الصيد في جوف الفرا»، وقيل: إذا أريد بالحسنات المذكورات يكون الموصول صفة كاشفة وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ استئنافاً، وإذا أريد بها جميع ما يحسن من الأعمال وكان تخصيص المذكورات بالذكر لفضل اعتداد بها يكون الموصول مبتدأ وجملة ﴿أولئك على هدى﴾ الخ خبره والكلام استئناف بذكر الصفة الموجبة للاستئهال.

وقيل: إن الموصول على التقديرين صفة إلا أنه على التقدير الأول كاشفة وعلى التقدير الثاني صفة مادحة للوصف لا للموصوف، وبناء ﴿يوقنون﴾ على ﴿هم﴾ للتقوى، وأعيد الضمير للتأكيد ولدفع توهم كون ﴿بالآخرة﴾ خبراً وجبراً للفصل بين المبتدأ وخبره ولم يؤخر الفاصل للفاصلة.

وذكر بعض أجلة المفسرين في قوله تعالى أول سورة البقرة: ﴿وهم بالآخرة هم يوقنون﴾ إن بناء ﴿يوقنون﴾ على ﴿هم﴾ يدل على أن مقابليهم ليسوا من اليقين في ظل ولا فيء وأن تقديم «في الآخرة» يدل على أن ما عليه مقابلوهم ليس من الآخرة في شيء وذلك لإفادة تقديم الفاعل المعنوي وتقديم الجار على متعلقه الاختصاص فانظر هل يتسنى نحو ذلك هنا، وقد مر أول سورة البقرة ما يعلم منه وجه اختيار اسم الإشارة ووجه تكراره، وفي الآية كلام بعد لا يخفى على من راجع ما ذكروه من الكلام على ما يشبهها هناك وتأمل فراجع وتأمل.

﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ أي بعض من الناس أو بعض الناس ﴿مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ أي الذي أو فريق يشتري على أن مناط الإفادة والمقصود بالأصالة هو اتصافهم بما في حيز الصلة أو الصفة لا كونهم ذوات أولئك المذكورين، والجملة عطف على ما قبلها بحسب المعنى كأنه قيل: من الناس هاد مهدي ومنهم ضال مضل أو عطف قصة على قصة، وقيل: إنها حال من فاعل الإشارة أي أشير الى آيات الكتاب حال كونها هدى ورحمة والحال من الناس من يشتري الخ، و ﴿لهو الحديث﴾ على ما روي عن الحسن كل ما شغلك عن عبادة الله تعالى وذكره من السمر والأضاحيك والخرافات والغناء ونحوها، والإضافة بمعنى من أن أريد بالحديث المنكر كما في حديث «الحديث في

المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش» بناء على أنها بيانية وتبعيضية أن أريد به ما هو أعم منه بناء على مذهب بعض النحاة كابن كيسان، والسيرافي قالوا: إضافة ما هو جزء من المضاف إليه بمعنى من التبعيضية كما يدل عليه وقوع الفصل بها في كلامهم، والذي عليه أكثر المتأخرين وذهب إليه ابن السراج، والفارسي وهو الأصح أنها على معنى اللام كما فصله أبو حيان في شرح التسهيل وذكره شارح اللمع.

وعن الضحاك أن ﴿لهو الحديث﴾ الشرك، وقيل: السحر، وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي الصهباء قال سألت عبد الله بن مسعود عن قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث﴾ قال: هو والله الغناء وبه وفسر كثير، والأحسن تفسيره بما يعم كل ذلك كما ذكرناه عن الحسن، وهو الذي يقتضيه ما أخرجه البخاري في الأدب المفرد، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن ابن عباس أنه قال: ﴿لهو الحديث﴾ هو الغناء، وأشباهه، وعلى جميع ذلك يكون الاشتراء استعارة لاختياره على القرآن واستبداله به، وأخرج ابن عساكر عن مكحول في قوله تعالى: ﴿من يشتري لهو الحديث﴾ قال الجواري الضاربات.

وأخرج آدم، وابن جرير، والبيهقي في سننه عن مجاهد أنه قال فيه: هو اشتراؤه المغني والمغنية والاستماع إليه وإلى مثله من الباطل، وفي رواية ذكرها البيهقي في السنن عن ابن مسعود أنه قال: في الآية هو رجل يشتري جارية تغنيه ليلاً أو نهاراً واشتهر أن الآية نزلت في النضر بن الحارث، ففي رواية جويبر عن ابن عباس أنه اشترى قينة فكان لا يسمع بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته، فيقول: أطعميه واسقيه وغنيه ويقول: خذ أخير مما يدعوك إليه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم من الصلاة والصيام وأن تقاتل بين يديه فنزلت.

وفي أسباب النزول للواحدي عن الكلبي، ومقاتل أنه كان يخرج تاجراً إلى فارس فيشتري أخبار الأعاجم وفي بعض الروايات كتب الأعاجم فيرويها ويحدث بها قريشاً ويقول لهم: إن محمداً عليه الصلاة والسلام يحدثكم بحديث عاد، وثمود وأنا أحدثكم بحديث رستم، واسفنديار وأخبار الأكاسرة فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن فنزلت، وقيل: إنها نزلت في ابن خطل اشترى جارية تغني بالسب، ولا يأبى نزولها فيمن ذكر الجمع في قوله تعالى بعد: ﴿أولئك لهم﴾ كما لا يخفى على الفطن، والاشتراء على أكثر هذه الروايات على حقيقته ويحتاج في بعضها إلى عموم المجاز أو الجمع بين الحقيقة والمجاز كما لا يخفى على من دقق النظر، وجعل المغنية ونحوها نفس لهو الحديث مبالغة كما جعل ﴿النساء﴾ في قوله تعالى: ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء﴾ [آل عمران: ١٤] نفس الزينة.

وفي البحر إن أريد بلهو الحديث ما يقع عليه الشراء كالجواري المغنيات وككتب الأعاجم فالاشتراء حقيقة ويكون الكلام على حذف مضاف أي من يشتري ذات لهو الحديث.

وقال الخفاجي: عليه الرحمة لا حاجة إلى تقدير ذات لأنه لما اشتريت المغنية لغنائها فكأن المشتري هو الغناء نفسه فتدبره، وفي الآية عند الأكثرين ذم للغناء بأعلى صوت وقد تضافرت الآثار وكلمات كثير من العلماء الأخيار على ذمه مطلقاً لا في مقام دون مقام، فأخرج ابن أبي الدنيا، والبيهقي، في شعبه عن ابن مسعود قال: إذا ركب الرجل الدابة ولم يسم ردفه شيطان فقال: تغنه فإن كان لا يحسن قال: تمنه، وأخرجا أيضاً عن الشعبي قال: عن القاسم بن محمد أنه سأل عن الغناء فقال للسائل: أنهاك عنه وأكرهه لك فقال السائل: أحراء هو؟ قال: انظر يا ابن أخي إذا ميز الله تعالى الحق من الباطل في أيهما يجعل سبحانه الغناء، وأخرجا عنه أيضاً أنه قال: «لعن الله تعالى المغني والمغنى له»،

وفي السنن عن ابن مسعود قال: «قال رسول الله ﷺ الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل»، وأخرج عنه نحوه ابن أبي الدنيا ورواه عن أبي هريرة، والديلمي عنه وعن أنس وضعفه ابن القطان، وقال النووي لا يصح، وقال العراقي: رفعه غير صحيح لأن في إسناده من لم يسم وفيه إشارة إلى أن وقفه على ابن مسعود صحيح وهو في حكم المرفوع إذ مثله لا يقال من قبل الرأي. وأخرج ابن أبي الدنيا وابن مردويه عن أبي أمامة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «ما رفع أحد صوته بغناء إلا بعث الله تعالى إليه شيطانين يجلسان على منكبيه يضربان بأعقابهما على صدره حتى يمسك» وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن أبي عثمان الليثي قال: قال يزيد بن الوليد الناقص: يا بني أمية إياكم والغناء فإنه ينقص الحياء ويزيد في الشهوة ويهدم المروءة وإنه لينوب عن الخمر ويفعل ما يفعل السكر فإن كنتم لا بد فاعلين فجنبوه النساء فإن الغناء داعية الزنا، وقال الضحاك: الغناء منفدة للمال مسخطة للرب مفسدة للقلب، وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد، والترمذي، وابن ماجة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وغيرهم عن أبي أمامة عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «لا تبيعوا القينات ولا تشتروهن ولا تعلموهن ولا خير في تجارة فيهن وثمنهن حرام في مثل هذا أنزلت هذه الآية ﴿**ومن الناس من يشتري لهو الحديث**﴾ إلى آخر الآية» وفي رواية ابن أبي الدنيا، وابن مردويه عن عائشة قالت: «قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: إن الله تعالى حرم القينة وبيعها وثمنها وتعليمها والاستماع إليها ثم قرأ ﴿**ومن الناس من يشتري لهو الحديث**﴾ ويعود هذا ونحوه إلى ذم الغناء.

وقيل: الغناء جاسوس القلب وسارق المروءة والعقول يتغلغل في سويداء القلوب ويطلع على سرائر الأفئدة ويدب إلى بيت التخييل فينشر ما غرز فيها من الهوى والشهوة والسخافة والرعونة فبينما ترى الرجل وعليه سمت الوقار وبهاء العقل وبهجة الإيمان ووقار العلم كلامه حكمة وسكوته عبرة فإذا سمع الغناء نقص عقله وحياؤه وذهبت مروءته وبهاؤه فيستحسن ما كان قبل السماع يستقبحه ويبدي من أسراره ما كان يكتمه وينتقل من بهاء السكوت والسكون إلى كثرة الكلام والهذيان والاهتزاز كأنه جان وربما صفق بيديه ودق الأرض برجليه وهكذا تفعل الخمر الى غير ذلك، واختلف العلماء في حكمه فحكي تحريمه عن الإمام أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه القاضي أبو الطيب، والقرطبي، والماوردي، والقاضي عياض.

وفي التاتارخانية اعلم أن التغني حرام في جميع الأديان، وذكر في الزيادات أن الوصية للمغنين والمغنيات مما هو معصية عندنا وعند أهل الكتاب، وحكي عن ظهير الدين المرغيناني: أنه قال من قال لمقرىء زماننا أحسنت عند قراءته كفر. وصاحبا الهداية والذخيرة سمياه كبيرة. هذا في التغني للناس في غير الأعياد والأعراس ويدخل فيه تغني صوفية زماننا في المساجد والدعوات بالأشعار والأذكار مع اختلاط أهل الأهواء والمراد بل هذا أشد من كل تغني لأنه مع اعتقاد العبادة وأما التغني وحده بالأشعار لدفع الوحشة أو في الأعياد والأعراس فاختلفوا فيه والصواب منعه مطلقاً في هذا الزمان انتهى.

وفي الدر المختار التغني لنفسه لدفع الوحشة لا بأس به[١] عند العامة على ما في العناية وصححه العيني[٢]

---

(١) قوله لا بأس به الخ لما جاء عن أنس بن مالك أنه دخل على أخيه البراء بن مالك وكان من دهاة الصحابة وكان يتغنى وأجيب بأنه يجوز أن يكون معنى يتغنى ينشد الأشعار أي المباحة ا هـ منه.

(٢) قوله وصححه العيني وإليه ذهب شمس الأئمة السرخسي ا هـ منه.

وغيره. قال ولو فيه وعظ وحكمة فجائز اتفاقاً ومنهم من أجازه في العرس كما جاز ضرب الدف فيه ومنهم من أباحه مطلقاً ومنهم من كرهه مطلقاً انتهى. وفي البحر والمذهب حرمته مطلقاً فانقطع الاختلاف بل ظاهر الهداية أنه كبيرة ولو لنفسه وأقره المصنف وقال: ولا تقبل شهادة من يسمع الغناء أو يجلس مجلسه انتهى كلام الدر.

وذكر الإمام أبو بكر الطرسوسي في كتابه في تحريم السماع أن الإمام أبا حنيفة يكره الغناء ويجعله من الذنوب وكذلك مذهب أهل الكوفة سفيان، وحماد، وإبراهيم، والشعبي، وغيرهم لا اختلاف بينهم في ذلك ولا نعلم خلافاً بين أهل البصرة في كراهة ذلك والمنع منه انتهى وكأن مراده بالكراهة الحرمة، والمتقدمون كثيراً ما يريدون بالمكروه الحرام كما في قوله تعالى: ﴿كل ذلك سيئه عند ربك مكروهاً﴾ [الإسراء: ٣٨] ونقل عليه الرحمة فيه أيضاً عن الإمام مالك انه نهى عن الغناء وعن استماعه وقال: إذا اشترى جارية فوجدها مغنية فله أن يردها بالعيب وإنه سئل ما ترخص فيه أهل المدينة من الغناء فقال: إنما يفعله عندنا الفساق؟ ونقل التحريم عن جمع من الحنابلة على ما حكاه شارح المقنع وغيره، وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب البلغة أن أكثر أصحابهم على التحريم وعن عبد الله ابن الإمام أحمد انه قال: سألت أبي عن الغناء فقال ينبت النفاق في القلب لا يعجبني ثم ذكر قول مالك: إنما يفعله عندنا الفساق، وقال المحاسبي في رسالة الإنشاء الغناء حرام كالميتة، ونقل الطرسوسي أيضاً عن كتاب أدب القضاء أن الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه قال: إن الغناء لهو مكروه يشبه الباطل والمحال من استكثر منه فهو سفيه ترد شهادته، وفيه أنه صرح أصحابه العارفون بمذهبه بتحريمه وأنكروا على من نسب إليه حله كالقاضي أبي الطيب ، والطبري، والشيخ أبي إسحاق في التنبيه وذكر بعض تلامذة البغوي في كتابه الذي سماه التقريب أن الغناء حرام فعله وسماعه، وقال ابن الصلاح في فتاواه بعد كلام طويل: فإذن هذا السماع حرام باجماع أهل الحل والعقد من المسلمين انتهى. والذي رأيته في الشرح الكبير للجامع الصغير للفاضل المناوي أن مذهب الشافعي أنه مكروه تنزيهاً عند أمن الفتنة، وفي المنهاج يكره الغناء بلا آلة قال العلامة ابن حجر لما صح عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه وذكر الحديث السابق الموقوف عليه وإنه جاء مرفوعاً من طرق كثيرة بينها في كتابه كف الرعاع عن محرمات اللهو والسماع ثم قال: وزعم أنه لا دلالة فيه على كراهته لأن بعض المباح كلبس الثياب الجميلة ينبت النفاق في القلب وليس بمكروه يرد بأنا لا نسلم أن هذا ينبت نفاقاً أصلاً، ولئن سلمناه فالنفاق مختلف فالنفاق الذي ينبته الغناء من التخنث وما يترتب عليه أقبح وأشنع كما لا يخفى ثم قال: وقد جزم الشيخان يعني النووي والرافعي في موضع بأنه معصية وينبغي حمله على ما فيه وصف نحو خمر أو تشبب بأمرد أو أجنبية ونحو ذلك مما يحمل غالباً على معصية، قال الأذرعي: أما ما اعتيد عند محاولة عمل وحمل ثقيل كحداء الأعراب لإبلهم والنساء لتسكين صغارهن فلا شك في جوازه بل ربما يندب إذا نشط على سير أو رغب في خير كالحداء في الحج والغزو، وعلى هذا يحمل ما جاء عن بعض الصحابة انتهى، وقضية قولهم بلا آلة حرمته مع الآلة، قال الزركشي لكن القياس تحريم الآلة فقط وبقاء الغناء على الكراهة انتهى.

ومثل الاختلاف في الغناء الاختلاف في السماع فأباحه قوم كما أباحوا الغناء واستدلوا على ذلك بما رواه البخاري عن عائشة قالت: «دخل على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وعندي جاريتان تغنيان بغناء بعاث فاضطجع على الفراش وحول وجهه - وفي رواية لمسلم - تسجى بثوبه ودخل أبو بكر فانتهرني وقال مزمارة الشيطان عند النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فأقبل عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال: دعهما فلما غفل غمزتهما فخرجتا وكان يوم عيد» الحديث ووجه الاستدلال أن هناك غناء أو سماعاً وقد أنكر عليه الصلاة والسلام إنكار أبي بكر رضي

الله تعالى عنه بل فيه دليل أيضاً على جواز سماع الرجل صوت الجارية ولو لم تكن مملوكة لأنه عليه الصلاة والسلام سمع ولم ينكر على أبي بكر سماعه بل أنكر إنكاره وقد استمرتا تغنيان إلى أن أشارت إليهما عائشة بالخروج. وإنكار أبي بكر على ابنته رضي الله تعالى عنهما مع علمه بوجود رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان لظن أن ذلك لم يكن بعلمه عليه الصلاة والسلام لكونه دخل فوجده مغطى بثوبه فظنه نائماً. وفي فتح الباري استدل جماعة من الصوفية بهذا الحديث على إباحة الغناء وسماعه بآلة وبغير آلة.

ويكفي في رد ذلك ما رواه البخاري أيضاً بعيده عن عائشة أيضاً قالت: «دخل علي أبو بكر وعندي جاريتان من جواري الأنصار تغنيان بما تقاولت الأنصار يوم بعاث قالت: وليستا بمغنيتين فقال أبو بكر: أبمزامير الشيطان في بيت رسول الله ﷺ وذلك في يوم عيد فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: يا أبا بكر إن لكل قوم عيداً وهذا عيدنا» فنفت فيه عنهما من طريق المعنى ما أثبتته لهما باللفظ لأن الغناء يطلق على رفع الصوت وعلى الترنم الذي تسميه العرب النصب بفتح النون وسكون المهملة وعلى الحداء ولا يسمى فاعله مغنياً وإنما يسمى بذلك من ينشد بتمطيط وتكسير وتهييج وتشويق بما فيه تعريض بالفواحش أو تصريح.

قال القرطبي: قولها «ليستا بمغنيتين» أي ليستا ممن يعرف الغناء كما تعرفه المغنيات المعروفات بذلك وهذا منهما تجوز عن الغناء المعتاد عند المشتهرين به وهو الذي يحرك الساكن ويبعث الكامن، وهذا النوع إذا كان في شعر فيه وصف محاسن النساء والخمر وغيرهما من الأمور المحرمة لا يختلف في تحريمه وأما ما ابتدعه الصوفية في ذلك فمن قبيل ما لا يختلف في تحريمه لكن النفوس الشهوانية غلبت على كثير ممن ينسب إلى الخير حتى لقد ظهرت في كثير منهم فعلات المجانين والصبيان حتى رقصوا بحركات متطابقة وتقطيعات متلاحقة وانتهى التواقح بقوم منهم إلى أن جعلوها من باب القرب وصالح الأعمال وأن ذلك يثمر سني الأحوال، وهذا على التحقيق من آثار الزندقة وقول أهل المخرقة والله تعالى المستعان انتهى كلام القرطبي، وكذا الغرض من كلام فتح الباري وهو كلام حسن بيد أن قوله: وإنما يسمى بذلك من ينشد الخ لا يخلو عن شيء بناء على أن المتبادر عموم ذلك لما يكون في المنشد منه تعريض أو تصريح بالفواحش ولما لا يكون فيه ذلك، وقال بعض الأجلة: ليس في الخبر الإباحة مطلقاً بل قصارى ما فيه إباحته في سرور شرعي كما في الأعياد والأعراس فهو دليل لمن أجازه في العرس كما أجاز ضرب الدف فيه، وأيضاً إنكار أبي بكر رضي الله تعالى عنه ظاهر في أنه كان سمع من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ذم الغناء والنهي عنه فظن عموم الحكم فأنكر، وبإنكاره عليه الصلاة والسلام عليه انكاره تبين له عدم العموم. وفي الخبر الآخر ما يدل على أنه أوضح له صلى الله تعالى عليه وسلم مقروناً ببيان الحكمة وهو أنه يوم عيد فلا ينكر فيه مثل هذا كما لا ينكر في الأعراس، ومع هذا أشار صلى الله تعالى عليه وسلم بالتفافه بثوبه وتحويل وجهه الشريف إلى أن الإعراض عن ذلك أولى، وسماع صوت الجارية الغير المملوكة بمثل هذا الغناء إذا أمنت الفتنة مما لا بأس به فليكن الخبر دليلاً على جوازه.

واستدل بعضهم على ذلك بما جاء عن أنس بن مالك أنه دخل على أخيه البراء بن مالك وكان من دهاة الصحابة رضي الله تعالى عنهم وكان يتغنى، ولا يخفى ما فيه فإن هذا التغني ليس بالمعنى المشهور، ونحوه التغني في قوله عليه الصلاة والسلام: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» وسفيان بن عيينة وأبو عبيدة فسرا التغني في هذا الحديث بالاستغناء فكأنه قيل: ليس منا من لم يستغنِ بالقرآن عن غيره، وهو مع هذا تغن لإزالة الوحشة عن نفسه في عقر داره، ومثله ما روي عن عبد الله بن عوف قال: أتيت باب عمر رضي الله تعالى عنه فسمعته يغني:

فكيف ثوائي بالمدينة بعدما قضى وطراً منها جميل بن معمر

أراد به جميلاً الجمحي وكان خاصاً به فلما استأذنت عليه قال لي: أسمعت ما قلت؟ قلت: نعم قال: إنا إذا خلونا قلنا ما يقول الناس في بيوتهم. وحرم جماعة السماع مطلقاً، وقال الغزالي: السماع إما محبوب بأن غلب على السامع حب الله تعالى ولقائه ليستخرج به أحوالاً من المكاشفات والملاطفات، وإما مباح بأن كان عنده عشق مباح لحليلته أو لم يغلب عليه حب الله تعالى ولا الهوى، وإما محرم بأن غلب عليه هوى محرم.

وسئل العز بن عبد السلام عن استماع الإنشاد في المحبة والرقص فقال: الرقص بدعة لا يتعاطاه إلا ناقص العقل فلا يصلح إلا للنساء، وأما استماع الانشاد المحرك للأحوال السنية وذكر أمور الآخرة فلا بأس به بل يندب عند الفتور وسآمة القلب، ولا يحضر السماع من في قلبه هوى خبيث فإنه يحرك ما في القلب، وقال أيضاً: السماع يختلف باختلاف السامعين والمسموع منهم، وهم أما عارفون بالله تعالى ويختلف سماعهم باختلاف أحوالهم فمن غلب عليه الخوف أثر فيه السماع عند ذكر المخوفات نحو حزن وبكاء وتغير لون، وهو إما خوف عقاب أو فوات ثواب أو أنس وقرب وهو أفضل الخائفين والسامعين وتأثير القرآن فيه أشد، ومن غلب عليه الرجاء أثر فيه السماع عند ذكر المطمعات والمرجيات، فإن كان رجاؤه للأنس والقرب كان سماعه أفضل سماع الراجين وإن كان رجاؤه للثواب فهذا في المرتبة الثانية، وتأثير السماع في الأول أشد من تأثيره في الثاني، ومن غلب عليه حب الله تعالى لإنعامه فيؤثر فيه سماع الإنعام والإكرام، أو لجماله سبحانه المطلق فيؤثر فيه ذكر شرف الذات وكمال الصفات، وهو أفضل مما قبله لأن سبب حبه أفضل الأسباب، ويشتد التأثير فيه عند ذكر الإقصاء والأبعاد، ومن غلب عليه التعظيم والإجلال وهو أفضل من جميع ما قبله، وتختلف أحوال هؤلاء في المسموع منه، فالسماع من الولي أشد تأثيراً من السماع من عامي ومن نبي أشد تأثيراً منه ومن ولي، ومن الرب عزَّ وجلَّ أشد تأثيراً من السماع من نبي لأن كلام المهيب أشد تأثيراً في الهائب من كلام غيره كما أن كلام الحبيب أشد تأثيراً في المحب من كلام غيره، ولهذا لم يشتغل النبيون والصديقون وأصحابهم بسماع الملاهي والغناء واقتصروا على كلام ربهم جلَّ شأنه، ومن يغلب عليه هوى مباح كمن يعشق حليلته فهو يؤثر فيه آثار الشوق وخوف الفراق ورجاء التلاق فسماعه لا بأس به، ومن يغلب عليه هوى محرم كعشق أمرد أو أجنبية فهو يؤثر فيه السعي إلى الحرام وما أدى إلى الحرام فهو حرام، وأما من لم يجد في نفسه شيئاً من هذه الأقسام الستة فيكره سماعه من جهة أن الغالب على العامة إنما هي الأهواء الفاسدة فربما هيجه السماع إلى صورة محرمة فيتعلق بها ويميل إليها، ولا يحرم عليه ذلك لأنا لا نتحقق السبب المحرم، وقد يحضر السماع قوم من الفجرة فيبكون وينزعجون لأغراض خبيثة انطووا عليها ويراؤون الحاضرين بأن سماعهم لشيء محبوب، وهؤلاء قد جمعوا بين المعصية وبين إيهام كونهم من الصالحين، وقد يحضر السماع قوم قد فقدوا أهاليهم ومن يعز عليهم ويذكرهم المنشد فراق الأحبة وعدم الأنس فيبكي أحدهم ويوهم الحاضرين أن بكاءه لأجل رب العالمين جل وعلا وهذا مراء بأمر غير محرم، ثم قال: اعلم أنه لا يحصل السماع المحمود إلا عند ذكر الصفات الموجبة للأحوال السنية والأفعال الرضية، ولكل صفة من الصفات حال مختص بها، فمن ذكر صفة الرحمة أو ذكر بها كانت حاله حال الراجين وسمعه سماعهم، ومن ذكر شدة النقمة أو ذكر بها كانت حاله حال الخائفين وسماعه سماعهم، وعلى هذا القياس، وقد تغلب الأحوال على بعضهم بحيث لا يصغي إلى ما يقوله المنشد ولا يلتفت إليه لغلبة حاله الأولى عليه انتهى، وقد نقله بعض الأجلة وأقره وفيه ما يخالف ما نقل عن الغزالي.

ونقل القاضي حسين عن الجنيد قدس سره أنه قال: الناس في السماع إما عوام وهو حرام عليهم لبقاء نفوسهم،

وإما زهاد وهو مباح لهم لحصول مجاهدتهم، وإما عارفون وهو مستحب لهم لحياة قلوبهم، وذكر نحوه أبو طالب المكي وصححه السهروردي عليه الرحمة في عوارفه، والظاهر أن الجنيد أراد بالحرام معناه الاصطلاحي.

واستظهر بعضهم أنه لم يرد ذلك وإنما أراد أنه لا ينبغي، ونقل بعضهم عن الجنيد قدس سره أنه سئل عن السماع فقال: هو ضلال للمبتدي والمنتهي لا يحتاج إليه، وفيه مخالفة لما سمعت.

وقال القشيري رحمه الله تعالى: إن للسماع شرائط منها معرفة الأسماء والصفات ليعلم صفات الذات من صفات الأفعال وما يمتنع في نعت الحق سبحانه وما يجوز وصفه تعالى به وما يجب وما يصح إطلاقه عليه عز شأنه من الأسماء وما يمتنع، ثم قال: فهذه شرائط صحة السماع على لسان أهل التحصيل من ذوي العقول، وأما عند أهل الحقائق فالشرط فناء النفس بصدق المجاهدة ثم حياة القلب بروح المشاهدة فمن لم تتقدم بالصحة معاملته ولم تحصل بالصدق منازلته فسماعه ضياع وتواجده طباع، والسماع فتنة يدعو إليها استيلاء العشق إلا عند سقوط الشهوة وحصول الصفوة، وأطال بما يطول ذكره، قيل: وبه يتبين تحريم السماع على أكثر متصوفة الزمان لعقد شروط القيام بأدائه. ومن العجب أنهم ينسبون السماع والتواجد إلى رسول الله ﷺ ويروون عن عطية أنه عليه الصلاة والسلام دخل على أصحاب الصفة يوماً فجلس بينهم، وقال عليه الصلاة والتحية: هل فيكم من ينشدنا أبياتاً. فقال واحد:

لسعت حية الهوى كبدي ... ولا طبيب لها ولا راقي
إلا الحبيب الذي شغفت به ... فعنده رقيتي وترياقي

فقام عليه الصلاة والسلام وتمايل حتى سقط الرداء الشريف عن منكبيه فأخذه أصحاب الصفة فقسموه فيما بينهم بأربعمائة قطعة، وهو لعمري كذب صريح وإفك قبيح لا أصل له بإجماع محدثي أهل السنة وما أراه إلا من وضع الزنادقة. فهذا القرآن العظيم يتلوه جبريل عليه السلام صلى الله تعالى عليه وسلم ويتلوه هو أيضاً ويسمعه من غير واحد ولا يعتريه عليه الصلاة والسلام شيء مما ذكروه في سماع بيتين هما كما سمعت سبحانك هذا بهتان عظيم، وأنا أقول: قد عمت البلوى بالغناء والسماع في سائر البلاد والبقاع ولا يتحاشى من ذلك في المساجد وغيرها بل قد عين مغنون يغنون على المنائر في أوقات مخصوصة شريفة بأشعار مشتملة على وصف الخمر والحانات وسائر ما يعد من المحظورات، ومع ذلك قد وظف لهم من غلة الوقف ما وظف ويسمونهم الممجدين، ويعدون خلو الجوامع من ذلك من قلة الاكتراث بالدين، وأشنع من ذلك ما يفعله أبالسة المتصوفة ومردتهم ثم إنهم قبحهم الله تعالى إذا اعترض عليهم بما اشتمل عليه نشيدهم من الباطل يقولون: نعني بالخمر المحبة الإلهية وبالسكر غلبتها وبمية، وليلى، وسعدى مثلاً المحبوب الأعظم وهو الله عزَّ وجلَّ، وفي ذلك من سوء الأدب ما فيه ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه﴾ [الأعراف: ١٨٠] وفي القواعد الكبرى للعز بن عبد السلام ليس من أدب السماع أن يشبه غلبة المحبة بالسكر من الخمر فإنه سوء الأدب وكذا تشبيه المحبة بالخمر لأن الخمر أم الخبائث فلا يشبه ما أحبه الله تعالى بما أبغضه وقضى بخبثه ونجاسته فإن تشبيه النفيس بالخسيس سوء الأدب بلا شك فيه، وكذا التشبيه بالخصر والردف ونحو ذلك من التشبيهات المستقبحات، ولقد كره لبعضهم قوله: أنتم روحي ومعلم راحتي ولبعضهم قوله: فأنت السمع والبصر لأنه لا شبيه له بروحه الخسيسة وسمعه وبصره اللذين لا قدر لهما، ثم إنه وإن أباح بعض أقسام السماع حط على من يرقص ويصفق عنده فقال: أما الرقص والتصفيق فخفة ورعونة مشبهة برعونة الإناث لا يفعلها إلا أرعن أو متصنع كذاب، وكيف يتأتى الرقص المتزن بأوزان الغناء ممن طاش لبه وذهب قلبه، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم» ولم يكن أحد من هؤلاء الذين يقتدى بهم يفعل شيئاً من ذلك،

وإنما استحوذ الشيطان على قوم يظنون أن طربهم عند السماع إنما هو متعلق بالله تعالى شأنه ولقد مانوا فيما قالوا وكذبوا فيما ادعوا من جهة أنهم عند سماع المطربات وجدوا لذتين. إحداهما لذة قليل من الأحوال المتعلقة بذي الجلال. والثانية لذة الأصوات والنغمات والكلمات الموزونات الموجبات للذات ليست من آثار الدين ولا متعلقة بأموره فلما عظمت عندهم اللذات غلطوا فظنوا أن مجموع ما حصل لهم إنما حصل بسبب حصول ذلك القليل من الأحوال وليس كذلك بل الأغلب عليهم حصول لذات النفوس التي ليست من الدين في شيء. وقد حرم بعض العلماء التصفيق لقوله عليه الصلاة والسلام: «إنما التصفيق للنساء» ولعن رسول الله ﷺ المتشبهات من النساء بالرجال والمتشبهين من الرجال بالنساء، ومن هاب الإله أدرك شيئاً من تعظيمه لم يتصور منه رقص ولا تصفيق ولا يصدر أن إلا من جاهل، ويدل على جهالة فاعلهما أن الشريعة لم ترد بهما في كتاب ولا سنة ولم يفعل ذلك أحد من الأنبياء ولا معتبر من أتباعهم وإنما يفعل ذلك الجهلة السفهاء الذين التبست عليهم الحقائق بالأهواء، وقد قال تعالى: ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾ [النحل: ٨٩] ولقد مضى السلف وأفاضل الخلف ولم يلابسوا شيئاً من ذلك فما ذاك إلا غرض من أغراض النفس وليس بقربة إلى الرب جلَّ وعلا، وفاعله إن كان ممن يقتدى به ويعتقد أنه ما فعله إلا لكونه قربة فبئس ما صنع لإيهامه أن هذا من الطاعات وإنما هو من أقبح الرعونات. وأما الصياح والتغاشي ونحوهما فتصنع ورياء، فإن كان ذلك عن حال لا يقتضيهما فإثم الفاعل من جهتين. إحداهما إيهامه الحال الثابتة الموجبة لهما. والثانية تصنعه ورياؤه، وإن كان عن مقتض أثم إثم رياء لا غير. وكذلك نتف الشعور وضرب الصدور وتمزيق الثياب محرم لما فيه من إضاعة المال، وأي ثمرة لضرب الصدور ونتف الشعور وشق الجيوب إلا رعونات صادرة عن النفوس ا هـ كلامه، ومنه يعلم ما في نقل الأسنوي عنه رحمه الله تعالى أنه كان يرقص في السماع، والعلامة ابن حجر قال: يحمل ذلك على مجرد القيام والتحرك لغلبة وجد وشهود وتجل لا يعرفه إلا أهله، ومن ثم قال الإمام إسماعيل الحضرمي: موقف الشمس عن قوم يتحركون في السماع هؤلاء قوم يروحون قلوبهم بالأصوات الحسنة حتى يصيروا روحانيين فهم بالقلوب مع الحق وبالأجساد مع الخلق، ومع هذا فلا يؤمن عليهم العدو ولا يعول عليهم فيما فعلوا ولا يقتدى بهم فيما قالوا ا هـ، وما ذكره فيمن يصدر عنه نحو الصياح والتغاشي عن حال يقتضيه لا يخلو عن شيء، فقد قال البلقيني فيما يصدر عنهم من الرقص الذي هو عند جمع ليس بمحرم ولا مكروه لأنه مجرد حركات على استقامة أو اعوجاج ولأنه عليه الصلاة والسلام، أقر الحبشة عليه في مسجده يوم عيد، وعند آخرين مكروه، وعند هذا القائل حرام إذا كثر بحيث أسقط المروءة إن كان باختيارهم فهم كغيرهم وإلا فليسوا بمكلفين، واستوضحه بعض الأجلة وقال: يجب اطراده في سائر ما يحكى عن الصوفية مما يخالف ظواهر الشرع فلا يحتج به لأنه إن صدر عنهم في حال تكليفهم فهم كغيرهم أو مع غيبتهم لم يكونوا مكلفين به، والذي يظهر لي أن غناء الرجل بمثل هذه الألحان إن كان لدفع الوحشة عن نفسه فمباح غير مكروه كما ذهب إليه شمس الأئمة السرخسي لكن بشرط أن لا يسمعه من يخشى عليه الفتنة من امرأة أو غيرها ولا من يستخف به ويسترذله وبشرط أن لا يغير اسم معظم بنحو زيادة ليست فيه في أصل وضعه لأجل أن لا يخرج عن مقتضى الصنعة مثل أن يقول في الله إيلاه وفي محمد موحامد، هذا مع كون ما يتغنى به مما لا بأس بإنشاده وإن كان للناس للهو في غير حادث سرور كعرس بأجرة أو بدونها ازدرى به لذلك أو لم يزدر كان ما يتغنى به مباح الإنشاد أو لم يكن فحرام وإن أمنت الفتنة وأراه من الصغائر كما يقتضيه كلام الماوردي حيث قال: وإذا قلنا بتحريم الأغاني والملاهي فهي من الصغائر دون الكبائر، وإن كان في حادث سرور فهو مباح إن أمنت الفتنة وكان ما يتغنى به جائز الإنشاد ولم يغير فيه اسم معظم ولم يكن سبباً للازدراء به وهتك مروءته ولا لاجتماع الرجال والنساء على وجه محظور، وإن كان سبباً لمحرم فهو حرام وتتفاوت مراتب حرمته حسب تفاوت حرمة ما كان هو سبباً له وإن كان للناس لا للهو بل لتنشيطهم على ذكر الله

تعالى كما يفعل في بعض حلق التهليل في بلادنا فمحتمل الإباحة إن لم يتضمن مفسدة ولعله إلى الكراهة أقرب.

وربما يقال: إنه حينئذ قربة كالحداء وهو ما يقال خلف الإبل من زجر وغيره إذا كان منشطاً لسير هو قربة لأن وسيلة القربة به اتفاقاً فيقال: لم نقف على خبر في اشتمال حلق الذكر على عهد رسول الله ﷺ وكذا على عهد خلفائه وأصحابه رضي الله تعالى عنهم وهم أحرص الناس على القرب على هذا الغناء ولا على سائر أنواعه وصحت أحاديث في الحداء ولذا أطلق جمع القول بندبه وكونهم نشطين بدون ذلك لا يمنع أن يكون فيهم من يزيده ذلك نشاطاً فلو كان لذلك قربة لفعلوه ولو مرة ولم ينقل أنهم فعلوه أصلاً، على أنه لا يبعد أن يقال: إنه يشوش على الذاكرين ولا يتم لهم معه معنى الذكر وتصوره وهو بدون ذلك لا ثواب فيه بالإجماع، ولعل ما يفعل على المنائر مما يسمونه تمجيداً منتظم عند الجهلة في سلك وسائل القرب بل يعده أكثرهم قربة من حيث ذاته وهو لعمري عند العالم بمعزل عن ذلك، وإن كان لحاجة مرض تعين شفاؤه به فلا شك في جوازه والإكباب على المباح منه يخرم المروءة كاتخاذه حرفة، وقول الرافعي: لا يخرمها إذا لاق به رده الزركشي بأن الشافعي نص على رد شهادته وجرى عليه أصحابه لأنها حرفة دنية ويعد فاعلها في العرف ممن لا حياء له، وعن الحسن أن رجلاً قال له: ما تقول في الغناء؟ قال: نعم الشيء الغناء يوصل به الرحم وينفس به عن المكروب ويفعل فيه المعروف قال: إنما أعني الشد، قال: وما الشد أتعرف منه شيئاً؟ قال: نعم قال: فما هو؟ فاندفع الرجل يغني ويلوي شدقيه ومنخريه ويكسر عينيه فقال الحسن: ما كنت أرى أن عاقلاً يبلغ من نفسه ما أرى، واختلفوا في تعاطي خارم المروءة على أوجه. ثالثها إن تعلقت به شهادة حرم وإلا فلا.

قال بعض الأجلة: وهو الأوجه لأنه يحرم عليه التسبب في إسقاط ما تحمله وصار أمانة عنده لغيره ويظهر لي أنه إن كان ذلك من عالم يقتدى به أو كان ذلك سبباً للازدراء حرم أيضاً وإن سماعه أي استماعه لا مجرد سماعه بلا قصد عند أمن الفتنة وكون ما يتغنى به جائز الإنشاد وعدم تسببه لمعصية كاستدامة مغن لغناء آثم به مباح والإكباب عليه كما قال النووي: يسقط المروءة كالإكباب على الغناء المباح، والاختلاف في تعاطي مسقطها قد ذكرناه آنفاً وأما سماعه عند عدم أمن الفتنة وكون ما يتغنى به غير جائز الإنشاد وكونه متسبباً لمعصية فحرام، وتتفاوت مراتب حرمته ولعلها تصل إلى حرمة كبيرة، ومن السماع المحرم سماع متصوفة زماننا وإن خلا عن رقص فإن مفاسده أكثر من أن تحصى وكثير مما يسمعونه من الأشعار من أشنع ما يتلى ومع هذا يعتقدونه قربة ويزعمون أن أكثرهم رغبة فيه أشدهم رغبة أو رهبة قاتلهم الله تعالى أنى يؤفكون.

ولا يخفى على من أحاط خبراً بما تقدم عن القشيري وغيره أن سماعهم مذموم عند من يعتقدون انتصاره لهم ويحسبون أنهم وإياه من حزب واحد فويل لمن شفعاؤه خصماؤه وأحباؤه أعداؤه، وأما رقصهم عليه فقد زادوا به في الطنبور رنة وضموا كسر الله تعالى شوكتهم بذلك إلى السفه جنة. وقد أفاد بعض الأجلة أنه لا تقبل شهادة الصوفية الذين يرقصون على الدف الذي قيل يباح أو يسن ضربه لعرس وختان وغيرهما من كل سرور، ومنه قدوم عالم ينفع المسلمين راداً على من زعم القبول فقال: وعن بعضهم تقبل شهادة الصوفية الذين يرقصون على الدف لاعتقادهم أن ذلك قربة كما تقبل شهادة حنفي شرب النبيذ لاعتقاده إباحته وكذا كل من فعل ما اعتقد إباحته ا هـ، ورد بأنه خطأ قبيح لأن اعتقاد الحنفي نشأ عن تقليد صحيح ولا كذلك غيره وإنما منشؤه الجهل والتقصير فكان خيالاً باطلاً لا يلتفت إليه ا هـ.

ثم إني أقول: لا يبعد أن يكون صاحب حال يحركه السماع ويثير منه ما يلجئه إلى الرقص أو التصفيق أو الصعق والصياح وتمزيق الثياب أو نحو ذلك مما هو مكروه أو حرام فالذي يظهر لي في ذلك أنه إن علم من نفسه

صدور ما ذكر كان حكم الاستماع في حقه حكم ما يترتب عليه، وإن تردد فيه فالأحوط في حقه إن لم نقل بالكراهة عدم الاستماع، ففي الخبر «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» ثم إن ما حصل له شيء من ذلك بمجرد السماع من غير قصد ولم يقدر على دفعه أصلاً فلا لوم ولا عتاب فيه عليه، وحكمه في ذلك حكم من اعتراه نحو عطاس وسعال قهريين ولا يشترط في دفع اللوم والعتاب عنه كون ذلك مع غيبته فلا يجب على من صدر منه ذلك إن لم يغب إعادة الوضوء للصلاة مثلاً، ولينظر فيما لو اعتراه وهو في الصلاة بدون غيبة هل حكمه حكم نحو العطاس والسعال إذا اعتراه فيها أم لا، والذي سمعته عن بعض الكبار الثاني فتدبر. ومن الناس من يعتريه شيء مما ذكر عند سماع القرآن إما مطلقاً أو إذا كان بصوت حسن، وقلما يقع ذلك من سماع القرآن أو غيره لكامل.

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أنه قيل لها: إن قوماً إذا سمعوا القرآن صعقوا فقالت: القرآن أكرم من أن يسرق منه عقول الرجال ولكنه كما قال الله تعالى: ﴿تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾ [الزمر: ٢٣] وكثيراً ما يكون لضعف تحمل الوارد، وبعض المتصنعين يفعله رياء، وعن ابن سيرين أنه سئل عمن يسمع القرآن فيصعق فقال: ميعاد ما بيننا وبينهم أن يجلسوا على حائط فيقرأ عليهم القرآن من أوله إلى آخره فإن صعقوا فهو كما قالوا، ولا يرد على إباحة الغناء وسماعه في بعض الصور خبر ابن مسعود «الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل» لا لأن الغناء فيه مقصور وأن المراد به غنى المال الذي هو ضد الفقر إذ يرد ذلك أن الخبر روي من وجه آخر بزيادة والذكر ينبت الإيمان في القلب كما ينبت الماء الزرع، ومقابلة الغناء بالذكر ظاهر في المراد به التغني، على أن الرواية كما قال بعض الحفاظ بالمدبل لأن المراد أن الغناء من شأنه أن يترتب عليه النفاق أي العملي بأن يحرك إلى غدر وخلف وعد وكذب ونحوها ولا يلزم من ذلك اطراد الترتب.

وربما يشير إلى ذلك التشبيه في قوله: كما ينبت الماء البقل فإن إنبات الماء البقل غير مطرد، ونظير ذلك في الكلام كثير، والقائل بإباحته في بعض الصور إنما يبيحه حيث لا يترتب عليه ذلك. نعم لا شك أن ما هذا شأنه الأحوط بعد كل قيل وقال عدم الرغبة فيه كذا قيل.

وقيل: يجوز أن يكون أريد بالنفاق الإيماني، ويؤيده مقابلته في بعض الروايات بالإيمان ويكون مساق الخبر للتنفير عن الغناء إذ كان الناس حديثي عهد بجاهلية كان يستعمل فيها الغناء للهو ويجتمع عليه في مجالس الشرب، ووجه انباته للنفاق إذ ذاك أن كثيراً منهم لقرب عهده بلذة الغناء وما يكون عنده من اللهو والشرب وغيره من أنواع الفسق يتحرك قلبه لما كان عليه ويحن حنين العشار إليه ويكره لذلك الإيمان الذي صده عما هنالك ولا يستطيع لقوة شوكة الإسلام أن يظهر ما أضمر وينبذ الإيمان وراء ظهره ويتقدم إلى ما عنه تأخر فلم يسعه إلا النفاق لما اجتمع عليه مخافة الردة والاشتياق فتأمل ذاك والله تعالى يتولى هداك، وأما الآية فإن كان وجه الاستدلال بها تسمية الغناء لهواً فكم لهو هو حلال وإن كان الوعيد على اشترائه واختياره فلا نسلم أن ذلك على مجرد الاشتراء لجواز أن يكون على الاشتراء ليضل عن سبيل الله تعالى ولا شك أن ذلك من الكبائر ولا نزاع لنا فيه؛ وقال ابن عطية: الذي يترجح أن الآية نزلت في لهو الحديث مضافاً إلى الكفر فلذلك اشتدت الفاظ الآية بقوله تعالى: ﴿**ليضل**﴾ الخ ا هـ.

ومما ذكرنا يعلم ما في الاستدلال بها على حرمة الملاهي كالرباب والجنك والسنطير والكمنجة والمزمار وغيرها من الآلات المطربة بناء على ما روي عن ابن عباس والحسن أنهما فسرا ﴿**لهو الحديث**﴾ بها نعم أنه يحرم استعمالها واستماعها لغير ما ذكر فقد صح من طرق خلافاً لما وهم فيه ابن حزم الضال المضل فقد علقه البخاري ووصله الإسماعيلي، وأحمد، وابن ماجة، وأبو نعيم وأبو داود بأسانيد صحيحة لا مطعن فيها وصححه جماعة آخرون

من الأئمة كما قاله بعض الحفاظ أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «ليكونن في أمتي قوم يستحلون الخز والخمر والمعازف» وهو صريح في تحريم جميع آلات اللهو المطربة ومما يشبه الصريح في ذلك ما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الملاهي عن أنس، وأحمد، والطبراني عن ابن عباس، وأبي أمامة مرفوعاً «ليكونن في هذه الأمة خسف وقذف ومسخ وذلك إذا شربوا الخمور واتخذوا القينات وضربوا بالمعازف» وهي الملاهي التي سمعتها، ومنها الصنج العجمي وهو صفر يجعل عليه أوتار يضرب بها على ما ذهب إليه غير واحد خلافاً للماوردي حيث قال: إن الصنج يكره مع الغناء ولا يكره منفرداً لأنه بانفراده غير مطرب، ولعله أراد به العربي وهو قطعتان من صفر تضرب أحدهما بالأخرى فإنه بحسب الظاهر هو الذي لا يطرب منفرداً لكن يزيد الغناء طرباً، وذكر أنه يستعمله المخنثون في بعض البلاد، ولا يبعد عليه القول بالحرمة، ومنها اليراع وهو الشبابة فإنه مطرب بانفراده بل قال بعض أهل الموسيقى: إنه آلة كاملة جامعة لجميع النغمات إلا يسيراً، وقد أطنب الإمام الدولعي وهو من أجلة العلماء في دلائل تحريمه؛ ومنها القياس وهو إما أولى أو مسار وقال: العجب كل العجب ممن هو من أهل العلم بزعم أن الشبابة حلال ا هـ ومنه يعلم ما في قول التاج السبكي في توشيحه لم يقر عندي دليل على تحريم اليراع مع كثرة التتبع والذي أراه الحل فإن انضم إليه محرم فلكل منهما حكمة، ثم الأولى عندي لمن ليس من أهل الذوق الإعراض عنه مطلقاً لأن غاية ما فيه حصول لذة نفسانية وهي ليست من المطالب الشرعية وأما أهل الذوق فحالهم مسلم إليهم وهم على حسب ما يجدونه من أنفسهم ا هـ.

وحكي عن العز بن عبد السلام، وابن دقيق العيد أنهما كانا يسمعان ذلك والظاهر أنه كذب لا أصل له وبذلك جزم بعض الأجلة، ولا يبعد حلها إذا صفر فيها كالأطفال والرعاء على غير القانون المعروف من الإطراب.

ومنها العود وهو آلة للهو غير الطنبور وأطلقه بعضهم عليه وحكاية النجس ابن طاهر عن الشيخ أبي إسحاق الشيرازي أنه كان يسمع العود من جملة كذبه وتهوره كدعواه إجماع الصحابة والتابعين على إباحة الغناء واللهو، ومثله في المجازفة وارتكاب الأباطيل على الجزم ابن حزم لا الدف فيجوز ضربه من رجل وامرأة لا من امرأة فقط خلافاً للحليمي واستماعه لعرس ونكاح وكذا غيرهما من كل سرور في الأصح وبحل ذي الجلاجل منه وهي إما نحو حلق يجعل داخله كدف العرب أو صنوج عراض من صفر تجعل في حروف دائرته كدف العجم جزم جماعة وجزم آخرون بحرمته وبها أقول لأنه كما قال الأذرعي أشد إطراباً من أكثر الملاهي المتفق على تحريمها، وبعض المتصوفة ألفوا رسائل في حل الأوتار والمزامير وغيرها من آلات اللهو وأتوا فيها بكذب عجيب على الله تعالى وعلى رسول الله ﷺ وعلى أصحابه رضي الله تعالى عنهم والتابعين والعلماء العاملين وقلدهم في ذلك من لعب به الشيطان وهوى به الهوى إلى هوة الحرمان فهو عن الحق بمعزل وبينه وبين حقيقة التصوف ألف ألف منزل، وإذا تحقق لديك قول بعض الكبار بحل شيء من ذلك فلا تغتر به لأنه مخالف لما عليه أئمة المذاهب الأربعة وغيرهم من الأكابر المؤيد بالأدلة القوية التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك ما عدا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، ومن رزق عقلاً مستقيماً وقلباً من الأهواء الفاسدة سليماً لا يشك في أن ذلك ليس من الدين وأنه بعيد بمراحل عن مقاصد شريعة سيد المرسلين صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه أجمعين؛ واستدل بعض أهل الإباحة على حل الشبابة بما أخرجه ابن حبان في صحيحه عن نافع عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه سمع صوت زمارة راع فجعل إصبعيه في أذنيه وعدل عن الطريق وجعل يقول: يا نافع أتسمع فأقول: نعم فلما قلت: لا رجع إلى الطريق ثم قال: هكذا رأيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يفعله، وأخرجه ابن أبي الدنيا، والبيهقي عن نافع أيضاً،

وسأل عنه الحافظ محمد بن نصر السلامي فقال: إنه حديث صحيح، ووجه الاستدلال به أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لم يأمر ابن عمر وكان عمره إذ ذاك كما قال الحافظ المذكور سبع عشرة سنة بسد أذنيه ولا نهى الفاعل فلو كان ذلك حراماً لأمر ونهى عليه الصلاة والسلام، وسد أذنيه صلى الله تعالى عليه وسلم يحتمل أن يكون لكونه عليه الصلاة والسلام إذ ذاك في حال ذكر أو فكر وكان السماع يشغله عليه الصلاة والسلام والتحية ويحتمل أن يكون إنما فعله ﷺ تنزيهاً؛ وقال الأذرعي: بهذا الحديث استدل أصحابنا على تحريم المزامير وعليه بنوا التحريم في الشبابة ا هـ.

والحق عندي أنه ليس نصا في حرمتها لأن سد الأذنين عند السماع من باب فعله ﷺ وليس مما وضح فيه أمر الجبلة ولأثبت تخصيصه به عليه الصلاة والسلام ولا مما وضح أنه بيان لنص علم جهته من الوجوب والندب والإباحة فإن كان مما علمت صفته فلا يخلو من أن تكون الوجوب أو الندب أو الإباحة لا جائز أن تكون الوجوب المستلزم لحرمة سماع اليراع إذ لا قائل بأنه يجب على أحد سد الأذنين عند سماع محرم إذ يأمن الإثم بعدم القصد فقد قالوا: إن الحرام الاستماع لا مجرد السماع بلا قصد، وفي الزواجر الممنوع هو الاستماع لا السماع لا عن قصد اتفاقاً، ومن ثم صرح أصحابنا ـ يعني الشافعية ـ أن من بجواره آلات محرمة ولا يمكنه إزالتها لا يلزمه النقلة ولا يأثم بسماعها لا عن قصد وإصغاء ا هـ، والظاهر أن الأمر كذلك عند سائر الأئمة، نعم لهم تفصيل في القعود في مكان فيه نحو ذلك، قال في تنوير الأبصار وشرحه الدر المختار: دعي إلى وليمة وثمة لعب وغناء قعد وأكل ولو على المائدة لا ينبغي أن يقعد بل يخرج معرضاً لقوله تعالى: ﴿فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين﴾ [الأنعام: ٦٨] فإن قدر على المنع فعل وإلا يقدر صبر إن لم يكن ممن يقتدى به فإن كان مقتدى به ولم يقدر على المنع خرج ولا يقعد لأن فيه شين الدين، والمحكي عن الإمام أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه كان قبل أن يصير مقتدى به، وإن علم أولاً لا يحضر أصلاً سواء كان ممن يقتدى به أولاً ا هـ فتعين كونها الندب أو الإباحة وكلا الأمرين لا يستلزمان الحرمة فيحتمل أن يكون ذلك حراماً أو مكروهاً يندب سد الأذنين عند سماعه احتياطاً من أن يدعو إلى الاستماع المحرم أو المكروه، وإن كان مما لم تعلم صفته فقد قالوا فيما كان كذلك المذاهب فيه بالنسبة إلى الأمة خمسة الوجوب والندب والإباحة والوقف والتفصيل وهو أنه إن ظهر قصد القربة فالندب وإلا فالإباحة ويعلم مما ذكرنا الحال على كل مذهب والذي يغلب على الظن أن ما أشار إليه الخبر إن كان الزمر بزمارة الراعي على وجه التأنق وإجراء النغمات التي تحرك الشهوات كما يفعله من جعل ذلك صنعته اليوم فاستماعه حرام وسد الأذنين المشار إليه فيه لعله كان منه عليه الصلاة والسلام تعليماً للأمة أحد طرق الاحتياط المعلوم حاله لئلا يجرهم ذلك إلى الاستماع وإلا فالإستماع لمكان العصمة مما لا يتصور في حقه صلى الله تعالى عليه وسلم، ومن عرف قدر الصحابة واطلع على سبيلهم وحرصهم على التأسي به عليه الصلاة والسلام لم يشك في أن ابن عمر رضي الله تعالى عنه سد أذنيه أيضاً تأسياً ويكون حينئذ قوله عليه الصلاة والسلام الذي يشير إليه الخبر له رضي الله تعالى عنه أتسمع على معنى تسمع[1] أتسمع وإنما أسقط تسمع لدلالة الحال عليه إذ من سد أذنيه لا يسمع، وإنما أذن له صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك لموضع الحاجة وهذا أقرب من احتمال كون سد الأذنين منه صلى الله تعالى عليه وسلم لأنه كان في حال ذكر أو فكر وكان يشغله صلى الله تعالى عليه وسلم عند السماع.

وأما عدم نهيه عليه الصلاة والسلام من كان يرمز عن الزمر والإنكار عليه فلا يسلم دلالته على الجواز فإنه يجوز

---

(١) قوله على معنى تسمع هي بشد الميم في خط المؤلف ا هـ.

أن يكون الصوت جاء من بعيد وبين الزامر وبينه عليه الصلاة والسلام ما يمنع من الوصول إليه أولم يعرف عينه ﷺ لأن الصوت قد جاء من وراء حجاب ولا تتحقق القدرة معه على الإنكار، ويجوز أيضاً أن يكون التحريم معلوماً من قبل وعلم من النبي ﷺ الإصرار عليه وأن يكون قد علم إصرار ذلك الفاعل على فعله فيكون ذلك كاختلاف أهل الذمة إلى كنائسهم، وفي مثل ذلك لا يدل السكوت وعدم الإنكار على الجواز إجماعاً، ومن قال بأن الكافر غير مكلف بالفروع قال: يجوز أن يكون ذلك الزامر كافراً وأن السكوت في حقه ليس دليل الجواز وإن كان الزمر بها لا على وجه التأنق وإجراء النغمات التي تحرك الشهوات فلا بعبد في أن يقال بالجواز والإباحة فعلاً واستماعاً، وسد الأذنين عليه لغاية التنزه اللائق به عليه الصلاة والسلام، وقول الأذرعي في الجواب إن قوله في الخبر: زمارة راع لا يعين أنها الشبابة فإن الرعاة يضربون بالشعيبية وغيرها يوهم أن ما يسمى شعيبية مباح مفروغ منه وفيه نظر فإنها عبارة عن عدة قصبات صغار ولها اطراب بحسب حذق متعاطيها فهي شبابة أو مزمار لا محالة، وفي إباحة ذلك كلام، وبعد هذا كله نقول: إن الخبر المذكور رواه أبو داود وقال: إنه منكر وعليه لا حجة فيه للطرفين وكفى الله تعالى المؤمنين القتال، ثم إنك إذا ابتليت بشيء من ذلك فإياك ثم إياك أن تعتقد أن فعله أو استماعه قربة كما يعتقد ذلك من لا خلاق له من المتصوفة فلو كان الأمر كما زعموا لما أهمل الأنبياء أن يفعلوه ويأمروا اتباعهم به، ولم ينقل ذلك عن أحد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولا أشار إليه كتاب من الكتب المنزلة من السماء، وقد قال الله تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ ولو كان استعمال الملاهي المطربات او استماعها من الدين ومما يقرب إلى حضرة رب العالمين لبينه ﷺ وأوضحه كمال الإيضاح لأمته، وقد قال عليه الصلاة والسلام «والذي نفسي بيده ما تركت شيئاً يقربكم من الجنة ويباعدكم عن النار إلا أمرتكم به وما تركت شيئاً يقربكم من النار ويباعدكم عن الجنة إلا نهيتكم عنه» وما ذكر داخل في الشق الثاني كما لا يخفى على من له قلب سليم وعقل مستقيم فتأمل وأنصف وإياك من الاعتراض قبل أن تراجع تعرف، ولنا عودة إن شاء الله تعالى للكلام في هذا المطلب يسر الله تعالى ذلك لنا بحرمة حبيبه الأعظم ﷺ.

واستدل بعضهم بالآية على القول بأن لهو الحديث الكتب التي اشتراها النضر بن الحارث على حرمة مطالعة كتب تواريخ الفرس القديمة وسماع ما فيها وقراءته، وفيه بحث، ولا يخفى أن فيها من الكذب ما فيها فالاشتغال بها لغير غرض ديني خوض في الباطل، وعده ابن نجيم في رسالته في بيان المعاصي من الصغائر ومثل له بذكر تنعم الملوك والأغنياء فافهم هذا، ومن الغريب البعيد وفيه جعل الاشتراء بمعنى البيع ما ذهب إليه صاحب التحرير قال: يظهر لي أنه أراد سبحانه بلهو الحديث ما كانوا يظهرونه من الأحاديث في تقوية دينهم والأمر بالدوام عليه وتغيير صفة الرسول عليه الصلاة والسلام وأن التوراة تدل على أنه من ولد إسحاق عليه السلام يقصدون صد أتباعهم عن الإيمان وأطلق اسم الاشتراء لكونهم يأخذون على ذلك الرشا والجعائل من ملوكهم، وقال: يؤيده قوله تعالى: ﴿**لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ وهو كما ترى، والمراد بسبيله تعالى دينه عزَّ وجلَّ أو قراءة كتابه سبحانه أو ما يعمهما، واللام في ﴿**ليضل**﴾ للتعليل. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو «ليضل» بفتح الياء، والمراد ليثبت على ضلاله ويزيد فيه فإن المخبر عنه ضال قبل: واللام للعاقبة وكونها على أصلها كما قيل بعيد، وجوز الزمخشري أن يكون قد وضع «ليضل» على هذه القراءة موضع ليضل من قبل أن من أضل كان ضالاً لا محالة فدل بالرديف وهو الضلال على المردوف وهو الإضلال، ووجه الدلالة أنه أريد بالضلال المضاعف في شأن من جانب سبيل الله تعالى وتركه رأساً وهذا الضلال لا ينفك عن الاضلال وبالعكس، وبه يندفع نظر صاحب الفرائد بأن الضلال لا يلزمه إلا ضلال، وفيه توافق القراءتين وبقاء اللام على حقيقتها، وهي على الوجهين متعلقة بقوله سبحانه: ﴿يشتري﴾ وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿**بغير علم**﴾ يجوز أن يكون

متعلقاً به أيضاً أي يشتري ذلك بغير علم بحال ما يشتريه أو بالتجارة حيث استبدل الضلال بالهدى والباطل بالحق، ويجوز أن يكون متعلقاً بيضل أي ليضل عن سبيله تعالى جاهلاً أنها سبيله عزَّ وجلَّ أو جاهلاً أنه يضل أو جاهلاً الحق ﴿ويتخذها﴾ بالنصب عطفاً على «يضل» والضمير للسبيل فإنه مما يذكر ويؤنث، وجوز أن يكون للآيات، وقيل: يجوز أن يكون للأحاديث لأن الحديث اسم جنس بمعنى الأحاديث وهو كما ترى ﴿هزواً﴾ أي مهزوءاً به. وقرأ جمع من السبعة ﴿يتخذها﴾ بالرفع عطفاً على ﴿يشتري﴾ وجوز أن يكون على اضمار هو ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُبِين﴾ لما اتصفوا به من اهانتهم الحق بإيثار الباطل عليه وترغيب الناس فيه والجزاء من جنس العمل، و ﴿أولئك﴾ إشارة إلى ﴿من﴾ وما فيه من معنى البعد للإشارة إلى بعد المنزلة في الشرارة، والجمع في اسم الإشارة والضمير باعتبار معناها كما أن الأفراد في الفعلين باعتبار لفظها، وكذا في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْه﴾ ففي الآية مراعاة اللفظ ثم مراعاة المعنى ثم مراعاة اللفظ ونظيرها في ذلك قوله تعالى في سورة [الطلاق: ٢] ﴿ومن يؤمن بالله﴾ الآية، قال أبو حيان: ولا نعلم جاء في القرآن ما حمل على اللفظ ثم على المعنى ثم على اللفظ غير هاتين الآيتين، وقال الخفاجي: ليس كذلك فإن لها نظائر أي وإذا تتلى على المشتري المذكور ﴿آيَاتنَا﴾ الجليلة الشأن ﴿وَلَّى﴾ أعرض عنها غير معتد بها ﴿مُسْتَكْبِراً﴾ مبالغاً في التكبر فالاستفعال بمعنى التفعل ﴿كَأن لَمْ يَسْمَعْهَا﴾ حال من ضمير ﴿ولى﴾ أو من ضمير ﴿مستكبراً﴾ أي مشابهاً حاله في أعراضه تكبراً أو في تكبره حال من لم يسمعها وهو سامع، وفيه رمز إلى أن من سمعها لا يتصور منه التولية والاستكبار لما فيها من الأمور الموجبة للإقبال عليها والخضوع لها على طريقة قول الخنساء:

أيا شجر الخابور ما لك مورقاً كأنك لم تجزع على ابن طريف

و ﴿كأن﴾ المخففة ملغاة لا حاجة إلى تقدير ضمير شأن فيها وبعضهم يقدره ﴿كَأَنَّ فِي أُذُنَيْه وَقْراً﴾ أي صمماً مانعاً من السماع، وأصل معنى الوقر الحمل الثقيل استعير للصمم ثم غلب حتى صار حقيقة فيه. والجملة حال من ضمير لم يسمعها أو هي بدل منها بدل كل من كل أو بيان لها ويجوز أن تكون حالاً من أحد السابقين، ويجوز أن تكون كلتا الجملتين مستأنفتين والمراد من الجملة الثانية الترقي في الذم وتثقيل ﴿كأن﴾ في الثانية كأنه لمناسبته للثقل في معناه، وقرأ نافع «في أُذْنَيه» بسكون الذال تخفيفاً ﴿فَبَشِّرْهُ بعذاب أَليم﴾ أي أعلمه أن العذاب المفرط في الإيلام لاحق به لا محالة، وذكر البشارة للتهكم ﴿إنَّ الَّذينَ آمَنُوا وَعَملُوا الصَّالحات﴾ بيان لحال المؤمنين بآياته تعالى إثر بيان حال الكافرين بها أي أن الذين آمنوا بآياته تعالى وعملوا بموجبها ﴿لَهُمْ﴾ بمقابلة ما ذكر من إيمانهم وعملهم ﴿جَنَّاتُ النَّعيم﴾ أي النعيم الكثير وإضافة الجنات إليه باعتبار اشتمالها عليه نظير قولك: كتب الفقه.

وفي هذا إشارة إلى أن لهم نعيمها بطريق برهاني فهو أبلغ من لهم نعيم الجنات إذ لا يستدعي ذلك على أن تكون نفس الجنات ملكاً لهم فقد يتنعم بالشيء غير مالكه، وقيل: في وجه الأبلغية إنه لجعل النعيم فيه أصلاً ميزت به الجنات فيفيد كثرة النعيم وشهرته، وأياً ما كان فجنات النعيم هي الجنات المعروفة.

وأخرج ابن أبي حاتم عن مالك بن دينار قال: جنات النعيم بين جنات الفردوس وبين جنات عدن وفيها جوار خلقن من ورد الجنة قيل: ومن يسكنها؟ قال: الذين هموا بالمعاصي فلما ذكروا عظمتي راقبوني والذين انثنت أصلابهم في خشيتي، والله تعالى أعلم بصحة الخبر، والجملة خبر أن، قيل: والأحسن أن يجعل ﴿لهم﴾ هو الخبر لأن و ﴿جنات النعيم﴾ مرتفعاً به على الفاعلية، وقوله تعالى: ﴿خَالدينَ فيهَا﴾ حال من الضمير المجرور أو المستتر

في ﴿لهم﴾ بناء على أنه خبر مقدم أو من ﴿جنات﴾ بناء على أنه فاعل الظرف لاعتماده بوقوعه خبراً والعامل ما تعلق به اللام.

وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما «خالدون» بالواو وهو بتقدير هو ﴿وَعْدَ اللهِ﴾ مصدر مؤكد لنفسه أي لما هو كنفسه وهي الجملة الصريحة في معناه أعني قوله تعالى: ﴿لهم جنات النعيم﴾ فإنه صريح في الوعد.

وقوله تعالى: ﴿حَقاً﴾ مصدر مؤكد لتلك الجملة أيضاً إلا أنه يعد مؤكداً لغيره إذ ليس كل وعد حقاً في نفسه.

وجوز أن يكون مؤكداً لوعد الله المؤكد، وأن يكون مؤكداً لتلك الجملة معدوداً من المؤكد لنفسه بناء على دلالتها على التحقيق والثبات من أوجه عدة وهو بعيد. وفي الكشف لا يصح ذلك لأن الأخبار المؤكدة لا تخرج عن احتمال البطلان فتأمل ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلبه شيء ليمنع من انجاز وعده وتحقيق وعيده ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة، ويفهم هذا الحصر من الفحوى، والجملة تذييل لحقية وعده تعالى المخصوص بمن ذكر المومىء إلى الوعيد لأضدادهم ﴿خَلَقَ السَّمَاوَات بغير عمَد﴾ الخ استئناف جيء به للاستشهاد بما فصل فيه على عزته عزَّ وجلَّ التي هي كمال القدرة وحكمته التي هي كمال العلم وإتقان العمل وتمهيد قاعدة التوحيد وتقريره وإبطال أمر الإشراك وتبكيت أهله، والعمد جمع عماد كأهب جمع أهاب وهو ما يعمد به أي يسند يقال عمدت الحائط إذا دعمته أي خلقها بغير دعائم على أن الجمع لتعدد السماوات، وقوله تعالى: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ استئناف في جواب سؤال تقديره ما الدليل على ذلك؟ فهو مسوق لإثبات كونها بلا عمد لأنها لو كانت لها عمد رؤية فالجملة لا محل لها من الاعراب والضمير المنصوب للسماوات والرؤية بصرية لا علمية حتى يلزم حذف أحد مفعوليها، وجوز أن يكون صفة لعمد فالضمير لها أي خلقها بغير عمد مرئية على التقييد للرمز الى أنه تعالى عمدها بعمد لا ترى وهي عمد القدرة، وروي ذلك عن مجاهد وكون عمادها في كل عصر الإنسان الكامل في ذلك العصر ولذا اذا انقطع الإنسان الكامل وذلك عند انقطاع النوع الإنساني تطوى السماوات كطي السجل للكتب كلام لا عماد له من كتاب أو سنة فيما نعلم وفرق كل ذي علم عليم ﴿وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ بيان لصنعه تعالى البديع في قرار الأرض إثر بيان صنعه عزَّ وجلَّ الحكيم في قرار السماوات أي ألقى فيها جبالاً شوامخ أو ثوابت كراهة ﴿أَنْ تَمِيدَ﴾ أو لئلا تميد أي تضطرب ﴿بِكُمْ﴾ لو لم يلق سبحانه وتعالى فيها رواسي لما أن الحكمة اقتضت خلقها على حال لو خلت معه عن الجبال لمادت بالمياه المحيطة بها الغامرة لأكثرها والرياح العواصف التي تقتضي الحكمة هبوبها أو بنحو ذلك، وقد يعد منه حركة ثقيل عليها، وقد ذكر بعض الفلاسفة أنه يلزم بناء على كرية الأرض ووجوب انطباق مركز ثقلها على مركز العالم حركتها مع ما فيها من الجبال بسبب حركة ثقيلة من جانب منها إلى آخر لتغير مركز الثقل حينئذ إلا أنه لم يظهر ذلك لكون الأثقال المتحركة عليها كلا شيء بالنسبة إليها مع ما فيها، ولعل من يعد حركة الثقيل عليها من أسباب الميد لو خلت من الجبال يقول: لا يبعد حركة ثقيل عليها كماء جرى من من مكان إلى آخر فاجتمع حتى صار بحراً عظيماً مع ما ينضم إلى ذلك مما تنقله الأهوية من الرمال الكثيرة والتراب يكون له مقدار يعتد به بالنسبة إلى الأرض خالية من الجبال فتتحرك بحركته إلى خلاف جهته، ثم إن الميد لولا الرواسي بنحو المياه والرياح متصور على تقدير كون الأرض كرية كما ذهب إلى الغزالي وكذا ذهب إليه كرية السماء، وجاء في رواية عن ابن عباس ما يقتضيه وإليه ذهب أكثر الفلاسفة مستدلين عليه بما في التذكرة وشروحها وغير ذلك وهو الذي يشهد له الحس والحدس، وعلى تقدير كونها غير كروية كما ذهب إليه من ذهب واختلفوا في شكلها عليه وتفصيل ذلك

يطلب من محله، ولا دلالة في الآية على انحصار حكمة إلقاء الرواسي فيها بسلامتها عن الميد فإن لذلك حكماً لا تحصى.

وكذا لا دلالة فيها على عدم حركتها على الاستدارة دائماً كما ذهب إليه أصحاب فيثاغورس، ووراءه مذاهب أظهر بطلاًنا منه. نعم الأدلة النقلية والعقلية على ذلك كثيرة ﴿وَبَثَّ فِيهَا﴾ أي أوجد وأظهر، وأصل البث الإثارة والتفريق ومنه ﴿فكانت هباء منبثاً﴾ [الواقعة: ٦] و ﴿كالفراش المبثوث﴾ [القارعة: ٤] وفي تأخيره إشارة إلى توقفه على إزالة الميد ﴿مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾ من كل نوع من أنواعها ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ هو المطر والمراد بالسماء جهة العلو، وجوز تفسيرها بالمظلة وكون الإنزال منها بضرب من التأويل، وترك التأويل لا ينبغي أن يعول عليه إلا إذا وجد من الأدلة ما يضطرنا إليه لأن ذلك خلاف المشاهد ﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا﴾ أي بسبب ذلك الماء ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ أي صنف ﴿كَرِيمٍ﴾ أي شريف كثير المنفعة، والالتفات إلى ضمير العظمة في الفعلين لإبراز مزيد الاعتناء بهما لتكررهما مع ما فيهما من استقامة حال الحيوان وعمارة الأرض ما لا يخفى.

﴿هَذَا﴾ أي ما ذكر من السماوات والأرض وسائر الأمور المعدودة ﴿خَلْقُ اللهِ﴾ أي مخلوقه ﴿فَأَرُونِي﴾ أي أعلموني وأخبروني، والفاء واقعة في جواب شرط مقدر أي إذا علمتم ذلك فأروني ﴿مَاذَا خَلَقَ الذينَ مِنْ دُونِه﴾ مما اتخذتموهم شركاء له سبحانه في العبادة حتى استحقوا به العبودية، و ﴿ماذا﴾ يجوز أن يكون اسماً واحداً استفهامياً ويكون مفعولاً لخلق مقدماً لصدارته وأن يكون ﴿ما﴾ وحدها اسم استفهام مبتدأ و ﴿ذا﴾ اسم موصول خبرها وتكون الجملة معلقاً عنها سادة مسد المفعول الثاني لأروني، وأن يكون ﴿ماذا﴾ كله اسماً موصولاً فقد استعمل كذلك على قلة على ما قال أبو حيان ويكون مفعولاً ثانياً له والعائد محذوف في الوجهين وقوله تعالى:

﴿بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ إضراب عن تبكيتهم بما ذكر إلى التسجيل عليهم بالضلال البين المستدعي للإعراض عن مخاطبتهم بالمقدمات المعقولة الحقة لإستحالة أن يفهموا منها شيئاً فيهتدوا به إلى العلم ببطلان ما هم عليه أو يتأثروا من الإلزام والتبكيت فينزجروا عنه، ووضع الظاهر موضع ضميرهم للدلالة على أنهم بإشراكهم واضعون للشيء في غير موضعه ومتعدون عن الحد وظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ
﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا
ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾
وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ
سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ
حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾
يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾
وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ

وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى
ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ
مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ
يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ
وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ
بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾

﴿**وَلَقَدْ آتَيْنا لُقْمان الْحِكْمَةَ**﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان بطلان الشرك بالنقل بعد الإشارة إلى بطلانه بالعقل..

ولقمان اسم اعجمي لا عربي مشتق من اللقم وهو على ما قيل: ابن باعوراء قال وهب: وكان ابن أخت أيوب عليه الصلاة والسلام، وقال مقاتل: كان ابن خالته، وقال عبد الرحمن السهيلي: هو ابن عنقا بن سرون، وقيل: كان من أولاد آزر وعاش ألف سنة وأدرك دواد عليه السلام وأخذ منه العلم وكان يفتي قبل مبعثه فلما بعث قطع الفتوى فقيل له فقال: ألا أكتفي إذا كفيت، وقيل: كان قاضياً في بني اسرائيل، ونقل ذلك عن الواقدي إلا أنه قال: وكان زمانه بين محمد، وعيسى عليهما الصلاة والسلام، وقال عكرمة، والشعبي كان نبياً، والأكثرون على أنه كان في زمن داود عليه السلام ولم يكن نبياً. واختلف فيه أكان حراً أو عبداً والأكثرون على أنه كان عبداً. واختلفوا فقيل: كان حبشياً، وروي ذلك عن ابن عباس ومجاهد.

وأخرج ذلك ابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعاً، وذكر مجاهد في وصفه أنه كان غليظ الشفتين مصفح القدمين، وقيل: كان نوبياً مشقق الرجلين ذا مشافر، وجاء ذلك في رواية عن ابن عباس وابن المسيب، ومجاهد.

وأخرج ابن أبي حاتم عن عبد الله بن الزبير قال: قلت لجابر بن عبد الله ما انتهى إليكم من شأن لقمان؟ قال: كان قصيراً أفطس من النوبة، وأخرج هو، وابن جرير، وابن المنذر عن ابن المسيب أنه قال: إن لقمان كان أسود من سودان مصر ذا مشافر أعطاه الله تعالى الحكمة ومنعه النبوة. واختلف فيما كان يعانيه من الأشغال فقال خالد بن الربيع: كان نجاراً بالراء؛ وفي معاني الزجاج كان نجاداً بالدال وهو على وزن كتان من يعالج الفرش والوسائد ويخيطهما.

وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد في الزهد، وابن المنذر عن ابن المسيب أنه كان خياطاً وهو أعم من النجاد، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه كان راعياً وقيل: كان يحتطب لمولاه كل يوم حزمة ولا وثوق لي بشيء من هذه الأخبار وإنما نقلتها تأسياً بمن نقلها من المفسرين الأخيار عن أني أختار أنه كان رجلاً صالحاً حكيماً ولم يكن نبياً. و﴿**الحكمة**﴾ على ما أخرج ابن مردويه عن ابن عباس العقل والفهم والفطنة. وأخرج الفريابي، وأحمد في الزهد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن مجاهد أنها العقل والفقه والإصابة في القول، وقال الراغب: هي معرفة الموجودات وفعل الخيرات وقال الإمام: هي عبارة عن توفيق العمل بالعلم ثم قال: وإن أردنا تحديداً بما يدخل فيه حكمة الله تعالى فنقول: حصول العمل على وفق المعلوم وقال أبو حيان: هي المنطق الذي يتعظ به ويتنبه ويتناقله الناس لذلك، وقيل:

اتقان الشيء علماً وعملاً وقيل: كمال حاصل باستكمال النفس الإنسانية باقتباس العلوم النظرية واكتساب الملكة التامة على الأفعال الفاضلة على قدر طاقتها وفسرها كثير من الحكماء بمعرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه بقدر الطاقة البشرية. ولهم تفسيرات أخر وما لها وما عليها من الجرح والتعديل مذكوران في كتبهم ومن حكمته قوله لابنه: أي بني إن الدنيا بحر عميق وقد غرق فيها ناس كثير فاجعل سفينتك فيها تقوى الله تعالى وحشوها الإيمان وشراعها التوكل على الله تعالى لعلك أن تنجو ولا أراك ناجياً، وقوله: من كان له من نفسه واعظ كان له من الله عزَّ وجلَّ حافظ ومن أنصف الناس من نفسه زاده الله تعالى بذلك عزاً والذل في طاعة الله تعالى أقرب من التعزز بالمعصية وقوله: ضرب الوالد لولده كالسماد للزرع وقوله: يا بني إياك والدَّين فإنه ذلّ النهار وهم الليل وقوله يا بني ارج الله عزَّ وجلَّ رجاء لا يجزيك على معصيته تعالى وخف الله سبحانه خوفاً لا يؤيسك من رحمته تعالى شأنه، وقوله: من كذب ذهب ماء وجهه ومن ساء خلقه كثر غمه ونقل الصخور من مواضعها أيسر من إفهام من لا يفهم، وقوله: يا بني حملت الجندل والحديد وكل شيء ثقيل فلم أحمل شيئاً هو أثقل من جار السوء، وذقت المرار فلم أذق شيئاً هو أمر من الفقر، يا بني لا ترسل رسولك جاهلاً فإن لم تجد حكيماً فكن رسول نفسك، يا بني إياك والكذب فإنه شهي كلحم العصفور عما قليل يغلي صاحبه، يا بني احضر الجنائز ولا تحضر العرس فإن الجنائز تذكرك الآخرة والعرس يشهيك الدنيا، يا بني لا تأكل شبعاً على شبع فإن القاءك إياه للكلب خير من أن تأكله، يا بني لا تكن حلواً فتبلع ولا مراً فتلفظ، وقوله لابنه: لا يأكل طعامك إلا الأتقياء وشاور في أمرك العلماء، وقوله: لا خير في أن تتعلم ما لم تعلم ولما تعمل بما قد علمت فإن مثل ذلك رجل احتطب حطباً فحمل حزمة وذهب يحملها فعجز عنها فضم إليها أخرى، وقوله: يا بني إذا أردت أن تؤاخي رجلاً فأغضبه قبل ذلك فإن أنصفك عند غضبه وإلا فاحذره، وقوله: لتكن كلمتك طيبة وليكن وجهك بسطاً تكن أحب إلى الناس ممن يعطيهم العطاء، وقوله: يا بني أنزل نفسك من صاحبك منزلة من لا حاجة له بك ولا بد لك منه، يا بني كن كمن لا يبتغي محمدة الناس ولا يكسب ذمهم فنفسه منه في عناء، والناس منه في راحة، وقوله: يا بني امتنع بما يخرج من فيك فإنك ما سكت سالم وإنما ينبغي لك من القول ما ينفعك إلى غير ذلك مما لا يحصى ﴿**أن اشكر الله**﴾ أي أي أشكر على أن ﴿**أن**﴾ تفسيرية وما بعدها تفسير لإيتاء الحكمة وفيه معنى القول دون حروفه سواء كان بإلهام أو وحي أو تعليم.

وجوز أن يكون تفسيراً للحكمة باعتبار ما تضمنه الأمر، وجعل الزجاج ﴿**أن**﴾ مصدرية بتقدير اللام التعليلية ولا يفوت معنى الأمر كما مرّ تحقيقه.

وحكى سيبويه كتبت إليه بأن قم، والجار متعلق بآياتنا، وجوز كونها مصدرية بلا تقدير على أن المصدر بدل اشتمال من الحكمة، وهو بعيد ﴿**وَمَنْ يَشْكُر**﴾ الخ استئناف مقرر لمضمون ما قبله موجب للامتثال بالأمر أي ومن يشكر له تعالى ﴿**فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسه**﴾ لأن نفعه من ارتباط القيد واستجلاب المزيد والفوز بجنة الخلود مقصورة عليها ﴿**وَمَنْ كَفر فإن الله غني**﴾ عن كل شيء فلا يحتاج إلى الشكر ليتضرر بكفر من كفر ﴿**حميد**﴾ حقيق بالحمد وإن لم يحمده أحد أو محمود بالفعل ينطق بحمده تعالى جميع المخلوقات بلسان الحال، فحميد فعيل بمعنى محمود على الوجهين، وعدم التعرض لكونه سبحانه وتعالى مشكوراً لما أن الحمد متضمن للشكر بل هو رأسه كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم: «الحمد رأس الشكر لم يشكر الله تعالى عبد لم يحمده» فإثباته له تعالى إثبات للشكر له قطعاً، وفي اختيار صيغة المضي في هذا الشق قيل: إشارة إلى قبح الكفران وأنه لا ينبغي إلا أن يعد في خبر كان، وقيل: إشارة إلى أنه كثير متحقق بخلاف الشكر ﴿**وقليل من عبادي الشكور**﴾ [سبأ: ١٣] وجواب الشرط محذوف قام مقامه قوله تعالى: ﴿**فإن الله**﴾ الخ، وكان الأصل ومن كفر فإنما يكفر على نفسه لأن الله غني حميد، وحاصله ومن

كفر فضرر كفره عائد عليه لأنه تعالى غني لا يحتاج إلى الشكر ليتضرر سبحانه بالكفر محمود بحسب الاستحقاق أو بنطق ألسنة الحال فكلا الوصفين متعلقات بالشق الثاني، وجوز أن يكون ﴿غني﴾ تعليلاً لقوله سبحانه: ﴿فإنما يشكر لنفسه﴾ وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿حميد﴾ تعليلاً للجواب المقدر للشرط بقرينة مقابله وهو فإنما يكفر على نفسه، وأن يكون كل منهما متعلقاً بكل منهما، ولا يخفى ما في ذلك من التكلف الذي لم يدع إليه ولم تقم عليه قرينة فتدبر.

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ﴾ تاران على ما قال الطبري، والقتيبي، وقيل: ما ثان بالمثلثة، وقيل: أنعم، وقيل: أشكم وهما بوزن أفعل، وقيل: مشكم بالميم بدل الهمزة، ﴿وإذ﴾ معمول لا ذكر محذوفاً، وقيل: يحتمل أن يكون ظرفاً لآتينا والتقدير وآتيناه الحكمة إذ قال واختصر لدلالة المقدم عليه، وقوله تعالى: ﴿وهو يعظه﴾ جملة حالية، والوعظ ـ كما قال الراغب ـ زجر مقترن بتخويف، وقال الخليل، هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب ﴿يَا بُنَيَّ﴾ تصغير اشفاق ومحبة لا تصغير تحقير:

ولـكـن إذا مـا حـب شـيء تـولـعـت ... بـه أحـرف الـتـصـغـيـر مـن شـدة الـوجـد

وقال آخر:

مـا قـلـت حـبـيـبـي مـن الـتـحـقـيـر ... بـل يـعـذب اسـم الـشـيء بـالـتـصـغـيـر

وقرأ البزي هنا «يا بنيّ» بالسكون وفيما بعد «يا بني إنها» بكسر الياء ﴿ويا بني أقم﴾ [لقمان: ١٧] بفتحها، وقنبل بالسكون في الأولى والثالثة والكسر في الوسطى، وحفص، والمفضل عن عاصم بالفتح في الثلاثة على تقدير يا بنيا والاجتزاء بالفتحة عن الألف، وقرأ باقي السبعة بالكسر فيها ﴿لا تشركْ بالله﴾ قيل: كان ابنه كافراً ولذا نهاه عن الشرك فلم يزل يعظه حتى أسلم، وكذا قيل في امرأته.

وأخرج ابن أبي الدنيا في نعت الخائفين عن الفضل الرقاشي قال: ما زال لقمان يعظ ابنه حتى مات.

وأخرج عن حفص بن عمر الكندي قال: وضع لقمان جراباً من خردل وجعل يعظ ابنه موعظة ويخرج خردلة فنفذ الخردل فقال: يا بني لقد وعظتك موعظة لو وعظتها جبلاً لتفطر فتفطر ابنه، وقيل: كان مسلماً والنهي عن الشرك تحذير له عن صدوره منه في المستقبل، والظاهر أن الباء متعلق بما عنده، ومن وقف على ﴿لا تشرك﴾ جعل الباء للقسم أي أقسم بالله تعالى ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ والظاهر أن هذا من كلام لقمان ويقتضيه كلام مسلم في صحيحه، والكلام تعليل للنهي أو الانتهاء عن الشرك، وقيل: هو خير من الله تعالى شأنه منقطع عن كلام لقمان متصل به في تأكيد المعنى، وكون الشرك ظلماً لما فيه من وضع الشيء في غير موضعه وكونه عظيماً لما فيه من التسوية بين من لا نعمة إلا منه سبحانه ومن لا نعمة له.

﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ الخ كلام مستأنف اعترض به على نهج الاستطراد في أثناء وصية لقمان تأكيداً لما فيه من النهي عن الإشراك فهو من كلام الله عزَّ وجلَّ لم يقله سبحانه للقمان، وقيل: هو من كلامه تعالى قاله جلَّ وعلا له وكأنه قيل: قلنا له أشكر وقلنا له وصينا الإنسان الخ، وفي البحر لما بين لقمان لابنه أن الشرك ظلم ونهاه عنه كان ذلك حثاً على طاعة الله تعالى ثم بين أن الطاعة أيضاً تكون للأبوين وبين السبب في ذلك فهو من كلام لقمان مما وصى به ابنه أخبر الله تعالى عنه بذلك، وكلا القولين كما ترى، والمعنى وأمرنا الإنسان برعاية والديه ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهناً﴾ أي ضعفاً ﴿على وهن﴾ أي ضعف، والمصدر حال من ﴿أمه﴾ بتقدير مضاف أي ذات وهن؛ وجوز جعله نفسه حالاً مبالغة لكنه مخالف للقياس إذ القياس في الحال كونه مشتقاً، ويجوز أن يكون مفعولاً لا مطلقاً لفعل مقدر أي تهن وهناً، والجملة حال من ﴿أمه﴾ أيضاً.

وأيا ما كان فالمراد تضعف ضعفاً متزايداً بازدياد ثقل الحمل إلى مدة الطلق، وقيل: ضعفاً متتابعاً وهو ضعف الحمل وضعف الطلق وضعف النفاس، وجوز أن يكون حالاً من الضمير المنصوب في ﴿**حملته**﴾ العائد على ﴿**الإنسان**﴾ وهو الذي يقتضيه ما أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم عن مجاهد أنه قال: ﴿**وهناً**﴾ الولد ﴿**على وهن**﴾ الوالدة وضعفها، والمراد أنها حملته حال كونه ضعيفاً على ضعيف مثله، وليس المراد أنها حملته حال كونه متزايد الضعف ليقال أن ضعفه لا يتزايد بل ينقص. وقرأ عيسى الثقفي، وأبو عمرو في رواية ﴿**وهناً على وهن**﴾ بفتح الهاء فيهما فاحتمل أن يكون من باب تحريك العين إذا كانت حرف حلق كالشعر والشعر على القياس المطرد عند الكوفي كما ذهب إليه ابن جني، وأن يكون مصدر وهن بكسر الهاء يوهن بفتحها فإن مصدره جاء كذلك وهذا كما يقال تعب يتعب تعباً كما قيل، وكلام صاحب القاموس ظاهر في عدم اختصاص أحد المصدرين بأحد الفعلين قال: الوهن الضعف في العمل ويحرك والفعل كوعد وورث وكرم.

﴿**وَفِصَالُهُ**﴾ أي فطامه وترك إرضاعه. وقرأ الحسن، وأبو رجاء وقتادة، والجحدري، ويعقوب «وفصله» وهو أعم من الفصال، والفصال هاهنا أوقع من الفصل لأنه موقع يختص بالرضاع وإن رجعنا إلى أصل واحد على ما قاله الطيبي ﴿**فِي عَامَيْنِ**﴾ أي في انقضاء عامين أي في أول زمان انقضائهما، وظاهر الآية أن مدة الرضاع عامان وإلى ذلك ذهب الإمام الشافعي، والإمام أحمد، وأبو يوسف، ومحمد، وهو مختار الطحاوي. وروي عن مالك، وذهب الإمام أبو حنيفة إلى أن مدة الرضاع الذي يتعلق به التحريم ثلاثون شهراً لقوله تعالى: ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهراً﴾ [الأحقاف: ١٥]، ووجه الاستدلال به أنه سبحانه وتعالى ذكر شيئين وضرب لهما مدة فكانت لكل واحد منهما بكمالها كالأجل المضروب للدينين على شخصين بأن قال: أجلت الدين الذي لي على فلان والدين الذي لي على فلان سنة فإنه يفهم أن السنة بكمالها لكل، أو على شخص بأن قال لفلان على ألف درهم وعشرة أقفزة إلى سنة فصدقه المقر له في الأجل فإذا مضت السنة يتم أجلهما جميعاً إلا أنه قام النقص في أحدهما أعني مدة الحمل لقول عائشة الذي لا يقال مثله إلاّ سماعاً: الولد لا يبقى في بطن أمه أكثر من سنتين ولو بقدر فلكة مغزل فتبقى مدة الفصال على ظاهرها، وما ذكر هنا أقل مدته وفيه بحث ﴿**أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ**﴾ تفسير لوصينا كما اختاره النحاس فإن تفسيرية، وجوز أن تكون مصدرية بتقدير لام التعليل قبلها وهو متعلق بوصينا وبلا تقدير على أن يكون المصدر بدلاً من ـ والديه ـ بدل الاشتمال، وعليه كأنه قيل: وصينا الإنسان بوالديه بشكرهما وذكر شكر الله تعالى لأن صحة شكرهما تتوقف على شكره عزَّ وجلَّ كما قيل في عكسه لا يشكر الله تعالى من لا يشكر الناس ولذا قرن بينهما في الوصية، وفي هذا من البعد ما فيه، وأما القول بأن الأمر يأبى التفسير والتعليل والبدلية فليس بشيء كما أشرنا إليه قريباً، وعلى الأوجه الثلاثة يكون قوله تعالى: ﴿**حملته أمه ــ إلى ــ عامين**﴾ اعتراضاً مؤكداً للتوصية في حق الأم خصوصاً لذكر ما قاسته في تربيته وحمله، ولذا قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كما في حديث صحيح رواه الترمذي، وأبو داود عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده لمن سأله عمن يبره: أمك وأجابه عن سؤاله به ثلاث مرات، وعن بعض العرب أنه حمل أمه إلى الحج على ظهره وهو يقول في حدائه:

أحمل أمي وهي الحماله ... ترضعني الدرة والعلاله

ولا يجازي والد فعاله

ولله تعالى در من قال:

لأمك حق لو علمت كبير ... كثيرك يا هذا لديه يسير

فكم ليلة باتت بثقلك تشتكي — لها من جراها أنة وزفير
وفي الوضع لو تدري عليها مشقة — فمن غصص لها الفؤاد يطير
وكم غسلت عنك الأذى بيمينها — وما حجرها إلا لديك سرير
وتفديك مما تشتكيه بنفسها — ومن ثديها شرب لديك نمير
وكم مرة جاعت وأعطتك قوتها — حنواً وإشفاقاً وأنت صغير
فآهاً لذي عقل ويتبع الهوى — وآهاً لأعمى القلب وهو بصير
فدونك فارغب في عميم دعائها — فأنت لما تدعو به لفقير

واختلف في المراد بالشكر المأمور به فقيل هو الطاعة وفعل ما يرضي كالصلاة والصيام بالنسبة إليه تعالى وكالصلة والبر بالنسبة إلى الوالدين، وعن سفيان بن عيينة من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله تعالى ومن دعا لوالديه في أدبارها فقد شكرهما ولعل هذا بيان لبعض أفراد الشكر ﴿إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ تعليل لوجوب الامتثال بالأمر أي إلى الرجوع لا إلى غيري فأجازيك على ما صدر عنك مما يخالف أمري.

﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ﴾ أي باستحقاقه الإشراك أو بشركته له تعالى في استحقاق العبادة، والجار متعلق بقوله تعالى: ﴿عِلْمٌ﴾ وما مفعول ﴿تشرك﴾ كما اختاره ابن الحاجب ثم قال: ولو جعل ﴿تشرك﴾ بمعنى الذي يمعنى تكفر وجعلت ﴿ما﴾ نكرة أو بمعنى كفراً أو الكفر وتكون نصباً على المصدرية لكان وجهاً حسناً، والكلام عليه أيضاً بتقدير مضاف أي وأن جاهدك الوالدان على أن تكفر بي كفراً ليس لك أو الكفر الذي ليس لك بصحته أو بحقيته علم ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ في ذلك والمراد استمرار نفي العلم لا نفي استمراره فلا يكون الإشراك إلا تقليداً. وفي الكشاف أراد سبحانه بنفي العلم نفي ما يشرك أي لا تشرك بي ما ليس بشيء يريد عزّ وجلّ الأصنام كقوله سبحانه ﴿ما يدعون من دونه من شيء﴾ [العنكبوت: ٤٢] وجعله الطيبي على ذلك من باب نفي الشيء بنفي لازمه وذلك ان العلم تابع للمعلوم فإذا كان الشيء معدوماً لم يتعلق به موجوداً، ونقل عن ابن المنير أنه عليه من باب:

على لاحب لا يهتدى بمناره

أي ما ليس بإله فيكون لك علم بإلهيته وفي الكشف أن الزمخشري أراد أنه بولغ في نفي الشريك حتى جعل كلا شيء ثم بولغ حتى ما لا يصح أن يتعلق به علم والمعدوم يصح أن يعلم ويصح أن يقال إنه شيء فادخل في سلك المجهول مطلقاً وليس من قبيل نفي العلم لنفي وجوده وهذا تقرير حسن وفيه مبالغة عظيمة منه يظهر ترجيح هذا المسلك في هذا المقام على أسلوب:

ولا ترى الضب بها ينجحر

ا هـ فافهم ولا تغفل ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً﴾ أي صحاباً معروفاً يرتضيه الشرع ويقتضيه الكرم والمروءة كإطعامهما واكسائهما وعدم جفائهما وانتهارهما وعيادتهما إذا مرضا ومواراتهما إذا ماتا، وذكر ﴿في الدنيا﴾ لتهوين أمر الصحبة والإشارة إلى أنها في أيام قلائل وشيكة الانقضاء فلا يضر تحمل مشقتها لقلة أيامها وسرعة انصرامها؛ وقيل للإشارة إلى أن الرفق بهما في الأمور الدنيوية دون الدينية.

وقيل: ذكره لمقابلته بقوله تعالى: «ثم إليّ مرجعكم» ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ﴾ أي رجع ﴿إِلَيَّ﴾ بالتوحيد والإخلاص بالطاعة، وحاصله اتبع سبيل المخلصين لا سبيلهما ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي رجوعك ورجوعهما وزاد

بعضهما من أناب وهو خلاف الظاهر، وأياً ما كان ففيه تغليب للخطاب على الغيبة ﴿فَأُنَبِّئُكُمْ﴾ عند رجوعكم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بأن أجازي كلاً منكم بما صدر عنه من الخير والشر، والآية نزلت في سعد بن أبي وقاص * أخرج أبو يعلى، والطبراني، وابن مردويه، وابن عساكر عن أبي عثمان النهدي أن سعد بن أبي وقاص قال: أنزلت في هذه الآية ﴿وإن جاهداك﴾ الآية كنت رجلاً براً بأمي فلما أسلمت قالت: يا سعد وما هذا الذي أراك قد أحدثت؟ لتدعن دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بي فيقال يا قاتل أمه قلت: لا تفعلي يا أمه فإني لا أدع ديني هذا لشيء فمكثت يوماً وليلة لا تأكل فأصبحت قد جهدت فمكثت يوماً وليلة لا تأكل فأصبحت قد اشتد جهدها فلما رأيت ذلك قلت: يا أمه تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا الشيء فإن شئت فكلي وإن شئت لا تأكلي فلما رأت ذلك أكلت فنزلت هذه الآية، وذكر بعضهم أن هذه وما قبلها أعني قوله تعالى: ﴿ووصينا الإنسان﴾ الآية نزلتا فيه قيل ولكون النزول فيه قيل: من أناب بتوحيد الضمير حيث أريد بذلك أبو بكر رضي الله تعالى عنه فإن إسلام سعد كان بسبب إسلامه.

وأخرج الواحدي عن عطاء عن ابن عباس قال إنه يريد بمن أناب أبو بكر وذلك أنه حين أسلم رآه عبد الرحمن بن عوف وسعيد بن زيد وعثمان وطلحة والزبير فقالوا لأبي بكر آمنت وصدقت محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم فقال أبو بكر: نعم فأتوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فآمنوا وصدقوا فأنزل الله تعالى يقول لسعد: ﴿واتبع سبيل من أناب إلي﴾ يعني أبا بكر رضي الله تعالى عنه، وابن جريج يقول كما أخرج عنه ابن المنذر من أناب محمد عليه الصلاة والسلام، وغير واحد يقول هو صلى الله تعالى عليه وسلم والمؤمنون، والظاهر هو العموم.

﴿يَابُنَيَّ﴾ إلخ رجوع إلى القصة بذكر بقية ما أريد حكايته من وصايا لقمان أثر تقرير ما في مطلعه من النهي عن الشرك وتأكيده بالاعتراض ﴿إِنَّهَا﴾ أي الخصلة من الإساءة والإحسان لفهمها من السياق. وقيل: وهو كما ترى إنها أي التي سألت عنها، فقد روي أن لقمان سأله ابنه أرأيت الحبة تقع في مغاص البحر أيعلمها الله تعالى فقال يا بني إنها أي التي سألت عنها ﴿إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾ أي إن تكن مثلاً في الصغر كحبة الخردل والمثقال ما يقدر به غيره لتساوي ثقلهما وهو في العرف معلوم.

وقرأ نافع، والأعرج، وأبو جعفر «مثقالُ» بالرفع على أن الضمير للقصة و ﴿تك﴾ مضارع كان التامة والتأنيث لإضافة الفاعل إلى المؤنث كما في قول الأعشى:

وتشرق بالقول الذي قد أذعته ... كما شرقت صدر القناة من الدم

أو لتأويله بالزنة أو الحسنة والسيئة ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ﴾ أي فتكن مع كونها في أقصى غايات الصغر والقماءة في أخفى مكان وأحرزه كجوف الصخرة أو حيث كانت في العالم العلوي أو السفلي، وقيل: في أخفى مكان وأحرزه كجوف الصخرة أو أعلاه كمحدب السماوات أو أسفله كمقعر الأرض، ولا يخفى أنه لا دلالة في النظم على تخصيص المحدب والمقعر ولعل المقام يقتضيه إذ المقصود المبالغة.

وفي قوله تعالى: ﴿في السماوات﴾ لا يأبى ذلك لأنها ذكرت بحسب المكانية أو للمشاكلة أو هي بمعنى على، وعبر بها للدلالة على التمكن ومع هذا الظاهر ما تقدم، وفي البحر أنه بدأ بما يتعقله السامع أولاً وهو كينونة الشيء في صخرة وهو ما صلب من الحجر وعسر الإخراج منه ثم أتبعه بالعالم العلوي وهو أغرب للسامع ثم أتبعه بما يكون مقر الأشياء للشاهد وهو الأرض، وقيل: إن خفاء الشيء وصعوبة نيله بطرق بغاية صغره وببعده عن الرائي وبكونه في ظلمة وباحتجاجه فمثقال حبة من خردل إشارة إلى غاية الصغر، و ﴿في صخرة﴾ إشارة إلى الحجاب و ﴿في السماوات﴾

إشارة إلى البعد و ﴿في الأرض﴾ إشارة إلى الظلمة فإن جوف الأرض أشد الأماكن ظلمة أو يقال فليس المراد بصخرة صخرة معينة، وعن ابن عباس، والسدي أن هذه الصخرة هي التي عليها الأرض، وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن الأرض على نون والنون على البحر بحر على صخرة خضراء خضرة الماء منها والصخرة على قرن ثور وذلك الثور على الثرى ولا يعلم ما تحت الثرى إلاَّ الله تعالى.

وفسر بعضهم الصخرة بهذه الصخرة، وقيل: هي صخرة في الريح، قال ابن عطية: وكل ذلك ضعيف لا يثبت سنده وإنما معنى الكلام المبالغة والانتهاء في التفهيم أي إن قدرته عزَّ وجلَّ تنال ما يكون في تضاعيف صخرة وما يكون في السماء وما يكون في الأرض ا هـ، والأقوى عندي وضع هذه الأخبار ونحوها فليست الأرض إلاَّ في حجر الماء وليس الماء إلاَّ في جوف الهواء وينتهي الأمر إلى عرش الرحمن جلَّ وعلا والكل في كف قدرة الله عزَّ وجلَّ.

وقرأ عبد الرحيم الجزري ﴿ فتكن ﴾ بكسر الكاف وشد النون وفتحها، وقرأ محمد بن أبي فجة البعلبكي «فتكن» بضم التاء وفتح الكاف والنون مشددة، وقرأ قتادة «فتكن» بفتح التاء وكسر الكاف وسكون النون ورويت هذه القراءة عن الجزري أيضاً، والفعل في جميع ما ذكر من وكن الطائر إذا استقر في وكنته أي عشه ففي الكلام استعارة أو مجاز مرسل كما في المشفر، والضمير للمحدث عنه فيما يسبق، وجوز أن يكون للابن والمعنى أن تختف أو تخف وقت الحساب يحضرك الله تعالى، ولا يخفى أنه غير ملائم للجواب أعني قوله تعالى: ﴿يَأْتِ بِهَا اللهُ﴾ أي يحضرها فيحاسب عليها، وهذا إما على ظاهره أو المراد يجعلها كالحاضر المشاهدة لذكرها والاعتراف بها ﴿إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ﴾ يصل علمه تعالى إلى كل خفي ﴿خَبِيرٌ﴾ عالم بكنهه.

وعن قتادة لطيف باستخراجها خبير بمستقرها، وقيل: ذو لطف بعباده فيلطف بالإتيان بها بأحد الخصمين خبير عالم بخفايا الأشياء وهو كما ترى، والجملة علة مصححة للإتيان بها، أخرج ابن أبي حاتم عن علي بن رباح اللخمي إنه لما وعظ لقمان ابنه وقال: ﴿إنها إن تك﴾ الآية أخذ حبة من خردل فأتى بها إلى اليرموك وهو واد في الشام فألقاها في عرضه ثم مكث ما شاء الله تعالى ثم ذكرها وبسط يده فأقبل بها ذباب حتى وضعها في راحته والله تعالى أعلم، وبعد ما أمره بالتوحيد الذي هو أول ما يجب على المكلف في ضمن النهي عن الشرك ونبهه على كمال علمه تعالى وقدرته عزَّ وجلَّ أمره بالصلاة التي هي أكمل العبادات تكميلاً من حيث العمل بعد تكميله من حيث الاعتقاد فقال مستميلاً له: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ﴾ تكميلاً لنفسك، ويروى أنه قال له: يا بني إذا جاء وقت الصلاة فلا تؤخرها لشيء صلها واسترح منها فإنها دين، وصل في جماعة ولو على رأس زج ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وانهَ عَنِ الْمُنكرِ﴾ تكميلاً لغيرك والظاهر أنه ليس المراد معروفاً ومنكراً معينين.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن جبير أنه قال: وأمر بالمعروف يعني التوحيد وانهِ عن المنكر يعني الشرك ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصابَكَ﴾ من الشدائد والمحن لا سيما فيما أمرت به من إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واحتياج الآخرين للصبر على ما ذكر ظاهر، والأول لأن إتمام الصلاة والمحافظة عليها قد يشق ولذا قال تعالى: ﴿وإنها لكبيرة إلاَّ على الخاشعين﴾ [البقرة: ٤٥] وقال ابن جبير: واصبر على ما أصابك في أمر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يقول: إذا أمرت بمعروف أو نهيت عن منكر وأصابك في ذلك أذى وشدة فاصبر عليه ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ أي الصبر على ما أصابك عند ابن جبير، وهو يناسب إفراد اسم الإشارة وما فيه من معنى البعد للإشعار ببعد منزلته في الفضل، أو الإشارة إلى الصبر وإلى سائر ما أمر به والأفراد للتأويل بما ذكر وأمر البعد على ما سمعت ﴿مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ أي مما عزمه الله تعالى وقطعه قطع إيجاب وروي ذلك عن ابن جريج، والعزم بهذا المعنى مما ينسب إلى الله تعالى ومنه ما

ورد من عزمات الله عزَّ وجلَّ، والمراد به هنا المعزوم إطلاقاً للمصدر على المفعول، والإضافة من إضافة الصفة إلى الموصوف أي الأمور المعزومة.

وجوز أن يكون العزم بمعنى الفاعل أي عازم الأمور من عزم الأمر أي جد فعزم الأمور من باب الإسناد المجازي كمكر الليل لا من باب الإضافة على معنى في وإن صح، وقيل: يريد من مكارم الأخلاق وعزائم أهل الحزم السالكين طريق النجاة، واستظهر أبو حيان إنه أراد من لازمات الأمور الواجبة، ونقل عن بعضهم أن العزم هو الحزم بلغة هذيل، والحزم والعزم أصلان، وما قاله المبرد من أن العين قلبت حاء ليس بشيء لاطراد تصاريف كل من اللفظين فليس أحدهما أصلاً للآخر، والجملة تعليل لوجوب الامتثال بما سبق وفيه اعتناء بشأنه ﴿**وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ**﴾ أي لا تمله عنهم ولا تولهم صفحة وجهك كما يفعله المتكبرون قاله ابن عباس، وجماعة وأنشدوا:

وكنا إذا الجبار صعر خده ... أقمنا له من ميله فتقوما

فهو من الصعر بمعنى الصيد وهو داء يعتري البعير فيلوي منه عنقه ويستعار للتكبر كالصعر، وقال ابن خويزمنداد: نهى أن يذل نفسه من غير حاجة فيلوى عنقه، ورجح الأول بأنه أوفق بما بعد، ولام ﴿**للناس**﴾ تعليلية والمراد ولا تصعر خدك لأجل الإعراض عن الناس أو صلة. وقرأ نافع وأبو عمرو. وحمزة، والكسائي «تصاعر» بألف بعد الصاد. وقرأ الجحدري تصعر مضارع أصعر والكل واحد مثل علاه وعالاه وأعلاه.

﴿**وَلاتَمْشِ فِي الأَرْضِ**﴾ التي هي أحط الأماكن منزلة ﴿**مَرَحاً**﴾ أي فرحاً وبطراً، مصدر وقع موقع الحال للمبالغة أو لتأويله بالوصف أو تمرح مرحاً على أنه مفعول مطلق لفعل محذوف والجملة في موضع الحال أو لأجل المرح على أنه مفعول له، وقرىء مرحاً بكسر الراء على أنه وصف في موضع الحال ﴿**إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾ تعليل للنهي أو موجبه والمختال من الخيلاء وهو التبختر في المشي كبراً، وقال الراغب: التكبر عن تخيل فضيلة تراءت للإنسان من نفسه، ومنه تؤول لفظ الخيل لما قيل إنه لا يركب أحد فرساً إلا وجد في نفسه نخوة، والفخور من الفخر وهو المباهاة في الأشياء الخارجة عن الإنسان كالمال والجاه ويدخل في ذلك تعداد الشخص ما أعطاه لظهور أنه مباهاة بالمال، وعن مجاهد تفسير الفخور بمن يعدد ما أعطى ولا يشكر الله عزَّ وجلَّ، وفي الآية عند الزمخشري لف ونشر معكوس حيث قال: المختال مقابل للماشي مرحاً وكذلك الفخور للمصعر خده كبراً وذلك لرعاية الفواصل على ما قيل، ولا يأبى ذلك كون الوصية لم تكن باللسان العربي كما لا يخفى.

وجوز أن يكون هناك لف ونشر مرتب فإن الاختيال يناسب الكبر والعجب وكذا الفخر يناسب المشي مرحاً. والكلام على رفع الإيجاب الكلي والمراد السلب الكلي، وجوز أن يبقى على ظاهره، وصيغة ﴿**فخور**﴾ للفاصلة ولأن ما يكره من الفخر كثرته فإن القليل منه يكثر وقوعه فلطف الله تعالى بالعفو عنه وهذا كما لطف بإباحة اختيال المجاهد بين الصفين وإباحة الفخر بنحو المال لمقصد حسن ﴿**وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ**﴾ بعد الاجتناب عن المرح فيه أي توسط فيه بين الدبيب والإسراع من القصد وهو الاعتدال، وجاء في عدة روايات إلاَّ أن في أكثرها مقالاً يخرجها عن صلاحية الاحتجاج بها كما لا يخفى على من راجع شرح الجامع الصغير للمناوي عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم «سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن» أي هيبته وجماله أي تورثه حقارة في أعين الناس، وكأن ذلك لأنها تدل على الخفة وهذا أقرب من قول المناوي لأنها تتعب فتغير البدن والهيئة.

وقال ابن مسعود: كانوا ينهون عن خبب اليهود ودبيب النصارى ولكن مشياً بين ذلك، وما في النهاية من أن عائشة نظرت إلى رجل كاد يموت تخافتاً فقالت: ما لهذا؟ فقيل: إنه من القراء فقالت: كان عمر رضي الله تعالى عنه

سيد القراء وكان إذا مشى أسرع وإذا قال أسمع وإذا ضرب أوجع. فالمراد بالإسراع فيه ما فوق دبيب المتماوت[١] وهو الذي يخفي صوته ويقل حركاته مما يتزيا بزي العباد كأنه يتكلف في اتصافه بما يقربه من صفات الأموات ليوهم أنه ضعف من كثرة العبادة فلا ينافي الآية، وكذا ما ورد في صفته صلى الله تعالى عليه وسلم إذا يمشي كأنما ينحط من صبب وكذا لا ينافيها قوله تعالى ﴿وعباد الرحمن الذي يمشون على الأرض هوناً﴾ [الفرقان: ٦٣] إذ ليس الهون فيه المشي كدبيب النمل، وذكر بعض الأفاضل أن المذموم اعتياد الإسراع بالإفراط فيه، وقال السخاوي: محل ذم الإسراع ما لم يخشَ من بطء السير تفويت أمر ديني، لكن أنت تعلم أن الإسراع المذهب للخشوع لإدراك الركعة مع الإمام مثلاً مما قالوا أنه مما لا ينبغي فلا تغفل، وعن مجاهد أن القصد في المشي التواضع فيه، وقيل: جعل البصر موضع القدم، والمعول عليه ما تقدم: وقرىء. «وأقصد» بقطع الهمزة ونسبها ابن خالويه للحجازي من أقصد الرامي إذا سدد سهمه نحو الرمية ووجهه إليها ليصيبها أي سدد في مشيك والمراد أمشِ مشياً حسناً، وكأنه أريد التوسط به بين المشيين السريع والبطيء فتتوافق القراءتان ﴿واغضض من صَوْتك﴾ أي انقص منه واقصر من قولك فلان يغض من فلان إذا قصر به وضع منه وحط من درجته. وفي البحر الغض رد طموح الشيء كالصوت والنظر ويستعمل متعدياً بنفسه كما في قوله: * فغض الطرف إنك من نمير* ومتعدياً بمن كما هو ظاهر قول الجوهري غض من صوته. والظاهر إن ما في الآية من الثاني، وتكلف بعضهم جعل من فيها للتبعيض، وادعى آخر كونها زائدة في الإثبات، وكانت العرب تفتخر بجهارة الصوت وتمدح به في الجاهلية ومنه، قول الشاعر:

جهير الكلام جهير العطاس ... جهير الرواء جهير النعم

ويخطو على العم خطو الظليم ... ويعلو الرجال بخلق عمم

والحكمة في غض الصوت المأمور به أنه أوفر للمتكلم وأبسط لنفس السامع وفهمه ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَات﴾ أي أقبحها يقال وجه منكر أي قبيح قال في البحر: وهو أفعل بني من فعل المفعول كقولهم: أشغل من ذات النحيين وبناؤه من ذلك شاذ، وقال بعض: أي أصعبها على السمع وأوحشها من نكر بالضم نكارة ومنه ﴿يوم يدع الداع إلى شيء نكر﴾ [القمر: ٦] أي أمر صعب لا يعرف، والمراد بالأصوات أصوات الحيوانات أي إن أنكر أصوات الحيوانات ﴿لصوت الحمير﴾ جمع حمار كما صرح به أهل اللغة ولم يخالف فيه عير السهيلي قال: إنه فعيل اسم جمع كالعبيد وقد يطلق على اسم الجمع الجمع عند اللغويين، والجملة تعليل للأمر بالغض على أبلغ وجه وآكده حيث شبه الرافعون أصواتهم بالحمير وهم مثل في الذم البليغ والشتيمة ومثلت أصواتهم بالنهاق الذي أوله زفير وآخره شهيق ثم أخلى الكلام من لفظ التشبيه وأخرج مخرج الاستعارة، وفي ذلك من المبالغة في الذم والتهجين والإفراط في التثبيط عن رفع الصوت والترغيب عنه ما فيه، وإفراد الصوت مع جمع ما أضيف هو إليه للإشارة إلى قوة تشابه أصوات الحمير حتى كأنها صوت واحد هو أنكر الأصوات، وقال الزمخشري أن ذلك لما أن المراد ليس بيان حال صوت كل واحد من آحاد هذا الجنس حتى يجمع بل بيان صوت هذا الجنس من بين أصوات سائر الأجناس. قيل: فعلى هذا كان المناسب لصوت الحمار بتوحيد المضاف إليه وأجيب بأن المقصود من الجمع التتميم والمبالغة في التنفير فإن الصوت إذا توافقت عليه الحمير كان أنكر. وأورد عليه أنه يوهم أن الأنكرية في التوافق دون الانفراد وهو لا يناسب

---

(١) ورأى عمر رضي الله تعالى عنه رجلاً متماوتاً فقال: لا تمت علينا ديننا أماتك الله تعالى، ورأى رجلاً مطأطئاً رأسه فقال: ارفع رأسك فإن الاسلام ليس بمريض اهـ منه.

المقام وأجيب بأنه لا يلتفت إلى مثل هذا التوهم وقيل: لم يجمع الصوت المضاف لأنه مصدر وهو لا يثنى ولا يجمع ما لم تقصد الأنواع كما في ﴿**أنكر الأصوات**﴾ فتأمل، والظاهر أن قوله تعالى: ﴿**إن أنكر الأصوات لصوت الحمير**﴾ من كلام لقمان لابنه تنفيراً له عن رفع الصوت، وقيل: هو من كلام الله تعالى وانتهت وصية لقمان بقوله: ﴿**واغضض من صوتك**﴾ رد سبحانه به على المشركين الذين كانوا يتفاخرون بجهارة الصوت ورفعه مع أن ذلك يؤذي السامع ويقرع الصماخ بقوة وربما يخرق الغشاء الذي هو داخل الأذن وبين عزّ وجلّ أن مثلهم في رفع أصواتهم مثل الحمير وأن مثل أصواتهم التي يرفعونها مثل نهاقها في الشدة مع القبح الموحش وهذا الذي يليق أن يجعل وجه شبه لا الخلو عن ذكر الله تعالى كما يتوهم بناء على ما أخرج ابن أبي حاتم عن سفيان الثوري قال: صياح كل شيء تسبيحه إلاّ الحمار لما أن وجه الشبه ينبغي أن يكون صفة ظاهرة وخلو صوت الحمار عن الذكر ليس كذلك، على أنا لا نسلم صحة هذا الخبر فإن فيه ما فيه. ومثله ما شاع بين الجهلة من أن نهيق الحمار لعن للشيعة الذين لا يزالون ينهقون بسبب الصحابة رضي الله تعالى عنهم ومثل هذا من الخرافات التي يمجها السمع ما عدا سمع طويل الأذنين، والظاهر أن المراد بالغض من الصوت الغض منه عند التكلم والمحاورة، وقيل: الغض من الصوت مطلقاً فيشمل الغض منه عند العطاس فلا ينبغي أن يرفع صوته عنده أن أمكنه عدم الرفع، وروي عن أبي عبد الله رضي الله تعالى عنه ما يقتضيه ثم إن الغض ممدوح إن لم يدع داع شرعي إلى خلافه، وأردف الأمر بالقصد في المشي بالأمر بالغض من الصوت لما أنه كثيراً ما يتوصل إلى المطلوب بالصوت بعد العجز عن التوصل إليه بالمشي كذا قيل، هذا وأبعد بعضهم في الكلام على هذين الأمرين فقال: إن الأول إشارة إلى التوسط في الأفعال والثاني إشارة إلى الاحتراز من فضول الكلام والتوسط في الأقوال، وجعل قوله تعالى: ﴿**إن تك مثقال حبة من خردل**﴾ إلخ إشارة إلى إصلاح الضمير وهو كما ترى.

وقرأ ابن أبي عبلة «أصوات الحمير» بالجمع بغير لام التأكيد ﴿**أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ**﴾ رجوع إلى سنن ما سلف قبل قصة لقمان من خطاب المشركين وتوبيخ لهم على إصرارهم على ما هم عليه مع مشاهدتهم لدلائل التوحيد، والتسخير على ما قال الراغب سياقة الشيء إلى الغرض المختص به قهراً، وفي إرشاد العقل السليم المراد به أما جعل المسخر بحيث ينفع المسخر له أعم من أن يكون منقاداً له يتصرف فيه كيف يشاء ويستعمله كيف يريد كعامة ما في الأرض من الأشياء المسخرة للإنسان المستعملة له من الجماد والحيوان أو لا يكون كذلك بل يكون سبباً لحصول مراده من غير أن يكون له دخل في استعماله كجميع ما في السماوات من الأشياء التي نيطت بها مصالح العباد معاشاً أو معاداً، وأما جعله منقاداً للأمر مذللاً على أن معنى ﴿**لكم**﴾ لأجلكم فإن جميع ما في السماوات والأرض من الكائنات مسخرة لله تعالى مستتبعة لمنافع الخلق وما يستعمله الإنسان حسبما يشاء وإن كان مسخراً له بحسب الظاهر فهو في الحقيقة مسخر لله عزّ وجلّ ﴿**وَأَسْبَغَ**﴾ أي أتم وأوسع ﴿**عَلَيْكُم نعمَهُ**﴾ جمع نعمة وهي في الأصل الحالة المستلذة فإن بناء الفعلة كالجلسة والركبة للهيئة ثم استعملت فيما يلائم من الأمور الموجبة لتلك الحالة اطلاقاً للمسبب على السبب، وفي معنى ذلك قولهم: هي ما ينتفع به ويستلذ ومنهم من زاد ويحمد عاقبته، وقال بعضهم: لا حاجة إلى هذه الزيادة لأن اللذة عند المحققين أمر تحمد عاقبته وعليه لا يكون لله عزّ وجلّ على كافر نعمة، ونقل الطيبي عن الإمام أنه قال: النعمة عبارة عن المنفعة المفعولة على جهة الإحسان إلى الغير، ومنهم من يقول: المنفعة الحسنة المفعولة على جهة الإحسان إلى الغير قالوا: وإنما زدنا قيد الحسنة لأن النعمة يستحق بها الشكر وإذا كانت قبيحة لا يستحق بها الشكر، والحق أن هذا القيد غير معتبر لأنه يجوز أن يستحق الشكر بالإحسان وإن كان فعله محظوراً لأن جهة الشكر كونه احساناً وجهة استحقاق الذم والعقاب الحظر فأي امتناع في

اجتماعهما، ألا ترى أن الفاسق يستحق الشكر لإنعامه والذم لمعصية الله تعالى فلم لا يجوز أن يكون الأمر هاهنا كذلك، أما قولنا: المنفعة فلأن المضرة المحضة لا تكون نعمة، وقولنا: المفعولة على جهة الإحسان لأنه لو كان نفعاً وقصد الفاعل به نفع نفسه لا نفع المفعول به لا يكون نعمه وذلك كمن أحسن إلى جاريته ليربح عليها ا هـ، ويعمل منه حكم زيادة ويحمد عاقبته ﴿ظَاهِرَةً وبَاطِنَةً﴾ أي محسوسة ومعقولة معروفة لكم وغير معروفة، وعن مجاهد النعمة الظاهرة وظهور الإسلام والنصرة على الأعداء والباطنة الإمداد من الملائكة عليهم السلام، وعن الضحاك الظاهرة حسن الصورة وامتداد القامة وتسوية الأعضاء والباطنة المعرفة، وقيل: الظاهرة البصر والسمع واللسان وسائر الجوارح والباطنة القلب والعقل والفهم، وقيل: الظاهرة نعم الدنيا والباطنة نعم الآخرة، وقيل: الظاهرة نحو ارسال الرسل وإنزال الكتب والتوفيق لقبول الإسلام والإتيان به والثبات على قدم الصدق ولزوم العبودية والباطنة ما أصاب الأرواح في عالم الذر من رشاش نور النور وأول الغيث قطر ثم ينسكب.

ونقل بعض الإمامية عن الباقر رضي الله تعالى عنه أنه قال: الظاهرة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وما جاء به من معرفة الله تعالى وتوحيده والباطنة ولا يتنا أهل البيت وعقد مودتنا، والتعميم الذي أشرنا إليه أولاً أولى، لكن أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن عطاء قال: سألت ابن عباس رضي الله عنهما عن قوله تعالى ﴿**وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة**﴾ قال: هذه من كنوز علمي سألت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال أما الظاهرة فما سوي من خلقك وأما الباطن فما ستر من عورتك ولو أبداها لقلاك أهلك فمن سواهم.

وفي رواية أخرى رواها ابن مردويه، والديلمي، والبيهقي، وابن النجار عن ابن عباس أنه قال: سألت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن قوله تعالى ﴿**وأسبغ**﴾ الخ قال: أما الظاهرة فالإسلام وما سوي من خلقك وما أسبغ عليك من رزقه وأما الباطنة فما ستر من مساوىء عملك فإن صح ما ذكر فلا يعدل عنه إلى التعميم إلا أن يقال: الغرض من تفسير الظاهرة والباطنة بما فسرنا به التمثيل وهو الظاهر لا التخصيص وإلا لتعارض الخبران.

ثم إن ظاهر هذين الخبرين يقتضي كون الذنب وهو المعبر عنه في الأول بما ستر من العورة وفي الثاني بما ستر من مساوىء العمل نعمة ولم نر في كلامهم التصريح بإطلاقها عليه ويلزمه أن من كثرت ذنوبه كثرت نعم الله تعالى عليه فكان المراد أن النعمة الباطنة هي ستر ما ستر من العورة ومساوىء العمل ولم يقل كذلك اعتماداً على وضوح الأمر، وجاء في بعض الآثار ما يقتضي ذلك، أخرج ابن أبي حاتم والبيهقي عن مقاتل أنه قال في الآية: ﴿**ظاهرة**﴾ الإسلام ﴿**وباطنة**﴾ ستره تعالى عليكم المعاصي، بل جاء في بعض روايات الخبر الثاني وأما ما بطن فستر مساوىء عملك.

وجوز أن يكون ﴿ما﴾ في ما ستر في الخبرين مصدرية ومن صلة ستر لا بيان لما وقرأ يحيى بن عمارة وأصبغ بالصاد وهي لغة بني كلب يبدلون من السين إذا اجتمعت مع أحد الحروف المستعلية الغين والخاء والقاف صاداً فيقولون في سلخ صلخ وفي سقر صقر وفي سائغ صائغ ولا فرق في ذلك بين أن يفصل بينهما فاصل وأن لا يفصل، وظاهر كلام بعضهم أنه لا فرق أيضاً بين أن تتقدم السين على أحد تلك الأحرف وأن تتأخر، واشترط آخر تقدم السين، وذكر الخفاجي أنه ابدال مطرد.

وقرأ بعض السبعة وزيد بن علي رضي الله تعالى عنهما «نعمة» بالإفراد وقرىء «نعمته» بالافراد والإضافة، ووجه الافراد بإرادة الجنس كما قيل ذلك في قوله تعالى: ﴿**وإن تعدو نعمة الله لا تحصوها**﴾ وقال الزجاج: من قرأ «**نعمة**» فعلى معنى ما أعطاهم من التوحيد ومن قرأ نعمه بالجمع فعلى جميع ما أنعم به عليهم والأول أولى، ونصب ﴿**ظاهرة**

وباطنة ﴾ في قراءة التعريف على الحالية وفي قراءة التنكير على الوصفية ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ** ﴾ من الجدال وهو المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وأصله من جدلت الحبل أي أحكمت فتله كان المتجادلين يفتل كل منهما صاحبه عن رأيه وقيل: الأصل في الجدال الصراع وإسقاط الإنسان صاحبه على الجدالة وهي الأرض الصلبة وكأن الجملة في موضع الحال من ضميره تعالى فيما قيل أي ألم تروا إن الله سبحانه فعل ما فعل من الأمور الدالة على وحدته سبحانه وقدرته عزَّ وجلَّ والحال من الناس من ينازع ويخاصم كالنضر بن الحارث وأبي ابن خلف كانا يجادلان النبي ﷺ ﴿**في الله** ﴾ أي في توحيده عزَّ وجلَّ وصفاته جلَّ شأنه كالمشركين المنكرين وحدته سبحانه وعموم قدرته جلت قدرته وشمولها للبعث ولم يقل فيه بدل في الله بارجاع الضمير للاسم الجليل في قوله تعالى: ﴿ألم تروا أن الله سخر لكم ﴾ تهويلاً لأمر الجدال ﴿**بغَيْرِ عِلْـم** ﴾ مستفاد من دليل عقلي ﴿**وَلا هُدىً** ﴾ راجع إلى رسول مأخوذ منه، وجوز جعل الهدى نفس الرسول مبالغة وفيه بعد ﴿**وَلا كتَاب** ﴾ أنزله الله تعالى ﴿**مُنير** ﴾ أي ذي نور والمراد به واضح الدلالة على المقصود، وقيل: منقذ من ظلمة الجهل والضلال بل يجادلون بمجرد التقليد كما قال سبحانه ﴿**وَإِذَا قيلَ لَهُمْ** ﴾ أي لمن يجادل والجمع باعتبار المعنى ﴿**اتبعُوا مَا أَنْزَلَ اللّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْه أبَاءَنَا** ﴾ يريدون عبادة ما عبدوه من دون الله عزَّ وجلَّ، وهذا ظاهر في منع التقليد في أصول الدين والمسألة خلافية فالذي ذهب إليه الأكثرون ورجحه الإمام الرازي والآمدي أنه لا يجوز التقليد في الأصول بل يجب النظر والذي ذهب إليه عبيد الله بن الحسن العنبري وجماعة الجواز وربما قال بعضهم أنه الواجب على المكلف وإن النظر في ذلك والاجتهاد فيه حرام، وعلى كل يصح عقائد المقلد المحق وإن كان آثماً بترك النظر على الأول، وعن الأشعري أنه لا يصح إيمانه، وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري: هذا مكذوب عليه لما يلزمه تكفير العوام وهم غالب المؤمنين، والتحقيق أنه إن كان التقليد أخذاً لقول الغير بغير حجة مع احتمال شك ووهم بأن لا يجزم المقلد فلا يكفي إيمانه قطعاً لأنه لا إيمان مع أدنى تردد فيه وإن كان لكن جزماً فيكفي عند الأشعري وغيره خلافاً لأبي هاشم في قوله لا يكفي بل لا بد لصحة الإيمان من النظر، وذكر الخفاجي أنه لا خلاف في امتناع تقليد من لم يعلم أنه مستند الى دليل حق، وظاهر ذم المجادلين بغير علم ولا هدى ولا كتاب أنه يكفي في النظر الدليل النقلي الحق كما يكفي فيه الدليل العقلي.

﴿**أَوَلَوْ كَانَ الشَّيطَانُ يَدْعُوهُمْ** ﴾ أي يدعو آباءهم لا أنفسهم كما قيل: فإن مدار إنكار الاستتباع كون المتبوعين تابعين للشياطين وينادي عليه قوله تعالى: ﴿أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾ [البقرة: ١٧٠] بعد قوله سبحانه: ﴿بل نتبع ماألفينا عليه آباءنا ﴾ [البقرة: ١٧٠] ويعلم منه حال رجوع الضمير الى المجموع أي أولئك المجادلين وآباؤهم ﴿**إلى عَذَاب السَّعير** ﴾ أي إلى ما يؤول إليه أو يستبب منه من الإشراك وإنكار شمول قدرته عزَّ وجلَّ للبعث ونحو ذلك من الضلالات، وجوز بقاء ﴿**عذاب السعير** ﴾ على حقيقته والاستفهام للإنكار ويفهم التعجيب من السياق أو للتعجيب ويفهم الإنكار من السياق والواو حالية والمعنى أيتبعونهم ولو كان الشيطان يدعوهم أي في حال دعاء الشيطان إياهم الى العذاب، وجوز كون الواو عاطفة على مقدر أي أيتبعونهم لو لم يكن الشيطان يدعوهم الى العذاب ولو كان يدعوهم إليه، وهما قولان مشهوران في الواو الداخلة على ﴿**لو** ﴾ الوصلية ونحوها، وكذا في احتياجها إلى الجواب قولان قول بالاحتياج وقول بعدمه لانسلاخها عن معنى الشرط، ومن ذهب إلى الأول قدره هنا لا يتبعوهم وهو مما لا غبار عليه على تقدير كون الواو عاطفة، وأما على تقدير كونها حالية فزعم بعضهم أنه لا يتسنى وفيه نظر، وقد مرّ الكلام على نحو هذه الآية الكريمة فتذكر.

﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ﴾ بأن فوض إليه تعالى جميع أموره وأقبل عليه سبحانه بقلبه وقالبه، فالإسلام كالتسليم التفويض، والوجه الذات، والكلام كناية عما أشرنا إليه من تسلم الأمور جميعها إليه تعالى والإقبال التام عليه عزَّ وجلَّ وقد يعدى الإسلام باللام قصداً لمعنى الإخلاص.

وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه، والسلمي، وعبد الله بن مسلم بن يسار «يُسَلِّم» بتشديد اللام من التسليم وهو أشهر في معنى التفويض من الإسلام ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي في أعماله والجملة في موضع الحال.

﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ تعلق أتم تعلق بأوثق ما يتعلق به من الأسباب وهذا تشبيه تمثيلي مركب حيث شبه حال المتوكل على الله عزَّ وجلَّ المفوض إليه أموره كلها المحسن في أعماله بمن ترقى في جبل شاهق أو تدلى منه فتمسك بأوثق عروة من حبل متين مأمون انقطاعه، وجوز أن يكون هناك استعارة في المفرد وهو العروة الوثقى بأن يشبه التوكل النافع المحمود عاقبته بها فتستعار له ﴿وَإِلَى اللهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ أي هي صائرة إليه عزَّ وجلَّ لا إلى غيره جلَّ جلاله فلا يكون لأحد سواه جلَّ وعلا تصرف فيها بأمر ونهي وثواب وعقاب فيجازي سبحانه هذا المتوكل أحسن الجزاء، وقيل: فيجازي كلاً من هذا المتوكل وذاك المجادل بما يليق به بمقتضى الحكمة، وأل في الأمور للإستغراق، وقيل: تحتمل العهد على أن المراد الأمور المذكورة من المجادلة وما بعدها، وتقديم ﴿إِلَى اللهِ﴾ للحصر رداً على الكفرة في زعمهم مرجعية آلهتهم لبعض الأمور.

واختار بعضهم كونه إجلالاً للجلالة ورعاية للفاصلة ظناً منه أن الإستغراق مغن عن الحصر وهو ليس كذلك.

﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلاَ يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ﴾ أي فلا يهمنك ذلك ﴿إِلَيْنَا﴾ لا إلى غيرنا ﴿مَرْجِعُهُمْ﴾ رجوعهم بالبعث يوم القيامة ﴿فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ أي بعملهم أو بالذي عملوه في الدنيا من الكفر والمعاصي بالعذاب والعقاب، وقيل: إلينا مرجعهم في الدارين فنجازيهم بالإهلاك والتعذيب والأول أظهر وأياً ما كان فالجملة في موضع التعليل كأنه قيل: لا يهمنك كفر من كفر لأنا ننتقم منه ونعاقبه على عمله أو الذي عمله والجمع في الضمائر الثلاثة باعتبار معنى من كما أن الافراد في الأول باعتبار لفظها، وقرىء في السبع «ولا يحزنك» مضارع أحزن مزيد حزن اللام؛ وقدر اللزوم ليكون للنقل فائدة وحزن وأحزن لغتان، قال اليزيدي: حزنه لغة قريش وأحزنه لغة تميم وقد قرىء بهما، وذكر الزمخشري أن المستفيض في الاستعمال ماضي الأفعال ومضارع الثلاثي والعهدة في ذلك عليه ﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ تعليل للتنبئة المعبر بها عن المجازاة أي يجازيهم سبحانه لأنه عزَّ وجلَّ عليم بالضمائر فما ظنك بغيرها.

﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً﴾ تمتيعاً قليلاً أو زماناً قليلاً فإن ما يزول بالنسبة إلى ما يدوم قليل ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ ثقيل عليهم ثقل الإجرام الغلاظ، والمراد بالاضطرار أي الإلجاء إلزامهم ذلك العذاب الشديد إلزام المضطر الذي لا يقدر على الانفكاك مما ألجىء إليه، وفي الانتصاف تفسير هذا الاضطرار ما في الحديث من أنهم لشدة ما يكابدون من النار يطلبون البرد فيرسل عليهم الزمهرير فيكون أشد عليهم من اللهب فيتمنون عود اللهب اضطراراً فهو اختيار عن اضطرار وبأذيال هذه البلاغة تعلق الكندي حيث قال:

يرون الموت قداماً وخلفاً ... فيختارون والموت اضطرار

وقيل: المعنى نضم إلى الإحراق الضغط والتضييق فلا تغفل﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ أي خلقهن الله تعالى، وجوز أن يكون التقدير الله خلقهن والأول أولى كما فصل في محله وقولهم ذلك لغاية وضوح الأمر بحيث اضطروا إلى الاعتراف به ﴿قُلِ الْحَمْدُ للهِ﴾ على إلزامهم وإلجائهم إلى الاعتراف بما يوجب بطلان ما هم عليه من إشراك غيره تعالى به جلَّ شأنه في العبادة التي لا يستحقها غير الخالق والمنعم الحقيقي.

وجوز جعل المحمود عليه جعل دلائل التوحيد بحيث لا ينكرها المكابر أيضاً ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ أن ذلك يلزمهم قيل: وفيه إيغال حسن كأنه قال سبحانه: وإن جهلهم انتهى إلى أن لا يعلموا أن الحمد لله ما موقعه في هذا المقام، وقد مر تمام الكلام في نظير الآية في العنكبوت فتذكر.

لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ
يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ
إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ
وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ
ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ
بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ
دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ
كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ
شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ
عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ
بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾

﴿لله مَا في السَّمَاوَات وَالأَرْض﴾ خلقاً وملكاً وتصرفاً ليس لأحد سواه عزَّ وجلَّ استقلالاً ولا شركة فلا يستحق العبادة فيهما غيره سبحانه وتعالى بوجه من الوجوه، وهذا إبطال لمعتقدهم من وجه آخر لأن المملوك لا يكون شريكاً لمالكه فكيف يستحق ما هو حقه من العبادة وغيرها ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنيُّ﴾ عن كل شيء ﴿الْحَميدُ﴾ المستحق للحمد وإن لم يحمده جلَّ وعلا أحد أو المحمود بالفعل يحمده كل مخلوق بلسان الحال، وكأنه الجملة جواب عما يوشك أن يخطر ببعض الأذهان السقيمة من أنه هل اختصاص ما في السموات والأرض به عزَّ وجلَّ لحاجته سبحانه إليه، وهو جواب بنفي الحاجة على أبلغ وجه فقد كان يكفي في الجواب إن الله غني الا أنه جيء بالجملة متضمنة للحصر للمبالغة وجيء بالحميد أيضاً تأكيداً لما تفيده من نفي الحاجة بالإشارة إلى أنه تعالى منعم على من سواه سبحانه أو متصف بسائر صفات الكمال فتأمل جداً، وقال الطيبي: إن قوله تعالى: ﴿لله ما في السماوات والأرض﴾ تهاون بهم وإبداء أنه تعالى مستغن عنهم وعن حمدهم وعبادتهم ولذلك علل بقوله سبحانه: ﴿إن الله هو الغني﴾أي عن حمد الحامدين﴿الحميد﴾ أي المستحق للحمد وإن لم يحمدوه عزَّ وجلَّ.

﴿وَلَوْ أَنَّ مَا في الأَرْض منْ شَجَرَة أَقْلامٌ﴾ أي لو ثبت كون ما في الأرض من شجرة اقلاماً ـ فإن ـ وما بعدها فاعل ثبت مقدر بقرينة كون ﴿أن﴾ دالة على الثبوت والتحقق وإلى هذا ذهب المبرد، وقال سيبويه: إن ذلك مبتدأ مستغن عن الخبر لذكر المسند والمسند إليه بعده، وقيل: مبتدأ خبره، مقدر قبله، وقال ابن عصفور: بعده و﴿ما في الأرض﴾ اسم أن و﴿من شجرة﴾ بيان ـ لما ـ أو للضمير العائد إليها في الظرف فهو في موضع الحال منها أو منه

أي ولو ثبت أن الذي استقر في الأرض كائناً من شجرة، و﴿أقلام﴾ خبر أن قال أبو حيان: وفيه دليل دعوى الزمخشري وبعض العجم ممن ينصر قوله: إن خبر أن الجائية بعد ـ لو ـ لا يكون اسماً جامداً ولا اسماً مشتقاً بل يجب أن يكون فعلاً وهو باطل ولسان العرب طافح بخلافه، قال الشاعر:

ولو أنها عصفورة لحسبتها ... مسومة تدعو عبيداً وأزنما

وقال آخر:

ما أطيب العيش لو أن الفتى حجر ... تنبو الحوادث عنه وهو ملموم

إلى غير ذلك، وتعقب بأن اشتراط كون خبرها فعلاً إنما هو إذا كان مشتقاً فلا يرد ﴿أقلام﴾ هنا ولا ما ذكر في البيتين، وأما قوله تعالى: ﴿لو أنهم بادون﴾ [الأحزاب: ٢٠] فلو فيه للتمني والكلام في خبر أن الواقعة بعد لو الشرطية. والمراد بشجرة كل شجرة والنكرة قد تعم في الإثبات إذا اقتضى المقام ذلك كما في قوله تعالى: ﴿علمت نفس ما أحضرت﴾ [التكوير: ١٤] وقول ابن عباس رضي الله عنهما لبعض أهل الشام وقد سأله عن المحرم إذا قتل جرادة أيتصدق بتمرة فدية لها؟ تمرة خير من جرادة على ما اختاره جمع ولا نسلم المنافاة بين هذا العموم وهذه التاء فكأنه قيل: ولو أن كل شجرة في الأرض أقلام الخ، وكون كل شجرة أقلاماً باعتبار الأجزاء أو الأغصان فيؤول المعنى إلى لو أن أجزاء أو أغصان كل شجرة في الأرض أقلاماً الخ، ويحسن إرادة العموم في نحو ما نحن فيه كون الكلام الذي وقعت فيه النكرة شرطاً بلو وللشرط مطلقاً قرب ما من النفي فما ظنك به إذا كان شرطاً بها وإن كانت هنا ليست بمعناها المشهور من انتفاء الجواب لانتفاء الشرط أو العكس بل هي دالة على ثبوت الجواب أو حرف شرط في المستقبل على ما فصل في المغني، واختيار ﴿شجرة﴾ على أشجار أو شجر لأن الكلام عليه أبعد عن اعتبار التوزيع بأن تكون كل شجرة من الأشجار أو الشجر قلما المخل بمقتضى المقام من المبالغة بكثرة كلماته تعالى شأنه. وفي البحر أن هذا مما وقع فيه المفرد موقع الجمع والنكرة موقع المعرفة، ونظيره ﴿ما ننسخ من آية﴾ [البقرة: ١٠٦] ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة﴾ [فاطر: ٢] ﴿ولله يسجد ما في السماوات والأرض من دابة﴾ [النحل: ٤٩] وقول العرب: هذا أول فارس وهذا أفضل عالم يراد من الآيات ومن الرحمات ومن الدواب وأول الفرسان وأفضل العلماء ذكر المفرد النكرة وأريد به معنى الجمع المعرف باللام وهو مهيع في كلام العرب معروف وكذلك يقدر هنا من الشجرات أو من الأشجار ا هـ فلا تغفل.

وقال الزمخشري: إنه قال سبحانه ﴿شجرة﴾ على التوحيد دون اسم الجنس الذي هو شجر لأنه أريد تفصيل الشجر شجرة شجرة حتى لا يبقى من جنس الشجر ولا واحدة إلا وقد بريت أقلاماً وتعقب بأن إفادة المفرد التفصيل بدون تكرار غير معهود والمعهود إفادته ذلك بالتكرير نحو جاؤوني رجلاً رجلاً فتأمل، واختيار جمع القلة في ﴿أقلام﴾ مع أن الأنسب للمقام جمع الكثرة لأنه لم يعهد للقلم جمع سواه وقلام غير متداول فلا يحسن استعماله ﴿وَالبَحْرُ﴾ أي المحيط فأل للعهد لأنه المتبادر ولأنه الفرد للكامل إذ قد يطلق على شعبه وعلى الأنهار العظام كدجلة والفرات، وجوز إرادة الجنس ولعل الأول أبلغ ﴿يَمُدُّهُ مِنْ بَعْده﴾ أي من بعد نفاده وقيل من ورائه ﴿سَبْعَةُ أَبْحُر﴾ مفروضة كل منها مثله في السعة والإحاطة وكثرة الماء، والمراد بالسبعة الكثرة بحيث تشمل المائة والألف مثلاً لا خصوص العدد المعروف كما في قوله عليه الصلاة والسلام: «المؤمن يأكل في معى واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء» واختيرت لها لأنها عدد تام كما عرفت عند الكلام في قوله تعالى: ﴿تلك عشرة كاملة﴾ وكثير من المعدودات التي لها شأن كالسماوات والكواكب السيارة والأقاليم الحقيقية وأيام الأسبوع إلى غير ذلك منحصر في سبع فلعل في ذكرها هنا

دون سبعين المتجوز به عن الكثرة أيضاً رمزاً إلى شأن كون تلك الأبحر عظيمة ذات شأن ولما لم تكن موضوعة في الأصل لذلك بل للعدد المعروف القليل جاء تمييزها أبحر بلفظ القلة دون بحور وإن كان لا يراد به إلا الكثرة ليناسب بين اللفظين فكما تجوز في السبعة واستعملت للتكثير تجوز في أبحر واستعمل فيه أيضاً، وكان الظاهر بعد جعل ما في الأرض من شجر أقلاماً أن يقال: والبحر مداد لكن جيء بما في النظم الجليل لأن يمده يغني عن ذكر المداد لأنه من قولك: مد الدواة وأمدها أي جعلها ذات مداد وزاد في مدادها ففيه دلالة على المداد مع ما يزيد في المبالغة وهو تصوير الامداد المستمر حالاً بعد حال كما تؤذن به صيغة المضارع فأفاد النظم الجليل جعل البحر المحيط بمنزلة الدواة وجعل أبحر سبعة مثله مملوءة مداداً فهي تصب فيه مدادها أبداً صباً لا ينقطع، ورفع ﴿البحر﴾ على ما استظهره أبو حيان فيه على الابتداء وجملة يمده خبره والواو للحال والجملة حال من الموصول أو الضمير الذي في صلته أي لو ثبت كون ما في الأرض من شجرة أقلاماً في حال كون البحر ممدوداً بسبعة أبحر، ولا يضر خلو الجملة عن ضمير ذي الحال فإن الواو يحصل بها من الربط ما لا يتقاعد عن الضمير لدلالتها على المقارنة، وأشار الزمخشري إلى أن هذه الجملة وما أشبهها كقوله:

وقد اغتدي والطير في وكناتها ... بمنجرد قيد الأوابد هيكل

وجئت والجيش مصطف من الأحوال التي حكمها حكم الظروف لأنها في معناها إذ معنى جئت والجيش مصطف مثلاً ومعنى جئت وقت اصطفاف الجيش واحد وحيث إن الظرف يربطه بما قبله تعلقه به وإن لم يكن فيه ضمير وهو إذا وقع حالاً استقر فيه الضمير فما يشبهه كأنه فيه ضمير مستقر، ولا يرد عليه اعتراض أبي حيان بأن الظرف إذا وقع حالاً ففي العامل فيه ضمير ينتقل إلى الظرف، والجملة الإسمية إذا كانت حالاً بالواو فليس فيها ضمير منتقل فكيف يقال انها في حكم الظرف. نعم الحق أن الربط بالواو كاف عن الضمير ولا يحتاج معه إلى تكلف هذه المؤونة، وجوز أن تكون الجملة حالاً من الأرض والعامل فيه معنى الاستقرار والرابط ما سمعت أو أل التي في ﴿البحر﴾ بناء على رأي الكوفيين من جواز كون أل عوضاً عن الضمير كما في قوله تعالى ﴿جنات عدن مفتحة لهم الأبواب﴾ [ص: ٥٠] أي ولو ثبت كون الذي استقر في الأرض من شجرة أقلاماً حال كون بحرها ممدوداً بسبعة أبحر قال في الكشف: ولا بد أن يجعل ﴿من شجرة﴾ بياناً للضمير العائد إلى ﴿ما﴾ لئلا يلزم الفصل بين أجزاء الصلة بالأجنبي.

و﴿البحر﴾ على تقدير جعل آل فيه عوضاً عن المضاف إليه العائد إلى الأرض يحتمل أن يراد به المعهود وأن يراد به غيره، وقال الطيبي: إن البحر على ذلك يعم جميع الأبحر لقرينة الإضافة ويفيد أن السبعة خارجة عن بحر الأرض وعلى ما سواه يحتمل الحصة المعهودة المعلومة عند المخاطب. ورد بأنه لا فرق بينهما بل كون بحرها للعهد أظهر لأن العهد أصل الإضافة ولا ينافيه كون الأرض شاملة لجميع الأقطار لأن المعهود البحر المحيط وهو محيط بها كلها، وجوز الزمخشري كون رفعه بالعطف على محل أن ومعمولها، وجملة ﴿يمده﴾ حال على تقدير لو ثبت كون ما في الأرض من شجرة أقلاماً وثبت البحر ممدوداً بسبعة أبحر، وتعقب بأن الدال على الفعل المحذوف هو أن وخبره على ما قرر في بابه فإذن لا يمكن إفضاء إلى المعطوف دون ملاحظة دال وفي هذا العطف إخراج عن الملاحظة، وأجيب بأنه يحتمل في التابع ما لا يحتمل في المتبوع، ثم لا يخفى أن العطف على هذا من عطف المفرد لا المفرد على الجملة كما قيل إذ الظاهر أن المعطوف عليه إنما هو المصدر الواقع فاعلاً لثبت وهو مفرد لا جملة، وجوز أن يكون العطف على ذلك بناء على رأي من يجعله مبتدأ، وتعقب بأنه يلزم أن يلي لو الاسم الصريح الواقع مبتدأ إذ يصير

التقدير ولو البحر على ما قال أبو حيان لا يجوز إلاّ في ضرورة شعر نحو قوله:

لو بغير الماء حلقي شرق　　　　كنت كالغصان بالماء اعتصاري(١)

وأجيب بأنه يغتفر في التابع ما لا يغتفر في المتبوع كما في نحو رب رجل وأخيه يقولان ذلك، وقال بعضهم: إنه يلزم على العطف السابق أن يلي لو الاسم الصريح وهو أيضاً مخصوص بالضرورة وأجاب بما أجيب وفيه عندي تأمل، وجوز كون الرفع على الابتداء وجملة ﴿يمده﴾ خبر المبتدأ والواو واو المعية وجملة المبتدأ وخبره في موضع المفعول معه بناء على أنه يكون جملة كما نقل عن ابن هشام ولا يخفى بعده، وجوز كون الواو على ذلك للاستئناف وهو استئناف بياني كأنه؟ قيل: ما المداد حينئذ فقيل: والبحر إلخ، وتعقب بأن اقتران الجواب بالواو وإن كانت استئنافية غير معهود، وما قيل إنه يقترن بها إذا كان جواباً للسؤال على وجه المناقشة لا للاستعلام مما لا يعتمد عليه، ومن هنا قيل: الظاهر على إرادة الاستئناف أن يكون نحوياً، وجوز في هذا التركيب غير ما ذكر من أوجه الإعراب أيضاً.

وقرأ البصريان «والبحر» بالنصب على أنه معطوف على اسم أن و﴿يمده﴾ خبر له أي ولو أن البحر ممدود بسبعة أبحر.

قال ابن الحاجب في أماليه: ولا يستقيم أن يكون ﴿يمده﴾ حالاً لأنه يؤدي أيضاً إلى تقييد المبتدأ الجامد بالحال ولا يجوز لأنها بيان الفاعل أو المفعول والمبتدأ ليس كذلك ويؤدي الى كون المبتدأ لا خبر له ولا يستقيم أن يكون ﴿أقلام﴾ خبراً له لأنه خبر الأول ا هـ، ولم يذكر احتمال تقدير الخبر لظهور أنه خلاف الظاهر.

وجوز أن يكون منصوباً على شريطة التفسير عطفاً على الفعل المحذوف أعني ثبت ودخول لو على المضارع جائزة، وجملة ﴿يمده﴾ إلخ حينئذ لا محل لها من الإعراب.

وقرأ عبد الله «وبحر» بالتنكير والرفع وخرج ذلك ابن جني على أنه مبتدأ وخبره محذوف أي هناك بحر يمده الخ، والواو واو الحال لا محالة، ولا يجوز أن يعطف على ﴿أقلام﴾ لأن البحر وما فيه ليس من حديث الشجر والأقلام وإنما هو من حديث المداد. وفي البحر أن الواو على هذه القراءة للحال أو للعطف على ما تقدم، وإذا كانت للحال كان ﴿بحر﴾ مبتدأ وسوغ الابتداء به مع كونه نكرة تقدم تلك الواو فقد عد من مسوغات ابتداء بالنكرة كما في قوله:.

سرينا ونجم قد أضاء فمذ بدا　　　　محياك أخفى ضوءه كل شارق

ا هـ

ولا يخفى أنه إذا عطف على فاعل ثبت فجملة ﴿يمده﴾ في موضع الصفة له لا حال منه؛ وجوز ذلك من جوز مجيء الحال من النكرة، والظاهر على تقدير كونه مبتدأ جعل الجملة خبره ولا حاجة إلى جعل خبره محذوفاً كما فعل ابن جني.

وقرأ ابن مسعود، وأبي «تمده» بتاء التأنيث من مد كالذي في قراءة الجمهور، وقرأ ابن مسعود أيضاً، والحسن، وابن مصرف، وابن هرمز «يمده» بضم الياء التحتية من الأمداد، وقال ابن الشيخ: يمد بفتح فضم ويمد بضم فكسر لغتان بمعنى، وقرأ جعفر بن محمد رضي الله تعالى عنهما «والبحر مداده» أي ما يكتب به من الحبر، وقال ابن عطية: هو

---

(١) الاعتصار بالماء أن يشربه قليلاً قليلاً ليسيغ ما غص به من الطعام ا هـ منه.

مصدر ﴿مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ﴾ جواب ﴿لو﴾ وفي الكلام اختصار يسمى حذف إيجاز ويدل على المحذوف السياق والتقدير ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر ممدود بسبعة أبحر وكتبت بتلك الأقلام وبذلك المداد كلمات الله تعالى ما نفدت لعدم تناهيها ونفد تلك الأقلام والمداد لتناهيها، ونظير ذلك في الاشتمال على إيجاز الحذف قوله تعالى: ﴿أو به أذى من رأسه ففدية﴾ [البقرة: ١٩٦] أي فحلق رأسه لدفع ما به من الأذى ففدية، والمراد بكلماته تعالى كلمات علمه سبحانه وحكمته جلَّ شأنه وهو الذي يقتضيه سبب النزول على ما أخرج ابن جرير عن عكرمة قال: سأل أهل الكتاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن الروح فأنزل سبحانه ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلاَّ قليلاً﴾ [الإسراء: ٨٥] فقالوا: تزعم[1] أنا لم نؤت من العلم إلاَّ قليلاً وقد أوتينا التوراة وهي الحكمة ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً فنزلت ﴿ولو أن﴾ إلخ. وظاهر هذا أن اليهود قالوا ذلك له عليه الصلاة والسلام مشافهة وهو ظاهر في أن الآية مدنية، وقيل: إنهم أمروا وفد قريش أن يقولوا له صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك وهذا القائل يقول: إنها مكية، وحاصل الجواب أنه وإن كان ما أوتيتموه خيراً كثيراً لكونه حكمة إلاَّ أنه قليل بالنسبة إلى حكمته عزَّ وجلَّ. وفي رواية أنه أنزل بمكة قوله تعالى ﴿ويسألونك﴾ إلخ فلما هاجر عليه الصلاة والسلام أتاه أحبار اليهود فقالوا بلغنا أنك تقول: ﴿وما أوتيتم من العلم إلاَّ قليلاً﴾ أفعنيتنا أم قومك فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «كلاً عنيت» فقالوا: ألست تتلو فيما جاءك إنا أوتينا التوراة وفيها علم كل شيء فقال عليه الصلاة والتحية: «وهي في علم الله تعالى قليل وقد أتاكم ما إن علمتم به نجوتم»قالوا: يا محمد كيف تزعم هذا وأنت تقول: ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾ [البقرة: ٢٦٩] فكيف يجتمع؟ فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «هذا علم قليل وخير كثير» فأنزل الله تعالى هذه الآية. وهذا نص في أن الآية مدنية، وقيل: المراد بها مقدوراته جلَّ وعلا وعجائبه عزَّ وجلَّ التي إذا أراد سبحانه شيئاً منها قال تبارك وتعالى: ﴿كن فيكون﴾ [البقرة: ١١٧ وغيرها] ومن ذلك قوله تعالى في عيسى: ﴿وكلمته ألقاها الى مريم﴾ [النساء: ١٧١] وإطلاق الكلمات على ما ذكر من إطلاق السبب على المسبب، وعلى هذا وجه ربط الآية بما قبلها أظهر على ما قيل وهو أنه سبحانه لما قال: ﴿ولله ما في السماوات والأرض﴾ وكان موهماً لتناهي ملكه جلَّ جلاله أردف سبحانه ذلك بما هو ظاهر بعدم التناهي وهذا ما اختاره الإمام المراد بكلماته تعالى إلاَّ أن في انطباقه على سبب النزول خفاء، وعن أبي مسلم المراد بها ما وعد سبحانه به أهل طاعته من الثواب وما أوعد جلَّ شأنه به أهل معصيته من العقاب، وكأن الآية عليه بيان لأكثرية ما لم يظهر بعد من ملكه تعالى بعد بيان كثرة ما ظهر، وقيل: المراد بها ما هو المتبادر منها بناء على ما أخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وغيرهم عن قتادة قال: قال المشركون إنما هذا كلام يوشك أن ينفد فنزلت ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام﴾ الآية، وفي وجه ربط الآية عليه بما قبلها وكذا بما بعدها خفاء جداً إلاَّ أنه لا يقتضي كونها مدنية، وإيثار الجمع المؤنث سالم بناء على أنه كجمع المذكر جمع قلة لأشعاره وإن اقترن بما قد يفيد معه الاستغراق والعموم من أل أو الإضافة نظراً لأصل وضعه وهو القلة بأن ذلك لا يفي بالقليل فكيف بالكثير. وقرأ الحسن «ما نفد» بغير تاء «كلام الله» بدل كلمات الله ﴿إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ﴾ لا يعجزه جلَّ شأنه شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يخرج عن علمه تعالى وحكمته سبحانه شيء، والجملة تعليل لعدم نفاد كلماته تبارك وتعالى.

﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي إلاَّ كخلقها وبعثها في سهولة التأتي بالنسبة إليه عزَّ وجلَّ إذ لا

(١) قوله فقالوا تزعم عن ابن جريج أن القائل حيي بن أخطب ا هـ منه.

يشغله تعالى شأن عن شأن لأن مناط وجود الكل تعلق إرادته تعالى الواجبة أو قوله جلَّ وعلا: كن مع قدرته سبحانه الذاتية وإمكان المتعلق ولا توقف لذلك على آلة ومباشرة تقتضي التعاقب ليختلف عنده تعالى الواحد والكثير كما يختلف ذلك عند العباد ﴿إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ﴾ يسمع كل مسموع ﴿بَصِيرٌ﴾ يبصر كل مبصر في حالة واحدة لا يشغله إدراك بعضها عن إدراك بعض فكذا الخلق والبعث وحاصله كما أنه تعالى شأنه يبصر واحد يدرك سبحانه المبصرات وبسمع واحد يسمع جلَّ وعلا المسموعات ولا يشغله بعض ذلك عن بعض كذلك فيما يرجع إلى القدرة والفعل فهو استشهاد بما سلموه فشبه المقدورات فيما يراد منها بالمدركات فيما يدرك منها كذا في الكشف. واستشكل كون ذلك مسلماً بأنه قد كان بعضهم إذا طعنوا في الدين يقول: أسروا قولكم لئلا يسمع إله محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فنزل ﴿وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور﴾ [الملك: ١٣].

وأجيب بأنه لا اعتداد بمثله من الحماقة بعدما رد عليهم ما زعموا وأعلموا بما أسروا، وقيل: إن الجملة تعليل لإثبات القدرة الكاملة بالعلم الواسع وأن شيئاً من المقدورات لا يشغله سبحانه عن غيره لعلمه تعالى بتفاصيلها وجزئياتها فيتصرف فيها كما يشاء كما يقال: فلان يجيد عمل كذا لمعرفته بدقائقه ومتمماته، والمقصود من إيراد الوصفين إثبات الحشر والبشر لأنهما عمدتان فيه ألاً ترى كيف عقب ذلك بما يدل على عظيم القدرة وشمول العلم.

وأياً ما كان يندفع توهم أن المناسب لما قبل أن يقال: إن الله قوي قدير أو نحو ذلك دون ما ذكر لأن الخلق والبعث ليسا من المسموعات والمبصرات، وعن مقاتل أن كفار قريش قالوا: إن الله تعالى خلقنا أطواراً نطفة علقة مضغة لحماً فكيف يبعثنا خلقاً جديداً في ساعة واحدة فنزلت وذكر النقاش أنها نزلت في أبي بن خلف، وأبي الأسود، ونبيه، ومنبه ابني الحجاج، وذكر في سبب نزولها فيهم نحو ما ذكر، وعلى كون سبب النزول ذلك قيل: المعنى أنه تعالى سميع بقولهم ذلك بصير بما يضمرونه وهو كما ترى ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ قيل: خطاب لسيد المخاطبين ﷺ وقيل: عام لكل من يصلح للخطاب وهو الأوفق لما سبق وما لحق أي ألم تعلم.

﴿أَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي يدخل كل واحد منها في الآخر ويضيفه سبحانه إليه فيتفاوت بذلك حاله زيادة ونقصاناً، وعدل عن يولج أحد الملوين في الآخر مع أنه أخصر للدلالة على استقلال كل منهما في الدلالة على كمال القدرة، وقدم الليل على النهار لمناسبته لعالم الإمكان المظلم من حيث إمكانه الذاتي، وفي بعض الآثار كان العالم في ظلمة فرش الله تعالى عليهم من نوره، وهذا الإيلاج إنما هو في هذا العالم ليس عند ربك صباح ولا مساء، وقدم الشمس على القمر في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ مع تقديم الليل الذي فيه سلطان القمر على النهار الذي فيه سلطان الشمس لأنها كالمبدأ للقمر ولأن تسخيرها لغاية عظمها أعظم من تسخير القمر وأيضاً آثار ذلك التسخير أعظم من آثار تسخيره وقال الإمام في تعليل تقديم كل على ما قدم وعليه: لأن الأنفس تطلب سبب المقدم أكثر مما تطلب سبب المؤخر وبين ذلك بما بين، ولعل ما ذكرناه أولى لا سيما إذا صح أن نور القمر مستفاد من ضياء الشمس وعطف قوله سبحانه ﴿سخر﴾ على قوله تعالى ﴿يولج﴾ والاختلاف بينهما صيغة لما أن إيلاج أحد الملوين في الآخر متجدد في كل حين وأما التسخير فأمر لا تعدد فيه ولا تجدد وإنما التعدد والتجدد في آثاره كما يشير ذلك إلى قوله تعالى: ﴿كُلٌّ﴾ أي كل واحد من الشمس والقمر ﴿يَجْرِي﴾ يسير سيراً سريعاً مستمراً ﴿إِلَى أَجَلٍ﴾ أي منتهى للجري ﴿مُسَمًّى﴾ سماه الله تعالى وقدره لذلك، وهو كما قال الحسن يوم القيامة فإنه لا ينقطع جرى النيرين وتبطل حركتهما إلاَّ في ذلك اليوم، والظاهر أن هذا الجري هو هذه الحركة التي يشاهدها كل ذي بصر من أهل المعمورة، وهي عند الفلاسفة بواسطة الفلك الأعظم فإن حركته كذلك وبها حركة

سائر الأفلاك وما فيها من الكواكب ويسمى حركة الكل والحركة اليومية والحركة السريعة والحركة الأولى والحركة على خلاف التوالي والحركة الشرقية، وبعضهم يسميها الحركة الغربية، وقيل: ما يعم هذه الحركة وحركتهما الخاصة بهما وهي حركتهما بواسطة فلكيهما على التوالي من المغرب الى المشرق وهي للقمر أسرع منها للشمس، وليس في العقل الصريح والنقل الصحيح ما يأبى إثبات هاتين الحركتين لكل من النيرين كما لا يخفى على المنصف العارف، ومنتهى هذا الجري العام لهاتين الحركتين يوم القيامة أيضاً، والجملة على تقدير عموم الخطاب اعتراض بين المعطوفين لبيان الواقع بطريق الاستطراد، وعلى تقدير اختصاصه به صلى الله تعالى عليه وسلم يجوز أن تكون حالاً من الشمس والقمر فإن جريهما إلى يوم القيامة من جملة ما في حيز رؤيته عليه الصلاة والسلام، وقيل جريهما عبارة عن حركتهما الخاصة بهما والأجل المسمى لجري الشمس آخر السنة المسماة بالسنة الشمسية الحقيقية وهي زمان مفارقة الشمس أية نقطة تفرض من فلك البروج إلى عودها إليها بحركتها الخاصة، وجعلوا ابتداءها من حين حلول الشمس رأس الحمل ومدتها عند بعض ثلاثمائة وخمسة وستون يوماً بليلته وربع يوم كذلك وعند بطليموس ثلاثمائة وخمسة وستون يوماً بليلته وخمس ساعات وخمسة وخمسون دقيقة واثنتا عشر ثانية، وعند بعض المتأخرين ثلاثمائة وخمسة وستون يوماً وخمس ساعات وست وأربعون دقيقة وأربع وعشرون ثانية، وعند الحكيم محيي الدين الكسر الزائد خمس ساعات ودقيقة، وبالرصد الجديد الذي تولاه الطوسي بمراغة خمس ساعات وتسع وأربعون دقيقة، ووجد برصد سمرقند أزيد من هذا بربع دقيقة، وأما الاصطلاحية فاعتبرها بعض كالروم والأقدمين من الفرس ثلاثمائة وخمسة وستون يوماً بليلته وربع يوم كذلك وأخذ الكسر ربعاً تاماً إلاّ أن الروم يجعلون ثلاث سنين ثلاثمائة وخمسة وستين ويكبسون في الرابعة بيوم والفرس كانوا يكبسون في مائة وعشرين سنة بشهر، واعتبرها بعض آخر كالقبط والمستعملين لتاريخ الفرس من المحدثين ثلاثمائة وستين يوماً بليلته وأسقط الكسر رأساً ولجري القمر آخر الشهر القمري الحقيقي وهو زمان مفارقة القمر أي وضع يعرض له من الشمس إلى عوده إليه، وجعلوا ابتداءه من اجتماع الشمس والقمر وزمان ما بين الاجتماعين المتتالين كط لان من الأيام ودقائقها وثوانيها تقريباً وأما الشهر الغير الحقيقي فالمعتبر فيه الهلال ويختلف زمان ما بين الهلالين كما هو معروف.

قيل: وعلى هذا فالجملة بيان لحكم تسخيرهما أو تنبيه على كيفية إيلاج أحد الملوين في الآخر، وكون ذلك بحسب اختلاف جريان الشمس على مداراتها اليومية فكلما كان جريانها متوجهاً إلى سمت الرأس تزداد القوس التي فوق الأرض كبراً فيزداد النهار طولاً بانضمام بعض أجزاء الليل إليه إلى أن يبلغ المدار الذي هو أقرب المدارات إلى سمت الرأس وذلك عند بلوغها إلى رأس السرطان ثم ترجع متوجهة إلى التباعد عن سمت الرأس فلا تزال القسي التي فوق الأرض تزداد صغراً فيزداد النهار قصراً بانضمام بعض أجزائه إلى الليل إلى أن يبلغ المدار الذي هو أبعد المدارات اليومية عن سمت الرأس وذلك عند بلوغها رأس الجدي.

وأنت تعلم أنه لا مدخل لجريان القمر في الإيلاج فالتعرض له في الآية الكريمة يبعد هذا الوجه، ولعل الأظهر على تقدير جعل جريهما عبارة عن حركتهما الخاصة بهما أن يجعل الأجل المسمى عبارة عن يوم القيامة أو يجعل عبارة عن آخر السنة والشهر المعروفين عند العرب فتأمل، وجرى يتعدى بإلى تارة وباللام أخرى وتعديته بالأول باعتبار كون المجرور غاية وبالثاني باعتبار كونه غرضاً فتكون اللام لام تعليل أو عاقبة وجعلها الزمخشري للاختصاص ولكل وجه، ولم يظهر لي وجه اختصاص هذا المقام بإلى وغيره باللام. وقال النيسابوري: وجه ذلك أن هذه الآية صدرت بالتعجيب فناسب التطويل وهو كما ترى فتدبر، وقوله تعالى:.

﴿وَأَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ عطف على قوله: **﴿إن الله يولج الليل﴾** إلخ داخل معه في حيز الرؤية على تقديري خصوص الخطاب وعمومه فإن من شاهد مثل ذلك الصنع الرائق والتدبير اللائق لا يكاد يغفل عن كون صانعه عزَّ وجلَّ محيطاً بجلائل أعماله ودقائقها وقرأ عياش عن أبي عمرو «بما يعملون» بياء الغيبة **﴿ذَٰلِكَ﴾** إشارة إلى ما تضمنته الآيات وأشارت إليه من سعة العلم وكمال القدرة واختصاص الباري تعالى شأنه بها **﴿بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ﴾** أي بسبب أنه سبحانه وحده الثابت المتحقق في ذاته أي الواجب الوجود.

﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ إلهاً **﴿الْبَاطِلُ﴾** المعدوم في حد ذاته وهو الممكن الذي لا يوجد إلاَّ بغيره وهو الواجب تعالى شأنه **﴿وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ﴾** على الأشياء **﴿الْكَبِيرُ﴾** عن أن يكون له سبحانه شريك أو يتصف جلَّ وعلا بنقص لا بشيء أعلى منه تعالى شأنه شأناً وأكبر سلطاناً، ووجه سببية الأول لما ذكر أن كونه تعالى وحده واجب الوجود في ذاته يستلزم أن يكون هو سبحانه وحده الموجد لسائر المصنوعات البديعة الشأن فيدل على كمال قدرته عزَّ وجلَّ وحده والإيجاب قد أبطل في الأصول ومن صدرت عنه جميع هاتيك المصنوعات لا بد من أن يكون كامل العلم على ما بين في الكلام، ووجه سببية الثالث لذلك أن كونه تعالى وحده علياً على جميع الأشياء متسلطاً عليها متنزهاً عن أن يكون له سبحانه شريك أو يتصف بنقص عزَّ وجلَّ يستلزم كونه تعالى وحده واجب الوجود في ذاته وقد سمعت الكلام فيه، وأما وجه سببية كون ما يدعونه من دونه إلهاً باطلاً ممكناً في ذاته لذلك فهو أن إمكانه على علو شأنه عندهم على ما عداه مما لم يعتقدوا إلهيته يستلزم إمكان غيره مما سوى الله عزَّ وجلَّ لأن ما فيه مما يدل على إمكانه موجود في ذلك حذو القذة بالقذة ومتى كان ما يدعونه إلهاً من دونه تعالى وغيره مما سوى الله سبحانه وتعالى ممكناً انحصر وجوب الوجود في الله تعالى فيكون جلَّ وعلا وحده واجب الوجود في ذاته وقد علمت إفادته للمطلوب وكأنه إنما قيل إن ما يدعون من دونه الباطل دون أن ما سواه الباطل مثلاً نظير قول لبيد:

ألا كـل شـيء مـا خـلا الله بـاطـل

تنصيصاً على فظاعة ما هم عليه واستلزم ذلك إمكان ما سوى الله تعالى من الموجودات من باب أولى بناء على ما يزعم المشركون في آلهتهم من علو الشأن ولم يكتف في بيان السبب بقوله سبحانه: **﴿بأن الله هو الحق﴾** بل عطف عليه ما عطف مع أنه مما يعود إليه وتشعر تلك الجملة به إظهاراً لكمال العناية بالمطلوب وبما يفيده منطوق المعطوف من بطلان الشريك وكونه تعالى هو العلي الكبير.

وقيل: أي ذلك الاتصاف بما تضمنته الآيات من عجائب القدرة والحكمة بسبب أن الله تعالى هو الإله الثابت إلهيته وأن من دونه سبحانه باطل الإلهية وإن الله تعالى هو العلي الشأن الكبير السلطان ومدار أمر السببية على كونه سبحانه هو الثابت الإلهية وبين ذلك الطيبي بأنه قد تقرر أن من كان إلٰهاً كان قادراً خالقاً عالماً إلى غير ذلك من صفات الكمال ثم قال إن قوله تعالى بأن الله هو الحق كالفذلكة لما تقدم من قوله تعالى: **﴿ألم تروا أن الله سخر لكم﴾** الى **﴿هذا المقام﴾** وقوله تعالى: **﴿وأن الله هو العلي الكبير﴾** كالفذلكة لتلك الفواصل المذكورة هنالك كلها.

ولعل ما قدمنا أولى بالاعتبار، وقال العلامة أبو السعود في الاعتراض على ذلك: أنت خبير بأن حقيته تعالى وعلوه وكبرياءه وإن كانت صالحة لمناطية ما ذكر من الصفات لكن بطلان إلهية الأصنام لا دخل له في المناطية قطعاً فلا مساغ لنظمه في سلك الأسباب بل هو تعكيس للأمر ضرورة أن الصفات المذكورة هي المقتضية لبطلانها لا أن بطلانها يقتضيها انتهى، وفيه تأمل والعجب منه أنه ذكر مثل ما اعترض عليه في نظير هذه الآية في سورة الحج ولم يتعقبه بشيء.

وجوز أن يكون المعنى ذلك أي ما تلي من الآيات الكريمة بسب بيان أن الله هو الحق إلهيته فقط ولأجله لكونها ناطقة بحقية التوحيد ولأجل بيان بطلان إلهية ما يدعون من دونه لكونها شاهدة شهادة بينة لا ريب فيها ولأجل بيان أنه تعالى هو المرتفع على كل شيء المتسلط عليه فإن ما في تضاعيف تلك الآيات الكريمة مبين لاختصاص العلو والكبرياء به أي بيان وهو وجه لا تكلف فيه سوى اعتبار حذف مضاف كما لا يخفى وكأنه إنما قيل هنا: وأن ما يدعون من دونه الباطل بدون ضمير الفصل، وفي سورة الحج وأن ما يدعون من دونه هو الباطل بتوسيط ضمير الفصل لما أن الحط على المشركين وآلهتهم في هذه السورة دون الحط عليهم في تلك السورة.

وقال النيسابوري في ذلك إن آية الحج وقعت بين عشر آيات كل آية مؤكدة مرة أو مرتين فناسب ذلك توسيط الضمير بخلاف ما هنا ويمكن أن يقال تقدم في تلك السورة ذكر الشيطان مرات فلهذا ذكرت تلك المؤكدات بخلاف هذه السورة فإنه لم يتقدم ذكر الشيطان فيها نحو ذكره هناك، وقرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر، وأبو بكر «تدعون» بتاء الخطاب ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللهِ﴾ استشهاد آخر على باهر قدرته جلَّ وعلا وغاية حكمته عزَّ وجلَّ وشمول إنعامه تبارك وتعالى، والمراد بنعمة الله تعالى إحسانه سبحانه في تهيئة أسباب الجري من الريح وتسخيرها فالباء للتعدية كما في مررت بزيد أو سببية متعلقة بتجري.

وجوز أن يراد بنعمته تعالى ما أنعم حلَّ شأنه به بما تحمله الفلك من الطعام والمتاع ونحوه فالباء للملابسة والمصاحبة متعلقة بمحذوف وقع حالاً من ضمير الفلك أي تجري مصحوبة بنعمته تعالى؛ وقرأ موسى بن الزبير «الفُلُكَ» بضم اللام ومثله معروف في فعل مضموم الفاء.

حكي عن عيسى بن عمر أنه قال: ما سمع فعل بضم الفاء وسكون العين إلاَّ وقد سمع فيه فعل بضم العين.

وفي الكشاف كل فعل يجوز فيه فعل كما يجوز في كل فعل فعل، وجعل ضم العين للإتباع وإسكانها للتخفيف.

وقرأ الأعرج، والأعمش، وابن يعمر «بِنِعْمَات الله» بكسر النون وسكون العين جمعاً بالألف والتاء وهو جمع نعمة بكسر فسكون، ويجوز كما قال غير واحد في كل جمع مثله تسكين العين على الأصل وكسرها اتباعاً للفاء وفتحها تخفيفاً.

﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ سالك القصد أي الطريق المستقيم لا يعدل عنه لغيره، وأصله استقامة الطريق ثم أطلق عليه مبالغة، والمراد بالطريق المستقيم التوحيد مجازاً فكأنه قيل: فمنهم مقيم على التوحيد، وقول الحسن: أي مؤمن يعرف حق الله تعالى في هذه النعمة يرجع إلى هذا، وقيل: مقتصد من الاقتصاد بمعنى اتوسط والاعتدال.

والمراد حينئذ على ما قيل متوسط في أقواله وأفعاله بين الخوف والرجاء موف بما عاهد عليه الله تعالى في البحر، وتفسيره بموف بعهده مروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ويدخل في هذا البعض على هذا المعنى عكرمة بن أبي جهل فقد روى السدي عن مصعب بن سعد عن أبيه قال: لما كان فتح مكة أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الناس أن يكفوا عن قتل أهلها إلاَّ أربعة نفر منهم قال: اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة عكرمة بن أبي جهل، وعبد الله بن خطل، وقيس بن ضبابة، وعبد الله بن أبي سرح. فأما عكرمة فركب البحر فأصابتهم ريح عاصفة فقال أهل السفينة: أخلصوا فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئاً هاهنا فقال عكرمة: لئن لم ينجني في البحر إلاَّ الإخلاص ما ينجني في البر غيره. اللهم إن لك عليّ عهداً إن أنت عافيتي مما أنا فيه أن آتي محمدًا صلى الله تعالى

عليه وسلم حتى أضع يدي في يده فلأجدنه عفواً كريماً فجاء وأسلم، وقيل: متوسط في الكفر لانزجاره بما شاهده بعض الانزجار.

وقيل: متوسط في الإخلاص الذي كان عليه في البحر فإن الإخلاص الحادث عند الخوف قلما يبقى لأحد عند زوال الخوف. وأياً ما كان فالظاهر أن المقابل لقسم المقتصد محذوف دل عليه قوله تعالى:

﴿**وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّار**﴾ والآية دليل ابن مالك ومن وافقه على جواز دخول الفاء في جواب لما ومن لم يجوز قال: الجواب محذوف أي فلما نجاهم إلى البر انقسموا قسمين فمنهم مقتصد ومنهم جاهد، والختار من الختر وهو أشد الغدر ومنه قولهم: إنك لا تمد لنا شبراً من غدر إلاَّ مددنا لك باعاً من غدر، وبنحو ذلك فسره ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لابن الأزرق وأنشد قول الشاعر:

لقد علمت واستيقنت ذات نفسها ... بأن لا تخاف الدهر صرمي ولا ختري

ونحوه قول عمرو بن معد يكرب:

وإنك لو رأيت أبا عمير ... ملأت يديك من غدر وختر

وفي مفردات الراغب الختر غدر يختر فيه الإنسان أي يضعف ويكسر لاجتهاده فيه أي وما يجحد بآياتنا ويكفر بها إلاَّ كل غدار أشد الغدر لأن كفره نقض للعهد الفطري، وقيل: لأنه نقض لما عاهد الله تعالى عليه في البحر من الإخلاص له عزَّ وجلَّ ﴿**كَفُور**﴾ مبالغ في كفران نعم الله تعالى، و ﴿**ختار**﴾ مقابل لصبار لأن من غدر لم يصبر على العهد وكفور مقابل لشكور ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوماً لا يَجْزِي وَالِدٌ عن وَلَده**﴾ أمر بالتقوى على سبيل الموعظة والتذكير بيوم عظيم بعد ذكر دلائل الوحدانية، ويجزى من جزى بمعنى قضى ومنه قيل للمتقاضي المتجازي أن لا يقضي والد عن ولده شيئاً.

وقرأ أبو السمال، وعامر بن عبد الله، وأبو السوار «لا يُجْزِىء» بضم الياء وكسر الزاي مهموزاً ومعناه لا يغني والد عن ولده ولا يفيده شيئاً من أجزأت عنك مجزأ فلان أي أغنيت.

وقرأ عكرمة «يُجْزِي» بضم الياء وفتح الزاي مبنياً للمفعول والجملة على القراءات صفة يوماً والراجع إلى الموصوف محذوف أي فيه فأما أن يحذف برمته وأما على التدريج بأن يحذف حرف الجر فيعدى الفعل إلى الضمير ثم يحذف منصوباً، وقوله تعالى: ﴿**وَلا مَوْلُودٌ**﴾ أما عطف على ﴿**والد**﴾ فهو فاعل ﴿**يجزي**﴾ وقوله تعالى: ﴿**هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِده شَيْئاً**﴾ في موضع الصفة له والمنفى عنه هو الجزاء في الآخرة والمثبت له الجزاء في الدنيا أو معنى هو جاز أي من شأنه الجزاء لعظيم حق الوالد أو المراد بلا يجزي لا يقبل ما هو جاز به، وأما مبتدأ والمسوغ للابتداء به مع أنه نكرة تقدم النفي، وذهل المهدوي عن ذلك فمنع صحة كونه مبتدأ وجملة ﴿**هو جاز**﴾ خبره و ﴿**شيئاً**﴾ مفعول به أو منصوب على المصدرية لأنه صفة مصدر محذوف وعلى الوجهين قيل تنازعه ﴿**يجزي**﴾ و ﴿**جاز**﴾ واختيار ما لا يفيد التأكيد في الجملة الأولى وما يفيده في الجملة الثانية لأن أكثر المسلمين وأجلتهم حين الخطاب كان آباؤهم قد ماتوا على الكفر وعلى الدين الجاهلي فلما كان غناء الكافر عن المسلم بعيداً لم يحتج نفيه إلى التأكيد، ولما كان غناء المسلم عن الكافر مما يقع في الأوهام أكد نفيه قاله الزمخشري.

وتعقبه ابن المنير بأنه يتوقف صحته على أن هذا الخطاب كان خاصاً بالموجودين حينئذ والصحيح أنه عام لهم

ولكل من ينطلق عليه اسم الناس، ورده في الكشف بأن المتقدمتين فاسدتان، أما الثانية فلما تقرّر في أصول الفقه أن ﴿يا أيها الناس﴾ يتناول الموجودين، وأما لغيرهم فبالإعلام أو بطريقه والمالكية موافقة، وأما الأولى فعلى تقدير التسليم لا شك أن أجلة المؤمنين وأكابرهم إلى انقراض الدنيا هم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه رضي الله تعالى عنهم ومعلوم أن أكثرهم قبض آباؤهم على الكفر فمن أين التوقيف ا هـ.

واختار ابن المنير في وجه ذلك أن الله تعالى لما أكد الوصية بالآباء وقرن وجوب شكرهم بوجوب شكره عزَّ وجلَّ وأوجب على الولد أن يكفي والده ما يسوء بحسب نهاية إمكانه قطع سبحانه هاهنا وهم الوالد في أن يكون الولد في القيامة يجزيه حقه عليه ويكفيه ما يلقاه من أهوال يوم القيامة كما أوجب الله تعالى عليه في الدنيا ذلك في حقه فلما كان جزاء الولد عن الوالد مظنة الوقوع لأنه سبحانه حض عليه في الدنيا كان جديراً بتأكيد النفي لإزالة هذا الوهم ولا كذلك العكس وقريب منه ما قاله الإمام: إن الولد من شأنه أن يكون جازياً عن والده لما عليه من الحقوق والولد يجزي لما فيه من النفقة وليس ذلك بواجب عليه فلذا قال سبحانه في الولد: ﴿لا يجزي﴾ وفي الولد ﴿ولا مولود هو جاز عن والده﴾ ألا ترى أنه يقال لمن يحيك وليست الحياكة صنعته هو يحيك ولمن يحيك وهي صنعته هو حائك، وقيل: إن التأكيد في الجملة الثانية الدلالة على أن المولود أولى بأن لا يجزي لأنه دون الوالد في الحنو والشفقة فلما كان أولى بهذا الحكم استحق التأكيد وفي القلب منه شيء، وقد يقال: إن العرب كانوا يدخرون الأولاد لنفعهم ودفع الأذى عنهم وكفاية ما يهمهم ولعل أكثر الناس كذلك فأريد حسم توهم نفعهم ودفعهم الأذى، وكفاية المهم في حق آبائهم يوم القيامة فأكدت الجملة المفيدة لنفي ذلك عنهم وعد من جملة المؤكدات التعبير بالمولود لأنه من ولد بغير واسطة بخلاف الولد فإنه عام يشمل ولد الولد فإذا أفادت الجملة أن الولد الأدنى لا يجزي عن والده علم أن من عداه من ولد لا يجزي عن جده من باب أولى.

واعترض بأن هذه التفرقة بين الولد والمولود لم يثبتها أهل اللغة، ورد بأن الزمخشري، والمطرزي ذكرا ذلك وكفى بهما حجة، ثم إن في عموم الولد لولد الولد أيضاً مقالاً فقد ذهب جمع أنه خاص بالولد الصلبي حقيقة.

وقال صاحب المغرب يقال للصغير مولود وإن كان الكبير مولوداً أيضاً لقرب عهده من الولادة كما يقال لبن حليب ورطب جني للطري منهما، ووجه أمر التأكيد عليه بأنه إذا كان الصغير لا يجزي حينئذ مع عدم اشتغاله بنفسه لعدم تكليفه في الدنيا فالكبير المشغول بنفسه من باب أولى وهو كما ترى، وخصص بعضهم العموم بغير صبيان المسلمين لثبوت الأحاديث بشفاعتهم لوالديهم.

وتعقب بأن الشفاعة ليست بقضاء ولو سلم فلتوقفها على القبول يكون القضاء منه عزَّ وجلَّ حقيقة فتدبر.

﴿إنَّ وَعْدَ الله﴾ قيل بالثواب والعقاب على تغليب الوعد على الوعيد أو هو بمعناه اللغوي ﴿حَقٌّ﴾ ثابت متحقق لا يخلف وعدم إخلاف الوعد بالثواب مما لا كلام فيه وأما عدم إخلاف الوعد بالعقاب ففيه كلام والحق أنه لا يخلف أيضاً، وعدم تعذيب من يغفر له من العصاة المتوعدين فليس من إخلاف الوعيد في شيء لما أن الوعيد في حقهم كان معلقاً بشرط لم يذكر ترهيباً وتخويفاً، والجملة على هذا تعليل لنفي الجزاء، وقيل: المراد أن وعد الله بذلك اليوم حق، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً كأنه لما قيل: يا أيها الناس اتقوا يوماً[1] إلخ سأل سائل أن يكون ذلك اليوم؟ فقيل: إن وعد الله حق أي نعم يكون لا محالة لمكان الوعد به فهو جواب على أبلغ وجه، وإليه يشير كلام

---

(١) قوله «اتقوا يوماً» الخ هكذا بخطه والتلاوة تقدمت اتقوا ربكم واخشوا يوماً.

الإمام ﴿فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ بأن تلهيكم بلذاتها عن الطاعات ﴿وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الغَرُورُ﴾ أي الشيطان كما روي عن ابن عباس، وعكرمة، وقتادة، ومجاهد والضحاك بأن يحملكم على المعاصي بتزيينها لكم ويرجيكم التوبة والمغفرة منه تعالى أو يذكر لكم أنها لا تضر من سبق في علم الله تعالى موته على الإيمان وأن تركها لا ينفع من سبق في العلم موته على الكفر، وعن أبي عبيدة كل شيء غرك حتى تعصي الله تعالى وتترك ما أمرك سبحانه به فهو غرور شيطاناً أو غيره، وإلى ذلك ذهب الراغب قال: الغرور كل ما يغر الإنسان من مال وجاه وشهوة وشيطان.

وقد فسر بالشيطان إذ هو أخبث الغارين وبالدنيا لما قيل: الدنيا تغر وتضر وتمر، وأصل الغرور من غر فلاناً إذا أصاب غرته أي غفلته ونال منه ما يريد والمراد به الخداع، والظاهر أن ﴿بالله﴾ صلة ﴿يغرنكم﴾ أي لا يخدعنكم بذكر شيء من شؤونه تعالى يجسركم على معاصيه سبحانه.

وجوز أن يكون قسماً وفيه بعد، وقرأ ابن أبي إسحاق، وابن أبي عبلة، ويعقوب، «تغرنكم» بالنون الخفيفة، وقرأ سمال بن حرب، وأبو حيوة «الغُرور» بضم الغين وهو مصدر والكلام من باب جد جده، ويمكن تفسيره بالشيطان يجعله نفس الغرور مبالغة ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ إلخ، أخرج ابن المنذر عن عكرمة أن رجلاً يقال له الوارث بن عمرو جاء إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقال: يا محمد متى قيام الساعة؟ وقد أجدبت بلادنا فمتى تخصب؟ وقد تركت امرأتي حبلى فما تلد؟ وقد علمت ما كسبت اليوم فماذا أكسب غداً؟ وقد علمت بأي أرض ولدت فبأي أرض أموت، فنزلت هذه الآية، وذكر نحوه محيي السنة البغوي، والواحدي، والثعلبي فهو نظراً إلى سبب النزول جواب لسؤال محقق ونظراً إلى ما قبلها من الآي جواب لسؤال مقدر كأن قائلاً يقول: متى هذا اليوم الذي ذكر من شأنه ما ذكر؟ فقيل إن الله، ولم يقل إن علم الساعة عند الله مع أنه أخصر لأن اسم الله سبحانه أحق بالتقديم ولأن تقديمه وبناء الخبر عليه يفيد الحصر كما قرّره الطيبي مع ما فيه من مزية تكرر الإسناد، وتقديم الظرف يفيد الاختصاص أيضاً بل لفظ عند كذلك لأنها تفيد حفظه بحيث لا يوصل إليه فيفيد الكلام من أوجه اختصاص علم وقت القيامة بالله عزَّ وجلَّ، وقوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ أي في إبانه من غير تقديم ولا تأخير في بلد لا يتجاوزه به وبمقدار تقتضيه الحكمة، الظاهر أنه عطف على الجملة الظرفية المبنية على الاسم الجليل على عكس قوله تعالى: ﴿ونسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع﴾ [المؤمنون: ٢١] فيكون خبراً مبنياً على الاسم الجليل مثل المعطوف عليه فيفيد الكلام الاختصاص أيضاً والمقصود تقييدات التنزيل الراجعة إلى العلم لا محض القدرة على التنزيل إذ لا شبهة فيه فيرجع الاختصاص إلى العلم بزمانه ومكانه ومقداره كما يشير إلى ذلك كلام الكشف، وقال العلامة الطيبي في شرح الكشاف: دلالة هذه الجملة على علم الغيب من حيث دلالة المقدور المحكم المتقن على العلم الشامل؛ وقوله تعالى ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ﴾ أي أذكر أم أنثى أتام أم ناقص وكذلك ما سوى ذلك من الأحوال عطف على الجملة الظرفية أيضاً نظير ما قبله، وخولف بين ﴿عنده علم الساعة﴾ وبين هذا ليدل في الأول على مزيد الاختصاص اعتناء بأمر الساعة ودلالة على شدة خفائها، وفي هذا على استمرار تجدد التعلقات بحسب تجدد المتعلقات مع الاختصاص، ولم يراع هذا الأسلوب فيما قبله بأن يقال: ويعلم الغيث مثلاً إشارة بإسناد التنزيل الى الاسم الجليل صريحاً إلى عظم شأنه لما فيه من كثرة المنافع لأجناس الخلائق وشيوع الاستدلال بما يترتب عليه من إحياء الأرض على صحة البعث المشار إليه بالساعة في الكتاب العظيم قال تعالى: ﴿وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى﴾ [الروم: ٤٩، ٥٠] وقال سبحانه: ﴿ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون﴾ [الروم: ١٩] إلى غير ذلك، وربما يقال: إن لتنزيل الغيث وإن لم يكن الغيث

المعهود دخلاً في المبعث بناء على ما ورد من حديث مطر السماء بعد النفخة الأولى مطراً كمني الرجال، وقيل: الاختصاص راجع إلى التنزيل وما ترجع إليه تقييداته التي يقتضيها المقام من العلم، وفي ذلك ردّ على القائلين مطرنا بنوء كذا وللاعتناء برد ذلك لما فيه من الشرك في الربوبية عدل عن يعلم إلى ﴿**ينزل**﴾ وهو كما ترى، وقوله تعالى: ﴿**وَمَا تَدْري نَفْسٌ**﴾ أي كل نفس برة كانت أو فاجرة كما يدل عليه وقوع النكرة في سياق النفي ﴿**مَاذَا تَكْسِبُ غَداً**﴾ أي في الزمان المستقبل من خير أو شر، وقوله سبحانه: ﴿**وَمَا تَدْري نَفسٌ بأَيِّ أَرْض تَمُوتُ**﴾ عطف على ما استظهره صاحب الكشف على قوله تعالى ﴿**إن الله عنده علم الساعة**﴾ وأشار إلى أنه لما كان الكلام مسوقاً للاختصاص لا لإفادة أصل العلم له تعالى فإنه غير منكر لزم من النفي على سبيل الاستغراق اختصاصه به عزَّ وجلَّ على سبيل الكناية على الوجه الأبلغ، وفي العدول عن لفظ العلم إلى لفظ الدراية لما فيها من معنى الختل والحيلة لأن أصل دري رمي الدرية وهي الحلقة التي يقصد رميها الرماة وما يتعلم عليه الطعن والناقة التي يسببها الصائد ليأنس بها الصيد فيستتر من ورائها فيرميه وفي كل حيلة، ولكونها علماً بضرب من الختل والخيلة لا تنسب إليه عزَّ وجلَّ إلاَّ إذا أولت بمطلق العلم كما في خبر خمس «لا يدريهن إلا الله تعالى» وقيل: قد يقال الممنوع نسبتها إليه سبحانه بانفراده تعالى أما مع غيره تبارك اسمه تغليباً فلا، ويفهم من كلام بعضهم صحة النسبة إليه جلَّ وعلا على سبيل المشاكلة كما في قوله:

لا هـــم لا أدري وأنـــت الـــداري.

فلا حاجة إلى ما قيل: إنه كلام أعرابي جلف لا يعرف ما يجوز إطلاقه على الله تعالى وما يمتنع فيكون المعنى لا تعرف كل نفس وإن أعملت حيلها ما يلصق بها ويختص ولا يتخطاها ولا شيء أخص بالإنسان من كسبه وعاقبته فإذا لم يكن له طريق إلى معرفتهما كان من معرفة ما عداهما أبعد وأبعد، وقد روعي في هذا الأسلوب الإدماج المذكور ولذا لم يقل: ويعمل ماذا تكسب كل نفس ويعلم أن كل نفس بأي أرض تموت، وجوز أن يكون أصل ﴿**وينزل الغيث**﴾ وأن ينزل الغيث فحذف أن وارتفع الفعل كما في قوله: * أيهذا الزاجري أحضر الوغى * وكذا قوله سبحانه: ﴿**ويعلم ما في الأرحام**﴾ والعطف على ﴿**علم الساعة**﴾ فكأنه قيل: إن الله عنده علم الساعة وتنزيل الغيث وعلم ما في الأرحام، ودلالة ذلك على اختصاص علم تنزيل الغيث به سبحانه ظاهر لظهور أن المراد بعنده تنزيل الغيث عنده علم تنزيله، وإذا عطف ﴿**ينزل**﴾ على ﴿**الساعة**﴾ كان الاختصاص أظهر لانسحاب علم المضاف إلى الساعة الى الإنزال حينئذ فكأنه قيل: إن الله عنده علم الساعة وعلم تنزيل الغيث، وهذا العطف لا يكاد يتسنى في ﴿**ويعلم**﴾ إذ يكون التقدير وعنده علم علم ما في الأرحام وليس ذاك بمراد أصلاً.

وجعل الطيبي ﴿**وما تدري نفس**﴾ إلخ معطوفاً على خبر إن من حيث المعنى بأن يجعل المنفى مثبتاً بأن يقال: ويعلم ماذا تكسب كل نفس غداً ويعلم أن كل نفس بأي أرض تموت وقال: إن مثل ذلك جائز في الكلام إذا روعي نكتة كما في قوله تعالى: ﴿أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً﴾ [الأنعام: ١٥١] فإن العطف فيه باعتبار رجوع التحريم إلى ضد الإحسان وهي الإساءة، وذكر في بيان نكتة العدول عن المثبت إلى المنفي نحو ما ذكرنا آنفاً. وتعقب ذلك صاحب الكشف بأن عنه مندوحة أي بما ذكر من عطفه على جملة ﴿**إن الله عنده علم الساعة**﴾ وقال الإمام: في وجه نظم الجمل الحق أنه تعالى لما قال: ﴿**واخشوا يوماً**﴾ الخ وذكر سبحانه أنه كائن بقوله عزَّ جلَّ قائلاً: ﴿**إن وعد الله حق**﴾ فكأن قائلاً يقول: فمتى هذا اليوم؟ فأجيب بأن هذا العلم مما لم يحصل لغيره تعالى وذلك قوله سبحانه: ﴿**إن الله عنده علم الساعة**﴾ ثم ذكر جلَّ وعلا الدليلين اللذين ذكرا مراراً على البعث. أحدهما إحياء الأرض بعد موتها المشار إليه بقوله تعالى: ﴿**وينزل الغيث**﴾ والثاني الخلق ابتداء المشار

إليه بقوله سبحانه: ﴿ويعلم ما في الأرحام﴾ فكأنه قال عزَّ وجلَّ: يا أيها السائل إنك لا تعلم وقتها ولكنها كائنة والله تعالى قادر عليها كما هو سبحانه قادر على إحياء الأرض وعلى الخلق في الأرحام ثم بعد جلَّ شأنه له أن يعلم ذلك بقوله عزَّ جلَّ وما تدري الخ فكأنه قال تعالى: يا أيها السائل إنك تسأل عن الساعة أيان مرساها وإن من الأشياء ما هو أهم منها لا تعلم معاشك ومعادك فما تعلم ماذا تكسب غداً مع أنه فعلك وزمانك ولا تعلم أين تموت مع أنه شغلك ومكانك فكيف تعلم قيام الساعة متى يكون والله تعالى ما علمك كسب غدك ولا علمك أين تموت مع أن لك في ذلك فوائد شتى وإنما لم يعلمك لكي تكون في كل وقت بسبب الرزق راجعاً متوكلاً عليه سبحانه ولكيلا تأمن الموت إذا كنت في غير الأرض التي أعلمك سبحانه أنك تموت فيها فإذا لم يعلمك ما تحتاج إليه كيف يعلمك ما لا حاجة لك إليه وهو وقت القيامة وإنما الحاجة إلى العلم بأنها تكون وقد أعلمك جلَّ وعلا بذلك على ألسنة أنبيائه تعالى عليهم الصلاة والسلام انتهى، ولا يخفى أن الظاهر على ما ذكره أن يقال: وبخلق ما في الأرحام كما قال سبحانه: ﴿وينزل الغيث﴾ ووجه العدول عن ذلك إلى ما في النظم الجليل غير ظاهر على أن كلامه بعد لا يخلو عن شيء، وكون المراد اختصاص علم هذه الخمس به عزَّ وجلَّ هو الذي تدل عليه الأحاديث والآثار، فقد أخرج الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة من حديث طويل «أنه صلى الله تعالى عليه وسلم سئل متى الساعة؟ فقال للسائل: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل وسأخبرك عن أشراطها إذا ولدت الأمة ربها وإذا تطاول رعاة الإبل إليهم في البنيان في خمس لا يعلمهن إلا الله تعالى ثم تلا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث﴾ الآية» أي إلى آخر السورة كما في بعض الروايات، وما وقع عند البخاري في التفسير من قوله: إلى الأرحام تقصير من بعض الرواة، وأخرجها أيضاً هما وغيرهما عن ابن قال: عمر قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «مفتاح ـ وفي رواية مفاتح ـ الغيب خمس لا يعلمها إلا الله تعالى لا يعلم أحد ما يكون في غد ولا يعلم أحد ما يكون في الأرحام ولا تعلم نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت وما يدري أحد متى يجيء المطر».

وأخرج أحمد، والبزار، وابن مردويه، والروياني، والضياء بسند صحيح عن بريدة قال «سمعت رسول الله ﷺ يقول: خمس لا يعلمهن إلاَّ الله إن الله عنده علم الساعة الآية» وظاهر هذه الأخبار يقتضي أن ما عدا هذه الخمس من المغيبات قد يعلمه غيره عزَّ وجلَّ وإليه ذهب من ذهب. أخرج حميد بن زنجويه عن بعض الصحابة رضي الله تعالى عنهم أنه ذكر العلم بوقت الكسوف قبل الظهور فأنكر عليه فقال: إنما الغيب خمس وتلا هذه الآية وما عدا ذلك غيب يعلمه قوم ويجهله قوم، وفي بعض الأخبار ما يدل على أن علم هذه الخمس لم يؤت للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ويلزمه أنه لم يؤت لغيره عليه الصلاة والسلام من باب أولى.

أخرج أحمد، والطبراني، عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن النبي ﷺ قال: «أوتيت مفاتيح كل شيء إلاَّ الخمس ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾» الآية وأخرج أحمد، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه عن ابن مسعود قال: أوتي نبيكم ﷺ مفاتيح كل شيء غير الخمس ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾ الآية.

وأخرج ابن مردويه عن علي كرم الله تعالى وجهه قال: لم يغم على نبيكم ﷺ إلاَّ الخمس من سرائر الغيب هذه الآية في آخر لقمان إن الله عنده علم الساعة إلى آخر السورة، وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد، والبخاري في الأدب عن ربعي بن حراش قال: حدثني رجل من بني عامر أنه قال: يا رسول الله هل بقي من العلم شيء لا تعلمه؟ فقال عليه الصلاة والسلام: لقد علمني الله تعالى خيراً وإن من العلم ما لا يعلمه إلا الله تعالى الخمس إن الله عنده علم الساعة الآية، وصرح بعضهم باستئثار الله تعالى بهن، أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن قتادة أنه قال في الآية: خمس

من الغيب استأثر الله تعالى بهن فلم يطلع عليهن ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلاً إن الله عنده علم الساعة ولا يدري أحد من الناس متى تقوم الساعة في أي سنة ولا في أي شهر أليلاً أم نهاراً وينزل الغيث فلا يعلم أحد متى ينزل الغيث أليلاً أم نهاراً ويعمل ما في الأحلام فلا يعلم أحد ما في الأرحام أذكراً أم أنثى أحمر أو أسود ولا تدري نفس ماذا تكسب غداً أخيراً أم شراً وما تدري بأي أرض تموت ليس أحد من الناس يدري أين مضجعه من الأرض أفي بحر أم في بر في سهل أم في جبل، والذي ينبغي أن يعلم أن كل غيب لا يعلمه إلا الله عزَّ وجلَّ وليس المغيبات محصورة بهذه الخمس وإنما خصت بالذكر لوقوع السؤال عنها أو لأنها كثيراً ما تشتاق النفوس إلى العلم بها، وقال القسطلاني: ذكر ﷺ خمساً وإن كان الغيب لا يتناهى لأن العدد لا ينفي زائداً عليه ولأن هذه الخمسة هي التي كانوا يدعون علمها انتهى، وفي التعليل الأخير نظر لا يخفى وأنه يجوز أن يطلع الله تعالى بعض أصفيائه على إحدى هذه الخمس ويرزقه عزَّ وجلَّ العلم بذلك في الجملة وعلمها الخاص به جلَّ وعلا ما كان على وجه الإحاطة والشمول لأحوال كل منها وتفصيله على الوجه الأتم، وفي شرح المناوي الكبير للجامع الصغير في الكلام على حديث بريدة السابق خمس لا يعلمهن إلا الله على وجه الإحاطة والشمول كلياً وجزئياً فلا ينافيه اطلاع الله تعالى بعض خواصه على بعض المغيبات من هذه الخمس لأنها جزئيات معدودة، وإنكار المعتزلة لذلك مكابرة انتهى، ويعلم مما ذكرنا وجه الجمع بين الأخبار الدالة على استئثار الله تعالى بعلم ذلك وبين ما يدل على خلافه كبعض إخباراته عليه الصلاة والسلام بالمغيبات التي هي من هذا القبيل يعلم ذلك من راجع نحو الشفاء والمواهب اللدنية مما ذكر فيه معجزاته ﷺ وأخباره عليه الصلاة والسلام بالمغيبات، وذكر القسطلاني أنه عزَّ جلَّ إذا أمر بالغيث وسوقه إلى ما شاء من الأماكن علمته الملائكة الموكلون به ومن شاء سبحانه من خلقه عزَّ وجلَّ، وكذا إذا أراد تبارك تعالى خلق شخص في رحم يعلم سبحانه الملك الموكل بالرحم بما يريد جلَّ وعلا كما يدل عليه ما أخرجه البخاري عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى وكل بالرحم ملكاً يقول: يا رب نطفة يا رب علقة يا رب مضغة فإذا أراد الله تعالى أن يقضي خلقه قال: أذكر أم أنثى شقي أم سعيد فما الرزق والأجل؟ فيكتب في بطن أمه فحينئذ يعلم بذلك الملك ومن شاء الله تعالى من خلقه عزَّ وجلَّ» وهذا لا ينافي الاختصاص والاستئثار بعلم المذكورات بناء على ما سمعت منا من أن المراد بالعلم الذي استأثر سبحانه به العلم الكامل بأحوال كل على التفصيل فما يعلم به الملك ويطلع عليه بعض الخواص يجوز أن يكون دون ذلك العلم بل هو كذلك في الواقع بلا شبيهة، وقد يقال فيما يحصل للأولياء من العلم بشيء مما ذكر إنه ليس بعلم يقيني قال: علي القارىء في شرح الشفا: الأولياء وإن كان قد ينكشف لهم بعض الأشياء لكن علمهم لا يكون يقينياً وإلهامهم لا يفيد إلا أمراً ظنياً ومثل هذا عندي بل هو دونه بمراحل علم النجومي ونحوه بواسطة أمارات عنده بنزول الغيث وذكورة الحمل أو أنوثته أو نحو ذلك ولا أرى كفر من يدعي مثل هذا العلم فإنه ظن عن أمر عادي، وقد نقل العسقلاني في فتح الباري عن القرطبي أنه قال: من ادعى علم شيء من الخمس غير مسندة إلى رسول الله ﷺ كان كاذباً في دعواه وأما ظن الغيب فقد يجوز من المنجم وغيره إذا كان عن أمر عادي وليس ذلك بعلم، وعليه فقول القسطلاني من ادعى علم شيء منها فقد كفر بالقرآن العظيم ينبغي أن يحمل العلم فيه على نحو العلم الذي استأثر الله تعالى به دون مطلق العلم الشامل للظن وما يشبهه، وبعد هذا كله أن أمر الساعة أخفى الأمور المذكورة وأن ما أطلع الله تعالى عليه نبيه ﷺ من وقت قيامها في غاية الإجمال وإن كان أتم من علم غيره من البشر ﷺ * وقوله عليه الصلاة والسلام: «بعثت أنا والساعة كهاتين» لا يدل على أكثر من العلم الإجمالي بوقتها ولا أظن أن خواص الملائكة عليهم السلام أعلم منه صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك، ويؤيد ظني ما رواه الحميدي في نوادره بالسند عن الشعبي قال: سأل عيسى ابن مريم جبريل عليهما السلام عن الساعة فانتفض بأجنحته، وقال: ما المسؤول بأعلم من السائل،

والمراد التساوي في العلم بأن الله تعالى استأثر بعلمها على الوجه الأكمل ويرشد إلى العلم الإجمالي بها ذكر أشراطها كما لا يخفى، ويجوز أن يكون الله تعالى أطلع حبيبه عليه الصلاة والسلام على وقت قيامها على وجه كامل لكن لا على وجه يحاكي علمه تعالى به إلاَّ أنه سبحانه أوجب عليه صلى الله تعالى عليه وسلم كتمه لحكمة ويكون ذلك من خواصه عليه الصلاة والسلام، وليس عندي ما يفيد الجزم بذلك، هذا وخص سبحانه المكان في قوله تعالى: ﴿**وما تدري نفس بأي أرض تموت**﴾ ليعرف الزمان من باب أولى فإن الأول في وسع النفس في الجملة بخلاف الثاني، وأخرج أحمد وجماعة عن أبي غرة الهذلي قال: «قال رسول الله ﷺ: إذا أراد الله تعالى قبض عبد بأرض جعل له إليها حاجة فلم ينته حتى يقدمها ثم قرأ عليه الصلاة والسلام وما تدري نفس بأي أرض تموت» وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن خيثمة أن ملك الموت مرَّ على سليمان عليه السلام فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه فقال الرجل: من هذا؟ قال: ملك الموت فقال: كأنه يريدني فمر الريح أن تحملني وتلقيني بالهند ففعل فقال الملك: كان دوام نظري إليه تعجباً منه إذ أمرت أن أقبض روحه بالهند وهو عندك.

و ﴿**تدري**﴾ في الموضعين معلقة فالجملة من قوله تعالى: ﴿**ماذا تكسب**﴾ في موضع المفعول، ويجوز أن تكون ﴿**ماذا**﴾ كلها موصولاً منصوب المحل بتدري كأنه قيل: وما تدري نفس الشيء الذي تكسبه غداً و ﴿**بأي**﴾ متعلق بتموت والباء ظرفية، والجملة في موضع نصب بتدري.

وقرأ غير واحد من السبعة «يُنْزِلُ» من الإنزال، وقرأ موسى الأسواري، وابن أبي عبلة «بأية أرض» بتاء التأنيث لإضافتها إلى المؤنث وهي لغة قليلة فيها كما أن كلا إذا أضيفت إلى مؤنث قد تؤنث نادراً فيقال: كلتهن فعلن ذلك فليعلم والله عزَّ جلَّ أعلم ﴿**إنَّ اللهَ عَليمٌ**﴾ مبالغ في العلم فلا يعزب عن علمه سبحانه شيء من الأشياء ﴿**خَبيرٌ**﴾ يعلم بوطنها كما يعلم ظواهرها فالجمع بين الوصفين للإشارة الى التسوية بين علم الظاهر والباطن عنده عزَّ وجلَّ والجملة على ما قيل في موضع التعليل لعلمه سبحانه بما ذكر، وقيل: جواب سؤال نشأ من نفي دراية الأنفس ماذا تكسب غداً وبأي أرض تموت كأنه قيل: فمن يعلم ذلك فقيل: إن الله عليم خبير وهو جواب بأن الله تعالى يعلم ذلك وزيادة، ولا يخفى أنه إذا كانت هذه الجملة من تتمة الجملتين اللتين قبلها كانت دلالة الكلام على انحصار العلم بالأمرين اللذين نفي العلم بهما عن كل نفس ظاهرة جداً فتأمل ذاك والله عزَّ وجلَّ يتولى هداك

ومن باب الإشارة في السورة الكريمة ﴿ الم ﴾ إشارة إلى آلائه تعالى ولطفه جلَّ شأنه ومجده عزَّ وجلَّ ﴿**الذين يقيمون الصلاة**﴾ بحضور القلب والإعراض عن السوي وهي صلاة خواص الخواص، وأما صلاة الخواص فبنفي الخطرات الردية والإرادات الدنيوية ولا ضر فيها طلب الجنة ونحوه، وأما صلاة العوام فما يفعله أكثر الناس ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ﴿**ويؤتون الزكاة**﴾ ببذل الوجود للملك المعبود لنيل المقصود وهي زكاة الأخص، وزكاة الخاصة ببذل المال كله لتصفية قلوبهم عن صدأ محبة الدنيا، وزكاة العامة ببذل القدر المعروف من المال المعلوم على الوجه المشروع المشهور لتزكية نفوسهم عن نجاسة البخل ﴿**ومن الناس من يشتري لهو الحديث**﴾ هو ما يشغل عن الله تعالى ذكره ويحجب عنه عزَّ وجلَّ استماعه، وأما الغناء فهو عند كثير منهم أقسام منها ما هو من لهو الحديث، ونقل بعضهم عن الجنيد قدّس سره أنه قال: السماع على أهل النفوس حرام لبقاء نفوسهم وعلى أهل القلوب مباح لوفور علومهم وصفاء قلوبهم وعلى أصحابنا واجب لفناء حظوظهم، وعن أبي بكر الكناني سماع العوام على متابعة الطبع وسماع المريدين رغبة ورهبة وسماع الأولياء رؤية الآلاء والنعم وسماع العارفين على المشاهدة وسماع أهل الحقيقة على الكشف والعيان ولكل من هؤلاء مصدر ومقام، وذكروا أن من القوم من يسمع في الله ولله

وبالله ومن الله جلَّ وعلا ولا يسمع بالسمع الإنساني بل يسمع بالسمع الرباني كما في الحديث القدسي «كنت سمعه الذي يسمع به» وقالوا: إنما حرم اللهو لكونه لهواً فمن لا يكون لهواً بالنسبة إليه لا يحرم عليه إذ علة لحرمة في حقه منتفية والحكم يدور مع العلة وجوداً وعدماً، ويلزمهم القول بحل شرب المسكر لمن لا يسكره لاسيما لمن يزيده نشاطاً للعبادة مع ذلك، ومن زنادقة القلندرية من يقول بحل الخمر والحشيشة ونحوها من المسكرات المحرمة بلا خلاف زاعمين أن استعمال ذلك يفتح عليهم أبواب الكشوف، وبعض الجهلة الذين لعب بهم الشيطان يطلبون منهم المدد في ذلك الحال قاتلهم الله تعالى أنى يؤفكون ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة﴾ قيل: هي إدراك خطاب الحق بوصف الإلهام، وذكروا أن الحكمة موهبة الأولياء كما أن الوحي موهبة الأنبياء عليهم السلام فكل ليس بكسبي إلا أن للكسب مدخلاً ما في الحكمة، فقد ورد «من أخلص لله تعالى أربعين صباحاً تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه» والحكمة التي يزعم الفلاسفة أنها حكمة ليست بحكمة إذ هي من نتائج الفكر ويؤتاها المؤمن والكافر وقلما تسلم من شوائب آفات الوهم، ولهذا وقع الاختلاف العظيم بين أهلها وعدها بعض الصوفية من لهو الحديث ولم يبعد في ذلك عن الصواب، وأشارت قصة لقمان إلى التوحيد ومقام جمع الجمع وعين الجمع واتباع سبيل الكاملين والإعراض عن السوي وتكميل الغير والصبر على الشدائد والتواضع للناس وحسن المماشاة والمعاملة والسيرة وترك التماوت في المشي وترك رفع الصوت، وقيل: ﴿الحمير﴾ في قوله تعالى: ﴿إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾ هم الصوفية الذين يتكلمون بلسان المعرفة قبل أن يؤذن لهم، وطبق بعضهم جميع ما في القصة على ما في الأنفس ﴿وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة﴾ قال الجنيد: النعم الظاهرة حسن الأخلاق والنعم الباطنة أنواع المعارف، وقيل: على قراءة النعمة الظاهرة اتباع ظاهر العلم والباطنة طلب الحقيقة في الاتباع، وقيل: النعمة الظاهرة بلا زلة والباطنة قلب بلا غفلة.

﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾ يشير الى أهل الجدل من الفلاسفة فإنهم يجادلون في ذات الله تعالى وصفاته عزَّ وجلَّ كذلك عند التحقيق لأنهم لا يعتبرون كلام الرسل عليهم الصلاة والسلام ولا الكتب المنزلة من السماء وأكثر علومهم مشوب بآفة الوهم ومع هذا فشؤون الله جلَّ وعلا طور ما وراء طور العقل:

هيهات أن تصطاد عنقاء البقا ... بلعابهن عناكب الأفكار

وأبعد من محدب الفلك التاسع حصول علم بالله عزَّ وجلَّ وبصفاته جل شأنه يعتد به بدون نور إلهي يستضيء العقل به وعقولهم في ظلمات بعضها فوق بعض، وقد سدت أبواب الوصول إلاَّ على متبع للرسول ﷺ قال بعضهم مخاطباً لحضرة صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام:

وأنت باب الله أي امرىء ... أتاه من غيرك لا يدخل

﴿ذلك بأن الله هو الحق﴾ إلى قوله سبحانه ﴿وأن الله هو العلي الكبير﴾ فيه إشارة الى أنه سبحانه تمام وفوق التمام، والمراد بالأول من حصل له كل ما جاز له وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿هو الحق﴾ والمراد بالثاني من حصل له ذلك وحصل لما عداه ما جاز له وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿هو العلي الكبير﴾ ووراء هذين الشيئين ناقص وهو ما ليس له ما ينبغي كالصبي والمريض والأعمى ومكتف وهو من أعطى ما تندفع به حاجته في وقته كالإنسان الذي له من الآلات ما تندفع به حاجته في وقته ولكنها في معرض التحلل والزوال ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾ الآية ذكر غير واحد حكايات عن الأولياء متضمنة لاطلاع الله تعالى إياهم على ما عدا علم الساعة من الخمس وقد علمت

الكلام في ذلك، وأغرب ما رأيت ما ذكره الشعراني عن بعضهم أنه كان يبيع المطر فيمطر على أرض من يشتري منه متى شاء، ومن له بعقل مستقيم لا يقبل مثل هذه الحكاية، وكم للقصاص أمثالها من رواية نسأل الله تعالى أن يحفظنا وإياكم من اعتقاد خرافات لا أصل لها وهو سبحانه ولي العصمة والتوفيق.

وقرأ ابن أبي عبلة «بِنِعَمات الله» بفتح النون وكسر العين جمعاً لنعمة بفتح النون وهي اسم للتنعيم، وقيل: بمعنى النعمة بالكسر ﴿لِيُرِيَكُمْ مِنْ آياته﴾أي بعض دلائل ألوهيته تعالى ووحدته سبحانه وقدرته جلَّ شأنه وعمله عزَّ وجلَّ، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ شَكُور﴾ تعليل لما قبله أي أن فيما ذكر لآيات عظيمة في ذاتها كثيرة في عددها لكل مبالغ في الصبر على بلائه سبحانه ومبالغ في الشكر على نعمائه جلَّ شأنه.

و ﴿صبار شكور﴾ كناية عن المؤمن من باب حي مستوي القامة عريض الأظفار فإنه كناية عن الإنسان لأن هاتين الصفتين عمدتا الإيمان لأنه وجميع ما يتوقف عليه إما ترك للمألوف غالباً وهو بالصبر أو فعل لما يتقرب به وهو شكر لعمومه فعل القلب والجوارح واللسان، ولذا ورد الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر، وذكر الوصفين بعد الفلك فيه أتم مناسبة لأن الراكب فيه لا يخلو عن الصير والشكر، وقيل: المراد بالصبار كثير الصبر على التعب في كسب الأدلة من الأنفس والآفاق وإلاَّ فلا اختصاص للآيات بمن تعب مطلقاً وكلا الوصفين بنيا بناء مبالغة، وفعال على ما في البحر أبلغ من فعول لزيادة حروفه، قيل: وإنما اختير زيادة المبالغة في الصبر إيماء إلى أن قليله لشدة مرارته وزيادة ثقله على نفس كثير ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ﴾ أي علاهم وغطاهم من الغشاء بمعنى الغطاء من فوق وهو المناسب هنا، وقيل: أي أي أتاهم من الغشيان بمعنى الإتيان وضمير ﴿غشيهم﴾ أن اتحد بضمير المخاطبين قبله ففي الكلام التفات من الخطاب إلى الغيبة وإلاَّ فلا التفات، والموج ما يعلو من غوارب الماء وهو اسم جنس واحدة موجة وتنكيره للتعظيم والتكثير، ولذا أفرد مع جمع المشبه به في قوله تعالى: ﴿كَالظُّلَل﴾ وهو جمع ظلة كغرفة وغرف وقربة وقرب، والمراد بها ما أظل من سحال أو جبل أو غيرهما.

وقال الراغب: الظلة السحابة تظل وأكثر ما يقال فيما يستوخم ويكره، وفسر قتادة الظل هنا بالسحاب، وبعضهم بالجبال، وقرأ محمد بن الحنفية رضي الله تعالى عنه «كالظلال» وهو جمع ظلة أيضاً كعلبة وعلاب وجفرة وجفار، وإذا ظرف لقوله تعالى: ﴿دَعَوُا﴾ أي دعوا ﴿اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ إذا غشيهم موج كالظلل وإنما فعلوا ذلك حينئذ لزوال ما ينازع الفطرة من الهوى والتقليد بما دهاهم من الخوف الشديد.

(٣٢) سُورَةُ السَّجْدَةِ مَكِّيَّةٌ
وَآيَاتُهَا ثَلَاثُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الم ، تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ﴾

لما ذكر الله تعالى فى السورة المتقدمة دليل الوحدانية وذكر الأصل وهو الحشر وختم السورة بهما بدأ ببيان الرسالة فى هذه السورة فقال (الم ، تنزيل الكتاب لا ريب فيه) وقد علم ما فى قوله (الم) وفى قوله (لا ريب فيه) من سورة البقرة وغيرها غير أن ههنا قال (من رب العالمين) وقال من قبل (هدى ورحمة للمحسنين) وقال فى البقرة (هدى للمتقين) وذلك لأن من يرى كتابا عند غيره ، فأول ما تصير النفس طالبة تطلب ما فى الكتاب فيقول ما هذا الكتاب ؟ فإذا قيل هذا فقه أو تفسير فيقول بعد ذلك تصنيف من هو؟ ولا يقال أولا : هذا الكتاب تصنيف من ؟ ثم يقول فيماذا هو ؟ إذا علم هذا فقال أولا هذا الكتاب هدى ورحمة ، ثم قال ههنا هو كتاب الله تعالى وذكره بلفظ رب العالمين لأن كتاب من يكون رب العالمين يكون فيه عجائب العالمين فتدعو النفس إلى مطالعته .

ثم قال تعالى : ﴿أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون ﴾

يعنى أتعترفون به أم تقولون هو مفترى ، ثم أجاب وبين أن الحق أنه حق من ربه ثم بين فائدة التنزيل وهو الإنذار . وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ كيف قال (لتنذر قوما ما أتاهم من نذير) مع أن النذر سبقوه (الجواب) من وجهين (أحدهما) معقول والآخر منقول . أما المنقول فهو أن قريشا كانت أمة أمية لم يأتهم نذير قبل محمد صلى الله عليه وسلم وهو بعيد . فإنهم كانوا من أولاد إبراهيم وجميع

ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾

أنبياء بنى إسرائيل من أولاد أعمامهم وكيف كان الله يترك قوما من وقت آدم إلى زمان محمد بلا دين ولا شرع؟ وإن كنت تقول بأنهم ما جاءهم رسول بخصوصهم يعنى ذلك القرن فلم يكن ذلك مختصاً بالعرب بل أهل الكتاب أيضاً لم يكن ذلك القرن قد أتاهم رسول وإنما أتى الرسل آباءهم ، وكذلك العرب أتى الرسل آباءهم كيف والذى عليه الأكثرون أن آباء محمد عليه الصلاة والسلام كانوا كفاراً ولأن النبي أوعدهم وأوعد آباءهم بالعذاب ، وقال تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وأما المعقول وهو أن الله تعالى أجرى عادته على أن أهل عصر إذا ضلوا بالكلية ولم يبق فيهم من يهديهم يلطف بعباده ويرسل رسولا ، ثم إنه إذا أراد طهرهم بإزالة الشرك والكفر من قلوبهم وإن أراد طهر وجه الأرض باهلاكهم ، ثم أهل العصر ضلوا بعد الرسل حتى لم يبق على وجه الأرض عالم هاد ينتفع بهدايته قوم وبقوا على ذلك سنين متطاولة فلم يأتهم رسول قبل محمد عليه الصلاة والسلام فقال (لتنذر قوماً ما أتاهم) أى بعد الضلال الذى كان بعد الهداية لم يأتهم نذير .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لو قال قائل التخصيص بالذكر يدل على نفى ماعداه فقوله (لتنذر قوماً ماأتاهم) يوجب أن يكون إنذاره مختصاً بمن لم يأته نذير لكن أهل الكتاب قد أتاهم نذير فلا يكون الكتاب منزلا إلى الرسول لينذر أهل الكتاب فلا يكون رسولا إليهم نقول هذا فاسد من وجوه (أحدها) أن التخصيص لايوجب نفى ماعداه (والثانى) أنه وإن قال به قائل لكنه وافق غيره فى أن التخصيص إن كان له سبب غير نفى ماعداه لايوجب نفى ماعداه ، وههنا وجد ذلك لأن إنذارهم كان أولى ، ألا ترى أنه تعالى قال (وأنذر عشيرتك الأقربين) ولم يفهم منه أنه لاينذر غيرهم أو لم يؤمر بإنذار غيرهم وإنذار المشركين كان أولى ، لأن إنذارهم كان بالتوحيد والحشر وأهل الكتاب لم ينذروا إلا بسبب إنكارهم الرسالة فكانوا أولى بالذكر فوقع التخصيص لأجل ذلك (الثالث) هو أن على ما ذكرنا لايرد ماذكره أصلا ، لأن أهل الكتاب كانوا قد ضلوا ولم يأتهم نذير من قبل محمد بعد ضلالهم فلزم أن يكون مرسلا إلى الكل على درجة سواء ، وبهذا يتبين حسن مااخترناه ، وقوله (لعلهم يهتدون) يعنى تنذرهم راجياً أنت اهتداءهم .

قوله تعالى : ﴿ الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون ﴾ .

لما ذكر الرسالة بين ماعلى الرسول من الدعاء إلى التوحيد وإقامة الدليل ، فقال (الله الذى

خلق السموات والأرض) الله مبتدأ وخبره الذى خلق يعنى الله هو الذى خلق السموات والأرض ولم يخلقهما إلا واحد فلا إله إلا واحد ، وقد ذكرنا أن قوله تعالى (فى ستة أيام) إشارة إلى ستة أحوال فى نظر الناظرين وذلك لأن السموات والأرض وما بينهما ثلاثة أشياء ولكل واحد منها ذات وصفة فنظراً إلى خلقه ذات السموات حالة ونظراً إلى خلقه صفاتها أخرى ونظراً إلى ذات الأرض وإلى صفاتها كذلك ونظرا الى ذوات مابينهما وإلى صفاتها كذلك فهى ستة أشياء على ستة أحوال . وإنما ذكر الايام لأن الإنسان إذا نظر إلى الخلق رآه فعلا والفعل ظرفه الزمان والأيام أشهر الأزمنة، وإلا فقبل السموات لم يكن ليل ولا نهار وهذا مثل مايقول القائل لغيره : إن يوماً ولدت فيه كان يوماً مباركا

وقد يجوز أن يكون ذلك قد ولد ليلا ولا يخرج عن مراده ، لأن المراد هو الزمان الذى هو ظرف ولادته .

ثم قال تعالى (ثم استوى على العرش) اعلم أن مذهب العلماء فى هذه الآية وأمثالها على وجهين (أحدهما) ترك التعرض إلى بيان المراد (وثانيهما) التعرض اليه والأول أسلم والى الحكمة أقرب ، أما أنه أسلم فذلك لأن من قال أنا لا أتعرض إلى بيان هذا ولا أعرف المراد من هذا ، لا يكون حاله إلا حال من يتكلم عند عدم وجوب الكلام أو لايعلم شيئاً لم يجب عليه أن يعلمه ،وذلك لأن الأصول ثلاثة التوحيد والقول بالحشر والاعتراف بالرسل لكن الحشر أجمعنا واتفقنا أن العلم به واجب والعلم بتفصيله أنه متى يكون غير واحب ، ولهذا قال تعالى فى آخر السورة المتقدمة (إن الله عنده علم الساعة) فكذلك الله يجب معرفة وجوده ووحدانيته واتصافه بصفات الجلال ونعوت الكمال على سبيل الإجمال وتعاليه عن وصمات الإمكان وصفات النقصان ، ولا يجب أن يعلم جميع صفاته كما هى ، وصفة الاستواء مما لايجب العلم بها فمن ترك التعرض إليه لم يترك واجباً ، وأما من يتعرض إليه فقد يخطىء فيه فيعتقد خلاف ما هو عليه فالأول غاية مايلزمه أنه لايعلم ، والثانى يكاد أن يقع فى أن يكون جاهلا مركباً وعدم العلم الجهل المركب كالسكوت والكذب ولا يشك أحد فى أن السكوت خير من الكذب ، وأما إنه أقرب إلى الحكمة فذلك لأن من يطالع كتاباً صنفه إنسان وكتب له شرحا والشارح دون المصنف فالظاهر أنه لايأتى على جميع ماأتى عليه المصنف ، ولهذا كثيراً مانرى أن الإنسان يورد الإشكالات على المصنف المتقدم ثم يجىء من ينصر كلامه ويقول لم يرد المصنف هذا وإنما أراد كذا وكذا وإذا كان حال الكتب الحادثة التى تكتب عن علم قاصر كذلك ، فما ظنك بالكتاب العزيز الذى فيه كل حكمة يجوز أن يدعى جاهل أنى علمت كل سر فى هذا الكتاب ، وكيف ولو ادعى عالم انى علمت كل سر وكل فائدة يشتمل عليه الكتاب الفلانى يستقبح منه ذلك ، فكيف من يدعى أنه علم كل ما فى كتاب الله ؟ ثم ليس لقائل أن يقول بأن الله تعالى بين كل ما أنزله لأن تأخير البيان الى

وقت الحاجة جائز ولعل فى القرآن مالا يحتاج إليه أحد غير نبيه فبين له لا لغيره ، إذا ثبت هذا علم أن فى القرآن مالا يعلم ، وهذا أقرب الى ذلك الذى لا يعلم ، للتشابه البالغ الذى فيه ، لكن هذا المذهب له شرط وهو أن ينفى بعض مايعلمه قطعاً أنه ليس بمراد ، وهذا لأن قائلا إذا قال إن هذه الأيام أيام قرء فلانة يعلم أنه لا يريد أن هذه الأيام أيام موت فلانة ولا يريد أن هذه الأيام أيام سفر فلانة ، وانما المراد منحصر فى الطهر أو الحيض فكذلك ههنا يعلم أن المراد ليس مايوجب نقصاً فى ذاته لاستحالة ذلك ، والجلوس والاستقرار المكانى من ذلك الباب فيجب القطع بنفى ذلك والتوقف فيما يجوز بعده (والمذهب الثانى) خطر ومن يذهب اليه فريقان (أحدهما) من يقول المراد ظاهره وهو القيام والانتصاب أو الاستقرار المكانى (وثانيهما) من يقول المراد الاستيلاء والأول جهل محض والثانى يجوز أن يكون جهلا والأول مع كونه جهلا هو بدعة وكاد يكون كفراً ، والثانى وان كان جهلا فليس بجهل يورث بدعة ، وهذا كما أن واحداً اذا اعتقد أن الله يرحم الكفار ولا يعاقب أحداً منهم يكون جهلا وبدعة وكفراً ، وإذا اعتقد أنه يرحم زيداً الذى هو مستور الحال لا يكون بدعة ، غاية ما يكون أنه اعتقاد غير مطابق ، ومما قيل فيه : إن المراد منه استوى على ملكه ، والعرش يعبر به عن الملك ، يقال الملك قعد على سرير المملكة بالبلدة الفلانية وإن لم يدخلها وهذا مثل قوله تعالى (وقالت اليهود يد الله مغلولة) إشارة إلى البخل ، مع أنهم لم يقولوا بأن على يد الله غلا على طريق الحقيقة ، ولو كان مراد الله ذلك لكان كذباً جل كلام الله عنه ، ثم لهذا فضل تقرير وهو أن الملوك على درجات ، فمن يملك مدينة صغيرة أو بلاداً يسيرة ما جرت العادة بأن يجلس أول ما يجلس على سرير ، ومن يكون سلطانا يملك البلاد الشاسعة والديار الواسعة وتكون الملوك فى خدمته يكون له سرير يجلس عليه ، وقدامه كرسى يجلس عليه وزيره ، فالعرش والكرسى فى العادة لا يكون إلا عند عظمة المملكة ، فلما كان ملك السموات والأرض فى غاية العظمة ، عبر بما ينبىء فى العرف عن العظمة ، ومما ينبهك لهذا قوله تعالى (إنا خلقنا ، وإنا زينا ، ونحن أقرب ، ونحن نزلنا) أيظن أو يشك مسلم فى أن المراد ظاهره من الشريك وهل يجد له محملا ، غير أن العظيم فى العرف لا يكون واحداً وإنما يكون معه غيره ، فكذلك الملك العظيم فى العرف لا يكون إلا ذا سرير يستوى عليه فاستعمل ذلك مريداً للعظمة ، ومما يؤيد هذا أن المقهور المغلوب المهزوم يقال له ضاقت به الأرض حتى لم يبق له مكان ، أيظن أنهم يريدون به أنه صار لا مكان له وكيف يتصور الجسم بلا مكان ، ولا سيما من يقول بأن إلهه فى مكان كيف يخرج الإنسان عن المكان ؟ فكما يقال للمقهور الهارب لم يبق له مكان مع أن المكان واجب له ، يقال للقادر القاهر هو متمكن وله عرش ، وإن كان التنزه عن المكان واجباً له ، وعلى هذا كلمة ثم معناها خلق السموات والأرض ، ثم القصة أنه استوى على الملك ، وهذا كما يقول القائل : فلان أكرمنى وأنعم على مراراً ، ويحكى عنه أشياء ، ثم يقول إنه ما كان يعرفنى ولا كنت فعلت معه ما يجازينى

بهذا، فنقول ثم للحكاية لا للمحكى (الوجه الآخر) قيل استوى جاء بمعنى استولى على العرش ، واستوى جاء بمعنى استولى نقلا واستعمالا . أما النقل فكثير مذكور فى كتب اللغة منها ديوان الأدب وغيره مما يعتبر النقل عنه . وأما الاستعمال فقول القائل :

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق

وعلى هذا فكلمة ثم ، معناها ما ذكرنا كأنه قال خلق السموات والأرض ، ثم ههنا ما هو أعظم منه استوى على العرش ، فانه أعظم من الكرسى والكرسى وسع السموات والأرض (والوجه الثالث) قيل إن المراد الاستقرار وهذا القول ظاهر ولا يفيد أنه فى مكان ، وذلك لأن الإنسان يقول استقر رأى فلان على الخروج ولا يشك أحد أنه لا يريد أن الرأى فى مكان وهو الخروج ، لما أن الرأى لا يجوز فيه أن يقال إنه متمكن أو هو مما يدخل فى مكان إذا علم هذا فنقول فهم التمكن عند استعمال كلمة الاستقرار مشروط بجواز التمكن ، حتى إذا قال قائل استقر زيد على الفلك أو على التخت يفهم منه التمكن وكونه فى مكان ، وإذا قال قائل استقر الملك على فلان لا يفهم أن الملك فى فلان ، فقول القائل الله استقر على العرش لا ينبغى أن يفهم كونه فى مكان ما لم يعلم أنه مما يجوز عليه أن يكون فى مكان أو لا يجوز ، فإذن فهم كونه فى مكان من هذه اللفظة مشروط بجواز أن يكون فى مكان ، فجواز كونه فى مكان إن استفيد من هذه اللفظة يلزم تقدم الشىء على نفسه وهو محال ، ثم الذى يدل على أنه لا يجوز أن يكون على العرش بمعنى كون العرش مكاناً له وجوه من القرآن (أحدها) قوله تعالى (وإن الله لهو الغنى) وهذا يقتضى أن يكون غنياً على الإطلاق ، وكل ما هو فى مكان فهو فى بقائه محتاج إلى مكان ، لأن بديهة العقل حاكمة بأن الحيز إن لم يكن لا يكون المتحيز باقياً ، فالمتحيز ينتفى عند انتفاء الحيز ، وكل ما ينتفى عند انتفاء غيره فهو محتاج إليه فى استمراره ، فالقول باستقراره يوجب احتياجه فى استمراره وهو غنى بالنص (الثانى) قوله تعالى (كل شىء هالك إلا وجهه) فالعرش يهلك وكذلك كل مكان فلا يبقى وهو يبقى ، فاذن لا يكون فى ذلك الوقت فى مكان ، فجاز عليه أن لا يكون فى مكان ، وما جاز له من الصفات وجب له فيجب أن لا يكون فى مكان (الثالث) قوله تعالى (وهو معكم) ووجه التمسك به هو أن على إذا استعمل فى المكان يفهم كونه عليه بالذات كقولنا فلان على السطح وكلمة مع إذا استعملت فى متمكنين يفهم منها اقترانهما بالذات كقولنا زيد مع عمرو إذا استعمل هذا فإن كان الله فى مكان ونحن متمكنون ، فقوله (إن الله معنا) وقوله (وهو معكم) كان ينبغى أن يكون للاقتران وليس كذلك ، فان قيل كلمة مع تستعمل لكون ميله إليه وعلمه معه أو نصرته يقال الملك الفلانى مع الملك الفلانى ، أى بالإعانة والنصر ، فنقول كلمة على تستعمل لكون حكمه على الغير ، يقول القائل لولا فلان على فلان لأشرف فى الهلاك ولأشرف على الهلاك ، وكذلك يقال لولا فلان على أملاك فلان أو على أرضه لما حصل له شىء منها ولا أكل

حاصلها بمعنى الإشراف والنظر ، فكيف لا تقول فى استوى على العرش إنه استوى عليه بحكمه كما تقول هو معنا بعلمه (الرابع) قوله تعالى (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) ولو كان فى مكان لأحاط به المكان وحينئذ فإما أن يرى وإما أن لا يرى ، لا سبيل إلى الثانى بالاتفاق لأن القول بأنه فى مكان ولا يرى باطل بالإجماع ، وإن كان يرى فيرى فى مكان أحاط به فتدركه الأبصار . وأما إذا لم يكن فى مكان فسواء يرى أو لا يرى لا يلزم أن تدركه الأبصار . أما إذا لم ير فظاهر ، وأما إذا رؤى فلأن البصر لا يحيط به فلا يدركه . وإنما قلنا إن البصر لا يحيط به لأن كل ما أحاط به البصر فله مكان يكون فيه وقد فرضنا عدم المكان ، ولو تدبر الإنسان القرآن لوجده مملوءاً من عدم جواز كونه فى مكان ، كيف وهذا الذى يتمسك به هذا القائل يدل على أنه ليس على العرش بمعنى كونه فى المكان ، وذلك لأن كلمة ثم للتراخى فلو كان عليه بمعنى المكان لكان قد حصل عليه بعد ما لم يكن عليه فقبله اما أن يكون فى مكان أو لا يكون ، فإن كان يلزم محالان (أحدهما) كون المكان أزلياً ، ثم إن هذا القائل يدعى مضادة الفلسفى فيصير فلسفياً يقول بقدم سماء من السموات (والثانى) جواز الحركة والانتقال على الله تعالى وهو يفضى إلى حدوث البارى أو يبطل دلائل حدوث الأجسام ، وإن لم يكن مكان وما حصل فى مكان يحيل العقل وجوده بلا مكان ، ولو جاز لما أمكن أن يقال بأن الجسم لو كان أزلياً ، فإما أن يكون فى الأزل ساكناً أو متحركاً لأنهما فرعا الحصول فى مكان ، وإذا كان كذلك فيلزمه القول بحدوث الله أو عدم القول بحدوث العالم ، لأنه إن سلم أنه قبل المكان لا يكون فهو القول بحدوث الله تعالى وان لم يسلم فيجوز أن يكون الجسم فى الأزل لم يكن فى مكان ثم حصل فى مكان فلا يتم دليله فى حدوث العالم ، فيلزمه أن لا يقول بحدوثه ، ثم إن هذا القائل يقول إنك تشبه الله بالمعدوم فانه ليس فى مكان ولا يعلم أنه جعله معدوماً حيث أحوجه إلى مكان ، وكل محتاج نظراً الى عدم ما يحتاج اليه معدوم ولو كتبنا ما فيها لطال الكلام .

ثم قال تعالى : ﴿ مالكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون ﴾ لما ذكر أن الله خالق السموات والارض ، قال بعضهم نحن معترفون بأن خالق السموات والأرض واحد هو إله السموات ، وهذه الأصنام صور الكواكب منها نصرتنا وقوتنا ، وقال آخرون هذه صور الملائكة عند الله هم شفعاؤنا فقال الله تعالى لا إله غير الله ، ولا نصرة من غير الله ولا شفاعة إلا باذن الله فعبادتكم لهم لهذه الأصنام باطلة ضائعة لا هم خالقوكم ولا ناصروكم ولا شفعاؤكم ، ثم قال تعالى (أفلا تتذكرون) ما علمتموه من أنه خالق السموات والأرض وخلق هذه الأجسام العظام لا يقدر عليه مثل هذه الأصنام حتى تنصركم والملك العظيم لا يكون عنده لهذه الأشياء الحقيرة احترام وعظمة حتى تكون لها شفاعة .

يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ﴾ .

لما بين الله تعالى الخلق بين الأمر كما قال تعالى (ألا له الخلق والأمر) والعظمة تتبين بهما فان من يملك مماليك كثيرين عظماء تكون له عظمة ، ثم إذا كان أمره نافذا فيهم يزداد فى أعين الخلق ، وإن لم يكن له نفاذ أمر ينقص من عظمته . وقوله تعالى (ثم يعرج إليه) معناه والله أعلم أن أمره ينزل من السماء على عباده وتعرج إليه أعمالهم الصالحة الصادرة على موافقة ذلك الأمر ، فإن العمل أثر الأمر . وقوله تعالى (فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) فيه وجوه : (أحدها) أن نزول الأمر وعروج العمل فى مسافة ألف سنة مما تعدون وهو فى يوم فان بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة فينزل فى مسيرة خمسمائة سنة ، ويعرج فى مسيرة خمسمائة سنة ، فهو مقدار ألف سنة (ثانيها) هو أن ذلك إشارة إلى امتداد نفاذ الأمر ، وذلك لأن من نفذ أمره غاية النفاذ فى يوم أو يومين وانقطع لا يكون مثل من ينفذ أمره فى سنين متطاولة فقوله تعالى (فى يوم كان مقداره ألف سنة) يعنى (يدبر الأمر) فى زمان يوم منه ألف سنة ، فكم يكون شهر منه ، وكم تكون سنة منه . وكم يكون دهر منه ، وعلى هذا الوجه لا فرق بين هذا وبين قوله مقداره خمسين ألف سنة لأن تلك إذا كانت إشارة إلى دوام نفاذ الأمر . فسواء يعبر بالألف أو بالخمسين ألفاً لا يتفاوت إلا أن المبالغة تكون فى الخمسين أكثر وبين فائدتها فى موضعها إن شاء الله تعالى (وفى هذه لطيفة) وهو أن الله ذكر فى الآية المتقدمة عالم الأجسام والخلق ، وأشار إلى عظمة الملك ، وذكر فى هذه الآية عالم الأرواح والأمر بقوله (يدبر الأمر) والروح من عالم الأمر كما قال تعالى (ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى) وأشار إلى دوامه بلفظ يوم الزمان والمراد دوام البقاء كما يقال فى العرف طال زمان فلان والزمان لا يطول ، وإنما الواقع فى الزمان يمتد فيوجد فى أزمنة كثيرة فيطول ذلك فيأخذ أزمنة كثيرة ، فأشار هناك إلى عظمة الملك بالمكان وأشار إلى دوامه ههنا بالزمان فالمكان من خلقه وملكه والزمان بحكمه وأمره . واعلم أن ظاهر قوله (يدبر الأمر) فى يوم يقتضى أن يكون أمره فى يوم واليوم له ابتداء وانتهاء فيكون أمره فى زمان حادث فيكون حادثاً وبعض من يقول بأن الله على العرش استوى يقول بأن أمره قديم حتى الحروف ، وكلمة كن فكيف فهم من كلمة على كونه فى مكان ، ولم يفهم من كلمة فى كون أمره فى زمان ثم بين أن هذا الملك العظيم النافذ الأمر غير غافل ، فإن الملك إذا كان آمراً ناهياً يطاع فى أمره ونهيه ، ولكن يكون

ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾

غافلا لا يكون مهيباً عظيماً كما يكون مع ذلك خبيراً يقظاً لاتخفى عليه أمور الممالك والمماليك فقال (ذلك عالم الغيب والشهادة) ولما ذكر من قبل عالم الأشباح بقوله (خلق السموات) وعالم الأرواح بقوله (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض) قال (عالم الغيب) يعلم ما فى الأرواح (والشهادة) يعلم ما فى الأجسام أونقول قال (عالم الغيب) إشارة إلى مالم يكن بعد (والشهادة) إشارة إلى ما وجد وكان وقدم العلم بالغيب لأنه أقوى وأشد إنباء عن كمال العلم ، ثم قال تعالى (العزيزالرحيم) لما بين أنه عالم ذكر أنه عزيز قادر على الانتقام من الكفرة رحيم واسع الرحمة على البررة ، ثم قال تعالى (الذى أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين) لما بين الدليل الدال على الوحدانية من الآفاق بقوله (خلق السموات والأرض وما بينهما) وأتمه بتوابعه ومكملاته ذكر الدليل الدال عليها من الأنفس بقوله (الذى أحسن كل شيء) يعنى أحسن كل شيء مما ذكره وبين أن الذى بين السموات والأرض خلقه وهو كذلك لأنك إذا نظرت إلى الأشياء رأيتها على ماينبغى صلابة الأرض للنبات والنبات وسلاسة الهواء للاستنشاق وقبول الانشقاق لسهولة الاستطراق وسيلان الماء لنقدر عليه فى كل موضع وحركة النار إلى فوق ، لأنها لو كانت مثل الماء تتحرك يمنة ويسرة لاحترق العالم فخلقت طالبة لجهة فوق حيث لاشيء هناك يقبل الاحتراق وقوله (وبدأ خلق الإنسان من طين) قيل المراد آدم عليه السلام فانه خلق من طين ، ويمكن أن يقال بأن الطين ماء وتراب مجتمعان والآدمى أصله منى والمنى أصله غذاء ، والأغذية إما حيوانية ، وإما نباتية ، والحيوانية بالآخرة ترجع إلى النباتية والنبات وجوده بالماء والتراب الذى هو طين .

قوله تعالى : ﴿ ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ، الذى أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴾ .

وقوله تعالى (ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين) على التفسير الأول ظاهر لأن آدم كان من طين ونسله من سلالة من ماء مهين هو النطفة ، وعلى التفسير الثانى هو أن أصله من الطين ، ثم يوجد من ذلك الأصل سلالة هى من ماء مهين ، فان قال قائل التفسير الثانى غير صحيح لأن قوله (بدأ خلق الإنسان) ثم جعل نسله دليل على أن جعل النسل بعد خلق الإنسان من طين فنقول لابل التفسير الثانى أقرب إلى الترتيب اللفظى فإنه تعالى بدأ بذكر الأمر من الابتداء فى خلق الإنسان فقال بدأه من طين ثم جعله سلالة ثم سواه ونفخ فيه من روحه وعلى ما ذكرتم

ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾

يبعد أن يقال (ثم سواه ونفخ فيه من روحه) عائد إلى آدم أيضاً لأن كلمة ثم للتراخي فتكون التسوية بعد جعل النسل من سلالة ، وذلك بعد خلق آدم ، واعلم أن دلائل الآفاق أدل على كمال القدرة كما قال تعالى (لخلق السموات والأرض أكبر) ودلائل الأنفس أدل على نفاذ الإرادة فإن التغيرات فيها كثيرة وإليه الإشارة بقوله (ثم جعل نسله ثم سواه) أى كان طيناً فجعله منياً ثم جعله بشراً سوياً ، وقوله تعالى (ونفخ فيه من روحه) إضافة الروح إلى نفسه كاضافة البيت إليه للتشريف ، واعلم أن النصارى يفترون على الله الكذب ويقولون بأن عيسى كان روح الله فهو ابن ولا يعلمون أن كل أحد روحه روح الله بقوله (ونفخ فيه من روحه) أى الروح التى هى ملكه كما يقول القائل دارى وعبدى ، ولم يقل أعطاه من جسمه لأن الشرف بالروح فأضاف الروح دون الجسم على ما يترتب على نفخ الروح من السمع والبصر والعلم فقال تعالى (وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون) وفيه مسائل :

﴿ الأولى ﴾ قال وجعل لكم مخاطباً ولم يخاطب من قبل وذلك لأن الخطاب يكون مع الحى فلما قال (ونفخ فيه من روحه) خاطبه من بعده وقال جعل لكم ، فان قيل الخطاب واقع قبل ذلك كما فى قوله تعالى (ومن آياته أن خلقكم من تراب) فنقول هناك لم يذكر الأمور المرتبة وإنما أشار إلى تمام الخلق ، وههنا ذكر الأمور المرتبة وهى كون الإنسان طيناً ثم ماء فهيناً ثم خلقاً مسوى بأنواع القوى مقوى فخاطب فى بعض المراتب دون البعض .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الترتيب فى السمع والأبصار والأفئدة على مقتضى الحكمة ، وذلك لأن الإنسان يسمع أولا من الأبوين أو الناس أموراً فيفهمها ثم يحصل له بسبب ذلك بصيرة فيبصر الأمور ويجربها ثم يحصل له بسبب ذلك إدراك تام وذهن كامل فيستخرج الأشياء من قبله ومثاله شخص يسمع من أستاذ شيئاً ثم يصير له أهلية مطالعة الكتب وفهم معانيها ، ثم يصير له أهلية التصنيف فيكتب من قلبه كتاباً ، فكذلك الانسان يسمع ثم يطالع صحائف الموجودات ثم يعلم الأمور الخفية .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ذكر فى السمع المصدر وفى البصر والفؤاد الإسم ، ولهذا جمع الأبصار والأفئدة ولم يجمع السمع ، لأن المصدر لا يجمع وذلك لحكمة وهو أن السمع قوة واحدة ولها فعل

وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِى ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِى خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾

واحد فإن الانسان لا يضبط فى زمان واحد كلامين ، والأذن محله ولا اختيار لها فيه فان الصوت من أى جانب كان يصل إليه ولا قدرة لها على تخصيص القوة بإدراك البعض دون البعض ، وأما الإبصار فمحله العين ولها فيه شبه اختيار فإنها تتحرك إلى جانب مرئى دون آخر وكذلك الفؤاد محل الإدراك وله نوع اختيار يلتفت إلى ما يريد دون غيره وإذا كان كذلك فلم يكن للمحل فى السمع تأثير والقوة مستبدة ، فذكر القوة فى الأذن وفى العين والفؤاد للمحل نوع اختيار ، فذكر المحل لأن الفعل يسند إلى المختار ، ألا ترى أنك تقول سمع زيد ورأى عمرو ولا تقول سمع أذن زيد ولا رأى عين عمرو إلا نادراً ، لما بينا أن المختار هو الأصل وغيره آلته ، فالسمع أصل دون محله لعدم الاختيار له ، والعين كالأصل وقوة الأبصار آلتها والفؤاد كذلك وقوة الفهم آلته ، فذكر فى السمع المصدر الذى هو القوة وفى الأبصار والأفئدة الاسم الذى هو محل القوة ولأن السمع له قوة واحدة ولها فعل واحد ولهذا لا يسمع الانسان فى زمان واحد كلامين على وجه يضبطهما ويدرك فى زمان واحد صورتين وأكثر ويستبينهما .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ لم قدم السمع ههنا والقلب فى قوله تعالى (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم) فنقول ذلك يحقق ما ذكرنا ، وذلك لأن عند الإعطاء ذكر الأدنى وارتقى إلى الأعلى فقال أعطاكم السمع ثم أعطاكم ما هو أشرف منه وهو القلب وعند السلب قال ليس لهم قلب يدركون به ولا ما هو دونه وهو السمع الذى يسمعون به ممن له قلب يفهم الحقائق ويستخرجها ، وقد ذكرنا هناك ما هو السبب فى تأخير الأبصار مع أنها فى الوسط فيما ذكرنا من الترتيب وهو أن القلب والسمع سلب قوتهما بالطبع لجمع بينهما وسلب قوة البصر بجعل الغشاوة عليه فذكرها متأخرة .

قوله تعالى : ﴿ وقالوا أئذا ضللنا فى الأرض إنا لفى خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون ﴾

لما قال (قليلا ما تشكرون) بين عدم شكرهم بإتيانهم بضده وهو الكفر وإنكار قدرته على إحياء الموتى وقد ذكرنا أن الله تعالى ، فى كلامه القديم ، كلما ذكر أصلين من الأصول الثلاثة لم يترك الأصل الثالث وههنا كذلك لما ذكر الرسالة بقوله (تنزيل الكتاب) إلى قوله (لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك) وذكر الوحدانية بقوله (الله الذى خلق) إلى قوله (وجعل لكم السمع والأبصار) ذكر الأصل الثالث وهو الحشر بقوله تعالى (وقالوا أئذا ضللنا فى الأرض) وفيه مسائل :

قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾

﴿ المسألة الأولى ﴾ الواو للعطف على ماسبق منهم فإنهم قالوا محمد ليس برسول والله ليس بواحد وقالوا الحشر ليس بممكن .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أن تعالى قال فى تكذيبهم الرسول فى الرسالة أم يقولون بلفظ المستقبل وقال فى تكذيبهم إياه فى الحشر ، وقالوا بلفظ الماضى ، وذلك لأن تكذيبهم إياه فى رسالته لم يكن قبل وجوده وإنما كان ذلك حالة وجوده فقال يقولون يعنى هم فيه . وأما إنكارهم للحشر كان سابقاً صادراً منهم ومن آبائهم فقال وقالوا .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أنه تعالى صرح بذكر قولهم فى الرسالة حيث قال (أم يقولون) وفى الحشر حيث قال (وقال أئذا) ولم يصرح بذكر قولهم فى الواحدانية ، وذلك لأنهم كانوا مصرين فى جميع الأحوال على انكار الحشر والرسول ، وأما الواحدانية فكانوا يعترفون بها فى المعنى ، ألا ترى أن الله تعالى قال (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) فلم يقل قالوا إن الله ليس بواحد وإن كانوا قالوه فى الظاهر .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ لو قال قائل لما ذكر الرسالة ذكر من قبل دليلها وهو التنزيل الذى لا ريب فيه ولما ذكر الواحدانية ذكر دليلها وهو خلق السموات والأرض وخلق الإنسان من طين ، ولما ذكر إنكارهم الحشر لم يذكر الدليل ، نقول فى الجواب : ذكر دليله أيضاً وذلك لأن خلق الإنسان ابتداء دليل على قدرته على إعادته ، ولهذا استدل الله على إمكان الحشر بالخلق الأول كما قال (ثم يعيده وهو أهون عليه) وقوله (قل يحييها الذى أنشأها أول مرة) وكذلك خلق السموات كما قال تعالى (أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى)

وقوله تعالى (أئنا لفى خلق جديد) أى أئنا كائنون فى خلق جديد أو واقعون فيه (بل هم بلقاء ربهم كافرون) إضراب عن الأول يعنى ليس إنكارهم لمجرد الخلق ثانياً بل يكفرون بجميع أحوال الآخرة حتى لو صدقوا بالخلق الثانى لما اعترفوا بالعذاب والثواب ، أو نقول معناه لم ينكروا البعث لنفسه بل لكفرهم ، فانهم أنكروه فأنكروا المفضى إليه ، ثم بين ما يكون لهم من الموت إلى العذاب .

قوله تعالى : ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ .

يعنى لابد من الموت ثم من الحياة بعده وإليه الإشارة بقوله (ثم إلى ربكم ترجعون) وقوله (الذى وكل بكم) إشارة إلى أنه لايغفل عنكم وإذا جاء أجلكم لايؤخركم إذ لاشغل له إلا هذا وقوله (يتوفاكم ملك الموت) ينبىء عن بقاء الأرواح فان التوفى الاستيفاء والقبض هو الأخذ والإعدام المحض ليس بأخذ ، ثم إن الروح الزكى الطاهر يبقى عند الملائكة مثل الشخص بين أهله

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾

المناسبين له والخبيث الفاجر يبقى عندهم كأسير بين قوم لا يعرفهم ولا يعرف لسانهم ، والأول ينمو ويزيد ويزداد صفاؤه وقوته والآخر يذبل ويضعف ويزداد شقاؤه وكدورته ، والحكماء يقولون إن الأرواح الطاهرة تتعلق بجسم سماوى خير من بدنها وتكمل به ، والأرواح الفاجرة لا كمال لها بعد التعلق الثانى فإن أرادوا ماذكرنا فقد وافقونا وإلا فيغير النظر فى ذلك بحسب إرادتهم فقد يكون قولهم حقاً وقد يكون غيرحق ، فان قيل هم أنكروا الإحياء والله ذكر الموت وبينهما مباينة نقول فيه وجهان (أحدهما) أن ذلك دليل الإحياء ودفع استبعاد ذلك فانهم قالوا ماعدم بالكلية كيف يكون الموجود عين ذلك؟ فقال الملك يقبض الروح والأجزاء تتفرق فجمع الأجزاء لابعد فيه ؛ وأمر الملك برد ما قبضه لا صعوبة فيه أيضاً ، فقوله (قل يتوفاكم ملك الموت) أى الأرواح معلومة فترد إلى أجسادها .

قوله تعالى : ﴿ ولوترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون ﴾ .

لما ذكر أنهم يرجعون إلى ربهم بين ما يكون عند الرجوع على سبيل الاجمال بقوله (ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم) يعنى لو ترى حالهم وتشاهد استخجالهم لترى عجباً ، وقوله (ترى) يحتمل أن يكون خطاباً مع الرسول صلى الله عليه وسلم تشفياً لصدره فانهم كانوا يؤذونه بالتكذيب ، ويحتمل أن يكون عاما مع كل أحد كما يقول القائل إن فلاناً كريم إن خدمته ولو لحظة يحسن إليك طول عمرك ولا يريد به خاصا ، وقوله (عند ربهم) لبيان شدة الخجالة لأن الرب إذا أساء إليه المربوب ، ثم وقف بين يديه يكون فى غاية الخجالة .

ثم قال تعالى (ربنا أبصرنا وسمعنا) يعنى يقولون أو قائلين (ربنا أبصرنا) وحذف يقولون إشارة إلى غاية خجالتهم لأن الخجل العظيم الخجالة لا يتكلم ، وقوله (ربنا أبصرنا وسمعنا) أى أبصرنا الحشر وسمعنا قول الرسول فارجعنا إلى دار الدنيا لنعمل صالحاً ، وقولهم (إنا موقنون) معناه إنا فى الحال آمنا ولكن النافع الايمان والعمل الصالح ولكن العمل الصالح لا يكون إلا عند التكليف به وهو فى الدنيا فارجعنا للعمل ، وهذا باطل منهم فان الايمان لا يقبل فى الآخرة كالعمل الصالح أو نقول المراد منه أنهم ينكرون الشرك كما قالوا (وما كنا مشركين) فقالوا إن هذا الذى جرى علينا ماجرى إلا بسبب ترك العمل الصالح . وأما الإيمان فانا موقنون وماأشركنا .

وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ، ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ جواباً عن قولهم (ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا) وبيانه هو أنه تعالى قال إنى لو أرجعتكم إلى الايمان لهديتكم فى الدنيا ولما لم أهدكم تبين أنى ما أردت وما شئت إيمانكم فلا أردكم ، وقوله (ولو شئنا لآتينا) صريح فى أن مذهبنا صحيح حيث نقول إن الله ما أراد الايمان من الكافر وما شاء منه إلا الكفر ، ثم قال تعالى (ولكن حق القول منى لأملأن جهنم) أى وقع القول وهو قوله تعالى لإبليس (لأملأن جهنم منك وممن تبعك) هذا من حيث النقل وله وجه فى العقل وهو أن الله تعالى لم يفعل فعلا خالياً عن حكمة وهذا متفق عليه والخلاف فى أنه هل قصد الفعل للحكمة أو فعل الفعل ولزمته الحكمة لابحيث تحمله تلك الحكمة على الفعل؟ وإذا علم أن فعله لايخلو عن الحكمة فقال الحكماء حكمة أفعاله بأمرها لاتدرك على سبيل التفصيل لكن تدرك على سبيل الإجمال ، فكل ضرب يكون فى العالم وفساد فحكمته تخرج من تقسيم عقلى وهو أن الفعل إما أن يكون خيراً محضاً أو شراً محضاً أو خيراً مشوباً بشر . وهذا القسم على ثلاثة أقسام قسم خيره غالب وقسم شره غالب وقسم خيره وشره مثلان ، إذا علم هذا فخلق الله عالما فيه الخير المحض وهو عالم الملائكة وهو العالم العلوى وخلق عالماً فيه خير وشر وهو عالمنا وهو العالم السفلى ولم يخلق عالما فيه شر محض ، ثم إن العالم السفلى الذى هو عالمنا ، وإن كان الخير والشر موجودين فيه لكنه من القسم الأول الذى خيره غالب . فانك إذا قابلت المنافع بالمضار والنافع بالضار ، تجد المنافع أكثر ، وإذا قابلت الشرير بالخير تجد الخير أكثر ، وكيف لا والمؤمن يقابله الكافر ، ولكن المؤمن قد يمكن وجوده بحيث لايكون فيه شر أصلا من أول عمره إلى آخره كالأنبياء عليهم السلام والأولياء ، والكافر لايمكن وجوده بحيث لايكون فيه خير أصلا غاية مافى الباب أن الكفر يحبط خيره ولا ينفعه ، إنما يستحيل نظراً إلى العادة أن يوجد كافر لايسقى العطشان شربة ماء ولا يطعم الجائع لقمة خبز ولا يذكر ربه فى عمره ، وكيف لا وهو فى زمن صباه كان مخلوقا على الفطرة المقتضية للخيرات ، إذا ثبت هذا فنقول قالوا لولا الشر فى هذا العالم لكانت مخلوقات الله تعالى منحصرة فى الخير المحض ولا يكون قد خلق القسم الذى فيه الخير الغالب والشر القليل ثم إن ترك خلق هذا القسم إن كان لما فيه من الشر فترك الخير الكثير لأجل الشر القليل لايناسب الحكمة ، ألا ترى أن التاجر إذا طلب منه درهم بدينار ، فلو امتنع وقال فى هذا شر وهو زوال الدرهم عن ملكى فيقال له لكن فى مقابلته خير كثير وهو حصول الدينار فى ملكك وكذلك

فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

الإنسان لو ترك الحركة اليسيرة لما فيها من المشقة مع علمه بأنه تحصل له راحة مستمرة ينسب إلى مخالفة الحكمة فإذا انظر إلى الحكمة كان وقوع الخير الكثير المشوب بالشر القليل من اللطف نخلق العالم الذى يقع فيه الشر وإلى هذا أشار بقوله (إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) فقال الله تعالى فى جوابهم (إنى أعلم ما لا تعلمون) أى أعلم أن هذا القسم يناسب الحكمة لأن الخير فيه كثير ، ثم بين لهم خيره بالتعليم ، كما قال تعالى (وعلم آدم الأسماء كلها) يعنى أيها الملائكة خلق الشر المحض والشر الغالب والشر المساوى لا يناسب الحكمة . وأما الخير الكثير المشوب بالشر القليل مناسب ، فقوله تعالى (أتجعل فيها من يفسد فيها) إشارة إلى الشر ، وأجابهم الله بما فيه من الخير بقوله (وعلم آدم الأسماء) فإن قال قائل فالله تعالى قادر على تخليص هذا القسم من الشر بحيث لا يوجد فيه شر فيقال له ما قاله الله تعالى (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) يعنى لو شئنا لخلصنا الخير من الشر ، لكن حينئذ لا يكون الله تعالى خلق الخير الكثير المشوب بالشر القليل وهو قسم معقول ، فما كان يجوز تركه للشر القليل وهو لا يناسب الحكمة ، لأن ترك الخير الكثير للشر القليل غير مناسب للحكمة ، وإن كان لا كذلك فلا مانع من خلقه فيخلقه لما فيه من الخير الكثير ، وهذا الكلام يعبر عنه من يقول برعاية المصالح إن الخير فى القضاء والشر فى القدر ، فالله قضى بالخير ووقع الشر فى القدر بفعله المنزه عن القبيح والجهل ، وقوله (من الجنة والناس) لأنه تعالى قال لإبليس (لأملأن جهنم منك وممن تبعك) وهذا إشارة إلى أن النار لمن فى العالم السفلى ، والذين فى العالم العلوى مبرءون عن دخول النار وهم الملائكة ، وهذا يقتضى أن لا يكون إبليس من الملائكة وهو الصحيح . وقوله (أجمعين) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون تأكيداً وهو الظاهر (والثانى) أن يكون حالا ، أى مجموعين ، فإن قيل كيف جعل جميع الإنس والجن مما يملأ بهم النار ؟ نقول هذا لبيان الجنس ، أى جهنم تملأ من الجن والإنس لا غير أمناً للملائكة ، ولا يقتضى ذلك دخول الكل كما يقول القائل ملأت الكيس من الدراهم لا يلزم أن لا يبقى درهم خارج الكيس ، فإن قيل فهذا يقتضى أن تكون جهنم ضيقة تمتلىء ببعض الخلق نقول هو كذلك وإنما الواسع الجنة التى هى من الرحمة الواسعة والله أعلم . ولما بين الله تعالى بقوله (ولو شئنا لآتينا) أنهم لا رجوع لهم قال لهم إذا علمتم أنكم لا رجوع لكم .

قوله تعالى : ﴿ فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون ﴾

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝١٥ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝١٦

وفي تفسير الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (فذوقوا بما نسيتم لقاء) لقاء يحتمل أن يكون منصوباً بذوقوا ، أي ذوقوا لقاء يومكم بما نسيتم ، وعلى هذا يحتمل أن يكون المنسى هو الميثاق الذى أخذ منهم بقوله (ألست بربكم قالوا بلى) أو بما فى الفطرة من الوحدانية فينسى بالإقبال على الدنيا والاشتغال بها ويحتمل أن يكون منصوباً بقوله (نسيتم) أى بما نسيتم لقاء هذا اليوم ذوقوا ، وعلى هذا لو قال قائل النسيان لا يكون إلا فى المعلوم أولا إذا جهل آخراً نقول لما ظهرت براهينه فكأنه ظهر وعلم ، ولما تركوه بعد الظهور ذكر بلفظ النسيان إشارة إلى كونهم منكرين لأمر ظاهر كمن ينكر أمراً كان قد علمه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله تعالى هذا يحتمل ثلاثة أوجه (أحدها) أن يكون إشارة إلى اليوم ، أى فذوقوا بما نسيتم لقاء هذا اليوم (وثانيها) أن يكون إشارة إلى لقاء اليوم ، إى فذوقوا بما نسيتم هذا اللقاء (وثالثها) أن يكون إشارة إلى العذاب ، أى فذوقوا هذا العذاب بما نسيتم لقاء يومكم ، ثم قال إنا نسيناكم ، أى تركناكم بالكلية غير ملتفت إليكم كما يفعله الناسى قطعاً لرجائكم ، ثم ذكر مايلزم من تركه إياهم كما يترك الناسى وهو خلود العذاب ، لأن من لا يخلصه الله فلا خلاص له ، فقال (وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون)

﴿ ثم قال تعالى إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون ﴾

قوله تعالى (إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون) إشارة إلى أن الإيمان بالآيات كالحاصل ، وإنما ينساه البعض فاذا ذكر بها خر ساجداً له ، يعنى انقادت أعضاؤه له ، وسبح بحمده ، يعنى ويحرك لسانه بتنزيهه عن الشرك ، وهم لايستكبرون ، يعنى وكان قلبه خاشعاً لايتكبر ومن لا يستكبر عن عبادته فهو المؤمن حقاً .

ثم قال تعالى : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون ﴾ يعنى بالليل قليلا مايهجعون وقوله (يدعون ربهم) أى يصلون ، فان الدعاء والصلاة من باب واحد فى المعنى أو يطلبونه وهذا لا ينافى الأول لأن الطلب قد يكون بالصلاة ، والحمل على الأول أولى

فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾

لأنه قال بعده (ومما رزقناهم ينفقون) وفى أكثر المواضع التى ذكر فيها الزكاة ذكر الصلاة قبلها كقوله تعالى (ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) وقوله (خوفاً وطمعاً) يحتمل أن يكون مفعولا له ويحتمل أن يكون حالا ، أى خائفين طامعين كقولك جاۤونى زوراً أى زائرين ، وكأن فى الآية الأولى إشارة إلى المرتبة العالية وهى العبادة لوجه الله تعالى مع الذهول عن الخوف والطمع بدليل قوله تعالى (إذا ذكروا بها خروا) فانه يدل على أن عند مجرد الذكر يوجد منهم السجود وإن لم يكن خوف وطمع . وفى الآية الثانية إشارة الى المرتبتين الأخيرتين وهى العبادة خوفا كمن يخدم الملك الجبار مخافة سطوته أو يخدم الملك الجواد طمعاً فى بره ، ثم بين مايكون لهم جزاء فعلهم .

قوله تعالى : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾

يعنى مما تقر العين عنده ولا تلتفت إلى غيره يقال إن هذا لايدخل فى عينى ، يعنى عينى تطلع إلى غيره، فاذا لم يبق تطلع للعين إلى شىء آخر لم يبق للعين مسرح إلى غيره فتقر جزاء بحكم الوعد ، وهذا فيه لطيفة وهى أن من العبد شيئاً وهو العمل الصالح ، ومن الله أشياء سابقة من الخلق والرزق وغيرهما وأشياء لاحقة من الثواب والإكرام ، فلله تعالى أن يقول جزاء الإحسان إحسان ، وأنا أحسنت أولا والعبد أحسن فى مقابلته ، فالثواب تفضل ومنحة من غير عوض ، وله أن يقول جعلت الأول تفضلا لا أطلب عليه جزاء ، فاذا أتى العبد بالعمل الصالح فليس عليه شىء لأنى أبرأته مما عليه من النعم فكان هو آتياً بالحسنة ابتداء ، وجزاء الإحسان إحسان ، فأجعل الثواب جزاء كلاهما جائز ، لكن غاية الكرم أن يجعل الأول هبة ويجعل الثانى مقابلا وعوضاً لأن العبد ضعيف لو قيل له بأن فعلك جزاء فلا تستحق جزاء ، وإنما الله يتفضل يثق ولكن لا يطمئن قلبه ، وإذا قيل له الأول غير محسوب عليك والذى أتيت به أنت به باد ولك عليه استحقاق ثواب يثق ويطمئن ثم إذا عرف أن هذا من فضل الله فالواجب من جانب العبد أن يقول فعلى جزاء نعم الله السابقة ولا أستحق به جزاء ، فإذا أثابه الله تعالى يقول الذى أتيت به كان جزاء ، وهذا ابتداء إحسان من الله تعالى يستحق حمداً وشكراً فيأتى بحسنة فيقول الله إنى أحسنت إليه جزاء فعله الأول وما فعلت أولا لا أطلب له جزاء فيجازيه ثالثاً فيشكر العبد ثالثاً فيجازيه رابعاً وعلى هذا لا تنقطع المعاملة بين العبد والرب ، ومثله فى الشاهد اثنان تحابا فأهدى أحدهما إلى الآخر هدية ونسيها والمهدى اليه يتذكرها فأهدى إلى المهدى عوضاً فرآه المهدى الأول ابتداء لنسيانه ما أهداه اليه فجازاه بهدية فقال المحب الآخر ما أهديته كان جزاء لهديته السابقة ، وهذه هدية ما عوضتها فيعوض ويعوض

أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾

عنه المحب الآخر ويتسلسل الأمر بينهما ولا ينقطع التهادى والتحاب ، بخلاف من أرسل إلى واحد هدية وهو يتذكرها فاذا بعث اليه المهدى اليه عوضاً يقول المهدى هذا عوض ما أهديت اليه فيسكت ويترك الإهداء فينقطع ، واعلم أن التكاليف يوم القيامة ، وإن ارتفعت لكن الذكر والشكر والعبادة لا ترتفع بل العبد يعبد ربه فى الجنة أكثر مما يعبده فى الدنيا ، وكيف لا وقد صار حاله مثل حال الملائكة الذين قال فى حقهم (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) غاية ما فى الباب أن العبادة ليست عليهم بتكليف بل هى بمقتضى الطبع ومن جملة الأسباب الموجبة لدوام نعيم الجنة هذا وكيف لا وخدمة الملوك لذة وشرف فلا تترك وإن قرب العبد منه بل تزداد لذتها.

قوله تعالى : ﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون ، أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون ، وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون ﴾ .

لما بين حال المجرم والمؤمن قال للعاقل هل يستوى الفريقان ، ثم بين أنهما لا يستويان ، ثم بين عدم الاستواء على سبيل التفصيل ، فقال (أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى) إشارة إلى ما ذكرنا أن الله أحسن ابتداء لا لعوض فلما آمن العبد وعمل صالحاً قبله منه كأنه ابتداء فجازاه بأن أعطاه الجنة ثم قال تعالى (نزلا) إشارة إلى أن بعدها أشياء لأن النزل ما يعطى الملك النازل ، وقت نزوله قبل أن يجعل له راتباً أو يكتب له خبزاً وقوله (بما كانوا يعملون) يحقق ما ذكرنا وقوله تعالى (وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها) إشارة إلى حال الكافر ، وقد ذكرنا مراراً أن العمل الصالح له مع الايمان أثر أما الكفر إذا جاء فلا التفات إلى الأعمال ، فلم يقل وأما الذين فسقوا وعملوا السيآت لأن المراد من فسقوا كفروا ولو جعل العقاب فى مقابلة الكفر والعمل ، لظن أن مجرد الكفر لا عقاب عليه ، وقوله فى حق المؤمنين (لهم) بلام التمليك زيادة إكرام لأن من قال لغيره اسكن هذه الدار يكون ذلك محمولا على العارية وله استرداده ، وإذا قال هذه الدار لك يكون ذلك محمولا على نسبة الملكية اليه وليس

وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾

له استرداده بحكم قوله وكذلك فى قوله (لهم جنات) ألا ترى أنه تعالى لما أسكن آدم الجنة وكان فى علمه أنه يخرجه منها قال (اسكن أنت وزوجك الجنة) ولم يقل لكما الجنة وفى الآخرة لما لم يكن للمؤمنين خروج عنها قال (لكم الجنة) و(لهم جنات) وقوله (كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا) إشارة إلى معنى حكمى ، وهو أن المؤلم إذا تمكن والألم إذا امتد لم يبق به شعور تام ولهذا قال الأطباء إن حرارة حمى الدق بالنسبة إلى حرارة الحمى البلغمية نسبة النار إلى الماء المسخن ، ثم إن المدقوق لا يحس من الحرارة بما يحس به من به الحمى البلغمية لتمكن الدق وقرب العهد بظهور حرارة الحمى البلغمية ، وكذلك الانسان إذا وضع يده فى ماء بارد يتألم من البرد . فاذا صبر زماناً طويلا تثلج يده ويبطل عنه ذلك الألم الشديد مع فساد مزاجه ، إذا علمت هذا فقوله (كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها) إشارة إلى أن الإله لا يسكن عنهم بل يرد عليهم فى كل حال أمر مؤلم يجدد وقوله (ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون) يقرر ما ذكرنا ومعناه أنهم فى الدنيا كانوا يكذبون بعذاب النار ، فلما ذاقوه كان أشد إيلاماً لأن من لا يتوقع شيئاً فيصيبه يكون أشد تأثيراً ،ثم إنهم فى الآخرة كما فى الدنيا يجزمون أن لا عذاب إلا وقد وصل إليهم ولا يتوقعون شيئاً آخر من العذاب فيرد عليهم عذاب أشد من الأول ، وكانوا يكذبون به بقولهم لا عذاب فوق ما نحن فيه فاذن معنى قوله تعالى (ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون) ليس مقتصراً على تكذيبهم الذى كان فى الدنيا بل (كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها) وقيل لهم ذوقوا عذاباً كذبتم به من قبل . أما فى الدنيا بقولكم لا عذاب فى الآخرة ، وأما فى الآخرة فبقولكم لا عذاب فوق ما نحن فيه .

ثم لما هددهم قال تعالى ﴿ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون ﴾ .

يعنى قبل عذاب الآخرة نذيقهم عذاب الدنيا . فان عذاب الدنيا لا نسبة له إلى عذاب الآخرة لأن عذاب الدنيا لا يكون شديداً ، ولا يكون مديداً فان العذاب الشديد فى الدنيا يهلك فيموت المعذب ويستريح منه فلا يمتد ، وإن أراد المعذب أن يمتد عذاب المعذب لا يعذبه بعذاب فى غاية الشدة ، وأما عذاب الآخرة فشديد ومديد . وفى الآية مسألتان :

﴿ إحداهما﴾ قوله تعالى (ولنذيقنهم من العذاب الأدنى) فى مقابلته العذاب الأقصى والعذاب الأكبر فى مقابلته العذاب الأصغر ، فما الحكمة فى مقابلة الأدنى بالأكبر ؟ فنقول حصل فى عذاب الدنيا أمران : (أحدهما) أنه قريب والآخر أنه قليل صغير وحصل فى عذاب الآخرة أيضاً أمران (أحدهما) أنه بعيد والآخر أنه عظيم كثير ، لكن القرب فى عذاب الدنيا هو الذى يصلح

للتخويف به ، فان العذاب العاجل وإن كان قليلا قد يحترز منه بعض الناس أكثر مما يحترز من العذاب الشديد إذا كان آجلا ، وكذا الثواب العاجل قد يرغب فيه بعض الناس ويستبعد الثواب العظيم الآجل ، وأما فى عذاب الآخرة فالذى يصلح للتخويف به هو العظيم والكبير لا البعيد لما بينا فقال فى عذاب الدنيا (العذاب الأدنى) ليحترز العاقل عنه ولو قال (لنذيقنهم من العذاب الأصغر) ماكان يحترز عنه لصغره وعدم فهم كونه عاجلا وقال فى عذاب الآخرة الأكبر لذلك المعنى ، ولو قال دون العذاب الأبعد الأقصى لما حصل التخويف به مثل مايحصل بوصفه بالكبر ، وبالجملة فقد اختار الله تعالى فى العذابين الوصف الذى هو أصلح للتخويف من الوصفين الآخرين فيهما لحكمة بالغة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله تعالى (لعلهم يرجعون) لعل هذه الترجى والله تعالى محال ذلك عليه فما الحكمة فيه ؟ نقول فيه وجهان (أحدهما) معناه لنذيقنهم إذاقة الراجين كقوله تعالى (إنا نسيناكم) يعنى تركناكم كما يترك الناسى حيث لا يلتفت إليه أصلا ، فكذلك ههنا نذيقهم على الوجه الذى يفعل بالراجى من التدريج (وثانيهما) معناه نذيقهم العذاب إذاقة يقول القائل لعلهم يرجعون بسببه ، ونزيد وجهاً آخر من عندنا ، وهو أن كل فعل يتلوه أمر مطلوب من ذلك الفعل يصح تعليل ذلك الفعل بذلك الأمر ، كما يقال فلان اتجر ليربح ، ثم إن هذا التعليل إن كان فى موضع لا يحصل الجزم بحصول الأمر من الفعل نظراً إلى نفس الفعل وإن حصل الجزم والعلم بناء على أمر من خارج فانه يصح أن يقال يفعل كذا رجاء كذا ، كما يقال يتجر رجاء أن يربح ، وإن حصل للتاجر جزم بالربح لا يقدح ذلك فى صحة قولنا يرجو لما أن الجزم غير حاصل نظراً إلى التجارة وإن كان الجزم حاصلا نظراً إلى الفعل ، لا يصح أن يقال يرجو وإن كان ذلك الجزم يحتمل خلافه كقول القائل فلان حز رقبة عدوه رجاء أن يموت ، لا يصح لحصول الجزم بالموت عقيب الحز نظراً إليه وإن أمكن أن لا يموت نظراً إلى قدرة الله تعالى ، ويصحح قولنا قوله تعالى فى حق إبراهيم (والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى) مع أنه كان عالماً بالمغفرة لكن لما لم يكن الجزم حاصلا من نفس الفعل أطلق عليه الطمع وكذلك قوله تعالى (وارجوا اليوم الآخر) مع أن الجزم به لازم إذا علم ما ذكرنا فنقول فى كل صورة قال الله تعالى (لعلهم) فان نظرنا إلى الفعل لا يلزم الجزم ، فان من التعذيب لا يلزم الرجوع لزوماً بيناً فصح قولنا يرجو وإن كان علمه حاصلا بما يكون غاية ما فى الباب أن الرجاء فى أكثر الأمر استعمل فيما لا يكون الأمر معلوماً فأوهم أن لا يجوز الإطلاق فى حق الله تعالى وليس كذلك بل الترجى يجوز فى حق الله تعالى ، ولا يلزم منه عدم العلم ، وإنما يلزم عدم الجزم بناء على ذلك الفعل وعلم الله ليس مستفاداً من الفعل فيصح حقيقة الترجى فى حقه على ما ذكرنا من المعنى .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ
﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ
﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها ، إنا من المجرمين منتقمون ، ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن فى مرية من لقائه وجعلناه هدى لبنى إسرائيل ، وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾

قوله تعالى (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها) يعنى لنذيقنهم ولا يرجعون فيكونون قد ذكروا بآيات الله من النعم أولا والنقم ثانياً ولم يؤمنوا فلا أظلم منهم أحد ، لأن من يكفر بالله ظالم فان الله لذوى البصائر ظاهر لا يحتاج المستنير الباطن إلى شاهد يشهد عليه بل هو شهيد على كل شىء كما قال تعالى (أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد) أى دليلك الله لا تحتاج مانير الباطن إلى دليل على الله . ولهذا قال بعض العارفين رأيت الله قبل كل شىء فمن لم يكفه الله فسائر الموجودات سواء ، كان فيها نفع أو ضر كاف فى معرفة الله كما قال تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم) فإن لم يكفهم ذلك فبسبغه عليهم نعمه ظاهرة وباطنة ، فالأول الذى لا يحتاج إلى غير الله هو عدل والثانى الذى يحتاج إلى دليل فهو متوسط والثالث الذى لم تكفه الآفاق ظالم والرابع الذى لم تقنعه النعم أظلم من ذلك الظالم وقد يكون أظلم منه آخر ، وهو الذى إذا أذيق العذاب لا يرجع عن ضلالته ، فان الأكثر كان من صفتهم أنهم إذا مسهم ضر دعوا ربهم منيبين إليه فهذا لما عذب ولم يرجع فلا أظلم منه أصلا فقال (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها) .

ثم قال تعالى : ﴿ إنا من المجرمين منتقمون ﴾ أى لما لم ينفعهم العذاب الأدنى فأنا منتقم منهم بالعذاب الأكبر .

ثم قال تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ﴾ لما قرر الأصول الثلاثة على ما بيناه عاد إلى الأصل الذى بدأ به وهو الرسالة المذكورة فى قوله (لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير) وقال (قل ما كنت بدعاً من الرسل) بل كان قبلك رسل مثلك واختار من بينهم موسى لقربه من النبى ﷺ ووجود من كان على دينه إلزاماً لهم ، وإنما لم يختر عيسى عليه السلام للذكر والاستدلال لأن اليهود ما كانوا يوافقون على نبوته . وأما النصارى فكانوا يعترفون بنبوة موسى عليه السلام فتمسك

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾

بالمجمع عليه ، وقوله (فلا تكن فى مرية من لقائه) قيل معناه فلا تكن فى شك من لقاء موسى فانك تراه وتلقاه ، وقيل بأنه رآه ليلة المعراج وقيل معناه فلا تكن فى شك من لقاء الكتاب فانك تلقاه كما لقى موسى الكتاب ويحتمل أن تكون الآية واردة لا للتقرير بل لتسلية النبى عليه السلام فانه لما أتى بكل آية وذكر بها وأعرض عنها قومه حزن عليهم ، فقيل له تذكر حال موسى ولا تحزن فانه لقى ما لقيت وأوذى كما أوذيت . وعلى هذا فاختيار موسى عليه السلام لحكمة ، وهى أن أحداً من الأنبياء لم يؤذه قومه إلا الذين لم يؤمنوا به ، وأما الذين آمنوا به فلم يخالفوه غير قوم موسى فان لم يؤمن به آذاه مثل فرعون وغيره ومن آمن به من بنى إسرائيل أيضاً آذاه بالمخالفة وطلب أشيا منه مثل طلب رؤية الله جهرة ومثل قولهم (اذهب أنت وربك فقاتلا) ثم بين له أن هدايته غير خالية عن المنفعة كما أنه لم تخل هداية موسى ، فقال (وجعلناه هدى لبنى إسرائيل وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا) فحيث جعل الله كتاب موسى هدى وجعل منهم أئمة يهدون كذلك يجعل كتابك هدى ويجعل من أمتك صحابة يهدون كما قال عليه السلام « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » ثم بين أن ذلك يحصل بالصبر ، فقال (لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) فكذلك اصبروا وآمنوا بأن وعد الله حق .

قوله تعالى : ﴿ إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ، أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون ﴾

قوله (إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) هذا يصلح جواباً لسؤال : وهو أنه لما قال تعالى (وجعلنا منهم أئمة يهدون) كان لقائل أن يقول كيف كانوا يهدون وهم اختلفوا وصاروا فرقاً وسبيل الحق واحد . فقال فيهم هداة والله بين المبتدع من المتبع كما يبين المؤمن من الكافر يوم القيامة ، وفيه وجه آخر ، وهو أن الله تعالى بين أنه يفصل بين المختلفين من أمة واحدة كما يفصل بين المختلفين من الأمم فينبغى أن لا يأمن من آمن وإن لم يجتهد ، فان المبتدع معذب كالكافر ، غاية ما فى الباب ، أن عذاب الكافر أشد وآلم وأمد وأدوم .

ثم قال تعالى (أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون) قد ذكرنا أن قوله تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب) تقرير لرسالة محمد ﷺ وإعادة لبيان ما سبق فى قوله (لتنذر قوماً ما أتاهم

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾

من نذير من قبلك) ولما أعاد ذكر الرسالة أعاد ذكر التوحيد ، فقال تعالى (أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم) وقوله (يمشون فى مساكنهم) زيادة إبانة ، أى مساكن المهلكين دالة على حالهم وأنتم تمشون فيها وتبصرونها ، وقوله تعالى (إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون) اعتبر فيه السمع ، لأنهم ما كان لهم قوة الإدراك بأنفسهم والاستنباط بعقولهم ، فقال أفلا يسمعون ، يعنى ليس لهم درجة المتعلم الذى يسمع الشىء ويفهمه .

قوله تعالى : ﴿ أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون ، ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين ﴾

قوله تعالى (أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الارض الجزر) لما بين الإهلاك وهو الإماتة بين الإحياء ليكون إشارة إلى أن الضر والنفع بيد الله ، والجرز الأرض اليابسة التى لا نبات فيها والجرز هو القطع وكأنها المقطوع عنها الماء والنبات . ثم قال تعالى (فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم) قدم الأنعام على الأنفس فى الأكل لوجوه (أحدها) أن الزرع أول ما ينبت يصلح للدواب ولا يصلح للانسان (والثانى) وهو أن الزرع غذاء الدواب وهو لا بد منه . وأما غذاء الإنسان فقد يحصل من الحيوان ، فكأن الحيوان يأكل الزرع ، ثم الإنسان يأكل من الحيوان (الثالث) إشارة إلى أن الأكل من ذوات الدواب . والإنسان يأكل بحيوانيته أو بما فيه من القوة العقلية فكماله بالعبادة . ثم قال تعالى (أفلا يبصرون) لأن الأمر يرى بخلاف حال الماضين ، فانها كانت مسموعة ، ثم لما بين الرسالة والتوحيد بين الحشر بقوله تعالى (ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين) إلى آخر السورة ، فصار ترتيب آخر السورة كترتيب أولها حيث ذكر الرسالة فى أولها بقوله (لتنذر قوماً) وفى آخرها بقوله (ولقد آتينا موسى الكتاب) وذكر التوحيد بقوله (الذى خلق السموات والأرض) وقوله (الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين) وفى آخر السورة ذكره بقوله (أو لم يهد لهم) وقوله (أو لم يروا أنا نسوق) وذكر الحشر فى أولها بقوله (وقالوا أئذا ضللنا فى الأرض) وفى آخرها بقوله (ويقولون متى هذا الفتح) .

فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ قل يوم الفتح لاينفع الذين كفروا إيمانهم ولاهم ينظرون ﴾ أى لا يقبل إيمانهم فى تلك الحالة ، لأن الإيمان المقبول هو الذى يكون فى دار الدنيا ، ولا ينظرون ، أى لا يمهلون بالإعادة إلى الدنيا ليؤمنوا فيقبل إيمانهم ، ثم لما بين المسائل وأتقن الدلائل ولم ينفعهم . قال تعالى (فأعرض عنهم) أى لا تناظرهم بعد ذلك وإنما الطريق بعد هذا القتال . وقوله (وانتظر إنهم منتظرون) يحتمل وجوهاً (أحدها) وانتظر هلاكهم فانهم ينتظرون هلاكك ، وعلى هذا فرق بين الانتظارين ، لأن انتظار النبى ﷺ بأمر الله تعالى بعد وعده وانتظارهم بتسويل أنفسهم والتعويل على الشيطان (وثانيها) وانتظر النصر من الله فانهم ينتظرون النصر من آلهتهم وفرق بين الانتظارين (وثالثها) وانتظرعذابهم بنفسك فانهم ينتظرونه بلفظهم استهزاء ، كما قالوا (فأتنا بما تعدنا ، وقالوا متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) إلى غير ذلك ، والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب ، والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيد المرسلين محمد النبى وآله وصحبه أجمعين ، وعلى أزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين .

تفسير سورة السجدة

وهي مكِّيةٌ، غيرَ ثلاثِ آياتٍ نزلت بالمدينة، وهي قولُه تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ إلى تمام ثلاثِ آيات؛ قاله الكلبيُّ ومقاتل[1]. وقال غيرهما: إلَّا خمسَ آيات، من قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾[2]. وهي ثلاثون آيةً. وقيل: تسعٌ وعشرون.

وفي الصحيح عن ابن عباس أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقرأ في صلاة الفجر يومَ الجمعة: ﴿الم . تَنزِيلُ﴾ السجدة، و﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ الحديث[3].

وخرَّج الدراميُّ أبو محمد في «مسنده» عن جابر بن عبد الله قال: كان النبيُّ ﷺ لا ينامُ حتى يقرأ ﴿الم . تَنزِيلُ﴾ السجدة، و﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾[4].

قال الدَّراميُّ: وأخبرنا أبو المغيرة قال: حدثتنا[5] عَبْدةُ، عن خالد بن مَعْدَان قال: اقرؤوا المُنْجِيةَ، وهي ﴿الم . تَنزِيلُ﴾، فإنه بلغني أنَّ رجلاً كان يقرؤها، ما يقرأ شيئاً غيرَها، وكان كثيرَ الخطايا، فَنَشرَتْ جناحها عليه وقالت: ربِّ اغْفِرْ له، فإنه كان يُكْثِرُ[6] قراءتي. فشفَّعها الربُّ فيه وقال: «اكتُبوا له بكلِّ خطيئةٍ حسنةً،

---

(١) ذكره عنهما الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣٥٢، وأخرجه النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٨٠ عن ابن عباس.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٥٢.

(٣) صحيح مسلم (٨٧٩)، وهو عند أحمد (١٩٩٣). وأخرجه أيضاً أحمد (١٠١٠٢)، والبخاري (٨٩١)، ومسلم (٨٨٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) سنن الدرامي (٣٤١١)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٤٦٥٩)، والترمذي (٢٨٩٢)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٧٠٦) - (٧٠٩).

(٥) في النسخ: حدثنا، وهو خطأ.

(٦) بعدها في (د) و (م): من

وارفَعوا له درجة»(١).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ . تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الإجماع على رَفْعِ: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، ولو كان منصوباً على المصدر لجاز، كما قرأ الكوفيون: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ . عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ . تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [يس: ٣-٥](٢).

و «تَنْزِيلُ» رَفْعٌ بالابتداء، والخبرُ ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾. أو خبرٌ على إضمارِ مبتدأ، أي: هذا تنزيلُ، أو: المَتْلوُّ تنزيلُ، أو: هذه الحروفُ تنزيلُ. ودلَّت «الم» على ذكر الحروف. ويجوز أن يكون «لَا رَيْبَ فِيهِ» في موضع الحال من «الكتاب»، و ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الخبر، قال مكِّيّ(٣): وهو أَحْسَنُها.

ومعنى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: لا شكَّ فيه أنَّه من عندِ الله، فليس بسحرٍ ولا شعرٍ ولا كَهَانةٍ ولا أساطيرِ الأوّلين.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ هذه «أَمْ» المنقطعةُ التي تقدَّر بِبَلْ وألفِ

---

(١) سنن الدرامي (٣٤٠٨)، وهو ضعيف لإرساله. خالد بن معدان: ثقة عابد يرسل كثيراً، وأبو المغيرة: هو عبد القدُّوس بن الحجاج، ثقة. كذا في «تقريب التهذيب». وعبدة: هي بنت خالد بن معدان ذكرها ابن حبان في الثقات ٧/ ٣٠٧.

(٢) وهي قراءة حفص وابن عامر وحمزة والكسائي، وقرأ الباقون من السبعة بضم اللام. السبعة ص٥٣٩، والتيسير ص١٨٣. والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٩١.

(٣) في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٦٧، وما قبله منه.

الاستفهام، أي: بل أيقولون[١]. وهي تدلُّ على خروجٍ من حديثٍ إلى حديث، فإنه عزَّ وجلَّ أَثْبَتَ أنه تنزيلٌ من ربِّ العالمين، وأنَّ ذلك ممَّا لا ريبَ فيه، ثم أَضْرَبَ عن ذلك إلى قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي: افْتَعلَه واخْتَلقَه.

﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ كذَّبهم في دَعْوَى الافتراء. ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ قال قتادةُ: يعني قريشاً، كانوا أمَّةً أميَّةً لم يأتهم نذيرٌ من قَبلِ محمدٍ ﷺ[٢]. و «لِتُنْذِرَ» متعلِّقٌ بما قَبْلَها فلا يُوقَفُ على «مِن ربِّكَ». ويجوز أن يتعلَّق بمحذوف، التقدير: أنزله لتنذر قوماً، فيجوز الوقفُ على «مِن ربِّكَ»[٣]. و «ما» في قوله: ﴿مَّآ أَتَىٰهُم﴾ نفيٌ. ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾ صلة، و «نَذِيرٍ» في محلِّ الرفع، وهو المُعْلِمُ المُخَوِّف.

وقيل: المرادُ بالقوم أهلُ الفَترة بين عيسى ومحمدٍ عليهما السلام؛ قاله ابن عباس ومقاتل[٤]. وقيل: كانت الحجَّةُ ثابتةً لله جلَّ وعزَّ عليهم بإنذارِ مَن تقدَّم من الرسل وإنْ لم يَرَوْا رسولاً، وقد تقدَّم هذا المعنى[٥].

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ عرَّفهم كمالَ قدرته ليسمعوا القرآن ويتأمَّلوه. ومعنى «خَلَقَ»: أَبْدَعَ وأَوْجَدَ بعد العدَمَ وبعد أن لم تكن شيئاً.

﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ من يوم الأحد إلى آخِرِ يومِ الجمعة. قال الحسن: من أيام الدنيا. وقال ابن عباس: إنَّ اليوم من الأيام الستة التي خَلَقَ الله فيها السماواتِ

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٠٣ ، والإملاء للعكبري ٤/ ١٨٣ .

(٢) أخرجه الطبري ١٨/ ٥٩٠ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٧ .

(٤) ذكره عنهما البغوي في تفسيره ٣/ ٤٩٧ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٧ .

(٥) ينظر ١٣/ ٤٤ ، وسلف الكلام على أهل الفترة ٧/ ٣٩٠ .

والأرضَ مقدارُهُ ألفُ سنةٍ من سِنِي الدنيا. وقال الضحَّاك: في ستةِ آلافِ سنة، أي: في مدَّةِ ستةِ أيامٍ من أيام الآخرة[١].

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ تقدَّم في «الأعراف» و «البقرة»[٢] وغيرِهما، وذكرنا ما للعلماء في ذلك مستوفىً في «الكتاب الأَسْنَى في شَرْحِ أسماءِ اللهِ الحُسْنَى»[٣]. وليست «ثُمَّ» للترتيب، وإنَّما هي بمعنى الواو.

﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ أي: ما للكافرين من وليٍّ يَمنعُ من عذابهم «ولا شفيعٍ». ويجوز الرفعُ على الموضع[٤]. ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ في قدرته ومخلوقاته.

قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ قال ابن عباس: يُنزل القضاءَ والقَدَر[٥]. وقيل: يُنزل الوحيَ مع جبريل[٦]. وروى عمرو بن مرَّةَ عن عبد الرحمن بن سابط قال: يدبِّر أمرَ الدنيا أربعةٌ: جبريلُ، وميكائيلُ، ومَلَكُ الموتُ، وإسرافيلُ، صلواتُ الله عليهم أجمعين. فأمَّا جبريلُ فموكَّلٌ بالرياح والجنود، وأمَّا ميكائيلُ فموكَّلٌ بالقَطْرِ والماء، وأمَّا مَلَكُ الموت فموكَّلٌ بقبض الأرواح، وأمَّا إسرافيلُ فهو يَنْزِلُ بالأمر عليهم[٧].

---

(١) أخرج قول ابن عباس والضحاك الطبري ١٨/ ٥٩٤ . قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٨ : وهذا قول ضعيف مُكرَهَةٌ ألفاظُ هذه الآية عليه، رادَّةٌ له الأحاديثُ التي بيَّنت أيامَ خَلْقِ الله تعالى المخلوقات.

(٢) ٩/ ٢٣٨ وما بعدها، و ١/ ٣٨٠ وما بعدها.

(٣) ص١٨٧ وما بعدها.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٩١ .

(٥) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٤٥٠ ، والبغوي ٣/ ٤٩٧ دون نسبة.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٤٩٧ .

(٧) النكت والعيون ٤/ ٣٥٣ ، وأخرجه أبو الليث في التفسير ٣/ ٢٨ ، وأبو الشيخ في العظمة (٣٧٨) و(٣٨٠)، والبيهقي في الشعب (١٥٨).

وقد قيل: إنَّ العرش موضعُ التدبير، كما أنَّ ما دون العرش موضعُ التفصيل؛ قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ [الرعد: ٢]، وما دون السماوات موضع التصريف؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ [الفرقان: ٥٠].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ قال يحيى بن سلام: هو جبريلُ يصعَد إلى السماء بعد نزوله بالوحي. النقَّاش: هو الملَك الذي يدبِّر الأمرَ من السماء إلى الأرض. وقيل: إنَّها أخبارُ أهلِ الأرض تَصْعَدُ إليه مع حَمَلتِها من الملائكة؛ قاله ابن شجرة[1]. ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾.

وقيل: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ أي: يرجع ذلك الأمرُ والتدبير إليه بعد انقضاء الدنيا ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وهو يومُ القيامة.

وعلى الأقوال المتقدِّمة؛ فالكنايةُ في «يَعْرُجُ» كنايةٌ عن المَلَك، ولم يَجْرِ له ذِكْرٌ لأنه مفهومٌ من المعنى، وقد جاء صريحاً في ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ﴾ قولُه: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤].

والضميرُ في ﴿إِلَيْهِ﴾ يعود على السماء على لغةِ مَن يذكِّرها، أو على مكان المَلَكِ الذي يَرْجعُ إليه. أو على اسم الله تعالى؛ والمرادُ: إلى الموضع الذي أَقرَّه فيه، وإذا رَجَعَتْ إلى الله فقد رجعت إلى السماء، أي: إلى سِدْرة المنتهى؛ فإنه إليها يرتفع ما يُصْعَدُ به من الأرض، ومنها ينزل ما يُهْبَطُ به إليها، ثَبت معنى ذلك في «صحيح» مسلم[2].

والهاءُ في «مِقْدَارُهُ» راجعةٌ إلى التدبير، والمعنى: كان مقدارُ ذلك التدبيرِ ألفَ

(١) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٢٥٣-٢٥٤.

(٢) برقم (١٧٣)، وهو عند أحمد (٣٦٦٥)، وهو من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ، ولفظه: لمَّا أُسري برسول الله ﷺ، انتُهِيَ به إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة، إليها يَنتهي ما يُعرَج به من الأرض فيُقبض منها، وإليها ينتهي ما يُهبَطُ به من فوقها فيُقبض منها...

سنةٍ من سِني الدنيا، أي: يقضي أمرَ كلِّ شيءٍ لألفِ سنةٍ في يومٍ واحد، ثم يُلْقِيه إلى ملائكته، فإذا مَضَتْ قَضَى لألفِ سنةٍ أخرى، ثم كذلك أبداً؛ قاله مجاهد[١].

وقيل: الهاءُ للعُروج. وقيل: المعنى: أنه يدبِّر أمرَ الدنيا إلى أن تقوم الساعة، ثم يَعْرجُ إليه ذلك الأمرُ، فيَحْكُم فيه في يومٍ كان مقداره ألفَ سنة[٢].

وقيل: المعنى: يدبِّر أمرَ الشمس في طلوعِها وغروبِها ورجوعِها إلى موضعها من الطُّلوع، في يومٍ كان مقدارهُ في المسافة ألفَ سنة.

وقال ابن عباس: المعنى: كان مقدارُه لو سارَه غيرُ المَلَكِ ألفَ سنة؛ لأنَّ النزولَ خمسُ مئة، والصعود خمس مئة. ورُوي ذلك عن جماعةٍ من المفسِّرين، وهو اختيارُ الطَّبريِّ[٣]؛ ذكره المهدويُّ. وهو معنى القول الأول، أي: إنَّ جبريل لسرعةِ سَيْرِه يقطعُ مسيرةَ ألفِ سنةٍ في يومٍ من أيامكم؛ ذكره الزمخشريُّ[٤].

وذكر الماورديُّ[٥] عن ابن عباس والضحَّاكِ: أنَّ المَلَك يصعد في يومٍ مسيرةَ ألفِ سنة. وعن قتادةَ: أنَّ المَلَك ينزل ويصعد في يومٍ مقدارُه ألفَ سنة. فيكونُ مقدارُ نزوله خمسَ مئة سنة، ومقدارُ صعودِه خمس مئةٍ على قول قتادةَ والسدِّي. وعلى قول ابنِ عباس والضحاك: النزولُ ألفُ سنة، والصعودُ ألفُ سنة.

﴿مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ أي: مما تَحْسُبون من أيام الدنيا. وهذا اليومُ عبارةٌ عن زمان يتقدَّر بألف سنة من سِني العالَم، وليس بيومٍ يستوعبُ نهاراً بين ليلتين؛ لأنَّ ذلك ليس عند الله. والعربُ قد تعبِّر عن مدَّةِ العصر باليوم، كما قال الشاعر:

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٣٥٤، وأخرجه بنحوه الطبري ١٨/ ٥٩٥.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٤١.

(٣) في تفسيره ١٨/ ٥٩٦، وقد أخرج قول ابن عباس بنحوه ١٨/ ٥٩٣، وأخرجه أيضاً عن مجاهد وقتادة.

(٤) في الكشاف ٣/ ٢٤٠، ويعني بالقول الأول قولَ يحيى بن سلام.

(٥) في النكت والعيون ٤/ ٣٥٤.

يـومـان يـومُ مـقـامـاتٍ وأنـديـةٍ ويـومُ سيـرٍ إلـى الأعـداء تـأويـبِ[(١)]

وليس يريد يومين مخصوصين، وإنَّما أراد أنَّ زمانهم ينقسم شَطْرين، فعبَّر عن كلٍّ واحدٍ من الشطرين بيوم[(٢)].

وقرأ ابن أبي عبلة: «يُعْرَجُ» على البناء للمفعول. وقرئ: «يَعُدُّونَ» بالياء[(٣)].

فأمَّا قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ فمُشْكِلٌ مع هذه الآية. وقد سأل عبد الله بن فيروز الدَّيلميُّ عبدَ الله بن عباس عن هذه الآية، وعن قوله: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ فقال: أيامٌ سمَّاها سبحانه، وما أدري ما هي؟ فأكْره أن أقول فيها مالا أعلم. ثم سئل عنها سعيد بن المسيِّب فقال: لا أدري. فأخبرتُه بقول ابن عباس فقال ابن المسيِّب للسائل: هذا ابنُ عباس اتَّقى أن يقول فيها وهو أعلمُ منِّي[(٤)].

ثم تكلَّم العلماءُ في ذلك فقيل: إنَّ آية ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ﴾ هو إشارة إلى يوم القيامة، بخلاف هذه الآية، والمعنى: أنَّ الله تعالى جعله في صعوبته على الكفار كخمسين ألفَ سنة؛ قاله ابن عباس[(٥)]. والعربُ تَصِفُ أيامَ المكروه بالطول وأيامَ السرورِ بالقِصَر؛ قال:

ويـومٍ كـظـلِّ الـرُّمْـح قـصَّـر طـولَـه دَمُ الزِّقِّ عنَّا واصْطِفاقُ المزاهِرِ[(٦)]

---

(١) البيت لسلامة بن جندل، وهو في ديوانه ص٩٤، والخزانة ٤/ ٢٧. والكلام في النكت والعيون ٤/ ٣٥٤. قال البغدادي: المقامة بالفتح: المجلس، وروى أبو عمرو بالضم بمعنى الإقامة. وتأويب: صفةُ سيرٍ، وهو السرعة في السير والإمعان فيه.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٥٤.

(٣) الكشاف ٣/ ٢٤١، ونسب ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٨ قراءة: (يعدُّون) للأعمش والحسن بخلاف عنه.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ١٠٨. وقوله: فأخبرته بقول ابن عباس، القائل هو ابن أبي مليكة، وهو الذي روى الخبر. وأخرجه بنحوه أبو عبيد في فضائل القرآن ص٢٢٧-٢٢٨، والطبري ٢٣/ ٢٥٤، والحاكم ٤/ ٦١٠.

(٥) أخرجه النحاس في معاني القرآن ٥/ ٣٩٩.

(٦) قائله يزيد بن الطثريه، كما في الحيوان ٦/ ١٧٩، والصحاح (صفق)، وجمهرة الأمثال ٢/ ١٩، =

وقيل: إنَّ يومَ القيامة فيه أيام، فمنه ما مقدارُه ألفُ سنة، ومنه ما مقدارُه خمسون ألفَ سنة[١].

وقيل: أوقاتُ القيامة مختلفةٌ، فيعذَّب الكافر بجنسٍ من العذاب ألفَ سنة، ثم ينتقل إلى جنسٍ آخرَ مدَّتُه خمسون ألفَ سنة.

وقيل: مواقفُ القيامة خمسون موقفاً، كلُّ موقفٍ ألفُ سنةٍ. فمعنى: ﴿يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ أي: مقدارُ وقتٍ أو موقفٍ من يوم القيامة.

وقال النحَّاس[٢]: اليومُ في اللغة بمعنى الوقتِ، فالمعنى: تعرج الملائكةُ والروحُ إليه في وقتٍ كان مقدارُهُ ألفَ سنة، وفي وقتٍ آخَرَ كان مقدارُه خمسين ألفَ سنة.

وعن وهب بن منبِّهٍ: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: ما بين أسفلِ الأرض إلى العرش[٣].

وذكر الثعلبيُّ عن مجاهدٍ وقتادةَ والضحَّاك في قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ أراد: من الأرض إلى سِدرة المنتهى التي فيها جبريل. يقول تعالى: يسير جبريلُ والملائكة الذين معه من أهل مقامه مسيرةَ خمسين ألفَ سنةٍ في يومٍ واحدٍ من أيام الدنيا[٤].

وقوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ يعني إلى المكان الذي أمرهم الله تعالى أن يعرجوا إليه. وهذا كقولِ إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ أراد أرضَ الشام.

= وثمار القلوب للثعالبي ص٦٢٦، ومجمع الأمثال ١/ ٤٣٧ وأساس البلاغة (رمح). وذكره صاحب اللسان (صفق) وقال: قال ابن بري: نسب الجوهري هذا البيت ليزيد بن الطثرية، وصوابه لشبرقة بن الطفيل .اهـ. ويعني بدم الزق: الخمر، ووقع في ثمار القلوب: دم الدّنّ.

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٣٠٠.

(٢) في معاني القرآن ٥/ ٣٠٠.

(٣) أخرجه النحاس في معاني القرآن ٥/ ٢٩٩.

(٤) ذكره عن مجاهد وقتادة البغوي ٣/ ٤٩٧-٤٩٨.

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: إلى المدينة.

وقال أبو هريرة: قال النبيُّ ﷺ: «أتاني مَلَكٌ من ربِّي عزَّ وجلَّ برسالةٍ، ثم رَفَعَ رِجلَه، فوضعها فوقَ السماءِ، والأخرى على الأرض لم يَرفَعْها بعد»[١].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: عَلِم ما غاب عن الخَلقِ وما حَضَرهم. و«ذَلِكَ» بمعنى أنا. حسبما تقدَّم بيانُه في أوّل «البقرة»[٢]. وفي الكلام معنى التهديدِ والوعيد، أي: أَخْلِصوا أفعالَكم وأقوالَكم، فإني أُجازي عليها.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ قرأ ابنُ كثير وأبو عمرو وابنُ عامر: «خَلْقَهُ» بإسكان اللام. وفَتَحها الباقون[٣]، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم طلباً لسُهولتها. وهو فعلٌ ماضٍ في موضعِ خفضٍ نعتٍ لـ «شيء». والمعنى على ما روي عن ابن عباس: أَحْكَمَ كلَّ شيءٍ خَلَقَه، أي: جاء به على ما أراد، لم يتغيَّر على إرادته. وقولٌ آخَر: أنَّ كلَّ شيءٍ خَلَقَه حَسَن؛ لأنه لا يَقْدِرُ أحدٌ أن يأتيَ بمثله، وهو دالٌّ على خالقه[٤].

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٦٨٥)، وابن عدي في الكامل ٤/ ١٣٩٢ . قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٨٠ : فيه صدقة بن عبد الله التنيسي، والأكثر على تضعيفه، ووثقه يحيى بن معين ودُحيم. اهـ وقال ابن عدي: أحاديث صدقة منها ما توبع عليه، وأكثره مما لا يتابع عليه، وهو إلى الضعف أقرب منه إلى الصدق .اهـ. وقد حسَّنه المناوي في فيض القدير ١/ ١٠٥ .

(٢) ١/ ٢٤٢ .

(٣) السبعة ص٥١٦ ، والتيسير ص١٧٧ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٩٢ .

وَمن أَسْكَنَ اللَّامَ فهو مصدرٌ عند سيبويه؛ لأنَّ قوله: ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾يدلُّ على: خَلَق كلَّ شيءٍ خَلْقاً، فهو مثل: ﴿صُنْعَ اللَّهِ﴾ [النمل:٨٨] و ﴿كِتَٰبَ اللَّهِ عَلَيْكُمْۚ﴾ [النساء:٢٤][(١)]. وعند غيره منصوبٌ على البدل من «كلّ» أي: الذي أَحْسَنَ خَلْقَ كلّ شيءٍ. وهو مفعولٌ ثانٍ عند بعضِ النَّحْويين، على أن يكون معنى «أَحْسَنَ»: أَفْهَمَ وأَعْلَمَ، فيتعدَّى إلى مفعولين، أي: أَفْهَم كلَّ شيءٍ خَلْقَه[(٢)].

وقيل: هو منصوبٌ على التفسير، والمعنى: أَحْسَن كلَّ شيء خَلْقاً.

وقيل: هو منصوبٌ بإسقاطِ حرف الجرّ، والمعنى: أَحْسَن كلَّ شيء في خَلْقِه، وروي معناه عن ابن عباس[(٣)].

و﴿أَحْسَنَ﴾ أي: أَتْقَنَ وأَحْكَم، فهو حَسَنٌ[(٤)] من جهةِ ما هو لمقاصده التي أُريدَ لها، ومِن هذا المعنى [ما] قال ابن عباس وعكرمةُ: ليست اسْتُ القرد بحسنةٍ، ولكنَّها متقَنةٌ محكَمةٌ[(٥)].

وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد: ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ قال: أتقنه، وهو مثلُ قوله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [طه:٥٠] أي: لم يخلق الإنسان على خَلْقِ البهيمة ولا خَلَقَ البهيمةَ [على] خَلْقِ الإنسان[(٦)].

---

(١) ينظر الكتاب ١/ ٣٨١-٣٨٢ ، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٩٢ ، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٦٧ .
قال سيبويه: وقال: «كتابَ الله» توكيداً، كما قال: «صُنْعَ الله»، وكذلك: «وَعْدَ الله» [الروم:٥]؛ لأن الكلام الذي قبله وَعْد وصُنْع، فكأنه قال جل وعز: وَعْداً وصُنْعاً وخَلْقاً وكتاباً. اهـ. فالهاء على هذا القول تعود على الله تعالى، و«خَلْقَه» مصدرٌ مؤكِّدٌ لمضمون الجملة. الدر المصون ٩/ ٨٢ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٩٢ .

(٣) ذكره النحاس في معاني القرآن ٥/ ٣٠١ .

(٤) في (ظ) و (م): أحسن، والمثبت من باقي النسخ، وهو موافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٩ ، والكلام منه.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٥٩ ، وما سلف بين حاصرتين منه. وقول ابن عباس أخرجه الطبري ١٨/ ٥٩٧ - ٥٩٨ من طريق عكرمة عنه.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٣٠٠-٣٠١ ، وما بين حاصرتين منه. وأخرج قول مجاهد الطبري ١٨/ ٥٩٨ .

ويجوز: «خَلْقُهُ» بالرفع، على تقدير: ذلك خَلْقُه[١].

وقيل: هو عمومٌ في اللفظ؛ خصوصٌ في المعنى، والمعنى: حسَّن خَلْقَ كلِّ شيءٍ حَسَنٍ.

وقيل: هو عمومٌ في اللفظ والمعنى: أي: جعل كلَّ شيء خَلَقَه حسناً، حتى جَعَلَ الكلبَ في خَلْقِه حسناً؛ قاله ابن عباس[٢]. وقال قتادة في اسْتِ القرد: حسنة[٣].

قوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ﴾ يعني آدم ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ تقدَّم في «المؤمنون»[٤] وغيرها. وقال الزَّجَّاج: ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾: ضعيف. وقال غيره: «مَهِينٍ»: لا خَطَر له عند الناس[٥].

﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ رَجَع إلى آدم، أي: سوَّى خَلْقَه ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾، ثم رجع إلى ذرِّيَّته، فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ﴾.

وقيل: ثم جعل ذلك الماءَ المَهينَ خَلْقاً معتدلاً، وركَّب فيه الروحَ، وأضافه إلى نَفْسِه تشريفاً، وأيضاً فإنه مِن فِعْله وخَلْقِه، كما أضاف العبدَ إليه بقوله: «عَبْدي». وعبَّر عنه بالنفخ؛ لأنَّ الروح في جنس الريح. وقد مضى هذا مبيَّناً في «النساء»[٦] وغيرها. ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: ثم أنتم لا تشكرون، بل تكفرون.

---

(١) ذكر هذا القول الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٢٠٤، وعنه النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٢٩٢. قال الزجاج: ولا أعلم أحداً قرأ بها.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٥٥، وأخرجه عن ابن عباس ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ١٧٢، وذكره النحاس في معاني القرآن ٥/ ٣٠١.

(٣) لم نقف عليه، وأخرج عبد الرزاق في التفسير ٢/ ١٠٩ عن قتادة: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ قال: أَحْسَنَ خَلْقَ كلِّ شيء.

(٤) ١٥/ ١٧ - ١٨.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٩٢، وقول الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٢٠٥.

(٦) ٧/ ٢٣٢.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هذا قولُ مُنْكِري البعثِ، أي: هَلَكْنا وبَطَلْنا وصِرْنا تراباً. وأصلُه من قول العرب: ضلَّ الماء في اللَّبن: إذا ذهب. والعربُ تقول للشيء غَلَبَ عليه غيرُه حتى خَفِيَ فيه أثرُه: قد ضلَّ، قال الأخطل:

كنتَ القَذَى في موجِ أكْدرَ مُزْبِدٍ قَذَفَ الأتيُّ به فضلَّ ضلالا[(١)]

وقال قُطْرُب: معنى ضلَلْنا: غِبْنا[(٢)] في الأرض. وأنشد قولَ النابغة الذبيانيِّ:

فآبَ مُضِلُّوهُ بعينٍ جَلِيَّةٍ وغُودِرَ بالجَوْلانِ حَزْمٌ ونَائِلُ[(٣)]

وقرأ ابن مُحيصِن ويحيى بنُ يَعْمُر: «ضَلِلْنَا» بكسر اللَّام، وهي لغة[(٤)]. قال الجوهريُّ[(٥)]: وقد ضَلَلْتُ أضِلُّ؛ قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ [سبأ: ٥٠]. فهذه لغةُ نجدٍ، وهي الفصيحة. وأهلُ العالية يقولون: «ضَلِلْتُ» - بكسر اللام - أضَلُّ. وهو ضالٌّ تالٌّ، وهي الضلالةُ والتلالة. وأضلَّه، أي: أضاعه وأهلكه. يقال: أُضِلَّ الميّت: إذا دُفن؛ قال: وآب[(٦)] مُضِلُّوه، البيت.

---

(١) ديوان الأخطل ص٥٠ . وقوله: الأَتيُّ، أي: السيل الغريب. القاموس (أتى)، والكلام في تفسير الطبري ١٨/ ٦٠٢ ، والنكت والعيون ٤/ ٣٥٦ .

(٢) في (د) و(ظ): أغبنا، وفي النكت والعيون ٤/ ٣٥٦ (والكلام منه): غُيِّبنا.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٣٥٦ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٦٠ ، واللسان (ضلل). وهو في ديوانه ص٩٠ برواية: مَضَلُّوه. وفي الجمهرة ٣/ ٢٢٨ برواية: مصَلُّوهم. قال ابن دريد: لأنهم كانوا نصارى، ويروي الكوفيون: مُضِلُّوه. أي: دافِنوه. اهـ وقال صاحب اللسان: وقوله: بعينٍ جَلِيَّة، أي: بخبر صادق أنه مات، والجولان: موضع بالشام. أي: دُفن بدَفْن النعمان الحزمُ والعطاء. والنعمان هو ابن الحارث بن شمر الغساني، والبيت من قصيدة في رثائه.

(٤) القراءات الشاذة ص١١٨ عن يحيى بن وثاب، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٩٣ عن أبي رجاء وطلحة.

(٥) في الصحاح (ضلل).

(٦) في (م): فآب، والمثبت من النسخ الخطية والصحاح.

ابن السِّكِّيت: أضللتُ بعيري: إذا ذهب منك. وضَللت المسجدَ والدار: إذا لم تَعْرِفْ موضعَهما. وكذلك كلُّ شيءٍ مقيمٍ لا يُهتَدَى له. وفي الحديث: «لعلّي أَضِلُّ الله»[١] يريد: أضلُّ عنه، أي: أَخْفَى عليه، من قوله تعالى: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: خَفِينا. وأضلَّه الله فضَلَّ؛ تقول: إنك تَهدِي الضالَّ ولا تهدي المتضَالَّ.

وقرأ الأعمش والحسن: «صَلِلْنا» بالصاد، أي: أنتنَّا. وهي قراءة عليّ بن أبي طالب ﷺ[٢]. النحاس: ولا يُعرف في اللغة: صَلِلْنا، ولكن [يُعرف صَلَلْنا] يقال: صَلَّ اللحمُ وأَصَلَّ، وخَمَّ وأَخَمَّ: إذا أَنْتَن[٣]. الجوهريُّ: صلَّ اللحم يصِلُّ - بالكسر - صُلولاً، أي: أنتن، مطبوخاً كان أو نيئاً؛ قال الحُطَيئة:

ذاك فتى يَبْذُل ذا قِدْرِهِ لَا يُفْسِدُ اللحمَ لديه الصُّلولْ

وأَصَلَّ مِثْلُه[٤].

﴿إِنَّا[٥] لَفِي خَلْقٍ جديدٍ﴾ أي: نُخلَق بعد ذلك خَلْقاً جديداً؟ ويُقرأ: ﴿أَءِنَّا﴾[٦]. النحاس: وفي هذا سؤالٌ صعبٌ من العربية؛ يقال: ما العاملُ في «إذَا»، و«إنَّ» لا

(١) أخرجه أحمد (٢٠٠١٢) من حديث معاوية بن حيدة ﷺ في قصة الرجل الذي طلب أن يحرقوه بعد موته ثم يَذْروه، وقد سلف نحوه ١٤/ ٢٧٢ من حديث أبي هريرة.

(٢) المحتسب ٢/ ١٧٣، دون ذكر الأعمش، وزاد نسبتها لابن عباس وأبان بن سعيد بن العاص، وقال: وقرأ أيضاً بالصاد - مفتوحة اللام - الحسن بخلاف. غير أن ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٠، وأبا حيان في البحر المحيط ٧/ ٢٠٠ نسبا إليهم القراءة بفتح اللام.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٩٣، وما سلف بين حاصرتين منه، وبنحوه قول الفراء في معاني القرآن ٢/ ٣٣١. قال السمين في الدر المصون ٩/ ٨٤ - بعد أن ذكر قول النحاس -: وقد عرفها غيرُ أبي جعفر. اهـ. وقال ابن جني في المحتسب ٢/ ١٧٤: صَلَّ يَصِلُّ، وصَلَّ يَصَلُّ - بالفتح -، والكسرُ أقوى اللغتين.

(٤) الصحاح (صلل)، والبيت في شرح ديوان الحطيئة ص٧٧.

(٥) في (د) و(ظ): أينا، وهي قراءة على ما يأتي.

(٦) قرأ نافع والكسائي: «إنا». والباقون من السبعة بالاستفهام؛ كلٌّ على أصله. ينظر السبعة ص٢٨٥-٢٨٦، والتيسير ص١٣٢ - ١٣٣.

يعمل ما بَعْدَها فيما قَبْلَها؟ والسؤالُ في الاستفهام أشدُّ؛ لأنَّ ما بعدَ الاستفهام أَجْدَرُ أَلَّا يَعمَلَ فيما قبلَه من «إنَّ»، كيف وقد اجتمعا؟ فالجوابُ على قراءة مَن قرأ: «إنَّا»: أنَّ العامل «ضَلَلْنَا»، وعلى قراءة مَن قرأ: «أئِنَّا» أنَّ العامل مضمَر، والتقدير: أنُبْعَثُ إذا مِتْنا؟ وفيه أيضاً سؤالٌ آخر، يقال: أين جوابُ «إذَا» على القراءة الأولى لأنَّ فيها معنى الشرط؟ فالقولُ في ذلك أنَّ بعدها فعلاً ماضياً؛ فلذلك جازَ هذا(١).

﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾ أي: ليس لهم جحودُ قدرةِ الله تعالى عن الإعادة؛ لأنهم يعترفون بقدرته، ولكنهم اعتقدوا أنْ لا حسابَ عليهم، وأنَّهم لا يَلْقَوْن الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ لمَّا ذَكَر استبعادَهم للبعث؛ ذَكَر تَوفِّيهم وأنه يُعيدُهم. ﴿يَتَوَفَّىٰكُم﴾ مِن تَوَفَّى العددَ والشيء: إذا استوفاه وقَبَضَه جميعاً. يقال: تَوفَّاه الله، أي: استوفَى روحَه ثم قَبَضَه. وتَوفَّيتُ مالي من فلان، أي: استوفيته.

﴿مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ واسمه عزرائيل، ومعناه: عبد الله؛ كما تقدَّم في «البقرة»(٢). وتَصرُّفُه كلُّه بأمرِ الله تعالى وبخَلْقِه واختراعه. وروي في الحديث أنَّ: «البهائم كلّها يتوفَّى الله أرواحَها دون مَلَك الموت» كأنه يعدم حياتها؛ ذكره ابن عطية(٣).

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٩٣ ، والكلام بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٠٥ .

(٢) ٢/ ٢٦٥ . وتسمية ملك الموت بعزرائيل أمر اشتهر عند كثير من أهل التفسير، ولم ينقل في ذلك نص صحيح.

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٠ . والحديث أخرجه بنحوه العقيلي في الضعفاء ٤/ ٣٢١ ، وأبو الشيخ في العظمة (١٢٣٢)، وابن الجوزي في الموضوعات (١٦٤٥) عن أنس ﷺ. قال ابن الجوزي: هذا حديث موضوع، وقال العقيلي: هذا الحديث لا أصل له.

قلت: وقد روي خلافُه، وأنَّ مَلَك الموت يتوفَّى أرواحَ جميعِ الخلائق حتى البرغوثُ والبعوضة. روى جعفر بن محمد عن أبيه قال: نظر رسول الله ﷺ إلى مَلَك الموت عند رأس رجل من الأنصار، فقال له النبيُّ ﷺ: «ارْفُقْ بصاحبي فإنَّه مؤمن» فقال مَلَك الموت عليه السلام: «يا محمد، طِبْ نَفْساً وقَرَّ عَيْناً، فإنِّي بكلِّ مؤمنٍ رفيقٌ، واعلَمْ أنَّ ما من أهلِ بيتِ مَدَرٍ ولا شعرٍ في بَرٍّ ولا بحرٍ إلَّا وأنا أتصفَّحُهم في كلِّ يومٍ خمسَ مرات، حتى لَأنا أعْرَفُ بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم. والله يا محمد لو أنِّي أردتُ أن أقبضَ روحَ بعوضةٍ ما قدرتُ على ذلك حتى يكون الله هو الآمِرُ بقَبْضِها». قال جعفر بن عليٍّ: بلغني أنه يتصفَّحُهم عند مواقيت الصلوات؛ ذكره الماورديُّ[١].

وذكر الخطيب أبو بكر أحمد بن عليّ بن ثابت البغداديُّ قال: حدَّثني أبو محمد الحسن بن محمد الخلَّالُ قال: حدَّثنا أبو محمد عبد الله بن عثمان الصفَّار قال: حدَّثنا أبو بكر حامد المصريُّ قال: حدَّثنا يحيى بنُ أيوب العلَّاف قال: حدثنا سليمان ابن مُهير الكلابيُّ قال: حضرتُ مالك بن أنس ﷺ فأتاه رجلٌ فسأله: أبا عبد الله، البراغيثُ؛ أمَلَكُ الموت يقبض أرواحها؟ قال: فأطْرقَ مالك طويلاً ثم قال: ألَها أنفُسٌ؟ قال: نعم! قال: مَلَكُ الموت يقبض أرواحها؛ ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾.

قال ابن عطيةَ بعد ذِكْرِه الحديثَ[٢]: وكذلك الأمرُ في بني آدم، إلَّا أنه نوعُ شُرِّفَ

---

(١) في النكت والعيون ٤/ ٣٧٥ ، وجعفر بن علي هو جعفر بن محمد بن علي راوي الخبر، وقد أخرجه هكذا منقطعاً أبو الشيخ في العظمة (٤٧٥)، وابن أبي حاتم كما ذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية. وأخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٢٥٤)، والبزار (٧٨٤)، والطبراني في الكبير (٤١٨٨) من طريق جعفر بن محمد، عن أبيه، عن الحارث بن الخزرج الأنصاري، عن أبيه، عن النبي ﷺ. وفي إسناده عمرو بن شَمِر، قال الحافظ في الإصابة ٣/ ٩٣ : متروك الحديث.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٠ ، ويعني بالحديث حديث أنس السالف: «البهائم كلُّها يتوفى الله أرواحها...».

بتصرُّفِ مَلَكٍ وملائكةٍ معه في قَبْضِ أرواحهم.

فخَلَقَ الله تعالى مَلَك الموت، وخَلَق على يديه قَبْضَ الأرواح واسْتِلَالَها من الجسام وإخراجَها منها، وخَلَق الله تعالى جنداً يكونون معه يعملون عَمَلَه بأمره، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ [الأنفال: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١] وقد مضى هذا المعنى في «الأنعام»[١]. والباريءُ خالقُ الكلِّ، الفاعِلُ حقيقةً لكلِّ فِعْلٍ؛ قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]. ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: ٢]. ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [الأعراف: ١٥٨]. فملَكُ الموت يقبض، والأعوانُ يعالِجون، والله تعالى يُزْهِق الروح. وهذا هو الجمعُ بين الآيِ والأحاديث، لكنه لمَّا كان مَلَكُ الموت متولِّيَ ذلك بالوساطة والمباشَرة، أُضيف التوفِّي إليه كما أضيف الخَلْقُ للمَلَك، كما تقدَّم في «الحج»[٢].

ورُوي عن مجاهدٍ: أنَّ الدنيا بين يدي مَلَك الموت كالطَّسْتِ بين يدي الإنسان يأخذ من حيث شاء[٣]. وقد رويَ هذا المعنى مرفوعاً، وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»[٤]. ورويَ أنَّ مَلَك الموت لمَّا وكَّله الله تعالى بقَبْضِ الأرواح قال: ربِّ جعلتني أُذكر بسوءٍ ويشتمني بنو آدم. فقال الله تعالى له: «إنِّي أجعل للموت عِلَلاً وأسباباً من الأمراض والأسقام يَنْسِبون الموتَ إليها فلا يذكُرك أحدٌ إلَّا بخير». وقد

(١) ٨/ ٤١٠.

(٢) ١٤/ ٣١٥ - ٣١٦.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٠٩، والطبري ١٨/ ٦٠٤، وأبو الشيخ في العظمة (٤٣٥) و(٤٣٦).

(٤) ص٩٣، وذكر المصنف في هذا المعنى حديثاً عن ابن عباس في قصة الإسراء، ولم نقف عليه عند غير المصنف، وأخرج ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ١٧٢ عن زهير بن محمد عن النبي ﷺ مثل خبر مجاهد، وهو منقطع.

ذكرناه في «التذكرة» مستوفًى[١] ـ وقد ذَكَرنا أنه يدعو الأرواحَ فتَجيئُه ويقبضها، ثم يُسلِّمها إلى ملائكة الرحمة أو العذاب ـ بما فيه شفاءٌ لمن أراد الوقوفَ على ذلك[٢].

الثانية: استدلَّ بهذه الآيةِ بعضُ العلماء على جواز الوكالة من قوله: ﴿وُكِّلَ بِكُمْ﴾ أي: بقبض الأرواح. قال ابن العربيِّ[٣]: وهذا أُخذ من لَفْظِه لا من معناه، ولو اطَّرد ذلك لقلنا في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]: إنها نيابةٌ عن الله تبارك وتعالى، ووكالةٌ في تبليغ رسالته، ولقلنا أيضاً في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: إنه وكالةٌ؛ فإنَّ الله تعالى ضَمِنَ الرزقَ لكلِّ دابَّةٍ، وخَصَّ الأغنياءَ بالأغذية، وأَوْعَزَ إليهم بأنَّ رِزْقَ الفقراء عندهم، وأَمر بتسليمه إليهم مقدَّراً[٤] معلوماً في وقتٍ معلوم، دبَّره بعلمه، وأَنْفَذه من حُكْمِه، وقدَّره بحِكْمته. والأحكامُ لا تتعلَّق بالألفاظ إلَّا أنْ تَرِد على موضوعاتها الأصليةِ في مقاصدها المطلوبة، فإنْ ظَهَرَتْ في غير مَقْصِدِها لم تُعلَّق عليها. أَلَا ترى أنَّ البيع والشراء معلومُ اللفظ والمعنى، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة:١١١] ولا يقال: هذه الآيةُ دليلٌ على جواز مبايعةِ السيد لعبده؛ لأنَّ المَقصِدَيْن مختلفان.

أَمَا إنه إذا لم يكن بدٌّ من المعاني فيقال[٥]: إنَّ هذه الآيةَ دليلٌ على أنَّ للقاضي أن يَسْتَنيبَ مَن يأخذ الحقَّ ممَّن هو عليه قسراً دون أن يكون له في ذلك فِعْلٌ، أو يرتبط به رضاً إذا وجد ذلك.

---

(١) ص٧٠، وأخرج نحوه أبو الشيخ في العظمة (٤٣٩) عن جابر بن زيد قوله.

(٢) ينظر التذكرة ص١١٩ وما بعدها، وذكر فيه المصنف حديث البراء ﷺ، وقد سلف تخريجه ٢١٨/٩ و ٣٨٧/١٤.

(٣) في أحكام القرآن ١٤٨٨/٣ - ١٤٨٥.

(٤) في (خ) و(م): مقداراً، والمثبت من باقي النسخ وأحكام القرآن لابن العربي.

(٥) العبارة في أحكام القرآن: أما إنه إذا لم يكن بدٌّ من التسوُّر على المعاني، ودفعِ الجهل عنها في غير موضعها، والإعراض عن المقاصد في ذلك فيقال.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ابتداءٌ وخبر. قال الزجَّاج[١]: والمخاطبةُ للنبيِّ ﷺ مخاطبةٌ لأمته. والمعنى: ولو ترى يا محمدُ مُنْكِري البعثِ يومَ القيامة لرأيتَ العجبَ. ومذهبُ أبي العباس غيرُ هذا، وأن يكون المعنى: يا محمدُ، قل للمجرم: ولو ترى إذ المجرمون ناكِسو رؤوسهم عند ربِّهم لندمتَ على ما كان منك[٢].

﴿نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾ أي: من النَّدم والخِزْي والحُزن والذُّلِّ والغمِّ ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: عند محاسبةِ ربِّهم وجزاءِ أعمالهم. ﴿رَبَّنَآ﴾ أي: يقولون: ربَّنا ﴿أَبْصَرْنَا﴾ أي: أبْصَرنا ما كنَّا نكذِّب ﴿وَسَمِعْنَا﴾ ما كنَّا نُنْكِر. وقيل: ﴿أَبْصَرْنَا﴾ صِدْقَ وَعيدك ﴿وَسَمِعْنَا﴾ تصديقَ رُسُلك، أَبْصَرُوا حين لا ينفعهم البصر، وسمعوا حين لا ينفعهم السمع.

﴿فَٱرْجِعْنَا﴾ أي: إلى الدنيا ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ أي: مصدِّقون بالبعث؛ قاله النقَّاش. وقيل: مصدِّقون بالذي جاء به محمدٌ ﷺ أنه حقٌّ؛ قاله يحيى بن سلام. قال سفيان الثوريُّ: فأكْذبهم الله تعالى فقال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨][٣].

وقيل: معنى «إِنَّا مُوقِنُونَ» أي: قد زالت عنَّا الشُّكوكُ الآن، وكانوا يسمعون ويُبصرون في الدنيا، ولكن لم يكونوا يتدبَّرون، وكانوا كَمَن لا يُبْصِر ولا يسمع، فلمَّا تنبَّهوا في الآخرة صاروا حينئذٍ كأنهم سمعوا وأبصروا.

وقيل: أي: ربَّنا لك الحجةُ، فقد أَبْصَرنا رسلك وعجائبَ خَلْقِك في الدنيا،

---

(١) في معاني القرآن ٤/ ٢٠٦، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٢٩٤.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٩٤، وأبو العباس هو محمد بن يزيد المبرِّد.

(٣) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣٥٩.

وسمعنا كلامهم، فلا حجةَ لنا. فهذا اعترافٌ منهم، ثم طلبوا أن يُردُّوا إلى الدنيا ليؤمنوا.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾

قال محمد بن كعب القُرَظيُّ: لمَّا قالوا: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ ردَّ عليهم بقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ يقول: لو شئتُ لهديتُ الناسَ جميعاً فلم يَخْتلِفْ منهم أحدٌ ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ الآيةَ. ذَكَره ابن المبارك في «رقائقه» في حديثٍ طويل. وقد ذَكَرناه في «التذكرة»[1].

النحَّاس[2]: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ في معناه قولان: أحدهما: أنه في الدنيا. والآخَر: أنَّ سياق الكلام يدلُّ على أنه في الآخرة، أي: لو شئنا لرددْناهم إلى الدنيا والمحنةِ كما سألوا ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي: حقَّ القولُ منِّي لأعذِّبنَّ مَن عصاني بنارِ جهنَّم. وعَلِم الله تبارك وتعالى [أنه] لو ردَّهم لعادوا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وهذه الهدايةُ معناها خَلْقُ المعرفةِ في القلب. وتأويلُ المعتزلة: ولو شئنا لأكْرهناهم على الهداية بإظهارِ الآيات الهائلة، لكنْ لا يَحْسُنُ منه فِعْلُه؛ لأنه يَنْقُض الغرضَ المُجْرَى بالتكليف إليه، وهو الثوابُ الذي لا يُستحقُّ إلَّا بما يفعله المكلَّف باختياره[3].

---

(١) ص٤١٧، وقد ذكره المصنف فيه بتمامه، وورد بعضه في الزهد لابن المبارك ص٩١ (زوائد نعيم) وسقط معظمه بسبب سقط ورقة من الأصل كما ذكر محققه. وأخرجه من طريق ابن المبارك الطبري ١١٩/١٧.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٢٩٤، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٣) قاله الزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٤٢.

وقالت الإماميَّة في تأويلها(١): إنه يجوز أنْ يريد هُداها إلى طريق الجنة في الآخرة ولم يعاقب أحداً، لكنْ حقَّ القولُ منه أنه يملأ جهنم، فلا يجب على الله تعالى عندنا هدايةُ الكلِّ إليها، قالوا: بل الواجبُ هدايةُ المعصومين، فأمَّا مَن له ذنبٌ فجائزٌ هدايته إلى النار جزاءً على أفعاله.

وفي جواز ذلك مَنْعٌ؛ لقَطْعِهم على أنَّ المراد: هُداها إلى الإيمان.

وقد تكلَّم العلماء عليهم في هذين التأويلين بما فيه كفايةٌ في أصول الدين. وأقربُ ما لهم في الجواب أنْ يقال: فقد بَطَل عندنا وعندكم أنْ يهديَهم الله سبحانه على طريق الإلجاءِ والإجبار(٢) والإكراه، فصار يؤدِّي ذلك إلى مذهب الجَبْريَّة، وهو مذهبٌ رَذْلٌ عندنا وعندكم، فلم يبق إلَّا أنَّ المهتدين من المؤمنين إنَّما هَداهم الله تعالى إلى الإيمان والطاعة على طريق الاختيار حتى يصحَّ التكليفُ، فَمَن شاء آمَنَ وأطاع اختياراً لا جَبْراً؛ قال الله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ [التكوير:٢٨]، وقال: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [الإنسان:٢٩]. ثم عقَّب هاتين الآيتين بقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الإنسان:٣٠، والتكوير:٢٩]. فوقع إيمانُ المؤمنين بمشيئتهم، ونَفَى أن يشاؤوا إلَّا أن يشاء الله، ولهذا أفرَطَتْ(٣) المُجْبرةُ لمَّا رأَوْا أنَّ هدايتهم إلى الإيمان معذوقٌ(٤) بمشيئة الله تعالى، فقالوا: الخَلْقُ مجبورون في طاعتهم كلِّها، التفاتاً إلى قوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾. وفرَّطت القدريةُ لمَّا رأوا أنَّ هدايتهم إلى الإيمان معذوقٌ بمشيئة العباد، فقالوا: الخَلْقُ خالقون لأفعالهم، التفاتاً منهم إلى قوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾.

---

(١) الكلام من هذا الموضع حتى آخر تفسير الآية من حز الغلاصم لشيث بن إبراهيم ص٨٦ - ٨٨.

(٢) في حز الغلاصم: على طريق الإلجاء؛ لأن الإلجاء هو الإجبار...

(٣) في النسخ: فرطت، والمثبت من حز الغلاصم.

(٤) في (ظ): أن هدايتهم مقرونة.

ومذهبُنا هو الاقتصادُ في الاعتقاد، وهو مذهبٌ بين مَذْهَبَي المُجْبرةِ والقدرية، وخيرُ الأمور أوساطُها. وذلك أنَّ أهل الحقِّ قالوا: نحن نفرِّق بين ما اضطُرِرْنا إليه وبين ما اخْتَرْناه، وهو أنَّا نُدْرِكُ تَفْرِقةً بين حركة الارتعاش الواقعةِ في يد الإنسان بغيرِ مُحاولتِه وإرادتِه ولا مقرونة بقُدْرَته، وبين حركةِ الاختيار إذا حرَّك يده حركةً مماثلةً لحركة الارتعاش. ومَن لا يفرِّق بين الحركتين: حركةِ الارتعاش وحركة الاختيار ـ وهما موجودتان في ذاته، ومحسوستان في يده بمشاهدته وإدراكِ حاسَّته ـ فهو معتوهٌ في عقله، ومختلٌّ في حِسِّه، وخارجٌ من حِزْب العقلاء. وهذا هو الحقُّ المُبين، وهو طريقٌ بين طريقي الإفراطِ والتفريط، و:

كِلا طَرَفَيْ قَصْدِ الأمور ذَمِيمُ(١)

وبهذا الاعتبارِ اختارَ أهلُ النَّظر من العلماء أنْ سَمَّوْا هذه المنزلةَ بين المنزلتين كَسْباً(٢)، وأخذوا هذه التسميةَ من كتاب الله العزيز، وهو قوله سبحانه: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه من النسيان الذي لا ذِكْرَ معه، أي: لم يعملوا لهذا اليوم، فكانوا بمنزلةِ النَّاسِين. والآخَر: أنَّ ﴿نَسِيتُمْ﴾ بمعنى(٣) تركتُم، وكذا ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾؛ واحتجَّ محمد بنُ يزيد بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ﴾ [طه: ١١٥] قال: والدليلُ على

(١) سلف ٧/٢٢٩ عن الإمام حَمْد بن محمد الخطابي، وصدره: ولا تَغْلُ في شيءٍ من الأمر واقْتَصِدْ. وإنما ضمَّنه الخطابي في شعره، كما ذكر البغدادي في الخزانة ٢/١٢٢ - ١٢٣ ، حيث ذكر صدره برواية ثانية وقرن به بيتاً آخر وقال: وكمله بالمصاريع الثلاثة صاحب العباب في شرح أبيات الآداب (وهو حسن بن صالح العدوي اليمني) وقال البغدادي: ولا أعلم قائل هذين البيتين، ولا رأيتهما إلا في كتاب العباب.

(٢) مذهب الأشاعرة في مسألة الكسب يؤول إلى سلب الإرادة عن العبد والوقوع في مذهب المجبِرة.

(٣) في النسخ: بما، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٩٤ ، والكلام منه.

أنَّه بمعنى تَرَكَ أنَّ الله عزَّ وجلَّ أخبر عن إبليس أنه قال: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ [الأعراف: ٢٠] فلو كان آدم ناسياً لكان قد ذكَّره، وأنشد:

كأنه خارجاً من جَنْبِ صَفْحَتِهِ ... سَفُّودُ شَرْبٍ نَسُوهُ عند مُفْتَأدِ[(١)]

أي: تركوه. ولو كان من النِّسْيان لكانوا[(٢)] قد عملوا به مرَّةً.

قال الضحَّاك: «نَسِيتُمْ» أي: تركتُم أمري. يحيى بن سلام: أي: تركتُم الإيمان بالبعث في هذا اليوم. ﴿نَسِينَٰكُمْ﴾: تركناكم من الخير؛ قاله السُّدّي. مجاهد: تركناكم في العذاب[(٣)].

وفي استئناف قوله: ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ وبناءِ الفعل على «إنَّ» واسمِها تشديدٌ في الانتقام منهم. والمعنى: فذوقوا هذا، أي: ما أنتم فيه من نَكْسِ الرؤوس والخِزي والغَمِّ بسبب نسيان الله. أو: ذوقوا العذاب المخلَّد، وهو الدائم الذي لا انقطاعَ له في جهنم.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يعني في الدنيا من المعاصي. وقد يعبَّر بالذَّوق عما يطرأ على النفس وإن لم يكن مطعوماً؛ لإحساسها به كإحساسها بذوقِ المطعوم؛ قال عمر بن أبي ربيعة[(٤)]:

فذُقْ هَجْرَها إنْ كنتَ تَزْعُم أنَّه ... رشادٌ[(٥)] ألا يا ربَّما كَذَبَ الزَّعْمُ

(١) البيت للنابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص٣٢، والخزانة ٣/ ١٨٥ وفيه: الهاء في «كأنه» عائدة على قرن ثور مذكورٍ قبلاً، وخارجاً حال من الهاء، والضمير في صفحته عائد على كلب مذكورٍ قبلاً، والسَّفُّود خبر كأن، وهي الحديدة التي يشوى بها الكباب، شبَّه قرنَ الثور النافذَ من الكلب عندما ضربه به بسَفُّود فيه شواءٌ. والمفتأد المشتَوَى والمطبخ، وهو محل الفَأد، وهو الطبخ والنضج.

(٢) في النسخ: لكان، والمثبت من إعراب القرآن.

(٣) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣٦٠.

(٤) كذا نقل المصنف عن الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣٦٠، والكلام منه، والذي في المصادر أنه عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، كما في مجالس ثعلب ص٢٣٦، وأمالي القالي ٢/ ٢٠، والأغاني ٩/ ١٥٠، ومصارع العشاق ١/ ٣٢١، واللسان (زعم)، والخزانة ٩/ ١٣٣.

(٥) في النسخ: أنها فساد، والمثبت من النكت والعيون، وهو موافق للمصادر.

الجوهريُّ(١): وذُقْت ما عند فلان، أي: خَبِرْته. وذُقْتُ القَوْس: إذا جَذَبتَ وَتَرَها لتَنْظُر ما شِدَّتُها. وأذاقه الله وَبَالَ أمره؛ قال طُفيل:

فذوقوا كما ذُقنا غَدَاة مُحَجِّرٍ من الغيظ في أكبادِنا والتَّحَوُّبِ(٢)

وتذوَّقته، أي: ذُقْتُه شيئاً بعد شيء. وأمرٌ مُسْتَذاقٌ، أي: مجرَّبٌ معلوم؛ قال الشاعر:

وعهدُ الغانيات كعهدِ قَيْنٍ وَنَتْ عنه الجعائل مُسْتذاقِ(٣)

والذوَّاق: المَلُول.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾

هذه تسليةٌ للنبيِّ ﷺ، أي: إنَّهم لإلْفِهم الكفرَ لا يؤمنون بك، إنَّما يؤمنُ بك وبالقرآن المتدبِّرون له والمتَّعِظون به، وهم الذين إذا قُرئ عليهم القرآن ﴿خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾ قال ابن عباس: ركَّعاً ـ قال المهدوِيُّ: وهذا على مذهب مَن يرى الركوعَ عند قراءةِ السَّجدة ـ واستدلَّ بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤](٤).

وقيل: المرادُ به السُّجود، وعليه أكثرُ العلماء، أي: خَرُّوا سُجَّداً لله تعالى على وجوههم تعظيماً لآياته وخَوْفاً من سَطْوته وعذابه.

﴿وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: خَلَطوا التسبيح بالحمد، أي: نزَّهوه وحَمِدوه، فقالوا في سجودهم: سبحان الله وبحمده، سبحان ربِّيَ الأعلى وبحمده، أي: تنزيهاً

---

(١) في الصحاح (ذوق).

(٢) سلف ٦/ ٢٣، وطفيل هو ابن عوف الغَنَوي.

(٣) قائله نهشل بن حَرِّيّ، كما في الحيوان ٥/ ٣٠، وأمالي المرتضى ٢/ ٢٢٧، وتهذيب اللغة ٩/ ٢٦٣، وأساس البلاغة (ذوق)، ومنتهى الطلب ٨/ ١٧، واللسان (ذوق). قال المرتضى: القين: الحدَّاد، والجعائل جمع جعالة، وهي أجرته، أراد: أن القين إذا عدم الجُعالة؛ رحل ولم يستقرَّ في مكان.

(٤) ذكر خبر ابن عباس ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٦١.

لله تعالى عن قول المشركين. وقال سفيان: ﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: صَلَّوا حَمْداً لربِّهم. ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن عبادته؛ قاله يحيى بن سلام. النقَّاش: لا يَسْتَكْبِرون كما اسْتَكْبَر أهلُ مكة عن السجود[١].

قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝١٦﴾

قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ أي: ترتفع وتَنْبُو عن مواضع الاضطجاع. وهو في موضعِ نصبٍ على الحال، أي: مُتجافيةً جنوبُهم. والمضاجعُ جمعُ مَضْجَع، وهي مواضع النوم. ويَحتمِلُ: عن وقتِ الاضطجاع، ولكنَّه مَجازٌ، والحقيقةُ أَوْلى. ومنه قولُ عبد الله بن رَوَاحة:

وفينا رسولُ الله يتلو كتابَه ... إذا انشقَّ معروفٌ من الصبحِ ساطِعُ
يبيتُ يُجافي جَنْبَه عن فراشه ... إذا استثقلتْ بالمشركين المَضَاجِعُ[٢]

قال الزجَّاج والرُّمَّانيّ: التَّجَافي: التَّنَحِّي إلى جهةِ فوق. وكذلك هو في الصَّفْح عن المخطئ في سَبٍّ ونحوِه. والجُنوبُ جمعُ جَنْب[٣].

وفيما تتجافَى جنوبُهم عن المضاجع لأَجلِه قولان: أحدهما: لذكرِ الله تعالى، إمَّا في صلاةٍ، وإمَّا في غيرِ صلاة؛ قاله ابن عباس والضحاك. الثاني: للصلاة[٤].

وفي الصلاة التي تتجافَى جُنوبُهم لأَجْلها أربعةُ أقوال:

(١) النكت والعيون ٤/٣٦١.

(٢) سلف البيتان ٦/٣٤٦ باختلاف يسير في البيت الأول، وهما بهذه الرواية في صحيح البخاري (١١٥٥) حيث أخرج من طريق الهيثم بن أبي سنان: أنه سمع أبا هريرة ﷺ ـ وهو يَقْصُصُ في قَصَصه ـ وهو يذكر رسول الله ﷺ: إنَّ أخاً لكم لا يقول الرَّفَثَ. يعني بذلك عبد الله بن رواحة، ثم ذكر ثلاثة أبيات منها هذان البيتان.

(٣) المحرر الوجيز ٤/٣٦٢، وقول الزجاج بنحوه في معاني القرآن ٤/٢٠٧.

(٤) النكت والعيون ٤/٣٦١ - ٣٦٢، وأخرج قول ابن عباس والضحاك الطبري ١٨/٦١٢ - ٦١٣.

أحدها: التَّنفُّلُ بالليل؛ قاله الجمهور من المفسِّرين، وعليه أكثرُ الناس، وهو الذي فيه المدحُ[١]، وهو قولُ مجاهدٍ والأوزاعيِّ ومالك بنِ أنس والحسن بنِ أبي الحسن وأبي العالية وغيرهم[٢]. ويدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ لأنَّهم جُوْزُوا على ما أَخْفَوْا بما خَفِي، والله أعلم. وسيأتي بيانُه.

وفي قيام الليل أحاديثُ كثيرةٌ؛ منها حديثُ معاذ بن جَبَل أنَّ النبيَّ ﷺ قال له: «أَلَا أَدُلُّك على أبوابِ الخير: الصومُ جُنَّة، والصَّدقةُ تُطْفِئُ الخطيئةَ كما يُطْفِئُ الماءُ النارَ، وصلاةُ الرجلِ من جَوْفِ الليل» قال: ثم تلا: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ حتى بلغ: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ أخرجه أبو داود الطَّيالسيُّ في «مسنده»، والقاضي إسماعيل بنُ إسحاق، وأبو عيسى الترمذيُّ وقال فيه: حديثٌ حسنٌ صحيح[٣].

الثاني: صلاةُ العشاء التي يقال لها: العتمة؛ قاله الحسن وعطاء[٤]. وفي الترمذيِّ عن أنس بن مالك: أنَّ هذه الآيةَ ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ نزلت في انتظارِ الصلاة التي تُدْعَى: العَتَمَة، قال: هذا حديثٌ حسنٌ [صحيح] غريب[٥].

الثالث: التَّنفُّل ما بين المغرب والعشاء؛ قاله قتادةُ وعكرمة[٦]. ورَوى أبو داود[٧] عن أنس بن مالك: أنَّ هذه الآيةَ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ قال: كانوا يتنفَّلون ما بين المغرب والعشاء.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٢.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٦٣، وأخرجه عن الحسن أبو داود (١٣٢١)، وعبد الرزاق في التفسير ٢/ ١١٠، والطبري ١٨/ ٦١٢ عنه وعن مجاهد.

(٣) سنن الترمذي (٢٦١٦)، ومسند الطيالسي (٥٦٠)، وهو عند أحمد (٢٢٠١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣).

(٤) النكت والعيون ٤/ ٣٦٣.

(٥) سنن الترمذي (٣١٩٦)، وما بين حاصرتين منه، وهو موافق لما في تحفة الأشراف ١/ ٤٢٩، وتحفة الأحوذي ٩/ ٥٥.

(٦) النكت والعيون ٤/ ٣٦٣.

(٧) في سننه (١٣٢١)، وأخرجه الطبري ١٨/ ٦٠٩ - ٦١١.

الرابع: قال الضحاك: تَجَافي الجَنْبِ: هو أن يصلِّي الرجل العشاء والصبح في جماعة. وقاله أبو الدَّرداء وعُبادة[(١)].

قلت: وهذا قولٌ حَسَنٌ، وهو يجمع الأقوال بالمعنى، وذلك أنَّ مُنتظِرَ العشاءِ ـ إلى أنْ يصلِّيَهَا ـ في صلاةٍ وذكرٍ لله جلَّ وعزَّ، كما قال النبيُّ ﷺ: «لا يَزالُ الرجلُ في صلاةٍ ما انْتَظَر الصلاة»[(٢)]. وقال أنس: المرادُ بالآية انتظارُ صلاة العشاء الآخِرة؛ لأنَّ رسول الله ﷺ كان يؤخِّرها إلى نحوِ ثُلُثِ الليل، قال ابن عطيةَ[(٣)]: وكانت الجاهليةُ ينامون مِن أوَّل الغروب ومن أيِّ وقتٍ شاء الإنسان، فجاء انتظارُ وقتِ العشاء غريباً شاقًّا.

ومصلِّي الصبحِ في جماعةٍ لاسيَّما في أوّل الوقت كما كان عليه الصلاة والسلام يصلِّيها. والعادةُ أنَّ مَن حافَظَ على هذه الصلاة في أوّل الوقت، يقومُ سَحَراً يتوضَّأ ويصلِّي ويذكر الله عزَّ وجلَّ إلى أنْ يَطْلعُ الفجر. فقد حَصَل التَّجافي أوَّلَ الليل وآخِرَه. يَزِيدُ هذا ما رواه مسلم من حديث عثمان بن عفان قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَن صلَّى العشاءَ في جماعةٍ فكأنَّما قامَ نصفَ اللَّيل، ومَن صلَّى الصُّبحَ في جماعةٍ فكأنَّما قامَ اللَّيلَ كلَّه»[(٤)]. ولفظُ الترمذيِّ وأبي داودَ في هذا الحديث: «مَن شَهِدَ العشاءَ في جماعةٍ كان له قيامُ نصفِ ليلةٍ، ومَن صلَّى العشاءَ والفَجْرَ في جماعةٍ كان له كقيامِ ليلة»[(٥)]. وقد مضى في سورة النور عن كعب فيمَن صلَّى بعدَ العشاءِ الآخِرة

(١) ذكره عن الضحاك ابنُ عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٢، وعن أبي الدرداء وعبادة الماورديُّ في النكت والعيون ٤/ ٣٦٣، والبغوي ٣/ ٥٠٠. قال ابن عطية: وهذا قول حسن يساعده لفظ الآية.

(٢) قطعة من حديث أبي هريرة ﷺ أخرجه البخاري (٦٤٧).

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٢، وما قبله منه، وخبر أنس ﷺ سلف بنحوه قريباً. وأحاديث تأخير النبي ﷺ لصلاة العشاء سلفت ٢/ ٤٥٢.

(٤) صحيح مسلم (٦٥٦)، وسلف ٤/ ١٨٠ - ١٨١، و١٥/ ٣٣٧.

(٥) سنن الترمذي (٢٢١)، وسنن أبي داود (٥٥٥)، وسلف ٤/ ١٨١.

أربعَ ركعاتٍ كنَّ له بمنزلةِ ليلةِ القَدْر[١].

وجاءت آثارٌ حِسَانٌ في فَضْلِ الصلاة بين المغرب والعشاء وقيامِ الليل. ذكر ابن المبارك قال: أخبرنا يحيى بن أيوب قال: حدَّثني محمد بن الحجاج ـ أو ابن أبي الحجاج ـ أنه سمع عبد الكريم يحدِّث: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَن ركع عَشْرَ ركعاتٍ بين المغرب والعشاء بُنيَ له قصرٌ في الجنة». فقال له عمر بن الخطاب: إذاً تَكْثُر قصورُنا وبيوتُنا يا رسولَ الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «الله أكثرُ[٢] وأفضلُ» أو قال: «أَطْيبُ»[٣].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاصي قال: صلاةُ الأوَّابين الخلوةُ التي بين المغرب والعشاء حتى يثوبَ الناس إلى الصلاة[٤].

وكان عبد الله بن مسعود يصلِّي في تلك الساعةِ ويقول: [نِعْمَ] صلاةُ الغفلةِ بين المغرب والعشاء؛ ذكره ابن المبارك[٥].

ورواه الثعلبيُّ مرفوعاً عن ابن عمر قال: قال النبيُّ ﷺ: «مَن جَفَتْ جَنْباهُ عن المَضَاجِع ما بينَ المغربِ والعشاءِ؛ بُنيَ له قصران في الجنة مسيرةَ عام، وفيهما من

(١) ينظر ١٥/ ٣٣٧ - ٣٣٨.

(٢) في (د) و(م): أكبر.

(٣) الزهد لابن المبارك (١٢٦٤) دون قوله: أو ابن أبي الحجاج، وعبد الكريم هو ابن الحارث، وهذا إسناد منقطع. كما أن محمد بن الحجاج اللخمي قال عنه البخاري: منكر الحديث. وقال ابن عدي: هو وضع حديث الهريسة. وقال الدارقطني: كذاب. الميزان ٣/ ٥٠٩ .

(٤) الزهد لابن المبارك (١٢٦٠)، وفي إسناده موسى بن عبيدة بن نشيط، قال عنه الحافظ في التقريب: ضعيف.

(٥) في الزهد (١٢٦١)، وما سلف بين حاصرتين منه. وأخرجه أيضاً عبد الرزاق (٤٧٢٥)، والطبراني في الكبير (٩٤٥٠). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢/ ٢٣٠ : فيه جابر الجعفي، وفيه كلام كثير. اهـ. وقال عنه الحافظ في التقريب: ضعيف. وأخرجه الطبراني (٩٤٤٩) بإسناد آخر عن ابن مسعود. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢/ ٢٣٠ : فيه ليث بن أبي سليم، وفيه كلام. اهـ. وقال عنه الحافظ في التقريب: صدوق اختلط جدًّا ولم يتميز حديثه فتُرك.

الشجر ما لو نَزَلَها أهلُ المشرقِ والمغرب لأَوْسَعتْهم فاكهةً»(١). وهي صلاةُ الأوَّابين وغَفْلة الغافلين، وإنَّ من الدعاء المستجابِ الذي لا يُردُّ الدعاءَ بين المغرب والعشاء.

فصل في فضل التَّجافي: ذكر ابن المبارك عن ابن عباس قال: إذا كان يومُ القيامة نادى منادٍ: ستعلمون اليومَ مَن أصحابُ الكَرَم؛ لِيَقُم الحامِدون لله على كلِّ حال. فيقومون فيُسَرَّحون إلى الجنة. ثم ينادي ثانيةً: ستعلمون اليومَ مَن أصحابُ الكَرَم؛ لِيَقُم الذين كانت جنوبُهم تتجافَى عن المضاجع ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾. قال: فيقومون فيُسَرَّحون إلى الجنة. قال: ثم ينادي ثالثةً: ستعلمون اليوم مَن أصحابُ الكرم؛ لِيَقُم الذين كانوا ﴿لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور:٣٧]، فيقومون فيسرَّحون إلى الجنة(٢).

ذكره الثعلبيُّ مرفوعاً عن أسماء بنتِ يزيد: قال النبيُّ ﷺ: «إذا جَمَعَ الله الأوَّلين والآخِرين يومَ القيامة جاء منادٍ فنادى بصوتٍ تسمعه الخلائقُ كلُّهم: سيعلم أهلُ الجمع اليومَ مَن أَوْلى بالكَرَم، لِيَقُم الذين كانت تتجافى جنوبُهم عن المضاجع. فيقومون وهم قليل، ثم ينادي الثانيةَ: ستعلمون اليوم مَن أَوْلَى بالكرم؛ لِيَقُم الذين لا تُلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذِكْر الله. فيقومون، ثم ينادي الثالثةَ: ستعلمون اليوم مَن أَوْلى بالكرم؛ لِيَقُم الحامِدون لله على كلِّ حال في السَّرَّاء والضرَّاء. فيقومون وهم قليل، فيسرَّحون جميعاً إلى الجنة، ثم يحاسَبُ سائرُ الناس»(٣).

---

(١) لم نقف عليه.

(٢) الزهد (٣٥٣ - زوائد نعيم)، وأخرجه أيضاً الحارث بن أبي أسامة كما في بغية الباحث (١١٢٢)، وحسن إسناده الحافظ في المطالب العالية ٤/ ٣٧٥، والسيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٨٠.

(٣) أخرجه هناد في الزهد (١٧٦)، وأبو الليث في التفسير ٣/ ٣٠ من طريق عبد الرحمن بن إسحاق، عن شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد به. وعبد الرحمن بن إسحاق الواسطي ضعيف كما ذكر الحافظ في التقريب. وأخرجه عبد بن حميد (١٥٨١) من طريق أبان بن أبي عياش عن شهر بن حوشب به. وأبان متروك، كما ذكر الحافظ في التقريب. وأخرجه بنحوه الحاكم ٢/ ٣٩٨ - ٣٩٩ من طريق عبد الله بن =

وذكر ابن المبارك قال: أخبرنا مَعْمَر، عن رجل، عن أبي العلاء بن الشِّخِّير، عن أبي ذرّ قال: ثلاثةٌ يَضْحَك الله إليهم ويَستبشرُ الله بهم: رجلٌ قام من الليل وترك فراشَه ودِفْئه، ثم توضَّأ فأَحْسَنَ الوضوء، ثم قام إلى الصلاة، فيقولُ الله لملائكته: ما حَمَلَ عبدي على ما صَنَع؟ فيقولون: ربَّنا أنت أَعْلَمُ به منَّا. فيقول: أنا أعلمُ به ولكنْ أَخْبِروني. فيقولون: رَجَّيته شيئاً فَرَجَاه، وخوَّفْتَه فخافه. فيقول: أُشْهِدُكم أنِّي قد أَمَّنْتُه مما خاف، وأَوْجَبْتُ له ما رَجَاه. قال: ورجلٌ كان في سَرِيَّةٍ فلقيَ العدوَّ، فانهزم أصحابه وثَبَتَ هو حتى يُقتَلَ أو يَفْتح الله عليهم، فيقول الله لملائكته مثلَ هذه القصة. ورجل سَرَى في ليلةٍ، حتى إذا كان في آخِر الليل نزل هو وأصحابه، فنام أصحابه وقام هو يصلِّي، فيقول الله لملائكته...» وذكر القصة[(١)].

قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ في موضعِ نصبٍ على الحال، أي: داعِينَ. ويَحتَمِل أن تكون صفةً مُستأنَفَةً، أي: تتجافى جنوبُهم وهم أيضاً في كلِّ حالٍ يدعون ربَّهم لَيْلَهم ونهارَهم[(٢)]. و﴿خَوْفًا﴾ مفعولٌ من أجْلِه. ويجوز أن يكون مصدراً. ﴿وَطَمَعًا﴾ مثله، أي: خوفاً من العذاب، وطمعاً في الثواب. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ تكونُ «ما» بمعنى الذي، وتكونُ مصدراً، وفي كِلَا الوجهين يجب أن تكون منفصلةً من «مِن»[(٣)].

= عطاء عن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ وصححه. غير أن عبد الله بن عطاء لم يدرك عقبة بن عامر، كما ذكر المِزِّي في تهذيب الكمال ١٥/ ٣١٢.

(١) الزهد لابن المبارك (١٢١٢). وأخرجه عبد الرزاق (٢٠٢٨٢) عن معمر، عن سعيد الجريري، عن أبي العلاء به. وأخرجه بنحوه الطبراني مرفوعاً من حديث أبي الدرداء ﷺ كما في مجمع الزوائد ٢/ ٢٥٥. قال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير، ورجاله ثقات.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٢.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٩٥. و«ما» في هذا الموضع موصولة بـ«مِن» في رسم المصحف، وذكر أبو عمرو الداني في المقنع ص٦٩: أن «من ما» مقطوعة في ثلاثة مواضع: الآية (٢٥) من سورة النساء، والآية (٢٨) من سورة الروم، والآية (١٠) من سورة المنافقين.

و«يُنْفِقُون» قيل: معناه الزكاةُ المفروضة. وقيل: النوافل، وهذا القولُ أَمْدَحُ(١).

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾

قرأ حمزةُ: ﴿ما أُخْفيْ لهم﴾ بإسكان الياء. وفتَحَها الباقون(٢). وفي قراءةِ عبد الله: «ما نُخْفي» بالنون مضمومة(٣). وروى المفضَّل عن الأعمش: «ما يُخْفَى لهم» بالياء المضمومةِ وفَتْحِ الفاء(٤). وقرأ ابن مسعود وأبو هريرة: «مِن قُرَّاتِ أَعْيُن»(٥).

فمَنْ أَسْكَنَ الياءَ مِن قوله: «ما أُخفِيْ» فهو مستقبَلٌ، وألفُه ألفُ المتكلِّم، و«ما» في موضعِ نصبٍ بـ«أُخفي» وهي استفهام، والجملةُ في موضع نصب؛ لوقوعها موقعَ المفعولَيْنِ(٦)، والضميرُ العائدُ على «ما» محذوف(٧).

ومَن فَتَح الياءَ فهو فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ للمفعول، و«ما» في موضع رفعٍ بالابتداء، والخبرُ «أُخْفيَ» وما بعده، والضميرُ في «أُخْفيَ» عائدٌ على «ما»(٨).

قال الزجَّاج: ويُقرأ: «ما أَخْفَى لهم»، بمعنى: ما أَخْفَى الله لهم(٩). وهي قراءةُ

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٢ .

(٢) السبعة ص٥١٦ ، والتيسير ص١٧٧ .

(٣) القراءات الشاذة ص١١٨ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٢ .

(٥) المحتسب ٢/ ١٧٤ .

(٦) الكلام بنحوه في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٦٨ ، والكشف عن وجوه القراءات ٢/ ١٩٣ - ١٩٤ .

(٧) وهذا إذا جعلنا «ما» موصولة بمعنى الذي، فـ«ما» يجوز أن تكون استفهامية كما سلف، ويجوز أن تكون موصولة ويكون العائد محذوفاً، والتقدير: أخفيه، وتكون «ما» في موضع نصب بـ«تعلم». مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٦٨ - ٥٦٩ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٦٢ ، والدر المصون ٩/ ٨٧ - ٨٨ .

(٨) ويجوز في «ما» الوجهان على هذه القراءة أيضاً، فإن كانت استفهامية فهي في موضع رفع بالابتداء، وإن كانت موصولة فهي في موضع نصب بـ«تعلم»، والعائد هو الضمير المرفوع في «أخفيَ». ينظر مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٦٨ - ٥٦٩ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٦٢ .

(٩) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٠٨ .

محمد بنِ كعب[١]، و«ما» في موضعِ نصب.

المهدوِيُّ: ومَن قرأ: «قرَّات أعين» فهو جمعُ قُرَّة، وحَسُنَ الجمعُ فيه لإضافته إلى جمع، والإفرادُ لأنَّه مصدر، وهو اسمٌ للجنس.

وقال أبو بكر الأنبارِيُّ: وهذا غيرُ مخالفٍ للمصحف؛ لأنَّ تاء «قُرَّة» تكتَبُ تاءً على لغةِ مَن يُجري الوصلَ على الوقف، كما كتبوا: «رحمت الله» بالتاء. ولا يُستنكر سقوطُ الألفِ من «قُرَّات» في الخطّ، وهو موجودٌ في اللَّفْظ، كما لم يُستنكَر سقوطُ الألف من السماوات، وهي ثابتةٌ في اللسان والنُّطق.

والمعنى المرادُ: أنه أَخبر تعالى بما لهم من النعيم الذي لم تَعْلَمْه نفسٌ ولا بشرٌ ولا مَلَك. وفي معنى هذه الآيةِ قال النبيُّ ﷺ: «قال الله عزَّ وجلَّ: أعْدَدْتُ لعبادي الصَّالحينَ ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خَطَر على قَلْبِ بشر» ثم قرأ هذه الآية: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ إلى قوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾. خرَّجه الصَّحيح من حديثِ سهل بن سعد الساعديّ[٢].

وقال ابن مسعود: في التوراة مكتوبٌ: على الله للذين تتجافى جنوبُهم عن المضاجع ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خَطَرَ على قلبِ بشر[٣]. وقال ابن عباس: الأمرُ في هذا أجلُّ وأعظمُ من أن يُعرف تفسيره[٤].

قلت: وهذه الكرامةُ إنَّما هي لأعلى أهلِ الجنة منزلاً، كما جاء مبيَّناً في «صحيح» مسلم[٥] عن المغيرة بنِ شُعبةَ يرفعُه إلى رسول الله ﷺ قال: «سأل موسى

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٢.

(٢) صحيح مسلم (٢٨٢٥)، وهو عند أحمد (٢٢٨٢٦).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ١١٢، والطبري ١٨/ ٦١٧.

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٤٥٣.

(٥) برقم (١٨٩): (٣١٢).

عليه السلام ربَّه فقال: يا ربِّ، ما أدنى أهلِ الجنةِ منزلةً؟ قال: هو رجلٌ يأتي بعدما يُدخَل أهلُ الجنة الجنةَ، فيقال له: ادخُل الجنةَ. فيقول: أيْ ربِّ، كيف وقد نَزَل الناس منازلهم وأخذوا أَخَذَاتهم؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثلُ مُلْكِ مَلِكٍ من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيتُ ربِّ! فيقول: لك ذلك ومثلُه معه ومثلُه ومثلُه ومثلُه[1]، فقال في الخامسة: رضيتُ رَبِّ! فيقال: هذا لك وعَشَرةُ أمثاله، ولك ما اشتهتْ نَفْسُك ولذَّتْ عينك. فيقول: رضيتُ رَبِّ! قال: رَبِّ، فأعلاهم منزلةً؟ قال: أولئك الذين أردتُ؛ غَرَسْتُ كرامتَهم بيدي، وخَتمتُ عليها، فلم تَرَ عينٌ، ولم تسمع أذنٌ، ولم يَخْطُرْ على قلب بشر». قال: «ومصْداقُه من كتاب الله قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾». وقد رُوي عن المغيرة موقوفاً قوله[2].

وخرَّج مسلم أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تبارك وتعالى: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعَتْ، ولا خَطَرَ على قلبِ بشرٍ، ذُخراً، بَلْهَ ما أَطْلَعَكُمْ [الله] عليه» ثم قرأ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[3].

وقال ابن سيرين: المرادُ به: النظرُ إلى الله تعالى.

وقال الحسن: أَخْفَى القومُ أعمالاً، فأَخْفَى الله تعالى لهم ما لا عينٌ رَأَتْ ولا أذنٌ سمعت[4].

---

(١) في (ظ): «ومثله معه». في المواضع الأربعة.

(٢) صحيح مسلم (١٨٩): (٣١٣).

(٣) صحيح مسلم (٢٨٢٤): (٤) وما بين حاصرتين منه. وهو عند أحمد (١٠٠١٧)، والبخاري (٤٧٨٠). قوله: بله، هو من أسماء الأفعال، بمعنى: دع واترك. والمعنى: دَعْ عنك ما أطلعكم الله عليه، فالذي لم يطلعكم عليه أعظم. ينظر النهاية (بله)، وشرح النووي لصحيح مسلم ١٧/ ١٦٦ .

(٤) ذكره بنحوه الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣٦٤ .

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ۝١٨﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ أي: ليس المؤمنُ كالفاسق؛ فلهذا آتينا هؤلاء المؤمنين الثوابَ العظيم. قال ابن عباس وعطاء ابن يَسار: نزلت الآية في عليّ بن أبي طالب والوليد بنِ عُقبة بن أبي مُعَيْط، وذلك أنهما تَلَاحَيَا، فقال له الوليد: أنا أَبْسَطُ منك لساناً، وأَحَدُّ سِناناً، وأَرَدُّ للكتيبة، وروي: وأَمْلأُ في الكتيبة جسداً. فقال له عليٌّ: اسكتْ! فإنك فاسقٌ، فنزلت الآية[١].

وذكر الزجَّاج والنَّحَّاس أنها نزلت في عليٍّ وعُقبةَ بنِ أبي مُعَيْط؛ قال ابن عطية[٢]: وعلى هذا يَلزمُ أن تكون الآيةُ مكّيةً؛ لأنَّ عُقبة لم يكن بالمدينة، وإنما قُتل في طريق مكةَ مُنْصَرَفَ رسولِ الله ﷺ من بدر. ويُعترضُ القولُ الآخَرُ بإطلاق اسم الفسْقِ على الوليد. وذلك يَحتَمِلُ أن يكون في صدر إسلام الوليد لشيءٍ كان في نفسه، أوْ لِمَا رُوي من نَقْلِه عن بني المُصْطَلِق ما لم يكن، حتى نزلت فيه: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات:٦] على ما يأتي في «الحُجُرات» بيانُه، ويَحتمِلُ أن تُطْلِقَ الشريعة ذلك عليه؛ لأنه كان على طرفٍ ممَّا يتَّقى[٣]، وهو الذي شرب الخمر في زمن عثمان ﷺ، وصلَّى الصبحَ بالناس ثم التفتَ وقال: أتريدون أن أَزيدكم[٤]، ونحو هذا ممَّا يطول ذِكْرُهُ.

---

(١) أخرجه عن ابن عباس أحمد في فضائل الصحابة (١٠٤٣)، والواحدي في أسباب النزول ص٣٦٧-٣٦٨. وأخرجه النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٧٩ - ٥٨٠ دون تسمية علي ﷺ والوليد. وأخرجه عن عطاء الطبري ١٨/ ٦٢٥.

(٢) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٣، وما قبله منه. وقول الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٢٠٨، أما النحاس فالذي ذكره في إعراب القرآن ٣/ ٢٩٦، وفي معاني القرآن ٥/ ٣٠٧: الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وليس عقبة بن أبي معيط.

(٣) في (د): نبغي، وفي (م) ومطبوع المحرر الوجيز: يبغي، ولم تجود في (خ)، وسقط هذا الموضع من (ز)، والمثبت من (ظ).

(٤) أخرجه مسلم (١٧٠٧)، وأحمد (٦٢٤) و(١٢٣٠).

الثانية: لمَّا قسم الله تعالى المؤمنين والفاسقين الذين فسَّقهم بالكفر ـ لأنَّ التكذيب في آخِر الآية يقتضي ذلك[١] ـ اقتضى ذلك نفيَ المساواةِ بين المؤمن والكافر؛ ولهذا منع القِصَاص بينَهما؛ إذ مِن شَرْطِ وجوبِ القِصَاصِ المساواةُ بين القاتل والمقتول. وبذلك احتجَّ علماؤنا على أبي حنيفةَ في قَتْلِه المسلمَ بالذِّمِّيِّ. وقال: أراد نَفْيَ[٢] المساواةِ هاهنا في الآخِرة في الثواب، وفي الدنيا في العدالة. ونحن حَمَلْناه على عمومه، وهو أصحّ؛ إذ لا دليلَ يخصُّه؛ قاله ابن العربيّ[٣].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ﴾ قال الزَّجَّاج وغيره: «مَنْ» يَصْلُح للواحد والجمع[٤]. النحَّاس[٥]: لفظُ «مَنْ» يؤدِّي عن الجماعة، فلهذا قال: «لا يستوون»؛ هذا قولُ كثيرٍ من النحويين. وقال بعضهم: «لا يستوون» لاثنين؛ لأنَّ[٦] الاثنين جمع، لأنه واحدٌ جُمع مع آخَر. وقاله الزجَّاج أيضاً. والحديثُ يدلُّ على هذا القول؛ لأنه عن ابن عباس وغيره قال: نزلت ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا﴾ في عليّ بن أبي طالب ﷺ، ﴿كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ﴾ في الوليد بن عُقبة بن أبي مُعَيْط[٧]. وقال الشاعر:

ألـيـس الـمـوتُ بـيـنـهـمـا سـواءً ... إذا مـاتـوا وصـاروا فـي الـقـبـورِ[٨]

قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أخبر عن مَقَرّ

---

(١) يعني في آخر الآية (٢٠).
(٢) في (د) و(ظ): بنفي.
(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٩٠.
(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٠٨.
(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٢٩٦.
(٦) في إعراب القرآن: إلا أن، بدل: لأن.
(٧) سلف في المسألة الأولى.
(٨) سلف ٦/ ١٢١.

الفريقين غداً؛ فللمؤمنين جناتُ المأوى، أي: يأوون إلى الجنات، فأضاف الجناتِ إلى المأوى؛ لأنَّ ذلك الموضع يتضمَّن جنات. ﴿نُزُلًا﴾ أي: ضيافة. والنُّزُلُ: ما يُهيَّأ للنازلِ والضَّيف. وقد مضى في آخِر «آل عمران»[(١)] وهو نصبٌ على الحال من الجنات، أي: لهم الجناتُ معدَّةً، ويجوز أن يكون مفعولاً له.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ﴾ أي: خرجوا عن الإيمان إلى الكفر ﴿فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: مُقامُهم فيها. ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ أي: إذا دَفَعهم لهبُ النار إلى أعلاها رُدُّوا إلى موضعهم فيها؛ لأنهم يطمعون في الخروج منها. وقد مضى هذا في «الحج»[(٢)].

﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ أي: يقول لهم خَزَنةُ جهنم، أو يقول الله لهم: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ والذوق يُستعمل محسوساً ومعنًى. وقد مضى في هذه السورة بيانُه[(٣)].

قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٢١﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ قال الحسنُ وأبو العاليةِ والضحَّاك وأُبَيّ بن كعب وإبراهيم النَّخَعيُّ: العذابُ الأدنى: مصائبُ الدنيا وأسقامُها مما يُبْتَلَى به العبيد حتى يتوبوا. وقاله ابن عباس[(٤)]. وعنه أيضاً: أنه الحدود[(٥)].

---

(١) ٥/ ٤٨٢ - ٤٨٣ .

(٢) ١٤/ ٣٤٥.

(٣) ص٢٦ و٢٧ من هذا الجزء.

(٤) أخرج قولهم الطبري ١٨/ ٦٢٧ - ٦٢٩ ، وأخرجه بنحوه عن أبيٍّ أيضاً مسلم (٢٧٩٩)، وعبد الله بن أحمد في زوائده على المسند (٢١١٧٣).

(٥) أخرجه الطبري ١٨/ ٦٢٩ . قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٣ : ويتجه على هذا التأويل أن تكون في فَسَقَة المؤمنين.

وقال ابن مسعود والحسين بن عليٍّ وعبد الله بن الحارث: هو القتلُ بالسيف يومَ بدر[١].

وقال مقاتل: الجوعُ سبعَ سنين بمكة حتى أكلوا الجِيَفَ[٢]؛ وقاله مجاهد[٣]. وعنه أيضاً: العذاب الأدنى: عذابُ القبر، وقاله البراء بن عازب[٤]، قالوا: والأكبرُ: عذابُ يوم القيامة؛ قال القُشَيريُّ: وقيل: عذاب القبر، وفيه نظر؛ لقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. قال: ومَن حَمَل العذابَ على القتل قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: يرجع مَن بقيَ منهم. ولا خلافَ أنَّ العذاب الأكبر عذابُ جهنَّم، إلَّا ما رويَ عن جعفر بن محمد: أنه خروجُ المهديِّ بالسيف، والأدنى غلاءُ السعر[٥].

وقد قيل: إن معنى قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ على قولِ مجاهدٍ والبراء: أي: لعلهم يريدون الرجوع ويطلبونه؛ كقوله: ﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ [السجدة: ١٢]، وسُمِّيتْ إرادةُ الرجوعِ رجوعاً كما سُمِّيتْ إرادة القيام قياماً في قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ﴾، ويدلُّ عليه قراءةُ مَن قرأ: «يُرْجَعُون» على البناء للمفعول؛ ذكره الزَّمَخْشري[٦].

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي: لا أحدَ أظْلَمُ لنفسه ﴿مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِۦ﴾

---

(١) أخرج قولهم الطبري ١٨/ ٦٢٩ - ٦٣٠ ، وفيه: الحسن بن علي، بدل: الحسين، وكذلك وقع في المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٣ .

(٢) ذكره البغوي ٣/ ٥٠٢ .

(٣) أخرجه الطبري ١٨/ ٦٣٠ بلفظ: القتل والجوع لقريش في الدنيا.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٣٦٥ ، وأخرجه عن مجاهد الطبري ١٨/ ٦٣١ .

(٥) ذكره عن جعفر الصادق الماورديُّ في النكت والعيون ٤/ ٣٦٥ .

(٦) في الكشاف ٣/ ٢٤٥ .

أي: بحُجَجِه وعلاماته ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ بتركِ القبول. ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ لتكذيبهم وإعراضهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ أي: فلا تكن يا محمد في شكٍّ من لقاء موسى؛ قاله ابن عباس، وقد لقِيَه ليلةَ الإسراء[(١)]. قتادة: المعنى: فلا تَكُنْ في شكٍّ من أنَّك لقيتَه ليلةَ الإسراء[(٢)]. والمعنى واحد.

وقيل: فلا تكن في شكٍّ من لقاء موسى في القيامة، وستلقاه فيها[(٣)].

وقيل: فلا تكن في شكٍّ من لقاء موسى الكتابَ بالقبول؛ قاله مجاهدٌ والزجَّاج[(٤)].

وعن الحسن أنه قال في معناه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ فأوذيَ وكُذِّب، فلا تكن في شكٍّ من أنه سيلقاك ما لقِيَه من التكذيب والأذى. فالهاءُ عائدةٌ على محذوف، والمعنى: مِن لقاءِ ما لاقَى. النحَّاس[(٥)]: وهذا قولٌ غريب، إلَّا أنه من رواية عمرو بن عُبيد.

وقيل: في الكلام تقديمٌ وتأخير، والمعنى: قل يتوفَّاكم مَلَكُ الموت الَّذِي وُكِّلَ

---

(١) ذكره عن ابن عباس بنحوه البغوي ٣/ ٥٠٣ ، وحديث ابن عباس في لقاء النبي ﷺ موسى عليه السلام في الإسراء أخرجه البخاري (٣٢٣٩)، ومسلم (١٦٥)، والطبري ١٨/ ٦٣٦ .

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٦٣٦ ، وأخرجه بنحوه مسلم إثر الحديث (١٦٥).

(٣) النكت والعيون ٤/ ٣٦٦ .

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٢٠٩ .

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٢٩٧ ، وما قبله منه.

بكم، فلا تكن في مِرْيةٍ من لقائه، فجاء معترِضاً بين ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ وبين ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[١].

والضميرُ في «وجَعَلْناه» فيه وجهان: أحدهما: جعلنا موسى؛ قاله قتادة. الثاني: جعلنا الكتاب؛ قاله الحسن[٢].

﴿وجَعَلْنَا منهم أَيِمَّةً﴾ أي: قادةً وقُدْوةً يُقتَدَى بهم في دينهم. والكوفيون يقرؤون: ﴿أَئِمَّةً﴾[٣]؛ النحاس[٤]: وهو لحنٌ عند جميع النَّحْويين؛ لأنه جمع بين همزتين في كلمةٍ واحدة، وهو من دقيقِ النحو؛ وشَرْحُه: أنَّ الأصل: «أَأْمِمَة»، ثم أُلقيتْ حركةُ الميم [الأولى] على الهمزة وأُدغمت الميم [في الميم] وخفِّفت الهمزة الثانية لئلَّا يجتمعَ همزتان، والجمعُ بين همزتين في حرفين بعيد، فأمَّا في حرفٍ واحدٍ[٥] فلا يجوز إلَّا بتخفيف الثانية، نحو قولك: آدم وآخر. ويقال: هذا أَوَمُّ من هذا وأَيَمّ، بالواو والياء. وقد مضى هذا في «براءة»[٦]، والله تعالى أعلم.

﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي: يدعون الخَلْقَ إلى طاعتنا .﴿بِأَمْرِنَا﴾ أي: أَمَرْناهم بذلك. وقيل: «بأَمْرِنا» أي: لأَمْرِنا، أي: يهدون الناس لدِيننا. ثم قيل: المرادُ الأنبياءُ عليهم السلام؛ قاله قتادة[٧]. وقيل: المرادُ الفقهاءُ والعلماء.

﴿لَمَّا صَبَرُوا۟﴾ قراءةُ العامَّة: «لَمَّا» بفَتْحِ اللام وتشديدِ الميم وفَتْحِها، أي: حين

---

(١) ذكر هذا القول ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٤ .

(٢) النكت والعيون ٤/٣٦٦ ، وقول قتادة أخرجه الطبري ١٨/ ٦٣٧ .

(٣) وهي قراءة ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي، وسهَّل الثانية نافع وأبو عمرو وابن كثير. ينظر التيسير ص٣٢ .

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٢٩٧ ، وما قبله وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٥) يعني في كلمة واحدة. ينظر معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٠٩ .

(٦) ١٠/١٢٧ .

(٧) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/٣٦٦ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٣٤٤ دون نسبة. وأخرج الطبري عن قتادة أنه قال في معنى «أئمة»: رؤساء في الخير.

صبروا. وقرأ يحيى وحمزةُ والكسائيُّ وخَلَف ورُوَيْس عن يعقوب: ﴿لِمَا صَبَرُوا﴾[١] أي: لِصَبْرِهم جعلناهم أئمةً. واختاره أبو عبيد اعتباراً بقراءة ابنِ مسعود: «بما صَبَروا» بالباء[٢].

وهذا الصبرُ صبرٌ على الدِّين وعلى البلاء. وقيل: صبروا عن الدنيا.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: يقضي ويحكم بين المؤمنين والكفار، فيُجازي كُلًّا بما يَستحقّ. وقيل: يقضي بين الأنبياء وبين قومهم؛ حكاه النقاش[٣].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمِيُّ وقتادة وأبو زيد عن يعقوب: «نَهْدِ لَهُمْ» بالنون، فهذه قراءةٌ بيِّنة[٤]. النحاس: وبالياء فيها إشكالٌ؛ لأنه يقال: الفعل لا يخلو من فاعل، فأين الفاعلُ لـ «يَهْدِ»؟ فتكلَّم النحويون في هذا؛ فقال الفراء: «كَمْ» في موضعِ رفعٍ بـ «يَهْدِ». وهذا نقضٌ لأصول النحويِّين في قولهم: إنَّ الاستفهام لا يعمل فيه ما قَبْلَه، ولا في «كَمْ» بوجهٍ، أعني ما قَبْلَها. ومذهبُ أبي العباس: أنَّ «يهْدِ» يدلُّ على الهُدَى؛ والمعنى: أَوَلَمْ يَهْدِ لهم الهُدَى. وقيل: المعنى: أَوَلَمْ يَهْدِ اللهُ لهم، فيكون معنى الياءِ والنون واحداً، أي: أَوَلَمْ نُبَيِّن لهم إهلاكَنا القرونَ الكافرةَ مِن قَبْلِهم. وقال الزجَّاج: «كَمْ» في موضعِ نصبٍ بـ «أَهْلَكْنا»[٥].

---

(١) السبعة ص٥١٦، والتيسير ص١٧٧، والنشر ٢/ ٣٤٧ عن حمزة والكسائي ورويس.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٣٢، وتفسير الطبري ١٨/ ٦٣٨.

(٣) ذكره عنه الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣٦٧.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٩٨ عن السلمي وقتادة، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١١٨ عن علي وابن عباس والسلمي.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٩٨، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣٣٣، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ٢١١.

﴿يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ﴾ يَحتمِل الضميرُ في «يَمْشُون» أن يعود على الماشين في مساكن المُهْلَكين، أي: وهؤلاء يمشون ولا يعتبرون. ويَحتمِل أن يعود على المهلَكين فيكون حالاً، والمعنى: أهلكناهم ماشين في مساكنهم. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ آياتِ اللهِ وعِظَاتِه فيتَّعِظُون؟!

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ أي: أَوَلَمْ يعلموا كمالَ قُدْرَتِنا بسَوْقِنا الماءَ إلى الأرض اليابسة التي لا نباتَ فيها لِنُحْيِيَها. الزَّمَخْشريُّ[1]: الجُرُز: الأرضُ التي جُرِز نباتُها، أي: قُطع؛ إمَّا لعُدْمِ الماء، وإمَّا لأنه رُعيَ وأُزيل. ولا يقال للَّتي لا تُنْبِتُ كالسِّبَاخ: جُرُز، ويدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا﴾.

قال ابن عباس: هي أرضٌ باليمن. وقال مجاهد: هي أَبْيَن[2]. وقال عكرمة: هي الأرضُ الظَّمْأى. وقال الضحَّاك: هي الأرضُ الميتةُ العَطْشَى. وقال الفرَّاء[3]: هي الأرض التي لا نباتَ فيها. وقال الأصمعيُّ: هي الأرضُ التي لا تُنْبِتُ شيئاً. وقال محمد بن يزيد: يَبْعُدُ أن تكون إلَّا أرضاً بعينها لدخول الألفِ واللام، إلَّا أنه يجوز على قول ما قال ابن عباس والضحاك[4]. [قال أبو جعفر:] والإسنادُ عن ابن عباس صحيحٌ لا مطعنَ فيه. وهذا إنَّما هو نعتٌ، والنعتُ للمعرفة يكون بالألف واللام، وهو مشتقٌّ من قولهم: رجلٌ جَرُوزٌ: إذا كان لا يُبْقي شَيئاً إلَّا أَكَلَه؛ قال الراجز:

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٤٧ .

(٢) أخرج القولين الطبري ١٨/ ٦٤١ - ٦٤٢ ، وذكرهما النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٢٩٨ . وأبين: موضع في اليمن. ينظر معجم البلدان ١/ ٨٦ .

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٣٣٣ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٢٩٨ - ٢٩٩ ، وما قبله وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٤) في النسخ: يبعد أن تكون لأرض بعينها لدخول الألف واللام إلا أنه يجوز على قول من قال العباس والضحاك، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس.

خَـبٌّ جَـروزٌ وإذا جـاع بَـكَـى ويـأكـل الـتـمرَ ولا يُـلـقـي الـنَّـوَى[(١)]

وكذلك ناقةٌ جَروزٌ: إذا كانت تأكل كلَّ شيء تَجِدُه. وسيفٌ جُراز: أي: قاطِعٌ ماضٍ. وَجَرَزتِ الجرادُ الزَّرْعَ: إذا استأصلته بالأكل. وحكى الفرَّاء[(٢)] وغيره أنه يقال: أرضٌ جُرْز وجُرُز وجَرْز وجَرَز. وكذلك بُخل ورُغب ورُهب؛ في الأربعة أربعُ لغات.

وقد روي أنَّ هذه الأرضَ لا أنهارَ فيها، وهي بعيدةٌ من البحر، وإنَّما يأتيها في كلِّ عامٍ واديان، فيزرعون ثلاثَ مراتٍ في كلِّ عام. وعن مجاهد أيضاً: أنَّها أرضُ النِّيل.

﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ﴾ أي: بالماء ﴿زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ﴾ من الكلأ والحشيش ﴿وَأَنفُسُهُمْ﴾ من الحَبِّ والخَضِرِ والفواكه ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ هذا فيعلمون أنَّا نقدِرُ على إعادتهم؟!

و«فَنُخْرِجُ» يكون معطوفاً على «نَسُوقُ»، أو منقطعاً ممَّا قَبْلَه. «تَأْكُلُ مِنْهُ أنعَامهم» في موضعِ نصبٍ على النعت.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ «مَتَى» في موضع رفعٍ، ويجوز أن يكون في موضع نصبٍ على الظَّرْف[(٣)]. قال قتادة: الفتح: القضاء[(٤)]. وقال الفرَّاء والقُتَبيُّ: يعني فتحَ مكة[(٥)]. وأَوْلى مِن هذا ما قاله مجاهد، قال: يعني يومَ القيامة.

---

(١) الرجز للشماخ، وهو في ديوانه ص٣٨٠ - ٣٨١، والأول منهما برواية: خبٌّ جبانٌ. وهو برواية المصنف في المقصور والممدود للفراء ص٦٧، ومقاييس اللغة ٢/ ٧٩، والصحاح (حطب) والنكت والعيون ٤/ ٣٦٧، واللسان (حتا) و(حطب). وفيه: الخب، أي: اللئيم.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٣٣٣، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٢٩٩.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٩٩.

(٤) ذكره النحاس في معاني القرآن ٥/ ٣١٤، وأبو الليث ٣/ ٣٣.

(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٣٣، وتفسير الغريب لابن قتيبة ص٣٤٧.

ويُروى أنَّ المؤمنين قالوا: سيحكُم الله عزَّ وجلَّ بيننا يومَ القيامة، فيثيبُ المحسنَ ويعاقب المسيء، فقال الكفار على التَّهزِّي: متى يومُ الفتح؟ أي: هذا الحُكْم. ويقال للحاكم: فاتح وفتَّاح؛ لأنَّ الأشياء تنفتح على يديه وتنفصل. وفي القرآن: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:٨٩][١] وقد مضى هذا في «البقرة»[٢] وغيرها.

﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ﴾ على الظَّرف. وأجاز الفرَّاء الرفع[٣]. ﴿لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: يؤخَّرون ويُمْهَلون للتوبة، إن كان يومُ الفتحِ يومَ بدرٍ أو فتحَ مكة. ففي بدر قُتلوا، ويومَ الفتحِ هربوا، فلحقهم خالد بنُ الوليد فقتلهم.

قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ قيل: معناه: فأَعْرِضْ عن سَفَهِهم ولا تُجِبْهم إلَّا بما أُمرتَ به ﴿وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ أي: انتظرْ يومَ الفتح، يومَ يحكُم الله لك عليهم[٤].

ابن عباس: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي: عن مُشْركي قريش بمكة، وأنَّ هذا منسوخٌ بالسيف في «براءة» في قوله: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة:٥][٥]، ﴿وَٱنتَظِرْ﴾ أي: موعدي لك. قيل: يعني يومَ بدر. ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ أي: ينتظرون بكم حوادثَ الزمان.

وقيل: الآيةُ غيرُ منسوخة؛ إذ قد يقع الإعراضُ مع الأمر بالقتال؛ كالهُدْنة وغيرها. وقيل: أَعْرِضْ عنهم بعد ما بَلَّغتَ الحُجَّة، وانتَظِرْ إنهم منتظرون.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٩٩ - ٣٠٠.

(٢) ٢/ ٢١٤ - ٢١٥.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٠٠، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣٣٣.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٠٠.

(٥) أخرجه النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٨١ من طريق جويبر، عن الضحاك، عن ابن عباس.

إن قيل: كيف ينتظرون القيامةَ وهم لا يؤمنون؟ ففي هذا جوابان:

أحدهما: أن يكون المعنى: إنهم منتظرون الموتَ، وهو من أسباب القيامة، فيكون هذا مجازاً.

والآخر: أنَّ فيهم مَن يشكُّ، وفيهم مَن يؤمن بالقيامة، فيكون هذا جواباً لهذين الصِّنْفَين. والله أعلم[١].

وقرأ ابن السَّمَيْفَع: «إِنَّهم مُنْتَظَرون» بفتح الظاء[٢]. ورويتْ عن مجاهدٍ وابن مُحَيْصِن. قال الفرَّاء: لا يصحّ هذا إلَّا بإضمارٍ، مَجازُه: إنهم منتظَرون بهم. قال أبو حاتم: الصحيحُ الكسر[٣]، أي: انتظر عذابهم إنَّهم منتظِرون هلاكَك.

وقد قيل: إنَّ قراءةَ ابن السَّمَيْفَع ـ بفتح الظاء ـ معناها: وانتَظِرْ هلاكَهم، فإنَّهم أحِقَّاءُ بأن يُنْتظَر هلاكُهم، يعني أنَّهم هالكون لا مَحالةَ، [أو] وانتظر ذلك، فإنَّ الملائكة في السماء ينتظرونه؛ ذكره الزمخشرِيّ[٤]. وهو معنى قولِ الفرَّاء. والله أعلم.

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٠٠.

(٢) المحتسب ٢/ ١٧٥، والكشاف ٣/ ٤٧.

(٣) ذكر قول أبي حاتم ابنُ جني في المحتسب ٢/ ١٧٥، ولم نقف على قول الفراء في معاني القرآن له.

(٤) في الكشاف ٢/ ٢٤٧، وما سلف بين حاصرتين منه.

تفسير سورة السجدة (١)

وهى مكية.

قال البخارى فى « كتاب الجمعة » : حدثنا أبو نعيم ، حدثنا سفيان ، عن سعد بن إبراهيم ، عن عبد الرحمن بن هُرمُزَ الأعرجِ(٢) ، عن أبى هريرة ، رضى اللّه عنه ، قال : كان النبى (٣)ﷺ يقرأ فى الفجر يوم الجمعة : ﴿ **الٓمٓ . تنزيل** ﴾ السجدة ، و﴿ **هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإنسَانِ** ﴾ .

ورواه مسلم أيضا من حديث سفيان الثورى ، به (٤) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أسود بن عامر ، أخبرنا الحسن بن صالح ، عن لَيْث ، عن أبى الزبير، عن جابر قال : كان النبى ﷺ لاينام حتى يقرأ ﴿ **الٓمٓ . تنزيل** ﴾ السجدة ، و ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ** ﴾ تفرد به أحمد (٥) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **الٓمٓ (١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣)** ﴾ .

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة فى أول سورة «البقرة» بما أغنى عن إعادته .

وقوله : ﴿ **تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ** ﴾ أى: لاشك فيه ولا مرية أنه نزل (٦) ، ﴿ **مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ .

ثم قال مخبراً عن المشركين : ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ** ﴾، بل يقولون : ﴿ **افْتَرَاهُ** ﴾ أى : اختلقه من تلقاء نفسه ، ﴿ **بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ** ﴾ أى : يتبعون الحق .

﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (٤) يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٥) ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦)** ﴾ .

---

(١) فى أ : « سورة آلم السجدة » . (٢) فى ت : « وروى البخارى بإسناده » . (٣) فى ت : « رسول الله » .

(٤) صحيح البخارى برقم (٨٩١) وصحيح مسلم برقم (٨٨٠) .

(٥) المسند (٣/ ٣٤٠) .

(٦) فى ف ، أ : « منزل » .

يخبر تعالى أنه الخالق للأشياء ، فخلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش . وقد تقدم الكلام على ذلك .

﴿ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ ﴾أى : بل هو المالك لأزمة الأمور ، الخالق لكل شيء ، المدبر لكل شيء ، القادر (١) على كل شيء ، فلا ولى لخلقه سواه ، ولا شفيع إلا من بعد إذنه .

﴿ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ يعنى : أيها العابدون غيره ، المتوكلون على من عداه ـ تعالى وتقدس وتنزه أن يكون له نظير أو شريك أو نديد ، أو وزير أو عديل ، لا إله إلا هو ولا رب سواه .

وقد أورد النسائى ههنا حديثا فقال: حدثنا إبراهيم بن يعقوب ، حدثنى محمد بن الصباح ، حدثنا أبو عبيدة الحداد ، حدثنا الأخضر بن عَجْلان ،عن ابن جُرَيْج المكى ، عن عطاء (٢) ، عن أبى هريرة، أن رسول الله ﷺ أخذ بيدى فقال : « إن الله خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش فى اليوم (٣) السابع ، فخلق التربة يوم السبت ، والجبال يوم الأحد ، والشجر يوم الإثنين ، والمكروه يوم الثلاثاء ، والنور يوم الأربعاء ، والدواب يوم الخميس ، وآدم يوم الجمعة فى آخر ساعة من النهار بعد العصر ، وخلقه من أديم الأرض ، بأحمرها وأسودها ، وطيبها وخبيثها ، من أجل ذلك جعل الله من بنى آدم الطيب والخبيث » (٤) .

هكذا أورد هذا الحديث إسناداً ومتنا ، وقد أخرج مسلم والنسائى أيضا من حديث الحجاج بن محمد الأعور ، عن ابن جُرَيج ، عن إسماعيل بن أمية ، عن أيوب بن خالد ، عن عبد الله بن رافع، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ بنحو من هذا السياق (٥) .

وقد علله البخارى فى كتاب « التاريخ الكبير » فقال : « وقال بعضهم : أبو هريرة عن كعب الأخبار وهو أصح » (٦) ، وكذا علله غير واحد من الحفاظ ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ أى : يتنزل (٧) أمره من أعلى السموات إلى أقصى تخوم الأرض السابعة ، كما قال الله تعالى :﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق : ١٢].

وترفع الأعمال إلى ديوانها فوق سماء الدنيا ، ومسافة ما بينها وبين الأرض [مسيرة] (٨) خمسمائة سنة ، وسمك السماء خمسمائة سنة .

وقال مجاهد ، وقتادة ، والضحاك : النزول من الملك فى مسيرة خمسمائة عام ،وصعوده فى مسيرة خمسمائة عام ، ولكنه يقطعها فى طرفة عين ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ

---

(١) فى ت ، ف ، أ : « القاهر » . (٢) فى ت : « وروى مسلم والنسائى حديثا » . (٣) فى ت : « على العرش يوم » .
(٤) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٣٩٢) .
(٥) صحيح مسلم برقم (٢٧٨٩) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٠١٠) .
(٦) التاريخ الكبير للبخارى (١/ ٤١٣ ، ٤١٤) وممن أعله من الحفاظ ابن المدينى كما نقل ذلك البيهقى فى الأسماء والصفات ص (٢٧٥)،وقد رد ذلك الشيخ ناصر الألبانى فى صحيحته برقم (١٨٣٣) ،والحديث يحتاج إلى بحث ، والله أعلم .
(٧) فى ت ، ف : « ينزل » . (٨) زيادة من ت ، ف ، أ .

مِّمَّا تَعُدُّون﴾.

﴿ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أى : المدبر لهذه الأمور الذى هو شهيد على أعمال عباده ، يرفع إليه جليلها وحقيرها ، وصغيرها وكبيرها ـ هو ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذى قد عزّ كلّ شىء فقهره وغلبه ، ودانت له العباد والرقاب ،﴿الرَّحِيمُ﴾ بعباده المؤمنين . فهو عزيز فى رحمته ، رحيم فى عزته [وهذا هو الكمال: العزة مع الرحمة، والرحمة مع العزة ، فهو رحيم بلا ذل] (١) .

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ (٩)﴾ .

يقول تعالى : إنه الذى أحسن خلق الأشياء وأتقنها وأحكمها .

وقال مالك ، عن زيد بن أسلم : ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ قال : أحسن خلق كل شىء . كأنه جعله من المقدم والمؤخر .

ثم لما ذكر خلق السموات والأرض ، شرع فى ذكر خلق الإنسان فقال : ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾، يعنى: خلق أبا البشر آدم من طين ،﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ أى : يتناسلون كذلك من نطفة تخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة ، ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾ يعنى : آدم ، لما خلقه من تراب خلقه سويا مستقيما ،﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾ ، يعنى: العقول،﴿ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أى : بهذه القوى التى رزقكموها اللّه عز وجل (٢) . فالسعيد من استعملها فى طاعة ربه عزوجل .

﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠) قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المشركين فى استبعادهم المعاد حيث قالوا : ﴿أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ﴾ أى : تمزقت أجسامنا وتفرقت فى أجزاء الأرض (٣) وذهبت ، ﴿أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؟ أى : أئنا لَنَعُودُ بعد تلك الحال ؟! يستبعدون ذلك (٤) ، وهذا إنما هو بعيد بالنسبة إلى قُدرَتهم العاجزة ، لا بالنسبة إلى قُدْرة الذى بدأهم وخلقهم من العدم ، الذى إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾.

ثم قال :﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ ، الظاهر من هذه الآية أن ملك الموت شخص

---

(١) زيادة من ت ، ف . (٢) فى ف ، أ : « تعالى » . (٣) فى أ : « الأرضين » .
(٤) فى أ : « تلك الحال » .

معين من الملائكة ، كما هو المتبادر من حديث البراء المتقدم ذكره فى سورة « إبراهيم » (١) ، وقد سمى فى بعض الآثار بعزرائيل ، وهو المشهور ، قاله قتادة وغير واحد ، وله أعوان . وهكذا (٢) ورد فى الحديث أن أعوانه ينتزعون الأرواح من سائر الجسد ، حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت .

قال مجاهد : حُويت له الأرض فجعلت له مثل الطست ، يتناول منها حيث يشاء (٣) . ورواه زهير بن محمد عن النبى ﷺ ، بنحوه مرسلا . وقاله ابن عباس ، رضى الله عنهما .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا يحيى بن أبى يحيى المقرى ، حدثنا (٤) عمرو بن شمر(٥) عن جعفر بن محمد قال : سمعت أبى يقول : نظر رسول الله ﷺ إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار ، فقال له النبى ﷺ : « ياملك الموت ، ارفق بصاحبى فإنه مؤمن » . فقال مَلَك الموت: يامحمد ، طبْ نفساً وقَر عيناً فإنى بكل مؤمن رفيق ، واعلم أن ما فى الأرض بيت مَدَر ولا شَعَر ، فى بر ولا(٦) بحر ، إلا وأنا أتصفحه فى كل يوم خمس مرات ، حتى إنى أعرفُ (٧) بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم ، والله يا محمد ، لو أنى أردت أن أقبض روح بعوضة ما قَدَرتُ على ذلك حتى يكون الله هو الآمر بقبضها(٨) .

قال جعفر : بلغنى أنه إنما يتصفحهم عند (٩) مواقيت الصلاة ، فإذا حضرهم عند الموت فإن كان ممن يحافظ على الصلاة دنا منه المَلَك ، ودفع عنه الشيطان ، ولقنه المَلَك : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » فى تلك الحال العظيمة .

وقال عبد الرزاق : حدثنا محمد بن مسلم ، عن إبراهيم بن مَيْسَرة قال : سمعت مجاهداً يقول(١٠) : ما على ظهر الأرض من بيت شعر أو مدر إلا وملك الموت يُطيف به كل يوم مرتين .

وقال كعب الأحبار : والله ما من بيت فيه أحد من أهل الدنيا إلا وملك الموت يقوم على بابه كل يوم سبع مرات . ينظر هل فيه أحد أمر أن (١١) يتوفاه . رواه ابن أبى حاتم .

وقوله : ﴿ **ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ** ﴾أى : يوم معادكم وقيامكم من قبوركم لجزائكم .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ

(١) عند الآية السابعة والعشرين ، وقد جاء الحديث بتمامه فى نسخة ت .
(٢) فى ت : « كما » . (٣) فى ت : « شاء » . (٤) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بإسناده عن » .
(٥) فى ت ، ف ، أ ، هـ : « عمر بن سمرة » ،والتصويب من البداية والنهاية والمعجم .
(٦) فى ت : « أو » . (٧) فى ف ، أ : « لأعرف » .
(٨) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٤/ ٢٢٠)،والبزار فى مسنده برقم (٧٨٤) « كشف الأستار » من طريق إسماعيل بن أبان ،عن عمرو ابن شمر الجعفى ، عن جعفر بن محمد عن أبيه ، عن الحارث بن الخزرج عن أبيه ، أنه سمع رسول الله ﷺ فذكر نحوه ، فأسنده ولم يرسله ،ذكره الحافظ ابن حجر فى الإصابة وقال : « عمرو بن شمر متروك الحديث » .
(٩) فى ف : « فى » . (١٠) فى ت : « وقال مجاهد » . (١١) فى ت ، ف ، أ : « به » .

الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٤)﴾.

يخبر تعالى عن حال المشركين يوم القيامة، وحالهم حين عاينوا البعث، وقاموا بين يدى الله حقيرين ذليلين، ناكسى رؤوسهم، أى: من الحياء والخجل، يقولون: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا (١)﴾ أى: نحن الآن نسمع قولك ونطيع أمرك، كما قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨]. وكذلك يعودون على أنفسهم بالملامة إذا (٢) دخلوا النار بقولهم: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]. وهكذا هؤلاء يقولون: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا﴾أى: إلى الدار الدنيا، ﴿نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ أى: قد أيقنا وتحققنا أن وعدك حق ولقاءك حق، وقد علم الرب تعالى منهم أنه لو أعادهم إلى الدار الدنيا لكانوا كما كانوا فيها كفاراً يكذبون آيات (٣) الله ويخالفون رسله، كما قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ. وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧ ـ ٢٩]. وقال ههنا: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩].

﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أى: من الصنفين، فدارهم النار(٤) لا محيد لهم عنها ولا محيص لهم منها، نعوذ بالله وكلماته التامة من ذلك.

﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أى: يقال لأهل النار على سبيل التقريع والتوبيخ: ذوقوا [هذا] (٥) العذاب بسبب تكذيبكم به، واستبعادكم وقوعه، وتناسيكم له؛ إذ عاملتموه معاملة من هو ناس له، ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ أى: [إنا] (٦) سنعاملكم معاملة الناسى؛ لأنه تعالى لا ينسى شيئا ولا يضل عنه شيء، بل من باب المقابلة، كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الجاثية: ٣٤].

وقوله: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى: بسبب كفركم وتكذيبكم (٧)، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا. إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا. جَزَاءً وِفَاقًا. إِنَّهُمْ كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَابًا. وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا. وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا. فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا﴾ [النبأ: ٢٤ ـ ٣٠].

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا

(١) بعدها فى ف، أ: «فارجعنا نعمل صالحاً».
(٢) فى ت: «إذ».
(٣) فى ت، ف: «بآيات».
(٤) فى ت، ف: «قد ذرأتهم للنار».
(٥) زيادة من أ.
(٦) زيادة من ت.
(٧) فى ت: «كفرهم وتكذيبهم».

يَسْتَكْبِرُونَ (١٥) تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) ﴾.

يقول تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ﴾ أي: إنما يصدق بها ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا ﴾ أي: استمعوا لها وأطاعوها قولا وفعلا، ﴿ وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [أي][١] عن اتباعها والانقياد لها، كما يفعله الجهلة من الكفرة الفجرة، [وقد] [٢] قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠].

ثم قال [تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ يعنى بذلك: قيام الليل، وترك النوم والاضطجاع على الفرش الوطيئة. قال مجاهد والحسن فى قوله تعالى] [٣]: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ ﴾، يعنى بذلك: قيام الليل.

وعن أنس، وعكرمة، ومحمد بن المنكَدِر، وأبى حازم، وقتادة: هو الصلاة بين العشاءين. وعن أنس أيضاً: هو انتظار صلاة العتمة. رواه ابن جرير بإسناد جيد [٤].

وقال الضحاك: هو صلاة العشاء فى جماعة، وصلاة الغداة فى جماعة.

﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ أي: خوفاً من وبال عقابه، وطمعاً فى جزيل ثوابه، ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾، فيجمعون بين فعل القربات اللازمة والمتعدية، ومقدم هؤلاء وسيدهم وفخرهم فى الدنيا والآخرة رسول الله ﷺ، كما قال عبد الله بن رَوَاحة، رضى الله عنه:

وَفِينَا رَسُولُ اللَّه يَتْلُو كتَابَه ... إذَا انشَقَّ مَعْرُوفٌ مِنْ الصُّبْح سَاطعُ
[أرَانا الهُدَى بَعْدَ العَمَى فَقُلُوبُنَا ... به مُوقنَاتٌ أنَّ مَا قَالَ واقع][٥]
يَبِيتُ يُجَافِى جَنْبَهُ عَنْ فرَاشه ... إذَا اسْتَثْقَلَتْ بالْمُشْركين المَضَاجعُ

وقال الإمام أحمد: حدثنا روح وعفان قالا: حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا عطاء بن السائب، عن مُرَّة الهمدانى، عن ابن مسعود [٦]، عن النبى ﷺ قال: « عجب ربنا من رجلين: رجل ثار من وطَائه ولحافه، ومن بين أهله وحيه [٧] إلى صلاته، [فيقول ربنا: أيا ملائكتى، انظروا إلى عبدى، ثار من فراشه ووطائه، ومن بين حيه وأهله إلى صلاته] [٨] رغبة فيما عندى، وشفقة مما عندى. ورجل غزا فى سبيل الله، عز وجل، فانهزموا، فعلم ما عليه من الفرار، وما له فى

(١) زيادة من ت، ف. (٢) زيادة من ت. (٣) زيادة من ت، ف.
(٤) تفسير الطبرى (٢١/ ٦٣).
(٥) زيادة من ت، ف، أ.
(٦) فى ت: « وروى الإمام أحمد بإسناده عن ابن مسعود ».
(٧) فى ت، ف، أ: « من بين بنيه وأهله ». (٨) زيادة من ت، ف، أ، والمسند.

الرجوع ، فرجع حتى أهريق دمه ، رغبة فيما عندى وشفقة مما عندى . فيقول الله ، عز وجل للملائكة : انظروا إلى عبدى رجع رغبة فيما عندى ، ورهبة مما عندى ، حتى أهريق دمه » .

وهكذا رواه أبو داود فى « الجهاد » ، عن موسى بن إسماعيل ، عن حماد بن سلمة ، به بنحوه(١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا مَعْمَر ، عن عاصم بن أبى النَّجُود ، عن أبى وائل (٢) ، عن معاذ بن جبل قال : كنت مع النبى ﷺ فى سفر ، فأصبحت يوما قريبا منه ، ونحن نسير ، فقلت : يا نبى الله (٣) ، أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ويباعدنى من النار . قال : « لقد سألت عن عظيم ، وإنه ليسير على من يسره الله عليه ، تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت » . ثم قال : « ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة ، وصلاة الرجل فى(٤) جوف الليل » . ثم قرأ : ﴿ **تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ** ﴾، حتى بلغ ﴿ **يَعْمَلُون** ﴾. ثم قال : « ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ » فقلت : بلى ، يارسول الله . فقال : « رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سَنَامه الجهاد فى سبيل الله » . ثم قال : « ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ » فقلت : بلى ، يا نبى الله. فأخذ بلسانه ثم قال : « كُفَّ عليك هذا ».فقلت : يارسول الله ، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به . فقال : « ثكلتك أمك يامعاذ ، وهل يكُب الناس فى النار على وجوهم ـ أو قال : على مناخرهم ـ إلا حصائد ألسنتهم » .

رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه فى سننهم ، من طرق عن معمر ، به (٥) . وقال (٦) الترمذى: حسن صحيح . ورواه ابن جرير من حديث شعبة ، عن الحكم قال : سمعت عُرْوَة بن النزال (٧) يحدث عن معاذ بن جبل ؛ أن رسول الله ﷺ قال له : « ألا أدلك على أبواب الخير : الصوم جنة ، والصدقة تكفر الخطيئة ، وقيام العبد فى جوف الليل » ، وتلا هذه الآية :﴿ **تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُون** ﴾(٨) .

ورواه أيضا من حديث الثورى ، عن منصور بن المعتمر ، عن الحكم ، عن ميمون بن أبى شبيب، عن معاذ ، عن النبى ﷺ بنحوه ، ومن حديث الأعمش ، عن حبيب بن أبى ثابت ، والحكم عن ميمون بن أبى شبيب ،عن معاذ مرفوعا بنحوه . ومن حديث حماد بن سلمة ، عن عاصم بن أبى النَّجُود ، عن شهر ، عن معاذ بن جبل ، عن النبى ﷺ ، فى قوله تعالى :﴿ **تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُم عَنِ**

---

(١) المسند (١/ ٤١٦) وسنن أبى داود برقم (٥٢٣٦) .

(٢) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده » .

(٣) فى ت : « يارسول الله » .   (٤) فى ت : « من » .

(٥) المسند (٥/ ٢٣١) وسنن الترمذى برقم (٢٦١٦) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٣٩٤) وسنن ابن ماجة برقم (٣٩٧٣) .

(٦) فى ت : « رواه » .   (٧) فى أ : « الزبير » .

(٨) تفسير الطبرى (٢١/ ٦٤) .

الْمَضَاجِعِ ﴾، قال : « قيام العبد من الليل » (١) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سَنَان الواسطى ، حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا فِطْر بن خليفة ، عن حبيب بن أبى ثابت ، والحكم ، وحكيم بن جُبَيْر ، عن ميمون بن أبى شبيب ، عن معاذ بن جبل قال : كنت مع النبى ﷺ فى غزوة تبوك فقال : « إن شئت أنبأتك بأبواب الخير : الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة ، وقيام الرجل فى جوف الليل » ، ثم تلا رسول الله ﷺ : **﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾** .

ثم قال : حدثنا أبى ، حدثنا سويد بن سعيد ، حدثنا على بن مُسْهِر ، عن عبد الرحمن بن إسحاق ، عن شَهْر بن حَوْشَب (٢) ، عن أسماء بنت يزيد قالت : قال رسول الله ﷺ : « إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ، جاء مناد فنادى بصوت يُسمعُ الخلائق : سيعلم أهل الجمع اليوم مَن أولى بالكرم . ثم يرجع فينادى : ليقم (٣) الذين كانت **﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾** الآية ، فيقومون وهم قليل » (٤) .

وقال البزار : حدثنا عبد الله بن شَبِيب ، حدثنا الوليد بن عطاء بن الأغر ، حدثنا عبد الحميد بن سليمان ، حدثنى مصعب ، عن زيد بن أسلم ، عن أبيه قال : قال بلال (٥) لما نزلت هذه الآية : **﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾** [الآية] (٦) ، كنا نجلس فى المجلس ، وناس من أصحاب رسول الله ﷺ يصلون بعد المغرب إلى العشاء ، فنزلت هذه الآية : **﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾** .

ثم قال : لا نعلم روى أسلم عن بلال سواه ، وليس له طريق عن بلال غير هذه الطريق (٧) .

وقوله : **﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾** أى : فلا يعلم أحد عظمة ما أخفى الله لهم فى الجنات من النعيم المقيم ، واللذات التى لم يطلع على مثلها أحد ، لَمّا أخفوا أعمالهم (٨) أخفى الله لهم من الثواب ، جزاء وفاقا ؛ فإن الجزاء من جنس العمل .

قال الحسن [البصرى] (٩) : أخفى قوم عملهم فأخفى الله لهم ما لم تر عين ، ولم يخطر (١٠) على قلب بشر . رواه ابن أبى حاتم .

قال البخارى : قوله : **﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾** الآية : حدثنا على بن

---

(١) تفسير الطبرى (٢١/ ٦٤ ، ٦٥) .

(٢) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بإسناده » .

(٣) فى ت : « لتقم » .

(٤) ورواه إسحاق بن راهويه فى مسنده ، وأبو يعلى فى المسند الكبير كما فى المطالب العالية (٤/ ٣٧٣) من حديث أسماء بنت يزيد رضى الله عنها .

(٥) فى ت : « وقال البزار بإسناده عن بلال قال » .

(٦) زيادة من ت ، ف .

(٧) مسند البزار برقم (٢٢٥٠) « كشف الأستار » ، وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٩٠) : « فيه عبد الله بن شبيب وهو ضعيف » .

(٨) فى ت ، ف ، أ : « أعمالهم كذلك » .

(٩) زيادة من أ .

(١٠) فى ت : « ولا يخطر » .

عبد اللّه، حدثنا سفيان ، عن أبى الزّناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة ، رضى اللّه عنه ، عن رسول اللّه ﷺ قال : « قال اللّه تعالى : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر » . قال أبو هريرة : فاقرؤوا إن شئتم : ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾.

قال : وحدثنا سفيان ، حدثنا أبو الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة قال : قال اللّه مثله [١]. قيل لسفيان : روايةً ؟ قال : فَأَىُّ شىء ؟

ورواه مسلم والترمذى من حديث سفيان بن عيينة ، به [٢] . وقال الترمذى : حسن صحيح .

ثـم قال البخارى : حدثنا إسحاق بن نصـر ،حدثنا أبو أسامة ، عن الأعمش ،حدثنا [٣] أبو صالح ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ : « يقول اللّه تعالى : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ذُخْراً منْ بَله مـا أُطْلعتُم عليه » ، ثـم قـرأ : ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾.

قال أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن أبى صالح ، قرأ أبو هريرة : « قُرَّات أَعْيُنٍ ». انفرد به البخارى من هذا الوجه [٤] .

وقـال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا مَعْمَر ، عن همام بن مُنَبِّه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول اللّه ﷺ : « إن اللّه تعالى قال : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

أخرجاه فى الصحيحين من رواية عبد الرزاق [٥] . ورواه الترمذى فى التفسير ، وابن جرير ، من حديث عبد الرحيم بن سليمان ، عن محمد بن عمرو ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة ، رضى اللّه عنه ، عن رسول اللّه ﷺ بمثله . ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح [٦] .

وقال حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أبى رافع ، عن أبى هريرة [٧]،رضى اللّه عنه ، قال حمـاد: أحسبـه عن النبـى [٨] ﷺ قال :« مـن يدخل الجنة ينعم لا ييأس ،لا تبلى ثيابه ،ولا يفنى شبابه ،فى الجنة ما لا عين رأت ،ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

---

(١) فى ف ، أ : « تعالى » .
(٢) صحيح البخارى برقم (٤٧٧٩) وصحيح مسلم برقم (٢٨٢٤) وسنن الترمذى برقم (٣١٩٧) .
(٣) فى ف ، أ : « عن » .
(٤) صحيح البخارى برقم (٤٧٨٠) وفى البخارى « رواية أبى معاوية » بعد الحديث المتقدم .
(٥) المسند (٢/ ٣١٣) وصحيح البخارى برقم (٨٤٩٨) من طريق عبد الله عن معمر به ، ولم أجده فى الصحيحين من رواية عبد الرزاق .
(٦) سنن الترمذى برقم (٣٢٩٢) وتفسير الطبرى (٢١/ ٦٦) .
(٧) فى ت : « وروي مسلم عن أبى هريرة » . (٨) فى ت : « رسول الله » .

رواه مسلم من حديث حماد بن سلمة ، به (١) .

وروى (٢) الإمام أحمد : حدثنا هارون ، حدثنا ابن وهب ، حدثنى أبو صخر ، أن أبا حازم حدثه قال : سمعت (٣) سهل بن سعد الساعدى ، رضى الله عنه ، يقول : شهدت من رسول الله ﷺ مجلسا وصف فيه الجنة ، حتى انتهى ، ثم قال فى آخر حديثه : « فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » ، ثم قرأ هذه الآية :﴿ **تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ** [**يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا**] (٤) ﴾ ، إلى قوله : ﴿ **يَعْمَلُونَ** ﴾.

وأخرجه مسلم فى صحيحه عن هارون بن معروف ، وهارون بن سعيد ، كلاهما عن ابن وهب، به (٥) .

وقال ابن جرير : حدثنى العباس بن أبى طالب ، حدثنا معلى بن أسد ، حدثنا سلام بن أبى مطيع ، عن قتادة ، عن عقبة بن عبد الغافر ، عن أبى سعيد الخدرى ، عن رسول الله ﷺ ، يروى عن ربه ، عز وجل ، قال : « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولاخطر على قلب بشر » . لم يخرجوه (٦) .

وقال (٧) مسلم أيضا فى صحيحه : حدثنا ابن أبى عمر وغيره ، حدثنا سفيان ، حدثنا مُطَرِّف بن طَرِيف وعبد الملك بن سعيد ، سمعا الشعبى يخبر عن المغيرة بن شعبة قال : سمعته على المنبر ـ يرفعه إلى النبى ﷺ ـ قال : « سأل موسى ، عليه السلام (٨) ربه عز وجل: ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ قال: هو رجل يجىء بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة ، فيقال له : ادخل الجنة . فيقول : أى رب ، كيف وقد نزل الناس منازلهم ، وأخذوا أخذاتهم ؟ فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل مُلْك مَلِكٍ من ملوك الدنيا ؟ فيقول : رضيت رب . فيقول : لك ذلك ، ومثله ، ومثله ، ومثله ، ومثله، فقال فى الخامسة : رضيت رب . فيقول : هذا لك وعشرة أمثاله (٩) ، ولك ما اشتهت نفسك ولَذّت عينك. فيقول : رضيت رب . قال : رب ، فأعلاهم منزلة ؟ قال : أولئك الذين أَرَدتُ ، غَرَسْتُ كرامتهم بيدى، وختمت عليها ، فلم تر عين ، ولم تسمع (١٠) أذن ، ولم يخطر على قلب بشر » ، قال : ومصداقه من كتاب الله :﴿ **فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ .

ورواه الترمذى عن ابن أبى عمر ، وقال : حسن صحيح ، قال : ورواه بعضهم عن الشعبى، عن المغيرة ولم يرفعه ، والمرفوع أصح (١١) .

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٨٣٦) .
(٢) فى أ : « وقال » .
(٣) فى ت : « وروى مسلم أيضا عن » .
(٤) زيادة من ت ، ف ، أ .
(٥) المسند (٥/ ٣٣٤) ، وصحيح مسلم برقم (٢٨٢٥) .
(٦) تفسير الطبرى (٢١/ ٦٧) .
(٧) فى ت : « وروى » .
(٨) فى ت: « ﷺ » .
(٩) فى ف ، أ : « وعشرة أمثاله معه » .
(١٠) فى ف « تستمع » .
(١١) صحيح مسلم برقم (١٨٩) ، وسنن الترمذى برقم (٣١٩٨) .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا جعفر بن منير المدائنى ، حدثنا أبو بدر شجاعُ بن الوليد ، حدثنا زياد ابن خَيْثَمَة ، عن محمد بن جُحَادة ، عن عامر[1] بن عبد الواحد قال : بلغنى أن الرجل من أهل الجنة يمكث فى مكانه سبعين سنة ، ثم يلتفت فإذا هو بامرأة أحسن مما كان فيه ، فتقول له : قد أنَى لك أن يكون لنا منك نصيب ؟ فيقول : من أنت ؟ فتقول : أنا من المزيد . فيمكث معها سبعين سنة، ثم يلتفت فإذا هو بامرأة أحسن مما كان فيه ، فتقول له : قد أنى لك أن يكون لنا منك نصيب ، فيقول: من أنت ؟ فتقول : أنا التى [2] قال اللّه : ﴿ **فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ** ﴾.

وقال ابن لَهِيعة : حدثنى عطاء بن دينار ، عن سعيد بن جُبَير قال : تدخل عليهم الملائكة فى مقدار كل يوم من أيام الدنيا ثلاث مرات ، معهم التحف من اللّه من جنات عدن ما ليس فى جناتهم ، وذلك قوله : ﴿ **فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ** ﴾، ويُخبرُون أن اللّه عنهم[3] راض .

وقال ابن جرير : حدثنا سهل بن موسى الرازى ، حدثنا الوليد بن مسلم ،عن صفوان بن عمرو،عن أبى اليمان الهوزنى ـ أو غيره ـ قال : الجنة مائة درجة ،أوّلها درجة فضة وأرضها فضة،ومساكنها فضة ، [وآنيتها فضة] [4] وترابها المسك . والثانية ذهب ،وأرضها ذهب ، ومساكنها ذهب ،وآنيتها ذهب ،وترابها المسك .والثالثة لؤلؤ ،وأرضها لؤلؤ ،ومساكنها اللؤلؤ ، وآنيتها اللؤلؤ،وترابها المسك . وسبع وتسعون بعد ذلك ،ما لا عين رأت ،ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . ثم تلا هذه الآية :﴿ **فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾[5].

وقال ابن جرير : حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا معتمر بن سليمان ، عن الحكم بن أبان ، عن الغِطْرِيف ،عن جابر بن زيد ، عن ابن عباس [6] ،عن النبى ﷺ ،عن الروح الأمين قال : «يؤتى بحسنات العبد وسيئاته ،ينقص بعضها من بعض ، فإن بقيت حسنة [واحدة] [7] وسع اللّه له فى الجنة » ، قال : فدخلت على « يزداد » فَحَدَّثَ بمثل هذا الحديث ، قال : فقلت : فأين ذهبت الحسنة؟ قال : ﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ** ﴾[الأحقاف : ١٦].قلت : قوله تعالى : ﴿ **فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ** ﴾ ، قال : العبد يعمل سراً أسَرّه إلى اللّه ، لم يُعلم به الناس ، فأسَرّ اللّه له يوم القيامة قُرّة أعين [8] .

﴿ **أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ (١٨) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠)**

(١) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم عن عباس » .
(٢) فى أ : « أنا من الذين » .
(٣) فى ت : « عليهم » .
(٤) زيادة من ت ، ف ،أ ، والطبرى .
(٥) تفسير الطبرى (٢١/ ٦٦) .
(٦) فى ت : « وروى ابن جرير بإسناده عن ابن عباس » .
(٧) زيادة من ت ، ف ، أ ، والطبرى .
(٨) تفسير الطبرى (٢١/ ٦٧) .

وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ (٢٢) ﴾ .

يخبر تعالى عن عدله [وكرمه] (١) أنه لايساوى فى حُكمه يوم القيامة من كان مُؤمناً بآياته متبعاً لرسله ، بمن كان فاسقا ، أى : خارجا عن طاعة ربه مكذبا لرُسُله إليه (٢) ، كما قال تعالى : ﴿ **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** ﴾ [الجاثية : ٢١] ، وقال تعالى : ﴿ **أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ** ﴾ [ص : ٢٨] ، وقال تعالى : ﴿ **لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ** ﴾ [الحشر : ٢٠] ؛ ولهذا قال تعالى : ههنا : ﴿ **أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لاَّ يَسْتَوُونَ** ﴾ أى : عند الله يوم القيامة .

وقد ذكر عطاء بن يَسَار والسُّدِّى وغيرهما : أنها نزلت فى على بن أبى طالب ، وعقبة بن أبى مُعَيط ؛ ولهذا فَصَّل حكمهم فقال : ﴿ **أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ أى : صدقت قلوبهم بآيات الله وعملوا بمقتضاها (٣) ، وهى الصالحات ، ﴿ **فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ** ﴾ أى : التى فيها المساكن والدور والغرف العالية ، ﴿ **نُزُلاً** ﴾ أى : ضيافة وكرامة ﴿ **بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا** ﴾ أى : خرجوا عن الطاعة ، ﴿ **فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا** ﴾ كقوله : ﴿ **كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا** ﴾ الآية [الحج : ٢٢] .

قال الفُضَيل بن عياض : والله إن الأيدى لموثقة ، وإن الأرجل لمقيدة ، وإن اللهب ليرفعهم والملائكة تقمعهم .

﴿ **وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ** ﴾ أى : يقال لهم ذلك تقريعا وتوبيخا .

وقوله : ﴿ **وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ [لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ]** (٤) ﴾ قال (٥) ابن عباس : يعنى بالعذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتها ، وما يحل بأهلها مما يبتلى الله به عباده ليتوبوا إليه . وروى مثله عن أبى بن كعب ، وأبى العالية ، والحسن ، وإبراهيم النَّخَعى ، والضحاك، وعلقمة ، وعطية ، ومجاهد ، وقتادة ، وعبد الكريم الجَزَرى ، وخَصِيف .

وقال ابن عباس ـ فى رواية عنه ـ :يعنى به إقامة الحدود عليهم .

وقال : البراء بن عازب ، ومجاهد ، وأبو عبيدة : يعنى به عذاب القبر .

وقال النسائى : أخبرنا عمرو بن على ، أخبرنا عبد الرحمن بن مهدى ، عن إسرائيل ، عن أبى

---

(١) زيادة من أ .
(٢) فى ت ، ف : « لرسل الله » .
(٣) فى ت : « قلوبهم بلقاء الله ومقتضاها » .
(٤) زيادة من ت .
(٥) فى ت : « وقال » .

إسحاق ، عن أبى الأحوص وأبى عبيدة [١] ، عن عبد الله : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ ﴾ قال : سنون أصابتهم [٢] .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد : حدثنى عبيد الله بن عُمَر القواريرى ، حدثنا يحيى بن سعيد ، عن شعبة ، عن قتادة ، عن عَزْرَة [٣] ، عن الحسن العُرَنى ، عن يحيى بن الجزار ، عن ابن أبى ليلى [٤] ، عن أبى بن كعب فى هذه الآية : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ ﴾ قال : المصيبات [٥] والدخان قد مضيا ، والبطشة واللزام [٦] .

ورواه مسلم من حديث شعبة ، به موقوفا نحوه [٧] . وعند البخارى عن ابن مسعود ، نحوه [٨] .

وقال عبد الله بن مسعود [٩] أيضا ، فى رواية عنه : العذاب الأدنى : ما أصابهم من القتل والسبى يوم بدر . وكذا قال مالك ، عن زيد بن أسلم .

قال السُّدِّى وغيره : لم يبق بيت بمكة إلا دخله الحزن على قتيل لهم أو أسير ، فأصيبوا أو غَرموا [١٠] ، ومنهم من جمع له الأمران .

وقوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ أى : لا أظلم ممن ذَكَّرَه الله بآياته وبينها له ووضحها ، ثم بعد ذلك تركها وجحدها وأعرض عنها وتناساها ، كأنه لا يعرفها .

قال قتادة ، رحمه الله : إياكم والإعراض عن ذكر الله ، فإن من أعرض عن ذكره فقد اغتر أكبر الغرّة ، وأعوز أشد العوَز [١١] ، وعظم من أعظم الذنوب .

ولهذا قال تعالى متهدداً لمن فعل ذلك : ﴿ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ أى : سأنتقم ممن فعل ذلك أشد الانتقام .

وقال ابن جرير : حدثنى عمران بن بكار الكلاَعى ، حدثنا محمد بن المبارك ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، حدثنا عبد العزيز بن عبيد الله ، عن عَبادة بن نُسَىّ ، عن جنادة بن أبى أمية [١٢] ، عن معاذ ابن جبل قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ثلاث من فعلهن فقد أجرم ، من عقد [١٣] لواء فى غير حق ، أو عق والديه ، أو مشى مع ظالم ينصره ، فقد أجرم ، يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ » [١٤] .

---

(١) فى ت : « وروى النسائى بإسناده » .
(٢) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٣٩٥) .
(٣) فى ف ، أ : « عررة » .
(٤) فى ت : « وروى عبد الله بن الإمام أحمد » .
(٥) فى ت ، أ : « المضمار » .
(٦) زوائد المسند (٥/١٢٨) .
(٧) صحيح مسلم برقم (٢٧٩٩) .
(٨) صحيح البخارى برقم (٤٨٢٠) ولفظه : « مضي خمس : الدخان والروم والقمر والبطشة واللزام » .
(٩) فى ت : « وعن ابن مسعود » .
(١٠) فى ت : « هزموا » .
(١١) فى ت ، أ : « وأعور أشد العورة » .
(١٢) فى ت : « وروى ابن جرير بإسناده » .
(١٣) فى ت : « اعتقد » ، وفى أ : « أعقد » .
(١٤) تفسير الطبرى (٢١/٦٩) .

ورواه ابن أبى حاتم ، من حديث إسماعيل بن عياش ، به ، وهذا حديث غريب جداً .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٣) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله موسى ، عليه السلام ، أنه آتاه الكتاب وهو التوراة .

وقوله : ﴿ فَلا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ ﴾: قال قتادة : يعنى به ليلة الإسراء (١) . ثم روى عن أبى العالية الرِّياحى قال : حدثنى ابن عم نبيكم ـ يعنى ابن عباس ـ قال : قال رسول ﷺ : « أريتُ ليلة أسرى بى موسى بن عمران ، رجلا آدم طُوَالا جَعْداً ، كأنه من رجال شَنُوءة . ورأيت عيسى رجلا مربوع الخلق ، إلى الحمرة والبياض ، مبسط الرأس ، ورأيت مالكا خازن النار والدجال ، فى آيات أراهن اللّه إياه »،﴿ فَلا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ ﴾، أنه قد رأى موسى ، ولقى موسى ليلة أسرى به (٢) .

وقال الطبرانى : حدثنا محمد بن عثمان بن أبى شيبة ، حدثنا الحسن بن على الحُلْوانى ، حدثنا روح بن عبادة ، حدثنا سعيد بن أبى عَرُوبة ، عن قتادة ، عن أبى العالية ، عن ابن عباس ، عن النبى ﷺ فى قوله :﴿ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ، قال : جُعل موسى هُدى لبنى إسرائيل ، وفى قوله : ﴿ فَلا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ ﴾، قال : من لقاء موسى ربه عز وجل (٣) .

وقوله : ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ أى : الكتاب الذى آتيناه ﴿ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ، [كما قال تعالى فى سورة الإسراء :﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلا ﴾ [الإسراء: ٢] .

وقوله :﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ ، أى : لما كانوا صابرين على أوامر اللّه وترك نواهيه وزواجره وتصديق رسله واتباعهم فيما جاؤوهم به ، كان منهم أئمة يهدون إلى الحق بأمر اللّه ، ويدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر . ثم لما بدلوا وحَرَّفوا وأوَّلوا ، سلبوا ذلك المقام ، وصارت قلوبهم قاسية ، يحرفون الكلم عن مواضعه ، فلا عمل صالحاً ، ولا اعتقاد صحيحاً (٤) ؛ ولهذا قال : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا (٥)﴾ قال قتادة وسفيان : لما صبروا عن الدنيا : وكذلك قال الحسن بن صالح .

قال سفيان: هكذا كان هؤلاء ،ولا ينبغى للرجل أن يكون إماماً يُقتَدى به حتى يتحامى عن الدنيا .

قال وَكِيع : قال سفيان : لابد للدين من العلم ، كما لابد للجسد من الخبز .

(١) فى ت : « الأسرى » .

(٢) انظر الأثر عند تفسير الآية الأولى من سورة الإسراء وتخريجه هناك .

(٣) المعجم الكبير للطبرانى (١٢/ ١٦٠) ،وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٩٠) : « رجاله رجال الصحيح » .

(٤) فى ت : « فلا عملاً صالحاً ولا اعتقاداً صحيحاً » .

(٥) فى ف ، أ : « ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب » .

وقال ابن بنت الشافعى : قرأ أبى على عمى ـ أو : عمى على أبى ـ سئل سفيان عن قول على، رضى اللّه عنه : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، ألم تسمع قوله : ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا** ﴾ ، قال : لما أخذوا برأس الأمر صاروا رؤوساً . قال بعض العلماء : بالصبر واليقين تنال الإمامة فى الدين .

ولهذا قال تعالى](١) : ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ** [**وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ . وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الأَمْرِ**] (٢) **فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ** ﴾ [الجاثية : ١٦ ، ١٧] ، كما قال هنا : ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** ﴾ أى : من الاعتقادات والأعمال .

﴿ **أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ (٢٦) أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ (٢٧)** ﴾ .

يقول تعالى : أو لم يهد لهؤلاء المكذبين بالرسل ما أهلك اللّه قبلهم من الأمم الماضية ، بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم إياهم فيما جاؤوهم به من قويم السبل ، فلم يبق منهم باقية ولا عين ولا أثر ؟ ﴿ **هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا** ﴾ [مريم : ٩٨] ؛ ولهذا قال : ﴿ **يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ** ﴾ أى: وهؤلاء المكذبون يمشون فى مساكن أولئك المكذبين فلا يرون فيها أحداً ممن كان يسكنها ويعمرها ، ذهبوا منها، ﴿ **كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا** ﴾ [الأعراف : ٩٢] ، كما قال : ﴿ **فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا** ﴾ [النمل : ٥٢]، وقال : ﴿ **فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ . أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** ﴾ [الحج : ٤٥ ، ٤٦] ؛ ولهذا قال ههنا : ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ** ﴾ أى : إن فى ذهاب أولئك القوم ودَمَارهم وما حل بهم بسبب تكذيبهم الرسل ، ونجاة من آمن بهم ، لآيات وعبراً ومواعظ ودلائل (٣) متظاهرة.

﴿ **أَفَلا يَسْمَعُونَ** ﴾أى : أخبار من تقدم ، كيف كان أمرهم ؟

وقوله : ﴿ **أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ** ﴾ : يبين تعالى لطفه بخلقه ، وإحسانه إليهم فى إرساله الماء إما من السماء أو من السيح ، وهو : ما تحمله الأنهار وينحدر من الجبال إلى الأراضى المحتاجه إليه فى أوقاته ؛ ولهذا قال : ﴿ **إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ** ﴾، وهى [الأرض] (٤) التى لا نبات فيها ، كما قال تعالى : ﴿ **وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا** ﴾ [الكهف : ٨]، أى : يَبَساً لا تنبت شيئاً .

(١ ، ٢) زيادة من ت ، ف ، أ . (٣) فى ت ، أ : « دلالات » .
(٤) زيادة من ت ، أ .

وليس المراد من قوله: ﴿ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾ أرض مصر فقط، بل هى بعض المقصود، وإن مثل بها كثير من المفسرين فليست [هى] (١) المقصودة وحدها، ولكنها مرادة قطعاً من هذه الآية، فإنها فى نفسها أرض رخوة غليظة تحتاج من الماء ما لو نزل عليها مطراً لتهدمت أبنيتها، فيسوق الله إليها النيل بما يتحمله من الزيادة الحاصلة من أمطار بلاد الحبشة، وفيه طين أحمر، فيغشى أرض مصر، وهى أرض سبخة مرملة محتاجة إلى ذلك الماء، وذلك الطين أيضاً لينبُتَ الزرع فيه، فيستغلون كل سنة على ماء جديد ممطور فى غير بلادهم، وطين جديد من غير أرضهم، فسبحان الحكيم الكريم المنان المحمود ابتداء.

قال ابن لَهيعة، عن قيس بن حجاج، عمن حدثه قال: لما فُتحت مصر، أتى أهلُها عمرو بن العاص ـ [وكان أميرًا بها] (٢) ـ حين دخل بؤونة من أشهر العجم، فقالوا: أيها الأمير، إن لنيلنا سُنَّة لا يجرى إلا بها. قال: وما ذاك؟ قالوا: إذا كانت ثنتا عشرة ليلة خلت من هذا الشهر عَمَدنا إلى جارية بكْر بين (٣) أبويها، فأرضينا أبويها، وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها فى هذا النيل. فقال لهم عمرو: إن هذا ما لا يكون فى الإسلام، إن الإسلام يهدم ما كان قبله. فأقاموا بؤونة والنيل لا يجرى، حتى هموا بالجلاء، فكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب بذلك، فكتب إليه: إنك قد أصبت بالذى فعلت، وقد بعثت إليك ببطاقة داخل كتابى هذا، فألقها فى النيل. فلما قدم كتابه أخذ عمرو البطاقة ففتحها فإذا فيها: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر، أما بعد... فإنك إن كنت إنما تجرى من قبلك فلا تجر، وإن كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك فنسأل الله أن يجريك. قال: فألقى البطاقة فى النيل، وأصبحوا يوم السبت وقد أجرى الله النيل ستة عشر ذراعاً فى ليلة واحدة، وقطع الله تلك السُنَّة عن أهل مصر إلى اليوم. رواه الحافظ أبو القاسم اللالكائى الطبرى فى كتاب « السنة » له (٤).

ولهذا قال تعالى: ﴿ **أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ** ﴾، كما قال تعالى: ﴿ **فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ. أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا. ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا. فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا. وَعِنَبًا وَقَضْبًا. وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً. وَحَدَائِقَ غُلْبًا. وَفَاكِهَةً وَأَبًّا. [مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ] (٥)** ﴾ [عبس: ٢٤ ـ ٣٢]؛ ولهذا قال ههنا: ﴿ **أَفَلا يُبْصِرُونَ** ﴾.

وقال ابن أبى نَجيح، عن رجل، عن ابن عباس فى قوله: ﴿ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾ قال: هى التى لا تُمطر إلا مطرا لا يغنى عنها شيئا، إلا ما يأتيها من السيول.

وعن ابن عباس، ومجاهد: هى أرض باليمن.

وقال الحسن، رحمه الله: هى قرى فيما بين اليمن والشام.

وقال عِكْرِمة، والضحاك، وقتادة، والسُّدِّىّ، وابن زيد: الأرض الجرز: التى لا نبات فيها

---

(١) زيادة من ت، أ. (٢) زيادة من ت. (٣) فى أ: « من ».

(٤) كتاب السنة للالكائى برقم (٦٦) « قسم كرامات الأولياء »: حدثنا محمد بن أبى بكر، حدثنا محمد بن مخلد، حدثنا محمد بن إسحاق، حدثنا عبد الله بن صالح، عن ابن لهيعة به، وهو مرسل.

(٥) زيادة من ت، ف، أ.

وهى مغبرة .

قلت : وهذا كقوله : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ . وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ . لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ ﴾ [يس : ٣٣ ـ ٣٥] .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ (٣٠) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن استعجال الكفار وقوعَ بأس الله بهم ، وحلول غضبه ونقمته عليهم ، استبعادا وتكذيباً وعناداً : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْفَتْحُ ﴾ ؟ أى : متى تنصر علينا يا محمد ؟ كما تزعم أن لك وقتاً تُدَال علينا ، ويُنتَقم لك منا ، فمتى يكون هذا ؟ ما نراك أنت وأصحابك إلا مختفين خائفين ذليلين ! قال الله تعالى: ﴿ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ ﴾ أى : إذا حَل بكم بأس الله وسَخَطه وغضبه في الدنيا وفى الأخرى ، ﴿ لا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ ، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ . فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [غافر : ٨٣ ـ ٨٥] ، ومن زعم أن المراد من هذا الفتح فتحُ مكة فقد أبعد النُّجْعة ، وأخطأ فأفحش ، فإن يوم الفتح قد قَبِل رسولُ الله ﷺ إسلام الطلقاء ، وقد كانوا قريباً من ألفين ، ولو كان المراد فتح مكة لما قبل إسلامهم ؛ لقوله : ﴿ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ ، وإنما المراد الفتح الذى هو القضاء والفصل، كقوله تعالى : ﴿ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ١١٨] ، وكقوله : ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ [سبأ : ٢٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [إبراهيم : ١٥] ، وقال : ﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [البقرة : ٨٩] ، وقال : ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ﴾ [الأنفال : ١٩] .

ثم قال : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ أى : أعرض عن هؤلاء المشركين وبلغ ما أنزل إليك من ربك ، كقوله : ﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٠٦] ، وانتظر فإن الله سينجز لك ما وعدك ، وسينصرك على من خالفك ، إنه لا يخلف الميعاد .

وقوله : ﴿ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ أى: أنت منتظر ، وهم منتظرون ، ويتربصون بكم الدوائر ، ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴾ [الطور : ٣٠] ، وسترى أنت عاقبة صبرك عليهم وعلى أداء رسالة الله ، فى نصرتك وتأييدك ، وسيجدون غب ما ينتظرونه فيك وفى أصحابك ، من وبيل عقاب الله لهم ، وحلول عذابه بهم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل، [والله أعلم] (١) .

[آخر تفسير سورة « الم السجدة »] (٢)

(١) زيادة من ف .
(٢) زيادة من ت .

٣٢ — سورة السجدة

﴿ مكية وآياتها ثلاثون ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ٣٢ السجدة

تَنزِيلُ الْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٣٢ السجدة

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٣٢ السجدة

﴿ سورة السجدة مكية وهى ثلاثون آية وقيل تسع وعشرون ﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (الم) إما اسم للسورة فمحله الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أى هذا
مسمى بـ الم والإشارة إليها قبل جريان ذكرها قد عرفت سرها وإما مسرود على نمط التعديد فلا محل له
٢ من الإعراب وقوله تعالى (تنزيل الكتاب) على الأول خبر بعد خبر على أنه مصدر أطلق على المفعول
مبالغة وعلى الثانى خبر لمبتدأ محذوف أى المؤلف من جنس ماذكر تنزيل الكتاب وقيل خبر الم أى
المسمى به تنزيل الكتاب وقد مر مراراً أن مايجعل عنواناً للموضوع حقه أن يكون قبل ذلك معلوم
* الانتساب إليه وإذ لاعهد بالتسمية قبل لحقها الإخبار بها وقوله تعالى (لا ريب فيه) خبر ثالث على
* الوجه الأول وثان على الأخيرين وقيل خبر لتنزيل الكتاب فقوله تعالى (من رب العالمين) متعلق بمضمر
هو حال من الضمير المجرور أى كائناً منه تعالى لا بتنزيل لأن المصدر لا يعمل فيما بعد الخبر والأوجه
حينئذ أنه الخبر ولا ريب فيه حال من الكتاب أو اعتراض والضمير فى فيه راجع إلى مضمون الجملة كأنه
٣ قيل لاريب فى ذلك أى فى كونه منزلا من رب العالمين ويؤيده قوله تعالى (أم يقولون افتراه) فإن قولهم
هذا إنكار منهم لكونه من رب العالمين فلا بد أن يكون مورده حكما مقصود الإفادة لا قيداً للحكم بنفى
الريب عنه وقد رد عليهم ذلك وأبطل حيث جىء بأم المنقطعة إنكاراً له وتعجيباً منه لغاية ظهور بطلانه
* واستحالة كونه مفترى ثم أضرب عنه إلى بيان حقية ما أنكروه حيث قيل (بل هو الحق من ربك)
بإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ بعد إضافته فيما سبق إلى العالمين تشريفاً له ﷺ ثم أيد ذلك ببيان غايته
* حيث قيل (لتنذر قوما ماأتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون) فإن بيان غاية الشىء وحكمته لا سيما عند
كونها غاية حميدة مستتبعة لمنافع جليلة فى وقت شدة الحاجة إليها مما يقرر وجود الشىء ويؤكده لا محالة ولقد
كانت قريش أضل الناس وأحوجهم إلى الهداية بإرسال الرسول و تنزيل الكتاب حيث لم يبعث إليهم

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾ ٣٢ السجدة

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾﴾ ٣٢ السجدة

﴿ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾﴾ ٣٢ السجدة

من رسول قبله ﷺ أي ما أتاهم من نذير من قبل إنذارك أو من قبل زمانك والترجي معتبر من جهته ﷺ أي لتنذرهم راجياً لاهتدائهم أو لرجاء اهتدائهم واعلم أن ماذكر من التأييد إنما يتسنى على ماذكر من كون تنزيل الكتاب مبتدأ وأما على سائر الوجوه فلا تأييد أصلا لأن قوله تعالى من رب العالمين خبر رابع على الوجه الأول وخبر ثالث على الوجهين الأخيرين وأياماً كان فكونه من رب العالمين حكم
٤ مقصود الإفادة لاقيد لحكم آخر فتدبر (الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش) مر بيانه فيما سلف (مالكم من دونه من ولي ولا شفيع) أي مالكم إذا جاوزتم رضاه تعالى أحد ينصركم ويشفع لكم ويجيركم من بأسه أي ما لكم سواه ولي ولا شفيع بل هو الذي يتولى مصالحكم وينصركم في مواطن النصر على أن الشفيع عبارة عن الناصر مجازاً فإذا خذلكم لم يبق لكم ولي ولا نصير (أفلا تتذكرون) أي ألا تسمعون هذه المواعظ فلا تتذكرون بها أو أتسمعونها فلا تتذكرون بها فالإنكار على الأول متوجه إلى عدم السماع وعدم التذكر معاً وعلى الثاني على عدم التذكر مع تحقق
٥ مايوجبه من السماع (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض) قيل يدبر أمر الدنيا بأسباب سماوية من الملائكة وغيرها نازلة آثارها وأحكامها إلى الأرض (ثم يعرج إليه) أي يثبت في علمه موجوداً بالفعل (في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) أي في برهة من الزمان متطاولة والمراد بيان طول امتداد مابين تدبير الحوادث وحدوثها من الزمان وقيل يدبر أمر الحوادث اليومية بإثباتها في اللوح المحفوظ فينزل بها الملائكة ثم تعرج إليه في زمان هو كألف سنة مما تعدون فإن مابين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام وقيل يقضي قضاء ألف سنة فينزل به الملك ثم يعرج بعد الألف لألف آخر وقيل يدبر أمر الدنيا جميعاً إلى قيام الساعة ثم يعرج إليه الأمر كله عند قيامها وقيل يدبر المأمور به من الطاعات منزلا من السماء إلى الأرض بالوحي ثم لايعرج إليه خالصاً إلا في مدة متطاولة لقلة المخلصين والأعمال الخالص وأنت خبير
٦ بأن قلة الأعمال الخالصة لا تقتضي بطء عروجها إلى السماء بل قلته وقرىء يعدون بالياء (ذلك) إشارة إلى الله عز وجل باعتبار اتصافه بما ذكر من خلق السموات والأرض والاستواء على العرش وانحصار الولاية والنصرة فيه وتدبير أمر الكائنات على ماذكر من الوجه البديع وهو مبتدأ خبر ما بعده أي ذلك العظيم الشأن (عالم الغيب والشهادة) فيدبر أمرهما حسبما تقتضيه الحكمة (العزيز) الغالب على أمره

ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ٣٢ السجدة

ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ٣٢ السجدة

ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ ٣٢ السجدة

(الرحيم) على عباده وهما خبران آخران وفيه إيماء إلى أنه تعالى متفضل فى جميع ما ذكر فاعل بالإحسان
٧ (الذى أحسن كل شىء خلقه) خبر آخر أو نصب على المدح أى حسن كل مخلوق خلقه إذ ما من مخلوق
خلقه إلا وهو مرتب على ما تقتضيه الحكمة وأوجبته المصلحة فجميع المخلوقات حسنة وإن تفاوتت إلى
حسن وأحسن كما قال تعالى لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم وقيل علم كيف يخلقه من قوله قيمة المرء
ما يحسن أى يحسن معرفته أى يعرفه معرفة حسنة بتحقيق وإيقان وقرىء خلقه على أنه بدل اشتمال من
كل شىء والضمير للمبدل منه أى حسن خلق كل شىء وقيل بدل الكل على أن الضمير لله تعالى والخلق بمعنى
المخلوق أى حسن كل مخلوقاته وقيل هو مفعول ثان لأحسن على تضمينه معنى أعطى أى أعطى كل شىء
خلقه اللائق به بطريق الإحسان والتفضل وقيل هو مفعوله الأول وكل شىء مفعوله الثانى والخلق بمعنى
المخلوق وضميره لله سبحانه على تضمين الإحسان معنى الإلهام والتعريف والمعنى ألهم خلقه كل شىء
مما يحتاجون إليه وقال أبو البقاء عرف مخلوقاته كل شىء يحتاجون إليه فيؤول إلى معنى قوله تعالى الذى
أعطى كل شىء خلقه ثم هدى (وبدأ خلق الإنسان) من بين جميع المخلوقات (من طين) على وجه بديع تحار
العقول فى فهمه حيث برأ آدم عليه السلام على فطرة عجيبة منطوية على فطرة سائر أفراد الجنس انطواء إجمالياً
مستتبعاً لخروج كل فرد منها من القوة إلى الفعل بحسب استعداداتها المتفاوتة قرباً وبعداً كما ينبىء عنه قوله
٨ تعالى (ثم جعل نسله) الخ أى ذريته سميت بذلك لأنها تنسل وتنفصل منه (من سلالة من ماء مهين) هو المنى
٩ الممتهن (ثم سواه) أى عدله بتكميل أعضائه فى الرحم وتصويرها على ما ينبغى (ونفخ فيه من روحه)
أضافه إليه تعالى تشريفاً له وإيذاناً بأنه خلق عجيب وصنع بديع وأن له شأناً له مناسبة إلى حضرة الربوبية
وأن أقصى ما تنتهى إليه العقول البشرية من معرفته هذا القدر الذى يعبر عنه تارة بالإضافة إليه تعالى وأخرى
بالنسبة إلى أمره تعالى كما فى قوله تعالى قل الروح من أمر ربى (وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة)
الجعل إبداعى واللام متعلقة به والتقديم على المفعول الصريح لما مر مرات من الاهتمام بالمقدم والتشويق
إلى المؤخر مع ما فيه من نوع طول يخل تقديمه بجزالة النظم الكريم أى خلق لمنفعتكم تلك المشاعر
لتعرفوا أنها مع كونها فى أنفسها نعما جليلة لا يقادر قدرها وسائل إلى التمتع بسائر النعم الدينية والدنيوية
الفائضة عليكم وتشكروها بأن تصرفوا كلا منها إلى ما خلق هو له فتدركوا بسمعكم الآيات التنزيلية
الناطقة بالتوحيد والبعث وبأبصاركم الآيات التكوينية الشاهدة بهما وتستدلوا بأفئدتكم على حقيتهما
وقوله تعالى (قليلا ما تشكرون) بيان لكفرهم بتلك النعم بطريق الاعتراض التذييلى على أن القلة بمعنى

وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ٣٢ السجدة

قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ٣٢ السجدة

وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَـٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ ٣٢ السجدة

النفى كما ينبىء عنه مابعده أى شكراً قليلا أو زماناً قليلا تشكرون وفى حكاية أحوال الإنسان من مبدأ فطرته إلى نفخ الروح فيه بطريق الغيبة وحكاية أحواله بعد ذلك بطريق الخطاب المنبىء عن استعداده
١٠ للفهم وصلاحيته له من الجزالة مالا غاية وراءه (وقالوا) كلام مستأنف مسوق لبيان أباطيلهم بطريق الالتفات إيذاناً بأن ماذكر من عدم شكرهم بتلك النعم موجب للإعراض عنهم وتعديد جناياتهم لغيرهم بطريق المباثة (أئذا ضللنا فى الأرض) أى صرنا تراباً مخلوطاً بترابها بحيث لا نتميز منه أو غبنا فيها بالدفن وقرىء ضللنا بكسر اللام من باب علم وصللنا بالصاد المهملة من صل اللحم إذا أنتن وقيل من الصلة وهى الأرض أى صرنا من جنس الصلة قيل القائل أبى بن خلف ولرضاهم بقوله أسند القول إلى الكل والعامل فى إذا مايدل عليه قوله تعالى (أئنا لفى خلق جديد) وهو نبعث أو يجدد خلقنا والهمزة لتذكير الإنكار السابق وتأكيده وقرىء إنا على الخبر وأياً ماكان فالمعنى على تأكيد الإنكار لا إنكار التأكيد كما هو المتبادر من تقدم الهمزة على إن فإنها مؤخرة عنها فى الاعتبار وإنما تقديمها عليها لاقتضائها الصدارة (بل هم بلقاء ربهم كافرون) إضراب وانتقال من بيان كفرهم بالبعث إلى بيان ماهو أبلغ وأشنع منه وهو
١١ كفرهم بالوصول إلى العاقبة وما يلقونه فيها من الأحوال والأهوال جميعاً (قل) بياناً للحق ورداً على زعمهم الباطل (يتوفاكم ملك الموت) لا كما تزعمون أن الموت من الأحوال الطبيعية العارضة للحيوان بموجب الجبلة أى يقبض أرواحكم بحيث لا يدع فيكم شيئاً أو لا يترك منكم أحداً على أشد ما يكون من الوجوه وأفظعها من ضرب وجوهكم وأدباركم (الذى وكل بكم) أى بقبض أرواحكم وإحصاء آجالكم
١٢ (ثم إلى ربكم ترجعون) بالبعث للحساب والجزاء (ولو ترى إذ المجرمون) وهم القائلون أئذا ضللنا فى الأرض الآية أو جنس المجرمين وهم من جملتهم (ناكسوا رءوسهم عند ربهم) من الحياء والخزى عند ظهور قبائحهم التى اقترفوها فى الدنيا (ربنا) أى يقولون ربنا (أبصرنا وسمعنا) أى صرنا ممن يبصر ويسمع وحصل لنا الاستعداد لإدراك الآيات المبصرة والآيات المسموعة وكنا من قبل عمياً وصماً لا ندرك شيئاً (فارجعنا) إلى الدنيا (نعمل) عملا (صالحاً) حسبما تقتضيه تلك الآيات وقوله تعالى (إنا موقنون) ادعاء منهم لصحة الأفئدة والاقتدار على فهم معانى الآيات والعمل بموجبها كما أن ماقبله ادعاء لصحة مشعرى البصر والسمع كأنهم قالوا وأيقنا وكنا من قبل لا نعقل شيئاً أصلا وإنما عدلوا إلى الجملة الاسمية المؤكدة إظهاراً لثباتهم على الإيقان وكمال رغبتهم فيه وكل ذلك للجد فى الاستدعاء طمعاً فى الإجابة إلى ماسألوه

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾

من الرجعة وأنى لهم ذلك ويجوز أن يقدر لكل من الفعلين مفعول مناسب له مما يبصرونه ويسمعونه فإنهم حينئذ يشاهدون الكفر والمعاصي على صور منكرة هائلة ويخبرهم الملائكة بأن مصيرهم إلى النار لا محالة فالمعنى أبصرنا قبح أعمالنا وكنا نراها في الدنيا حسنة وسمعنا أن مردنا إلى النار وهو الأنسب لما بعده من الوعد بالعمل الصالح هذا وقد قيل المعنى وسمعنا منك تصديق رسلك وأنت خبير بأن تصديقه تعالى لهم حينئذ يكون بإظهار مدلول ما أخبروا به من الوعد والوعيد لا بالإخبار بأنهم صادقون حتى يسمعوه وقيل وسمعنا قول الرسل أي سمعناه سمع طاعة وإذعان ولا يقدر لترى مفعول إذ المعنى لو تكون منك رؤية في ذلك الوقت أو يقدر ما ينبىء عنه صلة إذ والمضي فيها وفي لو باعتبار أن الثابت في علم الله تعالى بمنزلة الواقع وجواب لو محذوف أي لرأيت أمراً فظيعاً لا يقادر قدره والخطاب لكل أحد ممن يصلح له كائناً من كان إذ المراد بيان كمال سوء حالهم وبلوغها من الفظاعة إلى حيث لا يختص استغرابها واستفظاعها براء دون راء ممن اعتاد مشاهدة الأمور البديعة والدواهي الفظيعة بل كل من يتأتى منه الرؤية يتعجب من هولها وفظاعتها هذا ومن علل عموم الخطاب بالقصد إلى بيان أن حالهم قد بلغت من الظهور إلى حيث يمتنع خفاؤها البتة فلا تختص رؤية راء دون راء بل كل من يتأتى منه الرؤية فله مدخل في هذا الخطاب فقد نأى عن تحقيق الحق لأن المقصود بيان كمال فظاعة حالهم كما يفصح عنه
١٣ الجواب المحذوف لا بيان كمال ظهورها فإنه مسوق مساق المسلمات فتدبر (ولو شئنا لآتينا كل نفس
هداها) مقدر بقول معطوف على ما قدر قبل قوله تعالى ربنا أبصرنا الخ أي ونقول لو شئنا أي لو تعلقت مشيئتنا تعلقاً فعلياً بأن نعطي كل نفس من النفوس البرة والفاجرة ما تهتدي به إلى الإيمان والعمل الصالح
* لأعطيناها إياه في الدنيا التي هي دار الكسب وما أخرناه إلى دار الجزاء (ولكن حق القول مني) أي
سبقت كلمتي حيث قلت لإبليس عند قوله لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين فالحق والحق أقول
* لأملأن جهنم منك وممن اتبعك منهم أجمعين وهو المعنى بقوله تعالى (لأملأن جهنم من الجنة والناس
أجمعين) كما يلوح به تقديم الجنة على الناس فبموجب ذلك القول لم نشأ إعطاء الهدى على العموم بل منعناه من أتباع إبليس الذين أنتم من جملتهم حيث صرفتم اختياركم إلى الغي بإغوائه ومشيئتنا لأفعال العباد منوطة باختيارهم إياها فلما لم تختاروا الهدى واخترتم الضلالة لم نشأ إعطاءه لكم وإنما أعطيناه الذين اختاروه من النفوس البرة وهم المعنيون بما سيأتي من قوله تعالى إنما يؤمن بآياتنا الآية فيكون مناط عدم مشيئة إعطاء الهدى في الحقيقة سوء اختيارهم لا تحقق القول وإنما قيدنا المشيئة بما مر من التعليق الفعلي بأفعال العباد عند حدوثها لأن المشيئة الأزلية من حيث تعلقها بما سيكون من أفعالهم إجمالا متقدمة على تحقق كلمة العذاب فلا يكون عدمها منوطاً بتحققها وإنما مناطه علمه تعالى أزلا بصرف

فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ٣٢ السجدة

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ ٣٢ السجدة

تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ ٣٢ السجدة

اختيارهم فيما سيأتى إلى الغى وإيثارهم له على الهدى فلو أريدت هى من تلك الحيثية لاستدرك بعدمها
ونيط ذلك بما ذكر من المناط على منهاج قوله تعالى ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم فمن توهم أن المعنى ولو
شئنا لأعطينا كل نفس ماعندنا من اللطف الذى لوكان منهم اختياره لاهتدوا ولكن لم نعطهم لما علمنا منهم
١٤ اختيار الكفر وإيثاره فقد اشتبه عليه الشئون والفاء فى قوله تعالى (فذوقوا) لترتيب الأمر بالذوق
على مايعرب عنه ماقبله من نفى الرجع إلى الدنيا أو على الوعيد المحكى والباء فى قوله تعالى (بما نسيتم
لقاء يومكم هذا) للإيذان بأن تعذيبهم ليس لمجرد سبق الوعيد به فقط بل هو وسبق الوعيد أيضاً بسبب
موجب له من قبلهم كأنه قيل لا رجع لكم إلى الدنيا أوحق وعيدى فذوقوا بسبب نسيانكم لقاء هذا اليوم
الهائل وتركم التفكر فيه والاستعداد له بالكلية (إنا نسيناكم) أى تركناكم فى العذاب ترك المنسى بالمرة
• وقوله تعالى (وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون) تكرير للتأكيد والتشديد وتعيين المفعول المطوى
للذوق والإشعار بأن سببه ليس مجرد ماذكر من النسيان بل له أسباب أخر من فنون الكفر والمعاصى
التى كانوا مستمرين عليها فى الدنيا وعدم نظم الكل فى سلك واحد للتنبيه على استقلال كل منها فى استيجاب
العذاب وفى إبهام المذوق أولا وبيانه ثانياً بتكرير الأمر وتوسيط الاستئناف المنبىء عن كمال السخط
١٥ بينهما من الدلالة على غاية التشديد فى الانتقام منهم مالا يخفى وقوله تعالى (إنما يؤمن بآياتنا) استئناف
مسوق لتقرير عدم استحقاقهم لإيتاء الهدى والإشعار بعدم إيمانهم لو أوتوه بتعيين من يستحقه بطريق
القصر كأنه قيل إنكم لا تؤمنون بآياتنا ولا تعملون بموجبها عملا صالحاً ولو رجعناكم إلى الدنيا كما تدعون
• حسبما ينطق به قوله تعالى ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنما يؤمن بها (الذين إذا ذكروا بها) أى وعظوا
(خروا سجداً) آثر ذى أثير من غير تردد ولا تلعثم فضلا عن التسويف إلى معاينة مانطقت به من الوعد
• والوعيد أى سقطوا على وجوههم (وسبحوا بحمد ربهم) أى ونزهوه عند ذلك عن كل مالا يليق به من
الأمور التى من جملتها العجز عن البعث ملتبسين بحمده تعالى على نعمائه التى أجلها الهداية بإيتاء الآيات
والتوفيق للاهتداء بها والتعرض لعنوان الربوبية بطريق الالتفات مع الإضافة إلى ضميرهم للإشعار
بعلة التسبيح والتحميد وبأنهم يفعلونهما بملاحظة ربوبيته تعالى لهم (وهم لايستكبرون) أى والحال
١٦ أنهم خاضعون له تعالى لايستكبرون عما فعلوا من الخرور والتسبيح والتحميد (تتجافى جنوبهم) أى
تنبو وتتنحى (عن المضاجع) أى الفرش ومواضع المنام والجملة مستأنفة لبيان بقية محاسنهم وهم المتهجدون
بالليل قال أنس رضى الله عنه نزلت فينا معاشر الأنصار كنا نصلى المغرب فلانرجع إلى رحالنا حتى نصلى

فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ٣٢ السجدة

أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ ٣٢ السجدة

أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ ٣٢ السجدة

العشاء مع النبي ﷺ وعن أنس أيضاً رضى الله عنه أنه قال نزلت فى أناس من أصحاب النبي ﷺ كانوا يصلون من صلاة المغرب إلى صلاة العشاء وهى صلاة الأوابين وهو قول أبى حازم ومحمد بن المنكدر وهو مروى عن ابن عباس رضى الله عنهما وقال عطاء هم الذين لا ينامون حتى يصلوا العشاء الآخرة والفجر فى جماعة والمشهور أن المراد منه صلاة الليل وهو قول الحسن ومجاهد ومالك والأوزاعى وجماعة لقوله ﷺ أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل وعن النبي ﷺ فى تفسيرها قيام العبد من الليل وعنه ﷺ إذا جمع الله الأولين والآخرين جاء مناد ينادى بصوت يسمع الخلائق كلهم سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم ثم يرجع فينادى ليقم الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع فيقومون وهم قليل ثم يرجع فينادى ليقم الذين كانوا يحمدون الله فى السراء والضراء فيقومون وهم قليل فيسرحون جميعاً إلى الجنة ثم يحاسب سائر الناس وقوله تعالى (يدعون ربهم) حال من ضمير جنوبهم أى داعين له تعالى على الاستمرار (خوفاً) من سخطه وعذابه وعدم قبول عبادته (وطمعاً) فى رحمته (ومما رزقناهم) من المال (ينفقون) فى وجوه البر والحسنات (فلا تعلم نفس) من
١٧ النفوس لا ملك مقرب ولا نبى مرسل فضلا عمن عداهم (ما أخفى لهم) أى لأولئك الذين عددت نعوتهم الجليلة (من قرة أعين) مما تقر به أعينهم وعنه ﷺ يقول الله عز وجل أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بله ما اطلعتم عليه اقرءوا إن شئتم فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين وقرىء ما أخفى لهم وما نخفى لهم وما أخفيت لهم على صيغة المتكلم وما أخفى لهم على البناء للفاعل وهو الله سبحانه وقرىء قرات أعين لاختلاف أنواعها والعلم بمعنى المعرفة وما موصولة أو استفهامية علق عنها الفعل (جزاء بما كانوا يعملون) أى جزوا جزاء أو أخفى لهم للجزاء بما كانوا يعملونه فى الدنيا من الأعمال الصالحة قيل هؤلاء القوم أخفوا أعمالهم فأخفى الله تعالى ثوابهم (أفمن كان مؤمناً
١٨ كمن كان فاسقاً) أى أبعد ظهور ما بينهما من التباين البين يتوهم كون المؤمن الذى حكيت أوصافه الفاضلة كالفاسق الذى ذكرت أحواله (لا يستوون) التصريح به مع إفادة الإنكار لنفى المشابهة بالمرة على أبلغ وجه وآكده لبناء التفصيل الآتى عليه والجمع باعتبار معنى من كما أن الإفراد فيما سبق باعتبار لفظها وقوله
١٩ تعالى (أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى) تفصيل لمراتب الفريقين فى الآخرة بعد ذكر أحوالهما فى الدنيا وأضيفت الجنة إلى المأوى لأنها المأوى الحقيقى وإنما الدنيا منزل مرتحل عنه لا محالة وقيل المأوى جنة من الجنات وأياً ما كان فلا يبعد أن يكون فيه رمز إلى ما ذكر من تجافيهم عن مضاجعهم

وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ ٣٢ السجدة

وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ ٣٢ السجدة

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ٣٢ السجدة

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ ٣٢ السجدة

التى هى مأواهم فى الدنيا (نزلا) أى ثواباً وهو فى الأصل مايعد للنازل من الطعام والشراب وانتصابه
٢٠ على الحالية (بما كانوا يعملون) فى الدنيامن الأعمال الصالحة أو بأعمالهم (وأما الذين فسقوا) أى خرجوا
عن الطاعة (فمأواهم) أى ملجؤهم ومنزلهم (النار) مكان جنات المأوى للمؤمنين (كلما أرادوا أن يخرجوا
منها أعيدوا فيها) استئناف لبيان كيفية كون النار مأواهم يروى أنه يضربهم لهب النار فيرتفعون إلى
طبقاتها حتى إذا قربوا من بابها وأرادوا أن يخرجوا منها يضربهم اللهب فيهوون إلى قعرها وهكذا يفعل
بهم أبداً وكلمة فى للدلالة على أنهم مستقرون فيها وإنما الإعادة من بعض طبقاتها إلى بعض (وقيل لهم)
تشديداً عليهم وزيادة فى غيظهم (ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به) أى بعذاب النار (تكذبون) على
٢١ الاستمرار فى الدنيا (ولنذيقنهم من العذاب الأدنى) أى عذاب الدنيا وهو مامحنوا به من السنة سبع
سنين والقتل والأسر (دون العذاب الأكبر) الذى هو عذاب الآخرة (لعلهم) لعل الذين يشاهدونه
وهم فى الحياة (يرجعون) يتوبون عن الكفر روى أن الوليد بن عقبة فاخر علياً رضى الله عنه يوم بدر
٢٢ فنزلت هذه الآيات (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها) بيان إجمالى لحال من قابل آيات الله
تعالى بالإعراض بعد بيان حال من قابلها بالسجود والتسبيح والتحميد وكلمة ثم لاستبعاد الإعراض عنها
عقلا مع غاية وضوحها وإرشادها إلى سعادة الدارين كما فى بيت الحماسة [ولا يكشف الغماء إلا ابن حرة *
يرى غمرات الموت ثم يزورها] أى هو أظلم من كل ظالم وإن كان سبك التركيب على نفى الأظلم من غير
تعرض لنفى المساوى وقد مر مراراً (إنا من المجرمين) أى من كل من اتصف بالإجرام وإن هانت جريمته
٢٣ (منتقمون) فكيف بمن هو أظلم من كل ظالم وأشد جرما من كل مجرم (ولقد آتينا موسى الكتاب) أى
التوراة عبر عنها باسم الجنس لتحقيق المجانسة بينها وبين الفرقان والتنبيه على أن إيتاءه لرسول الله ﷺ
* كإيتائها لموسى عليه السلام (فلا تكن فى مرية من لقائه) من لقاء الكتاب الذى هو الفرقان كقوله
وإنك لتلقى القرآن والمعنى إنا آتينا موسى مثل ما آتيناك من الكتاب ولقيناه من الوحى مثل مالقيناك
من الوحى فلا تكن فى شك من أنك لقيت مثله ونظيره وقيل من لقاء موسى الكتاب أو من لقائك موسى
وعنه ﷺ رأيت ليلة أسرى بى موسى رجلا آدم طوالا جعداً كأنه من رجال شنوأة (وجعلناه) أى

وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) ٣٢ السجدة

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥) ٣٢ السجدة

أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦) ٣٢ السجدة

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧) ٣٢ السجدة

الكتاب الذى آتيناه موسى (هدى لبنى إسرائيل) قيل لم يتعبد بما فى التوراة ولد إسمعيل (وجعلنا منهم ٢٤
أئمة يهدون) بقيتهم بما فى تضاعيف الكتاب من الحكم والأحكام إلى طريق الحق أو يهدونهم إلى مافيه
من دين الله وشرائعه (بأمرنا) إياهم بذلك أو بتوفيقنا له (لما صبروا) هى لما التى فيها معنى الجزاء نحو *
أحسنت إليك لما جئتنى والضمير للأئمة تقديره لما صبروا جعلناهم أئمة أوهى ظرف بمعنى الحين أى
جعلناهم أئمة حين صبروا والمراد صبرهم على مشاق الطاعات ومقاساة الشدائد فى نصرة الدين أوصبرهم
عن الدنيا وقرىء لما صبروا أى لصبرهم (وكانوا بآياتنا) التى فى تضاعيف الكتاب (يوقنون) لإمعانهم
فيها النظر والمعنى كذلك لنجعلن الكتاب الذى آتيناكه هدى لأمتك ولنجعلن منهم أئمة يهدون مثل تلك
الهداية (إن ربك هو يفصل) أى يقضى (بينهم) قيل بين الأنبياء وأممهم وقيل بين المؤمنين والمشركين ٢٥
(يوم القيامة) فيميز بين المحق والمبطل (فيما كانوا فيه يختلفون) من أمور الدين (أو لم يهد لهم) الهمزة ٢٦
للإنكار والواو للعطف على منوى يقتضيه المقام وفعل الهداية إما من قبيل فلان يعطى فى أن المراد إيقاع
نفس الفعل بلا ملاحظة المفعول وإما بمعنى التبيين والمفعول محذوف والفاعل مادل عليه قوله تعالى (كم *
أهلكنا) أى أغفلوا ولم يفعل الهداية لهم أو ولم يبين لهم مآل أمرهم كثرة إهلاكنا (من قبلهم من القرون)
مثل عاد وثمود وقوم لوط وقرىء نهد لهم بنون العظمة وقد جوز أن يكون الفاعل على القراءة الأولى
أيضاً ضميره تعالى فيكون قوله تعالى كم أهلكنا الخ استئنافاً مبيناً لكيفية هدايته تعالى (يمشون فى مساكنهم)
أى يمرون فى متاجرهم على ديارهم وبلادهم ويشاهدون آثار هلاكهم والجملة حال من ضمير لهم وقرىء
يمشون للتكثير (إن فى ذلك) أى فيما ذكر من كثرة إهلاكنا للأمم الخالية العاتية أو فى مساكنهم (لآيات)
عظيمة فى أنفسها كثيرة فى عددها (أفلا يسمعون) هذه الآيات سماع تدبر واتعاظ (أولم يروا أنا نسوق ٢٧
الماء إلى الأرض الجرز) أى التى جرز نباتها أى قطع وأزيل بالمرة وقيل هو اسم موضع باليمن (فنخرج
به) من تلك الأرض (زرعا تأكل) أى من ذلك الزرع (أنعامهم) كالتبن والقصيل والورق وبعض
الحبوب المخصوصة بها وقرىء يأكل بالياء (وأنفسهم) كالحبوب التى يقتاتها الإنسان والثمار (أفلا يبصرون)

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ ٣٢ السجدة

قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ ٣٢ السجدة

فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾ ٣٢ السجدة

٢٨ أى ألا ينظرون فلا يبصرون ذلك ليستدلوا به على كمال قدرته تعالى وفضله (ويقولون) كان المسلمون
يقولون الله سيفتح لنا على المشركين أو يفصل بيننا وبينهم وكان أهل مكة إذا سمعوه يقولون بطريق
الاستعجال تكذيباً واستهزاء (متى هذا الفتح) أى النصر أو الفصل بالحكومة (إن كنتم صادقين) فى
٢٩ أن الله تعالى ينصركم أو يفصل بيننا وبينكم (قل) تبكيتاً لهم وتحقيقاً للحق (يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا
إيمانهم ولا هم ينظرون) يوم الفتح يوم القيامة وهو يوم الفصل بين المؤمنين وأعدائهم ويوم نصرهم
عليهم وقيل هو يوم بدر وعن مجاهد والحسن يوم فتح مكة والعدول عن تطبيق الجواب على ظاهر سؤالهم
للتنبيه على أنه ليس مما ينبغى أن يسأل عنه لكونه أمراً بيناً غنياً عن الإخبار به وكذا إيمانهم واستنظارهم
يومئذ وإنما المحتاج إلى البيان عدم نفع ذلك الإيمان وعدم الإنظار كأنه قيل لا تستعجلوا فكأنى بكم قد آمنتم
فلم ينفعكم واستنظرتم فلم تنظروا وهذا على الوجه الأول ظاهر وأما على الأخيرين فالموصول عبارة عن
المقتولين يومئذ لا عن كافة الكفرة كما فى الوجه الأول كيف لا وقد نفع الإيمان الطلقاء يوم الفتح
٣٠ وناساً آمنوا يوم بدر (فأعرض عنهم) ولا تبال بتكذيبهم (وانتظر) النصرة عليهم وهلاكهم (إنهم
منتظرون) قيل أى الغلبة عليكم كقوله تعالى فتربصوا إنا معكم متربصون والأظهر أن يقال إنهم
منتظرون هلاكهم كما فى قوله تعالى هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام الآية ويقرب منه
ماقيل وانتظر عذابنا إنهم منتظروه فإن استعجالهم المذكور وعكوفهم على ماهم عليه من الكفر والمعاصى
فى حكم انتظارهم العذاب المترتب عليه لا محالة وقرىء على صيغة المفعول على معنى أنهم أحقاء بأن ينتظر
هلاكهم أو فإن الملائكة ينتظرونه . عن النبى ﷺ من قرأ الم تنزيل وتبارك الذى بيده الملك أعطى من
الأجر كأنما أحيا ليلة القدر وعنه ﷺ من قرأ الم تنزيل فى بيته لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام .

سُورَةُ السَّجْدَةِ

ترتيبها ٣٢ — آياتها ٣٠

وتسمى المضاجع أيضاً كما في الإتقان، وفي مجمع البيان أنها كما تسمى سورة السجدة تسمى سجدة لقمان لئلا تلتبس بحم السجدة، وأطلق القول بمكيتها، أخرج ابن الضريس، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس إنها نزلت بمكة، وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير مثله، وجاء في رواية أخرى عن الحبر استثناء، أخرج النحاس عنه رضي الله تعالى عنه أنه قال: نزلت سورة السجدة بمكة سوى ثلاث آيات ﴿**أفمن كان مؤمناً**﴾ إلى تمام الآيات الثلاث، وروي مثله عن مجاهد، والكلبي، واستثنى بعضهم أيضاً آيتين أخريين وهما قوله تعالى: ﴿تتجافى جنوبهم﴾[السجدة: ١٦] إلخ، واستدل عليه ببعض الروايات في سبب النزول وستطلع على ذلك إن شاء الله تعالى واستبعد استثناؤهما لشدة ارتباطهما بما قبلهما، وهي تسع وعشرون آية في البصري وثلاثون في الباقية، ووجه مناسبتها لما قبلها اشتمال كل على دلائل الألوهية، وفي البحر لما ذكر سبحانه فيما قبل دلائل التوحيد وهو الأصل الأول ثم ذكر جلَّ وعلا المعاد وهو الأصل الثاني وختم جل شأنه به السورة ذكر تعالى في بدء هذه السورة الأصل الثالث وهو النبوة وقال الجلال السيوطي في وجه الاتصال بما قبلها: إنها شرح لمفاتيح الغيب الخمسة التي ذكرت في خاتمة ما قبل، فقوله تعالى: ﴿ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون﴾ [السجدة: ٥] شرح قوله تعالى: ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾ [لقمان: ٣٤] ولذلك عقب بقوله سبحانه: ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ [السجدة: ٦] وقوله تعالى: ﴿أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز [السجدة: ٧] شرح قوله سبحانه: ﴿وينزل الغيث﴾ [لقمان: ٣٤] وقوله تبارك وتعالى: ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه﴾ [السجدة: ٧] الآيات شرح قوله جل جلاله: ﴿ويعلم ما في الأرحام﴾ [لقمان: ٣٤] وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿يدبر الأمر من السماء إلى الأرض [السجدة: ٥] ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها﴾ [السجدة: ١٣] شرح قوله تعالى: ﴿وما تدري نفس ماذا تكسب غداً﴾ وقوله جلَّ وعلا: ﴿أئذا ضللنا في الأرض﴾ [السجدة: ١٠] إلى قوله تعالى: ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون﴾ [السجدة: ١١] شرح قوله سبحانه: ﴿وما تدري نفس بأي أرض تموت﴾ [لقمان: ٣٤] اهـ، ولا يخلو عن نظر، وجاء في فضلها أخبار كثيرة، أخرج أبو عبيد وابن الضريس من مرسل المسيب بن رافع أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «تجيء الم تنزيل - وفي رواية - الم السجدة يوم القيامة لها جناحان تظل صاحبها وتقول: لا سبيل عليه لا سبيل عليه».

وأخرج الدارمي، والترمذي، وابن مردويه عن طاوس قال: الم السجدة، وتبارك الذي بيده الملك تفضلان على كل سورة في القرآن بستين حسنة، وفي رواية عن ابن عمر تفضلان ستين درجة على غيرهما من سور القرآن.

وأخرج أبو عبيد في فضائله، وأحمد، وعبد بن حميد، والدارمي، والترمذي، والنسائي، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن جابر قال: «كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا ينام حتى يقرأ الم تنزيل السجدة وتبارك الذي بيده الملك».

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر قال: «قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من قرأ تبارك الذي بيده الملك والم تنزيل السجدة بين المغرب والعشاء الآخرة فكأنما قام ليلة القدر».

وروى نحوه هو، والثعلبي، والواحدي من حديث أبي بن كعب، والثعلبي دونهم من حديث ابن عباس، وتعقب ذلك الشيخ ولي الدين قائلاً: لم أقف عليه وهذه الروايات كلها موضوعة، لكن رأيت في الدر المنثور أن الخرائطي أخرج في مكارم الأخلاق من طريق حاتم بن محمد عن طاوس أنه قال: ما على الأرض رجل يقرأ الم تنزيل السجدة وتبارك الذي بيده الملك في ليلة إلاّ كتب له مثل أجر ليلة القدر، قال: حاتم: فذكرت ذلك لعطاء فقال: صدق طاوس والله ما تركتهن منذ سمعت بهن إلاّ أن أكون مريضاً، ولم أقف على ما قيل في هذا الخبر صحة وضعفاً ووضعاً، وفيه أخبار كثيرة في فضلها غير هذا الله تعالى أعلم بحالها، وكان عليه الصلاة والسلام يقرؤوها ﴿وهل أتى﴾ [الإنسان: ١] في صلاة فجر الجمعة وهو مشعر بفضلها والحديث في ذلك صحيح لا مقال فيه.

أخرج ابن أبي شيبة، والبخاري، ومسلم، والنسائي، وابن ماجة عن أبي هريرة قال «كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقرأ في الفجر يوم الجمعة الم تنزيل السجدة وهل أتى على الإنسان» وأخرج أبو داود، وهؤلاء إلا البخاري نحوه عن ابن عباس.

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ
لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا
بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ
ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ
ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ
جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ
وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾

﴿بسم الله الرَّحْمن الرَّحِيم الـم﴾ إن جعل اسماً للسورة أو القرآن فحمله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هذا ألم، وقوله تعالى: ﴿تنزيل الكتاب﴾ خبر بعد خبر على أنه مصدر باق على معناه لقصد المبالغة أو بتقدير مضاف أو هو مؤول باسم المفعول أي منزل وإضافته إلى الكتاب من إضافة الصفة إلى الموصوف أو بيانية بمعنى من، وقوله سبحانه: ﴿لا رَيْبَ فيه﴾ خبر ثالث، وقوله تعالى: ﴿من رَبِّ العَالَـمينَ﴾ خبر رابع، وجوز أن يكون ﴿الـم﴾ مبتدأ وما بعده أخبار له أي المسمى بألم الكتاب المنزل لا ريب فيه كائن من رب العالمين، وتعقب بأن ما يجعل عنواناً للموضوع حقه أن يكون قبل ذلك معلوم الانتساب إليه وإذ لا عهد بالنسبة قبل فحقها الإخبار بها.

وقال أبو البقاء: ﴿الـم﴾ يجوز أن يكون مبتدأ و ﴿تنزيل﴾ بمعنى منزل خبره و ﴿لا ريب فيه﴾ حال من

﴿الكتاب﴾ والعامل فيها المضاف وهي حال مؤكدة و ﴿من رب﴾ متعلق بتنزيل، ويجوز أن يكون متعلقاً بمحذوف هو حال من الضمير المجرور في ﴿فيه﴾ والعامل فيها الظرف ﴿لا ريب﴾ لأنه هنا مبني وفيه ما سمعت، وهذا التعليق يجوز أيضاً على تقدير أن يكون ﴿الم﴾ خبر مبتدأ محذوف وما بعده أخباراً لذلك المحذوف، وإن جعل ﴿الم﴾ مسروداً على نمط التعديد فلا محل له من الإعراب، وفي إعراب ما بعد عدة أوجه، قال البقاء: يجوز أن يكون ﴿تنزيل﴾ مبتدأ و ﴿لا ريب فيه﴾ الخبر و ﴿من رب﴾ حال كما تقدم، ولا يجوز على هذا أن يتعلق بتنزيل لأن المصدر قد أخبر عنه، ويجوز أن يكون الخبر ﴿من رب﴾ و ﴿لا ريب﴾ حالاً من ﴿الكتاب﴾ وأن يكون خبراً بعد خبر انتهى.

ووجه منع التعليق بالمصدر بعد ما أخبر عنه أنه عامل ضعيف فلا يتعدى عمله لما بعد الخبر وعن التزام حديث التوسع في الظرف سعة هنا أو أن المتعلق من تمامه والاسم لا يخبر عنه قبل تمامه، وجوز ابن عطية تعلق ﴿من رب﴾ ريب وفيه أنه بعيد عن المعنى المقصود، وجوز الحوفي كون ﴿تنزيل﴾ خبر مبتدأ محذوف أي المؤلف من جنس ما ذكر تنزيل الكتاب، وقال أبو حيان: الذي أختاره أن يكون ﴿تنزيل﴾ مبتدأ و ﴿لا ريب فيه﴾ اعتراض لا محل له من الإعراب و ﴿من رب العالمين﴾ الخبر وضمير ﴿فيه﴾ راجع لمضمون الجملة أعني كونه منزلاً من رب العالمين لا للتنزيل ولا للكتاب كأنه قيل: لا ريب في ذلك أي في كونه منزلاً من رب العالمين وهذا ما اعتمد عليه الزمخشري وذكر أنه الوجه ويشهد لوجاهته قوله تعالى: ﴿أم يقولون افتراه﴾ فإن قولهم هذا مفترى إنكار لأن يكون من رب العالمين أي فالأنسب أن يكون نفي الريب عما أنكروه وهو كونه من رب العالمين جلَّ شأنه، وقيل: أي فلا بد من أن يكون مورده حكماً مقصوداً بالإفادة لا قيد للحكم بنفي الريب عنه، وفيه بحث، وكذا قوله سبحانه: ﴿بل هو الحق من ربك﴾ فإنه تقرير لما قبله فيكون مثله في الشهادة ثم قال في نظم الكلام على ذلك: إنه أسلوب صحيح محكم أثبت سبحانه أولاً أن تنزيله من رب العالمين وإن ذلك مما لا ريب فيه أي لا مدخل للريب في أنه تنزيل الله تعالى وهو أبعد شيء منه لأن نافي الريب ومميطه معه لا ينفك أصلاً عنه وهو كونه معجزاً للبشر، ثم أضرب جلَّ وعلا عن ذلك إلى قوله تعالى: «أم يقولون افتراه» لأن «أم» هي المنقطعة الكائنة بمعنى بل والهمزة انكاراً لقولهم وتعجيباً منه لظهور عجز بلغائهم عن مثل أقصر سورة منه فهو أما قول متعنت مكابر أو جاهل عميت منه النواظر، ثم أضرب سبحانه عن الإنكار إلى إثبات أنه الحق من ربك، وفي الكشف أن الزمخشري بين وجاهة كون ﴿تنزيل الكتاب﴾ مبتدأ و ﴿لا ريب فيه﴾ اعتراضاً و ﴿من رب العاليمن﴾ خبراً بحسن موقع الإعتراض إذ ذاك حسن الإنكار على الزاعم إنه مفتري مع وجود نافي الريب ومميطه ثم إثبات ما هو المقصود وعدم الإلتفات إلى شغب هؤلاء المكابرة بعد التلخيص البليغ بقوله تعالى: ﴿بل هو الحق من ربك﴾ وما في إيثار لفظ ﴿الحق﴾ وتعريفه تعريف الجنس من الحسن؛ ويقرب عندي من هذا الوجه جعل ﴿تنزيل﴾ مبتدأ وجملة ﴿لا ريب فيه﴾ في موضع الحال من ﴿الكتاب﴾ و ﴿من رب﴾ خبراً فتدبر ولا تغفل، وزعم أبو عبيدة أن ﴿أم﴾ بمعنى بل الانتقالية وقال: إن هذا خروج من حديث إلى حديث وليس بشيء.

والظاهر أن ﴿من ربك﴾ في موضع الحال أي كائناً من ربك، وقيل: يجوز جعله خبر ثانياً وإضافة الرب إلى العالمين أولاً ثم إلى ضمير سيد المخاطبين صلى الله تعالى عليه وسلم ثانياً بعد ما فيه من حسن التخلص إلى إثبات النبوة وتعظيم شأنه علا شأنه فيه أنه عليه الصلاة والسلام العبد الجامع الذي جمع فيه ما فرق في العالم بالأسر، وروده على أسلوب الترقي دلَّ على أن جمعيته صلى الله تعالى عليه وسلم أتم مما لكل العالم وحق له ذلك صلوات الله تعالى وسلامه عليه ﴿لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك﴾ بيان للمقصود من تنزيله فقيل هو متعلق بتنزيل، وقيل:

بمحذوف أي أنزله لتنذر إلخ، وقيل: بما تعلق به ﴿من ربك﴾ ﴿وقوماً﴾ مفعول أول لتنذر والمفعول الثاني محذوف أي العقاب و ﴿ما﴾ نافية كما هو الظاهر و ﴿من﴾ الأولى صلة ﴿ونذير﴾ فاعل ﴿أتاهم﴾ ويطلق على الرسول وهو المشهور وعلى ما يعمه والعالم الذي ينذر عنه عزَّ وجلَّ قيل: وهو المراد هنا كما في قوله تعالى: ﴿وإن من أمة إلاَّ خلا فيها نذير﴾ [فاطر: ٢٤].

وجوز أن يكون النذير هاهنا مصدراً بمعنى الإنذار و ﴿من قبلك﴾ أي من قبل إنذارك أو من قبل زمانك متعلق بأتى والجملة في موضع الصفة لقوماً، والمراد بهم قريش على ما ذهب إليه غير واحد، قال في الكشف: الظاهر أنه لم يبعث رسول منهم قبل رسول الله ﷺ وكانوا ملزمين بشرائع الرسل من قبل وإن كانوا مقصرين في البحث عنها لا سيما دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إن قلنا: إن دعوتي موسى، وعيسى عليهما السلام لم تعما وهو الأظهر، وقد تقدم لك القول بانقطاع حكم نبوة كل نبي ما عدا نبينا ﷺ بعد موته فلا يكلف أحد مطلقاً يجيء بعده باتباعه والقول بالانقطاع إلا بالنسبة لمن كان من ذريته، والظاهر أن قريشاً كانوا ملزمين بملة ابراهيم وإسماعيل عليهما السلام وإنهم لم يزالوا على ذلك إلى أن فشت في العرب عبادة الأصنام التي أحدثها فيهم عمرو الخزاعي لعنه الله تعالى فلم يبق منهم على الملة الحنيفية إلاَّ قليل بل أقل من القليل فهم داخلون في عموم قوله تعالى ﴿وإن من أمة إلاّ خلا فيها نذير﴾ فإنه عام للرسول وللعالم ينذر كذا قيل. واستشكل مع ما هنا، وأجيب بأن المراد ما أتاهم نذير منهم من قبلك وإليه يشير كلام الكشف وهناك أو من غيرها أو يحمل النذير فيه على الرسول، وفي تلك الآية على الأعم قال أبو حيان: في تفسير سورة الملائكة إن الدعاء إلى الله تعالى لم ينقطع عن كل أمة إما بمباشرة من أنبيائهم وإما بنقل إلى وقت بعثة محمد ﷺ والآيات التي تدل على أن قريشاً ما جاءهم نذير معناها لم يباشرهم وآباءهم الأقربين قربين وإما أن النذارة انقطعت فلا نعم لما شرعت آثارها تندرس بعث محمد صلى الله تعالى عليه وسلم. وما ذكره أهل علم الكلام من حال أهل الفترات فإن ذلك على حسب الفرض لا أنه واقع فلا توجد أمة على وجه الأرض إلا وقد علمت الدعوة إلى الله عزَّ وجلَّ وعبادته انتهى.

وفي القلب منه شيء، ومقتضاه أن المنفي هاهنا إتيان نذير مباشر أي نبي من الأنبياء عليهم السلام قريشاً الذين كانوا في عصره عليه الصلاة والسلام قبله ﷺ وأنه كان فيهم من ينذرهم ويدعوهم إلى عبادة الله تعالى وحده بالنقل أي عن نبي كان يدعو إلى ذلك، والأول مما لا ينبغي أن يختلف فيه اثنان بل لا ينبغي أن يتوقف فيه إنسان، والثاني مظنون التحقق في زيد بن عمرو بن نفيل العدوي والد سعيد أحد العشرة فإنه عاصر النبي ﷺ واجتمع وآمن به قبل بعثته عليه والصلاة السلام ولم يدركها إذ قد مات وقريش تبني الكعبة وكان ذلك قبل البعثة بخمس سنين، وكان على ملة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فقد صح عن هشام بن عروة عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكر قالت: لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول: يا معشر قريش والذي نفسي بيده ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيري، وفي بعض طرق الخبر عنه أيضاً بزيادة، وكان يقول: اللهم إني لو أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به ولكني لا أعلم ثم يسجد على راحلته، وذكر موسى بن عقبة في المغازي سمعت من أرضي يحدث أن زيد بن عمرو كان يعيب على قريش ذبحهم لغير الله تعالى وصح أنه لم يأكل من ذبائح المشركين التي أهل بها لغير الله، وأخرج الطيالسي في مسنده عن ابنه سعيد أنه قال: قلت للنبي ﷺ: إن أبي كان كما رأيت وكما بلغك أفأستغفر له: قال، نعم فإنه يبعث يوم القيامة أمة وحده ولا يعد ممن كان هذا شأنه الإنذار والدعوة إلى عبادة الله تعالى بل من أنصف يرى تضمن كلامه الذي حكته أسماء وإنكاره على قريش الذبح لغير الله تعالى الذي ذكره الطيالسي الدعوة إلى دين إبراهيم عليه السلام وعبادة الله سبحانه وحده، وكذا تضمن كلامه النقل أيضاً، ويعلم مما نقلناه أن الرجل رضي الله تعالى عنه

لم يكن نبياً وهو ظاهر، وزعم بعضهم أنه كان نبياً، واستدل على ذلك بأنه كان يسند ظهره إلى الكعبة ويقول: هلموا إلي فإنه لم يبق على دين الخليل غيري؛ وصحة ذلك ممنوعة، وعلى فرض التسليم لا دليل فيه على المقصود كما لا يخفى على من له أدنى ذوق، ومثل زيد رضي الله تعالى عنه قس بن ساعدة الإيادي فإنه رضي الله تعالى عنه كان مؤمناً بالله عزَّ وجلَّ داعياً إلى عبادته سبحانه وحده وعاصر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ومات قبل البعثة على الملة الحنيفية وكان من المعمرين، ذكر السجستاني أنه عاش ثلاثمائة وثمانين سنة، وقال المرزباني: ذكر كثير من أهل العلم أنه عاش ستمائة سنة وذكروا في شأنه أخباراً كثيرة لكن قال الحافظ ابن حجر في كتابه الإصابة قد أفرد بعض الرواة طريق قس وفيه شعره وخطبته هو في الطوالات للطبراني وغيرها وطرقه كلها ضعيفة وعد منها ما عد فليراجع، ثم إن الإشكال إنما يتوهم لو أريد بقريش جميع أولاد قصي أو فهر أو النضر أو الياس أو مضر أما إذا أريد من كان منهم حين بعث ﷺ فلا كما لا يخفى على المتأمل فتأمل، وقيل: المراد بهم العرب قريش وغيرهم ولم يأت المعاصرين منهم رسول الله ﷺ نذير من الأنبياء عليهم السلام غيره ﷺ وكان فيهم من ينذر ويدعو إلى التوحيد وعبادة الله تعالى وحده وليس بنبي على ما سمعت آنفاً، وأما العرب غير المعاصرين فلم يأتهم من عهد إسماعيل عليه السلام نبي منهم بل لم يرسل إليهم نبي مطلقاً، وموسى. وعيسى وغيرهما من أنبياء بني إسرائيل عليهم الصلاة والسلام لم يبعثوا إليهم على الأظهر، وخالد بن سنان العبسي عند الأكثرين ليس بنبي، وخبر ورود بنت له عجوز على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم لها: مرحباً بابنة نبي ضيعه قومه ونحوه من الأخبار مما للحفاظ فيه مقال لا يصلح معه للاستدلال، وفي شروح الشفاء والإصابة للحافظ ابن حجر بعض الكلام في ذلك، وقيل: المراد بهم أهل الفترة من العرب وغيرهم حتى أهل الكتاب، والمعنى ما أتاهم نذير من قبلك بعد الضلال الذي حدث فيهم. هذا وكأني بك تحمل النذير هنا على الرسول الذي ينذر عن الله عزَّ وجلَّ وكذا في قوله تعالى: ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾ ليوافق قوله تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله﴾ [النحل: ٣٦] وأظن أنك تجعل التنوين في أمة للتعظيم أي وأن من أمة جليلة معتنى بأمرها إلاَّ خلا فيها نذير ولقد بعثنا في كل أمة جليلة معتنى بأمرها رسولاً أو تعتبر العرب أمة وبني إسرائيل أمة ونحو ذلك أمة دون أهل عصر واحد وتحمل من لم يأتهم نذير على جماعة من أمة لم يأتهم بخصوصهم نذير، ومما يستأنس به في ذلك أنه حين ينفي اتيان النذير ينفي عن قوم ونحوه لا عن أمة فليتأمل، وسيأتي إن شاء الله تعالى تمام الكلام في هذا المقام، وجوز كون ﴿ما﴾ موصولة وقعت مفعولاً ثانياً لتنذر و﴿من نذير﴾ عليه متعلق بأتاهم أي لتنذر قوماً العقاب الذي أتاهم من نذير من قبلك أي على لسان نذير من قبلك واختاره أبو حيان، وعليه لا مجال لتوهم الإشكال لكن لا يخفى أنه خلاف المتبادر الذي عليه أكثر المفسرين، والاقتصار على الإنذار في بيان الحكمة لأنه الذي يقتضيه قولهم: ﴿افتراه﴾ دون التبشير ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي لأجل أن يهتدوا بإنذارك إياهم أو راجياً لاهتدائهم، وجعل الترجي مستعاراً للإرادة منسوباً إليه عزَّ وجلَّ نزغة اعتزالية:

﴿الله الَّذي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ مرّ بيانه فيما سلف على مذهبي السلف والخلف ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ﴾ أي ما لكم مجاوزين الله عزَّ وجلَّ أي رضاه سبحانه وطاعته تعالى ولي ولا شفيع أي لا ينفعكم هذان من الخلق عنده سبحانه دون رضاه جل جلاله ـ فمن دونه ـ حال من مجرور ﴿لكم﴾ والعامل الجار أو متعلقه، وعلى هذا المعنى لا دليل في الخطاب على أنه تعالى شفيع دون غيره ليقال: كيف ذاك وتعالى جل شأنه أن يكون شفيعاً، وكفى في ذلك رده ﷺ على الأعرابي حيث قال: إنا نستشفع بالله تعالى إليك، وقد يقال: الممتنع اطلاق الشفيع عليه تعالى بمعناه الحقيقي وأما اطلاقه عليه سبحانه بمعنى الناصر مجازاً فليس بممتنع، ويجوز أن يعتبر ذلك هنا وحينئذ يجوز أن يكون ﴿من دونه﴾ حالاً مما بعد قدم عليه لأنه

نكرة ودون بمعنى غير، والمعنى ما لكم ولي ولا ناصر غير الله تعالى، ويجوز أن يكون حالاً من المجرور كما في الوجه السابق، والمعنى ما لكم إذا جاوزتم ولايته ونصرته جل وعلا ولي ولا ناصر، ويظهر لي أن التعبير بالشفيع هنا من قبيل المشاكلة التقديرية لما أن المشركين المنذرين كثيراً ما كانوا يقولون في آلهتهم هؤلاء شفعاؤنا ويزعمون أن كل واحد منها شفيع لهم ﴿**أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ**﴾ أي ألا تسمعون هذه المواعظ فلا تتذكرون بها أو أتسمعونها فلا تتذكرون بها، فالإنكار على الأول متوجه إلى عدم السماع وعدم التذكر معاً، وعلى الثاني إلى عدم التذكر مع تحقق ما يوجبه من السماع.

﴿**يدبر الأمر**﴾ قيل: أي أمر الدنيا وشؤونها، وأصل التدبير النظر في دابر الأمر والتفكر فيه ليجيء محمود العاقبة وهو في حقه عزَّ وجلَّ مجاز عن إرادة الشيء على وجه الإتقان ومراعاة الحكمة والفعل مضمن معنى الإنزال والجار أن في قوله تعالى: ﴿**من السماء إلى الأرض**﴾ متعلقان به ومن ابتدائية وإلى انتهائية أي يريده تعالى على وجه الاتقان ومراعاة الحكمة منزلاً له من السماء إلى الأرض، وإنزاله من السماء باعتبار أسبابه فإن أسبابه سماوية من الملائكة عليهم السلام وغيرهم ﴿**ثم يعرج**﴾ أي يصعد ويرتفع ذلك الأمر بعد تدبيره ﴿**إلَيْه**﴾ عزَّ وجلَّ وهذا العروج مجاز عن ثبوته في علمه تعالى أي تعلق علمه سبحانه به تعلقاً تنجيزياً بأن يعمله جلَّ وعلا موجوداً بالفعل أو عن كتابته في صحف الملائكة عليهم السلام القائمين بأمره عزَّ وجلَّ موجوداً كذلك ﴿**في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون**﴾ أي في برهة متطاولة من الزمان فليس المراد حقيقة العدد، وعبر عن المدة المتطاولة بالألف لأنها منتهى المراتب وأقصى الغايات وليس مرتبة فوقها إلا ما يتفرع منها من أعداد مراتبها، والفعلان متنازعان في الجار والمجرور وقد أعمل الثاني منهما فيه فتفيد الآية طول امتداد الزمان بين تعلق إرادته سبحانه بوجود الحوادث في أوقاتها متقنة مراعي فيها الحكمة وبين وجودها كذلك، وظاهرها يقتضي أن وجودها لا يتوقف على تعلق الإرادة مرة أخرى بل يكفي فيه التعلق السابق وقيل: ﴿**في يوم**﴾ متعلق بيعرج وليس الفعلان متنازعين فيه، والمراد بعروج الأمر إليه بعد تدبيره سبحانه إياه وصول خبر وجوده بالفعل كما دبر جل وعلا بواسطة الملك وعرضه ذلك في حصرة قد أعدها سبحانه للاختبار بما هو جلَّ جلاله أعلم به اظهار الكمال عظمته تبارك وتعالى وعظيم سلطنته جلت سلطنته؛ وهذا كعرض الملائكة عليهم السلام أعمال العباد الوارد في الأخبار، وألف سنة على حقيقتها وهي مسافة ما بين الأرض ومحدب السماء الدنيا بالسير المعهود للبشر فإن ما بين السماء والأرض خمسمائة عام وثخن السماء كذلك كما جاء في الأخبار الصحيحة والملك يقطع ذلك في زمان يسير فالكلام على التشبيه فكأنه قيل: يريد تعالى الأمر متقناً مراعي فيه الحكمة بأسباب سماوية نازلة آثارها وأحكامها إلى الأرض فيكون كما أراد سبحانه فيعرج ذلك الأمر مع الملك ويرتفع خبره إلى حضرته سبحانه في زمان هو كألف سنة مما تعدون، وقيل: العروج إليه تعالى صعود خبر الأمر مع الملك إليه عزَّ وجلَّ كما هو مروي عن ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك والفعلان متنازعان في ﴿**يوم**﴾ والمراد أنه زمان تدبير الأمر لو دبره البشر وزمان العروج لو كان منهم أيضاً وإلا فزمان التدبير والعروج يسير، وقيل: المعنى يدبر أمر الدنيا بإظهاره في اللوح المحفوظ فينزل الملك الموكل به من السماء إلى الأرض ثم يرجع الملك أو الأمر مع الملك إليه تعالى في زمان هو نظر للنزول والعروج كألف سنة مما تعدون، وأريد به مقدار ما بين الأرض ومقعر سماء الدنيا ذهاباً وإياباً. والظاهر أن ﴿**يدبر**﴾ عليه مضمن معنى الإنزال، والجاران متعلقان به لا بفعل محذوف أي فينزل به الملك من السماء الى الأرض كما قيل، وزعم بعضهم أن ضمير ﴿**إليه**﴾ للسماء وهي قد تذكر كما في قوله تعالى: ﴿السماء منفطر به﴾ [المزمل: ١٨] وقيل: المعنى يدبر سبحانه أمر الدنيا كلها من السماء

الى الأرض لكل يوم من أيام الرب جلَّ شأنه وهو ألف سنة كما قال سبحانه: ﴿وأن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾ [الحج: ٤٧] ثم يصير إليه تعالى ويثبت عنده عزَّ وجلَّ ويكتب في صحف ملائكته جلَّ وعلا كل وقت من أوقات هذه المدة ما يرتفع من ذلك الأمر ويدخل تحت الوجود إلى أن تبلغ المدة آخرها ثم يدبر أيضاً ليوم آخر وهلم جراً إلى أن تقوم الساعة، ويشير إلى هذا ما ما روي عن مجاهد قال: إنه تعالى يدبر ويلقي إلى الملائكة أمور ألف سنة من سنينا وهو اليوم عنده تعالى فإذا فرغت ألقي إليهم مثلها، وعليه الأمر بمعنى الشأن والجاران متعلقان به أو بمحذوف حال منه ولا تضمين في ﴿يدبر﴾ والعروج إليه تعالى مجاز عن ثبوته وكتبه في صحف الملائكة و ﴿ألف سنة﴾ على ظاهره و ﴿في يوم﴾ يتعلق بالفعلين واعمل الثاني كأنه قيل: يدبر الأمر ليوم مقداره كذا ثم يعرج إليه تعالى فيه كما تقول: قصدت ونظرت في الكتاب أي قصدت إلى الكتاب ونظرت فيه، ولا يمنع اختلاف الصلتين من التنازع، وتكرار التدبير إلى يوم القيامة يدل عليه العدول إلى المضارع مع أن الأمر ماض كأنه قيل: يجدد هذا الأمر مستمراً؛ وقيل: المعنى يدبر أمر الدنيا من السماء إلى الأرض إلى أن تقوم الساعة ثم يعرج إليه تعالى ذلك الأمر كله أي يصير إليه سبحانه ليحكم فيه في يوم كان مقداره ألف سنة وهو يوم القيامة، وعليه الأمر بمعنى الشأن والجاران متعلقان به أو بمحذوف حال له كما في سابقه، والعروج إليه تعالى الصيرورة إليه سبحانه لا ليثبت في صحف الملائكة بل ليحكم جلَّ وعلا فيه.

و ﴿في يوم﴾ متعلق بالعروج ولا تنازع، والمراد بيوم مقداره كذا يوم القيامة، ولا ينافي هذا قوله تعالى: ﴿كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ [المعارج: ٤] بناء على أحد الوجهين فيه لتفاوت الاستطالة على حسب الشدة أو لأن ثم خمسين موطناً كل موطن ألف سنة، وقيل: المعنى ينزل الوحي مع جبريل عليه السلام من السماء إلى الأرض ثم يرجع إليه تعالى ما كان من قبوله أو رده مع جبريل عليه السلام في يوم مقدار مسافة السير فيه ألف سنة وهو ما بين السماء والأرض هبوطاً وصعوداً، فالأمر عليه مراد به الوحي كما في قوله تعالى: ﴿يلقي الروح من أمره﴾ [غافر: ١٥] والعروج إليه تعالى عبارة عن خبر القبول والرد مع عروج جبريل عليه السلام والتدبير والعروج في اليوم لكن على التوسع والتوزيع فالفعلان متنازعان في الظرف ولكن لا اختلاف في الصلة ولا تنافي الآية على هذا قوله تعالى شأنه: ﴿تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ بناء على الوجه الآخر فيه وستعرفهما إن شاء الله تعالى لأن العروج فيه إلى العرش وفيها الى السماء الدنيا وكلاهما عروج إلى الله تعالى على التجوز.

وقيل: المراد بالأمر المأمور به من الطاعات والأعمال الصالحات، والمعنى ينزل سبحانه ذلك مدبراً من السماء إلى الأرض ثم لا يعمل به ولا يصعد إليه تعالى ذلك المأمور به خالصاً يرتضيه إلا في مدة متطاولة لقلة الخلص من العباد وعليه ﴿يدبر﴾ مضمن معنى الإنزال ومن وإلى متعلقان به، ومعنى العروج الصعود كما في قوله تعالى: ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾ [فاطر: ١٠] والغرض من الألف استطالة المدة، والمعنى استقلال عبادة الخلص واستطالة مدة ما بين التدبير والوقوع، و ﴿ثم﴾ للاستبعاد، واستدل لهذا المعنى بقوله تعالى إثر ذلك: ﴿قليلاً ما تشكرون﴾ [الأعراف: ١٠، المؤمنون: ٧٨، السجدة: ٩] لأن الكلام بعضه مربوط بالبعض وقلة الشكر مع وجود تلك الإنعامات دالة على الاستقلال المذكور.

وقيل: المعنى يدبر أمور الشمس في طلوعها من المشرق وغروبها في المغرب ومدارها في العالم من السماء إلى الأرض وزمان طلوعها إلى أن تغرب وترجع إلى موضعها من الطلوع مقداره في المسافة ألف سنة وهي تقطع ذلك في يوم وليلة. هذا ما قالوه في الآية الكريمة في بيان المراد منها، ولا يخفى على ذي لب تكلف أكثر هذه الأقوال

ومخالفته للظاهر جداً وهي بين يديك فاختر لنفسك ما يحلو، ويظهر لي أن المراد بالسماء جهة العلو مثلها في قوله تعالى: ﴿أأمنتم من في السماء﴾ [الملك: ١٦] وبعروج الأمر إليه تعالى صعود خبره كما سمعت عن الجماعة و ﴿في يوم﴾ متعلق بالعروج بلا تنازع، وأقول: إن الآية من المتشابه وأعتقد أن الله تعالى يدبر أمور الدنيا وشؤونها ويريدها متقنة وهو سبحانه مستو على عرشه وذلك هو التدبير من جهة العلو ثم يصعد خبر ذلك مع الملك إليه عزَّ وجلَّ إظهاراً لمزيد عظمته جلت عظمته وعظيم سلطنته عظمت سلطنته إلى حكم هو جلَّ وعلا أعلم بها وكل ذلك بمعنى لائق به تعالى مجامع للتنزيه مباين للتشبيه حسبما يقوله السلف في أمثاله، وقول بعضهم: العرش موضع التدبير وما دونه موضع التفصيل وما دون السماوات موضع التصريف فيه رائحة ما مما ذكرنا، وأما تقدير يوم العروج هنا بألف سنة وفي آية أخرى بخمسين ألف سنة فقد كثر الكلام في توجيهه وقد تقدم لك بعض منه.

وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في المصاحف، والحاكم وصححه عن عبد الله بن أبي مليكة قال: دخلت على ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنا وعبد الله بن فيروز مولى عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه فسأله عن قوله تعالى: ﴿**يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة**﴾ فكأن ابن عباس اتهمه فقال: ما يوم كان مقداره خمسين ألف سنة؟ فقال: إنما سألتك لتخبرني فقال رضي الله تعالى عنه: هما يومان ذكرهما الله تعالى في كتابه الله تعالى أعلم بهما وأكره أن أقول في كتاب الله ما لا أعلم فضرب الدهر من ضرباته حتى جلست إلى ابن المسيب فسأله عنهما إنسان فلم يخبر ولم يدر فقلت: ألا أخبرك بما سمعت من ابن عباس؟ قال: بلى أخبرته فقال للسائل: هذا ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أبى أن يقول فيهما وهو أعلم مني.

وبعض المتصوفة يسمون اليوم المقدر بألف سنة باليوم الربوبي واليوم المقدر بخمسين ألف سنة باليوم الإلهي، ومحيي الدين قدس سره يسمى الأول يوم الرب والثاني يوم المعارج، وقد ذكر ذلك وأياماً أخر كيوم الشأن ويوم المثل ويوم القمر ويوم الشمس ويوم زحل وأيام سائر السيارة ويوم الحمل وأيام سائر البروج في الفتوحات. وقد سألت رئيس الطائفة الكشفية الحادثة في عصرنا في كربلاء عن مسألة فكتب في جوابها ما كتب واستطرد بيان اطلاقات اليوم وعد من ذلك أربعة وستين اطلاقاً، منها اطلاقه على اليوم الربوبي وإطلاقه على اليوم الإلهي وأطال الكلام في ذلك المقام، ولعلنا إن شاء الله تعالى ننقل لك منه شيئاً معتداً به في موضع آخر، وسنذكر إن شاء الله تعالى أيضاً تمام الكلام فيما يتعلق بالجمع بين هذه الآية وقوله سبحانه ﴿تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ [المعارج: ٤] وقوله تعالى: ﴿**مما تعدون**﴾ صفة ﴿**ألف**﴾ أو صفة ﴿**سنة**﴾.

وقرأ ابن أبي عبلة «يُعرج» بالبناء للمفعول والأصل يعرج به فحذف الجار واستتر الضمير. وقرأ جناح بن حبيش «ثم يعرج الملائكة» إليه بزيادة الملائكة قال أبو حيان: ولعله تفسير منه لسقوطه في سواد المصحف.

وقرأ السلمي، وابن وثاب، والأعمش والحسن بخلاف عنه «يعدون» بياء الغيبة ﴿**ذَلِكَ**﴾ أي الذات الموصوف بتلك الصفات المقتضية للقدرة التامة والحكمة العامة ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ**﴾ أي كل ما غاب عن الخلق ﴿**وَالشَّهَادَةِ**﴾ أي كل ما شاهده الخلق فيدبر سبحانه ذلك على وفق الحكمة، وقيل: الغيب الآخرة والشهادة الدنيا ﴿**الْعَزِيزُ**﴾ الغالب على أمره ﴿**الرَّحِيمُ**﴾ للعباد، وفيه إيماء بأنه عزَّ وجلَّ متفضل فيما يفعل جلَّ وعلا، واسم الإشارة مبدأ والأوصاف الثلاثة بعده أخبار له، ويجوز أن يكون الأول خبراً والأخيران نعتان للأول.

وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما بخفض الأوصاف الثلاثة على أن ذلك إشارة إلى الأمر مرفوع المحلى

على أنه فاعل ﴿يعرج﴾ والأوصاف مجرورة على البدلية من ضمير ﴿إليه﴾ وقرأ أبو زيد النحوي بخفض الوصفين الأخيرين على أن ﴿ذلك﴾ إشارة إلى الله تعالى مرفوع المحل على الابتداء و ﴿عالم﴾ خبره والوصفان مجروران على البدلية من الضمير، وقوله تعالى: ﴿الَّذي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ خبر رابع أو نعت ثالث أو نصب على المدح، وجوز أبو البقاء كونه خبر مبتدأ محذوف أي هو الذي، وكون ﴿العزيز﴾ مبتدأ و ﴿الرحيم﴾ صفته وهذا خبره وجملة ﴿خلقه﴾ في محل جر صفة ﴿شيء﴾ ويجوز أن تكون في محل نصب صفة ﴿كل﴾ واحتمال الاستئناف بعيد أي حسن سبحانه كل مخلوق من مخلوقاته لأنه ما من شيء منها إلا وهو مرتب على ما اقتضته الحكمة واستدعته المصلحة فجميع المخلوقات حسنة وإن تفاوتت في مراتب الحسن كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ [التين: ٤] ونفى التفاوت في خلقه تعالى في قوله سبحانه: ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾ [الملك: ٣] على معنى ستعرفه إن شاء الله تعالى غير مناف لما ذكر، وجوز أن يكون المعنى علم كيف يخلقه من قوله، قيمة المرء ما يحسن وحقيقته يحسن معرفته أي يعرفه معرفة حسنة بتحقيق وإيقان، ولا يخفى بعده.

وقرأ العربيان، وابن كثير «خَلْقَهُ» بسكون اللام فقيل: هو بدل اشتمال من ﴿كل﴾ والضمير المضاف إليه له وهو باق على المعنى المصدري، وقيل: هو بدل كل من كل أو بدل بعض من كل والضمير لله تعالى وهو بمعنى المخلوق، وقيل: هو مفعول ثان لأحسن على تضمينه معنى أعطى أي أعطى سبحانه كل شيء خلقه اللائق به بطريق الإحسان والتفضل، وقيل: هو المفعول الأول و ﴿كل شيء﴾ المعفول الثاني وضميره لله سبحانه على تضمين الإحسان معنى الإلهام كما قال الفراء أو التعريف كما قال أبو البقاء، والمعنى ألهم أو عرف خلقه كل شيء مما يحتاجون إليه فيؤول إلى معنى قوله تعالى: ﴿أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ [طه: ٥٠].

واختار أبو علي في الحجة ما ذكره سيبويه في الكتاب أنه مفعول مطلق لأحسن من معناه والضمير لله تعالى نحو قوله تعالى: ﴿صنع الله﴾ [النمل: ٨٨] ﴿ووعد الله﴾ [النساء: ١٢٢ وغيرها] ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الانْسَانِ﴾ أي آدم عليه السلام ﴿مِنْ طِين﴾ أو بدأ خلق هذا الجنس المعروف ﴿من طين﴾ حيث بدأ خلق آدم عليه السلام خلقاً منطوياً على فطرة سائر أفراد الجنس انطواء إجمالياً منه، وقرأ الزهري «بدا» بالألف بدلاً من الهمزة قال في البحر: وليس القياس في هدأ هدا بإبدال الهمزة ألفاً بل قياس هذه الهمزة التسهيل بين بين على أن الأخفش حكى في قرأت قريت قيل: وهي لغة الأنصار فهم يقولون في بدأ بدي بكسر عين الكلمة وياء بعدها، وطيء يقولون في فعل هذا نحو بقي بقي كرمي فاحتمل أن تكون قراءة الزهري على هذه اللغة بأن يكون الأصل بدى ثم صار بدا، وعلى لغة الأنصار قال ابن رواحة:

باسم الإله وبه بدينا ... ولو عبدنا غيره شقينا

﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ﴾ أي ذريته سميت بذلك لأنها تنسل وتنفصل منه ﴿مِنْ سُلالَة﴾ أي خلاصة وأصلها ما يسل ويخلص بالتصفية ﴿مِنْ مَاء مَّهين﴾ ممتهن لا يعتنى به وهو المني ﴿ثُمَّ سوَّاهُ﴾ عدله بتكميل أعضائه في الرحم وتصويرها على ما ينبغي، وأصل التسوية جعل الأجزاء متساوية، و ﴿ثم﴾ للترتيب الرتبي أو الذكري ﴿وَنَفَخَ فيه مِنْ رُوحه﴾ أضاف الروح إليه تعالى تشريفاً له كما في بيت الله تعالى وناقة الله تعالى وإشعاراً بأنه خلق عجيب وصنع بديع، وقيل: إضافة لذلك إيماء إلى أن له شأناً له مناسبة ما إلى حضرة الربوبية.

ومن هنا قال أبو بكر الرازي: من عرف نفسه فقد عرف ربه، ونفخ الروح قيل: مجاز عن جعلها متعلقة بالبدن

وهو أوفق بمذهب القائلين بتجرد الروح وأنها غير داخلة في البدن من الفلاسفة وبعض المتكلمين كحجة الإسلام الغزالي عليه الرحمة، وقيل: هو على حقيقته والمباشر له الملك الموكل على الرحم وإليه ذهب القائلون بأن الروح جسم لطيف كالهواء سار في البدن سريان ماء الورد في الورد والنار في الجمر، وهو الذي تشهد له ظواهر الأخبار وأقام العلامة ابن القيم عليه نحو مائة دليل.

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ التفات إلى الخطاب لا يخفى موقع ذكره بعد نفخ الروح وتشريفه بخلعة الخطاب حين صلح للخطاب والجعل ابداعي واللام متعلقة به، والتقدم على المفعول الصريح لما مرّ مراراً من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر مع ما فيه من نوع طول يخل تقديمه بجزالة النظم الكريم، وتقديم السمع لكثرة فوائده فإن أكثر أمور الدين لا تعلم إلاَّ من جهته وأفرد لأنه في الأصل مصدر.

وقيل: للإيماء إلى أن مدركه نوع واحد وهو الصوت بخلاف البصر فإنه يدرك الضوء واللون والشكل والحركة والسكون وبخلاف الفؤاد فإنه يدرك مدركات الحواس بواسطتها وزيادة على ذلك أي خلق لمنفعتكم تلك المشاعر لتعرفوا أنها مع كونها في أنفسها نعماً جليلة لا يقادر قدرها وسائل إلى التمتع بسائر النعم الدينية والدنيوية الفائضة عليكم وتشكروها بأن تصرفوا كلاً منها إلى ما خلق هو له فتدركوا بسمعكم الآيات التنزيلية الناطقة بالتوحيد والبعث وبأبصاركم الآيات التكوينية الشاهدة بهما وتستدلوا بأفئدتكم على حقيتهما، وقوله تعالى: ﴿قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ﴾ بيان لكفرهم بتلك النعم بطريق الاعتراض التذييلي والقلة بمعنى النفي كما ينبىء عنه ما بعده.

ونصب الوصف على أنه صفة لمحذوف وقع معمولاً لتشكرون أي شكراً قليلاً تشكرون أو زماناً قليلاً تشكرون.

واستظهر الخفاجي عليه الرحمة كون الجملة حالية لا اعتراضية

وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ
ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ
رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ
هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ
لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا
ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ
عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ
أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ
أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾
وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ

بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى
مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟
وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾
أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ أَفَلَا
يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ
وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا
يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

﴿**وَقَالوا**﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان أباطيلهم بطريق الالتفات إيذاناً بأن ما ذكر من عدم شكرهم تلك النعم موجب للاعراض عنهم وتعديد جناياتهم لغيرهم بطريق المباثة، وروي أن القائل أبي بن خلف فضمير الجمع لرضا الباقين بقوله﴿**إذَا ضَلَلْنَا في الأَرْض**﴾ أي ضعنا فيها بأن صرنا تراباً مخلوطاً بترابها بحيث لا نتميز منه فهو من ضل المتاع إذا ضاع أو غبنا فيها بالدفن وإن لم نصر تراباً وإليه ذهب قطرب، وأنشد قول النابغة يرثي النعمان بن المنذر:

وآب مضلوه بعين جلية ... وغودر بالجولان حزم ونائل

وقرأ يحيى بن يعمر، وابن محيصن، وأبو رجاء، وطلحة، وابن وثاب «ضَلِلْنَا» بكسر اللام ويقال: ضل يضل كضرب يضرب وضل يضل كعلم يعلم وهما بمعنى والأول اللغة المشهورة الفصيحة وهي لغة نجد والثاني لغة أهل العالية. وقرأ أبو حيوة ضللنا بضم الضاد المعجمة وكسر اللام ورويت عن علي كرم الله تعالى وجهه.

وقرأ الحسن، والأعمش، وأبان بن سعيد بن العاصي «صلَلْنا» بالصاد المهملة وفتح اللام ونسبت إلى علي كرم الله تعالى وجهه وابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وعن الحسن أنه كسر اللام ويقال فيه نحو ما يقال في ضل بالضاد المعجمة وزيادة أصل بالهمزة كافعل، قال الفراء: والمعنى صرنا بين الصلة وهي الأرض اليابسة الصلبة كأنها من الصليل لأن اليابس الصلب إذا انشق يكون له صليل. وقيل: أنتنا من الصلة وهو النتن، وقيل للأرض الصلة لأنها أست الدنيا وتقول العرب ضع الصلة على الصلة، وقال النحاس لا نعرف في اللغة صللنا ولكن يقال أصل اللحم وصل وأخم وخم إذا نتن وهذا غريب منه. وقرأ ابن عامر «إذا» بترك الاستفهام والمراد الإخبار على سبيل الاستهزاء والتهكم والعامل في «إذا» ما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿**إنَّا لَفي خَلْق جَديد**﴾ وهو نبعث أو يجدد خلقنا، ولا يصح أن يكون هو العامل لمكان الاستفهام وإن وكل منهما لا يعمل ما بعده فيما قبله ويعتبر ما ذكر من نبعث أو يجدد خلقنا جواباً لإذا إذا اعتبرت شرطية لا ظرفية محضة والهمزة للإنكار والمراد تأكيد الإنكار لا إنكار التأكيد كما هو المتبادر من تقديمها على أداته فإنها مؤخرة عنها في الاعتبار وتقديمها عليها لقوة اقتضائها الصدارة.

وقرأ نافع، والكسائي، ويعقوب «إنا» بترك الاستفهام على نحو ما ذكر آنفاً ﴿**بَلْ هُمْ بلقَاء ربِّهِمْ كَافرونَ**﴾ إضراب وانتقال عن بيان كفرهم بالبعث إلى بيان ما هو أبلغ وأشنع منه وهو كفرهم بلقاء ملائكة ربهم عند الموت وما يكون بعده جميعاً، وقيل: هو إضراب وترق من التردُّد في البعث واستبعاده إلى الجزم بجحده بناء على أن لقاء الرب كناية عن البعث، ولا يضر فيه على ما يقال الخفاجي كون الاستفهام السابق انكارياً وهو يؤول إلى الجحد فتأمل

﴿قُلْ﴾ رداً عليهم ﴿يَتَوَفَّاكُمْ ملكُ الموْت ﴾ يستوفي نفوسكم لا يترك منها شيئاً من أجزائها أو لا يترك شيئاً من جزئياتها ولا يبقي أحداً منكم، وأصل التوفي أخذ الشيء بتمامه، وفسر بالاستيفاء لأن التفعل والاستفعال يلتقيان كثيراً كتقضيته واستقضيته وتعجلته واستعجلته، ونسبة التوفي إلى ملك الموت باعتبار أنه عليه الصلاة والسلام يباشر قبض الأنفس بأمره عزَّ وجلَّ كما يشير إلى قوله سبحانه: ﴿الَّذي وُكِّلَ بكُمْ ﴾ أي بقبض أنفسكم ومعرفة انتهاء آجالكم.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن أبي جعفر محمد بن علي رضي الله تعالى عنهما قال: دخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على رجل من الأنصار يعوده فإذا ملك الموت عليه السلام عند رأسه فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: يا ملك الموت ارفق بصاحبي فإنه مؤمن فقال: أبشر يا محمد فإني بكل مؤمن رفيق واعلم يا محمد أني لأقبض روح ابن آدم فيصرح أهله فأقوم في جانب من الدار فأقول والله ما لي من ذنب وإن لي لعودة وعودة الحذر الحذر وما خلق الله تعالى من أهل بيت ولا مدر ولا شعر ولا وبر في بر ولا بحر إلاَّ وأنا أتصفحهم فيه كل يوم وليلة خمس مرات حتى أني لأعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم والله يا محمد إني لا أقدر أقبض روح بعوضة حتى يكون الله تبارك وتعالى الذي يأمر بقبضه، وأخرج نحوه الطبراني، وأبو نعيم، وابن منده ونسبته إليه عزَّ وجلَّ في قوله سبحانه: ﴿الله يتوفى الأنفس ﴾ [الزمر: ٤٢] باعتبار أن أفعال العباد كلها مخلوطة له جلَّ وعلا لا مدخل للعباد فيها بسوى الكسب كما يقوله الأشاعرة أو باعتبار أن ذلك بإذنه تعالى ومشيئته جلَّ شأنه ونسبته إلى الرسل في قوله تعالى: ﴿توفته رسلنا ﴾ [الأنعام: ٦١] وإلى الملائكة في قوله سبحانه: ﴿إن الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ﴾ [النحل: ٢٨] لما أن ملك الموت لا يستقل به بل له أعوان كما جاء في الآثار يعالجون نزع الروح حتى إذا قرب خروجها قبضها ملك الموت، وقيل: المراد بملك الموت الجنس، وقال بعضهم: إن بعض الناس يتوفاهم ملك الموت وبعضهم يتوفاهم الله عزَّ وجلَّ بنفسه، أخرج ابن ماجة عن أبي أمامة قال: «سمعت رسول الله ﷺ: يقول إن الله تعالى وكل ملك الموت عليه السلام بقبض الأرواح إلا شهداء البحر فإنه سبحانه يتولى قبض أرواحهم».

وجاء ذلك أيضاً في خبر آخر يفيد أن ملك الموت للأنس غير ملك الموت للجن والشياطين وما لا يعقل. أخرج ابن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: وكل ملك الموت عليه السلام بقبض أرواح المؤمنين فهو الذي يلي قبض أرواحهم وملك في الجن وملك في الشياطين وملك في الطير والوحش والسباع والحيتان والنمل فهم أربعة أملاك والملائكة يموتون في الصعقة الأولى وأن ملك الموت يلي قبض أرواحهم ثم يموت وأما الشهداء في البحر فإن الله تعالى يلي قبض أرواحهم لا يكل ذلك إلى ملك الموت بكرامتهم عليه سبحانه.

والذي ذهب إليه الجمهور أن ملك الموت لمن يعقل وما لا يعقل من الحيوان واحد وهو عزرائيل ومعناه عبد الله فيما قيل نعم له أعوان كما ذكرنا، وخبر الضحاك عن ابن عباس الله تعالى أعلم بصحته ﴿ثُمَّ إلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ بالبعث للحساب والجزاء. ومناسبة هذه الآية لما قبلها على ما ذكرنا في توجيه الإضراب ظاهرة لأنهم لما جحدوا لقاء ملائكة ربهم عند الموت وما يكون بعده ذكر لهم حديث توفى ملك الموت إياهم إيماء إلى أنهم سيلاقونه وحديث الرجوع إلى الله تعالى بالبعث للحساب والجزاء، وأما على ما قيل فوجه المناسبة أنهم لما أنكر والبعث والمعاد رد عليهم بما ذكر لتضمن قوله تعالى: ﴿ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ البعث وزيادة ذكر توفي ملك الموت إياهم وكونه موكلاً بهم لتوقف البعث على وفاتهم ولتهديدهم وتخويفهم وللإشارة إلى أن القادر على الإماتة قادر على الإحياء، وقيل: إن ذلك لرد ما يشعر به كلامهم من أن الموت بمقتضى الطبيعة حيث أسندوه إلى أنفسهم في قولهم: ﴿أئذا ضللنا في الأرض ﴾ فليس عندهم بفعل الله تعالى ومباشرة ملائكته، ولا يخفى بعده. وأبعد منه ما قيل في المناسبة:

إن عزرائيل وهو عبد من عبيده تعالى إذا قدر على تخليص الروح من البدن مع سريانها فيه سريان ماء الورد في الورد والنار في الجمر فكيف لا يقدر خالق القوى والقدر جلَّ شأنه على تمييز أجزائهم المختلطة بالتراب وكيف يستبعد البعث مع القدرة الكاملة له عزَّ وجلَّ لما أن ذلك السريان مما خفي على العقلاء حتى أنكره بعضهم فكيف بجهلة المشركين فتأمل. وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما «تَرْجَعُونَ» بالبناء للفاعل ﴿ولو ترى إذ المـُجْرِمُون﴾ وهم القائلون: ﴿أئذا ضللنا في الأرض﴾ أو جنس المجرمين وهم من حملتهم ﴿نَاكِسُو رُؤوسِهِمْ﴾ مطرقوها من الحياء والخزي ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ حين حسابهم لم يظهر من قبائحهم التي اقترفوها في الدنيا. وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما «نكسوا رؤوسهم» فعلاً ماضياً ومفعولاً ﴿رَبَّنَا﴾ بتقدير القول الواقع حالاً والعامل فيه ﴿ناكسوا﴾ أي يقولون ربنا إلخ وهو أولى من تقدير يستغيثون بقولهم: ربنا ﴿أَبْصَرنَا وَسَمِعْنَا﴾ أي صرنا ممن يبصر ويسمع وحصل لنا الاستعداد لإدراك الآيات المبصرة والآيات المسموعة وكنا من قبل عمياً صماً لا ندرك شيئاً ﴿فَارْجِعْنَا﴾ إلى الدنيا ﴿نَعْمَلْ صَالِحاً﴾ حسبما تقتضيه تلك الآيات وهذا على ما قيل ادعاء منهم لصحة مشعري البصر والسمع، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ استئناف لتعليل ما قبله، وقيل: استئناف لم يقصد به التعليل، وعلى التقديرين هو متضمن لادعائهم صحة الأفئدة والاقتدار على فهم معاني الآيات والعمل بما يوجبها، وفيه من إظهار الثبات على الإيقان وكمال رغبتهم فيه ما فيه، وكأنه لذلك لم يقولوا: أبصرنا وسمعنا وأيقنا فارجعنا إلخ، ولعل تأخير السمع لأن أكثر العمل الصالح الموعود يترتب عليه دون البصر فكان عدم الفصل بينهما بالبصر أولى، ويجوز أن يقدر لكل من الفعلين مفعول مناسب له مما يبصرونه ويسمعونه بأن يقال: أبصرنا البعث الذي كنا ننكره وما وعدتنا به على إنكاره وسمعنا منك ما يدل على تصديق رسلك عليهم السلام ويراد به نحو قوله تعالى: ﴿يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا﴾ [الأنعام: ١٣٠] لا الإخبار الصريح بلفظ أن رسلي صادقون مثلاً أو يقال أبصرنا البعث وما وعدتنا به وسمعنا قول الرسل أي سمعناه سمع طاعة وإذعان أو يقال: أبصرنا قبح أعمالنا التي كنا نراها في الدنيا حسنة وسمعنا قول الملائكة لنا إن مردكم إلى النار، وقيل: أرادوا أبصرنا رسلك وسمعنا كلامهم حين كنا في الدنيا أو أبصرنا آياتك التكوينية وسمعنا آياتك التنزيلية في الدنيا فلك الحجة علينا وليس لنا حجة فارجعنا إلخ، ولا يخفى حال هذا القيل، وعلى سائر هذه التقادير وجه تقديم الأبصار على السماع ظاهر، و «لو» هي التي سماها غير واحد امتناعية وجوابها محذوف تقديره لرأيت أمراً فظيعاً لا يقادر قدره.

والخطاب في «ترى» لكل أحد ممن يصح منه الرؤية إذ المراد بيان كمال سوء حالهم وبلوغها من الفظاعة إلى حيث لا يختص استغرابها واستفظاعها براء دون راء ممن اعتاد مشاهدة الأمور البديعة والدواهي الفظيعة بل كل من يتأتى منه الرؤية يتعجب من هولها وفظاعته، وقيل: لأن القصد إلى بيان أن حالهم قد بلغت من الظهور إلى حيث يمتنع خفاؤها البتة فلا يختص برؤيتها راء دون راء، والجواب المقدر أوفق بما ذكر أولاً، والفعل منزل منزلة اللازم فلا يقدر له مفعول أي لو تكن منك رؤية في ذلك الوقت لرأيت أمراً فظيعاً، وجوز أن يكون الخطاب خاصاً بسيد المخاطبين ﷺ و ﴿لو﴾ للتمني كأنه قيل: ليتك ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم لتشمت بهم، وحكم التمني منه تعالى حكم الترجي وقد تقدم، ولا جواب لها حينئذ عند الجمهور، وقال أبو حيان، وابن مالك: لا بد لها من الجواب استدلالاً بقول مهلهل في حرب البسوس:

فلو نبش المقابر عن كليب ... فيخبر بالذنائب أي زير
بيوم الشعثمين لقر عينا ... وكيف لقاء من تحت القبور

فإن لو فيه للتمني بدليل نصب فيخبر وله جواب وهو قوله لقر، ورد بأنها شرطية ويخبر عطف على مصدر متصيد من نبش كأنه قيل: لو حصل نبش فأخبار، ولا يخفى ما فيه من التكلف، وقال الخفاجي عليه الرحمة: لو قيل: إنها لتقدير التمني معها كثيراً أعطيت حكمه واستغنى عن تقدير الجواب فيها إذا لم يذكر كما في الوصلية ونصب جوابها كان أسهل مما ذكر، وجوز أن يقدر لترى مفعول دلّ عليه ما بعد أي لو ترى المجرمين أو لو ترى نكسهم رؤوسهم والمضي في لو الامتناعية وإذ لأن أخباره تعالى عما تحقق في علمه الأزلي لتحققه بمنزلة الماضي فيستعمل فيه ما دلّ على المضي مجازاً كلو وإذ، هذا ومن الغريب قول أبي العباس في الآية: المعنى قل يا محمد للمجرم ولو ترى وقد حكاه عنه أبو حيان ثم قال: رأى أن الجملة معطوفة على ﴿يتوفاكم﴾ داخلة تحت ﴿قل﴾ السابق ولذا لم يجعل الخطاب فيه للرسول عليه الصلاة والسلام انتهى كلامه فلا تغفل.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هداهَا﴾ مقدر بقول معطوف على مقدر قبل قوله تعالى: ﴿ربنا أبصرنا﴾ إلخ وهو جواب لقولهم ﴿ارجعنا﴾ يفيد أنهم لو أرجعوا لعادوا لما نهوا عنه لسوء اختيارهم وأنهم ممن لم يشأ الله تعالى إعطاؤهم الهدى أي ونقول: لو شئنا أي لو تعلقت مشيئتنا تعلقاً فعلياً بأن نعطي كل نفس من النفوس البرة والفاجرة هداها أي ما تهتدي به إلى الإيمان والعمل الصالح، وفسره بعضهم بنفس الإيمان والعمل الصالح والأول أولى، وأما تفسيره بما سأله الكفرة من الرجوع إلى الدنيا أو بالهداية إلى الجنة فليس بشيء لأعطيناها إياه في الدنيا التي هي دار الكسب وما أخرناه إلى دار الجزاء﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ منيّ﴾ أي ثبت وتحقق قولي وسبقت كلمتي حيث قلت لإبليس عند قوله: ﴿لأغوينهم أجمعين إلاَّ عبادك منهم المخلصين﴾. ﴿فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين﴾ [ص: ٨٤، ٨٥] وهو المعنى بقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ كما يلوح به تقديم الجنة على الناس فإنه في الخطاب لإبليس مقدم وتقديمه هناك لأنه الأوفق لمقام تحقير ذلك المخاطب عليه اللعنة، وقيل: التقديم في الموضعين لأن الجهنميين من الجنة أكثر.

ويعلم مما ذكرنا وجه العدول عن ضمير العظمة في قوله سبحانه: ﴿ولو شئنا لآتينا﴾ إلى ضمير الوحدة في قوله جلَّ وعلا: ﴿ولكن حق القول مني﴾ وذلك لأن ما ذكر إشارة إلى ما وقع في الرّد على اللعين وقد وقع فيه القول والإملاء مسندين إلى ضمير الوحدة ليكون الكلام على طرز ﴿لأغوينهم أجمعين إلاَّ عبادك﴾ [ص: ٨٢، ٨٣] في توحيد الضمير، وقد يقال: ضمير العظمة أوفق بالكثرة الدال عليها «كل نفس» والضمير الآخر أوفق بما دون تلك الكثرة الدال عليه ﴿من الجنة والناس﴾ أو يقال: إنه وحد الضمير في الوعيد لما أن المعنى به المشركون فكأنه أخرج الكلام على وجه لا يتوهم فيه متوهم نوعاً من أنواع الشركة أصلاً أو أخرج على وجه يلوح بما عدلوا عنه من التوحيد إلى ما ارتكبوه مما أوجب لهم الوعيد من الشرك، أو يقال: وحد الضمير في ﴿لأملأن﴾ لأن الإملاء لا تعدد فيه فتوحيد الضمير أوفق به ويقال نظير ذلك في ﴿حق القول مني﴾ والإيتاء يتعدد المؤتى فضمير العظمة أوفق به ويقال نظيره في ﴿شئنا﴾ فتدبر، ولا يلزم من قوله تعالى: ﴿أجمعين﴾ دخول جميع الجن والإنس فيها، وأما قوله تعالى: ﴿وإن منكم إلاَّ واردها﴾ [مريم: ٧١] فالورود فيه غير الدخول، وقد مرّ الكلام في ذلك لأن ﴿أجمعين﴾ تفيد عموم الأنواع لا الإفراد فالمعنى لأملأنها من ذينك النوعين جميعاً كملأت الكيس من الدراهم والدنانير جميعاً كذا قيل، ورد بأنه لو قصد ما ذكر لكان المناسب التثنية دون الجمع بأن يقال كليهما، واستظهر أنها لعموم الأفراد والتعريف في ﴿الجنة والناس﴾ للعهد والمراد عصاتهما ويؤيده الآية المتضمنة خطاب إبليس، وحاصل الآية لو شئنا إيتاء كل نفس هداها لآتيناها إياه لكن تحقق القول مني لأملأن جهنم إلخ فبموجب ذلك القول لم نشأ إعطاء الهدى على العموم بل

منعناه من أتباع إبليس الذين أنتم من جملتهم حيث صرفتم اختياركم إلى الغي بإغوائه ومشيئتنا لأفعال العباد منوطة باختيارهم إياها فلما لم تختاروا الهدى واخترتم الضلال لم نشأ إعطاءه لكم وإنما أعطيناه الذين اختاروه من البررة وهم المعنيون بما سيأتي إن شاء الله تعالى من قوله سبحانه: ﴿إنما يؤمن بآياتنا﴾ الآية فيكون مناط عدم مشيئته تعالى إعطاء الهدى في الحقيقة سوء اختيارهم لا تحقق القول، وإنما قيدت المشيئة بما مرّ من التعلق الفعلي بأفعال العباد عند حدوثها لأن المشيئة الأزلية من حيث تعلقها بما سيكون من أفعالهم إجمالاً متقدمة على تحقق كلمة العذاب فلا يكون عدمها منوطاً بتحققها وإنما مناطه علمه تعالى أنه لا يصرف اختيارهم فيما سيأتي إلى الغي وإيثارهم له على الهدى فلو أريدت هي من تلك الحيثية لاستدرك بعدمها بأن يقال: ولكن لم نشأ ونيط ذلك بما ذكر من المناط على منهاج قوله تعالى: ﴿ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم﴾ [الأنفال: ٢٣] كذا قال بعض الأجلة.

وقد يقال: يجوز أن يراد بالمشيئة المشيئة الأزلية من حيث تعلقها بما سيكون من أفعالهم ويراد بالقول علم الله تعالى فإنه وكذا كلمة الله سبحانه يطلق على ذلك كما قال الراغب، وذكر منه قوله تعالى: ﴿لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون﴾ [يس: ٧] وقوله سبحانه: ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون﴾ [يونس: ٩٦] وحاصل المعنى لو شئنا في الأزل إيتاء كل نفس هداها في الدنيا لآتيناها إياه ولكن ثبت وتحقق علمي أزلاً بتعذيب العصاة فبموجب ذلك لم نشأ إذ لا بد من وقوع المعلوم على طبق العلم لئلا يلزم انقلاب العلم جهلاً ووقوع ذلك يستدعي وجود العصاة إذ تعذيب العصاة فرع وجودهم ومشيئة إيتاء الهدى كل نفس تستلزم طاعة كل نفس ضرورة استلزام العلة للمعلول فيلزم أن تكون النفس المعذبة عاصية طائعة وهو محال وهذا المحال جاء من مشيئته إيتاء كل نفس هداها مع علمه تعالى بتعذيب العصاة فإما أن ينتفي العلم المذكور وهو محال لأن تعلق علمه سبحانه بالمعلوم على ما هو عليه ضروري فتعين انتفاء المشيئة لذلك ويرجح هذا بالآخرة إلى أن سبب انتفاء مشيئته إيتاء الهدى للعصاة سوء ما هم عليه في أنفسهم لأن المشيئة تابعة للعلم والعلم تابع للمعلوم في نفسه فعلمه تعالى بتعذيب العصاة يستدعي علمه سبحانه إياهم بعنوان كونهم عصاة فلا يشاؤهم جلَّ جلاله إلاَّ بهذا العنوان الثابت لهم في أنفسهم ولا يشاؤهم سبحانه على خلافه لأن مشيئته تعالى إياهم كذلك تستدعي تعلق العلم بالشيء على خلاف ما هو عليه في نفس الأمر وليس ذلك علماً.

ويمكن أن يبقى العلم على ظاهره ويقال: إنه تعالى لم يشأ هداهم لأنه جلَّ وعلا قال لإبليس عليه اللعنة: إنه سبحانه يعذب أتباعه ولا بد ولا يقول تعالى خلاف ما يعلم فلا يشاء تبارك وتعالى خلاف ما يقول ويرجع بالآخرة أيضاً إلى أنه تعالى لم يشأ هداهم لسوء ما هم عليه في أنفسهم بأدنى تأمل، وما آل الجواب على التقريرين لا فائدة لكم في الرجوع لسوء ما أنتم عليه في أنفسكم، ولا يخفى أن ما ذكر مبني على القول بالأعيان الثابتة وأن الشقي شقي في نفسه والسعيد سعيد في نفسه وعلم الله تعالى إنما تعلق بهما على ما هما عليه في أنفسهما وأن مشيئته تعالى إنما تعلقت بإيجادهما حسبما علم جلَّ شأنه فوجدا في الخارج بإيجاده تعالى على ما هما عليه في أنفسهما فإذا تم هذا تم ذاك وإلا فلا، والفاء في قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا﴾ لترتيب الأمر بالذوق على ما يعرب عنه ما قيل من نفي الرجع إلى الدنيا أو على قوله تعالى: ﴿ولكن حق القول مني﴾ إلخ، ولعل هذا أسرع تبادراً، وجعلها بعضهم واقعة في جواب شرط مقدر أي إذا يئستم من الرجوع أو إذا حق القول فذوقوا، وجوز كونها تفصيلية والأمر للتهديد والتوبيخ، والباء في قوله سبحانه: ﴿بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ للسببية و ﴿ما﴾ مصدرية و ﴿هذا﴾ صفة يوم جيء به للتهويل، وجوز كونه مفعول ﴿ذوقوا﴾ وهو إشارة إلى ما هم فيه من نكس الرؤوس والخزي والغم، وعلى الأول يكون مفعول ﴿ذوقوا﴾

محذوفاً والوصفية أظهر أي فذوقوا بسبب نسيانكم لقاء هذا اليوم الهائل وترككم التفكر فيه والتزود له بالكلية، وهذا تصريح بسبب العذاب من قبلهم فلا ينافي أن يكون له سبب آخر حقيقياً كان أو غيره، والتوبيخ به من بين الأسباب لظهوره وكونه صادراً منهم لا يسعهم إنكاره، والمراد بنسيانهم ذلك تركهم التفكر فيه والتزود له كما أشرنا إليه وهو بهذا المعنى اختياري يوبخ عليه ولا يكاد يصح إرادة المعنى الحقيقي وإن صح التوبيخ عليه باعتبار تعمد سببه من الانهماك في اتباع الشهوات، ومثله في كونه مجازاً النسيان في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ أي تركناكم في العذاب ترك المنسي بالمرة وجعل بعضهم هذا من باب المشاكلة ولم يعتبر كون الأول مجازاً مانعاً منها قيل: والقرينة على قصد المشاكلة فيه أنه قصد جزاؤهم من جنس العمل فهو على حد ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ [الشورى: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُم تَعْملونَ﴾ تكرير للتأكيد والتشديد وتعيين المفعول المبهم للذوق والإشعار بأن سببه ليس مجرد ما ذكر من النسيان بل به أسباب أخر من فنون الكفر والمعاصي التي كانوا مستمرين عليها في الدنيا، ولما كان فيه زيادة على الأول حصلت به مغايرته له استحق العطف عليه ولم ينظم الكل في سلك واحد للتنبيه على استقلال كل من النسيان وما ذكر في استيجاب العذاب، وفي إبهام المذوق أولاً وبيانه ثانياً بتكرير الأمر وتوسيط الاستئناف المنبيء عن كمال السخط بينهما من الدلالة على غاية التشديد في الانتقام منهم ما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بآيَاتِنَا﴾ استئناف مسوق لتقرير عدم استحقاقهم لإيتاء الهدى والإشعار بعدم إيمانهم لو أوتوه بتعيين من يستحقه بطريق القصر كأنه قيل: إنكم لا تؤمنون بآياتنا الدالة على شؤوننا ولا تعملون بموجبها عملاً صالحاً ولو ارجعناكم إلى الدنيا وإنما يؤمن ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا﴾ أي وعظوا ﴿خرُّوا سُجَّداً﴾ أثر ذي أثير من غير تردُّد ولا تلعثم فضلاً عن التسويف إلى معاينة ما نطقت به من الوعد والوعيد أي سقطوا ساجدين تواضعاً لله تعالى وخشوعاً وخوفاً من عذابه عزَّ وجلَّ، قال أبو حيان: هذه السجدة من عزائم سجود القرآن، وقال ابن عباس: السجود هنا الركوع.

وروي عن ابن جريج، ومجاهد ان الآية نزلت بسبب قوم من المنافقين كانوا إذا أقيمت الصلاة خرجوا من المسجد فكان الركوع يقصد من هذا ويلزم على هذا أن تكون الآية مدنية ومن مذهب ابن عباس أن القارىء لآية السجدة يركع واستدل بقوله تعالى ﴿وخرّ راكعاً وأناب﴾ [ص: ٢٤] ا هـ.

ولا يخفى ما في الاستدلال من المقال ﴿وَسَبَّحُوا بحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي ونزهوه تعالى عند ذلك عن كل ما لا يليق به سبحانه من الأمور التي من جملتها العجز عن البعث ملتبسين بحمده تعالى على نعمائه جلَّ وعلا التي من أجلها الهداية بإيتاء الآيات والتوفيق إلى الاهتداء بها فالحمد في مقابلة النعمة، والباء للملابسة والجار والمجرور في موضع الحال، والتعرض لعنوان الربوبية بطريق الالتفات مع الإضافة إلى ضميرهم للإشعار بعلة التسبيح والتحميد بانهم يفعلونهما بملاحظة ربوبيته تعالى لهم ﴿وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الإيمان والطاعة كما يفعل من يصر مستكبراً كأن لم يسمع الآيات، والجملة عطف على الصلة أو حال من أحد ضميري ﴿خروا﴾ و﴿سبحوا﴾ وجوز عطفها على أحد الفعلين، وقوله تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ جملة مستأنفة لبيان بقية محاسنهم.

وجوز أن تكون حالية أو خبراً ثانياً للمبتدأ، والتجافي البعد والارتفاع؛ والجنوب جمع جنب الشقوق، وذكر الراغب أن أصل الجنب الجارحة ثم يستعار في الناحية التي تليها كعادتهم في استعارة سائر الجوارح لذلك نحو اليمين والشمال، و﴿المضاجع﴾ جمع المضجع أماكن الاتكاء للنوم أي تتنحى وترتفع جنوبهم عن مواضع النوم وهذا كناية عن تركهم النوم ومثله قول عبد الله بن رواحة يصف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم:

نبي تجافى جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

والمشهور أن المراد بذلك التجافي القيام لصلاة النوافل بالليل وهو قول الحسن، ومجاهد، ومالك، والأوزاعي، وغيرهم. وفي الأخبار الصحيحة ما يشهد له، أخرج أحمد، والترمذي، وصححه، والنسائي، وابن ماجة، ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم، وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان عن معاذ بن جبل قال: «كنت مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في سفر فأصبحت يوماً قريباً منه ونحن نسير فقلت: يا نبي الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار؟ قال: لقد سألت عن عظيم وإنه يسير على من يسره الله تعالى عليه تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ثم قال: ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة والصدقة تطفىء الخطيئة وصلاة الرجل في جوف الليل ثم قرأ ﴿**تتجافى جنوبهم عن المضاجع**﴾ حتى بلغ يعملون الحديث.

وقال أبو الدرداء، وقتادة، والضحاك هو أن يصلي الرجل العشاء والصبح في جماعة، وعن الحسن، وعطاء هو أن لا ينام الرجل حتى يصلي العشاء، أخرج الترمذي وصححه، وابن جرير، وغيرهما عن أنس قال: إن هذه الآية ﴿**تتجافى جنوبهم عن المضاجع**﴾ زلت في انتظار الصلاة التي تدعي العتمة، وفي رواية أخرى عنه أنه قال فيها نزلت فينا معاشر الأنصار كنا نصلي المغرب فلا نرجع إلى رحالنا حتى نصلي العشاء مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، وقيل: هو أن يصلي الرجل المغرب ويصلي بعدها إلى العشاء، فقد أخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن عدي، وابن مردويه عن مالك بن دينار قال: سألت أنس بن مالك عن هذه الآية ﴿**تتجافى جنوبهم عن المضاجع**﴾ قال: كان قوم من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من المهاجرين الأولين يصلون المغرب ويصلون بعدها إلى عشاء الآخرة فنزلت هذه الآية فيهم، وقال قتادة، وعكرمة: هو أن يصلي الرجل ما بين المغرب والعشاء؛ واستدل له بما أخرجه محمد بن نصر عن عبد الله بن عيسى قال: كان ناس من الأنصار يصلون ما بين المغرب والعشاء فنزلت فيهم ﴿**تتجافى جنوبهم عن المضاجع**﴾.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال في الآية: تتجافى جنوبهم لذكر الله تعالى كلما استيقظوا ذكروا الله عزَّ وجلَّ إما في الصلاة وإما في قيام أو قعود أو على جنوبهم لا يزالون يذكرون الله تعالى، وروى نحوه هو ومحمد بن نصر عن الضحاك، والجمهور عولوا على ما هو المشهور، وفي فضل التهجد ما لا يحصى من الأخبار وأفضله على ما نص عليه غير واحد ما كان في الأسحار.

﴿**يَدْعُونَ رَبَّهُمْ**﴾ حال من ضمير ﴿**جنوبهم**﴾ وقد أضيف إليه ما هو جزء، وجوز على احتمال كون جملة ﴿**تتجافى**﴾ الخ حالية أن تكون حالاً ثانية مما جعلت تلك حالاً منه وعلى احتمال كونها خبراً ثانياً للمبتدأ أن تكون خبراً ثالثاً، وجوز كونها مستأنفة، والظاهر أن المراد بدعائهم ربهم سبحانه المعنى المتبادر، وقيل: المراد به الصلاة ﴿**خَوْفاً**﴾ أي خائفين من سخطه تعالى وعذابه عزَّ وجلَّ وعدم قبول عبادتهم ﴿**وَطَمَعاً**﴾ في رحمته تبارك وتعالى فالمصدران حالان من ضمير ﴿**يدعون**﴾ وجوز أن يكونا مصدرين لمقدر أي يخافون خوفاً ويطمعون طمعاً وتكون الجملة حينئذ حالاً، وأن يكونا مفعولاً له ولا يخفى أن الآية على الحالية أمدح.

﴿**وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ**﴾ إياه من المال ﴿**يُنْفِقُونَ**﴾ في وجوه الخير ﴿**فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ**﴾ أي كل نفس من النفوس لا ملك مقرب ولا نبي مرسل فضلاً عمن عداهم فإن النكرة في سياق النفي تعم. والفاء سببية أو فصيحة أي أعطوا فوق

رجاءهم فلا تعلم نفس ﴿مَا أُخْفِي لَهُمْ﴾ أي لأولئك الذين عددت نعوتهم الجليلة ﴿من قرة أَعْيُنٍ﴾ أي ما تقر به أعين، وفي إضافة القرة إلى الأعين على الإطلاق لا إلى أعينهم تنبيه على أن ما أخفي لهم في غاية الحسن والكمال.

وروى الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقول الله تعالى: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بله ما أطلعتكم عليه اقرؤوا إن شئتم فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين» وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: إنه لمكتوب في التوراة «لقد أعد الله تعالى للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ما لم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر» ولا يعلم ملك مقرب ولا نبي مرسل وأنه لفي القرآن فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي جوزوا جزاء بسبب ما كانوا يعملونه من الأعمال الصالحة فجزاء مفعول مطلق لفعل مقدر والجملة مستأنفة.

وجوز جعلها حالية، وقيل: يجوز جعله مصدراً مؤكداً لمضمون الجملة المتقدمة، وقيل: يجوز أن يكون مفعولاً له لقوله تعالى: ﴿لا تعلم نفس﴾ على معنى منعت العلم للجزاء أو لأخفى فإن إخفاءه لعلو شأنه، وعن الحسن أنه قال: أخفى القوم أعمالاً في الدنيا فأخفى الله تعالى لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت أي أخفى ذلك ليكون الجزاء من جنس العمل.

وفي الكشف أن هذا يدل على أن الفاء في قوله تعالى: ﴿فلا تعلم﴾ رابطة للأحق بالسابق وأصله فلا يعلمون والعدول لتعظيم الجزاء، وعدم ذكر الفاعل في ﴿أخفي﴾ ترشيح له لأن جازيه من هو العظيم وحده فلا يذهب وهل إلى غيره سبحانه ا هـ فتأمل.

وقرأ حمزة، ويعقوب، والأعمش «أُخفِي» بسكون الياء فعلاً مضارعاً للمتكلم، وابن مسعود «نخفي» بنون العظمة، والأعمش أيضاً «أَخفَيْتُ» بالإسناد إلى ضمير المتكلم وحده، ومحمد بن كعب ﴿أَخفى﴾ فعلاً ماضياً مبنياً للفاعل.

و﴿ما﴾ في جميع ذلك اسم موصول مفعول ﴿تعلم﴾ والعلم بمعنى المعرفة والعائد الضمير المستتر النائب عن الفاعل على قراءة الجمهور وضميره محذوف على غيرها، وقال أبو البقاء: يجوز أن تكون ﴿ما﴾ استفهامية وموضعها رفع بالابتداء و﴿أخفي لهم﴾ خبره على قراءة من فتح الياء وعلى قراءة من سكنها وجعل ﴿أخفي﴾ مضارعاً يكون ﴿ما﴾ في موضع نصب بأخفى ويعلم منه حالها على سائر القراءات، وإذا كانت استفهامية يجوز أن يكون العلم بمعنى المعرفة وأن يكون على ظاهره فيتعدى لمفعولين تسد الجملة الاستفهامية مسدهما، وعلى كل من احتمالي الموصولية والاستفهامية فالإيهام للتعظيم، وقرأ عبد الله، وأبو الدرداء، وأبو هريرة وعون، والعقيلي «من قرأت» على الجمع بالألف والتاء، وهي رواية عن أبي عمرو، وأبي جعفر، والأعمش، وجمع المصدر أو اسمه لاختلاف أنواع القرة، والجار والمجرور في موضع الحال.

﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً﴾ أي أبعد ظهور ما بينهما من التباين البين يتوهم كون المؤمن الذي حكيت أوصافه الفاضلة كالفاسق الذي ذكرت أحواله القبيحة العاطلة، وأصل الفسق الخروج من فسقت الثمرة إذا خرجت من قشرها ثم استعمل في الخروج عن الطاعة وأحكام الشرع مطلقاً فهو أعم من الكفر وقد يخص به كما في قوله تعالى: ﴿ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾ [النور: ٥٥] وكما هنا لمقابلته بالمؤمن مع ما ستسمعه بعد إن شاء الله تعالى: ﴿لاَ يَسْتَوُونَ﴾ التصريح به مع إفادة الإنكار لنفي المشابهة بالمرة على أبلغ وجه وآكده لزيادة

التأكيد وبناء التفصيل الآتي عليه، والجمع باعتبار معنى من كما أن الافراد فيما سبق باعتبار لفظها، وقيل: الضمير لاثنين وهما المؤمن والكافر والتثنية جمع.

﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وعَملُوا الصَّالحَات فَلَهُمْ جَنَّاتُ المَأْوَى﴾ تفصيل لمراتب الفريقين بعد نفي استوائهما وقيل: بعد ذكر أحوالهما في الدنيا، وأضيفت الجنان إلى المأوى لأنها المأوى والمسكن الحقيقي والدنيا منزل مرتحل عنه لا محالة، وقيل: المأوى علم لمكان مخصوص من الجنان كعدن، وقيل: جنة المأوى لما روي عن ابن عباس، أنها تأوي إليها أرواح الشهداء، وروي أنها عن يمين العرش ولا يخفى ما في جعله علماً من البعد وأياً ما كان فلا يبعد أن يكون فيه رمز إلى ما ذكر من تجافيهم عن مضاجعهم التي هي مأواهم في الدنيا.

وقرأ طلحة «جنة المأوى» بالافراد ﴿نُزُلاً﴾ أي ثواباً وهو في الأصل ما يعد للنازل من الطعام والشراب والصلة ثم عم كل عطاء، وانتصابه على أنه حال من ﴿جنات﴾ والعامل فيه الظرف، وجوز أن يكون جمع نازل فيكون حالاً من ضمير ﴿الذين آمنوا﴾ وقرأ أبو حيوة «نُزْلاً» بإسكان الزاي كما في قوله:

وكنا إذا الجبار بالجيش ضافنا ... جعلنا القنا والمرهفات له نزلا

﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي بسبب الذي كانوا يعملونه في الدنيا من الأعمال الصالحة على أن ما موصولة والعائد محذوف والباء سببية، وكون ذلك سبباً بمقتضى فضله تعالى ووعده عزَّ وجلَّ فلا ينافي حديث «لا يدخل أحدكم الجنة بعمله» ويجوز أن تكون الباء للمقابلة والمعارضة كعلى في نحو بعتك الدار على ألف درهم أي فلهم ذلك على الذي كانوا يعملونه.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ أي خرجوا عن الطاعة فكفروا وارتكبوا المعاصي ﴿فَمَأْوَاهُم﴾ أي فمسكنهم ومحلهم ﴿النَّارُ﴾ وذكر بعضهم أن المأوى صار متعارفاً فيما يكون ملجأ للشخص ومستراحاً يستريح إليه من الحر والبرد ووهماً فإذا أريد هنا يكون في الكلام استعارة تهكمية كما في قوله تعالى ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ [آل عمران: ٢١، التوبة: ٣٤، الانشقاق: ٢٤]، وجوز أن يكون استعمال ذلك من باب المشاكلة لأنه لما ذكر في أحد القسمين فلهم جنات المأوى ذكر في الآخر ﴿فمأواهم النار﴾ ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا منهَا أُعيدُوا﴾ استئناف لبيان كيفية كون النار مأواهم والكلام على حد قوله تعالى: ﴿جداراً يريد أن ينقض﴾ [الكهف: ٧٧] على ما قيل، والمعنى كلما شارفوا الخروج منها وقربوا منه أعيدوا فيها ودفعوا إلى قعرها، فقد روي أنهم يضربهم لهب النار فيرتفعون إلى أعلاها حتى إذا قربوا من بابها وأرادوا أن يخرجوا منها يضربهم اللهب فيهوون إلى قعرها وهكذا يفعل بهم أبداً، وقيل: الكلام على ظاهره إلا أن فيه حذفاً أي كلما أرادوا أن يخرجوا منها فخرجوا من معظمها أعيدوا فيها، ويشير إلى أن الخروج من معظمها قوله تعالى: ﴿فيها﴾ دون إليها، وجوز أن يكون الكلام هنا عبارة عن خلودهم فيها، وأياً ما كان لا منافاة بين هذه الآية وقوله تعالى: ﴿وما هم بخارجين من النار﴾ [البقرة: ١٦٧] ﴿وَقيلَ لَهُمْ﴾ تشديداً عليهم وزيادة في غيظهم.

﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّار الَّذي كُنْتُمْ به﴾ أي بعذاب النار ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ على الاستمرار في الدنيا وأظهرت النار مع تقدمها قبل لزيادة التهديد والتخويف وتعظيم الأمر، وذكر ابن الحاجب في أماليه وجهاً آخر للإظهار وهو أن الجملة الواقعة بعد القول حكاية لما يقال لهم يوم القيامة عند إرادتهم الخروج من النار فلا يناسب ذلك وضع الضمير إذ ليس القول حينئذ مقدماً عليه ذكر النار وإنما ذكرها سبحانه قبل إخباراً عن أحوالهم، ونظر فيه الطيبي عليه الرحمة بأن هذا

القول داخل أيضاً في حيز الأخبار لعطفه على ﴿أعيدوا﴾ الواقع جواباً لكلما فكما جاز الإضمار في المعطوف عليه جاز فيه أيضاً إن لم يقصد زيادة التهديد والتخويف.

ورد بأن المانع أنه حكاية لما يقال لهم يوم القيامة والأصل في الحكاية أن تكون على وفق المحكي عنه دون تغيير ولا إضمار في المحكي لعدم تقدم ذكر النار فيه. وتعقب بأنه قد يناقش فيه بأن مراده أنه يجوز رعاية المحكي والحكاية وكما أن الأصل رعاية المحكى الأصل الإضمار إذا تقدم الذكر فلا بد من مرجح.

وقال بعض المحققين: أراد ابن الحاجب أن الإظهار هو المناسب في هذه الجملة نظراً إلى ذاتها ونظراً إلى سياقها أما الأول فلأنها تقال من غير تقدم ذكر النار، وأما الثاني فلأن سياق الآية للتهديد والتخويف وتعظيم الأمر وفي الإظهار من ذلك ما ليس في الإضمار، وهذا بعيد من أن يرد عليه نظر الطيبي، والإنصاف أن كلاً من الإضمار والإظهار جائز وأنه رجح الإظهار اقتضاء السياق لذلك ونقل عن الراغب ما يدل على أن المقام في هذه الآية مقام الضمير حيث ذكر عنه أنه قال في درة التنزيل: إنه تعالى قال ها هنا ﴿ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون﴾ وقال سبحانه في آية أخرى: ﴿عذاب النار التي كنتم بها تكذبون﴾ [سبأ: ٤٢] فذكر جل وعلا ها هنا وأنث سبحانه هناك والسر في ذلك أن النار ها هنا وقعت موقع الضمير والضمير لا يوصف فأجرى الوصف على العذاب المضاف إليها وهو مذكر وفي تلك الآية لم يجر ذكر النار في سياقها فلم تقع النار موقع الضمير فأجرى الوصف عليها وهي مؤنثة دون العذاب فتأمل ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى﴾ أي الأقرب، وقيل: الأقل وهو عذاب الدنيا فإنه أقرب من عذاب الآخرة وأقل منه، واختلف في المراد به فروى النسائي وجماعة وصححه الحاكم عن ابن مسعود أنه سنون أصابتهم وروي ذلك عن النخعي، ومقاتل، وروى الطبراني وآخرون وصححه والحاكم عن ابن مسعود أيضاً أنه ما أصابهم يوم بدر. وروي نحوه عن الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما بلفظ هو القتل بالسيف نحو يوم بدر، وعن مجاهد القتل والجوع.

وأخرج مسلم، وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند، وأبو عوانة في صحيحه، وغيرهم عن أبي بن كعب أنه قال: هو مصائب الدنيا والروم والبطشة والدخان، وفي لفظ مسلم أو الدخان.

وأخرج ابن المنذر، وابن جرير، عن ابن عباس أنه قال: هو مصائب الدنيا وأسقامها وبلاياها، وفي رواية عنه وعن الضحاك وابن زيد بلفظ مصائب الدنيا في الأنفس والأموال، وفي معناه ما أخرج ابن مردويه عن أبي إدريس الخولاني قال: سألت عبادة بن الصامت عن قوله تعالى: ﴿ولنذيقنهم﴾ الآية فقال: سألت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عنها فقال عليه الصلاة والسلام: هي المصائب والأسقام والأصار عذاب للمسرف في الدنيا دون عذاب الآخرة قلت: يا رسول الله فما هي لنا؟ قال: زكاة وطهور، وفي رواية عن ابن عباس أنه الحدود.

وأخرج هنا عن أبي عبيدة أنه فسره بعذاب القبر، وحكي عن مجاهد أيضاً ﴿دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ﴾ هو عذاب يوم القيامة كما روي عن ابن مسعود، وغيره، وقال: ابن عطية لا خلاف في أنه ذلك، وفي التحرير إن أكثرهم على أن العذاب الأكبر عذاب يوم القيامة في النار، وقيل: هو القتل والسبي والأسر، وعن جعفر بن محمد رضي الله تعالى عنهما أنه خروج المهدي بالسيف انتهى. وعليهما يفسر العذاب الأدنى بالسنين أو الأسقام أو نحو ذلك مما يكون أدنى مما ذكر، وعن بعض أهل البيت تفسيره بالدابة والدجال، والمعول عليه ما عليه الأكثر.

وإنما لم يقل الأصغر في مقابلة ﴿الأكبر﴾ أو إلاّ بعد في مقابلة ﴿الأدنى﴾ لأن المقصود هو التخويف والتهديد وذلك إنما يحصل بالقرب لا بالصغر وبالكبر لا بالبعد، قاله النيسابوري ملخصاً له من كلام الإمام، وكذا

أوجب أبو حيان إلاَّ أنه قال: إن الأدنى يتضمن الأصغر لأنه منقض بموت المعذب والأكبر يتضمن الأبعد لأنه واقع في الآخرة فحصلت المقابلة من حيث التضمن وصرح بما هو آكد في التخويف ﴿**لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾ أي لعل من بقي منهم يتوب قاله ابن مسعود، وقال الزمخشري: أو لعلهم يريدون الرجوع ويطلبونه كقوله تعالى: ﴿فأرجعنا نعمل صالحاً﴾ [السجدة: ١٢] وسميت إرادة الرجوع رجوعاً كما سميت إرادة القيام قياماً في قوله تعالى:﴿إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم﴾ [المائدة: ٦] ويدل عليه قراءة من قرأ «يُرْجَعُون» على البناء للمفعول انتهى.

وهو على ما حكي عن مجاهد وروي عن أبي عبيدة فيتعلق ﴿**لعلهم**﴾ الخ بقوله تعالى: و ﴿**لنذيقنهم من العذاب الأدنى**﴾ كما في الأول إلا أن الرجوع هنالك التوبة وها هنا الرجوع الى الدنيا ويكون من باب ﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً﴾ [القصص: ٨] أو يكون الترجي راجعاً إليهم، ووجه دلالة القراءة المذكورة عليه أنه لا يصح الحمل فيها على التوبة، والظاهر التفسير المأثور، والقراءة لا تأباه لجواز أن يكون المعنى عليهم لعلهم يرجعهم ذلك العذاب عن الكفر إلى الإيمان، و ﴿**لعل**﴾ لترجي المخاطبين كما فسرها بذلك سيبويه، وعن ابن عباس تفسيرها هنا بكى وكأن المراد كي نعرضهم بذلك للتوبة، وجعلها الزمخشري لترجيه سبحانه ولاستحالة حقيقة ذلك منه عزَّ وجلَّ حمله على إرادته تعالى، وأورد على ذلك سؤالاً أجاب عنه على مذهبه في الاعتزال فلا تلتفت إليه، هذا والآيات من قوله تعالى: ﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً﴾ إلى هنا نزلت في علي كرم الله وجهه، والوليد بن عقبة بن أبي معيط أخي عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه لأمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس، أخرج أبو الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني، والواحدي، وابن عدي، وابن مردويه، والخطيب، وابن عساكر من طرق عن ابن عباس قال: قال الوليد بن عقبة لعلي كرم الله تعالى وجهه أنا أحد منك سناناً وأبسط منك لساناً وأملأ للكتيبة منك فقال علي رضي الله تعالى عنه: اسكت فإنما أنت فاسق فنزلت ﴿**أفمن كان مؤمناً**﴾ الخ.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي نحو ذلك، وأخرج هذا أيضاً عن عبد الرحمن بن أبي ليلى أنها نزلت في علي كرم الله تعالى وجهه، والوليد بن عقبة ولم يذكر ما جرى. وفي رواية أخرى عنه أنها نزلت في علي كرم الله تعالى وجهه، ورجل من قريش ولم يسمه، وفي الكشاف روي في نزولها أنه شجر بين علي رضي الله تعالى عنه، والوليد بن عقبة يوم بدر كلام فقال له الوليد: اسكت فإنك صبي أنا أشب منك شباباً وأجلد منك جلداً وأذرب منك لساناً وأحد منك سناناً وأشجع منك جناناً وأملأ منك حشواً في الكتيبة فقال له علي كرم الله تعالى وجهه: اسكت فإنك فاسق فنزلت، ولم نره بهذا اللفظ مسنداً، وقال الخفاجي: قال ابن حجر إنه غلط فاحش فإن الوليد لم يكن يوم بدر رجلاً بل كان طفلا لا يتصور منه حضور بدر وصدور ما ذكر.

ونقل الجلال السيوطي عن الشيخ ولي الدين هو غير مستقيم فإن الوليد يصغر عن ذلك وأقول : بعض الأخبار تقتضي أنه لم يكن مولوداً يوم بدر أو كان صغيراً جداً، أخرج أبو داود في السنن من طريق ثابت بن الحجاج عن أبي موسى عبد الله الهمداني عنه أنه قال: لما افتتح رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مكة جعل أهل مكة يأتونه بصبيانهم فيمسح على رؤوسهم فأتي بي إليه عليه الصلاة والسلام وأنا مخلق فلم يمسني من أجل الخلوق إلاَّ أن ابن عبد البر قال: إن أبا موسى مجهول، وأيضاً ذكر الزبير، وغيره من أهل العلم بالسير أن أم كلثوم بنت عقبة لما خرجت مهاجرة إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في الهدنة سنة سبع خرج أخواها الوليد وعمارة ليرداها، وهو ظاهر في أنه لم يكن صبياً يوم الفتح إذ من يكون كذلك كيف يكون ممن خرج ليرد أخته قبل الفتح، وبعض الأخبار تقتضي أنه كان رجلاً يوم بدر، فقد ذكر الحافظ ابن حجر في كتابه الإصابة أنه قدم في فداء ابن عم أبيه الحارث بن

أبي وجرة بن أبي عمرو بن أمية وكان أسر يوم بدر فافتداه بأربعة آلاف وقال: حكاه أهل المغازي ولم يتعقبه بشيء، وسوق كلامه ظاهر في ارتضائه ووجه اقتضائه ذلك أن ما تعاطاه من أفعال الرجال دون الصبيان، وهذا الذي ذكرناه عن ابن حجر يخالف ما ذكره عنه الخفاجي عليه الرحمة مما مرّ آنفاً، ولا ينبغي أن يقال: يجوز أن يكون صغيراً ذلك اليوم صغراً يمكن معه عادة الحضور فحضر وجرى ما جرى لأن وصفه بالفسق بمعنى الكفر والوعيد عليه بما سمعت في الآيات مع كونه دون البلوغ مما لا يكاد يذهب إليه إلاَّ من يلتزم أن التكليف بالإيمان إذ ذاك كان مشروطاً بالتمييز، ولا أن يقال: يجوز أن تكون هذه القصة بعد إسلامه وقد أطلق عليه فاسق وهو مسلم في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا﴾ [الحجرات: ٦٠] فقد قال ابن عبد البر: لا خلاف بين أهل العلم بتأويل القرآن إنها نزلت فيه حيث إنه ﷺ بعثه مصدقاً إلى بني المصطلق فعاد وأخبر أنهم ارتدوا ومنعوا الصدقة ولم يكن الأمر كذلك لأن الفسق ها هنا بمعنى الكفر وهناك ليس كذلك، ثم اعلم أن القول بأنها نزلت في علي كرم الله تعالى وجهه والوليد لكلام جرى يوم بدر يقتضي أنها مدنية والمختار عند بعضهم خلافه.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ بيان إجمالي لمن قابل آيات الله تعالى بالإعراض بعد بيان حال من قابلها بالسجود والتسبيح والتحميد، وكلمة ﴿ثم﴾ لاستبعاد الإعراض عنها عقلاً مع غاية وضوحها وإرشادها إلى سعادة الدارين كما في قول جعفر بن علبة الحارثي:

ولا يكشف الغماء إلاَّ ابن حرة ... يرى غمرات الموت ثم يزورها

والمراد أن ذلك أظلم من كل ظالم ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ قيل: أي من كل من اتصف بالإجرام وكسب الأمور المذمومة وإن لم يكن بهذه المثابة ﴿مُنتَقِمُون﴾ فكيف ممن هو أظلم من كل ظالم وأشد جرماً من كل جارم، ففي الجملة إثبات الانتقام منه بطريق برهاني.

وجوز أن يراد بالمجرم المعرض المذكور وقد أقيم المظهر مقام المضمر الراجع إلى ﴿من﴾ باعتبار معناها وكان الأصل إنا منهم منتقمون ليؤذن بأن علة الانتقام ارتكاب هذا المعرض مثل هذا الجرم العظيم: وفسر البغوي المجرمين هنا بالمشركين. وقال الطيبي عليه الرحمة بعد حكايته: ولا ارتياب أن الكلام في ذم المعرضين وهذا الأسلوب أذم لأنه يقر أن الكافر إذا وصف بالظلم والإجرام حمل على نهاية كفره وغاية تمرده لأن هذه الآية كالخاتمة لأحوال المكذبين القائلين: ﴿أم يقولون افتراه﴾ [السجدة: ٣] وغيرها والتخلص إلى قصة الكليم مسلاة لقلب الحبيب عليهما الصلاة والسلام إلى آخر ما ذكره فليراجع.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي جنس الكتاب ﴿فَلاَ تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ﴾ أي شك. وقرأ الحسن «مُرية» بضم الميم ﴿مِنْ لِقَائِهِ﴾ أي لقائك ذلك الجنس على أن لقاء مصدر مضاف إلى المفعول وفاعله محذوف وهو ضمير النبي صلى الله تعالى عليه وسلم والضمير المذكور للكتاب المراد به الجنس وإيتاء ذلك الجنس باعتبار إيتاء التوراة ولقاؤه باعتبار لقاء القرآن، وهذا كقوله تعالى: ﴿وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم﴾ [النمل: ٦] وقوله سبحانه: ﴿ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً﴾ [الإسراء: ١٣] وحمل بعضهم ﴿الكتاب﴾ على العهد أي الكتاب المعهود وهو التوراة ولما لم يصح عود الضمير إليه ظاهراً لأنه عليه الصلاة والسلام لم يلق عين ذلك الكتاب قيل: الكلام على تقدير مضاف أي لقاء مثله أو على الاستخدام أو أن الضمير راجع إلى القرآن المفهوم منه، ولا يخفى ما في كل من البعد، والمعنى إنَّا آتينا موسى مثل ما آتيناك من الكتاب ولقيناه من الوحي مثل ما لقيناك من الوحي فلا تكن في شك من أنك لقيت مثله ونظيره، وخلاصة ما تؤذن به الفاء التفريعية أن معرفتك بأن موسى عليه السلام أوتي التوراة

ينبغي أن تكون سبباً لإزالة الريب عنك في أمر كتابك؛ ونهيه عليه الصلاة والسلام عن أن يكون في شك المقصود منه نهي أمته صلى الله تعالى عليه وسلم والتعريض بمن اتصف بذلك، وقيل المصدر مضاف إلى الفاعل والمفعول محذوف هو ضميره عليه الصلاة والسلام أي من لقائه إياك وصوله إليك، وفي التعبير باللقاء دون الإيتاء من تعظيم شأنه صلى الله تعالى عليه وسلم ما لا يخفى على المتدبر، وقد يقال: إن التعبير به على الوجه السابق مؤذن بالتعظيم أيضاً لكن من حيثية أخرى فتدبر.

وقل: الكتاب التوراة وضمير ﴿لقائه﴾ عائد إليه من غير تقدير مضاف ولا ارتكاب استخدام، ولقاء مصدر مضاف إلى مفعوله وفاعله موسى أي من لقاء موسى الكتاب أو مضاف إلى فاعله ومفعوله موسى أي من لقاء الكتاب موسى ووصوله إليه، فالفاء مثلها في قوله:

لـيـس الـجـمـال بـمـئـزر ... فـاعـلـم وإن رديـت بـردا

دخلت على الجملة المعترضة بدل الواو اهتماماً بشأنها، وعن الحسن أن ضمير ﴿لقائه﴾ عائد على ما تضمنه الكلام من الشدة والمحنة التي لقي موسى عليه السلام فكأنه قيل: ولقد آتينا موسى هذا العبء الذي أنت بسبيله فلا تمتر أنك تلقى ما لقي هو من الشدة والمحنة بالناس، والجملة اعتراضية ولا يخفى بعده، وأبعد منه بمراحل ما قيل: الضمير لملك الموت الذي تقدم ذكره والجملة اعتراضية أيضاً ، بل ينبغي أن يجل كلام الله تعالى عن مثل هذا التخريج. وأخرج الطبراني، وابن مردويه، والضياء في المختارة بسند صحيح عن ابن عباس أنه قال في الآية: أي من لقاء موسى، وأخرج ابن المنذر، وغيره عن مجاهد نحوه، وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية أنه قال كذلك فقيل له: أوَ لقي عليه الصلاة والسلام موسى؟ قال: نعم ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا﴾ [الزخرف: ٤٥] وأراد بذلك لقاءه صلى الله تعالى عليه وسلم إياه ليلة الإسراء كما ذكر في الصحيحين، وغيرهما، وروي نحو ذلك عن قتادة وجماعة من السلف، وقاله المبرد حين امتحن الزجاج بهذه الآية، وكان المراد من قوله تعالى: «فلا تكن في مرية من لقائه» على هذا وعده تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام بلقاء موسى وتكون الآية نازلة قبل الإسراء، والجملة اعتراضية بالفاء بدل الواو كما سمعت آنفاً.

وجعلها مفرعة على ما قبلها غير ظاهر، وبهذا اعترض بعضهم على هذا التفسير، وبالفرار إلى الإعراض سلامة من الإعتراض وكأني بك ترجحه على التفسير الأول من بعض الجهات والله تعالى الموفق ﴿وَجعلْنَاهُ﴾ أي الكتاب الذي آتيناه موسى، وقال قتادة أي وجعلنا موسى عليه السلام ﴿هُدًى﴾ أي هادياً من الضلالة ﴿لبني إسْرَائيلَ﴾ خصوا بالذكر لما أنهم أكثر المنتفعين به، وقيل: لأنه لم يتعبد بما في كتابه عليه الصلاة والسلام ولد إسماعيل صلى الله تعالى عليه وسلم.

﴿وَجَعَلْنَا منهُم أَئمَّةً﴾ قال قتادة: رؤساء في الخير سوى الأنبياء عليهم السلام، وقيل: هم الأنبياء الذين كانوا في بني إسرائيل ﴿يَهْدُون﴾ بقيتهم بما في تضاعيف الكتاب من الحكم والأحكام إلى طريق الحق أو يهدونهم إلى ما فيه من دين الله تعالى وشرائعه عزَّ وجلَّ ﴿بأمْرنا﴾ إياهم بأن يهدوا على أن الأمر واحد الأوامر، وهذا على القول بأنهم أنبياء ظاهر، وأما على القول بأنهم ليسوا بأنبياء فيجوز أن يكون أمره تعالى إياهم بذلك على حد أمر علماء هذه الأمة بقوله تعالى: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف﴾ الآية.

وجوز أن يكون الأمر واحد الأمور والمراد يهدون بتوفيقنا ﴿لَـمَّا صَبَرُوا﴾ قال قتادة: على ترك الدنيا، وجوز

غيره أن يكون المراد لما صبروا على مشاق الطاعة ومقاساة الشدائد في نصرة الدين، و ﴿لما﴾ يحتمل أن تكون هي التي فيها معنى الجزاء نحو لما أكرمتني أكرمتك أي لما صبروا جعلنا أئمة، ويحتمل أن تكون هي التي بمعنى الحين الخالية عن معنى الجزاء، والظاهر أنها حينئذ ظرف لجعلنا أي أئمة حين صبروا، وجوز أبو البقاء كونها ظرفاً ليهدون.

وقرأ عبد الله، وطلحة، والأعمش، وحمزة، والكسائي، ورويس ﴿لما﴾ بكسر اللام وتخفيف الميم على أن اللام للتعليل وما مصدرية أي لصبرهم وهو متعلق بجعلنا أو بيهدون. وقرأ عبد الله أيضاً «بما» بالباء السببية وما المصدرية أي بسبب صبرهم ﴿وَكَانُوا بآياتنَا﴾ التي في تضاعيف الكتاب، وقيل: المراد بها ما يعم الآيات التكوينية، والجار متعلق بقوله تعالى: ﴿يُوقِنُونَ﴾ أي كانوا يوقنون بها لإمعانهم فيها النظر لا بغيرها من الأمور الباطلة، وهو تعريض بكفرة أهل مكة، والجملة معطوفة على ﴿صبروا﴾ فتكون داخلة في حيز ﴿لما﴾وجوز أن تكون معطوفة على ﴿جعلنا﴾ وأن تكون في موضع الحال من ضمير ﴿صبروا﴾.

والمراد كذلك لنجعلن الكتاب الذي آتيناكه أو لنجعلنك هدى لأمتك ولنجعلن منهم أئمة يهدون مثل تلك الهداية ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ﴾ أي يقضي ﴿بَيْنَهُمْ﴾ قيل: بين الأنبياء عليهم السلام وأممهم، وقيل: بين المؤمنين والمشركين ﴿يَوْمَ القِيَامَةِ﴾ فيميز سبحانه بين المحق والمبطل ﴿فيمَا كَانُوا فيه يَخْتَلفُونَ﴾ من أمور الدين.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ الهمزة للإنكار والواو للعطف على منوي يقتضيه المقام ويناسب المعطوف معنى على ما اختاره غير واحد، وفعل الهداية أما من قبيل فلان يعطي في أن المراد إيقاع نفس الفعل بلا ملاحظة المفعول، وأما بمعنى التبيين والمفعول محذوف والفاعل ضمير عائد إلى ما في الذهن ويفسره قوله تعالى:

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ القُرُونِ﴾ وكم في محل نصب بأهلكنا أي أغفلوا ولم يفعل الهداية لهم أو ولم يبين لهم مآل أمرهم أو طريق الحق كثرة من أهلكنا أو كثرة إهلاك من أهلكنا من القرون الماضية مثل عاد، وثمود وقوم لوط، ولا يجوز أن تكون ﴿كم﴾ فاعلاً لصدارتها كما نص على ذلك الزجاج حاكياً له عن البصريين، وقال الفراء: كم في موضع رفع بيهد كأنك قلت: أو لم يهد لهم القرون الهالكة فيتعظوا ولا أن يكون محذوفاً لأن الفاعل لا يحذف إلاّ في مواضع مخصوصة ليس منها ولا مضمراً عائداً إلى ما بعد لأنه يلزم عود الضمير إلى متأخر لفظاً ورتبة في غير محل جوازه، ولا الجملة نفسها لأنها لا تقع فاعلاً على الصحيح إلاّ إذا قصد لفظها نحو تعصم لا إله إلاّ الله الدماء والأموال، وجوز أن يكون الفاعل ضميره تعالى شأنه لسبق ذكره سبحانه في قوله تعالى ﴿إن ربك﴾ إلخ وأيد بقراءة زيد «نهد لهم﴾ بنون العظمة، قال الخفاجي: والفعل بكم عن المفعول وهو مضمون الجملة لتضمنه معنى العلم فلا تغفل.

﴿يَمْشُونَ في مَسَاكِنِهِمْ﴾ أي يمرون في متاجرهم على ديارهم وبلادهم ويشاهدون آثار هلاكهم، والجملة حال من ضمير ﴿لهم﴾، وقيل: من ﴿القرون﴾، والمعنى أهلكناهم حال غفلتهم، وفيل: مستأنفة بيان لوجه هدايتهم.

وقرأ ابن السميفع «يمشّون» بالتشديد على أنه تفعيل من المشي للتكثير ﴿إِنَّ في ذَلكَ﴾ أي فيما ذكر من إهلاكنا للأمم الخالية العاتية أو في مساكنهم ﴿لآيَاتٍ﴾ عظيمة في أنفسها كثيرة في عددها ﴿أَفَلاَ يَسْمَعُونَ﴾ هذه الآيات سماع تدبر واتعاظ ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا﴾ الكلام فيه كالكلام في ﴿أولم يهد﴾ أي أعموا ولم يشاهدوا ﴿أَنَّا نَسُوقُ المَاءَ﴾ بسوق السحاب الحامل له، وقيل: نسوق نفس الماء بالسيول، وقيل: بإجرائه في الأنهار ومن العيون ﴿إِلَى الأَرْضِ الجُرُز﴾ أي التي جرز نباتها أي قطع إما لعدم الماء وإما لأنه رعي وأزيل كما في الكشاف.

وفي مجمع البيان الأرض الجرز اليابسة التي ليس فيها نبات لانقطاع الأمطار عنها من قولهم سيف جراز أي

قطاع لا يبقي شيئاً إلاّ قطعه وناقة جراز إذا كانت تأكل كل شيء فلا تبقي شيئاً إلاّ قطعته بفيها ورجل[١] جروز أي أكول، قال الراجز:

خـب جـروز وإذا جـاع بـكـى

وقال الراغب: الجرز منقطع النبات من أصله وأرض مجروزة أكل ما عليها، وفي مثل لا ترضى شانئة إلاّ بجروزة أي بالاستئصال، والجارز الشديد من السعال تصور منه معنى الجرز وهو القطع بالسيف ا هـ، ويفهم مما قاله أن الجرز يطلق على ما انقطع نباته لكونه ليس من شأنه الإنبات كالسباخ وهو غير مناسب هنا لقوله تعالى: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً﴾ والظاهر أن المراد الأرض المتصفة بهذه الصفة أي أرض كانت، وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن أنها قرى بين اليمن والشام.

وأخرج هو وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي شيبة عن ابن عباس أنها أرض باليمن، وإلى عدم التعيين ذهب مجاهد، أخرج عنه جماعة أنه قال: الأرض الجرز هي التي لا تنبت وهي أبين ونحوها من الأرض وقرىء «الجرز» بسكون الراء، وضمير ﴿بِهِ﴾ للماء والكلام على ظاهره عند السلف الصالح وقالت الأشاعرة: المراد فنخرج عنده، والزرع في الأصل مصدر وعبر به عن المزروع والمراد به ما يخرج بالمطر مطلقاً فيشمل الشجر وغيره ولذا قال سبحانه: ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ﴾ أي من ذلك الزرع ﴿أَنْعَامُهُمْ﴾ كالتبن والقصيل والورق وبعض الحبوب المخصوصة بها ﴿وَأَنْفُسُهُمْ﴾ كالبقول والحبوب التي يقتاتها الإنسان، وفي البحر يجوز أن يراد بالزرع النبات المعروف وخص بالذكر تشريفاً له ولأنه أعظم ما يقصد من النبات، ويجوز أن يراد به النبات مطلقاً، وقدم الأنعام لأن انتفاعها مقصور على ذلك والإنسان قد يتغذى بغيره ولأن أكلها منه مقدم لأنها تأكله قبل أن يثمر ويخرج سنبله، وقيل ليترقى من الأدنى إلى الأشرف وهم بنو آدم.

وقرأ أبو حيوة، وأبو بكر في رواية «يأكل» بالياء التحتية ﴿أَفَلا يُبْصِرُونَ﴾ أي ألا يبصرون فلا يبصرون ذلك ليستدلوا به على كمال قدرته تعالى وفضله عزَّ وجلَّ، وجعلت الفاصلة هنا ﴿يبصرون﴾ لأن ما قبله مرئي وفيما قبله ﴿يسمعون﴾ لأن ما قبله مسموع، وقيل: ترقيا إلى الأعلى في الاتعاظ مبالغة في التذكير ورفع العذر.

وقرأ ابن مسعود «يبصرون» بالتاء الفوقية ﴿وَيَقُولُونَ﴾ على وجه التكذيب والاستهزاء ﴿مَتَى هَذَا الْفَتْحُ﴾ أي الفصل للخصومة بينكم وبيننا، وكأن هذا متعلق بقوله تعالى: ﴿إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ وقيل: أي النصر علينا، أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة قال: قال الصحابة رضي الله تعالى عنهم إن لنا يوماً يوشك أن نستريح فيه وننتقم فيه فقال المشركون: متى هذا الفتح إلخ فنزلت ﴿ويقولون متى هذا الفتح﴾ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي في أن الله تعالى هو يفصل بين المحقين والمبطلين، وقيل: في أن الله تعالى ينصركم علينا.

﴿قُلْ﴾ تبكيتاً لهم وتحقيقاً للحق ﴿يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: يوم الفتح يوم القيامة، وهو كما في البحر منصوب بلا ينفع، والمراد بالذين كفروا إما أولئك القائلون المستهزئون فالإظهار في مقام الإضمار لتسجيل كفرهم وبيان علة الحكم، وإما ما يعمهم وغيرهم وحينئذ يعلم حكم أولئك المستهزئين بطريق برهاني، والمراد من

(١) قوله جروز أي أكول قال الراغب هو الذي يأكل ما على الخوان ا هـ منه.

قوله تعالى: ﴿**ولا هم ينظرون**﴾ استمرار النفي الظاهر أن الجملة عطف على ﴿**لا ينفع**﴾ الخ والقيد معتبر فيها، وظاهر سؤالهم بقولهم ﴿**متى هذا الفتح**﴾ يقتضي الجواب بتعيين اليوم المسؤول عنه إلاَّ أنه لما كان غرضهم في السؤال عن وقت الفتح استعجالاً منهم على وجه التكذيب والاستهزاء أجيبوا على حسب ما عرف من غرضهم فكأنه قيل لهم: لا تستعجلوا به ولا تستهزئوا فكأني بكم وقد حصلتم في ذلك اليوم وآمنتم فلم ينفعكم الإيمان واستنظرتم في إدراك العذاب فلم تنظروا، وهذا قريب من الأسلوب الحكيم هذا وتفسير ﴿**يوم الفتح**﴾ بيوم القيامة ظاهر على القول بأن المراد بالفتح الفصل للخصومة فقد قال سبحانه: ﴿**إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة**﴾ ولا يكاد يتسنى على القول بأن المراد به النصر على أولئك القائلين إذا كانوا عانين به النصر والغلبة عليهم في الدنيا كما هو ظاهر مما سمعت عن مجاهد، وعليه قيل: المراد بيوم الفتح يوم بدر، أخرج ذلك الحاكم وصححه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وقيل: يوم فتح مكة، وحكي ذلك عن الحسن، ومجاهد، واستشكل كلا القولين بأن قوله تعالى: ﴿**يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم**﴾ ظاهر في عدم قبول الإيمان من الكافر يومئذ مع أنه آمن ناس يوم بدر فقبل منهم وكذا يوم فتح مكة.

وأجيب بأن الموصول على كل منهما عبارة عن المقتولين في ذلك اليوم على الكفر، فمعنى لا ينفعهم إيمانهم أنهم لا إيمان لهم حتى ينفعهم فهو على حد قوله:

على لاحب لا يهتدى بمناره

سواء أريد بهم قوم مخصوصون استهزؤوا أم لا وسواء عطف قوله تعالى: ﴿**ولا هم ينظرون**﴾ على المقيد أو على المجموع فتأمل.

وتعقب بأن ذلك خلاف الظاهر، وأيضاً كون يوم الفتح يوم بدر بعيد عن كون السورة مكية وكذا كونه يوم فتح مكة، ويبعد هذا أيضاً قلة المقتولين في ذلك اليوم جداً تدبر.

﴿**فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ**﴾ ولا تبال بتكذيبهم واستهزائهم، وعن ابن عباس أن ذلك منسوخ بآية السيف، ولا يخفى أنه يحتمل أن المراد الإعراض عن مناظرتهم لعدم نفعها أو تخصيصه بوقت معين فلا يتعين النسخ.

﴿**وَانْتَظِرْ**﴾ النصرة عليهم وهلاكهم ﴿**إِنَّهُمْ مُنْتَظِرونَ**﴾ قال الجمهور: أي الغلبة عليكم كقوله تعالى: ﴿**فتربصوا إنا معكم متربصون**﴾ [التوبة: ٥٢] وقيل: الأظهر أن يقال: إنهم منتظرون هلاككم كما في قوله تعالى: ﴿هل ينظرون إلاَّ أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام﴾ الآية، ويقرب منه ما قيل: وانتظر عذابنا لهم أنهم منتظرون أي هذا حكمهم وإن كانوا لا يشعرون فإن استعجالهم المذكور وعكوفهم على ما هم عليه من الكفر والمعاصي في حكم انتظارهم العذاب المترتب عليه لا محالة وقرأ اليماني «مُنْتَظَرُون» بفتح الظاء اسم مفعول على معنى أنهم أحقاء أن ينتظر هلاكم أو أن الملائكة المترتب عليه السلام ينتظرونه والمراد أنهم هالكون لا محالة هذا.

«ومن باب الإشارة» قوله تعالى: ﴿**ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع**﴾ فيه إشارة إلى أنه لا ينبغي الالتفات إلى الأسباب والاعتماد عليها، وقوله سبحانه: ﴿**يدبر الأمر من السماء إلى الأرض**﴾ فيه إشارة إلى أن تدبير العباد عند تدبيره عزَّ وجلَّ لا أثر له فطوبى لمن رزق الرضا بتدبير الله تعالى واستغنى عن تدبيره ﴿**الذي أحسن كل شيء خلقه**﴾ فيه إرشاد إلى أنه لا ينبغي لأحد أن يستقبح شيئاً من المخلوقات، وقد حكي أن نوحاً عليه السلام بصق على كلب أجرب فأنطق الله تعالى الكلب فقال: يا نوح أعبتني أم عبت خالقي فناح عليه السلام لذلك زماناً طويلاً فالأشياء كلها حسنة كل في بابه والتفاوت إضافي، وفي قوله تعالى: ﴿**وبدأ خلق الإنسان من طين**﴾ إلى آخر الآية بعد قوله

سبحانه: ﴿**الذي أحسن**﴾ إلخ إشارة إلى التنقل في أطوار الحسن والعروج في معارجه فكم بين الطين والإنسان السميع البصير العالم فإن الإنسان مشكاة أنوار الذات والصفات والطين بالنسبة إليه كلا شيء ﴿**إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون**﴾ إشارة إلى حال كاملي الإيمان وعلو شأن السجود والتسبيح والتحميد والتواضع لعظمته عزَّ وجلَّ ﴿**تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً**﴾ إشارة إلى سهرهم في مناجاة محبوبهم وملاحظة جلاله وجماله، وفي قوله: ﴿**ومما رزقناهم**﴾ أي من المعارف وأنواع الفيوضات ﴿**ينفقون**﴾ إشارة إلى تكميلهم للغير بعد كما لهم في أنفسهم وذكر القوم أن العذاب الأدنى الحرص على الدنيا، والعذاب الأكبر العذاب على ذلك.

وقال بعضهم: الأول التعب في طلب الدنيا والثاني شتات السر، وقيل: الأول حرمان المعرفة والثاني الإحتجاب عن مشاهدة المعروف، وقيل: الأول الهوان والثاني الخذلان ﴿**وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون**﴾ فيه إشارة إلى ما ينبغي أن يكون المرشد عليه من الأوصاف وهو الصبر على مشاق العبادات وأنواع البليات وحبس النفس عن ملاذ الشهوات والإيقان بالآيات فمن يدعي الإرشاد وهو غير متصف بما ذكر فهو ضال مضلل ﴿**فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون**﴾ فيه إشارة إلى أنه ينبغي الإعراض عن المنكرين المستهزئين بالعارفين والسالكين إذا لم ينجع فيهم الإرشاد والنصيحة وإلى أنهم هالكون لا محال فإن الإنكار الذي لا يعذر صاحبه سمّ قاتل وسهم هدفه المقاتل نعوذ بالله تعالى من الحور بعد الكور بحرمة حبيبه إلاَّ كرم صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

(٣٣) سُورَةُ الأحزَابِ مَدَنيَّة
وَآيَاتُهَا ثَلاثٌ وَسَبعُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي إتق الله ﴾ . فى تفسير الآية مسائل :

﴿ الاولى ﴾ فى الفرق بين النداء والمنادى بقوله يارجل ويا أيها الرجل ، وقد قيل فيه ما قيل ونحن نقول قول القائل يارجل يدل على النداء وقوله يا أيها الرجل يدل على ذلك أيضاً وينبىء عن خطر خطب المنادى له أو غفلة المنادى (أما الثانى) فمذكور (وأما الاول) فلأن قوله (يا أى) جعل المنـادى غير معلوم أولا فيكون كل سامع متطلعاً إلى المنادى فاذا خص واحداً كان فى ذلك إنباء الكل لتطلعهم إليه ، وإذا قال يا زيد أو يا رجل لا يلتفت إلى جانب المنـادى إلا المذكور إذا علم هذا فنقول (يا أيها) لا يجوز حمله على غفلة النبى لأن قوله (النبى) ينافى الغفلة لأن النبى عليه السلام خبير فلا يكو غافلا فيجب حمله على خطر الخطب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الأمر بالشىء لا يكون إلا عند عدم اشتغال المأمور بالمأمور به إذ لا يصلح أن يقال للجالس اجلس وللسا كت اسكت والنبى عليه السلام كان متقياً فما الوجه فيه ؟ نقول فيه وجهان : (أحدهما) منقول وهو أنه أمر بالمداومة فإنه يصح أن يقول القائل للجالس اجلس ههنا إلى أن أجيئك ، ويقول القائل للسا كت قد أصبت فاسكت تسلم ، أى دم على ما أنت عليه (والثانى) وهو معقول لطيف ، وهو أن الملك يتقى منه عباده على ثلاثة أوجه بعضهم يخاف من عقابه وبعضهم يخاف من قطع ثوابه وثالث يخاف من احتجابه فالنبى لم يؤمر بالتقوى بالمعنى الأول ولا بالمعنى الثانى ، وأما الثالث فالمخلص لا يأمنه ما دام فى الدنيا . وكيف والأمور الدنيوية شاغلة والآدمى فى الدنيا تارة مع الله ، وأخرى مقبل على مالابد منه ، وإن كان معه الله وإلى هذا إشارة بقوله (إنمـا أنا بشر مثلكم يوحى إلى) يعنى يرفع الحجاب عنى وقت الوحى ثم أعود اليكم كأنى منكم فالأمر بالتقوى يوجب استدامة الحضور (الوجه الثانى) هو أن النبى عليه الصلاة والسلام كل لحظة كان يزداد علمه ومرتبته حتى كان حاله فيما مضى بالنسبة إلى ماهو فيه تركا للافضل ، فكان له فى كل ساعة تقوى متجددة فقوله (اتق الله) على هذا أمر بما ليس فيه وإلى هذا أشار عليه الصلاة السلام بقوله

وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾

«من استوى يوماه فهو مغبون» ولأنه طلب من ربه بأمر الله إياه بزيادة العلم حيث قال (وقل رب زدنى علماً) وأيضاً إلى هذا وقعت الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام «إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله فى اليوم سبعين مرة» يعنى يتجدد له مقام يقول الذى أتيت به من الشكر والعبادة لم يكن شيئاً ، إذا علم هذا فالنبي صلى الله عليه وسلم بحكم (إنما أنا بشر مثلكم) كان قد وقع له خوف ما يسير من جهة ألسنة الكفار والمنافقين ومن أيديهم بدليل قوله تعالى (وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) فأمره الله بتقوى أخرى فوق ما يتقيه بحيث تنسيه الخلق ولا يريد إلا الحق وزاد الله به درجته فكان ذلك بشارة له ، فى (يا أيها النبي) أنت مابقيت فى الدرجة التى يقنع منك بتقوى . مثل تقوى الآحاد أو تقوى الأوتاد بل لايقنع منك إلا بتقوى تنسيك نفسك ألا ترى أن الإنسان إذا كان يخاف فوت مال إن هجم عليه غاشم يقصد قتله يذهل عن المال ويهرب ويتركه ، فكذلك النبي عليه الصلاة والسلام أمر بمثل هذه التقوى ومع هذه التقوى لايبقى الخوف من أحد غير الله وخرج هذا مخرج قول القائل لمن يخاف زيداً أو عمراً خف عمراً فان زيداً لا يقدر عليك إذا كان عمرو معك فلا يكون ذلك أمراً بالخوف من عمرو فانه يخافه وإنما يكون ذلك نهياً عن الخوف من زيد فى ضمن الأمر بزيادة الخوف من عمرو حتى ينسيه زيداً .

ثم قوله تعالى ﴿ ولا تطع الكافرين والمنافقين ﴾ يقرر قولنا أى اتق الله تقوى تمنعك من طاعتهم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لم خص الكافرين والمنافقين بالذكر مع أن النبي صلى الله عليه وسلم ينبغى أن لايطيع أحداً غير الله ؟ نقول لوجهين (أحدهما) أن ذكر الغير لاحاجة إليه لأن غيرهما لا يطلب من النبي عليه الصلاة والسلام الاتباع ، ولا يتوقع أن يصير النبي عليه السلام مطيعاً له بل يقصد اتباعه ولا يكون عنده إلا مطاعا (والثانى) هو أنه تعالى لما قال (ولا تطع الكافرين والمنافقين) منعه من طاعة الكل لأن كل من طلب من النبي عليه الصلاة والسلام طاعته فهو كافر أو منافق لأن من يأمر النبي عليه الصلاة والسلام بأمر أمر إيجاب معتقداً على أنه لو لم يفعله يعاقبه بحق يكون كافراً .

ثم قال تعالى ﴿ إن الله كان عليما حكيما ﴾ إشارة إلى أن التقوى ينبغى تكون عن صميم قلبك لا تخفى فى نفسك تقوى غير الله كما يفعله الذى يرى من نفسه الشجاعة حيث يخاف فى نفسه ويتجلد فان التقوى من الله وهو عليم ، وقوله (حكيما) إشارة إلى دفع وهم متوهم وهو أن متوهما لو قال إذا قال الله شيئاً وقال جميع الكافرين والمنافقين مع أنهم أقارب النبي عليه الصلاة والسلام شيئاً آخر ورأوا المصلحة فيه وذكروا وجهاً معقولا . فاتباعهم لا يكون إلا مصلحة فقال الله

وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾

تعالى إنه حكيم ولا تكون المصلحة إلا فى قول الحكيم ؛ فاذا أمرك الله بشيء فاتبعه ولو منعك أهل العالم عنه .

قوله تعالى : ﴿ واتبع مايوحى إليك من ربك إن الله كان بماتعملون خبيراً ، وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ، ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه وما جعل أزواجكم أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ﴾ .

يقرر ما ذكرنا من أنه حكيم فاتباعه هو الواجب ، ثم قال تعالى (إن الله كان بما تعملون خبيراً) لما قال إنه عليم بما فى قلوب العباد بين أنه عالم خبير بأعمالكم فسووا قلوبكم وأصلحوا أعمالكم . ثم قال تعالى (وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا) يعنى اتق الله وإن توهمت من أحد فتوكل على الله فانه كفى به دافعاً ينفع ولا يضر معه شيء وإن ضر لاينفع معه شيء .

ثم قال تعالى (ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه) قال بعض المفسرين الآية نزلت فى أبى معمر كان يقول لى قلبان أعلم وأفهم بأحدهما أكثر مما يفهم محمد فرد الله عليه بقوله (ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ، وقال الزمخشرى قوله (وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم) أى ماجعل لرجل قلبين كما لم يجعل لرجل أمين ولا لابن أبوين ، وكلاهما ضعيف بل الحق أن يقال إن الله تعالى لما أمر النبى عليه الصلاة والسلام بالاتقاء بقوله (يا أيها النبى اتق الله) فكان ذلك أمراً له بتقوى لايكون فوقها تقوى ومن يتق ويخاف شيئاً خوفاً شديداً لا يدخل فى قلبه شيء آخر ألا ترى أن الخائف الشديد الخوف ينسى مهماته حالة الخوف فكان الله تعالى قال يا أيها النبى اتق الله حق تقاته ، ومن حقها أن لايكون فى قلبك تقوى غير الله فان المرء ليس له قلبان حتى يتقى بأحدهما الله وبالآخرة غيره فان اتقى غيره فلا يكون ذلك إلا بصرف القلب عن جهة الله إلى غيره وذلك لا يليق بالمتقى الذى يدعى أنه يتقى الله حق تقاته ، ثم ذكر للنبى عليه الصلاة والسلام أنه لاينبغى أن يتقى أحداً ولا مثل ما اتقيت فى حكاية زينب زوجة زيد حيث قال الله تعالى (وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) يعنى مثل تلك التقوى لا ينبغى أن تدخل فى

قلبك . ثم لما ذكر النبي عليه الصلاة و السلام بتلك الحالة ذكر مايدفع عنه السوء . فقال (وما جعل أدعياءكم أبناءكم) أي وما جعل الله دعي المرء ابنه ثم قدم عليه ما هو دليل قوي على اندفاع القبيح وهو قوله (وماجعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم) أي أنكم إذا قلتم لأزواجكم أنت على كظهر أمي فلا تصير هي أماً بإجماع الكل ، أما في الاسلام فلأنه ظهار لا يحرم الوطء ، وأما في الجاهلية فلأنه كان طلاقاً حتى كان يجوز للزوج أن يتزوج بها من جديد ، فاذا كان قول القائل لزوجته أنتِ أمي أو كظهر أمي لا يوجب صيرورة الزوجة أماً كذلك قول القائل للدعي أنت ابني لا يوجب كونه ابناً فلا تصير زوجته زوجة الإبن فلم يكن لأحد أن يقول في ذلك شيئاً فلم يكن خوفك من الناس له وجه كيف ولو كان أمراً مخوفا ما كان يجوز أن تخاف غير الله أو ليس لك قلبان وقلبك مشغول بتقوى الله فما كان ينبغي أن تخاف أحداً

ثم قال تعالى (ذلكم قولكم بأفواهكم) فيه لطيفة وهو أن الكلام المعتبر على قسمين (أحدهما) كلام يكون عن شيء كان فيقال (والثاني) كلام يقال فيكون كما قيل والأول كلام الصادقين الذين يقولون ما يكون والآخر كلام الصديقين الذين إذا قالوا شيئاً جعله الله كما قالوه وكلاهما صادر عن قلب والكلام الذي يكون بالفم فحسب هو مثل نهيق الحمار أو نباح الكلب ، لأن الكلام المعتبر هو الذي يعتمد عليه والذي لايكون عن قلب وروية لا اعتماد عليه ، والله تعالى لما كرم ابن آدم وفضله على سائر الحيوانات ينبغي أن يحترز من التخلق بأخلاقها ، فقول القائل : هذا ابن فلان مع أنه ليس ابنه ليس كلاماً فإن الكلام في الفؤاد وهذا في الفم لا غير ، واللطيفة هي أن الله تعالى ههنا قال (ذلكم قولكم بأفواهم) وقال في قوله (وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم) يعني نسبة الشخص إلى غير الأب قول لا حقيقة له ولا يخرج من قلب ولا يدخل أيضاً في قلب فهو قول بالفم مثل أصوات البهائم .

ثم قال تعالى (والله يقول الحق) إشارة إلى معنى لطيف وهوان العاقل ينبغي أن يكون قوله إما عن عقل أو عن شرع فاذا قال فلان ابن فلان ينبغي أن يكون عن حقيقة أويكون عن شرع بأن يكون ابنه شرعا وإن لم يعلم الحقيقة كمن تزوج بامرأة فولدت لستة أشهر ولداً وكانت الزوجة من قبل زوجة شخص آخر يحتمل أن يكون الولد منه فانا نلحقه بالزوج الثاني لقيام الفراش ونقول إنه ابنه وفي الدعي لم توجد الحقيقة ولا ورد الشرع به لأنه لا يقول إلا الحق وهذا خلاف الحق لأن أباه مشهور ظاهر ووجه آخر فيه وهو أنهم قالوا هذه زوجة الابن فتحرم وقال الله تعالى هي لك حلال ، وقولهم لا اعتبار به فانه بأفواههم كأصوات البهائم ، وقول الله حق فيجب اتباعه وقوله (وهو يهدي السبيل) يؤكد قوله (والله يقول الحق) يعني يجب اتباعه لكونه حقاً ولكونه هادياً وقوله تعالى (ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق) فيه لطيفة وهو أن الكلام الذي بالفم فحسب يشبه صوت البهائم الذي يوجد لا عن قلب ، ثم إن الكلام الذي بالقلب قد

ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾

يكون حقاً وقد يكون باطلا ، لأن من يقول شيئاً عن اعتقاد قد يكون مطابقاً فيكون حقاً ، وقد لا يكون فيكون باطلا ، فالقول الذى بالقلب وهو المعتبر من أقوالكم قد يكون حقاً وقد يكون باطلا لأنه يتبع الوجود ، وقول الله حق لأنه يتبعه الوجود فانه يقول عما كان أو يقول فيكون ، فإذن قول الله خير من أقوالكم التى عن قلوبكم فكيف تكون نسبته إلى أقوالكم التى بأفواهكم ، فاذن لا يجوز أن تأخذوا بقولكم الكاذب اللاغى وتتركوا قول الله الحق فمن يقول بأن تزوج النبى عليه الصلاة والسلام بزينب لم يكن حسناً يكون قد ترك قول الله الحق وأخذ بقول خرج عن الفم .

ثم قال تعالى (وهو يهدى السبيل) إشارة إلى أن اتباع ما أنزل الله خير من الأخذ بقول الغير .

ثم بين الهداية وقال ﴿ ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم فى الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيما ﴾

قوله تعالى (ادعوهم لآبائهم) أرشد وقال (هو أقسط عند الله) أى أعدل فانه وضع الشىء فى موضعه وهو يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون ترك الإضافة للعموم أى أعدل كل كلام كقول القائل الله أكبر (وثانيهما) أن يكون ما تقدم منوياً كأنه قال ذلك أقسط من قولكم هو ابن فلان ثم تمم الإرشاد وقال (فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم فى الدين ومواليكم) يعنى قولوا لهم إخواننا وأخو فلان فان كانوا محررين فقولوا مولى فلان ، ثم قال تعالى (وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به) يعنى قول القائل لغيره يا بنى بطريق الشفقة ، وقول القائل لغيره يا أبى بطريق التعظيم ، فإنه مثل الخطأ ألا ترى أن اللغو فى اليمين مثل الخطأ وسبق اللسان فكذلك سبق اللسان فى قول القائل ابنى والسهو فى قوله ابنى من غير قصد إلى إثبات النسب سواء ، وقوله (ولكن ما تعمدت قلوبكم) مبتدأ خبره محذوف يدل عليه ماسبق وهو الجناح يعنى ما تعمدت قلوبكم فيه جناح (وكان الله غفوراً رحيما) يغفر الذنوب ويرحم المذنب وقد ذكرنا كلاماً شافياً فى المغفرة والرحمة فى مواضع ، ونعيد بعضها ههنا فنقول المغفرة هو أن يستر القادر القبيح الصادر ممن تحت قدرته حتى أن العبد إذا ستر عيب سيده مخافة عقابه لا يقال إنه غفر له ، والرحمة هو أن يميل إليه بالإحسان لعجز المرحوم إليه لا لعوض فإن من مال إلى إنسان قادر كالسلطان لا يقال رحمه ، وكذا من أحسن إلى غيره رجاء فى خيره أو عوضاً عما صدر منه آنفاً من الإحسان لا يقال رحمه ، إذا علم هذا

ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ﴿٦﴾

فالمغفرة إذا ذكرت قبل الرحمة يكون معناها أنه سترعيبه ثم رآه مفلساً عاجزاً فرحمه وأعطاه ما كفاه، وإذا ذكرت المغفرة بعد الرحمة وهو قليل يكون معناها أنه مال إليه لعجزه فترك عقابه ولم يقتصر عليه بل ستر ذنوبه.

قوله تعالى :﴿ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا الى أوليائكم معروفاً كان ذلك فى الكتاب مسطوراً ﴾

قوله تعالى (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) تقرير لصحة ما صدر منه عليه الصلاة والسلام من التزوج بزينب وكأن هذا جواب عن سؤال وهو أن قائلا لو قال هب أن الأدعياء ليسوا بأبناء كما قلت لكن من سماه غيره ابناً إذا كان لدعيه شيء حسن لا يليق بمروءته أن يأخذه منه ويطعن فيه عرفاً فقال الله تعالى النبي أولى بالمؤمنين جواباً عن ذلك السؤال وتقريره هو أن دفع الحاجات على مراتب ؛ دفع حاجة الأجانب ثم دفع حاجة الأقارب الذين على حواشي النسب ثم دفع حاجة الأصول والفصول ثم دفع حاجة النفس، والأول عرفا دون الثاني وكذلك شرعا فإن العاقلة تتحمل الدية عنهم ولا تتحملها عن الأجانب والثاني دون الثالث أيضاً وهو ظاهر بدليل النفقة والثالث دون الرابع فان النفس تقدم على الغير وإليه أشار النبي عليه الصلاة والسلام بقوله «ابدأ بنفسك ثم بمن تعول» إذا علمت هذا فالإنسان إذا كان معه ما يغطى به إحدى الرجلين أو يدفع به حاجة عن أحد شق بدنه، فلو أخذ الغطاء من أحدهما وغطى به الآخر لا يكون لأحد أن يقول له لم فعلت فضلا عن أن يقول بئسما فعلت، اللهم إلا أن يكون أحد العضوين أشرف من الآخر مثل ما إذا وقى الإنسان عينه بيده ويدفع البرد عن رأسه الذى هو معدن حواسه ويترك رجله تبرد فانه الواجب عقلا، فمن يعكس الأمر يقال له لم فعلت، وإذا تبين هذا فالنبي صلى الله عليه وسلم أولى بالمؤمن من نفسه فلو دفع المؤمن حاجة نفسه دون حاجة نبيه يكون مثله مثل من يدهن شعره ويكشف رأسه فى برد مفرط قاصداً به تربية شعره ولا يعلم أنه يؤذى رأسه الذى لا نبات لشعره إلا منه، فكذلك دفع حاجة النفس لفراغها إلى عبادة الله تعالى ولا علم بكيفية العبادة إلا من الرسول عليه الصلاة والسلام، فلو دفع الإنسان حاجته لا للعبادة فهو ليس

دفعاً للحاجة لأن دفع الحاجة ما هو فوق تحصيل المصلحة وهذا ليس فيه مصلحة فضلا عن أن يكون حاجة واذا كان للعبادة فترك النبي الذى منه يتعلم كيفية العبادة فى الحاجة ودفع حاجة النفس مثل تربية الشعر مع اهمال أمر الرأس ، فتبين أن النبى صلى الله عليه وسلم إذا أراد شيئاً حرم على الأمة التعرض إليه فى الحكمة الواضحة .

ثم قال تعالى : ﴿ وأزواجه أمهاتهم ﴾ تقريراً آخر ، وذلك لأن زوجة النبى ﷺ ما جعلها الله تعالى فى حكم الأم إلا لقطع نظر الأمة عما تعلق به غرض النبى عليه الصلاة والسلام ، فاذا تعلق خاطره بامرأة شاركت الزوجات فى التعلق فحرمت مثل ما حرمت أزواجه على غيره ، فلو قال قائل كيف قال (وأزواجه أمهاتهم) وقال من قبل (وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم) إشارة إلى أن غير من ولدت لا تصير أماً بوجه ، ولذلك قال تعالى فى موضع آخر (إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم) فنقول قوله تعالى فى الآية المتقدمة (والله يقول الحق وهو يهدى السبيل) جواب عن هذا معناه أن الشرع مثل الحقيقة ، ولهذا يرجع العاقل عند تعذر اعتبار الحقيقة إلى الشريعة . كما أن امرأتين إذا ادعت كل واحدة ولداً بعينه ولم يكن لها بينة وحلفت إحداهما دون الأخرى حكم لها بالولد ، وإن تبين أن التى حلفت دون البلوغ أو بكر بينة لا يحكم لها بالولد ، فعلم أن عند عدم الوصول إلى الحقيقة يرجع إلى الشرع ، لا بل فى بعض المواضع على الندور تغلب الشريعة الحقيقة ، فإن الزانى لا يجعل أباً لولد الزنا . إذا ثبت هذا فالشارع له الحكم فقول القائل هذه أمى قول يفهم لا عن حقيقة ولا يترتب عليه حقيقة . وأما قول الشارع [فهو] حق والذى يؤيده هو أن الشارع به الحقائق حقائق فله أن يتصرف فيها ، ألا ترى أن الأم ما صارت أماً إلا بخلق الله الولد فى رحمها ، ولو خلقه فى جوف غيرها لكانت الأم غيرها ، فاذا كان هو الذى يجعل الأم الحقيقية أماً فله أن يسمى امرأة أماً ويعطيها حكم الأمومة ، والمعقول فى جعل أزواجه أمهاتنا . هو أن الله تعالى جعل زوجة الأب محرمة على الإبن ، لأن الزوجة محل الغيرة والتنازع فيها ، فان تزوج الإبن بمن كانت تحت الأب يفضى ذلك إلى قطع الرحم والعقوق ، لكن النبى عليه الصلاة والسلام أشرف وأعلى درجة من الأب وأولى بالإرضاء ، فإن الأب يربى فى الدنيا فحسب . والنبى عليه الصلاة والسلام يربى فى الدنيا والآخرة ، فوجب أن تكون زوجاته مثل زوجات الآباء ، فإن قال قائل : فلم لم يقل إن النبى أبوكم ويحصل هذا المعنى ، أو لم يقل إن أزواجه أزواج أبيكم . فنقول لحكمة ، وهى أن النبى لما بينا أنه إذا أراد زوجة واحد من الأمة وجب عليه تركها ليتزوج بها النبى عليه الصلاة والسلام ، فلو قال أنت أبوهم لحرم عليه زوجات المؤمنين على التأبيد . ولأنه لما جعله أولى بهم من أنفسهم والنفس مقدم على الأب لقوله عليه الصلاة والسلام « ابدأ بنفسك ثم بمن تعول » ولذلك فان المحتاج إلى القوت لا يجب عليه صرفه إلى الأب ، ويجب عليه صرفه إلى النبى عليه الصلاة والسلام ، ثم إن أزواجه لهم حكم زوجات

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾

الأب حتى لا تحرم أولادهن على المؤمنين ولا أخواتهن ولا أمهاتهن ، وإن كان الكل يحرمن فى الأم الحقيقية والرضاعية .

ثم قال تعالى : ﴿ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً كان ذلك فى الكتاب مسطوراً ﴾ إشارة إلى الميراث ، وقوله (إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم) معروفاً إشارة إلى الوصية ، يعنى إن أوصيتم فغير الوارثين أولى ، وإن لم توصوا فالوارثون أولى بميراثكم وبما تركتم ، فان قيل فعلى هذا أى تعلق للميراث والوصية بما ذكرت نقول تعلق قوى خفى لا يتبين إلا لمن هداه الله بنوره ، وهو أن غير النبى عليه الصلاة والسلام فى حال حياته لا يصير له مال الغير ، وبعد وفاته لا يصير ماله لغير ورثته ، والنبى عليه الصلاة والسلام فى حال حياته كان يصير له مال الغير إذا أراده ولا يصير ماله لورثته بعد وفاته ، كأن الله تعالى عوض النبى عليه الصلاة والسلام عن قطع ميراثه بقدرته على تملك مال الغير وعوض المؤمنين بأن ماتركه يرجع إليهم ، حتى لا يكون حرج على المؤمنين فى أن النبى ﷺ إذا أراد شيئاً يصير له ثم يموت ويبقى لورثته فيفوت عليهم ولا يرجع إليهم فقال تعالى (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض) يعنى بينكم التوارث فيصير مال أحدكم لغيره بالإرث والنبى لاتوارث بينه وبين أقاربه فينبغى أن يكون له بدل هذا أنه أولى فى حياته بما فى أيديكم (الثانى) هو أن الله تعالى ذكر دليلا على أن النبى عليه الصلاة والسلام أولى بالمؤمنين وهو أن أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض ، ثم إذا أراد أحد براً مع صديق فيوصى له بشىء فيصير أولى من قريبه وكأنه بالوصية قطع الإرث وقال هذا مالى لا ينتقل عنى إلا إلى من أريده ، فكذلك الله تعالى جعل لصديقه من الدنيا ماأراده ثم مايفضل منه يكون لغيره وقوله « كان ذلك فى الكتاب مسطوراً » فيه وجهان (أحدهما) فى القرآن وهو آية المواريث والوصية (والثانى) فى اللوح المحفوظ .

ثم قال تعالى : ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظاً ﴾

وجه تعلق الآية بما قبلها هو أن الله تعالى لما أمر النبى عليه الصلاة والسلام بالإتقاء بقوله (يا أيها النبى اتق الله) وأكده بالحكاية التى خشى فيها الناس لكى لا يخشى فيها أحداً غيره وبين أنه لم يرتكب أمراً يوجب الخشية بقوله (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم) أكده بوجه آخر وقال (وإذ أخذنا من النبيين) كأنه قال اتق الله ولا تخف أحداً واذكر أن الله أخذ ميثاق النبيين فى أنهم يبلغون رسالات الله ولا يمنعهم من ذلك خوف ولا طمع وفيه مسائل :

لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا
وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ

﴿ المسألة الأولى ﴾ المراد من الميثاق المأخوذ من النبيين إرسالهم وأمرهم بالتبليغ .

﴿ المسألة الثانية ﴾ خص بالذكر أربعة من الأنبياء وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى لأن موسى وعيسى كان لهما فى زمان نبينا قوم وأمة فذكرهما احتجاجاً على قومهما ، وإبراهيم كان العرب يقولون بفضله وكانوا يتبعونه فى الشعائر بعضها ، ونوحاً لأنه كان أصلا ثانياً للناس حيث وجد الخلق منه بعد الطوفان ، وعلى هذا لو قال قائل فآدم كان أولى بالذكر من نوح فنقول خلق آدم كان للعمارة ونبوته كانت مثل الإرشاد للأولاد ولهذا لم يكن فى زمانه إهلاك قوم ولا تعذيب ، وأما نوح فكان مخلوقاً للنبوة وأرسل للانذار ولهذا أهلك قومه وأغرقوا .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى كثير من المواضع يقول الله (عيسى بن مريم ، والمسيح بن مريم) إشارة إلى أنه لا أب له إذ لو كان لوقع التعريف به ، وقوله (وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً) غلظ الميثاق هو سؤالهم عما فعلوا فى الإرسال كما قال تعالى (ولنسألن المرسلين) وهذا لأن الملك إذا أرسل رسولا وأمره بشىء وقبله فهو ميثاق ، فاذا أعلمه بأنه يسأل عن حاله فى أفعاله وأقواله يكون ذلك تغليظاً للميثاق عليه حتى لا يزيد ولا ينقص فى الرسالة ، وعلى هذا يمكن أن يقال بأن المراد من قوله تعالى (وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً) هو الإخبار بأنهم مسؤلون عنها كما قال النبى عليه الصلاة والسلام « كلكم راع وكلكم مسئول » وكما أن الله تعالى جعل الرجال قوامين على النساء جعل الأنبياء قائمين بأمور أمتهم وإرشادهم إلى سبيل الرشاد .

ثم قال تعالى : ﴿ ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذاباً أليماً ﴾ .

يعنى أرسل الرسل وعاقبة المكلفين إما حساب وإما عذاب ، لأن الصادق محاسب والكافر معذب ، وهذا كما قال على عليه السلام « الدنيا حلالها حساب وحرامها عذاب » وهذا مما يوجب الخوف العام فيتأكد قوله (يا أيها النبى اتق الله) .

ثم قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً ، إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ

زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾

زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ﴾.

تحقيقاً لما سبق من الأمر بتقوى الله بحيث لا يبقى معه خوف من أحد وذلك لأن فى واقعة اجتماع الأحزاب واشتداد الأمر على الأصحاب حيث اجتمع المشركون بأسرهم واليهود بأجمعهم ونزلوا على المدينة وعمل النبى عليه السلام الخندق ، كان الأمر فى غاية الشدة والخوف بالغاً إلى الغاية والله دفع القوم عنهم من غير قتال وآمنهم من الخوف فينبغى أن لايخاف العبد غير ربه فانه كاف أمره ولا يأمن مكره فانه قادر على كل ممكن فكان قادراً على أن يقهر المسلمين بالكفار مع أنهم كانوا ضعفاء كما قهر الكافرين بالمؤمنين مع قوتهم وشوكتهم ، وقوله (فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها) إشارة إلى ما فعل الله بهم من إرسال ريح باردة عليهم فى ليلة شاتية وإرسال الملائكة وقذف الرعب فى قلوبهم حتى كان البعض يلتزق بالبعض من خوف الخيل فى جوف الليل والحكاية مشهورة ، وقوله (وكان الله بما تعملون بصيراً) إشارة إلى أن الله علم التجاءكم إليه ورجاءكم فضله فنصركم على الأعداء عند الاستعداء ، وهذا تقرير لوجوب الخوف وعدم جواز الخوف من غيرالله فان قوله (فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها) أى الله يقضى حاجتكم وأنتم لا ترون ، فان كان لا يظهر لكم وجه الأمن فلا تلتفتوا إلى عدم ظهوره لكم لأنكم لا ترون الأشياء فلا تخافون غير الله (والله بصير بما تعملون) فلا تقولوا بأنا نفعل شيئاً وهو لا يبصره (فانه بكل شىء بصير) وقوله (إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم) بيان لشدة الأمر وغاية الخوف ، وقيل (من فوقكم) أى من جانب الشرق (ومن أسفل منكم) من جانب الغرب وهم أهل مكة وزاغت الأبصار أى مالت عن سننها فلم تلتفت إلى العدو لكثرته (وبلغت القلوب الحناجر) كناية عن غاية الشدة ، وذلك لأن القلب عند الغضب يندفع وعند الخوف يجتمع فيتقلص فيلتصق بالحنجرة وقد يفضى إلى أن يسد مجرى النفس فلا يقدر المرء يتنفس ويموت من الخوف ومثله قوله تعالى (حتى إذا بلغت الروح الحلقوم) وقوله (وتظنون بالله الظنونا) الألف واللام يمكن أن يكونا بمعنى الاستغراق مبالغة يعنى تظنون كل ظن لأن عند الأمر العظيم كل أحد يظن شيئاً ويمكن أن يكون المراد ظنونهم المعهودة ، لأن المعهود من المؤمن ظن الخير بالله كما قال عليه السلام « ظنوا بالله خيراً » ومن الكافر الظن السوء كما قال تعالى (ذلك ظن الذين كفروا) وقوله (إن يتبعون إلا الظن) فان قال قائل المصدر لا يجمع ، فما الفائدة فى جمع الظنون؟ فنقول لاشك فى أنه منصوب على المصدر ولكن الاسم قد يجعل مصدراً كما يقال ضربته سياطاً وأدبته مراراً فكأنه قال ظننتم ظناً بعد ظن أى ما ثبتم على ظن فالفائدة هى أن الله تعالى لو قال : تظنون ظناً ، جاز أن يكونوا مصيبين فاذا قال : ظنوناً ، تبين أن فيهم من كان ظنه كاذباً لأن الظنون قد تكذب كلها

هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾

وقد يكذب بعضها إذا كانت فى أمر واحد مثاله إذا رأى جمع من بعيد جسماً وظن بعضهم أنه زيد وآخرون أنه عمرو وقال ثالث إنه بكر، ثم ظهر لهم الحق قد يكون الكل مخطئين والمرئى شجر أو حجر. وقد يكون أحدهم مصيباً ولا يمكن أن يكونوا كلهم مصيبين فقوله (الظنونا) أفاد أن فيهم من أخطأ الظن، ولو قال تظنون بالله ظناً ما كان يفيد هذا.

ثم قال تعالى : ﴿ هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً ﴾.

أى عند ذلك امتحن الله المؤمنين فتميز الصادق عن المنافق، والامتحان من الله ليس لاستبانة الأمر له بل لحكمة أخرى وهى أن الله تعالى عالم بما هم عليه لكنه أراد إظهار الأمر لغيره من الملائكة والأنبياء، كما أن السيد إذا علم من عبده المخالفة وعزم على معاقبته على مخالفته وعنده غيره من العبيد وغيرهم فيأمره بأمر عالماً بأنه يخالفه فيبين الأمر عند الغير فتقع المعاقبة على أحسن الوجوه حيث لا يقع لأحد أنها بظلم أو من قلة حلم وقوله (وزلزلوا) أى أزعجوا وحركوا فمن ثبت منهم كان من الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وبذكر الله تطمئن مرة أخرى، وهم المؤمنون حقاً.

ثم قال تعالى : ﴿ وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً، وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فراراً ﴾.

فسر الظنون وبينها. فظن المنافقون أن ما قال الله ورسوله كان زوراً ووعدهما كان غروراً حيث قطعوا بأن الغلبة واقعة وقوله (وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم) أى لا وجه لإقامتكم مع محمد كما يقال لا إقامة على الذل والهوان أى لا وجه لها (ويثرب) اسم للبقعة التى هى المدينة فارجعوا أى عن محمد، واتفقوا مع الأحزاب تخرجوا من الأحزان ثم السامعون عزموا على الرجوع واستأذنوه وتعللوا بأن بيوتنا عورة أى فيها خلل لا يأمن صاحبها السارق على متاعه والعدو على أتباعه ثم بين الله كذبهم بقوله (وما هى بعورة) وبين قصدهم وما تكن صدورهم وهو الفرار وزوال القرار بسبب الخوف.

وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا
﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا
﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا
قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ
رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وماتلبثوا بها إلا يسيرا ﴾ إشارة إلى أن ذلك الفرار والرجوع ليس لحفظ البيوت لأن من يفعل فعلا لغرض ، فاذا فاته الغرض لايفعله ، كمن يبذل المال لكى لا يؤخذ منه بيته فاذا أخذ منه البيت لا يبذله فقال الله تعالى هم قالوا بأن رجوعنا عنك لحفظ بيوتنا ولو دخلها الأحزاب وأخذوها منهم لرجعوا أيضاً ، وليس رجوعهم عنك إلا بسبب كفرهم وحبهم الفتنة ، وقوله (ولو دخلت عليهم) احتمل أن يكون المراد المدينة واحتمل أن يكون البيوت ، وقوله (وما تلبثوا بها) يحتمل أن يكون المراد الفتنة (إلا يسيراً)فانها تزول وتكون العاقبة للمتقين ، ويحتمل أن يكون المراد المدينة أو البيوت أى ماتلبثوا بالمدينه إلا يسيراً فان المؤمنين يخرجونهم .

ثم قال تعالى : ﴿ ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لايولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا ، قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذاً لاتمتعون إلا قليلا ﴾ .

بياناً لفساد سريرتهم وقبح سيرتهم لنقضهم العهود فانهم قبل ذلك تخلفوا وأظهروا عذراً وندماً ، وذكروا أن القتال لايزال لهم قدماً ثم هددهم بقوله (وكان عهد الله مسئولا) وقوله (قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل) إشارة إلى أن الأمور مقدرة لا يمكن الفرار مما وقع عليه القرار ، وما قدره الله كائن فمن أمر بشىء إذا خالفه يبقى فى ورطة العقاب آجلا ولا ينتفع بالمخالفة عاجلا ، ثم قال تعالى (وإذاً لاتمتعون إلا قليلا) كأنه يقول ولو فررتم منه فى يومكم مع أنه غير ممكن لما دمتم بل لا تمتعون إلا قليلا فالعاقل لايرغب فى شىء قليل مع أنه يفوت عليه شيئاً كثيراً ، فلا فرار لكم ولو كان لما متعتم بعد الفرار إلا قليلا .

قوله تعالى : ﴿ قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً ﴾ .

قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾

بياناً لما تقدم من قوله (لن ينفعكم الفرار) وقوله (ولا يجدون لهم من دون الله) تقرير لقوله (من ذا الذى يعصمكم) أى ليس لكم ولى يشفع لمحبته إياكم ولا نصير ينصركم ويدفع عنكم السوء إذا أتاكم .

قوله تعالى : ﴿ قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا ، أشحة عليكم ﴾ .

أى الذين يثبطون المسلمين ويقولون تعالوا إلينا ولا تقاتلوا مع محمد صلى الله عليه وسلم وفيه وجهان (أحدهما) أنهم المنافقون الذين كانوا يقولون للأنصار لاتقاتلوا وأسلموا محمداً إلى قريش (وثانيهما) اليهود الذين كانوا يقولون لأهل المدينة تعالوا إلينا وكونوا معنا وهلم بمعنى تعال أو احضر ولا تجمع فى لغة الحجاز وتجمع فى غيرها فيقال للجماعة هلموا وللنساء هلمن ، وقوله (ولا يأتون البأس إلا قليلا) يؤيد الوجه الأول وهو أن المراد منهم المنافقون وهو يحتمل وجهين (أحدهما) (لا يأتون البأس) بمعنى يتخلفون عنكم ولا يخرجون معكم وحينئذ قوله تعالى (أشحة عليكم) أى بخلاء حيث لاينفقون فى سبيل الله شيئاً (وثانيهما) لا يأتون البأس بمعنى لا يقاتلون معكم ويتعللون عن الاشتغال بالقتال وقت الحضور معكم ، وقوله (أشحة عليكم) أى بأنفسهم وأبدانهم .

قوله تعالى : ﴿ فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت فاذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً ﴾ .

إشارة إلى غاية جبنهم ونهاية روعهم ، واعلم أن البخل شبيه الجبن ، فلما ذكر البخل بين سببه وهو الجبن والذى يدل عليه هو أن الجبان يبخل بماله ولا ينفقه فى سبيل الله لأنه لايتوقع الظفر

يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾

فلا يرجو الغنيمة فيقول هذا انفاق لابدل له فيتوقف فيه ، وأما الشجاع فيتيقن الظفر والاغتنام فيهون عليه إخراج المال فى القتال طمعاً فيما هو أضعاف ذلك ، وأما بالنفس والبدن فكذلك فان الجبان يخاف قرنه ويتصور الفشل فيجبن ويترك الإقدام ، وأما الشجاع فيحكم بالغلبة والنصر فيقدم ، وقوله تعالى (فاذا ذهب الخوف سلقوكم) أى غلبوكم بالألسنة وآذوكم بكلامهم يقولون نحن الذين قاتلنا وبنا انتصرتم وكسرتم العدو وقهرتم ويطالبونكم بالقسم الأوفر من الغنيمة وكانوا من قبل راضين من الغنيمة بالإياب ، وقوله (أشحة على الخير) قيل الخير المال ويمكن أن يقال معناه أنهم قليلوا الخير فى الحالتين كثيرو الشر فى الوقتين فى الأول يبخلون ، وفى الآخر كذلك .

ثم قال تعالى (أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً) يعنى لم يؤمنوا حقيقة وإن أظهروا الإيمان لفظاً فأحبط الله أعمالهم التى كانوا يأتون بها مع المسلمين وقوله (وكان ذلك على الله يسيراً) إشارة إلى ما يكون فى نظر الناظر كما فى قوله تعالى (وهو أهون عليه) وذلك لأن الإحباط إعدام وإهدار ، وإعدام الأجسام إذا نظر الناظر يقول الجسم بتفريق أجزائه ، فان من أحرق شيئاً يبقى منه رماد ، وذلك لأن الرماد إن فرقته الريح يبقى منه ذرات ، وهذا مذهب بعض الناس والحق هو أن الله يعدم الأجسام ويعيد مايشاء منها ، وأما العمل فهو فى العين معدوم وإن كان يبقى يبقى بحكمه وآثاره ، فاذا لم يكن له فائدة واعتبار فهو معدوم حقيقة وحكما فالعمل إذا لم يعتبر فهو معدوم فى الحقيقة بخلاف الجسم .

قوله تعالى : ﴿ يحسبون الأجزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ماقاتلوا إلا قليلا ، لقدكان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴾ .

أى من غاية الجبن عند ذهابهم كانوا يخافونهم وعند مجيئهم كانوا يودون لو كانوا فى البوادى ولا يكونون بين المقاتلين معاً نهم عند حضورهم كأنهم غائبون حيث لايقاتلون كما قال تعالى

وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾

(ولو كانوا فيكم ماقاتلوا إلا قليلا) .

قوله تعالى : ﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليما ﴾ .

لما بين حال المنافقين ذكر حال المؤمنين وهوأنهم قالوا هذا ماوعدنا الله من الابتلاء ثم قالوا (وصدق الله ورسوله) فى مقابلة قولهم (ماوعدنا الله ورسوله إلا غروراً) وقولهم (وصدق الله ورسوله) ليس إشارة إلى ماوقع فانهم كانوا يعرفون صدق الله قبل الوقوع وإنما هى إشارة إلى بشارة وهو أنهم قالوا(هذا ماوعدنا الله) وقد وقع وصدق الله فى جميع ما وعد فيقع الكل مثل فتح مكة وفتح الروم وفارس وقوله (وما زادهم إلا إيماناً) بوقوعه وتسليما عند وجوده .

ثم قال تعالى : ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ، ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفوراً رحيما ، ورد الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكنى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً ﴾

إشارة إلى وفائهم بعهدهم الذى عاهدوا الله أنهم لا يفارقون نبيه إلا بالموت فنهم من قضى نحبه أى قاتل حتى قتل فوفى بنذره والنحب النذر ، ومنهم من هو بعد فى القتال ينتظر الشهادة وفاء بالعهد وما بدلوا تبديلا بخلاف المنافقين فإنهم قالوا لا نولى الأدبار فبدلوا قولهم وولوا أدبارهم وقوله (ليجزى الله الصادقين بصدقهم) أى بصدق ما وعدهم فى الدنيا والآخرة كما صدقوا مواعيدهم ويعذب المنافقين الذين كذبوا واخلفوا وقوله (إن شاء) ذلك فيمنعهم من الإيمان

وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾

أو يتوب عليهم إن أراد. وإنما قال ذلك حيث لم يكن قد حصل يأس النبي عليه الصلاة والسلام عن إيمانهم وآمن بعد ذلك ناس منهم وقوله (وكان الله غفوراً) حيث ستر ذنوبهم و(رحيما) حيث رحمهم ورزقهم الإيمان فيكون هذا فيمن آمن بعده أو نقول (ويعذب المنافقين) مع أنه كان غفوراً رحيما لكثرة ذنبهم وقوة جرمهم ولو كان دون ذلك لغفر لهم ثم بين بعض ما جازاهم الله به على صدقهم فقال (ورد الله الذين كفروا بغيظهم) أى مع غيظهم لم يشفوا صدراً ولم يحققوا أمراً (وكفى الله المؤمنين القتال) أى لم يحوجهم إلى قتال (وكان الله قوياً) غير محتاج إلى قتالهم عزيزاً قادراً على استئصال الكفار وإذلالهم.

قوله تعالى: ﴿ وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً ﴾

أى عاونوهم من أهل الكتاب وهم بنو قريظة من صياصيهم من قلاعهم وقذف فى قلوبهم الرعب حتى سلموا أنفسهم للقتل وأولادهم ونسائهم للسبي فريقاً تقتلون وهم الرجال، وتأسرون فريقاً وهم الصبيان والنسوان، فان قيل هل فى تقديم المفعول حيث قال فريقاً تقتلون وتأخيره حيث قال (وتأسرون فريقاً) فائدة؟ قلت قد أجبنا أن ما من شىء من القرآن إلا وله فوائد منها ما يظهر ومنها ما لا يظهر، والذى يظهر من هذا والله أعلم أن القائل يبدأ بالأهم فالأهم والأعرف فالأعرف والأقرب فالأقرب، والرجال كانوا مشهورين فكان القتل وارداً عليهم والأسرى كانوا هم النساء والصغار ولم يكونوا مشهورين والسبي والأسر أظهر من القتل لأنه يبقى فيظهر لكل أحد أنه أسير فقدم من المحلين ما هو أشهر على الفعل القائم به وما هو أشهر من الفعلين قدمه على المحل الأخفى، وإن شئنا نقول بعبارة توافق المسائل النحوية فنقول قوله (فريقاً تقتلون) فعل ومفعول والأصل فى الجمل الفعلية تقديم الفعل على المفعول والفاعل، أما أنها جملة فعلية فلأنها لو كانت أسمية لكان الواجب فى فريق الرفع وكان يقول فريق منهم تقتلونهم فلما نصب كان ذلك بفعل مضمر يفسره الظاهر تقديره تقتلون فريقاً تقتلون والحامل على مثل هذا الكلام شدة الاهتمام ببيان المفعول، وههنا كذلك لأنه تعالى لما ذكر حال الذين ظاهروهم وأنه قذف فى قلوبهم الرعب فلو قال تقتلون إلى أن يسمع السامع مفعول تقتلون يكون زمان وقد يمنعه مانع فيفوته فلا يعلم أنهم هم المقتولون، فأما إذا قال فريقاً مع سبق فى قلوبهم الرعب إلى سمعه يستمع إلى تمام الكلام وإذا كان الأول فعلا ومفعولا قدم المفعول لفائدة عطف الجملة الثانية عليها على

وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

الأصل فقدم تقديم الفعل لزوال موجب التقديم إذا عرف حالهم وما يجئ بعده يكون مصروفاً إليهم ، ولو قال بعد ذلك وفريقاً تأسرون فمن سمع فريقاً ربما يظن أن يقال فيهم يطلقون ، أولا يقدرون عليهم فكان تقديم الفعل ههنا أولى ، وكذلك الكلام فى قوله (وأنزل الذين ظاهروهم) وقوله (وقذف) فان قذف الرعب قبل الإنزال لأن الرعب صار سبب الإنزال ، ولكن لما كان الفرح فى إنزالهم أكثر ، قدم الإنزال على قذف الرعب والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطئوها وكان الله على كل شئ قديراً ﴾ .

فيه ترتيب على ماكان ، فان المؤمنين أولا تملكوا أرضهم بالنزول فيها والاستيلاء عليها ثم تملكوا ديارهم بالدخول عليهم وأخذ قلاعهم ثم أموالهم التى كانت فى بيوتهم وقوله (وأرضاً لم تطئوها) قيل المراد القلاع وقيل المراد الروم وأرض فارس وقيل كل ما يؤخذ إلى يوم القيامة (وكان الله على كل شئ قديراً)هذا يؤكد قول من قال إن المراد من قولهم(وأرضاً لم تطئوها) هو ما سيؤخذ بعد بنى قريظة ، ووجهه هو أن الله تعالى لما ملكهم تلك البلاد ووعدهم بغيرها دفع استبعاد من لا يكون قوى الاتكال على الله تعالى وقال أليس الله ملككم هذه فهو على كل شئ قدير يملككم غيرها .

ثم قال تعالى : ﴿ يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا ، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيما ﴾

وجه التعلق هو أن مكارم الأخلاق منحصرة فى شيئين التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله ، وإلى هذا أشار عليه السلام بقوله «الصلاة وما ملكت أيمانكم» ، ثم إن الله تعالى لما أرشد نبيه إلى ما يتعلق بجانب التعظيم لله بقوله (يا أيها النبى اتق الله) ذكر مايتعلق بجانب الشفقة وبدأ بالزوجات فإنهن أولى الناس بالشفقة ، ولهذا قدمهن فى النفقة .وفى الآية مسائل فقهية منها أن التخيير

هل كان واجباً على النبي عليه السلام أم لا ؟ فنقول التخيير قولا كان واجباً من غير شك لأنه إبلاغ الرسالة ، لأن الله تعالى لما قال له قل لهم صار من الرسالة ، وأما التخيير معنى فمبنى على أن الأمر للوجوب أم لا ؟ والظاهر أنه للوجوب ، ومنها أن واحدة منهن لواختارت الفراق هل كان يصير اختيارها فراقاً والظاهر أنه لايصير فراقاً وإنما تبين المختارة نفسها بإبانة من جهة النبي صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى (فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلا) ومنها أن واحدة منهن إن اختارت نفسها وقلنا بأنها لا تبين إلا بإبانة من جهة النبي عليه السلام فهل كان يجب على النبي عليه السلام الطلاق أم لا ؟ الظاهر نظراً إلى منصب النبي عليه السلام أنه كان يجب ، لأن الخلف في الوعد من النبي غير جائز بخلاف واحد منا ، فانه لا يلزمه شرعاً الوفاء بما يعد ومنها أن المختارة بعد البينونة هل كانت تحرم على غيره أم لا ، والظاهر أنها لا تحرم ، وإلا لا يكون التخيير ممكناً لها من التمتع بزينة الدنيا ، ومنها أن من اختارت الله ورسوله كان يحرم على النبي عليه الصلاة والسلام طلاقها أم لا ؟ الظاهر الحرمة نظراً إلى منصب الرسول عليه الصلاة والسلام على معنى أن النبي عليه السلام لا يباشره أصلا ، بمعنى أنه لو أتى به لعوقب أو عوتب ، وفيها لطائف لفظية منها تقديم اختيار الدنيا ، إشارة إلى أن النبي عليه الصلاة والسلام غير ملتفت إلى جانبهن غاية الإلتفات وكيف وهو مشغول بعبادة ربه ، ومنها قوله عليه السلام (أسرحكن سراحاً جميلا) إشارة إلى ماذكرنا ، فان السراح الجميل مع التأذى القوى لا يجتمع فى العادة ، فعلم أن النبي عليه الصلاة والسلام ما كان يتأثر من اختيارهن فراقه بدليل أن التسريح الجميل منه ، ومنها قوله(وإن كنتن تردن الله) إعلاماً لهن بأن فى اختيار النبي عليه السلام اختيار الله ورسوله والدار الآخرة وهذه الثلاثة هى الدين وقوله (أعد للمحسنات منكن) أى لمن عمل صالحاً منكن ، وقوله (تردن الله ورسوله والدار الآخرة) فيه معنى الإيمان ، وقوله (للمحسنات) لبيان الإحسان حتى تكون الآية فى المعنى ، كقوله تعالى (ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن) وقوله تعالى (من آمن وعمل صالحاً) وقوله (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) والأجر العظيم الكبير فى الذات الحسن فى الصفات الباقى فى الأوقات ، وذلك لأن العظيم فى الأجسام لايطلق إلا على الزائد فى الطول وفى العرض وفى العمق ، حتى لو كان زائداً فى الطول يقال له طويل ، ولو كان زائداً فى العرض يقال له عريض ، وكذلك العميق، فاذا وجدت الأمور الثلاثة قيل عظيم ، فيقال جبل عظيم إذا كان عالياً ممتداً فى الجهات ، وإن كان مرتفعاً فحسب يقال جبل عال ، إذا عرفت هذا فأجر الدنيا فى ذاته قليل وفى صفاته غير خال عن جهة قبح ، لما فى مأكوله من الضرر والثقل ، وكذلك فى مشروبه وغيره من اللذات وغير دائم ، وأجر الآخرة كثير خال عن جهات القبح دائم فهو عظيم .

يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ يانساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيراً ﴾

لما خيرهن النبي ﷺ واخترن الله ورسوله أدبهن الله وهددهن للتوقى عما يسوء النبي عليه السلام ويقبح بهن من الفاحشة التى هى أصعب على الزوج من كل ما تأتى به زوجته وأوعدهن بتضعيف العذاب وفيه حكمتان (إحداهما) ان زوجة الغير تعذب على الزنا بسبب ما فى الزنا من المفاسد وزوجة النبي تعذب إن أتت به لذلك ولإيذاء قلبه والإزراء بمنصبه ، وعلى هذا بنات النبي عليه السلام كذلك . ولأن امرأة لو كانت تحت النبي ﷺ وأتت بفاحشة تكون قد اختارت غير النبي عليه السلام ، ويكون ذلك الغير خيراً عندها من النبي وأولى ، والنبي أولى من النفس التى هى أولى من الغير ، فقد نزلت منصب النبي مرتبتين فتعذب من العذاب ضعفين (ثانيتهما) أن هذا إشارة إلى شرفهن ، لأن الحرة عذابها ضعف عذاب الأمة إظهاراً لشرفها ، ونسبة النبي إلى غيره من الرجال نسبة السادات إلى العبيد لكونه أولى بهم من أنفسهم، فكذلك زوجاته وقرائبه اللاتى هن أمهات المؤمنين ، وأم الشخص امرأة حاكمة عليه واجبة الطاعة ، وزوجته مأمورة محكومة له وتحت طاعته ، فصارت زوجة الغير بالنسبة إلى زوجة النبي عليه السلام كالأمة بالنسبة إلى الحرة ، واعلم أن قول القائل من يفعل ذلك فى قوة قوله (لئن أشركت ليحبطن عملك) من حيث إن ذلك ممكن الوقوع فى أول النظر ، ولا يقع فى بعض الصور جزماً . وفى بعض يقع جزماً من مات فقد استراح ، وفى البعض يتردد السامع فى الأمرين ، فقوله تعالى (من يأت منكن بفاحشة) عندنا من القبيل الأول ، فان الأنبياء صان الله زوجاتهم عن الفاحشة ، وقوله تعالى (وكان ذلك على الله يسيراً) أى ليس كونكن تحت النبي عليه السلام وكونكن شريفات جليلات مما يدفع العذاب عنكن ، وليس أمر الله كأمر الخلق حيث يتعذر عليهم تعذيب الأعزة بسبب كثرة أوليائهم وأعوانهم أو شفعائهم وإخوانهم .

ثم قال تعالى : ﴿ ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقاً كريماً ﴾

قوله تعالى : ﴿ ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً ﴾ بياناً لزيادة ثوابهن ، كما بين

يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾

زيادة عقابهن (نؤتها أجرها مرتين) فى مقابلة قوله تعالى(يضاعف لها العذاب ضعفين) مع لطيفة وهى أن عند إيتاء الأجر ذكر المؤتى وهو الله ، وعند العذاب لم يصرح بالمعذب فقال (يضاعف) إشارة إلى كمال الرحمة والكرم ، كما أن الكريم الحى عند النفع يظهر نفسه وفعله ، وعند الضر لايذكر نفسه ، وقوله تعالى (وأعتدنا لها رزقاً كريماً) وصف رزق الآخرة بكونه كريماً ، مع أن الكريم لا يكون إلا وصفاً للرزاق إشارة إلى معنى لطيف ، وهو أن الرزق فى الدنيا مقدر على أيدى الناس ، التاجر يسترزق من السوقة ، والمعاملين والصناع من المستعملين ، والملوك من الرعية والرعية منهم ، فالرزق فى الدنيا لا يأتى بنفسه ، وإنما هو مسخر للغير يمسكه ويرسله إلى الأغيار. وأما فى الآخرة فلا يكون له مرسل وممسك فى الظاهر فهو الذى يأتى بنفسه ، فلأجل هذا لا يوصف فى الدنيا بالكريم إلا الرزاق ، وفى الآخرة يوصف بالكريم نفس الرزق .

قوله تعالى : ﴿ يانساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفاً ﴾

ثم قال تعالى : ﴿ يانساء النبى لستن كأحد من النساء ﴾ لما ذكر أن عذابهن ضعف عذاب غيرهن وأجرهن مثلا أجر غيرهن صرن كالحرائر بالنسبة إلى الإماء ، فقال (لستن كأحد) ومعنى قول القائل ليس فلان كآحاد الناس ، يعنى ليس فيه مجرد كونه إنساناً ، بل وصف أخص موجود فيه ، وهو كونه عالماً أو عاملا أو نسيباً أو حسيباً ، فان الوصف الأخص إذا وجد لا يبقى التعريف بالأعم ، فان من عرف رجلا ولم يعرف منه غير كونه رجلا يقول رأيت رجلا فان عرف علمه يقول رأيت زيداً أو عمراً ، فكذلك قوله تعالى (لستن كأحد من النساء) يعنى فيكن غير ذلك أمر لا يوجد فى غيركن وهو كونكن أمهات جميع المؤمنين وزوجات خير المرسلين ، وكما أن محمداً عليه السلام ليس كأحد من الرجال ، كما قال عليه السلام « لست كأحدكم » كذلك قرائبه اللاتى يشرفن به وبين الزوجين نوع من الكفاءة .

ثم قوله تعالى (إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول) يحتمل وجهين : (أحدهما) أن يكون متعلقاً بما قبله على معنى لستن كأحد إن اتقيتن فإن الأكرم عند الله هو الأتقى (وثانيهما) أن يكون متعلقاً بما بعده على معنى إن اتقيتن فلا تخضعن والله تعالى لما منعهن من الفاحشة وهى الفعل القبيح منعهن من مقدماتها وهى المحادثة مع الرجال والانقياد فى الكلام للفاسق . ثم قوله تعالى (فيطمع الذى فى قلبه مرض) أى فسق وقوله تعالى (وقلن قولا معروفاً) أى ذكر الله ، وما تحتجن إليه

وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾

من الكلام والله تعالى لما قال (فلا تخضعن بالقول) ذكر بعده (وقلن) إشارة إلى أن ذلك ليس أمراً بالإيذاء والمنكر بل القول المعروف وعند الحاجة هو المأمور به لاغيره.

قوله تعالى: ﴿ وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكوة وأطعن الله ورسوله ﴾.

قوله تعالى (وقرن فى بيوتكن) من القرار وإسقاط أحد حرفى التضعيف كما قال تعالى (فظلتم تفكهون) وقيل بأنه من الوقار كما يقال وعد يعد عد وقوله (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) قيل معناه لا تتكسرن ولا تتغنجن، ويحتمل أن يكون المراد لا تظهرن زينتكن وقوله تعالى (الجاهلية الأولى) فيه وجهان: (أحدهما) أن المراد من كان فى زمن نوح والجاهلية الأخرى من كان بعده (وثانيهما) أن هذه ليست أولى تقتضى أخرى بل معناه تبرج الجاهلية القديمة كقول القائل: أين الأكاسرة الجبابرة الأولى.

ثم قال تعالى (وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله) يعنى ليس التكليف فى النهى فقط حتى يحصل بقوله تعالى (لا تخضعن، ولا تبرجن) بل فيه وفى الأوامر (فأقمن الصلاة) التى هى ترك التشبه بالجبار المتكبر (وآتين الزكاة) التى هى تشبه بالكريم الرحيم (وأطعن الله) أى ليس التكليف منحصراً فى المذكور بل كل ما أمر الله به فأتين به وكل مانهى الله عنه فانتهين عنه

ثم قال تعالى: ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ﴾.

يعنى ليس المنتفع بتكليفكن هو الله ولا تنفعن الله فيما تأتين به. وإنما نفعه لكن وأمره تعالى إياكن لمصلحتكن، وقوله تعالى (ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم) فيه لطيفة وهى أن الرجس قد يزول عيناً ولا يطهر المحل فقوله تعالى (ليذهب عنكم الرجس) أى يزيل عنكم الذنوب ويطهركم أى يلبسكم خلع الكرامة، ثم إن الله تعالى ترك خطاب المؤنثات وخاطب بخطاب المذكرين بقوله (ليذهب عنكم الرجس) ليدخل فيه نساء أهل بيته ورجالهم، واختلفت الأقوال فى أهل البيت، والأولى أن يقال هم أولاده وأزواجه والحسن والحسين منهم وعلى منهم لأنه كان من أهل بيته بسبب معاشرته ببنت النبى عليه السلام وملازمته للنبى.

وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ

قوله تعالى : ﴿واذكرن مايتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة﴾ أى القرآن (والحكمة) أى كلمات النبي عليه السلام إشارة إلى ما ذكرنا من أن التكاليف غير منحصرة فى الصلاة والزكاة ، وما ذكر الله فى هذه الآية فقال (واذكرن مايتلى) ليعلمن الواجبات كلها فيأتين بها ، والمحرمات بأسرها فينتهين عنها .

[وقوله] ﴿إن الله كان لطيفاً خبيراً﴾ إشارة إلى أنه خبير بالبواطن ، لطيف فعلمه يصل إلى كل شيء ومنه اللطيف الذى يدخل فى المسام الضيقة ويخرج من المسالك المسدودة .

ثم قال تعالى ﴿إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات﴾ لما أمرهن ونهاهن وبين مايكون لهن وذكر لهن عشر مراتب (الأولى) الاسلام والانقياد لأمر الله (والثانية) الإيمان بما يرد به أمر الله ، فان المكلف أولا يقول كل ما يقوله أقبله فهذا إسلام ، فاذا قال الله شيئاً وقبله صدق مقالته وصحح اعتقاده فهو إيمان ثم إعتقاده يدعوه إلى الفعل الحسن والعمل الصالح فيقنت ويعبد وهو (المرتبة الثالثة) المذكورة بقوله ﴿والقانتين والقانتات﴾ ثم إذا آمن وعمل صالحاً كمل فيكمل غيره ويأمر بالمعروف وينصح أخاه فيصدق فى كلامه عند النصيحة وهو المراد بقوله ﴿والصادقين والصادقات﴾ ثم إن من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يصيبه أذى فيصبر عليه كما قال تعالى ﴿والصابرين والصابرات﴾ ثم إنه إذا كمل وكمل قد يفتخر بنفسه ويعجب بعبادته فمنعه منه بقوله ﴿والخاشعين والخاشعات﴾ أو نقول لما ذكر هذه الحسنات أشار إلى ما يمنع منها وهو إما حب الجاه أو حب المال من الأمور الخارجية أو الشهوة من الأمور الداخلة ، والغضب منهما يكون لأنه يكون بسبب نقص جاه أو فوت مال أو منع من أمر مشتهى فقوله (والخاشعين والخاشعات) أى المتواضعين الذين لايميلهم الجاه عن العبادة ، ثم قال تعالى ﴿والمتصدقين والمتصدقات﴾ أى الباذلين الأموال الذين لايكنزونها لشدة محبتهم إياها . ثم قال تعالى ﴿والصائمين والصائمات﴾ إشارة إلى الذين لا تمنعهم الشهوة البطنية من عبادة الله . ثم قال تعالى ﴿والحافظين فروجهم والحافظات﴾ أى الذين لا تمنعهم الشهوة الفرجية .

وَٱلْحَـٰفِظَـٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى

ثم قال تعالى : ﴿والذاكرين الله كثيراً والذاكرات﴾ يعنى هم فى جميع هذه الأحوال يذكرون الله ويكون إسلامهم وإيمانهم وقنوتهم وصدقهم وصبرهم وخشوعهم وصدقتهم وصومهم بنية صادقة لله ، واعلم أن الله تعالى فى أكثر المواضع حيث ذكر الذكر قرنه بالكثرة ههنا ، وفى قوله بعد هذا (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً) وقال من قبل (لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا) لأن الإكثار من الأفعال البدنية غير ممكن أو عسر فإن الإنسان أكله وشربه وتحصيل مأكوله ومشروبه يمنعه من أن يشتغل دائماً بالصلاة ولكن لا مانع له من أن يذكر الله تعالى وهو آكل ويذكره وهو شارب أو ماش أو بائع أو شار ، وإلى هذا أشار بقوله تعالى (الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم) ولأن جميع الأعمال صحتها بذكر الله تعالى وهى النية .

ثم قال تعالى : ﴿أعد الله لهم مغفرة﴾ تمحو ذنوبهم وقوله ﴿وأجراً عظيما﴾ ذكرناه فيما تقدم .

ثم قال تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن تكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً ﴾

قيل بأن الآية نزلت فى زينب حيث أراد النبى ﷺ تزويجها من زيد بن حارثة فكرهت إلا النبى عليه السلام وكذلك أخوها امتنع فنزلت الآية فرضيا به ، والوجه أن يقال إن الله تعالى لما أمر نبيه بأن يقول لزوجاته إنهن مخيرات فهم منه أن النبى ﷺ لا يريد ضرر الغير فمن كان ميله إلى شىء يمكنه النبى عليه السلام من ذلك ، ويترك النبى عليه السلام حق نفسه لحظ غيره ، فقال فى هذه الآية لا ينبغى أن يظن ظان أن هوى نفسه متبعه وأن زمام الاختيار بيد الإنسان كما فى الزوجات ، بل ليس لمؤمن ولا مؤمنة أن يكون له اختيار عند حكم الله ورسوله فما أمر الله هو المتبع وما أراد النبى هو الحق ومن خالفهما فى شىء فقد ضل ضلالا مبيناً ، لأن الله هو المقصد والنبى هو الهادى الموصل ، فمن ترك المقصد ولم يسمع قول الهادى فهو ضال قطعاً .

ثم قال تعالى : ﴿ وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى

نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا
زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟
مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ
ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ

فى نفسك ماالله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكى لايكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولا ﴾

وهو زيد أنعم الله عليه بالإسلام (وأنعمت عليه) بالتحرير والإعتاق (أمسك عليك زوجك) هم زيد بطلاق زينب فقال له النبى أمسك أى لا تطلقها (واتق الله) قيل فى الطلاق، وقيل فى الشكوى من زينب، فان زيداً قال فيها إنها تتكبر على بسبب النسب وعدم الكفاءة (وتخفى فى نفسك ماالله مبديه) من أنك تريد التزوج بزينب (وتخشى الناس) من أن يقولوا أخذ زوجة الغير أو الإبن (والله أحق أن تخشاه) ليس إشارة إلى أن النبى خشى الناس ولم يخش الله بل المعنى الله أحق أن تخشاه وحده ولا تخش أحداً معه وأنت تخشاه وتخشى الناس أيضاً، فاجعل الخشية له وحده كما قال تعالى (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله).

ثم قال تعالى (فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها) أى لما طلقها زيد وانقضت عدتها وذلك لأن الزوجة مادامت فى نكاح الزوج فهى تدفع حاجته وهو محتاج إليها، فلم يقض منها الوطر بالكلية ولم يستغن وكذلك إذا كان فى العدة له بها تعلق لإمكان شغل الرحم فلم يقض منها بعد وطره، وأما إذا طلق وانقضت عدتها استغنى عنها ولم يبق له معها تعلق فيقضى منها الوطر وهذا موافق لما فى الشرع لأن التزوج بزوجة الغير أو بمعتدته لا يجوز فلهذا قال (فلما قضى) وكذلك قوله (لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً) أى إذا طلقوهن وانقضت عدتهن، وفيه إشارة إلى أن التزويج من النبى عليه السلام لم يكن لقضاء شهوة النبى عليه السلام بل لبيان الشريعة بفعله فان الشرع يستفاد من فعل النبى وقوله (وكان أمر الله مفعولا) أى مقضياً ماقضاه كائن.

ثم بين أن تزوجه عليه السلام بها مع أنه كان مبيناً لشرع مشتمل على فائدة كان خالياً من المفاسد فقال:

﴿ ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له سنة الله فى الذين خلوا من قبل وكان أمر الله

يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾

قدراً مقدوراً﴾ يعني كان شرع من تقدمه كذلك، كان يتزوج الأنبياء بنسوة كثيرة أبكار ومطلقات الغير (وكان أمر الله قدراً مقدوراً) أي كل شيء بقضاء وقدر والقدر التقدير وبين المفعول والمقدور فرق مقول بين القضاء والقدر، فالقضاء ماكان مقصوداً في الأصل والقدر مايكون تابعاً له، مثاله من كان يقصد مدينة فنزل بطريق تلك المدينة بخان أو قرية يصح منه في العرف أن يقول في جواب من يقول لم جئت إلى هذه القرية؟ إني ماجئت إلى هذه وإنما قصدت المدينة الفلانية وهذه وقعت في طريقي وإن كان قد جاءها ودخلها، إذا عرفت هذا فان الخير كله بقضاء وما في العالم من الضرر بقدر، فالله تعالى خلق المكلف بحيث يشتهي ويغضب، ليكون اجتهاده في تغليب العقل والدين عليهما مثاباً عليه بأبلغ وجه فأفضى ذلك في البعض إلى أن زنى وقتل فالله لم يخلقهما فيه مقصوداً منه القتل والزنا وإن كان ذلك بقدر الله إذا علمت هذا ففي قوله تعالى أولا (وكان أمر الله مفعولا) وقوله ثانياً (وكان أمر الله قدراً مقدوراً) لطيفة وهي أنه تعالى لما قال (زوجناكها) قال (وكان أمر الله مفعولا) أي تزويجنا زينب إياك كان مقصوداً متبوعا مقضياً مراعى، ولما قال (سنة الله في الذين خلوا) إشارة إلى قصة داود عليه السلام حيث افتتن بامرأة أوريا قال (وكان أمر الله قدراً مقدوراً) أي كان ذلك حكما تبعياً، فلو قال قائل هذا قول المعتزلة بالتوليد والفلاسفة بوجوب كون الأشياء على وجوه مثل كون النار تحرق حيث قالوا الله تعالى أراد أن يخلق ما ينضج الأشياء وهو لا يكون إلا محرقاً بالطبع لخلق النار للنفع فوقع اتفاق أسباب أوجبت احتراق دار زيد أو دار عمرو. فنقول معاذ الله أن نقول بأن الله غير مختار في أفعاله أو يقع شيء لا باختياره، ولكن أهل السنة يقولون أجرى الله عادته بكذا أي وله أن يخلق النار بحيث عند حاجة إنضاج اللحم تنضج وعند مساس ثوب العجوز لا تحرق، ألا ترى أنها لم تحرق إبراهيم عليه السلام مع قوتها وكثرتها لكن خلقها على غير ذلك الوجه بمحض إرادته أو لحكمة خفية ولا يسأل عما يفعل، فنقول ماكان في مجرى عادته تعالى على وجه تدركه العقول البشرية نقول بقضاء، وما يكون على وجه يقع لعقل قاصر أن يقول لم كان ولماذا لم يكن على خلافه نقول بقدر، ثم بين الذين خلوا بقوله:

﴿الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً﴾

يعني كانوا هم أيضاً مثلك رسلا، ثم ذكره بحالهم أنهم جردوا الخشية ووحدوها بقوله (ولا يخشون أحداً إلا الله) فصار كقوله (فبهداهم اقتده) وقوله (وكفى بالله حسيباً) أي محاسباً

مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾

فلا تخش غيره أو محسوباً فلا تلتفت إلى غيره ولا تجعله فى حسابك .

قوله تعالى : ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شىء عليما ﴾ .

لما بين الله ما فى تزوج النبى عليه السلام بزينب من الفوائد بين أنه كان خالياً من وجوه المفاسد ، وذلك لأن ما كان يتوهم من المفسدة كان منحصراً فى التزوج بزوجة الابن فانه غير جائز فقال الله تعالى إن زيداً لم يكن ابناً له لا بل أحد الرجال لم يكن ابن محمد ، فان قائل النبى كان أبا أحد من الرجال لأن الرجل اسم الذكر من أولاد آدم قال تعالى (وإن كانوا إخوة رجالاونساء) والصبى داخل فيه ، فنقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن الرجل فى الاستعمال يدخل فى مفهومه الكبر والبلوغ ولم يكن للنبى عليه السلام ابن كبير يقال إنه رجل (والثانى) هو أنه تعالى قال (من رجالكم) ووقت الخطاب لم يكن له ولد ذكر ، ثم إنه تعالى لما نفى كونه أباً عقبه بما يدل على ثبوت ماهو فى حكم الأبوة من بعض الوجوه فقال (ولكن رسول الله) فان رسول الله كالأب للأمة فى الشفقة من جانبه ، وفى التعظيم من طرفهم بل أقوى فإن النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، والأب ليس كذلك ، ثم بين ما يفيد زيادة الشفقة من جانبه والتعظيم من جهتهم بقوله (وخاتم النبيين) وذلك لأن النبى الذى يكون بعده نبى إن ترك شيئاً من النصيحة والبيان يستدركه من يأتى بعده ، وأما من لا نبى بعده يكون أشفق على أمته وأهدى لهم وأجدى ، إذ هو كوالد لولده الذى ليس له غيره من أحد وقوله (وكان الله بكل شىء عليما) يعنى علمه بكل شىء دخل فيه أن لا نبى بعده فعلم أن من الحكمة إكمال شرع محمد صلى الله عليه وسلم بتزوجه بزوجة دعيه تكميلا للشرع وذلك من حيث إن قول النبى صلى الله عليه وسلم يفيد شرعا لكن إذا امتنع هو عنه يبقى فى بعض النفوس نفرة ، ألا ترى أنه ذكر بقوله ما فهم منه حل أكل الضب ثم لما لم يأكله بقى فى النفوس شىء ولما أكل لحم الجمل طاب أكله مع أنه فى بعض الملل لا يؤكل وكذلك الأرنب .

ثم قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً ﴾

وجه تعلق الآية بما قبلها هو أن السورة أصلها ومبناها على تأديب النبى ﷺ وقد ذكرنا أن الله تعالى بدأ بذكر ما ينبغى أن يكون عليه النبى عليه السلام مع الله وهو التقوى وذكر ما ينبغى أن يكون عليه النبى عليه السلام مع أهله وأقاربه بقوله (يا أيها النبى قل لأزواجك) والله تعالى يأمر

وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ

عباده المؤمنين بما يأمر به أنبياءه المرسلين فأرشد عباده كما أدب نبيه وبدأ بما يتعلق بجانبه من التعظيم فقال (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً) كما قال لنبيه (يا أيها النبى اتق الله) .

(ثم ههنا لطيفة) وهى أن المؤمن قد ينسى ذكر الله فأمر بدوام الذكر ، أما النبى لكونه من المقربين لا ينسى ولكن قد يغتر المقرب من الملك بقربه منه فيقل خوفه فقال (اتق الله) فان المخلص على خطر عظيم وحسنة الأولياء سيئة الأنبياء وقوله (ذكراً كثيراً) قد ذكرنا أن الله فى كثير من المواضع لما ذكر الذكر وصفه بالكثرة إذ لا مانع من الذكر على ما بينا .

وقوله تعالى ﴿ وسبحوه بكرة وأصيلا ﴾ أى إذا ذكرتموه فينبغى أن يكون ذكركم إياه على وجه التعظيم والتنزيه عن كل سوء وهو المراد بالتسبيح وقيل المراد منه الصلاة وقيل للصلاة تسبيحه بكرة وأصيلا إشارة إلى المداومة وذلك لأن مريد العموم قد يذكر الطرفين ويفهم منهما الوسط كقوله عليه السلام « لو أن أولكم وآخركم » ولم يذكر وسطكم ففهم منه المبالغة فى العموم .

ثم قال تعالى : ﴿ هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما ﴾ يعنى هو يصلى عليكم ويرحمكم وأنتم لا تذكرونه فذكر صلاته تحريضاً للمؤمنين على الذكر والتسبيح (ليخرجكم من الظلمات إلى النور) يعنى يهديكم برحمته والصلاة من الله رحمة ومن الملائكة استغفار فقيل بأن اللفظ المشترك يجوز استعماله فى معنييه معاً وكذلك الجمع بين الحقيقة والمجاز فى لفظ جائز وينسب هذا القول إلى الشافعى رضى الله عنه وهو غير بعيد فإن أريد تقريبه بحيث يصير فى غاية القرب نقول الرحمة والاستغفار يشتركان فى العناية بحال المرحوم والمستغفر له والمراد هو القدر المشترك فتكون الدلالة تضمنية لكون العنايه جزأ منهما وكان بالمؤمنين رحيما بشارة لجميع المؤمنين واشارة إلى أن قوله (يصلى عليكم) غير مختص بالسامعين وقت الوحى ،

ثم قال تعالى : ﴿ تحيتهم يوم يلقونه سلام ﴾ لما بين الله عنايته فى الأولى بين عنايته فى الآخرة وذكر السلام لأنه هو الدليل على الخيرات فان من لقى غيره وسلم عليه دل على المصافاة بينهما وإن لم يسلم دل على المنافاة وقوله (يوم يلقونه) أى يوم القيامة وذلك لأن الإنسان فى دنياه غير مقبل بكليته على الله وكيف وهو حالة نومه غافل عنه وفى أكثر أوقاته مشغول بتحصيل رزقه ، وأما فى الآخرة فلا شغل لأحد يلهيه عن ذكر الله فهو حقيقة اللقاء .

وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾

ثم قال تعالى : ﴿ وأعدلهم أجراً كريماً ﴾ لو قائل قائل الإعداد إنما يكون ممن لا يقدر عند الحاجة إلى الشيء عليه ، وأما الله تعالى فلا حاجة ولا عجز فحيث يلقاه الله يؤتيه ما يرضى به وزيادة فما معنى الاعداد من قبل فنقول الإعداد للاكرام لا للحاجة وهذا كما أن الملك إذا قيل له فلان واصل ، فاذا أراد إكرامه يهيء له بيتاً وأنواعاً من الإكرام ولا يقول بأنه إذا وصل نفتح باب الخزانة ونؤتيه مايرضيه فكذلك الله لكمال الاكرام أعد للذاكر أجرا كريماً والكريم قدذكرناه فى الرزق أى أعدله أجراً يأتيه من غير طلبه بخلاف الدنيا فانه يطلب الرزق ألف مرة ولا يأتيه إلا بقدر . وقوله (تحيتهم يوم يلقونه سلام) مناسب لحالهم لأنهم لما ذكروا الله فى دنياهم حصل لهم معرفة ولما سبحوه تأكدت المعرفة حيث عرفوه كما ينبغى بصفات الجلال ونعوت الكمال والله يعلم حالهم فى الدنيا فأحسن إليهم بالرحمة ، كما قال تعالى (هو الذى يصلى عليكم) وقال(وكان بالمؤمنين رحيما) والمتعارفان إذا التقيا وكان أحدهما شفيقاً بالآخر والآخر معظما له غاية التعظيم لا يتحقق بينهما إلا السلام وأنواع الاكرام .

ثم قال تعالى : ﴿ يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴾ قد ذكرنا أن السورة فيها تأديب للنبى عليه السلام من ربه فقوله فى ابتدائها (يا أيها النبى اتق الله) اشارة إلى ماينبغى أن يكون عليه مع ربه وقوله (يا أيها النبى قل لأزواجك) إشارة إلى ما ينبغى أن يكون عليه مع أهله وقوله (يا أيها النبى إنا أرسلناك) إشارة إلى ما ينبغى أن يكون عليه مع عامة الخلق وقوله تعالى (شاهداً) يحتمل وجوهاً (أحدها) أنه شاهد على الخلق يوم القيامة كما قال تعالى (ويكون الرسول عليكم شهيداً) وعلى هذا فالنبى بعث شاهداً أى متحملا للشهادة ويكون فى الآخرة شهيداً أى مؤدياً لما تحمله (ثانيها) أنه شاهد أن لا إله إلا الله ، (وعلى هذا لطيفة) وهو أن الله جعل النبى شاهداً على الوحدانية والشاهد لا يكون مدعياً فالله تعالى لم يجعل النبى فى مسئلة الوحدانية مدعياً لها لأن المدعى من يقول شيئاً على خلاف الظاهر والوحدانية أظهر من الشمس والنبى عليه السلام كان ادعى النبوة فجعل الله نفسه شاهداً له فى مجازاة كونه شاهداً لله فقال تعالى (والله يشهد أنك لرسوله) (وثالثها) أنه شاهد فى الدنيا بأحوال الآخرة من الجنة والنار والميزان والصراط وشاهد فى الآخرة بأحوال الدنيا بالطاعة والمعصية والصلاح والفساد وقوله (ومبشراً ونذيراً وداعياً) فيه ترتيب حسن وذلك من حيث إن النبى عليه السلام أرسل شاهداً بقول لا إله إلا الله ويرغب فى ذلك بالبشارة فان لم يكف

ذلك يرهب بالإنذار ثم لا يكتفى بقولهم لا إله إلا الله بل يدعوهم إلى سبيل الله كما قال تعالى (ادع إلى سبيل ربك) وقوله (وسراجاً منيراً) أى مبرهناً على ما يقول مظهراً له بأوضح الحجج وهو المراد بقوله تعالى (بالحكمة والموعظة الحسنة).

وفيه لطائف (إحداها) قوله تعالى (وداعياً إلى الله بإذنه) حيث لم يقل وشاهداً باذنه ومبشراً وعند الدعاء قال وداعياً باذنه ، وذلك لأن من يقول عن ملك إنه ملك الدنيا لاغيره لايحتاج فيه إلى إذن منه فانه وصفه بما فيه وكذلك إذا قال من يطيعه يسعد ومن يعصه يشقى يكون مبشراً ونذيراً ولا يحتاج إلى إذن من الملك فى ذلك ، وأما إذا قال تعالوا إلى سماطه ، واحضروا على خوانه يحتاج فيه إلى إذنه فقال تعالى (وداعياً إلى الله باذنه) ووجه آخر وهو أن النبى يقول إنى أدعو إلى الله والولى يدعو إلى الله ، والأول لا إذن له فيه من أحد ، والثانى مأذون من جهة النبى عليه السلام كما قال تعالى (قل هذه سبيلى أدعوا إلى على بصيرة أنا ومن اتبعنى) وقال عليه الصلاة والسلام « رحم الله عبداً سمع مقالتى فأداها كما سمعها » والنبى عليه السلام هو المأذون من الله فى الدعاء إليه من غير واسطة .

﴿ اللطيفة الثانية ﴾ قال فى حق النبى عليه السلام سراجا ولم يقل إنه شمس مع أنه أشد إضاءة من السراج لفوائد منها ، أن الشمس نورها لايؤخذ منه شىء والسراج يؤخذ منه أنوار كثيرة فاذا انطفأ الأول يبقى الذى أخذ منه ، وكذلك إن غاب والنبى عليه السلام كان كذلك إذ كل صحابى أخذ منه نور الهداية كما قال عليه السلام « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » وفى الخبر لطيفة وإن كانت ليست من التفسير ولكن الكلام يجر الكلام وهى أن النبى عليه السلام لم يجعل أصحابه كالسرج وجعلهم كالنجوم لأن النجم لا يؤخذ منه نور بل له فى نفسه نور إذا غرب هو لا يبقى نور مستفاد منه ، وكذلك الصحابى إذا مات فالتابعى يستنير بنور النبى عليه السلام ولا يأخذ منه إلا قول النبى عليه السلام وفعله ، فأنوار المجتهدين كلهم من النبى عليه السلام ولو جعلهم كالسرج والنبى عليه السلام أيضاً سراج كان للمجتهد أن يستنير بمن أراد منهم ويأخذ النور ممن اختار ، وليس كذلك فان مع نص النبى عليه السلام لا يعمل بقول الصحابى فيؤخذ من النبى النور ولا يؤخذ من الصحابى فلم يجعله سراجاً وهذا يوجب ضعفاً فى حديث سراج الأمة والمحدثون ذكروه وفى تفسير السراج وجه آخر وهو أن المراد منه القرآن وتقديره إنا أرسلناك ، وسراجا منيراً عطفاً على محل الكاف أى وأرسلنا سراجاً منيراً وعلى قولنا إنه عطف على مبشراً ونذيراً يكون معناه وذا سراج لأن الحال لا يكون إلا وصفاً للفاعل أو المفعول ، والسراج ليس وصفاً لأن النبى عليه السلام لم يكن سراجاً حقيقة أو يكون كقول القائل رأيته أسداً أى شجاعاً فقوله سراجاً أى هادياً مبيناً كالسراج يرى الطريق ويبين الأمر .

وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ عطف على مفهوم تقديره إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً فاشهد وبشر ولم يذكر فاشهد للاستغناء عنه ، وأما البشارة فانها ذكرت إبانة للكرم ولأنها غير واجبة لولا الأمر قوله تعالى : ﴿ بأن لهم من الله فضلا كبيراً ﴾ هو مثل قوله (وأعد لهم أجراً عظيما) فالعظيم والكبير متقاربان وكونه من الله كبير فكيف إذا كان مع ذلك كبارة أخرى .

قوله تعالى : ﴿ ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ﴾ إشارة إلى الإنذار يعني خالفهم وورد عليهم وعلى هذا فقوله تعالى (ودع أذاهم) أي دعه إلى الله فإنه يعذبهم بأيديكم وبالنار ، ويبين هذا قوله تعالى (وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا) أي الله كاف عبده ، قال بعض المعتزلة لايجوز تسمية الله بالوكيل لأن الوكيل أدون من الموكل وقوله تعالى (وكفى بالله وكيلا) حجة عليه وشبهته واهية من حيث إن الوكيل قد يوكل للترفع وقد يوكل للعجز والله وكيل عباده لعجزهم عن التصرف ، وقوله تعالى (وكفى بالله وكيلا) يتبين إذا نظرت في الأمور التي لأجلها لايكفي الوكيل الواحد منها أن لا يكون قوياً قادراً على العمل كالملك الكثير الأشغال يحتاج إلى وكلاء لعجز الواحد عن القيام بجميع أشغاله ، ومنها أن لا يكون عالماً بما فيه التوكيل ، ومنها أن لايكون غنياً ، والله تعالى عالم قادر وغير محتاج فيكفي وكيلا .

ثم قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن سراحاً جميلا ﴾ .

وجه تعلق الآية بما قبلها هو أن الله تعالى في هذه السورة ذكر مكارم الأخلاق وأدب نبيه على ما ذكرناه . لكن الله تعالى أمر عباده المؤمنين بما أمر به نبيه المرسل فكلما ذكر للنبي مكرمة وعلمه أدباً ذكر للمؤمنين مايناسبه ، فكما بدأ الله في تأديب النبي عليه الصلاة والسلام بذكر مايتعلق بجانب الله بقوله (ياأيها النبي اتق الله) وثنى بما يتعلق بجانب من تحت يده من أزواجه بقوله بعد (ياأيها النبي قل لأزواجك) وثلث بما يتعلق بجانب العامة بقوله (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً)

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ

كذلك بدأ فى إرشاد المؤمنين بما يتعلق بجانب الله فقال (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً) ثم ثنى بما يتعلق بجانب من تحت أيديهم بقوله (يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات) ثم كما ثلث فى تأديب النبي بجانب الأمة ثلث فى حق المؤمنين بما يتعلق بجانب نبيهم ، فقال بعد هذا (يا أيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوت النبى) وبقوله (ياأيها الذين آمنوا صلوا عليه) وفى الآية مسائل :

﴿ إحداها ﴾ إذا كان الأمر على ما ذكرت من أن هذا إرشاد إلى مايتعلق بجانب من هو من خواص المرء فلم خص المطلقات اللاتى طلقن قبل المسيس بالذكر ؟ فنقول هذا إرشاد إلى أعلى درجات المكرمات ليعلم منها مادونها وبيانه هو أن المرأة إذا طلقت قبل المسيس لم يحصل بينهما تأكد العهد ، ولهذا قال الله تعالى فى حق الممسوسة (وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً) وإذا أمر الله بالتمتع والإحسان مع من لامودة بينه وبينها فما ظنك بمن حصلت المودة بالنسبة إليها بالإفضاء أو حصل تأكدها بحصول الولد بينهما والقرآن فى الحجم صغير ولكن لو استنبطت معانيه لاتفى بها الأقلام ولا تكفى لها الأوراق ، وهذا مثل قوله تعالى (فلا تقل لهما أف)لو قال لاتضربهما أو لاتشتمهما ظن أنه حرام لمعنى مختص بالضرب أو الشتم ، أما إذا قال لاتقل لهما أف علم منه معان كثيرة وكذلك ههنا لماأمر بالإحسان مع من لامودة معها علم منه الاحسان مع الممسوسة ومن لم تطلق بعد ومن ولدت عنده منه .

وقوله (إذا نكحتم المؤمنات) التخصيص بالذكر إرشاد إلى أن المؤمن ينبغى أن ينكح المؤمنة فانها أشد تحصيناً لدينه ، وقوله (ثم طلقتموهن) يمكن التمسك به فى أن تعليق الطلاق بالنكاح ، لا يصح لأن التطليق حينئذ لا يكون إلا بعد النكاح والله تعالى ذكره بكلمة ثم ، وهى للتراخى وقوله (فما لكم عليهن من عدة) بين أن العدة حق الزوج فيها غالب وإن كان لايسقط باسقاطه لما فيه من حق الله تعالى ، وقوله (تعتدونها) أى تستوفون أنتم عددها(فتمتعوهن)قيل بأنه مختص بالمفوضة التى لم يسم لها إذا طلقت قبل المسيس وجب لها المتعة ، وقيل بأنه عام وعلى هذا فهو أمر وجوب أو أمر ندب اختلف العلماء فيه ، فمنهم من قال للوجوب فيجب مع نصف المهر المتعة أيضاً ، ومنهم من قال للاستحباب فيستحب أن يمتعها مع الصداق بشىء ، وقوله تعالى (وسرحوهن سراحا جميلا) الجمال فى التسريح أن لا يطالبها بما آتاها .

ثم قال تعالى : ﴿ يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن وما ملكت يمينك

ٱلَّـٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَـةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَـا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَـا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾

مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرت معك وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفوراً رحيما﴾ .

ذكر للنبي عليه السلام ماهو الأولى فإن الزوجة التي أوتيت مهرها أطيب قلباً من التي لم تؤت ، والمملوكة التي سباها الرجل بنفسه أطهر من التي اشتراها الرجل لأنها لا يدرى كيف حالها ، ومن هاجرت من أقارب النبي عليه السلام معه أشرف ممن لم تهاجر ، ومن الناس من قال بأن النبي عليه الصلاة والسلام كان يجب عليه إعطاء المهر أولا ، وذلك لأن المرأة لها الامتناع إلى أن تأخذ مهرها والنبي عليه السلام ما كان يستوفى ما لا يجب له ، والوطء قبل إيتاء الصداق غير مستحق وإن كان كان حلالا لنا وكيف والنبي عليه السلام إذا طلب شيئاً حرم الامتناع عن المطلوب والظاهر أن الطالب فى المرة الأولى ، إنما يكون هو الرجل لحياء المرأة فلو طلب النبي عليه السلام من المرأة التمكين قبل المهر للزم أن يجب وأن لا يجب وهذا محال ولا كذلك أحدنا ، وقال ويؤكد هذا قوله تعالى (وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي) يعنى حينئذ لا يبقى لها صداق فتصير كالمستوفية مهرها ، وقوله تعالى (إن أراد النبي أن يستنكحها) إشارة إلى أن هبتها نفسها لا بد معها من قبول وقوله تعالى (خالصة لك من دون المؤمنين) قال الشافعي رضى الله عنه معناه إباحة الوطء بالهبة وحصول التزوج بلفظها من خواصك ، وقال أبو حنيفة تلك المرأة صارت خالصة لك زوجة ومن أمهات المؤمنين لا تحل لغيرك أبداً ، والترجيح يمكن أن يقال بأن على هذا فالتخصيص بالواهبة لا فائدة فيه فان أزواجه كلهن خالصات له وعلى ما ذكرنا يتبين للتخصيص فائدة وقوله (قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم) معناه أن ماذكرنا فرضك وحكمك مع نسائك وأما حكم أمتك فعندنا علمه ونبينه لهم وإنما ذكر هذا لئلا يحمل واحد من المؤمنين نفسه على ماكان للنبي عليه الصلاة والسلام فان له فى النكاح خصائص ليست لغيره وكذلك فى السرارى . وقوله تعالى (لكيلا يكون عليك حرج) أى تكون فى فسحة من الأمر فلا يبقى لك شغل قلب فينزل الروح الأمين بالآيات على قلبك الفارغ وتبلغ رسالات ربك بجدك واجتهادك ، وقوله

تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾

لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾

تعالى (وكان الله غفوراً رحيما) يغفر الذنوب جميعاً ويرحم العبيد .

قوله تعالى : ﴿ ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ﴾ .

لما بين أنه أحل له ما ذكرنا من الأزواج بين أنه أحل له وجوه المعاشرة بهن حتى يجتمع كيف يشاء ولا يجب عليه القسم ، وذلك لأن النبي عليه السلام بالنسبة إلى أمته نسبة السيد المطاع والرجل وإن لم يك نبياً فالزوجة فى ملك نكاحه والنكاح عليها رق ، فكيف زوجات النبي عليه السلام بالنسبة إليه ، فإذن هن كالمملوكات له ولا يجب القسم بين المملوكات . والإرجاء التأخير والإيواء الضم (ومن ابتغيت ممن عزلت) يعنى إذا طلبت من كنت تركتها فلا جناح عليك فى شىء من ذلك ومن قال بأن القسم كان واجباً مع أنه ضعيف بالنسبة إلى المفهوم من الآية قال المراد (ترجى من تشاء) أى تؤخرهن إذا شئت إذ لا يجب القسم فى الأول وللزوج أن لا ينام عند أحد منهن ، وإن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك فابدأ بمن شئت وتمم الدور والأول أقوى .

قوله تعالى : ﴿ ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن ﴾ .

يعنى إذا لم يجب عليك القسم وأنت لا تترك القسم (تقر أعينهن) لتسويتك بينهن ولا يحزن بخلاف ما لو وجب عليك ذلك ، فليلة تكون عند إحداهن تقول ما جاء فى لهوى قلبه إنما جاء لأمر الله وإيجابه عليه (ويرضين بما آتيتهن) من الإرجاء والإيواء إذ ليس لهن عليك شىء حتى لا يرضين.

قوله تعالى : ﴿ والله يعلم ما فى قلوبكم وكان الله عليما حليما ﴾ .

أى إن أضمرن خلاف ما أظهرن فالله يعلم ضمائر القلوب فانه عليم ، فان لم يعاتبهن فى الحال فلا يغترن فانه حليم لا يعجل .

قوله تعالى : ﴿ لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن

إلا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شيء رقيباً ﴾ .

لما لم يوجب الله على نبيه القسم وأمره بتخييرهن فاخترن الله ورسوله ذكر لهن ماجازاهن به من تحريم غيرهن على النبي عليه السلام ومنعه من طلاقهن بقوله (ولا أن تبدل بهن) وفيه مسائل:

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (لا يحل لك النساء من بعد) قال المفسرون من بعدهن والأولى أن يقال لا يحل لك النساء من بعد اختيارهن الله ورسوله ورضاهن بما يؤتيهن من الوصل والهجران والنقص والحرمان .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (ولا أن تبدل بهن) يفيد حرمة طلاقهن إذ لو كان جائزاً لجاز أن يطلق الكل ، وبعدهن إما أن يتزوج بغيرهن أولا يتزوج فان لم يتزوج يدخل فى زمرة العزاب والنكاح فضيلة لا يتركها النبي ، وكيف وهو يقول «النكاح سنتي» وإن تزوج بغيرهن يكون قد تبدل بهن وهو ممنوع من التبدل .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ من المفسرين من قال بأن الآية ليس فيها تحريم غيرهن ولا المنع من طلاقهن بل المعنى أن لا يحل لك النساء غير اللاتي ذكرنا لك من المؤمنات المهاجرات من بنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك ، وأما غيرهن من الكتابيات فلا يحل لك التزوج بهن وقوله (ولا أن تبدل بهن) منع من شغل الجاهلية فإنهم كانوا يبادلون زوجة بزوجة فينزل أحدهم عن زوجته ويأخذ زوجة صديقه ويعطيه زوجته ، وعلى التفسيرين وقع خلاف فى مسألتين (إحداهما) حرمة طلاق زوجاته (والثانية) حرمة تزوجه بالكتابيات فمن فسر على الأول حرم الطلاق ومن فسر على الثاني حرم التزوج بالكتابيات .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (ولو أعجبك حسنهن) أي حسن النساء. قال الزمخشري قوله (ولو أعجبك) فى معنى الحال ، ولا يجوز أن يكون ذو الحال قوله (من أزواج) لغاية التنكير فيه ولكون ذى الحال لا يحسن أن يكون نكرة فإذن هو النبي عليه السلام ، يعني لا يحل لك النساء ولا أن تبدل بهن من أزواج وأنت معجب بحسنهن .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ ظاهر هذا ناسخ لما كان قد ثبت له عليه السلام من أنه إذا رأى واحدة فوقعت فى قلبه موقعاً كانت تحرم على الزوج ويجب عليه طلاقها ، وهذه المسألة حكمية وهي أن النبي عليه السلام وسائر الأنبياء فى أول النبوة تشتد عليهم برحاء الوحي ثم يستأنسون به فينزل عليهم وهم يتحدثون مع أصحابهم لا يمنعهم من ذلك مانع ، ففي أول الأمر أحل الله من وقع فى قلبه تفريغاً لقلبه وتوسيعاً لصدره لئلا يكون مشغول القلب بغير الله ، ثم لما استأنس بالوحي وبمن على لسانه الوحي نسخ ذلك ، إما لقوته عليه السلام للجمع بين الأمرين ، وإما أنه بدوام الانزال لم يبق له مألوف من أمور الدنيا ، فلم يبق له التفات إلى غير الله ، فلم يبق له حاجة إلى إحلال التزوج بمن وقع بصره عليها .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا

﴿ المسألة السادسة ﴾ اختلف العلماء فى أن تحريم النساء عليه هل نسخ أم لا ؟ فقال الشافعى نسخ وقد قالت عائشة ما مات النبى إلا وأحل له النساء ، وعلى هذا فالناسخ قوله (يا أيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك) إلى أن قال (وبنات عمك) وقال (وامرأة مؤمنة) على قول من يقول لا يجوز نسخ الكتاب بخبر الواحد إذ الناسخ غير متواتر إن كان خبراً .

ثم قال تعالى (إلا ماملكت يمينك) لم يحرم عليه المملوكات لأن الإيذاء لا يحصل بالمملوكة ، ولهذا لم يجز للرجل أن يجمع بين ضرتين فى بيت لحصول التسوية بينهما وإمكان المخاصمة ، ويجوز أن يجمع الزوجة وجمعاً من المملوكات لعدم التساوى بينهن ولهذا لا قسم لهن على أحد .

ثم قال تعالى (وكان الله على كل شئ رقيباً)أى حافظاً عالماً بكل شئ قادراً عليه ، لأن الحفظ لا يحصل إلا بهما .

قوله تعالى :﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ﴾

لما ذكر الله تعالى فى النداء الثالث (يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً) بياناً لحاله مع أمته العامة قال للمؤمنين فى هذا النداء لا تدخلوا إرشاداً لهم وبياناً لحالهم مع النبى عليه السلام من الاحترام ثم إن حال الأمة مع النبى على وجهين (أحدهما) فى حال الخلوة والواجب هناك عدم إزعاجه وبين ذلك بقوله (لا تدخلوا بيوت النبى) (وثانيهما) فى الملأ والواجب هناك إظهار التعظيم كما قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) وقوله (إلى طعام غير ناظرين إناه) أى لا تدخلوا بيوت النبى إلى طعام إلا أن يؤذن لكم .

قوله تعالى :﴿ ولكن إذا دعيتم فادخلوا فاذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذى النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من

إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾

وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيما ﴾

لما بين من حال النبي أنه داع إلى الله بقوله (وداعياً إلى الله) قال ههنا لا تدخلوا إلا إذا دعيتم يعني كما أنكم ما دخلتم الدين إلا بدعائه فكذلك لا تدخلوا عليه إلا بعد دعائه وقوله (غير ناظرين) منصوب على الحال. والعامل فيه على ما قاله الزمخشري لاتدخلوا قال وتقديره لاتدخلوا بيوت النبي إلا مأذونين غير ناظرين، وفي الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ قوله (إلا أن يؤذن لكم إلى طعام) إما أن يكون فيه تقديم وتأخير تقديره ولا تدخلوا إلى طعام إلا أن يؤذن لكم، فلا يكون منعاً من الدخول في غير وقت الطعام بغير الإذن، وإما أن لا يكون فيه تقديم وتأخير فيكون معناه ولاتدخلوا إلا أن يؤذن لكم إلى طعام فيكون الإذن مشروطاً بكونه إلى الطعام فإن لم يؤذن لكم إلى طعام فلا يجوز الدخول فلو أذن لواحد في الدخول لاستماع كلام لا لأكل طعام لا يجوز، نقول المراد هو الثاني ليعم النهي عن الدخول، وأما قوله فلا يجوز إلا بالإذن الذي إلى طعام، نقول : قال الزمخشري الخطاب مع قوم كانوا يجيئون حين الطعام ويدخلون من غير إذن فمنعوا من الدخول في وقته بغير إذن، والأولى أن يقال المراد هو الثاني لأن التقديم والتأخير خلاف الأصل وقوله (إلى طعام) من باب التخصيص بالذكر فلا يدل على نفي ماعداه، لا سيما إذا علم أن غيره مثله فان من جاز دخول بيته بإذنه إلى طعامه جاز دخوله إلى غير طعامه بإذنه، فان غير الطعام يمكن وجوده مع الطعام، فان من الجائز أن يتكلم معه وقتما يدعوه إلى طعام ويستقضيه في حوائجه ويعلمه مما عنده من العلوم مع زيادة الإطعام، فاذا رضي بالكل فرضاه بالبعض أقرب إلى الفعل فيصير من باب (ولا تقل لهما أف) وقوله (غير ناظرين) يعني أنتم لا تنتظروا وقت الطعام فانه ربما لا يتهيأ.

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله تعالى (ولكن إذا دعيتم فادخلوا) فيه لطيفة وهي أن في العادة إذا قيل لمن كان يعتاد دخول دار من غير إذن لا تدخلها إلا بإذن يتأذى وينقطع بحيث لا يدخلها أصلا لا بالدعاء ولا بالدعاء، فقال لا تفعلوا مثل ما يفعله المستنكفون بل كونوا طائعين سامعين إذا قيل لكم لا تدخلوا لا تدخلوا وإذا قيل لكم ادخلوا فادخلوا، وإناه قيل وقته وقيل استواؤه وقوله (إلا أن يؤذن) يفيد الجواز وقوله (ولكن إذا دعيتم فادخلوا) يفيد الوجوب فقوله (ولكن إذا دعيتم) ليس تأكيداً بل هو يفيد فائدة جديدة.

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لا يشترط في الإذن التصريح به، بل إذا حصل العلم بالرضا جاز الدخول ولهذا قال (إلا أن يؤذن) من غير بيان فاعل، فالآذن إن كان الله أو النبي أو العقل المؤيد بالدليل

إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾

جاز والنقل دال عليه حيث قال تعالى (أو صديقكم) وحد الصداقة لما ذكرنا ، فلو جاء أبو بكر وعلم أن لا مانع فى بيت عائشة من بيوت النبى عليه السلام من تكشف أو حضور غير محرم عندها أو علم خلو الدار من الأهل أوهى محتاجة إلى إطفاء حريق فيها أو غير ذلك ، جاز الدخول .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (فاذا طعمتم فانتشروا) كأن بعض الصحابة أطال المكث يوم وليمة النبى عليه السلام فى عرس زينب ، والنبى عليه السلام لم يقل له شيئاً ، فوردت الآية جامعة لآداب ، منها المنع من إطالة المكث فى بيوت الناس ، وفى معنى البيت موضع مباح اختاره شخص لعبادته أو اشتغاله بشغل فيأتيه أحد ويطيل المكث عنده ، وقوله (ولا مستأنسين لحديث) قال الزمخشرى هو عطف على (غير ناظرين) مجرور ، ويحتمل أن يكون منصوباً عطفاً على المعنى ، فان معنى قوله تعالى (لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم) لا تدخلوها هاجمين ، فعطف عليه (ولا مستأنسين) ثم إن الله تعالى بين كون ذلك أدباً وكون النبى حليما بقوله (إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحيى منكم والله لايستحيي من الحق) إشارة إلى أن ذلك حق وأدب ، وقوله كان إشارة إلى تحمل النبى عليه السلام ، ثم ذكر الله أدباً آخر وهو قوله (وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب) لما منع الله الناس من دخول بيوت النبىعليه السلام ، وكان فى ذلك تعذر الوصول إلى الماعون ، بين أن ذلك غير ممنوع منه فليسأل وليطلب من وراء حجاب ، وقوله (ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن) يعنى العين روزنة القلب ، فاذا لم تر العين لا يشتهى القلب . أما إن رأت العين فقد يشتهى القلب وقد لا يشتهى ، فالقلب عند عدم الرؤية أطهر ، وعدم الفتنة حينئذ أظهر ، ثم إن الله تعالى لما علم المؤمنين الأدب أكده بما يحملهم على محافظته ، فقال (وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله) وكل ما منعتم عنه مؤذ فامتنعوا عنه ، وقوله تعالى (ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً) قيل سبب نزوله أن بعض الناس قيل هو طلحة بن عبيد الله ، قال لئن عشت بعد محمد لأنكحن عائشة ، وقد ذكرنا أن اللفظ العام لايغير معناه سبب النزول ، فان المراد أن إيذاء الرسول حرام ، والتعريض لنسائه فى حياته إيذاء فلا يجوز ، ثم قال لا بل ذلك غير جائز مطلقاً . ثم أكد بقوله (إن ذلكم كان عند الله عظيما) أى إيذاء الرسول

قوله تعالى : ﴿ إن تبدوا شيئاً أو تخفوه فان الله كان بكل شىء عليما ﴾ .

يعنى إن كنتم لا تؤذونه فى الحال وتعزمون على إيذائه أو نكاح أزواجه بعده ، فالله عليم بذات الصدور .

لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ

ثم إن الله تعالى لما أنزل الحجاب استثنى المحارم بقوله﴿لا جناح عليهن فى آبائهن ولا أبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن ولا نسائهن ولا ما ملكت أيمانهن﴾ وفى الآية مسائل:

﴿الأولى﴾ فى الحجاب أوجب السؤال من وراء الحجاب على الرجال. فلم لم يستثن الرجال عن الجناح، ولم يقل لاجناح على آبائهن؟ فنقول قوله تعالى (فاسألوهن من وراء حجاب) أمر بسدل الستر عليهن وذلك لا يكون إلا بكونهن مستورات محجوبات وكان الحجاب وجب عليهن، ثم أمر الرجال بتركهن كذلك، ونهوا عن هتك أستارهن فاستثنين عند الآباء والأبناء. (وفيه لطيفة) وهى أن عند الحجاب أمر الله الرجل بالسؤال من وراء حجاب، ويفهم منه كون المرأة محجوبة عن الرجل بالطريق الأولى. وعند الاستثناء قال تعالى(لاجناح عليهن) عند رفع الحجاب عنهن، فالرجال أولى بذلك.

﴿المسألة الثانية﴾ قدم الآباء لأن اطلاعهم على بناتهن أكثر. وكيف وهم قد رأوا جميع بدن البنات فى حال صغرهن، ثم الأبناء ثم الإخوة وذلك ظاهر. إنما الكلام فى بنى الإخوة حيث قدمهم الله تعالى على بنى الأخوات، لأن بنى الأخوات آباؤهم ليسوا بمحارم إنما هم أزواج خالات أبنائهم، وبنى الأخوة آباؤهم محارم أيضاً، ففى بنى الأخوات مفسدة ما وهى أن الابن ربما يحكى خالته عند أبيه وهو ليس بمحرم ولا كذلك بنو الإخوة.

﴿المسألة الثالثة﴾ لم يذكر الله من المحارم الأعمام والأخوال، فلم يقل ولا أعمامهن ولا أخوالهن لوجهين (أحدهما) أن ذلك علم من بنى الإخوة وبنى الأخوات، لأن من علم أن بنى الأخ للعمات محارم علم أن بنات الأخ للأعمام محارم، وكذلك الحال فى أمر الخال (ثانيهما) أن الأعمام ربما يذكرون بنات الأخ عند أبنائهم وهم غير محارم، وكذلك الحال فى ابن الخال.

﴿المسألة الرابعة﴾ (ولا نسائهن) مضافة إلى المؤمنات حتى لا يجوز التكشف للكافرات فى وجه.

﴿المسألة الخامسة﴾ (ولا ما ملكت أيمانهن) هذا بعد الكل، فان المفسدة فى التكشف لهم ظاهرة، ومن الأئمة من قال المراد من كان دون البلوغ.

وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾

ثم قوله تعالى ﴿ واتقين الله ﴾ عند المماليك دليل على أن التكشف لهم مشروط بشرط السلامة والعلم بعدم المحذور . وقوله ﴿ إن الله كان على كل شيء شهيداً ﴾ في غاية الحسن في هذا الموضع ، وذلك لأن ما سبق إشارة إلى جواز الخلوة بهم والتكشف لهم ، فقال إن الله شاهد عند اختلاء بعضكم ببعض ، فخلوتكم مثل ملئكم بشهادة الله تعالى فاتقوا .

قوله تعالى : ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبي ﴾ لما أمر الله المؤمنين بالاستئذان وعدم النظر إلى وجوه نسائه احتراماً كمل بيان حرمته ، وذلك لأن حالته منحصرة في اثنتين حالة خلوته ، وذكر ما يدل على احترامه في تلك الحالة بقوله (لا تدخلوا بيوت النبي) وحالة يكون في ملأ . والملأ إما الملأ الأعلى ، وإما الملأ الأدنى ، أما في الملأ الأعلى فهو محترم ، فان الله وملائكته يصلون عليه . وأما في الملأ الأدنى فذلك واجب الاحترام بقوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ﴾ وفي الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ الصلاة الدعاء يقال في اللغة صلى عليه ، أي دعا له ، وهذا المعنى غير معقول في حق الله تعالى فانه لايدعو له ، لأن الدعاء للغير طلب نفعه من ثالث . فقال الشافعي رضي الله عنه استعمل اللفظ بمعان ، وقد تقدم في تفسير قوله (هو الذي يصلي عليكم وملائكته) والذي نزيده ههنا هو أن الله تعالى قال هناك (هو الذي يصلي عليكم وملائكته) جعل الصلاة لله وعطف الملائكة على الله ، وههنا جمع نفسه وملائكته وأسند الصلاة إليهم فقال (يصلون) وفيه تعظيم النبي عليه الصلاة والسلام ، وهذا لأن إفراد الواحد بالذكر وعطف الغير عليه يوجب تفضيلا للمذكور على المعطوف ، كما أن الملك إذا قال يدخل فلان وفلان أيضاً يفهم منه تقديم لا يفهم لو قال فلان وفلان يدخلان ، إذا علمت هذا ، فقال في حق النبي عليه السلام إنهم يصلون إشارة إلى أنه في الصلاة على النبي عليه السلام كالأصل وفي الصلاة على المؤمنين الله يرحمهم ، ثم إن الملائكة يوافقونه فهم في الصلاة على النبي عليه السلام يصلون بالإضافة كأنها واجبة عليهم أو مندوبة سواء صلى الله عليه أو لم يصل وفي المؤمنين ليس كذلك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ هذا دليل على مذهب الشافعي لأن الأمر للوجوب فتجب الصلاة على النبي عليه السلام ولا تجب في غير التشهد فتجب في التشهد .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ سئل النبي عليه السلام كيف نصلي عليك يارسول الله ؟ فقال « قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾

كما باركت على إبراهيم وعلى آل ابراهيم إنك حميد مجيد » .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ إذا صلى الله وملائكته عليه فأى حاجة إلى صلاتنا ؟ نقول الصلاة عليه ليس لحاجته إليها وإلا فلا حاجة إلى صلاة الملائكة مع صلاة الله عليه ، وإنما هو لإظهار تعظيمه ، كما أن الله تعالى أوجب علينا ذكر نفسه ولا حاجة له إليه ، وإنما هو لإظهار تعظيمه منا شفقة علينا ليثيبنا عليه ، ولهذا قال عليه السلام « من صلى على مرة صلى الله عليه عشراً »

﴿ المسألة الخامسة ﴾ لم يترك الله النبي عليه السلام تحت منة أمته بالصلاة حتى عوضهم منه بأمره بالصلاة على الأمة حيث قال (وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم) وقوله (وسلموا تسليما) أمر فيجب ولم يجب فى غير الصلاة فيجب فيها وهو قولنا السلام عليك أيها النبي فى التشهد وهو حجة على من قال بعدم وجوبه وذكر المصدر للتأكيد ليكمل السلام عليه ولم يؤكد الصلاة بهذا التأكيد لأنها كانت مؤكدة بقوله (إن الله وملائكته يصلون على النبي) .

قوله تعالى : ﴿ إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً ﴾ فصل الأشياء بتبيين بعض أضدادها ، فبين حال مؤذى النبي ليبين فضيلة المسلم عليه واللعن أشد المحذورات لأن البعد من الله لا يرجى معه خير بخلاف التعذيب بالنار وغيره . ألا ترى أن الملك إذا تغير على مملوك إن كان تأذيه غير قوى يزجره ولا يطرده ولو خير المجرم [بين] أن يضرب أو يطرد عندما يكون الملك فى غاية العظمة والكرم يختار الضرب على الطرد ، ولا سيما إذا لم يكن فى الدنيا ملك غير سيده ، وقوله (فى الدنيا والآخرة) إشارة إلى بعد لا رجاء للقرب معه ، لأن المبعد فى الدنيا يرجو القربة فى الآخرة ، فاذا أبعد فى الآخرة فقد خاب وخسر ، لأن الله إذا أبعده وطرده فمن الذى يقربه يوم القيامة ، ثم إنه تعالى لم يحصر جزاءه فى الإبعاد بل أوعده بالعذاب بقوله (وأعد لهم عذاباً مهيناً) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكر إيذاء الله وإيذاء الرسول وذكر عقيبه أمرين اللعن والتعذيب فاللعن جزاء الله ، لأن من آذى الملك يبعده عن بابه إذا كان لا يأمر بعذابه ، والتعذيب جزاء إيذاء الرسول لأن الملك إذا آذى بعض عبيده كبير يستوفى منه قصاصه ، لا يقال فعلى هذا من يؤذى الله ولا يؤذى الرسول لا يعذب ، لأنا نقول انفكاك أحدهما على هذا الوجه عن الآخر محال لأن من آذى الله فقد آذى الرسول ، وأما على الوجه الآخر وهو أن من يؤذى النبي عليه السلام ولا يؤذى الله كمن عصى من غير إشراك ، كمن فسق أو فجر من غير ارتداد وكفر ، فقد آذى النبي عليه السلام غير أن الله

وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾

تعالى صبور غفور رحيم فيجزيه بالعذاب ولا يلعنه بكونه يبعده عن الباب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أكد العذاب بكونه مهيناً لأن من تأذى من عبده وأمر بحبسه وضربه فان أمر بحبسه فى موضع يميز ، أو أمر بضربه رجلا كبيراً يدل على أن الأمر هين ، وإن أمر بضربه على ملأ وحبسه بين المفسدين ينبىء عن شدة الأمر ، فمن آذى الله ورسوله من المخلدين فى النار فيعذب عذاباً مهيناً ، وقوله (أعد لهم) للتأكيد لأن السيد إذا عذب عبده حالة الغضب من غير إعداد يكون دون ما إذا أعد له قيداً وغلا ، فان الأول يمكن أن يقال هذا أثر الغضب فإذا سكت الغضب يزول ولا كذلك الثانى .

قوله تعالى : ﴿ والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا ، فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً ﴾ .

لما كان الله تعالى مصلياً على نبيه لم ينفك إيذاء الله عن إيذائه ، فان من آذى الله فقد آذى الرسول فبين الله للمؤمنين أنكم إن أتيتم بما أمرتكم وصليتم على النبى كما صليت عليه ، لاينفك إيذاؤكم عن إيذاء الرسول فيأثم من يؤذيكم لكون إيذائكم إيذاء الرسول ، كما أن إيذائى إيذاؤه وبالجملة لما حصلت الصلاة من الله وللملائكة والرسول والمؤمنين صار لايكاد ينفك إيذاء أحد منهم عن إيذاء الآخر كما يكون حال الأصدقاء الصادقين فى الصداقة ، وقوله (بغير ما اكتسبوا) احتراز عن الأمر بالمعروف من غير عنف زائد ، فان من جلد مائة على شرب الخمر أوحد أربعين على لعب النرد آذى بغير ما اكتسب أيضا ، ومن جلد على الزنا أو حد الشرب لم يؤذ بغير ما اكتسب ، ويمكن أن يقال لم يؤذ أصلا لأن ذلك إصلاح حال المضروب ، وقوله (فقد احتملوا بهتانا) البهتان هو الزور وهو لايكون إلا فى القول والإيذاء قد يكون بغير القول فمن آذى مؤمناً بالضرب أو أخذ ماله لا يكون قد احتمل بهتاناً ، فنقول : المراد والذين يؤذون المؤمنين بالقول . وهذا لأن الله تعالى أراد إظهار شرف المؤمن ، فلما ذكر أن من آذى الله ورسوله لعن ، وإيذاء الله بأن ينكر وجود الله بعد معرفة دلائل وجوده أو يشرك به من لا يبصر ولا يسمع أو من لا يقدر ولا يعلم أو من هو محتاج فى وجوده إلى موجد وهو قول ذكر إيذاء المؤمن بالقول ، وعلى هذا خص الأنبياء بالقول بالذكر لأنه أعم وأتم ، وذلك لأن الإنسان لا يقدر أن يؤذى الله بما يؤلمه من ضرب أو أخذ مايحتاج اليه فيؤذيه بالقول ، ولأن الفقير الغائب لا يمكن إيذاؤه بالفعل ، ويمكن إيذاؤه بالقول بأن يقول فيه مايصل اليه فيتأذى ، والوجه الثانى فى

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾

الجواب هو أن نقول قوله بعدذلك (وإثماً مبيناً) مستدرك فكأنه قال احتمل بهتاناً إن كان بالقول وإثما مبينا كيفما كان الإيذاء، وكيفما كان فان الله خص الإيذاء القولى بالذكر لما بينا أنه أعم ولأنه أتم لأنه يصل إلى القلب. فان الكلام يخرج من القلب واللسان دليله ويدخل فى القلب والآذان سبيله.

قوله تعالى : ﴿ياأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن﴾

لما ذكر أن من يؤذى المؤمنين يحتمل بهتانا وكان فيه منع المكلف عن إيذاء المؤمن، أمر المؤمن باجتناب المواضع التى فيها التهم الموجبة للتأذى لئلا يحصل الايذاء الممنوع منه. ولما كان الايذاء القولى مختصاً بالذكر اختص بالذكر ماهو سبب الأيذاء القولى وهو النساء فان ذكرهن بالسوء يؤذى الرجال والنساء بخلاف ذكر الرجال فان من ذكر امرأة بالسوء تأذت وتأذى أقاربها أكثر من تأذيها، ومن ذكر رجلا بالسوء تأذى ولايتأذى نساؤه، وكان فى الجاهلية تخرج الحرة والأمة مكشوفات يتبعهن الزناة وتقع التهم، فأمر الله الحرائر بالتجلبب.

وقوله ﴿ ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين ﴾ قيل يعرفن أنهن حرائر فلا يتبعن ويمكن أن يقال المراد يعرفن أنهن لايزنين لأن من تستر وجهها مع أنه ليس بعورة لا يطمع فيها أنها تكشف عورتها فيعرفن أنهن مستورات لايمكن طلب الزنا منهن. وقوله ﴿وكان الله غفوراً رحيما﴾ يغفر لكم ما قد سلف برحمته ويثيبكم على ما تأتون به راحماً عليكم.

قوله تعالى : ﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ﴾.

لما ذكر حال المشرك الذى يؤذى الله ورسوله، والمجاهر الذى يؤذى المؤمنين، ذكر حال المسر الذى يظهر الحق ويضمر الباطل وهو المنافق، ولما كان المذكور من قبل أقواماً ثلاثة نظراً إلى اعتبار أمور ثلاثة : وهم المؤذون الله. والمؤذون الرسول، والمؤذون المؤمنين. ذكر من المسرين ثلاثة نظراً إلى اعتبار أمور ثلاثة : (أحدها) المنافق الذى يؤذى الله سراً (والثانى) الذى

مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾

فى قلبه مرض الذى يؤذى المؤمن باتباع نسائه (والثالث) المرجف الذى يؤذى النبى عليه السلام بالإرجاف بقوله غلب محمد وسيخرج من المدينة وسيؤخذ وهؤلاء ، وإن كانوا قوماً واحداً إلا أن لهم ثلاث اعتبارات وهذا فى مقابلة قوله تعالى (إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات) حيث ذكر أصنافاً عشرة وكلهم يوجد فى واحد فهم واحد بالشخص كثير بالاعتبار وقوله (لنغرينك بهم) أى لنسلطنك عليهم ولنخرجنهم من المدينة ، ثم لايجاورونك وتخلو المدينة منهم بالموت أو الإخراج ، ويحتمل أن يكون المراد لنغرينك بهم ، فاذا أغريناك لا يجاورونك ، (والأول) كقول القائل يخرج فلان ويقرأ إشارة إلى أمرين (والثانى) كقوله يخرج فلان ويدخل السوق فنى الأول يقرأ وإن لم يخرج وفى الثانى لا يدخل إلا إذا خرج . والاستثناء فيه لطيفة وهى أن الله تعالى وعد النبى عليه السلام أنه يخرج أعداءه من المدينة وينفيهم على يده إظهاراً لشوكته ، ولو كان النفى بارادة الله من غير واسطة النبى لأخلى المدينة عنهم فى ألطف آن [بقوله] كن فيكون ، ولكن لما أراد الله أن يكون على يد النبى لا يقع ذلك إلا بزمان وإن لطف فقال (ثم لايجاورونك فيها الا قليلا) وهو أن يتهيؤا ويتأهبوا للخروج .

قوله تعالى : ﴿ ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا ﴾ .

أى فى ذلك القليل الذى يجاورونك فيه يكونون ملعونين مطرودين من باب الله وبابك وإذا خرجوا لا ينفكون عن المذلة ، ولا يجدون ملجأ بل أينما يكونون يطلبون ويؤخذون ويقتلون .

قوله تعالى : ﴿ سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ .

يعنى هذا ليس بدعا بكم بل هو سنة جارية وعادة مستمرة تفعل بالمكذبين (ولن تجد لسنة الله تبديلا) أى ليست هذه السنة مثل الحكم الذى يبدل وينسخ فان النسخ يكون فى الأحكام ، أما الأفعال والأخبار فلا تنسخ .

قوله تعالى : ﴿ يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله ﴾ .

لما بين حالهم فى الدنيا أنهم يلعنون ويهانون ويقتلون أراد أن يبين حالهم فى الآخرة فذكرهم بالقيامة وذكر ما يكون لهم فيها فقال (يسألك الناس عن الساعة) أى عن وقت القيامة (قل إنما علمها عند الله) لا يتبين لكم ، فان الله أخفاها لحكمة هى امتناع المكلف عن الاجتراء وخوفهم منها فى كل وقت.

إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً ﴾ إشارة إلى التخويف ، وذلك لأن قول القائل الله يعلم متى يكون الأمر الفلانى ينبىء عن إبطاء الأمر ، ألا ترى أن من يطالب مديوناً بحقه فان استمهله شهراً أوشهرين ربما يصبر ذلك ، وإن قال له اصبر إلى أن يقدم فلان من سفره يقول الله يعلم متى يجىء فلان ، ويمكن أن يكون مجىء فلان قبل انقضاء تلك المدة فقال ههنا (وما يدريك لعل الساعه تكون قريباً) يعنى هى فى علم الله فلا تستبطئوها فربما تقع عن قريب والقريب فعيل يستوى فيه المذكر والمؤنث ، قال تعالى (إن رحمة الله قريب من المحسنين) ولهذا لم يقل لعل الساعة تكون قريبة .

قوله تعالى : ﴿ إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً خالدين فيها أبداً ﴾ يعنى كما أنهم ملعونون فى الدنيا عندكم فكذلك ملعونون عند الله (وأعد لهم سعيراً) كما قال تعالى (لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً خالدين فيها أبداً) مطيلين المكث فيها مستمرين لا أمد لخروجهم

وقوله ﴿ لا يجدون ولياً ولا نصيراً ﴾ لما ذكر خلودهم بين تحقيقه وذلك لأن المعذب لا يخلصه من العذاب إلا صديق يشفع له أو ناصر يدفع عنه ، ولا ولى لهم يشفع ولا نصير يدفع.

قوله تعالى : ﴿ يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ، وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً ﴾

لما بين أنه لا شفيع لهم يدفع عنهم العذاب بين أن بعض أعضائهم أيضاً لا يدفع العذاب عن البعض بخلاف عذاب الدنيا فان الإنسان يدفع عن وجهه الضربة إتقاء بيده فان من يقصد رأسه ووجهه تجده يجعل يده جنة أو يطأطىء رأسه كى لا يصيب وجهه ، وفى الآخرة (تقلب وجوههم فى النار) فما ظنك بسائر أعضائهم التى تجعل جنة للوجه ووقاية له (يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا) فيتحسرون ويندمون حيث لا تغنيهم الندامة والحسرة ، لحصول علمهم بأن الخلاص ليس إلا للمطيع . ثم يقولون (إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا) يعنى بدل طاعة الله تعالى أطعنا السادة وبدل طاعة الرسول أطعنا الكبراء وتركنا طاعة سيد السادات وأكبر الأكابر

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾

فبدلنا الخير بالشر ، فلاجرم فاتنا خير الجنان وأوتينا شر النيران ، ثم إنهم يطلبون بعض التشفى بتعذيب المضلين ويقولون (ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً) أى بسبب ضلالهم وإضلالهم وفى قوله تعالى (ضعفين والعنهم لعناً كثيراً) معنى لطيف وهو أن الدعاء لايكون إلا عند عدم حصول الأمر المدعو به والعذاب كان حاصلا لهم واللعن كذلك فطلبوا ماليس بحاصل وهو زيادة العذاب بقولهم (ضعفين) وزيادة اللعن بقولهم (لعناً كبيراً) .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا ﴾

لما بين الله تعالى أن من يؤذى الله ورسوله يلعن ويعذب وكان ذلك إشارة إلى إيذاء هو كفر ، أرشد المؤمنين إلى الامتناع من إيذاء هودونه وهو لايورث كفراً ، وذلك مثل من لم يرض بقسمة النبي عليه السلام وبحكمه بالفئ لبعض وغير ذلك فقال (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى) وحديث إيذاء موسى مختلف فيه ، قال بعضهم هو إيذاؤهم إياه بنسبته إلى عيب فى بدنه ، وقال بعضهم [إن] قارون قررمع امرأة فاحشة حتى تقول عند بنى إسرائيل إن موسى زنى بى فلما جمع قارون القوم والمرأة حاضرة ألقى الله فى قلبها أنها صدقت ولم تقل مالقنت وبالجملة الايذاء المذكور فى القرآن كاف وهو أنهم قالوا له (اذهب أنت وربك فقاتلا) وقولهم (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) وقولهم (لن نصبر على طعام واحد) إلى غير ذلك فقال للمؤمنين لا تكونوا أمثالهم إذا طلبكم الرسول إلى القتال أى لاتقولوا (اذهب أنت وربك فقاتلا)ولا تسألوا مالم يؤذن لكم فيه«وإذا أمركم الرسول بشئ فأتوا منه ما استطعتم»وقوله(فبرأه الله مما قالوا)على الأول ظاهر لأنه أبرز جسمه لقومه فرأوه وعلموا فساد اعتقادهم ونطقت المرأة بالحق وأمر الملائكة حتى عبروا بهرون عليهم فرأوه غيرمجروح فعلموا براءة موسى عليه السلام عن قتله الذى رموه به ، وعلى ما ذكرنا (فبرأه الله مما قالوا) أى أخرجه عن عهدة ما طلبوا بإعطائه البعض اياهم وإظهاره عدم جواز البعض وبالجملة قطع الله حجتهم ثم ضرب عليهم الذالة والمسكنة وغضب عليهم . وقوله ﴿ وكان عند الله وجيهاً ﴾ أى ذا وجاهة ومعرفة ، والوجيه هو الرجل الذى يكون له وجه أى يكون معروفاً بالخير، وكل أحد وإن كان عند الله معروفاً لكن المعرفة المجردة لاتكفى فى الوجاهة ، فإن من عرف غيره لكونه خادماً له وأجيراً عنده لا يقال هو وجيه عند فلان ، وإنما الوجيه من يكون له خصال حميدة تجعل من شأنه أن يعرف ولا ينكر وكان كذلك .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديداً ، يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ﴾ أرشدهم إلى ماينبغي أن يصدر منهم من الأفعال والأقوال ، أما الأفعال فالخير ، وأما الأقوال فالحق لأن من أتى بالخير وترك الشر فقد اتقى الله ومن قال الصدق قال قولا سديداً ، ثم وعدهم على الأمرين بأمرين : على الخيرات بإصلاح الأعمال فان بتقوى الله يصلح العمل والعمل الصالح يرفع ويبقى فيبقى فاعله خالداً فى الجنة ، وعلى القول السديد بمغفرة الذنوب .

قوله تعالى : ﴿ ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيما ﴾ فطاعة الله هى طاعة الرسول ، ولكن جمع بينهما لبيان شرف فعل المطيع فانه يفعله الواحد اتخذ عند الله عهداً وعند الرسول يدا وقوله (فقد فاز فوزاً عظيما) جعله عظيما من وجهين (أحدهما) أنه من عذاب عظيم والنجاة من العذاب تعظم بعظم العذاب ، حتى أن من أراد أن يضرب غيره سوطاً ثم نجا منه لا يقال فاز فوزاً عظيما ، لأن العذاب الذى نجا منه لو وقع ماكان يتفاوت الأمر تفاوتاً كثيراً (والثانى) أنه وصل إلى ثواب كثير وهو الثواب الدائم الأبدى .

قوله تعالى : ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان أنه كان ظلوماً جهولا ﴾

لما أرشد الله المؤمنين إلى مكارم الأخلاق وأدب النبى عليه السلام بأحسن الآداب ، بين أن التكليف الذى وجهه الله إلى الإنسان أمر عظيم فقال (إنا عرضنا الأمانة) أى التكليف وهو الأمر بخلاف مافى الطبيعة ، واعلم أن هذا النوع من التكليف ليس فى السموات ولا فى الأرض لأن الأرض والجبل والسماء كلها على ماخلقت عليه ؛ الجبل لا يطلب منه السير والأرض لا يطلب منها الصعود ولا من السماء الهبوط ولا فى الملائكة لأن الملائكة وإن كانوا مأمورين منهيين عن أشياء لكن ذلك لهم كالأكل والشرب لنا فيسبحون الليل والنهار لا يفترون كما يشتغل الإنسان بأمر موافق لطبعه ، وفى الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ فى الأمانة وجوه كثيرة منها من قال هو التكليف وسمى أمانة لأن من قصر فيه

فعليه الغرامة ، ومن وفر فله الكرامة .ومنهم من قال هو قول لا إله إلا الله وهو بعيد فان السموات والأرض والجبال بألسنتها ناطقة بأن الله واحد لا إله إلا هو ، ومنهم من قال الأعضاء فالعين أمانة ينبغى أن يحفظها والأذن كذلك واليد كذلك ، والرجل والفرج واللسان ، ومنهم من قال معرفة الله بما فيها والله أعلم

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى العرض وجوه منهم من قال المراد العرض ومنهم من قال الحشر ومنهم من قال المقابلة أى قابلنا الأمانة على السموات فرجحت الأمانة على أهل السموات والأرض .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ (فى السموات والأرض) وجهان (أحدهما) أن المراد هى بأعيانها ، (والثانى) المراد أهلوها ، ففيه إضمار تقديره : إنا عرضنا الأمانة على أهل السموات والأرض .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (فأبين أن يحملنها) لم يكن إباؤهن كإباء إبليس فى قوله تعالى (أبى أن يكون مع الساجدين) من وجهين (أحدهما) أن هناك السجود كان فرضاً ، وههنا الأمانة كانت عرضاً (وثانيهما) أن الإباء كان هناك استكباراً وههنا استصغاراً استصغرن أنفسهن ، بدليل قوله (وأشفقن منها) .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ ما سبب الإشفاق ؟ نقول الأمانة لا تقبل لوجوه (أحدها) أن يكون عزيزاً صعب الحفظ كالأوانى من الجواهر التى تكون عزيزة سريعة الانكسار ، فان العاقل يمتنع عن قبولها ولو كانت من الذهب والفضة لقبلها ولو كانت من الزجاج لقبلها ، فى الأول لأمانه من هلاكها ، وفى الثانى لكونها غير عزيزة الوجود والتكليف كذلك (والثانى) أن يكون الوقت زمان شهب وغارة فلا يقبل العاقل فى ذلك الوقت الودائع ، والأمر كان كذلك لأن الشيطان وجنوده كانوا فى قصد المكلفين إذ العرض كان بعد خروج آدم من الجنة (الثالث) مراعاة الأمانة والإتيان بما يجب كإيداع الحيوانات التى تحتاج إلى العلف والسقى وموضع مخصوص يكون برسمها ، فان العاقل يمتنع من قبولها بخلاف متاع يوضع فى صندوق أو فى زاوية بيت والتكليف كذلك فانه يحتاج إلى تربية وتنمية .

﴿ المسألة السادسة ﴾ كيف حملها الانسان ولم تحملها هذه الأشياء ؟ فيه جوابان (أحدهما) بسبب جهله بما فيها وعلمهن . ولهذا قال تعالى (إنه كان ظلوماً جهولا) . (والثانى) أن الأشياء نظرت إلى أنفسهن فرأين ضعفهن فامتنعن ، والانسان نظر إلى جانب المكلف ، وقال المودع عالم قادر لا يعرض الأمانة إلا على أهلها وإذا أودع لا يتركها بل يحفظها بعينه وعونه فقبلها ، وقال (إياك نعبد وإياك نستعين) .

﴿ المسألة السابعة ﴾ قوله تعالى (إنه كان ظلوما جهولا) فيه وجوه (أحدها) أن المراد منه آدم ظلم نفسه بالمخالفة ولم يعلم ما يعاقب عليه من الاخراج من الجنة (ثانيها) المراد الانسان يظلم بالعصيان ويجهل ماعليه من العقاب (ثالثها) إنه كان ظلوماً جهولا ، أى كان من شأنه الظلم والجهل

يقال فرس شموس ودابة جموح وماء طهور أى من شأنه ذلك ، فكذلك الانسان من شأنه الظلم والجهل فلما أودع الأمانة بقى بعضهم على ماكان عليه وبعضهم ترك الظلم كما قال تعالى (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) وترك الجهل كما قال تعالى فى حق آدم عليه السلام (وعلم آدم الأسماء كلها) وقال فى حق المؤمنين عامة (والراسخون فى العلم يقولون آمنا به) وقال تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) (رابعها) (إنه كان ظلوماً جهولا) فى ظن الملائكة حيث قالوا (أتجعل فيها من يفسد فيها) وبين علمه عندهم حيث قال تعالى (أنبئونى بأسماء هؤلاء) وقال بعضهم فى تفسير الآية إن المخلوق على قسمين مدرك وغير مدرك ، والمدرك منه من يدرك الكلى والجزئى مثل الآدمى ، ومنه من يدرك الجزئى كالبهائم تدرك الشعير الذى تأكله ولا تتفكر فى عواقب الأمور ولا تنظر فى الدلائل والبراهين ، ومنه من يدرك الكلى ولا يدرك الجزئى كالملك يدرك الكليات ولا يدرك لذة الجماع والأكل ، قالوا وإلى هذا أشار الله تعالى بقوله (ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء) فاعترفوا بعدم علمهم بتلك الجزئيات والتكليف لم يكن إلا على مدرك الأمرين إذ له لذات بأمور جزئية . فمنع منها لتحصيل لذات حقيقية هى مثل لذة الملائكة بعبادة الله ومعرفته ، وأما غيره فان كان مكلفاً يكون مكلفاً لا بمعنى الأمر بما فيه عليهم كلفة ومشقة بل بمعنى الخطاب فان المخاطب يسمى مكلفاً لما أن المكلف مخاطب فسمى المخاطب مكلفاً وفى الآية لطائف (الأولى) الأمانة كان عرضها على آدم فقبلها فكان أميناً عليها والقول قول الأمين فهو فائز ، بقى أولاده أخذوا الأمانة منه والآخذ من الأمين ليس بمؤتمن ، ولهذا وارث المودع لا يكون القول قوله ولم يكن له بد من تجديد عهد وائتمان ، فالمؤمن اتخذ عند الله عهداً فصار أميناً من الله فصار القول قوله فكان له ما كان لآدم من الفوز . ولهذا قال تعالى (ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات) أى كما تاب على آدم فى قوله تعالى (فتاب عليه) والكافر صار آخذاً للأمانة من المؤتمن فبقى فى ضمانه ، ثم إن المؤمن إذا أصاب الأمانة فى يده شىء بقضاء الله وقدره كان ذلك من غير تقصير منه والأمين لا يضمن مافات بغير تقصير ، والكافر إذا أصاب الأمانة فى يده شىء ضمن وإن كان بقضاء الله وقدره ، لأنه يضمن مافات وإن لم يكن بتقصير (اللطيفة الثانية) خص الأشياء الثلاثة بالذكر لأنها أشد الأمور وأحملها للأثقال ، وأما السموات فلقوله تعالى (وخلقنا فوقكم سبعاً شداداً) والأرض والجبال لا تخفى شدتها وصلابتها . ثم إن هذه الأشياء لما كانت لها شدة وصلابة عرض الله تعالى الأمانة عليها واكتفى بشدتهن وقوتهن فامتنعن ، لأنهن وإن كن أقوياء إلا أن أمانة الله تعالى فوق قوتهن ، وحملها الإنسان مع ضعفه الذى قال الله تعالى فيه (وخلق الإنسان ضعيفاً) ولكن وعده بالاعانة على حفظ الأمانة بقوله (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) فان قيل فالذى يعينه الله تعالى كيف يعذب فلم يعذب الكافر ؟ نقول قال الله تعالى « أنا أعين من يستعين بى ويتوكل على » والكافر لم يرجع إلى الله تعالى فتركه مع نفسه فيبقى فى عهدة الأمانة (اللطيفة الثالثة) قوله

لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾

تعالى فأبين (أن يحملنها) وقوله تعالى (وحملها الإنسان) إشارة إلى أن فيه مشقة بخلاف مالو قال فأبين أن يقبلنها وقبلها الانسان ، ومن قال لغيره افعل هذا الفعل فان لم يكن فى الفعل تعب يقابل بأجرة فاذا فعله لا يستحق أجرة فقال تعالى (وحملها) إشارة إلى أنه مما يستحق الأجر عليه أى على مجرد حمل الأمانة ، وإما على رعايتها حق الرعاية فيستحق الزيادة فان قيل فالكل حملوها ، غاية ما فى الباب أن الكافر لم يأت بشيء زائد على الحمل فينبغى أن يستحق الأجر على الحمل فنقول الفعل إذا كان على وفق الاذن من المالك الآمر يستحق الفاعل الأجرة ، ألا ترى أنه لو قال احمل هذا إلى الضيعة التى على الشمال فحمل ونقلها إلى الضيعة التى على الجنوب لا يستحق الأجرة ويلزمه ردها إلى الموضع الذى كان فيه كذلك الكافر حملها على غير وجه الإذن فغرم وزالت حسناته التى عملها بسببه.

قوله تعالى : ﴿ ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيما ﴾ .

أى حملها الإنسان ليقع تعذيب المنافق والمشرك ، فان قال قائل لم قدم التعذيب على التوبة نقول لما سمى التكاليف أمانة والأمانة من حكمها اللازم أن الخائن يضمن وليس من حكمها اللازم أن الأمين الباذل جهده يستفيد أجرة فكان التعذيب على الخيانة كاللازم والأجر على الحفظ إحسان والعدل قبل الإحسان وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ لم عطف المشرك على المنافق ، ولم يعد اسمه تعالى فلم يقل ويعذب الله المشركين وعند التوبة أعاد اسمه وقال ويتوب الله ولو قال ويتوب على المؤمنين كان المعنى حاصلا ؟ نقول أراد تفضيل المؤمن على المنافق فجعله كالكلام المستأنف ويجب هناك ذكر الفاعل فقال (ويتوب الله) ويحقق هذا قراءة من قرأ ويتوب الله بالرفع .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكر الله فى الإنسان وصفين الظلوم والجهول وذكر من أوصافه وصفين فقال (وكان الله غفوراً رحيما) أى كان غفوراً للظلوم ورحيما على الجهول ، وذلك لأن الله تعالى وعد عباده بأنه يغفر الظلم جميعاً إلا الظلم العظيم الذى هو الشرك كما قال تعالى (إن الشرك لظلم عظيم) وأما الوعد فقوله تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وأما الرحمة على الجهل فلأن الجهل محل الرحمة ولذلك يعتذر المسيء بقوله ما علمت .

(وههنا لطيفة) وهى أن الله تعالى أعلم عبده بأنه غفور رحيم ، وبصره بنفسه فرآه ظلوماً جهولا ثم عرض عليه الأمانة فقبلها مع ظلمه وجهله لعلمه فيما يجبرها من الغفران والرحمة والله أعلم .

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد النبى الأمى وآله .

سورة الأحزاب

مدنيَّةٌ في قول جميعِهم، نزلت في المنافقين وإيذائهم رسولَ الله ﷺ، وَطعْنِهم فيه وفي مناكَحته وغيرها، وهي ثلاثٌ وسبعون آيةً. وكانت هذه السورةُ تَعْدِلُ سورةَ البقرة. وكانت فيها آيةُ الرَّجْم: «الشَّيخُ والشيخةُ إذا زَنَيَا فارجموهُما الْبَتَّةَ نَكالاً من الله واللهُ عزيزٌ حكيم»؛ ذكره أبو بكر الأنباريُّ عن أُبَيِّ بن كعب[1]. وهذا يَحْمِلُه أهلُ العلم على أنَّ الله تعالى رَفَع من الأحزاب إليه ما يَزِيدُ على ما في أيدينا، وأنَّ آية الرَّجْم رُفع لَفْظُها، وقد حدَّثنا أحمد بن الهيثم بن خالد قال: حدّثنا أبو عبيد القاسم بنُ سلّام قال: حدَّثنا ابن أبي مريم، عن ابن لَهيعة، عن أبي الأسود، عن عروةَ، عن عائشة قالت: كانت سورة الأحزاب تَعْدِلُ على عهد رسول الله ﷺ مئتي آية، فلمَّا كُتب المصحفُ لم يقدر منها إلَّا على ما هي الآن[2]. قال أبو بكر: فمعنى هذا من قول أمِّ المؤمنين عائشة: أنَّ الله تعالى رفع إليه من سورة الأحزاب ما يَزيد على ما عندنا.

قلت: هذا وجهٌ من وجوه النسخ، وقد تقدَّم في «البقرة» القولُ فيه مستوفًى[3] والحمد لله.

ورَوَى زِرٌّ قال: قال لي أُبَيّ بن كعب: كم تعدُّون سورةَ الأحزاب؟ قلت: ثلاثاً

---

(١) هو عند ابن الأنباري في المصاحف كما ذكر السيوطي في الدر المنثور ٥/ ١٧٩ ، وأخرجه أيضاً أبو عبيد في فضائل القرآن ص١٩٠-١٩١ ، وعبد الله بن أحمد في زوائده على المسند (٢١٢٠٧)، والنسائي في الكبرى (٧١١٢)، وسيرد لفظه بتمامه.

(٢) هو عند ابن الأنباري فيما ذكر السيوطي في الدر المنثور ٥/ ١٨٠ ، وأخرجه أيضاً أبو عبيد في فضائل القرآن ص١٩٠ ، وفيهما: فلما كتب عثمان المصاحف لم يقدر منها . . . الخ. والقائل: حدثنا أحمد ابن الهيثم. . . هو ابن الأنباري. وقد ردَّ الباقلاني هذه الروايات في الانتصار ١/ ٣٩٤ ، ونقلنا كلامه ٢/ ٣٠٢ .

(٣) ٢/ ٣٠٠ .

وسبعين آية. قال: فوالذي يحلفُ به أُبَيّ بن كعب، إنْ كانت لَتَعْدِلُ سورةَ البقرة أو أطْول، ولقد قرأنا منها آية الرجم: «الشيخ والشيخةُ إذا زَنَيَا فارْجُمُوهما الْبَتَّة نكالاً من الله والله عزيز حكيم»[١]. أراد أُبَيٌّ أنَّ ذلك من جملة ما نُسخ من القرآن. وأمَّا ما يُحكى أنَّ تلك الزيادةَ كانت في صحيفةٍ في بيت عائشة فأكلتها الدَّاجِنُ؛ فِمنْ تأليفِ الملاحِدَةِ والرَّوَافِض[٢].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ ضُمَّت «أيّ» لأنه نداءٌ مُفْرَد، والتنبيهُ لازِمٌ لها. و«النبيّ» نعتٌ لأيّ عند النَّحْويين، إلَّا الأَخْفَشَ فإنه يقول: إنَّه صلةٌ لأيّ[٣]. مكِّيّ: ولا يُعرفُ في كلام العرب اسمٌ مفردٌ صلة لشيء[٤]. النحَّاس: وهو خطأٌ عند أكثر النَّحْويين؛ لأنَّ الصِّلة لا تكونُ إلَّا جملةً. والاحتيالُ له فيما قال، أنَّه لمَّا كان نعتاً لازماً سُمِّيَ صلةً، وهكذا الكوفيون يسمُّون نعتَ النكرة صلةً لها[٥].

ولا يجوز نَصْبُه على الموضع عند أكثر النحويين. وأجازه المازنيُّ، جَعَلَه كقولك: يا زيدُ الظريفَ، بنصبِ «الظريف» على موضع زيد؛ مكِّيّ[٦]: وهذا نعتٌ

---

(١) سلف تخريج حديث أُبيّ قبل تعليق، وينظر فتح الباري ١٢/ ١٤٣ .

(٢) الكشاف للزمخشري ٣/ ٢٤٨ . وقال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٣٢ : بل راويها ثقة غير متهم... وكأن المصنف (يعني الزمخشري) فهم أن ثبوت هذه الزيادة يقتضي ما تدَّعيه الروافض: أن القرآن ذهب منه أشياء، وليس ذلك بلازم، بل هذا مما نسخت تلاوته وبقي حكمه، وأكل الدواجن لها وقع بعد النسخ. اهـ. وينظر تأويل مختلف الحديث ص٢١٠ . والخبر أخرجه ابن ماجه (١٩٤٤).

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٠١ .

(٤) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٧٢ ، وغيَّر محقِّقُه لفظ: لشيء، إلى لفظ: لأيّ.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٣٠١ .

(٦) في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٧٢ ، وما قبله منه.

يُستغنَى عنه، ونعتُ «أيّ» لا يُستغنَى عنه، فلا يَحْسُنُ نَصْبُه على الموضع. وأيضاً فإنَّ نعت «أيّ» هو المنادَى في المعنى فلا يَحْسُنُ نَصْبُه.

ورويَ أنَّ رسول الله ﷺ لمَّا هاجر إلى المدينة وكان يحبُّ إسلامَ اليهود: قُريظةَ والنَّضير وبني قَيْنُقَاع، وقد تابعه ناسٌ منهم على النِّفاق، فكان يُلينُ لهم جانبَه، ويكرم صغيرهم وكبيرهم، وإذا أتى منهم قبيحٌ تَجاوَزَ عنه، وكان يسمع منهم، فنزلت[(١)].

وقيل: إنها نزلت ـ فيما ذَكَر الواحديُّ والقُشَيْريُّ والثَّعلبيُّ والماوَرْدِيُّ وغيرهم ـ في أبي سفيان بن حرب، وعِكرمةَ بنِ أبي جهل، وأبي الأعور عمرو[(٢)] بن سفيان، نزلوا المدينة على عبد الله بن أُبَيّ ابن سلول ـ رأسِ المنافقين ـ بعد أُحُد، وقد أعطاهم النبيُّ ﷺ الأمانَ على أن يكلِّموه، فقام معهم عبد الله بنُ سعد بن أبي سَرْح وطُعْمةُ بن أُبَيْرِق، فقالوا للنبي ﷺ وعنده عمر بن الخطاب: ارْفُضْ ذِكْرَ آلهتنا اللّات والعزَّى ومَناة، وقُلْ إنَّ لها شفاعةً ومنعةً لمَن عَبَدَها، ونَدَعُك وربَّك. فَشَقَّ على النبيِّ ﷺ ما قالوا. فقال عمر: يا رسول الله، ائذن لي في قتلهم. فقال النبيُّ ﷺ: «إني قد أعطيتُهم الأمان» فقال عمر: اخرجوا في لعنة الله وغضبه. فأمر النبيُّ ﷺ أن يُخْرَجوا من المدينة، فنزلت الآية[(٣)]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أي: خَفِ الله ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ من أهل مكة، يعني أبا سفيان وأبا الأعور وعكرمة ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ من أهل المدينة، يعني عبد الله بنَ أُبَيّ وطُعْمةَ وعبد الله بنَ سعد بن أبي سَرْحٍ فيما نُهيتَ عنه، ولا تَمِلْ إليهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بكفرهم ﴿حَكِيمًا﴾ فيما يَفْعَلُ بهم.

الزَّمخشريُّ[(٤)]: ورُويَ أنَّ أبا سفيان بن حرب وعكرمة بنَ أبي جهل وأبا الأعور

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٤٨ . قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص١٣٢ : لم أجده.

(٢) في النسخ: عمر، والمثبت هو الصواب. ينظر الإصابة ٧/ ١١٤ .

(٣) أسباب النزول للواحدي ص٣٦٨ ، وتفسير البغوي ٣/ ٥٠٥ ، وبنحوه في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٣٤ ، والنكت والعيون ٤/ ٣٦٦ ، والكشاف ٣/ ٢٤٨ . قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص١٣٢ : هكذا ذكره الثعلبي والواحدي دون سند. اهـ. وسيذكره المصنف عن الزمخشري.

(٤) في الكشاف ٣/ ٢٤٨ .

السُّلَميَّ قدِموا على النبيِّ ﷺ في المُوادَعة التي كانت بينه وبينهم، وقام معهم عبد الله ابن أبَيٍّ ومُعَتِّب بنُ قُشَير والجَدّ بن قيس، فقالوا لرسول الله ﷺ: ارْفُضْ ذِكْرَ آلهتنا. وذَكَر الخبر بمعنى ما تقدَّم. وأنَّ الآية نزلت في نَقْضِ العهدِ ونَبْذِ الموادعة. ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ من أهل مكة ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ من أهل المدينة فيما طلبوا إليك.

ورويَ أنَّ أهل مكة دَعَوْا رسول الله ﷺ إلى أن يرجع عن دينه ويعطوه شَطْرَ أموالهم، ويزوِّجه شيبةُ بن ربيعة بنتَه، وخوَّفه منافقو المدينة أنهم يقتلونه إنْ لم يرجع، فنزلت(١).

النحَّاس(٢): ودلَّ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ على أنه كان يميلُ إليهم استدعاءً لهم إلى الإسلام، أي: لو علم الله عزَّ وجلَّ أنَّ مَيْلك إليهم فيه منفعةٌ لَمَا نَهاكَ عنه؛ لأنه حكيم. ثم قيل: الخطابُ له ولأمته.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ يعني القرآن. وفيه زَجْرٌ عن اتِّباع مَرَاسِمِ الجاهلية، وأَمْرٌ بجهادهم ومُنابذتهم، وفيه دليلٌ على تَرْكِ اتِّباعِ الآراء مع وجود النصّ. والخطابُ له ولأمته.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ قراءةُ العامَّةِ بتاءٍ على الخطاب، وهو اختيارُ أبي عبيد وأبي حاتم. وقرأ السُّلَميُّ وأبو عمرو وابنُ أبي إسحاقَ: «يعملون» بالياء على الخبر، وكذلك في قوله: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩](٣).

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٤٨ . وذكره بنحوه السيوطي في الدر المنثور ٥/ ١٨٠ من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس، وعزاه لابن جرير، ولم نقف عليه في تفسيره.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٣٠١ .

(٣) السبعة ص٥١٨ و ٥١٩ ، والتيسير ص١٧٧ عن أبي عمرو.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ أي: اعتَمِدْ عليه في كلِّ أحوالك فهو الذي يمنعُك[١]، ولا يضرُّك مَن خَذَلك. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾: حافظاً.

وقال شيخٌ من أهل الشام: قدِم على النبيِّ ﷺ وفدٌ من ثَقيفٍ، فطلبوا منه أنْ يمتِّعهم باللَّات سنةً ـ وهي الطاغيةُ التي كانت ثَقيف تعبدها ـ وقالوا: لتعلم قريش منزلتنا عندك، فهَمَّ النبيُّ ﷺ بذلك، فنزلت: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي: كافياً لك ما تخافُه منهم[٢].

و«بالله» في موضع رفعٍ لأنه الفاعل. و«وكيلاً» نصبٌ على البيان أو الحال[٣].

قوله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قال مجاهد: نزلت في رجلٍ من قريش كان يُدْعَى ذا القلبين من دهائه، وكان يقول: إنَّ لي في جَوْفي قلبين، أَعْقِلُ بكلِّ واحدٍ منهما أفضلَ من عَقْلِ محمد. قال: وكان من فِهْر[٤].

الواحديُّ والقُشَيْريُّ وغيرهما: نزلت في جميل بن معمر الفِهْريّ، وكان رجلاً حافظاً لِمَا يسمع. فقالت قريش: ما حفظَ[٥] هذه الأشياءَ إلَّا وله قلبان. وكان يقول: لي قلبان أَعْقِلُ بهما أفضلَ من عقل محمد. فلمَّا هُزِمَ المشركون يومَ بدر ومعهم جميل ابن معمر، رآه أبو سفيان في العِير وهو معلِّقٌ إحدى نَعْلَيْه في يده والأخرى في رجله،

(١) في (ظ): ينفعك.

(٢) لم نقف عليه.

(٣) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٧٢.

(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٨، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٣٧٢).

(٥) في (م): يحفظ.

فقال أبو سفيان: ما حالُ الناس؟ قال: انهزَموا. قال: فما بالُ إحدى نعليك في يدك والأخرى في رجلك؟ قال: ما شعرتُ إلَّا أنهما في رجليّ؛ فعرفوا يومَئذٍ أنه لو كان له قلبان لَمَا نسي نَعْلَه في يده[١].

وقال السُّهَيْليُّ: كان جميل بنَ معمر الجُمَحيُّ، وهو ابنُ معمر بن حبيب بن وهب ابن حُذافة بن جُمَح، واسم جمح: تَيْم، وكان يدعَى ذا القلبين، فنزلت فيه الآية، وفيه يقول الشاعر:

وكيف ثَوائي بالمدينة بعد ما ... قضى وَطَراً منها جَمِيلُ بن معمر[٢]

قلت: كذا قالوا: جميل بن معمر. وقال الزَّمخشريُّ: جميل بنُ أسد الفِهْري[٣].

وقال ابن عباس: سببها أنَّ بعض المنافقين قال: إنَّ محمداً له قلبان؛ لأنه ربَّما كان في شيء؛ فنَزَعَ في غيره نزعةً ثم عاد إلى شأنه الأوّل، فقالوا ذلك عنه، فأَكْذَبهم الله عزَّ وجلَّ[٤].

وقيل: نزلت في عبد الله بن خَطَل[٥].

وقال الزُّهريُّ وابن حَيَّان: نزل ذلك تمثيلاً في زيد بن حارثة لمَّا تبنَّاه النبيُّ ﷺ، فالمعنى: كما لا يكون لرجلٍ قلبان، كذلك لا يكون ولدٌ واحدٌ لرجلين[٦]. قال

(١) أسباب النزول للواحدي ص٣٦٩ - ٣٧٠ ، وتفسير البغوي ٣/ ٥٠٥ - ٥٠٦ . وذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣٧٠ - ٣٧١ بنحوه وعزاه للسدّي.

(٢) التعريف والإعلام ص١٣٥ ، وذكر البيت أيضاً المبرد في الكامل ٢/ ٥٦٤ ، وابن عبد البر في التمهيد ٢٢/ ١٩٧ ، والحافظ في الإصابة ٢/ ٩٨ .

(٣) الكشاف ٣/ ٢٤٩ ، وترجم له الحافظ في الإصابة ٢/ ٩٦ ، فسماه: جميل بن أسيد، وذكر في اسمه أقوالاً ثم قال: وقيل: إن ذا القلبين جميل بن معمر؛ قاله السهيلي، والمشهور أنه غيره.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٧-٣٦٨ . وأخرجه بنحوه أحمد (٢٤١٠)، والترمذي (٣١٩٩)، والطبري ١٩/ ٧ ، والحاكم ٢/ ٤١٥ . وحسنه الترمذي، وصححه الحاكم فتعقبه الذهبي بقول: قابوس ضعيف. اهـ. وقابوس هو ابن أبي ظبيان أحد رجال الإسناد.

(٥) ذكره الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٢١٣ - ٢١٤ ، والنحاس في معاني القرآن ٥/ ٣١٩ .

(٦) أخرجه عن الزهري بنحوه الطبري ١٩/ ٩ ، وذكره عن مقاتل بن حيان الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣٧١ .

النحاس[١]: وهذا قولٌ ضعيفٌ لا يصحُّ في اللغة، وهو من مُنْقطِعات الزُّهريّ، رواه معمر عنه.

وقيل: هو مَثَلٌ ضُرب للمُظاهِر، أي: كما لا يكون للرجل قلبان، كذلك لا تكون امرأة المُظاهِرِ أمَّه حتى تكون له أُمَّان[٢].

وقيل: كان الواحدُ من المنافقين يقول: لي قلبٌ يأمرني بكذا، وقلبٌ يأمرني بكذا، فالمنافقُ ذو قلبين، فالمقصودُ ردُّ النفاق.

وقيل: لا يجتمع الكفر والإيمان بالله تعالى في قلب، كما لا يجتمع قلبان في جوف، فالمعنى: لا يجتمع اعتقادان متغايران في قلب.

ويظهر من الآية بجملتها نَفْيُ أشياءَ كانت العرب تعتقدها في ذلك الوقت، وإعلامٌ بحقيقة الأمر، والله أعلم.

الثانية: القلبُ بَضْعة[٣] صغيرةٌ على هيئة الصَّنَوْبَرة، خَلَقَها الله تعالى في الآدميِّ وجعلها محلًّا للعلم، فيحصي به العبد من العلوم ما لا يَسَع في أسفار، يكتبه الله تعالى فيه بالخطِّ الإلهيِّ، ويضبطه فيه بالحفظ الرَّبَّاني، حتى يحصيَه ولا ينسى منه شيئاً. وهو بين لَمَّتَين: لَمَّة من المَلك، ولَمَّة من الشيطان[٤]. كما قال ﷺ؛ خرَّجه الترمذيُّ، وقد مضى في «البقرة»[٥].

وهو محلُّ الخَطَرات والوساوس، ومكانُ الكفر والإيمان، وموضعُ الإصرار والإنابة، ومجرى الانزعاج والطمأنينة. والمعنى في الآية: أنه لا يجتمع في القلب

---

(١) في معاني القرآن ٥/ ٣١٩.

(٢) ذكره البغوي ٣/ ٥٠٣ عن الزهري ومقاتل.

(٣) البَضْعة - وقد تكسر -: القطعة من اللحم. القاموس (بضع).

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٩٢. واللمة: الخَطْرة تقع في القلب. النهاية (لمم).

(٥) ٤/ ٣٥٥، وهو عند الترمذي (٢٩٨٨).

الكفرُ والإيمان، والهدى والضلال، والإنابة والإصرار؛ وهذا نفيٌ لكلِّ ما تَوَهَّمه أحدٌ في ذلك من حقيقة أو مجاز(١)، والله أعلم.

الثالثة: أَعْلَم الله عزَّ وجلَّ في هذه الآية أنه لا أحدَ بقلبين، ويكون في هذا طعنٌ على المنافقين الذين تقدَّم ذكرهم، أي: إنَّما هو قلبٌ واحد، فإمَّا فيه إيمانٌ، وإما فيه كفر؛ لأن درجة النفاق كأنها متوسِّطةٌ، فنفاها الله تعالى، وبيَّن أنه قلبٌ واحد. وعلى هذا النحو يَستشهدُ الإنسان بهذه الآية متى نسيَ شيئاً أو وهم، يقول على جهة الاعتذار: ما جعل الله لرجلٍ من قلبين في جوفه(٢).

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ يعني قولَ الرجل لامرأته: أنتِ عليَّ كظهرِ أمِّي. وذلك مذكورٌ في سورة المجادلة، على ما يأتي بيانُه إن شاء الله تعالى.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ أَجْمعَ أهل التفسير على أنَّ هذا نَزَل في زيد بن حارثة. وروى الأئمةُ أنَّ ابن عمر قال: ما كنَّا ندعو زيد بن حارثةَ إلَّا زيد بنَ محمد حتى نزلت: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِأَبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾(٣).

وكان زيدٌ فيما روي عن أنس بن مالك وغيره مَسْبِيًّا من الشام، سَبَتْه خيلٌ من تِهامةَ، فابتاعه حكيم بنُ حزام بن خُويلد، فوهبه لعمته خديجةَ، فوهبته خديجةُ للنبيِّ ﷺ، فأعتقه وتبنَّاه، فأقام عنده مدَّة، ثم جاء عمُّه وأبوه يرغبان في فدائه، فقال لهما النبيُّ ﷺ وذلك قبل البعث: «خَيِّراه، فإن اختاركما فهو لكما دونَ فِداءٍ». فاختار الرقَّ مع رسول الله ﷺ على حرِّيته وقومه، فقال محمدٌ ﷺ عند ذلك: «يا معشرَ قريش، اشْهَدوا أنه ابني يرثُني وأَرِثُه» وكان يطوفُ على حِلَق قريشٍ يُشهدهم على

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٩٢ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٨ .

(٣) أخرجه أحمد (٥٤٧٩)، والبخاري (٤٧٨٢)، ومسلم (٢٤٢٥).

ذلك، فرضيَ ذلك عمُّه وأبوه وانصرفا[١]. وكان أبوه لمَّا سُبي يدور على الشام ويقول:

بكيتُ على زيدٍ ولم أدرِ ما فَعَلْ ... أحَيٌّ فيُرجَى أم أتَى دونَه الأجَلْ
فواللهِ لا أدري وإني لسائلٌ ... أغالَكَ بعدِي السَّهلُ أم غالك الجبلْ
فيا ليت شِعْري هل لك الدهرَ أَوْبَةٌ ... فحسبي من الدنيا رجوعُك لي بَجَلْ
تُذَكِّرُنيهِ الشمسُ عند طلوعها ... وتَعْرِضُ ذكراه إذا غَرْبُها أَفَلْ
وإنْ هَبَّت الأرياحُ[٢] هَيَّجْنَ ذِكرَه ... فيا طولَ ما حُزْني عليه وما وَجَلْ
سَأُعْمِل نَصَّ العِيسِ في الأرض جاهداً ... ولا أَسْأَمُ التَّطوافَ أو تسأَمُ الإبلْ
حياتيَ أو تأتي عليَّ مَنِيَّتي ... فكلُّ امرئٍ فانٍ وإنْ غَرَّه الأملْ[٣]

فأُخبر أنه بمكة، فجاء إليه فهلك عنده، ورويَ أنه جاء إليه، فخيَّره النبيُّ ﷺ - كما ذكرنا - وانصرف[٤]. وسيأتي من ذِكْرِه وفَضْلِه وشَرَفه شفاءٌ عند قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ [الآية: ٣٧] إن شاء الله تعالى.

وقتل زيد بمُؤْتَةَ من أرض الشام سنةَ ثمانٍ من الهجرة، وكان النبيُّ ﷺ أمَّره في تلك الغَزَاة، وقال: «إنْ قُتل زيدٌ فجعفر، فإن قُتل جعفر فعبد الله بنُ رواحة». فقُتل

---

(١) ذكر هذا الخبر مطولاً ابن سعد في الطبقات ٣/ ٤٠ - ٤٢ ثم قال: هذا كله حدثنا به هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن أبيه، وعن جميل بن مرثد الطائي وغيرهما، وقد ذَكر بعضَ هذا الحديث عن أبيه، عن أبي صالح، عن ابن عباس. اهـ. وذكره عن ابن عباس أيضاً ابن عبد البر في الاستيعاب ٤/ ٤٩، والسيوطي في الدر المنثور ٥/ ١٨١ وعزاه لابن مردويه. ولم نقف عليه عن أنس ﷺ.

(٢) في المصادر: الأرواح. والأرواح جمع ريح، جمعه على الأصل؛ لأن الأصل فيه الواو. الإملاء المختصر في شرح غريب السير ١/ ١٦٣.

(٣) سيرة ابن هشام ١/ ٢٤٨، وطبقات ابن سعد ٣/ ٤١، والاستيعاب ٤/ ٤٩، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٩٣، وصفة الصفوة ١/ ٣٧٨. قوله: بَجَلْ، هي كلمة بمعنى حَسْب، ومعناهما جميعاً الاكتفاء بالشيء. وقوله: إذا غَرْبُها أفل، الأفول: غيبوبة الشمس، ونسب الغروب إلى الأفول اتساعاً ومجازاً. والنَّصُّ: أَرْفَعُ السير. الإملاء المختصر ١/ ١٦٢ - ١٦٣.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٩٥.

الثلاثة في تلك الغزاة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. ولمَّا أَتى رسولَ الله ﷺ نَعْيُ زيدٍ وجعفر بكى وقال: «أخَوَاي ومُؤنسايَ ومحدِّثاي»[(١)].

قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾﴾

فيه ستُّ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾ نزلت في زيد بن حارثة، على ما تقدَّم بيانُه. وفي قول ابن عمر: ما كنَّا ندعو زيدَ بنَ حارثة إلَّا زيد بنَ محمد، دليلٌ على أنَّ التَّبنِّيَ كان معمولاً به في الجاهلية والإسلام، يُتوارثُ به ويُتناصر، إلى أنْ نَسَخَ الله ذلك بقوله: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: أَعْدَلُ. فرَفَعَ الله حُكْمَ التَّبنِّي، ومَنَع من إطلاق لفظه، وأَرْشَدَ بقوله إلى أنَّ الأَوْلى والأَعْدَلَ أن يُنسبَ الرجل إلى أبيه نَسَباً[(٢)].

فيقال: كان الرجل في الجاهلية إذا أعجبه جَلَدُ الرجل وظَرْفُه ضمَّه إلى نفسه، وجعل له نصيبَ الذكر من أولاده من ميراثه، وكان يُنْسب إليه فيقال: فلان بن فلان[(٣)].

وقال النحَّاس[(٤)]: هذه الآيةُ ناسخةٌ لِمَا كانوا عليه من التبنِّي، وهو مِن نَسْخِ السنَّة بالقرآن، فأمر أن يَدْعوا مَن دَعَوْا إلى أبيه المعروفِ، فإنْ لم يكن له أبٌ معروفٌ نَسَبوه

(١) الاستيعاب ٤/ ٥٣ والمفهم ٦/ ٣٠٦ . وقوله: «إن قتل زيد فجعفر...» أخرجه البخاري (٤٢٦١) من حديث ابن عمر ﷺ. وأخرجه أحمد (١٧٥٠) من حديث عبد الله بن جعفر ﷺ. و(٢٢٥٥١) من حديث أبي قتادة ﷺ.

(٢) المفهم ٦/ ٣٠٦ - ٣٠٧ .

(٣) الكشاف ٣/ ٢٥٠ .

(٤) في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٨٣ .

إلى وَلائه، فإن لم يكن له وَلاءٌ معروفٌ قال[١]: يا أخي، يعني في الدِّين؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

الثانية: لو نَسَبه إنسانٌ إلى أبيه من التبنّي فإنْ كان على جهة الخطأ، وهو أن يَسْبِقَ لسانُه إلى ذلك من غير قصدٍ، فلا إثمَ ولا مؤاخذةَ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[٢]. وكذلك لو دعوتَ رجلاً إلى غير أبيه وأنت ترى أنه أبوه، ليس عليك بأسٌ؛ قاله قتادة[٣].

ولا يَجري هذا المَجرى ما غَلَبَ عليه اسمُ التبنّي، كالحال في المِقْداد بن عمرو؛ فإنه كان غلب عليه نسبُ التبنّي، فلا يكاد يُعرف إلّا بالمقداد بن الأسود؛ فإنَّ الأسود ابن عبد يغوث كان قد تبنَّاه في الجاهلية وعُرِف به، فلمَّا نزلت الآية قال المِقْداد: أنا ابنُ عمرو[٤]، ومع ذلك فبقي الإطلاقُ عليه. ولم يُسمع فيمَن مضى مَن عَصَّى مُطْلِقَ ذلك عليه وإن كان متعمِّداً. وكذلك سالم مولى أبي حذيفة، كان يُدْعَى لأبي حذيفة. وغير هؤلاء ممن تُبُنِّيَ وانْتَسبَ لغير أبيه وشُهِر بذلك وغَلب عليه. وذلك بخلاف الحال في زيد بن حارثة؛ فإنه لا يجوز أن يقال فيه: زيد بنُ محمد، فإن قاله أحدٌ متعمِّداً عَصَى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي: فعليكم الجُناح. والله أعلم. ولذلك قال بعده: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: «غَفُوراً» للعَمْد، و«رَحِيماً» برفع إثم الخطأ[٥].

الثالثة: وقد قيل: إنَّ قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ

(١) في (م): قال له.

(٢) المفهم ٦/ ٣٠٧.

(٣) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١١١، والطبري ١٩/ ١٣.

(٤) ذكره بهذا اللفظ أبو العباس في المفهم ٦/ ٣٠٧، والكلام منه، وذكره الحافظ في الإصابة ٩/ ٢٧٣ بنحوه عن ابن الكلبي.

(٥) المفهم ٦/ ٣٠٧.

﴿وَكِيلًا﴾ مُجْمَل، أي: وليس عليكم جُناحٌ في شيءٍ أخطأتُم به، وكانت فُتْيَا عطاءٍ وكثيرٍ من العلماء على هذا: إذا حَلَفَ رجلٌ ألَّا يفارق غريمه حتى يستوفيَ منه حقَّه، فأخذ منه ما يرى أنه جيِّدٌ من دنانير، فوجدها زُيُوفاً[1]، أنه لا شيءَ عليه. وكذلك عنده إذا حلف ألَّا يسلِّم على فلان، فسلَّم عليه وهو لا يعرفه، أنه لا يَحْنَثُ؛ لأنه لم يتعمَّد ذلك. و[﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾] «ما» في موضع خفضٍ ردًّا على «ما» التي مع «أخطأتُم»، ويجوز أن تكون في موضع رفعٍ على إضمار مبتدأ، والتقدير: ولكن الذي تؤاخَذون به ما تَعمَّدت قلوبكم. قال قتادةُ وغيره: مَن نَسب رجلاً إلى غير أبيه ـ وهو يرى أنه أبوه ـ خطأً، فذلك مِن الذي رَفَع الله فيه الجُناح[2].

وقيل: هو أن يقول له في المخاطبة: يا بُنيّ؛ على غير تَبَنٍّ[3].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ «بأفواهِكم» تأكيدٌ لبطلان القول، أي: إنه قولٌ لا حقيقةَ له في الوجود، إنَّما هو قولٌ لسانيٌّ فقط. وهذا كما تقول: أنا أمشي إليك على قَدَم، فإنَّما تريد بذلك المبرَّة، وهذا كثير[4]. وقد تقدَّم هذا المعنى في غير موضع[5]. ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ «الحقّ» نعتٌ لمصدرٍ محذوف، أي: يقول القولَ الحقّ. و﴿يَهْدِي﴾ معناه: يبيِّن، فهو يتعدَّى بغير حرفِ جرٍّ.

الخامسة: الأدعياءُ جمع الدَّعيّ، وهو الذي يُدْعَى ابناً لغير أبيه، أو يدَّعي غيرَ أبيه، والمصدرُ: الدِّعْوة بالكسر. فأَمر تعالى بدعاء الأدعياء إلى آبائهم للصُّلب، فَمَن جُهل ذلك فيه ولم تَشْتَهِر أنسابُهم كان مَوْلًى وأخاً في الدِّين. وذكر الطبريُّ أنَّ أبا بَكْرَةَ قرأ هذه الآية وقال: أنا ممَّن لا يُعرف أبوه، فأنا أخوكم في الدِّين ومولاكم. قال

---

(١) في النسخ الخطية وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٠٣ والكلام منه: زجاجاً، والمثبت من (م).

(٢) سلف في المسألة الثانية.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٣٢٣ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٩ . وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ من الآية السابقة.

(٥) ينظر ٥/ ٤٠٥ و ١٠/ ١٧٤ .

الراوي عنه: ولو علم ـ واللهِ ـ أنَّ أباه حمارٌ لانتمى إليه. ورجالُ الحديث يقولون في أبي بكرةَ: نُفَيْع بن الحارث[١].

السادسة: روى الصحيح عن سعد بن أبي وَقّاص وأبي بكرةَ كلاهما قال: سَمِعَتْه أُذناي ووعاه قلبي محمداً ﷺ يقول: «مَن ادَّعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غيرُ أبيه، فالجنةُ عليه حرام»[٢]. وفي حديث أبي ذرٍّ أنه سمع النبيَّ ﷺ يقول: «ليس مِن رجلٍ ادَّعى لغير أبيه وهو يعلمُه إلَّا كَفَرَ»[٣].

قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾

فيه تسعُ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ هذه الآيةُ أزال الله تعالى بها أحكاماً كانت في صدر الإسلام، منها: أنَّه ﷺ كان لا يصلِّي على مَيِّتٍ عليه دَيْن، فلمَّا فتح الله عليه الفتوحَ قال: «أنا أَوْلى بالمؤمنين من أنفسهم، فَمَن تُوُفِّيَ وعليه دَيْنٌ فعلَيَّ قضاؤه، ومَن ترك مالاً فلورثته» أخرجه الصحيحان[٤]. وفيهما أيضاً: «فأيُّكم

---

(١) المحرر الوجيز ٤/٣٦٩ ، وخبر أبي بكرة في تفسير الطبري ١٩/ ١٣ . قال الحافظ في التهذيب ٤/٢٣٨ : نفيع بن الحارث بن كلدة، أبو بكرة الثقفي، وقيل: اسمه مسروح، وقيل: كان أبوه عبداً للحارث بن كلدة يقال له: مسروح، فاستلحق الحارث أبا بكرة.

(٢) صحيح البخاري (٦٧٦٦) و(٦٧٦٧)، وصحيح مسلم (٦٣): (١١٥) واللفظ له، وهو عند أحمد (١٤٥٤). ونصب «محمداً» على البدل من الضمير في «سمعته أذناي». شرح النووي لصحيح مسلم ٢/ ٥٣ .

(٣) صحيح البخاري (٣٥٠٨)، وصحيح مسلم (٦١)، وهو عند أحمد (٢١٤٦٥). قال أبو العباس في المفهم ١/ ٢٥٤ : مَن فَعَل ذلك مستحلًّا فهو كافرٌ حقيقةً، فيبقى الحديث على ظاهره، أما إن كان غير مستحلٍّ، فيكون الكفر الذي في الحديث محمولاً على كفران النعم والحقوق.

(٤) صحيح البخاري (٢٢٩٨)، وصحيح مسلم (١٦١٩): (١٤)، وهو عند أحمد (٧٨٩٩) وهو من حديث أبي هريرة ﷺ.

تَركَ دَيْناً أو ضَياعاً فأنا مولاه»[1]. قال ابن العربيّ: فانقلبت الآن الحالُ بالذنوب، فإنْ تركوا مالاً ضُويق العَصَبةُ فيه، وإن تركوا ضَياعاً أُسلموا إليه، فهذا تفسيرُ الولاية المذكورة في هذه الآية بتفسير النبيِّ ﷺ وتبيينِه[2]، ولا عِطْرَ بعد عَرُوس[3].

قال ابن عطية[4]: وقال بعض العلماء العارفين: هو أَوْلى بهم من أنفسهم؛ لأنَّ أنفسهم تدعوهم إلى الهلاك، وهم يدعوهم إلى النجاة. قال ابن عطيةَ: ويؤيِّد هذا قولُه عليه الصلاة والسلام: «أنا آخِذٌ بحُجَزِكم عن النارِ وأنتم تقتحمون فيها تقحُّم الفَراش».

قلت: هذا قولٌ حسنٌ في معنى الآية وتفسيرها، والحديثُ الذي ذُكر أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّما مَثَلي ومَثَلُ أمَّتي كمَثَلِ رجلٍ استوقد ناراً، فجعلت الدوابُّ والفَراشُ يَقَعْنَ فيه، وأنا آخِذٌ بِحُجَزِكم وأنتم تَقَحَّمُون فيه»[5]. وعن جابرٍ مثلُه؛ وقال: «وأنتم تَفَلَّتون من يدي»[6]. قال العلماء: الحُجْزَةُ للسراويل، والمَعْقِد للإزار، فإذا أراد الرجلُ إمساكَ مَن يخافُ سقوطَه أَخَذَ بذلك الموضع منه. وهذا مَثَلٌ لاجتهاد نبيِّنا عليه الصلاة والسلام في نجاتنا، وحرصِه على تَخلُّصنا من الهَلَكات التي بين أيدينا، فهو أَوْلى بنا من أنفسنا. ولِجَهْلنا بقَدْرِ ذلك، وغلبةِ شَهَواتنا علينا، وظَفَرِ عدوِّنا اللعين بنا، صِرْنا أحقرَ من

(١) صحيح البخاري (٢٣٩٩)، وصحيح مسلم (١٦١٩): (١٥)، وهو عند أحمد (٨٤١٨) وهو من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) في (م): وتنبيهه.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٩٦ . وقوله: لا عطر بعد عروس، ذكره ابن قتيبة دون نسبة في الشعر والشعراء ٢/ ٦٢٦ عَجُزَ بيت، وصدره: فالآن قبل وفاتي. وذكره الميداني في مجمع الأمثال ٢/ ٢١١ ، والزمخشري في المستقصى ٢/ ٢٦٤ . قال الميداني: يضرب لمن لا يدَّخر عنه نفيس.

(٤) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٧٠ .

(٥) صحيح مسلم (٢٢٨٤)، وهو عند أحمد (٧٣٢١) و(٨١١٧)، والبخاري (٦٤٨٣).

(٦) صحيح مسلم (٢٢٨٥).

الفَراش وأذلَّ من الفراش[١]، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم!

وقيل: أَوْلى بهم، أي إنه إذا أَمر بشيءٍ، ودَعَتْ النفسُ إلى غيره، كان أمرُ النبيِّ ﷺ أَوْلى[٢].

وقيل: أَوْلى بهم، أي: هو أَوْلى بأن يحكُم على المؤمنين فينفذ حكمُه في أنفسهم، أي: فيما يَحْكُمون به لأنفسهم ممَّا يخالفُ حُكْمَه.

الثانية: قال بعضُ أهلِ العلم: يجبُ على الإمام أن يقضيَ من بيت المال دَيْنَ الفقراء اقتداءً بالنبيِّ ﷺ؛ فإنه قد صرَّح بوجوبِ ذلك عليه حيث قال: «فعلَيَّ قضاؤه». والضَّيَاعُ ـ بفتح الضَّاد ـ مصدرُ ضاع، ثم جُعل اسماً لكلِّ ما هو بصددِ أن يضيع، من عيالٍ وبنينَ لا كافلَ لهم، ومالٍ لا قَيِّمَ له. وسمِّيت الأرضُ ضَيعةً لأنَّها معرَّضةٌ للضَّيَاع، وتُجمع ضِياعاً بكسر الضَّاد[٣].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ شرَّف الله تعالى أزواجَ نبيِّه ﷺ بأنْ جَعَلهنَّ أمهاتِ المؤمنين، أي: في وجوبِ التعظيم والمبرَّةِ والإجلال، وحُرْمةِ النكاحِ على الرجال، وحَجْبِهنَّ رضي الله تعالى عنهنَّ بخلافِ الأمَّهات[٤]. وقيل: لمَّا كانت شَفَقتهنَّ عليهم كشفقة الأمَّهات أُنزلنَ منزلةَ الأمهات. ثم هذه الأمومةُ لا توجِبُ ميراثاً كأمومة التَّبنِّي. وجاز تَزْويجُ بناتهنَّ؛ ولا يُجعلنَ أخواتٍ للناس. وسيأتي عددُ أزواجِ النبيِّ ﷺ في آية التخيير[٥] إن شاء الله تعالى.

واختلف الناس؛ هل هنَّ أمهاتُ الرجال والنساءِ، أمْ أمَّهاتُ الرجال خاصةً؟

---

(١) المفهم ٦/ ٨٦ - ٨٧ ، ووقعت العبارة الأخيرة فيه: حتى صرنا أحقر من الفَراش والجنادب وأذلَّ من الطين اللازب.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٠٣ .

(٣) المفهم ٤/ ٥٧٥ - ٥٧٦ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٧٠ .

(٥) ينظر ص١١٩ من هذا الجزء.

على قولين: فروى الشعبيُّ عن مسروقٍ، عن عائشةَ رضي الله عنها أنَّ امرأة قالت لها: يا أُمَّهْ، فقالت لها: لستُ لك بأمٍّ، إنَّما أنا أمُّ رجالِكم. قال ابن العربيّ(١): وهو الصحيح.

قلت: لا فائدةَ في اختصاص الحَصْرِ في الإباحة للرجال دون النساء، والذي يَظهرُ لي أنهنَّ أمَّهاتُ الرجال والنساء؛ تعظيماً لحقِّهن على الرجال والنساء. يدلُّ عليه صدرُ الآية: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾، وهذا يشملُ الرجال والنساء ضرورةً. ويدلُّ على ذلك حديثُ أبي هريرةَ وجابر، فيكون قوله: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ عائداً إلى الجميع. ثم إنَّ في مصحف أُبيّ بن كعب: «وأزواجُه أمَّهاتُهم وهو أبٌ لهم»(٢). وقرأ ابن عباس: «مِن أنفسهم وهو أبٌ [لهم] وأزواجُه [أمهاتهم]»(٣). وهذا كلُّه يوهنُ ما رواه مسروق - إنْ صح - من جهة الترجيح، وإن لم يصح فيَسقطُ الاستدلالُ به في التخصيص، وبقينا على الأصل الذي هو العمومُ الذي يسبقُ إلى الفهوم. والله أعلم.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَأُولُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ قيل: إنه أراد بالمؤمنين الأنصارَ، وبالمهاجرين قريشاً. وفيه قولان:

أحدهما: أنه ناسخٌ للتوارثِ بالهجرة؛ حكى سعيد عن قتادة قال: كان نزل في سورة الأنفال ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ [الآية: ٧٢] فتوارَثَ المسلمون بالهجرة؛ فكان لا يَرِثُ الأعرابيُّ المسلمُ من قريبه المسلمِ

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٩٦ - ١٤٩٧ وما قبله منه، والخبر أخرجه ابن سعد في الطبقات ٨/ ٦٥ و٦٧، والبيهقي في السنن الكبرى ٧/ ٧٠.

(٢) ذكرها الفراء في معاني القرآن ٢/ ٣٣٥، والنحاس في معاني القرآن ٣/ ٣٦٨ وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٧٠، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١١٩ عن ابن مسعود ﷺ، وقد سلفت ٧/ ٨٦، و١١/ ١٧٧.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٧٠، وما بين حاصرتين منه. وسترد في المسألة السادسة.

المهاجِرِ شيئاً حتى يهاجر، ثم نسخ ذلك في هذه السورة بقوله: ﴿وَأُوْلُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾[١].

الثاني: أن ذلك ناسخٌ للتوارث بالحِلْفِ والمؤاخاة في الدِّين؛ روى هشام بن عُروة، عن أبيه، عن الزبير: ﴿وَأُوْلُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ وذلك أنَّا معشرَ قريش لمَّا قَدِمْنا المدينةَ قَدِمْنا ولا أموالَ لنا، فوجَدْنا الأنصارَ نِعْمَ الإخوان فآخيناهم، فأَوْرَثونا وأَوْرَثْناهم، فآخَى أبو بكر خارجةَ بن زيد، وآخيتُ أنا كعب بنَ مالك، فجئتُ فوجدتُ السلاحَ قد أثقلَه، فواللهِ لو مات[٢] عن الدنيا ما وَرِثَه غيري، حتى أنزل الله تعالى هذه الآيةَ، فرجعنا إلى مواريثنا.

وثبت عن عُروةَ أنَّ رسول الله ﷺ آخَى بين الزُّبير وبين كعب بن مالك، فارْتُثَّ كعبٌ يومَ أُحُدٍ، فجاء الزُّبير يقوده بزمام راحلته، فلو مات يومئذٍ كعبٌ عن الضِّحِّ والريح لورثه الزُّبير، فأنزل الله تعالى: ﴿وَأُوْلُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾. فبيَّن الله تعالى أنَّ القرابة أَوْلى من الحِلْف، فتُركت الوراثة بالحِلْف وورثوا بالقرابة[٣]. وقد مضى في «الأنفال» الكلامُ في توريث ذوي الأرحام[٤].

وقوله: ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ يَحتمِلُ أن يريد القرآن، ويَحتَمِلُ أن يريد اللوحَ المحفوظَ

(١) أخرجه الطبري ١١/ ٢٩٢، والنحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٢٩٤. وذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣٧٥، وعنه نقل المصنف.

(٢) في النسخ: لقد مات، وكذا في النكت والعيون ٤/ ٣٧٥، والكلام منه، وهو خطأ. وقد أخرجه ابن أبي حاتم ٥/ ١٧٤٢ (٩٢٠٦)، والحاكم ٤/ ٣٤٤ - ٣٤٥، وذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية. وقُتل الزُّبير ﷺ سنة ست وثلاثين منصرفَه من وقعة الجمل، ومات كعب بن مالك ﷺ سنة أربعين، وقيل: سنة خمسين. ينظر السير ١/ ٦٤ و ٢/ ٥٢٦.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٩٧، وخبر عروة أخرجه القزويني في التدوين في أخبار قزوين ٤/ ١٩٤، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٥٠/ ١٨٧. قوله: فارتُثّ، الارتثاث: أن يُحمل الجريح وهو ضعيف قد أثخنته الجراح. وقوله: الضِّح والريح، أراد أنه لو مات عما طلعت عليه الشمس وجرت عليه الريح، كنَى بهما عن كثرة المال. النهاية (رثث) و(ضحح).

(٤) ١٠/ ٩٠.

الذي قَضَى فيه أحوالَ خَلْقِه[١]. و﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلِّقٌ بـ ﴿بِهِۦ﴾ لا بقوله: ﴿وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ﴾ بالإجماع؛ لأنَّ ذلك كان يوجب تخصيصاً ببعض المؤمنين، ولا خلافَ في عمومها، وهذا حَلُّ إشكالها؛ قاله ابن العربي[٢].

النحَّاس[٣]: ﴿وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ﴾ يجوز أن يتعلَّق «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» بـ «أُولُو» فيكون التقدير: وَأُولُو الأرحام من المؤمنين والمهاجرين. ويجوز أن يكون المعنى: أَوْلَى من المؤمنين.

وقال المَهْدويُّ: وقيل: إنَّ معناه: وأولو الأرحام بعضُهم أَوْلى ببعضٍ في كتاب الله إلَّا ما يجوز لأزواج النبيِّ ﷺ أن يُدْعَين أمهاتِ المؤمنين. والله تعالى أعلم.

الخامسة: واختُلف في كونهنَّ كالأمَّهات في المَحْرَمِ وإباحةِ النظر على وجهين:

أحدهما: هنَّ مَحْرَمٌ، لا يَحْرُم النظر إليهنَّ [لتحريم نكاحِهن].

الثاني: أنَّ النظر إليهنَّ محرَّم؛ لأنَّ تحريم نكاحِهنَّ إنَّما كان حِفْظاً لحقِّ رسولِ الله ﷺ فيهنَّ، وكان من حِفْظِ حقِّه تحريمُ النظر إليهنّ؛ ولأنَّ عائشة رضي الله عنها كانت إذا أرادت دخولَ رجلٍ عليها، أَمرت أختها أسماء أن تُرضعه ليصير ابناً لأختها من الرضاعة، فيصير مَحْرَماً يَستبيحُ النَّظر[٤].

وأمَّا اللاتي طَلَّقَهنَّ رسول الله ﷺ في حياته، فقد اختُلف في ثُبوت هذه الحرمة لهنَّ على ثلاثة أوجه:

أحدها: ثبتتْ لهنَّ هذه الحرمةُ تغليباً لحرمة رسول الله ﷺ.

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٣٧٥.

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٩٧.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٣٠٣ - ٣٠٤.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٣٧٤، وما سلف بين حاصرتين منه، وأخرج مالك في الموطأ ٢/ ٦٠٣ عن سالم بن عبد الله بن عمر: أن عائشة أمَّ المؤمنين أرسلت به وهو يرضع إلى أختها أمِّ كلثوم بنت أبي بكر الصديق فقالت: أرضعيه عشر رضعات حتى يدخل عليَّ...

الثاني: لا يثبتُ لهنَّ ذلك، بل هنَّ كسائر النساء؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ قد أثبت عصمَتَهنَّ، وقال: «أزواجي في الدنيا هنَّ أزواجي في الآخرة»[1].

الثالث: مَن دخل بها رسول الله ﷺ منهنَّ ثبتتْ حرمتُها وحَرُم نكاحُها وإن طلَّقها؛ حِفْظاً لحرمته وحراسةً لخلوته. ومَن لم يَدْخلْ بها لم تثبتْ لها هذه الحرمةُ، وقد همَّ عمر بن الخطاب ﷺ برجمِ امرأةٍ فارَقَها رسول الله ﷺ فتزوَّجت، فقالت[2]: لِمَ هذا! وما ضَرَبَ علَيَّ رسولُ الله ﷺ حجاباً، ولا سُمِّيتُ أمَّ المؤمنين، فكفَّ عنها عمر ﷺ[3].

السادسة: قال قومٌ: لا يجوز أن يُسَمَّى النبيُّ ﷺ أباً لقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠]. ولكن يقال: مِثْل الأبِ للمؤمنين، كما قال: «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلِّمكم...» الحديثَ. خرَّجه أبو داود[4]. والصحيح أنه يجوز أن يقال: إنه أبٌ للمؤمنين، أي: في الحرمة، وقولُه تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ أي: في النسب. وسيأتي.

وقرأ ابن عباس: «مِنْ أَنفُسهم وهو أبٌ لهم وأزواجُه أمهاتهم»[5]. وسمع عمر هذه القراءة فأنكرها وقال: حُكَّها يا غلام؟ فقال: إنَّها في مصحف أُبَيٍّ، فذهب إليه فسأله، فقال له أُبَيٌّ: إنه كان يُلْهِيني القرآنُ ويلهيكَ الصَّفْقُ بالأسواق. وأَغْلَظ

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٣٧٤ . والحديث ذكره ابن حجر في التلخيص الحبير ٣/ ١٣٢ بلفظ: زوجاتي في الدنيا...، وقال: لم أجده بهذا اللفظ، وفي البخاري عن عمار أنه ذكر عائشة فقال: إني لأعلم أنها زوجة نبيكم في الدنيا والآخرة، وأخرجه أبو الشيخ في كتاب السنة من حديثه مرفوعاً. اهـ. وخبر عمار في صحيح البخاري (٣٧٧٢).

(٢) في (ظ): فارقها رسول الله ﷺ قبل البناء بها أرادت أن تتزوج فقالت.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٣٧٤ . وخبر عمر ذكره أيضاً ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١٤٩٦ ، وأخرجه ابن سعد ٨/ ١٤٦ من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) في سننه (٨).

(٥) قوله: أمهاتهم، من (ظ)، وقد سلفت هذه القراءة في المسألة الثالثة.

لعمر(١). وقد قيل في قول لوطٍ عليه السلام: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي﴾ [هود:٧٨]: إنَّما أراد المؤمنات، أي: تزوَّجوهن. وقد تقدَّم(٢).

السابعة: قال قومٌ: لا يقال: بناتُه أخواتُ المؤمنين، ولا أخوالُهن أخوالُ المؤمنين وخالاتُهم. قال الشافعيُّ ﷺ: تزوَّج الزبير أسماء بنتَ أبي بكر الصدِّيقِ وهي أختُ عائشة، ولم يقل: هي خالةُ المؤمنين(٣). وأطلق قومٌ هذا وقالوا: معاويةُ خالُ المؤمنين(٤)؛ يعني في الحرمة لا في النَّسَب.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًاۚ﴾ يريد الإحسانَ في الحياة، والوصيةَ عند الموت، أي: إنَّ ذلك جائز؛ قاله قتادةُ والحسنُ وعطاء(٥). وقال محمد ابن الحنفِيّة: نزلت في إجازةِ الوصية لليهوديِّ والنَّصرانيِّ(٦). أي: يُفعَل هذا مع الوَليِّ والقريبِ وإن كان كافراً، فالمشركُ وَليٌّ في النَّسَب لا في الدِّين، فيوصَى له بوصية.

واختلف العلماء؛ هل يُجعل الكافر وصيًّا؟ فجوَّز بعضٌ ومَنَع بعضٌ. وردَّ النَّظرَ إلى السلطان في ذلك بعضٌ؛ منهم مالكٌ رحمه الله تعالى. وذهب مجاهد وابن زيد والرُّمَّانيُّ إلى أنَّ المعنى: إلى أوليائكم من المؤمنين. ولفظُ الآية يَعْضُد هذا المذهبَ، وتعميمُ [لفظِ] الوليِّ أيضاً حَسَنٌ. وولايةُ النَّسب لا تُدفَع [في] الكافر، وإنَّما يُدفع أن

(١) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ١١٢، والبيهقي في السنن الكبرى ٧/ ٦٩.

(٢) ١١/ ١٧٧.

(٣) الوسيط ٣/ ٤٥٩، وتفسير البغوي ٣/ ٥٠٧.

(٤) ذكر البيهقي في الدلائل ٣/ ٤٥٩ في «باب قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةًۚ﴾ وتزوّج أمّ حبيبة بنت أبي سفيان» عن ابن عباس قال: كانت المودةُ التي جعل الله بينهم تزويجَ النبي ﷺ أمّ حبيبة بنت أبي سفيان، فصارت أمَّ المؤمنين، وصار معاوية خال المؤمنين. اهـ. وهو من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عنه.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٧٠.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٠٤، وأخرجه بنحوه الطبري ١٩/ ١٩.

يُلقَى إليه بالموَدَّة كولِيِّ الإسلام[١].

التاسعة: قوله تعالى: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ «الكتاب» يَحتمِلُ الوجهين المذكورين المتقدِّمين في «كتابِ اللهِ»[٢]. و«مسطوراً» من قولك: سطرتُ الكتابَ: إذا أثبتَّه أسطاراً[٣]. وقال قتادةُ: أي: مكتوباً عند الله عزَّ وجلَّ ألَّا يرث كافرٌ مسلماً. قال قتادة: وفي بعض القراءة: «كان ذلك عند اللهِ مكتوباً»[٤]. وقال القُرَظيُّ: كان ذلك في التوراة[٥].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ﴾ أي: عَهْدَهم على الوفاء بما حمِّلوا، وأن يبشِّرَ بعضُهم ببعض، ويصدِّقَ بعضُهم بعضاً، أي: كان مسطوراً حين كتب الله ما هو كائنٌ، وحين أخذ الله تعالى المواثيقَ من الأنبياء. ﴿وَمِنكَ﴾ يا محمد ﴿وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ وإنَّما خصَّ هؤلاء الخمسة ـ وإنْ دَخلوا في زمرة النبيِّين ـ تفضيلاً لهم. وقيل: لأنَّهم أصحابُ الشرائع والكتب، وأولُو العزم من الرسل، وأئمةُ الأمم.

ويَحتمِلُ أن يكون هذا تعظيماً في قَطْعِ الوَلايةِ بين المسلمين والكافرين، أي: هذا مما لم تَختلِفْ فيه الشرائع، أي: شرائعُ الأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام، أي: كان في ابتداء الإسلام توارثٌ بالهجرة، والهجرةُ سببٌ متأكِّدٌ في الدِّيانة، ثم توارثوا

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٧٠ ، وما سلف بين حاصرتين منه، وقول مجاهد وابن زيد أخرجه بنحوه الطبري ١٩/ ٢٠ .

(٢) في المسألة الرابعة.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٧٠ .

(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٢ .

(٥) ذكره البغوي ٣/ ٥٠٨ .

بالقرابة مع الإيمان وهو سببٌ وكيد. فأمَّا التَّوارُثُ بين مؤمنٍ وكافرٍ فلم يكن في دينِ أحدٍ من الأنبياء الذين أخذ عليهم المواثيق، فلا تُداهِنوا في الدِّين، ولا تُمالِئوا الكفَّارَ، ونظيرُه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى:١٣] ومِن تَرْكِ التفرُّقِ في الدِّين تَرْكُ موالاةِ الكفار.

وقيل: أي: النبيُّ أوْلى بالمؤمنين من أنفسهم، كان ذلك في الكتاب مسطوراً ومأخوذاً به المواثيقُ من الأنبياء.

﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ أي: عهداً وثيقاً عظيماً على الوفاء بما التزموا من تبليغ الرسالة، وأن يصدِّق بعضُهم بعضاً. والميثاقُ هو اليمينُ بالله تعالى، فالميثاقُ الثاني تأكيدٌ للميثاق الأول باليمين.

وقيل: الأولُ هو الإقرارُ بالله تعالى، والثاني في أمر النبوّة، ونظيرُ هذا قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾ الآية [آل عمران:٨١]. أي: أخذ عليهم أن يُعلنوا أنَّ محمداً رسولُ الله ﷺ، ويعلن محمدٌ ﷺ أنْ لا نبيَّ بعده.

وقدَّم محمداً في الذِّكر لِمَا رَوى قتادةُ عن الحسن عن أبي هريرةَ: أنَّ رسول الله ﷺ سُئل عن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ قال: «كنتُ أولَهم في الخلق، وآخِرَهم في البعث»(١). وقال مجاهد: هذا في ظَهْر آدمَ عليه

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل ٣/ ٩١٩ و ١٢٠٩ ، وتمام في فوائده (١٣٩٩)، وأبو نعيم في دلائل النبوة (٣)، والواحدي في الوسيط ٣/ ٤٥٩ - ٤٦٠ . وأخرجه ابن سعد ١/ ١٤٩ ، والطبري ١٩/ ٢٣ من طريق قتادة عن النبي ﷺ مرسلاً. قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: وهو أشبه.

قال السخاوي في المقاصد الحسنة ص٣٢٧ : وله شاهد بلفظ: كنت نبيًّا وآدم بين الروح والجسد. اهـ. وأخرج الشاهد أحمد (٢٠٥٩٦) من حديث مَيْسَرَةِ الفَجْر ﷺ. والترمذي (٣٦٠٩) من حديث أبي هريرة ﷺ، وقال: حسن صحيح غريب.

الصلاة والسلام.

قوله تعالى: ﴿لِيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٨﴾

قوله تعالى: ﴿لِيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْۚ﴾ فيه أربعة أوجه:

أحدها: ليَسْألَ الأنبياءَ عن تبليغهم الرسالةَ إلى قومهم؛ حكاه النقَّاش. وفي هذا تنبيهٌ، أي: إذا كان الأنبياء يُسألون، فكيف مَن سواهم؟

الثاني: ليَسْأل الأنبياء عما أجابهم به قومهم؛ حكاه عليّ بنُ عيسى.

الثالث: ليَسْأل الأنبياء عليهم السلام عن الوفاء بالميثاق الذي أخذه عليهم؛ حكاه ابن شجرة.

الرابع: ليسأل الأفواهَ الصادقةَ عن القلوب المُخْلِصة[(١)]. وفي التنزيل: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦] وقد تقدَّم.

وقيل: فائدةُ سؤالهم توبيخُ الكفار، كما قال تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ١١٦]. ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وهو عذابُ جهنَّم.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩﴾

يعني غزوة الخَنْدق والأحزاب وبني قُرَيظة، وكانت حالاً شديدة مُعْقَبةً بنعمةٍ ورخاء وغبطة، وتضمَّنت أحكاماً كثيرةً وآياتٍ باهراتٍ عزيزةً، ونحن نذكر من ذلك بعون الله تعالى ما يكفي في **عشر مسائل**:

الأولى: اختلف في أيِّ سنةٍ كانت؛ فقال ابنُ إسحاق: كانت في شوَّال من السنة الخامسة[(٢)]. وقال ابن وهب وابن القاسم عن مالكٍ رحمه الله: كانت وقعةُ الخندق

(١) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣٧٨ .

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٢١٤ .

سنةَ أربعٍ، وهي وبنو قُريظةَ في يومٍ واحد، وبين بني قريظةَ والنَّضيرِ أربعُ سنين(١).

قال ابن وهب: وسمعتُ مالكاً يقول: أَمر رسولُ الله ﷺ بالقتال من المدينة، وذلك قولُه تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠] قال: ذلك يوم الخندق؛ جاءت قريش من هاهنا، واليهودُ من هاهنا، والنَّجْدية من هاهنا. يريد مالك أنَّ الذين جاؤوا من فوقهم بنو قريظةَ، ومن أسفلَ منهم قريشٌ وغَطَفان(٢).

وكان سببها: أنَّ نفراً من اليهود؛ منهم كنانةُ بن الربيع بن أبي الحُقَيق، وسلَّام ابن أبي الحُقَيق، وسلَّام بن مِشْكم؛ وحُيَيّ بنُ أخطبَ؛ النَّضريُّون، وهَوْذة بنُ قيس، وأبو عمار من بني وائل - وهم كلُّهم يهود، وهم الذين حَزَّبوا الأحزابَ وألَّبوا وجمعوا - خرجوا في نفرٍ من بني النَّضير ونَفَرٍ من بني وائلٍ، فأتوا مكة فدَعَوْا [قريشاً] إلى حرب رسول الله ﷺ، وواعَدوهم من أنفسهم بعونِ مَن انْتَدَبَ إلى ذلك، فأجابهم أهلُ مكةَ إلى ذلك، ثم خرج اليهود المذكورون إلى غَطَفَان، فدعَوْهم إلى مثل ذلك، فأجابوهم. فخرجت قريشٌ يقودهم أبو سفيان بن حرب، وخرجت غَطَفان وقائدُهم عُيينة بنُ حصن بن حُذيفة بن بدر الفَزَاريُّ على فَزارة، والحارث بنُ عوف المُرِّيُّ على بني مُرَّة، ومسعود بن رُخَيلةَ على أَشْجَع. فلمَّا سمع رسول الله ﷺ باجتماعهم وخروجِهم شاوَرَ أصحابه، فأشار عليه سلمان بحفر الخندق، فرضِيَ رأيَه. وقال المهاجرون يومئذ: سلمانُ منَّا. وقال الأنصارُ: سلمان منَّا. فقال رسول الله ﷺ: «سلمانُ منَّا أهلَ البيت»(٣).

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٩٨، وأخرجه البيهقي في الدلائل ٣/ ٣٩٧ من طريق أحمد بن حنبل عن موسى بن داود عن مالك. قال البيهقي: لا اختلاف بينهم في الحقيقة... فمن قال: سنة أربع، أراد بعد أربع سنين وقبل بلوغ الخمس، ومن قال: سنة خمس، أراد بعد الدخول في السنة الخامسة وقبل انقضائها.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٩٨.

(٣) الدرر في اختصار المغازي والسير ص١٩٠، وما سلف بين حاصرتين منه. وقوله: «سلمان منا..» =

وكان الخندقُ أوَّلَ مشهدٍ شَهِدَه سلمانُ مع رسول الله ﷺ وهو يومئذٍ حرٌّ. فقال: يا رسول الله، إنَّا كنَّا بفارس إذا حُوصِرْنا خَنْدَقْنا[1].

فعمل المسلمون في الخندق مجتهدين، ونكص المنافقون، وجعلوا يتسلَّلون لِواذاً، فنزلت فيهم آياتٌ من القرآن ذكرها ابنُ إسحاق وغيره. وكان مَن فَرَغَ من المسلمين من حصَّته عاد إلى غيره، حتى كملَ الخندق. وكانت فيه آياتٌ بيِّناتٌ وعلاماتٌ للنبوَّات[2].

قلت: ففي هذا الذي ذكرناه من هذا الخبر من الفقه وهي:

الثانية: مشاورةُ السلطانِ أصحابَه وخاصَّتَه في أمر القتال، وقد مضى ذلك في «آل عمران» و«النمل»[3].

وفيه التحصُّنُ من العدوِّ بما أَمْكَن من الأسباب واستعمالها، وقد مضى ذلك في غير موضع[4].

وفيه أنَّ حَفْرَ الخندق يكون مقسوماً على الناس، فَمَن فَرَغَ منهم عاونَ مَن لم يفرغ، فالمسلمون يدٌ على مَن سواهم؛ وفي البخاريِّ ومسلم عن البَرَاء بن عازِبٍ قال: لمَّا كان يومُ الأحزاب وخَنْدَقَ رسول الله ﷺ، رأيتُه ينقل من تراب الخندق حتى وارى عنِّي الغبارُ جِلدةَ بطنِه، وكان كثير الشَّعَر، فسمعته يرتجِزُ بكلماتِ ابنِ رَواحةَ ويقول:

= أخرجه مطولاً ومختصراً ابن سعد ٤/ ٨٢ - ٨٣ و ٧/ ٣١٨ ، والطبري ١٩/ ٣٩ - ٤٢ ، والطبراني في الكبير (٦٠٤٠)، والحاكم ٣/ ٥٩٨ ، والبيهقي في الدلائل ٣/ ٤١٨ من حديث عمرو بن عوف المزنيِّ ﷺ.

(١) تاريخ الطبري ٢/ ٥٦٦ .

(٢) الدرر ص١٩١ ، وينظر ما ذكره ابن هشام في السيرة ٢/ ٢١٧ عن ابن إسحاق من المعجزات. قوله: لِواذاً، قال ابن هشام: اللواذ: الاستتار بالشيء عند الهرب.

(٣) ٥/ ٣٨٠ وعند تفسير الآية (٣٢) من سورة النمل.

(٤) ينظر ٥/ ٣٠٠ و ٧/ ١٠٨ .

اللَّهمَّ لولا أنتَ ما اهْتَدَيْنا ولا تَصَدَّقْنا ولا صَلَّيْنا
فأنْزِلَن سكينةً علَيْنَا وثَبِّت الأقدامَ إنْ لاقَيْنا[1]

وأمَّا ما كان فيه من الآيات وهي:

الثالثة: فروى النسائيُّ[2] عن أبي سُكَينةَ ـ رجلٍ من المحرَّرين ـ عن رجلٍ من أصحاب رسول الله ﷺ قال: لمَّا أمر رسول الله ﷺ بحفرِ الخندق عَرَضَتْ لهم صخرةٌ حالتْ بينهم وبين الحفر، فقام رسولُ الله ﷺ وأخذ المِعْولَ، ووضعَ رداءه ناحيةَ الخندقِ وقال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا﴾ الآية [الأنعام: ١١٥]، فَنَدَرَ ثُلُثُ الحجرِ، وسلمانُ الفارسيُّ قائمٌ ينظُرُ، فَبَرَق مع ضربةِ رسول الله ﷺ بَرْقَةٌ، ثم ضَرَبَ الثانيةَ وقال: ﴿وَتَمَّتْ﴾ الآيةَ، فَنَدَر الثُّلثُ الآخَر، فبَرَقتْ برقةٌ، فرآها سلمان، ثم ضربَ الثالثةَ وقال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا﴾ الآية، فنَدَرَ الثلثُ الباقي. وخرج رسول الله ﷺ فأخذ رداءه وجلس، قال سلمانُ: يا رسولَ الله! رأيتُك حين ضربتَ، ما تَضْرِبُ ضربةً إلَّا كانت معها بَرْقةٌ؟ قال له رسول الله ﷺ: «رأيتَ ذلك يا سلمان؟» فقال: إيْ والذي بَعثكَ بالحقِّ يا رسول الله! قال: «فإنِّي حينَ ضَرَبْتُ الضَّرْبَةَ الأولى رُفعتْ لي مَدَائنُ كِسرى وما حَوْلَها، ومدائنُ كثيرةٌ حتَّى رأيتُها بعينيَّ ـ قال له مَن حَضَرهُ من أصحابه: يا رسول الله، ادعُ الله أن يفتحَها علينا ويغنِّمَنا ذراريهم[3] ويخرِّبَ بأيدينا بلادَهم، فدعا رسول الله ﷺ ـ ثم ضربتُ الضربةَ الثانيةَ، فرُفعتْ لي مَدائنُ قَيْصَرَ وما حَوْلَها حتَّى رأيتُها بعينيَّ ـ قالوا: يا رسول الله، ادعُ الله تعالى أنْ يفتحَها علينا ويغنِّمنا ذراريهم ويخرِّبَ بأيدينا بلادَهم، فدعا رسول الله ﷺ ـ ثم ضربتُ الضربةَ الثالثةَ، فرُفعتْ لي مَدائنُ الحبشةِ وما حَوْلَها من القُرى حتَى رأيتُها بعينيَّ» قال

(١) صحيح البخاري (٣٠٣٤)، وصحيح مسلم (١٨٠٣)، وهو عند أحمد (١٨٥١٣) و(١٨٥٧٠). ونقله المصنف عن الأحكام الصغرى لعبد الحق ٢/ ٥١٠.

(٢) في المجتبى ٦/ ٤٣.

(٣) في سنن النسائي: ديارهم، في الموضعين.

رسول الله ﷺ عند ذلك: «دَعوا الحبشةَ ما وَدَعُوكم، واتركوا التُّرْكَ ما تَرَكوكم»

وخرَّجه أيضاً عن البَرَاء قال: لمَّا أَمَرَنا رسول الله ﷺ أن نحفِر الخندق، عَرَضَ لنا صخرةٌ لا تأخذُ فيها المعاولُ، فاشتكينا ذلك لرسول الله ﷺ، فجاء رسول الله ﷺ فألقى ثوبه وأخذ المِعْوَلَ وقال: «باسم الله»، فضَرب ضربةً فكسر ثلثَ الصخرة، ثم قال: «الله أكبر، أُعْطِيتُ مفاتيحَ الشام، واللهِ إنِّي لأُبْصِرُ إلى قصورها الحمراءِ الآن من مكاني هذا» قال: ثم ضرب أخرى وقال: «باسم الله» فكسر ثلثاً آخرَ ثم قال: «الله أكبر، أُعطِيتُ مفاتيحَ فارسَ، والله إنِّي لأُبْصِرُ قَصْرَ المدائنِ الأبيضَ». ثم ضرب الثالثةَ وقال: «باسم الله» فقطع الحجر وقال: الله أكبر، أُعطيتُ مفاتيحَ اليمن، واللهِ إنِّي لأُبْصِرُ بابَ صَنْعاءَ». صحَّحه أبو محمد عبدُ الحقّ(١).

الرابعة: فلمَّا فرغ رسول الله ﷺ من حَفْرِ الخندق، أقبلت قريش في نحو عشرة آلافٍ بمَن معهم من كنانةَ وأهلِ تِهامةَ، وأقبلت غَطَفان بمن معها من أهل نجد، حتى نزلوا إلى جانب أُحُد، وخرج رسول الله ﷺ، والمسلمون حتى نزلوا بظَهْر سَلْعٍ في ثلاثة آلافٍ، وضربوا عَسْكَرهم والخندقُ بينهم وبين المشركين. واستَعْمَلَ على المدينة ابنَ أُمِّ مَكْتوم، في قول ابن شهاب.

وخرج عدوُّ الله حُيَيّ بن أَخْطَبَ النَّضريُّ حتى أتى كعب بنَ أسد القُرَظِيَّ، وكان صاحبَ عقدِ بني قريظةَ ورئيسَهم، وكان قد وادَعَ رسولَ الله ﷺ وعاقَدَه وعاهَدَه. فلمَّا سمع كعب بنُ أسد بحُيَيّ بن أَخْطَبَ أغلق دونَه بابَ حصنِه وأبَى أن يفتح له، فقال له: افتح لي يا أخي(٢)، فقال له: لا أفتحُ لك، فإنك رجلٌ مشؤوم، تَدْعوني إلى خلافِ محمدٍ وأنا قد عاقَدْتُه وعاهَدْتُه، ولم أَرَ منه إلَّا وفاءً وصدقاً فلستُ بناقضٍ ما بيني وبينَه. فقال حُيَيّ: افتح لي حتى أكلِّمك وأنصرف عنك، فقال: لا أفعل، فقال:

(١) في الأحكام الصغرى ٢/ ٥١٠، وهو في سنن النسائي الكبرى (٨٨٠٧). وأخرجه أحمد (١٨٦٩٤).

(٢) في الدرر ص١٩٣ (والكلام منه): افتح لي يا كعب بن أسد. ونحوه وقع في سيرة ابن هشام ٢/ ٢٢٠، وتفسير الطبري ١٩/ ٣٢، وتاريخ الطبري ٢/ ٥٧١.

إنَّما تخاف أن آكُلَ معك جَشِيشَتك[1]، فغضب كعبٌ وفتح له. فقال: يا كعب! إنَّما جئتك بعزِّ الدَّهر، جئتك بقريش وسادتها، وغَطَفانَ وقادتها، قد تَعاقَدوا على أن يستأصلوا محمداً ومَن معه، فقال له كعب: جئتني واللهِ بذلِّ الدَّهر، وبجَهَامٍ لا غيثَ فيه[2]، وَيْحَكَ يا حُيَيّ! دَعْني فلستُ بفاعلٍ ما تدعوني إليه. فلم يزل حُيَيٌّ بكَعْبٍ يَعِدُه ويَغُرُّه، حتى رجع إليه وعاقَدَه على خِذلانِ محمدٍ ﷺ وأصحابِه، وأن يسير معهم. وقال له حُيَيّ بن أخطب: إن انصرفتْ قريش وغَطفانُ دخلتُ عندك بِمَن معي من اليهود.

فلما انتهى خبرُ كعبٍ وحُيَيّ إلى النبيِّ ﷺ بعث سعد بنَ عُبادة وهو سيدُ الخزرج، وسيدَ الأَوْسِ سعد بنَ معاذ، وبعث معهما عبد الله بنَ رَواحة وخَوَّات بنَ جُبير، وقال لهم رسول الله ﷺ: «انْطَلِقوا إلى بني قُريظةَ، فإن كان ما قيل لنا حقّاً فالْحنوا لنا لَحْناً [نعرفه][3] ولا تَفُتُّوا في أعضاد الناس، وإن كان كذباً فاجْهَروا به للناس». فانطَلَقوا حتى أَتَوْهم، فوجدوهم على أخبثِ ما قيل لهم عنهم، ونالوا من رسول الله ﷺ وقالوا: لا عهدَ له عندنا. فشاتَمهم سعد بنُ معاذ وشاتَموه، وكانت فيه حدَّةٌ، فقال له سعد بن عُبادة: دَعْ عنك مُشاتَمتهم، فالذي بيننا وبينهم أكثرُ من ذلك[4]. ثم أقبل سعدٌ وسعدٌ حتى أَتَيا رسولَ الله ﷺ في جماعةِ المسلمين، فقالا: عَضَل والقَارَة؛ يُعرِّضان بغدرِ عَضَل والقارَةِ بأصحاب الرَّجيع خُبيبٍ وأصحابه. فقال النبيُّ ﷺ: «أَبْشِروا يا

(١) الجشيشة هي أن تطحن الحنطة طحناً جليلاً، ثم تُجعل في القدور ويلقى عليها لحم أو تمر وتطبخ، وقد يقال لها: دشيشة. النهاية (جشش).

(٢) الجَهام: السحاب الذي فرغ ماؤه، أي: الذي تَعْرِضُه عليَّ من الدِّين لا خيرَ فيه، كالجهام الذي لا ماء فيه. النهاية (جهم).

(٣) زيادة من الدرر ص١٩٣ (والكلام منه)، وهو موافق لما في تفسير الطبري ١٩/ ٣٣، وتاريخه ٢/ ٥٧٢. ووقع في سيرة ابن هشام ٢/ ٢٢٢: أعرفه. والمعنى: أشيرا إليَّ ولا تُفْصِحا، وعرِّضا بما رأيتما. النهاية (لحن).

(٤) في الدرر: أكبر من المشاتمة، وفي السيرة وتفسير الطبري: أربى من المشاتمة.

معشرَ المسلمين».

وعَظُم عند ذلك البلاءُ واشتدَّ الخوف، وأتى المسلمين عدوُّهم من فوقهم، يعني من فوق الوادي من قِبَلِ المَشْرِق، ومن أَسْفَلَ منهم؛ من بطنِ الوادي من قِبَل المَغْرِب، حتى ظَنُّوا بالله الظُّنونا. وأَظْهَرَ المنافقون كثيراً مما كانوا يُسِرُّون، فمنهم مَن قال: إنَّ بيوتنا عورةٌ، فلْننصَرِفْ إليها، فإنا نخاف عليها. وممَّن قال ذلك: أَوْس بنُ قَيْظيّ. ومنهم مَن قال: يَعِدُنا محمدٌ أن يفتح كنوزَ كسرى وقَيصر، وأحدُنا اليوم لا يأمَنُ على نفسه [أن][1] يذهب إلى الغائط! وممن قال ذلك: مُعَتِّب بنُ قُشير أحدُ بني عمرو بن عوف. فأقام رسول الله ﷺ وأقام المشركون بضعاً وعشرين ليلةً؛ قريباً من شهرٍ؛ لم يكن بينهم حَرْبٌ إلَّا الرَّميُ بالنَّبْل والحصى.

فلمَّا رأى رسول الله ﷺ أنه اشتدَّ على المسلمين البلاءُ بعث إلى عُيَيْنَة بنِ حصن الفَزَاريِّ، وإلى الحارث بن عوف المُرِّيِّ، وهما قائدا غَطَفان، فأعطاهما ثلثَ ثمار المدينة لينصرفا بمن معهما من غَطفان، ويخذلا قريشاً ويرجعا بقومهما عنهم. وكانت هذه المقالةُ مُراوَضةً ولم تكن عقداً. فلمَّا رأى رسول الله ﷺ منهما أنَّهما قد أنابا ورضِيَا، أتى سعد بنَ معاذ وسعد بنَ عبادةَ فذَكَر ذلك لهما واستشارهما، فقالا: يا رسول الله، هذا أمر تحبُّه فنصنعَه لك، أو شيءٌ أَمَرك الله به فنسمعُ له ونطيع، أو أمرٌ تصنعُه لنا؟ قال: «بل أمرٌ أَصنعُه لكم، واللهِ ما أصنعُه إلَّا أنِّي قد رأيتُ العربَ قد رمتكم عن قَوْسٍ واحدة». فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله، والله لقد كنَّا نحن وهؤلاء القومُ على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وما طمِعوا قَطُّ أن ينالوا منَّا ثمرةً إلَّا شِراءً أو قِرًى، فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزَّنا بك نعطيهم أموالنا! واللهِ لا نعطيهم إلَّا السيفَ حتى يحكم الله بيننا وبينهم! فسُرَّ رسول الله ﷺ بذلك وقال: «أنتم وذاك». وقال لعيينةَ والحارثِ: «انْصرِفا فليس لكما عندنا إلَّا السيفُ». وتَناول سعدٌ الصحيفةَ وليس فيها شهادةٌ فمحاها.

---

(١) زيادة من الدرر ص١٩٥ ، والكلام منه.

الخامسة: فأقام رسولُ الله ﷺ والمسلمون على حالهم، والمشركون يحاصرونهم ولا قتالَ بينهم؛ إلَّا أنَّ فوارسَ من قريشٍ ـ منهم عمرو بنُ عبد وُدٍّ العامريُّ من بني عامر بن لُؤَيّ، وعِكرمةُ بنُ أبي جهل، وهُبَيرةُ بن أبي وَهْبٍ، وضِرار بنُ الخطَّاب الفِهريُّ، وكانوا فرسانَ قريشٍ وشجعانَهم ـ أقبلوا حتى وقفوا على الخندق، فلَّما رأَوْه قالوا: إنَّ هذه لَمكيدةٌ ما كانت العربُ تَكيدُها! ثم تيمَّموا مكاناً ضيِّقاً من الخندق، فضربوا خيلَهم فاقتحمت بهم، وجاوزوا الخندق، وصاروا بين الخندق وبين سَلْع، وخرج عليّ بن أبي طالب في نفرٍ من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثُّغرةَ التي اقتَحَموا منها، وأقبلت الفرسانُ نحوهم، وكان عمرو بنُ عبد وُدٍّ قد أثبتته الجراح يومَ بَدْرٍ فلم يشهد أُحُداً، وأراد يومَ الخندق أن يُرَى مكانُه، فلمَّا وقف هو وخيلُه نادى: مَن يبارز؟ فبرز له عليُّ بنُ أبي طالب وقال له: يا عمرو، إنك عاهدتَ الله فيما بلغَنا أنك لا تُدْعَى إلى إحدى خَلَّتين إلَّا أخذتَ إحداهما؟ قال: نعم. قال: فإنِّي أدعوك إلى الله والإسلام. قال: لا حاجةَ لي بذلك. قال: فأدعوك إلى البِرَاز. قال: يا ابن أخي، والله ما أحبُّ أنْ أقتلك لِمَا كان بيني وبين أبيك. فقال له عليٌّ: أنا واللهِ أحبُّ أن أقتلك. فحَمِيَ عمرو بن عبد وُدٍّ ونزل عن فرسه، فعقره وصار[1] نحو عليٍّ، فتنازَلا وتَجاوَلا وثار النَّقْعُ بينهما حتى حال دونهما، فما انجلى النَّقْع حتى رُئيَ عليٌّ على صدر عمرو يقطعُ رأسَه، فلمَّا رأى أصحابهُ أنه قد قتله عليٌّ اقتحموا بخيلهم الثُّغْرةَ مُنْهزِمين هاربين. وقال عليٌّ ﷺ في ذلك:

نَصَر الحجارةَ من سَفاهةِ رأيهِ ... ونَصَرْتُ دِينَ محمدٍ بضِرابِ
نازَلْتُه فتركتُه[2] متجدِّلاً ... كالجِذْع بين دَكادكٍ[3] ورَوَابي
وعففتُ عن أثوابه ولوَ انَّني ... كنتُ المقطَّرَ بَزَّني أثوابي[4]

(١) في الدرر: وسار.

(٢) في سيرة ابن هشام ٢/ ٢٢٥: فصددت حين تركته.

(٣) جمع دكدك، وهو الرمل الليّن. الإملاء المختصر في شرح غريب السير ٣/ ٦ .

(٤) لم يرد هذا البيت في الدرر، وهو في سيرة ابن هشام ٢/ ٢٢٥ . والمقطَّر: الذي أُلقي على أحد =

لا تَحسِبَنَّ اللهَ خاذلَ دِينِه ... ونبيِّه يا معشرَ الأحزابِ

قال ابن هشام: أكثرُ أهلِ العلم بالسِّيَر[١] يشكُّ فيها لعليّ.

قال ابن هشام[٢]: وألقى عِكرمةُ بن أبي جهلٍ رُمْحه يومئذٍ وهو منهزمٌ عن عمرو، فقال حسان بن ثابت في ذلك:

فرَّ وألقَى لنا رُمْحَهُ ... لعلك عِكرِمَ لم تَفْعَلِ

ووَلَّيتَ تَعْدُو كعَدْوِ الظَّليم[٣] ... ما إن تجورُ عن المَعْدِلِ

ولم تُلْقِ ظهرَكَ مستأنساً ... كأنَّ قَفَاك قَفَا فُرْعُلِ

قال ابن هشام: فُرْعُل: صغيرُ الضِّباع.

وكانت عائشةُ رضي الله عنها في حصنِ بني حارثةَ، وأُمُّ سعد بن معاذٍ معها، وعلى سعدٍ دِرْعٌ مُقَلِّصةٌ قد خرجت منها ذراعُه، وفي يده حربتُه وهو يقول:

لَبِّثْ قليلاً يَلْحَقِ الهَيْجا حَمَلْ[٤] ... لا بأسَ بالموت إذا كان[٥] الأجَلْ

ورُميَ يومئذٍ سعد بنُ معاذ بسهمٍ فقطع منه الأكْحل[٦].

واختُلف فيمَن رماه؛ فقيل: رماه حِبَّان بن قيس بن العَرِقة، أحدُ بني عامر بن

= قُطريه، أي: جانبيه، يقال: طعنه فقَطَّرَه. وبزَّني: سلبني وجرَّدني. الإملاء المختصر ٣/ ٦ .

(١) في السيرة ٢/ ٢٢٥ : بالشعر.

(٢) في السيرة ٢/ ٢٢٦ .

(٣) الظليم: ذكر النعام، الإملاء المختصر ٣/ ٦ .

(٤) في النسخ ومطبوع الإملاء المختصر: جمل، بالجيم، وهو خطأ؛ قال أبو ذر صاحب الإملاء: حَمَل هنا اسم رجل، وقال السهيلي في الروض الأنف ٣/ ٢٨٠ : عنى به حمل بن سعدانة بن حارثة بن معقل..، وكذا نقل الحافظ في الإصابة ٢/ ٢٨٨ عن أبي محمد الأسود الغندجاني، وقال الزمخشري في المستقصى في أمثال العرب ٢/ ٢٧٨ : لا يبعد أن يراد به حَمَل بن بدر، صاحب الغبراء.

(٥) كذا في النسخ، وفي المصادر: حان.

(٦) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٢٦ - ٢٢٧ وأخرجه مطولاً أحمد (٢٥٠٩٧)، والطبري في التاريخ ٢/ ٥٧٥-٥٧٦ من حديث عائشة رضي الله عنها. قوله: درع مقلَّصة: أي قصيرة ارتفعت وانقبضت. الإملاء المختصر ٣/ ٦ . قال ابن الأثير في النهاية (قلص): يقال: قلَّصت الدرع وتقلَّصت.

لؤيّ، فلمَّا أصابه قال له: خُذْها وأنا ابنُ العَرِقة. فقال له سعد: عرَّقَ الله وجهك في النار[١]. وقيل: إنَّ الذي رماه خَفاجةُ بن عاصم بن حبَّان[٢]. وقيل: بل الذي رماه أبو أسامةَ الجُشَمِيُّ حليفُ بني مخزوم.

ولحسان مع صفيةَ بنتِ عبد المطلب خبرٌ طريفٌ يومئذ؛ ذكره ابنُ إسحاق وغيره:

قالت صفيةُ بنتُ عبد المطلب رضي الله عنها: كنَّا يومَ الأحزاب في حِصن حسان بن ثابت، وحسان معنا في النساء والصبيان، والنبيُّ ﷺ وأصحابُه في نحر العدوِّ لا يستطيعون الانصرافَ إلينا، فإذا يهوديٌّ يدور، فقلتُ لحسان: انزِلْ إليه فاقتُلْه، فقال: ما أنا بصاحِبِ هذا يا ابنةَ عبدِ المطَّلب! فأخذتُ عموداً ونزلتُ من الحصن فقتلتُه، فقلت: يا حسان، انزل فاسلبه، فلم يمنعني من سَلَبه إلَّا أنه رجل. فقال: مالي بسلبه حاجةٌ يا ابنةَ عبدِ المطَّلب! قالت[٣]: فنزلتُ فسلبتُه[٤]. قال أبو عمر ابنُ عبد البرِّ[٥]: وقد أنكر هذا عن حسان جماعةٌ من أهل السِّيَر وقالوا: لو كان في حسان من الجُبْنِ ما وصفتُم لهجاه بذلك الذين كان يهاجيهم في الجاهلية والإسلام، ولَهُجِيَ بذلك ابنُه عبد الرحمن؛ فإنه كان كثيراً ما يهاجي الناسَ من شعراء العرب، مثل النجاشيِّ وغيره.

السادسة: وأتى رسولَ الله ﷺ نُعيم بنُ مسعود بن عامر الأشجعيُّ، فقال: يا رسول الله، إنِّي قد أسلمتُ ولم يعلم قومي بإسلامي، فمُرْني بما شئتَ، فقال له

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٢٧ ، والدرر ص١٩٧ . وأخرجه أحمد (٢٤٢٩٤) مختصراً، والبخاري (٤١٢٢)، ومسلم (١٧٦٩) مطولاً من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٢) في النسخ: جبارة، والمثبت من سيرة هشام ٢/ ٢٢٨ ، والبداية والنهاية ٢/ ٤٩ .

(٣) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: قال.

(٤) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٢٨ ، ومن طريق ابن إسحاق أخرجه الطبري في التاريخ ٢/ ٥٧٧ ، وليس فيهما قولها: فنزلت فسلبته. وإسناده منقطع كما ذكر السهيلي في الروض الأنف ٣/ ٢٨١ . وأنكر ذلك عن حسان ﷺ وقال: وإن صحَّ؛ فلعل حسان أن يكون معتلًّا في ذلك اليوم بعلّة منعته من شهود القتال.

(٥) في الدرر ص١٩٨ .

رسول الله ﷺ: «إنَّما أنت رجلٌ واحدٌ من غَطَفان، فلو خرجتَ فخذَّلْتَ عنَّا إن استطعتَ؛ كان أحبَّ إلينا من بقائك معنا[١]، فاخرجْ فإنَّ الحرب خُدْعة»[٢].

فخرج نُعيم بنُ مسعود حتى أتى بني قُرَيظةَ ـ وكان يُنادِمُهم في الجاهلية ـ فقال: يا بني قريظة، قد عرفتُم وُدِّي إياكم، وخاصَّةَ ما بيني وبينَكم. قالوا: قُلْ، فلستَ عندنا بمُتَّهَم. فقال لهم: إنَّ قريشاً وغَطَفان ليسوا كأنتم، البلدُ بلدُكم، فيه أموالُكم وأبناؤكم ونساؤكم، وإنَّ قريشاً وغَطَفانَ قد جاؤوا لحربِ محمدٍ وأصحابِه، وقد ظاهَرْتُموهم عليه، فإن رأوا نُهْزةً[٣] أصابوها، وإن كان غير ذلك لَحقوا ببلادهم وخلَّوْا بينكم وبينَ الرجل، ولا طاقةَ لكم به، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رُهُناً. ثم خرج حتى أتى قريشاً فقال لهم: قد عرفتُم وُدِّي لكم معشرَ قريش، وفراقي محمداً، وقد بلغني أمرٌ أرى من الحقِّ أنْ أبلِّغَكموه نُصْحاً لكم، فاكتموا عليَّ. قالوا: نفعلُ. قال: تعلمون[٤] أنَّ معشر يهودَ قد نَدِموا على ما كان من خذلانهم محمداً، وقد أرسلوا إليه: إنَّا قد نَدِمنا على ما فعلنا، فهل يرضيكَ أنْ نأخذ من قريشٍ وغَطَفانَ رُهُناً رجالاً ونسلِّمهم إليكم تضربوا أعناقهم؟ ثم نكون معك على ما بقي منهم حتى نستأصلهم. ثم أتى غَطَفان، فقال مثلَ ذلك.

فلمَّا كان ليلةَ السبت ـ وكان ذلك من صُنْعِ الله عزَّ وجلَّ لرسوله والمؤمنين ـ أرسل أبو سفيان إلى بني قُرَيظةَ عِكرمةَ بن أبي جهل في نفرٍ من قريش وغَطَفان يقول لهم: إنَّا لَسْنا بدارِ مُقامٍ، قد هلك الخُفُّ والحافر، فاغْدُوا صبيحةَ غدٍ للقتال حتى

---

(١) في (ظ): من أن تقاتل معنا.

(٢) الدرر ص١٩٨، والخبر في سيرة ابن هشام ٢/ ٢٢٩. وقوله: الحرب خُدْعة، أخرجه أحمد (١٤٣٠٨)، والبخاري (٣٠٣٠)، ومسلم (١٧٣٩) من حديث جابر ﷺ. وأخرجه أحمد (٨١١٢)، والبخاري (٣٠٢٧)، ومسلم، (١٧٤٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) النُّهْزَة: الفرصة، وانتهزها: اغتنمها. القاموس (نهز).

(٤) في الدرر: أتعلمون. ووقع في السيرة: تعلَّموا، وفي تاريخ الطبري ٢/ ٥٧٨: فاعلموا.

نُناجِزَ محمداً. فأرسَلوا إليهم: إنَّ اليومَ يومُ السبت، وقد علمتُم ما نال منَّا مَن تَعدَّى في السبت، ومع ذلك فلا نقاتلُ معكم حتى تعطونا رُهُناً. فلمَّا رجع الرسول بذلك قالوا: صَدَقَنا واللهِ نُعيم بنُ مسعود! فردُّوا إليهم الرسلَ وقالوا: والله لا نعطيكُم رُهُناً أبداً، فاخرُجوا معنا إن شئتُم، وإلَّا فلا عهدَ بيننا وبينكم. فقال بنو قريظة: صَدَقَ واللهِ نُعيم بنُ مسعود! وخذَّل الله بينهم واختلفت كلمتُهم، وبعث الله عليهم رِيحاً عاصِفاً في ليالٍ شديدةِ البرد؛ فجعلت الريح تقلبُ آنيتَهم وتكفَأُ قُدورَهم[١].

السابعة: فلما اتَّصل برسول الله ﷺ اختلافُ أمرِهم، بعث حذيفةَ بنَ اليَمان ليأتيَه بخبرهم، فأتاهم واستَتَر في غِمَارهم، وسمع أبا سفيان يقول: يا معشر قريش، ليتعرَّفْ كلُّ امرئٍ جليسَه. قال حذيفةُ: فأخذتُ بيدِ جليسي وقلت: مَن أنت؟ فقال: أنا فلان. ثم قال أبو سفيان: يا[٢] معشر قريش! إنَّكم والله ما أصبحتُم بدارِ مُقامٍ، ولقد هلك الكُراع والخُفُّ وأَخْلَفَتْنا بنو قُريظة، ولقينا من هذه الريح ما تَرَوْنَ، ما يستمسك لنا بناءٌ، ولا تَثْبُتُ لنا قِدْرٌ، ولا تقوم لنا نار، فارْتَحِلوا فإنِّي مُرْتَحِلٌ. ووثب على جمله، فما حلَّ عِقالَ يده إلَّا وهو قائم[٣].

قال حذيفةُ: ولولا عهدُ رسول الله ﷺ لي إذ بعثني وقال لي: «مُرَّ إلى القوم، فاعلَمْ ما هم عليه، ولا تُحدِثْ شيئاً»، لقتلتُه بسهم، ثم أتيتُ رسول الله ﷺ عند رحيلهم، فوجدتُه قائماً يصلِّي في مِرْطٍ لبعض نسائه؛ مَرَاجِلَ ـ قال ابن هشام: المَراجِلُ ضربٌ من وَشْي اليمن ـ فأخبرتُه فحمِد الله[٤].

قلت: وخبرُ حذيفةَ هذا مذكورٌ في صحيحِ مسلمٍ، وفيه آياتٌ عظيمة، رواه جريرٌ

---

(١) الدرر ١٩٨ - ٢٠٠، وبنحوه في سيرة ابن هشام ٢/ ٢٢٩ - ٢٣١، وتاريخ الطبري ٢/ ٥٧٨ - ٥٧٩.

(٢) قبلها في (م): ويلكم.

(٣) أي: لم يحلَّ يد جمله إلا بعد أن قام به. والعِقال: الحبل الذي يُعقل به البعير.

(٤) أخرجه ابن إسحاق، كما في سيرة ابن هشام ٢/ ٢٣٢ - ٢٣٣، ومن طريق ابن إسحاق أخرجه أحمد (٢٣٣٣٤)، والطبري في التاريخ ٢/ ٥٨٠ - ٥٨١ ونقله المصنف من الدرر ص٢٠٠ - ٢٠١.

عن الأعمش، عن إبراهيم التَّيْمِيِّ، عن أبيه قال: كنَّا عند حذيفةَ، فقال رجل: لو أدركتُ رسولَ الله ﷺ قاتَلْتُ معه وأبلَيْتُ. فقال حذيفةُ: أنت كنتَ تفعلُ ذلك؟! لقد رأيتُنَا مع رسول الله ﷺ ليلةَ الأحزاب وأَخَذَتْنا ريحٌ شديدةٌ وقَرٌّ. فقال رسول الله ﷺ: «أَلَا رجلٌ يأتيني بخبرِ القومِ جَعَلَه اللهُ معي يومَ القيامة»؟ فسَكَتْنا فلم يُجِبْه منَّا أحدٌ، ثم قال: «أَلَا رجلٌ يأتينا بخبرِ القومِ جَعَلَه الله معي يومَ القيامة»؟ فسَكَتْنا فلم يُجِبْه أحدٌ. فقال: «قُمْ يا حذيفةُ فأْتِنا بخبرِ القومِ» فلم أَجِدْ بُدًّا إذ دعاني باسمي أنْ أقوم. قال: «اذهَبْ فَأْتني بخبرِ القوم ولا تَذْعَرْهم عَلَيَّ»: قال: فلمَّا وَلَّيتُ مِن عندِه جعلتُ كأنَّما أمشي في حَمَّام حتى أتيتُهم، فرأيتُ أبا سفيان يَصْلي ظَهْرَه بالنار، فوضعت سهماً في كَبِدِ القَوس فأردتُ أنْ أرْمِيَه، فذَكَرتُ قول رسول الله ﷺ: «ولا تَذْعَرْهم عَلَيَّ»، ولو رميتُه لأَصَبْتُه. فرجعتُ وأنا أمشي في مثل الحَمَّام، فلمَّا أتيتُه فأخبرتُه بخبر القوم وفَرَغْتُ قُرِرْتُ، فأَلْبَسني رسول الله ﷺ من فضلِ عباءةٍ كانت عليه يصلِّي فيها، فلم أَزَلْ نائماً حتى أصبحتُ، فلمَّا أصبحتُ قال: «قُم يا نَوْمَان»[(١)].

ولـمَّا أصبح رسول الله ﷺ وقد ذهب الأحزابُ، رجع إلى المدينة ووضع المسلمون سلاحهم، فأتاه جبريلُ عليه السلام في صورةِ دِحْيَةَ بن خليفة الكلبيِّ على بغلةٍ عليها قطيفةُ ديباجٍ فقال له: يا محمد، إن كنتُم قد وضعتُم سلاحكم فما وَضَعَتِ الملائكةُ سلاحها، إنَّ الله يأمرك أن تخرج إلى بني قُريظةَ، وإنِّي متقدِّمٌ إليهم فمزلزِلٌ بهم حصونَهم[(٢)]. فأمر رسول الله ﷺ ـ وهي:

(١) صحيح مسلم (١٧٨٨). قوله: ولا تذعرهم علي، أي: لا تُفزعهم فتُهيِّجهم عليّ، وقوله: يَصْلي ظهره، أي: يسخنه بالنار، وقوله: كأنما أمشي في حمَّام: أي لم يصبه شيءٌ من ذلك البرد بفضل طاعة رسول الله ﷺ، وهي من كراماته، ألا ترى أنه لما فرغ من ذلك العمل أخذه البرد كما كان أول مرة؟ وقوله: قُررتُ، أي: أصابني القرّ، وهو البرد. المفهم ٣/ ٦٤٧ - ٦٤٨.

(٢) الدرر ص٢٠١، ورواه ابن إسحاق عن الزهري كما في سيرة ابن هشام ٢/ ٢٣٣. وأخرج نحوه أحمد (٢٤٢٩٥) و(٢٥٠٩٧)، والبخاري (٤١٢٢)، ومسلم (١٧٦٩): (٦٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

الثامنة ـ منادياً فنادى: لا يُصلِّينَّ أحدٌ العصرَ إلَّا في بني قُريظة، فتخوَّف ناسٌ فَوْتَ الوقت فصَلَّوْا دون بني قُريظة. وقال آخرون: لا نصلِّي العصرَ إلَّا حيث أَمَرَنا رسولُ الله ﷺ وإنْ فاتنا الوقت. قال: فما عنَّف واحداً من الفريقين[1]. وفي هذا من الفقه تصويبُ المجتهدين، وقد مضى بيانُه في «الأنبياء»[2].

وكان سعد بن معاذ إذْ أصابه السهمُ دعا ربَّه فقال: اللَّهُمَّ إن كنتَ أبقيْتَ من حرب قريشٍ فأبقني لها؛ فإنه لا قوم أَحَبّ [إليَّ] أن أجاهدهم من قومٍ كذَّبوا رسولك وأخرجوه. اللّهُمَّ وإن كنتَ وضعتَ الحرب بيننا وبينهم فاجعلها لي شهادةً، ولا تُمِتْني حتى تُقرَّ عيني في بني قُريظة[3].

وروى ابن وَهْب عن مالك قال: بلغني أنَّ سعد بنَ معاذ مَرَّ بعائشةَ رضي الله عنها ونساءٍ معها في الأُطُم[4] الذي [يقال له:] فارع، وعليه دِرعٌ مُقَلَّصةٌ مُشَمِّرَ الكُمَّيْن، وبه أثرُ صُفرةٍ وهو يرتجز:

لَبِّثْ قليلاً يُدْرِكِ الهَيْجا حَمَلْ[5]   لا بأسَ بالموت إذا حان الأَجَلْ

فقالت عائشةُ رضي الله عنها: لستُ أخافُ أن يصاب سعدٌ اليومَ إلَّا في أطرافه، فأصيب في أَكْحَله. وروى ابن وهب وابن القاسم عن مالك: قالت عائشةُ رضي الله عنها: ما رأيتُ رجلاً أَجْمَلَ من سعد بن معاذ ـ حاشا رسولَ الله ﷺ ـ فأصيبَ في أكحله، ثم قال: اللهمَّ إن كان حربُ قُريظةَ لم يبقَ منه شيءٌ فاقبضني إليك، وإن كان

---

(١) أخرجه البخاري (٤١١٩)، ومسلم (١٧٧٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنها، واللفظ لمسلم.

(٢) ١٤/ ٢٣٩ - ٢٤٠.

(٣) الدرر ص٢٠١، وما بين حاصرتين منه، والخبر بنحوه عند البخاري (٤١٢٢)، ومسلم (١٧٦٩): (٦٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) الأُطُم: حصن مبني بالحجارة. القاموس (أطم).

(٥) في النسخ، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٠٢، والكلام منه: جمل، وسلف الكلام عليه ص٧٦ من هذا الجزء.

قد بقيتْ منه بقيةٌ فأَبقني حتى أجاهد مع رسولك أعداءَه، فلمَّا حُكِّم في بني قُريظةَ تُوُفِّيَ، ففرح الناس وقالوا: نرجو أن يكون قد استُجيبتْ دعوتُه[١].

التاسعة: ولمَّا خرج المسلمون إلى بني قُريظةَ أعطَى رسول الله ﷺ الرايةَ عليّ بنَ أبي طالب، واستَخْلَف على المدينة ابنَ أمِّ مَكْتوم، ونهض عليٌّ وطائفةٌ معه حتى أتَوْا بني قريظةَ ونازَلوهم، فسمعوا سبَّ الرسولِ ﷺ، فانصرف عليٌّ إلى رسول الله ﷺ فقال له: يا رسولَ الله، لا تَبلُغْ إليهم، وعَرَّضَ له. فقال له: «أظنُّكَ سمعتَ منهم شَتْمي، لو رَأَوْني لَكَفُّوا عن ذلك» ونهضَ إليهم، فلمَّا رأوه أَمْسَكوا، فقال لهم: «نقضتُم العهدَ يا إخوةَ القرود، أخزاكم الله وأنزلَ بكم نقمتَه» فقالوا: ما كنتَ جاهلاً يا محمد فلا تَجْهَلْ علينا. ونزل رسول الله ﷺ فحاصرهم بضعاً وعشرين ليلةً. وعَرَض عليهم سيِّدهُم كعبٌ ثلاثَ خصالٍ ليختاروا أيّها شاؤوا: إمَّا أن يُسْلِموا ويتَّبعوا محمداً على ما جاء به فيَسْلَموا. قال: وتُحْرِزوا أموالَكم ونساءَكم وأبناءكم، فواللهِ إنكم لتعلمون أنه الذي تجدونه مكتوباً في كتابكم. وإمَّا أنْ يقتُلوا أبناءَهم ونساءَهم، ثم يتقدَّمون فيقاتلون حتى يموتوا عن آخرهم[٢]. وإمَّا أن يُبيِّتوا المسلمين ليلةَ السبت في حين طمأنينتهم فيقتلوهم قتلاً. فقالوا له: أمَّا الإسلامُ فلا نُسْلِمُ ولا نخالفُ حكمَ التوراة، وأمَّا قتلُ أبنائنا ونسائنا فما جزاؤهم المساكين منَّا أن نقتلهم، ونحن لا نتعدَّى في السبت.

ثم بعثوا إلى أبي لُبابةَ، وكانوا حلفاءَ بني عمرو بن عوف وسائرِ الأوْس، فأتاهم فجمعوا إليه أبناءَهم ونساءهم ورجالَهم وقالوا له: يا أبا لُبابةَ، أترى أن ننزل على حكم محمد؟ فقال: نعم. وأشار بيده إلى حَلْقه أنَّه الذبحُ إنْ فَعلتم. ثم ندم أبو لبابةَ في الحين، وعلم أنه خان اللهَ ورسولَه، وأنه أمرٌ لا يَسْتُره الله عليه عن نبيِّه ﷺ[٣]. فانْطلَقَ

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٠٢ وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) في النسخ: من آخرهم، والمثبت من الدرر ص٢٠٣ .

(٣) في (ظ): لا يستره الله على نبيه، وفي الدرر ص٢٠٣ (والكلام منه): لا يستره الله عن نبيِّه.

إلى المدينة ولم يرجع إلى النبيِّ ﷺ، فربط نفسَه في سارِيةٍ، وأَقْسَم ألَّا يبرحَ من مكانه حتى يتوب الله عليه. فكانت امرأتُه تَحُلُّه لوقتِ كلِّ صلاة.

قال ابن عُيينة وغيرُه: فيه نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ الآية [الأنفال: ٢٧]. وأَقسم ألَّا يدخل أرضَ بني قُريظة أبداً، مكاناً أصاب فيه الذنب. فلمَّا بلغ ذلك النبيَّ ﷺ مِن فِعْلِ أبي لُبابةَ قال: «أمَا إنَّه لو أتاني لاستغفرتُ له، وأمَّا إذْ فَعَلَ ما فَعَلَ، فلا أُطْلِقُه حتى يُطْلقَه الله تعالى». فأنزل الله تعالى في أمر أبي لبابةَ: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ الآية [التوبة: ١٠٢]. فلمَّا نزل فيه القرآن أمر رسول الله ﷺ بإطلاقه[1].

فلمَّا أصبح بنو قريظةَ نزلوا على حُكْمِ رسولِ الله ﷺ، فتواثَبَ الأوْسُ إلى رسول الله ﷺ وقالوا: يا رسول الله، قد علمتَ أنَّهم حلفاؤنا، وقد أَسْعَفْتَ[2] عبد الله بنَ أبيّ ابن سلول في بني النَّضِير حلفاءِ الخَزْرج، فلا يَكُنْ حظُّنا أوْكَسَ وأَنقصَ عندك من حَظِّ غيرنا، فهم مَوَالينا. فقال لهم رسول الله ﷺ: «يا معشرَ الأوس، ألَا تَرْضَوْن أن يحكم فيهم رجلٌ منكم؟» قالوا: بلَى. قال: «فذلك إلى سعد ابن معاذ». وكان رسولُ الله ﷺ قد ضَرَبَ له خيمةً في المسجد؛ ليعودَه مِن قريبٍ في مرضه مِن جُرْحِه الذي أصابه في الخندق. فحَكَم فيهم بأن تُقتل المقاتِلة، وتُسْبَى الذُّرِّيَّةُ والنساء، وتقسمَ أموالُهم. فقال له رسول الله ﷺ: «لقد حَكَمْتَ فيهم بحكم الله تعالى من فوقِ سبعِ أَرْقِعة»[3].

---

(١) الدرر ص٢٠٢ - ٢٠٤، وبنحوه في سيرة ابن هشام ٢/ ٢٣٤ - ٢٣٧. وأخرجه البيهقي في الدلائل ٤/ ١٢ و ١٥ ضمن خبرين، الأول عن موسى بن عقبة، والثاني عن معبد بن كعب بن مالك، وقد سلف بعضه ٩/ ٤٩١.

(٢) في الدرر ص٢٠٥ (والكلام منه): شفعت.

(٣) الدرر ص٢٠٥ - ٢٠٦، وبنحوه في سيرة ابن هشام ٢/ ٢٣٩ - ٢٤٠. وحكم سعد بن معاذ في بني قريظة أخرجه أحمد (٢٤٢٩٥)، والبخاري (٤١٢٢) ومسلم (١٧٦٩) من حديث عائشة رضي الله عنها. وأخرجه أحمد (١١١٦٨)، والبخاري (٣٠٤٣)، ومسلم (١٧٦٨) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ. وقوله: أرقعة، أي: سماوات. المفهم ٣/ ٥٩٥.

وأمر رسول الله ﷺ فأُخرجوا إلى موضعٍ بسوق المدينة اليومَ - زمنَ ابنِ إسحاق - فخندقَ بها خنادقَ، ثم أمر عليه الصلاةُ والسلام، فضُرِبتْ أعناقُهم في تلك الخنادق. وقُتل يومئذٍ حُييّ بنُ أخْطب وكعب بن أسد، وكانا رأسَ القوم، وكانوا من الستِّ مئة إلى السبع مئة. وكان على حُييٍّ حُلَّةٌ فُقَّاحِيَّةٌ(١) قد شقَّقها عليه من كلٍّ ناحيةٍ كموضع الأَنْمَلة(٢)، أنملةً أنملةً لئلَّا يُسْلبَها. فلمَّا نظر إلى رسول الله ﷺ حين أُتي به ويداه مجموعتان إلى عنقه بحبلٍ قال: أمَا واللهِ ما لُمتُ نفسي في عداوتك، ولكنَّه مَن يَخْذِل اللهَ يُخْذَل. ثم قال: يا أيها الناس، لا بأسَ بأمر الله، كتابٌ وقَدَرٌ ومَلْحمةٌ كُتبتْ على بني إسرائيل. ثم جلس فضُربت عنقُه(٣).

وقَتل من نسائهم امرأة، وهي بُنانةُ امرأةُ الحكم القُرَظِيِّ، التي طَرَحت الرَّحَى على خَلَّاد بن سُويد فقتلته(٤).

وأَمر رسول الله ﷺ بقتلِ كلِّ مَن أَنْبتَ منهم وتَرْكِ مَن لم يُنْبِتْ. وكان عطيةُ القُرَظِيُّ ممن لم يُنْبِتْ، فاستحياه رسول الله ﷺ، وهو مذكور في الصحابة. ووَهب رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن شمَّاس ولدَ الزَّبِير(٥) بن باطا فاستحياهم، منهم عبدُ الرحمن بن الزَّبير أسلم وله صحبة. وَوَهَب أيضاً عليه الصلاة والسلام رفاعةَ بن سَمَوْءل القُرظيَّ لأمِّ المنذر سلمى بنتِ قيس، أختِ سَليط بن قيس من بني النجار، وكانت قد صلَّت إلى القبلتين، فأسلم رفاعةُ وله صحبةٌ ورواية(٦).

(١) أي: على لون الورد حين همَّ أن يتفتَّح، والفُقَّاحةُ: واحدةُ الفُقَّاح، وهو زهر النبت حين ينفتح أيًّا كان لونه. اللسان (فقح).

(٢) الأَنْمَلة بالفتح: واحدة الأنامل، وهي رؤوس الأصابع. الصحاح (نمل).

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٤١ .

(٤) الدرر ص٢٠٦ ، وأخرجه ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام ٢/ ٢٤٢ ، وأحمد (٢٦٣٦٤)، وأبو داود (٢٦٧١) من حديث عائشة رضي الله عنها، مطولاً دون ذكر اسم المرأة.

(٥) بفتح الزاي وكسر الباء. الروض الأنف ٣/ ٢٨٤ .

(٦) الدرر ص٢٠٦ - ٢٠٧ ، وذكر ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام ٢/ ٢٤٤ أن رفاعة كان رجلاً قد =

وروى ابن وهب وابن القاسم عن مالك قال: أتى ثابت بنُ قيس بن شمَّاس إلى ابن باطا ـ وكانت له عنده يدٌ ـ وقال: قد استوهبتُك من رسول الله ﷺ ليدك التي لك عندي. قال: ذلك يَفْعلُ الكريم بالكريم، ثم قال: وكيف يعيش رجلٌ لا ولدَ له ولا أهل؟ قال: فأتى ثابتٌ إلى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له، فأعطاه أهلَه وولده. فأتى فأَعْلَمه فقال: كيف يعيشُ رجلٌ لا مالَ له؟ فأتى ثابتٌ النبيَّ ﷺ فطلبه فأعطاه مالَه. فرجع إليه فأخبره، قال: ما فَعلَ ابن أبي الحُقَيق الذي كأنَّ وجهه مرآة صِينيَّة؟ قال: قُتل. قال فما فَعَلَ المجلسان؟ يعني بني كعب بن قريظةَ وبني عمرو بن قُريظة. قال: قُتلوا. قال: فما فَعلَتِ الفئتان؟(١) قال: قُتلتا. قال: برئَتْ ذمَّتُكَ، ولن أصبَّ فيها دلواً أبداً ـ يعني النَّخْلَ ـ فأَلْحِقْني بهم. فأبى أن يقتله فقتله غيره. واليدُ التي كانت لابن باطا عند ثابتٍ أنه أَسره يومَ بُعاث، فجزَّ ناصيته وأَطْلقَه.

العاشرة: وقسَّم ﷺ أموالَ بني قُريظةَ، فأَسْهَمَ للفارس ثلاثةَ أَسْهُمٍ، وللراجل سهماً. وقد قيل: للفارس سهمان، وللراجل سهم. وكانت الخيلُ للمسلمين يومئذٍ ستةً وثلاثين فرساً. ووقع للنبيِّ ﷺ مِن سَبْيهم ريحانةُ بنتُ عمرو بن خنافة(٢) أحد بني عمرو ابن قُريظة، فلم تَزَلْ عنده إلى أن مات ﷺ(٣). وقيل: إنَّ غَنيمة قريظةَ هي أوّل غنيمةٍ قُسم فيها للفارس والراجل، وأوّلُ غنيمةٍ جُعِلَ فيها الخُمس. وقد تقدَّم أنَّ أوّل ذلك كان في بعث عبد الله بن جَحْش(٤)، فالله أعلم.

= بلغ، فلاذ بسلمى ـ وكان يعرفهم قبل ذلك ـ فطلبته من رسول الله ﷺ، فوهبه لها.

(١) في (د): القينان، وفي أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٩٩ (والكلام منه): القينتان. ولم ترد هذه العبارة في سيرة ابن هشام ٢/ ٢٤٢ - ٢٤٣، حيث ذكر الخبر بنحوه عن ابن إسحاق.

(٢) بالخاء المعجمة، وقيل: قنافة بالقاف، عرض عليها رسول الله ﷺ الإسلام فامتنعت، ثم أسلمت بعد ذلك. وقد قيل: أعتقها رسول الله ﷺ وتزوجها، وقيل: خيَّرها فاختارت أن تبقى في ملكه. ينظر الإصابة ١٢/ ٢٦٧. وسيذكرها المصنف ص١٢٣ من هذا الجزء.

(٣) وسيأتي ص١٢٣ أنها ماتت في حياته ﷺ، وهو الذي رجحه الواقدي. ينظر طبقات ابن سعد ٨/ ١٣٠ - ١٣١.

(٤) الدرر ص٢٠٧، وسلف الكلام عن الخمس في سرية عبد الله بن جحش ﷺ ٣/ ٤٢١ و ١٠/ ١٨.

قال: أبو عمر[١]: وتهذيبُ ذلك أن تكون غنيمةُ قريظةَ أوّلَ غنيمةٍ جرى فيها الخمسُ بعد نزول قوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ الآية [الأنفال: ٤١]، وكان عبد الله بن جَحْش قد خمَّس قبل ذلك في بَعْثِه، ثم نزل القرآن بمثلِ ما فَعَلَه؛ وكان ذلك من فضائله رحمة الله عليه.

وكان فَتْحُ قريظةَ في آخِرِ ذي القَعدةِ وأوّلِ ذي الحِجَّة من السنة الخامسة من الهجرة. فلمَّا تمَّ أمر بني قريظةَ أجيبتْ دعوةُ الرجل الفاضل الصالح سعد بنِ معاذ، فانفجر جرحُه، وانفتح عِرْقُه، فجرى دمه ومات ﷺ. وهو الذي أتى الحديث فيه: «اهتَزَّ لموته عَرْشُ الرّحمن» يعني سكَّانَ العرش من الملائكة فرِحوا بقدوم روحه واهتزُّوا له[٢].

وقال ابن القاسم عن مالك: حدَّثني يحيى بن سعيد قال: لقد نزل لموت سعد بن معاذٍ سبعون ألفَ مَلَكٍ، ما نزلوا إلى الأرض قبلها[٣].

قال مالك: ولم يُسْتشهَدْ يومَ الخَنْدق من المسلمين إلَّا أربعةٌ أو خمسة[٤].

قلت: الذي اسْتُشْهِد يومَ الخندق من المسلمين ستةُ نفرٍ فيما ذكر أهل العلم بالسِّيَر: سعد بن معاذ أبو عمرو من بني عبد الأشهل، وأنس بن أوْس بن عَتيك، وعبد الله بن سهل، وكلاهما أيضاً من بني عبد الأشهل. والطُّفيل بنُ النعمان، وثعلبة ابنُ عَنَمَة[٥]، وكلاهما من بني سلمةَ، وكعب بن زيد من بني دينار بن النجار، أصابه سَهْمٌ غَرْبٌ فقتله، ﷺ[٦].

---

(١) في الدرر ص ١٨٢ (طبعة دار المعارف).

(٢) الدرر ص٢٠٧ . والحديث أخرجه أحمد (١٤١٥٣)، والبخاري (٣٨٠٣)، ومسلم (٢٤٦٦) عن جابر ﷺ.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٠٣ ، وأخرجه ابن سعد ٣/ ٤٣٠ ، والنسائي في المجتبى ٤/ ١٠٠-١٠١ من حديث ابن عمر ﷺ.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٠٠ .

(٥) بفتح العين المهملة والنون، كذا قيده الحافظ في الإصابة ٢/ ٢٤ .

(٦) الدرر ص٢٠٨ ، وبنحوه في السيرة ٢/ ٢٥٢ . قال ابن هشام: سهمُ غَرْبٍ، وسهمٌ غَرْبٌ، بإضافة =

وقُتل من الكفار ثلاثةٌ: منبِّه بنُ عثمان بن عبيد بن السبَّاق بن عبد الدار، أصابه سهمٌ مات منه بمكة. وقد قيل: إنَّما هو عثمان بن أمية بن منبِّه بن عبيد بن السبَّاق. ونوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزوميُّ، اقتحم الخندق فتورَّط فيه فقُتِل، وغَلَبَ المسلمون على جسده، فروي عن الزهريِّ أنَّهم أَعطَوْا رسولَ الله ﷺ في جسده عشرةَ آلافِ درهمٍ فقال: «لا حاجةَ لنا بجسده ولا بثمنه» فخلَّى بينهم وبينه. وعمرو بن [عبد] ودٍّ الذي قتله عليٌّ مبارزةً، وقد تقدَّم(١).

واستُشْهِدَ يومَ قُريظةَ من المسلمين خَلَّاد بنُ سُويد بن ثعلبةَ بن عمرو من بني الحارث بن الخزرج، طَرَحت عليه امرأةٌ من بني قُريظةَ رحًى فقتلته. ومات في الحصار أبو سنان بن مِحْصَن بن حُرْثان الأسديُّ، أخو عُكاشة بن مِحْصَن، فَدَفَنه رسول الله ﷺ في مقبرة بني قُريظة التي يتدافَنُ فيها المسلمون السكانُ بها اليوم. ولم يُصَب غيرُ هذين، ولم يَغْزُ كفارُ قريش المؤمنين بعد الخندق(٢).

وأسند الدارِميُّ أبو محمد في «مسنده»: أخبرنا يزيد بن هارون، عن ابن أبي ذِئب، عن المَقْبُريِّ، عن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخُدْرِيِّ، عن أبيه قال: حُبِسْنا يومَ الخندق حتى ذهب هَوِيٌّ من الليل حتى كُفِينا، وذلك قولُ الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥]. فأمر النبيُّ ﷺ بلالاً فأقام فصلَّى الظهرَ، فأَحْسَن كما كان يصلِّيها في وقتها، ثم أمره فأقام العصرَ فصَلَّاها، ثم أمره فأقام المغرب فصلَّاها، ثم أمره فأقام العشاءَ فصلَّاها، وذلك قبل أن ينزل:

= ومن غير إضافة: هو الذي لا يُعرف من أين جاء، ولا مَن رمى به.

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٥٣، والدرر ص٢٠٨، وما بين حاصرتين منهما، وسلف الكلام في المسألة الخامسة.

(٢) الدرر ص٢٠٨، وبنحوه في السيرة ٢/ ٢٥٤. وسلف خبر المرأة التي قتلت خلاد بن سويد ص٨٦ من هذا الجزء. وأخرج أحمد (١٨٣٠٨)، والبخاري (٤١١٠) عن سليمان بن صُرَد ﷺ قال: سمعت النبيَّ ﷺ يقول حين أَجْلى الأحزاب عنه: «الآن نغزوهم ولا يغزونا، نحن نسير إليهم».

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة: ٢٣٨][١]. خرَّجه النسائيُّ أيضاً[٢]. وقد مضت هذه المسألة في «طه»[٣]. وقد ذكرنا في هذه الغَزاة أحكاماً كثيرةً لِمَن تأمَّلها في مسائلَ عشرٍ. ثم نرجع إلى أول الآيِ، وهي تسعَ عَشْرةَ آيةً تضمَّنت ما ذكرناه[٤].

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ يعني الأحزاب ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ قال مجاهد: هي الصَّبا، أُرسلت على الأحزاب يومَ الخندق حتى أَلْقَتْ قُدُورَهم ونَزَعَتْ فَسَاطِيطَهم، قال: والجنودُ: الملائكةُ، ولم تُقاتِلْ يومئذٍ[٥].

وقال عِكْرمةُ: قالت الجَنوب للشَّمال ليلةَ الأحزاب: انْطَلِقي لنُصْرةِ النبيِّ ﷺ، فقالت الشَّمال: إنَّ مَحْوَةَ[٦] لا تَسْرِي بليل. فكانت الريح التي أُرسلت عليهم الصَّبا.

وروى سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «نُصِرْتُ بالصَّبا، وأُهْلِكَتْ عادٌ بالدَّبُور»[٧].

وكانت هذه الريحُ معجزةً للنبيِّ ﷺ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ والمسلمين كانوا قريباً منها، لم يكن بينهم وبينها إلَّا عرضُ الخندق، وكانوا في عافيةٍ منها، ولا خبرَ عندهم بها.

---

(١) سنن الدارمي (١٥٢٤)، وهو عند أحمد (١١١٩٨). والهَوِيّ: الحين الطويل من الزمان، وقيل: هو مختصٌّ بالليل. النهاية (هوا).

(٢) في المجتبى ٢/ ١٧ .

(٣) ١٤/ ٣٠ .

(٤) من الآية (٩) إلى آخر الآية (٢٧).

(٥) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٨ .

(٦) محوة: ريح الشمال، سميت بذلك لأنها تمحو السحاب وتذهب بها، وهي مَعرِفة لا تنصرف، ولا تدخلها ألف ولام. اللسان (محا). ووقع في (ظ): الحُرة، وهو موافق لما في تفسير الطبري ١٩/ ٢٥ ، وفيه تخريج الخبر.

(٧) أخرجه أحمد (١٩٥٥) و(٢٠١٣)، والبخاري (١٠٣٥)، ومسلم (٩٠٠). وهو عند البخاري من طريق مجاهد عن ابن عباس وعند أحمد ومسلم من الطريقين. والصبا: الريح الشرقية، والدَّبُور: الريح الغربية.

﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وقُرئ بالياء[١]، أي: لم يَرَها المشركون. قال المفسِّرون: بعث الله تعالى عليهم الملائكة فقلعت الأوتاد، وقطَّعَتْ أطْنابَ الفساطيط، وأطفأت النيران، وأكْفأت القُدور، وجالت الخيلُ بعضُها في بعض، وأرسل الله عليهم الرُّعْب، وكَثُر تكبير الملائكة في جوانب العسكر، حتى كان سيِّدُ كلِّ خباءٍ يقول: يا بني فلان هلمَّ إليَّ، فإذا اجتمعوا قال لهم: النَّجاءَ النَّجاءَ، لِمَا بعث الله تعالى عليهم من الرعب[٢].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ وقرئ: «يعملون» بالياء على الخبر، وهي قراءةُ أبي عمرو. الباقون بالتاء[٣]، يعني من حَفْرِ الخندق والتحرُّزِ من العدوّ.

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ «إِذْ» في موضع نصبٍ بمعنى: واذكر. وكذا: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ [الآية:١٣]. «مِن فوقِكُم» يعني من فوق الوادي، وهو أعلاه من قِبَلِ المَشْرِق، جاء منه عَوْف بنُ مالك[٤] في بني نَصْر، وعيينةُ ابن حِصْنٍ في أهل نَجْدٍ، وطُليحةُ بن خُوَيْلد الأَسَديُّ في بني أسد. «ومِن أَسْفَلَ منكم» يعني من بطن الوادي من قِبَل المغرب، جاء منه أبو سفيان بنُ حرْب على أهل مكة، ويزيد بنُ جَحْشٍ على قريش، وجاء أبو الأعور السُّلَميُّ ومعه حُيَيّ بنُ أخْطب اليهوديُّ في يهود بني قُريظة مع عامر بن الطُّفَيل من وجه الخندق[٥].

﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي: شَخَصت. وقيل: مالت؛ فلم تلتفتْ إلَّا إلى عدوِّها

---

(١) القراءات الشاذة ص١١٨.

(٢) تفسير البغوي ٣/٥٠٩. وأخرج نحوه الطبري ١٩/٢٨ عن قتادة.

(٣) السبعة ص٥١٩، والتيسير ص١٧٧.

(٤) كذا. ولعله مالك بن عوف. ينظر الإصابة ٧/١٧٩ و٩/٦٤.

(٥) النكت والعيون ٤/٣٧٩.

دَهَشاً من فَرْط الهَوْل.

﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ أي: زالت عن أماكنها من الصدور حتى بلغت الحناجرَ، وهي الحلاقيم، واحدُها: حَنْجَرة[١]. فلولا أنَّ الحلوقَ ضاقت عنها لخرجت؛ قاله قتادة[٢].

وقيل: هو على معنى المبالغةِ على مذهب العرب على إضمار كاد؛ قال:

إذا ما غَضِبْنَا غَضْبَةً مُضَرِيَّةً   هتَكْنا حجابَ الشمس أو قَطَرَتْ دَمَا[٣]

أي: كادت تَقْطُر.

ويقال: إنَّ الرئة تنتفخ[٤] عند الخوف، فيرتفع القلب حتى يكاد يبلغُ الحَنْجَرةَ مثلاً؛ ولهذا يقال للجبان: انتفخ سَحْرُه[٥].

وقيل: إنه مثلٌ مضروبٌ في شدَّة الخوف ببلوغ القلوبِ الحناجرَ وإن لم تَزُلْ عن أماكنها مع بقاء الحياة[٦]. قال معناه عكرمة؛ روى حماد بن زيد عن أيوب عن عكرمةَ قال: بَلَغ فَزَعُها[٧]. والأَظْهَرُ أنه أراد اضطرابَ القلب وضَرَبانَه، أي: كأنه لشدَّة اضطرابه بلغ الحنجرة. والحَنْجَرة والحُنْجُور ـ بزيادة النون[٨] ـ: حرفُ الحَلْق.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١١٣ .

(٣) البيت لبشار بن برد، وهو في ديوانه ٢/ ٤٩٧ برواية: أو تمطر الدما. وذكره برواية المصنف ابن قتيبة في الشعر والشعراء ٢/ ٧٦٠ ، والبصري في الحماسة ١/ ١٧ . وقد ذكر هذا القول ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن ص١٣٠ .

(٤) في (د) و(ظ) و(م): تنفتح.

(٥) ذكر هذا القول الواحدي في الوسيط ٣/ ٤٦١ ، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٥٣ ، والبغوي ٣/ ٥١٦ . والسَّحْر: الرئة. القاموس (سحر).

(٦) النكت والعيون ٤/ ٣٧٩ - ٣٨٠ .

(٧) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٣٢٩ ، وأخرجه بنحوه ابن أبي شيبة ١٣/ ٥٧١ ، والطبري ١٩/ ٣٥ .

(٨) يعني بزيادة النون على «حجر»، ينظر الصحاح (حجر).

﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ قال الحسن: ظنَّ المنافقون أنَّ المسلمين يُستأصَلون، وظنَّ المؤمنون أنَّهم يُنصرون[1]. وقيل: هو خطابٌ للمنافقين، أي: قُلتم: هلكَ محمدٌ وأصحابه.

واختلف القرَّاء في قوله تعالى: ﴿ٱلظُّنُونَا۠﴾ و﴿ٱلرَّسُولَا۠﴾ و﴿ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الآيتان: ٦٦و٦٧] آخِرَ السورة؛ فَأَثبت أَلِفاتِها في الوقف والوصل نافعٌ وابن عامر[2]، ورويَ عن أبي عمرو والكسائيِّ[3]؛ تمسُّكاً بخطِّ المصحف، مصحفِ عثمان، وجميعِ المصاحف في جميع البلدان[4]. واختاره أبو عبيد، إلَّا أنه قال: لا ينبغي للقارئ أن يُدرج القراءة بعدهنَّ، لكنْ يقف عليهنّ. قالوا: ولأنَّ العرب تفعل ذلك في قوافي أشعارهم ومَصَاريعها؛ قال:

نحن جلبنا القُرَّحَ القَوافِلَا تَسْتَشْفِرُ[5] الأواخِرُ الأوائلا[6]

وقرأ أبو عمرو والجَحْدريُّ ويعقوبُ وحمزةُ بحَذْفِها في الوصل والوقف معاً[7]؛ قالوا: هي زائدةٌ في الخطِّ كما زِيدَتْ الألفُ في قوله تعالى: ﴿وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ﴾ [التوبة: ٤٧][8] فكتبوها كذلك، وغير هذا. وأمَّا الشعرُ فموضعُ ضرورةٍ، بخلاف القرآن فإنه أَفْصَحُ اللغات ولا ضرورةَ فيه. قال ابن الأنباريِّ: ولم يُخالِف المصحفَ مَن

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٥ - ٣٦.

(٢) وأثبتها أيضاً عاصم في رواية أبي بكر. السبعة ص٥١٩، والتيسير ص١٧٨.

(٣) والمشهور عنهما غيره على ما يأتي. وذكرها عن أبي عمرو ابن مجاهد في السبعة ص٥٢٠.

(٤) ذكره أبو عمرو الداني في المُقنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار ص٣٩.

(٥) المثبت من (خ)، وفي غيرها: تستنفر.

(٦) الرجز لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص١٣٥، قال شارحه: القرَّح القوافلا، يعني الخيل المسنَّة الضامرة، يقال: قفل الفرس: إذا ضمر. وقوله: «تستثفر الأواخر الأوائلا»، أي: يتلو أواخرُ الخيل أوائلَها، ويروى: تستشرف، وتستفرم.

(٧) السبعة ص٥١٩، والتيسير ص١٧٨، والنشر ٢/ ٣٤٧ - ٣٤٨.

(٨) يعني أن رسم المصحف «ولا أوضعوا» وكذلك في النمل: «أولا أذبحنه» [الآية: ٢١] بزيادة ألف. ينظر المقنع ص٤٥.

قرأ: «الظنونَ» و«السبيلَ» و«الرسولَ» بغير ألف في الحروف الثلاثة، وخطُّهنَّ في المصحف بألفٍ؛ لأنَّ الألف التي في «أطعنا»، أو الدَّاخِلةَ(١) في أوّل «الرسول، والظنون، والسبيل» كفَى من الألف المتطرِّفةِ المتأخِّرةِ، كما كَفَتْ أَلِفُ أبي جادٍ من أَلِفِ هوَّاز(٢).

وفيه حجةٌ أخرى: أنَّ الألف أُنزلت منزلةَ الفتحةِ وما يُلحَقُ دِعامة للحركة التي تسبق، والنيةُ فيه السقوط، فلمَّا عُمل على هذا كانت الألفُ مع الفتحة كالشيء الواحد يوجب الوقفُ سقوطَها(٣)، ويُعمَل على أنَّ صورة الألف في الخطِّ لا توجِبُ موضعاً في اللفظ، وأنَّها كالألف في «ساحران» وفي «فاطر السماوات والأرض» وفي «واعَدْنَا مُوسى»، وما يشبههنَّ ممَّا يُحذف من(٤) الخطِّ وهو موجودٌ في اللفظ، ويثبت في اللفظ وهو مُسْقَطٌ من الخط.

وفيه حجةٌ ثالثةٌ: هي أنه كُتب على لغة مَن يقول: لقيتُ الرجُلَا، وقرئ على لغة مَن يقول: لقيت الرجلَ، بغير ألف. أخبرنا أحمد بن يحيى عن جماعةٍ من أهل اللغة أنَّهم رَوَوْا عن العرب: قام الرَّجُلُو، بواو، ومررتُ بالرَّجُلي، بياء، في الوصل والوقف. ولقيتُ الرجُلا، بألف في الحالتين كلتيهما. قال الشاعر:

أسائلةٌ عُميرةُ عن أبيها ... خلالَ الجيش تَعْتَرِف الرِّكابا(٥)

---

(١) في (م): والداخلة.

(٢) يعني بها حروف: أبجد هوَّز حطِّي كلمن صعفض قريسات، التي هي أصل حروف التهجِّي، وأصل أبجد: أبو جاد، وأصل هوّز: هوّاز، وقد كفت ألف أبجد من ألف هوَّاز، فكلما مُثِّل الحرف مرةً؛ استُغنيَ عن إعادته. ينظر المحكم في نَقْط المصاحف للداني ص٢٩ وما بعدها، والفهرست لابن النديم ص٧ .

(٣) في (خ) و(ظ) و(م): سقوطهما.

(٤) في (د) و(ظ): في.

(٥) البيت لبشر بن أبي خازم، وهو في ديوانه ص٧٣ ، والصحاح (عرف)، وأساس البلاغة (عرف). ووقع في الصحاح: الركب، بدل: الجيش. وقوله: تعترف، قال الجوهري: اعترفتُ القوم: إذا سألتَهم عن خبر لتعرفه.

فأثْبتَ الألفَ في «الركاب» بناءً على هذه اللغة. وقال الآخر:

إذا الجوزاءُ أردفت الثُّريا ظننتُ بآل فاطمةَ الظُّنونا[(١)]

وعلى هذه اللغة بنَى نافعٌ وغيره.

وقرأ ابن كثير وابن مُحَيْصِن والكسائيُّ بإثباتها في الوقف وحَذْفِها في الوصل[(٢)]. قال ابن الأنباريّ: ومَن وَصَلَ بغير ألفٍ ووَقَفَ بألفٍ فجائزٌ أن يحتجَّ بأنَّ الألف احتاج إليها عند السَّكْتِ حرصاً على بقاء الفتحة، وأنَّ الألف تَدْعَمُها وتقوِّيها.

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١﴾

«هنا» للقريب من المكان. و«هنالك» للبعيد. و«هناك» للوسط. ويُشارُ به إلى الوقت، أي: عند ذلك اختُبر المؤمنون ليتبيَّن المخْلِصُ من المنافق. وكان هذا الابتلاءُ بالخوف والقتال والجوع والحَصْر والنِّزال. ﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ أي: حرِّكوا تحريكاً. قال الزَّجَّاج: كلُّ مصدرٍ من المضاعَفِ على فِعلال يجوز فيه الكسرُ والفتحُ، نحو: قلقلتُه قِلقالاً وقَلقالاً، وزُلزلوا زِلزالاً وزَلزالاً. والكسرُ أَجْوَدُ؛ لأنَّ غيرَ المضاعَفِ على الكسر، نحو: دحرجتُه دِحراجاً[(٣)]. وقراءةُ العامة بكسر الزاي، وقرأ عاصم والجحدريُّ[(٤)]: «زَلزالاً» بفتح الزَّاي.

قال ابن سلام: أي: حُرِّكوا بالخوف تحريكاً شديداً. وقال الضَّحَّاك: هو

(١) البيت لخُزيمة بن نَهْد، كما في الأغاني ١٣/ ٧٨، وجمهرة الأمثال ١/ ١٢٣، ومجمع الأمثال ١/ ٧٥. وفي كتاب الأمثال لأبي عبيد ص٣٤٥: حزيمة، بالحاء، وأشار إليه الميداني حيث قال: ويروى: حزيمة، كذا رواه أبو الندى في أمثاله. وفاطمة هي بنت يَذْكُر بنِ عَنَزَة، وكان خزيمة يهواها.

(٢) وهي قراءة عاصم من رواية حفص أيضاً. السبعة ص٥١٩، والتيسير ص١٧٨.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢١٨ - ٢١٩.

(٤) كذا في النسخ، ولعل صواب العبارة: عاصم الجحدري دون واو (وهو ابن العجاج)، أما عاصم بن أبي النجود ـ وهو أحد القراء السبعة ـ فقراءته كقراءة الجمهور، وقد نسبها لعاصم الجحدري ابنُ خالويه في القراءات الشاذة ص١١٨، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٧٣، وأبو حيان في البحر ٧/ ٢١٧ وزاد نسبتها لعيسى.

إزاحتُهم عن أماكنهم حتى لم يكن لهم إلَّا موضعُ الخندق. وقيل: إنه اضطرابهم عمَّا كانوا عليه، فمنهم مَن اضْطَربَ في نفسه، ومنهم مَن اضْطَربَ في دينه(١).

و«هنالِك» يجوز أن يكون العاملُ فيه: «ابْتُليَ»، فلا يُوْقَفُ على «هنالك». ويجوز أن يكون «وتَظُنُّون بالله الظُّنونا»؛ فيوقَفُ على «هنالك»(٢).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شكٌّ ونفاقٌ: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: باطلاً من القول. وذلك أنَّ طُعْمةَ بن أُبَيْرِق ومُعَتِّب بن قُشير وجماعةً نحوٌ من سبعين رجلاً قالوا يومَ الخندق: كيف يَعِدنا كنوزَ كِسْرى وقَيْصر ولا يستطيع أحدُنا أن يتبرَّز؟! وإنَّما قالوا ذلك لمَا فَشَا في أصحاب النبيِّ ﷺ مِن قوله عند ضرب الصخرة، على ما تقدَّم في حديث النَّسائيِّ(٣)، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾ الطائفةُ تقع على الواحد فما فوقه. وعُنيَ به هنا أوْس بن قَيْظِيٍّ والدُ عَرابَةَ بن أوس، الذي يقول فيه الشمَّاخ:

إذا ما رايةٌ رُفِعَتْ لمَجْدٍ　　تلقَّاها عَرابةُ باليمينِ(٤)

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٣٨٠ - ٣٨١، وابن سلام هو يحيى.

(٢) وقال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٧٣: ومن قال: إن العامل فيه: «وتظنون» فليس بالقوي؛ لأن البدأة ليست متمكنة.

(٣) ص٧٣ من هذا الجزء.

(٤) الدرر ص١٩٤، والتعريف والإعلام للسهيلي ص١٣٧، وسلف البيت ٦/ ٣٨.

و «يَثْرِب» هي المدينة، وسَمَّاها رسول الله ﷺ طَيْبَةَ وطابة[1]. وقال أبو عبيدة[2]: يثرب اسم أرضٍ، والمدينةُ ناحيةٌ منها. السُّهَيْليُّ[3]: وسُمِّيتْ يثرب لأنَّ الذي نزلها من العماليق اسمُه يثرب بن عميل[4] بن مهلائيل بن عوص بن عملاق بن لاوذ بن إرم. وفي بعض هذه الأسماء اختلاف. وبنو عميل هم الذين سكنوا الجُحْفَة، فأجْحفت بهم السيول فيها، وبها سمِّيت الجُحْفة.

﴿لا مَقَامَ لكم﴾ بفتح الميم قراءةُ العامّة. وقرأ حفصٌ والسُّلَميُّ والجحدرِيُّ وأبو حَيْوةَ بضمِّ الميم[5]، يكون مصدراً من أَقام يُقيم، أي: لا إقامةَ، أو موضعاً يقيمون فيه. ومَن فتح فهو اسمُ مكان[6]، أي: لا موضعَ لكم تقيمون فيه.

﴿فَٱرْجِعُوا۟﴾ أي: إلى منازلكم؛ أَمَرُوهم بالهروب من عسكر النبيِّ ﷺ. قال ابن عباس: قالت اليهود لعبد الله بن أُبَيّ ابن سلول وأصحابِه من المنافقين: ما الذي يحملكم على قَتْلِ أنفسِكم بيدِ أبي سفيان وأصحابِه؟! فارجعوا إلى المدينة فإنَّا مع القوم، فأنتم آمنون.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ﴾ في الرجوع إلى منازلهم بالمدينة، وهم بنو حارثةَ بن الحارث، في قول ابن عباس. وقال يزيد بن رُومان: قال ذلك أوس بن قَيظِيٍّ عن ملأ من قومه[7]. ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أي: سائبةٌ ضائعةٌ ليست بحصينة،

(١) تسميتها طيبة عند أحمد (٢١٥٩٩)، والبخاري (٤٠٥٠)، ومسلم (١٣٨٤) من حديث زيد بن ثابت ﷺ. وتسميتها طابة عند أحمد (٢٣٦٠٤)، والبخاري (١٤٨١)، ومسلم (١٣٩٢) من حديث أبي حميد الساعدي ﷺ.

(٢) في مجاز القرآن ٢/ ١٣٤ . ونقله عنه النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٠٦ .

(٣) في التعريف والإعلام ص١٣٧ .

(٤) وقع في مطبوع التعريف والإعلام: عبيل، في الموضعين.

(٥) السبعة ص٥٢٠ ، والتيسير ص١٧٨ عن حفص.

(٦) بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٠٦ .

(٧) أخرج القولين الطبري ١٩/ ٤٤ .

وهي مما يلي العدوَّ. وقيل: مُمْكِنةٌ للسُّرَّاق لخُلوِّها من الرجال. يقال: دارٌ مُعْوِرةٌ وذاتُ عَوْرةٍ: إذا كان يَسْهُلُ دخولُها. يقال: عَوِرَ المكان عَوَراً فهو عَوِر. وبيوتٌ عَوِرَة. وأَعْوَرَ فهو مُعْوِر. وقيل: عَوِرةٌ: ذاتُ عَوْرة. وكلُّ مكانٍ ليس بممنوعٍ ولا مستورٍ فهو عَوْرة؛ قاله الهرَوِيُّ.

وقرأ ابن عباس وعِكرمةُ ومجاهد وأبو رجاء العُطارِديُّ: «عَوِرة» بكسر الواو[(١)]، يعني قصيرة الجدران فيها خَلَل؛ تقول العرب: دارُ فلانٍ عَوِرةٌ: إذا لم تكن حصينةً. وقد أَعْوَر الفارِس: إذا بَدَا فيه خَلَلٌ للضَّرب والطَّعْنِ؛ قال الشاعر:

متى تَلْقَهم لم تَلْقَ في البيت مُعْوِراً ولا الضيفَ مفجوعاً ولا الجارَ مُرْمِلَا[(٢)]

الجوهريُّ[(٣)]: والعَوْرةُ: كلُّ خَلَلٍ يُتَخَوَّف منه في ثَغرٍ أو حرب. النحاس[(٤)]: يقال: أَعْوَرَ المكان: إذا تَبيَّنتْ فيه عورةٌ، وأَعْوَرَ الفارس: إذا تَبيَّن منه موضعُ الخلل.

المهدِويُّ: ومَن كَسَرَ الواوَ في «عورة» فهو شاذٌّ، ومِثْله قولُهم: رجلٌ عَوِرٌ، أي: لا شيءَ له، وكان القياسُ أن يُعَلَّ فيقال: عارٍ، كيومٍ راحٍ، ورجلٍ مالٍ[(٥)]؛ أصلُهما: رَوِح ومَوِل.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾ تكذيباً لهم وردًّا عليهم فيما ذكروه. ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ أي: ما يريدون إلّا الهربَ. قيل: من القتل. وقيل: من الدِّين. وحكى النقَّاش أنَّ هذه الآيةَ نزلت في قبيلتين من الأنصار: بني حارِثةَ وبني سَلِمة، وهَمُّوا أن

---

(١) المحتسب ٢/ ١٧٦.

(٢) البيت للنابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص١٢٩، وسيرة ابن هشام ١/ ٥٢٤ برواية:

متى تلقهم لا تلق في البيت عورة ولا الجار محروماً ولا الأمر ضائعاً

وذكره الحصري القيرواني في زهر الآداب ٢/ ٩٠٦ بنحوه مع بيتين آخرين في مدح آل جفنة.

(٣) في الصحاح (عور).

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٣٠٦.

(٥) بنحوه في المحتسب ٢/ ١٧٦.

يتركوا مراكزهم يومَ الخندق، وفيهم أنزل الله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ الآية [آل عمران: ١٢٢]، فلمَّا نزلت هذه الآيةُ قالوا: واللهِ ما ساءَنا ما كنَّا هَمَمْنا به؛ إذ اللهُ وليُّنا(١).

وقال السُّدِّيُّ: الذي استأذنه منهم رجلان من الأنصار من بني حارثةَ؛ أحدهما: أبو عَرابةَ بن أوس، والآخَر: أَوْس بنُ قَيْظِيّ. قال الضحَّاك: ورجع ثمانون رجلاً بغير إذنه(٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ وهي البيوتُ أو المدينة، أي: من نواحيها وجوانِبها، الواحدُ: قُطْر، وهو الجانبُ والناحية. وكذلك القُتْر لغةٌ في القُطْر(٣). ﴿ثم سُئلوا الفتنةَ لَأَتَوْها﴾ أي: لجاؤوها؛ هذا على قراءة نافعٍ وابن كثير بالقَصْر. وقرأ الباقون بالمدِّ(٤)، أي: لأَعْطَوْها من أنفسهم، وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم. وقد جاء في الحديث: أنَّ أصحاب النبيِّ ﷺ كانوا يعذَّبون في الله ويُسألون الشِّرْكَ، فكلٌّ أعطى ما سألوه إلَّا بلالاً(٥). وفيه دليلٌ على قراءة المدِّ، من الإعطاء.

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٣٨٣، وفيه: إن كان الله ولينا.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٨٢، وقول السدي أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ١٨٨. ولعل في رواية السّديّ وهماً، فقد سلف ص٩٦ أن أوس بن قيظي هو أبو عرابة بن أوس.

(٣) الصحاح (قتر) و(قطر).

(٤) السبعة ص٥٢٠، والتيسير ص١٧٨. وزاد ابن مجاهد نسبتها لابن عامر، وهي روايةٌ عن ابن ذكوان، كما ذكر ابن الجزري في النشر ٢/ ٣٤٨.

(٥) أخرجه أحمد (٣٨٣٢)، وابن ماجه (١٥٠) من حديث ابن مسعود ﷺ مطولاً، وفيه: وأتاهم على ما أرادوا، بدل: أعطى ما سألوا، وسلف بنحوه ١٢/ ٤٣٣ - ٤٣٤.

ويدلُّ على قراءةِ القَصْرِ قوله: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ﴾ فهذا يدلُّ على «لَأَتَوْها» مقصوراً(١).

وفي «الفتنة» هنا وجهان: أحدهما: سُئلوا القتالَ في العصبية لأسرعوا إليه؛ قاله الضحَّاك. الثاني: ثم سئلوا الشركَ لأجابوا إليه مسرعين؛ قاله الحسن(٢).

﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا﴾ أي: بالمدينة بعد إعطاء الكفر إلَّا قليلاً حتى يهلكوا؛ قاله السُّدِّيُّ والقُتَبيُّ والحسن والفرَّاء(٣). وقال أكثر المفسِّرين: أي: وما احْتَبَسوا عن فتنة الشِّرك إلَّا قليلاً، ولأجابوا بالشرك مسرعين(٤)، وذلك لضَعْفِ نيَّاتهم ولِفَرْطِ نفاقهم؛ فلو اختلطتْ بهم الأحزابُ لأَظْهَروا الكفر.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قَبْلِ غزوةِ الخندقِ وبعدَ بدر. قال قتادةُ: وذلك أنَّهم غابوا عن بدرٍ ورأَوْا ما أعطى الله أهلَ بدر من الكرامة والنصر، فقالوا: لئن أَشْهَدَنا اللهُ قتالاً لنقاتلنَّ.

وقال يزيد بنُ رومان: هم بنو حارثةَ؛ هَمُّوا يومَ أُحُدٍ أن يفشلوا مع بني سَلِمة، فلمَّا نزل فيهم ما نزل عاهدوا الله ألَّا يعودوا لمِثْلِها، فذكر اللهُ لهم الذي أعطَوْه من أنفسهم(٥). ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ أي: مسؤولاً عنه.

---

(١) قال النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٠٧. أي: لو دخل عليهم الكفار لجاؤوهم. وهذا خلاف ما عاهدوا الله عليه. وقال أيضاً: الحديث في أمر بلال لا يشبه الآية؛ لأن الله عزَّ وجلَّ خبَّر عن هؤلاء بهذا الخبر، وبلال وأصحابه إنما أكرهوا.

(٢) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١١٤، وذكره النحاس في معاني القرآن ٥/ ٣٣٣.

(٣) زاد المسير ٦/ ٣٦٢ عن السدي، وتفسير البغوي ٣/ ٥١٧ عن الحسن، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٣٣٧، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٣٤٩.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٥١٧.

(٥) أخرج قول قتادة وقول يزيد بن رومان الطبري ١٩/ ٤٧.

قال مقاتل والكَلْبيُّ: هم سبعون رجلاً بايعوا النبيَّ ﷺ ليلةَ العقبة وقالوا: اشْتَرِطْ لنفسك ولربِّك ما شئت. فقال: «أَشْتَرِطُ لربِّي أن تعبدوه ولا تُشْرِكوا به شيئاً، وأَشْتَرِطُ لنفسي أن تَمنعوني مما تمنعون منه نساءَكم وأموالَكم وأولادَكم» فقالوا: فما لنا إذا فَعَلْنا ذلك يا نبيَّ الله؟ قال: «لكم النَّصْرُ في الدُّنيا، والجنةُ في الآخرة»، فذلك قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾ أي: إنَّ الله لَيَسألُهم عنه يومَ القيامة[١].

قوله تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾ أي: مَن حَضَر أجلُه مات أو قُتل، فلا ينفع الفِرار. ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: في الدنيا بعد الفِرار إلى أن تنقضي آجالُكم، وكلُّ ما هو آتٍ فقريبٌ.

وروى السَّاجيُّ عن يعقوبَ الحضرميِّ: «وإذاً لايُمتَّعون» بياء[٢]. وفي بعض الروايات: «وإذاً لا تُمتَّعوا» نصبٌ بـ «إذاً». والرفعُ بمعنى: ولا تمتَّعون، و«إذاً» ملغاةٌ، ويجوز إعمالُها. فهذا حُكْمُها إذا كان قبلها الواوُ أو الفاء. فإذا كانت مبتدأةً نَصَبْتَ بها فقلت: إذاً أُكْرِمَكَ[٣].

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: يمنعكم منه ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ

(١) تفسير البغوي ٣/ ٥١٧ . قال البغوي: وهذا القول ليس بمَرْضيٍّ؛ لأن الذين بايعوا النبي ﷺ ليلة العقبة كانوا سبعين نفراً، لم يكن فيهم شاكٌّ ولا مَن يقول هذا القول، وإنما الآية في قوم عاهدوا الله أن يقاتلوا ولا يَفرُّوا فنقضوا العهد.

(٢) ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٧٤ دون نسبة.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٠٧ .

سُوٓءًا﴾ أي: هلاكاً. ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ أي: خيراً ونصراً وعافيةً. ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي: لا قريباً ينفعهم ولا ناصِراً ينصُرهم.

قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ أي: المُعْتَرِضين[1] منكم لأنْ يَصُدُّوا الناسَ عن النبيِّ ﷺ، وهو مُشْتقٌّ من: عاقني عن كذا، أي: صَرَفني عنه. وعوَّق، على التكثير ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ على لغةِ أهلِ الحجاز. وغيرُهم يقولون: «هَلُمُّوا» للجماعة، وهَلُمِّي للمرأة؛ لأنَّ الأصل: «ها» التي للتنبيه؛ ضُمَّتْ إليها «لُمَّ»، ثم حُذفت الألف استخفافاً وبُنيتْ على الفتح. ولم يَجُز فيها الكسرُ ولا الضمُّ لأنَّها لا تنصرف. ومعنى «هَلُمّ»: أَقْبِلْ[2].

وهؤلاء طائفتان، أي: منكم مَن يُثَبِّط ويُعَوِّق. والعَوْقُ: المنعُ والصَّرْفُ؛ يقال: عاقَه يَعوقُه عَوْقاً، وعوَّقه واعتاقه بمعنًى واحد[3]. قال مقاتل: هم عبد الله بن أُبَيٍّ وأصحابُه المنافقون.

﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ﴾ فيهم ثلاثةُ أقوال: أحدها: أنهم المنافقون؛ قالوا للمسلمين: ما محمدٌ وأصحابه إلا أَكَلةُ رأس، وهو هالكٌ ومَن معه، فهلمَّ إلينا[4].

الثاني: أنَّهم اليهود من بني قُريظة؛ قالوا لإخوانهم من المنافقين: هلمَّ إلينا، أي: تعالَوْا إلينا وفارِقوا محمداً فإنه هالك، وإنَّ أبا سفيان إن ظَفِر لم يُبق منكم أحداً.

---

(١) في إعراب القرآن للنحاس: المتعرضين.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٠٨، وينظر تفصيل الكلام على «هلم» في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٧٥.

(٣) الصحاح (عوق).

(٤) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ١١٤، والطبري ١٩/ ٥٠ عن قتادة. قوله: أكلة رأس، أي: قليل يشبعهم رأس واحد. اللسان (أكل).

الثالث: ما حكاه ابن زيد: أنَّ رجلاً من أصحاب النبيِّ ﷺ [انصرف مِن عندِه يومَ الأحزاب، فوجد أخاه بين يديه شواءٌ ورغيفٌ، فقال: أنت هكذا ورسول الله ﷺ] بين[1] الرماح والسيوف! فقال أخوه ـ وكان من أمِّه وأبيه ـ: هلمَّ إليَّ، قد تُبع بك وبصاحبك، أي: قد أُحيط بك وبصاحبك. فقال له: كذبتَ، والله لأخبرنَّه بأمرك. وذهب إلى رسول الله ﷺ ليُخْبِرَه، فوجده قد نزل عليه جبريل عليه السلام بقوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾. ذكره الماوَرْدِي[2]، والثعلبيُّ ـ أيضاً ولفظُه: قال ابن زيد: هذا يومَ الأحزاب؛ انطلقَ رجلٌ مِن عندِ النبيِّ ﷺ، فوجد أخاه بين يديه رغيفٌ وشِواءٌ ونبيذ، فقال له: أنت في هذا ونحن بين الرماح والسيوف؟! فقال: هَلُمَّ إلى هذا، فقد تُبع لك ولأصحابك، والذي تحلف به لا يستقلُّ بها محمد أبداً. فقال: كذبتَ. فذهب إلى النبيِّ ﷺ يخبرُه، فوجده قد نزل عليه جبريل بهذه الآية.

﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ خوفاً من الموت. وقيل: لا يحضرون القتالَ إلَّا رِياءً وسُمْعة.

قوله تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْۖ﴾ أي: بخلاءَ عليكم، أي: بالحفر في الخندق والنَّفقةِ في سبيل الله؛ قاله مجاهد وقتادة. وقيل: بالقتال معكم. وقيل: بالنفقة على فقرائكم ومساكينكم. وقيل: أَشِحَّةً بالغنائم إذا أصابوها؛ قاله السُّدِّي[3].

(١) في (ظ): كان بين.

(٢) في النكت والعيون ٤/ ٣٨٤ - ٣٨٥ ، وما سلف بين حاصرتين منه. وأخرجه بنحوه الطبري ١٩/ ٥١ ، وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ١٨٨ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ٣٨٥ ، وأخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٥/ ١٨٩ . قال ابن عطية =

وانتصب على الحال؛ قال الزَّجَّاج[١]. ونَصْبُه عند الفرَّاء من أربع جهات: إحداها: أن يكون على الذمِّ؛ ويجوز أن يكون عنده نصباً بمعنى: يعوِّقون أشحةً. ويجوز أن يكون التقدير: والقائلين أشحةً. ويجوز عنده: «ولا يأتون البأسَ إلَّا قليلاً» يأتونه أشحةً، أي: أشحةً على الفقراء بالغنيمة جبناءَ. النحاس[٢]: ولا يجوز أن يكون العاملُ فيه «المعوِّقين» ولا «القائلين»؛ لئلَّا يفرَّق بين الصلة والموصول[٣].

ابن الأنباريِّ[٤]: «إلَّا قليلاً» غير تامٍّ؛ لأنَّ «أَشِحَّةً» متعلِّقٌ بالأول، فهو ينتصب من أربعةِ أوجهٍ: أحدُها: أن تنصبه على القَطْعِ من «المعوِّقين» كأنه قال: قد يَعلمُ الله الذي يعوِّقون عن القتال ويَشِحُّون عن الإنفاق على فقراء المسلمين. ويجوز أن يكون منصوباً على القطع من «القائلين»، أي: وهم أشحةً. ويجوز أن تنصبه على القطع ممَّا في «يأتون»، كأنه قال: ولا يأتون البأس إلَّا جبناء بخلاء. ويجوز أن تنصب «أشحةً» على الذمِّ. فمِن هذا الوجهِ الرابع يَحْسُن أن تقف على قوله: «إلَّا قليلاً». ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ وقفٌ حَسَنٌ. ومثلُه: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ حالٌ من المضمَر في «سَلَقُوكُمْ» وهو العاملُ فيه.

﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ وَصَفَهم بالجبن، وكذا سبيلُ الجبان ينظرُ يميناً وشمالاً محدِّداً بصرَه، وربَّما غُشي عليه. وفي

= في المحرر الوجيز ٤/ ٣٧٥ : والصواب تعميم الشح أن يكون بكل ما فيه للمؤمنين منفعة.

(١) كذا في النسخ. وفي مطبوع إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٠٨ (والكلام منه): قال أبو إسحاق. (وهو الزجاج). ولعل الصواب: قاله؛ بدل: قال. فقوله: «انتصب على الحال» عند الزجاج في معانيه ٤/ ٢٢٠ ، والكلام بعده ليس فيه، إنما هو عند النحاس في الإعراب.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٣٠٨ . وما قبله منه، وينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٨ .

(٣) يعني: لأنه يكون داخلاً في صلة الألف واللام، وقد فرّق بينهما بقوله: «ولا يأتون البأس إلا قليلاً» وهو غير داخل في الصلة. مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٧٤ . قال الآلوسي في روح المعاني ٢١/ ١٦٥ : وتُعقِّب: بأن الفاصل من متعلَّقات الصلة، وإنما يظهر الرد على كونه حالاً من «المعوِّقين»؛ لأنه قد عُطف على الموصول قبل تمام صلته.

(٤) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٤١ - ٨٤٢ .

«الخَوْف» وجهان: أحدهما: من قتال العدوِّ إذا أَقْبلَ؛ قاله السِّدي. الثاني: الخوفُ من النبيِّ ﷺ إذا غَلَب؛ قاله ابن شجرة. ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ خوفاً من القتال على القول الأول. ومن النبيِّ ﷺ على الثاني. ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ لذهابِ عقولهم حتى لا يصحُّ منهم النظر إلى جهة. وقيل: لشدَّة خوفهم حذاراً أن يأتيَهم القتلُ من كلِّ جهة[1].

﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ وحكى الفرَّاء: «صَلَقوكم» بالصَّاد. وخطيبٌ مِسْلاق ومِصْلاق: إذا كان بليغاً[2]. وأصلُ الصَّلْقْ: الصوت، ومنه قولُ النبيِّ ﷺ: «لَعَنَ اللهُ الصَّالِقَةَ والحالِقَةَ والشَّاقَّةَ»[3]. قال الأعشى:

فيهم المجدُ والسَّماحةُ والنّجـ ـدَةُ فيهم والخاطبُ السَّلَّاقُ[4]

قال قتادةُ: ومعناه: بَسَطوا ألسنَتهم فيكم في وقتِ قسمةِ الغنيمة، يقولون: أَعْطِنا أَعْطِنا، فإنَّا قد شَهِدْنا معكم، فعند الغنيمة أَشَحُّ قومٍ وأبسطُهم لساناً، ووقتَ البأس أَجْبَنُ قومٍ وأَخْوَفُهم[5]. قال النحاس: هذا قولٌ حسن؛ لأنَّ بعده «أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ»[6]. وقيل: المعنى: بالَغوا في مُخاصمتكم والاحتجاجِ عليكم. وقال القتبيُّ[7]: المعنى: آذَوْكم بالكلام الشديد، والسَّلْق: الأذى، ومنه قول الشاعر:

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٣٨٥.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٣٩، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٠٩، وقال الفراء: ولا يجوز «صلقوكم» في القراءة.

(٣) أخرجه الطرسوسي في مسند عبد الله رضي الله عنهما (٢٠) دون قوله: والشاقة، وفي إسناده عفير بن معدان، وهو ضعيف كما ذكر الحافظ في التقريب، وله شاهد عند البخاري (١٢٩٦)، ومسلم (١٠٤) عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: أنا بريءٌ مما برئ منه رسول الله ﷺ؛ فإن رسول الله ﷺ برئ من الصالقة والحالقة والشاقة. الصالقة: هي التي ترفع صوتها بالندب والنياحة. والحالقة: هي التي تحلق رأسها عند المصيبة. والشاقة: التي تشق ثوبها. الترغيب والترهيب ٤/ ٢٥٤.

(٤) الصحاح (سلق)، وهو في مجاز القرآن ٢/ ١٣٥ برواية: المِسْلَاقُ، وفي الديوان ص٢٦٥: المِصْلاقُ.

(٥) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٤.

(٦) في النسخ: أشحة عليكم، والمثبت من معاني القرآن للنحاس ٥/ ٣٣٦، وهو الصواب.

(٧) في تفسير غريب القرآن ص٣٤٩، ونقله المصنف عنه بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣٨٦.

ولــقــد سَــلَــقْــنَ هــوازنــاً بـنـواهِـلٍ حـتـى انـحـنـيـنـا[١]

﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ أي: على الغنيمة؛ قاله يحيى بن سلام. وقيل: على المال أن ينفقوه في سبيل الله؛ قاله السدِّي[٢].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ﴾ يعني بقلوبهم وإن كان ظاهرُهم الإيمان؛ والمنافق كافرٌ على الحقيقة؛ وَصَفَهم[٣] الله عزَّ وجلَّ بالكُفر.

﴿فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: لم يُثِبْهم عليها؛ إذ لم يقصدوا وجهَ الله تعالى بها. ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: وكان نفاقُهم على الله هيِّناً. الثاني: وكان إحباطُ عملِهم على الله هيِّناً[٤].

قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ﴾ أي: لجُبنهم يظنُّون الأحزاب لم ينصرفوا وكانوا انصرفوا، ولكنَّهم لم يتباعَدوا في السير ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ﴾ أي: وإن يرجع الأحزاب إليهم للقتال ﴿يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾ تمنَّوْا أن يكونوا مع الأعراب، حَذَراً من القتل وتَرَبُّصاً للدَّوائر.

وقرأ طلحةُ بن مُصَرِّف: «لو أنهم بُدًّى في الأعراب»؛ يقال: بادٍ وبُدًّى، مثل غازٍ وغُزًّى. ويُمَدّ مثل: صائم وصُوَّام[٥]. بدا فلان يبدو: إذا خرج إلى البادية. وهي

(١) قائله عبيد بن الأبرص، وهو في ديوانه ص١٤٢، ومنتهى الطلب في أشعار العرب ٢/ ١٦٧، ومختارات ابن الشجري ٢/ ٣٩، وهو عندهم برواية: صَلَقْن... حتى ارتوينا، وهو برواية المصنف في النكت والعيون ٤/ ٣٨٦.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٨٦.

(٣) في النسخ: لوصفهم، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٠٩ والكلام منه.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٣٨٧.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٠٩، والقراءة عن طلحة بن مصرف في القراءات الشاذة ص١١٩، وذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ١٧٧ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

البِداوة والبَداوة، بالكسر والفتح. وأصلُ الكلمة من البَدْو، وهو الظُّهور.

﴿يَسْـَٔلُونَ﴾ وقرأ يعقوب في رواية رُوَيس: ﴿يسَّاءلون[1] عن أنبائكم﴾ أي: عن أخبار النبيِّ ﷺ؛ يتحدَّثون: أمَا هَلَكَ محمدٌ وأصحابُه! أمَا غلبَ أبو سفيان وأحزابُه! أي: يودُّوا لو أنَّهم بادون سائلون عن أنبائكم من غير مشاهدةِ القتال لفَرْطِ جُبْنِهم. وقيل: أي: هم أبداً لجبنهم يسألون عن أخبار المؤمنين، وهل أصيبوا. وقيل: كان منهم في أطراف المدينة مَن لم يحضر الخندق، جعلوا يسألون عن أخباركم ويتمنَّوْن هزيمةَ المسلمين. ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: رمياً بالنَّبل والحجارةِ على طريق الرياء والسمعة، ولو كان ذلك للهِ لكان قليلُه كثيراً.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ هذا عتابٌ للمتخلِّفين عن القتال، أي: كان لكم قدوةٌ في النبيِّ ﷺ حيث بذل نفسَه لنُصْرةِ دينِ الله في خروجه إلى الخندق. والأُسوةُ: القُدوة. وقرأ عاصم: «أُسوة» بضمِّ الهمزة. الباقون بالكسر[2]، وهما لغتان. والجمعُ فيها واحدٌ عند الفرَّاء؛ والعلَّةُ عنده في الضمِّ على لغة مَن كَسَرَ في الواحدة: الفرقُ بين ذوات الواو وذوات الياء؛ فيقولون: كِسْوة وكُساً، ولِحية ولِحًى[3].

الجوهريُّ[4]: والأُسوةُ والإسوةُ؛ بالضمِّ والكسر لغتان. والجمع أُسًى وإسًى.

---

(١) في النسخ: يتساءلون، والمثبت من النشر ٢/ ٣٤٨. قال ابن الجزري: بتشديد السين وفتحها وألف بعدها.

(٢) السبعة ص٥٢٠ - ٥٢١، والتيسير ص١٧٨.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٠٩.

(٤) في الصحاح (أسا).

وروى عقبة بن حسان الهَجَريُّ عن مالك بن أنس، عن نافع، عن ابن عمر: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ قال: في جوع النبيِّ ﷺ. ذكره الخطيبُ أبو بكرٍ أحمدُ وقال: تفرَّد به عقبة بنُ حسان عن مالك، ولم أكْتُبْه إلَّا بهذا الإسناد(١).

الثانية: قوله تعالى: ﴿أُسْوَةٌ﴾ الأُسوة: القُدوة. والأسوة ما يُتَأسَّى به، أي: يُتعزَّى به. فيقتدَى به في جميع أفعاله، ويُتعزَّى به في جميع أحواله. فلقد شُجَّ وجهُه، وكُسرت رَبَاعِيتُه، وقُتل عمُّه حمزةُ، وجاع بطنُه، ولم يُلْفَ إلَّا صابراً محتسِباً، وشاكراً راضياً. وعن أنس بن مالك، عن أبي طلحةَ قال: شَكَوْنا إلى رسول الله ﷺ الجوعَ، ورَفَعْنا [عن بطوننا] عن حَجَرٍ حجرٍ، فرفع رسول الله ﷺ عن حجرين. خرَّجه أبو عيسى الترمذيُّ وقال فيه: حديثٌ غريبٌ(٢). وقال ﷺ لمَّا شُجَّ: «اللهمَّ اغفِرْ لقومي فإنَّهم لا يَعْلَمون» وقد تقدَّم(٣).

﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ قال سعيد بن جبير: المعنى: لِمَن كان يرجو لقاءَ الله بإيمانه، ويصدِّق بالبعث الذي فيه جزاءُ الأفعال. وقيل: أي: لِمَن كان يرجو ثوابَ الله في اليوم الآخر(٤).

ولا يجوز عند الحُذَّاقِ من النَّحْويين أن يُكتب «يرجو» إلَّا بغير ألفٍ إذا كان لواحدٍ؛ لأنَّ العلَّة التي في الجمع ليست في الواحد(٥).

﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ خوفاً من عقابه، ورجاءً لثوابه. وقيل: إنَّ «لِمَنْ» بدلٌ من قوله:

---

(١) ذكر الحديث مع قول الخطيب ابن حجر في اللسان ٥/ ١٨١ وقال: أخرجه الخطيب في الرواة عن مالك، وذكره أيضاً عن الدارقطني في غرائب مالك وقال: قال الدارقطني بعد تخريجه: هذا حديث باطل وإسناده مجهول. اهـ. وقد أخرجه أيضاً ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ٤/ ١٢٨.

(٢) سنن الترمذي (٢٣٧١)، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) ١٠/ ٣٩٩.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٣٨٨.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٠٩، والكلام أعلاه يعني في اللغة، أما في المصحف؛ فإن رسم «يرجو» بألف بعد الواو. ينظر المقنع لأبي عمرو الداني ص٢٦-٢٧.

«لَكُمْ»، ولا يُجيزه البَصْريون؛ لأنَّ الغائب لا يُبْدَلُ من المخاطَب، وإنَّما اللامُ من «لِمَن» متعلِّقةٌ بـ «حسنة»، و«أُسْوة» اسمُ «كان» و«لكم» الخبر[1] .

واختُلِفَ فيمَن أُرِيدَ بهذا الخطاب على قولين: أحدهما: المنافقون؛ عطفاً على ما تقدَّم من خطابهم. الثاني: المؤمنون؛ لقوله: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾[2].

واختلف في هذه الأُسوةِ بالرسول عليه الصلاةُ والسلام؛ هل هي على الإيجاب أو على الاستحباب؟ على قولين: أحدهما: على الإيجاب حتى يقوم دليلٌ على الاستحباب. الثاني: على الاستحباب حتى يقوم دليلٌ على الإيجاب. ويَحتِملُ أن يُحمل على الإيجاب في أمور الدِّين، وعلى الاستحباب في أمور الدنيا[3].

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾ ومن العرب مَن يقول: «راءَ» على القلب[4]. ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ﴾ يريد قولَه تعالى في سورة البقرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم﴾ الآية [البقرة: ٢١٤]، فلمَّا رأوا الأحزاب يومَ الخندق قالوا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾؛ قاله قتادة[5].

وقولٌ ثانٍ رواه كثير بن عبد الله بن عمرو المزنيُّ، عن أبيه، عن جدِّه قال: خَطَب رسول الله ﷺ عامَ ذكرت الأحزاب فقال: «أخبرني جبريلُ عليه السلام أنَّ أمَّتي ظاهرةٌ عليها ـ يعني على قصور الحِيرةِ ومدائنِ كسرى ـ فأبشروا بالنصر». فاستبشر

---

(١) بنحوه في الإملاء للعكبري ٤/ ١٩٢ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٨٨ .

(٣) المصدر السابق.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣١٠ .

(٥) أخرجه مطولاً الطبري ١٩/ ٦٠ - ٦١ ، ونقله المصنف عن النكت والعيون ٤/ ٣٨٨ .

المسلمون وقالوا: الحمدُ لله، موعد صادق؛ إذ وُعدنا بالنَّصْر بعد الحَصْر. فطَلَعت الأحزاب فقال المؤمنون: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ ذكره الماورديُّ[١].

و«ما وَعَدَنا»؛ إن جعلتَ «ما» بمعنى الذي؛ فالهاءُ محذوفةٌ، وإن جعلتها مصدراً لم تَحْتَجْ إلى عائدٍ. ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ قال الفرَّاء[٢]: وما زادهم النظرُ إلى الأحزاب. وقال علي بن سليمان: «رأى» يدلُّ على الرؤية، وتأنيثُ الرؤية غيرُ حقيقيّ، والمعنى: ما زادهم الرؤيةُ إلَّا إيماناً بالربِّ وتسليماً للقضاء؛ قاله الحسن[٣]. ولو قال: ما زادوهم لجاز.

ولمَّا اشتدَّ الأمرُ على المسلمين، وطال المُقامُ في الخندق، قام عليه الصلاة والسلام على التَلِّ الذي عليه مسجدُ الفتح في بعض الليالي، وتَوقَّع ما وَعَدَه الله من النصر وقال: «مَن يذهبُ ليأتيَنا بخبرهم وله الجنةُ» فلم يُجِبْه أحدٌ. فقال ثانياً وثالثاً، فلم يُجبه أحد، فنظر إلى جانبه وقال: «مَن هذا» ؟ فقال: حذيفة. فقال: «أَلَمْ تَسْمَعْ كلامي منذُ الليلة»؟ قال حذيفةُ: فقلت: يا رسول الله، مَنَعني أن أُجيبكَ الضُّرُّ والقُرّ. قال: «انْطَلِقْ حتى تَدْخُلَ في القوم، فتسمعَ كلامهم وتأتيَني بخبرهم. اللهمَّ احْفَظْهُ مِن بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، حتى تردَّه إليَّ، انْطَلِقْ ولا تُحْدِثْ شيئاً حتى تأتيَني». فانْطَلَقَ حذيفةُ بسلاحه، ورفع رسول الله ﷺ يده يقول: «يا صَرِيخَ المكروبين، ويا مُجِيبَ المضطرِّين، اكشِفْ هَمِّي وغَمِّي وكَرْبي، فقد ترى حالي وحالَ أصحابي». فنزل جبريلُ وقال: «إنَّ الله قد سمع دَعْوَتك وكفاكَ هَوْلَ عدوِّك». فخرَّ رسول الله ﷺ على ركبتيه وبسط يديه وأرخى عينيه وهو يقول: «شكراً شكراً كما رحِمتني ورحِمتَ أصحابي». وأخبره جبريلُ أنَّ الله تعالى مرسلٌ عليهم ريحاً، فبشَّر أصحابه بذلك.

---

(١) في النكت والعيون ٤/ ٣٨٩. وكثير قاله عنه الحافظ ابن حجر في التقريب: ضعيف.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٣٤٠، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣١٠، وما قبله منه.

(٣) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣٨٩.

قال حذيفةُ: فانتهيتُ إليهم وإذا نيرانُهم تتَّقدُ، فأَقبلتْ ريحٌ شديدةٌ فيها حصباءُ، فما تركت لهم ناراً إلَّا أطفأتها، ولا بناءً إلَّا طرحته، وجعلوا يتترَّسون من الحصباء. وقام أبو سفيان إلى راحلته وصاح في قريش: النَّجَاءَ النَّجَاءَ! وفَعَلَ كذلك عُيينةُ بن حِصْنٍ والحارثُ بن عَوْفٍ والأقرعُ بن حابس.

وتفرَّقت الأحزاب، وأصبح رسول الله ﷺ، فعاد إلى المدينة وبه من الشَّعَث ما شاء الله، فجاءته فاطمةُ بغَسُولٍ، فكانت تغسلُ رأسه، فأتاه جبريل فقال: وضَعْتَ السلاحَ ولم تَضَعْه أهل السماء، ما زلتُ أَتبعهم حتى جاوزتُ بهم الرَّوحاءَ، ثم قال: انهضْ إلى بني قُريظة». وقال أبو سفيان: ما زلتُ أسمع قَعْقعةَ السلاحِ حتى جاوزتُ الرَّوْحاء[1].

قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ﴾ رفع بالابتداء، وصَلُحَ الابتداءُ بالنَّكرة لأنَّ «صَدَقُوا» في موضع النعت. ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾. «مَن» في موضع رفعٍ بالابتداء[2]. وكذا ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ والخبرُ في المجرور. والنَّحْبُ: النَّذْرُ والعَهْدُ، تقول منه: نَحَبتُ أَنْحُبُ بالضم. قال الشاعر:

وإذ نحَّبتْ كَلْبٌ على الناس أَيُّهم[3] أَحَقُّ بتاجِ الماجِدِ المتكرِّمِ[4]

(١) لم نقف عليه بهذا السياق، وينظر ما سلف ص٨١ - ٨٢من هذا الجزء.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣١٠.

(٣) في النسخ: إنهم، والمثبت من المصادر على ما يأتي.

(٤) البيت للفرزدق، وهو في مجاز القرآن ٢/ ١٣٦، وتفسير الطبري ١٩/ ٦٢. والأغاني ٢١/ ٢٨٢. وذكره ابن هشام في السيرة ٢/ ٢٤٨ برواية: ... أيُّنا على النحب أعطى للجزيل وأفضل، وقال في شرحه: النحب: الخطار، وهو الرهان.

وقال آخر:

قد نَحَبَ المجدُ علينا نَحْبَا[١]

وقال آخر:

أَنَحْبٌ فيُقْضَى أم ضلالٌ وباطِلُ[٢]

وروى البخاريُّ ومسلم والترمذيُّ[٣] عن أنس قال: قال عمِّي أنس بنُ النَّضْر ـ سُمِّيتُ به ـ ولم يشهد بدراً مع رسول الله ﷺ، فكَبُر عليه فقال: أوّلُ مَشْهَدٍ شَهِدَه رسولُ الله ﷺ غِبتُ عنه، أمّا واللهِ لئن أَرَانِي الله مَشْهداً مع رسول الله ﷺ فيما بعدُ لَيَرَيَنَّ اللهُ ما أَصْنَعُ. قال: فهاب أن يقول غيرها. فشَهِدَ مع رسول الله ﷺ يومَ أُحُد من العام القابِلِ، فاستقبله سعد بن معاذ[٤]، فقال: يا أبا عمرو، أين؟ قال: واهاً[٥] لريح الجنة! أَجِدُها دون أُحُد. فقاتَلَ حتى قُتِل، فوُجِد في جسده بضعٌ وثمانون ما بين ضربةٍ وطعنةٍ ورَمْية. فقالت عَمَّتي الرُّبَيِّع بنتُ النَّضْر: فما عرفتُ أخي إلَّا بِبَنانه. ونزلت هذه الآيةُ: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ لفظُ الترمذيِّ، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح.

وقالت عائشةُ رضي الله عنها في قوله تعالى: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ الآية: منهم طلحة بنُ عبيد الله؛ ثَبَتَ مع رسول الله ﷺ حتى أصيبت يدُه،

---

(١) اللسان (نحب) وفيه: عليك، بدل: علينا، وقبله: يا عمرو يا ابن الأكْرَمِين نَسْبا، قال ابن منظور: أراد نَسَباً، فخفف لمكان نَحْب، أي: لا يزايلك، فهو لا يقضي ذلك النذرَ أبداً، والنَّحْب: النَّذْر.

(٢) البيت للبيد، وهو في ديوانه ص ١٣١، وصدره: ألا تسألان المرء ماذا يحاولُ.

(٣) صحيح البخاري (٢٨٠٥)، وصحيح مسلم (١٩٠٣)، وسنن الترمذي (٣٢٠٠)، وهو عند أحمد (١٣٠١٥).

(٤) في النسخ: سعد بن مالك، والمثبت من المصادر.

(٥) كلمةُ تحنُّنٍ وتلهُّف. شرح النووي لصحيح مسلم ٤٨/١٣. والقائل: يا أبا عمرو، هو أنس بن النضر ﷺ، وأبو عمرو: كنية سعد بن معاذ ﷺ، ثم قال أنس: واهاً.... قال المباركفوري في تحفة الأحوذي ٦١/٩: لم ينتظر جوابه لغلبة اشتياقه إلى إيفاء ميثاقه وعهده لربه.

فقال النبيُّ ﷺ: «أوْجَبَ طلحةُ الجنةَ»[١].

وفي الترمذيِّ عنه: أنَّ أصحاب رسول الله ﷺ قالوا لأعرابيٍّ جاهلٍ: سَلْهُ عمَّن قضى نَحْبَه مَن هو؟ وكانوا لا يجترؤون على مسألته، يوقِّرونه ويَهابونه، فسأله الأعرابيُّ، فأَعْرضَ عنه، ثم سأله، فأَعْرَضَ عنه، ثم إنِّي اطَّلعتُ من باب المسجد وعليَّ ثيابٌ خُضْرٌ، فلمَّا رآني النبيُّ ﷺ قال: «أين السائلُ عمَّن قضى نَحْبَه»؟ قال الأعرابيُّ: أنا يا رسول الله. قال: «هذا ممن قَضَى نَحْبَه». قال: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ لا نعرفه إلَّا من حديث يونس بنِ بكير[٢].

وروى البيهقيُّ عن أبي هريرةَ أنَّ رسول الله ﷺ حين انصرف من أُحُد، مرَّ على مصعب بن عُمير وهو مقتولٌ على طريقه، فوقف عليه ودَعَا له، ثم تلا هذه الآية: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ إلى ﴿تَبْدِيلًا﴾ ثم قال رسول الله ﷺ: «أشهدُ أنَّ هؤلاء شهداءُ عند الله يومَ القيامة، فأْتُوهم وزُوروهم، والذي نَفْسي بيده لا يسلِّم عليهم أحدٌ إلى يوم القيامة إلَّا ردُّوا عليه»[٣].

وقيل: النَّحْبُ: الموت، أي: مات على ما عَاهَد عليه؛ عن ابن عباس[٤].

---

(١) روي عن عائشة رضي الله عنها حديثان بهذا المعنى، الأول أخرجه الحاكم ٢/ ٤١٥ وصححه، وتعقبه الذهبي بأن فيه إسحاق بن يحيى بن طلحة، وهو متروك، والثاني أخرجه أبو يعلى (٤٨٩٨)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ١٤٨ وقال: فيه صالح بن موسى وهو متروك. اهـ. ويغني عنه ما أخرجه أحمد (١٤١٧)، وابن أبي شيبة ١٢/ ٩١ عن الزبير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول يومئذ، يعني يوم أحد: «أوجب طلحة». وأخرجه الترمذي (١٦٩٢) و(٣٧٣٨) بأطول منه. قال ابن الأثير في النهاية (وجب): أي: عمل عملاً أوجب له الجنة.

(٢) سنن الترمذي (٣٢٠٣) و(٣٧٤٢). وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٧٨ ثم قال: فهذا أَدَلُّ دليل على أن النَّحب ليس من شروطه الموت.

(٣) دلائل النبوة ٣/ ٢٨٤، وقال البيهقي: كذا وجدته في كتابي عن أبي هريرة. اهـ. وأخرجه الحاكم ٢/ ٢٤٨ وصححه، وتعقبه الذهبي بقوله: أنا أحسبه موضوعاً. اهـ. وأخرجه البيهقي في الدلائل ٣/ ٢٨٤، والحاكم ٣/ ٢٠٠ وصححه من حديث أبي ذر ﷺ دون قوله: «أشهد أن هؤلاء ... إلى آخر الحديث.

(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٦٤.

والنَّحْبُ أيضاً: الوقتُ والمدَّة. يقال: قضى فلانٌ نَحْبَه: إذا مات، وقال ذو الرمَّة:

عَشِيَّةَ فرَّ الحارثيُّون بعد ما قَضَى نَحْبَه في مُلْتَقَى الخيلِ هَوْبَرُ(١)

والنَّحْبُ أيضاً: الحاجةُ والهِمَّة؛ يقول قائلهم: ما لي عندهم نَحْبٌ، وليس المرادَ بالآية.

والمَعْنيُّ في هذا الموضع بالنَّحب: النَّذْرُ كما قدَّمنا أولاً، أي: منهم مَن بَذَلَ جهدَه على الوفاء بعهده حتى قُتل، مثل حمزةَ وسعد بنِ معاذ وأنس بنِ النضر وغيرهم، ومنهم مَن ينتظر الشهادةَ، وما بدَّلوا عهدَهم ونَذْرَهم.

وقد روي عن ابن عباس أنه قرأ: «فمنهم مَن قَضَى نَحْبَه ومنهم من ينتظر ومنهم من بدل تبديلاً»(٢).

قال أبو بكر الأنباريُّ: وهذا الحديثُ عند أهل العلم مردود؛ لخلافه الإجماعَ، ولأنَّ فيه طعناً على المؤمنين والرجالِ الذين مَدَحهم الله وشرَّفهم بالصِّدْقِ والوفاء، فما يُعرف فيهم مغيِّرٌ، وما وُجِدَ من جماعتهم مبدِّلٌ ﷺ.

﴿لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ أي: أمرَ الله بالجهاد ليجزيَ الصادقين في الآخرة بصِدْقهم. ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ في الآخرة ﴿إِن شَآءَ﴾ أي: إن شاء أن يعذِّبهم لم يُوفِّقْهم للتوبة، وإن لم يشأ أن يعذِّبهم تاب عليهم قبل الموت ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا﴾ قال محمد بن عمرو

---

(١) ديوانه ٢/٦٤٧، قال شارحه: يعني يزيد بن هوبر الحارثي، فقال: هوبر، للقافية.

(٢) المحرر الوجيز ٤/٣٧٨.

يرفعه إلى عائشةَ: قالت: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ها هنا أبو سفيان وعُيينة بن بدر، رجع أبو سفيان إلى تِهامَة، ورجع عُيينةُ إلى نجدٍ ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ بأن أرسل عليهم ريحاً وجنوداً حتى رجعوا ورجعتْ بنو قُريظةَ إلى صياصيهم. فكُفيَ أمرَ قريظَةَ بالرعب. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا﴾ [أي: لا يُردُّ] أمرُه ﴿عَزِيزًا﴾ لا يُغلَب[1].

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ يعني الذين عاوَنوا الأحزابَ قريشاً وغَطَفَان، وهم بنو قُريظةَ. وقد مضى خبرهم[2]. ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ أي: حصونهم، واحدُها: صِيصِيَة[3]؛ قال الشاعر:

فأصبحت الثِّيران صَرْعَى وأصبحتْ نساءُ تميمٍ يبتَدِرْنَ الصَّيَاصِيَا[4]

ومنه قيل لشوكة الحائك التي بها يُسوِّي السَّداةَ واللُّحمة: صِيصِيَة؛ قال دريدُ ابن الصِّمَّة:

فجئتُ إليه والرماحُ تَنُوشُه كوقْعِ الصَّيَاصِي في النسيجِ الممدَّدِ[5]

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣١٠ - ٣١١، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) ص٨٤ وما بعدها من هذا الجزء.

(٣) في (د) و(م): صيصة. والمثبت من باقي النسخ وهو الصواب. ينظر النهاية (صيص)، والتاج (صيص).

(٤) نسبه ابن هشام في السيرة ٢/ ٢٤٩ لسحيم عبد بني الحسحاس. وذكره صاحب اللسان (صيا) والتاج (صيص) شاهداً على أن الصياصي قرون البقر، برواية: فأصبحت الثيران غرقى وأصبحت ... يلتقطن الصياصيا، أي: يلتقطن القرون لينسجن بها، يريد لكثرة المطر غرق الوحش. ونسبه بهذه الرواية ابنُ سيده للنابغة الجعدي، كما في اللسان (جذم).

(٥) ديوان دريد بن الصمة ص ٤٨، والصحاح (صيص) والكلام منه.

ومنه: صِيصِيَةُ الديك التي في رجله. وصَياصِي البقر: قُرونُها؛ لأنَّها تمتنعُ بها، وربَّما كانت تُركَّب في الرماح مكانَ الأَسِنَّة. ويقال: جَذَّ اللهُ صِئْصِئَهُ[١]، أي: أصْلَه.

﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ وهم الرجال ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ وهم النساءُ والذُّرِّيَّةُ، على ما تقدَّم.

﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ بعدُ؛ قال يزيد بنُ رُومان وابن زيد ومقاتل: يعني حُنَين[٢]، ولم يكونوا نالوها، فوعدهم الله إيَّاها. وقال قتادة: كنَّا نتحدَّثُ أنها مكة. وقال الحسن: هي فارسُ والرُّوم. وقال عِكرمة: كلُّ أرضٍ تُفتح إلى يوم القيامة[٣].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ فيه وجهان: أحدهما: على ما أراد بعباده من نقمةٍ أو عَفْوٍ قديرٌ؛ قاله محمد بن إسحاق. الثاني: على ما أراد أن يفتحه من الحصون والقُرَى قدير؛ قاله النقاش[٤].

وقيل: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ ممَّا وَعَدَكُموه ﴿قَدِيرًا﴾ لا تُردُّ قُدرتُه، ولا يجوز عليه العَجْزُ تعالى. ويقال: تأسِرون وتأسُرون، بكسر السِّين وضمِّها؛ حكاه الفراء[٥].

---

(١) في (ظ): صيصيه، وفي معاني النحاس ٥/ ٣٤١ : صيصته. والصِّئْصِئ: الأصل، كالضِّئْضِئ، ينظر اللسان (صأصأ) و(ضأضأ).

(٢) كذا في النسخ، وفي المصادر: خيبر، على ما يأتي.

(٣) هذه الأقوال في النكت والعيون ٤/ ٣٩٣، والكشاف ٣/ ٢٥٨، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٨٠، وتفسير البغوي ٣/ ٥٢٥، وزاد المسير ٦/ ٣٧٥. وأخرج الطبري ١٩/ ٨٢ - ٨٣ قول الحسن وقول يزيد بن رومان وابن زيد.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٣٩٣. وقول ابن إسحاق في السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١١٨.

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٣٤١. ورويَ ضم السين كما في القراءات الشاذة ص ١١٩ عن أبي حيوة.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾.

فيه ثماني مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ قال علماؤنا: هذه الآية متَّصلةٌ بمعنى ما تقدَّم من المنع من إيذاء النبيِّ ﷺ، وكان قد تأذَّى ببعض الزوجات. قيل: سألْنَه شيئاً من عَرَض الدنيا. وقيل: زيادةً في النفقة. وقيل: آذَيْنَه بغيْرةِ بعضهنَّ على بعض. وقيل: أُمِر ﷺ بتلاوة هذه الآية عليهنَّ وتَخْييرهنَّ بين الدنيا والآخرة. وقال الشافعيُّ رحمه الله تعالى: إنَّ مَنْ مَلَك زوجةً فليس عليه تخييرُها. وأُمِر ﷺ أن يخيِّر نساءَه فاختَرْنَه.

وجملةُ[١] ذلك: أنَّ الله سبحانه خيَّر النبيَّ ﷺ بين أن يكون نبيًّا مَلِكاً، وعرض عليه مفاتيح خزائنِ الدنيا، وبين أن يكون نبيًّا مِسكيناً، فشاوَرَ جبريلَ، فأشار عليه بالمسكنة فاختارها[٢]، فلمَّا اختارها ـ وهي أعلى المنزلتين ـ أمره الله عزَّ وجلَّ أن يخيِّر زوجاتِه، فربَّما كان فيهنَّ مَن يكره المُقامَ معه على الشدَّة تنزيهاً له.

وقيل: إنَّ السبب الذي أُوجِبَ التخييرُ لأجله، أنَّ امرأةً من أزواجه سألته أن يَصُوغَ لها حَلْقةً من ذهب، فصاغ لها حَلْقةً من فضةٍ وطَلَاها بالذهب ـ وقيل: بالزَّعْفَرَان ـ فأبتْ إلَّا أن تكون من ذهب، فنزلت آيةُ التخيير فخيَّرهنَّ، فقلن: اخترنا اللهَ ورسوله[٣].

وقيل: إنَّ واحدةً منهنَّ اختارت الفِراق[٤]. فالله أعلم.

---

(١) في (خ): وعلة، وفي (ظ): وحكمة.

(٢) أخرجه بنحوه أحمد (٧١٦٠) من حديث أبي هريرة ﷺ، وتنظر شواهده في حاشية المسند.

(٣) لم نقف عليه.

(٤) المدونة ٢/ ٣٨٢ عن ابن شهاب.

روى البخاريُّ ومسلم ـ واللفظ لمسلم ـ عن جابر بن عبد الله قال: دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ، فوجد الناس جلوساً ببابه لم يؤذن لأحدٍ منهم، قال: فأُذِنَ لأبي بكر فدخل، ثم جاء عمر فاستأذن فأُذِن له، فوجد النبيَّ ﷺ جالساً حوله نساؤه واجماً ساكتاً. قال: فقال: والله لأقولنَّ شيئاً أُضحكُ النبيَّ ﷺ، فقال: يا رسول الله، لو رأيتَ بنتَ خارِجَة، سألَتْني النفقةَ فقمتُ إليها فَوَجَأْتُ عُنقَها. فضحك رسول الله ﷺ وقال: «هنَّ حَوْلي كما تَرَى يَسْأَلْنَنِي النفقةَ». فقام أبو بكر إلى عائشةَ يَجَأُ عنقَها، وقام عمر إلى حفصةَ يَجَأُ عنقَها، كلاهما يقول: تَسْأَلْنَ رسولَ الله ﷺ ما ليس عنده ؟! فقلنَ: واللهِ لا نسألُ رسول الله ﷺ شيئاً أبداً ليس عنده. ثم اعتزلهنَّ شهراً، أو تسعاً وعشرين. ثم نزلت عليه هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ حتى بلغ ﴿لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. قال: فبدأ بعائشةَ فقال: «يا عائشةُ، إني أريدُ أن أَعْرِضَ عليكِ أمراً أُحِبُّ ألَّا تَعْجَلي فيه حتى تستشيري أبويك»، قالت: وما هو يا رسول الله ؟ فتلا عليها الآية. قالت: أفيكَ يا رسولَ الله أستشيرُ أبويَّ ! بل أختارُ الله ورسولَه والدارَ الآخرة، وأسألكَ ألَّا تخبرَ امرأةً من نسائك بالذي قلتُ. قال: «لا تسألُني امرأةٌ منهنَّ إلَّا أخبرتها، إنَّ الله لم يبعثني مُعَنِّتاً ولا مُتَعَنِّتاً، ولكنْ بعثني معلِّماً مُيَسِّراً»(١).

وروى الترمذيُّ عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: لمَّا أُمِر رسول الله ﷺ بتخيير أزواجه بدأ بي، فقال: «يا عائشةُ، إنِّي ذاكِرٌ لكِ أمراً فلا عليكِ ألَّا تستعجلي حتى تستأمري أبويْكِ» قالت: وقد عَلم أنَّ أبويَّ لم يكونا ليأمراني بفراقه، قالت: ثم قال: «إنَّ الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ حتى بلغ ﴿لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾» فقلتُ: أفي هذا أستأمرُ أبويَّ ! فإنِّي أريد اللهَ ورسولَه والدارَ الآخرة، وفَعَلَ أزواجُ النبيِّ ﷺ مثلَ

---

(١) صحيح مسلم (١٤٧٨) ، وهو عند أحمد (١٤٥١٥) ، ولم يخرجه البخاري، إنما أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها كما سيأتي.

ما فعلتُ. قال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح[١]. قال العلماء: وأمَّا أمرُ النبيِّ ﷺ عائشةَ أن تشاوِرَ أبويها؛ لأنه كان يحبُّها، وكان يخاف أن يحملها فَرْطُ الشباب على أن تختار فِراقَه، ويعلم مِن أبويها أنهما لا يشيران عليها بفراقه.

الثانية: قوله تعالى: ﴿قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ كان للنبيِّ ﷺ أزواجٌ، منهنَّ مَن دَخَل بها، ومنهنَّ مَن عَقَدَ عليها ولم يدخل بها، ومنهنَّ مَن خطبها فلم يَتِمَّ نكاحُه معها.

فأولهُنَّ: خديجةُ بنتُ خُوَيلد بن أسد بن عبد العُزَّى بن قُصَيّ بنِ كلاب. وكانت قبله عند أبي هالة، واسمُه زُرارة بنُ النبَّاش الأسديُّ، وكانت قبلَه عند عَتيق بنِ عابد، وَلَدت منه غلاماً اسمُه عبدُ مَناف. وولدت من أبي هالةَ هند بنَ أبي هالة، وعاش إلى زمن الطاعون، فمات فيه. ويقال: إنَّ الذي عاش إلى زمن الطاعون هند بنُ هند، وسُمعت نادِبَتُه تقول حين مات: واهندُ بن هنداه، واربِيبَ رسول الله. ولم يتزوَّج رسول الله ﷺ على خديجةَ غيرَها حتى ماتت[٢]. وكانت يومَ تَزوَّجها رسول الله ﷺ بنتَ أربعين سنة، وتُوفِّيتْ بعد أن مضى من النبوَّة سبعُ سنين، وقيل: عشر. وكان لها حين توفِّيت خمسٌ وستُّون سنة. وهي أولُ امرأةٍ آمنت به. وجميعُ أولاده منها غير إبراهيم. قال حكيم بن حزام: توفِّيت خديجةُ، فخرجنا بها من منزلها حتى دفنَّاها بالحَجُون، ونزل رسول الله ﷺ في حفرتها، ولم تكن يومئذٍ سُنَّةُ الجنازة الصلاةَ عليها[٣].

ومنهنَّ: سَوْدةُ بنتُ زَمْعةَ بنِ قيس بن عبد شمس العامريةُ، أسلمت قديماً وبايعت، وكانت عند ابن عمٍّ لها يقال له: السكرانُ بن عمرو، وأسلم أيضاً، وهاجرا جميعاً إلى أرض الحبشة في الهجرة الثانية، فلمَّا قَدِما مكةَ مات زوجها. وقيل: مات

(١) سنن الترمذي (٣٢٠٤)، وهو عند أحمد (٢٦١٠٨)، والبخاري (٤٧٨٥)، ومسلم (١٤٧٥).
(٢) التعريف والإعلام ص ١٣٨.
(٣) تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التاريخ والسير لابن الجوزي ص ١٩، وخبر حكيم بن حزام أخرجه ابن سعد ٨/ ١٨، وفي إسناده الواقدي.

بالحبشة. فلمَّا حلَّت خطبها رسول الله ﷺ، فتزوَّجها ودخل بها بمكة، وهاجر بها إلى المدينة. فلمَّا كبرت أراد طلاقَها، فسألته ألَّا يفعل وأن يدعها في نسائه، وجعلت ليلتها لعائشةَ ـ حَسْبَما هو مذكورٌ في الصحيح[١] ـ فأَمْسَكَها، وتوفِّيت بالمدينة في شوَّال سنةَ أربعٍ وخمسين[٢].

ومنهن: عائشةُ بنتُ أبي بكر الصدِّيق، وكانت مسمَّاةً لجُبير بن مطعِم، فخطبها رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر: يا رسول الله، دَعْني أسُلُّها من جُبيرٍ سَلًّا رفيقاً[٣]؛ فتزَّوجها رسول الله ﷺ بمكةَ قبل الهجرة بسنتين، وقيل: بثلاث سنين؛ [وهي بنت ست سنين] وبنى بها بالمدينة وهي بنتُ تسع، وبقيت عنده تسعَ سنين، ومات رسول الله ﷺ وهي بنتُ ثمان عشرةَ، ولم يتزوَّج بِكراً غيرَها، وماتت سنةَ سبعٍ وخمسين[٤]، وقيل: ثمانٍ وخمسين.

ومنهنَّ: حفصةُ بنتُ عمر بن الخطاب القُرَشِيَّةُ العَدَويَّة، تزوَّجها رسول الله ﷺ ثم طلَّقها، فأتاه جبريل فقال: «إنَّ الله يأمرك أن تُراجع حفصةَ، فإنَّها صوَّامةٌ قوَّامة»[٥]

(١) صحيح البخاري (٢٥٩٣)، وصحيح مسلم (١٤٦٣)، وهو عند أحمد (٢٤٣٩٥).

(٢) تلقيح الفهوم ص ٢٠، وينظر طبقات ابن سعد ٨/ ٥٢ - ٥٧.

(٣) تلقيح الفهوم ص ٢٠، وأخرجه ابن سعد ٨/ ٥٩ عن عبد الله بن أبي مليكة، وهو مرسل. وأخرجه ٨/ ٥٨ بنحوه من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) في (ظ): ثلاث وخمسين، وفي باقي النسخ: تسع وخمسين، والمثبت من تلقيح الفهوم ص ٢٠، والكلام وما سلف بين حاصرتين منه.

(٥) الصحيح أن رسول الله ﷺ طلَّق حفصة ثم ارتجعها؛ أخرجه أبو داود (٢٢٨٣)، والنسائي ٦/ ٢١٣، وابن ماجه (٢٠١٦) من حديث عمر ﷺ. أما الخبر بتمامه أعلاه، فقد أخرجه البزار (٢٦٦٨) (زوائد)، والطبراني في الكبير ٢٣/ (٣٠٦) من حديث عمار بن ياسر ﷺ؛ قال الهيثمي في المجمع ٩/ ٢٤٤: في إسناده الحسن بن أبي جعفر، وهو ضعيف. وأخرجه الطبراني أيضاً في الأوسط (١٥١) من حديث أنس ﷺ؛ قال الهيثمي: فيه جماعة لم أعرفهم، ورواه الطبراني أيضاً في الكبير ١٧/ (٨٠٤) بنحوه من حديث عقبة بن عامر ﷺ؛ قال الهيثمي في المجمع: فيه عمرو بن صالح الحضرمي، ولم أعرفه. غير أن الذهبي قال في السير ٢/ ٢٢٩: إسناده صالح! وأخرجه الطبراني أيضاً في الكبير ١٨/ (٩٣٤) من =

فراجَعَها. قال الواقِديُّ: وتوفِّيت في شعبان سنةَ خمسٍ وأربعين في خلافةِ معاويةَ، وهي ابنةُ ستِّين سنة. وقيل: ماتت في خلافة عثمان بالمدينة[١].

ومنهنَّ: أمُّ سلمةَ، واسمُها هند بنتُ أبي أميَّةَ المخزوميةُ، واسمُ أبي أميةَ سُهيل. تزوَّجها رسول الله ﷺ في ليالٍ بَقينَ من شوّال سنةَ أربع، زوَّجها منه ابنُها سلمةُ على الصحيح[٢]، وكان عُمَرُ ابنُها صغيراً، وتوفِّيت في سنة تسعٍ وخمسين. وقيل: سنة ثنتين وستِّين، والأولُ أصحُّ. وصلَّى عليها سعيد بنُ زيد. وقيل: أبو هريرة. وقُبِرت بالبقيع، وهي ابنةُ أربعٍ وثمانين سنة[٣].

ومنهنَّ: أمُّ حبيبةَ، واسمُها رَمْلة بنتُ أبي سفيان. بعث رسول الله ﷺ عمرو بنَ أميةَ الضَّمْريَّ إلى النجاشيِّ ليخطب عليه أمَّ حبيبةَ، فزوَّجه إياها، وذلك سنةَ سبعٍ من الهجرة، وأَصْدَقَ النَّجاشيُّ عن رسول الله ﷺ أربعَ مئة دينار، وبعث بها مع شُرَحْبيل بن حَسَنة، وتوفِّيت سنةَ أربعٍ وأربعين[٤]. وقال الدَّارقُطْنيُّ: كانت أمُّ حبيبةَ تحت عبيد الله بن جحشٍ، فمات بأرض الحبشة على النَّصْرانية، فزوَّجها النَّجاشيُّ النبيَّ ﷺ، وأَمْهَرَها عنه أربعةَ آلاف[٥]، وبعث بها إليه مع شُرَحْبيل بن حَسَنة[٦].

ومنهنَّ: زينب بنتُ جَحْش بن رِئاب الأَسَديَّة؛ وكان اسمُها بَرَّةَ، فَسمَّاها

= حديث قيس بن زيد؛ قال أبو نعيم فيما نقله عنه الحافظ في لسان الميزان ٤/٤٧٨: هو مجهول؛ لا تصح له صحبة ولا رؤية، وقال الحافظ في الإصابة ١٢/١٩٨: مرسل.

(١) تلقيح الفهوم ص ٢١، وقول الواقدي ذكره أيضاً ابن سعد ٨/٨٦.

(٢) المغازي لابن إسحاق ص ٢٦١. وذكره الحافظ في الإصابة ٤/٢٣١، وقال: قال البلاذري: ويقال إن الذي زوجه إياها ابنها عمر، والأول أثبت.

(٣) تلقيح الفهوم ص ٢١.

(٤) تلقيح الفهوم ص ٢١ - ٢٢.

(٥) بعدها في (ظ): درهم.

(٦) سنن الدارقطني (٣٦٠٩)، وهو عند أحمد (٢٧٤٠٨)، وأبي داود (٢١٠٧)، والنسائي في المجتبى ٦/١١٩.

رسول الله ﷺ زينب، وكان اسم أبيها بُرَّة، فقالت: يا رسول الله، بدّل اسمَ أبي؛ فإنَّ البُرَّةَ حقيرة، فقال لها النبيُّ ﷺ: «لو كان أبوكِ مؤمناً سمَّيناه باسم رجلٍ منَّا أهل البيت، ولكنِّي قد سمَّيته جحشاً، والجحشُ أكبر من البُرّة». ذكر هذا الحديث الدَّارَقُطْنيّ[1]. تزوَّجها رسول الله ﷺ بالمدينة في سنةِ خمسٍ من الهجرة، وتوفِّيت سنةَ عشرين، وهي بنتُ ثلاثٍ وخمسين[2].

ومنهنَّ: زينب بنتُ خُزيمة بن الحارث [بن عبد الله] بن عمرو بن عبد مَنَاف بن هلال بن عامر بن صَعْصعة الهِلالية، كانت تسمَّى في الجاهلية أمَّ المساكين؛ لإطعامها إياهم. تَزوَّجها رسول الله ﷺ في رمضان على رأس واحد وثلاثين شهراً من الهجرة، فمكثت عنده ثمانيةَ أشهرٍ، وتوفِّيت في حياته في آخِرِ ربيع الأوّل على رأس تسعةٍ وثلاثين شهراً من الهجرة، ودُفنت بالبَقيع[3].

ومنهنَّ: جُوَيرية بنتُ الحارث بن أبي ضِرار الخُزاعيةُ المُصْطَلِقيَّة، أصابها في غزوةِ بني المُصْطَلِق، فوقعت في سهم ثابت بنِ قيس بن شَمَّاس، فكاتَبها فقضى رسولُ الله ﷺ كتابتها وتزوَّجها، وذلك في شعبان سنةَ ستٍّ، وكان اسمها بَرَّة، فسمَّاها رسول الله ﷺ جُوَيرية، وتوفِّيت في ربيع الأول سنةَ ستٍّ وخمسين. وقيل: سنة خمسين، وهي ابنةُ خمس وستين[4].

ومنهنَّ: صفية بنتُ حُيَيّ بن أخْطَب الهارونيةُ، سباها النبيُّ ﷺ يومَ خَيْبر

(١) في المؤتلف والمختلف كما ذكر السهيلي في الروض الأنف ٢/ ٢١٦، والحافظ في الفتح ١٠/ ٥٧٦ وضعفه. ولم نقف عليه في المطبوع منه. والكلام من التعريف والإعلام ص ١٣٩. وأول الحديث في صحيح مسلم (٢١٤٢) عن زينب بنت أم سلمة قالت: ودخَلَتْ عليه زينب بنت جحش واسمها بَرَّة، فسماها زينب، و (٢١٤١) من حديث أبي هريرة.

(٢) تلقيح الفهوم ص ٢٢.

(٣) تلقيح الفهوم ص ٢٢، وما سلف بين حاصرتين منه ومن طبقات ابن سعد ٨/ ١١٥.

(٤) تلقيح الفهوم ص ٢٢، وبنحوه في طبقات ابن سعد ٨/ ١١٦ - ١٢٠، وحديث تغيير اسمها أخرجه مسلم (٢١٤٠).

واصطفاها لنفسه، فأسلمت وأعتقها، وجعل عِتْقَها صَدَاقها. وفي الصحيح: أنَّها وقعت في سهم دِحْيَةَ الكَلْبِيِّ، فاشتراها رسول الله ﷺ بسبعةِ أَرْؤُس[1]، وماتت في سنة خمسين. وقيل: سنة اثنتين وخمسين، ودُفنت بالبقيع[2].

ومنهنَّ: رَيحانة بنتُ زيد بن عمرو بن خُنافة من بني النَّضير، سباها رسول الله ﷺ وأعتقها، وتزوَّجها في سنة ستٍّ، وماتت مَرْجِعَه من حَجة الوَداع، فدفنها بالبقيع. قال الواقديُّ: ماتت سنةَ ستَّ عشرةَ، وصلَّى عليها عمر[3]. قال أبو الفرج الجَوْزِي[4]: وقد سمعتُ مَن يقول: إنه كان يطؤها بِملْك اليمين ولم يُعْتِقْها.

قلت: ولهذا ـ والله أعلم ـ لم يذكرها أبو القاسم عبد الرحمن السُّهَيْلِيُّ في عِدَادِ أزواج النبيِّ ﷺ[5].

ومنهنَّ: ميمونةُ بنتُ الحارث الهلالِية؛ تزوَّجها رسول الله ﷺ بِسَرِفٍ على عشرةِ أميالٍ من مكة، وذلك في سنة سبعٍ من الهجرة في عُمْرة القَضِيَّة، وهي آخِرُ امرأةٍ تزوَّجها رسول الله ﷺ، وقدَّر الله تعالى أنَّها ماتت في المكان الذي بنى بها فيه رسول الله ﷺ، ودُفنت هنالك، وذلك في سنة إحدى وستِّين. وقيل: ثلاث وستِّين. وقيل: ثمان وثلاثين[6].

---

(١) صحيح مسلم ص ١٠٤٥ حديث (١٣٦٥): (٨٧)، وهو عند أحمد (١٣٥٧٥)، وأخرجه بنحوه البخاري (٣٧١)، وهو من حديث أنس ﷺ.

(٢) تلقيح الفهوم ص ٢٣.

(٣) كذا نقل المصنف كلام الواقدي عن ابن الجوزي في تلقيح الفهوم ص ٢٣، والذي أخرجه ابن سعد عن الواقدي في الطبقات ٨/ ١٢٩ - ١٣١ أنها ماتت عند رسول الله ﷺ، أما الكلام المذكور أعلاه فهو في حق مارية القبطية، كما ذكر ابن سعد عن الواقدي أيضاً ٨/ ٢١٦. وينظر الإصابة ١٢/ ٢٦٧ - ٢٦٨ و١٣/ ١٢٥ - ١٢٦.

(٤) كذا ذكر المصنف، والصواب أن القائل الواقدي. ينظر تلقيح الفهوم ص ٢٣، وطبقات ابن سعد ٨/ ١٣١.

(٥) ينظر التعريف والإعلام ص ١٣٨ - ١٣٩.

(٦) في (م): ثمان وستين، والمثبت من النسخ الخطية، وتلقيح الفهوم ص ٢٤، والكلام منه. وذكر الذهبي في السير ٢/ ٢٤٥ أنها ماتت قبل عائشة رضي الله عنها.

فهؤلاء المشهوراتُ من أزواج النبيِّ ﷺ، وهنَّ اللاتي دَخَل بهنَّ رضي الله عنهنّ[١].

فأمَّا مَن تزوَّجَهُنَّ ولم يدخل بهنَّ؛ فمنهنَّ: الكلابِيةُ. واختلفوا في اسمها؛ فقيل: فاطمة. وقيل: عَمْرة. وقيل: العالية. قال الزهريُّ: تزوَّج فاطمةَ بنتَ الضحاك الكلابيةَ، فاستعاذت منه فطلَّقها، وكانت تقول: أنا الشقيَّة. تزوَّجها في ذي القعدة سنةَ ثمانٍ من الهجرة، وتوفِّيت سنةَ ستِّين[٢].

ومنهنَّ: أسماء بنتُ النعمان بن أبي الجَوْن بن الحارث الكِنْدية، وهي الجَوْنية. قال قتادة: لمَّا دخل عليها دعاها، فقالت: تعال أنت، فطلَّقها. وقال غيره: هي التي استعاذت منه[٣]. وفي البخاريِّ قال: تزوَّج رسول الله ﷺ أميمةَ بنتَ شَراحيل، فلمَّا أُدخلت عليه بسط يده إليها، فكأنَّها كرهت ذلك، فأمر أبا أُسَيد أن يجهِّزها ويكسوَها ثوبين[٤]. وفي لَفْظٍ آخَرَ: قال أبو أُسيد: أُتيَ رسول الله ﷺ بالجَوْنية، فلمَّا دخل عليها قال: «هَبي لي نفسك» فقالت: وهل تَهَبُ المِلكةُ نفسَها للسُّوقة! فأهوى بيده ليضعها عليها لتَسْكُنَ؛ فقالت: أعوذ بالله منك! فقال: «قد عُذتِ بمَعَاذ» ثم خرج علينا فقال: «يا أبا أُسَيد، اكْسُها رازِقِيَّين وألحقها بأهلها»[٥].

ومنهنَّ: قُتَيْلةُ بنتُ قيسٍ أختُ الأشعث بن قيس، زوَّجها إياه الأشعث، ثم

---

(١) وذكرهن ابن عبد البر في الاستيعاب ١/٨٨ - ٩٠ عدا ريحانة بنت زيد وقال: فهؤلاء أزواجه اللاتي لم يختلف فيهن، وهن إحدى عشرة امرأة، وأما اللواتي اختلف فيهن، ممن ابتنى بها وفارقها، أو عقد عليها ولم يدخل بها، أو خطبها ولم يتم له العقد منها، فقد اختُلف فيهن وفي أسباب فراقهن اختلافاً كثيراً يوجِبُ التوقُّف عن القطع بالصحة في واحدة منهن.

(٢) تلقيح الفهوم ص ٢٤.

(٣) تلقيح الفهوم ص ٢٥.

(٤) صحيح البخاري (٥٢٥٦، ٥٢٥٧) من حديث سهل بن سعد وأبي أُسَيد رضي الله عنهما.

(٥) صحيح البخاري (٥٢٥٥)، وهو عند أحمد (١٦٠٦١). قوله: رازقيين، وفي رواية رازقيتين، الرازقية: ثياب كَتَّان بيض. النهاية (رزق).

انصرف إلى حَضْرَمَوْت، فحمَلها إليه فبلغه وفاةُ النبيِّ ﷺ، فردَّها إلى بلاده، فارتدَّ وارتدَّت معه. ثم تزوَّجها عِكرمة بنُ أبي جَهْل، فوَجَدَ من ذلك أبو بكر وَجْدًا شديداً. فقال له عمر: إنَّها والله ما هي من أزواجه، ما خيَّرها ولا حَجَبها. ولقد برَّأها الله منه بالارتداد. وكان عروةُ ينكر أن يكون تزوَّجها[(١)].

ومنهنَّ: أمُّ شَرِيكٍ الأَزْدِيَّةُ، واسمُها غُزَيَّة بنتُ جابر بن حكيم، وكانت قبله عند أبي بكر بن أبي سلمى[(٢)]، فطلَّقها النبيُّ ﷺ ولم يدخل بها. وهي التي وهبت نفسها. وقيل: إنَّ التي وهبت نفسها للنبيِّ ﷺ خَوْلة بنتُ حكيم[(٣)].

ومنهنَّ: خَوْلة بنتُ الهُذَيل بن هُبَيرة، تزوَّجها رسول الله ﷺ، فهَلَكَت قبل أن تصل إليه.

ومنهنَّ: شَرَافُ بنتُ خليفة، أختُ دِحْية، تزوَّجها ولم يدخل بها.

ومنهنَّ: ليلى بنتُ الخَطِيم، أختُ قيس، تزوَّجها وكانت غَيوراً، فاستقالته فأَقالها.

ومنهنَّ: عَمْرةُ بنتُ معاوية الكِنْدية، تزوَّجها النبيُّ ﷺ. قال الشعبيُّ: تزوَّج امرأةً من كِنْدَةَ، فجيء بها بعد ما مات.

ومنهنَّ: ابنةُ جُنْدب بن ضَمْرةَ الجُنْدُعِية. قال بعضهم: تزوَّجها رسول الله ﷺ. وأنكر بعضُهم وجود ذلك.

ومنهنَّ: الغِفارِيَّة. قال بعضهم: تزوَّج امرأةً من غِفار، فأمرها فنزعت ثيابها،

---

(١) تلقيح الفهوم ص ٢٥، وبنحوه في طبقات ابن سعد ٨/ ١٤٧ - ١٤٨. وقال ابن عبد البر في الاستيعاب ١٣/ ١٣٦: وفيها اختلاف كثير جدًّا.

(٢) كذا في النسخ، وفي تلقيح الفهوم ص٢٦: أبي بكر بن سلمى، والذي في طبقات ابن خياط ص١١٦: أبو العَكَر بن أبي سُمَيّ، وفي الاستيعاب ١٣/ ٢٤٣، والإصابة ٤/ ٢١٨: أبو العَكَر بن سُمَيّ؛ قال الحافظ: أبو العَكَر بفتح المهملة والكاف.

(٣) تلقيح الفهوم ص ٢٦، وينظر طبقات ابن سعد ٨/ ١٥٤ - ١٥٨.

فرأى بياضاً فقال: «إلْحَقِي بأهلك». ويقال: إنَّما رأى البياضَ بالكلابية[(١)].

فهؤلاء اللاتي عقد عليهنَّ ولم يدخل بهنَّ، ﷺ.

فأمَّا مَن خطبهنَّ فلم يتمَّ نكاحُه معهنَّ ؛ ومَن وَهَبَتْ له نفسها :

فمنهنَّ: أمُّ هانئ بنتُ أبي طالب، واسمُها فاختة؛ خطبها النبيُّ ﷺ فقالت: إنِّي امرأة مُصْبِيَة، واعتذرَتْ إليه فعَذَرَها[(٢)].

ومنهنَّ: ضُباعةُ بنتُ عامر.

ومنهنَّ: صفِيةُ بنتُ بَشامة بنِ نَضْلةَ، خطبها النبيُّ ﷺ وكان أصابها سِباءٌ، فخيَّرها النبيُّ ﷺ، فقال: «إنْ شئتِ أنا وإنْ شئتِ زَوْجك» ؟ قالت: زوجي. فأرسلها، فلعنتها بنو تميم ؛ قاله ابن عباس[(٣)].

ومنهنَّ: أمُّ شَريك، وقد تقدَّم ذكرها.

ومنهنَّ: ليلى بنتُ الخَطِيم، وقد تقدَّم ذكرها.

ومنهنَّ: خولةُ بنتُ حكيم بن أمية، وهبت نفسها للنَّبيِّ ﷺ فأرْجَأها، فتزوَّجها عثمان بن مظعون.

ومنهنَّ: جَمْرةُ بنتُ الحارث بن عَوف المزَنيِّ ؛ خطبها النبيُّ ﷺ فقال أبوها: إنَّ بها سوءاً. ولم يكن بها، فرجع إليها أبوها وقد بَرِصَت، وهي أمُّ شَبيب بنِ البَرْصاءِ الشاعر[(٤)].

---

(١) تلقيح الفهوم ص ٢٦ . وحديث الغفارية أخرجه ابن إسحاق في المغازي ص ٢٦٨ عن سعد بن زيد الأنصاري . وأخرجه الحاكم ٤/ ٣٤ عن زيد بن كعب عجرة عن أبيه . وأخرجه سعيد بن منصور في سننه (٨٢٩) عن زيد بن كعب بن عجرة ، ولم يقل عن أبيه . ومداره على جميل بن زيد الطائي ، وقد قال عنه ابن معين: ليس بثقة ، وقال البخاري: لم يصح حديثه . الميزان ١/ ٤٢٣ .

(٢) تلقيح الفهوم ص ٢٦ ، وأخرج نحوه أحمد (٧٦٥٠) ، ومسلم (٢٥٢٧): (٢٠١) من حديث أبي هريرة ﷺ ومصبية ، أي: ذات صبيان . النهاية (صبا) .

(٣) أخرجه ابن سعد ٨/ ٥٤ بإسناد فيه الكلبي . والكلام من تلقيح الفهوم ص ٢٧ .

(٤) تلقيح الفهوم ص ٢٧ ، وشبيب شاعر إسلامي فصيح من شعراء الدولة الأموية. الأغاني ١٢/ ٢٧١ .

ومنهنَّ: سودةُ القرشيةُ ؛ خطبها رسول الله ﷺ وكانت مُصْبِيةً. فقالت: أخاف أن يَضْغُوَ صِبْيَتِي عند رأسك. فحمِدَها وَدَعَا لها(١).

ومنهنَّ: امرأةٌ لم يُذكر اسمها. قال مجاهد: خطب رسول الله ﷺ امرأةً فقالت: أستأمر أبي. فلقيتُ أباها فأذن لها، فلقِيت رسول الله ﷺ فقال: «قد الْتَحَفْنَا لحافاً غيرَكِ»(٢).

فهؤلاء جميعُ أزواج النبيِّ ﷺ.

وكان له من السَّراري سُرِّيَّتان: مارِيةُ القبطيةُ ورَيْحانة ؛ في قول قتادة. وقال غيره: كان له أربعٌ: مارية، وريحانة، وأخرى جميلةٌ أصابها في السَّبْي، وجاريةٌ وهبتها له زينبُ بنتُ جحش(٣).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ «إنْ» شرطٌ، وجوابُه: «فتَعالَيْن» ؛ فعلّق التخيير على شرط. وهذا يدلُّ على أنَّ التخيير والطلاق المعلَّقَين على شرطٍ صحيحان، فينفذان ويمضيان، خلافاً للجهَّال المبتدعةِ الذين يزعمون أنَّ الرجل إذا قال لزوجته: أنتِ طالقٌ إنْ دخلتِ الدارَ، أنه لا يقع الطلاقُ إن دخلتِ الدار ؛ لأنَّ الطلاق الشرعيَّ هو المنجَّزُ في الحال لا غير(٤).

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾ هو جوابُ الشرط، وهو فعلُ جماعةِ النساء، من قولك: تعال(٥)، وهو دعاءٌ إلى الإقبال إليه ؛ يقال: تعالَ، بمعنى: أَقْبِل، وُضع لمن له جلالةٌ ورفعةٌ، ثم صار في الاستعمال لكلِّ داعٍ(٦) إلى الإقبال، وأمَّا في هذا

(١) تلقيح الفهوم ص ٢٧ ، وأخرجه مطولاً أحمد (٢٩٢٣) . ويضغو ، أي: يصيحوا ويضجُّوا . النهاية (ضغا) .

(٢) أخرجه ابن سعد ٨/ ١٦١ بإسناد فيه الواقدي ، والكلام من تلقيح الفهوم ص ٢٧ .

(٣) تلقيح الفهوم ص ٢٨ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥١٣ .

(٥) في (م) وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥١٤ (والكلام منه): تعالى ، والمثبت من النسخ الخطية .

(٦) في (ظ): مدعو.

الموضع فهو على أصله ؛ فإنَّ الداعيَ هو رسولُ الله ﷺ. ﴿أُمَتِّعۡكُنَّ﴾ قد تقدَّم الكلام في المُتْعة في «البقرة»[١]. وقرئ: «أُمَتِّعُكُنَّ» بضمِّ العين، وكذا: «وأُسَرِّحُكُنَّ» بضمِّ الحاء، على الاستئناف[٢]. والسراحُ الجميل: هو أن يكون طلاقاً للسُّنة من غير ضِرارٍ ولا مَنْعِ واجبٍ لها.

الخامسة: اختلف العلماء في كيفية تخييرِ النبيِّ ﷺ أزواجَه على قولين:

الأوّل: أنَّه خيَّرهنَّ ـ بإذن الله تعالى ـ في البقاء على الزوجية، أو الطَّلاق، فاخْتَرْنَ البقاءَ ؛ قالته عائشةُ ومجاهدٌ وعكرمةُ والشعبيُّ وابن شهاب وربيعة.

ومنهم مَن قال: إنَّما خيَّرهنَّ بين الدنيا فيفارقهنَّ، وبين الآخرة فيمسكهنَّ ؛ لتكون لهنَّ المنزلةُ العليا كما كانت لزوجهنَّ، ولم يخيِّرهنَّ في الطلاق ؛ ذكره الحسن وقتادة، ومن الصحابة عليٌّ فيما رواه عنه أحمد بن حنبل أنه قال: لم يخيِّر رسول الله ﷺ نساءه إلَّا بين الدنيا والآخرة[٣].

قلت: القولُ الأوّل أصحُّ ؛ لقول عائشةَ رضي الله عنها لمَّا سُئلت عن الرجل يخيِّر امرأته فقالت: قد خيَّرَنا رسولُ الله ﷺ، أفكان طلاقاً! في رواية: فاخترناه فلم يَعُدَّه طلاقاً[٤]. ولم يثبتْ عن رسول الله ﷺ إلَّا التخييرُ المأمورُ به بين البقاء والطلاق، ولذلك قال: «يا عائشةُ إنِّي ذاكرٌ لكِ أمراً، فلا عليكِ ألَّا تَعْجَلي فيه حتى تستأمري أبويك». ومعلومٌ أنه لم يُرِد الاستئمارَ في اختيار الدنيا وزينتها على الآخرة. فثبت أنَّ

---

(١) ٤/ ١٦٢ .

(٢) القراءات الشاذة ص ١١٩ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥١٤ و١٥١٥ . وحديث علي أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائده على المسند (٥٨٨) و(٥٨٩) من طريق محمد بن عبيد الله بن أبي رافع ، عن عمر بن علي بن الحسين ، عن أبيه، عن علي ﷺ . ومحمد بن عبيد الله بن أبي رافع ، قال فيه الحافظ في التقريب: ضعيف . اهـ . وعلي بن الحسين أبو عمر بن علي بن الحسين لم يدرك جدَّه .

(٤) أخرجه أحمد (٢٤٦٥٣) و(٢٥٣٧٦) والبخاري (٥٢٦٣) و(٥٢٦٤) ومسلم (١٤٧٧): (٢٥) و(٢٧).

الاستثمار إنَّما وقع في الفُرْقة أو النكاح[1]. والله أعلم.

السادسة: اختلف العلماء في المخيَّرة إذا اختارت زوجَها؛ فقال جُمهور العلماء من السَّلَف وغيرهم وأئمةِ الفتوى: إنه لا يلزمه طلاقٌ، لا واحدةٌ ولا أكثر؛ هذا قولُ عمر بن الخطاب وعليٍّ وابن مسعود وزيد بن ثابت وابن عباس وعائشة. ومن التابعين عطاء ومسروق وسليمان بن يسار وربيعة وابن شهاب[2].

وروي عن عليٍّ وزيدٍ أيضاً: إن اختارت زوجَها فواحدةٌ بائنةٌ. وهو قولُ الحسن البصريِّ والليث، وحكاه الخطَّابيُّ والنقَّاش عن مالك[3]. وتعلَّقوا بأنَّ قوله: اختاري، كنايةٌ في[4] إيقاع الطلاق، فإذا أضافه إليها وقعت طلقة، كقوله: أنتِ بائن.

والصحيح الأوّل؛ لقول عائشةَ: خيَّرنا رسول الله ﷺ فاخترناه، فلم يَعُدَّه علينا طلاقاً. أخرجه الصحيحان[5].

قال ابن المنذر: وحديثُ عائشةَ يدلُّ على أنَّ المخيَّرة إذا اختارت زوجها لم يكن طلاقاً. ويدلُّ على أنَّ اختيارها نفسَها يوجب الطلاق. ويدلُّ على معنًى ثالثٍ، وهو أنَّ المخيَّرة إذا اختارت نفسَها أنَّها تطليقةٌ يملك زوجُها رجعتها؛ إذ غيرُ جائزٍ أن يطلِّق رسول الله ﷺ بخلافِ ما أمره الله. ورُوي هذا عن عمر وابن مسعود وابن عباس. وبه قال ابن أبي ليلى والثوريُّ والشافعيُّ.

ورُوي عن عليٍّ: أنها إذا اختارت نفسها أنَّها واحدةٌ بائنة. وهو قولُ أبي حنيفة

---

(١) أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٣٤٥ ، وبنحوه في أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٣٥٧ . والحديث سلف ص١١٨ من هذا الجزء.

(٢) بنحوه في الإشراف ٤/ ١٧٨ ، و الاستذكار ١٧/ ١٦٤ - ١٦٦ ، والمفهم ٤/ ٢٥٧ .

(٣) المفهم ٤/ ٢٥٧ - ٢٥٨ ، وكلام الخطابي في معالم السنن ٣/ ٢٤٧ ، وذكره عن علي وزيد والحسن ابنُ المنذر في الإشراف ٤/ ١٧٨ .

(٤) في (م): عن، والمثبت من النسخ الخطية وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥١٨ ، والكلام منه.

(٥) سلف في المسألة السابقة.

وأصحابه. ورواه ابن خُوَيْزِمَنْدَاد عن مالك.

وروي عن زيد بن ثابت: أنَّها إذا اختارت نفسها أنَّها ثلاث. وهو قول الحسن البصريِّ، وبه قال مالك والليث[1]؛ لأنَّ زوال الملك إنما يكون بذلك[2].

وروي عن عليٍّ ﷺ: أنَّها إذا اختارت زوجها[3] فليس بشيءٍ. وروي عنه: أنَّها إذا اختارت زوجها فواحدةٌ رجعية[4].

السابعة: ذهب جماعةٌ من المدنيِّين وغيرِهم إلى أنَّ التمليك والتخيير سواءٌ، والقضاءُ ما قضت فيهما جميعاً؛ وهو قولُ عبد العزيز بن أبي سلمة. قال ابن شعبان: وقد اختاره كثيرٌ من أصحابنا، وهو قولُ جماعةٍ من أهل المدينة. قال أبو عمر[5]: وعلى هذا القولِ أكثرُ الفقهاء. والمشهورُ من مذهب مالكٍ الفرقُ بينهما، وذلك أنَّ التمليك عند مالكٍ هو قولُ الرجل لامرأته: قد ملَّكتُكِ، أي: قد ملَّكتكِ ما جَعَلَ الله لي من الطلاق، واحدةً أو اثنتين أو ثلاثاً، فلمَّا جاز أن يملِّكها بعضَ ذلك دونَ بعضٍ وادَّعى ذلك، كان القولُ قولَه مع يمينه إذا ناكَرَها. وقالت طائفةٌ من أهل المدينة: له المناكرةُ في التمليك وفي التخيير؛ سواء في المدخول بها [وغير المدخول بها]. والأوّلُ قولُ مالك في المشهور.

وروى ابن خُوَيْزِمَنْدَاد عن مالك: أنَّ للزوج أن يناكِر المخيَّرة في الثلاث، وتكون طلقةً بائنةً كما قال أبو حنيفة. وبه قال ابن الجَهْم. قال سُحْنون: وعليه أكثرُ أصحابنا[6].

---

(١) بنحوه في الأشراف ٤/ ١٧٨ ، ١٧٩ .

(٢) في النسخ عدا (ظ): لأن الملك إنما يكون بذلك، والمثبت من (ظ). وذكر الباجي في المنتقى ٤/ ٥٨ أن قولها: اخترت نفسي، إنما يقتضي ملكَها لنفسها، وإزالةَ ملكِ الزوج عنها.

(٣) في النسخ: نفسها، والمثبت من الكشاف ٣/ ٢٥٨ ، وسلف هذا القول عن علي ﷺ في بداية المسألة.

(٤) أخرجه عبد الرزاق (١١٩٧٤) و(١١٩٧٧)، وابن أبي شيبة ٥/ ٥٩ ، والبيهقي ٧/ ٣٤٥ - ٣٤٦ .

(٥) في الكافي ٢/ ٥٨٨ - ٥٩٠ ، وما قبله وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٦) عقد الجواهر الثمينة ٢/ ١٧١ .

وتحصيلُ مذهبِ مالك: أنَّ المخيَّرة إذا اختارت نفسها وهي مدخولٌ بها فهو الطَّلاقُ كلُّه، وإن أنكر زوجها فلا نكرةَ له، وإن اختارت واحدةً فليس بشيء، وإنَّما الخيارُ البَتَاتُ، إمَّا أَخَذَتْه وإمَّا تركته(١)؛ لأنَّ معنى التخييرِ: التسريحُ؛ قال الله تعالى في آية التخيير: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ فمعنى التسريح: البتاتُ؛ قال الله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩] والتسريحُ بإحسانٍ هو الطَّلْقةُ الثالثة؛ رُوي ذلك عن النبيِّ ﷺ كما تقدَّم(٢).

ومن جهة المعنى: إنَّ قوله: اختاريني، أو اختاري نفسك، يقتضي ألَّا يكون له عليها سبيلٌ إذا اختارت نفسها، ولا يملك منها شيئاً؛ إذ قد جعل إليها أن تُخرجَ ما يملكه منها، أو تُقيم معه إذا اختارته، فإذا اختارت البعضَ من الطَّلاق لم يُعْمَل بمقتضى اللفظ، وكانت بمنزلةِ مَن خُيِّر بين شيئين فاختار غيرَهما. وأمَّا التي لم يدخل بها فله مُناكَرتُها في التخيير والتمليك إذا زادت على واحدةٍ؛ لأنَّها تَبِينُ في الحال.

الثامنة: اختلفت الرواية عن مالكٍ متى يكون لها الخيار؟ فقال مرةً: لها الخيارُ ما دامت في المجلس قبل القيام أو الاشتغالِ بما يدلُّ على الإعراض. فإن لم تَخْتَرْ ولم تَقْضِ شيئاً حتى افترقا من مجلسهما بَطَلَ ما كان من ذلك إليها، وعلى هذا أكثرُ الفقهاء.

وقال مرةً: لها الخيارُ أبداً ما لم يعلم أنها تَركت، وذلك يُعلم بأنْ تمكِّنه من نفسها بوطءٍ أو مباشرةٍ، فعلى هذا إن منعت نفسها ولم تختر شيئاً؛ كان له رَفْعُها إلى الحاكم لتُوقِعَ أو تُسْقِطَ، فإنْ أبتْ أسقط الحاكم تمليكَها.

وعلى القول الأول: إذا أخذتْ في غير ذلك من حديثٍ أو عملٍ أو مشيٍ، أو ما ليس من التخيير في شيء(٣) كما ذكرنا، سقط تخييرُها. واحتجَّ بعض أصحابنا لهذا

---

(١) الاستذكار ١٣/ ١٦٧.

(٢) ٤/ ٥٧.

(٣) في النسخ عدا (ظ): بشيء، بدل: في شيء، والمثبت من (ظ). وفي الكافي ٢/ ٥٨٩ (والكلام منه): أو ما ليس من التمليك في شيء.

القول بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ [النساء: ١٤٠].

وأيضاً؛ فإنَّ الزوج أَطْلَقَ لها القولَ ليعرف الخيار منها[١]، فصار كالعقد بينهما، فإن قَبِلَته؛ وإلَّا سقط، كالذي يقول: قد وهبتُ لكَ أو بايَعْتُك، فإن قَبِلَ؛ وإلَّا كان الملك باقياً بحاله. هذا قولُ الثوريِّ والكوفيين والأوزاعيِّ والليث والشافعيِّ وأبي ثور، وهو اختيارُ ابن القاسم[٢].

ووجهُ الرواية الثانية: أنَّ ذلك قد صار في يدها وملَكَته على زوجها بتمليكه إياها، فلمَّا مَلَكَتْ ذلك وجب أن يبقى في يدها كبقائه في يد زوجها.

قلت: وهذا هو الصحيحُ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام لعائشة: «إنِّي ذاكِرٌ لك أمراً، فلا عليكِ ألَّا تستعجلي حتى تستأمري أبويك» رواه الصحيح، وخرَّجه البخاريُّ، وصحَّحه الترمذيُّ. وقد تقدَّم في أول الباب[٣]. وهو حجةٌ لمن قال: إنه إذا خيَّر الرجل امرأته أو ملَّكها، أنَّ لها أن تقضي في ذلك وإن افترقا من مجلسهما؛ روي هذا عن الحسن والزُّهْريِّ[٤]، وقاله مالك في إحدى روايتيه. قال أبو عبيد: والذي عندنا في هذا الباب اتِّباعُ السنَّةِ في عائشةَ في هذا الحديث، حين جعل لها التأخير[٥] إلى أن تستأمر أبويها، ولم يجعل قيامها من مجلسها خروجاً من الأمر. قال المَرْوزِيُّ: هذا أصحُّ الأقاويلِ عندي، وقاله ابنُ المنذر والطَّحَاويّ[٦].

---

(١) في (ظ): لها.

(٢) وكلهم يقول: الخيار لها ما لم يقوما من المجلس. ينظر الإشراف ١٧٨/٤ ، والاستذكار ٧٤/١٧ و ١٦٨ .

(٣) ص١١٨ من هذا الجزء.

(٤) أخرجه عنهما عبد الرزاق (١١٩٤٣) و(١١٩٤٤)، وذكره ابن عبد البر في الاستذكار ٧٨/١٧ .

(٥) في (م): التخيير.

(٦) ينظر اختلاف العلماء للمروزي ص ٢٠٠ ، والإشراف ١٧٨/٤ ، ومختصر اختلاف العلماء للجصاص ٤٢٣/٢ ، والاستذكار ١٦٨/١٧ .

قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ **فيه ثلاثُ مسائل:**

الأولى: قال العلماء: لمَّا اختار نساءُ النبيِّ ﷺ رسولَ الله ﷺ شَكَرهنَّ الله على ذلك، فقال تَكْرِمةً لهنَّ: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ الآية [الأحزاب: ٥٢]. وبيَّن حُكْمَهنَّ عن غيرهن فقال: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ [الأحزاب: ٣٥]. وجعل ثوابَ طاعتهنَّ وعقابَ معصيتهنَّ أكثرَ ممَّا لغيرهنَّ، فقال: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ فأخبر تعالى أنَّ مَن جاء من نساء النبيِّ ﷺ بفاحشةٍ ـ والله عاصِمٌ رسولَه عليه الصلاة والسلام من ذلك كما مرَّ في حديث الإفك[1] ـ يضاعفُ لها العذابُ ضعفين؛ لشَرَفِ منزلتهنَّ، وفَضْلِ درجتهنَّ، وتقدُّمِهنَّ على سائر النساء أجمع. وكذلك بيَّنت الشريعة[2] في غيرِ ما موضعٍ ـ حَسْبما تقدَّم بيانُه غيرَ مرةٍ[3] ـ أنه كلَّما تضاعفت الحُرُماتُ فهُتِكت، تضاعفت العقوبات؛ ولذلك ضُوعف حدُّ الحرِّ على العبد، والثَّيِّبِ على البكر.

وقيل: لمَّا كان أزواج النبيِّ ﷺ في مَهْبِط الوحي وفي منزلِ أوامرِ الله ونواهيه، قَوِيَ الأمر عليهنَّ، ولَزِمهنَّ بسبب مكانتهن أكثر ممَّا يلزم غيرهن، فضوعفَ لهنَّ الأجر والعذاب[4].

---

(١) ينظر ١٥/ ١٦١ وما بعدها.

(٢) في (ظ): ثبتت الشريعة، وفي أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٢٢ (والكلام منه): ثبت في الشريعة.

(٣) ١٠/ ١٩٨ - ١٩٩، و١٣/ ١٣٥، و١٤/ ٣٥٦.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٢.

وقيل: إنَّما ذلك لِعظَمِ الضَّرَرِ في جرأتهنَّ[١] بإيذاء رسول الله ﷺ، فكانت العقوبة على قَدْرِ عِظَم الجريمةِ في إيذاء رسول الله ﷺ، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [الأحزاب:٥٧]. واختار هذا القولَ الكِيَا الطبريّ[٢].

الثانية: قال قوم: لو قُدِّر الزنى من واحدةٍ منهنَّ ـ وقد أعاذهنَّ الله من ذلك ـ لكانت تُحدُّ حدَّين لِعِظَم قَدْرِها، كما يزاد حدُّ الحرَّةِ على الأَمَة. والعذابُ بمعنى الحدِّ، قال الله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:٢]. وعلى هذا فمعنى الضِّعفين معنى المِثْلَيْن أو المرتين. وقال أبو عبيدة[٣]: ضِعف الشيء شيئان حتى يكون ثلاثة. وقاله أبو عمرو فيما حكى الطبريُّ عنه[٤]، فيضافُ إليه عذابان مِثْلُه، فيكون ثلاثةَ أَعْذِبةٍ. وضعَّفه الطبريُّ. وكذلك هو غيرُ صحيح وإن كان له باللفظ تعلُّقُ الاحتمال. وكونُ الأجرِ مرَّتين ممَّا يُفْسِدُ هذا القول؛ لأنَّ العذاب في الفاحشة بإزاءِ الأجر في الطاعة؛ قاله ابن عطية[٥].

وقال النَّحاس[٦]: فرَّق أبو عمرو بين «يُضَاعَف» و«يضعَّف»؛ قال: «يُضَاعَف» للمرار الكثيرة، و«يضعَّف» مرَّتين. وقرأ: «يضعَّف» لهذا[٧]. وقال أبو عبيدة: «يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ» يجعلُ ثلاثةَ أعذبة.

قال النحاس[٨]: التفريقُ الذي جاء به أبو عمرو وأبو عبيدةَ لا يعرفه أحدٌ من أهل

---

(١) في النسخ: جرائمهن، والمثبت من أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٣٤٦ ، والكلام منه.

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ٣٤٦ .

(٣) في مجاز القرآن ٢/ ١٣٦ - ١٣٧ .

(٤) في التفسير ١٩/ ٩١ . وأبو عمرو: هو ابن العلاء البصري، أحد القراء السبعة.

(٥) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٢ .

(٦) في معاني القرآن ٥/ ٣٤٣ .

(٧) السبعة ص ٥٢١ ، والتيسير ص ١٧٩ ، وسيرد ما ورد فيها من قراءات في المسألة التالية.

(٨) في معاني القرآن ٥/ ٣٤٤ .

اللغة عَلِمتُه، والمعنى في «يضاعَف» و«يضعَّف» واحد، أي: يُجعل ضعفين، كما تقول: إن دفعتَ إليَّ درهماً دفعتُ إليك ضِعْفَيهِ، أي: مِثْلَيه، يعني درهمين. ويدلُّ على هذا: ﴿نُؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ ولا يكون العذابُ أكثر من الأجر. وقال في موضعٍ آخر: ﴿ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الأحزاب:٦٨] أي: مِثْلَين. وروى معمر عن قتادة: ﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ قال: عذابُ الدنيا وعذاب الآخرة.

قال القشيريُّ أبو نصر: الظاهِرُ أنه أراد بالضعفينِ المِثْلَين؛ لأنه قال: ﴿نُؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾. فأمَّا في الوصايا؛ لو أوصى لإنسانٍ بضعفَيْ نصيبِ ولدِه فهو وصيةٌ بأن يُعطَى مثلَ نصيبه ثلاث مراتٍ؛ فإنَّ الوصايا تجري على العُرْفِ فيما بين الناس، وكلامُ الله يُرَدُّ تفسيره إلى كلام العرب، والضِّعْفُ في كلام العرب: المِثْلُ إلى ما زاد، وليس بمقصورٍ على مِثْلَيْن. يقال: هذا ضِعْفُ هذا، أي: مِثْلُه. وهذا ضِعْفاه، أي: مِثْلاه، فالضِّعْفُ في الأصل زيادةٌ غيرُ محصورة؛ قال الله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾ لم يُرِدْ مِثْلاً ولا مِثْلين. كلُّ هذا قولُ الأزهريّ[(١)]. وقد تقدَّم في «النور» الاختلافُ في حدِّ مَن قَذَفَ واحدةً منهنّ[(٢)]، والحمد لله.

الثالثة: قال أبو رافع: كان عمر ﷺ كثيراً ما يقرأ سورةَ يوسفَ وسورةَ الأحزاب في الصبح، وكان إذا بلغ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ رفع بها صوته، فقيل له في ذلك، فقال: «أُذكِّرهنَّ العَهْدَ»[(٣)].

قرأ الجمهور: ﴿مَن يَأْتِ﴾ بالياء، وكذلك: ﴿وَمَن يَقْنُتْ﴾ حملاً على لفظِ «مَن». والقنوتُ: الطاعة، وقد تقدَّم[(٤)]. وقرأ يعقوب: «مَن تأْتِ»، و«تَقْنُتْ» بالتاء من فوق، حملاً على المعنى[(٥)].

(١) في تهذيب اللغة ١/ ٤٨٠ - ٤٨١ .

(٢) ١٥/ ١٢٩ .

(٣) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٨١ .

(٤) ٤/ ١٨٣ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨١ ، وذكر قراءة: «تأت» عن يعقوب ابن جني في المحتسب ٢/ ١٧٩ ، وذكر =

وقال قوم: الفاحشةُ إذا وردت مُعرَّفةً فهي الزِّنى واللواط. وإذا وردت منكَّرةً فهي سائرُ المعاصي. وإذا وردت منعوتةً [بالبيان] فهي عقوقُ الزوجِ وفسادُ عِشْرتِه(١).

وقالت فرقة: بل قولُه: «فاحشةٍ مُبَيَّنَةٍ» تعمُّ جميعَ المعاصي. وكذلك الفاحشةُ كيف وردت(٢). وقرأ ابن كثير: ﴿مبيَّنةٍ﴾ بفتح الياء. وقرأ نافع وأبو عمرو بكسرها(٣).

وقرأت فرقةٌ: «يُضَاعِفْ» بكسر العين على إسناد الفعل إلى الله تعالى(٤).

وقرأ أبو عمرو فيما روى خارجةُ: «نضاعِف» بالنون المضمومة ونصبِ «العذاب» وهذه قراءةُ ابن مُحَيْصِن. وهذه مفاعلةٌ من واحد، كطارَقْتُ النعلَ وعاقبتُ اللِّصّ(٥).

وقرأ نافعٌ وحمزةُ والكسائيُّ: ﴿يُضَاعَفْ﴾ بالياء وفتح العين، ﴿العذابُ﴾ رفعاً(٦).

[وقرأ أبو عمرو: ﴿يُضَعَّفْ﴾ على بناء المبالغة بالياء، ﴿العذابُ﴾ رفعاً] وهي قراءةُ الحسن وابن كثير وعيسى(٧).

وقرأ ابن كثير وابن عامر: ﴿نُضَعِّف﴾ بالنون وكسر العين المشدَّدة، ﴿العذابَ﴾ نصباً(٨).

= قراءة: «تقنت» ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١١٩ ، والمشهور عن يعقوب كقراءة الجمهور.

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨١ ، وما بين حاصرتين منه. وقال ابن عطية: ولذلك يصفها بالبيان إذ لا يمكن سترها، والزنا وغيره هو مما يتستَّر به ولا يكون مُبيناً.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٢ .

(٣) القراءة بفتح الياء هي قراءة ابن كثير وعاصم من رواية أبي بكر، وقرأ الباقون بكسرها. التيسير ص ٩٥ ، وينظر السبعة ص ٢٣٠ .

(٤) قراءة شاذة؛ ذكرها الزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٥٩ ، وأبو حيان في البحر ٧/ ٢٢٨ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٢ ، والمشهور عن أبي عمرو : «يضعَّف»، كما سلف، وسيرد.

(٦) وهي قراءة عاصم أيضاً. السبعة ص ٥٢١ ، والتيسير ص ١٧٩ . والكلام من المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٨ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢٨ ، وما بين حاصرتين منه. وسلفت قراءة أبي عمرو في المسألة السابقة. ولم نقف على من نسب هذه القراءة لابن كثير، والقراءة المتواترة عنه هي الآتي ذكرها.

(٨) السبعة ص ٥٢١ ، والتيسير ص ١٧٩ . قال أبو حيان في البحر ٧/ ٢٢٨ : مَن فَتَح العين رَفَع «العذاب»، ومَن كسرها نَصَبَه.

قال مقاتل: هذا التَّضعيف في العذاب إنَّما هو في الآخرة؛ لأنَّ إيتاء الأجر مرَّتين أيضاً في الآخرة. وهذا حسنٌ؛ لأنَّ نساء النبيِّ ﷺ لا يأتينَ بفاحشةٍ توجب حدًّا. وقد قال ابن عباس: ما بَغَت امرأة نبيٍّ قطُّ، وإنَّما خانت في الإيمان والطاعة(١).

وقال بعض المفسِّرين: العذابُ الذي تُوُعِّدْنَ به ضعفين هو عذابُ الدنيا وعذابُ الآخرة، فكذلك الأجر. قال ابن عطية(٢): وهذا ضعيفٌ، اللهمَّ إلَّا أن يكون أزواجُ النبيِّ ﷺ لا تَرْفَع عنهنَّ حدودُ الدنيا عذابَ الآخرة، على ما هي حالُ الناس عليه بحكمِ حديثِ عُبادة بنِ الصَّامت(٣)، وهذا أمرٌ لم يُرْوَ في أزواج النبيِّ ﷺ، ولا حُفِظَ تقرُّره. وأهلُ التفسير على أنَّ الرزق الكريم الجنةُ؛ ذكره النحَّاس(٤).

قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ﴾ يعني في الفضل والشَّرف. وقال: «كَأَحَدٍ» ولم يقل: كواحدةٍ؛ لأنَّ أحداً نفيٌ من المذكَّر والمؤنَّث(٥)، والواحدِ والجماعة. وقد يقال على ما ليس بآدميٍّ؛ يقال: ليس فيها أحدٌ، لا شاةٌ ولا بعير.

وإنما خصَّص النساء بالذكر لأنَّ فيمَن تقدَّم آسيةُ ومريم. وقد أشار إلى هذا

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ١/ ٣١٠، وسلف ١١/ ١٣٥.

(٢) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٢.

(٣) أخرجه أحمد (٢٢٦٧٨)، والبخاري (١٨)، ومسلم (١٧٠٩)، ولفظه عند البخاري: «بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تَزْنوا ولا تقتلوا أولادكم... فمَن وفَى منكم فأجْرُه على الله، ومَن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفَّارةٌ له...».

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٣١٢.

(٥) في (د) و(خ): لأن أحداً يعني من المذكر والمؤنث، وفي معاني القرآن للزجاج ٤/ ٣٢٤ (والكلام منه): لأن أحداً نفي عام للمذكر والمؤنث...

قتادة[١]، وقد تقدَّم في «آل عمران» الاختلافُ في التفضيل بينهنَّ، فتأمَّلْه هناك[٢]. ثم قال: ﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّۚ﴾ أي: خِفْتُنَّ الله. فبيَّن أنَّ الفضيلة إنَّما تتمُّ لهنَّ بشرط التقوى؛ لِمَا منحهنَّ الله من صحبة الرسول، وعظيمِ المحلِّ منه، ونزولِ القرآن في حقِّهنّ.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ في موضع جزمٍ بالنهي، إلَّا أنه مبنيٌّ كما بُني الماضي، هذا مذهبُ سيبويه[٣]، أي: لا تُلِنَّ القولَ، أَمَرهنَّ الله أن يكون قولُهنَّ جَزْلاً وكلامُهنَّ فَصْلاً، ولا يكون على وجهٍ يُظْهِر[٤] في القلب علاقةً بما يَظْهَر عليه من اللِّين، كما كانت الحالُ عليه في نساء العرب من مكالمة الرجال بترخيم الصوت ولينِه، مثل كلامِ المريبات والمُوْمِسات. فنهاهنَّ عن مثل هذا.

قوله تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ﴾ بالنصب على جواب النَّهي ﴿ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ أي: شكٌّ ونفاق؛ عن قتادةَ والسُّدِّيّ. وقيل: تَشوُّفٌ لفجورٍ، وهو الفسقُ والغَزَل؛ قاله عكرمة. وهذا أصوبُ، وليس للنفاق مدخلٌ في هذه الآية[٥].

وحكى أبو حاتم أنَّ الأعرج قرأ: «فَيَطْمِعَ» بفتح الياء وكسر الميم. النحاس[٦]: أحسبُ هذا غلطاً، وأنْ يكون قرأ: «فيَطمَعِ» بفتح الميم وكسرِ العين[٧] بعطْفِه على «تَخْضَعْنَ» فهذا وجهٌ جيدٌ حسن. ويجوز: «فيُطْمِعَ» بمعنى: فيُطْمِعَ الخضوعُ أو القول.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٢ . وأخرج عبد الرزاق ٢/ ١١٦ ، والطبري ١٩/ ٩٤ عن قتادة في قوله تعالى: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ﴾ قال: كأحد من نساء هذه الأمة.

(٢) ٥/ ١٢٦ وما بعدها.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣١٢ ، وينظر الكتاب ١/ ٢٠ .

(٤) في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٢٣ (والكلام منه): يُحْدِث.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٣ ، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١١٦ ، والطبري ١٩/ ٩٥ . وأخرجا عن عكرمة قال: شهوة الزنا.

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٣١٣ ، وما قبله منه.

(٧) في النسخ: بفتح الياء، وكسر العين، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس، وذكر ابن جني في المحتسب ٢/ ١٨١ عن الأعرج أنه قرأ بها، يعني بكسر العين.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ قال ابن عباس: أَمَرهنَّ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[١]. والمرأةُ تُنْدَبُ إذا خاطبت الأجانب ـ وكذا المحرَّماتُ عليها بالمصاهرة ـ إلى الغِلْظةِ في القول من غير رفعِ صوتٍ؛ فإنَّ المرأة مأمورةٌ بخَفْضِ الكلام. وعلى الجملة فالقولُ المعروفُ: هو الصوابُ الذي لا تُنْكِره الشريعةُ ولا النفوس.

قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ **فيه أربعُ مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ﴾؛ قرأ الجمهور: ﴿وَقِرنَ﴾ بكسر القاف. وقرأ عاصمٌ ونافعٌ بفتحها[٢]. فأمَّا القراءةُ الأولى فتَحتمِلُ وجهين:

أحدهما: أن يكون من الوَقَار؛ تقول: وقَرَ يَقِرُ وَقاراً، أي: سَكَن، والأمرُ: قِرْ، وللنساء: قِرْن، مثل: عِدْنَ وزِنَّ.

والوجهُ الثاني ـ وهو قولُ المبرِّد ـ أن يكون من القَرار؛ تقول: قَرِرتُ بالمكان ـ بفتح الراء ـ أَقِرُّ، والأصلُ: اقْرِرْنَ، بكسر الراء، فحذفت الراء الأولى تخفيفاً، كما قالوا في ظَلِلْتُ: ظِلْتُ، ومَسِسْت: مِسْت[٣]، ونقلوا حركتها إلى القاف، واستغني عن ألف الوصل لتحرُّكِ القاف.

قال أبو عليّ: بل على أنْ أُبدلَت الراءُ ياءً كراهةَ التضعيف، كما أبدلت في قيراط

---

(١) لم نقف عليه.

(٢) السبعة ص ٥٢١ - ٥٢٢ ، والتيسير ص ١٧٩ .

(٣) وذلك بأن تُحذف السين الأولى وتحوَّل كسرتها إلى الميم، ومنهم مَن لا يحوِّل ويترك الميم على حالها مفتوحة، وكذلك: ظلت، يجوز كسر الظاء وفتحها، وهو من شواذِّ التخفيف. ينظر الصحاح (مسس).

ودينار، ويصير للياء حركةُ الحرفِ المبدَل منه، فالتقدير: اقْيِرْنَ، ثم تُلقى حركةُ الياء على القاف كراهةَ تحرُّكِ الياء بالكسر، فتسقط الياءُ لاجتماع الساكنَيْنِ، وتسقط همزةُ الوصل لتحرُّكِ ما بَعْدَها، فيصير: «قِرْن».

وأمَّا قراءةُ أهلِ المدينة وعاصم، فَعَلَى لغةِ العرب: قَرِرْتُ في المكان: إذا أقمتَ فيه ـ بكسر الراء ـ أَقَرُّ بفتح القاف، من باب حَمِد يَحْمَد، وهي لغةُ أهل الحجاز، ذكرها أبو عبيد في «الغريب المصنف» عن الكسائيِّ، وهو من أجلِّ مشايخه، وذكرها الزَّجاج وغيرُه، والأصل: «اقْرَرْن»، حُذفت الراء الأولى لِثِقَلِ التضعيف، وأُلقيت حركتها على القاف فتقول: قَرْن. قال الفرَّاء: هو كما تقول: [هل][1] أَحَسْتَ صاحِبَك؟ أي: هل أَحْسَسْت.

وقال أبو عثمان المازنيُّ: قَرِرتُ به عيناً، بالكسر لا غير، من قُرَّة العين. ولا يجوز: قَرِرت في المكان ـ بالكسر ـ وإنَّما هو: قَرَرت، بفتح الراء[2].

وما أنكره من هذا لا يقدحُ في القراءة إذا ثبتت عن النبيِّ ﷺ، فيُستدلُّ بما ثبت عنه من القراءة على صحة اللغة.

وزعم[3] أبو حاتم أيضاً: أنَّ «قَرْن» لا مذهبَ له في كلام العرب؛ قال النحَّاس[4]: وأمَّا قولُ أبي حاتم: إنه لا مذهبَ له، فقد خُولفَ فيه، وفيه مذهبان: أحدهما ما حكاه الكِسائيُّ، والآخر: ما سمعتُ عليَّ بنَ سليمان يقول؛ قال: وهو من قَرِرْتُ به عَيْناً أَقَرُّ، والمعنى: واقْرَرْنَ به عَيْناً في بيوتكنَّ. وهو وجهٌ حسن، إلَّا أنَّ

---

(١) ما بين حاصرتَين من معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٤٢.

(٢) ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٤٢، والغريب المصنف لأبي عبيد ٢/ ٤٨٩، ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٢٥، والحجة لأبي علي الفارسي ٥/ ٤٧٥، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣١٣ - ٣١٤، وتهذيب اللغة ٨/ ٢٧٧ و٩/ ٢٨٠، والكشف عن وجوه القراءات ٢/ ١٩٧، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٨٣.

(٣) في (د) و(م): وذهب، والمثبت من باقي النسخ وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣١٣، والكلام منه.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٣١٤.

الحديث يدلُّ على أنه من الأول، كما روي: أنَّ عماراً قال لعائشةَ رضي الله عنها: إنَّ الله قد أمرك أن تَقَرّي في منزلك، فقالت: يا أبا اليَقْظان، ما زلتَ قوَّالاً بالحقِّ! فقال: الحمدُ للهِ الذي جعلني كذلك على لسانك[١].

وقرأ ابنُ أبي عَبْلَةَ: «واقْرِرْنَ» بألِفِ وَصْلٍ وراءَيْنِ الأُولى مكسورة[٢].

الثانية: معنى هذه الآية: الأمرُ بلزوم البيت، وإن كان الخطابُ لنساء النبيِّ ﷺ فقد دخل غيرُهنّ فيه بالمعنى. هذا لو لم يَرِدْ دليلٌ يخصُّ جميع النساء، كيف والشريعةُ طافحةٌ بلزومِ النساءِ بيوتَهنّ، والانكفافِ عن الخروج منها إلَّا لضرورة، على ما تقدَّم في غير موضع[٣].

فأمر الله تعالى نساء النبيِّ ﷺ بملازمة بيوتهنَّ، وخاطبهنَّ بذلك تشريفاً لهنَّ، ونهاهنَّ عن التبرُّج، وأَعْلَمَ أنه فعلُ الجاهلية الأولى فقال: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾. وقد تقدَّم معنى التبرّجِ في «النور»[٤]. وحقيقتُه: إظهارُ ما سَتْرُه أَحْسَنُ، وهو مأخوذٌ من السَّعة؛ يقال: في أسنانه بَرَج: إذا كانت متفرِّقةً؛ قاله المبرِّد[٥].

واختلف الناس في «الجاهليَّة الأولَى»؛ فقيل: هي الزمن الذي ولد فيه إبراهيم عليه السلام، كانت المرأةُ تلبس الدِّرع من اللؤلؤ، فتمشي وسط الطريق تَعرِضُ نفسَها على الرجال[٦].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣١٤، وأخرجه بنحوه الطبري في التاريخ ٤/ ٥٤٥.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٣.

(٣) ينظر ١/ ٢٩٢ و٦/ ١٤٨ و١٥/ ٢٩٣.

(٤) ١٥/ ٣٤٠.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣١٤.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٥٢٨ عن الكلبي، وذكره بنحوه الفراء في معاني القرآن ٢/ ٣٤٢، والماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٠٠.

وقال الحَكَم بن عُتيبة: ما بين آدم ونوحٍ، وهي ثمان مئة سنةٍ، وحُكيتْ لهم سِيَرٌ ذميمة.

وقال ابن عباس: ما بين نوحٍ وإدريس. الكلبيُّ: ما بين نوحٍ وإبراهيم. قيل: إنَّ المرأة كانت تلبسُ الدِّرع من اللؤلؤ غيرَ مَخِيطِ الجانبين، وتلبسُ الثيابَ الرقاقَ ولا تواري بَدَنَها.

وقالت فرقة: ما بين موسى وعيسى. الشعبيُّ: ما بين عيسى ومحمدٍ ﷺ. أبو العالية: هي زمانُ داودَ وسليمانَ؛ كان فيه للمرأة قميصٌ من الدرِّ غير مخيطِ الجانبين[١].

وقال أبو العباس المبرِّدُ: والجاهليةُ الأولى كما تقول: الجاهليةُ الجَهْلاءُ، قال: وكان النساء في الجاهلية الجهلاءِ يُظْهِرْنَ ما يَقْبُحُ إظهارُهُ، حتى كانت المرأة تجلس مع زوجها وخِلْمِها[٢]، فينفرد خِلْمُها بما فوقَ الإزار إلى الأعلى، وينفرد زوجها بما دون الإزار إلى الأسفل، وربَّما سأل أحدهما صاحبه البَدَلَ.

وقال مجاهد: كان النساء يتمشَّينَ بين الرجال، فذلك التبرُّج[٣].

قال ابن عطيةَ[٤]: والذي يَظْهَرُ عندي أنه أشار للجاهلية التي لَحِقْنَها، فأُمِرْنَ بالنُّقلةِ عن سيرتهنَّ فيها، وهي ما كان قبل الشرع من سيرة الكَفَرة؛ لأنهم كانوا لا غَيْرَة عندهم، فكان أمرُ النساء دون حجبةٍ، وجَعلها أُولى بالنسبة إلى ما كُنَّ عليه[٥]،

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٣، دون قوله: إن المرأة كانت تلبس... الخ. وأخرج الطبري أقوال الحكم وابن عباس والشعبي ٩/ ٩٨ - ٩٩.

(٢) في (د) و(م): وخلها، وفي (ظ): وخدنها، وكذا في الموضع الثاني، والمثبت من باقي النسخ، وهو موافق لما في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣١٤، والكلام منه، وذكره أيضاً الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٠٠ وقال: والخِلْم: الصاحب.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٣٩٩.

(٤) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٤.

(٥) في المحرر الوجيز: وجعلها أولى بالإضافة إلى حالة الإسلام.

وليس المعنى أنَّ ثَمَّ جاهليةً أخرى. وقد أُوْقِعَ اسم الجاهلية على تلك المدَّة التي قبل الإسلام، فقالوا: جاهليٌّ في الشعراء. وقال ابن عباس في البخاريِّ[1]: سمعتُ أبي في الجاهلية يقول، إلى غيرِ هذا.

قلت: وهذا قولٌ حسن. ويُعتَرضُ بأنَّ العرب كانت أهلَ قَشَفٍ وضَنْكٍ في الغالب، وأنَّ التنعُّم وإظهارَ الزينة إنَّما جرى في الأزمان السابقة، وهي المرادُ بالجاهلية الأولى، وأنَّ المقصود من الآية مخالفةُ مَن قَبْلَهنَّ من المِشية على تَغْنيجٍ وتكسيرٍ وإظهارِ المحاسن للرجال، إلى غير ذلك ممَّا لا يجوز شرعاً. وذلك يشملُ الأقوالَ كلَّها ويَعمُّها، فيَلْزَمنَ البيوت، فإنْ مسَّت الحاجةُ إلى الخروج فَلْيَكُن على تَبَذُّلٍ[2] وتستُّرٍ تامٍّ. والله الموفِّق.

الثالثة: ذكر الثعلبيُّ وغيره: أنَّ عائشةَ ـ رضي الله عنها ـ كانت إذا قرأت هذه الآيةَ تبكي حتى تَبُلَّ خِمارها. وذكر أنَّ سَوْدَةَ قيل لها: لم لا تَحُجِّين ولا تَعْتَمرين كما يفعل أَخَواتُك؟ فقالت: قد حَجَجْتُ واعتمرتُ، وأمرني الله أنْ أقرَّ في بيتي. قال الراوي: فواللهِ ما خرجتْ من باب حجرتها حتى أُخرجَتْ جنازتُها. رضوان الله عليها[3].

قال ابن العربيِّ[4]: لقد دخلتُ نَيِّفاً على ألف قريةٍ، فما رأيتُ[5] أَصْوَنَ عيالاً ولا أَعَفَّ نساءً من نساء نابلس، التي رُمي بها الخليلُ ﷺ بالنار؛ فإنِّي أَقَمتُ فيها فما رأيتُ امرأةً في طريقٍ نهاراً، إلَّا يومَ الجمعة؛ فإنَّهنَّ يخرجن إليها حتى يَمتلئَ المسجدُ

---

(١) برقم (٣٨٤٠).

(٢) التبذُّل: تَرْكُ التَّزَيُّن. اللسان (بذل).

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٣، وخبر عائشة أخرجه ابن سعد ٨/ ٨١، وأحمد في الزهد ص ٢٠٥. وخبر سودة أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر كما في الدر المنثور ٥/ ١٩٦.

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١٥٢٣.

(٥) بعدها في النسخ عدا (ظ): نساء، والمثبت من (ظ) وأحكام القرآن لابن العربي.

منهنَّ، فإذا قُضِيَت الصلاةُ وانقلَبْنَ إلى منازلهنَّ لم تقع عيني على واحدةٍ منهنَّ إلى الجمعة الأخرى. وقد رأيتُ بالمسجد الأقصى عفائفَ ما خَرجْنَ من مُعْتَكَفِهنَّ حتى استُشْهِدْنَ فيه.

الرابعة: قال ابن عطية: بكاءُ عائشةَ رضي الله عنها إنَّما كان بسبب سَفَرِها أيامَ الجمل، وحينئذٍ قال لها عمَّار: إنَّ الله قد أمرك أن تَقرِّي في بيتك[1].

قال ابن العربيِّ[2]: تعلَّق الرافضةُ بهذه الآيةِ على أمِّ المؤمنين عائشةَ رضي الله عنها؛ إذ قالوا: إنَّها خالفت أمرَ رسول الله ﷺ حين خرجت تقودُ الجيوش، وتُباشِرُ الحروب، وتقتحم مَأْزِقَ الطَّعْنِ والضَّرْبِ فيما لم يُفرَضْ عليها ولا يجوز لها. قالوا: ولقد حُصِرَ عثمان، فلمَّا رأت ذلك أمرت برواحِلِها فقُرِّبت لتخرج إلى مكة، فقال لها مَرْوان: أقيمي هنا يا أمَّ المؤمنين، ورُدِّي هؤلاء الرَّعَاع؛ فإنَّ الإصلاح بين الناس خيرٌ من حَجِّك. قال ابن العربيِّ: قال علماؤنا رحمةُ الله عليهم: إنَّ عائشةَ رضي الله عنها [كانت] نَذَرت الحجَّ قبل الفتنة، فلم تَرَ التخلُّفَ عن نَذْرِها، ولو خرجت في[3] تلك الثائرة لكان ذلك صواباً لها.

وأمَّا خروجُها إلى حربِ الجمل فما خَرَجَتْ لحربٍ، ولكنْ تعلَّق الناسُ بها، وشكَوْا إليها ما صاروا إليه من عظيم الفتنة وتَهارُجِ الناس، ورجَوْا بركتَها، وطمِعوا في الاستحياء منها إذا وقفت إلى الخَلْق، وظنَّت هي ذلك، [فخرجت] مقتديةً بالله في قوله: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤]، وقوله: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]. والأمرُ بالإصلاح مُخاطَبٌ به جميعُ الناس من ذكر أو أنثى، حُرٌّ أو عبد. فلم يُرِدِ الله تعالى بسابِقِ قضائه ونافِذِ حُكْمِه أن يقع إصلاح، ولكن جرت

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٣، وقول عمار ﷺ سلف في المسألة الأولى.

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١٥٢٣، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٣) في أحكام القرآن: عن.

مطاعناتٌ وجراحاتٌ حتى كاد يَفْنَى الفريقان، فعمَدَ بعضهم إلى الجمل فعَرْقَبه، فلمَّا سقط الجمل لجنبه أدرك محمد بن أبي بكر عائشةَ رضي الله تعالى عنها، فاحْتَمَلَها إلى البصرة، وخرجت في ثلاثين امرأةً، قَرَنَهُنَّ عليٌّ بها حتى أوصلوها إلى المدينة بَرَّةً تقيَّةً، مجتهدةً مصيبةً، مثابةً فيما تأوَّلَتْ، مأجورةً فيما فعلت؛ إذ كلُّ مجتهدٍ في الأحكام مصيبٌ. وقد تقدَّم في «النحل»[١] اسمُ هذا الجمل، وبه يُعْرَفُ ذلك اليوم.

قوله تعالى: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ أي: فيما أمر ونَهى ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ قال الزَّجَّاج[٢]: قيل: يراد به نساءُ النبيِّ ﷺ. وقيل: يراد به نساؤه وأهلُه الذين هم أهلُ بيته؛ على ما يأتي بيانُه بعدُ. و«أهلَ البيتِ» نصبٌ على المدح. قال: وإن شئتَ على النداء[٣]. قال: ويجوز الرفع والخفض. قال النحاس[٤]: إنْ خُفِضَ على أنه بدلٌ من الكاف والميم لم يَجُزْ عند أبي العباس محمد بن يزيد؛ قال: لا يُبْدَلُ من المخاطبة[٥] ولا من المخاطَب؛ لأنَّهما لا يحتاجان إلى تبيين. ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ مصدرٌ فيه معنى التوكيد.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾

---

(١) لم نقف عليه عند المصنف، وقد ذكره السهيلي في التعريف والإعلام ص ٩٤ عند قوله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل:٨]، فذكر أن اسمه: عسكر.

(٢) في معاني القرآن ٤/ ٢٢٦ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣١٤ .

(٣) في النسخ: على البدل، والمثبت من معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٢٦ ، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣١٥ .

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٣١٥ ، وما قبله منه.

(٥) في إعراب القرآن: المخاطِب.

هذه الألفاظُ تعطي أنَّ أهل البيت نساؤه. وقد اختلف أهلُ العلم في أهل البيت؛ مَن هم؟ فقال عطاء وعِكرمةُ وابن عباس: هم زوجاتُه خاصَّةً، لا رجلَ معهنَّ. وذهبوا إلى أنَّ البيت أريدَ به مساكنُ النبيِّ ﷺ[١]؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾.

وقالت فرقةٌ منهم الكَلْبيُّ: هم عليٌّ وفاطمةُ والحسنُ والحسين خاصةً، وفي هذا أحاديثُ عن النبيِّ عليه الصلاةُ والسلام[٢]، واحتجُّوا بقوله تعالى: ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ﴾بالميم، ولو كان للنساء خاصةً لكان: عنكنَّ ويطهِّركنَّ. إلَّا أنه يَحتمِلُ أن يكون خَرَجَ على لفظِ الأهل، كما يقولُ الرجلُ لصاحبه: كيف أهلُك؟ أي: امرأتُكَ ونساؤك، فيقول: هم بخيرٍ، قال الله تعالى: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [هود: ٧٣].

والذي يَظْهَر من الآية أنَّها عامةٌ في جميع أهل البيت من الأزواج وغيرهم. وإنَّما قال: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ﴾ لأنَّ رسول الله ﷺ وعَليًّا وحسَناً وحُسَيْناً كان فيهم، وإذا اجتمع المذكَّر والمؤنَّثُ غُلِّبَ المذكَّر، فاقتضت الآيةُ أنَّ الزوجات من أهل البيت؛ لأنَّ الآية فيهنَّ، والمخاطبة لهنَّ، يدلُّ عليه سياقُ الكلام. والله أعلم. أما إنَّ أمَّ سلمةَ قالت: نزلت هذه الآيةُ في بيتي، فدعا رسول الله ﷺ عليًّا وفاطمةَ وحَسَنًّا وحُسَيْناً، فدخل

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٤ ، إلا أن فيه: مقاتل، بدل: عطاء. وأخرجه عن ابن عباس الواحدي في أسباب النزول ص ٣٧٤ ، وابن عساكر في تاريخه ٦٩/ ١٥٠ ، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٥/ ١٩٨ لابن أبي حاتم وابن مردويه. وأخرجه عن عكرمة الطبري ١٩/ ١٠٧ - ١٠٨ .

(٢) منها حديث عائشة رضي الله عنها عند مسلم (٢٤٢٤) والطبري ١٩/ ١٠٢ ، قالت: خرج النبيُّ ﷺ غداةً وعليه مِرْطٌ مُرَحَّل من شعرٍ أسود، فجاء الحسن بن علي فأدخله، ثم جاء الحسين فدخل معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء علي فأدخله، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾. ومنها حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ عند أحمد (١٦٠٨)، ومسلم (٢٤٠٤)، والطبري ١٩/ ١٠٦ . وحديث أبي سعيد الخدري ﷺ عند الطبري ١٩/ ١٠١ - ١٠٢ . وحديث أنس ﷺ عند أحمد (١٣٧٢٨)، والطبري ١٩/ ١٠٢ . وحديث واثلة بن الأسقع ﷺ عند أحمد (١٦٩٨٨)، والطبري ١٩/ ١٠٣ - ١٠٤ . وحديث أم سلمة رضي الله عنها وسيأتي. وقد ذكرها جميعاً ابن كثير عند تفسير هذه الآية.

معهم تحت كساءٍ خَيْبَريٍّ وقال: «هؤلاء أهلُ بيتي» وقرأ الآيةَ وقال: «اللهمَّ أذْهِبْ عنهم الرِّجْسَ وطهِّرهُم تطهيراً» فقالت أمُّ سلمة: وأنا معهم يا رسول الله؟ قال: «أنتِ على مكانك وأنتِ على خير» أخرجه الترمذيُّ وغيره وقال: هذا حديثٌ غريب[١].

وقال القُشيريُّ: وقالت أمُّ سلمةَ: أَدْخَلْتُ رأسي في الكساء وقلتُ: أنا منهم يا رسولَ الله؟ قال: «نعم»[٢].

وقال الثعلبيُّ: [قيل:] هم بنو هاشم، فهذا يدلُّ على أنَّ البيتَ يرادُ به بيت النَّسَب، فيكون العباس وأعمامه وبنو أعمامه منهم. وروي نحوُه عن زيد بن أرقم ﷺ أجمعين[٣].

وعلى قول الكَلْبيِّ يكون قولُه: ﴿وَٱذْكُرْنَ﴾ ابتداءَ مُخاطَبةِ[٤] أمرِ اللهِ عزَّ وجلَّ أزواجَ النبيِّ ﷺ، على جهة الموعظة وتعديدِ النعمة بِذِكْرِ ما يُتلى في بيوتهنَّ من آيات الله تعالى والحكمة. قال أهلُ العلمِ بالتأويل: «آيات الله»: القرآن. «والحكمة»: السُّنة.

والصحيحُ أنَّ قولَه: «واذكُرْنَ» مَنْسوقٌ على ما قَبْلَه، وقال: «عنكم»؛ لقوله: «أهل»، فالأهلُ مذكَّرٌ، فسمَّاهنَّ - وإنْ كُنَّ إناثاً - باسم التذكير، فلذلك صار: «عنكم». ولا اعتبارَ بقول الكلبيِّ وأشباهِه، فإنَّه توجد له أشياءُ في هذا التفسيرِ ما لو كان[٥] في زمن السَّلَف الصالح لَمَنَعوه من ذلك وحَجَروا عليه. فالآياتُ كلُّها من

(١) سنن الترمذي (٣٢٠٥) بنحوه، ونقله المصنف عن ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٤ عدا آخره، وهو قوله: «أنت على مكانك...» فهو من سنن الترمذي. ووقع في المحرر بدلاً منه: «أنت من أزواج النبي، وأنت إلى خير» وأخرجه بنحوه أحمد (٢٦٥٠٨)، وهو في تفسير الطبري ١٩/ ١٠٤ - ١٠٥ .

(٢) أخرج نحو هذه الرواية أحمد (٢٦٥٤٠) و(٢٦٥٥٠)، والبغوي في التفسير ٣/ ٥٢٩ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٤ ، وما سلف بين حاصرتين منه. وحديث زيد بن أرقم أخرجه مسلم (٢٤٠٨).

(٤) في (د) و(م): ابتداء مخاطبة الله تعالى أي مخاطبة، والمثبت من باقي النسخ.

(٥) في (ظ): كانت.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ منسوقٌ بعضُها على بعض، فكيف صار في الوسط كلاماً مُنْفصِلاً لغيرهنَّ! وإنَّما[1] هذا شيءٌ جرى في الأخبار أنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام لمَّا نزلت عليه هذه الآيةُ دعا عليًّا وفاطمةَ والحسن والحسين، فعمَد النبيُّ ﷺ إلى كساءٍ فلفَّها عليهم، ثم أَلْوَى بيده إلى السماء فقال: «اللّهُمَّ هؤلاء أهلُ بيتي، اللَّهمَّ أَذْهِبْ عنهم الرِّجْسَ وطَهِّرْهُم تَطْهيراً». فهذه دعوةٌ من النبيِّ ﷺ لهم بعد نزول الآية، أحبَّ أن يُدخلهم في الآية التي خوطب بها الأزواج، فذهب الكلبيُّ ومَن وافقه فصيَّرها لهم خاصَّةً، وهي دعوةٌ لهم خارجةٌ من التنزيل.

الثانية: لفظُ الذِّكْر يحتمِلُ ثلاثةَ مَعَانٍ:

أحدها: أي: اذْكُرْنَ موضعَ النعمة؛ إذ صيَّركُنَّ الله في بيوتٍ تُتلى فيها آياتُ الله والحكمة.

الثاني: اذْكُرْنَ آياتِ الله، واقْدِرْنَ قَدْرَها، وفكِّرنَ فيها حتى تكون منكنَّ على بالٍ لتتَّعِظْنَ بمواعظِ الله تعالى، ومَن كان هذا حالُه ينبغي أن تَحْسُنَ أفعالُه.

الثالث: «اذْكُرْنَ» بمعنى: احْفَظْنَ واقْرأْنَ وأَلْزِمْنَه الألسنةَ، فكأنه يقول: احفَظْنَ أوامر الله تعالى ونَواهِيَهُ، وذلك هو الذي يُتلى في بيوتكنَّ من آيات الله[2]. فأمر الله سبحانه وتعالى أن يُخْبِرْنَ بما ينزل من القرآن في بيوتهنَّ، وما يَرَيْنَ من أفعال النبيِّ عليه الصلاة والسلام ويَسمعنَ من أقواله، حتى يبلِّغنَ ذلك إلى الناس، فيعملوا ويقتدوا. وهذا يدلُّ على جواز قبولِ خبرِ الواحد من الرجال والنساء في الدِّين.

الثالثة: قال ابن العربيِّ[3]: في هذه الآيةِ مسألةٌ بديعةٌ، وهي أنَّ الله تعالى أمر

---

(١) في (ظ): فكيف صار في الوسط كلام منفصل وإنما...

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٥.

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١٥٢٦، وما قبله منه.

نبيَّه عليه الصلاة والسلام بتبليغ ما أنزل عليه من القرآن، وتعليم ما علمه من الدِّين، فكان إذا قرأ على واحدٍ ـ أو ما اتَّفق ـ سقط عنه الفرض، وكان على مَن سمعه أن يبلِّغه إلى غيره، ولا يلزمُه أن يذكُره لجميع الصحابة، ولا كان عليه إذا علَّم ذلك أزواجَه أن يخرج إلى الناس فيقول لهم: نزل كذا، ولا: كان كذا. ولهذا قلنا: يجوز العملُ بخبرِ بُسْرةَ في إيجابِ الوضوء مِن مسِّ الذَّكَر[(١)]؛ لأنَّها رَوَتْ ما سمعتْ، وبلَّغت ما وَعَت. ولا يلزم أن يبلِّغ ذلك الرجال، كما قال أبو حنيفة، على أنه قد نُقل عن سعد بن أبي وقَّاص وابنِ عمر[(٢)].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾.

فيه مسألتان:

الأولى: روى الترمذيُّ[(٣)] عن أمِّ عُمَارةَ الأنصاريةِ أنَّها أتت النبيَّ ﷺ فقالت: ما أرى كلَّ شيءٍ إلَّا للرجال، وما أرى النساءَ يُذْكَرنَ بشيء! فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ الآية. هذا حديثٌ حسنٌ غريب.

و«المسلمين» اسمُ «إنَّ». «والمسلمات» عطفٌ عليه. ويجوز رَفْعُهنَّ عند البصريين، فأمَّا الفرَّاءُ فلا يجوز عنده إلَّا فيما لا يتبيَّن فيه الإعراب[(٤)].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٧٢٩٣)، وأبو داود (١٨١)، والترمذي (٨٢)، والنسائي في المجتبى ١/ ١٠٠، وابن ماجه (٤٧٩). قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وبُسْرةُ هي بنت صفوان بن نوفل القرشية الأسدية، بنت أخي ورقة بن نوفل، لها سابقة قديمة وهجرة. الإصابة ١٢/ ١٥٨ .

(٢) أخرجه عنهما مالك في الموطأ ١/ ٤٢ ، وابن المنذر في الأوسط ١/ ١٩٤ .

(٣) في سننه (٣٢١١).

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣١٥ .

الثانية: بدأ تعالى في هذه الآية بذكر الإسلام الذي يعمُّ الإيمانَ وعَمَلَ الجوارح، ثم ذكر الإيمانَ تخصيصاً له وتنبيهاً على أنه عُظْمُ الإسلام ودِعامتُه. والقانت: العابِدُ المطيع. والصادق معناه: فيما عوهِدَ عليه أن يفيَ به. والصابرُ: عن الشهوات وعلى الطاعات في المَكْره والمَنْشَط. والخاشعُ: الخائفُ للهِ. والمتصدِّق: بالفرض والنَّفْل. وقيل: بالفرض خاصَّةً، والأوّل أَمْدَحُ. والصائم كذلك[(١)].

﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ أي: عمَّا لا يَحِلُّ من الزِّنى وغيره. وفي قوله: «والحافظات» حذفُ يدلُّ عليه المتقدِّم، تقديرُه: والحافِظاتِها، فاكتفى بما تقدَّم. وفي «الذَّاكرات» أيضاً مثلُه[(٢)]، ونظيرُه قولُ الشاعر:

وكُـمْـتـاً مُـدَمَّـاةً كـأنَّ مُـتـونَـهـا جرى فوقها واستشعرتْ لَوْنُ مُذْهَبِ[(٣)]

وروى سيبويه: «لَوْنَ مُذْهَبِ» بالنصب. وإنَّما يجوز الرفع على حذف الهاء، كأنه قال: واستشعرته، فيمَن رَفَع لوناً[(٤)].

والذاكِر قيل: في أدبار الصلوات، وغُدُوًّا وعَشِيًّا، وفي المضاجع، وعند الانتباه من النوم. وقد تقدَّم هذا كلُّه مفصَّلاً في مواضعه، وما يترتَّب عليه من الفوائد

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٥ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٥ ، وبنحوه في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٢٧ .

(٣) قائله طفيل الغنوي كما في الكتاب ١/ ٧٦ ، والإنصاف لأبي البركات الأنباري ١/ ٨٨ ، والحلل للبطليوسي ص ١٤٦ ، وهو في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٢٧ دون نسبة، وذكره الزمخشري في أساس البلاغة (شعر) برواية: وِراداً مُدمَّاةً وكمتاً كأنما...
والكُمت جمع كُميت، وهو لونٌ بين الحمرة والسواد. والمُذْهَب هنا اسمٌ للذهب، وَصَف خيلاً كُمتاً مُشْرَبةً حُمرةً وهي المدمَّاة، وشبَّه ما أُشربت كُمتَتُها من الحمرة بالذهب. ينظر شرح الشواهد للشنتمري ص١٠٠ . وقال البطليوسي: معنى استشعرت: لبسته شعاراً، والشعار: ما ولي الجسد، والدثار فوقه. والمتون: الظهور. قال الزجاج: المعنى: جرى فوقها لونُ مُذهبٍ واستشعرته.

(٤) يعني إذا أُعمل فيها الفعل الثاني وهو «استشعرت» نُصبت، وهو ما استشهد به سيبويه. وإذا أعمل فيها الفعل الأول وهو «جرى» رُفعت. ينظر شرح الشواهد للشنتمري ص ١٠٠ . والكلام من معاني القرآن للنحاس ٥/ ٣٥٠ .

والأحكام، فأغنى عن الإعادة. والحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

قال مجاهد: لا يكون ذاكراً للهِ تعالى كثيراً حتى يذكره قائماً وجالساً ومضطجعاً(١).

وقال أبو سعيد الخدريُّ ﷺ: مَن أيقظَ أهله بالليل وصلَّيا أربعَ ركعاتٍ، كُتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات(٢).

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: روى قتادة وابن عباس ومجاهدٌ في سبب نزول هذه الآية: أنَّ رسول الله ﷺ خطب زينب بنتَ جحش، وكانت بنتَ عمَّتِه، فظنَّت أنَّ الخطبة لنفسه، فلمَّا تبيَّن أنه يريدها لزيد، كرهت وأَبَتْ وامتنعت، فنزلت الآية. فأذعنت زينبُ حينئذٍ وتزوَّجته(٣).

في رواية: فامتنعت وامتنع أخوها عبد الله لنسبها من قريش، وأنَّ زيداً كان بالأمس عبداً، إلى أن نزلت هذه الآية، فقال له أخوها: مُرْني بما شئتَ فزوَّجها من زيد(٤).

وقيل: إنَّها نزلت في أمِّ كلثوم بنتِ عقبةَ بنِ أبي مُعَيْط، وكانت وَهَبَتْ نَفْسَها

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ١١٧ .

(٢) أخرجه أبو داود (١٣٠٩). وأخرجه أيضاً أبو داود (١٣٠٩) و(١٤٥١)، والنسائي في الكبرى (١٣١٢) و(١١٣٤٢)، وابن ماجه (١٣٣٥) من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما مرفوعاً.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٦٨ ، وأخرج قولهم الطبري ١٩/ ١١٢ - ١١٣ ، وأخرجه عن قتادة أيضاً عبد الرزاق ٢/ ١١٧ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٢٧ - ١٥٢٨ ، وذكر هذه الرواية أيضاً الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٠٤ ، والواحدي في الوسيط ٣/ ٤٧١ ، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٦١ .

للنبيِّ ﷺ، فزوَّجها من زيد بن حارثة، فكرهت ذلك هي وأخوها وقالا: إنَّما أَرَدْنا رسولَ الله ﷺ فزوَّجَنا غيره[1]؛ فنزلت الآية بسبب ذلك، فأجابا إلى تزويج زيد؛ قاله ابن زيد[2].

وقال الحسن: ليس لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا أمر الله عزَّ وجلَّ ورسولُه ﷺ بأمرٍ أن يعصياه[3].

الثانية: لفظة: «ما كان» و«ما ينبغي» ونحوهما، معناها: الحظرُ والمنع. فتجيء لحظْرِ الشيءِ والحكمِ بأنه لا يكون، كما في هذه الآية، وربَّما كان امتناع ذلك الشيء عقلاً كقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ [النمل: ٦٠]. وربما كان العلم بامتناعه شرعاً كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ [آل عمران: ٧٩]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١]. وربَّما كان في المندوبات، كما تقول: ما كان لك يا فلان أن تترك النوافل، ونحو هذا[4].

الثالثة: في هذه الآية دليلٌ بل نصٌّ في أنَّ الكفاءة لا تُعتبر في الأحساب، وإنَّما تُعتبر في الأديان، خلافاً لمالكٍ والشافعيِّ والمغيرة وسُحْنون. وذلك أنَّ المواليَ تزوَّجَتْ في[5] قريش؛ تزوَّجَ زيدٌ زينب بنتَ جحش. وتزوَّج المِقداد بنُ الأسود ضباعةَ بنت الزبير. وزوَّج أبو حذيفةَ سالماً من هند بنتِ الوليد بن عُتبة[6]. وتزوَّج بلالٌ أختَ

---

(١) في (د): فزوجها، والمثبت من باقي النسخ وهو الموافق لما في المحرر الوجيز والكلام منه. وفي تفسير الطبري: فزَوَّجَنا عبده.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٦ . وأخرجه بنحوه الطبري ١٩/ ١١٤ . وأم كلثوم رضي الله عنها كانت ممن أسلم قديماً، وبايعت، وهاجرت إلى المدينة، تزوجها زيد بن حارثة، ثم الزبير، ثم عبد الرحمن بن عوف، ثم عمرو بن العاص فماتت عنده. الإصابة ١٣/ ٢٧٨ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣١٦ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٥ .

(٥) في (د): من.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٢٨ ، وخبر تزويج أبي حذيفة لسالم مولاه من هند بنت الوليد بن عتبة، وهي بنت أخي أبي حذيفة، أخرجه البخاري (٤٠٠٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

عبد الرحمن بن عوف(١). وقد تقدَّم هذا المعنى في غير موضع(٢).

الرابعة: قوله تعالى: ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ قرأ الكوفيون: ﴿أَن يَكُونَ﴾ بالياء. وهو اختيارُ أبي عبيد؛ لأنه قد فرقَ بين المؤنَّث وبين فعله. الباقون بالتاء؛ لأنَّ اللفظ مؤنثٌ، فتأنيثُ فِعْلِه حَسَنٌ. والتذكيرُ على أنَّ الخِيَرة بمعنى التخيُّر(٣)، فالخِيَرةُ مصدرٌ بمعنى الاختيار. وقرأ ابن السَّمَيْفَع: «الخِيْرة» بإسكان الياء(٤). وهذه الآية في ضِمْنِ قوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾.

ثم توعَّد تعالى وأخبر أنَّ مَن يَعْصِ اللهَ ورسولهَ فقد ضَلّ. وهذا أدلُّ دليلٍ على ما ذهب إليه الجمهورُ من فقهائنا وفقهاءِ أصحاب الإمام الشافعيِّ وبعض الأصوليين؛ من أنَّ صيغةَ «افْعَلْ» للوجوب في أَصْلِ وَضْعِها؛ لأنَّ الله تبارك وتعالى نَفَى خِيَرةَ المكلَّفِ عند سماعِ أَمْرِه وأمرِ رسوله ﷺ، ثم أَطْلَقَ على مَن بقيتْ له خِيَرةٌ عند صدورِ الأمر اسمَ المعصية، ثم علَّق على المعصية بذلك الضلالَ، فلَزِمَ حملُ الأمرِ على الوجوب. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾

فيه تسع مسائل:

---

(١) أخرجه الدارقطني (٣٧٩٧) من طريق حنظلة بن أبي سفيان عن أمه. وذُكر ليحيى بن معين فأنكره وقال: هذا باطل، ما كانت أخت عبد الرحمن بن عوف قط تحت بلال. تاريخ يحيى بن معين برواية الدوري ٩٣/١.

(٢) ينظر ٤٥٨/٣ وعند المسألة التاسعة عشرة من تفسير الآيات (٢٢ - ٢٨) من سورة القصص.

(٣) في (د) و(م): التخيير، والمثبت من باقي النسخ، وهو موافق لما في إعراب القرآن للنحاس ٣١٦/٣، والكلام منه. وقرأ: «تكون» بالتاء نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر في رواية ابن ذكوان، والباقون من السبعة بالياء. السبعة ص ٥٢٢، والتيسير ص ١٧٩.

(٤) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١١٩ عن عيسى بن سليمان.

الأولى: روى الترمذيُّ[1] قال: حدَّثنا عليّ بن حُجْر قال: حدثنا داود بن الزِّبْرِقان، عن داود بن أبي هند، عن الشعبيّ، عن عائشةَ رضي الله تعالى عنها قالت: لو كان رسولُ الله ﷺ كاتماً شيئاً من الوَحْي لَكَتَمَ هذه الآية: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ يعني: بالإسلام ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالعتق فأعتقْته: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾. وإنَّ رسول الله ﷺ لمَّا تزوَّجها قالوا: تَزوَّج حَلِيلةَ ابْنِه، فأنزل الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]. وكان رسولُ الله ﷺ تبنَّاه وهو صغيرٌ، فلبث حتى صار رجلاً يقال له: زيد بن محمد، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥] فلانٌ مولى فلانٍ، وفلانٌ أخو فلانٍ، هو أقسطُ عند الله [يعني أعدل]. قال أبو عيسى: هذا حديثٌ [غريبٌ] قد روي عن داود بن أبي هند، عن الشعبيّ، عن مسروق، عن عائشةَ رضي الله عنها، قالت: لو كان النبيُّ ﷺ كاتماً شيئاً من الوحي لكتم هذه الآية: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾. هذا الحرفُ لم يُرْوَ بطوله.

قلت: هذا القَدْرُ هو الذي أخرجه مسلم في «صحيحه»[2] وهو الذي صححه الترمذيُّ في «جامعه»[3]. وفي البخاريِّ عن أنس بن مالك أنَّ هذه الآية: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ نزلت في شأن زينب بنتِ جحشٍ وزيد بنِ حارثة[4].

وقال عمر وابن مسعود وعائشة والحسن: ما أنزل الله على رسوله آيةً أشدَّ عليه

---

(١) في سننه (٣٢٠٧)، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٢) برقم (١٧٧): (٢٨٨)، وهو عند أحمد (٢٦٠٤١). وأخرجه البخاري (٧٤٢٠) من حديث أنس ﷺ.

(٣) برقم (٣٢٠٨).

(٤) صحيح البخاري (٤٧٨٧).

من هذه الآية[١]. وقال الحسن وعائشةُ: لو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً من الوحي لكَتَم هذه الآيَةَ لشدَّتها عليه[٢].

ورُوي في الخبر: أنه أمسى زيدٌ فأوى إلى فراشه، قالت زينب: ولم يَسْتَطِعْني زيد، وما أمتنع منه غير ما مَنَعَه الله منِّي، فلا يقدِرُ عَلَيَّ[٣]. هذه روايةُ أبي عِصْمةَ نوح ابنِ أبي مريم، رَفَعَ الحديثَ إلى زينب أنَّها قالت ذلك[٤].

وفي بعض الروايات: أنَّ زيداً تورَّم ذلك منه حين أراد أن يقربها[٥]، فهذا قريبٌ من ذلك.

وجاء زيدٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: إنَّ زينب تؤذيني بلسانها وتفعل وتفعل! وإنِّي أريد أن أطلِّقها، فقال له: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ الآية[٦]. فطلَّقها زيدٌ، فنزلت: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ الآية.

واختلف الناس في تأويل هذه الآية؛ فذهب قتادةُ وابن زيد وجماعةٌ من المفسِّرين - منهم الطبريُّ وغيره - إلى أنَّ النبيَّ ﷺ وقع منه استحسانٌ لزينبَ بنتِ جحش وهي في عِصْمةِ زيد، وكان حريصاً على أن يطلِّقها زيدٌ فيتزوَّجها هو، ثم إنَّ زيداً لمَّا أخبره بأنه يريد فراقها، ويشكو منها غِلظةَ قولٍ وعصيانَ أمرٍ، وأذًى باللسان،

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٠٦ عن عمر ﷺ، وذكره البغوي ٣/ ٥٣٢ عن ابن عمر وابن مسعود وعائشة، وأخرجه عن الحسن عبد الرزاق ٢/ ١١٧، والطبري ١٩/ ١١٥.

(٢) أخرجه عن الحسن عبد الرزاق ٢/ ١١٧، والطبري ١٩/ ١١٥، وسلف عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) نوادر الأصول ص ١٨٩. وذكره الآلوسي في روح المعاني ٢٢/ ٥، مختصراً بلفظ: ما كنت أمتنع منه غير أن الله عز وجل منعني منه.

(٤) ونوح ابن أبي مريم قال فيه الحافظ ابن حجر في التقريب: كذبوه في الحديث، وقال ابن المبارك: كان يضع.

(٥) نوادر الأصول ص١٨٩.

(٦) أخرج نحوه البخاري (٧٤٢٠) عن أنس ﷺ قال: جاء زيد بن حارثة يشكو، فجعل النبي ﷺ يقول: «اتَّقِ اللهَ وأَمْسِكْ عليكَ زَوْجَكَ».

وتعظُّماً بالشرف، قال له: «اتَّقِ الله ـ أي: فيما تقول عنها ـ وأَمْسِكْ عليك زوجَك» وهو يخفي الحرصَ على طلاقِ زيدٍ إيَّاها. وهذا الذي كان يُخفي في نفسه، ولكنه لَزِمَ ما يجبُ من الأمر بالمعروف[1].

وقال مقاتل: زوَّج النبيُّ ﷺ زينبَ بنتَ جحش من زيدٍ، فمكثت عنده حيناً، ثم إنَّه عليه الصلاةُ والسلام أتى زيداً يوماً يطلبه، فأبصر زينبَ قائمةً، وكانت بيضاءَ جميلةً جسيمةً من أتمِّ نساء قريش، فهَوِيَها وقال: «سبحان الله مقلِّب القلوب»! فسمعت زينبُ بالتسبيحة فذكَرتها لزيد، ففطِن زيدٌ فقال: يا رسول الله، ائذن لي في طلاقها، فإنَّ فيها كِبْراً، تعظمُ عليَّ وتؤذيني بلسانها، فقال عليه الصلاةُ والسلام: «أَمْسِكْ عليك زوجَك واتَّقِ الله».

وقيل: إنَّ الله بعث ريحاً فرفعت الستر وزينبُ مُتَفَضِّلةٌ في منزلها، فرأى زينب فوقعت في نفسه، ووقع في نفس زينب أنَّها وقعت في نفس النبيِّ ﷺ، وذلك لمَّا جاء يطلب زيداً، فجاء زيدٌ فأخبرته بذلك، فوقع في نفس زيدٍ أن يطلِّقها. وقال ابن عباس: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ﴾ الحبَّ لها[2].

﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ أي: تستحييهم. وقيل: تخافُ وتَكْرهُ لائمةَ المسلمين لو قُلْتَ:

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨١ ، وقول الطبري في تفسيره ١٩/ ١١٥ ، وأخرج الطبري خبر قتادة وابن زيد ١٩/ ١١٥ - ١١٦ .

(٢) ذكر خبر ابن عباس الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص ١٨٩ ، وقد ردَّ العلماء هذه الأخبار ونزَّهوا النبي ﷺ عما نُسب إليه فيها، فقد قال ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١٥٣١ : وهذه الروايات كلُّها ساقطةُ الأسانيد، وقولهم: إن النبي ﷺ رآها فوقعت في قلبه. باطل. ا هـ. وقال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: ذكر ابن جرير وابن أبي حاتم ها هنا آثاراً عن بعض السلف أحببنا أن نضرب عنها صفحاً لعدم صحتها فلا نوردها. ا هـ. وردَّها أيضاً القاضي عياض في الشفا ٢/ ٤٢٥ ، وذكر عن القشيري قوله: وهذا إقدامٌ عظيم من قائله، وقلةُ معرفةٍ بحقِّ النبي ﷺ وبفضله، وكيف يقال: رآها فأعجبته، وهي ابنة عمته، ولم يزل يراها منذ وُلدت، ولا كان النساء يحتجبن منه ﷺ، وهو زوَّجها لزيد. ا هـ. وقال أبو العباس في المفهم ١/ ٤٠٦ : قد اجترأ بعض المفسرين في تفسير هذه الآية، ونسب إلى رسول الله ﷺ ما لا يليق به، ويستحيل عليه؛ إذ قد عصمه الله منه، ونزَّهه عن مثله. وينظر فتح الباري ٨/ ٥٢٣ .

طلِّقها، ويقولون: أَمَرَ رجلاً بطلاقِ امرأته ثم نكحَها حين طلَّقها. ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾ في كلِّ الأحوال. وقيل: واللهُ أحقُّ أن تستحيَ منه، ولا تأمر زيداً بإمساك زوجته بعد أن أَعْلَمَك الله أنها ستكونُ زوجتَك، فعاتَبَه الله على جميع هذا.

وروي عن عليِّ بن الحسين: أنَّ النبيَّ ﷺ كان قد أوحَى الله تعالى إليه أنَّ زيداً يطلِّق زينبَ، وأنه يتزوَّجُها بتزويجِ اللهِ إياها [له]، فلمَّا تشكَّى زيدٌ للنبيِّ ﷺ خُلُقَ زينبَ، وأنَّها لا تُطيعُه، وأَعْلَمَه أنه يريدُ طلاقَها، قال له رسول الله ﷺ على جهةِ الأدبِ والوصيَّةِ: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [أي:] في قولك: ﴿وأمسك عليك زوجك﴾ وهو يعلمُ أنه سيفارقُها ويتزوَّجُها، وهذا هو الذي أَخْفَى في نفسه، ولم يُرِدْ أن يأمره بالطَّلاقِ لما عَلِمَ أنه سيتزوَّجُها، وخشيَ رسولُ الله ﷺ أن يلحقه قولٌ من الناس في أن يتزوَّجَ زينبَ بعد زيدٍ، وهو مولاه، وقد أمره بطلاقها، فعاتَبَه الله تعالى على هذا القَدْرِ من أنْ خَشِيَ الناسَ في شيءٍ قد أباحه الله له، بأنْ قال: «أَمْسِكْ»، مع عِلْمِه بأنه يطلِّق. وأَعْلَمَه أنَّ الله أحقُّ بالخشية، أي: في كلِّ حال(١).

قال علماؤنا رحمةُ الله عليهم: وهذا القولُ أحسنُ ما قيل في تأويل هذه الآية، وهو الذي عليه أهلُ التحقيق من المفسِّرين والعلماءِ الراسخين، كالزُّهريِّ والقاضي بكر بن العلاء القشيريِّ(٢)، والقاضي أبي بكر بن العربيِّ(٣) وغيرهم. والمرادُ بقوله تعالى: ﴿وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ﴾ إنَّما هو: إرجافُ المنافقين بأنه نَهَى عن تزويج نساءِ الأبناءِ وتَزَوَّجَ بزوجةِ ابنِه. فأمَّا ما روي أنَّ النبيَّ ﷺ هَوِيَ زينب امرأةَ زيد ـ وربَّما أَطْلَقَ بعضُ المُجَّان لفظَ عَشِقَ ـ فهذا إنَّما يَصْدُرُ عن جاهلٍ بعصمةِ النبيِّ ﷺ عن مِثْلِ هذا، أو

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٦، وما سلف بين حاصرتين منه. وأخرج خبر علي بن الحسين الطبري ١٩/ ١١٦ - ١١٧، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير عند تفسير هذه الآية، والبيهقي في الدلائل ٣/ ٤٦٦. وأخرج نحوه ابن أبي حاتم عن السدي، كما ذكر ابن كثير، وذكره أيضاً الحافظ في الفتح ٥/ ٥٢٣.

(٢) المفهم ١/ ٤٠٦، وبكر بن العلاء القشيري هو بكر بن محمد بن العلاء، أبو الفضل البصري المالكي، صنف التصانيف في المذهب، وسكن مصر، وتوفي فيها سنة (٣٤٤هـ). السير ١٥/ ٥٣٧.

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١٥٣١.

مُسْتَخِفٌّ بحُرْمَتِه[١].

قال الترمذيُّ الحكيمُ في «نوادر الأصول»[٢] ـ وأسند إلى عليّ بن الحسين قولَه ـ: فعليّ بنُ الحسين جاء بهذا من خزانةِ العلمِ جَوْهراً من الجواهر، ودُرًّا من الدُّرَر، أنَّه إنَّما عَتَبَ الله عليه في أنَّه قد أَعْلَمَه أنْ ستكونُ هذه من أزواجك، فكيف قال بعد ذلك لزيدٍ: «أَمْسِكْ عليكَ زَوجك» وَأَخَذَتْهُ[٣] خشيةُ الناسِ أن يقولوا: تَزَوَّجَ امرأة ابنه، والله أحقُّ أن تخشاه.

وقال النحَّاس[٤]: قال بعض العلماء: ليس هذا من النبيِّ ﷺ خطيئةً؛ ألا ترى أنَّه لم يؤمر بالتوبة ولا بالاستغفار منه. وقد يكون الشيءُ ليس بخطيئةٍ إلَّا أنَّ غيره أَحْسَنُ منه، وأَخفى ذلك في نفسه خشيةَ أن يُفْتَن الناس.

الثانية: قال ابن العربيّ[٥]: فإن قيل: لأيِّ معنًى قال له: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ وقد أخبره الله أنَّها زوجُه؟ قلنا: أراد أن يختبر منه ما لم يُعْلِمْه الله به؛ من رغبته فيها أو رغبته عنها، فأبدى له زيدٌ من النُّفرة عنها والكراهة فيها ما لم يكن عَلِمَه منه في أمرها. فإن قيل: كيف يأمره بالتمسُّك بها وقد عَلِم أنَّ الفراق لا بدَّ منه؟ وهذا تَنَاقُض. قلنا: بل هو صحيحٌ؛ للمقاصد الصحيحة، كإقامةِ[٦] الحجةِ ومعرفةِ العاقبة، ألا ترى أنَّ الله تعالى يأمر العبدَ بالإيمان وقد علم أنه لا يؤمن، فليس في مخالفةِ مُتَعَلَّقِ الأمرِ لمتعلَّقِ[٧] العلمِ ما يَمنعُ من الأمر به عقلاً وحُكْماً. وهذا من نفيس العلم فتيقَّنوه وتقبَّلوه.

---

(١) المفهم ١/ ٤٠٦ .

(٢) ص ١٨٩ .

(٣) في النسخ عدا (ظ): وأخذتك، والمثبت من (ظ).

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٣١٦ .

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٥٣٢ .

(٦) في (م) وأحكام القرآن: لإقامة.

(٧) في النسخ الخطية: بمتعلق، والمثبت من (م) وأحكام القرآن.

وقوله: «واتَّقِ الله» أي: في طلاقها، فلا تطلِّقها. وأراد نهيَ تنزيهٍ لا نهيَ تحريم؛ لأنَّ الأَوْلَى ألَّا يطلِّق. وقيل: «اتَّقِ اللهَ» فلا تَذُمَّها بالنسبة إلى الكِبْر وأذى الزوج. «وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ» قيل: تعلُّقَ قلبه. وقيل: مفارقةَ زيدٍ إياها. وقيل: عِلمَه بأنَّ زيداً سيطلِّقها؛ لأنَّ الله قد أعلمه بذلك.

الثالثة: رُوِيَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال لزيد: «ما أَجِدُ في نفسي أَوْثَقَ منكَ، فاخْطُبْ زينبَ عَلَيَّ» قال: فذهبتُ وولَّيتها ظهري توقيراً للنبيِّ ﷺ، وخطبتُها، ففرحَتْ وقالت: ما أنا بصانعةٍ شيئاً حتى أُوامِرَ ربِّي، فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن، فتزوَّجها النبيُّ ﷺ ودخل بها[١].

قلت: معنى هذا الحديثِ ثابتٌ في الصحيح. وتَرْجَم له النَّسائيُّ: صلاةُ المرأةِ إذا خُطِبَتْ واستخارتُها ربَّها[٢]. روى الأئمةُ ـ واللفظُ لمسلم ـ عن أنس قال: لمَّا انقضتْ عِدَّةُ زينبَ قال رسول الله ﷺ لزيد: «فاذْكُرْها عَلَيَّ» قال: فانطلق زيدٌ حتى أتاها وهي تُخَمِّر عجينها. قال: فلمَّا رأيتُها عَظُمتْ في صدري حتى ما أستطيع أن أنظرَ إليها أنَّ رسول الله ﷺ ذَكَرها، فولَّيتُها ظهري ونَكَصْتُ على عَقبي، فقلتُ: يا زينب، أَرسل رسولُ الله ﷺ يَذْكُرك. قالت: ما أنا بصانعةٍ شيئاً حتى أُوامِرَ ربِّي، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن. وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن. قال: فقال: ولقد رأيتُنا أنَّ رسول الله ﷺ أطعمنا الخبزَ واللحم حين امتدَّ النهار، الحديثَ[٣]. في رواية «حتى تركوه»[٤]. وفي روايةٍ عن أنس أيضاً قال: ما رأيتُ رسولَ الله ﷺ أَوْلَمَ على

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٧ ، وأخرجه مطولاً ابن سعد ٨/ ١٠٤ عن أنس ﷺ، وهو في الصحيح ـ على ما يأتي ـ دون قوله: ما أجد في نفسي...الخ.

(٢) المجتبى ٦/ ٧٩ .

(٣) صحيح مسلم (١٤٢٨): (٨٩)، وهو عند أحمد (١٣٠٢٥). قوله: فلما رأيتها عظمت...، قال النووي في شرح صحيح مسلم ٩/ ٣٢٨ : معناه أنه هابها واستجلَّها من أجل إرادة النبيِّ ﷺ تَزَوُّجَها، فعاملها معاملةَ مَن تَزَوَّجها ﷺ في الإعظام والإجلال والمهابة.

(٤) صحيح مسلم (١٤٢٨): (٩١) بلفظ: أطعمهم خبزاً ولحماً حتى تركوه. قال النووي: يعني حتى شبعوا وتركوه لشبعهم.

امرأةٍ [من نسائه] ما أَوْلَمَ على زينب، فإنَّه ذَبَحَ شاة[١].

قال علماؤنا: فقولُه عليه الصلاةُ والسلام لزيد: «فاذْكُرها عَلَيَّ» أي: اخطُبْها، كما بيَّنه الحديثُ الأول. وهذا امتحانٌ لزيدٍ واختبارٌ له، حتى يَظْهَرَ صَبْرُه وانقيادُهُ وطوعُه[٢].

قلت: وقد يُستنبَطُ من هذا: أن يقول الإنسان لصاحبه: اخطبْ عليَّ فلانة، لزوجِه المطلَّقةِ منه، ولا حَرَجَ في ذلك. والله أعلم.

الرابعة: لمَّا وَكَلَتْ أمرَها إلى الله وصحَّ تفويضُها إليه؛ تولَّى اللهُ إنكاحَها؛ ولذلك قال: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾. وروى الإمام جعفر بنُ محمد عن آبائه عن النبيِّ ﷺ: «وَطَراً زَوَّجْتُكَها»[٣]. ولمَّا أَعْلَمه الله بذلك دخل عليها بغير إذنٍ، ولا تجديدِ عقدٍ، ولا تقريرِ صَداقٍ، ولا شيء ممَّا يكون شرطاً في حقوقنا ومشروعاً لنا. وهذا من خُصوصيَّاته ﷺ التي لا يُشاركه فيها أحدٌ بإجماعٍ من المسلمين[٤].

ولهذا كانت زينب تُفاخِرُ نساءَ النبيِّ ﷺ وتقول: زَوَّجَكُنَّ آباؤكنَّ وزوَّجني الله تعالى. أخرجه النَّسائيُّ عن أنس بن مالك قال: كانت زينبُ تَفْخَر على نساء النبيِّ ﷺ تقول: إنَّ الله عزَّ وجلَّ أَنْكَحَني من السماء. وفيها نزلت آيةُ الحجاب[٥]. وسيأتي[٦].

الخامسة: المُنْعَمُ عليه في هذه الآيةِ هو زيدُ بنُ حارثة، كما بيَّنَّاه؛ وقد تقدَّم خبرُه في أول السورة[٧]. ورُوِيَ أنَّ عمَّه لقيَه يوماً وكان قد ورد مكةَ في شغلٍ له، فقال: ما

---

(١) صحيح مسلم (١٤٢٨): (٩٠)، وما بين حاصرتين منه، وهو عند أحمد (١٣٣٧٨)، والبخاري (٥١٦٨).

(٢) المفهم ٤/١٤٦ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/٢٨٧ ، والكشاف ٣/٢٦٣، والقراءة شاذة .

(٤) المفهم ٤/١٤٧ .

(٥) سنن النسائي (المجتبى) ٦/ ٨٠ ، وهو عند أحمد (١٣٣٦١)، والبخاري (٧٤٢١) .

(٦) ص٢٠٢ من هذا الجزء.

(٧) ص٥٥ من هذا الجزء.

اسمك يا غلام؟ قال: زيد، قال: ابنُ مَن؟ قال: ابنُ حارثة. قال: ابنُ مَن؟ قال: ابنُ شَراحيل الكلبيِّ. قال: فما اسمُ أمِّك؟ قال: سُعْدَى، وكنت في أخوالي طَيِّئ. فضمَّه إلى صدره، وأرسل إلى أخيه وقومِه، فحضروا وأرادوا منه أن يُقيم معهم، فقالوا: لمن أنت؟ قال: لمحمد بن عبد الله. فأَتَوْه وقالوا: هذا ابنُنا فَرُدَّه علينا. فقال: «أَعْرِضُ عليه، فإن اختارَكم فخذوا بيده». فبعث إلى زيد وقال: «هل تَعْرِفُ هؤلاء؟» قال: نعم! هذا أبي، وهذا أخي، وهذا عمِّي. فقال له النبيُّ ﷺ: «فأيَّ صاحبٍ كنتُ لك؟» فبكى وقال: لِمَ سألتني عن ذلك؟ قال: «أُخيِّرك، فإنْ أَحْببتَ أن تَلْحق بهم فالحقْ، وإن أردتَ أن تُقيم فأنَا مَن قد عَرَفْت»، فقال: ما أَختارُ عليك أحداً. فجذَبه عمُّه وقال: يا زيد، اخْتَرتَ العبوديَّة على أبيك وعمِّك! فقال: إيْ واللهِ، العبوديةُ عند محمدٍ أحبُّ إليَّ من أن أكون عندكم. فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا أنِّي وارِثٌ ومَوْروث». فلم يزل يقال: زيد بن محمد، إلى أن نزل قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾ ونزل: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾[1].

السادسة: قال الإمام أبو القاسم عبد الرحمن السُّهَيْليُّ ﷺ[2]: كان يقال: زيدُ بنُ محمد حتى نزل: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾ فقال: أنا زيد بنُ حارثة. وحرم عليه أن يقول: أنا زيد بن محمد. فلمَّا نُزِع عنه هذا الشرفُ وهذا الفخرُ[3]، وعَلِم اللهُ وحشتَه من ذلك، شرَّفه بِخَصِيصةٍ لم[4] يَخُصَّ بها أحداً من أصحاب النبيِّ ﷺ، وهي أنه سمَّاه في القرآن، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ يعني: من زينب. ومَن ذَكَره الله تعالى باسمه في الذِّكر الحكيم حتى صار اسمُه قرآناً يُتْلَى في المحاريب، [فقد] نوَّه به

(١) أخرجه بنحوه ابن مردويه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، كما في الدر المنثور ٥/ ١٨١. وأخرجه بنحوه مختصراً الترمذي (٣٨١٥) عن جَبَلة بن حارثة أخي زيد، وقال: حديث حسن غريب. وسلف الخبر بنحوه ١٤/ ١١٨.

(٢) في التعريف والإعلام ص ١٣٩ - ١٤٠، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٣) بعدها في النسخ: منه، والمثبت من التعريف والإعلام.

(٤) في النسخ: لم يكن، والمثبت من التعريف والإعلام.

غايةَ التَّنْويه، فكان في هذا تأنيسٌ له، وعِوَضٌ من الفخر بأبوَّة محمدٍ ﷺ له. أَلَا ترى إلى قولِ أُبَيّ بن كعب حين قال له النبيُّ ﷺ: «إنَّ الله أَمرني أن أقرأ عليك سورةَ كذا» فبكى وقال: أوَذُكِرتُ هنالك[1]؟ وكان بكاؤه من الفرح حين أُخبر أنَّ الله تعالى ذكره، فكيف بمن صار اسمه قرآناً يُتلى، مخلَّداً لا يَبِيد[2]، يَتْلوه أهلُ الدنيا إذا قرؤوا القرآن، وأهلُ الجنةِ كذلك أبداً، لا يزال على ألسنةِ المؤمنين، كما لم يَزَلْ مذكوراً على الخصوص عند ربِّ العالمين؛ إذ القرآنُ كلامُ الله القديم، وهو باقٍ لا يَبِيد، فاسمُ زَيْدٍ هذا في الصُّحُف المكرَّمة المرفوعةِ المطهَّرة، تَذْكُره في التلاوة السَّفَرةُ الكرامُ البَرَرَة. وليس ذلك لاسمٍ من أسماء المؤمنين إلَّا لنبيٍّ من الأنبياء، ولزيد بن حارثة تعويضاً من الله تعالى له ممَّا نُزع عنه. وزاد في الآية أنْ قال: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي: بالإيمان؛ فدلَّ على أنه من أهل الجنة، عَلِم ذلك قبل أن يموت، وهذه فضيلةٌ أخرى.

السابعة: قوله تعالى: ﴿وَطَرًا﴾ الوَطَر: كلُّ حاجةٍ للمرء له فيها هِمَّةٌ، والجمعُ: الأوطار. قال ابن عباس: أي: بلغ ما أراد من حاجته، يعني الجماع[3]. وفيه إضمارٌ، أي: لمَّا قضى وَطَرَهُ منها وطلَّقها، زوَّجْناكَها. وقراءةُ أهل البيت: «زَوَّجْتُكها»[4]. وقيل: الوَطَرُ عبارةٌ عن الطلاق؛ قاله قتادة[5].

الثامنة: ذهب بعضُ الناس من هذه الآية، ومِن قولِ شعيب: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ﴾ إلى أنَّ ترتيب هذا المعنى في المهورِ ينبغي أن يكون: «أُنْكِحُه إياها» فيقدَّم

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٣٢٠)، والبخاري (٤٩٦٠)، ومسلم (٧٩٩) من حديث أنس ﷺ، وعندهم: الله سمَّاني لك، بدل: أوذكرت هنالك.

(٢) في (ظ): لا يبلى.

(٣) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٧ دون نسبة.

(٤) الكشاف ٣/ ٢٦٣ ، وسلفت هذه القراءة في المسألة الرابعة، وهي قراءة شاذة.

(٥) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١١٧ ، والطبري ١٩/ ١١٨ .

ضمير الزوج كما في الآيتين[١]. وكذلك قولهُ عليه الصلاةُ والسلام لصاحب الرداء: «اذهَبْ فقد أَنْكَحْتُكها بما معك من القرآن»[٢]. قال ابنُ عطية[٣]: وهذا [عندي] غيرُ لازم؛ لأنَّ الزوجَ في الآية مخاطَبٌ؛ فحسُنَ تقديمُه، وفي المهور يستوي الزوجان، فقدِّم[٤] مَن شِئْتَ، ولم يبقَ ترجيحٌ إلَّا بدرجةِ الرجال، وأنَّهم القوَّامون.

التاسعة: قوله تعالى: ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ دليلٌ على ثبوت الوليِّ في النكاح، وقد تقدَّم الخلافُ في ذلك[٥]. رُويَ أنَّ عائشةَ وزينب تَفاخَرَتا، فقالت عائشة: أنا التي جاء بي المَلَكُ إلى النبيِّ ﷺ في سَرَقةٍ من حرير فيقول: «هذه امرأتُك» خرَّجه الصحيح. وقالت زينب: أنا التي زوَّجني الله من فوق سبع سماوات[٦].

وقال الشعبيُّ: كانت زينب تقول لرسول الله ﷺ: إنِّي لأَدِلُّ عليك بثلاثٍ؛ ما مِن نسائك امرأةٌ تَدِلُّ بهنَّ: أَنَّ جَدِّي وجدَّك واحدٌ، وأنَّ الله أنكحك إيَّاي من السماء، وأنَّ السَّفير في ذلك جبريل[٧].

وروي عن زينبَ أنَّها قالت: لمَّا وقعتُ في قلب رسول الله ﷺ لم يَسْتَطِعْني زيد،

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٧، وفيه: لِمَا في الآيتين.

(٢) قطعة من حديث سهل بن سعد ﷺ أخرجه أحمد (٢٢٨٥٠)، والبخاري (٥٠٣٠)، ومسلم (١٤٢٥)، وسلف بنحوه ٦/ ٢٢٣.

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٧، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٤) قوله: يستوي، من (ظ)، واللفظ عند ابن عطية: وفي المهور الزوجان غائبان فقدم...

(٥) ٣/ ٤٦٢.

(٦) كذا ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٧، وأخرجه الطبري ١٧/ ١٩٤-١٩٥، والطبراني ٢٤/ (١٢٢) عن محمد بن عبد الله بن جحش، وفيه قول عائشة: «أنا التي نزل عذري من السماء» بدلاً من قولها أعلاه. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٢٤٠: وفيه المعلَّى بن زياد، وهو متروك. اهـ. غير أن قول عائشة وقول زينب أعلاه كلاهما في الصحيح ولكن في خبرين منفصلين، وقد سلف حديث زينب رضي الله عنها في المسألة الرابعة، أما حديث عائشة رضي الله عنها فهو في صحيح البخاري (٥١٢٥)، وصحيح مسلم (٢٤٣٨)، وأخرجه أحمد (٢٤١٤٢). قولها: سرقة من حرير، أي: في قطعة من جيد الحرير، وجمعها: سَرَق. النهاية (سرق).

(٧) أخرجه الطبري ١٩/ ١١٨.

وما أمتنع منه غير ما يمنعه الله تعالى منّي فلا يقدرُ عليّ[١].

قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾ هذه مخاطبةٌ من الله تعالى لجميع الأمة؛ أعْلَمهم أنَّ هذا ونحوَه هو السَّنَنُ الأَقدمُ في الأنبياء، أنْ ينالوا ما أحلَّه لهم[٢]، أي: سَنَّ لمحمدٍ ﷺ التوسعةَ عليه في النكاح سُنَّةَ الأنبياء الماضية كداودَ وسليمان .فكان لداودَ مئةُ امرأةٍ وثلاثُ مئة سُرِّيَّة، ولسليمان ثلاثُ مئة امرأة وسبعُ مئة سُرِّية[٣]. وذكر الثعلبيُّ عن مقاتل وابن الكلبيّ أنَّ الإشارة إلى داود عليه السلام، حيث جمع الله بينه وبين مَن فُتن بها[٤]. و«سُنَّةَ» نصبٌ على المصدر، أي: سَنَّ الله له سُنةً واسعة. و«الذين خَلَوْا» هم الأنبياء، بدليلِ وَصْفِهم بعدُ بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

---

(١) سلف في المسألة الأولى.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٧ .

(٣) الكشاف ٣/ ٢٦٤ ، وسلف ٦/ ٤١٨ . وما ذكره عن عدد النساء لداود وسليمان عليهما السلام ليس فيه نص صحيح، ويرجع ذلك إلى الإسرائيليات. والأليق في تفسير الآية ما نقله المصنف عن ابن عطية قبل هذا ا لكلام. وقال ابن كثير في معنى الآية: أي: هذا حكم الله في الأنبياء قبله، لم يكن ليأمرهم بشيء وعليهم في ذلك حرج، وهذا ردٌّ على مَن توهَّم من المنافقين نقصاً في تزويجه امرأة زيد مولاه الذي كان قد تبنّاه.

(٤) كذا نقل المصنف عن ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٧ ، وهو كلام باطل، لا يليق بمقام الأنبياء. قال الألوسي في روح المعاني ٢٢/ ٢٧ : هذا مما لا يُلتفت إليه، والقصة عند المحققين لا أصل لها. اهـ. وسلف الردّ على من زعم أن النبي ﷺ رأى زينب، فوقعت في نفسه، وسيرد الكلام على بطلان قصة افتتان داود عليه السلام بالمرأة عند تفسير الآية (٢٤) من سورة ص.

الأولى: لمَّا تَزوَّجَ زينبَ قال الناس: تَزَوَّجَ امرأةَ ابنِه؛ فنزلت الآيةُ، أي: ليس هو بأبيه حتى تَحْرُمَ عليه حَليلتُه، ولكنَّه أبو أمَّته في التبجيل والتعظيم، وأنَّ نساءه عليهم حرام. فأذْهبَ الله بهذه الآيةِ ما وَقَعَ في نفوسِ المنافقين وغيرِهم، وأَعْلَم أنَّ محمداً لم يكن أبا أحدٍ من الرجال المعاصرين له في الحقيقة. ولم يقصد بهذه الآية أنَّ النبيَّ ﷺ لم يكن له ولد، فقد وُلِدَ له ذكورٌ: إبراهيم، والقاسم، والطيِّب، والمطهَّر(١)؛ ولكنْ لم يعش له ابنٌ حتى يصير رجلاً. وأمَّا الحسنُ والحسين فكانا طِفْلَين، ولم يكونا رجلين مُعاصِرَيْن له.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ قال الأخفش والفرَّاء(٢): أي: ولكنْ كان رسولَ الله. وأجاز(٣): «ولكنْ رسولُ الله وخاتَمُ» بالرفع. وكذلك قرأ ابن أبي عَبْلة وبعضُ الناس: «ولكِنْ رسولُ اللهِ» بالرفع، على معنى: هو رسولُ الله وخاتمُ النبيين(٤). وقرأت فرقة: «ولكنَّ» بتشديد النون ونصبِ «رسول الله» على أنه اسمُ «لكنَّ»، والخبرُ محذوف(٥).

﴿وَخَاتَمَ﴾ قرأ عاصمٌ وحده بفتح التاء(٦)، بمعنى: أنَّهم به خُتِموا، فهو كالخاتَمِ والطابَعِ لهم. وقرأ الجمهورُ بكَسْرِ التاءِ، بمعنى أنه خَتَمهم، أي: جاء آخِرَهم(٧).

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ١٢٢ عن قتادة، وسيرد الكلام عن أولاده ﷺ ١٤/ ٢٤١ .

(٢) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٦٠ ، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٣٤٤ ، ونقله المصنف عنهما بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣١٧ .

(٣) في (خ) و(ظ) و(م): وأجازا، والمثبت من باقي النسخ، وهو موافق لما في إعراب القرآن للنحاس، والكلام عن الفراء، وهو في معاني القرآن له ٣/ ٣٤٤ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٨ ، والقراءة في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٤٤ ، والقراءات الشاذة ص ١٢٠ دون نسبة.

(٥) القراءات الشاذة ص ١٢٠ ، والمحتسب ٢/ ١٨١ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٨٨ ، والكلام منه.

(٦) السبعة ص ٥٢٢ ، والتيسير ص ١٧٩ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٨ .

وقيل: الخاتَم والخاتِم لغتان، مثل طابَع وطابِع، ودانَق ودانِق، وطابَق من اللحم وطابِق[١].

الثالثة: قال ابن عطية[٢]: هذه الألفاظُ عند جماعةِ علماءِ الأمةِ خَلَفاً وسَلَفاً متلقَّاةٌ على العموم التامِّ، مقتضيةٌ نصًّا أنَّه لا نبيَّ بعده ﷺ. وما ذكره القاضي ابنُ الطيِّب في كتابه المسمَّى بـ «الهداية[٣]» من تَجْويز الاحتمال في ألفاظ هذه الآية، ضعيفٌ. وما ذكره الغزَاليُّ في هذه الآية وهذا المعنى في كتابه الذي سمَّاه بـ «الاقتصاد»[٤] إلحادٌ عندي، وتَطرُّقٌ خبيثٌ إلى تشويشِ عقيدةِ المسلمين في خَتْمِ محمدٍ ﷺ النبوَّةَ، فالحذَرَ الحذرَ منه! واللهُ الهادي برحمته.

قلت: وقد روي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «لا نبوّةَ بعدي إلَّا ما شاء الله»[٥]. قال أبو عمر: يعني الرؤيا - والله أعلم - التي هي جزءٌ منها، كما قال عليه الصلاة والسلام: «ليس يبقى بعدي من النبوَّة إلَّا الرؤيا الصالحة»[٦].

وقرأ ابن مسعود: «من رجالكم ولكنْ نبيًّا خَتَمَ النبيِّين». قال الرُّمَّاني: خُتم به عليه الصلاة والسلام الاستصلاح، فَمَن لم يَصْلُحْ به فميئوسٌ من صلاحه[٧].

---

(١) في اللسان (طبق): الطابَق والطابِق: ظرف يطبخ فيه، فارسي معرب.

(٢) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٨ .

(٣) واسمه: هداية المسترشدين في الكلام، والقاضي ابن الطيب هو أبو بكر الباقلاني. ينظر كشف الظنون ٢/ ٢٠٤٢ .

(٤) واسمه: الاقتصاد في الاعتقاد، وذكر فيه ص٢٢٦ أن منكر قوله ﷺ: «لا نبيَّ بعدي» إنما هو مُنِكرٌ لإجماع الأمة على أنه لا نبيَّ ولا رسولَ بعده ﷺ. وفي الكلام تفصيل؛ ينظر ثمة.

(٥) أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (٣١٥) عن أنس ﷺ، وذكره ابن عبد البر في التمهيد ٥/ ٥٥ عن المغيرة بن شعبة ﷺ، وقد سلف ١/ ١٢٣ . قال ابن الجوزي: هذا الاستثناء موضوع. اهـ وقد سلف دون الاستثناء ١/ ٣٩٨ و٩/ ٣٢٣ و٣/ ٣٤١ .

(٦) التمهيد ١/ ٣١٤ و٥/ ٥٥ . والحديث أخرجه بهذا اللفظ مالك في الموطأ ٢/ ٩٥٦ ، وبنحوه البخاري (٦٩٩٠) عن أبي هريرة ﷺ، وسلف ١١/ ٢٥٦ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٨ ، وقراءة ابن مسعود في القراءات الشاذة ص ١٢٠ .

قلت: ومن هذا المعنى قولُه عليه الصلاة والسلام: «بُعِثْتُ لأتمِّم مَكارمَ الأخلاق»(١). وفي «صحيح» مسلم عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلي ومَثَلُ الأنبياء كمَثَل رجلٍ بَنَى داراً فأتمَّها وأكْمَلَها إلَّا موضعَ لَبِنَةٍ، فجعل الناس يدخلونها ويتعجَّبون منها ويقولون: لولا مَوْضِعُ اللَّبِنة!» قال رسولُ الله ﷺ: «فأنا مَوْضِعُ اللَّبِنة؛ جئتُ فختمتُ الأنبياءَ»(٢). ونحوه عن أبي هريرة، غير أنه قال: «فأنا اللَّبِنَة وأنا خاتَم النَّبيِّين»(٣).

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾

أَمَر الله تعالى عبادَه بأنْ يذكُروه ويشكُروه، ويُكْثِروا من ذلك على ما أنْعَمَ به عليهم. وجعل تعالى ذلك دون حدٍّ؛ لسهولته على العبد، ولِعظَم الأَجْرِ فيه؛ قال ابن عباس: لم يُعْذَر أحدٌ في تَرْكِ ذِكْرِ الله إلَّا مَن غُلب على عقله. وروى أبو سعيد عن النبيِّ ﷺ: «أكْثِرُوا ذِكْرَ اللهِ حتى يقولوا مجنون»(٤).

وقيل: الذكرُ الكثير: ما جرى على الإخلاص من القلب، والقليل: ما يقع على حُكْم النفاق كالذِّكر باللسان.

قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾

أي: اشغلوا ألسنتكم في مُعْظَم أحوالكم بالتسبيح والتهليل والتحميد والتكبير. قال مجاهد: وهذه كلماتٌ يقولهنَّ الطاهِرُ والمحدِث والجُنُب(٥).

---

(١) سلف ٩/ ٤٢٠ .

(٢) صحيح مسلم (٢٢٨٧)، وهو عند أحمد (١٤٨٨٨)، والبخاري (٣٥٣٤).

(٣) صحيح مسلم (٢٢٨٦): (٢٢)، وهو عند أحمد (٩١٦٧)، والبخاري (٣٥٣٥).

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٨ ، وخبر ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه الطبري ١٩/ ١٢٤ . وخبر أبي سعيد ﷺ أخرجه أحمد (١١٦٥٣)، وابن عدي في الكامل ٣/ ٩٨٠ ، وفي إسناده درَّاج أبو السمح؛ ضعَّفه أحمد والنسائي وأبو حاتم، وساق له ابن عدي ٣/ ٩٧٩-٩٨٠ أحاديث؛ منها هذا الحديث، وقال: عامَّتُها لا يتابعُ عليها، وينظر ميزان الاعتدال ٢/ ٢٤-٢٥ .

(٥) الكشاف ٣/ ٢٦٥ .

وقيل: ادعوه؛ قال جرير:

فلا تَنْسَ تسبيحَ الضُّحى إنَّ يوسفاً دَعَا ربَّه فاختاره حين سبَّحا[١]

وقيل: المرادُ: صَلُّوا لله بكرةً وأصِيلاً، والصلاةُ تسمَّى تسبيحاً. وخصَّ الفجر والمغرب والعشاء بالذكر لأنها أحقُّ بالتحريض عليها؛ لاتِّصالها بأطراف الليل. وقال قتادة والطبريُّ: الإشارةُ إلى صلاة الغداة وصلاة العصر[٢].

والأصِيل: العشيُّ، وجمعُه: أصائل. والأُصُلُ بمعنى الأصيل، وجمعُه: آصال؛ قاله المبرِّد. وقال غيره: أُصُل جمعُ أصيل، كرغيف ورُغُف. وقد تقدَّم[٣].

مسألة: هذه الآيةُ مدنيَّة، فلا تعلُّقَ بها لِمَن زعم أنَّ الصلاة إنَّما فُرضت أولاً صلاتين في طرفي النهار. والروايةُ بذلك ضعيفة[٤]، فلا التفاتَ إليها ولا معوّل عليها. وقد مضى الكلامُ في كيفية فَرْضِ الصلاة وما للعلماء في ذلك في «سبحان»[٥]، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾ قال ابن عباس: لمَّا نزل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾ قال المهاجرون والأنصار: هذا لك يا رسول الله خاصَّةً، وليس لنا فيه شيء، فأنزل الله تعالى هذه الآية[٦].

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٤١٠، وفيه: ... إن يونساً... فانتاشه حين سبحا، ولم نقف عليه في ديوان جرير. قوله: انتاشه، أي: أنقذه.

(٢) تفسير الطبري ١٩/ ١٢٣، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١١٩، والطبري ١٩/ ١٢٤.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣١٨، وتقدم ٩/ ٤٣٤.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٨. وأخرج البيهقي في السنن الكبرى ١/ ٣٥٩ عن قتادة قال: كان بدء الصلاة ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي.

(٥) ١٣/ ١٢ - ١٣.

(٦) أخرجه بنحوه عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد، كما في الدر المنثور ٥/ ٢٠٦، وذكره بنحوه أيضاً البغوي ٣/ ٥٣٤ عن أنس، ولم نقف عليه عن ابن عباس.

قلت: وهذه نعمةٌ من الله تعالى على هذه الأمة من أكبر النعم، ودليلٌ على فضلها على سائر الأمم؛ وقد قال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. والصلاةُ من الله على العبد هي رحمتُه له وبركتُه لديه. وصلاةُ الملائكة: دعاؤهم للمؤمنين واستغفارُهم لهم، كما قال: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧] وسيأتي. وفي الحديث: أنَّ بني إسرائيل سألوا موسى عليه السلام: أيُصَلِّي ربُّك جلَّ وعزَّ؟ فأَعْظَم ذلك، فأوحى الله جلَّ وعزَّ إليه: إنَّ صلاتي بأنَّ رحمتي سَبَقَتْ غَضَبِي. ذكره النحاس[١].

وقال ابن عطية: ورَوَتْ فرقةٌ أنَّ النبيَّ ﷺ قيل له: يا رسول الله، كيف صلاةُ الله على عباده؟ قال: «سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، رحمتي سَبَقَتْ غضبي». واختُلف في تأويل هذا القول، فقيل: إنه كلُّه[٢] من كلام الله تعالى، وهي صلاتُه على عباده. وقيل: سُبُّوحٌ قُدُّوس من كلام محمدٍ ﷺ، وقدَّمه بين يدي نُطْقِه باللفظ الذي هو صلاةُ الله، وهو: «رحمتي سبقت غضبي» من حيث فَهِمَ من السائل أنه تَوَهَّم في صلاة الله على عباده وجهاً لا يَليقُ بالله عزَّ وجلَّ؛ فقدَّم التنزيهَ والتعظيمَ بين يَدَيْ إخبارِه[٣].

قوله تعالى: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي: من الضلالةِ إلى الهُدَى، ومعنى هذا: التثبيتُ على الهداية؛ لأنَّهم كانوا في وقتِ الخطابِ على الهداية. ثم أَخْبَرَ تعالى برحمته بالمؤمنين تأنيساً لهم فقال: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾.

قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾

اختُلف في الضمير الذي في «يَلْقَوْنَهُ» على مَن يعود؛ فقيل: على الله تعالى،

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٣١٨، وأخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ١١٩ عن الحسن قوله.

(٢) في (د): كلام، وفي (م): كلمة.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٩. والحديث أخرجه الطبراني في المعجم الصغير (٤٣) عن أبي هريرة ﷺ.

وأخرجه عبد الرزاق (٢٨٩٨) ضمن خبر طويل عن عطاء، وذكره الدارقطني في العلل ٨/ ٢٨٧ عن أبي هريرة ﷺ، وعن جابر ﷺ، وعن عطاء عن بعض أصحاب النبي ﷺ، قال الدارقطني: وهذا أصح. اهـ. وفي جميع هذه الروايات أن النبي ﷺ هو السائل، وأن المسؤول هو جبريل عليه السلام.

أي: كان بالمؤمنين رحيماً، فهو يؤمِّنُهم من عذاب الله يومَ القيامة، وفي ذلك اليوم يَلْقَوْنه. و﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ أي: تحيةُ بعضِهم لبعض. ﴿سَلَٰمٌ﴾ أي: سلامةٌ لنا ولكم من عذاب الله.

وقيل: هذه التحيةُ من الله تعالى، المعنى: فيسلِّمهم من الآفات، أو يبشِّرهم بالأمن من المخافات. ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ أي: يومَ القيامة بعد دخول الجنة. قال معناه الزجَّاج[١]؛ واستشهد بقوله جلَّ وعزَّ: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [يونس: ١٠].

وقيل: «يومَ يَلْقَوْنَه» أي: يومَ يَلْقَون مَلَك الموت؛ وقد ورد أنه لا يقبضُ روحَ مؤمنٍ إلَّا سلَّم عليه؛ روي عن البَراء بن عازِب قال: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ فيسلِّم ملكُ الموت على المؤمن عند قَبْضِ روحِه، لا يقبضُ روحَه حتى يسلِّم عليه[٢].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾

هذه الآيةُ فيها تأنيسٌ للنبيِّ ﷺ وللمؤمنين، وتكريمٌ لجميعهم. وهذه الآيةُ تَضَمَّنَتْ من أسمائه ﷺ ستةَ أسماء، ولنبيِّنا ﷺ أسماءٌ كثيرةٌ وسماتٌ جليلة ورد ذكرها في الكتاب والسنَّة والكتبِ المتقدِّمة. وقد سمَّاه الله في كتابه محمداً وأحمد. وقال ﷺ فيما رَوَى عنه الثِّقاتُ العُدولُ: «لِي خمسةُ أسماءٍ: أنا محمد، وأحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشِرُ الذي يُحشَرُ الناسُ على قدمي، وأنا العاقب»[٣]. وفي «صحيح» مسلم من حديث جُبير بن مُطْعِم: وقد سمَّاه الله رَؤُوفاً رحيماً[٤].

---

(١) في معاني القرآن ٤/ ٢٣١.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣١٩، وأخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٣٦٧.

(٣) أخرجه أحمد (١٦٧٣٤)، والبخاري (٤٨٩٦)، ومسلم (٢٣٥٤) من حديث جبير بن مطعم ﷺ، وسلف ١٠/ ٤٥١. قوله: على قدمي، قيل: على سابقتي، وقيل: على سنتي، وقيل: بعدي، أي يتبعوني إلى يوم القيامة. المفهم ٦/ ١٤٦.

(٤) صحيح مسلم (٢٣٥٤): (١٢٥).

وفيه أيضاً عن أبي موسى الأشعريِّ قال: كان رسول الله ﷺ يسمِّي لنا نفسَه أسماءً، فقال: «أنا محمد، وأحمد، والمُقَفِّي، والحاشِرُ، ونبيُّ التوبة، ونبيُّ الرحمة»(١).

وقد تتبَّع القاضي أبو الفضل عِياض في كتابه المسمَّى بـ «الشِّفا»(٢) ما جاء في كتاب الله وفي سنَّة رسول الله ﷺ، وممَّا نُقِل في الكتب القديمة(٣) وإطلاق الأمة أسماءً كثيرةً وصفاتٍ عديدة، قد صَدَقَتْ عليه ﷺ مُسَمَّياتها، ووُجِدَتْ فيه معانيها.

وقد ذكر القاضي أبو بكر بن العربيّ في «أحكامه»(٤) في هذه الآية من أسماء النبيِّ ﷺ سبعةً وستين اسماً. وذكر صاحبُ «وسيلة المتعبِّدين إلى مُتابعةِ سيِّدِ المرسَلين»(٥) عن ابن عباس: أنَّ لمحمدٍ ﷺ مئة وثمانين اسماً، مَن أرادها وجدها هناك.

وقال ابن عباس: لمَّا نزلت هذه الآيةُ دعا رسول الله ﷺ عليًّا ومعاذاً، فبعثهما إلى اليمن، وقال: «اذهبا، فبشِّرا ولا تُنَفِّرا، ويسِّرا ولا تُعَسِّرا، فإنَّه قد أُنزل عليَّ...» وقرأ الآية(٦).

---

(١) صحيح مسلم (٢٣٥٥)، وهو عند أحمد (١٩٥٢٥).

(٢) ١/ ٤٤٤ وما بعدها.

(٣) في (م): المتقدمة.

(٤) ٣/ ١٥٣٤.

(٥) صاحبه عمر بن محمد بن خضر الأردبيلي الصوفي، نزيل دمشق، المتوفَّى سنة (٥٧٠هـ).
ينظر كشف الظنون ٢/ ٢١٠، وإيضاح المكنون ٢/ ٧٠٨.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٩، وأخرجه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير عند تفسير هذه الآية. وأخرجه أيضاً النحاس في معاني القرآن ٥/ ٣٥٨، والطبراني في الكبير (١١٨٤١). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٩٢: رواه الطبراني، وفيه عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله العرزمي، وهو ضعيف. اهـ. وسيذكره المصنف بأطول مما هنا. والذي أخرجه البخاري (٣٠٣٨)، ومسلم (١٧٣٣) عن أبي موسى الأشعري ﷺ، أن رسول الله ﷺ بعثه ومعاذاً إلى اليمن، فقال: «يسِّرا ولا تُعسِّرا، وبشِّرا ولا تنفِّرا، وتَطاوَعا ولا تختلفا». وليس فيه ذكر الآية. وخبر إرسال علي ﷺ إلى اليمن ثابت في الصحيح أيضاً.

قوله تعالى: ﴿شَٰهِدًا﴾ قال سعيد عن قتادة: «شاهدًا» على أمَّته بالتبليغ إليهم، وعلى سائر الأمم بتبليغ أنبيائهم، ونحو ذلك. ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ معناه: للمؤمنين برحمة الله وبالجنة ﴿وَنَذِيرًا﴾ معناه: للعصاة والمكذِّبين من النار وعذابِ الخُلْد. ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ الدعاءُ إلى الله هو تبليغُ التوحيدِ والأخذُ به، ومكافحةُ الكَفَرة. و﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ معناه هنا: بأمره إياك وتقديرِه ذلك في وقته وأوانه. ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ استعارة للنور الذي يتضمَّنه شَرْعُه[١].

وقيل: «وَسِرَاجًا» أي: هادِياً من ظلم الضلالة، وأنت كالمصباح المضيء. وَوَصَفَه بالإنارة لأنَّ من السُّرُج ما لا يُضيء، إذا قَلَّ سلِيطه[٢] ودَقَّت فَتيلتُه. وفي كلام بعضهم: ثلاثةٌ تُضْني: رسولٌ بطيء، وسِراجٌ لا يُضيءُ، ومائدةٌ يُنتظَر لها مَن يَجيء. وسُئل بعضهُم عن المُوْحِشَيْن فقال: ظلامٌ ساتِر، وسِراجٌ فاتِر[٣].

وأسند النحَّاس[٤] قال: حدَّثنا محمد بن إبراهيم الرازي، قال: حدَّثنا عبدالرحمن بن صالح الأَزْديُّ، قال: حدَّثنا عبد الرحمن بن محمد المُحاربيُّ[٥]، عن شَيبان النَّحْويِّ قال: حدَّثنا قتادةُ، عن عكرمةَ، عن ابن عباس قال: لمَّا نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ دعا رسولُ الله ﷺ عليًّا ومُعاذاً فقال: «انْطلِقا، فيسِّرا ولا تُعَسِّرَا، فإنَّه قد نزل عليَّ الليلةَ آيةٌ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ من النار ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ قال: شهادة أنْ لا إله إلا الله ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ بأمره ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ قال: بالقرآن». وقال

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٩، وأخرج خبر قتادة بنحوه الطبري ١٩/ ١٢٦.

(٢) أي: زيته. القاموس (سلط).

(٣) الكشاف ٣/ ٢٦٦.

(٤) في معاني القرآن ٥/ ٣٥٨.

(٥) سلف الخبر مختصراً قريباً، وسلف تخريجه.

وجاء عند الطبراني وابن أبي حاتم: عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله العرزمي، بدل: عبد الرحمن ابن محمد المحاربي، وعبد الرحمن العرزمي ضعيف، كما ذكر الذهبي في ميزان الاعتدال ٢/ ٥٨٥.

الزَّجاج[١]: «وسِرَاجاً» أي: وذا سِراجٍ مُنير، أي: كتابٍ نَيِّرٍ[٢]. وأجاز أيضاً أن يكون بمعنى: وتالياً كتابَ الله.

قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الواوُ عاطفةٌ جملةً على جملةٍ، والمعنى منقطِعٌ من الذي قَبْلَه. أَمَره تعالى أن يبشِّر المؤمنين بالفضل الكبير من الله تعالى.

وعلى قول الزَّجّاج: ذا سراجٍ منير، أو: وتالياً سراجاً منيراً، يكون معطوفاً على الكاف في «أَرْسَلْنَاكَ»[٣].

قال ابن عطية[٤]: قال لنا أَبي ﷺ: هذه مِن أَرْجَى آيةٍ عندي في كتاب الله تعالى؛ لأنَّ الله عزَّ وجلَّ قد أمر نبيَّه أن يبشِّر المؤمنين بأنَّ لهم عنده فضلاً كبيراً؛ وقد بيَّن تعالى الفضلَ الكبير في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الشورى: ٢٢]. فالآيةُ التي في هذه السورةِ خبرٌ، والتي في ﴿حمٓ عٓسٓقٓ﴾ تفسيرٌ لها.

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ أي: لا تُطِعْهم فيما يُشيرون عليك من المُداهنة في الدِّين ولا تُمالئهم. والكافِرون: أبو سفيان، وعكرمةُ، وأبو الأعْوَر السُّلَميُّ؛ قالوا: يا محمد، لا تَذْكُرْ آلهتنا بسوءٍ نتَّبِعْك. والمنافقون: عبد الله بن أُبَيٍّ، وعبد الله بن سعد، وطُعْمةُ بن أُبَيْرِق، حَثُّوا النبيَّ ﷺ على إجابتهم بتَعِلَّة المصلحة[٥].

---

(١) في معاني القرآن ٤/ ٢٣١.

(٢) في معاني القرآن: بين.

(٣) الكشاف ٣/ ٢٦٦. قال السمين في الدر المصون ٩/ ١٣٠: وفيه نظر؛ لأن السراج هو القرآن، ولا يوصف بالإرسال، بل الإنزال، إلا أن يقال: إنه حُمل على المعنى كقوله: علفتها تبناً وماءً بارداً...

(٤) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٨٩.

(٥) سلف خبرهم ص٥٠ من هذا الجزء.

﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ أي: دَعْ أنْ تُؤذيَهم مجازاةً على أذِيَّتهم إياك. فأمره تبارك وتعالى بتَرْكِ معاقبتهم، والصَّفْحِ عن زَلَلِهم، فالمصدرُ على هذا مضافٌ إلى المفعول. ونُسخ من الآية على هذا التأويل ما يَخُصُّ الكافرين، وناسخُه آيةُ السيف. وفيه معنًى ثانٍ: أي: أَعْرِضْ عن أقوالهم وما يؤذونك، ولا تَشْتَغِلْ به، فالمصدرُ على هذا التأويلِ مضافٌ إلى الفاعل. وهذا تأويلُ مجاهدٍ[١]، والآيةُ منسوخةٌ بآيةِ السيف.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أمرَه بالتوكُّل عليه وآنَسه بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾. وفي قوَّة الكلامِ وعدٌ بنَصْرٍ. والوكيلُ: الحافظُ القائمُ على الأمر[٢].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ لمَّا جرت قصةُ زيدٍ وتطليقه زينب، وكانت مدخولاً بها، وخطبها النبيُّ ﷺ بعد انقضاء عِدَّتها ـ كما بيَّنَّاه ـ خاطَبَ الله المؤمنين بحُكْم الزوجة تُطلَّق قبل البناء، وبيَّن ذلك الحكمَ للأمة، فالمطلَّقةُ إذا لم تكن ممسوسةً لا عِدَّةَ عليها بنصِّ الكتاب وإجماعِ الأمَّة على ذلك. فإنْ دخل بها فعليها العدَّة إجماعاً[٣].

الثانية: النكاح: الوطء[٤]، وتسميةُ العَقْدِ نكاحاً لمُلابَسَتِهِ له من حيث إنه طريقٌ

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٠، وخبر مجاهد أخرجه الطبري ١٩/ ١٢٧ بلفظ: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ قال: أعرض عنهم.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٠.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٣٩ - ١٥٤٠.

(٤) في (ظ) و(م): النكاح حقيقة في الوطء، والمثبت من باقي النسخ والكشاف ٣/ ٢٦٧، والكلام وما سيرد بين حاصرتين منه.

إليه. ونظيرهُ تسميتهم الخمرَ إثماً؛ لأنه سببٌ في اقتراف الإثم. ولم يَرِدْ لفظُ النكاحِ في كتاب الله إلَّا في معنى العقد؛ لأنه في معنى الوَطْءِ [من باب التصريح به]، ومن[1] آداب القرآن الكنايةُ عنه بلفظِ: الملامسة والمماسَّة والقُرْبان والتَّغشِّي والإتيان.

الثالثة: استدلَّ بعضُ العلماء بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ وبمهلةِ «ثُمَّ» على أنَّ الطلاق لا يكون إلَّا بعد نكاح، وأنَّ مَن طلَّق المرأة قبل نكاحِها ـ وإن عَيَّنها ـ فإنَّ ذلك لا يَلْزمه. وقال هذا نَيِّفٌ على ثلاثين مِن صاحبٍ وتابعٍ وإمامٍ، سَمَّى البخاريُّ منهم اثنين وعشرين[2]. وقد رُوِيَ عن النبيِّ ﷺ: «لا طلاقَ قبل نكاحٍ»[3] ومعناه: أنَّ الطلاق لا يقع حتى يحصل النكاح. قال حبيب بن أبي ثابت: سُئل عليّ بن الحسين رضي الله عنهما عن رجلٍ قال لامرأةٍ: إن تزوَّجتُكِ فأنتِ طالقٌ؟ فقال: ليس بشيء؛ ذَكَر الله عز وجل النكاحَ قبل الطلاق[4].

وقالت طائفةٌ من أهل العلم: إنَّ طلاقَ المعيَّنةِ الشَّخْصِ أو القبيلةِ أو البلدِ لازمٌ قبل النكاح[5]؛ منهم مالكٌ وجميعُ أصحابه، وجَمْعٌ عظيم من علماء الأمة. وقد مضى في «براءة» الكلامُ فيها ودليلُ الفريقين. والحمد لله[6]. فإذا قال: كلُّ امرأةٍ أتزوَّجها

(١) في النسخ: وهو من، والمثبت من الكشاف.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٠، والذين سماهم البخاري في كتاب الطلاق، باب: لا طلاق قبل النكاح، هم خمس وعشرون. قال البخاري: وقال ابن عباس: جعل الله الطلاق بعد النكاح، ويُروى في ذلك عن علي وسعيد بن المسيب... الخ، وذكرهم. قال الحافظ في الفتح ٩/ ٣٨٦: وقد تجوّز البخاري في نسبة جميع من ذكر عنهم إلى القول بعدم الوقوع مطلقاً، مع أن بعضهم يفصّل، وبعضهم يُختلف عليه، ولعل ذلك هو النكتة في تصديره النقل عنهم بصيغة التمريض.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢٠٤٨) من حديث المسور بن مخرمة ﷺ. وأخرجه ابن أبي شيبة ٥/ ١٥ - ١٦، والبيهقي ٧/ ٣١٨، وابن عبد البر في الاستذكار ١٨/ ١٢٤ من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ. وأخرجه الترمذي (١١٨١)، وأبو داود (٢١٩٠)، وابن ماجه (٢٠٤٧) بلفظ: «لا طلاق فيما لا يملك» وقد سلف بهذا اللفظ ١٠/ ٣١١.

(٤) أخرجه سعيد بن منصور (١٠٣٣) بنحوه. ونقله المصنف من معاني القرآن للنحاس ٥/ ٣٥٩ - ٣٦٠.

(٥) ينظر المنتقى للباجي ٤/ ١١٥.

(٦) ١٠/ ٣١٠ - ٣١١، وينظر قول مالك وغيره من الأئمة في الإشراف ٤/ ١٨٥، والاستذكار ١٨/ ١١٤.

[طالقٌ][1]، وكلُّ عبدٍ أشتريه حرٌّ، لم يَلْزَمْه شيءٌ. وإن قال: كلُّ امرأةٍ أتزوَّجُها إلى عشرين سنةً، أو: إن تزوَّجتُ من بلدِ فلان، أو من بني فلان، فهي طالِقٌ، لَزِمَه الطلاقُ ما لم يَخَفِ العَنَتَ على نفسه في طول السِّنين، أو يكون عمرُه في الغالب لا يَبلغُ ذلك، فله أن يتزوَّج. وإنَّما لم يَلْزَمْه الطلاقُ إذا عمَّم لأنه ضيَّق على نفسه المَناكح، فلو منعناه ألَّا يتزوَّج لَحَرِجَ وخِيفَ عليه العَنَتُ. وقد قال بعض أصحابنا: إنَّه إن وُجد ما يتسرَّر به لم ينكِح، وليس بشيء، وذلك أنَّ الضَّروراتِ والأعذارَ ترفع الأحكام، فيصير هذا من حيث الضرورةُ كَمَن لم يحلف؛ قاله ابن خُوَيْزِمَنْدَاد.

الرابعة: استدلَّ داودُ ومَن قال بقوله: أنَّ المطلَّقة الرجعيةَ إذا راجعها زوجُها قبل أن تنقضي عِدَّتُها، ثم فارَقَها قبل أن يَمَسَّها، أنه ليس عليها أن تُتِمَّ عِدَّتها ولا عِدَّةً مستقبَلةً؛ لأنَّها مطلَّقةٌ قبلَ الدخولِ بها.

وقال عطاء بن أبي رباح وفرقةٌ: تَمضي في عِدَّتها من طلاقها الأوّل ـ وهو أحدُ قولي الشافعيِّ ـ لأنَّ طلاقه لها إذا لم يمسَّها في حكم مَن طلَّقها في عِدَّتها قبل أن يُراجعها. ومَن طلَّق امرأتَه في كلِّ طُهرٍ مرَّةً بَنَتْ ولم تستأنف.

وقال مالك إذا فارقَها قبل أن يمسَّها: إنَّها لا تبني على ما مضى من عِدَّتها، وإنَّها تُنشئُ من يومِ طلَّقها عِدَّةً مستقبلَةً. وقد ظَلَم زوجُها نفسَه وأخطأ إنْ كان ارتَجَعها ولا حاجةَ له بها. وعلى هذا أكثرُ أهل العلم؛ لأنها في حكم الزَّوْجات المدخولِ بهنَّ في النفقة والسُّكنى وغير ذلك؛ ولذلك تستأنفُ العِدَّة من يومِ طُلِّقت، وهو قولُ جمهورِ فقهاءِ البَصْرةِ والكوفةِ ومكةَ والمدينة والشام. وقال الثوريُّ: أَجْمَعَ الفقهاءُ عندنا على ذلك.

الخامسة: فلو كانت بائنةً غيرَ مبتوتةٍ فتزوَّجها في العِدَّة، ثم طلَّقها قبل الدخول؛ فقد اختلفوا في ذلك أيضاً، فقال مالك والشافعيُّ وزُفَر وعثمان البَتِّيُّ: لها نصفُ

---

(١) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق، وينظر عقد الجواهر الثمينة ٢/ ١٧٧.

الصَّدَاقِ وتُتمُّ بقيةَ العِدَّة الأولى. وهو قول الحسن وعطاء وعكرمةَ وابن شهاب. وقال أبو حنيفة وأبو يوسف والثَّوريُّ والأوزاعيُّ: لها مهرٌ كاملٌ للنكاح الثاني وعِدَّةٌ مستقبلة. جعلوها في حكم المدخولِ بها لاعتدادها من مائه. وقال داود: لها نصفُ الصَّداق، وليس عليها بقيةُ العِدَّة الأولى ولا عِدَّةٌ مستقبلة[1]. والأَوْلى ما قاله مالك والشافعيُّ، والله أعلم.

السادسة: هذه الآيةُ مخصِّصةٌ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة:٢٢٨] ولقوله: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ [الطلاق:٤]، وقد مضى في «البقرة»، ومضى فيها الكلامُ في المُتعة[2]، فأَغنَى عن الإعادة هنا.

﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ فيه وجهان: أحدهما: أنه دَفْعُ المتعةِ بِحَسَبِ المَيْسَرَةِ والعُسْرة؛ قاله ابن عباس. الثاني: أنه طلاقُها طاهراً من غير جِماعٍ؛ قاله قتادة[3].

وقيل: فسرِّحوهنَّ بعد الطلاق إلى أهلهنَّ، فلا يجتمع الرجلُ والمطلَّقة في موضعٍ واحد.

السابعة: قوله تعالى: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ قال سعيد: هي منسوخةٌ بالآية التي في «البقرة»، وهي قوله: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [الآية:٢٣٧] أي: فلم يذكر المتعة[4]. وقد مضى الكلام في هذا في «البقرة» مستوفى[5].

وقوله: ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ﴾: طلِّقوهنَّ. والتسريحُ كنايةٌ عن الطَّلاق عند أبي حنيفة؛ لأنه

---

(١) ذكر المصنف هذه المسألة والتي قبلها عن الاستذكار ١٨/ ١٠٥ - ١٠٦ .

(٢) ينظر ٤/ ٣٥ و١٦٢ وما بعدها.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٤١٣ ، وقول ابن عباس أخرجه الطبري ٩/ ١٢٨ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٣٦٠ ، وأخرجه الطبري ٤/ ٢٩٦ - ٢٩٧ و١٩/ ١٢٩ .

(٥) ٤/ ١٦٧ .

يُستعمل في غيره فيحتاج إلى النية. وعند الشافعيِّ صريحٌ. وقد مضى في «البقرة» القولُ فيه[١]، فلا معنى للإعادة. ﴿جَمِيلًا﴾ سُنَّة، غير بِدْعة.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾﴾

فيه تسع عشرة مسألة:

الأولى: روى السُّدِّيُّ عن أبي صالح، عن أمِّ هانئ بنتِ أبي طالب قالت: خَطبني رسولُ الله ﷺ، فاعْتَذَرتُ إليه فعذَرني، ثم أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ قالت: فلم أكن أَحِلُّ له؛ لأنِّي لم أهاجر، كنتُ من الطُّلَقاء. خرَّجه أبو عيسى وقال: هذا حديثٌ حسنٌ لا نعرفه إلَّا من هذا الوجه[٢]. قال ابن العربيّ[٣]: وهو ضعيفٌ جدًّا، ولم يأتِ هذا الحديثُ من طريقٍ صحيحٍ يُحتجُّ بها.

الثانية: لمَّا خيَّر رسولُ الله ﷺ نساءَه فاختَرْنَه، حَرُم عليه التزوُّجُ بغيرهنَّ والاستبدالُ بهنَّ، مكافأةً لهنَّ على فِعْلهنَّ، والدليلُ على ذلك قولُه تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ الآية [الأحزاب: ٥٢]. وهل كان يَحِلُّ له أن يطلِّق واحدةً منهنَّ بعد

---

(١) ٦٧/٤ .

(٢) سنن الترمذي (٣٢١٤)، ووقع في المطبوع: حسن صحيح..، وما ذكره المصنف موافق لما في تحفة الأشراف ١٢/ ٤٥٠ .

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١٥٤١ .

ذلك؟ فقيل: لا يَحِلُّ له ذلك جزاءً لهنَّ على اختيارهنَّ له. وقيل: كان يَحِلُّ له ذلك كغيره من الناس ولكن لا يتزوَّج بَدَلَهَا.

ثم نسخَ هذا التحريم فأباح(١) له أن يتزوَّج بمن شاء عليهنَّ من النساء، والدليلُ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾ والإحلالُ يقتضي تَقَدُّم حَظْرٍ، وزوجاتُه اللَّاتي في حياته لم يكنَّ محرَّماتٍ عليه، وإنَّما كان حرم عليه التزويجُ بالأجنبيَّات، فانصرف الإحلالُ إليهنَّ. ولأنَّه قال في سياق الآية: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ﴾ الآية، ومعلومٌ أنه لم يكن تحته أحدٌ من بنات عمِّه ولا من بناتِ عمَّاته، ولا من بنات خاله ولا من بنات خالاته، فثبت أنه أحلَّ له التزويج بهذا ابتداء. وهذه الآيةُ وإن كانت متقدِّمةً في التلاوة فهي متأخِّرةُ النزولِ عن الآيةِ المنسوخةِ بها، كآيتي الوفاة في «البقرة»(٢).

وقد اختلف الناس في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾ فقيل: المرادُ بها أنَّ الله تعالى أحلَّ له أن يتزوَّج كلَّ امرأةٍ يؤتيها مَهْرَها؛ قاله ابن زيد والضحَّاك(٣). فعلى هذا تكونُ الآيةُ مبيحةً جميعَ النساء حاشا ذوات المحارِم.

وقيل: المراد: أحلَلْنا لك أزواجَك الكائنات(٤) عندك؛ لأنهنَّ قد اختَرْنكَ على الدنيا والآخرة؛ قاله الجمهور من العلماء. وهو الظاهر؛ لأنَّ قوله: «آتَيْتَ أُجورَهُنَّ» ماضٍ، ولا يكون الفعلُ الماضي بمعنى الاستقبال إلَّا بشروط.

ويجيءُ الأمر على هذا التأويل ضيِّقًا على النبيِّ ﷺ. ويؤيِّد هذا التأويلَ ما قاله ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يتزوَّج في أيِّ الناس شاء، وكان يَشُقُّ ذلك على نسائه، فلمَّا نزلت هذه الآيةُ وحرم عليه بها النساءُ إلَّا من سُمِّيَ، سُرَّ نساؤه بذلك(٥).

---

(١) في (ظ): فأبيح.

(٢) يعني الآية (٢٣٤) والآية (٢٤٠).

(٣) أخرج قولهما الطبري ١٩/ ١٣٠ .

(٤) قبلها في (خ) و(د) و(م): أي، والمثبت من باقي النسخ وهو موافق لما في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٤١ ، والكلام منه.

(٥) أخرجه الطبري ١٩/ ١٣٤.

قلت: والقولُ الأوّلُ أصح لمَا ذكرناه. ويدلُّ أيضًا على صحَّته ما خرَّجه الترمذيُّ عن عطاء قال: قالت عائشةُ رضي الله عنها: ما مات رسولُ الله ﷺ حتى أحلَّ الله تعالى له النساءَ. قال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح(١).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ أَحَلَّ الله تعالى السَّراري لنبيِّه ﷺ ولأمَّته مطلقاً، وأَحَلَّ الأزواجَ لنبيِّه عليه الصلاة والسلام مُطْلَقًا، وأحلَّه للخَلْقِ بعَددٍ(٢). وقولُه: ﴿مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ أي: ردَّه عليك من الكفار. والغنيمةُ قد تسمَّى فيئاً، أي: ممَّا أفاء الله عليك من النساء المأخوذِ على وجه القَهْرِ والغلبة.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ﴾ أي: أَحْلَلْنا لك ذلك زائداً [إلى ما عندَكَ] من الأزواج اللَّاتي آتيتَ أجورهنَّ وما مَلَكَتْ يمينُك، على قول الجمهور؛ لأنه لو أراد: أحللنا لك كلَّ امرأةٍ تزوَّجْتَ وآتيتَ أَجْرَها، لَمَا قال بعد ذلك: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ﴾ لأنَّ ذلك داخلٌ فيما تقدَّم(٣).

قلت: وهذا لا يلزمُ، وإنَّما خصَّ هؤلاء بالذِّكر تشريفًا، كما قال تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن:٦٨]. والله أعلم.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ فيه قولان: الأوّل: لا يَحِلُّ لك من قَرابتك - كبنات عمِّك العباسِ وغيرِه من أولاد عبد المطَّلب، وبناتِ أولادِ بناتِ عبد المطَّلب، وبنات الخال من وَلَد بنات عبد مناف بن زُهْرة - إلَّا من أَسْلَم؛ لقوله ﷺ: «المسلمُ مَن سَلِم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجِرُ مَن هَجَر ما نَهى الله تعالى عنه»(٤).

---

(١) سنن الترمذي (٣٢١٦)، وهو عند أحمد (٢٤١٣٧)، وضعَّفه ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١٥٥٩ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٤٢ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٤٣ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) أخرجه أحمد (٦٥١٥)، والبخاري (١٠)، وسلف ٦/ ٥٠٦ ، وذكر هذا القول ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١٥٤٣ .

الثاني: لا يَحِلُّ لك منهنَّ إلَّا مَن هاجَر إلى المدينة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ [الأنفال: ٧٢] ومَن لم يُهاجِرْ لم يَكْمُل، ومَن لم يَكْمُل لم يَصْلُحْ للنبيِّ ﷺ الذي كَمُل وشَرُف وعَظُم ﷺ(١).

السادسة: قوله تعالى: ﴿مَعَكَ﴾ المَعِيَّةُ هنا: الاشتراكُ في الهجرة؛ لا في الصُّحبة فيها، فَمَن هاجَرَ حَلَّ له(٢)، كان في صُحبته إذ هاجرَ أو لم يكن. يقال: دخل فلانٌ معي وخرج معي، أي: كان عملُه كعملي، وإن لم يقترن فيه عَمَلُكما. ولو قلت: خرجنا معاً لاقتضَى ذلك المعنيين جميعاً: الاشتراك في الفعل، والاقتران [فيه].

السابعة: ذكر الله تبارك وتعالى العمَّ فَرْداً والعمَّات جَمْعاً. وكذلك قال: «خالِكَ»، و«خالاتِكَ»، والحكمةُ في ذلك: أنَّ العمَّ والخالَ في الإطلاق اسمُ جنسٍ كالشاعر والرَّاجِز؛ وليس كذلك العمةُ والخالة. وهذا عُرْفٌ لغويّ، فجاء الكلامُ عليه بغايةِ البيانِ لرفعِ الإشكال، وهذا دقيقٌ فتأمَّلوه؛ قاله ابن العربيّ(٣).

الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً﴾ عطف على «أَحْلَلْنا». المعنى: وأَحْللنا لك امرأةً تَهَبُ نفسَها من غير صَدَاق. وقد اختُلف في هذا المعنى؛ فروي عن ابن عباس أنه قال: لم تكن عند رسول الله ﷺ امرأةٌ إلَّا بعقدِ نكاحٍ، أو مِلْكِ يمين. فأمَّا بالهبة فلم يكن عنده منهنَّ أحد(٤).

وقال قومٌ: كانت عنده موهوبةٌ.

قلت: والذي في الصحيحين يقوِّي هذا القولَ ويَعْضُدُه؛ روى مسلم عن عائشةَ

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٤٤ .

(٢) في (ظ): فمن هاجرت حلت له، والمثبت من باقي النسخ، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٤٤ ، والكلام وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١٥٤٤ - ١٥٤٥ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩١ - ٣٩٢ ، وأخرجه مختصراً الطبري ١٩/ ١٣٤ ، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٦٠٦٦).

رضي الله عنها أنها قالت: كنتُ أغار على اللَّاتي وَهَبْنَ أنفسهنَّ لرسول الله ﷺ وأقول: أَمَا تستحي امرأةٌ تَهَبُ نفسها لرجل! حتى أنزل الله تعالى: ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ﴾ فقلتُ: واللهِ ما أرى رَبَّكَ إلَّا يُسارِعُ في هواك[1]. وروى البخاريُّ عن عائشةَ أنَّها قالت: كانت خَوْلة بنتُ حكيم من اللائي وهبنَ أنفسهنَّ لرسول الله ﷺ[2]. فدلَّ هذا على أنهنَّ كنَّ غيرَ واحدةٍ. والله تعالى أعلم.

الزَّمَخْشَريُّ[3]: وقيل: الموهوباتُ أربعٌ: ميمونة بنتُ الحارث، وزينب بنت خُزَيمة أمُّ المساكين الأنصاريةُ، وأمُّ شَرِيكٍ بنتُ جابر، وخَوْلة بنتُ حكيم.

قلت: وفي بعض هذا اختلافٌ. قال قتادةُ: هي ميمونةُ بنتُ الحارث[4]. وقال الشعبيُّ: هي زينب بنتُ خزيمةَ أمُّ المساكين، امرأةٌ من الأنصار[5]. وقال عليّ بن الحسين والضحَّاك ومقاتل: هي أمُّ شريكٍ بنتُ جابر الأَسْدية[6]. وقال عروة بن الزبير: أمُّ حكيم بنتُ الأَوْقَص السُّلَمية[7].

التاسعة: وقد اختلف في اسم الواهبةِ نَفْسَها؛ فقيل: هي أمُّ شَرِيكٍ الأنصاريةُ،

---

(١) صحيح مسلم (١٤٦٤)، وأخرجه أحمد (٢٥٠٢٦)، والبخاري (٤٧٨٨).

(٢) رواه البخاري بإثر الحديث (٥١١٣) عن عائشة تعليقاً، وأخرجه (بالرقم السابق) عن عروة قوله. ثم قال عروة: فقالت عائشة: أما تستحي المرأة... الخ بمثل ما سلف. والكلام في التعريف والإعلام للسهيلي ص١٤١ .

(٣) في الكشاف ٣/ ٢٦٨ .

(٤) ذكره عن قتادة البغوي ٣/ ٥٣٧ .

(٥) النكت والعيون ٤/ ٤١٥ . قال ابن كثير في البداية والنهاية ٨/ ٢٢٣ : وأما حكاية الماوردي عن الشعبي أن زينب بنت خزيمة أمَّ المساكين أنصاريةٌ فليس بجيد؛ فإنها هلالية بلا خلاف. اهـ وقد ذكره البغوي ٣/ ٥٣٧ عن الشعبي فقال: الهلالية. وينظر ما سلف ص١٢٢ من هذا الجزء.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٥٣٧ ، وأخرجه عن علي بن الحسين الطبري ١٩/ ١٣٥ – ١٣٦ . ويقال: الأَسْدية والأَزْدية، وقد سلف ذكرها ص١٢٥ من هذا الجزء، وينظر ما سيأتي في المسألة التي بعدها.

(٧) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١٢٢٦٨)، والطبري ١٩/ ١٣٦ وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٢ ، وسمَّوْها: خولة بنت حكيم بن الأوقص. وذكر الحافظ ابن حجر في الإصابة ١٣/ ١٩٦ أن أم حكيم هذه هي خولة بنت حكيم.

اسمُها غُزيَّة. وقيل: غُزَيلة. وقيل: ليلى بنت حكيم. وقيل: هي ميمونةُ بنتُ الحارث حين خطبها النبيُّ ﷺ، فجاءها الخاطبُ وهي على بعيرها فقالت: البعيرُ وما عليه لرسول الله ﷺ. وقيل: هي أمُّ شريكٍ العامريةُ، وكانت عند أبي العَكَر الأَزْديّ، وقيل: عند الطُّفيل بن الحارث، فولدت له شَريكاً. وقيل: إنَّ رسول الله ﷺ تزوَّجها؛ ولم يَثْبُتْ ذلك. والله تعالى أعلم؛ ذكره أبو عمر بن عبد البر[1]. وقال الشعبيُّ وعروةُ: هي زينب بنتُ خزيمةَ أمُّ المساكين[2]. والله تعالى أعلم.

العاشرة: قرأ جمهور الناس: ﴿إِن وَهَبَتۡ﴾ بكَسْرِ الألف، وهذا يقتضي استئنافَ الأمر، أي: إن وقع فهو حلالٌ له. وقد روي عن ابن عباس ومجاهدٍ أنهما قالا: لم يكن عند النبيِّ ﷺ امرأةٌ موهوبة. وقد دَلَّلْنا على خلافه. وروى الأئمة من طريقِ سهلٍ وغيرِهِ في الصحاح: أنَّ امرأةً قالت لرسول الله ﷺ: جئتُ أَهَبُ لك نفسي، فسكت حتى قام رجل فقال: زَوِّجْنِيها إن لم يكن لك بها حاجة[3]. فلو كانت هذه الهبةُ غيرَ جائزةٍ لَمَا سَكَتَ رسول الله ﷺ؛ لأنه لا يُقِرُّ على الباطل إذا سمعه، غير أنه يحتملُ أن يكون سكوته منتظِراً بياناً، فنزلت الآية بالتحليل والتخيير. فاختار تركها، وزوَّجها من غيره. ويحتمل أن يكون سكت ناظراً في ذلك حتى قام الرجل لها طالباً[4].

وقرأ الحسن البصريُّ وأُبَيُّ بن كعب والشعبيُّ: «أَنْ» بفتح الألف[5]. وقرأ الأعمش: «وامرأةً مؤمِنةً وهَبَتْ». قال النحاس[6]: وكَسْرُ «إنْ» أجمعُ للمعاني؛ لأنَّه

(١) في الاستيعاب ١٣/ ٢٤٣، ونقله المصنف عنه بواسطة السهيلي في التعريف والإعلام ص ١٤١، والكلام من بداية المسألة منه. قال الحافظ في الإصابة ١٣/ ٢٣٨: والذي يظهر أن أم شريك واحدة، اختلف في نسبتها: أنصارية، أو عامرية من قريش، أو أزدية من دوس.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٢.

(٣) أخرجه أحمد (٢٢٧٩٨)، والبخاري (٢٣١٠)، ومسلم (١٤٢٥).

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٤٦.

(٥) القراءات الشاذة ص ١٢٠، والمحتسب ٢/ ١٨٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٩٢، والكلام منه.

(٦) في معاني القرآن ٥/ ٣٦٢، وما قبله منه، وذكر ابن خالويه القراءة في القراءات الشاذة ص ١٢٠ عن ابن مسعود ﷺ.

قيل: إنَّهن نساء. وإذا فتح كان المعنى على واحدةٍ بعينها؛ لأنَّ الفتح على البدل من امرأة، أو بمعنى: لِأَنْ.

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿مُّؤْمِنَةً﴾ يدلُّ على أنَّ الكافرة لا تَحِلُّ له. قال إمام الحرمين: وقد اختُلف في تحريم الحرَّة الكافرة عليه. قال ابن العربيِّ[١]: والصحيحُ عندي تحريمها عليه. وبهذا يتميَّز علينا؛ فإنه ما كان من جانب الفضائل والكرامة فحظُّه فيه أكثر، وما كان من جانب النقائص فجانبُه عنها أطهر[٢]؛ فَجُوِّزَ لنا نكاح الحرائر الكتابيات، وقُصِر هو ﷺ لجلالته على المؤمنات. وإذا كان لا يَحِلُّ له مَن لم تُهاجِرْ لنقصانِ فَضْلِ الهجرة؛ فأحْرَى ألَّا تَحِلَّ له الكتابية الكافرة[٣] لنقصان الكفر.

الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا﴾ دليلٌ على أنَّ النكاح عقدُ مُعاوَضةٍ على صفاتٍ مخصوصة، قد تقدَّمت في «النساء» وغيرها[٤]. وقال الزجَّاج: معنى «إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا للنَّبِيِّ»: حَلَّتْ. وقرأ الحسن: «أنْ وَهَبتْ» بفتح الهمزة. و«أنْ» في موضعِ نصبٍ؛ قال الزجَّاج: أي: لأَنْ. وقال غيرُه: «أَنْ وهبت» بدلُ اشْتِمَالٍ من «امرأة»[٥].

الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ أي: إذا وهبت المرأة نفسَها وقَبِلَها النبيُّ ﷺ؛ حَلَّتْ له، وإن لم يقبلها لم يَلْزَم ذلك. كما إذا وَهَبْتَ لرجلٍ شيئاً فلا يجبُ عليه القبولُ. بَيْدَ أنَّ من مكارِمِ أخلاقِ نبيِّنا أن يقبل من الواهب هبتَه، ويرى الأكارمُ أنَّ ردَّها هُجْنةٌ في العادة، ووصمةٌ على الواهب وإذايةٌ لقلبه؛ فبيَّن الله ذلك في حقِّ رسوله ﷺ، وجعله قرآناً يُتْلَى؛ ليرفع عنه الحرج، ويُبْطِلَ بُطْلَ الناس[٦]

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٥٤٦ ، وما قبله منه.

(٢) في (ظ): عنه أظهر.

(٣) في أحكام القرآن: الحرة.

(٤) ينظر ٤/ ٣٩٤ ، و٦/ ٢١٤ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٢٠ ، وقول الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٢٣٢ - ٢٣٣ ، وسلف هذا الكلام في المسألة العاشرة.

(٦) في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٤١ (والكلام منه): وليبطل ظن الناس .

في عادتهم وقولهم.

الرابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿خَالِصَةً لَّكَ﴾ أي: هبةُ النساءِ أنفسَهنَّ خالصةٌ ومَزيَّةٌ[1]، فلا يجوز أن تَهَب المرأة نفسَها لرجل. ووجهُ الخاصيَّة: أنها لو طلبتْ فَرْضَ المهر قبل الدخول لم يكن لها ذلك. فأمَّا فيما بيننا فللمفوّضةِ طلبُ المهرِ قبل الدخول، ومَهْر المِثْلِ بعد الدخول.

الخامسة عشرة: أجمع العلماء على أنَّ هبةَ المرأةِ نفسَها غيرُ جائزٍ، وأنَّ هذا اللَّفْظُ من الهبة لا يَتمُّ عليه نكاحٌ، إلَّا ما رُوي عن أبي حنيفةَ وصاحبيه فإنهم قالوا: إذا وَهَبتْ فأَشْهَدَ هو على نفسه بمهرٍ؛ فذلك جائز. قال ابن عطية[2]: فليس في قولهم إلَّا تجويزُ العبارةِ ولفظةِ الهبة، وإلَّا فالأفعالُ التي اشترطوها هي أفعالُ النكاحِ بعينه، وقد تقدَّمت هذه المسألة في «القصص» مستوفاةً. والحمد لله[3].

السادسة عشرة: خَصَّ الله تعالى رسولَه في أحكام الشريعة بمعانٍ لم يُشارِكْه فيها أحدٌ ـ في بابِ الفرضِ والتحريمِ والتحليلِ ـ مَزِيَّةً على الأمة وهيبةً[4] له، ومَرْتَبةً خُصَّ بها؛ ففُرِضَتْ عليه أشياءُ ما فُرِضَتْ على غيره، وحَرُمت عليه أفعالٌ لم تحرم عليهم، وحُلِّلتْ له أشياءُ لم تُحَلَّل لهم، منها متفَقٌ عليه، و[منها] مختلفٌ فيه.

فأمَّا ما فُرض عليه فتسعةٌ: الأوّل: التهجُّد بالليل؛ يقال: إنَّ قيام الليل كان واجِباً عليه إلى أن مات؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ . قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ الآية [المزمل:١-٢]. والمنصوصُ أنه كان واجباً عليه ثم نُسخ بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً

---

(١) بعدها في (خ) و(د) و(م): لا تجوز، والمثبت من باقي النسخ، وهو موافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٢ ، والكلام منه.

(٢) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٢ ، وما قبله منه.

(٣) عند المسألة التاسعة من تفسير الآيات (٢٢ - ٢٨) من سورة القصص.

(٤) في (ظ): وهبة، وفي (خ) و(د) و(م): وُهبت، والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٤٩ (والكلام وما سيأتي بين حاصرتين منه).

لَّكَ﴾ [الإسراء:٧٩] وسيأتي. الثاني: الضُّحى. الثالث: الأَضْحى[١]. الرابع: الوتر، وهو يدخل في قِسْم التهجُّد. الخامس: السِّواك. السادس: قضاءُ دَيْنِ مَن مات مُعْسِراً. السابع: مُشاورةُ ذوي الأحلام في غير الشَّرائع. الثامن: تخييرُ النساء. التاسع: إذا عَمِلَ عملاً أَثْبتَه[٢]. زاد غيره: وكان يجبُ عليه إذا رأى منكراً أنكَره وأَظْهَره؛ لأنَّ إقراره لغيره على ذلك يدلُّ على جوازه؛ ذكره صاحب «البيان»[٣].

وأمَّا ما حرم عليه فجملتُه عشرة: الأوّل: تحريمُ الزكاة عليه وعلى آله. الثاني: صدقةُ التطوُّع عليه، وفي آله تفصيلٌ باختلاف. الثالث: خائنةُ الأَعْيُنِ، وهو أنْ يُظْهِرَ خلافَ ما يُضْمِر، أو ينخدع عمَّا يجب. وقد ذمَّ بعضَ الكفار عند إذنه، ثم أَلانَ له القولَ عند دخوله[٤]. الرابع: حرَّم عليه إذا لبس لَأْمتَه أن يخلعها عنه، أو يحكمَ الله بينه وبين مُحارِبِه. الخامس: الأكلُ متَّكِئاً. السادس: أكلُ الأطعمةِ الكريهةِ الرائحةِ. السابع: التبدُّل بأزواجه، وسيأتي[٥]. الثامن: نكاحُ امرأةٍ تَكْرهُ صُحبته. التاسع: نكاحُ الحرَّة الكتابية. العاشر: نكاحُ الأَمَة[٦].

وحرَّم الله عليه أشياءَ لم يحرِّمها على غيره تنزيهاً له وتطهيراً. فحرَّم عليه الكتابةَ وقولَ الشعر وتعليمَه؛ تأكيداً لحجته وبياناً لمعجزته؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت:٤٨]. وذكر النقَّاش أنَّ النبيَّ ﷺ ما

---

(١) يعني الأضحية، وأخرج أحمد (٢٠٨١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «أُمِرتُ بالأضحى والوتر، ولم تُكتب» وفي رواية عند أحمد (٢٠٥٠): «ثلاث هن عليَّ فرائض، وهن لكم تطوُّع: الوتر، والنحر، وصلاة الضحى». وذكر الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير ٣/ ١١٨ أن هذا الحديث ضعيف من جميع طرقه.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٤٩ - ١٥٥٠ .

(٣) ٩/ ١٤٢ ، وصاحبه هو أبو الحسين يحيى بن أبي الخير العمراني اليمني.

(٤) أخرجه البخاري (٦٠٣٢)، ومسلم (٢٥٩١) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٥) ص١٩٧ من هذا الجزء.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٥٠ .

مات حتى كَتَب، والأولُ هو المشهور[١]. وحرم عليه أن يمدَّ عينيه إلى ما متّع به الناس؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ الآية [طه: ١٣١].

وأمَّا ما أُحِلَّ له ﷺ فجملتُه ستةَ عَشَرَ: الأوّل: صَفِيُّ المَغْنَم. الثاني: الاستبدادُ بخُمسِ الخُمْسِ أو الخُمس. الثالث: الوصال. الرابع: الزيادةُ على أربعِ نِسْوةٍ. الخامس: النكاحُ بلفظ الهبة. السادس: النكاح بغير وليٍّ. السابع: النكاح بغير صَدَاق. الثامن: نكاحُه في حالة الإحرام. التاسع: سقوطُ القَسْمِ بين الأزواج عنه، وسيأتي[٢]. العاشر: إذا وقع بصره على امرأةٍ وجب على زوجها طلاقُها؛ وحلَّ له نكاحُها؛ قال ابن العربيّ[٣]: هكذا قال إمامُ الحرمين، وقد مضى ما للعلماء في قصة زيدٍ من هذا المعنى. الحادي عشر: أنه أَعتق صفيَّة وجعل عِتْقَها صَدَاقَها. الثاني عشر: دخولُه مكةَ بغير إحرام، وفي حقِّنا فيه اختلافٌ. الثالث عشر: القتالُ بمكة. الرابع عشر: أنه لا يُوْرَث. وإنَّما ذُكر هذا في قسم التحليل لأنَّ الرجل إذا قارَبَ الموتَ بالمرض زال عنه أكثرُ ملكِه، ولم يبق له إلَّا الثلثُ خالصاً، وبقي ملكُ رسول الله ﷺ [بعد موته]، على ما تقرَّر بيانُه في آية المواريث، وفي سورة مريم بيانُه أيضاً[٤]. الخامس عشر: بقاءُ زوجيَّتِهِ من بعد الموت. السادس عشر: إذا طلَّق امرأةً تَبْقَى حرمتُه عليها فلا تُنكح. وهذه الأقسامُ الثلاثةُ تقدَّم مُعْظَمُها مفصَّلاً في مَواضِعِه. وسيأتي إن شاء الله تعالى.

وأبيح له عليه الصلاةُ والسلامُ أَخْذُ الطعامِ والشراب من الجائع والعطشان، وإن كان مَن هو معه يخاف على نفسه الهلاك؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ

---

(١) وقد ذكر الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير ٣/ ١٢٦ - ١٢٨ عدداً من العلماء الذين قالوا بهذا القول والآثار التي استدلُّوا بها.

(٢) ص١٩٠ من هذا الجزء.

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١٥٥١، وما قبله وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٤) ينظر ٦/ ١٠٠ و١٣/ ٤١٥.

﴿أَنفُسِهِمۡۖ﴾ [الأحزاب:٦] وعلى كلِّ أحدٍ من المسلمين أن يَقيَ النبيَّ ﷺ بنفسه. وأُبيح له أن يَحميَ لِنفسه[(١)].

وأكرمه الله بتحليل الغنائم. وجُعلت الأرضُ له ولأمَّته مسجداً وطهوراً. وكان من[(٢)] الأنبياء لا تصحُّ صلاتهم إلَّا في المساجد. ونُصِرَ بالرُّعب، فكان يخافه العدوُّ من مَسِيرة شهرٍ. وبُعث إلى كافةِ الخَلْقِ، وقد كان مَن قبلَه من الأنبياء يبعث الواحد إلى بعض الناس دون بعض[(٣)].

وجُعلت معجزاته كمعجزاتِ الأنبياءِ قبلَه وزيادة. وكانت معجزةُ موسى عليه السلام العصا وانفجارَ الماءِ من الصخرة، وقد انشقَّ القمر للنبيِّ ﷺ، وخرج الماء من بين أصابعه ﷺ. وكانت معجزةُ عيسى ﷺ إحياءَ الموتى وإبراءَ الأكْمَهِ والأبرص، وقد سبَّح الحصى في يد النبيِّ ﷺ، وحنَّ الجِذعُ إليه، وهذا أبلغ. وفضَّله الله عليهم بأنْ جَعَلَ القرآنَ معجزةً له، وجعل معجزتَه فيه باقيةً إلى يوم القيامة، ولهذا جُعلت نبوَّتُه مؤبَّدةً لا تُنسخ إلى يوم القيامة[(٤)].

السابعة عشر: قوله تعالى: ﴿أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾ أي: ينكِحها، يقال: نَكَح واستَنْكَح، مثل عَجِب واستَعْجَبَ، وعَجِل واسْتَعْجَلَ. ويجوز أن يَرِد الاستنكاحُ بمعنى طَلَبِ النكاح، أو طلبِ الوَطْء. و«خَالِصَةً» نصبٌ على الحال؛ قاله الزجَّاج[(٥)].

(١) لقوله ﷺ: «لا حِمَى إلَّا لله ولرسوله» أخرجه أحمد (١٦٤٢٢)، والبخاري (٢٣٧٠) من حديث الصَّعب ابن جَثَّامة ﷺ. ومعنى الحمى: أن يحمي أرضاً من الموات، يمنع الناس رَعْي ما فيها من الكلأ؛ ليختصَّ بها دونهم، ولكنه ﷺ لم يحم لنفسه شيئاً، وإنما حَمى للمسلمين. ينظر المغني لابن قدامة ٨/ ١٦٥ - ١٦٦ .

(٢) كذا في النسخ، وحق الكلام أن يكون دون كلمة من.

(٣) يشير إلى حديث النبي ﷺ: «أُعطيت خمساً لم يُعْطَهنَّ أحدٌ قبلي...» وقد سلف ٤/ ٢٥٨ ، وسيأتي عند تفسير الآية (٣١) من سورة الأحقاف.

(٤) من قوله: وأبيح له عليه الصلاة والسلام أخذ الطعام والشراب، إلى هذا الموضع ليس في (ظ)، ولعله ليس من أصل الكتاب، إنما وقع في حواشيه ثم أقحم فيه.

(٥) في معاني القرآن ٤/ ٢٣٣ .

وقيل: حالٌ من ضميرٍ متَّصلٍ بفعلٍ مُضْمَرٍ دلَّ عليه المضْمَر، تقديره: أَحْلَلْنَا لك أزواجَك، وأَحْلَلنا لك امرأةً مؤمنة، أحللناها خالصةً بلفظِ الهبة وبغيرِ صَدَاقٍ وبغير وليّ.

الثامنة عشرة: قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۗ﴾ فائدتُه أنَّ الكفار وإن كانوا مخاطَبين بفروع الشريعة عندنا فليس لهم في ذلك دخولٌ؛ لأنَّ تصريفَ الأحكام إنَّما يكون فيهم على تقدير الإسلام[1].

قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ أي: ما أَوْجَبْنا على المؤمنين، وهو ألَّا يتزوَّجوا إلَّا أربعَ نسوةٍ بمهرٍ وبيِّنةٍ ووَليّ. قال معناه أُبَيّ بنُ كعب وقتادةُ وغيرُهما[2].

التاسعة عشرة: قوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌۗ﴾ أي: ضِيقٌ في أمرٍ أنت فيه محتاجٌ إلى السّعة، أي: بيَّنَّا هذا البيانَ وَشَرَحْنا هذا الشَّرح «لكَيْلا يكونَ عليكَ حَرَجٌ». فـ «لكيلا» متعلِّقٌ بقوله: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾ أي: فلا يضيق قلبك حتى يَظْهَرَ منك أنَّك قد أَثِمْتَ عند ربِّك في شيء. ثم آنس تعالى جميعَ المؤمنين بغفرانه ورحمته فقال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

قوله تعالى: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾.

فيه إحدى عشرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ﴾ قرئ مهموزاً وغيرَ مهموز[3]، وهما

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٥٣ .

(٢) أخرجه عن قتادة عبد الرزاق ٢/ ١١٩ - ١٢٠ ، والطبري ١٩/ ١٣٧ . وأخرجه عن أبيٍّ ﷺ الطبري ١٩/ ١٣٤ ، دون ذكر المهر والبينة والولي.

(٣) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر: «ترجئ» مهموزاً، والباقون من السبعة بغير همز. السبعة ص ٥٢٣ ، والتيسير ص ١١٩ .

لغتان، يقال: أَرْجَيْتُ الأمرَ وأرْجَأْته: إذا أخَّرتَه. ﴿وَتُـْٔوِىٓ﴾ تَضُمُّ، يقال: آوى إليه ـ ممدودةَ الألف ـ : ضمَّ إليه. وأوى ـ مقصورةَ الألف ـ : انضمَّ إليه.

الثانية: واختلف العلماء في تأويل هذه الآية، وأصحُّ ما قيل فيها: التوسعةُ على النبيِّ ﷺ في تَرْكِ القَسْم، فكان لا يجبُ عليه القَسْمُ بين زوجاته. وهذا القولُ هو الذي يُناسب ما مضى، وهو الذي ثبت معناه في الصَّحيح عن عائشةَ رضي الله عنها؛ قالت: كنتُ أغار على اللَّائي وَهَبْنَ أنفُسَهُنَّ لرسول الله ﷺ وأقولُ: أوتَهَبُ المرأة نفسَها لرجل؟ فلمَّا أنزل الله عز وجل: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ قالت: قلتُ: واللهِ ما أرى ربَّك إلَّا يُسارعُ في هواك[(١)]. قال ابن العربيّ[(٢)]: هذا الذي ثبت في الصحيح هو الذي ينبغي أن يعوَّل عليه. والمعنى المرادُ: هو أنَّ النبيَّ ﷺ كان مخيَّراً في أزواجه، إن شاء أن يَقْسِم قَسَم، وإن شاء أن يتركَ القَسْمَ تَرَك. فخُصَّ النبيُّ ﷺ بأنْ جُعِل الأمرُ إليه فيه، لكنه كان يَقْسِمُ من قِبَل نفسه دون فَرْضٍ ذلك عليه؛ تطييباً لنفوسهنَّ، وصوناً لهنَّ عن أقوال الغَيْرةِ التي ترقى[(٣)] إلى ما لا ينبغي.

وقيل: كان القَسْمُ واجباً على النبيِّ ﷺ، ثم نُسِخَ الوجوبُ عنه بهذه الآية. قال أبو رَزين: كان رسول الله ﷺ قد همَّ بطلاق بعض نسائه فقُلْنَ له: اقْسِمْ لنا ما شئتَ. فكان ممن آوى عائشةُ وحفصةُ وأمُّ سلمة وزينبُ، فكان قسمتُهنَّ[(٤)] من نفسه وماله سواءً بينهنّ. وكان ممن أَرْجَى سودةُ وجُوَيْرِيةُ وأمُّ حبيبةَ وميمونةُ وصفيةُ؛ فكان يقسِمُ لهنَّ ما شاء[(٥)].

---

(١) سلف ص١٨٢ من هذا الجزء.

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١٥٥٦ .

(٣) في (م): التي تؤدي، وفي أحكام القرآن: التي ربما ترقت.

(٤) في (ظ): فكانت قسمته لهن.

(٥) أخرجه بنحوه عبد الرزاق ٢/ ١٢٠ ، والطبري ١٩/ ١٣٩ و١٤٠ و١٤١ .

وقيل: المرادُ الواهبات؛ روى هشام بن عروة عن أبيه، عن عائشة في قوله: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ قالت: هذا في الواهبات أنفسَهنّ[١]. قال الشعبيُّ: هنَّ الواهباتُ أنفسَهنَّ؛ تَزوَّج رسول الله ﷺ منهنَّ وتَرك منهنّ[٢].

وقال الزُّهْريُّ: ما علمنا أنَّ رسول الله ﷺ أَرْجأَ أحداً من أزواجه، بل آواهنَّ كلَّهن[٣].

وقال ابن عباس وغيره: المعنى في طلاق مَن شاء ممن حَصَلَ في عصمته، وإمساكِ مَن شاء[٤]. وقيل غيرُ هذا. وعلى كلِّ معنًى؛ فالآيةُ معناها التَّوسِعةُ على رسول الله ﷺ والإباحةُ. وما اخترناه أصحُّ، والله أعلم.

الثالثة: ذهب هبةُ الله في الناسخ والمنسوخ إلى أنَّ قوله: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ﴾ الآيةَ، ناسخٌ لقوله: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ الآيةَ. وقال: ليس في كتاب الله ناسخٌ تقدَّم المنسوخَ سوى هذا. وكلامُه يُضعَّفُ من جهات[٥]. وفي «البقرة» عِدَّةُ المتوفَّى عنها أربعةُ أشهرٍ وعَشْرٌ، وهو ناسخٌ للحَوْل وقد تقدَّم عليه.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ «ابْتَغَيْتَ»: طَلبتَ، والابتغاء: الطَّلب، و«عَزَلْتَ»: أزلْتَ، والعُزْلة: الإزالة، أي: إن أردتَ أنْ تُؤْويَ إليك امرأةً ممن عزلتهنَّ من القسمة وتضمَّها إليك؛ فلا بأسَ عليك في ذلك. وكذلك حكمُ الإرجاء، فدَلَّ أحدُ الطرفين على الثاني.

الخامسة: قولُه تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ أي: لا ميلَ، يقال: جَنَحت السفينةُ، أي: مالت إلى الأرض. أي: لا ميلَ عليك باللَّوْم والتوبيخ.

---

(١) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وسلف بنحوه مطولاً ص١٨٢ من هذا الجزء، وفي بداية هذه المسألة.

(٢) أخرجه ابن سعد ٨/ ١٥٤ - ١٥٥ ، وأحمد في العلل ومعرفة الرجال ١/ ١٤٣ .

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٥/ ٢١١ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٣ ، وأخرجه بنحوه الطبري ١٩/ ١٤٠ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٣ . وهبة الله هو ابن سلامة البغدادي أبو القاسم الضرير المفسِّر.

السادسة: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ قال قتادةُ وغيره: أي: ذلك التخييرُ الذي خيَّرناك في صحبتهنَّ أدنى إلى رِضَاهُنَّ إذ كان من عندنا؛ لأنهنَّ إذا عَلِمْنَ أنَّ الفعل[١] من الله قَرَّت أعيُنُهنَّ بذلك ورَضِينَ[٢]؛ لأنَّ المرء إذا علم أنه لا حقَّ له في شيءٍ، كان راضياً بما أوتيَ منه وإنْ قلَّ. وإن عَلِمَ أنَّ له حقًّا، لم يُقْنِعْه ما أوتيَ منه، واشتدَّتْ غَيْرتُه عليه وعَظُمَ حِرْصُه فيه. فكان ما فَعَل الله لرسوله من تفويض الأمر إليه في أحوالِ أزواجه أقربَ إلى رضاهنَّ معه، وإلى استقرار أعْيُنِهنَّ بما يسمح به لهنَّ، دون أن تتعلَّق قلوبهنَّ بأكثر منه[٣].

وقرئ: «تُقِرَّ أعينَهن» بضمِّ التاء ونصبِ الأعين. «وتُقَرَّ أعينُهن» على البناء للمفعول[٤].

وكان عليه الصلاةُ والسلام مع هذا يشدِّد على نفسه في رعاية التَّسْويةِ بينهنَّ، تطييباً لقلوبهنَّ[٥] ـ كما قدَّمناه ـ ويقول: «اللهمَّ هذه قُدْرَتي فيما أَمْلِكُ، فلا تَلُمْني فيما تَمْلِكُ ولا أَمْلِكُ»[٦] يعني قلبَه؛ لإيثاره عائشةَ رضي الله عنها دون أن يكون يظهر ذلك في شيء من فِعْلِه. وكان في مرضه الذي تُوفِّيَ فيه يُطافُ به محمولاً على بيوت أزواجه، إلى أن استأذنهنَّ أن يقيم في بيت عائشة؛ قالت عائشةُ: أوَّلُ ما اشتكى رسول الله ﷺ في بيت ميمونةَ، فاستأذنَ أزواجَه أن يُمرَّض في بيتها ـ يعني بيت عائشةَ ـ فأذِنَّ له... الحديثَ، خرجه الصحيح[٧]. وفي الصحيح أيضاً عن عائشةَ رضي الله

(١) في (د) و(ز) و(ظ): العدل.

(٢) أخرجه الطبري ١٩/ ١٤٥ بنحوه.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٥٧ .

(٤) قراءتان شاذتان، وقد ذكرهما الزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٦٩ ، وذكر الأولى ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٢٠ عن ابن محيصن.

(٥) في (خ): تطميناً لنفوسهن، وفي (ظ): تطييباً لنفوسهن.

(٦) أخرجه أحمد (٢٥١١١)، والترمذي (١١٤٠)، وأبو داود (٢١٣٤)، والنسائي في المجتبى ٧/ ٦٣-٦٤ ، وابن ماجه (١٩٧١)، من حديث عائشة رضي الله عنها. وسلف ٧/ ١٦٧ - ١٦٨ .

(٧) صحيح البخاري (١٩٨)، وصحيح مسلم (٤١٨) واللفظ له، وهو عند أحمد (٢٥٩١٤).

عنها قالت: إن كان رسول الله ﷺ ليتفقد، يقول: «أين أنا اليوم، أين أنا غداً» استبطاءً ليوم عائشةَ رضي الله عنها. قالت: فلمَّا كان يومي قَبَضَه الله تعالى بين سَحْري ونَحْري، ﷺ[1].

السابعة: على الرجل أن يعدِل بين نسائه، لكلِّ واحدةٍ منهنَّ يومٌ[2] وليلةٌ؛ هذا قولُ عامَّةِ العلماء. وذهب بعضُهم إلى وجوب ذلك في الليل دون النهار. ولا يُسقِطُ حقَّ الزوجة مرضُها ولا حَيضُها، ويلزمه المُقامُ عندها في يومها وليلتها. وعليه أن يعدل بينهنَّ في مرضه كما يفعل في صحته، إلَّا أن يَعْجِز عن الحركة، فيقيم حيث غَلَبَ عليه المرض، فإذا صحَّ استأنف القَسْم. والإماءُ والحرائرُ والكتابيَّات والمسلمات في ذلك سواء. قال عبد الملك: للحُرَّة ليلتان وللأَمَةِ ليلة. وأمَّا السَّراري فلا قَسْمَ بينهنَّ وبين الحرائر، ولا حظَّ لهنَّ فيه.

الثامنة: ولا يجمع بينهنَّ في منزلٍ واحدٍ إلَّا برِضَاهُنَّ، ولا يدخل لإحداهُنَّ في يومِ الأخرى وليلتِها لغير حاجة. واختُلف في دخوله لحاجةٍ وضرورة، فالأكثرون على جوازه؛ مالكٌ وغيره. وفي كتاب ابن حبيب مَنْعُه[3]. وروى ابن بُكَيْر عن مالك عن يحيى بن سعيد: أنَّ معاذ بن جبل كانت له امرأتان، فإذا كان يومُ هذه لم يشرب من بيت الأخرى الماءَ[4]. قال ابن بُكير: وحدَّثنا مالك عن يحيى بن سعيد: أنَّ معاذ بن جبل كانت له امرأتان ماتتا في الطاعون. فأَسْهَم بينهما أيهما تُدلَّى أوَّل[5].

التاسعة: قال مالك: ويعدلُ بينهنَّ في النفقة والكسوةِ إذا كنَّ معتدلاتِ الحال،

---

(١) صحيح البخاري (١٣٨٩) وصحيح مسلم (٢٤٤٣) واللفظ له. قولها: سَحْري ونحري، السَّحْر: الرئة، والنحر: أعلى الصدر. المفهم ٦/ ٣٢٨.

(٢) في النسخ: يوماً، والمثبت من الكافي ٢/ ٥٦١، والكلام منه.

(٣) المفهم ٤/ ٢٠٥.

(٤) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائده على الزهد للإمام أحمد ص ٢٢٨، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٢٣٤.

(٥) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١/ ٢٣٤ من طريق الليث بن سعد عن يحيى بن سعيد به.

ولا يلزم ذلك في المختلفاتِ المناصبِ. وأجاز مالك أن يفضِّل إحداهما في الكسوة على غيرِ وجهِ الميل. فأمَّا الحُبُّ والبغضُ فخارجان عن الكَسْبِ، فلا يتأتَّى العدلُ فيهما، وهو المعنيُّ بقوله ﷺ في قَسْمِه: «اللهمَّ هذا فِعْلي فيما أَمْلكُ، فلا تَلُمْني فيما تَمْلِكُ ولا أَمْلِكُ». أخرجه النَّسائيُّ وأبو داود عن عائشة رضي الله عنها. وفي كتاب أبي داود: يعني القلبَ، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء: ١٢٩][1]، وقولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾. وهذا هو وجهُ تخصيصِه بالذِّكر هنا؛ تنبيهاً منه لنا على أنه يعلم ما في قلوبنا من ميل بعضِنا إلى بعضِ مَن عِندَنا من النساء دون بعض، وهو العالِمُ بكلِّ شيءٍ ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥] ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧] لكنه سَمَح في ذلك؛ إذ لا يستطيعُ العبدُ أن يَصْرِفَ قلبَه عن ذلك الميلِ، وإلى ذلك يعودُ قولُه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

وقد قيل في قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ وهي:

العاشرة: أي: ذلك أقربُ ألَّا يَحزنَّ إذا لم تجتمع إحداهنَّ مع الأخرى وتُعاين الأَثَرَةَ والميل[2]. وروى أبو داود عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ قال: «مَن كانت له امرأتان فمالَ إلى إحداهُما، جاء يوم القيامة وشِقُّه مائل»[3].

﴿وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ توكيدٌ للضمير، أي: وَيَرْضَيْنَ كلُّهن. وأجاز أبو حاتم والزجَّاج: «وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهنَّ كُلَّهُنَّ» على التوكيد للمضمَر الذي في «آتيتهنَّ». والفرَّاءُ لا يُجيزُه؛ لأنَّ المعْنى ليس عليه؛ إذ كان المعنى: وترضى كلُّ واحدةٍ منهنَّ، وليس المعنى: بما أعطيتهنَّ كلَّهنَّ. النحاس: والذي قاله حَسَن[4].

---

(١) المفهم ٤/ ٢٠٥ - ٢٠٦ ، وسلف الحديث في المسألة السادسة.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٢١ .

(٣) سنن أبي داود (٢١٣٣)، وسلف ٧/ ١٦٨ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٢١ - ٣٢٢ ، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ٢٣٣ ، وقول الفراء =

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ﴾ خبرٌ عامٌّ، والإشارةُ إلى ما في قلبِ رسول الله ﷺ من مَحبَّةِ شخصٍ دون شخص. وكذلك يَدْخلُ في المعنى أيضاً المؤمنون[1]. وفي البخاريِّ عن عمرو بن العاص: أنَّ النبيَّ ﷺ بعثه على جيشِ ذاتِ السلاسل، فأتيتُه فقلت: أيُّ الناسِ أحبُّ إليك؟ فقال: «عائشة» فقلتُ: من الرجال؟ قال: «أبوها» قلتُ: ثم مَن؟ قال: «عمر بن الخطاب...» فعدَّ رجالاً[2]. وقد تقدَّم القولُ في القلب بما فيه كفايةٌ في أوَّل «البقرة»[3]، وفي أول هذه السورة[4]. يروى أنَّ لقمان الحكيم كان عبداً نجاراً قال له سيِّده: اذبَحْ شاةً وائتني بأَطْيَبِها بَضْعَتَيْن، فأتاه باللسان والقلب. ثم أمره بذبح شاةٍ أخرى فقال له: أَلْقِ أَخْبَثَهَا بَضْعَتين، فألقى اللسانَ والقلبَ، فقال: أَمَرْتُكَ أن تأتيَني بأَطْيَبِها بَضْعتين، فأتيتني باللسان والقلب، وأَمَرْتُكَ أن تُلقيَ بأخبثها بَضْعَتين، فألقيتَ اللسانَ والقلبَ! فقال: ليس شيءٌ أطيبَ منهما إذا طابا، ولا أخبثَ منهما إذا خَبُثا[5].

قوله تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ۝٥٢﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى: اختلف العلماء في تأويل قوله: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾ على أقوالٍ سبعةٍ:

= في معاني القرآن له ٢/٣٤٦. وقرأ: «كلَّهن» بالنصب أبو إياس جُؤية بن عائذ، كما في القراءات الشاذة ص١٢٠، والمحتسب ٢/١٨٢.

(١) المحرر الوجيز ٤/٣٩٣.

(٢) صحيح البخاري (٣٦٦٢)، وهو عند أحمد (١٧٨١١)، ومسلم (٢٣٨٤).

(٣) ١/٢٨٦.

(٤) ص٥٤ من هذا الجزء.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/٢١٤، وأحمد في الزهد ص ٦٥، والطبري ١٨/٥٤٨، وابن حبان في روضة العقلاء ص ٢٩ عن خالد الرَّبَعي قوله. ووقع في جميع المصادر: مضغتين، بدل: بضعتين.

الأول: أنّها منسوخةٌ بالسُّنّة، والناسخُ لها حديثُ عائشةَ؛ قالت: ما مات رسول الله ﷺ حتى أُحِلَّ له النساء. وقد تقدَّم[1].

الثاني: أنَّها منسوخةٌ بآيةٍ أخرى؛ روى الطَّحَاويُّ عن أمِّ سلمةَ قالت: لم يَمُتْ رسولُ الله ﷺ حتى أَحَلَّ الله له أن يتزوَّج مِن النساء مَن شاء[2]، إلّا ذاتَ مَحْرَمٍ، وذلك قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾[3]. قال النَّحاس[4]: وهذا ـ واللهُ أعلم ـ أوْلى ما قيل في الآية، وهو وقولُ عائشةَ واحدٌ في النَّسْخ. وقد يجوز أن تكون عائشةُ أرادت: أُحِلَّ له ذلك بالقرآن. وهو مع هذا قولُ عليّ بنِ أبي طالب وابنِ عباس وعليّ بن الحسين والضحَّاك. وقد عارض بعضُ الفقهاءِ الكوفيين فقال: مُحالٌ أن تَنْسَخَ هذه الآيةُ ـ يعني ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ ـ ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾، وهي قبلها في المصحف الذي أجمع عليه المسلمون، ورجَّح قولَ مَن قال: نُسِخَتْ بالسُّنَّة.

قال النحَّاس[5]: وهذه المعارضةُ لا تَلْزَمُ، وقائلُها غالِطٌ؛ لأنَّ القرآن بمنزلةِ سورةٍ واحدةٍ، كما صحَّ عن ابن عباس: أنزل الله القرآنَ جملةً واحدةً إلى السماء الدنيا في شهر رمضان[6]. ويبيِّن لك أنَّ اعتراضَ هذا لا يلزمُ قوله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾

---

(١) ص١٨٠ من هذا الجزء.

(٢) في (ظ): ما شاء.

(٣) شرح مشكل الآثار (٥٢٤)، وأخرجه أيضاً النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٨٧ ، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية. وفي إسناده عمر بن أبي بكر الموصلي، قال فيه أبو حاتم كما في العلل لابنه ٦/ ١٠٠ : ذاهب الحديث، متروك الحديث. اهـ وأخرجه ابن سعد ٨/ ١٩٤ بإسناد آخر فيه الواقدي.

(٤) في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٨٧ - ٥٨٨ .

(٥) في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٨٨

(٦) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص ٢٢٢ ، وابن أبي شيبة ١٠/ ٥٣٣ .

[البقرة: ٢٤٠] منسوخةٌ على قولِ أهلِ التأويل - لا نَعْلَم بينهم خلافاً - بالآية التي قبلها ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤].

الثالث: أنَّه ﷺ حُظِرَ عليه أن يتزوَّج على نسائه؛ لأنهنَّ اخْتَرْنَ الله ورسولَه والدار الآخرة؛ هذا قولُ الحسن وابنِ سيرين وأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام. قال النحاس[١]: وهذا القولُ يجوز أن يكون هكذا ثم نُسخ.

الرابع: أنه لمَّا حرَّم عليهنَّ أن يتزوَّجْنَ بعده حرَّم عليه أن يتزوَّج غيرهنَّ؛ قاله أبو أمامة بنُ سهل بن حُنَيف[٢].

الخامس: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ أي: من بعد الأصناف التي سُمِّيت؛ قاله أُبَيّ بن كعب وعكرمةُ وأبو رَزين، وهو اختيارُ محمد بن جرير[٣].

ومَن قال: إنَّ الإباحةَ كانت له مُطْلَقةً، قال هنا: «لا يَحِلُّ لك النساءُ» معناه: لا تَحِلُّ لك اليهوديَّاتُ ولا النَّصْرانياتُ. وهذا تأويلٌ فيه بُعْدٌ[٤]، ورويَ عن مجاهدٍ وسعيد بن جُبير وعكرمَة أيضاً. وهو القولُ السادس؛ قال مجاهد: لئلَّا تكون كافرةٌ أُمًّا للمؤمنين. وهذا القولُ يَبْعُد؛ لأنه يقدِّره: مِن بَعْدِ المسلمات، ولم يَجْرِ للمسلمات ذِكْرٌ[٥]. وكذلك قدَّر: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ﴾ أي: ولا أن تطلِّق مُسْلِمةً لتستبدل بها كتابيَّةً[٦].

---

(١) في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٩٠ ، وما قبله منه.

(٢) الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٩٠ .

(٣) في التفسير ١٩/ ١٥٠ ، والكلام من الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥٩٠ - ٥٩١ . وأخرجه عن أبي ابن كعب ﷺ ابن سعد ٨/ ١٩٦ ، وعبد الله بن أحمد في زوائده على المسند (٢١٢٠٨)، والطبري ١٩/ ١٤٧ - ١٤٨ . وأخرجه عن أبي رزين ابن سعد ٨/ ١٩٦ . وعن عكرمة الطبري ١٩/ ١٤٩ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٤ .

(٥) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥٩١ .

(٦) أخرجه بنحوه عن مجاهد ابن سعد ٨/ ١٩٥ - ١٩٦ ، والطبري ١٩/ ١٥١ ، وذكره ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١٥٥٩ .

السابع: أنَّ النبيَّ ﷺ كان له حلالٌ أن يتزوَّج مَن شاء ثم نُسخ ذلك. قال: وكذلك كانت الأنبياء قبله ﷺ؛ قاله محمد بن كعب القُرَظِيّ(١).

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ قال ابن زيد: هذا شيءٌ كانت العرب تفعلُه؛ يقول أحدُهم: خُذْ زوجتي وأعطني زوجتَك(٢)، روى الدَّارَقُطْنِيُّ عن أبي هريرةَ قال: كان البَدَلُ في الجاهلية أنْ يقول الرجل للرجل: تَنْزِلُ لي عن امرأتك، وأنزل لك عن امرأتي وأزيدُك، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ قال: فدخل عُيينةُ بن حِصْن الفَزَاريُّ على رسول الله ﷺ وعنده عائشةُ، فدخل بغير إذنٍ، فقال له رسول الله ﷺ: «يا عُيينةُ، فأين الاستئذانُ؟» فقال: يا رسول الله، ما استأذنتُ على رجلٍ من مُضَرَ منذ أدركت. قال: مَن هذه الحُميراء إلى جنبك؟ فقال رسول الله ﷺ: «هذه عائشةُ أمُّ المؤمنين» قال: أفلا أنزل لك عن أحسن الخَلْق. فقال: «يا عُيينةُ، إنَّ الله قد حرَّم ذلك». قال: فلمَّا خرج قالت عائشة: يا رسول الله، مَن هذا؟ قال: «أحمقُ مطاعٌ، وإنَّه على ما تَرَيْنَ لَسيِّدُ قومِه»(٣).

وقد أنكر الطبريُّ والنحَّاس وغيرُهما ما حكاه ابن زيد عن العرب، من أنَّها كانت تُبادِلُ بأزواجها(٤). قال الطبريّ(٥): وما فعلتِ العربُ قطُّ هذا، وما رُوي من حديث عيينةَ بن حِصن من أنَّه دخل على رسول الله ﷺ وعنده عائشة... الحديث، فليس بتبديلٍ، ولا أراد ذلك، وإنَّما احتقر عائشةَ لأنَّها كانت صبيةً، فقال هذا القول.

---

(١) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥٩٢ .

(٢) أخرجه الطبري ١٩/ ١٥٢ ، وذكره النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٩١ - ٥٩٢ .

(٣) سنن الدارقطني (٣٥١٣)، وأخرجه أيضاً البزار (٢٢٥١ - كشف). وهو من طريق إسحاق بن عبد الله ابن أبي فروة، عن زيد بن أسلم، عن عطاء، عن أبي هريرة ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٩٢ : فيه إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة، وهو متروك. اهـ. وكذا قال فيه الحافظ ابن حجر في تقريب التهذيب، وتنظر أقوال الأئمة في تكذيبه وتركه في تهذيب التهذيب ١/ ١٢٣ .

(٤) تفسير الطبري ١٩/ ١٥٣ ، والناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥٩٢ .

(٥) هذا قول ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٤ ، وليس قول الطبري.

قلت: وما ذكرناه من حديث زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي هريرةَ، من أنَّ البَدَلَ كان في الجاهلية، يدلُّ على خلافِ ما أنكرا من ذلك، والله أعلم[١].

قال المبرِّد: وقرئ: «لا يَحِلُّ» بالياء والتاء. فَمَن قرأ بالتاء؛ فعلى معنى جماعةِ النساء، وبالياء من تحت على معنى جميع النساء. وزعم الفرَّاء قال: اجتمعت القُرَّاء على القراءة بالياء. وهذا غلطٌ، وكيف يقال: اجتمعت القراء، وقد قرأ أبو عمرو بالتاء بلا اختلافٍ عنه؟![٢]

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ قال ابن عباس: نزل ذلك بسبب أسماءَ بنتِ عُمَيس؛ أعجب رسولَ الله ﷺ - حين مات عنها جعفر بن أبي طالبٍ - حُسنُها، فأراد أن يتزوَّجها، فنزلت الآية. وهذا حديثٌ ضعيفٌ؛ قاله ابن العربيّ[٣].

الرابعة: في هذه الآية دليلٌ على جواز أن ينظر الرجل إلى مَن يريد زواجَها. وقد أراد المغيرة بنُ شُعبةَ زواجَ امرأةٍ، فقال له النبيُّ ﷺ: «انظر إليها، فإنه أَجْدَرُ أن يُؤْدَمَ بينكما»[٤]. وقال عليه الصلاة والسلام لآخَرَ: «انظُرْ إليها، فإنَّ في أعين الأنصار شيئاً» أخرجه الصحيح[٥]. قال الحميديُّ وأبو الفرج الجوزيُّ: يعني صِغَراً أو زَرَقاً. وقيل: رَمَصاً[٦].

الخامسة: الأمرُ بالنظر إلى المخطوبة إنَّما هو على جهةِ الإرشادِ إلى المصلحة؛

---

(١) لا حجة للمصنف في قوله هذا، فإن راوي الحديث عن زيد هو إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة، وهو متروك كما سلف ذكره.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٢٢، وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣٤٦. وقراءة أبي عمرو في السبعة ص٥٢٣، والتيسير ص١١٩.

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١٥٥٨، وقد ذكر ابن العربي الخبر دون نسبة، وأورده عن ابن عباس البغوي ٣/ ٥٣٩.

(٤) أخرجه أحمد (١٨١٣٧)، والترمذي (١٠٨٧)، والنسائي في المجتبى ٦/ ٦٩ - ٧٠، وابن ماجه (١٨٦٦) من حديث أنس ﷺ. قال الترمذي: هذا حديث حسن. قوله: أن يؤدم بينكما، أي: يوفَّق ويؤلَّف. شرح سنن ابن ماجه للسندي ١/ ٥٧٥.

(٥) صحيح مسلم (١٤٢٤)، وهو عند أحمد (٧٨٤٢)، وهو من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٦) المفهم ٤/ ١٢٧، دون ذكر الحميدي، وقول الحميدي في مسنده إثر الحديث (١١٧٢). والرَّمَص: وسخ أبيض يجتمع في المُوق. القاموس (رمص).

فإنه إذا نظر إليها فلعلَّه يرى منها ما يرغِّبه في نكاحها. ومما يدلُّ على أنَّ الأمر على جهةِ الإرشادِ، ما ذكره أبو داودَ من حديث جابرٍ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إذا خَطَبَ أحدُكم المرأة، فإن استطاعَ أنْ ينظُرَ منها إلى ما يَدْعوهُ إلى نِكاحِها فَلْيَفْعَلْ»[١]. فقوله: «فإن استطاعَ فَلْيَفْعَلْ» لا يقالُ مثلُه في الواجب. وبهذا قال جمهورُ الفقهاءِ مالكٌ والشافعيُّ والكوفيُّون وغيرُهم وأهلُ الظاهر. وقد كره ذلك قومٌ لا مبالاةَ بقولهم؛ للأحاديث الصحيحة[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾. قال سهل بن أبي حَثْمَةَ: رأيتُ محمد بنَ مَسْلَمةَ يطارد ثُبَيْتَةَ[٣] بنتَ الضحاك على إجَّارٍ من أجاجير المدينة، فقلتُ له: أتفعلُ هذا؟ فقال: نعم، قال النبيُّ ﷺ: «إذا أَلْقَى الله في قلبِ أَحَدِكُم خِطْبَةَ امرأةٍ فلا بأسَ أنْ ينظُرَ إليها»[٤]. الإجَّار: السَّطْح بلُغةِ أهلِ الشَّام والحجاز. قال أبو عبيد[٥]: وجمعُ الإجَّارِ: أجاجيرُ وأَجَاجِرةٌ.

السادسة: اختُلف فيما يجوز أن ينظر منها؛ فقال مالكٌ: ينظر إلى وجهها وكفَّيها، ولا ينظر إلَّا بإذنها. وقال الشافعيُّ وأحمد: بإذنها وبغير إذنها إذا كانت مستترةً[٦]. وقال الأوزاعيُّ: ينظر إليها ويجتهد وينظر مَواضِعَ اللحم منها. وقال داود: ينظر إلى سائر جسدها؛ تمسُّكاً بظاهر اللفظ. وأصولُ الشريعةِ تردُّ عليه في تحريم الاطِّلاع على العَوْرة[٧]. والله أعلم.

---

(١) سنن أبي داود (٢٠٨٢)، وهو عند أحمد (١٤٥٨٦)، والكلام من المفهم ٤/ ١٢٥ .

(٢) المفهم ٤/ ١٢٥ - ١٢٦ .

(٣) في (د) بثينة، وفي (ظ): ببثينة. قال الحافظ في الإصابة ١٢/ ١٩٩ : المشهور أنها بالمثلثة. قاله أبو موسى.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٤ ، وأخرجه بهذا اللفظ المزي في تهذيب الكمال ٢٥/ ٣٠٢ (في ترجمة محمد ابن سليمان بن أبي حثمة)، وبنحوه أحمد (١٦٠٢٨) وابن حبان (٤٠٤٢)، وإسناده ضعيف، غير أن مرفوعه يصحُّ بشواهده.

(٥) في غريب الحديث ١/ ٢٧٦ .

(٦) في (ظ): متسترة.

(٧) المفهم ٤/ ١٢٦ .

السابعة: قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ اختلف العلماء في إحلالِ الأَمَة الكافرة للنبيِّ ﷺ على قولين:

أحدهما: تَحِلُّ؛ لعمومِ قوله: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾. قاله مجاهدٌ وسعيد بنُ جبير وعطاءٌ والحكم؛ قالوا: قولُه تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ أي: لا تَحِلُّ لك النساءُ من غير المسلمات، فأمَّا اليهودياتُ والنّصرانياتُ والمشركاتُ فحرامٌ عليك، أي: لا يَحِلُّ لك أن تتزوَّج كافرةً فتكونَ أُمًّا للمؤمنين ولو أعجبك حُسْنُها، إلَّا ما مَلَكَتْ يمينك، فإنَّ له أن يتسرَّى بها(١).

القولُ الثاني: لا تَحِلُّ؛ تنزيهاً لقَدْرِه عن مباشرةِ الكافرة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠]، فكيف به ﷺ؟!

و «ما» في قوله: «إلَّا ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ» في موضعِ رفعِ بدلٍ من «النساء». ويجوزُ أن تكون في موضعِ نصبٍ على الاستثناء، وفيه ضَعْفٌ. ويجوز أن تكون مصدريةً، والتقدير: إلَّا مِلْكَ يمينِك، ومِلك بمعنى مملوك، وهو في موضع نصبٍ لأنه استثناءٌ من غير الجنس الأول(٢).

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾

فيه ستَّ عَشْرةَ مسألة:

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٣٦٩ - ٣٧٠ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٤ . وتُعقِّب بأنه إذا كان بمعنى مملوك صار من جملة النساء، فلا يكون منقطعاً، ويكون الرفع أرجح. ينظر البحر ٧/ ٢٤٥ ، والدر المصون ٩/ ١٣٨ .

الأولى: قوله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ «أنْ» في موضعِ نصبٍ على معنى: إلَّا بأن يؤذَنَ لكم، ويكون الاستثناء ليس من الأول. ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾ نصبٌ على الحال، أي: لا تدخلوا في هذه الحال. ولا يجوزُ في «غَيْر» الخفضُ على النَّعت للطعام؛ لأنَّه لو كان نعتاً لم يكن بدٌّ من إظهار الفاعِلِينَ، وكان يقول: غير ناظرين إناه أنتم. ونظيرُ هذا من النحو: هذا رجلٌ مع رجلٍ مُلازِمٌ له، وإن شئتَ قلت: هذا رجلٌ مع رجلٍ ملازمٍ له هو[١].

وهذه الآيةُ تضمَّنَتْ قصَّتين[٢]: إحداهما: الأدبُ في أمر الطعام والجلوس. والثانية: أمرُ الحجاب. وقال حماد بن زيد: هذه الآيةُ نزلت في الثُّقلاء[٣].

فأمَّا القصةُ الأولى فالجمهورُ من المفسِّرين على أنَّ سببها: أنَّ رسول الله ﷺ لمَّا تزوَّج زينبَ بنتَ جحش امرأةَ زيد أَوْلَمَ عليها، فدعا الناس، فلمَّا طَعِموا جلس طوائفُ منهم يتحدَّثون في بيت رسول الله ﷺ وزوجتُه موَلِّيةٌ وجهَها إلى الحائط، فثَقُلوا على رسول الله ﷺ. قال أنس: فما أدري أأنا أخبرتُ النبيَّ ﷺ أنَّ القوم قد خرجوا، أو أخبرني. قال: فانطلَقَ حتى دخل البيت، فذهبتُ أَدخلُ معه، فألْقَى السِّتْرَ بيني وبينَه ونزل الحجاب. قال: ووُعِظَ القومُ بما وُعظوا به، وأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ أخرجه الصحيح[٤].

وقال قتادةُ ومقاتلٌ في كتاب الثعلبيِّ: إنَّ هذا السببَ جرى في بيت أمِّ سلمة[٥]. والأوّلُ الصحيح، كما رواه الصحيح.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٢٣.

(٢) في (ظ): قضيتين.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ٢١٤ عن سليمان بن أرقم.

(٤) صحيح البخاري (٤٧٩١)، وصحيح مسلم (١٤٢٨)، وهو عند أحمد (١٢٠٢٣).

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٥، وأخرجه عن قتادة الطبري ١٩/ ١٦٦.

وقال ابن عباس: نزلت في ناسٍ من المؤمنين كانوا يتحيَّنُون طعامَ النبيِّ ﷺ، فيدخلون قبل أن يُدْرِكَ الطعامُ، فيقعدون إلى أن يدرِك، ثم يأكلون ولا يخرجون[١].

وقال إسماعيل بن أبي حكيم[٢]: وهذا أدبٌ أدَّبَ الله به الثُّقلاء. وقال ابن أبي عائشةَ في كتاب الثعلبيِّ: حَسْبُكَ من الثُّقلاءِ أنَّ الشَّرعَ لم يَحتَمِلْهم[٣].

وأمَّا قصةُ الحجابِ فقال أنس بن مالك وجماعةٌ: سببُها أمرُ القعودِ في بيتِ زينَب، القصةُ المذكورةُ آنفاً. وقالت عائشةُ رضي الله عنها وجماعةٌ: سببُها أنَّ عمر قال: قلتُ: يا رسول الله، إنَّ نساءك يَدْخلُ عليهنَّ البَرُّ والفاجِرُ، فلو أمرتَهنَّ أن يَحتجِبْنَ، فنزلت الآية[٤]. وروى الصحيح عن ابن عمر قال: قال عمر: وافقتُ ربِّي في ثلاث: في مقام إبراهيم، وفي الحجاب، وفي أسارى بدر[٥].

هذا أصحُّ ما قيل في أمر الحجاب، وما عدا هذين القولين من الأقوال والرواياتِ فواهيةٌ، لا يقوم شيءٌ منها على ساق، وأضعفُها ما روي عن ابن مسعود: أنَّ عمر أمر نساء النبيِّ ﷺ بالحجاب، فقالت زينب بنت جحش: يا ابن الخطاب، إنك تَغارُ علينا والوحيُ ينزل في بيوتنا! فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ﴾[٦] وهذا باطلٌ؛ لأنَّ الحجاب نزل يومَ البناء بزينب، كما

(١) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٥.

(٢) القُرشيُّ مولاهم، المدني، كان عاملاً لعمر بن عبد العزيز، توفِّي سنة (١٣٠هـ). التهذيب ١/ ١٤٦. وقوله في المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٥.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٥، وابن أبي عائشة هو موسى.

(٤) هو قطعة من حديث أنس ﷺ عند أحمد (١٥٧)، والبخاري (٤٠٢)، وسيأتي في المسألة الثامنة. وأخرجه عن عائشة بمعناه أحمد (٢٥٨٦٦)، والبخاري (١٤٦)، ومسلم (٢١٧٠)، وسيأتي حديث عائشة رضي الله عنها في المسألة السادسة عشرة.

(٥) صحيح مسلم (٢٣٩٩).

(٦) أخرجه أحمد (٤٣٦٢) مطولاً، والطبري ١٩/ ١٦٥ و١٦٩. والكلام من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٦٣.

بيَّناه. أخرجه البخاريُّ ومسلم والترمذيُّ وغيرهم[١].

وقيل: إنَّ رسول الله ﷺ كان يَطْعَمُ ومعه بعضُ أصحابه، فأصابت يَدُ رجلٍ منهم يدَ عائشةَ، فكره النبيُّ ﷺ، فنزلت آيةُ الحجاب[٢].

قال ابن عطية[٣]: وكانت سيرةُ القوم إذا كان لهم طعامُ وليمةٍ أو نحوُه أن يبكِّر مَن شاء إلى الدعوة ينتظرون طَبْخَ الطعام ونُضْجَه. وكذلك إذا فرغوا منه جلسوا كذلك، فَنَهَى الله المؤمنين عن أمثالِ ذلك في بيت النبيِّ ﷺ، ودخل في النَّهي سائرُ المؤمنين، والتزم الناس أدبَ اللهِ تعالى لهم في ذلك، فَمَنَعهم من الدخول إلَّا بإذنٍ عند الأكل، لا قَبْلَه لانتظارِ نُضْجِ الطعام.

الثانية: قولُه تعالى: ﴿بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ دليلٌ على أنَّ البيت للرجل، ويُحكَم له به، فإنَّ الله تعالى أضافه إليه. فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٤] قلنا: إضافةُ البيوتِ إلى النبيِّ ﷺ إضافةُ مِلْكٍ، وإضافةُ البيوت إلى الأزواج إضافةُ مَحَلٍّ، بدليلِ أنه جعل فيها الإذنَ للنبيِّ ﷺ، والإذنُ إنَّما يكون للمالك[٤].

الثالثة: واختلف العلماء في بيوت النبيِّ ﷺ إذ كان يَسْكُن فيها أهلُه بعد موته؛ هل هي مِلكٌ لهنَّ أم لا؟ على قولين: فقالت طائفةٌ: كانت مِلكاً لهنَّ، بدليلِ أنهنَّ سَكَنَّ فيها بعد موتِ النبيِّ ﷺ إلى وفاتهنَّ، وذلك أنَّ النبيَّ ﷺ وهب ذلك لهنَّ في حياته.

الثاني: أنَّ ذلك كان إسكاناً كما يُسْكِنُ الرجلُ أهلَه، ولم يكن هبةً، وتَمادى

---

(١) صحيح البخاري (٤٧٩١)، وصحيح مسلم (١٤٢٨)، وسنن الترمذي (٣٢١٨)، وهو من حديث أنس ﷺ، وسلف قريباً.

(٢) أخرجه الطبري ١٩/ ١٦٧ ، والواحدي في أسباب النزول ص٣٧٩ عن مجاهد. وأخرج نحوه البخاري في الأدب المفرد (١٠٥٣) من طريق مجاهد عن عائشة.

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٥ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٦٣ .

سُكْناهنَّ بها إلى الموت[١]. وهذا هو الصحيح، وهو الذي ارتضاه أبو عمر بنُ عبد البَرِّ وابنُ العربيِّ وغيرهم[٢]، فإنَّ ذلك من مؤونتهنَّ التي كان رسول الله ﷺ استثناها لهنَّ، كما استثنى لهنَّ نفقاتِهنَّ حين قال: «لا تَقْتَسِم وَرَثَتِي ديناراً ولا درهماً، ما تركتُ بعد نفقةِ أهلي ومؤونةِ عاملي فهو صدقة»[٣]. هكذا قال أهلُ العلم، قالوا: ويدلُّ على ذلك أنَّ مساكنهنَّ لم يَرِثْها عنهنَّ وَرَثَتُهنَّ. قالوا: ولو كان ذلك مِلكاً لهنَّ كان لا شكَّ قد وَرِثَه عنهنَّ وَرَثَتُهنَّ. قالوا: وفي تَرْكِ وَرَثَتِهنَّ ذلك دليلٌ على أنَّها لم تكن لهنَّ مِلكاً، وإنَّما كان لهنَّ سُكْنى حياتَهنَّ، فلمَّا تُوُفِّينَ جُعل ذلك زيادةً في المسجد الذي يَعمُّ المسلمين نَفْعُه، كما جُعل ذلك [في] الذي كان لهنَّ من النفقات في تركة رسول الله ﷺ لمَّا مَضَيْنَ لسبيلهنَّ، فزيد إلى أصل المال، فصُرف في منافع المسلمين ممَّا يعمُّ جميعَهم نفعُه[٤]. والله الموفق.

قوله تعالى: ﴿غَيْرَ نَظِرِينَ إِنَنهُ﴾ أي: غيرَ مُنتظِرين وقتَ نُضْجِه. و«إِنَاهُ» مقصورٌ، وفيه لغات: «إِنًى» بكسر الهمزة؛ قال الشيبانيُّ[٥]:

وكِسْرَى إذ تقسَّمه بَنُوه ... بأسيافٍ كما اقْتُسِم اللِّحامُ
تَمخَّضَتِ المَنونُ له بيومٍ ... أَنَى ولكلِّ حاملةٍ تمامُ[٦]

---

(١) المصدر السابق.

(٢) التمهيد ٨/ ١٧٣، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٦٤.

(٣) أخرجه أحمد (٧٣٠٣)، والبخاري (٢٧٧٦)، ومسلم (١٧٦٠) من حديث أبي هريرة ﷺ، ووقع عندهم: نسائي، بدل: أهلي، وينظر ما سيأتي ص٢٢٩ من هذا الجزء. قال الحافظ في الفتح ٥/ ٤٠٦: المراد بالعامل هنا: القيِّمُ على الأرض والأجيرُ وغيرهما، أو الخليفةُ بعدَه.

(٤) التمهيد ٨/ ١٧٣ - ١٧٤، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٥) هو خالد بن حقٍّ الشيباني، كما في سيرة ابن هشام ١/ ٦٩.

(٦) سيرة ابن هشام ١/ ٦٩، ونُسب البيتان أيضاً لعمرو بن حسان أحد بني الحارث بن همام، كما في اللسان (حمل) و(مخض). وذكر صاحب جمهرة أشعار العرب ١/ ١٩٩ البيت الثاني ضمن قصيدة للنابغة الذبياني. قوله: أنى، أي: حان، ومصدره: إنًى. واللِّحام جمع اللحم. الصحاح (لحم) و(أنا).

وقرأ ابن أبي عبلةَ: «غيرِ ناظِرِينَ إِنَاه» مجروراً صفةً لـ «طعام». الزمخشريُّ: وليس بالوجه؛ لأنَّه جَرى على غيرِ ما هو له، فمِن حقِّ ضميرِ ما هو له أن يبرز إلى اللَّفظِ، فيقال: غيرِ ناظرين إناه أنتم، كقولك: هندٌ زيدٌ ضارِبَتُه هي[١].

وأَنَى - بفَتْحِها - وأَناءً بفتح الهمزة والمدّ؛ قال الحطيئة:

وأَخَّرتُ العَشاءَ إلى سُهَيْلٍ أو الشِّعْرَى فطالَ بيَ الأَناءُ[٢]

يعني: إلى طلوع سهيل. وإناه مصدرُ أَنَى الشيءُ يأني: إذا فَرَغَ وحان وأَدْرَكَ.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ﴾ فأكَّد المنعَ، وحَصَر[٣] وقتَ الدخولِ بأنْ يكونَ عند الإذنِ على جهةِ الأدب، وحِفْظِ الحَضْرَةِ الكريمة من المُبَاسَطَةِ المكروهة. قال ابن العربيِّ[٤]: وتقديرُ الكلام: ولكنْ إذا دُعيتم وأُذِنَ لكم في الدخول فادخلوا، وإلَّا فَنَفْسُ الدعوةِ لا تكون إذناً كافياً في الدخول. والفاءُ في جوابِ «إذا» لازمةٌ لِمَا فيها من معنى المجازاة.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ﴾ أمرَ تعالى بعدَ الطعامِ بأن يتفرَّق جَمْعُهم وينتشر[٥]. والمرادُ إلزامُ الخروجِ من المنزل عند انقضاءِ المقصودِ من الأكل. والدليلُ على ذلك أنَّ الدخول حرام، وإنَّما جاز لأَجْلِ الأَكْلِ، فإذا انقضى الأكلُ زالَ السبب المُبيحُ، وعاد التحريم إلى أصله[٦].

السادسة: في هذه الآيةِ دليلٌ على أنَّ الضيف يأكل على مِلْكِ المُضِيف، لا على

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٧١ ، وسلف نحو هذا الكلام في المسألة الأولى.

(٢) الصحاح وأساس البلاغة (أني) وفيه: وآنيت، بدل: وأخرت. وهو في الديوان ص٥٤ برواية: وآنيت العشاءَ... فطال بي العشاء.

(٣) في (د) و(ز) و(م): وخص.

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١٥٦٥ ، وما قبله منه.

(٥) في (د) و(م): بأن يتفرق جميعهم وينتشروا.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٦٦ .

مِلك نَفْسِه؛ لأنه قال: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا﴾ فلم يَجعل له أكثرَ من الأكل، ولا أضاف إليهم[١] سواه، وبقي الملكُ على أصله.

السابعة: قوله تعالى: ﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ عطفٌ على قوله: «غيرَ ناظِرِينَ» و«غَيْرَ» منصوبةٌ على الحال من الكاف والميم في «لكم»، أي: غيرَ ناظرين ولا مستأنسين[٢]. والمعنى المقصودُ: لا تَمكُثوا مُسْتَأنِسين بالحديث كما فعل أصحابُ رسول الله ﷺ في وليمة زينب. ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: لا يَمتنعُ من بيانه وإظهاره. ولمَّا كان ذلك يقع من البشر لِعِلَّةِ الاستحياء نفَى عن الله تعالى العلةَ الموجِبةَ لذلك في البشر. وفي الصحيح عن أمِّ سلمةَ قالت: جاءت أمُّ سُليم إلى النبيِّ ﷺ فقالت: يا رسول الله، إنَّ الله لا يستحيي من الحقّ، فهل على المرأة من غُسْلٍ إذا احْتَلَمَتْ؟ فقال رسول الله ﷺ: «إذا رَأَتِ الماءَ»[٣].

الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا﴾ الآيةَ. روى أبو داودَ الطَّيَالِسيُّ عن أنس بن مالك قال: قال عمر: وافقتُ ربي في أربع...، الحديثَ. وفيه: قلتُ يا رسولَ الله: لو ضَرَبْتَ على نسائك الحجابَ؛ فإنَّه يَدْخُلُ عليهنَّ البَرُّ والفاجِرُ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾[٤].

واختُلف في المتاع؛ فقيل: ما يُتَمتَّعُ به من العَوَاريِّ[٥]. وقيل: فَتْوَى. وقيل: صُحفُ القرآن. والصوابُ أنه عامٌّ في جميع ما يمكن أن يُطْلَب من المَوَاعين وسائرِ

---

(١) في (م): إليه، والمثبت من النسخ الخطية وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٦٥ ، والكلام منه.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٦ ، وسلف الكلام على «غير» أيضاً في المسألة الأولى والثالثة.

(٣) صحيح البخاري (١٣٠)، وصحيح مسلم (٣١٣)، وهو عند أحمد (٢٦٥٠٣).

(٤) مسند الطيالسي ص٩-١٠، وأخرجه أحمد (١٥٧)، والبخاري (٤٠٢) عن أنس بلفظ: وافقت ربي في ثلاث، فذكر ثلاثاً مما في حديث الطيالسي، منها ما ذكره المصنف في سبب نزول آيات الحجاب، وقد سلف نحوه في المسألة الأولى من حديث عمر ﷺ.

(٥) العواريُّ: مشدَّدة ومخففة جمع العاريَّة مشددة وقد تخفف: ما تداولوه بينهم. القاموس (عور).

المرافق للدِّين والدنيا.

التاسعة: في هذه الآيةِ دليلٌ على أنَّ الله تعالى أَذِنَ في مَسْأَلتهنَّ من وراء حجابٍ في حاجةٍ تَعْرِضُ، أو مسألةٍ يُستفتينَ فيها، ويَدخُلُ في ذلك جميعُ النساء بالمعنى، وبما تَضمَّنَتْه أصولُ الشريعةِ من أنَّ المرأةَ كلَّها عورةٌ، بدنَها وصوتَها، كما تقدَّم[(١)]، فلا يجوز كَشْفُ ذلك إلَّا لحاجةٍ، كالشهادة عليها، أو داءٍ يكون ببدنها، أو سؤالها عمَّا يَعْرِضُ وتعين عندها[(٢)].

العاشرة: استدلَّ بعضُ العلماء بأخذِ الناس عن أزواج النبيِّ ﷺ من وراء حجابٍ على جوازِ شهادةِ الأعمى، وبأنَّ الأعمى يطأ زوجته بمعرفته بكلامها، وعلى إجازة شهادته أكثرُ العلماء، ولم يُجِزْها أبو حنيفةَ والشافعيُّ وغيرهما؛ قال أبو حنيفة: تجوز في الأنساب[(٣)]. وقال الشافعيُّ: لا تجوز إلَّا فيما رآه قبل ذهابِ بَصَرِهِ.

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ يريد: من الخواطر التي تَعْرِضُ للرجال في أمر النساء، وللنساء في أمر الرجال[(٤)]، أي: ذلك أَنْفَى للريبةِ وأَبْعَدُ للتُّهمة وأقوى في الحماية. وهذا يدلُّ على أنه لا ينبغي لأحدٍ أن يثقَ بنفسه في الخلوة مع مَن لا تَحِلُّ له؛ فإنَّ مُجانبةَ ذلك أحسنُ لحاله، وأَحْصَنُ لنفسه، وأَتمُّ لِعصْمَتِه[(٥)].

الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ الآيةَ، هذا تكرارٌ للعلَّة وتأكيدٌ لحكمِها، وتأكيدُ العللِ أقوى في الأحكام.

---

(١) ١٨٣/٧، و١٢/٢٣٧.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٥٦٧، وفيه: ويعن، بدل: وتعين.

(٣) قال ابن حزم في المحلى ٩/٤٣٣: ولا يعرف أصحابه هذه الرواية. وذَكَر أن هذا هو قول زفر، ثم ذكر عن أبي حنيفة أنه قال في شهادة الأعمى: لا تقبل في شيء أصلاً. وهذا القول هو الذي ذكره الجصاص في أحكام القرآن ١/٤٩٨ عن أبي حنيفة ومحمد.

(٤) المحرر الوجيز ٤/٣٩٦.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٥٦٧.

الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ﴾ روى إسماعيل ابن إسحاق قال: حدَّثنا محمد بن عبيد قال: حدَّثنا محمد بن ثور، عن معمر، عن قتادة، أنَّ رجلاً قال: لو قُبض رسول الله ﷺ تزوَّجتُ عائشةَ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ الآيةَ، ونزلت: ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾ [الأحزاب:٦][١].

وقال القُشَيْرِيُّ أبو نصرٍ عبدُ الرحيم: قال ابن عباس: قال رجلٌ من سادات قريشٍ - من العشرة الذين كانوا مع رسول الله ﷺ على حِراء - في نفسه: لو تُوفِّي رسول الله ﷺ لتزوَّجتُ عائشةَ، وهي بنتُ عمِّي[٢]. قال مقاتلٌ: هو طلحةُ بن عبيد الله[٣]. قال ابن عباس: وندم هذا الرجلُ على ما حدَّث به في نفسه، فمشى إلى مكةَ على رجليه، وحَملَ على عشرة أَفْراسٍ في سبيل الله، وأَعْتقَ رقيقاً، فكفَّر الله عنه[٤].

وقال ابن عطية[٥]: روي أنَّها نزلت بسبب أنَّ بعض الصحابة قال: لو مات رسول الله ﷺ لتزوَّجتُ عائشةَ، فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ فتأذَّى به، هكذا كَنَى عنه ابنُ عباس ببعض الصحابة. وحكى مكِّي عن معمر أنه قال: هو طلحةُ بن عبيدُ الله.

قلت: وكذا حكى النحاس[٦] عن معمرٍ أنه طلحة. ولا يصحُّ؛ قال ابن عطية[٧]: لله دَرُّ ابنِ عباس! وهذا عندي لا يصحُّ على طلحةَ بنِ عبيد الله.

قال شيخنا الإمامُ أبو العباس[٨]: وقد حُكي هذا القولُ عن بعض فُضَلاءِ

---

(١) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٢٢ عن معمر به، دون قوله: ونزلت ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾.

(٢) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٣٧٩ مختصراً وبنحوه أخرجه ابن أبي حاتم، كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية.

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٤٨٠ .

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢١٤ - ٢١٥ بنحوه مطولاً وعزاه للطبري، ولم نقف عليه في تفسير الطبري.

(٥) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٦ .

(٦) في معاني القرآن ٥/ ٣٧٣ .

(٧) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٦ .

(٨) في المفهم ٤/ ١٤٩ .

الصحابة، وحاشاهم عن مثله! وإنَّما الكذبُ[١] في نَقْلِه، وإنَّما يليقُ مثلُ هذا القولِ بالمنافقين الجُهَّال.

يُروى أنَّ رجلاً من المنافقين قال حين تزوَّج رسول الله ﷺ أمَّ سلمةَ بعد أبي سلمةَ، وحفصةَ بعد خُنيس بن حُذافة: ما بالُ محمدٍ يتزوَّج نساءنا! والله لو قد مات لأَجَلْنا[٢] السهامَ على نسائه، فنزلت الآيةُ في هذا، فحرَّم الله نكاحَ أزواجِهِ مِن بَعْدِه، وجَعَلَ لهنَّ حُكْمَ الأمَّهات[٣]. وهذا من خصائصه تمييزاً لشرفه وتنبيهاً على مرتبته ﷺ. قال الشافعيُّ رحمه الله: وأزواجهُ ﷺ اللاتي مات عنهنَّ لا يَحِلُّ لأحدٍ نكاحُهنَّ، ومَن استَحَلَّ ذلك كان كافراً؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾.

وقد قيل: إنَّما مَنع من التزوُّج بزوجاته؛ لأنَّهنَّ أزواجُه في الجنة، وأنَّ المرأة في الجنة لآخِرِ أزواجِها؛ قال حذيفةُ لامرأته: إنْ سَرَّكِ أن تكوني زوجتي في الجنة إنْ جَمَعَنا الله فيها فلا تَزَوَّجي من بعدي؛ فإنَّ المرأة لآخِرِ أزواجِها[٤]. وقد ذكرنا ما للعلماء في هذا في «كتاب التذكرة» من أبواب الجنة[٥].

الرابعة عشرة: اختلف العلماء في أزواج النبيِّ ﷺ بعد موته؛ هل بَقِيْنَ أزواجاً أم زالَ النكاحُ بالموت، وإذا زال النكاحُ بالموت فهل عليهنَّ عِدةٌ أم لا؟ فقيل: عليهنَّ العِدَّةُ؛ لأنه تُوُفِّيَ عنهنَّ، والعِدَّةُ عبادةٌ. وقيل: لا عِدَّةَ عليهنَّ؛ لأنَّها مدةُ تربُّصٍ لا يُنتظَر بها الإباحة. وهو الصحيح؛ لقوله عليه الصلاةُ والسلام: «ما تركتُ بعد نفقةِ

---

(١) في (ظ): وإنما الوهم والكذب.

(٢) الإجالةُ: الإدارة، يقال في الميسر: أَجِلِ السهام، وأجال السهامَ بين القوم: حرَّكها وأفضى بها في القسمة. اللسان. (جول).

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٦ .

(٤) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٧/ ٦٩ .

(٥) ص٤٨١ - ٤٨٢ .

عيالي» وروي: «أهلي»[١]، وهذا اسمٌ خاصٌّ بالزوجيَّة، فأَبْقَى عليهنَّ النفقةَ والسُّكنى مدةَ حياتِهنَّ لكونهنَّ نساءَه، وحرمنَ على غيره، وهذا هو معنى بقاءِ النكاح. وإنَّما جُعل الموتُ في حقِّه عليه الصلاة والسلام لهنَّ بمنزلةِ المغيَّبِ في حقِّ غيره؛ لكونهنَّ أزواجاً له في الآخرة قطعاً بخلافِ سائرِ الناس؛ لأنَّ الرجل لا يُعلَم كونُه مع أهله في الدار الآخرة[٢] في دارٍ واحدة، فربَّما كان أحدُهما في الجنة والآخَرُ في النار، فبهذا انقطع السببُ في حقِّ الخَلْقِ وبقي في حقِّ النبيِّ ﷺ، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «زوجاتي في الدنيا هنَّ زوجاتي في الآخرة»[٣]. وقال عليه الصلاة والسلام: «كلُّ سببٍ ونَسَبٍ ينقطع إلَّا سببي ونسبي، فإنَّه باقٍ إلى يوم القيامة»[٤].

فرع: فأمَّا زوجاتُه عليه الصلاة والسلام اللاتي فارَقَهنَّ في حياته مثلَ الكَلْبية وغيرها؛ فهل كان يَحلُّ لغيره نكاحُهن؟ فيه خلاف. والصحيح جوازُ ذلك؛ لِمَا روي أنَّ الكلبيةَ التي فارقها رسول الله ﷺ تزوَّجها عكرمة بنُ أبي جهل على ما تقدَّم[٥]. وقيل: إنَّ الذي تزوَّجها الأشعثُ بن قيس الكِنْديّ. قال القاضي أبو الطيِّب: الذي تزوَّجها مُهاجِر بنُ أبي أميَّة[٦]، ولم ينكر ذلك أحدٌ، فدلَّ على أنه إجماع.

الخامسة عشرة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ يعني أَذِيَّةَ رسولِ الله ﷺ، أو نكاحَ أزواجه، فجعل ذلك من جملة الكبائر ولا ذنبَ أعظمُ منه.

السادسة عشرة: قد بيَّنَّا سببَ نزولِ الحجاب من حديث أنس وقولِ عمر، وكان

---

(١) أخرجه بالرواية الأولى ابن حبان (٦٦٠٩)، وبالثانية الشافعي في المسند ٢/ ١٩٠ . وأخرجه أحمد (٧٣٠٣)، والبخاري (٢٧٧٦)، ومسلم (١٧٦٠) بلفظ: نفقة نسائي، وسلف ص٢٠٥ من هذا الجزء. والكلام من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٦٧ .

(٢) قوله: في الدار الآخرة، من (ظ).

(٣) سلف ص٦٦ من هذا الجزء.

(٤) سلف ٥/ ١٥٩ .

(٥) ص١٢٥ من هذا الجزء.

(٦) القرشيُّ المخزوميُّ، أخو أمِّ سلمةَ زوجِ النبيِّ ﷺ، ولَّاه النبيُّ ﷺ على صدقات صنعاء، ثم ولَّاه أبو بكر ﷺ، وقاتل أهلَ الردَّة. الإصابة ٩/ ٢٩٤ .

يقول لسَوْدةَ إذا خرجت ـ وكانت امرأةً طويلة ـ: قد رأيناكِ يا سودةُ، حرصاً على أن ينزل الحجاب، فأنزل الله آيةَ الحجاب(١). ولا بُعْدَ في نزول الآية عند هذه الأسبابِ كلِّها، والله أعلم. بَيْدَ أنه لمَّا ماتت زينب بنتُ جحش قال: لا يشهد جنازَتها إلَّا ذو مَحْرَمٍ منها؛ مُراعاةً للحجاب الذي نزل بسببها. فدلَّته أسماء بنت عُميس على سترها في النَّعْش في القُبَّة، وأعْلَمَتْه أنَّها رأَتْ ذلك في بلاد الحبشة، فصَنعَه عمر(٢). وروي أنَّ ذلك صُنع في جنازةِ فاطمةَ بنتِ النبيِّ ﷺ(٣).

قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾

الباريُ سبحانه وتعالى عالمٌ بما بدا وما خَفي، وما كان وما لم يكن، لا يَخْفَى عليه ماضٍ تَقَضَّى، ولا مستقبَلٌ يأتي. وهذا على العموم تمدُّحٌ به، وهو أهلُ المَدْحِ والحمد. والمرادُ به هاهنا التوبيخُ والوعيدُ لمن تقدَّم التعريضُ به في الآية قَبْلَها، ممَّن أُشيرَ إليه بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾، ومَن أُشيرَ إليه في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ فقيل لهم في هذه الآيةِ: إنَّ الله تعالى يَعْلَم ما تُخفون من هذه المعتَقدات والخواطِرِ المكروهةِ ويُجازيكم عليها(٤). فصارت هذه الآيةُ مُنْعَطِفَةً على ما قَبْلَها مبيِّنةً لها. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

---

(١) أخرجه أحمد (٢٥٨٦٦)، والبخاري (١٤٦)، ومسلم (٢١٧٠) من حديث عائشة رضي الله عنها. وينظر ما سلف في المسألة الأولى في سبب نزول الحجاب.

(٢) بنحوه في السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٧٢، وتهذيب الأسماء للنووي. ٢/ ٣٤٥ - ٣٤٦.

(٣) أخرجه ابن سعد ٨/ ٢٨، والبيهقي في السنن الكبرى ٤/ ٣٤.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٩٦ - ٢٩٧.

الأولى: لمَّا نزلت آيةُ الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب لرسول الله ﷺ: ونحن أيضاً نكلِّمهنَّ من وراء حجاب؟ فنزلت هذه الآية[(١)].

الثانية: ذكر الله تعالى في هذه الآية مَن يَحِلُّ للمرأة البُروزُ له، ولم يذكر العمَّ والخال لأنهما يَجريان مجرى الوالدين. وقد يسمَّى العمُّ أباً؛ قال الله تعالى: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ [البقرة: ١٣٣] وإسماعيلُ كان العمَّ[(٢)].

قال الزجَّاج: العمُّ والخال ربَّما يَصِفَان المرأةَ لولديهما، فإنَّ المرأة تَحِلُّ لابن العمِّ وابن الخال، فكُره لهما الرؤية[(٣)]؛ وقد كَرِه الشعبيُّ وعكرمةُ أن تضع المرأة خمارَها عند عمِّها أو خالها[(٤)]. وقد ذُكر في هذه الآيةِ بعضُ المحارِم وذُكر الجميعُ في سورة النور، فهذه الآيةُ بعضُ تلك، وقد مضى الكلامُ هناك مستوفًى[(٥)]، والحمد لله.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ لمَّا ذكر الله تعالى الرخصةَ في هذه الأصناف وانجزمت الإباحةُ، عَطَفَ بأمرهنَّ بالتقوى عَطْفَ جملةٍ. وهذا في غاية البلاغة والإيجاز، كأنه قال: اقْتَصِرْنَ على هذا واتَّقِيْنَ اللهَ فيه أنْ تتعدَّيْنَه إلى غيره. وخَصَّ النساءَ بالذِّكر وعيَّنهنَّ في هذا الأمر؛ لقلَّةِ تَحفُّظِهنَّ وكَثْرةِ استرسالهنَّ. والله أعلم. ثم توعَّد تعالى بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾

هذه الآيةُ شرَّف الله بها رسولَه عليه الصلاة والسلام حياتَه وموتَه، وذَكَر منزلته منه، وطهَّر بها سوءَ فِعْلِ مَن استَصْحَبَ في جهته فكرةَ سوءٍ، أو في أمر زوجاتِه ونحوِ

(١) الوسيط ٣/ ٤٨٠، والكشاف ٣/ ٢٧٢، وذكر نحوه الفراء في معاني القرآن ٢/ ٣٤٩.
(٢) الكشاف ٣/ ٢٧٢.
(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٣٦.
(٤) أخرجه عنهما الطبري ١٩/ ١٧٣، وقوله: تضع المرأةُ خِمارَها، أي: تخلعه.
(٥) ١٥/ ٢٠٨.

ذلك[١]. والصلاةُ من الله رحمتُه ورضوانه، ومن الملائكة الدعاءُ والاستغفار، ومن الأمَّة الدعاءُ والتعظيمُ لأمره.

مسألة: واختلف العلماء في الضمير في قوله: «يُصَلُّونَ» فقالت فرقةٌ: الضميرُ فيه لله والملائكة، وهذا قولٌ من الله تعالى شرَّف به ملائكته، فلا يَصْحَبُه الاعتراضُ الذي جاء في قول الخطيب: مَن يُطِع اللهَ ورسولَه فقد رَشَد، ومَن يَعْصِهما فقد غَوَى. فقال له رسول الله ﷺ: «بئسَ الخطيبُ أنتَ، قُلْ: ومَن يَعْصِ اللهَ ورسولَه» أخرجه الصحيح[٢]. قالوا: لأنَّه ليس لأحدٍ أن يجمع ذِكْرَ اللهِ تعالى مع غيره في ضمير، ولله أن يفعل في ذلك ما يشاء.

وقالت فرقة: في الكلام حَذْفٌ، تقديرُه: إنَّ الله يصلِّي وملائكته يصلُّون، وليس في الآية اجتماعٌ في ضمير.

[وقالت فرقة: بل جَمَعَ الله تعالى الملائكةَ مع نَفْسِه في ضمير] وذلك جائزٌ للبشرِ فِعْلُه. ولم يَقُلْ رسول الله ﷺ: «بئس الخطيبُ أنت» لهذا المعنى، وإنَّما قاله لأنَّ الخطيب وقف على: ومَن يَعْصِهما، وسَكَت سكتة[٣]. واستدلُّوا بما رواه أبو داود عن عديّ بن حاتم: أنَّ خطيباً خَطَبَ عند النبيِّ ﷺ فقال: مَن يُطِع اللهَ ورسولَه ومَن يَعْصِهما. فقال: «قُم ـ أو اذهب ـ بئس الخطيبُ أنت»[٤]. إلَّا أنه يحتمل أن يكون لمَّا خطَّأه في وَقْفِه وقال له: «بئس الخطيبُ». أَصْلَح له بعد ذلك جميعَ كلامه، فقال: «قُلْ: ومَن يَعْصِ اللهَ ورسولَه» كما في كتاب مسلم. وهو يؤيِّد القولَ الأوّلَ بأنَّه لم

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٧.

(٢) صحيح مسلم (٨٧٠)، وهو عند أحمد (١٨٢٤٧)، وهو من حديث عدي بن حاتم ﷺ. والكلام من المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٧.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٧ - ٣٩٨، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) سنن أبي داود (١٠٩٩) و(٤٩٨١)، وهو عند أحمد (١٩٣٨٣). وقد ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٨، وأبو العباس في المفهم ٢/ ٥١٠ دليلاً آخر، وهو حديث ابن مسعود ﷺ عند أبي داود (١٠٩٧) و(٢١١٩): أن النبي ﷺ خطب فقال: «مَنْ يُطع الله ورسوله فقد رشد، ومَن يعصهما فإنه لا يضر إلا نفسه...» فجمع ذكر الله تعالى مع رسوله في ضمير واحد.

يقف على «ومَن يَعْصِهِما».

وقرأ ابن عباس: «وملائكتُه» بالرفع على موضعِ اسمِ اللهِ قبلَ دخولِ «إنَّ». والجمهورُ بالنصب عطفاً على المكتوبة[١].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ **فيه خمسُ مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ أمَر الله تعالى عبادَه بالصلاة على نبيِّه محمدٍ ﷺ دون أنبيائه تشريفاً له، ولا خلافَ في أنَّ الصلاةَ عليه فرضٌ في العمرِ مرةً، وفي كلِّ حينٍ من الواجبات وجوبَ السُّنَنِ المؤكَّدةِ التي لا يسعُ تَرْكُها ولا يُغْفِلُها إلَّا مَن لا خيرَ فيه. الزَّمَخْشَريُّ[٢]: فإن قلتَ: الصلاةُ على رسول الله ﷺ واجبةٌ، أم مندوبٌ إليها؟ قلتُ: بل واجبةٌ. وقد اختلفوا في حال وجوبِها؛ فمنهم مَن أوْجَبَها كلَّما جرى ذكره. وفي الحديث: «مَن ذُكِرْتُ عنده فلم يُصَلِّ عَليَّ فدخل النار، فأَبْعَده الله»[٣].

ويُروى أنه قيل له: يا رسول الله، أرأيتَ قولَ الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ فقال النبيُّ ﷺ: «هذا من العلم المكنون، ولولا أنَّكم سألتُموني عنه ما أخبرتُكم به، إنَّ الله تعالى وكَّل بي مَلَكين فلا أُذْكَر عند مسلم فيصلِّي عليَّ إلَّا قال ذانك المَلَكَان: غفر الله لك، وقال الله تعالى وملائكتُه جواباً لِذَيْنِك المَلَكين: آمين. ولا أُذْكَر عند عبدٍ مسلمٍ فلا يصلِّي عليَّ إلَّا قال ذانك المَلَكَان: لا غَفَرَ الله لك، وقال الله تعالى وملائكتُه لِذَيْنِك المَلَكَين: آمين»[٤].

ومنهم مَن قال: تجب في كلِّ مجلسٍ مرةً وإنْ تَكَرَّر ذِكْره، كما قيل[٥] في آية

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٨ ، وقراءة الرفع في القراءات الشاذة ص١٢٠ .

(٢) في الكشاف ٣/ ٢٧٢ - ٢٧٣ .

(٣) قطعة من حديث أبي هريرة ﷺ أخرجه ابن حبان (٩٠٧)، وفيه: ومن ذكرتَ عنده فلم يصلِّ عليك . . . .

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٧٥٣) من حديث الحسن بن علي ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٩٣ : فيه الحكم بن عبد الله بن خطاف، وهو كذاب.

(٥) في (خ) و(د) و(م): قال، وليست في باقي النسخ، والمثبت من الكشاف.

السجدة وتشميت العاطس. وكذلك في كلِّ دعاءٍ في أوَّله وآخِره.

ومنهم مَن أَوْجَبها في العمر. وكذلك قال في إظهار الشهادتين. والذي يقتضيه الاحتياطُ: الصلاةُ عند كلِّ ذِكْرٍ، لِمَا ورد من الأخبار في ذلك.

الثانية: واختلفت الآثارُ في صفة الصلاة عليه ﷺ، فروى مالكٌ عن أبي مسعودٍ الأنصاريِّ قال: أتانا رسول الله ﷺ ونحن في مجلس سعد بنِ عُبادة، فقال له بشير بن سعد، أَمَرَنا الله أنْ نصلِّيَ عليك يا رسول الله، فكيف نصلِّي عليك؟ قال: فسَكَتَ رسول الله ﷺ حتى تمنَّينا أنه لم يَسْأَلْه، ثم قال رسول الله ﷺ: «قولوا: اللهمَّ صلِّ على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ كما صلَّيتَ على إبراهيم، وبارِكْ على محمدٍ وعلى آل محمدٍ كما باركتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين، إنَّك حَميدٌ مَجيدٌ، والسلامُ كما قد عَلِمتُم»(١). ورواه النَّسائيُّ عن طلحةَ مثلَه، بإسقاطِ قوله: «في العالمين» وقولِه: «والسلامُ كما قد علمتم»(٢). وفي الباب عن كعب بن عُجْرَةَ، وأبي حُميدٍ الساعديِّ، وأبي سعيد الخُدْريِّ، وعليّ بن أبي طالب، وأبي هريرة، وبُريدةَ الخزاعيِّ، وزيد بن خارجة، ويقال: ابن جارية(٣). أخرجها أئمةُ أهلِ الحديث في كتبهم(٤). وصحَّح الترمذيُّ حديثَ كعب بن عُجْرة. خرَّجه مسلم في «صحيحه» مع

---

(١) الموطأ ١/ ١٦٥ - ١٦٦ ، ومن طريق مالك أخرجه أحمد (٢٢٣٥٢)، ومسلم (٤٠٥)، ووقع في جميع هذه المصادر: «... وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم في العالمين...».
قوله: «والسلام كما قد عَلِمْتُم» أي: كما علمتم في التشهد، وهو قولهم: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته. وروي: عُلِّمتم، وكلاهما صحيح. شرح النووي لصحيح مسلم ٤/ ١٢٥ .

(٢) المجتبى ٣/ ٤٨ ، وهو عند أحمد (١٣٩٦). والكلام من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٧١ .

(٣) في النسخ: ابن حارثة، والمثبت من سنن الترمذي إثر الحديث (٤٨٣).

(٤) حديث كعب بن عجرة أخرجه أحمد (١٨١٠٤)، والبخاري (٦٣٥٧)، ومسلم (٤٠٦).
وحديث أبي حميد الساعدي أخرجه أحمد (٢٣٦٠٠)، والبخاري (٦٣٦٠)، ومسلم (٤٠٧).
وحديث أبي سعيد الخدري أخرجه أحمد (١١٤٣٣)، والبخاري (٦٣٥٨).
وحديث أبي هريرة أخرجه النسائي في الكبرى (٩٧٩٢). وحديث زيد بن خارجة أخرجه أحمد (١٧١٤)، والنسائي في المجتبى ٣/ ٤٨ - ٤٩ . وحديث بريدة أخرجه أحمد (٢٢٩٨٨)، وفيه أبو داود الأعمى نفيع بن الحارث، وهو متروك كما ذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية. وحديث علي أخرجه البيهقي في الشعب (١٥٨٨) وسيأتي.

حديث أبي حميدٍ الساعديِّ(١).

قال أبو عمر(٢): روى شُعبةُ والثوريُّ عن الحكم، عن(٣) عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن كعب بن عُجرة قال: لمَّا نزل قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ جاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله، هذا السلامُ عليك قد عرفناه، فكيف الصلاة؟ فقال: «قل: اللهمَّ صلِّ على محمدٍ وعلى آل محمدٍ، كما صَلَّيْتَ على إبراهيمَ، وبارك على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ كما باركتَ على إبراهيم وعلى آلِ إبراهيم، إنَّك حميد مجيد» وهذا لفظُ حديثِ الثوريِّ لا حديثِ شعبةَ، وهو يدخل في التفسير المسْنَدِ(٤) لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ فبيَّن كيف الصلاةُ عليه، وعلَّمهم في التحيات كيف السلام عليه، وهو قوله: «السلامُ عليك أيها النبيُّ ورحمةُ الله وبركاتُه».

وروى المسعوديُّ عن عون بن عبد الله، عن أبي فاختةَ، عن الأسود، عن عبد الله أنه قال: إذا صلَّيتُم على النبيِّ ﷺ فأَحْسِنُوا الصلاةَ عليه؛ فإنكم لا تدرون لعلَّ ذلك يُعْرَضُ عليه. قالوا: فعلِّمنا! قال: قولوا: اللهمَّ اجْعَلْ صلواتِك ورحمَتك وبركاتِك على سيِّد المرسَلين وإمامِ المتَّقين وخاتَم النبيين محمدٍ عبدك ونبيِّك ورسولِك إمامِ الخيرِ وقائدِ الخير ورسولِ الرحمة. اللهمَّ ابعثه مَقاماً محموداً يَغْبِطُه به الأوَّلون والآخِرون. اللهمَّ صلِّ على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ كما صلَّيتَ على إبراهيمَ وعلى آل إبراهيمَ، إنَّك حميدٌ مجيد. اللهمَّ بَارِكْ على محمدٍ وعلى آل محمدٍ كما باركتَ على إبراهيمَ وعلى آل إبراهيم، إنك حميدٌ مجيد(٥).

---

(١) صحيح مسلم (٤٠٦)، (٤٠٧)، وحديث كعب بن عجرة عند الترمذي (٤٨٣) وقد سلف تخريجهما في التعليق السابق.

(٢) في التمهيد ١٦/ ١٨٥ .

(٣) في النسخ: ابن، وهو تصحيف.

(٤) بعدها في (د) و(م): إليه.

(٥) أخرجه ابن ماجه (٩٠٦).

وروينا بالإسناد المتَّصِل في كتاب «الشفا» للقاضي عياض عن عليّ بن أبي طالب ﷺ قال: عَدَّهُنَّ في يَدِي رسولُ الله ﷺ وقال: «عَدَّهُنَّ في يدي جبريلُ وقال: هكذا أُنزلتْ مِن عندِ ربِّ العزَّةِ: اللهمَّ صلِّ على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ كما صلَّيتَ على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ، إنكَ حميدٌ مجيد. اللهمَّ بارِكْ على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ كما باركتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد. اللهمَّ وتَرَحَّمْ على محمدٍ وعلى آل محمد كما ترحَّمتْ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد. اللهم وتحنَّنْ على محمد وعلى آل محمد كما تحنَّنتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد»(١).

قال ابن العربيِّ(٢): من هذه الروايات صحيحٌ ومنها سقيم، وأصحُّها ما رواه مالكٌ فاعْتَمِدوه. وروايةُ غيرِ مالكٍ من زيادةِ الرحمةِ مع الصلاةِ وغيرِها لا يَقْوَى. وإنَّما على الناس أن ينظروا في أديانهم نَظَرَهم في أموالهم، وهم لا يأخذون في البيع ديناراً مَعيباً، وإنَّما يختارون السالمَ الطيِّب، كذلك لا يؤخذ من الروايات عن النبيِّ ﷺ إلَّا ما صحَّ سندُه، لئلَّا يدخل في حيِّز الكذبِ على رسول الله ﷺ، فبينما هو يَطْلبُ الفضلَ إذا به قد أصاب النَّقْصَ، بل ربَّما أصابَ الخسرانَ المبين.

الثالثة: في فضلِ الصلاةِ على النبيِّ ﷺ، ثَبتَ عنه ﷺ أنَّه قال: «مَن صلَّى عليَّ صلاةً؛ صلَّى اللهُ عليه بها عَشْراً»(٣).وقال سهلُ بن عبد الله: الصلاةُ على محمدٍ ﷺ أفضلُ العبادات؛ لأنَّ الله تعالى تَوَلَّاها هو وملائكتُهُ، ثم أمر بها المؤمنين، وسائرُ العبادات ليس كذلك.

قال أبو سليمان الدَّارانيُّ: مَن أراد أن يَسْأَل اللهَ حاجةً؛ فَلْيَبدأ بالصلاة على

(١) الشفا ٢/ ١٦١ - ١٦٢، وأخرجه البيهقي في الشعب (١٥٨٨) وقال: وهو إسناد ضعيف.

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١٥٧٢.

(٣) أخرجه أحمد (٨٨٥٤)، ومسلم (٤٠٨) من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه أحمد (٦٥٦٨)، ومسلم (٣٨٤) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

النبيِّ ﷺ، ثم يَسأل اللهَ حاجتَه، ثم يختم بالصلاة على النبيِّ ﷺ، فإنَّ الله تعالى يقبل الصلاتين، وهو أكرمُ مِن أنْ يَردَّ ما بينَهما.

وروى سعيد بن المسيِّب عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: الدعاءُ يُحجَب دون السماء حتى يصلَّى على النبيِّ ﷺ، فإذا جاءت الصلاةُ على النبيِّ ﷺ رُفع الدعاء[1].

وقال النبيُّ ﷺ: «مَن صلَّى عليَّ في كتابٍ لم تَزَل الملائكةُ يصلُّون عليه ما دام اسمي في ذلك الكتاب»[2].

الرابعة: واختلف العلماء في الصلاة على النبيِّ ﷺ في الصلاة؛ فالذي عليه الجمُّ الغفير والجمهورُ الكثير: أنَّ ذلك من سُنن الصلاة ومُستَحَبَّاتها. قال ابن المنذر: يُستَحَبُّ ألَّا يصلِّي أحدٌ صلاةً إلَّا صلَّى فيها على رسول الله ﷺ، فإنْ تَركَ ذلك تارِكٌ فصلاتُه مُجزيةٌ في مذهب مالكٍ وأهلِ المدينة وسفيان الثوريِّ وأهلِ الكوفة من أصحاب الرأي وغيرهم. وهو قولُ جُملِ[3] أهلِ العلم. وحُكي عن مالكٍ وسفيانَ أنَّها في التشهُّدِ الأخير مستحَبَّةٌ، وأنَّ تارِكَها في التشهُّد مُسيء. وشذَّ الشافعيُّ فأَوْجَبَ على تارِكها في الصلاة الإعادةَ. وأوجبَ إسحاقُ الإعادةَ مع تعمُّدِ تَرْكِها دون النسيان[4].

وقال أبو عمر[5]: قال الشافعيُّ: إذا لم يصلِّ على النبيِّ ﷺ في التشهُّد الأخيرِ بعد التشهُّد وقبلَ التسليم أعاد الصلاة. قال: وإن صلَّى عليه قبل ذلك لم تَجْزِه. وهذا قولٌ حكاه عنه حَرْملةُ بن يحيى، لا يكاد يُوجَدُ هكذا عن الشافعيِّ إلَّا من روايةِ حَرْملةَ

---

(١) أخرجه بنحوه الترمذي (٤٨٦). قال ابن العربي في عارضة الأحوذي ٢/ ٢٧٣: مثل هذا إذ قاله عمر لا يكون إلا توقيفاً؛ لأنه لا يُدْرَك بنظر.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (١٨٥٦) من حديث أبي هريرة ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٣٧: فيه بشر بن عبد الله الدارسي، كذَّبه الأزدي وغيره. وقال المنذري في الترغيب والترهيب ١/ ١٤٤: وروي من كلام جعفر بن محمد موقوفاً عليه، وهو أشبه.

(٣) في (م): جل، والمثبت من النسخ الخطية وهو موافق لما في الشفا ٢/ ١٤٣، والكلام منه.

(٤) الشفا ٢/ ١٤٢ - ١٤٣

(٥) في التمهيد ١٦/ ١٩١.

عنه، وهو من كبارِ أصحابِه الذين كتبوا كُتُبَه. وقد تقلَّده أصحابُ الشافعيِّ ومالوا إليه وناظَروا عليه، وهو عندهم تحصيلُ مَذْهَبِه.

وزعم الطَّحَاويُّ[١] أنه لم يَقُلْ به أحدٌ من أهلِ العلمِ غيرُه. وقال الخطَّابيُّ[٢] وهو من أصحاب الشافعيِّ: وليست بواجبةٍ في الصلاة، وهو قولُ جماعةِ الفقهاء إلَّا الشافعيَّ، ولا أَعلمُ له فيها قدوةً.

والدليلُ على أنَّها ليست من فروضِ الصلاةِ عَمَلُ السَّلَفِ الصَّالح قبلَ الشافعيِّ وإجماعُهم عليه، وقد شُنِّع عليه في هذه المسألة جدًّا. وهذا تَشَهُّدُ ابنِ مسعودٍ الذي اختاره الشافعيُّ ـ وهو الذي علَّمه [له] النبيُّ ﷺ ـ ليس فيه الصلاةُ على النبيِّ ﷺ، وكذلك كلُّ مَنْ رَوَى التشهُّد عنه ﷺ[٣].

وقال ابن عمر: كان أبو بكر يعلِّمنا التشهُّدَ على المنبر كما تعلِّمون الصبيان في الكتاب. وعلَّمه أيضاً على المنبر عمرُ، وليس فيه ذِكْرُ الصلاةِ على النبيِّ ﷺ[٤].

قلت: قد قال بوجوب الصلاةِ على النبيِّ ﷺ في الصلاة محمد بنُ الموَّاز من أصحابنا فيما ذَكَر ابنُ القَصَّار وعبدُ الوهَّاب[٥]، واختاره ابن العربيِّ للحديث الصحيح: إنَّ الله أَمرنا أن نصلِّيَ عليك، فكيف نصليِّ عليك؟ فعلَّم الصلاةَ ووَقْتَها فتعيَّنتْ كيفيةً ووقتاً[٦].

---

(١) قوله في مختصر اختلاف العلماء للجصاص ١/ ٢١٩ .

(٢) في معالم السنن ١/ ٢٢٧ ، ونقله المصنف عنه بواسطة القاضي عياض في الشفا ٢/ ١٤٥ .

(٣) الشفا ٢/ ١٤٥ ، وما سلف بين حاصرتين منه. وتشهُّد ابن مسعود الذي علمه له النبي ﷺ: «التحيات لله، والصلوات، والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ـ فإذا قالها أصابت كلَّ عبدٍ لِلهِ صالح في السماء والأرض ـ أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله...» أخرجه البخاري (٨٣٥)، ومسلم (٤٠٢).

(٤) الشفا ٢/ ١٤٦ ، وخبرا عمر وابن عمر رضي الله عنهما أخرجهما الطحاوي في شرح معاني الآثار ١/ ٢٦١ و٢٦٤ .

(٥) الشفا ٢/ ١٤٤ .

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٧٢ ، والحديث سلف في المسألة الثانية عن أبي مسعود الأنصاري ﷺ.

وذكر الدَّارَقُطْنيُّ عن أبي جعفر محمد بن عليٍّ بن الحسين أنه قال: لو صلَّيتُ صلاةً لم أصلِّ فيها على النبيِّ ﷺ ولا على أهلِ بيته لرأيتُ أنَّها لا تَتِم. وروي مرفوعاً عنه عن ابن مسعود عن النبيِّ ﷺ. والصوابُ أنه قولُ أبي جعفر؛ قاله الدَّارَقُطْنيّ[1].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ قال القاضي أبو بكر بنُ بُكَيْر: نزلت هذه الآيةُ على النبيِّ ﷺ، فأَمر الله أصحابه أن يسلِّموا عليه. وكذلك مَن بعدَهم أُمِروا أن يسلِّموا عليه عند حضورهم قبرَه وعند ذكره[2]. وروى النسائيُّ[3] عن عبد الله بن أبي طلحةَ، عن أبيه: أنَّ رسول الله ﷺ جاء ذاتَ يومٍ والبشرى[4] في وجهه، فقلت: إنَّا لنَرى البُشْرى في وجهك! فقال: «إنه أتاني المَلَكُ فقال: يا محمدُ، إنَّ ربَّك يقول: أَمَا يُرضيك أنه لا يصلِّي عليك أحدٌ إلَّا صلَّيتُ عليه عشراً، ولا يسلِّم عليك أحدٌ إلَّا سلَّمتُ عليه عشراً».

وعن محمد بن عبد الرحمن: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ما منكم مِن أحدٍ يُسلِّم عليَّ إذا متُّ إلَّا جاءني سلامُه مع جبريل؛ يقول: يا محمد، هذا فلان بنُ فلان يقرأ عليك السلامَ، فأقول: وعليه السلامُ ورحمةُ الله وبركاتُه»[5].

وروى النسائيُّ[6] عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ لله ملائكةً سيَّاحين

---

(١) كذا ذكر القاضي عياض في الشفا ٢/ ١٤٧ عن الدارقطني، ونقله عنه المصنف رحمه الله، وفي هذا الكلام وهمان: الأول: في قوله: ابن مسعود، والصواب: أبو مسعود الأنصاري، كما أخرجه عنه الدارقطني في السنن (١٣٤٣) مرفوعاً. والوهم الثاني: في قوله: الصواب أنه من قول أبي جعفر، والذي ذكره الدارقطني في العلل ٦/ ١٩٨ أن الصواب أنه من قول أبي مسعود، وكذا أخرجه عنه موقوفاً في السنن (١٣٤٤) (١٣٤٥). والموقوف والمرفوع كلاهما مداره على جابر الجعفي، وهو ضعيف كما ذكر الدارقطني إثر الحديث (١٣٤٣).

(٢) الشفا ٢/ ١٣٨ .

(٣) في المجتبى ٣/ ٤٤ و٥٠ ، وهو عند أحمد (١٦٣٦١).

(٤) في (م): والبشر يرى، وهي رواية.

(٥) لم نقف عليه، ويغني عنه الحديث الصحيح بعده.

(٦) في المجتبى ٣/ ٤٣ ، وهو عند أحمد (٣٦٦٦).

في الأرض يبلِّغوني من أمَّتي السلام». قال القُشيريُّ: والتسليم قولُك: سلامٌ عليك.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: اختلف العلماء في إذايةِ اللهِ بماذا تكون؟ فقال الجمهور من العلماء: معناه بالكفر ونِسْبةِ الصاحبةِ والولدِ والشريك إليه، ووصفِه بما لا يليق به[(١)]، كقول اليهودِ لعنهم الله: يدُ الله مغلولةٌ. والنصارى: المسيحُ ابنُ الله. والمشركون: الملائكةُ بناتُ الله والأصنامُ شركاؤه.

وفي «صحيح» البخاريِّ قال الله تعالى: «كذَّبني ابنُ آدمَ ولم يكن له ذلك، وشَتَمني ولم يكن له ذلك..» الحديث. وقد تقدَّم في سورة مريم[(٢)].

وفي «صحيح» مسلم[(٣)] عن أبي هريرةَ قال: قال الله تبارك وتعالى: «يؤذيني ابنُ آدمَ يقول: يا خيبةَ الدهرِ، فلا يقولنَّ أحدكم: يا خيبةَ الدهر، فإنِّي أنا الدهرُ؛ أقلِّبُ ليلَه ونهارَه، فإذا شئتُ قَبَضْتُهما». هكذا جاء هذا الحديثُ موقوفاً على أبي هريرةَ في هذه الرواية[(٤)]. وقد جاء مرفوعاً عنه: «يُؤذيني ابنُ آدمَ يَسُبُّ الدَّهر، وأنا الدَّهرُ؛

---

(١) المحرر الوجيز ٤/٣٩٨.

(٢) صحيح البخاري (٤٤٨٢)، وتقدم ١٣/ ٥٢٥.

(٣) برقم (٢٢٤٦): (٣).

(٤) المفهم ٥/٥٤٧، وكذا ذكر المزي في التحفة ١٠/ ٥٥ أنه موقوف من رواية عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة. وقد جاء في النسخ التي بين أيدينا مرفوعاً من رواية عبد الرزاق وغيره. ولم يشر القاضي عياض في إكمال المعلم، ولا النووي في شرح صحيح مسلم إلى وقف رواية عبد الرزاق هذه، ولعل ذلك راجع إلى اختلاف النسخ. قال أبو العباس: غير أنه ممَّا يُعلم أنه من قول رسول الله ﷺ قطعاً؛ لأن مضمونه حكاية عن الله تعالى، ولا يعرفها أبو هريرة إلا من جهة رسول الله ﷺ وقد رُوي معناه مسنداً مرفوعاً من طريق آخر. اهـ. وأخرجه أحمد (٧٥١٨) والبخاري (٦١٨٢) بنحوه عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً. قوله: «يؤذيني ابن آدم» أي: يخاطبني من القول بما يتأذَّى به مَن يصح في حقه التأذِّي. وقوله: «فإني أنا الدهر» أي: أنا الذي أفعل ما ينسبونه للدهر. ينظر المفهم ٥/٥٤٧ - ٥٤٩.

أُقلِّبُ الليلَ والنهار» أخرجه أيضاً مسلم[١].

وقال عكرمة: معناه: بالتصوير والتعرُّضِ لفعلِ ما لا يفعلُه إلَّا اللهُ بنحتِ الصورِ وغيرها[٢]، وقد قال رسول الله ﷺ: «لَعنَ الله المصوِّرين»[٣].

قلتُ: وهذا ممَّا يقوِّي قولَ مجاهدٍ في المنع من تصوير الشجر وغيرها؛ إذ كلُّ ذلك صفةُ اختراعٍ وتشبُّهٍ بفعلِ اللهِ الذي انفرد به سبحانه وتعالى. وقد تقدَّم هذا في سورة النمل[٤] والحمد لله.

وقالت فرقةٌ: ذلك على حذفِ مضافٍ، تقديره: يؤذون أولياءَ الله. وأمَّا إذايةُ رسولِه ﷺ فهي كلُّ ما يؤذيه من الأقوال في غير معنًى واحد، ومن الأفعال أيضاً[٥]؛ أمَّا قولُهم: فساحر، شاعر، كاهن، مجنون. وأمَّا فِعْلُهم: فكَسْرُ رَبَاعِيته وشجُّ وجهه يومَ أُحُد، وبمكةَ إلقاءُ السَّلَى على ظهره وهو ساجد[٦]، إلى غير ذلك.

وقال ابن عباس: نزلت في الذين طعنوا عليه حين اتَّخذ صفيةَ بنتَ حُيَيّ[٧].

وأطلق إيذاء الله ورسوله وقيّد إيذاء المؤمنين والمؤمنات؛ لأنَّ إيذاءَ الله ورسوله لا يكون إلَّا بغير حقٍّ أبداً. وأمَّا إيذاءُ المؤمنين والمؤمنات فمنه، ومنه[٨].

الثانية: قال علماؤنا: والطعنُ في تأمير أسامةَ بنِ زيد أذيَّةٌ له عليه الصلاة والسلام[٩]. روى الصحيح عن ابن عمر قال: بعث رسول الله ﷺ بَعْثاً، وأمَّر عليهم

(١) في صحيحه (٢٢٤٦): (٢)، وهو عند أحمد (٧٢٤٥)، والبخاري (٤٨٢٦).

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٨ ، وأخرجه بنحوه ابن أبي شيبة ٨/ ٤٨٥ ، والطبري ١٩/ ١٧٨ .

(٣) قطعة من حديث أبي جحيفة ؓ أخرجه البخاري (٥٣٤٧).

(٤) عند تفسير الآية (٦٠) منها.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٨ .

(٦) حديث إلقاء السَّلَى على ظهره ﷺ أخرجه مطولاً أحمد (٣٧٢٢)، والبخاري (٢٤٠)، ومسلم (١٧٩٤) عن ابن مسعود ؓ.

(٧) أخرجه الطبري ١٩/ ١٧٩ .

(٨) الكشاف ٣/ ٢٧٣ .

(٩) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٨ .

أسامةَ بن زيد، فطعن الناس في إِمْرَته[١]، فقام رسول الله ﷺ فقال: «إنْ تَطْعُنوا في إِمْرَتِه فقد كُنْتُم تطعُنون في إمرةِ أبيه من قبلُ، وَايْمُ اللهِ إنْ كان لَخَليقاً للإمارة، وإنْ كان لَمِن أحبِّ الناسِ إليَّ، وإنَّ هذا لَمِنْ أحبِّ الناسِ إليَّ بَعْدَه»[٢]. وهذا البعثُ - والله أعلم - هو الذي جهَّزه رسول الله ﷺ مع أسامةَ وأمَّره عليهم، وأمَره أن يَغْزُو «أُبْنَى»، وهي القرية التي عند مُؤْتَة، الموضع الذي قُتل فيه زيدٌ أبوه مع جعفر بن أبي طالب وعبد الله بنِ رَوَاحة. فأمره أن يأخذ بثأر أبيه، فطَعَن مَن في قلبه رَيْبٌ في إِمْرَته، من حيث إنَّه كان من الموالي، ومن حيث إنَّه كان صغيرَ السنِّ؛ لأنه كان إذ ذاك ابنَ ثمانِ عَشْرةَ سنةً، فمات النبيُّ ﷺ وقد برز هذا البعثُ عن المدينة ولم ينفصِلْ بعدُ عنها، فنفَّذه أبو بكر بعد رسول الله ﷺ[٣].

الثالثة: في هذا الحديثِ أَوْضحُ دليلٍ على جواز إمامةِ المَوْلَى والمَفْضولِ على غيرهما ما عدا الإمامةَ الكبرى. وقد قدَّم رسول الله ﷺ سالماً مولى أبي حُذيفةَ على الصلاة بقُبَاء، فكان يؤمُّهم وفيهم أبو بكر وعمرُ وغيرُهم من كبراء قريش[٤]. وروى الصحيحُ عن عامر بن واثِلَةَ: أنَّ نافع بنَ عبد الحارث لقي عمر بعُسْفان، وكان عمر يستعملُه على مكة، فقال: مَن استعملتَ على هذا الوادي؟ قال: ابن أَبْزى. قال: ومَن ابنُ أَبْزَى؟ قال: مَوْلًى من مَوالينا. قال: فاستَخْلفتَ عليهم مَوْلًى! قال: إنه لقارئٌ لكتاب الله، وإنه لعالمٌ بالفرائض. قال: أمَا إنَّ نبيَّكم قد قال: «إنَّ الله يرفعُ بهذا الكتابِ أقواماً ويَضَعُ به آخرين»[٥].

الرابعة: كان أسامةُ ﷺ الحِبَّ ابنَ الحِبِّ، وبذلك كان يُدْعَى، وكان أسودَ شديد

---

(١) في (ظ): إمارته. وهو موافق لرواية البخاري للحديث على ما يأتي.

(٢) صحيح البخاري (٦٦٢٧)، وصحيح مسلم (٢٤٢٦)، وهو عند أحمد (٥٨٨٨).

(٣) المفهم ٦/ ٣٠٨.

(٤) سلف ٢/ ٤١.

(٥) صحيح مسلم (٨١٧)، وهو عند أحمد (٢٣٢). وابن أبزى هو عبد الرحمن بن أبزى الخزاعيُّ مولاهم، وله صحبة. الإصابة ٦/ ٢٥٨.

السواد، وكان زيدٌ أبوه أبيضَ من القُطْن. هكذا ذكره أبو داود عن أحمد بن صالح[1]. وقال غير أحمد: كان زيدٌ أزْهَرَ اللون وكان أسامةُ شديدَ الأُدْمَة[2]. ويروى أنَّ النبيَّ ﷺ كان يُحسِّن أسامةَ وهو صغيرٌ ويمسحُ مُخاطَه، وينقِّي أَنْفَه ويقول: «لو كان أسامةُ جاريةً لزيَّنّاه وجَهَّزْناه وحبَّبناه إلى الأزواج»[3].

وقد ذُكر أنَّ سبب ارتدادِ العرب بعد النبيِّ ﷺ: أنه لمّا كان عليه الصلاة والسلامُ في حجَّة الوداع بجبل عرفةَ عَشِيَّةَ عرفةَ عند النَّفْر، احتَبسَ النبيُّ ﷺ قليلاً بسبب أسامةَ إلى أن أتاه، فقالوا: ما احتَبس إلَّا لأَجْلِ هذا! تحقيراً له. فكان قولُهم هذا سببَ ارتدادِهم. ذكره البخاريُّ في التاريخ بمعناه[4]. والله أعلم.

الخامسة: كان عمرُ ﷺ يفرضُ لأسامةَ في العطاء خمسةَ آلافٍ، ولابنه عبدِ الله أَلْفَين؛ فقال له عبد الله: فضَّلتَ عليَّ أسامةَ وقد شَهِدْتُ ما لم يَشْهَدْ! فقال: إنَّ أسامةَ كان أحبَّ إلى رسول الله ﷺ منكَ، وأباه كان أحبَّ إلى رسول الله ﷺ من أبيك، ففضَّلَ ﷺ محبوبَ رسولِ الله ﷺ على محبوبه. وهكذا يجب أن يُحَبَّ ما أَحَبَّ رسولُ الله ﷺ ويُبْغَض ما[5] أَبْغَض.

وقد قابَلَ مَرْوان هذا الحبَّ بنقيضه، وذلك أنه مرَّ بأسامةَ بنِ زيدٍ وهو يصلِّي عند بابِ بيتِ النبيِّ ﷺ فقال له مَرْوان: إنَّما أردتَ أنْ يُرى مَكانُك، فقد رأينا مكانك، فَعَل

---

(١) سنن أبي داود، إثر الحديث (٢٢٦٨).

(٢) إكمال المعلم ٤/ ٦٥٦ ، والمفهم ٤/ ١٩٩ . وقال نحوه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني: إثر الحديث (٢٥٥).

(٣) أخرجه بنحوه ابن سعد ٤/ ٦٢ ، أحمد (٢٥٠٨٢) من حديث عائشة رضي الله عنها. وذكره السهيلي في الروض الأنف ٤/ ٢٤٨ .

(٤) التاريخ الكبير ٢/ ٢٠ عن عروة بن الزبير، وأخرجه أيضاً ابن سعد ٤/ ٦٣ .

(٥) في النسخ عدا (ظ): من، والمثبت من (ظ) والمفهم ٦/ ٣٠٩ ، والكلام منه. وخبر عمر ﷺ ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب ١/ ١٤٥ ، وأخرجه بنحوه الترمذي (٣٨١٣) من حديث عمر ﷺ، وقال: حسن غريب. وأخرجه بنحوه أيضاً أبو يعلى (١٦٢)، وابن حبان (٧٠٤٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الله بك وفَعَل! قولاً قبيحاً. فقال له أسامةُ: إنَّكَ آذَيْتَنِي، وإنَّك فاحِشٌ مُتفَحِّشٌ، وقد سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الله تعالى يُبغِضُ الفاحشَ المتفحِّشَ». فانظُرْ ما بين الفعلين، وقِسْ ما بين الرجلين، فقد آذى بنو أميةَ النبيَّ ﷺ في أحبابه، وناقَضوه في مَحابِّه[1].

قوله تعالى: ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ معناه: أُبعِدوا من كلِّ خيرٍ. واللَّعنُ في اللغة: الإبعادُ، ومنه اللِّعان. ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ تقدَّم معناه في غيرِ موضعٍ. والحمدُ لله ربِّ العالمين.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾

إذايةُ المؤمنين والمؤمناتِ هي أيضاً بالأفعال والأقوالِ القبيحة، كالبهتان والتكذيب الفاحشِ المختلَق. وهذه الآيةُ نظيرُ الآيةِ التي في النساء: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الآية: ١١٢] كما قال هنا. وقد قيل: إنَّ من الإذاية تعييرُه بحَسَبٍ مذموم، أو حِرْفةٍ مذمومة، أو شيءٍ يَثْقُلُ عليه إذا سَمِعَه؛ لأنَّ أذاهُ في الجملة حرامٌ. وقد ميَّز الله تعالى بين أذاه وأذى الرسولِ وأذى المؤمنين، فجعل الأوّلَ كفراً والثاني كبيرةً، فقال في أذى المؤمنين: ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ وقد بيَّنّاه.

ورويَ أنَّ عمر بن الخطاب قال لأُبيِّ بن كعب: قرأتُ البارحةَ هذه الآيةَ ففزِعْتُ منها: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ الآية، واللهِ إنِّي لأَضْرِبُهم وأَنْهَرُهُمْ. فقال له أُبَيٌّ: يا أميرَ المؤمنين، لستَ منهم، إنَّما أنت معلِّمٌ ومقوِّمٌ[2].

---

(١) المفهم ٦/ ٣٠٩ - ٣١٠، وخبر مروان (وهو ابن الحكم) مع أسامة ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب ١/ ١٤٧، وأخرجه بنحوه أحمد (٢١٧٦٤)، وابن حبان (٥٦٩٤)، والطبراني في المعجم الكبير (٤٠٥)، والضياء في المختارة (١٣١٦) و(١٣١٧). وليس الأمر على إطلاقه في بني أمية، ففيهم الصحابة الكبار، والأئمة الثقات والخلفاء العدول.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٨، وينظر الدر المنثور ٥/ ٢٢٠.

وقد قيل: إنَّ سببَ نزولِ هذه الآيةِ أنَّ عمر رأى جاريةً من الأنصار فضربها وكره ما رأى من زينتها، فخرج أهلُها فآذَوْا عمرَ باللسان، فأنزل الله هذه الآية[١].

وقيل: نزلت في عليٍّ، فإنَّ المنافقين كانوا يؤذونه ويكذبون عليه ﷺ[٢].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾

فيه ستُّ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ﴾ قد مضى الكلامُ في تفصيلِ أزواجِه واحدةً واحدة[٣]. قال قتادةُ: مات رسول الله ﷺ عن تِسْعٍ. خمس من قريش: عائشة، وحفصة، وأمّ حبيبةَ، وَسَوْدة، وأمّ سلمةَ. وثلاث من سائر العرب: ميمونة، وزينب بنت جحشٍ، وجُوَيْرِيَّة. وواحدة من بني هارون: صفية[٤].

وأمَّا أولادُه؛ فكان للنبيِّ ﷺ أولادٌ ذكورٌ وإناث.

فالذكورُ من أولاده: القاسم، أمُّه خديجةُ، وبه كان يُكْنَى ﷺ، وهو أولُ مَن مات من أولاده، وعاش سنتين. وقال عروةُ: وَلَدَتْ خديجةُ للنبيِّ ﷺ القاسمَ والطاهِرَ وعبدَ الله والطيِّب[٥]. وقال أبو بكر البرقيُّ: ويقال: إنَّ الطاهِرَ هو الطيِّبُ، وهو عبد الله[٦].

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص٣٨٢ عن ابن عباس.

(٢) أسباب النزول للواحدي ص٣٨٢ عن مقاتل.

(٣) ص١١٩ من هذا الجزء وما بعدها.

(٤) تلقيح الفهوم لابن الجوزي ص٣٠، وأخرجه بنحوه مطولاً البيهقي في الدلائل ٧/ ٢٨٩.

(٥) تلقيح الفهوم ص٣١، وصفة الصفوة ١/ ١٤٧ - ١٤٨، وفيهما: المطيّب، بدل: الطيب. وفيهما أيضاً: ويقال: إن الطيب والمطيب ولدا في بطن.

(٦) وهذا هو الصحيح، كما قال ابن القيم في زاد المعاد ١/ ١٠٠، وكذا سيرد آخر هذه المسألة. وينظر جمهرة الأنساب للكلبي ص٣٠، وإمتاع الأسماع ٥/ ٣٣٤. والكلام من تلقيح الفهوم ص٣١.

وإبراهيم أمُّه ماريةُ القبطيَّةُ، وُلد في ذي الحجة سنةَ ثمانٍ من الهجرة، وتُوفِّيَ ابنَ ستَّةَ عَشَر شهراً وقيل: ثمانية عشر؛ ذكره الدارقطني. ودُفِنَ بالبقيع[١]. وقال ﷺ: «إنَّ له مُرْضِعاً تُتِمُّ رضاعَه في الجنة». وجميعُ أولادِ النبيِّ ﷺ من خديجةَ سوى إبراهيم. وكلُّ أولادِه ماتوا في حياته غيرَ فاطمة[٢].

وأمَّا الإناثُ من أولاده؛ فمنهنَّ: فاطمةُ الزهراء بنتُ خديجةَ، وَلدَتْها وقريشٌ تبني البيتَ قبلَ النبوَّةِ بخمسِ سنينَ، وهي أصغرُ بناتِه، وتَزوَّجها عليٌّ رضي الله عنهما في السنة الثانية من الهجرة في رمضان، وبنَى بها في ذي الحجة. وقيل: تزوَّجها في رجب، وتُوفِّيت بعد رسول الله ﷺ بيسيرٍ[٣]، وهي أوّلُ مَن لَحِقَه من أهل بيته رضي الله عنها.

ومنهنَّ: زينب؛ أمُّها خديجة، تزوَّجها ابنُ خالتِها أبو العاصي بنُ الربيع، وكانت أمُّ [أبي] العاصي هالة بنت خُوَيْلد أختَ خديجة[٤]. واسمُ أبي العاصي لَقيط. وقيل: هاشم. وقيل: هُشيم. وقيل: مِهْشَم[٥]. وكانت أكبرَ بناتِ رسولِ الله ﷺ، وتوفِّيتْ سنةَ ثمانٍ من الهجرة، ونزل رسول الله ﷺ في قبرها[٦].

ومنهنّ: رُقَيَّة؛ أمُّها خديجة، تزوَّجها عُتبة بن أبي لَهَب قبل النبوَّة، فلمَّا بُعث رسول الله ﷺ وأُنزل عليه: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ قال أبو لهبٍ لابنه: رأسي مِن رأسِكَ حرامٌ إنْ لم تطلِّق ابنتَه، ففارَقَها ولم يكن بَنَى بها. وأَسْلَمَتْ حين أَسْلَمَتْ أمُّها

---

(١) تلقيح الفهوم ص٣١ ، دون قوله: ذكره الدارقطني، ولم نقف عليه عند الدارقطني، وأخرجه ابن سعد ٣/ ٧ من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

(٢) تلقيح الفهوم ص ٣١ ، وحديث: «إن له مرضعاً...» أخرجه أحمد (١٨٥٠٠)، والبخاري (١٣٨٢).

(٣) تلقيح الفهوم ص ٣١ - ٣٢ .

(٤) تلقيح الفهوم ص ٣٢ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٥) في النسخ عدا (ظ): مقسم، والمثبت من (ظ)، والاستيعاب ١٢/ ٢٤ ، والإصابة ١١/ ٢٣١ ، قال ابن عبد البر: والأكثر لقيط.

(٦) تلقيح الفهوم ص ٣٢ - ٣٣ .

خديجة، وبايعتْ رسول الله ﷺ هي وأخواتُها حين بايعه النساء، وتزوَّجها عثمان بن عفان(١)، وكانت نساء قريش يَقُلْنَ حين تزوَّجها عثمان:

أحسنُ شخصين رأى إنسانُ رقيَّةٌ وبعلُها عثمانُ(٢)

وهاجرت معه إلى أرض الحبشة الهجرتين، وكانت قد أَسْقَطتْ من عثمان سقطاً، ثم وَلَدتْ بعد ذلك عبد الله، وكان عثمان يُكْنَى به في الإسلام، وبلغ ستَّ سنين، فنقره ديكٌ في وجهه فمات، ولم تلد له شيئاً بعد ذلك. وهاجرت إلى المدينة، ومَرِضَتْ ورسولُ الله ﷺ يتجهَّزُ إلى بدرٍ، فخلَّف عثمانَ عليها، فتوفِّيت ورسول الله ﷺ ببدر، على رأس سبعةَ عَشَرَ شهراً من الهجرة. وقَدِمَ زيد بن حارثة بشيراً من بدر، فدخل المدينة حين سوِّي التراب على رُقَيَّة. ولم يشهد دَفْنَها رسولُ الله ﷺ.

ومنهنَّ: أمُّ كلثوم؛ أمُّها خديجة، تزوَّجها عُتيبةُ بن أبي لهب ـ أخو عتبةَ ـ قبل النبوَّة، وأمره أبوه أن يفارِقَها للسبب المذكور في أمر رقية، [ففارَقها] ولم يكن دخل بها، فلم تزل بمكة مع رسول الله ﷺ، وأسلمت حين أسلمت أمُّها، وبايعتْ رسولَ الله ﷺ مع أخواتها حين بايعه النساء، وهاجرت إلى المدينة حين هاجر رسول الله ﷺ. فلمَّا توفِّيتْ رقيةُ تزوَّجها عثمان، وبذلك سمِّي ذا النُّورَيْن. وتوفِّيت في حياة النبيِّ ﷺ في شعبان سنةَ تسعٍ من الهجرة. وجلس رسول الله ﷺ على قبرها، ونزل في حفرتها عليٌّ والفضلُ وأسامةُ.

وذكر الزبير بن بكَّار أنَّ أكبر ولدِ النبيِّ ﷺ: القاسم، ثم زينب، ثم عبد الله، وكان يقال له: الطيِّب، والطَّاهر، ووُلد بعد النبوّة ومات صغيراً. ثم أمُّ كلثوم، ثم فاطمةُ، ثم رقيةُ. فمات القاسم بمكةَ، ثم مات عبد الله(٣).

الثانية: لمَّا كانت عادةُ العربيَّات التبذُّلَ، وكنَّ يَكْشِفْنَ وجوهَهنَّ كما يفعل

(١) طبقات ابن سعد ٨/ ٣٦ . وتلقيح الفهوم ص ٣٣ ، والكلام منه.
(٢) ذكره السهيلي في الروض الأنف ٢/ ٧٩ .
(٣) تلقيح الفهوم ص ٣٣ - ٣٤ ، وما سلف بين حاصرتين منه، وينظر طبقات ابن سعد ٣/ ٧ و٨/ ٣٧ .

الإماء، وكان ذلك داعيةً إلى نظر الرجال إليهنَّ، وتَشعُّبِ الفكرة فِيهنَّ، أمر الله رسوله ﷺ أن يأمرهنَّ بإرخاء الجلابيب عليهنَّ إذا أردْنَ الخروجَ إلى حَوائِجهنَّ - وكنَّ يتبرَّزْنَ في الصحراء قبل أنْ تُتَّخذ الكُنُف - فيقع الفرقُ بينهنَّ وبين الإماء، فتُعرف الحرائر بسترهنَّ، فيكُفُّ عن معارضتهنَّ مَن كان عَزْباً أو شابًّا(١). وكانت المرأةُ من نساء المؤمنين قبل نزول هذه الآية تتبرَّز للحاجة، فيتعرَّضُ لها بعض الفُجَّار يظنُّ أنها أَمة، فتصيحُ به فيذهب، فشكَوْا ذلك إلى النبيِّ ﷺ. ونزلت الآيةُ بسبب ذلك. قال معناه الحسن وغيره(٢).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ الجلابيبُ جمعُ جِلْباب، وهو ثوبٌ أكبرُ من الخِمار. وروي عن ابن عباس وابن مسعود أنه الرداء(٣). وقد قيل: إنه القِناع. والصحيحُ أنه الثوبُ الذي يستر جميعَ البدن. وفي «صحيح» مسلم عن أمِّ عطيَّةَ: قلتُ: يا رسولَ الله، إحدانا لا يكون لها جِلْبابٌ؟ قال: «لِتُلْبِسْها أختُها من جِلْبابها»(٤).

الرابعة: واختلف الناس في صورة إرخائه؛ فقال ابن عباس وعَبيدةُ السَّلْمانيُّ: ذلك أن تَلْوِيه المرأةُ حتى لا يظهر منها إلَّا عينٌ واحدةٌ تُبصِرُ بها. وقال ابن عباس أيضاً وقتادةُ: ذلك أن تَلْوِيَه فوقَ الجبين وتَشُدَّه، ثم تَعْطِفه على الأنف وإن ظهرت عيناها، لكنه يَسْتُر الصدرَ ومُعْظَمَ الوجه(٥). وقال الحسن: تغطِّي نصفَ وَجْهِهَا(٦).

الخامسة: أمر الله سبحانه جميعَ النساء بالسَّتْر، وأنَّ ذلك لا يكون إلَّا بما لا

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٩ ، ووقع في مطبوعه: غزلاً، بدل: عزباً.

(٢) طبقات ابن سعد ٨/ ١٧٦ ، وتفسير عبد الرزاق ٢/ ١٢٣ ، وتفسير الطبري ١٩/ ١٨٢ - ١٨٣ ، وأسباب النزول للواحدي ص ٣٨٢ - ٣٨٣ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٢٥ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٩٩ .

(٤) صحيح مسلم (٨٩٠)، وأخرجه مطولاً أحمد (٢٠٧٨٩)، والبخاري (١٦٥٢).

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٩ ، والأخبار المذكورة أخرجها بنحوها الطبري ١٩/ ١٨٢ .

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٣٧٨ .

يَصِفُ جِلْدَها، إلَّا إذا كانت مع زوجها؛ فلها أن تلبس ما شاءت؛ لأنَّ له أن يستمتع بها كيف شاء.

ثبت أنَّ النبيَّ ﷺ استيقظ ليلةً فقال: «سبحانَ الله، ماذا أُنزل الليلةَ من الفتن، وماذا فُتح من الخزائن، مَن يُوقِظُ صواحبَ الحُجَر؟ رُبَّ كاسيةٍ في الدنيا عاريةٍ في الآخرة»[١].

وروي أنَّ دِحْيَةَ الكلْبيَّ لمَّا رجع من عند هِرَقْل فأعطاه النبيُّ ﷺ قُبْطِيَّةً؛ فقال: «اجْعَلْ صَديعاً لك قميصاً، وأَعْطِ صاحبتَكَ[٢] صَديعاً تَخْتَمِرُ به» ـ والصَّديعُ: النصف ـ ثم قال له: «مُرْها تجعل تحته شيئاً لئلَّا يَصِفَ»[٣].

وذكر أبو هريرةَ رقَّةَ الثياب للنساء فقال: الكاسياتُ العاريات، الناعماتُ الشقيَّات[٤].

ودخل نسوةٌ من بني تميم على عائشةَ رضي الله عنها عليهنَّ ثيابٌ رِقَاقٌ، فقالت عائشة: إنْ كنتُنَّ مؤمناتٍ فليس هذا بلباسِ المؤمنات، وإنْ كنتنَّ غيرَ مؤمناتٍ فتمتَّعنه[٥]. وأُدخلت امرأةٌ عروسٌ على عائشةَ رضي الله عنها وعليها خمارٌ قُبْطِيٌّ مُعَصْفَر، فلمَّا رأتها قالت: لم تؤمن بسورة النور امرأةٌ تلبسُ هذا[٦].

---

(١) أخرجه البخاري (١١٥) و(١١٢٦) من حديث أم سلمة رضي الله عنها. قوله: الحُجَر. بضم الحاء وفتح الجيم، جمع حجرة، وهي منازل أزواج النبي ﷺ، وإنما خصَّهن لأنهن الحاضرات حينئذٍ، وفي قوله: «كاسية» و«عارية» أقوال منها: كاسية في الدنيا بالثياب لوجود الغنى، عارية في الآخرة من الثواب لعدم العمل في الدنيا. ومنها: كاسية بالثياب لكنها لا تستر عورتها، فتعاقب في الآخرة بالعري جزاءً على ذلك، وقيل غير ذلك. ينظر الفتح ١/ ٢١٠ و١٣/ ٢٣ .

(٢) في (ظ): زوجتك.

(٣) أخرجه أبو داود (٤١١٦) من حديث دحية ﷺ. وفي الباب عن أسامة بن زيد ﷺ عند أحمد (٢١٧٨٦). قوله: قُبْطية، هي الثوب من ثياب مصر رقيقة بيضاء. النهاية (قبط).

(٤) في (د): المتنعمات. والخبر أخرجه بنحوه من قول أبي هريرة مالكٌ في الموطأ ٢/ ٩١٣ ، وسيأتي عنه مرفوعاً.

(٥) في (د) و(م): فتمتعينه.

(٦) لم نقف على هذين الخبرين عن عائشة رضي الله عنها.

وثبت عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «نساءٌ كاسياتٌ عارياتٌ مائلاتٌ مُمِيلاتٌ، رؤوسُهنَّ مثلُ أَسْنمةِ البُخْتِ، لا يَدْخلْنَ الجنةَ ولا يَجِدْنَ ريحَها»[١].

وقال عمر ﷺ: ما يمنعُ المرأةَ المسلمةَ إذا كانت لها حاجةٌ أن تخرج في أطمارِها[٢] أو أطمارِ جارتها مُسْتَخْفِيةً، لا يعلم بها أحدٌ حتى ترجع إلى بيتها.

السادسة: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ﴾ أي: الحرائر، حتى لا يَختلطْنَ بالإماء، فإذا عُرِفْنَ لم يقابلْنَ بأذى[٣] من المعارضة مراقبةً لرتبةِ الحرِّية، فتنقطع الأطماعُ عنهن. وليس المعنى أن تُعرف المرأة حتى يُعلم من هي. وكان عمر ﷺ إذا رأى أمَةً قد تقنَّعتْ ضَرَبَها بالدِّرَّة، محافظةً على زيِّ الحرائر[٤].

وقد قيل: إنه يجب السِّترُ والتقنُّع الآن في حقِّ الجميع من الحرائر والإماء. وهذا كما أنَّ أصحاب رسول الله ﷺ منعوا النساء المساجدَ بعد وفاة رسول الله ﷺ مع قوله: «لا تمنعوا إماءَ الله مساجدَ الله»[٥] حتى قالت عائشة رضي الله عنها: لو عاش رسول الله ﷺ إلى وقتنا هذا لَمَنَعهنَّ من الخروج إلى المساجد كما مُنعت نساء بني إسرائيل[٦].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ تأنيسٌ للنساء في ترك الجلابيب قبل هذا الأمرِ المشروع.

---

(١) أخرجه أحمد (٨٦٦٥)، ومسلم (٢١٢٨) من حديث أبي هريرة ﷺ. وسلف ١٥/ ٣٤١ قوله: كاسيات عاريات، أي: كاسيات بالثياب التي لا تستر منهن حجم عورة، أو تبدي من محاسنها ما لا يحل لها أن تبديه. والأسنمة جمع سنام، والبُخت جمع بُختية، وهي ضرب من الإبل عِظامُ الأسنمة؛ شبَّه رؤوسهن بها لِمَا رفعن من ضفائر شعورهن على أوساط رؤوسهن. ينظر المفهم ٥/ ٤٥٠ - ٤٥١ .

(٢) جمع طِمْر، وهو الثوب الخَلَق، أو الكساء البالي من غير الصوف. القاموس (طمر).

(٣) في (خ) و(د) و(م): بأدنى، والمثبت من باقي النسخ وهو موافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٩ ، والكلام منه.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٩ ، وخبر عمر أخرجه ابن أبي شيبة ٢/ ٢٣٠ - ٢٣١ ، وبنحوه عبد الرزاق (٥٠٦٤).

(٥) أخرجه أحمد (٤٦٥٥)، والبخاري (٩٠٠)، ومسلم (٤٤٢): (١٣٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وسلف ٢/ ٣٢٢ .

(٦) أخرجه أحمد (٢٤٦٠٢)، والبخاري (٨٦٩)، ومسلم (٤٤٥) عن عائشة رضي الله عنها بنحوه.

قوله تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ الآية. أهلُ التفسيرِ على أنَّ الأوصاف الثلاثةَ لشيءٍ واحد، كما روى سفيان بن سعيد عن منصور، عن أبي رَزين قال: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ قال: هم شيءٌ واحدٌ، يعني أنَّهم قد جمعوا هذه الأشياء[1]. والواو مُقْحَمةٌ، كما قال:

إلى الملكِ القَرْمِ وابنِ الهُمَام ... ولَيْثِ الكَتيبة في المُزْدَحَمْ

أراد: إلى الملك القَرْم ابنِ الهُمام ليثِ الكتيبة، وقد مضى في «البقرة»[2].

وقيل: كان منهم قومٌ يُرْجِفون، وقومٌ يتبعون النساء للرِّيبة، وقومٌ يشكِّكون المسلمين.

قال عكرمةُ وشَهْر بن حَوْشَب: «الذين في قلوبهم مرضٌ» يعني الذين في قلوبهم الزِّنى. وقال طاوسٌ: نزلت هذه الآية في أمر النساء. وقال سلمةُ بن كُهيل: نزلت في أصحاب الفواحش[3]، والمعنى متقارب.

وقيل: المنافقون والذين في قلوبهم مرضٌ شيءٌ واحدٌ، عبَّر عنهم بلَفْظَين، دليلهُ آيةُ المنافقين في أوَّلِ «البقرة». والمُرْجِفون في المدينة قومٌ كانوا يُخْبِرون المؤمنين بما

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٢٦.

(٢) ٢/ ٨٥.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٣٧٩. وقول عكرمة أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٢٤، والطبري ١٩/ ١٨٤. وأخرج قول طاوس عبد الرزاق ٢/ ١٢٣.

يَسوءُهم من عدوِّهم، فيقولون إذا خرجتْ سرايا رسول الله ﷺ: إنَّهم قد قُتلوا أو هُزِموا، وإنَّ العدوَّ قد أتاكم، قاله قتادةُ وغيره[١]. وقيل: كانوا يقولون: أصحابُ الصُّفَّة قومٌ عُزَّاب، فهم الذين يتعرَّضون للنساء.

وقيل: هم قومٌ من المسلمين يَنْطِقون بالأخبار الكاذبةِ حُبًّا للفتنة. وقد كان في أصحابِ الإفكِ قومٌ مسلمون، ولكنَّهم خاضوا حُبًّا للفتنة.

وقال ابن عباس: الإرجافُ: التِماسُ الفتنة[٢]. والإرجافُ: إشاعةُ الكذبِ والباطلِ للاغتمام به. وقيل: تحريك القلوب، يقال: رجفت الأرضُ ـ أي: تحرَّكتْ وتزلزلت ـ تَرْجُف رَجْفاً. والرَّجَفان: الاضطرابُ الشديد. والرَّجَّاف: البحر، سُمِّي به لاضطرابه؛ قال الشاعر:

المُطعِمونَ اللَّحمَ كلَّ عَشِيَّةٍ ... حتى تَغيبَ الشمسُ في الرَّجَّاف[٣]

والإرجافُ: واحدُ أَرَاجيفِ الأخبار. وقد أَرْجَفوا في الشيء، أي: خاضوا فيه.

قال الشاعر:

فإنَّا وإن عيَّرتُمونا بقتلهِ ... وأَرْجَفَ بالإسلام باغٍ وحاسدُ[٤]

وقال آخر:

أَبِالأَرَاجيفِ يا ابنَ اللُّؤمِ تُوْعِدُني ... وفي الأراجيف خِلْتُ اللؤمُ والخَوَرُ[٥]

---

(١) تفسير الطبري ١٩/ ١٨٥ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٤٢٤ .

(٣) تهذيب اللغة ١١/ ٤٣ ، والصحاح (رجف) والكلام منه، وأساس البلاغة (رجف)، ووقع في هذه المصادر: الشحم، بدل: اللحم. وذكره ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام ١/ ١٧٨ عن مطرود بن كعب الخزاعي في رثاء عبد المطلب، وصدره فيه: والمطعمين إذا الرياح تناوحت... ، وينظر اللسان (رجف).

(٤) قائله عبدالله بن جحش ﷺ ، وسلف ٣/ ٤٢٧ .

(٥) نسب للَّعين المِنْقَري كما في الكتاب ١/ ١١٩ - ١٢٠ ، والحيوان ٤/ ٢٦٧ ، والخزانة ١/ ٢٥٧ . ونسبه صاحب اللسان (خيل) لجرير. ووقع في جميع هذه المصادر: أبالأراجيز، بدل: أبالأراجيف. وذكر =

فالإرجافُ حرامٌ لأنَّ فيه إذايةً، فدلَّت الآيةُ على تحريم الإيذاء بالإرجاف.

الثانية: قوله تعالى: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ أي: لنُسلِّطنَّك عليهم[1] فتستأصلهم بالقتل.

قال ابن عباس: لم يَنْتَهوا عن إيذاءِ النساءِ، وإنَّ الله عزَّ وجلَّ قد أغْرَاه بهم، ثم إنه[2] قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٨٤]، وإنَّه أمَره بلَعْنِهم، وهذا هو الإغراء. وقال محمد بن يزيد: قد أغْراه بهم في الآية التي تَلي هذه مع اتِّصالِ الكلامِ بها، وهو قولُه عز وجل: ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾ فهذا فيه معنى الأمرِ بِقَتْلِهم وأخْذِهم، أي: هذا حُكْمُهم إذا كانوا مقيمين على النفاق والإرجاف. وفي الحديث عن النبيِّ ﷺ: «خمسٌ يُقتَلْنَ في الحِلِّ والحَرَمِ»[3] فهذا فيه معنى الأمرِ كالآية سواء. النحاس[4]: وهذا مِن أحْسَنِ ما قيل في الآية.

وقيل: إنَّهم قد انتَهَوْا عن الإرجاف فلم يُغْرَ بِهم. ولامُ «لَنُغْرِيَنَّكَ» لامُ القَسَم، واليمينُ واقعةٌ عليها، وأُدخلت اللامُ في «إنْ» تَوْطِئةً لها.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ﴾ أي: في المدينة ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ نصب على الحال من الضمير في «يُجَاوِرُونَكَ»، فكان الأمرُ كما قال تبارك وتعالى؛ لأنهم لم يكونوا إلَّا أقِلَّاءَ. فهذا أحدُ جَوَابي الفرَّاء[5]، وهو الأوْلَى عنده، أي: لا يجاورونك إلَّا في حالِ قِلَّتِهم. والجوابُ الآخَرُ أنْ يكون المعنى: إلَّا وقتاً قليلاً، أي: لا يَبْقَوْنَ معك إلَّا مدَّة يسيرةً، أي: لا يجاورونك فيها إلَّا جِواراً قليلاً حتى

= البغدادي أن القصيدة لامية، وأن الصواب: والفشلُ، بدل: والخور. ووقع في الحيوان: جَلْبُ اللؤمِ والكسلِ.

(١) هذا قول ابن عباس في تفسير هذه الآية، كما أخرجه الطبري ١٩/ ١٨٥، وعلقه البخاري قبل الحديث (٤٧٩٧).

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٣٢٦ (والكلام منه): لأنه، بدل: ثم إنه. وقد ذكر النحاس هذا الكلام دون نسبة.

(٣) سلف ١/ ٣٦٨.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٣٢٦، وما قبله منه.

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٣٥٠، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٢٦.

يَهْلَكوا، فيكون نعتاً لمصدرٍ أو ظرفٍ محذوف. ودلَّ على أنَّ مَن كان معك ساكناً بالمدينة فهو جارٌ، وقد مضى في «النساء»[١].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿مَّلْعُونِينَ﴾ هذا تَمامُ الكلامِ عند محمد بن يزيد، وهو منصوبٌ على الحال[٢]. وقال ابن الأنباريّ[٣]: «قلِيلاً ملعونين» وقفٌ حسن. النحاس[٤]: ويجوز أن يكون التَّمَامُ «إلَّا قليلاً»، وتنصب «مَلْعُونِينَ» على الشَّتْم، كما قرأ عيسى بن عمر: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ [المسد: ٤][٥]. وقد حُكي عن بعض النَّحْويين أنه قال: يكون المعنى: أينما ثُقِفوا أُخِذُوا ملعونين. وهذا خطأٌ، لا يَعملُ ما [كان] مع المجازاة فيما قَبْلَه.

وقيل: معنى الآيةِ: إنْ أَصَرُّوا على النفاق لم يكن لهم مُقامٌ بالمدينة إلَّا وهم مَطْرودون ملعونون. وقد فُعِلَ بهم هذا؛ فإنَّه لمَّا نزلت سورةُ «براءة» جُمِعوا، فقال النبيُّ ﷺ: «يا فلانُ، قُمْ فاخْرُجْ فإنك منافق، ويا فلان قم» فقام إخوانهم من المسلمين وتَوَلَّوا إخراجَهم من المسجد[٦].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ نصب على المصدر، أي: سَنَّ الله جلَّ وعزَّ فيمَن أَرْجَفَ بالأنبياء وأَظْهَرَ نفاقَه أن يؤخذ ويُقتل. ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي: تحويلاً وتغييراً؛ حكاه النقَّاش. وقال السُّدِّيّ: يعني أنَّ مَن قُتل بحقٍّ فلا دِيَةَ على قاتله[٧].

---

(١) ٦/ ٣٠٦.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٢٧.

(٣) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٤٣.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٣٢٧، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٥) وهي قراءة عاصم، وقرأ الباقون برفع التاء. السبعة ص ٧٠٠، والتيسير ص ٢٢٥.

(٦) أخرجه الطبراني في الأوسط (٧٩٦) مطولاً من حديث ابن عباس رضي الله عنهما دون قوله: فقام إخوانهم...، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٣٤: فيه الحسين بن عمرو بن محمد العنقزي، وهو ضعيف.

(٧) النكت والعيون ٤/ ٤٢٥.

المهدَوِيُّ: وفي الآيةِ دليلٌ على جواز تَرْكِ إنفاذِ الوعيد، والدليلُ على ذلك بقاءُ المنافقين معه حتى مات. والمعروفُ من أهل الفضل إتمامُ وَعْدِهم وتأخيرُ وعيدهم، وقد مضى هذا في «آل عمران»[(١)] وغيرِها.

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ﴾ هؤلاء المُؤذُونَ لرسول الله ﷺ لمَّا تُوُعِّدوا بالعذاب سألوا عن الساعة، استبعاداً وتكذيباً، مُوهِمين أنَّها لا تكون. ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: أَجِبْهم عن سؤالهم، وقُلْ: عِلْمُها عند الله، وليس في إخفاءِ الله وَقْتَها عنِّي ما يُبْطِلُ نبوَّتي. وليس من شرط النبيِّ أن يعلم الغيبَ بغيرِ تعليم من الله جلّ وعزّ.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ أي: ما يُعْلِمُك ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ أي: في زمانٍ قريب. وقال ﷺ: «بُعِثْتُ أنا والساعةُ كهاتين» وأشار إلى السبَّابة والوسطى، خرَّجه أهلُ الصحيح[(٢)].

وقيل: أي: ليست الساعةُ تكون قريباً. فحذف هاءَ التأنيث ذهاباً بالساعة إلى اليوم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] ولم يقل: قريبةٌ، ذهاباً بالرحمة إلى العفو؛ إذ ليس تأنيثُها أصليًّا. وقد مضى هذا مستوفًى[(٣)].

وقيل: إنَّما أَخْفَى وقتَ الساعةِ ليكون العبدُ مستعدًّا لها في كلِّ وقت.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ أي: طَرَدَهم وأَبْعَدَهم. واللعنُ: الطَّرْدُ

---

(١) ٥/٤٧٨.

(٢) صحيح البخاري (٦٥٠٣)، وصحيح مسلم (٢٩٥٠) من حديث سهل بن سعد ﷺ، وسلف ١٢/٢٦٨.

(٣) ٩/٢٥٠.

والإبعادُ عن الرحمة. وقد مضى في «البقرة» بيانُه[١]. ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا . خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ﴾ فأنَّثَ السعير لأنَّها بمعنى النارِ ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ يُنجيهم من عذابِ اللهِ والخلودِ فيه.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ۝٦٦ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ۝٦٧﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾ قراءةُ العامَّةِ بضمِّ التاء وفتحِ اللَّام، على الفعل المجهول. وقرأ عيسى الهمدانيُّ وابن أبي إسحاق[٢]: «نُقَلِّبُ» بنونٍ وكَسْرِ اللَّام[٣] «وجوهَهم» نصباً. وقرأ عيسى أيضاً: «تُقَلِّبُ» بضمِّ التاء وكَسْرِ اللام[٤]، على معنى: تُقلِّب السعيرُ وجوهَهم. وقرأ أبو حيوة باختلاف عنه، وأبو جعفر وشيبة: تَقَلَّبُ؛ بفتح التاء واللام؛ على معنى تَتَقَلَّبُ[٥].

وهذا التقليبُ تغييرُ ألوانِهم بلفحِ النار، فَتَسْوَدُّ مرةً وتَخْضَرُّ أخرى. وإذا بدِّلت جلودُهم بجلودٍ أُخَرَ فحينئذٍ يتمنَّوْنَ أنهم ما كفروا، ويقولون: يا ليتنا. ويجوز أن يكون المعنى: يقولون يومَ تقلَّب وجوههم في النار: ﴿يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا﴾ أي: لم نكفرُ فننجوَ من هذا العذاب كما نجا المؤمنون. وهذه الألفُ تقع في الفواصل، فيوقَفُ عليها ولا يوصَلُ بها. وكذا «السبيلا» وقد مضى في أول السورة[٦].

---

(١) ٢/ ٢٤٧.

(٢) في النسخ عدا (ظ): وابن إسحاق، والمثبت من (ظ) وفتح القدير ٤/ ٣٠٦.

(٣) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٢٠ عن أبي حيوة.

(٤) المحتسب ٢/ ١٨٤، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٠٠، والكلام منه. وقد ذكر أبو حيان في البحر ٧/ ٢٥٢ أن الذي قرأ «نقلِّب» بالنون هو عيسى البصري (وهو ابن عمر الثقفي النحوي)، أما الذي قرأ: «تُقلِّب» بالتاء فهو عيسى الكوفي (وهو ابن عمر الهمداني). وينظر معرفة القراء الكبار ١/ ٢٦٩ - ٢٧٠.

(٥) من قوله: وقرأ أبو حيوة. . . إلى هذا الموضع، ليس في (م). وقد ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٠ عن أبي حيوة، وذكرها أبو حيان في البحر ٧/ ٢٥٢ عن أبي جعفر، لكن القراءة المشهورة عن أبي جعفر ـ وهو من العشرة ـ كقراءة الجماعة.

(٦) ص٩٣ من هذا الجزء.

وقرأ الحسن: «إنَّا أطَعْنا ساداتِنا» بكسر التاء[١]، جمع سادة، وكان في هذا زجرٌ عن التقليد. والسادةُ جمعُ السيد، وهو فَعَلة، مثل كَتَبة، وفَجَرة، وساداتنا جمع الجمع. والسادةُ والكبراءُ بمعنًى. وقال مقاتل[٢]: هم المُطْعِمون في غزوة بدر. والأظْهَرُ العمومُ في القادة والرؤساء في الشِّرْكِ والضَّلالة، أي: أَطَعْناهم في معصيتك وما دَعَوْنا إليه ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ أي: عن السَّبيل وهو التوحيد، فلما حُذفَ الجارُّ وُصِلَ الفعلُ فنصب. والإضلالُ لا يتعدَّى إلى مفعولين من غير توسُّطِ حرفِ الجرِّ، كقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ﴾ [الفرقان: ٢٩].

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ قال قتادة: عذاب الدنيا وعذاب الآخرة[٣].

وقيل: عذاب الكفر وعذاب الإضلال، أي: عذِّبهم مِثْلَيْ ما تُعَذِّبنا، فإنَّهم ضَلُّوا وأَضَلُّوا. ﴿وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ قرأ ابن مسعود وأصحابه ويحيى وعاصم بالباء. الباقون بالثاء[٤]، واختاره أبو حاتم وأبو عبيد والنحاس[٥]؛ لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩] وهذا المعنى كثير. وقال محمد بن أبي السَّرِي: رأيتُ في المنام كأنِّي في مسجدِ عَسْقَلان، وكأنَّ رجلاً يُناظِرُني فيمَن يبغض أصحاب محمدٍ ﷺ، فقال: والْعَنْهُمْ لعناً كثيراً، ثم كَرَّرَها حتى غاب عنِّي، لا يقولُها إلَّا بالثاء[٦]. وقراءةُ

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٢٨، وهي قراءة ابن عامر كما في السبعة ص ٥٢٣، والتيسير ص ١٧٩.

(٢) في (د) و(م): قتادة، وذكره عن مقاتل الواحدي في الوسيط ٣/ ٤٨٣.

(٣) ذكره النحاس في معاني القرآن ٥/ ٣٤٤ في تفسير قوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠].

(٤) السبعة ص ٥٢٣، والتيسير ص ١٧٩.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٣٢٨.

(٦) أخرجه ابن عساكر في تاريخه ٥٥/ ٢٣٢ بنحوه مطولاً، ثم روى عن ابن عدي قوله: ابن أبي السري العسقلاني كثير الغلط.

الباء تَرْجِعُ في المعنى إلى الثاء؛ لأنَّ ما كبر كان كثيراً عظيمَ المِقْدار.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴿٦٩﴾﴾

لمَّا ذكر الله تعالى المنافقين والكفَّارَ الذين آذَوْا رسولَ الله ﷺ والمؤمنين، حذَّر المؤمنين من التعرُّضِ للإيذاء، ونهاهم عن التَّشَبُّهِ ببني إسرائيلَ في إذايتِهِم[1] نبيَّهم موسى.

واختلف الناس فيما أوذي به محمد ﷺ وموسى، فحكى النقَّاشُ أنَّ إذايتهم محمداً عليه الصلاة والسلام قولُهم: زيد بنُ محمد. وقال أبو وائل: إذايته أنه ﷺ قَسَم قَسْماً، فقال رجلٌ من الأنصار: إنَّ هذه القِسمةَ ما أُرِيدَ بها وجهُ الله، فذُكر ذلك للنبيِّ ﷺ، فغضب وقال: «رَحِمَ الله موسى، لقد أُوذيَ بأكثرَ من هذا فَصَبَر»[2].

وأمَّا إذايةُ موسى ﷺ فقال ابن عباس وجماعةٌ: هي ما تضمَّنه حديثُ أبي هريرةَ ﷺ عن النبيِّ ﷺ، وذلك أنه قال: «كان بنو إسرائيلَ يغتسلون عُراةً، وكان موسى عليه السلام يتستَّر كثيراً ويُخْفِي بَدَنَه، فقال قومٌ: هو آدرُ[3] وأبرصُ، أو به آفةٌ، فانطلق ذاتَ يومٍ يغتسلُ في عينٍ بأرض الشام وجَعَل ثيابَه على صخرةٍ، ففرَّ الحجرُ بثيابه واتَّبعه موسى عرياناً يقول: ثَوْبي حَجَرُ ثوبي حَجَرُ، حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيلَ، فنظروا إليه، فإذا هو مِن أَحْسَنِهم خَلْقاً وأَعْدَلِهم صورةً، وليس به الذي قالوا، فهو قولُه تبارك وتعالى: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ﴾»[4]. أخرجه البخاريُّ ومسلم

---

(١) كذا في النسخ الخطية في هذا الموضع، وفي المواضع التالية. وكذا ورد في سياق كلام ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٠١ ، ووقع في (م) أذيتهم.

(٢) أخرجه أحمد (٣٦٠٨)، والبخاري (٣١٥٠)، ومسلم (١٠٦٢) من طريق أبي وائل (وهو شقيق بن سلمة) عن ابن مسعود ﷺ، والكلام من النكت والعيون ٤/ ٤٢٦ .

(٣) الآدَر هو ذو الأُدْرة: وهي عِظَمُ الخصيتين وانتفاخهما. المفهم ٦/ ١٩٠ .

(٤) تفسير الطبري ١٩/ ١٩٠ - ١٩٤ . وسيأتي شرح قوله: ثوبي حجر.

بمعناه[١]. ولفظُ مسلم: قال رسول الله ﷺ: «كانت بنو إسرائيلَ يغتسلون عراةً ينظر بعضُهم إلى سَوْءَةِ بعض، وكان موسى عليه السلام يغتسلُ وَحْدَه، فقالوا: والله ما يمنعُ موسى أنْ يغتسلَ معنا إلّا أنه آدَرُ! قال: فذهب يوماً[٢] يغتسل، فوضع ثوبَه على حجر، ففرَّ الحجر بثوبه، قال: فجمَحَ موسى عليه السلام بإثره يقول: ثَوْبي حَجَرُ ثوبي حَجَرُ، حتى نظرت بنو إسرائيلَ إلى سَوْءة موسى وقالوا: واللهِ ما بموسى من بأسٍ، فقام الحجر حتى نُظر إليه، قال: فأخذ ثوبَه فطفِق بالحجر ضرْباً». قال أبو هريرةَ: واللهِ إنَّه بالحجر نَدَبٌ ستةٌ أو سبعةٌ؛ ضَرْبُ موسى بالحجر. فهذا قول.

وروي عن ابن عباس عن عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه قال: آذَوْا موسى بأن قالوا: قَتَلَ هارونَ؛ وذلك أنَّ موسى وهارون خرجا من فَحْص التِّيه[٣] إلى جبلٍ، فمات هارون فيه، فجاء موسى فقالت بنو إسرائيلَ لموسى: أنت قَتَلْتَه، وكان أَلْيَنَ لنا منكَ وأشدَّ حُبًّا. فآذَوْه بذلك، فأمر الله تعالى الملائكةَ، فحملته حتى طافوا به في بني إسرائيل، ورَأَوْا آيةً عظيمةً دلَّتهم على صِدْقِ موسى، ولم يكن فيه أثرُ القتل. وقد قيل: إنَّ الملائكة تكلَّمت بموته ولم يَعْرِف موضعَ قبرِه إلّا الرَّخَم، وإنه تعالى جعله أَصَمَّ أَبْكَم[٤].

ومات هارونُ قبل موسى في التِّيه، ومات موسى قبل انقضاء مدَّةِ التِّيه بشهرين[٥].

وحكى القُشَيريُّ عن عليِّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: أنَّ الله تعالى أَحْيا

(١) صحيح البخاري (٢٧٨) و(٣٤٠٤)، وصحيح مسلم (٣٣٩)، وهو عند أحمد (١٠٦٧٨).

(٢) في صحيح مسلم: مرة.

(٣) الفَحْص: ما استوى من الأرض، والتِّيه: المفازة يُتاه فيها، وهي هنا الموضع الذي تاه فيه بنو إسرائيل. اللسان (فحص) (تيه).

(٤) تفسير الطبري ١٩/ ١٩٤ ، والنكت والعيون ٤/ ٤٢٧ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٧٥ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٠١ . والرخم: طائر غزير الريش أبيض اللون مبقَّعٌ بسواد. المعجم الوسيط (رخم).

(٥) النكت والعيون ٤/ ٤٢٧ .

هارونَ فأخبرهم أنه لم يقتله، ثم مات.

وقد قيل: إنَّ إذاية موسى عليه السلام رَمْيُهم إياه بالسِّحْرِ والجنون. والصحيح الأوّل. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونوا فعلوا كلَّ ذلك، فبرَّأه الله من جميع ذلك.

مسألة: في وضع موسى عليه السلامُ ثوبَه على الحجر ودخولِه في الماء عُرياناً دليلٌ على جوازِ ذلك، وهو مذهبُ الجمهور. ومَنَعَه ابنُ أبي لَيْلَى، واحْتَجَّ بحديثٍ لم يصحَّ، وهو قوله ﷺ: «لا تَدْخُلوا الماءَ إلَّا بمئزرٍ، فإنَّ للماءِ عامِراً». قال القاضي عِيَاض: وهو ضعيفٌ عند أهلِ العلم(١).

قلت: أَمَا إنَّه يُسْتَحَبُّ التستُّر لِمَا رواه إسرائيلُ عن عبد الأعلى: أنَّ الحسن بن عليٍّ دخل غَديراً وعليه بُرْدٌ له مُتوشِّحاً به، فلمَّا خرج قيل له، فقال: إنَّما تَستَّرتُ ممن يراني ولا أراه. يعني: من ربِّي والملائكة(٢).

فإن قيل: كيف نادى موسى عليه السلام الحجرَ نداءَ مَن يَعْقِلُ؟ قيل: لأنه صَدَر عن الحجر فِعْلُ مَن يَعْقِل. و«حَجرُ» منادى مُفْرَدٌ محذوفُ حرفِ النداء، كما قال تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ [يوسف: ٢٩]. و«ثوبي» منصوبٌ بفعلٍ مُضْمَرٍ، التقدير: أعطني ثوبي، أو اترك ثوبي، فحذف الفعل لدلالة الحال عليه(٣).

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ أي: عظيماً. والوجيهُ عند العرب: العظيمُ القَدْرِ الرفيعُ المنزلةِ. ويُروى أنه كان إذا سأل الله شيئاً أعطاه إياه. وقرأ ابن مسعود:

---

(١) المفهم ٦/ ١٩٠ - ١٩١ وكلام القاضي عياض في إكمال المعلم ٧/ ٣٥٠ ، والحديث أخرجه ابن عدي في الكامل ٧/ ٢٦٥٢ ، عن جابر ﷺ. وفي إسناده يحيى بن سعيد التميمي المدني، قال فيه البخاري وأبو حاتم: منكر الحديث، وقال ابن عدي وغيره: يروي عن الثقات البواطيل. الميزان ٤/ ٣٧٨ .

(٢) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرج عبد الرزاق (١١١٤) من طريق جابر الجعفي عن الشعبي، أو عن أبي جعفر محمد بن علي أن الحسن والحسين دخلا الفرات وعلى كل واحد منهما إزاره ثم قالا: إن في الماء ـ أو إن للماء ـ ساكناً. وجابر الجعفي ضعيف كما ذكر الحافظ في التقريب.

(٣) المفهم ٦/ ١٩٠ .

«وكان عَبْدًا لِلهِ»(١). وقيل: معنى «وَجِيهًا» أي: كلَّمه تكليماً(٢).

قال أبو بكر الأنباريُّ في «كتاب الرّدّ»: زَعَم مَن طَعَنَ في القرآن، أنَّ المسلمين صَحَّفوا: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ وأنَّ الصوابَ عنده: «وكان عَبْدًا لِلهِ وَجِيْهًا». وذلك يدلُّ على ضعفِ مَقْصِدِه ونقصانِ فَهْمِه وقِلَّةِ عِلْمِه. وذلك أنَّ الآية لو حُملت على قوله، وقُرئت: «وكان عبداً»، نقصَ الثناءُ على موسى عليه السلام، وذلك أنَّ «وَجِيهًا» يكون عند أهلِ الدنيا وعند أهلِ زمانه وعند أهلِ الآخرة، فلا يُوقَفُ على مكان المدح؛ لأنَّه إن كان وجيهاً عند بني الدنيا كان ذلك إنعاماً من الله عليه لا يَبينُ معه ثناءٌ عليه من الله. فلمَّا أَوْضَح الله تعالى موضعَ المدحِ بقوله: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ استحقَّ الشَّرفَ وأَعْظَمَ الرفعةِ بأنَّ الوجاهة عند الله، فَمَن غيَّر اللفظةَ صَرَفَ عن نبيِّ اللهِ أَفْخَرَ الثناءِ وأَعْظَمَ المَدْح(٣).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أي: قصداً وحقًّا. وقال ابن عباس: أي: صواباً(٤). وقال قتادة ومقاتل: يعني قولوا قولاً سديداً في شأنِ زينبَ وزيدٍ، ولا تَنْسُبُوا النبيَّ ﷺ إلى ما لا يَحِلُّ.

وقال عكرمة وابن عباس أيضاً: القول السديد: لا إله إلا الله(٥).

وقيل: هو الذي يُوافقُ ظاهرُه باطنَه. وقيل: هو ما أُرِيدَ به وجهَ الله دون غيره.

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٢٠، والمحتسب ٢/ ١٨٥، والبحر ٧/ ٢٥٣.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٣٨٢.

(٣) سلف الكلام بنحوه مفصلاً ١/ ١٢٨.

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٤٨٤، والبغوي ٣/ ٥٤٦.

(٥) أخرجه عن ابن عباس رضي الله عنهما البيهقي في الأسماء والصفات (٢٠٥)، وعن عكرمة الطبري ١٩/ ١٩٦.

وقيل: هو الإصلاحُ بين المتشاجرين. وهو مأخوذٌ من تسديد السهم ليُصابَ به الغَرَضُ(١).

والقولُ السديد يعمُّ الخيراتِ، فهو عامٌّ في جميع ما ذُكر وغير ذلك، وظاهِرُ الآيةِ يعطي أنه إنَّما أشار إلى ما يكون خلافاً للأذى الذي قيل في جهة الرسول وجهةِ المؤمنين. ثم وَعَدَ جلَّ وعزَّ بأنه يجازي على القول السديد بإصلاح الأعمال وغفران الذنوب(٢)، وحَسْبُكَ بذلك درجةً ورِفْعةَ منزلةٍ. ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: فيما أمر به ونَهى عنه ﴿فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾

لمَّا بيَّن تعالى في هذه السورة من الأحكام ما بيَّن، أَمر بالتزامِ أَوَامرِه. والأمانةُ تعمُّ جميعَ وظائف الدِّين على الصحيح من الأقوال، وهو قولُ الجمهور. روى الترمذيُّ الحكيم أبو عبد الله: حدَّثنا إسماعيل بن نصرٍ، عن صالح بن عبد الله، عن محمد بن يزيد(٣) بن جوهر، عن الضحاك، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى لآدمَ: يا آدمُ، إنِّي عَرَضْتُ الأمانةَ على السماواتِ والأرضِ فلم تُطِقْها، فهل أنت حامِلُها بما فيها؟ قال: وما فيها يا رب؟ قال: إنْ حَمَلْتَها أُجِرْتَ، وإن ضيَّعتَها عُذِّبتَ. فاحْتَمَلَها بما فيها، فلم يَلْبَثْ في الجنة إلَّا قَدْرَ ما بين صلاةِ الأولى إلى العصر حتى أخرجه الشيطانُ منها»(٤).

---

(١) النكت والعيون ٤/٤٢٨ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/٤٠١ .

(٣) في (ظ): زيد.

(٤) لم نقف عليه عند الحكيم الترمذي، وأخرجه الطبري ١٩/١٩٧ ، وأبو بكر الأنباري في الأضداد ص٣٨٨-٣٨٩ . وأخرجه الطبري ١٩/١٩٨ عن الضحاك قوله.

فالأمانةُ هي الفرائضُ التي ائْتَمَن اللهُ عليها العبادَ. وقد اختُلف في تفاصيل بَعْضِها على أقوال؛ فقال ابن مسعود: هي في أمانات الأموال كالودائع وغيرها. وروي عنه أنَّها في كلِّ الفرائض، وأشدُّها أمانةُ المال(١).

وقال أُبَيّ بن كَعْب: من الأمانة أن ائتُمنت المرأةُ على فَرْجِها(٢).

وقال أبو الدرداء: غُسْلُ الجنابةِ أمانةٌ، وإنَّ الله تعالى لم يأمن ابنَ آدم على شيء من دِينه غيرها(٣). وفي حديثٍ مرفوع: «الأمانةُ الصلاةُ» إنْ شئتَ قلتَ: قد صلَّيتُ، وإنْ شئتَ قلتَ: لم أُصَلِّ. وكذلك الصيامُ وغُسْلُ الجنابة(٤).

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: أولُ ما خَلَقَ الله تعالى من الإنسان فَرْجُه، وقال: هذه أمانةٌ استَوْدَعْتُكَها، فلا تَلْبِسها إلَّا بحقّ. فإنْ حَفِظْتَها حَفِظْتُك، فالفرجُ أمانةٌ، والأُذنُ أمانةٌ، والعينُ أمانةٌ، واللسانُ أمانةٌ، والبطنُ أمانةٌ، واليدُ أمانةٌ، والرِّجْلُ أمانةٌ، ولا إيمانَ لمن لا أمانةَ له(٥).

وقال السُّدِّيُّ: هي ائتمانُ آدمَ ابنَه قابيلَ على ولده وأهله، وخيانتُه إياه في قَتْلِ أخيه. وذلك أنَّ الله تعالى قال له: يا آدمُ، هل تعلمُ أنَّ لي بيتاً في الأرض. قال: اللهمَّ لا! قال: فإنَّ لي بيتاً بمكةَ فَأْتِه، فقال للسماء: احْفَظِي ولدي بالأمانة، فأَبَتْ. وقال للأرض: احفظي ولدي بالأمانة، فأَبَتْ، وقال للجبال كذلك فأَبَتْ. فقال

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٢ ، وسلف ٦/ ٤٢٤ .

(٢) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٢٥ ، والطبري ١٩/ ٢٠٠ .

(٣) أخرجه أبو داود إثر الحديث (٤٢٩)، والطبري ١٩/ ٢٠٠ واللفظ له.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٢٩ ، وأخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٢٥ من طريق زيد بن أسلم عن النبي ﷺ مرسلاً بلفظ: «الأمانة ثلاث: الصلاة، والصيام، والغسل من الجنابة».

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق (٢٧٥)، وذكره الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص٢٩٦ . وذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٢٨ - ٤٢٩ مختصراً دون نسبة. قوله: فلا تلبسها، أي: فلا تخلطها. ينظر اللسان (لبس). ووقع في مكارم الأخلاق: فلا تضعها إلا في حقها. ولفظ المصنف موافق لما في النكت والعيون.

لقابيل: احْفَظْ ولدي بالأمانة، فقال: نعم، تذهبُ وترجع فتجد ولدك كما يسرُّك. فرجع فوجده قد قَتَلَ أخاه، فذلك قولُه تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ الآية[١].

وروى معمر عن الحسن: أنَّ الأمانةَ عُرِضَتْ على السَّماوات والأرض والجبال، قالت[٢]: وما فيها؟ قيل لها: إنْ أَحْسَنْتِ جُوزِيتِ، وإن أَسَأْتِ عُوقِبت. فقالت: لا[٣]. قال مجاهد: فلمَّا[٤] خَلَقَ الله تعالى آدمَ عَرَضها عليه، قال: وما هي؟ قال: إنْ أَحْسَنْتَ أَجَرتُكَ، وإن أسأتَ عذَّبتُك. قال: فقد تَحمَّلتُها يا ربّ. قال مجاهد: فما كان بين أن تحمَّلها إلى أنْ أُخْرِجَ من الجنة إلَّا قَدْرَ ما بين الظهر والعصر[٥].

وروى عليّ بن أبي طلحةَ عن ابن عباسٍ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾ قال: الأمانةُ الفرائضُ، عرضها الله عزَّ وجلَّ على السماوات والأرض والجبال، إنْ أدَّوْها أثابَهم، وإنْ ضيَّعوها عذَّبَهم. فكَرِهوا ذلك وأَشْفَقُوا من غير معصية، ولكنْ تعظيماً لدين الله عزَّ وجلَّ ألَّا يقوموا به. ثم عرضَها على آدمَ، فقَبِلها بما فيها. قال النحاس[٦]: وهذا القولُ هو الذي عليه أهلُ التفسير.

وقيل: لمَّا حضرت آدمَ ﷺ الوفاةُ أُمر أن يَعْرِضَ الأمانةَ على الخَلْق، فعرضها فلم

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٠٣ - ٢٠٤ ضمن خبر طويل من طريق السدي عن أبي مالك، وعن أبي صالح عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ.

(٢) في (ظ): بما فيها فقالت.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٤٣٠ . وأخرجه مطولاً ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية من طريق أبي معمر عون بن معمر عن الحسن البصري.

(٤) في (ظ): لما.

(٥) النكت والعيون ٤/ ٤٣٠ ، وأخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ٢٢٥ ، والواحدي في الوسيط ٣/ ٤٨٥ ، وسلف نحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما أول تفسير هذه الآية.

(٦) في معاني القرآن ٥/ ٣٨٣ ، وما قبله منه، وأخرج خبر ابن عباس أيضاً الطبري ١٩/ ١٩٨ ، وابن الأنباري في الأضداد ص ٣٨٩ - ٣٩٠ .

يقبلها إلَّا بنوه[١].

وقيل: هذه الأمانةُ هي ما أَوْدَعَه الله تعالى في السماوات والأرض والجبال والخَلْقِ من الدلائل على رُبوبيته أن يُظْهِروها، فأَظْهَرُوها، إلَّا الإنسانَ، فإنه كَتَمها وجَحَدها؛ قاله بعضُ المتكلِّمين[٢].

ومعنى «عَرَضْنَا»: أَظْهَرْنا، كما تقول: عَرَضْتُ الجاريةَ على البيع. والمعنى: إنَّا عرضنا الأمانةَ وتضييعَها على أهل السماوات وأهل الأرض من الملائكة والإنس والجن ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ أي: أن يَحْمِلْنَ وِزْرَهَا، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]. ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ قال الحسن: المرادُ: الكافرُ والمنافق ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا﴾ لنفسه ﴿جَهُولًا﴾ بربِّه. فيكون ـ على هذا ـ الجوابُ مَجازاً، مثل: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢][٣].

وفيه جوابٌ آخَرُ على أن يكون حقيقةً: أنه عَرَضَ على السماوات والأرض والجبال الأمانةَ وتضييعَها، وهي الثوابُ والعقاب، أي: أَظْهَر لهنَّ ذلك، فلم يحملنَ وِزْرَها[٤]، وأَشْفَقْنَ وقُلْنَ: لا نبتغي[٥] ثواباً ولا عقاباً، وكلٌّ يقول: هذا أمرٌ لا نُطيقُه، ونحن لك سامعون ومطيعون فيما أَمَرْتَنَا به وسَخَّرتنا له[٦]؛ قاله الحسن وغيره[٧]. قال العلماء: معلومٌ أنَّ الجماد لا يفهمُ ولا يُجيبُ، فلا بدَّ من تقدير الحياة على القول الأخير. وهذا العرضُ عَرْضُ تخييرٍ لا إلزام، والعرضُ على الإنسان إلزامٌ.

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٣٨٣.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٤٢٩.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٢٩.

(٤) المصدر السابق.

(٥) في النسخ عدا (ظ): وأشفقت وقالت لا أبتغي... والمثبت من (ظ).

(٦) في النسخ عدا (ظ): فيما أمرن به وسخرن له والمثبت من (ظ).

(٧) سلف نحوه عن الحسن، وأخرجه بنحوه أيضاً عبد الرزاق ٢/ ١٢٥ عن الحسن وقتادة.

وقال القفَّال وغيره: العرضُ في هذه الآيةِ ضَرْبُ مَثَلٍ، أي إنَّ السماواتِ والأرضَ ـ على كِبَرِ أجْرامها ـ لو كانت بحيث يجوز تكليفُها، لثَقُلَ عليها تقلُّد الشرائع؛ لِمَا فيها من الثواب والعقاب، أي: إنَّ التكليفَ أمرٌ حقُّه أن تعجز عنه السماواتُ والأرض والجبال، وقد كُلِّفَه الإنسان وهو ظلومٌ جهولٌ لو عَقَل. وهذا كقوله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ ثم قال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ [الحشر: ٢١]. قال القفَّال: فإذا تقرَّر[١] أنه تعالى يضربُ الأمثالَ، وورد علينا من الخبر ما لا يخرجُ إلَّا على ضرب المثل، وَجَبَ حَمْلُه عليه.

وقال قوم: إنَّ الآيةَ من المجاز، أي: إنَّا إذا قايَسْنا ثِقَلَ الأمانةِ بقوَّةِ السماواتِ والأرضِ والجبال، رأينا أنَّها لا تُطِيقُها، وأنها لو تَكَلَّمتْ لأَبَتْ وأَشْفَقَتْ، فعبَّر عن هذا المعنى بقوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾ الآيةَ. وهذا كما تقول: عرضتُ الحِمْلَ على البعير فأباه، وأنت تريد: قايَسْتُ قوَّتَه بثِقَلِ الحِمْلِ، فرأيتُ أنَّها تقصرُ عنه[٢].

وقيل: «عَرَضْنَا» بمعنى: عارضنا الأمانةَ بالسماوات والأرض والجبال، فضعُفَتْ هذه الأشياء عن الأمانة، ورَجَحت الأمانةُ بثقلها عليها.

وقيل: إنَّ عَرْضَ الأمانة على السماوات والأرض والجبال إنَّما كان من آدمَ عليه السلام. وذلك أنَّ الله تعالى لـمَّا استخلفه على ذرِّيته، وسلَّطه على جميع ما في الأرض من الأنعام والطير والوحش، وعهِد إليه عهداً أمره فيه ونهاه وحرَّم وأحلَّ، فقبله ولـم يَزَلْ عاملاً به. فلمَّا أنْ حَضَرَتْه الوفاةُ سأل الله أنْ يُعلِمه مَن يستخلفُ بعده، ويقلِّدهُ من الأمانة ما تَقلَّدَه، فأمره أن يعرض ذلك على السماوات بالشَّرط الذي أخذ عليه، من الثواب إن أطاع، ومن العقاب إن عصى، فأبيْن أن يَقْبَلْنَه شَفَقاً من عذاب الله. ثم أمره أن يعرض ذلك على الأرض والجبال كلِّها، فأَبَيْنَه[٣]. ثم أمره أن يعرض

(١) بعدها في النسخ عدا (ظ): «في».

(٢) المحرر الوجيز ٤/٤٠٢ - ٤٠٣ .

(٣) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: فأبياه.

ذلك على ولده، فعرضه عليه، فقبِله بالشرط، ولم يَهَبْ منه ما تَهيَّبت السماوات والأرض والجبال ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا﴾ لنفسه ﴿جَهُولًا﴾ بعاقبةِ ما تَقلَّد لربِّه[1].

قال الترمذيُّ الحكيم أبو عبد الله محمد بن عليٍّ: عجبتُ من هذا[2] القائلِ من أين أتى بهذه القصة! فإن نظرنا إلى الآثار وجدناها بخلافِ ما قال، وإن نظرنا إلى ظاهرِهِ وجدناه بخلاف ما قال، وإن نظرنا إلى باطنه وجدناه بعيداً ممَّا قال! وذلك أنه ردَّد ذِكْرَ الأمانة ولم يذكر ما الأمانةُ، إلَّا أنه يُوْمِئُ في مَقَالَتِهِ إلى أنَّه سلَّطه[3] على جميع ما في الأرض، وعَهِدَ الله إليه عَهْداً فيه أمرُه ونهيُه وحِلُّه وحرامه، وزعم أنَّه أَمَره أن يعرض ذلك على السماوات والأرض والجبال! فما تصنعُ السماوات والأرض والجبال بالحلال والحرام؟! وما التسليطُ على الأنعام والطير والوحش! وكيف إذا عَرَضه على ولده فقَبِلَه يكون[4] في أعناق ذرِّيته مِن بَعْدِه! وفي مبتدأ الخبر في التنزيل أنه عَرَضَ الأمانة على السماوات والأرض والجبال حتى ظهر الإباء منهم، ثم ذكر أنَّ الإنسان حَمَلَها، أي: مِن قِبَل نفسه، لا أنَّه حُمِّل ذلك، فسمَّاه «ظَلُوماً» أي: لنفسه، «جَهُولاً» بما فيها.

وأمَّا الآثارُ التي هي بخلافِ ما ذكر، فحدَّثني أبي رَحِمَه الله قال: حدثنا الفيضُ ابن الفضل الكوفيُّ، حدثنا السَّرِيُّ بن إسماعيل، عن عامرٍ الشَّعبيِّ، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود قال: لمَّا خَلَقَ الله الأمانةَ مَثَّلها صخرةً، ثم وَضَعَها حيث شاء، ثم دعا لها السماواتِ والأرضَ والجبالَ لِيَحْمِلْنَها، وقال لهنَّ: إنَّ هذه «الأمانة»، ولها ثوابٌ وعليها عقابٌ. قالوا: يا ربِّ، لا طاقةَ لنا بها. وأَقبلَ الإنسان من قَبْل أن يُدعى، فقال للسماوات والأرض والجبال: ما وقوفُكم؟ قالوا: دعانا ربُّنا أنْ نَحمِلَ

(١) ذكره أبو بكر الأنباري في الأضداد ص ٣٩٠ - ٣٩١ عن بعض المفسرين.
(٢) في (ظ): عجبت لهذا.
(٣) في (ظ): سلط.
(٤) قوله: يكون، من (ظ)، وليس في باقي النسخ.

هذه، فَأَشْفَقْنَا منها ولم نُطِقْها، قال: فحرَّكها بيده وقال: واللهِ لو شئتُ أنْ أَحْمِلَها لحملتُها، فَحمَلَها حتى بلغ بها إلى رُكْبَتَيه، ثم وضعها وقال: والله لو شئتُ أَنْ أَزْدادَ لازْدَدْتُ، قالوا: دونك! فحملها حتى بلغ بها حَقْوَيه[١]، ثم وضعها وقال: والله لو شئتُ أن أزداد لازْدَدْتُ، قالوا: دونَكَ، فحملها حتى وضعها على عاتِقِه، فلمَّا أَهْوَى ليضعها[٢]، قالوا: مَكَانك! إنَّ هذه الأمانةُ، ولها ثوابٌ وعليها عقابٌ، وأَمَرَنا ربُّنا أن نحملها فأشفقنا منها، وحَمَلْتَها أنت من غير أن تُدعى لها، فهي في عنقك وفي أعناق ذرِّيتك إلى يوم القيامة، إنَّك كنت ظلوماً جهولاً[٣]. وذَكَر أخباراً عن الصحابة والتابعين تقدَّم أكثرها.

﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: التزمَ القيامَ بحقِّها، وهو في ذلك ظلومٌ لنفسه ـ وقال قتادة: للأمانة ـ جهولٌ بقَدْرِ ما دخل فيه. وهذا تأويلُ ابن عباس وابن جبير[٤]. وقال الحسن: جهولٌ بربِّه. قال: ومعنى «حملها»: خان فيها، وقاله[٥] الزجَّاج. والآيةُ في الكافر والمنافق. والعصاةُ على قَدْرِهم على هذا التأويل[٦].

وقال ابن عباس وأصحابه والضحاك وغيره: «الإنسان»: آدمُ، تحمَّل الأمانةَ فما تمَّ له يومٌ حتى عصى المعصيةَ التي أخرجته من الجنة[٧].

وعن ابن عباس أنَّ الله تعالى قال له: أتحملُ هذه الأمانةَ بما فيها؟. قال: وما فيها؟ قال: إن أَحْسَنْتَ جُزِيْتَ، وإن أَسَأْتَ عُوقبتَ. قال: أنا أحملُها بما فيها بين

---

(١) الحَقو: الخصر.

(٢) في (ظ): فلما أراد أن يضعها.

(٣) لم نقف على كلام الحكيم الترمذي وخبر ابن مسعود ﷺ ذكره بنحوه البغوي ٣/ ٥٤٧ . والسري ابن إسماعيل قال فيه الحافظ في التقريب: متروك الحديث.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٢ ، دون قول قتادة، وأخرج قول قتادة الطبري ١٩/ ٢٠٥ .

(٥) في النسخ عدا (ظ): وقال، والمثبت من (ظ).

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٢ ، دون قوله: وقاله الزجاج، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ٢٣٨ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٢ ، وسلف نحوه عن ابن عباس ص٢٤٤ من هذا الجزء.

أُذني وعاتقي. فقال الله تعالى له: إنِّي سأُعِينُك؛ قد جعلتُ لبصرك حجاباً فَأَغْلِقه عمَّا لا يَحلُّ لك، ولفَرْجِكَ لباساً فلا تَكْشِفْهُ إلَّا على ما أَحْلَلْتُ لك[١].

وقال قوم: «الإنسان»: النوعُ كله. وهذا حَسَنٌ مع عمومِ الأمانة[٢]، كما ذَكَرْناه أوّلاً. وقال السُّدِّي: الإنسانُ قابيل[٣]. فالله أعلم.

﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ﴾ اللَّامُ في «لِيُعَذِّبَ» متعلِّقةٌ بـ «حَمَلَ» أي: حملها ليعذِّب العاصي ويثيب المطيع، فهي لامُ التعليل؛ لأنَّ العذاب نتيجةُ حَمْلِ الأمانة[٤]. وقيل بـ «عرضنا»، أي: عَرَضْنا الأمانةَ على الجميع ثم قلَّدناها الإنسانَ لِيَظْهرَ شِرْكُ المشركِ ونفاقُ المنافقِ ليعذِّبهم الله، وإيمانُ المؤمنِ لِيُثيبه الله.

﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ﴾ قراءةُ الحسنِ بالرفع، يَقْطَعُهُ من الأوَّل؛ أي: يتوبُ الله عليهم بكلِّ حال. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ خبرٌ بعدَ خبرٍ لـ «كان». ويجوز أن يكون نعتاً لغفور، ويجوز أن يكون حالاً من المُضْمَرِ[٥]. والله أعلم بالصواب.

---

(١) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٢ ، والبغوي ٣/ ٥٤٦ دون نسبة. وأخرجه الطبري ١٩/ ٢٠١ عن ابن زيد. وأخرجه ابن أبي حاتم ـ كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية ـ عن زيد بن أسلم وعن أبي حازم.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٢ .

(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٠٥ ، وقد سلف مطولاً ص٢٤٥ من هذا الجزء.

(٤) وقال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٣ : اللام لام العاقبة؛ لأن الإنسان لم يحمل ليقع العذاب، لكن حمل، فصار الأمر وآل إلى أن يعذب مَنْ نافقَ ومن أشرك، وأن يتوب على من آمن. وينظر الدر المصون ٩/ ١٤٦ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٢٩ ، وذكر قراءة الحسن أيضاً ابن عطية في المحرر الوجيز، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٢١ عن الأعمش.

تفسير سورة الأحزاب

[وهى] (١)مدنية .

قال [عبد الله بن] الإمام أحمد (٢) : حدثنا خلف بن هشام ، حدثنا حماد بن زيد ، عن عاصم ابن بَهْدَلَة ، عن زِرٍّ قال : قال لى أُبَىّ بن كعب : كَأَين تقرأ سورة الأحزاب ؟ أو كَأين تعدها ؟ قال : قلت : ثلاثاً وسبعين آية . فقال: قَط ! لقد رأيتها وإنها لتعادل « سورة البقرة » ، ولقد قرأنا فيها : الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة ، نكالاً من اللّه ، واللّه عليم (٣) حكيم » (٤) .

ورواه النسائى من وجه آخر ، عن عاصم ـ وهو ابن أبى النجود ، وهو ابن بَهْدَلَة ـ به (٥) . وهذا إسناد حسن ، وهو يقتضى أنه كان (٦) فيها قرآن ثم نسخ لفظه وحكمه أيضاً ، والله أعلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (٣) ﴾ .

هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى ، فإنه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا، فَلأن يأتمر من دونه بذلك بطريق الأولى والأحرى ، وقد قال طَلْق بن حبيب : التقوى: أن تعمل بطاعة الله ، على نور من الله ، ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله ، على نور من الله ، مخافة عذاب الله .

وقوله : **﴿ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾** أى: لا تسمع منهم ولا تستشرهم ، **﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾** أى: فهو أحق أن تتبع أوامره وتطيعه، فإنه عليم بعواقب الأمور ، حكيم فى أقواله وأفعاله. ولهذا قال: **﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾** أى: من قرآن وسنة ، **﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾** أى: فلا تخفى عليه خافية ، **﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾** أى: فى جميع أمورك وأحوالك ، **﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ**

(١) زيادة من ت ، أ .

(٢) فى هـ : « قال الإمام أحمد : إنما قاله عبد الله بن أحمد » ، وفى ت ، ف ، أ : « قال الإمام أحمد » وأثبتنا ما بين القوسين ليستقيم السياق ، والذى فى المسند : « حدثنا عبد الله ، حدثنا خلف » .

(٣) فى ت ، أ : « عزيز » .

(٤) المسند (٥/ ١٣٢) .

(٥) النسائى فى السنن الكبرى برقم (٧١٥٠) .

(٦) فى أ : « أنه قد كان » .

وَكِيلاً﴾ أى: وكفى به وكيلاً لمن توكل عليه وأناب إليه .

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤) ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥) ﴾.

يقول تعالى موطئاً قبل المقصود المعنوى أمراً حسياً معروفاً ،وهو أنه كما لايكون للشخص الواحد قلبان فى جوفه ،ولا تصير زوجته التى يظاهر منها بقوله :أنت علَى كظهر أمى أماً له ،كذلك لايصير الدَّعىّ ولداً للرجل إذا تبنَّاه فدعاه ابنا له،فقال: ﴿ **مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ** ﴾،كقوله: ﴿ **مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا** ﴾[المجادلة :٢] .

وقوله: ﴿ **وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ** ﴾: هذا هو المقصود بالنفى ؛فإنها نزلت فى شأن زيد بن حارثة مولى النبى ﷺ ،كان النبى ﷺ قد تبناه قبل النبوة ،وكان يقال له :« زيد بن محمد » ،فأراد اللّه تعالى أن يقطع هذا الإلحاق وهذه النسبة بقوله : ﴿ **وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ** ﴾ ،كما قال فى أثناء السورة :﴿ **مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا** ﴾ [الأحزاب : ٤٠] ،وقال ههنا: ﴿ **ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ** ﴾ يعنى :تبنيكم لهم قول لايقتضى أن يكون ابنا حقيقيا ،فإنه مخلوق من صلب رجل آخر ،فما يمكن أن يكون له أبوان ،كما لا يمكن أن يكون للبشر الواحد قلبان .

﴿ **وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ** ﴾: قال سعيد بن جبير :﴿ **يَقُولُ الْحَقَّ** ﴾ أى : العدل .وقال قتادة : ﴿ **وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ** ﴾ أى: الصراط المستقيم .

وقد ذكر غير واحد: أن هذه الآية نزلت فى رجل من قريش ،كان يقال له: « ذو القلبين » ،وأنه كان يزعم أن له قلبين ،كل منهما بعقل وافر .فأنزل اللّه هذه الآية رداً عليه .هكذا روى العَوْفى عن ابن عباس .قاله مجاهد ،وعكرمة ،والحسن ،وقتادة ،واختاره ابن جرير .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن ،حدثنا زهير ،عن قابوس ـ يعنى ابن أبى ظَبْيَان ـ أن أباه حدثه قال :قلت لابن عباس :أرأيت قول اللّه تعالى (١) :﴿ **مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ** ﴾،ما عنى بذلك ؟قال :قام رسول اللّه ﷺ يوماً يصلى ،فخَطَر خَطْرَة ،فقال المنافقون الذين يصلون معه: ألا ترون له قلبين ،قلباً معكم وقلباً معهم؟فأنزل اللّه،عز وجل: ﴿ **مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ** ﴾(٢).

---

(١) فى ف : « عز وجل » .
(٢) المسند (١/٢٦٧) .

وهكذا رواه الترمذى عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى ، عن صاعد الحرانى ـ وعن عبد بن حميد ، عن أحمد بن يونس ـ كلاهما عن زهير ، وهو ابن معاوية ، به . ثم قال : وهذا حديث حسن. وكذا رواه ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، من حديث زهير ، به (١) .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا مَعْمَر ، عن الزهرى ، فى قوله : ﴿ **مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ** ﴾ قال: بلغنا أن ذلك كان فى زيد بن حارثة ، ضُرِب له مثل ، يقول : ليس ابن رجل آخر ابنك (٢) .

وكذا قال مجاهد ، وقتادة ، وابن زيد : أنها نزلت فى زيد بن حارثة . وهذا يوافق ما قدمناه من التفسير ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ **ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ** ﴾ : هذا أمر ناسخ لما كان فى ابتداء الإسلام من جواز إدعاء الأبناء الأجانب ، وهم الأدعياء ، فأمر [الله] (٣) تعالى برد نسبهم إلى آبائهم فى الحقيقة ، وأن هذا هو العدل والقسط .

قال البخارى ، رحمه الله: حدثنا مُعَلى (٤) بن أسد ، حدثنا عبد العزيز بن المختار ، حدثنا موسى ابن عقبة قال : حدثنى سالم عن عبد الله بن عمر ؛ أن زيداً بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ، ما كُنَّا ندعوه إلا زيد بن محمد ، حتى نزل القرآن : ﴿ **ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ** ﴾.

وأخرجه مسلم والترمذى والنسائى ، من طرق ، عن موسى بن عقبة ، به (٥) .

وقد كانوا يعاملونهم معاملة الأبناء من كل وجه ، فى الخلوة بالمحارم وغير ذلك ؛ ولهذا قالت سهلة بنت سهيل امرأة أبى حذيفة : يا رسول الله ، كنا (٦) ندعو سالما ابنا ، وإن الله قد أنزل ما أنزل، وإنه كان يدخل عَلَيّ ، وإنى أجد فى نفس أبى حذيفة من ذلك شيئاً ، فقال ﷺ: « أرضعيه تحرمى عليه » الحديث(٧) .

ولهذا لما نسخ هذا الحكم ، أباح تعالى زوجة الدعى ، وتزوج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش زوجة(٨) زيد بن حارثة ، وقال : ﴿ **لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا** ﴾ [الأحزاب : ٣٧] ، وقال فى آية التحريم : ﴿ **وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ** ﴾ [النساء : ٢٣]، احترازاً عن زوجة الدعىّ ، فإنه ليس من الصلب ، فأما الابن من الرضاعة، فمنزل منزلة ابن الصلب شرعاً ، بقوله ، عليه السلام(٩) فى الصحيحين: « حرموا من الرضاعة ما يحرم من النسب »(١٠). فأما دعوة الغير ابناً على سبيل التكريم والتحبيب ، فليس مما نهى عنه فى هذه الآية ، بدليل ما رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا الترمذى ، من حديث سفيان الثورى ، عن سلمة بن كُهَيْل ،

---

(١) سنن الترمذى برقم (٣١٩٩) وتفسير الطبرى (٢١/ ٧٤) .

(٢) تفسير عبد الرزاق (٢/ ٩٢) . (٣) زيادة من ت ، ف ، أ . (٤) فى ف : « يعلى » .

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٧٨٢) وصحيح مسلم برقم (٢٤٢٥) وسنن الترمذى برقم (٣٢٠٩) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٣٩٧).

(٦) فى ت ، ف ، أ : « إنا كنا » .

(٧) الحديث فى صحيح مسلم برقم (١٤٥٣) عن عائشة ، رضى الله عنها .

(٨) فى ف : « مطلقة » . (٩) فى أ : « ﷺ » .

(١٠) صحيح البخارى برقم (٤٧٩٦) وصحيح مسلم برقم (١٤٤٥) من حديث عائشة ، رضى الله عنها .

عن الحسن العُرَنى ،عن ابن عباس ،رضى اللّه عنهما ،قال: قدمنا على رسول اللّه ﷺ أغيلمة بنى عبد المطلب على حُمُرَات لنا من جَمْع ،فجعل يَلْطَخ أفخاذنا ويقول:« أُبَيْنيّ لا ترموا الجمرة [١] حتى تطلع الشمس »[٢] .قال أبو عُبَيد وغيره :« أُبَيْنِيّ » : تصغير بنى [٣] .وهذا ظاهر الدلالة ،فإن هذا كان فى حجة الوداع سنة عشر ،وقوله :﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ﴾ فى شأن زيد بن حارثة ،وقد قتل فى يوم مؤتة سنة ثمان،وأيضاً ففى صحيح مسلم ،من حديث أبى عَوَانة الوضاح بن عبد اللّه اليَشْكُرى ،عن الجَعْد أبى عثمان البصرى ،عن أنس بن مالك ،رضى اللّه عنه ،قال :قال لى رسول اللّه ﷺ :« يا بُنى ».وراوه أبو داود والترمذى [٤] .

وقوله : ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾: أمر [اللّه] [٥] تعالى برد أنساب الأدعياء إلى آبائهم ،إن عرفوا ،فإن لم يعرفوا [٦] آباءهم،فهم إخوانهم فى الدين ومواليهم،أى:عوضاً عما فاتهم من النسب .ولهذا قال رسول اللّه ﷺ يوم خرج من مكة عام عُمرة القضاء ،وتبعتهم ابنة حمزة تنادى : يا عم ،يا عم .فأخذها على وقال لفاطمة :دونَك ابنة عَمّك فاحتمليها [٧] .فاختصم فيها على ،وزيد ،وجعفر فى أيّهم يكفلها ،فكل أدلى بحجة [٨] ؛فقال على :أنا أحق بها وهى ابنة عمى ،وقال زيد :ابنة أخى .وقال جعفر بن أبى طالب :ابنة عمى ،وخالتها تحتى ـ يعنى أسماء بنت عميس ـ فقضى النبى [٩] ﷺ لخالتها ،وقال : «الخالة بمنزلة الأم».وقال لعلى :« أنت منى ،وأنا منك».وقال لجعفر :« أشبهت خَلْقى وخُلُقى».وقال لزيد :« أنت أخونا ومولانا » [١٠] .

ففى هذا الحديث أحكام كثيرة من أحسنها : أنه ،عليه الصلاة والسلام [١١] ،حكم بالحق،وأرضى كلاً من المتنازعين ،وقال لزيد :« أنت أخونا ومولانا » ،كما قال تعالى : ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾.

وقال ابن جرير :حدثنى يعقوب بن إبراهيم ،حدثنا ابن عُلَيَّة ،عن عيينة بن عبد الرحمن ،عن أبيه قال : قال أبو بَكْرَة :قال اللّه،عز وجل : ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾،فأنا ممن لا يُعرَف أبوه ،وأنا من إخوانكم فى الدين.قال أبى : واللّه إنى لأظنه لو علم أن أباه كان حماراً لانتمى [١٢] إليه .

(١) فى ف :« جمرة العقبة » .
(٢) المسند (١/ ٣١١) وسنن أبى داود برقم (١٩٤٠) وسنن النسائى (٥/ ٢٧٠) وسنن ابن ماجة برقم (٣٠٢٥) .
(٣) فى ت ، ف ، أ : « ابنى » .
(٤) صحيح مسلم برقم (٢١٥١) وسنن أبى داود برقم (٤٩٦٤) وسنن الترمذى برقم (٤٨٣١) .
(٥) زيادة من ت ، أ . (٦) فى أ : « يعلموا » .
(٧) فى ت ،أ : « فاحتملتها » . (٨) فى أ : « بحجته » . (٩) فى أ : « فقضى بها النبى» .
(١٠) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٢٦٩٩) من حديث البراء،رضى الله عنه .
(١١) فى ف : « ﷺ » .
(١٢) فى ت : « لانتسب » .

وقد جاء في الحديث: « من ادعى لغير أبيه، وهو يعلمه، كفر (١) » (٢). وهذا تشديد وتهديد ووعيد أكيد، في التبري من النسب المعلوم؛ ولهذا قال: ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴾.

ثم قال: ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ ﴾ أي: إذا نسبتم بعضهم إلى غير أبيه في الحقيقة خطأ، بعد الاجتهاد واستفراغ الوسع؛ فإن الله قد وضع الحرج في الخطأ ورفع إثمه، كما أرشد إليه في قوله آمراً عباده أن يقولوا: ﴿ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة ٢٨٦]. وثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: « قال الله: قد فعلت » (٣). وفي صحيح البخاري، عن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: « إذا اجتهد الحاكم فأصاب، فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ، فله أجر » (٤). وفي الحديث الآخر: « إن الله رفع عن أمتي الخطأ والنسيان، وما يُكرَهُون (٥) عليه ».

وقال هاهنا: ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ أي: وإنما الإثم على من تعمد الباطل كما قال تعالى (٦): ﴿ لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾. وفي الحديث المتقدم: « من ادعى إلى غير أبيه، وهو يعلمه، إلا كفر ». وفي القرآن المنسوخ: « فإن (٧) كفراً بكم أن ترغبوا عن آبائكم ».

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن ابن عباس، عن عمر أنه قال: بعث الله (٨) محمداً ﷺ، بالحق، وأنزل معه الكتاب، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم، فرجم رسول الله ﷺ، ورجمنا بعده. ثم قال: قد كنا نقرأ: «ولا ترغبوا عن آبائكم [فإنه كفر بكم ـ أو: إن كفراً بكم ـ أن ترغبوا عن آبائكم] (٩) »، وإن رسول الله ﷺ قال: « لا تطروني [كما أطرى] (١٠) عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبده ورسوله» (١١). وربما قال مَعْمَر: « كما أطرت النصارى ابن مريم » (١٢).

ورواه في الحديث الآخر: « ثلاث في الناس كفر: الطَّعْن في النَّسبَ، والنِّياحة على الميت، والاستسقاء بالنجوم » (١٣).

﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلاَّ أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٦) ﴾.

(١) في أ: « وهو يعلمه إلا كفر ».
(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم (٣٥٠٨) من حديث أبي ذر، رضي الله عنه، بلفظ مقارب.
(٣) صحيح مسلم برقم (١٢٦) من حديث ابن عباس.
(٤) صحيح البخاري برقم (٧٣٥٢).
(٥) في أ: « والأمر يكرهون ». (٦) في ف: « الله ». (٧) في أ: « فإنه ».
(٨) في ت: « إن الله بعث »، وفي ف: « إن الله، عز وجل، بعث ».
(٩، ١٠) زيادة من ت، ف، والمسند.
(١١) في ف، أ: « أنا عبد الله وقولوا عبد الله ورسوله ».
(١٢) المسند (١/٤٧).
(١٣) المسند (٥/٣٤٢) ورواه مسلم في صحيحه برقم (٩٣٤) كلاهما عن أبي مالك الأشعري بلفظ: « أربع في أمتي من أمر الجاهلية =

قد علم اللّه تعالى شفقة رسوله ﷺ على أمته، ونصحَه لهم، فجعله أولى بهم من أنفسهم، وحكمه فيهم مُقَدّماً على اختيارهم لأنفسهم، كما قال تعالى: ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ [النساء : ٦٥] . وفى الصحيح: «والذى نفسى بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين »[١].

وفى الصحيح أيضاً أن عمر، رضى اللّه عنه، قال: يا رسول اللّه، واللّه لأنت أحب إلى من كل شىء إلا من نفسى. فقال: « لا يا عمر، حتى أكون أحب إليك من نفسك» : فقال: يا رسول اللّه [٢]، لأنت أحب إلى من كل شىء حتى من نفسى. فقال: « الآن يا عمر » [٣] .

ولهذا قال تعالى فى هذه الآية: ﴿ **النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ** ﴾.

وقال البخارى عندها[٤]: حدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثنا [محمد بن] [٥] فُلَيح، حدثنا أبى، عن هلال بن على، عن عبد الرحمن بن أبى عَمْرَة، عن أبى هريرة، رضى اللّه عنه، عن النبى ﷺ قال: « ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به فى الدنيا والآخرة. اقرؤوا إن شئتم: ﴿ **النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ** ﴾، فأيما مؤمن ترك مالاً فليرثه عَصَبَتُه مَن كانوا. فإن ترك دَيْناً أو ضَياعاً ، فليأتنى فأنا مولاه». تفرد به البخارى [٦].

ورواه أيضاً فى « الاستقراض » وابن جرير، وابن أبى حاتم، من طرق، عن فليح، به مثله[٧]. ورواه الإمام أحمد، من حديث أبى حصين، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، عن رسول اللّه بنحوه [٨] .

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن الزهرى فى قوله تعالى: ﴿ **النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ** ﴾ عن أبى سلمة، عن جابر بن عبد اللّه، عن النبى ﷺ كان يقول: « أنا أولى بكل مؤمن من نفسه، فأيما رجل مات وترك ديناً ، فإلى. ومن ترك مالاً فلورثته[٩] » . ورواه أبو داود، عن أحمد ابن حنبل [١٠] ، به نحوه.

وقوله: ﴿ **وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ** ﴾ أى: فى الحرمة والاحترام، والإكرام والتوقير والإعظام، ولكن لا

= لا يتركوهن: الفخر فى الأنساب » ثم ذكر هذه الثلاث .

(١) صحيح البخارى برقم (١٤) .

(٢) فى أ : « فقال: واللّه يا رسول اللّه » .

(٣) صحيح البخارى برقم (٦٦٣٢) .

(٤) فى ف ، ت ، أ: « عند هذه الآية الكريمة » .

(٥) زيادة من ت ، ف ، أ ، والبخارى .

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٧٨١) .

(٧) صحيح البخارى برقم (٢٣٩٩) وتفسير الطبرى (٢١/٧٧) .

(٨) المسند (٢/٣٣٤) .

(٩) فى ف : « فهو لورثته » .

(١٠) المسند (٣/٢٩٦) وسنن أبى داود برقم (٢٩٥٦) .

تجوز الخلوة بهن، ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع، وإن سمى بعض العلماء بناتهن أخوات المؤمنين، كما هو منصوص الشافعى فى المختصر، وهو من باب إطلاق العبارة لا إثبات الحكم. وهل يقال لمعاوية وأمثاله: خال المؤمنين؟ فيه قولان للعلماء. ونص الشافعى على أنه يقال ذلك. وهل يقال لهن: أمهات المؤمنات، فيدخل النساء (١) فى جمع المذكر السالم تغليباً؟ فيه قولان: صح عن عائشة، رضى الله عنها، أنها قالت: لا يقال ذلك. وهذا أصح الوجهين فى مذهب الشافعى، رحمه الله(٢).

وقد روى عن أُبى بن كعب، وابن عباس أنهما قرآ: « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم »، وروى نحو هذا عن معاوية، ومجاهد، وعِكْرِمة، والحسن: وهو أحد الوجهين فى مذهب الشافعى. حكاه البغوى وغيره، واستأنسوا عليه بالحديث الذى رواه أبو داود:

حدثنا عبد الله بن محمد النفيلى، حدثنا ابن المبارك، عن محمد بن عَجْلان، عن القعقاع بن حكيم، عن أبى صالح، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعَلِّمكم، فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها، ولا يستطب بيمينه »، وكان يأمر بثلاثة أحجار، وينهى عن الروث والرِّمَّة.

وأخرجه النسائى وابن ماجه، من حديث ابن عجلان (٣).

والوجه الثانى: أنه لايقال ذلك، واحتجوا بقوله: ﴿**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ**﴾: وقوله: ﴿**وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ**﴾ أى: فى حكم الله ﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ**﴾ أى: القرابات أولى بالتوارث من المهاجرين والأنصار. وهذه ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالحلف والمؤاخاة التى كانت بينهم، كما قال ابن عباس وغيره: كان المهاجرى يرث الأنصارى دون قراباته (٤) وذوى رحمه، للأخوة التى آخى بينهما رسول الله ﷺ، وكذا قال سعيد بن جبير، وغير واحد من السلف والخلف.

وقد أورد فيه ابن أبى حاتم حديثاً عن الزبير بن العوام، رضى الله عنه، فقال: حدثنا أبى، حدثنا أحمد بن أبى بكر المصعبى ـ من ساكنى بغداد ـ عن عبد الرحمن بن أبى الزِّناد، عن هشام بن عُرْوَة، عن أبيه، عن الزبير بن العوام قال: أنزل الله، عزوجل، فينا خاصة معشر قريش والأنصار: ﴿**وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ**﴾، وذلك أنا معشرَ قريش لما قَدمنا المدينة(٥)، قَدمنا ولا أموال لنا، فوجدنا الأنصار نِعْمَ الإخوانُ، فواخيناهم وورِثناهم. فواخى أبو بكر خارجة بن زيد، وآخى عمر فلانا، وآخى عثمان بن عفان رجلاً من بنى زُرَيق، سعد الزرقى، ويقول بعض الناس غيره. قال الزبير:

---

(١) فى ف، أ: « فيدخل النساء فيه ». (٢) فى ت: « رضى الله عنه ».
(٣) سنن أبى داود برقم (٨) وسنن النسائى (١/ ٣٨) وسنن ابن ماجة برقم (٣١٣).
(٤) فى ت: « أقاربه ». (٥) فى ت: « لما قدمنا إلى المدينة ».

وواخيت أنا كعب بن مالك، فجئته فابتعلته فوجدت السلاح قد ثقله فيما يرى، فوالله يا بنى، لو مات يومئذ عن الدنيا، ما ورثه غيرى، حتى أنزل الله هذه الآية فينا معشر قريش والأنصار خاصة، فرجعنا إلى مواريثنا .

وقوله :﴿ إلا أن تفعلوا إلىٰ أوليائكم معروفًا ﴾ أى : ذهب الميراث، وبقى النصر والبر والصلة والإحسان والوصية .

وقوله:﴿ كان ذلك في الكتاب مسطورًا ﴾ أى: هذا الحكم، وهو أن أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض، حكم من الله مقدر مكتوب فى الكتاب الأول، الذى لايبدل، ولا يغير. قاله مجاهد وغير واحد. وإن كان قد يقال (١): قد شرع خلافه فى وقت لما له فى ذلك من الحكمة البالغة، وهو يعلم أنه سينسخه إلى ما هو جار فى قدره الأزلى (٢) ، وقضائه القدرى الشرعى .

﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقًا غليظًا (٧) ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذابًا أليمًا (٨) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن أولى العزم الخمسة، وبقية الأنبياء: أنه أخذ عليهم العهد والميثاق فى إقامة دين الله، وإبلاغ رسالته، والتعاون والتناصر والاتفاق ، كما قال تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم علىٰ ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾ [آل عمران : ٨١] . فهذا العهد والميثاق أخذ عليهم بعد إرسالهم، وكذلك هذا . ونص من بينهم على هؤلاء الخمسة، وهم أولو العزم، وهو من باب عطف الخاص على العام، وقد صرح بذكرهم أيضاً فى هذه الآية، وفى قوله:﴿ شرع لكم من الدين ما وصىٰ به نوحًا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ [الشورى :١٣] ، فذكر الطرفين والوسط ، الفاتح والخاتم ، ومن بينهما على [هذا] (٣) الترتيب. فهذه هى الوصية التى أخذ عليهم الميثاق بها، كما قال: ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم [وموسىٰ وعيسى ابن مريم](٤)﴾ ، فبدأ فى هذه الآية بالخاتم ؛لشرفه ـ صلوات الله [وسلامه] (٥) عليه ـ ثم رتبهم بحسب وجودهم صلوات الله [وسلامه] (٦) عليهم .

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زرعة الدمشقى ، حدثنا محمد بن بكار ، حدثنا سعيد بن بشير، حدثنى قتادة، عن الحسن (٧)، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ ، فى قول الله تعالى: ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح ﴾ الآية: قال النبى ﷺ: « كنت أول النبيين فى الخلق

(١) فى ت ، ف: « وإن كان تعالى » .
(٢) فى ت: « إلى ما هو جار فى قدره الأول »، وفى ف: « إلى هو جار فى قدره الأزلى » .
(٣) زيادة من ف . (٤) زيادة من ت ، ف . (٥، ٦) زيادة من ف ،أ .
(٧) فى ت : « روى ابن أبى الدنيا » .

وآخرهم فى البعث، [فَبُدِئ بى] [(١)] قبلهم » [(٢)] سعيد بن بشير فيه ضعف .

وقد رواه سعيد بن أبى عروبة ، عن قتادة مرسلاً ، وهو أشبه ، ورواه بعضهم عن قتادة موقوفاً، فالله أعلم .

وقال أبو بكر البزار: حدثنا عمرو بن على، حدثنا أو أحمد، حدثنا حمزة الزيات، حدثنا على بن ثابت ، عن أبى حازم [(٣)]، عن أبى هريرة قال : خيار ولد آدم خمسة: نوح، وإبراهيم، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ، وخيرهم محمد ﷺ أجمعين [(٤)]. موقوف ، وحمزة فيه ضعف [(٥)] .

وقد قيل : إن المراد بهذا الميثاق الذى أخذ منهم حين أخرجوا فى صورة الذّر من صلب آدم، كما قال أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية، عن أُبى بن كعب قال: ورفع أباهم آدم، فنظر إليهم ـ يعنى: ذريته ـ وأن فيهم الغنى والفقير، وحسن الصورة، ودون ذلك، فقال: رب، لوسويتَ بين عبادك؟ فقال: إنى أحببت أن أشكر. وأرى فيهم الأنبياء مثل السرج، عليهم كالنور، وخصوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة، فهو الذى يقول الله تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ [وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ]** [(٦)] ﴾ الآية وهذا قول مجاهد أيضاً .

وقال ابن عباس: الميثاق الغليظ: العهد .

وقوله: ﴿ **لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ** ﴾، قال مجاهد: المبلغين المؤدين عن الرسل .

وقوله: ﴿ **وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ** ﴾ أى: من أممهم ﴿ **عَذَابًا أَلِيمًا** ﴾ أى: موجعاً، فنحن نشهد أن الرسل قد بَلَّغُوا رسالات ربهم، ونصحوا الأمم وأفصحوا لهم عن الحق المبين، الواضح الجلى، الذى لا لبس فيه، ولاشك، ولا امتراء، وإن كذبهم من كذبهم من الجهلة والمعاندين والمارقين والقاسطين، فما جاءت به الرسل هو الحق، ومن خالفهم فهو على الضلال .

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠)** ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن نعمته وفضله وإحسانه إلى عباده المؤمنين، فى صرفه أعداءهم وهزمه إياهم عام تألبوا عليهم وتحزبوا وذلك عام الخندق، وذلك فى شوال سنة خمس من الهجرة على الصحيح

---

(١) زيادة من ت ، ف ، والدلائل والكامل .

(٢) ورواه أبو نعيم فى دلائل النبوة ص(٦) وابن عدى فى الكامل (٣/ ٣٧٣) وتمام فى الفوائد برقم (٣ ١٠٠) من طرق عن سعيد بن بشير عن قتادة به، وفى إسناده علتان :

الأولى: الحسن البصرى مدلس وقد عنعن .

الثانية: سعيد بن بشير ضعيف وقد خولف، خالفه أبو هلال وسعيد بن أبى عروبة كما ذكره المؤلف فقالا: عن قتادة مرسلاً ، ا . هـ. مستفاداً من السلسلة الضعيفة برقم (٦٦١) للشيخ ناصر الألبانى .

(٣) فى ت: « وروى أبو بكر البزار بإسناده » .

(٤) مسند البزار برقم (٢٣٦٨) « كشف الأستار » .

(٥) فى ت: « موقوف ضعيف » .

(٦) زيادة من ت ، ف .

المشهور.

وقال موسى بن عُقْبة وغيره كانت فى سنة أربع .

وكان سبب قدوم الأحزاب أن نفراً من أشراف يهود بنى النضير، الذين كانوا قد أجلاهم رسول الله ﷺ من المدينة إلى خيبر، منهم: سلام بن أبى الْحُقَيْق، وسلام بن مِشْكَم، وكنانة بن الربيع، خرجوا إلى مكة واجتمعوا بأشراف قريش، وألّبوهم على حرب رسول الله(١) ﷺ ووعدوهم من أنفسهم النصر والإعانة. فأجابوهم إلى ذلك، ثم خرجوا إلى غطفان فدعوهم فاستجابوا لهم أيضاً . وخرجت قريش فى أحابيشها ومن تابعها، وقائدهم أبو سفيان صخر بن حرب، وعلى غطفان عُيَينة بن حصن بن بدر، والجميع قريب من عشرة آلاف، فلما سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم أمر المسلمين بحفر الخندق حول المدينة مما يلى الشرق (٢)، وذلك بإشارة سلمان الفارسى، فعمل المسلمون فيه واجتهدوا، ونقل معهم رسول الله ﷺ التراب وحفَر، وكان فى حفره ذلك آيات بينات ودلائل واضحات .

وجاء المشركون فنزلوا شرقى المدينة قريباً من أحد، ونزلت طائفة منهم فى أعالى أرض المدينة، كما قال الله تعالى: ﴿**إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ**﴾، وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين، وهم نحو ثلاثة آلاف، وقيل: سبعمائة، وأسندوا (٣) ظهورهم إلى سَلْع ووجوههم إلى نحو العدو، والخندق حفير ليس فيه ماء بينهم وبينهم يحجب الرجالة والخيالة أن تصل إليهم، وجعل النساء والذرارى فى آطام المدينة، وكانت بنو قريظة ـ وهم طائفه من اليهود ـ لهم حصن شرقى المدينة، ولهم عهد من النبى ﷺ وذمة، وهم قريب من ثمانمائة مقاتل فذهب إليهم حُيَىّ بن أخطب النَّضَرى [اليهودى] (٤)، فلم يزل بهم حتى نقضوا العهد، ومالؤوا الأحزاب على رسول الله ﷺ، فعَظُم الخَطْب واشتد الأمر، وضاق الحال، كما قال الله تعالى: ﴿**هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً**﴾.

ومكثوا محاصرين للنبى ﷺ وأصحابه قريباً من شهر، إلا أنهم لايصلون إليهم، ولم يقع بينهم قتال، إلا أن عمرو بن عبد ودّ العامرى ـ وكان من الفرسان الشجعان المشهورين فى الجاهلية ـ ركب ومعه فوارس فاقتحموا الخندق، وخلصوا إلى ناحية المسلمين، فندب رسول الله ﷺ خيل المسلمين إليه، فلم (٥) يبرز إليه أحد، فأمر عليا فخرج إليه، فتجاولا ساعة، ثم قتله على، رضى الله عنه، فكان علامة على النصر .

ثم أرسل الله، عز وجل، على الأحزاب ريحاً شديدة الهبوب قوية، حتى لم تبق (٦) لهم خيمة ولا شىء ولا تُوقَد لهم نار، ولم يقر لهم قرار حتى ارتحلوا خائبين خاسرين، كما قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا**﴾(٧) .

قال مجاهد: وهى الصبا، ويؤيده الحديث الآخر: « نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور » .

وقال ابن جرير: حدثنى محمد بن المثَنَّى، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا داود، عن عِكْرمة قال: قالت

(١) فى ف : « النبى » .
(٢) فى ف : « المشرق » .
(٣) فى ت ، ف : « فأسندوا » .
(٤) زيادة من ت .
(٥) فى ت ، ف: « فيقال » .
(٦) فى ت: « يبق » .
(٧) بعدها فى ف: ﴿ وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ .

الجنوب للشمال ليلة الأحزاب: انطلقى ننصر رسول الله ﷺ. فقالت الشمال: إن الحرة لا تسرى بالليل. قال: فكانت الريح التى أرسلت عليهم الصبا (١).

ورواه ابن أبى حاتم، عن أبى سعيد الأشجّ، عن حفص بن غياث، عن داود، عن عكرمة، عن ابن عباس، فذكره.

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا يونس، حدثنا ابن وَهْب، حدثنى عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن عبد الله بن عمر قال: أرسلنى خالى عثمان بن مَظْعون ليلة الخندق فى برد شديد وريح إلى المدينة، فقال: ائتنا بطعام ولحاف. قال: فاستأذنت رسول الله ﷺ، فأذن لى، وقال: « من أتيت من أصحابى فمرهم يرجعوا ». قال: فذهبت والريح تسفى كل شىء، فجعلت لا ألقى أحداً إلا أمرته بالرجوع إلى النبى ﷺ، قال: فما يلوى أحد منهم عنقه. قال: وكان معى ترس لى، فكانت الريح تضربه علىّ، وكان فيه حديد، قال: فضربته الريح حتى وقع بعض ذلك الحديد على كفى، فأنفدها (٢) إلى الأرض (٣).

وقوله: ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾: وهم الملائكة، زلزلتهم وألقت فى قلوبهم الرعب والخوف، فكان رئيس كل قبيلة يقول: يا بنى فلان إلىّ. فيجتمعون إليه فيقول: النجاء، النجاء. لما ألقى الله تعالى فى قلوبهم من الرعب.

وقال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القُرَظِىّ قال: قال فتى من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان: يا أبا عبد الله، رأيتم رسول الله ﷺ وصحبتموه؟ قال: نعم يا بن أخى. قال: وكيف كنتم تصنعون؟ قال: والله لقد كنا نجهد. قال الفتى: والله لو أدركناه ما تركناه يمشى على الأرض ولحملناه على أعناقنا. قال: قال حذيفة: يابن أخى، والله لو رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق وصلى رسول الله ﷺ هُويّا من الليل، ثم التفت فقال: « مَنْ رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم؟ - يشرط له النبى ﷺ أنه يرجع - أدخله الله الجنة ». قال: فما قام رجل. ثم صلى رسول الله ﷺ هُوياً من الليل ثم التفت إلينا، فقال مثله، فما قام منا رجل. ثم صلى رسول الله ﷺ هُوياً من الليل ثم التفت إلينا فقال: « من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع - يشترط له رسول الله ﷺ الرجعة - أسأل الله أن يكون رفيقى فى الجنة ». فما قام رجل من القوم؛ من شدة الخوف، وشدة الجوع، وشدة البرد. فلما لم يقم أحد، دعانى رسول الله ﷺ. فلم يكن لي بد من القيام حين دعانى فقال: « يا حذيفة، اذهب فادخل فى القوم فانظر ما يفعلون، ولا تُحْدِثَنّ شيئا حتى تأتينا ». قال: فذهبت فدخلت [فى القوم] (٤)، والريح وجنود الله، عز وجل، تفعل بهم ما تفعل، لا تُقرّ لهم قِدْراً ولا ناراً ولا بناءً، فقام أبو سفيان فقال: يامعشر قريش، لينظر امرؤ مَنْ جليسه. قال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذى إلى جنبى، فقلت: من أنت؟ فقال: أنا فلان بن فلان، ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكُرَاع والخُفّ، وأخلفتنا بنو قُرَيظة، وبَلَغَنا عنهم الذى نكره، ولقينا من هذه الريح الذى ترون (٥). والله

(١) تفسير الطبرى (٢١/ ٨٠).
(٢) فى أ: « فابعدها ».
(٣) تفسير الطبرى (٢١/ ٨٠).
(٤) زيادة من ت، ف، أ، والسيرة النبوية.
(٥) فى أ: « ما ترون ».

ما تطمئن لنا قدر ، ولا تَقُوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا ، فإنى مُرْتَحِل ، ثم قام إلى جَمَله وهو معقول ، فجلس عليه ، ثم ضربه ، فوثب به على ثلاث ، فما أطلق عقَالَه إلا وهو قائم. ولولا عهد رسول اللّه ﷺ إلى : « ألا تحدث شيئاً حتى تأتينى » ثم شئتُ ،لقتلته بسهم .

قال حذيفة : فرجعت إلى رسول اللّه ﷺ وهو قائم يصلى فى مِرْط لبعض نسائه مُرَحل ، فلما رآنى أدخلنى بين رجليه ، وطرح على طرف المِرْط ،ثم ركع ،وسجد وإنى لفيه ،فلما سلم أخبرته الخبر ،وسمعت غَطَفَان بما فعلت قريش ، فانشمروا راجعين إلى بلادهم (١) .

وقد رواه مسلم فى صحيحه من حديث الأعمش ،عن إبراهيم التيمى ،عن أبيه قال: كنا عند حذيفة بن اليمان ، رضى اللّه عنه ، فقال له رجل : لو أدركت رسول اللّه ﷺ ،قاتلتُ معه وأبليتُ. فقال له حذيفة :أنت كنتَ تفعل ذلك ؟ لقد رَأيتُنا مع رسول اللّه ﷺ ليلة الأحزاب فى ليلة ذات ريح شديدة وقُرّ ،فقال رسول اللّه ﷺ :« ألا رجل يأتى بخبر القوم ، يكون معى يوم القيامة ؟ » . فلم يجبه منا أحد ، ثم الثانية ،ثم الثالثة مثله. ثم قال :« يا حذيفة ،قم فأتنا بخبر من القوم » . فلم أجد بداً إذ دعانى باسمى أن أقوم ، فقال: « ائتنى بخبر القوم ، ولا تَذْعَرْهم عَلَىّ » . قال : فمضيت كأنما أمشى فى حَمام حتى أتيتهم ، فإذا أبو سفيان يَصْلى ظهره بالنار ،فوضعت سهما فى كَبِد قوسى،وأردت أن أرميَه ،ثم ذكرتُ قولَ رسول اللّه ﷺ : « لا تَذْعَرْهم عَلَىَّ » ،ولو رَمَيْته لأصبته . قال:فرجعت كأنما أمشى فى حَمّام ، فأتيت رسول اللّه ﷺ ، ثم أصابنى البرد حين فَرَغتُ وقُررْتُ فأخبرتُ رسول اللّه ﷺ ، وألبسنى من فضل عَبَاءَة كانت عليه يصلى فيها ،فلم أزل نائما حتى الصبح،فلما أن أصبحت قال رسول اللّه ﷺ :« قم يا نومان (٢) » (٣) .

ورواه يونس بن بُكَيْر ، عن هشام بن سعد ،عن زيد بن أسلم: أن رجلاً قال لحذيفة ، رضى اللّه عنه :نشكو إلى اللّه صحبتكم لرسول اللّه ﷺ ؛إنكم أدركتموه ولم ندركه ،ورأيتموه ولم نره .فقال حذيفة :ونحن نشكو إلى اللّه إيمانكم به ولم تروه ،واللّه لا تَدْرى يا بن أخى لو أدركتَه كيف كنتَ تكون . لقد رأيتنا مع رسول اللّه ﷺ ليلة الخندق فى ليلة باردة مَطِيرة . . . ثم ذكر نحو ما تقدم مطولاً (٤) .

وروى بلال بن يحيى العَبْسى ، عن حذيفة نحو ذلك أيضاً (٥) .

وقد أخرج الحاكم والبيهقى فى « الدلائل » ،من حديث عكرمة بن عمار ،عن محمد بن عبد اللّه الدؤلى ،عن عبد العزيز ابن أخى حذيفة قال :ذَكَر حذيفة مشاهدهم مع رسول اللّه (٦) ﷺ ،فقال

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٣١) .

(٢) فى أ : « نوام » .

(٣) صحيح مسلم برقم (١٧٨٨) .

(٤) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٣/ ٤٥٤) من طريق أحمد بن عبد الجبار ، عن يونس بن بكير به .

(٥) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٣/ ٣١) ومن طريقه البيهقى فى دلائل النبوة (٣/ ٤٥٠) عن موسى بن أبى المختار ،عن بلال العبسى ،عن حذيفة .

(٦) فى ت : « مع النبى » .

جلساؤه : أما واللّه لو شَهدنا ذلك لكنا فعلنا وفعلنا . فقال حذيفة : لا تمنوا ذلك . لقد رأيتُنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعُود ، أبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا ، وقريظة اليهود أسفل منا نخافهم على ذرارينا ، وما أتَت علينا قطّ أشدّ ظلمةَ ولا أشد ريحاً ،فى أصوات ريحها أمثال الصواعق،وهى ظلمة ما يرى أحدنا إصبعه ، فجعل المنافقون يستأذنون النبى ﷺ ويقولون : « إن بيوتنا عورة وما هى بعورة » .فما يستأذنه أحد منهم إلا أذن له ، ويأذن لهم فيتسللون ،ونحن ثلاثمائة ونحو ذلك ،إذ استقبلنا رسول اللّه ﷺ رَجُلاً رجلاً حتى أتى عَلَىّ وما عَلَىّ جُنَّة (١) من العدو ولا من البرد إلا مِرْط لامرأتى ، ما يجاوز ركبتى . قال : فأتانى ﷺ وأنا جَاثٍ على ركبَتىَ فقال: « من هذا؟» فقلت :حذيفة .قال : « حذيفة » . فتقاصرتُ بالأرض (٢) فقلت : بلى يا رسول اللّه ، كراهية أن أقوم . [قال : قم] (٣) ،فقمت ، فقال : « إنه كائن فى القوم خبر فأتنى بخبر القوم » ـ قال : وأنا من أشد [الناس] (٤) فزعاً ، وأشدهم قُرّاً ـ قال : فخرجت ، فقال رسول اللّه ﷺ : «اللهم ، احفظه من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله ،ومن فوقه ومن تحته». قال : فواللّه ما خلق اللّه فزعاً ولا قرّا فى جوفى إلا خرج من جوفى ،فما أجد فيه شيئا . قال : فلما وليت قال : «يا حذيفة ، لاتُحدثَنّ فى القوم شيئاً حتى تأتينى» .قال :فخرجت حتى إذا دنوت من عسكر القوم نظرت فى ضوء نار لهم تَوَقَّدُ ، وإذا رجل أدهم ضخم يقول بيده على النار، ويمسح خاصرته ، ويقول: الرحيلَ الرحيلَ ،ولم أكن أعرف أبا سفيان قبل ذلك ، فانتزعت سهماً من كنانتى أبيض الريش ، فأضعه فى كَبِد قوسى لأرميه به فى ضوء النار ، فذكرت قول رسول اللّه ﷺ :« لا تحدثن فيهم شيئاً حتى تأتينى » ،[فأمسكت] (٥) ورددت سهمى إلى كنانتى ، ثم إنى شَجَّعت نفسى حتى دخلت العسكر، فإذا أدنى الناس منى بنو عامر يقولون : يا آل عامر ، الرحيلَ الرحيلَ ،لا مُقام لكم. وإذا الريح فى عسكرهم ما تجاوز عسكرهم شبراً ، فواللّه إنى لأسمع صوت الحجارة فى رحالهم وَفَرَسَتْهُمُ (٦) الريح تضربهم بها ،ثم خرجت نحو النبى ﷺ ،فلما انتصفت فى الطريق أو نحوا من ذلك ، إذا أنا بنحو من عشرين فارساً أو نحو ذلك (٧) مُعْتَمّين ، فقالوا : أخْبر صاحبك أن اللّه تعالى كفَاه القوم. فرجعت إلى رسول اللّه ﷺ ،وهو مشتمل فى شملة يصلى ،فواللّه ما عدا أن رجعت رَاجَعَنى القُرُّ وجعلت أقَرْقفُ ،فأومأ إلى رسول اللّه ﷺ [بيده] (٨) وهو يصلى ،فدنوت منه ،فأسبل على شملته. وكان رسول اللّه ﷺ إذا حَزَبَه أمر صلى ،فأخبرته خبر القوم ،وأخبرته أنى تركتهم يترحلون(٩) ،وأنزل اللّه تعالى : ﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا** ﴾(١٠) .

وأخرج أبو داود فى سننه منه : كان رسول اللّه ﷺ : إذا حزبه أمر من حديث عكرمة بن عمار، به (١١) .

---

(١) فى أ : « جنبة » . (٢) فى ت : « إلى الأرض » . (٣) زيادة من ت ، ف ، والدلائل .
(٤ ، ٥) زيادة من ت ، ف : والدلائل . (٦) فى ت ، ف : « وفرشهم » . (٧) فى ف: « نحواً من ذلك » .
(٨) زيادة من ت ، ف ، والدلائل . (٩) فى أ : « يرتحلون » .
(١٠) دلائل النبوة للبيهقى (٣/ ٤٥١).
(١١) سنن أبى داود برقم (١٣١٩) .

وقوله : ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُم﴾ أى : الأحزاب ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾: تقدم عن حذيفة أنهم بنو قريظة ، ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ أى : من شدة الخوف والفزع ، ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾.

قال ابن جرير : ظن بعض من كان مع رسول الله ﷺ أن الدائرة على المؤمنين ، وأن الله سيفعل ذلك [١] .

وقال محمد بن إسحاق فى قوله : ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾: ظن المؤمنون [٢] كل ظن ، ونجم النفاق حتى قال مُعَتِّب [٣] بن قشير ـ أخو بنى عمرو بن عوف ـ : كان محمد يَعِدُنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا لا يقدر على أن يذهب إلى الغائط .

وقال الحسن فى قوله : ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾: ظنون مختلفة ، ظن المنافقون أن محمدا وأصحابه يستأصلون [٤]، وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله ورسوله حق ، وأنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

وقال [٥] ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن عاصم الأنصارى ، حدثنا أبو عامر (ح) وحدثنا أبى، حدثنا أبو عامر العقدى ، حدثنا الزبير ـ يعنى : ابن عبد الله ، مولى عثمان بن عفان ـ عن رُتَيْج ابن عبد الرحمن بن أبى سعيد ، عن أبيه ، عن أبى سعيد قال : قلنا يوم الخندق : يا رسول الله، هل من شىء نقول ، فقد بلغت القلوب الحناجر ؟ قال ﷺ : « نعم ، قولوا : اللهم استر عوراتنا، وآمن رَوْعاتنا » . قال : فضرب وجوه أعدائه بالريح ، فهزمهم بالريح .

وكذا رواه الإمام أحمد بن حنبل ، عن أبى عامر العقدى [٦] .

﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً (١٢) وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً (١٣)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن ذلك الحال ، حين نزلت الأحزاب حول المدينة ، والمسلمون محصورون فى غاية الجهد والضيق ، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم : أنهم ابتُلوا واختُبِروا وزُلزِلوا زلزالاً شديداً ، فحينئذ ظهر النفاق ، وتكلم الذين فى قلوبهم مرض بما فى نفوسهم : ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً﴾ أما المنافق، فنجم نفاقه، والذى فى قلبه شبهة أو

---

(١) تفسير الطبرى (٢١/ ٨٣) .

(٢) فى ت : « ظن المنون » .

(٣) فى أ : « معقب » .

(٤) فى ت : « سيستأصلون » .

(٥) فى ت : « وروى » .

(٦) المسند (٣/٣) .

حَسيكَة، ضَعُف حاله فتنفس بما يجده من الوسواس فى نفسه؛ لضعف إيمانه، وشدة ما هو فيه من ضيق الحال. وقوم آخرون قالوا كما قال الله: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ ﴾ يعنى: المدينة، كما جاء فى الصحيح: « أريت [فى المنام] (١) دارَ هجرتكُم، أرض بين حَرّتين فذهب وَهْلى أنها هَجَر، فإذا هى يثرب» (٢)، وفى لفظ: « المدينة ».

فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن مهدى، حدثنا صالح بن عمر، عن يزيد ابن أبى زياد، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى، عن البراء، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: « من سَمَّى المدينة يثرب، فليستغفر الله، هى طابة، هى طابة » (٣).

تفرد به الإمام أحمد، وفى (٤) إسناده ضعف، والله أعلم.

ويقال: إنما كان أصل تسميتها « يثرب » برجل نزلها من العماليق، يقال له: يثرب بن عبيل بن مهلابيل بن عوص بن عملاق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح. قاله السهيلى، قال: وروى عن بعضهم أنه قال: إن لها [فى التوراة] (٥) أحد عشر اسما: المدنية، وطابة، وطيبة، والمسكينة، والجابرة، والمحبة، والمحبوبة، والقاصمة، والمجبورة، والعذراء، والمرحومة.

وعن كعب الأحبار قال: إنا نجد فى التوراة يقول الله للمدينة: ياطيبة، وياطابة، ويامسكينة، [لا تقلى الكنوز، أرفع أحاجرك على أحاجر القرى] (٦).

وقوله: ﴿ لا مُقَامَ لَكُمْ ﴾ أى: هاهنا، يعنون عند النبى ﷺ فى مقام المرابطة، ﴿ فَارْجِعُوا ﴾ أى: إلى بيوتكم ومنازلكم. ﴿ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ ﴾: قال العوفى، عن ابن عباس: هم بنو حارثة قالوا: بيوتنا نخاف عليها السَّرَق. وكذا قال غير واحد.

وذكر ابن إسحاق: أن القائل لذلك هو أوس بن قَيظىّ، يعنى: اعتذروا فى الرجوع إلى منازلهم بأنها عَورة، أى: ليس دونها ما يحجبها عن العدو، فهم يخشون عليها منهم. قال الله تعالى: ﴿ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ﴾ أى: ليست كما يزعمون، ﴿ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا ﴾ أى: هَرَباً من الزحف.

﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيرًا (١٤) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً (١٥) قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لا تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٦) قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (١٧) ﴾.

يخبر تعالى عن هؤلاء الذين ﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا ﴾: أنهم لو

(١) زيادة من ت، ف، والبخارى.
(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧٠٣٥) من حديث أبى موسى، رضى الله عنه.
(٣) المسند (٤/ ٢٨٥).
(٤) فى ت: « ففى ». (٥) زيادة من ت، ف، أ. (٦) زيادة من ف، أ.

دَخل عليهم الأعداء من كل جانب من جوانب المدينة ، وقُطر من أقطارها ،ثم سئلوا الفتنة ،وهى الدخول فى الكفر ،لكفروا سريعاً . وهم لا يحافظون على الإيمان ،ولايستمسكون به مع أدنى خوف وفزع .

هكذا فسرها قتادة ،وعبد الرحمن بن زيد ،وابن جرير ،وهذا ذم لهم فى غاية الذم .

ثم قال تعالى : يذكرهم بما كانوا عاهدوا اللّه من قبل هذا الخوف ، ألا يولوا الأدبار ولا يفروا [١] من الزحف ، ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً ﴾أى : وإن اللّه سيسألهم عن ذلك العهد ،لابد من ذلك .

ثم أخبرهم أن فرَارهم ذلك لا يؤخر آجالهم ،ولا يطول أعمارهم ،بل ربما كان ذلك سببا فى تعجيل أخذهم غرّة ؛ولهذا قال : ﴿ وَإِذًا لا تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾أى : بعد هَرَبكم وفراركم ،﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى﴾ [النساء : ٧٧] .

ثم قال : ﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ﴾ أى : يمنعكم ، ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا﴾ أى : ليس لهم ولا لغيرهم من دون اللّه مجير ولا مغيث[٢].

﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٩) ﴾.

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بالمعوقين لغيرهم عن شهود الحرب ،والقائلين لإخوانهم ،أى: أصحابهم [٣] وعُشَرائهم وخلطائهم ﴿ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ أى : إلى ما نحن فيه من الإقامة فى الظّلال والثمار،وهم مع ذلك ﴿ لا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً . أَشِحَّةً عَلَيْكُم﴾ أى : بخلاء بالمودة ، والشفقة عليكم.

وقال السُّدى : ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُم﴾ أى : فى الغنائم .

﴿ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أى : من شدة خوفه وجزعه ، وهكذا خوف هؤلاء الجبناء من القتال ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ أى : فإذا كان الأمن،تكلموا كلاماً بليغاً فصيحاً عالياً ، وادعوا لأنفسهم المقامات العالية فى الشجاعة والنجدة، وهم يكذبون فى ذلك .

وقال ابن عباس : ﴿سَلَقُوكُم[٤]﴾ أى: استقبلوكم .

---

(١) فى ت ، ف : « ألا يولون ولا يفرون » . (٢) فى ت ، ف ، أ : « من دون الله وليًا مجيرًا مغيثًا » .

(٣) فى ت : « أى لأصحابهم » .

(٤) فى أ:«سلقوكم بألسنة » .

وقال قتادة: أما عند الغنيمة فأشح قوم، وأسوأه مقاسمة: أعطونا، أعطونا، قد [1] شهدنا معكم. وأما عند البأس فأجبن قوم، وأخذله للحق.

وهم مع ذلك أشحة على الخير، أي: ليس فيهم خير، قد جَمَعُوا الجبن والكذب وقلة الخير، فهم [2] كما قال فى أمثالهم الشاعر [3]:

أفى السّلم أعْيَاراً [4] جَفَاءً وغِلْظَةً ... وَفى الحَرْب أمْثَالَ النِّسَاء العَوَارِكِ

أى: فى حال المسالمة كأنهم الحمير. والأعيار: جمع عير، وهو الحمار. وفى الحرب كأنهم النساء الحُيَّض؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً﴾ أى: سهلا هينا عنده.

﴿يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً (٢٠)﴾.

وهذا أيضا من صفاتهم القبيحة فى الجبن والخوف والخور، ﴿يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾، بل هم قريب منهم، وإن لهم عودة إليهم ﴿وَإِن يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ﴾ أى: ويَوَدّون إذا جاءت الأحزاب أنهم لا يكونون [5] حاضرين معكم فى المدينة بل فى البادية، يسألون عن أخباركم، وما كان من أمركم مع عدوكم، ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً﴾ أى: ولو كانوا بين أظهركم، لما قاتلوا معكم إلا قليلاً؛ لكثرة جبنهم وذلتهم وضعف يقينهم.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (٢١) وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢)﴾.

هذه الآية الكريمة أصل كبير فى التأسى برسول الله ﷺ فى أقواله وأفعاله وأحواله؛ ولهذا أمر الناس بالتأسى بالنبى [6] ﷺ يوم الأحزاب، فى صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه، عز وجل، صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين؛ ولهذا قال تعالى للذين تقلقوا وتضجروا وتزلزلوا واضطربوا فى أمرهم يوم الأحزاب: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أى: هلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائله؟ ولهذا قال: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾.

ثم قال تعالى مخبراً عن عباده المؤمنين المصدقين بموعود الله لهم، وجَعْله العاقبةَ حاصلةً لهم فى

(١) فى أ: «فقد». (٢) فى ت: «فيهم».
(٣) البيت لهند بنت عتبة، وهو فى السيرة النبوية لابن هشام (٦٥٦/١).
(٤) فى ت: «أعيار». (٥) فى ت: «لا يكونوا». (٦) فى ت: «برسول الله».

الدنيا والآخرة ، فقال : ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾.

قال ابن عباس وقتادة : يعنون قوله تعالى فى « سورة البقرة » : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : ٢١٤] .

أى هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذى يعقبه النصر القريب ؛ ولهذا قال : ﴿ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾.

وقوله : ﴿ وَمَا زَادَهُمْ إِلا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ : دليل على زيادة الإيمان وقوته بالنسبة إلى الناس (١) وأحوالهم ، كما قاله جمهور الأئمة : إنه (٢) يزيد وينقص . وقد قررنا ذلك فى أول « شرح البخارى» ، ولله الحمد والمنة .

ومعنى قوله : ﴿ وَمَا زَادَهُمْ ﴾ أى : ذلك الحال والضيق والشدة [ما زادهم] (٣) ﴿ إِلا إِيمَانًا ﴾ بالله ، ﴿ وَتَسْلِيمًا ﴾ أى : انقيادا لأوامره ، وطاعة لرسوله .

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٤) ﴾.

لما ذكر عن المنافقين أنهم نقضوا العهد الذى كانوا عاهدوا الله عليه لايولون الأدبار ، وصف المؤمنين بأنهم استمروا على العهد والميثاق و﴿ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ ﴾، قال بعضهم : أجله .

وقال البخارى : عهده . وهو يرجع إلى الأول .

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾ أى : وما غيروا عهد الله ، ولا نقضوه ولا بدلوه .

قال البخارى : حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، عن الزهرى قال : أخبرنى خارجة بن زيد بن ثابت ، عن أبيه (٤) قال : لما نسخنا الصُحُف (٥) ، فَقَدْتُ آيةً من « سورة الأحزاب » كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرؤها ، لم أجدها مع أحد إلا مع خُزَيْمَةَ بن ثابت الأنصارى ـ الذى جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين ـ : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾.

---

(١) فى ف : « بالنسبة إلى إيمان الناس » . (٢) فى ت : « أن الإيمان » . (٣) زيادة من ت .
(٤) فى ت : « روى البخارى عن زيد بن ثابت » . (٥) فى ت ، أ : « المصحف » .

انفرد به البخارى دون مسلم . وأخرجه أحمد فى مسنده ،والترمذى والنسائى ـ فى التفسير من سننيهما ـ من حديث الزهرى ، به (١) . وقال الترمذى : « حسن صحيح » .

وقال(٢) البخارى أيضا : حدثنا محمد بن بشار ،حدثنا محمد بن عبد الله الأنصارى ،حدثنى أبى،عن ثُمَامَةَ ،عن أنس بن مالك قال: نرى هذه الآية نزلت فى أنس بن النضر :﴿ **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ** ﴾(٣) .

انفرد به البخارى من هذا الوجه ،ولكن له شواهد من طرق أخر .قال الإمام أحمد :

حدثنا هاشم بن القاسم ،حدثنا سليمان بن المغيرة ،عن ثابت (٤) قال :قال أنس :عمى أنس بن النضر سُمِيت به ، لم يشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر ،فشق عليه وقال : أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غُيِّبْتُ (٥) عنه ، لئن أرانى الله مشهداً فيما بعد مع رسول الله ﷺ لَيَرَيَنَ الله ما أصنع . قال: فهاب أن يقول غيرها ، فشهد مع رسول الله ﷺ [يوم] (٦) أحد ، فاستقبل سعدَ بن معاذ فقال له أنس (٧) : يا أبا عمرو،أين.واهاً لريح الجنة أجده دون أحد ،قال :فقاتلهم حتى قُتل قال:فَوُجد فى جسده بضع وثمانون من ضربة وطعنة ورمية ،فقالت أخته ـ عمتى الرُّبَيِّع ابنة النضر (٨) ـ : فما عرفتُ أخى إلا ببنانه . قال : فنزلت هذه الآية :﴿ **رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا** ﴾. قال : فكانوا يُرَون أنها نزلت فيه ،وفى أصحابه .

ورواه مسلم والترمذى والنسائى ،من حديث سليمان بن المغيرة ،به (٩) .ورواه النسائى أيضا وابن جرير ،من حديث حماد بن سلمة ،عن ثابت ،عن أنس ،به نحوه (١٠) .

وقال (١١) ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سِنان ،حدثنا يزيد بن هارون ،حدثنا حميد ،عن أنس أن عمه ـ يعنى : أنس بن النضر ـ غاب عن قتال بَدر ،فقال :غُيِّبتُ عن أول قتال قاتله رسول الله ﷺ المشركين ،لئن الله أشهدنى قتالاً للمشركين،لَيَرَيَنّ الله ما أصنع . قال : فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون ، فقال :اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ـ يعنى : أصحابه ـ وأبرأ إليك مما جاء هؤلاء ـ يعنى :المشركين ـ ثم تقدم فلقيه سعد ـ يعنى : ابن معاذ ـ دون أحد ، فقال : أنا معك . قال سعد : فلم أستطع أن أصنع ما صنع .قال :فوجد فيه بضع وثمانون ضربة سيف ، وطَعنَةَ رمح ،ورمية سهم.وكانوا (١٢) يقولون :فيه وفى أصحابه [نزلت] (١٣) :﴿ **فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ** ﴾.

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٧٨٤) والمسند (١٨٨/٥) وسنن الترمذى برقم (٣١٠٤) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٠١) .
(٢) فى ت : « روى » .
(٣) صحيح البخارى برقم (٤٧٨٣) .
(٤) فى ت : « روى الإمام أحمد » . (٥) فى ت : « غبت » . (٦) زيادة من ف ، والمسند .
(٧) أنس بن النضر . (٨) فى ت : « عمة الربيع بنت النضر » .
(٩) المسند (١٩٣/٤) وصحيح مسلم برقم (١٩٠٣) وسنن الترمذى برقم (٣٢٠٠) .
(١٠) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٠٤) وتفسير الطبرى (٩٣/٢١) .
(١١) فى ت: « وروى » . (١٢) فى ت ، ف ، أ : « وطعنة برمح ورمية بسهم فكانوا » .
(١٣) زيادة من ف .

وأخرجه الترمذى فى التفسير عن عبد بن حميد، والنسائى فيه أيضا، عن إسحاق بن إبراهيم، كلاهما، عن يزيد بن هارون، به (١) . وقال الترمذى : حسن . وقد رواه البخارى فى المغازى عن حسان بن حسان، عن محمد بن طلحة بن مُصَرِّف، عن حميد، عن أنس، به (٢) ، ولم يذكر نزول الآية . ورواه ابن جرير، من حديث المعتمر بن سليمان، عن حميد، عن أنس، به (٣) .

وقال (٤) ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن الفضل العسقلانى، حدثنا سليمان بن أيوب بن سليمان ابن عيسى بن موسى بن طلحة بن عبيد الله ، حدثنى أبى، عن جدى، عن موسى بن طلحة، عن أبيه طلحة قال : لما أن رجع النبى ﷺ من أحد، صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وعزّى المسلمين بما أصابهم، وأخبرهم بما لهم فيه من الأجر والذخر ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿ **رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ**(٥) ﴾ . فقام إليه رجل من المسلمين فقال : يا رسول الله، من هؤلاء ؟ فأقبلتُ وعلَىَّ ثوبان أخضران حَضْرَمِيَّان فقال: « أيها السائل، هذا منهم » .

وكذا رواه ابن جرير من حديث سليمان بن أيوب الطَّلْحى، به (٦) . وأخرجه الترمذى فى التفسير والمناقب أيضا، وابن جرير، من حديث يونس بن بُكَيْر، عن طلحة بن يحيى، عن موسى وعيسى ابْنى طلحة، عن أبيهما، به(٧) . وقال : حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث يونس .

وقال أيضا : حدثنا أحمد بن عصام الأنصارى، حدثنا أبو عامر ـ يعنى: العقدى ـ حدثنا إسحاق ـ يعنى : ابن طلحة بن عبيد الله ـ عن موسى بن طلحة قال : [دخلت على معاوية ، رضى الله عنه ، فلما خرجت، دعانى فقال : ألا أضع عندك يابن أخى حديثا سمعته من رسول الله ﷺ ؟ **أشهد** لَسَمِعت رسول الله ﷺ يقول : « طلحة ممن قضى نحبه » (٨) .

ورواه(٩) ابن جرير : حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا عبد الحميد الحِمَّانى، عن إسحاق بن يحيى بن طلحة الطَّلْحى، عن موسى بن طلحة قال] (١٠) : قام معاوية بن أبى سفيان فقال : إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « طلحة ممن قضى نحبه » (١١) .

ولهذا قال مجاهد فى قوله : ﴿ **فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ** ﴾ قال : عهده ، ﴿ **وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ** ﴾ قال : يوما

---

(١) سنن الترمذى برقم (٣٢٠١) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٠٣) .
(٢) صحيح البخارى برقم (٤٠٤٨) .
(٣) تفسير الطبرى (٢١/ ٩٣) . (٤) فى ت : « وروى » .
(٥) بعدها فى ت ، ف ، أ : « فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً » .
(٦) تفسير الطبرى (٢١/ ٩٤) .
(٧) سنن الترمذى برقم (٣٢٠٣) .
(٨) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣٢٠٢) من طريق عمرو بن عاصم ، عن إسحاق بن يحيى بن طلحة ، به وقال الترمذى : « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وإنما روى عن موسى بن طلحة عن أبيه » .
(٩) فى ت : « وروى » . (١٠) زيادة من ت ، ف ، أ ، والطبرى .
(١١) تفسير الطبرى (٢١/ ٩٣) .
(١٢) فى أ : « فتصدق » .

وقال الحسن : ﴿ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ ﴾ يعنى : موته على الصدق والوفاء . ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ﴾ الموت على مثل ذلك ، ومنهم من لم يبدل (١) تبديلاً . وكذا قال قتادة ، وابن زيد .

وقال بعضهم : ﴿ نَحْبَهُ ﴾ : نذره .

وقوله : ﴿ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ أى : وما غيروا عهدهم ، وبدلوا الوفاء بالغدر ، بل استمروا على ما عاهدوا اللّه عليه ، وما نقضوه كفعل المنافقين الذين قالوا : ﴿ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ ، ﴿ وَلَقَدْ (٢) كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ﴾ .

وقوله : ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ أى : إنما يختبر عباده بالخوف والزلزال ليميز (٣) الخبيث من الطيب ، فيظهر أمر هذا بالفعل ، وأمر هذا بالفعل ، مع أنه تعالى يعلم الشىء قبل كونه ، ولكن لا يعذب الخلق بعلمه فيهم ، حتى يعملوا بما يعلمه فيهم(٤) ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ(٥) الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ(٦) أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد : ٣١] ، فهذا علم بالشىء بعد (٧) كونه ، وإن كان العلم (٨) السابق حاصلاً به قبل وجوده . وكذا قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ﴾ [آل عمران : ١٧٩] ، ولهذا قال هاهنا : ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴾ أى : بصبرهم على ما عاهدوا اللّه عليه ، وقيامهم به ، ومحافظتهم عليه . ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ ﴾ : وهم الناقضون لعهد اللّه ، المخالفون لأوامره ، فاستحقوا بذلك عقابه وعذابه ، ولكن هم تحت مشيئته فى الدنيا ، إن شاء استمر بهم على ما فعلوه حتى يلقوه به فيعذبهم عليه ، وإن شاء تاب عليهم بأن أرشدهم إلى النزوع عن النفاق إلى الإيمان ، وعمل (٩) الصالح بعد الفسوق والعصيان . ولما كانت رحمته ورأفته بخلقه هى الغالبة لغضبه قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن الأحزاب لما أجلاهم عن المدينة ، بما أرسل عليهم من الريح والجنود الإلهية ، ولولا أن جعل اللّه رسوله رحمة للعالمين ، لكانت هذه الريح عليهم أشدّ من الريح العقيم على عاد ، ولكن قال اللّه تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ [وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ](١٠) ﴾ [الأنفال : ٣٣] ، فسلط عليهم هواء فرق شملهم ، كما كان سبب اجتماعهم من الهوَى ، وهم أخلاط من قبائل شتى ، أحزاب وآراء ، فناسب أن يرسل عليهم الهواء الذى فرق

---

(١) فى ت : « من بدل » . (٢) فى ت : « وقد » . (٣) فى ت : « فيميز » .
(٤) فى ت : « بما علمه منهم » ، وفى ف : « بما يعلمه منهم » . (٥) فى ت : « يعلم » .
(٦) فى ت : « يبلو » . (٧) فى ف : « قبل » . (٨) فى ت : « العالم » .
(٩) فى ت ، ف : « والعمل » . (١٠) زيادة من أ .

جماعتهم، وردهم خائبين خاسرين بغيظهم وحَنَقهم، لم ينالوا خيراً لا فى الدنيا، مما كان فى أنفسهم من الظفر والمغنم، ولا فى الآخرة بما تحملوه [١] من الآثام فى مبارزة الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، بالعداوة، وهمهم بقتله، واستئصال جيشه، ومن هَمّ بشىء وصَدق هَمَّه بفعله، فهو فى الحقيقة كفاعله.

وقوله: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ أى: لم يحتاجوا [٢] إلى منازلتهم ومبارزتهم حتى يجلوهم عن بلادهم، بل كفى الله وحده، ونصر عبده، وأعز جنده؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ [٣]: «لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، فلا شىء بعده». أخرجاه من حديث أبى هريرة [٤].

وفى الصحيحين من حديث إسماعيل بن أبى خالد، عن عبد الله بن أبى أوْفى قال: دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال: «اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب. اللهم، اهزمهم وزلزلهم» [٥].

وفى قوله: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾: إشارة إلى وضع الحرب بينهم وبين قريش، وهكذا وقع بعدها، لم يغزهم المشركون، بل غزاهم المسلمون فى بلادهم.

قال محمد بن إسحاق: لما [٦] انصرف أهل الخندق عن الخندق قال رسول الله ﷺ فيما بلغنا: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، ولكنكم تغزونهم»، فلم تغز [٧] قريش بعد ذلك، وكان هو يغزوهم بعد ذلك، حتى فتح الله عليه مكة.

وهذا الحديث الذى ذكره محمد بن إسحاق [٨] حديث صحيح، كما قال [٩] الإمام أحمد:

حدثنا يحيى، عن سفيان، حدثنى أبو إسحاق قال: سمعت سليمان بن صُرَد يقول [١٠]: قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: «الآن نغزوهم ولا يغزونا».

وهكذا رواه البخارى فى صحيحه، من حديث الثورى وإسرائيل، عن أبى إسحاق، به [١١].

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ أى: بحوله وقوته، ردهم خائبين، لم ينالوا خيراً، وأعز الله الإسلام وأهله، وصدق وعده، ونصر رسوله وعبده، فله الحمد والمنة.

﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ

(١) فى ت: «مما عملوا». (٢) فى أ: «لم تحتاجوا». (٣) فى ت: «ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول».
(٤) صحيح البخارى برقم (٤١١٤) وصحيح مسلم برقم (٢٧٢٤) باختلاف فى اللفظ.
(٥) صحيح البخارى برقم (٢٩٣٣) وصحيح مسلم برقم (١٧٤٢).
(٦) فى ت، ف: «فلما». (٧) فى أ: «تعد». (٨) فى ت: «وهذا الذى ذكره ابن إسحاق».
(٩) فى ت: «رواه». (١٠) فى ت: «قال».
(١١) المسند (٢٦٢/٤) وصحيح البخارى برقم (٤١٠٩).

اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧)﴾.

قد تقدم أن بنى قريظة لما قدمت جنود الأحزاب ،ونزلوا على المدينة ، نقضوا ما كان بينهم وبين رسول اللّه ﷺ من العهد ،وكان ذلك بسفارة حُيَىّ بن أخطب النَّضَرى ـ لعنه اللّه ـ دخل حصنهم،ولم يزل بسيدهم كعب بن أسد حتى نقض العهد ،وقال له فيما قال :ويحك ،قد جئتك بعز الدهر ،أتيتك بقريش وأحابيشها ،وغطفان وأتباعها ،ولا يزالون هاهنا حتى يستأصلوا محمداً وأصحابه. فقال له كعب : بل واللّه أتيتنى بذُلِّ الدهر .ويحك يا حيى ، إنك مشؤوم ،فدعنا (١) منك. فلم يزل يفتل فى الذِّروة والغَارب حتى أجابه ،واشترط له حُيى (٢) إن ذهب الأحزاب ،ولم يكن من أمرهم شىء ،أن يدخل معهم فى الحصن ،فيكون له (٣) أسوتهم .فلما نَقَضت قريظةُ،وبلغ ذلك رسول اللّه ﷺ ،ساءه ،وشق عليه وعلى المسلمين جداً ،فلما أيد اللّه ونَصر ،وكبت الأعداء وردهم خائبين بأخسر صفقة ،ورجع رسول اللّه ﷺ إلى المدينة مؤيداً منصوراً ، ووضع الناس السلاح. فبينما رسول اللّه ﷺ يغتسل (٤) من وعثاء تلك المرابطة فى بيت أم سلمة إذ تبدى له جبريل معتجراً بعمامة من إستبرق ،على بغلة عليها قطيفة [من] (٥) ديباج ،فقال :أوَضعت السلاح يا رسول اللّه ؟ قال : «نعم» .قال :لكن الملائكة لم تضع أسلحتها ،وهذا الآن رجوعى من طلب القوم .ثم قال: إن اللّه يأمرك أن تنهض إلى بنى قريظة .وفى رواية فقال له: عذيرَك من مقاتل ، أوضعتم السلاح ؟ قال: « نعم » . قال :لكنا لم نضع أسلحتنا بعد ،انهض إلى هؤلاء .قال :« أين ؟ ». قال: بنى قريظة ، فإن اللّه أمرنى أن أزلزل عليهم .فنهض رسول اللّه ﷺ من فوره ،وأمر الناس بالمسير إلى بنى قريظة،وكانت على أميال من المدينة،وذلك بعد صلاة الظهر ،وقال : « لا يصلين أحد منكم العصر إلا فى بنى قريظة » .فسار الناس ،فأدركتهم الصلاة فى الطريق ،فصلى بعضهم فى الطريق وقالوا :لم يرد منا رسول اللّه ﷺ إلا تعجيل السير ، وقال آخرون : لا نصليها إلا فى بنى قريظة. فلم يُعنِّف واحدًا من الفريقين .وتبعهم رسول اللّه ﷺ ،وقد استخلف على المدينة ابن أم مكتوم ،وأعطى الراية لعلى بن أبى طالب . ثم نازلهم رسول اللّه ﷺ وحاصرهم خمساً وعشرين ليلة ،فلما طال عليهم الحال،نزلوا على حكم سعد بن معاذ ـ سيد الأوس ـ لأنهم كانوا حلفاءهم فى الجاهلية،واعتقدوا أنه يحسن إليهم فى ذلك ،كما فعل عبد اللّه بن أبى بن سلول فى مواليه بنى قينقاع،حين استطلقهم من رسول اللّه ﷺ ، فظن هؤلاء أن سعداً سيفعل فيهم كما فعل ابن أبى فى أولئك ،ولم يعلموا أن سعداً ، رضى اللّه عنه ، كان قد أصابه سهم فى أكحَله أيام الخندق ، فكواه رسول اللّه ﷺ فى أكحله،وأنزله فى قبة فى المسجد ليعوده من قريب .وقال سعد فيما دعا به : اللهم،إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقنى لها .وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم ،فافجرها ولاتمتنى حتى تُقرّ عينى من بنى قريظة .فاستجاب اللّه دعاءه ،وقَدّر عليهم أن نزلوا على حكمه باختيارهم طلباً من تلقاء أنفسهم ،فعند ذلك استدعاه رسول اللّه ﷺ من المدينة ليحكم فيهم ،فلما

(١) فى ت : « دعنا » . (٢) فى أ : « حتى » . (٣) فى ت : « لهم » . (٤) فى ت : « يغسل رأسه » .
(٥) زيادة من ت ، ف ، أ .

أقبل وهو راكب [على حمار] (١) قد وطَّؤوا له عليه ،جعل الأوس يلوذون به ويقولون : ياسعد،إنهم مواليك ،فأحسن فيهم .ويرققونه عليهم ويعطفونه ،وهو ساكت لا يرد عليهم .فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد ألا تأخذه فى اللّه لومة لائم .فعرفوا أنه غير مستبقيهم ،فلما دنا من الخيمة التى فيها رسول اللّه ﷺ قال رسول اللّه ﷺ :« قوموا إلى سيدكم » .فقام إليه المسلمون،فأنزلوه إعظاما وإكراما واحتراما له فى محل ولايته ،ليكون أنفذ لحكمه فيهم .فلما جلس قال له رسول اللّه ﷺ : « إن هؤلاء ـ وأشار إليهم ـ قد نزلوا على حكمك ، فاحكم فيهم بما شئت».قال :وحكمى نافذ عليهم ؟ قال : «نعم».قال :وعلى من فى هذه الخيمة ؟ قال : «نعم».قال:وعلى من هاهنا .وأشار إلى الجانب الذى فيه رسول اللّه ﷺ ـ وهو معرض بوجهه عن رسول اللّه ﷺ إجلالاً (٢) وإكراماً وإعظاماً ـ فقال له رسول اللّه ﷺ :«نعم» .فقال :إنى أحكم أن تقتل مُقَاتلتهم ،وتُسْبى ذريتهم وأموالهم .فقال له رسول اللّه ﷺ : « لقد حكمتَ بحكم اللّه من فوق سبعة أرقعة » (٣) ،وفى رواية : « لقد حكمت بحكم المَلك » . ثم أمر رسول اللّه ﷺ بالأخاديد فَخُدّت فى الأرض ،وجىء بهم مكتفين،فضرب أعناقهم ،وكانوا ما بين السبعمائة إلى الثمانمائة ،وسبى من لم يُنبت منهم مع النساء وأموالهم (٤) ،وهذا كله مقرر مفصل بأدلته وأحاديثه وبسطه فى كتاب السيرة ،الذى أفردناه موجزاً ومقتصّا (٥) ،ولله الحمد والمنة .

ولهذا قال تعالى :﴿ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم ﴾ أى: عاونوا الأحزاب وساعدوهم على حرب رسول اللّه ﷺ﴿ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ يعنى : بنى قريظة من اليهود ،من بعض أسباط بنى إسرائيل ،كان قد نزل آباؤهم الحجاز قديما ،طَمَعاً فى اتباع النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ، ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾ [البقرة :٨٩] ، فعليهم لعنة اللّه .

وقوله:﴿ مِن صَيَاصِيهِمْ ﴾ يعنى:حصونهم.كذا قال مجاهد،وعِكْرِمة،وعطاء،وقتادة، والسُّدِّى،وغيرهم (٦) ومنه سميت صياصى البقر ،وهى قرونها ؛لأنها أعلى شىء فيها .

﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ وهو الخوف ؛ لأنهم كانوا مالؤوا المشركين على حرب رسول اللّه (٧) ﷺ ،وليس من يعلم كمن لا يعلم ،فأخافوا المسلمين وراموا قتلهم ليَعزّوا (٨) فى الدنيا ،فانعكس

---

(١) زيادة من ت ،ف ، والبداية والنهاية . (٢) فى ت : « إجلالا له » .

(٣) رواه ابن إسحاق فى السيرة كما فى البداية والنهاية (١٢٣/٤) من طريق عاصم بن عمر،عن عبد الرحمن بن عمر،عن علقمة بن وقاص قال : قال رسول اللّه ﷺ فذكره ،وأظن فى السند خطأ . ورواه ابن سعد فى الطبقات (٤٢٦/٣) من طريق محمد ابن صالح التمار،عن سعد بن إبراهيم،عن عامر بن سعد ،عن أبيه سعد بن أبى وقاص مرفوعاً بلفظ : « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات » ، وأصله فى صحيح البخارى من دون قوله : « فوق سبع سموات » برقم (٣٠٤٣) من حديث أبى سعيد الخدرى.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (٢٣٩/٢) .

(٥) فى ت ، ف ، أ : « وبسيطاً » .

(٦) فى ت : « كذا قال مجاهد وغير واحد من السلف » ، وفى أ : « كذا قال مجاهد وغيرهم من السلف » .

(٧) فى ف : « النبى » . (٨) فى ت ، ف ، أ : « ليغزوهم » .

عليهم الحال ، وانقلب الفال (١)، انشمر (٢) المشركون ففازوا بصفقة المغبون ، فكما راموا العز ذلوا(٣)، وأرادوا استئصال المسلمين فاستؤصلوا ، وأضيف إلى ذلك شقاوة الآخرة ، فصارت الجملة أن هذه هى الصفقة الخاسرة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ(٤) فَرِيقًا ﴾، فالذين قتلوا هم المقاتلة ، والأسراء هم الأصاغر والنساء .

قال (٥) الإمام أحمد : حدثنا هُشَيْم بن بشير ، أخبرنا عبد الملك بن عمير ، عن عطية القرظى قال: عُرضت على النبى ﷺ يوم قريظة فشكوا فىَّ ، فأمر بى النبى ﷺ أن ينظروا : هل أنبت بعد ؟ فنظروا فلم يجدونى أنبت ، فخلى عنى وألحقنى بالسبى .

وكذا رواه أهل السنن كلهم من طرق ، عن عبد الملك بن عمير ، به(٦) . وقال الترمذى : « حسن صحيح » . ورواه النسائى أيضاً ، من حديث ابن جُرَيْج ، عن ابن أبى نَجِيح ، عن مجاهد ، عن عطية، بنحوه (٧) .

وقوله : ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُم ﴾أى : جعلها لكم من قتلكم (٨) لهم ﴿ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ﴾: قيل : خيبر . وقيل : مكة . رواه مالك ، عن زيد بن أسلم . وقيل : فارس والروم . وقال ابن جرير: يجوز أن يكون الجميع مراداً .

﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾: قال الإمام أحمد :

حدثنا يزيد ، أخبرنا محمد بن عمرو، عن أبيه ، عن جده علقمة بن وقاص قال : أخبرتنى (٩) عائشة قالت : خرجت يوم الخندق أقفو الناس ، فسمعت وئيد الأرض ورائى ، فإذا أنا بسعد بن معاذ ومعه ابن أخيه الحارث بن أوس يحمل مجنَّه ، قالت : فجلست إلى الأرض ، فمر سعد وعليه دِرْع من حديد قد خرجت منه أطرافه ، فأنا أتخوف على أطراف سعد ، قالت : وكان سعد من أعظم الناس وأطولهم، فمر وهو يرتجز (١٠) ويقول :

لَبِّثْ قَليلاً يَشْهَد الهَيْجَا حَمَل ... مَا أَحْسَنَ الموتَ إذا حَانَ الأجَلْ

قالت : فقمت فاقتحمت حديقة ، فإذا فيها نفر من المسلمين ، وإذا فيها عمر بن الخطاب ، وفيهم رجل عليه تَسْبغَة (١١) له ـ تعنى المغفر ـ فقال عمر : ما جاء بك ؟ لعمرى والله إنك لجريئة (١٢) ، وما يؤمنُك أن يكون بلاء أو يكون تَحَوّز . قالت : فمازال يلومنى حتى تمنيت أن الأرض انشقت بى (١٣)

(١) فى ت ، أ : « وانقلب عليهم الفال » . (٢) فى أ : « اشمر » . (٣) فى ت : « فلما راموا العز أذلوا » .
(٤) فى ت : « يقتلون ويأسرون » . (٥) فى ت : « روى » .
(٦) المسند (٥/ ٣١١) وسنن أبى داود برقم (٤٤٠٤) وسنن الترمذى برقم (١٥٨٤) وسنن النسائى (٨/ ٩٢) وسنن ابن ماجة برقم (٢٥٤٢) .
(٧) النسائى فى السنن الكبرى برقم (٨٦١٩) .
(٨) فى ت ، ف : « قبلكم » .
(٩) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده عن » .
(١٠) فى ت : « يرتجل » .
(١١) فى ت : « مشيقة » ، وفى ف : « نشيقة » . (١٢) فى ت : « محدبة » . (١٣) فى ت ، ف : « لى » .

ساعتئذ، فدخلت فيها، فرفعَ الرجل التسبغة[١] عن وجهه، فإذا هو طلحة بن عبيد الله فقال: يا عمر، ويحك، إنك قد أكثرت منذ اليوم، وأين التَحَوّز أو الفرار إلا إلى الله تعالى؟ قالت: ويرمى سعداً رجل من قريش، يقال له ابن العَرِقة بسهم[٢]، وقال له: خذها وأنا ابن العَرِقة فأصابَ أكْحَلَه فقطعه، فدعا الله سعد فقال: اللهم، لا تمتنى حتى تُقر عينى من قريظة. قالت: وكانوا حلفاءه ومواليه فى الجاهلية، قالت: فرقأ كَلْمُه، وبعث الله الريح على المشركين، وكفى الله المؤمنين القتال، وكان الله قوياً عزيزاً. فلحق أبو سفيان ومن معه بتهامة، ولحق عيينة بن بدر ومن معه بنجد، ورجعت بنو قريظة فتحصنوا فى صياصيهم، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة وأمر بقبة من أدَم فضربت على سعد فى المسجد، قالت: فجاءه جبريل، عليه السلام، وإن على ثناياه لنقع الغبار، فقال: أو قد وضعت السلاح؟ لا، والله ما وضعت الملائكة بعد السلاح، أخرج إلى بنى قريظة فقاتلهم. قالت: فلبس رسول الله ﷺ لأمته، وأذّن فى الناس بالرحيل أن يخرجوا، [فخرج رسول الله ﷺ][٣] فمر على بنى غَنْم[٤] وهم جيران المسجد حوله فقال: ومن مر بكم؟ قالوا: مر بنا دحية الكلبى ـ وكان دحية الكلبى تشبه لحيته، وسنه ووجهه جبريل، عليه الصلاة والسلام، فأتاهم رسول الله ﷺ فحاصرهم خمساً وعشرين ليلة، فلما اشتد حصارهم واشتد البلاء قيل لهم: انزلوا على حكم رسول الله ﷺ. فاستشاروا أبا لبابة بن عبد المنذر، فأشار إليهم أنه الذبح. قالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ [فقال رسول الله ﷺ: «انزلوا على حكم سعد بن معاذ». فنزلوا وبعث رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ][٥] فأتى به على حمار عليه إكاف من ليف قد حُمل عليه، وحَفّ به قومه، فقالوا: يا أبا عمرو، حلفاؤك ومواليك وأهل النّكاية، ومن قد علمت، قالت: ولايَرْجعُ إليهم شيئاً، ولا يلتفت إليهم، حتى إذا دنا من دورهم التفت إلى قومه فقال: قد آن لى ألا أبالى فى الله لومة لائم. قال[٦]: قال أبو سعيد[٧]: فلما طلع قال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى سيدكم فأنزلوه». فقال عمر: سيدنا الله. قال: «أنزلوه». فأنزلوه، قال رسول الله ﷺ: «احكم فيهم». قال سعد: فإنى أحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم، وتقسم أموالهم، فقال رسول الله: «لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله». ثم دعا سعد فقال: اللهم، إن كنت أبقيتَ على نبيك من حرب قريش شيئاً، فأبقنى لها. وإن كنت قطعت الحرب بينه وبينهم، فاقبضنى إليك. قال: فانفجر كَلْمُه، وكان قد برئ منه إلا مثل الْخُرْص، ورجع إلى قبته التى ضرب عليه رسول الله.

قالت عائشة: فَحَضَره رسولُ الله ﷺ وأبو بكر، وعمر: قالت: فوالذى نفس محمد بيده، إنى لأعرف بكاء أبى بكر من بكاء عمر، وأنا فى حجرتى. وكانوا كما قال الله تعالى: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾.

قال علقمة: فقلت: أىْ أمّه، فكيف كان رسول الله ﷺ يصنع؟ قالت: كانت عينه لا تدمع على أحد، ولكنه كان إذا وجد فإنما هو آخذ بلحيته[٨].

---

(١) فى ف: «النشيقة». (٢) فى ت، ف: «بسهم له». (٣) زيادة من ت، ف، أ، والمسند.
(٤) فى ت، ف: «تميم». (٥) زيادة من ت، ف، أ، والمسند. (٦) فى ت، ف، أ: «قالت».
(٧) فى أ: «أبو سعد».
(٨) المسند (٦/ ١٤١).

وقد أخرج البخارى ومسلم من حديث عبد الله بن نمير، عن هشام بن عُرْوَة، عن أبيه، عن عائشة نحوا من هذا، ولكنه (١) أخصر منه، وفيه دُعاء سعد، رضى الله عنه (٢).

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً (٢٨) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) ﴾.

هذا أمر من الله لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه (٣)، بأن يخيّر نساءه بين أن يفارقهن، فيذهبن إلى غيره ممن يَحصُل لهن عنده الحياةُ الدنيا وزينتها، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال، ولهن عند الله فى ذلك الثواب الجزيل، فاخترن، رضى الله عنهن وأرضاهن، الله ورسوله والدار الآخرة، فجمع الله لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة.

قال(٤) البخارى: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهرى، قال: أخبرنى أبو سلمة بن عبد الرحمن، أن عائشة، رضى الله عنها، زوج النبى ﷺ أخبرته: أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله أن يخير أزواجه، فبدأ بى رسول الله ﷺ فقال: « إنى ذاكر لك أمراً، فلا عليك أن تستعجلى حتى تستأمرى أبويك »، وقد علَمَ أن أبوىّ لم يكونا يأمرانى بفراقه. قالت: ثم قال: « وإن الله قال: **﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ ﴾** » إلى تمام الآيتين، فقلت له: ففى أى هذا أستأمر أبوى؟ فإنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة (٥).

وكذا رواه معلقاً عن الليث: حدثنى يونس، عن الزهرى، عن أبى سلمة، عن عائشة، فذكره وزاد: قالت: ثم فعل أزواج النبى ﷺ مثل ما فعلت (٦).

وقد حكى البخارى أن مَعْمَرًا اضطرب، فتارة (٧) رواه عن الزهرى، عن أبى سلمة، وتارة رواه عن الزهرى، عن عُرْوَة، عن عائشة (٨).

وقال ابن جرير: حدثنا أحمد بن عبَدة الضَّبِّى، حدثنا أبو عوَانة، عن عمر بن أبى سلمة، عن أبيه قال: قالت عائشة: لما نزل الخيار قال لى رسول الله ﷺ: « إنى أريد أن أذكر لك أمراً، فلا تقضى فيه شيئاً حتى تستأمرى أبويك ». قالت: قلت: وما هو يا رسول الله؟ قال: فردّه عليها. فقالت: فما هو يا رسول الله؟ قالت: فقرأ عليها: **﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾** إلى آخر الآية. قالت: فقلت: بل نختار الله ورسوله والدار الآخرة. قالت: ففرح بذلك النبى ﷺ (٩).

---

(١) فى ت، أ: « ولكن ».
(٢) صحيح البخارى برقم (٤١١٧) وصحيح مسلم برقم (١٧٦٩).
(٣) فى ت: « ﷺ ». (٤) فى ت: « فروى ».
(٥) صحيح البخارى برقم (٤٧٨٥).
(٦) صحيح البخارى برقم (٤٧٨٦).
(٧) فى أ: « فيه قتادة و ».
(٨) صحيح البخارى (٨/ ٥٢٠) « فتح ».
(٩) تفسير الطبرى (٢١/ ١٠٠).

وحدثنا ابن وكيع، حدثنا محمد بن بشر، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: لما نزلت آية التخيير، بدأ بى رسول الله ﷺ، فقال: « يا عائشة، إنى عارض عليك أمراً، فلا تفتاتى فيه [بشىء] (١) حتى تعرضيه على أبويك أبى بكر وأم رومان ». فقلت: يا رسول الله، وما هو؟ قال: « قال الله عزوجل: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا . وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ ». قالت: فإنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة، ولا أؤامر فى ذلك أبوىَّ أبا بكر وأم رومان، فضحك رسول الله ﷺ ثم استقرأ الحُجَر فقال: « إن عائشة قالت كذا وكذا ». فقلن: ونحن نقول مثل ما قالت عائشة، رضى الله عنهن كلهن (٢).

ورواه ابن أبى حاتم، عن أبى سعيد الأشَجِّ، عن أبى أسامة، عن محمد بن عمرو، به.

قال ابن جرير: وحدثنا سعيد بن يحيى الأموى، حدثنا أبى، عن (٣) محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن أبى بكر، عن عَمرة، عن عائشة؛ أن رسول الله ﷺ لما نزل إلى نسائه أمر أن يخيرهن، فدخل علَىَّ فقال: « سأذكر لك أمراً فلا تعجلى حتى تستشيرى أباك ». فقلت: وما هو يانبى الله؟ قال: «إنى أمرت أن أخيركن»، وتلا عليها آية التخيير، إلى آخر الآيتين. قالت: فقلت: وما الذى تقول لا تعجلى حتى تستشيرى أباك؟ فإنى أختار الله ورسوله، فَسُرَّ بذلك، وعَرَض على نسائه فتتابعن كُلّهن، فاخترنَ الله ورسوله (٤).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا يزيد بن سِنان البصرى، حدثنا أبو صالح عبد الله بن صالح، حدثنى الليث، حدثنى عُقَيل، عن الزهرى، أخبرنى عُبيد الله بن عبد الله بن أبى ثَور، عن ابن عباس، رضى الله عنهما، قال: قالت عائشة، رضى الله عنها: أنزلت آية التخيير فبدأ بى أَوَّلَ امرأة من نسائه، فقال: « إنى ذاكر لك أمراً، فلا (٥) عليك ألا تعجلى حتى تستأمرى أبويك ». قالت: قد عَلم (٦) أن أبوى لم يكونا يأمرانى بفراقه. قالت: ثم قال: «إن الله قال: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ** ﴾ »الآيتين. قالت عائشة: فقلت: أفى هذا أستأمر أبوىّ؟ فإنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة. ثم خير نساءه كلهن، فقلن مثل ما قالت عائشة، رضى الله عنهن.

وأخرجه البخارى ومسلم جميعاً، عن قتيبة، عن الليث، عن الزهرى، عن عروة، عن عائشة، مثله (٧).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن مسلم بن صَبِيح، عن مسروق، عن عائشة قالت: خيرنا رسول الله ﷺ فاخترناه، فلم يعدها علينا شيئاً. أخرجاه من حديث الأعمش (٨).

---

(١) زيادة من ت، ف، والطبرى.
(٢) تفسير الطبرى (٢١/١٠١).
(٣) فى أ: « أنبانا ».
(٤) تفسير الطبرى (٢١/١٠١).
(٥) فى أ: « ألا ». (٦) فى ف: « أعلم ».
(٧) كذا ولم أجده بهذا السند فيهما، ولا ذكره المزى فى تحفة الأشراف ولعلى أتداركه فيما بعد.
(٨) المسند (٦/٤٥) وصحيح البخارى برقم (٥٢٦٢) وصحيح مسلم برقم (١٤٧٧).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر عبد الملك بن عمرو، حدثنا زكريا بن إسحاق، عن أبي الزبير، عن جابر قال: أقبل أبو بكر، رضى الله عنه، يستأذن على رسول الله ﷺ والناس ببابه جلوس، والنبى ﷺ جالس: فلم يؤذن له. ثم أقبل عمر فاستأذن فلم يؤذن له. ثم أذن لأبى بكر وعمر فدخلا والنبى ﷺ جالس وحوله نساؤه، وهو ساكت، فقال عمر: لأكلمن النبى ﷺ لعله يضحك، فقال عمر: يا رسول الله، لو رأيت ابنة زيد ـ امرأة عمر ـ سألتنى النفقة آنفاً، فوجأت عنقها. فضحك النبى ﷺ حتى بدا ناجذه [1] وقال: « هن حولى يسألننى النفقة ». فقام أبو بكر، رضى الله عنه، إلى عائشة ليضربها، وقام عمر، رضى الله عنه، إلى حفصة، كلاهما يقولان: تسألان النبى ﷺ ما ليس عنده. فنهاهما رسول الله ﷺ فقلن نساؤه: والله لا نسأل رسول الله بعد هذا المجلس ما ليس عنده. قال: وأنزل الله، عز وجل، الخيار، فبدأ بعائشة فقال: « إنى أذكر لك أمراً ما أحب أن تعجلى فيه حتى تستأمرى أبويك ». قالت: وما هو؟ قال: فتلا عليها: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ**﴾ الآية، قالت عائشة، رضى الله عنها: أفيك أستأمر أبوى؟ بل أختار الله ورسوله، وأسألك ألا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت. فقال: «إن الله تعالى لم يبعثنى معنفا، ولكن بعثنى معلماً ميسراً [2]، لا تسألنى امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتُها ».

انفرد بإخراجه مسلم دون البخارى، فرواه هو والنسائى، من حديث زكريا بن إسحاق المكى، به[3].

وقال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا سُرَيْج بن يونس، حدثنا على بن هاشم بن البريد، عن محمد بن عبيد [الله بن على] [4] ابن أبى رافع، عن عثمان بن على بن الحسين، عن أبيه، عن على، رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ خيَّر نساءه الدنيا والآخرة، ولم يخيرهن الطلاق [5].

وهذا منقطع، وقد رُوى عن الحسن وقتادة وغيرهما نحو ذلك. وهو خلاف الظاهر من الآية، فإنه قال: ﴿**فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا**﴾ أى: أعطيكن حقوقكن وأطلق سراحكن.

وقد اختلف العلماء فى جواز تزويج غيره لهن لو طلقهن، على قولين، وأصحهما نعم لو وقع، ليحصل المقصود من السراح، والله أعلم.

قال عكرمة: وكان تحته يومئذ تسع نسوة، خمس من قريش: عائشة، وحفصة، وأم حبيبة، وسودة، وأم سلمة، وكانت تحته ﷺ صفية بنت حُيَىّ النَّضَرِيَّة، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وزينب بنت جحش الأسدية، وجويرية بنت الحارث المصطلقية، رضى الله عنهن وأرضاهن.

[ولم يتزوج واحدة منهن، إلا بعد أن توفيت خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى ابن كلاب، تزوجها رسول الله ﷺ بمكة، وهو ابن خمس وعشرين سنة، وبقيت معه إلى أن أكرمه الله برسالته فآمنت به ونصرته، وكانت له وزير صدق، وماتت قبل الهجرة بثلاث سنين، رضى الله عنها، فى الأصح، ولها خصائص منها: أنه لم يتزوج عليها غيرها، ومنها أن أولاده كلهم منها، إلا إبراهيم، فإنه من سريته مارية، ومنها أنها خير نساء الأمة.

(١) فى ف: « نواجذه ». (٢) فى ت: « مبشراً ».
(٣) المسند (٣/٣٢٨) وصحيح مسلم برقم (١٤٧٨) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٩٢٠٨).
(٤) زيادة من ت، ف، والمسند.
(٥) زوائد المسند (١/٧٨).

واختلف فى تفضيلها على عائشة على ثلاثة أقوال، ثالثها الوقف.

وسئل شيخنا أبو العباس بن تيمية عنهما فقال: اختصت كل واحدة منهما بخاصية، فخديجة كان تأثيرها فى أول الإسلام، وكانت تُسلِّى رسول الله ﷺ وتثبته، وتسكنه، وتبذل دونه مالها، فأدركت غُرة الإسلام، واحتملت الأذى فى الله وفى رسوله وكان نصرتها للرسول فى أعظم أوقات الحاجة، فلها من النصرة والبذل ما ليس لغيرها. وعائشة تأثيرها فى آخر الإسلام، فلها من التفقه فى الدين وتبليغه إلى الأمة، وانتفاع بنيها بما أدت إليهم من العلم، ما ليس لغيرها. هذا معنى كلامه، رضى الله عنه.

ومن خصائصها: أن الله، سبحانه، بعث إليها السلام مع جبريل، فبلغها رسول الله ﷺ ذلك. روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: أتى جبريل، عليه السلام، النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، هذه خديجة، قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هـى أتتك فأقرأها السلام من ربها ومنِّى، وبشرها ببيت فى الجنة، من قَصَب، لا صَخَب فيه ولا نَصَب (١) وهذه لعَمْر الله خاصة، لم تكن لسواها. وأمَّا عائشة، رضى الله عنها، فإن جبريل سلم عليها على لسان النبى ﷺ، فروى البخارى بإسناده أن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ يومًا: «يا عائشة، هذا جبريل يقرئك السلام». فقلت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته، ترى ما لا أرى، تريد رسول الله ﷺ(٢).

ومن خواص خديجة، رضى الله عنها: أنه لم تسوءه قط، ولم تغاضبه، ولم ينلها منه إيلاءً، ولا عتب قط، ولا هجر، وكفى بهذه منقبة وفضيلة.

ومن خواصها: أنها أول امرأة آمنت بالله ورسوله من هذه الأمة.

فصل:

فلمَّا توفاها الله تزوج بعدها سودة بنت زمعة، رضى الله عنها، وهى سودة بنت زمعة بن قيس ابن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن جبل بن عامر بن لؤى، وكبرت عنده، وأراد طلاقها فوهبت يومها لعائشة، فأمسكها. وهذا من خواصها: أنها آثرت بيومها حب النبى ﷺ تقرباً إلى رسول الله ﷺ، وحبا له، وإيثاراً لمقامها معه، فكان يقسم لعائشة يومها ويوم سودة، ويقسم لنسائه، ولا يقسم لها وهى راضية بذلك مؤثرة، لترضى رسول الله ﷺ.

وتزوج الصديقة بنت الصديق عائشة بنت أبى بكر، رضى الله عنهما، وهى بنت ست سنين قبل الهجرة بسنتين، وقيل: بثلاث، وبنى بها بالمدينة أول مقدمه فى السنة الأولى، وهى بنت تسع، ومات عنها وهى بنت ثمان عشرة، وتوفيت بالمدينة، ودفنت بالبقيع، وأوصت أن يصلى عليها أبو هريرة سنة ثمان وخمسين، ومن خصائصها: أنها كانت أحب أزواج رسول الله ﷺ إليه، كما ثبت ذلك عنه فى البخارى وغيره، أنه سئل أىّ الناس أحب إليك؟ قال: «عائشة». قيل: فمن الرجال؟ قال: «أبوها»(٣).

ومن خصائصها أيضاً: أنه لم يتزوج بكراً غيرها، ومن خصائصها: أنه كان ينزل عليه الوحى وهو

---

(١) صحيح البخارى برقم (٣٨٢٠).

(٢) صحيح البخارى برقم (٣٧٦٨).

(٣) لم أقف عليه فى صحيح البخارى. وهو فى سنن الترمذى برقم (٣٨٧٩) من حديث عمرو بن العاص، رضى الله عنه.

فى لحافها دون غيرها .

ومن خصائصها: أن الله، عزوجل، لما أنزل عليه آية التخيير بدأ بها فخيرها، فقال: « ولا عليك ألا تعجلى حتى تستأمرى أبويك » . فقالت : أفى هذا أستأمر أبواى ، فإنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة. فاستن بها بقية أزواجه ﷺ ، وقلن كما قالت .

ومن خصائصها : أن الله، سبحانه، برأها مما رماها به أهل الإفك ، وأنزل فى عذرها، وبراءتها، وحياً يتلى فى محاريب المسلمين ، وصلواتهم إلى يوم القيامة ، وشهد لها أنها من الطيبات ، ووعدها المغفرة والرزق الكريم ، وأخبر ، سبحانه، أن ما قيل فيها من الإفك كان خيراً لها ، ولم يكن بذلك الذى قيل فيها شر لها ، ولا عيب لها ، ولا خافض من شأنها ، بل رفعها الله بذلك، وأعلا قدرها وعظم شأنها، وأصار لها ذكراً بالطيب والبراءة بين أهل الأرض والسماء ، فيا لها من منقبة ما أجلها . وتأمل هذا التشريف والإكرام الناشئ عن فرط تواضعها واستصغارها لنفسها، حيث قالت : ولشأنى فى نفسى كان أحقر من أن يتكلم الله فىَّ بوحى يتلى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ رؤيا يبرئنى الله بها ، فهذه صديقة الأمة ، وأم المؤمنين ، وحب رسول الله ﷺ ، وهى تعلم أنها بريئة مظلومة ، وأن قاذفيها ظالمون مفترون عليها ، قد بلغ أذاهم إلى أبويها ، وإلى رسول الله ﷺ ، وهذا كان احتقارها لنفسها وتصغيرها لشأنها ، فما ظنك بمن قد صام يوماً أو يومين، أو شهراً أو شهرين، قد قام ليلة أو ليلتين، فظهر عليه شىء من الأحوال ، ولاحظوا أنفسهم بعين استحقاق الكرامات، وأنهم ممن يتبرك بلقائهم ، ويُغتنم بصالح دعائهم ، وأنهم يجب على الناس احترامهم وتعظيمهم وتعزيزهم وتوقيرهم، فيتمسح بأثوابهم ، ويقبل ثرى أعتابهم، وأنهم من الله بالمكانة التى تنتقم لهم لأجلها من تنقصهم فى الحال ، وأن يؤخذ من أساء الأدب عليهم من غير إمهال ، وإن إساءة الأدب عليهم ذنب لا يكفره شىء إلا رضاهم .

ولو كان هذا من وراء كفاية لهان ، ولكن من وراء تخلف ، وهذه الحماقات والرعونات نتاج الجهل الصميم ، والعقل غير المستقيم ، فإن ذلك إنما يصدر من جاهل معجب بنفسه ، غافل عن جرمه وعيوبه وذنوبه ، مغتر بإمهال الله له عن أخذه بما هو فيه من الكبر والازدراء على من لعله عند الله خير منه . نسأل الله العافية فى الدنيا والآخرة .

وينبغى للعبد أن يستعيذ بالله أن يكون عند نفسه عظيماً ، وهو عند الله حقيراً ، ومن خصائص عائشة، رضى الله عنها: أن الأكابر من الصحابة، رضى الله عنهم ، كان إذا أشكل الأمر عليهم من الدين ، استفتوها فيجدون علمه عندها .

ومن خصائصها : أن رسول الله ﷺ توفى فى بيتها . ومن خصائصها : أن الملك أرى صورتها للنبى ﷺ قبل أن يتزوجها فى خرقة حرير ، فقال النبى ﷺ : « إن يكن هذا من عند الله يمضه »(١). ومن خصائصها : أن الناس كانوا يتحرون هداياهم يومها من رسول الله ﷺ تقرباً إلى الرسول ﷺ، فيتحفونه بما يحب فى منزل أحب نسائه إليه، رضى الله عنهم أجمعين ، وتكنى أم عبد الله، وروى أنها أسقطت من النبى ﷺ سقطاً ، ولا يثبت ذلك .

(١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٠٧٨) من حديث عائشة ، رضى الله عنها .

وتزوج رسول الله ﷺ حفصة بنت عمر بن الخطاب، وكانت قبله عند حبيش بن حذافة، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ وممن شهد بدراً، توفيت سنة سبع، وقيل: ثمان وعشرين، ومن خواصها: ما ذكره الحافظ أبو محمد المقدسى فى مختصره فى السيرة: أن النبى ﷺ طلقها، فأتاه جبريل فقال: إن الله يأمرك أن تراجع حفصة، فإنها صوامة قوامة وإنها زوجتك فى الجنة.

وقال الطبرانى فى المعجم الكبير: حدثنا أحمد بن طاهر بن حرملة بن يحيى، حدثنا جدى حرملة، حدثنا ابن وهب، حدثنى عمرو بن صالح الحضرمى، عن موسى بن على بن رباح، عن أبيه، عن عقبة بن عامر، أن النبى ﷺ طلق حفصة، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب، فوضع التراب على رأسه، وقال: ما يعبأ الله بابن الخطاب بعد هذا. فنزل جبريل، عليه السلام، على النبى ﷺ فقال: إن الله يأمرك أن تراجع حفصة رحمة لعمر(١).

وتزوج رسول الله ﷺ أم حبيبة بنت أبى سفيان، واسمها رملة بنت صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، هاجرت مع زوجها عبد الله بن جحش إلى أرض الحبشة، فتنصر بالحبشة، وأتم الله لها الإسلام، وتزوجها رسول الله ﷺ وهى بأرض الحبشة، وأصدقها عند النجاشى أربعمائة دينار، وبعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمرى بها إلى أرض الحبشة، وولى نكاحها عثمان بن عفان، وقيل: خالد بن سعيد بن العاص، وهى التى أكرمت فراش رسول الله ﷺ أن يجلس عليه أبوها لما قدم أبو سفيان المدينة، وقالت له: إنك مشرك، ومنعته الجلوس عليه.

وتزوج رسول الله ﷺ أم سلمة واسمها هند بنت أبى أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب، وكانت قبله عند أبى سلمة بن عبد الأسد، توفيت سنة اثنين وستين، ودفنت بالبقيع، وهى آخر أزواج النبى ﷺ موتاً، وقيل: بل ميمونة، ومن خصائصها: أن جبريل دخل على النبى ﷺ، وهى عنده فرأته فى صورة دحية الكلبى. ففى صحيح مسلم عن أبى عثمان قال: أنبئت أن جبريل أتى النبى ﷺ، وعنده أم سلمة، فقال: فجعل يتحدث، ثم قام فقال نبى الله ﷺ لأم سلمة: « من هذا؟ » أو كما قال. قالت: هذا دحية الكلبى. قالت: وايم الله، ما حسبته إلا إياه، حتى سمعت خطبة النبى ﷺ، يخبر أنه جبريل، أو كما قال، قال سليمان التيمى: فقلت لأبى عثمان: ممن سمعت هذا الحديث؟ قال: من أسامة بن زيد(٢). وزوجها ابنها ـ عمر ـ من رسول الله ﷺ، وردت طائفة ذلك بأن ابنها لم يكن له من السن حينئذ ما يعقد التزويج، ورد الإمام أحمد ذلك، وأنكر على من قاله، ويدل على صحة قول أحمد ما رواه مسلم فى صحيحه أن عمر بن أبى سلمة ـ ابنها ـ سأل النبى ﷺ عن القبلة للصائم؟ فقال: «سل هذه» يعنى: أم سلمة فأخبرته أن رسول الله ﷺ يفعله، فقال: لسنا كرسول الله ﷺ، يحل الله لرسوله ما شاء. فقال رسول الله ﷺ: « إنى أتقاكم لله وأعلمكم به »(٣) أو كما قال. ومثل هذا لا يقال لصغير جدا، وعمر ولد بأرض الحبشة قبل الهجرة. وقال البيهقى: وقول من زعم أنه كان صغيراً،

(١) المعجم الكبير (١٧/ ٢٩١) وقال الهيثمى فى المجمع (٤/ ٣٣٤): « فيه عمرو بن صالح الحضرمى، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات ».
(٢) صحيح مسلم برقم (٢٤٥١).
(٣) صحيح مسلم برقم (١١٠٨).

دعوى ولم يثبت صغره بإسناد صحيح .

وتزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش من بنى خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر ، وهى بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب ، وكانت قبل عند مولاه زيد بن حارثة ، فطلقها فزوجه الله إياها من فوق سبع سموات ، وأنزل عليه : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ فقام فدخل عليها بلا استئذان ، وكانت تفخر بذلك على سائر أزواج النبى ﷺ ، وتقول : زوجكن أهاليكن وزوجنى الله من فوق سبع سمواته ، وهذا من خصائصها. توفيت بالمدينة سنة عشرين ، ودفنت بالبقيع .

وتزوج النبى ﷺ زينب بنت خزيمة الهلالية ، وكانت تحت عبد الله بن جحش ، تزوجها سنة ثلاث من الهجرة ، وكانت تسمى أم المساكين ، ولم تلبث عند رسول الله ﷺ إلا يسيراً ، شهرين أو ثلاثة، وتوفيت، رضى الله عنها .

وتزوج رسول الله ﷺ جويرية بنت الحارث من بنى المصطلق ، وكانت سبيت فى غزوة بنى المصطلق ، فوقعت فى سهم ثابت بن قيس ، فكاتبها ، فقضى رسول الله ﷺ كتابتها ، وتزوجها سنة ست من الهجرة ، وتوفيت سنة ست وخمسين ، وهى التى أعتق المسلمون بسببها مائة أهل بيت من الرقيق ، وقالوا : أصهار رسول الله ﷺ ، وكان ذلك من بركتها على قومها .

وتزوج رسول الله ﷺ صفية بنت حيى ، من ولد هارون بن عمران أخى موسى ، سنة سبع ، فإنها سبيت من خيبر ، وكانت قبله تحت كنانة بن أبى الحقيق ، فقتله رسول الله ﷺ ، توفيت سنة ست وثلاثين ، وقيل : سنة خمسين . ومن خصائصها : أن رسول الله ﷺ أعتقها وجعل عتقها صداقها . قال أنس : أمهرها نفسها ، وصار ذلك سنة للأمة إلى يوم القيامة ، ويجوز للرجل أن يجعل عتق جاريته صداقها ، وتصير زوجته على منصوص الإمام أحمد ، رحمه الله . قال الترمذى : حدثنا إسحاق بن منصور ، وعبد بن حميد ، قالا : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن ثابت ، عن أنس قال : بلغ صفية أن حفصة قالت : صفية بنت يهودى ، فبكت، فدخل عليها النبى ﷺ وهى تبكى فقال : « ما يبكيك ؟» قالت : قالت لى حفصة : إنى ابنة يهودى . فقال النبى ﷺ : « إنك لابنة نبى وإن عمك لنبى ، وإنك لتحت نبى ، فبما تفخر عليك؟» ثم قال : « اتق الله يا حفصة » [(١)]. قال الترمذى : هذا حديث صحيح غريب من هذا الوجه . وهذا من خصائصها ، رضى الله عنها .

وتزوج رسول الله ﷺ ميمونة بنت الحارث الهلالية ، تزوجها بسَرَف وهو على تسعة أميال من مكة، وهى آخر من تزوج من أمهات المؤمنين ، توفيت سنه ثلاث وستين ، وهى خالة خالد بن الوليد، وخالة ابن عباس ، فإن أمه أم الفضل بنت الحارث وهى التى اختلف فى نكاح النبى ﷺ لها. هل نكحها حلالاً أو محرماً ؟ والصحيح إنما تزوجها حلالاً كما قال أبو رافع الشفير فى نكاحها .

قال الحافظ أبو محمد المقدسى وغيره: وعقد على سبع ولم يدخل بهن، فالصلاة على أزواجه تابعة لاحترامهن وتحريمهن على الأمة، وأنهن نساؤه ﷺ فى الدنيا والآخرة، فمن فارقها فى حياتها ولم يدخل، لا يثبت لها أحكام زوجاته اللاتى دخل بهن صلى الله عليه وعلى أزواجه وآله وذريته وسلم تسليما] [(٢)].

---

(١) سنن الترمذى برقم (٣٨٩٤) وقال: « هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه » .

(٢) زيادة من ت .

﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١) ﴾.

يقول تعالى واعظاً نساء النبى ﷺ ،اللاتى اخترن اللّه ورسوله والدار الآخرة ،واستقر [١] أمرهن تحت رسول اللّه ﷺ أن يخبرهن [٢] بحكمهن [وتخصيصهن] [٣] دون سائر النساء ،بأن من يأت منهن بفاحشة مبينة ـ قال ابن عباس :وهى النشوز وسوء الخلق .وعلى كل تقدير فهو شرط،والشرط لا يقتضى الوقوع كقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر : ٦٥] ،وكقوله :﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام : ٨٨] ، ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ [الزخرف : ٨١] ، ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر : ٤].فلما كانت محلتهن رفيعة ،ناسب أن يجعل الذنب لو وقع منهن مغلظاً ،صيانة لجنابهن وحجابهن الرفيع ؛ولهذا قال :﴿ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ﴾.

قال مالك ،عن زيد بن أسلم : ﴿ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ قال : فى الدنيا والآخرة .

وعن ابن أبى نَجيح [عن مجاهد] [٤] مثله .

﴿ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ أى : سهلا هيناً .

ثم ذكر عدله وفضله فى قوله :﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أى : يطع [٥] اللّه ورسوله ويستجيب ﴿ نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ أى : فى الجنة،فإنهن فى منازل رسول اللّه ﷺ،فى أعلى عليين ،فوق منازل جميع الخلائق ،فى الوسيلة التى هى أقرب منازل الجنة إلى العرش.

﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤) ﴾.

هـذه آداب أمر اللّه بها نساء النبى ﷺ ،ونساء الأمة تبع لهن فى ذلك ،فقال مخاطباً لنساء النبى [ﷺ] [٦] بأنهن إذا اتقين اللّه كما أمرهن ،فإنه لايشبههن أحد من النساء ،ولا يلحقهن فى الفضيلة

---

(١) فى ت : « فاستقر » . (٢) فى أ : « يخبرن » . (٣) زيادة من أ .
(٤) زيادة من ت ، ف ، أ . (٥) فى ت ، ف : « يطيع » . (٦) زيادة من ت ، وفى ف : « صلوات اللّه وسلامه عليه » .

والمنزلة ، ثم قال : ﴿ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ ﴾ .

قال السُّدِّى وغيره : يعنى بذلك : ترقيق الكلام إذا خاطبن الرجال ؛ ولهذا قال : ﴿ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ أى : دَغَل ، ﴿ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ﴾ : قال ابن زيد : قولا حسناً جميلا معروفاً فى الخير .

ومعنى هذا : أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم ، أى : لا تخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها .

وقوله : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ أى : الزمن بيوتكن فلا (١) تخرجن لغير حاجة . ومن الحوائج الشرعية الصلاة فى المسجد بشرطه ، كما قال رسول الله ﷺ : « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله ، وليخرجن وهن تَفِلات » ، وفى رواية : « وبيوتهن خير لهن » (٢) .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا حميد بن مَسْعَدة (٣) ، حدثنا أبو رجاء الكلبى ، روح بن المسيب ثقة ، حدثنا ثابت البنانى (٤) ، عن أنس ، رضى الله عنه ، قال : جئن النساء إلى رسول الله ﷺ فقلن : يا رسول الله ، ذهب الرجال بالفضل والجهاد فى سبيل الله تعالى ، فما لنا عمل ندرك به عمل المجاهدين فى سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « من قعد ـ أو كلمة نحوها ـ منكن فى بيتها فإنها تدرك عمل المجاهدين (٥) فى سبيل الله » .

ثم قال : لا نعلم رواه عن ثابت إلا روح بن المسيب ، وهو رجل من أهل البصرة مشهور (٦) .

وقال (٧) البزار أيضاً : حدثنا محمد بن المثنى ، حدثنا عمرو بن عاصم ، حدثنا همام ، عن قتادة ، عن مُوَرِّق ، عن أبى الأحوص ، عن عبد الله ، عن النبى ﷺ قال : « إن المرأة عورة ، فإذا خرجت استشرفها الشيطان ، وأقرب ما تكون (٨) بروْحَة ربها وهى فى قَعْر بيتها » .

ورواه الترمذى ، عن بُنْدَار ، عن عمرو بن عاصم ، به نحوه (٩) .

وروى البزار بإسناده المتقدم ، وأبو داود أيضاً ، عن النبى ﷺ قال : « صلاة المرأة فى مَخْدعها أفضل من صلاتها فى بيتها ، وصلاتها فى بيتها أفضل من صلاتها فى حجرتها » (١٠) . وهذا إسناد (١١) جيد .

---

(١) فى ت : « ولا » .

(٢) رواه بهذا اللفظ أبو داود فى السنن برقم (٥٦٥) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه ، وبالرواية الثانية برقم (٥٦٧) من حديث ابن عمر ، رضى الله عنهما ، وأصله فى الصحيحين من حديث ابن عمر .

(٣) فى أ : « مسعود » . (٤) فى ت : « وروى أبو بكر البزار بإسناده » . (٥) فى ت : « المجاهد » .

(٦) مسند البزار برقم (١٤٧٥) « كشف الأستار » ورواه أبو يعلى فى المسند (٦/ ١٤٠) وابن حبان فى المجروحين (١/ ٢٩٩) من طريق أبى رجاء الكلبى بنحوه . قال ابن حبان : « وكان روح ممن يروى عن الثقات الموضوعات ، ويقلب الأسانيد ، ويرفع الموقوفات » ثم قال : « لا تحل الرواية عنه ولا كتابة حديثه إلا للاختبار » . وقال ابن عدى فى الكامل : « أحاديثه غير محفوظة » .

(٧) فى ت : « وروى » . (٨) فى أ : « ما يكون » .

(٩) سنن الترمذى برقم (١١٧٣) وقال الترمذى : « هذا حديث حسن غريب » . ورواه ابن خزيمة فى صحيحه برقم (١٦٨٥) ومن طريقه ابن حبان فى صحيحه برقم (٣٢٩) « موارد » عن عمرو بن عاصم ، به ، وشك ابن خزيمة فى سماع قتادة هذا الحديث من مورق .

(١٠) سنن أبى داود برقم (٥٧٠) .

(١١) فى ت : « إسناده » .

وقوله تعالى: ﴿وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى﴾: قال مجاهد: كانت المرأة تخرج تمشي بين يدي الرجال، فذلك تبرج الجاهلية.

وقال قتادة: ﴿وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى﴾: يقول: إذا خرجتن من بيوتكن ـ وكانت لهن(١) مشية وتكسر وتغنُّج ـ فنهى الله عن ذلك.

وقال مُقاتل بن حيَّان: ﴿وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى﴾: والتبرج: أنها تلقى الخمار على رأسها، ولا تشده فيوارى قلائدها وقرطها وعنقها، ويبدو ذلك كله منها، وذلك التبرج، ثم عمت نساء المؤمنين في التبرج.

وقال ابن جرير: حدثني ابن زهير، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا داود ـ يعني ابن أبي الفرات ـ حدثنا علي بن أحمر، عن عِكْرِمة (٢) عن ابن عباس قال: تلا هذه الآية: ﴿وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى﴾. قال: كانت فيما بين نوح وإدريس، وكانت ألف سنة، وإن بطنين من ولد آدم كان أحدهما يسكن السهل، والآخر يسكن الجبل. وكان رجال الجبل صِباحاً وفي النساء دَمَامة. وكان نساء السهل صِباحاً وفي الرجال دمامة، وإن إبليس أتى رجلا من أهل السهل في صورة غلام، فآجر نفسه منه، فكان يخدمه واتخذ إبليس شيئاً مثل الذي يُزَمِّر فيه الرِّعاء، فجاء فيه بصوت لم يسمَع الناس مثله، فبلغ ذلك من حوله، فانتابوهم يسمعون إليه، واتخذوا عيداً يجتمعون إليه في السنة، فيتبرَّجُ النساء للرجال. قال: ويتزيَّن (٣) الرجال لهن، وإن رجلا من أهل الجبل هَجَم عليهم في عيدهم ذلك، فرأى النساء وصَبَاحتهن، فأتى أصحابه فأخبرهم بذلك، فتحولوا إليهن، فنزلوا معهن وظهرت الفاحشة فيهن، فهو قوله تعالى: ﴿وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى﴾ (٤).

وقوله: ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، نهاهن أولا عن الشر ثم أمرهن بالخير، من إقامة الصلاة ـ وهي: عبادة الله وحده لا شريك له ـ وإيتاء الزكاة، وهي: الإحسان إلى المخلوقين، ﴿وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، وهذا من باب عطف العام على الخاص.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾: وهذا نص في دخول أزواج النبي ﷺ في أهل البيت هاهنا؛ لأنهن سبب نزول هذه الآية، وسبب النزول داخل فيه قولا واحداً، إما وحده على قول أو مع غيره على الصحيح.

وروى ابن جرير: عن عِكْرِمة أنه كان ينادي في السوق: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾، نزلت (٥) في نساء النبي ﷺ خاصة، وهكذا روى ابن أبي حاتم قال:

حدثنا علي بن حرب الموصلي، حدثنا زيد بن الْحُبَاب، حدثنا حسين بن واقد، عن يزيد النحوي، عن عِكْرِمة عن (٦) ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ قال: نزلت في نساء النبي ﷺ خاصة.

---

(١) في أ: «لها». (٢) في ت: «وروى ابن جرير بإسناده». (٣) في ت، ف: «وتنزل».
(٤) تفسير الطبري (٢٢/٤).
(٥) في ت: «أنزلت». (٦) في ت: «وروى ابن أبي حاتم بسنده إلى».

وقال عكرمة : من شاء باهلته أنها نزلت فى أزواج النبى ﷺ .

فإن كان المراد أنهن كُنّ سبب النزول دون غيرهن فصحيح ،وإن أريد أنهن المراد فقط دون غيرهن،ففى هذا نظر ؛فإنه قد وردت أحاديث تدل على أن المراد أعم من ذلك :

الحديث الأول :قال الإمام أحمد :حدثنا عفان ،حدثنا حماد ،أخبرنا على بن زيد (١) ،عن أنس ابن مالك ،رضى الله عنه ،قال :إن رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر ،يقول:«الصلاة يا أهل البيت، ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾».

ورواه الترمذى عن عبد بن حميد ،عن عفان ،به .وقال :حسن غريب (٢) (٣) .

حديث آخر :قال ابن جرير :حدثنا ابن وكيع ،حدثنا أبو نعيم،حدثنا يونس بن أبى إسحاق، أخبرنى أبو داود ،عن أبى الحمراء قال :رابطت المدينة سبعة أشهر على عهد رسول الله ﷺ ،[قال: رأيت رسول الله ﷺ] (٤) إذا طلع الفجر ،جاء إلى باب على وفاطمة فقال : « الصلاة الصلاة، ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾»(٥) .

أبو داود الأعمى هو :نفيع بن الحارث ،كذاب .

حديث آخر :وقال الإمام أحمد أيضاً :حدثنا محمد بن مصعب ،حدثنا الأوزاعى ،حدثنا شداد أبو عمار (٦) قال :دخلت على واثلة بن الأسقع وعنده قوم ،فذكروا علياً ،رضى الله عنه ،فلما قاموا قال لى: ألا أخبرك بما رأيت من رسول الله ﷺ ؟قلت :بلى .قال :أتيت فاطمة أسألها عن على فقالت :تَوَجه إلى رسول الله ﷺ ،فجلست أنتظره حتى جاء رسول الله ﷺ ومعه على وحسن وحسين ، آخذ كل واحد منهما بيده حتى دخل ،فأدنى علياً وفاطمة وأجلسهما بين يديه ،وأجلس حسنا وحسيناً كل واحد منهما على فخذه ،ثم لف عليهم (٧) ثوبه ـ أو قال :كساءه ـ ثم تلا هذه الآية: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾، « اللهم (٨) هؤلاء أهل بيتى،وأهل بيتى أحق » ،وقد رواه أبو جعفر بن جرير عن عبد الكريم بن أبى عمير (٩) ،عن الوليد بن مسلم ،عن أبى عمرو الأوزاعى بسنده نحوه ـ زاد فى آخره: قال واثلة :فقلت :وأنا يا رسول الله ـ صلى الله عليك ـ من أهلك ؟ قال : « وأنت من أهلى » قال واثلة :إنها من أرجى ما أرتجى(١٠) .

ثم رواه أيضاً عن عبد الأعلى بن واصل ،عن الفضل بن دُكَيْن ،عن عبد السلام بن حرب ، عن كلثوم المحاربى ،عن شداد أبى عمار قال : إنى لجالس عند واثلة بن الأسقع إذ ذكروا علياً

---

(١) فى ت : « فروى الإمام أحمد بإسناده » . (٢) فى ت : « حديث حسن » .
(٣) المسند (٣/٢٥٩) وسنن الترمذى برقم (٣٢٠٦) .
(٤) زيادة من ت ، ف ، أ ، والطبرى .
(٥) تفسير الطبرى (٢٢/٦) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٢/ ٢٠٠) من طريق منصور بن الأسود ،عن أبى داود بنحوه .
(٦) فى ت :« وروى الإمام أحمد بإسناده عن شداد بن عمار » .
(٧) فى ت : « عليهما » . (٨) فى ت ، ف : « وقال : اللهم » . (٩) فى أ : « عمر » .
(١٠) المسند (٤/١٠٧) وتفسير الطبرى (٢٢/٦) .

فشتموه، فلما قاموا قال: اجلس حتى أخبرك عن الذى شتموه، إنى عند رسول الله ﷺ إذ جاء على وفاطمة وحسن حسين فألقى ﷺ عليهم كساء له، ثم قال: « اللهم هؤلاء أهل بيتى، اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ». قلت: يا رسول الله، وأنا؟ قال: « وأنت ». قال: فوالله إنها لأوثق عملى عندى (١).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن نمير، حدثنا عبد الملك بن أبى سليمان، عن عطاء بن أبى رباح، حدثنى من سمع أم سلمة تذكر أن النبى ﷺ كان فى بيتها، فأتته فاطمة، رضى الله عنها، ببرمة فيها خَزِيرة، فدخلت بها عليه فقال لها: « ادعى زوجك وابنيك ». قالت: فجاء على وحسن وحسين فدخلوا عليه، فجلسوا يأكلون من تلك الخزيرة، وهو على منامة له على دكان (٢) تحته كساء خيبرى، قالت: وأنا فى الحجرة أصلى، فأنزل الله، عز وجل، هذه الآية: ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً** ﴾. قالت: فأخذ فضل الكساء فغطاهم به، ثم أخرج يده فألوى بها إلى السماء، ثم قال: « اللهم هؤلاء أهل بيتى وخاصتى، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا »، قالت: فأدخلت رأسى البيت، فقلت: وأنا معكم يا رسول الله؟ فقال: « إنك إلى خير، إنك إلى خير » (٣).

فى إسناده من لم يسم (٤)، وهو شيخ عطاء، وبقية رجاله ثقات.

طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عوف، عن أبى المعدل (٥)، عن عطية الطُّفَاوِىّ، عن أبيه؛ أن أم سلمة حدثته قالت (٦): بينما رسول الله ﷺ فى بيتى يوماً إذ قال الخادم: إن فاطمة وعليا بالسدّة قالت: فقال لى: « قومى فَتَنَحى عن(٧) أهل بيتى ». قالت: فقمت فتنحيت فى البيت قريباً، فدخل على وفاطمة، ومعهما الحسن والحسين، وهما صبيان صغيران، فأخذ الصبيين فوضعهما فى حجره فقبلهما، واعتنق عليا بإحدى يديه وفاطمة باليد الأخرى، وقَبَّل فاطمة وَقَبَّل عليا، وأغدق عليهم خَمِيصَة سوداء وقال: « اللهم، إليك لا إلى النار أنا وأهل بيتى ». قالت: فقلت: وأنا يا رسول الله؟ صلى الله عليك. قال: « وأنت » (٨).

طريق أخرى: قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا [الحسن بن عطية، حدثنا] (٩) فضيل بن مرزوق، عن عطية، عن أبى سعيد، عن أم سلمة؛ أن هذه الآية نزلت فى بيتها: ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً** ﴾ قالت: وأنا جالسة على باب البيت فقلت: يا رسول

---

(١) تفسير الطبرى (٢٢/٧) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٢/ ٦٥) من طريق على بن عبد العزيز عن الفضل بن دكين، أبو نعيم به

(٢) فى ف: « وكان ».

(٣) المسند (٦/ ٢٩٢) وقد سمى شيخ عطاء فى رواية الطبرانى فى المعجم الكبير (٩/ ١١) فقال عن عطاء بن أبى رباح، عن عمر بن أبى سلمة بنحوه.

(٤) فى أ: « يسمع ». (٥) فى أ: « العدل ».

(٦) فى ت: « وروى الإمام أحمد بسنده أن أم سلمة قالت ».

(٧) فى أ: « فتنحى لى عن ».

(٨) المسند (٦/ ٢٩٦).

(٩) زيادة من: ت، ف، و« الطبرى ».

الله، ألستُ من أهل البيت ؟ فقال : « إنك إلى خير ، أنت من أزواج النبى ﷺ » قالت : وفى البيت رسول الله ﷺ وعلى ، وفاطمة ، والحسن ، والحسين ، رضى الله عنهم (١) .

طريق أخرى : رواه ابن جرير أيضاً ، عن أبى كُرَيْب ، عن وَكِيع ، عن عبد الحميد بن بَهْرَام ، عن شَهْر بن حَوْشَب ، عن أم سلمة بنحوه (٢) .

طريق أخرى : قال ابن جرير : حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا خالد بن مَخْلَد ، حدثنى موسى بن يعقوب، حدثنى هاشم بن هاشم بن عتبة بن أبى وقاص ، عن عبد الله بن وهب بن زَمْعَة قال: أخبرتنى أم سلمة ، رضى الله عنها ، أن رسول الله ﷺ جمع فاطمة والحسن والحسين ، ثم أدخلهم تحت ثوبه ، ثم جأر إلى الله، عزوجل ، ثم قال : « هؤلاء أهل بيتى » . قالت أم سلمة : فقلت : يا رسول الله، أدخلنى معهم . فقال : « أنت من أهلى » (٣) .

طريق أخرى : رواه ابن جرير أيضاً، عن أحمد بن محمد الطوسى ، عن عبد الرحمن بن صالح، عن محمد بن سليمان الأصبهانى ، عن يحيى بن عبيد المكى ، عن عطاء ، عن عمر بن أبى سلمة، عن أمه بنحو ذلك (٤) .

طريق أخرى : قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْبٌ ، حدثنا مصعب بن المقدام ، حدثنا سعيد بن زرْبِى، عن محمد بن سيرين ، عن أبى هريرة ، عن أم سلمة قالت : جاءت فاطمة إلى رسول الله ﷺ ببرْمَة لها قد صنعت فيها عَصيدَة تحملها على طبق ، فوضعتها بين يديه فقال : «أين ابن عمك وابناك ؟» فقالت : فى البيت . فقال : « ادعيهم » . فجاءت إلى على فقالت : أجبْ رسولَ الله أنت وابناك. قالت أم سلمة : فلما رآهم مقبلين مد يده إلى كساء كان على المنامة ، فمده وبسطه ، وأجلسهم عليه ، ثم أخذ بأطراف الكساء الأربعة بشماله ، فضمه فوق رؤوسهم ، وأومأ بيده اليمنى إلى ربه ، عزوجل، فقال : «اللهم ، هؤلاء أهل بيتى ، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً » (٥) .

طريق أخرى : قال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا عبد الله (٦) بن عبد القدوس ، عن الأعمش ، عن حكيم بن سعد قال : ذكرنا على بن أبى طالب عند أم سلمة ، فقالت : فى بيتى نزلت: ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا** ﴾. قالت أم سلمة : جاء رسول الله ﷺ إلى بيتى فقال : « لاتأذنى لأحد » . فجاءت فاطمة فلم أستطع أن أحجبها عن أبيها . ثم جاء الحسن فلم أستطع أن أحجبه عن أمه وجده ، ثم جاء الحسين فلم أستطع أن أحجبه ، ثم جاء على فلم أستطع أن أحجبه ، فاجتمعوا فَجَلّلهم رسول الله ﷺ بكساء كان عليه ، ثم قال : « هؤلاء أهل بيتى، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً » . فنزلت هذه الآية حين اجتمعوا على البساط . قالت : فقلت : يا رسول الله ، وأنا ؟ قالت : فوالله ما أنعم ، وقال : «إنك إلى خير» (٧) .

حديث آخر : قال ابن جرير : حدثنا ابن وَكِيع ، حدثنا محمد بن بشر (٨) ، عن زكريا ، عن مصعب ابن شيبة ، عن صفية بنت شيبة قالت : قالت عائشة ، رضى الله عنها : خرج رسول الله(٩) ﷺ ذات

(١) تفسير الطبرى (٢٢/ ٧) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٣/ ٢٤٩) من طريق فضيل بن مرزوق به مختصراً .
(٢) تفسير الطبرى (٢٢/ ٦) ورواه الطحاوى فى مشكل الآثار برقم (٧٧٠) من طريق عبد الحميد بن بهرام، به . ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٣/ ٣٣٣) من طريق زبيد ، عن شهر بن حوشب ، عن أم سلمة .
(٣) تفسير الطبرى (٢٢/ ٧) ورواه الطحاوى فى مشكل الآثار برقم (٧٦٣) من طريق خالد بن مخلد القطوانى به .
(٤) تفسير الطبرى (٢٢/ ٧) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٣/ ٢٨٦) من طريق شريك ، عن عطاء ، عن أم سلمة .
(٥) تفسير الطبرى (٢٢/ ٧) .
(٦) فى أ : « عبد الملك » .
(٧) تفسير الطبرى (٢٢/ ٧) ورواه الطحاوى فى مشكل الآثار برقم (٧٦٢) من طريق جرير بن عبد الحميد ، عن الأعمش بنحوه .
(٨) فى أ : « بشير » . (٩) فى ف : « النبى » .

غداة، وعليه مِرْط مُرَحَّل من شَعْر أسود، فجاء الحسن فأدخله معه، ثم جاء الحسين فأدخله معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها معه، ثم جاء على فأدخله معه، ثم قال: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾.

ورواه مسلم عن أبى بكر بن أبى شيبة عن محمد بن بشر [(١)]، به [(٢)].

طريق أخرى: قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا سُرَيج بن يونس أبو الحارث، حدثنا محمد ابن يزيد، عن العوام ـ يعنى: ابن حَوْشَب ـ عن عم له قال: دخلت مع أبى على عائشة، فسألتها عن على، رضى الله عنه، فقالت، رضى الله عنها: تسألنى عن رجل كان من أحب الناس إلى رسول الله ﷺ، وكانت تحته ابنته وأحب الناس إليه؟ لقد رأيت رسول الله ﷺ دعا عليا وفاطمة وحسنا وحسينا، فألقى عليهم ثوباً فقال: « اللهم، هؤلاء أهل بيتى، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً». قالت: فدنوت منه فقلت: يا رسول الله، وأنا من أهل بيتك؟ فقال: « تَنَحّى، فإنك على خير ».

حديث آخر: قال ابن جرير حدثنا المثنى، حدثنا بكر [(٣)] بن يحيى بن زَبّان العَنَزىّ، حدثنا مِنْدَل، عن الأعمش، عن عطية، عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: « نزلت هذه الآية فى خمسة: فىّ، وفى على، وحسن، وحسين، وفاطمة: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾» [(٤)].

قد تقدم أن فضيل بن مرزوق رواه عن عطية، عن أبى سعيد، عن أم سلمة، كما تقدم.

وروى ابن أبى حاتم من حديث هارون بن سعد العِجْلى، عن عطية، عن أبى سعيد موقوفاً، فالله أعلم.

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثنا ابن المثنى، حدثنا أبو بكر الحنفى، حدثنا بُكَيْر بن مسمار قال: سمعت عامر بن سعد قال: قال سعد: قال رسول الله ﷺ حين نزل عليه الوحى، فأخذ علياً وابنيه وفاطمة فأدخلهم تحت ثوبه، ثم قال: « رب، هؤلاء أهلى وأهل بيتى » [(٥)].

حديث آخر: وقال مسلم فى صحيحه: حدثنى زُهَير بن حرب، وشُجاع بن مَخْلَد جميعاً، عن ابن عُلَيَّة ـ قال زهير: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنى أبو حَيَّان، حدثنى يزيد بن حَيَّان قال: انطلقت أنا وحُصَين بن سَبْرَةَ وعمر بن مسلم [(٦)] إلى زيد بن أرقم، فلما جلسنا إليه قال له حصين: لقد لقيتَ يا زيدُ خيراً كثيراً [رأيتَ رسول الله ﷺ وسمعتَ حديثه، وغزوتَ معه، وصليتَ خلفه، لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً] [(٧)]؛ حَدِّثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله ﷺ. قال: يا بن أخى، والله لقد

---

(١) فى أ: « بشير ».

(٢) تفسير الطبرى (٢٢/ ٥) وصحيح مسلم برقم (٢٠٨١).

(٣) فى ف: « بكير ».

(٤) تفسير الطبرى (٢٢/ ٥).

(٥) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٢/ ٧) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٨٤٣٩) من طريق أبى بكر الحنفى، عن بكير بن مسمار، به.

(٦) فى ت، ف، أ: « سلمة ». (٧) زيادة من ت، ف، ومسلم.

كَبرَت [(١)] سنِّى، وقدم عهدى، ونسيتُ بعض الذى كنتُ أعى من رسول اللّه ﷺ، فما حدّثتُكم فاقبلوا، وما لَا فلا تُكلّفونيه. ثم قال: قام فينا رسول اللّه ﷺ يوما خطيباً بماء يدعى خُما ـ بين مكة والمدينة ـ فحمد اللّه وأثنى عليه، ووعظ وَذَكّر، ثم قال: « أما بعد، ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك [(٢)] أن يأتى رسول ربى فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين، وأولهما كتاب اللّه، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب اللّه واستمسكوا به ». فَحَثّ على كتاب اللّه وَرَغَّب فيه، ثم قال: «وأهل بيتى، أذَكّركم اللّه فى أهل بيتى، أذكركم اللّه فى أهل بيتى » ثلاثاً. فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حُرِمَ الصّدَقة بعده. قال: ومن هم؟ قال هم آل على، وآل عَقيل، وآل جعفر، وآل عباس. قال: كل هؤلاء حُرِمَ الصدقة؟ قال: نعم [(٣)].

ثم رواه عن محمد بن بكّار بن الريَّان، عن حسان بن إبراهيم، عن سعيد بن مسروق، عن يزيد ابن حَيَّان [(٤)]، عن زيد بن أرقم، فذكر الحديث بنحو ما تقدم، وفيه: فقلنا له: من أهل بيته؟ نساؤه؟ قال: لا وايم اللّه، إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها. أهل بيته أصله وعَصَبَته الذين حُرموا الصدقة بعده [(٥)].

هكذا وقع فى هذه الرواية، والأولى أولى، والأخذ بها أحرى. وهذه الثانية تحتمل أنه أراد تفسير الأهل المذكورين فى الحديث الذى رواه، إنما المراد بهم آله الذين حُرموا الصدقة، أو أنه ليس المراد بالأهل الأزواج فقط، بل هم مع آله، وهذا الاحتمال أرجح؛ جمعا بينها وبين الرواية التى قبلها، وجمعا أيضاً بين القرآن والأحاديث المتقدمة إن صحت، فإن فى بعض أسانيدها نظراً، واللّه أعلم. ثم الذى لا يشكّ فيه من تَدَبر القرآن أن نساء النبى ﷺ داخلات فى قوله: ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا** ﴾، فإن سياق الكلام معهن؛ ولهذا قال تعالى بعد هذا كله: ﴿ **وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ** ﴾ أى: اعملن بما ينزل اللّه على رسوله فى بيوتكن من الكتاب والسنة. قاله قتادة وغير واحد. واذكرن هذه النعمة التى خصصتن [(٦)] بها من بين الناس، أن الوحى ينزل فى بيوتكن دون سائر الناس، وعائشة [الصديقة] [(٧)] بنت الصديق أولاهن بهذه النعمة، وأحظاهن بهذه الغنيمة، وأخصهن من هذه الرحمة العميمة، فإنه لم ينزل على رسول اللّه ﷺ الوحىُ فى فراش امرأة سواها، كما نص على ذلك صلوات اللّه وسلامه عليه [(٨)]. قال بعض العلماء، رحمه اللّه: لأنه لم يتزوج بكراً سواها، ولم ينم معها رجل فى فراشها سواه، فناسب أن تخصص بهذه المزية، وأن تفرد بهذه الرتبة العلية. ولكن إذا كان أزواجه من أهل

---

(١) فى أ « كبر ».
(٢) فى ف: « فيوشك ».
(٣) صحيح مسلم برقم (٢٤٠٨).
(٤) فى أ: « حسان ».
(٥) صحيح مسلم برقم (٢٤٠٨).
(٦) فى أ: « خصصتهن ».
(٧) زيادة من أ.
(٨) فى ت: « رسول اللّه ﷺ ».

بيته، فقرابته أحق بهذه التسمية، كما تقدم في الحديث: « وأهل بيتي أحق ». وهذا يشبه ما ثبت في صحيح مسلم: أن رسول الله ﷺ لما سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم، فقال: « هو مسجدي هذا » (١). فهذا من هذا القبيل؛ فإن الآية إنما نزلت في مسجد قُباء، كما ورد في الأحاديث الأخر. ولكن إذا كان ذاك أسّسَ على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله ﷺ أولَى بِتَسميِته بذلك، والله أعلم.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الوليد، حدثنا أبو عَوَانة، عن حُصَين بن عبد الرحمن، عن أبي جميلة (٢) قال: إن الحسن بن علي استُخلفَ حين قُتل علي، رضي الله عنهما(٣)، قال: فبينما هو يصلي إذ وثب عليه رجل فطعنه بخنجر وزعم حصين أنه بلغه أن الذي طعنه رجل من بني أسد، وحسن ساجد قال: فيزعمون أن الطعنة وقعت في وَركه، فمرض منها أشهراً، ثم برَأ فقعد على المنبر، فقال: يا أهل العراق، اتقوا الله فينا، فإنا أمراؤكم وضيفانكم، ونحن أهل البيت الذي قال الله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ قال: فما زال يقولها حتى ما بقي أحد من أهل المسجد إلا وهو يَحنّ بكاء.

وقال السُّدِّي، عن أبي الديلم قال: قال علي بن الحسين لرجل من أهل الشام: أما قرأت في الأحزاب: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾؟ قال: نعم، ولأنتم هم؟ قال: نعم.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ أي: بلطفه بكن بلغتن هذه المنزلة، وبخبرته (٤) بكن وأنكن أهل لذلك، أعطاكن ذلك وخصكن بذلك.

قال ابن جرير، رحمه الله: واذكرن نعمة الله عليكن بأن جعلكن في بيوت تتلى فيها آيات الله والحكمة، فاشكرن الله على ذلك واحمدنه.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ أي: ذا لطف بكن، إذ جعلكن في البيوت التي تتلى فيها آياته والحكمة. وهي السنة، خبيراً بكن إذ اختاركن لرسوله أزواجاً.

وقال قتادة: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ قال: يمتن عليهن بذلك. رواه ابن جرير.

وقال عطية العَوْفي في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ يعني: لطيف باستخراجها، خبير بموضعها. رواه ابن أبي حاتم، ثم قال: وكذا روى عن الربيع بن أنس، عن قتادة (٥).

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ

---

(١) صحيح مسلم برقم (١٣٩٨) من حديث أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه.
(٢) في ت: « وروى ابن أبي حاتم بسنده ». (٣) في ت، ف، أ: « عنه ». (٤) في ت: « بمخبرته ».
(٥) في ت: « وقتادة ».

وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥)﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا عثمان بن حكيم، حدثنا [١] عبد الرحمن بن شيبة، سمعت أم سلمة زوج النبى ﷺ تقول: قلت للنبى ﷺ: ما لنا لا نُذكَرُ فى القرآن كما يذكر الرجال؟ قالت [٢]: فلم يَرعنى منه ذات يوم إلا ونداؤه على المنبر، قالت: وأنا أسرّح شعرى، فلففت شعرى، ثم خرجت إلى حُجْرة من حُجَر بيتى، فجعلت سمعى عند الجريد، فإذا هو يقول عند المنبر: «ياأيها الناس، إن الله يقول: إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات» إلى آخر الآية.

وهكذا رواه النسائى وابن جرير، من حديث عبد الواحد بن زياد، به مثله [٣].

طريق أخرى عنها: قال النسائى أيضاً: حدثنا محمد بن حاتم، حدثنا سُوَيْد، أخبرنا عبد الله بن شَريك، عن محمد بن عمرو، عن أبى سلمة، عن أم سلمة أنها قالت للنبى ﷺ: يا نبى الله، ما لى أسمع الرجال يذكرون فى القرآن، والنساء لا يذكرن؟ فأنزل الله: ﴿**إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**﴾[٤].

وقد رواه ابن جرير، عن أبى كُرَيْب، عن أبى معاوية، عن محمد بن عمرو، عن أبى سلمة: أن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب، حدثه عن أم سلمة، رضى الله عنها، قالت: قلت: يا رسول الله، أيذكر الرجال فى كل شىء ولا نذكر؟ فأنزل الله: ﴿**إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ**﴾ الآية [٥].

طريق أخرى: قال سفيان الثورى، عن ابن أبى نَجيح، عن مجاهد قال: قالت أم سلمة: يا رسول الله، يذكر الرجال ولا نذكر؟ فأنزل الله: ﴿**إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ**﴾ الآية.

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب قال: حدثنا سَيَّار بن مظاهر العَنَزى [٦]، حدثنا أبو كُدَيْنة يحيى بن المهلَّب، عن قابوس بن أبى ظَبْيَان، عن أبيه، عن ابن عباس قال: قال النساء للنبى ﷺ: ما له يذكر المؤمنين ولا يذكر المؤمنات؟ فأنزل الله: ﴿**إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ**﴾ الآية [٧].

وحدثنا بشر [٨]، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد [٩]، عن قتادة قال: دخل نساء على نساء النبى ﷺ، فقلن: قد ذَكَرَكُنّ الله فى القرآن، ولم نُذكَر بشىء، أما فينا ما يذكر؟ فأنزل الله، عز وجل: ﴿**إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ**﴾ الآية [١٠].

---

(١) فى ت: «وروى الإمام أحمد بإسناده عن». (٢) فى ف: «قال».
(٣) المسند (٦/ ٣٠٥) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٤٠٥) وتفسير الطبرى (٢٢/ ٩).
(٤) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١٤٠٤).
(٥) تفسير الطبرى (٢٢/ ٨).
(٦) فى ف، أ: «سنان بن مظاهر العمرى».
(٧) تفسير الطبرى (٢٢/ ٨).
(٨) فى ف، أ: «بشير».
(٩) فى ف، أ: «سعد».
(١٠) تفسير الطبرى (٢٢/ ٨).

فقوله: ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ دليل على أن الإيمان غير الإسلام، وهو أخص منه، لقوله[1] تعالى: ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٤]. وفى الصحيحين: « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ». فيسلبه[2] الإيمان، ولا يلزم من ذلك كفره بإجماع المسلمين، فدل على أنه أخص منه كما قررناه فى أول شرح البخارى.

[وقوله][3]: ﴿ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ ﴾: القنوت: هو الطاعة فى سكون، ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ [الروم: ٢٦]، ﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٣]، ﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣٨] فالإسلام بعده مرتبة[4] يرتقى إليها، ثم القنوت ناشئ عنهما.

﴿ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ ﴾: هذا فى الأقوال، فإن الصدق خَصلة محمودة؛ ولهذا كان بعض الصحابة لم تُجَرَّب عليه كِذْبة لا فى الجاهلية ولا فى الإسلام[5]، وهو علامة على الإيمان، كما أن الكذب أمارة على النفاق، ومن صدق نجا، « عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدى إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة. وإياكم والكذب؛ فإن الكذب يهدى إلى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النار. ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، ولا يزال الرجل يكذب ويتَحرَّى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً »[6] والأحاديث فيه كثيرة جداً.

﴿ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ ﴾: هذه سَجِيّة الأثبات، وهى الصبر على المصائب، والعلم بأن المقدور كائن لا محالة، وتَلَقِّى ذلك بالصبر والثبات، وإنما الصبر عند الصدمة الأولى، أى: أصعبه فى أول وهلة، ثم ما بعده أسهل منه، وهو صدق السجية وثباتها.

﴿ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ ﴾: الخشوع[7]: السكون والطمأنينة، والتؤدة والوقار والتواضع. والحامل عليه الخوف من الله ومراقبته، [كما فى الحديث][8]: « اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ».

﴿ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ ﴾: الصدقة: هى الإحسان إلى الناس المحاويج الضعفاء، الذين لا كَسْبَ لهم ولا كاسب، يعطون من فضول الأموال[9] طاعة لله، وإحسانا إلى خلقه، وقد ثبت فى الصحيحين: « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله » فذكر منهم: « ورجل تصدق بصدقة

---

(١) فى أ: « كقوله ». (٢) فى ت، ف، أ: « فسلبه ». (٣) زيادة من ت، أ.
(٤) فى ت: « قربة ». (٥) فى ت، ف: « جاهلية ولا إسلام ».
(٦) فى ت، ف، أ: « أتى بعجز الحديث وأخر صدره ». (٧) فى ت، ف، أ: « أى ».
(٨) زيادة من ت، ف، أ. (٩) فى أ: « الأعمال ».

فأخفاها ، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه »(١) . وفى الحديث الآخر : « والصدقة تطفئ الخطيئة، كما يطفئ الماء النار » (٢) .

[وفى الترمذى عن أنس بن مالك ،رضى الله عنه ،عن النبى ﷺ ،قال :« إن الصدقة تطفئ غضب الرب وتدفع ميتة السوء » .

وفى الصحيحين عن عدى بن حاتم قال :قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ،ليس بينه وبينه ترجمان ،فينظر أيمن منه ،فلا يرى إلا ما قدم ،وينظر أشأم منه ،فلا يرى إلا ما قدم،وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه .فاتقوا النار ولو بشق تمرة » .

وفى حديث أبى ذر أنه قال :سألت رسول الله ﷺ ماذا ينجى العبد من النار ؟قال :« الإيمان بالله» .قلت :يا نبى الله ،مع الإيمان عمل ؟ قال :« ترضخ مما خولك الله » ،أو :« ترضخ مما رزقك الله » ؛ولهذا لما خطب النبى ﷺ يوم العيد قال فى خطبته :« يا معشر النساء تصدقن ولو من حليكن،فإنى رأيتكن أكثر أهل النار » .وكأنه حثهن ورغبهن على ما يفدين به أنفسهن من النار ،وقال عمر بن الخطاب ،رضى الله عنه : ذكر لى أن الأعمال تتباهى ،فتقول الصدقة :أنا أفضلكم .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال :ضرب رسول الله ﷺ ،مثل البخيل والمتصدق ،كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد ،أو جنتان من حديد .قد اضطرت أيديهما إلى ثديهما وتراقيهما ،فجعل المتصدق ،كلما تصدق بصدقة انبسطت عنه ،حتى تغشى أنامله ،وتعفو أثره ،وجعل البخيل كلما هم بصدقة قلصت ،وأخذت كل حلقة مكانها . قال أبو هريرة :فأنا رأيت رسول الله ﷺ يقول بإصبعه هكذا فى جيبه .فلو رأيته يوسعها ولا يتسع .وقد قال تعالى :﴿ **وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [التغابن : ١٦] . فجود الرجل يحببه إلى أضداده ،وبخله يبغضه إلى أولاده . كما قيل:

ويظهر عيبَ المرء فى الناس بخلُه   وتستره عنهم جميعا سخاؤه
تعط بأثواب السخاء فإننى   أرى كل عيب والسخاء غطاؤه] (٣)

والأحاديث فى الحث عليها كثيرة جداً ، له موضع بذاته .

﴿ **وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ** ﴾: فى الحديث الذى رواه ابن ماجه : « والصوم زكاة البدن » أى : تزكيه وتطهره وتنقيه من الأخلاط الرديئة طبعا وشرعا .

قال (٤) سعيد بن جبير :من صام رمضان وثلاثة أيام من كل شهر ، دخل فى قوله : ﴿ **وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ** ﴾ .

---

(١) صحيح البخارى برقم (١٤٢٣) وصحيح مسلم برقم (١٠٣١) .

(٢) رواه الترمذى فى السنن برقم (٦١٤) من حديث كعب بن عجرة ،رضى الله عنه ، وقال :« هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه». ورواه أحمد فى المسند ٣/ ٣٢١ من حديث جابر بن عبد الله ،رضى الله عنه ،ورواه الترمذى فى السنن برقم (٢٦١٦) وابن ماجة فى السنن برقم (٣٩٧٣) من حديث معاذ ،رضى الله عنه .

(٣) زيادة من ت .   (٤) فى أ : « كما قال » .

ولما كان الصوم من أكبر العون على كسر الشهوة ـ كما قال رسول الله ﷺ : « يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباء فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » [(١)] ـ ناسب أن يذكر بعده : ﴿ **وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ** ﴾ أى : عن المحارم والمآثم إلا عن المباح ، كما قال تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ** ﴾ [المؤمنون : ٥ ـ ٧].

وقوله : ﴿ **وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ** ﴾ : قال ابن أبى حاتم :

حدثنا أبى ، حدثنا هشام بن عبيد الله ، حدثنا محمد بن جابر ، عن على بن الأقمر ، عن الأغر أبى مسلم [(٢)] ، عن أبى سعيد الخدرى ، رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أيقظ الرجل امرأته من الليل ، فصليا ركعتين ، كتبا [(٣)] تلك الليلة من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات » .

وقد رواه أبو داود ، والنسائى ، وابن ماجه ، من حديث الأعمش، [عن على بن الأقمر] [(٤)] ، عن الأغر أبى مسلم ، عن أبى سعيد وأبى هريرة ، عن النبى ﷺ ، بمثله [(٥)] .

وقال[(٦)] الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لَهِيعة ، حدثنا دَرَّاج ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد الخُدْرى ، رضى الله عنه ، أنه قال : قلت : يا رسول الله ، أى العباد أفضل درجة عند الله يوم القيامة ؟ قال : « الذاكرون الله كثيرا والذاكرات » .

قال : قلت : يا رسول الله ، ومن الغازى فى سبيل الله ؟ قال : « لو ضرب بسيفه فى الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضب دما لكان الذاكرون الله أفضل منه » [(٧)] .

وقال[(٨)] الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم ، عن العلاء ، عن أبيه ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : كان النبى ﷺ يسير فى طريق مكة ، فأتى على جُمْدان فقال : « هذا جُمْدان ، سيروا فقد سبق المُفَرِّدون » . قالوا : وما المُفَرِّدون [(٩)] ؟ قال : « الذاكرون الله كثيراً [(١٠)] » . ثم قال : « اللهم اغفر للمحلقين » . قالوا : والمقصرين ؟ قال : « اللهم ، اغفر للمحلقين » . قالوا: والمقصرين ؟ قال : « والمقصرين » .

تفرد به من هذا الوجه ، ورواه مسلم دون آخره [(١١)] .

---

(١) صحيح البخارى برقم (٥٠٦٦) وصحيح مسلم برقم (١٤٠٠) .

(٢) فى ت : « روى ابن أبى حاتم بإسناده ». (٣) فى ت ، أ : « كانا » .

(٤) زيادة من ت ، ف ، وسنن أبى داود وابن ماجه .

(٥) سنن أبى داود برقم (١٣٠٩) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٠٦) وسنن ابن ماجه برقم (١٣٣٥) .

(٦) فى ت : « وروى » .

(٧) المسند (٣/٧٥) ودراج عن أبى الهيثم ضعيف .

(٨) فى ت : « وروى » . (٩) فى ف ، أ : « وما المفردون يا رسول الله ؟ » .

(١٠) فى ف ، أ : « الذاكرون الله كثيرا والذاكرات » .

(١١) المسند (٢/٤١١) وصحيح مسلم برقم (١٣٠٢) وإنما رواه مسلم دون أوله ، والله أعلم .

وقال (١) الإمام أحمد : حدثنا حُجَين بن المثنى ،حدثنا عبد العزيز بن أبى سلمة ،عن زياد بن أبى زياد ـ مولى عبد الله ابن عيَّاش (٢) بن أبى ربيعة ـ أنه بلغه عن معاذ بن جبل ،رضى الله عنه،أنه قال: قال رسول الله ﷺ : « ما عمل آدمى عملا قط أنجى له من عذاب الله من ذكر الله».وقال معاذ:قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بخير أعمالكم ،وأزكاها عند مليككم ،وأرفعها فى درجاتكم،وخير لكم من تعاطى الذهب والفضة ،ومن أن تلقوا عدوكم غداً فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم » ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : « ذكر الله ، عز وجل » (٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن ،حدثنا ابن لَهِيعة ، حدثنا زَبَّان بن فائد ،عن سهل بن معاذ بن أنس الجُهَنىّ ، عن أبيه،عن رسول الله ﷺ : أن رجلا سأله فقال : أى المجاهدين أعظم أجراً يا رسول الله ؟ فقال : « أكثرهم (٤) لله ذكراً ».قال : فأى الصائمين أكثر أجراً ؟ قال : « أكثرهم لله ذكرا».ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة ، كل ذلك يقول رسول الله ﷺ : « أكثرهم لله ذكراً».فقال أبو بكر لعمر ،رضى الله عنهما :ذهب الذاكرون بكل خير .فقال رسول الله ﷺ : «أجل» (٥) .

وسنذكر بقية الأحاديث الواردة فى كثرة الذكر عند قوله تعالى فى هذه السورة : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا . وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلا**﴾ الآية [الأحزاب : ٤١، ٤٢] ،إن شاء الله تعالى.

وقوله :﴿**أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا**﴾ أى : هيأ لهم (٦) منه لذنوبهم مغفرة وأجرًا عظيماً وهو الجنة .

﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا (٣٦)** ﴾.

قال العوفى ،عن ابن عباس :قوله :﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ**﴾ الآية ،وذلك أن رسول الله ﷺ انطلق ليخطب على فتاه زيد بن حارثة ،فدخل على زينب بنت جحش الأسدية فخطبها ،فقالت : لست بناكحته ،فقال رسول الله ﷺ : « بل فانكحيه » .قالت :يا رسول الله ،أؤامر فى نفسى . فبينما هما يتحادثان أنزل الله هذه الآية على رسوله ﷺ :﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا**﴾ الآية ،قالت :قد رضيته لى منكحا يا رسول الله ؟ قال : «نعم».قالت :إذاً لا أعصى رسول الله ﷺ ،قد أنكحته نفسى (٧) .

(١) فى ت : « وروى » .
(٢) فى ف ، أ: « عباس ».
(٣) المسند (٥/ ٢٣٩) .
(٤) فى أ : « أكثركم » .
(٥) المسند (٣/ ٤٣٨) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٧٤) :« وفيه زبان بن فائد وهو ضعيف ،وقد وثق ،وكذلك ابن لهيعة ، وبقية رجاله ثقات » .
(٦) فى ت ، ف : « أعد لهم » .
(٧) تفسير الطبرى (٢٢/ ٩) .

وقال ابن لَهِيعة ،عن ابن أبى عمرة ،عن عكرمة ،عن ابن عباس قال :خطب رسول اللّه ﷺ زينب بنت جحش لزيد بن حارثة ،فاستنكفت منه ،وقالت :أنا خير منه حسبا ـ وكانت امرأة فيها حدة ـ فأنزل اللّه ،عز وجل :﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ ﴾ الآية كلها .

وهكذا قال مجاهد ،وقتادة ،ومقاتل بن حيان :أنها نزلت فى زينب بنت جحش [الأسدية] (١) حين خطبها رسول اللّه ﷺ على مولاه زيد بن حارثة ،فامتنعت ثم أجابت .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ،نزلت فى أم كلثوم (٢) بنت عقبة بن أبى مُعَيْط ،وكانت أول من هاجر من النساء ـ يعنى : بعد صلح الحديبية ـ فوهبت نفسها للنبى ﷺ ،فقال :قد قبلت . فزوجها زيد بن حارثة ـ يعنى واللّه أعلم بعد فراقه زينب ـ فسخطت هى وأخوها وقالا :إنما أردنا رسول اللّه ﷺ فزوّجَنا عبده .قال :فنزل القرآن : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا ﴾ إلى آخر الآية . قال :وجاء أمر أجمع من هذا :﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ قال : فذاك خاص وهذا جماع .

وقال (٣) الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ،أخبرنا مَعْمَر ،عن ثابت البُنَانى ،عن أنس قال : خطب النبى ﷺ على جُلَيْبِيب امرأة من الأنصار إلى أبيها ،فقال :حتى أستأمر أمها .فقال النبى ﷺ:فنعم (٤) إذاً .قال :فانطلق الرجل إلى امرأته ،[فذكر ذلك لها] (٥) ،فقالت :لاها اللّه ذا(٦)،ما وجد رسول اللّه ﷺ إلا جلَيبيبا ،وقد منعناها من فلان وفلان ؟ قال :والجارية فى سترها (٧) تسمع .قال :فانطلق الرجل يريد أن يخبر النبى ﷺ بذلك .فقالت الجارية :أتريدون أن تَرُدّوا على رسول اللّه ﷺ أمره ؟إن كان قد رضيه لكم فأنكحوه .قال :فكأنها جَلَّت عن أبويها ،وقالا : صدقت.فذهب أبوها إلى رسول اللّه ﷺ فقال : إن كنت رضيته فقد رضيناه .قال :« فإنى قد رضيته».قال:فزوجها (٨) ،ثم فزع أهل المدينة ،فركب جُلَيْبِيب فوجدوه قد قتل ،وحوله ناس من المشركين قد قتلهم ،قال أنس :فلقد رأيتها [وإنها] (٩) لمن أنفق بيت بالمدينة (١٠) .

وقال (١١) الإمام أحمد :حدثنا عفان ،حدثنا حماد ـ يعنى :ابن سلمة ـ عن ثابت ،عن كنانة بن نعيم العدوى ،عن أبى برزة الأسلمى أن جليبيبا كان امرأ يدخل على النساء يَمُرّ بهن ويلاعبهن،فقلت لامرأتى: لا يدخلن اليوم عليكم (١٢) جُليبيبٌ ،فإنه إن دخل عليكم (١٣) لأفعلن ولأفعلن . قال:وكانت الأنصار إذا كان لأحدهم أيِّم لم يزوجها حتى يعلم : هل لنبى اللّه ﷺ فيها حاجة أم لا . فقال رسول اللّه ﷺ لرجل من الأنصار :« زوجنى ابنتك » .قال :نعم ،وكرامة يا رسول اللّه(١٤)،ونُعْمَة عين .فقال :إنى لست أريدها لنفسى .قال :فلمن يارسول اللّه ؟ قال : لجليبيب.

---

(١) زيادة من أ . (٢) فى أ : « أم مكتوم » . (٣) فى ت : « وروى » .
(٤) فى ف :« لنعم » . (٥) زيادة من ت ، ف ، والمسند .
(٦) فى هـ ، أ : « إذا » والمثبت من ت ، ف والنهاية لابن الأثير .
(٧) فى ت : « خدرها » . (٨) فى أ : « فتزوجها » . (٩) زيادة من ت ، ف ، والمسند .
(١٠) المسند (٣/١٣٦) .
(١١) فى ت : « وروى » . (١٢ ، ١٣) فى أ : « عليكن » .
(١٤) فى أ : « برسول اللّه »

فقال : يا رسول اللّه ، أشاور أمها . فأتى أمها فقال : رسول اللّه ﷺ يخطب ابنتك ؟ فقالت: نعم ونُعمة عين. فقال: إنه ليس يخطبها لنفسه، إنما يخطبها لجليبيب. فقالت : أَجُلَيبيب إنيه (١) ؟ أجليبيب إنيه(٢)؟ لا، لعمر اللّه لا تزَوّجُه . فلما أراد أن يقوم ليأتى رسول اللّه ﷺ فيخبره بما قالت أمها، قالت الجارية: من خطبنى إليكم ؟ فأخبرتها أمها . قالت : أتردون على رسول اللّه ﷺ أمره ؟! ادفعونى إليه، فإنه لن يضيعنى . فانطلق أبوها إلى رسول اللّه ﷺ فقال : شأنَك بها . فَزَوّجها جليبيا. قال: فخرج رسول اللّه ﷺ فى غزاة له ، فلما أفاء اللّه عليه قال لأصحابه : « هل تفقدون من أحد » ؟ قالوا : نفقد فلانا ونفقد فلانا . قال : « انظروا هل تفقدون من أحد ؟ » قالوا : لا . قال : « لكنى أفقد جليبيبا». قال : « فاطلبوه فى القتلى ». فطلبوه فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه . [فقالوا : يا رسول اللّه ، ها هو ذا إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه] (٣) . فأتاه رسول اللّه ﷺ فقام عليه ، فقال: قتل سبعة [وقتلوه] (٤) ، هذا منى وأنا منه . مرتين أو ثلاثا ، ثم وضعه رسول اللّه ﷺ على ساعديه [وحفر له ، ما له سرير إلا ساعد النبى ﷺ] (٥) . ثم وضعه فى قبره، ولم يذكر أنه غسله، رضى اللّه عنه . قال ثابت : فما كان فى الأنصار أيّم أنفق منها . وحدث إسحاق بن عبد اللّه بن أبى طلحة ثابتا : هل تعلم ما دعا لها رسول اللّه ﷺ ؟ فقال : « اللهم ، صب عليها [الخير] (٦) صبا، ولا تجعل عيشها كَدّاً » كذا قال ، فما كان فى الأنصار أيم أنفق منها .

هكذا أورده الإمام أحمد بطوله (٧) ، وأخرج منه مسلم والنسائى فى الفضائل قصة قتله(٨) . وذكر الحافظ أبو عمر بن عبد البر فى « الاستيعاب » أن الجارية لما قالت فى خدرها : أتردون على رسول اللّه ﷺ أمره ؟ تلت (٩) هذه الآية : ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ** ﴾(١٠) .

وقال ابن جُرَيْج [أخبرنى عامر بن مصعب ، عن طاوس قال : إنه سأل ابن عباس عن ركعتين بعد العصر ، فنهاه ، وقرأ ابن عباس ، رضى اللّه عنه (١١) : ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُون** (١٢) **لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ** ﴾] (١٣) .

فهذه الآية عامة فى جميع الأمور ، وذلك أنه إذا حكم اللّه ورسوله بشىء ، فليس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحد هاهنا ، ولا رأى ولا قول ، كما قال تعالى : ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ [النساء : ٦٥] ، وفى الحديث : « والذى نفسى بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » . ولهذا شدد فى خلاف ذلك، فقال : ﴿ **وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا** ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ **فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [النور : ٦٣] .

(١ ، ٢) فى هـ ، ت ، ف ، أ : « ابنه » والتصويب من المسند . (٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦) زيادة من ت ، ف ، والمسند .
(٧) المسند (٤٢٢/٤) .
(٨) صحيح مسلم برقم (٢٤٨٢) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٨٢٤٦) .
(٩) فى أ : « نزلت » .
(١٠) الاستيعاب (٢٥٩/١) .
(١١) فى أ : « عنهما » . (١٢) فى ت : « تكون » . (١٣) زيادة من ت ، ف ، أ .

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً (٣٧) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن نبيه ،صلوات اللّه وسلامه عليه ،أنه قال لمولاه زيد بن حارثة وهو الذى أنعم اللّه عليه ،أى : بالإسلام ومتابعة الرسول ،عليه أفضل الصلاة والسلام : **﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾** أى : بالعتق من الرق ،وكان سيدا كبير الشأن جليل القدر ،حبيباً إلى النبى ﷺ ،يقال له: الحِبّ ،ويقال لابنه أسامة: الحِبّ ابن الحِبّ . قالت عائشة ،رضى اللّه عنها : ما بعثه رسول اللّه ﷺ فى سرية إلا أمره عليهم ،ولو عاش بعده لاستخلفه . رواه أحمد عن سعيد بن محمد الوراق ومحمد بن عبيد ،عن وائل بن داود ،عن عبد اللّه البهى عنها (١) .

وقال(٢) البزار : حدثنا خالد بن يوسف ،حدثنا أبو عَوَانة (ح) ،وحدثنا محمد بن مَعْمَر ،حدثنا أبو داود ،حدثنا أبو عوانة ،أخبرنى عمران بن أبى سلمة (٣)،عن أبيه : حدثنى أسامة بن زيد قال: كنت فى المسجد ،فأتانى العباس وعلى بن أبى طالب ،رضى اللّه عنهما ،فقالا : يا أسامة ،استأذن لنا على رسول اللّه ﷺ . قال : فأتيتُ رسولَ اللّه فأخبرته ،فقلت : على والعباس يستأذنان ؟فقال : «أتدرى ما حاجتهما ؟» فقلت : لا يا رسول اللّه . فقال : « لكنى أدرى » ، قال : فأذن لهما . قالا: يا رسول اللّه ،جئناك لتخبرنا : أىُّ أهلك أحبُّ إليك ؟ فقال : « أحب أهلى إلى فاطمة بنت محمد» ، قالا : يارسول اللّه ،ما نسألك عن فاطمة . قال: « فأسامة بن زيد بن حارثة ،الذى أنعم اللّه عليه وأنعمت عليه » (٤) .

وكان رسول اللّه ﷺ قد زَوّجه بابنة عمته زينب بنت جحش الأسدية ـ وأمها أميمة (٥) بنت عبد المطلب ـ وأصدقها عشرة دنانير ،وستين درهماً ،وخمارا ،وملْحَفَة ،ودرْعاً ،وخمسين مُدّا من طعام،وعشرة أمداد من تمر . قاله مقاتل بن حيان ،فمكثت عنده قريباً من سنة أو فوقها ،ثم وقع بينهما،فجاء زيد يشكوها إلى رسول اللّه ﷺ ،فجعل رسول اللّه ﷺ يقول له : « أمسك عليك زوجك،واتق اللّه » . قال اللّه تعالى : **﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾.**

ذكر ابن جرير ،وابن أبى حاتم هاهنا آثاراً عن بعض السلف ،رضى اللّه عنهم ،أحببنا أن نضرب

---

(١) المسند (٦/ ٢٢٧) .

(٢) فى ت : « وروى » .

(٣) فى ت ، ف ، أ ، هـ : « عمر بن أبى سلمة » ، والصواب ما أثبتناه .

(٤) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣٨١٩) من طريق أبى عوانة بنحوه ،وقال الترمذى : « حديث حسن صحيح » .

(٥) فى ت : « أمية » .

عنها صَفحا لعدم صحتها فلا نوردها .

وقد روى الإمام أحمد هاهنا أيضاً حديثاً ، من رواية حماد بن زيد ، عن ثابت ، عن أنس فيه غرابة تركنا سياقه أيضاً (١) .

وقد روى البخارى أيضاً بعضه مختصراً فقال : حدثنا محمد بن عبد الرحيم ، حدثنا مُعَلَّى (٢) بن منصور ، عن حماد بن زيد ، حدثنا ثابت ، عن أنس بن مالك قال : إن هذه الآية : ﴿ **وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ** ﴾ نزلت فى شأن زينب بنت جحش ، وزيد بن حارثة ، رضى اللّه عنهما (٣) .

وقال (٤) ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا على بن هاشم بن مرزوق ، حدثنا ابن عيينة ، عن على ابن زيد بن جُدْعان قال : سألنى على بن الحسين ما يقول الحسن فى قوله : ﴿ **وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ** [**وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ**](٥) ﴾ ؟ فذكرت له فقال : لا ، ولكن اللّه أعلم نبيه أنها ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها ، فلما أتاه زيد ليشكوها إليه قال : اتق اللّه ، وأمسك عليك زوجك . فقال : قد أخبرتك أنى مُزَوّجكها ، وتخفى فى نفسك ما اللّه مبديه .

وهكذا رُوى عن السُّدِّى أنه قال نحو ذلك .

وقال (٦) ابن جرير : حدثنى إسحاق بن شاهين ، حدثنى خالد ، عن داود عن عامر ، عن عائشة ، رضى اللّه عنها ، أنها قالت : لو كتم محمد ﷺ شيئاً مما أوحى إليه من كتاب اللّه ، لكتم : ﴿ **وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ** ﴾ (٧) .

وقوله : ﴿ **فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا** ﴾ : الوطر : هو الحاجة والأرب ، أى : لما فَرَغ منها ، وفارقها ، زَوّجناكها ، وكان الذى وَلِى تزويجها منه هو اللّه ، عز وجل ، بمعنى : أنه أوحى إليه أن يدخل عليها بلا ولى ولا مهر ولا عقد ولا شهود من البشر .

قال (٨) الإمام أحمد : حدثنا هاشم ـ يعنى : ابن القاسم أبو النضر ـ حدثنا سليمان بن المغيرة ، عن ثابت ، عن أنس ، رضى اللّه عنه ، قال : لما انقضت عدة زينب قال رسول اللّه ﷺ لزيد بن حارثة : «اذهب فاذكرها على» . فانطلق حتى أتاها وهى تُخَمِّر عَجينها ، قال : فلما رأيتها عظمت فى صدرى ـ حتى ما أستطيع أن أنظر إليها ـ أنّ رسول اللّه ﷺ ذكرها ، فوليتها ظهرى ونكصت (٩) على عقبى ، وقلت : يا زينب ، أبشرى ، أرسلنى رسول اللّه ﷺ يذكرك . قالت : ما أنا بصانعة شيئاً حتى

(١) الحديث فى المسند (٣/ ١٤٩) والغرابة من قوله : « فرأى رسول اللّه ﷺ امرأته زينب وكأنه دخله » . فقد شك مؤمل فى الرواية ، وهو سيئ الحفظ .

(٢) فى أ : « يعلى » .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٧٨٧) .

(٤) فى ت : « وروى » . (٥) زيادة من ف . (٦) فى ت : « وروى » .

(٧) تفسير الطبرى (٢٢/ ١١) وأصله فى الصحيح بلفظ : « من حدثك بثلاث » .

(٨) فى ت : « وروى » . (٩) فى ف ، أ : « وركضت » .

أؤامر ربى، عز وجل . فقامت إلى مسجدها ، ونزل القرآن ، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن. ولقد رأيتنا حين دَخَلْتُ على رسول الله ﷺ أطعمنا عليها الخبز واللحم ، فخرج الناس وبقى رجال يتحدثون فى البيت بعد الطعام ، فخرج رسول الله ﷺ [واتبعته] (١) فجعل يتتبع حُجر نسائه يسلم عليهن ، ويقلن : يا رسول الله ، كيف وجدت أهلك ؟ فما أدرى أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أو أخبر. قال: فانطلق حتى دخل البيت، فذهبت أدخل معه، فألقى الستر بينى وبينه، ونزل الحجاب، ووعظ القوم بما وعظوا به : ﴿**لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلا أَن يُؤْذَنَ لَكُم**﴾ الآية .

ورواه مسلم والنسائى من طرق ، عن سليمان (٢) بن المغيرة ، به (٣) .

وقد روى البخارى ، رحمه الله ، عن أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، أن زينب بنت جحش كانت تفخر على أزواج النبى ﷺ فتقول : زوجكن أهاليكن وزوجنى الله من فوق سبع سموات (٤) .

وقد قدمنا فى« سورة النور » عن محمد بن عبد الله بن جحش قال : تفاخرت زينب وعائشة، فقالت زينب ، رضى الله عنها (٥) : أنا التى نزل تزويجى من السماء ، وقالت عائشة : أنا التى نزل عُذْرى من السماء ، فاعترفت لها زينب ، رضى الله عنها (٦) .

وقال (٧) ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا جرير ، عن المغيرة ، عن الشعبى قال : كانت زينب تقول للنبى ﷺ : إنى لأدل عليك بثلاث ، ما من نسائك امرأة تدل بهن : إن جدى وجدك واحد ، وإنى أنكحنيك الله من السماء ، وإن السفير جبريل عليه السلام (٨) .

وقوله : ﴿**لِكَيلا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا**﴾ أى : إنما أبحنا لك تزويجها وفعلنا ذلك ؛ لئلا يبقى حرج على المؤمنين فى تزويج مطلقات الأدعياء ، وذلك أن رسول الله ﷺ كان قبل النبوة قد تبنى زيد بن حارثة ، فكان يقال له :« زيد بن محمد » ، فلما قطع الله هذه النسبة بقوله تعالى : ﴿**وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ . ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ**﴾ ، ثم زاد ذلك بياناً وتأكيداً بوقوع تزويج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش لما طلقها زيد بن حارثة ؛ ولهذا قال فى آية التحريم : ﴿**وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ**﴾ [النساء : ٢٣] ليحترز من الابن الدَّعِى ؛ فإن ذلك كان كثيرا فيهم .

وقوله : ﴿**وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً**﴾ أى : وكان هذا الأمر الذى وقع قد قدره الله تعالى وحتَّمه ، وهو كائن لا محالة ، كانت زينب فى علم الله ستصير من أزواج النبى ﷺ .

---

(١) زيادة من ت ، ف ، أ ، والمسند . (٢) فى أ : « سليم » .
(٣) المسند (٣/ ١٩٥) وصحيح مسلم برقم (١٤٢٨) وسنن النسائى (٦/ ٧٩) .
(٤) صحيح البخارى برقم (٧٤٢٠) .
(٥) فى ت : « عنهما » .
(٦) عند الآية : ١١ .
(٧) فى ت : « وروى » .
(٨) تفسير الطبرى (٢٢/ ١١) .

﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا (٣٨) ﴾.

يقول تعالى: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ أى: فيما أحل له وأمره به من تزويج زينب التى طقلها دَعِيه زيد بن حارثة.

وقوله: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ﴾ أى: هذا حكم الله فى الأنبياء قبله، لم يكن ليأمرهم بشىء وعليهم فى ذلك حَرَج، وهذا رَدٌّ على من تَوَهَّم من المنافقين نقصاً فى تزويجه امرأة زيد مولاه ودَعِيه، الذى كان قد تبناه.

﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ أى: وكان أمره الذى يقدره كائناً لا محالة، وواقعاً لا محيد عنه ولا معدل، فما شاء [الله] (١) كان، وما لم يشأ لم يكن.

﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩) مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠) ﴾.

يمدح تعالى (٢): ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾ أى: إلى خلقه ويؤدونها بأمانتها، ﴿وَيَخْشَوْنَهُ﴾ أى: يخافونه ولايخافون أحداً سواه فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالات الله، ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ أى: وكفى بالله ناصراً ومعيناً. وسيد الناس فى هذا المقام ـ بل وفى كل مقام ـ محمد رسول الله ﷺ؛ فإنه قام بأداء الرسالة وإبلاغها إلى أهل المشارق والمغارب، إلى جميع أنواع بنى آدم، وأظهر الله كلمته ودينه وشرعه على جميع الأديان والشرائع، فإنه قد كان النبى يبعث (٣) إلى قومه خاصة، وأما هو، صلوات الله عليه، فإنه بُعث إلى جميع الخلق عَرَبهم وعجمهم، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ثم ورث مقام البلاغ عنه أمته من بعده، فكان أعلى من قام بها بعده أصحابه، رضى الله عنهم، بلغوا عنه كما أمرهم به فى جميع أقواله وأفعاله وأحواله، فى ليله ونهاره، وحَضره وسفره، وسره وعلانيته، فرضى الله عنهم وأرضاهم. ثم ورثه كُل خلف عن سلفهم إلى زماننا هذا، فبنورهم يقتدى المهتدون، وعلى منهجهم يسلك الموفقون. فنسأل الله الكريم المنان أن يجعلنا من خلفهم.

قال (٤) الإمام أحمد: حدثنا ابن نُمَيْر، أخبرنا الأعمش، عن عمرو بن مُرَّة، عن أبى البَخْتَرى، عن أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: « لا يَحْقِرَنَّ أحدكم نفسه أن يرى أمر الله فيه مقال ثم لا (٥) يقوله، فيقول الله: ما يمنعك أن تقول فيه؟ فيقول: رب، خشيت الناس. فيقول: فأنا أحق أن يخشى (٦) ».

---

(١) زيادة من ت.
(٢) فى ت، ف: « يمدح الله تعالى »، وفى أ: « يمدح الله عز وجل ».
(٣) فى ت، ف، أ: « وكان النبى قبله إنما يبعث ».
(٤) فى ت: « روى ».
(٥) فى ت: « أن لا ».
(٦) فى أ: « يخشاه ».

ورواه أيضاً عن عبد الرزاق ، عن الثورى ، عن زبيد ، عن عمرو بن مرة (١) .

ورواه ابن ماجه ، عن أبى كُرَيْب ، عن عبد الله بن نمير وأبى معاوية ، كلاهما عن الأعمش ، به(٢) .

وقوله : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ ، نهى (٣) [تعالى] (٤) أن يقال بعد هذا: « زيد بن محمد » أى : لم يكن أباه وإن كان قد تبناه ، فإنه ، صلوات الله عليه وسلامه ، لم يعش له ولد ذكر حتى بلغ الحلم ؛ فإنه ولد له القاسم ، والطيب ، والطاهر ، من خديجة فماتوا صغارا ، وولد له إبراهيم من مارية القبطية ، فمات أيضا رضيعا (٥) ، وكان له من خديجة أربع بنات : زينب ، ورقية ، وأم كلثوم، وفاطمة ، رضى الله عنهم (٦) أجمعين ، فمات فى حياته ثلاث وتأخرت فاطمة حتى أصيبت به، صلوات الله وسلامه عليه، ثم ماتت بعده لستة أشهر .

وقوله : ﴿ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ ، كقوله : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام : ١٢٤] فهذه الآية نص فى (٧) أنه لا نبى بعده ، وإذا كان لا نبى بعده فلا رسول [بعده] (٨) بطريق الأولى والأحرى ؛ لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة ، فإن كل رسول نبى، ولا ينعكس . وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ من حديث جماعة من الصحابة .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو عامر الأزدى ، حدثنا زُهَيْر بن محمد ، عن عبد الله بن محمد بن عقيل ، عن الطفيل بن أبىّ بن كعب(٩) ، عن أبيه ، عن النبى ﷺ قال : « مثلى فى النبيين كمثل رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها ، وترك فيها موضع لَبِنة لم يَضَعها ، فجعل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه، ويقولون : لو تم موضع هذه اللبنة ! فأنا فى النبيين موضع تلك اللبنة » .

ورواه الترمذى ، عن بُنْدَار ، عن أبى عامر العقدى ، به (١٠) ، وقال : حسن صحيح .

حديث آخر : قال (١١) الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا عبد الواحد بن زياد ، حدثنا المختار بن فُلفُل ، حدثنا أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ : « إن الرسالة والنبوة قد انقطعت ، فلا رسول بعدى ولا نبى » . قال : فشَقّ ذلك على الناس قال: قال(١٢): « ولكن المبشرات » . قالوا : يا رسول الله ، وما المبشرات ؟ قال : « رؤيا الرجل المسلم ، وهى جزء من أجزاء النبوة » .

وهكذا روى الترمذى عن الحسن بن محمد الزعفرانى ، عن عفان بن مسلم، به(١٣). وقال : صحيح غريب من حديث المختار بن فُلفُل .

(١) المسند (٣/ ٣٠ ، ٧٣) .
(٢) سنن ابن ماجة برقم (٤٠٠٨) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ٢٤٢) : « هذا إسناد صحيح » .
(٣) فى أ : « ينهى » . (٤) زيادة من أ . (٥) فى أ : « أيضا صغيرا رضيعا » .
(٦) فى أ : « عنهن » . (٧) فى أ : « على » . (٨) زيادة من أ .
(٩) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده عن أبى بن كعب » .
(١٠) المسند (٥/ ١٣٦) وسنن الترمذى برقم (٣٦١٣) .
(١١) فى ت : « وروى » . (١٢) فى ت ، ف ، أ : « فقال » .
(١٣) المسند (٣/ ٢٦٧) وسنن الترمذى برقم (٢٢٧٢) .

حديث آخر :قال أبو داود الطيالسى :حدثنا سَليم بن حَيَّان ،عن سعيد بن ميناء ،عن جابر بن عبد اللّه قال :قال رسول اللّه ﷺ :« مثلى ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأحسنها إلا موضع لَبِنة،فكان من دخلها فنظر إليها قال:ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة ! فأنا موضع اللبنة،ختم بى الأنبياء ،عليهم السلام » .

ورواه البخارى ،ومسلم ،والترمذى ،من طرق ،عن سليم (١) بن حيان ،به (٢).وقال الترمذى:صحيح غريب من هذا الوجه .

حديث آخر :قال الإمام أحمد:حدثنا أبو معاوية ،حدثنا الأعمش ،عن أبى صالح ،عن أبى سعيد الخدرى ،رضى اللّه عنه ،قال :قال رسول اللّه ﷺ :مثلى ومثل النبيين [من قبلى] (٣) كمثل رَجُل بنى داراً فأتمها إلا لَبنَة واحدة ،فجئت أنا فأتممت تلك اللبنة » .انفرد بإخراجه مسلم من رواية الأعمش، به (٤) .

حديث آخر : قال [الإمام] (٥) أحمد :حدثنا يونس بن محمد ،حدثنا حماد بن زيد ،حدثنا عثمان بن عُبَيد الراسبى قال :سمعت أبا الطفيل قال :قال رسول اللّه ﷺ :« لا نبوة بعدى إلا المبشرات» .قال :قيل:وما المبشرات يا رسول اللّه ؟ قال :« الرؤيا الحسنة ـ أو قال ـ :الرؤيا الصالحة» (٦) .

حديث آخر :قال الإمام أحمد :حدثنا عبد الرزاق ،أخبرنا مَعْمَر ،عن هَمَّام بن مُنَبِّه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة (٧) قال :قال رسول اللّه ﷺ :« إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل ابتنى بيوتا فأحسنها وأكملها وأجملها ،إلا موضع لَبنة من زاوية من زواياها ،فجعل الناس يطوفون ويعجبهم البنيان ويقولون :ألا وَضَعت هاهنا لبنة فيتم بنيانك ؟! » قال رسول اللّه ﷺ : « فكنت أنا اللبنة » .

أخرجاه من حديث عبد الرزاق (٨) .

حديث آخر: عن أبى هريرة أيضا: قال (٩) الإمام مسلم: حدثنا يحيى بن أيوب (١٠) وقتيبة وعلى ابن حجر قالوا: حدثنا إسماعيل بن جعفر ،عن العلاء ، عن أبيه ،عن أبى هريرة ،رضى اللّه عنه ، أن رسول اللّه ﷺ قال :« فُضلت على الأنبياء بست:أعْطيتُ جوامع الكلم ،ونُصِرْتُ بالرعب،وأحِلَّت لى الغنائم ، وجعلت لى الأرض طهورا ومسجدا ،وأرسلت إلى الخلق كافة ،وختم بى النبيون » .

---

(١) فى ف : « سليمان » .

(٢) مسند الطيالسى برقم (١٧٨٥) وصحيح البخارى برقم (٣٥٣٤) وصحيح مسلم برقم (٢٢٨٧) وسنن الترمذى برقم (٢٨٦٢) .

(٣) زيادة من ت ، أ ،والمسند .

(٤) المسند (٣/ ٩) وصحيح مسلم برقم (٢٢٨٦) .

(٥) زيادة من أ .

(٦) المسند (٥/ ٤٥٤) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١٧٣) :« ورجاله ثقات » .

(٧) فى ت : « وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة ،رضى اللّه عنه » .

(٨) المسند (٢/ ٣١٢) وصحيح مسلم برقم (٢٢٨٦) ولم أجده فى البخارى ولم يعزه المزى فى تحفة الأشراف إلا لمسلم .

(٩) فى ت : « وروى » . (١٠) فى أ : « يعقوب » .

ورواه الترمذى وابن ماجه ،من حديث إسماعيل بن جعفر ،وقال الترمذى :حسن صحيح[١].

حديث آخر :قال الإمام أحمد:حدثنا أبو معاوية ،حدثنا الأعمش،عن أبى صالح ،عن أبى سعيد الخدرى قال :قال رسول الله ﷺ :« مثلى ومثل الأنبياء من قبلى ،كمثل رجل بنى داراً فأتمها إلا موضع لبنة واحدة ،فجئت أنا فأتممت تلك اللبنة » .

ورواه مسلم عن أبى بكر بن أبى شيبة ،وأبى كُرَيْب ، كلاهما عن أبى معاوية ،به [٢] .

حديث آخر :قال [٣] الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدى ،حدثنا معاوية بن صالح عن سعيد بن سُويد الكلبى ،عن عبد الأعلى بنِ هلال السلمى ،عن العِرْباض بن سارية قال :قال النبى ﷺ : « إنى عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لمنْجَدِل فى طينته » [٤] .

حديث آخر : قال [٥] الزهرى :أخبرنى محمد بن جبير بن مطعم ،عن أبيه ،رضى الله عنه، قال:سمعت رسول الله ﷺ يقول :« إن لى أسماء :أنا محمد ،وأنا أحمد ،وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر ،وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى ،وأنا العاقب الذى ليس بعده [٦] نبى».أخرجاه فى الصحيحين [٧] .

وقال[٨] الإمـام أحمد : حدثنا يحيى بن إسحاق ،حدثنا ابن لَهيعة ،عن عبد الله بن هُبَيْرة ،عن عبد الرحمن بن جبير قال :سمعت عبد الله بن عمرو يقول :خرج علينا رسول الله ﷺ يوما كالمودّع، فقال :« أنا محمد النبى الأمى ـ ثلاثا ـ ولا نبى بعدى :أوتيت فواتح الكلم وجوامعه وخواتمه ، وعلمت كم خزنة النار وحملة العرش ،وتجوز بى ،وعُوفيتُ وعُوفيت [٩] أمتى ؛فاسمعوا وأطيعوا مادمت فيكم ،فإذا ذُهب بى فعليكم بكتاب الله ،أحلّوا حلاله ، وحرّموا حرامه » .تفرد به الإمام أحمد [١٠] .

ورواه [١١] [الإمام] [١٢] أحمد أيضا عن يحيى بن إسحاق ،عن ابن لَهيعة ،عن عبد الله بن هبيرة،عن عبد الله بن مريج [١٣] الخولانى ،عن أبى قيس ـ مولى عمرو بن العاص ـ عن عبد الله بن عمرو فذكر مثله سواء [١٤] [١٥] .

والأحاديث فى هذا كثيرة ،فمن رحمة الله تعالى بالعباد إرسال محمد ،صلوات الله وسلامه عليه،إليهم ،ثم من تشريفه له ختم الأنبياء والمرسلين به ،وإكمال الدين الحنيف له .وقد أخبر تعالى فى كتابه ،ورسوله فى السنة المتواترة عنه :أنه لا نبى بعده ؛ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده

---

(١) صحيح مسلم برقم (٥٢٣) وسنن الترمذى برقم (١٥٥٣) وسنن ابن ماجة برقم (٥٦٧) .
(٢) تقدم الحديث من قريب .
(٣) فى ت : « وروى » .
(٤) المسند (١٢٧/٤) .
(٥) فى ت :« وقال » . (٦) فى أ : « بعدى » .
(٧) صحيح البخارى برقم (٣٥٣٢) وصحيح مسلم برقم (٢٣٥٤) .
(٨) فى ت : « وروى » . (٩) فى ت : « وعرفت » .
(١٠) المسند (١٢/٢) وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف .
(١١) فى ف : « وحدثنى » . (١٢) زيادة من ف ، أ . (١٣) فى أ : « سريح » .
(١٤) فى أ : « سواه » .
(١٥) المسند (١٧٢/٢) وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف .

فهو كذاب أفاك، دجال ضال مضل، ولو تخرق (١) وشعبذ، وأتى بأنواع السحر والطلاسم والنَيرجيَّات(٢)، فكلها محال وضلال عند أولى الألباب، كما أجرى الله، سبحانه وتعالى، على يد الأسود العَنْسى باليمن، ومسيلمة الكذاب باليمامة، من الأحوال الفاسدة والأقوال الباردة، ما علم كل ذى لب وفهم وحجًى أنهما كاذبان ضالان، لعنهما الله. وكذلك كل مدع لذلك إلى يوم القيامة حتى يختموا بالمسيح الدجال، [فكل واحد من هؤلاء الكذابين] (٣) يخلق الله معه من الأمور ما يشهد العلماء والمؤمنون بكذب من (٤) جاء بها. وهذا من تمام لطف الله تعالى بخلقه، فإنهم بضرورة الواقع لا يأمرون بمعروف ولا ينهون عن منكر إلا على سبيل الاتفاق، أو لما لهم فيه من المقاصد إلى غيره، ويكون فى غاية الإفك والفجور فى أقوالهم وأفعالم، كما قال تعالى: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ الآية [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢]. وهذا بخلاف الأنبياء، عليهم السلام، فإنهم فى غاية البر والصدق (٥) والرشد والاستقامة [والعدل] (٦) فيما يقولونه ويفعلونه ويأمرون به وينهون عنه، مع ما يؤيدون به من الخوارق للعادات، والأدلة الواضحات، والبراهين الباهرات، فصلوات الله وسلامه عليهم دائما مستمراً ما دامت الأرض والسموات.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا (٤٤) ﴾.

يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين بكثرة ذكرهم لربهم تعالى، المنعم عليهم بأنواع النعم وأصناف (٧) المنن، لما لهم فى ذلك من جزيل الثواب، وجميل المآب.

قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، عن عبد الله بن سعيد (٨)، حدثنى مولى ابن عياش(٩) عن أبى بَحرية (١٠)، عن أبى الدرداء، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها فى درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والوَرِق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم؟» قالوا: وما هو يا رسول الله؟ قال: «ذكر الله، عزوجل».

وهكذا رواه الترمذى وابن ماجه، من حديث عبد الله بن سعيد بن أبى هند، عن زياد ـ مولى ابن عياش (١١) ـ عن أبى بَحريَّة ـ واسمه عبد الله بن قيس التراغمى ـ عن أبى الدرداء، به (١٢). قال الترمذى: ورواه بعضهم عنه فأرسله.

---

(١) فى أ: «تمخرق». (٢) فى أ: «النيرنجيات». (٣) زيادة من أ.
(٤) فى أ: «ما». (٥) فى أ: «الصدقة». (٦) زيادة من أ.
(٧) فى أ: «وصنوف». (٨) فى أ: «سعد». (٩) فى أ: «عباس».
(١٠) فى أ: «عن أبى عزة». (١١) فى أ: «عباس».
(١٢) المسند (٥/ ١٩٥) وسنن الترمذى برقم (٣٣٧٧) وسنن ابن ماجة برقم (٣٧٩٠).

قلت: وقد تقدم هذا الحديث عند قوله تعالى: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ فى مسند [الإمام] (١) أحمد، من حديث زياد بن أبى زياد مولى عبد الله بن عيّاش: أنه بلغه عن معاذ بن جبل، عن رسول الله ﷺ، بنحوه، فالله أعلم.

وقال (٢) الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا فرج بن فَضَالة، عن أبى سعد الحِمْصى قال: سمعت أبا هريرة يقول: دعاء سمعته من رسول الله ﷺ لا أدعه: « اللهم، اجعلنى أعظِم شكرك، وأتبع نصيحتك، وأكثر ذكرك، وأحفظ وصيتك » (٣).

ورواه الترمذى عن يحيى بن موسى، عن وكيع، عن أبى فضالة الفرج بن فضالة، عن أبى سعيد الحمصى، عن أبى هريرة، فذكر مثله وقال: غريب (٤).

وهكذا رواه الإمام أحمد أيضاً عن أبى النضر هاشم بن القاسم، عن فرج بن فضالة، عن أبى سعيد المدنى (٥) عن أبى هريرة فذكره (٦).

وقال (٧) الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مَهْدى، عن معاوية بن صالح، عن عمرو بن قيس قال: سمعت عبد الله بن بُسْر يقول: جاء أعرابيان إلى رسول الله ﷺ، فقال أحدهما: يا رسول الله، أىّ الناس خير؟ قال: « من طال عمره وحسن عمله ». وقال الآخر: يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثرت علينا (٨)، فمرنى بأمر أتشبث به. قال: « لا يزال لسانك رَطْباً بذكر الله » (٩).

وروى الترمذى وابن ماجه [منه] (١٠) الفصل الثانى، من حديث معاوية بن صالح، به (١١). وقال الترمذى: حسن غريب.

وقال (١٢) الإمام أحمد: حدثنا سُرَيج (١٣)، حدثنا ابن وهب، عن عمرو بن الحارث قال: إنّ درّاجا أبا السمح حدثه، عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد الخدرى؛ أن رسول الله ﷺ قال: « أكثروا ذكر الله حتى يقولوا: مجنون » (١٤).

وقال الطبرانى: حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثنا عقبة بن مُكرم العَمِّى، حدثنا سعيد بن سفيان (١٥) الجَحْدَرى، حدثنا الحسن بن أبى جعفر، عن عقبة بن أبى ثُبَيت (١٦) الراسبى، عن أبى الجوزاء، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: « اذكروا الله ذكراً كثيراً [حتى] (١٧) يقول

---

(١) زيادة من أ.
(٢) فى ت: « وروى ».
(٣) المسند (٢/٤٧٧).
(٤) سنن الترمذى برقم (٣٦٠٤).
(٥) فى أ: « المزنى ».
(٦) المسند (٢/٣١١).
(٧) فى ت: « وروى ».
(٨) فى ت: « علىَّ ».
(٩) المسند (٤/١٩٠).
(١٠) زيادة من ف، أ.
(١١) سنن الترمذى برقم (٣٣٧٥) وسنن ابن ماجة برقم (٣٧٩٣).
(١٢) فى ت: « وروى ».
(١٣) فى أ: « شريح ».
(١٤) المسند (٣/٦٨) وفيه دراج، عن أبى الهيثم ضعيف.
(١٥) فى أ: « سفر ».
(١٦) فى أ: « سبب ».
(١٧) زيادة من ت، ف، أ، والمعجم.

المنافقون: تراؤون » (١) .

وقال (٢) الإمام أحمد : حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم ،حدثنا شداد أبو طلحة الراسبى،سمعت أبا الوازع جابر بن عمرو يحدث عن عبد اللّه بن عمرو قال :قال رسول اللّه ﷺ :« ما من قوم جلسوا مجلسا لم يذكروا اللّه فيه ،إلا رأوه حسرة يوم القيامة » (٣) .

وقال على بن أبى طلحة ،عن ابن عباس فى قوله تعالى :﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾: إن اللّه لم يفرض [على عباده] (٤) فريضة إلا [جعل لها حدا معلوما ،ثم] (٥) عذر أهلها فى حال عذر،غير الذكر ،فإن اللّه لم يجعل له حداً ينتهى إليه ،ولم يعذر أحداً فى تركه ،إلا مغلوبا على تركه،فقال : ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء :١٠٣]،بالليل والنهار ،[فى البر والبحر](٦)،وفى السفر والحضر،والغنى والفقر ،والصحة والسقم ،والسر والعلانية ،وعلى كل حال ،وقال:﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾،فإذا فعلتم ذلك صلى عليكم هو وملائكته .

والأحاديث والآيات والآثار فى الحث على ذكر اللّه كثيرة جدا ،وفى هذه الآية الكريمة الحث على الإكثار (٧) من ذلك .

وقد صنف الناس فى الأذكار المتعلقة بآناء الليل والنهار كالنسائى والمعمرى وغيرهما (٨) ، ومن أحسن الكتب المؤلفة فى ذلك كتاب الأذكار للشيخ محيى الدين النووى،رحمه اللّه تعالى (٩) .

---

(١) المعجم الكبير للطبرانى (١٢/ ١٦٩) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٧٦) :« فيه الحسين بن أبى جعفر الجعفرى وهو ضعيف » .
(٢) فى أ : « زاده » .
(٣) المسند (٢/ ٢٢٤) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٨٠) :«رجاله رجال الصحيح » .
(٤ ـ ٦) زيادة من ت ، ف ، أ .
(٧) فى أ : « الإكثار » .
(٨) فى ت : « والمعمرى والكلم الطيب لشيخ الإسلام وغيرهم » .
(٩) وقد طبع كتاب الأذكار بتحقيق الشيخ عبد القادر الأرناؤوط فى دار الهدى وعليه تخريج لابن علان اسمه :« الفتوحات الربانية » طبع فى الهند .
هذا وقد جاء فى نسخة « ت » بعد هذه الفقرة ما يلى :
« فذكر اللّه أصل موالاة اللّه ، عز وجل ، ورأسها. والغفلة أصل معاداته ورأسها ،فإن العبد لايزال يذكر ربه حتى يحبه فيواليه،ولا يزال يغفل عنه حتى يبغضه ويعاديه .قال اللّه تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ وما استجلبت نعم اللّه تعالى واستدفعت نقمة بمثل ذكر الله ،فالذكر جلاب النعم دفاع النقم .قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وفى القراءة الأخرى :﴿ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فدفعه ودفاعه عنهم بحسب قوة إيمانهم وكماله ومادة الإيمان وقوته بذكر اللّه،فمن كان أكمل إيماناً وأكثر ذكراً كان دفاع اللّه عنه ،ودفعه أعظم .ومن نقص نقص ذكر بذكر ونسيان بنسيان ،وقال تعالى : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ والذكر رأس الشكر ،والشكر جلاب النعم ،موجب للمزيد .قال بعض السلف :ما أقبح الغفلة عن ذكر من لا يغفل عن برك .ومجالس الذكر رياض الجنة كما روى ابن أبى الدنيا من حديث جابر،عن عبد اللّه قال :خرج علينا رسول اللّه ﷺ،فقال : « يأيها الناس ارتعوا فى رياض الجنة » قلنا يا رسول اللّه :وما رياض الجنة ؟ قال : «مجالس الذكر » ، ثم قال:« اغدوا وروحوا فاذكروا فمن كان يحب أن يعلم منزلته عند اللّه ،فلينظر كيف منزلة اللّه عنده ،فإن اللّه ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه » .فمجالس الذكر مجالس الملائكة كما فى الصحيحين عن أبى هريرة ،رضى اللّه عنه ،قال: قال رسول اللّه ﷺ :« إن لله ملائكة فَضْلاً عن كتاب الناس يطوفون فى الطريق يلتمسون أهل الذكر ،فإذا وجدوا قوماً يذكرون اللّه تنادوا هلم إلى حاجتكم،فتحف بأجنحتها إلى السماء الدنيا ، فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم :ما يقول عبادى ؟قال: يقولون:يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك قال: وهل رأونى ؟قال : يقولون : لا واللّه يا ربنا ما رأوك ،فيقول :كيف لو أنهم رأونى؟ قال: فيقولون : لو أنهم رأوك
=

= كانوا أشد عبادة وأشد تحميدا وتمجيداً ، وأكثر تسبيحا ، فيقول : ما يسألونى ؟ فيقولون : يسألونك الجنة ، فيقول : وهل رأوها ؟ فيقولون : لا والله ياربنا ما رأوها ، فيقول : كيف لو رأوها ؟ فيقولون : لو رأوها كانوا أشد حرصاً عليها ، وأشد لها طلباً، وأعظم فيها رغبة ، فيقول: مم يتعوذون ؟ قال : فيقولون : من النار ، فيقول : هل رأوها ؟ فيقولون: لا والله ياربنا ما رأوها، فيقول : كيف لو رأوها؟ فيقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فراراً وأشد لها مخافة، فيقول : فأشهدكم أنى قد غفرت لهم ، فيقول ملك من الملائكة : إن فيهم فلاناً ليس منهم ، إنما جاء لحاجة . قال : هم القوم لا يشقى بهم جليسهم » ، فهذا من بركتهم على نفوسهم وعلى جليسهم، فلهم نصيب من قوله: ﴿وجعلني مباركا أينما كنت﴾ [مريم : ٣١]، وإن الله ، عزوجل، ليباهى بالذاكرين الملائكة ، كما روى مسلم فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى قال: خرج معاوية على حلقة فى المسجد، فقال : ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله . قال : ما أجلسكم إلا ذلك؟ قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذلك . قال: أما إنى لم أسألكم تهمة لكم ، وما كان أحد بمنزلتى من رسول الله ﷺ أقل عنه حديثاً منى، وإن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه . قالوا : جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ، ومَنّ علينا بك . قال: «آلله ما أجلسكم إلا ذلك ؟ » قالوا : آلله ما أجلسنا إلا ذلك ؟ قال : « أما إنى لم أستحلفكم تهمة لكم ، ولكن أتانى جبريل فأخبرنى أن الله يباهى بكم الملائكة » فهذه المباهاة من الرب تبارك وتعالى ، دليل على شرف الذكر عنده ومحبته له وأن له مزية على غيره من الأعمال .

والذكر نوعان : أحدهما : ذكر أسماء الرب وصفاته والثناء عليه ، وتنزيهه وتقديسه عما لا يليق به وهذا أيضاً نوعان : أحدهما : إنشاء الثناء بها من الذاكر ، وهذا النوع هو المذكور فى الحديث نحو : سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله والله أكبر ، وسبحان الله وبحمده ، ولا إله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، ونحو ذلك ، فأفضل هذا النوع أجمعه للثناء وأعمه نحو : سبحان الله عدد خلقه ، فهذا أفضل من مجرد سبحان الله ، وقول : الحمد لله عدد ما خلق فى السماء ، وعدد ما خلق فى الأرض ، وعدد ما خلق بينهما ، وعدد ما هو خالق ، أفضل من مجرد قولك : الحمد لله ، وهذا فى حديث جويرية أن النبى ﷺ قال لها : « لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم ، لوزنتهن : سبحان الله عدد خلقه، سبحان الله رضا نفسه ، سبحان الله زنة عرشه ، سبحان الله مداد كلماته » . رواه مسلم. وفى الترمذى وسنن أبى داود عن سعد بن أبى وقاص أنه دخل مع رسول الله ﷺ على امرأة بين يديها نوى أو حصى تسبح به ، فقال : « أخبرك بما هو أيسر عليك من هذا وأفضل ؟ » فقال: سبحان الله عدد ما خلق فى السماء ، وسبحان الله عدد ما خلق فى الأرض ، وسبحان الله عدد ما بين ذلك، وسبحان الله عدد ما هو خالق ، والله أكبر مثل ذلك ، ولا إله إلا الله مثل ذلك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله مثل ذلك » .

والنوع الثانى : الخبر عن الرب تبارك وتعالى بأحكام أسمائه وصفاته نحو قولك : إن الله ، عزوجل ، يسمع أصوات عباده ، ويرى حركاتهم ، ولا يخفى عليه خافية من أعمالهم ، وهو أرحم من آبائهم وأمهاتهم ، وهو على كل شيء قدير ، وهو أفرح بتوبة عبده من الفاقد الواجد ونحو ذلك . وأفضل هذا النوع الثناء عليه بما أثنى به على نفسه ، وبما أثنى عليه رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تشبيه ولا تمثيل كما قال : ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ ، وهذا النوع أيضاً ثلاثة أنواع : حمد ، وثناء، ومجد .

فالحمد: الإخبار عنه بصفات كماله مع محبته والرضا عنه ، ولايكون المحب الساكت حامداً ، ولا المثنى بلا محبة حامداً ، حتى يجمع له المحبة والثناء ، فإن كرر المحامد شيئا بعد شيء ، كانت ثناء ، فإن كان المدح بصفات الجلال والعظمة والكبرياء والملك كان مجداً. قد جمع الله تعالى لعبده الأنواع الثلاثة فى أول سورة فاتحة الكتاب ، فإذا قال العبد: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ قال الله : حمدنى عبدى، وإذا قال : ﴿الرحمن الرحيم﴾ ، قال: أثنى على عبدى . وإذا قال: ﴿مالك يوم الدين﴾ قال: مجدنى عبدى .

والنوع الثانى من الذكر: ذكر أمره ونهيه وأحكامه ، وهذا أيضاً نوعان : أحدهما : ذكره بذلك إخباراً عنه بأنه أمر بكذا ونهى عن كذا وأحب كذا وسخط كذا ، والثانى : ذكره عند أمره فيبادر إليه ، وعند نهيه فيهرب منه ، فذكر أمره ونهيه شيء ، وذكره عند أمره ونهيه شيء آخر ، فإذا اجتمعت هذه الأنواع للذاكر ، فذكره أفضل الذكر وأجله وأعظمه .

فائدة :

فهذا ذكره هو الفقه الأكبر ، وما دونه من أفضل الذكر إذا صحت فيه النية ، ومن ذكره تعالى ذكر آلائه وإنعامه وإحسانه وأياديه ومواقع فضله على عبيده ، وهذا من أجل أنواع الذكر ، فهذه خمسة أنواع ، وهى تكون بالقلب واللسان ، وإنما كان ذكر القلب وحده أفضل من ذكر اللسان ؛ لأن ذكر القلب يثمر المعرفة ، ويصح المحبة ، ويثير الحياء ، ويبعث على المخافة ، ويدعو إلى المراقبة ، ويردع عن التقصير فى الطاعة والتهاون فى المعاصى والسيئات ، وذكر اللسان وحده لا يوجب شيئا ما من تلك الأثمار ، وإن أثمر شيئا ما، فثمرته ضعيفة .

والذكر أفضل من الدعاء؛ لأن الذكر ثناء على الله ، عزوجل، بجميل صفاته وآلائه وأسمائه ، والدعاء سؤال العبد حاجته ، فأين هذا من هذا ؟ ولهذا جاء فى الحديث : « من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » . ولهذا كان مستحبًا فى الدعاء أن يبدأ الداعى بحمد الله والثناء عليه بين يدى حاجته، ثم يسأل حاجته كما جاء فى حديث فضالة بن عبيد أن رسول الله ﷺ =

= سمع رجلاً يدعو فى صلاته لم يحمد الله ولم يصل على النبى ﷺ ،فقال رسول الله ﷺ :« لقد عجل هذا » ،ثم دعاه فقال له أو لغيره : «إذا صلى أحدكم ،فليبدأ بتحميد ربه والثناء عليه ،ثم يصلى على النبى ﷺ ،ثم يدعو بما شاء » .رواه الإمام أحمد والترمذى، وقال: حديث حسن صحيح .وهكذا دعا ذو النون الذى قال فيه النبى ﷺ :« دعوة أخى ذى النون ما دعا بها مكروب إلا فرج الله كربه: لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين » وفى الترمذى :« دعوة أخى ذى النون إذ دعا بها فى بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ، فإنه لم يدع بها مسلم فى شىء قط إلا استجاب الله له » .وهكذا عامة الأدعية النبوية ،ومنه قول النبى ﷺ فى دعاء الكرب :« لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات السبع ورب الأرض ورب العرش الكريم». ومنه حديث بريدة الأسلمى ،رواه أهل السنن أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يدعو وهو يقول :اللهم أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله الذى لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ،ولم يكن له كفواً أحد ،فقال :« والذى نفسى بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى » .وروى أبو داود والنسائى من حديث أنس أنه كان مع النبى ﷺ جالساً ورجل يصلى ثم دعا :اللهم أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت بديع السموات والأرض ياذا الجلال والإكرام يا حى يا قيوم فقال النبى ﷺ: « لقد دعا الله باسمه العظيم الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى » وروى أبو داود والنسائى من حديث أنس، فأخبر النبى ﷺ أن الدعاء يستجاب إذا تقدمه هذا الثناء والذكر ،وأنه اسم الله الأعظم ،فكان ذكر الله والثناء عليه أنجح ما سأل به حوائجه ،فهذا من فوائد الذكر، وهو أنه يجعل الدعاء مستجابا فلهذا قال تعالى :﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا . وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً** ﴾ فالدعاء الذى يتقدمه الذكر والثناء أقرب إلى الإجابة من الدعاء المجرد ،فإن انضاف إلى ذلك إخبار العبد بحاله ومسكنته وافتقاره واعترافه ،كان أبلغ فى الإجابة وأفضل .فإنه يكون قد توسل إلى المدعو بصفات كماله وإحسانه وفضله، وعرض ، بل صرح ، بشدة حالته وضرورته وفقره ومسكنته ،فهذا المقتضى منه وأوصاف المسؤول مقتضى منه، فاجتمع المقتضى من السائل والمقتضى من المسؤول فى الدعاء ،فكان أبلغ وألطف موقعاً وأتم معرفة وعبودية ،وأنت ترى فى الشاهد ولله المثل الأعلى أن الرجل إذا توسل إلى من يريد معروفه بكرمه وجوده وبره ،وذكر حاجته هو وفقره ومسكنته ، كان أعطف لقلب المسؤول، وأقرب إلى قضاء حاجته من أن يقول له ابتداء أعطنى كذا وكذا ،فإذا عرف هذا فتأمل قول موسى ،عليه السلام: ﴿ **رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ** ﴾ وقول ذى النون فى دعائه: ﴿ **لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾ وقول أبينا آدم :﴿ **رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ وفى الصحيحين أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه؛ قال يا رسول الله ، علمنى دعاء أدعو به فى صلاتى فقال :«قل اللهم إنى ظلمت نفسى ظلما كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم » فجمع فى هذا الدعاء الشريف العظيم القدر بين الاعتراف بحاله ،والتوسل إلى ربه بفضله وجوده، وأنه المتفرد بغفران الذنوب ثم سأل حاجته بعد التوسل بالأمرين معا فهكذا آداب الدعاء والعبودية .

وقراءة القرآن أفضل الأذكار وهى أفضل من الذكر ،والذكر أفضل من الدعاء ،وهذا من حيث النظر إلى كل واحد منهما مجرداً، وقد تعرض للمفضول ما يجعله أولى من الفاضل ،بل تعينه فلا يجوز أن يعدل عنه إلى الفاضل ،وهذا كالتسبيح فى الركوع والسجود ،فإنه أفضل من قراءة القرآن ،وكذلك التشهد ،وكذلك رب اغفر لى بين السجدتين ،وقول رب اغفر لى وارحمنى واهدنى وعافنى وارزقنى بين السجدتين أفضل من القراءة . وكذلك الذكر عقيب السلام من الصلاة ،ذكر التهليل والتسبيح والتكبير والتحميد أفضل من الاشتغال عنه بالقراءة .وكذلك إجابة المؤذن ،والقول كما يقول ،أفضل من القراءة ،وإن كان فضل القرآن على كل كلام كفضل الله على خلقه ، لكن لكل مقام مقال ،متى فات مقاله فيه وعدل عنه إلى غيره ،واختلت الحكمة ،وفقدت المصلحة المطلوبة منه ،وهكذا الأذكار المفيدة بمحال مخصوصة أفضل من القراءة المطلقة اللّهم إلا أن يعرض للعبد ما يجعل الذكر أو الدعاء أنفع له من قراءة القرآن ،مثاله أن يحدث له من التفكر فى ذنوبه فيحصل له توبة واستغفار أو يحصل له ما يخاف أذاه من شياطين الإنس والجن، فيعدل إلى الأذكار والدعوات التى تحصنه وتحوطه ،وكذلك أيضاً قد يعرض للعبد حاجة ضرورية إذا اشتغل عن سؤالها بقراءة القرآن ، لم يحضر قلبه فيها. وإذا أقبل على الذكر والدعاء إليها اجتمع قلبه كله على الله ،وأحدث له تضرعاً وخشوعاً وابتهالاً ،فهذا قد يكون اشتغاله بالدعاء والحالة هذه أنفع له ،وإن كان كل من القراءة والذكر أفضل وأكثر أجراً ،وهذا باب نافع يحتاج إلى فقه نص وفرقان بين فضيلة الشىء فى نفسه وبين فضيلته العارضة ،فيعطى كل ذى حق حقه ويضع كل شىء موضعه ،فللعين موضع ،وللرجل موضع ،وللماء موضع ،وللحم موضع ،وحفظ المراتب هو من تمام الحكمة التى هى نظام الأمر والنهى ،والله الموفق .

وهكذا الصابون والأشنان أنفع للثوب فى وقت ،والتحمير وماء الورد أنفع له فى وقت .وقلت لشيخ الإسلام ابن تيمية ،رحمه الله ، يوماً : سئل بعض أهل العلم: أيما أنفع للعبد التسبيح أو الاستغفار ؟ فقال: إذا كان الثوب نقيا فالبخور وماء الورد نافع له ، وإن كان دنساً فالصابون والماء الجارى أنفع له فقال : كيف والثياب لا تزال دنسة ؟

ومن هذا الباب أن سورة ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ** ﴾ تعدل ثلث القرآن ،ومع هذا فلا تقوم مقام آيات المواريث والطلاق والخلع والعدد ونحوها، بل هذه الآيات فى وقتها ،وعند الحاجة إليها أنفع من تلاوة سورة الإخلاص .ولما كانت الصلاة مشتملة على القراءة والذكر=

وقوله: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي: عند الصباح والمساء، كقوله: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ . وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧، ١٨].

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾: هذا تهييج إلى الذكر، أي: إنه سبحانه يذكركم فاذكروه أنتم، كقوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ . فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥١، ١٥٢]. وقال النبى ﷺ: «يقول الله: من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم» (١).

والصلاة من الله ثناؤه على العبد عند الملائكة، حكاه البخارى عن أبى العالية. ورواه أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عنه.

وقال غيره: الصلاة من الله: الرحمة [ورد بقوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾](٢).

وقد يقال: لا منافاة بين القولين والله أعلم.

وأما الصلاة من الملائكة، فبمعنى الدعاء للناس والاستغفار (٣)، كقوله: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ . رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ الآية [غافر: ٧ ـ ٩].

وقوله: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أى: بسبب رحمته بكم وثنائه عليكم، ودعاء ملائكته لكم، يخرجكم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى واليقين. ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ أى: فى الدنيا والآخرة، أما فى الدنيا: فإنه هداهم إلى الحق الذى جَهله غيرهم، وبَصَّرهم الطريق الذى ضَل عنه وحاد عنه من سواهم من الدعاة إلى الكفر أو البدعة وأشياعهم (٤) من الطغام (٥). وأما رحمته بهم فى الآخرة: فآمنهم من الفزع الأكبر، وأمر ملائكته يتلقونهم بالبشارة بالفوز بالجنة والنجاة من النار، وما ذاك إلا لمحبته لهم ورأفته بهم.

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبى عدى، عن حميد، عن أنس، رضى الله عنه، قال: مر رسول الله ﷺ فى نفر من أصحابه وصبى فى الطريق، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يُوطَأ، فأقبلت تسعى وتقول: ابنى، ابنى، وسَعَت فأخذته، فقال القوم: يا رسول الله، ما كانت

= والدعاء، وهى جامعة لأجزاء العبودية على أتم الوجوه، فكانت أفضل من كل القراءة والذكر والدعاء بمفرده بجمعها ذلك كله مع عبودية سائر الأعضاء فهذا أصل نافع جداً للعبد يفتح للعبد باب معرفة مراتب الأعمال وينزلها منازلها لئلا يشتغل بمفضولها عن فاضلها فيربح عليه إبليس الفضل الذى بينهما أو ينظر إلى فاضلها فيشتغل عن مفضولها، وإن كان ذلك وقته فتفوته مصلحته بالكلية لظنه أن اشتغاله به أكثر ثواباً وأعظم أجراً» ا. هـ.

(١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧٤٠٥) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٦٧٥) من حديث أبى هريرة، رضى الله عنه.

(٢) زيادة من ت. (٣) فى ت: «والاستغفار إليهم». (٤) فى ت، أ: «وأتباعهم».

(٥) فى أ: «الطغاة».

هذه لتلقى ابنها فى النار . قال : فَخَفَّضهم رسول الله ﷺ وقال: « ولا الله (١) ، لا يلقى حبيبه فى النار».

إسناده على شرط الصحيحين ، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة (٢) ، ولكن فى صحيح الإمام البخارى ، عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبى قد أخذت صبيا لها ، فألصقته إلى صدرها ، وأرضعته فقال: « أترون هذه تلقى ولدها فى النار وهى تقدر على ذلك ؟ » قالوا : لا . قال : « فوالله ، لله أرحم بعباده من هذه بولدها » (٣) .

وقوله : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ ﴾: الظاهر أن المراد ـ والله أعلم ـ ﴿ تَحِيَّتُهُم ﴾ أى : من الله تعالى يوم يلقونه ﴿ سَلامٌ ﴾ أى: يوم يسلم عليهم كما قال تعالى : ﴿ سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس :٥٨] .

وزعم قتادة أن المراد أنهم يحيى (٤) بعضهم بعضا بالسلام ، يوم يلقون الله فى الدار الآخرة. واختاره ابن جرير .

قلت : وقد يستدل بقوله (٥) تعالى : ﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [يونس : ١٠] .

وقوله : ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا (٦) ﴾ يعنى : الجنة وما فيها من المآكل والمشارب ، والملابس والمساكن، والمناكح والملاذ والمناظر وما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيرًا (٤٧) وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (٤٨) ﴾ .

قال الإمام أحمد : حدثنا موسى بن داود ، حدثنا فُلَيْح بن سليمان ، عن هلال بن على (٧) ، عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت : أخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ فى التوراة . قال : أجل ، والله إنه لموصوف فى التوراة بصفته فى القرآن : « ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ وحرزا للأميين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، لست بفظ (٨) ولا غليظ ولا سخاب فى الأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويغفر (٩)، ولن يقبضَه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن لا إله إلا الله ، فيفتح به أعينا عميا ، وآذانا صما ، وقلوبا غلفا » .

---

(١) فى أ : « لا والله » .
(٢) المسند (٣/ ١٠٤) .
(٣) صحيح البخارى برقم (٥٩٩٩) .
(٤) فى ت : « يحيون » .
(٥) فى ت ، ف ، أ : « وقد يستدل له بقوله » .
(٦) فى ت : « عظيما » وهو خطأ
(٧) فى ت : « روى الإمام أحمد بإسناده » .
(٨) فى ت : « لا بفظ » ، وفى أ : « لا فظ » .
(٩) فى ف : « يعفو ويصفح ويغفر » .

وقد رواه البخارى فى « البيوع » عن محمد بن سِنان، عن فُلَيْح بن سليمان، عن هلال بن على به. ورواه فى التفسير عن عبد الله ـ قيل: ابن رجاء، وقيل: ابن صالح ـ عن عبد العزيز بن أبى سلمة، عن هلال، عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن عمرو، به (١). ورواه ابن أبى حاتم، عن أبيه، عن عبد الله بن رجاء، عن عبد العزيز بن أبى سلمة الماجشون، به.

وقال البخارى فى البيوع: وقال سعيد، عن هلال، عن عطاء، عن عبد الله بن سلام.

وقال وهب بن منبه: إن الله أوحى إلى نبى من أنبياء بنى إسرائيل ـ يقال له: شعياء ـ: أن قم فى قومك بنى إسرائيل، فإنى منطق لسانك بوحى وأبعث أميا من الأميين، أبعثه [مبشرًا] (٢) ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب فى الأسواق، لو يمر إلى جنب سراج لم يطفئه، من سكينته، ولو يمشى على القصب لم يسمع من تحت قدميه، أبعثه مبشرا ونذيرا، لا يقول الخنا، أفتح به أعينا كُمْهًا (٣)، وآذانا صما، وقلوبا غلفا، أسَدّده لكل أمر جميل، وأهب له كل خلق كريم، وأجعل السكينة لباسه، والبر شعاره، والتقوى ضميره، والحكمة منطقه، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والحق شريعته، والعدل سيرته، والهدى إمامه، والإسلام ملته، وأحمد اسمه، أهدى به بعد الضلالة، وأعلم به بعد الجهالة، وأرفع به بعد الخَمَالة، وأعرف به بعد النُّكْرَة، وأكثر به بعد القلة، وأغنى به بعد العَيْلَة، وأجمع به بعد الفرقة، وأؤلف به بين أمم متفرقة، وقلوب مختلفة، وأهواء متشتتة، وأستنقذ به فئَاماً من الناس عظيمة (٤) من الهلكة، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، موحدين مؤمنين مخلصين، مصدقين لما جاءت به رسلى(٥): ألهمهم التسبيح والتحميد، والثناء والتكبير والتوحيد، فى مساجدهم ومجالسهم، ومضاجعهم ومنقلبهم ومثواهم، يصلون لى قياما وقعودا، ويقاتلون فى سبيل الله (٦) صفوفا وزُحوفا، ويخرجون من ديارهم ابتغاء مرضاتى ألوفا، يطهرون الوجوه والأطراف، ويشدون الثياب فى الأنصاف، قربانهم دماؤهم، وأناجيلهم فى صدورهم، رهبان بالليل ليُوث بالنهار، وأجعل فى أهل بيته وذريته السابقين، والصديقين والشهداء والصالحين، أمته من بعده يهدون بالحق وبه يعدلون، أعز من نصرهم، وأؤيد من دعا لهم، وأجعل دائرة السوء على من خالفهم أو بغى عليهم، أو أراد أن ينتزع شيئا مما فى أيديهم. أجعلهم ورثة لنبيهم، والداعية إلى ربهم، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، ويوفون بعهدهم، أختم بهم الخير الذى بدأته بأولهم، ذلك فضلى أوتيه من أشاء، وأنا ذو الفضل العظيم.

هكذا رواه ابن أبى حاتم، عن وهب بن منبه اليمانى، رحمه الله.

ثم قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عبد الرحمن بن صالح، حدثنا عبد الرحمن بن محمد

---

(١) المسند (٢/ ١٧٤) وصحيح البخارى برقم (٢١٢٥) ورقم (٤٨٣٨).
(٢) زيادة من ت، ف.
(٣) فى ت: « أعينا عميا كمها ».
(٤) فى ت: « عظيم ».
(٥) فى ت: « الرسل ».
(٦) فى أ: « فى سبيلى ».

ابن عبيد الله العَرْزَمى (١)، عن شَيْبَان النحوى، أخبرنى قتادة، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس (٢) قال: لما نزلت: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ ـ وقد كان أمر عليا ومعاذا أن يسيرا إلى اليمن ـ فقال: « انطلقا فبشرا ولا تنفرا، ويسرا ولا تعسرا، إنه قد أنزل على: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾» .

ورواه الطبرانى عن محمد بن نصر بن حميد البزاز البغدادى، عن عبد الرحمن بن صالح الأزدى، عن عبد الرحمن [بن محمد] (٣) بن عبيد الله العرزمى، بإسناده مثله (٤). وقال فى آخره: « فإنه قد أنزل (٥) على: ياأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا على أمتك ومبشرا بالجنة، ونذيرا من النار، وداعيا إلى شهادة أن لا إله إلا الله بإذنه، وسراجا منيرا بالقرآن » .

وقوله: ﴿شَاهِدًا﴾ أى: لله بالوحدانية، وأنه لا إله غيره، وعلى الناس بأعمالهم يوم القيامة، ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾. [كقوله: ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾] (٦) [البقرة: ١٤٣].

وقوله: ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أى: بشيراً للمؤمنين بجزيل الثواب، ونذيرا للكافرين من وبيل العقاب.

وقوله: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ ﴾ أى: داعيا للخلق إلى عبادة ربهم عن أمره لك بذلك، ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ أى: وأمرُك ظاهر فيما جئت به من الحق، كالشمس فى إشراقها وإضاءتها، لايجحدها إلا معاند.

وقوله: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾ أى: لا تطعهم و[لا] (٧) تسمع منهم فى الذى يقولونه (٨) ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾، أى: اصفح وتجاوز عنهم، وكِلْ أمرهم إلى الله، فإن فيه كفايةً لهم؛ ولهذا قال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٤٩) ﴾.

هذه الآية الكريمة فيها أحكام (٩) كثيرة. منها: إطلاق النكاح على العقد وحده، وليس فى القرآن آية أصرح فى ذلك منها، وقد اختلفوا فى النكاح: هل هو حقيقة فى العقد وحده، أو فى الوطء، أو فيهما؟ على ثلاثة أقوال، واستعمال القرآن إنما هو فى العقد والوطء بعده، إلا فى هذه الآية فإنه استعمل فى العقد وحده؛ لقوله: ﴿ إِذَا نَكَحْتُمُ (١٠) الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُن ﴾. وفيها دلالة لإباحة طلاق المرأة قبل الدخول بها.

(١) فى أ: « عبد الله القرشى ».
(٢) فى ت: « ثم روى ابن أبى حاتم بإسناده إلى ابن عباس ». (٣) زيادة من ت، ف، والمعجم.
(٤) المعجم الكبير (١١/٣١٢) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/٩٢): « وفيه عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله العرزمى وهو ضعيف ».
(٥) فى ت، أ: « أنزلت ». (٦) زيادة من ت، ف، أ. (٧) زيادة من ت.
(٨) فى أ: « فى الذين يتولونهم ». (٩) فى ت « اشتملت على أحكام ». (١٠) فى ت: « نكحتموا ».

وقوله: ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾: خرج مخرج الغالب؛ إذ لا فرق فى الحكم بين المؤمنة والكتابية فى ذلك بالاتفاق. وقد استدل ابن عباس، وسعيد بن المسيَّب، والحسن البصرى، وعلى بن الحسين، زين العابدين، وجماعة من السلف بهذه الآية على أن الطلاق لا يقع إلا إذا تقدمه نكاح؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ[(١)] الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾، فعقب النكاح بالطلاق، فدل على أنه لا يصح ولا يقع قبله. وهذا مذهب الشافعى، وأحمد بن حنبل، وطائفة كثيرة من السلف والخلف، رحمهم الله تعالى.

وذهب مالك وأبو حنيفة، رحمهما الله، إلى صحة الطلاق قبل النكاح؛ فيما إذا قال: «إن تزوجت فلانة فهى طالق»: فعندهما متى تزوجها طلقت منه. واختلفا فيما إذا قال: «كل امرأة أتزوجها فهى طالق». فقال مالك: لا تطلق حتى يعين المرأة. وقال أبو حنيفة، رحمه الله: كل امرأة يتزوجها بعد هذا الكلام تطلق منه، فأما الجمهور فاحتجوا على عدم وقوع الطلاق بهذه الآية.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن منصور المروزى، حدثنا النضر بن شُمَيْل، حدثنا يونس ـ يعنى: ابن أبى إسحاق ـ سمعت آدم مولى خالد، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: [إذا قال][(٢)]: كل امرأة أتزوجها فهى طالق، قال: ليس بشىء من أجل أن الله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ الآية.

وحدثنا محمد بن إسماعيل الأحْمَسِى، حدثنا وَكيع، عن مطر، عن الحسن بن مسلم بن يَنّاق[(٣)]، عن ابن عباس قال: إنما قال الله تعالى: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾، ألا ترى أن الطلاق بعد النكاح؟!

وهكذا روى محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عكْرِمة، عن ابن عباس قال: قال الله: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ فلا طلاق [قبل النكاح][(٤)].

وقد ورد الحديث بذلك عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «لا طلاق لابن آدم فيما لا يملك». رواه الإمام أحمد والترمذى، وأبو داود، وابن ماجه[(٥)]. وقال الترمذى: «هذا حديث حسن». وهو أحسن شىء روى فى هذا الباب. وهكذا روى ابن ماجه عن على، والمِسْوَر بن مَخْرَمَة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لاطلاق قبل نكاح»[(٦)].

[وفى الآية دليل على أن المسيس مطلق، ويراد به الوطء][(٧)].

---

(١) فى ت: «نكحتموا».
(٢) زيادة من ت.
(٣) فى ت: «وروى أيضا بإسناده».
(٤) زيادة من ف، أ.
(٥) المسند (٢/١٨٩) وسنن الترمذى برقم (١١٨١) وسنن أبى داود برقم (٢١٩١) وسنن ابن ماجة برقم (٢٠٤٧).
(٦) سنن ابن ماجه برقم (٢٠٤٨) من طريق على بن الحسين، عن هشام بن سعد، عن الزهرى، عن عروة، عن المسور، به. وقال البوصيرى فى الزوائد (٢/١٣٢): «هذا إسناد حسن، على بن الحسين وهشام بن سعد مختلف فيهما». وبرقم (٢٠٤٩) من طريق جويبر، عن الضحاك، عن النزال بن سبرة، عن على، به. وقال البوصيرى فى الزوائد (٢/١٣٢): «هذا إسناد ضعيف لاتفاقهم على ضعف جويبر بن سعيد البجلى، لكن لم ينفرد به جويبر، فقد رواه البيهقى فى الكبرى (٧/ ٣٢٠) من طريق معاذ العنبرى، عن حميد الطويل، عن الحسن عن على به، ثم رواه من طريق سعيد عن جويبر به موقوفا من الطريقين معًا».
(٧) زيادة من ت.

وقوله [١] : ﴿ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ﴾ : هذا أمر مجمع عليه بين العلماء : أن المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها لا عدة عليها فتذهب فتتزوج فى فورها من[٢] شاءت ، ولا يستثنى من هذا إلا المتوفى عنها زوجها ، فإنها تعتد منه أربعة أشهر وعشراً ، وإن لم يكن دخل بها بالإجماع أيضا .

وقوله : ﴿ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ : المتعة هاهنا أعم من أن تكون نصف الصداق المسمى ، أو المتعة الخاصة إن لم يكن قد سمى لها ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ﴾ [البقرة : ٢٣٧] . وقال: ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة : ٢٣٦] .

وفى صحيح البخارى ، عن سهل بن سعد وأبى أسَيد ؛ أن رسول الله ﷺ تزوج أميمة بنت شَرَاحيل ، فلما أدخلت [٣] عليه بسط يده إليها ، فكأنها كرهت ذلك ، فأمر أبا أسَيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رَازقيَّين [٤] .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ، رضى الله عنهما : إن كان سمى لها صداقا ، فليس لها إلا النصف ، وإن لم يكن سمى لها صداقا فأمتعها على قدر عسره ويسره ، وهو السراح الجميل .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥٠) ﴾ .

يقول تعالى مخاطبا نبيه ، صلوات الله وسلامه عليه ، بأنه قد أحل له من النساء أزواجه اللاتى أعطاهن مُهُورَهُنَّ ، وهى الأجور هاهنا . كما قاله مجاهد وغير واحد ، وقد كان مَهْرُه لنسائه اثنتى [٥] عشرة أوقية ونَشّا وهو نصف [٦] أوقية ، فالجميع خمسمائة درهم ، إلا أم حبيبة بنت أبى سفيان فإنه أمهرها عنه النجاشى ، رحمه الله ، أربعمائة دينار ، وإلا صفية بنت حُيَىّ فإنه اصطفاها من سَبْى خيبر ، ثم أعتقها وجعل عتقها صداقها . وكذلك جُوَيرية بنت الحارث المصطلقية ، أدّى عنها كتابتها إلى ثابت ابن قيس بن شماس وتزوجها ، رضى الله عن جميعهن [٧] .

(١) فى هـ : « وقال » . (٢) فى ت : « فى فورها متى » ، وفى أ : « فى قرئها من » .
(٣) فى ت : « فلما دخلت » وفى ف ، أ : « فلما أن دخلت » .
(٤) صحيح البخارى برقم (٥٢٥٦ ، ٥٢٥٧) .
(٥) فى ت : « ثنتى » . (٦) فى ت : « والنش النصف » .
(٧) فى ت : « رضى الله عنهن أجمعين » .

وقوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ أى: وأباح لك التسرى مما أخذت من المغانم[1]، وقد ملك صفية وجويرية فأعتقهما وتزوجهما. وملك ريحانة بنت شمعون النضرية، ومارية القبطية أم ابنه إبراهيم، عليه السلام، وكانتا من السرارى، رضى الله عنهما.

وقوله: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾: هذا عدل وَسط بين الإفراط والتفريط؛ فإن النصارى لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان الرجل بينه وبينها سبعة أجداد فصاعدا، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أخته، فجاءت هذه الشريعة الكاملة الطاهرة بهدم إفراط النصارى، فأباح بنت العم والعمة، وبنت الخال والخالة، وتحريم[2] ما فَرّطت[3] فيه اليهود من إباحة بنت الأخ والأخت، وهذا بشع[4] فظيع.

وإنما قال: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ﴾ فَوَحَّدَ لفظ الذكر لشرفه، وجمع الإناث لنقصهن كقوله: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ [النحل: ٤٨]، ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، وله نظائر كثيرة.

وقوله: ﴿اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾: قال ابن أبى حاتم، رحمه الله:

حدثنا محمد بن عمار بن[5] الحارث الرازى، حدثنا عبيد الله[6] بن موسى، حدثنا إسرائيل، عن السدى، عن أبى صالح[7]، عن أم هانئ قالت: خطبنى رسول الله ﷺ فاعتذرت إليه بعذرى، ثم أنزل الله: ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ﴾ إلى قوله: ﴿اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ قالت: فلم أكن أحل له، ولم أكن ممن هاجر معه، كنت من الطلقاء.

ورواه ابن جرير عن أبى كُرَيْب، عن عبيد الله بن موسى، به[8].

ثم رواه ابن أبى حاتم من حديث إسماعيل بن أبى خالد، عن أبى صالح، عنها بنحوه.

ورواه الترمذى فى جامعه[9]. وهكذا قال أبو رَزين وقتادة: إن المراد: من هاجر معه إلى المدينة. وفى رواية عن قتادة: ﴿اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ أى: أسلمن. وقال الضحاك: قرأ ابن مسعود: «واللاَّتى هَاجَرْنَ مَعَك».

وقوله: ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ أى: ويحل لك ـ يأيها النبى ـ المرأة المؤمنة إذا وهبت نفسها لك أن تتزوجها بغير مهر إن شئت ذلك. وهذه الآية توالى فيها شرطان، كقوله تعالى إخباراً عن نوح، عليه السلام، أنه قال لقومه: ﴿وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤]، وكقول موسى: ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ

---

(١) فى أ: «الغنائم».	(٢) فى أ: «وحرم».	(٣) فى ت: «ما حرموا».
(٤) فى ف، أ: «شنيع».	(٥) فى أ: «و».	(٦) فى أ: «عبد الله».
(٧) فى ت: «روى ابن أبى حاتم بإسناده».
(٨) تفسير الطبرى (٢٢/١٥).
(٩) سنن الترمذى برقم (٣٢١٤) وقال: «هذا حديث حسن صحيح لا أعرفه إلا من هذا الوجه من حديث السدى».

فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾ [يونس : ٨٤] . وقال هاهنا :﴿ **وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها** ﴾،وقد قال الإمام أحمد (١) :

حدثنا إسحاق ،أخبرنا مالك ،عن أبي حازم ،عن سهل بن سعد الساعدي ؛أن رسول الله ﷺ جاءته امرأة فقالت :يا رسول الله ، إني قد وهبت نفسي لك . فقامت قياما طويلا ،فقام رجل فقال : يا رسول الله ،زوجنيها إن لم يكن لك بها حاجة . فقال رسول الله ﷺ :« هل عندك من شيء تصدقها إياه » ؟فقال :ما عندي إلا إزاري هذا .فقال رسول الله ﷺ :« إن أعطيتها إزارك جلست لا إزار لك ،فالتمس شيئًا » . فقال : لا أجد شيئاً .فقال :« التمس ولو خاتما من حديد » فالتمس فلم يجد شيئا ،فقال له النبي ﷺ: « هل معك من القرآن شيء ؟ » قال: نعم؛ سورة كذا ، وسورة كذا ـ لسور يسميها ـ فقال له رسول الله ﷺ :« زوجتكها بما معك من القرآن » .

أخرجاه من حديث مالك (٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان (٣) ،حدثنا مرحوم ،سمعت ثابتا يقول (٤) :كنت مع أنس جالسا وعنده ابنة له ،فقال أنس :جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت :يا نبي الله ،هل لك في حاجة ؟ فقالت ابنته: ما كان أقل حياءها .فقال: « هي خير منك ،رغبت في النبي ،فعرضت عليه نفسها » .

انفرد بإخراجه البخاري ،من حديث مرحوم بن عبد العزيز [العطار](٥) ،عن ثابت البناني ،عن أنس ،به (٦) .

وقال (٧) أحمد أيضا :حدثنا عبد الله بن بكر ،حدثنا سنان بن ربيعة ،عن الحضرمي ،عن أنس ابن مالك :أن امرأة أتت النبي ﷺ فقالت :يا رسول الله ، ابنة لي كذا وكذا .فذكرت من حسنها وجمالها ،فآثرتك بها .فقال :« قد قبلتها » .فلم تزل تمدحها حتى ذكرت أنها لم تصدع ولم تشتك شيئاً قط ،فقال :« لا حاجة لي في ابنتك » .لم يخرجوه (٨) .

وقال (٩) ابن أبي حاتم :حدثنا أبي ،حدثنا منصور بن أبي مزاحم ،حدثنا ابن أبي الوضاح ـ يعني : محمد بن مسلم ـ عن هشام بن عروة ،عن أبيه ،عن عائشة قالت :التي وهبت نفسها للنبي ﷺ خولة بنت حكيم (١٠) .

وقال ابن وهب ،عن سعيد بن عبد الرحمن وابن أبي الزناد ،عن هشام بن عروة ،عن أبيه :أن خولة بنت حكيم بن الأوقص ،من بني سليم ،كانت من اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ(١١).

وفي رواية له عن سعيد بن عبد الرحمن ،عن هشام ،عن أبيه :كنا نتحدث أن خولة بنت حكيم

---

(١) في ت :« وقد روى البخاري ومسلم » .

(٢) المسند (٥/ ٣٣٦) وصحيح البخاري برقم (٥١٣٥) وصحيح مسلم برقم (١٤٢٥) ولكنه عند مسلم من طريق يعقوب وعبد العزيز بن أبي حازم وسفيان بن عيينة والدراوردي وزائدة كلهم عن أبي حازم بنحوه .

(٣) في أ :« عثمان » . (٤) في ت : « وروى البخاري أن ثابتا قال » . (٥) زيادة من أ .

(٦) المسند (٣/ ٢٦٨) وصحيح البخاري برقم (٥١٢٠) .

(٧) في ت :« وروى » .

(٨) المسند (٣/ ١٥٥) .

(٩) في ت : « وروى » .

(١٠) ورواه البيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٥٥) من طريق منصور بن أبي مزاحم ، به .

(١١) رواه الطبري في تفسيره (٢٢/ ٢٣) .

كانت وهبت نفسها لرسول اللّه ﷺ ،وكانت امرأة صالحة [١] .

فيحتمل أن أم سليم هى خولة بنت حكيم ،أو هى امرأة أخرى .

وقال ابن أبى حاتم :حدثنا محمد بن إسماعيل الأحْمَسِى ،حدثنا وَكيع ،حدثنا موسى بن عبيدة،عن محمد بن كعب ،وعمر بن الحكم ،وعبد اللّه بن عبيدة قالوا: تزوج رسول ﷺ ثلاث عشرة امرأة ،ست من قريش ،خديجة ،وعائشة ،وحفصة ،وأم حبيبة ،وسودة ،وأم سلمة .وثلاث من بنى عامر بن صَعْصَعَة ،وامرأتان من بنى هلال بن عامر :ميمونة بنت الحارث ،وهى التى وهبت نفسها للنبى ﷺ ،وزينب أم المساكين ـ امرأة من بنى أبى بكر بن كلاب من القرطاء ـ وهى التى اختارت الدنيا،وامرأة من بنى الجون ،وهى التى استعاذت منه ،وزينب بنت جحش الأسدية،والسبيتان صفية بنت حيى بن أخطب ،وجويرية بنت الحارث بن عمرو بن المصطلق الخزاعية[٢] .

وقال سعيد بن أبى عَرُوبة ،عن قتادة ،عن ابن عباس :﴿ **وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ** ﴾ قال:هى ميمونة بنت الحارث .

فيه انقطاع :هذا مرسل ،والمشهور أن زينب التى كانت تدعى أم المساكين هى زينب بنت خُزَيْمة الأنصارية ،وقد ماتت عند النبى ﷺ فى حياته ،فاللّه أعلم .

والغرض من هذا أن اللاتى وهبن أنفسهن من النبى ﷺ كثير ،كما قال [٣] البخارى ،حدثنا زكريا ابن يحيى ،حدثنا أبو أسامة قال :هشام بن عُرْوَه حَدثنا عن أبيه ،عن عائشة قالت :كنت أغار من اللاتى وهبن أنفسهن من النبى ﷺ وأقول :أتهب امرأة [٤] نفسها ؟ فلما أنزل اللّه : ﴿ **تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ** ﴾ قلت : ما أرَى ربَّك إلا يُسَارع فى هواك [٥] .

وقد قال[٦] ابن أبى حاتم :حدثنا على بن الحسين ،حدثنا محمد بن منصور الجعفى ،حدثنا يونس ابن بُكَيْر ،عن عَنْبَسَة بن الأزهر ،عن سِماك ،عن عِكْرِمة ،عن ابن عباس قال: لم يكن عند رسول اللّه ﷺ امرأة وهبت نفسها له .

ورواه ابن جرير عن أبى كُرَيْب ،عن يونس بن بُكَيْر [٧] .أى :إنه لم يقبل واحدة ممن وهبت نفسها له ،وإن كان ذلك مباحاً له ومخصوصاً به ؛لأنه مردود إلى مشيئته ،كما قال اللّه تعالى : ﴿ **إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا** ﴾ أى :إن اختار ذلك .

---

(١) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٢/ ٢٣).

(٢) ورواه ابن أبى شيبة فى المصنف (٥/ ٢٧٠) من طريق وكيع بلفظ :« تزوج رسول اللّه ﷺ امرأة من بنى الجون فطلقها وهى التى استعاذت منه » .

(٣) فى ت :« كما روى » . (٤) فى ت ،أ :« المرأة » .

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٧٨٨) .

(٦) فى ت :« وروى » .

(٧) تفسير الطبرى (٢٢ / ١٧) .

وقوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال عكرمة: أى لا تحل الموهوبة لغيرك، ولو أن امرأة وهبت نفسها لرجل لم تحل له حتى يعطيها شيئاً. وكذا قال مجاهد والشعبى وغيرهما.

أى: إنها إذا فوضت المرأة نفسها إلى رجل، فإنه متى دخل بها وجب لها عليه مهر مثلها، كما حكم به رسول الله ﷺ فى بَرْوَع (١) بنت واشق لما فوضت، فحكم لها رسول الله ﷺ بصداق مثلها لما توفى عنها زوجها، والموت والدخول سواء فى تقرير (٢) المهر وثبوت مهر المثل فى المفوضة لغير النبى ﷺ، فأما هو، عليه السلام، فإنه لا يجب عليه للمفوضة شىء ولو دخل بها؛ لأن له أن يتزوج بغير صداق ولا ولى ولا شهود، كما فى قصة زينب بنت جحش، رضى الله عنها. ولهذا قال قتادة فى قوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، يقول: ليس لامرأة تهب نفسها لرجل بغير ولى ولا مهر إلا للنبى ﷺ.

[وقوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾](٣): قال أبى بن كعب، ومجاهد، والحسن، وقتادة وابن جرير فى قوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ﴾ أى: من حَصْرِهم فى أربع نسوة حرائر وما شاؤوا (٤) من الإماء، واشتراط الولى والمهر والشهود عليهم، وهم الأمة، وقد رخصنا لك فى ذلك، فلم نوجب عليك شيئاً منه؛ ﴿لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١)﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بشر (٥)، حدثنا هشام بن عُرْوَة، عن أبيه (٦)، عن عائشة، رضى الله عنها؛ أنها كانت تُعَيِّر (٧) النساء اللاتى وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ، قالت: ألا تستحى المرأة أن تعرض نفسها بغير صداق؟ فأنزل الله، عز وجل: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾، قالت: إنى أرَى ربَّك يسارع لك فى هواك (٨).

وقد تقدم أن البخارى رواه من حديث أبى أسامة، عن هشام بن عُرْوَة، فدل هذا على أن المراد بقوله: ﴿تُرْجِي﴾ أى: تؤخر ﴿مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ﴾ أى: من الواهبات [أنفسهن] (٩) ﴿وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ﴾ أى: من شئت قبلتها، ومن شئت رددتها، ومن رددتها فأنت فيها أيضاً بالخيار بعد ذلك، إن

---

(١) فى أ: «تزويج». (٢) فى ت: «تقدير».
(٣) زيادة من ت، أ. (٤) فى ت: «وما يشاء». (٥) فى أ: «بشير».
(٦) فى ت: «وروى الإمام أحمد بإسناده».
(٧) فى ف: «تغير من النساء» وفى أ: «تغير النساء».
(٨) المسند (٦/١٥٨).
(٩) زيادة من ت.

شئت عُدْتَ فيها فآويتها ؛ولهذا قال :﴿ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾.قال عامر الشعبى فى قوله : ﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ ﴾:كن نساء وهبن أنفسهن للنبى ﷺ فدخل ببعضهن وأرجأ بعضهن لم يُنْكحن بعده ،منهن أم شريك .

وقال آخرون :بل المراد بقوله : ﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ ﴾أى :من أزواجك،لا حرج عليك أن تترك القَسْم لهن ،فتقدم من شئت ،وتؤخر من شئت ،وتجامع من شئت،وتترك من شئت .

هكذا يروى عن ابن عباس ،ومجاهد ،والحسن ،وقتادة ،وأبى رَزين ،وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ،وغيرهم ،ومع هذا كان ،صلوات الله وسلامه عليه ،يقسم لهن ؛ولهذا ذهب طائفة من الفقهاء من الشافعية وغيرهم إلى أنه لم يكن القسم واجباً عليه ،صلوات الله وسلامه عليه ،واحتجوا بهذه الآية الكريمة .

وقال (١) البخارى : حدثنا حبّان بن موسى ،حدثنا عبد الله ــ هو ابن المبارك ــ أخبرنا عاصم الأحول ،عن مُعَاذة (٢) عن عائشة ؛أن رسول الله ﷺ كان يستأذن فى يوم المرأة منا بعد أن نزلت هذه الآية :﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ ،فقلت لها:ما كنت تقولين ؟ فقالت :كنت أقول :إن كان ذاك إلىَّ فإنى لا أريد يا رسول الله أن أوثر عليك أحداً (٣).

فهذا الحديث عنها يدل على أن المراد من (٤) ذلك عدم وجوب القسم ،وحديثها الأول يقتضى أن الآية نزلت فى الواهبات ،ومن هاهنا اختار ابن جرير أن الآية عامة فى الواهبات وفى النساء اللاتى عنده ،أنه مخير فيهن إن شاء قسم وإن شاء لم يقسم .وهذا الذى اختاره حسن جيد قوى ،وفيه جمع بين الأحاديث ؛ولهذا قال تعالى :﴿ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ﴾ أى:إذا علمن أن الله قد وضع عنك (٥) الحَرَج فى القسم ،فإن شئت قسمت ،وإن شئت لم تقسم،لاجناح عليك فى أى ذلك فعلت ،ثم مع هذا أنت تقسم لهن اختياراً منك لا أنه على سبيل الوجوب ،فرحن بذلك واستبشرن به وحملن جميلك فى ذلك ،واعترفن بمنتك (٦) عليهن فى قسمك لهن وتسويتك بينهن وإنصافك لهن وعدلك فيهن .

وقوله :﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ أى : من الميل إلى بعضهن دون بعض ،مما لا يمكن دفعه،كما قال (٧) الإمام أحمد :

حدثنا يزيد ،حدثنا حماد بن سلمة ،عن أيوب ،عن أبى قِلابَة ،عن عبد الله بن يزيد ،عن عائشة قالت :كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ،ثم يقول :« اللهم هذا فعلى فيما أملك ،فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك » .

---

(١) فى ت : « وروى » . (٢) فى أ : « معاذ » .
(٣) صحيح البخارى برقم (٤٧٨٩) .
(٤) فى أ : « فى » . (٥) فى أ : « عليك » . (٦) فى أ : « بأمانتك » .
(٧) فى ت : « كما روى » .

ورواه أهل السنن الأربعة، من حديث حماد بن سلمة (١) ـ وزاد أبو داود بعد قوله: فلا تلمني(٢) فيما تملك ولا أملك: يعني القلب. وإسناده صحيح، ورجاله كلهم ثقات. ولهذا عقب ذلك بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ أى: بضمائر السرائر، ﴿حَلِيمًا﴾ أى: يحلم ويغفر.

﴿لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا (٥٢)﴾.

ذكر غير واحد من العلماء ـ كابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وابن زيد، وابن جرير، وغيرهم ـ أن هذه الآية نزلت مجازاة لأزواج النبى ﷺ ورضاً عنهن، على حسن صنيعهن فى اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة، لما خيرهن رسول الله ﷺ، كما تقدم فى الآية. فلما اخترن رسول الله ﷺ، كان جزاؤهن أن [الله] (٣) قَصَره عليهن، وحرم عليه أن يتزوج بغيرهن، أو يستبدل بهن أزواجاً غيرهن، ولو أعجبه حسنهن إلا الإماء والسرارى فلا حجر عليه فيهن. ثم إنه تعالى رفع عنه الحجر (٤) فى ذلك ونسخ حكم هذه الآية، وأباح له التزوج (٥)، ولكن لم يقع منه بعد ذلك تَزَوّج لتكون المنة للرسول (٦) ﷺ عليهن.

قال (٧) الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن عمرو، عن عطاء، عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل الله له النساء (٨).

ورواه أيضاً من حديث ابن جُرَيْج، عن عَطاء، عن عبيد بن عمير (٩)، عن عائشة. ورواه الترمذى والنسائى فى سننيهما (١٠).

وقال (١١) ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الملك بن شيبة، حدثنى عمر بن أبى بكر، حدثنى المغيرة بن عبد الرحمن الحزامى (١٢)، عن أبى النضر مولى عمر بن عبيد الله (١٣)، عن عبد الله بن وهب بن زَمْعَة، عن أم سلمة أنها قالت: لم يمت رسول الله ﷺ حتى أحل الله له أن يتزوج من النساء ما شاء، إلا ذات محرم، وذلك قول الله، عز وجل: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ﴾.

فجعلت هذه ناسخة للتى بعدها فى التلاوة، كآيتى عدة الوفاة فى البقرة، الأولى ناسخة للتى بعدها، والله(١٤) أعلم.

---

(١) المسند (٦/ ١٤٤) وسنن أبى داود برقم (٢١٣٤) وسنن الترمذى برقم (١١٤٠) وسنن النسائى (٧/ ٦٣) وسنن ابن ماجة برقم (١٩٧١).
(٢) فى أ: «فلا تملنى». (٣) زيادة من ت، أ. (٤) فى ت: «الحرج».
(٥) فى أ: «التزويج». (٦) فى ف: «لرسول الله». (٧) فى ت: «روى».
(٨) المسند (٦/ ٤١).
(٩) فى أ: «عن عمير بن عبيد».
(١٠) المسند (٦/ ١٨٠) وسنن الترمذى برقم (٣٢١٦) وسنن النسائى (٦/ ٥٦).
(١١) فى ت: «وروى». (١٢) فى أ: «الخزاعى». (١٣) فى أ: «عبد الله».
(١٤) فى ت: «فالله».

وقال آخرون: بل معنى الآية: ﴿لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ أى: من بعد ما ذكرنا لك من صفة النساء اللاتى أحللنا لك من نسائك اللاتى آتيت أجورهن وما ملكت يمينك، وبنات العم والعمات [(١)] والخال والخالات [(٢)] والواهبة وما سوى ذلك من أصناف النساء فلا يحل لك. هذا مرويّ عن أبى بن كعب، ومجاهد، وعكْرِمة، والضحاك - فى رواية - وأبى رَزين - فى رواية عنه - وأبى صالح، والحسن، وقتادة - فى رواية - والسدى، وغيرهم.

قال ابن جرير: حدثنا يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن داود بن أبى هند، حدثنى محمد بن أبى موسى، عن زياد - رجل من الأنصار [(٣)] - قال: قلت لأبى بن كعب: أرأيت لو أن أزواج النبى ﷺ تُوُفين، أما كان له أن يتزوج؟ فقال: وما يمنعه من ذلك؟ قال: قلت: قوله: ﴿لا تَحِلُّ [(٤)] لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾. فقال: إنما أحل الله له ضربا من النساء، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ ثم قيل له: ﴿لا تحلُّ [(٥)] لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾.

ورواه عبد الله بن أحمد من طرق، عن داود، به [(٦)]. وروى الترمذى، عن ابن عباس، رضى الله عنهما، قال: نهى رسول الله ﷺ عن أصناف النساء، إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات بقوله: ﴿لا تَحِلُّ [(٧)] لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾، فأحل الله فتياتكم المؤمنات ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾، وحرم كل ذات دين غير الإسلام، ثم قال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ [(٨)]﴾ إلى قوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وحرم ما سوى ذلك من أصناف النساء [(٩)].

وقال مجاهد: ﴿لا تَحِلُّ [(١٠)] لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ أى: من بعد ما سمى لك، لا [(١١)] مسلمة ولا يهودية ولا نصرانية ولا كافرة.

وقال أبو صالح: ﴿لا تَحِلُّ [(١٢)] لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾: أمر ألا يتزوج أعرابية ولا غريبة [(١٣)]، ويتزوج بعد من نساء تهامة، وما شاء من بنات العم والعمة، والخال والخالة، إن شاء ثلاثمائة.

وقال عكرمة: ﴿لا تَحِلُّ [(١٤)] لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ أى: التى سمى الله.

---

(١) فى ت: «وبنات العمات».
(٢) فى أ: «الخالة».
(٣) فى ت: «فروى ابن جرير بإسناده عن رجل من الأنصار».
(٤، ٥) فى ت، أ: «لا يحل».
(٦) تفسير الطبرى (٢٢/ ٢١) وزوائد المسند (٥/ ١٣٢).
(٧) فى أ: «لا يحل».
(٨) بعدها فى أ: «مما أفاء الله عليك».
(٩) سنن الترمذى برقم (٣٢١٥) وقال: «هذا حديث حسن إنما نعرفه من حديث عبد الحميد بن بهرام، قال: سمعت أحمد بن الحسن يقول: قال أحمد بن حنبل: لا بأس بحديث عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب».
(١٠) فى أ: «لا يحل».
(١١) فى أ: «من».
(١٢) فى أ: «لا يحل».
(١٣) فى أ: «عربية».
(١٤) فى أ: «لا يحل».

واختار ابن جرير ،رحمه الله ،أن الآية عامة فيمن ذكر من أصناف النساء ،وفى النساء اللواتى فى عصمته وكن تسعاً .وهذا الذى قاله جيد ،ولعله مراد كثير ممن حكينا عنه من السلف ؛فإن كثيراً منهم روى عنه هذا وهذا ،ولا منافاة ،والله أعلم .

ثم أورد ابن جرير على نفسه ما روى أن رسول الله ﷺ طلق حفصة ثم راجعها ،وعزم على فراق سودة حتى وهبته يومها لعائشة ،ثم أجاب بأن هذا كان قبل نزول قوله :﴿ **لا تَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُن** ﴾،وهذا الذى قاله من أن هذا كان قبل نزول الآية صحيح ،ولكن لا يحتاج إلى ذلك ؛فإن الآية إنما دلت على أنه لا يتزوج بمن عدا اللواتى فى عصمته،وأنه لايستبدل بهن غيرهن ،ولا يدل ذلك على أنه لا يطلق واحدة منهن من غير استبدال،والله أعلم .

فأما قَضية سَوْدَة ففى الصحيح عن عائشة ،رضى الله عنها ،وهى سبب نزول قوله تعالى :﴿ **وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا [وَالصُّلْحُ خَيْرٌ]** (١) ﴾ الآية [النساء : ١٢٨] (٢) .

وأما قضية (٣) حفصة فروى أبو داود والنسائى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه ،من طرق عن يحيى بن زكريا بن أبى زائدة ،عن صالح بن صالح بن حَى (٤) عن سلمة بن كُهَيْل ،عن سعيد بن جبير ،عن ابن عباس ،عن عمر ؛أن رسول الله ﷺ طلق حفصة ثم راجعها .وهذا إسناد (٥) قوى(٦).

وقال الحافظ أبو يعلى :حدثنا أبو كُرَيْب ،حدثنا يونس بن بُكَيْر ،عن الأعمش ،عن أبى صالح(٧)،عن ابن عمر قال: دخل عمر على حفصة وهي تبكى ،فقال :ما يبكيك ؟ لعل رسول الله ﷺ طلقك ؟ إنه قد كان طلقك مرة ثم راجعك من أجلى ؛والله لئن كان طلقك مرة أخرى لا أكلمك أبداً.ورجاله على شرط الصحيحين (٨) .

وقوله :﴿ **وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُن** ﴾ ،فنهاه عن الزيادة عليهن ،أو طلاق واحدة منهن واستبدال غيرها بها إلا ما ملكت يمينه (٩) .

وقد روى الحافظ أبو بكر البزار حديثاً مناسباً ذكَرُه هاهنا ،فقال :

حدثنا إبراهيم بن نصر ،حدثنا مالك بن إسماعيل ،حدثنا عبد السلام بن حرب ، عن إسحاق بن عبد الله (١٠) القرَشى ،عن زيد بن أسلم ،عن عطاء بن يَسَار (١١) ،عن أبى هُرَيرة ، رضى الله عنه ،

(١) زيادة من ف ، أ .

(٢) انظر تخريج هذا الحديث عند تفسير الآية :١٢٨ من سورة النساء .

(٣) فى ت : « قصة » . (٤) فى أ : « يحيى » . (٥) فى ت : « إسناده » .

(٦) سنن أبى داود برقم (٢٢٨٣) وسنن النسائى (٦/٢١٣) وسنن ابن ماجة برقم (٢٠١٦) .

(٧) فى ت : « وروى الإمام الحافظ أبو يعلى بسنده » .

(٨) مسند أبى يعلى (١/ ١٦٠) .

(٩) فى أ : « يمينك » . (١٠) فى أ : « عبيد الله »

(١١) فى ت :« وروى البزار بإسناده » .

قال: كان البَدلُ فى الجاهلية أن يقول الرجل للرجل: بادلْنى امرأتك وأبادلُك بامرأتى . أى: تنزل لى عن امرأتك، وأنزل لك عن امرأتى . فأنزل الله: ﴿ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾ قال: فدخل عيينة بن حصن (١) على النبى ﷺ، وعنده عائشة، فدخل بغير إذن، فقال له رسول الله ﷺ: « فأين الاستئذان ؟ » فقال يا رسول الله، ما استأذنت على رجل من مُضَر منذ أدركت . ثم قال: من هذه الحُمَيْراء إلى جنبك ؟ فقال رسول الله ﷺ: « هذه عائشة أم المؤمنين » . قال: أفلا أنزل لك على أحسن الخلق (٢) ؟ قال: « يا عيينة إن الله قد حرم ذلك » . فلما أن خرج قالت عائشة: من هذا ؟ قال: هذا أحمق مطاع، وإنه على ما ترين لسيد قومه » .

ثم قال البزار إسحاق (٣) بن عبد الله: لين الحديث جداً، وإنما ذكرناه لأنا لم نحفظه إلا من هذا الوجه، وبيَّنا العلة فيه (٤) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣) إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٥٤) ﴾ .

هذه آية الحجاب، وفيها أحكام وآداب شرعية، وهى مما وافق تنزيلها قول (٥) عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، كما ثبت ذلك فى الصحيحين عنه أنه قال: وافقت ربى فى ثلاث، فقلت: يا رسول الله، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى ؟ فأنزل الله: ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة: ١٢٥]. وقلت: يا رسول الله، إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر، فلو حجبتهن ؟ فأنزل الله آية الحجاب. وقلت لأزواج النبى ﷺ لما تمالأن عليه فى الغيرة: ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ ﴾ [التحريم: ٥]، فنزلت كذلك (٦) .

وفى رواية لمسلم ذكر أسارى بدر، وهى قضية رابعة .

وقد قال(٧) البخارى: حدثنا مُسَدَّد، عن يحيى، عن حُمَيْد، عن أنس بن مالك قال: قال عمر بن

---

(١) فى أ: « عيينة الفزارى » .

(٢) فى ت: « قال انزل لى عنها وأنا أنزل لك عن أحسن الخلق » ، وفى أ: « قال أنزل لك عن أحسن الخلق » .

(٣) فى ت: « ثم قال البزار: فى إسناده إسحاق » .

(٤) مسند البزار برقم (٢٢٥١) « كشف الأستار » وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٩٢): « وفيه إسحاق بن عبد الله بن أبى فروة وهو متروك» .

(٥) فى ت: « لقول » .

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٠٢) .

(٧) فى ت: « وروى » .

الخطاب : يا رسول الله ،يدخل عليك البر والفاجر ،فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب ؟فأنزل الله آية الحجاب (١) .

وكان وقت نزولها فى صبيحة عرس رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش ،التى تولى الله تعالى تزويجها بنفسه ،وكان ذلك فى ذى القعدة من السنة الخامسة ،فى قول قتادة والواقدى وغيرهما .

وزعم أبو عُبَيدة معمر بن المثنى ،وخَلِيفة بن خياط :أن ذلك كان فى سنة ثلاث ،فالله أعلم .

قال (٢) البخارى :حدثنا محمد بن عبد الله الرَّقاشى ،حدثنا مُعْتَمِر بن سليمان ،سمعت أبى،حدثنا أبو مِجْلَز ،عن أنس بن مالك ،رضى الله عنه ،قال :لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش ،دعا القوم فَطَعِمُوا ثم جلسوا يتحدثون ،فإذا هو [كأنه] (٣) يتهيأ (٤) للقيام فلم يقوموا . فلما رأى ذلك قام ،فلما قام [قام] (٥) من قام ،وقعد ثلاثة نفر .فجاء النبى ﷺ ليدخل ،فإذا القوم جلوس ،ثم إنهم قاموا فانطلقت ،فجئت فأخبرت النبى ﷺ أنهم قد انطلقوا .فجاء حتى دخل ، فذهبت أدخل ،فألقى [الحجاب] (٦) بينى وبينه ،فأنزل الله: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾** الآية .

وقد رواه أيضاً فى موضع آخر ،ومسلم والنسائى ،من طرق ،عن معتمر بن سليمان ، به (٧) .

ثم رواه البخارى منفرداً به من حديث أيوب ،عن أبى قِلابة ،عن أنس بن مالك ،رضى الله عنه ، [بنحوه (٨) .ثم قال (٩) : حدثنا أبو معمر ،حدثنا عبد الوارث ،حدثنا عبد العزيز بن صهيب ،عن أنس ابن مالك] (١٠) قال : بُنى [على] (١١) النبى ﷺ بزينب بنت جحش بخبز ولحم ،فأرسلْتُ على الطعام داعياً ،فيجىء قوم فيأكلون ويخرجون ،ثم يجىء قوم فيأكلون ويخرجون .فدعوتُ حتى ما أجد أحداً أدعوه ،فقلت : يا نبى الله ،ما أجد أحداً أدعوه .قال : « ارفعوا طعامكم » ، وبقى ثلاثة رهط يتحدثون فى البيت ،فخرج النبى ﷺ فانطلق إلى حجرة عائشة ،فقال : « السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته » .قالت : وعليك السلام ورحمة الله ،كيف وجدت أهلك ،بارك الله لك؟ فَتَقَرَّى حجر نسائه كُلّهن ،يقول لهن كما يقول لعائشة ،ويقلن له كما قالت عائشة .ثم رجع رسول الله (١٢) ﷺ فإذا رهط ثلاثة [فى البيت] (١٣) يتحدثون . وكان النبى ﷺ شديد الحياء ،فخرج منطلقاً نحو حُجْرة عائشة ،فما أدرى أخبرتُه أم أخبر أن القوم خَرَجُوا ؟ فرجع حتى إذا وضع رجله فى أُسْكُفة الباب داخله ،وأخرى خارجة ،أرْخَى الستر بينى وبينه ،وأنزلت آية الحجاب .

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٣٩٩) .

(٢) فى ت : « وروى » .

(٣) زيادة من ت ،ف ، أ ، والبخارى . (٤) فى ت : « تهيأ » . (٥ ، ٦) زيادة من ت ،ف ، أ ، والبخارى .

(٧) صحيح البخارى برقم (٤٧٩١) وبرقم (٦٢٣٩ ، ٦٢٧١) وصحيح مسلم برقم (١٤٢٨) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٢٠).

(٨) صحيح البخارى برقم (٤٧٩٢) .

(٩) فى ت : « قال البخارى » . (١٠) زيادة من ت ، ف ، أ .

(١١) زيادة من ت ،ف ، والبخارى ،وفى أ : « بنى الله على النبى ».

(١٢) فى ت : « النبى » .

(١٣) زيادة من ت ، ف ، أ ، والبخارى .

انفرد به البخارى من بين أصحاب الكتب [الستة] (١) ، سوى النسائى فى اليوم والليلة ، من حديث عبد الوارث (٢) .

ثم رواه عن إسحاق ـ هو ابن منصور ـ عن عبد اللّه بن بكر (٣) السهمى ، عن حُمَيد ، عن أنس ، بنحو ذلك (٤) ، وقال : « رجلان » انفرد به من هذا الوجه . وقد تقدم فى أفراد مسلم من حديث سليمان بن المغيرة ، عن ثابت ، عن أنس .

وقال ابن أبى حاتم (٥) : حدثنا أبى ، حدثنا أبو المظفر ، حدثنا جعفر بن سليمان ، عن الجعد ـ أبى عثمان اليَشْكُرِى ـ عن أنس بن مالك قال : أعرس رسول اللّه ﷺ ببعض نسائه ، فصنعت أم سليم حيسا ثم وضعته (٦) فى تَوْر ، فقالت : اذهب بهذا إلى رسول اللّه ﷺ ، وأقرئه منى السلام ، وأخبره أن هذا منا له قليل ـ قال أنس : والناس يومئذ فى جَهد ـ فجئت به فقلت : يا رسول اللّه ، بعثت بهذا أم سُلَيم إليك ، وهى تقرئك السلام ، وتقول : أخبره أن هذا منا له قليل ، فنظر إليه ثم قال: « ضعه » فوَضَعته فى ناحية البيت ، ثم قال : « اذهب فادع لى فلاناً وفلاناً » . وسمى رجالا كثيراً ، وقال : «ومن لقيتَ من [المسلمين » . فدعوتُ مَن قال لى ، ومن لقيت من] (٧) المسلمين ، فجئت والبيت والصُفَّة والحجرة مَلأى من الناس ـ فقلت : يا أبا عثمان ، كم كانوا ؟ فقال : كانوا زهاء ثلاثمائة ـ قال أنس : فقال لى رسول اللّه ﷺ : « جئْ به » . فجئتُ به إليه ، فوضع يده عليه ، ودعا وقال : « ما شاء اللّه » . ثم قال : « ليتَحلَّق عَشَرة عَشَرة ، وليسموا (٨) ، وليأكل كل إنسان مما يليه » . فجعلوا يسمون ويأكلون ، حتى أكلوا كلهم . فقال لى رسول اللّه ﷺ : « ارفعه » . قال : فجئتُ فأخذت التَّورَ فما أدرى أهو حين وضعت أكثر أم حين أخذت ؟ قال : وتخلف رجال يتحدثون فى بيت رسول اللّه ، وزَوجُ رسول اللّه ﷺ التى دخل بها معهم مُولّية وجهها إلى الحائط ، فأطالوا الحديث ، فشقوا على رسول اللّه ﷺ ، وكان أشد الناس حياء ـ ولو أعلموا (٩) كان ذلك عليهم عزيزاً ـ فقام رسول اللّه ﷺ فخرج فسلم على حُجَره وعلى نسائه ، فلما رأوه قد جاء ظنوا أنهم قد ثَقَّلوا عليه ، ابتدروا الباب فخرجوا ، وجاء رسول اللّه ﷺ حتى أرخى الستر ، ودخل البيت وأنا فى الحجرة ، فمكث رسولُ اللّه ﷺ فى بيته يسيراً ، وأنزل اللّه عليه القرآن ، فخرج وهو يقرأ هذه الآية : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا** ﴾ إلى قوله : ﴿ **بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا** ﴾ . قال أنس : فقرأهن عَلَىّ قبل الناس ، فأنا أحْدثُ الناس بهن عهداً .

---

(١) زيادة من ت ، ف ، أ .

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٧٩٣) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠١٠١) .

(٣) فى أ : « بكير » .

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٧٩٤) .

(٥) فى ت : « روى مسلم والنسائى » .

(٦) فى ت ، ف : « جعلت » .

(٧) زيادة من ف ، أ .

(٨) فى ت ، ف ، أ : « ويسموا » .

(٩) فى ت ، ف ، أ : « علموا » .

وقد رواه مسلم والترمذى والنسائى جميعاً، عن قتيبة، عن جعفر بن سليمان، به [١]. وقال الترمذى: حسن صحيح وعَلَّقه البخارى فى كتاب النكاح فقال:

وقال إبراهيم بن طَهْمَان، عن الجَعْد أبى عثمان، عن أنس، فذكر نحوه [٢].

ورواه مسلم أيضاً عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن الجعد، به [٣]. وقد روى هذا الحديث عبد الله بن المبارك، عن شَرِيك، عن بيان بن بشر، عن أنس، بنحوه.

وروى [٤] البخارى والترمذى، من طريقين آخرين، عن بَيَان بن بشر الأحْمَسِى الكوفى، عن أنس، بنحوه [٥].

ورواه ابن أبى حاتم أيضاً، من حديث أبى نَضْرَة العبدى، عن أنس بن مالك، بنحوه [٦]. ورواه ابن جرير من حديث عمرو بن سعيد، ومن حديث الزهرى، عن أنس، بنحو ذلك [٧].

وقال الإمام أحمد: حدثنا بَهْزُ وهاشم بن القاسم قالا: حدثنا سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس قال: لما انقضت عدة زينب قال رسول الله ﷺ: « اذهب فاذكرها على ». قال: فانطلق زيد حتى أتاها، قال: وهى تُخَمِّر عجينها، فلما رأيتُها عَظُمت فى صدرى... وذكر تمام الحديث، كما قدمناه عند قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾، وزاد فى آخره بعد قوله: وَوَعَظ القوم بما وعظوا به. قال هاشم فى حديثه: ﴿لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾.

وقد أخرجه مسلم والنسائى، من حديث سليمان بن المغيرة [٨]، به [٩].

وقال [١٠] ابن جرير: حدثنى أحمد بن عبد الرحمن ـ ابن أخى ابن وهب ـ حدثنى عمى عبد الله ابن وهب، حدثنى يونس عن الزهرى، عن عُرْوَة، عن عائشة قالت: إن أزواج رسول الله ﷺ كُنَّ يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المناصع ـ وهو صعيد أفيح ـ وكان عمر يقول لرسول الله ﷺ: احجب نساءك. فلم يكن رسول الله ﷺ ليفعل، فخرجت سودة بنت زمعة زوج النبى ﷺ، وكانت امرأة طويلة، فناداها عمر بصوته الأعلى: قد عرفناك يا سودة. حرصاً أن [١١] ينزل الحجاب، قالت [١٢]: فأنزل الله الحجاب [١٣].

---

(١) صحيح مسلم برقم (١٤٢٨) وسنن الترمذى برقم (٣٢١٨) وسنن النسائى (٦/ ١٣٦).
(٢) صحيح البخارى برقم (٥١٦٣).
(٣) صحيح مسلم برقم (١٤٢٨).
(٤) فى أ: « ورواه ».
(٥) صحيح البخارى برقم (٥١٧٠) وسنن الترمذى برقم (٣٢١٩).
(٦) فى أ: « بنحوه ولم يخرجوه ».
(٧) تفسير الطبرى (٢٢/ ٢٧).
(٨) فى هـ، أ: « جعفر بن سليمان »، والتصويب من ت، ف، ومسلم.
(٩) المسند (٣/ ١٩٥) وصحيح مسلم برقم (١٤٢٨) وسنن النسائى (٦/ ٧٩).
(١٠) فى ت: « وروى ».
(١١) فى ف، أ: « حرصا أن أن ».
(١٢) فى ت: « قال ».
(١٣) تفسير الطبرى (٢٢/ ٢٨).

هكذا وقع فى هذه الرواية. والمشهور أن هذا كان بعد نزول الحجاب، كما رواه الإمام أحمد والبخارى ومسلم، من حديث هشام بن عُرْوَة، عن عائشة، رضى اللّه عنها، قالت: خرجت سودة بعد ما ضرب الحجاب لحاجتها، وكانت امرأة جَسيمةً لا تَخفَى على من يعرفها، فرآها عمر بن الخطاب فقال: يا سودة، أما واللّه ما تَخْفَين علينا، فانظرى كيف تخرجين؟ قالت: فانكفأت راجعة، ورسولُ اللّه ﷺ فى بيتى، وإنه ليتعشى، وفى يده عَرْق، فدخلت فقالت: يا رسول اللّه، إنى خرجت لبعض حاجتى، فقال لى عمر كذا وكذا. قالت: فأوحى اللّه إليه، ثم رُفعَ عنه وإن العَرْق فى يده، ما وضعه. فقال: « إنه قد أذنَ لكن أن تخرجن لحاجتكن ». لفظ البخارى [(١)].

فقوله: ﴿ لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِى ﴾: حَظَر على المؤمنين أن يدخلوا منازل رسول اللّه ﷺ بغير إذن، كما كانوا قبل ذلك يصنعون فى بيوتهم فى الجاهلية وابتداء الإسلام، حتى غار اللّه لهذه الأمة، فأمرهم بذلك، وذلك من إكرامه تعالى هذه الأمة؛ ولهذا قال رسول اللّه ﷺ: « إياكم والدخول على النساء » [(٢)].

ثم استثنى من ذلك فقال: ﴿ إلا أن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ ﴾.

قال مجاهد وقتادة وغيرهما: أى غير متحينين نضجه واستواءه، أى: لا ترقبوا الطعام حتى [(٣)] إذا قارب الاستواء تعرضتم للدخول، فإن هذا يكرهه اللّه ويذمه. وهذا دليل على تحريم التطفيل، وهو الذى تسميه العرب الضيفن، وقد صنف الخطيب البغدادى فى ذلك كتابا فى ذم الطفيليين. وذكر من أخبارهم أشياء يطول إيرادها.

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا ﴾. وفى صحيح مسلم عن ابن عمر، رضى اللّه عنهما، قال: قال رسول اللّه ﷺ: « إذا دعا أحدكم أخاه فَلْيجب، عُرساً كان أو غيره » [(٤)]. وأصله فى الصحيحين وفى الصحيح أيضا، عن رسول اللّه ﷺ: « لو دُعيت إلى ذراع لأجبت، ولو أهدى إلىَّ كُرَاع لقبلت، فإذا فَرَغتم من الذى دُعيتم إليه فخففوا عن أهل المنزل، وانتشروا فى الأرض» [(٥)]؛ ولهذا قال: ﴿ وَلا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ﴾، أى: كما وقع لأولئك النفر الثلاثة الذين استرسل بهم الحديث، ونسُوا أنفسهم، حتى شَقّ ذلك على رسول اللّه ﷺ، كما قال [اللّه] [(٦)] تعالى: ﴿ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُم [(٧)] ﴾.

وقيل: المراد أن دخولكم منزله بغير إذنه [(٨)] كان يشق عليه ويتأذى به، لكن كان يكره أن ينهاهم عن ذلك من شدة حيائه، عليه السلام، حتى أنزل اللّه عليه النهى عن ذلك؛ ولهذا قال: ﴿ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِ ﴾ أى: ولهذا نهاكم عن ذلك وزجَركم عنه.

---

(١) المسند (٦/٥٦) وصحيح البخارى برقم (٤٧٩٥) وصحيح مسلم برقم (٢١٧٠).
(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٢٣٢) ومسلم فى صحيحه برقم (٢١٧٢) من حديث عقبة بن عامر، رضى اللّه عنه.
(٣) فى أ: « الطعام إذا طبخ حتى ».
(٤) صحيح مسلم برقم (١٤٢٩).
(٥) فى صحيح البخارى برقم (٢٥٦٨) من حديث أبى هريرة، رضى اللّه عنه.
(٦) زيادة من ف.
(٧) بعدها فى أ: ﴿ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ﴾
(٨) فى أ: « إذن ».

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾أى : وكما نهيتكم عن الدخول عليهن ، كذلك لا تنظروا إليهن بالكلية ، ولو كان لأحدكم (١) حاجة يريد تناولها منهن فلا ينظر إليهن، ولا يسألهن حاجة إلا من وراء حجاب .

وقال (٢) ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا ابن أبى عمر ، حدثنا سفيان ، عن مِسْعَر ، عن موسى ابن أبى كثير ، عن مجاهد ، عن عائشة قالت : كنت آكل مع النبى (٣) ﷺ حَيْساً فى قَعْب ، فمر عمر فدعاه ، فأصابت إصبعه إصبعى ، فقال : حَسٍّ (٤) ـ أو : أوّه ـ لو أطاع فيكن ما رأتك (٥) عين . فنزل الحجاب (٦) .

﴿ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ أى : هذا الذى أمرتكم به وشرعته لكم من الحجاب أطهر وأطيب .

وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾: قال (٧) ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا محمد بن أبى حماد، حدثنا مِهْرَان، عن سفيان ، عن داود بن أبى هند ، عن عكْرِمة ، عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ ﴾ قال : نزلت فى رَجُل هَمّ أن يتزوج بعض نساء النبى ﷺ . قال رجل لسفيان : أهى عائشة؟ قال : قد ذكروا ذاك .

وكذا قال مقاتل بن حَيَّان ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وذكر بسنده عن السدى أن الذى عزم على ذلك طلحة بن عبيد الله ، رضى الله عنه ، حتى نزل التنبيه على تحريم ذلك ؛ ولهذا أجمع العلماء قاطبة على أن من توفى عنها رسول الله ﷺ من أزواجه (٨) أنه يحرم على غيره تزويجها من بعده ؛ لأنهن أزواجه فى الدنيا والآخرة وأمهات المؤمنين ، كما تقدم . واختلفوا فيمن دخل بها ثم طلقها فى حياته (٩) هل يحل لغيره أن يتزوجها ؟ على قولين ، مأخذهما : هل دخلت هذه فى عموم قوله: ﴿ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أم لا ؟ فأما من تزوجها ثم طلقها قبل أن يدخل بها ، فما نعلم فى حلها لغيره ـ والحالة هذه ـ نزاعا ، والله أعلم .

وقال (١٠) ابن جرير : حدثنى [محمد] (١١) بن المثنى ، حدثنا عبد الوهاب ، حدثنا داود ، عن عامر ؛ أن نبى الله ﷺ مات وقد ملك قيلة بنت (١٢) الأشعث ـ يعنى : ابن قيس ـ فتزوجها عكرمة بن أبى جهل بعد ذلك ، فشق ذلك على أبى بكر مشقة شديدة ، فقال له عمر : يا خليفة رسول الله ، إنها ليست من نسائه ، إنها لم يُخَيّرها رسول الله ﷺ ولم يحجبها ، وقد برأها الله منه بالردة التى ارتدت

---

(١) فى ت : « لأحدهم » . (٢) فى ت : « وروى » . (٣) فى ت : « رسول الله » .
(٤) فى هـ: « خير » ، وفى ت ، ف ، أ : « حسن » ، والمثبت من النهاية لابن الأثير ١/ ٣٨٥ .
(٥) فى ت ، أ : « ما رأتكن » .
(٦) ورواه النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤١٩) من طريق زكريا بن يحيى عن ابن أبى عمر ، به .
(٧) فى ت : « روى » . (٨) فى ف ، أ : « زوجاته » . (٩) فى ت : « حياتها » .
(١٠) فى ت : « وروى » . (١١) زيادة من ف ، أ ، والطبرى. (١٢) فى أ : « قتيلة ابنة » .

مع قومها. قال: فاطمأن أبو بكر، رضى الله عنهما (١)، وسكن (٢).

وقد عظم تبارك وتعالى ذلك، وشدد فيه وتوعد عليه بقوله: ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيماً﴾، ثم قال: ﴿إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ أى: مهما تكنه ضمائركم وتنطوى عليه سرائركم، فإن الله (٣) يعلمه؛ فإنه لا تخفى (٤) عليه خافية، ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

﴿لا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلا أَبْنَائِهِنَّ وَلا إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلا نِسَائِهِنَّ وَلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً (٥٥)﴾.

لما أمر تعالى النساء بالحجاب من الأجانب، بيَّن أن هؤلاء الأقارب لا يجب الاحتجاب منهم، كما استثناهم فى سورة النور، عند قوله: ﴿وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ إلى آخرها [النور: ٣١]، وفيها زيادات على هذه. وقد تقدم تفسيرها والكلام عليها بما أغنى عن إعادته. وقد سأل بعض السلف فقال: لِمَ لَمْ يذكر العم والخال فى هاتين الآيتين؟ فأجاب عكرمة والشعبى: بأنهما لم يذكرا؛ لأنهما قد يصفان ذلك لبنيهما.

قال ابن جرير: حدثنى محمد بن المثنى، حدثنا حجاج بن منْهال، حدثنا حماد، حدثنا داود، عن الشعبى وعكرمة فى قوله: ﴿لا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلا أَبْنَائِهِنَّ وَلا إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلا نِسَائِهِنَّ وَلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ قلت: ما شأن العم والخال لم يذكرا؟ قالا: هما(٥) ينعتانها لأبنائهما. وكرها أن تضع خمارها عند خالها وعمها.

وقوله: ﴿وَلا نِسَائِهِنَّ﴾: يعنى بذلك: عَدَم الاحتجاب من النساء المؤمنات.

وقوله: ﴿وَلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾: يعنى به: أرقاءَهن من الذكور والإناث، كما تقدم التنبيه عليه، وإيراد الحديث فيه (٦).

قال سعيد بن المسيب: إنما يعنى به: الإماء فقط. رواه ابن أبى حاتم.

وقوله: ﴿وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً﴾ أى: واخشينه فى الخلوة والعلانية، فإنه شهيد على كل شىء، لا تخفى عليه خافية، فراقبن الرقيب.

---

(١) فى ت، ف: «عنه».
(٢) تفسير الطبرى (٢٢/٢٩).
(٣) فى ف: «فإنه». (٤) فى ت، ف: «لا يخفى». (٥) فى أ: «لأنهما».
(٦) تقدم تخريج الحديث عند تفسير الآية: ٣١ من سورة النور.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا(٥٦)﴾.

قال البخارى : قال أبو العالية :صلاة اللّه :ثناؤه عليه عند الملائكة ،وصلاة الملائكة :الدعاء . وقال ابن عباس :يصلون :يبرّكون . هكذا علقه البخارى عنهما (١) .

وقد رواه أبو جعفر الرازى ،عن الربيع بن أنس ،عن أبى العالية كذلك .وروى مثله عن الربيع أيضاً .وروى على بن أبى طلحة ،عن ابن عباس كما قاله سواء ،رواهما ابن أبى حاتم .

وقال أبو عيسى الترمذى :وروى عن سفيان الثورى وغير واحد من أهل العلم قالوا :صلاة الرب: الرحمة ،وصلاة الملائكة :الاستغفار .

ثم قال ابن أبى حاتم : حدثنا عمرو الأوْدىّ ،حدثنا وَكيع ،عن الأعمش ،عن عمرو بن مرة ، قال الأعمش عن عطاء (٢) بن أبى رباح :**﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾** قال : صلاته تبارك وتعالى :سبُّوح قدوس ،سبقت رحمتى غضبى .

والمقصود من هذه الآية :أن اللّه سبحانه أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده فى الملأ الأعلى ،بأنه يثنى عليه عند الملائكة المقربين ،وأن الملائكة تصلى عليه .ثم أمر تعالى أهل العالم السفلى بالصلاة والتسليم عليه ،ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوى والسفلى جميعاً .

وقد قال (٣) ابن أبى حاتم :حدثنا على بن الحسين ،حدثنا أحمد بن عبد الرحمن ،حدثنى أبى ، عن أبيه ،عن أشعث بن إسحاق ،عن جعفر ـ يعنى :ابن المغيرة ـ عن سعيد بن جبير ،عن ابن عباس: أن بنى إسرائيل قالوا لموسى ،عليه السلام :هل يصلى ربك ؟ فناداه ربه :يا موسى ،سألوك: «هل يصلى ربك ؟» فقل : نعم ،إنما أصلى أنا وملائكتى على أنبيائى ورسلى . فأنزل اللّه،عز وجل،على نبيه ﷺ : **﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾**.

وقد أخبر أنه ،سبحانه وتعالى (٤) ،يصلى على عباده المؤمنين فى قوله تعالى :**﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا . وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً . هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾** [الأحزاب : ٤١ ـ ٤٣] .وقال تعالى :**﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (٥). الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾** [البقرة :١٥٥ ـ ١٥٧] .وفى الحديث : « إن اللّه وملائكته يصلون على ميامن الصفوف » .وفى

(١) صحيح البخارى (٨/ ٥٣٢) « فتح » .
(٢) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بسنده عن عطاء » .
(٣) فى ت : « وقد روى » .
(٤) فى ت : « وقد أخبر اللّه تعالى » ،وفى ف :« وقد أخبر أنه سبحانه بأنه » .
(٥) فى ت : « المؤمنين » وهو خطأ .

الحديث الآخر: « اللهم، صل على آل أبى أوفى». وقال رسول الله ﷺ لامرأة جابر ـ وقد سألته أن يصلى عليها وعلى زوجها ـ: « صلى الله عليك، وعلى زوجك [١] » [٢].

وقد جاءت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ بالأمر بالصلاة عليه، وكيفية الصلاة عليه، ونحن نذكر منها إن شاء الله تعالى ما تيسر، والله المستعان.

قال البخارى ـ عند تفسير هذه الآية [٣] ـ: حدثنا سعيد بن يحيى بن سعيد، حدثنا أبى، عن مِسْعَر، عن الحكم، عن ابن أبى ليلى، عن كعب بن عُجْرَة قال: قيل: يا رسول الله، أما السلام عليك فقد عرفناه، فكيف الصلاة؟ فقال: « قولوا: اللهم، صل على محمد، وعلى آل محمد، [كما صليت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد. اللهم، بارك على محمد وعلى آل محمد] [٤] كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد » [٥].

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة [٦]، عن الحكم قال: سمعت ابن أبى ليلى قال: لقينى كعب بن عُجْرَةَ فقال: ألا أهدى لك هدية؟ خرج علينا رسول الله ﷺ فقلنا: يا رسول الله، قد علمنا ـ أو: عرفنا ـ كيف السلام [٧] عليك، فكيف الصلاة؟ قال: « قولوا: اللهم، صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على [آل] [٨] إبراهيم إنك حميد مجيد. اللّهم، بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد ».

وهذا الحديث قد أخرجه الجماعة في كتبهم، من طرق متعددة، عن الحكم ـ وهو ابن عتبة [٩] ـ زاد البخارى: وعبد الله بن عيسى، كلاهما عن عبد الرحمن بن أبى ليلى، فذكره [١٠].

وقال ابن أبى حاتم [١١]: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا هُشَيْم بن بُشَير، عن يزيد بن أبى زياد، حدثنا عبد الرحمن بن أبى ليلى، عن كعب بن عُجْرَة قال: لما نزلت: ﴿**إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾. قال: قلنا: يا رسول الله، قد علمنا السلام[١٢]، فكيف الصلاة عليك؟ قال: « قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد. وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما

---

(١) فى ف، أ: « وعلى آل زوجك ».

(٢) رواه أحمد فى مسنده (٣/٣٩٨) وابن حبان فى صحيحه برقم (١٩٥١) « موارد » من طريق الأسود بن قيس عن نبيح العنزى عن جابر رضى الله عنه.

(٣) فى ت: « روى البخارى فى صحيحه ».

(٤) زيادة من ت، ف، والبخارى.

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٧٩٧).

(٦) فى ت: « وروى الإمام أحمد بإسناده ».

(٧) فى أ: « نسلم ».

(٨) زيادة من ت، ف، والمسند.

(٩) فى أ: « عيينة ».

(١٠) المسند (٤/٢٤١) وصحيح البخارى برقم (٣٣٧٠) وبرقم (٦٣٥٧) وبرقم (٤٧٩٧) وصحيح مسلم برقم (٤٠٦) وسنن أبى داود برقم (٩٧٦) وسنن الترمذى برقم (٤٨٣) وسنن النسائى (٣/٤٧) وسنن ابن ماجة برقم (٩٠٤).

(١١) فى أ: « وقال البخارى ».

(١٢) فى ت، ف، أ: « السلام عليك ».

باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم .إنك حميد مجيد » .وكان عبد الرحمن بن أبى ليلى يقول : وعلينا معهم .

ورواه الترمذى بهذه الزيادة (١) .

ومعنى قولهم : « أما السلام عليك فقد عرفناه » : هو الذى فى التشهد الذى كان يعلمهم إياه ، كما كان يعلمهم السورة من القرآن ،وفيه :« السلام عليك أيها النبى ورحمة اللّه وبركاته » .

حديث آخر :قال (٢) البخارى :حدثنا عبد اللّه بن يوسف ،حدثنا الليث ،عن ابن (٣) الهاد ، عن عبد اللّه بن خَبَّاب ،عن أبى سعيد الخدرى ،رضى اللّه عنه ،قال : قلنا : يا رسول اللّه ،هذا السلام(٤)،فكيف نصلى عليك ؟قال:«قولوا: اللهم صل على محمد عبدك ورسولك ،كما صليت على آل إبراهيم .وبارك على محمد وعلى آل محمد ،كما باركت على آل إبراهيم » . [وفى رواية] (٥) : قال أبو صالح ، عن الليث :« على محمد وعلى آل محمد ،كما باركت على آل إبراهيم» .

حدثنا إبراهيم بن حمزة ،حدثنا ابن أبى حازم والدَّرَاوَرْدى،عن يزيد ـ يعنى:ابن الهاد ـ قال:«كما صليت على إبراهيم،وبارك على محمد وآل محمد،كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم».

وأخرجه النسائى وابن ماجه ،من حديث ابن الهاد ، به(٦) .

حديث آخر : قال (٧) الإمام أحمد : قرأت على عبد الرحمن :مالك ،عن عبد اللّه بن أبى بكر، عن أبيه ،عن عمرو بن سُلَيم أنه قال :أخبرنى أبو حميد الساعدى أنهم قالوا :يا رسول اللّه ، كيف نصلى عليك ؟ قال : « قولوا : اللهم » صل على محمد وأزواجه وذريته ،كما صليت على [آل] (٨) إبراهيم ،وبارك على محمد وأزواجه وذريته ،كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد » .

وقد أخرجه بقية الجماعة ،سوى الترمذى ،من حديث مالك ،به (٩) .

حديث آخر :قال مسلم :حدثنا يحيى التميمى قال :قرأت على مالك ،عن نُعَيم بن عبد اللّه المُجمِّر ،أخبرنى محمد بن عبد اللّه بن زيد الأنصارى ـ قال :وعبد اللّه بن زيد هو الذى كان أُرِىَ النداء بالصلاة ـ أخبره عن أبى مسعود الأنصارى ـ قال: أتانا رسول اللّه ﷺ ونحن فى مجلس سعد ابن عُبَادة ،فقال له بَشير بن سعد: أمرنا اللّه أن نصلى عليك [يا رسول اللّه] (١٠) ،فكيف نصلى عليك؟ قال : فسكت رسول اللّه ﷺ حتى تمنينا أنه لم يسأله ،ثم قال رسول اللّه ﷺ :« قولوا : اللّهم صل على محمد ،وعلى آل محمد ،كما صليت على آل إبراهيم ،وبارك على محمد وعلى آل محمد ،كما باركت على آل إبراهيم فى العالمين ،إنك حميد مجيد ،والسلام كما قد عَلمتم » .

وقد رواه أبو داود ،والترمذى ،والنسائى من حديث مالك ،به (١١) .وقال الترمذى :حسن

(١) سنن الترمذى برقم (٤٨٣) وقال : « حديث حسن صحيح »
(٢) فى ت : « روى » . (٣) فى أ : « أبى » . (٤) فى أ :« هذا السلام عليك » .
(٥) زيادة من ت .
(٦) صحيح البخارى برقم (٤٧٩٨) .
(٧) فى ت : « وروى » .
(٨) زيادة من ت ، ف ، أ ، والمسند .
(٩) المسند (٥/٤٢٤) وصحيح البخارى برقم (٣٣٦٩) وصحيح مسلم برقم (٤٠٧) وسنن أبى داود برقم (٩٧٩) وسنن النسائى (٣/٤٩) وسنن ابن ماجة برقم (٩٠٥) .
(١٠) زيادة من ت ، ف ، أ ، ومسلم .
(١١) صحيح مسلم برقم (٤٠٥) وسنن أبى داود برقم (٩٨٠) وسنن الترمذى برقم (٣٢٢٠) وسنن النسائى (٣/٤٥) .

صحيح .

وروى الإمام أحمد ، وأبو داود ، والنسائى ، وابن خُزَيمة ، وابن حبّان ، والحاكم فى مستدركه ، من حديث محمد بن إسحاق ، عن محمد بن إبراهيم التيمى ، عن محمد بن عبد الله بن زيد بن عبد ربه ، عن أبى مسعود البدرى أنهم قالوا: يا رسول الله ، أما السلام فقد عرفناه ، فكيف نصلى عليك إذا نحن صلينا فى صلاتنا ؟ فقال : « قولوا : اللّهم ، صَلِّ على محمد وعلى آل محمد . . . » وذكره [١] .

ورواه الشافعى ، رحمه الله ، فى مسنده ، عن أبى هريرة ، بمثله [٢]. ومن هاهنا ذهب الشافعى، رحمه الله ، إلى أنه يجب على المصلى أن يصلى على رسول الله ﷺ فى التشهد الأخير ، فإن تركه لم تصح صلاته . وقد شَرَع بعض المتأخرين من المالكية وغيرهم يُشنع على الإمام الشافعى فى اشتراطه ذلك فى الصلاة ، ويزعم أنه قد تفرد بذلك ، وحكى الإجماع على خلافه أبو جعفر الطبرى والطحاوى والخطابى وغيرهم ، فيما نقله القاضى عياض . وقد تَعَسَّف القائل [٣] فى رده على الشافعى ، وتكلف فى دعواه الإجماع فى ذلك ، [وقال ما لم يحط به علما] [٤]، فإنه قد روينا وجوب ذلك والأمر بالصلاة على رسول الله ﷺ فى الصلاة كما هو ظاهر الآية ، ومفسر [٥] بهذا الحديث عن جماعة من الصحابة ، منهم: ابن مسعود ، وأبو مسعود البدرى ، وجابر بن عبد الله ، ومن التابعين : الشعبى ، وأبو جعفر الباقر ، ومقاتل بن حيان . وإليه ذهب الشافعى ، لا خلاف عنه فى ذلك ولا بين [٦] أصحابه أيضا ، وإليه ذهب [الإمام] [٧] أحمد أخيرا فيما حكاه عنه أبو زُرْعَة الدمشقى ، به. وبه قال إسحاق ابن راهويه ، والفقيه الإمام محمد بن إبراهيم المعروف بابن الموّاز المالكى ، رحمهم الله ، حتى إن بعض أئمة الحنابلة أوجب أن يقال فى الصلاة عليه ﷺ كما علمهم أن يقولوا لما سألوه ، وحتى إن بعض أصحابنا أوجب الصلاة على الآل ممن [٨] حكاه البَنْدَنيجِىّ ، وسُلَيم الرازى ، وصاحبه نصر بن إبراهيم المقدسى ، ونقله إمام الحرمين وصاحبه الغزالى قولا عن الشافعى . والصحيح أنه وجه ، على أن الجمهور على خلافه ، وحكوا الإجماع على خلافه ، وللقول بوجوبه ظواهر الحديث ، والله أعلم .

والغَرَض أن الشافعى ، رحمه الله ، لقوله [٩] بوجوب الصلاة على النبى ﷺ فى الصلاة ـ سَلَفٌ وَخَلَفٌ [١٠] كما تقدم ، لله الحمد والمنة ، فلا إجماع على خلافه فى هذه المسألة لا قديما ولا حديثا ، والله أعلم .

ومما يؤيد ذلك : الحديث الآخر الذى رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذى ـ وصححه ـ والنسائى وابن خزيمة ، وابن حبان فى صحيحيهما ، من رواية حَيْوة بن شُرَيْح المصرى ، عن أبى هانئ حميد بن

---

(١) المسند (٤/١١٩) وسنن أبى داود برقم (٩٨١) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٩٨٧٧) والمستدرك (١/٦٦٨) وقال الحاكم : « هذا حديث صحيح على شرط مسلم » .

(٢) مسند الشافعى برقم (٢٦٨) « بدائع المنن » ورواه النسائى فى السنن الكبرى برقم (٩٨٧٥) من طريق داود بن قيس ، عن نعيم بن عبد الله ، عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٣) فى أ : « تعسف هذا القائل » .
(٤) زيادة من ف ، أ .
(٥) فى ت : « ومشعر » .
(٦) فى أ : « من » .
(٧) زيادة من ت ، ف ، أ .
(٨) فى ف : « فيما » وفى أ : « فيمن » .
(٩) فى أ : « يقول » .
(١٠) فى أ : « سلفًا وخلفًا » .

هانئ ، عن عمرو بن مالك أبى على الجَنْبى (١) ، عن فضالة بن عبيد ، رضى اللّه عنه ، قال : سمع رسول اللّه ﷺ رجلا يدعو فى صلاته ، لم يمجد اللّه ولم يصل على النبى ﷺ ، فقال رسول اللّه ﷺ : « عَجل هذا » . ثم دعاه فقال له ولغيره : « إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد اللّه ، عز وجل ، والثناء عليه ، ثم ليصل على النبى ثم ليدعُ [بعد] (٢) بما شاء » (٣) .

وكذا الحديث الذى رواه ابن ماجه ، من رواية عبد المهيمن ابن عباس بن سهل بن سعد الساعدى ، عن أبيه ، عن جده ، عن رسول اللّه ﷺ أنه قال : « لا صلاة لمن لا وضوء له ، ولا وضوء لمن لم يذكر اسم اللّه عليه ، ولا صلاة لمن لم يصل على النبى ، ولا صلاة لمن لم يحب الأنصار » (٤) .

ولكن عبد المهيمن هذا متروك . وقد رواه الطبرانى من رواية أخيه « أبى بن عباس » ، ولكن فى ذلك نظر (٥) ، وإنما يعرف من رواية « عبد المهيمن » ، واللّه أعلم .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا إسماعيل ، عن أبى داود الأعمى ، عن بُرَيدة قال : قلنا : يا رسول اللّه ، قد علمنا كيف نسلم عليك ، فكيف نصلى عليك ؟ قال : « قولوا : اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على محمد وعلى آل محمد ، كما جعلتها على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد » .

أبو داود الأعمى اسمه : نفيع بن الحارث ، متروك (٦) .

حديث آخر موقوف : رويناه من طريق سعيد بن منصور وزيد بن الحباب ويزيد بن هارون ، ثلاثتهم عن نوح بن قيس : حدثنا سلامة الكندى : أن عليا ، رضى اللّه عنه ، كان يعلم الناس هذا الدعاء : اللّهم داحى المدْحُوّات ، وبارئ المسموكات ، وجَبَّار القلوب على فطْرَتها شقيها وسعيدها . اجعل شرائف صلواتك ، ونوامى بركاتك ، ورأفة تحننك ، على محمد عبدك ورسولك ، الخاتم لما سبق ، والفاتح لما أغلق ، والمعلن الحق بالحق ، والدامغ جيشات الأباطيل ، كما حُمِّل فاضطلع بأمرك لطاعتك ، مستوفزا فى مرضاتك ، غير نكل فى قَدَم ، ولا واهن فى عزم ، واعيا لوحيك ، حافظا لعهدك ، ماضيا على نفاذ أمرك ، حتى أورى قبسا لقابس ، آلاء اللّه تصل بأهله أسبابه ، به هديت القلوب بعد خوضات الفتن والإثم ، [وأقام] (٧) مُوضحات الأعلام ، ومُنِيرات الإسلام ونائرات الأحكام ، فهو أمينك المأمون ، وخازن علمك المخزون ، وشهيدك يوم الدين ، وبَعيثُك نعمة ، ورسولك بالحق رحمة . اللهم افسح له مُفسحَات فى عدلك ، واجزه مضاعفات الخير من فضلك . مهنَّآت له غير مكدرات ، من فوز ثوابك المعلول وجزيل عطائك المجمول . اللّهم ، أعل على بناء البانين

---

(١) فى أ : « الحسينى » .

(٢) زيادة من ف ، أ ، والمسند .

(٣) المسند (٦/ ١٨) وسنن أبى داود برقم (١٤٨١) وسنن الترمذى برقم (٣٤٧٧) وسنن النسائى (٣/ ٤٤) .

(٤) سنن ابن ماجة برقم (٤٠٠) وقال البوصيرى فى الزوائد (١/ ١٦٧) : « هذا إسناد ضعيف لاتفاقهم على ضعف عبد المهيمن » .

(٥) المعجم الكبير للطبرانى (٦/ ١٢١) .

(٦) المسند (٥/ ٣٥٣) .

(٧) زيادة من ت ، ف .

بنيانه[١]، وأكرم مثواه لديك ونزله . وأتمم [٢] له نوره ، واجزه من ابتعاثك له مقبول الشهادة ، مرضى المقالة ، ذا منطق عدل ، وخُطَّة فصل ، وحجة وبرهان عظيم [٣] .

هذا مشهور من كلام على ، رضى الله عنه ، وقد تكلم عليه ابن قتيبة فى مشكل الحديث ، وكذا أبو الحسين أحمد بن فارس اللغوى فى جزء جمعه فى فضل الصلاة على النبى ﷺ ، إلا أن فى إسناده نظرا .

قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزى : سلامة [٤] الكندى هذا ليس بمعروف ، ولم يدرك عليا[٥]. كذا قال . وقد روى الحافظ أبو القاسم الطبرانى هذا الأثر عن محمد بن على الصائغ ، عن سعيد بن منصور ، حدثنا نوح بن قيس ، عن سلامة الكندى قال: كان على ، رضى الله عنه ، يعلمنا الصلاة على النبى ﷺ فيقول : « اللهم ، داحى المَدْحُوّات » وذكره [٦] .

حديث آخر موقوف : قال ابن ماجه : [حدثنا الحُسَين بن بَيَان] [٧] ، حدثنا زياد بن عبد الله، حدثنا المسعودى ، عن عون بن عبد الله ، عن أبى فَاختة ، عن الأسود بن يزيد [٨] ، عن عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه ، قال : إذا صليتم على رسول الله ﷺ فأحسنوا الصلاة عليه ؛ فإنكم لا تدرون لعل ذلك يُعْرَض عليه . قال: فقالوا له : فَعَلّمنا . قال : قولوا: اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين ، وإمام المتقين ، وخاتم النبيين ، محمد عبدك ورسولك ، إمام الخير وقائد الخير ، ورسول الرحمة . اللّهم ابعثه مقاماً محموداً يَغْبِطُه به الأولون والآخرون ، اللهم صل على محمد [وعلى آل محمد] [٩] ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد . اللهم، بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد[١٠] .

وهذا موقوف ، وقد روى إسماعيل القاضى عن عبد الله بن عمرو ـ أو : عمر ـ على الشك من الراوى قريباً من هذا [١١] .

حديث آخر : قال [١٢] قال ابن جرير : حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا مالك بن إسماعيل ، حدثنا أبو

---

(١) فى أ: « اللهم علِّ بناء الناس بناءه » . (٢) فى أ : « وأتم » .

(٣) رواه أبو نعيم فى عوالى سعيد بن منصور برقم (١٨) فقال : حدثنا سليمان بن أحمد ، حدثنا مسعدة بن سعد ، حدثنا سعيد بن منصور فذكره ، ورواه الحنائى فى الفوائد (١٠/ ١٦٢/ب) ـ كما فى حاشية العوالى ـ من طريق يزيد بن هارون ، به .

(٤) فى ف : « سلام » .

(٥) سلامة الكندى ذكره البخارى فى التاريخ الكبير (٤/ ١٩٥) وابن أبى حاتم فى الجرح والتعديل (٤/ ٣٠٠) وأشار ابن أبى حاتم إلى هذا الحديث وقال : « مرسل » .

(٦) المعجم الأوسط برقم (٤٦٥٣) « مجمع البحرين » لكن فيه : « حدثنا مسعدة بن سعد ، حدثنا سعيد بن منصور » فلعل الحافظ نقله هنا من مسند العشرة .

(٧) زيادة من ت ، ف ، وابن ماجه . (٨) فى ت : « وروى ابن ماجة بإسناده » .

(٩) زيادة من ت ، ف ، وابن ماجة .

(١٠) سنن ابن ماجة برقم (٩٠٦) وقال البوصيرى فى الزوائد (١/ ٣١١) : « هذا إسناد رجاله ثقات إلا أن المسعودى واسمه عبد الرحمن بن عتبة بن مسعود اختلط بآخره ، ولم يتميز حديثه الأول بالآخر ، فاستحق الترك . قاله ابن حبان » .

(١١) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٦٢) .

(١٢) فى ت : « وروى » .

إسرائيل، عن يونس بن خبّاب قال: خطبنا بفارس فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾، فقال: أنبأنى من سمع ابن عباس يقول: هكذا أنزل. فقلنا ـ أو: قالوا ـ: يا رسول الله، عَلمنا السلام عليك، فكيف الصلاة عليك؟ فقال: «اللهم، صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، إنك حميد مجيد، وارحم محمداً وآل محمد، كما رحمت آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، [وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم، إنك حميد مجيد](١)» (٢).

فيستدل بهذا الحديث من ذهب إلى جواز الترحم على النبى ﷺ، كما هو قول الجمهور: ويعضده حديث الأعرابى الذى قال: اللهم، ارحمنى ومحمداً، ولا ترحم معنا أحداً. فقال رسول الله ﷺ: «لقد حجرت (٣) واسعاً».

وحكى القاضى عياض عن جمهور المالكية منعه، قال: وأجازه أبو محمد بن أبى زيد.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، أخبرنا شعبة، عن عاصم بن عبيد الله(٤) قال: سمعت عبد الله بن عامر بن ربيعة يحدث عن أبيه قال: سمعت النبى (٥) ﷺ يقول: «من صلى على صلاة لم تزل الملائكة تصلى عليه ما صلى على، فَلْيُقِلَّ عبد من ذلك أو ليكثر».

ورواه ابن ماجه، من حديث شعبة، به (٦).

حديث آخر: قال (٧) الإمام أحمد: حدثنا أبو سلمة منصور بن سلمة الخزاعى، ويونس ـ هو ابن محمد ـ قالا: حدثنا ليث، عن يزيد بن الهاد، عن عمرو بن أبى عمرو، عن أبى الحويرث، عن محمد ابن جبير بن مطعم، عن عبد الرحمن بن عوف قال: خرج رسول الله ﷺ فاتبعته حتى دخل نخلا، فسجد فأطال السجود، حتى خفت ـ أو: خشيت ـ أن يكون الله قد توفاه أو قبضه. قال: فجئت أنظر، فرفع رأسه فقال: «ما لك يا عبد الرحمن؟» قال: فذكرت ذلك له فقال: «إن جبريل، عليه السلام، قال لى: ألا أبشرك؟ إن الله، عز وجل، يقول: من صلى عليك صليت عليه، ومن سلّم عليك سلمتُ عليه» (٨).

طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم، حدثنا سليمان بن بلال، حدثنا عمرو بن أبى عمرو، من عبد الواحد بن محمد بن عبد الرحمن بن عوف، عن عبد الرحمن بن عوف قال: خرج(٩) رسول الله ﷺ فتوجه نحو صدقته، فدخل فاستقبل القبلة، فخر ساجدا، فأطال

---

(١) زيادة من ت، أ، والطبرى.
(٢) تفسير الطبرى (٢٢/ ٣١).
(٣) فى أ: «تحجرت».
(٤) فى أ: «عبد الله». (٥) فى ف: «رسول الله».
(٦) المسند (٣/ ٤٤٥) وسنن ابن ماجة برقم (٩٠٧).
(٧) فى ت: «وروى».
(٨) المسند (١/ ١٩١).
(٩) فى هـ: «قال» وفى ت، ف، أ: «قام» والمثبت من المسند.

السجود، حتى ظننت أن الله قد قبض نفسه فيها، فدنوت منه ثم جلست، فرفع رأسه فقال: « من هذا؟» فقلت: عبد الرحمن. قال: « ما شأنك؟ » قلت: يا رسول الله، سجدت سجدة خشيت أن [يكون] (١) الله، عز وجل، قبض نفسك فيها. فقال: « إن جبريل أتانى فبشرنى أن الله، عز وجل، يقول لك: من صلى عليك صليت عليه، ومن سلم عليك سلمت عليه ـ فسجدتُ لله، عز وجل، شكراً»(٢).

حديث آخر: قال (٣) [الحافظ] (٤) أبو القاسم الطبرانى: حدثنا محمد بن عبد الرحيم بن بَحير ابن عبد الله بن معاوية بن بحير بن ريسان، [حدثنا عمرو بن الربيع بن طارقة] (٥)، حدثنا يحيى بن أيوب، حدثنا عبد الله (٦) بن عمر، عن الحكم بن عتيبة (٧)، عن إبراهيم النَّخَعى، عن الأسود بن يزيد، عن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، قال: خرج رسول الله ﷺ لحاجة فلم يجد أحداً يتبعه، ففزع عمر، فأتاه بِمطْهَرة من خلفه، فوجد النبى ﷺ ساجدا فى مَشربة (٨)، فتنحّى عنه من خلفه حتى رفع النبى ﷺ رأسه، فقال: « أحسنت يا عمر حين وجدتنى ساجدا فتنحيت عنى، إن جبريل أتانى فقال: من صلى عليك من أمتك واحدة، صلى الله عليه عشر صلوات (٩)، ورفعه عشر درجات» .

وقد اختار هذا الحديث الحافظ الضياء المقدسى فى كتابه « المستخرج (١٠) على الصحيحين » (١١). وقد رواه إسماعيل القاضى، عن القعنبى، عن سلمة بن وَرْدان، عن أنس، عن عمر بنحوه (١٢). ورواه أيضا عن يعقوب بن حميد، عن أنس بن عياض، عن سلمة بن وَرْدان، عن مالك بن أوس بن الحدثان، عن عمر بن الخطاب، بنحوه (١٣).

حديث آخر: قال (١٤) أبو عيسى الترمذى: حدثنا بُنْدَار، حدثنا محمد بن خالد بن عَثْمَةَ، حدثنى موسى بن يعقوب الزَّمْعىّ، حدثنى عبد الله بن كَيْسَان؛ أن عبد الله بن شداد أخبره، عن عبد الله بن مسعود؛ أن رسول الله ﷺ قال: « أولى الناس بى يوم القيامة أكثرهم على صلاة » .

تفرد بروايته الترمذى، رحمه الله، ثم قال: هذا حديث حسن غريب (١٥).

حديث آخر: قال إسماعيل القاضى: حدثنا على بن عبد الله، حدثنا سفيان، عن يعقوب بن زيد ابن طلحة قال: قال رسول الله ﷺ: « أتانى آت من ربى فقال لى: ما من عبد يصلى عليك صلاة إلا

(١) زيادة من ت، ف، أ، والمسند.
(٢) المسند (١/١٩١).
(٣) فى ت: « وروى ».
(٤) زيادة من ت.
(٥) زيادة من المعجم الصغير.
(٦) فى أ: « عبيد الله ».
(٧) فى أ: « عيينة ».
(٨) فى أ: « مسربة ».
(٩) فى ت، ف: « عشراً ».
(١٠) فى ف، أ: « المختارة ».
(١١) المعجم الصغير (٢/٨٩) والمختارة برقم (٩٣). وقال الطبرانى: « لم يروه عن عبيد الله بن عمر إلا يحيى بن أيوب، تفرد به عمرو ابن الربيع ».
(١٢) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٤).
(١٣) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٥).
(١٤) فى ت: « وروى ».
(١٥) سنن الترمذى برقم (٤٨٤).

صلى الله عليه بها عشراً ». فقام رجل (١) فقال: يا رسول الله، ألا أجعل نصف دعائى لك؟ قال: «إن شئت». قال: ألا أجعل ثلثى دعائى لك؟ قال: « إن شئت ». قال: ألا أجعل دعائى لك كله؟ قال: «إذن يكفيك الله هم الدنيا وهم الآخرة». فقال شيخ ـ كان بمكة، يقال له: مَنِيع (٢) ـ لسفيان: عمن أسنده؟ قال: لا أدرى (٣).

حديث آخر: قال إسماعيل القاضى: حدثنا سعيد بن سَلام العطار، حدثنا سفيان ـ يعنى: الثورى ـ عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن الطفيل بن أبى بن كعب، عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ يخرج فى جوف الليل فيقول: « جاءت الراجفة، تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه ». قال أبى: يا رسول الله، إنى أصلى من الليل، أفأجعل لك ثلث صلاتى؟ قال رسول الله ﷺ: «الشطر». قال: أفأجعل لك شطر صلاتى؟ قال رسول الله ﷺ: « الثلثان ». قال أفأجعل لك صلاتى كلها؟ قال: « إذن يغفر الله لك ذنبك كله » (٤).

وقد رواه (٥) الترمذى بنحوه فقال: حدثنا هنّاد، حدثنا قَبِيصة، حدثنا سفيان، عن عبد الله بن محمد بن عَقِيل، عن الطفيل بن أبى بن كعب، عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال: « يا أيها الناس، اذكروا الله، اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه ». قال أبى: قلت: يا رسول الله، إنى أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتى؟ قال: « ما شئت ». قلت: الربع؟ قال: « ما شئت، فإن زدت فهو خير لك ». قلت: فالنصف؟ قال: « ما شئت، فإن زدت فهو خير لك ». قلت: فالثلثين؟ قال: « ما شئت، فإن زدت فهو خير لك ». قلت: أجعل لك صلاتى كلها؟ قال: « إذن تكفى همّك، ويغفر لك ذنبك ».

ثم قال: هذا حديث حسن (٦).

وقال الإمام أحمد: حدثنا وَكِيع، حدثنا سفيان، عن عبد الله بن محمد بن عَقِيل، عن الطفيل بن أبى، عن أبيه قال: قال رجل: يا رسول الله، أرأيت إن جعلتُ صلاتى كلها عليك؟ قال: « إذن يكفيك الله ما أهَمَّك من دنياك وآخرتك » (٧).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو كامل، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن سليمان مولى الحسن بن على، عن عبد الله بن أبى طلحة، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ جاء ذات يوم، والسرور يرى فى وجهه، فقالوا: يا رسول الله، إنا لنرى السرور فى وجهك. فقال: « إنه أتانى الملك فقال: يامحمد، أما يرضيك أن ربك، عز وجل، يقول: إنه لا يصلى عليك أحد من أمتك

---

(١) فى أ: « فقام إليه رجل ».
(٢) فى أ: « سبع ».
(٣) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (١٣).
(٤) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (١٤).
(٥) فى ت: « وروى ».
(٦) سنن الترمذى برقم (٢٤٥٧).
(٧) المسند (٥/ ١٣٦).

إلا صليت عليه عشراً ، ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمت عليه عشراً ؟ قال: بلى » .

ورواه النسائى من حديث حماد بن سلمة، به (١) . وقد رواه إسماعيل القاضى ، عن إسماعيل بن أبى أويس ، عن أخيه ، عن سليمان بن بلال ، عن عُبَيد الله بن عمر ، عن ثابت ، عن أبى طلحة ، بنحوه (٢) (٣) .

طريق أخرى : قال [الإمام] (٤) أحمد: حدثنا سُرَيْج (٥) ، حدثنا أبو مَعْشَر ، عن إسحاق بن كعب بن عُجْرَة ، عن أبى طلحة الأنصارى قال : أصبح رسول الله ﷺ يوما طيب النفس ، يرى فى وجهه البشر ، قالوا : يا رسول الله ، أصبحت اليوم طيب النفس ، يرى فى وجهك البشر ؟ قال : «أجل ، أتانى آت من ربى ، عز وجل، فقال : من صلى عليك من أمتك صلاة ، كَتَب الله له بها عشر حسنات ، ومحا عنه عشر سيئات ، ورفع له عشر درجات ، ورد عليه مثلها » (٦) .

هذا أيضا إسناد جيد ، ولم يخرجوه .

حديث آخر : روى (٧) مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى ، من حديث إسماعيل بن جعفر، عن العلاء بن عبد الرحمن ، عن أبيه ؛ عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من صلى عَلَىّ واحدة ، صلى الله عليه بها عشراً » .

قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح ، وفى الباب عن عبد الرحمن بن عوف ، وعامر بن ربيعة ، وعمار ، وأبى طلحة ، وأنس ، وأبى بن كعب (٨) .

وقال(٩) الإمام أحمد : حدثنا حسين بن محمد ، حدثنا شريك ، عن ليث ، عن كعب ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال: « صلوا على؛ فإنها زكاة لكم . وسلوا الله لى الوسيلة ؛ فإنها درجة فى أعلى الجنة ، لا ينالها إلا رجل ، وأرجو أن أكون أنا هو » .

تفرد به أحمد (١٠) ، وقد رواه البزار من طريق مجاهد ، عن أبى هريرة ، بنحوه فقال: حدثنا محمد ابن إسحاق البكَّالى ، حدثنا عثمان بن سعيد ، حدثنا داود بن عُلَيَّة ، عن ليث ، عن مجاهد ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « صلوا على ، فإنها زكاة لكم ، وسلوا الله لى الدرجة الوسيلة من الجنة » فسألناه ـ أو : أخبرنا ـ فقال : « هى درجة فى أعلى الجنة ، وهى لرجل ، وأنا أرجو أن أكون ذلك الرجل » .

---

(١) المسند (٤/ ٣٠) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٩٨٨٨) .

(٢) فى ف : « بمثله » .

(٣) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (١) .

(٤) زيادة من ف . (٥) فى أ : « شريح » .

(٦) المسند (٤/ ٢٩) .

(٧) فى ت : « وروى » .

(٨) صحيح مسلم برقم (٤٠٨) وسنن أبى داود برقم (١٥٣٠) وسنن الترمذى برقم (٤٨٥) وسنن النسائى (٣/ ٥٠) .

(٩) فى ت : « وروى » .

(١٠) المسند (٢/ ٣٦٥) .

فى إسناده بعض من تُكُلِّم فيه (١) .

حديث آخر : قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق ، حدثنا ابن لَهِيعة ، [عن عبد الله بن هبيرة](٢)، عن عبد الرحمن بن مَرِيج الخولانى ، سمعت أبا قيس ـ مولى عمرو بن العاص ـ سمعت عبد الله بن عمرو يقول : من صلى على رسول الله ﷺ صلاة ، صلى الله عليه وملائكته بها سبعين صلاة ، فَلْيُقِلَّ عبد من ذلك أو ليكثر . وسمعت عبد الله بن عمرو يقول : خرج علينا رسول الله ﷺ يوما كالمودع فقال : « أنا محمد النبى الأمى ـ قاله ثلاث مرات ـ ولا نبى بعدى ، أوتيت فواتح الكلام(٣) وخواتمه وجوامعه ، وعَلِمتُ كم خزنة النار وحملة العرش ، وتجوز بى ، عُوفيت وعوفيت أمتى ، فاسمعوا وأطيعوا ما دمت فيكم ، فإذا ذُهِب بى فعليكم بكتاب الله ، أحلوا حلاله ، وحرموا حرامه » (٤) .

حديث آخر : قال أبو داود الطيالسى: حدثنا أبوسَلَمة الخراسانى ، حدثنا أبو إسحاق ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « من ذُكرت عنده فَلْيصلّ على ، ومن صَلَّى على مرة واحدة صلى الله عليه عشراً » .

ورواه النسائى فى « اليوم والليلة » ، من حديث أبى داود الطيالسى ، عن أبى سلمة ـ وهو المغيرة ابن مسلم الخراسانى ـ عن أبى إسحاق عمرو بن عبد الله السَّبِيعى ، عن أنس ، به (٥) .

وقال الإمامِ أحمد : حدثنا محمد بن فضيل ، حدثنا يونس بن عمرو ـ يعنى : يونس بن أبى إسحاق ـ عن بُرَيد (٦) بن أبى مريم ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « من صلى على صلاة واحدة ، صلى الله عليه عشر صلوات ، وحط عنه عشر خطيئات » (٧) .

حديث آخر : قال (٨) الإمام أحمد : حدثنا عبد الملك بن عمرو وأبو سعيد [قالا] (٩) : حدثنا سليمان بن بلال ، عن عمارة بن غَزِيَّة (١٠) ، عن عبد الله بن الحسين ، عن أبيه على بن الحسين ، عن أبيه ؛ أن رسول الله ﷺ قال: « البخيل من ذُكرت عنده ، ثم لم يصل على» . وقال أبو سعيد : « فلم يصل على » .

ورواه الترمذى من حديث سليمان بن بلال ، ثم قال: هذا حديث حسن غريب صحيح (١١) .

ومن الرواة من جعله من مسند « الحسين بن على » ، ومنهم من جعله من مسند « على » نفسه .

---

(١) مسند البزار برقم (٣٦٣) « كشف الأستار » وقال الهيثمى : « فيه داود بن علية ، ضعفه ابن معين والنسائى وغيرهما ووثقه ابن نمير ، وقال موسى بن داود الضبى : ثنا ذؤاد بن علبة وأثنى عليه خيرا ، وقال ابن عدى : هو فى جملة الضعفاء ممن يكتب حديثه » . كذا فيه ذؤاد بن علبة وهو الصواب . انظر : الكامل (٣/ ١٢١) والتهذيب (٣/ ٢٢١) والميزان (٢/ ٣٢) .

(٢) زيادة من ت ، ف ، أ ، والمسند .

(٣) فى ف ، أ : « الكلم » .

(٤) المسند (٢/ ١٧٢) .

(٥) السنن الكبرى برقم (٩٨٨٩) .

(٦) فى أ : « زيد » .

(٧) المسند (٣/ ١٠٢) .

(٨) فى ت : « وروى » .

(٩) زيادة من ت ، ف ، أ ، والمسند .

(١٠) فى أ : « نمير » .

(١١) المسند (١/ ٢٠١) .

حديث آخر : قال إسماعيل القاضى : حدثنا حجاج بن مِنْهال ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن معبد ابن هلال العَنَزى ، حدثنى رجل من أهل دمشق ، عن عوف بن مالك ، عن أبى ذر ، رضى الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « إن أبخل الناس من ذُكرت عنده فلم يصل على » (١) .

حديث آخر مرسل : قال إسماعيل : وحدثنا سليمان بن حَرب ، حدثنا جرير بن حازم ، سمعت الحسن يقول : قال رسول الله ﷺ : « بحسب امرئ من البخل أن أذْكر عنده فلا يُصَلِّى على » (٢) ، صلوات الله عليه .

حديث آخر : قال (٣) الترمذى : حدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقى ، حدثنا رِبْعى بن إبراهيم ، عن عبد الرحمن بن إسحاق ، عن سعيد بن أبى سعيد المَقْبُرى ، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل على . [ورغم أَنف رجل دخل عليه شهر رمضان ، ثم انسلخ قبل أن يغفر له] (٤) ، ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر فلم يدخلاه الجنة » . ثم قال : حسن غريب (٥) .

قلت : وقد رواه البخارى فى الأدب ، عن محمد بن عبيد الله ، حدثنا ابن أبى حازم ، عن كثير بن زيد ، عن الوليد بن رباح ، عن أبى هريرة مرفوعا ، بنحوه (٦) . ورويناه من حديث محمد بن عمرو، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة ، به . قال الترمذى : وفى الباب عن جابر وأنس .

قلت : وابن عباس ، وكعب بن عُجْرَة ، وقد ذكرت طرق هذا الحديث فى أول كتاب الصيام وعند قوله تعالى : ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا ﴾ [الإسراء : ٢٣].

وهذا الحديث والذى قبله دليل على وجوب الصلاة عليه ﷺ كلما ذكر، وهو مذهب طائفة من العلماء [منهم الطحاوى والحليمى] (٧)، ويتقوى بالحديث الآخر الذى (٨) رواه ابن ماجه :

حدثنا جبُارة بن المغَلِّس ، حدثنا حماد بن زيد ، حدثنا عمرو بن دينار ، عن جابر بن زيد ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « من نسى الصلاة عَلَىَّ خَطئ طريق الجنة » (٩) .

جبُارة ضعيف . ولكن رواه إسماعيل القاضى من غير وجه ، عن أبى جعفر محمد بن على الباقر قال : قال رسول الله ﷺ : « من نسى الصلاة علىّ خَطئ طريق الجنة » . وهذا مرسل يتقوى بالذى قبله [والله أعلم] (١٠) (١١) .

وذهب آخرون إلى أنه تجب الصلاة فى المجلس مرة واحدة ، ثم لا تجب فى بقية ذلك المجلس، بل

---

(١) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٣٧) .
(٢) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٣٨) .
(٣) فى ت : « وروى » . (٤) زيادة من ت ، ف ، أ ، والترمذى .
(٥) سنن الترمذى برقم (٣٥٤٥) .
(٦) الأدب المفرد للبخارى برقم (٢١) .
(٧) زيادة من ت ، ف ، أ . (٨) فى ت: « بما » .
(٩) سنن ابن ماجة برقم (٩٠٨) وقال البوصيرى فى الزوائد (١/٣١٣) : « هذا إسناد ضعيف لضعف جبارة بن المغلس » .
(١٠) زيادة من ف ، أ .
(١١) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٤١) .

تستحب . نقله الترمذى عن بعضهم ، ويتأيد بالحديث الذى رواه الترمذى :

حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان ، عن صالح ـ مولى التَّوْأمة ـ عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « ما جلس قوم مجلسا لم يذكروا اللّه فيه ، ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم تِرَةٌ ، فإن شاء عذبهم ، وإن شاء غفر لهم » .

تفرد به الترمذى من هذا الوجه . ورواه الإمام أحمد عن حجاج ويزيد بن هارون ، كلاهما عن ابن أبى ذئب ، عن صالح ـ مولى التوأمة ـ عن أبى هريرة ، مرفوعا مثله . ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن (١) .

وقد رُوى عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ ، من غير وجه ، وقد رواه إسماعيل القاضى من حديث شعبة ، عن سليمان ، عن ذَكْوَان ، عن أبى سعيد قال : « ما من قوم يقعدون ثم يقومون ولا يصلون على النبى ﷺ ، إلا كان عليهم حسرة ، وإن دخلوا الجنة لَمَا يرون [من] (٢) الثواب » (٣) .

وحكى عن بعضهم أنه إنما تجب الصلاة عليه ، عليه السلام ، فى العمر مرة واحدة ، امتثالا لأمر الآية ، ثم هى مستحبة فى كل حال ، وهذا هو الذى نصره القاضى عياض بعدما حكى الإجماع على وجوب الصلاة عليه ﷺ فى الجملة . قال : وقد حكى الطبرانى (٤) أن محمل الآية على الندب، وادعى فيه الإجماع . قال: ولعله فيما زاد على المرة ، والواجب منه مرة كالشهادة له بالنبوة، وما زاد على ذلك فمندوب مُرَغَّب فيه من سنن الإسلام ، وشعار أهله .

قلت : وهذا قول غريب ، فإنه قد ورد الأمر بالصلاة عليه فى أوقات كثيرة ، فمنها واجب ، ومنها مستحب على ما نبينه .

فمنه : بعد النداء للصلاة ؛ للحديث الذى رواه الإمام أحمد :

حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا حيوة ، حدثنا كعب بن علقمة ، أنه سمع عبد الرحمن بن جبير يقول : إنه سمع (٥) عبد اللّه بن عمرو بن العاص يقول : إنه سمع رسول اللّه ﷺ يقول : « إذا سمعتم مؤذنا فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علىَّ ؛ فإنه من صلى عَلَىَّ صلاةً صلى اللّه عليه بها عشرا ، ثم سلوا لى الوسيلة ، فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد اللّه ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لى الوسيلة حلت عليه (٦) الشفاعة » .

وأخرجه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى ، من حديث كعب بن علقمة (٧) .

طريق أخرى : قال إسماعيل القاضى : حدثنا محمد بن أبى بكر ، حدثنا عمرو بن على ، عن أبى

---

(١) سنن الترمذى برقم (٣٣٨٠) والمسند (٢/ ٤٥٣) .
(٢) زيادة من ت ، ف ، أ ، وفضل الصلاة .
(٣) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٥٥) .
(٤) فى ت : « الطبرى » . (٥) فى ت : « عن » .
(٦) فى ت : « له » .
(٧) المسند (٢/ ١٦٨) وصحيح مسلم برقم (٣٨٤) وسنن أبى داود برقم (٥٢٣) وسنن الترمذى برقم (٣٦١٤) وسنن النسائى (٢/ ٢٥) .

بكر الجُشَمى، عن صفوان بن سليم، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: « من سأل الله لى الوسيلة، حقَّت عليه شفاعتى يوم القيامة » (١).

حديث آخر: قال إسماعيل القاضى: حدثنا سليمان (٢) بن حرب، حدثنا سعيد بن زيد، عن ليث، عن كعب ـ هو كعب الأحبار ـ عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «صلوا علَىَّ، فإن صلاتكم علىَّ زكاة لكم، وسلوا الله لى الوسيلة». قال: فإما حَدَّثنا وإما سألناه، فقال: « الوسيلة أعلى درجة فى الجنة، لا ينالها إلا رجل، وأرجو أن أكون ذلك (٣) الرجل ».

ثم رواه عن محمد بن أبى بكر، عن معتمر، عن ليث ـ وهو ابن أبى سليم ـ به (٤). وكذا الحديث الآخر:

قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لَهِيعة، حدثنا بكر بن سوادة، عن زياد بن نعيم، عن وَفَاء (٥) الحضرمى، عن رُوَيْفع بن ثابت الأنصارى؛ أن رسول الله ﷺ قال: « من صلى على محمد وقال: اللهم، أنزله المقعد المقرب عندك يوم القيامة، وجبت له شفاعتى ».

وهذا إسناد لا بأس به، ولم يخرجوه (٦).

أثر آخر (٧): قال إسماعيل القاضى: حدثنا على بن عبد الله، حدثنا سفيان، حدثنى مَعْمَر، عن ابن (٨) طاوس، عن أبيه، سمعت ابن عباس يقول: اللهم تقبل شفاعة محمد الكبرى، وارفع درجته العليا، وأعطه سُؤْلَه فى الآخرة والأولى، كما آتيت إبراهيم وموسى، عليهما السلام. إسناد جيِّد قوى صحيح (٩).

ومن ذلك: عند دخول المسجد والخروج منه: للحديث الذى رواه الإمام أحمد (١٠):

حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا ليث بن أبى سليم، عن عبد الله بن الحسن (١١)، عن أمه فاطمة بنت الحسين، عن جدته [فاطمة] (١٢) بنت رسول الله ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم وقال: « اللّهم اغفر لى ذنوبى، وافتح لى أبواب رحمتك». وإذا خرج صلى على محمد وسلم، ثم قال: « اللهم اغفر لى ذنوبى، وافتح لى أبواب فضلك » (١٣).

وقال إسماعيل القاضى: حدثنا يحيى بن عبد الحميد، حدثنا سفيان (١٤) بن عمر التميمى، عن

(١) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٥٠).
(٢) فى أ: « سليم ». (٣) فى ف، أ: « أكون أنا ذلك ».
(٤) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٤٦، ٤٧).
(٥) فى ف، أ: « ورقاء ».
(٦) المسند (٤/١٠٨).
(٧) فى أ: « حسن ». (٨) فى أ: « أبى ».
(٩) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٥٢).
(١٠) فى ت: « ومنه عند دخول المسجد لما روى الإمام أحمد ».
(١١) فى ت، أ: « الحسين ». (١٢) زيادة من ت، ف، أ، والمسند.
(١٣) المسند (٦/٢٨٢).
(١٤) فى أ: « سيف ».

سليمان الضَّبِّىّ، عن على بن الحسين قال: قال على بن أبى طالب، رضى الله عنه (١): إذا مررتم بالمساجد فصلوا على النبى ﷺ (٢).

وأما الصلاة عليه ﷺ فى الصلاة، فقد قدمنا الكلام عليها فى التشهد الأخير، ومن ذهب إلى ذلك من العلماء مع (٣) الشافعى، رحمه الله (٤). وأما التشهد الأول فلا تجب فيه قولا واحدا، وهل تستحب؟ على قولين للشافعى.

ومن ذلك (٥): الصلاة عليه ﷺ فى صلاة الجنازة: فإن السنة أن يقرأ فى التكبيرة الأولى فاتحة الكتاب، وفى الثانية يصلى على النبى ﷺ، وفى الثالثة يدعو للميت، وفى الرابعة يقول: اللهم لا تحرمنا أجره، ولا تفتنا بعده.

قال الشافعى، رحمه الله: حدثنا مُطَرِّف بن مازن، عن مَعْمَر، عن الزهرى: أخبرنى أبو أمامة ابن (٦) سهل بن حُنَيف أنه أخبره رجل من أصحاب النبى ﷺ: أن السنة فى الصلاة على الجنازة أن يكبر الإمام، ثم يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى سرا فى نفسه ثم يصلى على النبى ﷺ ويخلص الدعاء للجنازة، وفى التكبيرات لايقرأ فى شىء منها، ثم يسلم سرا فى نفسه (٧).

ورواه النسائى، عن أبى أمامة نفسه أنه قال: من السنة، فذكره (٨).

وهذا من الصحابى فى حكم المرفوع على الصحيح.

ورواه إسماعيل القاضى، عن محمد بن المثنى، عن عبد الأعلى، عن معمر، عن الزهرى، عن أبى أمامة بن سهل، عن سعيد بن المسيب أنه قال: السنة فى الصلاة على الجنازة... فذكره (٩).

وهكذا رُوِى عن أبى هريرة، وابن عمر، والشعبى.

ومن ذلك (١٠): فى صلاة العيد: قال إسماعيل القاضى (١١): حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا هشام الدَّسْتَوَائى، حدثنا حَمَّاد بن أبى سليمان، عن إبراهيم، عن (١٢) علقمة: أن ابن مسعود وأبا موسى وحذيفة خرج عليهم الوليد بن عقبة يوماً قبل العيد (١٣)، فقال لهم: إن هذا العيد قد دنا، فكيف التكبير فيه؟ قال عبد الله: تبدأ فتكبر تكبيرة تفتتح بها الصلاة، وتحمد ربك وتصلى على

---

(١) فى ت: «وعن على بن أبى طالب، رضى الله عنه، قال».
(٢) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٨٠).
(٣) فى ت، أ: «منهم».
(٤) فى ت، أ: «مع الشافعى وأحمد، رحمهما الله».
(٥) فى ت: «ومنه».
(٦) فى ت: «فروى الشافعى، رحمه الله، بإسناده عن».
(٧) الأم (١/ ٢٣٩).
(٨) سنن النسائى (٤/ ٧٥).
(٩) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٩٤).
(١٠) فى ت: «ومنه الصلاة على النبى ﷺ».
(١١) فى ت: «روى القاضى إسماعيل».
(١٢) فى ت: «بن».
(١٣) فى ت، أ: «عقبة صلى العيد يوما».

النبى ﷺ ،ثم تدعو ،وتكبر وتفعل مثل ذلك ،ثم تكبر وتفعل مثل ذلك ،ثم تكبر وتفعل مثل ذلك،ثم تقرأ ثم تكبر وتركع ،ثم تقوم فتقرأ وتحمد ربك وتصلى على النبى ﷺ ثم تدعو وتكبر،وتفعل مثل ذلك ،ثم تركع . فقال حذيفة وأبو موسى : صدق أبو عبد الرحمن .إسناد (١) صحيح (٢) .

ومن ذلك : أنه يُستَحَبّ ختم الدعاء بالصلاة عليه ﷺ قال الترمذى :

حدثنا أبو داود ، أخبرنا النضر بن شميل (٣) ، عن أبى قُرّة الأسدى ،عن سعيد بن المسيَّب ،عن عمر بن الخطاب (٤) قال :الدعاء موقوف بين السماء والأرض ،لا يصعد منه شيء حتى تصلى على نبيك (٥) .

وهكذا رواه أيوب بن موسى ،عن سعيد بن المسيب ، عن عمر بن الخطاب ،قوله.ورواه معاذ بن الحارث ،عن أبى قرة ،عن سعيد بن المسيب ،عن عمر مرفوعا (٦) .وكذا رواه رَزين بن معاوية (٧) فى كتابه مرفوعاً ،عن النبى ﷺ قال :« الدعاء موقوف بين السماء والأرض ،لا يصعد حتى يصلى على،فلا تجعلونى كغُمَر الراكب ،صلوا على أول الدعاء وأوسطه وآخره » (٨) .

وهذه الزيادة إنما تروى من رواية جابر بن عبد الله فى مسند الإمام عبد بن حُميد الكَشى [حيث](٩) قال :حدثنا جعفر بن عون ،أخبرنا موسى بن عبيدة ،عن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم،عن أبيه قال:قال جابر : قال لنا رسول الله ﷺ : « لا تجعلونى كقدح الراكب ،إذا علق تعاليقه أخذ قدحه فملأه من الماء ،فإن كان له حاجة فى الوضوء توضأ ،وإن كان له حاجة فى الشرب شرب وإلا أهراق ما فيه ،اجعلونى فى أول الدعاء ،وفى وسط الدعاء ،وفى آخر الدعاء » .فهذا حديث غريب ، وموسى بن عُبيَدة ضعيف الحديث (١٠) .

ومن [آكد] (١١) ذلك :دعاء القنوت:لما رواه الإمام أحمد وأهل السنن ،وابن خزيمة (١٢) ، وابن حبَّان ،والحاكم ،من حديث أبى الحوراَء (١٣) ،عن الحسن بن على ،رضى الله عنهما ،قال: علَّمَنى رسول الله ﷺ كلمات أقولهن فى الوتر :« اللهم اهدنى فيمن هديت ،وعافنى فيمن عافيت ،

(١) فى ت ،ف ، أ : « إسناده » .
(٢) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٨٨) .
(٣) فى أ : « سهيل » .
(٤) فى ت : « روى الترمذى بإسناده عن عمر بن الخطاب » .
(٥) سنن الترمذى برقم (٤٨٦) .
(٦) أخرجه الواحدى ومن طريقه الحافظ الرهاوى فى الأربعين كما فى تخريج الكشاف للحافظ ابن حجر (ص ١٣٧) .
(٧) فى ت : « ورواه رزين بن أبى معاوية » .
(٨) ذكره ابن الأثير فى جامع الأصول (٤/ ١٥٥) رواية رزين .
(٩) زيادة من ف ،أ .
(١٠) المنتخب لعبد بن حميد برقم (١١٣٠) ورواه البزار فى مسنده برقم (٣١٥٦) « كشف الأستار » من طريق موسى بن عبيدة به .
(١١) زيادة من ت ، أ .
(١٢) فى أ : « وابن جرير » .
(١٣) فى أ : « الجوزاء » .

وتولنى فيمن توليت، وبارك لى فيما أعطيت، وقنى شر ما قضيت، فإنك تقضى ولا يقضى عليك، إنه لا يَذِلّ من واليت (١)، تباركت [ربنا] (٢) وتعاليت » (٣).

وزاد النسائى فى سننه بعد هذا: وصلى اللّه على النبى محمد.

ومن ذلك: أنه يستحب الإكثار من الصلاة عليه [فى] (٤) يوم الجمعة وليلة الجمعة: قال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن على الجَعْفِى، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن أبى الأشعث الصنعانى(٥)، عن أوس بن أوس الثقفى، رضى اللّه عنه، قال: قال رسول اللّه ﷺ: « من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا على من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة على ». قالوا: يا رسول اللّه، وكيف تعرض عليك صلاتنا وقد أرَمَّتْ؟ ـ يعنى: وقد بليت ـ قال: « إن اللّه حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء ».

ورواه أبو داود والنسائى وابن ماجه، من حديث حسين بن على الجعفى (٦). وقد صحح هذا الحديث ابن خزيمة وابن حبان والدارقطنى، والنووى فى الأذكار.

حديث آخر: قال أبو عبد اللّه بن ماجه: حدثنا عمرو بن سَوَّاد المصرى (٧)، حدثنا عبد اللّه بن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبى هلال، عن زيد بن أيمن (٨)، عن عُبَادة بن نُسَىّ، عن أبى الدرداء قال: قال رسول اللّه ﷺ: « أكثروا الصلاة علىّ يوم الجمعة؛ فإنه مشهود تشهده الملائكة. وإن أحداً لن يصلى على إلا عُرضت عَلَىّ صلاته حتى يفرغ منها ». قال: قلت: وبعد الموت؟ قال: « [وبعد الموت] (٩)، إن اللّه حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » [فنبى اللّه حى يرزق] (١٠).

هذا حديث غريب من هذا الوجه، وفيه انقطاع بين عُبادة بن نَسى وأبى الدرداء، فإنه لم يدركه(١١)، واللّه أعلم.

وقد روى البيهقى من حديث أبى أمامة وأبى مسعود، عن النبى ﷺ فى الأمر بالإكثار من الصلاة عليه ليلة الجمعة ويوم الجمعة (١٢)، ولكن فى إسنادهما ضعف، واللّه أعلم. وروى مرسلا عن الحسن

(١) فى ف، أ: « واليت، ولا يعز من عاديت ».
(٢) زيادة من ت، ف، أ، والمسند.
(٣) المسند (١/ ١٩٩) وسنن أبى داود برقم (١٤٢٥) وسنن الترمذى برقم (٤٦٤) وسنن النسائى (٣/ ٢٤٨) وسنن ابن ماجة برقم (١١٧٨) وصحيح ابن خزيمة (١٠٩٥) وصحيح ابن حبان (٢/ ١٤٨) والمستدرك (٣/ ١٧١).
(٤) زيادة من ت.
(٥) فى ت: « روى الإمام أحمد بإسناده ».
(٦) المسند (٤/ ٨) وسنن أبى داود برقم (١٠٤٧) وسنن النسائى (٣/ ٩١) وسنن ابن ماجة برقم (١٦٣٦).
(٧) فى أ: « عمرو بن ندار المقرى ».
(٨) فى ف: « ثابت ».
(٩، ١٠) زيادة من ت، ف، وابن ماجة.
(١١) سنن ابن ماجة برقم (١٦٣٧).
(١٢) السنن الكبرى للبيهقى (٣/ ٢٤٩) من حديث أبى أمامة، رضى اللّه عنه، ولم أجده عنده من حديث أبى مسعود وإنما هو من حديث أنس، رضى اللّه عنه.

البصرى، فقال إسماعيل القاضى :

حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا جرير بن حازم، سمعت الحسن ـ هو البصرى ـ يقول : قال رسول الله ﷺ : « لا تأكل الأرض جَسَدَ من كَلّمه (١) روحُ القدس » . مرسل حسن (٢) .

وقال الشافعى : أخبرنا إبراهيم بن محمد، أخبرنا صفوان بن سليم (٣) أن النبى ﷺ قال : « إذا كان يوم الجمعة وليلة الجمعة، فأكثروا الصلاة على » . هذا مرسل (٤) .

وهكذا يجب على الخطيب أن يصلى على النبى ﷺ يوم الجمعة على المنبر فى الخطبتين، ولا تصح الخطبتان إلا بذلك؛ لأنها (٥) عبادة، وذكر الله فيها شرط(٦)، فوجب ذكر الرسول ﷺ فيها كالأذان والصلاة . هذا مذهب الشافعى وأحمد، رحمهما الله .

ومن ذلك : أنه يستحب الصلاة والسلام عليه عند زيارة قبره، صلوات الله وسلامه عليه : قال(٧) أبو داود :

حدثنا ابن عوف ـ هو محمد ـ حدثنا (٨) المقرى، حدثنا حَيْوَة، عن أبى صخر حميد بن زياد، عن يزيد بن عبد الله بن قُسَيط، عن أبى هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال : « ما من (٩) أحد يسلم على إلا رَدّ الله على روحى، حتى أرد عليه السلام » .

تفرد به أبو داود، وصححه النووى فى الأذكار (١٠) . ثم قال (١١) أبو داود :

حدثنا أحمد بن صالح قال : قرأت على عبد الله بن نافع، أخبرنى ابن أبى ذئب، عن سعيد المَقْبُرِى، عن أبى هريرة قال : قال رسولُ الله ﷺ : « لا تجعلوا بيوتكم قُبُوراً، ولا تجعلوا قبرى عيدًا، وصلوا على، فإن صلاتكم تبلغنى حيثما كنتم » .

تفرد به أبو داود أيضا (١٢) . وقد رواه الإمام أحمد عن سُرَيْج، عن عبد الله بن نافع ـ وهو الصائغ ـ به (١٣) . وصححه النووى أيضاً . وقد روى من وجه آخر عن على، رضى الله عنه . قال القاضى إسماعيل (١٤) بن إسحاق فى كتابه « فضل الصلاة على النبى ﷺ » :

حدثنا إسماعيل بن أبى أُوَيْس، حدثنا جعفر بن إبراهيم بن محمد بن على بن عبد الله بن جعفر ابن أبى طالب [عمن أخبره](١٥) من أهل بيته، عن على بن الحسين بن على : أن رجلا كان يأتى كل

---

(١) فى أ: « كلم » .
(٢) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٢٣) .
(٣) فى أ : « صفوان بن أبى سليم » .
(٤) الأم (١/ ١٨٤) .
(٥) فى ت : « لأنهما » .
(٦) فى ت : « مشروط » .
(٧) فى ت : « فروى » .
(٨) فى أ : « بن » .
(٩) فى أ : « ما منكم من » .
(١٠) سنن أبى داود برقم (٢٠٤١) .
(١١) فى ت : « روى » .
(١٢) سنن أبى داود برقم (٢٠٤٢) .
(١٣) المسند (٢/ ٣٦٧) .
(١٤) فى أ : « القاضى ابن إسماعيل » .
(١٥) زيادة من أ، وفى هـ : « عن أخيه » والمثبت من ت، ف، أ .

غداة فيزور قبر النبى ﷺ ويصلى عليه، ويصنع من ذلك ما اشتهر عليه على بن الحسين، فقال له على ابن الحسين: ما يحملك على هذا؟ قال: أحب السلام على النبى ﷺ. فقال له على بن الحسين: هل لك أن أحدثك حديثا عن أبى؟ قال: نعم. فقال له على بن الحسين: أخبرنى أبى، عن جدى أنه قال: قال رسول الله ﷺ: « لا تجعلوا قبرى عيداً، ولا تجعلوا بيوتكم قبوراً، وصلوا على وسلموا حيثما كنتم فتبلغنى (١) صلاتكم وسلامكم ».

فى إسناده رجل مبهم لم يُسَمَّ (٢). وقد رُوى من وجه آخر مرسلا، قال عبد الرزاق فى مصنفه، عن الثورى، عن ابن عَجْلان، عن رجل ـ يقال له: سهيل ـ عن الحسن بن الحسن بن على؛ أنه رأى قوماً عند القبر فنهاهم، وقال: إن النبى ﷺ قال: « لا تتخذوا قبرى عيداً، ولا تتخذوا بيوتكم قبوراً، وصلوا على حيثما كنتم؛ فإن صلاتكم تبلغنى » (٣). فلعله رآهم يسيئون الأدب برفع أصواتهم [فوق الحاجة] (٤)، فنهاهم.

وقد رُوى أنه رأى رجلا ينتاب القبر فقال: يا هذا، ما أنت ورجل بالأندلس منه إلا سواء، أى: الجميع يبلغه، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين.

وقال الطبرانى فى معجمه الكبير: حدثنا أحمد بن رِشْدين المصرى، حدثنا سعيد بن أبى مريم، حدثنا محمد بن جعفر، أخبرنى حميد بن أبى زينب، عن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب، رضى الله عنهم، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ قال: « صلوا على حيثما كنتم، فإن صلاتكم تبلغنى »(٥).

ثم قال الطبرانى: حدثنا العباس بن حمدان الأصبهانى، حدثنا شعيب بن عبد الحميد الطحان، أخبرنا يزيد بن هارون عن (٦) شيبان، عن الحكم بن عبد الله بن خطاف (٧)، عن أم أنيس بنت الحسن بن على، عن أبيها قال: قال رسول الله ﷺ: « أرأيت قول الله، عز وجل: ﴿**إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ**﴾؟» فقال: « إن هذا من المكتوم، ولولا أنكم سألتمونى عنه لما أخبرتكم، إن الله وكل بى ملكين لا أذكر عند عبد مسلم فيصلى على إلا قال ذانك الملكان: « غفر الله لك ». وقال الله وملائكته جواباً لذينك الملكين: « آمين ». ولا يصلى أحد إلا قال ذانك الملكان: «غفر الله لك». ويقول الله وملائكته جوابا لذينك الملكين: « آمين ».

غريب جداً، وإسناده فيه ضعف شديد (٨).

---

(١) فى ف، أ: « فستبلغنى ».
(٢) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٢٠).
(٣) المصنف برقم (٦٧٢٦).
(٤) زيادة من ف، أ.
(٥) المعجم الكبير (٣/ ٨٢) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١٦٢): « فيه حميد بن أبى زينب لم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح ».
(٦) فى هـ، ت، أ، ف: « بن أبى » والصواب ما أثبتناه من المعجم الكبير للطبرانى.
(٧) فى هـ، ت، أ، ف: « خطاب » والصواب ما أثبتناه من المعجم الكبير للطبرانى وكتب الرجال.
(٨) المعجم الكبير (٣/ ٨٩) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٩٣): « فيه الحكم بن عبد الله بن خطاف وهو كذاب ».

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، عن سفيان ، عن عبد الله بن السائب ، عن زاذان ، عن عبد الله بن مسعود ، رضي الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن لله ملائكة سياحين في الأرض، يبلغوني من (١) أمتي السلام».

وهكذا رواه النسائي من حديث سفيان الثوري وسليمان بن مِهْرَان الأعمش، كلاهما عن عبد الله ابن السائب ، به (٢) .

فأما الحديث الآخر : « من صلى عَلَيَّ عند قبري سمعته ، ومن صلى علي من بعيد بُلغته » ـ ففي إسناده نظر ، تفرد به محمد بن مروان السدي الصغير، وهو متروك ، عن الأعمش ، عن أبي صالح، عن أبي هريرة مرفوعاً (٣) .

قال أصحابنا : ويستحب للمحرم إذا لبى وفرغ من تلبيته أن يصلي على النبي ﷺ : لما روى (٤) عن الشافعي والدارقطني من رواية صالح بن محمد بن زائدة ، عن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق قال : كان يُؤمر الرجل إذا فرغ من تلبيته أن يصلي على النبي ﷺ على كل حال (٥) .

وقال إسماعيل القاضي : حدثنا عارم بن الفضل ، حدثنا عبد الله بن المبارك ، حدثنا زكريا ، عن الشعبي ، عن وهب بن الأجدع قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول : إذا قدمتم فطوفوا بالبيت سبعاً، وصلوا عند المقام ركعتين ، ثم ائتوا الصفا فقوموا عليه من حيث ترون البيت ، فكبروا سبع تكبيرات ، تكبيرا بين حمد الله وثناء عليه ، وصلاة على النبي ﷺ ، ومسألة لنفسك ، وعلى المروة مثل ذلك (٦) .

إسناد جيد حسن قوي .

وقالوا : ويستحب الصلاة على النبي ﷺ مع ذكر الله عند الذبح: واستأنسوا بقوله (٧) تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ [الشرح : ٤]، قال بعض المفسرين : يقول الله تعالى : « لا أذكر إلا ذكرت معي » . وخالفهم في ذلك الجمهور ، وقالوا : هذا موطن يفرد فيه ذكر الرب تعالى ، كما عند الأكل، والدخول ، والوقاع وغير ذلك ، مما لم ترد فيه السنة بالصلاة على النبي ﷺ .

حديث آخر: قال إسماعيل القاضي : حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي ، حدثنا عمر بن هارون، عن موسى بن عبيدة ، عن محمد بن ثابت ، عن أبي هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : «صلوا على أنبياء الله ورسله ؛ فإن الله بعثهم كما بعثني» .

في إسناده ضعيفان ، وهما عمر بن هارون وشيخه (٨) ، والله أعلم . وقد رواه عبد الرزاق ، عن الثوري ، عن موسى بن عبيدة الرَّبَذي ، به (٩) .

---

(١) في ف ، أ : « عن » .
(٢) المسند (١/ ٤٤١) وسنن النسائي (٣/ ٤٣) .
(٣) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (٣/ ٢٩٢) من طريق الأصمعي عن السدي به ، ثم روى بإسناده عن ابن قتيبة قال : سألت ابن نمير عن حديث : « من صلى عليَّ عند قبري » فقال : «دع ذا ، محمد بن مروان ليس بشيء» .
(٤) في ت : « لما رواه » .
(٥) الأم (٢/ ١٣٤) .
(٦) فضل الصلاة على النبي ﷺ برقم (٨١) .
(٧) في ف : « بقول الله » .
(٨) فضل الصلاة على النبي ﷺ برقم (٤٥) وعمر بن هارون متروك ، وموسى بن عبيدة ضعيف .
(٩) المصنف لعبد الرزاق برقم (٣١١٨) .

ومن ذلك : أنه يستحب الصلاة عليه عند طنين الأذن ،إن صح الخبر فى ذلك ،على أن الإمام أبا بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة قد رواه فى صحيحه فقال : حدثنا زياد بن يحيى ،حدثنا مَعْمَر بن محمد بن عبيد اللّه ، عن أبيه محمد (١) ،عن أبيه أبى رافع (٢) قال :قال رسول اللّه ﷺ : « إذا طنت أذن أحدكم فَلْيذكرنى وليصل على ،وَلْيَقُل : ذَكَر اللّه مَن ذكرنى بخير » . إسناده غريب ،وفى ثبوته نظر (٣) ،واللّه أعلم .

[وهاهنا مسألة] (٤) :

وقد استحب أهل الكتابة أن يكرر الكاتب الصلاة على النبى ﷺ كلما كتبه ،وقد ورد فى الحديث من طريق كادح بن رحمة ،عن نَهْشَل ،عن الضحاك ،عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه ﷺ : «من صلى علىّ فى كتاب ،لم تزل الصلاة جارية له ما دام اسمى فى ذلك الكتاب » (٥) .

وليس هذا الحديث بصحيح من وجوه كثيرة ،وقد رُوى من حديث أبى هريرة ،ولا يصح أيضاً(٦) ،قال الحافظ أبو عبد اللّه الذهبى شيخُنا : أحسبه موضوعاً .وقد رُوى نَحوُه عن أبى بكر،وابن عباس .ولا يصح من ذلك شيء (٧) ، واللّه أعلم .وقد ذكر الخطيب البغدادى فى كتابه :« الجامع لآداب الراوى والسامع (٨) » ،قال : رأيت بخط الإمام أحمد بن حنبل ،رحمه اللّه : كثيراً ما يكتب اسم النبى ﷺ من غير ذكر الصلاة عليه كتابة ،قال : وبلغنى أنه كان يصلى عليه لفظاً (٩) .

[فصل] (١٠)

وأما الصلاة على غير الأنبياء ،فإن كانت (١١) على سبيل التبعية كما تقدم فى الحديث : « اللهم، صل على محمد وآله وأزواجه وذريته » ،فهذا جائز بالإجماع ،وإنما وقع النزاع فيما إذا أفرد غير الأنبياء بالصلاة عليهم :

(١) فى هـ ، ت ، ف ، أ : « عن على بن أبى رافع » والصواب ما أثبتناه .

(٢) فى ت : « بإسناده عن أبى رافع » .

(٣) ورواه الطبرانى فى المعجم الصغير (٢/ ١٢٠) وابن عدى فى الكامل (٦/ ٤٥١) من طريق معمر به ،وقال ابن عدى :« معمر بن محمد بن عبيد الله بن أبى رافع عن أبيه منكر الحديث ،ومقدار ما يرويه لا يتابع عليه » .

(٤) زيادة من ت .

(٥) أخرجه أبو القاسم الأصبهانى فى الترغيب والترهيب برقم (١٦٩٩) من طريق أحمد بن جعفر الهاشمى عن سليمان بن الربيع عن كادح بن رحمة به .

(٦) أخرجه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٢٣٤) « مجمع البحرين » من طريق يزيد بن عياض عن الأعرج ،عن أبى هريرة ، رضى اللّه عنه .

(٧) أما حديث ابن عباس فسبق ،وأما حديث أبى بكر فرواه ابن عدى فى الكامل (٣/ ٢٤٩) من طريق أبى داود النخعى ، عن أيوب بن موسى ، عن القاسم ، عن أبى بكر ،رضى اللّه عنه ، وداود النخعى وضاع .

(٨) فى ت : « والسائل » .

(٩) الجامع لأخلاق الراوى (١/ ٢٧١) ثم قال عقبه : « وقد خالفه غيره من الأئمة المتقدمين فى ذلك » .

(١٠) زيادة من ف ، أ .

(١١) فى ت ، ف ، أ : « كان » .

فقال قائلون : يجوز ذلك ، واحتجوا بقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُه ﴾، وبقوله : ﴿ أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ [البقرة : ١٥٧]، وبقوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا (١) وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ [التوبة: ١٠٣] ، وبحديث عبد الله بن أبى أوْفَى قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم قال :« اللهم صَلِّ عليهم » . وأتاه أبى بصدقته فقال : « اللهم صل على آل أبى أوفى » . أخرجاه فى الصحيحين. وبحديث جابر : أن امرأته قالت : يا رسول الله ، صل عَلَيَّ وعلى زوجي. فقال : « صلى الله عليكِ وعلى زوجك » (٢) .

وقال الجمهور من العلماء : لا يجوز إفراد غير الأنبياء بالصلاة ؛لأن هذا قد صار شعاراً للأنبياء إذا ذكروا ، فلا يلحق بهم غيرهم ، فلا يقال :« قال أبو بكر صلى الله عليه » . أو:« قال على صلى الله عليه » . وإن كان المعنى صحيحاً ، كما لا يقال : « قال محمد ، عز وجل » ، وإن كان عزيزاً جليلا ؛ لأن هذا من شعار ذكر الله ، عز وجل . وحملوا ما ورد فى ذلك من الكتاب والسنة على الدعاء لهم ؛ ولهذا لم يثبت شعارا لآل أبى أوفى ، ولا لجابر وامرأته . وهذا مسلك حسن .

وقال آخرون: لا يجوز ذلك ؛لأن الصلاة على غير الأنبياء قد صارت من شعار أهل الأهواء، يصلون على من يعتقدون فيهم ، فلا يقتدى بهم فى ذلك ، والله أعلم .

ثم اختلف المانعون من ذلك : هل هو من باب التحريم ، أو الكراهة التنزيهية ، أو خلاف الأولى ؟ على ثلاثة أقوال ، حكاها الشيخ أبو زكريا النووى فى كتاب الأذكار . ثم قال: والصحيح الذى عليه الأكثرون أنه مكروه كراهة تنزيه ؛لأنه شعار أهل البدع ، وقد نهينا عن شعارهم ، والمكروه هو ما ورد فيه نهى مقصود . قال أصحابنا : والمعتمد فى ذلك أن الصلاة صارت مخصوصة فى اللسان (٣) بالأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم، كما أن قولنا :« عز وجل » ، مخصوص بالله سبحانه وتعالى، فكما لا يقال :« محمد عز وجل » ، وإن كان عزيزاً جليلا ، لا يقال: « أبو بكر ـ أو : على ـ صلى الله عليه» . هذا لفظه بحروفه . قال : وأما السلام فقال الشيخ أبو محمد الجُوَينى من أصحابنا : هو فى معنى الصلاة ، فلا يستعمل فى الغائب ، ولا يفرد به غير الأنبياء ، فلا يقال :« على عليه السلام» ، وسواء فى هذا الأحياء والأموات ، وأما الحاضر فيخاطب به ، فيقال : سلام عليكم ، أو سلام عليك ، أو السلام عليك أو عليكم . وهذا مجمع عليه . انتهى ما ذكره (٤) .

قلت : وقد غلب هذا فى عبارة كثير من النساخ للكتب ، أن يفرد على ، رضى الله عنه ، بأن يقال: « عليه السلام » ، من دون سائر الصحابة ، أو :« كرم الله وجهه » وهذا وإن كان معناه

---

(١) فى ت ، ف : « تطهرهم بها وتزكيهم » وهو خطأ .

(٢) تقدم تخريج هذين الحديثين فى هذه السورة .

(٣) فى ت ، ف ، أ : « فى لسان السلف » .

(٤) الأذكار ص (١٥٩، ١٦٠) .

صحيحاً ،لكن ينبغى أن يُسَاوى بين الصحابة فى ذلك ؛فإن هذا من باب التعظيم والتكريم ،فالشيخان وأمير المؤمنين عثمان [بن عفان] (١) أولى بذلك منه ،رضى الله عنهم أجمعين .

قال إسماعيل القاضى :حدثنا عبد الله بن عبد الوهاب ،حدثنا عبد الواحد بن زياد ،حدثنى عثمان بن حكيم بن عَبَّاد بن حُنَيف ،عن عكرمة ،عن ابن عباس أنه قال : لا تصح (٢) الصلاة على أحد إلا على النبى ﷺ ، ولكن يدعى للمسلمين والمسلمات بالمغفرة (٣) (٤) .

وقال أيضاً : حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ،حدثنا حسين بن على ،عن جعفر بن بَرْقان قال: كتب عمر بن عبد العزيز ،رحمه الله : أما بعد ،فإن أناسا من الناس قد التمسوا الدنيا بعمل الآخرة ،وإن ناساً من القصاص قد أحدثوا فى الصلاة على خلفائهم وأمرائهم عدْلَ الصلاة على النبى ﷺ ،فإذا جاءك كتابى هذا فمُرْهم أن تكون صلاتهم على النبيين ودعاؤهم للمسلمين عامة ،ويدعوا ما سوى ذلك . أثر حسن (٥) .

قال إسماعيل القاضى : حدثنا معاذ بن أسد ،حدثنا عبد الله بن المبارك ،حدثنا ابن لَهيعة،حدثنى خالد بن يَزيد ،عن سعيد بن أبى هلال ،عن نُبَيه بن وهب ؛أن كعباً دخل على عائشة ،رضى الله عنها ،فذكروا رسول الله ﷺ ،فقال كعب :ما من فجر يطلع إلا نزل سبعون ألفاً من الملائكة حتى يحفوا بالقبر يضربون بأجنحتهم ويصلون على النبى ﷺ ،سبعون ألفاً بالليل ،وسبعون ألفاً بالنهار،حتى إذا انشقت عنه الأرض خرج في سبعين ألفاً من الملائكة يزفونه (٦) .

[فرع] (٧) :

قال النووى : إذا صلى على النبى ﷺ فليجمع بين الصلاة والتسليم ،فلا يقتصر على أحدهما فلا يقول : « صلى الله عليه فقط » ،ولا : « عليه السلام » فقط ،وهذا الذى قاله منتزع من هذه الآية الكريمة ،وهى قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾،فالأولى أن يقال : ﷺ تسليما .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا (٥٧) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٥٨) ﴾ .

(١) زيادة من ف .
(٢) فى ت ، ف ، أ : « لا تصلح » .
(٣) فى ت ، ف ، أ: « بالاستغفار » .
(٤) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٧٥) ولفظه عنده « لا تصلوا على أحد إلا على النبى ﷺ ،ولكن يدعى للمسلمين والمسلمات بالاستغفار ».
(٥) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٧٦) .
(٦) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (١٠٢) .
(٧) زيادة من : ت ، أ .

يقول تعالى : متهدداً ومتوعداً مَن آذاه ، بمخالفة أوامره وارتكاب زواجره وإصراره على ذلك ، وأذَى رسوله بعيب أو تنقص ، عياذا بالله من ذلك .

قال عِكْرِمة فى قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَه ﴾ : نزلت فى المصوّرين .

وفى الصحيحين ، من حديث سفيان بن عيينة ، عن الزهرى ، عن سعيد بن المسيَّب ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله ، عز وجل : يؤذينى ابن آدم ، يَسُبّ الدهر ، وأنا الدهر ، أقلب ليله ونهاره » [١] .

ومعنى هذا : أن الجاهلية كانوا يقولون : يا خيبة الدهر ، فعل بنا كذا وكذا . فيسندون أفعال الله تعالى إلى الدهر ، ويسبونه ، وإنما الفاعل لذلك هو الله ،عز وجل ، فنهى عن ذلك . هكذا قرره الشافعى وأبو عبيد وغيرهما من العلماء ، رحمهم الله .

وقال العَوْفى ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَه ﴾ : نزلت فى الذين طعنوا [على النبى ﷺ] [٢] فى تزويجه صفية بنت حُيَى بن أخطب .

والظاهر أن الآية عامة فى كل من آذاه بشىء ، من آذاه فقد آذى الله،ومن [٣] أطاعه فقد أطاع الله ، كما قال [٤] الإمام أحمد :

حدثنا يونس ، حدثنا إبراهيم بن سعد ، عن عَبيدة بن أبى رائطة الحذاء التميمى ، عن عبد الرحمن [بن زياد] [٥] ، عن عبد الله بن المغفل المزنى قال : قال النبى ﷺ : « الله الله فى أصحابى ، لا تتخذوهم غَرَضا بعدى ، فمن أحبهم فبحبى أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذانى ، ومن آذانى فقد آذى الله ، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه » .

وقد رواه الترمذى من حديث عَبيدة بن أبى رائطة ، عن عبد الرحمن بن زياد ، عن عبد الله بن المغفل ، به . ثم قال : وهذا حديث غريب ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه [٦] .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا ﴾ أى : ينسبون إليهم ما هم بُرآء منه لم يعملوه ولم يفعلوه ، ﴿ فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾ وهذا هو البهت البيّن أن يحكى أو ينقل عن المؤمنين والمؤمنات ما لم يفعلوه ، على سبيل العيب والتنقص[٧] لهم ، ومن أكثر من يدخل فى هذا الوعيد الكفرةُ بالله ورسوله [٨] ، ثم الرافضة الذين يتنقصون الصحابة ويعيبونهم بما قد برّأهم الله منه، ويصفونهم بنقيض ما أخبر الله عنهم ؛ فإن الله ،عز وجل، قد أخبر أنه قد رضى عن المهاجرين

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٨٢٦) وصحيح مسلم برقم (٢٢٤٦) .

(٢) زيادة من ت ، أ .

(٣) فى أ : « كما أن من » .

(٤) فى ت : « كما روى » .

(٥) زيادة من ت ، أ ، والمسند .

(٦) المسند (٤/ ٨٧) وسنن الترمذى برقم (٣٨٦٢) .

(٧) فى ت : « والنقص » .

(٨) فى أ : « ورسله » .

والأنصار ومدحهم ، وهؤلاء الجهلة الأغبياء يسبونهم ويتنقصونهم[(١)] ، ويذكرون عنهم ما لم يكن ولا فعلوه أبداً ، فهم في الحقيقة منكوسو القلوب [(٢)] ، يذمون الممدوحين ، ويمدحون المذمومين .

وقال [(٣)] أبو داود : حدثنا القَعْنَبِيّ ، حدثنا عبد العزيز ـ يعنى : ابن محمد ـ عن العلاء ، عن أبيه ، عن أبى هريرة ، أنه قيل : يا رسول اللّه ، ما الغيبة ؟ قال : « ذكرُكَ أخاك بما يكره » . قيل : أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول ؟ قال : « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بَهَتَّه » .

وهكذا رواه الترمذى ، عن قتيبة ، عن الدراوردى ، به . قال : حسن صحيح [(٤)] .

وقد قال [(٥)] ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سلمة ، حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا معاوية بن هشام ، عن عمار بن أنس ، عن ابن أبى مُلَيْكَة ، عن عائشة ، قالت : قال رسول اللّه ﷺ لأصحابه : « أيُّ الربا أربى عند اللّه ؟ » قالوا : اللّه ورسوله أعلم . قال : « أربى الربا عند اللّه استحلالُ عرض امرئ مسلم» ، ثم قرأ: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [(٦)].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥٩) لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً (٦١) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (٦٢) ﴾ .

يقول تعالى آمراً رسوله ، صلى الله عليه وسلم تسليما، أن يأمر النساء المؤمنات ـ خاصة أزواجَه وبناته لشرفهن ـ بأن يدنين عليهن من جلابيبهن ، ليتميزن عن سمات نساء الجاهلية وسمات الإماء . والجلباب هو : الرداء فوق الخمار . قاله ابن مسعود ، وعبيدة ، وقتادة ، والحسن البصرى ، وسعيد ابن جبير ، وإبراهيم النَّخَعِى ، وعطاء الخراسانى ، وغير واحد . وهو بمنزلة الإزار اليوم .

قاله الجوهرى : الجلباب : الملحفة ، قالت امرأة من هذيل ترثى قتيلا لها :

تَمْشى النّسور إليه وَهْيَ لاهيَةٌ مَشْيَ العَذَارى عَلَيْهن الجَلابيبُ [(٧)] .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : أمر اللّه نساء المؤمنين [(٨)] إذا خرجن من بيوتهن فى

---

(١) فى أ : « وينتقصونهم » . (٢) فى ت : « قلوبهم منكوسة » . (٣) فى ت : « وروى » .
(٤) سنن أبى داود برقم (٤٨٧٤) وسنن الترمذى برقم (١٩٣٤) .
(٥) فى ت : « وروى » .
(٦) ورواه البيهقى فى شعب الإيمان برقم (٦٧١١) من طريق يحيى بن واضح عن عمار بن أنس ، به .
(٧) الصحاح (١٠١/١) .
(٨) فى ت ، ف ، أ : « المؤمنات » .

حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب ، ويبدين عيناً واحدة .

وقال محمد بن سيرين : سألت عَبيدةَ السّلمانى عن قول اللّه تعالى : ﴿ **يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِن** ﴾ ، فغطى وجهه ورأسه وأبرز عينه اليسرى .

وقال عكرمة : تغطى ثُغْرَة نحرها بجلبابها تدنيه عليها .

وقال [1] ابن أبى حاتم : أخبرنا أبو عبد اللّه الظّهرانى [2] فيما كتب إلىّ ، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معْمَر ، عن ابن خُثَيْم ، عن صفية بنت شيبة ، عن أم سلمة قالت: لما نزلت هذه الآية: ﴿ **يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِن** ﴾ ، خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان من السكينة ، وعليهن أكسية سُود يلبسنها [3] .

وقال[4] ابن أبى حاتم ، حدثنا أبى ، حدثنا أبو صالح ، حدثنى الليث ، حدثنا يونس بن يزيد قال: وسألناه [5] ـ يعنى : الزهرى ـ : هل على الوليدة خمار متزوجة أو غير متزوجة ؟ قال : عليها الخمار إن كانت متزوجة ، وتنهى عن الجلباب لأنه يكره لهن أن يتشبهن بالحرائر إلا محصنات [6] . وقد قال اللّه تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِن** ﴾ .

وروى عن سفيان الثورى أنه قال : لا بأس بالنظر إلى زينة نساء أهل الذمة ، إنما ينهى عن ذلك لخوف الفتنة ؛ لا لحرمتهن ، واستدل بقوله تعالى : ﴿ **وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ .

وقوله : ﴿ **ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ** ﴾ أى : إذا فعلن ذلك عُرِفْنَ أنَّهن حرائر ، لسن بإماء ولا عواهر ،قال السدى فى قوله تعالى : ﴿ [**يَا أَيُّهَا النَّبِي**] [7] **قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ** ﴾ قال : كان ناس من فساق أهل المدينة يخرجون بالليل حين يختلط الظلام إلى طرق المدينة ، يتعرضون للنساء ، وكانت مساكن أهل المدينة ضيّقة ، فإذا كان الليل خرج النساء إلى الطرق يقضين حاجتهن ، فكان أولئك الفساق يبتغون ذلك منهن ،فإذا رأوا امرأة عليها جلباب قالوا : هذه حرة ، كفوا عنها . وإذا رأوا المرأة ليس عليها جلباب، قالوا : هذه أمة. فوثبوا إليها [8] .

وقال مجاهد : يتجلببن فيعلم أنهن حرائر ، فلا يعرض لهن فاسق بأذى ولا ريبة .

وقوله : ﴿ **وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً** ﴾ أى : لما سلف فى أيام الجاهلية حيث لم يكن عندهن علم بذلك .

ثم قال تعالى متوعداً للمنافقين ، وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر : ﴿ **وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ** ﴾ قال عكرمة وغيرة : هم الزناة هاهنا ﴿ **وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ** ﴾ يعنى: الذين يقولون: « جاء

---

(١) فى ت : « وروى » . (٢) فى أ : « الطبرانى » .

(٣) تفسير عبد الرزاق (٢/ ١٠١) ورواه الحسن بن مسلم عن صفية بنت شيبة عن عائشة مثله ، وأخرجه البخارى فى صحيحه برقم (٤٧٥٩).

(٤) فى ت : « وروى » . (٥) فى ت : « سئل » . (٦) فى أ : « بالحرائر المحصنات » .

(٧) زيادة من أ . (٨) فى ت ، ف : « عليها » .

الأعداء » و « جاءت الحروب » ، وهو كذب وافتراء ،لئن لم ينتهوا عن ذلك ويرجعوا إلى الحق ﴿ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس :أى:لنسلطنَّك عليهم . وقال قتادة ، رحمه اللّه : لنحرّشنَّك بهم . وقال السدى : لنعلمنك بهم .

﴿ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا ﴾ أى : فى المدينة ﴿ إِلا قَلِيلاً .مَلْعُونِين ﴾ حال منهم فى مدة إقامتهم فى المدينة مدة قريبة مطرودين مبعدين ،﴿ أَيْنَمَا ثُقِفُوا﴾ أى: وجدوا،﴿أُخِذُوا﴾ لذلتهم وقلتهم،﴿ وَقُتِّلُوا تَقْتِيلا ﴾ .

ثم قال : ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ﴾ أى : هذه سنته فى المنافقين إذا تمردوا على نفاقهم وكفرهم ولم يرجعوا عما هم فيه ، أن أهل الإيمان يسلطون عليهم ويقهرونهم ، ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا ﴾ أى : وسنة اللّه فى ذلك لا تبدل ولا تغير .

﴿ **يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣) إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لاَّ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (٦٥) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاْ (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨)** ﴾ .

يقول تعالى مخبراً لرسوله ﷺ : أنه لا علم له بالساعة ، وإن سأله الناس عن ذلك . وأرشده أن يرد علمها إلى اللّه ،عز وجل ، كما قال له فى سورة « الأعراف » ، وهى مكية وهذه مدنية ، فاستمر الحال في ردّ علمها إلى الذى يقيمها ، لكن [1] أخبره أنها قريبة بقوله : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ ، كما قال : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾[القمر : ١] ، وقال : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء:١] ، وقال:﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾[النحل : ١].

ثم قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ ﴾ أى : أبعدهم من رحمته ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴾ أى : فى الدار الآخرة :﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ أى :ماكثين مستمرين ، فلا خروج لهم منها ولا زوال لهم عنها، ﴿ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا﴾ أى : وليس لهم مغيث ولا معين ينقذهم مما هم فيه .

ثم قال : ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاْ ﴾ أى : يسحبون فى النار على وجوههم ، وتلوى وجوههم على جهنم ، يقولون وهم كذلك ، يتمنون أن لو كانوا فى الدار الدنيا ممن أطاع اللّه وأطاع الرسول ، كما أخبر عنهم فى حال العرصات بقوله : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً . يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلا . لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ

---

(١) فى ت : « لكنه » .

الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴾ [الفرقان: ٢٧ ـ ٢٩]، وقال تعالى: ﴿ رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ [الحجر: ٢]. وهكذا أخبر عنهم في حالتهم [(١)] هذه أنهم يودون أن لو كانوا أطاعوا الله وأطاعوا الرسول في الدنيا، ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا ﴾.

وقال طاوس: سادتنا: يعني الأشراف، وكبراءنا: يعني العلماء. رواه ابن أبي حاتم.

أي: اتبعنا السادة وهم الأمراء والكبراء من المشيخة، وخالفنا الرسل واعتقدنا أن عندهم شيئاً، وأنهم على شيء فإذا هم ليسوا على شيء، ﴿ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ أي: بكفرهم وإغوائهم إيانا، ﴿ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَثِيرًا [(٢)] ﴾. قرأ بعض القراء بالباء الموحدة. وقرأ آخرون بالثاء المثلثة، وهما قريبا المعنى، كما في حديث عبد الله بن عمرو: أن أبا بكر قال: يا رسول الله، علمني دعاء أدعو به في صلاتي. قال: « قل: اللهم، إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم ». أخرجاه في الصحيحين [(٣)]، يروى « كبيراً » و « كثيراً »، وكلاهما بمعنى صحيح.

واستحب بعضهم أن يجمع الداعي بين اللفظين في دعائه، وفي ذلك نظر، بل الأولى أن يقول هذا تارة، وهذا تارة، كما أن القارئ مخير بين القراءتين أيتهما قرأ فَحَسَن، وليس له الجمع بينهما، والله أعلم.

وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا ضِرَار بن صُرَد، حدثنا علي بن هاشم، عن [محمد بن] [(٤)] عبيد الله بن أبي رافع، عن أبيه [(٥)]، في تسمية من شهد مع علي، رضي الله عنه: الحجاج بن عمرو بن غَزِيَّة، وهو الذي كان يقول عند اللقاء: يا معشر الأنصار، أتريدون أن تقولوا لربنا إذا لقيناه: ﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا. رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾؟ [(٦)].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا (٦٩) ﴾.

قال البخاري عند تفسير [(٧)] هذه الآية: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا روح بن عبادة، حدثنا عوف، عن الحسن [ومحمد] [(٨)] وخلاس، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: إن موسى كان رجلا حَيِيًّا، وذلك قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [(٩)].

---

(١) في ت، ف، أ: « حالهم ».
(٢) في ت: « كثيرا كبيرا أو كلاهما » وفي ف، أ: « كبيرا ».
(٣) صحيح البخاري برقم (٨٣٤) وصحيح مسلم برقم (٢٧٠٥).
(٤) زيادة من المعجم الكبير للطبراني.
(٥) في ت: « وروى أبو القاسم الطبراني بإسناده عن أبي رافع ».
(٦) المعجم الكبير (٣/ ٢٢٣).
(٧) في ت: « روى البخاري عند تفسيره ».
(٨) زيادة من ت، أ، والبخاري.
(٩) صحيح البخاري برقم (٤٧٩٩).

هكذا أورد هذا الحديث هاهنا مختصراً جداً ، وقد رواه في أحاديث « الأنبياء » بهذا السند بعينه ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن موسى ، عليه السلام ، كان رجلا حَيِيا ستِّيرا ، لا يُرَى من جلده شَيء استحياء منه ، فآذاهُ من آذاهُ من بني إسرائيل ، فقالوا : ما يتستر هذا التستر إلا من عيب بجلده ، إما بَرص وإما أُدْرَة وإما آفة ، وإن الله ، عز وجل ، أراد أن يُبرِّئه مما قالوا لموسى ، عليه السلام ، فخلا يوماً وحده ، فخلع ثيابه على حجر ، ثم اغتسل ، فلمَّا فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها ، وإن الحجر عدا بثوبه ، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر ، فجعل يقول : ثوبي حَجَر ، ثوبي حَجَر ، حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل ، فرأوه عُرياناً أحسن ما خلق الله ، عز وجل ، وأبرأه مما يقولون ، وقام الحجر ، فأخذ ثوبَه فلبسه ، وطَفقَ بالحجر ضرباً بعصاه ، فوالله إن بالحجر لَندباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً ـ قال : فذلك قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا** ﴾ » .

وهذا سياق حسن مطول ، وهذا الحديث من أفراد البخاري دون مسلم [١] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا روح ، حدثنا عوف ، عن الحسن ، عن النبي ﷺ ـ وخلاس ، ومحمد ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال في هذه الآية : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا** ﴾ قال : قال النبي ﷺ : « إن موسى كان رجلا حَيِيا سَتِّيرا ، لا يكاد يرى من جلده شيء استحياء منه » [٢] .

ثم ساق الحديث كما رواه البخاري مطولا ، ورواه في تفسيره [٣] عن روح ، عن عوف ، به .
ورواه ابن جرير من حديث الثوري ، عن جابر الجعفي ، عن عامر الشعبي ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ بنحو هذا [٤] . وهكذا رواه من حديث سليمان بن مِهْرَان الأعمش ، عن المِنْهَال بن عمرو ، عن سعيد بن جُبَيْر ، وعبد الله بن الحارث ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ **لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ** ﴾ قال : قال قومه له : إنك آدر . فخرج ذات يوم يغتسل ، فوضع ثيابه على صخرة ، فخرجت الصخرة تشتد بثيابه ، وخرج يتبعها عرياناً حتى انتهت به مجالس بني إسرائيل ، قال : فرأوه ليس بآدر ، فذلك قوله : ﴿ **فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا** ﴾ .

وهكذا رواه العوفي ، عن ابن عباس سواء .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا روح بن حاتم وأحمد بن المعلى الأدميّ قالا : حدثنا يحيى بن حماد ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن علي بن زيد ، عن أنس ، عن النبي ﷺ قال : « كان موسى ، عليه السلام ، رجلا حَيِيا ، وإنه أتى ـ أحسبه قال : الماء ـ ليغتسل ، فوضع ثيابه على صخرة ، وكان لا يكاد تبدو عورته ، فقال [٥] بنو إسرائيل : إن موسى آدر ـ أو : به آفة ، يعنون : أنه لا يضع ثيابه ـ

(١) صحيح البخاري برقم (٣٤٠٤) .
(٢) المسند (٣/٥١٤) .
(٣) في أ : « ورواه عنه في تفسيره » .
(٤) تفسير الطبري (٢٢/٣٦) .
(٥) في ف ، أ : « فقالت » .

فاحتملت الصخرة ثيابة حتى صارت بحذاء مجالس بنى إسرائيل ، فنظروا إلى موسى كأحسن الرجال، أو كما قال ، فذلك قوله : ﴿ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [١] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا سعيد بن سليمان ، حدثنا عباد بن العوام ، عن سفيان ابن حسين ، حدثنا الحكم ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس [٢]، عن على بن أبى طالب ، رضى الله عنهم ، فى قوله : ﴿ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ﴾ قال : صعد موسى وهارون الجبل ،فمات هارون ، عليه السلام ، فقال بنو إسرائيل لموسى ، عليه السلام : أنت قتلته ، كان ألين لنا منك وأشد حياء . فآذوه من ذلك ، فأمر الله الملائكة فحملته،فمروا [٣] به على مجالس بنى إسرائيل ، فتكلمت بموته، فما عرف موضع قبره إلا الرَّخَم ، وإن الله جعله أصم أبكم .

وهكذا رواه ابن جرير ، عن على بن موسى الطوسى ، عن عباد بن العوام ، به [٤] .

ثم قال : وجائز أن يكون هذا هو المراد بالأذى ، وجائز أن يكون الأول هو المراد ، فلا قول أولى من قول الله ،عز وجل .

قلت : يحتمل أن يكون الكل مراداً ، وأن يكون معه غيره ، والله أعلم .

قال [٥] الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ،عن شَقيق ، عن عبد الله قال : قسم رسول الله ﷺ ذات يوم قسما ، فقال رجل من الأنصار : إن هذه القسمة [٦] ما أريد بها وجه الله . قال : فقلت : يا عدو الله ، أما لأخبرن رسول الله ﷺ بما قلت . قال : فذكر [٧] ذلك للنبى ﷺ فاحمر وجهه ، ثم قال : « رحمة الله على موسى ، لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر » .

أخرجاه فى الصحيحين [٨] من حديث سليمان بن مِهْرَان الأعمش ، به [٩] .

طريق أخرى : قال الإمام أحمد : حدثنا حجاج ، سمعت إسرائيل بن يونس ، عن الوليد بن أبى هاشم [١٠] ـ مولى الهمدانى ، عن زيد بن زائد ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « لا يبلِّغنى أحد من أصحابى عن أحد شيئاً ، فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا [سليم الصدر] » [١١] .فأتى رسول الله ﷺ مالٌ فقسمه ، قال : فمررت برجلين وأحدهما يقول لصاحبه : والله ما أراد محمد بقسمته وجه الله ولا الدار الآخرة . قال : فَتَثَبَّتُ حتى سمعت [١٢] ما قالا ، ثم أتيت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ، إنك قلت لنا : « لا يبلغنى أحد عن أصحابى شيئاً » ، وإنى مررت بفلان وفلان ، وهما يقولان كذا وكذا . فاحمر وجه رسول الله ﷺ وشَقَّ عليه ، ثم قال : « دعنا منك ، لقد أوذى موسى بأكثر من هذا ، فصبر » [١٣] .

---

(١) مسند البزار برقم (٢٢٥٢) «كشف الأستار» وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٩٢):« وفيه إسحاق بن عبد الله بن أبى فروة وهو متروك » .
(٢) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بإسناده » . (٣) فى أ : « فمرت » .
(٤) تفسير الطبرى (٢٢/ ٣٧) .
(٥) فى ت : « وروى » . (٦) فى أ : « لقسمة » .
(٧) فى ت ، أ : « فذكرت » . (٨) فى ت : « أخرجه البخارى ومسلم » .
(٩) المسند (١/ ٣٨٠) وصحيح البخارى برقم (٣٤٠٥) وصحيح مسلم برقم (١٠٦٢) .
(١٠) فى أ : « هشام » . (١١) زيادة من ت ، ف ، أ ، والمسند . (١٢) فى أ : « فقلت حين سمعت » .
(١٣) المسند (١/ ٣٩٥) .

وقد رواه أبو داود فى الأدب ، عن محمد [بن يحيى الذهلى ، عن محمد بن يوسف الفريابى ، عن إسرائيل عن الوليد] (١) بن أبى هاشم (٢) به مختصراً : « لا يبلغنى أحد [من أصحابى] (٣) عن أحد شيئاً ؛ إنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » (٤) .

وكذا رواه الترمذى فى « المناقب » ، عن الذُّهْلى سواء ، إلا أنه قال : « زيد بن زائدة ». ورواه أيضاً عن محمد بن إسماعيل ، عن عبد الله بن محمد ، عن عبيد الله بن موسى وحسين بن محمد ، كلاهما عن إسرائيل ، عن السُّدِّى ، عن الوليد بن أبى هاشم ، به مختصراً أيضاً ، فزاد فى إسناده السدى ، ثم قال : غريب من هذا الوجه (٥).

وقوله : ﴿ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ أى : له وجاهة وجاه عند ربه ،عز وجل .

قال الحسن البصرى : كان مستجابَ الدعوة عند الله . وقال غيره من السلف : لم يسأل الله شيئاً إلا أعطاه ، ولكن منع الرؤية لما يشاء الله ،عز وجل .

وقال بعضهم : من وجاهته العظيمة [عند الله] (٦): أنه شفع فى أخيه هارون أن يرسله الله معه ، فأجاب الله سؤاله ، وقال : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم : ٥٣] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١) ﴾ .

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بتقواه ، وأن يعبدوه عبادة من كأنه يراه ، وأن يقولوا ﴿ قَوْلاً سَدِيداً ﴾ أى : مستقيما لا اعوجاج فيه ولا انحراف . ووعدهم أنهم إذا فعلوا ذلك ، أثابهم عليه بأن يصلح لهم أعمالهم ، أى : يوفقهم للأعمال الصالحة ، وأن يغفر لهم الذنوب الماضية . وما قد يقع منهم فى المستقبل يلهمهم التوبة منها .

ثم قال : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ : وذلك أنه يجار من النار ، ويصير إلى النعيم المقيم .

قال (٧) ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عمرو بن عَوْن ، حدثنا خالد ، عن لَيْث ، عن أبى بُرْدَة ، عن أبى موسى الأشعرى قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الظهر ، فلما انصرف أومأ إلينا بيده فجلسنا ، فقال : « إن الله أمرنى أن آمركم ، أن تتقوا الله وتقولوا قولا سديداً » . ثم أتى النساء فقال : « إن الله أمرنى أن آمركن : أن تتقين الله وتقلن قولا سديداً » (٨) .

وقال (١) ابن أبى الدنيا فى كتاب « التقوى » : حدثنا محمد بن عباد بن موسى ، حدثنا عبد

---

(١) زيادة من ت ، ف ، أ ، وأبى داود . (٢) فى ف ، أ : « هشام » . (٣) زيادة من ت ، ف ، أ ، وأبى داود .
(٤) سنن أبى داود برقم (٤٨٦٠) .
(٥) سنن الترمذى برقم (٣٨٩٦) .
(٦) زيادة من ت . (٧) فى ت : « وروى » .
(٨) ورواه أحمد فى مسنده (٤/ ٣٩١) من طريق شيبان عن ليث ، به .

العزيز بن عمران الزهرى ، حدثنا عيسى بن سَمُرة ، عن هشام بن عُرْوَة ، عن أبيه (٢) ، عن عائشة، رضى اللّه عنها ، قالت : ما قام رسول اللّه ﷺ على المنبر إلا سمعته يقول : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً** ﴾الآية . غريب جدًا .

وروى من حديث عبد الرحيم بن زيد العَمِّى ، عن أبيه ، عن محمد بن كعب ،عن ابن عباس موقوفا (٣) ، من سره أن يكون أكرم الناس ، فليتق اللّه .

قال عكرمة : القول السديد : لا إله إلا اللّه .

وقال غيره : السديد : الصدق . وقال مجاهد : هو السداد . وقال غيره : هو الصواب . والكل حق .

﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً (٧٣)** ﴾ .

قال العَوْفى ، عن ابن عباس :يعنى بالأمانة :الطاعة ، وعرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم، فلم يطقنها (٤). فقال لآدم : إنى قد عرضتُ الأمانةَ على السموات والأرض والجبال فلم يطقنها (٥) ، فهل أنت آخذ بما فيها ؟ قال : يا رب ، وما فيها ؟ قال : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت . فأخذها آدم فتحملها ، فذلك قوله : ﴿ **وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً** ﴾ .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ، الأمانة : الفرائض ، عرضها اللّه على السموات والأرض والجبال ، إن أدوها أثابهم .وإن ضيعوها عذبهم (٦) ،فكرهوا ذلك وأشفقوا من غير معصية، ولكن تعظيما لدين اللّه ألا يقوموا بها ، ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها ، وهو (٧) قوله: ﴿**وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً**﴾ يعنى : غرًا بأمر اللّه .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن بشار ، حدثنا محمد بن جعفر ، عن أبى بشر(٨) ، عن سعيد بن جبير ، عن (٩) ابن عباس أنه قال فى هذه الآية : ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا** ﴾ قال : عرضت على آدم فقال :خذها بما فيها ، فإن أطعت غَفَرت لك، وإن عَصَيت عذبتك . قال : قبلت ، فما كان إلا قدر ما بين العصر إلى الليل من ذلك اليوم ، حتى أصاب الخطيئة .

وقد روى الضحاك ، عن ابن عباس ، قريبا من هذا . وفيه نظر وانقطاع بين الضحاك وبينه ، واللّه أعلم . وهكذا قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، والضحـاك ، والحسن البصرى ، وغير واحد :

---

(١) فى ت : « وروى » . (٢) فى ت : « بسنده » . (٣) فى ت : « مرفوعا » .
(٤) فى ت : « يطقها » ، وفى أ : « يطعنها » . (٥) فى أ : « يطعنها ». (٦) فى ت ، أ : « عذبهم اللّه ».
(٧) فى أ : « وهى » . (٨) فى أ : « حدثنا محمد بن جعفر ،حدثنا شعبة ، عن أبى بشر » .
(٩) فى ت : « وروى ابن جرير بسنده إلى » .

[ألا] (١) إن الأمانة هى الفرائض .

وقال آخرون : هى الطاعة .

وقال الأعمش ، عن أبى الضحى ، عن مسروق [قال](٢) : قال أبى بن كعب : من الأمانة أن المرأة اؤتمنت على فرجها .

وقال قتادة : الأمانة : الدين والفرائض والحدود .

وقال بعضهم :الغسل من الجنابة .

وقال مالك ، عن زيد بن أسلم قال : الأمانة ثلاثة : الصلاة ،والصوم ، والاغتسال من الجنابة.

وكل هذه الأقوال لا تنافى بينها ، بل هى (٣) متفقة وراجعة إلى أنها التكليف ، وقبول الأوامر والنواهى بشرطها ، وهو أنه إن قام بذلك أثيب ، وإن تركها عُوقِبَ ، فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه ، إلا من وفق الله ، وبالله المستعان .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبد العزيز بن المغيرة [البصرى] (٤)، حدثنا حماد بن واقد ـ يعنى:أبا عمر الصفار ـ سمعت أبا معمر(٥) ـ يعنى : عون بن معمر ـ يحدث عن الحسن ـ يعنى: البصرى (٦) ـ أنه تلا هذه الآية : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ ﴾ قال: عرضها على السبع الطباق الطرائق التى زينت بالنجوم ، وحملة العرش العظيم ، فقيل لها : هل تحملين الأمانة وما فيها ؟ قالت : وما فيها ؟ قال : قيل لها : إن أحسنت جُزِيت ،وإن أسأت عُوقبت. قالت : لا . ثم عرضها على الأرضين السبع الشداد ، التى شدت بالأوتاد ، وذللت بالمهاد، قال : فقيل لها : هل تحملين الأمانة وما فيها ؟ قالت : وما فيها ؟ قال : قيل لها : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت . قالت : لا . ثم عرضها على الجبال الشم (٧) الشوامخ الصعاب الصلاب ، قال: قيل لها : هل تحملين الأمانة وما فيها ؟ قالت : وما فيها ؟ قال : قيل لها : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت . قالت : لا .

وقال مقاتل بن حيان : إن الله حين خلق خلقه ، جمع بين الإنس والجن ، والسموات والأرض والجبال ، فبدأ بالسموات فعرض عليهن الأمانة وهى الطاعة ، فقال لهن : أتحملن هذه الأمانة ، ولكن على الفضل والكرامة والثواب فى الجنة . . ؟ فقلن : يا رب ، إنا لا نستطيع هذا الأمر، وليست بنا قوة ، ولكنا لك مطيعين . ثم عرض الأمانة على الأرضين ، فقال لهن : أتحملن هذه الأمانة وتقبلنها منى ، وأعطيكن الفضل والكرامة (٨) ؟ فقلن : لا صبر لنا على هذا يا رب ولا نطيق، ولكنا لك سامعين مطيعين ، لا نعصيك فى شىء تأمرنا به . ثم قرب آدم فقال له : أتحمل هذه الأمانة وترعاها حق رعايتها ؟ فقال عند ذلك آدم : ما لى عندك ؟ قال : يا آدم ، إن أحسنت وأطعت ورعيت الأمانة ، فلك عندى الكرامة والفضل وحسن الثواب فى الجنة . وإن عصيت ولَم ترْعَها حق رعايتها

(١ ، ٢) زيادة من أ . (٣) فى ت : « وهى » . (٤) زيادة من أ .
(٥) فى أ : « أبا عمر » . (٦) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم عن الحسن البصرى » .
(٧) فى أ : « الصم » . (٨) فى أ : « والكرامة فى الدنيا » .

وأسأت ، فإنى معذبك ومعاقبك وأنزلك النار . قال : رضيت [يا] [١] رب . وتَحمَّلها[٢]، فقال الله عز وجل : قد حَمَّلْتُكَهَا. فذلك قوله : ﴿ وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ ﴾ .رواه ابن أبى حاتم .

وعن [٣] مجاهد أنه قال : عرضها على السموات فقالت : يا رب ، حملتنى الكواكب وسكان السماء وما ذكر ، وما أريد ثوابا ولا أحمل فريضة . قال : وعرضها على الأرض فقالت : يا رب ، غرست فى الأشجار ، وأجريت فىّ الأنهار وسكان الأرض وما ذكر ،وما أريد ثوابا ولا أحمل فريضة. وقالت الجبال مثل ذلك ، قال الله تعالى : ﴿ وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ فى عاقبة أمره . وهكذا قال ابن جُرَيْج .

وعن ابن أشوع أنه قال : لما عرض الله عليهن حمل الأمانة ، ضَجَجْنَ إلى الله ثلاثة أيام ولياليهن ، وقلن : ربنا . لا طاقة لنا بالعمل ، ولا نريد الثواب .

ثم قال [٤] ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا هارون بن زيد بن أبى الزرقاء الموصلى ، حدثنا أبى ، حدثنا هشام بن سعد ، عن زيد بن أسلم فى هذه الآية : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ ﴾ [الآية] [٥] ، فقال الإنسان : بين أذنى وعاتقى فقال الله تعالى [٦] :إنى مُعينك عليها ، أى : معينك على عينيك بطبقتين ، فإذا نازعاك إلى ما أكره فأطبق . ومعينك على لسانك بطبقتين ، فإذا نازعك إلى ما أكره فأطبق . ومعينك على فرجك بلباس ، فلا تكشفه إلى ما أكره .

ثم روى عن أبى حازم نحو هذا .

وقال ابن جرير : حدثنا يونس ، حدثنا ابن وهب قال : قال ابن زيد فى قول الله ،عز وجل : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ قال : إن الله عرض عليهن الأمانة أن يفترض عليهن الدين ، ويجعل لهن ثوابا وعقابا ، ويستأمنهن على الدين . فقلن: لا،نحن مسخرات لأمرك ، لا نريد ثوابا ولا عقابا . قال[٧] : وعرضها الله على آدم فقال: بين أذنى وعاتقى . قال ابن زيد : فقال الله تعالى له : أما إذْ تحملت هذا فسأعينك ، أجعل لبصرك حجاباً ، فإذا خشيت أن تنظر إلى ما لا يحل لك فأرخ عليه حجابه ، وأجعل للسانك بابا وغلقا ، فإذا خشيت فأغلق ، وأجعل لفرجك لباسا فلا تكشفه إلا على ما أحللت لك .

وقال ابن جرير : حدثنى سعيد [٨] بن عمرو السَّكُونى ، حدثنا بقِيَّة ، حدثنا عيسى بن إبراهيم ، عن موسى بن أبى حبيب ، عن [٩] الحكم بن عمير ـ وكان من أصحاب النبى ﷺ ـ قال : قال النبى ﷺ : « إن الأمانة والوفاء نزلا على ابن آدم مع الأنبياء ، فأرسلوا به ، فمنهم رسول الله ، ومنهم نبى ، ومنهم نبى رسول ، ونزل القرآن وهو كلام الله ، ونزلت العربية والعجمية ، فعلموا أمر القرآن وعلموا أمر السنن بألسنتهم ، ولم يدع الله شيئا من أمره مما يأتون وما يجتنبون وهى الحجج عليهم ، إلا بينه لهم . فليس أهل لسان إلا وهم يعرفون الحسن والقبيح ،ثم الأمانة أول شىء يرفع ويبقى

---

(١) زيادة من أ . (٢) فى أ : « وتحملتها » . (٣) فى ت : « وقال » .
(٤) فى ت : « ثم روى » . (٥) زيادة من ت ، ف ، أ . (٦) فى ت ، ف : « عز وجل » .
(٧) فى أ : « قال رسول الله ﷺ » (٨) فى أ : « سعد » . (٩) فى ت: « وروى ابن جرير بإسناده إلى».

أثرها فى جذور [١] قلوب الناس ، ثم يرفع الوفاء والعهد والذمم وتبقى الكتب [٢] ، فعالم يعمل، وجاهل يعرفها وينكرها ولا يحملها ، حتى وصل إلىّ وإلى أمتى ، ولا يهلك على الله إلا هالك ، ولا يغفله إلا تارك . فالحذر أيها الناس ، وإياكم والوسواس الخناس ، فإنما يبلوكم أيكم أحسن عملا»[٣] .

هذا حديث غريب جدا ، وله شواهد من وجوه أخرى .

ثم قال ابن جرير : حدثنا محمد بن خلف العسقلانى، حدثنا عبد الله بن عبد المجيد الحنفى، أخبرنا أبو العوام القطان ، حدثنا قتادة ،وأبان بن أبى عياش [٤] ، عن خُلَيد العَصَرى [٥] ، عن أبى الدرداء، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « خمس من جاء بهن يوم القيامة مع إيمان دخل الجنة: من حافظ على الصلوات الخمس على وضوئهن وركوعهن وسجودهن ومواقيتهن ، وأعطى الزكاة من ماله طَيب النفس بها ـ وكان يقول: وايم الله لا يفعل ذلك إلا مؤمن ـ [وصام رمضان، وحج البيت إن استطاع إلى ذلك سبيلا] [٦] ، وأدى الأمانة » . قالوا : يا أبا الدرداء ، وما أداء الأمانة؟ قال : الغسل من الجنابة ، فإن الله لم يأمن ابن آدم على شىء من دينه غيره .

وهكذا رواه أبو داود عن محمد بن عبد الرحمن العنبرى،عن أبى على عبيد الله بن عبد المجيد[٧] الحنفى ، عن أبى العوام عمران بن دَاور [٨] القطان ، به [٩] .

وقال ابن جرير [١٠] أيضا :حدثنا تميم بن المنتصر ، أخبرنا إسحاق ، عن شريك ، عن الأعمش، عن عبد الله [١١] بن السائب ، عن زاذان ، عن عبد الله بن مسعود ، عن النبى ﷺ أنه قال : «القتل فى سبيل الله يكفر الذنوب كلها ـ أو قال : يكفر كل شىء ـ إلا الأمانة ، يؤتى بصاحب الأمانة فيقال له : أد أمانتك . فيقول : أنى يا رب وقد ذهبت الدنيا ؟ فيقال له : أد أمانتك . فيقول : أنى يا رب وقد ذهبت الدنيا ؟ فيقال له : أد أمانتك . فيقول : أنى يا رب وقد ذهبت الدنيا ؟ فيقول : اذهبوا به إلى أمه الهاوية . فيذهب به إلى الهاوية ، فيهوى فيها حتى ينتهى إلى قعرها ، فيجدها هنالك كهيئتها، فيحملها فيضعها على عاتقه ، فيصعد بها إلى شفير جهنم ، حتى إذا رأى أنه قد خرج زلّت فهوى فى أثرها أبد الآبدين » . قال : والأمانة فى الصوم ، والأمانة فى الوضوء ، والأمانة فى الحديث ، وأشد ذلك الودائع . فلقيت البراء فقلت : ألا تسمع إلى ما يقول أخوك عبد الله ؟ فقال: صدق .

قال شريك : وحدثنا عياش [١٢] العامرى ، عن زاذان ، عن [١٣] عبد الله بن مسعود ، رضى

---

(١) فى أ : « صدور » . (٢) فى ت : « الكسب » .
(٣) تفسير الطبرى (٢٢/ ٣٩) وله شاهد من حديث حذيفة أخرجه البخارى فى صحيحه برقم (٦٤٩٧) وسيأتى .
(٤) فى أ : « أبى عباس » . (٥) فى ت : « ثم روى ابن جرير بإسناده » .
(٦) زيادة من ت ، ف ، أ ، و تفسير الطبرى . (٧) فى أ : « عبد الحميد » . (٨) فى أ : « داود » .
(٩) تفسير الطبرى (٢٢/ ٣٩) وسنن أبى داود برقم (٤٢٩) .
(١٠) فى ت : « وروى ابن أبى جرير » (١١) فى أ : « عبيد الله »
(١٢) فى أ : « عباس » . (١٣) فى ت : « وعن » .

الله عنه ، عن النبى ﷺ ، بنحوه . ولم يذكر: « الأمانة فى الصلاة وفى كل شىء » [١] . إسناده جيد، ولم يخرجوه .

ومما يتعلق بالأمانة الحديث الذى رواه الإمام أحمد [٢] :

حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن زيد بن وهب ، عن حذيفة قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر ، حدثنا « أن الأمانة نزلت فى جذر [٣] قلوب الرجال، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة » . ثم حدثنا عن رفع الأمانة ، فقال : « ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر [الوكت ، فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر] [٤] المجل كجمر دحرجته [على رجلك ، تراه مُنتبرًا وليس فيه شىء » . قال : ثم أخذ حصى[٥] فدحرجه] [٦] على رجله ، قال : « فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدى الأمانة ، حتى يقال : إن فى بنى فلان رجلا أمينا ، حتى يقال للرجل : ما أجلده وأظرفه وأعقله . وما فى قلبه حبة من خردل من إيمان . ولقد أتى عَلَىَّ زمان وما أبالى أيكم بايعت ، إن كان مسلماً ليردنه على دينه ، وإن كان نصرانيا أو يهودياً ليردنه علىّ ساعيه ، فأما اليوم فما كنت أبايع منكم إلا فلانا وفلانا .

وأخرجاه فى الصحيحين من حديث الأعمش ، به[٧] .

وقال[٨] الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لَهيعة ، عن الحارث بن يزيد [٩] الحضرمى ، عن عبد الله بن عمرو ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « أربع إذا كُنَّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا : حِفْظ أمانة ، وصِدْق حديث ، وحُسْن خليقة، وعِفَّة طُعمة » .

هكذا رواه الإمام أحمد فى مسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص [١٠] .

وقد قال الطبرانى فى مسند عبد الله بن عمر بن الخطاب :حدثنى يحيى بن أيوب العلاف المصرى[١١] ، حدثنا سعيد بن أبى مريم ، حدثنا ابن لِهَيعة ، عن الحارث بن يزيد ، عن ابن حجَيرة ، عن عبد الله بن عمر ، رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا : حفظ أمانة ، وصدق حديث ، وحسن خليقة ،وعفة طعمة ». فزاد فى الإسناد: « ابن حُجَيرة » ، وجعله من [١٢] مسند ابن عمر [١٣] .

---

(١) تفسير الطبرى (٢٢/ ٤٠) .
(٢) فى ت : « الذى فى الصحيحين » . (٣) فى أ : « صدر » . (٤) زيادة من ت ، ف ، أ ، والمسند.
(٥) فى ت ، أ : « حصاة » . (٦) زيادة من ت ، ف ، أ ، والمسند .
(٧) المسند (٥/ ٢٨٣) وصحيح البخارى برقم (٦٤٩٧) وصحيح مسلم برقم (١٤٣) .
(٨) فى ت : « وروى » . (٩) فى أ : « زيد » .
(١٠) المسند (٢/ ١٧٧) .
(١١) فى ف ، أ : « المقرى » . (١٢) فى أ : « فى ».
(١٣) مجمع الزوائد (٤/ ١٤٥) وقال الهيثمى : « رواه أحمد والطبرانى فى الكبير ، وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن ، وبقية رجاله رجال الصحيح ».

وقد ورد النهى عن الحلف بالأمانة ، قال عبد الله بن المبارك فى كتاب الزهد [١] : حدثنا شريك، عن أبى إسحاق الشيبانى ، عن خُنَاس بن سُحَيم ـ أو قال : جَبَلَة بن سُحَيم ـ قال : أقبلت مع زياد ابن حُدَيْر من الجابية فقلتُ فى كلامى : لا والأمانة . فجعل زياد يبكى ويبكى، فظننت أنى أتيتُ أمراً عظيما ، فقلت له : أكان يكره هذا ؟ فقال : نعم . كان عمر بن الخطاب ينهى عن الحلف بالأمانة أشد النهى[٢] .

وقد ورد فى ذلك حديث مرفوع ، قال [٣] أبو داود : حدثنا أحمد بن عبد الله بن يونس ، حدثنا زهير ، حدثنا الوليد بن ثعلبة الطائى ، عن ابن بُرَيدة ، عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : «من حلف بالأمانة فليس منا » ، تفرد به أبو داود ، رحمه الله [٤] .

وقوله تعالى : ﴿ **لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ** ﴾ أى : **إنما حمل ابن آدم** الأمانة وهى التكاليف ليعذب الله المنافقين منهم والمنافقات ، وهم الذين يظهرون الإيمان خوفا من أهله ويبطنون الكفر متابعة لأهله ، ﴿ **وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ** ﴾ ، وهم الذين ظاهرهم وباطنهم على الشرك بالله ،عز وجل ،ومخالفة رسله ، ﴿ **وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ** ﴾ أى: وليرحم [٥] المؤمنين من الخلق [٦] الذى آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله العاملين بطاعته ﴿ **وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾.

[آخر تفسير سورة « الأحزاب »][٧]

---

(١) فى ت : « فروى ابن المبارك بإسناد » .
(٢) الزهد برقم (٢١٣) .
(٣) فى ت : « رواه » .
(٤) سنن أبى داود برقم (٣٢٥٣) ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (١٣١٨) « موارد » من طريق وكيع عن الوليد بن ثعلبة ، به .
(٥) فى أ : « وليرحم الله ». (٦) فى أ : « الحلف » . (٧) زيادة من ف .

٣٣ — سورة الأحزاب

(مدنية وهى ثلاث وسبعون آية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ ٣٣ الأحزاب

وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ ٣٣ الأحزاب

﴿ سورة الأحزاب مدنية وهى ثلاث وسبعون آية ﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (يأيها النبى اتق الله) فى ندائه ﷺ بعنوان النبوة تنويه بشأنه وتنبيه على
سمو مكانه والمراد بالتقوى المأمور به الثبات عليه والازدياد منه فإن له باباً واسعاً وعرضاً عريضاً لا ينال
* مداه (ولا تطع الكافرين) أى المجاهرين بالكفر (والمنافقين) المضمرين له أى فيما يعودبوهن فى الدين
وإعطاء دنية فيما بين المسلمين روى أن أبا سفيان بن حرب وعكرمة بن أبى جهل وأبا الأعور السلمى قدموا
عليه ﷺ فى الموادعة التى كانت بينه ﷺ وبينهم وقام معهم عبدالله بن أبى ومعتب بن قشير والجد بن قيس
فقالوا لرسول الله ﷺ ارفض ذكر آلهتنا وقل إنها تشفع وتنفع وندعك وربك فشق ذلك على النبى ﷺ
والمؤمنين وهموا بقتلهم فنزلت أى اتق الله فى نقض العهد ونبذ الموادعة ولا تساعد الكافرين من أهل
* مكة والمنافقين من أهل المدينة فيما طلبوا إليك (إن الله كان عليما حكيما) مبالغاً فى العلم والحكمة فيعلم
جميع الأشياء من المصالح والمفاسد فلا يأمرك إلا بما فيه مصلحة ولا ينهاك إلا عما فيه مفسدة ولا يحكم
٢ إلا بما تقتضيه الحكمة البالغة فالجملة تعليل للأمر والنهى مؤكد لوجوب الامتثال بهما (واتبع) أى فى
كل ما تأتى وتذر من أمور الدين (مايوحى إليك من ربك) من الآيات التى من جملتها هذه الآية الآمرة
بتقوى الله الناهية عن مساعدة الكفرة والمنافقين والتعرض لعنوان الربوبية لتأكيد وجوب الامتثال
* بالأمر (إن الله كان بما تعملون خبيراً) قيل الخطاب للرسول ﷺ والجمع للتعظيم وقيل له ﷺ
وللمؤمنين وقيل للغائبين بطريق الالتفات ولا يخفى بعده نعم يجوز أن يكون للكل على ضرب من
التغليب وأياً ما كان فالجملة تعليل للأمر وتأكيد لموجبه أما على الوجهين الأولين فبطريق الترغيب
والترهيب كأنه قيل إن الله خبير بما تعملونه من الامتثال وتركه فيرتب على كل منهما جزاءه ثواباً
وعقاباً وأما على الوجه الأخير فبطريق الترغيب فقط كأنه قيل إن الله خبير بما يعمله كلا الفريقين
فيرشدك إلى مافيه صلاح حالك وانتظام أمرك ويطلعك على مايعملونه من المكايد والمفاسد ويأمرك
بما ينبغى لك أن تعمله فى دفعها وردها فلابد من اتباع الوحى والعمل بمقتضاه حتما .

وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ ٣٣ الأحزاب

مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٣٣ الأحزاب

ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ٣٣ الأحزاب

٣ (وتوكل على الله) أى فوض جميع أمورك إليه (وكفى بالله وكيلا) حافظاً موكولا إليه كل الأمور
٤ (ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه) شروع فى إلقاء الوحى الذى أمر ﷺ باتباعه وهذا مثل ضربه الله
٥ تعالى تمهيداً لما يعقبه من قوله تعالى (وماجعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم وماجعل أدعياءكم أبناءكم) وتنبيهاً على أن كون المظاهر منها أما وكون الدعى ابنا أى بمنزلة الأم والابن فى الآثار والأحكام المعهودة فيما بينهم فى الاستحالة بمنزلة اجتماع قلبين فى جوف واحد وقيل هو رد لما كانت العرب تزعم من أن اللبيب الأريب له قلبان ولذلك قيل لأبى معمر أو لجميل بن سيد الفهرى ذو القلبين أى ماجمع الله تعالى قلبين فى رجل وذكر الجوف لزيادة التقرير كما فى قوله تعالى ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ولا زوجية ولا أمومة فى امرأة ولا دعوة وبنوة فى شخص لكن لا بمعنى نفى الجمع بين حقيقة الزوجية والأمومة ونفى الجمع بين حقيقة الدعوة والبنوة كما فى القلب ولا بمعنى نفى الجمع بين أحكام الزوجية وأحكام الأمومة ونفى الجمع بين أحكام الدعوة وأحكام البنوة على الإطلاق بل بمعنى نفى الجمع بين حقيقة الزوجية وأحكام الأمومة ونفى الجمع بين حقيقة الدعوة وأحكام البنوة لإبطال ما كانوا عليه من إجراء أحكام الأمومة على المظاهر منها وإجراء أحكام البنوة على الدعى ومعنى الظهار أن يقول لزوجته أنت على كظهر أمى مأخوذ من الظهر باعتبار اللفظ كالتلبية من لبيك وتعديته بمن لتضمنه معنى التجنب لأنه كان طلاقا فى الجاهلية وهو فى الإسلام يقتضى الطلاق أو الحرمة إلى أداء الكفارة كما عدى آلى بها وهو بمعنى حلف وذكر الظهار للكناية عن البطن الذى هو عموده فإن ذكره قريب من ذكر الفرج أو للتغليظ فى التحريم فإنهم كانوا يحرمون إتيان الزوجة وظهرها إلى السماء وقرىء اللاء وقرىء تظاهرون بحذف إحدى التاءين من تتظاهرون وتظاهرون بإدغام التاء الثانية فى الظاء وتظهرون من أظهر بمعنى تظهر وتظهرون من ظهر بمعنى ظاهر كعقد بمعنى عاقد وتظهرون من ظهر ظهوراً وادعياء جمع دعى وهو الذى يدعى ولداً على الشذوذ لاختصاص أفعلاء بفعيل بمعنى فاعل كتقى وأتقياء كأنه شبه به فى اللفظ فجمع جمعه
٥ كقتلاء وأسراء (ذلكم) إشارة إلى مايفهم مما ذكر من الظهار والدعاء أو إلى الأخير الذى هو المقصود من مساق الكلام أى دعاؤكم بقولكم هذا ابنى (قولكم بأفواهكم) فقط من غير أن يكون له مصداق وحقيقة فى الأعيان فإذن هو بمعزل من استتباع أحكام البنوة كما زعمتم (والله يقول الحق) المطابق للواقع (وهو
٥ يهدى السبيل) أى سبيل الحق لا غير فدعوا أقوالكم وخذوا بقوله عز وجل (ادعوهم لآبائهم) أى انسبوهم

ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ﴿٦﴾ ٣٣ الأحزاب

وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿٧﴾ ٣٣ الأحزاب

إليهم وخصوهم بهم وقوله تعالى (هو أقسط عند الله) تعليل له والضمير لمصدر ادعوا كما فى قوله تعالى اعدلوا هو أقرب للتقوى وأقسط أفعل تفضيل قصد به الزيادة مطلقاً من القسط بمعنى العدل أى الدعاء لآبائهم بالغ فى العدل والصدق فى حكم الله تعالى وقضائه (فإن لم تعلموا آباءهم) فتنسبوهم إليهم (فإخوانكم) فهم إخوانكم (فى الدين ومواليكم) وأولياؤكم فيه أى فادعوهم بالأخوة الدينية والمولوية (وليس عليكم جناح) أى إثم (فيما أخطأتم به) أى فيما فعلتموه من ذلك مخطئين بالسهو أو النسيان أو سبق اللسان (ولكن ما تعمدت قلوبكم) أى ولكن الجناح فيما تعمدت قلوبكم بعد النهى أو ما تعمدت قلوبكم فيه الجناح (وكان الله غفوراً رحيما) لعفوه عن المخطىء وحكم التبنى بقوله هو ابنى إذا كان عبداً للقائل العتق على كل حال ولا يثبت نسبه منه إلا إذا كان مجهول النسب وكان بحيث يولد مثله لمثل المتبنى ولم يقر
٦ قبله بنسبه من غيره (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم) أى فى كل أمر من أمور الدين والدنيا كما يشهد به الإطلاق فيجب عليه أن يكون ﷺ أحب إليهم من أنفسهم وحكمه أنفذ عليهم من حكمها وحقه آثر لديهم من حقوقها وشفقتهم عليه أقدم من شفقتهم عليها روى أنه ﷺ أراد غزوة تبوك فأمر الناس بالخروج فقال ناس نستأذن آباءنا وأمهاتنا فنزلت وقرىء وهو أب لهم أى فى الدين فإن كل نبى أب لأمته من حيث إنه أصل فيما به الحياة الأبدية ولذلك صار المؤمنون أخوة (وأزواجه أمهاتهم) أى منزلات منزلة الأمهات فى التحريم واستحقاق التعظيم وأما فيما عدا ذلك فهن كالأجنبيات ولذلك قالت عائشة رضى الله عنها لسنا أمهات النساء (وأولوا الأرحام) أى ذو القرابات (بعضهم أولى ببعض) فى التوارث وهو نسخ لما كان فى صدر الإسلام من التوارث بالهجرة والموالاة فى الدين (فى كتاب الله) فى اللوح أو فيما أنزله وهو هذه الآية أو آية المواريث أو فيما فرض الله تعالى (من المؤمنين والمهاجرين) بيان لأولى الأرحام أو صلة لأولى أى أولو الأرحام بحق القرابة أولى بالميراث من المؤمنين بحق الدين ومن المهاجرين بحق الهجرة (إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا) استثناء من أعم ما تقدر الأولوية فيه من النفع والمراد بفعل المعروف التوصية أو منقطع (كان ذلك فى الكتاب مسطوراً) أى كان ما ذكر من الآيتين ثابتاً فى اللوح أو القرآن وقيل
٧ فى التوراة (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم) أى اذكر وقت أخذنا من النبيين كافة عهودهم بتبليغ الرسالة والدعاء إلى الدين الحق (ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم) وتخصيصهم بالذكر مع

لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ ٣٣ الأحزاب

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ ٣٣ الأحزاب

اندارجهم فى النبيين اندارجا بينا للإيذان بمزيد مزيتهم وفضلهم وكونهم من مشاهير أرباب الشرائع وأساطين أولى العزم من الرسل وتقديم نبينا عليهم عليهم الصلاة والسلام لإبانة خطره الجليل (وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) أى عهداً عظيم الشأن أو مؤكداً باليمين وهذا هو الميثاق الأول بعينه وأخذه هو أخذه والعطف مبنى على تنزيل التغاير العنوانى منزلة التغاير الذاتى تفخيما لشأنه كما فى قوله تعالى ونجيناهم من

٨ عذاب غليظ إثر قوله تعالى فلما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا وقوله تعالى (ليسأل الصادقين عن صدقهم) متعلق بمضمر مستأنف مسوق لبيان ما هو داع إلى ما ذكر من أخذ الميثاق وغاية له لا بأخذنا فإن المقصود تذكير نفس الميثاق ثم بيان الغرض منه بيانا قصديا كما ينبىء عنه تغيير الأسلوب بالالتفات إلى الغيبة أى فعل الله ذلك ليسأل يوم القيامة الأنبياء ووضع الصادقين موضع ضميرهم للإيذان من أول الأمر بأنهم صادقون فيما سئلوا عنه وإنما السؤال لحكمة تقتضيه أى ليسأل الأنبياء الذين صدقوا عهدهم عما قالوه لقومهم أو عن تصديقهم إياهم تبكيتا لهم كما فى قوله تعالى يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم أو المصدقين لهم عن تصديقهم فإن مصدق الصادق صادق وتصديقه صدق وأما ما قيل من أن المعنى ليسأل المؤمنين الذين صدقوا عهدهم حين أشهدهم على أنفسهم عن صدقهم عهدهم فيأباه مقام تذكير ميثاق النبيين وقوله تعالى (وأعد للكافرين عذابا أليما) عطف على ما ذكر من المضمر لا على أخذنا كما قيل والتوجيه بأن بعثة الرسل وأخذ الميثاق منهم لإثابة المؤمنين أو بأن المعنى أن الله تعالى أكد على الأنبياء الدعوة إلى دينه لأجل إثابة المؤمنين تعسف ظاهر مع أنه مفض إلى كون بيان إعداد العذاب الأليم للكافرين غير مقصود بالذات نعم يجوز عطفه على ما دل عليه قوله تعالى ليسأل الصادقين كأنه قيل فأثاب المؤمنين وأعد للكافرين الآية

٩ (يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم) إن جعل النعمة مصدراً فالجار متعلق بها وإلا فهو متعلق بمحذوف هو حال منها أى كائنة عليكم (إذ جاءتكم جنود) ظرف لنفس النعمة أو لثبوتها لهم وقيل منصوب باذكروا على أنه بدل اشتمال من نعمة الله والمراد بالجنود الأحزاب وهم قريش وغطفان ويهود قريظة والنضير وكانوا زهاء اثنى عشر ألفاً فلما سمع رسول الله ﷺ بإقبالهم ضرب الخندق على المدينة بإشارة سلمان الفارسى ثم خرج فى ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب معسكره والخندق بينه وبين القوم وأمر بالذرارى والنساء فرفعوا فى الآطام واشتد الخوف وظن المؤمنون كل ظن ونجم النفاق فى المنافقين حتى قال معتب بن قشير كان محمد يعدنا كنوز كسرى وقيصر ولا نقدر أن نذهب إلى الغائط ومضى على الفريقين قريب من شهر لا حرب بينهم إلا أن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبد ود وعكرمة بن أبى جهل وهبيرة بن أبى وهب ونوفل بن عبد الله وضرار بن الخطاب ومرداس أخو بنى محارب قد ركبوا

إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ ٣٣ الأحزاب

خيولهم وتيمموا من الخندق مكاناً مضيقاً فضربوا خيولهم فاقتحموا فجالت بهم فى السبخة بين الخندق وسلع فخرج على بن أبى طالب رضى الله عنه فى نفر من المسلمين حتى أخذ عليهم الثغرة التى اقتحموا منها فأقبلت الفرسان نحوهم وكان عمرو معلماً ليرى مكانه فقال له على رضى الله عنه ياعمرو إنى أدعوك إلى الله ورسوله والإسلام قال لا حاجة لى إليه قال فإنى أدعوك إلى النزال قال ياابن أخى والله لا أحب أن أقتلك قال على لكنى والله أحب أن أقتلك فحمى عمرو عند ذلك وكان غيوراً مشهوراً بالشجاعة واقتحم عن فرسه فعقره أو ضرب وجهه ثم أقبل على على فتناولا وتجاولا فضربه على رضى الله عنه ضربة ذهبت فيها نفسه فلما قتله انهزمت خيله حتى اقتحمت من الخندق هاربة وقتل مع عمرو رجلين منبه بن عثمان ابن عبد الدار ونوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزومى قتله أيضاً على رضى الله عنه وقيل لم يكن بينهم إلا الترامى بالنبل والحجارة حتى أنزل الله تعالى النصر وذلك قوله تعالى (فأرسلنا عليهم ريحاً) عطف على جاءتكم مسوق لبيان النعمة إجمالا وسيأتى بقيتها فى آخر القصة (وجنوداً لم تروها) وهم الملائكة عليهم السلام وكانوا ألفاً بعث الله عليهم صباً باردة فى ليلة شاتية فأخصرتهم وسفت التراب فى وجوههم وأمر الملائكة فقلعت الأوتاد وقطعت الأطناب وأطفأت النيران وأكفأت القدور وماجت الخيل بعضها فى بعض وقذف فى قلوبهم الرعب وكبرت الملائكة فى جوانب عسكرهم فقال طليحة بن خويلد الأسدى أما محمد فقد بدأكم بالسحر فالنجاء النجاء فانهزموا من غير قتال (وكان الله بما تعملون) من حفر الخندق وترتيب مبادى الحرب وقيل من التجائكم إليه ورجائكم من فضله وقرىء بالياء أى بما يعمله الكفار أى من التحزب والمحاربة أو من الكفر والمعاصى (بصيراً) ولذلك فعل مافعل من نصركم عليهم والجملة اعتراض مقرر لما قبله (إذ جاءوكم) بدل من إذ جاءتكم (من فوقكم) من أعلى الوادى من جهة المشرق وهم بنو غطفان ومن تابعهم من أهل نجد قائدهم عيينة بن حصن وعامر بن الطفيل فى هوازن وضامتهم اليهود من قريظة والنضير (ومن أسفل منكم) أى من أسفل الوادى من قبل المغرب وهم قريش ومن شايعهم من الأحابيش وبنى كنانة وأهل تهامة وقائدهم أبو سفيان وكانوا عشرة آلاف (وإذ زاغت الأبصار) عطف على ما قبله داخل معه فى حكم التذكير أى حين مالت عن سننها وانحرفت عن مستوى نظرها حيرة وشخوصاً وقيل عدلت عن كل شىء فلم تلتفت إلا إلى عدوها لشدة الروع (وبلغت القلوب الحناجر) لأن الرئة تنتفخ من شدة الفزع فيرتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة وهى منتهى الحلقوم وقيل هو مثل فى اضطراب القلوب ووجيبها وإن لم تبلغ الحناجر حقيقة والخطاب فى قوله تعالى (وتظنون بالله الظنونا) لمن يظهر الإيمان على الإطلاق أى تظنون بالله تعالى أنواع الظنون المختلفة حيث ظن المخلصون الثبت القلوب أن الله تعالى ينجز وعده فى إعلاء دينه كما يعرب عنه ماسيحكى عنهم من قولهم هذا ماوعدنا

هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ٣٣ الأحزاب

وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ٣٣ الأحزاب

وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ
يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ٣٣ الأحزاب

الله ورسوله وصدق الله ورسوله الآية أو يمتحنهم فخافوا الزلل وضعف الاحتمال والضعاف القلوب
والمنافقون ماحكى عنهم مما لاخير فيه والجملة معطوفة على زاغت وصيغة المضارع لاستحضار الصورة
والدلالة على الاستمرار وقرىء الظنون بغير ألف وهو القياس وزيادتها لمراعاة الفواصل كما تزاد في
١١ القوافي (هنالك) ظرف زمان أو ظرف مكان لما بعده أي في ذلك الزمان الهائل أو المكان الدحض
(ابتلى المؤمنون) أي عوملوا معاملة من يختبر فظهر المخلص من المنافق والراسخ من المتزلزل (وزلزلوا
١٢ زلزالا شديداً) من الهول والفزع وقرىء بفتح الزاي (وإذ يقول المنافقون) عطف على إذ زاغت
وصيغة المضارع لما مر من الدلالة على استمرار القول واستحضار صورته (والذين في قلوبهم مرض)
• أي ضعف اعتقاد (ماوعدنا الله ورسوله) من إعلاء الدين والظفر (إلا غروراً) أي وعد غرور وقيل
قولا باطلا والقائل معتب بن قشير وأضرابه راضون به قال يعدنا محمد بفتح كنوز كسرى وقيصر وأحدنا
١٣ لا يقدر أن يتبرز فرقا ماهذا إلا وعد غرور (وإذ قالت طائفة منهم) هم أوس بن قيظي وأتباعه وقيل عبد
الله بن أبي وأشياعه (ياأهل يثرب) هو اسم المدينة المطهرة وقيل اسم بقعة وقعت المدينة في ناحية منها
وقد نهى النبي ﷺ أن تسمى بها كراهة لها وقال هي طيبة أو طابة كأنهم ذكروها بذلك الاسم مخالفة
• له ﷺ ونداؤهم إياهم بعنوان أهليتهم لها ترشيح لما بعده من الأمر بالرجوع إليها (لا مقام لكم)
لا موضع إقامة لكم أو لا إقامة لكم ههنا يريدون المعسكر وقرىء بفتح الميم أي لا قيام أولا موضع
• قيام لكم (فارجعوا) أي إلى منازلكم بالمدينة مرادهم الأمر بالفرار لكنهم عبروا عنه بالرجوع ترويجاً
لمقالهم وإيذاناً بأنه ليس من قبيل الفرار المذموم وقيل المعنى لاقيام لكم في دين محمد ﷺ فارجعوا إلى
ما كنتم عليه من الشرك أو فارجعوا عما بايعتموه عليه وأسلموه إلى أعدائه أولا مقام لكم في يثرب
• فارجعوا كفاراً ليتسنى لكم المقام بها والأول هو الأنسب لما بعده فإن قوله تعالى (ويستأذن فريق
منهم النبي) معطوف على قالت وصيغة المضارع لما مر من استحضار الصورة وهم بنو حارثة وبنو سلمة
• استأذنوه ﷺ في الرجوع ممتثلين بأمرهم وقوله تعالى (يقولون) بدل من يستأذن أو حال من فاعله أو
استئناف مبني على السؤال عن كيفية الاستئذان (إن بيوتنا عورة) أي غير حصينة معرضة للعدو
والسراق فأذن لنا حتى نحصنها ثم نرجع إلى العسكر والعورة في الأصل الخلل أطلقت على المختل مبالغة
وقد جوز أن تكون تخفيف عورة من عورت الدار إذا اختلت وقد قرىء بها والأول هو الأنسب
بمقام الاعتذار كما يفصح عنه تصدير مقالهم بحرف التحقيق (وما هي بعورة) والحال أنها ليست كذلك

وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ ٣٣ الأحزاب

وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ ٣٣ الأحزاب

قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ ٣٣ الأحزاب

قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ
ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾
٣٣ الأحزاب

١٤ (إن يريدون) ما يريدون بالاستئذان (إلا فراراً) من القتال (ولو دخلت عليهم) أسند الدخول
إلى بيوتهم وأوقع عليهم لما أن المراد فرض دخولها وهم فيها لا فرض دخولها مطلقاً كما هو المفهوم لو
لم يذكر الجار والمجرور ولا فرض الدخول عليهم مطلقاً كما هو المفهوم لو أسند إلى الجار والمجرور
(من أقطارها) أى من جميع جوانبها لا من بعضها دون بعض فالمعنى لو كانت بيوتهم مختلة بالكلية •
ودخلها كل من أراد من أهل الدعارة والفساد (ثم سئلوا) من جهة طائفة أخرى عند تلك النازلة
والرجفة الهائلة (الفتنة) أى الردة والرجعة إلى الكفر مكان ما سئلوا الآن من الإيمان والطاعة
(لآتوها) لأعطوها غير مبالين بما دهاهم من الداهية الدهياء والغارة الشعواء وقرىء لأتوها
بالقصر أى لفعلوها وجاءوها (وما تلبثوا بها) بالفتنة أى ما ألبثوها وما أخروها (إلا يسيراً) ريثما يسع •
السؤال والجواب من الزمان فضلا عن التعلل باختلال البيوت مع سلامتها كما فعلوا الآن وقيل ما لبثوا
بالمدينة بعد الارتداد إلا يسيراً والأول هو اللائق بالمقام هذا وأما تخصيص فرض الدخول بتلك
العساكر المتحزبة فمع منافاته للعموم المستفاد من تجريد الدخول عن الفاعل ففيه ضرب من فساد الوضع
لما عرفت من أن مساق النظم الكريم لبيان أنهم إذا دعوا إلى الحق تعللوا بشىء يسير وان دعوا إلى
الباطل سارعوا إليه آثر ذى أثير من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم ففرض الدخول عليهم من
جهة العساكر المذكورة وإسناد سؤال الفتنة والدعوة إلى الكفر إلى طائفة أخرى مع أن العساكر هم
المعروفون بعداوة الدين المباشرون لقتال المؤمنين المصرون على الإعراض عن الحق المجدون فى الدعاء
١٥ إلى الكفر والضلال بمعزل من التقريب (ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار) فإن بنى
حارثة عاهدوا رسول الله ﷺ يوم أحد حين فشلوا أن لا يعودوا لمثله وقيل هم قوم غابوا عن وقعة بدر
ورأوا ما أعطى الله أهل بدر من الكرامة والفضيلة فقالوا لئن أشهدنا الله قتالا لنقاتلن (وكان عهد الله
١٦ مسئولا) مطلوباً مقتضى حتى يوفى به وقيل مسئولا عن الوفاء به ومجازى عليه (قل لن ينفعكم الفرار إن
فررتم من الموت أو القتل) فإنه لا بد لكل شخص من حتف أنف أو قتل سيف فى وقت معين سبق به
القضاء وجرى عليه القلم (وإذن لا تمتعون إلا قليلا) أى وإن نفعكم الفرار مثلا فمتعتم بالتأخير لم يكن ذلك
١٧ التمتيع إلا تمتيعاً قليلا أو زماناً قليلا (قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم

قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ ٣٣ الأحزاب

أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ ٣٣ الأحزاب

يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ ٣٣ الأحزاب

رحمة أى أو يصيبكم بسوء إن أراد بكم رحمة فاختصر الكلام أو حمل الثانى على الأول لما فى العصمة من معنى المنع
١٨ (ولا يجدون لهم من دون الله ولياً) ينفعهم (ولا نصيراً) يدفع عنهم الضرر (قد يعلم الله المعوقين منكم) أى
المثبطين للناس عن رسول الله ﷺ وهم المنافقون (والقائلين لإخوانهم) من منافقى المدينة (هلم إلينا) وهو
صوت سمى به فعل متعد نحو احضر أو قرب ويستوى فيه الواحد والجماعة على لغة أهل الحجاز وأما بنو تميم
فيقولون هلم يا رجل وهلموا يا رجال أى قربوا أنفسكم إلينا وهذا يدل على أنهم عند هذا القول خارجون من
المعسكر متوجهون نحو المدينة (ولا يأتون البأس) أى الحراب والقتال (إلا قليلا) أى إتياناً أو زماناً
أو بأساً قليلا فإنهم يعتذرون ويثبطون ما أمكن لهم ويخرجون مع المؤمنين يوهمونهم أنهم معهم ولا
تراهم يبارزون ويقاتلون إلا شيئاً قليلا إذا اضطروا إليه كقوله تعالى ما قاتلوا إلا قليلا وقيل إنه من تتمة
١٩ كلامهم معناه ولا يأتى أصحاب محمد حرب الأحزاب ولا يقاومونهم إلا قليلا (أشحة عليكم) أى بخلاء
عليكم بالمعاونة أو النفقة فى سبيل الله أو الظفر والغنيمة جمع شحيح ونصبه على الحالية من فاعل يأتون أو
من المعوقين أو على الذم (فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم) فى أحداقهم (كالذى
يغشى عليه من الموت) صفة لمصدر ينظرون أو حال من فاعله أو لمصدر تدور أو حال من أعينهم أى
ينظرون نظراً كائناً كنظر المغشى عليه من معالجة سكرات الموت حذراً وخوراً ولواذاً بك أو ينظرون
كائنين كالذى الخ أو تدور أعينهم دوراناً كائناً كدوران عينه أو تدور أعينهم كائنة كعينه (فإذا ذهب
الخوف) وحيزت الغنائم (سلقوكم) ضربوكم (بألسنة حداد) وقالوا وفروا قسمتنا فإنا قد شاهدناكم
وقاتلنا معكم وبمكاننا غلبتم عدوكم وبنا نصرتم عليه والسلق البسط بقهر باليد أو باللسان وقرىء صلقوكم
(أشحة على الخير) نصب على الحالية أو الذم ويؤيده القراءة بالرفع (أولئك) الموصوفون بما ذكر من
صفات السوء (لم يؤمنوا) بالإخلاص (فأحبط الله أعمالهم) أى أظهر بطلانها إذ لم يثبت لهم أعمال
فتبطل أو أبطل تصنعهم ونفاقهم فلم يبق مستتبعاً لمنفعة دنيوية أصلا (وكان ذلك) الإحباط (على الله
يسيراً) هيناً وتخصيص يسره بالذكر مع أن كل شىء عليه تعالى يسير لبيان أن أعمالهم حقيقة بأن يظهر
٢٠ حبوطها لكمال تعاضد الدواعى وعدم الصوارف بالكلية (يحسبون الأحزاب لم يذهبوا) أى هؤلاء

لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾
٣٣ الأحزاب

وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾
٣٣ الأحزاب

لجبنهم يظنون أن الأحزاب لم ينهزموا ففروا إلى داخل المدينة (وإن يأت الأحزاب) كرة ثانية (يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب) تمنوا أنهم خارجون إلى البدو حاصلون بين الأعراب وقرىء بدى جمع باد كغاز وغزى (يسألون) كل قادم من جانب المدينة وقرىء يساءلون أى يتساءلون ومعناه يقول بعضهم لبعض ماذا سمعت ماذا بلغك أو يتساءلون الأعراب كما يقال رأيت الهلال وتراءيناه فإن صيغة التفاعل قد تجرد عن معنى كون ما أسندت إليه فاعلا من وجه ومفعولا من وجه ويكتفى بتعدد الفاعل كما فى المثال المذكورة ونظائره (عن أنبائكم) عما جرى عليكم (ولو كانوا فيكم) هذه الكرة ولم يرجعوا إلى المدينة وكان قتال (ما قاتلوا إلا قليلا) رياء وخوفا من التعيير (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة ٢١
حسنة) خصلة حسنة حقها أن يؤتسى بها كالثبات فى الحرب ومقاساة الشدائد أو هو فى نفسه قدوة يحق التأسى به كقولك فى البيضة عشرون منا حديداً أى هى فى نفسها هذا القدر من الحديد وقرىء بكسر الهمزة وهى لغة فيها (لمن كان يرجو الله واليوم الآخر) أى ثواب الله أو لقاءه أو أيام الله واليوم الآخر خصوصاً وقيل هو مثل قولك أرجو زيداً وفضله فإن اليوم الآخر من أيام الله تعالى ولمن كان صلة لحسنة أو صفة لها وقيل بدل من لكم والأكثرون على أن ضمير المخاطب لا يبدل منه (وذكر الله) أى وقرن بالرجاء ذكر الله (كثيراً) أى ذكراً كثيراً أو زماناً كثيراً فإن المثابرة على ذكره تعالى تؤدى إلى ملازمة الطاعة وبها يتحقق الائتساء برسول الله ﷺ (ولما رأى المؤمنون الأحزاب) بيان لما صدر ٢٢
عن خلص المؤمنين عند اشتباه الشئون واختلاف الظنون بعد حكاية ما صدر عن غيرهم أى لما شاهدوهم حسبما وصفوا لهم (قالوا هذا) مشيرين إلى ما شاهدوه من حيث هو من غير أن يخطر ببالهم لفظ يدل عليه فضلا عن تذكيره وتأنيثه فإنهما من أحكام اللفظ كما فى قوله تعالى فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى وجعله إشارة إلى الخطب أو البلاء من نتائج النظر الجليل فتدبر نعم يجوز التذكير باعتبار الخبر الذى هو (ما وعدنا الله ورسوله) فإن ذلك العنوان أول ما يخطر ببالهم عند المشاهدة ومرادهم بذلك ما وعدوه بقوله تعالى أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء إلى قوله تعالى ألا إن نصر الله قريب وقوله ﷺ سيشتد الأمر باجتماع الأحزاب عليكم والعاقبة لكم عليهم وقوله ﷺ إن الأحزاب سائرون إليكم بعد تسع ليال أو عشر وقرىء بكسر الراء وفتح الهمزة (وصدق الله ورسوله) أى ظهر صدق خبر الله تعالى ورسوله أو صدقا فى النصرة والثواب كما صدقا فى البلاء وإظهار الاسم للتعظيم (وما زادهم) أى ما رأوه (إلا إيماناً) بالله تعالى وبمواعيده

مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ٢٣ الأحزاب

٢٣ (وتسليما) لأوامره ومقاديره (من المؤمنين) أى المؤمنين بالإخلاص مطلقاً لا الذين حكيت محاسنهم خاصة (رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه) من الثبات مع الرسول ﷺ والمقاتلة لأعداء الدين وهم رجال من الصحابة رضى الله عنهم نذروا أنهم إذا لقوا حربا مع رسول الله ﷺ ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا وهم عثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وحمزة ومصعب ابن عمير وأنس بن النضر وغيرهم رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ومعنى صدقوا أتوا بالصدق من صدقنى إذا قال لك الصدق ومحل ماعاهدوا النصب إمابطرح الخافض عنه وإيصال الفعل إليه كما فى قولهم صدقنى سن بكره أى فى سنه وإما بجعل المعاهد عليه مصدوقا على المجاز كأنهم خاطبوه خطاب من قال لكرمائه [نحرتنى الأعداء إن لم تنحرى] وقالوا له سننى بك وحيث وفوا به فقدصدقوه ولو كانوا نكثوه لكذبوه ولكان مكذوباً (فمنهم من قضى نحبه) تفصيل لحال الصادقين وتقسيم لهم إلى قسمين والنحب النذر وهو أن يلتزم الإنسان شيئاً من أعماله ويوجبه على نفسه وقضاؤه الفراغ منه والوفاء به ومحل الجار والمجرور الرفع على الابتداء على أحد الوجهين المذكورين فى قوله تعالى ومن الناس من يقول آمنا بالله الآية أى فبعضهم أو فبعض منهم من خرج عن العهدة كحمزة ومصعب بن عمير وأنس بن النضر عم أنس ابن مالك وغيرهم رضوان الله تعالى عليهم أجمعين فإنهم قد قضوا نذورهم سواء كان النذر على حقيقته بأن يكون ما نذروه أفعالهم الاختيارية التى هى المقاتلة المغياة بما ليس منها ولا يدخل تحت النذر وهو الموت شهيداً أو كان مستعاراً لالتزامه على ما سيأتى (ومنهم) أى وبعضهم أو وبعض منهم (من ينتظر) أى قضاء نحبه لكونه موقتاً كعثمان وطلحة وغيرهما ممن استشهد بعد ذلك رضوان الله تعالى عليهم أجمعين فإنهم مستمرون على نذورهم قد قضوا بعضها وهو الثبات مع رسول الله ﷺ والقتال إلى حين نزول الآية الكريمة ومنتظرون لقضاء بعضها الباقى وهو القتال إلى الموت شهيداً هذا ويجوز أن يكون النحب مستعاراً لالتزام الموت شهيداً إما بتنزيل التزام أسبابه التى هى أفعال اختيارية للناذر منزلة الالتزام نفسه وإما بتنزيل نفسه منزلة أسبابه وإيراد الالتزام عليه وهو الأنسب بمقام المدح وأياً ما كان ففى وصفهم بالانتظار المنبىء عن الرغبة فى المنتظر شهادة حقة بكمال اشتياقهم إلى الشهادة وأما ماقيل من أن النحب استعير للموت لأنه كنذر لازم فى رقبة كل حيوان فمسخ للاستعارة وذهاب برونقها وإخراج للنظم الكريم عن مقتضى المقام بالكلية (وما بدلوا) عطف على صدقوا وفاعله فاعله أى وما بدلوا عهدهم وماغيروه (تبديلا) أى تبديلا ما لا أصلا ولا وصفاً بل ثبتوا عليه راغبين فيه مراعين لحقوقه على أحسن ما يكون أما الذين قضوا فظاهر وأما الباقون فيشهد به انتظارهم أصدق شهادة وتعميم عدم التبديل للفريق الأول مع ظهور حالهم للإيذان بمساواة الفريق الثانى لهم فى الحكم

لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا
رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ ٣٣ الأحزاب

وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا
عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ ٣٣ الأحزاب

ويجوز أن يكون ضمير بدلوا للمنتظرين خاصة بناء على أن المحتاج إلى البيان حالهم وقد روى أن طلحة رضى الله عنه ثبت مع رسول الله ﷺ يوم أحد حتى أصيبت يده فقال ﷺ أوجب طلحة الجنة وفى رواية أوجب طلحة وعنه ﷺ فى رواية جابر رضى الله عنه من سره أن ينظر إلى شهيد يمشى على الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله وفى رواية عائشة رضى الله عنها من سره أن ينظر إلى شهيد يمشى على الأرض
وقد قضى نحبه فلينظر إلى طلحة وهذا يشير إلى أنه من الأولين حكما (ليجزى الله الصادقين بصدقهم) ٢٤
متعلق بمضمر مستأنف مسوق بطريق الفذلكة لبيان ماهو داع إلى وقوع ما حكى من الأحوال والأقوال على التفصيل وغاية له كما مر فى قوله تعالى ليسأل الصادقين عن صدقهم كأنه قيل وقع جميع ما وقع ليجزى الله الصادقين بما صدر عنهم من الصدق والوفاء قولا وفعلا (ويعذب المنافقين) بما صدر عنهم من الأعمال والأقوال المحكية (إن شاء) تعذيبهم (أو يتوب عليهم) إن تابوا وقيل متعلق بما قبله من نفي التبديل المنطوق وإثباته المعرض به كأن المنافقين قصدوا بالتبديل عاقبة السوء كما قصد المخلصون بالثبات والوفاء العاقبة الحسنى وقيل تعليل لصدقوا وقيل لما يفهم من قوله تعالى وما زادهم إلا إيماناً وتسليما وقيل لما يستفاد من قوله تعالى ولما رأى المؤمنون الأحزاب كأنه قيل ابتلاهم الله تعالى برؤية ذلك الخطب ليجزى الآية فتأمل وبالله التوفيق (إن الله كان غفوراً رحيما) أى لمن تاب وهو اعتراض فيه بعث إلى
التوبة وقوله تعالى (ورد الله الذين كفروا) رجوع إلى حكاية بقية القصة وتفصيل تتمة النعمة المشار ٢٥
إليها إجمالا بقوله تعالى فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها معطوف إما على المضمر المقدر قبل قوله تعالى ليجزى الله كأنه قيل إثر حكاية الأمور المذكورة وقع ما وقع من الحوادث ورد الله الخ وإما على أرسلنا وقد وسط بينهما بيان كون ما نزل بهم واقعة طامة تحيرت بها العقول والأفهام وداهية تامة تحاكت منها الركب وزلت الأقدام وتفصيل ما صدر عن فريقى أهل الإيمان وأهل الكفر والنفاق من الأحوال والأقوال لإظهار عظم النعمة وإبانة خطرها الجليل ببيان وصولها إليهم عند غاية احتياجهم إليها أى فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها ورددنا بذلك الذين كفروا والالتفات إلى الاسم الجليل لتربية المهابة وإدخال الروعة وقوله تعالى (بغيظهم) حال من الموصول أى ملتبسين به وكذا قوله تعالى (لم ينالوا خيراً) بتداخل أو تعاقب أى غير ظافرين بخير أو الثانية بيان للأولى أو استئناف (وكفى الله المؤمنين القتال) بما ذكر من إرسال الريح والجنود (وكان الله قوياً) على إحداث كل ما يريد (عزيزاً)

وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ ٣٣ الأحزاب

وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ٣٣ الأحزاب

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ ٣٣ الأحزاب

٢٦ غالباً على كل شيء (وأنزل الذين ظاهروهم) أى عاونوا الأحزاب المردودة (من أهل الكتاب) وهم بنو
قريظة (من صياصيهم) من حصونهم جمع صيصية وهى مايتحصن به ولذلك يقال لقرن الثور والظبى
وشوكة الديك (وقذف فى قلوبهم الرعب) الخوف الشديد بحيث أسلموا أنفسهم للقتل وأهليهم وأولادهم
للأسر حسبما ينطق به قوله تعالى (فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً) من غير أن يكون من جهتهم حراك
فضلا عن المخالفة والاستعصاء روى أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله ﷺ صبيحة الليلة التى انهزم
فيها الأحزاب ورجع المسلمون إلى المدينة ووضعوا السلاح فقال أتنزع لأمتك والملائكة ماوضعوا
السلاح إن الله يأمرك أن تسير إلى بنى قريظة وأنا عامد إليهم فأذن فى الناس أن لا يصلوا العصر إلا ببنى
قريظة فحاصروهم إحدى وعشرين أو خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار فقال لهم تنزلون على حكمى
فأبوا فقال على حكم سعد بن معاذ فرضوا به فحكم سعد بقتل مقاتليهم وسبى ذراريهم ونسائهم فكبر
النبى ﷺ وقال لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة فقتل منهم ستمائة مقاتل وقيل من ثمانمائة إلى
تسعمائة وأسر سبعمائة وقرىء تأسرون بضم السين كما قرىء الرعب بضم العين ولعل تأخير المفعول فى
الجملة الثانية مع أن مساق الكلام لتفصيله وتقسيمه كما فى قوله تعالى ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون وقوله تعالى
٢٧ فريقا كذبوا وفريقا يقتلون لمراعاة الفواصل (وأورثكم أرضهم وديارهم) أى حصونهم (وأموالهم) نقودهم
وأثاثهم ومواشيهم روى أن رسول الله ﷺ جعل عقارهم للمهاجرين دون الأنصار فقالت الأنصار فى ذلك
فقال ﷺ إنكم فى منازلكم فقال عمر رضى الله عنه أما تخمس كما خمست يوم بدر فقال ﷺ لا إنما جعلت هذه
لى طعمة دون الناس قالوا رضينا بما صنع الله ورسوله (وأرضاً لم تطئوها) أى أورثكم فى علمه وتقديره أرضاً لم
تقبضوها بعد كفارس والروم وقيل كل أرض تفتح إلى يوم القيامة وقيل خيبر (وكان الله على كل شيء قديرا)
٢٨ فقد شاهدتم بعض مقدوراته من إيراث الأراضى التى تسلمتموها فقيسوا عليها ماعداها (يا أيها النبى قل
لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا) أى السعة والتنعم فيها (وزينتها) وزخارفها (فتعالين) أى أقبلن
بارادتكن واختياركن لأحدى الخصلتين كما يقال أقبل يخاصمنى وذهب يكلمنى وقام يهددنى (أمتعكن)
بالجزم جوابا للأمر وكذا (وأسرحكن) أى أعطكن المتعة وأطلقكن (سراحا جميلا) طلاقا من غير ضرار
وقرىء بالرفع على الاستئناف روى أنهن سألنه ﷺ ثياب الزينة وزيادة النفقة فنزلت فبدأ بعائشة

وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ٣٣ الأحزاب
يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى
ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾
٣٣ الأحزاب

تخيرها فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة ثم اختارت الباقيات اختيارها فشكر لهن الله ذلك فنزل لايحل لك النساء من بعد واختلف فى أن هذا التخيير هل كان تفويض الطلاق إليهن حتى يقع الطلاق بنفس الاختيار أولا فذهب الحسن وقتادة وأكثر أهل العلم إلى أنه لم يكن تفويض الطلاق وإنما كان تخييراً لهن بين الارادتين على أنهن إن أردن الدنيا فارقهن ﷺ كما ينبىء عنه قوله تعالى فتعالين أمتعكن وأسرحكن وذهب آخرون إلى أنه كان تفويضاً للطلاق إليهن حتى لو أنهن اخترن أنفسهن كان ذلك طلاقا وكذا اختلف فى حكم التخيير فقال ابن عمر وابن مسعود وابن عباس رضى الله عنهم إذا خير رجل امرأته فاختارت زوجها لا يقع شىء أصلا ولو اختارت نفسها وقعت طلقة بائنة عندنا ورجعية عند الشافعى وهو قول عمر بن عبد العزيز وابن أبى ليلى وسفيان وروى عن زيد بن ثابت أنها إن اختارت زوجها يقع طلقة واحدة وإن اختارت نفسها يقع ثلاث طلقات وهو قول الحسن ورواية عن مالك وروى عن على رضى الله عنه أنها إن اختارت زوجها فواحدة رجعية وإن اختارت نفسها فواحدة بائنة وروى عنه أيضاً أنها إن اختارت زوجها لا يقع شىء أصلا وعليه إجماع فقهاء الأمصار وقد روى عن عن عائشة رضى الله عنها خيرنا رسول الله ﷺ فاخترناه ولم يعده طلاقا وتقديم التمتيع على التسريح من باب الكرم وفيه قطع لمعاذيرهن من أول الأمر والمتعة فى المطلقة التى لم يدخل بها ولم يفرض لها صداق عند العقد واجبة عندنا وفيما عداهن مستحبة وهى درع وخمار وملحفة بحسب السعة والاقتار إلا أن يكون
٢٩ نصف مهرها أقل من ذلك فحينئذ يجب لها الأقل منهما ولا ينقص عن خمسة دراهم (وإن كنتن تردن الله
ورسوله) أى تردن رسوله وذكر الله عز وجل للإيذان بجلالة محله ﷺ عنده تعالى (والدار الآخرة) أى نعيمها الذى لا قدر عنده للدنيا وما فيها جميعاً (فإن الله أعد للمحسنات منكن) بمقابلة إحسانهن (أجراً عظيما) لا يقادر قدره ولا يبلغ غايته ومن للتبيين لأن كلهن محسنات وتجريد الشرطية الأولى عن الوعيد للمبالغة فى تحقيق معنى التخيير والاحتراز عن شائبة الإكراه وهو السر فيما ذكر من تقديم التمتيع
٣٠ على التسريح وفى وصف السراح بالجميل (يانساء النبى) تلوين للخطاب وتوجيه له إليهن لإظهار الاعتناء
بنصحهن ونداؤهن ههنا وفيما بعده بالإضافة إليه ﷺ لأنها التى يدور عليها ما يرد عليهن من الأحكام (من يأت منكن بفاحشة) بكبيرة (مبينة) ظاهرة القبح من بين بمعنى تبين وقرىء بفتح الياء والمراد بها كل ما اقترفن من الكبائر وقيل هى عصيانهن لرسول الله ﷺ ونشوزهن وطلبهن منه مايشق عليه أو مايضيق به ذرعه ويغتم لأجله وقرىء تأت بالفوقانية (يضاعف لها العذاب ضعفين) أى يعذبن ضعفى عذاب غيرهن أى مثليه لأن الذنب منهن أقبح فإن زيادة قبحه تابعة لزيادة فضل المذنب والنعمة عليه

وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا
كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ٣٣ الأحزاب

يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ
مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ ٣٣ الأحزاب

وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ ٣٣ الأحزاب

ولذلك جعل حد الحر ضعف حد الرقيق وعوتب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بما لا يعاتب به الأمم
وقرىء يضعف على البناء للمفعول ويضاعف ونضعف بنون العظمة على البناء للفاعل ونصب العذاب
(وكان ذلك على الله يسيراً) لا يمنعه عن التضعيف كونهن نساء النبي ﷺ بل يدعوه إليه لمراعاة حقه
٣١ (ومن يقنت منكن) وقرىء بالتاء أى ومن يدم على الطاعة (لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها
مرتين) مرة على الطاعة والتقوى وأخرى على طلبهن رضا رسول الله ﷺ بالقناعة وحسن المعاشرة وقرىء
يعمل بالياء حملا على لفظ من ويؤتها على أن فيه ضمير اسم الله تعالى (وأعتدنا لها) فى الجنة زيادة على
٣٢ أجرها المضاعف (رزقا كريماً) مرضياً (يانساء النبى لستن كأحد النساء) أصل أحد وحد بمعنى الواحد
ثم وضع فى النفى مستوياً فيه المذكر والمؤنث والواحد والكثير والمعنى لستن كجماعة واحدة من جماعات
النساء فى الفضل والشرف (إن اتقيتن) مخالفة حكم الله تعالى ورضا رسوله أو إن اتصفتن بالتقوى كما
هو اللائق بحالكن (فلا تخضعن بالقول) عند مخاطبة الناس أى لا تجبن بقولكن خاضعاً لينا على سنن
قول المريبات والمومسات (فيطمع الذى فى قلبه مرض) أى فجور وريبة وقرىء بالجزم عطفاً على محل
فعل النهى على أنه نهى لمريض القلب عن الطمع عقيب نهيهن عن الإطماع بالقول الخاضع كأنه قيل فلا
تخضعن بالقول فلا يطمع مريض القلب (وقلن قولا معروفاً) بعيداً عن الريبة والإطماع بجد وخشونة
٣٣ من غير تخنيث أو قولا حسناً مع كونه خشناً (وقرن فى بيوتكن) أمر من قريقر من باب علم وأصله
اقررن لحذفت الراء الأولى وألقيت فتحتها على ماقبلها كما فى قولك ظلن أو من قاريقار إذا اجتمع وقرىء
بكسر القاف من وقر يقر وقاراً إذا ثبت واستقر وأصله اوقرن ففعل به ما فعل بعدن من وعد أو من
قر يقر حذفت إحدى راءى اقررن ونقلت كسرتها إلى القاف كما تقول ظلن (ولا تبرجن) أى لا تتبخترن
فى مشيكن (تبرج الجاهلية الأولى) أى تبرجا مثل تبرج النساء فى الجاهلية القديمة وهى ما بين آدم ونوح
وقيل ما بين إدريس ونوح عليهما السلام وقيل الزمان الذى ولد فيه إبراهيم عليه السلام كانت المرأة
تلبس درعا من اللؤلؤ فتمشى وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال وقيل زمن داود وسليمان عليهما
السلام والجاهلية الأخرى ما بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام وقيل الجاهلية الأولى جاهلية

وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ٣٣ الأحزاب

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَٰتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَٰتِ وَالْقَٰنِتِينَ وَالْقَٰنِتَٰتِ وَالصَّٰدِقِينَ وَالصَّٰدِقَٰتِ وَالصَّٰبِرِينَ وَالصَّٰبِرَٰتِ وَالْخَٰشِعِينَ وَالْخَٰشِعَٰتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَٰتِ وَالصَّٰئِمِينَ وَالصَّٰئِمَٰتِ وَالْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَٰفِظَٰتِ وَالذَّٰكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ٣٣ الأحزاب

الكفر والجاهلية الأخرى الفسوق فى الإسلام ويؤيده قوله ﷺ لأبى الدرداء إن فيك جاهلية قال جاهلية كفر أو جاهلية إسلام قال بل جاهلية كفر (وأقمن الصلاة وآتين الزكاة) أمرن بهما لإنافتهما على غيرهما وكونهما أصلى الطاعات البدنية والمالية (وأطعن الله ورسوله) أى فى كل ما تأتن وما تذرن لاسيما فيما أمرتن به ونهيتن عنه (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس) أى الذنب المدنس لعرضكم وهو تعليل لأمرهن ونهيهن على الاستئناف ولذلك عمم الحكم بتعميم الخطاب لغيرهن وصرح بالمقصود حيث قيل بطريق النداء أو المدح (أهل البيت) مراداً بهم من حواهم بيت النبوة (ويطهركم) من أوضار الأوزار والمعاصى (تطهيراً) بليغاً واستعارة الرجس للمعصية والترشيح بالتطهير لمزيد التنفير عنها وهذه كما ترى آية بينة وحجة نيرة على كون نساء النبى ﷺ من أهل بيته قاضية ببطلان رأى الشيعة فى تخصيصهم أهل البيت بفاطمة وعلى وابنيهما رضوان الله عليهم وأما ما تمسكوا به من أن رسول الله ﷺ خرج ذات غدوة وعليه مرط مرجل من شعر أسود وجلس فأتت فاطمة فأدخلها فيه ثم جاء على فأدخله فيه ثم جاء الحسن والحسين فأدخلهما فيه ثم قال إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت فإنما يدل على كونهم من أهل البيت لا على أن من عداهم ليسوا كذلك ولو فرضت دلالته على ذلك لما اعتد بها لكونها فى مقابلة النص

٣٤ (واذكرن ما يتلى فى بيوتكن) أى اذكرن للناس بطريق العظة والتذكير ما يتلى فى بيوتكن (من آيات الله والحكمة) من الكتاب الجامع بين كونه آيات الله البينة الدالة على صدق النبوة بنظمه المعجز وكونه حكمة منطوية على فنون العلوم والشرائع وهو تذكير بما أنعم عليهن حيث جعلهن أهل بيت النبوة ومهبط الوحى وما شاهدن من برحاء الوحى مما يوجب قوة الإيمان والحرص على الطاعة حثاً على الانتهاء والائتمار فيما كلفنه والتعرض للتلاوة فى البيوت دون النزول فيها مع أنه الأنسب لكونها مهبط الوحى لعمومها لجميع الآيات ووقوعها فى كل البيوت وتكررها الموجب لتمكنهن من الذكر والتذكير بخلاف النزول وعدم تعيين التالى لتعم تلاوة جبريل وتلاوة النبى عليهما الصلاة والسلام وتلاوتهن وتلاوة غيرهن تعليما وتعلما (إن الله كان لطيفاً خبيراً) يعلم ويدبر ما يصلح فى الدين ولذلك فعل ما فعل من الأمر والنهى أو يعلم من يصلح للنبوة ومن يستأهل أن يكون من أهل بيته

٣٥ (إن المسلمين والمسلمات) أى الداخلين فى السلم المنقادين لحكم الله تعالى من الذكور والإناث (والمؤمنين والمؤمنات) المصدقين بما يجب أن يصدق

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ٣٣ الأحزاب

وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ٣٣ الأحزاب

به من الفريقين (والقانتين والقانتات) المداومين على الطاعة القائمين بها (والصادقين والصادقات) فى القول والعمل (والصابرين والصابرات) على الطاعات وعن المعاصى (والخاشعين والخاشعات) المتواضعين لله بقلوبهم وجوارحهم (والمتصدقين والمتصدقات) بما وجب فى مالهم (والصائمين والصائمات) الصوم المفروض (والحافظين فروجهم والحافظات) عن الحرام (والذاكرين الله كثيراً والذاكرات) بقلوبهم وألسنتهم (أعد الله لهم) بسبب ما عملوا من الحسنات المذكورة (مغفرة) لما اقترفوا من الصغائر لأنهن مكفرات بما عملوا من الأعمال الصالحة (وأجراً عظيما) على ما صدر عنهم من الطاعات والآيات وعدلهن ولأمثالهن على الطاعة والتدرع بهذه الخصال الحميدة روى أن أزواج النبى ﷺ ورضى عنهن قلن يارسول الله ذكر الله الرجال فى القرآن بخير فما فينا خير نذكر به إنا نخاف أن لا تقبل منا طاعة فنزلت وقيل السائلة أم سلمة وروى أنه لما نزل فى نساء النبى ﷺ ما نزل قال نساء المؤمنين فما نزل فينا شيء فنزلت وعطف الإناث على الذكور لاختلاف الجنسين وهو ضرورى وأما عطف الزوجين على الزوجين فلتغاير الوصفين فلا يكون ضرورياً ولذلك ترك فى قوله تعالى مسلمات مؤمنات وفائدته الدلالة على أن مدار

٣٦ إعداد ما أعد لهم جمعهم بين هذه النعوت الجليلة (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة) أى ما صح وما استقام لرجل ولا امرأة من المؤمنين والمؤمنات (إذا قضى الله ورسوله أمراً) أى إذا قضى رسول الله وذكر الله تعالى لتعظيم أمره ﷺ أو للإشعار بأن قضاءه ﷺ قضاء الله عز وجل لأنه نزل فى زينب بنت جحش بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب خطبها رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة فأبت هى وأخوها عبد الله وقيل فى أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط وهبت نفسها للنبى ﷺ فزوجها من زيد فسخطت هى وأخوها وقالا إنما أردنا الله ورسول الله فزوجنا عبده (أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) أن يختاروا من أمرهم ما شاءوا بل يجب عليهم أن يجعلوا رأيهم تبعاً لرأيه ﷺ واختيارهم تلوا لاختياره وجمع الضميرين لعموم مؤمن ومؤمنة لوقوعهما فى سياق النفى وقيل الضمير الثانى للرسول ﷺ والجمع للتعظيم وقرىء تكون بالتاء (ومن يعص الله ورسوله) فى أمر من الأمور ويعمل فيه برأيه (فقد ضل) طريق الحق (ضلالاً مبيناً)

٣٧ أى بين الانحراف عن سنن الصواب (وإذ تقول) أى واذكر وقت قولك (للذى أنعم الله عليه) بتوفيقه

مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٣٣ الأحزاب

للإسلام وتوفيقك لحسن تربيته ومراعاته (وأنعمت عليه) بالعمل بما وفقك الله له من فنون الإحسان التي من جملتها تحريره وهو زيد بن حارثة وإيراده بالعنوان المذكور لبيان منافاة حاله لما صدر عنه ﷺ من إظهار خلاف ما في ضميره إذ هو إنما يقع عند الاستحياء أو الاحتشام وكلاهما مما لا يتصور في حق زيد (أمسك عليك زوجك) أي زينب وذلك أنه ﷺ أبصرها بعد ما أنكحها إياه فوقعت في نفسه حالة جبلية لا يكاد يسلم منها البشر فقال سبحان الله مقلب القلوب وسمعت زينب بالتسبيحة فذكرتها لزيد ففطن لذلك ووقع في نفسه كراهة صحبتها فأتى النبي ﷺ وقال أريد أن أفارق صاحبتي فقال مالك أرابك منها شيء قال لا والله ما رأيت منها إلا خيراً ولكنها لشرفها تتعظم علي فقال له أمسك عليك زوجك (واتق الله) في أمرها فلا تطلقها إضراراً وتعللا بتكبرها (وتخفي في نفسك ما الله مبديه) وهو نكاحها إن طلقها أو إرادة طلاقها (وتخشى الناس) تعييرهم إياك به (والله أحق أن تخشاه) إن كان فيه ما يخشى والواو للحال وليست المعاتبة على الإخفاء وحده بل على الإخفاء مخافة قالة الناس وإظهار ما ينافي إضماره فإن الأولى في أمثال ذلك أن يصمت أو يفوض الأمر إلى ربه (فلما قضى زيد منها وطراً) بحيث لم يبق له فيها حاجة وطلقها وانقضت عدتها وقيل قضاء الوطر كناية عن الطلاق مثل لا حاجة لي فيك (زوجناكها) وقرىء زوجتكها والمراد الأمر بتزويجها منه ﷺ وقيل جعلها زوجته بلا واسطة عقد ويؤيده أنها كانت تقول لسائر نساء النبي ﷺ إن الله تعالى تولى نكاحي وأنتن زوجكن أولياؤكن وقيل كان زيد السفير في خطبتها وذلك ابتلاء عظيم وشاهد عدل بقوة إيمانه (لكيلا يكون على المؤمنين حرج) ضيق ومشقة (في أزواج أدعيائهم) أي في حق تزوجهن (إذا قضوا منهن وطراً) فإن لهم في رسول الله أسوة حسنة وفيه دلالة على أن حكمه ﷺ وحكم الأمة سواء إلا ما خصه الدليل (وكان أمر الله) أي ما يريد تكوينه من الأمور أو مأموره الخاص بكن (مفعولا) مكوناً لا محالة اعتراض تذييلي مقرر لما قبله (ما كان على النبي من ٣٨
حرج) أي ما صح وما استقام في الحكمة أن يكون له ضيق (فيما فرض الله له) أي قسم له وقدر من قولهم فرض له في الديوان كذا ومنه فروض العساكر لأعطياتهم (سنة الله) اسم موضوع موضع المصدر كقولهم ترباً وجندلا مؤكد لما قبله من نفي الحرج أي سن الله ذلك سنة (في الذين خلوا) مضوا (من قبل) من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حيث وسع عليهم في باب النكاح وغيره ولقد كانت لداود عليه السلام مائة امرأة وثلثمائة سرية ولسليمان عليه السلام ثلثمائة امرأة وسبعمائة سرية وقوله تعالى (وكان أمر الله قدراً مقدوراً) أي قضاء مقضياً وحكما مبتوتاً اعتراض وسط بين الموصولين الجاريين مجرى الواحد للمسارعة إلى تقرير نفي الحرج وتحقيقه.

ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ ٣٣ الأحزاب

مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ٣٣ الأحزاب

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ ٣٣ الأحزاب

وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ ٣٣ الأحزاب

---

٣٩ (الذين يبلغون رسالات الله) صفة للذين خلوا أو مدح لهم بالنصب أو بالرفع وقرىء رسالة الله
(ويخشونه) فى كل ما يأتون ويذرون لاسيما فى أمر تبليغ الرسالة حيث لا يخرمون منها حرفا ولا تأخذهم
فى ذلك لومة لائم (ولا يخشون أحداً إلا الله) فى وصفهم بقصرهم الخشية على الله تعالى تعريض بما صدر
عنه ﷺ من الاحتراز عن لائمة الخلق بعد التصريح فى قوله تعالى وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه
(وكفى بالله حسيباً) كافياً للمخاوف فينبغى أن لا يخشى غيره أو محاسباً على الصغيرة والكبيرة فيجب
٤٠ أن يكون حق الخشية منه تعالى (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم) أى على الحقيقة حتى يثبت بينه وبينه
ما يثبت بين الوالد وولده من حرمة المصاهرة وغيرها ولا ينتقض عمومه بكونه ﷺ أبا الطاهر والقاسم
وإبراهيم لأنهم لم يبلغوا الحلم ولو بلغوا لكانوا رجالا له ﷺ لا لهم (ولكن رسول الله) أى كان رسولا
لله وكل رسول أبو أمته لكن لا حقيقة بل بمعنى أنه شفيق ناصح لهم وسبب لحياتهم الأبدية وما زيد إلا
واحد من رجالكم الذين لا ولادة بينهم وبينه ﷺ فحكمه حكمهم وليس للتبنى والادعاء حكم سوى
التقريب والاختصاص (وخاتم النبيين) أى كان آخرهم الذى ختموا به وقرىء بكسر التاء أى كان خاتمهم
ويؤيده قراءة ابن مسعود ولكن نبياً ختم النبيين وأياً ما كان فلو كان له ابن بالغ لكان نبياً ولم يكن هو
ﷺ خاتم النبيين كما يروى أنه قال فى إبراهيم حين توفى لو عاش لكان نبياً ولا يقدح فيه نزول عيسى بعده
عليهما السلام لأن معنى كونه خاتم النبيين أنه لا ينبأ أحد بعده وعيسى ممن نبىء قبله وحين ينزل إنما ينزل
عملا على شريعة محمد ﷺ مصلياً إلى قبلته كأنه بعض أمته (وكان الله بكل شىء عليما) ومن جملته هذه
٤١ الأحكام والحكم التى بينها لكم وكنتم منها فى شك مريب (يأيها الذين آمنوا اذكروا الله) بما هو أهله
٤٢ من التهليل والتحميد والتمجيد والتقديس (ذكراً كثيراً) يعم الأوقات والأحوال (وسبحوه) ونزهوه
عما لا يليق به (بكرة وأصيلا) أى أول النهار وآخره على أن تخصيصهما بالذكر ليس لقصر التسبيح
عليهما دون سائر الأوقات بل لإبانة فضلهما على سائر الأوقات لكونهما مشهودين كأفراد التسبيح
من بين الأذكار مع اندراجه فيها لكونه العمدة فيها وقيل كلا الفعلين متوجه إليهما كقولك صم وصل
يوم الجمعة وقيل المراد بالتسبيح الصلاة .

هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ ٣٣ الأحزاب

تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ ٣٣ الأحزاب

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ ٣٣ الأحزاب

---

٤٣ (هو الذى يصلى عليكم) الخ استئناف جار مجرى التعليل لما قبله من الأمرين فإن صلاته تعالى عليهم مع عدم استحقاقهم لها وغناه عن العالمين مما يوجب عليهم المداومة على مايستوجبه تعالى عليهم من ذكره تعالى وتسبيحه وقوله تعالى (وملائكته) عطف على المستكن فى يصلى لمكان الفصل المغنى عن التأكيد بالمنفصل لكن لا على أن يراد بالصلاة الرحمة أولا والاستغفار ثانياً فإن استعمال اللفظ الواحد فى معنيين متغايرين مما لا مساغ له بل على أن يراد بهما معنى مجازى عام يكون كلا المعنيين فرداً حقيقياً له وهو الاعتناء بما فيه خيرهم وصلاح أمرهم فإن كلا من الرحمة والاستغفار فرد حقيقى له أو الترحم والانعطاف المعنوى المأخوذ من الصلاة المشتملة على الانعطاف الصورى الذى هو الركوع والسجود ولاريب فى أن استغفار الملائكة ودعاءهم للمؤمنين ترحم عليهم وأما أن ذلك سبب للرحمة لكونهم مجابى الدعوة كما قيل فاعتباره ينزع إلى الجمع بين المعنيين المتغايرين فتدبر (ليخرجكم من الظلمات إلى النور) متعلق بيصلى أى يعتنى بأموركم هو وملائكته ليخرجكم بذلك من ظلمات المعصية إلى نور الطاعة وقوله تعالى (وكان بالمؤمنين رحيما) اعتراض مقرر لمضمون ماقبله أى كان بكافة المؤمنين الذين أنتم من زمرتهم رحيما ولذلك يفعل بكم مايفعل من الاعتناء بإصلاحكم بالذات وبالواسطة ويهديكم إلى الإيمان والطاعة أو كان بكم رحيما على أن المؤمنين
٤٤ مظهر وضع موضع المضمر مدحا لهم وإشعاراً بعلة الرحمة وقوله تعالى (تحيتهم يوم يلقونه سلام) بيان للأحكام الآجلة لرحمة الله تعالى بهم بعد بيان آثارها العاجلة التى هى الاعتناء بأمرهم وهدايتهم إلى الطاعة أى مايحيون به على أنه مصدر أضيف إلى مفعوله يوم لقائه عند الموت أو عند البعث من القبور أو عند دخول الجنة تسليم عليهم من الله عز وجل تعظيما لهم أو من الملائكة بشارة لهم بالجنة أو تكرمة لهم كما فى قوله تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم أو إخبار بالسلامة عن كل مكروه وآفة وقوله تعالى (وأعد لهم أجراً كريماً) بيان لآثار رحمته الفائضة عليهم بعد دخول الجنة عقيب بيان آثار رحمته الواصلة إليهم قبل ذلك ولعل إيثار الجملة الفعلية على الاسمية المناسبة لما قبلها بأن يقال مثلا وأجرهم أجر كريم أو ولهم أجر كريم للمبالغة فى الترغيب والتشويق إلى الموعود ببيان أن الأجر الذى هو المقصد
٤٥ الأقصى من بين سائر آثار الرحمة موجود بالفعل مهيأ لهم مع مافيه من مراعاة الفواصل (يأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً) على من بعثت إليهم تراقب أحوالهم وتشاهد أعمالهم وتتحمل منهم الشهادة بما صدر عنهم من التصديق والتكذيب وسائر ماهم عليه من الهدى والضلال وتؤديها يوم القيامة أداء مقبولا

وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ٣٣ الأحزاب

وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ ٣٣ الأحزاب

وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ ٣٣ الأحزاب

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ ٣٣ الأحزاب

---

٤٦ فيما لهم وما عليهم وهو حال مقدرة (ومبشراً ونذيراً) تبشر المؤمنين بالجنة وتنذر الكافرين بالنار (وداعياً
إلى الله) أي إلى الإقرار به وبوحدانيته وبسائر مايجب الإيمان به من صفاته وأفعاله (بإذنه) أي بتيسيره
أطلق عليه مجازاً لما أنه من أسبابه وقيد به الدعوة إيذاناً بأنها أمر صعب المنال وخطب في غاية الإعضال
لا يتأتى إلا بإمداد من جناب قدسه كيف لا وهو صرف للوجوه عن القبل المعبودة وإدخال الأعناق
في قلادة غير معهودة (وسراجا منيراً) يستضاء به في ظلمات الجهل والغواية ويهتدى بأنواره إلى مناهج
٤٧ الرشد والهداية (وبشر المؤمنين) عطف على مقدر يقتضيه المقام ويستدعيه النظام كأنه قيل فراقب
أحوال الناس وبشر المؤمنين منهم (بأن لهم من الله فضلا كبيراً) أي على مؤمني سائر الأمم في الرتبة
٤٨ والشرف أو زيادة على أجور أعمالهم بطريق التفضل والإحسان (ولا تطع الكافرين والمنافقين) نهي
عن مداراتهم في أمر الدعوة واستعمال لين الجانب في التبليغ والمسامحة في الإنذار كني عن ذلك بالنهي
عن طاعتهم مبالغة في الزجر والتنفير عن المنهي عنه بنظمه في سلكها وتصويره بصورتها ومن حمل النهي
على التهييج والإلهاب فقد أبعد عن التحقيق بمراحل (ودع أذاهم) أي لا تبال بأذيتهم لك بسبب تصلبك
في الدعوة والإنذار (وتوكل على الله) في كل ما تأتي وما تذر من الشئون التي من جملتها هذا الشأن فإنه
• تعالى يكفيكهم (وكفى بالله وكيلا) موكولا إليه الأمور في كل الأحوال وإظهار الاسم الجليل في
موضع الإضمار لتعليل الحكم وتأكيدا ستقلال الاعتراض التذييلي ولما وصف ﷺ بنعوت خمسة قوبل
كل منها بخطاب يناسبه خلا أنه لم يذكر مقابل الشاهد صريحاً وهو الأمر بالمراقبة ثقة بظهور دلالة مقابل
المبشر عليه وهو الأمر بالتبشير حسبما ذكر آنفاً وقوبل النذير بالنهي عن مداراة الكفار والمنافقين
والمسامحة في إنذارهم كما حققته وقوبل الداعي إلى الله بإذنه بالأمر بالتوكل عليه من حيث إنه عبارة عن
الاستمداد منه تعالى والاستعانة به وقوبل السراج المنير بالاكتفاء به تعالى فإن من أيده الله تعالى بالقوة القدسية
ورشحه للنبوة وجعله برهاناً نيراً يهدي الخلق من ظلمات الغي إلى نور الرشاد حقيق بأن يكتفي به عن كل ماسواه
٤٩ (يأيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن) أي تجامعوهن وقرىء تماسوهن
بضم التاء (فما لكم عليهن من عدة) بأيام يتربصن فيها بأنفسهن (تعتدونها) تستوفون عددها من عددت
الدراهم فاعتدها وحقيقته عدها لنفسه وكذلك كلته فاكتاله والإسناد إلى الرجال للدلالة على أن العدة حق

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾

٣٣ الأحزاب

الأزواج كما أشعر به قوله تعالى فما لكم وقرىء تعتدونها على إبدال إحدى الدالين بالتاء أو على أنه من الاعتداء بمعنى تعتدون فيها والخلوة الصحيحة فى حكم المس وتخصيص المؤمنات مع عموم الحكم للكتابيات للتنبيه على أن المؤمن من شأنه أن يتخير لنطفته ولا ينكح إلا مؤمنة وفائدة ثم إزاحة ماعسى يتوهم أن تراخى الطلاق ريثما تمكن الإصابة يؤثر فى العدة كما يؤثر فى النسب (فمتعوهن) أى إن لم يكن مفروضاً لها فى العقد فإن الواجب للمفروض لها نصف المفروض دون المتعة فإنها مستحبة عندنا فى رواية وفى أخرى غير مستحبة (وسرحوهن) أخرجوهن من منازلكم إذ ليس لكم عليهن عدة (سراحا جميلا) من غير ضرار ولا منع حق ولا مساغ لتفسيره بالطلاق السنى لأنه إنما يتسنى فى المدخول بهن
٥٠ (يأيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن) أى مهورهن فإنها أجور الأبضاع وإيتاؤها إما إعطاؤها معجلة أو تسميتها فى العقد وأياً ما كان فتقييد الإحلال له ﷺ به ليس لتوقف الحل عليه ضرورة أنه يصح العقد بلا تسمية ويجب مهر المثل أو المتعة على تقديرى الدخول وعدمه بل لإيثار الأفضل والأولى له ﷺ كتقييد إحلال المملوكة بكونها مسبية فى قوله تعالى (وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك) فإن المشتراة لا يتحقق بدء أمرها وما جرى عليها وكتقييد القرائب بكونهن مهاجرات معه فى قوله تعالى (وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك) ويحتمل تقييد الحل بذلك فى حقه ﷺ خاصة ويعضده قول أم هانىء بنت أبى طالب خطبنى رسول الله ﷺ فاعتذرت إليه فعذرنى ثم أنزل الله هذه الآية فلم أحل له لأنى لم أهاجر معه كنت من الطلقاء (وامرأة مؤمنة) بالنصب عطفاً على مفعول أحللنا إذ ليس معناه إنشاء الإحلال الناجز بل إعلام مطلق الإحلال المنتظم لما سبق ولحق وقرىء بالرفع على أنه مبتدأ خبره محذوف أى أحللناها لك أيضاً (إن وهبت نفسها للنبى) أى ملكته بضعها بأى عبارة كانت بلا مهر إن اتفق ذلك كما ينبىء عنه تنكيرها لكن لا مطلقاً بل عند إرادته ﷺ استنكاحها كما نطق به قوله عز وجل (إن أراد النبى أن يستنكحها) أى أن يتملك بضعها كذلك أى بلا مهر فإن ذلك جار منه ﷺ مجرى القبول وحيث لم يكن هذا نصاً فى كون تمليكها بلفظ الهبة لم يصلح أن يكون مناطاً للخلاف فى انعقاد النكاح بلفظ الهبة إيجاباً أو سلباً واختلف فى اتفاق هذا العقد فعن ابن عباس رضى الله عنهما لم يكن عنده ﷺ أحد منهن بالهبة وقيل الموهوبات أربع ميمونة بنت الحرث وزينب بنت خزيمة الأنصارية وأم شريك بنت جابر وخولة بنت حكيم وإيراده ﷺ فى الموضعين

تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ ٣٣ الأحزاب

بعنوان النبوة بطريق الالتفات للتكرمة والإيذان بأنها المناط لثبوت الحكم فيختص به ﷺ حسب اختصاصها به كما ينطق به قوله تعالى (خالصة لك) أى خلص لك إحلالها خالصة أى خلوصاً فإن الفاعلة فى المصادر غير عزيز كالعافية والكاذبة أو خلص لك إحلال ما أحللنا لك من المذكورات على القيود المذكورة خالصة ومعنى قوله تعالى (من دون المؤمنين) على الأول أن الإحلال المذكور فى المادة المعهودة غير متحقق فى حقهم وإنما المتحقق هناك الإحلال بمهر المثل وعلى الثانى أن إحلال الجميع على القيود المذكورة غير متحقق فى حقهم بل المتحقق فيه إحلال البعض المعدود على الوجه المعهود وقرىء خالصة بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أى ذلك خلوص لك وخصوص أو هى أى تلك المرأة أو الهبة خالصة لك لا تتجاوز المؤمنين حيث لا تحل لهم بغير مهر ولا تصح الهبة بل يجب مهر المثل وقوله تعالى (قد علمنا ما فرضنا عليهم) أى على المؤمنين (فى أزواجهم) أى فى حقهن اعتراض مقرر لما قبله من خلوص الإحلال المذكور لرسول الله ﷺ وعدم تجاوزه للمؤمنين ببيان أنه قد فرض عليهم من شرائط العقد وحقوقه ما لم يفرض عليه ﷺ تكرمة له وتوسعة عليه أى قد علمنا ما ينبغى أن يفرض عليهم فى حق أزواجهم (وما ملكت أيمانهم) وعلى أى حد وأى صفة يحق أن يفرض عليهم ففرضنا ما فرضنا على ذلك الوجه وخصصناك ببعض الخصائص (لكيلا يكون عليك حرج) أى ضيق واللام متعلقة بخالصة باعتبار ما فيها من معنى ثبوت الإحلال وحصوله له ﷺ لا باعتبار اختصاصه به ﷺ لأن مدار انتفاء الحرج هو الأول لا الثانى الذى هو عبارة عن عدم ثبوته لغيره (وكان الله غفورا) لما يعسر التحرز عنه (رحيما) ولذلك وسع

٥١ الأمر فى مواقع الحرج (ترجى من تشاء منهن) أى تؤخرها وتترك مضاجعتها (وتؤوى إليك من تشاء) وتضم إليك من تشاء منهن وتضاجعها أو تطلق من تشاء منهن وتمسك من تشاء وقرىء ترجىء بالهمزة والمعنى واحد (ومن ابتغيت) أى طلبت (ممن عزلت) طلقت بالرجعية (فلا جناح عليك) فى شىء مما ذكر وهذه قسمة جامعة لما هو الغرض لأنه إما أن يطلق أو يمسك فإذا أمسك ضاجع أو ترك وقسم أو لم يقسم وإذا طلق فإما أن يخلى المعزولة أو يبتغيها وروى أنه أرجى منهن سودة وجويرية وصفية وميمونة وأم حبيبة فكان يقسم لهن ما شاء كما شاء وكانت مما آوى إليه عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب وأرجى خمساً وآوى أربعاً وروى أنه كان يسوى بينهن مع ما أطلق له وخير إلا سودة فإنها وهبت ليلتها لعائشة رضى الله عنهن وقالت لا تطلقنى حتى أحشر فى زمرة نسائك (ذلك) أى ما ذكر من تفويض الأمر إلى مشيئتك (أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن) أى أقرب إلى قرة عيونهن ورضاهن جميعاً لأنه حكم كلهن فيه سواء ثم إن سويت بينهن وجدن ذلك تفضلا منك وإن رجحت بعضهن علمن

لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ ٣٣ الأحزاب

أنه بحكم الله فتطمئن به نفوسهن وقرىء تقر بضم التاء ونصب أعينهن وتقر على البناء للمفعول وكلهن تأكيد لنون يرضين وقرىء بالنصب على أنه تأكيد لهن (والله يعلم مافى قلوبكم) من الضمائر والخواطر فاجتهدوا فى إحسانها (وكان الله عليما) مبالغاً فى العلم فيعلم كل ماتبدونه وتخفونه (حليما) لايعاجل
بالعقوبة فلا تغتروا بتأخيرها فإنه إمهال لا إهمال (لايحل لك النساء) بالياء لأن تأنيث الجمع غيرحقيقى ٥٢
ولوجود الفصل وقرىء بالتاء (من بعد) أى من بعد التسع وهو فى حقه كالأربع فى حقنا وقال ابن عباس وقتادة من بعد هؤلاء التسع اللاتى خيرتهن فاخترنك وقيل من بعد اختيارهن الله ورسوله ورضاهن بما تؤتيهن من الوصل والهجران (ولا أن تبدل) أى تتبدل بحذف إحدى التاءين (بهن) أى بهؤلاء التسع (من أزواج) بأن تطلق واحدة منهن وتنكح مكانها أخرى ومن مزيدة لتأكيد الاستغراق ٭
أراد الله تعالى لهن كرامة وجزاء على ما اخترن ورضين فقصر رسوله عليهن وهن التسع اللاتى توفى ﷺ عنهن وهن عائشة بنت أبى بكر وحفصة بنت عمر وأم حبيبة بنت أبى سفيان وسودة بنت زمعة وأم سلمة بنت أبى أمية وصفيــــة بنت حيى الخيبرية وميمونة بنت الحرث الهلالية وزينب بنت جحش الأسدية وجويرية بنت الحرث المصطلقية وقال عكرمة المعنى لايحل لك النساء من بعد الأجناس الأربعة اللاتى أحللناهن لك بالصفة التى تقدم ذكرها من الأعرابيات والغرائب أومن الكتابيات أو من الإماء بالنكاح ويأباه قوله تعالى ولا أن تبدل بهن فإن معنى إحلال الأجناس المذكورة إحلال نكاحهن فلا بد أن يكون معنى التبدل بهن إحلال نكاح غيرهن بدل إحلال نكاحهن وذلك إنما يتصور بالنسخ الذى ليس من الوظائف البشرية (ولو أعجبك حسنهن) أى حسن الأزواج المستبدلة ٭
وهو حال من فاعل تبدل لا من مفعوله وهو من أزواج لتوغله فى التنكير قيل تقديره مفروضاً إعجابك بهن وقد مر تحقيقه فى قوله تعالى ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم وقيل هى أسماء بنت عميس الخثعمية امرأة جعفر بن أبى طالب أى هى ممن أعجبه ﷺ حسنهن واختلف فى أن الآية محكمة أو منسوخة قيل بقوله تعالى ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء وقيل بقوله تعالى إنا أحللنا لك وترتيب النزول ليس على ترتيب المصحف وقيل بالسنة وعن عائشة رضى الله عنها مامات رسول الله ﷺ حتى أحل له النساء وقال أنس رضى الله عنه مات ﷺ على التحريم (إلا ما ملكت ٭
يمينك) استثناء من النساء لأنه يتناول الأزواج والإماء وقيل منقطع (وكان الله على كل شىء رقيباً) ٭
حافظاً مهيمناً فاحذروا مجاوزة حدوده وتخطى حلاله إلى حرامه .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَـٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ ٣٣ الأحزاب

٥٣ (يأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوت النبى) شروع فى بيان مايجب مراعاته على الناس من حقوق نساء النبى ﷺ إثر بيان مايجب مراعاته عليه ﷺ من الحقوق المتعلقة بهن وقوله تعالى (إلا أن يؤذن لكم) استثناء مفرغ من أعم الأحوال أى لا تدخلوها فى حال من الأحوال إلا حال كونكم مأوذنا لكم وقيل من أعم الأوقات أى لاتدخلوها فى وقت من الأوقات إلا وقت أن يؤذن لكم ورد عليه بأن النحاة نصوا على أن الوقوع موقع الظرف مختص بالمصدر الصريح دون المؤول لا يقال آتيك أن يصيح الديك وإنما يقال آتيك صياح الديك وقوله تعالى (إلى طعام) متعلق بيؤذن بتضمين معنى الدعاء للإشعار بأنه لاينبغى أن يدخلوا على الطعام بغير دعوة وإن تحقق الإذن كما يشعر به قوله تعالى (غير ناظرين إناه) أى غير منتظرين وقته أو إدراكه وهو حال من فاعل لا تدخلوا على أن الاستثناء واقع على الوقت والحال معاً عند من يجوزه أو من المجرور فى لكم وقرىء بالجر صفة لطعام فيكون جارياً على غير من هو له بلا إبراز الضمير ولا مساغ له عند البصريين وقرىء بالإمالة لأنه مصدر أنى الطعام أى أدرك (ولكن إذا دعيتم فادخلوا) استدراك من النهى عن الدخول بغير إذن وفيه دلالة بينة على أن المراد بالإذن إلى الطعام هو الدعوة إليه (فإذا طعمتم فانتشروا) فتفرقوا ولا تلبثوا لأنه خطاب لقوم كانوا يتحينون طعام النبى ﷺ فيدخلون ويقعدون منتظرين لإدراكه مخصوصة بهم وبأمثالهم وإلا لما جاز لأحد أن يدخل بيوته ﷺ بإذن لغير الطعام ولا اللبث بعد الطعام لأمر مهم (ولا مستأنسين لحديث) أى لحديث بعضكم بعضاً أو لحديث أهل البيت بالتسمع له عطف على ناظرين أو مقدر بفعل أى ولا تدخلوا أو لا تمكثوا مستأنسين الخ (إن ذلكم) أى الاستئناس الذى كنتم تفعلونه من قبل (كان يؤذى النبى) لتضييق المنزل عليه وعلى أهله وإيجابه للاشتغال بما لا يعنيه وصده عن الاشتغال بما يعنيه (فيستحيي منكم) أى من إخراجكم لقوله تعالى (والله لا يستحيي من الحق) فإنه يستدعى أن يكون المستحيى منه أمراً حقاً متعلقاً بهم لا بأنفسهم وما ذاك إلا إخراجهم فينبغى أن لا يترك حياء ولذلك لم يتركه تعالى وأمركم بالخروج والتعبير عنه بعدم الاستحياء للمشاكلة وقرىء لا يستحى بحذف الياء الأولى وإلقاء حركتها إلى ماقبلها (وإذا سألتموهن) الضمير لنساء النبى المدلول عليهن بذكر بيوته ﷺ (متاعا) أى شيئاً يتمتع به من الماعون وغيره (فاسألوهن) أى المتاع (من وراء حجاب) أى ستر وروى أن عمر رضى الله عنه قال يارسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فنزلت وقيل إنه ﷺ كان يطعم ومعه بعض أصحابه فأصابت يد رجل منهم يد

إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ ٣٣ الأحزاب

لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ
وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ ٣٣ الأحزاب

إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ٣٣ الأحزاب

عائشة رضى الله عنها فكره النبى ذلك فنزلت (ذلكم) أى ماذكر من عدم الدخول بغير إذن وعدم الاستئناس للحديث عند الدخول وسؤال المتاع من وراء حجاب (أطهر لقلوبكم وقلوبهن) أى أكثر تطهيراً من الخواطر الشيطانية (وما كان لكم) أى وما صح وما استقام لكم (أن تؤذوا رسول الله) أى أن تفعلوا فى حياته فعلا يكرهه ويتأذى به (ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً) أى من بعد وفاته أو فراقه (إن ذلكم) إشارة إلى ماذكر من إيذائه ﷺ ونكاح أزواجه من بعده وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلته فى الشر والفساد (كان عند الله عظيما) أى أمراً عظيما وخطباً هائلا لا يقادر قدره وفيه من تعظيمه تعالى لشأن رسوله ﷺ وإيجاب حرمته حياً وميتاً مالا يخفى ولذلك بالغ تعالى فى الوعيد حيث قال (إن تبدوا شيئاً) مما لا خير فيه كنكاحهن على ألسنتكم (أو تخفوه) فى صدوركم (فإن الله كان
٥٤ بكل شىء عليما) فيجازيكم بما صدر عنكم من المعاصى البادية والخافية لا محالة وفى هذا التعميم مع البرهان على المقصود مزيد تهويل وتشديد ومبالغة فى الوعيد (لا جناح عليهن فى آبائهن ولا أبنائهن ولا إخوانهن
٥٥ ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن) استئناف لبيان من لا يجب الاحتجاب عنهم روى أنه لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب يارسول الله أو نكلمهن أيضاً من وراء الحجاب فنزلت وإنما لم يذكر العم والخال لأنهما بمنزلة الوالدين ولذلك سمى العم أبا فى قوله تعالى وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق أو لأنه اكتفى عن ذكرهما بذكر أبناء الأخوة وأبناء الأخوات فإن مناط عدم لزوم الاحتجاب بينهن وبين الفريقين عين ما بينهن وبين العم والخال من العمومة والخؤولة لما أنهن عمات لأبناء الأخوة وخالات لأبناء الأخوات وقيل لأنه كره ترك الاحتجاب منهما مخافة أن يصفاهن لأبنائهما (ولا نسائهن) أى نساء المؤمنات (ولا ماملكت أيمانهن) من العبيد والإماء وقيل من الإماء خاصة وقد مر فى سورة النور (واتقين الله) فى كل ماتأتين وما تذرن لا سيما فيما أمرتن به ونهيتن عنه (إن الله كان على
٥٦ كل شىء شهيداً) لا تخفى عليه خافية ولا تتفاوت فى علمه الأحوال (إن الله وملائكته) وقرىء وملائكته بالرفع عطفاً على محل إن واسمها عند الكوفيين وحملا على حذف الخبر ثقة بدلالة ما بعده عليه على رأى البصريين (يصلون على النبى) قيل الصلاة من الله الرحمة ومن الملائكة الاستغفار وقال ابن عباس رضى الله عنهما أراد أن الله يرحمه والملائكة يدعون له وعنه أيضاً يصلون يبركون وقال أبو العالية صلاة الله

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ ٣٣ الأحزاب

وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ ٣٣ الأحزاب

تعالى عليه ثناؤه عليه عند الملائكة وصلاتهم دعاؤهم له فينبغي أن يراد بها فى يصلون معنى مجازى عام يكون كل واحد من المعانى المذكورة فرداً حقيقياً له أى يعتنون بما فيه خيره وصلاح أمره ويهتمون بإظهار شرفه وتعظيم شأنه وذلك من الله سبحانه بالرحمة ومن الملائكة بالدعاء والاستغفار (يأيها الذين آمنوا صلوا عليه) اعتنوا أنتم أيضاً بذلك فإنكم أولى به (وسلموا تسليما) قائلين اللهم صل على محمد وسلم أو نحو ذلك وقيل المراد بالتسليم انقياد أمره والآية دليل على وجوب الصلاة والسلام عليه مطلقاً من غير تعرض لوجوب التكرار وعدمه وقيل يجب ذلك كلما جرى ذكره لقوله ﷺ رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل على وقوله ﷺ من ذكرت عنده فلم يصل على فدخل النار فأبعده الله ويروى أنه ﷺ قال وكل الله تعالى بى ملكين فلا أذكر عند مسلم فيصلى على إلا قال ذانك الملكان غفر الله لك وقال الله تعالى وملائكته جواباً لذينك الملكين آمين ولا أذكر عند مسلم فلا يصلى على إلا قال ذانك ملكان لا غفر الله لك وقال الله تعالى وملائكته جواباً لذينك الملكين آمين ومنهم من قال يجب فى كل مجلس مرة وإن تكرر ذكره ﷺ كما قيل فى آية السجدة وتشميت العاطس وكذلك فى كل دعاء فى أوله وآخره ومنهم من قال بالوجوب فى العمر مرة وكذا قال فى إظهار الشهادتين والذى يقتضيه الاحتياط ويستدعيه معرفة علو شأنه ﷺ أن يصلى عليه كلما جرى ذكره الرفيع وأما الصلاة عليه فى الصلاة بأن يقال اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد فليست بشرط فى جواز الصلاة عندنا وعن إبراهيم النخعى رحمه الله أن الصحابة كانوا يكتفون عن ذلك بما فى التشهد وهو السلام عليك أيها النبى وأما الشافعى رحمه الله فقد جعلها شرطاً وأما الصلاة على غير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فتجوز تبعاً وتكره استقلالا لأنه فى العرف شعار ذكر الرسل ولذلك كره أن

٥٧ يقال محمد عز وجل مع كونه عزيزاً جليلا (إن الذين يؤذون الله ورسوله) أريد بالإيذاء إما فعل ما يكرهانه من الكفر والمعاصى مجازاً لاستحالة حقيقة التأذى فى حقه تعالى وقيل فى إيذائه تعالى هو قول اليهود والنصارى والمشركين يد الله مغلولة وثالث ثلاثة والمسيح ابن الله والملائكة بنات الله والأصنام شركاؤه تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً وقيل قول الذين يلحدون فى آياته وفى إيذاء الرسول ﷺ هو قولهم شاعر ساحر كاهن مجنون وقيل هو كسر رباعيته وشج وجهه الكريم يوم أحد وقيل طعنهم فى نكاح صفية والحق هو العموم فيهما وإما إيذاؤه ﷺ خاصة بطريق الحقيقة وذكر الله عز وجل لتعظيمه والإيذان بجلالة مقداره عنده تعالى وإيذاؤه ﷺ إيذاء له سبحانه (لعنهم الله) طردهم وأبعدهم من رحمته (فى الدنيا والآخرة) بحيث لا يكادون ينالون فيهما شيئاً منها (وأعد لهم) مع ذلك (عذاباً مهيناً) يصيبهم

٥٨ فى الآخرة خاصة (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات) يفعلون بهم ما يتأذون به من قول أو فعل وتقييده

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ٣٣ الأحزاب

لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ ٣٣ الأحزاب

مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ ٣٣ الأحزاب

بقوله تعالى (بغير ما اكتسبوا) أى بغير جناية يستحقون بها الأذية بعد إطلاقه فيما قبله الإيذان بأن أذى
الله ورسوله لا يكون إلا غير حق وأما أذى هؤلاء فمنه ومنه (فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً) أى ظاهراً *
بيناً قيل إنها نزلت فى منافقين كانوا يؤذون علياً رضى الله عنه ويسمعونه مالا خير فيه وقيل فى أهل الإفك
وقال الضحاك والكلبى فى زناة يتبعون النساء إذا برزن بالليل لقضاء حوائجهن وكانوا لا يتعرضون إلا للإماء
ولكن ربما كان يقع منهما التعرض للحرائر أيضاً جهلا أو تجاهلا لاتحاد الكل فى الزى واللباس والظاهر
عمومه لكل ماذكر ولما سيأتى من أراجيف المرجفين (يا أيها النبى) بعدما بين سوء حال المؤذين زجراً لهم ٥٩
عن الإيذاء أمر النبى ﷺ بأن يأمر بعض المتأذين منهم بما يدفع إيذاءهم فى الجملة من الستر والتميز عن مواقع
الإيذاء فقيل (قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن) الجلباب ثوب أوسع من
الخمار ودون الرداء تلويه المرأة على رأسها وتبقى منه ما ترسله على صدرها وقيل هى الملحفة وكل ما يستتر به أى
يغطين بها وجوههن وأبدانهن إذا برزن لداعية من الدواعى ومن للتبعيض لما مر من أن المعهود التلفع ببعضها
وإرخاء بعضها وعن السدى تغطى إحدى عينيها وجبهتها والشق الآخر إلا العين (ذلك) أى ماذكر من التغطى *
(أدنى) أقرب (أن يعرفن) ويميزن عن الإماء والقينات اللاتى هن مواقع تعرضهم وإيذائهم (فلا يؤذين) من
جهة أهل الريبة بالتعرض لهن (وكان الله غفوراً) لما سلف منهن من التفريط (رحيما) بعباده حيث يراعى
من مصالحهم أمثال هاتيك الجزئيات (لئن لم ينته المنافقون) عما هم عليه من النفاق وأحكامه الموجبة للإيذاء ٦٠
(والذين فى قلوبهم مرض) عما هم عليه من التزلزل وما يستتبعه مما لا خير فيه (والمرجفون فى المدينة)
من الفريقين عما هم عليه من نشر أخبار السوء عن سرايا المسلمين وغير ذلك من الأراجيف الملفقة
المستتبعة للأذية وأصل الإرجاف التحريك من الرجفة التى هى الزلزلة وصفت به الأخبار الكاذبة لكونها
متزلزلة غير ثابتة (لنغرينك بهم) لنأمرنك بقتالهم وإجلائهم أو بما يضطرهم إلى الجلاء ولنحرضنك على
ذلك (ثم لا يجاورونك) عطف على جواب القسم وثم للدلالة على أن الجلاء ومفارقة جوار الرسول ﷺ
أعظم ما يصيبهم (فيها) أى فى المدينة (إلا قليلا) زماناً أو جواراً قليلا ريثما يتبين حالهم من الانتهاء
وعدمه (ملعونين) نصب على الشتم أو الحال على أن الاستثناء وارد عليه أيضاً على رأى من يجوزه كما ٦١
مر فى قوله تعالى غير ناظرين إناه ولا سبيل إلى انتصابه عن قوله تعالى (أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا)

سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ٣٣ الأحزاب

يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ ٣٣ الأحزاب

إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ ٣٣ الأحزاب

خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ ٣٣ الأحزاب

يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ ٣٣ الأحزاب

وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ ٣٣ الأحزاب

---

٦٢ لأن ما بعد كلمة الشرط لا يعمل فيما قبلها (سنة الله فى الذين خلوا من قبل) أى سن الله ذلك فى الأمم الماضية سنة
وهى أن يقتل الذين نافقوا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وسعوا فى توهين أمرهم بالإرجاف ونحوه أينما
ثقفوا (ولن تجد لسنة الله تبديلا) أصلا لا بتنائها على أساس الحكمة التى عليها يدور فلك التشريع
٦٣ (يسألك الناس عن الساعة) أى عن وقت قيامها كان المشركون يسألونه ﷺ عن ذلك استعجالا بطريق
الاستهزاء واليهود امتحاناً لما أن الله تعالى عمى وقتها فى التوراة وسائر الكتب (قل إنما علمها عند الله)
لا يطلع عليه ملكا مقربا ولا نبياً مرسلا وقوله تعالى (وما يدريك) خطاب مستقل له ﷺ غير داخل
تحت الأمر مسوق لبيان أنها مع كونها غير معلومة للخلق مرجوة المجىء عن قريب أى أى شىء يعلمك
بوقت قيامها أى لا يعلمك به شىء أصلا (لعل الساعة تكون قريباً) أى شيئاً قريباً أو تكون الساعة فى وقت
قريب وانتصابه على الظرفية ويجوز أن يكون التذكير باعتبار أن الساعة فى معنى اليوم أو الوقت وفيه تهديد
٦٤ للمستعجلين وتبكيت للمتعنتين والإظهار فى حيز الإضمار للتهويل وزيادة التقرير وتأكيداً استقلال الجملة كما
أشير إليه (إن الله لعن الكافرين) على الإطلاق أى طردهم وأبعدهم من رحمته العاجلة والآجلة (وأعد لهم)
٦٥ مع ذلك (سعيراً) ناراً شديدة الاتقاد يقاسونها فى الآخرة (خالدين فيها أبداً لا يجدون ولياً) يحفظهم (ولا
٦٦ نصيراً) يخلصهم منها (يوم تقلب وجوههم فى النار) ظرف لعدم الوجدان وقيل لخالدين وقيل لنصيراً وقيل
مفعول لاذكر أى يوم تصرف وجوههم فيها من جهة إلى جهة كاللحم يشوى فى النار أو يطبخ فى القدر فيدور
به الغليان من جهة إلى جهة أو من حال إلى حال أو يطرحون فيها مقلوبين منكوسين وقرىء تقلب بحذف
إحدى التاءين من تتقلب ونقلب بإسناد الفعل إلى نون العظمة ونصب وجوههم وتقلب بإسناده إلى السعير
وتخصيص الوجوه بالذكر لما أنها أكرم الأعضاء ففيه مزيد تفظيع الأمر وتهويل للخطب ويجوز أن
تكون عبارة عن كل الجسد فقوله تعالى (يقولون) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية حالهم
الفظيعة كأنه قيل فماذا يصنعون عند ذلك فقيل يقولون متحسرين على مافاتهم (ياليتنا أطعنا الله وأطعنا
٦٧ الرسولا) فلا نبتلى بهذا العذاب أو حال من ضمير وجوههم أو من نفسها أو هو العامل فى يوم (وقالوا)

رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ٣٣ الأحزاب

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ ٣٣ الأحزاب

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ ٣٣ الأحزاب

يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ٣٣ الأحزاب

عطف على يقولون والعدول إلى صيغة الماضي للإشعار بأن قولهم هذا ليس مستمراً كقولهم السابق بل
هو ضرب اعتذار أرادوا به ضرباً من التشفي بمضاعفة عذاب الذين ألقوهم في تلك الورطة وإن علموا
عدم قبوله في حق خلاصهم منها (ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا) يعنون قادتهم الذين لقنوهم الكفر *
وقرىء ساداتنا للدلالة على الكثرة والتعبير عنهم بعنوان السيادة والكبر لتقوية الاعتذار وإلا فهم في
مقام التحقير والإهانة (فأضلونا السبيلا) بما زينوا لنا من الأباطيل والألف للإطلاق كما في وأطعنا
٦٨ الرسولا (ربنا آتهم ضعفين من العذاب) أي مثلي العذاب الذي آتيتناه لأنهم ضلوا وأضلوا (والعنهم
لعناً كبيراً) أي شديداً عظيماً وقرىء كثيراً وتصدير الدعاء بالنداء مكرراً للمبالغة في الجؤار واستدعاء
٦٩ الإجابة (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى) قيل نزلت في شأن زيد وزينب وما سمع فيه من
قالة الناس (فبرأه الله مما قالوا) أي فأظهر براءته عليه السلام مما قالوا في حقه أي من مضمونه ومؤداه الذي هو
الأمر المعيب وذلك أن قارون أغرى مومسة على قذفه عليه الصلاة والسلام بنفسها بأن دفع إليها مالا
عظيما فأظهر الله تعالى نزاهته عليه الصلاة والسلام عن ذلك بأن أقرت المومسة بالمصانعة الجارية بينها
وبين قارون وفعل بقارون ما فعل كما فصل في سورة القصص وقيل اتهمه ناس بقتل هرون عندخروجه
معه إلى الطور فمات هناك فحملته الملائكة ومروا به حتى رأوه غير مقتول وقيل أحياه الله تعالى فأخبرهم
ببراءته وقيل قذفوه بعيب في بدنه من برص أو أدرة لفرط تستره حياء فأطلعهم الله تعالى على براءته بأن
فر الحجر بثوبه حين وضعه عليه عند اغتساله والقصة مشهورة (وكان عند الله وجيهاً) ذا قربة ووجاهة *
٧٠ وقرىء وكان عبد الله وجيهاً (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله) أي في كل ما تأتون وما تذرون لا سيما في
ارتكاب ما يكرهه فضلا عما يؤذي رسوله عليه السلام (وقولوا) في كل شأن من الشئون (قولا سديداً) قاصداً
إلى الحق من سد يسد سداداً يقال سدد السهم نحو الرمية إذا لم يعدل به عن سمتها والمراد نهيهم عما خاضوا
٧١ فيه من حديث زينب الجائر عن العدل والقصد (يصلح لكم أعمالكم) يوفقكم للأعمال الصالحة أو يصلحها
بالقبول والإثابة عليها (ويغفر لكم ذنوبكم) ويجعلها مكفرة باستقامتكم في القول والعمل (ومن يطع
الله ورسوله) في الأوامر والنواهي التي من جملتها هذه التكليفات (فقد فاز) في الدارين (فوزاً عظيما) *
لا يقادر قدره ولا يبلغ غايته .

إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ٣٣ الأحزاب

لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾ ٣٣ الأحزاب

٧٢ (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها) لما بين عظم شأن طاعة الله ورسوله ببيان مآل الخارجين عنها من العذاب الأليم ومنال المراعين لها من الفوز العظيم عقب ذلك ببيان عظم شأن ما يوجبها من التكاليف الشرعية وصعوبة أمرها بطريق التمثيل مع الإيذان بأن ما صدر عنهم من الطاعة وتركها صدر عنهم بعد القبول والالتزام وعبر عنها بالأمانة تنبيها على أنها حقوق مرعية أودعها الله تعالى المكلفين وائتمنهم عليها وأوجب عليهم تلقيها بحسن الطاعة والانقياد وأمرهم بمراعاتها والمحافظة عليها وأدائها من غير إخلال بشيء من حقوقها وعبر عن اعتبارها بالنسبة إلى استعداد ما ذكر من السموات وغيرها بالعرض عليها لإظهار مزيد الاعتناء بأمرها والرغبة في قبولهن لها وعن عدم استعدادهن لقبولها بالإباء والإشفاق منها لتهويل أمرها وتربية فخامتها وعن قبولها بالحمل لتحقيق معنى الصعوبة المعتبرة فيها بجعلها من قبيل الأجسام الثقيلة التي يستعمل فيها القوى الجسمانية التي أشدها وأعظمها ما فيهن من القوة والشدة والمعنى أن تلك الأمانة في عظم الشأن بحيث لو كلفت هاتيك الأجرام العظام التي هي مثل في القوة والشدة مراعاتها وكانت ذات شعور وإدراك لأبين قبولها وأشفقن منها ولكن صرف الكلام عن سننه بتصوير المفروض بصورة المحقق روما لزيادة تحقيق المعنى المقصود بالتمثيل وتوضيحه (وحملها الإنسان) أي عند عرضها عليه إما باعتبارها بالإضافة إلى استعداده أو بتكليفه إياها يوم الميثاق أي تكلفها والتزمها مع ما فيه من ضعف البنية ورخاوة القوة وهو إما عبارة عن قبوله لها بموجب استعداده الفطري أو عن اعترافه بقوله بلى وقوله تعالى (إنه كان ظلوما جهولا) اعتراض وسط بين الحمل وغايته للإيذان من أول الأمر بعدم وفائه بما عهده وتحمله أي إنه كان مفرطا في الظلم مبالغا في الجهل أي بحسب غالب أفراده الذين لم يعملوا بموجب فطرتهم السليمة أو اعترافهم السابق دون

٧٣ من عداهم من الذين لم يبدلوا فطرة الله تبديلا وإلى الفريق الأول أشير بقوله تعالى (ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات) أي حملها الإنسان ليعذب الله بعض أفراده الذين لم يراعوها ولم يقابلوها بالطاعة على أن اللام للعاقبة فإن التعذيب وإن لم يكن غرضا له من الحمل لكن لما ترتب عليه بالنسبة إلى بعض أفراده ترتب الأغراض على الأفعال المعللة بها أبرز في معرض الغرض أي كان عاقبة حمل الإنسان لها أن يعذب الله تعالى هؤلاء من أفراده لخيانتهم الأمانة وخروجهم عن الطاعة بالكلية وإلى الفريق الثاني أشير بقوله تعالى (ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات) أي كان عاقبة حمله لها أن يتوب الله تعالى على هؤلاء من أفراده أي يقبل توبتهم لعدم خلعهم ربقة الطاعة عن رقابهم بالمرة وتلافيهم لما

فرط منهم من فرطات قلما يخلو عنها الإنسان بحكم جبلته وتداركهم لها بالتوبة والإنابة والالتفات إلى الاسم الجليل أولا لتهويل الخطب وتربية المهابة والإظهار فى موقع الإضمار ثانياً لإبراز مزيد الاعتناء بأمر المؤمنين توفية لكل من مقامى الوعيد والوعد حقه والله تعالى أعلم وجعل الأمانة التى شأنها أن تكون من جهته تعالى عبارة عن الطاعة التى هى من أفعال المكلفين التابعة للتكليف بمعزل من التقريب وحمل الكلام على تقرير الوعد الكريم الذى ينبىء عنه قوله تعالى ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيما بجعل تعظيم شأن الطاعة ذريعة إلى ذلك بأن من قام بحقوق مثل هذا الأمر العظيم الشأن وراعاها فهو جدير بأن يفوز بخير الدارين يأباه وصفه بالظلم والجهل أولا وتعليل الحمل بتعذيب فريق والتوبة على فريق ثانياً وقيل المراد بالأمانة مطلق الانقياد الشامل للطبيعى والاختيارى وبعرضها استدعاؤها الذى يعم طلب الفعل من المختار وإرادة صدوره من غيره وبحملها الخيانة فيها والامتناع عن أدائها فيكون الإباء امتناعا عن الخيانة وإتيانا بالمراد فالمعنى أن هذه الأجرام مع عظمها وقوتها أبين الخيانة لأمانتها وأتين بما أمرهن به كقوله تعالى أتينا طائعين وخانها الإنسان حيث لم يأت بما أمرناه به إنه كان ظلوماً جهولا وقيل إنه تعالى لما خلق هذه الأجرام خلق فيها فهما وقال لها إنى فرضت فريضة وخلقت جنة لمن أطاعنى فيها ونارا لمن عصانى فقلن نحن مسخرات لما خلقتنا لا نحتمل فريضة ولا نبغى ثوابا ولا عقابا ولما خلق آدم عليه السلام عرض عليه مثل ذلك فحمله وكان ظلوما لنفسه بتحمله مايشق عليها جهولا بوخامة عاقبته وقيل المراد بالأمانة العقل أو التكليف وبعرضها عليهن اعتبارها بالإضافة إلى استعدادهن وبإبائهن الإباء الطبيعى الذى هو عدم اللياقة والاستعداد لها وبحمل الإنسان قابليته واستعداده لها وكونه ظلوما جهولا لما غلب عليه من القوة الغضبية والشهوية هذا قريب من التحقيق فتأمل والله الموفق وقرىء ويتوب الله على الاستئناف (وكان الله غفوراً رحيما) مبالغا فى المغفرة والرحمة حيث تاب عليهم وغفر لهم فرطاتهم وأثاب بالفوز على طاعاتهم. قال ﷺ من قرأ سورة الأحزاب وعلمها أهله وما ملكت يمينه أعطى الأمان من عذاب القبر والله أعلم.

سُورَةُ الأحزاب

ترتيبها ٣٣ — آياتها ٧٣

أخرج البيهقي في الدلائل وغيره عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: نزلت سورة الأحزاب بالمدينة، وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله، وهي ثلاث وسبعون آية قال الطبرسي بالإجماع، وقال الداني هذا متفق عليه، وأخرج عبد الرزاق في المصنف، والطيالسي، وسعيد بن منصور، وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند، والنسائي والحاكم وصححه، والضياء في المختارة وآخرون عن زر بن حبيش قال: قال لي أبي بن كعب رضي الله تعالى عنه كائن[١] تقرأ سورة الأحزاب أو كائن تعدها؟ قلت: ثلاثاً وسبعين آية فقال: اقطع[٢] لقد رأيتها وإنها لتعادل سورة البقرة، ولقد قرأنا فيها «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم» فرفع فيما رفع وأراد رضي الله تعالى عنه بذلك النسخ، وأما كون الزيادة كانت في صحيفة عند عائشة فأكلها الداجن[٣] فمن وضع الملاحدة وكذبهم في أن ذلك ضاع بأكل الداجن من غير نسخ كذا في الكشاف.

وأخرج أبو عبيد في الفضائل، وابن الانباري، وابن مردويه عن عائشة قالت: كانت سورة الأحزاب تقرأ في زمان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مائتي آية فلما كتب عثمان رضي الله تعالى عنه المصاحف لم يقدر منها إلا على ما هو الآن، وهو ظاهر في الضياع من القرآن، ومقتضى ما سمعت أنه موضوع، والحق أن كل خبر ظاهره ضياع شيء من القرآن إما موضوع أو مؤول، ووجه اتصالها بما قبلها على ما قال الجلال السيوطي تشابه مطلع هذه ومقطع تلك فإن تلك ختمت بأمر النبي ﷺ بالإعراض عن الكافرين وانتظار عذابهم وهذه بدأت بأمره عليه الصلاة والسلام بالتقوى وعدم طاعة الكافرين والمنافقين واتباع ما أوحى إليه والتوكل عليه عزَّ وجلَّ حيث قال سبحانه وتعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ
إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ

---

(١) أي كم ا هـ منه.

(٢) أي احسب ا هـ منه.

(٣) الداجن وكذا الراجن بالراء ما يألف البيوت ويأنس من شاة وغيرها ا هـ منه.

ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ
أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ
أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ
أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ
أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ
وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ وَإِذْ
أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا
﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ
عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ
جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ
ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم
مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ
وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم
مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا
يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾

﴿**بسم الله الرَّحمَن الرَّحيم يَاأَيُّهَا النَّبيُّ اتَّقِ اللهَ**﴾ ناداه جلَّ وعلا بوصفه عليه الصلاة والسلام دون اسمه تعظيماً له وتفخيماً، قال في الكشاف إنه تعالى جعل نداءه من بين الأنبياء عليهم السلام بالوصف كرامةً له عليه الصلاة والسلام وتشريفاً وربأً بمحله وتنويها بفضله، وأوقع اسمه في الأخبار في قوله تعالى: ﴿محمد رسول الله﴾ [الفتح: ٢٩] ﴿وما محمد إلاَّ رسول﴾ [آل عمران: ١٤٤] لتعليم الناس بأنه رسول الله وتلقين لهم أن يسموه بذلك ويدعوه به فلا تفاوت بين النداء والإخبار، ألا ترى إلى ما لم يقصد به التعليم والتلقين من الأخبار كيف ذكره تعالى بنحو ما ذكره في النداء كما في قوله تعالى: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ [التوبة: ١٢٨] ﴿وقال الرسول يا رب﴾ [الفرقان: ٣٠] ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ [الأحزاب: ٦] إلى غير ذلك.

وتعقبه في الكشف بأن أمر التعليم والتلقين في قوله تعالى ﴿محمد رسول الله﴾ ظاهر أما في قوله تعالى ﴿وما محمد إلا رسول﴾ فلا، على أن قوله تعالى: ﴿وآمنوا بما نزل على محمد﴾ [محمد: ٢] ينقض ما بناه، نعم النداء يناسب التعظيم وربما يكون نداء سائر الأنبياء عليهم السلام في كتبهم أيضاً على نحو منه، وحكي في القرآن بأسمائهم دفعاً للإلباس، والأشبه أنه لما قل ذكره صلى الله تعالى عليه وسلم باسمه دلّ على أنه أعظم شأناً

صلوات الله تعالى وسلامه وعليهم أجمعين، وفيه نظر.

واختار الطيبي طيب الله تعالى ثراه أن النداء المذكور هنا للاحتراس وجبر ما يوهمه الأمر والنهي كقوله تعالى: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ [التوبة: ٤٣] وظاهر سياق ما بعد أن المعنى بالأمر بالتقوى هو النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا أمته كما قيل في نظائره والمقصود الدوام والثبات عليها، وقيل: الازدياد منها فإن لها باباً واسعاً وعرضاً عريضاً لا ينال مداه ﴿وَلاتُطع الكَافرينَ﴾ أي المجاهدين بالكفر ﴿وَالـمُنَافقينَ﴾ المضمرين لذلك فيما يريدون من الباطل؛ أخرج ابن جرير عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: إن أهل مكة منهم الوليد بن المغيرة، وشيبة بن ربيعة دعوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يرجع عن قوله على أن يعطوه شطر أموالهم[١] وخوفه المنافقون واليهود بالمدينة إن لم يرجع قتلوه فنزلت، وذكر الثعلبي والواحدي بغير إسناد أن أبا سفيان بن حرب، وعكرمة بن أبي جهل، وأبا الأعور[٢] السلمي قدموا عليه عليه الصلاة والسلام في زمان الموادعة التي كانت بينه صلى الله تعالى عليه وسلم وبينهم وقام معهم عبد الله بن أبي، ومعتب بن قشير، والجد بن قيس فقالوا لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: ارفض ذكر آلهتنا وقل: إنها تشفع وتنفع وندعك وربك فشق ذلك على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم والمؤمنين وهموا بقتلهم فنزلت، وقيل: نزلت في ناس من ثقيف قدموا على رسول الله ﷺ فطلبوا منه عليه الصلاة والسلام أن يمتعهم باللات والعزى سنة قالوا: لتعلم قريش منزلتنا منك ولا يبعد أن يكون المراد بالنهي الثبات على عدم الإطاعة، وذكره بعد الأمر بالتقوى المراد منه الثبات عليها على ما قيل من قبيل التخصيص بعد التعميم لاقتضاء المقام الاهتمام به، وقيل: من قبيل التأكيد، وقيل: متعلق كل من التقوى والإطاعة مغاير للآخر على ما روى الواحدي، والثعلبي، والمعنى اتق الله تعالى في نقض العهد ونبذ الموادعة ولا تطع الكافرين من أهل مكة والمنافقين من أهل المدينة فيما طلبوا منك من رفض ذكر آلهتهم وقولك: إنها تشفع وتنفع وكأنه إنما قدم الأمر بتقوى الله تعالى في نقض العهد لما أن المؤمنين قد هموا بما يقتضيه بخلاف الإطاعة المنهى عنها فإنها مما لم يهم بما يقتضيها أحد أصلاً فكان الاهتمام بالأمر أتم من الاهتمام بذلك النهي ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَليماً حَكيماً﴾ مبالغاً في العلم والحكمة فيعلم الأشياء من المصالح والمفاسد فلا يأمرك إلاّ بما فيه مصلحة ولا ينهاك إلاّ عما فيه مفسدة ولا يحكم إلاّ بما تقتضيه الحكمة البالغة فالجملة تعليل للأمر والنهي مؤكد لوجوب الامتثال بها.

وقيل: المعنى أن الله كان عليماً بمن يتقي فيجازيه بما يليق به حكيماً في هدي من شاء وإضلال من شاء فالجملة تسلية له صلى الله تعالى عليه وسلم، وليس بشيء، وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إليْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ عطف على ما تقدم من قبيل عطف العام على الخاص أي اتبع في كل ما تأتي وتذر من أمور الدين ما يوحى إليك من الآيات التي من جملتها هذه الآية الآمرة بتقوى الله تعالى الناهية عن إطاعة الكفرة والمنافقين، والتعرض لعنوان الربوبية لتأكيد وجوب الامتثال بالأمر ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ بمَا تَعْمَلُونَ خَبيراً﴾ قيل: الخطاب للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم والجمع للتعظيم، وقال أبو البقاء: إنما جاء بالجمع لأنه عنى بقوله تعالى: ﴿اتبع ما يوحى﴾ إلخ اتبع أنت وأصحابك؛ وقيل: للغائبين من الكفرة المنافقين وبطريق الالتفات؛ ولا يخفى بعده. نعم يجوز أن يكون للكل على ضرب من التغليب، وأياً ما كان فالجملة تعليل للأمر وتأكيد لموجبه فكأنه قيل على الأول: إن الله تعالى يعلم بما تعمل فيرشدك إلى ما فيه

---

(١) وفي رواية ويزوجه شيبة بنته ا هـ منه.

(٢) اسمه عمرو بن أبي سفيان ا هـ منه.

الصلاح فلا بد من اتباع الوحي والعمل بمقتضاه حتماً، وعلى الثاني أن الله تعالى خبير بما يعمل الكفرة والمنافقون من الكيد والمكر فيأمرك سبحانه بما يدفعه فلا بد من اتباع ما يوحيه جلَّ وعلا إليك، وعلى الثالث أن الله تعالى خبير بما تعمل ويعمل الكفرة والمنافقون فيرشدك إلى ما فيه صلاح حالك ويطلعك على كيدهم ومكرهم ويأمرك جلَّ شأنه بما يدفع ذلك ويرده فلا بد من اتباع وحيه تعالى والعمل بموجبه. وقرأ أبو عمرو «يعملون» بياء الغيبة على أن الضمير للكفرة والمنافقين.

وجوز كونه عاماً فلا تغفل ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الله﴾ أي فوض جميع أمورك إليه عزَّ وجلَّ ﴿وَكَفَى بالله وَكيلاً﴾ حافظاً موكولاً إليه كل الأمور، والإظهار في مقام الإضمار للتعظيم ولتستقل الجملة استقلال المثل.

﴿ما جعل الله لرَجُل منْ قَلبَين في جَوْفه﴾ أخرج أحمد، والترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن المنذر وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والضياء في المختارة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يوماً يصلي فخطر خطرة فقال المنافقون الذين يصلون معه ألا ترى أن له قلبين قلباً معكم وقلباً معهم فنزلت، وفي رواية عنه رضي الله تعالى عنه صلى الله تعالى عليه وسلم صلاة فسها فيها فخطرت منه كلمة فسمعها المنافقون فأكثروا فقالوا: إن له قلبين ألم تسمعوا إلى قوله وكلامه في الصلاة إن له قلباً معكم وقلباً مع أصحابه فنزلت، وقال مقاتل في تفسيره، وإسماعيل بن أبي زياد الشامي، وغيرهما: نزلت في أبي معمر الفهري كان أهل مكة يقولون: له قلبان من قوة حفظه وكانت العرب تزعم أن كل لبيب أريب له قلبان حقيقة، وأبو معمر هذا اشتهر بين أهل مكة بذي القلبين وهو على ما في الإصابة جميل بن أسيد مصغر الأسد، وقيل: ابن أسد مكبراً وسماه ابن دريد عبد الله ابن وهب، وقيل: إن ذا القلبين هو جميل بن معمر بن حبيب بن وهب بن حذافة[1] بن جمح الجمحي وهو المعني بقوله: وكيف ثوائي البيت وقد تقدم في تفسيره سورة لقمان، والمعول على ما في الإصابة، وحكي أنه كان يقول: [2] إن لي قلبين أفهم بأحدهما أكثر مما يفهم محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فروي أنه انهزم يوم بدر فمرّ بأبي سفيان وهو معلق إحدى نعليه بيده والأخرى في رجله فقال له أبو سفيان: مافعل الناس؟ فقال: هم ما بين مقتول وهارب فقال له: ما بال إحدى نعليك في رجلك والأخرى في يدك؟ فقال: ما ظننت إلاَّ أنهما في رجلي فأكذب الله تعالى قوله وقولهم.

وعن الحسن أنه كان جماعة يقول الواحد منهم: نفس تأمرني ونفس تنهاني فنزلت، والجعل بمعنى الخلق ومن سيف خطيب، والمراد ما خلق سبحانه لأحد أو لذي قلب من الحيوان مطلقاً قلبين فخصوص الرجل ليس بمقصود وتخصيصه بالذكر لكمال لزوم الحياة فيه فإذا لم يكن ذلك له فكيف بغيره من الإناث، وأما الصبيان فمآلهم إلى الرجولية، وقوله سبحانه: ﴿في جوفه﴾ للتأكيد والتصوير كالقلوب في قوله تعالى: ﴿ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ [الحج: ٤٦] وذكر في بيان عدم جعله تعالى قلبين في جوف بناء على ما هو الظاهر من أن المراد بالقلب المضغةَ الصنوبرية أن النفس الناطقة وكذا الحيوانية لا بد له من متعلق ومتعلقها هو الروح وهو جسم لطيف بخاري يتكون من ألطف أجزاء الأغذية لأن شد الأعصاب يبطل قوى الحس والحركة عما وراء موضع الشد مما لا يلي جهة الدماغ والشد لا يمنع إلاَّ نفوذ الأجسام، والتجارب الطبية أيضاً شاهدة بذلك، وحيث إن النفس واحدة فلا بد من عضو واحد يكون تعلقها به أولاً ثم بسائر الأعضاء بواسطته.

---

(١) في البحر حارثة بدل حذافة ا هـ منه.

(٢) وأسلم بعد وعده ابن حجر في الصحابة وكذا جميل الجمحي ا هـ منه.

وقد ذكر غير واحد أن أول عضو يخلق هو القلب فإنه المجمع للروح فيجب أن يكون التعلق أولاً به ثم بواسطته بالدماغ والكبد وبسائر الأعضاء فمنبع القوى بأسرها منه وذلك يمنع التعدد إذ لو تعدد بأن كان هناك قلبان لزم أن يكون كل منهما أصلاً للقوى وغير أصل لها أو توارد علتين على معلول واحد، ولا يخفى على من له قلب أن هذا مع ابتنائه على مقدمات لا تكاد تثبت عند أكثر الإسلاميين من السلف الصالح والخلف المتأخرين ولو بشق الأنفس أمر إقناعي لا برهان قطعي، على أن للفلسفي أيضاً له فيه مقالاً، وقد يفسر القلب بالنفس بناء على أن سبب النزول ما روي عن الحسن إطلاقاً للمتعلق على المتعلق وقد بينوا وحدة النفس وأنه لا يجوز أن تتعلق نفسان فأكثر ببدن بما يطول ذكره، وللبحث فيه مجال فليراجع، ثم إن هذا التفسير بناء على أن سبب النزول ما ذكر غير متعين بل يجوز تفسير القلب عليه بما هو الظاهر المتبادر أيضاً، وحيث إن القلب متعلق النفس يكون نفي جعل القلبين دالاً على نفي جعل النفسين فتدبر.

﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللائي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ إبطال لما كان في الجاهلية من اجراء أحكام الأمومة على المظاهر منها، والظهار لغة مصدر ظاهر وهو مفاعلة من الظهر ويستعمل في معانٍ مختلفة راجعة إليه معنىً ولفظاً بحسب اختلاف الأغراض فيقال ظاهرته إذا قابلت ظهرك بظهره حقيقة وكذا إذا غايظته باعتبار أن المغايظة تقتضي هذه المقابلة، وظاهرته إذا نصرته باعتبار أنه يقال: قوي ظهره إذا نصره وظاهرت بين ثوبين إذا لبست أحدهما فوق الآخر على اعتبار جعل ما يلي به كل منهما الآخر ظهراً للثوب، ويقال: ظاهر من زوجته إذ قال لها أنت عليّ كظهر أمي نظير لي إذ قال لبيك وأفف إذا قال أف، وكون لفظ الظهر في بعض هذه التراكيب مجازاً لا يمنع الاشتقاق منه ويكون المشتق مجازاً أيضاً والمراد منه هنا المعنى الأخير، وكان ذلك طلاقاً منهم.

وإنما عدي بمن مع أنه يتعدى بنفسه لتضمنه معنى التباعد ونحوه مما فيه معنى المجانبة ويتعدى بمن، والظهر في ذلك مجاز على ما قيل عن البطن لأنه إنما يركب البطن فقوله: كظهر أمي بمعنى كبطنها بعلاقة المجاورة ولأنه عموده، قال ابن الهمام: لكن لا يظهر ما هو الصارف عن الحقيقة من النكات، وقال الأزهري ما معناه: خصوا الظهر لأنه محل الركوب والمرأة تركب إذ غشيت فهو كناية تلويحية انتقل من الظهر إلى المركوب ومنه إلى المغشي، والمعنى أنت محرمة علي لا تركبين كما لا يركب ظهر الأم وقيل: خص الظهر لأن اتيان المرأة من ظهرها في قبلها حراماً عندهم فإتيان أمه من ظهرها أحرم فكثر التغليظ، وقيل: كنوا بالظهر عن البطن لأنهم يستقبحون ذكر الفرج وما يقرب منه سيما في الأم وما شابه بها، وليس بذاك وهو في الشرع تشبيه الزوجة أو جزء منها شائع أو معبر به عن الكل بما لا يحل النظر إليه من المحرمة على التأبيد ولو برضاع أو صهرية وزاد في النهاية قيد الاتفاق ليخرج التشبيه بما لا يحل النظر إليه ممن اختلف في تحريمها كالبنت من الزنا، وتحقيق الحق في ذلك في فتح القدير، وخص باسم الظهار تغليباً للظهر لأنه كان الأصل في استعمالهم وشرطه في المرأة كونها زوجة وفي الرجل كونه من أهل الكفارة، وركنه اللفظ المشتمل على ذلك التشبيه، وحكمه حرمة الوطء ودواعيه إلى وجود الكفارة؛ وتمام الكلام فيه في كتب الفروع، وسيأتي إن شاء الله تعالى بعض ذلك في محله.

وقرأ قالون، وقنبل هنا وفي المجادلة والطلاق «اللاء» بالهمز من غير ياء، وورش بياء مختلسة الكسرة، والبزي، وأبو عمرو «اللاي» ياء ساكنة بدلاً من الهمزة وهو بدل مسموع لا مقيس وهي لغة قريش، وقرأ أهل الكوفة غير عاصم «تَظَاهَرُون» بفتح التاء وتخفيف الظاء وأصله تتظاهرون فحذفت إحدى التاءين.

وقرأ ابن عامر «تَظَّاهرون» بفتح التاء وتشديد الظاء وأصله كما تقدم إلاَّ أنه أدغمت التاء الثانية في الظاء..

وقرأ الحسن «تُظَهِّرُونَ» بضم التاء وفتح الظاء المخففة وشد الهاء المكسورة مضارع ظهر بتشديد الهاء بمعنى ظاهر كعقد بمعنى عاقد، وقرأ ابن وثاب فيما نقل ابن عطية «تُظْهِرُونَ» بضم التاء وسكون الظاء وكسر الهاء مضارع أظهر، وقرأ هارون عن أبي عمرو «تَظْهَرونَ» بفتح التاء والهاء وسكون الظاء مضارع ظهر بتخفيف الهاء، وفي مصحف أبي «تتظهرون» بتاءين ومعنى الكل واحد.

﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ إبطال لما كان في الجاهلية أيضاً وصدر من الإسلام من أنه إذا تبنى الرجل ولد غيره أجريت أحكام النبوة عليه، وقد تبنى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قبل البعثة زيد بن حارثة، والخطاب عامر بن ربيعة، وأبو حذيفة مولاه سالماً إلى غير ذلك، وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد أن قوله تعالى: ﴿وما جعل﴾ إلخ، نزلت في زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنه.

و «أدعياء» جمع دعي وهو الذي يدعى ابناً فهو فعيل بمعنى مفعول وقياسه أن يجمع على فعلى كجريح وجرحى لا على أفعلاء فإن الجميع عليه قياس فعيل المعتل اللام بمعنى فاعل كتقي وأتقياء فكأنه شبه به في اللفظ فحمل عليه وجمع جمعه كما قالوا في أسير وقتيل أسراء وقتلاء، وقل: إن هذا الجمع مقيس في المعتل مطلقاً، وفيه نظر.

﴿ذَلِكُمْ﴾ قيل: إشارة إلى ما يفهم من الجمل الثلاث من أنه قد يكون قلبان في جوف والظهار والادعاء، وقيل: إلى ما يفهم من الأخيرتين، وقيل: إلى ما يفهم من الأخيرة ﴿قَوْلُكُمْ بأَفْوَاهِكُمْ﴾ فقط من غير أن يكون له مصداق وحقيقة في الواقع ونفس الأمر فإذن هو بمعزل عن القبول أو استتباع الأحكام كما زعمتم.

﴿وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ﴾ الثابت المحقق في نفس الأمر ﴿وَهُوَ يهدي السَّبِيلَ﴾ أي سبيل الحق فدعوا قولكم وخذوا بقوله عزَّ وجلَّ.

وقرأ قتادة على ما في البحر «يُهَدِّي» بضم الياء وفتح الهاء وشد الدال، وفي الكشاف أنه قرأ «وهو الذي يهدي السبيل» ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ﴾ أي انسبوهم إليهم وخصوهم بهم، أخرج الشيخان، والترمذي، والنسائي، وغيرهم عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما كنا ندعوه إلاَّ زيد بن محمد حتى نزل القرآن ﴿ادعوهم لآبائهم﴾ إلخ فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم: أنت زيد بن حارثة بن شراحيل، وكان من أمره رضي الله تعالى عنه على ما أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أنه كان في أخواله بني معن من بني ثعل من طيىء فأصيب في نهب من طيىء فقدم به سوق عكاظ وانطلق حكيم بن حزام بن خويلد إلى عكاظ يتسوق بها فأوصته عمته خديجة أن يبتاع لها غلاماً ظريفاً عربياً إن قدر عليه فلما قدم وجد زيداً يباع فيها فأعجبه ظرفه فابتاعه فقدم به عليها وقال لها: إني قد ابتعت لك غلاماً ظريفاً عربياً فإن أعجبك فخذيه وإلاَّ فدعيه فإنه قد أعجبني فلما رأته خديجة أعجبها فأخذته فتزوجها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهو عندها فأعجب النبي عليه الصلاة والسلام ظرفه فاستوهبه[1] منها فقالت: أهبه لك فإن أردت عتقه فالولاء لي فأبى عليها عليه الصلاة والسلام فأوهبته له إن شاء أعتق وإن شاء أمسك قال: فشب عند النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ثم إنه خرج في إبل لأبي طالب بأرض الشام فمرَّ بأرض قومه فعرفه عمه فقام إليه فقال: من أنت يا غلام؟ قال: غلام من أهل مكة قال: من أنفسهم؟ قال: لا قال: فحر أنت أم مملوك؟ قال: بل مملوك قال: لمن؟ قال: لمحمد بن عبد الله بن عبد المطلب فقال له: أعرابي أنت أم عجمي؟ قال: عربي قال: ممن أصلك؟ قال: من كلب قال: من أي كلب؟ قال: من بني عبد ود قال: ويحك ابن

(١) يروى أنه كان ابن ثمان حين وهب ا هـ منه.

أنت؟ قال: ابن حارثة بن شراحيل قال: وأين أصبت؟ قال: في أخوالي قال: ومن أخوالك؟ قال طيء قال: ما اسم أمك؟ قال: سعدي فالتزمه وقال: ابن حارثة ودعا أباه فقال: يا حارثة هذا ابنك فأتاه حارثة فلما نظر إليه عرفه قال: كيف صنع مولاك إليك؟ قال: يؤثرني على أهله وولده فركب معه أبوه وعمه وأخوه حتى قدموا مكة فلقوا رسول الله ﷺ فقال له حارثة: يا محمد أنتم أهل حرم الله تعالى وجيرانه وعند بيته تفكون العاني وتطعمون الأسير ابني عندك فامنن علينا وأحسن إلينا في فدائه فإنك ابن سيد قومه وإنا سنرفع إليك في الفداء ما أحببت فقال له رسول الله ﷺ: أعطيكم خيراً من ذلك قالوا: وما هو؟ قال أخيره فإن اختاركم فخذوه بغير فداء وإن اختارني فكفوا عنه فقال: جزاك الله تعالى خيراً فقد أحسنت فدعاه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال: يا زيد أتعرف هؤلاء؟ قال: نعم هذا أبي وعمي وأخي فقال عليه الصلاة والسلام: فهم من قد عرفتهم فإن اخترتهم فاذهب معهم وإن اخترتني فأنا من تعلم قال له زيد: ما أنا بمختار عليك أحداً أبداً أنت معي بمكان الوالد والعم قال أبوه وعمه: أيا زيد أتختار العبودية؟ قال: ما أنا بمفارق هذا الرجل فلما رأى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حرصه عليه قال: اشهدوا أنه حر وأنه ابني يرثني وأرثه فطابت نفس أبيه وعمه لما رأوا من كرامته عليه عليه الصلاة والسلام فلم يزل في الجاهلية يدعى زيد بن محمد حتى نزل القرآن ﴿ادعوهم لآبائهم﴾ فدعي زيد بن حارثة، وفي بعض الروايات أن أباه سمع أنه بمكة فأتاه هو وعمه وأخوه فكان ما كان ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللهِ﴾ تعليل للأمر والضمير لمصدر ادعوا كما في قوله تعالى: ﴿اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾ [المائدة: ٨]، و ﴿أقسط﴾ أفعل تفضيل قصد به الزيادة مطلقاً من القسط بمعنى العدل والمراد به البالغ في الصدق فاندفع ما يتوهم من أن المقام يقتضي ذكر الصدق لا العدل أي دعاؤكم إياهم لآبائهم بالغ في العدل والصدق وزائد فيه في حكم الله تعالى وقضائه عزَّ وجلَّ.

وجوز أن يكون أفعل على ما هو الشائع فيه، والمعنى أعدل مما قالوه ويكون جعله ذا عدل مع أنه زور لا عدل فيه أصلاً على سبيل التهكم ﴿فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا﴾ أي تعرفوا ﴿آبَاءَهُمْ﴾ فتنسبوهم إليهم ﴿فَإِخوانُكُمْ﴾ أي فهم أخوانكم ﴿فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ أي وأولياؤكم فيه فادعوهم بالأخوة والمولوية بتأويلهما بالأخوة والولاية في الدين، وبهذا المعنى قيل لسالم بعد نزول الآية مولى حذيفة وكان قد تبناه قبل، وقيل: ﴿مواليكم﴾ أي بنو أعمامكم، وقيل: معتقوكم ومحرروكم وكأن دعاءهم بذلك لتطييب قلوبهم ولذا لم يؤمر بدعائهم بأسمائهم فقط.

﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جناحٌ﴾ أي إثم ﴿فيما أَخْطَأْتُم به﴾ أي فيما فعلتموه من ذلك مخطئين جاهلين قبل النهي ﴿وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي ولكن الجناح والإثم فيما تعمدتموه بعد النهي على أن ﴿ما﴾ في محل الجر عطفاً على ما من ﴿فيما أخطأتم﴾ وتعقب بأن المعطوف المجرور لا يفصل بينه وبين ما عطف عليه، ولذا قال سيبويه في قولهم ما مثل عبد الله يقول ذلك ولا أخيه: إنه حذف المضاف من جهة المعطوف وأبقى المضاف إليه على إعرابه والأصل ولا مثل أخيه ليكون العطف على المرفوع. وأجيب بالفرق بين ما هنا والمثال وأن لا فصل فيه لأن المعطوف هو الموصول مع صلته أعني ما تعمدت على مثله أعني ما أخطأتم أو ولكن ما تعمدتم فيه الجناح على أن ما في موضع رفع على الابتداء وخبره جملة مقدرة، ونسبة التعمد إلى القلوب على حد النسبة في قوله تعالى: ﴿فإنه آثم قلبه﴾ [البقرة: ٢٣٨] وكون المراد في الأول قبل النهي وفي الثاني بعده أخرجه الفريابي، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد، وقيل: كلا الأمرين بعد النهي والخطأ مقابل العمد، والمعنى لا إثم عليكم إذا قلتم لولد غيركم يا بني على سبيل الخطأ وعدم التعمد كأن سهوتم أو سبق لسانكم ولكن الإثم عليكم إذا قلتم ذلك متعمدين، وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة أنه قال في الآية: لو دعوت رجلاً لغير أبيه وأنت ترى أنه أبوه لم يكن عليك بأس ولكن ما تعمدت وقصدت دعاءه لغير أبيه.

وجوز أن يراد بقوله تعالى: ﴿وليس عليكم جناح﴾ إلخ العفو عن الخطأ دون العمد على طريق العموم لحديث عائشة[١] رضي الله تعالى عنها قالت: «قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إني لست أخاف عليكم الخطأ ولكن أخاف عليكم العمد» وحديث ابن عباس[٢] قال: قال عليه الصلاة والسلام وضع عن أمتي الخطأ والنسيان «وما أكرهوا عليه» ثم تناول لعمومه خطأ التبني وعمده، والجملة على تقديري الخصوص والعموم واردة على سبيل الاعتراض التذييلي تأكيداً لامتثال ما ندبوا إليه مع ادماج حكم مقصود في نفسه، وجعلها بعضهم عطفاً مؤولاً بجملة طلبية على معنى ادعوهم لآباؤهم هو أقسط لكم ولا تدعوهم لأنفسكم متعمدين فتأثموا على تقدير الخصوص وجملة مستطردة على تقدير العموم وتعقب بأنه تكلف عنه مندوحة، وظاهر الآية حرمة تعمد دعوة الإنسان لغير أبيه، ولعل ذلك فيما إذا كانت الدعوة على الوجه الذي كان في الجاهلية،وأما إذا لم تكن كذلك كما يقول الكبير للصغير على سبيل التحنن والشفقة يا ابني وكثيراً ما يقع ذلك فالظاهر عدم الحرمة.

وفي حواشي الخفاجي على تفسير البيضاوي النبوة وإن صح فيها التأويل كالإخوة لكن نهي عنها بالتشبيه بالكفرة والنهي للتنزيه انتهى، ولعله لم يرد بهذا النهي ما تدل عليه الآية المذكورة فإن ما تدل عليه نهي التحريم عن الدعوة على الوجه الذي كان في الجاهلية، والأولى أن يقال في تعليل النهي: سداً لباب التشبيه بالكفرة بالكلية، وهذا الذي ذكره الخفاجي من كراهة قول الشخص لولد غيره يا ابني حكاه لي من أرتضيه عن فتاوى ابن حجر الكبرى، وحكم التبني بقوله: هو ابني إن كان عبداً للقائل العتق على كل حال ولا يثبت نسبه منه إلا إذا كان مجهول النسب وكان بحيث يولد مثله لمثله ولم يقر قبله بنسب من غيره، وعند الشافعي لا عبرة بالتبني فلا يفيد العتق ولا ثبوت النسب، وتحقيق ذلك في موضعه، ثم الظاهر أنه لا فرق إذا لم يعرف الأب بين أن يقال يا أخي وأن يقال يا مولاي في أن كلاً منهما مباح مطلقاً حينئذ لكن صرح بعضهم بحرمة أن يقال للفاسق يا مولاي لخبر في ذلك، وقيل: لما أن فيه تعظيمه وهو حرام، ومقتضاه أن قول يا أخي إذا كان فيه تعظيم بأن كان من جليل الشأن حرام أيضاً، فلعل الدعاء لغير معروف الأب بما ذكر مخصوص بما إذا لم يكن فاسقاً ودليل التخصيص هو دليل حرمة تعظيم الفاسق فتدبر، وكذا الظاهر أنه لا فرق في أمر الدعوة بين كون المدعو ذكراً وكونه أنثى لكن لم نقف على وقوع التبني للإناث في الجاهلية والله تعالى أعلم ﴿وَكَانَ اللهُ غَفُوراً﴾ فيغفر للعامد إذا تاب ﴿رَحِيماً﴾ ولذا رفع سبحانه الجناح عن المخطىء، ويعلم من الآية أنه لا يجوز انتساب الشخص إلى غير أبيه، وعد ذلك بعضهم من الكبائر لما أخرج الشيخان، وأبو داود عن سعد بن أبي وقاص أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام».

وأخرج الشيخان أيضاً «من ادعى إلى غير أبيه أو انتمى إلى غير مواليه فعليه لعنة الله تعالى والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله تعالى منه صرفاً ولا عدلاً» وأخرجا أيضاً «ليس من رجل ادعى لغير أبيه وهو يعلم إلاَّ كفر».

وأخرج الطبراني في الصغير من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وحديثه حسن قال: «قال رسول الله ﷺ كفر من تبرأ من نسب وإن دق أو ادعى نسباً لا يعرف» إلى غير ذلك من الأخبار، هذا ومناسبة قوله تعالى: ﴿ما جعل الله﴾ إلخ لما قبله أنه شروع في ذكر شيء من الوحي الذي أمر ﷺ في اتباعه كذا قيل، وقيل: إنه تعالى لما أمر

---

(١) أخرجه ابن مردويه ا هـ منه.

(٢) أخرجه ابن ماجة ا هـ منه.

بالتقوى كان من حقها أن لا يكون في القلب تقوى غير الله تعالى فإن المرء ليس له قلبان يتقي بأحدهما لله تعالى وبالآخر غيره سبحانه إلاَّ بصرف القلب عن جهة الله تعالى إلى غيره جلَّ وعلا ولا يليق ذلك بمن يتقي الله تعالى حق تقاته، وعن أبي مسلم أنه متصل بقوله تعالى: ﴿ولا تطع الكافرين والمنافقين﴾ [الأحزاب: ٤٨] حيث جيء به للرد عليهم، والمعنى ليس لأحد قلبان يؤمن بأحدهما ويكفر بالآخر وإنما هو قلب واحد فإما أن يؤمن وإما أن يكفر، وقيل: هو متصل ـ بلا تطع واتبع ـ والمعنى أنه لا يمكن الجمع بين اتباعين متضادين اتباع الوحي والقرآن واتباع أهل الكفر الطغيان فكني عن ذلك بذكر القلبين لأن الاتباع يصدر عن الاعتقاد وهو من أفعال القلوب فكما لا يجمع قلبان في جوف واحد لا يجمع اعتقادان متضادان في قلب واحد، وقيل: هو متصل بقوله تعالى: **﴿وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً﴾** من حيث إنه مشعر بوحدته عزَّ وجلَّ فكأنه قيل: وتوكل على الله وكفى به تعالى وكيلاً فإنه سبحانه وتعالى وحده المدبر لأمور العالم، ثم أشار سبحانه وتعالى إلى أن أمر الرجل الواحد لا ينتظم ومعه قلبان فكيف تنتظم أمور العالم وله الهان، وقيل: إن ذاك مسوق للتنفير عن إطاعة الكفرة والمنافقين بحكاية أباطيلهم، وذكر أن قوله تعالى: **﴿ما جعل﴾** إلخ ضرب مثلاً للظهار والتبني أي كما لا يكون لرجل قلبان لا تكون المظاهرة أماً والمتبنى ابناً، وجعل المذكورات الثلاث بجملتها مثلاً فيما لا حقيقة له وارتضى ذلك غير واحد، وقال الطيبي: إن هذا أنسب لنظم القرآن لأنه تعالى نسق المنفيات الثلاث عن ترتيب واحد، وجعل سبحانه قوله جلَّ وعلا: **﴿ذلكم﴾** فذلكة لها ثم حكم تعالى بأن ذلك قول لا حقيقة له، وثم ذيل سبحانه وتعالى الكل بقوله تعالى: **﴿والله يقول الحق وهو يهدي السبيل﴾** وتعقبه في الكشف بأن سبب النزول وقوله سبحانه بعد التذييل **﴿ادعوهم لآبائهم﴾** الآية شاهد أصدق بأن الأول مضروب للتبني ثم إنهم ما كانوا يجعلون الأزواج أمهات بل كانوا يجعلون اللفظ طلاقاً فإدخاله في قرن مسألة التبني استطراداً هو الوجه لا أنه قول لا حقيقة له كالأول.

وانتصر الخفاجي للجماعة فقال: لو كان مثلاً للتبني فقط لم يفصل منه، وكون القلبين لرجل وجعل المتبنى ابناً في جميع الأحكام مما لا حقيقة له في نفس الأمر ولا في شرع ظاهر، وكذا جعل الأزواج كالأمهات في الحرمة المؤبدة مطلقاً من مخترعاتهم التي لم يستندوا فيها إلى مستند شرعي فلا حقيقة له أيضاً فما ادعاه غير وارد عليهم لا سيما مع مخالفته لما روي عنهم انتهى، ويد الله تعالى مع الجماعة، وبين الطيبي نظم الآيات من مفتتح السورة إلى ها هنا فقال: إن الاستهلال بقوله تعالى **﴿يا أيها النبي اتق الله﴾** دال على أن الخطاب مشتمل على التبنية على أمر معتنى بشأنه لائح فيه معنى التهيج والإلهاب، ومن ثم عطف عليه **﴿ولا تطع﴾** كما يعطف الخاص على العام وأردف النهي بالأمر على نحو قولك لا تطع من يخذلك واتبع ناصرك، ولا يبعد أن يسمى بالطرد والعكس، ثم أمر بالتوكل تشجيعاً على مخالفة أعداء الدين والالتجاء إلى حريم جلال الله تعالى ليكفيه شرورهم، ثم عقب سبحانه كلاً من تلك الأوامر على سبيل التتميم والتذييل بما يطابقه، وعلل قوله تعالى **﴿ولا تطع الكافرين والمنافقين﴾** بقوله سبحانه وتعالى **﴿إن اللهَ كان عليماً حكيماً﴾** تتميماً للارتداع أي اتق الله فيما تأتي وتذر في سرك وعلانيتك لأنه تعالى عليم بالأحوال كلها يجب أن يحذر من سخطه حكيم لا يحب متابعة حبيبه أعداءه، وعلل قوله تعالى: **﴿واتبع ما يوحى إليك من ربك﴾** بقوله تعالى: **﴿إن الله كان بما تعملون خبيراً﴾** تتميماً أيضاً أي اتبع الحق ولا تتبع أهواءهم الباطلة وآراءهم الزائغة لأن الله تعالى يعلم عملك وعملهم فيكافىء كلاً ما يستحقه وذيل سبحانه وتعالى قوله تبارك وتعالى: **﴿وتوكل على الله﴾** بقوله تعالى: **﴿وكفى بالله وكيلاً﴾** تقريراً وتوكيداً على منوال فلان ينطبق بالحق والحق أبلج يعني من حق من يكون كافياً لكل الأمور أن تفوض الأمور إليه وتوكل عليه، وفصل قوله تعالى: **﴿ما جعل الله لرجل**

من قلبين في جوفه ﴾ على سبيل استئناف تنبيهاً على بعض من أباطيلهم وتمحلاتهم، وقوله تعالى: ﴿**ذلكم قولكم** ﴾ إلخ فذلكة لتلك الأقوال آذنت بأنها جديرة بأن يحكم عليها بالبطلان وحقيق بأن يذم قائلها فضلاً عن أن يطاع، ثم وصل تعالى ﴿**والله يقول الحق** ﴾ إلخ على هذه الفذلكة بجامع التضاد على منوال ما سبق في ﴿**ولا تطع** ﴾ و ﴿**اتبع**﴾ وفصل قوله تعالى: ﴿**ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله** ﴾ وقوله تعالى: ﴿**النبي** ﴾ إلخ وهلم جراً إلى آخر السورة تفصيلاً لقول الحق والاهتداء إلى السبيل القويم انتهى فتأمل ولا تغفل ﴿**النَّبي أولى بالمُؤمنينَ** ﴾ أي أحق وأقرب إليهم ﴿**مِنْ أَنْفُسهِمْ** ﴾ أو أشد ولاية ونصرة لهم منها فإنه عليه الصلاة والسلام لا يأمرهم ولا يرضى منهم إلاَّ بما فيه صلاحهم ونجاحهم بخلاف النفس فإنها إما امارة بالسوء وحالها ظاهر أو لا فقد تجهل بعض المصالح وتخفى عليها بعض المنافع وأطلقت الأولوية ليفيد الكلام أولويته عليه الصلاة والسلام في جميع الأمور ويعلم من كونه صلى الله تعالى عليه وسلم أولى بهم من أنفسهم كونه عليه الصلاة والسلام أولى بهم من كل من الناس، وقد أخرج البخاري وغيره عن أبي هريرة عنه ﷺ أنه قال: «ما من مؤمن إلاَّ وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة اقرؤوا إن شئتم النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم فأيما مؤمن ترك مالاً فليرثه عصبته من كانوا فإن ترك ديناً أو ضياعاً[1] فليأتني فأنا مولاه» ولا يلزم عليه كون الأنفس هنا مثلها في قوله تعالى: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم ﴾ [النساء: ٢٩] لأن إفادة الآية المدعي على الظاهر ظاهرة أيضاً، وإذا كان صلى الله تعالى عليه وسلم بهذه المثابة في حق المؤمنين يجب عليه أن يكون أحب إليهم من أنفسهم وحكمه عليه الصلاة والسلام عليهم أنفذ من حكمها وحقه آثر لديهم من حقوقها وشفقتهم عليه أقدم من شفقتهم عليها، وسبب نزول الآية على ما قيل ما روي من أنه عليه الصلاة والسلام أراد غزوة تبوك فأمر الناس بالخروج فقال أناس منهم: يستأذن آباءنا وأمهاتنا فنزلت، ووجه دلالتها على السبب أنه صلى الله تعالى عليه وسلم إذا كان أولى من أنفسهم فهو أولى من الأبوين بالطريق الأولى ولا حاجة إلى حمل أنفسهم عليه على خلاف المعنى المتبادر كما أشرنا إليه آنفاً ﴿**وَأَزْوَاجهُ أُمَّهَاتُهُمْ** ﴾ أي منزلات منزلة أمهاتهم في تحريم النكاح واستحقاق التعظيم وأما فيما عدا ذلك من النظر إليهن والخلوة بهن وارثهن ونحو ذلك فهن كالأجنبيات، وفرع على هذا القسطلاني في المواهب أنه لا يقال لبناتهن أخوات المؤمنين في الأصح، والطبرسي وهو شيعي أنه لا يقال لإخوانهن أخوال المؤمنين، ولا يخفى أنه يسر حسواً بارتغاء، وفي المواهب أن في جواز النظر إليهن وجهين أشهرهما المنع، ولكون وجه الشبه مجموع ما ذكر قالت عائشة رضي الله عنها لامرأة قالت لها يا أمه: أنا أم رجالكم لا أم نسائكم أخرجه ابن سعد، وابن المنذر والبيهقي في سننه عنها، ولا ينافي هذا استحقاق التعظيم منهن أيضاً.

وأخرج ابن سعد عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها أنها قالت أنا أم الرجال منكم والنساء وعليه يكون ما ذكر وجه الشبه بالنسبة إلى الرجال وأما بالنسبة إلى النساء فهو استحقاق التعظيم، والظاهر أن المراد من أزواجه كل من أطلق عليها أنها زوجة له صلى الله تعالى عليه وسلم من طلقها ومن لم يطلقها، وروى ذلك ابن أبي حاتم عن مقاتل فيثبت الحكم لكلهن وهو الذي نص عليه الإمام الشافعي وصححه في الروضة، وقيل: لا يثبت الحكم لمن فارقها عليه الصلاة والسلام في الحياة كالمستعيذة والتي رأى بكشحها بياضاً وصحح أمام الحرمين، والرافعي في الصغير تحريم المدخول بها فقط لما روي أن الأشعث بن قيس نكح المستعيذة في زمن عمر رضي الله تعالى عنه فهم عمر برجمه فأخبره أنها لم تكن مدخولاً بها فكف، وفي رواية أنه رضي الله تعالى عنه هم برجمها فقالت له: ولم هذا؟ وما ضرب

---

(١) أي عيالاً ضياعاً ا هـ منه.

على حجاب ولا سميت للمسلمين أما فكف عنها، وذكر في المواهب أن في حل من اختارت منهن الدنيا للأزواج منهن الدنيا للأزواج طريقين، أحدهما طرد الخلاف والثاني القطع بالحل، واختار هذا الإمام والغزالي، وحكى القول بأن المطلقة لا يثبت لها هذا الحكم عن الشيعة، وقد رأيت في بعض كتبهم نفي الأمومة عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالوا: لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فوض إلى علي كرم الله تعالى وجهه أن يبقي من يشاء من أزواجه ويطلق من يشاء منهن بعد وفاته وكالة عنه عليه الصلاة والسلام وقد طلق رضي الله تعالى عنه عائشة يوم الجمل فخرجت عن الأزواج ولم يبقَ لها حكمهن وبعد أن كتبت هذا اتفق لي أن نظرت في كتاب ألفه سليمان بن عبد الله البحراني عليه من الله تعالى ما يستحق في مثالب جمع من الصحابة حاشى رضي الله تعالى عنهم فرأيت ما نصه:

روى أبو منصور أحمد بن أبي طالب الطبرسي في كتاب الاحتجاج عن سعد بن عبد الله أنه سأل القائم المنتظر وهو طفل في حياة أبيه فقال له يا مولانا وابن مولانا روي لنا أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جعل طلاق نسائه إلى أمير المؤمنين علي كرم الله تعالى وجهه حتى أنه بعث في يوم الجمل رسولاً إلى عائشة وقال: إنك أدخلت الهلاك على الإسلام وأهله بالغش الذي حصل منك وأوردت أولادك في موضع الهلاك بالجهالة فإن امتنعت وإلاَّ طلقتك فأخبرنا يا مولانا عن معنى الطلاق الذي فوض حكمه رسول صلى الله تعالى عليه وسلم إلى أمير المؤمنين فقال: إن الله تقدس اسمه عظم شأن نساء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فخصهن بشرف الأمهات فقال عليه الصلاة والسلام: يا أبا الحسن إن هذا الشرف باقٍ ما دمنا على طاعة الله تعالى فأيتهن عصت الله تعالى بعدي بالخروج عليك فطلقها من الأزواج وأسقطها من شرف أمهات المؤمنين، ثم قال: وروى الطبرسي أيضاً في الاحتجاج عن الباقر أنه قال: لما كان يوم الجمل وقد رشق هودج عائشة بالنبل قال علي كرم الله تعالى وجهه: والله ما أراني إلاَّ مطلقها فأنشد الله تعالى رجلاً سمع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول: يا علي أمر نسائي بيدك من بعدي لما قام فشهد فقام ثلاثة عشر رجلاً فشهدوا بذلك الحديث، ورأيت في بعض الأخبار التي لا تحضرني الآن ما هو صريح في وقوع الطلاق اهـ ما قاله البحراني عامله الله تعالى بعدله. وهذا لعمري من السفاهة والوقاحة والجسارة على الله تعالى ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم بمكان وبطلانه أظهر من أن يخفى وركاكة ألفاظه تنادي على كذبه بأعلى صوت ولا أظنه قولاً مرضياً عند من له أدنى عقل منهم فلعن الله تعالى من اختلقه وكذا من يعتقده، وأخرج الفريابي، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن ابن عباس أنه كان يقرأ «النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم وأزواجه أمهاتهم» وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة أنه قال: كان في الحرف الأول «النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أبوهم» وفي مصحف أبي رضي الله تعالى عنه كما روى عبد الرزاق، وابن المنذر، وغيرهما «النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم» وإطلاق الأب عليه صلى الله تعالى عليه وسلم لأنه سبب للحياة الأبدية كما أن الأب سبب للحياة أيضاً بل هو عليه الصلاة والسلام أحق بالأبوة منه وعن مجاهد كل نبي أب لأمته، ومن هنا قيل في قول لوط هؤلاء بناتي أنه أراد المؤمنات ووجهه ما ذكر، ويلزم من هذه الأبوة على ما قيل أخوة المؤمنين.

ويعلم مما روي عن مجاهد أن الأبوة ليست من خصوصياته عليه الصلاة والسلام وهذا ليس كأمومة أزواجه فإنها على ما في المواهب من الخصوصيات فلا يحرم نكاح أزواج من عداه صلى الله تعالى عليه وسلم من الأنبياء عليهم السلام من بعدهم على أحد من أممهم ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ﴾ أي ذوو القرابات الشاملون للعصبات لا ما يقابلهم ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ في النفع بميراث وغيره من النفع المالي أو في التوارث ويؤيده سبب النزول الآتي ذكره ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي فيما كتبه في اللوح أو فيما أنزله وهي آية المواريث أو هذه الآية أو فيما كتبه سبحانه وفرضه

وقضاه ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ صلة لأولى فمدخول ﴿من﴾ هو المفضل عليه وهي ابتدائية مثلها في قولك: زيد أفضل من عمرو أي أولو الأرحام بحق القرابة أولى في كل نفع أو بالميراث من المؤمنين بحق الدين ومن المهاجرين بحق الهجرة، وقال الزمخشري: يجوز أن يكون بياناً لأولو الأرحام أي الأقرباء من هؤلاء بعضهم أولى بأن يرث بعضاً من الأجانب، والأول هو الظاهر، وكان في المدينة توارث بالهجرة وبالموالاة في الدين ذلك بآية آخر الأنفال أو بهذه الآية ، وقيل: بالإجماع وأرادوا كشفه عن الناسخ وإلاَّ فهو لا يكون ناسخاً كما لا يخفى، ورفع ﴿بعضهم﴾ يجوز أن يكون على البدلية وأن يكون على الابتداء و﴿في كتاب﴾ متعلق بأولى ويجوز أن يكون حالاً والعامل فيه معنى ﴿أولى﴾ ولا يجوز على ما قال أبو البقاء أن يكون حالاً من ﴿أولو﴾ للفصل بالخبر ولأنه لا عامل إذاً، وقوله تعالى: ﴿إلاَّ أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفاً﴾ إما استثناء متصل من أعم ما تقدر الأولوية فيه من النفع كأنه قيل: القريب أولى من الأجنبي من المؤمنين والمهاجرين في كل نفع من ميراث وصدقة وهدية ونحو ذلك إلاَّ في الوصية فإنها المرادة بالمعروف فالأجنبي أحق بها من القريب الوارث فإنها لا تصح لوارث، وأما استثناء منقطع بناء على أن المراد بما فيه الأولوية هو التوارث فيكون الاستثناء من خلاف الجنس المدلول عليه بفحوى الكلام كأنه قيل: لا تورثوا غير أولي الأرحام لكن فعلكم إلى أوليائكم من المؤمنين والمهاجرين الأجانب معروفاً وهو أن توصوا لمن أحببتم منهم بشيء جائز فيكون ذلك له بالوصية لا بالميراث، ويجوز أن يكون المعروف عاماً لما عدا الميراث، والمتبادر إلى الذهن انقطاع الاستثناء واقتصر عليه أبو البقاء، ومكي، وكذا الطبرسي وجعل المصدر مبتدأ محذوف الخبر كما أشرنا إليه.

وتفسير الأولياء بمن كان من المؤمنين والمهاجرين هو الذي يقتضيه السياق فهو من وضع الظاهر موضع الضمير بناء على أن ﴿من﴾ فيما تقدم للابتداء لا للبيان، وأخرج ابن جرير، وغيره عن مجاهد تفسيره بالذين والى بينهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من المهاجرين والأنصار، وأخرج ابن المنذر، وابن جرير، وابن أبي حاتم. عن محمد بن الحنفية أنه قال: نزلت هذه الآية في جواز وصية المسلم لليهودي والنصراني، وأخرجوا عن قتادة أنه قال: الأولياء القرابة من أهل الشرك والمعروف الوصية، وحكي في البحر عن جماعة منهم الحسن، وعطاء أن الأولياء يشمل القريب والأجنبي المؤمن والكافر وأن المعروف أعم من الوصية. وقد أجازها للكافر القريب وكذا الأجنبي جماعة من الفقهاء والإمامية يجوزونها لبعض ذوي القرابة الكفار وهم الوالدان والولد لا غير، والنهي عن اتخاذ الكفار أولياء لا يقتضي النهي عن الإحسان إليهم والبر لهم. وعُدِّي ﴿تفعلوا﴾ بإلى لتضمنه معنى الإيصال والإسداء كأنه قيل: إلاَّ أن تفعلوا مسدين إلى أوليائكم معروفاً ﴿كَانَ ذَلِكَ﴾ أي ما ذكر في الآيتين أعني ﴿أدعوهم لآبائهم والنبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ وجوز أن يكون إشارة إلى ما سبق من أول السورة إلى هنا أو إلى ما بعد قوله تعالى: ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين﴾ أو إلى ما ذكر في الآية الأخيرة وفيه بحث ﴿في الكتاب﴾ أي في اللوح أو القرآن وقيل في التوراة ﴿مَسْطُوراً﴾ أي مثبتاً بالإسطار وعن قتادة أنه قال في بعض القراءات: كان ذلك عند الله مكتوباً أن لا يرث المشرك المؤمن فلا تغفل.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ مقدر بأذكر على أنه مفعول لا ظرف لفساد المعنى، وهو معطوف على ما قبله عطف القصة على القصة أو على مقدر كخذ هذا، وجوز أن يكون ذلك عطفاً على خبر كان وهو بعيد وإن كان قريباً، ولما كان ما سبق متضمناً أحكاماً شرعها الله تعالى وكان فيها أشياء مما كان في الجاهلية وأشياء مما كان في الإسلام أبطلت ونسخت اتبعه سبحانه بما فيه حث على البليغ فقال عزَّ وجلَّ: ﴿وإذ﴾ إلخ واذكر وقت أخذنا من النبيين كافة عهودهم بتبليغ الرسالة والشرائع والدعاء إلى الدين الحق وذلك على ما قال الزجاج وغيره وقت استخراج

البشر من صلب آدم عليه السلام كالذر، وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة أنه سبحانه أخذ من النبيين عهودهم بتصديق بعضهم بعضاً واتباع بعضهم بعضاً، وفي رواية أخرى عنه أنه أخذ الله تعالى ميثاقهم بتصديق بعضهم بعضاً والإعلان بأن محمداً رسول الله وإعلان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن لا نبي بعده ﴿**وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ**﴾ تخصيصهم بالذكر مع اندراجهم في النبيين اندراجاً بيناً للإيذان بمزيد مزيتهم وفضلهم وكونهم من مشاهير أرباب الشرائع.

واشتهر أنهم هم أولو العزم من الرسل صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين وأخرج البزار عن أبي هريرة أنهم خيار ولد آدم عليهم الصلاة والسلام، وتقديم نبياً صلى الله تعالى عليه وسلم مع أنه آخرهم بعثة للإيذان بمزيد خطره الجليل أو لتقدمه في الخلق، فقد أخرج ابن أبي عاصم والضياء في المختارة عن أبي بن كعب مرفوعاً بدىء بي الخلق وكنت آخرهم في البعث، وأخرج جماعة عن الحسن عن أبي هريرة عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث، وكذا في الاستنباء فقد جاء في عدة روايات أنه عليه الصلاة والسلام قال: «كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد» وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قيل يا رسول الله متى أخذ ميثاقك؟ قال: وآدم بين الروح والجسد، ولا يضر فيما ذكر تقديم نوح عليه السلام في آية الشورى أعني قوله تعالى: ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً﴾ [الشورى: ١٣] الآية إذ لكل مقام مقال والمقام هناك وصف دين الإسلام بالأصالة والمناسب فيه تقديم نوح فكأنه قيل: شرع لكم الدين الأصيل الذي بعث عليه نوح في العهد القديم وبعث عليه محمد عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء في العهد الحديث وبعث عليه من توسط بينهما من الأنبياء والمشاهير، وقال ابن المنير: السر في تقديمه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه هو المخاطب والمنزل عليه هذا المتلو فكان أحق بالتقديم، وفيه بحث ﴿**وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً**﴾ أي عهد عهد عظيم الشأن أو وثيقاً قوياً وهذا هو الميثاق الأول وأخذه هو أخذه، والعطف مبني على تنزيل التغاير العنواني منزلة التغاير الذاتي كما في قوله تعالى: ﴿ونجيناهم من عذاب غليظ﴾ [هود: ٥٨] أثر قوله سبحانه: ﴿فلما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه﴾ [هود: ٥٨] وفي ذلك من تفخيم الشأن ما فيه ولهذا لم يقل عزّ وجلّ: وإذ أخذنا من النبيين ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيس ابن مريم ميثاقاً غليظاً مثلاً، وقال سبحانه ما في النظم الكريم، وقيل: الميثاق الغليظ اليمين بالله تعالى فيكون بعدما أخذ الله سبحانه من النبيين الميثاق بتبليغ الرسالة والدعوة إلى الحق أكد باليمين بالله تعالى على الوفاء بما حملوا فالميثاقان متغايران بالذات، وقوله عزّ وجلّ: ﴿**لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ**﴾ قيل متعلق بمضمر مستأنف مسوق لبيان علة الأخذ المذكور وغايته أي فعل الله تعالى ذلك ليسأل إلخ وقيل: متعلق بأخذنا، وتعقب بأن المقصود تذكير نفس الميثاق ثم بيان علته وغايته بياناً قصدياً كما ينبىء عنه تغيير الأسلوب بالالتفات إلى الغيبة، والمراد بالصادقين النبيون الذين أخذ ميثاقهم ووضع موضع ضميرهم للإيذان من أول الأمر بأنهم صادقوا فيما سألوا عنه وإنما السؤال لحكمة تقتضيه أي ليسأل الله تعالى يوم القيامة النبيين الذين صدقوا عهودهم عن كلامهم الصادق الذي قالوه لأقوامهم أو عن تصديق أقوامهم إياهم، وسؤالهم عليهم السلام عن ذلك على الوجهين لتبكيت الكفرة المكذبين كما في قوله تعالى ﴿يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم﴾ [المائدة: ١٠٩] أو المراد بهم المصدقون بالنبيين، والمعنى ليسأل المصدقين للنبيين عن تصديقهم إياهم فيقال: هل صدقتم؟ وقيل: يقال لهم هل كان تصديقكم لوجه الله تعالى؟ وجه إرادة ذلك أن مصدق الصادق صادق وتصديقه صدق، وقيل: المعنى ليسأل المؤمنين الذين صدقوا عهدهم حين أشهدهم على أنفسهم عن صدقهم عهدهم.

وتعقب بأنه يأباه مقام تذكير ميثاق النبيين ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً﴾ قيل عطف على فعل مضمر متعلقاً فيما قيل: وقيل: على مقدر دلّ عليه ﴿ليسأل﴾ كأنه قيل فأثاب المؤمنين وأعد للكافرين إلخ، وقيل: على ﴿أخذنا﴾ وهو عطف معنوي كأنه قيل: أكد الله تعالى على النبيين الدعوة إلى دينه لأجل إثابة المؤمنين وأعد للكافرين إلخ.

وقيل: على ﴿يسأل﴾ بتأويله بالمضارع ولا بد من ملاحظة مناسبة ليحسن العطف؛ وقيل: على مقدر وفي الكلام الاحتباك والتقدير ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد لهم ثواباً عظيماً ويسأل الكاذبين عن كذبهم وأعد لهم عذاباً أليماً فحذف من كل منهما ما ثبت في الآخر، وقيل: إن الجملة حال من ضمير ﴿يسأل﴾ بتقدير قد أو بدونه، ولا يخفى أقلها تكلفاً ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾ شروع في ذكر قصة الأحزاب وهي وقعة الخندق، وكانت على ما قال ابن إسحاق في شوال سنة خمس، وقال مالك: سنة أربع.

والنعمة إن كانت مصدراً بمعنى الإنعام فالجار متعلق بها وإلاَّ فهو متعلق بمحذوف وقع حالاً منها أي كائنة عليكم، وقوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ ظرف لنفس النعمة أو لثبوتها لهم، وقيل: منصوب بأذكر على أنه بدل اشتمال من ﴿نعمة﴾ والمراد بالجنود الأحزاب، وهم قريش يقودهم أبو سفيان، وبنو أسد يقودهم طليحة، وغطفان يقودهم عيينة، وبنو عامر يقودهم عامر بن الطفيل، وبنو سليم يقودهم أبو الأعور السلمي، وبنو النضير رؤساؤهم حيي ابن أخطب وأبناء أبي الحقيق، وبنو قريظة سيدهم كعب بن أسد، وكان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد فنبذه بسعي حيي، وكان مجموعهم عشرة آلاف في قول وخمسة عشر ألفاً في آخر، وقيل: زهاء اثني عشر ألفاً، فلما سمع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بإقبالهم حفر خندقاً قريباً من المدينة محيطاً بها بإشارة سلمان الفارسي أعطى كل أربعين ذراعاً لعشرة، ثم خرج عليه الصلاة لسلام في ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب معسكره والخندق بينه وبين القوم، وأمر بالذراري والنساء فدفعوا في الآطام، واشتد الخوف وظن المؤمنون كل ظن وبحم النفاق كما قص الله تعالى، ومضى قريب من شهر على الفريقين لا حرب بينهم سوى الرمي بالنبل والحجارة من وراء الخندق إلاَّ أن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبدود وكان يعد بألف فارس، وعكرمة بن أبي جهل، وضرار بن الخطاب، وهبيرة بن أبي وهب، ونوفل بن عبد الله قد ركبوا خيولهم وتيمموا من الخندق مكاناً ضيقاً فضربوا بخيولهم فاقتحموا فجالت بهم في السبخة بين الخندق وسلع فخرج علي بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه في نفر من المسلمين رضي الله تعالى عنهم حتى أخذ عليهم الثغرة التي اقتحموا منها فأقبلت الفرسان معهم وقتل علي كرم الله تعالى وجهه عمراً في قصة مشهورة فانهزمت خيله حتى اقتحمت من الخندق هاربة وقتل مع عمرو منبه بن عثمان بن عبد الدار. ونوفل بن عبد العزى، وقيل: وجد نوفل في جوف الخندق فجعل المسلمون يرمونه بالحجارة فقال لهم: قتلة أجمل من هذه ينزل بعضكم أقاتله فقتله الزبير بن العوام.

وذكر ابن إسحاق أن علياً كرم الله تعالى وجهه طعنه في ترقوته حتى أخرجها من مراقه فمات في الخندق وبعث المشركون إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يشترون جيفته بعشرة آلاف فقال النبي عليه الصلاة والسلام: هو لكم لا نأكل ثمن الموتى، ثم أنزل الله تعالى النصر وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً﴾ عطف على ﴿جاءتكم﴾ مسوق لبيان النعمة إجمالاً وسيأتي أن شاء الله تعالى بقيتها في آخر القصة.

﴿وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكة عليهم السلام وكانوا على ما قيل ألفاً، روي أن الله تعالى بعث عليهم صباً باردة في ليلة باردة فاخصرتهم وسفت التراب في وجوههم وأمر الملائكة عليهم السلام فقلعت الأوتاد وقطعت الأطناب وأطفأت النيران وأكفأت القدور وماجت الخيل بعضها في بعض وقذف في قلوبهم الرعب وكبرت الملائكة

في جوانب عسكرهم فقال طليحة بن خويلد الأسدي: أما محمد ﷺ فقد بدأكم بالسحر فالنجاء النجاء فانهزموا، وقال حذيفة رضي الله تعالى وقد ذهب ليأتي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بخبر القوم. خرجت حتى إذا دنوت من عسكر القوم نظرت في ضوء نار لهم توقد وإذا رجل أدهم ضخم يقول بيده على النار ويمسح خاصرته ويقول: الرحيل الرحيل لا مقام لكم وإذا الرجل في عسكرهم ما يجاوز عسكرهم شبراً فوالله إني لأسمع صوت الحجارة في رحالهم وفرشهم والريح تضربهم ثم خرجت نحو النبي عليه الصلاة والسلام فلما صرت في نصف الطريق أو نحو ذلك إذا أنا بنحو عشرين فارساً متعممين فقالوا: أخبر صاحبك أن الله تعالى كفاه القوم.

وقرأ الحسن «وَجنوداً» بفتح الجيم، وقرأ أبو عمرو في رواية، وأبو بكر في رواية أيضاً «لم يروها» بياء الغيبة ﴿وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من حفر الخندق وترتيب مبادىء الحرب أعلاه لكلمة الله تعالى، وقيل: من التجائكم إليه تعالى ورجائكم من فضله عزَّ وجلَّ.

وقرأ أبو عمرو «يعملون» بياء الغيبة أي بما يعمله الكفار من التحرز والمحاربة وإغراء بعضهم بعضاً عليها حرصاً على إبطال حقكم، وقيل: من الكفر والمعاصي ﴿بَصيراً﴾ ولذلك فعل ما فعل من نصركم عليهم، والجملة اعتراض مقرّر لما قبله ﴿إِذْ جَاؤُوكُمْ﴾ بدل من ﴿إذ جاءتكم﴾ بدل كل من كل، وقيل: هو متعلق بتعملون أو ببصيراً ﴿مِن فَوْقِكُمْ﴾ من أعلى الوادي من جهة المشرق والإضافة إليهم لأدنى ملابسة، والجائي من ذلك بنو غطفان، ومن تابعهم من أهل نجد، وبنو قريظة، وبنو النضير ﴿وَمِنْ أَسفَلَ مِنكُمْ﴾ من أسفل الوادي من قبل المغرب، والجائي من ذلك قريش ومن شايعهم من الأحابيش، وبني كنانة، وأهل تهامة، وقيل: الجائي من فوق بنو قريظة، ومن أسفل قريش، وأسد، وغطفان، وسليم، وقيل: غير ذلك.

ويحتمل أن يكون من فوق ومن أسفل كناية عن الإحاطة من جميع الجوانب كأنه قيل: إذ جاؤوكم محيطين بكم كقوله تعالى: ﴿يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ [العنكبوت: ٥٥] ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ﴾ عطف على ما قبله داخل معه في حكم التذكير أي حين مالت الأبصار عن سننها وانحرفت عن مستوى نظرها حيرة ودهشة.

وقال الفراء: أي حين مالت عن كل شيء فلم تلتفت إلاَّ إلى عدوها ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ أي خافت خوفاً شديداً وفزعت فزعاً عظيماً لأنها تحركت عن موضعها وتوجهت إلى الحناجر لتخرج.

أخرج ابن أبي شيبة عن عكرمة أنه قال في الآية: إن القلوب لو تحركت وزالت خرجت نفسه ولكن إنما هو الفزع فالكلام على المبالغة، وقيل: القلب عند الغضب يندفع وعند لخوف يجتمع فيتقلص فيلتصق بالحنجرة وقد يفضي إلى أن يسد مخرج النفس فلا يقدر المرء أن يتنفس ويموت خوفاً، وقيل: إن الرئة تنتفخ من شدة الفزع والغضب والغم الشديد وإذا انتفخت ربت وارتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة، ومن ثم قيل للجبان: انتفخ سحره، وإلى حمل الكلام على الحقيقة ذهب قتادة.

أخرج عنه عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم أنه قال في الآية: أي شخصت عن مكانها فلولا أنه ضاق الحلقوم عنها أن تخرج لخرجت، وفي مسند الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال: قلنا يا رسول الله هل من شيء نقوله فقد بلغت القلوب الحناجر؟ قال: نعم اللهم استر عورتنا وآمن روعاتنا قال: فضرب الله تعالى وجوه أعدائه بالريح فهزمهم الله تعالى بالريح، والخطاب في قوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا﴾ لمن يظهر الإيمان على الإطلاق، والظنون جمع الظن وهو مصدر شامل للقليل والكثير، وإنما جمع للدلالة على تعدد أنواعه، وقد جاء كذلك في أشعارهم أنشد أبو عمرو في كتاب الألحان:

إذا الجوزاء أردفت الثريا ... ظننت بآل فاطمة الظنونا

أي تظنون بالله تعالى أنواع الظنون المختلفة فيظن المخلصون منكم الثابتون في ساحة الإيمان أن ينجز سبحانه وعده في إعلاء دينه ونصرة نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم، ويعرب عن ذلك ما سيحكى عنهم من قولهم ﴿**هذا ما وعدنا الله ورسوله**﴾ الآية، أو أن يمتحنهم فيخافون أن تزل أقدامهم فلا يتحملون ما نزل بهم، وهذا لا ينافي الإخلاص والثبات كما لا يخفى، ويظن المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما حكي عنهم في قوله تعالى: ﴿**وإذ يقول المنافقون**﴾ الآية، وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن الحسن أنه قال في الآية: ظنون مختلفة ظن المنافقون أن محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه يستأصلون وأيقن المؤمنون أن ما وعد والله ورسوله حق وأنه سيظهر على الدين كله، وقد يختار أن الخطاب للمؤمنين ظاهراً وباطناً واختلاف ظنونهم بسبب أنهم يظنون تارة أن الله سبحانه سينصرهم على الكفار من غير أن يكون لهم استيلاء عليهم أولاً، وتارة أنه عزَّ وجلَّ سينصر الكفار عليه فيستولون على المدينة ثم ينصرهم عليهم بعد، وأخرى أنه سبحانه سينصر الكفار بحيث يستأصلونهم وتعود الجاهلية، أو بسبب أن بعضهم يظن هذا وبعضهم يظن ذاك وبعضهم يظن ذلك. ويلتزم أن الظن الذي لا يليق بحال المؤمن كان من خواطر النفس التي أوجبها الخوف الطبيعي ولم يمكن البشر دفعها ومثلها عفو، أو يقال: ظنونهم المختلفة هي ظن النصر بدون نيل العدو منهم شيئاً وظنه بعد النيل وظن الامتحان وعلى هذا لا يحتاج إلى الاعتذار، وأياً ما كان فالجملة معطوفة على ﴿**زاغت**﴾ وصيغه المضارع لاستحضار الصورة والدلالة على الاستمرار، وكتب ﴿**الظنونا**﴾ وكذا أمثاله من المنصوب المعرف بأل كالسبيلا والرسولا في المصحف بألف في آخره، فحذفها أبو عمرو وقفاً ووصلاً، وابن كثير، والكسائي وحفص يحذفونها وصلاً خاصة ويثبتها باقي السبعة في الحالين، واختار أبو عبيد، والحذاق أن يوقف على نحو هذه الكلمة بالألف ولا توصل فتحذف أو تثبت لأن حذفها مخالف لما اجتمعت عليه مصاحف الأمصار ولأن إثباتها في الوصل معدوم في لسان العرب نظمهم ونثرهم لا في اضطرار ولا في غيره، أما إثباتها في الوقف ففيه اتباع الرسم وموافقة لبعض مذاهب العرب لأنهم يثبتون هذه الألف في قوافي أشعارهم ومصاريعها ومن ذلك قوله: * أقلّي اللوم عاذل والعتابا*[1] والفواصل في الكلام كالمصاريع، وقال أبو علي: إن رؤوس الآي تشبه بالقوافي من حيث كانت مقاطع كما كانت القوافي مقاطع ﴿**هُنَالِكَ**﴾ ظرف مكان ويستعمل للزمان وقيل: إنه مجاز وهو أنسب هنا، وأياً ما كان فهو ظرف لما بعده لا لتظنون كما قيل أي في ذلك الزمان الهائل أو في ذلك المكان المدحض ﴿**ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ**﴾ أي اختبرهم الله تعالى، والكلام من باب التمثيل، والمراد عاملهم سبحانه وتعالى معاملة المختبر فظهر المخلص من المنافق والراسخ من المتزلزل، وابتلاؤهم على ما روي عن الضحاك بالجوع، وعلى ما روي عن مجاهد بشدة الحصار، على ما قيل بالصبر على الإيمان.

﴿**وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً**﴾ أي اضطربوا اضطراباً شديداً من شدة الفزع وكثرة الأعداء، وعن الضحاك «أنهم زلزلوا عن أماكنهم حتى لم يكن لهم إلاَّ موضع الخندق» وقيل: أي حركوا إلى الفتنة فعصموا. وقرأ أحمد بن موسى اللؤلؤي عن أبي عمرو «زلزلوا» بكسر الزاي قاله ابن خالويه، وقال الزمخشري: وعن أبي عمرو اشمام زاي زلزلوا وكأنه عنى اشمامها الكسر ووجه الكسر انه اتباع حركة الزاي الأولى لحركة الثانية ولم يعتد بالساكن كما لم يعتد به من قال منتن بكسر الميم اتباعاً لحركة التاء وهو اسم فاعل من أنتن. وقرأ الجحدري وعيسى «زلزلاً» بفتح الزاي، ومصدر فعلل

---

(١) في رواية ا هـ منه.

من المضاعف يجوز فيه الفتح والكسر نحو قلقل قلقالاً، وقد يراد بالمفتوح اسم الفاعل نحو صلصال بمعنى مصلصل، فإن كان من غير المضاعف فما سمع منه على فعلال مكسور الفاء نحو سرهفه سرهافاً ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ﴾ عطف على ﴿اذ زاغت﴾ وصيغة المضارع لما مر من الدلالة على استمرار القول واستحضار صورته.

﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ ظاهر العطف أنهم قوم لم يكونوا منافقين فقيل: هم قوم كان المنافقون يستميلونهم بإدخال الشبهة عليهم، وقيل: قوم كانوا ضعفاء الاعتقاد لقرب عهدهم بالإسلام، وجوز أن يكون المراد بهم المنافقون أنفسهم والعطف لتغاير الوصف كقوله: إلى الملك القرم وابن الهمام.

﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ من الظفر وإعلاء الدين ﴿إِلَّا غُرُوراً﴾ أي وعد غرور، وقيل: أي قولاً باطلاً وفي البحر أي أمراً يغرنا ويوقعنا فيما لا طاقة لنا به روي أن الصحابة بينما يحفرون الخندق عرضت لهم صخرة بيضاء مدورة شديدة جداً لا تدخل فيها المعاول فشكوا إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فأخذ المعول من سلمان رضي الله تعالى عنه فضربها ضربة دعها وبرقت منها برقة أضاء منها ما بين لابتي المدينة حتى لكأن مصباحاً في جوف ليل مظلم فكبر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وكبر المسلمون ثم ضربها الثانية فصدعها وبرقت منها برقة أضاء منها ما بين لابتيها فكبر عليه الصلاة والسلام وكبّر المسلمون ثم ضربها الثالثة فكسرها وبرقت برقة أضاء منها ما بين لابتيها فكبر صلى الله تعالى عليه وسلم وكبر المسلمون فسأل عن ذلك فقال عليه الصلاة والسلام: أضاء لي في الأولى قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب فأخبرني جبريل عليه السلام أن أمتي ظاهرة عليها وأضاء لي الثانية قصور الحمر من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب وأخبرني جبريل عليه السلام أن أمتي ظاهرة عليها وأضاء لي في الثالثة قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب وأخبرني جبريل عليه السلام أن أمتي ظاهر عليها فأبشروا بالنصر فاستبشر المسلمون وقال رجل من الأنصار يُدعى معتب بن قشير وكان منافقاً: أيعدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم أن يفتح لنا مدائن اليمن وبيض المدائن وقصور الروم وأحدنا لا يستطيع أن يقضي حاجته إلاَّ قتل هذا والله الغرور فأنزل الله تعالى في هذا ﴿وإذ يقول المنافقون﴾ إلخ.

وفي رواية قال المنافقون حين سمعوا ذلك ألا تعجبون يحدثكم ويعدكم ويمنيكم الباطل أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم وأنتم تحفرون الخندق ولا تستطيعون أن تبرزوا فأنزل الله تعالى قوله سبحانه ﴿إذ يقول المنافقون﴾ ووجه الجمع على القول بأن القائل واحد أن الباقين راضون بذلك قابلوه منه، والظاهر أن نسبة الوعد إلى الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة من المنافقين الذين لا يعتقدون اتصافه صلى الله تعالى عليه وسلم بالرسالة ولا أن الوعد وعد الله تعالى شأنه كانت من باب المماشاة أو الاستهزاء وإن كانت قد وقعت من غيرهم فهي بالتبعية لهم.

ويجوز أن يكون وقوع ما ذكر في الحكاية لا في كلامهم ويستأنس له بما وقع في بعض الآثار وبعضهم بحث عن إطلاق الرسول عليه صلى الله تعالى عليه وسلم فقال أنه في الحكاية لا في كلامهم كما يشهد بذلك ما روي عن معتب أو هو تقية لا استهزاء لأنه لا يصح بالنسبة لغير المنافقين فتأمل ولا تغفل ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ قال السدي: هم عبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه، وقال مقاتل: هم بنو سلمة، وقال أوس بن رومان هم أوس بن قيظي وأصحابه بنو حارثة وضمير ﴿منهم﴾ للمنافقين أو للجميع ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ﴾ هو اسم المدينة المنورة، وقال أبو عبيدة اسم بقعة وقعت المدينة في ناحية منها، وقيل: اسم أرضها وهو عليها ممنوع من الصرف للعلمية ووزن الفعل أو التأنيث ولا ينبغي تسمية المدينة بذلك أخرج أحمد، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن البراء بن عازب قال قال رسول الله صلى الله

تعالى عليه وسلم من سمى المدينة يثرب فليستغفر الله تعالى هي طابة هي طابة هي طابة وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن رسول الله عليه الصلاة والسلام لا تدعونها يثرب فإنها طيبة يعني المدينة ومن قال يثرب فليستغفر الله تعالى ثلاث مرات هي طيبة هي طيبة هي طيبة، وفي الحواشي الخفاجية أن تسميتها به مكروهة كراهة تنزيهية، وذكر في وجه ذلك أن هذا الاسم يشعر بالتثريب وهو اللوم والتعبير.

وقال الراغب: التثريب التقريع بالذنب والثرب شحمة رقيقة، ويثرب يصح أن يكون أصله من هذا الباب والياء تكون فيه زائدة انتهى، وقيل: يثرب اسم رجل من العمالقة وبه سميت المدينة وكان يقال لها أثرب أيضاً، ونقل الطبرسي عن الشريف المرتضى أن للمدينة أسماء منها يثرب وطيبة وطابة والدار والسكينة وجائزة والمجبورة والمحبة والمحبوبة والعذراء والمرحومة والقاصمة ويندّد انتهى، وكأن القائلين اختاروا يثرب من بين الأسماء مخالفة له صلى الله تعالى عليه وسلم لما علموا من كراهيته عليه الصلاة والسلام لهذا الاسم من بينها، وندائهم أهل المدينة بعنوان أهليتهم لها ترشيح لما بعد من الأمر بالرجوع إليها ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ أي لا مكان إقامة أو لا إقامة لكم أي لا ينبغي أو لا يمكن لكم الإقامة ها هنا.

وقال أبو جعفر، وشيبة، وأبو رجاء، والحسن، وقتادة، والنخعي، وعبد الله بن مسلم، وطلحة وأكثر السبعة «لا مَقام» بفتح الميم وهو يحتمل أيضاً المكان أي لا مكان قيام والمصدر أي لا قيام لكم، والمعنى على نحو ما تقدم ﴿فَارْجِعُوا﴾ أي إلى منازلكم بالمدينة ليكون ذلك أسلم لكم من القتل أو ليكون لكم عند هذه الأحزاب يد، قيل: ومرادهم أمرهم بالفرار على ما يشعر به ما بعد لكنهم عبروا عنه بالرجوع ترويجاً لمقالتهم وإيذاناً بأنه ليس من قبيل الفرار المذموم، وقيل: المعنى لا مقام لكم في دين محمد ﷺ فارجعوا إلى ما كنتم عليه من الشرك أو فارجعوا عما بايعتموه عليه وأسلموه إلى أعدائه عليه الصلاة والسلام، أو لا مقام لكم بعد اليوم في يثرب أو نواحيها لغلبة الأعداء فارجعوا كفاراً ليتسنى لكم المقام فيها لارتفاع العداوة حينئذ.

وقيل: يجوز أن يكونوا خافوا من قتل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم إياهم بعد غلبته عليه الصلاة والسلام حيث ظهر أنهم منافقون فقالوا: ﴿لا مقام لكم﴾ على معنى لا مقام لكم مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لأنه إن غلب قتلكم فارجعوا عما بايعتموه عليه وأسلموه عليه الصلاة والسلام أو فارجعوا عن الإسلام واتفقوا مع الأحزاب أو ليس لكم محل إقامة في الدنيا أصلاً إن بقيتم على ما أنتم عليه فارجعوا عما بايعتموه عليه عليه الصلاة والسلام إلى آخره، والأول أظهر وأنسب بما بعده، وبعض هذه الأوجه بعيد جداً كما لا يخفى.

﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ﴾ عطف على ﴿قالت﴾ وصيغة المضارع لما مرّ من استحضار الصورة، والمستأذن على ما روي عن ابن عباس، وجابر بن عبد الله بنو حارثة بن الحارث، قيل: أرسلوا أوس بن قيظي أحدهم للاستئذان، وقال السدي: جاء هو ورجل آخر منهم يدعى أبا عرابة بن أوس، وقيل: المستأذن بنو حارثة، وبنو سلمة استأذنوه عليه الصلاة والسلام في الرجوع ممتثلين بأمر أولئك القائلين يا أهل يثرب.

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ﴾ بدل من ﴿يستأذن﴾ أو حال من فاعله أو استئناف مبني على السؤال عن كيفية الاستئذان ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أي ذليلة الحيطان يخاف عليها السراق كما نقل عن السدي، وقال الراغب: أي متخرقة ممكنة لمن أرادها، وقال الكلبي: أي خالية من الرجال ضائعة، وقال قتادة: قاصية يخشى عليها العدو؛ وأصلها على ما قيل مصدر بمعنى الخلل ووصف بها مبالغة وتكون صفة للمؤنث والمذكر والمفرد وغيره كما هو شأن المصادر، وجوز أن تكون صفة مشبهة على أنها مخفف عورة بكسر الواو كما قرأ بذلك هنا وفيما بعد ابن عباس، وأبو

يعمر، وقتادة، وأبو رجاء، وأبو حيوة، وابن أبي عبلة، وأبو طالوت، وابن مقسم، وإسماعيل بن سليمان عن ابن كثير من عورت الدار إذا اختلت، قال ابن جني: صحة الواو على هذا شاذة والقياس قلبها الفاً فيقال عارة كما يقال كبش صاف ونعجة صافة ويوم راح ورجل مال والأصل صوف وصوفة وروح ومول، وتعقب بأن القياس إنما يقتضي القلب إذا وقع القلب في الفعل وعور هنا قد صحت عينه حملاً على أعور المشدد، ورجح كونها مصدراً وصف به للمبالغة بأنه الأنسب بمقام الاعتذار كما يفصح عنه تصدير مقالتهم بحرف التحقيق، لكن ينبغي أن يقال في قوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ إذا أجرى فيه هذا اللفظ كما أجرى فيما قبله أن المراد المبالغة في النفي على نحو ما قيل[1] قوله تعالى: ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾ [فصلت: ٤٦] والواو فيه للحال أي يقولون ذلك والحال أنها ليست كذلك ﴿إِن يُرِيدُونَ﴾ أي ما يريدون بالاستئذان ﴿إِلاَّ فراراً﴾ أي هرباً من القتال ونصرة المؤمنين قاله جماعة، قيل: فرار من الدين ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ﴾ أي البيوت كما هو الظاهر ﴿عَلَيْهِم﴾ أي على هؤلاء القائلين، وأسند الدخول إلى بيوتهم وأوقع عليهم لما أن المراد فرض دخولها وهم فيها لا فرض دخولها مطلقاً كما هو المفهوم لو لم يذكر الجار والمجرور ولا فرض الدخول عليهم مطلقاً كما هو المفهوم لو أسند الجار والمجرور وفاعل الدخول الداخل من أهل الفساد من كان أي لو دخل كل من أراد الدخول من أهل الدعارة والفساد بيوتهم وهم فيها ﴿مِنْ أَقْطَارِهَا﴾ جمع قطر بمعنى الناحية والجانب ويقال قتر بالتاء لغة فيه أي من جميع جوانبها وذلك بأن تكون مختلة بالكلية وهذا داخل في المفروض فلا يخالف قوله تعالى ﴿وما هي بعورة﴾ ﴿ثُمَّ سُئِلُوا﴾ أي طلب منهم من جهة طائفة أخرى عند تلك النازلة والرجفة الهائلة ﴿الْفِتْنَةَ﴾ أي القتال كما قال الضحاك ﴿لآتَوْهَا﴾ أي لأعطوها أولئك السائلين كأنه شبه الفتنة والمطلوب اتباعهم فيها بأمر نفيس يطلب منهم بذله ونزل إطاعتهم وابتاعهم بمنزلة بذل ما سألوه وإعطائه، وقرأ نافع، وابن كثير «لأتوها» بالقصر أي لفعلوها ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا﴾ أي بالفتنة، والباء للتعدية أي ما لبثوها وما أخروها ﴿إِلاَّ يَسيراً﴾ أي إلا تلبثاً يسيراً أو إلاَّ زماناً يسيراً وهو مقدار ما يأخذون فيه سلاحهم على ما قيل، وقيل: مقدار ما يجيبون السؤال فيه، وكلاهما عندي من باب التمثيل، والمراد أنهم لو سألهم غيرك القتال وهم في أشد حال وأعظم بلبال لأسرعوا جداً فضلاً عن التعلل باختلال البيوت مع سلامتها كما فعلوا الآن. والحاصل أن طلبهم الأذن في الرجوع ليس لاختلال بيوتهم بل لنفاقهم وكراهتهم نصرتك، وقال ابن عطية: المعنى ولو دخلت المدينة من أقطارها واشتد الحرب الحقيقي ثم سألوا الفتنة والحرب لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم لطاروا إليها ولم يتلبثوا في بيوتهم لحفظها إلاَّ يسيراً قيل قدر ما يأخذون سلاحهم انتهى، فضمير ﴿دخلت﴾ عنده عائد على المدينة وباء ﴿بهاء﴾ للظرفية كما هو ظاهر كلامه، وجوز أن تكون سببية والمعنى على تقدير مضاف أي ولم يتلبثوا بسبب حفظها، وقيل: يجوز أن تكون للملابسة أيضا، والضمير على كل تقدير للبيوت وفيه تفكيك الضمائر.

وعن الحسن، ومجاهد، وقتادة ﴿الفتنة﴾ الشرك، وفي معناه ما قيل: هي الردة والرجوع إلى إظهار الكفر، وجعل بعضهم ضميري ﴿دخلت﴾ ﴿بها﴾ للمدينة وزعم أن المعنى ولو دخلت المدينة عليهم من جميع جوانبها ثم سألوا الرجوع إلى إظهار الكفر والشرك لفعلوا وما لبثوا بالمدينة بعد إظهار كفرهم إلاَّ يسيراً فإن الله تعالى يهلكهم أو يخرجهم بالمؤمنين، وقيل: ضمير ﴿دخلت﴾ للبيوت أو للمدينة وضمير ﴿بها﴾ للفتنة بمعنى الشرك والباء للتعدية، والمعنى ولو دخلت عليهم ثم سئلوا الشرك لأشركوا وما أخروه إلاَّ يسيراً، وقريب منه قول قتادة أي لو دخلت عليهم ثم

(١) قوله ما قيل الخ كذا بخطه ولعل لفظة في ساقطة من قلمه.

سألوا الشرك لأعطوه طيبة به أنفسهم وما تحسبوا به إلاَّ يسيراً، وجوز أن تكون الباء لغير ذلك، وقيل: فاعل الدخول أولئك العساكر المتحزبة، والوجوه المحتملة في الآية كثيرة كما لا يخفى على من له أدنى تأمل. وما ذكرناه أولاً هو الأظهر فيما أرى. وقرأ الحسن «سولوا» بواو ساكنة بعد السين المضمومة قالوا: وهي من سال يسال كخاف يخاف لغة في سأل المهموز العين، وحكى أبو زيد هما يتساولان، وقال أبو حيان: ويجوز أن يكون أصلها الهمز لأنه يجوز أن يكون سولوا على قول من يقول في ضرب مبنياً للمفعول ضرب ثم سهل الهمزة بإبدالها واواً على قول من قال في بؤس بوس بابدال الهمزة واواً لضم ما قبلها. وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو، والأعمش «سيلوا» بكسر السين من غير همز نحو قيل، وقرأ مجاهد «سويلوا» واو ساكنة بعد السين المضمومة وياء مكسورة بدلاً من الهمزة ﴿**وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ من قَبْلُ لا يوَلُّونَ الأَدْبَارَ**﴾ هؤلاء هم الفريق المستأذنون وهم بنو حارثة عند الأكثرين. وقيل: هم بنو سلمة كانوا قد جبنوا يوم أحد ثم تابوا وعاهدوا يومئذ قبل يوم الخندق أن لا يفروا، وعن ابن عباس أنهم قوم عاهدوا بمكة ليلة العقبة أن يمنعوه ﷺ مما يمنعون منه أنفسهم، وقيل: أناس غابوا عن وقعة بدر فحزنوا على ما فاتهم مما أعطى أهل بدر من الكرامة فقالوا: لئن أشهدنا الله تعالى قتالاً لنقاتلن و ﴿**عاهد**﴾ أجرى مجرى اليمين لذلك تلقى بقوله تعالى: ﴿**لا يولون الأدبار**﴾ وجاء بصيغة الغيبة على المعنى ولو جاء كما لفظوا به لكان التركيب لا تولي الأدبار وتولية الإدبار كناية عن الفرار والانهزام فإن الفار يولي دبره من فر منه ﴿**وَكَانَ عَهْدُ اللَّه مَسْؤُولاً**﴾ عن الوفاء به مجازي عليه وذلك يوم القيامة، والتعبير بالماضي على ما في مجمع البيان لتحقق الوقوع، وقيل: أي كان عند الله تعالى مسؤولاً عن الوفاء به أو مسؤولاً مقتضى حتى يوفى به.

قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى
يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾
۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ
فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ
سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ
يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ
يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ
حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا
وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا
عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ
بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ

ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ
فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ
سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا
عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ
ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾

﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ﴾ أي لن ينفعكم ذلك ويدفع عنكم ما أبرم في الأزل عليكم من موت أحدكم حتف أنفه أو قتله بسيف ونحوه فإن المقدر كائن لا محالة ﴿وَإِذاً لاَّ تُمَتَّعُونَ إلاَّ قَلِيلاً﴾ أي وإن نفعكم الفرار بأن دفع عنكم ما أبرم عليكم فمتعتم لم يكن ذلك التمتيع إلا تمتيعاً قليلاً أو زماناً قليلاً.

وهذا من باب فرض المحال ولم يقل: ولو نفعكم اخراجاً للكلام مخرج المماشاة أو إذا نفعكم الفرار فمتعتم بالتأخير بأن كان ذلك معلقاً عند الله تعالى على الفرار مربوطاً به لم يكن التمتيع إلاَّ قليلاً فإن أيام الحياة وإن طالت قصيرة، وعمر تأكله ذرات الدقائق وإن كثر قليل، وقال بعض الأجلة: المعنى لا ينفعكم نفعاً دائماً أو تاماً في دفع الأمرين المذكورين الموت أو القتل بالكلية إذ لا بد لكل شخص من موت حتف أنفه أو قتل في وقت معين لا لأنه سبق به القضاء لأنه تابع للمقضى فلا يكون باعثاً عليه بل لأنه مقتضى ترتب الأسباب والمسببات بحسب جري العادة على مقتضى الحكمة فلا دلالة فيه على أن الفرار لا يغني شيئاً حتى يشكل بالنهي عن الإلقاء إلى التهلكة وبالأمر بالفرار عن المضار، وقوله تعالى: ﴿وإذاً لا تمتعون إلاَّ قليلاً﴾ يدل على أن في الفرار نفعاً في الجملة إذ المعنى لا تمتعون على تقدير الفرار إلاَّ متاعاً قليلاً، وفيه ما فيه فتأمل.

وذكر الزمخشري أن بعض المروانية مر على حائط مائل فأسرع فتليت له هذه الآية فقال: ذلك القليل نطلب وكأنه مال إلى الوجه الثاني أو إلى ما ذكره البعض في الآية؛ وجواب الشرط لأن محذوف لدلالة ما قبله عليه و ﴿إذن﴾ تقدمها ها هنا جرف عطف فيجوز فيها الإعمال والإهمال لكنه لم يقرأ هنا إلاَّ بالإهمال. وقرىء بالإعمال في قوله تعالى في سورة [الإسراء: ٧٦] ﴿وإذاً لا يلبثون خلافك﴾ وقرىء «لا يمتعون» بياء الغيبة.

﴿قُلْ مَن ذَا الذي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سَوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ استفهام في معنى النفي أي لا أحد يمنعكم من الله عزَّ وجلَّ وقدره جلَّ جلاله إن خيراً وإن شراً فجعلت الرحمة قرينة السوء في العصمة مع أنه لا عصمة إلاَّ من السوء لما في العصمة من معنى المنع، وجوز أن يكون في الكلام تقدير والأصل قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو يصيبكم بسوء إن أراد بكم رحمة فاختصر نظير قوله:

ورأيت زوجك في الوغى ... متقلداً سيفاً ورمحا

فإنه أراد وحاملاً أو ومعتقلاً رمحاً، ويجري نحو التوجيه السابق في الآية، وجوز الطيبي أن يكون المعنى من الذي يعصمكم من الله أراد بكم سوءاً أو من الذي يمنع رحمة الله منكم إن أراد بكم رحمة، وقرينة التقدير ما في

﴿يعصمكم﴾ من معنى المنع، واختير الأول لسلامته عن حذف حملة بلا ضرورة.

﴿وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُون الله وَلياً﴾ ينفعهم ﴿وَلا نَصيراً﴾ يدفع الضرر عنهم، والمراد الأولى فيجدوه الخ فهو كقوله: * ولا ترى الضب بها ينجحر * ا هـ وهو معطوف على ما قبله بحسب المعنى فكأنه قيل: لا عاصم لهم ولا ولي ولا نصير أو الجملة حالية.

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ منكُم﴾ أي المثبطين عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿وَالْقَائلِينَ لإِخْوَانهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ أي أقبلوا إلينا أو قربوا أنفسكم إلينا، قال ابن السائب: الآية في عبد الله بن أبي، ومعتب بن قشير، ومن رجع من المنافقين من الخندق إلى المدينة كانوا إذا جاءهم المنافق قالوا له: ويحك اجلس ولا تخرج ويكتبون إلى اخوانهم في العسكر أن ائتونا فإنَّا ننتظركم، وقال قتادة: هي في المنافقين كانوا يقولون لإخوانهم من ساكني المدينة من أنصار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: ما محمد عليه الصلاة والسلام وأصحابه إلاَّ أكلة رأس ولو كانوا لحماً لالتهمهم أبو سفيان وأصحابه فخلوهم.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال: انصرف رجل من عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوم الأحزاب إلى شقيقه فوجد عنده شواء ونبيذاً فقال له: أنت ها هنا ورسول الله عليه الصلاة والسلام بين الرماح والسيوف فقال: هلم إلي فقد أحيط بك وبصاحبك والذي يحلف به لا يستقبلها محمد أبداً فقال: كذبت والذي يحلف به لأخبرنه بأمرك فذهب ليخبره صلى الله تعالى عليه وسلم فوجد جبريل عليه السلام قد نزل بهذه الآية.

وقيل: هؤلاء اليهود كانوا يقولون لأهل المدينة: تعالوا إلينا وكونوا معنا، وكأن المراد من أهل المدينة المنافقون منهم المعلوم نفاقهم عند اليهود؛ و﴿قد﴾ للتحقيق أو للتقليل وهو باعتبار المتعلق، و﴿منكم﴾ بيان للمعوقين لا صلته كما أشير إليه، والمراد بالإخوة التشارك في الصفة وهو النفاق على القول الأول، والكفر بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم على القول الأخير، والصحبة والجوار وسكنى المدينة على القول الثاني وكذا على القول الثالث فإن ذلك يجامع الأخوة في النسب، وظاهر صيغة الجمع يقتضي أن الآية لم تنزل في ذينك الشقيقين وحدهما فلعلها نزلت فيهما وفي المنافقين القائلين ذلك والأنصار المخلصين المقول لهم، وجواز كونها نزلت في جماعة من الإخوان في النسب مجرد احتمال وإن كان له مستند سمعي فلتحمل الأخوة عليه على الآخوة في النسب ولا ضير، والقول بجميع الأقوال الأربعة المذكورة وحمل الأخوة على الأخوة في الدين والأُخوة في الصحبة والجوار والاخوة في النسب لا يخفى حاله، و﴿هلم﴾ عند أهل الحجاز يسوى فيه بين الواحد والجماعة، وأما عند تميم فيقال: هلم يا رجل وهلموا يا رجال، وهو عند بعض الأئمة صوت سمي به الفعل، واشتهر أنه يكون متعدياً كهلم شهداءكم بمعنى أحضروا أو قربوا ولازماً كهلم إلينا بناء على تفسيره بأقبلو إلينا؛ وأما على تفسيره بقربوا أنفسكم إلينا فالظاهر أنه متعد حذف مفعوله، وجوز كونه لازماً وهذا تفسير لحاصل المعنى، وفي البحر أن الذي عليه النحويون أن هلم ليس صوتاً وإنما هو مركب اختلف في أصل تركيبه فقيل: مركب من ها التي للتنبيه والمم بمعنى أقصد وأقبل وهو مذهب البصريين، وقيل: من هل وأم، والكلام على المختار من ذلك مبسوط في محله. ﴿وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ﴾ أي الحرب والقتال وأصل معناه الشدة ﴿إلاَّ قَليلاً﴾ أي إتياناً أو زماناً قليلاً فقد كانوا لا يأتون العسكر إلاَّ أن لا يجدوا بداً من اتيانه فيأتون ليرى الناس وجوههم فإذا غفلوا عنهم عادوا إلى بيوتهم، ويجوز أن يكون صفة مفعول مقدر كما كان صفة المصدر أو الزمان أي إلاَّ بأساً قليلاً على أنهم يعتذرون في البأس الكثير ولا يخرجون إلاَّ في القليل، وإتيان البأس على هذه الأوجه على

ظاهره، ويجوز أن يكون كناية عن القتال، والمعنى ولا يقاتلون إلاَّ قتالاً قليلاً كقوله تعالى ﴿وما قاتلوا إلاَّ قليلاً﴾ وقلته إما لقصر زمانه وإما لقلة غنائه، وأياً ما كان فالجملة حال من ﴿القائلين﴾ وقيل: يجوز أيضاً أن تكون عطف بيان على ﴿قد يعلم﴾ وهو كما ترى، وقيل: هي من مقول القول وضمير الجمع لأصحاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أي القائلين ذلك والقائلين لا يأتي أصحاب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم حرب الأحزاب ولا يقامونهم إلاَّ قليلاً، وهذا القول خلاف المتبادر وكأنه ذهب إليه من قال أن الآية في اليهود.

﴿أَشحةً عَلَيْكُمْ﴾ أي بخلاء عليكم بالنفقة والنصرة على ما روي عن مجاهد وقتادة، وقيل: بأنفسهم، وقيل: بالغنيمة عند القسم، وقيل: بكل ما فيه منفعة لكم وصوب هذا أبو حيان، وذهب الزمخشري إلى أن المعنى أضناء بكم يترفرفون عليكم كما يفعل الرجل بالذاب عنه المناضل دونه عند الخوف وذلك لأنهم يخافون على أنفسهم لو غلب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ومن معه من المؤمنين حيث لم يكن لهم من يمنع الأحزاب عنهم ولا من يحمي حوزتهم سواهم، وقيل: كانوا يفعلون ذلك رياء، والأكثرون ذهبوا إلى ما سمعت قبل وعدل إليه مختصرو كشافه أيضاً وذلك على ما قيل لأن ما ذهب إليه معنى ما في التفريع بعد فيحتاج إلى جعله تفسيراً، ورجحه بعض الأجلة على ما ذهب إليه الأكثر فقال: إنما اختاره ليطابق معنى ويقابل قوله وتعالى بعد: ﴿أشحة على الخير﴾ ولأن الاستعمال يقتضيه فإن الشح على الشيء هو أن يراد بقاؤه كما في الصحاح وأشار إليه بقوله: أضناء بكم، وما ذكره غيره لا يساعده الاستعمال انتهى.

قال الخفاجي: إن سلم ما ذكر من الاستعمال كان متعيناً وإلاَّ فلكل وجهة كما لا يخفى على العارف بأساليب الكلام، و﴿أشحة﴾ جميع شحيح على غير القياس إذ قياس فعيل الوصف المضعف عينه ولامه أن يجمع على أفعلاء كضنين وأضناء وخليل وأخلاء فالقياس أشحاء وهو مسموع أيضاً، ونصبه عند الزجاج وأبي البقاء على الحال من فاعل ﴿يأتون﴾ على معنى تركوا الإتيان أشحة، وقال الفراء: على الذم، وقيل: على الحال من ضمير ﴿هلم إلينا﴾ أو من ضمير يعوقون مضمراً، ونقل أولهما عن الطبري وهو كما ترى، وقيل: من ﴿المعوقين﴾ أو من القائلين، ورداً بأن فيهما الفصل بين أبعاض الصلة، وتعقب بأن الفاصل من متعلقات الصلة وإنما يظهر الرد على كونه حالاً من ﴿المعوقين﴾ لأنه قد عطف على الموصول قبل تمام صلته.

وقرأ ابن أبي عبلة «أشحة» بالرفع على إضمار مبتدأ أي هم أشحة ﴿فإذا جَاء الْخَوْفُ﴾ من العدو وتوقع أن يستأصل أهل المدينة ﴿رَأَيْتَهُمْ ينظرون إلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ أي أحداقهم أو بأحداقهم على أن الباء للتعدية فيكون المعنى تدير أعينهم أحداقهم، والجملة في موضع الحال أي دائرة أعينهم من شدة الخوف.

﴿كَالَّذي يُغْشَى عَلَيْه منَ الْمَوْت﴾ صفة لمصدر ﴿ينظرون﴾ أو حال من فاعله أو لمصدر ﴿تدور﴾ أو حال من ﴿أعينهم﴾ أي ينظرون نظراً كائناً كنظر المغشي عليه من معالجة سكرات الموت حذراً وخوفاً ولواذاً بك أو ينظرون كائنين كالذي إلخ أو تدور أعينهم دوراناً كائناً كدوران عين الذي إلخ أو تدور أعينهم كائنة كعين الذي إلخ، وقيل: معنى الآية إذا جاء الخوف من القتال وظهر المسلمون على أعدائهم رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم في رؤيتهم وتجول وتضطرب رجاء أن يلوح لهم مضرب لأنهم يحضرون على نية شر لا على نية خير، والقول الأول هو الظاهر ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسنَة حدَاد﴾ أي آذوكم بالكلام وخاصموكم بألسنة سلطة ذربة قاله الفراء، وعن قتادة بسطوا ألسنتهم فيكم وقت قسمة الغنيمة يقولون: أعطونا أعطونا فلستم بأحق بها منا، وقال يزيد بن رومان: بسطوا ألسنتهم في أذاكم وسبكم وتنقيص ما أنتم عليه من الدين.

وقال بعض الأجلة: أصل السلق بسط العضو ومده للقهر سواء كان يداً أو لساناً فسلق اللسان بإعلان الطعن والذم وفسر السلق هنا بالضرب مجازاً كما قيل للذم طعن، والحامل عليه توصيف الألسنة بحداد، وجوز أن يشبه اللسان بالسيف ونحوه على طريق الاستعارة المكنية ويثبت له السلق بمعنى الضرب تخييلاً، وسأل نافع بن الأزرق ابن عباس رضي الله تعالى عنه السلق في الآية فقال: الطعن باللسان قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ فقال: نعم أما سمعت قول الأعشى:

فيهم الخصب والسماحة والنجدة   فيهم والخاطب المسلاق

وفسره الزجاج بالمخاطبة الشديدة قال: معنى سلقوكم خاطبوكم أشد مخاطبة وأبلغها في الغنيمة يقال: خطيب مسلاق وسلاق إذا كان بليغاً في خطبته، واعتبر بعضهم في السلق رفع الصوت وعلى ذلك جاء قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «ليس منا من سلق أو حلق» قال في النهاية أي رفع صوته عند المصيبة، وقيل: إن تصك المرأة وجهها وتمرشه، والأول أصح، وزعم بعضهم ان المعنى في الآية بسطوا ألسنتهم في مخادعتكم بما يرضيكم من القول على جهة المصانعة والمجاملة، ولا يخفى ما فيه، وقرأ ابن أبي عبلة «صلقوكم» بالصاد.

﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ أي بخلاء حريصين على مال الغنائم على ما روي عن قتادة، وقيل: على ما لهم الذي ينفقونه، وقال الجبائي: أي بخلاء بأن يتكلموا بكلام فيه خير، وذهب أبو حيان إلى عموم الخير. ونصب ﴿أشحة﴾ على الحال من فاعل ﴿سلقوكم﴾ أو على الذم، ويؤيده قراءة ابن أبي عبلة «أشحة» بالرفع لأنه عليه خبر مبتدأ محذوف أي هم ﴿أشحة﴾ والجملة مستأنفة لا حالية كما هو كذلك على الذم، وغاير بعضهم بين الشح هنا والشح فيما مرّ بأن ما هنا مقيد بالخبر المراد به مال الغنيمة وما مرَّ مقيد بمعاونة المؤمنين ونصرتهم أو بالإنفاق في سبيل الله تعالى فلا يتكرر هذا مع ما سبق، والزمخشري لما ذهب إلى ما ذهب هناك، قال هنا: فإذا ذهب الخوف وحيزت الغنائم ووقعت القسمة نقلوا ذلك الشح وتلك الضنة والرفرفة عليكم إلى الخير وهو المال والغنيمة ونسوا تلك الحالة الأولى واجترؤوا عليكم وضربوكم بألسنتكم إلخ، وقد سمعت ما قال بعض الأجلة في ذلك.

ويمكن أن يقال في الفرق بين هذا وما سبق: إن المراد مما سبق ذمهم بالبخل بكل ما فيه منفعة أو بنوع منه على المؤمنين ومن هذا ذمهم بالحرص على المال أو ما فيه منفعة مطلقاً من غير نظر إلى كون ذلك على المؤمنين أو غيرهم وهو أبلغ في ذمهم من الأول ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر من صفات السوء ﴿لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ بالإخلاص فإنهم المنافقون الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا في قلوبهم الكفر ﴿فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي أظهر بطلانها لأنها باطلة منذ عملت إذ صحتها مشروطة بالإيمان بالإخلاص وهم مبطنون الكفر وفي البحر أي لم يقبلها سبحانه فكانت كالمحبطة وعلى الوجهين المراد بالأعمال العبادات المأمور بها، وجوز أن يكون المراد بها ما عملوه نفاقاً وتصنعاً وإن لم يكن عبادة، والمعنى فأبطل عزَّ وجلَّ صنعهم ونفاقهم فلم يبق مستتبعاً لمنفعة دنيوية أصلاً.

وحمل بعضهم الأعمال على العبادات والإحباط على ظاهره بناء على ما روي عن ابن زيد عن أبيه قال نزلت الآية في رجل بدري نافق بعد بدر ووقع منه ما وقع فأحبط الله تعالى عمله في بدر وغيرها، وصيغة الجمع تبعد ذلك وكذا قوله تعالى: ﴿لم يؤمنوا﴾ فإن هذا كما هو ظاهر هذه الرواية قد آمن قبل، وأيضاً قوله عليه الصلاة والسلام: «لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» يأبى ذلك فالظاهر والله تعالى أعلم أن هذه الرواية غير صحيحة.

﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ أي الإحباط ﴿عَلَى اللهِ يَسِيراً﴾ أي هيناً لا يبالي به ولا يخاف سبحانه اعتراضاً عليه، وقيل: أي هيناً سهلاً عليه عزَّ وجلَّ، وتخصيص يسره بالذكر مع أن كل شيء عليه تعالى يسير لبيان أن اعمالهم بالإحباط المذكور لكمال تعاضد الحكم المقتضية له وعدم مانع عنه بالكلية، وقيل: ذلك إشارة إلى حالهم من الشح ونحوه، والمعنى كان ذلك الحال عليه عزَّ وجلَّ هيناً لا يبالي به ولا يجعله سبحانه سبباً لخذلان المؤمنين وليس بذاك، والمقصود مما ذكر التهديد والتخويف ﴿يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ أي هم من الجزع والدهشة لمزيد جبنهم وخوفهم بحيث هزم الله الأحزاب فرحلوا وهم يظنون أنهم لم يرحلوا، وقيل: المراد هؤلاء لجبنهم يحسبون الأحزاب لم ينهزموا وقد انهزموا فانصرفوا عن الخندق راجعين إلى المدينة لذلك، وهذا إن صحت فيه رواية فذاك وإلاَّ فالظاهر أنه مأخوذ من قوله تعالى: ﴿والقائلين لإخوانهم هلم إلينا﴾ لدلالته ظاهراً على أنهم خارجون عن معسكر رسول الله ﷺ يحثون إخوانهم على اللحاق بهم، وكون المراد هلموا إلى رأينا أو إلى مكاننا الذي هو في طرف لا يصل إليه السهم خلاف الظاهر، وكذا من قوله سبحانه ﴿ولو كانوا فيكم﴾ على ما هو الظاهر أيضاً إذ يبعد حمله على اتحاد المكان ولو في الخندق ﴿وَإِنْ يَأْتِ الأَحْزَابُ﴾ كرة ثانية ﴿يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ﴾ تمنوا أنهم خارجون إلى البدو وحاصلون مع الأعراب وهم وأهل العمود، وقرأ عبد الله، وابن عباس، وابن يعمر، وطلحة «بدى» جمع باد كغاز وغزى وليس بقياس في معتل اللام وقياسه فعلة كقاض وقضاة؛ وفي رواية أخرى عن ابن عباس «بدواً» فعلاً ماضياً، وفي رواية صاحب الاقليد «بدى» بوزن عدى ﴿يَسْأَلُونَ﴾ أي كل قادم من جانب المدينة ﴿عَنْ أَنْبَائِكُمْ﴾ عما جرى عليكم من الأحزاب يتعرفون أحوالكم بالاستخبار لا بالمشاهدة فرقاً وجبناً، واختيار البداوة ليكونوا سالمين من القتال، والجملة في موضع الحال من فاعل بادون، وحكى ابن عطية أن أبا عمرو، وعاصماً، والأعمش قرؤوا «يسلون» بغير همز نحر قوله تعالى ﴿سل بني إسرائيل﴾ [البقرة: ٢١١] ولم يعرف ذلك عن أبي عمرو وعاصم، ولعل ذلك في شاذهما ونقلها صاحب اللوامح عن الحسن والأعمش، وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما وقتادة والجحدري، والحسن، ويعقوب بخلاف عنهما «يسألون» بتشديد السين والمد وأصله يتساءلون فأدغمت التاء في السين أي يسأل بعضهم بعضاً أي يقول بعضهم لبعض: ماذا سمعت وماذا بلغك؟ أو يتساءلون الأعراب أي يسألونهم كما تقول: رأيت الهلال وتراءيته وأبصرت زيداً وتباصرته ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ﴾ أي في هذه الكرة المفروضة بقوله تعالى: ﴿وإن يأت الأحزاب أو لو كانوا فيكم﴾ في الكرة الأولى السابقة ولم يرجعوا إلى داخل المدينة وكانت محاربة بالسيوف ومبارزة الصفوف ﴿مَا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً﴾ رياء وسمعة وخوفاً من التعبير قال مقاتل والجياني والبعلبكي: هو قليل من حيث هو رياء ولو كان الله تعالى كان كثيراً ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ الظاهر أن الخطاب للمؤمنين الخلص المخاطبين من قبل في قوله تعالى: ﴿عن أبنائكم﴾ وقوله سبحانه: ﴿ولو كانوا فيكم﴾.

والإسوة بكسرة الهمزة كما قرأ الجمهور وبضمها كما قرأ عاصم الخصلة، وقال الراغب: الحالة التي يكون عليها الإنسان وهي اسم كان و ﴿لكم﴾ الخبر و ﴿في رسول الله﴾ متعلق بما تعلق به ﴿لكم﴾ أو في موضع من ﴿أسوة﴾ لأنه لو تأخر جاز أن يكون نعتاً لها أو متعلق بكان على مذهب من أجاز فيها ناقصة وفي أخواتها أن تعمل في الظرف، وجوز أن يكون في رسول الله الخبر ولكم تبيين أي أعني لكم أي والله لقد كان لكم في رسول الله خصلة حسنة من حقها أن يؤتسى ويقتدى بها كالثبات في الحرب ومقاساة الشدائد؛ ويجوز أن يراد بالأسوة القدوة بمعنى المقتدى على معنى هو صلى الله تعالى عليه وسلم في نفسه قدوة يحسن التأسي به، وفي الكلام صنعة التجريد وهو

أن ينتزع من ذي صفة آخر مثله فيها مبالغة في الاتصاف نحو لقيت منه أسداً وهو كما يكون بمعنى من يكون بمعنى في كقوله:

أراقت بنو مروان ظلماً دماءنا   وفي الله إن لم يعدلوا حكم عدل

وكقوله: في البيضة عشرون مناً حديداً أي هي نفسها هذا القدر من الحديد، والآية وإن سيقت للاقتداء به عليه الصلاة والسلام في أمر الحرب من الثبات ونحوه فهي عامة في كل أفعاله صلى الله تعالى عليه وسلم إذا لم يعلم أنها من خصوصياته كنكاح ما فوق أربع نسوة، أخرج ابن ماجة، وابن أبي حاتم عن حفص بن عاصم قال: قلت لعبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما رأيتك في السفر لا تصلي قبل الصلاة ولا بعدها فقال ياابن أخي صحبت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كذا وكذا فلم أره يصلي قبل الصلاة ولا بعدها ويقول الله تعالى: ﴿**لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة**﴾ وأخرج عبد الرزاق في المصنف عن قتادة قال: هم عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أن ينهي عن الحبرة فقال رجل: أليس قد رأيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يلبسها؟ قال عمر: بلى قال الرجل ألم يقل الله تعالى: ﴿**لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة**﴾ فترك ذلك عمر رضي الله تعالى عنه.

وأخرج الشيخان، والنسائي، وابن ماجة، وغيرهم عن ابن عمر أنه سأل عن رجل معتمر طاف بالبيت أيقع على امرأته قبل أن يطوف بين الصفا والمروة فقال قدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فطاف بالبيت وصلى خلف المقام ركعتين وسعى بين الصفا والمروة قرأ ﴿**لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة**﴾ وأخرج الشيخان، وغيرهما عن ابن عباس قال: إذ حرم الرجل عليه امرأته فهو يمين يكفرها، وقال: ﴿**لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة**﴾ إلى غير ذلك من الأخبار، وتمام الكلام في كتب الأصول.

﴿**لِمَنْ كَانَ يَرْجو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ**﴾ أي يؤمل الله تعالى وثوابه كما يرمز إليه أثر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وعليه يكون قد وضع ﴿**اليوم الآخر**﴾ بمعنى يوم القيامة موضع الثواب لأن ثوابه تعالى يقع فيه فهو على ما قال الطيبي من إطلاق اسم المحل على الحال، والكلام نحو قولك: أرجو زيداً وكرمه مما يكون ذكر المعطوف عليه فيه توطئة للمعطوف وهو المقصود وفيه من الحسن والبلاغة ما ليس في قولك: أرجو زيداً كرمه على البدلية: وقال صاحب الفرائد، يمكن أن يكون التقدير يرجو رحمة الله أو رضا الله وثواب اليوم الآخر ففي الكلام مضافان مقدران، وعن مقاتل أي يخشى الله تعالى ويخشى البعث الذي فيه جزاء الأعمال على أنه وضع اليوم الآخر موضع البعث لأنه يكون فيه، والرجاء عليه بمعنى الخوف، ومتعلق الرجاء بأي معنى كان أمر من جنس المعاني لأنه لا يتعلق بالذوات، وقدر بعضهم المضاف إلى الاسم الجليل لفظ أيام مراداً بها الوقائع فإن اليوم يطلق على ما يقع فيه من الحروب والحوادث واشتهر في هذا حتى صار بمنزلة الحقيقة وجعل قرينة هذا التقدير المعطوف وجعل العطف من عطف الخاص على العام، والظاهر أن الرجاء على هذا بمعنى الخوف، وجوز أن يكون الكلام عليه كقولك: أرجو زيداً وكرمه، وأن يكون الرجاء فيه بمعنى الأمل إن أريد ما في اليوم من النصر والثواب، وأن يكون بمعنى الخوف والأمل معاً بناءً على جواز استعمال اللفظ في معنييه أو في حقيقته ومجازه وإراده ما يقع فيه من الملائم والمنافر، وعندي أن تقدير أيام غير متبادر إلى الفهم، وفسر بعضهم ﴿**اليوم الآخر**﴾ بيوم السياق والمتبادر منه يوم القيامة و ﴿**من**﴾ على ما قيل بدل من ضمير الخطاب في ﴿**لكم**﴾ وأعيد العامل للتأكيد وهو بدل كل من كل والفائدة فيه الحث على التأسي، وإبدال الاسم الظاهر من ضمير المخاطب هذا الإبدال جائز عند الكوفيين، والأخفش، ويدل عليه قوله:

بكم قريش كفينا كل معضلة   وأم نهج الهدى من كان ضليلا

ومنع ذلك جمهور البصريين: ومن هنا قال صاحب التقريب، هو بدل اشتمال أو بدل بعض من كل، ولا يتسنى إلاّ على القول بأن الخطاب عام وهو مخالف للظاهر كما سمعت، ومع هذا يحتاج إلى تقدير منكم، وقال أبو البقاء: يجوز أن يكون لمن متعلقاً بحسنة أو بمحذوف وقع صفة لها لأنه وقع بعد نكرة، وقيل: يجوز أن يكون صفة لأسوة، وتعقب بأن المصدر الموصوف لا يعمل فيما بعد وصفه، وكذا تعدد الوصف بدون العطف لا يصح، وقد صرح بمنع ذلك الإمام الواحدي، ولا يخفى أن المسألة خلافية فلا تغفل.

﴿وَذَكَرَ اللهَ كثيراً﴾ أي ذكراً كثيراً وقرن سبحانه بالرجاء كثرة الذكر لأن المثابرة على كثرة ذكره عزّ وجلّ تؤدي إلى ملازمة الطاعة وبها يتحقق الائتساء برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ومما ينبغي أن يعلم أنه قد صرح بعض الأجلة كالنووي أن ذكر الله تعالى المعتبر شرعاً ما يكون في ضمن جملة مفيدة كسبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلاّ بالله ونحو ذلك وما لا يكون بمفرد لا يعد شرعاً ذكراً نحو الله أو قادر أو سميع أو بصير إذ لم يقدر هناك ما يصير به اللفظ كلاماً، والناس عن هذا غافلون، وأنهم أجمعوا على أن الذكر المتعبد بمعناه لا يثاب صاحبه ما لم يستحضر معناه فالمتلفظ بنحو سبحان الله ولا إله إلاّ الله إذا كان غافلاً عن المعنى غير ملاحظ ومستحضراً إياه لا يثاب إجماعاً، والناس أيضاً عن هذا غافلون فإنا لله وإنا إليه راجعون ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ﴾ بيان لما صدر عن خلص المؤمنين عند اشتباه الشؤون واختلاط الظنون بعد حكاية ما صدر عن غيرهم أي لما شاهدوهم حسبما وصفوا لهم ﴿قَالُوا هَذَا﴾ إشارة عند بعض المحققين إلى ما شاهدوه من غير أن يخطر ببالهم لفظ يدل عليه فضلاً عن تذكيره وتأنيثه فإنهما من أحكام اللفظ نعم يجوز التذكير باعتبار الخبر الذي هو ﴿ما وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُه﴾ فإن ذلك العنوان أول ما يخطر ببالهم عند المشاهدة، وعند الأكثر إشارة إلى الخطب والبلاء، ﴿وما﴾ موصولة عائدها محذوف وهو المفعول الثاني لوعد أي الذي وعدناه الله، وجوز أن تكون مصدرية أي هذا وعد الله تعالى ورسوله إيانا وأرادوا بذلك ما تضمنه قوله تعالى في سورة [البقرة: ٢١٤] ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء﴾ كما أخرج ذلك ابن جرير، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وأخرجه جماعة عن قتادة أيضاً ونزلت آية البقرة قبل الواقعة بحول على ما أخرجه جويبر عن الضحاك عن الحبر رضي الله تعالى عنه.

وفي البحر عن ابن عباس قال: «قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لأصحابه: إن الأحزاب سائرون إليكم تسعاً أو عشراً أي في آخر تسع ليال أو عشر أي من وقت الإخبار أو من غرة الشهر فلما رأوهم قد أقبلوا للميعاد قالوا ذلك فمرادهم بذلك ما وعد بهذا الخبر. وتعقبه ابن حجر بأنه لم يوجد في كتب الحديث، وقرىء بإمالة الراء «رأى» نحو الكسرة وفتح الهمزة وعدم إمالتها، وروى إمالتهما وإمالة الهمزة دون الراء على تفصيل فيه في النشر فليراجع ﴿وصدق الله ورسوله﴾ الظاهر أنه داخل في حيز القول فجوز أن يكون عطفاً على جملة ﴿هذا ما وعدنا﴾ إلخ أو على صلة الموصول وهو كما ترى، وأن يكون في موضع الحال بتقدير قد أو بدونه.

وأياً ما كان فالمراد ظهر صدق خبر الله تعالى ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم لأن الصدق محقق قبل ذلك والمترتب على رؤية الأحزاب ظهوره، وجوز أن يكون المعنى وصدق الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام في النصرة والثواب كما صدق الله تعالى ورسوله في البلاء، والإظهار مع سبق الذكر للتعظيم ولأنه لو أضمر وقيل وصدق جاء الجمع بين الله تعالى وغيره في ضمير واحد والأولى تركه أو قيل وصدق وهو ورسوله بقي الإظهار في مقام الإضمار فلا يندفع السؤال كذا قيل، وحديث الجمع قد مرّ ما فيه ﴿وما زادهم﴾ أي ما رأوا المفهوم من قوله تعالى:

﴿ولما رأى المؤمنون﴾ إلخ ورجوع الضمير إلى المصدر المفهوم من ﴿رأى﴾ يعكر عليه التذكير، وأرجعه بعضهم إلى الشهود المفهوم من ذلك، وجوز رجوعه إلى الوعد أو الخطب والبلاء المفهومين من السياق أو الإشارة.

وقرأ ابن أبي عبلة «وما زادوهم» بضمير الجمع العائد على الأحزاب ﴿إلاَّ إيماناً﴾ بالله تعالى وبمواعيده عزَّ وجلَّ ﴿وتسليماً﴾ لأوامره جلَّ شأنه وأقداره سبحانه، واستدل بالآية على جواز زيادة الإيمان ونقصه ومن أنكر قال: إن الزيادة فيما يؤمن به لا في نفس الإيمان والبحث في ذلك مشهور وفي كتب الكلام على أبسط وجه مسطور ﴿مِنَ المُؤمنينَ﴾ أي المؤمنين بالإخلاص مطلقاً لا الذين حكيت محاسنهم خاصة ﴿رِجَالٌ﴾ أي رجال ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا الله عَلَيْه﴾ من الثبات مع الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم والمقاتلة للأعداء، وقيل: من الطاعات مطلقاً ويدخل في ذلك ما ذكر دخولاً أولياً، وسبب النزول ظاهر في الأول.

أخرج الإمام أحمد، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وجماعة عن أنس قال: غاب عمي أنس بن النضر عن بدر فشق عليه وقال: أول مشهد شهده رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم غبت عنه لئن أراني الله تعالى مشهداً مع رسول الله ﷺ فيما بعد ليرين الله تعالى ما أصنع فشهد يوم أحد فاستقبله سعد بن معاذ رضي الله تعالى عنه فقال: يا أبا عمرو أين؟ قال: واها لريح الجنة أجدها دون أحد فقاتل حتى قتل فوجد في جسده بضع وثمانون من ضربة وطعنة ورمية ونزلت هذه الآية ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ وكانوا يرون أنها نزلت فيه وأصحابه. وفي الكشاف نذر رجال من الصحابة أنهم إذ لقوا حرباً مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا أي نذروا الثبات التام والقتال الذي يفضي بحسب العادة إلى نيل الشهادة وهم عثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وحمزة، ومصعب بن عمير، وغيرهم، وعن الكلبي، ومقاتل أن هؤلاء الرجال هم أهل العقبة السبعون أهل البيعة، وقال يزيد بن رومان: هم بنو حارثة والمعول عليه عندي ما قدمته، ومعنى ﴿صدقوا﴾ أتوا بالصدق من صدقني إذا قال الصدق، ومحل ﴿ما عاهدوا﴾ النصب أما على نزع الخافض وهو في وإيصال الفعل إليه كما في قولهم صدقني سن بكرة على رواية النصب أي في سن بكره والمفعول محذوف والأصل صدقوا الله فيما عاهدوه، وإما على أنه هو المفعول الصريح.

وجعل ما عاهدوا عليه بمنزلة شخص معاهد على طريق الاستعارة المكنية وجعله مصدوقاً تخييل وعلى الإسناد المجازي ﴿فمنهم مَنْ قَضَى نَحْبَهُ﴾ تفصيل لحال الصادقين وتقسيم لهم إلى قسمين، والنحب على ما قال الراغب النذر المحكوم بوجوبه يقال: قضى فلان نحبه أي وفى بنذره. وقال أبو حيان: النذر بالشيء الذي يلتزمه الإنسان ويعتقد الوفاء به قال الشاعر:

عشية فر الحارثيون بعد ما ... قضى نحبه في ملتقى القوم هوبر

وقال جرير:

بطخفة جالدنا الملوك وخيلنا ... عشية بسطام جرين على نحب

أي على أمر عظيم التزم القيام به، وشاع قضى فلان نحبه بمعنى مات إما على أن النحب مستعار استعارة تصريحية للموت لأنه كنذر لازم في رقبة كل إنسان والقرينة حالية والقضاء ترشيح، وأما على أن قضاء النحب مستعار له.

وجوز أن يراد بالنحب في الآية النذر وأن يراد الموت، وقال بعض الأجلة يجوز أن يكون مستعاراً لالتزام الموت شهيداً إما بتنزيل التزام أسبابه التي هي أفعال اختيارية للناذر منزلة التزام نفسه، وإما بتنزيل نفسه منزلة أسبابه وإيراد الالتزام

عليه وهو الأنسب بمقام المدح، وجعله استعارة للموت لأنه كنذر لازم مسخ للاستعارة.

وإذهاب برونقها وإخراج للنظم الكريم عن مقتضى المقام بالكلية انتهى، وفيه منع ظاهر كما لا يخفى على المنصف.

والذي يقتضيه ظاهر بعض الأخبار أن النحب هنا بمعنى النذر وقضاؤه أداؤه والوفاء به، فقد أخرج ابن أبي عاصم، والترمذي وحسنه، وابن جرير، الطبراني، وابن مردويه عن طلحة أن أصحاب النبي ﷺ قالوا لأعرابي جاهل: سله عمن قضى نحبه من هو؟ وكانوا لا يجترؤون على مسألته يوقرونه ويهابونه فسأله الأعرابي ثم إني اطلعت من باب المسجد فقال: أين السائل عمن قضى نحبه؟ قال الأعرابي: إن قال هذا ممن قضى نحبه، وأخرج ابن منده، وابن عساكر عن أسماء بنت أبي بكر قالت: دخل طلحة بن عبيد الله على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقال: يا طلحة أنت ممن قضى نحبه، وأخرج الحاكم عن عائشة نحوه.

وأخرج الترمذي وغيره عن معاوية أنه قال: سمعت رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول: طلحة ممن قضى نحبه، وكأن علياً كرم الله وجهه عنى مدحه بذلك في قوله وقد قيل له حدثنا عن طلحة: ذاك امرؤ نزل فيه آية من كتاب الله ﴿**فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر**﴾ وقد أخرج ذلك عنه كرم الله تعالى وجهه أبو الشيخ، وابن عساكر؛ وكان رضي الله تعالى عنه قد ثبت يوم أحد حتى أصيبت يده، وإلى حمل النحب على حقيقته ذهب مجاهد فالمعنى منهم وفى بعهده وأدّى نذره ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي وبعضهم ﴿مَّن يَنتَظِرُ﴾ يوماً فيه جهاد فيقضي نحبه ويؤدي نذره ويفي بعهده، ومن حمل ما عاهدوا الله تعالى على العموم وأبقى النحب على حقيقته قال: المعنى منهم من وفى بعهود الإسلام وما يلزم من الطاعات ومنهم من ينتظر الحصول في أعلى مراتب الإيمان والصلاح، واستشكل إبقاء النحب على حقيقته لأن وفاء النذر عين صدق العهد فيكون مآل المعنى من المؤمنين رجال عاهدوا الله تعالى وصدقوا أي فعلوا ووفوا بما عاهدوا الله تعالى عليه فمنهم من فعل ووفى بما عاهد، وفيه تقسيم الشيء إلى نفسه، ويشكل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿**ومنهم من ينتظر**﴾ لأن المنتظر غير وافٍ فكيف يجعل قسماً من الذين صدقوا أي وفوا، وأجيب بأن المراد بالمصدق في الآية مطابقة النسبة الكلامية للنسبة الخارجة وهذا الكلام المتضمن لهذه النسبة هو ما اقتضاه عهدهم على الثبات من نحو قولهم: لئن أرانا الله مشهداً مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لنثبتن ولنقاتلن، واتصاف الخبر بالصدق، وكذا المخبر به لا يقتضي أكثر من مطابقة نسبته للواقع في أحد الأزمنة فنجو يقوم زيد صادق وكذا المخبر به وقت الأخبار به وإن كان وقوع القيام بعد ألف سنة مثلاً، وكذا نحو إن كانت الشمس طالعة فالنهار موجود صادق وإن كان التكلم به ليلاً فهؤلاء الرجال لما أخبروا عن أنفسهم إنهم أن أراهم الله تعالى مشهداً مع رسوله عليه الصلاة والسلام ثبتوا وقاتلوا وعلم سبحانه أن هذا مطابق للواقع أخبر تعالى عنهم بأنهم صدقوا ثم قسمهم عزَّ وجلَّ إلى قسمين قسم أدّى ما أخبر عن نفسه أنه يؤديه وقسم ينتظر وقتاً يؤديه فيه، ولا يتصف هذا القسم بالكذب إلاَّ إذا مات وقد أراه الله تعالى ذلك ولم يؤدِ، ومن أخبر الله تعالى عنهم بالصدق ما ماتوا حتى أدوا فلا إشكال. نعم الإشكال على تقدير أن يراد بالصدق فيما عاهدوا تحقيق العهد فيما أظهروه من أفعالهم كما فسره الراغب ويراد من قضاء النحب وفاء النذر أو العهد كما لا يخفي، وقيل: المراد بصدقهم المذكور مطابقة ما في ألسنتهم لما في قلوبهم على خلاف المنافقين الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم. ولا إشكال في التقسيم حينئذ، وقيل: الصدق بالمعنى المشهور بين الجمهور إلاَّ أن المراد بصدقوا يصدقون، وعبر عن المضارع بالماضي لتحقق الوقوع، وكلا القولين كما ترى، وعن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله تعالى: ﴿**قضى نحبه**﴾ فقال: أجله الذي قدر له

فقال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم أما سمعت قول لبيد:

ألا تسألان المرء ماذا يحاول ... أنحب فيقضي أم ضلال وباطل

وأخرج جماعة عنه أنه فسر ذلك بالموت، وروي نحوه عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، وعليه لا مانع من أن يراد بصدقوا ما عاهدوا الله عليه كما ذكر عن الراغب حققوا العهد فيما أظهروه من أفعالهم، فيكون المعنى من المؤمنين رجال عاهدوا الله تعالى على الثبات والقتال إذ لقوا حرباً مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وحققوا ذلك وثبتوا فمنهم من مات ومن منهم من ينتظر الموت، والذي يقتضيه السياق أن المراد قضى نحبه ثابتاً بأن يكون قد استشهد كأنس بن النضر، ومعصب بن عمير، ويحتمل أن يراد ما أعم من ذلك فيدخل من مات بعد الثبات حتف أنفه قبل نزول الآية إن كان هنالك من هو كذلك، وعدوا ممن ينتظر عثمان وطلحة وأول ما ورد في طلحة من أنه ممن قضى نحبه بأن المراد أنه في حكم من استشهد، وأوجبوا ذلك فيما أخرج سعيد بن منصور، وأبو يعلى، وابن المنذر، وأبو نعيم وابن مردويه عن عائشة أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «من سره أن ينظر إلى رجل يمشي على الأرض قد قضى نحبه فلينظر إلى طلحة» وأخرج ابن مردويه من حديث جابر بن عبد الله مثله.

وفي إرشاد العقل السليم عن عائشة بلفظ «من سره أن ينظر إلى شهيد يمشي في الأرض، وقد قضى نحبه فلينظر إلى طلحة» وفي مجمع البيان عن أبي إسحاق عن علي كرم الله تعالى وجهه أنه قال: نزلت فينا ﴿**رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه**﴾ الآية وإنا والله المنتظر، وفي وصفهم بالانتظار المنبيء عن الرغبة في المنتظر شهادة حقة بكمال اشتياقهم إلى الشهادة، وقيل: إلى الموت مطلقاً حباً للقاء الله تعالى ورغبة فيما عنده عزَّ وجلَّ ﴿**وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً**﴾ عطف على ﴿**صدقوا**﴾ وفاعله فاعله أي وما بدلوا عهدهم وما غيروه تبديلاً ما لا أصلاً ولا وصفاً بل ثبتوا عليه راغبين فيه مراعين لحقوقه على أحسن ما يكون، أما الذين قضوا فظاهر، وأما الباقون فيشهد به انتظارهم أصدق شهادة، وتعميم عدم التبديل للفريق الأول مع ظهور حالهم للإيذان بمساواة الفريق الثاني لهم في الحكم، وجوز أن يكون ضمير ﴿**بدلوا**﴾ للمنتظرين خاصة بناء على أن المحتاج إلى البيان حالهم، وفي الكلام تعريض بمن بدل من المنافقين حيث ولوا الأدبار وكانوا عاهدوا لا يولون الأدبار فكأنه قيل: وما بدلوا تبديلاً كما بدل المنافقون فتأمل جميع ذاك والله تعالى يتولى هداك ﴿**لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ**﴾ أي الذين صدقوا ما عدوا الله تعالى عليه ﴿**بِصِدْقِهِمْ**﴾ أي بسبب صدقهم، وصرح بذلك مع أنه يقتضيه تعليق الحكم بالمشتق اعتناء بأمر الصدق، ويكتفي بما يقتضيه التعليق في قوله تعالى: ﴿**وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ**﴾ لأنه الأصل ولا داعي إلى خلافه، والمراد ويعذب المنافقين بنفاقهم ﴿**إِن شَاءَ**﴾ أي تعذيبهم ﴿**أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ**﴾ أي فلا يعذبهم بل يرحمهم سبحانه إن شاء عزَّ وجلَّ كذا قيل: وظاهره أن كلاً من التعذيب والرحمة للمنافقين يوم القيامة ولو ماتوا على النفاق معلق بمشيئته تعالى. واستشكل بأن النفاق أقبح الكفر كما يؤذن به قوله تعالى ﴿ إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ﴾ [النساء: ١٤٥] وقد أخبر عزَّ وجلَّ أنه سبحانه يعذب الكفرة مطلقاً حتماً لا محالة فكيف هذا التعليق وأجيب بأنه لا إشكال فإن الله جلَّ جلاله لا يجب عليه شيء والتعليق لذلك فهو جلَّ شأنه إن شاء عذب المنافق وإن شاء رحمه لكن المتحقق أنه تبارك وتعالى شاء تعذيبه ولم يشأ رحمته فكأنه قيل: إن شاء يعذب المنافقين في الآخرة لكنه سبحانه شاء تعذيبهم فيها أو يتوب عليهم إن شاء لكنه جلَّ وعلا لم يشأ، ورفع مقدم الشرطية الثانية في مثل هذه القضية ينتج رفع التالي، وإنما لم تقيد مجازاة الصادقين بالمشيئة كما قيد تعذيب المنافقين والتوبة عليهم بها مع أنه تعالى إن شاء يجزي الصادقين وإن شاء لم يجزهم لمكان نفي وجوب شيء عليه تعالى لمجموع أمرين هما تحقق مشيئة المجازاة وكون الرحمة مقصودة بالذات بخلاف العذاب، وكأنه سبحانه

لهذا الأخير لم يقل ليثيب أو لينعم وقال سبحانه في المقابل: ﴿ويعذب﴾ وقال بعض الأجلة: إن التوبة عليهم مشروطة بتوبتهم ومعنى توبته تعالى على العباد قبول توبتهم فكأنه قيل: أو يقبل توبتهم إن تابوا، وحذف الشرط لظهور استلزام المذكور له، ويجوز أن تفسر توبته تعالى عليهم بتوفيقه تعالى إياهم للتوبة إليه سبحانه، وكلا هذين المعنيين لتوبته تعالى وارد كما في القاموس، وأياً ما كان فالأمر معلق بالمشيئة ضرورة أنه لا يجب عليه سبحانه قبول التوبة ولا التوفيق لها، والمراد من تعليق تعذيب المنافقين بالمشيئة أنه تعالى أن شاء عذبهم بإبقائه منافقين وإن شاء سبحانه لم يعذبهم بأن يسلب عنهم وصف النفاق بالتوفيق إلى الإخلاص في الإيمان. وقال ابن عطية: تعذيب المنافقين ثمرة إقامتهم على النفاق وموتهم عليه والتوبة موازنة لتلك الأقامة وثمرتها تركهم بلا عذاب فهناك أمران إقامة على النفاق، وتوبة منه وعنهما ثمرتان تعذيب ورحمة فذكر تعالى على جهة الإيجار واحدة من هاتين وواحدة من هاتين ودل ما ذكر على ما ترك ذكره، ويدلك على أن معنى قوله تعالى ﴿ليعذب﴾ ليديم على النفاق قوله سبحانه: ﴿إن شاء﴾ ومعادلته بالتوبة وحرف ﴿أو﴾ انتهى، وأراد بذلك حل الإشكال، وكأن ما ذكره يؤول إلى أن التقدير ليقيموا على النفاق فيموتوا عليه إن شاء فيعذبهم أو يتوب عليهم فيرحمهم فحذف سبب التعذيب وأثبت المسبب وهو التعذيب وأثبت سبب الرحمة والغفران وحذف المسبب وهو الرحمة والغفران وذلك من قبيل الاحتباك، قال في البحر: وهذا من الإيجاز الحسن، وقال السدي: المعنى ويعذب المنافقين إن شاء أن يميتهم على نفاقهم أو يتوب عليهم بنقلهم من النفاق إلى الإيمان، وكأنه جعل مفعول المشيئة الإماتة على النفقة دون التعذيب كما هو الظاهر لما سمعت من استشكال تعليق تعذيبهم بالمشيئة مع أنه متحتم، وقيل لذلك أيضاً: إن المراد يعذبهم في الدنيا إن شاء أو يتوب عليهم فلا يعذبهم فيها، وحكي هذا عن الجبائي والكلام عليه في غاية الظهور، وقد يقال: المراد بالمنافقين الجماعة المخصوصون القائلون ﴿ما وعدنا الله ورسوله إلاّ غروراً﴾ [الأحزاب: ١٢] على أن ذلك كالاسم لهم فلا يلاحظ فيه مبدأ الاشتقاق ولا يجعل علة للحكم بل العلة له ما يفهم من سياق الكلام فيكون المعلق بالمشيئة تعذيب أناس مخصوصين ويكون المعنى يعذب فلاناً وفلاناً مثلاً إن شاء بأن يميتهم سبحانه مصرين على ما هم عليه مما يقتضي التعذيب أو يتوب عليهم بأن يوفقهم للتوبة فيرحمهم، ويجوز أن يراد بالصادقين نحو هذا وحينئذ يكون قوله سبحانه: ﴿بصدقهم﴾ تصريحاً بما يفهم من السياق، ويفهم من كلام شيخ الإسلام أن ذكر الصدق وحده من باب الاكتفاء حيث قال في معنى الآية: ليجزي الله الصادقين بما صدر عنهم من الأقوال والوفاء قولاً وفعلاً ويعذب المنافقين بما صدر عنهم من الأعمال والأقوال المحكية، قيل: ولم يقل في جانب المنافقين بنفاقهم لقوله سبحانه: ﴿أو يتوب﴾ إلخ فإنه يستدعي فعلاً خاصاً بهم فتأمل، والظاهر أن اللام في ﴿ليجزي﴾ للتعليل، والكلام عند كثير تعليل للمنطوق من نفي التبديل عن الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه والمعرض به من إثبات التعريض لمن سواهم من المنافقين فإن الكلام على ما سمعت في قوة وما بدلوا تبديلاً كما بدّل المنافقون فقوله: ﴿ليجزيَ﴾ و ﴿يعذب﴾ متعلق بالمنفي والمثبت على اللف والنشر التقديري، وجعل تبديل المنافقين علة للتعذيب مبني على تشبيه المنافقين بالقاصدين عاقبة السوء على نهج الاستعارة المكنية والقرينة إثبات معنى التعليل، وقيل: إن اللام للعلة حقيقة بالنظر إلى المنطوق ومجازاً بالنظر إلى المعرض به ويكون من باب الجمع بين الحقيقة والمجاز وقد جوزه من جوزه.

وقيل: لا يبعد جعل ﴿ليجزي﴾ إلخ تعليلاً للمنطوق المقيد بالمعرض به فكأنه قيل: ما بدلوا كغيرهم ليجزيهم بصدقهم ويعذب غيرهم إن لم يتب، وأنه يظهر بحسن صنيعهم قبح غيره، وبضدها تتبين الأشياء، وقيل: تعليل لصدقوا وحكي ذلك عن الزجاج، وقيل: لما يفهم من قوله تعالى: ﴿وما زادهم إلاّ إيماناً وتسليماً﴾ وقيل: لما

يستفاد من قوله تعالى: ﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب﴾ كأنه قيل: ابتلاهم الله تعالى برؤية ذلك الخطب ليجزي الآية، واختاره الطيبي قائلاً: إنه طريق أسهل مأخذاً وأبعد عن التعسف وأقرب إلى المقصود من جعله تعليلاً للمنطوق والمعرض به، واختار شيخ الإسلام كونه متعلقاً بمحذوف والكلام مستأنف مسوق بطريق الفذلكة لبيان ما هو داع إلى وقوع ما حكي من الأقوال والأفعال على التفصيل وغاية كما في قوله تعالى: ﴿ليسأل الصادقين عن صدقهم﴾ [الأحزاب: ٨] كأنه قيل: وقع جميع ما وقع ليجزي الله إلخ، وهو عندي حسن وإن كان فيه حذف فتأمل ذاك والله تعالى يتولى هداك ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ أي لمن تاب، وهذا اعتراض فيه بعث إلى التوبة.

وقوله سبحانه: ﴿وَرَدَّ اللهُ﴾ إلخ رجوع إلى حكاية بقية القصة وتفصيل لتتمة النعمة المشار إليها إجمالاً بقوله تعالى: ﴿فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها﴾ [الأحزاب: ٩] وهو معطوف على ﴿أرسلنا﴾ وقد وسط بينهما بيان كون ما نزل بهم واقعة طامة تحيرت به العقول والأفهام وداهية تحاكت فيها الركب وزلت الأقدام، وتفصيل ما صدر عن فريقي أهل الإيمان وأهل الكفر والنفاق من الأحوال والأقوال لإظهار عظم النعمة وإبانة خطرها الجليل ببيان وصولها إليهم عند غاية احتياجهم إليها أي فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها ورددنا بذلك ﴿الَّذين كَفَروا﴾ والالتفات إلى الاسم الجليل لتربية المهابة وإدخال الروعة، وجوز شيخ الإسلام ولعل صنيعه يشير إلى أولويته حيث بدأ به كونه معطوفاً على فاعلي المقدر قبل: ﴿ليجزي الله﴾ كأنه قيل إثر حكاية الأمور المذكورة وقع ما وقع من الحوادث ورد الله الذين كفروا وقيل هو معطوف من حيث المعنى على قوله تعالى ﴿ليجزي﴾ كأنه قيل فكان عاقبة الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه أن جزاهم الله تعالى بصدقهم ورد أعدائهم وهذا الرد من جملة جزائهم على صدقهم وهو كما ترى، والمراد بالذين كفروا الأحزاب على ما روي غير واحد عن مجاهد، والظاهر أنه عنى المشركين واليهود الذين تحزبوا.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي أنه فسر ذلك بأبي سفيان، وأصحابه، ولعله الأولى، وعلى القولين المراد رد الله الذين كفروا من محل اجتماعهم حول المدينة وتحزبهم إلى مساكنهم ﴿بغَيْظهِمْ﴾ حال من الموصول لا من ضمير ﴿كفروا﴾ والباء للملابسة أي ملتبسين بغيظهم وهو أشد الغضب، وقوله تعالى: ﴿لم يَنَالوا خَيْراً﴾ حال من ذاك أيضاً أو من ضمير ﴿بغيظهم﴾ أي غير ظافرين بخير أصلاً، وفسر بعضهم الخير بالظفر بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم والمؤمنين، وإطلاق الخير عليه مبني على زعمهم، وفسره بعضهم بالمال كما في قوله تعالى: ﴿وإنه لحب الخير لشديد﴾ [العاديات: ٨] والأولى أن يراد به كل خير عندهم فالنكرة في سياق النفي تعم، وجوز أن يكون الجملة مستأنفة لبيان سبب غيظهم أو بدلاً ﴿وَكَفَى اللهُ المُؤْمِنينَ القِتَال﴾ أي وقاهم سبحانه ذلك، و ﴿كفى﴾ هذه تتعدى لاثنين، وقيل: هي بمعنى أغنى وتتعدى إلى مفعول واحد.

والكلام هنا على الحذف والإيصال والأصل وكفى الله المؤمنين عن القتال أي أغناهم سبحانه عنه ولا وجه له وهذه الكفاية كانت كما أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة بالريح والملائكة عليه السلام، وقيل: بقتل علي كرم الله تعالى وجهه عمرو بن عبدود.

وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، وابن عساكر عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه كان يقرأ هذا الحرف «وكفى الله المؤمنين القتال بعلي بن أبي طالب» وفي مجمع البيان هو المروي عن أبي عبد الله رضي الله تعالى عنه ولا يكاد يصح ذلك، والظاهر ما روي عن قتادة لمكان قوله تعالى: ﴿فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها﴾ [الأحزاب: ٩] وكأن المراد بالقتال الذي كفاهم الله تعالى إياه القتال على الوجه المعروف من تعبية الصفوف والرمي

بالسهام والمقارعة بالسيوف أو القتال الذي يقتضيه ذلك التحزب والاجتماع بحكم العادة.

وفي البحر ما هو ظاهر في أن المراد كفى الله المؤمنين مداومة القتال وعودته فإن قريشاً هزموا بقوة الله تعالى وعزته عزَّ وجلَّ وما غزوا المسلمين بعد ذلك وإلاَّ فقد وقع قتال في الجملة وقتل من المشركين على ما روي عن ابن إسحاق ثلاثة نفر من بني عبد الدار بن قصي منبه بن عثمان بن عبيد بن السباق بن عبد الدار أصابه سهم فمات منه بمكة، ومن بني مخزوم بن يقظة نوفل بن عبد الله بن المغيرة اقتحم الخندق فتورط فيه فقتل، ومن بني عامر بن لؤي ثم من بني مالك بن حسل عمرو بن عبد ود نازله علي كرم الله تعالى وجهه كما علمت فقتله.

وروي عن ابن شهاب أنه رضي الله تعالى عنه قتل يؤمئذ ابنه حسل أيضاً فيكون من قتل من المشركين أربعة واستشهد من المؤمنين بسبب هذه الغزوة سعد بن معاذ وأنس بن أويس بن عتيك وعبد الله بن سهل وهم من بني عبد الأشهل، والطفيل بن النعمان، وثعلبة بن عثمة وهما من بني جشم بن الخزرج من بني سلمة، وكعب بن زيد وهو من بني النجار ثم من بني دينار أصابه سهم غرب فقتله، قال ابن إسحاق: ولم يستشهد إلاَّ هؤلاء الستة رضي الله تعالى عنهم ﴿وَكَانَ اللهُ قَوِياً﴾ على إحداث كل ما يريد جل شأنه ﴿عَزِيزاً﴾ غالباً على كل شيء ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ﴾ أي عاونوا الأحزاب المردودة ﴿مِنْ أهل الكتاب﴾ وهم بنو قريظة عند الجمهور، وعن الحسن أنهم بنو النضير وعلى الأول المعول ﴿مِنْ صَيَاصِيهِمْ﴾ أي من حصونهم جمع صيصية وهي كل ما يمتنع به ويقال لقرن الثوار والظباء ولشوكة الديك التي في رجله كالقرن الصغير، وتطلق الصياصي على الشوك الذي للنساجين ويتخذ من حديد قاله أبو عبيدة وأنشد لدريد بن الصمة الجشمي:

نـظـرت إلـيـه والـرمـاح تـنـوشـه ... كوقع الصياصي في النسيج الممدد

وتطلق على الأصول أيضاً قال: أبو عبيدة إن العرب تقول جذ الله تعالى صئصئه أي أصله.

﴿وقذف في قلوبهم الرعب﴾ أي الخوف الشديد بحيث أسلموا فيهم للقتل وأهليهم وأولادهم للأسر حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وتَأسِرُونَ فَرِيقاً﴾ أي من غير أن يكون من جهتهم حراك فضلاً عن المخالفة والاستعصاء. وفي البحر أن قذف الرعب سبب لإنزالهم ولكن قدم المسبب لما أن السرور بإنزالهم أكثر والإخبار به أهم، وقدم مفعول ﴿تقتلون﴾ لأن القتل وقع على الرجال وكانوا مشهورين وكان الاعتناء بحالهم أهم ولم يكن في المأسورين هذا الاعتناء بل الاعتناء هناك بالأسر أشد، ولو قيل: وفريقاً تأسرون لربما ظن قبل سماع تأسرون أنه يقال بعد تهزمون: أو نحو ذلك، وقيل: قدم المفعول في الجملة الأولى لأن مساق الكلام لتفصيله وأخر في الثانية لمراعاة الفواصل، وقيل التقديم لذلك وأما التأخير فلئلا يفصل بين القتل وأخيه وهو الأسر فاصل، وقيل: غوير بين الجملتين في النظم لتغاير حال الفريقين في الواقع فقد قدم أحدهما فقتل وأخر الآخر فأسروا وقرأ ابن عامر والكسائي «الرُّعُب» بضم العين وقرأ أبو حيوة «تأسُرون» بضم السين، وقرأ اليماني «يأسرون» بياء الغيبة وقرأ ابن أنس عن ابن ذكوان بها فيه وفي يقتلون ولا يظهر لي وجه وجيه لتخصيص الاسم بصيغة الغيبة فتأمل، وتفصيل القصة على سبيل الاختصار إنه لما كانت صبيحة الليلة التي انهزم فيها الأحزاب أو ظهر يوم تلك الليلة على ما في بعض الروايات وقد رجع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم والمسلمون إلى داخل المدينة أتى جبريل عليه السلام معتجراً بعمامة استبرق على بغلة عليها رحالة عليها قطيفة من ديباج رسول الله ﷺ وهو عند زينب بنت جحش تغسل رأسه الشريف وقد غسلت شقه فقال: أوَقد وضعت السلاح يا رسول الله؟ قال: نعم، فقال: عفا الله تعالى عنك ما وضعت الملائكة عليهم السلام السلاح بعد وما رجعت إلاَّ الآن من طلب القوم وإن الله تعالى يأمرك بالمسير إلى بني قريظة وإني عامد إليهم فمزلزل

بهم حصونهم فأمر عليه الصلاة والسلام مؤذناً فأذن في الناس من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلاّ ببني قريظة واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم وقدم علي بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه برايته إليهم وابتدرها الناس فسار كرم الله تعالى وجهه حتى إذا دنا من الحصون سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فرجع حتى لقيه عليه الصلاة والسلام فقال: يا رسول الله لا عليك أن تدنو من هؤلاء الأخابث قال: لِمَ؟ أظنك سمعت لي منهم أذى قال: نعم يارسول الله قال لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً فلما دنا رسول الله ﷺ من حصونهم قال: يا إخوان القردة هل أخزاكم الله تعالى وأنزل بكم نقمته؟ قالوا: يا أبا القاسم ما كنت جهولاً وفي رواية فحاشا وكان عليه الصلاة والسلام قد مرّ بنفر من أصحابه بالصورين قبل أن يصل إليهم فقال: هل مرّ بكم أحد قالوا: يا رسول الله قد مرّ بنا دحية بن خليفة الكلبي على بغلة بيضاء عليها رحالة عليها قطيفة ديباج فقال عليه الصلاة والسلام: ذلك جبريل عليه السلام بعث إلى بني قريظة يزلزل بهم حصونهم ويقذف الرعب في قلوبهم ولما أتاهم ﷺ نزل على بئر من آبارها من ناحية أموالهم يقال لها بئر أنا وتلاحق الناس فأتى رجال من بعد العشاء الآخرة ولم يصلوا العصر لقول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لا يصلين أحد العصر إلاّ ببني قريظة وقد شغلهم ما لم يكن لهم منه بد في حربهم فلما أتوا صلوها بعد العشاء فما عابهم الله تعالى بذلك في كتابه ولا عنفهم رسوله عليه الصلاة والسلام.

وحاصرهم صلى الله تعالى عليه وسلم خمسة وعشرين ليلة، وقيل: إحدى وعشرين، وقيل: خمس عشرة وجهدهم الحصار وخافوا أشد الخوف وقد كان حي بن أخطب دخل معهم في حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان وفاء لكعب بن أسد بما عاهده عليه فلما أيقنوا بأن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم غير منصرف عنهم حتى يناجزهم قال لهم كعب: يا معشر يهود قد نزل بكم من الأمر ما ترون وإني عارض عليكم خلالاً فخذوا أيها شئتم قالوا: وما هي؟ قال: نتابع هذا الرجل ونصدقه فوالله لقد تبين لكم أنه نبي مرسل وأنه الذي تجدونه في كتابكم فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبداً ولا نستبدل به غيره قال فإذا أبيتم على هذه فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه رجالاً مصلتين بالسيوف لم نترك وراءنا ثقلاً حتى يحكم الله تعالى بيننا وبينهم فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلاً نخشى عليه وأن نظهر فلعمري لنتخذن النساء والأبناء قالوا: نقتل هؤلاء المساكين فما خير العيش بعدهم قال: فإن أبيتم على هذه فإن الليلة ليلة السبت وإنه عسى أن يكون محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه قد أمنونا فيها فأنزلوا لعلنا نصيب منهم غرة قالوا: نفسد سبتنا ونحدث فيه ما لم يحدث من كان قبلنا إلاّ من قد علمت فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ قال: فما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازماً ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله ﷺ أن ابعث إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر أخا بني عمرو بن عوف، وكانوا حلفاء الأوس نستشيره في أمرنا فأرسله عليه الصلاة والسلام إليهم فلما رأوه قام إليه الرجال وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه فرقّ لهم وقالوا له: يا أبا لبابة أترى أن ننزل على حكم محمد صلى الله تعالى عليه وسلم قال: نعم وأشار بيده إلى حلقه إنه الذبح فعرف أنه قد خان الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام فلم يرجع إلى رسول الله ﷺ وذهب إلى المدينة وربط نفسه بجذع في المسجد حتى نزلت توبته رضي الله تعالى عنه ثم إنه عليه الصلاة والسلام استنزلهم فتواثب الأوس فقالوا: يا رسول الله إنهم موالينا دون الخزرج وقد فعلت في موالي إخواننا بالأمس ما قد علمت وقد كان رسول الله ﷺ قبل بني قريظة حاصر بني قينقاع وقد كانوا حلفاء الخزرج فنزلوا على حكمه فسأله إياهم عبد الله بن أبي ابن سلول فوهبهم له فلما كلمته الأوس قال عليه الصلاة والسلام ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا: بلى قال: فذاك إلى سعد بن معاذ وكان رسول

الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد جعله في خيمة لامرأة من أسلم يقال لها رفيدة في مسجده كانت تداوي الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به صنيعة من المسلمين وقد كان رضي الله تعالى عنه قد أصيب يوم الخندق رماه رجل من قريش يقال له ابن العرقة بسهم فأصاب أكحله فقطعه فدعا الله تعالى فقال: اللهم لا تمتني حتى تقر عيني من قريظة، وروي أن بني قريظة هم اختاروا النزول على حكم سعد ورضي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك فأتاه قومه وهو في المسجد فحملوه على حمار وقد وطؤوا له بوسادة من آدم وكان رجلاً جسيماً جميلاً ثم أقبلوا معه إلى رسول الله ﷺ وهم يقولون: يا أبا عمرو أحسن في مواليك فإن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله تعالى لومة لائم فرجع بعض من كان معه من قومه إلى دار بني عبد الأشهل فنعى إليهم رجال بني قريظة قبل أن يصل إليهم سعد عن كلمته التي سمع منه فلما انتهى سعد إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام والمسلمين قال صلى الله تعالى عليه وسلم: «قوموا إلى سيدكم» فأما المهاجرون من قريش فقالوا: إنما أراد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الأنصار وأما الأنصار فيقولون: قد عم بها عليه الصلاة والسلام المسلمين فقاموا إليه فقالوا: يا أبا عمرو إن رسول الله تعالى عليه وسلم قد ولاّك أمر مواليك لتحكم فيهم فقال سعد: عليكم عهد الله تعالى وميثاقه أن الحكم فيهم لما حكمت؟ قالوا: نعم قال: وعلى من ها هنا في الناحية التي فيها رسول الله ﷺ وهو معرض برسول الله عليه الصلاة والسلام؟ فقال صلى الله تعالى عليه وسلم. نعم قال سعد: فإني أحكم فيهم أن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذراري والنساء فكبر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقال: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة فحبسهم رسول الله ﷺ في دار بنت الحارث امرأة من بني النجار ثم خرج إلى سوق المدينة التي هي سوقها اليوم فخندق بها خنادق ثم بعث إليهم فضرب أعناقهم في تلك الخنادق يخرج إليهم بها أرسالاً وفيهم عدو الله تعالى حيي بن أخطب وكعب بن أسد رأس القوم وهم ستمائة أو سبعمائة والمستكثر لهم يقول: كانوا بين الثمانمائة والتسعمائة وقد قالوا لكعب وهم يذهب بهم إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: أرسالاً يا كعب ما تراه يصنع بنا؟ قال: أفي كل موطن لا تعقلون أما ترون الداعي لا ينزع ومن ذهب منكم لا يرجع هو والله القتل فلم يزل ذلك الدأب حتى فرغ منهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وأتي بحيي بن أخطب عدو الله تعالى وعليه حلة تفاحية[1] قد شقها عليه من كل ناحية قدر أنملة أنملة لئلا يسلبها مجموعة يداه إلى عنقه بحبل فلما نظر إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال: أما والله ما لمت نفسي في عداوتك ولكنه من يخذل الله تعالى يخذل ثم أقبل على الناس فقال: أيها الناس إنه لا بأس بأمر الله تعالى كتاب وقدر وملحمة كتبت على بني إسرائيل ثم جلس فضربت عنقه فقال فيه جبل بن جدال التغلبي:

لعمرك ما لام ابن أخطب نفسه ... ولكنه من يخذل الله يخذل

لجاهد حتى أبلغ النفس عذرها ... وقلقل يبغي العز كل مقلقل

وروي أن ثابت بن قيس بن شماس رضي الله تعالى عنه استوهب من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الزبير بن باطا القرظي لأنه منَّ عليه في الجاهلية يوم بعاث فقال صلى الله تعالى عليه وسلم هو لك فأتاه فقال: إن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد وهب لي دمك فهو لك قال: شيخ كبير فما يصنع بالحياة ولا أهل له ولا ولد؟ فأتى ثابت رسول الله عليه الصلاة والسلام فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله امرأته وولده قال: هم لك فأتاه فقال

---

(١) قال ابن هشام تفاحية ضرب من الوشي ا هـ منه.

قد وهب لي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أهلك وولدك فهم لك قال أهل بيت بالحجاز لا مال لهم فما بقاؤهم على ذلك فأتى رسول الله عليه الصلاة والسلام فقال: ما له قال: هو لك فأتاه فقال: قد أعطاني رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مالك فهو لك فقال أي ثابت: ما فعل الذي كان وجهه مرآة صينية يتمرأ فيها عذارى الحي كعب بن أسد؟ قال: قتل قال: فما فعل مقدمتنا إذا شددنا وحاميتنا إذا فررنا غزال بن شموال؟ قال: قتل قال: فما فعل المجلسان؟ يعني بني كعب بن قريظة وبني عمرو بن قريظة قال: قتلوا قال: فإني أسألك يا ثابت بيدي عندك ألا ألحقني بالقوم فوالله ما في العيش بعد هؤلاء من خير فما أنا بصابر لله تعالى قتلة ذكر ناصح حتى ألقى الأحبة فقدمه ثابت فضرب عنقه فلما بلغ أبا بكر رضي الله تعالى عنه قوله: ألقى الأحبة قال: يلقاهم والله في جهنم خالدين فيها مخلدين، واستوهبت سلمى بنت أقيس أم المنذر أخت سليط بن قيس وكانت إحدى خالات رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد صلت معه القبلتين وبايعته مبايعة النساء رفاعة بن شموال القرظي وقالت: بأبي أنت وأمي يا نبي الله هب لي رفاعة فإنه زعم أنه سيصل ويأكل لحم الجمل فوهبه عليه الصلاة والسلام لها فاستحيته. وقتل منه كل من أنبت من الذكور، وأما النساء فلم يقتل منهم إلا امرأة يقال لها لبابة زوجة الحكم القرظي وكانت قد طرحت الرحى على خلاد بن سويد فقتلته. اخرج ابن إسحاق عن عروة بن الزبير عن عائشة قالت: والله ان هذه الامرأة لعندي تحدث معي وتضحك ظهراً وبطناً ورسول الله ﷺ يقتل رجالها بالسيوف إذ هتف هاتف باسمها أين فلانة قالت: أنا والله قلت لها: ويلك ما لك؟ قالت: اقتل قلت: ولم؟ قالت: لحدث أحدثته فانطلق بها فضربت عنقها فكانت عائشة رضي الله تعالى عنها تقول: فوالله ما أنسى عجباً منها طيب نفسها وكثرة ضحكها وقد عرفت أنها تقتل، ثم إن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قسم أموالهم ونساءهم وأبناءهم على المسلمين، وأعلم في ذلك اليوم سهمان الخيل وسهمان الرجال، وأخرج منها الخمس وكان للفرس سهمان وللفارس سهم وللراجل الذي ليس له فرس سهم، وكانت الخيل في تلك الغزوة ستة وثلاثين فرساً وهو أول فيء وقعت فيه السهمان وأخرج منه الخمس على ما ذكر ابن إسحاق، ثم بعث رسول الله ﷺ سعد بن زيد الأنصاري أخا بني عبد الأشهل بسبايا من سبايا القوم وكانت السبايا كلها على ما قيل سبعمائة وخمسين إلى نجد فابتاع بها لهم خيلاً وسلاحاً وكان عليه الصلاة والسلام قد اصطفى لنفسه الكريمة من نسائهم ريحانة بنت عمرو وكانت في ملكه ﷺ حتى توفي، وقد كان عليه الصلاة والسلام عرض عليها أن يتزوجها ويضرب عليها الحجاب فقالت: يا رسول الله بل تتركني في ملك فهو أخف علي وعليك فتركها ﷺ وكانت حين سباها قد أبت إلا اليهودية فعزلها عليها الصلاة والسلام ووجد في نفسه لذلك فبينما هو صلى الله تعالى عليه وسلم مع أصحابه إذ سمع وقع نعلين خلفه فقال: إن هذا لنعلا ابن شعبة جاء يبشرني بإسلام ريحانة فجاءه فقال: يا رسول الله قد أسلمت ريحانة فسره ذلك من أمرها، وكان الفتح على ما في البحر في آخر ذي القعدة وهذه الغزوة وغزوة الخندق كانتا في سنة واحدة كما يدل عليه ما ذكرناه أول القصة وهو الصحيح خلافاً لمن قال: ان كلاً منهما في سنة، ولما انقضى شأن بني قريظة انفجر لسعد رضي الله تعالى عنه جرحه فمات شهيداً، وقد استبشرت الملائكة عليهم السلام بروحه واهتزّ له العرش، وفي ذلك يقول رجل من الأنصار:

وما اهتز عرش الله من موت هالك ... سمعنا به إلا لسعد أبي عمرو

واستشهد يوم بني قريظة على ما روي عن ابن إسحاق من المسلمين ثم من بني الحارث بن الخزرج خلاد بن سويد بن ثعلبة بن عمرو وطرحت عليه رحى فشدخته شدخاً شديداً، وذكروا ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال: إن له لأجر شهيدين، ومات أبو سنان بن محصن بن حرثان أخو بني أسد بن خزيمة ورسول الله عليه الصلاة

والسلام محاصر بني قريظة فدفن في مقبرتهم التي يدفنون فيها اليوم واليه دفنوا موتاهم في الإسلام، وتمام الكلام فيما وقع في هذه الغزوة في كتب السير، وقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ﴾ عطف على قوله سبحانه وتعالى: ﴿أنزل﴾ الخ، والمراد بأرضهم مزارعهم، وتقدمت لكثرة المنفعة بها من النخل والزروع.

وفي قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أورثكم﴾ إشعار بأنه انتقل إليهم ذلك بعد موت أولئك المقتولين وأن ملكهم إياه ملك قوي ليس بعقد الفسخ أو الإقالة ﴿وَدِيَارَهُمْ﴾ أي حصونهم ﴿وَأَمْوَالَهُمْ﴾ نقودهم ومواشيهم وأثاثهم التي اشتملت عليها أرضهم وديارهم. أخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة من خبر طويل أن سعداً رضي الله تعالى عنه حكم بقتل مقاتلهم وسبي ذراريهم بأن أعقارهم للمهاجرين دون الأنصار فقال قومه: أتؤثر المهاجرين بالأعقار علينا؟ فقال: إنكم ذو أعقار وإن المهاجرين لا أعقار لهم، وأمضى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حكمه.

وفي الكشاف روي أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جعل عقارهم للمهاجرين دون الأنصار فقالت الأنصار في ذلك فقال عليه الصلاة والسلام: إنكم في منازلكم، وقال عمر رضي الله تعالى عنه: أما تخمس كما خمست يوم بدر؟ قال: لا إنما جعلت هذه لي طعمة دون الناس قال: رضينا بما صنع الله تعالى ورسوله ﷺ.

وذكر الجلال السيوطي أن الخبر رواه الواقدي من رواية خارجة بن زيد عن أم العلاء ، قالت: لما غنم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بني النضير جعل الحديث، ومن طريق المسور بن رفاعة قال: فقال عمر يا رسول الله ألا تخمس ما أصيب من بني النضير الحديث ا هـ، وعليه لا يحسن من الزمخشري ذكره ها هنا مع أن الآيات عنده في شأن بني قريظة، وسيأتي الكلام فيما وقع لبني النضير في تفسير سورة الحشر إن شاء الله تعالى ﴿وَأَرْضاً لَّمْ تَطَؤُوهَا﴾ قال مقاتل، ويزيد بن رومان، وابن زيد: هي خيبر فتحت بعد بني قريظة، وقال قتادة: كان يتحدث

أنها مكة، وقال الحسن: هي أرض الروم وفارس، وقيل: اليمن، وقال عكرمة: هي ما ظهر عليه المسلمون إلى يوم القيامة واختاره في البحر، وقال عروة: لا أحسبها إلا كل أرض فتحها الله تعالى على المسلمين أو هو عزَّ وجلَّ فاتحها إلى يوم القيامة، والظاهر أن العطف على ﴿أرضهم﴾ واستشكل بأن الإرث ماض حقيقة بالنسبة إلى المعطوف عليه ومجازاً بالنسبة الى هذا المعطوف. وأجيب بأنه يراد بأورثكم أورثكم في علمه وتقديره وذلك متحقق فيما وقع من الإرث كأرضهم وديارهم وأموالهم وفيما لم يقع بعد كإرث ما لم يكن مفتوحاً وقت نزول الآية. وقدر بعضهم أورثكم في جانب المعطوف مراداً به يورثكم إلا أنه عبر بالماضي لتحقق الوقوع والدليل المذكور، واستبعد دلالة المذكور عليه لتخالفهما حقيقة ومجازاً.

وقيل: الدليل ما بعد من قوله تعالى: ﴿وكان الله﴾ الخ، ثم إذا جعلت الأرض شاملة لما فتح على أيدي الحاضرين ولما فتح على أيدي غيرهم ممن جاء بعدهم لا يخص الخطاب الحاضرين كما لا يخفى. ومن بدع التفاسير أنه أريد بهذه الأرض نساؤهم، وعليه لا يتوهم إشكال في العطف. وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما «لم تطوها» بحذف الهمزة أبدل همزة تطأ الفاً على حد قوله:

إن السباع لتهدى في مرابضها ... والناس لا يهتدى من شرهم أبدا

فالتقت ساكنة مع الواو فحذفت كقولك لم تروها ﴿وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾ فهو سبحانه قادر على أن يملككم ما شاء ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي السعة والتنعم فيها ﴿وَزِينَتَهَا﴾ أي

زخرفها وهو تخصيص بعد تعميم ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾ أي أقبلن بإرادتكن واختياركن لإحدى الخصلتين كما يقال أقبل يخاصمني وذهب يكلمني وقام يهددني، وأصل تعال أمر بالصعود لمكان عال ثم غلب في الأمر بالمجيء مطلقاً والمراد ها هنا ما سمعت، وقال الراغب: قال بعضهم إن أصله من العلو وهو ارتفاع المنزلة فكأنه دعاء إلى ما فيه رفعة كقولك: افعل كذا غير صاغر تشريفا للمقول له، وهذا المعنى غير مراد هنا كما لا يخفى ﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾ أي أعطكن متعة الطلاق، والمتعة للمطلقة التي لم يدخل بها ولم يفرض لها في العقد واجبة عند الإمام أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه وأصحابه، ولسائر المطلقات مستحبة، وعن الزهري متعتان أحدهما يقضي بها السلطان ويجبر عليها من طلق قبل أن يفرض ويدخل بها والثانية حق على المتقين من طلق بعدما فرض ودخل. وخاصمت امرأة إلى شريح في المتعة فقال: متعها إن كنت من المتقين ولم يجبره، وعن سعيد بن جبير المتعة حق مفروض، وعن الحسن لكل مطلقة متعة إلا المختلعة والملاعنة، والمتعة درع وخمار وملحفة على حسب السعة والاقتار إلا أن يكون نصف مهرها أقل من ذلك فيجب لها الأقل منهما ولا ينقص من خمسة دراهم لأن أقل المهر معشرة دراهم فلا ينقص من نصفها كذا في الكشاف، وتمام الكلام في الفروع، والفعل مجزوم على أنه جواب الأمر وكذا قوله تعالى: ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾ وجوز أن يكون الجزم على أنه جواب الشرط ويكون ﴿فتعالين﴾ اعتراضاً بين الشرط وجزائه، والجملة الاعتراضية قد تقترن بالفاء كما في قوله:

واعلم فعلم المرء ينفعه ... أن سوف يأتي كل ما قدرا

وقرأ حميد الخراز «أمتعكن وأسرحكن» بالرفع على الاستئناف، وزيد بن علي رضي الله تعالى عنهما «أمتعكن» بالتخفيف من أمتع، والتسريح في الأصل مطلق الإرسال ثم كنى به عن الطلاق أي وأطلقكن ﴿سرَاحاً﴾ أي طلاقاً ﴿جَميلاً﴾ أي ذا حسن كثير بأن يكون سنياً لا ضرار فيه كما في الطلاق البدعي المعروف عند الفقهاء. وفي مجمع البيان تفسير السراح الجميل بالطلاق الخالي عن الخصومة والمشاجرة، وكان الظاهر تأخير التمتيع عن التسريح لما أنه مسبب عنه إلا أنه قدم عليه إيناساً لهن وقطعاً لمعاذيرهن من أول الأمر، وهو نظير قوله تعالى: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ [التوبة: ٤٣] من وجه ولأنه مناسب لما قبله من الدنيا: وجوز أن يكون في محلة بناء على أن إرادة الدنيا بمنزلة الطلاق والسراح الإخراج من البيوت فكأنه قيل: إن أردتن الدنيا وطلقتن فتعالين أعطكن المتعة وأخرجكن من البيوت إخراجاً جميلاً بلا مشاجرة ولا إيذاء، ولا يخفى بعده وسبب نزوله الآية على ما قيل: إن أزواجه عليه الصلاة والسلام سألنه ثياب الزينة وزيادة النفقة.

وأخرج أحمد، ومسلم، والنسائي، وابن مردويه من طريق أبي الزبير عن جابر قال: أقبل أبو بكر رضي الله تعالى عنه والناس ببابه جلوس والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم جالس فلم يؤذن له ثم أذن لأبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما فدخلا والنبي ﷺ جالس وحوله نساؤه وهو ساكت فقال عمر: لأكلمن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لعله يضحك فقال: يا رسول الله لو أردت ابنة زيد يعني امرأته رضي الله تعالى عنه سألتني النفقة آنفاً فوجأت عنقها فضحك النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حتى بدأنا جذه وقال: هن حولي سألنني النفقة فقام أبو بكر رضي الله تعالى عنه إلى عائشة ليضربها وقام عمر رضي الله تعالى عنه إلى حفصة كلاهما يقولان: تسألان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما ليس عنده فنهاهما رسول الله ﷺ فقلن نساؤه: والله لا نسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجلس ما ليس عنده. وأنزل الله تعالى الخيار فبدأ بعائشة فقال عليه الصلاة والسلام: إني ذاكر لك أمراً ما أحب أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك قالت: ما هو؟ فتلا عليها ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك﴾ الآية قالت عائشة: أفيك أستأمر أبوي؟ بل

أختار الله تعالى ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم وأسألك أن لا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت فقال عليه الصلاة والسلام: إن الله تعالى لم يبعثني متعنتاً ولكن بعثني معلماً مبشراً لا تسألني امرأة منهن عما اخبرتني إلا أخبرتها، وفي خبر رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة، والحسن أنه لما نزلت آية التخيير كان تحته عليه الصلاة والسلام تسع نسوة خمس من قريش: عائشة، وحفصة، وأم حبيبة بنت أبي سفيان، وسودة بنت زمعة، وأم سلمة بنت أبي أمية وكان تحته صفية بنت حيي الخيبرية، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وزينب بنت جحش الأسدية، وجويرية بنت الحارث من بني المصطلق وبدأ بعائشة فلما اختارت الله تعالى ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم والدار الآخرة رُئي الفرح في وجه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فتتابعن كلهن على ذلك فلما خيرهن واخترن الله عزَّ وجلَّ ورسوله عليه الصلاة والسلام والدار الآخرة شكرهن الله جلَّ شأنه على ذلك إذ قال سبحانه: ﴿لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن﴾ [الأحزاب: ٥٢] فقصره الله تعالى عليهن وهن التسع اللاتي اخترن الله عزَّ وجلَّ ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم.

وأخرج ابن سعد عن عمرو بن سعيد عن أبيه عن جده أنه صلى الله تعالى عليه وسلم خير نساءه فاخترن جميعاً الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام غير العامرية اختارت قومها فكانت بعد تقول: أنا الشقية وكانت تلقط البعر وتبيعه وتستأذن على أزواج النبي ﷺ فتقول: أنا الشقية.

وأخرج أيضاً عن ابن جناح قال: اخترنه جميعاً غير العامرية كانت ذاهبة العقل حتى ماتت. وجاء في بعض الروايات عن ابن جبير غير الحميرية وهي العامرية، وكان هذا التخيير كما روي عن عائشة، وأبي جعفر بعد أن هجرهن عليه الصلاة والسلام شهراً تسعة وعشرين يوماً. وفي البحر أنه لما نصر الله تعالى نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم ورد عنه الأحزاب وفتح عليه النضير وقريظة ظنَ أزواجه عليه الصلاة والسلام أنه اختص بنفائس اليهود وذخائرهم فقعدن حوله وقلن: يا رسول الله بنات كسرى، وقيصر في الحلي والحلل والإماء والخول ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق وآلمن قلبه الشريف عليه الصلاة والسلام بمطالبتهن له بتوسعة الحال وأن يعاملهن بما تعامل به الملوك وأبناء الدنيا أزواجهم فأمره الله تعالى بأن يتلو عليهن ما نزل في أمرهن؛ وما أحسن موقع هذه الآيات على هذا بعد انتهاء قصة الأحزاب وبني قريظة كما لا يخفى، ويفهم من كلام الإمام أنها متعلقة بأول السورة؛ وذلك أن مكارم الأخلاق منحصرة في شيئين: التعظيم لأمر الله تعالى والشفقة على خلقه عزَّ وجلَّ فبدأ سبحانه بإرشاد حبيبه عليه الصلاة والسلام إلى ما يتعلق بجانب التعظيم له تعالى فقال سبحانه: ﴿يا أيها النبي اتق الله﴾ [الأحزاب: ٢] الخ ثم أرشده سبحانه الى ما يتعلق بجانب الشفقة، وبدأ بالزوجات لأنهن أولى الناس بذلك، وقدم سبحانه الشرطية المذكورة على قوله تعالى: ﴿**وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ**﴾ الخ لأن سبب النزول ما سمعت.

وقال الإمام: إن التقديم إشارة الى أن النبي ﷺ غير ملتفت إلى الدنيا ولذاتها غاية الالتفات، وذكر أن في وصف السراح بالجميل إشارة إلى ذلك أيضاً، ومعنى ﴿**إن كنتن تردن الله ورسوله**﴾ إن كنتن تردن رسول الله وإنما ذكر الله عزَّ وجلَّ للإيذان بجلالة محله عليه الصلاة والسلام عنده تعالى ﴿**وَالدَّارَ الآخِرَةَ**﴾ أي نعيمها الباقي الذي لا قدر عنده للدنيا وما فيها ﴿**فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ**﴾ أي هيأ ويسّر ﴿**لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُمْ**﴾ بمقابلة إحسانهن ﴿**أَجْراً**﴾ لا تحصى كثرته ﴿**عَظِيماً**﴾ لا تستقصى عظمته، و ﴿**من**﴾ للتبيين لأن كلهن كن محسنات.

وقيل: ويجوز فيه التبعيض على أن المحسنات المختارات لله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم واختيار الجميع لم يعلم وقت النزول، وهو على ما قال الخفاجي عليه الرحمة بعيد، وجواب ﴿**إن**﴾ في الظاهر ما قرن بالفاء

إلا أنه قيل الماضي فيه بمعنى المضارع الدال على الاستقبال والتعبير به دونه لتحقق الوقوع، وقيل: الجواب محذوف نحو تثبن أو تنلن خيراً وما ذكر دليله، وتجريد الشرطية الأولى عن الوعيد للمبالغة في تحقيق معنى التخيير والاحتراز عن شائبة الإكراه، قيل: وهو السر في تقديم التمتيع على التسريح ووصف التسريح بالجميل.

هذا واختلف فيما وقع من التخيير هل كان تفويض الطلاق إليهن حتى يقع الطلاق بنفس الاختيار او لا فذهب الحسن، وقتادة وأكثر أهل العلم[1] على ما في إرشاد العقل السليم وهو الظاهر إلى أنه لم يكن تفويض الطلاق وإنما كان تخييراً لهن بين الإرادتين على أنهن إن أردن الدنيا فارقهن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿فتعالين أمتعكن وأسرحكن﴾ وذهب آخرون إلى أنه كان تفويضاً للطلاق اليهن حتى لو أنهن اخترن انفسهن كان ذلك طلاقاً، وكذا اختلف في حكم التخيير بأن يقول الرجل لزوجته اختاري فتقول اخترت نفسي أو اختاري نفسك فتقول اخترت فعن زيد بن ثابت أنه يقع الطلاق الثلاث وبه أخذ مالك في المدخول بها وفي غيرها يقبل من الزوج دعوى الواحدة، وعن عمر، وابن عباس، وابن مسعود أنه يقع واحدة رجعية وهو قول عمر بن عبد العزيز، وابن أبي ليلى، وسفيان، وبه أخذ الشافعي، وأحمد.

وعن علي كرم الله تعالى وجهه أنه يقع واحدة بائنة، وروى ذلك الترمذي عن ابن مسعود، وأيضاً عن عمر رضي الله تعالى عنهما، وبذلك أخذ أبو حنيفة عليه الرحمة، فإن اختارت زوجها فعن زيد بن ثابت أنه تقع طلقة واحدة وعن علي كرم الله تعالى وجهه روايتان إحداهما أنه تقع واحدة رجعية والأخرى أنه لا يقع شيء أصلاً وعليه فقهاء الأمصار.

وذكر الطبرسي أن المروي عن أئمة أهل البيت رضوان الله تعالى عليهم أجمعين اختصاص التخيير بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأما غيره عليه الصلاة والسلام فلا يصح له ذلك. واختلف في مدة ملك الزوجة الاختيار إذا قال لها الزوج ذلك فقيل: تملكه ما دامت في المجلس وروي هذا عن عمر، وعثمان، وابن مسعود رضي الله تعالى عنهم. وبه قال جابر بن عبد الله، وجابر بن زيد، وعطاء، ومجاهد، والشعبي، والنخعي، ومالك، وسفيان، والأوزاعي، وأبو حنيفة، والشافعي، وأبو ثور، وقيل: تملكه في المجلس وفي غيره وهو قول الزهري، وقتادة، وأبي عبيدة، وابن نصر وحكاه صاحب المغني عن علي كرم الله تعالى وجهه.

وفي بلاغات محمد بن الحسن أنه كرم الله تعالى وجهه قائل بالاقتصار على المجلس كقول الجماعة رضي الله تعالى عنهم أجمعين، وتمام الكلام في هذه المسألة وما لكل من هذه الأقوال وما عليه يطلب من كتب الفروع كشروح الهداية وما يتعلق بها بيد أبي أقول: كون ما في الآية هو المسألة المذكور في الفروع التي وقع الاختلاف فيها مما لا يكاد يتسنى، وتأويل الخفاجي استدلال من استدل بها في هذا المقام بما لا يخلو عن كلام عند ذوي الأفهام. هذا وذكر الإمام في الكلام على تفسير هذه الآية عدة مسائل. الأولى أن التخيير منه صلى الله تعالى عليه وسلم قولاً كان واجباً عليه عليه الصلاة والسلام بلا شك لأنه ابلاغ الرسالة، وأما معنى فكذلك على القول بأن الأمر للوجوب. الثانية أنه لو أردن كلهن أو إحداهن الدنيا فالظاهر نظراً إلى منصب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه يجب عليه التمتيع والتسريح لأن الخلف في الوعد منه عليه الصلاة والسلام غير جائز. الثالثة أن الظاهر أنه لا تحرم المختارة بعد البينونة على غيره عليه الصلاة والسلام وإلا لا يكون التخيير ممكناً من التمتع بزينة الدنيا. الرابعة أن الظاهر أن من

---

(١) ومنهم ابن الهمام ا هـ منه.

اختارت الله تعالى ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم يحرم على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم نظراً إلى منصبه الشريف طلاقها والله تعالى أعلم.

﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إليهن لإظهار الاعتناء بنصحهن ونداؤهن ها هنا وفيما بعد بالإضافة اليه عليه الصلاة والسلام لأنها التي يدور عليها ما يرد عليهن من الأحكام، واعتبار كونهن نساء في الموضعين أبلغ من اعتبار كونهن أزواجاً كما لا يخفى على المتأمل ﴿مَنْ يَأْتِ﴾ بالياء التحتية حملاً على لفظ ﴿من﴾، وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما، والجحدري، وعمرو بن قائد الأسواري ويعقوب بالتاء الفوقية حملا على معناها ﴿مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ﴾ بكبيرة ﴿مُبَيِّنَةٍ﴾ ظاهرة القبح من بين بمعنى تبين، وقرأ ابن كثير، وأبو بكر مبينة بفتح الياء والمراد بها على ما قيل: كل ما يقترف من الكبائر، وأخرج البيهقي في السنن عن مقاتل بن سليمان أنها العصيان للنبي ﷺ، وقيل: ذلك وطلبهن ما يشق عليه الصلاة والسلام أو ما يضيق به ذرعه ويغتم ﷺ لأجله.

ومنع في البحر أن يراد بها الزنا قال: لأن النبي ﷺ معصوم من ارتكاب نسائه ذلك ولأنه وصفت الفاحشة بالتبين والزنا مما يتستر به ومقتضاه منع إرادة الأعم ثم قال: وينبغي أن تحمل الفاحشة على عقوق الزوج وفساد عشرته، ولا يخلو كلامه عن بحث والإمام فسرها به، وجعل الشرطية من قبيل ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾ [الزمر: ٦٥] من حيث إن ذلك ممكن الوقوع في أول النظر ولا يقع جزماً فإن الأنبياء صان الله تعالى زوجاتهم عن ذلك، وقد تقدم بعض الكلام في هذه المسألة في سورة النور وسيأتي إن شاء الله تعالى طرف مما يتعلق بهما أيضاً ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ﴾ يوم القيامة على ما روي عن مقاتل أو فيه، وفي الدنيا على ما روي عن قتادة ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ أي يعذبن ضعفي عذاب غيرهن أي مثليه فإن مكث غيرهن ممن أتى بفاحشة مبينة في النار يوماً مثلاً مكثن هن لو أتين بمثل ما أتى يومين. وإن وجب على غيرهن حد لفاحشة وجب عليهن لو أتين بمثلها حدان، وقال أبو عمرو، وأبو عبيدة فيما حكى الطبري عنهما الضعفان أن يجعل الواحدة ثلاثة فيكون عليهن ثلاثة حدود أو ثلاثة أمثال عذاب غيرهن، وليس بذاك، وسبب تضعيف العذاب أن الذنب منهن أقبح فإن زيادة قبحه تابعة لزيادة فضل المذنب والنعمة عليه وتلك ظاهرة فيهن ولذلك جعل حد الحر ضعف حد الرقيق وعوتب الأنبياء عليهم السلام بما لا يعاتب به الأمم وكذا حال العالم بالنسبة الى الجاهل فليس من يعلم كمن لا يعلم، وروي عن زين العابدين رضي الله تعالى عنه أنه قال له رجل: إنكم أهل بيت مغفور لكم فغضب وقال: نحن أحرى أن يجري فينا ما أجرى الله تعالى في أزواج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من أن نكون كما تقول إنا نرى لمحسننا ضعفين من الأجر ولمسيئنا ضعفين من العذاب وقرأ هذه الآية والتي تليها، وقرأ الحسن، وعيسى، وأبو عمرو «يضعف» بالياء التحتية مبنياً للمفعول بلا ألف والجحدري، وابن كثير، وابن عامر «نضعف» بالنون مبنياً للفاعل بلا ألف أيضاً وزيد بن علي، وابن محيصن، وخارجة عن أبي عمرو «نضاعف» بالنون والألف والبناء للفاعل وفرقة «يُضَاعِفُ» بالياء والألف والبناء للفاعل، وقرأ «العذابُ» بالرفع من قرأ بالبناء للمفعول وبالنصب من قرأ للفاعل ﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ أي تضعيف العذاب عليهن ﴿عَلَى اللهِ يَسِيراً﴾ أي سهلاً لا يمنعه جلَّ شأنه عنه كونهن نساء النبي ﷺ بل هو سبب له.

تم بحمد الله الجزء الحادي والعشرون ويليه إن شاء الله تعالى الجزء الثاني والعشرون وأوله ﴿ومن يقنت منكن﴾.

الجزء الثاني العاشر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾
يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ
قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ
ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا
﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾
إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ
وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ
وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ
ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ
ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ
عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن
تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا
قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ
خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا
ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾

﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ﴾ أي ومن تخشع وتخضع **﴿لله وَرَسُولِه وَتَعْمَلْ﴾** عملاً **﴿صَالِحاً﴾** كصلاة وصوم وحج وإيتاء زكاة وهذا العمل غير القنوت لله تعالى على ما سمعت من تفسيره فلا تكرار، وفسره بعضهم بالطاعة ودفع التكرار بأن المراد **﴿ومن يقنت منكن﴾** لرسول الله **﴿وتعمل صالحاً﴾** لله تعالى، وذكر الله إنما هو لتعظيم الرسول ﷺ يجعل طاعته غير منفكة عن طاعة الله عزّ وجلّ، وبعضهم بما ذكر أيضاً إلا أنه دفع التكرار بأن المراد بالعمل الصالح

الخدمة الحسنة والقيام بمصالح البيت لا نحو الصلاة والصيام وبالطاعة المفسر بها القنوت امتثال الأوامر واجتناب النواهي، وفسره بعضهم بدوام الطاعة فقيل في دفع التكرار نحو ما مر، وقيل: المراد به الدوام على الطاعة السابقة وبالعمل الصالح: العبادات التي يكلفن بها بعد.

وقيل: القنوت السكوت كما قيل ذلك في قوله تعالى: ﴿وقوموا لله قانتين﴾ [البقرة: ٢٣٨] والمراد به ها هنا السكوت عن طلب ما لم يأذن الله تعالى ورسوله ﷺ لهن به من زيادة النفقة وثياب الزينة، وقيل غير ذلك. ﴿**نُؤْتِهَا أَجْرَهَا**﴾ الذي تستحقه على ذلك فضلاً وكرماً ﴿**مَرَّتَيْنِ**﴾ فيكون أجرها مضاعفاً وهذا في مقابلة يضاعف لها العذاب ضعفين.

أخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس أنه قال في حاصل معنى الآيتين: أنه من عصى منكن فإنه يكون للعذاب عليها الضعف منه على سائر نساء المؤمنين ومن عمل صالحاً فإن الأجر لها الضعف على سائر نساء المسلمين، ويستدعي هذا أنه إذا أثيب نساء المسلمين على الحسنة بعشر أمثالها أثبن هن على الحسنة بعشرين مثلاً لها وإن زيد للنساء على العشر شيء زيد لهن ضعفه، وكأنه والله تعالى أعلم إنما قيل ﴿**نؤتها أجرها مرتين**﴾ دون يضاعف لها الأجر كما قيل في المقابل ﴿**يضاعف لها العذاب ضعفين**﴾ لأن أصل تضعيف الأجر ليس من خواصهن بل كل من عمل صالحاً من النساء والرجال من هذه الأمة يضاعف أجره فأخرج الكلام مغايراً لما تقتضيه المقابلة رمزاً إلى أن تضعيف الأجر على طرز مغاير لطرز تضعيف العذاب مع تضمن الكلام المذكور الإشارة إلى مزيد تكريمهن ووفور الاعتناء بهن فإن الإحسان المكرر أحلى، ومن تأمل في الجملتين ظهر له تغليب جانب الرحمة على جانب الغضب وكفى بالتصريح بفاعل إيتاء الأجر وجعله ضمير العظمة والتعبير عما يؤتون من النعيم بالأجر مع إضافته إلى ضميرهن مع خلو جملة تضعيف العذاب عن مثل ذلك شهداء على ما ذكر، ثم إن تضعيف أجرهن لمزيد كرامتهن رضي الله تعالى عنهن على الله عزّ وجلّ مما منّ به عليهن من النسبة إلى خير البرية عليه من الله تعالى أفضل الصلاة وأكمل التحية، والظاهر أن ذلك ليس بالنسبة إلى أعمالهن الصالحة التي عملنها في حياته ﷺ فقط بل يضاعف أجرهن عليها وعلى الأعمال الصالحة التي يعملنها بعد وفاته عليه الصلاة والسلام.

وقال بعض الأجلة: إن هاتين المرتين إحداهما على الطاعة والأخرى على طلبهن رضاءً للنبي ﷺ بالقناعة وحسن المعاشرة، وجعل في البحر وغيره سبب التضعيف هذا الطلب وتلك لطاعة، ولا يخفى أن ما ذكروه موهم لعدم التضعيف بالنسبة لما فعلوه من العمل الصالح بعد وفاته ﷺ، وقال بعض المدققين: أراد من جعل سبب مضاعفة أجورهن ما ذكر التطبيق على لفظ الآية حيث جعل القنوت لله ولرسوله مع ما تلاه سبباً ويدمج فيه أن مضاعفة العذاب إنما نشأت من أن النشوز مع الرسول ﷺ وطلب ما يشق عليه ليس كالنشوز مع سائر الأزواج ولذلك اقتضى مضاعفة العذاب وكذلك طاعته وحسن التخلق معه والمعاشرة على عكس ذلك فهذا يؤكد ما قالوا من أن سبب تضعيف العذاب زيادة قبح الذنب منهن وفيه أن العكس يوجب العكس فتأمل.

وقال بعض المفسرين: العذاب الذي توعد به ضعفين هو عذاب الدنيا ثم عذاب الآخرة وكذلك الأجر فالمرتان إحداهما في الدنيا وثانيتهما في الأخرى، ولا يخفى ضعفه وقرأ الجحدري والأسواري ويعقوب في رواية وكذا ابن عامر «ومن تقنت» بتاء التأنيث حملاً على المعنى وقرأ السلمي وابن وثاب وحمزة والكسائي بياء من تحت في الأفعال الثلاثة على أن في «يؤتها» ضمير اسم الله تعالى، وذكر أبو البقاء أن بعضهم قرأ «ومن تقنت» بالتاء من فوق حملاً على المعنى «ويعمل» بالياء من تحت حملاً على اللفظ فقال بعض النحويين: هذا ضعيف لأن التذكير أصل فلا يجعل تبعاً

للتأنيث وما عللوه به قد جاء مثله في القرآن وهو قوله تعالى: ﴿خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا﴾ [الأنعام: ١٣٩] انتهى فتذكر ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا﴾ في الجنة زيادة على أجرها المضاعف ﴿رِزْقاً كَرِيماً﴾ عظيم القدر رفيع الخطر مرضياً لصاحبه، وقيل الرزق الكريم ما يسلم من كل آفة.

وجوز ابن عطية أن يكون في ذلك وعد دنياوي أي إن رزقها في الدنيا على الله تعالى وهو كريم من حيث هو حلال وقصد برضا من الله تعالى في نيله، وهو كما ترى ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَد مِن النساء﴾ ذهب جمع من الرجال إلى أن المعنى ليس كل واحدة منكن كشخص واحد من النساء أي من نساء عصركن أي إن كل واحدة منكن أفضل من كل واحدة منهن لما امتازت بشرف الزوجية لرسول الله وأمومة المؤمنين ـ فأحد ـ باقٍ على كونه وصف مذكر إلا أن موصوفه محذوف ولا بدّ من اعتبار الحذف في جانب المشبه كما أشير إليه، وقال الزمخشري: أحد في الأصل بمعنى وحد وهو الواحد ثم وضع في النفي العام مستوياً فيه المذكر والمؤنث والواحد وما وراءه، والمعنى لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء أي إذا تقصيت أمة النساء جماعة جماعة لم يوجد منهن جماعة واحدة تساويكن في الفضل والسابقة، وقد استعمل بمعنى المتعدد أيضاً في قوله تعالى: ﴿ولم يفرقوا بين أحد منهم﴾ [النساء: ١٥٢] لمكان ﴿بين﴾ المقتضية للدخول على متعدد وحمل أحد على الجماعة على ما في الكشف ليطابق المشبه، والمعنى على تفضيل نساء النبي ﷺ على نساء غيره لا النظر إلى تفضيل واحدة على واحدة من آحاد النساء فإن ذلك ليس مقصوداً من هذا السياق ولا يعطيه ظاهر اللفظ.

وكون ذلك أبلغ لما يلزم عليه تفضيل جماعتهن على كل جماعة ولا يلزم ذلك تفضيل كل واحدة على كل واحدة من آحاد النساء لو سلم لكان إذا ساعده اللفظ والمقام، واعترضه أيضاً بعضهم بأنه يلزم عليه أن يكون كل واحدة من نساء النبي ﷺ أفضل من فاطمة رضي الله تعالى عنها مع أنه ليس كذلك.

وأجيب عن هذا بأنه لا مانع من التزامه إلا أنه يلتزم كون الأفضلية من حيث أمومة المؤمنين والزوجية لرسول الله ﷺ لا من سائر الحيثيات فلا يضر فيه كون فاطمة رضي الله تعالى عنها أفضل من كل واحدة منهن لبعض الحيثيات الأخر بل هي من بعض الحيثيات كحيثية البضعية أفضل من كل من الخلفاء الأربعة رضي الله تعالى عنهم أجمعين، نعم أورد على ما في الكشاف أن أحد الموضوع في النفي العام همزته أصلية غير منقلبة عن الواحد وقد نص على ذلك أبو علي، وخالف فيه الرضي فنقل عنه أن همزة أحد في كل مكان بدل من الواو، والمشهور التفرقة بين الواقع في النفي العام والواقع في الإثبات بأن همزة الأول أصلية وهمزة الثاني منقلبة عن الواو. وفي العقد المنظوم في ألفاظ العموم للفاضل القرافي قد أشكل هذا على كثير من الفضلاء لأن اللفظين صورتهما واحدة ومعنى الوحدة يتناولهما والواو فيها أصلية فيلزم قطعاً انقلاب ألف أحد مطلقاً عنها وجعل ألف أحدهما منقلباً دون ألف الآخر تحكم، وقد أطلعني الله تعالى على جوابه وهو أن أحد الذي لا يستعمل إلا في النفي معناه إنسان بإجماع أهل اللغة وأحد الذي يستعمل في الإثبات معناه الفرد من العدد فإذا تغاير مسماهما تغاير اشتقاقهما لأنه لا بدّ فيه من المناسبة بين اللفظ والمعنى ولا يكفي فيه أحدهما، فإذا كان المقصود به الإنسان فهو الذي لا يستعمل إلا في النفي وهمزته أصلية، وإن قصد به العدد ونصف الإثنين فهو الصالح للإثبات والنفي وألفه منقلبة عن واو ا هـ، ولا يخفى أنه إذا سلم الفرق المذكور ينبغي أن تكون الهمزة هنا أصلية، وإلى أن همزة الواقع في النفي أصلية ذهب أبو حيان فقال: إن ما ذكره الزمخشري من قوله: ثم وضع في النفي العام الخ غير صحيح لأن الذي يستعمل في النفي العام مدلوله غير مدلول واحد لأن واحداً ينطلق على كل شيء اتصف بالوحدة وأحد المستعمل في النفي العام مخصوص بمن يعقل وذكر

النحويون أن مادته همزة وحاء ودال ومادة أحد بمعنى واحد أصله واو وحاء ودال فقد اختلفا مادة ومدلولاً.

وذكر أن ما في قوله تعالى: ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾ [البقرة: ٢٨٥] يحتمل أن يكون الذي للنفي العام ويحتمل أن يكون بمعنى واحد، ويكون قد حذف معطوف أي بين واحد وواحد من رسله كما قال الشاعر:

فما كان بين الخير لو جاء سالماً ... أبو حجر إلا ليال قلائل

وقال الراغب: أحد يستعمل على ضربين في النفي لاستغراق جنس الناطقين، ويتناول القليل والكثير على الاجتماع والانفراد نحو ما في الدار أحد أي لا واحد ولا اثنان فصاعداً لا مجتمعين ولا متفرقين، وهذا المعنى لا يمكن في الإثبات لأن نفي المتضادين يصح، ولا يصح إثباتهما، فلو قيل في الدار أحد لكان إثبات أحد منفرد مع إثبات ما فوق الواحد مجتمعين ومتفرقين وهو بين الإحالة ولتناوله ما فوق الواحد صح نحو ﴿فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾ [الحاقة: ٤٧] وفي الإثبات على ثلاثة أوجه، استعماله في الواحد المضموم إلى العشرات كأحد عشر وأحد وعشرين، واستعماله مضافاً أو مضافاً إليه بمعنى الأول نحو ﴿أما أحدكما فيسقي﴾ [يوسف: ٤١] وقولهم يوم الأحد، واستعماله وصفاً وهذا لا يصح إلا في وصفه تعالى شأنه، أما أصله ـ أعني وحد ـ فقد يستعمل في غيره سبحانه كقول النابغة:

كأن رحلي وقد زال النهار بنا ... بذي الجليل على مستأنس وحد

انتهى.

وهو محتمل لدعوى انقلاب همزته عن واو مطلقاً ولدعوى انقلابها عنها في الاستعمال الأخير.

ولا يخفى على المنصف أن كون المعنى في الآية ما ذكره الزمخشري أظهر، وتفضيل كل واحدة من نسائه ﷺ على كل واحدة واحدة من سائر النساء لا يلزم أن يكون لهذه الآية بل هو لدليل آخر إما عقلي أو نص مثل قوله تعالى: ﴿وأزواجه أمهاتهم﴾ [الأحزاب: ٦] وقيل يجوز أن يكون ذلك لها فإنها تفيد بحسب عرف الاستعمال تفضيل كل منهن على سائر النساء لأن فضل الجماعة على الجماعة يكون غالباً لفضل كل منها.

﴿إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾ شرط لنفي المثلية وفضلهن على النساء وجوابه محذوف دل عليه المذكور والاتقاء بمعناه المعروف في لسان الشرع، والمفعول محذوف أي إن اتقيتن مخالفة حكم الله تعالى ورضا رسوله ﷺ، والمراد إن دمتن على اتقاء ذلك ومثله شائع أو هو على ظاهره والمراد به التهييج بجعل طلب الدنيا والميل إلى ما تميل إليه النساء لبعده من مقامهن بمنزلة الخروج من التقوى أو شرط جوابه قوله تعالى:

﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ والاتقاء بمعناه الشرعي أيضاً، وفي البحر أنه بمعنى الاستقبال أي إن استقبلتن أحداً فلا تخضعن، وهو بهذا المعنى معروف في اللغة قال النابغة:

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه ... فتناولته واتقتنا باليد

أي استقبلتنا باليد، ويكون هذا المعنى أبلغ في مدحهن إذ لم يعلق فضلهن على التقوى ولا علق نهيهن عن الخضوع بها إذ هن متقيات لله تعالى في أنفسهن، والتعليق يقتضي ظاهره أنهن لسن متحليات بالتقوى، وفيه أن اتقى بمعنى استقبل وإن كان صحيحاً لغة، وقد ورد في القرآن كثيراً كقوله تعالى: ﴿أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب﴾[الزمر: ٢٤] إلا أنه لا يتأتى ها هنا لأنه لا يستعمل في ذلك المعنى إلا مع المتعلق الذي تحصل به الوقاية، كقوله سبحانه: ﴿بوجهه﴾ وقول النابغة باليد وما استدل به أمره سهل، وظاهر عبارة الكشاف اختيار كون ﴿إن اتقيتن﴾ شرطاً جوابه فلا تخضعن، وفسر ﴿إن اتقيتن﴾ بإن أردتن التقوى وإن كنتن متقيات مشيراً بذلك إلى أنه لا بدّ من

تجوز في الكلام لأن الواقع أن المخاطبات متقيات فإما أن يكون المقصود الأولى المبالغة في النهي فيفسر بأن أردتن التقوى، وإما أن يكون المقصود التهييج والإلهاب، فيفسر بأن كنتن متقيات فليس في ذلك جمع بين الحقيقة والمجاز كما توهم، وقد قرر ذلك في الكشف، ومعنى لا تخضعن بالقول لا تجبن بقولكن خاضعاً أي ليناً خنثاً على سنن كلام المريبات والمومسات، وحاصله لا تلنّ الكلام ولا ترققنه، وهذا على ما قيل في غير مخاطبة الزوج ونحوه كخاطبة الأجانب وإن كن محرمات عليهم على التأبيد.

روي عن بعض أمهات المؤمنين أنها كانت تضع يدها على فمها إذا كلمت أجنبياً تغير صوتها بذلك خوفاً من أن يسمع رخيماً ليناً، وعد إغلاظ القول لغير الزوج من جملة محاسن خصال النساء جاهلية وإسلاماً، كما عد منها بخلهن بالمال وجبنهن، وما وقع في الشعر من مدح العشيقة برخامة الصوت وحسن الحديث ولين الكلام فمن باب السفه كما لا يخفى. وعن الحسن أن المعنى لا تكلمن بالرفث، وهو كما ترى ﴿فَيَطْمَعَ الَّذي فـي قَلْبه مَرَضٌ﴾ أي فجور وزنا، وبذلك فسره ابن عباس وأنشد قول الأعشى:

حافظ للفرج راضٍ بالتقى ... ليس ممن قلبه فيه مرض

والمراد نية أو شهوة فجور وزنا، وعن قتادة تفسيره بالنفاق، وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما، أنه قال: المرض مرضان فمرض زنا ومرض نفاق، ونصب ﴿يطمع﴾ في جواب النهي وقرأ أبان ابن عثمان وابن هرمز «فيطمع» بالجزم وكسر العين لالتقاء الساكنين وهو عطف على محل فعل النهي على أنه نهي لمريض القلب عن الطمع عقيب نهيهن عن الخضوع بالقول كأنه قيل: فلا تخضعن بالقول فلا يطمع الذي في قلبه مرض، وقال أبو عمرو الداني: قرأ الأعرج وعيسى «فَيَطْمِعُ» بفتح الياء وكسر الميم، ونقلها ابن خالويه عن أبي السمال قال: وقد روي ذلك عن ابن محيصن، وذكر أن الأعرج وهو ابن هرمز قرأ «فَيُطْمِعَ» بضم الياء وفتح العين وكسر الميم أي فيطمع هو أي الخضوع بالقول. و ﴿الذي﴾ مفعول أو الذي فاعل والمفعول محذوف أي فيطمع الذي في قلبه مرض نفسه ﴿وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً﴾ حسناً بعيداً عن الريبة غير مطمع لأحد، وقال الكلبي: أي صحيحاً بلا هجر ولا تمريض، وقال الضحّاك: عنيفاً، وقيل أي قولاً أذن لكم فيه، وقيل: ذكر الله تعالى وما يحتاج إليه من الكلام ﴿وقرن في بيوتكن﴾ من قر يقر من باب علم أصله اقررن فحذفت الراء الأولى وألقيت فتحتها على ما قبلها وحذفت الهمزة للإستغناء عنها بتحرك القاف. وذكر أبو الفتح الهمداني في كتاب التبيان وجهاً آخر قال: قار يقار إذا اجتمع ومنه القارة لاجتماعها، ألا ترى إلى قول عضل والديش: اجتمعوا فكونوا قارة فالمعنى واجمعن أنفسكن في البيوت.

وقرأ الأكثر ﴿وقرن﴾ بكسر القاف من وقر يقر وقاراً إذا سكن وثبت، وأصله أو قرن ففعل به ما فعل بعدن من وعد أو من قر يقر المضاعف من باب ضرب وأصله اقررن حذفت الراء الأولى وألقيت كسرتها إلى القاف وحذفت الهمزة للاستغناء عنها. وقال مكي وأبو علي: أبدلت الراء التي هي عين الفعل ياء كراهة التضعيف ثم نقلت حركتها إلى القاف ثم حذفت لسكونها وسكون الراء بعدها وسقطت الهمزة لتحرك القاف وهذا غاية في التمحل، وفي البحر ان قررت وقررت بالفتح والكسر كلاهما من القرار في المكان بمعنى الثبوت فيه وقد حكى ذلك أبو عبيدة والزجاج وغيرهما، وأنكر قوم منهم المازني مجيء قررت في المكان بالكسر أقر بالفتح وإنما جاء قرت عينه تقر بالكسر في الماضي والفتح في المضارع والمثبت مقدم على النافي.

وقرأ ابن أبي عبلة «واقررن» بألف الوصل وكسر الراء الأولى والمراد على جميع القراءات أمرهن رضي الله تعالى عنهن بملازمة البيوت وهو أمر مطلوب من سائر النساء. أخرج الترمذي والبزار عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «إن

المرأة عورة فإذا خرجت من بيتها استشرفها الشيطان وأقرب ما تكون من رحمة ربها وهي في قعر بيتها»

وأخرج البزار عن أنس قال جئن النساء إلى رسول الله ﷺ فقلن: يا رسول الله ذهب الرجال بالفضل والجهاد في سبيل الله تعالى فهل لنا عمل ندرك به فضل المجاهدين في سبيل الله تعالى فقال عليه الصلاة والسّلام: «من قعدت منكن في بيتها فإنها تدرك عمل المجاهدين في سبيل الله تعالى» وقد يحرم عليهن الخروج بل قد يكون كبيرة كخروجهن لزيارة القبور إذا عظمت مفسدته وخروجهن ولو إلى المسجد وقد استعطرن وتزين إذا تحققت الفتنة أما إذا ظنت فهو حرام غير كبيرة، وما يجوز من الخروج كالخروج للحج وزيارة الوالدين وعيادة المرضى، وتعزية الأموات من الأقارب ونحو ذلك، فإنما يجوز بشروط مذكورة في محلها. وظاهر إضافة البيوت إلى ضمير النساء المطهرات إنها كانت ملكهن وقد صرح بذلك الحافظ غلام محمد الأسلمي نور الله تعالى ضريحه في التحفة الاثني عشرية، وذكر فيها أنه عليه الصلاة والسلام بنى كل حجرة لمن سكن فيها من الأزواج وكانت كل واحدة منهن تتصرف بالحجرة الساكنة هي فيها تصرف المالك في ملكه بحضوره ﷺ، وقد ذكر الفقهاء أن من بنى بيتاً لزوجته وأقبضه إياها كان كمن وهب زوجته بيتاً وسلمه إليها، فيكون البيت ملكاً لها ويشهد لدعوى أن الحجرة التي كانت تسكنها عائشة رضي الله تعالى عنها كانت ملكاً لها غير الإضافة في ﴿بيوتكن﴾ الداخل فيه حجرتها استئذان عمر رضي الله تعالى عنه لدفنه فيها منها بمحضر من الصحابة، وعدم إنكار أحد منهم حتى علي كرّم الله تعالى وجهه، واستئذان الحسن رضي الله تعالى عنه منها لذلك أيضاً الثابت عند أهل السنّة والشيعة، كما ذكر في الفصول المهمة في معرفة الأئمة وغيره من كتبهم فإن تلك الحجرة لو كانت لبيت المال لحديث «نحن معاشر الأنبياء لا نورث» لاستأذن رضي الله تعالى عنه من الوزغ مروان فإنه إذ ذاك كان حاكم المدينة المنوّرة والمتصرف في بيت المال، ولو كانت للورثة بناء على زعم الشيعة من أنه ﷺ يورث كغيره لزم الاستئذان من سائر الأزواج أيضاً لتعلق حقهن فيها على زعمهم بل يلزم الاستئذان أيضاً من عصبته عليه الصلاة والسلام المستحقين لما يبقى بعد النصف والثمن إذا قلنا بتوريثهم فحيث لم يستأذن رضي الله تعالى عنه إلا منها علم أنها ملكها وحدها.

والقول بأنه علم رضا الجميع سواها رضي الله تعالى عنها فاستأذنها لذلك لا يقوم لهم حجة، ولهم في هذا الباب أكاذيب لا يعول عليها ولا يلتفت أريب إليها، منها أن عائشة رضي الله تعالى عنها أذنت للحسن رضي الله تعالى عنه حين استأذنها في الدفن في الحجرة المباركة، ثم ندمت بعد وفاته رضي الله تعالى عنه وركبت على بغلة لها وأتت المسجد ومنعت الدفن ورمت السهام على جنازته الشريفة الطاهرة وادعت الميراث.

وأنشأ ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يقول:

تجملت تبغلت وإن عشت تفيلت ... لك التسع من الثمن فكيف الكل ملكت

وركاكة هذا الشعر تنادي بكذب نسبته إلى ذلك الحبر رضي الله تعالى عنه، وليت شعري أي حاجة لها إلى الركوب ومسكنها كان تلك الحجرة المباركة فلو كانت بصدد المنع لأغلقت بابها ثم إنها رضي الله تعالى عنها كيف يظن بها ولها من العقل الحظ الأوفر بالنسبة إلى سائر أخواتها أمهات المؤمنين تدعي الميراث وهي وأبوها رضي الله تعالى عنهما رويا بمحضر الصحابة الذين لا تأخذهم في الله تعالى لومة لائم «نحن معاشر الأنبياء لا نورث» هذا، ويجوز أن تكون إضافة البيوت إلى ضمير النساء المطهرات باعتبار أنهن ساكنات فيها قائمات بمصالحها قيّمات عليها، واستعمال الخاصة والعامة شائع بإضافة البيوت إلى الأزواج بهذا الاعتبار. والاستئذان يجوز أن يكون لانتقال كل بيت إلى ملك الساكنة فيه بعد وفاته ﷺ من جهة الخليفة ولي بيت المال لما رأى من المصلحة في تخصيص كل منهن

بمسكنه وتركه لها على نحو الإقطاع من بيت المال، ومما يستأنس به لكون الإضافة إلى ضميرهن بهذا الاعتبار لا لكون البيوت ملكهن إضافة البيت إلى النبي ﷺ في غير ما أثر، بل سيأتي إن شاء الله تعالى إضافة البيوت إليه عليه الصلاة والسلام وذلك في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم﴾ [الأحزاب: ٥٣] الآية وهي أحق بأن تكون للملك فليراجع هذا المطلب وليتأمل ﴿**ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى**﴾ التبرج على ما روي عن مجاهد وقتادة وابن أبي نجيح المشي بتبختر وتكسر وتغنج، وعن مقاتل أن تلقي المرأة خمارها على رأسها ولا تشده فيواري قلائدها وقرطها وعنقها ويبدو ذلك كله منها، وقال المبرد: أن تبدي من محاسنها ما يجب عليها ستره، قال الليث: ويقال تبرجت المرأة إذا أبدت محاسنها من وجهها وجسدها ويرى مع ذلك من عينها حسن نظر، وقال أبو عبيدة: أن تخرج من محاسنها ما تستدعي به شهوة للرجال، وأصله على ما في البحر من البرج وهو سعة العين وحسنها، ويقال طعنة برجاء أي واسعة وفي أسنانه برج إذا تفرق ما بينها وقيل: هو البرج بمعنى القصر، ومعنى تبرجت المرأة ظهرت من برجها أي قصرها، وجعل الراغب إطلاق البرج على سعة العين وحسنها للتشبيه بالبرج في الأمرين، ولا يخفى أنه لو فسر التبرج هنا بالظهور من البرج تكون هذه الجملة كالتأكيد لما قبلها فالأولى أن لا يفسر به، وتبرج مصدر تشبيهي مثل له صوت صوت حمار أي لا تبرجن مثل تبرج الجاهلية الأولى، وقيل في الكلام إضمار مضافين أي تبرج نساء أيام الجاهلية، وإضافة نساء على معنى في والمراد بالجاهلية الأولى على ما أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس الجاهلية ما بين نوح وإدريس عليهما السّلام وكانت ألف سنة، قال: وإن بطنين من ولد آدم كان أحدهما يسكن السهل والآخر يسكن الجبال، وكان رجال الجبال صباحاً وفي النساء دمامة، وكان نساء السهل ورجاله على العكس فاتخذ أهل السهل عيداً يجتمعون إليه في السنة، فتبرج النساء للرجال والرجال لهن، وأن رجلاً من أهل الجبل هجم عليهم في عيدهم فرأى النساء وصباحتهن فأتى أصحابه فأخبرهم بذلك فتحولوا إليهن فنزلوا معهن فظهرت الفاحشة فيهن، وفي رواية أن المرأة إذ ذاك تجتمع بين زوج وعشيق.

وأخرج ابن جرير عن الحكم بن عيينة قال: كان بين آدم ونوح عليهما السّلام ثمانمائة سنة فكان نساؤهم من أقبح ما يكون من النساء ورجالهم حسان وكانت المرأة تراود الرجل عن نفسه وهي الجاهلية الأولى. وروي مثله عن عكرمة، وقال الكلبي هي ما بين نوح وإبراهيم عليهما السّلام، وقال مقاتل: كانت زمن نمروذ وكان فيه بغايا يلبسن أرق الدروع ويمشين في الطرق، وروي عنه أيضاً أن الجاهلية الأولى زمن إبراهيم عليه السّلام والثانية زمن محمد ﷺ قبل أن يبعث، وقال أبو العالية: كانت الأولى زمن داود وسليمان عليهما السّلام وكان للمرأة قميص من الدر غير مخيط الجانبين يظهر منه الأعكان والسوأتان.

وقال المبرد: كانت المرأة تجمع بين زوجها وخدنها للزوج نصفها الأسفل وللخدن نصفها الأعلى يتمتع به في التقبيل والترشف، وقيل: ما بين موسى وعيسى عليهما السّلام، وقال الشعبي: ما بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام قال الزجاج: وهو الأشبه لأنهم هم الجاهلية المعروفة كانوا يتخذون البغايا، وإنما قيل ﴿**الأولى**﴾ لأنه يقال لكل متقدم ومتقدمة أول وأولى، وتأويله أنهم تقدموا على أمة محمد ﷺ وروي عن ابن عباس ما هو نص في أن الأولى هنا مقابل الأخرى، وقال الزمخشري: يجوز أن تكون الجاهلية الأولى جاهلية الكفر قبل الإسلام والجاهلية الأخرى جاهلية الفسوق والفجور في الإسلام فكأن المعنى ولا تحدثن بالتبرج جاهلية في الإسلام تتشبهن بها بأهل جاهلية الكفر.

وقال ابن عطية: الذي يظهر عندي أن الجاهلية الأولى إشارة إلى الجاهلية التي تخصهن فأمرن بالنقلة عن سيرتهن فيها وهي ما كان قبل الشرع من سيرة الكفر وقلة الغيرة ونحو ذلك. وفي حديث أخرجه الشيخان وأبو داود والترمذي أنه ﷺ قال لأبي ذر وكان قد عير رجلاً أمه أعجمية فشكاه إلى رسول الله ﷺ: يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية، وفسرها ابن الأثير بالحالة التي عليها العرب قبل الإسلام من الجهل بالله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام وشرائع الدين والمفاخرة بالأنساب والكبر والتجبر وغير ذلك والله تعالى أعلم، وتمسك الرافضة في طعن أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها وحاشاها من كل طعن بخروجها من المدينة إلى مكة ومنها إلى البصرة وهناك وقعت وقعة الجمل بهذه الآية قالوا: إن الله تعالى أمر نساء النبي ﷺ وهي منهن بالسكون في البيوت ونهاهن عن الخروج وهي بذلك قد خالفت أمر الله تعالى ونهيه عزّ وجلّ. وأجيب بأن الأمر بالاستقرار في البيوت والنهي عن الخروج ليس مطلقاً وإلا لما أخرجهن ﷺ بعد نزول الآية للحج والعمرة ولما ذهب بهن في الغزوات ولما رخص لهن لزيارة الوالدين وعيادة المرضى وتعزية الأقارب وقد وقع كل ذلك كما تشهد به الأخبار، وقد صح أنهن كلهن كن يحججن بعد وفاة رسول الله ﷺ إلا سودة بنت زمعة، وفي رواية عن أحمد عن أبي هريرة إلا زينب بنت جحش. وسودة ولم ينكر عليهن أحد من الصحابة رضي الله تعالى عنهم الأمير كرّم الله تعالى وجهه وغيره، وقد جاء في الحديث الصحيح أنه عليه الصلاة والسلام قال لهن بعد نزول الآية: «أذن لكن أن تخرجن لحاجتكن» فعلم أن المراد الأمر بالاستقرار الذي يحصل به وقارهن وامتيازهن على سائر النساء بأن يلازمن البيوت في أغلب أوقاتهن ولا يكن خراجات ولاجات طوافات في الطرق والأسواق وبيوت الناس، وهذا لا ينافي خروجهن للحج أو لما فيه مصلحة دينية مع التستر وعدم الابتذال، وعائشة رضي الله تعالى عنها، إنما خرجت من بيتها إلى مكة للحج وخرجت معها لذلك أيضاً أم سلمة رضي الله تعالى عنها وهي وكذا صفية مقبولة عند الشيعة لكنها لما سمعت بقتل عثمان رضي الله تعالى عنه وانحياز قتلته إلى علي كرّم الله تعالى وجهه حزنت حزناً شديداً واستشعرت اختلال أمر المسلمين وحصول الفساد والفتنة فيما بينهم، وبينما هي كذلك جاءها طلحة والزبير ونعمان بن بشير وكعب بن عجرة في آخرين من الصحابة رضي الله تعالى عنهم هاربين من المدينة خائفين من قتلة عثمان رضي الله تعالى عنهم لما أنهم أظهروا المباهاة بفعلهم القبيح، وأعلنوا بسب عثمان فضاقت قلوب أولئك الكرام وجعلوا يستقبحون ما وقع ويشنعون على أولئك السفلة ويلومونهم على ذلك الفعل الأشنع فصح عندهم عزمهم على إلحاقهم بعثمان رضي الله تعالى عنه وعلموا أن لا قدرة لهم على منعهم إذا هموا بذلك فخرجوا إلى مكة ولاذوا بأم المؤمنين وأخبروها الخبر فقالت لهم: أرى الصلاح أن لا ترجعوا إلى المدينة ما دام أولئك السفلة فيها محيطين بمجلس الأمير علي كرّم الله تعالى وجهه غير قادر على القصاص منهم أو طردهم فأقيموا ببلد تأمنون فيه وانتظروا انتظام أمور أمير المؤمنين رضي الله تعالى عنه وقوة شوكته واسعوا في تفرقهم عنه وإعانته على الانتقام منهم ليكونوا عبرة لمن بعدهم فارتضوا ذلك واستحسنوه فاختاروا البصرة لما أنها كانت إذ ذاك مجمعاً لجنود المسلمين ورجحوها على غيرها وألحوا على أمهم رضي الله تعالى عنها أن تكون معهم إلى أن ترتفع الفتنة ويحصل الأمن وتنتظم أمور الخلافة وأرادوا بذلك زيادة احترامهم وقوة أمنيتهم لما أنها أم المؤمنين والزوج المحترمة غاية الاحترام لرسول الله ﷺ وأنها كانت أحب أزواجه إليه وأكثرهن قبولاً عنده وبنت خليفته الأول رضي الله تعالى عنه فسارت معهم بقصد الإصلاح وانتظام الأمور وحفظ عدة نفوس من كبار الصحابة رضي الله تعالى عنهم وكان معها ابن أختها عبد الله بن الزبير وغيره من أبناء أخواتها أم كلثوم زوج طلحة وأسماء زوج الزبير بل كل من معها بمنزلة الأبناء في المحرمية وكانت في هودج من حديد.

فبلغ الأمير كرّم الله تعالى وجهه خبر التوجه إلى البصرة أولئك القتلة السفلة على غير وجهه وحملوه على أن يخرج إليهم ويعاقبهم، وأشار عليه الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر وعبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهم بعدم الخروج واللبث إلى أن يتضح الحال فأبى رضي الله تعالى عنه ليقضي الله أمراً كان مفعولاً فخرج كرّم الله تعالى وجهه ومعه أولئك الأشرار أهل الفتنة فلما وصلوا قريباً من البصرة أرسلوا القعقاع إلى أم المؤمنين، وطلحة والزبير ليتعرف مقاصدهم ويعرضها على الأمير رضي الله تعالى عنه وكرّم الله وجهه فجاء القعقاع إلى أم المؤمنين فقال: يا أماه ما أشخصك وأقدمك هذه البلدة؟ فقالت: أي بني الإصلاح بين الناس ثم بعثت إلى طلحة والزبير فقال القعقاع: أخبراني بوجه الصلاح قالا: إقامة الحد على قتلة عثمان وتطييب قلوب أوليائه فيكون ذلك سبباً لأمننا وعبرة لمن بعدهم فقال القعقاع: هذا لا يكون إلا بعد اتفاق كلمة المسلمين وسكون الفتنة فعليكما بالمسالمة في هذه الساعة فقالا: أصبت وأحسنت فرجع إلى الأمير كرّم الله تعالى وجهه فأخبره بذلك فسر به واستبشر وأشرف القوم على الرجوع ولبثوا ثلاثة أيام لا يشكون في الصلح فلما غشيتهم ليلة اليوم الرابع وقررت الرسل والوسائط في البين أن يظهروا المصالحة صبيحة هذه الليلة ويلاقي الأمير كرّم الله تعالى وجهه طلحة والزبير رضي الله تعالى عنهما وأولئك القتلة ليسوا حاضرين معه وتحققوا ذلك ثقل عليهم واضطربوا وضاقت عليهم الأرض بما رحبت فتشاوروا فيما بينهم أن يغيروا على من كان مع عائشة من المسلمين ليظنوا الغدر من الأمير كرّم الله تعالى وجهه فيهجموا على عسكره فيظنوا بهم أنهم هم الذين غدروا فينشب القتال ففعلوا ذلك فهجم من كان مع عائشة على عسكر الأمير وصرخ أولئك القتلة بالغدر فالتحم القتال وركب الأمير متعجباً فرأى الوطيس قد حمي والرجال قد سبحت بالدماء فلم يسعه رضي الله تعالى عنه إلا الاشتغال بالحرب والطعن والضرب، وقد نقل الواقعة كما سمعت الطبري وجماهير ثقاة المؤرخين ورووها كذلك من طرق متعددة عن الحسن وعبد الله بن جعفر وعبد الله بن عباس، وما وراء ذلك مما رواه الشيعة عن أسلافهم قتلة عثمان مما لا يلتفت له، ويدل على تغلب القتلة وقوة شوكتهم ما في نهج البلاغة المقبول عند الشيعة من أنه قال للأمير كرّم الله تعالى وجهه بعض أصحابه: لو عاقبت قوماً أجلبوا على عثمان فقال: يا إخوتاه إني لست أجهل ما تعلمون ولكن كيف لي بهم والمجلبون على شوكتهم يملكوننا ولا نملكهم وها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم والتفت إليهم أعرابكم وهم خلالكم يسومونكم ما شاؤوا.

فحيث كان الخروج أولاً للحج ومعها من محارمها من معها ولم يكن الأمر بالاستقرار في البيوت يتضمن النهي عن مثله لم يتوجه الطعن به أصلاً، وكذا المسير إلى البصرة لذلك القصد فإنه ليس أدون من سفر حج النفل؛ وما ترتب عليه لم يكن في حسابها ولم يمر ببالها ترتبه عليه، ولهذا لما وقع ما وقع وترتب ما ترتب ندمت غاية الندم، فقد روي أنها كلما كانت تذكر يوم الجمل تبكي حتى يبتل معجرها، بل أخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن المنذر وابن أبي شيبة وابن سعد عن مسروق قال: كانت عائشة رضي الله تعالى عنها إذا قرأت ﴿**وقرن في بيوتكن**﴾ بكت حتى تبل خمارها وما ذاك إلا لأن قراءتها تذكرها الواقعة التي قتل فيها كثير من المسلمين، وهذا كما أن الأمير كرّم الله تعالى وجهه أحزنه ذلك، فقد صح أنه رضي الله تعالى عنه لما وقع الانهزام على من مع أم المؤمنين وقتل من قتل من الجمعين طاف في مقتل القتلى فكان يضرب على فخذيه ويقول: يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً، وليس بكاؤها عند قراءة الآية لعلمها بأنها أخطأت في فهم معناها أو أنها نسيتها يوم خرجت كما توهم، وقال في ذلك مستهزئاً كاظم الأزدي البغدادي من متأخري شعراء الرافضة من قصيدة طويلة كفر بعدة مواضع فيها:

حفظت أربعين ألف حديث ... ومن الذكر آية تنساها

نعم قد ينضم لما ذكرناه في سبب البكاء أن النبي ﷺ قال يوماً لأزواجه المطهرات وفيهن عائشة «كأني بإحداكن تنبحها كلاب الحوأب» وفي بعض الروايات الغير المعتبرة عند أهل السنّة بزيادة «فإياك أن تكوني يا حميراء» ولم تكن سألت قبل المسير عن الحوأب هل هو واقع في طريقها أم لا حتى نبحتها في أثناء المسير كلاب عند ماء فقالت لمحمد بن طلحة: ما اسم هذا الماء؟ فقال: يقولون له حوأب فقالت أرجعوني وذكرت الحديث وامتنعت عن المسير وقصدت الرجوع فلم يوافقها أكثر من معها ووقع التشاجر حتى شهد مروان بن الحكم مع نحو من ثمانين رجلاً من دهاقين تلك الناحية بأن هذا الماء ماء آخر وليس هو حوأباً فمضت لشأنها بسبب ذلك وتعذر الرجوع ووقوع الأمر، فكأنها رضي الله تعالى عنها رأت سكوتها عن السؤال وتحقيق الحال قبل المسير تقصيراً منها وذنباً بالنسبة إلى مقامها فبكت له. ولما تقدم وما زعمته الشيعة من أنها رضي الله تعالى عنها كانت هي التي تحرض الناس على قتل عثمان وتقول: اقتلوا نعثلاً فقد فجره تشبهه بيهودي يدعى نعثلاً حتى إذا قتل وبايع الناس علياً قالت: ما أبالي أن تقع السماء على الأرض قتل والله مظلوماً وأنا طالبة بدمه فذكرها عبيد بما كانت تقول فقالت: قد والله قلت وقال الناس فأنشد:

فمنك البداء ومنك الغير ... ومنك الرياح ومنك المطر
و أنت أمرت بقتل الإمام ... وقلتِ لنا إنه قد فجر

كذب لا أصل له وهو من مفتريات ابن قتيبة وابن أعثم الكوفي والسمساطي وكانوا مشهورين بالكذب والافتراء، ومثل ذلك في الكذب زعمهم أنها رضي الله تعالى عنها ما خرجت وسارت إلى البصرة إلا لبغض علي كرّم الله تعالى وجهه فإنها لم تزل تروي مناقبه وفضائله، ومن ذلك ما رواه الديلمي أنها قالت: «قال رسول الله ﷺ حبُّ عليٍّ عبادة» وقالت بعد وقوع ما وقع: والله لم يكن بيني وبين علي إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها.

وقد أكرمها علي كرّم الله تعالى وجهه وأحسن مثواها وبالغ في احترامها وردها إلى المدينة ومعها جماعة من نساء أعيان البصرة عزيزة كريمة، وهذا مما يرد به على الرافضة الزاعمين كفرها وحاشاها بما فعلت، وما روي عن الأحنف بن قيس من أن علياً كرّم الله تعالى وجهه لما ظهر على أهل الجمل أرسل إلى عائشة أن ارجعي إلى المدينة فأبت فأعاد إليها الرسول وأمره أن يقول لها: والله لترجعن أو لأبعثن إليك نسوة من بكر بن وائل معهن شفار حداد يأخذنك بها فلما رأت ذلك خرجت لا يعول عليه وإن قيل: إنه رواه أبو بكر بن أبي شيبة في المصنف لمخالفته لما رواه الأوثق حتى كاد يبلغ مبلغ التواتر، هذا ولا يعكر على القول بجواز الخروج للحج ونحوه ما أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر عن محمد بن سيرين قال: ثبت أنه قيل لسودة رضي الله تعالى عنها زوج النبي ﷺ: ما لك لا تحجين ولا تعتمرين كما يفعل أخواتك؟ فقالت: قد حججت واعتمرت وأمرني الله تعالى أن أقر في بيتي فوالله لا أخرج من بيتي حتى أموت قال: فوالله ما خرجت من باب حجرتها حتى أخرجت جنازتها لأن ذلك مبني على اجتهادها كما أن خروج الأخوات مبني على اجتهادهن، نعم أخرج أحمد عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال لنسائه عام حجة الوداع: «هذه ثم لزوم الحصر» قال: فكان كلهن يحججن إلا زينب بنت جحش وسودة بنت زمعة وكانتا تقولان: والله لا تحركنا دابة بعد أن سمعنا ذلك من رسول الله ﷺ، والمراد بقوله عليه الصلاة والسلام: هذه الخ أنكن لا تعدن تخرجن بعد هذه الحجة من بيوتكن وتلزمن الحصر وهو جمع حصير الذي يبسط في البيوت من القصب وتضم الصاد وتسكن تخفيفاً وهو في معنى النهي عن الخروج للحج فلا يتم ما ذكر أولاً ويشكل خروج سائر الأزواج لذلك. وأجيب بأن الخبر ليس نصاً في النهي عن الخروج للحج بعد تلك الحجة وإلا لما خرج له سائر الأزواج الطاهرات من غير نكير

أحد من الصحابة رضي الله تعالى عنهم عليهن بل جاء أن عمر رضي الله تعالى عنه أرسلهن للحج في عهده وجعل معهن عثمان وعبد الرحمن بن عوف وقال لهما: إنكما ولدان باران لهن فليكن أحدكما قدام مراكبهن والآخر خلفها ولم ينكر أحد فكان إجماعاً سكوتياً على الجواز فكأن زينب وسودة فهما من الخبر قضيت هذه الحجة أو أبيحت لكن هذه الحجة بخصوصهما ثم الواجب بعدها عليكن لزوم البيوت فلم يحجا بعد لذلك، وغيرهما فهم منه المناسب لكن أو اللائق بكن هذه الحجة أي جنسها أو هذه الحالة من السفر للحج أو لأمر ديني مهم ثم بعد الفراغ المناسب أو اللائق لزوم البيوت فيكون مفاده إباحة الخروج لذلك، ومن أنصف لا يكاد يقول بإفادة الخبر الأمر بلزوم البيوت والنهي عن الخروج منها مطلقاً بعد تلك الحجة بخصوصها فإن النبي ﷺ مرض في بيت عائشة رضي الله تعالى عنها وبقي مريضاً فيه حتى توفي عليه الصلاة والسلام ولا يكاد يشك أحد في خروج سائرهن لعيادته أو يتصور استقرارهن في بيوتهن غير باليْن شوقهن برؤية طلعته الشريفة حتى توفي ﷺ فإن مثل ذلك لا يفعله أقل النساء حباً لأزواجهن الذين لا قدر لهم فكيف يفعله الأزواج الطاهرات مع رسول الله ﷺ وهو هو وحبهن له حبهن. ثم إن الجواب المذكور إنما يحتاج إليه بعد تسليم صحة الخبر ويحتاج الجزم بصحته إلى تنقير ومراجعة فلينقر وليراجع والله تعالى أعلم.

﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ﴾ أمرن بهما لإنافتهما على غيرهما وكونهما أساس العبادات البدنية والمالية.

﴿وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي في كل ما تأتين وتذرن لا سيما فيما أمرتن به ونهيتن عنه.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ استئناف بياني مفيد تعليل أمرهن ونهيهن، والرجس في الأصل الشيء القذر وأريد به هنا عند كثير الذنب مجازاً، وقال السدي: الإثم وقال الزجاج: الفسق وقال ابن زيد: الشيطان، وقال الحسن: الشرك، وقيل: الشك، وقيل: البخل والطمع، وقيل: الأهواء والبدع، وقيل: إن الرجس يقع على الإثم وعلى العذاب وعلى النجاسة وعلى النقائص، والمراد به هنا ما يعم كل ذلك، ولا يخفى عليك ما في بعض هذه الأقوال من الضعف، وأل فيه للجنس أو للاستغراق، والمراد بالتطهير قيل التحلية بالتقوى، والمعنى على ما قيل إنما يريد الله ليذهب عنكم الذنوب والمعاصي فيما نهاكم ويحليكم بالتقوى تحلية بليغة فيما أمركم، وجوز أن يراد به الصون، والمعنى إنما يريد سبحانه ليذهب عنكم الرجس ويصونكم من المعاصي صوناً بليغاً فيما أمر ونهى جل شأنه. واختلف في لام ﴿لِيذهب﴾ فقيل زائدة وما بعدها في موضع المفعول به ليريد فكأنه قيل: يريد الله إذهاب الرجس عنكم وتطهيركم، وقيل: للتعليل ثم اختلف هؤلاء فقيل المفعول محذوف أي إنما يريد الله أمركم ونهيكم ليذهب أو إنما يريد منكم ما يريد ليذهب أو نحو ذلك، وقال الخليل وسيبويه ومن تابعهما: الفعل في ذلك مقدر بمصدر مرفوع بالابتداء واللام وما بعدها خبر أي إنما إرادة الله تعالى للإذهاب على حد ما قيل في ـ تسمع بالمعيدي خير من أن تراه ـ فلا مفعول للفعل، وقال الطبرسي: اللام متعلق بمحذوف تقديره وإرادته ليذهب وهو كما ترى، وهذا الذي ذكروه جار في قوله تعالى: ﴿يريد الله ليبين لكم﴾ [النساء: ٢٦] ﴿أمرنا لنسلم لرب العالمين﴾ [الأنعام: ٧١] وقول الشاعر:

أريد لأنسى ذكرها فكأنما ... تمثل لي ليلى بكل مكان

ونصب ﴿أهل﴾ على النداء، وجوز أن يكون على المدح فيقدر أمدح أو أعني، وأن يكون على الاختصاص وهو قليل في المخاطب ومنه بك الله نرجو الفضل، وأكثر ما يكون في المتكلم كقوله: نحن بنات طارق نمشي على النمارق.

وأل في البيت للعهد، وقيل: عوض عن المضاف إليه أي بيت النبي ﷺ والظاهر أن المراد به بيت الطين

والخشب لا بيت القرابة والنسب وهو بيت السكنى لا المسجد النبوي كما قيل، وحينئذٍ فالمراد بأهله نساؤه ﷺ المطهرات للقرائن الدالة على ذلك من الآيات السابقة واللاحقة مع أنه عليه الصلاة والسلام ليس له بيت يسكنه سوى سكناهن، وروى ذلك غير واحد، أخرج ابن أبي حاتم وابن عساكر من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما نزلت ﴿إنما يريد الله﴾ الخ في نساء النبي ﷺ خاصة، وأخرج ابن مردويه من طريق ابن جبير عنه ذلك بدون لفظ خاصة، وقال عكرمة من شاء بأهلته أنها نزلت في أزواج النبي ﷺ، وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن عكرمة أنه قال في الآية: ليس بالذي تذهبون إليه إنما هو نساء النبي ﷺ.

وروى ابن جرير أيضاً أن عكرمة كان ينادي في السوق أن قوله تعالى: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت﴾ نزل في نساء النبي ﷺ، وأخرج ابن سعد عن عروة ﴿ليذهب عنكم الرجس أهل البيت﴾ قال: يعني أزواج النبي ﷺ وتوحيد البيت لأن بيوت الأزواج المطهرات باعتبار الإضافة إلى النبي ﷺ بيت واحد وجمعه فيما سبق ولحق باعتبار الإضافة إلى الأزواج المطهرات اللاتي كن متعددات وجمعه في قوله سبحانه الآتي إن شاء الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم﴾ [الأحزاب: ٥٣] دفعاً لتوهم إرادة بيت زينب لو أفرد من حيث أن سبب النزول أمر وقع فيه كما ستطلع عليه إن شاء الله تعالى، وأورد ضمير جمع المذكر في ﴿عنكم﴾ و ﴿يطهركم﴾ رعاية للفظ الأهل والعرب كثيراً ما يستعملون صيغ المذكر في مثل ذلك رعاية للفظ وهذا كقوله تعالى خطاباً لسارة: امرأة الخليل عليهما السّلام ﴿أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد﴾ [هود: ٧٣] ومنه على ما قيل قوله سبحانه: ﴿قال لأهله امكثوا إني آنست ناراً﴾ خطاباً من موسى عليه السّلام لامرأته ولعل اعتبار التذكير هنا أدخل في التعظيم، وقيل: المراد هو ﷺ ونساؤه المطهرات رضي الله تعالى عنهن وضمير جمع المذكر لتغليبه عليه الصلاة والسلام عليهن. وقيل: المراد بالبيت بيت النسب ولذا أفرد ولم يجمع كما في السابق واللاحق.

فقد أخرج الحكيم الترمذي والطبراني وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قسم الخلق قسمين فجعلني في خيرهما قسماً فذلك قوله تعالى: ﴿وأصحاب اليمين﴾ [الواقعة: ٢٧]. ﴿وأصحاب الشمال﴾ [الواقعة: ٤١] فأنا من أصحاب اليمين وأنا خير أصحاب اليمين ثم جعل القسمين أثلاثاً فجعلني في خيرها ثلثاً فذلك قوله تعالى[١]: ﴿وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة والسابقون السابقون﴾ [الواقعة: ٩، ١٠] فأنا من السابقين وأنا خير السابقين ثم جعل إلا ثلاث قبائل فجعلني في خيرها قبيلة وذلك قوله تعالى: ﴿وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ [الحجرات: ١٣] وأنا أتقى ولد آدم وأكرمهم على الله تعالى ولا فخر ثم جعل القبائل بيوتاً فجعلني في خيرها بيتاً فذلك قوله تعالى: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾ أنا وأهل بيتي مطهرون من الذنوب» فإن المتبادر من البيت الذي هو قسم من القبيلة البيت النسبي، واختلف في المراد بأهله فذهب الثعلبي إلى أن المراد بهم جميع بني هاشم ذكورهم وإناثهم، والظاهر أنه أراد مؤمني بني هاشم وهذا هو المراد بالآل عند الحنفية، وقال بعض الشافعية: المراد بهم آله ﷺ الذين هم مؤمنو بني هاشم والمطلب، وذكر الراغب أن أهل البيت تعورف في أسرة النبي ﷺ مطلقاً وأسرة الرجل على ما في القاموس رهطه أي قومه وقبيلته الأدنون، وقال في موضع آخر: صار أهل البيت

---

(١) قوله: وأصحاب المشأمة الخ كذا بخطه وفيه حذف صدر الآية وهو الثلث الأول ا هـ.

متعارفاً في إله عليه الصلاة والسلام، وصح عز زيد بن أرقم في حديث أخرجه مسلم أنه قيل له: من أهل بيته نساؤه ﷺ؟ فقال: لا ايم الله إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده ﷺ، وفي آخر أخرجه هو أيضاً مبين هؤلاء الذين حرموا الصدقة أنه قال: هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس، وقال بعض الشيعة: أهل البيت سواء أريد به البيت المدر والخشب أم بيت القرابة والنسب عام، أما عمومه على الثاني فظاهر، وأما على الأول فلأنه يشمل الإماء والخدم فإن البيت المدري يسكنه هؤلاء أيضاً وقد صح ما يدل على أن العموم غير مراد.

أخرج الترمذي والحاكم وصححاه وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في سننه من طرق عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها قالت في بيتي نزلت إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت وفي البيت فاطمة وعلي والحسن والحسين فجللهم رسول الله ﷺ بكساء كان عليه ثم قال: هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

وجاء في بعض الروايات أنه عليه الصلاة والسلام أخرج يده من الكساء وأومأ بها إلى السماء وقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ثلاث مرات.

وفي بعض آخر أنه عليه الصلاة والسلام ألقى عليهم كساء فدكياً ثم وضع يده عليهم ثم قال: اللهم إن هؤلاء أهل بيتي وفي لفظ آل محمد فاجعل صلواتك وبركاتك على آل محمد كما جعلتها على آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

وجاء في رواية أخرجها الطبراني عن أم سلمة أنها قالت: فرفعت الكساء لأدخل معهم فجذبه ﷺ من يدي وقال: إنك على خير، وفي أخرى رواها ابن مردويه عنها أنها قالت ألست من أهل البيت؟ فقال ﷺ إنك إلى خير إنك من أزواج النبي ﷺ وفي آخرها رواها الترمذي وجماعة عن عمر بن أبي سلمة ربيب النبي عليه الصلاة والسلام قال: قالت أم سلمة وأنا معهم: يا نبي الله قال: أنت على مكانك وإنك على خير وأخبار إدخاله ﷺ علياً وفاطمة وابنيهما رضي الله تعالى عنهم تحت الكساء، وقوله عليه الصلاة والسلام اللهم هؤلاء أهل بيتي ودعائه لهم وعدم إدخال أم سلمة أكثر من أن تحصى، وهي مخصصة لعموم أهل البيت بأي معنى كان البيت فالمراد بهم من شملهم الكساء ولا يدخل فيهم أزواجه ﷺ، وقد صرح بعدم دخولهن من الشيعة عبد الله المشهدي وقال المراد من البيت بيت النبوة ولا شك أن أهل البيت لغة شامل للأزواج بل للخدام من الإماء اللائي يسكن في البيت أيضاً: وليس المراد هذا المعنى اللغوي بهذه السعة بالاتفاق فالمراد به آل العباء الذين خصصهم حديث السكاء وقال أيضاً: إن كون البيوت جمعاً في ﴿**بيوتكن**﴾ وإفراد البيت في ﴿**أهل البيت**﴾ يدل على أن بيوتهن غير بيت النبي ﷺ ا هـ، وفيه ما ستعلمه إن شاء الله تعالى وقيل المراد بالبيت بيت السكنى وبيت النسب وأهل ذلك أهل كل من البيتين وقد سمعت ما قيل فيه وفيه الجمع بين الحقيقة والمجاز.

وقال بعض المحققين: المراد بالبيت بيت السكنى وأهله على ما يقتضيه سياق الآية وسباقها والأخبار التي لا تحصى كثرة ويشهد له العرف من له مزيد اختصاص به إما بالسكنى فيه مع القيام بمصالحه وتدبير شأنه والاهتمام بأمره وعدم كون الساكن في معرض التبدل والتحول بحكم العادة الجارية من بيع وهبة كالأزواج أو بالسكنى فيه كذلك بدون ملاحظة القيام بالمصالح كالأولاد أو بقربة من صاحبه تقضي بحسب العادة بالتردد إليه والجلوس فيه من غير طلب من صاحبه لذلك أو بعدم المنع من ذلك فالأولاد الذين لا يسكنونه وكأولادهم وإن نزلوا وكالأعمام وأولاد

الأعمام على هذا يحصل الجمع بين الأخبار وقد سمعت بعضها كحديث الكساء ولا دلالة فيه على الحصر، وكالحديث الحسن أنه ﷺ اشتمل على العباس وبنيه بملاءة ثم قال: يا رب هذا عمي وصنو أبي وهؤلاء أهل بيتي فاسترهم من النار كستري إياهم بملاءتي هذه فأمنت أسكفة الباب وحوائط البيت فقالت آمين ثلاثاً.

وجاء في بعض الروايات أنه عليه الصلاة والسلام ضم إلى أهل الكساء علي وفاطمة والحسنين رضي الله تعالى عنهم بقية بناته وأقاربه وأزواجه وصح عن أم سلمة في بعض آخر أنها قالت، فقلت يا رسول الله أما أنا من أهل البيت؟ فقال: بلى إن شاء الله تعالى، وفي بعض آخر أيضاً أنها قالت له ﷺ؟ ألست من أهلك قال: بلى وأنه عليه الصلاة والسلام أدخلها الكساء بعد ما قضى دعاءه لهم، وقد تكرر كما أشار إليه المحب الطبري منه ﷺ الجمع وقول هؤلاء أهل بيتي والدعاء في بيت أم سلمة وبيت فاطمة رضي الله تعالى عنهما وغيرهما وبه جمع بين اختلاف الروايات في هيئة الاجتماع وما جلل ﷺ به المجتمعين وما دعا به لهم، وما أجاب به أم سلمة وعدم إدخالها في بعض المرات تحت الكساء ليس لأنها ليست من أهل البيت أصلاً بل لظهور أنها منهم حيث كانت من الأزواج اللاتي يقتضي سياق الآية وسباقها دخولهن فيهم بخلاف من أدخلوا تحته رضي الله تعالى عنهم فإنه عليه الصلاة والسلام لو لم يدخلهم ويقل ما قال لتوهم عدم دخولهم في الآية لعدم اقتضاء سياقها وسباقها ذلك، وذكر ابن حجر على تقدير صحة بعض الروايات المختلفة الحمل على أن النزول كان مرتين، وقد أدخل ﷺ بعض من لم يكن بينه وبينه قرابة شبيبة ولا نسبية في أهل البيت توسعاً وتشبيهاً كسلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه حيث قال عليه الصلاة والسلام «سلمان منا أهل البيت» وجاء في رواية صحيحة أن واثلة قال: وأنا من أهلك يا رسول الله؟ فقال: عليه الصلاة والسلام وأنت من أهلي فكان واثلة يقول: إنها لمن أرجى ما أرجو، والخبر الدال بظاهره على أن المراد بالبيت البيت النسبي أعني خبر الحكيم الترمذي ومن معه عن ابن عباس يجوز حمل البيت فيه على بيت المدر والحيوان ينقسم إلى رومي وزنجي مثلاً كما ينقسم الإنسان إليهما على أن في رواته من وثقه ابن معين وضعفه غيره والجرح مقدم على التعديل وما روي عن زيد بن أرقم رضي الله تعالى عنه من نفي كون أزواجه ﷺ أهل بيته وكون أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده عليه الصلاة والسلام فالمراد بأهل البيت فيه أهل البيت الذين جعلهم رسول الله ﷺ ثاني الثقلين لا أهل البيت بالمعنى الأعم المراد في الآية، ويشهد لهذا ما في صحيح مسلم عن يزيد بن حبان قال: انطلقت أنا وحصين بن سبرة وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم فلما جلسنا إليه قال له حصين: لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً رأيت رسول الله ﷺ وسمعت حديثه وغزوت معه وصليت خلفه لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً حدثنا يا زيد بما سمعت من رسول الله ﷺ قال: يا ابن أخي والله لقد كبرت سني وقدم عهدي ونسيت بعض الذي كنت أعي من رسول الله ﷺ فما حدثتكم فاقبلوا وما لا لا تكلفونيه ثم قال: قام رسول الله ﷺ يوماً فينا خطيباً بماء يدعى خماً بين مكة والمدينة فحمد الله تعالى وأثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال: «أما بعد ألا يا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب وإني تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به» فحث على كتاب الله ورغب فيه، ثم قال: «وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي ثلاثاً ـ فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد أليس نساؤه من من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده ـ قال: ومن هم قال هم آل على وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس» الحديث فإن الاستدراك بعد جعله النساء من أهل بيته ﷺ ظاهر في أن الغرض بيان المراد بأهل البيت في الحديث الذي حدث به عن رسول الله عليه الصلاة والسلام وهم فيه ثاني الثقلين فلأهل البيت إطلاقان يدخل في أحدهما النساء ولا يدخلن في الآخر وبهذا يحصل الجمع بين هذا الخبر والخبر السابق المتضمن نفيه رضي الله تعالى عنه كون النساء من أهل البيت.

وقال بعضهم: إن ظاهر تعليله نفي كون النساء أهل البيت بقوله: ايم الله إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها يقتضي أن لا يكن من أهل البيت مطلقاً فلعله أراد بقوله في الخبر السابق نساؤه من أهل بيته نساؤه الخ بهمزة الاستفهام الإنكاري فيكون بمعنى ليس نساؤه من أهل بيته كما في معظم الروايات في غير صحيح مسلم ويكون رضي الله تعالى عنه ممن يرى أن نساءه عليه الصلاة والسلام لسن من أهل البيت أصلاً ولا يلزمنا أن ندين الله تعالى برأيه لا سيما وظاهر الآية معنا وكذا العرف وحينئذٍ يجوز أن يكون أهل البيت الذين هم أحد الثقلين بالمعنى الشامل للأزواج وغيرهن من أصله وعصبته ﷺ الذين حرموا الصدقة بعده ولا يضر في ذلك عدم استمرار بقاء الأزواج كما استمر بقاء الآخرين مع الكتاب كما لا يخفى ا هـ، وأنت تعلم أن ظاهر ما صح من قوله ﷺ: «إني تارك فيكم خليفتين ـ وفي رواية ـ ثقلين كتاب الله حبل ممدود ما بين السماء والأرض وعترتي أهل بيتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض» يقتضي أن النساء المطهرات غير داخلات في أهل البيت الذين هم أحد الثقلين لأن عترة الرجل كما في الصحاح نسله ورهطه الأدنون، وأهل بيتي في الحديث الظاهر أنه بيان له أو بدل منه بدل كل من كل وعلى التقديرين يكون متحداً معه فحيث لم تدخل النساء في الأول لم تدخل في الثاني. وفي النهاية أن عترة النبي ﷺ بنو عبد المطلب وقيل أهل بيته الأقربون وهم أولاده وعلي وأولاده رضي الله تعالى عنهم، وقيل: عترته الأقربون والأبعدون منهم ا هـ. والذي رجحه القرطبي أنهم من حرمت عليهم الزكاة، وفي كون الأزواج المطهرات كذلك خلاف قال ابن حجر: والقول بتحريم الزكاة عليهن ضعيف وإن حكي ابن عبد البرّ الإجماع عليه فتأمل، ولا يرد على حمل أهل البيت في الآية على المعنى الأعم ما أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني عن أبي سعيد الخدري قال: «قال رسول الله ﷺ نزلت هذه الآية في خمسة في وفي علي وفاطمة وحسن وحسين إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً» إذ لا دليل فيه على الحصر والعدد لا مفهوم له، ولعل الاقتصار على من ذكر صلوات الله تعالى وسلامه عليهم لأنهم أفضل من دخل في العموم وهذا على تقدير صحة الحديث والذي يغلب على ظني أنه غير صحيح إذ لم أعهد نحو هذا في الآيات منه ﷺ في شيء من الأحاديث الصحيحة التي وقفت عليها في أسباب النزول، وبتفسير أهل البيت بمن له مزيد اختصاص به على الوجه الذي سمعت يندفع ما ذكره المشهدي من شموله للخدام والإماء والعبيد الذين يسكنون البيت فإنهم في معرض التبدل والتحول بانتقالهم من ملك إلى ملك بنحو الهبة والبيع وليس لهم قيام بمصالحه واهتمام بأمره وتدبير لشأنه إلا حيث يؤمرون بذلك، ونظمهم في سلك الأزواج ودعوى أن نسبة الجميع إلى البيت على حد واحد مما لا يرتضيه منصف ولا يقول به إلا متعسف.

وقال بعض المتأخرين: إن دخولهم في العموم مما لا بأس به عند أهل السنّة لأن الآية عندهم لا تدل على العصمة ولا حجر على رحمة الله عزّ وجلّ ولأجل عين ألف عين تكرم، وأما أمر الجمع والأفراد فقد سمعت ما يتعلق به، والظاهر على هذا القول أن التعبير بضمير جمع المذكر في ﴿عنكم﴾ للتغليب، وذكر أن في ﴿عنكم﴾ عليه تغليبين أحدهما تغليب المذكر على المؤنث، وثانيهما تغليب المخاطب على الغائب إذ غير الأزواج المطهرات من أهل البيت لم يجر لهم ذكر فيما قبل ولم يخاطبوا بأمر أو نهي أو غيرهما فيه، وأمر التعليل عليه ظاهر وإن لم يكن كظهوره على القول بأن المراد بأهل البيت الأزواج المطهرات فقط.

واعتذر المشهدي عن وقوع جملة ﴿إنما يريد الله﴾ الخ في البين بأن مثله واقع في القرآن الكريم فقد قال تعالى شأنه: ﴿قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حمل﴾ [النور: ٥٤] ثم قال سبحانه بعد تمام الآية: ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ [النور: ٥٦] فعطف أقيموا على أطيعوا مع وقوع الفصل الكثير بينهما، وفيه أنه وقع

بعد ﴿أقيموا الصلاة﴾ الخ ﴿وأطيعوا الرسول﴾ فلو كان العطف على ما ذكر لزم عطف أطيعوا على أطيعوا وهو كما ترى.

سلمنا أن لا فساد في ذلك إلا أن مثل هذا الفصل ليس في محل النزاع فإنه فصل بين المعطوف والمعطوف عليه بالأجنبي من حيث الإعراب وهو لا ينافي البلاغة وما نحن فيه على ما ذهبوا إليه فصل بأجنبي باعتبار موارد الآيات اللاحقة والسابقة، وإنكار منافاته للبلاغة القرآنية مكابرة لا تخفى. ومما يضحك منه الصبيان أنه قال بعد: إن بين الآيات مغايرة إنشائية وخبرية لأن آية التطهير جملة ندائية وخبرية وما قبلها وما بعدها من الأمر والنهي جمل إنشائية وعطف الإنشائية على الخبرية لا يجوز، ولعمري أنه أشبه كلام من حيث الغلط بقول بعض عوام الأعجام: خسن وخسين دختران مغاوية ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾ [النور: ٤٠] ثم إن الشيعة استدلوا بالآية بعد قولهم: بتخصيص أهل البيت فيها بمن سمعت وجعل ﴿ليذهب﴾ مفعولاً به ﴿ليريد﴾ وتفسير الرجس بالذنوب على العصمة فذهبوا إلى أن علياً وفاطمة والحسنين رضي الله تعالى عنهم معصومون من الذنوب عصمته ﷺ منها، وتعقبه بعض أجلة المتأخرين بأنه لو فرض تعين كل ما ذهبوا إليه لا تسلم دلالتها على العصمة بل لها دلالة على عدمها إذ لا يقال في حق من هو طاهر: إني أريد أن أطهره ضرورة امتناع تحصيل الحاصل، وغاية ما في الباب أن كون أولئك الأشخاص رضي الله تعالى عنهم محفوظين من الرجس والذنوب بعد تعلق الإرادة بإذهاب رجسهم يثبت بالآية ولكن هذا أيضاً على أصول أهل السنّة لا على أصول الشيعة لأن وقوع مراده تعالى غير لازم عندهم لإرادته عزّ وجلّ مطلقاً وبالجملة لو كانت إفادة معنى العصمة مقصودة لقيل هكذا إن الله أذهب عنكم الرجس أهل البيت وطهركم تطهيراً وأيضاً لو كانت مفيدة للعصمة ينبغي أن يكون الصحابة لا سيما الحاضرين في غزوة بدر قاطبة معصومين لقوله تعالى فيهم: ﴿ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون﴾ [المائدة: ٦] بل لعل هذا أفيد لما فيه من قوله سبحانه: ﴿وليتم نعمته عليكم﴾ فإن وقوع هذا الإتمام لا يتصور بدون الحفظ عن المعاصي وشر الشيطان اهـ. وقرر الطبرسي وجه الاستدلال بها على العصمة بأن ﴿إنما﴾ لفظة محققة لما أثبت بعدها نافية لما لم يثبت فإذا قيل: إنما لك عندي درهم أفاد أنه ليس للمخاطب عنده سوى درهم فتفيد الآية تحقق الإرادة ونفي غيرها، والإرادة لا تخلو من أن تكون هي الإرادة المحضة أو الإرادة التي يتبعها التطهير وإذهاب الرجس لا يجوز أن تكون الإرادة المحضة لأنه سبحانه وتعالى قد أراد من كل مكلف ذلك بالإرادة المحضة فلا اختصاص لها بأهل البيت دون سائر المكلفين ولأن هذا القول يقتضي المدح والتعظيم لهم بلا ريب ولا مدح في الإرادة المجردة فتعين إرادة الإرادة بالمعنى الثاني، وقد علم أن من عدا أهل الكساء غير مراد فتختص العصمة بهم اهـ. وهو كما ترى، على أنه قد ورد في كتب الشيعة ما يدل على عدم عصمة الأمير كرّم الله تعالى وجهه وهو أفضل من ضمه الكساء بعد رسول الله ﷺ ففي نهج البلاغة أنه كرّم الله تعالى وجهه قال لأصحابه: لا تكفوا عن مقالة بحق أو مشورة بعدل فإني لست بفوق أن أخطىء ولا آمن من ذلك في فعلي إلا أن يلقي الله تعالى في نفسي ما هو أملك به مني.

وفيه أيضاً كان كرّم الله تعالى وجهه يقول في دعائه: اللهم اغفر لي ما تقربت به إليك وخالفه قلبي، وقصد التعليم كما في بعض الأدعية النبوية بعيد كذا قيل فتدبر ولا تغفل، وفسر بعض أهل السنّة الإرادة ها هنا بالمحبة قالوا: لأنه لو أريد بها الإرادة التي يتحقق عندها الفعل لكان كل من أهل البيت إلى يوم القيامة محفوظاً من كل ذنب والمشاهد خلافه، والتخصيص بأهل الكساء وسائر الأئمة الاثني عشر كما ذهب إليه الإمامية المدعون عصمتهم مما لا يقوم عليه دليل عندنا، والمدح جاء من جهة الاعتناء بشأنهم وإفادتهم محبة الله تعالى لهم هذا الأمر الجليل الشأن ومخاطبته سبحانه إياهم بذلك وجعله قرآناً يتلى إلى يوم القيامة.

وقد يستدل على كون الإرادة ها هنا بالمعنى المذكور دون المعنى المشهور الذي يتحقق عنده الفعل بأنه ﷺ قال حين أدخل علياً وفاطمة والحسنين رضي الله تعالى عنهم تحت الكساء «اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً» فإنه أي حاجة للدعاء لو كان ذلك مراداً بالإرادة بالمعنى المشهور وهل هو الادعاء بحصول واجب الحصول.

واستدل بهذا بعضهم على عدم نزول الآية في حقهم وإنما أدخلهم ﷺ في أهل البيت المذكور في الآية بدعائه الشريف عليه الصلاة والسلام ولا يخلو جميع ما ذكر عن بحث، والذي يظهر لي أن المراد بأهل البيت من لهم مزيد علاقة به ﷺ ونسبة قوية قريبة إليه عليه الصلاة والسلام بحيث لا يقبح عرفاً اجتماعهم وسكناهم معه ﷺ في بيت واحد ويدخل في ذلك أزواجه والأربعة أهل الكساء وعلي كرّم الله تعالى وجهه مع ماله من القرابة من رسول الله ﷺ قد نشأ في بيته وحجره عليه الصلاة والسلام فلم يفارقه وعامله كولده صغيراً أو صاهره وآخاه كبيراً، والإرادة على معناها الحقيقي المستتبع للفعل، والآية لا تقوم دليلاً على عصمة أهل بيته ﷺ وعليهم وسلم الموجودين حين نزولها وغيرهم ولا على حفظهم من الذنوب على ما يقوله أهل السنّة لا لاحتمال أن يكون المراد توجيه الأمر والنهي أو نحوه لإذهاب الرجس والتطهير بأن يجعل المفعول به «ليريد» محذوفاً ويجعل ﴿ليذهب﴾ و «يطهر» في موضع المفعول له وإن لم يكن فيه بأس وذهب إليه من ذهب بل لأن المعنى حسبما ينساق إليه الذهن ويقتضيه وقوع الجملة موقع التعليل للنهي والأمر نهاكم الله تعالى وأمركم لأنه عزّ وجلّ يريد بنهيكم وأمركم إذهاب الرجس عنكم وتطهيركم وفي ذلك غاية المصلحة لكم ولا يريد بذلك امتحانكم وتكليفكم بلا منفعة تعود إليكم وهو على معنى الشرط أي يريد بنهيكم وأمركم ليذهب عنكم الرجس ويطهركم إن انتهيتم وائتمرتم ضرورة أن أسلوب الآية نحو أسلوب قول القائل لجماعة علم أنهم إذا شربوا الماء أذهب عنهم عطشهم لا محالة يريد الله سبحانه بالماء ليذهب عنكم العطش فإنه على معنى يريد سبحانه بالماء إذهاب العطش عنكم إن شربتوه فيكون المراد إذهاب العطش بشرط شرب المخاطبين الماء لا الإذهاب مطلقاً. فمفاد التركيب في المثال تحقق إذهاب العطش بعد الشرب وفيما نحن فيه إذهاب الرجس والتطهير بعد الانتهاء والائتمار لأن المراد الإذهاب المذكور بشرطهما فهو متحقق الوقوع بعد تحقق الشرط وتحققه غير معلوم إذ هو أمر اختياري وليس متعلق الإرادة، والمراد بالرجس الذنب وإذهابه إزالة مبادئه بتهذيب النفس وجعل قواها كالقوة الشهوانية والقوة الغضبية بحيث لا ينشأ عنهما ما ينشأ من الذنوب كالزنا وقتل النفس التي حرم الله تعالى وغيرهما لا إزالة نفس الذنب بعد تحققه في الخارج وصدوره من الشخص إذ هو غير معقول إلا على معنى محوه من صحائف الأعمال وعدم المؤاخذة عليه وإرادة ذلك كما ترى.

وكأن مآل الإذهاب التخلية ومآل التطهير التحلية بالحاء المهملة، والآية متضمنة الوعد منه عزّ وجلّ لأهل بيت نبيه ﷺ بأنهم أن ينتهوا عما ينهي عنه ويأتمروا بما يأمرهم به يذهب عنهم لا محالة مبادىء ما يستهجن ويحليهم أجلّ تحلية بما يستحسن، وفيه إيماء إلى قبول أعمالهم وترتب الآثار الجميلة عليها قطعاً ويكون هذا خصوصية لهم ومزية على من عداهم من حيث إن أولئك الأغيار إذا انتهوا وائتمروا لا يقطع لهم بحصول ذلك.

ولذا نجد عباد أهل البيت أتم حالاً من سائر العباد المشاركين لهم في العبادة الظاهرة وأحسن أخلاقاً وأزكى نفساً وإليهم تنتهي سلاسل الطرائق التي مبناها كما لا يخفى على سالكيها التخلية والتحلية اللتان هما جناحان للطيران إلى حظائر القدس والوقوف على أوكار الأنس حتى ذهب قوم إلى أن القطب في كل عصر لا يكون إلا منهم خلافاً للأستاذ أبي العباس المرسي حيث ذهب كما نقل عنه تلميذه التاج بن عطاء الله إلى أنه قد يكون من غيرهم، ورأيت

في مكتوبات الإمام الفاروقي الرباني مجدد الألف الثاني قدس سره ما حاصله أن القطبية لم تكن على سبيل الأصالة إلا الأئمة أهل البيت المشهورين ثم إنها صارت بعدهم لغيرهم على سبيل النيابة عنهم حتى انتهت النوبة إلى السيد الشيخ عبد القادر الكيلاني قدس سره النوراني فنال مرتبة القطبية على سبيل الأصالة فلما عرج بروحه القدسية إلى أعلى عليين نال من نال بعده تلك الرتبة على سبيل النيابة عنه فإذا جاء المهدي ينالها أصالة كما نالها غيره من الأئمة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ا هـ، وهذا مما لا سبيل إلى معرفته والوقوف على حقيته إلا بالكشف وأنى لي به.

والذي يغلب على ظني أن القطب قد يكون من غيرهم لكن قطب الأقطاب لا يكون إلا منهم لأنهم أزكى الناس أصلاً وأوفرهم فضلاً وأن من ينال هذه الرتبة منهم لا ينالها إلا على سبيل الأصالة دون النيابة والوكالة وأنا لا أعقل النيابة في ذلك المقام وإن عقلت قلت: كل قطب في كل عصر نائب عن نبينا عليه من الله تعالى أفضل الصلاة وأكمل السلام ولا بدع في نيابة الأقطاب بعده عنه ﷺ كما نابت عنه الأنبياء قبله فهو عليه الصلاة والسلام الكامل المكمل للخليقة والواسطة في الإفاضة عليهم على الحقيقة وكل من تقدمه عصراً من الأنبياء وتأخر عنه من الأقطاب والأولياء نواب عنه ومستمدون منه، وأقول إن السيد الشيخ عبد القادر قدس سره وغمرنا بره قد نال ما نال من القطبية بواسطة جده عليه الصلاة والسلام على أتم وجه وأكمل حال فقد كان رضي الله تعالى عنه من أجلة أهل البيت حسنياً من جهة الأب حسينياً من جهة الأم لم يصبه نقص لو أن وعسى وليت ولا ينكر ذلك إلا زنديق أو رافضي ينكر صحبة الصديق وأرى أن قوله رضي الله تعالى عنه:

أفلت شموس الأولين وشمسنا ... أبداً على فلك العلا لا تغرب

لا يدل على أن من ينال القطبية بعده من أهل البيت الذين عنصرهم وعنصره واحد نائب عنه ليس له فيض إلا منه بل غاية ما يدل عليه ويومىء إليه استمرار ظهور أمره وانتشار صيته وشهرة طريقته وعموم فيضه لمن استفاض على الوجه المعروف عند أهله منه وذلك مما لا يكاد ينكر وأظهر من الشمس والقمر، هذا ما عندي في الكلام على الآية الكريمة المتضمنة لفضيلة لأهل البيت عظيمة، ويعلم منه وجه التعبير بيريد على صيغة المضارع ووجه تقديم إذهاب الرجس على التطهير ووجه دعائه ﷺ لأهل الكساء بإذهاب الرجس من غير حاجة إلى القول بأن ذلك طلب للدوام كما قيل في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا﴾ ونحوه ولا يورد عليه كثير مما يورد على غيره ومع هذا لمسلك الذهن اتساع ولا حجر على فضل الله عزّ وجلّ فلا مانع من أن يوفق أحداً لما هو أحسن من هذا وأجل فتدبر ذاك والله سبحانه يتولى هداك.

﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ أي اذكرن للناس بطريق العظة والتذكير، وقيل: أي تذكرن ولا تنسين ما يتلى في بيوتكن ﴿مِنْ آيَاتِ الله﴾ أي القرآن ﴿وَالْحِكْمَةِ﴾ هي السنّة على ما أخرج ابن جرير. وغيره عن قتادة وفسرت بنصائحه ﷺ، وعن عطاء عن ابن عباس أنه كان في المصحف بدل ﴿الحكمة﴾ السنّة حكاه محمد بن عبد الكريم الشهرستاني في أوائل تفسيره مفاتيح الأسرار، وقال جمع: المراد بالآيات والحكمة القرآن وهو أوفق بقوله سبحانه: ﴿يتلى﴾ أي اذكرن ما يتلى من الكتاب الجامع بين كونه آيات الله تعالى البينة الدالة على صدق النبوة بأوجه شتى وكونه حكمة منطوية على فنون العلوم والشرائع، وهذا تذكير بما أنعم عليهن حيث جعلهن أهل بيت النبوة ومهبط الوحي وما شاهدن من برحاء الوحي مما يوجب قوة الإيمان والحرص على الطاعة وفيه حث على الانتهاء والائتمار فيما كلفنه، وقيل: هذا هذا أمر بتكميل الغير بعد الأمر بما فيه كما لهن ويعلم منه وجه توسيط ﴿إنما يريد﴾ الخ في البين والتعرض للتلاوة في البيوت دون النزول فيها مع أنها الأنسب لكونها مهبط الوحي لعمومها لجميع الآيات ووقوعها في

كل البيوت وتكررها الموجب لتمكنهن من الذكر والتذكير بخلاف النزول، وقيل: إن ذلك لرعاية الحكمة بناءً على أن المراد بها السنة فإنها لم تنزل نزول القرآن وتعقب بأنها لم تتل أيضاً تلاوته، وعدم تعيين التالي لتعم تلاوة جبريل وتلاوة النبي عليهما الصلاة والسلام وتلاوتهن وتلاوة غيرهن تعليماً وتعلماً.

وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما «تتلى» بتاء التأنيث ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً﴾ يعلم ويدبر ما يصلح في الدين ولذلك فعل ما فعل من الأمر والنهي أو يعلم من يصلح للنبوة ومن يستأهل أن يكون من أهل بيته، وقيل: يعمل الحكمة حيث أنزل كتابه جامعاً بين الوصفين، وجوز بعضهم أن يكون اللطيف ناظراً للآيات لدقة إعجازها والخبير للحكمة لمناسبتها للخبرة.

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ أي الداخلين في السلم المنقادين لحكم الله تعالى أو المفوضين أمرهم لله عزّ وجلّ من الذكور والإناث ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ المصدقين بما يجب أن يصدق به من الفريقين.

﴿وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ﴾ المداومين على الطاعات القائمين بها ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ في أقوالهم التي يجب الصدق فيها، وقيل في القول والعمل.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن جبير أنه قال أي في إيمانهم ﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾ على المكاره وعلى العبادات وعن المعاصي ﴿وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ﴾ المتواضعين لله تعالى بقلوبهم وجوارحهم.

وقيل: الذين لا يعرفون من عن أيمانهم وشمائلهم إذا كانوا في الصلاة ﴿وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ﴾ بما يحسن التصدق به من فرض وغيره ﴿وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ﴾ الصوم المشروع فرضاً كان أو نفلاً، وعن عكرمة الاقتصار على صوم رمضان، وقيل: من تصدق في كل أسبوع بدرهم فهو من المتصدقين ومن صام البيض من كل شهر فهو من الصائمين ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾ عما لا يرضى به الله تعالى.

﴿وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ﴾ بالألسنة والقلوب ومدار الكثرة العرف عند جمع، وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: لا يكتب الرجل من الذاكرين الله كثيراً حتى يذكر الله تعالى قائماً وقاعداً ومضطجعاً.

وأخرج أبو داود والنسائي وابن ماجة وغيرهم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أيقظ الرجل امرأته من الليل فصليا ركعتين كانا تلك الليلة من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات» وقيل: المراد بذكر الله تعالى ذكر آلائه سبحانه ونعمه وروي ذلك عن عكرمة ومآل هذا إلى الشكر وهو خلاف الظاهر.

﴿أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ﴾ بسبب كسبهم ما ذكر من الصفات ﴿مَغْفِرَةً﴾ لما اقترفوا من الصغائر لأنهن مكفرات بالأعمال الصالحة كما ورد ﴿وَأَجْراً عَظِيماً﴾ على ما عملوا من الطاعات، والآية وعد للأزواج المطهرات وغيرهن ممن اتصفت بهذه الصفات، أخرج أحمد والنسائي وغيرهما عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها قالت: قلت للنبي ﷺ ما لنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال؟ فلم يرعني منه ﷺ ذات يوم إلا نداءه على المنبر وهو يقول: ﴿إن المسلمين والمسلمات﴾ إلى آخر الآية، وضمير ما لنا للنساء على العموم ففي رواية أخرى رواها النسائي وجماعة عنها أيضاً أنها قالت: قلت للنبي عليه الصلاة والسلام ما لي أسمع الرجال يذكرون في القرآن والنساء لا يذكرون؟ فأنزل الله تعالى ﴿إن المسلمين والمسلمات﴾ الآية.

وفي بعض الآثار ما يدل على أن القائل غيرها، أخرج الترمذي وحسنه والطبراني وعبد بن حميد وآخرون عن أم

عمارة الأنصارية أنها أتت النبي ﷺ فقالت: ما أرى كل شيء إلا للرجال وما أرى النساء يذكرن بشيء فنزلت هذه الآية ﴿إن المسلمين﴾ الخ.

وأخرج ابن جرير عن قتادة قال: دخل نساء على نساء النبي ﷺ فقلن: قد ذكركن الله تعالى في القرآن وما يذكرنا بشيء أما فينا ما يذكر فأنزل الله تعالى ﴿إن المسلمين﴾ الآية، وفي رواية أخرى عنه أنه قال لما ذكر أزواج النبي ﷺ قال النساء: لو كان فينا خير لذكرنا فأنزل الله تعالى الآية.

ولا مانع أن يكون كل ذلك، وعطف الإناث على الذكور كالمسلمات على المسلمين والمؤمنات على المؤمنين ضروري لأن تغاير الذوات المشتركة في الحكم يستلزم العطف ما لم يقصد السرد على طريق التعديد، وعطف الزوجين أعني مجموع كل مذكر ومؤنث كعطف مجموع المؤمنين والمؤمنات على مجموع المسلمين والمسلمات غير لازم وإنما ارتكب ها هنا للدلالة على أن مدار إعداد ما أعد لهم جمعهم بين هذه النعوت الجميلة.

وذكر الفروج متعلقاً للحفظ لكونها مركب الشهوة الغالبة وذكر الاسم الجليل متعلقاً للذكر لأنه الاسم الأعظم المشعر بجميع الصفات الجليلة، وحذف متعلق كل من الحافظات والذاكرات لدلالة ما تقدم عليه، وجعل الذكر آخر الصفات لعمومه وشرفه ﴿ولذكر الله أكبر﴾ [العنكبوت: ٤٥] وتذكير الضمير في ﴿أعد الله لهم﴾ لتغليب الذكور على الإناث وإلا فالظاهر لهم ولهن، ولله تعالى در التنزيل أشار في أول الآية وآخرها إلى أفضلية الذكور على الإناث ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ أي ما صح وما استقام لرجل ولا امرأة من المؤمنين ﴿إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً﴾ أي قضى رسول الله ﷺ، وذكر الله تعالى لتعظيم أمره بالإشارة إلى أنه عليه الصلاة والسلام بمنزلة من الله تعالى بحيث تعد أوامره أوامر الله عزّ وجلّ أو للإشعار بأن ما يفعله ﷺ إنما يفعله بأمره لأنه لا ينطق عن الهوى فالنظم إما من قبيل ﴿فأن لله خمسه وللرسول﴾ [الأنفال: ٤١] أو من قبيل ﴿فالله ورسوله أحق أن يرضوه﴾ [التوبة: ٦٢] ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِم﴾ أي أن يختاروا من أمرهم ما شاؤوا بل يجب عليهم أن يجعلوا رأيهم تبعاً لرأيه عليه الصلاة والسلام واختيارهم تلوا لاختياره.

والخيرة مصدر من تخير كالطيرة مصدر من تطير، ولم يجيء على ما قيل مصدر بهذه الزنة غيرهما، وقيل: هي صفة مشبهة وفسرت بالمتخير، و ﴿من أمرهم﴾ متعلق بها أو بمحذوف وقع حالاً منها، وجمع الضمير في ﴿لهم﴾ رعاية للمعنى لوقوع مؤمن ومؤمنة في سياق النفي والنكرة الواقعة في سياقه تعم، وكان من حقه على ما في الكشاف توحيده كما تقول: ما جاءني من امرأة ولا رجل إلا كان من شأنه كذا: وتعقبه أبو حيان بأن هذا عطف بالواو والتوحيد في العطف بأو نحو من جاءك من شريف أو وضيع أكرمه فلا يجوز إفراد الضمير في ذاك إلا بتأويل الحذف. وجمعه في ﴿أمرهم﴾ مع أنه للرسول ﷺ أوله ولله عزّ وجلّ للتعظيم على ما قيل.

وقال بعض الأجلة: لم يظهر عندي امتناع أن يكون عائداً على ما عاد عليه الأول على أن يكون المعنى ناشئة من أمرهم أي دواعيهم السائقة إلى اختيار خلاف ما أمر الله ورسوله ﷺ أو يكون المعنى الاختيار في شيء من أمرهم أي أمورهم التي يعنونها. ويرجح عوده على ما ذكر بعدم التفكيك ورد بأن ذاك قليل الجدوى ضرورة أن الخيرة ناشئة من دواعيهم أو واقعة في أمورهم وهو بين مستغن عن البيان بخلاف ما إذا كان المعنى بدل أمره الذي قضاه عليه الصلاة والسلام أو متجاوزين عن أمره لتأكيده وتقريره للنفي وهذا هو المانع من عوده إلى ما عاد عليه الأول، والحق أنه لا مانع من ذلك على أن يكون المعنى ما كان للمؤمنين أن يكون لهم اختيار في شيء من أمورهم إذا قضى الله ورسوله لهم أمراً، ولا نسلم أن ما عد مانعاً مانع فتدبر.

ولعل الفائدة في العدول عن الظاهر في الضمير الأول على ما قال الطيبي الإيذان بأنه كما لا يصح لكل فرد فرد من المؤمنين أن يكون لهم الخيرة كذلك لا يصح أن يجتمعوا ويتفقوا على كلمة واحدة لأن تأثير الجماعة واتفاقهم أقوى من تأثير الواحد، ويستفاد منه فائدة الجمع في الضمير الثاني على تقدير عوده على ما عاد عليه الأول وكذا وجه إفراد الأمر إذا أمعن النظر وقرأ الحرميان والعربيان وأبو عمرو وأبو جعفر وشيبة والأعرج وعيسى تكون بتاء التأنيث والوجه ظاهر ووجه القراءة بالياء وهي قراءة الكوفيين والحسن والأعمش والسلمي أن المرفوع بالفعل مفصول مع كون تأنيثه غير حقيقي، وقرىء كما ذكر عيسى بن سليمان «الخَيْرَة» بسكون الياء ﴿وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ في أمر من الأمور ويعمل فيه برأيه ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ طريق الحق ﴿ضَلالاً مُّبِيناً﴾ أي بين الانحراف عن سنن الصواب، والظاهر أن هذا في الأمور المقضية على ما يشعر به السوق، والآية على ما روي عن ابن عباس وقتادة ومجاهد وغيرهم نزلت في زينب بنت جحش من عمته ﷺ أميمة بنت عبد المطلب وأخيها عبد الله خطبها رسول الله ﷺ لمولاه زيد بن حارثة وقال: إني أريد أزوجك زيد بن حارثة فإني قد رضيته لك فأبت وقالت: يا رسول الله لكني لا أرضاه لنفسي وأنا أيم قومي وبنت عمتك فلم أكن لأفعل.

وفي رواية أنها قالت: أنا خير منه حسباً ووافقها أخوها بعد الله على ذلك فلما نزلت الآية رضياً وسلماً فأنكحها رسول الله ﷺ زيداً بعد أن جعلت أمرها بيده وساق إليها عشرة دنانير وستين درهماً مهراً وخماراً وملحفة ودرعاً وإزاراً وخمسين مداً من طعام وثلاثين صاعاً من تمر.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد أنه قال نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وكانت أول امرأة هاجرت من النساء فوهبت نفسها للنبي ﷺ فزوجها زيد بن حارثة فحطت(١) هي وأخوها وقالت إنما أردنا رسول الله ﷺ فزوجنا عبده ﴿وَإِذْ تَقُولُ﴾ خطاب للنبي ﷺ أي اذكر وقت قولك ﴿لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ﴾ بتوفيقه للإسلام وتوفيقك لحسن تربيته وعتقه ومراعاته وتخصيصه بالتبني ومزيد القرب ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالعمل بما وفقك الله تعالى له من فنون الإحسان التي من جملتها تحريره وهو زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنه، وإيراده بالعنوان المذكور كما قال شيخ الإسلام: لبيان منافاة حاله لما صدر عنه عليه الصلاة والسلام من إظهار خلاف ما في ضميره الشريف إذ هو إنما يقع عند الاستحياء والاحتشام وكلاهما مما لا يتصور في حق زيد رضي الله تعالى عنه، وجوز أن يكون بياناً لحكمة إخفائه ﷺ ما أخفاه لأن مثل ذلك مع مثله مما يطعن به الناس كما قيل:

وأظلم خلق الله من بات حاسداً ... لمن كان في نعمائه يتقلب

﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ أي زينب بنت جحش وذلك أنها كانت ذا حدة ولا زالت تفخر على زيد بشرفها ويسمع منها ما يكره فجاء رضي الله تعالى عنه يوماً إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن زينب قد اشتد علي لسانها وأنا أريد أن أطلقها فقال له عليه الصلاة والسلام: ﴿أمسك عليك زوجك﴾ ﴿وَاتَّقِ اللهَ﴾ في أمرها ولا تطلقها ضراراً وتعللاً بتكبرها واشتداد لسانها عليك. وتعدية ﴿أمسك﴾ بعلى لتضمينه معنى الحبس.

﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ﴾ عطف على ﴿تقول﴾ وجوزت الحالية بتقدير وأنت تخفي أو بدونه كما هو ظاهر كلام الزمخشري في مواضع من كشافه، والمراد بالموصول على ما أخرج الحكيم الترمذي وغيره عن

---

(١) قوله فحطت هي وأخوها الخ كذا بخطه ولعلها فخطئت الخ وحرر ا هـ.

علي بن الحسين رضي الله تعالى عنهما ما أوحى الله تعالى به إليه أن زينب سيطلقها زيد ويتزوجها بعد عليه الصلاة والسلام وإلى هذا ذهب أهل التحقيق من المفسرين كالزهري وبكر بن العلاء والقشيري والقاضي أبي بكر بن العربي وغيرهم ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ﴾ تخاف من اعتراضهم وقيل: أي تستحي من قولهم: إن محمداً ﷺ تزوج زوجة ابنه، والمراد بالناس الجنس والمنافقون وهذا عطف على ما تقدم أو حال. وقوله: ﴿وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ في موضع الحال لا غير، والمعنى والله تعالى وحده أحق أن تخشاه في كل أمر فتفعل ما أباحه سبحانه لك وأذن لك فيه، والعتاب عند من سمعت على قوله عليه الصلاة والسلام ذلك مع ﴿أمسك﴾ مع علمه بأنه سيطلقها ويتزوجها هو ﷺ بعده وهو عتاب على ترك الأولى.

وكان الأولى في مثل ذلك أن يصمت عليه الصلاة والسلام أو يفوض الأمر إلى رأي زيد رضي الله تعالى عنه.

وأخرج جماعة عن قتادة أنه ﷺ كان يخفي إرادة طلاقها ويخشى قالة الناس إن أمره بطلاقها وأنه عليه الصلاة والسلام قال له: ﴿أمسك عليك زوجك واتقِ الله﴾ وهو يحب طلاقها، والعتاب عليه على ظهار ما ينافي الإضمار، وقد رد ذلك القاضي عياض في الشفاء وقال: لا تسترب في تنزيه النبي ﷺ عن هذا الظاهر وأنه يأمر زيداً بإمساكها وهو يحب تطليقه إياها كما ذكره جماعة من المفسرين إلى آخر ما قال.

وذكر بعضهم أن إرادته ﷺ طلاقها وحبه إياه كان مجرد خطوره بباله الشريف بعد العلم بأنه يريد مفارقتها، وليس هناك حسد منه عليه الصلاة والسلام وحاشاه له عليها فلا محذور، والأسلم ما ذكرناه عن زين العابدين رضي الله تعالى عنه والجمهور، وحاصل العتاب لم قلت أمسك عليك زوجك وقد أعلمتك أنه ستكون من أزواجك وهو مطابق للتلاوة لأن الله تعالى أعلم أنه مبدي ما أخفاه عليه الصلاة والسلام ولم يظهر غير تزويجها منه فقال سبحانه: ﴿زوجناكها﴾ فلو كان المضمر محبتها وإرادة طلاقها ونحو ذلك لأظهره جل وعلا، وللقصاص في هذه القصة كلام لا ينبغي أن يجعل في حيز القبول.

منه ما أخرجه ابن سعد والحاكم عن محمد بن يحيى بن حبان أنه ﷺ جاء إلى بيت زيد فلم يجده وعرضت زينب عليه دخول البيت فأبى أن يدخل وانصرف راجعاً يتكلم بكلام لم تفهم منه سوى سبحان الله العظيم سبحان مصرف القلوب فجاء يد فأخبرته بما كان فأتى رسول الله ﷺ فقال له: بلغني يا رسول الله إنك جئت منزلي فهلا دخلت يا رسول الله لعل زينب أعجبتك فأفارقها فقال عليه الصلاة والسلام: أمسك عليك زوجك واتق الله فما استطاع زيد إليها سبيلاً بعد ففارقها، وفي تفسير علي بن إبراهيم أنه ﷺ أتى بيت زيد فرأى زينب جالسة وسط حجرتها تسحق طيباً بفهر لها فلما نظر إليها قال: سبحان خالق النور تبارك الله أحسن الخالقين فرجع فجاء زيد فأخبرته الخبر فقال لها: لعلك وقعت في قلب رسول الله ﷺ فهل لك أن أطلقك حتى يتزوجك رسول الله عليه الصلاة والسلام فقالت: أخشى أن تطلقني ولا يتزوجني فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال له: أريد أن أطلق زينب فأجابه بما قص الله تعالى إلى غير ذلك مما لا يخفى على المتتبع، وفي شرح المواقف أن هذه القصة مما يجب صيانة النبي ﷺ عن مثله فإن صحت فميل القلب غير مقدور مع ما فيه من الابتلاء لهما، والظاهر أن الله تعالى لما أراد نسخ تحريم زوجة المتبنى أوحى إليه عليه الصلاة والسلام أن يتزوج زينب إذا طلقها زيد فلم يبادر له ﷺ مخافة طعن الأعداء فعوتب عليه، وهو توجيه وجيه قاله الخفاجي عليه الرحمة ثم قال: إن القصة شبيهة بقصة داود عليه السّلام لا سيما وقد كان النزول عن الزوجة في صدر الهجرة جارياً بينهم من غير حرج فيه انتهى، وأبعد بعضهم فزعم أن ﴿وتخفي﴾ الخ خطاب كسابقه من الله عزّ وجلّ أو من النبي ﷺ لزيد فإنه أخفى الميل إليها وأظهر الرغبة عنها لما وقع في قلبه أن النبي ﷺ

يود أن تكون من نسائه، هذا وفي قوله تعالى: ﴿أمسك عليك زوجك﴾ وصول الفعل الرافع الضمير المتصل إلى الضمير المجرور وهما لشخص واحد فهو كقوله: هون عليك ودع عنك نهباً صيح في حجراته، وذكروا في مثل هذا التركيب أن علي وعن اسمان ولا يجوز أن يكونا حرفين لامتناع فكر فيك وأعين بك بل هذا مما تكون فيه النفس أي فكر في نفسك وأعين بنفسك، والحق عندي جواز ذلك التركيب مع حرفية علي وعن ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً﴾ أي طلقها كما روي عن قتادة وهو كناية عن ذلك مثل لا حاجة لي فيك، ومعنى الوطر الحاجة وقيدها الراغب بالمهمة، وقال أبو عبيدة: هو كالأدب وأنشد للربيع بن ضبع:

ودعنا قبل أن نودعه ... لما قضى من شبابنا وطرا

ويفسر الأدب بالحاجة الشديدة المقتضية للاحتيال في دفعها ويستعمل تارة في الحاجة المفردة وأخرى في الاحتيال وإن لم تكن حاجة، وقال المبرد: هو الشهوة والمحبة يقال: ما قضيت من لقائك وطراً أي ما استمتعت منك حتى تنتهي نفسي وأنشد:

وكيف ثوائي بالمدينة بعد ما ... قضى وطراً منها جميل بن معمر

وعن ابن عباس تفسير الوطر هنا بالجماع، والمراد لم يبق له بها حاجة الجماع وطلقها، وفي البحر نقلاً عن بعضهم أنه رضي الله تعالى عنه أنه لم يتمكن من الاستمتاع بها، وروى أبو عصمة نوح بن أبي مريم بإسناد رفعه إليها أنها قالت ما كنت أمتنع منه غير أن الله عزّ وجلّ منعني منه، وروي أنه كان يتورم ذلك منه حين يريد أن يقربها فيمتنع.

قيل: ولا يخفى أنه على هذا يحسن جداً جعل قضاء الوطر كناية عن الطلاق فتأمل، وفي الكلام تقدير أي فلما قضى زيد منها وطراً وانقضت عدتها، وقيل: إن قضاء الوطر يشعر بانقضاء العدة لأن القضاة الفراغ من الشيء على التمام فكأنه قيل: فلما قضى زيد حاجته من نكاحها فطلقها وانقضت عدتها فلم يكن في قلبه ميل إليها ولا وحشة من فراقها ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾ أي جعلناها زوجة لك بلا واسطة عقد أصالة أو وكالة، فقد صح من حديث البخاري والترمذي أنها رضي الله تعالى عنها كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول: زوجكن أهاليكن وزوجني الله تعالى من فوق سبع سماوات، وأخرج ابن جرير عن الشعبي قال كانت تقول للنبي عليه الصلاة والسلام: إني لأدل عليك بثلاث ما من نسائك امرأة تدل بهن إن جدي وجدك واحد وإني أنكحك الله إياي من السماء وإن السفير لجبريل عليه السّلام، ولعلها أرادت سفارته عليه السّلام بين الله تعالى وبين رسوله ﷺ وإلا فالسفير بينه عليه الصلاة والسلام وبينها كان زيداً أخرج أحمد ومسلم والنسائي وغيرهم عن أنس قال: لما انقضت عدة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد: اذهب فاذكرها علي فانطلق قال: فلما رأيتها عظمت في صدري فقلت: يا زينب أبشري أرسلني رسول الله ﷺ يذكرك قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أؤامر ربي فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن وجاء رسول الله ﷺ ودخل عليها بغير إذن.

ومن حديث أخرجه الطبراني والبيهقي في سننه وابن عساكر من طريق ابن زيد الأسدي عن مذكور مولى زينب قالت طلقني زيد فبت طلاقي فلما انقضت عدتي لم أشعر إلا والنبي عليه الصلاة والسلام قد دخل عليّ وأنا مكشوفة الشعر فقلت: هذا من السماء دخلت يا رسول الله بلا خطبة ولا شهادة فقال: الله تعالى المزوج وجبريل الشاهد، ولا يخفى أن هذا بظاهره يخالف ما تقدم من الحديث والمعول على ذاك، وقيل: المراد بزوجناكها أمرناك بتزوجها.

وقرأ علي وابناه ريحانتا رسول الله ﷺ الحسن والحسين وابنه محمد بن الحنفية وجعفر الصادق رضي الله

تعالى عنهم أجمعين «زوجتكها» بتاء الضمير للمتكلم وحده ﴿لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى الـمُؤْمِنينَ حَرَجٌ﴾ أي ضيق وقيل إثم، وفسره بهما بعضهم كالطبرسي بناءً على جواز استعمال المشترك في معنييه مطلقاً كما ذهب إليه الشافعية أو في النفي كما ذهب إليه العلاّمة ابن الهمام من الحنفية ﴿في أَزْوَاجِ﴾ أي في حق تزوج أزواج ﴿أَدْعِيائهِمْ﴾ الذين تبنوهم ﴿إِذَا قَضَوْا مِنهُنَّ وَطَراً﴾ أي إذا طلقهن الأدعياء وانقضت عدتهن فإن لهم في رسول الله أسوة حسنة، واستدل بهذا على أن ما ثبت له ﷺ من الأحكام ثابت لأمته إلا ما علم أنه من خصوصياته عليه الصلاة والسلام بدليل، وتمام الكلام في المسألة مذكور في الأصول، والمراد بالحكم ها هنا على ما سمعت أولاً مطلق تزوج زوجات الأدعياء وهو على ما قيل ظاهر ﴿وَكَانَ أَمْرُ الله﴾ أي ما يريد تكوينه من الأمور أو مأموره الحاصل بكن ﴿مَفعُولاً﴾ مكوناً لا محالة، والجملة اعتراض تذييلي مقرر لما قبله من تزويج زينب رضي الله تعالى عنها ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبيِّ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي ما صح وما استقام في الحكمة أن يكون له حرج ﴿فِيمَا فَرَضَ الله لَهُ﴾ أي قسم له ﷺ وقدر من قولهم: فرض له في الديوان كذا، ومنه فروض العساكر لما يقطعه السلطان لهم ويرسم به، وقال قتادة: أي فيما أحل له، وقال الحسن: فيما خصه به من صحة النكاح بلا صداق، وقال الضحّاك: من الزيادة على الأربع ﴿سُنَّةَ الله﴾ أي سن الله تعالى ذلك سنّة فهو مصدر منصوب بفعل مقدر من لفظه، والجملة مؤكدة لما قبلها من نفي الحرج، وذهب الزمخشري إلى أنه اسم موضوع موضع المصدر كقولهم: ترباً وجندلاً أي رغماً وهواناً وخيبة، وكأنه لم تثبت عنده مصدريته، وقيل: منصوب بتقدير الزم ونحوه.

قال ابن عطية: ويجوز أن يكون نصباً على الإغراء كأنه قيل: فعليه سنّة الله. وتعقبه أبو حيان بأنه ليس بجيد لأن عامل الاسم في الإغراء لا يجوز حذفه، وأيضاً تقدير فعليه سنّة الله بضمير الغائب لا يجوز إذ لا يغرى غائب وقولهم عليه رجلاً ليسني مؤول وهو مع ذلك نادر. واعترض بأن قوله: لأن عامل الاسم في الإغراء لا يجوز حذفه ممنوع، وهو خلاف ما يفهم من كتب النحو وبأن ما ذكره في أمر إغراء الغائب مسلم لكن يمكن توجيهه ها هنا كما لا يخفى، ثم قيل: إن ظاهر كلام ابن عطية يشعر بأن النصب بتقدير الزم قسيم للنصب على الإغراء وليس كذلك بل هو قسم منه ا هـ فتدبر.

﴿في الَّذِينَ خَلَوْا﴾ أي مضوا ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من قبلك من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حيث لم يحرج جل شأنه عليهم في الإقدام على ما أحل لهم ووسع عليهم في باب النكاح وغيره وقد كانت تحتهم المهائر والسراري وكانت لداود عليه السّلام مائة امرأة وثلاثمائة سرية ولسليمان عليه السّلام ثلاثمائة امرأة وسبعمائة سرية.

وأخرج ابن سعد عن محمد بن كعب القرظي أنه كان له عليه السّلام ألف امرأة، والظاهر أنه عنى بالمرأة ما يقابل السرية ويحتمل أنه أراد بها الأعم فيوافق ما قبله. يروى أن اليهود قاتلهم الله تعالى عابوه وحاشاه من العيب ﷺ بكثرة النكاح وكثرة الأزواج فرد الله تعالى عليهم بقوله سبحانه: ﴿سنّة الله﴾ الآية.

وقيل: إنه جل وعلا أشار بذلك إلى ما وقع لداود عليه السّلام من تزوجه امرأة أوريا. وأخرج ذلك ابن المنذر والطبراني عن ابن جريج، واسم تلك الامرأة عنده اليسية وهذا مما لا يلتفت إليه، والقصة عند المحققين لا أصل لها ﴿وَكَانَ أَمْرُ الله قَدَراً مَّقْدُوراً﴾ أي عن قدر أو ذا قدر ووصفه بمقدور نحو وصف الظل بالظليل والليل بالأليل في قولهم ظل ظليل وليل اليل في قصد التأكيد، والمراد بالقدر عند جمع المعنى المشهور للقضاء وهو الإرادة الأزلية المتعلقة بالأشياء على ما هي عليه، وجوز كونه بالمعنى المشهور له وهو إيجاد الأشياء على قدر مخصوص وكمية معينة من وجوه المصلحة وغيرها، والمعنى الأول أظهر، والقضاء والقدر يستعمل كل منهما بمعنى الآخر وفسر الأمر بنحو ما فسر به فيما سبق. وجوز أن يراد به الأمر الذي هو واحد الأوامر من غير تأويل ويراد أن أتباع أمر الله تعالى

المنزل على أنبيائه عليهم السلام والعمل بموجبه لازم مقضي في نفسه أو هو كالمقضي في لزوم اتباعه، ولا يخفى تكلفه، وظاهر كلام الإمام اختيار أن الأمر واحد الأمور وفرق بين القضاء والقدر بما لم نقف عليه لغيره فقال ما حاصله القضاء ما يكون مقصوداً له تعالى في الأصل والقدر ما يكون تابعاً والخير كله بقضاء وما في العالم من الضرر بقدر كالزنا والقتل ثم بنى على ذلك لطيفة وهو أنه لما قال سبحانه: ﴿زوجناكها﴾ ذيله بأمراً مفعولاً لكونه مقصوداً أصلياً وخيراً مقضياً ولما قال جل شأنه: ﴿سنة الله في الذين خلوا﴾ إشارة إلى قصة داود عليه السّلام حيث افتتن بامرأة أوريا قال سبحانه: ﴿قدراً مقدوراً﴾ لكون الافتتان شراً غير مقصود أصلي من خلق المكلف، وفيه ما فيه، والجملة اعتراض وسط بين الموصولين الجاريين مجرى الواحد للمسارعة إلى تقرير نفي الحرج وتحقيق ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ الله﴾ صفة للذين خلوا أو هو في محل رفع أو نصب على إضمارهم أو على المدح.

وقرأ عبد الله ﴿بلغوا﴾ فعلاً ماضياً، وقرأ أبي «رسالة» على التوحيد لجعل الرسالات المتعددة لاتفاقها في الأصول وكونها من الله تعالى بمنزلة شيء واحد وإن اختلفت أحكامها ﴿ويَخْشَوْنَهُ﴾ أي يخافونه تعالى في كل ما يأتون ويذرون لا سيما في أمر تبليغ الرسالة ﴿وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إلاّ الله﴾ في وصفهم بقصرهم الخشية على الله تعالى تعريض بما صدر عنه عليه الصلاة والسلام من الاحتراز عن لائمة الناس من حيث إن إخوانه المرسلين لم تكن سيرتهم التي ينبغي الاقتداء بها ذلك، وهذا كالتأكيد لما تقدم من التصريح في قوله سبحانه: ﴿وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه﴾ وتوهم بعضهم أن منشأ التعريض توصيف الأنبياء بتبليغ الرسالات وحمل الخشية على الخشية في أمر التبليغ لوقوعها في سياقه وفيه ما لا يخفى ﴿وَكَفَى بالله حَسيباً﴾ أي كافياً للمخاوف أو محاسباً على الكبار والصغائر من أفعال القلب والجوارح فلا ينبغي أن يخشى غيره، والإظهار في مقام الإضمار لما في هذا الاسم الجليل ما ليس في الضمير، واستدل بالآية على عدم جواز التقية على الأنبياء عليهم السّلام مطلقاً، وخص ذلك بعض الشيعة في تبليغ الرسالة وجعلوا ما وقع منه ﷺ في هذه القصة المشار إليه بقوله تعالى ﴿وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه﴾ بناءً على أن الخشية فيه بمعنى الخوف لا على أن المراد الاستحياء من قول الناس تزوج زوجة ابنه كما قاله ابن فورك من التقية الجائزة حيث لم تكن في تبليغ الرسالة، ولا فرق عندهم بين خوف المقالة القبيحة وإساءة الظن وبين خوف المضار في أن كلاً يبيح التقية فيما لا يتعلق بالتبليغ، ولهم في التقية كلام طويل وهي لأغراضهم ظل ظليل، والمتتبع لكتب الفرق يعرف أن قد وقع فيها إفراط وتفريط وصواب وتخليط وإن أهل السنّة والجماعة قد سلكوا فيها الطريق الوسط وهو الطريق الأسلم الأمين سالكه من الخطأ والغلط، أما الإفراط فللشيعة حيث جوزوا بل أوجبوا على ما حكي عنهم إظهار الكفر لأدنى مخافة أو طمع، وأما التفريط فللخوارج والزيدية حيث لا يجوزون في مقابلة الدين مراعاة العرض وحفظ النفس والمال أصلاً، وللخوارج تشديدات عجيبة في هذا الباب، وقد سبوا وطعنوا بريدة الأسلمي أحد أصحاب رسول الله ﷺ بسبب أنه رضي الله تعالى عنه كان يحافظ فرسه في صلاته خوفاً من أن يهرب.

ومذهب أهل السنّة أن التقية وهي محافظة النفس أو العرض أو المال من نحو الأعداء بإظهار محظور ديني مشروعة في الجملة.

وقسموا العدو إلى قسمين: الأول من كانت عداوته مبنية على اختلاف الدين كالمسلم والكافر ويلحق به من كانت عداوته لاختلاف المذهب اختلافاً يجر إلى تكفير أصحاب أحد المذهبين أصحاب المذهب الآخر كأهل السنّة والشيعة، والثاني من كانت عداوته مبنية على أغراض دنيوية كالمال والمرأة وعلى هذا تكون التقية أيضاً قسمين: أما الأول فالتقية ممن كانت عداوته مبنية على اختلاف الدين حقيقة أو حكماً وقد ذكروا في ذلك أن من يدعي الإيمان

إذا وقع في محل لا يمكن أن يظهر دينه وما هو عليه لتعرض المخالفين وجب عليه أن يهاجر إلى محل يقدر فيه على الإظهار ولا يجوز له أن يسكن هنالك ويكتم دينه بعذر الاستضعاف فأرض الله تعالى واسعة، نعم إن كان له عذر غير ذلك كالعمى والحبس وتخويف المخالف له بقتله أو قتل ولده أو أبيه أو أمه على أي وجه كان القتل تخويفاً يظن معه وقوع ما خوف به جاز له السكنى والموافقة بقدر الضرورة ووجب عليه السعي في الحيلة للخروج وإن لم يكن التخويف كذلك كالتخويف بفوات المنفعة أو بلحوق المشقة التي يمكنه تحملها كالحبس مع القوت والضرب القليل الغير المهلك لا يجوز له الموافقة وإن ترتب على ذلك موته كان شهيداً، وأما الثاني فالتقية ممن كانت عداوته مبنية على أغراض دنيوية. وقد اختلف العلماء في وجوب الهجرة وعدمه فيه فقال بعضهم: تجب الهجرة لوجوب حفظ المال والعرض.

وقال جمع: لا تجب إذ الهجرة عن ذلك المقام مصلحة من المصالح الدنيوية ولا يعود بتركها نقصان في الدين إذ العدو المؤمن كيفما كان لا يتعرض لعدوه الضعيف المؤمن مثله بالسوء من حيث هو مؤمن.

وقال بعض الأجلة على طريق المحاكمة: الحق أن الهجرة ها هنا قد تجب أيضاً وذلك إذا خاف هلاك نفسه أو أقاربه أو الإفراط في هتك حرمته، وقال: إنها مع وجوبها ليست عبادة إذ التحقيق أنه ليس كل واجب عبادة يثاب عليها فإن الأكل عند شدة المجاعة والاحتراز عن المضرات المعلومة أو المظنونة في المرض وعن تناول السمومات في حال الصحة وما أشبه ذلك أمور واجبة ولا يثاب فاعلها عليها ا هـ، وفيه بحث، وتمام الكلام في هذا المقام يطلب من زبر العلماء الأعلام، ولعل لنا عودة إن شاء الله تعالى لذكر شيء من ذلك والله تعالى الهادي لسلوك أقوم المسالك. بقي لنا فيما يتعلق بالآية شيء وهو ما قيل: إنه سبحانه وصف المرسلين الخالين عليهم الصلاة والسلام بأنهم لا يخشون أحداً إلا الله وقد أخبر عزّ وجلّ عن موسى عليه السّلام بأنه قال: ﴿إنا نخاف أن يفرط علينا﴾ [طه: ٤٥] وهل خوف ذلك إلا خشية غير الله تعالى فما وجه الجمع؟ قلت: أجيب بأن الخشية أخص من الخوف.

قال الراغب: الخشية خوف يشوبه تعظيم وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه، وذكر في ذلك عدة آيات منها هذه الآية، ونفي الخاص لا يستلزم نفي العام فقد يجتمع مع إثباته، وهذا أولى مما قيل في الجواب من أن الخشية أخص من الخوف لأنها الخوف الشديد والمنفي في الآية ها هنا هو ذلك لا مطلق الخوف المثبت فيما حكي عن موسى عليه السّلام، وأجاب آخر بأن المراد بالخشية المنفية الخوف الذي يحدث بعد الفكر والنظر وليس من العوارض الطبيعية البشرية، والخوف المثبت هو الخوف العارض بحسب البشرية بادىء الرأي وكم قد عرض مثله لموسى عليه السّلام ولغيره من إخوانه وهو مما لا نقص فيه كما لا يخفى على كامل؛ وهو جواب حسن، وقيل: إن موسى عليه السّلام إنما خاف أن يعجل فرعون عليه بما يحول بينه وبين إتمام الدعوة وإظهار المعجزة فلا يحصل المقصود من البعثة فهو خوف لله عزّ وجلّ، والمراد بما نفي عن المرسلين هو الخوف عنه سبحانه بمعنى أن يخاف غيره جل وعلا فيخل بطاعته أو يقدم على معصيته وأين هذا من ذاك فتأمل تولى الله تعالى هداك.

مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾
يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ
وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ

وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ
وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ
أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ
طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ رد لمنشأ خشيته ﷺ الناس المعاتب عليها بقوله تعالى: **﴿وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه﴾** وهو قولهم: إن محمداً عليه الصلاة والسلام تزوج زوجة ابنه زيد بنفي كون زيد ابنه الذي يحرم نكاح زوجته عليه ﷺ على أبلغ وجه كما ستعرفه قريباً إن شاء الله تعالى، والرجال جمع رجل بضم الجيم كما هو المشهور وسكونه وهو على ما في القاموس الذكر إذا احتلم وشب أو هو رجل ساعة يولد، وفي بعض ظواهر الآيات والأخبار ما هو مؤيد للثاني نحو قوله تعالى ﴿للرجال نصيب مما ترك الولدان والأقربون﴾ [النساء: ٧] وقوله سبحانه: ﴿وإن كان رجل يورث كلالة﴾ [النساء: ١٢] ونحو قوله عليه الصلاة والسلام: «فلأولى رجل ذكر» والبحث الذي ذكره بعض أجلة المتأخرين فيما ذكر من الأمثلة لا يدفع كون الظاهر منها ذلك عند المنصف، وقد يذكر لتأييد الأول قوله تعالى: ﴿والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان﴾ [النساء: ٩٨] فإن الرجال فيه للبالغين، وفيه بحث، نعم ظاهر كلام الزمخشري وهو إمام له قدم راسخة في اللغة وغيرها من العلوم العربية يدل على أن الرجل هو الذكر البالغ، وأياً ما كان فإضافة رجال إلى ضمير المخاطبين باعتبار الولاد فإن أريد بالرجال الذكور البالغون فالمعنى ما كان محمد أبا أحد من أبنائكم أيها الناس الذكور البالغين الذين ولدتموهم، وإن أريد بهم الذكور مطلقاً فالمعنى ما كان محمد أبا أحد من أبنائكم الذين ولدتموهم مطلقاً كباراً كانوا أو صغاراً.

والأب حقيقة لغوية في الوالد على ما يفهم من كلام كثير من اللغويين، والمراد بالأبوة المنفية هنا الأبوة الحقيقة الشرعية التي يترتب عليها أحكام الأبوة الحقيقية اللغوية من الإرث ووجوب النفقة وحرمة المصاهرة سواء كانت بالولادة أو بالرضاع أو بتبني من يولد مثله لمثله وهو مجهول النسب فحيث نفي كونه صلى الله تعالى عليه وسلم أبا أحد من رجالهم بأي طريق كانت الأبوة، ومن المعلوم أن زيداً أحد من رجالهم تحقق نفي كونه عليه الصلاة والسلام أباً له مطلقاً، أما كونه صلى الله تعالى عليه وسلم ليس أباً له بالولادة فمما لا نزاع فيه ولم يتوهم أحد خلافه، ومثله كونه عليه الصلاة والسلام ليس أباً له بالرضاع، وأما كونه صلى الله تعالى عليه وسلم ليس أباً له بالتبني مع تحقق تبنيه عليه الصلاة والسلام فلأن الأبوة بالتبني التي نفيت إنما هي الأبوة الحقيقية الشرعية وما كان من التبني لا يستتبعها لتوقفها شرعاً على شرائط، منها كون المتبني مجهول النسب وذلك منتف في زيد فقد كان معروف النسب فيما بينهم، وقد تقدم لك أنه ابن حارثة، وتعميم نفي أبوته ﷺ لأحد من رجالهم بحيث شمل نفي الأبوة بالولادة الأبوة بالرضاع والأبوة بالتبني مع أنه لا كلام في انتفاء الأولين وإنما الكلام في انتفاء الأخيرة فقط إذ هي التي يزعمها من يقول: تزوج محمد عليه الصلاة والسلام زوجة ابنه للمبالغة في نفي الأبوة بالتبني التي زعموا ترتب أحكام الأبوة الحقيقة عليها بنظم ما خفي في سلك ما لا خفاء فيه أصلاً.

ولعل هذا هو السر في قوله سبحانه **﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم﴾** دون ما كان محمد أبا أحد من الرجال أو ما كان محمد أبا أحد منكم، ولعله لهذا أيضاً صرح بنفي أبوته ﷺ لأحد من رجالهم ليعلم منه نفي بنوة أحد من رجالهم له عليه الصلاة والسلام، ولم يعكس الحال بأن يصرح بنفي بنوة أحد من رجالهم له عليه الصلاة

والسلام ليعلم نفي أبوته ﷺ لأحد من رجالهم، ويؤتي بما بعد على وجه ينتظم مع ما قبل وبحمل الأبوة المنفية على الأبوة الحقيقية الشرعية ينحل إشكال في الآية وهو أن سياقها لنفي أبوته عليه الصلاة والسلام لزيد ليرد به على من يعترض على النبي ﷺ بتزوجه مطلقته فإن أريد بالأبوة الأبوة الحقيقية اللغوية وهي ما يكون بالولادة لم تلائم السياق ولم يحصل بها الرد المذكور مع أنه هو المقصود إذ لم يكن أحد يزعم ويتوهم أنه ﷺ كان أبا زيد بالولادة، وأن أريد بها الأبوة المجازية التي تحقق بالتبني ونحوه فنفيها غير صحيح لأنه عليه الصلاة والسلام كان أباً لزيد مجازاً لتبنيه إياه ولم يزل زيد يدعى بابن محمد ﷺ حتى نزل قوله تعالى: ﴿ادعوهم لآبائهم﴾ [الأحزاب: ٥] فدعوه حينئذٍ بابن حارثة، ووجه انحلاله بما ذكرنا من أن المراد بالأبوة الأبوة الحقيقية الشرعية أن هذه الأبوة تكون بالولادة وبالرضاع وبالتبني بشرطه وهي بأنواعها غير متحققة في زيد، أما عدم تحققها بالنوعين الأولين فظاهر، وأما عدم تحققها بالنوع الأخير فلأن التبني وإن وقع إلا أن شرطه الذي به يستتبع الأبوة الحقيقية الشرعية مفقود كما علمت، وبجعل إضافة الرجال إلى ضمير المخاطبين باعتبار الولادة يندفع استشكال النفي المذكور بأنه عليه الصلاة والسلام قد ولد له عدة ذكور فكيف يصح النفي لأن من ولد له عليه الصلاة والسلام ليس مضافاً للمخاطبين باعتبار الولادة بل هو مضاف إليه ﷺ باعتباره، ومن خص الرجال بالبالغين قال: لا ينتقض العموم بذلك لأن جميع من ولد له عليه الصلاة والسلام مات صغيراً ولم يبلغ مبلغ الرجال، وقيل: لا إشكال في ذلك لأنه عليه الصلاة والسلام لم يكن له ابن يوم نزول الآية لأن السورة مدنية نزلت على ما نقل عن ابن الأثير في تاريخ الكامل السنة الخامسة من الهجرة وفيها تزوج رسول الله ﷺ بزينب، ومن ولد له ﷺ من الذكور ممن عدا إبراهيم فإنما ولد بمكة قبل الهجرة وتوفي فيها، وإبراهيم وإن ولد بالمدينة لكن ولد السنة الثامنة من الهجرة فلم يكن مولوداً يوم النزول بل بعده وهو كما ترى، وكما استشكل النفي بما ذكر استشكل بالحسن والحسين رضي الله تعالى عنهما فقد كان النبي ﷺ أباً لهما حقيقة شرعية، ولم يرتض بعضهم هنا الجواب بخروجهما بالإضافة لأن لهما نسبة إلى المخاطبين باعتبار الولادة لدخول علي كرّم الله تعالى وجهه فيهم وهما ولداه، وارتضاه آخر بناءً على أن الإضافة للاختصاص باعتبار الولادة ولا اختصاص للحسنين بعلي رضي الله تعالى عنهم باعتبارها لما أنهما ولدا رسول الله ﷺ أيضاً لكن بالواسطة فإن قبل هذا فذاك وإلا فالجواب، أما ما قيل من أن المراد بالرجال البالغون ولم يكونا رضي الله تعالى عنهما يوم النزول كذلك فإن الحسن رضي الله تعالى عنه ولد السنة الثالثة من الهجرة والحسين رضي الله تعالى عنه ولد السنة الرابعة منها لخمس خلون من شعبان وقد علقت به أمه عقب ولادة أخيه بخمسين ليلة أو أقل وكان النزول بعد ولادتهما على ما سمعت آنفاً، وأما ما قيل من أن المراد بالأب في الآية الأب الصلب ومعلوم أنه ﷺ لم يكن أباهما كذلك فتدبر، وقيل: ليس المراد من الآية سوى نفي أبوته ﷺ لأحد من الرجال بالتبني لتنتفي أبوته عليه الصلاة والسلام لزيد التي يزعمها المعترض كما يدل عليه سوق الآية الكريمة فكأنه قيل: ما كان محمد أبا أحد من رجالكم كما زعمتم حيث قلتم إنه أبو زيد لتبنيه إياه وهي ساكتة عن نفي أبوته ﷺ لأحد بالولادة أو بالرضاع وعن إثباتها فلا سؤال بمن ولد له ﷺ من الذكور ولا بالحسنين رضي الله تعالى عنهم ولا جواب.

وإلى اختيار هذا يميل كلام أبي حيان والله تعالى أعلم. واستدل بعض الشافعية بهذه الآية على أنه لا يجوز أن يقال للنبي عليه الصلاة والسلام أبو المؤمنين حكاه صاحب الروضة ثم قال: ونص الشافعي عليه الرحمة على أنه يجوز أن يقال له ﷺ أبو المؤمنين أي في الحرمة ونحوها، وقال الراغب بعد أن قال الأب الوالد ما نصه: ويسمى كل من كان سبباً في إيجاد شيء أو إصلاحه أو ظهوره أباً ولذلك سمي النبي ﷺ أبا المؤمنين قال الله تعالى: ﴿النبي أولى

بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم ﴾ [الأحزاب: ٦] وفي بعض القراءات «وهو أب لهم» وروي أنه عليه الصلاة والسلام قال لعلي كرّم الله تعالى وجهه: «أنا وأنت أبوا هذه الأمة» وإلى هذا أشار ﷺ بقوله: «كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي» ا هـ فلا تغفل، وعلى جواز الإطلاق قالوا: إن قوله تعالى: ﴿وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ﴾ استدراك من نفي كونه عليه الصلاة والسلام أبا أحد من رجالهم على وجه يقتضي حرمة المصاهرة ونحوها إلى إثبات كونه ﷺ أباً لكل واحد من الأمة فيما يرجع إلى وجوب التوقير والتعظيم له ﷺ ووجوب الشفقة والنصيحة لهم عليه عليه الصلاة والسلام فإن كل رسول أب لأمته فيما يرجع إلى ذلك، وحاصله أنه استدراك من نفي الأبوة الحقيقية الشرعية التي يترتب عليها حرمة المصاهرة ونحوها إلى إثبات الأبوة المجازية اللغوية التي هي من شأن الرسول عليه الصلاة والسلام وتقتضي التوقير من جانبهم والشفقة من جانبه ﷺ وقيل في توجيه الاستدراك أيضاً إنه لما نفيت أبوته ﷺ لأحد من رجالهم مع اشتهار أن كل رسول أب لأمته ولذا قيل: إن لوطاً عليه السّلام عني بقوله: ﴿هؤلاء بناتي هن أطهر لكم﴾ [هود: ٧٨] المؤمنات من أمته يتوهم نفي رسالته ﷺ بناءً على توهم التلازم بين الأبوة والرسالة فاستدرك بإثبات الرسالة تنبيهاً على أن الأبوة المنفية شيء والمثبتة للرسول شيء آخر، وأما قوله سبحانه ﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ فقد قيل إنه جيء به ليشير إلى كمال نصحه وشفقته ﷺ فيفيد أن أبوته عليه الصلاة والسلام للأمة المشار إليها بقوله تعالى: ﴿ولكن رسول الله﴾ أبوة كاملة فوق أبوة سائر الرسل عليهم السّلام لأممهم وذلك لأن الرسول الذي يكون بعده رسول ربما لا يبلغ في الشفقة غايتها وفي النصيحة نهايتها اتكالاً على من يأتي بعده كالوالد الحقيقي إذا علم أن لولده بعده من يقوم مقامه، وقيل: إنه جيء به للإشارة إلى امتداد تلك الأبوة المشار إليها بما قبل إلى يوم القيامة فكأنه قيل: ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم﴾ بحيث تثبت بينه وبينه حرمة المصاهرة ولكن كان أبا كل واحد منكم وأبا أبنائكم وأبناء أبنائكم وهكذا إلى يوم القيامة بحيث يجب له عليكم وعلى من تناسل منكم احترامه وتوقيره ويجب عليه لكم ولمن تناسل منكم الشفقة والنصح الكامل، وقيل: إنه جيء به لدفع ما يتوهم من قوله تعالى: ﴿من رجالكم﴾ من أنه ﷺ يكون أبا أحد من رجاله الذين ولدوا منه عليه الصلاة والسلام بأن يولد له ذكر فيعيش حتى يبلغ مبلغ الرجال وذلك لأن كونه عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين يدل على أنه لا يعيش له ولد ذكر حتى يبلغ لأنه لو بلغ لكان منصبه أن يكون نبياً فلا يكون هو ﷺ خاتم النبيين ويراد بالأب عليه الأب الصلب لئلا يعترض بالحسنين رضي الله تعالى عنهما، ودليل الشرطية ما رواه إبراهيم السدي عن أنس قال: كان إبراهيم ـ يعني ابن النبي ﷺ ـ قد ملأ المهد ولو بقي لكان نبياً لكن لم يبق لأن نبيكم آخر الأنبياء عليهم السّلام، وجاء نحوه في روايات أخر.

أخرج البخاري من طريق محمد بن بشر عن إسماعيل بن أبي خالد قال: قلت لعبد الله بن أبي أوفى رأيت إبراهيم ابن النبي ﷺ قال: مات صغيراً ولو قضى بعد محمد ﷺ نبي عاش ابنه إبراهيم ولكن لا نبي بعده.

وأخرج أحمد عن وكيع عن إسماعيل سمعت ابن أبي أوفى يقول: لو كان بعد النبي نبي ما مات ابنه.

وأخرج ابن ماجة وغيره من حديث ابن عباس لما مات إبراهيم ابن النبي ﷺ وقال: «إن له مرضعاً في الجنة ولو عاش لكان صديقاً نبياً ولو عاش لأعتقت أخواله من القبط وما استرق قبطي» وفي سنده أبو شيبة إبراهيم بن عثمان الواسطي وهو على ما قال القسطلاني ضعيف، ومن طريقه أخرجه ابن منده في المعرفة وقال: إنه غريب، وكأن النووي لم يقف على هذا الخبر المرفوع أو نحوه أو وقف عليه ولم يصح عنده فقال في تهذيب الأسماء واللغات: وأما ما روي عن بعض المتقدمين لو عاش إبراهيم لكان نبياً فباطل وجسارة على الكلام على المغيبات ومجازفة وهجوم على

عظيم، ومثله ابن عبد البرّ فقد قال في التمهيد: لا أدري ما هذا فقد ولد نوح عليه السّلام غير نبي ولو لم يلد النبي إلا نبياً لكان كل أحد نبياً لأنهم من نوح عليه السّلام، وأنا أقول: لا يظن بالصحابي الهجوم على الأخبار عن مثل هذا الأمر بالظن، فالظاهر أنه لم يخبر إلا عن توقيف من رسول الله ﷺ، وإذا صح حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما المرفوع ارتفع الخصام، لكن الظاهر أن هذا الأمر في إبراهيم خاصة بأن يكون قد سبق في علم الله تعالى أنه لو عاش لجعله جل وعلا نبياً لا لكونه ابن النبي ﷺ بل لأمر هو جل شأنه به أعلم ﴿والله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ [الأنعام: ١٢٤] وحينئذ يرد على الشرطية السابقة أعني قوله لأنه: لو بلغ لكان منصبه أن يكون نبياً منع ظاهر، والدليل الذي سيق فيما سبق لا يثبتها لما أن ظاهره الخصوص فيجوز أن يبلغ ولد ذكر له عليه الصلاة والسلام غير إبراهيم ولا يكون نبياً لعدم أهليته للنبوة في علم الله تعالى لو عاش.

وقول بعض الأفاضل: ليس مبنى تلك الشرطية على اللزوم العقلي والقياس المنطقي بل على مقتضى الحكمة الإلهية وهي أن الله سبحانه أكرم بعض الرسل عليهم السّلام بجعل أولادهم أنبياء كالخليل عليه السّلام ونبينا ﷺ أكرمهم عليه وأفضلهم عنده فلو عاش أولاده اقتضى تشريف الله تعالى له وأفضليته عنده ذلك ليس بشيء لأنا نقول: لا يلزم من إكرام الله تعالى بعض رسله عليهم السّلام بنبوة الأولاد وكون نبينا ﷺ أكرمهم وأفضلهم اقتضاء التشريف والأفضلية نبوة أولاده لو عاشوا وبلغوا ليقال إن حكمة كونه عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين لكونها أجل وأعظم منعت من أن يعيشوا فينبؤوا، ألا ترى أن الله تعالى أكرم بعض الرسل بجعل بعض أقاربهم في حياتهم وبعد مماتهم أنبياء معينين لهم ومؤيدين لشريعتهم غير مخالفين لها في أصل أو فرع كموسى عليه السّلام ونبينا عليه الصلاة والسلام أكرمهم وأفضلهم ولم يجعل له ذلك.

فإن قيل: إنه عوض ﷺ عنه بأن جعل جل شأنه له من أقاربه وأهل بيته علماء أجلاء كأنبياء بني إسرائيل كعلي كرّم الله تعالى وجهه كما يرشد إليه قوله ﷺ له رضي الله تعالى عنه «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي» قلنا: فلم لا يجوز أن يبقى سبحانه له عليه الصلاة والسلام أولاداً ذكوراً بالغين ويعوضه عن نبوتهم التي منعت عنها حكمة الخاتمية نحو ما عوضه عن نبوة بعض أقاربه التي منعت عنها تلك الحكمة وذلك أقرب لمقتضى التشريف كما لا يخفى، وقيل: الملازمة مستفادة من الآية لأنه لولاها لم يكن للاستدراك معنى إذ لكن تتوسط بين متقابلين فلا بدّ من منافاة بنوتهم له عليه الصلاة والسلام لكونه خاتم النبيين وهو إنما يكون باستلزام بنوتهم نبوتهم، ولا يقدح فيه قوله تعالى: ﴿رسول الله﴾ كما يتوهم لأنه لو سلم رسالتهم لكانت إما في عصره ﷺ وهي تنافي رسالته أو بعده وهي تنافي خاتميته ا هـ، وفيه أن الملازمة في قوله: ولولا ذلك لم يكن للاستدراك معنى ممنوعة، والدليل المذكور لم يثبتها لجواز أن يكون معنى الاستدراك ما ذكرناه أولاً، على أن فيما ذكره بعد ما لا يخفى، وقيل في توجيه الاستدراك: إنه لما كان عدم النسل من الذكور يفهم منه أنه لا يبقي حكمه ﷺ ولا يدوم ذكره استدرك بما ذكر وهو كما ترى.

وقال بعض المتأخرين: يجوز أن لا يكون الاستدراك بلكن هنا بمعنى رفع التوهم الناشيء من أول الكلام كما في قولك: ما زيد كريم لكنه شجاع بل بمعنى أن يثبت لما بعدها حكم مخالف لما قبلها نحو ما هذا ساكن لكنه متحرك وما هذا أبيض لكنه أسود وقد جاء كذلك في بعض آي الكتاب الكريم كما في قوله تعالى: ﴿يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين﴾ [الأعراف: ٦٧] فإن نفي السفاهة لا يوهم انتفاء الرسالة ولا انتفاء ما يلزمها من الهدى والتقوى حتى يجعل استدراكاً بالمعنى الأول ا هـ فليتأمل.

ومن العجيب أن ابن حجر الهيتمي قال في فتاواه الحديثية: إنه لا بعد في إثبات النبوة لإبراهيم ابن النبي ﷺ

في صغره وقد ثبت في الصغر لعيسى ويحيى عليهما السّلام، ثم نقل عن السبكي كلاماً في حديث «كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد» حاصله أن حقيقته عليه الصلاة والسلام قد تكون من قبل آدم آتاها الله تعالى النبوة بأن خلقها مهيأة لها وأفاضها عليها من ذلك الوقت وصار نبياً ثم قال: وبه يعلم تحقيق نبوة سيدنا إبراهيم في حال صغره ا هـ وفيه بحث. وخبر أنه عليه الصلاة والسلام أدخل يده في قبره بعد دفنه وقال: «أما والله إنه لنبي ابن نبي» في سنده من ليس بالقوي فلا يعول عليه ليتكلف لتأويله، والخاتم اسم آلة لما يختم به كالطابع لما يطبع به فمعنى خاتم النبيين الذي ختم النبيون به ومآله آخر النبيين، وقال المبرد: «خاتم» فعل ماضٍ على فاعل وهو في معنى ختم النبيين فالنبيين منصوب على أنه مفعول به وليس بذاك وقرأ الجمهور «وخاتِم» بكسر التاء على أنه اسم فاعل أي الذي ختم النبيين، والمراد به آخرهم أيضاً، وفي حرف ابن مسعود ولكن نبياً ختم النبيين، والمراد بالنبي ما هو أعم من الرسول فيلزم من كونه ﷺ خاتم النبيين كونه خاتم المرسلين والمراد بكونه عليه الصلاة والسلام خاتمهم انقطاع حدوث وصف النبوة في أحد من الثقلين بعد تحليه عليه الصلاة والسلام بها في هذه النشأة.

ولا يقدح في ذلك ما أجمعت الأمة عليه واشتهرت فيه الأخبار ولعلها بلغت مبلغ التواتر المعنوي ونطق به الكتاب على قول ووجب الإيمان به وأكفر منكره كالفلاسفة من نزول عيسى عليه السّلام آخر الزمان لأنه كان نبياً قبل تحلي نبينا ﷺ بالنبوة في هذه النشأة ومثل هذا يقال في بقاء الخضر عليه السّلام على القول بنبوته وبقائه، ثم إنه عليه السّلام حين ينزل باقٍ على نبوته السابق لم يعزل عنها قال لكنه لا يتعبد بها لنسخها في حقه وحق غيره وتكليفه بأحكام هذه الشريعة أصلاً وفرعاً فلا يكون إليه عليه السّلام وحي ولا نصب أحكام بل يكون خليفة لرسول الله ﷺ وحاكماً من حكام ملته بين أمته بما علمه في السماء قبل نزوله من شريعته عليه الصلاة والسلام كما في بعض الآثار أو ينظر في الكتاب والسنّة وهو عليه السّلام لا يقصر عن رتبة الاجتهاد المؤدي إلى استنباط ما يحتاج إليه أيام مكثه في الأرض من الأحكام وكسره الصليب وقتله الخنزير ووضعه الجزية وعدم قبولها مما علم من شريعتنا صوابيته في قوله ﷺ(١): «إن عيسى ينزل حكماً عدلاً يكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية» فنزوله عليه السّلام غاية لا قرار الكفار ببذل الجزية على تلك الأحوال ثم لايقبل إلا الإسلام لا نسخ لها قاله شيخ الإسلام إبراهيم اللقاني في هداية المريد لجوهرة التوحيد، وقوله: إنه عليه السّلام حين ينزل باقٍ على نبوته السابقة لم يعزل عنها بحال لكنه لا يتعبد بها الخ أحسن من قول الخفاجي الظاهر أن المراد من كونه على دين نبينا ﷺ انسلاخه عن وصف النبوة والرسالة بأن يبلغ ما يبلغه عن الوحي وإنما يحكم بما يتلقى عن نبينا عليه الصلاة والسلام ولذا لم يتقدم لأمامة الصلاة مع المهدي ولا أظنه عنى بالانسلاخ عن وصف النبوة والرسالة عزله عن ذلك بحيث لا يصح إطلاق الرسول والنبي عليه عليه السّلام فمعاذ الله أن يعزل رسول أو نبي عن الرسالة أو النبوة بل أكاد لا أتعقل ذلك، ولعله أراد أنه لا يبقى له وصف تبليغ الأحكام عن وحي كما كان له قبل الرفع فهو عليه السّلام نبي رسول قبل الرفع وفي السماء وبعد النزول وبعد الموت أيضاً، وبقاء النبوة والرسالة بعد الموت في حقه وحق غيره من الأنبياء والمرسلين عليهم السّلام حقيقة مما ذهب إليه غير واحد فإن المتصف بهما وكذا بالإيمان هو الروح وهي باقية لا تتغير بموت البدن، نعم ذهب الأشعري كما قال النسفي إلى أنهما بعد الموت باقيان حكماً، وما أفاده كلام اللقاني من أنه عليه السّلام يحكم بما علم في السماء قبل نزوله من الشريعة قد أفاده السفاريني في البحور الزاخرة وهو الذي أميل له، وأما أنه يجتهد ناظراً في الكتاب والسنّة فبعيد وإن كان عليه

(١) حديث صحيح وفي الصحيحين ما هو بمعناه ا هـ منه.

السّلام قد أوتي فوق ما أوتي مجتهدو الأمم مما يتوقف عليه الاجتهاد بكثير إذ قد ذهب معظم أهل العلم إلى أنه حين ينزل يصلي وراء المهدي رضي الله تعالى عنه صلاة الفجر وذلك الوقت يضيق عن استنباط ما تضمنته تلك الصلاة من الأقوال والأفعال من الكتاب والسنّة على الوجه المعروف.

نعم لا يبعد أن يكون عليه السّلام قد علم في السماء بعضاً ووكل إلى الاجتهاد والأخذ من الكتاب والسنّة في بعض آخر، وقيل: إنه عليه السّلام يأخذ الأحكام من نبينا ﷺ شفاهاً بعد نزوله وهو في قبره الشريف عليه الصلاة والسلام، وأيد بحديث أبي يعلى «والذي نفسي بيده لينزلن عيسى ابن مريم ثم لئن قام على قبري وقال يا محمد لأجيبنه».

وجوز أن يكون ذلك بالاجتماع معه عليه الصلاة والسلام روحانية ولا بدع في ذلك فقد وقعت رؤيته ﷺ بعد وفاته لغير واحد من الكاملين من هذه الأمة والأخذ منه يقظة، قال الشيخ سراج الدين بن الملقن في طبقات الأولياء: قال الشيخ عبد القادر الكيلاني قدس سره: رأيت رسول الله ﷺ قبل الظهر فقال لي: يا بني لم لا تتكلم؟ قلت: يا أبتاه أنا رجل أعجم كيف أتكلم على فصحاء بغداد فقال: افتح فاك ففتحته فتفل فيه سبعاً وقال: تكلم على الناس وادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة فصليت الظهر وجلست وحضرني خلق كثير فأرتج عليَّ فرأيت علياً كرّم الله تعالى وجهه قائماً بإزائي في المجلس فقال لي: يا بني لم لا تتكلم؟ قلت: يا أبتاه قد أرتج علي فقال: افتح فاك ففتحته فتفل فيه ستاً فقلت: لم لا تكملها سبعاً قال: أدباً مع رسول الله ﷺ ثم توارى عني فقلت: غواص الفكر يغوص في بحر القلب على درر المعارف فيستخرجها إلى ساحل الصدر فينادي عليها سمسار ترجمان اللسان فتشتري بنفائس أثمان حسن الطاعة في بيوت إذن الله أن ترفع، وقال أيضاً في ترجمة الشيخ خليفة بن موسى النهر ملكي: كان كثير الرؤية لرسول الله عليه الصلاة والسلام يقظة ومناماً فكان يقال: إن أكثر أفعاله يتلقاه منه ﷺ يقظة ومناماً ورآه في ليلة واحدة سبع عشرة مرة قال له في إحداهن: يا خليفة لا تضجر مني فكثير من الأولياء مات بحسرة رؤيتي، وقال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله في لطائف المنن: قال رجل للشيخ أبي العباس المرسي يا سيدي صافحني بكفك هذه فإنك لقيت رجالاً وبلاداً فقال: والله ما صافحت بكفي هذه إلا رسول الله ﷺ قال: وقال الشيخ لو حجب عني رسول الله ﷺ طرفة عين ما عددت نفسي من المسلمين، ومثل هذه النقول كثير من كتب القوم جداً.

وفي تنوير الحلك لجلال الدين السيوطي الذي رد به على منكري رؤيته ﷺ بعد وفاته في اليقظة طرف معتد به من ذلك، وبدأ في الاستدلال على ذلك بما أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله ﷺ من رآني في المنام فسيراني في اليقظة ولا يتمثل الشيطان بي» وأخرج الطبراني مثله من حديث مالك بن عبد الله الخثعمي ومن حديث أبي بكرة، وأخرج الدارمي مثله من حديث أبي قتادة.

وللمنكرين اختلاف في تأويله فقيل: المراد فسيراني في القيامة فهناك اليقظة الكاملة كما يشير إليه الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا. وتعقب بأنه لا فائدة في هذا التخصيص لأن كل أمته يرونه يوم القيامة من رآه منهم في المنام ومن لم يره، وقيل: المراد الرؤية على وجه خاص من القرب والحظوة منه ﷺ يوم القيامة أو حصول الشفاعة له أو نحو ذلك، ولا يرد عليه ما ذكر، وقيل: المراد بمن من آمن به لي حياته ولم يره لكونه حينئذٍ غائباً عنه فيكون الخبر مبشراً له بأنه لا بدّ أن يراه في اليقظة يعني بعيني رأسه، وقيل: بعين قلبه حكاهما القاضي أبو بكر بن العربي، وقال الإمام أبو محمد بن أبي جمرة في تعليقه على الأحاديث التي انتقاها من صحيح البخاري: هذا الحديث يدل على أن من يراه ﷺ في النوم فسيراه في اليقظة وهل هذا على عمومه في حياته وبعد مماته عليه الصلاة والسلام أو هذا كان في حياته وهل

ذلك لكل من رآه مطلقاً أو خاص بمن فيه الأهلية والاتباع لسنّته عليه الصلاة والسلام اللفظ يعطي العموم ومن يدعي الخصوص فيه بغير مخصص منه ﷺ فمتعسف، وأطال الكلام في ذلك ثم قال: وقد ذكر عن السلف والخلف وهلم جراً ممن كانوا رأوه ﷺ في النوم وكانوا ممن يصدقون بهذا الحديث فرأوه بعد ذلك في اليقظة وسألوه عن أشياء كانوا منها متشوشين فأخبرهم بتفريجها ونص لهم على الوجوه التي منها يكون فرجها فجاء الأمر كذلك بلا زيادة ولا نقص انتهى المراد منه، ثم أن رؤيته ﷺ يقظة عند القائلين بها أكثر ما تقع بالقلب ثم يترقى الحال إلى أن يرى بالبصر، واختلفوا في حقيقة المرئي فقال بعضهم المرئي ذات المصطفى ﷺ بجسمه وروحه، وأكثر أرباب الأحوال على أنه مثاله وبه صرح الغزالي فقال: ليس المراد أنه يرى جسمه وبدنه بل مثالاً له صار ذلك المثال آلة يتأدى بها المعنى الذي في نفسه قال: والآلة تارة تكون حقيقة وتارة تكون خيالية والنفس غير المثال المتخيل فما رآه من الشكل ليس هو روح المصطفى ﷺ ولا شخصه بل هو مثال له على التحقيق.

وفصل القاضي أبو بكر بن العربي فقال: رؤية النبي ﷺ بصفته المعلومة إدراك على الحقيقة ورؤيته على غير صفته إدراك للمثال واستحسنه الجلال السيوطي وقال: بعد نقل أحاديث وآثار ما نصه فحصل من مجموع هذا الكلام النقول والأحاديث أن النبي ﷺ حي بجسده وروحه وأنه يتصرف ويسير حيث شاء في أقطار الأرض وفي الملكوت وهو بهيئته التي كان عليها قبل وفاته لم يتبدل منه شيء وأنه مغيب عن الأبصار كما غيبت الملائكة مع كونهم أحياء بأجسادهم فإذا أراد الله تعالى رفع الحجاب عمن أراد إكرامه برؤيته رآه على هيئته التي هو عليه الصلاة والسلام عليها لا مانع من ذلك ولا داعي إلى التخصيص برؤية المثال ا هـ، وذهب رحمه الله تعالى إلى نحو هذا في سائر الأنبياء عليهم السّلام فقال إنهم أحياء ردت إليهم أرواحهم بعد ما قبضوا وأذن لهم في الخروج من قبورهم والتصرف في الملكوت العلوي والسفلي، وهذا الذي ذكره من الخروج من القبور ذكر أخباراً كثيرة تشهد له.

منها ما أخرجه ابن حبان في تاريخه والطبراني في الكبير وأبو نعيم في الحلية عن أنس قال: «قال رسول الله ﷺ ما من نبي يموت فيقيم في قبره إلا أربعين صباحاً» ومنها ما رواه عبد الرزاق في مصنفه عن الثوري عن أبي المقدام عن سعيد بن المسيب قال: ما مكث نبي في الأرض أكثر من أربعين يوماً، وأبو المقدام هو ثابت بن هرمز شيخ صالح، ومنها ما ذكره إمام الحرمين في النهاية ثم الرافعي في الشرح أن النبي ﷺ قال: «أنا أكرم على ربي من أن يتركني في قبري بعد ثلاث» زاد إمام الحرمين وروى أكثر من يومين.

والذي يغلب على الظن أن رؤيته ﷺ بعد وفاته بالبصر ليست كالرؤية المتعارفة عند الناس من رؤية بعضهم لبعض وإنما هي جمعية حالية وحالة برزخية وأمر وجداني لا يدرك حقيقته إلا من باشره، ولشدة شبه تلك الرؤية بالرؤية البصرية المتعارفة يشتبه الأمر على كثير من الرائين فيظن أنه رآه ﷺ ببصره الرؤية المتعارفة وليس كذلك، وربما يقال إنها رؤية قلبية ولقوتها تشتبه بالبصرية، والمرئي إما روحه عليه الصلاة والسلام التي هي أكمل الأرواح تجرداً وتقدساً بأن تكون قد تطورت وظهرت بصورة مرئية بتلك الرؤية مع بقاء تعلقها بجسده الشريف الحي في القبر السامي المنيف على حد ما قاله بعضهم من أن جبريل عليه السّلام مع ظهوره بين يدي النبي عليه الصلاة والسلام في صورة دحية الكلبي أو غيره لم يفارق سدرة المنتهى، وإما جسد مثالي تعلقت به روحه ﷺ المجردة القدسية، ولا مانع من أن يتعدد الجسد المثالي إلى ما لا يحصى من الأجساد مع تعلق روحه القدسية عليه من الله تعالى ألف ألف صلاة وتحية بكل جسد منها ويكون هذا التعلق من قبيل تعلق الروح الواحدة بأجزاء بدن واحد ولا تحتاج في إدراكاتها وإحساساتها في ذلك التعلق إلى ما تحتاج إليه من الآلات في تعلقها بالبدن في الشاهد، وعلى ما ذكر يظهر وجه ما نقله الشيخ

صفي الدين بن أبي منصور والشيخ عبد الغفار عن الشيخ أبي العباس الطنجي من أنه رأى السماء والأرض والعرش والكرسي مملوءة من رسول الله ﷺ وينحل به السؤال عن كيفية رؤية المتعددين له عليه الصلاة والسلام في زمان واحد في أقطار متباعدة.

ولا يحتاج معه إلى ما أشار إليه بعضهم وقد سئل عن ذلك فأنشد:

كالشمس في كبد السماء وضوءها ... يغشى البلاد مشارقاً ومغاربا

وهذه الرؤية إنما تقع في الأغلب للكاملين الذين لم يخلوا باتباع الشريعة قدر شعيرة، ومتى قويت المناسبة بين رسول الله ﷺ وبين أحد من الأمة قوي أمر رؤيته إياه عليه الصلاة والسلام، وقد تقع لبعض صلحاء الأمة عند الإحتضار لقوة الجمعية حينئذٍ، والرؤية التي تكون يقظة لمن رآه ﷺ في المنام إن كانت في الدنيا فهي على نحو رؤية بعض الكاملين إياه ﷺ وهي أكمل من الرؤيا وإن كان المرئي فيهما هو رسول الله عليه الصلاة والسلام، وآخر مظان تحققها وقت الموت.

ولعل الأغلب في حق العامة تحققها فيه، وإن كانت في الآخرة فالأمر فيها واضح ويرجح عندي كونها في الآخرة على وجه خاص من القرب والحظوة وما شاكل ذلك أن البشارة في الخبر عليه أبلغ، ثم إن الخبر المذكور فيما مر مذكور في صحيح مسلم بالسند إلى أبي هريرة أنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: من رآني في المنام فسيراني في اليقظة أو لكأنما رآني في اليقظة لا يتمثل الشيطان بي» فلا قطع على هذه الرواية بأنه عليه الصلاة والسلام قال: فسيراني فإن كان الواقع في نفس الأمر ذلك فالكلام فيه ما سمعت، وإن كان الواقع لكأنما رآني فهو كقوله ﷺ في خبر آخر: «فقد رآني» وفي آخر أيضاً «فقد رأى الحق» والمعنى أن رؤياه صحيحة، وما تقدم من أن الأنبياء عليهم السّلام يخرجون من قبورهم أي بأجسامهم وأرواحهم كما هو الظاهر ويتصرفون في الملكوت العلوي والسفلي فمما لا أقول به، والخبر السابق الذي أخرجه ابن حبان والطبراني وأبو نعيم عن أنس وهو قوله ﷺ: «ما من نبي يموت فيقيم في قبره إلا أربعين صباحاً» قد أخرجوه عن الحسن بن سفيان عن هشام بن خالد الأزرق عن الحسن بن يحيى الخشني عن سعيد بن عبد العزيز عن يزيد بن أبي مالك عن أنس رضي الله تعالى عنه وقال فيه ابن حبان: هو باطل والخشني منكر الحديث جداً يروي عن الثقات ما لا أصل له.

وفي الميزان عن الدارقطني الخشني متروك ومن ثم حكم ابن الجوزي بوضع الحديث وهو مع ذلك بعض حديث والحديث بتمامه عند الطبراني «ما من نبي يموت فيقيم في قبره إلا أربعين صباحاً حتى ترد إليه روحه ومررت ليلة أسري بي بموسى وهو قائم يصلي في قبره» وهو على هذا لا يدل على أنه بعد الأربعين لا يقيم في قبره بل يخرج منه وإنما يدل على أنه لا يبقى في القبر ميتاً كسائر الأموات أكثر من أربعين صباحاً بل ترد إليه روحه ويكون حياً، وأين هذا من دعوى الخروج من القبر بعد الأربعين، والحياة في القبر لا تستلزم الخروج وأنا أقول بها في حق الأنبياء عليهم السّلام، وقد ألف البيهقي جزءاً في حياتهم في قبورهم وأورد فيه عدة أخبار.

ولا يضرني بعد ظهور أن الحديث السابق لا يدل على الخروج المنازعة في وصفه وبلوغه بما له من الشواهد درجة الحسن، والأخبار المذكورة بعد فيما سبق المراد منها كلها إثبات الحياة في القبر بضرب من التأويل، والمراد بتلك الحياة نوع من الحياة غير معقول لنا وهي فوق حياة الشهداء بكثير، وحياة نبينا ﷺ أكمل وأتم من حياة سائرهم عليهم السّلام، وخبر «ما من مسلم يسلم علي إلا رد الله تعالى علي روحي حتى أرد عليه السّلام» محمول على إثبات

إقبال خاص والتفات روحاني يحصل من الحضرة الشريفة النبوية إلى عالم الدنيا وتنزل إلى عالم البشرية حتى يحصل عند ذلك رد السلام، وفيه توجيهات أخر مذكورة في محلها، ثم إن تلك الحياة في القبر وإن كانت يترتب عليها بعض ما يترتب على الحياة في الدنيا المعروفة لنا من الصلاة والأذان والإقامة ورد السلام المسموع ونحو ذلك إلا أنها لا يترتب عليها كل ما يمكن أن يترتب على تلك الحياة المعروفة ولا يحس بها ولا يدركها كل أحد فلو فرض انكشاف قبر نبي من الأنبياء عليهم السّلام لا يرى الناس النبي فيه إلا كما يرون سائر الأموات الذين لم تأكل الأرض أجسادهم، وربما يكشف الله تعالى على بعض عباده فيرى ما لا يرى الناس، ولولا هذا لأشكل الجمع بين الأخبار الناطقة بحياتهم في قبورهم، وخبر أبي يعلى وغيره بسند صحيح كما قال الهيثمي مرفوعاً إن موسى نقل يوسف من قبره بمصر، ثم إني أقول بعد هذا كله إن ما نسب إلى بعض الكاملين من أرباب الأحوال من رؤية النبي ﷺ بعد وفاته وسؤاله والأخذ عنه لم نعلم وقوع مثله في الصدر الأول، وقد وقع اختلاف بين الصحابة رضي الله تعالى عنهم من حين توفي عليه الصلاة والسلام إلى ما شاء الله تعالى في مسائل دينية وأمور دنيوية وفيهم أبو بكر وعلي رضي الله تعالى عنهما وإليهما ينتهي أغلب سلاسل الصوفية الذين تنسب إليهم تلك الرؤية ولم يبلغنا أن أحداً منهم ادعى أنه رأى في اليقظة رسول الله ﷺ وأخذ عنه ما أخذ، وكذا لم يبلغنا أنه ﷺ ظهر لمتحير في أمر من أولئك الصحابة الكرام فأرشده وأزال تحيره، وقد صح عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه قال في بعض الأمور: ليتني كنت سألت رسول الله عليه الصلاة والسلام عنه، ولم يصح عندنا أنه توسل إلى السؤال منه ﷺ بعد الوفاة نظير ما يحكى عن بعض أرباب الأحوال، وقد وقفت على اختلافهم في حكم الجد مع الأخوة فهل وقفت على أن أحداً منهم ظهر له الرسول ﷺ فأرشده إلى ما هو الحق فيه، وقد بلغك ما عرا فاطمة البتول رضي الله تعالى عنها من الحزن العظيم بعد وفاته ﷺ وما جرى لها في أمر فدك فهل بلغك أنه عليه الصلاة والسلام ظهر لها كما يظهر للصوفية فبل لوعتها وهون حزنها وبين الحال لها وقد سمعت بذهاب عائشة رضي الله تعالى عنها إلى البصرة وما كان من وقعة الجمل فهل سمعت تعرضه ﷺ لها قبل الذهاب وصده إياها عن ذلك لئلا يقع أو تقوم الحجة عليها على أكمل وجه إلى غير ذلك مما لا يكاد يحصى كثرة، والحاصل أنه لم يبلغنا ظهوره عليه الصلاة والسلام لأحد من أصحابه وأهل بيته وهم هم مع احتياجهم الشديد لذلك وظهوره عند باب مسجد قباء كما يحكيه بعض الشيعة افتراء محض وبهت بحت

وبالجملة عدم ظهوره لأولئك الكرام، وظهوره لمن بعدهم مما يحتاج إلى توجيه يقنع به ذوو الأفهام، ولا يحسن معنى أن أقول: كل ما يحكى عن الصوفية من ذلك كذب لا أصل له لكثرة حاكيه وجلالة مدعيه، وكذا لا يحسن مني أن أقول: إنهم إنما رأوا النبي ﷺ مناماً فظنوا ذلك لخفة النوم وقلة وقته يقظة فقالوا: رأينا يقظة لما فيه من البعد ولعل في كلامهم ما يأباه، وغاية ما أقول: إن تلك الرؤية من خوارق العادة كسائر كرامات الأولياء ومعجزات الأنبياء عليهم السّلام وكانت الخوارق في الصدر الأول لقرب العهد بشمس الرسالة قليلة جداً وأنى يرى النجم تحت الشعاع أو يظهر كوكب وقد انتشر ضوء الشمس في البقاع فيمكن أن يكون قد وقع ذلك لبعضهم على سبيل الندرة ولم تقتض المصلحة إفشاءه، ويمكن أن يقال: إنه لم يقع لحكمة الابتلاء أو لخوف الفتنة أو لأن في القوم من هو كالمرآة له ﷺ أو ليهرع الناس إلى كتاب الله تعالى وسنته ﷺ فيما يهمهم فيتسع باب الاجتهاد وتنتشر الشريعة وتعظم الحجة التي يمكن أن يعقلها كل أحد أو لنحو ذلك.

وربما يدعي أنه عليه الصلاة والسلام ظهر ولكن كان متستراً في ظهوره كما روي أن بعض الصحابة أحب أن يرى رسول الله ﷺ فجاء إلى ميمونة فأخرجت له مرآته فنظر فيها فرأى صورة رسول الله عليه الصلاة والسلام ولم يرَ صورة نفسه فهذا كالظهور الذي يدعيه الصوفية إلا أنه بحجاب المرآة، وليس من باب التخيل الذي قوي بالنظر إلى

مرآته عليه الصلاة والسلام وملاحظة أنه كثيراً ما ظهرت فيها صورته حسبما ظنه ابن خلدون.

فإن قبل قولي هذا وتوجيهي لذلك الأمر فبها ونعمت وإلا فالأمر مشكل فاطلب لك ما يحله والله سبحانه الموفق للصواب.

هذا وقيل يجوز أن يكون عيسى عليه السّلام قد تلقى من نبينا عليه الصلاة والسلام أحكام شريعته المخالفة لما كان عليه وهو من الشريعة حال اجتماعه معه قبل وفاته في الأرض لعلمه أنه سينزل ويحتاج إلى ذلك واجتماعه معه كذلك جاء في الأخبار.

أخرج ابن عدي عن أنس «بينا نحن مع رسول الله ﷺ إذ رأينا برداً ويداً فقلنا يا رسول الله ما هذا البرد الذي رأينا واليد؟ قال: قد رأيتموه قالوا: نعم قال: ذلك عيسى ابن مريم سلم عليّ» وفي رواية ابن عساكر عنه «كنت أطوف مع النبي ﷺ حول الكعبة إذ رأيته صافح شيئاً ولم أره قلنا: يا رسول الله صافحت شيئاً ولا نراه قال: ذلك أخي عيسى ابن مريم انتظرته حتى قضى طوافه فسلمت عليه» ومن هنا عد عليه السّلام من الصحابة رضي الله تعالى عنهم، وقيل: إنه عليه السّلام بعد نزوله يتلقى أحكام شريعتنا من الملك بأن يعلمه إياها أو يوقفه عليها لا على وجه الإيحاء بها عليه من جهته عزّ وجلّ وبعثته بها ليكون في ذلك رسالة جديدة متضمنة نبوة جديدة، وقد دل قوله تعالى: ﴿وخاتم النبيين﴾ على انقطاعها بل على نحو تعليم الشيخ ما علمه من الشريعة تلميذه، ومجرد الاجتماع بالملك والأخذ عنه وتكليمه لا يستدعي النبوة، ومن توهم استدعاءه إياها فقد حاد ـ كما قال اللقاني ـ عن الصواب فقد كلمت الملائكة عليهم السّلام مريم وأم موسى في قول ورجلاً خرج لزيارة أخ له في الله تعالى وبلغته أن الله عزّ وجلّ يحبه كحبه لأخيه فيه.

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الذكر عن أنس قال: قال أبي بن كعب لأدخلن المسجد فلأصلين ولأحمدن الله تعالى بمحامد لم يحمده بها أحد فلما صلى وجلس ليحمد الله تعالى ويثني عليه إذا هو بصوت عالٍ من خلف يقول: اللهم لك الحمد كله ولك الملك كله وبيدك الخير كله وإليك يرجع الأمر كله علانيته وسره لك الحمد إنك على كل شيء قدير اغفر لي ما مضى من ذنوبي واعصمني فيما بقي من عمري وارزقني أعمالاً زاكية ترضى بها عني وتب عليّ فأتى رسول الله ﷺ فقص عليه فقال: ذاك جبريل عليه السّلام، والأخبار طافحة برؤية الصحابة للملك وسماعهم كلامه، وكفي دليلاً لما نحن فيه قوله سبحانه: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾ [فصلت: ٣٠] الآية فإن فيها نزول الملك على غير الأنبياء في الدنيا وتكليمه إياه ولم يقل أحد من الناس: إن ذلك يستدعي النبوة وكون ذلك لأن النزول والتكليم قبيل الموت غير مفيد كما لا يخفى، وقد ذهب الصوفية إلى نحو ما ذكرناه، قال حجة الإسلام الغزالي في كتابه ـ المنقذ من الضلال ـ أثناء الكلام على مدح أولئك السادة: ثم إنهم وهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتاً ويقتبسون منهم فوائد ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق.

وقال تلميذه القاضي أبو بكر بن العربي أحد أئمة المالكية في كتابه قانون التأويل: ذهبت الصوفية إلى أنه إذا حصل للانسان طهارة النفس وتزكية القلب وقطع العلائق وحسم مواد أسباب الدنيا من الجاه والمال والخلطة بالجنس والإقبال على الله تعالى بالكلية علماً دائماً وعملاً مستمراً كشفت له القلوب ورأى الملائكة وسمع كلامهم واطلع على أرواح الأنبياء والملائكة، وسماع كلامهم ممكن للمؤمن كرامة وللكافر عقوبة ا هـ.

ونسب إلى بعض أئمة أهل البيت أنه قال: إن الملائكة لتزاحمنا في بيوتنا بالركب، والظاهر من كلامهم أن الاجتماع بهم والأخذ عنهم لا يكون إلا للكاملين ذوي النفوس القدسية وأن الإخلال بالسنّة مانع كبير عن ذلك، ويرشد إليه ما أخرجه مسلم في صحيحه عن مطرف قال: قال لي عمران بن حصين قد كان ملك يسلم على حتى اكتويت فترك ثم تركت المكي فعاد، ويعلم مما ذكرنا أن مدعيه إذا كان مخالفاً لحكم الكتاب والسنّة كاذب لا ينبغي أن يصغي إليه ودعواه باطلة مردودة عليه فأين الظلمة من النور والنجس من الطهور، ثم إنه لا طريق إلى معرفة كون المجتمع به ملكاً بعد خبر الصادق سوى العلم الضروري الذي يخلقه الله تعالى في العبد بذلك ويقطع بعدم كونه ملكاً متى خالف ما ألقاه وأتى به الكتاب أو السنّة أو إجماع الأمة ومثله فيما أرى التكلم بما يشبه الهذيان ويضحك منه الصبيان وينبغي لمن وقع له ذلك أن لا يشيعه ويعلن به لما فيه من التعرض للفتنة، فقد أخرج مسلم عن مطرف أيضاً من وجه آخر قال: بعث إليّ عمران بن حصين في مرضه الذي توفي فيه فقال: إني محدثك فإن عشت فاكتم عني وإن مت فحدث بها إن شئت إنه قد سلم عليّ ـ وفي رواية الحاكم في المستدرك ـ اعلم يا مطرف أنه كان يسلم على الملائكة عند رأسي وعند البيت وعند باب الحجرة فلما اكتويت ذهب ذلك قال: فلما برأ كلمه قال: اعلم يا مطرف أنه عاد إلى الذي كنت أكتم عليّ حتى أموت، وكذا ينبغي أن لا يقول لإلقاء الملك عليه إيحاء لما فيه من الإيهام القبيح وهو إيهام وحي النبوة الذي يكفر مدعيه بعد رسول الله ﷺ بلا خلاف بين المسلمين، وأطلق بعض الغلاة من الشيعة القول بالإيحاء إلى الأئمة الأطهار وهم رضي الله تعالى عنهم بمعزل عن قبول قول أولئك الأشرار.

فقد روي أن سديراً الصير في سأل جعفراً الصادق رضي الله تعالى عنه فقال: جعلت فداك إن شيعتكم اختلفت فيكم فأكثرت حتى قال بعضهم: إن الإمام ينكت في أذنه، وقال آخرون: يوحى إليه، وقال آخرون: يقذف في قلبه، وقال آخرون: يرى في منامه، وقال آخرون: إنما يفتي بكتب آبائه فبأي جوابهم آخذ يجعلني الله تعالى فداك؟ قال: لا تأخذ بشيء مما يقولون يا سدير نحن حجج الله تعالى وأمناؤه على خلقه حلالنا من كتاب الله تعالى وحرامنا منه، حكاه محمد بن عبد الكريم الشهرستاني في أول تفسيره مفاتيح الأسرار وقد ظهر في هذا العصر[1] عصابة من غلاة الشيعة لقبوا أنفسهم بالبابية لهم في هذا الباب فصول يحكم بكفر معتقدها كل من انتظم في سلك ذوي العقول، وقد كاد يتمكن عرقهم في العراق لولا همة واليه النجيب الذي وقع على همته وديانته الاتفاق حيث خذلهم نصره الله تعالى وشتت شملهم وغضب عليهم رضي الله تعالى عنه وأفسد عملهم فجزاه الله تعالى عن الإسلام خيراً ودفع عنه في الدارين ضيماً وضيراً. وادعى بعضهم الوحي إلى عيسى عليه السّلام بعد نزوله، وقد سئل عن ذلك ابن حجر الهيثمي فقال نعم يوحي إليه عليه السّلام وحي حقيقي كما في حديث مسلم وغيره عن النواس بن سمعان، وفي رواية صحيحة «فبينما هو كذلك إذ أوحى الله تعالى يا عيسى إني أخرجت عباداً لي لا يد لأحد بقتالهم فحول عبادي إلى الطور وذلك الوحي على لسان جبريل عليه السّلام إذ هو السفير بين الله تعالى وأنبيائه» لا يعرف ذلك لغيره، وخبر لا وحي بعدي باطل، وما اشتهر أن جبريل عليه السّلام لا ينزل إلا الأرض بعد موت النبي ﷺ فهو لا أصل له، ويرده خبر الطبراني ما أحب أن يرقد الجنب حتى يتوضأ فإني أخاف أن يتوفى وما يحضره جبريل عليه السّلام فإنه يدل على أن جبريل ينزل إلى الأرض ويحضر موت كل مؤمن توفاه الله تعالى وهو على طهارة ا هـ، ولعل من نفي الوحي عنه عليه السّلام بعد نزوله أراد وحي التشريع وما ذكر وحي لا تشريع فيه فتأمل. وكونه ﷺ خاتم النبيين مما نطق به الكتاب

(١) سنة ١٢٦١ ا هـ منه.

وصدعت به السنّة وأجمعت عليه الأمة فيكفر مدعي خلافه ويقتل إن أصر.

ومن السنة ما أخرج أحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن مردويه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى داراً بناه فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياها فجعل الناس يطوفون به ويتعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين» وصح عن جابر مرفوعاً نحو هذا، وكذا عن أبي بن كعب وأبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنهم، وللشيخ محيي الدين بن عربي قدس سره كلام في حديث اللبنة قد انتقده عليه جماعة من الأجلة فعليك بالتمسك بالكتاب والسنّة والله تعالى الحافظ من الوقوع في المحنة، ونصب ﴿رسول﴾ على إضمار كان لدلالة كان المتقدمة عليه والواو عاطفة للجملة الاستدراكية على ما قبلها، وكون لكن المخففة عند الجمهور للعطف إنما هو عند عدم الواو وكون ما بعدها مفرداً، وجوز أن يكون النصب بالعطف على ﴿أبا أحد﴾ وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو «ولكنّ» بالتشديد فنصب «رسول» على أنه اسم لكن والخبر محذوف تقديره ولكن رسول الله وخاتم النبيين هو أي محمد ﷺ، وقال الزمخشري: تقديره ولكن رسول الله من عرفتموه أي لم يعش له ولد ذكر، وحذف خبر لكن وأخواتها جائز إذا دل عليه الدليل، ومما جاء في لكن قول الشاعر:

فلو كنت ضبياً عرفت قرابتي ... ولكن زنجياً عظيم المشافر

أي ولكن زنجياً عظيم المشافر أنت، وفيه بحث لا يخفى على ذي معرفة، وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما وابن أبي عبلة بتخفيف «لكن» ورفع «رسول» ـ و «خاتم» أي ولكن هو رسول الله الخ كما قال الشاعر:

ولست الشاعر السفاف فيهم ... ولكن مدرة الحرب العوالي

أي ولكن أنا مدرة ﴿وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ أعم من أن يكون موجوداً أو معدوماً ﴿عَلِيماً﴾ فيعلم سبحانه الأحكام والحكم التي بينت فيما سبق والحكمة في كونه عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ﴾ بما هو جل وعلا أهله من التهليل والتحميد والتمجيد والتقديس ﴿ذِكْراً كَثِيراً﴾ يعم أغلب الأوقات والأحوال كما قال غير واحد، وعن ابن عباس الذكر الكثير أن لا ينسى جل شأنه، وروي ذلك عن مجاهد أيضاً، وقيل: إن يذكر سبحانه بصفاته العلى وأسمائه الحسنى وينزه عما لا يليق به، وعن مقاتل هو أن يقال: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر على كل حال، وعن العترة الطاهرة رضي الله تعالى عنهم من قال ذلك ثلاثين مرة فقد ذكر الله تعالى ذكراً كثيراً، وفي مجمع البيان عن الواحدي بسنده إلى الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس قال: جاء جبريل عليه السّلام إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد قل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم عدد ما علم وزنة ما علم وملء ما علم فإنه من قالها كتب له بها ست خصال كتب من الذاكرين الله تعالى كثيراً وكان أفضل من ذكره بالليل والنهار وكن له غرساً في الجنة وتحاتت عنه خطاياه كما تحات ورق الشجرة اليابسة وينظر الله تعالى إليه ومن نظر الله تعالى إليه لم يعذبه كذا رأيته في مدونه فلا تغفل، وقال بعضهم: مرجع الكثرة العرف.

﴿وَسَبِّحُوهُ﴾ ونزهوه سبحانه عما لا يليق به ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ أي أول النهار وآخره، وتخصيصهما بالذكر ليس لقصر التسبيح عليهما دون سائر الأوقات بل لأنافه فضلهما على سائر الأوقات لكونهما تحضرهما ملائكة الليل والنهار وتلتقي فيهما كأفراد التسبيح من بين الأذكار مع اندراجه فيها لكونه العمدة بينها، وقيل: كلا الأمرين متوجه إليهما كقولك: صم وصلِّ يوم الجمعة، وبتفسير الذكر الكثير بما يعم أغلب الأوقات لا تبقى حاجة إلى تعلقهما بالأول

وعن ابن عباس أن المراد بالتسبيح الصلاة أي بإطلاق الجزء على الكل والتسبيح بكرة صلاة الفجر والتسبيح أصيلاً صلاة العشاء، وعن قتادة نحو ما روي عن ابن عباس إلا أنه قال: أشار بهذين الوقتين إلى صلاة الغداة وصلاة العصر وهو أظهر مما روي عن الحبر وتعقب ما روي عنهما بأن فيه تجوزاً من غير ضرورة، وقد يقال: إن التسبيح على حقيقته لكن التسبيح بكرة بالصلاة فيها والتسبيح أصيلاً بالصلاة فيه فتأمل وجوز أن يكون المراد بالذكر المأمور به تكثير الطاعات والإقبال عليها فإن كل طاعة من جملة الذكر ثم خص من ذلك التسبيح بكرة وأصيلاً أي الصلاة في جمع أوقاتها أو صلاة الفجر والعصر أو الفجر والعشاء لفضل الصلاة على غيرها من الطاعات البدنية، ولا يخفى بعده ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾ الخ استئناف جار مجرى التعليل لما قبله من الأمرين ﴿وَمَلَائِكَتُهُ﴾ عطف على الضمير في ﴿يصلي﴾ لمكان الفصل المغني عن التأكيد بالمنفصل لا على ﴿هو﴾ والصلاة في المشهور - وروي ذلك عن ابن عباس - من الله تعالى رحمة ومن الملائكة استغفار ومن مؤمني الإنس والجن دعاء، ويجوز على رأي من يجوز استعمال اللفظ في معنيين أن يراد بالصلاة هنا المعنيان الأولان فيراد بها أولاً الرحمة وثانياً الاستغفار، ومن لا يجوز كأصحابنا يقول بعموم المجاز بأن يراد بالصلاة معنى مجازي عام يكون كلا المعنيين فرداً حقيقياً له وهو إما الاعتناء بما فيه خير المخاطبين وصلاح أمرهم فإن كلاً من الرحمة والاستغفار فرد حقيقي له وهذا المجاز من الصلاة بمعنى الدعاء وهو إما استعارة لأن الاعتناء يشبه الدعاء لمقارنة كل منهما لإرادة الخير والأمر المحبوب أو مجاز مرسل لأن الدعاء مسبب عن الاعتناء وأما الترحم والانعطاف المعنوي المأخوذ من الصلاة المعروفة المشتملة على الانعطاف الصوري الذي هو الركوع والسجود، ولا ريب في أن استغفار الملائكة عليهم السّلام ودعاءهم للمؤمنين ترحم عليهم، وأما أن ذلك سبب للرحمة لكونهم مجابي الدعوة كما قيل ففيه بحث، ورجح جعل المعنى العام ما ذكر بأنه أقرب لما بعد فإنه نص عليه فيه بقوله تعالى: ﴿وكان بالمؤمنين رحيماً﴾ فدل على أن المراد بالصلاة الرحمة. واعترض بأن رحم متعد وصلى قاصر فلا يحسن تفسيره به، وبأنه يستلزم جواز رحم عليه، وبأنه تعالى غاير بينهما بقوله سبحانه: ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة﴾ [البقرة: ١٥٧] للعطف الظاهر في المغايرة، وأجيب بأنه ليس المراد بتفسير صلى برحم إلا بيان أن المعنى الموضوع له صلى هو الموضوع له رحم مع قطع النظر عن معنى التعدي واللزوم فإن الرديفين قد يختلفان في ذلك وهو غير ضار فزعم أن ذلك لا يحسن وأنه يلزم جواز رحم عليه ليس في محله على أنه يحسن تعدية صلى بعلي دون رحم لما في الأول من ظهور معنى التحنن والتعطف والعطف لأن الصلاة رحمة خاصة ويكفي هذا القدر من المغايرة، وقيل: إن تعدد الفاعل صير الفعل كالمتعدد فكأن الرحمة مرادة من لفظ والاستغفار مراد من آخر فلا حاجة إلى القول بعموم المجاز وليس هناك استعمال لفظ واحد حقيقة وحكماً في معنيين وهو كما ترى، ومثله كون ﴿ملائكته﴾ مبتدأ خبره محذوف لدلالة ما قبل عليه كأنه قيل هو الذي يصلي عليكم وملائكته يصلون عليكم فهناك لفظان حقيقة كل منهما بمعنى، وسيأتي إن شاء الله تعالى ما يزيدك علماً بأمر الصلاة، وسبب نزول الآية ما أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر قال: لما نزلت: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي﴾ [الأحزاب: ٥٦] قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: ما أنزل الله تعالى عليك خيراً إلا أشركنا فيه فنزلت ﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته﴾ ﴿لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي من ظلمات المعاصي إلى نور الطاعة، وقال الطبرسي: من الجهل بالله تعالى إلى معرفته عزّ وجلّ فإن الجهل أشبه شيء بالظلمة والمعرفة أشبه شيء بالنور، وقال ابن زيد: أي من الضلالة إلى الهدى، وقال مقاتل: من الكفر إلى الإيمان، وقيل: من النار إلى الجنة حكاه الماوردي، وقيل: من القبور إلى البحث حكاه أبو حيان وليس بشيء، واللام متعلقة بيصلي أي يعتني بكم هو سبحانه وملائكته ليخرجكم أو يترحم هو عزّ وجلّ وملائكته ليخرجكم بذلك من الظلمات إلى النور ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾

اعتراض مقرر لمضمون ما قبله أي كان سبحانه بكافة المؤمنين الذين أنتم من زمرتهم كامل الرحمة ولذا يفعل بكم ما يفعل بالذات وبالواسطة أو كان بكم رحيماً على أن المؤمنين مظهر وضع موضع المضمر مدحاً لهم وإشعاراً بعلة الرحمة، وقوله تعالى ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ بيان للأحكام الآجلة لرحمته تعالى بهم بعد بيان آثارها العاجلة من الإخراج المذكور، والتحية أن يقال: حياك الله أي جعل لك حياة وذلك إخبار ثم يجعل دعاء، ويقال حيا فلان فلاناً تحية إذا قال له ذلك، وأصل هذا اللفظ من الحياة ثم جعل كل دعاء تحية لكون جميعه غير خارج عن حصول الحياة أو سبب حياة أم لدينا أو لآخرة.

وهو هنا مصدر مضاف إلى المفعول وقع مبتدأ و ﴿سلام﴾ مراداً به لفظه خبره، والمراد ما يحييهم الله تعالى به ويقوله لهم يوم يلقونه سبحانه ويدخلون دار كرامته سلام أي هذا اللفظ. روي أن الله تعالى يقول: سلام عليكم عبادي أنا عنكم راضٍ فهل أنتم عني راضون فيقولون: بأجمعهم يا ربنا إنا راضون كل الرضا وورد أن الله تعالى يقول: السلام عليكم مرحباً بعبادي المؤمنين الذين أرضوني في دار الدنيا باتباع أمري، وقيل: تحييهم الملائكة عليهم السّلام بذلك إذا دخلوا الجنة كما قال تعالى: ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم﴾.

وقيل: تحييهم عند الخروج من القبور فيسلمون عليهم ويبشرونهم بالجنة، وقيل عند الموت.

وروي عن ابن مسعود أنه قال: إذا جاء ملك الموت لقبض روح المؤمن قال: ربك يقرئك السلام، قيل: فعلى هذا الهاء في ﴿يلقونه﴾ كناية عن غير مذكور وهو ملك الموت، ولا ضرورة تدعو لذلك إذ لا مانع من أن يكون الضمير لله تعالى عليه كما هو كذلك على الأقوال الآخر جميعها. ولقاء الله تعالى على ما أشار إليه الإمام عبارة عن الإقبال عليه تعالى بالكلية بحيث لا يعرض للشخص ما يشغله ويلهيه أو يوجب غفلته عنه عزّ وجلّ ويكون ذلك عند دخول الجنة وفيها وعند البعث وعند الموت.

وقال الراغب: ملاقاة الله تعالى عبارة عن القيامة وعن المصير إليه عزّ وجلّ، وقال الطبرسي: هي ملاقاة ثوابه تعالى وهو غير ظاهر على جميع الأقوال السابقة بل ظاهر على بعضها كما لا يخفى، وعن قتادة في الآية أنهم يوم دخولهم الجنة يحيي بعضهم بعضاً بالسلام أي سلمنا وسلمت من كل مخوف، والتحية عليه على ما قال الخفاجي مصدر مضاف للفاعل. وفي البحر هي عليه مصدر مضاف للمحيي والمحيي لا على جهة العمل لأن الضمير الواحد لا يكون فاعلاً مفعولاً ولكنه كقوله تعالى: ﴿وكنا لحكمهم شاهدين﴾ [الأنبياء: ٧٨] أي للحكم الذي جرى بينهم.

وكذا يقال هنا التحية الجارية بينهم هي سلام، وقول المحيي في ذلك اليوم سلام إخبار لا دعاء لأنه أبلغ على ما قيل فتدبر، وأحرى الأقوال بالقبول عندي أن الله تعالى يسلم عليهم يوم يلقونه إكراماً لهم وتعظيماً.

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً﴾ أي وهيأ عزّ وجلّ لهم ثواباً حسناً، والظاهر أن التهيئة واقعة قبل دخول الجنة والتحية ولذا لم تخرج الجملة مخرج ما قبلها بأن يقال وأجرهم أجر كريم أي ولهم أجر كريم، وقيل: هي بعد الدخول والتحية فالكلام لبيان لآثار رحمته تعالى الفائضة عليهم بعد دخول الجنة عقيب بيان آثار رحمته الواصلة إليهم قبل ذلك، ولعل إيثار الجملة الفعلية على الاسمية المناسبة لما قبلها للمبالغة في الترغيب والتشويق إلى الموعود ببيان أن الأمر الذي هو المقصد الأقصى من بين سائر آثار الرحمة موجود بالفعل مهيأ لهم مع ما فيه من مراعاة الفواصل ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً﴾ على من بعثت إليهم تراقب أحوالهم وتشاهد أعمالهم وتتحمل عنهم الشهادة بما صدر عنهم من التصديق والتكذيب وسائر ما هم عليه من الهدى والضلال وتؤديها يوم القيامة أداء مقبولاً فيما لهم وما عليهم، وهو

حال مقدرة وإن اعتبر الإرسال أمراً ممتداً لاعتبار التحمل والاداء في الشهادة، والإرسال بذلك الاعتبار وإن قارن التحمل إلا أنه غير مقارن للاداء وإن اعتبر الامتداد.

وقيل: بإطلاق الشهادة على التحمل فقط تكون الحال مقارنة والأحوال المذكورة بعد على اعتبار الامتداد مقارنة، ولك أن لا تعتبره أصلاً فتكون الأحوال كلها مقدرة، ثم أن تحمل الشهادة على من عاصره ﷺ واطلع على عمله أمر ظاهر، وأما تحملها على من بعده بأعيانهم فإن كان مراداً أيضاً ففيه خفاء لأن ظاهر الأخبار أنه عليه الصلاة والسلام لا يعرف أعمال من بعده بأعيانهم، روى أبو بكر وأنس وحذيفة وسمرة وأبو الدرداء عنه ﷺ ليردن على ناس من أصحابي الحوض حتى إذا رأيتهم وعرفتهم اختلجوا دوني فأقول: يا رب أصيحابي أصيحابي فيقال لي: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك. نعم قد يقال: إنه عليه الصلاة والسلام يعلم بطاعات ومعاص تقع بعده من أمته لكن لا يعلم أعيان الطائعين والعاصين، وبهذا يجمع بين الحديث المذكور وحديث عرض الأعمال عليه ﷺ كل أسبوع أو أكثر أو أقل، وقيل: يجمع بابه عليه الصلاة والسلام يعلم الأعيان أيضاً إلا أنه نسي فقال: أصيحابي، ولتعظيم قبح ما أحدثوا قيل له: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، وقيل: يعرض ما عدا الكفر وهون كما ترى، وأما زعم أن التحمل على من بعده إلى يوم القيامة لما أنه ﷺ حي بروحه وجسده يسير حيث شاء في أقطار الأرض والملكوت فمبني على ما علمت حاله، ولعل في هذين الخبرين ما يأباه كما لا يخفى على المتدبر، وأشار بعض السادة الصوفية إلى أن الله تعالى قد أطلعه ﷺ على أعمال العباد فنظر إليها ولذلك أطلق عليه عليه الصلاة والسلام شاهد. قال مولانا جلال الدين الرومي قدس سره العزيز في مثنويه:

در نظر بودش مقامات العباد ... زان سبب نامش خدا شاهد نهاد

فتأمل ولا تغفل، وقيل: المراد شاهداً على جميع الأمم يوم القيامة بأن أنبياءهم قد بلغوهم الرسالة ودعوهم إلى الله تعالى، وشهادته بذلك لما علمه من كتابه المجيد، وقيل: المراد شاهداً بأن لا إله إلا الله ﴿وَمُبَشِّراً﴾ تبشر الطائعين بالجنة ﴿وَنَذِيراً﴾ تنذر الكافرين والعاصين بالنار، ولعموم الإنذار وخصوص التبشير قيل: مبشراً ونذيراً على صيغة المبالغة دون ومنذراً مع أن ظاهر عطفه على ﴿مبشراً﴾ يقتضي ذلك وقدم التبشير لشرف المبشرين ولأنه المقصود الأصلي إذ هو ﷺ رحمة للعالمين وكأنه لهذا جبر ما فاته من المبالغة بقوله تعالى: ﴿وبشر المؤمنين﴾ ﴿وِدَاعياً إلى الله﴾ أي إلى الإقرار به سبحانه وبوحدانيته وبسائر ما يجب الإيمان به من صفاته وأفعاله عزّ وجلّ، ولعل هذا هو مراد ابن عباس وقتادة من قولهما أي شهادة أن لا إله إلا الله ﴿بإذنه﴾ أي بتسهيله وتيسيره تعالى، وأطلق الإذن على التسهيل مجازاً لما أنه من أسبابه لا سيما الإذن من الله عزّ وجلّ ولم يحمل على حقيقته وإن صح هنا أن يأذن الله تعالى شأنه له عليه الصلاة والسلام حقيقة في الدعوة لأنه قد فهم من قوله سبحانه: إنا أرسلناك داعياً أنه ﷺ مأذون له في الدعوة، ومما ذكر يعلم أن ﴿بإذنه﴾ من متعلقات داعياً، وقيدت الدعوة بذلك إيذاناً بأنها أمر صعب المنال وخطب في غاية الإعضال لا يتأتى إلا بإمداد من جناب قدسه كيف لا وهو صرف للوجوه عن القبل المعبودة وإدخال للأعناق في قلادة غير معهودة، وجوز رجوع القيد للجميع والأول أظهر ﴿وَسِرَاجاً منيراً﴾ يستضيء به الضالون في ظلمات الجهل والغواية ويقتبس من نوره أنوار المهتدين إلى مناهج الرشد والهداية، وهو تشبيه إما مركب عقلي أو تمثيل منتزع من عدا أمور أو مفرق، وبولغ في الوصف بالإنارة لأن من السرج ما لا يضيء إذا قل سليطه ودقت فتيلته.

وقال الزجاج: هو معطوف على شاهداً بتقدير مضاف أي ذا سراج منير، وقال الفراء: إن شئت كان نصباً على معنى وتالياً سراجاً منيراً، وعليهما السراج المنير القرآن، وإذا فسر بذلك احتمل على ما قيل أن يعطف على كاف

﴿أرسلناك﴾ على معنى أرسلناك والقرآن إما على سبيل التبعية وإما من باب متقلداً سيفاً ورمحاً، وقيل: إنه على تقدير تالياً سراجاً يجوز هذا العطف أي إنا أرسلناك وتالياً سراجاً كقوله تعالى: ﴿يتلو صحفاً مطهرة﴾ [البينة: ٢] على أنه الجامع بين الأمرين على نحو: ﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء﴾ [الأنبياء: ٤٨] أي أرسلنا بإرسالك تالياً.

وجوز أن يراد وجعلناك تالياً، وقيل: يجوز أن يراد بذا سراج القرآن وحينئذٍ يكون التقدير إنا أرسلناك وأنزلنا عليك ذا سراج. وتعقب بأن جعل القرآن ذا سراج تعسف، والحق أن كل ما قيل كذلك.

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ عطف على مقدر يقتضيه المقام ويستدعيه النظام كأنه قيل: فراقب أحوال الناس وبشر المؤمنين. وجوز عطفه على الخبر السابق عطف القصة على القصة، وقيل: هو معطوف عليه ويجعل في معنى الأمر لأنه في معنى ادعهم شاهداً ومبشراً ونذيراً الخ وبشر المؤمنين منهم ﴿بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيراً﴾ أي عطاءً جزيلاً وهو كما روي عن الحسن وقتادة الجنة وما أوتوا فيها ويؤيده قوله تعالى: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير﴾ [الشورى: ٢٢] وقيل: المعنى فضلاً على سائر الأمم في الرتبة والشرف أو زيادة على أجور أعمالهم بطريق التفضل والإحسان. أخرج ابن جرير وابن عكرمة عن الحسن قال لما نزل: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ [الفتح: ٢] قالوا: يا رسول الله قد علمنا ما يفعل بك فماذا يفعل بنا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً﴾ ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ نهى عن مداراتهم في أمر الدعوة ولين الجانب في التبليغ والمسامحة في الإنذار كني عن ذلك بالنهي عن طاعتهم مبالغة في النهي والتنفير عن المنهي عليه بنظمها في سلكها وتصوير بصورتها، وحمل غير واحد النهي على التهييج والإلهاب من حيث إنه ﷺ لم يطعهم حتى ينهى، وجعله بعضهم من باب إياك أعني واسمعي يا جارة فلا تغفل.

﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾ أي لا تبال بإيذائهم إياك بسبب إنذارك إياهم واصبر على ما ينالك منهم قاله قتادة فأذاهم مصدر مضاف للفاعل، وقال أبو حيان: الظاهر أنه مصدر مضاف للمفعول لما نهى ﷺ عن طاعتهم أمر بترك إيذائهم وعقوبتهم ونسخ منه ما يخص الكافرين بآية السيف وروي نحوه عن مجاهد والكلبي والأول أولى ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ في كل ما تأتي وتذر من الشؤون التي من جملتها هذا الشأن فإنه عزّ وجلّ يكفيهم ﴿وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً﴾ موكولاً إليه الأمور في كل الأحوال، وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار لتعليل الحكم وتأكيد استقلال الاعتراض التذييلي ولما وصف ﷺ بنعوت خمسة قوبل كل واحد منها بخطاب يناسبه خلا أنه لم يذكر ما قابل الشاهد صريحاً وهو لأمر بالمراقبة ثقة بظهور دلالة المبشر عليه وهو الأمر بالتبشير حسبما ذكر آنفاً وقابل النذير بالنهي عن مداراة الكافرين والمنافقين والمسامحة في إنذارهم وقوبل الداعي بإذنه بالأمر بالتوكل عليه من حيث إنه عبارة عن الاستمداد منه تعالى والاستعانة به عزّ وجلّ وقوبل السراج المنير بالاكتفاء به تعالى فإن من أيده الله تعالى بالقوة القدسية ورشحه للنبوة وجعله برهاناً نيراً يهدي الخلق من ظلمات الغي إلى نور الرشاد حقيق بأن يكتفي به تعالى عمن سواه، وجعل الزمخشري مقابل الشاهد وبشر المؤمنين ومقابل الإعراض عن الكافرين والمنافقين المبشر أعني المؤمنين وتكلف في ذلك.

وقال الطيبي طيب الله تعالى ثراه: نظير هذه الآية ما روى البخاري: والإمام أحمد عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة قال: والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للمؤمنين أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح ولن يقبضه الله تعالى حتى يقيم به الملة العوجاء ويفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً، وروى الدارمي نحوه عن عبد الله بن

سلام فقوله: حرز للمؤمنين مقابل لقوله تعالى: ﴿وداعياً إلى الله بإذنه﴾ فإن دعوته ﷺ إنما حصلت فائدتها فيمن وفقه الله تعالى: بتيسيره وتسهيله فلذلك آمنوا من مكاره الدنيا وشدائد الآخرة فكان صلوات الله تعالى وسلامه عليه بهذا الاعتبار حرزاً لهم، وقوله: سميتك المتوكل الخ مقابل لقوله: ﴿وسراجاً منيراً﴾ فعلم أن قوله تعالى: ﴿وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً﴾ مناسب لقوله تعالى: ﴿وسراجاً منيراً﴾ فإن السراج مضيء في نفسه ومنور لغيره فبكونه متوكلاً على الله تعالى يكون كاملاً في نفسه فهو مناسب لقوله: أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل إلى قوله: يعفو ويصفح وكونه منيراً يفيض الله تعالى عليه يكون مكملاً لغيره وهو مناسب لقوله: حتى يقيم به الملة العوجاء الخ ثم قال: ويمكن أن ينزل المراتب على لسان أهل العرفان فقوله تعالى: ﴿إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً﴾ [الفتح: ٨] هو مقام الشريعة ودعوة الناس إلى الإيمان وترك الكفر ونتيجة الإعراض عما سوى الله تعالى والأخذ في السير والسلوك والالتجاء إلى حريم لطفه تعالى والتوكل عليه عزّ وجلّ وقوله، سبحانه: ﴿وسراجاً منيراً﴾ هو مقام الحقيقة ونتيجته فناء السالك وقيامه بقيوميته تعالى ا هـ، ولا يخفى تكلف ما قرره في الحديث والله تعالى أعلم بمزاده.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ عود إلى ذكر النساء، والنكاح هنا العقد بالاتفاق واختلفوا في مفهومه لغة فقيل هو مشترك بين الوطء والعقد اشتراكاً لفظياً، وقيل: حقيقة في العقد مجاز في الوطء، وقيل: بقلبه وقيل هو مشترك بينهما اشتراكاً معنوياً وهو من أفراد المشكك وحقيقته الضم والجمع كما في قوله:

ضممت إلى صدري معطر صدرها ... كما نكحت أم الغلام صبيها

ونقل المبرد ذلك عن البصريين وغلام ثعلب الشيخ عمر والزاهد عن الكوفيين، ثم المتبادر من لفظ الضم تعلقه بالأجسام لا الأقوال لأنها أعراض يتلاشى الأول منها قبل وجود الثاني فلا يصادف الثاني ما ينضم إليه وهذا يقتضي كونه مجازاً في العقد، وإن اعتبر الضم أعم من ضم الجسم إلى الجسم والقول إلى القول جاز أن يكون النكاح حقيقة في كل من الوطء والعقد وجاز أن يكون مجازاً على التفصيل المعروف في استعمال العام في كل فرد من أفراده، واختار الراغب القول الثاني من الأقوال السابقة وبالغ في عدم قبول الثالث: فقال هو حقيقة في العقد ثم استعير للجماع ومحال أن يكون في الأصل للجماع ثم استعير للعقد لأن أسماء الجماع كلها كنايات لاستقباحهم ذكره كاستقباح تعاطيه ومحال أن يستعير من لا يقصد فحشاً اسم ما يستفظعونه لما يستحسنه.

واختار الزمخشري الثالث فقال: النكاح الوطء وتسمية العقد نكاحاً لملابسته له من حيث إنه طريق له ونظيره تسمية الخمر إثماً لأنها سبب في اقتراف الإثم، ولم يرد لفظ النكاح في كتاب الله تعالى إلا في معنى العقد لأنه في حق الوطء من باب التصريح به ومن آداب القرآن الكناية عنه بلفظ الملامسة والمماسسة والقربان والتغشي والإتيان، وأراد على ما قيل إنه في العقد حقيقة شرعية منسى فيه المعنى اللغوي، وبحث في قوله لم يرد لفظ النكاح في كتاب الله تعالى إلا في معنى العقد بأنه في قوله تعالى: ﴿حتى تنكح زوجاً غيره﴾ [البقرة: ٢٣] بمعنى الوطء وهذا ما عليه الجمهور وخالف في ذلك ابن المسيب، وتمام الكلام في موضعه، والمس في الأصل معروف وكني به هنا عن الجماع، والعدة هي الشيء المعدود وعدة المرأة المراد بها الأيام التي بانقضائها يحل لها التزوج أي يا أيها الذين آمنوا إذا عقدتم على المؤمنات وتزوجتموهن ثم طلقتموهن من قبل أن تجامعوهن فما لكم عليهن من عدة بأيام يتربصن فيها بأنفسهن تستوفون عددها على أن تعتدون مطاوع عد يقال عد الدراهم فاعتدها أي استوفى عددها نحو قولك كلته فأكتلته ووزنته فاتزنته أو تعدونها على أن افتعل بمعنى فعل، وإسناد الفعل إلى الرجال للدلالة على أن العدة حق الأزواج

ما أشعر به قوله تعالى: ﴿فما لكم﴾ واعترض بأن المذكور في كتب الفروع كالهداية وغيرها أنها حق الشرع ولذا لا تسقط لو أسقطها الزوج ولا يحل لها الخروج ولو أذن لها وتتداخل العدتان ولا تداخل في حق العبد وحق الولد أيضاً ولذا قال ﷺ: «لا يحل لامرىء مؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقي ماءه زرع غيره» وفرعوا على ذلك أنهما لا يصدقان في إبطالها باتفاقهما على عدم الوطء.

وأجيب بأنه ليس المراد أنها صرف حقهم بل أن نفعها وفائدتها عائدة عليهم لأنها لصيانة مياههم والأنساب الراجعة إليهم فلا ينافي أن يكون للشرع والولد حق فيها يمنع إسقاطها ولو فرض أنها صرف حقهم يجوز أن يقال: إن عدم سقوطها بإسقاطهم لا ينافي ذلك إلا إذا ثبت أن كل حق للعبد إذا أسقطه العبد سقط وليس كذلك فإن بعض حقوق العبد لا تسقط بإسقاطه كالإرث وحق الرجوع الهبة وخيار الرؤية، ثم أن في الاستدلال بالحديث على أنها حق الولد تأملاً كما لا يخفى، وتخصيص المؤمنات مع عموم الحكم للكتابيات للتنبيه على أن المؤمن شأنه أن يتخير لنطفته ولا ينكح إلا مؤمنة، وحاصله أنه لبيان الأحرى والأليق بعد ما فصل في البقرة نكاح الكتابيات، وفائدة المجيء بثم مع أن الحكم ثابت لمن تزوج امرأة وطلقها على الفور كثبوته لمن تزوجها وطلقها بعد مدة مديدة إزاحة ما عسى يتوهم أن تراخي الطلاق له دخل في إيجاب العدة لاحتمال الملاقاة والجماع سراً كما أن له دخلاً في النسب، ويمكن أن تكون الإشارة إلى التراخي الرتبي فإن الطلاق وإن كان مباحاً لا كراهة فيه على ما قيل لقوله تعالى: ﴿لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن﴾ [البقرة: ٢٣٦] غير محبوب كالنكاح من حيث إنه يؤدي إلى قطع الوصلة وحل قيد العصمة المؤدي لقلة التناسل الذي به تكثر الأمة ولهذا ورد كما أخرج أبو داود وابن ماجة والحاكم والطبراني وابن عدي عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما مرفوعاً «أبغض الحلال إلى الله الطلاق» ورواه البيهقي مرسلاً بدون ابن عمر بل قال العلامة ابن الهمام: الأصح حظره وكراهته إلا لحاجة لما فيه من كفران نعمة النكاح وللأخبار الدالة على ذلك، ويحمل لفظ المباح في الخبر المذكور على ما أبيح في بعض الأوقات أعني أوقات تحقق الحاجة المبيحة وهو ظاهر في رواية لأبي داود ما أحل الله شيئاً أبغض إليه من الطلاق، والفعل لا عموم له في الأزمان والحاجة المبيحة الكبر والريبة مثلاً ومن المبيح عدم اشتهائها بحيث يعجز أو يتضرر بإكراهه نفسه على جماعها مع عدم رضاها بإقامتها في عصمته من غير وطء أو قسم.

وأما ما روي عن الحسن السبط رضي الله تعالى عنه وكان قيل له في كثرة تزوجه وطلاقه فقال: أحب الغناء فقد قال تعالى: ﴿وإن يتفرقا يغن الله كلاً من سعته﴾ [النساء: ١٣٠] فهو رأي منه إن كان على ظاهره، وكل ما نقل عن طلاق الصحابة رضي الله تعالى عنهم فمحمله وجود الحاجة، وظاهر الآية يقتضي عدم وجوب العدة بمجرد الخلوة لأنه سبحانه نفى فيها وجوب العدة إذا طلقت قبل الجماع والخلوة ليست جماعاً وهي عندنا إذا كانت صحيحة على الوجه المبين في كتب الفروع كالجماع في وجوب العدة فتجب فيه العدة احتياطاً لتوهم الشغل نظراً إلى التمكن الحقيقي بل قالوا هو مثله في جميع أحكامه سوى عشرة نظمها أفضل من عاصرناه من الفقهاء الشيخ محمد الأمين الشامي الشهير بابن عابدين بقوله:

وخلوته كالوطء في غير عشرة ... مطالبة بالوطء إحصان تحليل
وفيء وارث رجعة فقد عنة ... وتحريم بنت عقد بكر وتغسيل

وظاهر قولهم بوجوب العدة فيها أنها واجبة قضاء وديانة. وفي الفتح قال العتابي: تكلم مشايخنا في العدة الواجبة بالخلوة الصحيحة أنها واجبة ظاهراً أو حقيقة فقيل: لو تزوجت وهي متيقنة بعدم الدخول حل لها ديانة لا قضاء

ا هـ، ولم يتعقبه بشيء وذكره سعدي جلبي في حواشي البيضاوي وقال: ينبغي أن يكون التعويل على هذا القول. وتعقب ذلك الشهاب الخفاجي بأنه وإن نقله فقهاؤنا فقد صرحوا بأنه لا يعول عليه ونحن لم نر هذا التصريح فليتتبع، ثم لا يخفى أن عدم وجوب العدة في الطلاق بعد الخلوة مما يعد منطوقاً صريحاً في الآية إذا فسر المس بالجماع وليس من باب المفهوم حتى يقال: إنا لا نقول به كما يتوهم فلا بدّ لإثبات وجوب العدة في ذلك من دليل، ومن الناس من حمل المس فيها على الخلوة إطلاقاً لاسم المسبب على السبب إذا المس مسبب عن الخلوة عادة، واعترض بأنه لم يشتهر المس بمعنى الخلوة ولا قرينة في الكلام على إرادته منه، وأيضاً يلزم عليه أنه لو طلقها وقد وطئها بحضرة الناس عدم وجوب العدة لأنه قد طلقها قبل الخلوة. وأجيب عن هذا بأن وجوب العدة في ذلك بالإجماع، وبأن العدة إذا وجبت في الطلاق بمجرد الخلوة كانت واجبة فيه بالجماع من باب أولى وكيف لا تجب به ووجوبها بالخلوة لاحتمال وقوعه فيها لا لذاتها، وقيل: إن المس لما لم يرد ظاهره وإلا لزمت العدة فيما لو طلقها بعد أن مسها بيده في غير خلوة مع أنه لا تلزم في ذلك بلا خلاف علم أنه كنى به عن معنى آخر من لوازم الاتصال فهو الجماع وما في معناه من الخلوة الصحيحة، وفيه نظر لأن عدم صحة إرادة ظاهره لا يوجب إرادة ما يعم الجماع والخلوة لم لا يجوز إرادة الجماع ويرجحها شهرة الكناية بذلك ونحوه عن الجماع، وإطلاقه عليه إما من إطلاق اسم السبب على المسبب أو من إطلاق اسم المطلق على أخص بخصوصه وهو الأوجه على ما ذكره العلامة ابن الهمام، وبالجملة القول بأن ظاهر الآية يقتضي عدم وجوب العدة بمجرد الخلوة قول متين وحق مبين فتأمل.

وفي البحر لأبي حيان الظاهر أن المطلقة إذا راجعها زوجها قبل أن تنقضي عدتها ثم فارقها قبل أن يمسها لا تتم عدتها من الطلقة الأولى لأنها مطلقة قبل الدخول بها وبه قال داود وقال عطاء وجماعة: تمضي في عدتها عن طلاقها الأول وهو أحد قولي الشافعي، وقال مالك: لا تبنى على العدة من الطلاق الأول وتستأنف العدة من يوم طلقها الطلاق الثاني وهو قول جمهور فقهاء الأمصار، والظاهر أيضاً أنها لو كانت بائناً غير مبتوتة فتزوجها في العدة ثم طلقها قبل الدخول فكالرجعية في قول داود ليس عليها عدة لا بقية عدة الطلاق الأول ولا استئناف عدة للثاني ولها نصف المهر، وقال الحسن: وعطاء وعكرمة وابن شهاب ومالك والشافعي وعثمان البتي وزفر: لها نصف الصداق وتتم بقية العدة الأولى، وقال الثوري والأوزاعي وأبو حنيفة، وأبو يوسف: لها مهر كامل للنكاح الثاني وعدة مستقبلة جعلوها في حكم المدخول بها لاعتدادها من مائة ا هـ، وفيه أيضاً الظاهر أن الطلاق لا يكون إلا بعد العقد فلا يصح طلاق من لم يعقد عليها وهو قول الجمهور من الصحابة والتابعين.

وقالت طائفة كثيرة منهم مالك يصح ذلك وعنى بطلاق من لم يعقد عليها قول الرجل كل امرأة أتزوجها فهي طالق أو إن تزوجت فلانة فهي طالق.

وقد أخرج جماعة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه سئل عن ذلك فقال: هو ليس بشيء فقيل له: إن ابن مسعود كان يقول إن طلق ما لم ينكح فهو جائز فقال: أخطأ في هذا وتلا الآية وفي بعض الروايات أنه قال: رحم الله تعالى أبا عبد الرحمن لو كان كما قال لقال الله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا إذا طلقتم المؤمنات ثم نكحتموهن» ولكن إنما قال: ﴿**إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن**﴾.

وفي الدر المنثور عدة أحاديث مرفوعة ناطقة بأن لا طلاق قبل نكاح، والمذكور في فروعنا أن ذلك من باب التعليق وشرطه الملك أو الإضافة إليه فإذا قال: إن نكحت امرأة فهي طالق أو إن نكحتك فأنت طالق وكل امرأة أنكحها فهي طالق يقع الطلاق إذا نكح لأن ذلك تعليق وفيه إضافة إلى الملك ويكفي معنى الشرط إلا في المعينة

باسم ونسب كما إذا قال: فلانة بنت فلان التي أتزوجها فهي طالق أو بإشارة في الحاضرة كما لو قال: هذه المرأة التي أتزوجها طالق فإنها لا تطلق في الصورتين لتعريفها فلغا الوصف بالتي أتزوجها فصار كأنه قال: فلانة بنت فلان أو هذه المرأة طالق وهي أجنبية ولم توجد الإضافة إلى الملك فلا يقع الطلاق إذا تزوجها فتدبر.

وقرىء «تماسوهن» بضم التاء وألف بعد الميم، وعن ابن كثير وغيره من أهل مكة «تعتدونها» بتخفيف الدال ونقلها عن ابن كثير بن خالويه وأبو الفضل الرازي في اللوامح عنه وعن أهل مكة، وقال ابن عطية: روى ابن أبي بزة عن ابن كثير أنه قرأ بتخفيف الدال من العدوان كأنه قال: فمالكم عدة تلزمونها عدواناً وظلماً لهن، والقراءة الأولى أشهر عنه وتخفيف الدال وهم من ابن أبي بزة ا هـ، وليس بوهم إذ قد نقله عنه جماعة غيره، وخرج ذلك على أن ﴿تعتدونها﴾ من الاعتداء بمعنى الظلم كما في قوله تعالى: ﴿ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا ﴾ [البقرة: ٣١] والمراد تعتدون فيها كقوله:

ويوماً شهدناه سليماً وعامراً قليل سوى طعن الدراك نوافله

أي شهدنا فيه فحذف حرف الجر ووصل الفعل بالضمير، وقال أبو حيان: إن الاعتداء يتعدى بعلى فالمراد تعتدون عليهن فيها، ونظيره في حذف على قوله:

تحن فتبدي ما بها من صبابة وأخفي الذي لولا الأسى لقضاني

فإنه أراد لقضي عليّ، وجوز أن يكون ذلك على إبدال أحد الدالين بالتاء، وقيل عليه: إنه تخريج غير صحيح لأن عد يعد من باب نصر كما في كتب اللغة فلا وجه لفتح التاء لو كانت مبدلة من الدال فالظاهر حمله على حذف إحدى الدالين تخفيفاً، وقرأ الحسن بإسكان العين كغيره وتشديد الدال جمعاً بين الساكنين ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ ﴾ أي فأعطوهن المتعة وهي في المشهور درع أي قميص وخمار وهو ما تغطي به المرأة رأسها وملحفة وهي ما تلتحف به من قرنها إلى قدمها ولعلها ما يقال له إزار اليوم، وهذا على ما في البدائع أدنى ما تكسى به المرأة وتتستر عند الخروج.

ويفهم من كلام فخر الإسلام والفاضل البر جندي أنه يعتبر عرف كل بلدة فيما تكسى به المرأة عند الخروج، والمفتى به الأشبه بالفقه قول الخصاف إنها تعتبر بحالهما فإن كانا غنيين فلها الأعلى من الثياب أو فقيرين فالأدنى أو مختلفين فالوسط، وتجب لمطلقة قبل الوطء والخلوة عند معتبرها لم يسم لها في النكاح تسمية صحيحة من كل وجه مهر ولا تزيد على نصف مهر المثل ولا تنقص عن خمسة دراهم فإن ساوت النصف فهي الواجبة وأن كان النصف أقل منها فالواجب الأقل إلا أن ينقص عن خمسة دراهم فيكمل لها الخمسة. وفي البدائع لو دفع لها قيمة المتعة أجبرت على القبول، فمعنى الآية على ما سمعت وكان الأمر للوجوب فمتعوهن إن لم يكن مفروضاً لهن في النكاح وروي هذا عن ابن عباس، وأما المفروض لها فيه إذا طلقت قبل المس فالواجب لها نصف المفروض لا غير.

وأما المتعة فهي على ما في المبسوط والمحيط وغيرهما من المعتبرات مستحبة، وعلى ما في بعض نسخ القدوري ومشى عليه صاحب الدرر غير مستحبة أيضاً والأرجح أنها مستحبة، وفي قول الشافعي القديم أنها واجبة كما في صورة عدم الفرض، وجوز أن تبقى الآية على ظاهرها ويكون المراد ذكر حكم المطلقة قبل المس سواء فرض لها في النكاح أم لم يفرض ويراد بالمتعة العطاء مطلقاً فيعم نصف المفروض والمتعة المعروفة في الفقه ويكون الأمر للوجوب أيضاً أو يراد بالمتعة معناها المعروف ويحمل الأمر على ما يشمل الوجوب والندب.

وادعى سعيد بن المسيب كما أخرج عبد بن حميد أن الآية منسوخة بآية: ﴿وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن

وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم﴾ [البقرة: ٢٣٧] قال: فصار لها نصف الصداق ولا متاع لها، وأنكر الحسن وأبو العالية النسخ وقالا لها نصف الصداق ولها المتاع.

وجاء في رواية أخرى أخرجها عبد بن حميد عن الحسن أيضاً أن لكل مطلقة متاعاً دخل بها أم لم يدخل بها فرض لها أو لم يفرض، وظاهره دعوى الوجوب في الكل وهو خلاف ما عندنا، وقد علمت الحكم في صورتين وهو في الصورتين الباقيتين الاستحباب، وأما دعوى النسخ فلا يخفى ما فيها، والظاهر أن الفاء لتفريع ما بعدها على ما قبلها، وقيل: فصيحة أي إذا كان كما ذكر فمتعوهن ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ﴾ أي أخرجوهن من منازلكم إذ ليس لكم عليهن عدة وأصل التسريح أن ترعى الإبل السرح وهو شجر له ثمرة ثم جعل لكل إرسال في الرعي ثم لكل إرسال وإخراج ﴿سَرَاحاً جَمِيلاً﴾ مشتملاً على كلام طيب عارياً عن أذى ومنع واجب، وقيل: السراح الجميل أن لا يطالبوهن بما آتوهن، وقال الجبائي: هو الطلاق السني، وليس بشيء لأن ذاك لعطفه على التمتيع الواقع بعد الفاء مرتب على الطلاق فيلزم ترتب الطلاق السني على الطلاق والضمير لغير المدخول بهن فلا يمكن أن يكون ذلك طلاقاً مرتباً على الطلاق الأول لأن غير المدخول بهن لا يتصور فيها لحوق طلاق بعد طلاق آخر مع أنها إذا طلقت بانت.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾
۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾
لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾
إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ أي مهورهن كما قال مجاهد، وغيره وأطلق الأجر على المهر لأنه أجر على الاستمتاع بالبضع وغيره مما يجوز به الاستمتاع وتقييد الإحلال له بإعطائها معجله كما يفهم من معنى ﴿آتيت﴾ ظاهراً ليس لتوقف الحل عليه بل لإيثار الأفضل له ﷺ فإن في التعجيل براءة الذمة

وطيب النفس ولذا كان سنّة السلف لا يعرف منهم غيره، وقال الإمام: من الناس من قال بأن النبي عليه الصلاة والسلام كان يجب عليه إعطاء المهر أولاً وذلك لأن المرأة لها الامتناع من تسليم نفسها إلى أن تأخذ المهر والنبي ﷺ ما كان يستوفي ما لا يجب له والوطء قبل إيتاء الصداق غير مستحق وإن كان حلالاً وكيف والنبي عليه الصلاة والسلام إذا طلب شيئاً حرم الامتناع فلو طلب التمكين قبل إيتاء المهر لزم أن يجب وأن لا يجب وهو محال ولا كذلك أحدنا اهـ وفيه بحث لا يخفى، وحمل الإيتاء على الإعطاء وما في حكمه كالتسمية في العقد، وجعل التقييد لإيثار الأفضل أيضاً فإن التسمية أولى من تركها وإن جاز العقد بدونها ولزم مهر المثل خلاف الظاهر.

واستدل أبو الحسن الكرخي من أصحابنا بقوله تعالى: ﴿إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن﴾ على أن النكاح ينعقد بلفظ الإجارة كما ينعقد بلفظ التزويج ويكون لفظ الإجارة مجازاً عنه لأن الثابت بكل منهما ملك منفعة فوجد المشترك ورد بأنه لا يلزم من تسمية المهر أجراً صحة النكاح بلفظ الإجارة وما ذكر من التجوز ليس بشيء لأن الإجارة ليست سبباً لملك المنفعة حتى يتجوز بها عنه قاله في الهداية، وقال بعضهم: إن الإجارة لا تنعقد إلا مؤقتة والنكاح يشترط فيه نفيه فيتضادان فلا يستعار أحدهما للآخر. وتعقب بأنه إن كان المتضادان هما العرضين اللذين لا يجتمعان في محل واحد لزمكم مثله في البيع من كونه لا يجامع النكاح مع جواز العقد به عند الأصحاب، على أن التحقيق أن التوقيت ليس مفهوم لفظ الإجارة ولا جزأ منه بل شرط لاعتباره فيكون خارجاً عنه فهو مجرد تمليك المنافع بعوض غير أنه إذا وقع مجرداً لا يعتبر شرعاً على مثال الصلاة فإنها الأقوال والأفعال المعروفة ولو وجدت من غير طهارة لا تعتبر، ولا يقال: إن الطهارة جزء مفهوم الصلاة هذا ومثل تقييد إحلال الأزواج بما ذكر على ما قيل تقييد إحلال المملوكة بكونها ممن باشر سباءها وشاهده في قوله تعالى ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْكَ﴾ فإن المشتراة لا يتحقق بدء أمرها وما جرى عليها لجواز كون السبي ليس في محله، ولذا نكح بعض المتورعين الجواري بعقد بعد الشراء مع القول بعدم صحة العقد على الإماء. واستشكل ذلك بمارية بنت شمعون القبطية رضي الله تعالى عنها فإنها لم تكن مسبية بل أهداها له ﷺ أمير القبط جريج بن مينا صاحب الإسكندرية ومصر وأجيب بأن هذا غير وارد لأن هدايا أهل الحرب للإمام لها حكم الفيء، وقد يقال: إنه يستشكل بسرية له ﷺ أخرى وهي جارية وهبتها له عليه الصلاة والسلام زينب بنت جحش رضي الله تعالى عنها وكان هجرها عليه الصلاة والسلام في شأن صفية بنت حيي ذا الحجة والمحرم وصفر فلما كان شهر ربيع الأول الذي قبض فيه رضي عنها ودخل عليها فقالت ما أدري ما أجزيك فوهبتها له وقد عدوها من سراريه ﷺ والجواب المذكور لا يتسنى فيها، ولعل الجواب عن ذلك أنه عليه الصلاة والسلام تسراها بياناً للجواز ولا يبعد أنه كان متحققاً بدء أمرها وما جرى ليها بحيث كأنه باشر سبيها وشاهده، ويحتمل أنها كانت مما أفاء الله تعالى عليه الصلاة والسلام فملكتها زينب ببعض أسباب الملك ثم وهبتها له ﷺ.

ومع ذلك قد أطلق عليه الصلاة والسلام حل المملوكة بعد ولم يقيد بحسب الظاهر بكونها مما أفاء الله عليه في قوله تعالى: ﴿لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك﴾.

ثم إن هبة هذه الجارية كانت شهر وفاته ﷺ والآية نزلت قبل لأنها نزلت أما سنّة الأحزاب وهي السنة الخامسة من الهجرة وإما بعيد الفتح وهو السنة الثامنة منها وعلى هذا يكون ما وقع من أمر مارية متقدماً على نزول الآية لأنها أهديت له ﷺ السنة السابعة من الهجرة فإنه عليه الصلاة والسلام فيها أرسل رسله إلى الملوك ومنهم حاطب بن أبي بلتعة اللخمي أرسله إلى المقوقس أمير القبط المتقدم ذكره فقدم منه بمارية وبأختها شيرين وبأخ أو بابن عم لها خصي يقال له مابور وببغلة تسمى دلدلا وبحمار يسمى يعفورا أو عفيرا وبألف مثقال ذهباً وبغير ذلك فتدبر، ومثل ما ذكر على ما قيل تقييد القرائب بكونها مهاجرات معه ﷺ في قوله سبحانه:

﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ فهن أفضل من غيرهن، والمعية للتشريك في الهجرة لا للمقارنة في الزمان كأسلمت مع سليمان، قال أبو حيان: يقال دخل فلان معي وخرج معي أي كان عمله كعملي وإن لم يقترنا في الزمان، ولو قلت: خرجنا معاً اقتضى المعنيين الاشتراك في الفعل والاقتران في الزمان وهو كلام حسن، وحكى الماوردي قولاً بأن الهجرة شرط في إحلال الأزواج على الإطلاق وهو ضعيف جداً. وقولاً آخر بأنها شرط في إحلال قراباته عليه الصلاة والسلام المذكورات واستدل له بما أخرجه ابن سعد وعبد بن حميد والترمذي وحسنه وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي عن أم هانىء فاختة بنت أبي طالب قالت: «خطبني رسول الله ﷺ فاعتذرت إليه فعذرني فأنزل الله تعالى: ﴿**يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك**﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿**هاجرن معك**﴾ قالت فلم أكن أحل له لأني لم أهاجر معه كنت من الطلقاء» وأجيب بأن عدم الحل لفقد الهجرة إنما فهم من قول أم هانىء فلعلها إنما قالت ذلك حسب فهمها إياه من الآية وهو لا ينتهض حجة علينا إلا إذا جاءت به رواية عن النبي ﷺ، لا يقال: إنه أخرج ابن سعد عن أبي صالح مولى أم هانىء قال: «خطب رسول الله ﷺ أم هانىء بنت أبي طالب فقالت: يا رسول الله إني مؤتمة وبني صغار فلما أدرك بنوها عرضت نفسها عليه عليه الصلاة والسلام فقال: أما الآن فلا إن الله تعالى أنزل علي ﴿**يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك** ـ إلى ـ **اللاتي هاجرن معك**﴾ ولم تكن من المهاجرات وهو يدل على أنه نفسه ﷺ فهم الحرمة وإلا لتزوجها لأنا نقول بعد تسليم صحة الخبر: لا نسلم أنه ﷺ فهم الحرمة وعدم التزوج يجوز أن يكون لكونه خلاف الأفضل، ويدل خبر أم هانىء على أن هذه الآية نزلت بعد الفتح فلا تغفل. وادعى بعضهم أن تحريم نكاح غير المهاجرة عليه ﷺ كان أولاً ثم نسخ، وعن قتادة أن معنى ﴿**هاجرن معك**﴾ أسلمن معك، قيل: وعلى هذا لا يحرم عليه عليه الصلاة والسلام إلا الكافرات وهو في غاية البعد كما لا يخفى، والظاهر أن المراد بأزواجك اللاتي آتيت مهورهن نساؤه ﷺ اللاتي كن في عصمته وقد آتاهن مهورهن كعائشة وحفصة وسودة وبما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك نحو ريحانة بناءً على ما قاله محمد بن إسحاق أنه ﷺ لما فتح قريظة اصطفاها لنفسه فكانت عنده حتى توفيت عنده وهي في ملكه ووافقه في ذلك غيره أخرج الواقدي بسنده إلى أيوب بن بشير قال: إنه عليه الصلاة والسلام أرسل بها إلى بيت سلمى بنت قيس أم المنذر فكانت عندها حتى حاضت حيضة ثم طهرت من حيضها فجاءت أم المنذر فأخبرته ﷺ فجاءها في منزل أم المنذر فقال لها: إن أحببت أن أعتقك وأتزوجك فعلت وإن أحببت أن تكوني في ملكي أطؤك بالملك فعلت فقالت: يا رسول الله أحب أن أخف عليك وأن أكون في ملكك فكانت في ملك رسول الله ﷺ يطؤها حتى ماتت. وذهب بعضهم إلى أنه عليه الصلاة والسلام أعتقها وتزوجها، وأخرج ذلك الواقدي أيضاً عن ابن أبي ذئب عن الزهري ثم قال: وهذا الحديث أثبت عندنا: وروي عنها أنها قالت: لما سبيت بنو قريظة عرض السبي على رسول الله ﷺ فكنت فيمن عرض عليه فأمر بي عزلت وكان له صفي كل غنيمة فلما عزلت خار الله تعالى لي فأرسل بي إلى منزل أم المنذر بنت قيس أياماً حتى قتل الأسرى وفرق السبي فدخل علي ﷺ فتجنبت منه حياء فدعاني فأجلسني بين يديه فقال: إن اخترت الله ورسوله اختارك رسول الله لنفسه فقلت: إني اختار الله تعالى ورسوله فلما أسلمت أعتقني رسول الله ﷺ وتزوجني وأصدقني اثنتي عشرة أوقية ذهباً كما كان يصدق نساءه وأعرس بي في بيت أم المنذر وكان يقسم لي كما يقسم لنسائه وضرب علي الحجاب، ولم يذكر ابن الأثير غير القول بإعتاقها وتزوجها ومنهم من ذهب إلى أنها أسلمت فأعتقها عليه الصلاة والسلام فلحقت بأهلها وكانت تحتجب عندهم وتقول: لا يراني أحد بعد رسول الله ﷺ وحكي لحوقها بأهلها عن الزهري وادعى بعضهم بقاءها حية بعده عليه الصلاة والسلام وأنها توفيت سنة ست عشرة أيام خلافة عمر رضي الله تعالى عنه. وذكر ابن كمال في

تفسيره لبيان الموصول صفية وجويرية. والمذكور في أكثر المعتبرات في أمرهما أن صفية لما جمع سبي خيبر أخذها دحية وقد قال له ﷺ: اذهب فخذ جارية ثم أخبر عليه الصلاة والسلام أنها لا تصلح إلا له لكونها بنت سيد قومه فقال لدحية: خذ غيرها وأخذها رسول الله ﷺ وأعتقها وتزوجها وكان صداقها نفسها، وأن جويرية في غزوة بني المصطلق وقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري فكاتبته على نفسها ثم جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث وكان من أمري ما لا يخفى عليك ووقعت في سهم ثابت بن قيس وإني كاتبت نفسي فجئت أسألك في كتابتي فقال عليه الصلاة والسلام فهل لك إلى ما هو خير: قالت؟ وما هو يا رسول الله؟ قال: أؤدي عنك كتابتك وأتزوجك قالت: قد فعلت، وقال ابن هشام ويقال اشتراها ﷺ من ثابت وأعتقها وتزوجها وأصدقها أربعمائة درهم، ولا يخفى عليك أنه إذا كان المراد إحلال ما ملكت يمينه ﷺ حين الملك من حيث إنه ملك له وإن لم يحصل وطء بالفعل يدخل جميع ما ملكه عليه الصلاة والسلام من الجواري حين الملك ولا يضر الإعتاق والتزوج بعد ذلك وحل الوطء بسبب النكاح لا الملك وإن كان المراد إحلال ذلك مع وقوع الوطء بالفعل ووصف الملك قائم لا يصح بيان الموصول إلا بمملوكة وطئها عليه الصلاة والسلام وهي ملكه كريحانة في قول وجارية أصابها في بعض السبي وعدوها من سراريه ﷺ ولم يذكر المعظم اسمها وعد الجلبي من سراريه عليه الصلاة والسلام جارية سماها زليخة القرظية فلعلها هي التي لم تسم وكمارية القبطية والجارية التي وهبتها له عليه الصلاة والسلام زينب، وقد سمعت الكلام فيهما آنفاً والمراد بينات عمه وبنات عماته بنات القرشيين وبنات القرشيات فإنه يقال للقرشيين قربوا أو بعدوا أعمامه ﷺ وللقرشيات قربن أو بعدن عماته عليه الصلاة والسلام، والمراد ببنات خاله وبنات خالاته بنات بني زهرة ذكورهم وإناثهم وإلى هذا ذهب الطبرسي في مجمع البيان ولم يذكر غيره، وإطلاق الأعمام والعمات على أقارب الشخص من جهة أبيه ذكوراً وإناثاً قربوا أو بعدوا والأخوال والخالات على أقاربه من جهة أمه كذلك شائع في العرف كثير في الاستعمال.

واللاتي نكحهن ودخل بهن ﷺ من القرشيات ست وكان نكاحه بعضهن قبل نزول الآية بيقين ونكاحه بعضهن الآخر محتمل للقبلية والبعدية كما لا يخفى على من راجع كتب السير وسمع ما قيل في وقت نزول الآية، ولم نقف على أنه عليه الصلاة والسلام نكح أحداً من الزهريات أصلاً فالمراد بإحلال نكاح أولئك مجرد جوازه وهو لا يستدعي الوقوع، وإذا حمل العم على أخي الأب والعمة على أخته والخال على أخي الأم والخالة على أختها اقتضى ظاهر الآية أن يكون له ﷺ عم وعمة وخال وخالة كذلك وأن يكون لهم بنات وذلك مشهور في شأن العم والعمة وبناتهما فقد ذكر معظم أهل السير عدة أعمام له ﷺ وعدة بنات لهم كالعباس ومن بناته أم حبيبة تزوجها أسود المخزومي وكان قد خطبها رسول الله ﷺ على ما قيل فوجد أباها أخاه من الرضاعة كان قد أرضعتهما ثوبية مولاة أبي لهب، وكأبي طالب ومن بناته أم هانىء وقد سمعت ما قيل في شأنها وجمانة كانت إحدى المبايعات له ﷺ وكانت تحت أبي سفيان بن الحارث عمها، وكأبي لهب ومن بناته خالدة تزوجها عثمان بن أبي العاصي الثقفي وولدت له، ودرة أسلمت وهاجرت وكانت تحت الحارث بن نوفل ثم تحت دحية الكلبي، وعزة تزوجها أوفى بن أمية، وكالزبير ومن بناته ضباعة زوجة المقداد بن الأسود وأم الحكم ويقال إنها أخته عليه الصلاة والسلام من الرضاعة وكان يزورها بالمدينة وكحمزة ومن بناته أمامة لما قدم رسول الله ﷺ من عمرة القضاء أتى بها من مكة وزوجها سلمة بن أم سلمة ومقتضى قول القسطلاني أن حمزة أخوه ﷺ من الرضاعة أرضعتهما ثوبية بلبن ابنها مسروح أنها لا تحل له عليه الصلاة والسلام بل ذكر هو أيضاً أنها عرضت عليه فقال هي ابنة أخي من الرضاعة وكالحارث ومن بناته

أروى زوجة أبي وداعة وكالمقوم ومن بناته من اسمها أروى أيضاً زوجة ابن عمها أبي سفيان بن الحارث وذكروا أيضاً له ﷺ عدة عمات وعدة بنات لهن، منهن أميمة ومن بناتها زينب أم المؤمنين وهي التي نزل فيها قوله تعالى: ﴿فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها﴾ [الأحزاب: ٣٧] وأم حبيبة وكانت زوجة عبد الرحمن بن عوف، وحمنة وكانت عند مصعب بن عمير ثم عند طلحة أحد العشرة، ومنهن البيضاء ومن بناتها أروى أم عثمان رضي الله تعالى عنه وأم طلحة بنتا كريز بن ربيعة، ومنهن عاتكة ومن بناتها قريبة بنت زاد الراكب أبي أمية بن المغيرة، ومنهن صفية ومن بناتها صفية بنت الحارث بن حارثة وأم حبيبة بنت العوام بن خويلد، وأما الخال والخالة فلم يشتهر ذكرهما، نعم ذكر في الإصابة فريعة بنت وهب الزهرية رفعها النبي ﷺ وقال: من أراد أن ينظر إلى خالة رسول الله ﷺ فلينظر إلى هذه، وفيها أيضاً فاختة بنت عمرو الزهرية خالة النبي ﷺ.

أخرج الطبراني من طريق عبد الرحمن بن عثمان الوقاصي عن ابن المنكدر عن جابر سمعت رسول الله ﷺ يقول: وهبت خالتي فاختة بنت عمرو غلاماً وأمرتها أن لا تجعله جازراً ولا صائغاً ولا حجاماً، والوقاصي ضعيف. وقال: في صفية بنت عبد المطلب هي شقيقة حمزة أمهما هالة خالة رسول الله ﷺ أي هالة بنت وهب كما في المواهب ولم نقف لهذه الخالة على بنت غير صفية عمته عليه الصلاة والسلام، وكذا لم نقف على بنات لمن ذكرنا قبلها، ووقفنا على خال واحد له عليه الصلاة والسلام وهو عبد يغوث بن وهب ولم نقف على بنت له وإنما وقفنا على ابنين أحدهما الأرقم وله ابن يسمى عبد الله وهو صحابي كتب لرسول الله ﷺ ولصاحبيه وكان على بيت المال في خلافة عمر رضي الله تعالى عنه وكان أثيراً عنده حتى أن حفصة روت عنه أنه قال لها: لولا أن ينكر على قومك لاستخلفت عبد الله بن الأرقم، وقيل: هو ابن عبد يغوث والأرقم هو عبد يغوث، والبخاري على ما قلنا وقد أسلم يوم الفتح، وقال بعضهم فيه: خال رسول الله ﷺ ومن الناس من ذكر لعبد الله هذا أخاً سماه عبد الرحمن بن الأرقم وأثبت له الصحبة وفي ذلك مقال، وثانيهما الأسود وأطلق عليه النبي عليه الصلاة والسلام اسم الخال، فقد روي أنه كان أحد المستهزئين به ﷺ فقصد جبريل عليه السّلام إهلاكه فقال ﷺ: يا جبريل خالي فقال: دعه عنك، وله ابن هو عبد الرحمن وبنت هي خالدة وكانت من المهاجرات الصالحات وقد أطلق عليها أيضاً اسم الخالة.

أخرج المستغفري من طريق أبي عمير الجرمي عن معمر عن الزهري عن عبيد الله مرسلاً قال: دخل النبي ﷺ منزله فرأى عند عائشة امرأة فقال: من هذه يا عائشة قالت: هذه إحدى خالاتك فقال: إن خالاتي بهذه البلدة لغرائب فقالت: هذه خالدة بنت الأسود بن عبد يغوث فقال: سبحان الذي يخرج الحي من الميت قرأها مثقلة.

وأخرج موسى بن إبراهيم عن أبيه عن أبي سلمة عن عائشة موصولاً نحوه، وفي هذا الخبر وما قبله إطلاق الخال والخالة على قرابة الأم وإن لم يكن الخال أخاها والخالة أختها، وبذلك يتأيد ما ذكرناه سابقاً فاحفظ ذاك والله تعالى يتولى هداك، وإياك أن تظن الأمر فرضياً أو أن الخطاب وإن كان خاصاً في الظاهر عام في الحقيقة فيكفي وجود بنات خال وبنات خالات لغيره عليه الصلاة والسلام كما يظن ذلك من يشهد العم بجهله ويصدق الخال بقلة عقله، هذا وقد كثر السؤال عن حكمة أفراد العم والخال وجمع العمة والخالة حتى أن السبكي على ما قيل صنف جزءاً فيه سماه الهمة في أفراد العم وجمع العمة.

قال الخفاجي: وقد رأيت لهم فيه كلمات ضعيفة كقول الرازي إن العم والخال على زنة المصدر ولذا لم يجمعا بخلاف العمة والخالة، وقيل لم يجمعا ليعما إذا أضيفا، والعمة والخالة لا يعمان لتاء الوحدة وهي إن لم تمنع العموم حقيقة تأباه ظاهراً، ولا يأبى ذلك قوله تعالى في سورة: ﴿بيوت أعمامكم وبيوت عماتكم﴾ [النور: ٦١] لأنه

على الأصل، ثم قال: وأحسن منه ما قيل إن أعمامه ﷺ العباس وحمزة رضي الله تعالى عنهما أخواه من الرضاع لا تحل له بناتهما، وأبو طالب ابنته أم هانيء لم تكن مهاجرة ا هـ، وما ادعى ضعفه فهو كما قال وما زعم أنه أحسن منه إن كان كما نقلناه بهذا المقدار خالياً عن إسقاط شيء حسبما وجدناه في نسختنا فهو مما لا حسن فيه فضلاً عن كونه أحسن، وإن كان له تتمة فالنظر فيه بعد الاطلاع عليها إليك وأظنه على العلات ليس بشيء.

وقال بعض الأجلة المعاصرين من العلماء المحققين لا زال سعيد زمانه سابقاً بالفضل على أقرانه: يحتمل أن يكون إفراد العم لأنه بمنزلة الأب بل قد يطلق عليه الأب ومنه في قول: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر﴾ [الأنعام: ٧٤] والأب لا يكون إلا واحداً فكان الافراد أنسب بمن ينزل منزلته ويكون جمع العمة على الأصل وإفراد الخال ليكون على وفق العم وجمع الخالة وإن كانت بمنزلة الأم لتكون على وفق العمات، ويحتمل أن يكون إفراد المذكر وجمع المؤنث لقلة الذكور وكثرة الاناث، وقد ورد في الآثار ما يدل على أن النساء أكثر من الرجال.

وقال آخر من أولئك الأجلة لا زالت مدارس العلم تزهو به وتشكر فضله: إن ذلك لما فيه من الحسن اللفظي فإن بين العم والعمات والخال والخالات نوعاً من الجناس ولأن أعمامه عليه الصلاة والسلام كانوا على ما ذكره صاحب ذخائر العقبى اثني عشر عماً وعماته كن ستاً فلو قيل أعمامك لتوهم أنهم أقل من اثني عشر لأنه جمع قلة وغاية ما يصدق هو عليه تسعة أو عشرة على قول ولو قيل: عمتك لم تتحقق الإشارة إلى قلتهن فلذا أفرد العم وجمعت العمة وقيل: خالك وخالاتك ليوافق ما قبل، وأنا أقول: الذي يغلب على ظني في ذلك ما حكاه أبو حيان عن القاضي أبي بكر بن العربي من أن ما ذكر عرف لغوي على معنى أنه جرى عرف اللغويين في مثل ذلك على إفراد العم والخال وجمع العمة والخالة، ونحن قد تتبعنا كثيراً من أشعار العرب فلم نر العم مضافاً إليه ابن أو بنت بالإفراد أو الجمع إلا مفرداً نحو قوله:

جاء شقيق عارضاً رمحه ... إن بني عمك فيهم رماح

وقوله:

فتى ليس لابن العم كالذئب إن رأى ... بصاحبه يوماً دماً فهو آكله

وقوله:

قالت بنات العم يا سلمى وإن ... كان فقيراً معدماً قالت وإن

وقوله:

يا بنت عما لا تلومي واهجعي ... فليس يخلو عنك يوماً مضجعي

إلى ما لا يحصى كثرة، وأما اطراد إفراد الخال وجمع العمة والخالة إذا أضيف إليها ما ذكر فلست على ثقة من أمره، فإذا كان الأمر في المذكورات كالأمر في العم فليس فوق هذا الجواب جواب، والظن بالقاضي أنه لم يحكم بما حكم إلا عن بينة مع أني لا أطلق القول بعدم قبول حكم القاضي بعلمه ولا أفتي به، نعم لهذا القاضي حكم مشهور في أمر الحسين رضي الله تعالى عنه ولعن من رضي بقتله لا يرتضيه إلا يزيد زاد الله عزّ وجلّ عليه عذابه الشديد، وعلى تقدير كون الأمر في العم ومن معه كما قال يحتمل أن يكون الداعي لإفراد العم والخال الرجوع إلى أصل واحد مع ما بين الذكور من جهة العمومة والخؤولة في حق الشخص المدلى بهما من التناصر والتساعد فلذلك ترى الشخص يهرع لدفع بليته إلى ذكور عمومته وخؤولته، وذلك التعاضد يجعل المتعدد في حكم الواحد، ويقوي هذا الاعتبار هنالك

إضافة الفرع كالبنين والبنات إلى ذلك، ولعل في الإفراد مع جمع المضاف المذكور إشارة إلى أن البنين والبنات وإن كانوا بنين وبنات لمتعددين في نفس الأمر إلا أنهم في حكم البنين والبنات لواحد وأن كل واحد من الأعمام والأخوال لمزيد شفقته على أبناء وبنات كل كأنه أب لأبناء وبنات كل، وهذا الذي ذكرناه لا يوجد في العمات والخالات. ولا يرد عليه جمع العم والخال في آية النور كما لا يخفى على من له أدنى نور يهتدي به إذا أشكلت الأمور، ويمكن أن يقال في الحكمة ها هنا خاصة: إنه لما كان المفرد أصلاً والمجموع فرعه والمذكر أصلاً والمؤنث فرعه أتى بالعم والخال المذكرين مفردين وبالعمة والخالة المؤنثين مجموعين فاجتمع في الأولين أصلان وفي الأخيرين فرعان بحكم شبيه الشيء منجذب إليه وإن الطيور على أشباهها تقع، وما ألطف هذا الاجتماع في منصة مقام النكاح لما فيه من الإشارة إلى الكفاءة وأن المناسب ضم الجنس إلى جنسه كما يقتضيه بعض الآيات وهو لعمري ألطف من جمع المذكر وإفراد المؤنث ليجتمع في كل أصل وفرع فيوافق ما في النكاح من اجتماع ذكر هو أصل وأنثى هي فرع لخلوه عن الإشارة إلى ذلك الضم المناسب المستحسن عند كل ذي رأي صائب على أن في جمع أصلين في العم موافقة لما في النكاح من جمع الزوجين الذين هما أصلان لما يتولد منهما وإذا اعتبر جمعهما في الخال الذي قرابته من جهة الأم التي لا تعتبر في النسب وافق الجملة ما في النكاح من اجتماع أصل وفرع فلا يفوت ذلك بالكلية على ما في النظم الجليل.

وأيضاً في الانتقال من الإفراد إلى الجمع في جانبي العمومة والخؤولة إشارة إلى ما في النكاح من انتقال كل من الزوج والزوجة من حال الإنفراد إلى حال الاجتماع فلله تعالى در التنزيل، هذا ما عندي وهو زهرة ربيع لا تحمل الفرك ومع هذا قسه إلى ما سمعت عن ساداتنا المعاصرين واختر لنفسك ما يحلو والله تعالى أعلم بأسرار كتابه.

﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً﴾ بالنصب عطفاً على مفعول أحللنا عند جمع وليس معنى **﴿أحللنا﴾** إنشاء لاحلال الناجز ولا الاخبار عن إحلال ماض بل إعلام بمطلق الإحلال المنتظم لما سبق ولحق فلا يعكر على ذلك الشرط وهذا كما تقول أبحت لك أن تكلم فلاناً إن سلم عليك، ولما فيه من البحث قال بعضهم: إنه نصب بفعل يفسره ما قبل أي ويحل لك امرأة أو وأحللنا لك امرأة وهو مستقبل لمكان الشرط. وقرأ أبو حيوة بالرفع على أنه مبتدأ والخبر محذوف أي وامرأة مؤمنة أحللناها لك أيضاً **﴿إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾** أي ملكته المتعة بها بأي عبارة كانت بلا مهر.

وقرأ أبي والحسن والشعبي وعيسى وسلام «أن وهبت» بفتح الهمزة أي لأن وهبت وقيل: أي وقت أن وهبت أو مدة أن وهبت فتكون أن وما بعدها في تأويل مصدر منصوب على الظرفية، وأكثر النحاة لا يجيزونه في غير المصدر الصريح كآتيك خفوق النجم وغير ما المصدرية، وجوز أن يكون المصدر بدلاً من **﴿امرأة﴾** وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما «إذ وهبت» وإذ ظرف لما مضى وقيل: هي مثلها في قوله تعالى: ﴿ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون﴾ [الزخرف: ٣٩] **﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا﴾** أي يتملك المتعة بها بأي عبارة كانت بلا مهر وهذا شرط للشرط الأول في استيجاب الحل فهبتها نفسها منه ﷺ لا يوجب له حلها إلا بإرادته نكاحها وهذه الإرادة جارية مجرى قبول الهبة، وقال ابن كمال: الإرادة المذكورة عبارة عن القبول ولا وجه لحملها على الحقيقة لأن قوله تعالى: **﴿يستنكحها﴾** يغني عن الإرادة بمعناه الوضعي وهو يشير إلى أن السين للطلب، وكلام بعض الأجلة على هذا حيث قال: إرادة طلب النكاح كناية عن القبول.

وقيل: استفعل هنا بمعنى فعل فالاستنكاح بمعنى النكاح لئلا يتوهم التكرار وفيه نظر، واستظهر صاحب هذا القيل حمل الإرادة على الإرادة المتقدمة على الهبة بناءً على أن التركيب يقتضي تقدم هذا الشرط فقد قالوا: إذا اجتمع

شرطان فالثاني شرط في الأول متأخر في اللفظ متقدم في الوقوع وهو بمنزلة الحال، ومن هنا قال الفقهاء: لو قال: إن ركبت إن أكلت فأنت طالق لا تطلق ما لم يتقدم الآكل على الركوب ليتحقق تقييد الحالية.

واستشكل السمين هذه القاعدة بما هنا بناءً على أنهم جعلوا ذلك الشرط بمنزلة القبول لاقتضاء الواقع ذلك، ثم ذكر أنه عرضه على علماء عصره فلم يجدوا مخلصاً منه إلا بأن هذه القاعدة ليست بكلية بل مخصوصة بما لم تقم قرينة على تأخر الثاني كما في نحو إن تزوجتك إن طلقتك فعبدي حرّ فإن الطلاق لا يتقدم التزوج وما نحن فيه من هذا القبيل ثم قال: فمن جعل الشرط الثاني هنا مقدماً لم يصب ورأيت في الفن السابع من الأشباه والنظائر النحوية للجلال السيوطي عليه الرحمة كلاماً لابن هشام ذكر فيه أن جعل الآية كالمثال ونظمهما في سلك مسألة اعتراض الشرط على الشرط هو ما ذهب إليه جماعة منهم ابن مالك وذهب هو إلى أن المثال من مسألة الاعتراض المذكور دون الآية واحتج عليه بما احتج، ثم ذكر الخلاف في صحة تركيب ما وقع فيه الاعتراض كالمثال وأن الجمهور على جوازه وهو الصحيح وأن المجيزين اختلفوا في تحقيق ما يقع به مضمون الجواب الواقع بعد الشرطين على ثلاثة مذاهب، أحدهما أنه إنما يقع بمجموع أمرين، أحدهما حصول كل من الشرطين، والآخر كون الشرط الثاني واقعاً قبل وقوع الأول ففي المثال لا يقع الطلاق إلا بوقوع الركوب والأكل من تقدم وقوع الأكل على الركوب، وذكر أن هذا مذهب الجمهور. وثانيها أنه يقع بحصول الشرطين مطلقاً وذكر أنه حكاه له بعض العلماء عن إمام الحرمين وأنه رآه محكياً عن غيره بعد. وثالثها أنه يقع بوقوع الشرطين على الترتيب فإنما تطلق في المثال إذا ركبت أولاً ثم أكلت وأبطل كلاً من المذهبين الأخيرين وذكر في توجيه التركيب على المذهب الأول مذهبين. الأول مذهب الجمهور أن الجواب المذكور للشرط الأول وجواب الثاني محذوف لدلالة الأول وجوابه عليه ولإغناء ذلك عنه وقيامه مقامه لزم في وقوع المعلق على ذلك أن يكون الثاني واقعاً قبل الأول ضرورة أن الجواب لا بدّ من تأخره عن الشرط فكذا الأمر في القائم مقام الشرط، والثاني مذهب ابن مالك أن الجواب المذكور للأول والثاني لا جواب له لا مذكور ولا مقدر لأنه مقيد للأول تقييده بحال واقعة موقعه فالمعنى في المثال إن ركبت آكلة فأنت طالق، وفيه أنه خارج عن القياس وأنه لا يطرد في إن قمت إن قعدت فأنت طالق وأن الشرط بعيد عن مذهب الحال لمكان الاستقبال.

وبالجملة قد أطال الكلام في هذه المسألة وهي مسألة شهيرة ذكرها الأصوليون وغيرهم وفيما ذكرنا فيها اكتفاء بأقل اللازم ها هنا فتأمل.

وأكثر العلماء على وقوع الهبة واختلفوا في تعيين الواهبة فعن ابن عباس وقتادة وعكرمة هي ميمونة بنت الحارث الهلالية، وفي المواهب يقال: إن ميمونة وهبت نفسها للنبي ﷺ وذلك أن خطبته عليه الصلاة والسلام انتهت إليها وهي على بعيرها فقالت: البعير وما عليه لله ولرسوله ﷺ وكان ذلك سنة سبع بعد غزوة خيبر وبنى عليها عليه الصلاة والسلام بسرف على عشرة أميال من مكة، وعليه تكون إرادة النكاح سابقة على الهبة فيضعف به قول السمين: وعن علي بن الحسين رضي الله تعالى عنهما والضحاك ومقاتل هي أم شريك غزية بنت جابر بن حكيم الدوسية، قال في الصفوة: والأكثرون على أنها هي التي وهبت نفسها للنبي ﷺ فلم يقبلها فلم تتزوج حتى ماتت. وفي الدر المنثور عن منير بن عبد الله الدوسي أنه عليه الصلاة والسلام قبلها، وعن عروة والشعبي هي زينب بنت خزيمة من الأنصار كانت تدعى في الجاهلية أم المساكين لإطعامها إياهم وكان ذلك في سنة ثلاث ولم تلبث عنده ﷺ إلا قليلاً حتى توفيت رضي الله تعالى عنها.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في السنن عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: التي وهبت نفسها

للنبي ﷺ خولة بنت حكيم وقد أرجأها عليه الصلاة والسلام فتزوجها عثمان بن مظعون بإذنه ﷺ وقال بعضهم: يجوز تعدد الواهبات فقد أخرج الشيخان وغيرهما عن عروة بن الزبير قال: كانت خولة بنت حكيم من اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ فقالت عائشة: أما تستحي المرأة أن تهب نفسها للرجل فلما نزلت: ﴿**ترجي من تشاء منهن**﴾ قالت عائشة: يا رسول الله ما أرى ربك إلا يسارع لك في هواك فقوله: من اللاتي وهبن أنفسهن صريح في تعددهن، وأنكر بعضهم وقوع الهبة وقيل: إن قوله تعالى: ﴿**إن وهبت**﴾ يشير إلى عدم وقوعها وأنها أمر مفروض وكذا تنكير ﴿**امرأة**﴾ فالمراد الإعلام بالإحلال في هذه الصورة إن اتفقت وأنكر بعضهم القبول.

أخرج ابن سعد عن ابن أبي عون أن ليلى بنت الحطيم وهبت نفسها للنبي ﷺ ووهبن نساء أنفسهن فلم نسمع أن النبي ﷺ قبل منهن أحداً، وما أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه والبيهقي في السنن عن ابن عباس قال: لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأة وهبت نفسها له يحتمل نفي القبول ويحتمل نفي الهبة، وإيراده ﷺ في الموضعين بعنوان النبوة بطريق الالتفات للتكرمة والإيذان بأنها المناط لثبوت الحكم فيختص به عليه الصلاة والسلام حسب اختصاصها به كما ينطق به قوله تعالى: ﴿**خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ ويتضمن ذلك الإشارة إلى أن هبة من تهب لم تكن حرصاً على الرجال وقضاء الوطر بل على الفوز بشرف خدمته ﷺ والنزول في معدن الفضل، وبذلك يعلم أن قول عائشة: ما في امرأة وهبت نفسها لرجل خير وكذا اعتراضها السابق صادر من شدة غيرتها رضي الله تعالى عنها على رسول الله ﷺ ولا بدع فالمحب غيور وقد قال بعض المحبين:

أغـار إذا آنـسـت فـي الـحـي أنـة ... حـذاراً وخـوفـاً أن تـكـون لـحـبـه

ونصب ﴿**خالصة**﴾ على أنه مصدر مؤكد للجملة قبله، وفاعله في المصادر على ما قال الزمخشري غير عزيز كالعافية والكاذبة، وادعى أبو حيان عزتها، والكثير على تعلق ذلك بإحلال الواهبة أي خلص لك إحلالها خالصة أي خلوصاً، وقال الزجاج: هو حال من ﴿**امرأة**﴾ لتخصصها بالوصف أي أحللناها خالصة لك لا تحل لأحد غيرك في الدنيا والآخرة.

وقال أبو البقاء: هو حال من ضمير ﴿**وهبت**﴾ أو صفة لمصدر محذوف أي هبة خالصة. وقرىء بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي ذاك خلوص لك وخصوص أو هي أي تلك المرأة أو الهبة خالصة لك لا تتجاوز المؤمنين.

واستدل الشافعية رضي الله تعالى عنهم به على أن النكاح لا ينعقد بلفظ الهبة لأن اللفظ تابع للمعنى وقد خص عليه الصلاة والسلام بالمعنى فيختص باللفظ، وقال بعض أجلة أصحابنا في ذلك: إن المراد بالهبة في الآية تمليك المتعة بلا عوض بأي لفظ كان لا تمليكها بلفظ وهبت نفسي فحيث لم يكن ذلك نصافي التمليك بهذا اللفظ لم يصلح لأن يكون مناطاً للخلاف في انعقاد النكاح بلفظ الهبة إيجاباً وسلباً، ومعنى خلوص الإحلال المذكور له ﷺ من دون المؤمنين كونه متحققاً في حقه غير متحقق في حقهم إذ لا بدّ في الإحلال لهم من مهر المثل.

وظاهر كلام العلامة ابن الهمام اعتبار لفظ الهبة حيث قال في الفتح: قد ورد النكاح بلفظ الهبة وساق الآية ثم قال: والأصل عدم الخصوصية حتى يقوم دليلها، وقوله تعالى: ﴿**خالصة لك**﴾ يرجع إلى عدم المهر بقرينة إعقابه بالتعليل بنفي الحرج فإن الحرج ليس في ترك لفظ إلى غيره خصوصاً بالنسبة إلى أفصح العرب بل في لزوم المال، وبقرينة وقوعه في مقابلة المؤتى أجورهن فصار الحاصل أحللنا لك الأزواج المؤتى مهورهن والتي وهبت نفسها لك فلم تأخذ مهراً خالصة هذه الخصلة لك من دون المؤمنين أما هم فقد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم الخ من

المهر وغيره. وأبدى صدر الشريعة جواز كونه متعلقاً بأحللنا قيداً في إحلال أزواجه له ﷺ لإفادة عدم حلهن لغيره ﷺ انتهى، وجوز بعضهم كونه قيداً في إحلال الإماء أيضاً لإفادة عدم حل إمائه كأزواجه لأحد بعده عليه الصلاة والسلام، وبعض آخر كونه قيداً لإحلال جميع ما تقدم على القيود المذكورة أي خلص إحلال ما أحللنا لك من المذكورات على القيود المذكورة خلوصها من دون المؤمنين فإن إحلال الجميع على القيود المذكورة غير متحقق في حقهم بل المتحقق فيه إحلال بعض المعدود على الوجه المعهود، واختاره الزمخشري، وأياً ما كان فقوله تعالى:

﴿قَدْ عَلِمْنَا ما فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ اعتراض بين المتعلق والمتعلق، والأول على جميع الأوجه قوله سبحانه: ﴿لِكَيْلاَ يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ والثاني على الوجه الأخير وهو تعلق خالصة بجميع ما سلف من الإحلالات الأربع قوله تعالى ﴿خالصة﴾ وهو مؤكد معنى اختصاصه عليه الصلاة والسلام بما اختص به بأن كلاً من الاختصاص عن علم وأن هذه الحظوة مما يليق بمنصب الرسالة فحسب فالمعنى أن الله تعالى قد علم ما ينبغي من حيث الحكمة فرضه على المؤمنين في حق الأزواج والإماء وعلى أي حد وصفة ينبغي أن يفرض عليهم ففرضه واختصك سبحانه بالتنزيه واختيار ما هو أولى وأفضل في دنياك حيث أحل جل شأنه لك أجناس المنكوحات وزاد لك الواهبة نفسها من غير عوض لئلا يكون عليك ضيق في دينك، وهو على الوجه الأول الذي ذكرناه وهو تعلق خالصة بالواهبة خاصة قوله عزّ وجلّ: ﴿إنا أحللنا﴾ وهو الذي استظهره أبو حيان وأمر الاعتراض عليه في حاله، وبعضهم يجعل المتعلق خالصة على سائر الأوجه والتعلق به باعتبار ما فيه من معنى ثبوت الإحلال وحصوله له ﷺ لا باعتبار اختصاصه به عليه الصلاة والسلام لأن مدار انتفاء الحرج هو الأول لا الثاني الذي هو عبارة عن عدم ثبوته لغيره ﷺ.

وقال ابن عطية: إن ﴿لكيلا﴾ الخ متعلق بمحذوف أي بينا هذا البيان وشرحنا هذا الشرح لئلا يكون عليك حرج ويظن بك أنك قد أثمت عند ربك عزّ وجلّ فلا اعتراض على هذا، ولا يخلو عن اعتراض فتدبر ولا تغفل.

﴿وَكَانَ الله غَفُوراً﴾ أي كثير المغفرة فيغفر ما يشاء مما يعسر التحرز عنه وغيره ﴿رَحِيماً﴾ أي وافر الرحمة، ومن رحمته سبحانه أن وسع الأمر في مواقع الحرج ﴿تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ﴾ أي تؤخر من تشاء من نسائك وتترك مضاجعتها ﴿وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ وتضم إليك من تشاء منهن وتضاجعها، وروي هذا عن قتادة.

وعن ابن عباس والحسن أي تطلق من تشاء منهن وتمسك من تشاء، وقال بعضهم: الإرجاء والإيواء لإطلاقهما يتناولان ما في التفسيرين وما ذكر فيهما فإنما هو من باب التمثيل ولا يخلو عن حسن، وفي رواية عن الحسن أن ضمير ﴿منهن﴾ لنساء الأمة والمعنى تترك نكاح من تشاء من نساء أمتك فلا تنكح وتنكح منهن من تشاء.

وقال: كان ﷺ إذا خطب امرأة لم يكن لغيره أن يخطبها حتى يتركها وعن زيد بن أسلم والطبري أنه للواهبات أنفسهن أي تقبل من تشاء من المؤمنات اللاتي يهبن أنفسهن لك فتؤويها إليك وتترك من تشاء منهن فلا تقبلها، وعن الشعبي ما يقتضيه، فقد أخرج ابن سعد والبيهقي في السنن وغيرهما عنه قال: كن نساء وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ فدخل ببعضهن وأرجأ بعضهن فلم يقربن حتى توفي عليه الصلاة والسلام ولم ينكحن بعده، منهن أم شريك فذلك قوله تعالى: ﴿ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء﴾ ويشهد لما تقدم من رجوعه إلى النساء ما أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وغيرهم عن أبي رزين قال: هم رسول الله ﷺ أن يطلق من نسائه فلما رأين ذلك أتينه فقلن لا تخل سبيلنا وأنت في حل فيما بيننا وبينك افرض لنا من نفسك ومالك ما شئت فأنزل الله تعالى الآية أرجأ منهن نسوة وكان ممن أرجأ ميمونة وجويرية وأم حبيبة وصفية وسودة وكان ممن آوى عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب رضي الله تعالى عنهن أجمعين. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر «ترجىء» بالهمزة وهو عند الزجاج

أجود والمعنى واحد ﴿وَمَنِ ابْتَغَيْتَ﴾ أي طلبت ﴿مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ أي تجنبت وحمل هذا التجنب على ما كان بطلاق، ومن شرطية منصوبة بما بعدها، وقوله تعالى ﴿فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ جوابها أي من طلبتها ممن طلقت فليس عليك إثم في طلبها أو موصولة والجملة خبرها أي والتي طلبتها لا جناح عليك في طلبها والمراد نفي أن يكون عليه عليه الصلاة والسلام إثم في إرجاع المطلقة، وقيل من موصولة معطوفة على ﴿من تشاء﴾ الثاني والمراد به غير المطلقة ومعنى فلا جناح عليك فلا إثم عليك في شيء مما ذكر من الأرجاء والإيواء والابتغاء والمراد تفويض ذلك إلى مشيئته ﷺ.

وقال بعضهم: المراد به ما كان بترك مضاجعة بدون طلاق، والمقصود من الآية بيان أن له ﷺ ترك مضاجعة من شاء من نسائه ومضاجعة من شاء منهن أي ممن لم يكن أرجأها وترك مضاجعتها والرجوع إلى مضاجعة من ترك مضاجعتها واعتزلها فمن عزل هي المرجأة، وأفاد صاحب الكشاف أن الآية متضمنة قسمة جامعة لما هو الفرض لأنه ﷺ إما أن يطلق وإما أن يمسك وإذا أمسك ضاجع أو ترك وقسم أو لم يقسم وإذا طلق وعزل فأما أن يخلي المعزولة لا يبتغيها أو يبتغيها وانفهام الطلاق والإمساك بأقسامه بواسطة إطلاق الأرجاء والإيواء في قوله تعالى: ﴿ترجي من تشاء منهن وتؤوي﴾ وانفهام ابتغاء المعزولة من قوله سبحانه ﴿ومن ابتغيت﴾ الخ ومتى فهم أن لا جناح في ابتغاء المعزولة بالطلاق وردها إلى النكاح فهم منه أن رفع النكاح في عدم ردها من طريق الأولى ولقد أجاد فيما أفاد، وجوز بعضهم أن يكون من مبتدأ وفي الكلام معطوف وخبر محذوفان أي ومن ابتغيت ممن عزلت ومن لم تعزل سواء، وقوله سبحانه: ﴿فلا جناح عليك﴾ تأكيد لذلك ولا يخفى بعده وتعسفه، وقال الحسن: معنى ـ ومن ابتغيت ـ الخ من مات من نسائك اللواتي عندك أو خليت سبيلها فلا جناح عليك في أن تستبدل عوضها من اللاتي أحللت لك فلا تزداد على عدة نسائك اللاتي عندك كذا في البحر، وكأنه جعل من للبدل كالتي في قوله تعالى: ﴿أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة﴾ [التوبة: ٣٨] ومن عزلت شاملاً لمن ماتت ومن طلقت وكلاهما بعيد، وثانيهما أبعد من أولهما بكثير ومثله اعتبار ما اعتبره من القيود وبالجملة هو قول تبعد نسبته إلى الحسن، وأبعد من ذلك نسبته إلى ترجمان القرآن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما كما في الدر المنثور.

﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ أي تفويض الأمر إلى مشيئتك أقرب إلى قرة عيونهن وسرورهن ورضاهن جميعاً لأنه حكم كلهن فيه سواء ثم أن سويت بينهن وجدن ذلك تفضلاً منك وإن رجحت بعضهن علمن أنه بحكم الله تعالى فتطمئن به نفوسهن، وروي هذا عن قتادة، والمراد بما آتيتهن عليه ما صنعت معهن فيتناول ترك المضاجعة والقسم، وعن ابن عباس ومجاهد أن المعنى أنهن إذا علمن أن لك ردهن إلى فراشك بعد ما اعتزلتهن قرت أعينهن ولم يحزنّ ويرضين بما تفعله من التسوية والتفضيل لأنهن يعلمن أنك لم تطلقهن، وظاهره جعل المشار إليه العلم بأن له ﷺ الإيواء، وأظهر منه في ذلك قول الجبائي ذلك العلم منهن بأنك إذا عزلت واحدة كان لك أن تؤويها بعد ذلك أدنى لسرورهن وقرة أعينهن.

وقال بعض الأجلة: كون الإشارة إلى التفويض أنسب لفظاً لأن ذلك للبعيد وكونها إلى الإيواء أنسب معنى لأن قرة عيونهن بالذات إنما هي بالإيواء فلا تغفل، والأعين جمع قلة وأريد به ها هنا جمع الكثرة وكأن اختياره لأنه أوفق بكمية الأزواج، وقرأ ابن محيصن «تقر» من أقرو فاعله ضميره ﷺ «أَعْيُنَهُنَّ» بالنصب على المفعولية.

وقرىء «تُقَرَّ» مبنياً للمفعول وأعينهن بالرفع نائب الفاعل و ﴿كُلُّهُنَّ﴾ بالرفع في جميع ذلك وهو توكيد لنون ﴿يرضين﴾.

وقرأ أبو إياس جوية بن عائذ «كلهن» بالنصب تأكيداً لضميره في «آتيتهن» قال ابن جني: وهذه القراءة راجعة

إلى معنى قراءة العامة «كُلُّهُنَّ» بضم اللام وذلك أن رضاهن كلهن بما أوتين كلهن على انفرادهن واجتماعهن فالمعنيان إذن واحد إلا أن للرفع معنى وذلك أن فيه إصراحاً من اللفظ بأن يرضين كلهن، والإصلاح في القراءة الشاذة إنما هو في إتيانهن وإن كان محصول الحال فيهما واحداً مع التأويل انتهى، وقال الطيبي في توكيد الفاعل دون المفعول إظهار لكمال الرضا منهن وإن لم يكن الإيتاء كاملاً سوياً، وفي توكيد المفعول إظهار أنهن مع كمال الإيتاء غير كاملات في الرضا والأول أبلغ في المدح لأن فيه معنى التتميم وذلك أن المؤكد يرفع إيهام التجوز عن المؤكد انتهى فتأمل ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ خطاب له ﷺ ولأزواجه المطهرات على سبيل التغليب.

والمراد بما في القلوب عام ويدخل فيه ما يكون في قلوبهن من الرضا بما دبر الله تعالى في حقهن من تفويض الأمر إليه ﷺ ومقابل ذلك وما في قلبه الشريف عليه الصلاة والسلام من الميل إلى بعضهن دون بعض، والكلام بعث على الاجتهاد في تحسين ما في القلوب، ولعل اعتباره ﷺ في الخطاب لتطييب قلوبهن، وفي الكشاف أن هذا وعيد لمن لم يرض منهن بما دبر الله تعالى من ذلك وفوض سبحانه إلى مشيئة رسوله عليه الصلاة والسلام وبعث على تواطؤ قلوبهن والتصافي بينهن والتوافق على طلب رضا رسول الله ﷺ وطيب نفسه الكريمة، والظاهر أنه غير قائل بدخوله ﷺ في الخطاب، وحينئذٍ فأما أن يقول: إنه عام لهن ولسائر المؤمنين وإما أن يقول بأنه خاص بهن ولعله ظاهر كلامه وعليه لا يظهر وجه التذكير، وربما يقال على الأول: إن المقام غير ظاهر في اقتضاء دخول سائر المؤمنين في الخطاب، وقال ابن عطية: الإشارة بذلك ها هنا إلى ما في قلب رسول الله ﷺ من محبة شخص دون شخص ويدخل في المعنى المؤمنون، وربما يتخيل أن الخطاب لجميع المكلفين والكلام بعث على تحسين ما في القلوب في شأن ما دبر الله تعالى لرسوله ﷺ في أمر أزواجه ونفي الخواطر الرديئة بأن يظن أن ذاك هو الذي تقتضيه الحكمة وأنه دليل على كمال المحبوبية، ولا يتوهم خلافه فإن بعض الملحدين طعنوا كالنصارى في كثرة تزوجه عليه الصلاة والسلام وكونه في أمر النساء على حال لم يبح لأمته من حل جمع ما فوق الأربع وعدم التقيد بالقسم لهن مثلاً وزعموا أن في ذلك دليلاً على غلبة القوة الشهوية فيه عليه الصلاة والسلام وذلك منافٍ لتقدس النفس الذي هو من شأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فجزموا والعياذ بالله تعالى بنفي نبوته وأن ما فعله ﷺ لم يكن منه تعالى بل ليس ذلك إلا منه عليه الصلاة والسلام ولا يخفى أن قائلي ذلك على كفرهم جهلة بمراتب الكمال صم عن سماع آثاره عليه الصلاة والسلام ومن سبر الأخبار علم أنه ﷺ أكمل الأنبياء على الإطلاق لغاية كمال بشريته وملكيته وآثار الكمال الأول تزوج ما فوق الأربع والطواف عليهن كلهن في الليلة الواحدة وآثار الكمال الثاني أنه عليه الصلاة والسلام كثيراً ما كان يبيت ويصبح لا يأكل ولا يشرب وهو على غاية من القوة وعدم الاكتراث بترك ذلك وليس لأحد من الأنبياء عليهم السّلام اجتماع هذين الكمالين حسب اجتماعهما فيه عليه الصلاة والسلام ولتكثره النساء حكمة دينية جليلة أيضاً وهي نشر أحكام شرعية لا تكاد تعلم إلا بواسطتهن مع تشييد أمر نبوته فإن النساء لا يكدن يحفظن سراً وهن أعلم الناس بخفايا أزواجهن فلو وقف نساؤه عليه الصلاة والسلام على أمر خفي منه يخل بمنصب النبوة لأظهرنه، وكيف يتصور إخفاؤه بينهن مع كثرتهن. وكل سر جاوز الاثنين شاع.

وفي عدم إيجاب القسم عليه عليه الصلاة والسلام تأكيد لذلك كما لا يخفى على المنصف ﴿وَكَانَ اللهُ عَلِيماً﴾ مبالغاً في العلم فيعلم كل ما يبدي ويخفي ﴿حَلِيماً﴾ مبالغاً في الحلم فلا يعجل سبحانه بمقابلة من يفعل خلاف ما يحب حسبما يقتضيه فعله من عتاب أو عقاب أو فيصفح عما يغلب على القلب من الميول ونحوها، هذا وفي البحر اتفقت الروايات على أنه عليه الصلاة والسلام كان يعدل بين أزواجه المطهرات في القسمة حتى مات ولم

يستعمل شيئاً مما أبيح له ضبطاً لنفسه وأخذاً بالأفضل غير ما جرى لسودة فإنها وهبت ليلتها لعائشة وقالت: لا تطلقني حتى أحشر في زمرة نسائك، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شهاب أنه قال لم يعلم أن رسول الله أرجأ منهن شيئاً ولا عزله بعدما خيرن فاخترنه.

وأخرج الشيخان وأبو داود والنسائي وغيرهم عن عائشة أن رسول الله عليه الصلاة والسلام كان يستأذن في يوم المرأة منا بعد أن أنزلت هذه الآية ﴿**ترجي من تشاء منهن**﴾ فقيل لها: ما كنت تقولين؟ قالت: كنت أقول له إن كان ذاك إلى فإني لا أريد أن أوثر عليك أحداً فتأمله مع حكاية الاتفاق السابق والله تعالى الموفق.

﴿**لا يَحلُّ لَكَ النِّسَاءُ**﴾ بالياء لأن تأنيث الجمع غير حقيقي وقد وقع بفصل أيضاً، والمراد بالنساء الجنس الشامل للواحدة ولم يؤت بمفرد لأنه لا مفرد له من لفظه والمرأة شاملة للجارية وليست بمرادة، واختصاص النساء بالحرائر بحكم العرف، وقرأ البصريان بالتاء الفوقية، وسهل وأبو حاتم يخير فيهما، وأياً كان ما كان فالمراد يحرم عليك نكاح النساء ﴿**مِنْ بَعْدُ**﴾ قيل أي من بعد التسع اللاتي في عصمتك اليوم، أخرج ابن سعد عن عكرمة قال: لما خير رسول الله ﷺ أزواجه اخترنه فأنزل الله تعالى لا يحل لك النساء من بعد هؤلاء التسع اللاتي اخترنك أي لقد حرم عليك تزويج غيرهن، وأخرج أبو داود في ناسخه وابن مردويه والبيهقي في سننه عن أنس قال لما خيرهن فاخترن الله تعالى ورسوله ﷺ قصره عليهن فقال سبحانه ﴿**لا يحل لك النساء من بعد**﴾ وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أنه قال في الآية حبسه الله تعالى عليهن كما حبسهن عليه عليه الصلاة والسلام، وقدر بعضهم المضاف إليه المحذوف اختياراً أي من بعد اختيارهن الله تعالى ورسوله.

وقال الإمام: هو أولى وكأن ذلك لكونه أدل على أن التحريم كان كرامة لهن وشكراً على حسن صنيعهن.

وجوز آخر أن يكون التقدير من بعد اليوم وماله تحريم من عدا اللاتي اخترنه عليه الصلاة والسلام.

وحكي في البحر عن ابن عباس وقتادة قال: لما خيرن فاخترن الله تعالى ورسوله ﷺ جازاهن أن حظر عليه النساء غيرهن وتبديلهن ونسخ سبحانه بذلك ما أباحه له قبل من التوسعة في جميع النساء، وحكي أيضاً عن مجاهد وابن جبير أن المعنى من بعد إباحة النساء على العموم، وقيل التقدير من بعد التسع على معنى أن هذا العدد مع قطع النظر عن خصوصية المعدود نصابه ﷺ من الأزواج كما أن الأربع نصاب أمته منهن فالمعنى لا يحل لك الزيادة على التسع ﴿**وَلا أَنْ تَبَدَّلَ**﴾ أصله تتبدل فخفف بحذف إحدى التاءين أي ولا يحل لك أن تستبدل ﴿**بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ**﴾ بأن تطلق واحدة منهن وتنكح بدلها أخرى، ففي الآية حكمان حرمة الزيادة وحرمة الاستبدال، وظاهره أنه يحل له عليه الصلاة والسلام نكاح امرأة أخرى على تقدير أن تموت واحدة من التسع، وإذا كان المراد من الآية تحريم من عدا اللاتي اخترنه عليه الصلاة والسلام أفادت الآية أنه لو ماتت واحدة منهن لم يحل له نكاح أخرى، وكلام ابن عباس السابق ظاهر في ذلك جداً، وكأن قوله تعالى: ﴿**ولا أن تبدل**﴾ الخ عليه لدفع توهم أن المحرم ليس إلا أن يرعهن ﷺ بواحدة من الضرائر.

وفي رواية أخرى عن عكرمة أن المعنى لا يحل لك النساء من بعد هؤلاء اللاتي سمي الله تعالى لك في قوله سبحانه: ﴿**يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك**﴾ الآية فلا يحل له ﷺ ما وراء الأجناس الأربعة كالأعرابيات والغرائب ويحل له منها ما شاء، وأخرج عبد بن حميد والترمذي وحسنه وغيرهما عن ابن عباس ما هو ظاهر في ذلك حيث قال في الخبر وقال تعالى: ﴿**يا أيها النبي إنا أحللنا لك**﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿**خالصة لك**﴾ وحرم ما سوى ذلك من أصناف النساء، وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد المسند وابن جرير وابن المنذر والضياء في المختارة

وغيرهم عن زياد قال: قلت لأبي بن كعب رضي الله تعالى عنه أرأيت لو أن أزواج النبي عليه الصلاة والسلام متن أما يحل له أن يتزوج قال: وما يمنعه من ذلك قلت: قوله تعالى: ﴿**لا يحل لك النساء من بعد**﴾ فقال: إنما أحل له ضرباً من النساء ووصف له صفة فقال سبحانه يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك إلى قوله تعالى: ﴿**وامرأة مؤمنة**﴾ الخ ثم قال تبارك وتعالى لا يحل لك النساء من بعد هذه الصفة، وعلى هذا القول قال الطيبي: يكون قوله سبحانه: ﴿**ولا أن تبدل**﴾ الخ تأكيداً لما قبله من تحريم غير ما نص عليه من الأجناس الأربعة وكأن ضمير بهن للأجناس المذكورة في قوله تعالى: ﴿**يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك**﴾ الآية والمعنى لا يحل لك أن تترك هذه الأجناس وتعدل عنها إلى أجناس غيرها، وقال شيخ الإسلام أبو السعود عليه الرحمة بعد ما حكي القول المذكور يأباه قوله تعالى: ﴿**ولا أن تبدل بهن**﴾ الخ فإن معنى إحلال الأجناس المذكورة إحلال نكاحهن فيكون التبدل بهن إحلال نكاح غيرهن بدل إحلال نكاحهن وذلك إنما يتصور بالنسخ الذي هو ليس من الوظائف البشرية انتهى فتأمل ولا تغفل، وقيل ﴿**ولا أن تبدل**﴾ من البدل الذي كان في الجاهلية كان يقول الرجل للرجل بادلني بامرأتك وأبادلك بامرأتي فينزل كل واحد منهما عن امرأته لآخر، وروي نحوه عن ابن زيد وأنكر هذا القول الطبري وغيره في معنى الآية وقالوا ما فعلت العرب ذاك قط، وما روي من حديث عيينة بن حصن أنه قال لرسول الله ﷺ حين دخل عليه بغير استئذان وعنده عائشة: من هذه الحميراء؟ فقال: عائشة فقال عيينة: يا رسول الله إن شئت نزلت لك عن سيدة نساء العرب جمالاً ونسباً فليس بتبديل ولا أراد ذلك وإنما احتقر عائشة رضي الله تعالى عنها لأنها كانت إذ ذاك صبية، ومن مزيد لتأكيد الاستغراق فيشمل النهي تبدل الكل والبعض: وقوله تعالى: ﴿**وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ**﴾ في موضع الحال فاعل تبدل والتقدير مفروضاً إعجابك بهن، وحاصله ولا تبدل بهن من أزواج على كل حال، وظاهر كلام بعضهم أنه لا يجوز أن يكون حالاً من مفعوله أعني أزواجاً وعلل ذلك بتوغله في التنكير وتعقب بأنه مخالف لكلام النحاة فإنهم جوزوا الحال من النكرة إذا وقعت منفية لأنها تستغرق حينئذٍ فيزول إبهامها كما صرح به الرضي.

وقيل إن التنكير مانع من الحالية ها هنا لأن الحال تقاس بالصفة والواو مانعة من الوصفية فتمنع من الحالية ومنع لزوم القياس مع أن الزمخشري وغيره جوزوا دخول الواو على الصفة لتأكيد لصوقها، وقيل في عدم جواز ذلك إن ذا الحال إذا كان نكرة يجب تقديمها ولم تقدم ها هنا. وتعقب بأن ذلك غير مسلم في الجملة المقرونة بالواو لكونه بصورة العاطف. واستظهر صاحب الكشف الجواز وذكر أن المعنى في الحالين لا يتفاوت كثير تفاوت لأنه إذا تقيد الفعل لزم تقيد متعلقاته وإنما الاختلاف في الأَصالة والتبعية، وضمير حسنهن للأزواج والمراد بهن من يفرضن بدلاً من أزواجه اللاتي في عصمته عليه الصلاة والسلام فتسميتهن أزواجاً باعتبار ما يعرض مالاً وهذا بناءً على أن باء البدل في بهن داخلة على المتروك دون المأخوذ فلو اعتبرت داخلة على المأخوذ كان الضمير للنساء لا للأزواج، وممن أعجبه ﷺ حسنهن على ما قيل أسماء بنت عميس الخثعمية امرأة جعفر بن أبي طالب بعد وفاته رضي الله تعالى عنه، وفي قوله سبحانه: ﴿**ولو أعجبك حسنهن**﴾ على ما نقل عن ابن عطية دليل على جواز أن ينظر الرجل إلى من يريد زواجها وفي الأخبار أدلة على ذلك وتفصيل الأقوال فيه في كتب الفروع. واختلف في أن الآية الدالة على عدم حل النساء له ﷺ هل هي محكمة أم لا. فعن أبي بن كعب وجماعة منهم الحسن وابن سيرين واختاره الطبري واستظهره أبو حيان أنها محكمة وعن علي كرّم الله تعالى وجهه وابن عباس وأم سلمة رضي الله تعالى عنهما والضحاك عليه الرحمة أنها منسوخ وروي ذلك عن عائشة رضي الله تعالى عنها.

أخرج أبو داود في ناسخه والترمذي وصححه والنسائي والحاكم وصححه أيضاً وابن المنذر وغيرهم عنها

قالت: لم يمت رسول الله ﷺ حتى أحل الله تعالى له أن يتزوج من النساء ما شاء إلا ذات محرم لقوله سبحانه: ﴿ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء﴾ وهذا ظاهر في أن الناسخ قوله تعالى: ﴿ترجي﴾ الخ وهو مبني على أن المعنى تطلق من تشاء وتمسك من تشاء، ووجه النسخ به على هذا التفسير أنه يدل بعمومه على أنه أبيح له ﷺ الطلاق والإمساك لكل من يريد فيدل على أن له تطليق منكوحاته ونكاح من يريد من غيرهن إذ ليس المراد بالإمساك إمساك من سبق نكاحه فقد لعموم من تشاء وقوله سبحانه: ﴿تؤوي﴾ ليس مقيداً بمنهن كذا قال الخفاجي: وفي القلب منه شيء ولا بدّ على القول بأن النسخ بذلك من القول بتأخر نزوله عن نزول الآية المنسوخة إذ لا يمكن النسخ مع التقدم وهو ظاهر ولا يعكر التقدم في المصحف لأن ترتيبه ليس على حسب النزول وقال بعضهم: إن الناسخ السنة ويغلب على الظن أنها كانت فعله عليه الصلاة والسلام.

أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عبد الله بن شداد أنه قال: في قوله تعالى: ﴿ولا أن تبدل﴾ الخ ذلك لو طلقهن لم يحل له أن يستبدل وقد كان ينكح بعد ما نزلت هذه الآية ما شاء ونزلت وتحته تسع نسوة ثم تزوج بعد أم حبيبة بنت أبي سفيان وجويرية بنت الحارث رضي الله تعالى عنهما، والظاهر على القول بأن الآية نزلت كرامة للمختارات وتطييباً لخواطرهن وشكراً لحسن صنيعهن عدم النسخ والله تعالى أعلم، وقوله: ﴿إِلاَّ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ استثناء من النساء متصل بناءً على أصل اللغة لتناوله عليه الحرائر والإماء ومنقطع بناءً على العرف لاختصاصه فيه بالحرائر ولا أن تبدل بهن من أزواج كالصريح فيه.

وقال ابن عطية: إن ما إن كانت موصولة واقعة على الجنس فهو استثناء من الجنس مختار فيه الرفع على البدل من النساء ويجوز النصب على الاستثناء وإن كانت مصدرية فهي في موضع نصب لأنه استثناء من غير الجنس الأول انتهى، وليس بجيد لأنه قال والتقدير إلا ملك اليمين وملك بمعنى مملوك فإذا كان بمعنى مملوك لم يصح الجزم بأنه ليس من الجنس وأيضاً لا يتحتم النصب وإن فرضنا أنه من غير الجنس حقيقة بل أهل الحجاز ينصبون وبنو تميم يبدلون وأياً ما كان فالظاهر حل المملوكة له ﷺ سواء كانت مما أفاء الله تعالى عليه أم لا ﴿وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً﴾ أي راقباً أو مراقباً والمراد كان حافظاً ومطلعاً على كل شيء فاحذروا تجاوز حدوده سبحانه وتخطي حلاله إلى حرامه عزّ وجلّ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ شروع في بيان بعض الحقوق على الناس المتعلقة به ﷺ وهو عند نسائه، والحقوق المتعلقة بهن رضي الله تعالى عنهن ومناسبة ذلك لما تقدم ظاهرة، والآية عند الأكثرين نزلت يوم تزوج عليه الصلاة والسلام زينب بنت جحش.

أخرج الإمام أحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في سننه من طرق عن أنس قال: لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون وإذا هو كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا فلما رأى ذلك قام فلما قام قام من قام وقعد ثلاثة نفر فجاء النبي ﷺ ليدخل فإذا القوم جلوس ثم إنهم قاموا فانطلقت فجئت أخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا فجاء حتى دخل فذهبت أدخل فألقى الحجاب بيني وبينه فأنزل الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي﴾ الآية والنهي للتحريم، وقوله سبحانه: ﴿إلا أن يؤذن﴾ بتقدير باء المصاحبة استثناء مفرغ من أعم الأحوال أي لا تدخلوها في حال من الأحوال إلا حال كونكم مصحوبين بالإذن.

وجوز أبو حيان كونه بتقدير باء السببية فيكون الاستثناء من أعم الأسباب أي لا تدخلوها بسبب من الأسباب إلا

بسبب الإذن، وذهب الزمخشري إلى أنه استثناء من أعم الأوقات أي لا تدخلوها في وقت من الأوقات إلا وقت أن يؤذن لكم. وأورد عليه أبو حيان أن الوقوع موقع الظرف مختص بالمصدر الصريح دون المؤول فلا يقال أتيتك أن يصيح الديك وإنما يقال أتيتك صياح الديك، ولا يخفى أن القول بالاختصاص أحد قولين للنحاة في المسألة نعم إنه الأشهر والزمخشري إمام في العربية لا يعترض عليه بمثل هذه المخالفة.

وزعم بعضهم أن الوقت مقدر في نظم الكلام فيكون محذوفاً حذف حرف الجر وأن هذا ليس من باب وقوع المصدر موقع الظرف.

وأجاز بعض الأجلة كون ذلك استثناء من أعم الأحوال بلا تقدير الباء بل باعتبار أن المصدر مؤول باسم المفعول أي لا تدخلوها إلا مأذوناً لكم والمصدر المسبوك قد يؤول بمعنى المفعول كما قيل في قوله تعالى: ﴿ما كان هذا القرآن أن يفترى﴾ [يونس: ٣٧] إن المعنى ما كان هذا القرآن مفتري فمن قال كون المصدر بمعنى المفعول غير معروف في المؤول لم يصب، وقيل فيما ذكر مخالفة لقول النحاة المصدر المسبوك معرفة دائماً كما صرح به في المغني.

وتعقبه الخفاجي بأن الحق أنه سطحي وأنه قد يكون نكرة وذكر قوله تعالى: ﴿ما كان﴾ الخ، وقوله سبحانه: ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ متعلق بيؤذن وعدي بإلى مع أنه يتعدى بفي فيقال أذن له في كذا لتضمينه معنى الدعاء للإشعار بأنه لا ينبغي أن يدخلوا على طعام بغير دعوة وإن تحقق الإذن الصريح في دخول البيت فإن كل إذن ليس بدعوة، وقيل يجوز أن يكون قد تنازع فيه الفعلان ﴿تدخلوا﴾ و ﴿يؤذن﴾ وهو مما لا بأس به، وقوله تعالى:

﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾ أي غير منتظرين نضجه وبلوغه تقول أنى الطعام يأني أنى كقلى يقلي قلى إذا نضج وبلغ قاله الزجاج، وقال مكي: إناه ظرف زمان مقلوب آن التي بمعنى الحين فقلبت النون قبل الألف وغيرت الهمزة إلى الكسرة أي غير ناظرين آنه أي حينه والمراد حين إدراكه ونضجه أو حين أكله حال من فاعل تدخلوا وهو حال مفرغ من أعم الأحوال كما سمعت في ﴿أن يؤذن لكم﴾ وإذا جعل ذلك حالاً فهي حال مترادفة فكأنه قيل: لا تدخلوا في حال من الأحوال إلا مصحوبين بالإذن غير ناظرين، والظاهر أنها حال مقدرة ويحتمل أن تكون مقارنة، والزمخشري بعد أن جعل ما تقدم نصباً على الظرفية جعل هذا حالاً أيضاً لكنه قال بعد وقع الاستثناء على الوقت والحال معاً كأنه قيل لا تدخلوا بيوت النبي إلا وقت الإذن ولا تدخلوها إلا غير ناظرين.

وتعقبه أبو حيان بأنه لا يجوز على مذهب الجمهور من أنه لا يقع بعد إلا في الاستثناء إلا المستثنى أو المستثنى منه أو صفة المستثنى منه ثم قال وأجاز الأخفش والكسائي ذلك في الحال أجاز ما ذهب القوم إلا يوم الجمعة راحلين عنا فيجوز ما قاله الزمخشري عليه ولا يخفى على المتأمل في كلام الزمخشري أنه بعيد بمراحل عن جعل الآية الكريمة كالمثال المذكور لأنه على التأخير والتقديم وكلامه آب عن اعتبار ذلك في الآية نعم لو اقتصر على جعل ﴿غير ناظرين﴾ حالاً من ضمير ﴿تدخلوا﴾ لأمكن أن يقال: إن مراده لا تدخلوا غير ناظرين إلا أن يؤذن لكم ويكون المعنى أن دخولهم غير ناظرين إناه مشروط بالإذن وأما دخولهم ناظرين فممنوع مطلقاً بطريق الأولى ثم قدم المستثنى وأخر الحال. وتعقبه بعضهم بأن فيه استثناء شيئين وهما الظرف والحال بأداة واحدة وقد قال ابن مالك في التسهيل: لا يستثنى بأداة واحدة دون عطف شيئان وظاهره عدم جواز ذلك سواء كان الاستثناء مفرغاً أم لا وسواء كان الشيئان مما يعمل فيهما العامل المتقدم أم لا فلا يجوز قام القوم إلا زيداً عمراً ولا ما قام القوم إلا زيداً عمراً أو إلا زيد عمرو ولا ما قام إلا خالد بكر ولا ما أعطيت أحداً شيئاً إلا عمراً دانقاً ولا ما أعطيت إلا عمراً دانقاً ولا ما أخذ أحد شيئاً إلا زيد

درهماً ولا ما أخذ أحد إلا زيد درهماً، والكلام في هذه المسألة وما يصح من هذه التراكيب وما لا يصح وإذا صح فعلى أي وجه يصح طويل عريض والذي أميل إليه تقييد إطلاقهم لا يستثنى بأداة واحدة دون عطف شيئان بما إذا كان الشيئان لا يعمل فيهما العامل السابق قبل الاستثناء فلا يجوز ما قام إلا زيد إلا بكر مثلاً إذ لا يكون للفعل فاعلان دون عطف ولا ما ضربت إلا زيداً عمراً مثلاً إذ لا يكون لضرب مفعولان دون عطف أيضاً، وأرى جواز نحو ما أعطيت أحداً شيئاً إلا عمراً دانقاً ونحو ما ضرب إلا زيد عمراً من غير حاجة إلى التزام إبدال اسمين من اسمين نظير قوله:

ولما قرعنا النبع بالنبع بعضه ... ببعض أبت عيدانه أن تكسرا

في الأول وإضمار فعل ناصب لعمرو دل عليه المذكور في الثاني، وما ذكره ابن مالك في الاحتجاج على الشبه بالعطف حيث قال: كما لا يقدر بعد حرف العطف معطوفان كذلك لا يقدر بعد حرف الاستثناء مستثنيان لا يتم علينا فإنا نقول في العطف بالجواز في مثل ما ضرب زيد عمراً وبكر خالداً قطعاً فنحو ما أعطيت أحداً شيئاً إلا زيداً دانقاً كذلك، وقوله: إن الاستثناء في حكم جملة مستأنفة لأن معنى جاء القوم إلا زيداً جاء القوم ما منهم زيد وهو على ما قيل يقتضي أن لا يعمل ما قبل إلا فيما بعدها في مثل ما ذكر لأنها بمثابة ما وليس ذلك من الصور المستثناة ليس بشيء كما لا يخفى، وما في أمالي الكافية من أنه لا بدّ في المستثنى المفرغ من تقدير عام فلو استعمل بعد إلا شيئان فأما أن لا يقدر عام أصلاً وهو يخالف حكم الباب أو يقدر عامان وهو يؤدي إلى أمر خارج عن القياس من غير ثبت ولو جاز في الاثنين جاز فيما فوقهما وهو ظاهر البطلان أو يقدر لأحدهما دون الآخر وهو يؤدي إلى اللبس فيما قصد. تعقبه الحديثي بأن لقائل أن يختار الثالث ويقول: العام لا يقدر إلا للذي يلي إلا منهما لأنه المستثنى المفرغ ظاهراً فلا يحصل اللبس أصلاً، وأبو حيان قدر في الآية محذوفاً وجعل ﴿غير ناظرين﴾ حالاً من الضمير فيه والتقدير ادخلوا غير ناظرين وهو الذي يقتضيه كلام ابن مالك حيث أوجب في نحو ما ضرب إلا زيد عمراً جعل عمراً مفعولاً لمحذوف دل عليه المذكور، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً وقعت جواباً لسؤال نشأ من الجملة الأولى كأنه لما قيل ما ضرب إلا زيد سأل سائل من ضرب؟ فقيل: ضرب عمراً، وذكر العلامة تقي الدين السبكي عليه الرحمة في رسالته المسماة بالحلم والأناة في إعراب ﴿غير ناظرين إناه﴾ وفيها يقول الصلاح الصفدي:

يا طالب النحو في زمان ... أطول ظلاً من القناةِ

وما تحلى منه بعقد ... عليك بالحلم والأناةِ

إن الظاهر أن الزمخشري ما قال ذلك إلا تفسير معنى والمستثنى في الحقيقة هو المصدر المتعلق به الظرف والحال فكأنه قيل: لا تدخلوا إلا دخولاً مصحوباً بكذا ثم قال: ولست أقول بتقدير مصدر هو عامل فيهما فإن العمل للفعل المفرغ وإنما أردت شرح المعنى، ومثل هذا الإعراب هو الذي نختاره في قوله تعالى: ﴿وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم﴾ [آل عمران: ١٩] أي إلا اختلافاً من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم فمن بعد ما جاءهم وبغياً ليسا مستثنيين بل وقع عليهما المستثنى وهو الاختلاف كما تقول ما قمت إلا يوم الجمعة ضاحكاً أمام الأمير في دارة فكلها يعلم فيها الفعل المفرغ من جهة الصناعة وهي من جهة المعنى كالشيء الواحد لأنها بمجموعها بعض من المصدر الذي تضمنه الفعل المنفي وهذا أحسن من أن يقدر اختلفوا بغياً بينهم لأنه حينئذٍ لا يفيد الحصر وعلى ما قلناه يفيد الحصر فيه كما أفاده في قوله تعالى: ﴿من بعد ما جاءهم العلم﴾ فهو حصر في شيئين لكن بالطريق الذي قلناه لا أنه استثناء شيئين بل استثناء شيء صادق على شيئين، ويمكن حمل كلام الزمخشري على ذلك فقوله: وقع الاستثناء على الوقت والحال معاً صحيح، إن المستثنى أعم لأن الأعم يقع على الأخص والواقع على

الواقع واقع فتخلص عما ورد عليه من قول النحاة لا يستثنى بأداة واحدة دون عطف شيئان انتهى فتدبره، وجوز أن يكون ﴿غير ناظرين﴾ حالاً من المجرور في ﴿لكم﴾ ولم يذكره الزمخشري، وفي الكشف لو جعل حالاً من ذلك لأفاد ما ذكره من حيث إنه نهى عن الدخول في جميع الأوقات إلا وقت وجود الإذن المقيد، وقال العلامة تقي الدين لم يجعل حالاً من ذلك وإن كان جائزاً من جهة الصناعة لأنه يصير حالاً مقدرة ولأنهم لا يصيرون منهيين عن الانتظار بل يكون ذلك قيداً في الإذن وليس المعنى على ذلك بل على أنهم نهوا أن يدخلوا إلا بإذن ونهوا إذا دخلوا أن يكونوا غير ناظرين إناه فلذلك امتنع من جهة المعنى أن يكون العامل ﴿فيه يؤذن﴾ وأن يكون حالاً من مفعوله ا هـ.

ولعله أبعد نظراً مما في الكشف، وقرأ ابن أبي عبلة «غير» بالكسر على أنه صفة لطعام فيكون جارياً على غير من هو له، ومذهب البصريين في ذلك وجوب إبراز الضمير بأن يقال هنا غير ناظر أنتم أو غير ناظرين أنتم ولا بأس بحذفه عند الكوفيين إذا لم يقع لبس كما هنا والتخريج المذكور عليه، وقد أمال حمزة والكسائي «إناه» بناءً على أنه مصدر أني الطعام إذا أدرك، وقرأ الأعمش «إناءة» بمدة بعد النون ﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا﴾ استدراك من النهي عن الدخول بغير إذن فيه دلالة على أن المراد بالإذن إلى الطعام الدعوة إليه ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنْتَشِرُوا﴾ أي فإذا أكلتم الطعام فتفرقوا ولا تلبثوا، والفاء للتعقيب بلا مهلة للدلالة على أنه ينبغي أن يكون دخولهم بعد الإذن والدعوة على وجه يعقبه الشروع في الأكل بلا فصل، والآية على ما ذهب إليه الجل من المفسرين خطاب لقوم كانوا يتحينون طعام النبي ﷺ فيدخلون ويقعدون منتظرين لإدراكه مخصوصة بهم وبأمثالهم ممن يفعل مثل فعلهم في المستقبل فالنهي مخصوص بمن دخل بغير دعوة وجلس منتظراً للطعام من غير حاجة فلا تفيد النهي عن الدخول بأذن لغير طعام ولا عن الجلوس واللبث بعد الطعام لمهم آخر، ولو اعتبر الخطاب عاماً لكان الدخول واللبث المذكوران منهياً عنهما ولا قائل به، ويؤيد ما ذكر ما أخرجه عبد بن حميد عن الربيع عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كانوا يتحينون فيدخلون بيت النبي ﷺ فيجلسون فيتحدثون ليدرك الطعام فأنزل الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ الآية وكذا ما أخرجه ابن أبي حاتم عن سليمان بن أرقم قال نزلت في الثقلاء ومن هنا قيل إنها آية الثقلاء، وتقدم لك القول بجواز كون ﴿إلى طعام﴾ قد تنازع فيه الفعلان ﴿تدخلوا﴾ و ﴿يؤذن﴾ والأمر عليه ظاهر.

وقال العلامة ابن كمال: الظاهر أن الخطاب عام لغير المحارم وخصوص السبب لا يصلح مخصصاً على ما تقرر في الأصول، نعم يكون وجهاً لتقييد الإذن بقوله تعالى ﴿إلى طعام﴾ فيندفع وهم اعتبار مفهومه انتهى وفيه بحث فتأمل والمشهور في سبب النزول ما ذكرناه أول الكلام في الآية عن الإمام أحمد والشيخين وغيرهم فلا تغفل.

﴿وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ أي لحديث بعضكم بعضاً أو لحديث أهل البيت بالتسمع له فاللام تعليلية أو اللام المقوية و ﴿مستأنسين﴾ مجرور معطوف على ﴿ناظرين﴾ و ﴿لا﴾ زائدة، يجوز أن يكون منصوباً معطوفاً على ﴿غير﴾ كقوله تعالى: ﴿ولا الضالين﴾ [الفاتحة: ٧] وجوز أن يكون حالاً مقدرة أو مقارنة من فاعل فعل حذف مع فاعله وذلك معطوف على المذكور والتقدير ولا تدخلوها أو لا تمكثوا مستأنسين لحديث ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ أي اللبث الدال عليه الكلام أو الاستئناس أو المذكور من الاستئناس والنظر أو الدخول على غير الوجه المذكور، والأول أقوى ملاءمة للسياق والسباق ﴿كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ﴾ لأنه يكون مانعاً له عليه الصلاة والسلام عن قضاء بعض أوطاره مع ما فيه من تضييق المنزل عليه ﷺ وعلى أهله ﴿فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ﴾ أي من إخراجكم بأن يقول لكم اخرجوا أو من منعكم عما يؤذيه على ما قيل فالكلام على تقدير المضاف لقوله تعالى:

﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ فإنه يدل على أن المستحيا منه معنى من المعاني لاذواتهم ليتوارد النفي

والإثبات على شيء واحد كما يقتضيه نظام الكلام فلو كان المراد الاستحياء من ذواتهم لقال سبحانه والله لا يستحيي منكم فالمراد بالحق إخراجهم أو المنع عن ذلك، ووضع الحق موضعه لتعظيم جانبه وحاصل الكلام أنه تعالى لم يترك الحق وأمركم بالخروج، والتعبير بعدم الاستحياء للمشاكلة، وجوز أن يكون الكلام على الاستعارة أو المجاز المرسل، واعتبار تقدير المضاف مما ذهب إليه الزمخشري وكثير وهو الذي ينبغي أن يعول عليه، وفي الكشف فإن قلت: الاستحياء من زيد للإخراج مثلاً هو الحقيقة والاستحياء من استخراجه توسع بجعل ما نشأ منه الفعل كالصلة وكلتا العبارتين صحيحة يصح إيقاع إحداهما موقع الأخرى، قلت: أريد أنه لا بدّ من ملاحظة معنى الإخراج فإما أن يقدر الإخراج ويوقع عليه فيكثر الإضمار ولا يطابق اللفظ نفياً وإثباتاً، وإما أن يقدر المضاف فيقل ويطابق، ومع وجود المرجح وفقد المانع لا وجه للعدول فلا بدّ مما ذكر.

وقال العلامة ابن كمال: إن قوله تعالى: ﴿**فيستحيي منكم**﴾ تعليل المحذوف دل عليه السياق أي ولا يخرجكم فيستحيي منكم ولذلك صدر بأداة التعليل ولو كان المعنى يستحيي من إخراجكم لكان حقه أن يصدر بالواو، وفيه أن الكلام بعد تسليم ما ذكر على تقدير المضاف. وزعم بعضهم أن الأصل فيستحيي منكم من الحق والله لا يستحيي منكم من الحق والمراد بالحق إخراجهم على أن ذلك من الاحتباك وكلاً حرفي الجر ليس بمعنى واحد بل الأول للابتداء والثاني للتعليل، وقال: إن الحمل على ذلك هو الأنسب للإعجاز التنزيلي والاختصار القرآني ولا يخفى ما فيه.

وقرأت فرقة كما في البحر «فيستحي» بكسر الحاء مضارع استحى وهي لغة بني تميم والمحذوف إما عين الكلمة فوزنه يستفل أولامها فوزنه يستفع، وفي الكشاف قرىء «لا يستحي» بياء واحدة وأظن أن القراءة بياء واحدة في الفعل في الموضعين، هذا والظاهر حرمة اللبث على المدعو إلى طعام بعد أن يطعم إذا كان في ذلك أذى لرب البيت وليس ما ذكر مختصاً بما إذا كان اللبث في بيت النبي عليه الصلاة والسلام، ومن هنا كان الثقيل مذموماً عند الناس قبيح الفعل عند الأكياس.

وعن ابن عباس وعائشة رضي الله تعالى عنهما حسبك في الثقلاء أن الله عزّ وجلّ لم يحتملهم وعندي كالثقيل المذكور من يدعى في وقت معين مع جماعة فيتأخر عن ذلك الوقت من غير عذر كثير شرعي بل لمحض أن ينتظر ويظهر بين الحاضرين مزيد جلالته وأن صاحب البيت لا يسعه تقديم الطعام للحاضرين قبل حضوره مخافة منه أو احتراماً له أو لنحو ذلك فيتأذى لذلك الحاضرون أو صاحب البيت، وقد رأينا من هذا الصنف كثيراً نسأل الله تعالى العافية إن فضله سبحانه كان كبيراً ﴿**وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ**﴾ الضمير لنساء النبي ﷺ المدلول عليهن بذكر بيوته عليه الصلاة والسلام أي وإذا طلبتم منهن ﴿**مَتَاعاً**﴾ أي شيئاً يتمتع به من الماعون وغيره ﴿**فَاسْأَلُوهُنَّ**﴾ فاطلبوا منهن ذلك ﴿**مِن وَرَاء حِجَابٍ**﴾ أي ستر.

أخرج البخاري وابن جرير وابن مردويه عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فأنزل الله تعالى آية الحجاب وكان رضي الله تعالى عنه حريصاً على حجابهن وما ذاك إلا حباً لرسول الله ﷺ.

أخرج ابن جرير عن عائشة أن أزواج النبي عليه الصلاة والسلام كن يخرجن بالليل إذ برزن إلى المناصع وهو صعيد أفيح وكان عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يقول للنبي ﷺ: احجب نساءك فلم يكن رسول الله ﷺ يفعل فخرجت سودة بنت زمعة رضي الله تعالى عنها ليلة من الليالي عشاء وكانت امرأة طويلة فناداها عمر رضي الله

تعالى عنه بصوته الأعلى قد عرفناك يا سودة حرصاً على أن ينزل الحجاب فأنزل الله تعالى الحجاب وذلك أحد موافقات عمر رضي الله تعالى عنه وهي مشهورة، وعد الشيعة ما وقع منه رضي الله تعالى عنه في خبر ابن جرير من المثالب قالوا: لما فيه من سوء الأدب وتخجيل سودة حرم رسول الله ﷺ وإيذائها بذلك.

وأجاب أهل السنّة بعد تسليم صحة الخبر أنه رضي الله تعالى عنه رأى أن لا بأس بذلك لما غلب على ظنه من ترتب الخير العظيم عليه، ورسوله الله ﷺ وإن كان أعلم منه وأغير لم يفعل ذلك انتظاراً للوحي وهو اللائق بكمال شأنه مع ربه عزّ وجلّ.

وأخرج البخاري في الأدب والنسائي من حديث عائشة أنها كانت تأكل معه عليه الصلاة والسلام(١) وكان يأكل معهما بعض أصحابه فأصابت يد رجل يدها فكره النبي ﷺ ذلك فنزلت، ولا يبعد أن يكون مجموع ما ذكر سبباً للنزول، ونزل الحجاب على ما أخرج ابن سعد عن أنس سنة خمس من الهجرة.

وأخرج عن صالح بن كيسان أن ذلك في ذي القعدة منها ﴿ذَلِكُمْ﴾ الظاهر أنه إشارة إلى السؤال من وراء حجاب، وقيل: هو إشارة إلى ما ذكر من عدم الدخول بغير إذن وعدم الاستئناس للحديث عند الدخول وسؤال المتاع من وراء حجاب ﴿أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ أي أكثر تطهراً من الخواطر الشيطانية التي تخطر للرجال في أمر النساء وللنساء في أمر الرجال فإن الرؤية سبب التعلق والفتنة، وفي بعض الآثار النظر سهم مسموم من سهام إبليس، وقال الشاعر:

والمرء ما دام ذا عين يقلبها ... في أعين العين موقوف على الخطر
يسر مقلته ما ساء مهجته ... لا مرحباً بانتفاع جاء بالضرر

﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ﴾ أي وما صح وما استقام لكم ﴿أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي تفعلوا في حياته فعلاً يكرهه ويتأذى به كاللبث والاستئناس بالحديث الذي كنتم تفعلونه وغير ذلك، والتعبير عنه عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة لتقبيح ذلك الفعل والإشارة إلى أنه بمراحل عما يقتضيه شأنه ﷺ إذ في الرسالة من نفعهم المقتضي للمقابلة بالمثل دون الإيذاء ما فيها ﴿وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً﴾ من بعد وفاته أو فراقه وهو كالتخصيص بعد التعميم فإن نكاح زوجة الرجل بعد فراقه إياها من أعظم الأذى. ومن الناس من تفرط غيرته على زوجته حتى يتمنى لها الموت لئلا تنكح من بعده وخصوصاً العرب فإنهم أشد الناس غيرة.

وحكى الزمخشري أن بعض الفتيان قتل جارية له يحبها مخافة أن تقع في يد غيره بعد موته. وظاهر النهي أن العقد غير صحيح، وعموم الأزواج ظاهر في أنه لا فرق في ذلك بين المدخول بها وغيرها كالمستعيذة والتي رأى بكشحها بياضاً فقال لها عليه الصلاة والسلام قبل الدخول «الحقي بأهلك» وهو الذي نص عليه الإمام الشافعي وصححه في الروضة. وصحح إمام الحرمين والرافعي في الصغير أن التحريم للمدخول بها فقط لما روي أن الأشعث بن قيس الكندي نكح المستعيذة في زمن عمر رضي الله تعالى عنه فهم عمر برجمه فأخبر أنها لم يكن مدخولاً بها فكف من غير نكير. وروي أيضاً أن قتيلة بنت قيس أخت الأشعث المذكور تزوجها عكرمة بن أبي جهل بحضرموت وكانت قد زوجها أخوها قبل من رسول الله ﷺ فقبل أن يدخل بها حملها معه إلى حضرموت وتوفي عنها عليه الصلاة

(١) وفي مجمع البيان للطبرسي أن مجاهداً روى عن عائشة أنها كانت تأكل مع رسول الله ﷺ حسياً في قعب فمر عمر فدعاه عليه الصلاة والسلام فأكل فأصابت أصبعه أصبع عائشة فقال: لو أطاع فيكن ما رأتكن عين فنزلت آية الحجاب ا هـ منه.

والسلام فبلغ ذلك أبا بكر رضي الله تعالى عنه فقال: هممت أن أحرق عليها بيتها فقال له عمر: ما هي من أمهات المؤمنين ما دخل بها ﷺ ولا ضرب عليها الحجاب.

وقيل: لم يحتج عليه بذلك بل احتج بأنها ارتدت حين ارتد أخوها فلم تكن من أمهات المؤمنين بارتدادها وكذا هو ظاهر في أنه لا فرق في ذلك بين المختارة منهن الدنيا كفاطمة بنت الضحاك بن سفيان الكلابي في رواية ابن إسحاق والمختارة الله تعالى ورسوله ﷺ كنسائه عليه الصلاة والسلام التسع اللاتي توفي عنهن.

وللعلماء في حل مختارة الدنيا للأزواج طريقان، أحدهما طرد الخلاف، والثاني القطع بالحل واختاره الإمام والغزالي عليهما الرحمة، وكأن من قال بحل غير المدخول بها وبحل المختارة المذكورة حمل الأزواج على من كن في عصمته يوم نزول الآية وعلى من يشبههن ولسن إلا المدخولات بهن اللاتي اخترنه عليه الصلاة والسلام، وإذا حمل ذلك وأريد بقوله تعالى: ﴿من بعده﴾ من بعد فراقه يلزم حرمة نكاح من طلقها ﷺ من تلك الأزواج على المؤمنين وهو كذلك، ومن هنا اختلف القائلون بانحصار طلاقه ﷺ بالثلاث فقال بعضهم: تحل له عليه الصلاة والسلام من طلقها ثلاثاً من غير محلل، وقال آخرون، لا تحل له أبداً، وظاهر التعبير بالأزواج عدم شمول الحكم لأمة فارقها ﷺ بعد وطئها.

وفي المسألة أوجه ثالثها أنها تحرم إن فارقها بالموت كمارية رضي الله تعالى عنها ولا تحرم إن باعها أو وهبها في الحياة.

وحرمة نكاح أزواجه عليه الصلاة والسلام من بعده من خصوصياته ﷺ، وسمعت عن بعض جهلة المتصوفة أنهم يحرمون نكاح زوجة الشيخ من بعده على المريد وهو جهل ما عليه مزيد ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما ذكر من إيذائه عليه الصلاة والسلام ونكاح أزواجه من بعده، وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلته في الشر والفساد ﴿كَانَ عِندَ اللهِ﴾ في حكمه عزّ وجلّ ﴿عَظِيماً﴾ أي أمراً عظيماً وخطباً هائلاً لا يقادر قدره، وفيه من تعظيمه تعالى لشأن رسوله ﷺ وإيجاب حرمته حياً وميتاً ما لا يخفى.

ولذلك بالغ عزّ وجلّ في الوعيد حيث قال سبحانه: ﴿إِن تُبْدُوا شَيْئاً﴾ مما لا خير فيه على ألسنتكم كأن تتحدثوا بنكاحهن ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ في صدوركم ﴿فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ كامل العلم فيجازيكم بما صدر عنكم من المعاصي البادية والخافية لا محالة، وهذا دليل الجواب والأصل إن تبدوا شيئاً أو تخفوه يجازكم به فإن الله الخ.

وقيل هو الجواب على معنى فأخبركم أن الله الخ، وفي تعميم ﴿شيء﴾ في الموضعين مع البرهان على المقصود من ثبوت علمه تعالى بما يتعلق بزوجاته ﷺ مزيد تهويل وتشديد ومبالغة الوعيد، وسبب نزول الآية على ما قيل: إنه لما نزلت آية الحجاب قال رجل: أننهى أن نكلم بنات عمنا إلا من وراء حجاب لئن مات محمد ﷺ لنتزوجن نساءه، وفي بعض الروايات تزوجت عائشة أو أم سلمة.

وأخرج جويبر عن ابن عباس أن رجلاً أتى بعض أزواج النبي ﷺ فكلمها وهو ابن عمها فقال النبي عليه الصلاة والسلام: لا تقومن هذا المقام بعد يومك هذا فقال: يا رسول الله إنها ابنة عمي والله ما قلت لها منكراً ولا قالت لي قال النبي ﷺ: قد عرفت ذلك أنه ليس أحد أغير من الله تعالى وأنه ليس أحد أغير مني فمضى ثم قال عنفني من كلام ابنة

عمي لأتزوجنها من بعده فأنزل الله تعالى هذه الآية فأعتق ذلك الرجل رقبة وحمل على عشرة أبعرة في سبيل الله تعالى وحج ماشياً من كلمته.

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة أن طلحة بن عبيد الله قال: لو قبض النبي ﷺ تزوجت عائشة فنزلت ﴿**وما كان لكم**﴾ الآية.

قال ابن عطية: كون القائل طلحة رضي الله تعالى عنه لا يصح وهو الذي يغلب على ظني ولا أكاد أسلم الصحة إلا إذا سلم ما تضمنه خبر ابن عباس مما يدل على الندم العظيم، وفي بعض الروايات أن بعض المنافقين قال حين تزوج رسول الله ﷺ أم سلمة بعد أبي سلمة وحفصة بعد خنيس بن حذافة ما بال محمد ﷺ يتزوج نساءنا والله لو قد مات لأجلنا السهام على نسائه فنزلت، ولعمري إن ذلك غير بعيد عن المنافقين وهو أبعد من العيوق عن المؤمنين المخلصين لا سيما من كان من المبشرين رضي الله تعالى عنهم أجمعين، ورأيت لبعض الأجلة أن طلحة الذي قال ما قال ليس هو طلحة أحد العشرة وإنما هو طلحة آخر لا يبعد منه القول المحكي وهذا من باب اشتباه الاسم فلا إشكال.

لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا
مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ
يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ
لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ
بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ
ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾
۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا
يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى
ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ
وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا
يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾
وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ
لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا
﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن
يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن

يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾

﴿لاَ جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ في آبَائهنَّ وَلا أَبْنَائهنَّ وَلا إِخْوَانهنَّ وَلا أَبْنَاء إِخْوَانهنَّ وَلا أَبْنَاء أَخَوَاتهنَّ﴾ استئناف لبيان من لا يجب عليهن الاحتجاب عنه، روي أنه لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب أو نحن يا رسول الله نكلمهن أيضاً من وراء حجاب فنزلت، والظاهر أن المعنى لا إثم عليهن في ترك الحجاب من آبائهن الخ، وروي ذلك عن قتادة، وعن مجاهد أن المراد لا جناح عليهن في وضع الجلباب وإبداء الزينة للمذكورين، وفي حكمهم كل ذي رحم محرم من نسب أو رضاع على ما روى ابن سعد عن الزهري، وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود في ناسخه عن عكرمة قال: بلغ ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن عائشة رضي الله تعالى عنها احتجبت من الحسن رضي الله تعالى عنه فقال: إن رؤيته لها لحل، ولم يذكر العم والخال لأنهما بمنزلة الوالدين أو لأنه اكتفى عن ذكرهما بذكر أبناء الأخوة وأبناء الأخوات فإن مناط عدم لزوم الحجاب بينهن وبين الفريقين عين ما بينهن وبين العم والخال من العمومة والخؤولة لما أنهن عمات لأبناء الاخوة وخالات لأبناء الاخوات، وقال الشعبي لم يذكرا وإن كانا من المحارم لئلا يصفاها لأبنائهما وليسوا من المحارم، وقد أخرج نحو ذلك ابن جرير وابن المنذر عن علي كرّم الله تعالى وجهه، وقد كره الشعبي وعكرمة أن تضع المرأة خمارها عند عمها أو خالها مخافة وصفه إياها لابنه، وهذا القول عندي ضعيف لجريان ذلك في النساء كلهن ممن لم يكن أمهات محارم، ولا أرى صحة الرواية عن علي كرّم الله تعالى وجهه ﴿وَلا نسَائهنَّ﴾ أي النساء المؤمنات على ما روي عن ابن عباس وابن زيد ومجاهد، والإضافة إليهن باعتبار أنهن على دينهن فيحتجبن على الكافرات ولو كتابيات، وفي البحر دخل في نسائهن الأمهات والأخوات وسائر القرابات ومن يتصل بهن من المتصرفات لهن والقائمات بخدمتهن.

﴿وَلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ ظاهره من العبيد والإماء، وأخرجه ابن مردويه عن ابن عباس وإليه ذهب الإمام الشافعي، وقال الخفاجي: مذهب أبي حنيفة أنه مخصوص بالإماء وعلى الظاهر استثنى المكاتب قال أبو حيان: إنه ﷺ أمر بضرب الحجاب دونه وفعلته أم سلمة مع مكاتبها نبهان ﴿وَاتَّقِينَ الله﴾ في كل ما تأتين وتذرن لا سيما فيما أمرتن به وما نهيتن عنه، وفي البحر في الكلام حذف والتقدير اقتصرن على هذا واتقين الله تعالى فيه أن تتعدينه إلى غيره، وفي نقل الكلام من الغيبة إلى الخطاب فضل تشديد في طلب التقوى منهن ﴿إِنَّ الله كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْء شَهيداً﴾ لا تخفى عليه خافية ولا تتفاوت في علمه الأحوال فيجازي سبحانه على الأعمال بحسبها، هذا واختلف في حرمة رؤية أشخاصهن مستترات فقال بعضهم بها ونسب ذلك إلى القاضي عياض، وعبارته فرض الحجاب مما اختصصن به فهو فرض عليهن بلا خلاف في الوجه والكفين فلا يجوز لهن كشف ذلك في شهادة ولا غيرها ولا إظهار شخوصهن وإن كن مستترات إلا ما دعت إليه ضرورة من براز.

ثم استدل بما في الموطأ أن حفصة لما توفي عمر رضي الله تعالى عنه سترتها النساء عن أن يرى شخصها وأن زينب بنت جحش جعلت لها القبة فوق نعشها لتستر شخصها انتهى، وتعقب ذلك الحافظ ابن حجر فقال: ليس فيما ذكره دليل على ما ادعاه من فرض ذلك عليهن فقد كن بعد النبي ﷺ يحججن ويطفن وكان الصحابة ومن بعدهم يسمعون منهن الحديث وهن مستترات الأبدان لا الأشخاص ا هـ، وأنا أرى أفضلية ستر الأشخاص فلا يبعد القول بندبه لهن وطلبه منهن أزيد من غيرهن، وفي البحر ذهب عمر رضي الله تعالى عنه إلى أنه لا يشهد جنازة زينب إلا ذو محرم منها مراعاة للحجاب فدلته أسماء بنت عميس على سترها في النعش بقبة تضرب عليه وأعلمته أنها رأت ذلك في بلاد

الحبشة فصنعه عمر رضي الله تعالى عنه، وروي أنه صنع ذلك في جنازة فاطمة بنت رسول الله ﷺ ﴿إنَّ اللهَ وَمَلائكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ كالتعليل لما أفاده الكلام السابق من التشريف العظيم الذي لم يعهد له نظير، والتعبير بالجملة الاسمية للدلالة على الدوام والاستمرار، وذكر أن الجملة تفيد الدوام نظراً إلى صدرها من حيث إنها جملة اسمية وتفيد التجدد نظراً إلى عجزها من حيث إنها جملة فعلية فيكون مفادها استمرار الصلاة وتجددها وقتاً فوقتاً، وتأكيدها بأن للاعتناء بشأن الخبر، وقيل لوقوعها في جواب سؤال مقدر هو ما سبب هذا التشريف العظيم؟ وعبر بالنبي دون اسمه ﷺ على خلاف الغالب في حكايته تعالى عن أنبيائه عليهم السّلام إشعاراً بما اختص به ﷺ من مزيد الفخامة والكرامة وعلو القدر، وأكد ذلك الإشعار بأل التي للغلبة إشارة إلى أنه ﷺ المعروف الحقيق بهذا الوصف، وقال بعض الأجلة: إن ذاك للإشعار بعلة الحكم، ولم يعبر بالرسول بدله ليوافق ما قبله من قوله تعالى: ﴿وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله﴾ لأن الرسالة أفضل من النبوة على الصحيح الذي عليه الجمهور خلافاً للعز بن عبد السلام فتعليق الحكم بها لا يفيد قوة استحقاقه عليه الصلاة والسلام للصلاة بخلاف تعليقه بما هو دونها مع وجودها فيه وهو معنى دقيق لا يتسارع إلى الاعتراض عليه، وإضافة الملائكة للاستغراق.

وقيل: ﴿ملائكته﴾ ولم يقل الملائكة إشارة إلى عظيم قدرهم ومزيد شرفهم بإضافتهم إلى الله تعالى وذلك مستلزم لتعظيمه ﷺ بما يصل إليه منهم من حيث إن العظيم لا يصدر منه إلا عظيم، ثم فيه التنبيه على كثرتهم وأن الصلاة من هذا الجمع الكثير الذي لا يحيط بمنتهاه غير خالقه واصلة إليه ﷺ على ممر الأيام والدهور مع تجددها كل وقت وحين، وهذا أبلغ تعظيم وأنهاه وأشمله وأكمله وأزكاه.

واختلفوا في معنى الصلاة من الله تعالى وملائكته عليهم السلام على نبيه ﷺ على أقوال فقيل: هي منه عزّ وجلّ ثناؤه عليه عند ملائكته وتعظيمه، ورواه البخاري عن أبي العالية وغيره عن الربيع بن أنس وجرى عليه الحليمي في شعب الإيمان، وتعظيمه تعالى إياه في الدنيا بإعلاء ذكره وإظهار دينه وإبقاء العمل بشريعته، وفي الآخرة بتشفيعه في أمته وإجزال أجره ومثوبته وإبداء فضله للأولين والآخرين بالمقام المحمود وتقديمه على كافة المقربين الشهود، وتفسيرها بذلك لا ينافي عطف غيره كالآل والأصحاب عليه لأن تعظيم كل أحد بحسب ما يليق به، وهي من الملائكة الدعاء له عليه الصلاة والسلام على ما رواه عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن أبي العالية، وقيل: هي منه تعالى رحمته عزّ وجلّ، ونقله الترمذي عن الثوري وغير واحد من أهل العلم ونقل عن أبي العالية أيضاً، وعن الضحّاك وجرى عليه المبرد وابن الأعرابي والإمام الماوردي وقال: إن ذلك أظهر الوجوه.

واعترض بما مر عند الكلام في قوله تعالى: ﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته﴾ [الأحزاب: ٤٣] والجواب هو الجواب، وبأن الصحابة رضي الله تعالى عنهم سألوا كما سيأتي قريباً إن شاء الله تعالى لما نزلت عن كيفية الصلاة فلو لم يكونوا فهموا المغايرة بينها وبين الرحمة ما سألوا عن كيفيتها مع كونهم علموا الدعاء بالرحمة في التشهد. وأجيب بأنها رحمة خاصة فسألوا عن الكيفية ليحيطوا علماً بذلك الخصوص، وهي من الملائكة كما سمعت أولاً، ويلزم على هذا وذلك استعمال اللفظ في معنيين ولا يجوزه كثير كالحنفية، والقائلون بأحد القولين الذين لا يجوزون الاستعمال المذكور اختلفوا في التقصي عن ذلك في الآية فقال بعضهم: في الآية حذف والأصل إن الله يصلي وملائكته يصلون فيكون قد أدى كل معنى بلفظ، وقال آخر: تعدد الفاعل صير الفعل كالمتعدد، وقال صدر الشريعة ويجوز أن يكون المعنى واحداً حقيقياً وهو الدعاء والمعنى والله تعالى أعلم أنه تعالى يدعو ذاته والملائكة بإيصال الخير وذلك في حقه تعالى بالرحمة وفي حق الملائكة بالإستغفار، وفيه دغدغة لا تخفى، وقال جمع من المحققين: يتقصى عن ذلك بعموم المجاز فيراد معنى مجازي عام يكون كل من المعاني فرداً حقيقياً له وهو الاعتناء بما فيه خيره

ﷺ وصلاح أمره وإظهار شرفه وتعظيم شأنه أو الترحم والانعطاف المعنوي.

وقال بعض الأجلة: إن معنى الصلاة يختلف باعتبار حال المصلي والمصلى له والمصلى عليه، والأولى أنها موضوعة هنا للقدر المشترك وهو الاعتناء بالمصلى عليه أو إرادة وصول الخير، وقال آخر: الصواب أن الصلاة لغة بمعنى واحد وهو العطف ثم هو بالنسبة إليه تعالى الرحمة وإلى الملائكة عليهم السّلام الاستغفار وإلى الآدميين الدعاء. وتعقب بأن العطف بمعناه الحقيقي مستحيل عليه تعالى فيلزم من اعتباره مسنداً إليه تعالى وإلى الملائكة عليهم السّلام ما يلزم. وأجيب بأنا لا نسلم الاستحالة إلا إذا كان العطف في الغائب كالعطف في الشاهد لا يتحقق إلا بقلب ونحوه من صفات الأجسام المستحيلة عليه سبحانه، ونحن من وراء المنع فكثير مما في الشاهد شيء وهو في الله تعالى وراء ذلك ويسند إليه سبحانه على الحقيقة كالسمع والبصر وكذا الإرادة.

وقد ذهب السلف إلى عدم تأويل الرحمة فيه تعالى بأحد التأويلين المشهورين مع أنها في الشاهد لا تتحقق إلا بما يستحيل عليه تعالى ولو أوجب ذلك التأويل لم يبق بأيدينا غير محتاج إليه إلا قليل، وقد تقدم ما يتعلق بهذا المطلب في غير موضع من هذا الكتاب، وقد يختار أن الصلاة هنا تعظيم لشأنه ﷺ يقارنه عطف لائق به تعالى وبملائكته، وإذا انسحبت عليه عليه الصلاة والسلام وعلى أحد من المؤمنين تعلقت بكل حسبما يليق به، وجمع الله سبحانه والملائكة في ضمير واحد لا ينافي قوله عليه الصلاة والسلام لمن قال: من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى «بئس خطيب القوم أنت قل ومن يعص الله ورسوله» لأن ذلك منه تعالى محض تشريف للملائكة عليهم السّلام لا يتوهم منه نقص ولذا قيل إذا صدر مثله عن معصوم قيل كما في قوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما» وقال بعضهم: لا بأس بذلك مطلقاً، وذم الخطيب لأنه وقف على يعصهما وسكت سكتة واستدل بخبر لأبي داود، وقيل يقبح إذا كان في جملتين كما في كلام الخطيب و لايقبح إذا كان في واحدة كما في الآية وكلام الحبيب عليه الصلاة والسلام وفيه بحث. وقرأ ابن عباس وعبد الوارث عن أبي عمرو «وملائِكَتُهُ» بالرفع فعند الكوفيين غير الفراء هو عطف على محل إن واسمها، والفراء يشترط في العطف على ذلك خفاء إعراب اسم إن كما في قوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون﴾ [المائدة: ٦٩] وكما في قول الشاعر:

ومن يك أمسى في المدينة رحله ... فإني وقيار بها لغريب

وهل خفاء الإعراب شامل للاسم المقصور والمضاف للياء أو خاص بالمبنى فيه خلاف، وعند البصريين والفراء هو مبتدأ وجملة ﴿يصلون﴾ خبره وخبر إن محذوف ثقة بدلالة ما بعد عليه أي إن الله يصلي وملائكته يصلون ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ﴾ أي عظموا شأنه عاطفين عليه فإنكم أولى بذلك. وظاهر سوق الآية أنه لإيجاب اقتدائنا به تعالى فيناسب اتحاد المعنى مع اتحاد اللفظ، وقراءة ابن مسعود صلوا عليه كما صلى عليه وكذا قراءة الحسن فصلوا عليه أظهر فيما ذكر فيبعد تفسير صلوا عليه بقولوا: اللهم صلِّ على النبي أو نحوه.

ومن فسره بذلك أراد أن المراد بالتعظيم المأمور به ما يكون بهذا اللفظ ونحوه مما يدل على طلب التعظيم لشأنه عليه الصلاة والسلام من الله عزّ وجلّ لقصور وسع المؤمنين عن أداء حقه عليه الصلاة والسلام.

وما جاء في الأخبار إرشاد إلى كيفية ذلك وصفته لا أنه تفسير للفظ صلوا، وجاء ذلك على عدة أوجه والجمع ظاهر.

أخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة والإمام أحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي

وابن ماجه وابن مردويه عن كعب بن عجرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رجل: يا رسول الله أما السلام عليك فقد علمناه فكيف الصلاة عليك قال: «قل اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

وأخرج الإمام مالك والإمام أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة وغيرهم عن أبي حميد الساعدي أنهم قالوا: يا رسول الله كيف نصلي عليك؟ فقال رسول الله ﷺ: «قولوا اللهم صلي على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على آل إبراهيم وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد» وأخرج الإمام أحمد والبخاري والنسائي وابن ماجة وغيرهم عن أبي سعيد الخدري قلنا: يا رسول الله هذا السلام عليك قد علمنا فكيف الصلاة عليك؟ قال: «قولوا اللهم صلِّ على محمد عبدك ورسولك كما صليت على إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم».

وأخرج النسائي وغيره عن أبي هريرة، أنهم سألوا رسول الله ﷺ كيف نصلي عليك. قال: «قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وبارك على محمد وعلى آل محمد كما صليت وباركت على إبراهيم وآل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد والسلام كما قد علمتم» وأخرج الإمام أحمد. وعبد بن حميد وابن مردويه عن ابن بريدة رضي الله تعالى عنه قال: قلنا يا رسول الله قد علمنا كيف نسلم عليك فكيف نصلي عليك؟ قال: «قولوا اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على محمد وعلى آل محمد كما جعلتها على إبراهيم إنك حميد مجيد» إلى غير ذلك مما ملئت منه كتب الحديث إلا أن في بعض الروايات المذكورة فيها مقالاً، والظاهر من السؤال أنه سؤال عن الصفة كما أشرنا إليه قبل وهو الذي رجحه الباجي وغيره وجزم به القرطبي وقيل: إنه سؤال عن معنى الصلاة وبأي لفظ تؤدى والحامل لهم على السؤال على هذا أن السلام لما ورد في التشهد بلفظ مخصوص فهموا أن الصلاة أيضاً تقع بلفظ مخصوص ولم يفروا إلى القياس لتيسر الوقوف على النص سيما والأذكار يراعى فيها اللفظ ما أمكن فوقع الأمر كما فهموه فإنه لم يقل عليه الصلاة والسلام كالسلام بل علمهم صفة أخرى كذا قيل ويقال على الأول: إنهم لما سمعوا الأمر بالصلاة بعد سماع أن الله عزّ وجلّ وملائكته عليهم السّلام يصلون عليه ﷺ وفهموا أن الصلاة منه عزّ وجلّ ومن ملائكته عليه عليه الصلاة والسلام نوع من تعظيم لائق بشأن ذلك النبي الكريم عليه من الله تعالى أفضل الصلاة وأكمل التسليم لم يدروا ما اللائق منهم من كيفيات تعظيم ذلك الجناب وسيد ذوي الألباب ﷺ صلاة وسلاماً يستغرقان الحساب فسألوا عن كيفية ذلك التعظيم فأرشدهم عليه الصلاة والسلام إلى ما علم أنه أولى أنواعه وهو بهم رؤوف رحيم فقال ﷺ: «قولوا اللهم صلِّ محمد» إلى آخر ما في بعض الروايات الصحيحة، وفيه إيماء إلى أنكم عاجزون عن التعظيم اللائق بي فاطلبوه من الله عزّ وجلّ لي.

ومن هنا يعلم أن الآتي بما أمر به من طلب الصلاة له ﷺ عزّ وجلّ آت بأعظم أنواع التعظيم لتضمنه الإقرار بالعجز عن التعظيم اللائق، وقد قيل ونسب إلى الصديق رضي الله تعالى عنه العجز عن درك الادراك إدراك. ويقرب في الجملة مما ذكرنا قول بعض الأجلة ونقله أبو اليمن بن عساكر وحسنه لما أمرنا الله تعالى بالصلاة على نبيه ﷺ لم نبلغ معرفة فضلها ولم ندرك حقيقة مراد الله تعالى فيه فأحلنا ذلك إلى الله عزّ وجلّ فقلنا اللهم صل أنت على رسولك لأنك أعلم بما يليق به وبما أردته له ﷺ انتهى، ولعل ما ذكرناه ألطف منه، ومقتضى ظاهر إرشاده ﷺ إياهم إلى طلب الصلاة عليه من الله تعالى شأنه أنه لا يحصل امتثال الأمر إلا بما فيه طلب ذلك منه عزّ وجلّ ويكفي اللهم صل على محمد لأنه الذي اتفقت عليه الروايات في بيان الكيفية، وكأن خصوصية الإنشاء لفظاً ومعنى غير لازمة، ولذا قال بعض من أوجبها في الصلاة وستعلمه إن شاء الله تعالى: إنه كما يكفي اللهم صلِّ على محمد، ولا يتعين اللفظ الوارد

خلافاً لبعضهم يكفي صلى الله على محمد على الأصح بخلاف الصلاة على رسول الله فإنه لا يجزي اتفاقاً لأنه ليس فيه إسناد الصلاة إلى الله تعالى فليس في معنى الوارد. وفي تحفة ابن حجر يكفي الصلاة على محمد إن نوى بها الدعاء فيما يظهر، وقال النيسابوري: لا يكفي صليت على محمد لأن مرتبة العبد تقصر عن ذلك بل يسأل ربه سبحانه أن يصلي عليه عليه الصلاة والسلام وحينئذٍ فالمصلي عليه حقيقة هو الله تعالى، وتسمية العبد مصلياً عليه مجاز عن سؤاله الصلاة من الله تعالى عليه ﷺ فتأمله.

وذكروا أن الإتيان بصيغة الطلب أفضل من الإتيان بصيغة الخبر. وأجيب عن إطباق المحدثين على الإتيان بها بأنه مما أمرنا به من تحديث الناس بما يعرفون إذ كتب الحديث يجتمع عند قراءتها أكثر العوام فخيف أن يفهموا من صيغة الطلب أن الصلاة عليه ﷺ لم توجد من الله عزّ وجلّ بعد وإلا لما طلبنا حصولها له عليه صلاة الله تعالى وسلامه فأتى بصيغة يتبادر إلى أفهامهم منها الحصول وهي مع إبعادها إياهم من هذه الورطة متضمنة للطلب الذي أمرنا به انتهى، ولا يخفى ضعفه فالأولى أن يقال: إن ذلك لأن تصليتهم في الأغلب في أثناء الكلام الخبري نحو قال النبي ﷺ كذا وفعل ﷺ كذا فأحبوا أن لا يكثر الفصل وأن لا يكون الكلام على أسلوبين لما في ذلك من الخروج عن الجادة المعروفة إذ قلما تجد في الفصيح توسط جملة دعائية إلا وهي خبرية لفظاً مع احتمال تشوش ذهن السامع وبطء فهمه وحسن الإفهام مما تحصل مراعاته فتدبر.

والظاهر أنه لا يحصل الامتثال باللهم عظم محمداً التعظيم اللائق ونحوه مما ليس فيه مشتق من الصلاة كصلّ وصلى فإنا لم نسمع أحداً عد قائل ذلك مصلياً عليه ﷺ وذلك في غاية الظهور إذا كان قولوا اللهم صل على محمد تفسيراً لقوله تعالى: ﴿صلوا عليه﴾ ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ أي وقولوا والسلام عليك أيها النبي ونحوه وهذا ما عليه أكثر العلماء الأجلة، وفي معنى السلام عليك ثلاثة أوجه، أحدها السلامة من النقائص والآفات لك ومعك أي مصاحبة وملازمة فيكون السلام مصدراً بمعنى السلامة كاللذاذ واللذاذة والملام والملامة ولما في السلام من الثناء عدي بعلى لا لاعتبار معنى القضاء أي قضى الله تعالى عليك السلام كما قيل لأن القضاء كالدعاء لا يتعدى بعلى للنفع ولا لتضمنه معنى الولاية والاستيلاء لبعده في هذا الوجه، ثانيها السلام مداوم على حفظك ورعايتك ومتولٍّ له وكفيل به ويكون السلام هنا اسم الله تعالى، ومعناه على ما اختاره ابن فورك وغيره من عدة أقوال ذو السلامة من كل آفة ونقيصة ذاتا وصفة وفعلاً، وقيل: إذا أريد بالسلام ما هو من أسمائه تعالى فالمراد لا خلوت من الخير والبركة وسلمت من كل مكروه لأن اسم الله تعالى إذا ذكر على شيء أفاده ذلك.

وقيل: الكلام على هذا التقدير على حذف المضاف أي حفظ الله تعالى عليك والمراد الدعاء بالحفظ، وثالثها الانقياد عليك على أن السلام من المسالمة وعدم المخالفة، والمراد الدعاء بأن يصير الله تعالى العباد منقادين مذعنين له عليه الصلاة والسلام ولشريعته وتعديته بعلى قيل: لما فيه من الإقبال فإن من انقاد لشخص وأذعن له فقد أقبل عليه، والأرجح عندي هو الوجه الأول، وقيل: معنى ﴿سلموا تسليماً﴾ انقادوا لأوامره ﷺ انقياداً وهو غير بعيد إلا أن ظواهر الأخبار والآثار تقتضي المعنى السابق وكأنه لذلك ذهب إليه الأكثرون، والجملة صيغة خبر معناها الدعاء بالسلامة وطلبها منه تعالى لنبيه ﷺ واستشكل ذلك فيما إذا قال الله تعالى السلام عليك أيها النبي أو نحوه بأن الدعاء لا يتصور منه عزّ وجلّ لأنه طلب وهو يتضمن طالباً ومطلوباً ومطلوباً منه وهي أمور متغايرة فإن كان طلبه سبحانه السلامة لنبيه عليه الصلاة والسلام من غيره تعالى فمحاليته من أجلى البديهيات، وإن كان من ذاته عزّ وجلّ لزم أن يغاير ذاته والشيء لا يغاير ذاته ضرورة، وهذا منشأ قول بعضهم: إن في السلام منه تعالى إشكالاً له شأن فينبغي الاعتناء به وعدم إهمال أمره فقل من يدرك سره.

وأجيب بأن الطلب من باب الإرادات والمريد كما يريد من غيره أن يفعل شيئاً فكذلك يريد من نفسه أن يفعله هو والطلب النفسي وإن لم يكن الإرادة فهو أخص منها وهي كالجنس له فكما يعقل أن المريد يريد من نفسه فكذلك يطلب منها إذ لا فرق بين الطلب والإرادة، والحاصل أن طلب الحق جل وعلا من ذاته أمر معقول يعلمه كل واحد من نفسه بدليل أنه يأمرها وينهاها قال سبحانه: ﴿إن النفس لأمارة بالسوء﴾ [يوسف: ٥٣] ﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى﴾ [النازعات: ٤٠] والأمر والنهي قسمان من الطلب وقد تصوروا من الإنسان لنفسه بالنص فكذا بقية أقسام الطلب وأنواعه، وأوضح من هذا أن الطلب منه تعالى بمعنى الإرادة وتعقل إرادة الشخص من ذاته شيئاً بناءً على التغاير الاعتباري ومثله يكفي في هذا المقام، ومعنى اللهم سلم على النبي اللهم قل السلام على النبي على ما قيل، وقيل: معناه اللهم أوجد أو حقق السلامة له، وقيل: اللهم سلمه من النقائص والآفات.

وقال بعض المعاصرين: إن السلام عليك ونحوه من الله عزّ وجلّ لإنشاء السلامة وإيجادها بهذا اللفظ نظير ما قالوه في صيغ العقود واختار أن معنى اللهم سلم على النبي اللهم أوجد السلامة أو حققها له دون قل السلام على النبي تقليلاً للمسافة فتدبر، وقد يكون السلام منه عزّ وجلّ على أنبيائه عليهم السّلام نحو قوله سبحانه: ﴿سلام على نوح في العالمين﴾ [الصافات: ٧٩]. ﴿سلام على إبراهيم﴾ [الصافات: ١٠٩] ﴿سلام على موسى وهارون﴾ [الصافات: ١٢٠] تنبيهاً على أنه جل شأنه جعلهم بحيث يدعى لهم ويثنى عليهم، ونصب ﴿**تسليماً**﴾ على أنه مصدر مؤكد، وأكد سبحانه التسليم ولم يؤكد الصلاة قيل لأنها مؤكدة بإعلامه تعالى أنه يصلي عليه وملائكته ولا كذلك التسليم فحسن تأكيده بالمصدر إذ ليس ثم ما يقوم مقامه.

وإلى هذا يؤول قول ابن القيم التأكيد فيهما[1] وإن اختلف جهته فإنه تعالى أخبر في الأول بصلاته وصلاة ملائكته عليه مؤكداً له بأن وبالجمع المفيد للعموم في الملائكة وفي هذا من تعظيمه ﷺ ما يوجب المبادرة إلى الصلاة عليه من غير توقف على الأمر موافقة لله تعالى وملائكته في ذلك، وبهذا استغنى عن تأكيد «يصلي» بمصدر ولما خلا السلام عن هذا المعنى وجاء في حيز الأمر المجرد حسن تأكيده بالمصدر تحقيقاً للمعنى وإقامة لتأكيد الفعل مقام تقريره وحينئذٍ حصل لك التكرير في الصلاة خبراً وطلباً كذلك حصل لك التكرير في السلام فعلاً ومصدراً، وأيضاً هي مقدمة عليه لفظاً والتقديم يفيد الاهتمام فحسن تأكيد السلام لئلا يتوهم قلة الاهتمام به لتأخره، وقيل: إن في الكلام الاحتباك والأصل صلوا عليه تصلية وسلموا عليه تسليماً فحذف عليه من إحدى الجملتين والمصدر من الأخرى وأضيفت الصلاة إلى الله تعالى وملائكته دون السلام وأمر المؤمنون بهما قيل لأن للسلام معنيين التحية والانقياد فأمرنا بهما لصحتهما هنا، ولم يضف لله سبحانه والملائكة لئلا يتوهم إنه في الله تعالى والملائكة بمعنى الانقياد المستحيل في حقه تعالى وكذا في حق الملائكة، وقيل: الصلاة من الله سبحانه والملائكة متضمنة للسلام بمعنى التحية الذي لا يتصور غيره فكان في إضافة الصلاة إليه تعالى وإلى الملائكة استلزام لوجود السلام بهذا المعنى، وأما الصلاة منا فهي وأن استلزمت التحية أيضاً إلا أنا مخاطبون بالانقياد وهي لا تستلزمه فاحتيج إلى التصريح به فينا لأن الصلاة لا تغني عن معنييه المتصورين في حقنا المطلوبين منا، ثم قيل: وهذا أولى مما قبله لأن ذلك يرد عليه قوله تعالى: ﴿سلام على إبراهيم﴾ ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤] ولا يرد هذان على هذا ا هـ، وفيه بحث.

---

(١) مبتدأ وخبر ا هـ منه.

وقال الشهاب الخفاجي عليه الرحمة: قد لاح لي في ترك تأكيد السلام وتخصيصه بالمؤمنين نكتة سرية وهي أن السلام عليه عليه الصلاة والسلام تسليمه عما يؤذيه فلما جاءت هذه الآية عقيب ذكر ما يؤذي النبي ﷺ والأذية إنما هي من البشر وقد صدرت منهم فناسب التخصيص بهم والتأكيد، وربما يقال على بعد في ذلك: إنه يمكن أن يكون سلام الله تعالى وملائكته عليه عليه الصلاة والسلام معلوماً للمؤمنين قبل نزول الآية فلم يذكر ويسلمون فيها لذلك وأن كونهم مأمورين بأن يسلموا عليه ﷺ كان أيضاً معلوماً لهم ككيفية السلام ويؤذن بهذه المعلومية ما ورد في عدة أخبار أنهم قالوا عند نزول الآية: يا رسول الله قد علمنا كيف نسلم عليك وعنوا بذلك على ما قيل ما في التشهد من السلام فلما أخبروا بصلاة الله تعالى وملائكته عليه ﷺ في الآية مجردة عن ذكر السلام وأردف ذلك بالأمر بالصلاة كان مظنة عدم الاعتناء بأمر السلام أو أنه نسخ طلبه منهم فأمروا به مؤكداً دفعاً لتوهم ذلك والله تعالى أعلم بحقيقة الحلا، والأمر في الآية عند الأكثرين للوجوب بل ذكر بعضهم إجماع الأئمة والعلماء عليه، ودعوى محمد بن جرير الطبري أنه للندب بالإجماع مردودة أو مؤولة بالحمل على ما زاد على مرة واحدة في العمر فقد قال القرطبي المفسر: لا خلاف في وجوب الصلاة في العمر مرة، وتفصيل الكلام في أمرها بعد إلغاء القول بندبها أن العلماء اختلفوا فيها فقيل: واجبة مرة في العمر ككلمة التوحيد لأن الأمر مطلق لا يقتضي تكراراً والماهية تحصل بمرة وعليه جمهور الأمة منهم أبو حنيفة ومالك وغيرهما، وقيل: واجبة في التشهد مطلقاً، وقيل: واجبة في مطلق الصلاة، وتفرد بعض الحنابلة بتعين دعاء الافتتاح بها.

وقيل: يجب الإكثار منها من غير تعيين بعدد وحكي ذلك عن القاضي أبي بكر بن بكير، وقيل: تجب في كل مجلس مرة وإن تكرر ذكره ﷺ مراراً، وقيل: تجب في كل دعاء، وقيل: تجب كلما ذكر عليه الصلاة والسلام وبه قال جمع من الحنفية منهم الطحاوي، وعبارته تجب كلما سمع ذكره من غيره أو ذكره بنفسه وجمع من الشافعية منهم الإمام الحليمي والأستاذ أبو إسحاق الاسفرايني والشيخ أبو حامد الإسفرايني. وجمع من المالكية منهم الطرطوشي وابن العربي والفاكهاني وبعض الحنابلة قيل وهو مبني على القول الضعيف في الأصول أن الأمر المطلق يفيد التكرار وليس كذلك بل له أدلة أخرى كالأحاديث التي فيها الدعاء بالرغم والأبعاد والشقاء والوصف بالبخل والجفاء وغير ذلك مما يقتضي الوعيد وهو عند الأكثر من علامات الوجوب. واعترض هذا القول كثيرون بأنه مخالف للإجماع المنعقد قبل قائله إذ لم يعرف عن صحابي ولا تابعي وبأنه يلزم على عمومه أن لا يتفرغ السامع لعبادة أخرى وأنها تجب على المؤذن وسامعه والقارىء المار بذكره والمتلفظ بكلمتي الشهادة وفيه من الحرج ما جاءت الشريعة السمحة بخلافه، وبأن الثناء على الله تعالى كلما ذكر أحق بالوجوب ولم يقولوا به، وبأنه لا يحفظ عن صحابي أنه قال: يا رسول الله صلى الله عليك، وبأن تلك الأحاديث المحتج بها للوجوب خرجت مخرج المبالغة في تأكد ذلك وطلبه وفي حق من اعتاد ترك الصلاة ديدناً.

ويمكن التقصي عن جميع ذلك، أما الأول فلأن القائلين بالوجوب من أئمة النقل فكيف يسعهم خرق الإجماع على أنه لا يكفي في الرد عليهم كونه لم يحفظ عن صحابي أو تابعي وإنما يتم الرد إن حفظ إجماع مصرح بعدم الوجوب كذلك وأنى به، وأما الثاني فممنوع بل يمكن التفرغ لعبادات أخر، وأما الثالث فللقائلين بالوجوب التزامه وليس فيه حرج، وأما الرابع فلأن جمعاً صرحوا بالوجوب في حقه تعالى أيضاً، وأما الخامس فلأنه ورد في عدة طرق عن عدة من الصحابة أنهم لما قالوا: يا رسول الله قالوا: صلى الله عليك، وأما السادس فلأن حمل الأحاديث على ما ذكر لا يكفي إلا مع بيان سنده ولم يبينوه، ثم القائلون بالوجوب كما ذكر أكثرهم على أن ذلك فرض عين على كل

فرد فرد وبعضهم على أنه فرض كفاية، واختلفوا أيضاً هل يتكرر الوجوب بتكرر ذكره ﷺ في المجلس الواحد، وفي بعض شروح الهداية يكفي مرة على الصحيح وقال صاحب المجتبى: يتكرر وفي تكرر ذكر الله تعالى لا يتكرر، وفرق هو وغيره بينهما بما فيه نظر ويمكن الفرق بأن حقوق الله تعالى مبنية على المسامحة والتوسعة وحقوق العباد مبنية على المشاحة والتضييق ما أمكن. والقول بأنها أيضاً حق الله تعالى لأمره بها سبحانه ناشىء من عدم فهم المراد بحقه تعالى، وقيل: إنها تجب في القعود آخر الصلاة بين التشهد وسلام التحلل وهذا هو مذهب الشافعي الذي صح عنه، ونقل الأسنوي أن له قولاً آخر إنها سنة في الصلاة لم يعتبره أجلة أصحابه ووافقه على ذلك جماعة من الصحابة والتابعين من بعدهم وفقهاء الأمصار، فمن الصحابة ابن مسعود فقد صح عنه أنه قال: يتشهد الرجل في الصلاة ثم يصلي على النبي ﷺ ثم يدعو لنفسه، وأبو مسعود البدري وابن عمر فقد صح عنهما أنه لا تكون صلاة إلا بقراءة وتشهد وصلاة على النبي ﷺ فإن نسيت من ذلك شيئاً فاسجد سجدتين بعد السلام، ومن التابعين الشعبي فقد صح عنه كنا نعلم التشهد فإذا قال: وأن محمداً عبده ورسوله يحمد ربه ويثني عليه ثم يصلي على النبي ﷺ ثم يسأل حاجته.

وأخرج البيهقي عنه من لم يصل على النبي ﷺ في التشهد فليعد صلاته أو قال: لا تجزىء صلاته، والإمام أبو جعفر محمد الباقر فقد روى البيهقي عنه نحو ما ذكر عن الشعبي، وصوبه الدارقطني ومحمد بن كعب القرظي ومقاتل بل قال الحافظ ابن حجر: لم أرَ عن أحد من الصحابة والتابعين التصريح بعدم الوجوب إلا ما نقل عن إبراهيم النخعي وهذا يشعر بأن غيره كان قائلاً بالوجوب، ومن فقهاء الأمصار أحمد فإنه جاء عنه روايتان والظاهر أن رواية الوجوب هي الأخيرة فإنه قال: كنت أتهيب ذلك ثم تبينت فإذا الصلاة على النبي ﷺ واجبة وإسحاق بن راهويه فقد قال في آخر الروايتين عنه: إذا تركها عمداً بطلت صلاته أو سهواً رجوت أن تجزئه وهو قول عند المالكية اختاره ابن العربي منهم ولعله لازم للقائلين بوجوبها كلما ذكر ﷺ لتقدم ذكره في التشهد إلا أن وجوبها بعد التشهد لذلك لا يستلزم كونها شرطاً لصحة الصلاة إلا أنه يرد على القائلين بأن الشافعي رضي الله تعالى عنه شذ في قوله بالوجوب، وأما دليله رضي الله تعالى عنه على ذلك فمذكور في الأم. وقد استدل له أصحابه بعدة أحاديث منها الصحيح ومنها الضعيف وألفوا الرسائل في الانتصار له والرد على من شنع عليه كابن جرير وابن المنذر والخطابي والطحاوي وغيرهم، وأنا أرى التشنيع على مثل هذا الإمام شنيعاً والتعصب مع قلة التتبع أمراً فظيعاً، والكلام في السلام كالكلام في الصلاة.

وقد صرح ابن فارس اللغوي بأنهما سيان في الفرضية لأن كلاً منهما مأمور به في الآية والأمر للوجوب حقيقة إلا إذا ورد ما يصرفه عنه. وأفضل الكيفيات في الصلاة عليه ﷺ ما علمه رسول الله عليه الصلاة والسلام لأصحابه بعد سؤالهم إياه لأنه لا يختار ﷺ لنفسه إلا الأشرف والأفضل، ومن هنا قال النووي في الروضة: لو حلف ليصلين على النبي ﷺ أفضل الصلاة لم يبر إلا بتلك الكيفية، ووجهه السبكي بأن من أتى بها فقد صلى الصلاة المطلوبة بيقين وكان له الخير الوارد في أحاديث الصلاة كذلك، ونقل الرافعي عن المروزي أنه يبر باللهم صل على محمد وآل محمد كلما ذكرك الذاكرون وكلما سها عنه الغافلون، وقال القاضي حسين: طريق البر اللهم صلِّ على محمد كما هو أهله ومستحقه، واختار البارزي أن الأفضل اللهم صل على محمد وعلى آل محمد أفضل صلواتك وعدد معلوماتك، وقال الكمال بن الهمام: كلما ذكر من الكيفيات موجود في اللهم صل أبداً أفضل صلواتك على سيدنا عبدك ونبيك ورسولك محمد وآله وسلم عليه تسليماً وزده شرفاً وتكريماً وأنزله المنزل المقرب عندك يوم القيامة، واختار ابن حجر الهيثمي غير ذلك، ونقل ابن عرفة عن ابن عبد السلام أنه لا بدّ في السلام عليه ﷺ أن يزيد تسليماً كأن يقول: اللهم

صل على محمد وسلم تسليماً أو صلى الله تعالى عليه وسلم تسليماً، وكأنه أخذ بظاهر ما في الآية وليس أخذاً صحيحاً كما يظهر بأدنى تأمل، ونقل عن جمع من الصحابة ومن بعدهم أن كيفية الصلاة عليه ﷺ لا يوقف فيها مع المنصوص وأن من رزقه الله تعالى بياناً فأبان عن المعاني بالألفاظ الفصيحة المباني الصريحة المعاني مما يعرب عن كمال شرفه ﷺ وعظيم حرمته فله ذلك، واحتج له بما أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن ماجة وابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: إذا صليتم على النبي ﷺ فأحسنوا الصلاة عليه فإنكم لا تدرون لعل ذلك يعرض عليه قالوا: فعلمنا؟ قال: قولوا اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين وإمام المتقين وخاتم النبيين محمد عبدك ورسولك إمام الخير وقائد الخير ورسول الرحمة اللهم ابعثه مقاماً محموداً يغبطه به الأولون والآخرون اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد، وفي قوله سبحانه: ﴿**صلوا عليه وسلموا تسليماً**﴾ رمز خفي فيما أرى إلى مطلوبية تحسين الصلاة عليه عليه الصلاة والسلام حيث أتى به كلاماً يصلح أن يكون شطراً من البحر الكامل فتدبره فإني أظن أنه نفيس، واستدل النووي رحمه الله تعالى بالآية على كراهة أفراد الصلاة عن السلام وعكسه لورود الأمر بهما معاً فيها ووافقه على ذلك بعضهم، واعترض بأن أحاديث التعليم تؤذن بتقدم تعليم التسليم على تعليم الصلاة فيكون قد أفراد التسليم مرة قبل الصلاة في التشهد. ورد بأن الإفراد في ذلك الزمن لا حجة فيه لأنه لم يقع منه عليه الصلاة والسلام قصداً كيف والآية ناصة عليهما وإنما يحتمل أنه علمهم السلام وظن أنهم يعلمون الصلاة فسكت عن تعليمهم إياها فلما سألوه أجابهم ﷺ لذلك وهو كما ترى، وذكر العلامة ابن حجر الهيتمي أن الحق أن المراد بالكراهة خلاف الأولى إذ لم يوجد مقتضيها من النهي المخصوص.

ونقل الحموي من أصحابنا عن منية المفتي أنه لا يكره عندنا أفراد أحدهما عن الآخر ثم قال نقلاً عن العلامة ميرك وهذا الخلاف في حق نبينا ﷺ وأما غيره من الأنبياء عليهم السّلام فلا خلاف في عدم كراهة الافراد لأحد من العلماء ومن ادعى ذلك فعليه أن يورد نقلاً صريحاً ولا يجد إليه سبيلاً انتهى.

وصرح بعضهم أن الكراهة عند من يقول بها إنما هي في الافراد لفظاً وأما الافراد خطاً كما وقع في الأم فلا كراهة فيه، وعندي أن الاستدلال بالآية على كراهة الأفراد حسبما سمعت في غاية الضعف إذ قصارى ما تدل عليه أن كلاً من الصلاة والتسليم مأمور به مطلقاً ولا تدل على الأمر بالإتيان بهما في زمان واحد كأن يؤتى بهما مجموعين معطوفاً أحدهما على الآخر فمن صلى بكرة وسلم عشياً مثلاً فقد امتثل الأمر فإنها نظير قوله تعالى: ﴿أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه﴾ [الأحزاب: ٤٢] إلى غير ذلك من الأوامر المتعاطفة، نعم درج أكثر السلف على الجمع بينهما فلا أستحسن العدول عنه ما ما في ذكر السلام بعد الصلاة من السلامة من توهم لا يكاد يعرض إلا للأذهان السقيمة كما لا يخفى، وفي دخوله ﷺ في الخطاب بيا أيها الذين آمنوا هنا خلاف فقال بعضهم بالدخول، وقد صرح بعض أجلة الشافعية بوجوب الصلاة عليه ﷺ في صلاته وذكر أنه ﷺ كان يصلي على نفسه خارجها كما هو ظاهر أحاديث كقوله ﷺ حين ضلت ناقته وتكلم منافق فيها «إن رجلاً من المنافقين شمت أن ضلت ناقة رسول الله ﷺ» وقوله حين عرض على المسلمين رد ما أخذه من أبي العاص زوج ابنته زينب قبل إسلامه «وإن زينب بنت رسول الله ﷺ سألتني» الحديث فذكر التصلية والتسليم على نفسه بعد ذكره واحتمال أن ذلك في الحديثين من الراوي بعيد جداً ا هـ.

وتوقف بعضهم في دخوله من حيث أن قرينة سياق ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي**﴾ إلى هنا

ظاهرة في اختصاص هذا الحكم بالمؤمنين دونه ﷺ، ونظر فيه بأن ما قبل هذه الآية صريح في اختصاصه بالمؤمنين وأما هي فلا قرينة فيها على الاختصاص، وأنت تعلم أن للأصوليين في دخوله ﷺ في نحو هذه الصيغة أقوالاً، عدمه مطلقاً وهو شاذ، ودخوله مطلقاً وهو الأصح على ما قال جمع، والدخول إلا فيما صدر بأمره بالتبليغ نحو قل يا أيها الذين آمنوا، وأنا أعول على الدخول إلا إذا أوجدت قرينة على عدم الدخول سواء كانت الأمر بالتبليغ أولاً، وها هنا السباق والسياق قرينتان على عدم الدخول فيما يظهر، وعبر بالذين آمنوا دون الناس الشامل للكفار قيل: إشارة إلى أن الصلاة عليه ﷺ من أجلِّ الوسائل وأنفعها والكافر لا وسيلة له فلم يؤت بلفظ يشمله، ومخاطبة الكفار بالفروع على القول بها بالنسبة لعقابهم عليها في الآخرة فحسب على أن محل تكليفهم بها حيث أجمع عليها، ومن ثم استثنى من مخاطبتهم بها معاملتهم الفاسدة ونحوها.

ولعل الأولى أن التعبير بذلك لما ذكر مع اقتضاء السياق له، وفي نداء المؤمنين بهذا الأسلوب من حثهم على امتثال الأمر ما لا يخفى، والأمر بالصلاة والتسليم من خواص هذه الأمة فلم تؤمر أمة غيرها بالصلاة والتسليم على نبيها.

وكان ذلك على ما نقل عن أبي ذر الهروي في السنة الثانية من الهجرة، وقيل: كان في ليلة الإسراء، وأنت تعلم أن الآية مدنية، وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد أنها لما نزلت قال أبو بكر: ما أنزل الله عليك خيراً إلا أشركنا فيه فنزلت ﴿**هو الذي يصلي عليكم وملائكته**﴾ وحكمة تغاير أسلوبي الآيتين ظاهرة على المتأمل، والصلاة منا على الأنبياء ما عدا نبينا عليه وعليهم الصلاة والسلام جائزة بلا كراهة، فقد جاء بسند صحيح على ما قاله المجد اللغوي «إذا صليتم علي المرسلين فصلوا علي معهم فإني رسول من المرسلين» وفي لفظ «إذا سلمتم عليّ فسلموا على المرسلين» وللأول طريق أخرى إسنادها حسن جيد لكنه مرسل.

وأخرج عبد الرزاق والقاضي إسماعيل وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «صلوا على أنبياء الله ورسله فإن الله تعالى بعثهم كما بعثني» وهو وإن جاء من طرق ضعيفة يعمل به في مثل هذا المطلب كما لا يخفى. وأما ما حكي عن مالك من أنه لا يصلي على غير نبينا ﷺ من الأنبياء فأوله أصحابه بأن معناه إنا لم نتعبد بالصلاة عليهم كما تعبدنا بالصلاة عليه ﷺ، والصلاة على الملائكة قيل لا يعرف فيها نص وإنما تؤخذ من حديث أبي هريرة المذكور آنفاً إذا ثبت أن الله تعالى سماهم رسلاً. وأما الصلاة على غير الأنبياء والملائكة عليهم السّلام فقد اضطربت فيها أقوال العلماء فقيل تجوز مطلقاً قال القاضي عياض وعليه عامة أهل العلم واستدل له بقوله تعالى: ﴿**هو الذي يصلي عليكم وملائكته**﴾ وبما صح من قوله ﷺ: «اللهم صلِّ على آل أبي أوفى» وقوله عليه الصلاة والسلام وقد رفع يديه: «اللهم اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة» وصحح ابن حبان خبر «إن امرأة قالت للنبي ﷺ: صلِّ عليّ وعلى زوجي ففعل» وفي خبر مسلم «أن الملائكة تقول لروح المؤمن: صلى الله عليك وعلى جسدك» وبه يرد على الخفاجي قوله في شرح الشفاء صلاة الملائكة على الأمة لا تكون إلا بتبعيته ﷺ. وقيل لا تجوز مطلقاً. وقيل لا تجوز استقلالاً وتجوز تبعاً فيما ورد فيه النص كالآل أو ألحق به كالأصحاب. واختاره القرطبي وغيره وقيل تجوز تبعاً مطلقاً ولا تجوز استقلالاً ونسب إلى أبي حنيفة وجمع. وفي تنوير الأبصار ولا يصلي على غير الأنبياء والملائكة إلا بطريق التبع وهو محتمل لكراهة الصلاة بدون تبع تحريماً ولكراهتها تنزيهاً ولكونها خلاف الأولى لكن ذكر البيري من الحنفية من صلى على غيرهم إثم وكره وهو الصحيح. وفي رواية عن أحمد كراهة ذلك استقلالاً. ومذهب الشافعية أنه خلاف الأولى وقال اللقاني: قال القاضي عياض الذي

ذهب إليه المحققون وأميل إليه ما قاله مالك وسفيان واختاره غير واحد من الفقهاء والمتكلمين أنه يجب تخصيص النبي ﷺ وسائر الأنبياء بالصلاة والتسليم كما يختص الله سبحانه عند ذكره بالتقديس والتنزيه ويذكر من سواهم بالغفران والرضا كما قال تعالى: ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ [التوبة: ١٠٠] ﴿يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان﴾ [الحشر: ١٠] وأيضاً فهو أمر لم يكن معروفاً في الصدر الأول وإنما أحدثه الرافضة في بعض الأئمة والتشبه بأهل البدع منهى عنه فتجب مخالفتهم انتهى. ولا يخفى أن كراهة التشبه بأهل البدع مقررة عندنا أيضاً لكن لا مطلقاً بل في المذموم وفيما قصد به التشبه بهم فلا تغفل. وجاء عن عمر بن عبد العزيز بسند حسن أو صحيح أنه كتب لعامله إن ناساً من القصاص قد أحدثوا في الصلاة على حلفائهم ومواليهم عدل صلاتهم على النبي ﷺ فإذا جاءك كتابي هذا فمرهم أن تكون صلاتهم على النبيين خاصة ودعاؤهم للمسلمين عامة ويدعوا ما سوى ذلك.

وصح عن ابن عباس أنه قال: لا تنبغي الصلاة من أحد على أحد إلا على النبي ﷺ.

وفي رواية عنه ما أعلم الصلاة تنبغي على أحد من أحد إلا على النبي ﷺ ولكن يدعى للمسلمين والمسلمات بالاستغفار، وكلاهما يحتمل الكراهة والحرمة. واستدل المانعون بأن لفظ الصلاة صار شعاراً لعظم الأنبياء وتوقيرهم فلا تقال لغيرهم استقلالاً وإن صح كما لا يقال محمد عزّ وجلّ وإن كان عليه الصلاة والسلام عزيزاً جليلاً لأن هذا الثناء صار شعاراً لله تعالى فلا يشارك فيه غيره. وأجابوا عما مر بأنه صدر من الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام. ولهما أن يخصا من شاءا بما شاءا وليس ذلك لغيرهما إلا بإذنهما ولم يثبت عنهما إذن في ذلك. ومن ثم قال أبو اليمن ابن عساكر له ﷺ أن يصلي على غيره مطلقاً لأنه حقه ومنصبه فله التصرف فيه كيف شاء بخلاف أمته إذ ليس لهم أن يؤثروا غيره بما هو له لكن نازع فيه صاحب المعتمد من الشافعية بأنه لا دليل على الخصوصية. وحمل البيهقي القول بالمنع على ما إذا جعل ذلك تعظيماً وتحية وبالجواز عليها إذا كان دعاءً وتبركاً، واختار بعض الحنابلة أن الصلاة على الآل مشروعة تبعاً وجائزة استقلالاً وعلى الملائكة وأهل الطاعة عموماً جائزة أيضاً وعلى معين شخص أو جماعة مكروهة ولو قيل بتحريمها لم يبعد سيما إذا جعل ذلك شعاراً له وحده دون مساويه ومن هو خير منه كما تفعل الرافضة بعلي كرّم الله تعالى وجهه ولا بأس بها أحياناً كما صلى عليه الصلاة والسلام على المرأة وزوجها وكما صلى عليه الصلاة والسلام على علي وعمر رضي الله تعالى عنهما لما دخلِ عليه وهو مسجى ثم قال: وبهذا التفصيل تتفق الأدلة، وأنت تعلم اتفاقها بغير ما ذكر. والسلام عند كثير فيما ذكر وفي شرح الجوهرة للقاني نقلاً عن الإمام الجويني أنه في معنى الصلاة فلا يستعلم في الغائب ولا يفرد به غير الأنبياء عليهم السّلام فلا يقال علي عليه السلام بل يقال رضي الله تعالى عنه. وسواء في هذا الأحياء والأموات إلا في الحاضر فيقال السلام أو سلام عليك أو عليكم وهذا مجمع عليه انتهى. وفي حكاية الإجماع على ذلك نظر.

وفي الدر المنضود السلام كالصلاة فيما ذكر إلا إذا كان لحاضر أو تحية لحي غائب، وفرق آخرون بأنه يشرع في حق كل مؤمن بخلاف الصلاة، وهو فرق بالمدعي فلا يقبل، ولا شاهد في السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين لأنه وارد في محل مخصوص وليس غيره في معناه على أن ما فيه وقع تبعاً لا استقلالاً.

وحقق بعضهم فقال ما حاصله مع زيادة عليه السّلام الذي يعم الحي والميت هو الذي يقصد به التحية كالسلام عند تلاق أو زيارة قبر وهو مستدع للرد وجوب كفاية أو عين بنفسه في الحاضر ورسوله أو كتابه في الغائب، وأما السلام الذي يقصد به الدعاء منا بالتسليم من الله تعالى على المدعو له سواء كان بلفظ غيبة أو حضور فهذا هو الذي اختص به ﷺ عن الأمة فلا يسلم على غيره منهم إلا تبعاً كما أشار إليه التقى السبكي في شفاء الغرام، وحينئذٍ فقد

أشبه قولنا عليه السّلام قولنا عليه الصلاة من حيث أن المراد عليه السّلام من الله تعالى، ففيه إشعار بالتعظيم الذي في الصلاة من حيث الطلب لأن يكون المسلم عليه الله تعالى كما في الصلاة وهذا النوع من السلام هو الذي ادعى الحليمي كون الصلاة بمعناه انتهى.

واختلف في جواز الدعاء له ﷺ بالرحمة فذهب ابن عبد البرّ إلى منع ذلك، ورد بوروده في الأحاديث الصحيحة، منها وهو أصحها حديث التشهد السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، ومنها قول الأعرابي: اللهم ارحمني ومحمداً وتقريره ﷺ لذلك، وقوله ﷺ: «اللهم إني أسألك رحمة من عندك اللهم أرجو رحمتك يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث» وفي خطبة رسالة الشافعي ما لفظه ﷺ ورحم وكرم، نعم قضية كلامه كحديث التشهد أن محل الجواز إن ضم إليه لفظ الصلاة أو السلام وإلا لم يجز وقد أخذ به جمع منهم الجلال السيوطي بل نقله القاضي عياض في الإكمال عن الجمهور، قال القرطبي: وهو الصحيح، وجزم بعدم جوازه منفرداً الغزالي عليه الرحمة فقال: لا يجوز ترحم على النبي ويدل له قوله تعالى: ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً﴾ [النور: ٦٣] والصلاة وإن كانت بمعنى الرحمة إلا أن الأنبياء خصوا بها تعظيماً لهم وتمييزاً لمرتبتهم الرفيعة على غيرهم على أنها في حقهم ليست بمعنى مطلق الرحمة بل المراد بها ما هو أخص من ذلك كما سمعت فيما تقدم.

نعم ظاهر قول الأعرابي السابق وتقريره عليه الصلاة والسلام له الجواز ولو بدون انضمام صلاة أو سلام.

قال ابن حجر الهيتمي: وهو الذي يتجه وتقريره المذكور خاص فيقدم على العموم الذي اقتضته الآية ثم قال: وينبغي حمل قول من قال لا يجوز ذلك على أن مرادهم نفي الجواز المستوى الطرفين فيصدق بأن ذلك مكروه أو خلاف الأولى، وذكر زين الدين في بحره أنهم اتفقوا على أنه لا يقال ابتداء رحمه الله تعالى، وأنا أقول: الذي ينبغي أن لا يقال ذلك ابتداء.

وقال الطحطاوي في حواشيه على الدر المختار: وينبغي أن لا يجوز غفر الله تعالى له أو سامحه لما فيه من إيهام النقص، وهو الذي أميل إليه وإن كان الدعاء بالمغفرة لا يستلزم وجوب ذنب بل قد يكون بزيادة درجات كما يشير إليه استغفاره عليه الصلاة والسلام في اليوم والليلة مائة مرة. وكذا الدعاء بها للميت الصغير في صلاة الجنازة، ومثل ذلك فيما يظهر عفا الله تعالى عنه وإن وقع في القرآن فإن الله تعالى له أن يخاطب عبده بما شاء، وأرى حكم الترحم على الملائكة عليهم السّلام كحكم الترحم عليه ﷺ، ومن اختلف في نبوته كلقمان يقل فيه رضي الله تعالى عنه أو صلى الله تعالى على الأنبياء وعليه وسلم، هذا وقد بقيت في هذا المقام أبحاث كثيرة يطول الكلام بذكرها جداً فلتطلب من مظانها والله تعالى ولي التوفيق وبيده سبحانه أزمة التحقيق.

﴿إِنَّ الَّذينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ أريد بالإيذاء إما ارتكاب ما لا يرضيانه من الكفر وكبائر المعاصي مجازاً لأنه سبب أو لازم له وإن كان ذلك بالنظر إليه تعالى بالنسبة إلى غيره سبحانه فإنه كافٍ في العلاقة، وقيل في إيذائه تعالى: هو قول اليهود والنصارى والمشركين يد الله مغلولة والمسيح ابن الله والملائكة بنات الله والأصنام شركاؤه تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وقيل قول الذين يلحدون في آياته سبحانه، وقيل تصوير التصاوير وروي عن كعب ما يقتضيه، وقيل في إيذاء الرسول ﷺ هو قولهم: شاعر ساحر كاهن مجنون وحاشاه عليه الصلاة والسلام، وقيل هو كسر رباعيته وشج وجهه الشريف وكان ذلك في غزوة أحد، وقيل طعنهم في نكاح صفية بنت حيي، والحق هو العموم فيهما، وإما إيذاؤه عليه الصلاة والسلام خاصة بطريق الحقيقة وذكر الله عزّ وجلّ لتعظيمه ﷺ ببيان قربه وكونه حبيبه المختص به حتى كان ما يؤذيه يؤذيه سبحانه كما أن من يطيعه يطيع الله تعالى.

وجوز أن يكون الإيذاء على حقيقته والكلام على حذف مضاف أي يؤذون أولياء الله ورسوله وليس بشيء، وقيل يجوز أن يراد منه المعنى المجازي بالنسبة إليه تعالى والمعنى الحقيقي بالنسبة إلى رسوله عليه الصلاة والسلام وتعدد المعمول بمنزلة تكرر لفظ العامل فيخف أمر الجمع بين المعنيين حتى ادعى بعضهم أنه ليس من الجمع الممنوع وليس بشيء ﴿لَعَنَهُمُ اللهُ﴾ طردهم وأبعدهم من رحمته ﴿في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ بحيث لا يكادون ينالون فيهما شيئاً منها، وذلك في الآخرة ظاهر، وأما في الدنيا فقيل بمنعهم زيادة الهدى ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ مع ذلك ﴿عَذَاباً مُّهِيناً﴾ يصيبهم في الآخرة خاصة ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ يفعلون بهم ما يتأذون به من قول أو فعل، وتقييده بقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ أي بغير جنايه يستحقون بها الأذية شرعاً بعد إطلاقه فيما قبله للإيذان بأن أذى الله تعالى ورسوله ﷺ لا يكون إلا في غير حق وأما أذى هؤلاء فمنه ومنه.

وروي أن عمر رضي الله تعالى عنه قال يوماً لأبي: يا أبا المنذر قرأت البارحة آية من كتاب الله تعالى فوقعت مني كل موقع ﴿والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات﴾ والله إني لأعاقبهم وأضربهم فقال: إنك لست منهم إنما أنت معلم ومقوم وقوله تعالى: ﴿الذين﴾ مبتدأ وقوله سبحانه ﴿فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً﴾ أي فعلاً شنيعاً وقيل ما هو كالبهتان أي الكذب الذي يبهت الشخص لفظاعته في الإثم، وقيل احتمل بهتاناً أي كذباً فظيعاً إذا كان الإيذاء بالقول ﴿وَإِثْماً مُّبِيناً﴾ أي ظاهراً بيناً خبره، ودخلت الفاء لتضمن الموصول معنى الشرط، والآية قيل نزلت في منافقين كانوا يؤذون علياً كرّم الله تعالى وجهه ويسمعونه ما لا خير فيه.

وأخرج ابن جويبر عن الضحّاك عن ابن عباس قال: أنزلت في عبد الله بن أبي وناس معه قذفوا عائشة رضي الله تعالى عنها فخطب النبي ﷺ وقال: «من يعذرني من رجل يؤذيني ويجمع في بيته من يؤذيني فنزلت».

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه رضي الله تعالى عنها أنها نزلت في الذين طعنوا على النبي ﷺ في أخذ صفية بنت حيي رضي الله تعالى عنها، وعن الضحّاك والسدي والكلبي أنها نزلت في زناة كانوا يتبعون النساء إذا برزن بالليل لقضاء حوائجهن وكانوا لا يتعرضون إلا للإماء ولكن ربما يقع منهم التعرض للحرائر جهلاً أو تجاهلاً لاتحاد الكل في الزيّ واللباس، والظاهر عموم الآية لكل ما ذكر ولكل ما سيأتي من أراجيف المرجفين، وفيها من الدلالة على حرمة المؤمنين والمؤمنات ما فيها، وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد في هذه الآية قال: يلقى الجرب على أهل النار فيحكون حتى تبدو العظام فيقولون ربنا بماذا أصابنا هذا فيقال: بأذاكم المسلمين، وأخرج غير واحد عن قتادة قال: إياكم وأذى المؤمن فإن الله تعالى يحوطه ويغضب له.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: «قال رسول الله ﷺ لأصحابه أي الربا أربى عند الله؟ قالوا: الله ورسوله أعلم قال: أربى الربا عند الله استحلال عرض امرىء مسلم ثم قرأ ﷺ والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا الآية».

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ بعد ما بين سبحانه سوء حال المؤذين زجراً لهم عن الإيذاء أمر النبي ﷺ بأن يأمر بعض المتأذين منهم بما يدفع إيذاءهم في الجملة من التستر والتميز عن مواقع الإيذاء فقال عزّ وجلّ:

﴿قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلاَبِيبِهِنَّ﴾ روي عن غير واحد أنه كانت الحرة والأمة تخرجان ليلاً لقضاء الحاجة في الغيطان وبين النخيل من غير امتياز بين الحرائر والإماء وكان في المدينة فساق يتعرضون للإماء وربما تعرضوا للحرائر فإذا قيل لهم يقولون حسبناهن إماء فأمرت الحرائر أن يخالفن الإماء بالزيّ والتستر

ليحتشمن ويهبن فلا يطمع فيهن، والجلابيب جمع جلباب وهو على ما روي عن ابن عباس الذي يستر من فوق إلى أسفل، وقال ابن جبير: المقنعة، وقيل: الملحفة، وقيل: كل ثوب تلبسه المرأة فوق ثيابها، وقيل: كل ما تتستر به من كساء أو غيره، وأنشدوا:

تجلببت من سواد الليل جلبابا

وقيل هو ثوب أوسع من الخمار ودون الرداء، والإدناء التقريب يقال أدناني أي قربني وضمن معنى الإرخاء أو السدل ولذا عدي بعلى على ما يظهر لي، ولعل نكتة التضمين الإشارة إلى أن المطلوب تستر يتأتى معه رؤية الطريق إذا مشين فتأمل.

ونقل أبو حيان عن الكسائي أنه قال: أي يتقنعن بملاحفهن منضمة عليهن ثم قال: أراد بالانضمام معنى الإدناء، وفي الكشاف معنى ﴿**يدنين عليهن**﴾ يرخين عليهن يقال إذا زل الثوب عن وجه المرأة أدني ثوبك على وجهك.

وفسر ذلك سعيد بن جبير بيسدلن عليهن، وعندي أن كل ذلك بيان لحاصل المعنى، والظاهر أن المراد بعليهن على جميع أجسادهن، وقيل: على رؤوسهن أو على وجوههن لأن الذي كان يبدو منهن في الجاهلية هو الوجه.

واختلف في كيفية هذا التستر فأخرج ابن جرير وابن المنذر وغيرهما عن محمد بن سيرين قال: سألت عبيدة السلماني عن هذه الآية ﴿**يدنين عليهن من جلابيبهن**﴾ فرفع ملحفة كانت عليه فتقنع بها وغطى رأسه كله حتى بلغ الحاجبين وغطى وجهه وأخرج عينه اليسرى من شق وجهه الأيسر، وقال السدي: تغطي إحدى عينيها وجبهتها والشق الآخر إلا العين، وقال ابن عباس وقتادة: تلوي الجلباب فوق الجبين وتشده ثم تعطفه على الأنف وإن ظهرت عيناها لكن تستر الصدر ومعظم الوجه، وفي رواية أخرى عن الحبر رواها ابن جرير، وابن أبي حاتم وابن مردويه تغطي وجهها من فوق رأسها بالجلباب وتبدي عيناً واحدة.

وأخرج عبد الرزاق وجماعة عن أم سلمة قالت: لما نزلت هذه الآية ﴿**يدنين عليهن من جلابيبهن**﴾ خرج نساء الأنصار كان على رؤوسهن الغربان من السكينة وعليهن أكسية سود يلبسنها.

وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: رحم الله تعالى نساء الأنصار لما نزلت ﴿**يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك**﴾ الآية شققن مروطهن فاعتجرن بها فصلين خلف رسول الله ﷺ كأنما على رؤوسهن الغربان.

ومن للتبعيض ويحتمل ذلك على ما في الكشاف وجهين، أحدهما أن يكون المراد بالبعض واحداً من الجلابيب وإدناء ذلك عليهن أن يلبسنه على البدن كله، وثانيهما أن يكون المراد بالبعض جزءاً منه وإدناء ذلك عليهن أن يتقنعن فيسترن الرأس والوجه بجزء من الجلباب مع إرخاء الباقي على بقية البدن، والنساء مختصات بحكم العرف بالحرائر وسبب النزول يقتضيه وما بعد ظاهر فيه فإماء المؤمنين غير داخلات في حكم الآية.

وعن عمر رضي الله تعالى عنه أن غير الحرة لا تتقنع أخرج ابن أبي شيبة عن قلابة قال: كان عمر بن الخطاب لا يدع في خلافته أمة تتقنع ويقول: القناع للحرائر لكيلا يؤذين، وأخرج هو وعبد بن حميد عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: رأى عمر رضي الله تعالى عنه جارية مقنعة فضربها بدرته وقال: ألقي القناع لا تتشبهي بالحرائر، وجاء في بعض الروايات أنه رضي الله تعالى عنه قال لأمة رآها مقنعة: يا لكعاء أتتشبهين بالحرائر؟ وقال أبو حيان: نساء المؤمنين يشمل الحرائر والإماء والفتنة بالإماء أكثر لكثرة تصرفهن بخلاف الحرائر فيحتاج إخراجهن من عموم النساء إلى دليل واضح انتهى، وأنت تعلم أن وجه الحرة عندنا ليس بعورة فلا يجب ستره ويجوز النظر من الأجنبي إليه إن أمن الشهوة

مطلقاً وإلا فيحرم، وقال القهستاني: منع النظر من الشابة في زماننا ولو بلا شهوة وأما حكم أمة الغير ولو مدبرة أو أم ولد فكحكم المحرم فيحل النظر إلى رأسها ووجهها وساقها وصدرها وعضدها إن أمن شهوته وشهوتها. وظاهر الآية لا يساعد على ما ذكر في الحرائر فلعلها محمولة على طلب تستر تمتاز به الحرائر عن الإماء أو العفائف مطلقاً عن غيرهن فتأمل، و ﴿يدنين﴾ يحتمل أن يكون مقول القول وهو خبر بمعنى الأمر وأن يكون جواب الأمر على حد ﴿قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة﴾ [إبراهيم: ٣١] وفي الآية رد على من زعم من الشيعة أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن له من البنات إلا فاطمة صلى الله تعالى على أبيها وعليها وسلم وأما رقية وأم كلثوم فربيبتاه عليه الصلاة والسلام ﴿ذَلِكَ﴾ أي ما ذكر من الإدناء والتستر ﴿أَدْنَى﴾ أي أقرب ﴿أَن يُعْرَفْنَ﴾ أي يميزن عن الإماء اللاتي هن مواقع تعرضهم وإيذاءهم. ويجوز إبقاء المعرفة على معناها أي أدنى أن يعرفن أنهن حرائر ﴿فَلاَ يُؤْذَيْنَ﴾ من جهة أهل الريبة بالتعرض لهن بناءً عن أنهن إماء.

وقال أبو حيان: أي ذلك أولى أن يعرفن لتسترهن بالعفة فلا يتعرض لهن ولا يلقين بما يكرهن لأن المرأة إذا كانت في غاية التستر والانضمام لم يقدم عليها بخلاف المتبرجة فإنها مطموع فيها، وهو تفسير مبني على رأيه في النساء، وأياً ما كان فقد قال السبكي في طبقاته: إن أحمد بن عيسى من فقهاء الشافعية استنبط من هذه الآية أن ما يفعله العلماء والسادات من تغيير لباسهم وعمائمهم أمر حسن وإن لم يفعله السلف لأن فيه تمييزاً لهم حتى يعرفوا فيعمل بأقوالهم وهو استنباط لطيف ﴿وَكَانَ اللهُ غَفُوراً﴾ كثير المغفرة فيغفر سبحانه ما عسى يصدر من الإخلال بالتستر، وقيل: يغفر ما سلف منهن من التفريط. وتعقب بأنه إن أريد التفريط في أمر التستر قبل نزول الآية فلا ذنب قبل الورود في الشرع وإن أريد التفريط في غير ذلك ليكون وكان الله كثير المغفرة فيغفر ما سلف من ذنوبهن وارتكابهن ما نهى عنه مطلقاً فهو غير مناسب للمقام، وجوز أن يراد التفريط في أمر التستر والأمر به معلوم من آية الحجاب التزاماً وهو كما ترى ﴿رَحِيماً﴾ كثير الرحمة فيثيب من امتثل أمره منهن بما هو سبحانه أهله، وقيل: رحيماً بهن بعد التوبة عن الإخلال بالتستر بعد نزول الآية، وقيل: رحيماً بعباده حيث راعى سبحانه في مصالحهم أمثال هذه الجزئيات.

﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ﴾ عما هم عليه من النفاق وأحكامه الموجبة للإيذاء ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ وهم قوم كان فيهم ضعف إيمان وقلة ثبات عليه عما هم عليه من التزلزل وما يستتبعه مما لا خير فيه ﴿وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ من اليهود المجاورين لها عما هم عليه من نشر أخبار السوء عن سرايا المسلمين وغير ذلك من الأراجيف الملفقة المستتبعة للأذية، وأصل الإرجاف التحريك من الرجفة التي هي الزلزلة وصفت به الأخبار الكاذبة لكونها في نفسها متزلزلة غير ثابتة أو لتزلزل قلوب المؤمنين واضطرابها منها، والتغاير بينه المتعاطفات على ما ذكرنا بالذات وهو الذي يقتضيه ظاهر العطف.

وأخرج ابن المنذر وغيره عن مالك بن دينار قال: سألت عكرمة عن الذين في قلوبهم مرض فقال: هم أصحاب الفواحش، وعن عطاء أنه فسرهم بذلك أيضاً، وفي رواية أخرى عنه أنه قال هم قوم مؤمنون كان في أنفسهم أن يزنوا فالمرض حب الزنا، وإذا فسر المرجفون على ذلك بما سمعت يكون التغاير بين المتعاطفات بالذات أيضاً.

وأخرج ابن سعد عن محمد بن كعب أن الذين في قلوبهم مرض هم المنافقون وهو المعروف في وصفهم.

وأخرج هو أيضاً عن عبيد بن حنين أن الذين في قلوبهم مرض والمرجفون جميعاً هم المنافقون فيكون العطف مع الاتحاد بالذات لتغاير الصفات على حد:

هو الملك القرم وابن الهمام

فكأنه قيل: لئن لم ينته الجامعون بين هذه الصفات القبيحة عن الاتصاف بها المفضي إلى الإيذاء ﴿**لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ**﴾ أي لندعونك إلى قتالهم وإجلائهم أو فعل ما يضطرهم إلى الجلاء ونحرضك على ذلك يقال أغراه بكذا إذا دعاه إلى تناوله بالتحريض عليه، وقال الراغب: غرى بكذا أي لهج به ولصق، وأصل ذلك من الغراء وهو ما يلصق به وقد أغريت فلاناً بكذا ألهجت به، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أي لنسلطنك عليهم ﴿**ثُمَّ لاَ يُجَاوِرُونَكَ**﴾ عطف على جواب القسم وثم للتفاوت الرتبي والدلالة على أن الجلاء ومفارقة جوار الرسول ﷺ أعظم ما يصيبهم وأشده عندهم ﴿**فِيهَا**﴾ أي في المدينة ﴿**إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ أي زماناً أو جواراً قليلاً ريثما يتبين حالهم من الانتهاء وعدمه أو يتلقطون عيالاتهم وأنفسهم.

وفي الآية عليه كما في الانتصاف إشارة إلى أن من توجه عليه إخلاء منزل مملوك للغير بوجه شرعي يمهل ريثما ينتقل بنفسه ومتاعه وعياله برهة من الزمان حتى يتيسر له منزل آخر على حسب الاجتهاد، ونصب ﴿**قليلاً**﴾ على ما أشرنا إليه على الظرفية أو المصدرية، وجوز أن يكون نصباً على الحال أي إلا قليلين أذلاء، ولا يخفى حاله على ذي تمييز.

وقوله تعالى: ﴿**مَلْعُونِينَ**﴾ نصب على الذم أي أذم ملعونين أو على الحال من فاعل ﴿**لا يجاورونك**﴾ والاستثناء شامل له عند من يرى جواز نحو ذلك، وقد تقدم الكلام عليه عند قوله تعالى: ﴿إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه﴾ [الأحزاب: ٥٣] وجعل ابن عطية المعنى على الحالية ينتفون ملعونين، وجوز أن يكون حالاً من ضميرهم في قوله تعالى: ﴿**أَيْنَ مَا ثُقِفُوا**﴾ أي حصروا وظفر بهم، وكأنه على معنى أينما ثقفوا متصفين بما هم عليه ﴿**أُخِذُوا**﴾ أي أسروا ومنه الأخيذ للأسير ﴿**وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً**﴾ أي قتلوا أبلغ قتل. وقرىء «قُتِلُوا» بالتخفيف فيكون ﴿**تقتيلاً**﴾ مصدراً على غير الصدر. واعترض على الحالية مما ذكر بأن أداة الشرط لا يعمل ما بعدها فيما قبلها مطلقاً وهذا أحد مذاهب للنحاة في المسألة، ثانيها الجواز مطلقاً، وثالثها جواز تقديم معمول الجواب دون معمول الشرط. وجوز على تقدير كون ﴿**قليلاً**﴾ حالاً أن يكون ﴿**ملعونين**﴾ بدلاً منه. وتعقبه أبو حيان بأن البدل بالمشتق قليل ثم قال: والصحيح أن ﴿**ملعونين**﴾ صفة لقليل أي إلا قليلين ملعونين ويكون ﴿**قليلاً**﴾ مستثنى من الواو في ﴿**لا يجاورونك**﴾ والجملة الشرطية صفة أيضاً أي مقهورين مغلوباً عليهم ا هـ، وهو كما ترى.

وقوله تعالى: ﴿**سُنَّةَ الله فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ**﴾ مصدر مؤكد أي سن الله تعالى ذلك في الأمم الماضية سنة وهي قتال الذين يسعون بالفساد بين قوم وإجلائهم عن أوطانهم وقهرهم أينما ثقفوا متصفين بذلك.

﴿**وَلَن تَجِدَ**﴾ أيها النبي أو يا من يصح منك الوجدان أبداً ﴿**لِسُنَّةِ الله**﴾ لعادته عزّ وجلّ المستمرة ﴿**تَبْدِيلاً**﴾ لابتنائها على أساس الحكمة فلا يبدلها هو جل شأنه وهيهات هيهات أن يقدر غيره سبحانه على تبديلها، ومن سبر أخبار الماضين وقف على أمر عظيم في سوء معاملتهم المفسدين فيما بينهم، وكأن الطباع مجبولة على سوء المعاملة معهم وقهرهم، وفي تفسير الفخر ﴿**ولن تجد لسنة الله تبديلاً**﴾ أي ليست هذه السنة مثل الحكم الذي يتبدل وينسخ فإن النسخ يكون في الأحكام أما الأفعال والأخبار فلا تنسخ. وللسدي كلام غريب في الآية لا أظن أن أحداً قال به. أخرج ابن أبي حاتم عنه أنه قال فيها: كان النفاق على ثلاثة أوجه: نفاق مثل نفاق عبد الله بن سلول ونظائره كانوا وجوهاً من وجوه الأنصار فكانوا يستحيون أن يأتوا الزنا يصونون بذلك أنفسهم وهم المنافقون في الآية، ونفاق الذين في قلوبهم مرض وهم منافقون إن تيسر لهم الزنا عملوه وإن لم يتيسر لم يتبعوه ويهتموا بأمره، ونفاق المرجفين وهم منافقون يكابرون النساء يقتصون أثرهن فيغلبوهن على أنفسهم فيفجرون بهن، وهؤلاء الذين يكابرون النساء ﴿**لنغرينك**

بهم ﴾ يقول سبحانه لنعلمنك بهم ثم قال تعالى: ﴿ملعونين ﴾ ثم فصلت الآية ﴿أينما ثقفوا ﴾ يعملون هذا العمل مكابرة النساء ﴿أخذوا وقتلوا تقتيلاً ﴾ ثم قال السدي: هذا حكم في القرآن ليس يعمل به لو أن رجلاً وما فوقه اقتصوا أثر امرأة فغلبوها على نفسها ففجروا بها كان الحكم فيهم غير الجلد والرجم وهو أن يؤخذوا فتضرب أعناقهم سنّة الله في الذين خلوا من قبل كذلك كان يفعل بمن مضى من الأمم ولن تجد لسنّة الله تبديلاً فمن كابر امرأة على نفسها فغلبها فقتل فليس على قاتله دية لأنه يكابر انتهى، والظاهر أنه قد وقع الانتهاء من المنافقين والذين في قلوبهم مرض عما هو المقصود بالنهي وهو ما يستتبعه حالهم من الإيذاء ولم يقع من المرجفين أعني اليهود فوقع القتال والإجلاء لهم.

وفي البحر الظاهر أن المنافقين يعني جميع من ذكر في الآية انتهوا عما كانوا يؤذون به الرسول ﷺ والمؤمنين وتستر جميعهم وكفوا خوفاً من أن يقع بهم ما وقع القسم عليه وهو الإغراء والإجلاء والقتل. وحكي ذلك عن الجبائي، وعن أبي مسلم لم ينتهوا وحصل الإغراء بقوله تعالى: ﴿جاهد الكفار والمنافقين ﴾ [التوبة: ٧٣، التحريم: ٩] وفيه أن الإجلاء والقتل لم يقعا للمنافقين والجهاد في الآية قولي، وقيل: إنهم لم يتركوا ما هم عليه ونهوا عنه جملة ولا نفذ عليهم الوعيد كاملاً ألا ترى إلى إخراجهم من المسجد ونهيه تعالى عن الصلاة عليهم وما نزل في سورة براءة، وزعم بعضهم أنه لم ينته أحد من المذكورين أصلاً ولم ينفذ الوعيد علهيم ففيه دليل على بطلان القول بوجوب نفاذ الوعيد في الآخرة ويكون هذا الوعيد مشروطاً بالمشيئة وفيه من البعد ما فيه.

﴿يَسأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ﴾ أي عن وقت قيامها ووقوعها، كان المشركون يسألونه ﷺ عن ذلك استعجالاً بطريق الاستهزاء والمنافقون تعنتاً واليهود امتحاناً لما أنهم يعلمون من التوراة أنها مما أخفاه الله تعالى فيسألونه عليه الصلاة والسلام ليمتحنوه هل يوافقها وحياً أولا ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْـمُهَا عِنْدَ اللهِ ﴾ لا يطلع سبحانه عليه ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلاً ﴿وَمَا يُدْرِيكَ ﴾ خطاب مستقل له ﷺ غير داخل تحت الأمر مسوق لبيان أنها مع كونها غير معلومة مرجوة المجيء عن قريب، وما استفهام في موضع الرفع بالابتداء والجملة بعده خبر أي أي شيء يعلمك بوقت قيامها، والمعنى على النفي أي لا يعلمنك به شيء أصلاً.

﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً ﴾ أي لعلها توجد وتتحقق في وقت قريب فقريباً منصوب على الظرفية واستعماله كذلك كثير، و ﴿تكون ﴾ تامة ويجوز أن تكون ناقصة وإذا كان ﴿قريباً ﴾ الخبر واعتبر وصفاً لا ظرفاً فالتذكير لكونه في الأصل صفة لخبر مذكر يخبر به عن المؤنث وليس هو الخبر أي لعل الساعة تكون شيئاً قريباً، وجوز أن يكون ذلك رعاية للمعنى من حيث إن الساعة بمعنى اليوم أو الوقت.

وقال أبو حيان: يجوز أن يكون ذلك لأن التقدير لعل قيام الساعة فلوحظ الساعة في تكون فأنث ولوحظ المضاف المحذوف وهو قيام في ﴿قريباً ﴾ فذكر، ولا يخفى بعده، وقيل إن قريباً لكونه فعيلاً يستوي فيه المذكر والمؤنث كما في قوله تعالى: ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ [الأعراف: ٥٦] وقد تقدم ما في ذلك، وفي الكلام تهديد للمستعجبين المستهزئين وتبكيت للمتعنتين والممتحنين، والإظهار في موضع الإضمار للتهويل وزيادة التقرير وتأكيد استقلال الجملة كما أشير إليه ﴿إِنَّ اللهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ ﴾ على الإطلاق أي طردهم وأبعدهم عن رحمته العاجلة والآجلة ﴿وَأَعَدَّ ﴾ هيأ ﴿لَهُمْ ﴾ مع ذلك في الآخرة ﴿سَعِيراً ﴾ ناراً شديدة الاتقاد كما يؤذن بذلك صيغة المبالغة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لا يَجِدُونَ وَلِياً ﴾ متولياً لأمرهم يحفظهم ﴿وَلا نَصِيراً ﴾ ناصراً يخلصهم منها ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ﴾ ظرف لعدم الوجدان، وقيل لخالدين، وقيل لنصير، وقيل مفعول لا ذكر أي يوم تصرف

وجوههم فيها من جهة إلى جهة كاللحم يشوى في النار أو يطبخ في القدر فيدور به الغليان من جهة إلى جهة أو يوم تتغير وجوههم من حال إلى حال فتتوارد عليها الهيئات القبيحة من شدة الأهوال أو يوم يلقون في النار مقلوبين منكوسين، وتخصيص الوجوه بالذكر لما أنها أكرم الأعضاء ففيه مزيد تفظيع للأمر وتهويل للخطب، ويجوز أن تكون عبارة عن كل الجسد. وقرأ الحسن وعيسى وأبو جعفر الرواسي. «تقلب» بفتح التاء والأصل تتقلب فحذفت إحدى التاءين، وقرأ ابن أبي عبلة بهما على الأصل، وحكى ابن خالويه عن أبي حيوة أنه قرأ «تقلب وجوههم» بإسناد الفعل إلى ضمير العظمة ونصب «وجوهَهُم» على المفعولية.

وقرأ عيسى الكوفة «تقلب وجوههم» بإسناد الفعل إلى ضمير السعير اتساعاً ونصب الوجوه ﴿يَقُولُونَ﴾ استئناف مبني على سؤال نشأ من حكاية حالهم الفظيعة كأنه قيل: فماذا يصنعون عند ذلك؟ فقيل: يقولون متحسرين على ما فاتهم ﴿يَا لَيتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا﴾ فلا نبتلي بهذا العذاب أو حال من ضمير ﴿وجوههم﴾ أو من نفسها.

وجوز أن يكون هو الناصب ليوم ﴿وَقَالُوا﴾ عطف على ﴿يقولون﴾ والعدول إلى صيغة الماضي للإشعار بأن قولهم هذا ليس مستمراً كقولهم السابق بل هو ضرب اعتذار أرادوا به ضرباً من التشفي بمضاعفة عذاب الذين أوردوهم هذا المورد الوخيم وألقوهم في ذلك العذاب الأليم وإن علموا عدم قبوله في حق خلاصهم بما هم فيه.

﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا﴾ أي ملوكنا وولاتنا الذين يتولون تدبير السواد الأعظم منا ﴿وَكُبَرَاءَنَا﴾ أي رؤساءنا الذين أخذنا عنهم فنون الشر وكان هذا في مقابلة ما تمنوه من إطاعة الله تعالى وإطاعة الرسول فالسادة والكبراء متغايران، والتعبير عنهما بعنوان السيادة والكبر لتقوية الاعتذار وإلا فهم في مقام التحقير والإهانة.

وقدموا في ذلك إطاعة السادة لما أنه كان لهم قوة البطش بهم لو لم يطيعوهم فكان ذلك أحق بالتقديم في مقام الاعتذار وطلب التشفي، وقيل: باتحاد السادة والكبراء والعطف على حد العطف في قوله. وألفي قولها كذباً وميناً. والمراد بهم العلماء الذين لقنوهم الكفر وزينوه لهم، وعن قتادة رؤساؤهم في الشر والشرك.

وقرأ الحسن وأبو رجاء وقتادة والسلمي وابن عامر والعامة في الجامع بالبصرة ﴿ساداتنا﴾ على جمع الجمع وهو شاذ كبيوتات، وفيه على ما قيل دلالة على الكثرة، ثم إن كون سادة جمعاً هو المشهور، وقيل: اسم جمع فإن كان جمعاً لسيد فهو شاذ أيضاً فقد نصوا على شذوذ فعلة في جميع فعيل وإن كان جمعاً لمفرد مقدر وهو سائد كان ككافر وكفرة لكنه شاذ أيضاً لأن فاعلاً لا يجمع على فعلة إلا في الصحيح ﴿فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا﴾ أي جعلونا ضالين عن الطريق الحق بما دعونا إليه وزينوه لنا من الأباطيل، والألف للإطلاق كما في ﴿وأطعنا الرسولا﴾.

﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ أي عذابين يضاعف كل واحد منهما الآخر عذاباً على ضلالهم في أنفسهم وعذاباً على إضلالهم لنا ﴿وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً﴾ أي شديداً عظيماً فإن الكبر يستعار للعظمة مثل ﴿كبرت كلمة﴾ [الكهف: ٥] ويستفاد التعظيم من التنوين أيضاً، وقرأ الأكثر «كثيراً» بالثاء المثلثة أي كثير العدد، وتصدير الدعاء بالنداء مكرراً للمبالغة في الجؤار واستدعاء الإجابة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى﴾ قيل نزلت فيما كانت من أمر زينب بنت جحش رضي الله تعالى عنها وتزوجه ﷺ بها وما سمع في ذلك من كلام آذاه عليه الصلاة والسلام ﴿فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا﴾ أي من قولهم أو الذي قالوه وأياً ما كان فالقول هنا بمعنى المقول، والمراد به مدلوله الواقع في الخارج وبتبرئة الله تعالى إياه من ذلك إظهار براءته عليه السّلام منه وكذبهم فيما أسندوا إليه لأن المرتب على أذاهم ظهور براءته لا براءته لأنها مقدمة عليه، واستعمال الفعل مجازاً عن إظهاره، والمقول بمعنى المضمون كثير شائع فالمعنى فأظهر الله تعالى براءته من الأمر المعيب الذي نسبوه إليه عليه السّلام.

وقيل: لا حاجة إلى ما ذكر فإنه تعالى لما أظهر براءته عما افتروه عليه انقطعت كلماتهم فيه فبرىء من قولهم على أن ﴿برأه﴾ بمعنى خلصه من قولهم لقطعه عنه، وتعقب بأنه مع تكلفه لأن قطع قولهم ليس مقصوداً بالذات بل المراد انقطاعه لظهور خلافه لا بدّ من ملاحظة ما ذكر، والمراد بالأمر الذي نسبوه إليه عليه السّلام عيب في بدنه.

أخرج الإمام أحمد والبخاري والترمذي وجماعة من طريق أبي هريرة قال: «قال رسول الله ﷺ إن موسى عليه السّلام كان رجلاً حيياً ستيراً لا يرى من جلده شيء استحياء منه فآذاه من آذاه من بني إسرائيل وقالوا ما يستتر هذا الستر إلا من عيب بجلده أما برص وأما أدرة وأما آفة وإن الله تعالى أراد أن يبرئه مما قالوا وأن موسى عليه السّلام خلا يوماً وحده فوضع ثيابه على حجر ثم اغتسل فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها وأن الحجر غدا بثوبه فأخذ موسى عليه السّلام عصاه وطلب الحجر فجعل يقول ثوبي حجر ثوبي حجر حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله تعالى وبرأه مما يقولون وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضرباً بعصاه فذلك قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا﴾. وقيل: إن ذلك ما نسبوه إليه عليه السّلام من قتل هارون، أخرج ابن منيع وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه عن ابن عباس عن علي كرّم الله تعالى وجهه أنه قال في الآية: صعد موسى وهارون عليهما السّلام الجبل فمات هارون فقالت بنو إسرائيل لموسى أنت قتلته كان أشد حباً لنا منك وألين فآذوه من ذلك فأمر الله تعالى الملائكة عليهم فحملوه فمروا به على مجالس بني إسرائيل وتكلمت الملائكة عليهم السّلام بموته فبرأه الله تعالى فانطلقوا به فدفنوه ولم يعرف قبره إلا الرخم وإن الله تعالى جعله أصم أبكم، وفي رواية عن ابن عباس وأناس من الصحابة أن الله تعالى أوحى إلى موسى إني متوفٍ هارون فأت جبل كذا فانطلقا نحو الجبل فأذاهم بشجرة وبيت فيه سرير عليه فرش وريح طيبة فلما نظر هارون إلى ذلك الجبل والبيت وما فيه أعجبه فقال يا موسى إني أحب أن أنام على هذا السرير قال نم عليه قال نم معي فلما ناما أخذ هارون الموت فلما قبض رفع ذلك البيت وذهبت تلك الشجرة ورفع السرير إلى السماء فلما رجع موسى إلى بني إسرائيل قالوا قتل هارون وحسده لحب بني إسرائيل له وكان هارون أكف عنهم وألين لهم وكان في موسى بعض الغلظة عليهم فلما بلغه ذلك قال: ويحكم إنه كان أخي أفترونى أقتله فلما أكثروا عليه قام فصلى ركعتين ثم دعا الله تعالى فنزل بالسرير حتى نظروا إليه بين السماء والأرض فصدقوه، وقيل: ما نسبوه إليه عليه السّلام من الزنا وحاشاه، روي أن قارون أغرى مومسة على قذفه عليه السّلام بنفسها ودفع إليها مالاً عظيماً فأقرت بالمصانعة الجارية بينها وبين قارون وفعل به ما فعل كما فصل في سورة القصص، ويبعد هذا القول تبعيداً ما جمع الموصول، وقيل: ما نسبوا إليه من السحر والجنون، وقيل: ما حكي عنهم في القرآن من قولهم: ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون﴾ [المائدة: ٢٤] ﴿لن نصبر على طعام واحد﴾ [البقرة: ٦١] وقولهم: ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾ [البقرة: ٥٥] إلى غيرك ذلك ويمكن حمل ما قالوا على جميع ما ذكر.

﴿وَكَانَ عِندَ اللهِ وَجِيهاً﴾ أي كان ذا جاه ومنزلة عنده عزّ وجلّ، وفي معناه قول قطرب: كان رفيع القدر ونحوه قول ابن زيد: كان مقبولاً، وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن أنه قال وجيهاً مستجاب الدعوة وزاد بعضهم ما سأل شيئاً إلا أعطى إلا الرؤية في الدنيا، ولا يخفى أن استجابة الدعوة من فروع رفعة القدر، وقيل: وجاهته عليه السّلام أن الله تعالى كلمه ولقب كليم الله، وقرأ ابن مسعود والأعمش وأبو حيوة «عبداً» من العبودة «لله» بلام الجر فيكون عبداً خبر كان ووجيهاً صفة له وهي قراءة شاذة، وفي صحة القراءة بالشواذ كلام.

قال ابن خالويه: صليت خلف ابن شنبوذ في شهر رمضان فسمعته يقرأ وكان «عبداً لله» على قراءة ابن مسعود

ولعل ابن شنبوذ ممن يرى صحة القراءة بها مطلقاً، ويحتمل مثل ذلك في ابن خالويه وإلا فقد قال الطيبي قال صاحب الروضة: وتصح بالقراءة الشاذة إن لم يكن فيها تغيير معنى ولا زيادة حرف ولا نقصان، وها هنا بين المعنيين بون كما يشير إليه كلام الزمخشري ونحوه عن ابن جني ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله﴾ في كل ما تأتون وتذرون لا سيما في ارتكاب ما يكرهه تعالى فضلاً عما يؤذي رسوله وحبيبه ﷺ ﴿وقولوا﴾ في كل شأن من الشؤون ﴿قولاً سديداً﴾ قاصداً ومتوجهاً إلى هدف الحق من سد يسد بكسر السين سداداً بفتحها يقال سدد سهمه إذا وجهه للغرض المرمي ولم يعدل به عن سمته، والمراد على ما قيل نهيهم عن ضد هذا القول وهو القول الذي ليس بسديد ويدخل فيه ما صدر منهم في قصة زينب من القول الجائر عن العدل والقصد وكذا كل قول يؤذيه عليه الصلاة والسلام، وعن مقاتل. وقتادة أن المعنى وقولوا قولاً سديداً في شأن الرسول عليه الصلاة والسلام وزيد وزينب، وعن ابن عباس وعكرمة تخصيص القول السديد بلا إله إلا الله، وقيل: هو ما يوافق ظاهره باطنه، وقيل: ما فيه إصلاح، ولعل ما أشرنا إليه هو الأولى ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُمْ﴾ بالقبول والإثابة عليها على ما روي عن ابن عباس ومقاتل، وقيل إصلاح الأعمال التوفيق في المجيء بها صالحة مرضية.

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ ويجعلها مكفرة باستقامتكم في القول والعلم ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ في الأوامر والنواهي التي من جملتها ما تضمنته هذه الآيات ﴿فَقَدْ فَازَ﴾ في الدارين ﴿فَوْزاً عَظِيماً﴾ لا يقادر قدره ولا تبلغ غايته.

قال في الكشاف وهذه الآية يعني ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله﴾ إلى آخرها مقررة للتي قبلها بنيت تلك على النهي عما يؤذي رسول الله ﷺ وهذه على الأمر باتقاء الله تعالى في حفظ اللسان ليترادف عليهم النهي والأمر مع اتباع النهي ما يتضمن الوعيد من قصة موسى عليه السّلام لأن وصفه بوجاهته عند الله تعالى متضمن أنه تعالى انتقم له ممن آذاه واتباع الأمر الوعد البليغ فيقوي الصارف عن الأذى والداعي إلى تركه انتهى فلا تغفل.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ لما بين جل شأنه عظم شأن طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ ببيان مآل الخارجين عنها من العذاب الأليم ومنال المراعين لها من الفوز العظيم عقب ذلك عظم شأن ما يوجبها من التكاليف الشرعية وصعوبة أمرها بطريق التمثيل مع الإيذان بأن ما صدر عنهم من الطاعة وتركها صدر عنهم بعد القبول والالتزام من غير جبر هناك ولا إبرام، وعبر عنها بالأمانة وهي في الأصل مصدر كالأمن والأمان تنبيهاً على أنها حقوق مرعية أودعها الله تعالى المكلفين وأئتمنهم عليها وأوجب عليهم تلقيها بحسن الطاعة والانقياد وأمرهم بمراعاتها والمحافظة عليها وأدائها من عير إخلال بشيء من حقوقها، وعبر عن اعتبارها بالنسبة إلى استعداد ما ذكر من السماوات وغيرها من حيث الخصوصيات بالعرض عليهن لإظهار مزيد الاعتناء بأمرها والرغبة في قبولهن لها، وعن عدم استعدادهن لقبولها ومنافاتها لما هن عليه بالإباء والإشفاق منها لتهويل أمرها وتربية فخامتها وعن قبولها بالحمل لتحقيق معنى الصعوبة المعتبرة فيها بجعلها من قبيل الأجسام الثقيلة، والمعنى أن تلك الأمانة في عظم الشأن بحيث لو كلفت هاتيك الأجرام العظام التي هي مثل في القوة والشدة مراعاتها وكانت ذات شعور وإدراك لأبين قبولها وخفن منها لكن صرف الكلام عن سننه بتصوير المفروض بصورة المحقق لزيادة تحقيق المعنى المقصود وتوضيحه.

﴿وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ﴾ أي هذا الجنس نحو: ﴿إن الإنسان لربه لكنود﴾ [العاديات: ٦] و ﴿إن الإنسان ليطغى﴾ [العلق: ٦] وحمله إياها إما باعتبارها بالإضافة إلى استعداده أو بتكليفه إياها يوم الميثاق أي تكلفها والتزمها

مع ما فيه من ضعف البنية ورخاوة القوة، وهو إما عبارة عن قبولها بموجب استعداده الفطري أو عن القبول القولي يوم الميثاق، وتخصيص الإنسان بالذكر مع أن الجن مكلفون أيضاً وكذا الملائكة عليهم السّلام وإن لم يكن في ذلك كلفة عليهم لما أنه ليس فيه ما يخالف طباعهم لأن الكلام معه، وقوله تعالى: ﴿إنه كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ اعتراض وسط بين الحمل وغايته للإيذان من أول الأمر بعدم وفائه بما تحمل، والتأكيد لمظنة التردد أي إنه كان مفرطاً في الظلم مبالغاً في الجهل أي بحسب غالب أفراده الذين لم يعملوا بموجب فطرتهم السليمة أو قبولهم السابق دون من عداهم من الذين لم يبدلوا فطرة الله تعالى تبديلاً، ويكفي في صدق الحكم على الجنس بشيء وجوده في بعض أفراده فضلاً عن وجوده في غالبها، وإلى الفريق الأول أشير بقوله تعالى:

﴿ليعَذِّبَ الله الـمُنَافقينَ وَالـمُنَافقَات وَالـمُشْرِكينَ وَالـمُشْرِكَات﴾ أي حملها الإنسان ليعذب الله تعالى بعض أفراده الذين لم يراعوها ولم يقابلوها بالطاعة على أن اللام للعاقبة فإن التعذيب وإن لم يكن غرضاً من الحمل لكن لما ترتب عليه بالنسبة إلى بعض أفراده ترتب الأغراض على الأفعال المعلقة بها أبرز في معرض الغرض أي كان عاقبة حمل الإنسان لها أن يعذب الله تعالى هؤلاء من أفراده لخيانتهم الأمانة وخروجهم عن الطاعة بالكلية، وإلى الفريق الثاني أشير وبقوله سبحانه ﴿وَيَتُوبُ الله عَلَى الـمُؤْمنينَ وَالـمُؤْمنَاتِ﴾ أي كان عاقبة حمله لها أن يتوب الله تعالى على هؤلاء من أفراده أي يقبل توبتهم لعدم خلعهم ربقة الطاعة عن رقابهم بالمرة وتلافيهم لما فرط منهم من فرطات قلما يخلو عنها الإنسان بحكم جبلته وتداركهم لها بالتوبة والإنابة والالتفات إلى الاسم الجليل أولاً لتهويل الخطب وتربية المهابة، والإظهار في موضع الإضمار ثانياً لإبراز مزيد الاعتناء بأمر المؤمنين توفية لتكل من مقامي الوعيد والوعد حقه كذا قال بعض لأجلة في تفسير الآية. ووراء ذلك أقوال فقيل الأمانة الطاعة لأنها لازمة الوجود كما أن الأمانة لازمة الأداء والكلام تقرير الوعد الكريم الذي ينبيء عنه قوله تعالى: ﴿ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً﴾ بجعل تعظيم شأن الطاعة ذريعة إلى ذلك بأن من قام بحقوق مثل هذا الأمر العظيم الشأن وراعاه فهو جدير بأن يفوز بخير الدارين. وتعقب بأن جعل الأمانة التي شأنها أن تكون من جهته تعالى عبارة عن الطاعة التي هي من أفعال المكلفين التابعة للتكليف بمعزل عن التقريب وإن حمل الكلام على التقرير بالوجه الذي قرر يأباه وصف الإنسان بالظلم والجهل أولاً وتعليل الحمل بتعذيب فريق والتوبة على فريق ثانياً، وقد يقال: مراد ذلك القائل أن الأمانة هي الطاعة من حيث أمره عزّ وجلّ بها وأن قوله تعالى: ﴿إنه كان﴾ الخ على معنى أنه كان كذلك إن لم يراع حقها فتأمل. وأخرج ابن جرير وغيره عن ابن عباس أن الأمانة الفرائض وروي نحوه عن سعيد بن جبير وهو غير ما ذكر أولاً بناءً على أن التكليفات الشرعية مراد بها المعنى المصدري دون اسم المفعول، وقيل: الصلاة فقد روي عن علي كرّم الله تعالى وجهه أنه كان إذا دخل وقت الصلاة اصفر وجهه الشريف وتغير لونه فسئل عن ذلك فقال: إنه دخل عليّ وقت أمانة عرضها الله تعالى على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وقد حملتها أنا مع ضعفي فلا أدري كيف أؤديها، وحكى السفيري أنها الغسل من الجنابة، وقيل الصلاة والصيام والغسل من الجنابة فقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن زيد بن أسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «الأمانة ثلاث الصلاة والصيام والغسل من الجنابة» وفي رواية عن السدي والضحاك أنها أمانات الناس المعروفة والوفاء بالعهود. وقيل هي أن لا تغش مؤمناً ولا معاهداً في شيء قليل ولا كثير، وقيل: هي كلمة التوحيد لأنها المدار الأعظم للتكليفات الشرعية. وقيل هي الأعضاء والقوى، فقد أخرج ابن أبي الدنيا في الورع والحكيم الترمذي عن عبد الله بن عمر ورضي الله تعالى عنهما قال: «أول ما خلق الله تعالى من الإنسان فرجه ثم قال هذه أمانتي عندك فلا تضعها إلا في حقها فالفرج أمانة والسمع أمانة والبصر أمانة».

ولا يخفى أن تفسير الأمانة في الآية بالأعضاء مما لا ينبغي أن يلتفت إليه، والخبر المذكور إن صح لا يدل عليه، ومثله بل دونه بكثير أنها حروف التهجي ولا يكاد يقول به إلا أطفال المكاتب، وأقرب الأقوال المذكورة للقبول القول بأنها الفرائض أي من فعل وترك، وتخصيص شيء منها بالذكر في خبران صح لا يدل على أنه الأمانة في الآية لا غيره وكم يخص بعض أفراد العام بالذكر لنكتة، وقال أبو حيان: الظاهر أنها كل ما يؤتمن عليه من أمر ونهي وشأن دين ودنيا، ويعم هذا المعنى جميع ما تقدم، وفيها أقوال أخر ستأتي إن شاء الله تعالى، واختلفت كلمات الذاهبين إلى أنها الفرائض في تحقيق ما بعد فقيل الكلام على حذف مضاف والتقدير إنا عرضنا الأمانة على أهل السماوات إلخ.

وحكي ذلك عن الجبائي وليس بشيء، وقيل الكلام على ظاهره وكذا العرض والإباء وذلك أنه عزّ وجلّ خلق للسماوات والأرض والجبال فهماً وتمييزاً فخيرت في الحمل فأبت وروي ذلك عن ابن عباس.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري عن ابن جريج قال: بلغني أن الله تعالى لما خلق السماوات والأرض والجبال قال: إني فارض فريضة وخالق جنة وناراً وثواباً لمن أطاعني وعقاباً لمن عصاني فقالت السماوات خلقتني فسخرت في الشمس والقمر والنجوم والسحاب والريح فأنا مسخرة على ما خلقتني لا أتحمل فريضة ولا أبغي ثواباً ولا عقاباً ونحو ذلك قالت الأرض والجبال، ويعلم مما ذكر أن الإباء لم يكن معصية لأنه لم يكن هناك تكليف بل تخيير، وأما كونها استحقرت أنفسها عن أن تكون محل الأمانة فلا ينفي عنهن العصيان بالإباء لو كان هناك تكليف بالحمل، وقيل: لا حذف والكلام من باب التمثيل على ما سمعت أولاً.

وذهب كثير إلى أن المراد بحملها التزام القيام بها وبالإنسان آدم عليه السّلام، واختلف في حمله إياها هل كان بعد عرضها عليه أو بدونه فقيل كان بعد العرض.

فقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم «أن الله تعالى عرض الأمانة على السماء الدنيا فأبت ثم التي تليها فأبت حتى فرغ منها ثم الأرضين ثم الجبال ثم عرضها على آدم عليه السّلام فقال نعم بين أذني وعاتقي» الخبر وقيل: بدونه.

قال ابن الجوزي: لما خلق الله عزّ وجلّ آدم عليه السّلام ونفخ فيه الروح مثلت له الأمانة بصخرة ثم قال: للسماوات احملي هذه فأبت وقالت: إلهي لا طاقة لي بها وقال سبحانه: للأرض احمليها فقالت: لا طاقة بها لي وقال تعالى للجبال: احمليها فقالت: لا طاقة لي بها فأقبل آدم عليه السّلام فحركها بيده وقال لو شئت لحملتها فحملها حتى بلغت حقويه ثم وضعها على عاتقه فلما أهوى ليضعها نودي من جانب العز يا آدم مكانك لا تضعها فهذه الأمانة قد بقيت في عنقك وعنق أولادك إلى يوم القيامة ولكم عليها ثواب في حملها وعقاب في تركها، وهذا ظاهر في أن الحمل على حقيقته وفي أن العرض على السماوات والأرض والجبال كان بمسمع من آدم عليه السّلام وإلى هذا ذهب ابن الأنباري، وفي بعض الآثار ما يدل على أن العرض عليهن قبل خلقه عليه السّلام.

أخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال: لما خلق الله تعالى السماوات والأرض عرض عليهن الأمانة فلم يقبلنها فلما خلق آدم عليه السّلام عرضها عليه فقال: يا رب وما هي؟ قال سبحانه: هي إن أحسنت أجرتك وإن أسأت عذبتك قال: فقد تحملت يا رب فما كان بين أن تحملها إلى أن أخرج إلا قدر ما بين الظهر والعصر، وكأني بك تختار من هذه الأقوال أن العرض على تقدير كونه بعد إعطاء الفهم والتمييز كان بمسمع من آدم عليه السّلام وأنه بعد أن سمع الإباء حملته الغيرة على الحمل، وربما يفضي بك هذا إلى اختيار القول بأنه حمل الأمانة بدون عرضها عليه كما هو ظاهر الآية وبه يتأكد وصفه بما وصف لكني لا أظنك تقول بصحة حديث تمثل الأمانة بصخرة وإن قلت بصحة تمثل

المعاني بصور الأجسام كما ورد في حديث ذبح الموت وغيره، وأنا لا أميل إلى القول بأن المراد بالإنسان آدم عليه السّلام وإن كان أول أفراد الجنس ومبدأ سلسلتها لمكان ﴿**إنه كان ظلوماً جهولاً**﴾ فإنه يبعد غاية البعد وصف صفي الله عزّ وجلّ بنص ﴿إن الله اصطفى آدم﴾ [آل عمران: ٣٣] بمزيد الظلم والجهل، وكون المعنى كان ظلوماً جهولاً بزعم الملائكة عليهم السّلام قول بارد، وحمله على معنى كان ظلوماً لنفسه حيث حملها على ضعفه ما أبت الأجسام القوية حمله جهولاً بقدر ما دخل فيه أو بعاقبة ما تحمل لا يزيل البعد، ولا استحسن كون المراد كان من شأنه لو خلي ونفسه ذلك كما قيل:

الظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

إلا على القول بإرادة الجنس، وإخراج الكلام مخرج الاستخدام على نحو ما قالوا في عندي درهم ونصفه بعيد لفظاً ومعنى، وقيل المراد بالأمانة مطلق الانقياد الشامل للطبيعي والاختياري وبعرضها استدعاؤه الذي يعم طلب الفعل من المختار وإرادة صدوره من غيره وبحملها الخيانة فيها والامتناع عن أدائها ومنه قولهم حامل الأمانة ومحتملها لمن لا يؤديها فتبرأ ذمته وأنشدوا:

إذا أنت لم تبرح تؤدي أمانة وتحمل أخرى أخرجتك الودائع

فيكون الإباء امتناعاً من الخيانة وإتياناً بالمراد، فالمعنى أن هذه الأجرام مع عظمها وقوتها أبين الخيانة لأمانتنا وأتين بما أمرناهن به لقوله تعالى: ﴿أتينا طائعين﴾ [فصلت: ١١] وخانها الإنسان حيث لم يأت بما أمرناه به إنه كان ظلوماً جهولاً ولا يخفى بعده ولم نرَ في المأثور ما يؤيده، نعم إن العوام يقولون: إن الأرض لا تخون الأمانة حتى أنهم جرت عادتهم في بلادنا أنهم إذا أرادوا دفن ميت في مكان ولم يتيسر لهم وضعوه في قبر وقالوا حين الوضع مخاطبين الأرض: هذا أمانة عندك كذا شهراً أو كذا سنة وحثوا التراب عليه وانصرفوا فإذا نبشوا القبر قبل مضي المدة وجدوه كما وضعوه لم يتغير منه شيء فيخرجونه ويدفنونه حيث أرادوا وإذا بقي حتى تمضي المدة التي عينوها وجدوه متغيراً، وهذا أمر تواتر نقله لنا وهو مما يستبعده العقل، وإلى نحو هذا ذهب أبو إسحاق الزجاج إلا أنه قال: عرض الأمانة وضع شواهد الوحدانية في المصنوعات، ونقله عنه أبو حيان وذكر البيت المار آنفاً لكنه تعقبه بأن الحمل فيه ليس نصاً في الخيالة، وقيل المراد بالأمانة العقل أو التكليف وبعرضها عليهن اعتبارها بالإضافة إلى استعدادهن وبإبائهن الإباء الطبيعي الذي هو عدم اللياقة والاستعداد لها وبحمل الإنسان قابليته واستعداده لها وكونه ظلوماً جهولاً لما غلب عليه من القوة الغضبية الداعية للظلم والشهوية الداعية للجهل بعواقب الأمور، قيل وعليه ينتظم قوله تعالى: ﴿**إنه كان ظلوماً جهولاً**﴾ مع ما قبله على أنه علته باعتبار حمل العقل عليه بمعنى إيداعه فيه لأجل إصلاح ما فيه من القوتين المحتاجتين إلى سلطان العقل الحاكم عليهما فكأنه قيل: حملناه ذلك لما فيه من القوى المحتاجة لقهره وضبطه، وكذا إذا أريد التكليف فإن معظم المقصود منه تعديل تلك القوى وكسر سورتها، ومن هنا قيل إنه أقرب للتحقيق، وقيل الأمانة تجلياته عزّ وجلّ بأسمائه الحسنى وصفاته تعالى العليا وعرضها عليهن وإباؤهن وحمل الإنسان كالمذكور آنفاً.

وقوله تعالى: «إنه كان ظلوماً جهولاً» تعليل للحمل مشار به إلى قوة استعداده، وقوله سبحانه: «ليعذب» تعليل للعرض على معنى عرضنا ذلك لتظهر تجلياتنا الجلالية والجمالية، ويشير إلى هذا قول العلامة الطيبي عليه الرحمة: إن الله تعالى خلق الخلق ليكون مظاهر أسمائه الحسنى وصفاته العليا فحامل معنى الكبرياء والعظمة السماوات والأرض والجبال من حيث كونها عاجزة عن حمل سائر الصفات لعدم استعدادها لقبولها ولذلك أبين أن يحملنها وأشفقن منها

وحملها الإنسان لقوة استعداده واقتداره لكونه ظلوماً جهولاً فاختص لذلك من بين سائر المخلوقات بقبول تجلي القهارية والتوابية والمغفرة وشاركها بقبول تجلي الرحمة وله النصيب الأوفر منها لقوة استعداده واقتداره، وهو مشرب صوفي كما لا يخفى وأنا اختار كون الأمانة كل ما يؤتمن عليه ويطلب حفظه ورعايته ولها أفراد كثيرة متفاوتة في جلالة القدر وإن عرضها على تلك الأجرام كان على وجه التخيير لهن في حملها لا الإلزام وأنهن خوطبن في ذلك وعقلن الخطاب والله عزّ وجلّ قادر على أن يخلق في كل ذرة من ذرات الكائنات الحياة والعلم كما خلقهما سبحانه في ذوي الألباب بل ذهب الفلاسفة إلى القول بثبوت النفوس والحركة الإرادية للأفلاك بل قال بعضهم نحو ذلك في الكواكب وأثبت الحركة الإرادية ونفي القواسر هناك وأن المراد بالإنسان الجنس وأن قوله تعالى: ﴿**إنه كان ظلوماً جهولاً**﴾ في موضع التعليل للحمل.

ووصف الجنس بصيغتي المبالغة لكثرة الأفراد المتصفة بالظلم والجهل منه وإن لم يكونا فيها على وجه المبالغة بل لا يخلو فرد من الأفراد عن الاتصاف بظلم ما وجهل ما، ولا يجب في وصف الجنس بصيغة المبالغة تحقق تلك الصفة في الأفراد كلاً أو بعضاً على وجه المبالغة، نعم إن تحقق ذلك فهو زيادة خير، كما فيما نحن فيه فإن أكثر أفراد الإنسان في غاية الظلم ونهاية الجهل، ولعل المراد بظلوم جهول من شأنه الظلم والجهل وأن قوله تعالى: ﴿**ليعذب**﴾ الخ متعلق بعرضنا على أنه تعليل له، وفي الكلام التفات لا يخفى، وتقديم التعذيب لأنه أوفق بصفتي الظلم والجهل، وقيل: لأن الأمانة من حكمها اللازم أن خائنها يضمن وليس من حكمها أن حافظها يؤجر، ومقابلة التعذيب بالتوبة دون الإثابة أو الرحمة للإشارة إلى أن في المؤمنين والمؤمنات من يصدر منه ما يصح أن يعذب عليه ومع ذلك لا يعذب، وفيه إشعار بأنه لا يعذب على كل ظلم وجهل وفي هذا من إدخال السرور على المؤمنين والكآبة على أضدادهم ما فيه، وأيضاً أن ذلك أوفق بظاهر قوله تعالى: «إنه كان ظلوماً جهولاً» وقيل لم يعتبر بالإثابة لأنها علمت من قوله سبحانه: ﴿**ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً**﴾ فعبر بما ذكر للتنبيه على أن ذلك بمحض الفضل وهو كما ترى، وقيل إن ذاك لأن التذييل متكفل بإفادة رحمتهم وإثابتهم.

وقرأ الحسن كما ذكر صاحب اللوامح «ويتوب» بالرفع على الاستئناف ﴿**وَكَانَ الله غَفُوراً رَحِيماً**﴾ أي مبالغاً في المغفرة والرحمة حيث تاب على المؤمنين والمؤمنات وغفر لهم فرطاتهم وأثابهم بالفوز العظيم على طاعاتهم نسأل الله تعالى أن يتوب علينا ويغفر لنا ويثيبنا بالفوز العظيم إنه جل جلاله وعم نواله غفور رحيم.

ومن باب الإشارة في آيات من هذه السورة الكريمة ﴿**يا أيها النبي اتق الله**﴾ الخ فيه إشارة إلى عظم شأن التقوى وكذا شأن كل أمر ونهي يتعلقان به عليه الصلاة والسلام، وفيه أيضاً إشارة إلى أنه لا ينبغي محبة أعداء الله عزّ وجلّ حيث نهى عن طاعتهم وهما كالمتلازمين ﴿**ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه**﴾ لأن موقعه في البدن موقع الرئيس في المملكة والحكمة تقتضي وحدة الرئيس، وفي الخبر إذا بويع خليفتان فاقتلوا أحدهما.

وقيل: إن ذاك لتشعر وحدته في بدن الإنسان الذي هو العالم الأصغر المنطوي فيه العالم الأكبر بوحدة الله سبحانه في الوجود، وينبغي أن يعلم أن للقلب عندهم كما قال الصدر القونوي إطلاقين الأول إطلاقه على اللحم الصنوبري الشكل المعروف عند الخاصة والعامة والثاني إطلاقه على الحقيقة الجامعة بين الأوصاف والشؤون الربانية وبين الخصائص والأحوال الكونية الروحانية منها والطبيعة وهي تنشأ من بين الهيئة الإجتماعية الواقعة بين الصفات والحقائق الإلهية والكونية وما يشتمل عليه هذان الأصلان من الأخلاق والصفات اللازمة وما يتولد من بينهما بعد الارتياض والتزكية وظهور ذلك مما ذكر ظهور السواد بين العفص والزاج والماء وهذا هو القلب الذي أخبر عنه الحق على لسان نبيه ﷺ بقوله سبحانه: «ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن التقي النقي الوادع» وهو

محل نظر الحق ومنصة تجليه ومهبط أمره ومنزل تدليه واللحم الصنوبري أحقر من حيث صورته أن يكون محل سره جل وعلا فضلاً عن أن يسعه سبحانه ويكون مطمح نظره الأعلى ومستواه، وادعوا أن تسمية ذلك الصنوبري الشكل بالقلب على سبيل المجاز باعتبار تسمية الصفة والحامل باسم الموصوف والمحمول «وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم وما جعل أدعياءكم أبناءكم» فيه أن الحقائق لا تنقلب وأن في القرابة النسبية خواص لا تكون في القرابة السببية فأين الأزواج من الأمهات والأدعياء من الأبناء فالأمهات أصول ولا كذلك الأزواج والأبناء فروع ولا كذلك الأدعياء، ومن هنا قيل: الولد سر أبيه، وقد أورده الشمس الفناري في مصباح الأنس حديثاً بصيغة الجزم من غير عزو ولا سند ولا يصح ذلك عند المحدثين، وهو إشارة إلى الأوصاف والأخلاق والكمالات التي يحصلها الولد بالسراية من والده لا بواسطة توجه القلب إلى حضرة الغيب الإلهي وعالم المعاني فإنه باعتبار ذلك قد تحصل للولد أوصاف وأخلاق على خلاف حال والده، ومنه يظهر سر ﴿يخرج الحي من الميت﴾ [الأنعام: ٩٥، يونس: ٣١، الروم: ١٩] **﴿فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم﴾** فيه إشارة إلى أن للدين نوعاً من الأبوة ولهذا قد يقع به التوارث **﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾** لأنه عليه الصلاة والسلام يحب لهم فوق ما يحبون لها ويسلك بهم المسلك الذي يوصلهم إلى الحياة الأبدية **﴿وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم﴾** أي في الأزل إذ كانوا أعياناً ثابتة أو يوم الميثاق إذ صار لهم نوع تعين **﴿ليسأل الصادقين عن صدقهم﴾** سؤال تشريف لا تعنيف، والصدق على ما قالوا إن لا يكون في أحوالك شوب ولا في أعمالك عيب ولا في اعتقادك ريب، ومن أماراته وجود الإخلاص من غير ملاحظة المخلوق وتصفية الأحوال من غير مداخلة إعجاب وسلامة القول من المعاريض والتباعد عن التلبيس فيما بين الناس وإدامة التبري من الحول والقوة بل الخروج من الوجود المجازي شوقاً إلى الوجود الحقيقي **﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود﴾** الخ طبق بعضهم ما تضمنته الآيات من قصة الأحزاب على ما في الأنفس ولا يخفى حاله، ومن غريب ما رأيت أن الشيخ محيي الدين قدس الله سره قسم الأولياء إلى أقسام وجعل منهم قسماً يقال لهم اليثْربيون وقال: هم قوم من الأولياء لا مقام لهم كما لسائر الأولياء وجعل قول المنافقين **﴿يا أهل يثرب لا مقام لكم﴾** إشارة إلى ذلك، وكم قول غريب لهذا الشيخ غفر الله تعالى له **﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾** لأنه عليه الصلاة والسلام أكمل الخلق على الإطلاق وأحظى الناس بإشراق أنوار أخلاقه عليه الذين يرجون الله تعالى واليوم الآخر ويذكرونه عزّ وجلّ كثيراً لصقالة قلوبهم وقوة استعدادها لإشراق الأنوار وظهور الآثار **﴿من المؤمنين رجال﴾** أي رجال كاملون، وقول بعضهم: أي متصرفون في الموجودات تصرف الذكور في الأناث كلام بشع تنقبض منه ككثير من كلام المتصوفة قلوب المقتفين للسلف الصالح.

﴿يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً﴾ الخ فيه إشارة إلى أن حب الدنيا وزينتها يكون سبباً لمفارقة رسول الله ﷺ والبعد عن حضرته الشريفة وأن محبته عليه الصلاة والسلام تكون سبباً للأجر العظيم **﴿يا نساء النبي من يأت منكن﴾** الخ فيه إشارة إلى تفاوت قبح المعاصي وحسن الطاعات باعتبار الأشخاص ومثل ذلك تفاوتها باعتبار الأماكن والأزمان **﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن تكون لهم الخيرة من أمرهم﴾** إشارة إلى مقام التسليم وأنه اللائق بالمؤمنين وهذا حكم مستمر على الأمة إلى يوم القيامة فلا ينبغي لأحد بلغه شيء عن الله عزّ وجلّ وعن رسوله ﷺ أن يختار لنفسه خلافه لإشعار ذلك باتهام الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام.

ولعل الإشارة في الآيات بعد ظاهرة لمن له أدنى التفات بيد أنهم أطالوا الكلام في الأمانة المذكورة في قوله تعالى: ﴿إنا عرضنا الأمانة﴾ الآية فلنذكر بعضاً من ذلك فنقول: قال الشيخ محيي الدين قدس سره في بلغة الغواص: إن الأمانة التي عرضت على السماوات والأرض فأبين أن يحملنها هي السعة لمعرفة الله تعالى فلم يوجد في السماوات والأرض قبول لما قبله الإنسان بهذا التأليف الصوري إذ هو ثمرة العالم فهو يرى نفسه في العالم ويرى ربه سبحانه بالعالم الذي هو نفسه من حيث هو كل العالم فلذلك اتسع لما لم يسعه العالم ولذلك خصه سبحانه بالسعة حيث أخبر جل شأنه أنه لم يسعه سماواته ولا أرضه ووسعه قلب المؤمن من نوع الإنسان انتهى.

وكأنه أراد بكونه وسع الحق سبحانه كونه مظهراً جامعاً للأسماء والصفات على وجه لا ينافي تنزيه الحق جل جلاله، وهذا قريب مما ذكرناه في التفسير وقلنا إنه مشرب صوفي كما لا يخفي، وقال آخر: هي عبارة عن الفيض الإلهي بلا واسطة وحمله خاص بالإنسان لأن نسبته مع المخلوقات كنسبة القلب مع الشخص فالعالم شخص وقلبه الإنسان فكما أن القلب حامل للروح بلا واسطة وتسري منه بواسطة العروق والشرايين ونحوها إلى سائر البدن كذلك الإنسان حامل للفيض الإلهي بلا واسطة ويسري منه إلى ظاهر الكون وباطنه بواسطة ظاهره وباطنه من أعمال البدن والروح فظاهر العالم وباطنه معموران بظاهر الإنسان وباطنه وهذا سر الخلافة ومعنى كونه ظلوماً أنه ظالم لنفسه حيث استعد لأن يحمل أمراً عظيماً وكونه جهولاً أنه جاهل بها حيث لم يعرف حقيقتها ولم يدرك منها سوى الصورة الحيوانية المتصفة بالصفات البهيمية من الأكل والشرب والنكاح وهاتان الصفتان في حق حاملي الأمانة ومؤدي حقها من حيث إنهما صارتا سبباً لحمل الأمانة صفتا مدح وفي حق الخائنين صفتا ذم والشيء قد يكون ذماً في حق شخص ومدحاً في حق آخر، والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل ومنه الاستمداد في فهم كلامه العزيز الجليل.

(٣٤) سورة سبأ مكية
وآياتها أربع وخمسون

مكية وقيل فيها بك الآية)
وقيل فيها آية مدنية وهى (ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك الآية)
وقيل خمس وخمسون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الحمد لله الذى له مافى السموات ومافى الأرض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير ﴾ السور المفتتحة بالحمد خمس سور سورتان منها فى النصف الأول وهما الأنعام والكهف وسورتان فى الأخير وهما هذه السورة وسورة الملائكة والخامسة وهى فاتحة الكتاب تقرأ مع النصف الأول ومع النصف الأخير والحكمة فيها أن نعم الله مع كثرتها وعدم قدرتنا على إحصائها منحصرة فى قسمين نعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء ، فان الله تعالى خلقنا أولا برحمته وخلق لنا مانقوم به وهذه النعمة توجد مرة أخرى بالإعادة فانه يخلقنا مرة أخرى ويخلق لنا مايدوم فلنا حالتان الابتداء والاعادة وفى كل حالة له تعالى علينا نعمتان نعمة الايجاد ونعمة الابقاء فقال فى النصف الأول (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور) إشارة إلى الشكر على نعمة الايجاد ويدل عليه قوله تعالى فيه (هو الذى خلقكم من طين) إشارة إلى الايجاد الأول وقال فى السورة الثانية وهى الكهف (الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قيما) إشارة إلى الشكر على نعمة الإبقاء ، فان الشرائع بها البقاء ولولا شرع ينقاد له الخلق لاتبع كل واحد هواه ولو وقعت المنازعات فى المشتبهات وأدى إلى التقاتل والتفانى ، ثم قال فى هذه السورة (الحمد لله) إشارة إلى نعمة الايجاد الثانى ويدل عليه قوله تعالى (وله الحمد فى الآخرة) وقال فى الملائكة (الحمد لله) إشارة إلى نعمة الابقاء ويدل عليه قوله تعالى جاعل الملائكة رسلا والملائكة بأجمعهم لا يكونون رسلا إلا يوم القيامة يرسلهم الله مسلمين كما قال تعالى (وتتلقاهم الملائكة) وقال تعالى عنهم (سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين) وفاتحة الكتاب لما اشتملت على ذكر النعمتين بقوله تعالى (الحمد لله رب العالمين) اشارة إلى النعمة العاجلة وقوله (مالك يوم الدين) إشارة إلى النعمة

يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾

الآجلة قرئت فى الافتتاح وفى الاختتام ، ثم فى مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الحمد شكر والشكر على النعمة والله تعالى جعل ما فى السموات وما فى الأرض لنفسه بقوله (له مافى السموات ومافى الأرض) ولم يبين أنه لنا حتى يجب الشكر نقول جواباً عنه الحمد يفارق الشكر فى معنى وهو أن الحمد أعم فيحمد من فيه صفات حميدة وإن لم ينعم على الحامد أصلا ، فان الإنسان يحسن منه أن يقول فى حق عالم لم يجتمع به أصلا أنه عالم عامل بارع كامل فيقال له إنه يحمد فلاناً ولا يقال إنه يشكره إلا إذا ذكر نعمه أو ذكره على نعمه فالله تعالى محمود فى الأزل لاتصافه بأوصاف الكمال ونعوت الجلال ومشكور ولا يزال على ما أبدى من الكرم وأسدى من النعم فلا يلزم ذكر النعمة للحمد بل يكفى ذكر العظمة وفى كونه مالك ما فى السموات ومافى الأرض عظمة كاملة فله الحمد على أنا نقول قوله (له مافى السموات ومافى الأرض) يوجب شكراً أتم مما يوجبه قوله تعالى (خلق لكم مافى الأرض) وذلك لأن ما فى السموات والأرض إذا كان لله ونحن المنتفعون به لا هو ، يوجب ذلك شكراً لا يوجبه كون ذلك لنا .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قد ذكرتم أن الحمد ههنا إشارة إلى النعمة التى فى الآخرة ، فلم ذكر الله السموات والأرض ؟ فنقول نعم الآخرة غير مرئية فذكر الله النعم المرئية وهى مافى السموات ومافى الأرض ، ثم قال (وله الحمد فى الآخرة) ليقاس نعم الآخرة بنعم الدنيا ويعلم فضلها بدوامها وفناء العاجلة ولهذا قال (وهو الحكيم الخبير) إشارة إلى أن خلق هذه الأشياء بالحكمة والخبر، والحكمة صفة ثابتة لله لا يمكن زوالها فيمكن منه إيجاد أمثال هذه مرة أخرى فى الآخرة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الحكمة هى العلم الذى يتصل به الفعل فإن من يعلم أمراً ولم يأت بما يناسب علمه لا يقال له حكيم ، فالفاعل الذى فعله على وفق العلم هو الحكيم ، والخبير هو الذى يعلم عواقب الأمور وبواطنها فقوله (حكيم) أى فى الابتداء يخلق كما ينبغى وخبير أى بالانتهاء يعلم ماذا يصدر من المخلوق وما لا يصدر إلى ماذا يكون مصير كل أحد فهو حكيم فى الابتداء خبير فى الانتهاء .

ثم بين الله تعالى كما أخبره بقوله ﴿ يعلم مايلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور ﴾

ما يلج فى الأرض من الحبة والأموات ويخرج منها من السنابل والأحياء وماينزل من السماء

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٣﴾ لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٤﴾

من أنواع رحمته منها المطر ومنها الملائكة ومنها القرآن ، وما يعرج فيها منها الكلم الطيب لقوله تعالى (إليه يصعد الكلم الطيب) ومنها الأرواح ومنها الأعمال الصالحة لقوله (والعمل الصالح يرفعه) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قدم ما يلج فى الأرض على ماينزل من السماء ، لأن الحبة تبذر أولا ثم تسقى ثانياً .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال وما يعرج فيها ولم يقل يعرج إليها إشارة إلى قبول الأعمال الصالحة ومرتبة النفوس الزكية وهذا لأن كلمة إلى للغاية ، فلو قال وما يعرج إليها لفهم الوقوف عند السموات فقال (وما يعرج فيها) ليفهم نفوذها فيها وصعودها منها ولهذا قال فى الكلم الطيب (إليه يصعد الكلم الطيب) لأن الله هو المنتهى ولا مرتبة فوق الوصول إليه ، وأما السماء فهى دنيا وفوقها المنتهى .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال (وهو الرحيم الغفور) رحيم بالإنزال حيث ينزل الرزق من السماء ، غفور عند ماتعرج إليه الأرواح والأعمال فرحم أولا بالانزال وغفر ثانياً عند العروج .

ثم بين أن هذه النعمة التى يستحق الله بها الحمد وهى نعمة الآخرة أنكرها قوم فقال تعالى ﴿ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة ﴾ ثم رد عليهم وقال ﴿ قل بلى وربى لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم ﴾

أخبر بإتيانها وأكده باليمين ، قال الزمخشرى رحمه الله : لو قال قائل كيف يصح التأكيد باليمين مع أنهم يقولون لا رب وإن كانوا يقولون به ، لكن المسألة الأصولية لا تثبت باليمين وأجاب عنه بأنه لم يقتصر على اليمين بل ذكر الدليل وهو قوله (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وبيان كونه دليلا هو أن المسىء قد يبقى فى الدنيا مدة مديدة فى اللذات العاجلة ويموت عليها والمحسن قد يدوم فى دار الدنيا فى الآلام الشديدة مدة ويموت فيها ، فلولا دار تكون الأجزية فيها لكان

الأمر على خلاف الحكمة ، والذى أقوله أنا هو أن الدليل المذكور فى قوله (عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة) أظهر ، وذلك لأنه إذا كان عالماً بجميع الأشياء يعلم أجزاء الأحياء ويقدر على جمعها فالساعة ممكنة القيام ، وقد أخبر عنها الصادق فتكون واقعة ، وعلى هذا فقوله تعالى (فى السموات ولا فى الأرض) فيه لطيفة وهى أن الإنسان له جسم وروح والأجسام أجزاؤها فى الأرض والأرواح فى السماء فقوله (لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات) إشارة إلى علمه بالأرواح وقوله(ولا فى الأرض) إشارة إلى علمه بالأجسام ، وإذا علم الأرواح والأشباح وقدر على جمعها لا يبقى استبعاد فى المعاد . وقوله (ولا أصغر من ذلك) إشارة إلى أن ذكر مثقال الذرة ليس للتحديد بل الأصغر منه لا يعزب ، وعلى هذا فلو قال قائل فأى حاجة إلى ذكر الأكبر ، فإن من علم الأصغر من الذرة لا بد من أن يعلم الأكبر ؟ فنقول لما كان الله تعالى أراد بيان إثبات الأمور فى الكتاب ، فلو اقتصر على الأصغر لتوهم متوهم أنه يثبت الصغائر لكونها محل النسيان ، أما الأكبر فلا ينسى فلا حاجة إلى إثباته ، فقال الاثبات فى الكتاب ليس كذلك فإن الأكبر أيضاً مكتوب فيه ، ثم لما بين علمه بالصغائر والكبائر ذكر أن جمع ذلك وإثباته للجزاء فقال (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم) ذكر فيهم أمرين الإيمان والعمل الصالح ، وذكر لهم أمرين المغفرة والرزق الكريم ، فالمغفرة جزاء الإيمان فكل مؤمن مغفور له ويدل عليه قوله تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) وقوله عليه السلام فيما أخبرنا به تاج الدين عيسى بن أحمد بن الحاكم البندهى قال أخبرنى والدى عن جدى عن محيى السنة عن عبد الواحد المليجى عن أحمد بن عبد الله النعيمى عن محمد بن يوسف الفربرى عن محمد بن اسماعيل البخارى « يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفى قلبه وزن ذرة من إيمان » والرزق الكريم من العمل الصالح وهو مناسب فان من عمل لسيد كريم عملا ، فعند فراغه من العمل لابد من أن ينعم عليه إنعاماً ويطعمه طعاماً ، ووصف الرزق بالكريم قد ذكرنا أنه بمعنى ذى كرم أومكرم ، أو لأنه يأتى من غير طلب بخلاف رزق الدنيا ، فانه مالم يطلب ويتسبب فيه لايأتى ، وفى التفسير مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (أولئك لهم مغفرة ورزق كريم) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون لهم ذلك جزاء فيوصله إليهم لقوله (ليجزى الذين آمنوا) ، (وثانيهما) أن يكون ذلك لهم والله يجزيهم بشىء آخر لأن قوله (أولئك لهم) جملة تامة إسمية ، وقوله تعالى (ليجزى الذين آمنوا) جملة فعلية مستقلة ، وهذا أبلغ فى البشارة من قول القائل . ليجزى الذين آمنوا رزقاً .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اللام فى ليجزى للتعليل ، معناه الآخرة للجزاء ، فان قال قائل : فما وجه المناسبة ؟ فنقول : الله تعالى أراد أن لاينقطع ثوابه فجعل للمكلف داراً باقية ليكون ثوابه واصلا إليه دائماً أبداً ، وجعل قبلها داراً فيها الآلام والأسقام وفيها الموت ليعلم المكلف مقدار ما يكون

وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ

فيه فى الآخرة إذا نسبه إلى ماقبلها وإذا نظر إليه فى نفسه .

﴿ **المسألة الثالثة** ﴾ ميز الرزق بالوصف بقوله كريم ولم يصف المغفرة واحدة هى للمؤمنين والرزق منه شجرة الزقوم والحميم ، ومنه الفواكه والشراب الطهور ، فميز الرزق لحصول الانقسام فيه ، ولم يميز المغفرة لعدم الانقسام فيها .

ثم قال تعالى ﴿ والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم ﴾ .

لما بين حال المؤمنين يوم القيامة بين حال الكافرين ، وقوله (والذين سعوا فى آياتنا) أى بالابطال ، ويكون معناه الذين كذبوا بآياتنا وحينئذ يكون هذا فى مقابلة ماتقدم لأن قوله تعالى (آمنوا) معناه صدقوا وهذا معناه كذبوا فان قيل من أين علم كون سعيهم فى الإبطال مع أن المذكور مطلق السعى ؟ فنقول فهم من قوله تعالى (معاجزين) وذلك لأنه حال معناه سعوا فيها وهم يريدون التعجيز وبالسعى فى التقرير والتبليغ لايكون الساعى معاجزاً لأن القرآن وآيات الله معجزة فى نفسها لاحاجة لها إلى أحد . وأما المكذب فهو آت بإخفاء آيات بينات، فيحتاج إلى السعى العظيم والجد البليغ ليروج كذبه لعله يعجز المتمسك به ، وقيل بأن المراد من قوله (معاجزين) أى ظانين أنهم يفوتون الله ، وعلى هذا يكون كون الساعى ساعياً بالباطل فى غاية الظهور ، ولهم عذاب فى مقابلة لهم رزق ، وفى الآية لطائف (الأولى) قال ههنا (لهم عذاب) ولم يقل يجزيهم الله ، وقد تقدم القول منا أن قوله تعالى (ليجزى الذين آمنوا) يحتمل أن يكون الله يجزيهم بشىء آخر ، وقوله (أولئك لهم مغفرة) إخبار عن مستحقهم المعد لهم ، وعلى الجملة فاحتمال الزيادة هناك قائم نظراً إلى قوله (ليجزى) وههنا لم يقل ليجازيهم فلم يوجد ذلك (الثانية) قال هناك لهم مغفرة ثم زادهم فقال (ورزق كريم) وههنا لم يقل إلا لهم عذاب من رجز أليم ، والجواب تقدم فى مثله (الثالثة) قال هناك (لهم مغفرة ورزق كريم) ولم يقلله بمن التبعيضية فلم يقل لهم نصيب من رزق ولا رزق من جنس كريم ، وقال ههنا (لهم عذاب من رجز أليم) بلفظة صالحة للتبعيض وكل ذلك إشارة إلى سعة الرحمة وقلة الغضب بالنسبة إليها والرجز قيل أسوأ العذاب ، وعلى هذا (من) لبيان الجنس كقول القائل خاتم من فضة ، وفى الأليم قراءتان الجر والرفع فالرفع على أن الأليم وصف العذاب كأنه قال عذاب أليم من أسوأ العذاب والجر على أنه وصف للرجز والرفع أقرب نظراً إلى المعنى ، والجر نظراً إلى اللفظ ، فان قيل فلم تنحصر الأقسام فى المؤمن الصالح عمله والمكذب الساعى المعجز لجواز أن يكون أحد مؤمناً ليس له عمل صالح أو كافر متوقف ، فنقول إذا علم حال الفريقين المذكورين يعلم أن المؤمن قريب الدرجة ممن تقدم أمره والكافر قريب الدرجة ممن سبق ذكره وللمؤمن مغفرة ورزق كريم ، وإن لم يكن فى الكرامة مثل رزق الذى عمل صالحاً

﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧ ﴾

وللكافر غير المعاند عذاب وإن لم يكن من أسوأ الأنواع التى للمكذبين المعاندين .

قوله تعالى : ﴿ ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدى الى صراط العزيز الحميد ﴾ .

لما بين حال من يسعى فى التكذيب فى الآخرة بين حاله فى الدنيا وهو أن سعيه باطل فان من أوتى علماً لايغتر بتكذيبه ويعلم أن ما أنزل إلى محمد صلى الله عليه وسلم حق وصدق ، وقوله هو الحق يفيد الحصر أى ليس الحق إلا ذلك ، وأما قول المكذب فباطل ، بخلاف ما إذا تنازع خصمان ، والنزاع لفظى فيكون قول كل واحد حقاً فى المعنى ، وقوله تعالى (ويهدى إلى صراط العزيز الحميد) يحتمل أن يكون بياناً لكونه هو الحق فانه هاد إلى هذا الصراط ، ويحتمل أن يكون بياناً لفائدة أخرى ، وهى أنه مع كونه حقاً هادياً والحق واجب القبول فكيف إذا كان فيه فائدة فى الاستقبال وهى الوصول إلى الله ، وقوله (العزيز الحميد) يفيد رغبة ورهبة ، فانه إذا كان عزيزاً يكون ذا انتقام ينتقم من الذى يسعى فى التكذيب ، وإذا كان حميداً يشكر سعى من يصدق ويعمل صالحاً ، فإن قيل كيف قدم الصفة التى للهيبة على الصفة التى للرحمة مع أنك أبداً تسعى فى بيان تقديم جانب الرحمة ؟ نقول كونه عزيزاً تام الهيبة شديد الانتقام يقوى جانب الرغبة لأن رضا الجبار العزيز أعز وأكرم من رضا من لا يكون كذلك ، فالعزة كما تخوف ترجى أيضاً ، وكما ترغب عن التكذيب ترغب فى التصديق ليحصل القرب من العزيز .

قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد ﴾ .

وجه الترتيب : هو أن الله تعالى لما بين أنهم أنكروا الساعة ورد عليهم بقوله (قل بلى وربى لتأتينكم) وبين ما يكون بعد إتيانها من جزاء المؤمن على عمله الصالح وجزاء الساعى فى تكذيب الآيات بالتعذيب على السيئات ، بين حال المؤمن والكافر بعد قوله (قل بلى وربى لتأتينكم) فقال المؤمن هو الذى يقول الذى أنزل إليك الحق وهو يهدى ، وقال الكافر هو الذى يقول هو باطل ، ومن غاية اعتقادهم وعنادهم فى إبطال ذلك قالوا على سبيل التعجب (هل ندلكم على رجل منكم ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد؟) وهذا كقول القائل فى الاستبعاد ، جاء رجل يقول إن الشمس تطلع من المغرب إلى غير ذلك من المحالات .

أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً

قوله تعالى : ﴿ أفترى على الله كذباً أم به جنة بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد ﴾ هذا يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون تمام قول الذين كفروا أولا أعنى هو من كلام من قال (هل ندلكم) ويحتمل أن يكون من كلام السامع المجيب لمن قال (هل ندلكم) كأن السامع لما سمع قول القائل (هل ندلكم على رجل) قال له : أهو يفترى على الله كذباً ؟ إن كان يعتقد خلافه ، أم به جنة [أى] جنون؟ إن كان لا يعتقد خلافه (وفى هذا لطيفة) وهى أن الكافر لا يرضى بأن يظهر كذبه ، ولهذا قسم ولم يجزم بأنه مفتر ، بل قال مفتر أو مجنون ، احترازاً من أن يقول قائل كيف يقول بأنه مفتر ، مع أنه جائز أن يظن أن الحق ذلك فظن الصدق يمنع تسمية القائل مفترياً وكاذباً فى بعض المواضع ، ألا ترى أن من يقول جاء زيد ، فاذا تبين أنه لم يجىء وقيل له كذبت ، يقول ما كذبت ، وإنما سمعت من فلان أنه جاء ، فظننت أنه صادق فيدفع الكذب عن نفسه بالظن ، فهم احترزوا عن تبين كذبهم ، فكل عاقل ينبغى أن يحترز عن ظهور كذبه عند الناس ، ولا يكون العاقل أدنى درجة من الكافر ، ثم إنه تعالى أجابهم مرة أخرى وقال (بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب) فى مقابلة قولهم (أفترى على الله كذباً) وقوله (والضلال البعيد) فى مقابلة قولهم (به جنة) وكلاهما مناسب . أما العذاب فلأن نسبة الكذب إلى الصادق مؤذية ، لأنه شهادة عليه بأنه يستحق العذاب فجعل العذاب عليهم حيث نسبوه إلى الكذب . وأما الجنون فلأن نسبة الجنون إلى العاقل دونه فى الإيذاء ، لأنه لا يشهد عليه بأنه يعذب ، ولكن ينسبه إلى عدم الهداية فبين أنهم هم الضالون ، ثم وصف ضلالهم بالبعد ، لأن من يسمى المهتدى ضالا يكون هو الضال ، فمن يسمى الهادى ضالا يكون أضل ، والنبى عليه الصلاة والسلام كان هادى كل مهتد .

قوله تعالى : ﴿ أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء ﴾ لما ذكر الدليل بكونه عالم الغيب وكونه جازياً على السيئات والحسنات ذكر دليلا آخر وذكر فيه تهديداً . أما الدليل فقوله (من السماء والأرض) فإنهما يدلان على الوحدانية كما بيناه مراراً ، وكما قال تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) ويدلان على الحشر لأنهما يدلان على كمال قدرته ومنها الإعادة ، وقد ذكرناه مراراً ، وقال تعالى (أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم

لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَـٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾

وأما التهديد فبقوله (إن نشأ نخسف بهم الأرض) يعنى نجعل عين نافعهم ضارهم بالخسف والكسف .

قوله تعالى : ﴿ إن فى ذلك لآية لكل عبد منيب ﴾ أى لكل من يرجع إلى الله ويترك التعصب ثم إن الله تعالى لما ذكر من ينيب من عباده ، ذكر منهم من أناب وأصاب ومن جملتهم داود كما قال تعالى عنه (فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب) وبين ما أتاه الله على أنابته فقال :

﴿ ولقد آتينا داود منا فضلا ياجبال أوبى معه والطير وألنا له الحديد ﴾ وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله تعالى (منا) إشارة إلى بيان فضيلة داود عليه السلام . وتقريره هو أن قوله (ولقد آتينا داود منا فضلا) مستقل بالمفهوم وتام كما يقول القائل: آتى الملك زيداً خلعة ، فاذا قال القائل آتاه منه خلعة يفيد أنه كان من خاص ما يكون له ، فكذلك إيتاء الله الفضل عام لكن النبوة من عنده خاص بالبعض ، ومثل هذا قوله تعالى (يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان) فان رحمة الله واسعة تصل إلى كل أحد فى الدنيا لكن رحمته فى الآخرة على المؤمنين رحمة من عنده لخواصه فقال (يبشرهم ربهم برحمة منه) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى قوله (ياجبال أوبى معه) قال الزمخشرى (ياجبال) بدل من قوله (فضلا) معناه آتيناه فضلا قولنا يا جبال ، أو من آتينا ومعناه قلنا ياجبال .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قرئ أوبى بتشديد الواو من التأويب وبسكونها وضم الهمزة أوبى من الأوب وهو الرجوع والتأويب الترجيع ، وقيل بأن معناه سيرى معه ، وفى قوله (يسبحن) قالوا هو من السباحة وهى الحركة المخصوصة .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قرئ (والطير) بالنصب حملا على محل المنادى والطير بالرفع حملا على لفظه.

﴿ المسألة الخامسة ﴾ لم يكن الموافق له فى التأويب منحصراً فى الجبال والطير ولكن ذكر الجبال ، لأن الصخور للجمود والطير للنفور تستبعد منهما الموافقة ، فاذا وافقه هذه الأشياء فغيرها أولى ، ثم إن من الناس من لم يوافقه وهم القاسية قلوبهم التى هى أشد قسوة من الحجارة .

﴿ المسألة السادسة ﴾ قوله (وألنا له الحديد) عطف ، والمعطوف عليه يحتمل أن يكون قلنا المقدر فى قوله ياجبال تقديره قلنا (ياجبال) أوبى وألنا ، ويحتمل أن يكون عطفاً على آتينا تقديره آتيناه فضلا وألنا له .

﴿ المسألة السابعة ﴾ ألان الله له الحديد حتى كان فى يده كالشمع وهو فى قدرة الله يسير ، فانه يلين بالنار وينحل حتى يصير كالمداد الذى يكتب به ، فأى عاقل يستبعد ذلك من قدرة الله ، قيل

أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾

إنه طلب من الله أن يغنيه عن أكل مال بيت المال فألان له الحديد وعلمه صنعة اللبوس وهى الدروع ، وإنما اختار الله له ذلك ، لأنه وقاية للروح التى هى من أمره وسعى فى حفظ الآدمى المكرم عند الله من القتل ، فالزراد خير من القواس والسياف وغيرهما .

قوله تعالى : ﴿ أن اعمل سابغات وقدر فى السرد واعملوا صالحاً إنى بما تعملون بصير ﴾ قيل إن أن ههنا للتفسير فهى مفسرة ، بمعنى أى اعمل سابغات وهو تفسير (ألنا) وتحقيقه لأن يعمل ، يعنى ألنا له الحديد ليعمل سابغات ويمكن أن يقال ألهمناه أن اعمل وأن مع الفعل المستقبل للمصدر فيكون معناه : ألنا له الحديد وألهمناه عمل سابغات وهى الدروع الواسعة ذكر الصفة ويعلم منها الموصوف وقدر فى السرد ، قال المفسرون أى لا تغلظ المسامير فيتسع الثقب ولا توسع الثقب فتقلقل المسامير فيها ، ويحتمل أن يقال السرد هو عمل الزرد ، وقوله (وقدر فى السرد) أى الزرد إشارة إلى أنه غير مأمور به أمر إيجاب إنما هو اكتساب والكسب يكون بقدر الحاجة وباقى الأيام والليالى للعبادة فقدر فى ذلك العمل ولا تشغل جميع أوقاتك بالكسب بل حصل به القوت فحسب ، ويدل عليه قوله تعالى (واعملوا صالحاً) أى لستم مخلوقين إلا للعمل الصالح فاعملوا ذلك وأكثروا منه ، والكسب قدروا فيه ، ثم أكد طلب الفعل الصالح بقوله (إنى بما تعملون بصير) وقد ذكرنا مراراً أن من يعمل للملك شغلا ويعلم أنه بمرأى من الملك يحسن العمل ويتقنه ويجتهد فيه ، ثم لما ذكر المنيب الواحد ذكر منيباً آخر وهو سليمان ، كما قال تعالى (وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب) .

وذكر ما استفاد هو بالإنابة فقال ﴿ ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرىء (ولسليمان الريح) بالرفع وبالنصب وجه الرفع (ولسليمان الريح) مسخرة أو سخرت (لسليمان الريح) ووجه النصب (ولسليمان) سخرنا (الريح) وللرفع وجه آخر

وهو أن يقال معناه (ولسليمان الريح) كما يقال لزيد الدار ، وذلك لأن الريح كانت له كالمملوك المختص به يأمرها بما يريد حيث يريد .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الواو للعطف فعلى قراءة الرفع يصير عطفاً لجملة إسمية على جملة فعلية وهو لايجوز أولا يحسن فكيف هذا فنقول لما بين حال داود كأنه تعالى قال ماذكرنا لداود ولسليمان الريح ، وأما على النصب فعلى قولنا (وألنا له الحديد) كأنه قال وألنا لداود الحديد وسخرنا لسليمان الريح .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ المسخر لسليمان كانت ريحاً مخصوصة لا هذه الرياح ، فانها المنافع عامة فى أوقات الحاجات ويدل عليه أنه لم يقرأ إلا على التوحيد فما قرأ أحد الرياح .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال بعض الناس: المراد من تسخير الجبال وتسبيحها مع داود أنها كانت تسبح كما يسبح كل شيء (وإن من شيء إلا يسبح بحمده) ، وكان هو عليه السلام يفقه تسبيحها فيسبح ، ومن تسخير الريح أنه راض الخيل وهى كالريح وقوله (غدوها شهر) ثلاثون فرسخاً لأن من يخرج للتفرج فى أكثر الأمر لا يسير أكثر من فرسخ ويرجع كذلك ، وقوله فى حق داود (وألنا له الحديد) وقوله فى حق سليمان (وأسلنا له عين القطر) أنهم استخرجوا تذويب الحديد والنحاس بالنار واستعمال الآلات منهما والشياطين أى أناساً أقوياء وهذا كله فاسد حمله على هذا ضعف اعتقاده [و]عدم اعتماده على قدرة الله والله قادر على كل ممكن وهذه أشياء ممكنة .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ أقول قوله تعالى (وسخرنا مع داود الجبال) وقوله (ولسليمان الريح عاصفة) لو قال قائل ما الحكمة فى أن الله تعالى قال فى الأنبياء (وسخرنا مع داود الجبال) وفى هذه السورة قال (ياجبال أوبى معه) وقال فى الريح هناك وههنا (ولسليمان) تقول الجبال لما سبحت شرفت بذكر الله فلم يضفها إلى داود بلام الملك بل جعلها معه كالمصاحب ، والريح لم يذكر فيها أنها سبحت فجعلها كالمملوكة له وهذا حسن وفيه أمر آخر معقول يظهر لى وهو أن على قولنا (أوبى معه) سيرى فالجبل فى السير ليس أصلا بل هو يتحرك معه تبعاً ، والريح لاتتحرك مع سليمان بل تحرك سليمان مع نفسها ، فلم يقل الريح مع سليمان ، بل سليمان كان مع الريح (وأسلنا له عين القطر) أى النحاس (ومن الجن) أى سخرنا له من الجن ، وهذا ينبىء عن أن جميعهم ما كانوا تحت أمره وهو الظاهر .

واعلم أن الله تعالى ذكر ثلاثه أشياء فى حق داود وثلاثة فى حق سليمان عليهما الصلاة والسلام فالجبال المسخرة لداود من جنس تسخير الريح لسليمان ، وذلك لأن الثقيل مع ما هو أخف منه إذا تحركا ينسبق الخفيف الثقيل ويبقى الثقيل مكانه ، لكن الجبال كانت أثقل من الآدمى والآدمى أثقل من الريح فقدر الله أن سار الثقيل مع الخفيف أى الجبال مع داود على ما قلنا (أوبى) أى سيرى وسليمان وجنوده مع الريح الثقيل مع الخفيف أيضاً ، والطير من جنس تسخير الجن لأنهما

يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾

لا يجتمعان مع الإنسان ؛ الطير لنفوره من الإنس والإنس لنفوره من الجن ، فان الإنسان يتقى مواضع الجن ، والجن يطلب أبداً اصطياد الانسان والإنسان يطلب إصطياد الطير فقدر الله أن صار الطير لا ينفر من داود بل يستأنس به ويطلبه ، وسليمان لا ينفر من الجن بل يسخره ويستخدمه وأما القطر والحديد فتجانسهما غير خفى (وههنا لطيفة) وهى أن الآدمى ينبغى أن يتقى الجن ويجتنبه والاجتماع به يفضى إلى المفسدة ولهذا قال تعالى (أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون) فكيف طلب سليمان الاجتماع بهم فنقول قوله تعالى (من يعمل بين يديه باذن ربه) إشارة إلى أن ذلك الحضور لم يكن فيه مفسدة (ولطيفة أخرى) وهى أن الله تعالى قال ههنا (باذن ربه) بلفظ الرب وقال (ومن يزغ منهم عن أمرنا) ولم يقل عن أمر ربه ، وذلك لأن الرب لفظ ينبىء عن الرحمة ، فعند ما كانت الإشارة إلى حفظ سليمان عليه السلام قال(ربه)وعندما كانت الاشارة إلى تعذيبهم قال(عن أمرنا) بلفظ التعظيم الموجب لزيادة الخوف وقوله تعالى(نذقه من عذاب السعير) فيه وجهان : (أحدهما) أن الملائكة كانوا موكلين بهم وبأيديهم مقامع من نار فالإشارة إليه (وثانيهما) أن السعير هو ما يكون فى الآخرة فأوعدهم بما فى الآخرة من العذاب

قوله تعالى : ﴿ يعملون له مايشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادى الشكور ﴾ .

المحاريب إشارة إلى الأبنية الرفيعة ولهذا قال تعالى (إذ تسوروا المحراب) والتماثيل ما يكون فيها من النقوش ، ثم لما ذكر البناء الذى هو المسكن بين ما يكون فى المسكن من ماعون الأكل فقال (وجفان كالجواب) جمع جابية وهى الحوض الكبير الذى يجبى الماء أى يجمعه وقيل كان يجتمع على جفنة واحدة ألف نفس (وقدور راسيات) ثابتات لا تنقل لكبرها ، وإنما يغرف منها فى تلك الجفان ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قدم المحاريب على التماثيل لأن النقوش تكون فى الأبنية وقدم (الجفان) فى الذكر على (القدور) مع أن القدور آلة الطبخ والجفان آلة الأكل والطبخ قبل الأكل ، فنقول : لما بين الأبنية الملكية أراد بيان عظمة السماط الذى يمد فى تلك الدور ، وأشار إلى الجفان لأنها تكون فيه ، وأما القدور فلا تكون فيه ، ولا تحضر هناك ، ولهذا قال (راسيات) أى غير منقولات ، ثم لما بين حال الجفان العظيمة ، كان يقع فى النفس أن الطعام الذى يكون فيها فى أى شىء يطبخ ، فأشار إلى القدور المناسبة للجفان .

فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكر فى حق داود اشتغاله بآلة الحرب ، وفى حق سليمان بحالة السلم وهى المساكن والمآكل وذلك لأن سليمان كان ولد داود ، وداود قتل جالوت والملوك الجبابرة . واستوى داود على الملك ، فكان سليمان كولد ملك يكون أبوه قد سوى على ابنه الملك وجمع له المال فهو يفرقه على جنوده ، ولأن سليمان لم يقدر أحد عليه فى ظنه فتركوا الحرب معه وإن حاربه أحد كان زمان الحرب يسيراً لإدراكه إياه بالريح فكان فى زمانه العظمة بالإطعام والإنعام .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لما قال عقيب قوله تعالى (أن اعمل سابغات) اعملوا صالحاً ، قال عقيب ما يعمله الجن (اعملوا آل داود شكراً) إشارة إلى ماذكرنا أن هذه الأشياء حالية لا ينبغى أن يجعل الإنسان نفسه مستغرقة فيها وإنما الواجب الذى ينبغى أن يكثر منه هو العمل الصالح الذى يكون شكراً ، وفيه إشارة إلى عدم الإلتفات إلى هذه الأشياء ، وقلة الاشتغال بها كما فى قوله (وقدر فى السرد) أى اجعله بقدر الحاجة .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ انتصاب شكراً يحتمل ثلاثة أوجه (أحدها) أن يكون مفعولا له كقول القائل جئتك طمعاً وعبدت الله رجاء غفرانه (وثانيها) أن يكون مصدراً كقول القائل شكرت الله شكراً ويكون المصدر من غير لفظ الفعل كقول القائل جلست قعوداً ، وذلك لأن العمل شكر فقوله (اعملوا) يقوم مقام قوله (اشكروا) (وثالثها) أن يكون مفعولا به كقولك اضرب زيداً كما قال تعالى (واعملوا صالحاً) لأن الشكر صالح .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قوله (وقليل من عبادى الشكور) إشارة إلى أن الله خفف الأمر على عباده ، وذلك لأنه لما قال (اعملوا آل داود شكراً) فهم منه أن الشكر واجب لكن شكر نعمه كما ينبغى لا يمكن ، لأن الشكر بالتوفيق وهو نعمة تحتاج إلى شكر آخر وهو بتوفيق آخر ، فدائما تكون نعمة الله بعد الشكر خالية عن الشكر ، فقال تعالى إن كنتم لا تقدرون على الشكر التام فليس عليكم فى ذلك حرج ، فان عبادى قليل منهم الشكور ويقوى قولنا أنه تعالى أدخل الكل فى قوله (عبادى) مع الإضافة إلى نفسه ، وعبادى بلفظ الإضافة إلى نفس المتكلم لم ترد فى القرآن إلا فى حق الناجين ، كقوله تعالى (ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) وقوله (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) فان قيل على ما ذكرتم شكر الله بتمامه لا يمكن وقوله (قليل) يدل على أن فى عباده من هو شاكر لأنعمه ، نقول الشكر بقدر الطاقة البشرية هو الواقع وقليل فاعله ، وأما الشكر الذى يناسب نعم الله فلا قدرة عليه ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، أو نقول الشاكر التام ليس إلا من رضى الله عنه ، وقال له ياعبدى ما أتيت به من الشكر القليل قبلته منك وكتبت لك أنك شاكر لأنعمى بأسرها ، وهذا القبول نعمة عظيمة لا أكلفك شكرها .

قوله تعالى : ﴿ فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته

فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾

فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين ﴾

لما بين عظمة سليمان وتسخير الريح والروح له بين أنه لم ينج من الموت ، وأنه قضى عليه الموت ، تنبيهاً للخلق على أن الموت لابد منه ، ولو نجا منه أحد لكان سليمان أولى بالنجاة منه ، وفيه مسائل:

﴿ المسألة الأولى ﴾ كان سليمان عليه السلام يقف فى عبادة الله ليلة كاملة ويوماً(١) تاماً وفى بعض الأوقات يزيد عليه ، وكان له عصا يتكى عليها واقفا بين يدى ربه ، ثم فى بعض الأوقات كان واقفاً على عادته فى عبادته إذ توفى ، فظن جنوده أنه فى العبادة وبقى كذلك أياماً وتمادى شهوراً ، ثم أراد الله إظهار الأمر لهم ، فقدر أن أكلت دابة الأرض عصاه فوقع وعلم حاله .

قوله تعالى : ﴿ فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين ﴾

كانت الجن تعلم مالا يعلمه الإنسان فظن أن ذلك القدر علم الغيب وليس كذلك ، بل الإنسان لم يؤت من العلم إلا قليلا فهو أكثر الأشياء الحاضرة لا يعلمه ، والجن لم تعلم إلا الأشياء الظاهرة وإن كانت خفية بالنسبة إلى الإنسان ، وتبين لهم الأمر بأنهم لا يعلمون الغيب إذ لو كانوا يعلمونه لما بقوا فى الأعمال الشاقة ظانين أن سليمان حى . وقوله (مالبثوا فى العذاب المهين) دليل على أن المؤمنين من الجن لم يكونوا فى التسخير ، لأن المؤمن لا يكون فى زمان النبى فى العذاب المهين .

ثم قال تعالى : ﴿ لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ﴾

لما بين الله حال الشاكرين لنعمه بذكر داود وسليمان بين حال الكافرين بأنعمه ، بحكاية أهل سبأ ، وفى سبأ قراءتان بالفتح على أنه اسم بقعة وبالجر مع التنوين على أنه اسم قبيلة وهو الأظهر ، لأن الله جعل الآية لسبأ والفاهم هو العاقل لا المكان فلا يحتاج إلى إضمار الأهل وقوله (آية) أى من فضل ربهم ، ثم بينها بذكر بدله بقوله (جنتان عن يمين وشمال) قال الزمخشرى أية آية فى جنتين ، مع أن بعض بلاد العراق فيها آلاف من الجنان ؟ وأجاب بأن المراد لكل واحد جنتان أو عن يمين بلدهم وشمالها جماعتان من الجنات ، ولاتصال بعضها ببعض جعلها جنة واحدة ، قوله (كلوا من رزق ربكم) إشارة إلى تكميل النعم عليهم

(١) قوله «ويوماً» الواو فيه بمعنى أو ، وبذلك تتصور الزيادة على اليوم أو الليلة إذ ليس للانسان بعد اليوم التام والليلة الكاملة وقت آخر و يزيده .

فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾

حيث لم يمنعهم من أكل ثمارها خوف ولا مرض ، وقوله (واشكروا له) بيان أيضاً لكمال النعمة ، فان الشكر لا يطلب إلا على النعمة المعتبرة ، ثم لما بين حالهم في مساكنهم و بساتينهم و أكلهم أتم بيان النعمة بأن بين أن لا غائلة عليه ولا تبعة في المآل في الدنيا ، فقال (بلدة طيبة) أي طاهرة عن المؤذيات لا حية فيها ولا عقرب ولا وباء ولا وخم ، وقال (ورب غفور) أي لا عقاب عليه ولا عذاب في الآخرة ، فعند هذا بان كمال النعمة حيث كانت لذة حالية خالية عن المفاسد المآلية .

ثم إنه تعالى لما بين ما كان من جانبه ذكر ما كان من جانبهم فقال ﴿فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل ، ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور﴾

فبين كمال ظلمهم بالإعراض بعد إبانة الآية كما قال تعالى (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها) ثم بين كيفية الانتقام منهم كما قال (إنا من المجرمين منتقمون) وكيفيته أنه تعالى أرسل عليهم سيلا غرق أموالهم وخرب دورهم ، وفي العرم وجوه (أحدها) أنه الجرذ الذي سبب خراب السكر ، وذلك من حيث إن بلقيس كانت قد عمدت إلى جبال بينها شعب فسدت الشعب حتى كانت مياه الأمطار والعيون تجتمع فيها وتصير كالبحر وجعلت لها أبواباً ثلاثة مرتبة بعضها فوق بعض وكانت الأبواب يفتح بعضها بعد بعض . فنقب الجرذ السكر ، وخرب السكر بسببه وانقلب البحر عليهم (وثانيها) أن العرم اسم السكر وهو جمع العرمة وهي الحجارة (ثالثها) اسم للوادي الذي خرج منه الماء وقوله (وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط) بين به دوام الخراب ، وذلك لأن البساتين التي فيها الناس يكون فيها الفواكه الطيبة بسبب العمارة فاذا تركت سنين تصير كالغيضة والأجمة تلتف الأشجار بعضها ببعض وتنبت المفسدات فيها فتقل الثمار وتكثر الأشجار ، والخمط كل شجرة لها شوك أو كل شجرة ثمرتها مرة ، أو كل شجرة ثمرتها لا تؤكل ، والأثل نوع من الطرفاء ولا يكون عليه ثمرة إلا في بعض الأوقات ، يكون عليه شيء كالعفص أو أصغر منه في طعمه وطبعه ، والسدر معروف وقال فيه قليل لأنه كان أحسن أشجارهم فقلله الله ، ثم بين الله أن ذلك كان مجازاة لهم على كفرانهم فقال (ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي) أي لا نجازي بذلك الجزاء (إلا الكفور)قال بعضهم : المجازاة تقال في النقمة والجزاء

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾

فى النعمة لكن قوله تعالى (ذلك جزيناهم) يدل على أن الجزاء يستعمل فى النقمة ، ولعل من قال ذلك أخذه من أن المجازاة مفاعلة وهى فى أكثر الأمر تكون بين اثنين ، يؤخذ من كل واحد جزاء فى حق الآخر . وفى النعمة لا تكون مجازاة لأن الله تعالى مبتدىء بالنعم .

قوله تعالى : ﴿ وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة : وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وأياماً آمنين . فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ .

أى بينهم وبين الشام فانها هى البقعة المباركة . وقرى ظاهرة أى يظهر بعضها لبعضها يرى سواد القرية من القرية الأخرى . فان قال قائل : هذا من النعم والله تعالى قد شرع فى بيان تبديل نعمهم بقوله (وبدلناهم بجنتيهم جنتين) فكيف عاد مرة أخرى إلى بيان النعمة بعد النقمة ؟ فنقول ذكر حال نفس بلدهم وبين تبديل ذلك بالخمط والأثل . ثم ذكر حال خارج بلدهم وذكر عمارتها بكثرة القرى ، ثم ذكر تبديله ذلك بالمفاوز والبيادى والبرارى بقوله (ربنا باعد بين أسفارنا) وقد فعل ذلك ، ويدل عليه قراءة من قرأ ربنا بعد على المبتدأ والخبر ، وقوله (وقدرنا فيها السير) الأماكن المعمورة تكون منازلها معلومة مقدرة لا تتجاوز ، فلما كان بين كل قرية مسيرة نصف نهار ، وكانوا يغدون إلى قرية ويروحون إلى أخرى ماأمكن فى العرف تجاوزها ، فهو المراد بالتقدير والمفاوز لا يتقدر السير فيها بل يسير السائر فيها بقدر الطاقة جاداً حتى يقطعها ، وقوله (سيروا فيها ليالى وأياماً) أى كان بينهم ليال وأيام معلومة ، وقوله (آمنين) إشارة إلى كثرة العمارة ، فان خوف قطاع الطريق والانقطاع عن الرفيق لا يكون فى مثل هذه الأماكن ، وقيل بأن معنى قوله (ليالى وأياماً) تسيرون فيه إن شئتم ليالى وإن شئتم أياماً لعدم الخوف بخلاف المواضع المخوفة فان بعضها يسلك ليلا ، لئلا يعلم العدو بسيرهم ، وبعضها يسلك نهاراً لئلا يقصدهم العدو ، إذا كان العدو غير مجاهر بالقصد والعداوة ، وقوله تعالى (قالوا ربنا باعد بين أسفارنا) قيل بأنهم طلبوا ذلك وهو يحتمل وجهين (أحدهما) أن يسألوا بطراً كما طلبت اليهود الثوم والبصل ، ويحتمل أن يكون ذلك لفساد اعتقادهم وشدة اعتمادهم على أن ذلك لا يقدر كما يقول القائل لغيره اضربنى إشارة إلى أنه لا يقدر عليه . ويمكن أن يقال : (قالوا ربنا بعد) بلسان الحال ، أى لما كفروا فقد طلبوا أن يبعد

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾

بين أسفارهم ويخرب المعمور من ديارهم ، وقوله (وظلموا أنفسهم) يكون بيانا لذلك ، وقوله (فجعلناهم أحاديث) أى فعلنا بهم ما جعلناهم به مثلا ، يقال : تفرقوا أيدى سبا ، وقوله (ومزقناهم كل ممزق) بيان لجعلهم أحاديث ، وقوله تعالى (إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) أى فيما ذكرناه من حال الشاكرين ووبال الكافرين .

قوله تعالى : ﴿ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين ﴾ أى ظنه أنه يغويهم كما قال (فبعزتك لأغوينهم) وقوله (فاتبعوه) بيان لذلك أى أغواهم ، فاتبعوه (إلا فريقا من المؤمنين) قال تعالى فى حقهم (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) ويمكن أن يقال (صدق عليهم ظنه) فى أنه خير منه كما قال تعالى عنه (أنا خير منه) ويتحقق ذلك فى قوله فاتبعوه ، لأن المتبوع خير من التابع وإلا لا يتبعه العاقل والذى يدل على أن إبليس خير من الكافر . هو أن إبليس امتنع من عبادة غير الله لكن لما كان فى امتناعه ترك عبادة الله عناداً كفر ، والمشرك يعبد غير الله فهو كفر بأمر أقرب إلى التوحيد ، وهم كفروا بأمر هو الإشراك ، ويؤيد هذا الذى اخترناه الاستثناء ، وبيانه هو أنه وإن لم يظن أنه يغوى الكل ، بدليل أنه تعالى قال عنه (إلا عبادك منهم المخلصين) فما ظن أنه يغوى المؤمنين فما ظنه صدقه ولا حاجة إلى الاستثناء ، وأما فى قوله (أنا خير منه) اعتقد الخيرية بالنسبة إلى جميع الناس بدليل تعليله بقوله (خلقتنى من نار وخلقته من طين) وقد كذب فى ظنه فى حق المؤمنين ، ويمكن الجواب عن هذا فى الوجه الأول ، وهو أنه وإن لم يظن إغواء الكل وعلم أن البعض ناج ، لكن ظن فى كل واحد أنه ليس هو ذلك الناجى ، إلى أن تبين له فظن أنه يغويه فكذب فى ظنه فى حق البعض وصدق فى البعض .

قوله تعالى : ﴿ وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك وربك على كل شىء حفيظ ﴾ .

قد ذكرنا فى تفسير قوله تعالى (فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) أن علم الله من الأزل إلى الأبد محيط بكل معلوم وعلمه لا يتغير وهو فى كونه عالما لا يتغير ولكن يتغير تعلق علمه . فان العلم صفة كاشفة يظهر بها كل ما فى نفس الأمر فعلم الله فى الأزل أن العالم سيوجد ، فاذا وجد علمه موجوداً بذلك العلم ، وإذا عدم يعلمه معدوماً بذلك ، مثاله : أن المرآة المصقولة فيها الصفاء

قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾

فيظهر فيها صورة زيد إن قابلها ، ثم إذا قابلها عمرو يظهر فيها صورته ، والمرآة لم تتغير فى ذاتها ولا تبدلت فى صفاتها ، إنما التغير فى الخارجات فكذلك ههنا قوله (إلا لنعلم) أى ليقع فى العلم صدور الكفر من الكافر والإيمان من المؤمن وكان قبله فيه أنه سيكفر زيد ويؤمن عمرو .

وقوله (وما كان له عليهم من سلطان) إشارة إلى أنه ليس بملجىء وإنما هو آية ، وعلامة خلقها الله لتبيين ماهو فى علمه السابق ، وقوله (وربك على كل شىء حفيظ) يحقق ذلك أى الله تعالى قادر على منع إبليس عنهم عالم بما سيقع ، فالحفظ يدخل فى مفهومه العلم والقدرة ، إذ الجاهل بالشىء لا يمكنه حفظه ولا العاجز .

قوله تعالى : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير ﴾ .

لما بين الله تعالى حال الشاكرين وحال الكافرين وذكرهم بمن مضى عاد إلى خطابهم وقال لرسوله ﷺ قل للمشركين ادعوا الذين زعمتم من دون الله ليكشفوا عنكم الضر على سبيل التهكم ثم بين أنهم لا يملكون شيئاً بقوله (لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض) .

واعلم أن المذاهب المفضية إلى الشرك أربعة (أحدها) قول من يقول الله تعالى خلق السماء والسماويات وجعل الأرض والأرضيات فى حكمهم ، ونحن من جملة الأرضيات فنعبد الكواكب والملائكة التى فى السماء فهم آلهتنا والله إلههم ، فقال الله تعالى فى إبطال قولهم (إنهم لا يملكون فى السموات شيئاً) كما اعترفتم ، قال ولا فى الأرض على خلاف ما زعمتم (وثانيها) قول من يقول السموات من الله على سبيل الاستبداد والأرضيات منه ولكن بواسطة الكواكب فان الله خلق العناصر والتركيبات التى فيها بالاتصالات والحركات والطوالع فجعلوا لغير الله معه شركا فى الأرض والأولون جعلوا الأرض لغيره والسماء له ، فقال فى إبطال قولهم (وما لهم فيهما من شرك) أى الأرض كالسماء لله لا لغيره ، ولا لغيره فيها نصيب (وثالثها) قول من قال : التركيبات والحوادث كلها من

الله تعالى لكن فوض ذلك إلى الكواكب ، وفعل المأذون ينسب إلى الآذن ويسلب عن المأذون فيه ، مثاله إذا قال ملك لمملوكه اضرب فلاناً فضربه يقال فى العرف الملك ضربه ويصح عرفاً قول القائل ماضرب فلان فلاناً ، وإنما الملك أمر بضربه فضرب ، فهؤلاء جعلوا السماويات معينات لله فقال تعالى فى إبطال قولهم (وماله منهم من ظهير) مافوض إلى شىء شيئاً ، بل هو على كل شىء حفيظ ورقيب (ورابعها) قول من قال إنا نعبد الأصنام التى هى صور الملائكة ليشفعوا لنا فقال تعالى فى إبطال قولهم (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) فلا فائدة لعبادتكم غير الله فان الله لا يأذن فى الشفاعة لمن يعبد غيره فبطلبكم الشفاعة تفوتون على أنفسكم الشفاعة وقوله (حتى إذا فزع عن قلوبهم) أى أزيل الفزع عنهم ، يقال قرد البعير إذا أخذ منه القراد ويقال لهذا تشديد السلب ، وفى قوله تعالى (حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق) وجوه (أحدها) الفزع الذى عند الوحى فان الله عندما يوحى يفزع من فى السموات ، ثم يزيل الله عنهم الفزع فيقولون لجبريل عليه السلام ماذا قال الله ؟ فيقول قال الحق أى الوحى (وثانيها) الفزع الذى من الساعة وذلك لأن الله تعالى لما أوحى إلى محمد عليه السلام (فزع من فى السموات) من القيامة لأن إرسال محمد عليه السلام من أشراط الساعة ، فلما زال عنهم ذلك الفزع قالوا ماذا قال الله قال جبريل (الحق) أى الوحى (وثالثها) هو أن الله تعالى يزيل الفزع وقت الموت عن القلوب فيعترف كل أحد بأن ما قال الله تعالى هو الحق فينفع ذلك القول من سبق ذلك منه ، ثم يقبض روحه على الايمان المتفق عليه بينه وبين الله تعالى ، ويضر ذلك القول من سبق منه خلافه فيقبض روحه على الكفر المتفق بينه وبين الله تعالى . إذا علمت هذا فنقول على القولين الأولين قوله تعالى (حتى) غاية متعلقة بقوله تعالى (قل) لأنه بينه بالوحى لأن قول القائل قل لفلان للانذار حتى يسمع المخاطب ما يقوله ، ثم يقول بعد هذا الكلام ما يجب قوله فلما قال (قل) فزع من فى السموات ، ثم أزيل عنه الفزع ، وعلى الثالث متعلقة بقوله تعالى (زعمتم) أى زعمتم الكفر إلى غاية التفزيع ، ثم تركتم مازعمتم وقلتم قال الحق ، وعلى القولين الأولين فاعل قوله تعالى (قالوا ماذا) هو الملائكة السائلون من جبريل . وعلى الثالث الكفار السائلون من الملائكة والفاعل فى قوله (الحق) على القولين الأولين هم الملائكة ، وعلى الثالث هم المشركون .

واعلم أن الحق هو الموجود ثم إن الله تعالى لما كان وجوده لايرد عليه عدم كان حقاً مطلقاً لا يرتفع بالباطل الذى هو العدم والكلام الذى يكون صدقاً يسمى حقاً ، لأن الكلام له متعلق فى الخارج بواسطة أنه متعلق بما فى الذهن ، والذى فى الذهن متعلق بما فى الخارج ، فاذا قال القائل جاء زيد يكون هذا اللفظ تعلقه بما فى ذهن القائل وذهن القائل تعلقه بما فى الخارج لكن للصدق متعلق يكون فى الخارج فيصير له وجود مستمر وللكذب متعلق لا يكون فى الخارج ، وحينئذ إما أن لا يكون له متعلق فى الذهن فيكون كالمعدوم من الأول وهو الألفاظ التى تكون صادرة

قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾

عن معاند كاذب ، وإما أن يكون له متعلق فى الذهن على خلاف ما فى الخارج فيكون إعتقاداً باطلا جهلا أو ظناً لكن لما لم يكن لمتعلقه متعلق يزول ذلك الكلام ويبطل ، وكلام الله لا بطلان له فى أول الأمر كما يكون كلام الكاذب المعاند (ولا يأتيه الباطل) كما يكون كلام الظان ، وقوله تعالى (وهو العلى الكبير) قد ذكرنا فى تفسير قوله تعالى (ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلى الكبير) أن (الحق) إشارة إلى أنه كامل لا نقص فيه فيقبل نسبة العدم ، وفوق الكاملين لأن كل كامل فوقه كامل فقوله (وهو العلى الكبير) إشارة إلى أنه فوق الكاملين فى ذاته وصفاته ، وهذا يبطل القول بكونه جسما وفى حيز، لأن كل من كان فى حيز فان العقل يحكم بأنه مشار إليه وهو مقطع الاشارة لأن الاشارة لو لم تقع إليه لما كان المشار إليه هو ، وإذا وقعت الاشارة إليه فقد تناهت الاشارة عنده ، وفى كل موقع تقف الاشارة بقدر العقل على أن يفرض البعد أكثر من ذلك فيقول لو كان بين مأخذ الاشارة والمشار إليه أكثر من هذا البعد لكان هذا المشار إليه أعلى فيصير علياً بالاضافة لا مطلقاً وهو على مطلقاً ولو كان جسما لكان له مقدار ، وكل مقدار يمكن أن يفرض أكبر منه فيكون كبيراً بالنسبة إلى غيره لا مطلقاً وهو كبير مطلقاً .

قوله تعالى : ﴿قل من يرزقكم من السموات والأرض﴾ قد ذكرنا مراراً أن العامة يعبدون الله لا لكونه إلهاً ، وإنما يطلبون به شيئاً ، وذلك إما دفع ضرر أو جر نفع فنبه الله تعالى العامة بقوله (قل ادعوا الذين زعمتم) على أنه لا يدفع الضر أحد إلا هو كما قال تعالى (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو) وقال بعد إتمام بيان ذلك (قل من يرزقكم من السموات والأرض) إشارة إلى أن جر النفع ليس إلا به ومنه ، فاذاً إن كنتم من الخواص فاعبدوه لعلوه وكبريائه سواء دفع عنكم ضراً أو لم يدفع وسواء نفعكم بخير أو لم ينفع فان لم تكونوا كذلك فاعبدوه لدفع الضر وجر النفع.

ثم قال تعالى ﴿ قل الله ﴾ يعنى إن لم يقولوا هم فقل أنت الله يرزق (وههنا لطيفة) وهى أن الله تعالى عند الضر ذكر أنهم يقولون الله ويعترفون بالحق حيث قال (قالوا الحق) وعند النفع لم يقل إنهم يقولون ذلك وذلك لأن لهم حالة يعترفون بأن كاشف الضر هو الله حيث يقعون فى الضر كما قال تعالى (وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه) وأما عند الراحة فلا تنبه لهم لذلك فلذلك قال (قل الله) أى هم فى حالة الراحة غافلون عن الله .

ثم قال تعالى : ﴿ وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ﴾ وفيه مسائل :

قُلْ لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾

﴿ المسألة الأولى ﴾ هذا إرشاد من الله لرسوله إلى المناظرات الجارية فى العلوم وغيرها وذلك لأن أحد المتناظرين إذا قال للآخر هذا الذى تقوله خطأ وأنت فيه مخطىء يغضبه وعند الغضب لا يبقى سداد الفكر وعند اختلاله لا مطمع فى الفهم فيفوت الغرض ، وأما إذا قال له بأن أحدنا لا يشك فى أنه مخطىء والتمادى فى الباطل قبيح والرجوع إلى الحق أحسن الأخلاق فنجتهد ونبصر أينا على الخطأ ليحترز فانه يجتهد ذلك الخصم فى النظر ويترك التعصب وذلك لايوجب نقصاً فى المنزلة لأنه أوهم بأنه فى قوله شاك ويدل عليه قول الله تعالى لنبيه (وإنا أو إياكم) مع أنه لايشك فى أنه هو الهادى وهو المهتدى وهم الضالون والمضلون .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى قوله (لعلى هدى أو فى ضلال مبين) ذكر فى الهدى كلمة على وفى الضلال كلمة فى لأن المهتدى كأنه مرتفع متطلع فذكره بكلمة التعلى ، والضال منغمس فى الظلمة غريق فيها فذكره بكلمة فى .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ وصف الضلال بالمبين ولم يصف الهدى لأن الهدى هو الصراط المستقيم الموصل إلى الحق والضلال خلافه لكن المستقيم واحد وما هو غيره كله ضلال وبعضه بين من بعض ، فميز البعض عن البعض بالوصف .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قدم الهدى على الضلال لأنه كان وصف المؤمنين المذكورين بقوله (إنا) وهو مقدم فى الذكر .

قوله تعالى : ﴿ قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون ﴾ أضاف الإجرام إلى النفس وقال فى حقهم (ولا نسأل عما تعملون) ذكر بلفظ العمل لئلا يحصل الإغضاب المانع من الفهم وقوله (لا تسألون) (ولا نسأل) زيادة حث على النظر وذلك لأن كل أحد إذا كان مؤاخذاً بجرمه فاذا احترز نجا ، ولو كان البرىء يؤاخذ بالجرم لما كفى النظر .

ثم قال تعالى : ﴿ قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم ﴾ أكد ما يوجب النظر والتفكر ، فان مجرد الخطأ والضلال واجب الاجتناب ، فكيف إذا كان يوم عرض وحساب وثواب وعذاب وقوله (يفتح) قيل معناه يحكم ، ويمكن أن يقال بأن الفتح ههنا مجاز وذلك لأن الباب المغلق والمنفذ المسدود يقال فيه فتحه على طريق الحقيقة . ثم إن الأمر إذا كان فيه انغلاق وعدم وصول إليه فإذا بينه أحد يكون قد فتحه وقوله (وهو الفتاح العليم) إشارة إلى أن حكمه يكون مع العلم لا مثل حكم من يحكم بما يتفق له بمجرد هواه .

قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ قل أرونى الذين ألحقتم به شركاء كلا بل هو الله العزيز الحكيم ﴾ قد ذكرنا أن المعبود قد يعبده قوم لدفع الضرر وجمع لتوقع المنفعة وقليل من الأشراف الأعزة يعبدونه لأنه يستحق العبادة لذاته فلما بين أنه لا يعبد غير الله لدفع الضرر إذ لا دافع للضرر غيره بقوله (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله) وبين أنه لا يعبد غير الله لتوقع المنفعة بقوله (قل من يرزقكم من السموات والأرض) بين ههنا أنه لا يعبد أحد لاستحقاقه العبادة غير الله فقال (قل أرونى الذين ألحقتم به شركاء كلا بل هو الله العزيز الحكيم) أى هو المعبود لذاته واتصافه بالعزة وهى القدرة الكاملة والحكمة وهى العلم التام الذى عمله موافق له .

ثم قال تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لايعلمون ﴾ لما بين مسألة التوحيد شرع فى الرسالة فقال تعالى (وما أرسلناك إلا كافة) وفيه وجهان (أحدها) كافة أى إرسالة كافة أى عامة لجميع الناس تمنعهم من الخروج عن الانقياد لها (والثانى) كافة أى أرسلناك كافة تكف الناس أنت من الكفر والهاء للمبالغة على هذا الوجه (بشيراً) أى تحثهم بالوعد (ونذيراً) تزجرهم بالوعيد (ولكن أكثر الناس لايعلمون) ذلك لا لخفائه ولكن لغفلتهم.

ثم قال تعالى : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ لما ذكر الرسالة بين الحشر وقال ﴿ قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون ﴾ قد ذكرنا فى سورة الأعراف أن قوله (لا تستأخرون) يوجب الإنذار ، لأن معناه عدم المهلة عن الأجل ولكن الاستقدام ماوجهه ؟ وذكرنا هناك وجهاً ونذكر ههنا أنهم لما طلبوا الاستعجال بين أنه لا استعجال فيه كما لا أمهال ، وهذا يفيد عظم الأمر وخطر الخطب ، وذلك لأن الأمر الحقير إذا طالبه طالب من غيره لا يؤخره ولا يوقفه على وقت بخلاف الأمر الخطير وفى قوله تعالى (لكم ميعاد يوم) قراءات (أحدها) رفعهما مع التنوين وعلى هذا يوم بدل (وثانيها) نصب يوم مع رفع ميعاد والتنوين فيهما ميعاد يوماً قال الزمخشرى ووجهه أنه منصوب بفعل محذوف كأنه قال ميعاد أعنى يوماً وذلك يفيد التعظيم والتهويل ، ويحتمل أن يقال نصب على الظرف تقديره لكم ميعاد يوماً

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾

كما يقول القائل : أنا جائيك يوماً وعلى هذا يكون العامل فيه العلم كا نه يقول لكم ميعاد تعلمونه يوماً وقوله معلوم يدل عليه كقول القائل إنه مقتول يوماً (الثالثة) الإضافة لكم ميعاديوم كما فى قول القائل سحق ثوب للتبيين وإسناد الفعل إليهم بقوله (لا تستأخرون عنه) بدلا عن قوله (لا يؤخر عنكم) زيادة تأكيد لوقوع اليوم .

قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه ﴾ لما بين الأمور الثلاثة من التوحيد والرسالة والحشر وكانوا بالكل كافرين بين كفرهم العام بقوله (وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن) وذلك لأن القرآن مشتمل على الكل وقوله (ولا بالذى بين يديه) المشهور أنه التوراة والإنجيل ، وعلى هذا فالذين كفروا المراد منهم المشركون المنكرون للنبوات والحشر ، ويحتمل أن يقال إن المعنى هو أنا لا نؤمن بالقرآن أنه من الله ولا بالذى بين يديه أى ولا بما فيه من الإخبارات والمسائل والآيات والدلائل ، وعلى هذا فالذين كفروا المراد منهم العموم ، لأن أهل الكتاب لم يؤمنوا بالقرآن أنه من الله ولا بالذى فيه من الرسالة وتفاصيل الحشر ، فإن قيل ؛ أليس هم مؤمنون بالوحدانية والحشر ، فنقول إذا لم يصدق واحد مافى الكتاب من الأمور المختصة به يقال فيه إنه لم يؤمن بشىء منه وإن آمن ببعض مافيه لكونه فى غيره فيكون إيمانه لا بما فيه . مثاله : أن من يكذب رجلا فيما يقوله فاذا أخبره بأن النار حارة لا يكذبه فيه ولكن لا يقال إنه صدقه لأنه إنما صدق نفسه ، فانه كان عالماً به من قبل وعلى هذا فقوله بين يديه أى الذى هو مشتمل عليه من حيث إنه وارد فيه .

قوله تعالى : ﴿ ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عندربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين ﴾

لما وقع اليأس من إيمانهم فى هذه الدار بقولهم لن نؤمن فإنه لتأبيد النفى وعد نبيه عليه الصلاة والسلام بأنه يراهم على أذل حال موقوفين للسؤال يرجع بعضهم إلى بعض القول كما يكون عليه حال جماعة أخطؤا فى أمر يقول بعضهم كان ذلك بسببك ويرد عليه الآخر مثل ذلك ، وجواب لو محذوف ، تقديره : ولو ترى إذ الظالمون موقوفون لرأيت عجباً ، ثم بدأ بالأتباع لأن المضل أولى بالتوبيخ فقال (يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين) إشارة إلى أن

قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا

كفرهم كان لمانع لا لعدم المقتضى لأنهم لا يمكنهم أن يقولوا ما جاءنا رسول ، ولا أن يقولوا قصر الرسول ، وهذا إشارة إلى إتيان الرسول بما عليه لأن الرسول لو أهمل شيئاً لما كانوا يؤمنون ولولا المستكبرون لآمنوا .

قوله تعالى : ﴿ وقال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين ﴾ ،

رداً لما قالوا إن كفرنا كان لمانع (أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين) يعنى المانع ينبغى أن يكون راجحاً على المقتضى حتى يعمل عمله ، والذى جاء به هو الهدى ، والذى صدر من المستكبرين لم يكن شيئاً يوجب الامتناع من قبول ما جاء به فلم يصح تعليلكم بالمانع ، ثم بين أن كفرهم كان إجراما من حيث إن المعذور لا يكون معذوراً إلا لعدم المقتضى أو لقيام المانع ولم يوجد شىء منهما .

ثم قال تعالى : ﴿ وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً ، ﴾ .

لما ذكر المستكبرون أنا ما صددناكم وما صدر منا ما يصلح مانعاً وصارفاً اعترف المستضعفون به وقالوا (بل مكر الليل والنهار) منعنا ، ثم قالوا لهم إنكم وإن كنتم ما أتيتم بالصارف القطعى والمانع القوى ولكن انضم أمركم إيانا بالكفر إلى طول الأمد والامتداد فى المدد فكفرنا فكان قولكم جزء السبب ، ويحتمل وجهاً آخر وهو أن يكون المراد بل مكركم بالليل والنهار فحذف المضاف إليه . وقوله (إذ تأمروننا أن نكفر بالله) أى ننكره (ونجعل له أنداداً) هذا يبين أن المشرك بالله مع أنه فى الصورة مثبت لكنه فى الحقيقة منكر لوجود الله لأن من يساويه المخلوق المنحوت لا يكون إلهاً ، وقوله فى الأول (يرجع بعضهم إلى بعض القول) يقول الذين استضعفوا بلفظ المستقبل ، وقوله فى الآيتين المتأخرتين (وقال الذين استكبروا ، وقال الذين استضعفوا) بصيغة الماضى مع أن السؤال والتراجع فى القول لم يقع إشارة إلى أن ذلك لابد وأن يقع ، فان الأمر الواجب الوقوع يوجد كأنه وقع ، ألا ترى إلى قوله تعالى (إنك ميت وإنهم ميتون) .

وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٣٣﴾

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴾ .

معناه أنهم يتراجعون القول فى الأول ، ثم إذا جاءهم العذاب الشاغل يسرون ذلك التراجع الدال على الندامة ، وقيل معنى الإسرار الإظهار أى أظهروا الندامة ، ويحتمل أن يقال بأنهم لما تراجعوا فى القول رجعوا إلى الله بقولهم (ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً) ثم أجيبوا وأخبروا بأن لامرد لكم فأسروا ذلك القول ، وقوله (وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا) إشارة إلى كيفية العذاب وإلى أن مجرد الرؤية ليس كافياً بل لما رأوا العذاب قطعوا بأنهم واقعون فيه فتركوا الندم ووقعوا فيه فجعل الأغلال فى أعناقهم ، وقوله (يجزون إلا ما كانوا يعملون) إشارة إلى أن ذلك حقهم عدلا .

ثم قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون ، وقالوا نحن أكثر أموالا وأولاداً وما نحن بمعذبين ﴾ .

تسلية لقلب النبى صلى الله عليه وسلم وبياناً لأن إيذاء الكفار الأنبياء الأخيار ليس بدعا ، بل ذلك عادة جرت من قبل وإنما نسب القول إلى المترفين مع أن غيرهم أيضاً قالوا (إنا بما أرسلتم به كافرون) لأن الأغنياء المترفين هم الأصل فى ذلك القول ، ألا ترى أن الله قال عن الذين استضعفوا إنهم قالوا للمستكبرين لولا أنتم لكانوا مؤمنين ، ثم استدلوا على كونهم مصيبين فى ذلك بكثرة الأموال والأولاد فقالوا (نحن أكثر أموالا وأولاداً) أى بسبب لزومنا لديننا ، وقوله (وما نحن بمعذبين) أى فى الآخرة كأنهم قالوا حالنا عاجلا خير من حالكم ، وأما آجلا فلا نعذب إما إنكاراً منهم للعذاب رأساً أو اعتقادا لحسن حالهم فى الآخرة أيضاً قياساً [على حسن حالهم فى الدنيا] .

ثم إن الله تعالى بين خطأهم بقوله ﴿ قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾

وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾

يعنى أن الرزق فى الدنيا لاتدل سعته وضيقه على حال المحق والمبطل فكم من موسر شق ومعسر تقى (ولكن أكثر الناس لايعلمون) أىأن قلة الرزق وضنك العيش وكثرة المال وخصب العيش بالمشيئة من غير اختصاص بالفاسق والصالح ،

ثم بين فساد استدلالهم بقولهم ﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون ﴾ .

يعنى قولكم نحن أكثر أموالا فنحن أحسن عند الله حالا ليس استدلالا صحيحاً ، فان المال لايقرب إلى الله ولا اعتبار بالتعزز به ، وإنما المفيد العمل الصالح بعد الإيمان والذى يدل عليه هو أن المال والولد يشغل عن الله فيبعد عنه فكيف يقرب منه والعمل الصالح إقبال على الله واشتغال بالله ومن توجه إلى الله وصل ومن طلب من الله شيئاً حصل ، وقوله (فأولئك لهم جزاء الضعف) أى الحسنة فان الضعف لايكون إلا فى الحسنة وفى السيئة لايكون إلا المثل ،

ثم زاد وقال (وهم فى الغرفات آمنون) إشارة إلى دوام النعيم وتأبيده ، فإن من تنقطع عنه النعمة لايكون آمنا .

ثم بين حال المسىء بقوله ﴿ والذين يسعون فى آياتنا معاجزين أولئك فى العذاب محضرون ﴾ وقد ذكرنا تفسيره ، وقوله (أولئك فى العذاب محضرون) إشارة إلى الدوام أيضاً كما قال تعالى (كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها) وكما قال تعالى (وما هم عنها بغائبين).

ثم قال ثم قال تعالى : ﴿ قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين ﴾ إشارة إلى أن نعيم الآخرة لا ينافى نعمة الدنيا ، بل الصالحون قد يحصل لهم فى الدنيا النعم مع القطع بحصول النعيم لهم فى العقبى بناء على الوعد ، قطعاً لقول من يقول : إذا كانت العاجلة لنا والآجلة لهم فالنقد أولى ، فقال هذا النقد غير مختص بكم

فان كثيراً من الأشقياء مدقعون ، وكثير من الأتقياء ممتعون وفيه مسائل :

﴿الأولى﴾ ذكر هذا المعنى مرتين : مرة لبيان أن كثرة أموالهم وأولادهم غير دالة على حسن أحوالهم واعتقادهم ، ومرة لبيان أنه غير مختص بهم كأنه قال وجود الترف لا يدل على الشرف ، ثم إن سلمنا أنه كذلك لكن المؤمنين سيحصل لهم ذلك ، فان الله يملكهم دياركم وأموالكم ، والذى يدل عليه هو أن الله تعالى لم يذكر أولا لمن يشاء من عباده ، بل قال لمن يشاء ، وثانياً قال لمن يشاء من عباده ، والعباد المضافة يراد بها المؤمن ، ثم وعد المؤمن بخلاف ما للكافر ، فان الكافر دابره مقطوع ، وماله إلى الزوال ، ومآله إلى الوبال . وأما المؤمن فما ينفقه يخلفه الله ، ومخلف الله خير ، فان ما فى يد الإنسان فى معرض البوار والتلف وهما لا يتطرقان إلى ما عند الله من الخلف ، ثم أكد ذلك بقوله (والله خير الرازقين) وخيرية الرازق فى أمور (أحدها) أن لا يؤخر عن وقت الحاجة (والثانى) أن لا ينقص عن قدر الحاجة (والثالث) أن لا ينكده بالحساب (والرابع) أن لا يكدره بطلب الثواب والله تعالى كذلك .

أما (الأول) فلأنه عالم وقادر (والثانى) فلأنه غنى واسع (والثالث) فلأنه كريم ، وقد ذكر ذلك بقوله (يرزق من يشاء بغير حساب) وما ذكرنا هو المراد ، أى يرزقه حلالا لا يحاسبه عليه (والرابع) فلأنه على كبير والثواب يطلبه الأدنى من الأعلى ، ألا ترى أن هبة الأعلى من الأدنى لا تقتضى ثواباً .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله تعالى (وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه) يحقق معنى قوله عليه الصلاة والسلام «مامن يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان ، يقول أحدهما اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر اللهم اعط ممسكا تلفاً » وذلك لأن الله تعالى ملك على وهو غنى ملى ، فاذا قال أنفق وعلى بدله فبحكم الوعد يلزمه ، كما إذا قال قائل : ألق متاعك فى البحر وعلى ضمانه ، فمن أنفق فقد أتى بما هو شرط حصول البدل فيحصل البدل ، ومن لم ينفق فالزوال لازم للمال ولم يأت بما يستحق عليه من البدل فيفوت من غير خلف وهو التلف ، ثم إن من العجب أن التاجر إذا علم أن مالا من أمواله فى معرض الهلاك يبيعه نسيئة ، وإن كان من الفقراء ويقول بأن ذلك أولى من الإمهال(١) إلى الهلاك ، فان لم يبع حتى يهلك ينسب إلى الخطأ ، ثم إن حصل به كفيل ملىء ولا يبيع ينسب إلى قلة العقل ، فان حصل به رهن وكتب به وثيقة ولا يبيعه ينسب إلى الجنون ، ثم إن كل أحد يفعل هذا ولا يعلم أن ذلك قريب من الجنون ، فان أموالنا كلها فى معرض الزوال المحقق ، والإنفاق على الأهل والولد إقراض ، وقد حصل الضامن الملىء وهو الله العلى وقال تعالى (وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه) ثم رهن عند كل واحد إما أرضاً أو بستاناً أو طاحونة أو حماماً أو منفعة ، فإن الإنسان لابد من أن يكون له صنعة أو جهة يحصل له منها مال وكل ذلك ملك الله وفى يد الإنسان بحكم العارية فكأنه مرهون بما تكفل الله من رزقه ليحصل له الوثوق التام ، ومع هذا لا ينفق ويترك ماله ليتلف لا مأجوراً ولا مشكوراً .

(١) فى النسخة الأميرية إلى « الاهمال » ولكن ما كتبناه أولى وأنسب لسياق الكلام .

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (خير الرازقين) ينبىء عن كثرة فى الرازقين ولا رازق إلا الله ، فما الجواب عنه ؟ فنقول عنه جوابان (أحدهما) أن يقال الله خير الرازقين الذين تظنونهم رازقين وكذلك فى قوله تعالى (وهو أحسن الخالقين) (وثانيهما) هو أن الصفات منها ما حصل لله وللعبد حقيقة ، ومنها ما يقال لله بطريق الحقيقة وللعبد بطريق المجاز ، ومنها ما يقال لله بطريق الحقيقة ولا يقال للعبد لا بطريق الحقيقة ولا بطريق المجاز لعدم حصوله للعبد لا حقيقة ولا صورة ، مثال الأول العلم ، فان الله يعلم أنه واحد والعبد يعلم أنه واحد بطريق الحقيقة ، وكذلك العلم بكون النار حارة ، غاية مافى الباب أن علمه قديم وعلمنا حادث ، مثال الثانى الرازق والخالق ، فان العبد إذا أعطى غيره شيئاً فان الله هو المعطى ، ولكن لأجل صورة العطاء منه سمى معطياً ، كما يقال للصورة المنقوشة على الحائط فرس وإنسان ، مثال الثالث الأزلى والله وغيرهما ، وقد يقال فى أشياء فى الإطلاق على العبد حقيقة وعلى الله مجازاً كالاستواء والنزول والمعية ويد الله وجنب الله.

قوله تعالى : ﴿ ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون . قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ﴾ لما بين أن حال النبى ﷺ كحال من تقدمه من الأنبياء ، وحال قومه كحال من تقدم من الكفار ، وبين بطلان استدلالهم بكثرة أموالهم وأولادهم ، بين مايكون من عاقبة حالهم فقال (ويوم نحشرهم جميعاً) يعنى المكذبين بك وبمن تقدمك ، ثم نقول لمن يدعون أنهم يعبدونهم وهم الملائكة ، فان غاية ما ترتقى إليه منزلتهم أنهم يقولون نحن نعبد الملائكة والكواكب ، فيسأل الملائكة أهم كانوا يعبدونكم ! إهانة لهم ، فيقول كل منهم سبحانك ننزهك عن أن يكون غيرك معبوداً وأنت معبودنا ومعبود كل خلق ، وقولهم (أنت ولينا من دونهم) إشارة إلى معنى لطيف وهو أن مذاهب الناس مختلفة : بعضهم لا يسكن المواضع المعمورة التى يكون فيها سواد عظيم . لأنه لا يترأس هناك فيرضى لضياع والبلاد الصغيرة ، وبعضهم لايريد البلاد الصغيرة لعدم اجتماعه فيها بالناس وقلة وصوله فيها إلى الأكياس ، ثم إن الفريقين جميعاً إذا عرض عليهم خدمة السلطان واستخدام الأرذال الذين لا التفات إليهم أصلا يختار العاقل خدمة السلطان على استخدام من لا يؤبه به ، ولو أن رجلا سكن جبلا ووضع بين يديه شيئاً من القاذورات واجتمع عليه الذباب والديدان ، وهو

فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾

يقول هؤلاء أتباعي وأشياعي ، ولا أدخل المدينة مخافة أن أحتاج إلى خدمة السلطان العظيم والتردد إليه ينسب إلى الجنون ، فكذلك من رضى بأن يترك خدمة الله وعبادته ، ورضى باستتباع الهمج الذين هم أضل من البهائم وأقل من الهوام يكون مجنوناً ، فقالوا (أنت ولينا من دونهم) يعني كونك ولينا بالمعبودية أولى ، وأحب إلينا من كونهم أولياءنا بالعبادة لنا وقالوا (بل كانوا يعبدون الجن) أي كانوا ينقادون لأمر الجن ، فهم في الحقيقة كانوا يعبدون الجن ، ونحن كنا كالقبلة لهم ، لأن العبادة هي الطاعة وقوله تعالى (أكثرهم بهم مؤمنون) لو قال قائل جميعهم كانوا تابعين للشياطين ، فما وجه قوله (أكثرهم بهم مؤمنون) فانه ينبيء أن بعضهم لم يؤمن بهم ولم يطع لهم ؟ نقول الجواب عنه من وجهين : (أحدهما) أن الملائكة احترزوا عن دعوى الإحاطة بهم فقالوا أكثرهم لأن الذين رأوهم واطلعوا على أحوالهم كانوا يعبدون الجن ويؤمنون بهم ولعل في الوجود من لم يطلع الله الملائكة عليه من الكفار (الثاني) هو أن العبادة عمل ظاهر والايمان عمل باطن فقالوا (بل كانوا يعبدون الجن) لاطلاعهم على أعمالهم وقالوا (أكثرهم بهم مؤمنون) عند عمل القلب لئلا يكونوا مدعين اطلاعهم على ما في القلوب فان القلب لا اطلاع عليه إلا لله ، كما قال تعالى (إنه عليم بذات الصدور) .

ثم بين أن ما كانوا يعبدونه لا ينفعهم فقال ﴿ فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعاً ولا ضراً ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الخطاب بقوله (بعضكم) مع من ؟ نقول يحتمل أن يكون الملائكة لسبق قوله تعالى (أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون) وعلى هذا يكون ذلك تنكيلا للكافرين حيث بين لهم أن معبودهم لا ينفع ولا يضر ، ويصحح هذا قوله تعالى (لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً) وقوله (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) ولأنه قال بعده (ونقول للذين ظلموا ذوقوا) فأفردهم ولو كان المخاطب هم الكفار لقال فذوقوا .

وعلى هذا يكون الكفار داخلين في الخطاب حتى يصح معنى قوله (بعضكم لبعض) أي الملائكة للكفار ، والحاضر الواحد يجوز أن يجعل من يشاركه في أمر مخاطباً بسببه ، كما يقول القائل لواحد حاضر له شريك في كلام أنتم قلتم ، على معنى أنت قلت ، وهم قالوا ، ويحتمل أن يكون معهم الجن أي لا يملك بعضكم لبعض أيها الملائكة والجن ، وإذا لم تملكوها لأنفسكم فلا تملكوها لغيركم ويحتمل أن يكون المخاطب هم الكفار لأن ذكر اليوم يدل على حضورهم ، وعلى هذا فقوله (ونقول للذين ظلموا) إنما ذكره تأكيداً لبيان حالهم في الظلم ، وسبب نكالهم من الإثم ولو قال (فذوقوا عذاب النار) لكان كافياً لكنه ، لا يحصل ما ذكرنا من الفائدة ، فانهم كلما كانوا يسمعون ما كانوا

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾

عليه من الظلم والعناد والإثم والفساد يتحسرون ويندمون .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (نفعاً) مفيد للحسرة . وأما الضر فما الفائدة فيه مع أنهم لو كانوا يملكون الضر لما نفع الكافرين ذلك؟ فنقول لما كانت العبادة تقع لدفع ضر المعبود كما يعبد الجبار ويخدم مخافة شره بين أنهم ليس فيهم ذلك الوجه الذي يحسن لأجله عبادتهم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال (ههنا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون) وقال في السجدة (عذاب النار الذي كنتم به) جعل المكذب هنالك العذاب وجعل المكذب ههنا النار وهم كانوا يكذبون بالكل ، والفائدة فيها أن هناك لم يكن أول ما رأوا النار بل كانوا هم فيها من زمان بدليل قوله تعالى (كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ، وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون) أي العذاب المؤبد الذي أنكرتموه بقولكم (لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة) أي قلتم إن العذاب إن وقع فلا يدوم فذوقوا الدائم ، وههنا أول ما رأوا النار لأنه مذكور عقيب الحشر والسؤال فقيل لهم (هذه النار التي كنتم بها تكذبون) .

قوله تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ماهذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ماهذا إلا إفك مفترى ، وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين﴾ .

إظهاراً لفساد اعتقادهم واشتداد عنادهم حيث تبين أن أعلى من يعبدونه وهم الملائكة لا يتأهل للعبادة لذواتهم كما قالوا (سبحانك أنت ولينا) أي لا أهلية لنا إلا لعبادتك من دونهم أي لا أهلية لنا لأن نكون معبودين لهم ولا لنفع أو ضر كما قال تعالى (فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعاً ولا ضراً) ثم مع هذا كله إذا قال لهم النبي عليه السلام كلاماً من التوحيد وتلا عليهم آيات الله الدالة عليه ، فان لله في كل شيء آيات دالة على وحدانيته أنكروها وقالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم يعني يعارضون البرهان بالتقليد (وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى) وهو يحتمل وجوهاً : (أحدها) أن يكون المراد أن القول بالوحدانية (إفك مفترى) ويدل عليه هو أن الموحد كان يقول في حق المشرك إنه يأفك كما قال تعالى في حقهم (أإفكا آلهة دون الله تريدون) وكما قالوا هم للرسول (أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا) (وثانيها) أن يكون المراد (ما هذا إلا إفك) أي القرآن إفك وعلى الأول يكون قوله (وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا

وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾

إلا سحر مبين) إشارة إلى القرآن وعلى الثاني يكون إشارة إلى ما أتى به من المعجزات وعلى الوجهين فقوله تعالى (وقال الذين كفروا) بدلا عن أن يقول وقالوا للحق هو أن إنكار التوحيد كان مختصاً بالمشركين ، وأما إنكار القرآن والمعجزات [فقد] كان متفقاً عليه بين المشركين وأهل الكتاب [فقال] تعالى (وقال الذين كفروا للحق) على وجه العموم .

قوله تعالى : ﴿ وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير ، وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلي فكيف كان نكير ﴾ .

وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير تأكيد لبيان تقليدهم يعني يقولون عندما تتلى عليهم الآيات البينات هذا رجل كاذب وقولهم (إفك مفترى) من غير برهان ولا كتاب أنزل عليهم ولا رسول أرسل إليهم ، فالآيات البينات لا تعارض إلا بالبراهين العقلية ، ولم يأتوا بها أو بالتقلبات وما عندهم كتاب ولا رسول غيرك ، والنقل المعتبر آيات من كتاب الله أو خبر رسول الله ، ثم بين أنهم كالذين من قبلهم كذبوا مثل عاد وثمود ، وقوله تعالى (وما بلغوا معشار ما آتيناهم) قال المفسرون معناه : وما بلغ هؤلاء المشركون معشار ما آتينا المتقدمين من القوة والنعمة وطول العمر ، ثم إن الله أخذهم وما نفعتهم قوتهم ، فكيف حال هؤلاء الضعفاء ، وعندي [أنه] يحتمل ذلك وجهاً آخر وهو أن يقال المراد (وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم) أي الذين من قبلهم ما بلغوا معشار ما آتينا قوم محمد من البيان والبرهان ، وذلك لأن كتاب محمد عليه السلام أكمل من سائر الكتب وأوضح ، ومحمد عليه السلام أفضل من جميع الرسل وأفصح ، وبرهانه أوفى، وبيانه أشفى، ثم إن المتقدمين لما كذبوا بما جاءهم من الكتب وبمن أتاهم من الرسل أنكر عليهم وكيف لا ينكر عليهم ، وقد كذبوا بأفصح الرسل ، وأوضح السبل، يؤيد ما ذكرنا من المعنى قوله تعالى (وما آتيناهم من كتب يدرسونها) يعني غير القرآن ما آتيناهم كتاباً وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير ، فلما كان المؤتى في الآية الأولى هو الكتاب ، فحمل الإيتاء في الآية الثانية على إيتاء الكتاب أولى .

ثم قال تعالى : ﴿ قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد ﴾

ذكر الأصول الثلاثة فى هذه الآية بعد ماسبق منه تقريرها بالدلائل فقوله (أن تقوموا لله) إشارة إلى التوحيد وقوله (ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم) إشارة إلى الرسالة وقوله (بين يدى عذاب شديد) إشارة إلى اليوم الآخر وفى الآية مسائل :

﴿ الأولى ﴾ قوله (إنما أعظكم بواحدة) يقتضى أن لا يكون إلا بالتوحيد ، والإيمان لا يتم إلا بالاعتراف بالرساله والحشر ، فكيف يصح الحصر المذكور بقوله (إنما أعظكم بواحدة)؟ فنقول التوحيد هو المقصود ومن وحد الله حق التوحيد يشرح الله صدره ويرفع فى الآخرة قدره فالنبى ﷺ أمرهم بما يفتح عليهم أبواب العبادات ويهيء لهم أسباب السعادات ، وجواب آخر وهو أن النبى ﷺ ما قال إنى لا آمركم فى جميع عمرى إلا بشئ واحد ، وإنما قال أعظكم أولا بالتوحيد ولا آمركم فى أول الأمر بغيره لأنه سابق على الكل ويدل عليه قوله تعالى (ثم تتفكروا) فإن التفكر أيضاً صار مأموراً به وموعوظاً .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (بواحدة) قال المفسرون أنها على أنها صفة خصلة أى أعظكم بخصلة واحدة ، ويحتمل أن يقال المراد حسنة واحدة لأن التوحيد حسنة وإحسان وقد ذكرنا فى قوله تعالى (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) أن العدل نفى الإلهية عن غير الله والإحسان إثبات الإلهية له ، وقيل فى تفسير قوله تعالى (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) أن المراد هل جزاء الايمان إلا الجنان ، وكذلك يدل عليه قوله تعالى (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (مثنى وفرادى) إشارة إلى جميع الأحوال فإن الإنسان إما أن يكون مع غيره أو يكون وحده ، فإذا كان مع غيره دخل فى قوله (مثنى) وإذا كان وحده دخل فى قوله (فرادى) فكأنه يقول تقوموا لله مجتمعين ومنفردين لا تمنعكم الجمعية من ذكر الله ولا يحوجكم الانفراد إلى معين يعينكم على ذكر الله .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (ثم تتفكروا) يعنى اعترفوا بما هو الأصل والتوحيد ولا حاجة فيه إلى تفكر ونظر بعد ما بان وظهر ، ثم تتفكروا فيما أقول بعده من الرسالة والحشر ، فانه يحتاج إلى تفكر ، وكلمة ثم تفيد ما ذكرنا ، فانه قال (أن تقوموا لله ثم تتفكروا) ثم بين ما يتفكرون فيه وهو أمر النبى عليه السلام فقال (ما بصاحبكم من جنة) .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قوله (ما بصاحبكم من جنة) يفيد كونه رسولا وإن كان لا يلزم فى كل من لا يكون به جنة أن يكون رسولا ، وذلك لأن النبى عليه السلام كان يظهر منه أشياء لا تكون مقدورة للبشر وغير البشر ممن تظهر منه العجائب إما الجن أو الملك ، وإذا لم يكن الصادر من النبى ﷺ بواسطة الجن يكون بواسطة الملك أو بقدرة الله تعالى من غير واسطة ، وعلى التقديرين فهو رسول الله ، وهذا من أحسن الطرق ، وهو أن يثبت الصفة التى هى أشرف الصفات فى البشر بنفى أخس الصفات ، فانه لو قال أولا هو رسول الله كانوا يقولون فيه النزاع ، فاذا قال ما هو بجنون لم

قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾

يسعهم إنكار ذلك لعلمهم بعلو شأنه وحاله فى قوة لسانه و بيانه فاذا ساعدوا على ذلك لزمتهم المسألة. ولهذا قال بعده إن هو إلا نذير ، يعنى إما هو به جنة أو هو رسول لكن تبين أنه ليس به جنة فهو نذير .

﴿ المسألة السادسة ﴾ قوله (بين يدى عذاب شديد) إشارة إلى قرب العذاب كأنه قال ينذركم بعذاب حاضر يمسكم عن قريب بين يدى العذاب أى سوف يأتى العذاب بعده .

ثم قال تعالى ﴿ قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله وهو على كل شىء شهيد ﴾ لما ذكر أنه ما به جنة ليلزم منه كونه نبياً ذكر وجهاً آخر يلزم منه أنه نبى إذا لم يكن مجنوناً لأن من يرتكب العناء الشديد لا لغرض عاجل إذا لم يكن ذلك فيه ثواب أخروى يكون مجنوناً ، فالنبى عليه السلام بدعواه النبوة يجعل نفسه عرضة للهلاك عاجلا ، فإن كل أحد يقصده و يعاديه ولا يطلب أجراً فى الدنيا فهو يفعله للآخرة ، والكاذب فى الآخرة معذب لامثاب ، فلو كان كاذباً لكان مجنونا لكنه ليس بمجنون فليس بكاذب ، فهو نبى صادق وقوله (وهو على كل شهيد) تقرير آخر للرسالة وذلك لأن الرسالة لا تثبت إلا بالدعوى والبينة . بأن يدعى شخص النبوة ويظهر الله له المعجزة فهى بينة شاهدة والتصديق بالفعل يقوم مقام التصديق بالقول فى إفادة العلم بدليل أن من قال لقوم إنى مرسل من هذا الملك إليكم ألزمكم قبول قولى والملك حاضر ناظر ، ثم قال للملك أيها الملك إن كنت أنا رسولك إليهم فقل لهم إنى رسولك فاذا قال إنه رسولى إليكم لا يبقى فيه شك كذلك إذا قال يا أيها الملك إن كنت أنا رسولك إليهم فألبسنى قباءك فلو ألبسه قباءه فى عقب كلامه يجزم الناس بأنه رسوله ، كذلك حال الرسل إذا قال الأنبياء لقومهم نحن رسل الله ، ثم قالوا يا إلهنا إن كنا رسلك فأنطق هذه الحجارة أو أنشر هذا الميت ففعله حصل الجزم بأنه صدقه .

ثم قال تعالى ﴿ قل إن ربى يقذف بالحق علام الغيوب ﴾ وفيه وجهان (أحدهما) يقذف بالحق فى قلوب المحقين ، وعلى هذا الوجه للآية بما قبلها تعلق ، وذلك من حيث إن الله تعالى لما بين رسالة النبى ﷺ بقوله (إن هو إلا نذير لكم) وأكده بقوله (قل ما سألتكم من أجر فهو لكم) وكان من عادة المشركين استبعاد تخصيص واحد من بينهم بإنزال الذكر عليه ، كما قال تعالى عنهم (أأنزل عليه الذكر من بيننا) ذكر ما يصلح جواباً لهم فقال (قل إن ربى يقذف بالحق) أى فى القلوب إشارة إلى أن الأمر بيده يفعل ما يريد ويعطى ما يشاء لمن يشاء .

ثم قال تعالى (علام الغيوب) إشارة إلى جواب سؤال فاسد يذكر عليه وهو أن من يفعل شيئاً

قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ

كما يريد من غير اختصاص محل الفعل بشيء لايوجد في غيره لايكون عالماً وإنما فعل ذلك اتفاقاً، كما إذا أصاب السهم موضعاً دون غيره مع تسوية المواضع في المحاذاة فقال (يقذف بالحق) كيف يشاء وهو عالم بما يفعله وعالم بعواقب مايفعله فهو يفعل مايريد لا كما يفعله الهاجم الغافل عن العواقب إذ هو علام الغيوب (الوجه الثاني) أن المراد منه هو أنه يقذف بالحق على الباطل كما كما قال في سورة الأنبياء (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه) وعلى هذا تعلق الآية بما قبلها أيضاً ظاهر وذلك من حيث إن براهين التوحيد لما ظهرت ودحضت شبههم قال (قل إن ربي يقذف بالحق) أي على باطلكم، وقوله (علام الغيوب) على هذا الوجه له معنى لطيف وهو أن البرهان الباهر المعقول الظاهر لم يقم إلا على التوحيد والرسالة، وأما الحشر فعلى وقوعه لابرهان غير إخبار الله تعالى عنه، وعن أحواله وأهواله. ولولا بيان الله بالقول لما بان لأحد بخلاف التوحيد والرسالة، فلما قال (يقذف بالحق) أي على الباطل، إشارة إلى ظهور البراهين على التوحيد والنبوة قال (علام الغيوب) أي ما يخبره عن الغيب وهو قيام الساعة وأحوالها فهو لاخلف فيه فان الله علام الغيوب، والآية تحتمل تفسيراً آخر وهو أن يقال (ربي يقذف بالحق) أي ما يقذفه يقذفه بالحق لا بالباطل والباء على الوجهين الأولين متعلق بالمفعول به أي الحق مقذوف وعلى هذا الباء فيه كالباء في قوله (وقضى بينهم بالحق) وفي قوله (فاحكم بين الناس بالحق) والمعنى على هذا الوجه هو أن الله تعالى قذف ماقذف في قلب الرسل وهو علام الغيوب يعلم مافي قلوبهم ومافي قلوبكم.

قوله تعالى: ﴿قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد﴾.

لما ذكر الله أنه يقذف بالحق وكان ذلك بصيغة الاستقبال. ذكر أن ذلك الحق قد جاء وفيه وجوه (أحدها) أنه القرآن (الثاني) أنه بيان التوحيد والحشر وكل ماظهر على لسان النبي صلى الله عليه وسلم (الثالث) المعجزات الدالة على نبوة محمد عليه السلام، ويحتمل أن يكون المراد من (جاء الحق) ظهر الحق لأن كل ماجاء فقد ظهر والباطل خلاف الحق، وقد بينا أن الحق هو الموجود، ولما كان ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم لم يمكن انتفاؤه كالتوحيد والرسالة والحشر، كان حقاً لاينتفي، ولما كان ما يأتون به من الإشراك والتكذيب لايمكن وجوده كان باطلا لايثبت. وهذا المعنى يفهم من قوله (وما يبدىء الباطل) أي الباطل لايفيد شيئاً في الأولى ولا في الآخرة فلا إمكان لوجوده أصلا، والحق المأتي به لاعدم له أصلا، وقيل المراد لايبدىء الشيطان ولا يعيد، وفيه معنى لطيف وهو أن قوله تعالى (قل إن ربي يقذف بالحق) لما كان فيه معنى قوله تعالى (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه) كان يقع لمتوهم أن الباطل كان فورد عليه الحق

عَلَىٰ نَفْسِى وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾

فأبطله ودمغه، فقال ههنا ليس للباطل تحقق أولا وآخراً، وإنما المراد من قوله (فيدمغه) أي فيظهر بطلانه الذي لم يزل كذلك وإليه الإشارة بقوله تعالى في موضع آخر (وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً) يعني ليس أمراً متجدداً زهوق الباطل، فقوله (وما يبدىء الباطل) أي لا يثبت في الأول شيئاً خلاف الحق (ولا يعيد) أي لا يعيد في الآخرة شيئاً خلاف الحق.

ثم قال تعالى: ﴿ قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فبما يوحي إلى ربي إنه سميع قريب ﴾.

هذا فيه تقرير الرسالة أيضاً وذلك لأن الله تعالى قال على سبيل العموم (من اهتدى فلنفسه) وقال في حق النبي صلى الله عليه وسلم (وإن اهتديت فبما يوحي إلى ربي) يعني ضلالي على نفسي كضلالكم، وأما اهتدائي فليس بالنظر والاستدلال كاهتدائكم، وإنما هو بالوحي المبين، وقوله (إنه سميع) أي يسمع إذا ناديته واستعديت به عليكم قريب يأتيكم من غير تأخير، ليس يسمع عن بعد ولا يلحق الداعي.

ثم قال تعالى: ﴿ ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب ﴾

لما قال (سميع) قال هو قريب فإن لم يعذب عاجلا ولا يعين صاحب الحق في الحال فيوم الفزع آت لا فوت، وإنما يستعجل من يخاف الفوت. وقوله (ولو ترى) جوابه محذوف أي ترى عجباً (وأخذوا من مكان قريب) لا يهربون وإنما الأخذ قبل تمكنهم من الهرب.

ثم قال تعالى: ﴿ وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش من مكان بعيد ﴾.

أي بعد ظهور الأمر حيث لا ينفع إيمان، قالوا آمنا (وأنى لهم التناوش) أي كيف يقدرون على الظفر بالمطلوب وذلك لا يكون إلا في الدنيا وهم في الآخرة والدنيا من الآخرة بعيدة، فإن قيل فكيف قال كثير من المواضع إن الآخرة من الدنيا قريبة، ولهذا سماها الله الساعة وقال (لعل الساعة قريب) نقول الماضي كالأمس الدابر بعد ما يكون إذ لا وصول إليه، والمستقبل وإن كان بينه وبين الحاضر سنين فإنه آت، فيوم القيامة الدنيا بعيدة لمضيها وفي الدنيا يوم القيامة قريب لإتيانه والتناوش هو التناول عن قرب. وقيل عن بعد، ولما جعل الله الفعل مأخوذاً كالجسم جعل ظرف الفعل وهو الزمان كظرف الجسم وهو المكان فقال (من مكان بعيد) والمراد ما مضى من الدنيا.

ثم بين الله تعالى أن إيمانهم لا نفع فيه بسبب أنهم كفروا به من قبل، والإشارة في قوله

وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾

(آمنا به) وقوله ﴿وقد كفروا به من قبل﴾ إلى شيء واحد ، إما محمد عليه الصلاة والسلام وإما القرآن وإما الحق الذى أتى به محمد عليه السلام وهو أقرب وأولى ، وقوله ﴿ويقذفون بالغيب﴾ ضد يؤمنون بالغيب لأن الغيب ينزل من الله على لسان الرسول ، فيقذفه الله فى القلوب ويقبله المؤمن ، وأما الكافر فهو يقذف بالغيب ، أى يقول مالا يعلمه ، وقوله ﴿من مكان بعيد﴾ يحتمل أن يكون المراد منه أن مأخذهم بعيد أخذوا الشريك من أنهم لا يقدرون على أعمال كثيرة إلا إذا كانوا أشخاصاً كثيرة ، فكذلك المخلوقات الكثيرة وأخذوا بعد الإعادة من حالهم وعجزهم عن الإحياء ، فإن المريض يداوى فإذا مات لا يمكنهم إعادة الروح اليه ، وقياس الله على المخلوقات بعيد المأخذ ، ويحتمل أن يقال إنهم كانوا يقولون بأن الساعة إذا كانت قائمة فالثواب والنعيم لنا ، كقول قائلهم (ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى) فكانوا يقولون ذلك فان كان من قول الرسول فما كان ذلك عندهم حتى يقولوا عن إحساس فان مالا يجب عقلا لا يعلم إلا بالإحساس أو بقول الصادق ، فهم كانوا يقولون عن الغيب من مكان بعيد ، فان قيل قد ذكرت أن الآخرة قريب فكيف قال من مكان بعيد؟ نقول الجواب عنه من وجه (أحدهما) أن ذلك قريب عند من آمن بمحمد ﷺ ومن لم يؤمن لا يمكنه التصديق به فيكون بعيداً عنده (الثانى) أن الحكاية يوم القيامة ، فكأنه قال كانوا يقذفون من مكان بعيد وهو الدنيا ، ويحتمل وجهاً آخر وهو أنهم فى الآخرة يقولون (ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً) وهو قذف بالغيب من مكان بعيد وهو الدنيا .

ثم قال تعالى : ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾ من العود إلى الدنيا أو بين لذات الدنيا ، فان قيل : كيف يصح قولك ما يشتهون من العود مع أنه تعالى قال ﴿كما فعل بأشياعهم من قبل إنهم كانوا فى شك مريب﴾ وما حيل بينهم وبين العود؟ قلنا لم قلتم إنه ما حيل بينهم ، بل كل من جاءه الملك طلب التأخير ولم يعط وأرادوا أن يؤمنوا عند ظهور اليأس ولم يقبل ، وقوله (مريب) يحتمل وجهين (أحدهما) ذى ريب (والثانى) موقع فى الريب ، وسنذكره فى موضع آخر إن شاء الله تعالى ، والله أعلم بالصواب ، والحمد لله رب العالمين وصلاته على خير خلقه محمد النبى وآله وصحبه وأزواجه أجمعين .

تم الجزء الخامس والعشرون ، ويليه السادس والعشرون وأوله سورة فاطر

سورة سبأ

مكِّيَّةٌ في قولِ الجميع، إلَّا آيةً واحدةً اختُلف فيها، وهي قوله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ الآية [٦]، فقالت فرقةٌ: هي مكيَّةٌ، والمرادُ المؤمنون أصحابُ النبيِّ ﷺ؛ قاله ابن عباس. وقالت فرقة: هي مدنية، والمرادُ بالمؤمنين مَن أَسْلَمَ بالمدينة [من أهل الكتاب] كعبد الله بن سلَام وغيره[١]؛ قاله مقاتل. وقال قتادة: هم أمةُ محمدٍ ﷺ المؤمنون به؛ كائناً مَن كان[٢]. وهي أربعٌ وخمسون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ «الذي» في موضعِ خَفْضٍ على النعتِ أو البدل. ويجوزُ أن يكونَ في موضعِ رفعٍ على إضمارِ مبتدأ، وأن يكون في موضع نصبٍ بمعنى: أعني. وحكى سيبويه: «الحمد للهِ أهل الحمد» بالرفع والنصب والخفض[٣]. والحمدُ الكاملُ والثناءُ الشَّامِلُ كلُّه لِله؛ إذ النِّعَمُ كلُّها منه. وقد مضى الكلامُ فيه في أوّلِ «الفاتحة»[٤].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٤ دون قوله: قاله ابن عباس، وما سلف بين حاصرتين منه. وقول ابن عباس إن سورة سبأ مكية أخرجه النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٩٤.

(٢) كذا نقل المصنف عن ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٦. وهو في تفسير الطبري ١٩/ ٢١٤، والنكت والعيون ٤/ ٤٣٣، والوسيط ٣/ ٤٨٧، وتفسير البغوي ٣/ ٥٤٩ بلفظ: هم أصحاب محمد ﷺ، وكذا ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢٢٦ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم. وسيذكره المصنف عند تفسير الآية عن ابن عباس.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣١. وقول سيبويه في الكتاب ٢/ ٦٢ - ٦٣.

(٤) ١/ ٢٠٢.

﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ﴾ قيل: هو قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٧٤]، وقيل: هو قوله: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]، فهو المحمودُ في الآخرةِ كما أنه المحمودُ في الدنيا، وهو المالكُ للآخرة كما أنَّه المالكُ للأُولى[١]. ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ في فعله ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بأَمْرِ خَلْقِه.

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما يدخل فيها من قَطْرٍ وغيره، كما قال: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١]، ومن الكنوزِ والدَّفَائنِ والأمواتِ وما هي له كِفَاتٌ[٢]. ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من نباتٍ وغيره ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من الأمطار والثلوج والبَرَد والصواعق، والأرزاقِ والمقادير والبركات. وقرأ عليّ بن أبي طالب: «وما نُنزِّلُ» بالنون والتشديد[٣]. ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ من الملائكة وأعمالِ العباد؛ قاله الحسن وغيره[٤]. ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ قيل: المرادُ أهلُ مكة؛ قال مقاتل: قال أبو سفيان لكفار مكة: واللّاتِ والعزّى لا تأتينا الساعة أبداً ولا نُبعث. فقال الله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾. وروى هارونُ عن طَلْقٍ المعلِّم

(١) في (ظ): للدنيا.

(٢) مصدر كفت، ومعنى كَفَتَ الشيءَ، أي: ضمَّه إليه وقبضه. القاموس (كفت).

(٣) القراءات الشاذة ص ١٢١، والكشاف ٣/ ٢٧٩.

(٤) ذكره البغوي ٣/ ٥٤٨، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٧٩ دون نسبة.

قال: سمعتُ أشياخَنا يقرؤون: «قل بلى وربِّي لَيَأْتِيَنَّكُمْ» بياءٍ[١]، حَمَلوه على المعنى، كأنه قال: لَيأتينَّكُم البعثُ، أو أَمْرُه، كما قال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [النحل: ٣٣].

فهؤلاء الكفارُ مُقِرُّونَ بالابتداء مُنْكِرون الإعادَةَ، وهو نقضٌ لِمَا اعترفوا به من القدرة[٢] على البعث، وقالوا: وإنْ قَدَرَ لا يفعل. فهذا تحكُّمٌ بعد أن أخبر على ألسنةِ الرسل أنه يبعث الخلق، وإذا ورد الخبر بشيءٍ هو[٣] ممكنٌ في الفعل مقدورٌ، فتكذيبُ مَن وَجَبَ صِدْقُه مُحال.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ بالرفع قراءةُ نافع وابن عامر[٤] على الابتداء، وخبرُه: «لا يَعْزُبُ عنه». وقرأ عاصم وأبو عمرو: ﴿عَٰلِمِ﴾ بالخفض[٥]، أي: الحمدُ لِله عالِمِ، فعلى هذه القراءة لا يَحْسُنُ الوَقْفُ على قوله: «لَتَأْتِيَنَّكم». وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: «علّامِ الغيب» على المبالغة والنعت[٦].

﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ أي: لا يغيبُ عنه، «ويَعْزِب» أيضاً. قال الفرَّاء[٧]: والكسرُ أحبُّ إليَّ. النحاس: وهي قراءةُ يحيى بن وثّاب، وهي لغةٌ معروفة. يقال: عَزَبَ يَعْزُبُ ويَعْزِبُ. إذا بَعُد وغاب[٨].

(١) القراءات الشاذة ص ١٢١ ، والمحتسب ٢/ ١٨٦ ، والبحر ٧/ ٢٥٧ ، ووقع في المحتسب : طليق ، بدل : طلق .

(٢) في النسخ عدا (ظ) : وهو نقض لما اعترفوا بالقدرة، والمثبت من (ظ) .

(٣) في (د) و(م) : وهو .

(٤) في النسخ: ابن كثير، وهو خطأ.

(٥) وهي قراءة ابن كثير أيضاً .

(٦) السبعة ص ٥٢٦ ، والتسير ص ١٧٩ - ١٨٠ .

(٧) في معاني القرآن ٢/ ٣٥١ .

(٨) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٣٩٣ ، وقرأ: «يَعزِبُ» بكسر الزاي الكسائي ، والباقون بضمها . السبعة ص٥٢٦ ، والتيسير ص ١٢٢ .

﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ أي: قَدْرُ نَملةٍ صغيرة. ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ﴾ وفي قراءة الأعمش: «ولا أصغرَ من ذلك ولا أكبرَ» بالفتح فيهما[1] عطفاً على «ذَرَّةٍ». وقراءةُ العامَّةِ بالرفع عطفاً على «مِثْقَالُ».

﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ فهو العالمُ بما خلَقَ، ولا يَخْفَى عليه شيء. ﴿لِّيَجْزِيَ﴾ منصوبٌ بلامِ كي، والتقدير: لَتأتينَّكُم لِيجزيَ[2] ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بالثواب، والكافرين بالعقاب. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ يعني المؤمنين ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ وهو الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: في إبطالِ أدِلَّتِنا والتكذيبِ بآياتنا. ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾: مُسابِقين يحسبون أنهم يَفُوتوننا، وأنَّ الله لا يقدرُ على بعثهم في الآخرة، وظنُّوا أنَّا نُهملُهم، فهؤلاء ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ يقال: عاجَزَه وأَعْجَزه: إذا غالبَه وسَبَقَه.

و«أَلِيمٍ» قراءةُ نافعٍ بالكسر[3] نعتاً للرِّجْز؛ فإنَّ الرِّجْز هو العذاب، قال الله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة:٥٩]. وقرأ ابن كَثِيرٍ وحفصٌ عن عاصم: ﴿عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ برفع «الميم» هنا وفي «الجاثية»[4] نعتاً للعذاب. وقرأ ابن كثير وابن مُحيصِنٍ وحُميد بن قيس ومجاهد وأبو عمرو: «مُعَجِّزِينَ»[5] أي: مثبِّطين، أي: ثبَّطوا الناسَ عن الإيمان بالمعجزات وآياتِ القرآن.

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٢١ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٢ .

(٣) وقرأ بها أيضاً من السبعة أبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم. السبعة ص٥٢٦ ، والتيسير ص ١٨٠ .

(٤) في الآية (١١) منها . السبعة ص ٥٢٦ ، والتيسير ص ١٨٠ .

(٥) السبعة ص ٤٣٩ ، والتيسير ص ١٥٨ عن ابن كثير وأبي عمرو .

قوله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦﴾

لمَّا ذكر الذين سَعَوْا في إبطال النبوَّة؛ بيَّنَ أنَّ الذين أوتوا العلم يَرَوْنَ أنَّ القرآن حقٌّ. قال مقاتل: «الذين أُوتوا العلمَ» هم مؤمنو أهلِ الكتاب. وقال ابن عباس: هم أصحابُ محمدٍ ﷺ[1]. وقيل: جميع المسلمين، وهو أصحُّ لعمومه.

والرؤيةُ بمعنى العلم، وهي في موضعِ نصبٍ عطفاً على «لِيَجْزِيَ»، أي: ليجزي وليرى؛ قاله الزجَّاج والفرَّاء[2]. وفيه نظر، لأنَّ قوله: «لِيجزيَ» متعلِّقٌ بقوله: «لَتأْتينَّكم الساعةُ»، ولا يقال: لتأتينَّكم الساعةُ ليَرى الذين أوتوا العلم أنَّ القرآن حقٌّ، فإنَّهم يَرَوْن القرآنَ حقًّا وإن لم تأتِهم الساعةُ. والصحيحُ أنه رفعٌ على الاستئناف؛ ذكره القشيريُّ.

قلت: وإذا كان «لِيَجْزِيَ» متعلِّقاً بمعنى: أَثبت ذلك في كتابٍ مبين، فيحسُنُ عطفُ «ويَرَى» أي: وأثبت أيضاً ليرى[3] الذين أوتوا العلمَ أنَّ القرآن حقٌّ. ويجوز أن يكون مُسْتأنَفاً.

﴿ٱلَّذِىٓ﴾ في موضعِ نصبٍ على أنه مفعولٌ أول لـ «يَرى»، و﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ مفعولٌ ثانٍ. و«هو» فاصلةٌ، والكوفيون يقولون: عماد، ويجوز الرفعُ على أنه مبتدأ، و«الْحَقُّ» خبرُه، والجملةُ في موضع نصبٍ على المفعول الثاني. والنصبُ أكثرُ فيما كانت فيه الألفُ واللَّام عند جميع النحويين، وكذا ما كان نكرةً لا يَدْخلُه الألفُ واللام، فيشبِهُ المعرفة. فإن كان الخبر اسماً معروفاً نحو قولك: كان أخوك هو زيدٌ، فزعم الفراء أنَّ الاختيار فيه الرفعُ، وكذا: كان [أبو] محمد هو عمرو. وعلَّتُه في اختياره الرفعَ: أنه

---

(١) لم نقف عليه عن ابن عباس، وأخرجه الطبري ١٩/ ٢١٤ عن قتادة، وينظر ما سلف ص ٢٥٨ من هذا الجزء.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٥٢، ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٤١.

(٣) في النسخ الخطية: رؤية، والمثبت من (م).

لمَّا لم تكن فيه الألفُ واللَّامُ أَشْبَهَ النكرةَ في قولك: كان زيد هو جالسٌ؛ لأنَّ هذا لا يجوز فيه إلَّا الرفعُ[1].

﴿وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي: يهدي القرآنُ إلى طريق الإسلام الذي هو دينُ الله. ودلَّ بقوله: «العزيز» على أنه لا يُغَالَبُ. وبقوله: «الحميد» على أنه لا يَلِيقُ به صفةُ العجز.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ وإن شئتَ أَدْغمتَ اللامَ في النون لقُرْبِها منها[2]. ﴿يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ هذا إخبارٌ عمَّن قال: «لا تأتينا الساعةُ» أي: هل نُرشدُكم إلى رجلٍ ينبئكم، أي: يقول لكم: إنكم تُبعَثون بعد البِلَى في القبور. وهذا صادرٌ عن فَرْطِ إنكارهم.

الزَّمخشَريُّ[3]: فإن قلت: كان رسولُ الله ﷺ مشهوراً عَلَماً في قريش، وكان إنباؤُه بالبعث شائعاً عندهم، فما معنى قولهم: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ﴾ فنكَّروه لهم، وعَرَضوا عليهم الدلالةَ عليه كما يُدَلُّ على مجهولٍ في أمرٍ مجهول.

قلت: كانوا يقصدون بذلك الطَّنْزَ[4] والهُزْءَ والسُّخريةَ، فَأَخْرَجوه مخرجَ التَّحكِّي[5] ببعض الأَحَاجيّ التي يُتَحاجَى بها للضَّحك والتَّلهِّي، مُتَجاهِلينَ به وبأمره.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٢ - ٣٣٣، وقول الفرَّاء في معاني القرآن له ٢/ ٣٥٢. وما سلف بين حاصرتين منهما.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٣، وأدغمها الكسائي.

(٣) في الكشاف ٣/ ٢٨١.

(٤) أي: السخرية. القاموس (طنز).

(٥) في (ظ): التحاكي، وفي الكشاف: التحلي.

و«إذا» في موضع نصبٍ، والعاملُ فيها: «مُزِّقْتُم»؛ قاله النحاس[١]، ولا يجوز أن يكون العاملُ فيها «يُنَبِّئُكُم»؛ لأنه ليس يُخْبِرُهم ذلك الوقتَ. ولا يجوز أن يكون العاملُ فيها ما بعدَ «إِنَّ»، لأنه لا يعملُ فيما قَبْلَه، و«إِنَّ» لا يتقدَّم عليها ما بعدَها ولا معمولُها. وأجاز الزجَّاج[٢] أن يكون العاملُ فيها محذوفاً، التقدير: إذا مزِّقتُم كلَّ ممزَّقٍ بُعثتم، أو ينبئكم بأنكم تُبعَثون إذا مُزِّقتم.

المهدويُّ: ولا يعملُ فيه «مُزِّقتم»؛ لأنه مُضافٌ إليه، والمضافُ إليه لا يعملُ في المضاف. وأجازه بعضُهم على أن تُجعل «إِذَا» للمجازاة، فيعملُ فيها حينئذٍ ما بعدَها لأنَّها غيرُ مُضافةٍ إليه. وأكثرُ ما تقع «إذا» للمجازاة في الشعر. ومعنى ﴿مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾: فُرِّقتم كلَّ تَفْريقٍ. والمَزْقُ: خرقُ الأشياء؛ يقال: ثوبٌ مَزِيقٌ وممزوقٌ ومتمزِّق وممزَّق.

قوله تعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ لمَّا دخلت ألفُ الاستفهام استغنيتَ عن ألفِ الوصل فحذَفْتَها، وكان فتحُ ألفِ الاستفهام فرقاً بينها وبين ألفِ الوصل[٣]. وقد مضى هذا في سورة مريم عند قوله تعالى: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ [الآية:٧٨] مستوفًى.

﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ هذا مردودٌ على ما تقدَّم من قول المشركين، والمعنى: قال

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٣٣٣، وقاله أيضاً الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٢٤١. قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٦: وهو خطأ وإفساد للمعنى. وتعقبه أبو حيان في البحر ٧/ ٢٥٩ بأنه ليس بخطأ ولا إفساد للمعنى، وأن الصحيح أن إذا الشرطية يعمل فيها فعل الشرط كسائر أدوات الشرط. قال السمين في الدر المصون ٩/ ١٥٤: لكن الجمهور على خلافه.

(٢) في معاني القرآن له ٤/ ٢٤٢، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٣٣، وما قبله منه.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٣.

المشركون: أَفْتَرَى على الله كذباً ـ والافتراءُ: الاخْتِلاقُ ـ أَمْ به جِنَّةٌ، أي: جنونٌ، فهو يتكلَّم بما لا يدري. ثم رَدَّ عليهم فقال: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ أي: ليس الأمرُ كما قالوا، بل هو أصدقُ الصادقين، ومَن يُنْكِر البعثَ فهو غداً في العذاب، واليومَ في الضَّلال عن الصواب؛ إذ صاروا إلى تعجيز الإله، ونسبةِ الافتراءِ إلى مَن أَيَّده بالمعجزات.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾

أَعْلَمَ الله تعالى أنَّ الذي قَدَرَ على خَلْقِ السماواتِ والأرضِ وما فيهنَّ قادرٌ على البعث، وعلى تعجيلِ العقوبةِ لهم، فاستَدَلَّ بقدرته عليهم، وأنَّ السماواتِ والأرضَ مِلْكه، وأنَّهما محيطتان بهم من كلِّ جانب، فكيف يَأْمَنون الخَسْفَ والكَسْفَ كما فُعِلَ بقارونَ وأصحابِ الأيكة؟!.

وقرأ حمزة والكسائيُّ: ﴿إنْ يَشَأْ يَخْسِفْ بهمُ الأرضَ أو يُسْقِطْ﴾ بالياء في الثلاث، أي: إنْ يشأ اللهُ أَمَر الأرضَ فتنخسف بهم، أو السماءَ فتُسقط عليهم كِسَفاً. الباقون بالنون على التعظيم[1].

وقرأ السُّلَميُّ وحفصٌ: ﴿كِسَفًا﴾ بفتح السين. الباقون بالإسكان. وقد تقدَّم بيانُه في «سبحان» وغيرها[2].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ أي: في هذا الذي ذَكَرْناه من قدرتنا «لآيةً» أي: دلالةً ظاهِرةً ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ أي: تائبٍ رجَّاعٍ إلى الله بقلبه. وخصَّ المنيب بالذِّكر؛ لأنه المنتفِعُ بالفكرة في حُجج الله وآياته.

(١) السبعة ص ٥٢٧ ، والتيسير ص ١٨٠ .

(٢) ١٣/ ١٧٥ وعند تفسير الآية (١٨٧) من سورة النمل. وينظر السبعة ص٣٨٥ والتيسير ص١٦٦ .

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا﴾ بيَّن لمنكري نبوَّةِ محمدٍ ﷺ أنَّ إرسال الرسل ليس أمرًا بِدْعًا، بل أَرْسَلْنا الرسلَ وأيَّدناهم بالمعجزات، وأَحْلَلْنا بِمَن خالَفَهم العقاب. «آتَيْنا»: أعطينا. ﴿فَضْلًا﴾ أي: أمراً فضَّلْناه به على غيره.

واختُلف في هذا الفضل على تسعة أقوال:

الأوّل: النبوَّة.

الثاني: الزَّبور.

الثالث: العلم؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾ [النمل: ١٥].

الرابع: القوّة؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ [ص: ١٧].

الخامس: تسخير الجبال والناس؛ قال الله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾.

السادس: التوبة؛ قال الله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ [ص: ٢٥].

السابع: الحكم بالعدل؛ قال الله تعالى: ﴿يَٰدَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية [ص: ٢٦].

الثامن: إلَانَةُ الحديد؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾.

التاسع: حُسن الصوت، وكان داودُ عليه السلام ذا صوتٍ حسن ووجهٍ حسن. وحُسْنُ الصوت هبةٌ من الله تعالى وتفضُّلٌ منه، وهو المرادُ بقوله تبارك وتعالى: ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ [فاطر: ١] على ما يأتي إن شاء الله تعالى. وقال ﷺ لأبي موسى: «لقد أُوتيتَ مِزْماراً من مزامير آلِ داود»[(١)]. قال العلماء: المِزْمارُ والمَزْمُور: الصوتُ الحسن، وبه سمِّيت آلةُ الزَّمْرِ مِزْماراً[(٢)]. وقد استَحْسَنَ كثيرٌ من فقهاء

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٤٨)، ومسلم (٧٩٣): (٢٣٦) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ. وأخرجه أحمد (٢٢٩٦٩)، ومسلم (٧٩٣): (٢٣٥) من حديث بريدة الأسلمي ﷺ.

(٢) المفهم ٢/ ٤٢٣.

الأمصار القراءةَ بالتزيين والترجيع[١]، وقد مضى هذا في مقدِّمة الكتاب[٢]، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ أي: وقلنا: يا جبالُ أوِّبي معه، أي: سبِّحي معه؛ لأنه قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ [ص:١٨]. قال أبو ميسرة: هو التسبيحُ بلسان الحبشة[٣]، ومعنى تسبيحِ الجبال: هو أنَّ الله تعالى خَلَقَ فيها تسبيحاً كما خلق الكلامَ في الشجرة، فَيُسمَعُ منها ما يُسمَعُ من المسبِّح، معجزةً لداودَ عليه الصلاة والسلام[٤].

وقيل: المعنى: سِيري معه حيثُ شاء، من التأويب الذي هو سيرُ النهارِ أَجْمعَ وينزلُ الليلَ. قال ابن مُقْبِل:

لَحِقْنا بحيٍّ أَوَّبوا السَّيرَ بعد ما ... دَفَعْنا شُعاعَ الشَّمسِ والطَّرْفُ مُجنَحُ[٥]

وقرأ الحسن وقتادة وغيرهما: «أُوْبي مَعَهُ» أي: ارجعي معه[٦]، من آبَ يَؤُوبُ: إذا رجع، أَوْبًا وأَوْبة وإيَاباً.

وقيل: المعنى: تصرَّفي معه على ما يَتَصرَّفُ عليه داودُ بالنهار، فكان إذا قرأ الزبورَ صَوَّتت الجبالُ معه، وأَصْغَتْ إليه الطيرُ، فكأنَّها فَعَلَتْ ما فَعَل.

وقال وهب بن منبِّه: المعنى: نُوحي معه، والطيرُ تساعده[٧] على ذلك، فكان إذا

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٥٨٤، وفيه: بالألحان والترجيع.

(٢) ١/ ٢١.

(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٢٠، وأبو ميسرة هو عمرو بن شُرَحبيل الهَمْداني.

(٤) الكشاف ٣/ ٢٨١.

(٥) تفسير غريب القرآن ص ٣٥٣، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٠٧، والبيت في ذيل ديوان تميم بن مقبل رقم (١٤). وذكره صاحب منتهى الطلب من أشعار العرب ٦/ ٤٦ عن الراعي النميري، وهو في ديوانه ص٣٩. ووقع في (م): يجنح، وهو موافق لما في تفسير الغريب.

(٦) القراءات الشاذة ص١٢١، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٠٧، قال ابن عطية: أي: في السير، أو في التسبيح.

(٧) في النسخ الخطية: تسعده، والمثبت من (م).

نادى بالنياحة أجابته الجبال بصَدَاها، وعكفت الطيرُ عليه مِن فوقه. فصَدَى الجبالِ الذي يسمعه الناس إنَّما كان من ذلك اليوم إلى هذه الساعة[١]، فأُيِّد بمساعدة الجبال والطير لئلَّا يجد فَتْرةً، فإذا دخلت الفترةُ اهتاج، أي: ثار وتحرَّك، وقَوِيَ بمساعدةِ الجبالِ والطير. وكان قد أُعطِيَ من الصوت ما تتزاحمُ الوحوشُ من الجبال على حُسْنِ صوته، وكان الماءُ الجاري يَنْقَطِعُ عن الجَرْي وقوفاً لصوته.

«وَالطَّيْرُ» بالرفع قراءةُ ابنِ أبي إسحاق، ونصرٍ عن عاصم، وابنِ هُرْمُز، ومَسْلمةَ ابنِ عبد الملك[٢]، عطفاً على لفظ الجبال، أو على المضمَر في «أَوِّبي»، وحسَّنه الفصلُ بمع. الباقون بالنصب عطفاً على موضع «يا جبالُ» أي: نادينا الجبالَ والطير؛ قاله سيبويه. وعند أبي عمرو بن العلاء بإضمارِ فعلٍ، على معنى: وسخَّرنا له الطير. وقال الكسائيُّ: هو معطوفٌ، أي: وآتيناه الطيرَ، حملاً على ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾. النحاس[٣]: ويجوز أن يكون مفعولاً معه، كما تقول: استوى الماء والخشبةَ. وسمعتُ الزجَّاج يُجيز: قمتُ وزيداً، فالمعنى: أوِّبي معه ومع الطير[٤].

﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ قال ابن عباس: صار عنده كالشمع[٥]. وقال الحسن: كالعجين[٦]، فكان يعمله من غير نار. وقال السُّدي: كان الحديد في يده كالطين المبلول والعجينِ والشمع، يُصَرِّفه كيف شاء، من غير إدخالِ نارٍ ولا ضربٍ بِمطْرَقةٍ[٧]. وقاله مقاتل. وكان يَفْرَغُ من الدِّرع في بعضِ اليومِ أو بعضِ الليل،

(١) هذا كلام يناقض سنة الله في كونه، والخبرُ من الإسرائيليات.

(٢) القراءات الشاذة ص ١٢٠، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٣ - ٣٣٤، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٠٧ وقراءة عاصم المتواترة عنه كقراءة الجماعة.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٣٣٤، وما قبله منه.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٤٣.

(٥) الوسيط ٣/ ٤٨٨.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ٢٢٧.

(٧) في (ظ): مطرقة.

ثمنُها ألفُ درهم.

وقيل: أُعطيَ قوةً يَثْني بها الحديد، وسَبَبُ ذلك: أنَّ داود عليه السلام لمَّا مَلَكَ بني إسرائيلَ؛ لَقِيَ مَلَكاً وداودُ يَظُنُّه إنساناً، وداودُ مُتنكِّرٌ؛ خرج يسأل عن نفسه وسيرتِه في بني إسرائيلَ في خَفَاءٍ، فقال داودُ لذلك الشخصِ الذي تَمثَّلَ له: ما قولُك في هذا الملِك داودَ؟ فقال له المَلَكُ: نِعْمَ العبدُ لولا خَلَّةٌ فيه. قال داودُ: وما هي؟ قال: يَرتَزِقُ من بيت المال، ولو أَكَلَ مِن عَمَلِ يده لَتَمَّتْ فضائلُه. فرجع، فدعا الله في أنْ يعلِّمه صنعةً ويسهِّلَها عليه، فعلَّمه صنعةَ لَبوسٍ كما قال جلَّ وعزَّ في سورة الأنبياء، فألانَ له الحديدَ، فصنع الدُّروعَ، فكان يصنع الدِّرعَ فيما بين يومِه وليلتِه يساوي ألفَ درهمٍ، حتى ادَّخر منها كثيراً، وتوسَّعتْ معيشةُ منزله، وتَصَدَّق على الفقراء والمساكين، وكان يُنفقُ ثلثَ المالِ في مَصَالحِ المسلمين[١]. وهو أوّلُ مَن اتَّخذ الدروعَ وصَنَعها وكانت قبل ذلك صفائحَ. ويقال: إنه كان يبيع كلَّ درعٍ منها بأربعة آلاف[٢]. والدِّرعُ مؤنثةٌ إذا كانت للحرب، ودرعُ المرأةِ مُذَكَّر[٣].

مسألة: في هذه الآية دليلٌ على تعلُّم أهلِ الفضلِ الصَّنائعَ، وأنَّ التحرُّفَ بها لا ينقص من مناصبهم، بل ذلك زيادةٌ في فضلهم وفضائلهم؛ إذ يحصلُ لهم التواضعُ في أنفسهم والاستغناءُ عن غيرهم، وكَسْبُ الحلالِ الخليِّ عن الامتنان. وفي الصحيح عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ خيرَ ما أَكَلَ المرءُ مِن عَمَلِ يَدِه، وإنَّ نبيَّ اللهِ داودَ كان يأكلُ مِن عَمَلِ يَدِه»[٤]. وقد مضى هذا في «الأنبياء»[٥] مُجَوَّداً، والحمد لله.

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٧ - ٤٠٨، وبنحوه في عرائس المجالس ص ٢٨١، وتفسير البغوي ٣/ ٥٥٠.

(٢) عرائس المجالس ص ٢٨١، وتفسير البغوي ٣/ ٥٥٠.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٤.

(٤) صحيح البخاري (٢٠٧٢) من حديث المقدام ﷺ، و(٢٠٧٣) من حديث أبي هريرة ﷺ، وسلف ١٠/ ١٦١.

(٥) ١٤/ ٢٥٤.

قوله تعالى: ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾ أي: دروعاً سابغاتٍ، أي: كَوَامِلَ تامَّاتٍ واسعات؛ يقال: سَبَغ الدِّرْعُ والثوبُ وغيرُهما: إذا غطَّى كلَّ ما هو عليه وفَضَلَ منه.

﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ قال قتادة: كانت الدُّروعُ قبلَه صَفائح، فكانت ثِقَالاً؛ فلذلك أُمِرَ هو بالتقدير فيما يجمع بين[1] الخِفَّةِ والحَصَانة. أي: قَدِّرْ ما تأخذُ من هذين المَعْنَيَين بقِسْطِه، أي: لا تَقْصدِ الحصانةَ فتثقُلَ، ولا الخفةَ فتُزيلَ المَنَعَةَ.

وقال ابن زيد: التقديرُ الذي أُمر به هو في قَدْرِ الحَلْقة، أي: لا تَعْمَلْها صغيرةً فتَضْعُفَ، فلا تَقْوى الدروعُ على الدفاع، ولا تَعْمَلْها كبيرةً فيُنالَ لابِسُها [من خلالها][2].

وقال ابن عباس: التقديرُ الذي أُمر به هو في المسمار، أي: لا تجعل مسمارَ الدرع رقيقاً فيَقْلَقَ، ولا غليظاً فَيَفْصِمَ الحَلَقَ[3]. روي «يَقْصِمُ» بالقاف، والفاءُ أيضاً رواية[4].

﴿فِي السَّرْدِ﴾ السَّرْدُ: نسجُ حَلَقِ الدروع، ومنه قيل لصانع الدروع: السَّرَّاد والزرَّاد، تُبدَلُ من السين الزايُ، كما قيل: سِرَاط وزِرَاط. والسَّرد: الخَرْز، يقال: سَرَدَ يَسْرُدُ: إذا خَرَز. والمِسْرَد: الإشْفَى[5]، ويقال: سِرَاد. قال الشَّمَّاخ:

---

(١) في النسخ عدا (ظ): من، والمثبت من (ظ) والمحرر الوجيز ٤/ ٤٠٨، والكلام منه.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٨، وما بين حاصرتين منه، وأخرج قول ابن زيد وقول قتادة الطبري ١٩/ ٢٢٣ - ٢٢٤.

(٣) أخرجه بنحوه عبد الرزاق ٢/ ١٢٧. وقوله: فيقلق، أي: لا يستقر ولا يثبت. اللسان (قلق). وعلقه البخاري كما في الفتح ٦/ ٤٥٣ عن مجاهد قال: لا ترقَّ المسامير فيسلس، ولا تعظم فينفصم. قال الحافظ: معناه: فيخرج من الثقب برفق، أو يصير متحركاً فيلين عند الخروج.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٨.

(٥) وهو مِثْقَب الإسكاف، جمعها: الأشافي. معجم متن اللغة (أشف).

فظلَّتْ تِبَاعاً خيلُنا في بيوتكم كما تابعتْ سَرْدَ العِنانِ الخوارِزُ[١]

والسِّرَاد: السَّيرُ الذي يُخْرَزُ به؛ قال لَبِيد:

يَشُكُّ صِفَاحَها بالرَّوْقِ شَزْرًا كما خرج السِّرَادُ من النِّقَال[٢]

ويقال: قد سَرَدَ الحديثَ والصومَ، فالسَّرْدُ فيهما: أنْ يَجيءَ به وِلاءً في نسقٍ واحد، ومنه سرد الكلام. وفي[٣] حديث عائشة: لم يكن النبيُّ ﷺ يَسْرُدُ الحديثَ كَسَرْدِكُم، وكان يحدِّث الحديثَ لو أراد العادُّ أن يَعُدَّه لأَحْصَاه[٤]. قال سيبويه[٥]: ومنه: رجلٌ سَرَنْدَى، أي: جريء، قال: لأنه يمضي قُدُماً. وأصلُ ذلك في سَرْدِ الدِّرْع، وهو أن يُحْكِمَها ويجعل نظامَ حَلقَها وِلاءً غيرَ مختلفٍ. قال لبيد:

صَنَعَ الحديدَ مُضَاعفاً أسرادُه لينال طولَ العيش غيرَ مَرُومِ[٦]

وقال أبو ذؤيب:

وعليهما مسرُودَتانِ قضاهما داودُ أو صَنَعُ السَّوَابِغِ تُبَّعُ[٧]

﴿وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ أي: عملاً صالحاً. وهذا خطابُ لداودَ وأَهْلِه. كما قال: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣]. ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

---

(١) ديوان الشماخ ص١٩٤ برواية: شكَكْنَ بأحساء الذِّنابَ على هُدًى ـ كما تابعت . . . يصف أُتُناً وَرَدْنَ وحَسَسْنَ بالصائد فنَفَرْنَ على تتابُعٍ واستقامة. اللسان (عرق). وذكر ابن قتيبة عجزه في غريب القرآن ص٣٥٤ ، والكلام فيه بنحوه.

(٢) في النسخ الخطية: النعال، والمثبت من (م) وشرح ديوان لبيد ص ٧٩ . وقال الشارح: يشك: يطعن (وهو الثور) صفاحها: جُنوبها. والرَّوق: القَرْن. شَزْراً: جانباً. والنقال واحدها نَقْل: وهو النعل الخَلَقْ تُرقع فتُخْرز.

(٣) في (ظ): ومنه.

(٤) أخرج أوله أحمد (٢٤٨٦٥)، ومسلم (٢٤٩٣)، وعلقه البخاري (٣٥٦٨). وأخرجه من قوله: وكان يحدث الحديث...، البخاري (٣٥٦٧)، ومسلم في كتاب الزهد (٢٤٩٣): (٧١).

(٥) في الكتاب ٤/ ٣٢٣ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في معاني القرآن ٥/ ٣٩٧ .

(٦) ديوان لبيد ص ١٠٩ برواية: صنع الحديد لحفظه أسرادَه...، قوله: غير مروم، قال شارح الديوان: أي: لينال طول العيش وهو لا يُرام.

(٧) سلف ٢/ ٣٣٦ .

قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ قال الزجّاج[1]: التقدير: وسخَّرنا لسليمانَ الريح. وقرأ عاصم في روايةِ أبي بكر عنه: «الرِّيحُ» بالرفع[2] على الابتداء، والمعنى: له تسخيرُ الريح، أو بالاستقرار، أي: ولسليمان الريحُ ثابتةٌ، وفيه ذلك المعنى الأولُ. فإن قال قائل: إذا قلت: أعطيتُ زيداً درهماً ولعمرو دينارٌ، فرفعتَه لم يكن فيه معنى الأولِ، وجاز أن يكون لم تُعطِه الدينارَ. قيل: الأمرُ كذا؛ ولكن الآية على خلافِ هذا من جهة المعنى؛ لأنَّه قد عُلم أنه لم يسخِّرها أحدٌ إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ[3].

﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ أي: مسيرةُ شهر. قال الحسن: كان يغدو من دمشقَ فيَقِيلُ بإِصْطَخْرَ، وبينهما مسيرةُ شهرٍ للمُسْرِع، ثم يروح من إِصْطَخر ويَبيتُ بكابُل، وبينهما شهرٌ للمُسْرِع[4]. قال السُّدِّيُّ: كانت تسير به في اليوم مسيرةَ شهرين[5].

وروى سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال: كان سليمان إذا جلس نُصبت حَوَالَيْه أربعُ مئةِ ألفِ كرسيٍّ، ثم جلس رؤساءُ الإنس ممَّا يليه، وجلس سِفْلَةُ الإنس مما يليهم، وجلس رؤساءُ الجنِّ مما يلي سِفْلَةَ الإنس، وجلس سفلةُ الجنِّ ممَّا يَليهم، ومُوَكَّلٌ بكلِّ كرسيٍّ طائرٌ لعملٍ قد عَرَفَه، ثم تُقِلُّهم الريحُ، والطيرُ تُظِلُّهم من الشمس، فيغدو من بيت المقدس إلى إصطخر [فيَقيلُ بها، ثم يَروحُ من إصطخر] فيبيت ببيت المقدس، ثم قرأ ابن عباس: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾[6].

---

(١) في معاني القرآن ٤/ ٢٤٥، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٣٥.
(٢) السبعة ص ٥٢٧، والتيسير ص ١٨٠.
(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٥.
(٤) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٢٧، والطبري ١٩/ ٢٢٨. وإِصْطَخْر: مدينة بفارس. معجم البلدان ١/ ٢١١.
(٥) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٢٧ عن قتادة، وأخرجه عبد بن حميد كما في الدر المنثور ٥/ ٢٢٧ عن مجاهد.
(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٥، وما سلف بين حاصرتين منه، وأخرجه بنحوه ابن أبي شيبة ١١/ ٥٣٦، والطبري ١٨/ ٣٠.

وقال وهب بن منبِّهٍ: ذُكر لي أنَّ منزلاً بناحيةِ دِجْلةَ مكتوباً فيه ـ كَتبه بعضُ صَحابةِ سليمانَ؛ إمَّا من الجنِّ وإما من الإنس ـ : نحن نَزَلناهُ[١] وما بنيناه، ومَبْنيًّا وجدناه، غَدَوْنا من إصْطَخْرَ فَقِلْناه، ونحن رائحون منه إن شاء الله تعالى فبائتون في الشام[٢].

وقال الحسن: شَغَلتْ سليمانَ الخيلُ حتى فاتته صلاةُ العصر، فعقر الخيلَ فأَبْدَلَه الله خيراً منها وأَسْرَعَ، أَبْدَلَه الريحَ تجري بأمره حيث شاء، غدوُّها شهرٌ ورَوَاحُها شهر[٣].

وقال ابن زيد: كان مستقرُّ سليمانَ بمدينةِ تَدْمُرَ، وكان أَمَرَ الشياطينَ قبل شُخوصِه من الشام إلى العراق، فبَنَوْها له بالصُّفَّاحِ والعَمَدِ والرُّخامِ الأبيضِ والأصفر[٤]، وفيه يقول النابغة:

إلَّا سليمانَ إذ قال الإلهُ[٥] له ... قُمْ في البرِيَّة فاحْدُدْها عن الفَنَدِ
وخَيِّسِ الجنَّ إنِّي قد أذِنْتُ لهم ... يَبْنُونَ تَدْمرَ بالصُّفَّاحِ والعَمَدِ
فَمَن أطاعَكَ فانفَعْه بطاعَتِهِ ... كما أطاعَكَ وادْلُلْهُ على الرَّشَدِ
ومَن عصاكَ فعاقِبْه مُعاقَبَةً ... تَنْهَى الظَّلومَ ولا تَقْعُدْ على ضَمَدِ[٦]

ووجدتُ هذه الأبياتَ منقورةً في صخرةٍ بأرضِ كَسْكَر[٧]، أنشأهنَّ بعضُ

(١) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: نزلنا.
(٢) أخرجه الطبري ١٩/٢٢٧ ، وابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٥٦ .
(٣) أخرجه ابن عساكر في تاريخه ٢٢/٢٣٩ - ٢٤٠ ، وذكره الثعلبي في عرائس المجالس ص ٣٠٤ ، والبغوي ٣/ ٢٥٥ ، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٣١٤ لعبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.
(٤) عرائس المجالس ص ٣٠٤ ، والصُّفَّاح: حجارة عِراض رِقَاق. القاموس (صفح).
(٥) في (ظ): المليك.
(٦) ديوان النابغة ص ٣٣ ، وذكر البغدادي في الخزانة ٣/ ٤٠٥ البيت الأول وقال: قوله: فاحْدُدْها، أي: امنع البرية، والحد: المنع. والفَنَد: خطأ الرأي والصنيع، وقال ابن الأعرابي: الفند: الظلم. اهـ. وقوله: خيِّس، أي: ذَلِّل. والضَّمَد: الحقد. القاموس (خيس) و(ضمد).
(٧) في (د) و(م): يشكر، والمثبت من باقي النسخ، وعرائس المجالس ص ٣٠٤ ، والكلام منه، وكسكر مكان بالعراق. ينظر معجم البلدان ٤/ ٤٦١ .

أصحابِ سليمان عليه الصلاة والسلام:

ونحن ولا حولٌ سوى حولِ ربِّنا نَروحُ إلى الأوطان من أرضِ تَدْمُرِ
إذا نحن رُحْنا كان رَيْثُ[١] رَوَاحِنا مسيرةَ شهرٍ والغُدُوُّ لآخَرِ
أُناسٌ شَرَوْا لله طَوْعًا نفوسَهم بنَصْرِ ابنِ داودَ النبيِّ المُطَهَّرِ
لهم في معالي الدِّين فضلٌ ورأفةٌ وإن نُسِبُوا يوماً فمِن خيرِ مَعْشَرِ
متى يركبوا الريحَ المطيعةَ أسرعتْ مُبادِرةً عن شَهْرِها لم تُقَصِّرِ
تُظِلُّهُمُ طيرٌ صفوفٌ عليهمُ متى رَفْرَفَتْ من فوقهم لم تُنَفَّرِ

قوله تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ القِطْر: النحاس؛ عن ابن عباس وغيره[٢]. أُسِيلت له مسيرةَ ثلاثةِ أيام كما يسيلُ الماء، وكانت بأرض اليمن، ولم يُذَبِ النحاسُ فيما روي لأحدٍ قَبْلَه، وكان لا يذوب، ومن وقته ذاب، وإنَّما ينتفع الناس اليومَ بما أَخرج الله تعالى لسليمان. قال قتادة: أسال الله عيناً يستعملُها فيما يريد[٣]. وقيل لعكرمة: إلى أين سالت؟ فقال: لا أدري[٤]!.

وقال ابن عباس ومجاهدٌ والسُّدِّي: أُجريت له عينُ الصُّفْر ثلاثةَ أيام بلياليهن[٥]؛ قال القشيريُّ: وتخصيصُ الإسالة بثلاثةِ أيامٍ لا يُدْرَى ما حدُّه، ولعلَّه وَهْمٌ من الناقل؛ إذ في روايةٍ عن مجاهد: أنها سالت من صنعاءَ ثلاثَ ليالٍ مما يليها، وهذا يشير إلى بيانِ الموضع، لا إلى بيان المدَّة. والظاهرُ أنه جعل النحاس لسليمان في

(١) في عرائس المجالس: أمر، والرَّيْث: المقدار. القاموس (ريث).

(٢) تفسير الطبري ١٩/٢٢٨ - ٢٢٩ .

(٣) ذكره النحاس في معاني القرآن ٥/٣٩٨ بلفظ: أسال الله له عيناً من نحاس، أي: سالت وظهرت، فكان يستعملها فيما يريد.

(٤) أخرجه ابن المنذر كما في الدر المنثور ٥/٢٢٨ .

(٥) أخرجه عن السدي ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٥/٢٢٨ ، ولم نقف عليه عن ابن عباس ومجاهد. والصُّفْر هو النحاس، أو النحاس الجيد. معجم متن اللغة (صفر).

معدنه عيناً تسيل كعيون المياه، دلالةً على نبوَّته.

قال الخليل: القِطْر: النحاسُ المُذَاب[١].

قلت: دليلُه قراءةُ مَن قرأ: «مِن قِطرٍ آنٍ»[٢].

﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ أي: بأمره ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ الذي أمرناه به من طاعة سليمان ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: في الآخرة؛ قاله أكثر المفسرين[٣].

وقيل: ذلك في الدنيا، وذلك أنَّ الله تعالى وكَّل بهم ـ فيما روي عن السُّدِّيِّ ـ مَلَكاً بيده سوطٌ من نار، فَمَن زاغ عن أمر سليمانَ ضَرَبه بذلك السوط ضربةً من حيث لا يراه، فأَحْرقته[٤].

و«مَن» في موضعِ نصبٍ بمعنى: وسخَّرْنا له مِن الجنِّ مَن يعمل. ويجوز أن يكون في موضعِ رفعٍ، كما تقدَّم في الريح[٥].

قوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾

فيه ثمان مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ﴾ المحرابُ في اللغة: كلُّ موضعٍ مُرتفعٍ. وقيل للَّذي يصلَّى فيه: محراب؛ لأنه يجب أن يُرفع ويُعَظَّم[٦]. وقال

(١) العين ٥/ ٩٥.

(٢) القراءات الشاذة ص ٧٠، والمحتسب ١/ ٣٦٦، وسلفت ١٢/ ١٧٢ عند تفسير الآية (٥٠) من سورة إبراهيم.

(٣) الوسيط ٣/ ٤٨٩، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٣٨ عن الضحاك، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٨٢ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) الكشاف ٣/ ٢٨٢، وتفسير البغوي ٣/ ٥٥١.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٥.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٦.

الضحاك: «مِنْ مَحَارِيبَ» أي: من مساجد. وكذا قال قتادة. وقال مجاهد: المحاريبُ دون القصور[١]. وقال أبو عبيدة: المحرابُ: أشْرفُ بيوتِ الدار[٢]، قال:

ومـاذا عـلـيـه أنْ ذكـرتُ أَوَانِـسـاً كـغِـزلان رَمْلٍ في محاريبِ أقيالِ[٣]

وقال عَدِيّ بن زيد:

كدُمَى العاجِ في المحاريب أو كالـ ـبيض في الرَّوْضِ زهرُه مُسْتَنيرُ[٤]

وقيل: هو ما يُرقَى إليه بالدَّرَج كالغرفة الحسنة؛ كما قال: ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ [ص: ٢١] وقوله: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾ [مريم: ١١] أي: أشْرَفَ عليهم.

وفي الخبر: أنه أمر أن يُعمل حولَ كرسيِّه ألفُ محرابٍ فيها ألفُ رجلٍ عليهم المسوحُ يَصْرخون إلى الله دائباً، وهو على الكرسيِّ في موكِبه والمحاريبُ حوله، ويقول لجنوده إذا ركب: سبِّحوا الله إلى ذلك العَلَم، فإذا بَلَغوه قال: هلِّلوه إلى ذلك العَلَم، فإذا بلغوه قال: كبِّروه إلى ذلك العَلَم الآخر، فتَلِجُّ الجنودُ بالتسبيحِ والتهليلِ لَجَّةً واحدة.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾ جمع تمثال. وهو كلُّ ما صُوِّر على مثلِ صورةِ غيره من حيوانٍ أو غيرِ حيوان. وقيل: كانت من زجاجٍ ونحاسٍ ورخامٍ تماثيل أشياءَ ليست بحيوان.

وذُكر أنها صورُ الأنبياء والعلماء، وكانت تصوَّر في المساجد ليراها الناس فيزدادوا عبادةً واجتهاداً؛ قال ﷺ: «إنَّ أولئك كان[٥] إذا مات فيهم الرجلُ الصالح

---

(١) أخرج أقوالهم الطبري ١٩/ ٢٣٠ - ٢٣١ .

(٢) بنحوه في النكت والعيون ٤/٤٣٨ ، وفي مجاز القرآن ٢/ ١٤٤ لأبي عبيدة: المحراب: مقدَّم كلِّ مسجد ومصلًّى وبيت.

(٣) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص ٣٤ . قال شارحه: الأقيال: الملوك، وهم يتخذون الغزلان ويُربُّونها، ومعنى قوله: أن ذكرت أوانساً، أي: ما عليه في أنْ شبَّبْتُ بهنَّ وطَرِبْتُ إليهن!.

(٤) الكامل للمبرد ٢/٩٤٩ ، والمعاني الكبير لابن قتيبة ١/ ٣٦٠ ، والبيان والتبيين ١/ ٤٥ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٩٤ .

(٥) في (ظ): كانوا.

بنَوْا على قبره مسجداً وصوَّروا فيه تلك الصُّورَ»[١]. أي: ليتذكَّروا عبادتهم فيجتهدوا في العبادة.

وهذا يدلُّ على أنَّ التصوير كان مباحاً في ذلك الزمان، ونُسخ ذلك بشرع محمدٍ ﷺ. وسيأتي لهذا مزيدُ بيانٍ في سورة نوح إن شاء الله تعالى[٢].

وقيل: التماثيلُ طِلَّسْمات[٣] كان يعملُها، ويُحرِّمُ على كلِّ مصوِّرٍ[٤] أن يتجاوزها، فلا يتجاوزها، فيعمل تمثالاً للذباب أو للبعوض أو للتماسيح في مكان، ويأمرهم ألا يتجاوزوه فلا يتجاوزه واحد أبداً[٥] ما دام ذلك التمثالُ قائماً. وواحدُ التماثيل تمثالٌ بكَسْر التاء؛ قال:

ويا رُبَّ يومٍ قد لَهوْتُ وليلةٍ ... بآنِسَةٍ كأنَّها خطُّ تِمثالِ[٦]

وقيل: إنَّ هذه التماثيلَ رجالٌ اتَّخذهم من نحاس، وسأل ربَّه أن ينفخ فيها الروحَ ليقاتلوا في سبيل الله ولا يَحِيك فيهم السلاح، ويقال: إنَّ إسفنديارَ كان منهم[٧]، والله أعلم.

وروي أنهم عملوا له أسدين في أسفل كرسيِّه ونَسْرَيْن فوقه، فإذا أراد أن يصعد

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٢٥٢)، والبخاري (٤٢٧)، ومسلم (٥٢٨) من حديث عائشة رضي الله عنها، وتتمته: «... فأولئك شِرارُ الخَلْقِ عند اللهِ يومَ القيامة». وسلف ٢/ ٢٩٤.

(٢) عند تفسير الآية (٢٣) منها.

(٣) هي نقوش تنقش على أجساد خاصة في ساعات مناسبة بكيفيات ملائمة لحوائج معلومة، واحدها: طِلَّسم. معجم متن اللغة (طلسم).

(٤) في (خ): مصر.

(٥) في (ظ): ويأمرهم ألا يتجاوزوه مرة واحدة أبداً.

(٦) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص ٢٩ . قال شارحه: قوله: بآنسة، أي: بامرأة ذات أُنْس. وقوله: خط تمثال، أي: نقش صورة، وإنما شبَّهها بالتمثال لأن الصانع له يتأنَّق في تحسينه.

(٧) ذكره الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص ١١٢ عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقوله: فلا يحيك، أي: فلا يؤثِّر. القاموس (حاك). قال الآلوسي في روح المعاني ٢٢/ ١١٩ : وهذا من العجب العجاب، ولا ينبغي لأحد اعتقادُ صحته، وما هو إلا حديثُ خرافةٍ.

بَسَطَ الأسدان له ذراعيهما، وإذا قعد أَطْلَقَ النَّسران أجنحتهما[١].

الثالثة: حكى مكّيّ في «الهداية» له: أنَّ فرقةً تجوّز التصوير، وتحتجُّ بهذه الآية. قال ابن عطية[٢]: وذلك خطأ، وما أحفظُ عن أحدٍ من أئمة العلم مَن يُجوِّزُه.

قلت: ما حكاه مكّيّ ذكره النحَّاس قبله؛ قال النحاس[٣]: قال قومٌ: عملُ الصورِ جائزٌ لهذه الآية، ولِمَا أخبر الله عزَّ وجلَّ عن المسيح[٤]. وقال قومٌ: قد صحَّ النهيُ عن النبيِّ ﷺ عنها، والتوعُّدُ لمن عَمِلَهَا أو اتَّخذها، فنسخ الله عزَّ وجلَّ بهذا[٥] ما كان مباحاً قبله، وكانت الحكمةُ في ذلك لأنه بُعث عليه الصلاة والسلام والصورُ تُعبد، فكان الأصلحُ إزالتَها.

الرابعة: التمثالُ على قسمين: حيوانٌ ومَوَات. والمواتُ على قسمين: جمادٌ ونامٍ؛ وقد كانت الجنُّ تصنعُ لسليمان جميعَه؛ لعموم قوله: «وتماثيلَ». وفي الإسرائيليات: أنَّ التماثيل من الطير كانت على كرسيِّ سليمان.

فإن قيل: لا عمومَ لقوله: «وَتَمَاثيلَ» فإنَّه إثباتٌ في نكرة، والإثباتُ في النكرة لا عمومَ له، إنَّما العمومُ في النفي في النكرة.

قلنا: كذلك هو، بَيْدَ أنه قد اقترن بهذا الإثباتِ في النكرة ما يقتضي حملَه على العموم، وهو قوله: «ما يشاءُ» فاقترانُ المشيئةِ به يقتضي العمومَ له.

فإن قيل: كيف استجاز الصورَ المنهيَّ عنها؟[٦]

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٨٢ .

(٢) في المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٩ ، وما قبله منه. وكتاب مكي اسمه: الهداية إلى بلوغ النهاية. كشف الظنون ٢/ ٢٠٤١ .

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٣٣٦ .

(٤) يعني قوله تعالى: ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾ [آل عمران: ٤٩].

(٥) في إعراب القرآن: فنسخ ﷺ.

(٦) في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٥٨٨ (والكلام منه): كيف شاء عمل الصور المنهي عنها.

قلنا: كان ذلك جائزاً في شرعه، ونُسخ ذلك بشرعنا كما بيَّنَّا، والله أعلم. وعن أبي العالية: لم يكن اتخاذ الصور إذ ذاك محرَّماً(١).

الخامسة: مقتضى الأحاديث يدلُّ على أنَّ الصور ممنوعةٌ، ثم جاء: «إلَّا ما كان رَقْمًا في ثوب»(٢)، فخُصَّ من جملة الصور، ثم ثبتت الكراهيةُ فيه بقوله عليه الصلاة والسلام لعائشةَ في الثوب [المصوَّر]: «أَخِّريه عنِّي، فإنِّي كلَّما رأيتُه ذكرتُ الدنيا». ثم بِهَتْكِهِ الثوبَ المصوَّرَ على عائشةَ مَنَعَ منه، ثم بقَطْعِها له وسادتين حتى تغيَّرت الصورةُ وخرجت عن هيئتها، بان(٣) جواز ذلك إذا لم تكن الصورةُ فيه متَّصلةَ الهيئة، ولو كان متَّصلةَ الهيئةِ لم يَجز؛ لقولها في النُّمرُقة المصوَّرة: اشتريتُها لك لتقعد عليها وتَوَسَّدَها، فمنع منه، وتوعَّد عليه. وتبيَّن بحديث الصلاة إلى الصور أنَّ ذلك جائزٌ في الرَّقْم في الثوب ثم نَسَخَه المنعُ منه. فهكذا استقرَّ الأمر فيه، والله أعلم؛ قاله ابن العربيّ(٤).

السادسة: روى مسلم عن عائشةَ قالت: كان لنا سِتْرٌ فيه تمثالُ طائرٍ، وكان الداخِلُ إذا دخل استقبله، فقال رسول الله ﷺ: «حوِّلي هذا، فإنِّي كلَّما دخلتُ فرأيته ذكرتُ الدنيا». قالت: وكانت لنا قَطِيفةٌ كنَّا نقولُ: عَلَمُها حرير، فكنَّا نَلْبَسُها(٥).

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٨٢.

(٢) قطعة من حديث أخرجه أحمد (١٦٣٤٥)، والبخاري (٣٢٢٦)، ومسلم (٢١٠٦) عن أبي طلحة الأنصاري ﷺ وأخرجه مالك في الموطأ ٢/ ٩٦٦، وأحمد (١٥٩٧٩)، والترمذي (١٧٥٠)، والنسائي في المجتبى ٨/ ٢١٢ عن سهل بن حنيف ﷺ. قال الترمذي: حديث حسن صحيح. والرَّقْم: النقش والوشي. النهاية (رقم). والكلام من أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٥٩٠.

(٣) في (د) و(م): فإن.

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٥٩٠، وما بين حاصرتين منه. وقول عائشة رضي الله عنها في النُّمرقة المصورة: اشتريتها لك...، قطعة من حديث أخرجه أحمد (٢٦٠٩٠)، والبخاري (٢١٠٥)، ومسلم (٢١٠٧): (٩٦) عن عائشة رضي الله عنها. والنُّمرقة: الوسادة، وهي بضم النون والراء وبكسرهما، جمعها: نمارق. النهاية (نمرق). وسيأتي تخريج ما ذكر من أحاديث في المسألة التالية.

(٥) صحيح مسلم (٢١٠٧): (٨٨)، وهو عند أحمد (٢٤٢١٨).

وعنها قالت: دخل عليَّ رسول الله ﷺ وأنا مستترةٌ[١] بِقِرام فيه صورةٌ، فتلوَّنَ وجهُه، ثم تناول الستر فهتكه، ثم قال: «إنَّ من أشدِّ الناس عذاباً يومَ القيامة الذين يُشَبِّهونَ بخلقِ الله عزَّ وجلَّ»[٢].

وعنها: أنه كان لها ثوبٌ فيه تصاويرُ ممدودٌ إلى سَهْوةٍ، فكان النبيُّ ﷺ يصلِّي إليه فقال: «أخِّريه عني» قالت: فأخَّرتُه، فجعلتُه وسادتين[٣].

قال بعض العلماء: ويمكن أن يكون تهتيكُه عليه الصلاة والسلام الثوبَ وأَمْرُه بتأخيره وَرَعًا؛ لأنَّ محلَّ النبوَّةِ والرسالةِ الكمالُ. فتأمَّلْه.

السابعة: قال المزنيُّ عن الشافعيِّ: إنْ دُعي رجلٌ إلى عُرسٍ، فرأى صورةً ذاتَ رُوحٍ، أو صوراً ذات أرواح، لم يدخل إن كانت منصوبةً. وإن كانت تُوطَأُ فلا بأس، وإن كانت صورُ الشجر [فلا بأس]. ولم يختلفوا أنَّ التصاوير في الستور المعلَّقةِ مكروهةٌ غيرُ محرَّمةٍ. وكذلك عندهم ما كان خرطاً أو نقشاً في البناء[٤].

واستثنى بعضُهم ما كان رَقْماً في ثوبٍ؛ لحديث سهل بن حُنيف[٥].

قلت: لعن رسول الله ﷺ المصوِّرين ولم يستثنِ[٦]. وقولُه: «إنَّ أصحاب هذه الصور يعذَّبون يومَ القيامة، ويقال لهم: أَحيُوا ما خَلَقتُم»[٧] ولم يَسْتَثْنِ؛ وفي الترمذيِّ

---

(١) قال النووي في شرح صحيح مسلم ١٤/ ٨٨ : في معظم النسخ: متسترةٌ، وفي بعضها: مستترة، أي: متخذة ستراً.

(٢) صحيح مسلم (٢١٠٧): (٩١)، وهو عند أحمد (٢٥٦٣١)، والبخاري (٥٩٥٤) و(٦١٠٩).
والقِرام: الستر الرقيق. النهاية (قرم).

(٣) صحيح مسلم (٢١٠٧): (٩٣)، وهو عند أحمد (٢٥٣٩٢) وفيهما: فجعلته وسائد. والسهوة: بيت صغير يشبه المَخْدَع، وقيل: هي شِبْهُ الطَّاقِ يُجعل فيه الشيء، وقيل: شبه الخزانة الصغيرة. المفهم ٥/ ٤٢٦ .

(٤) التمهيد ١/ ٣٠٢ ، وما سلف بن حاصرتين منه.

(٥) سلف في بداية المسألة الخامسة.

(٦) سلف ص٢٢٣ من هذا الجزء.

(٧) أخرجه أحمد (٢٦٠٩٠)، والبخاري (٢١٠٥)، ومسلم (٢١٠٧): (٩٦) من حديث عائشة رضي الله عنها، وسلفت قطعة منه في المسألة الخامسة.

عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرج عُنُقٌ من النار يومَ القيامة له عينان تُبصران، وأُذنان تسمعان، ولسانٌ ينطقُ يقول: إنّي وُكِّلتُ بثلاثٍ: بكلِّ جبارٍ عنيد، وبكلِّ مَن دعا مع الله إلهاً آخرَ وبالمصوِّرين» قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ صحيح(١)؛ وفي البخاريِّ ومسلمٍ عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «أشدُّ الناس عذاباً يوم القيامة المصوِّرون»(٢): يدلُّ على المنع من تصوير شيءٍ، أيِّ شيءٍ كان. وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾ [النحل: ٦٠] على ما تقدَّم بيانُه فاعْلَمْه.

الثامنة: وقد استُثْنيَ من هذا الباب لُعَبُ البنات، لِمَا ثبت عن عائشة رضي الله عنها: أنَّ النبيَّ ﷺ تزوَّجها وهي بنتُ سبعِ سنين، وزُفَّتْ إليه وهي بنتُ تسعٍ ولُعَبُها معها، ومات عنها وهي بنتُ ثمان عشرةَ سنةً. وعنها أيضاً قالت: كنتُ ألعبُ بالبنات عند النبيِّ ﷺ، وكان لي صواحبُ يلعبنَ معي، فكان رسول الله ﷺ إذا دخل ينقمِعن منه، فيُسَرِّبُهنَّ إليَّ فيلعبن معي. خرَّجهما مسلم(٣). قال العلماء: وذلك للضرورة إلى ذلك، وحاجةِ البنات حتى يتدرَّبنَ على تربية أولادهنّ. ثم إنه لا بقاءَ لذلك، وكذلك ما يُصنع من الحلاوة أو من العجين لا بقاءَ له، فرُخِّص في ذلك، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾(٤) قال ابنُ عرفة: الجواب(٥) جمعُ الجابية، وهي

(١) سنن الترمذي (٢٥٧٤)، وهو عند أحمد (٨٤٣٠). قوله: عُنُق، أي: طائفة وجانب من النار. الترغيب والترهيب ٣/ ٦٢٨ .

(٢) صحيح البخاري (٥٩٥٠)، وصحيح مسلم (٢١٠٩)، وهو عند أحمد (٣٥٥٨).

(٣) في صحيحه (١٤٢٢): (٧١)، و(٢٤٤٠). والحديث الثاني عند أحمد (٢٤٢٩٨)، والبخاري (٦١٣٠). قولها: ينقمعن، أي: ينقبضن ويستَتِرْن حياءً من النبي ﷺ وهيبة له. وقولها: يُسَرِّبُهنّ، أي: يُرسلهن ويؤنسهنَّ حتى يزول عنهنَّ ما كان أصابهنَّ.

(٤) في (ظ): كالجوابي، وهي قراءة ابن كثير من السبعة وصلاً ووقفاً، وأثبت الياء في الوصل ورش وأبو عمرو. السبعة ص ٥٢٧ ، والتيسير ص ١٨٢ .

(٥) في (م): الجوابي.

حُفيرةٌ كالحوض. وقال مجاهد: كحياض الإبل[١]. وقال ابن القاسم عن مالك: كالجَوْبَة من الأرض[٢]، والمعنى متقارب، وكان يقعد على الجَفْنَة الواحدة ألفُ رجل.

النّحّاس[٣]: «وجِفَانٍ كالجَوابي» الأَوْلَى أن تكون بالياء، ومَن حَذَفَ الياء قال: سبيلُ الألف واللامِ أن تدخل على النكرة فلا يغيِّرها عن حالها، فلمَّا كان يقال: جوابٍ، ودخلت الألف واللام؛ أُقرَّ على حاله، فحذف[٤] الياء. وواحدُ الجوابي جابية، وهي القِدرُ العظيمة، والحوضُ العظيم الكبير الذي يُجْبَى فيه الشيءُ، أي: يجمع، ومنه: جَبَيْتُ الخَراجَ، وجَبَيتُ الجراد، أي: جعلت[٥] الكساءَ فجمعته فيه. إلَّا أنَّ لَيْثًا روى عن مجاهد قال: الجَوابي جمعُ جَوبة. والجَوبةُ: الحفرةُ الكبيرة تكون في الجبل [يجتمع] فيها ماء المطر.

وقال الكسائيُّ: جَبَوْتُ الماءَ في الحوض وجَبَيْتُه، أي: جمعتُه، والجابية: الحوضُ الذي يُجبى فيه الماء للإبل، قال:

تَروحُ على آلِ المُحَلَّقِ جَفْنَةٌ كجابيةِ الشيخِ العراقيِّ تَفْهَقُ[٦]

ويروى أيضاً:

نَفَى الذمَّ عن آلِ المُحَلَّقِ جَفْنةٌ كجابيةِ السَّيحِ ... ...

ذكره النَّحّاس[٧].

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٣٣.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٥٩٠.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٣٣٦، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٤) في إعراب القرآن: بحذف.

(٥) في (ظ): بسطت.

(٦) البيت للأعشى ميمون بن قيس، وسلف عجزه ٨/ ٤٥١، وذكره بهذه الرواية الطبري ١٩/ ٢٣٢، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٨٢، وهو في الديوان ص ٢٧٥ برواية: نفى الذم عن آل المحلق...، وستأتي. قوله تفهقُ، أي: تمتلئ.

(٧) في معاني القرآن ٥/ ٣٩٩. والسَّيح: الماء الجاري على وجه الأرض، أما رواية: الشيخ، فيقال: =

قوله تعالى: ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾ قال سعيد بن جُبير: هي قدورُ النحاس تكون بفارس. وقال الضحَّاك: هي قدورٌ تُعمل من الجبال[١]. غيرُه: قد نُحِتَتْ من الجبال الصُّمِّ ممَّا عَمِلَتْ له الشياطين، أَثَافِيها[٢] منها منحوتةٌ هكذا من الجبال.

ومعنى «رَاسِيَاتٍ»: ثوابت، لا تُحملُ ولا تحرَّك لِعظَمها. قال ابن العربي[٣]: وكذلك كانت قدورُ عبد الله بنِ جُدعان، يُصعَدُ إليها في الجاهلية بسُلَّم، وعنها عبَّر طرفةُ بن العبد بقوله:

كالجَوَابي لاتَني مُتْرَعَةً لِقِرَى الأَضْيافِ أو للمحتَضِرْ[٤]

قال ابن العربيِّ: ورأيتُ برباطِ أبي سعيد قدورَ الصوفيةِ على نحوِ ذلك، فإنَّهم يطبخون جميعاً، ويأكلون جميعاً من غير استئثارِ واحدٍ منهم على أحد.

قوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ قد مضى معنى الشكرِ في «البقرة»[٥] وغيرها. وروي أنَّ النبيَّ ﷺ صعد المنبر فتلا هذه الآيةَ ثم قال: «ثلاثٌ مَن أُوتِيهنَّ فقد أوتيَ مثلَ ما أوتي آلُ داود» قال: فقلنا: ما هنّ؟ فقال: «العدلُ في الرضا والغضب، والقَصْدُ في الفقر والغنى، وخشيةُ اللهِ في السرِّ والعَلَانية». خرجه الترمذيُّ الحكيم أبو عبد الله عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة[٦].

وروي أنَّ داودَ عليه السلام قال: «يا ربِّ، كيف أُطيقُ شكركَ على نعمك،

= أراد كسرى، ويقال: أراد شيخاً من فلاحي سواد العراق غير معين. المحرر الوجيز ٤/ ٤١٠ ، وينظر ما سلف ٨/ ٤٥١ .

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٦ ، وفيه: ... تعمل من حجارة الجبال.

(٢) جمع أُثْفِيَّة، وهي الحجر يوضع عليه القدر. القاموس (ثفي).

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٥٩٠ ، وما قبله منه.

(٤) ديوان طرفة ص ٥٦ ، والخزانة ٩/ ٣٧٩ ، وفيه: لاتني، أي: لا تفتر ولا تزال، والقِرى: القيام بالضيف، والمحتضر: النازل على الماء.

(٥) ٢/ ١٠٤ وما بعدها.

(٦) نوادر الأصول ص ١٣٠ .

وإلهامي وقدرتي على شكرك نعمةٌ لك» فقال: «يا داودُ، الآن عَرَفْتني»[١]. وقد مضى هذا المعنى في سورة إبراهيم[٢]، وأنَّ الشُّكرَ حقيقتُه: الاعترافُ بالنعمة للمنعِم، واستعمالُها في طاعته. والكُفْرانُ: استعمالُها في المعصية. وقليلٌ مَن يفعلُ ذلك؛ لأنَّ الخير أقلُّ من الشرّ، والطاعة أقلُّ من المعصية، بحسَبِ سابقِ التقدير[٣].

وقال مجاهد: لمَّا قال الله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ قال داودُ لسليمانَ: إنَّ الله عزَّ وجلَّ قد ذكر الشكر فاكْفِني صلاةَ النهارِ أكْفِكَ صلاةَ الليل، قال: لا أَقْدِرُ، قال: فاكفني؛ قال الفاريابيُّ: أراه قال: إلى صلاة الظهر. قال: نعم، فكفاه[٤].

وقال الزُّهريُّ: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ أي: قولوا: الحمدُ لله[٥].

و«شُكْرًا» نصب على جهة المفعول، أي: اعملوا عملاً هو الشكر. وكأنَّ الصلاة والصيامَ والعباداتِ كلَّها هي في نفسها الشكرُ إذ سدَّت مَسَدَّه[٦]، ويبيِّنُ هذا قولُه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ وهو المرادُ بقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾. وقد قال سفيان بن عُيَيْنَةَ في تأويل قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي﴾ [لقمان: ١٤]: أنَّ المرادَ بالشكر الصلواتُ الخمس[٧].

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٠، وأورده بنحوه ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر (١١).

(٢) ١٢/ ١٠٩.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٥٩١.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٠١، وذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢٢٨ وعزاه للفريابي وابن أبي حاتم.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٠٢.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٠، وقال ابن عطية: ويحتمل أن يكون نَصْبُه على الحال، أي: اعملوا بالطاعات في حال شكر منكم لله على هذه النعم.

(٧) سلف عند تفسير الآية (١٤) من سورة لقمان.

وفي «صحيح» مسلم[١] عن عائشة رضي الله تعالى عنها: أنَّ رسول الله ﷺ كان يقومُ من الليل حتى تَفَطَّرَ قدماه، فقالت له عائشةُ رضي الله عنها: أتصنعُ هذا وقد غَفَرَ الله لك ما تقدَّم من ذَنْبِكَ وما تأخَّر؟ فقال: «أفلا أكونُ عبدًا شكورًا». انفرد بإخراجه مسلم[٢].

فظاهِرُ القرآنِ والسنَّةِ أنَّ الشكر بعمل الأبدان دون الاقتصارِ على عمل اللسان، فالشكرُ بالأفعال عملُ الأركان، والشكر بالأقوال عملُ اللسان. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ يَحتَمِلُ أن يكون مخاطبةً لآلِ داود، ويحتمل أن يكون مخاطبةً لمحمدٍ ﷺ[٣]؛ قال ابن عطية: وعلى كلٍّ وجهٍ ففيه تنبيهٌ وتحريض. وسمع عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه رجلاً يقول: اللهمَّ اجعلني من القليل، فقال عمر: ما هذا الدعاء؟ فقال الرجل: أردتُ قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾. فقال عمر ﷺ: كلُّ الناسِ أَعْلَمُ منك يا عمر[٤]!.

وروي أنَّ سليمانَ عليه السلام كان يأكل الشعير، ويُطْعِم أهلَه الخُشْكارَ، ويُطعم المساكين الدَّرْمَك[٥]. وقد قيل: إنه كان يأكل الرماد ويَتَوَسَّدُه، والأولُ أصحّ، إذ الرمادُ ليس بقُوت.

ورويَ أنه ما شبع قَطُّ، فقيل له في ذلك، فقال: أخاف إنْ شبعتُ أن أَنسى الجياع[٦]. وهذا من الشكر ومن القليل، فتأمَّلْه، والله أعلم.

---

(١) برقم (٢٨٢٠).

(٢) كذا قال المصنف، وقد أخرجه البخاري (٤٨٣٧)، وهو عند أحمد (٢٤٨٤٤).

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٤١٠ (والكلام منه): لآل محمد ﷺ.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٠ ، وأخرجه ابن أبي شيبة ١٠/ ٣٢٢ .

(٥) قطعة من رسالة مطولة للحسن البصري أرسلها إلى عمر بن عبد العزيز، وقد أخرجها الفسوي في المعرفة والتاريخ ٣/ ٣٣٨ - ٣٤٤ . والخُشْكار: الخبز الأسمر غير النقي. والدَّرْمَك: الدقيق الأبيض. المعجم الوسيط (خشكر) و(درمك).

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٠ .

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: فلمَّا حَكَمْنا على سليمانَ بالموت حتى صار كالأمرِ المفروغِ منه ووقع به الموتُ ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ وذلك أنه كان متَّكِئًا على المِنْسأة ـ وهي العصا بلسان الحَبَشةِ في قول السُّدّي[١]. وقيل: هي بلغة اليمن؛ ذكره القشيريُّ ـ فمات كذلك وبقي خافيَ الحال إلى أن سقط ميتاً لانكسار العصا؛ لأكلِ الأَرَضَةِ إياها، فعُلم موتُه بذلك، فكانت الأَرَضَةُ دالَّةً على موته، أي: سبباً لظهورِ موته. وكان سأل الله تعالى ألَّا يعلموا بموته حتى تمضيَ عليه سنة.

واختلفوا في سبب سؤاله لذلك على قولين:

أحدهما: ما قاله قتادة وغيره، قال: كانت الجنُّ تدَّعي عِلْمَ الغيب، فلمَّا مات سليمان عليه السلام وخفي موتُه عليهم «تبينت الإنس أن الجن لو كانوا[٢] يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين». ابن مسعود: أقام حولاً والجنُّ تعملُ بين يديه، حتى أكلت الأَرَضَةُ مِنْسَأَتَهُ فسقط[٣]. ويُروى أنه لمَّا سقط لم يُعلم منذ [كم] مات، فوُضِعت الأَرَضةُ على العصا، فأكلت منها يوماً وليلةً، ثم حَسَبوا على ذلك، فوجدوه قد مات منذُ سنة[٤].

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٣٨.

(٢) في (خ) و(د) و(م): تبينت الجن أن لو كانوا. والخبر أخرجه الطبري ١٩/ ٢٤٢ - ٢٤٣، وعبد بن حميد كما في الدر المنثور ٥/ ٢٣٠ وفيهما: ... فلما خر تبينت الجن، وفي بعض القراءة: فلما خرَّ تبينت الإنس أن الجن لو كانوا ...، وهي قراءة شاذة كما سيرد.

(٣) ذكره النحاس في معاني القرآن ٥/ ٤٠٣.

(٤) تفسير الطبري ١٩/ ٢٤٢، وعرائس المجالس ص ٣٢٩ - ٣٣٠، وما سلف بين حاصرتين منهما.

وقيل: كان رؤساء الجنِّ سبعةً، وكانوا مُنْقادِينَ لسليمان عليه السلام، وكان داودُ عليه السلام أسَّس بيت المقدس، فلمَّا مات أوصى إلى سليمانَ في إتمامِ مسجدِ بيتِ المقدس، فأمر سليمانُ الجنَّ به، فلمَّا دنت وفاتُه قال لأهله: لا تُخبروهم بموتي حتى يُتموا بناءَ المسجد، وكان قد بقي لإتمامه سنة[١].

وفي الخبر: أنَّ ملَك الموت كان صديقه، فسأله عن آية موته فقال: أن تخرج من موضع سجودك شجرةٌ يقال لها: الخروب[٢]، فلم يكن يومٌ يصبح فيه إلَّا تَنبتُ في بيت المقدس شجرةٌ فيسألُها: ما اسمُك؟ فتقول الشجرةُ: اسمي كذا وكذا، فيقول: ولأيِّ شيءٍ أنت؟ فتقول: لكذا وكذا، فيأمر بها فتُقْطَع، ويَغرِسُها في بستان له، ويأمر بكَتْبِ منَافِعها ومَضَارِّها واسمِها وما تَصْلُحُ له في الطبِّ، فبينما هو يصلِّي ذاتَ يومٍ إذ رأى شجرةً نبتت بين يديه، فقال لها: ما اسمك؟ قالت: الخروبة[٣]، قال: ولأيِّ شيء أنت؟ قالت: لخرابِ هذا المسجد، فقال سليمان: ما كانَ الله ليخربه وأنا حيٌّ، أنتِ التي على وَجْهِكِ هلاكي وهلاكُ بيتِ المقدس! فنزعها وغرسها في حائطه، ثم قال: اللهمَّ عَمِّ عن الجنِّ موتي حتى تعلم الإنسُ أنَّ الجنَّ لا يعلمون الغيب. وكانت الجنُّ تُخبِرُ الإنس أنهم يعلمون من الغيب أشياء، وأنهم يعلمون ما في غدٍ. ثم لبس كَفَنَه وتحنَّط، ودخل المحرابَ وقام يصلِّي، واتكأ على عصاه على كرسيِّه، فمات ولم تعلم الجنُّ إلى أن مضت سنةٌ، وتمَّ بناءُ المسجد[٤].

---

(١) ذكره بنحوه الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٤١، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٨٤.

(٢) في (م): الخرنوبة.

(٣) في (م): الخرنوبة.

(٤) أخرجه من قوله: فلم يكن يوم يصبح فيه ...، الطبري ١٩/ ٢٤١ عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما. قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: وهذا الأثر ـ والله أعلم ـ إنما هو مما تُلُقِّي من علماء أهل الكتاب وهي وقف لا يصدَّق منها إلا ما وافق الحق، ولا يكذَّب منها إلا ما خالف الحق، والباقي لا يصدق ولا يكذب.

قال أبو جعفر النحَّاس: وهذا أحسنُ ما قيل في الآية[(١)]، ويدلُّ على صحته الحديثُ المرفوع؛ روى إبراهيم بن طهمان، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبيِّ ﷺ قال: «كان نبيُّ اللّهِ سليمان بن داود عليهما السلام إذا صلَّى رأى شجرةً نابتةً بين يديه، فيسألُها: ما اسمُك؟ فإن كانت لغرسٍ غُرست، وإن كانت لدواءٍ كُتبت، فبينما هو يصلِّي ذاتَ يومٍ إذا شجرةٌ نابِتةٌ بين يديه، فقال: ما اسمك؟ قالت: الخرنوب[(٢)]؛ فقال: لأيِّ شيءٍ أنتِ؟ فقالت: لخرابِ هذا البيت، فقال: اللَّهُمَّ عَمِّ عن الجنِّ موتي حتى تعلم الإنسُ أنَّ الجنَّ لا يعلمون الغيب. فنَحَتَها عصاً، فتوكَّأ عليها حولاً وهم لا يعلمون، فسقطت، فعلم الإنسُ أنَّ الجنَّ لا يعلمون الغيبَ، فنظروا مقدارَ ذلك فوجدوه سنة[(٣)]».

وفي قراءةِ ابن مسعود وابن عباس: «تَبَيَّنَت الإنْسُ أنْ لو كان الجنُّ يَعلمون الغَيبَ»[(٤)].

وقرأ يعقوبُ في رواية رُوَيْس: ﴿تُبُيِّنَتِ الجنُّ﴾ غير مسمَّى الفاعلِ[(٥)]. ونافع

---

(١) قال النحاس هذا الكلام في معاني القرآن ٥/ ٤٠٣ عقب قول قتادة: كانت الجن تخبر الإنس أنهم يعلمون الغيب، فلما مات سليمان ولم تعلم به الجن، تَبَيَّنَت الجنُّ للإنس أنهم لا يعلمون الغيب. وقد سلف قريباً.

(٢) في (ظ): الخروب، وفي (م): الخرنوبة.

(٣) أخرجه البزار (٢٣٥٥ - كشف)، والطبري ١٩/ ٢٤٠ من طريق إبراهيم بن طهمان به. وأخرجه البزار (٢٣٥٦) من طريق سفيان بن عيينة، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما بنحوه موقوفاً.
قال البزار: لا نعلم أسنده إلا إبراهيم، وقد رواه جماعة عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس موقوفاً.
قلنا: وأخرجه الحسين المروزي في زياداته على الزهد لابن المبارك (١٠٧٢) من طريق سلمة بن كهيل، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس موقوفاً أيضاً. وقال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: والأقرب أن يكون موقوفاً.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٠٥، وإعراب القرآن له ٣/ ٣٣٨. وذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ١٨٨ بلفظ: «تبيَّنتِ الإنسُ أنَّ الجنَّ لو كانوا يعلمون الغيب».

(٥) النشر ٢/ ٣٥٠.

وأبو عمرو: ﴿تأكلُ مِنْساتَه﴾ بألفٍ بين السين والتاء من غير همز. والباقون بهمزةٍ مفتوحةٍ موضعَ الألف، لغتان، إلَّا أنَّ ابن ذَكْوَان أَسْكَنَ الهمزةَ تخفيفاً[١].

قال الشاعر في ترك الهمزة:

إذا دَبَبْتَ على المِنْساةِ من كِبَرٍ فقد تَباعَدَ عنكَ اللَّهْوُ والغَزَلُ[٢]

وقال آخر فهمَزَ وفتح:

ضربنا بِمِنْسَأةٍ وَجْهَهُ فصار بذاك مهيناً ذليلاً[٣]

وقال آخر:

أَمِنْ أَجْلِ حَبْلٍ لا أباكَ ضربتَه بمنسأةٍ قد جَرَّ حبلُكَ أحْبُلَا[٤]

وقال آخر فسكَّن همزها:

وقائمٍ قد قام من تُكَأْتِهْ كقومةِ الشيخِ إلى مِنْسَأْتِهْ[٥]

وأصلُها: من نَسَأْتُ الغنمَ، أي: زَجَرتُها وسُقْتُها، فسمِّيت العصا بذلك لأنه يُزجر بها الشيءُ ويساق، وقال طَرفَة:

أمُونٍ كألواحِ الإران نَسَأْتُها على لاحِبٍ كأنه ظَهْرُ بُرْجُدِ[٦]

---

(١) السبعة ص ٥٢٧، والتيسير ص ١٨٠. ولم يذكر ابن مجاهد ابن ذكوان. وقال الداني: وحمزة إذا وقف جعلها بين بين على أصله.

(٢) مجاز القرآن ٢/ ١٤٥، وتفسير الطبري ١٩/ ٢٣٩، والمحتسب ٢/ ١٨٧، والمحرر الوجيز ٤/ ٤١١.

(٣) ذكره الألوسي في روح المعاني ٢٢/ ١٢١، وفيه: ضربت، بدل: ضربنا.

(٤) البيت لأبي طالب كما في المنمق لابن حبيب ص ١٤٢، والأوائل للعسكري ١/ ٥٤، والبيان والتبيين ٣/ ٣٠، وهو دون نسبة في مجاز القرآن ٢/ ١٤٥، والمنصف لابن جني ٢/ ٥٩، ولفظ المصنف موافق لما في مجاز القرآن، وفي باقي المصادر اختلافٌ يسير.

(٥) ذكر أبو عمرو الداني في التيسير ص ١٨٠ برواية:

صريع خمر قام من وَكَأْتِهْ كقومة الشيخ ...

(٦) ديوان طرفة ص ٢٢. قوله: أمونٍ، أي: يُؤْمَن عِثَارها، ويعني ناقته. والإران: تابوت يحمل فيه الميت، شبَّهها بألواح الإران لشدتها. نسأتها: ضربتها بالمنسأة، وهي العصا، ويروى: نَصَأْتُها، وهما واحد. =

فسكَّن هَمْزَها. قال النحاس[1]: واشتقاقُها يدلُّ على أنَّها مهموزةٌ؛ لأنَّها مشتقةٌ من نَسَأْتُه، أي: أخَّرته ودفعته، فقيل لها: مِنْسأة؛ لأنها يُدفع بها الشيءُ ويؤخَّر، وقال مجاهدٌ وعكرمةُ: هي العصا. فَمَن[2] قرأ: «مِنْساتَه» أبدل من الهمزة ألفًا، فإن قيل: البدلُ من الهمزة قبيحٌ جدًّا، وإنَّما يجوز في الشعر على بُعْدٍ وشذوذ، وأبو عمرو ابن العلاء لا يغيبُ عنه مثلُ هذا لا سيما وأهلُ المدينة على هذه القراءة. فالجوابُ على هذا: أنَّ العربَ استعملتْ في هذه الكلمةِ البدلَ ونَطَقوا بها هكذا، كما يقع البدلُ في غير هذا ولا يقاسُ عليه، حتى قال أبو عمرو: ولستُ أدري ممن هو[3]، إلَّا أنَّها غيرُ مهموزة؛ لأنَّ ما كان مهموزاً فقد يُتركُ همزُه، وما لم يكن مهموزاً لم يَجُزْ همزُه بوجه.

المهدويُّ: ومَن قرأ بهمزةٍ ساكنةٍ فهو شاذٌّ بعيد؛ لأنَّ هاءَ التأنيثِ لا يكونُ ما قَبْلَها إلَّا متحرِّكاً أو ألفاً، لكنَّه يجوزُ أن يكون مِمَّا سُكِّنَ من المفتوح اسْتِخْفافاً، ويجوز أن يكون لَمَّا أبدل الهمزةَ ألفاً على غير قياسٍ، قَلَبَ الألفَ همزةً كما قَلَبوها في قولهم: العَأْلَم والخأتم،

وروي عن سعيد بن جبير: «مِن» مفصولة «سَأَتِه» مهموزة مكسورة التاء[4]؛ فقيل: إنَّه مِن سِئَةِ القوسِ في لغة مَن همزها، وقد روي همزُ سِيَةِ القوسِ عن رؤبة. قال

= واللاحب: الطريق الذي قد أُثّر فيه، وهو بمعنى ملحوب، ويجوز أن يكون على بابه، كأنه يَلحب أخفاف الإبل، أي يؤثر فيها. والبرجد: كساء مخطط. شرح المعلقات للنحاس ١/ ٦٠، وللتبريزي ص٨١.

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٣٣٧.

(٢) في النسخ: ثم، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس.

(٣) في إعراب القرآن: مم هي.

(٤) المحتسب ٢/ ١٨٦، وهي في القراءات الشاذة ص ١٢١ دون نسبة. ويجوز فيها فتح السين وكسرها، مثل: الضِّعَة والضَّعة، ومعناها: من طرف عصاه. ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٥٧. والمحرر الوجيز ٤/ ٤١٢.

الجوهريُّ(١): سِيَةُ القوس ما عُطِفَ من طرفيها، والجمع سِيَات، والهاءُ[في الواحد] عِوَضٌ من الواو، والنسبةُ إليها سِيَويّ، قال أبو عبيدة: كان رؤبةُ يهمزُ سِيَةَ القوس، وسائر العرب لا يهمزونها.

وفي دابة الأرض قولان: أحدهما: أنَّها الأَرَضَة؛ قاله ابن عباس ومجاهدٌ وغيرهما. وقد قرئ: «دابةُ الأَرَضِ» بفتح الراء، وهو واحدُ الأَرَضة؛ ذكره الماورديّ(٢). الثاني: أنَّها دابةٌ تأكل العيدانَ.

قال الجوهريّ(٣): والأَرَضَةُ ـ بالتحريك ـ: دُوَيبَّةٌ تأكلُ الخشب؛ يقال: أَرِضَت الخشبةُ تُؤرَضُ أَرْضاً ـ بالتسكين ـ فهي مأروضةٌ: إذا أكلتها.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ أي: سقط ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ قال الزجَّاج(٤): أي: تبيَّنت الجنُّ موتَه. وقال غيره: المعنى: تبيَّن أمرُ الجنِّ، مثل: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]. وفي التفسير بالأسانيد الصِّحاح عن ابن عباس قال: أقام سليمانُ بن داودَ عليهما الصلاة والسلام حولاً لا يُعلم بموته وهو متكئٌ على عصاه، والجنُّ منصرفةٌ فيما كان أمَرَها به، ثم سقط بعد حول [وقرأ ابن عباس:] «فلمَّا خَرَّ تبيَّنت الإنسُ أنْ لو كان الجنُّ يعلمون الغيبَ ما لبثوا في العذاب المهين» وهذه القراءةُ من ابن عباس على جهة التفسير(٥).

وفي الخبر: أنَّ الجنَّ شكرت ذلك للأَرَضَة، فأينما كانت يأتونها بالماء، قال

---

(١) في الصحاح: (سيا)، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٢) في النكت والعيون ٤/ ٤٤١ والقول الثاني بعده منه أيضاً. وقوله: وهو واحد الأرضة، خطأ. والصواب: وهو جمع الأرضة، كما ذكر ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٢١، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤١١. وقول ابن عباس ومجاهد أخرجه الطبري ١٩/ ٢٣٧ - ٢٣٨.

(٣) في الصحاح (أرض).

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٢٤٧.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٧ - ٣٣٨، وما سلف بين حاصرتين منه.

السُّدِّيُّ: والطينِ، ألم تر إلى الطين الذي يكون في جوف الخشب، فإنَّه مما يأتيها به الشياطين شكراً، وقالت: لو كنتِ تأكلين الطعامَ والشرابَ لأتيناك بهما[(١)].

و«أنْ» في موضع رفعٍ على البدل من الجنِّ، والتقدير: تبيَّن أمرُ الجنِّ، فحذف المضاف، أي: تبيَّن وظَهَر للإنس وانكشف لهم أمرُ الجنِّ أنَّهم لا يعلمون الغيب. وهذا بدلُ الاشتمال. ويجوز أن تكون في موضع نصبٍ على تقدير حذف اللام[(٢)].

و«لَبِثُوا»: أقاموا. و«الْعَذَابِ الْمُهِينِ»: السُّخْرة والحمل والبنيان وغير ذلك.

وعمِّر سليمان ثلاثاً وخمسين سنةً، ومدَّةُ ملكِه أربعون سنة، فملك وهو ابنُ ثلاثَ عَشْرةَ سنةً، وابتدأ في بنيان بيتِ المقدس وهو ابنُ سَبْعَ عَشْرةَ سنة[(٣)]. وقال السُّدِّيّ وغيره: كان عُمر سليمان سبعاً وستِّين سنة، ومَلَكَ وهو ابنُ سبع عشرةَ سنة، وابتدأ في بنيان بيت المقدس وهو ابنُ عشرين سنةً، وكان ملكه خمسين سنة.

وحكيَ أنَّ سليمان عليه السلام ابتدأ بنيانَ بيتِ المَقْدِسِ في السنة الرابعة من ملكه، وقرَّب بعد فراغه منه اثني عَشَرَ ألفَ ثورٍ، ومئةً وعشرين ألفَ شاة، واتخذ اليومَ الذي فرغ فيه من بنائه عيداً، وقام على الصخرة رافعاً يديه إلى الله تعالى بالدعاء فقال: اللهمَّ أنت وهبتَ لي هذا السلطانَ وقوَّيتني على بناء هذا المسجد، اللهمَّ فأَوْزِعْنِي شُكْرَك على ما أنعمتَ عليَّ، وتوفَّني على مِلَّتك، ولا تُزِغْ قلبي بعد إذ هديتني، اللهمَّ إنِّي اسألك لمَن دخل هذا المسجد خمسَ خصال: لا يدخله مذنبٌ دخل للتوبة إلَّا غفرتَ له وتبتَ عليه، ولا خائفٌ إلا أمَّنته، ولا سقيمٌ إلَّا شَفَيْتَه، ولا فقيرٌ إلا أغنيتَه. والخامس: ألَّا تصرفَ نظرك عمَّن دخله حتى يخرج منه، إلَّا مَن أراد إلحادًا أو ظلماً، يا ربَّ العالمين؛ ذكره الماورديّ[(٤)].

---

(١) تفسير الطبري ١٩/٢٤٢، وعرائس المجالس ص ٣٣٠، والنكت والعيون ٤/٤٤١. والنكارة في الخبر ظاهرة.

(٢) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٨٥.

(٣) عرائس المجالس ص ٣٣٠.

(٤) في النكت والعيون ٤/ ٤٤٢.

قلت: وهذا أصحُّ ممَّا تقدَّم أنه لم يفرغ بناؤه إلَّا بعد موته بسنة، والدليلُ على صحة هذا ما خرَّجه النسائيُّ وغيره بإسنادٍ صحيح من حديث عبد الله بن عمرو عن النبيِّ ﷺ: «أنَّ سليمانَ بن داود لمَّا بنَى بيتَ المقدسِ سأل الله تعالى خِلالاً ثلاثةً: حُكْمًا يصادفُ حكمه، فأُوتيَه، وسأل الله تعالى ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده، فأُوتيَه، وسأل الله تعالى حين فرغ من بنائه المسجدَ ألَّا يأتيه أحدٌ لا يَنْهَزُه إلَّا الصلاةُ فيه أن يخرج من خطيئته كيومَ وَلَدَتهُ أمُّه». وقد ذَكَرنا هذا الحديثَ في «آل عمران»[(١)] وذَكَرْنا بناءَه في «سبحان»[(٢)].

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لقد كان لسبأ في مساكنهم آية﴾ قرأ نافع وغيره بالصَّرْفِ والتنوين على أنه اسمُ حَيٍّ، وهو في الأصل اسمُ رجلٍ، جاء بذلك التوقيفُ عن النبيِّ ﷺ[(٣)]. روى الترمِذيُّ قال: حدَّثنا أبو كُريب وعبد بن حُميد قالا: حدَّثنا أبو أسامة، عن الحسن بن الحكم النَّخَعيِّ قال: حدَّثنا أبو سَبْرةَ النَّخعيُّ، عن فَروةَ بن مُسيك المُرَاديِّ قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ فقلتُ: يا رسول الله، أَلَا أقاتلُ مَن أدْبَرَ من قومي بمن أَقْبَلَ منهم؟ فَأَذِنَ لي في قتالهم وأمَّرني، فلمَّا خرجتُ من عنده سأل عنِّي: «ما فَعَلَ الغُطَيفيُّ»؟ فأُخبِرَ أنِّي قد سِرتُ، قال: فأرسل في أَثري فردَّني، فأتيتُه وهو في نَفَرٍ من أصحابه، فقال: «ادعُ القومَ، فَمَن أَسْلَمَ منهم فاقْبَلْ منه، ومَن لم يُسْلِم فلا تَعْجَل حتى أُحْدِثَ إليك». قال: وأُنزل في «سبأ» ما أُنزل، فقال رجل: يا رسول الله، وما

---

(١) ٥/٢٠٧ ، وهو في سنن النسائي (المجتبى) ٢/ ٣٤ . قوله: لا ينهزه، أي: لا يدفعه. وقوله: حكماً يصادف حكمه، أي: يوافق حكم الله تعالى، والمراد التوفيق للصواب في الاجتهاد. قاله السندي.

(٢) ١٣/ ١٥ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٨ ، وقرأ بالصرف والتنوين نافع وعاصم وابن عامر وحمزة والكسائي. السبعة ص ٤٨٠ ، والتيسير ص ١٦٧ .

سبأٌ؟ أرضٌ أو امرأةٌ؟ قال: «ليس بأرضٍ ولا بامرأةٍ، ولكنه رجلٌ ولَد عشرةً من العرب، فتَيامَنَ منهم ستةٌ وتَشاءَمَ منهم أربعةٌ، فأمَّا الذين تَشَاءموا فَلخْمٌ وجُذامٌ وغَسَّانُ وعاملةُ. وأمَّا الذين تَيامَنوا فالأَزْدُ والأَشْعرِيُّون وحِمْيرٌ وكِنْدةُ ومَذْحِجٌ وأنمارٌ» فقال رجل: يا رسولَ الله، وما أنمار؟ قال: «الذين منهم خَثْعَمٌ وبَجِيلةٌ». ورويَ هذا عن ابن عباس عن النبيِّ ﷺ. قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ غريب[١].

وقرأ ابن كثير[٢] وأبو عمرو: «لِسَبَأَ» بغيرِ صَرْفٍ، جعله اسماً للقبيلة، وهو اختيارُ أبي عبيد، واستدلَّ على أنه اسمُ قبيلةٍ بأنَّ بعده: «في مساكنهم»؛ النحاس[٣]: ولو كان كما قال: لَكان: في مساكنها. وقد مضى في «النمل» زيادةُ بيانٍ لهذا المعنى[٤].

وقال الشاعر في الصَّرْف:

الــواردون وتَــيْــمٌ فــي ذُرى ســبــأٍ قد عضَّ أعناقَهَمْ جِلْدُ الجواميسِ[٥]

وقال آخر في غير الصرف:

مــن سَـبَـأَ الــحــاضــريــن مــأرِبَ إذ يَـبْـنُـون مـن دون سَـيْـلِـه الـعَـرِمـا[٦]

وقرأ قُنْبُل وأبو حَيْوَةَ والجَحْدَريُّ: «لِسَبَأْ»؛ بإسكان الهمزة[٧].

---

(١) سنن الترمذي (٣٢٢٢)، وهو عند أحمد (٢٤٠٠٩/٨٩)، وأخرجه مختصراً أبو داود (٣٩٨٨).

قوله: فتيامن، أي: أخذوا ناحية اليمن وسكنوا بها. وقوله: تشاءم، أي: قصدوا جهة الشام. تحفة الأحوذي ٩/ ٨٩ . والغُطَيْفي نسبة إلى غطيف، وهو بطن من مُراد. الأنساب للسمعاني ٩/ ١٦٣ . وحديث ابن عباس أخرجه أحمد (٢٨٩٨).

(٢) في رواية البزي. السبعة ص ٤٨٠ ، والتيسير ص ١٦٧ .

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٣٣٨ ، وما قبله منه.

(٤) عند تفسير الآية (٢٢) منها.

(٥) البيت لجرير، وهو في ديوانه بشرح محمد بن حبيب ١/ ١٣٠ برواية:

تـدعـوك تـيـم وتـيـم فـي قـرى سـبـأٍ قد عض أعناقهم جلد الجواميس

والبيت برواية المصنف في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٥٨ .

(٦) البيت للنابغة الجعدي أو أمية بن أبي الصلت، كما في سيرة ابن هشام ١/ ١٤ ، وطبقات الفحول ١/ ١٢٦ . وهو في ديوان النابغة الجعدي ص ١٣٤ برواية: أو سبأ ...

(٧) السبعة ص ٤٨٠ ، والتيسير ص ١٦٧ عن قنبل.

﴿فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ قراءةُ العامَّةِ على الجمع[١]، وهي اختيارُ أبي عبيدٍ وأبي حاتم؛ لأنَّ لهم مساكنُ كثيرةٌ وليس بمسكنٍ واحد.

وقرأ إبراهيم وحمزةُ وحفصٌ: ﴿مَسْكَنِهِمْ﴾ موحَّداً، إلَّا أنَّهم فتحوا الكاف[٢]. وقرأ يحيى والأعمشُ والكسائيُّ موحَّداً كذلك، إلَّا أنَّهم كَسَروا الكاف[٣].

قال النحاس[٤]: ومساكنُ في هذا أَبْينُ؛ لأنه يجمع اللفظَ والمعنى، فإذا قلت: «مسكنهم» كان فيه تقديران: أحدهما: أن يكون واحداً يؤدِّي عن الجمع. والآخر: أن يكون مصدراً لا يثنَّى ولا يُجمع، كما قال الله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ﴾ [البقرة:٧]. فجاء بالسمع موحَّدًا. وكذا: ﴿مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ [القمر: ٥٥]. و«مَسْكِن» مثل مسجد، خارجٌ عن القياس، ولا يوجد مثلُه إلَّا سماعاً.

﴿ءَايَةٌ﴾ اسمُ كان، أي: علامةٌ دالَّة على قدرة الله تعالى على أنَّ لهم خالقاً خَلَقَهم، وأنَّ كلَّ الخلائقِ لو اجتمعوا على أن يُخرجوا من الخشبة ثمرةً لم يمكنهم ذلك، ولم يهتدوا إلى اختلاف أجناسِ الثمار وألوانها وطُعومها وروائحها وأزهارها، وفي ذلك ما يدلُّ على أنَّها لا تكون إلَّا من عالِمٍ قادِر.

﴿جَنَّتَانِ﴾ يجوز أن يكون بدلاً من «آية»، ويجوز أن يكون خبرَ ابتداءٍ محذوفٍ، فيوقَفُ على هذا الوجه على «آية» وليس بتمام[٥]. قال الزجَّاج[٦]: أي: الآيةُ جَنَّتان،

---

(١) وهي قراءة ابن كثير ونافع وابن عامر وأبي عمرو وعاصم في رواية أبي بكر. السبعة ص ٥٢٨، والتيسير ص ١٨٠.

(٢) السبعة ص ٥٢٨، والتيسير ص ١٨٠ عن حمزة وحفص. وإبراهيم هو النخعي، وذكرها عنه النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٣٩.

(٣) السبعة ص ٥٢٨، والتيسير ص ١٨٠ عن الكسائي. وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٩ عن يحيى (وهو ابن وثاب) والأعمش.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٣٣٩.

(٥) وهو وقف حسن كما ذكر الأشموني في منار الهدى في بيان الوقف والابتدا ص ٢٢٦.

(٦) في معاني القرآن ٤/ ٢٤٨.

فجنتان رفع لأنه خبرُ ابتداءٍ محذوفٍ. وقال الفرَّاء: رُفع تفسيراً للآية[(١)]، ويجوز أن تنصب «آية» على أنَّها خبرُ كان، ويجوز أن تنصب الجنتين على الخبر أيضاً في غير القرآن[(٢)].

قال عبد الرحمن بن زيد: إنَّ الآية التي كانت لأهل سبأ في مساكنهم أنَّهم لم يَرَوا فيها بعوضةً قطُّ، ولا ذباباً ولا بُرغُوثاً ولا قملةً ولا عقرباً ولا حيةً، ولا غيرَها من الهوامّ، وإذا جاءهم الرَّكْبُ في ثيابهم القملُ والدوابُّ، فإذا نظروا إلى بيوتهم ماتت الدواب[(٣)].

وقيل: إنَّ الآية هي الجنتان، كانت المرأة تمشي فيهما وعلى رأسها مِكْتَلٌ، فيمتلئُ من أنواع الفواكه من غير أن تمسَّها بيدها؛ قاله قتادة[(٤)].

وروي أنَّ الجنتين كانتا بين جبلين باليمن. قال سفيان: وُجد فيهما قصران مكتوبٌ على أحدهما: نحن بنينا سَلْحِين[(٥)] في سبعين خريفاً دائبين، وعلى الآخَر مكتوبٌ: نحن بَنَينا صِرْواح، مَقِيل ومَراح، فكانت إحدى الجنتين عن يمين الوادي والأخرى عن شماله.

قال القشيريُّ: ولم يُرِدْ جنتين اثنتين، بل أراد من الجهتين يَمنةً ويَسرةً، أي:

---

(١) أي على البدل منها، كما ذكره عنه الألوسي في روح المعاني ٢٢/ ١٢٥ ، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣٥٨ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٨ .

(٣) أخرجه مطولاً الطبري ١٩/ ٢٤٧ .

(٤) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٣٠ ، والطبري ٩/ ٢٤٧ . والمِكْتل: الزَّبيل الكبير، قيل: إنه يسع خمسة عشر صاعاً، كأن فيه كتلاً من التمر. النهاية (كتل).

(٥) في (د): سايحين، وفي (خ) و(ظ): سالحين، وسقط هذا الموضع من (ز). ووقع في مطبوع النكت والعيون ٤/ ٤٤٣ (والكلام منه): سالمين. والمثبت من (م) وهو موافق لما ذكره ياقوت في معجم البلدان ٣/ ٢٣٥ وقال: سلحين بفتح أوله وسكون ثانيه ثم حاء مهملة مكسورة ... ، حصن عظيم بأرض اليمن.

كانت بلادهم ذاتَ بساتين وأشجارٍ وثمار، تستتر الناس بظلالها.

﴿كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ أي: قيل لهم: كلوا، ولم يكن ثَمَّ أمرٌ، ولكنَّهم تمكَّنوا من تلك النعم. وقيل: أي قالت الرسل لهم: قد أباح الله تعالى لكم ذلك، أي: أباح لكم هذه النعم فاشكروه بالطاعة. ﴿مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ أي: من ثمار الجنتين ﴿وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ﴾ يعني على ما رزقكم.

﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ هذا كلامٌ مستأنَفٌ، أي: هذه بلدةٌ طيبةٌ، أي: كثيرةُ الثمار. وقيل: غيرُ سَبْخةٍ. وقيل: طيبةٌ ليس فيها هوامٌّ لطيبِ هوائها. قال مجاهد: هي صنعاء[1].

﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ أي: والمنعِمُ بها عليكم ربٌّ غفورٌ يَسْتُر ذنوبَكم، فجمع لهم بين مغفرةِ ذنوبهم وطيبِ بلدِهم، ولم يجمع ذلك لجميع خَلْقِه. وقيل: إنَّما ذكر المغفرة مشيراً إلى أنَّ الرزق قد يكون فيه حرام. وقد مضى القول في هذا في أوّل «البقرة»[2]. وقيل: إنَّما امتَنَّ عليهم بعَفْوِه عن عذابِ الاستئصالِ بتكذيب مَن كذَّبوه من سالِفِ الأنبياء، إلى أن استداموا الإصرارَ فاستؤصِلوا.

قوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضُواْ﴾ يعني عن أمره واتِّباعِ رسله بعد أن كانوا مسلمين. قال السُّدِّيُّ ووهبٌ: بعث إلى أهل سبأ ثلاثةَ عَشَرَ نبيًّا فكذَّبوهم. قال القُشيرِيُّ: وكان لهم رئيس يلقَّب بالحمار، وكانوا في زمن الفترة بين عيسى ومحمدٍ صلى الله عليهما وسلم. وقيل: كان له ولدٌ فمات، فرفع رأسه إلى السماء فبزق وكفر، ولهذا يقال: أَكْفَرُ مِن حِمار. وقال الجوهريّ[3]: وقولُهم: أَكْفَرُ من حِمار، هو رجلٌ من عادٍ؛

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٤٤ .

(٢) ١/ ٢٧٢ .

(٣) في الصحاح (حمر).

مات له أولادٌ، فكفر كفراً عظيماً، فلا يمرُّ بأرضه أحدٌ إلَّا دعاه إلى الكفر، فإن أجابه وإلَّا قتله.

ثم لمَّا سال السيلُ بجنَّتيهم تفرَّقوا في البلاد، على ما يأتي بيانُه، ولهذا قيل في المثل: «تفرَّقوا أيادي سَبَا»(١). وقيل: الأَوْسُ والخزرجُ منهم. ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾ والعرِمُ فيما روي عن ابن عباس: السَّدُّ(٢)، فالتقدير: سَيلَ السَّدِّ العَرِم. وقال عطاء: العَرِمُ اسمُ الوادي(٣).

قتادة: العرِمُ وادي سبأ؛ كانت تجتمع إليه مَسَايلُ من الأودية، قيل: من البحر وأوديةِ اليمن، فردَموا رَدْمًا بين جبلين، وجعلوا في ذلك الرَّدْمِ ثلاثةَ أبوابٍ؛ بعضُها فوقَ بعضٍ، فكانوا يسقون من الأعلى ثم من الثاني ثم من الثالث على قَدْرِ حاجاتهم؛ فأَخْصَبوا وكَثُرت أموالُهم، فلمَّا كذَّبوا الرسل سلَّط الله عليهم الفأر فنقب الردم(٤).

قال وَهْب: كانوا يزعمون أنهم يجدون في علمهم وكهانتهم أنه يخرِّبُ سدَّهم فأرةٌ، فلم يتركوا فُرجةً بين صخرتين إلَّا ربطوا إلى جانبها هرَّةً، فلمَّا جاء ما أراد الله تعالى بهم أقبلت فأرةٌ حمراءُ إلى بعض تلك الهِرَرِ فساوَرَتْها حتى استأخرتْ عن الصخرة، ثم وثبت ودخلت في الفرجة التي كانت عندها، ونقبت السَّدَّ حتى أَوْهَنته للسيل وهم لا يدرون، فلمَّا جاء السيل دخل تلك الخللَ حتى بلغ السدَّ، وفاض الماء على أموالهم، فغرَّقها ودفن بيوتَهم(٥).

وقال الزجَّاج(٦): العَرِمُ اسمُ الجُرَذ الذي نَقَبَ السِّكْرَ عليهم، وهو الذي يقال له:

---

(١) أي: تفرَّقوا تفرُّقاً لا اجتماع بعده. مجمع الأمثال للميداني ٢/ ٢٧٥ . وسيأتي ص٣٠٢ من هذا الجزء.

(٢) لم نقف عليه عن ابن عباس، وأخرجه الطبري ١٩/ ٢٥١ عن مجاهد.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٠٦ .

(٤) أخرجه بنحوه الطبري ١٩/ ٢٥١ ، وذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٤٩١ دون نسبة .

(٥) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٥٢ - ٢٥٣ . والخبر من الإسرائيليات.

(٦) في معاني القرآن ٤/ ٢٤٨ .

الخُلد ـ وقاله قتادةُ أيضًا[١] ـ فنُسب السيلُ إليه لأنه بسببه. وقد قال ابن الأعرابيّ أيضاً: العَرِم من أسماء الفأر[٢].

وقال مجاهد وابن أبي نَجيح: العَرِمُ ماءٌ أحمرُ أرسله الله تعالى في السَّدِّ، فشقَّه وهدمه[٣].

وعن ابن عباس أيضاً: أنَّ العَرِمَ المطرُ الشديد. وقيل: العَرْم بسكون الراء. وعن الضحَّاك كانوا في الفترة بين عيسى ومحمدٍ عليهما السلام[٤].

وقال عمرو بن شُرَحْبيل: العَرِمُ المُسَنَّاة[٥]. وقاله الجوهريُّ[٦]؛ قال: ولا واحدَ لها من لفظها، ويقال: واحدُها عَرِمة.

وقال محمد بن يزيد: العَرِم كلُّ شيء حاجزٍ بين شيئين، وهو الذي يسمَّى: السِّكْر، وهو جَمعُ عَرِمة. النحَّاس[٧]: وما يجتمع من مطرٍ بين جبلين وفي وجهه مُسَنَّاةٌ فهو العَرِم، والمُسَنَّاةُ هي التي يسمِّيها أهلُ مصرَ الجسر[٨]، فكانوا يفتحونها إذا

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٥٣ .

(٢) تهذيب اللغة ٢/ ٣٩١ .

(٣) علقه البخاري كما في الفتح ٨/ ٥٣٥ عن مجاهد بأطول منه، ووصله الفريابي كما في تغليق التعليق ٤/ ٢٨٨ من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد، وتتمته: وحَفَرَ الوادي، فارتفعتا عن الجَنْبَتَيْنِ، وغاب عنهما الماء، فيبستا، ولم يكن الماء الأحمر من السدّ، ولكن كان عذاباً أرسله الله عليهم من حيث شاء. اهـ. وذكر الحافظ ابن حجر عن القاضي عياض أنه في رواية: فَبَثَقَهُ، بدل: فشقَّه؛ قال: وهو الوجه، تقول: بثقتُ النهر: إذا كسرتَه لتصرفه عن مجراه.

(٤) الكشاف ٣/ ٢٨٥ ؛ إلا أنه ذكر قول ابن عباس دون نسبة، وذكره دون نسبة كذلك النحاس في معاني القرآن ٥/ ٤٠٧ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤١٤ . وأخرج الطبري ١٩/ ٢٥٢ عن ابن عباس قال: سيل العرم: الشديد.

(٥) علقه البخاري أيضاً كما في الفتح ٨/ ٥٣٥ . قال الحافظ: قال ابن التين: المراد بالمسناة ما يبنى في عرض الوادي ليرتفع السيل ويفيض على الأرض.

(٦) في الصحاح (عرم).

(٧) في إعراب القرآن ٣/ ٣٣٨ ، وما قبله منه، وقول محمد بن يزيد بنحوه في الكامل ٣/ ١٢١٤ .

(٨) في (د) و(ظ): الحبس. والحِبس: حجارة أو خشب تبنى في مجرى الماء لتحبسه، كي يشرب القوم ويسقوا أموالهم. اللسان (حبس).

شاؤوا، فإذا رَوِيَتْ جنَّتاهم سدُّوها.

قال الهَرَويُّ: المُسَنَّاة: الضفيرة تُبنَى للسيل تردُّه، سمِّيت مسنَّاةً لأن فيها مفاتحَ الماء، ورُوي أنَّ العَرِمَ سدٌّ بَنَتْه بِلْقِيسُ صاحبةُ سليمانَ عليه الصلاة والسلام، وهو المسنَّاةُ بلغة حِمير، بَنَتْه بالصَّخْر والقارِ، وجعلت له أبواباً ثلاثةً بعضُها فوق بعض، وهو مشتقٌّ من العَرامة وهي الشدَّة، ومنه: رجلٌ عارم، أي: شديد. وعَرَمْتُ العظمَ أعْرِمُه وأعرُمه عَرْماً: إذا عَرَقْتَه[1]، وكذلك عَرَمت الإبلُ الشجرَ، أي: نالت منه. والعُرام بالضم: العُرَاق من العَظْمِ والشجر. وتعرَّمتُ العَظْمَ: تَعرَّقته. وصبيٌّ عارِمٌ بَيِّنُ العُرام ـ بالضم ـ أي: شَرِس. وقد عَرَم يَعْرُم ويَعْرِم عَرَامةً ـ بالفتح ـ، والعَرِم: العارم؛ عن الجوهريّ[2].

قوله تعالى: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ وقرأ أبو عمرو: ﴿أُكُلِ خَمْطٍ﴾ بغير تنوينٍ مضافاً[3]. قال أهلُ التفسير والخليلُ: الخَمْطُ: الأراك[4]. الجوهري[5]: الخَمْطُ ضَرْبٌ من الأراك له حَمْلٌ يؤكل. وقال أبو عبيدة[6]: هو كلُّ شجرٍ ذي شوكٍ فيه مرارةٌ. الزجاج[7]: كلُّ نبتٍ فيه مرارةٌ لا يمكنُ أكلُه.

المبرِّد: الخمطُ: كلُّ ما تغيَّر إلى ما لا يُشتَهَى، واللبنُ خَمْطٌ إذا حَمُض. والأَوْلى عنده في القراءة: ﴿ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ بالتنوين على أنه نعتٌ لـ «أُكُلٍ»، أو بَدَلٌ منه؛ لأنَّ الأُكُلَ هو الخمطُ بعينه عنده. فأمَّا الإضافةُ فبابُ جوازِها أن يكون تقديرُها:

---

(١) عرق العظم: أكل ما عليه من اللحم. القاموس (عرق).

(٢) في الصحاح (عرم).

(٣) السبعة ص ٥٢٨، والتيسير ص ١٨٠.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٩.

(٥) في الصحاح (خمط).

(٦) في مجاز القرآن ٢/ ١٤٧، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في معاني القرآن ٥/ ٤٠٨.

(٧) في معاني القرآن ٤/ ٢٤٩.

ذواتي أُكُلِ حموضةٍ، أو أُكُلِ مرارة[١]. وقال الأخفش: والإضافةُ أحسنُ في كلام العرب، نحو قولهم: ثوبُ خَزٍّ[٢].

والخمط [من] اللبن: الحامض. وذكر أبو عبيد: أنَّ اللبن إذا ذهب عنه حلاوةُ الحلَبِ ولم يتغيَّر طعمُه فهو سامِط، وإن أخذ شيئاً من الريح فهو خامِطٌ وخَمِيط، فإن أخذ شيئاً من طعمٍ فهو مُمَحَّل، فإذا كان فيه طعمُ الحلاوة فهو قُوهة[٣].

وتَخمَّط الفحل: هَدَر. وتَخمَّط فلانٌ، أي: تغضَّب وتكبَّر. وتخمَّط البحر، أي: الْتَطَم. وخَمَطْتُ الشاةَ أَخْمِطُها خَمْطًا: إذا نزعتَ جلدَها وشويتَها، فهي [خَميطٌ، فإن نزعتَ شعرها وشويتَها فهي] سَميطٌ. والخَمْطة: الخمرُ التي قد أَخذتْ رِيح الإدراك كريحِ التُّفاح ولم تُدْرِك بعدُ. ويقال: هي الحامِضة؛ قاله الجوهريُّ[٤]. وقال القُتَبيُّ في «أدب الكاتب»: يقال للحامضة: خَمْطة، ويقال: الخَمْطةُ التي قد أخذت شيئًا من الريح، وأنشد:

عُقَارٌ كماءِ النِّيْءِ ليستْ بخَمْطَةٍ ولا خَلَّةٍ يَكْوي الشُّروبَ شِهابُها[٥]

﴿وَأَثْلٍ﴾ قال الفرَّاء: هو شبيهٌ بالطَّرْفاء، إلَّا أنه أعظمُ منه طولاً[٦]، ومنه اتُّخذ

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٠.

(٢) الحجة للفارسي ٦/ ١٥.

(٣) في النسخ عدا (ظ): فوهة، والمثبت من (ظ)، وهو موافق لما في الغريب المصنف لأبي عبيد ١/ ٩٥، والصحاح (خمط)، والكلام وما سلف بين حاصرتين منه. قال صاحب اللسان (قوه): ورواه الليث: فُوهة بالفاء، وهو تصحيف. اهـ. والقُوهة: اللبن إذا تغير طعمه قليلاً وفيه حلاوة الحلب. الصحاح (قوه).

(٤) في الصحاح (خمط)، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٥) أدب الكاتب ص ١٦٧، والبيت لأبي ذؤيب، وهو في ديوان الهذليين ص ٧٢. يقول: هي في لون ماء اللحم النَّيء، وليست كالخمطة التي لم تدرك بعد، ولا كالخَلَّة التي جاوزت القِدر حتى كادت تصبح خلًّا. اللسان (خلل). وقال شارح الديوان: قوله: يكوي الشُّروب، يقول: لها مضٌّ شديد مثل النار. والشروب: النَّدامَى.

(٦) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٥٩.

مِنبَرُ النبيِّ ﷺ[١]. وللأَثْل أصولٌ غليظةٌ يتَّخذُ منه الأبواب، وورقُه كورق الطَّرْفاء، الواحدةُ: أَثْلَة، والجمع: أثَلات.

وقال الحسن: الأَثْلُ: الخشب. قتادة: هو ضَرْبٌ من الخشب يشبه الطَّرْفاءَ رأيتُه بفَيْد[٢]. وقيل: هو السَّمُر[٣].

وقال أبو عبيدة: هو شجر النُّضَار[٤]. النُّضار: الذهب. والنُّضار: خشبٌ يعمل منه قِصَاعٌ، ومنه: قَدَحٌ نُضَار[٥].

﴿وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ قال الفَرَّاء: هو السَّمُر؛ ذكره النحاس[٦]. وقال الأزهريُّ[٧]: السِّدْر من الشجر سِدران: بَرِّيٌّ لا يُنتفع به ولا يصلح وَرَقُه للغَسُول، وله ثمرٌ عَفِصٌ لا يؤكل، وهو الذي يسمَّى الضَّال. والثاني: سِدْرٌ ينبتُ على الماء وثمرُه النَّبْق، وورقُه غَسولٌ يشبه شجر العُنَّاب.

قال قتادة: بينما شجرُ القوم من خيرِ شجرٍ إذ صيَّره الله تعالى من شرِّ الشجر بأعمالهم[٨]. فأهلك أشجارهم المثمرةَ وأَنبتَ بدلها الأراك والطَّرْفاء والسِّدْر.

القُشَيْريُّ: وأشجارُ البوادي لا تسمَّى جنةً وبستاناً، ولكنْ لمَّا وقعت الثانيةُ في

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٨٠٠) مختصراً، والبخاري (٣٧٧)، ومسلم (٣٤٤) مطولاً من حديث سهل بن سعد ﷺ. ولفظه عنه أحمد: كان من أثل الغابة، يعني منبر النبيِّ ﷺ. ووقع عند مسلم: ... من طَرْفاءِ الغابة.

(٢) فيد: بليدةٌ في نصف طريق مكة من الكوفة. معجم البلدان ٤/ ٢٨٢ .

(٣) جمع سَمُرة بضم الميم: من شجر الطَّلْح. اللسان (سمر).

(٤) النُّضَار: أَثْلٌ وَرْسيُّ اللون بغور الحجاز. المعجم الوسيط (نضر) .

(٥) من قوله: النُّضار الذهب، إلى هذا الموضع ليس في (د) و(ظ). وقوله: قدح نُضار، قال الجوهري في الصحاح (نضر): يضاف ولا يضاف.

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٣٤٠ ، وهو في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٥٩ .

(٧) في تهذيب اللغة ١٢/ ٣٥٣ .

(٨) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٥٨ .

مُقابَلةِ الأولى أطلق لفظ الجنة، وهو كقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠]. ويَحتمِلُ أن يرجع قولُه: «قَلِيلٍ» إلى جملةِ ما ذُكر من الخَمْط والأَثْل والسِّدْر.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ١٧﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ﴾ أي: هذا التبديلُ جزاءُ كُفْرِهم. وموضعُ «ذلك» نصبٌ، أي: جزيناهم ذلك بكفرهم. ﴿وهل يُجَازَى إِلَّا الكَفُورُ﴾ قراءةُ العامة: «يُجَازَى» بياءٍ مضمومة وزايٍ مفتوحة، «الكَفورُ» رفعًا على ما لم يُسمَّ فاعلُه. وقرأ يعقوبُ وحَفْصٌ وحمزةُ والكسائيُّ: «نُجازِي» بالنون وكسرِ الزاي، «الكفورَ» بالنصب[(١)]، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم، قالا: لأنَّ قبله: «جَزَيناهم» ولم يقل: جُوزُوا. النحاس[(٢)]: والأمرُ في هذا واسعٌ، والمعنى فيه بيِّن، ولو قال قائل: خَلَقَ الله تعالى آدمَ ﷺ من طين، وقال آخر: خُلق آدمُ من طين، لكان المعنى واحداً.

مسألة: في هذه الآيةِ سؤالٌ ليس في هذه السورة أشدُّ منه، وهو أن يقال: لم خصَّ الله تعالى المجازاةَ بالكَفور، ولم يذكر أصحابَ المعاصي؟ فتكلَّم العلماء في هذا؛ فقال قومٌ: ليس يُجازَى بهذا الجزاء الذي هو الاصطلامُ والإهلاكُ إلَّا مَن كفر[(٣)]. وقال مجاهد: يجازَى بمعنى: يعاقَب[(٤)]، وذلك أن المؤمن يكفِّر الله تعالى عنه سيئاته، والكافر يجازَى بكلِّ سوءِ عَمِلَه؛ فالمؤمنُ يُجْزَى ولا يُجازَى لأنه يثاب. وقال طاوس: هو المناقشةُ في الحساب[(٥)]، وأمَّا المؤمنُ فلا يناقش الحساب.

وقال قُطْرُب خلافَ هذا، فجعلها في أهل المعاصي غير الكفار، وقال: المعنى:

(١) السبعة ص ٥٢٨ ، والتيسير ص ١٨١ ، والنشر ٢/ ٣٥٠ .

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٣٤٠ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٠ ، وقوله: الاصطلام، أي: الاستئصال. الصحاح (صلم).

(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٥٩ .

(٥) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٢٩ .

على مَن كَفر بالنعم وعَمِلَ بالكبائر. النحاس[١]: وأَوْلَى ما قيل في هذه الآيةِ وأَجَلُّ ما رُويَ فيها: أنَّ الحسن قال: مِثْلاً بِمِثْلٍ. وعن عائشةَ رضي الله عنها قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَن حُوسِبَ هَلَكَ» فقلتُ: يا نبيَّ الله، فأين قولُه جلّ وعزّ: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق:٨]؟ قال: «إنَّما ذلك العَرْضُ، ومَن نُوقِشَ الحسابَ هَلَكَ»[٢]. وهذا إسنادٌ صحيح، وشَرْحُه: أنَّ الكافر يُكافأ على أعماله ويحاسَبُ عليها ويحبط ما عَمِلَ من خير؛ ويبيِّن هذا قولُه تعالى في الأوّل: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟﴾ وفي الثاني: ﴿وهل يُجَازَى إِلَّا الكَفُورُ﴾ ومعنى «يُجَازَى»: يكافأ بكلِّ عَمَلٍ عَمِله، ومعنى «جَزَيْنَاهم»: وفَّيناهم، فهذا حقيقةُ اللغة، وإن كان «جازى» يقع بمعنى «جَزَى» مَجازاً[٣].

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ قال الحسن: يعني بين اليمن والشام[٤]. والقُرَى التي بورك فيها: الشامُ والأُرْدُنُّ وفِلَسْطين. والبركة: قيل: إنَّها كانت أربعةَ آلافٍ وسبعَ مئة قريةٍ؛ بورك فيها بالشجر والثمر والماء. ويَحتَمِلُ أن يكون: بارَكْنَا فيها بكثرة العدد[٥].

﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ قال ابن عباس: يريد بين المدينة والشام[٦]. وقال قتادة: معنى «ظَاهِرَةً»: متَّصلةً على الطريق، يغدون فيَقِيلون في قرية، ويروحون فيبيتون في قرية[٧].

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٣٤٠، وما قبله منه.

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٢٠٠)، والبخاري (١٠٣)، ومسلم (٢٨٧٦).

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤١.

(٤) ذكره النحاس في معاني القرآن ٥/ ٤١٠.

(٥) النكت والعيون ٤/ ٤٤٤.

(٦) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٦٢.

(٧) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٣٠.

وقيل: كان على كلِّ مِيلٍ قريةٌ بسوق، وهو سببُ أَمْنِ الطريق.

قال الحسن: كانت المرأة تخرج ومعها مِغْزَلُها وعلى رأسها مِكْتَلُها، ثم تَلْتهي بمغزلها فلا تأتي بيتَها حتى يمتلئ مِكْتَلها من كلِّ الثمار، فكان ما بين الشام واليمن كذلك[١].

وقيل: «ظَاهِرَةً» أي: مرتفعةً؛ قاله المبرِّد[٢]. وقيل: إنما قيل لها: «ظَاهِرَةً» لظهورها، أي: إذا خرجْتَ عن هذه ظَهَرتْ لك الأخرى، فكانت قرًى ظاهِرةً، أي: معروفة، يقال: هذا أمرٌ ظاهِر، أي: معروف.

﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ أي: جعلنا السيرَ بين قُراهم وبين القرى التي باركنا فيها سَيْرًا مقدَّراً من منزلٍ إلى منزلٍ، ومن قريةٍ إلى قرية. الفراء[٣] أي: جعلنا بين كلِّ قريتين نصفَ يوم، حتى يكون المقيلُ في قرية والمبيتُ في قرية أخرى. وإنَّما يبالغ الإنسان في السير لعُدْمِ الزادِ والماء ولخوف الطريق، فإذا وجد الزادَ والأمنَ لم يحمل على نفسه المشقَّةَ ونزل أينما أراد.

﴿سِيرُواْ فِيهَا﴾ أي: وقلنا لهم: سيروا فيها، أي: في هذه المسافة، فهو أمرُ تمكين، أي: كانوا يسيرون فيها إلى مقاصدهم إذا أرادوا آمنين، فهو أمرٌ بمعنى الخبر، وفيه إضمارُ القول.

﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ ظَرْفان ﴿ءَامِنِينَ﴾ نصب على الحال. وقال: «الياليَ وأيَّامًا» بلفظِ النكرة تنبيهاً على قِصَر أسفارهم، أي: كانوا لا يحتاجون إلى طول السفر لوجود ما يحتاجون إليه. قال قتادةُ: كانوا يسيرون غيرَ خائفين ولا جِيَاعٍ ولا ظِماءٍ[٤]. وكانوا

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٣٣٣ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، وهو في تفسير الطبري ١٩/ ٦٢ ، دون قوله: فكان بين الشام واليمن كذلك.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤١ .

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٢٥٩ . وقوله: الفراء، ليس في (د) و(م).

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٤١١ ، وأخرجه مطولاً عبد الرزاق ٢/ ١٣٠ .

يسيرون مسيرةَ أربعةِ أشهرٍ في أمانٍ لا يحرِّكُ بعضُهم بعضاً، ولو لقي الرجلُ قاتِلَ أبيه لم يحرِّكه[(١)].

قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ لمَّا بَطِروا وطغَوْا وسئموا الراحةَ ولم يصبروا على العافية، تَمنَّوْا طولَ الأسفارِ والكَدْحَ في المعيشة، كقول بني إسرائيل: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا﴾ الآية [البقرة: ٦١]. وكالنضر بن الحارث حين قال: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢]، فأجابه الله تبارك وتعالى، وقُتل يومَ بدرٍ بالسيف صَبْرًا. فكذلك هؤلاء تبدَّدوا في الدنيا ومُزِّقوا كلَّ مُمَزَّق، وجُعل بينهم وبين الشام فَلَواتٍ ومَفَاوِزَ يركبون فيها الرَّوَاحلَ ويتزوَّدون الأَزْوادَ.

وقراءةُ العامَّةِ: ﴿رَبَّنَا﴾ بالنصب على أنه نداءٌ مضاف، وهو منصوبٌ لأنه مفعولٌ به؛ لأنَّ معناه: نادَيْتُ ودعَوْت[(٢)]. ﴿بَٰعِدْ﴾ سألوا المباعَدةَ في أسفارهم. وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو وابنُ محيْصِنٍ وهشامٌ عن ابن عامر: ﴿رَبَّنَا﴾ كذلك على الدعاء ﴿بعِّد﴾ من التبعيد[(٣)]. النحاس[(٤)]: وباعِدْ وبعِّدْ واحدٌ في المعنى، كما تقول: قارِبْ وقَرِّبْ.

وقرأ أبو صالح ومحمد ابن الحنفية وأبو العالية ونصر بن عاصم ويعقوب، ويُروى عن ابن عباس: ﴿رَبُّنا﴾ رفعاً ﴿باعَدَ﴾ بفتح العين والدال على الخبر[(٥)]،

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٤٤٥ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٢ .

(٣) السبعة ص ٥٢٩ ، والتيسير ص ١٨١ عن ابن كثير وأبي عمرو وهشام.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٣٤٢ .

(٥) النشر ٢/ ٣٥٠ عن يعقوب، وهو من العشرة. والمحتسب ٢/ ١٨٩ عن ابن عباس ومحمد بن الحنفية وأبي صالح ويعقوب وأبي رجاء وسلام والحسن ـ بخلاف ـ وابن أبي ليلى والكلبي.

تقديره: لقد باعَدَ ربُّنا بين أسفارنا، كأنَّ الله تعالى يقول: قَرَّبْنا لهم أسفارَهم فقالوا أَشَرًا وَبَطَرًا: لقد بُوعِدَتْ علينا أسفارُنا. واختار هذه القراءةَ أبو حاتم قال: لأنَّهم ما طلبوا التبعيدَ إنَّما طلبوا أقربَ من ذلك القربِ بَطَرًا وعُجْبًا مع كفرهم.

وقرأ يحيى بن يَعْمر وعيسى بن عمر؛ وتُروى عن ابن عباس: «ربُّنا بَعَّدَ بينَ أسفارِنَا» بشدِّ العين من غير ألف، وفسَّرها ابن عباس قال: شَكَوْا أنَّ ربَّهم باعَدَ بين أسفارهم[1].

وقراءةُ سعيد بن أبي الحسن أخي الحسن البصريِّ: «ربَّنا بَعُدَ بَيْنُ أسفارِنَا»، «رَبَّنَا» نداءٌ مضاف، ثم أَخبروا بعد ذلك فقالوا: «بَعُدْ بينُ أَسْفَارِنَا»، ورُفع «بينُ» بالفعل، أي: بعُدَ ما يتَّصلُ بأسفارنا[2].

وروى الفرَّاء وأبو إسحاقَ قراءةً سادسةً مثلَ التي قبلَها في ضمِّ العين إلَّا أنَّك تنصبُ «بينَ» على أنه ظرفٌ، وتقديره في العربية: بَعُدَ سيرُنا بينَ أسفارِنا. النحاس[3]: وهذه القراءاتُ إذا اختلفت معانيها لم يَجُزْ أن يقال: إحداها أجودُ من الأخرى، كما لا يقال ذلك في أخبار الآحاد إذا اختلفت معانيها، ولكنْ خبَّر عنهم أنهم دَعَوْا ربَّهم أن يبعِّد بين أسفارهم بَطَرًا وَأَشَرًا، وخبَّر عنهم أنهم لمَّا فعل ذلك بهم خبَّروا به وشَكَوْا، كما قال ابن عباس.

﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: بكفرهم ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي: يُتحدَّث بأخبارهم، وتقديرُه في العربية: ذوي أحاديث. ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ﴾ أي: لمَّا لَحِقَهم ما لَحِقَهُم تَفرَّقوا وتَمزَّقوا. قال الشعبيُّ: فلحقت الأنصارُ بيَثْرِبَ، وغسَّان بالشام، والأَسْدُ

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٤٢، والقراءة في المحتسب ٢/ ١٨٩.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٤٢، والقراءة في المحتسب ٢/ ١٨٩.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٣٤٢ - ٣٤٣، وما قبله منه. والقراءة في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٥٩ - ٣٦٠، وللزجاج ٤/ ٢٥٠. (وهو أبو إسحاق).

بعُمَان، وخُزاعةُ بتِهامة[١]، وكانت العرب تضربُ بهم المثلَ فتقول: تفرَّقوا أيدي سبا، وأيادي سبا، أي: مذاهبَ سبأ وطرقَها[٢].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ الصبَّار: الذي يصبرُ عن المعاصي، وهو تكثيرُ صابرٍ، تمدح بهذا الاسم. فإنْ أردتَ أنه صَبَر عن المعصية لم يُستعمل فيه إلَّا صبَّار عن كذا. ﴿شَكُورٍ﴾ لنعمه؛ وقد مضى هذا المعنى في «البقرة»[٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ فيه أربعُ قراءات: قرأ أبو جعفر وشيبةُ ونافع وأبو عمرو وابن كثير وابن عامر، ويروى عن مجاهد: ﴿ولقد صَدَقَ عليهم﴾ بالتخفيف ﴿إِبْلِيسُ﴾ بالرفع ﴿ظَنَّهُ﴾ بالنصب[٤]، أي: في ظنِّه. قال الزجَّاج: وهو على المصدر، أي: صَدَقَ عليهم ظنًّا ظنَّه إذ صَدَق في ظنِّه[٥]. فنُصب على المصدر أو على الظَّرف.

وقال أبو عليٍّ: «ظنَّه» نصب لأنه مفعولٌ به، أي: صَدَق الظنَّ الذي ظنَّه؛ إذ قال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف:١٦] وقال: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص:٨٢][٦]. ويجوزُ تعديةُ الصدق إلى المفعول به؛ ويقال: صَدَقَ الحديثَ، أي: في الحديث.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٣٠ والطبري ١٩/ ٢٦٧ ، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٣ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٤١٠ ، وسلف ٢٩٢ من هذا الجزء.

(٣) ٢/ ٦٥ و١٠٤ .

(٤) السبعة ص ٥٢٩ ، والتيسير ص ١٨١ ، والنشر ٢/ ٣٥٠ . والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٣ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٥١ - ٢٥٢ ، وفيه: وصدق في ظنه، بدل: إذ صدق ... ، والمعنى على هذا التأويل : أنه ظن بهم أنه إذا أغواهم اتبعوه، فوجدهم كذلك . حجة القراءات لابن زنجلة ص٥٨٩ .

(٦) الحجة لأبي علي الفارسي ٦/ ٢٠ .

وقرأ ابن عباس ويحيى بن وثَّاب والأعمش وعاصم وحمزةُ والكسائيُّ: ﴿صَدَّقَ﴾ بالتشديد ﴿ظَنَّهُۥ﴾ بالنصب[١] بوقوع الفعل عليه. قال مجاهد: ظنَّ ظنًّا، فكان كما ظنَّ، فصدَّق ظنَّه[٢].

وقرأ جعفر بن محمد وأبو الهجهاج: «صَدَقَ عليهم» بالتخفيف «إبليسَ» بالنصب «ظنُّه» بالرفع. قال أبو حاتم: لا وجهَ لهذه القراءةِ عندي، والله تعالى أعلم. وقد أجاز هذه القراءةَ الفرَّاءُ، وذكرها الزجاج، وجَعَلَ الظنَّ فاعلَ «صَدَق» و«إبليسَ» مفعولاً به، والمعنى: أنَّ إبليس سوَّل له ظنُّه فيهم شيئاً، فصدَق ظنُّه، فكأنه قال: ولقد صدَق عليهم ظنُّ إبليسَ[٣].

و«على» متعلِّقةٌ بـ «صدق»، كما تقول: صدقتُ عليك فيما ظَنَنْتُهُ بك، ولا تتعلَّق بالظنِّ لاستحالة تقدُّم شيءٍ من الصلة على الموصول[٤].

والقراءةُ الرابعة: «ولقد صَدَقَ عليهم إبليسُ ظنُّه» برفعِ إبليس والظنّ، مع التخفيف في «صَدَقَ» على أن يكون «ظنُّه» بدلاً من «إبليس»، وهو بدلُ الاشتمال[٥].

ثم قيل: هذا في أهل سبأ، أي: كَفَروا وغيَّروا وبدَّلوا بعد أن كانوا مسلمين، إلَّا قوماً منهم آمنوا برسلهم. وقيل: هذا عامٌّ، أي: صدق إبليسُ ظنَّه على الناس كلِّهم إلَّا مَن أطاع الله تعالى؛ قاله مجاهد[٦].

وقال الحسن: لمَّا أُهبط آدمُ عليه السلام من الجنة ومعه حوَّاءُ وهبط إبليس، قال

---

(١) السبعة ص ٥٢٩، والتيسير ص ١٨١.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٣، وأخرج الطبري ١٩/ ٢٧٠ قول مجاهد بلفظ: ظنَّ ظنًّا، فاتَّبعوا ظنَّه.

(٣) ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٦٠، وللزجاج ٤/ ٢٥٢، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٣، والقراءة في المحتسب ٢/ ١٩١ عن أبي الهجهاج والزهري.

(٤) المحتسب ٢/ ١٩١.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٧، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٢٩.

(٦) أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ٢٣٥.

إبليس: أمَا إذ أَصَبْتُ من الأبوين ما أَصَبْتُ فالذرِّيةُ أضعفُ وأَضْعفُ! فكان ذلك ظنًّا من إبليس، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾[١].

وقال ابن عباس: إنَّ إبليس قال: خُلقتُ من نارٍ، وخُلق آدمُ من طينٍ، والنارُ تُحرِقُ كلَّ شيءٍ ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢] فصدَّق ظنَّه عليهم[٢].

وقال زيد بن أسلمَ: إنَّ إبليس قال: يا ربِّ، أرأيتَ هؤلاء الذين كرَّمتهم وشرَّفتهم وفضَّلتهم عليَّ، لا تَجدُ أكثرهم شاكرين، ظنًّا منه، فصدَّق عليه إبليس ظنَّه[٣].

وقال الكلبيُّ: إنَّه ظنَّ أنَّه إنْ أَغْواهُم أجابوه، وإن أضلَّهم أطاعوه، فصدق ظنه[٤].

﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾ قال الحسن: ما ضَرَبَهم بسوطٍ ولا بِعصاً، وإنَّما ظنَّ ظنًّا، فكان كما ظنَّ بوسوسته[٥].

﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ نصب على الاستثناء، وفيه قولان: أحدُهما: أنه يراد به بعضُ المؤمنين؛ لأنَّ كثيرًا من المؤمنينَ مَن يُذْنبُ وينقادُ لإبليسَ في بعض المعاصي، أي: ما سَلِمَ من المؤمنين أيضًا إلَّا فريقٌ، وهو المعنيُّ[٦] بقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الإسراء: ٦٥]. فأمَّا ابنُ عباسٍ فعنه أنه قال: هم المؤمنون كلُّهم[٧]، فـ «من» على هذا للتبيين لا للتبعيض.

---

(١) النكت والعيون ٤/٤٤٧، وأخرجه مطولاً ابن أبي حاتم كما ذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية.

(٢) النكت والعيون ٤/٤٤٧، وأخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ٢٣٤.

(٣) النكت والعيون ٤/٤٤٧، وأخرجه بنحوه الطبري ١٩/ ٢٧٠.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٤٤٧.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٤، وأخرجه بنحوه عبد الرزاق ٢/ ١٣٠، والطبري ١٩/ ٢٧١.

(٦) في (ظ): وهم المعنيون.

(٧) أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ٢٣٤.

فإن قيل: كيف عَلِمَ إبليسُ صِدْقَ ظنِّه وهو لا يَعْلَمُ الغيبَ؟

قيل له: لمَّا نَفَذَ له في آدمَ ما نَفَذَ، غَلَبَ على ظنِّه أنه يَنْفُذُ له مثلُ ذلك في ذرِّيَّته، وقد وقع له تحقيقُ ما ظنّ.

وجوابٌ آخرُ: وهو ما[1] أجيبَ به من قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤] فأُعطيَ القوةَ والاستطاعة، فظنَّ أنَّه يملكهم كلَّهم بذلك، فلمَّا رأى أنه تاب على آدمَ، وأنه سيكون له نسلٌ يتبعونه إلى الجنة، وقال: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢] علم[2] أنَّ له تَبَعًا ولآدمَ تبعًا، فظنَّ أنَّ تَبَعَه أكثرُ من تَبَع آدم؛ لمَا وُضع في يديه من سلطان الشهوات، ووضعت الشهواتُ في أجواف الآدميين، فخرج على ما ظنَّ حيث نفخ فيهم وزيَّن في أعينهم تلك الشهوات، ومدَّهم إليها بالأماني والخدائع، فصدق عليهم الظن الذي ظنَّه، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: لم يَقْهَرْهم إبليسُ على الكفر، وإنَّما كان منه الدعاءُ والتزيين. والسلطان: القوة، وقيل: الحُجَّة، أي: لم تكن له حُجَّةٌ يَستَتْبِعُهُم بها، وإنَّما اتَّبعوه بشهوةٍ وتقليدٍ وهَوَى نَفْسٍ، لا عن حجةٍ ودليل.

﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ يريد علمَ الشهادة الذي يقع به الثوابُ والعقاب، فأمَّا الغيبُ فقد عَلِمَه تبارك وتعالى. ومذهبُ الفرَّاء[3] أنْ يكون المعنى: إلَّا لنعلم ذلك عندكم، كما قال: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ [فصلت: ٤٧] أي: على قولكم[4] وعندكم.

---

(١) قبلها في (د) و(ظ): أن.

(٢) في النسخ الخطية: فعلم، والمثبت من (م).

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٣٦٠ - ٣٦١، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٤٤.

(٤) في (ظ): زعمكم.

وليس قولُه: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ جوابَ ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ﴾ في ظاهره، إنَّما هو محمولٌ على المعنى، أي: وما جعلنا له عليهم سلطاناً إلَّا لنَعْلَمَ، فالاستثناء مُنْقَطِعٌ، أي: لا سلطانَ له عليهم ولكنَّا ابتليناهم بوسوسته لنَعْلَم، فـ«إلَّا» بمعنى لكنْ.

وقيل: هو متَّصلٌ، أي: ما كان له عليهم من سلطانٍ، غيرَ أنَّا سلَّطناه عليهم ليتمَّ الابتلاء.

وقيل: «كان» زائدة، أي: وماله عليهم من سلطان، كقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ أي: أنتم خيرُ أمَّة.

وقيل: لمَّا اتَّصل طرفٌ منه بقصةِ سبأ قال: وما كان لإبليسَ على أولئك الكفار من سلطان.

وقيل: وما كان له في قضائنا السابقِ سلطانٌ عليهم.

وقيل: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾: إلَّا لنُظْهِر[1]، وهو كما تقول: النارُ تُحرِقُ الحطبَ، فيقول آخَر: لا بل الحطبُ يُحرق النار. فيقول الأول: تعالَ حتى نجرِّب النارَ والحطب لنَعْلَم أيهما يُحرِقُ صاحبه، أي: لنُظهِر ذلك، وإن كان معلوماً لهم ذلك.

وقيل: إلَّا لتعلموا أنتم. وقيل[2]: أي: ليعلم أولياؤنا والملائكةُ، كقوله: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المائدة: ٣٣] أي: يحاربون أولياءَ الله ورسوله.

وقيل: أي: لنميز، كقوله: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧]. وقد مضى هذا المعنى في «البقرة»[3] وغيرها.

وقرأ الزُّهريُّ: «إلَّا لِيُعْلَمَ»، على ما لم يسمَّ فاعلُه[4].

---

(١) في (ظ): ليظهر (في الموضعين).

(٢) قبلها في (د): وقيل أي ليعلم على ما لم يسم فاعله. وهي قراءة كما سيرد.

(٣) ٢/ ٤٣٨ .

(٤) القراءات الشاذة ص ١٢٢ ، والمحتسب ٢/ ١٢١ ، والكشاف ٣/ ٢٨٧ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٤١٧ .

﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ أي: إنه عالمٌ بكلِّ شيء. وقيل: يحفظ كلَّ شيء على العبد حتى يجازيَه عليه.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: هذا الذي مضى ذِكْرُهُ من أمر داودَ وسليمانَ وقصةِ سبأ من آثارِ قُدْرَتي، فقُلْ يا محمدُ لهؤلاء المشركين: هل عند شُرَكائِكم قدرةٌ على شيءٍ من ذلك. وهذا خطابُ توبيخٍ، وفيه إضمارٌ، أي: ادعوا الذين زعمتُم أنَّهم آلهةٌ لكم من دون الله لِتَنْفعَكم، أو لتدفع عنكم ما قضاه الله تبارك وتعالى عليكم، فإنهم لا يملكون ذلك[(١)]، و﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ أي: ما لله مِن هؤلاء مِن مُعينٍ على خَلْقِ شيء، بل الله المنفردُ بالإيجاد، فهو الذي يُعبَد، وعبادةُ غيرِهِ مُحال.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ﴾ أي: شفاعةُ الملائكةِ وغيرِهم ﴿عِندَهُ﴾ أي: عندَ الله ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ قراءةُ العامة: ﴿أَذِنَ﴾ بفتح الهمزة؛ لذكر الله تعالى أولاً. وقرأ أبو عمرو وحمزةُ والكسائيّ: ﴿أُذِنَ﴾ بضمِّ الهمزةِ على ما لم يسمَّ فاعلُه[(٢)]. والآذِنُ هو الله تعالى. و«مَن» يجوز أن ترجع إلى الشافِعِينَ، ويجوز أن ترجع إلى المشفوع لهم.

﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ قال ابن عباس: جُلِّي[(٣)] عن قلوبهم الفزعُ. قُطْرُب:

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٥ .

(٢) السبعة ص ٥٢٩ ، والتيسير ص ١٨١ .

(٣) في (د) و(م): خلي، ولفظة: الفزع (الآتية) ليست في (ظ).

أُخرجَ ما فيها من الخوف. مجاهد: كُشِفَ عن قلوبهم الغطاءُ يومَ القيامة[١]. أي: إنَّ الشفاعة لا تكون من أحدٍ من هؤلاء المعبودِينَ من دون الله، من الملائكة والأنبياء والأصنام، إلَّا أنَّ الله تعالى يأذنُ للأنبياء والملائكة في الشفاعة وهم على غايةِ الفزع من الله، كما قال: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء:٢٨].

والمعنى: أنه إذا أَذِنَ لهم في الشفاعة ووَرَدَ عليهم كلامُ الله فَزِعوا؛ لِمَا يقترن بتلك الحالِ من الأمر الهائل والخوفِ أن يقع في تنفيذ ما أَذِنَ لهم فيه تقصيرٌ، فإذا سُرِّيَ عنهم قالوا للملائكة فوقهم وهم الذين يُوْرِدون عليهم الوحيَ بالإذن: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ﴾ أي: ماذا أمر الله به؟ فيقولون لهم: ﴿قَالُوا۟ ٱلْحَقَّۖ﴾ وهو أنْ أَذِنَ لكم في الشفاعة للمؤمنين ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ فله أن يحكُم في عباده بما يريد. ثم يجوز أن يكون هذا إذناً لهم في الدنيا في شفاعة أقوام، ويجوز أن يكون في الآخرة.

وفي الكلام إضمارٌ، أي: ولا تنفع الشفاعةُ عنده إلَّا لمن أَذِنَ له، ففَزِعَ لِمَا ورد عليه من الإذن تهيُّبًا لكلامِ الله تعالى، حتى إذا ذهب الفزعُ عن قلوبهم أجاب بالانقياد.

وقيل: هذا الفزعُ يكون اليومَ للملائكة في كلِّ أمرٍ يأمرُ به الربُّ تعالى، أي: لا تنفع الشفاعةُ إلَّا مِن الملائكة الذين هم اليومَ فَزِعون مُطيعون لِله تعالى، دون الجماداتِ والشياطين. وفي صحيح الترمذي عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ قال: «إذا قضى الله في السماء أمرًا ضربت الملائكة بأجنحتها خَضَعانًا لقوله، كأنها[٢] سلسلةٌ على صَفْوانٍ، فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا الحقَّ وهو العليُّ الكبير، قال: والشياطينُ بعضُهم فوقَ بعض» قال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ[٣].

---

(١) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٤/٤٤٨ ، وأخرج قول ابن عباس ومجاهد الطبري ١٩/٢٧٥ .

(٢) في (ظ): كأنه، وهو موافق لرواية البخاري على ما يأتي.

(٣) سنن الترمذي (٣٢٢٣)، وأخرجه البخاري (٤٨٠٠) مطولاً. قوله: خضعاناً بفتحتين، وفي رواية: =

وقال النوَّاس بن سمعان: قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ الله إذا أراد أن يُوحيَ بالأمر تكلَّم بالوحي، أخذت السماوات منه رَجْفةٌ ـ أو [قال:] رِعْدةٌ ـ شديدةٌ خوفاً من الله تعالى، فإذا سمع أهلُ السماوات ذلك صَعِقوا، وخَرُّوا لله تعالى سُجَّدًا، فيكونُ أولَ مَن يَرْفَعُ رأسَه جبريل، فيكلِّمه الله تعالى ويقول له من وحْيه ما أراد، ثم يمرُّ جبريل بالملائكة، كلَّما مرَّ بسماءٍ سأله ملائكتُها: ماذا قال ربُّنا يا جبريل؟ فيقول جبريل: قال الحقَّ وهو العليُّ الكبير، قال: فيقولُ كلُّهم كما قال جبريلُ فينتهي جبريلُ بالوحي حيث أَمَرَه الله تعالى»[1].

وذكر البيهقيُّ عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ قال: كان لكلِّ قبيلٍ من الجنِّ مقعدٌ من السماء يستمعون منه الوحي، وكان إذا نزل الوحيُ سُمع له صوتٌ كإمرارِ السلسلةِ على الصَّفْوان، فلا ينزل على أهل سماءٍ إلَّا صَعِقوا، فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق وهو العليُّ الكبير، ثم يقول: يكون العامَ كذا ويكون كذا. فتسمعه الجنُّ فيخبرون به الكهنة فتقول الكهنةُ للناس: يكون العامَ كذا وكذا، فيجدونه كذلك، فلمَّا بعث الله محمداً ﷺ دُحروا بالشُّهب، فقالت العرب حين لم تُخبِرهم الجنُّ بذلك: هَلَكَ مَن في السماء، فجعل صاحب الإبل يَنحرُ كلَّ يومٍ بعيراً، وصاحبُ البقر ينحر كلَّ يومٍ بقرةً، وصاحبُ الغنم ينحر كلَّ يومٍ شاةً، حتى أسرعوا في أموالهم، فقالت ثَقيف وكانت أَعْقَل العرب: أيها الناس، أَمْسِكوا على أموالكم، فإنَّه لم يَمُتْ مَن في السماء، وإنَّ هذا ليس بانتثار، ألستُم تَرَوْنَ

= بضم أوله وسكون ثانيه، وهو مصدر بمعنى خاضعين. قوله: كأنه (وهي رواية البخاري)، أي: الصوت المسموع مثل جر السلسلة من الحديد، على الصفوان الذي هو الحجر الأملس. ينظر الفتح ٨/ ٥٣٨ ، وتحفة الأحوذي ٩/ ٩٠ .

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٥١٥)، وابن خزيمة في التوحيد ص ١٤٤ ، والطبري ١٩/ ٢٧٨ ، والآجري في الشريعة ص ٢٩٤ ، والبيهقي في الأسماء والصفات (٤٣٥)، وما بين حاصرتين من المصادر. وفي إسناده نعيم بن حماد، قال الحافظ في التقريب: صدوق يخطئ كثيراً. وذكر أبو زرعة الدمشقي في تاريخه ١/ ٦٢١ أنه عرض هذا الحديث على عبد الرحمن بن إبراهيم (وهو دحيم) فقال: لا أصل له.

مَعالِمَكم من النجوم كما هي، والشمسَ والقمرَ والليلَ والنهار؟! قال: فقال إبليس: لقد حدث اليومَ في الأرض حَدَث، فائتوني مِن تربةِ كلِّ أرضٍ، فأَتَوْه بها فجعل يَشَمُّها، فلمَّا شمَّ تربةَ مكةَ قال: مِن ها هنا جاء الحَدَث، فنصتوا فإذا رسولُ الله ﷺ قد بُعث(١). وقد مضى هذا المعنى مرفوعاً مختصراً في سورة الحجر(٢)، ومضى القولُ أيضاً في رَمْيِهم بالشهب وإحراقِهم بها، ويأتي في سورة الجنِّ(٣) بيانُ ذلك إن شاء الله تعالى.

وقيل: إنَّما يفزعون من قيام الساعة.

وقال الكلبيُّ وكعب: كان بين عيسى ومحمدٍ عليهما السلام فَتْرةٌ، خمسُ مئةٍ وخمسون سنةً لا يَجيءُ فيها الرسل، فلمَّا بعث الله تعالى محمداً ﷺ كلَّم الله تعالى جبريلَ بالرسالة، فلمَّا سمعت الملائكةُ الكلامَ ظنُّوا أنَّها الساعةُ قد قامت، فصَعِقوا ممَّا سمعوا، فلمَّا انحدر جبريلُ عليه السلام جعل يمرُّ بكلِّ سماءٍ فيكشفُ عنهم، فيرفعون رؤوسَهم ويقول بعضُهم لبعضٍ: ماذا قال ربكم؟ فلم يَدْروا ما قال، ولكنهم قالوا: قال الحقَّ وهو العليُّ الكبير، وذلك أنَّ محمداً عليه الصلاة والسلام عند أهل السماوات من أشراط الساعة(٤).

وقال الضحاك: إنَّ الملائكةَ المعقِّباتِ الذين يختلفون إلى أهل الأرض يكتبون أعمالهم، يرسلهم الربُّ تبارك وتعالى، فإذا انحدروا سُمع لهم صوتٌ شديدٌ، فيحسبُ الذين هم أسفلُ من الملائكة أنه من أمر الساعة، فَيَخِرُّون سُجَّداً ويصعقون،

---

(١) لم نقف عليه عند البيهقي، وهو في تفسير مجاهد ٢/ ٥٢٦ - ٥٢٧ ، وذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢٣٦ وعزاه للبيهقي وابن أبي شيبة وابن مردويه وأبي نعيم في الدلائل. وهو من طريق حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما. وعطاء بن السائب اختلط، وفي سماع حماد بن سلمة منه قبل الاختلاط أو بعده خلاف.

(٢) ١٢/ ١٩٠ .

(٣) عند تفسير الآية (٩) منها.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٥٥٧ عن مقاتل والكلبي والسدي.

حتى يعلموا أنه ليس من أمر الساعة[١].

وهذا تنبيهٌ من الله تعالى وإخبارٌ أنَّ الملائكة مع اصطفائهم ورِفْعَتِهم لا يُمكِنُهم[٢] أنْ يَشْفَعوا لأحدٍ حتى يؤذنَ لهم، فإذا أُذن لهم وسَمعوا صَعِقوا وكانت هذه حالُهم، فكيف تشفع الأصنامُ، أو كيف تؤمِّلون أنتم الشفاعةَ ولا تعترفون بالقيامة.

وقال الحسن وابن زيد ومجاهد: حتى إذا كُشفَ الفزع عن قلوب المشركين عند[٣] نزول الموت، إقامةً للحجة عليهم قالت الملائكة لهم: ماذا قال ربكم في الدنيا؟ قالوا: الحقَّ وهو العليُّ الكبير، فأَقرُّوا حين لا ينفعهم الإقرار[٤]، أي: قالوا: قال الحق.

وقراءةُ العامة: ﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾. وقرأ ابن عباس: ﴿فَزَّعَ عن قلوبهم﴾ مسمَّى الفاعل[٥]، وفاعلُه ضميرٌ يَرجِعُ إلى اسم الله تعالى. ومَن بناه للمفعول فالجارُّ والمجرورُ في موضعِ رفعٍ، والفعلُ في المعنى لله تبارك وتعالى. والمعنى في القراءتين: أُزيل الفزعُ عن قلوبِهم، حَسْبَمَا تقدَّم بيانُه[٦]. ومثله: أَشْكَاه: إذا أَزالَ عنه ما يشكُوه.

وقرأ الحسن: «فُزِع» مثلَ قراءةِ العامة، إلَّا أنه خفَّفَ الزاي، والجارُّ والمجرورُ

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٨١ بنحوه من طريق الضحاك عن ابن مسعود ﷺ.

(٢) في (م): لا يمكن.

(٣) قبلها في (د) و(ظ) و(م): قال الحسن ومجاهد وابن زيد في الآخرة، وسقط هذا الموضع من (خ) و(ز)، والمثبت من تفسير البغوي ٣/ ٥٥٧، والكلام منه.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٥٥٧ - ٥٥٨، إلا أنه لم يذكر مجاهداً، وأخرجه عن ابن زيد الطبري ١٩/ ٢٨١. ولم نقف عليه عن مجاهد.

(٥) قرأ: «فزَّع» بفتح الفاء والزاي ابن عامر من السبعة، والباقون بضم الفاء وكسر الزاي. السبعة ص٥٣٠، والتيسير ص ١٨١. وذكرها عن ابن عباس النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٤٥ وزاد نسبتها لابن مسعود وسعيد بن جبير ومجاهد.

(٦) ص٣٠٧-٣٠٨ من هذا الجزء.

في موضع رفعٍ أيضاً، وهو كقولك: انْصُرِفَ عن كذا إلى كذا. وكذا معنى «فُرِغَ» بالراء والغَيْنِ المعجَمَةِ والتخفيفِ غير مسمَّى الفاعل، رُويت عن الحسن أيضاً وقتادة(١). وعنهما أيضًا «فَرَغَ» بالراء والغين المعجمة مسمَّى الفاعل، والمعنى: فَرَغَ الله تعالى قلوبَهم، أي: كَشَفَ عنها، أي: فَرغَها من الفزع والخوف، وإلى ذلك يَرجعُ البناء للمفعول على هذه القراءة. وعن الحسن أيضاً «فرّغ» بالتشديد(٢).

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ لـمَّا ذَكر أنَّ آلهتهم لا يملكون مثقالَ ذرةٍ ممَّا يَقدِرُ عليه الربُّ، قرَّر ذلك فقال: قُلْ يا محمدُ للمشركين: ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ أي: مَن يخلقُ لكم هذه الأرزاقَ الكائنةَ من السماوات، أي: عن المطر والشمس والقمر والنجوم وما فيها من المنافع. «وَالْأَرْضِ» أي: الخارجة من الأرض، عن الماء والنبات. أي: لا يمكنُهم أن يقولوا: هذا فِعْلُ آلهتنا. فيقولون: لا ندري. فقل: إنَّ الله يفعل ذلك، الذي يعلم ما في نفوسكم. وإن قالوا: اللهُ يرزقنا، فقد تقرَّرت الحجة بأنه الذي ينبغي أن يُعبد.

﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ هذا على وجهِ الإنصاف في الحُجَّة، كما يقول القائل: أحدُنا كاذب، وهو يعلم أنه صادقٌ، وأنَّ صاحبه كاذب. والمعنى: ما نحن وأنتم على أمرٍ واحد، بل على أمرين متَضادَّين، وأحدُ الفريقين مهتدٍ وهو نحن، والآخَرُ ضالٌّ وهو أنتم. فكذَّبهم بأَحْسَنَ من تصريح التكذيب، والمعنى: أنتم الضالُّون حين أشركْتُم بالذي يرزقكم من السماوات والأرض.

---

(١) المحتسب ٢/ ١٩١ - ١٩٢.

(٢) يعني بضم الفاء وبفتحها، ينظر إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٥ - ٣٤٦، والمحتسب ٢/ ١٩١-١٩٣، والمحرر الوجيز ٤/ ٤١٩، والدر المصون ٩/ ١٨٢.

«أو إياكم» معطوفٌ على اسم «إنَّ»، ولو عُطِفَ على الموضع لكان: «أو أنتم» ويكون «لَعلَى هُدًى» للأول لا غير. وإذا قلت: «أو إِيَّاكُمْ» كان للثاني أوْلى، وحَذَفْتَ من الأول، ويجوز أن يكون للأول، وهو اختيارُ المبرِّد. قال: ومعناه معنى قولِ المستَبْصِرِ لصاحبه على صحة الوعيدِ والاستظهارِ بالحجة الواضحة: أحدُنا كاذب، وقد عرف المعنى، كما تقول: أنا أَفْعَلُ كذا وتَفْعَلُ أنت كذا وأحدُنا مخطئ، وقد عرف أنه هو المخطئ، وهكذا: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[١].

و«أو» عند البَصْريين على بابها وليست للشك، لكنَّها على ما تستعملُه العرب في مثل هذا إذا لم يُرِد المخبِرُ أنْ يبين وهو عالمٌ بالمعنى. وقال أبو عبيدةَ والفرَّاءُ: هي بمعنى الواو، وتقديره: وإنا على هدى وإياكم في ضلال مبين[٢]، وقال جرير:

أثعلبةَ الفوارسَ أو رياحاً عدلْتَ بهم طُهَيَّةَ والرِّبابا[٣]

يعني: أثعلبة ورياحاً. وقال آخر:

فلمَّا اشتدَّ أمرُ الحربِ فينا تأمَّلْنا رياحاً أو رِزاما[٤]

قوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾ أي: اكتَسَبْنا ﴿وَلَا نُسْـَٔلُ﴾ نحن أيضاً

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٦ - ٣٤٧.

(٢) مجاز القرآن ٢/ ١٤٨، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٣٦٢، ونقله الفراء عن المفسرين وقال: وهو في المعنى كذلك، غير أن العربية على غير ذلك؛ لا تكون أو بمنزلة الواو. وكذلك قال الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٢٥٣، قال: وهذا في اللغة غير جائز، ولكنه في التفسير يؤول إلى هذا المعنى. قال الفراء: والمعنى في قوله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ﴾: إنا لضالون أو مهتدون، وإنكم لضالون أو مهتدون، وهو يعلم أن رسوله المهتدي، وأن غيره الضال. وهذا كما تقول للرجل: إن أحدنا لكاذب، فكذبته تكذيباً غير مكشوف.

(٣) ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب ٢/ ٨١٤، والكتاب ١/ ١٠٢ و٣/ ١٨٣، ومجاز القرآن ٢/ ١٤٨، والخزانة ١١/ ٦٩. ووقع فيها جميعاً: والخِشَابا، بدل: والربابا. قال البغدادي: أي: عدلتَ هاتين القبيلتين بهاتين القبيلتين!.

(٤) لم نقف عليه.

﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: إنَّما أقصدُ بما أدعوكم إليه الخيرَ لكم، لا أنَّه ينالُني ضررُ كُفْرِكم، وهذا كما قال: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون:٦] واللهُ مُجازي الجميع. فهذه آيةُ مُهادَنَةٍ ومُتارَكَةٍ، وهي منسوخةٌ بالسيف. وقيل: نزل هذا قبل آيةِ السيف.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ يريد يومَ القيامة ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ أي: يقضي، فيثيبُ المهتدي ويعاقب الضالَّ ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ﴾ أي: القاضي بالحقِّ ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوال الخَلْق. وهذا كلُّه منسوخ بآية السيف.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ﴾ يكون «أَرُوني» هنا من رؤية القلب، فيكون «شركاءَ» المفعولَ الثالث، أي: عرِّفوني هذه الأصنامَ والأوثانَ التي جعلتموها شركاءَ لِلهِ عز وجل، هل شارَكَتْ في خَلْقِ شيء، فبيِّنوا ما هو؟ وإلَّا فَلِمَ تَعبُدونها؟ ويجوز أن يكونَ من رؤية البصر، فيكونُ «شركاءَ» حالاً[1].

﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر كما زعمتم. وقيل: إنَّ «كلَّا» ردٌّ لجوابهم المحذوفِ، كأنه قال: أَرُوني الذين ألحقتُم به شركاء. قالوا: هي الأصنامُ. فقال: كلَّا، أي: ليس له شركاء ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: وما أرسلناك

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٧ .

إِلَّا للناس كافةً، أي: عامَّةً، ففي الكلام تقديمٌ وتأخير. وقال الزجَّاج: أي: وما أرسلناك إلَّا جامعاً للناس بالإنذار والإبلاغ(١). والكافةُ بمعنى الجامع.

وقيل: معناه: كافًّا للناس، تَكفُّهم عمَّا هم فيه من الكفر وتدعوهم إلى الإسلام. والهاءُ للمبالغة. وقيل: أي: إلَّا ذا كافَّةٍ، فحذف المضاف، أي: ذا منعٍ للناس من أن يَشِذُّوا عن تبليغك، أو ذا منعٍ لهم من الكفر، ومنه: كفَّ الثوبَ؛ لأنَّه ضمَّ طرفيه.

﴿بَشِيرًا﴾ أي: بالجنة لمَن أطاع. ﴿وَنَذِيرًا﴾ من النار لِمَن كَفَر. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما عندَ الله، وهم المشركون، وكانوا في ذلك الوقتِ أكثرَ من المؤمنين عدداً.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ يعني موعدكم لنا بقيام الساعة ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾. فقال الله تعالى: ﴿قُل﴾ لهم يا محمد: ﴿لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ فلا يغرَّنَّكم تأخيرُه. والميعادُ: الميقات. ويعني بهذا الميعادِ وقتَ البعث. وقيل: وقتَ حضورِ الموت، أي: لكم قبلَ يومِ القيامة وقتٌ معيَّنٌ تموتون فيه، فتعلمون حقيقةَ قولي.

وقيل: أراد بهذا اليوم يومَ بدر؛ لأنَّ ذلك اليومَ كان ميعادَ عذابِهم في الدنيا في حُكْمِ الله تعالى.

وأجاز النحويون: «ميعادٌ يومٌ» على أن يكون «ميعادٌ» ابتداءً، و«يومٌ» بدلاً منه، والخبر: «لكم». وأجازوا «ميعادٌ يوماً» يكون ظرفاً، وتكون الهاء في «عنه» ترجع إلى «يوم». ولا يصح: «ميعادٌ يومَ لا تستأخرون» بغير تنوين وإضافة «يومَ» إلى ما بعده؛ إذا قدَّرتَ الهاء عائدةً على اليوم؛ لأنَّ ذلك يكون من إضافة الشيء إلى نفسه من أَجْلِ الهاء التي في الجملة. ويجوز ذلك على أن تكون الهاءُ للميعاد لا لليوم(٢).

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٥٤ ، وتعقبه أبو حيان في البحر ٧/ ٢٨١ بأنَّ «كفَّ» ليس بمحفوظ أنَّ معناه: جمع. والمحفوظ في معناه: منع، والمعنى: إلا مانعاً لهم من الكفر. وينظر الدر المصون ٩/ ١٨٥ .

(٢) بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٨ ، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٨٨ ، وقال السمين في الدر =

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (٣٣)﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يريد كفارَ قريش ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ قال سعيدٌ عن قتادة: «ولا بالذي بين يديه» من الكتب والأنبياء عليهم الصلاة والسلام[1]. وقيل: من [أمر] الآخرة. وقال ابن جُريج: قائلُ ذلك أبو جهل بن هشام[2].

وقيل: إنَّ أهلَ الكتاب قالوا للمشركين: صفةُ محمدٍ في كتابنا فَسَلُوه، فلمَّا سألوه فوافَقَ ما قال أهلُ الكتاب، قال المشركون: لن نؤمنَ بهذا القرآنِ ولا بالذي قبلَه من التوراة والإنجيل، بل نكفرُ بالجميع، وكانوا قبل ذلك يراجعون أهلَ الكتاب ويَحتجُّون بقولهم، فظَهَر بهذا تَناقضُهم وقلةُ عِلْمِهم.

ثم أخبر الله تبارك وتعالى عن حالهم في مآلهم[3]، فقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ يا محمدُ ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: محبوسون في موقف الحساب، يتراجعون الكلامَ فيما بينهم باللوم والعتاب بعد أن كانوا في الدنيا أَخِلَّاءَ متناصِرِين. وجوابُ «لو» محذوفٌ، أي: لرأيتَ أمراً هائلاً فظيعاً.

= المصون ٩/ ١٨٩ : نصُّوا على أن الظرف إذا أضيف إلى جملة لم يَعُد منها إليه ضمير إلا في ضرورة. وقد قرئ بجميع ما سلف من وجوه. ينظر الكشاف ٣/ ٢٩٠ ، والبحر ٧/ ٢٨٢ .

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٨٩ - ٢٩٠ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٤٥١ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) في (د) و(م): فيما لهم.

ثم ذَكَر أيَّ شيءٍ يرجع من القول بينهم فقال: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ في الدنيا من الكافرين ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ وهم القادةُ والرؤساء: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: أَغْوَيْتُمونا وأَضْلَلْتُمونا. واللغةُ الفصيحة: «لولا أنتم»، ومن العرب مَن يقول: «لولاكم» حكاها سيبويه؛ تكون «لولا» تَخْفضُ المضمَرَ، ويرتفع المُظْهَرُ بعدها بالابتداء ويُحذف خبره. ومحمد بن يزيد يقول: لا يجوزُ «لولاكم»؛ لأنَّ المضمَر عَقيبُ المُظْهَرِ، فلمَّا كان المظهرُ مرفوعاً بالإجماع، وجب أن يكون المضمَرُ أيضاً مرفوعاً[(١)].

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ﴾ هو استفهامٌ بمعنى الإنكار، أي: ما رَدَدْناكم نحن عن الهدى، ولا أكرهناكم. ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ أي: مشركين مصرِّين على الكفر.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ المكرُ أصلُه في كلام العرب: الاحتيالُ والخديعة. وقد مَكَرَ به يَمكُرُ، فهو ماكر ومَكَّار. قال الأخفش[(٢)]: هو على تقدير: هذا مَكْرُ الليل والنهار. قال النحاس[(٣)]: والمعنى ـ والله أعلم ـ: بل مكرُكم في الليل والنهار، أي: مُسَارَّتكم إيانا ودعاؤكم لنا إلى الكفر حَمَلَنا على هذا.

وقال سفيان الثوري: بل عملُكم في الليل والنهار. قتادة: بل مكرُكم بالليل والنهار صدَّنا[(٤)]. فأُضيفَ المكر إليهما لوقوعه فيهما، وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح: ٤]، فأضاف الأجلَ إلى نفسه، ثم قال: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً﴾ [الأعراف: ٣٤] إذ كان الأجل لهم. وهذا من قَبِيلِ قولك: ليلُه قائمٌ ونهارُه صائم. قال المبرِّد: أي: بل مكرُكم الليل والنهار، كما تقول العرب: نهارُه

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٨ . وقول سيبويه في الكتاب ٢/ ٣٧٣ .
(٢) في معاني القرآن ٢/ ٦٦٣ .
(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٣٤٩ .
(٤) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٣٢ ، دون قوله: صدنا.

صائمٌ وليلُه قائمٌ، وأنشد لجرير:

لقد لُمْتِنَا يا أمَّ غَيْلانَ في السُّرَى ونمتِ وما ليلُ المَطِيِّ بنائمِ[(١)]

وأنشد سيبويه:

فنام ليلي وتجلَّى همِّي[(٢)]

أي: نمتُ فيه. ونظيره: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧].

وقرأ قتادة: «بل مَكْرٌ الليلَ والنهارَ» بتنوين «مكر» ونصبِ «الليلَ والنهار»، والتقدير: بل مكرٌ كائنٌ في الليل والنهار، فحذف[(٣)].

وقرأ سعيد بن جبير: «بل مَكَرٌّ» بفتح الكاف وشدِّ الراء بمعنى الكرور، وارتفاعه بالابتداء والخبرُ محذوفٌ. ويجوز أن يرتفع بفعلٍ مُضْمَرٍ دلَّ عليه: «أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ»، كأنَّهم لمَّا قالوا لهم: أنحن صددناكم عن الهدى؟! قالوا: بل صدَّنا مَكَرُّ الليلِ والنهار[(٤)].

وروي عن سعيد بن جبير: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ قال: مرّ الليل والنهار عليهم فغفلوا[(٥)]. وقيل: غرَّهم[(٦)] طولُ السلامة فيهما كقوله: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾ [الحديد: ١٦].

---

(١) ديوان جرير بشرح ابن حبيب ٢/ ٩٩٣، وسلف ١١/ ٢٠، وهو في الكتاب ١/ ١٦٠، والمقتضب ٤/ ٣٣١ وفيه قول المبرد بنحوه، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٩ وعنه نقل المصنف.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٩، ولم نقف عليه في الكتاب، والرجز لرؤبة، وهو في ديوانه ص١٤٢، والمقتضب ٤/ ٣٣١.

(٣) المحتسب ٢/ ١٩٣ - ١٩٤. قال ابن جني: وإن شئت علقتهما بنفس «مكر»، كقوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ . يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١٤-١٥].

(٤) المحتسب ٢/ ١٩٣ - ١٩٤. قال ابن جني: المَكَرُّ والكرور: اختلاف الأوقات. وذكر القراءة أيضاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٢٢.

(٥) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٩٢، وذكره النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٤٩.

(٦) قوله: غرَّهم، من (ظ).

وقرأ راشد: «بل مَكَرَّ الليل والنهار» بالنصب، كما تقول: رأيته مَقْدَمَ الحاجِّ، وإنَّما يجوز هذا فيما يُعرفُ؛ ولو قلتَ: رأيتُه مَقْدَمَ زيد، لم يَجز؛ ذكره النحاس[١].

﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ أي: أشباهاً وأمثالاً ونُظَراءَ. قال محمد بن يزيد: ندُّ فلانٍ فلان[٢]؟، أي: مثلُه. ويقال: نَدِيد، وأنشد:

أَتَيْماً تجعلون إليَّ نِدًّا ... وما تَيْمٌ لذي حَسَبٍ نَديدُ[٣]

وقد مضى هذا في «البقرة»[٤].

﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾ أي: أَظْهَرُوها، وهو من الأضداد؛ يكون بمعنى الإخفاءِ والإبداء؛ قال امرؤ القيس:

تجاوزتُ أَحْراساً وأهوالَ مَعْشرٍ ... عَليَّ حِراصٍ لو يُسِرُّون مَقْتَلِي[٥]

ويروى: «يُشِرُّون»[٦].

وقيل: «وأسَرُّوا النَّدامَةَ» أي: تَبَيَّنت الندامةُ في أسرار وجوههم. وقيل: الندامةُ لا تظهر، وإنَّما تكون في القلب، وإنَّما يظهر ما يتولَّد عنها[٧]، حَسْبَمَا تقدَّم بيانُه في سورة يونس، وآل عمران[٨].

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٣٤٩ - ٣٥٠، وقراءة راشد في المحتسب ٢/ ١٩٣ - ١٩٤، والبحر ٧/ ٢٨٣. قال أبو حيان: وراشد هذا من التابعين، ممن صحح المصاحف بأمر الحجاج. اهـ. وهو ابن نجيح الحِمَّانيُّ، أبو محمد البصري. التهذيب ١/ ٥٨٤. وقد سلف ذكره ١/ ١٠٤ (حاشية).

(٢) في (م): فلان ند فلان.

(٣) البيت لجرير، وهو في ديوانه ١/ ٣٣١، وسلف ١١/ ٣٣٦.

(٤) ١/ ٣٤٧.

(٥) ديوان امرئ القيس ص١٣، وفيه: يُشِرُّون، بدل: يسرُّون، وهما روايتان كما سيرد. ووقع في (م): حراصاً، وهو موافق لما في شرح المعلقات للنحاس ١/ ١٧ وللتبريزي ص ٣٧، وهو فيهما برواية:

تجاوزت أحراساً إليها ومعشراً ... عليَّ حراصاً لو يُشِرُّون مقتلي

(٦) وهي رواية الديوان كما سلف، قال النحاس في شرح المعلقات ١/ ١٧: مَن روى: يُسرُّون، فيجوز أن يكون معناه عنده: يكتمون، ويجوز معناه: يظهرون. أما يُشِرُّون فمعناه يظهرون لا غير.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٥٠.

(٨) سلف في سورة الأعراف ٩/ ٣٣٥، وسورة يونس ١١/ ٨، ولم نقف عليه في سورة آل عمران.

وقيل: إظهارُهم الندامةَ قولُهم: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٢].

وقيل: أسروا الندامة فيما بينهم ولم يجهروا القول بها؛ كما قال: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى﴾ [الأنبياء: ٣].

﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الأغلالُ جمعُ غُلٍّ، يقال: في رقبته غُلٌّ من حديد. ومنه قيل للمرأة السيئةِ الخُلُق: غُلٌّ قَمِلٌ، وأصلُه: أنَّ الغُلَّ كان يكون من قِدٍّ[(١)] وعليه شعرٌ فيَقْمَلُ. وغَلَلتُ يده إلى عنقه، وقد غُلَّ فهو مغلول، يقال: مالَه أُلَّ وغُلَّ[(٢)]. والغُلُّ أيضاً والغُلَّة: حرارةُ العطش، وكذلك الغليل؛ يقال منه: غُلَّ الرجلُ يُغَلُّ غَلَلًا فهو مغلول، على ما لم يسمَّ فاعله؛ عن الجوهريّ[(٣)].

أي: جُعلت الجوامعُ في أعناق التابعين والمتبوعين. قيل: مِن غيرِ هؤلاء الفريقين. وقيل: يرجع «الذين كَفرُوا» إليهم.

وقيل: تم الكلامُ عند قوله: ﴿لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ ثم ابتدأ فقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ﴾ بعد ذلك في أعناق سائر الكفار. ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا؟

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ قال قتادة: أي:

---

(١) القِدُّ هو السَّيْرُ يُقَدُّ من جلدٍ غير مدبوغ، القاموس (قدد).

(٢) أُلَّ: دُفع في قفاه، وغُلَّ: وُضع الغُلُّ في يديه وعنقه، وهذا دعاء عليه. معجم متن اللغة (ألّ) و(غل).

(٣) في الصحاح: (غلل).

أغنياؤها ورؤساؤها وجبابِرتُها وقادةُ الشرِّ للرسل: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[١].

﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ أي: فُضِّلنا عليكم بالأموال والأولاد، ولو لم يكن ربُّكم راضياً بما نحن عليه من الدِّين والفضل لم يخوِّلنا ذلك. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ لأنَّ مَن أَحْسَنَ إليه فلا يُعذِّبُه. فردَّ الله عليهم قولَهم وما احتجُّوا به من الغِنَى فقال لنبيِّه ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أي: يوسِّعُه ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: يقتِّر، أي: إنّ الله هو الذي يُفاضِلُ بين عبادِه في الأرزاق امتحاناً لهم، فلا يدلُّ شيءٌ من ذلك على ما في العواقب، فَسَعَةُ الرزق في الدنيا لا تدلُّ على سعادة الآخرة، فلا تظنُّوا أموالَكم وأولادكم تُغني عنكم غدًا شيئًا. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هذا؛ لأنَّهم لا يتأمَّلون.

ثم قال تأكيداً: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ قال مجاهد: أي: قُرْبَى. والزُّلْفةُ: القُرْبة[٢].

وقال الأخفش[٣]: أي: إزلافاً، وهو اسمُ المصدر، فيكون موضعُ «قُرْبَى» نصبًا، كأنه قال: بالتي تقرِّبكم عندنا تقريباً.

وزعم الفراء أنَّ «التي» تكون للأموال والأولاد جميعاً. وله قولٌ آخَرُ ـ وهو مذهبُ أبي إسحاقَ الزجَّاج ـ يكون المعنى: وما أموالُكم بالتي تقرِّبكم عندنا زُلْفى، ولا أولادكم بالتي تقرِّبكم عندنا زُلْفى، ثم حذفَ خبر الأولِ لدلالة الثاني عليه، وأنشد الفراء:

نحن بما عندنا وأنتَ بما عندكَ راضٍ والرأيُ مختلِفُ[٤]

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٥٢، وذكره النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٥١.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٩٧. وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٩/ ٢٩٦.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٦٦٣.

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٦٣، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٥١ وعنه نقل المصنف قول الفراء والزجاج، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ٢٥٥. وسلف البيت ١٠/ ١٨٨.

ويجوز في غير القرآن: باللَّتين وباللَّاتي وباللَّواتي وباللَّذَيْنِ، وبالَّذينَ للأولاد خاصة(١).

أي: لا تَزيدُكم الأموالُ عندنا رِفعةً ودرجةً، ولا تقرِّبكم تقريباً.

﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ قال سعيد بن جبير: المعنى: إلَّا من آمَنَ وعَمِلَ صالحاً فلن يَضُرَّه مالُه وولدُه في الدنيا(٢). وروى ليثٌ عن طاوسٍ أنه كان يقول: اللهمَّ ارزقني الإيمانَ والعمل، وجنِّبني المالَ والولد، فإنِّي سمعتُ فيما أوْحيتَ: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾(٣).

قلت: قولُ طاوسٍ فيه نظر، والمعنى والله أعلم: وجنِّبني المالَ والولدَ المُطْغِيَيْن، أو اللَّذَينِ لا خيرَ فيهما، فأمَّا المالُ الصالح والولدُ الصالح للرجل الصالحِ فنِعْمَ هذا! وقد مضى هذا في «آل عمران، ومريم، والفرقان»(٤).

و«مَن» في موضعِ نصبٍ على الاستثناء المنقطع، أي: لكنْ مَن آمَنَ وعمل صالحاً فإيمانُه وعملُه يقرِّبانِه منِّي. وزعم الزجَّاج أنه في موضع نصبٍ بالاستثناء على البدل من الكاف والميم التي في «تقرِّبكم». النحاس: وهذا القولُ غلطٌ؛ لأنَّ الكافَ والميمَ للمخاطَب، فلا يجوزُ البدلُ، ولو جاز هذا لجاز: رأيتُك زيداً. وقولُ أبي إسحاقَ هذا هو قولُ الفرَّاء، إلَّا أنَّ الفراء لا يقول: بدل، لأنَّه ليس من لفظِ الكوفيين، ولكنَّ قولَه يَؤولُ إلى ذلك، وزعم أنَّ مثله: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٩] يكون منصوباً عنده بـ «ينفع». وأجاز الفرَّاء أن يكون «مَن» في موضع رفعٍ بمعنى: ما هو إلَّا مَن آمَنَ، كذا قال: ولستُ أحصِّلُ معناه(٥).

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٥٢ ، وبنحوه في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٥٥ .

(٢) أخرج نحوه الطبري ١٩/ ٢٩٧ عن ابن زيد، ولم نقف عليه عن سعيد بن جبير.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٤٥٣ ، وأخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ٢٣٨ .

(٤) ٥/ ١١٠ و١٣/ ٤١٤ و١٥/ ٤٨٨ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٥٢ ، وقول الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٢٥٥ ، وقول الفراء في معاني القرآن ٢/ ٣٦٣ .

﴿فَأُولَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ يعني قولَه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] فالضِّعْفُ: الزيادة، أي: لهم جزاءُ التضعيف. وهو من باب إضافةِ المصدرِ إلى المفعول. وقيل: لهم جزاءُ الأضعاف، فالضِّعفُ في معنى الجمع. وإضافةُ الضعفِ إلى الجزاء كإضافة الشيء إلى نَفْسِه، نحو: حقّ اليقين، وصلاة الأُولى. أي: لهم الجزاءُ المضعَّف؛ للواحد عشرةٌ إلى ما يُريد اللهُ من الزِّيادة.

وبهذه الآية استدلَّ مَن فضَّل الغِنَى على الفقر. وقال محمد بن كعب: إنَّ المؤمن إذا كان غنيًّا تقيًّا آتاه الله أجْرَه مرَّتين بهذه الآية[1]. ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾.

قراءةُ العامةِ: «جَزَاءُ الضِّعْفِ» بالإضافة. وقرأ الزُّهرِيُّ ويعقوبُ ونصر بن عاصم: «جزاءً» منوَّناً منصوباً «الضعفُ» رفعاً[2]، أي: فأولئك لهم الضِّعفُ جزاءً، على التقديم والتأخير. «وَجَزَاءٌ الضِّعْفَ» على أن يجازَوا الضعفَ. و«جزاءٌ الضِّعفُ» مرفوعان، الضِّعفُ بدل من جزاء[3].

وقَرأ الجمهور أيضاً: ﴿فِى ٱلْغُرُفَٰتِ﴾ على الجمع، وهو اختيارُ أبي عبيد؛ لقوله: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ [العنكبوت: ٥٨] .الزمخشريُّ: وقرئ «في الغرفات» بضمِّ الراء وفَتْحِها وسكونها[4].

وقرأ الأعمش ويحيى بن وَثَّاب وحمزةُ وخلف: ﴿في الغرفة﴾ على التوحيد[5]؛ لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾ [الفرقان: ٧٥]. والغرفةُ قد يُرادُ بها اسمُ

(١) النكت والعيون ٤/ ٤٥٣ .

(٢) النشر ٢/ ٣٥١ . و«جزاءً» في هذه القراءة منصوب على الحال، كما ذكر أبو حيان في البحر ٧/ ٢٨٦ .

(٣) الكشاف ٣/ ٢٩٢ . وقراءة: «جزاءٌ الضعفُ» ـ برفعهما ـ ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٢٢ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٢ عن قتادة. وقراءة: «جزاءٌ» بالرفع والتنوين «الضعفَ» بالنصب ذكرها الألوسي في روح المعاني ٢٢/ ١٤٩ .

(٤) الكشاف ٣/ ٢٩٢ ، والقراءة بفتح الراء وسكونها في القراءات الشاذة ص ١٢٢ .

(٥) السبعة ص ٥٣٠ ، والتيسير ص ١٨١ عن حمزة. وأما قراءة خلف المشهورة عنه فكقراءة الجمهور.

الجمعِ واسم الجنس. قال ابن عباس: هي غرفٌ من ياقوتٍ وزبرجد ودُرٍّ. وقد مضى بيانُ ذلك[١].

﴿ءَامِنُونَ﴾ أي: من العذاب والموت والأسقام والأحزان. ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ في إبطال أدلَّتِنا وحُجَجنا وكتابنا. ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾: معانِدين، يحسبون أنَّهم يفوتوننا بأنفسهم. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ أي: في جهنَّم؛ تُحضِرُهم الزبانيةُ فيها.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ﴾ كرَّر تأكيدًا. ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ أي: قُلْ يا محمدُ لهؤلاء المغترِّين بالأموال والأولاد: إنَّ الله يوسِّع على مَن يشاء ويضيِّق على مَن يشاء، فلا تغترُّوا بالأموال والأولاد، بل أَنْفِقوها في طاعة الله، فإنَّ ما أنفقتُم في طاعة الله فهو يُخلِفُه. وفيه إضمارٌ، أي: فهو يُخْلِفُه عليكم؛ يقال: أَخْلَفَ له وأَخْلَفَ عليه، أي: يعطيكم خَلَفَه وبَدَلَه، وذلك البَدَلُ إمَّا في الدنيا وإمَّا في الآخرة.

وفي «صحيح» مسلم عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِن يوم يصبحُ العبادُ فيه إلَّا ومَلَكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، و[يقول الآخَر: اللهم] أَعْطِ مُمْسِكاً تَلَفاً»[٢].

وفيه أيضاً عن أبي هريرةَ، عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله قال لي: أَنفِقْ أُنْفِقْ عليك...» الحديث[٣]. وهذه إشارةٌ إلى الخَلَف في الدنيا بِمثْلِ المنفَق فيها إذا كانت

---

(١) ينظر ١٠/ ٢٩٩ و١٥/ ٤٩١ . وخبر ابن عباس سيأتي عند تفسير الآية (٢٠) من سورة الزمر.

(٢) صحيح مسلم (١٠١٠)، وما بين حاصرتين منه، وهو عند أحمد (٨٠٥٤)، والبخاري (١٤٤٢).

(٣) صحيح مسلم (٩٩٣)، وهو عند أحمد (٧٢٩٨)، والبخاري (٤٦٨٤).

النفقةُ في طاعة الله. وقد لا يكون الخَلَفُ في الدنيا، فيكون كالدعاء ـ كما تقدَّم[١] ـ سواءً في الإجابة أو التكفير أو الادِّخار، والادِّخارُ ها هنا مثله في الأجر[٢].

مسألة: روى الدَّارَقُطْنيُّ وأبو أحمد بنُ عَدِيٍّ عن عبد الحميد الهلاليِّ، عن محمد ابن المُنْكَدِر، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ معروفٍ صدقةٌ، وما أَنْفقَ الرجلُ على نفسه وأهله كُتب له صدقة، وما وَقَى به الرجلُ عِرضَه فهو صدقةٌ، وما أَنْفَقَ الرجل من نفقةٍ فعَلَى الله خَلَفُها، إلَّا ما كان من نفقةٍ في بنيانٍ أو معصية». قال عبد الحميد: قلتُ لابن المنكدر: ما «وَقَى الرجلُ عِرضَه»؟ قال: يعطي الشاعرَ وذا اللسان[٣]. عبد الحميد وثَّقه ابن معين[٤].

قلت: أمَّا ما أنفق في معصيةٍ فلا خلافَ أنه غيرُ مثابٍ عليه ولا مخلوفٍ له. وأمَّا البنيانُ فما كان منه ضروريًّا يُكِنُّ الإنسانَ ويحفظُه، فذلك مخلوفٌ عليه ومأجورٌ ببنيانه، وذلك لِحِفْظِ[٥] بنيته وسترِ عورته؛ قال ﷺ: «ليس لابن آدمَ حقٌّ في سِوى هذه الخصالِ: بيتٍ يسكنُه، وثوبٍ يوارِي عورتَه، وجِلْفِ الخبز، والماء»[٦]. وقد مضى هذا المعنى في «الأعراف» مستوفًى[٧].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ لـمَّا كان يقال في الإنسان: إنَّه يَرْزُقُ عيالَه، والأمير جندَه، قال: «وهو خيرُ الرَّازِقِينَ» والرزاقُ من الخَلْقِ يَرزقُ، لكنَّ ذلك من

---

(١) ٣/ ١٨٠ .

(٢) في (ظ): الآخرة، وكذلك وقع في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٩٢ ، والكلام فيه بنحوه.

(٣) سنن الدارقطني (٢٨٩٥)، والكامل ٥/ ١٩٥٩. وسلف ٩/ ٢٦٨ - ٢٦٩ .

(٤) الكامل ٥/ ١٩٥٨ ، وعبد الحميد هو ابن الحسن الهلالي، وقال فيه أبو حاتم: شيخ، وضعفه ابن المديني وأبو زرعة والدارقطني. ميزان الاعتدال ٢/ ٥٣٩ .

(٥) في (د) و(م): وكذلك كحفظ، وفي (خ): وذلك كحفظ.

(٦) أخرجه أحمد (٤٤٠)، والترمذي (٢٣٤١) من حديث عثمان ﷺ، وهو حديث لا يصح كما سلف الكلام ٥/ ٥٧ . قوله: جلف الخبز، أي: وحدَه ليس معه إدام، أو: الخبز الغليظ اليابس.

(٧) ٩/ ٢٦٧ - ٢٦٩ .

مالٍ يُملك عليهم ثم ينقطع، والله تعالى يَرزقُ من خزائنَ لا تفنَى ولا تتناهَى. ومَن أَخرجَ من العدم إلى الوجود فهو الرَّازقُ على الحقيقة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٨].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ويوم نَحشرهم جميعاً﴾ هذا متَّصلٌ بقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ﴾ [الآية:٣١] أي: لو تَراهم في هذه الحالةِ لرأيتَ أمراً فظيعاً. والخطابُ للنبيِّ ﷺ، والمرادُ هو وأمته. ثم قال: ولو تراهم أيضاً يومَ نَحْشرُهم جميعاً، العابِدِينَ والمعبودينَ، أي: نجمعهم للحساب ﴿ثُمَّ نَقُولُ[1] لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾. قال سعيد عن قتادة: هذا استفهامٌ، كقوله عزَّ وجلَّ لعيسى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:١١٦] قال النحاس[2]: فالمعنى: أنَّ الملائكةَ صلواتُ الله عليهم إذا أَكْذَبَتْهم؛ كان في ذلك تبكيتٌ لهم، فهو استفهامُ توبيخٍ للعابِدِين.

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: تنزيهاً لك ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ أي: أنت ربُّنا الذي نَتولَّاه ونطيعُه ونعبُده ونُخْلِصُ في العبادة له .﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ أي: يُطيعون إبليسَ وأعوانَه. وفي التفاسير[3]: أنَّ حَيًّا يقال لهم: بنو مُلَيح من خُزاعةَ؛ كانوا يعبدون الجنَّ، ويزعمون أنَّ الجنَّ تتراءى لهم، وأنَّهم ملائكةٌ، وأنَّهم بناتُ الله، وهو قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات:١٥٨].

---

(١) قرأ حفص: «يحشرهم» و«يقول» بالياء، والباقون بالنون، وهو ما وقع في النسخ. السبعة ص ٥٣٠، والتيسير ص١٠٧.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٣٥٣ - ٣٥٤، وما قبله منه. وقول قتادة قبله أخرجه الطبري ١٩/ ٢٩٩ - ٣٠٠.

(٣) في (ظ): وفي التفسير.

قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا﴾ أي: شفاعةً ونَجاةً ﴿وَلَا ضَرًّا﴾ أي: عذاباً وهَلاكاً. وقيل: أي: لا تملك الملائكةُ دفعَ ضرٍّ عن عابِدِيهم، فحذف المضاف. ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ يجوزُ أن يقول الله لهم أو الملائكة: ذوقوا.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ يعني القرآن ﴿قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ﴾ يَعنون محمداً ﷺ ﴿يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ أي: أسْلافُكم من الآلهة التي كانوا يعبدونها. ﴿وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ يعنون القرآن، أي: ما هو إلَّا كذبٌ مُخْتلَق. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ فتارةً قالوا: سحرٌ، وتارةً قالوا: إفك. ويحتمل أن يكون منهم مَنْ قال: سحر، ومنهم مَن قال: إفك.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ أي: لم يقرؤوا في كتابٍ أُوتُوه بطلانَ ما جئتَ به، ولا سَمِعوه من رسولٍ بُعث إليهم، كما قال: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ [الزخرف: ٢١]. فليس لتكذيبهم وجهٌ يُتَشَبَّثُ به ولا شبهةٌ يُتَعَلَّقُ بها[1] كما يقول أهلُ الكتاب ـ وإنْ كانوا مُبْطِلينَ ـ : نحن أهلُ كتابٍ وشرائعَ

(١) في (ظ): وجه متشبث به ولا شبهة متعلقٌ بها، وفي الكشاف ٣/ ٢٩٣ (والكلام منه): وجه متشبث ولا شبهة متعلق.

ومُستَنِدون إلى رسلٍ من رسل الله.

ثم توعَّدَهم على تكذيبهم بقوله الحقّ: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أي: كذَّب قبلَهم أقوامٌ كانوا أشدَّ من هؤلاء بطشًا، وأكثرَ أموالاً وأولاداً، وأوسعَ عيشاً، فأهْلَكْتُهم؛ كثمودَ وعادٍ. ﴿وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ أي: ما بلغ أهلُ مكةَ مِعْشارَ ما آتينا تلك الأمم. والمِعْشارُ والعُشْر سواء، لغتان. وقيل: المِعْشارُ عُشْرُ العُشْرِ[1]. الجوهريّ[2]: ومِعْشارُ الشيءِ عُشْرُه، ولا يقولون هذا في شيءٍ سوى العُشْرِ.

وقيل: ما بلغ الذين مِن قَبْلِهم مِعْشارَ شُكْرِ ما أعطيناهم؛ حكاه النقَّاش. وقيل: ما أعطَى الله تعالى مَن قبلهم مِعْشارَ ما أعطاهم من العلم والبيان والحجة والبرهان. قال ابن عباس: فليس أمةٌ أعلمَ من أمته، ولا كتابٌ أبينَ من كتابه[3].

وقيل: المِعْشارُ هو عُشْرُ العشير، والعشيرُ هو عُشْرُ العُشْرِ، فيكون جزءًا من ألفِ جزء. الماورديُّ[4]: وهو الأَظْهَرُ؛ لأنَّ المراد به المبالغةُ في التقليل.

﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: عقابي في الأمم، وفيه محذوفٌ وتقديرُه: فأهلكناهم فكيف كان نكيري.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ﴾ تمَّمَ الحُجَّةَ على المشركين، أي: قُلْ لهم يا محمدُ: ﴿إِنَّمَآ أَعِظُكُم﴾ أي: أذكِّرُكم وأحذِّركم سوءَ عاقبةِ ما أنتم فيه. ﴿بِوَٰحِدَةٍۖ﴾ أي: بكلمةٍ واحدة مشتملةٍ على جميع الكلام، تقتضي نَفْيَ الشِّرْكِ وإثباتَ

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٤٥٥ .

(٢) في الصحاح (عشر).

(٣) النكت والعيون ٤/ ٤٥٥ .

(٤) في النكت والعيون ٤/ ٤٥٥ ، وما قبله منه.

الإله. قال مجاهد: هي لا إله إلا الله[١]، وهذا قولُ ابن عباس والسُّدِّي[٢]. وعن مجاهد أيضاً: بطاعة الله[٣]. وقيل: بالقرآن؛ لأنه يجمع كلَّ المواعظ[٤].

وقيل: تقديرهُ: بخصلةٍ واحدةٍ، ثم بيَّنها بقوله: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ فتكون «أَنْ» في موضعِ خفضٍ على البَدَلِ من «وَاحِدَةٍ»، أو في موضعِ رفعٍ على إضمارِ مبتدأ، أي: هي أنْ تقوموا. ومذهبُ الزجَّاج[٥] أنَّها في موضعِ نصبٍ بمعنى: لأنْ تقوموا.

وهذا القيامُ معناه: القيامُ إلى طلبِ الحقِّ، لا القيامُ الذي هو ضدُّ القعود، وهو كما يقال: قام فلانٌ بأمر كذا. أي: لوجه الله والتقرُّب إليه. وكما قال تعالى: ﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ﴾ [النساء: ١٢٧].

﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ أي: وُحدانًا ومُجتَمِعين؛ قاله السُّدِّيّ. وقيل: منفردًا برأيه ومُشاوِرًا لغيره، وهذا قولٌ مأثور. وقال القُتَبِيُّ: مناظِرًا مع غيره ومفكِّرا في نفسه[٦]، وكلُّه متقارب.

ويحتمل رابعاً: أنَّ المَثْنَى عملُ النهار، والفُرادى عملُ الليل؛ لأنه في النهار مُعَانٌ، وفي الليل وحيد؛ قاله الماوَرْديّ[٧].

---

(١) ذكره النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٢٥٤ ، وأخرجه الفريابي وعبد بن حميد كما في الدر المنثور ٥/ ٢٤٠ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٤٥٥ عن السدي، وأخرجه ابن المنذر عن ابن جريج، كما في الدر المنثور ٥/ ٢٤٠ ، ولم نقف عليه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٠٤ .

(٤) النكت والعيون ٤/ ٤٥٥ .

(٥) في معاني القرآن له ٤/ ٢٥٧ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٥٤ .

(٦) النكت والعيون ٤/ ٤٥٦ ، وقول ابن قتيبة بنحوه في تفسير غريب القرآن ص ٣٥٨ . ووقع في (ظ): ومتفكراً مع نفسه.

(٧) في النكت والعيون ٤/ ٤٥٦ .

وقيل: إنَّما قال: «مَثْنَى وَفُرَادَى» لأنَّ الذهنَ حجةُ اللهِ على العباد، وهو العقلُ، فأَوْفرُهم عقلاً أوفرُهم حظًّا من الله، فإذا كانوا فُرادى كانت فكرةً واحدة، وإذا كانوا مَثْنَى تَقابَلَ الذهنان، فتراءى من العلم لهما ما أُضْعِفَ على الانفراد، والله أعلم.

﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ الوقفُ عند أبي حاتم وابنِ الأنباريِّ على: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾[1].

وقيل: ليس هو بوقفٍ؛ لأنَّ المعنى: ثم تتفكَّروا: هل جرَّبتم على صاحبكم كذباً، أو رأيتم فيه جِنَّةً، أو في أحواله من فسادٍ، أو اخْتَلَفَ إلى أحدٍ ممَّن يدَّعي العلمَ بالسحر، أو تعلَّم الأقاصيصَ وقرأ الكتب، أو عَرَفتُموه بالطمع في أموالكم، أو تَقْدِرون على معارضته في سورةٍ واحدة؟ فإذا عرفتُم بهذا الفِكر صدقَه، فما بالُ هذه المعاندة؟!

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ وفي «صحيح» مسلم عن ابن عباس قال: لمَّا نزلت هذه الآية: «وأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقربِينَ. ورَهْطَكَ مِنهم المُخْلِصين» خرج رسول الله ﷺ حتى صعِد الصَّفا فهتف: «يا صباحاه» فقالوا: مَن هذا الذي يَهْتِفُ؟! قالوا: محمد، فاجتمعوا إليه، فقال: «يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني عبدِ منافٍ، يا بني عبدِ المطَّلبِ» فاجتَمَعوا إليه فقال: «أرأيتُم لو أَخْبَرْتكم أنَّ خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل، أكنتُم مُصَدِّقيَّ؟» قالوا: ما جرَّبنا عليك كذباً. قال: «فإنِّي نذيرٌ لكم بين يَدَيْ عذابٍ شديد». قال: فقال أبو لهب: تَبًّا لك! أمَا جمعتَنا إلَّا لهذا؟ ثم قام، فنزلت هذه السورة: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَقد تَبّ﴾ كذا قرأ الأعمش إلى آخِرِ السورة[2].

---

(١) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٤٧، وذكره عن أبي حاتم ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٥.

(٢) صحيح مسلم (٢٠٨)، وهو عند أحمد (٢٨٠١)، والبخاري (٤٩٧١). قوله: ورهطك منهم المخلصين، قال أبو العباس في المفهم ٧/ ٣٨٤: ظاهر هذا أنه كان قرآناً يُتلى، وأنه نُسخ؛ إذ لم يثبت نَقْلُه في المصحف، ولا تَواتَر.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ أي: جُعْلٍ على تبليغ الرسالة ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ أي: ذلك الجُعْلُ لكم إنْ كنتُ سألتُكموه ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: رقيبٌ وعالمٌ وحاضِرٌ لأعمالي وأعمالكم، لا يَخْفَى عليه شيءٌ، فهو يجازي الجميع.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ أي: يبيِّن الحجةَ ويُظْهِرُها. قال قتادة: بالحقِّ: بالوحي. وعنه: الحقُّ القرآن[١]. وقال ابن عباس: أي: يقذفُ الباطلَ بالحقِّ علامُ الغيوبِ[٢].

وقرأ عيسى بن عمر: «عَلَّامَ الغيوب»[٣] على أنه بدلٌ، أي: قُلْ: إنَّ ربِّي علَّامَ الغيوبِ يقذفُ بالحقِّ. قال الزجاج[٤]: والرفعُ من وجهين: على الموضع؛ لأنَّ الموضعَ موضعُ رفعٍ، أو على البدل ممَّا في «يقذف». قال النحَّاس: وفي الرفع وجهان آخَران: يكون خبراً بعد خبر، ويكون على إضمارِ مبتدأ. وزعم الفرَّاء أن الرفع في مثل هذا أكثرُ في كلام العرب إذا أتى بعد خبر «إنَّ»، ومثلُه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [ص: ٦٤][٥].

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/٣٠٧ بلفظ: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالوحي ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ . قُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ أي: القرآن. وسيرد في الآية التي بعدها.

(٢) ذكره الرازي ٢٥/ ٢٧٠ دون نسبة، وربطه بقوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾ [الأنبياء: ١٨]

(٣) القراءات الشاذة ص ١٢٢ .

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٢٥٧ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٥٤ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٥٤ ، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣٦٤ .

وقرئ: «الغيوبُ» بالحركات الثلاث، فالغُيوب كالبيوت، والغَيوب كالصَّيود[١]، وهو الأمرُ الذي غاب وخَفِيَ جدًّا.

قوله تعالى: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ۝٤٩﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ قال سعيد عن قتادة: يريد القرآن. النحاس[٢]: والتقديرُ: جاء صاحبُ الحقِّ، أي: الكتاب الذي فيه البراهينُ والحُجج. ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ﴾ قال قتادة: الشيطان، أي: ما يخلقُ الشيطانُ أحداً[٣] ﴿وَمَا يُعِيدُ﴾، فـ«ما» نَفْيٌ. ويجوز أن يكون استفهاماً بمعنى: أيّ شيء، أي: جاء الحقُّ؛ فأيُّ شيءٍ بقي للباطل حتى يُعيدَه ويُبْدِئَه، أي: فلم يَبْقَ منه شيءٌ، كقوله: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة:٨] أي: لا ترى.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ۝٥٠﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ وذلك أنَّ الكفار قالوا: تركتَ دينَ آبائِكَ فضَلَلْتَ. فقال له: قل يا محمد: إنْ ضللتُ ـ كما تزعمون ـ فإنَّما أَضِلُّ على نفسي. وقراءةُ العامَّة «ضَلَلْتُ» بفتح اللام. وقرأ يحيى بن وَثَّاب وغيره: «قُلْ إِنْ ضَلِلتُ» بكسر اللام وفتح الضادِ من «أَضَلُّ»[٤]. والضلالُ والضلالةُ ضدُّ الرشاد، وقد

(١) في (ظ): فالغيوب بالرفع والخفض كالبُيوت والبِيوت والعُيون والعِيون وبالنصب كالصيود. اهـ. والصَّيود كقَبول: الصياد. القاموس (صاد). ووقع في (م): كالصبور، وهو موافق لما في مطبوع الكشاف ٣/ ٢٩٥، والكلام منه.

وقرأ بكسر الغين حيث وقع حمزةُ وأبو بكر، والباقون بضمها. السبعة ص١٧٨-١٧٩، والتيسير ص١٠١، والنشر ٢/ ٢٢٦.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٣٥٥، وما قبله منه، وأخرج الخبر عن قتادة الطبري ١٩/ ١٠٧.

(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ١٠٧.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٦.

ضَلَلْتُ ـ بفتح اللام ـ أَضِلُّ بكسر الضاد؛ قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِىۖ﴾ فهذه لغةُ نجدٍ، وهي الفصيحة. وأهلُ العالية يقولون: «ضَلِلتُ» بالكسر «أَضِلُّ»[١]. أي: إثمُ ضلالتي على نفسي. ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓۚ﴾ من الحكمة والبيان ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ أي: سميعٌ ممَّن دعاه قريبُ الإجابة. وقيل: وجهُ النَّظْمِ: قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ ويبيِّنُ الحُجَّةَ، وضلالُ مَن ضلَّ لا يُبْطِلُ الحُجَّة، ولو ضَلَلْتُ لأَضْرَرْتُ بنفسي، لا أنَّه يُبْطِلُ حجةَ الله، وإذا اهتديتُ فذلك فَضْلُ الله؛ إذ ثبَّتني على الحُجَّة، إنَّه سميع قريب.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ﴾ ذكر أحوالَ الكفار في وقت[٢] يُضْطَرُّون فيه إلى معرفة الحقِّ. والمعنى: لو ترى إذ فزعوا في الدنيا عند نزولِ الموت أو غيرِه من بأس الله تعالى بهم؛ روي معناه عن ابن عباس[٣].

الحسن: هو فَزَعُهم في القبور من الصيحة[٤]. وعنه: أنَّ ذلك الفزعَ إنَّما هو إذا خرجوا من قبورهم[٥]. وقاله قتادة[٦].

وقال ابن معقل: إذا عاينوا عقابَ اللهِ يومَ القيامة[٧].

---

(١) بالكسر أيضاً كما في مختار الصحاح (ضلل)، والكلام من الصحاح (ضلل).

(٢) بعدها في النسخ عدا (ظ): ما، والمثبت من (ظ).

(٣) أخرجه الطبري ١٩/٣٠٩.

(٤) النكت والعيون ٤/٤٥٨.

(٥) أخرجه عبد الرزاق ٢/١٣٣، والطبري ١٩/٣١٢. قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/٤٢٦: وهذا أرجح الأقوال عندي.

(٦) كذا ذكر المصنف، والذي أخرجه عبد الرزاق ٢/١٣٣ عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟﴾ أي: في الدنيا حين رأوا بأس الله. وأخرجه عنه الطبري ١٩/٣١٢ - ٣١٣، وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/٢٤٠.

(٧) أخرجه بنحوه الطبري ١٩/٣١٣.

السُّدِّيُّ: هو فَزَعُهم يومَ بدرٍ حين ضُربت أعناقُهم بسيوفِ الملائكة، فلم يستطيعوا فراراً ولا رجوعاً إلى التوبة[١].

سعيد بن جُبير: هو الجيشُ الذي يُخسَفُ بهم في البيداء، فيبقى منهم رجلٌ، فيخبرُ الناس بما لقي أصحابه فيفزعون، فهذا هو فَزَعُهم[٢].

﴿فَلَا فَوْتَ﴾: فلا نجاةَ؛ قاله ابن عباس[٣]. مجاهد: فلا مَهْرَب[٤].

﴿وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي: من القبور. وقيل: من حيث كانوا، فهم من الله قريبٌ لا يَعْزُبون عنه ولا يفوتونه.

وقال ابن عباس: نزلت في ثمانين ألفاً يغزون في آخِرِ الزمان الكعبةَ لِيَخْرِبوها، فَلمّا يدخلون[٥] البيداءَ يُخْسفُ بهم، فهو الأخذُ من مكانٍ قريب.

قلت: وفي هذا المعنى خبرٌ مرفوعٌ عن حذيفةَ ـ وقد ذكرناه في كتاب «التذكِرة»[٦] ـ قال: قال رسول الله ﷺ؛ وذَكَر فتنةً تكون بين أهلِ المشرقِ والمغرب: «فبينما هم كذلك، إذ خرج عليهم السُّفيانيُّ من الوادي اليابس في فَوْرِه ذلك، حتى يَنْزِلَ دمشق، فيبعث جيشين؛ جيشاً إلى المشرق، وجيشاً إلى المدينة، فيسير الجيش نحو المَشْرِقِ حتى ينزلوا بأرض بابل في المدينة الملعونة والبقعةِ الخبيثة ـ يعني مدينةَ بغداد ـ قال: فيقتلون أكثرَ من ثلاثةِ آلافٍ، ويفتضُّون أكثرَ من مئة امرأةٍ، ويقتلون بها ثلاثَ مئةِ كَبْشٍ من وَلَدِ العباس[٧]، ثم يخرجون متوجِّهين إلى الشام، فتخرج رايةُ هدًى من

---

(١) النكت والعيون ٤/٤٥٨ ، وأخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ٢٤٠ .

(٢) النكت والعيون ٤/٤٥٨ ، وأخرجه الطبري ١٩/ ٣١٠ .

(٣) أخرجه الطبري ١٩/٣١٣ .

(٤) النكت والعيون ٤/٤٥٨ .

(٥) في (خ) و(م) وكما يدخلون. وفي (د): فلا يدخلون، والمثبت من (ظ). ووقع في الكشاف ٣/ ٢٩٦ (والخبر فيه بنحوه): فإذا دخلوا البيداء خسف بهم.

(٦) ص٦٠٩ .

(٧) في (ظ): بني إسماعيل، بدل: ولد العباس.

الكوفة، فتلحَقُ ذلك الجيشَ منها على ليلتين، فيقتلونهم لا يُفْلِتُ منهم مُخْبِرٌ وَيَسْتَنقِذون ما في أيديهم من السَّبْي والغنائم، ويَحُلُّ جيشه الثاني بالمدينة، فينتبهونها ثلاثةَ أيامٍ ولياليها، ثم يخرجون متوجِّهين إلى مكةَ، حتى إذا كانوا بالبيداءِ بعث الله جبريل عليه السلام، فيقول: يا جبريلُ، اذهب فأَبِدْهم، فيضربها برجله ضربةً يَخسفُ الله بهم، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾. فلا يبقى منهم إلَّا رجلان؛ أحدُهما بشيرٌ والآخَرُ نذيرٌ، وهما من جُهَيْنة». ولذلك جاء القول: وعند جُهينةَ الخبرُ اليقين[١].

وقيل: «أُخِذُوا مِن مكانٍ قريبٍ» أي: قُبِضَتْ أرواحُهم في أماكنها، فلم يُمْكِنْهم الفرارُ من الموت، وهذا على قولِ مَن يقولُ: هذا الفزعُ عند النَّزْع.

ويحتمل[٢] أن يكون هذا من الفزع الذي هو بمعنى الإجابة؛ يقال: فَزِعَ الرجلُ، أي: أجاب الصَّارِخَ الذي يستغيثُ به إذا نزل به خوفٌ. ومنه الخبرُ إذ قال للأنصار: «إنكم لتَقِلُّون عند الطَّمَعِ، وتَكْثُرون عند الفزع»[٣].

ومَن قال: أراد الخسفَ أو القتلَ في الدنيا كيومِ بدرٍ قال: أُخذوا في الدنيا قبل أن يؤخَذوا في الآخرة. ومَن قال: هو فزعُ يومِ القيامة قال: أُخذوا من بطن الأرض إلى ظَهْرِها. وقيل: «أُخِذُوا مِن مكانٍ قريبٍ»: من جهنَّم فأُلقوا فيها.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن. وقال مجاهدٌ: بالله عزَّ وجلَّ. الحسن: بالبعث. قتادةُ: بالرسول ﷺ[٤]. ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ قال ابن

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٣١٠ - ٣١١ . وذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية أن هذا الحديث موضوع.

(٢) في (ظ): ويجوز.

(٣) سلف ٦/ ٤٠٩ .

(٤) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٥٩ ، وخبر مجاهد أخرجه الطبري ١٩/ ٣١٤ .

عباس والضحاك: التناوشُ: الرَّجعة، أي: يطلبون الرجعةَ إلى الدنيا ليؤمنوا، وهيهات من ذلك[١]! ومنه قول الشاعر:

تـمـنّـى أن تـؤوبَ إلـيَّ مَـيٌّ ... ولـيـس إلـى تَـنـاوُشِـهـا سـبـيـلُ[٢]

وقال السُّدِّي: هي التوبة[٣]، أي: طلبوها وقد بَعُدت؛ لأنه إنَّما تُقْبَلُ التوبةُ في الدنيا. وقيل: التناوشُ: التناول؛ قال ابن السِّكِّيت: يقال للرجل إذا تناول رجلاً ليأخذ برأسه ولحيته: ناشَه يَنُوشُه نَوْشاً، وأنشد:

فـهي تنوشُ الـحوضَ نَـوْشًـا مِن عَـلَا ... نَـوْشًـا بـه تَـقْـطَـعُ أَجْـوازَ الـفَـلا[٤]

أي: تتناول ماءَ الحوض من فوق، وتشرب شربًا كثيرًا، وتقطعُ بذلك الشُّرْبِ فَلَواتٍ، فلا تحتاج إلى ماءٍ آخَرَ. قال[٥]: ومنه المناوشةُ في القتال، وذلك إذا تَدَانَى الفريقان. ورجلٌ نَوُوشٌ، أي: ذو بطش. والتناوشُ: التَّناولُ، والانتياشُ مثلُه. قال الراجز:

كـانـت تَـنـوشُ الـعَـنَـقَ انـتـيـاشـا[٦]

---

(١) أخرجه عنهما بنحوه الطبري ١٩/ ٣١٧ و٣١٩ . وذكره بهذا اللفظ عن ابن عباس الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٥٩ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٤٥٩ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٢٧ . ووقع في (ظ): تؤوب إليه، وفي المحرر الوجيز: تؤوب إليك.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٤٥٩ .

(٤) إصلاح المنطق ص ٤٧٩ ، والصحاح (نوش)، والكلام منه. وهما في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٦٥ ، وتفسير الطبري ١٩/ ٣١٥ - ٣١٦ ، والمنصف لابن جني ١/ ١٢٤ ، والاقتضاب ص ٤٢٧ ، والخزانة ٩/ ٤٣٧ ، وذكر سيبويه في الكتاب ٣/ ٤٥٣ البيت الأول. قال البطليوسي: لا أعلم لمن هذا الرجز. وقال البغدادي: وهذا من أبيات سيبويه الخمسين التي لا يعلم قائلها، وقال ابن بري: هذا الرجز لغيلان ابن حريث الرَّبَعي، ولم أقف على خبر لغيلان. اهـ. والضمير في قوله: فهي، للإبل. اللسان (نوش).

(٥) يعني ابن السكيت، وكلامه في إصلاح المنطق ص ٤٧٩ ، ونقله المصنف عنه بواسطة الجوهري في الصحاح (نوش)، وما قبله منه.

(٦) الصحاح واللسان (نوش)، وهو فيهما برواية: باتت تنوش ....، والعَنَق: ضَرْبٌ من سير الدابة والإبل. الصحاح (عنق).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ يقول: أنَّى لهم تَنَاولُ الإيمانِ في الآخرة وقد كفروا به في الدنيا[١].

وقرأ أبو عمرو والكِسائيُّ والأعمشُ وحمزة: ﴿وأنَّى لهم التناؤش﴾ بالهمز[٢]. النحاس[٣]: وأبو عبيدةَ يستبعدُ هذه القراءة؛ لأنَّ «التناؤش» بالهمز: البُعْدُ، فكيف يكون: وأنَّى لهم البعدُ من مكان بعيد. قال أبو جعفر: والقراءةُ جائزةٌ حسنة، ولها وجهان في كلام العرب، ولا يُتَناوَلُ بها هذا المتناوَلُ[٤] البعيد. فأحدُ الوجهين أن يكون الأصلُ غيرَ مهموز، ثم هُمزت الواو لأنَّ الحركة فيها خَفِيَّة[٥]، وذلك كثيرٌ في كلام العرب. وفي المصحَفِ الذي نقلته الجماعةُ عن الجماعة: ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ [المرسلات: ١١]، والأصلُ: «وُقِّتت»؛ لأنه مشتقٌّ من الوقت. ويقال في جمع دار: أُدْؤُر[٦].

والوجهُ الآخَر ذكره أبو إسحاق؛ قال: يكون مشتقًّا من النئيش، وهو الحركةُ في إبطاء، أي: من أين لهم الحركةُ فيما قد بَعُد[٧]. يقال: نَأَشْتُ الشيء: أخذته من بُعْدٍ، والنئيشُ: الشيءُ البطيء. قال الجوهريُّ[٨]: التناؤشُ - بالهمز - : التأخُّر والتباعُد. وقد نَأَشْتُ الأمر أَنْأَشُه نأشاً: أَخَّرته، فانْتَأَشَ. ويقال: فَعَلَه نئيشًا، أي: أخيراً. قال الشاعر:

---

(١) الصحاح (نوش).

(٢) وقرأ بها أيضاً عاصم في رواية أبي بكر السبعة ص٥٣٠، والتيسير ص١٨١.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٣٥٦.

(٤) في (م): ولا يتأول بها هذا المتأول، وفي (ظ): ولا يتناول بهذا هذا التأويل.

(٥) في (ظ): خفيفة.

(٦) قال الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٢٥٩: وكلُّ واوٍ مضمومةٍ ضمتُها لازمة؛ إن شئت أبدلْتَ منها همزة، وإن شئت لم تُبْدِل.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٥٦، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ٢٥٩.

(٨) في الصحاح (نأش).

تـمـنَّـى نـئـيـشًـا أن يـكـون أطـاعـنـي وقـد حَـدَثَـتْ بـعـدَ الأمـور أمـورُ[(١)]

وقال آخر:

قـعـدتَ زمـانـاً عـن طِـلابِـكَ لـلـعُـلا وجئتَ نئيشًا بعدَ ما فاتَكَ الخبرْ[(٢)]

وقال الفرَّاء: الهمزُ وتَرْكُ الهمزِ في التناوُش مُتقارِبٌ، مثل: ذِمْتُ الرجلَ وذَأَمْته، أي: عبته.

﴿مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾ أي: من الآخرة. وروى أبو إسحاق عن التميميِّ عن ابن عباس: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ﴾ قال: الردّ، سألوه وليس بحينِ ردٍّ[(٣)].

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ۝٥٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ أي: بالله عزَّ وجلَّ. وقيل: بمحمد ﷺ ﴿مِن قَبْلُ﴾ يعني في الدنيا ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ العرب تقولُ لكلِّ مَن تكلَّم بما لا يَحُقُّه[(٤)]: هو يقذفُ ويرجُمُ بالغيب. ﴿مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾ على جهة التمثيل لمن يَرْجُم ولا يُصيب[(٥)]، أي: يرمون بالظنِّ فيقولون: لا بعثَ ولا نشورَ ولا جنةَ ولا نار، رَجْمًا منهم بالظنِّ؛ قاله قتادة[(٦)].

وقيل: «يقذفون» أي: يرمون في القرآن فيقولون: سحرٌ وشعرٌ وأساطيرُ الأولين. وقيل: في محمد، فيقولون: ساحرٌ شاعرٌ كاهنٌ مجنون. ﴿مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾ أي: إنَّ

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٦٥ ، وتفسير الطبري ١٩/ ٣١٥ ، والصحاح (نأش)، ونسبه البصري في الحماسة ٢/ ٣٧ ، والزمخشري في المستقصى ١/ ٣٠٢ ، وصاحب اللسان (نأش) لنَهْشَل بن حَرِّيّ.

(٢) في (خ) و(د): الخير، والمثبت من باقي النسخ، وهو موافق لما في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٦٥ ، وتهذيب اللغة ١١/ ٤١٧ ، واللسان (نوش).

(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٣١٧ ، وسلف بنحوه عن ابن عباس والضحاك.

(٤) في (ظ): يحققه، وحقَّ الأمرَ يَحُقُّه وأَحقَّه: كان منه على يقين. اللسان (حقق).

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٥٦ .

(٦) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٢٠ .

الله بَعَّد لهم أنْ يعلموا صِدْقَ محمد ﷺ. وقيل: أراد البُعْدَ عن القلب، أي: من مكان بعيدٍ عن قلوبهم.

وقرأ مجاهد: «ويُقْذَفون بالغيب» غير مسمَّى الفاعل، أي: يُرمَون به(١). وقيل: يَقْذِفُ به إليهم مَن يُغويهم ويُضِلُّهم.

قوله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ قيل: حِيل بينهم وبين النجاةِ من العذاب. وقيل: حِيل بينهم وبين ما يشتهون في الدنيا من أموالهم وأهليهم. ومذهبُ قتادةَ أنَّ المعنى: أنهم كانوا يشتهون لمَّا رأوا العذاب أنْ يُقبَل منهم أن يُطيعوا الله جلَّ وعزَّ، وينتهوا إلى ما يأمرهم به الله، فحِيلَ بينهم وبين ذلك؛ لأنَّ ذلك إنَّما كان في الدنيا وقد زالت في ذلك الوقت. والأصلُ: «حُوِل»، فقُلبت حركةُ الواو على الحاء فانقلبت ياءً، ثم حُذفت حركتُها لثقلها(٢).

﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم﴾ الأشياعُ جمع شِيَع، وشِيَع جمعُ شِيعَة. ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: بمَن مضى من القرون السالفة الكافرة. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ﴾ من أمر الرسل والبعث والجنة والنار. وقيل: في الدين والتوحيد، والمعنى الواحد.

﴿مُرِيبٍ﴾ أي: يُستَرابُ به، يقال: أرابَ الرجلُ، أي: صار ذا ريبة، فهو مُريب. ومَن قال: هو من الرَّيْب ـ الذي هو الشَّكُّ والتهمة ـ قال: يقال: شكٌّ مريب، كما يقال: عَجَبٌ عجيب، وشِعْرٌ شاعر، في التأكيد.

خُتمت السورة، والحمد لله ربِّ العالمين.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٢٢، والمحتسب ٢/ ١٩٧. قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٧: معناه: ويرجمهم الوحي بما يكرهون من السماء.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٥٧، وقول قتادة أخرجه بنحوه الطبري ١٩/ ٣٢٢.

تفسير سُورة سَبأ

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢) ﴾ .

يخبر تعالى عن نفسه الكريمة : أن له الحمدَ المطلق فى الدنيا والآخرة ؛ لأنه المنعم المتفضل على أهل الدنيا والآخرة ، المالك لجميع ذلك ، الحاكم فى جميع ذلك ، كما قال : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَىٰ وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص : ٧٠] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ أى : الجميع ملكه وعبيده وتحت قهره وتصرفه ، كما قال : ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى ﴾ [الليل : ١٣] .

ثم قال : ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ ﴾ ، فهو المعبود [١] أبدا ، المحمود على طول المدى . وقال : ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ ﴾ أى : فى أقواله وأفعاله وشرعه وقَدَره ، ﴿ الْخَبِيرُ ﴾ الذى لا تخفى عليه خافية ، ولا يغيب عنه شىء .

وقال مالك عن الزهرى : خبير بخلقه ، حكيم بأمره ؛ ولهذا قال : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ أى : يعلم عدد القطر النازل فى أجزاء الأرض ، والحب المبذور والكامن فيها ، ويعلم ما يخرج من ذلك : عدده وكيفيته وصفاته ، ﴿ وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى : من قطر ورزق ، ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ أى : من الأعمال الصالحة وغير ذلك ، ﴿ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾ أى : الرحيم بعباده فلا يعاجل عُصاتهم بالعقوبة ، الغفور [٢] عن ذنوب [عباده] [٣] التائبين إليه المتوكلين عليه .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٣) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ (٥) وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦) ﴾ .

(١) فى أ : « المحمود » . (٢) فى ت : « العفو » . (٣) زيادة من أ .

هذه إحدى الآيات الثلاث التى لا رابع لهن ، مما أمر الله رسوله ﷺ أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد لَمَّا أنكره من أنكره من أهل الكفر والعناد ، فإحداهن فى سورة يونس : ﴿ **وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ** ﴾ [يونس : ٥٣] ، والثانية هذه : ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ** ﴾ ، والثالثة فى التغابن: ﴿ **زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** ﴾ [التغابن : ٧] ، فقوله : ﴿ **قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُم**[١] ﴾ ، ثم وصفه بما يؤكد ذلك ويقرره : ﴿ **عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** ﴾ .

قال مجاهد وقتادة : ﴿ **لا يَعْزُبُ عَنْهُ** ﴾ : لا يغيب عنه ، أى : الجميع مندرج تحت علمه فلا يخفى عليه منه شىء ، فالعظام وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت ، فهو عالم أين ذهبت وأين[٢] تفرقت، ثم يعيدها كما بدأها أول مرة ، فإنه بكل شىء عليم .

ثم بين حكمته في إعادة الأبدان وقيام الساعة بقوله : ﴿ **لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ . وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ** ﴾ أى : سعوا فى الصد عن سبيل الله وتكذيب رسله ، ﴿ **أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ** ﴾ أى : لينعم السعداء من المؤمنين ، ويعذب الأشقياء من الكافرين ، كما قال : ﴿ **لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ** ﴾ [الحشر : ٢٠] ، وقال تعالى : ﴿ **أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ** ﴾ [ص : ٢٨] .

وقوله : ﴿ **وَيَرَى**[٣] **الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَ** ﴾ : هذه حكمة أخرى معطوفة على التى قبلها ، وهى أن المؤمنين بما أنزل على الرسل إذا شاهدوا قيام الساعة ومجازاة الأبرار والفجار بالذى كانوا قد علموه من كتب الله فى الدنيا رأوه حينئذ عين اليقين ، ويقولون يومئذ أيضًا : ﴿ **لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِ** ﴾ [الأعراف : ٤٣] ، ويقال أيضا : ﴿ **هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ** ﴾ [يس : ٥٢] ، ﴿ **لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ** ﴾ [الروم : ٥٦]، ﴿ **وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** ﴾ . العزيز هو : المنيع الجناب[٤] ، الذى لا يُغالب ولا يُمانع ، بل قد قهر كل شىء ، الحميد فى جميع أقواله وأفعاله وشرعه ، وقدره ، وهو المحمود فى ذلك كله .

﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧) أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ (٨) أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٩)** ﴾ .

---

(١) فى ت : « ليأتينكم » .
(٢) فى أ : « وإن » .
(٣) فى س : « وترى » .
(٤) فى أ : « الجبار » .

هذا إخبار من الله عن استبعاد الكفرة الملحدين قيامَ الساعة واستهزائهم بالرسول ﷺ فى إخباره بذلك : ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ** ﴾ أى : تفرقت[١] أجسادكم فى الأرض وذهبت فيها كل مذهب وتمزقت كل ممزق : ﴿ **إِنَّكُمْ** ﴾ أى : بعد هذا الحال ﴿**لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ**﴾ أى : تعودون أحياء ترزقون بعد ذلك ، وهو فى هذا الإخبار لا يخلو أمره من قسمين : إما أن يكون قد تعمد الافتراء على الله أنه قد أوحى إليه ذلك ، أو أنه لم يتعمد لكن لُبّس عليه كما يُلَبَّس على المعتوه والمجنون ؛ ولهذا قالوا : ﴿ **أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ** ﴾ ؟ قال الله تعالى رادًا عليهم: ﴿**بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ** ﴾ أى : ليس الأمر كما زعموا ولا كما ذهبوا إليه، بل محمد ﷺ هو الصادق البار الراشد الذى جاء بالحق ، وهم الكذبة الجهلة الأغبياء، ﴿ **فِي الْعَذَابِ** ﴾ أى : [فى] [٢] الكفر المفضى بهم إلى عذاب الله ، ﴿ **وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ** ﴾ من [٣] الحق فى الدنيا .

ثم قال منبهًا لهم على قدرته فى خلق السموات والأرض ، فقال : ﴿ **أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ** ﴾ أى : حيثما [٤] توجهوا وذهبوا فالسماء مُظلّة مُظَلَّلة عليهم ، والأرض تحتهم ، كما قال : ﴿ **وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ . وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ** ﴾ [الذاريات: ٤٧ ، ٤٨] .

قال [٥] عبد بن حميد : أخبرنا عبد الرزاق ، عن مَعْمَر ، عن قتادة : ﴿ **أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ** ﴾ ؟قال : إنك إن نظرت عن يمينك أو عن شمالك ، أو من بين يديك أو من خلفك ، رأيت السماء والأرض .

وقوله : ﴿ **إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ** ﴾ أى : لو شئنا لفعلنا بهم ذلك لظلمهم وقدرتنا عليهم ، ولكن نؤخر ذلك لحلمنا وعفونا .

ثم قال : ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ** ﴾ : قال مَعْمَر ، عن قتادة : ﴿ **مُّنِيبٍ** ﴾ : تائب .

وقال سفيان [٦] عن قتادة : المنيب : المقبل إلى [٧] الله عز وجل .

أى : إن فى النظر إلى خلق السماء والأرض لدلالة لكل عبد فَطِن لبيب رَجَّاع إلى الله ، على قدرة الله على بعث الأجساد ووقوع المعاد ؛ لأن من قدر على خلق هذه السموات فى ارتفاعها [٨] واتساعها ، وهذه الأرضين فى انخفاضها وأطوالها وأعراضها ، إنه لقادر على إعادة الأجسام ونشر الرميم من العظام ، كما قال تعالى : ﴿ **أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم** [٩] **بَلَىٰ** ﴾ [يس : ٨١] ، وقال : ﴿ **لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [غافر : ٥٧] .

---

(١) فى ت : « فرقت » . (٢) زيادة من ت ، أ . (٣) فى أ : « عن » .
(٤) فى ت ، س : « حيث » . (٥) فى ت : « روى » . (٦) فى أ : « شيبان » .
(٧) فى ت ، أ : « على » . (٨) فى ت ، س : « وارتفاعها » .
(٩) فى ت ، س ، أ : « على أن يحيى الموتى » ، والصواب ما أثبتناه .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ⑩ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ⑪ ﴾ .

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله داود ، صلوات الله وسلامه عليه ، ، مما آتاه من الفضل المبين ، وجمع له بين النبوة والملك المتمكن ، والجنود ذوى العَدَد والعُدَد ، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم ، الذى كان إذا سبح به تسبح معه الجبال الراسيات ، الصم الشامخات ، وتقف له الطيور السارحات ، والغاديات والرائحات ، وتجاوبه بأنواع اللغات . وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ سمع صوت أبى موسى الأشعرى يقرأ من الليل ، فوقف فاستمع لقراءته (١) ، ثم قال « لقد أوتى هذا مِزْمَارًا من مزامير آل داود » .

وقال أبو عثمان النهدى : ما سمعت صوت صَنج ولا بَرْبَط ولا وَتَر أحسن من صوت أبى موسى الأشعرى ، رضى الله عنه (٢) .

ومعنى قوله : ﴿ **أَوِّبِي** ﴾ أى : سبحى . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وغير واحد .

وزعم أبو (٣) ميسرة أنه بمعنى سَبِّحى بلسان الحبشة . وفى هذا نظر ، فإن التأويب فى اللغة هو الترجيع ، فأمرت الجبال والطير أن ترجع معه بأصواتها .

وقال أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجى فى كتابه « الجُمل » فى باب النداء منه : ﴿ **يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ** ﴾ أى : سيرى معه بالنهار كله ، والتأويب : سير النهار كله ، والإسآد (٤) : سير الليل كله . وهذا لفظه ، وهو غريب جداً لم أجده (٥) لغيره ، وإن كان له مساعدة من حيث اللفظ فى اللغة ، لكنه بعيد فى معنى الآية هاهنا . والصواب أن المعنى فى قوله تعالى : ﴿ **أَوِّبِي مَعَهُ** ﴾ أى : رَجِّعى مُسَبِّحة معه ، كما تقدم ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ **وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ** ﴾ : قال الحسن البصرى ، وقتادة ، والأعمش وغيرهم : كان لا يحتاج أن يُدخلَه نارًا ولا يضربه بمطرقة ، بل كان يفتله بيده مثل الخيوط ؛ ولهذا قال : ﴿ **أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ** ﴾ وهى : الدروع . قال قتادة : وهو أول من عملها من الخلق ، وإنما كانت قبل ذلك صفائح .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا ابن سَمَاعة ، حدثنا ابن ضَمْرَة (٦) ، عن ابن شَوْذَب قال : كان داود ، عليه السلام ، يرفع فى كل يوم درعًا فيبيعها بستة آلاف درهم : ألفين له ولأهله ، وأربعة آلاف درهم يطعم بها بنى إسرائيل خبز الحُوّارى .

---

(١) فى ت : « فاستمع رسول الله لقراءته » .

(٢) سبق تخريج الحديث والأثر فى فضائل القرآن .

(٣) فى أ : « ابن » . (٤) فى أ : « والآباد » . (٥) فى أ : « لم أر » ، وفى ت : « لم أره » .

(٦) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بإسناده » .

﴿ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ : هذا إرشاد من الله لنبيه داود ، عليه السلام ، فى تعليمه صنعة الدروع.

قال مجاهد فى قوله : ﴿ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ : لا تُدِقّ المسمار فَيقلَق فى الحلقة ، ولا تُغَلِّظه فيفصمها ، واجعله بقدر .

وقال الحكم بن عُتَيبة [١] : لا تُغَلِّظه فيفصم ، ولا تُدِقّه فيقلَق [٢] . وهكذا روى عن قتادة ، وغير واحد .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : السرد : حَلَق [٣] الحديد . وقال بعضهم : يقال : درع مسرودة : إذا كانت مسمورة الحلق ، واستشهد بقول الشاعر [٤] :

وَعَلَيهما مَسْرُودَتَان قَضَاهُما « دَاوُد » ، أو صنعَ السَّوابغ « تُبَّعُ »

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر فى ترجمة داود ، عليه السلام ، [٥] من طريق إسحاق بن بشر ـ وفيه كلام ـ عن أبى إلياس ، عن وهب بن مُنَبه ما مضمونه : أن داود ، عليه السلام ، كان يخرج متنكرًا، فيسأل الركبان عنه وعن سيرته ، فلا يسأل أحدًا إلا أثنى عليه خيرًا فى عبادته وسيرته ومعدلته ، صلوات الله وسلامه عليه . قال وهب : حتى بعث الله ملكا فى صورة رجل ، فلقيه داود فسأله كما كان يسأل غيره ، فقال : هو خير الناس لنفسه ولأمته ، إلا أن فيه خصلة لو لم تكن فيه كان كاملا قال : ما هى ؟ قال : يأكل ويطعم عياله من مال المسلمين ، يعنى : بيت المال ، فعند ذلك نصب داود، عليه السلام ، إلى ربه فى الدعاء أن يعلمه عملا بيده يستغنى به ويغنى به عياله ، فألان له الحديد ، وعلمه صنعة الدروع ، فعمل الدرع [٦] ، وهو أول من عملها ، فقال الله : ﴿ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ يعنى : مسامير الحلق ، قال : وكان يعمل الدرع [٧] ، فإذا ارتفع من عمله درع باعها ، فتصدق بثلثها ، واشترى بثلثها ما يكفيه وعياله ، وأمسك الثلث يتصدق به يوما بيوم إلى أن يعمل غيرها . وقال : إن الله أعطى داود شيئًا لم يعطه غيره من حسن الصوت ، إنه كان إذا قرأ الزبور تسمع الوحش [٨] حتى يؤخذ بأعناقها وما تنفر ، وما صنعت الشياطين المزامير والبرابط والصنوج إلا على أصناف صوته . وكان شديد الاجتهاد ، وكان إذا افتتح الزبور بالقراءة كأنما ينفخ فى المزامير ، وكأن [٩] قد أعطى سبعين مزمارًا فى حلقه .

وقوله : ﴿ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ أى : فى الذى أعطاكم الله من النعم ، ﴿ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أى: مراقب لكم ، بصير بأعمالكم وأقوالكم ، لا يخفى على من ذلك شىء .

﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ

---

(١) فى س ، أ : « عيينة » . (٢) فى ت ، أ : « فيفلق » . (٣) فى ت ، س : « هو » .
(٤) هو أبو ذؤيب الهذلى ، والبيت فى اللسان مادة (قضى) .
(٥) تاريخ دمشق (٥ / ٧٠٨ المخطوط) .
(٦ ، ٧) فى ت ، أ : « الدروع » . (٨) فى ت ، س ، أ : « تجتمع الوحوش إليه » . (٩) فى ت ، س : « وكان » .

مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣) ﴾ .

لما ذكر تعالى ما أنعم به على داود ، عطف بذكر ما أعطى سليمان [١] ، من تسخير الريح له تحمل بساطه ، غدوها شهر ورواحها شهر .

قال الحسن البصرى : كان يغدو على بساطه من دمشق فينزل بإصطخر يتغدّى [٢] بها ، ويذهب رائحا من إصطخر فيبيت بكابل ، وبين دمشق وإصطخر شهر كامل للمسرع ، وبين إصطخر وكابل شهر كامل للمسرع .

وقوله : ﴿ **وَأَسَلْنَا** [٣] **لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ** ﴾ : قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وعطاء الخراسانى ، وقتادة ، والسدى ، ومالك عن زيد بن أسلم ، و [٤] عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغير واحد : القطر : النحاس . قال قتادة : وكانت باليمن ، فكل ما يصنع الناس مما أخرج الله تعالى لسليمان ، عليه السلام .

قال السدى : وإنما أسيلت له ثلاثة أيام .

وقوله : ﴿ **وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ** ﴾ أى : وسخرنا له الجن يعملون بين يديه بإذن الله ، أى : بقدره [٥] ، وتسخيره لهم بمشيئته ما يشاء من البنايات وغير ذلك . ﴿ **وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا** ﴾ أى : ومن يعدل ويخرج منهم عن الطاعة ﴿ **نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ** ﴾ وهو الحريق .

وقد ذكر ابن أبى حاتم هاهنا حديثا غريبا فقال : حدثنا أبى ، حدثنا أبو صالح ، حدثنا معاوية بن صالح ، عن أبى الزاهرية ، عن جبير بن نُفَير [٦] ، عن أبى ثعلبة الخُشَنىّ ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « الجن على ثلاثة أصناف : صنف له أجنحة يطيرون فى الهواء ، وصنف حيات وكلاب ، وصنف يحلون ويظعنون » . رفعه غريب جدًا [٧] .

وقال [٨] أيضا : حدثنا أبى ، حدثنا حَرْمَلَة ، حدثنا ابن وهب ، أخبرنى بكر [٩] بن مُضَر ، عن محمد ، عن ابن أنعم أنه قال : الجن ثلاثة : صنف لهم الثواب وعليهم العقاب ، وصنف طيارون فيما بين السماء والأرض ، وصنف حيات وكلاب .

قال بكر بن مضر : ولا أعلم إلا أنه قال : حدثنى أن الإنس ثلاثة [١٠] : صنف يظلهم الله بظل عرشه يوم القيامة . وصنف كالأنعام بل هم أضل سبيلا . وصنف فى صُوَر الناس على قلوب الشياطين.

---

(١) فى ت ، أ : « ما أعطى ابنه سليمان بن داود » وفى س : « ما أعطى ابنه سليمان » . (٢) فى ت : « فيتغذى » .
(٣) فى ت : « واسالنا » . (٤) فى ت : « بن » .
(٥) فى ت ، أ : « أى الإذن القدرى » وفى س : « أى القدرى » . (٦) فى ت : « وقد روى ابن أبى حاتم هاهنا حديثًا غريبًا بإسناده » .
(٧) ورواه الحاكم فى المستدرك (٢ / ٤٥٦) وصححه ، ووافقه الذهبى ، والطبرانى فى الكبير (٢٢ / ٢١٤) من طريق عبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح به ، ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (٢٠٠٧) من طريق ابن وهب عن معاوية بن صالح ، به .
(٨) فى ت : « وروى » . (٩) فى أ : « بكير » . (١٠) فى أ : « ثلاثة أصناف » .

وقال أيضا [١] : حدثنا أبى : حدثنا على بن هاشم بن مرزوق حدثنا سلمة ـ يعنى: ابن الفضل ـ عن إسماعيل ، عن الحسن [٢] قال : الجن ولد إبليس ، والإنس ولد آدم ، ومن هؤلاء مؤمنون ومن هؤلاء مؤمنون ، وهم شركاؤهم فى الثواب والعقاب ، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمنا فهو ولى الله ، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء كافرا فهو شيطان .

وقوله : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ ﴾ : أما المحاريب فهى البناء الحسن ، وهو أشرف شىء فى المسكن وصدره .

وقال مجاهد : المحاريب بنيان دون القصور . وقال الضحاك : هى المساجد . وقال قتادة : هى المساجد والقصور ، وقال ابن زيد : هى المساكن . وأما التماثيل فقال عطية العوفى ، والضحاك والسدى : التماثيل : الصور . قال مجاهد :وكانت من نحاس . وقال قتادة : من طين وزجاج .

وقوله : ﴿ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ﴾ : الجواب : جمع جابية ، وهى الحوض الذى يجبى فيه الماء ، كما قال الأعشى ميمون بن قيس :

تَـرُوحُ عَلَى آل المُحَـلَّق جَفْـنَـةٌ   كَجَابِيَة الشَّيخ العرَاقى تَفْهَق [٣] [٤]

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ كَالْجَوَابِ ﴾ أى : كالجَوبة من الأرض .

وقال العوفى ، عنه : كالحياض . وكذا قال مجاهد ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك وغيرهم .

والقدور الراسيات : أى الثابتات ، فى أماكنها [٥] لا تتحول ولا تتحرك عن أماكنها لعظمها . كذا قال مجاهد ، والضحاك ، وغيرهما .

وقال عكرمة : أثافيها منها .

وقوله : ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ﴾ أى : وقلنا لهم اعملوا شكرًا على ما أنعم به عليكم فى الدنيا والدين .

وشكرًا : مصدر من غير الفعل ، أو أنه مفعول له ، وعلى التقديرين فيه دلالة على أن الشكر يكون بالفعل كما يكون بالقول وبالنية ، كما قال :

أَفَادَتْكُمُ النّعْمَاء منِّى [٦] ثَلاثةً :   يدِى ، ولِسَانى ، وَالضَّمير المُحَجَّبَا

قال أبو عبد الرحمن الحُبلى [٧] : الصلاة شكر ، والصيام شكر ، وكل خير تعمله لله شكر . وأفضل الشكر الحمد . رواه ابن جرير .

وروى هو وابن أبى حاتم ، عن محمد بن كعب القُرَظى قال : الشكر تقوى الله والعمل الصالح.

---

(١) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم أيضا » .   (٢) فى ت : « الحسين » .   (٣) فى ت : « بقهق »
(٤) البيت فى تفسير الطبرى (٢٢ / ٤٩) .
(٥) فى ت ، س ، أ : « أماكنهم » .   (٦) فى ت : « عندى » .
(٧) فى هـ، ت ، س ، أ : « السلمى » والتصويب من الطبرى ٢٢ / ٥٠ ، مستفادا من طبعة الشعب .

وهذا يقال لمن هو متلبس بالفعل ، وقد كان آل داود ، عليه السلام ، كذلك قائمين بشكر اللّه قولا وعملا .

قال [١] ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبد اللّه بن أبى بكر ، حدثنا جعفر ـــ يعنى : ابن سليمان ـــ عن ثابت البُنانى قال : كان داود ، عليه السلام ، قد جزأ على أهله وولده ونسائه الصلاة، فكان لا تأتى عليهم [٢] ساعة من الليل والنهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلى ، فغمرتهم هذه الآية: ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ .

وفى الصحيحين عن رسول اللّه ﷺ أنه قال : « إن أحب الصلاة إلى اللّه صلاةُ داودَ ، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ، وأحب الصيام إلى اللّه صيام داود ، كان يصوم يوما ويفطر يوما. ولا يَفر إذا لاقى » [٣] .

وقد روى أبو عبد اللّه بن ماجه من حديث سُنَيْد بن داود ، حدثنا يوسف بن محمد بن المُنْكَدِر ، عن أبيه ، عن جابر قال : قال رسول اللّه ﷺ : « قالت أمّ سليمان بن داود لسليمان : يا بنى ، لا تكثر النوم بالليل ، فإن كثرة النوم بالليل تترك الرجل فقيرًا يوم القيامة » [٤] .

وروى ابن أبى حاتم عن داود ، عليه السلام ، هاهنا أثرا غريبا مطولا جدا ، وقال أيضًا :

حدثنا أبى ، حدثنا عمران بن موسى ، حدثنا أبو يزيد [٥] فيض بن إسحاق الرقى [٦] قال : قال فضيل فى قوله تعالى : ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ﴾ . فقال داود : يا رب ، كيف أشكرك ، والشكر نعمة منك ؟ قال : « الآن شكرتنى حين علمت [٧] أن النعمة [٨] منى » .

وقوله : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ : إخبار عن الواقع .

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤) ﴾ .

يذكر تعالى كيفية موت سليمان ، عليه السلام ، وكيف عَمَّى اللّه موته على الجانّ المسخرين له فى الأعمال الشاقة ، فإنه مكث متوكئًا على عصاه ـ وهى منْسَأته ـ كما قال ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة وغير واحد ـ مدة طويلة نحوا من سنَة ، فلما أكلتها [٩] دابةُ الأرض ، وهى الأرضة، ضعفت [١٠] وسقط [١١] إلى الأرض ، وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة ـ تبينت الجن والإنس أيضًا أن الجن لا يعلمون الغيب ، كما كانوا يتوهمون ويوهمون الناس ذلك .

---

(١) فى ت : « روى » . (٢) فى ت : « لا يأتى عليهن » ، وفى أ : « لا يأتى عليهم » .
(٣) صحيح البخارى برقم (١١٣١) وصحيح مسلم برقم (١١٥٩) .
(٤) سنن ابن ماجه برقم (١٣٣٢) وقال البوصيرى فى الزوائد (١ / ٤٣٣) : « هذا إسناد ضعيف » .
(٥) فى هـ : « زيد » والمثبت من ت ، س ، أ ، والجرح والتعديل ٣ / ٢ / ٨٨ مستفادًا من طبعة الشعب .
(٦) فى أ : « المرى » . (٧) فى ت ، س : « قلت » .
(٨) فى أ : « النعم » . (٩) فى ت : « فلما أكلت العصا » .
(١٠) فى ت ، س ، أ : « فضعفت » . (١١) فى أ : « وسقطت » .

وقد ورد فى ذلك حديث مرفوع غريب ، وفى صحته نظر ، قال ابن جرير :

حدثنا أحمد بن منصور ، حدثنا موسى بن مسعود أبو حذيفة ، حدثنا إبراهيم بن طَهْمَان ، عن عطاء ، عن السائب ، عن سعيد بن جبير (١) عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « كان سليمان نبى الله ، عليه السلام ، إذا صلى رأى شجرة نابتة بين يديه فيقول لها : ما اسمك ؟ فتقول : كذا . فيقول : لأى شيء أنت ؟ فإن كانت لغرس غُرِسَتْ ، وإن كانت لدواء كُتِبَتْ . فبينما هو يصلى ذات يوم إذ رأى شجرة بين يديه ، فقال لها : ما اسمك ؟ قالت : الخروب . قال : لأى شيء أنت ؟ قالت : لخراب هذا البيت . فقال سليمان : اللهم ، عَمِّ على الجن موتتى (٢) حتى يعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب . فنحتها عصًا ، فتوكأ عليها حولا ميتا ، والجن تعمل . فأكلتها الأرضة ، فتبينت الإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا [حولا] (٣) فى العذاب المهين » .

قال : وكان ابن عباس يقرؤها كذلك قال : « فشكرت الجن الأرضة (٤) ، فكانت تأتيها بالماء»(٥).

وهكذا رواه ابن أبى حاتم ، من حديث إبراهيم بن طَهْمان ، به . وفى رفعه غرابة ونكارة ، والأقرب أن يكون موقوفًا ، وعطاء بن أبى مسلم الخراسانى له غرابات ، وفى بعض حديثه نكارة .

وقال السُّدِّى ، فى حديث ذكره عن أبى مالك وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ــ وعن مُرة الهمدانى ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ ، قال : كان سليمان يتحرر فى بيت المقدس السنة والسنتين والشهر والشهرين ، وأقل من ذلك وأكثر ، يدخل طعامه وشرابه ، فأدخله فى المرة التى توفى فيها ، وكان بدء ذلك أنه لم يكن يوم يصبح فيه إلا نبتت فى بيت المقدس شجرة ، فيأتيها فيسألها ، فيقول : ما اسمك ؟ فتقول : اسمى كذا وكذا . فإن كانت لغرس غرسها ، وإن كانت نبْتَ دواء قالت : نَبَتٌّ دواء لكذا وكذا . فيجعلها (٦) كذلك ، حتى نبتت شجرة يقال لها : الخرّوبة ، فسألها : ما اسمك ؟ فقالت : أنا الخروبة . قال : ولأى شيء نَبَتٌّ ؟ قالت : نبت لخراب هذا المسجد . قال سليمان : ما كان الله ليُخَرِّبه وأنا حى ؟ أنت التى على وجهك هلاكى وخراب بيت المقدس . فنزعها وغرسها فى حائط له ، ثم دخل المحراب فقام يصلى متكئا على عصاه ، فمات ولا تعلم (٧) به الشياطين ، وهم فى ذلك يعملون له ، يخافون أن يخرج فيعاقبهم. وكانت الشياطين تجتمع حول المحراب ، وكان المحراب له كُوى بين يديه وخلفه ، فكان الشيطان الذى يريد أن يخلع يقول : ألست جلدا (٨) إن دخلت فخرجت من ذلك الجانب ؟ فيدخل حتى يخرج من الجانب الآخر، فدخل شيطان من أولئك فمر ، ولم يكن شيطان ينظر إلى سليمان فى المحراب إلا احترق . فمر ولم يسمع صوت سليمان ، ثم رجع فلم يسمع ، ثم رجع فوقع فى البيت ولم يحترق . ونظر إلى سليمان، عليه السلام ، قد سقط ميتا . فخرج فأخبر الناس أن سليمان قد مات . ففتحوا (٩) عنه

---

(١) فى ت : « رواه ابن جرير بإسناده » .
(٢) فى ت : « موتى » .
(٣) زيادة من ت ، س ، أ ، والطبرى .
(٤) فى ت ، س ، أ : « للأرضة » .
(٥) تفسير الطبرى (٢٢ / ٥١) .
(٦) فى ت ، س : « فيجعل الشجرة » .
(٧) فى أ : « ولم يعلم » .
(٨) فى ت : « جليدا » .
(٩) فى هـ ، س : « فتنحوا » .

فأخرجوه . ووَجدوا منسأته ـ وهى : العصا بلسان الحبشة ـ قد أكلتها الأرضة ، ولم يعلموا منذ كم مات ؟ فوضعوا الأرضة على العصا ، فأكلت منها يوما وليلة ، ثم حسبوا على ذلك النحو ، فوجدوه قد مات منذ سنة . وهى فى قراءة ابن مسعود : فمكثوا يدأبون له من بعد موته حولا [١] ، فأيقن الناس عند ذلك أن الجن كانوا يكذبونهم ولو أنهم علموا الغيب ، لعلموا بموت سليمان ولم يلبثوا فى العذاب يعملون له سنة ، وذلك قول اللّه [٢] عز وجل : ﴿ **مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلا دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ** ﴾ . يقول : تبين أمرهم للناس أنهم كانوا يكذبونهم ، ثم إن الشياطين قالوا للأرضة : لو كنت تأكلين الطعام أتيناك بأطيب الطعام ، ولو كنت تشربين الشراب سقيناك أطيب الشراب ، ولكنا سننقل إليك الماء والطين ـ قال : فهم ينقلون إليها ذلك حيث كانت ـ قال : ألم تر إلى الطين الذى يكون فى جوف الخشب ؟ فهو ما تأتيها به الشياطين ، شكراً [٣] لها [٤] .

وهذا الأثر ـ واللّه أعلم ـ إنما هو مما تلقى من علماء أهل الكتاب ، وهى وَقْفٌ ، لا يصدق منها[٥] إلا ما وافق الحق ، ولا يُكذب منها إلا ما خالف الحق ، والباقى لا يصدق ولا يكذب [٦] .

وقال ابن وهب وأصبغ بن الفرج ، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله : ﴿ **مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلا دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ** ﴾ قال : قال سليمان ، عليه السلام ، لملك الموت : إذا أُمرتَ بى فأعلمنى . فأتاه فقال : يا سليمان ، قد أمرت بك ، قد بقيت لك سويعة . فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحا من قوارير ، وليس له باب ، فقام يصلي فاتكأ على عصاه ، قال : فدخل عليه ملك الموت ، فقبض روحه وهو متوكئ على عصاه ، ولم يصنع ذلك فراراً من ملك الموت . قال : والجن يعملون[٧] بين يديه وينظرون إليه ، يحسبون أنه حى . قال : فبعث اللّه ، عز وجل ، دابة الأرض . قال : والدابة تأكل العيدان ـ يقال لها : القادح ـ فدخلت فيها فأكلتْها ، حتى إذا أكلت جوف العصا ضعفت ، وثقل عليها فخر ميتًا ، فلما رأت ذلك الجن انفضوا وذهبوا . قال : فذلك قوله : ﴿ **مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلا دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ** ﴾ . قال أصبغ : بلغنى عن غيره أنها قامت [٨] سنة تأكل منها قبل أن يخر [٩] . وقد ذكر غير واحد من السلف نحواً من هذا ، واللّه أعلم .

﴿ **لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ (١٧)** ﴾ .

---

(١) فى ت ، س ، أ : « حولا كاملا » . (٢) فى ت : « قوله » . (٣) فى ت ، س ، أ : « تشكرا » .
(٤) تفسير الطبرى (٢٢ / ٥١) .
(٥) فى س ، أ : « لا نصدق منه » . (٦) فى ت ، أ : « لا تصدق ولا تكذب » .
(٧) فى ت ، س ، أ : « تعمل » . (٨) فى ت : « أقامت » . (٩) فى أ : « تخر » .

كانت سبأ ملوكَ اليمن وأهلها ، وكانت التبابعة منهم ، وبلقيس ـ صاحبة سليمان ـ منهم [١] ، وكانوا فى نعمة وغبطة فى بلادهم ، وعيشهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم . وبعث اللّه إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ، ويشكروه [٢] بتوحيده وعبادته ، فكانوا كذلك ما شاء اللّه ثم أعرضوا عما أمروا به ، فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق فى البلاد أيدى سبأ ، شذر مَذرَ ، كما يأتى تفصيله وبيانه قريبًا إن شاء اللّه تعالى وبه الثقة .

قال الإمام أحمد ، رحمه اللّه : حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا ابن لَهيعة ، عن عبد اللّه بن هُبَيْرة ، عن عبد الرحمن بن وَعْلة قال : سمعت ابن عباس يقول [٣] : إن رجلا سأل رسول اللّه ﷺ عن سبأ : ما هو ؟ رجل [٤] أم امرأة أم أرض ؟ قال : « بل هو رجل ، ولد عَشَرة [٥] ، فسكن اليمن منهم ستة ، وبالشام منهم أربعة ، فأما اليمانيون : فَمَذْحِجُ ، وكِندَةُ ، والأزد ، والأشعريون ، وأنمار ، وحمير . وأما الشامية فلخم ، وجذام ، وعاملة ، وغَسان .

ورواه عَبدُ ، عن الحسن بن موسى ، عن ابن لَهيعة ، به [٦] . وهذا إسناد [٧] حسن ، ولم يخرجوه ، [وقد روى من طرق متعددة] [٨] . وقد رواه الحافظ أبو عمر بن عبد البر فى كتاب «القصد والأمَمْ ، بمعرفة أصول أنساب العرب والعجم » ، من حديث ابن لهيعة ، عن علقمة بن وعلة، عن ابن عباس فذكر نحوه . وقد روى نحوه من وجه آخر .

وقال الإمام [أحمد] [٩] أيضًا وعبد بن حميد : حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا أبو جَنَاب يحيى ابن أبى حيَّة الكلبى ، عن يحيى بن هانئ بن عُرْوَة ، عن فروة بن مُسيَك قال : أتيت رسول اللّه ﷺ فقلت : يا رسول اللّه ، أقاتل بمقبل قومى مدبرهم ؟ قال : « نعم ، فقاتل بمقبل قومك مدبرهم » . فلما وليت دعانى فقال : « لا تقاتلهم حتى تدعوهم إلى الإسلام » . فقلت : يا رسول اللّه ، أرأيت سبأ ؛ أواد هو ، أو رجل [١٠] ، أو ما هو ؟ قال : « [لا] [١١] ، بل رجل من العرب ، ولد له عشرة فَتَيَامَنَ ستة وتشاءم أربعة ، تيامن الأزد ، والأشعريون ، وحمير ، وكندة ، ومذحج ، وأنمار الذين يقال لهم : بجيلة وخثعم . وتشاءم لخم ، وجذام ، وعاملة ، وغسَّان » .

وهذا أيضًا إسناد جيد [١٢] وإن كان فيه أبو جَنَاب الكلبى ، وقد تكلموا فيه [١٣] . لكن رواه ابن جرير عن أبى كُرَيْب ، عن العَنْقَزى [١٤] ، عن أسباط بن نصر ، عن يحيى بن هانئ المرادى ، عن عمه أو عن أبيه ـ يشك أسباط ـ قال : قدم فروة بن مُسيَك على رسول اللّه ﷺ ، فذكره [١٥] .

طريق أخرى لهذا الحديث : قال ابن أبى حاتم : حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، حدثنا ابن وهب، حدثنى ابن لهيعة ، عن توبة بن نَمر [١٦] ، عن عبد العزيز بن يحيى أنه أخبره قال : كنا عند عبيدة[١٧]

---

(١) فى ت ، س ، أ : « من جملتهم » . (٢) فى أ : « ويشكروا له » .
(٣) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده عن ابن عباس قال » . (٤) فى ت ، س : « أرجل » . (٥) فى أ : « ولد له عشرة » .
(٦) المسند (١ / ٣١٦) .
(٧) فى ت : « وإسناده » . (٨) زيادة من ت . (٩) زيادة من ت ، س ، أ .
(١٠) فى أ : « أم جبل » . (١١) زيادة من أ . (١٢) فى أ : « حسن » .
(١٣) ذكره الحافظ ابن حجر فى أطراف المسند (٥ / ١٧٨) وليس فى المطبوع من المسند .
(١٤) فى أ : « العبقرى » .
(١٥) تفسير الطبرى (٢٢ / ٥٣) .
(١٦) فى س ، أ : « نمير » . (١٧) فى أ : « عبدة » .

ابن عبد الرحمن بإفريقية فقال يومًا : ما أظن قوما بأرض إلا هم من أهلها . فقال على بن رباح : كلا ، قد حدثنى فلان أن فروة بن مُسَيك الغُطَيفى (١) قدم على رسول الله ﷺ فقال : يا رسول (٢) الله ، إن سبأ قوم كان لهم عز فى الجاهلية ، وإنى أخشى أن يرتدّوا عن الإسلام ، أفأقاتلهم ؟ فقال: « ما أمرت فيهم بشىء بعد » . فأنزلت هذه الآية : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسَاكِنِهِمْ آيَةٌ ﴾ الآيات ، فقال له رجل : يا رسول الله ، ما سبأ ؟ فذكر مثل هذا الحديث الذى قبله : أن رسول الله ﷺ سُئل عن سبأ: ما هو ؟ أبلد ، أم رجل ، أم امرأة ؟ قال : « بل رجل ، ولَد عَشَرَة فسكن اليمن منهم ستة، والشام أربعة ، أما اليمانيون : فمذحج ، وكندة ، والأزد ، والأشعريون ، وأنمار ، وحمير غير ما حلها . وأما الشام : فلخم ، وجذام ، وغسان ، وعاملة » .

فيه غرابة من حيث ذكر [نزول] (٣) الآية بالمدينة ، والسورة مكية كلها ، والله (٤) أعلم .

طريق أخرى : قال ابن جرير : حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا أبو أسامة ، حدثنى الحسن بن الحكم ، حدثنا أبو (٥) سَبْرَة النَّخَعِى ، عن فَرْوَة بن مُسَيْك الغُطَيْفى (٦) قال : قال رجل : يا رسول الله ، أخبرنى عن سبأ : ما هو ؟ أرض ، أم امرأة ؟ قال : « ليس بأرض ولا امرأة ، ولكنه رجل ولد عشرة من الولد ، فتيامن ستة وتشاءم أربعة ، فأما الذين تشاءموا : فلخم وجذام وعاملة وغسان ، وأما الذين تيامنوا : فكندة : والأشعريون ، والأزد ، ومذحج ، وحمير ، وأنمار » . فقال رجل : ما أنمار؟ قال : « الذين منهم خثعم وبجيلة » .

ورواه الترمذى فى جامعه ، عن أبى كُرَيْب وعبد بن حميد قالا : حدثنا أبو أسامة ، فذكره أبسط من هذا ، ثم قال : هذا حديث حسن غريب (٧) .

وقال أبو عمر بن عبد البر : حدثنا عبد الوارث بن سفيان ، حدثنا قاسم بن أصبغ ، حدثنا أحمد ابن زهير ، حدثنا عبد الوهاب بن نجدة الحوطى ، حدثنا ابن كثير ـ هو عثمان بن كثير ـ عن الليث ابن سعد ، عن موسى بن على ، عن يزيد بن حصين ، عن تميم الدارى ؛ أن رجلا أتى رسول الله ﷺ فسأله عن سبأ ، فذكر مثله ، فقوى هذا الحديث وحَسّن (٨) .

قال علماء النسب ، منهم محمد بن إسحاق : اسم سبأ : عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

وإنما سمى سبأ لأنه أول من سبأ فى العرب ، وكان يقال له : الرائش ؛ لأنه أول من غنم فى الغزو فأعطى قومه ، فسمى الرائش ، والعرب تسمى المال : ريشا ورياشا . وذكروا أنه بشر برسول الله ﷺ فى زمانه (٩) المتقدم ، وقال فى ذلك شعرًا :

---

(١) فى أ: « القطيعى » . (٢) فى س ، أ : « يا نبى » (٣) زيادة من أ .
(٤) فى س : « فالله » . (٥) فى أ : « ابن » . (٦) فى أ : « القطيعى » .
(٧) تفسير الطبرى (٢٢ / ٥٣) وسنن الترمذى برقم (٣٢٢٢) .
(٨) القصد والأمم ص (٢٠) .
(٩) فى ت ، أ : « الزمان » .

سَيَمْلكُ بَعْدَنَا مُلْكًا عَظيمًا   نَبىّ لا يُرَخّصُ فى الحَرَام
وَيَمْلك بَعْدَه منْهُم مُلُوك   يدينون العبادَ بغَير ذام
ويَملك بَعدهم منا مُلُوك   يَصير المُلك فينَا باقْتسَام
وَيَمْلك بَعْدَ قَحطَان نَبى   تَقى خَبْتَة خير الأنام
وسُمىَ أحْمَدًا يَا لَيْتَ أنى   أعَمْرُ بَعْد مَبْعَثه بعَام
فأعضُده وأحبوه بنَصْرى   بكُل مُدَجّج وبكُل رام
متى يَظْهَرْ فكُونُوا نَاصريه   وَمَنْ يَلْقَاهُ يُبْلغه سَلامى

ذكر ذلك الهمدانى فى كتاب « الإكليل » .

واختلفوا فى قحطان على ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه من سلالة إرم بن سام بن نوح ، واختلفوا في كيفية اتصال نسبه به على ثلاث(١) طرائق .

والثانى : أنه من سلالة عَابَر ، وهو هود ، عليه الصلاة والسلام ، واختلفوا فى كيفية اتصال نسبه به على ثلاث طرائق أيضًا .

والثالث : أنه من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل ، عليهما السلام ، واختلفوا فى كيفية اتصال نسبه به على ثلاث طرائق أيضا . وقد ذكر ذلك مستقصى الإمام الحافظ أبو عمر بن عبد البر النَّمرى ، رحمه اللّه ، فى كتابه [المسمى] (٢) : « الإنباه على ذكر أصول القبائل الرواة (٣) » .

ومعنى قوله عليه السلام : « كان رجلا من العرب » يعنى : العرب العاربة الذين كانوا قبل الخليل، عليه السلام ، من سلالة سام بن نوح . وعلى القول الثالث : كان من سلالة الخليل ، عليه السلام ، وليس هذا بالمشهور عندهم ، واللّه أعلم . وفى صحيح البخارى : أن رسول اللّه ﷺ مر بنفر من « أسلَمَ » ينتضلون ، فقال : « ارموا بنى إسماعيل ، فإن أباكم كان راميا » (٤) . فأسلم قبيلة من الأنصار ، والأنصار أوسها وخزرجها من غسان من عرب اليمن من سبأ ، نزلوا بيثرب لما تفرقت سبأ فى البلاد ، حين بعث اللّه عليهم سيل العرم ، ونزلت طائفة منهم بالشام ، وإنما (٥) قيل لهم : غَسَّان بماء نزلوا عليه قيلَ : باليمن . وقيل : إنه قريب من المُشَلَّل (٦) ، كما قال حسان بن ثابت :

إمَّا سَألت فَإنَّا مَعْشَرٌ نُجُبٌ   الأزدُ نسبَتُنُا ، والماء غَسَّانُ (٧)

ومعنى قوله : « ولد له عشرة من العرب » أى : كان (٨) من نسله هؤلاء العشرة الذين يرجع

---

(١) فى أ : « ثلاثة » .   (٢) زيادة من أ .   (٣) فى ت : « بالرواة » .
(٤) صحيح البخارى برقم (٣٥٠٧) من حديث سلمة ، رضى الله عنه .
(٥) فى ت : « وإن » .   (٦) فى ت : « المسلك » وفى أ : « المسكن » .
(٧) البيت فى السيرة النبوية لابن هشام (١ / ١٠) .
(٨) فى ت : « كانوا » .

إليهم أصول القبائل من عرب اليمن ، لا أنهم ولدوا من صلبه ، بل منهم من بينه وبينه الأبوان والثلاثة والأقل والأكثر ، كما هو مقرر مبين فى مواضعه من (١) كتب النسب .

ومعنى قوله : « فتيامن منهم ستة ، وتشاءم منهم أربعة » أى : بعد ما أرسل اللّه عليهم سيل العرم ، منهم من أقام ببلادهم ، ومنهم من نزح عنها إلى غيرها ، وكان من أمر السد أنه كان الماء يأتيهم من بين جبلين وتجتمع إليه أيضا سيول أمطارهم وأوديتهم ، فعَمَدَ ملوكهم الأقادم ، فبنوا بينهما سدًا عظيما محكما حتى ارتفع الماء ، وحُكمَ على حافات ذينك الجبلين ، فغرسوا الأشجار واستغلوا الثمار فى غاية ما يكون من الكثرة والحسن ، كما ذكر غير واحد من السلف ، منهم قتادة : أن المرأة كانت تمشى تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل أو زنبيل ، وهو الذى تخترف (٢) فيه الثمار ، فيتساقط من الأشجار فى ذلك ما يملؤه من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قُطَّاف ، لكثرته ونضجه واستوائه ، وكان هذا السد بمأرب : بلدة بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل ، ويعرف بسد مأرب .

وذكر آخرون أنه لم يكن ببلدهم شيء من الذباب ولا البعوض ولا البراغيث ، ولا شيء من الهوام ، وذلك لاعتدال الهواء وصحة المزاج وعناية اللّه بهم ، ليوحدوه ويعبدوه ، كما قال تعالى : ﴿ **لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ** ﴾ ، ثم فسرها بقوله : ﴿ **جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ** ﴾ أى : من ناحيتى الجبلين والبلدة بين (٣) ذلك ، ﴿ **كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ** ﴾ أى : غفور لكم إن استمررتم على التوحيد.

وقوله : ﴿ **فَأَعْرَضُوا** ﴾ أى : عن توحيد اللّه وعبادته وشكره على ما أنعم به عليهم ، وعدلوا إلى عبادة الشمس ، كما قال هدهد سليمان : ﴿ **وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ . إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ . وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ** ﴾ [النمل : ٢٢ ـ ٢٤]

وقال محمد بن إسحاق ، عن وهب بن مُنَبِّه : بعث الله إليهم ثلاثة عشر نبيا .

وقال السُّدِّى : أرسل اللّه إليهم اثنى عشر ألف نبى ، واللّه (٤) أعلم .

وقوله : ﴿ **فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ** ﴾ : قيل : المراد بالعرم المياه . وقيل : الوادى . وقيل : الجُرَذ . وقيل : الماء الغزير. فيكون من باب إضافة الاسم إلى صفته ، مثل : « مسجد الجامع » . و« سعيد كُرْز » حكى ذلك السهيلى (٥) .

وذكر غير واحد منهم ابن عباس ، ووهب بن منبه ، وقتادة ، والضحاك ؛ أن اللّه ، عز وجل ، لما أراد عقوبتهم بإرسال العرم عليهم ، بعث على السد دابة من الأرض ، يقال لها : « الجُرَذ » نقبته ـ قال وهب بن منبه : وقد كانوا يجدون فى كتبهم أن سبب خراب هذا السد هو الجُرَذ فكانوا يرصدون عنده السنانير برهة من الزمان ، فلما جاء القدر غلبت الفأر السنانير ، وولجت إلى السَّدّ فنقبته ، فانهار عليهم .

---

(١) فى ت : « فى » . (٢) فى ت : « يحترق » . (٣) فى أ : « من » .
(٤) فى ت ، س : « فالله » . (٥) الروض الأنف (١ / ١٥) .

وقال قتادة وغيره : الجُرَذ : هو الخَلْد ، نقبت أسافله حتى إذا ضَعف ووَهَى ، وجاءت أيام السيول ، صَدَمَ الماءُ البناءَ فسقط ، فانساب الماء فى أسفل (١) الوادى ، وخرّبَ ما بين يديه من الأبنية والأشجار وغير ذلك ، ونضب الماء عن الأشجار التى فى الجبلين عن يمين وشمال ، فيبست وتحطمت، وتبدلت تلك الأشجار المثمرة الأنيقة النضرة ، كما قال اللّه تعالى : ﴿ **وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ** ﴾ .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعِكْرِمة ، وعطاء الخُرَاسانى ، والحسن ، وقتادة ، والسُّدِّى : وهو الأراك ، وأكلة البَرير .

﴿ **وَأَثْلٍ** ﴾ : قال العوفى ، عن ابن عباس : هو الطَّرْفاء .

وقال غيره : هو شجر يشبه الطرفاء . وقيل : هو السَّمُر . فاللّه أعلم .

وقوله : ﴿ **وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ** ﴾ : لما كان أجودَ هذه الأشجار المبدل بها هو السِّدْر قال : ﴿ **وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ** ﴾ ، فهذا الذى صار أمر تَيْنك (٢) الجنتين إليه ، بعد الثمار النضيجة والمناظر الحسنة ، والظلال العميقة والأنهار الجارية ، تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسِّدْر ذى الشوك الكثير والثمر القليل . وذلك بسبب كفرهم وشركهم باللّه ، وتكذيبهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل؛ ولهذا قال: ﴿ **ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا** (٣) **وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ** ﴾ أى : عاقبناهم بكفرهم .

قال مجاهد : ولا يعاقب إلا الكفور .

وقال الحسن البصرى : صدق اللّه العظيم . لا يعاقب بمثل فعله إلا الكفور .

وقال طاوس : لا يناقش إلا الكفور .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا أبو عمر بن النحاس الرملى ، حدثنا حجاج ابن محمد ، حدثنا أبو البيداء ، عن هشام بن صالح التغلبى (٤) ، عن ابن خيرة ـ وكان من أصحاب على ، رضى اللّه عنه ـ قال : جزاء المعصية الوهن فى العبادة ، والضيق فى المعيشة ، والتعسر فى اللذة . قيل : وما التعسر فى اللذة ؟ قال : لا يصادف لذة حلال (٥) إلا جاءه من يُنَغِّصه إياها .

﴿ **وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩)** ﴾ .

يذكر تعالى ما كانوا فيه من الغِبْطة والنعمة ، والعيش الهنى الرغيد ، والبلاد الرخية ، والأماكن الآمنة ، والقرى المتواصلة المتقاربة ، بعضها من بعض ، مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها ، بحيث

---

(١) فى ت : « أصل » . (٢) فى ت ، أ : « تلك » . (٣) فى ت : « بكفرهم » وهو خطأ .
(٤) فى ت : « وقال ابن أبى حاتم بإسناده » . (٥) فى ت : « حلالاً » .

إن مسافرهم لا يحتاج إلا حَمل زاد ولا ماء ، بل حيث نزل وجد ماء وثمرا ، ويَقيل في قرية ويبيت في أخرى ، بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ ، قال وهب بن منبه : هي قرى بصنعاء . وكذا قال أبو مالك .

وقال مجاهد : والحسن ، وسعيد بن جبير ، ومالك عن زيد بن أسلم ، وقتادة ، والضحاك ، والسُّدِّي ، وابن زيد وغيرهم (١) : يعني : قرى الشام . يعنون أنهم كانوا يسيرون من اليمن إلى الشام في قرى ظاهرة متواصلة .

وقال العوفي ، عن ابن عباس : القرى التي باركنا فيها (٢) : بيت المقدس .

وقال العوفي ، عنه أيضا : هي قرى عربية بين المدينة والشام .

﴿ قُرًى ظَاهِرَةً ﴾ أي : بينة واضحة ، يعرفها المسافرون ، يَقيلون في واحدة ، ويبيتون في أخرى؛ ولهذا قال : ﴿ وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ﴾ ، أي : جعلناها بحسب ما يحتاج المسافرون إليه ، ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴾ أي : الأمن حاصل لهم في سيرهم ليلا ونهارا .

﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ ،وقرأ آخرون: « بعد بين أسفارنا»،وذلك أنهم بَطروا هذه النعمة ـ كما قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وغير واحد ـ وأحبوا مفاوز ومهامه يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل والسير في الحَرُور والمخاوف ، كما طلب بنو إسرائيل من موسى أن يخرج الله لهم مما تنبت الأرض ، من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها ، مع أنهم كانوا في عيش رغيد في مَنّ وسلوى وما يشتهون من مآكل ومشارب وملابس مرتفعة ؛ ولهذا قال لهم: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ٦١] ، وقال تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ [القصص : ٥٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل : ١١٢] . وقال في حق هؤلاء : ﴿وَظَلَمُوا (٣) أَنفُسَهُمْ ﴾ ، أي : بكفرهم ، ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ أي : جعلناهم حديثا للناس ، وسَمَرًا يتحدثون به من (٤) خبرهم ، وكيف مكر الله بهم ، وفرق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنيء تفرقوا في البلاد هاهنا وهاهنا ؛ ولهذا تقول العرب في القوم إذا تفرقوا : « تفرقوا أيدي سبأ » « وأيادي سبأ » و « تفرقوا شَذَرَ مَذَرَ (٥) » .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد القطان ، حدثنا إبراهيم بن حبيب بن الشهيد ، سمعت أبي يقول : سمعت (٦) عكرمة يحدث بحديث أهل سبأ ، قال : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ [عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ] (٧) ﴾ إلى قوله : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴾ : وكانت فيهم

---

(١) في ت : « وخلق غيرهما » . (٢) في ت : « هي » . (٣) في ت ، س ، أ : « فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا » .
(٤) في ت : « في » . (٥) في ت : « ومدر »
(٦) في ت : « وروى ابن أبي حاتم بسنده إلى عكرمة » . (٧) زيادة من ت ، س ، أ .

كهنة، وكانت الشياطين يسترقون السمع ، فأخبروا الكهنة [١] بشيء من أخبار [٢] السماء ، فكان [٣] فيهم رجل كاهن شريف كثير المال ، وإنه خُبِّر أن زوال أمرهم قد دنا ، وأن العذاب قد أظلهم [٤] . فلم يدر كيف يصنع؛ لأنه كان له مال كثير من عقار ، فقال لرجل من بنيه ـ وهو أعزهم أخوالا ـ : إذا كان غدا وأمرتك بأمر فلا تفعل ، فإذا انتهرتك فانتهرني ، فإذا تناولتك فالطمني . فقال : يا أبت، لا تفعل ، إن هذا أمر عظيم ، وأمر شديد ، قال : يا بني ، قد حدث أمر لابد منه . فلم يزل به حتى وافاه على ذلك . فلما أصبحوا واجتمع الناس ، قال : يا بني ، افعل كذا وكذا . فأبى ، فانتهره أبوه، فأجابه ، فلم يزل ذلك بينهما حتى تناوله أبوه ، فوثب على أبيه فلطمه ، فقال : ابني يلطمني؟ عَلَيّ بالشفرة . قالوا : وما تصنع بالشفرة ؟ قال : أذبحه . قالوا : تذبح ابنك . الطمه أو اصنع ما بدا لك. قال : فأبى ، قال : فأرسلوا إلى أخواله فأعلموهم ذلك ، فجاء أخواله فقالوا : خذ منا ما بدا لك . فأبى إلا أن يذبحه . قالوا : فلتموتن قبل أن تذبحه . قال : فإذا كان الحديث هكذا فإني لا أرى أن أقيم ببلد يحال بيني وبين ولدي [٥] فيه ، اشتروا مني دوري ، اشتروا مني أرضي ، فلم يزل حتى باع دوره وأراضيه وعقاره ، فلما صار الثمن في يده وأحرزه ، قال : أي قوم، إن العذاب قد أظلكم ، وزوال أمركم قد دنا ، فمن أراد منكم دارا جديدا ، وجملا شديدا ، وسفرا بعيدا ، فليلحق بعمان . ومن أراد منكم الخَمْر والخَمير والعَصير ـ وكلمة ، قال [٦] إبراهيم : لم أحفظها ـ فليلحق [٧] ببصْرَى ، ومن أراد الراسخات في الوحل ، المطعمات في المحل ، المقيمات في الضحل ، فليلحق [٨] بيثرب ذات نخل . فأطاعه قومه [٩] ، فخرج أهل عمان إلى عمان . وخرجت غسان إلى بصرى . وخرجت الأوس والخزرج وبنو عثمان إلى يثرب ذات النخل . قال : فأتوا على بطن مر فقال بنو عثمان : هذا مكان صالح ، لا نبغي به بدلا . فأقاموا به ، فسموا لذلك خزاعة ، لأنهم انخزعوا من أصحابهم ، واستقامت الأوس والخزرج حتى نزلوا المدينة ، وتوجه أهل عمان إلى عمان ، وتوجهت غسان إلى بصرى .

هذا أثر غريب عجيب ، وهذا الكاهن هو عمرو بن عامر أحد رؤساء اليمن وكبراء سبأ وكهانهم [١٠] .

وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار في أول السيرة ما كان من أمر عمرو بن عامر الذي كان أول من خرج من بلاد اليمن ، بسبب استشعاره بإرسال العَرِم فقال : وكان سبب خروج عمرو بن عامر من اليمن ــ فيما حدثني أبو زيد الأنصاري ــ : أنه رأى جرذًا يَحفر [١١] في سد مأرب ، الذي كان يحبس عنهم الماء فيصرفونه حيث شاؤوا من أرضهم . فعلم أنه لا بقاء للسد على ذلك ، فاعتزم على النُّقْلة عن اليمن فكاد [١٢] قومه ، فأمر أصغر أولاده إذا أغلظ له ولطمه أن يقوم إليه فيلطمه ، ففعل ابنه ما أمره به ، فقال عمرو : لا أقيم ببلد لَطَم وجهي فيها أصغر ولدي [١٣] . وعرض أمواله ، فقال

---

(١) في س : « فأخبروا به الكهنة » .
(٢) في أ : « خبر » .
(٣) في س : « وكان » .
(٤) في أ : « أضلهم » .
(٥) في ت ، س : « ابني » .
(٦) في ت : « قالها » .
(٧) في ت : « فيحق » .
(٨) في ت : « فليحق » .
(٩) في س : « قومنا » .
(١٠) في ت : « كهناتهم » .
(١١) في س : « تحفر » .
(١٢) في ت ، س : « وكاد » .
(١٣) في ت : « أولادي » .

أشراف من أشراف اليمن : اغتنموا غَضْبَةَ عمرو . فاشتروا منه أمواله ، وانتقل فى ولده وولد ولده . وقالت الأزد : لا نتخلف عن عمرو بن عامر . فباعوا أموالهم ، وخرجوا معه فساروا (١) حتى نزلوا بلاد « عك » مجتازين يرتادون البلدان ، فحاربتهم عك ، وكانت حربهم سجَالا . ففى ذلك يقول عباس بن مرداس السلمى :

وَعَكَ بنُ عَدنَانَ الذينَ تَغَلَّبُوا   بَغَسَّانَ ، حتى طُرِّدُوا كُلَّ مَطْرَد

وهذا البيت من (٢) قصيدة له .

قال : ثم ارتحلوا عنهم فتفرقوا فى البلاد ، فنزل آل جَفْنَة بن عمرو بن عامر الشام ، ونزلت الأوس والخزرج يثرب ، ونزلت خزاعة مرّا . ونزلت أزد السراة السراة ، ونزلت أزد عُمَان عُمان ، ثم أرسل اللّه على السد السيل فهدمَه ، وفى ذلك أنزل اللّه عز وجل هذه الآيات (٣) .

وقد ذكر السدى قصة عمرو بن عامر بنحو مما ذكر محمد بن إسحاق ، إلا أنه قال : « فأمر ابن أخيه » ، مكان « ابنه » ، إلى قوله : « فباع ماله وارتحل بأهله ، فتفرقوا » . رواه ابن أبى حاتم .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، أخبرنا [سلمة] (٤) ، عن ابن إسحاق قال : يزعمون أن عمرو بن عامر ـ وهو عم القوم ـ كان كاهنًا ، فرأى فى كهانته أن قومه سَيمَزّقون ويباعَدُ بين أسفارهم . فقال لهم : إنى قد علمت أنكم ستمزقون ، فمن كان منكم ذاهَمّ بعيد وجمل شديد ، ومَزَاد جَديد ـ فليلحق بكاس أو كرود . قال : فكانت وادعة بن عمرو . ومن كان منكم ذا هَمّ مُدْن، وأمر دَعْن ، فليلحق بأرض شَنْ . فكانت عوف بن عمرو ، وهم الذين يقال لهم : بارق . ومن كان منكم يريد عيشا آنيا ، وحرما آمنا ، فليلحق بالأرزين . فكانت خزاعة . ومن كان منكم يريد الراسيات فى الوحل ، المطعمات فى المحل ، فليلحق بيثرب ذات النخل . فكانت الأوس والخزرج ، وهما هذان الحيان من الأنصار . ومن كان منكم يريد خمرا وخَميرا ، وذهبا وحريرا ، وملكا وتأميرا ، فليلحق بكُوثى وبُصرى ، فكانت غسانَ بنو جَفنة (٥) ملوكُ الشام . ومن كان منهم بالعراق .

قال ابن إسحاق : وقد سمعت بعض أهل العلم يقول : إنما قالت هذه المقالة طريفةُ امرأة عمرو ابن عامر ، وكانت كاهنة ، فرأت فى كهانتها ذلك ، فاللّه أعلم أىّ ذلك كان (٦) .

وقال سعيد ، عن قتادة ، عن الشعبى : أما غسان فلحقوا بالشام ، وأما الأنصار فلحقوا بيثرب ، وأما خزاعة فلحقوا بتهامة ، وأما الأزد فلحقوا بعمان ، فمزقهم اللّه كل ممزق . رواه ابن أبى حاتم وابن جرير .

ثم قال محمد بن إسحاق : حدثنى أبو عبيدة قال : قال الأعشى ـ أعشى بنى قيس بن ثعلبة ـ واسمه : ميمون بن قيس :

---

(١) فى ت : « فسار » .
(٢) فى ت ، س : « فى » .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام (١ / ١٠) .
(٤) زيادة من ت ، والطبرى .
(٥) فى ت : « بنو حنيفة » .
(٦) تفسير الطبرى (٢٢ / ٥٩) .

وَفى ذَاكَ للمُؤتَسى [(١)] أسْوَةٌ ... ومَأربُ عَفَّى عَلَيها العَرِمْ
رُخَام بَنَتْه لَهُمْ حِمْيرُ ... إذا جاءَ مَوَارهُ لم يَرِمْ
فَأرْوَى الزُرُوعَ وأعنَابَها ... عَلَى سَعَة مَاؤهُمْ إذْ [(٢)] قُسِّم
فَصَارُوا أيَادى مَا يَقْدرُو ... نَ منْه عَلَى شُرب طِفْل فُطِم [(٣)]

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أى : إن فى هذا الذى حل بهؤلاء من النقمة والعذاب ، وتبديل النعمة وتحويل العافية ، عقوبةً على ما ارتكبوه من الكفر والآثام ــ لعبرةً وَدَلالةً لكل عبد صبار [(٤)] على المصائب ، شكور على النعم .

قال [(٥)] الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن وعبد الرزاق المعنى ، قالا : أخبرنا سفيان ، عن أبى إسحاق ، عن العَيْزَار بن حُرَيث عن عمر بن سعد ، عن أبيه ـ هو سعد بن أبى وقاص ، رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « عجبت من قضاء الله للمؤمن ، إن أصابه خير حَمدَ رَبَّه وشكر ، وإن أصابته مصيبة حَمِد ربه وصَبَر ، يؤجر المؤمن فى كل شىء ، حتى فى اللقمة يرفعها إلى فى امرأته» .

وقد رواه النسائى فى « اليوم والليلة » ، من حديث أبى إسحاق السَّبيعى ، به [(٦)] ـ وهو حديث عزيز ـ من رواية عمر بن سعد ، عن أبيه . ولكن له شاهد فى الصحيحين من حديث أبى هريرة : «عجبًا للمؤمن ، لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرا [(٧)] ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له . وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن» [(٨)] .

قال عبد : حدثنا يونس ، عن شيبان ، عن [(٩)] قتادة ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ قال: كان مطرِّف يقول : نعم العبد الصبار الشكور ، الذى إذا أعطى شكر ، وإذا ابتلى صبر .

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٢١) ﴾ .

لما ذكر [الله] [(١٠)] تعالى قصة سبأ وما كان من أمرهم فى اتباعهم الهوى والشيطان ، أخبر عنهم وعن أمثالهم ممن اتبع إبليس والهوى ، وخالف الرشاد والهدى ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ﴾ .

---

(١) فى ت : « وفى ذلك للمتوسى » .
(٢) فى ت : « إذا » .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام (١ / ١٤) .
(٤) فى ت : « صبار شكور على » .
(٥) فى ت : « وروى » .
(٦) المسند (١ / ١٧٣) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٩٠٦) .
(٧) فى ت ، س : « خيراً له » .
(٨) لم أجده من حديث أبى هريرة ، وقد رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٩٩٩) من حديث صهيب ، رضى الله عنه .
(٩) فى ت : « وعن » .
(١٠) زيادة من ت .

قال ابن عباس وغيره : هذه الآية كقوله تعالى إخبارًا عن إبليس حين امتنع من السجود لآدم ، ثم قال : ﴿ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٦٢]، ثم قال (١) : ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٧] والآيات فى هذا كثيرة .

وقال الحسن البصرى : لما أهبط اللّه آدم من الجنة ومعه حواء ، هبط (٢) إبليس فَرحا بما أصاب منهما ، وقال : إذا أصبت من الأبوين ما أصبت ، فالذرية أضعف وأضعف . وكان ذلك ظنًا من إبليس ، فأنزل اللّه عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فقال عند ذلك إبليس : « لا أفارق ابن آدم ما دام فيه الروح ، أعدُه (٣) وأُمَنّيه وأخدعه » . فقال اللّه : «وعزتى لا أحجب عنه التوبة ما لم يُغَرغِر بالموت ، ولا يدعونى إلا أجبته ، ولا يسألنى إلا أعطيته ، ولا يستغفرنى إلا غفرت له » . رواه ابن أبى حاتم .

وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ ﴾ : قال ابن عباس : أى من حجة .

وقال الحسن البصرى : واللّه ما ضربهم بعصا ، ولا أكرههم على شىء ، وما كان إلا غرورا وأمانى دعاهم إليها فأجابوه .

وقوله : ﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ﴾ أى : إنما سلطناه عليهم ليظهَر أمر من هو مؤمن بالآخرة وقيامها والحساب فيها والجزاء ، فيُحسِنَ عبادة ربه عز وجل فى الدنيا ، ممن هو منها فى شك .

وقوله : ﴿ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ أى : ومع حفظه ضَلّ من ضل من أتباع إبليس ، وبحفظه وكلاءته سَلِم من سلم من المؤمنين أتباع الرسل .

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣) ﴾ .

بيَّن (٤) تعالى أنه الإله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لا نظير له ولا شريك له ، بل هو المستقل بالأمر وحده ، من غير مشارك ولا منازع ولا معارض ، فقال : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ أى : من الآلهة التى عبدت من دونه ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾، كما قال تبارك وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ [فاطر : ١٣] .

وقوله : ﴿ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ ﴾ أى : لا يملكون شيئا استقلالا ولا على سبيل الشركة ، ﴿ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ أى : وليس للّه من (٥) هذه الأنداد من ظهير يستظهر به فى الأمور ، بل

(١) فى ت ، س : « وقال » . (٢) فى أ : « أهبط » . (٣) فى ت ، س : « أغره » .
(٤) فى ت ، س ، أ : « يبين » . (٥) فى ت : « فى » .

الخلق كلهم فقراء إليه ، عبيد لديه .

قال قتادة فى قوله : ﴿ **وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ** ﴾ ، من عون يعينه بشىء .

وقال (١) : ﴿ **وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ** ﴾ أى : لعظمته [وجلاله] (٢) وكبريائه لا يجترئ أحد أن يشفع عنده تعالى فى شىء إلا بعد إذنه له فى الشفاعة ، كما قال تعالى : ﴿ **مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلا بِإِذْنِهِ** ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، وقال : ﴿ **وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلا مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ [وَيَرْضَى]** (٣) ﴾ [النجم : ٢٦] ، وقال :﴿ **وَلا يَشْفَعُونَ إِلا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ** ﴾ [الأنبياء : ٢٨] .

ولهذا ثبت فى الصحيحين (٤) ، من غير وجه عن رسول الله ﷺ ـ وهو سيد ولد آدم ، وأكبر شفيع عند الله ـ : أنه حين يقوم المقام المحمود ليشفع فى الخلق كلّهم أن يأتى ربّهم لفصل القضاء ، قال : « فأسجد لله فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى ، ويفتح على بمحامد لا أحصيها الآن ، ثم يقال : يا محمد ، ارفع رأسك ، وقل يُسمع (٥) ، وسل تُعطَه واشفع تشفع » الحديث بتمامه .

وقوله : ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ** ﴾ . وهذا أيضا مقام رفيع فى العظمة . وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحى ، سمع أهل السموات كلامه ، أُرْعدوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشى . قاله ابن مسعود ومسروق ، وغيرهما .

﴿ **حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِم** ﴾ أى :زال الفزع عنها . قال ابن عباس ، وابن عمر وأبو عبد الرحمن السلمى والشعبى ، وإبراهيم النَّخَعىّ ، والضحاك والحسن ، وقتادة فى قوله تعالى : ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ** ﴾ يقول : جُلِّى عن قلوبهم ، وقرأ بعض السلف ـ وجاء مرفوعا ـ : « [حَتَّى] (٦) إذَا فرِّغ» بالغين (٧) المعجمة ، ويرجع إلى الأول .

فإذا كان كذلك يسأل بعضهم بعضا : ماذا قال ربكم ؟ فيخبر بذلك حملة العرش للذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم لمن تحتهم ، حتى ينتهى الخبر إلى أهل السماء الدنيا ؛ ولهذا قال : ﴿ **قَالُوا الْحَقَّ** ﴾ أى: أخبروا بما قال من غير زيادة ولا نقصان ، ﴿ **وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ** ﴾ .

وقال آخرون : بل معنى قوله : ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِم** ﴾ يعنى : المشركين عند الاحتضار ، ويوم القيامة إذا استيقظوا مما كانوا فيه من الغفلة فى الدنيا ، ورجعت إليهم عقولهم يوم القيامة ، قالوا : ماذا قال ربكم ؟ فقيل لهم : الحق وأخبروا به مما كانوا عنه لاهين فى الدنيا .

قال ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِم** ﴾ : كشف عنها الغطاء يوم القيامة.

وقال الحسن : ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِم** ﴾ يعنى : ما فيها من الشك والتكذيب .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِم** ﴾ يعنى : ما فيها من الشك ،

---

(١) فى ت : « ثم قال » . (٢) زيادة من أ . (٣) زيادة من ت ، أ .

(٤) تقدمت أحاديث الشفاعة عند تفسير الآية : ٧٩ من سورة الإسراء .

(٥) فى س ، أ : « تسمع » . (٦) زيادة من أ . (٧) فى ت : « بالعين » .

قال : فزع الشيطان عن قلوبهم وفارقهم وأمانيهم وما كان يضلهم ، ﴿ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرِ ﴾ قال : وهذا فى بنى آدم ، هذا عند الموت ، أقروا حين لا ينفعهم الإقرار .

وقد اختار ابن جرير القول الأول : أن الضمير عائد على الملائكة (١) . هذا هو الحق الذى لا مرية فيه ، لصحة الأحاديث فيه والآثار ، ولنذكر منها طرفا يدل على غيره :

قال البخارى عند تفسير هذه الآية الكريمة فى صحيحه : حدثنا الحميدى ، حدثنا سفيان ، حدثنا عمرو ، سمعت عكْرِمة ، سمعت أبا هُرَيرة (٢) يقول : إن نبى اللّه ﷺ قال : « إذا قضى اللّه الأمرَ فى السماء ، ضربَت الملائكة بأجنحتها خُضعانًا لقوله ، كأنه سلسلة على صفوانَ ، فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا للذى قال : الحقّ ، وهو العلى الكبير فيسمعها مُسْتَرق السمع ، ومسترق السمع ـ هكذا بعضه (٣) فوق بعض ـ ووصف سفيان بيده ـ فَحَرّفها وبَدّد (٤) بين أصابعه ـ فيَسمع الكلمة ، فيلقيها إلى من تحته ، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته ، حتى يلقيَها على لسان الساحر(٥) أو الكاهن : فَربما أدركه الشّهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه ، فيكذب معها مائة كذْبَة ، فيقال : أليس قد قال لنا يومَ كذا وكذا : كذا (٦) وكذا ؟ فيصدّق بتلك الكلمة التى سُمعت من السماء .

انفرد بإخراجه البخارى دون مسلم من هذا الوجه . وقد رواه أبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه، من حديث سفيان بن عيينة ، به (٧) .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر وعبد الرزاق : أخبرنا مَعْمَر ، أخبرنا الزهرى ، عن على بن الحسين ، عن ابن عباس قال : كان رسول اللّه ﷺ [جالسًا] (٨) فى نفر من أصحابه ــ قال عبد الرزاق : « من الأنصار » ــ فَرُمىَ بنجم فاستنار ، [قال] (٩) : « ما كنتم تقولون إذا كان مثلُ هذا فى الجاهلية ؟ » قالوا : كنا نقول يُولَد عظيم ، أو يموت (١٠) عظيم ـ قلت للزهرى: أكان يرمى بها فى الجاهلية ؟ قال : نعم ، ولكن غُلّظت حين بعث النبى ﷺ ـ قال : فقال رسول اللّه ﷺ : « فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته ، ولكن ربنا ، تبارك وتعالى ، إذا قضى أمرا سبح حَمَلَةُ العرش [ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم ، حتى يبلغ التسبيح هذه (١١) الدنيا ، ثم يستخبر أهل السماء الذين يَلُونَ حملة العرش ، فيقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش] (١٢) : ماذا قال ربكم ؟ فيخبرونهم ، ويخبر أهل كل سماء سماء ؛ حتى ينتهى الخبر إلى هذه السماء ، وتخطف الجن السمع فيرمون ، فما جاؤوا به على وجهه فهو حق ، ولكنهم يفرقون فيه ويزيدون .

هكذا رواه الإمام أحمد (١٣) . وقد أخرجه مسلم فى صحيحه ، من حديث صالح بن كَيْسَان ،

---

(١) تفسير الطبرى (٢٢ / ٦٤) .

(٢) فى ت : « قال البخارى عند تفسيره هذه الآية الكريمة فى صحيحه بإسناده عن أبى هريرة » .

(٣) فى أ : « بعضهم » .

(٤) فى أ : « وسدد » .

(٥) فى أ : « الآخر » .

(٦) فى أ : « وكذا ، يوم كذا » .

(٧) صحيح البخارى برقم (٤٨٠٠) وسنن أبى داود برقم (٣٩٨٩) وسنن الترمذى برقم (٣٢٢٣) وسنن ابن ماجه برقم (١٩٤) .

(٨ ، ٩) زيادة من ت ، س ، والمسند .

(١٠) فى ت ، س : « ويموت » .

(١١) فى ت ، س : « السماء » .

(١٢) زيادة من ت ، س ، والمسند .

(١٣) المسند (١ / ٢١٨) .

والأوزاعى ، ويونس ومَعْقِل بن عبيد الله [١] ، أربعتهم عن الزهرى ، عن على بن الحسين ، عن ابن عباس عن رجل من الأنصار ، به [٢] . ورواه وقال يونس : عن رجال من الأنصار [٣] . وكذا رواه النسائى [٤] فى « التفسير » من حديث الزبيدى ، عن الزهرى ، به [٥] . ورواه الترمذى فيه عن الحُسَين بن حريث ؛ عن الوليد بن مسلم ، عن الأوزاعى ، عن الزهرى ، عن عُبَيد الله بن عبد الله ، عن ابن عباس ، عن رجل من الأنصار ، رضى الله عنه [٦] ، والله [٧] أعلم .

حديث آخر : قال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عوف وأحمد بن منصور بن سيار الرمادى ـ والسياق لمحمد بن عوف ـ قالا : حدثنا نعيم بن حماد ، حدثنا الوليد ـ هو ابن مسلم ـ عن عبد الرحمن بن يزيد [٨] بن جابر ، عن عبد الله بن أبي زكرياء ، عن رجاء بن حيوة ، عن النواس بن سَمْعان [٩] قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله أن يوحى بأمره تكلم بالوحى ، فإذا تكلم أخذت السموات منه [١٠] رجفة ـ أو قال : رعدة ـ شديدة ؛ من خوف الله ، فإذا سمع بذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجدا ، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل فيكلمه الله من وحيه بما أراد ، فيمضى به جبريل على الملائكة ، كلما مرّ بسماء سماء سأله ملائكتها : ماذا قال ربنا يا جبريل ؟ فيقول: قال : الحقّ ، وهو العلى الكبير . فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل ، فينتهى جبريل بالوحى حيث أمره الله من السماء والأرض » .

وكذا رواه ابن جرير وابن خُزَيمة ، عن زكريا بن أبان المصرى ، عن نعيم بن حماد ، به [١١] .

قال ابن أبى حاتم : سمعت أبى يقول : ليس هذا الحديث بالشام عن الوليد بن مسلم ، رحمه الله .

وقد روى ابن أبى حاتم من حديث العَوفى ، عن ابن عباس ـــ وعن قتادة : أنهما فسرا هذه الآية بابتداء إيحاء الله سبحانه إلى محمد ﷺ بعد الفترة التى كانت بينه وبين عيسى ، ولا شك أن هذا أولى ما دخل فى هذه الآية .

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٤) قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ

---

(١) فى س : « بن عبد الله » .
(٢ ، ٣) صحيح مسلم برقم (٢٢٢٩) .
(٤) فى ت : « وكذا رواه النسائى والترمذى » .
(٥) سنن الترمذى برقم (٣٢٢٤) .
(٦) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٢٧٢) .
(٧) فى س : « فالله » .
(٨) فى أ : « زيد » .
(٩) فى ت : « حديث آخر رواه ابن جرير بإسناده عن النواس بن سمعان » .
(١٠) فى أ : « منها » .
(١١) تفسير الطبرى (٢٢ / ٦٣) والتوحيد لابن خزيمة ص (٩٥) ورواه ابن أبى عاصم فى السنة برقم (٥١٥) من طريق محمد بن عوف ، عن نعيم بن حماد ، به .

بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦) قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) ﴾ .

يقول تعالى مقررًا تفردَه بالخلق والرزق [١] ، وانفراده بالإلهية أيضا ، فكما كانوا يعترفون بأنه لا يرزقهم من السماء [٢] والأرض ـ أى : بما ينزل من المطر وينبت من الزرع ـ إلا اللّه ، فكذلك فليعلموا أنه لا إله غيره .

وقوله : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ : هذا من باب اللف والنشر ، أى : واحد من الفريقين مبطل ، والآخر محق ، لا سبيل إلى أن تكونوا أنتم ونحن على الهدى أو على الضلال، بل واحد منا مصيب ، ونحن قد أقمنا البرهان على التوحيد ، فدل على بطلان ما أنتم عليه من الشرك باللّه ؛ ولهذا قال : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ .

قال قتادة : قد قال ذلك أصحاب محمد ﷺ للمشركين : واللّه ما نحن وإياكم على أمر واحد ، إن أحد الفريقين لمهتد .

وقال عِكْرِمة وزياد بن أبى مريم : معناه : إنا نحن لعلى هدى ، وإنكم لفى ضلال مبين .

وقوله : ﴿ قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ : معناه : التبرى منهم ، أى : لستم منا ولا نحن منكم ، بل ندعوكم إلى اللّه وإلى توحيده وإفراد العبادة له ، فإن أجبتم فأنتم منا ونحن منكم ، وإن كذبتم فنحن بُرآء منكم وأنتم برآء منا ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِن [٣] كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس : ٤١] ، وقال : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ . وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [سورة الكافرون] .

وقوله : ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ﴾ أى : يوم القيامة ، يجمع [بين] [٤] الخلائق فى صعيد واحد ، ثم يفتح بيننا بالحق ، أى : يحكم بيننا بالعدل ، فيجزى كل عامل بعمله ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر . وستعلمون يومئذ لمن العزة والنصرة والسعادة الأبدية ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ . فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ [الروم : ١٤ ـ ١٦] ؛ ولهذا قال تعالى :﴿ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ أى : الحاكم [٥] العادل العالم بحقائق الأمور .

وقوله : ﴿ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ ﴾ أى : أرونى هذه الآلهة التى جعلتموها للّه أندادا وصيَّرتموها له عدْلا . ﴿ كَلَّا ﴾ أى : ليس له نظير ولا نَديد ، ولا شريك ولا عديل ، ولهذا قال : ﴿ بَلْ هُوَ اللَّهُ ﴾ : أى : الواحد الأحد الذى لا شريك له ﴿ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أى : ذو العزة التى قد قهر

---

(١) فى ت : « بفرضه بالرزق والخلق » . (٢) فى ت ، أ : « السموات » .
(٣) فى هـ ، ت ، س ، أ : « فإن » والصواب ما أثبتناه . (٤) زيادة من ت . (٥) فى ت ، أ : « الحكام » .

بها كل شيء ، وَغَلَبت كل شيء ، الحكيم في أفعاله وأقواله ، وشرعه وقدره ، تعالى وتقدس .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢٨) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٩) قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠) ﴾ .

يقول تعالى لعبده ورسوله محمد،صلوات الله وسلامه عليه [١] : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِّلنَّاسِ**[٢]﴾ : أي : إلا إلى جميع الخلق من المكلفين ، كقوله [٣] تعالى : ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا** ﴾ [الأعراف:١٥٨]، ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا** ﴾ [الفرقان:١]. ﴿ **بَشِيرًا وَنَذِيرًا** ﴾ أي تبشر [٤] من أطاعك بالجنة ، وتنذر من عصاك بالنار .

﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ ، كقوله [٥] تعالى : ﴿ **وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ** ﴾ [يوسف : ١٠٣] ، ﴿ **وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ [الأنعام : ١١٦] .

قال محمد بن كعب في قوله : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِّلنَّاسِ** ﴾ يعني : إلى الناس عامة .

وقال قتادة في هذه الآية : أرسل الله محمدا ﷺ إلى العرب والعجم ، فأكرمُهم على الله أطوعهم لله عز وجل .

وقال ابن أبي حاتم :حدثنا أبو عبد الله الظهراني ،حدثنا حفص بن عمر العَدَني ،حدثنا الحكم ـ يعني : ابن أبان [٦] ـ عن عكْرِمة قال : سمعت ابن عباس يقول : إن الله فضل محمدًا ﷺ على أهل السماء وعلى الأنبياء . قالوا : يا ابن عباس ، فيم فضله الله [٧] على الأنبياء ؟ قال : إن الله قال: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ** ﴾ ، وقال للنبي ﷺ : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِّلنَّاسِ** ﴾ ، فأرسله الله إلى الجن والإنس .

وهذا الذي قاله ابن عباس قد ثبت في الصحيحين رَفْعهُ عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر . وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا ، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل . وأحلت لي الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلي . وأعطيت الشفاعة . وكان النبي يبعث إلى قومه ، وبعثت إلى الناس عامة » [٨] .

وفي الصحيح أيضا أن رسول الله ﷺ قال : « بعثت إلى الأسود والأحمر » [٩] . قال مجاهد : يعني : الجن والإنس . وقال غيره : يعني : العرب والعجم . والكل صحيح .

ثم قال تعالى مخبرا عن الكفار في استبعادهم قيام الساعة : ﴿ **وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ**

---

(١) في ت : « صلى الله عليه وسلم » .
(٢) في ت : « للناس بشيراً » . (٣) في ت ، س : « لقوله » . (٤) في س : « يبشر » .
(٥) في ت : « لقوله » . (٦) في ت : « روى ابن أبي حاتم بإسناده » . (٧) في ت ، س : « فما فضله » .
(٨) صحيح البخاري برقم (٣٣٥) وصحيح مسلم برقم (٥٢١) .
(٩) وهو قطعة من حديث جابر السابق عند مسلم في صحيحه برقم (٥٢١) .

صَادقين ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَق ﴾ الآية [الشورى : ١٨] .

ثم قال : ﴿ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُون ﴾ أى : لكم ميعاد مؤجل معدود محرر ، لا يزداد ولا ينتقص ، فإذا جاء فلا يؤخر ساعة ولا يقدم ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّر ﴾ [نوح : ٤] ، وقال : ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلا لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ . يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيد ﴾ [هود : ١٠٤ ، ١٠٥] .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣) ﴾ .

يخبر تعالى عن تمادى الكفار فى طغيانهم وعنادهم وإصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن وما أخبر به من أمر المعاد ؛ ولهذا قال : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْه ﴾ ، قال الله تعالى متهددا لهم ومتوعدا ، ومخبرا عن مواقفهم الذليلة بين يديه فى حال تخاصمهم وتحاجهم : ﴿ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا ﴾ منهم وهم الأتباع ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ وهم قادتهم وسادتهم : ﴿ لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِين ﴾ أى : لولا أنتم تصدونا ، لكنا اتبعنا الرسل وآمنا بما جاؤونا به . فقال لهم القادة والسادة ، وهم الذين استكبروا : ﴿ أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم ﴾ أى : نحن ما فعلنا بكم [(١)] أكثر من أنَّا دعوناكم فاتبعتمونا من غير [(٢)] دليل ولا برهان ، وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التى جاءت بها الأنبياء ، لشهوتكم واختياركم لذلك ؛ ولهذا قالوا : ﴿ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ . وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَار ﴾ أى : بل كنتم تمكرون بنا ليلا ونهارا ، وتَغُرّونا وتُمَنّونا ، وتخبرونا أنا على هدى وأنا على شىء ، فإذا جميع ذلك باطل وكَذِبٌ ومَيْن .

قال قتادة ، وابن زيد [(٣)] : ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَار ﴾ يقول : بل مكرهم بالليل والنهار . وكذا قال مالك ، عن زيد بن أسلم : مكرهم بالليل والنهار .

﴿ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ﴾ أى نظراء وآلهة معه ، وتقيموا لنا شُبَهاً وأشياءَ من

---

(١) فى س ، أ : « بكم ذلك » . (٢) فى ت ، س ، أ : « بغير » . (٣) فى ت ، أ : « ابن زيد بن أسلم » .

المحال ، تضلونا بها ﴿ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ أى : الجميع من السادة والأتباع ، كُلٌّ نَدم على ما سَلَف منه .

﴿ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ : وهى السلاسل التى تجمع أيديهم مع أعناقهم ، ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١) ﴾ أى : إنما نجازيكم بأعمالكم (٢) ، كُلٌّ بحسبه ، للقادة عذاب بحسبهم ، وللأتباع بحسبهم ﴿ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٨] .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا فَرْوَة بن أبى المغراء ، حدثنا محمد بن سليمان (٣) بن الأصبهانى ، عن أبى سِنان ضرار بن صُرَد ، عن عبد الله بن أبى الهُذَيل (٤) ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن جهنم لما سيق إليها أهلها تَلَقَّاهم لهبها ، ثم لَفَحَتْهُم لفحةً فلم يبق لحم (٥) إلا سقط على العرقوب » (٦) .

وحدثنا (٧) أبى ، حدثنا أحمد بن أبى الحوارى ، حدثنا الطيب أبو الحسن ، عن الحسن بن يحيى الخُشَنى قال : ما فى جهنم دار ولا مغار ولا غل ولا سلسلة ولا قيد ، إلا اسم صاحبها عليه مكتوب. قال : فحدثتُه أبا سليمان ـ يعنى : الدارانى ، رحمة الله عليه (٨) ـ فبكى ثم قال : ويحك . فكيف به لو جمع هذا كله عليه ، فجعل القيد فى رجليه ، والغُلّ فى يديه والسلسلة فى عنقه ، ثم أدخل الدار وأدخل المغار ؟ !

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (٣٨) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩) ﴾ .

يقول تعالى مسليا لنبيه ، وآمرا له بالتأسى بمن قبله من الرسل ، ومخبره بأنه ما بعث نبياً فى قرية إلا كذبه (٩) مترفوها ، واتبعه ضعفاؤهم ، كما قال قوم نوح : ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ ﴾ [الشعراء : ١١١] ، ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ ﴾ [هود : ٢٧] ، وقال الكبراء من قوم صالح : ﴿ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا

---

(١) فى ت ، س : « هل تجزون إلا ما كنتم تعملون » . (٢) فى أ : « نجازيهم بأعمالهم » . (٣) فى أ : « سليم » .
(٤) فى ت : « روى ابن أبى حاتم بإسناده » . (٥) فى ت : « فلم يبق لهم لحم » .
(٦) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٤٨٤٨) « مجمع البحرين » وأبو نعيم فى الحلية (٤ / ٣٦٣) من طرق عن محمد بن سليمان الأصبهانى ، به . وقال الهيثمى فى المجمع (١٠ / ٣٨٩) : « وفيه محمد بن سليمان الأصبهانى وهو ضعيف » .
(٧) فى ت : « وروى » . (٨) فى ت : « رحمه الله » . (٩) فى ت : « إلا كفر به » .

أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [الأعراف ٧٥ ، ٧٦] وقال تعالى : ﴿ **وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ** ﴾ [الأنعام: ٥٣] ؟ وقال : ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا** ﴾ [الأنعام : ١٢٢]، وقال : ﴿ **وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا [فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ]** [١] ﴾ [الإسراء : ١٦]. وقال هاهنا : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ** ﴾ أى : نبى أو رسول ﴿ **إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا** ﴾ ، وهم أولو النعمة والحشمة والثروة والرياسة .

قال قتادة : هم جبَابرتهم وقادتهم ورؤوسهم فى الشر . ﴿ **إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ** ﴾ أى : لا نؤمن به ولا نتبعه .

قال [٢] ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا هارون بن إسحاق ، حدثنا محمد بن عبد الوهاب عن سفيان عن عاصم ، عن أبى رَزين قال : كان رجلان شريكان [٣] خرج أحدهما إلى الساحل وبقى الآخر ، فلما بعث النبى ﷺ كتب إلى صاحبه يسأله : ما فعل ؟ فكتب إليه أنه لم يتبعه أحد من قريش ، إنما [٤] اتبعه أراذل [٥] الناس ومساكينهم . قال : فترك تجارته ثم أتى صاحبه فقال : دلنى عليه ـ قال : وكان يقرأ الكتب ، أو بعض الكتب ـ قال : فأتى النبى ص فقال : إلام تدعو ؟ قال: « إلى كذا وكذا » . قال : أشهد أنك رسول الله . قال : « وما علمك بذلك ؟ » قال : إنه لم يبعث نبى إلا اتبعه رُذَالة الناس ومساكينهم . قال : فنزلت هذه الآية [٦] : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ** ﴾[الآيات] [٧] ، قال : فأرسل إليه النبى ﷺ « إن الله قد أنزل تصديق ما قلت » [٨] .

وهكذا قال هرقل لأبى سفيان حين سأله عن تلك المسائل ، قال فيها : وسألتك : أضعفاء الناس اتبعه أم أشرافهم فزعمت : بل ضعفاؤهم ، وهم أتباع الرسل .

وقوله تعالى إخبارا عن المترفين المكذبين : ﴿ **وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ** ﴾ أى: افتخروا بكثرة الأموال والأولاد ، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله لهم واعتنائه بهم ، وأنه ما كان ليعطيهم هذا فى الدنيا ، ثم يعذبهم فى الآخرة ، وهيهات لهم ذلك . قال الله : ﴿ **أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لا يَشْعُرُونَ** ﴾ [المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦] وقال : ﴿ **فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم** [٩] **بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ** ﴾ [التوبة : ٥٥] ، وقال تعالى : ﴿ **ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا . وَبَنِينَ شُهُودًا . وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا . سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا** ﴾ [المدثر: ١١ ـ ١٧].

---

(١) زيادة من ت . (٢) فى ت : « روى » . (٣) فى ت ، س : « شريكين » .
(٤) فى س : « إلا » . (٥) فى ت ، س : « رذالة » .
(٦) فى ت ، س : « الآيات » . (٧) زيادة من ت ، س .
(٨) ورواه ابن أبي شيبة وابن المنذر كما فى الدر المنثور (٦ / ٧٠٤) ووقع فى الدر : « ابن زيد » بدل : « أبو رزين » .
(٩) فى ت ، س : « أن يعذبهم » .

وقد أخبر اللّه عن صاحب تينك الجنتين : أنه كان ذا مال وولد وثمر ، ثم لم تُغنِ عنه شيئا ، بل سُلب ذلك كله فى الدنيا قبل الآخرة ؛ ولهذا قال تعالى هاهنا : ﴿ **قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ** ﴾ أى : يعطى المال لمن يحب ومن لا يحب ، فيفقر من يشاء ويغنى من يشاء ، وله الحكمة التامة البالغة ، والحجة الدامغة القاطعة ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ .

ثم قال : ﴿ **وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى** ﴾ أى : ليست هذه دليلا على محبتنا لكم ، ولا اعتنائنا بكم .

قال (١) الإمام أحمد ، رحمه اللّه : حدثنا كَثِير ، حدثنا جعفر ، حدثنا يزيد بن الأصم، عن أبى هريرة ، رضى اللّه عنه ، قال : قال سول اللّه ﷺ (٢) : « إن اللّه لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » . [و] (٣) رواه مسلم وابن ماجة ، من حديث كثير بن هشام، عن جعفر ابن بُرْقَان ، به (٤) .

ولهذا قال : ﴿ **إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا** ﴾ أى : إنما يقربكم عندنا زلفى الإيمان والعمل الصالح ، ﴿ **فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا** ﴾ أى : تضاعف (٥) لهم الحسنة بعشرة (٦) أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف ﴿ **وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ** ﴾ أى : فى منازل الجنة العالية آمنون من كل بأس وخوف وأذى ، ومن كل شر يُحذر منه .

قال (٧) ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا فَرْوَة بن أبى المغراء الكندى ، حدثنا القاسم وعلى بن مُسْهِر ، عن عبد الرحمن بن إسحاق ، عن النعمان بن سعد ، عن على ، رضى اللّه عنه ، قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إن فى الجنة لَغرفا ترى ظهورها من بطونها ، وبطونها من ظهورها » . فقال أعرابى : لمن هى ؟ قال : « لمن طيب الكلام ، وأطعم الطعام ، وأدام الصيام ، [وصلى بالليل والناس نيام] (٨) » (٩) .

﴿ **وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ** ﴾ أى : يسعون فى الصد عن سبيل اللّه ، واتباع الرسل والتصديق بآياته ، ﴿ **أُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ** ﴾ أى : جميعهم مَجْزيون بأعمالهم فيها بحسبهم .

وقوله : ﴿ **قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ** ﴾ أى : بحسب مَا لَه فى ذلك من الحكمة ، يبسط على هذا من المال كثيرا ، ويضيق على هذا ويقتر عليه رزقه جدًا ، وله فى ذلك من الحكمة ما لا يدركها غيره ، كما قال تعالى : ﴿ **انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً** ﴾ [الإسراء : ٢١] أى : كما هم متفاوتون فى الدنيا : هذا فقير مدقع ، وهذا غنى

---

(١) فى ت : « كما روى » . (٢) فى ت ، س : « أن رسول الله ﷺ قال » . (٣) زيادة من س .

(٤) المسند (٢ / ٥٣٩) وصحيح مسلم برقم (٢٥٦٤) وسنن ابن ماجه برقم (٤١٤٣) .

(٥) فى س : « يضاعف » . (٦) فى ت ، س ، أ : « بعشر » .

(٧) فى ت : « وروى » . (٨) زيادة من ت ، أ .

(٩) ورواه الترمذى فى السنن برقم (١٩٨٤) من طريق على بن مسهر عن عبد الرحمن بن إسحاق بأطول منه ، وقال : « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن إسحاق ، وقد تكلم أهل الحديث فى عبد الرحمن بن إسحاق هذا من قبل حفظه وهو كوفى » . قلت : وله شواهد من حديث عبد الله بن عمرو وأبى مالك الأشعرى وأبى معانق الأشعرى ، رضى الله عنهم .

مُوَسَّع عليه ، فكذلك هم فى الآخرة : هذا فى الغُرفات فى أعلى الدرجات ، وهذا فى الغَمرَات فى أسفل الدركات . وأطيب الناس فى الدنيا كما قال رسول الله ﷺ : « قد أفلح من أسلم ورُزق كَفَافا، وقَنَّعه الله بما آتاه » . رواه مسلم من حديث ابن عَمْرو (١) .

وقوله : ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ أى : مهما أنفقتم من شىء فيما أمركم به وأباحه لكم، فهو يخلفه عليكم في الدنيا بالبدل ، وفى الآخرة بالجزاء والثواب ، كما ثبت فى الحديث (٢) : « يقول الله تعالى : أنْفق (٣) أنْفق عليك » (٤) . وفى الحديث : أن ملكين يَصيحان كل يوم ، يقول أحدهما : « اللهم أعط مُمْسكا تَلَفًا»، ويقول الآخر : « اللهم أعط منفقا خَلَفًا » (٥) وقال رسول الله ﷺ « أنفق بلالا ، ولا تخشَ من ذى العرش إقلالا » (٦) .

وقال (٧) ابن أبى حاتم عن يزيد بن عبد العزيز الطلاس ، حدثنا هُشَيْم عن الكوثر بن حكيم ، عن مكحول قال : بلغنى عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا إن بعدكم (٨) زمان عضوض ، يعض الموسر على ما فى يده (٩) حذار الإنفاق » . ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ (١٠) .

وقال (١١) الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا روح بن حاتم ، حدثنا هُشَيم ، عن الكوثر بن حكيم، عن مكحول قال : بلغنى عن حذيفة أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا إن بعد زمانكم هذا زمان عضوض ، يعضِ الموسر على ما فى يديه حذار الإنفاق » ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ ، ويَنْهَل شرار الخلق يبايعون كل مضطر ، ألا إن بيع المضطرين حرام ، [ألا أن بيع المضطرين حرام] (١٢) المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يخذله ، إن كان عندك معروف ، فَعُد به على أخيك ، وإلا فلا تَزده هلاكا إلى هلاكه » .

هذا حديث غريب من هذا الوجه ، وفى إسناده ضعف (١٣) .

وقال سفيان الثورى ، عن أبى يونس الحسن بن يزيد قال : قال مجاهد : لا يتأولن أحدكم هذه

(١) صحيح مسلم برقم (١٠٥٤) .
(٢) فى ت : « فى الصحيح » . (٣) فى أ : « ابن آدم أنفق » .
(٤) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٦٨٤) ومسلم فى صحيحه برقم (٩٩٣) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه .
(٥) رواه البخارى فى صحيحه برقم (١٤٤٢) ومسلم فى صحيحه برقم (١٠١٠) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه .
(٦) جاء عن جماعة من الصحابة ، فرواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١ / ٣٤٠) من طريق قيس بن الربيع عن أبى حصين ، عن يحيى ابن وثاب ، عن مسروق عن ابن مسعود ، رضى الله عنه ، وقيس بن الربيع ضعفوه . ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١ / ٣٤٢)، وأبو يعلى فى مسنده (١٠ / ٤٢٩) وأبو نعيم فى الحلية (٢ / ٢٨٠) عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة ، رضى الله عنه . ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١ / ٣٥٩) من طريق أبى إسحاق عن مسروق عن بلال ، رضى الله عنه ، وفيه ابن زبالة وهو ضعيف .
(٧) فى ت : « وروى » . (٨) فى س : « بعدكم هذا زمان » . (٩) فى ت ، س : « يديه » .
(١٠) ذكره السيوطى فى الدر (٦ / ٧٠٧) وقال : « أخرج أبو يعلى وابن أبى حاتم وابن مردويه بسند ضعيف فذكره » .
(١١) فى ت : « وروى » . (١٢) زيادة من ت ، س .
(١٣) ذكره الحافظ ابن حجر فى المطالب العالية (١ / ٢٦١) وعزاه لأبى يعلى فى مسنده .

الآية : ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُه ﴾ : إذا كان عند أحدكم ما يقيمه فليقصد فيه ، فإن الرزق مقسوم .

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ (٤١) فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٢) ﴾ .

يخبر تعالى أنه يقرع المشركين يوم القيامة على رؤوس الخلائق ، فيسأل الملائكة الذين كان المشركون يزعمون أنهم يعبدون الأنداد التى هى على صور الملائكة ليقربوهم إلى الله زلفى ، فيقول للملائكة : ﴿ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُون ﴾ ؟ أى : أنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم ؟ كما قال فى سورة الفرقان: ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيل ﴾ [الفرقان : ١٧] ،وكما يقول لعيسى : ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ [المائدة : ١١٦] . وهكذا تقول الملائكة : ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ أى : تعاليتَ وتقدست عن أن يكون معك إله ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ﴾ أى : نحن عبيدك ونبرأ إليك من هؤلاء ، ﴿ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِن ﴾ يعنون: الشياطين ؛ لأنهم هم الذين [(١)] يزينون لهم عبادة الأوثان ويضلونهم [(٢)] ، ﴿ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ إِن يَدْعُونَ [(٣)] مِن دُونِهِ إِلا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ [(٤)] إِلا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴾ [النساء: ١١٧] . قال الله تعالى : ﴿ فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلا ضَرًّا ﴾ أى : لا يقع لكم نفع ممن كنتم ترجون نفعه اليوم من الأنداد والأوثان ، التى ادخرتم عبادتها لشدائدكم وكُرَبكم ، اليوم لا يملكون لكم نفعا ولا ضرا ، ﴿ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ ـ وهم المشركون ـ ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ أى : يقال لهم ذلك ، تقريعا وتوبيخا .

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلا إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٤٣) وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ (٤٤) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٥) ﴾ .

يخبر تعالى عن الكفار أنهم يستحقون منه العقوبة والأليم من العذاب ؛ لأنهم كانوا إذا تتلى

---

(١) فى هـ : « الشياطين ثم الذين » والمثبت من ت ، س .

(٢) فى س : « ويضلوهم » .

(٣ ، ٤) فى س : « تدعون » .

عليهم آياته بينات يسمعونها غَضَّةً طرية من لسان رسوله [١] ﷺ ، ﴿ قَالُوا مَا هَذَا إِلا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ ﴾ ، يعنون أن دين آبائهم هو الحق ، وأن ما جاءهم به الرسول عندهم باطل ـ عليهم وعلى آبائهم لعائن الله ـ ﴿ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلا إِفْكٌ مُّفْتَرًى ﴾ يعنون : القرآن ، ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴾ أى : ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن ، وما أرسل إليهم نبيًا قبل محمد ﷺ ، وقد كانوا يَوَدّون ذلك ويقولون : لو جاءنا نذير أو أنزل علينا كتاب ، لكنا أهدى من غيرنا ، فلما مَنَّ الله عليهم بذلك كذبوه وعاندوه وجحدوه . ثم قال : ﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أى: من الأمم ، ﴿ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ قال ابن عباس : أى من القوة في الدنيا . وكذلك [٢] قال قتادة ، والسدّى ، وابن زيد . كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الأحقاف : ٢٦] ، ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً ﴾ [غافر : ٨٢] ، أى : وما دفع ذلك عنهم عذاب الله ولا رده ، بل دمر الله عليهم لما كذبوا رسله ؛ ولهذا قال : ﴿ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أى : كيف كان نكالى وعقابى وانتصارى لرسلى [٣] ؟

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦) ﴾ .

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء الكافرين الزاعمين أنك مجنون : ﴿ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ﴾ أى : إنما آمركم بواحدة ، وهى : ﴿ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾ أى : تقوموا قياما خالصًا لله ، من غير هوى ولا عصبية ، فيسأل بعضكم بعضا : هل بمحمد من جنون ؟ فينصح بعضكم بعضا ، ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ أى : ينظر الرجل لنفسه فى أمر محمد ﷺ ، ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه ، ويتفكر فى ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾ .

هذا معنى ما ذكره مجاهد ، ومحمد بن كعب ، والسُّدِّىّ ، وقتادة ، وغيرهم ، وهذا هو المراد من الآية .

فأما الحديث الذى رواه ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا صدقة بن خالد ، حدثنا عثمان بن أبى العاتكة ، عن على بن يزيد ، عن القاسم ، عن أبى أمامة ؛ أن رسول الله ﷺ كان يقول : « أعطيت ثلاثا لم يعطهن مَن قبلى ولا فخر : أحلت لى الغنائم ، ولم تحل لمن قبلى ، كانوا قبلى يجمعون غنائمهم فيحرقونها . وبُعثت إلى كل أحمر وأسود ، وكان كل نبى يبعث

(١) فى ت : « رسول الله » . (٢) فى ت ، س : « وكذا » .
(٣) فى ت : « أى فكيف كان عقابى وانتصارى لرسلى » .

إلى قومه ، وجعلت لى الأرض مسجدًا وطهورًا ، أتيمم بالصعيد ، وأصلى حيث أدركتنى الصلاة ، قال الله : ﴿ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ﴾ ، وأعنت بالرعب مسيرة شهر بين يدى » ـ فهو حديث ضعيف الإسناد ، وتفسير الآية بالقيام فى الصلاة فى جماعة وفرادى بعيد ، ولعله مقحم فى الحديث من بعض الرواة ، فإن أصله ثابت فى الصحاح وغيرها (١) ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ : قال (٢) البخارى عندها :

حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا محمد بن خَازم ، حدثنا الأعمش ، عن عمرو بن مرَّة ، عن سعيد بن جُبَيْر (٣) ، عن ابن عباس قال : صَعدَ النبى ﷺ الصفا ذات يوم ، فقال : « يا صباحاه » . فاجتمعت إليه قريش ، فقالوا : ما لك ؟ فقال : « أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يُصَبّحكم أو يُمَسّيكم، أما كنتم تصدقونى ؟ » قالوا : بلى . قال : « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » . فقال أبو لهب: تبا لك ! ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ [المسد] (٤) .

وقد تقدم عند قوله : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو نعيم ، حدثنا بشير بن المهاجر ، حدثنى عبد الله بن بريدة (٥) ، عن أبيه قال : خرج إلينا رسول الله ﷺ يوما فنادى ثلاث مرات فقال : « أيها الناس ، تدرون ما مثلى ومثلكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « إنما مثلى ومثلكم مثلُ قوم خافوا عدوا يأتيهم، فبعثوا رجلا يتراءى لهم ، فبينما هو كذلك أبصر العدو ، فأقبل لينذرهم وخشى أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه ، فأهوى بثوبه : أيها الناس ، أوتيتم . أيها الناس ، أوتيتم ـ ثلاث مرات » .

وبهذا الإسناد (٦) قال رسول الله ﷺ : « بعثت أنا والساعة جميعًا ، إن كادت لتسبقنى » .

تفرد به الإمام أحمد فى مسنده (٧) .

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٤٧) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٤٨) قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ (٤٩) قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (٥٠) ﴾ .

يقول تعالى آمرًا رسوله أن يقول للمشركين : ﴿ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ﴾ أى : لا أريد منكم جُعلا ولا عَطاء على أداء رسالة الله إليكم ، ونصحى إياكم ، وأمركم بعبادة الله ، ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾ أى : إنما أطلب ثواب ذلك عند الله ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أى : عالم بجميع الأمور، بما أنا عليه من إخبارى عنه بإرساله إياى إليكم ، وما أنتم عليه .

(١) سبق تخريج حديث جابر ، رضى الله عنه ، فى الصحيحين عند تفسير الآية : ٢٨ من هذه السورة .
(٢) فى ت : « روى » . (٣) فى ت : « بإسناده » .
(٤) صحيح البخارى برقم (٤٨٠١) .
(٥) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده عن عبد الله بن زيد » . (٦) فى ت « وبإسناده » .
(٧) المسند (٥ / ٣٤٨) .

وقوله : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [غافر : ١٥] . أى : يرسل الملك إلى من يشاء من عباده من أهل الأرض ، وهو علام الغيوب ، فلا تخفى عليه خافية فى السموات ولا فى الأرض .

وقوله : ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ أى : جاء الحق من الله والشرع العظيم ، وذهبَ الباطل وزهق واضمحل ، كقوله : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ [فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ] [١] ﴾ [الأنبياء : ١٨] ، ولهذا لما دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام يوم الفتح ، ووجد تلك الأصنام منصوبة حول الكعبة ، جعل يَطعُن الصنم [٢] بسيَة قَوْسه ، ويقرأ : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ ، ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ . رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وحده عند هذه الآية ، كلهم من حديث الثورى ، عن ابن أبى نَجِيح ، عن مجاهد ، عن أبى مَعْمَر عبد الله بن سَخبَرَةَ ، عن ابن مسعود ، به [٣] .

أى : لم يبق للباطل مقالة ولا رياسة ولا كلمة .

وزعم قتادة والسدى : أن المراد بالباطل هاهنا إبليس ، أى : إنه لا يخلق أحدا ولا يعيده ، ولا يقدر على ذلك . وهذا وإن كان حقًا ولكن ليس هو المراد هاهنا [٤] ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ﴾ أى : الخير كله من عند الله ، وفيما أنزله عز وجل من الوحى والحق المبين فيه الهدى والبيان والرشاد ، ومن ضل فإنما يضل من تلقاء نفسه ، كما قال عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه ، لما سئل عن تلك المسألة فى المفوَضة : أقول فيها برأيى ، فإن يكن صوابا فمن الله ، وإن يكن خطأ فمنى ومن الشيطان ، والله ورسوله بريئان منه [٥] .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ أى : سميع لأقوال عباده ، قريب يجيب دعوة الداعى إذا دعاه . وقد روى النسائى هاهنا حديث أبي موسى الذى فى الصحيحين [أن رسول الله ﷺ قال] [٦] : «إنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، إنما تدعون سميعا [٧] قريبا مجيبا » [٨] .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٥١) وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٥٢) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٥٣)

---

(١) زيادة من ت . (٢) فى ت ، س ، أ : « الصنم منها » .

(٣) صحيح البخارى برقم (٢٤٧٨ ، ٤٢٨٧) وصحيح مسلم برقم (١٧٨١) وسنن الترمذى برقم (٣١٣٨) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٢٨) .

(٤) فى ت : « الآية » .

(٥) انظر الأثر فى المسند (١ / ٤٧٧) .

(٦) زيادة من ت ، أ . (٧) فى أ : « سميعا بصيرا » .

(٨) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٢٧) وصحيح البخارى برقم (٤٢٠٥) وصحيح مسلم برقم (٢٧٠٤) .

وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ (٥٤) ﴾ .

يقول تعالى : ولو ترى ـ يا محمد ـ إذا فَزِع هؤلاء المكذبون [١] يوم القيامة ، ﴿ فَلا فَوْتَ ﴾ أى: فلا مفر لهم ، ولا وزر ولا ملجأ ﴿ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ أى : لم يكونوا يُمنعون فى الهرب[٢] ، بل أخذوا من أول وهلة .

قال الحسن البصرى : حين خرجوا من قبورهم .

وقال مجاهد ، وعطية العوفى ، وقتادة : من تحت أقدامهم .

وعن ابن عباس والضحاك : يعنى : عذابهم فى الدنيا .

وقال عبد الرحمن بن زيد : يعنى : قتلهم يوم بدر .

والصحيح : أن المراد بذلك يوم القيامة ، وهو الطامة العظمى ، وإن كان ما ذكر متصلا بذلك .

وحكى ابن جرير عن بعضهم قال : إن المراد بذلك جيش يخسف بهم بين مكة والمدينة فى أيام بنى العباس ، ثم أورد فى ذلك حديثا موضوعا بالكلية . ثم لم ينبه على ذلك ، وهذا أمر عجيب غريب منه .

﴿ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ ﴾ أى : يوم القيامة يقولون : آمنا بالله وبكتبه ورسله [٣] ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : ١٢] ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ أى : وكيف لهم تعاطى[٤] الإيمان وقد بعدوا عن محل قبوله منهم وصاروا إلى الدار الآخرة ، وهى دار الجزاء لا دار الابتلاء ، فلو كانوا آمنوا فى الدنيا لكان ذلك نافعهم ، ولكن بعد مصيرهم إلى الدار الآخرة لا سبيل لهم إلى قبول الإيمان ، كما لا سبيل إلى حصول الشىء لمن يتناوله من بعيد .

قال مجاهد : ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ ﴾ قال : التناول لذلك .

وقال الزهرى : التناوش : تناولهم الإيمان وهم فى الآخرة ، وقد انقطعت عنهم الدنيا .

وقال الحسن البصرى : أما إنهم طلبوا الأمر من حيث لا ينال ، تعاطوا الإيمان من مكان بعيد .

وقال ابن عباس : طلبوا الرجعة إلى الدنيا والتوبة مما هم فيه ، وليس بحين [٥] رجعة ولا توبة . وكذا قال محمد بن كعب القرظى ، رحمه الله .

وقوله : ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ ﴾ أى : كيف يحصل لهم الإيمان فى الآخرة ، وقد كفروا بالحق فى الدنيا وكذبوا بالرسل ؟

﴿ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ : قال مالك ، عن زيد بن أسلم : ﴿ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ قال: بالظن .

---

(١) فى ت : « المكذبين » . (٢) فى ت : « لم يمكنوا أى يمنعوا عن الهرب » ، وفى س ، أ : « لم يمكنوا أن يمنعوا فى الهرب » .
(٣) فى ت ، أ : « وبرسله » . (٤) فى ت ، س ، أ : « تعاطى عن » . (٥) فى ت ، أ : « وليس هو حين » .

قلت : كما قال تعالى : ﴿ **رَجْمًا بِالْغَيْبِ** ﴾ [الكهف : ٢٢] ، فتارة يقولون : شاعر . وتارة يقولون : كاهن . وتارة يقولون : ساحر . وتارة يقولون : مجنون . إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة، ويكذبون بالغيب (١) والنشور والمعاد ، ويقولون : ﴿ **إِن نَّظُنُّ إِلا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ** ﴾ [الجاثية : ٣٢] .

قال قتادة : يرجمون بالظن ، لا بعث ولا جنة ولا نار .

وقوله : ﴿ **وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ** ﴾ : قال الحسن البصرى ، والضحاك ، وغيرهما : يعنى: الإيمان .

وقال السُّدِّى : ﴿ **وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ** ﴾ وهى : التوبة . وهذا اختيار ابن جرير ، رحمه الله .

وقال مجاهد : ﴿ **وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ** ﴾ من هذه الدنيا ، من مال وزهرة وأهل . وروى [ذلك] (٢) عن ابن عباس وابن عمر والربيع بن أنس . وهو قول البخارى وجماعة . والصحيح : أنه لا منافاة بين القولين ؛ فإنه قد حيل بينهم وبين شهواتهم فى الدنيا وبين ما طلبوه فى الآخرة ، فمنعوا منه .

وقد ذكر ابن أبى حاتم هاهنا أثرًا غريبا [عجيباً] (٣)جدًا ، فلنذكره بطوله فإنه قال : حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا بشر بن حجر السامى (٤) ، حدثنا على بن منصور الأنبارى ، عن الشَرَقِىّ بن قُطَامى ، عن سعد بن طريف ، عن عكْرِمة ، عن ابن عباس فى قول الله عز وجل : ﴿ **وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ** ﴾ إلى آخر الآية ، قال : كان رجل من بنى إسرائيل فاتحًا ـ أى : فتح الله له مالا ـ فمات فورثه ابن له تافه ـ أى : فاسد ـ فكان يعمل فى مال الله بمعاصى الله . فلما رأى ذلك إخوان أبيه أتوا الفتى فعذلوه ولاموه ، فضجر الفتى فباع عقاره بصامت ، ثم رحل فأتى عينا ثجاجَة فسرَح فيها ماله، وابتنى قصرًا . فبينما هو ذات يوم جالس إذ شمَلت عليه [ريح] (٥) بامرأة من أحسن الناس وجهًا وأطيبهم أرَجا ـ أى : ريحًا ـ فقالت : من أنت يا عبد الله ؟ فقال : أنا امرؤ من بنى إسرائيل. قالت : فلك هذا القصر ، وهذا المال ؟ قال : نعم . قالت : فهل لك من زوجة ؟ قال : لا . قالت: فكيف يَهْنيك العيش ولا زوجة لك ؟ قال : قد كان ذلك . فهل لك من بَعل ؟ قالت : لا . قال : فهل لك إلى أن أتزوجك ؟ قالت : إنى امرأة منك على مسيرة ميل ، فإذا كان غد فتزوّد زاد يوم وائتنى ، وإن رأيت فى طريقك هولا فلا يَهُولَنَّكَ . فلما كان من الغد تزود زاد يوم ، وانطلق فانتهى إلى قصر ، فقرع رتاجه ، فخرج إليه شاب من أحسن الناس وجهًا وأطيبهم أرَجًا ــ أى:ريحًا ــ فقال : من أنت يا عبد الله ؟ فقال : أنا الإسرائيلى . قال : فما حاجتك ؟ قال : دعتنى صاحبة هذا القصر إلى نفسها . قال : صدقت ، فهل رأيت فى طريقك [هولا ؟] (٦) قال : نعم ، ولولا أنها أخبرتنى أن لا بأس علىّ ، لهالنى الذى رأيت ؛ أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل ، إذا أنا بكلبة فاتحة

---

(١) فى ت ، س ، أ : « بالبعث » . (٢) زيادة من ت . (٣) زيادة من س ، أ .
(٤) فى ت : « الشامى » . (٥ ، ٦) زيادة من ت ، س ، والدر المنثور .

فاها ، ففزعت ، فَوَثَبت فإذا أنا من ورائها ، وإذا جراؤها ينبحن فى بطنها . فقال له الشاب : لست تدرك هذا ، هذا يكون فى آخر الزمان ، يقاعد الغلام المشيخة فى مجلسهم ويُبَزّهم حديثهم .

قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل ، إذا أنا بمائة عنز حُفَّل ، وإذا فيها جَدْى يمصّها ، فإذا أتى عليها وظن أنه لم يترك شيئًا ، فتح فاه يلتمس الزيادة . فقال : لست تدرك هذا ، هذا يكون فى آخر الزمان ، ملك يجمع صامت الناس كلّهم ، حتى إذا ظن أنه لم يترك شيئًا فتح فاه يلتمس الزيادة.

قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل إذا أنا بشجر ، فأعجبنى غصن من شجرة منها ناضر ، فأردت قطعه ، فنادتنى شجرة أخرى : « يا عبد اللّه ، منى فخذ » . حتى نادانى الشجر أجمع : « يا عبد اللّه ، منا فخذ » . قال : لست تدرك هذا ، هذا يكون فى آخر الزمان ، يقل الرجال ويكثر (١) النساء ، حتى إن الرجل ليخطب امرأة فتدعوه العشر والعشرون إلى أنفسهن .

قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل إذا أنا برجل قائم على عين ، يغرف لكل إنسان من الماء ، فإذا تَصَدعوا عنه صَبّ فى جَرّته فلم تَعلَق جَرته من الماء بشىء . قال : لست تدرك هذا ، هذا يكون فى آخر الزمان ، القاص يعلم الناس العلم ثم يخالفهم إلى معاصى اللّه .

قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل إذا أنا بعنز ، وإذا بقوم قد أخذوا بقوائمها ، وإذا رجل قد أخذ بقرنيها ، وإذا رجل قد أخذ بذَنَبها ، وإذا رجل (٢) قد ركبها ، وإذا رجل يحلبها . فقال: أما العنز فهى الدنيا ، والذين أخذوا بقوائمها يتساقطون من عيشها ، وأما الذى قد أخذ بقرنيها فهو يعالج من عيشها ضيقًا ، وأما الذى أخذ بذنبها فقد أدبرت عنه ، وأما الذى ركبها (٣) فقد تركها. وأما الذى يحلبها فبَخٍ [بخ] (٤) ، ذهب ذلك (٥) بها .

قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل ، وإذا أنا برجل يمْتح على قَليب ، كلما أخرج (٦) دلوه صبَّه فى الحوض ، فانساب الماء راجعًا إلى القليب . قال : هذا رجل رَدّ اللّه [عليه] (٧) صالح عمله، فلم يقبله .

قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل ، إذا أن برجل يبذُر بذرًا فيستحصد ، فإذا حنطة طيبة. قال : هذا رجل قبل اللّه صالح عمله ، وأزكاه (٨) له .

قال : ثم أقبلت حتى [إذا] (٩) انفرج بى السبيل ، إذا أنا برجل مستلق على قفاه ، قال : يا عبد اللّه ، ادن منى فخذ بيدى وأقعدنى ، فواللّه ما قعدت منذ خلقنى اللّه فأخذت بيده ، فقام يسعى حتى ما أراه . فقال له الفتى : هذا عمْر الأبعد نَفَد ، أنا ملك الموت وأنا المرأة التى أتتك (١٠) . . . أمرنى اللّه بقبض روح الأبعد فى هذا المكان ، ثم أصيره إلى نار جهنم قال : ففيه نزلت هذه : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وبين مَا يَشْتَهُونَ ﴾ الآية .

---

(١) فى ت : « وتكثر » . (٢) فى ت ، س ، أ : « راكب » . (٣) فى ت ، س ، أ : « الذى قد ركبها » .
(٤) زيادة من ت ، س ، أ ، والدر المنثور . (٥) فى ت ، س ، أ : « ذاك » . (٦) فى أ : « فلما أن خرج » .
(٧) زيادة من ت ، س ، أ . (٨) فى أ : « وزكاه » .
(٩) زيادة من ت ، س . (١٠) فى أ : « أتيتك » .

هذا أثر غريب (١) ، وفى صحته نظر ، وتنزيل [هذه] (٢) الآية عليه وفى حقه بمعنى أن الكفار كلهم يتوفون وأرواحهم متعلقة بالحياة الدنيا ، كما جرى لهذا المغرور المفتون ، ذهب يطلب مراده فجاءه الموت فجأة بغتة ، وحيل بينه وبين ما يشتهى .

وقوله : ﴿ **كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ** ﴾ أى : كما جرى للأمم الماضية المكذبة للرسل ، لما جاءهم بأس الله تمنوا أن لو آمنوا فلم يقبل منهم ، ﴿ **فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ** ﴾ [غافر : ٨٤ ، ٨٥] .

وقوله : ﴿ **إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ** ﴾ أى : كانوا فى الدنيا فى شك وريبة ، فلهذا لم يتقبل منهم الإيمان عند معاينة العذاب .

قال قتادة : إياكم والشك والريبة ، فإنه من مات على شك بُعِثَ عليه ، ومن مات على يقين بعث عليه .

آخر تفسير سورة « سبأ » ، ولله الحمد والمنة

(١) الأثر ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٦ / ٧١٦) وعزاه لابن أبى حاتم .
(٢) زيادة من ت .

٣٤ ـــ سورة سبا
(مكية وآياتها أربع وخمسون)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ ٣٤ سبإ

يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٣٤ سبإ

(سورة سبأ مكية وقيل إلا ويرى الذين أوتوا العلم الآية وهى أربع وخمسون آية)

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (الحمد لله الذى له مافى السموات وما فى الأرض) أى له تعالى خلقاً وملكا وتصرفا بالإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة جميع ماوجد فيهما داخلا فى حقيقتهما أو خارجا عنهما متمكناً فيهما فكأنه قيل له جميع المخلوقات كما مر فى آية الكرسى ووصفه تعالى بذلك لتقرير ماأفاده تعليق الحمد المعرف بلام الحقيقة بالاسم الجليل من اختصاص جميع أفراده به تعالى على مابين فى فاتحة الكتاب ببيان تفرده تعالى واستقلاله بما يوجب ذلك وكون كل ماسواه من الموجودات التى من جملتها الإنسان تحت ملكوته تعالى ليس لها فى حد ذاتها استحقاق الوجود فضلا عما عداه من صفاتها بل كل ذلك نعم فائضة عليها من جهته عز وجل فما هذا شأنه فهو بمعزل من استحقاق الحمد الذى مداره الجميل الصادر عن القادر بالاختيار فظهر اختصاص جميع أفراده به تعالى وقوله تعالى (وله الحمد فى الآخرة) بيان لاختصاص الحمد الأخروى به تعالى إثر بيان اختصاص الدنيوى به على أن الجار متعلق إما بنفس الحمد أو بما تعلق به الخبر من الاستقرار وإطلاقه عن ذكر مايشعر بالمحمود عليه ليس للاكتفاء بذكر كونه فى الآخرة عن التعيين كما اكتفى فيما سبق بذكر كون المحمود عليه فى الدنيا عن ذكر كون الحمد أيضاً فيها بل ليعم النعم الأخروية كما فى قوله تعالى الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة وقوله تعالى الذى أحلنا دار المقامة من فضله الآية وما يكون ذريعة إلى نيلها من النعم الدنيوية كما فى قوله تعالى الحمد لله الذى هدانا لهذا أى لما جزاؤه هذا من الإيمان والعمل الصالح والفرق بين الحمدين مع كون نعمتى الدنيا والآخرة بطريق التفضل أن الأول على نهج العبادة والثانى على وجه التلذذ والاغتباط وقد ورد فى الخبر أنهم يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس (وهو الحكيم) الذى أحكم أمور الدين

٢ والدنيا ودبرها حسبما تقتضيه الحكمة (الخبير) ببواطن الأشياء ومكنوناتها وقوله تعالى (يعلم مايلج

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ ٣٤ سبإ

لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ٣٤ سبإ

فى الأرض) الخ تفصيل لبعض ما يحيط به علمه من الأمور التى نيطت بها مصالحهم الدنيوية والدينية أى
يعلم ما يدخل فيها من الغيث والكنوز والدفائن والأموات ونحوها (وما يخرج منها) كالحيوان والنبات *
وماء العيون ونحوها (وما ينزل من السماء) كالملائكة والكتب والمقادير ونحوها وقرىء وما ننزل بالتشديد
ونون العظمة (وما يعرج فيها) كالملائكة وأعمال العباد والأبخرة والأدخنة (وهو الرحيم) للحامدين
٣ على ما ذكر من نعمه (الغفور) للمفرطين فى ذلك بلطفه وكرمه (وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة)
أرادوا بضمير المتكلم جنس البشر قاطبة لا أنفسهم أو معاصريهم فقط كما أرادوا بنفى إتيانها نفى وجودها
بالكلية لا عدم حضورها مع تحققها فى نفس الأمر وإنما عبروا عنه بذلك لأنهم كانوا يوعدون بإتيانها
ولأن وجود الأمور الزمانية المستقبلة لا سيما أجزاء الزمان لا يكون إلا بالإتيان والحضور وقيل هو
استبطاء لإتيانها الموعود بطريق الهزء والسخرية كقولهم متى هذا الوعد (قل بلى) رد لكلامهم وإثبات *
لما نفوه على معنى ليس الأمر إلا إتيانها وقوله تعالى (وربى لتأتينكم) تأكيد له على أتم الوجوه وأكملها
وقرىء ليأتينكم على تأويل الساعة باليوم أو الوقت وقوله تعالى (عالم الغيب) الخ إمداد للتأكيد وتسديد *
له إثر تسديد وكسر لسورة نكيرهم واستبعادهم فإن تعقيب القسم بجلائل نعوت المقسم به على الإطلاق يؤذن
بفخامة شأن المقسم عليه وقوة ثباته وصحته لما أن ذلك فى حكم الاستشهاد على الأمر ولا ريب فى أن المستشهد
به كلما كان أجل وأعلا كانت الشهادة آكد وأقوى والمستشهد عليه أحق بالثبوت وأولى لا سيما إذا خص
بالذكر من النعوت ماله تعلق خاص بالمقسم عليه كما نحن فيه فإن وصفه بعلم الغيب الذى أشهر أفراده
وأدخلها فى الخفاء هو المقسم عليه تنبيه لهم على علة الحكم وكونه مما لا يحوم حوله شائبة ريب ما وفائدة
الأمر بهذه المرتبة من اليمين أن لا يبقى للمعاندين عذر ما أصلا فإنهم كانوا يعرفون أمانته ونزاهته عن
وصمة الكذب فضلا عن اليمين الفاجرة وإنما لم يصدقوه مكابرة وقرىء علام الغيب وعالم الغيب وعالم
الغيوب بالرفع على المدح (لا يعزب عنه) أى لا يبعد وقرىء بكسر الزاى (مثقال ذرة) مقدار أصغر *
نملة (فى السموات ولا فى الأرض) أى كائنة فيهما (ولا أصغر من ذلك) أى من مثقال ذرة (ولا أكبر)
أى منه ورفعهما على الابتداء والخبر قوله تعالى (إلا فى كتاب مبين) هو اللوح المحفوظ والجملة مؤكدة *
لنفى العزوب وقرىء ولا أصغر ولا أكبر بفتح الراء على نفى الجنس ولا يجوز أن يعطف المرفوع على
مثقال ولا المفتوح على ذرة بأنه فتح فى حيز الجر لامتناع الصرف لما أن الاستثناء يمنعه إلا أن يجعل الضمير
فى عنه للغيب ويجعل المثبت فى اللوح خارجا عنه لبروزه للمطالعين له فيكون المعنى لا ينفصل عن الغيب
٤ شىء إلا مسطورا فى اللوح (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات) علة لقوله تعالى لتأتينكم وبيان لما

وَالَّذِينَ سَعَوْ فِي ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ٣٤ سبإ

وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَٰطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾ ٣٤ سبإ

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ ٣٤ سبإ

يقتضى إتيانها (أولئك) إشارة إلى الموصول من حيث اتصافه بما فى حيز الصلة وما فيه من معنى البعد
للإيذان ببعد منزلتهم فى الفضل والشرف أى أولئك الموصوفون بالصفات الجليلة (لهم) بسبب ذلك
(مغفرة) لما فرط منهم من بعض فرطات قلما يخلو عنها البشر (ورزق كريم) لا تعب فيه ولا من عليه
٥ (والذين سعوا فى آياتنا) بالقدح فيها وصد الناس عن التصديق بها (معاجزين) أى مسابقين كى يفوتونا
وقرىء معجزين أى مثبطين عن الإيمان من أراده (أولئك لهم عذاب) الكلام فيه كالذى مر آنفاً ومن
فى قوله تعالى (من رجز) للبيان قال قتادة رضى الله عنه الرجز سوء العذاب وقوله تعالى (أليم) بالرفع
صفة عذاب أى أولئك الساعون لهم عذاب من جنس سوء العذاب شديد الإيلام وقرىء أليم بالجر
٦ صفة لرجز (ويرى الذين أوتوا العلم) أى يعلم أولو العلم من أصحاب رسول الله ﷺ ومن يشايعهم من
علماء الأمة أو من آمن من علماء أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب وأضرابهما رضى الله عنهم
(الذى أنزل إليك من ربك) أى القرآن (هو الحق) بالنصب على أنه مفعول ثان ليرى والمفعول
الأول هو الموصول الثانى وهو ضمير الفصل وقرىء بالرفع على الابتداء والخبر والجملة هو المفعول الثانى
ليرى وقوله تعالى ويرى الخ مستأنف مسوق للاستشهاد بأولى العلم على الجهلة الساعين فى الآيات وقيل
منصوب عطفاً على يجزى أى وليعلم أولو العلم عند مجىء الساعة معاينة أنه الحق حسبما علموه الآن برهاناً
ويحتجوا به على المكذبين وقد جوز أن يراد بأولى العلم منهم من يؤمن من الأحبار أى ليعلموا يومئذ أنه
هو الحق فيزدادوا حسرة وغماً (ويهدى) عطف على الحق عطف الفعل على الاسم لأنه فى تأويله كما فى
قوله تعالى صافات ويقبض أى وقابضات كأنه قيل ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك الحق وهادياً
(إلى صراط العزيز الحميد) الذى هو التوحيد والتدرع بلباس التقوى وقيل مستأنف وقيل حال من الذى
٧ أنزل على إضمار مبتدأ أى وهو يهدى كما فى قول من قال [نجوت وأرهنهم مالكا] (وقال الذين كفروا)
هم كفار قريش قالوا مخاطباً بعضهم لبعض (هل ندلكم على رجل) يعنون به النبى ﷺ وإنما قصدوا
بالتنكير الطنز والسخرية قاتلهم الله تعالى (ينبئكم) أى يحدثكم بعجب عجاب وقرىء ينبئكم من الإنباء
(إذا مزقتم كل ممزق) أى إذا متم ومزقت أجسادكم كل تمزيق وفرقت كل تفريق بحيث صرتم تراباً ورفاتاً
(إنكم لفى خلق جديد) أى مستقرون فيه عدل إليه عن الجملة الفعلية الدالة على الحدوث مثل تبعثون أو

أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ ٣٤ سبإ

أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ٣٤ سبإ

تخلقون خلقاً جديداً للإشباع فى الاستبعاد والتعجب وكذلك تقديم الظرف والعامل فيه مادل عليه
المذكور لانفسه لما أن مابعد إن لا يعمل فيما قبلها والجديد فعيل بمعنى فاعل من جد فهو جديد وقل فهو
٨ قليل وقيل بمعنى مفعول من جد النساج الثوب إذا قطعه ثم شاع (أفترى على الله كذباً) فيما قاله (أم به
جنة) أى جنون يوهمه ذلك ويلقيه على لسانه والاستدلال بهذا الترديد على أن بين الصدق والكذب
واسطة هو مالا يكون من الأخبار عن بصيرة بين الفساد لظهور كون الافتراء أخص من الكذب (بل
الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد) جواب من جهة الله تعالى عن ترديدهم الوارد على
طريقة الاستفهام بالإضراب عن شقيه وإبطالهما وإثبات قسم ثالث كاشف عن حقيقة الحال ناع عليهم
سوء حالهم وابتلاءهم بما قالوا فى حقه ﷺ كأنه قيل ليس الأمر كما زعموا بل هم فى كمال اختلال العقل
وغاية الضلال عن الفهم والإدراك الذى هو الجنون حقيقة وفيما يؤدى إليه ذلك من العذاب ولذلك
يقولون مايقولون وتقديم العذاب على ما يوجبه ويستتبعه للمسارعة إلى بيان مايسوؤهم ويفت فى أعضادهم
والإشعار بغاية سرعة ترتبه عليه كأنه يسابقه فيسبقه ووصف الضلال بالبعد الذى هو وصف الضال للمبالغة
ووضع الموصول موضع ضميرهم للتنبيه بما فى حيز الصلة على أن علة ما ارتكبوه واجترءوا عليه من الشناعة
٩ الفظيعة كفرهم بالآخرة ومافيها من فنون العقاب ولولاها لما فعلوا ذلك خوفاً من غائلته وقوله تعالى (أفلم يروا
إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض) استئناف مسوق لتهويل مااجترءوا عليه من تكذيب
آيات الله تعالى واستعظام ماقالوا فى حقه ﷺ وأنه من العظائم الموجبة لنزول أشد العقاب وحلول أفظع
العذاب من غير ريث وتأخير والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام وقوله تعالى (إن نشأ) الخ بيان لما
ينبىء عنه ذكر إحاطتهما بهم من المحذور المتوقع من جهتهما وفيه تنبيه على أنه لم يبق من أسباب وقوعه
إلا تعلق المشيئة به أى أفعلوا مافعلوا من المنكر الهائل المستتبع للعقوبة فلم ينظروا إلى ما أحاط بهم من
جميع جوانبهم بحيث لامفر لهم عنه ولامحيص إن نشأ جرياً على موجب جناياتهم (نخسف بهم الأرض)
كما خسفناها بقارون (أو نسقط عليهم كسفاً) أى قطعاً (من السماء) كما أسقطناها على أصحاب الأيكة
لاستيجابهم ذلك بما ارتكبوه من الجرائم وقيل هو تذكير بما يعاينونه مما يدل على كمال قدرته وما يحتمل
فيه إزاحة لاستحالتهم البعث حتى جعلوه افتراء وهزءاً وتهديد عليها والمعنى أعموا فلم ينظروا إلى
ما أحاط بجوانبهم من السماء والأرض ولم يتفكروا أهم أشد خلقاً أم هى وإن نشأ نخسف بهم الأرض
أو نسقط عليهم كسفاً لتكذيبهم بالآيات بعد ظهور البينات فتأمل وكن على الحق المبين وقرىء يخسف

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَـٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ ٣٤ سبإ

أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ٣٤ سبإ

ويسقط بالياء لقوله تعالى أفترى على الله وكسفاً بسكون السين (إن فى ذلك) أى فيما ذكر من السماء والأرض من حيث إحاطتهما بالناظر من جميع الجوانب أو فيما تلى من الوحى الناطق بما ذكر (لآية) واضحة (لكل عبد منيب) شأنه الإنابة إلى ربه فإنه إذا تأمل فيهما أو فى الوحى المذكور ينزجر عن تعاطى

١٠ القبائح وينيب إليه تعالى وفيه حث بليغ على التوبة والإنابة وقد أكد ذلك بقوله تعالى (ولقد آتينا داود منا فضلا) أى آتيناه لحسن إنابته وصحة توبته فضلا على سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أى نوعا من الفضل وهو ما ذكر بعد فإنه معجزة خاصة به ﷺ أو على سائر الناس فيندرج فيه النبوة والكتاب والملك والصوت الحسن فتنكيره للتفخيم ومنا لتأكيد فخامته الذاتية بفخامته الإضافية كما فى قوله تعالى وآتيناه من لدنا علماً وتقديمه على المفعول الصريح للاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر فإن ما حقه التقديم إذا أخر تبقى النفس مترقبة له فإذا وردها يتمكن عندها فضل تمكن (ياجبال أوبى معه) من التأويب أى رجعى معه التسبيح أو النوحة على الذنب وذلك إما بأن يخلق الله تعالى فيها صوتاً مثل صوته كما خلق الكلام فى الشجرة أو بأن يتمثل له ذلك وقرىء أوبى من الأوب أى ارجعى معه فى التسبيح كلما رجع فيه وكان كلما سبح عليه الصلاة والسلام يسمع من الجبال ما يسمع من المسبح معجزة له عليه الصلاة والسلام وقيل كان ينوح على ذنبه بترجيع وتحزين وكانت الجبال تسعده على نوحه بأصدائها والطير بأصواتها وهو بدل من آتينا بإضمار قلنا أو من فضلا بإضمار قولنا (والطير) بالنصب عطفاً على فضلا بمعنى وسخرنا له الطير لأن إيتاءها إياه عليه الصلاة والسلام تسخيرها له فلا حاجة إلى إضماره كما نقل عن الكسائى ولا إلى تقدير مضاف أى تسبيح الطير كما نقل عنه فى رواية وقيل عطفاً على محل الجبال وفيه من التكلف لفظاً ومعنى ما لا يخفى وقرىء بالرفع عطفاً على لفظها تشبيهاً للحركة البنائية العارضة بالحركة الإعرابية وقد جوز انتصابه على أنه مفعول معه والأول هو الوجه وفى تنزيل الجبال والطير منزلة العقلاء المطيعين لأمره تعالى المذعنين لحكمه المشعر بأنه ما من حيوان وجماد وصامت وناطق إلا وهو منقاد لمشيئته غير ممتنع على إرادته من الفخامة المعربة عن غاية عظمة شأنه تعالى وكمال كبرياء سلطانه ما لا يخفى على أولى الألباب (وألنا له الحديد) أى جعلناه ليناً فى نفسه كالشمع يصرفه فى يده كيف يشاء من غير إحماء بنار ولا ضرب بمطرقة أو جعلناه بالنسبة إلى قوته التى آتيناها إياه ليناً كالشمع

١١ بالنسبة إلى سائر القوى البشرية (أن اعمل) أمرناه أن اعمل على أن أن مصدرية حذف عنها الباء وفى حملها على المفسرة تكلف لا يخفى (سابغات) واسعات وقرىء صابغات وهى الدروع الواسعة الضافية وهو عليه الصلاة والسلام أول من اتخذها وكانت قبل صفائح قالوا كان عليه الصلاة والسلام حين ملك على بنى إسرائيل يخرج متنكراً فيسأل الناس ما تقولون فى داود فيثنون عليه فقيض الله تعالى له ملكا فى

وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ
يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ ٣٤ سبإ
يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ
شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ٣٤ سبإ

صورة آدمى فسأله على عادته فقال نعم الرجل لولا خصلة فيه فريغ داود فسأله عنها فقال لولا أنه يطعم
عياله من بيت المال فعند ذلك سأل ربه أن يسبب له مايستغنى به عن بيت المال فعلمه تعالى صنعة الدروع
وقيل كان يبيع الدروع بأربعة آلاف فينفق منها على نفسه وعياله ويتصدق على الفقراء (وقدر فى السرد) ٭
السرد نسج الدروع أى اقتصد فى نسجها بحيث تتناسب حلقها وقيل قدر فى مساميرها فلا تعملها دقاقا
ولا غلاظاً وورد بأن دروعه عليه الصلاة والسلام لم تكن مسمرة كما ينبىء عنه إلانة الحديد وقيل معنى
قدر فى السرد لاتصرف جميع أوقاتك إليه بل مقدار مايحصل به القوت وأما الباقى فاصرفه إلى العبادة
وهو الأنسب بقوله تعالى (واعملوا صالحاً) عمم الخطاب حسب عموم التكليف له عليه الصلاة والسلام ٭
ولأهله (إنى بما تعملون بصير) تعليل الأمر أو لوجوب الامتثال به (ولسليمان الريح) أى وسخرنا له ١٢
الريح وقرىء برفع الريح أى ولسليمان الريح مسخرة وقرىء الرياح (غدوها شهر ورواحها شهر) أى
جريها بالغداة مسيرة شهر وجريها بالعشى كذلك والجملة إما مستأنفة أو حال من الريح وقرىء غدوتها
وروحتها وعن الحسن رحمه الله كان يغدو أى من دمشق فيقيل باصطخر ثم يروح فيكون رواحه بكابل
وقيل كان يتغدى بالرى ويتعشى بسمرقند ويحكى أن بعضهم رأى مكتوباً فى منزل بناحية دجلة كتبه بعض
أصحاب سليمان عليه السلام نحن نزلناه ومابنيناه ومبنيا وجدناه غدونا من اصطخر فقلناه ونحن رائحون منه
فبائتون بالشأم إن شاء الله تعالى (وأسلنا له عين القطر) أى النحاس المذاب أساله من معدنه كما ألان الحديد ٭
لداود عليهما السلام فنبع منه نبوع الماء من الينبوع ولذلك سمى عيناً وكان ذلك باليمن وقيل كان يسيل
فى الشهر ثلاثة أيام وقوله تعالى (ومن الجن من يعمل بين يديه) إما جملة من مبتدأ وخبر أو من يعمل ٭
عطف على الريح ومن الجن حال متقدمة (بإذن ربه) بأمره تعالى كما ينبىء عنه قوله تعالى (ومن يزغ منهم
عن أمرنا) أى ومن يعدل منهم عما أمرناه به من طاعة سليمان وقرىء يزغ على البناء للمفعول من أزاغه
(نذقه من عذاب السعير) أى عذاب النار فى الآخرة وروى عن السدى رحمه الله كان معه ملك بيده سوط
من نار كل من استعصى عليه ضربه من حيث لايراه الجنى (يعملون له مايشاء) تفصيل لما ذكر من عملهم ١٣
وقوله تعالى (من محاريب) الخ بيان لما يشاء أى من قصور حصينة ومساكن شريفة سميت بذلك لأنها يذب
عنها ويحارب عليها وقيل هى المساجد (وتماثيل) وصور الملائكة والأنبياء عليهم الصلاة والسلام على ٭
مااعتادوه فإنها كانت تعمل حينئذ فى المساجد ليراها الناس ويعبدوا مثل عبادتهم وحرمة التصاوير شرع
جديد وروى أنهم عملوا أسدين فى أسفل كرسيه ونسرين فوقه فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان ذراعيهما

فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ
ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ٣٤ سبإ

وإذا قعد أظله النسران بأجنحتهما (وجفان) جمع جفنة وهي الصفحة (كالجواب) كالحياض الكبار جمع جابية من الجباية لاجتماع الماء فيها وهي من الصفات الغالبة كالدابة وقرىء بإثبات الياء قيل كان يقعد على الجفنة ألف رجل (وقدور راسيات) ثابتات على الأثافي لا تنزل عنها لعظمها (اعملوا آل داود شكراً) حكاية لما قيل لهم وشكراً نصب على أنه مفعول له أو مصدر لاعملوا لأن العمل للمنعم شكر له أو لفعله المحذوف أي اشكروا شكراً أو حال أي شاكرين أو مفعول به أي اعملوا شكراً (وقليل من عبادي الشكور) أي المتوفر على أداء الشكر بقلبه ولسانه وجوارحه أكثر أوقاته ومع ذلك لا يوفي حقه لأن التوفيق للشكر نعمة تستدعي شكراً آخر لا إلى نهاية ولذلك قيل الشكور من يرى عجزه عن الشكر وروى أنه عليه الصلاة والسلام جزأ ساعات الليل والنهار على أهله فلم تكن تأتي ساعة من الساعات إلا
١٤ وإنسان من آل داود قائم يصلي (فلما قضينا عليه الموت) أي على سليمان عليه السلام (ما دلهم) أي الجن أو آله (على موته إلا دابة الأرض) أي الأرضة أضيفت إلى فعلها وقرىء بفتح الراء وهو تأثر الخشبة من فعلها يقال أرضت الأرضة الخشبة أرضا فأرضت أرضاً مثل أكلت القوارح أسنانه أكلا فأكلت أكلا (تأكل منسأته) أي عصاه من نسأت البعير إذا طردته لأنها يطرد بها ما يطرد وقرىء منساته بألف ساكنة بدلا من الهمزة وبهمزة ساكنة وبإخراجها بين بين عند الوقف ومنساءته على مفعالة كميضاءة في ميضأة ومن ساته أي من طرف عصاه من سأة القوس وفيه لغتان كما في قحة بالكسر والفتح وقرىء أكلت منساته (فلما خر تبينت الجن) من تبينت الشيء إذا علمته بعد التباسه عليك أي علمت الجن علماً بيناً بعد التباس الأمر عليهم (أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين) أي أنهم لو كانوا يعلمون الغيب كما يزعمون لعلموا موته عليه الصلاة والسلام حينما وقع فلم يلبثوا بعده حولا في تسخيره إلى أن خر أو من تبين الشيء إذا ظهر وتجلى أي ظهرت الجن وأن مع ما في حيزها بدل اشتمال من الجن أي ظهر أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب الخ وقرىء تبينت الجن على البناء للمفعول على أن المتبين في الحقيقة هو أن مع ما في حيزها لأنه بدل وقرىء تبينت الإنس والضمير في كانوا للجن في قوله تعالى ومن الجن من يعمل وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه تبينت الإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب روى أن داود عليه السلام أسس بنيان بيت المقدس في موضع فسطاط موسى فتوفي قبل تمامه فوصى به إلى سليمان عليهما السلام فاستعمل فيه الجن والشياطين فباشروه حتى إذا حان أجله وعلم به سأل ربه أن يعمى عليهم موته حتى يفرغوا منه ولتبطل دعواهم علم الغيب فدعاهم فبنوا عليه صرحاً من قوارير ليس له باب فقام يصلي متكئاً على عصاه فقبض روحه وهو متكىء عليها فبقي كذلك وهم فيما أمروا به من الأعمال حتى أكلت الأرضة عصاه فخر ميتاً وكانت الشياطين تجتمع حول محرابه

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ ٣٤ سبإ

فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ٣٤ سبإ

أينما صلى عليه الصلاة والسلام فلم يكن ينظر إليه شيطان فى صلاته إلا احترق فمر به يوما شيطان فنظر فإذا سليمان عليه السلام قد خر ميتاً ففتحوا عنه فإذا عصاه قد أكلها الأرضة فأرادوا أن يعرفوا وقت موته فوضعوا الأرضة على العصا فأكلت منها فى يوم وليلة مقداراً فحسبوا على ذلك فوجدوه قدمات منذ سنة وكان عمره ثلاثاً وخمسين سنة ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة وبقى فى ملكه أربعين سنة وابتدأ بناء
١٥ بيت المقدس لأربع مضين من ملكه (لقد كان لسبأ) بيان لأخبار بعض الكافرين بنعم الله تعالى إثر بيان أحوال الشاكرين لها أى لأولاد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان وقرىء بمنع الصرف على أنه اسم القبيلة وقرىء بقلب الهمزة ألفاً ولعله إخراج لها بين بين (فى مسكنهم) وقرىء بكسر الكاف كالمسجد * وقرىء بلفظ الجمع أى مواضع سكناهم وهى باليمن يقال لها مأرب بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليال (آية) دالة بملاحظة أحوالها السابقة واللاحقة على وجود الصانع المختار القادر على كل مايشاء من الأمور * البديعة المجازى للمحسن والمسىء معاضدة للبرهان السابق كما فى قصتى داود وسليمان عليهما السلام (جنتان) بدل من آية أو خبر لمبتدأ محذوف أى هى جنتان وفيه معنى المدح ويؤيده قراءة النصب على المدح * والمراد بهما جماعتان من البساتين (عن يمين وشمال) جماعة عن يمين بلدهم وجماعة عن شماله كل واحدة من تينك الجماعتين فى تقاربهما وتضامهما كأنهما جنة واحدة أو بستاناً كل رجل منهم عن يمين مسكنه وعن شماله (كلوا من رزق ربكم واشكروا له) حكاية لما قيل لهم على لسان نبيهم تكميلا للنعمة وتذكيراً لحقوقها أو لمانطق به لسان الحال أو بيان لكونهم أحقاء بأن يقال لهم ذلك (بلدة طيبة ورب غفور) * استئناف مبين لما يوجب الشكر المأمور به أى بلدتكم بلدة طيبة وربكم الذى رزقكم مافيها من الطيبات وطلب منكم الشكر رب غفور لفرطات من يشكره وقرىء الكل بالنصب على المدح قيل كان أطيب البلاد هواء وأخصبها وكانت المرأة تخرج وعلى رأسها المكتل فتعمل بيديها وتسير فيما بين الأشجار فيمتلىء
١٦ المكتل مما يتساقط فيه من الثمار ولم يكن فيه من مؤذيات الهوام شىء (فأعرضوا) عن الشكر بعد إبانة الآيات الداعية لهم إليه قيل أرسل الله إليهم ثلاثة عشر نبياً فدعوهم إلى الله تعالى وذكروهم بنعمه وأنذروهم عقابه فكذبوهم (فأرسلنا عليهم سيل العرم) أى سيل الأمر العرم أى الصعب من عرم الرجل فهو عارم وعرم إذا شرس خلقه وصعب أو المطر الشديد وقيل العرم جمع عرمة وهى الحجارة المركومة وقيل هو السكر الذى يحبس الماء وقيل هو اسم للبناء الذى يجعل سداً وقيل هو البناء الرصين الذى بنته الملكة بلقيس بين الجبلين بالصخر والقار وحقنت به ماء العيون والأمطار وتركت فيه خروقا على ما يحتاجون إليه فى

ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ٣٤ سبإ

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ ٣٤ سبإ

سقيهم وقيل العرم الجرذ الذي نقب عليهم ذلك السد وهو الفأر الأعمى الذي يقال له الخلد سلطه الله تعالى على سدهم فنقبه فغرق بلادهم وقيل العرم اسم الوادي وقرىء العرم بسكون الراء. قالوا كان ذلك في الفترة التي كانت بين عيسى والنبي عليهما الصلاة والسلام (وبدلناهم بجنتيهم) أي أذهبنا جنتيهم وآتيناهم بدلهما (جنتين ذواتى أكل خمط) أي ثمر بشع فإن الخمط كل نبت أخذ طعما من مرارة حتى لا يمكن أكله وقيل هو الحامض والمر من كل شيء وقيل هو ثمرة شجرة يقال لها فسوة الضبع على صورة الخشخاش لا ينتفع بها وقيل هو الأراك أو كل شجر ذي شوك والتقدير أكل أكل خمط لحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه وقرىء أكل خمط بالإضافة وبتخفيف أكل (وأثل وشيء من سدر قليل) معطوفان على أكل لا على خمط فإن الأثل هو الطرفاء. وقيل شجر يشبهه أعظم منه ولا ثمر له وقرىء وأثلا وشيئا عطفا على جنتين قيل وصف السدر بالقلة لما أن جناه وهو النبق مما يطيب أكله ولذلك يغرس في البساتين والصحيح أن السدر صنفان صنف يؤكل من ثمره وينتفع بورقه لغسل اليد وصنف له ثمرة عفصة لا تؤكل أصلا ولا ينتفع بورقه وهو الضال والمراد ههنا هو الثاني حتما وقال قتادة كان شجرهم خير الشجر فصيره الله تعالى من شر

١٧ الشجر بأعمالهم وتسمية البدل جنتين للمشاكلة والتهكم (ذلك) إشارة إلى مصدر قوله تعالى (جزيناهم) أو إلى ما ذكر من التبديل ومافيه من معنى البعد للإيذان ببعد رتبته في الفظاعة ومحله على الأول النصب على أنه مصدر مؤكد للفعل المذكور وعلى الثاني النصب على أنه مفعول ثان له أي ذلك الجزاء الفظيع جزيناهم لا جزاء آخر أو ذلك التبديل جزيناهم لا غيره (بما كفروا) بسبب كفرانهم النعمة حيث نزعناها منهم ووضعنا مكانها ما ضادها أو بسبب كفرهم بالرسل (وهل نجازى إلا الكفور) أي وما نجزى هذا الجزاء إلا المبالغ في الكفران أو الكفر وقرىء يجازى على البناء للفاعل وهو الله عز وجل وهل يجازى على البناء للمفعول ورفع الكفور وهل يجزى على البناء للمفعول أيضاً وهذا بيان ما أوتوا من النعم الحاضرة

١٨ في مساكنهم وما فعلوا بها من الكفران وما فعل بهم من الجزاء وقوله تعالى (وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها) حكاية لما أوتوا من النعم البادية في مسايرهم ومتاجرهم وما فعلوا بها من الكفران وما حاق بهم بسبب ذلك تكملة لقصتهم وبيانا لعاقبتهم وإنما لم يذكر الكل معاً لما في التثنية والتكرير من زيادة تنبيه وتذكير وهو عطف على كان لسبأ لا على ما بعده من الجمل الناطقة بأفعالهم أو بأجزيتها أي وجعلنا مع ما آتيناهم في مساكنهم من فنون النعم بينهم أي بين بلادهم وبين القرى الشامية التي باركنا فيها للعالمين (قرى ظاهرة) متواصلة يرى بعضها من بعض لتقاربها فهي ظاهرة لأعين أهلها أو راكبة متن الطريق ظاهرة للسابلة غير بعيدة عن مسالكهم حتى تخفى عليهم (وقدرنا فيها السير) أي جعلناها في نسبة بعضها

فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿١٩﴾ ٣٤ سبإ

إلى بعض على مقدار معين يليق بحال أبناء السبيل قيل كان الغادى من قرية يقيل فى أخرى والرائح منها يبيت فى أخرى إلى أن يبلغ الشام كل ذلك كان تكميلا لما أوتوا من أنواع النعماء وتوفيراً لها فى الحضر والسفر (سيروا فيها) على إرادة القول أى وقلنا لهم سيروا فى تلك القرى (ليالى وأياماً) أى متى شئتم من الليالى والأيام (آمنين) من كل ماتكرهونه لايختلف الأمن فيها باختلاف الأوقات أو سيروا فيها آمنين وإن تطاولت مدة سفركم وامتدت ليالى وأياما كثيرة أو سيروا فيها ليالى أعماركم وأيامها لاتلقون فيها إلا الأمن لكن لاعلى الحقيقة بل على تنزيل تمكينهم من السير المذكور وتسوية مباديه وأسبابه على الوجه المذكور منزلة أمرهم بذلك (فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا) وقرىء ياربنا بطروا النعمة ١٩
وسئموا أطيب العيش وملوا العافية فطلبوا الكد والتعب كما طلب بنو إسرائيل الثوم والبصل مكان المن والسلوى وقالوا لو كان جنى جناننا أبعد لكان أجدر أن نشتهيه وسألوا أن يجعل الله تعالى بينهم وبين الشام مفاوز وقفاراً ليركبوا فيها الرواحل ويتزودوا الأزواد ويتطاولوا فيها على الفقراء فعجل الله تعالى لهم الإجابة بتخريب تلك القرى المتوسطة وجعلها بلقعا لايسمع فيها داع ولا مجيب وقرىء بعدور بنا بعد بين أسفارنا وبعد بين أسفارنا على النداء وإسناد الفعل إلى بين ورفعه به كما يقال سير فرسخان وبوعد بين أسفارنا وقرىء ربنا باعد بين أسفارنا وبين سفرنا وبعد برفع ربنا على الابتداء والمعنى على خلاف الأول وهو استبعاد مسايرهم مع قصرها أو دنوها وسهولة سلوكها لفرط تنعمهم وغاية ترفههم وعدم اعتدادهم بنعم الله تعالى كأنهم يتشاجون على الله تعالى ويتحازنون عليه (وظلموا أنفسهم) حيث عرضوها للسخط والعذاب حين بطروا النعمة أو غمطوها (فجعلناهم أحاديث) أى جعلناهم بحيث يتحدث الناس بهم متعجبين من أحوالهم ومعتبرين بعاقبتهم ومآلهم (ومزقناهم كل ممزق) أى فرقناهم كل تفريق على أن الممزق مصدر أو كل مطرح ومكان تفريق على أنه اسم مكان وفى عبارة التمزيق الخاص بتفريق المتصل وخرقه من تهويل الأمر والدلالة على شدة التأثير والإيلام مالا يخفى أى مزقناهم تمزيقاً لاغاية وراءه بحيث يضرب به الأمثال فى كل فرقة ليس بعدها وصال حتى لحق غسان بالشام وأنمار بيثرب وجذام بتهامة والأزد بعمان وأصل قصتهم على مارواه الكلبى عن أبى صالح أن عمرو بن عامر من أولاد سبأ وبينهما اثنى عشر أبا وهو الذى يقال له مزيقيا بن ماء السماء أخبرته طريفة الكاهنة بخراب سد مأرب وتفريق سيل العرم الجنتين وعن أبى زيد الأنصاوى أن عمرا رأى جرذا يحفر السد فعلم أنه لا بقاء له بعد وقيل إنه كان كاهناً وقد علمه بكهانته فباع أملاكه وسار بقومه وهم ألوف من بلد إلى بلد حتى انتهى إلى مكة المعظمة وأهلها جرهم وكانوا قهروا الناس وحازوا ولاية البيت على بنى إسمعيل عليه السلام وغيرهم فأرسل إليهم ثعلبة بن عمرو ابن عامر يسألهم المقام معهم إلى أن يرجع إليه رواده الذين أرسلهم إلى أصقاع البلاد يطلبون له موضعاً

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ ٣٤ سبإ

وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ ٣٤ سبإ

يسعه ومن معه من قومه فأبوا فاقتتلوا ثلاثة أيام فانهزمت جرهم ولم يفلت منهم إلا الشريد وأقام ثعلبة بمكة وما حولها فى قومه وعساكره حولا فأصابتهم الحمى فاضطروا إلى الخروج وقد رجع إليه رواده فافترقوا فرقتين فرقة توجهت نحو عمان وهم الأزد وكندة وحمير ومن يتلوهم وسار ثعلبة نحو الشأم فنزل الأوس والخزرج ابنا حارثة بن ثعلبة بالمدينة وهم الأنصار ومضت غسان فنزلوا بالشأم وانخزعت خزاعة بمكة فأقام بها ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر وهو لحى فولى أمر مكة وحجابة البيت ثم جاءهم أولاد إسمعيل عليه السلام فسألوهم السكنى معهم وحولهم فأذنوا لهم فى ذلك وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن فروة بن مسيك الغطيفى سأل النبى ﷺ عن سبأ فقال ﷺ هو رجل كان له عشرة أولاد ستة منهم سكنوا اليمن وهم مذحج وكندة والأزد والأشعريون وحمير وأنمار منهم بجيلة وخثعم وأربعة منهم سكنوا الشأم وهم لخم وجذام وعاملة وغسان لما هلكت أموالهم وخربت بلادهم تفرقوا أيدى سبأ شذر مذر فنزلت طوائف منهم بالحجاز فمنهم خزاعة نزلوا بظاهر مكة ونزلت الأوس والخزرج بيثرب فكانوا أول من سكنها ثم نزل عندهم ثلاث قبائل من اليهود بنو قينقاع وبنو قريظة والنضير فخالفوا الأوس والخزرج وأقاموا عندهم ونزلت طوائف أخر منهم بالشأم وهم الذين تنصروا فيما بعد وهم غسان وعاملة ولخم وجذام وتنوخ وتغلب وغيرهم وسبأ تجمع هذه القبائل كلها والجمهور على أن جميع العرب قسمان قحطانيـة وعدنانية والقحطانية شعبان سبأ وحضرموت والعدنانيـة شعبان ربيعة ومضر وأما قضاعة فمختلف فيها بعضهم ينسبونها إلى قحطان وبعضهم إلى عدنان والله تعالى أعلم (إن فى ذلك) أى فيما ذكر من قصتهم (لآيات) عظيمة (لكل صبار شكور) أى شأنه الصبر عن الشهوات ودواعى الهوى

٢٠ وعلى مشاق الطاعات والشكر على النعم وتخصيص هؤلاء بذلك لأنهم المنتفعون بها (ولقد صدق عليهم إبليس ظنه) أى حقق عليهم ظنه أو وجده صادقا وقرىء بالتخفيف أى صدق فى ظنه أو صدق بظن ظنه ويجوز تعدية الفعل إليه بنفسه لأنه نوع من القول وقرىء بنصب إبليس ورفع الظن مع التشديد بمعنى وجده ظنه صادقا ومع التخفيف بمعنى قال له الصدق حين خيل له إغواءهم وبرفعهما والتخفيف على الإبدال وذلك إما ظنه بسبأ حين رأى انهماكهم فى الشهوات أو ببنى آدم حين شاهد آدم عليه السلام قد أصغى إلى وسوسته قال إن ذريته أضعف منه عزما وقيل ظن ذلك عند إخبار الله تعالى الملائكة أنه يجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء وقال لأضلنهم ولأغوينهم (فاتبعوه) أى أهل سبأ أو الناس (إلا فريقا من المؤمنين) إلا فريقا هم المؤمنون لم يتبعوه على أن من بيانية وتقليلهم بالإضافة إلى

٢١ الكفار أو إلا فريقا من فرق المؤمنين لم يتبعوه وهم المخلصون (وما كان له عليهم من سلطان) أى تسلط

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ ٣٤ سبإ

وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ٣٤ سبإ

واستيلاء بالوسوسة والاستواء وقوله تعالى (إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك) استثناء * مفرغ من أعلم العلل ومن موصولة أى وما كان تسلطه عليهم إلا ليتعلق علمنا بمن يؤمن بالآخرة متميزاً ممن هو فى شك منها تعلقاً حالياً يترتب عليه الجزاء أو إلا ليتميز المؤمن من الشاك أو إلا ليؤمن من قدر إيمانه ويشك من قدر ضلاله والمراد من حصول العلم حصول متعلقه مبالغة (وربك على كل شىء حفيظ) أى
٢٢ محافظ عليه فإن فعيلا ومفاعلا صيغتان متآخيتان (قل) أى للمشركين إظهاراً لبطلان ماهم عليه وتبكيتاً لهم (ادعوا الذين زعمتم) أى زعمتموهم آلهة وهما مفعولا زعم ثم حذف الأول تخفيفاً لطول الموصول بصلته والثانى لقيام صفته أعنى قوله تعالى (من دون الله) مقامه ولا سبيل إلى جعله مفعولا ثانياً لأنه لا يلتئم مع الضمير * كلاما وكذا لا يملكون لأنهم لا يزعمونه والمعنى ادعوهم فيما يهمكم من جلب نفع أو دفع ضر لعلهم يستجيبون لكم إن صح دعواكم ثم أجاب عنهم إشعاراً بتعين الجواب وأنه لا يقبل المكابرة فقال (لا يملكون مثقال ذرة) من خير وشر ونفع وضر (فى السموات ولا فى الأرض) أى فى أمر ما من * الأمور وذكرهما للتعميم عرفا أو لأن آلهتهم بعضها سماوية كالملائكة والكواكب وبعضها أرضية كالأصنام أو لأن الأسباب القريبة للخير والشر سماوية وأرضية والجملة استئناف لبيان حالهم (وما لهم) * أى لآلهتهم (فيهما من شرك) أى شركة لا خلقاً ولا ملكا ولا تصرفا (وما له) أى لله تعالى (منهم) من
٢٣ آلهتهم (من ظهير) يعينه فى تدبير أمرهما (ولا تنفع الشفاعة عنده) أى لا توجد رأساً كما فى قوله [ولا ترى الضب بها ينجحر] لقوله تعالى من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه وإنما علق النفى بنفعها لا بوقوعها تصريحاً بنفى ماهو غرضهم من وقوعها وقوله تعالى (إلا لمن أذن له) استثناء مفرغ من أعم الأحوال أى * لا تقع الشفاعة فى حال من الأحوال إلا كائنة لمن أذن له فى الشفاعة من النبيين والملائكة ونحوهم من المستأهلين لمقام الشفاعة فتبين حرمان الكفرة منها بالكلية أما من جهة أصنامهم فلظهور انتفاء الإذن لها ضرورة استحالة الإذن فى الشفاعة لجماد لا يعقل ولا ينطق وأما من جهة من يعبدونه من الملائكة فلأن إذنهم مقصور على الشفاعة للمستحقين لها لقوله تعالى لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ومن البين أن الشفاعة للكفرة بمعزل من الصواب أو لا تنفع الشفاعة من الشفعاء المستأهلين لها فى حال من الأحوال إلا كائنة لمن أذن له أى لأجله وفى شأنه من المستحقين للشفاعة وأما من عداهم من غير المستحقين لها فلا تنفعهم اصلا وإن فرض وقوعها وصدورها عن الشفعاء إذ لم يؤذن لهم فى شفاعتهم بل فى شفاعة غيرهم فعلى هذا يثبت حرمانهم من شفاعة هؤلاء بعبارة النص ومن شفاعة الأصنام بدلالته إذ حيث

قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ٣٤ سبأ

حرموها من جهة القادرين على شفاعة بعض المحتاجين إليها فلأن حرموها من جهة العجزة عنها أولى وقرىء أذن له مبنياً للمفعول (حتى إذا فزع عن قلوبهم) أى قلوب الشفعاء والمشفوع لهم من المؤمنين وأما الكفرة فهم من موقف الاستشفاع بمعزل وعن التفزيع عن قلوبهم بألف منزل والتفزيع إزالة الفزع ثم ترك ذكر الفزع وأسند الفعل إلى الجار والمجرور وحتى غاية لما ينبىء عنه ماقبلها من الإشعار بوقوع الإذن لمن أذن له فإنه مسبوق بالاستئذان المستدعى للترقب والانتظار للجواب كأنه سئل كيف يؤذن لهم فقيل يتربصون فى موقف الاستئذان والاستدعاء ويتوقفون على أوجل وفزع ملياً حتى إذا أزيل الفزع عن قلوبهم بعد اللتيا والتى وظهرت لهم تباشير الإجابة (قالوا) أى المشفوع لهم إذ هم المحتاجون إلى الإذن والمهتمون بأمره (ماذا قال ربكم) أى فى شأن الإذن (قالوا) أى الشفعاء لأنهم المباشرون للاستئذان بالذات المتوسطون بينهم وبينه عز وجل بالشفاعة (الحق) أى قال ربنا القول الحق وهو الإذن فى الشفاعة للمستحقين لها وقرىء الحق مرفوعا أى ماقاله الحق (وهو العلى الكبير) من تمام كلام الشفعاء قالوه اعترافا بغاية عظمة جناب العزة عز وجل وقصور شأن كل من سواه أى هو المتفرد بالعلو والكبرياء ليس لأحد من أشراف الخلائق أن يتكلم إلا بإذنه وقرىء فزع مخففاً بمعنى فزع وقرىء فزع على البناء للفاعل وهو الله وحده وقرىء فرغ بالراء المهملة والغين المعجمة أى نفى الوجل عنها وأفنى من فرغ الزاد إذا لم يبق منه شىء وهو من الإسناد المجازى لأن الفراغ وهو الخلو حال ظرفه عند نفاده فأسند إليه على عكس قولهم جرى النهر وعن الحسن تخفيف الراء وأصله فرغ الرجل عنها أى انتفى عنها وفنى ثم حذف الفاعل وأسند إلى الجار والمجرور وبه يعرف حال التفريغ وقرىء ارتفع عن قلوبهم بمعنى
٢٤ انكشف عنها (قل من يرزقكم من السموات والأرض) أمر ﷺ بتبكيت المشركين بحملهم على الإقرار بأن آلهتهم لايملكون مثقال ذرة فيهما وأن الرازق هو الله تعالى فإنهم لاينكرونه كما ينطق به قوله تعالى قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله وحيث كانوا يتلعثمون أحياناً فى الجواب مخافة الإلزام قيل له ﷺ (قل الله) إذ لاجواب سواه عندهم أيضاً (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) أى وإن أحد الفريقين من الذين يوحدون المتوحد بالرزق والقدرة الذاتية ويخصونه بالعبادة والذين يشركون به فى العبادة الجماد النازل فى أدنى المراتب الإمكانية لعلى أحد الأمرين من الهدى والضلال المبين وهذا بعد ماسبق من التقرير البليغ الناطق بتعيين من هو على الهدى ومن هو فى الضلال أبلغ من التصريح بذلك لجريانه على سنن الإنصاف المسكت للخصم الألد وقرىء وإنا أو إياكم إما على هدى أو فى ضلال مبين واختلاف الجارين للإيذان بأن الهادى كمن استعلى مناراً ينظر الأشياء ويتطلع

قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ ٣٤ سبإ

قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ ٣٤ سبإ

قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ٣٤ سبإ

وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ٣٤ سبإ

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ ٣٤ سبإ

قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ ٣٤ سبإ

٢٥ عليها والضال كأنه منغمس فى ظلام لا يرى شيئاً أو محبوس فى مطمورة لا يستطيع الخروج منها (قل
لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون) وهذا أبلغ فى الإنصاف وأبعد من الجدل والاعتساف
حيث أسند فيه الإجرام وإن أريد به الزلة وترك الأولى إلى أنفسهم ومطلق العمل إلى المخاطبين مع أن
٢٦ أعمالهم أكبر الكبائر (قل يجمع بيننا ربنا) يوم القيامة عند الحشر والحساب (ثم يفتح بيننا بالحق) أى
يحكم بيننا ويفصل بعد ظهور حال كل منا ومنكم بأن يدخل المحقين الجنة والمبطلين النار (وهو الفتاح) الحاكم
٢٧ الفيصل فى القضايا المنغلقة (العليم) بما ينبغى أن يقضى به (قل أرونى الذين ألحقتم) أى ألحقتموهم (به
شركاء) أريد بأمرهم بإراءة الأصنام مع كونها بمرأى منه ﷺ إظهار خطئهم العظيم وإطلاعهم على بطلان
رأيهم أى أرونيها لأنظر بأى صفة ألحقتموها بالله الذى ليس كمثله شيء فى استحقاق العبادة وفيه مزيد
تبكيت لهم بعد إلزام الحجة عليهم (كلا) ردع لهم عن المشاركة بعد إبطال المقايسة (بل هو الله العزيز *
الحكيم) أى الموصوف بالغلبة القاهرة والحكمة الباهرة فأين شركاؤكم التى هى أخس الأشياء وأذلها من
٢٨ هذه الرتبة العالية والضمير إما لله عز وعلا أو للشأن كما فى قل هو الله أحد (وما أرسلناك إلا كافة للناس)
أى إلا إرسالة عامة لهم فإنها إذا عمتهم فقد كفتهم أن يخرج منها أحد منهم أو إلا جامعاً لهم فى الإبلاغ فهى حال
من الكاف والتاء للمبالغة ولا سبيل إلى جعلها حالا من الناس لاستحالة تقدم الحال على صاحبها المجرور (بشيراً
ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ذلك فيحملهم جهلهم على ماهم عليه من الغى والضلال (ويقولون) من
٢٩ فرط جهلهم وغاية غيهم (متى هذا الوعد) بطريق الاستهزاء يعنون به المبشر به والمنذر عنه أو الموعود
٣٠ بقوله تعالى يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا (إن كنتم صادقين) مخاطبين لرسول الله ﷺ والمؤمنين به (قل لكم
ميعاد يوم) أى وعد يوم أو زمان وعد والإضافة للتبيين وقرىء ميعاد يوم منونين على البدل ويوماً بإضمار
أعنى للتعظيم (لا تستأخرون عنه) عند مفاجأته (ساعة ولا تستقدمون) صفة لميعاد وفى هذا الجواب من
المبالغة فى التهديد ما لا يخفى حيث جعل الاستئخار فى الاستحالة كالاستقدام الممتنع عقلا وقد مر بيانه مراراً
ويجوز أن يكون نفى الاستئخار والاستقدام غير مقيد بالمفاجأة فيكون وصف الميعاد بذلك لتحقيقه

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ ٣٤ سبإ

قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ ٣٤ سبإ

وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ٣٤ سبإ

---

٣١ وتقريره (وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه) أى من الكتب القديمة الدالة على البعث وقيل إن كفار مكة سألوا أهل الكتاب عن رسول الله ﷺ فأخبروهم أنهم يجدون نعته فى كتبهم فغضبوا فقالوا ذلك وقيل الذى بين يديه القيامة (ولو ترى إذ الظالمون) المنكرون للبعث (موقوفون عند ربهم) أى فى موقف المحاسبة (يرجع بعضهم إلى بعض القول) أى يتحاورون ويتراجعون القول (يقول الذين استضعفوا) بدل من يرجع الخ أى يقول الأتباع (للذين استكبروا) فى الدنيا واستتبعوهم فى الغى والضلال (لولا أنتم) أى لولا إضلالكم وصدكم لنا عن الإيمان (لكنا مؤمنين) باتباع الرسول ﷺ

٣٢ (قال الذين استكبروا للذين استضعفوا) استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا قال الذين استكبروا فى الجواب فقيل قالوا (أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين) منكرين لكونهم هم الصادين لهم عن الإيمان مثبتين أنهم هم الصادون بأنفسهم بسبب كونهم راسخين فى الإجرام

٣٣ (وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا) إضراباً عن إضرابهم وإبطالا له (بل مكر الليل والنهار) أى بل صدنا مكركم بنا بالليل والنهار فحذف المضاف إليه وأقيم مقامه الظرف اتساعا أو جعل ليلهم ونهارهم ماكرين على الإسناد المجازى وقرىء بل مكرا الليل والنهار بالتنوين ونصب الظرفين أى بل صدنا مكركم فى الليل والنهار على أن التنوين عوض عن المضاف إليه أو مكر عظيم على أنه للتفخيم وقرىء بل مكر الليل والنهار بالرفع والنصب أى تكرون الإغواء مكراً دائباً لا تفترون عنه فالرفع على الفاعلية أى بل صدنا مكركم الإغواء فى الليل والنهار على ماسبق من الاتساع فى الظرف بإقامته مقام المضاف إليه والنصب على المصدرية أى بل تكرون الإغواء مكر الليل والنهار أى مكراً دائماً وقوله تعالى (إذ تأمروننا) ظرف للمكر أى بل مكركم الدائم وقت أمركم لنا (أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً) على أن المراد بمكرهم إما نفس أمرهم بما ذكر كما فى قوله تعالى ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء

وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ ٣٤ سبإ

وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ ٣٤ سبإ

قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ٣٤ سبإ

وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ
جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ ٣٤ سبإ

وجعلكم ملوكا فإن الجعلين المذكورين نعمة من الله تعالى وأى نعمة وأما أمور أخر مقارنة لأمرهم
داعية إلى الامتثال به من الترغيب والترهيب وغير ذلك (وأسروا الندامة لما رأوا العذاب) أى أضمر
الفريقان الندامة على مافعلا من الضلال والإضلال وأخفاها كل منهما عن الآخر مخافة التعيير أو أظهروها
فإنه من الأضداد وهو المناسب لحالهم (وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا) أى فى أعناقهم والإظهار
فى موضع الإضمار للتنويه بذمهم والتنبيه على موجب أغلالهم (هل يجزون إلا ماكانوا يعملون) أى
٣٤ لايجزون إلا جزاء ماكانوا يعملون أو إلا بما كانوا يعملونه على نزع الجار (وما أرسلنا فى قرية) من
القرى (من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون) تسلية لرسول الله ﷺ عما منى به من قومه
من التكذيب والكفر بما جاء به والمنافسة بكثرة الأموال والأولاد والمفاخرة بحظوظ الدنيا وزخارفها
والتكبر بذلك على المؤمنين والاستهانة بهم من أجله وقولهم أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا بأنه
لم يرسل قط إلى أهل قرية من نذير إلا قال مترفوهم مثل ماقال مترفو أهل مكة فى حقه ﷺ وكادوا به نحو
ماكادوا به ﷺ وقاسوا أمور الآخرة الموهومة والمفروضة عندهم على أمور الدنيا وزعموا أنهم لو لم
يكرموا على الله تعالى لما رزقهم طيبات الدنيا ولولا أن المؤمنين هانوا عليه تعالى لما حرمهموها وعلى ذلك
٣٥ الرأى الركيك بنوا أحكامهم (وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين) إما بناء على انتفاء
العذاب الأخروى رأساً أو على اعتقاد أنه تعالى أكرمهم فى الدنيا فلا يهينهم فى الآخرة على تقدير وقوعها
٣٦ (قل) رداً عليهم وحسما لمادة طمعهم الفارغ وتحقيقاً للحق الذى عليه يدور أمر التكوين (إن ربى يبسط
الرزق لمن يشاء) أن يبسطه له (ويقدر) على من يشاء أن يقدره عليه من غير أن يكون لأحد من الفريقين
داع إلى ما فعل به من البسط والقدر فربما يوسع على العاصى ويضيق على المطيع وربما يعكس الأمر
وربما يوسع عليهما معاً وقد يضيق عليهما وقد يوسع على شخص تارة ويضيق عليه أخرى يفعل كلا
من ذلك حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم البالغة فلا يقاس على ذلك أمر الثواب والعذاب اللذين
مناطهما الطاعة وعدمها وقرىء ويقدر بالتشديد (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ذلك فيزعمون أن
مدار البسط هو الشرف والكرامة ومدار القدر هو الهوان ولا يدرون أن الأول كثيراً ما يكون
٣٧ بطريق الاستدراج والثانى بطريق الابتلاء ورفع الدرجات (وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم

وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ ٣٤ سبإ

قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ ٣٤ سبإ

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ ٣٤ سبإ

عندنا زلفى) كلام مستأنف من جهته عز وعلا خوطب به الناس بطريق التلوين والالتفات مبالغة فى تحقيق الحق وتقرير ما سبق أى وما جماعة أموالكم وأولادكم بالجماعة التى تقربكم عندنا قربة فإن الجمع المكسر عقلاؤه وغير عقلائه سواء فى حكم التأنيث أو بالخصلة التى تقربكم وقرىء بالذى أى بالشىء الذى
(إلا من آمن وعمل صالحاً) استثناء من مفعول تقربكم أى وما الأموال والأولاد تقرب أحداً إلا المؤمن الصالح الذى أنفق أمواله فى سبيل الله تعالى وعلم أولاده الخير ورباهم على الصلاح ورشحهم للطاعة
وقيل من أموالكم وأولادكم على حذف المضاف أى إلا أموال من الخ (فأولئك) إشارة إلى من والجمع باعتبار معناها كما أن الإفراد فى الفعلين باعتبار لفظها وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه
للإيذان بعلو رتبتهم وبعد منزلتهم فى الفضل أى فأولئك المنعوتون بالإيمان والعمل الصالح (لهم جزاء الضعف) أى ثابت لهم ذلك على أن الجار والمجرور خبر لما بعده والجملة خبر لأولئك وفيه تأكيد لتكرر الإسناد أو يثبت لهم ذلك على أن الجار والمجرور خبر لأولئك وما بعده مرتفع على الفاعلية وإضافة الجزاء إلى الضعف من إضافة المصدر إلى المفعول أصله فأولئك لهم أن يجازوا الضعف ثم جزاء الضعف ثم جزاء الضعف ومعناه أن تضاعف لهم حسناتهم الواحدة عشراً فما فوقها وقرىء جزاء الضعف على فأولئك لهم الضعف جزاء وجزاء الضعف على أن يجازوا الضعف وجزاء الضعف بالرفع على أن الضعف بدل من جزاء (بما عملوا) من الصالحات (وهم فى الغرفات) أى غرفات الجنة (آمنون)
٣٨ من جميع المكاره وقرىء بفتح الراء وسكونها وقرىء فى الغرفة على إرادة الجنس (والذين يسعون فى آياتنا) بالرد والطعن فيها (معاجزين) سابقين لأنبيائنا أو زاعمين أنهم يفوتوننا (أولئك فى العذاب
٣٩ محضرون) لا يجديهم ما عولوا عليه نفعاً (قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده) أى يوسعه عليه تارة (ويقدر له) أى يضيقه عليه تارة أخرى فلا تخشوا الفقر وأنفقوا فى سبيل الله وتعرضوا لنفحاته تعالى (وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه) عوضاً إما عاجلا وإما آجلا (وهو خير الرازقين) فإن غيره
٤٠ واسطة فى إيصال رزقه لا حقيقة لرازقيته (ويوم يحشرهم جميعاً) أى المستكبرين والمستضعفين وما كانوا يعبدون من دون الله ويوم ظرف لمضمر متأخر سيأتى تقديره أو مفعول لمضمر مقدم نحو اذكر
(ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون) تقريعاً للمشركين وتبكيتاً لهم على نهج قوله تعالى أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الخ وإقناطاً لهم عما علقوا به أطماعهم الفارغة من شفاعتهم وتخصيص الملائكة

قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ٣٤ سبإ

فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي
كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾
٣٤ سبإ

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ
ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا
سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾
٣٤ سبإ

لأنهم أشرف شركائهم والصالحون للخطاب منهم ولأن عبادتهم مبدأ الشرك فبظهور قصورهم عن
رتبة المعبودية وتنزههم عن عبادتهم يظهر حال سائر شركائهم بطريق الأولوية وقرىء الفعلان بالنون
٤١ (قالوا) استئناف مبني على سؤال نشأ من حكاية سؤال الملائكة كأنه قيل فماذا يقول الملائكة حينئذ فقيل
يقولون متنزهين عن ذلك (سبحانك أنت ولينا من دونهم) والعدول إلى صيغة الماضي للدلالة على التحقق
أي أنت الذي نواليه من دونهم لا موالاة بيننا وبينهم كأنهم بينوا بذلك براءتهم من الرضا بعبادتهم ثم
أضربوا عن ذلك ونفوا أنهم عبدوهم حقيقة بقولهم (بل كانوا يعبدون الجن) أي الشياطين حيث أطاعوهم في
عبادة غير الله سبحانه وتعالى وقيل كانوا يتمثلون لهم ويخيلون لهم أنهم الملائكة فيعبدونهم وقيل يدخلون
أجواف الأصنام إذا عبدت فيعبدون بعبادتها (أكثرهم بهم مؤمنون) الضمير الأول للإنس أو للمشركين
٤٢ والأكثر بمعنى الكل والثاني للجن (فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعاً ولا ضراً) من جملة ما يقال للملائكة
عند جوابهم بالتنزه والتبرؤ عما نسب إليهم الكفرة يخاطبون بذلك على رءوس الأشهاد إظهاراً لعجزهم
وقصورهم عند عبدتهم وتنصيصاً على ما يوجب خيبة رجائهم بالكلية والفاء ليست لترتيب ما بعدها من
الحكم على جواب الملائكة فإنه محقق أجابوا بذلك أم لا بل لترتيب الإخبار به عليه ونسبة عدم النفع
والضر إلى البعض المبهم للمبالغة فيما هو المقصود الذي هو بيان عدم نفع الملائكة للعبدة بنظمه في سلك
عدم نفع العبدة لهم كأن نفع الملائكة لعبدتهم في الاستحالة والانتفاء كنفع العبدة لهم والتعرض لعدم
الضر مع أنه لا بحث عنه أصلا إما لتعميم العجز أو لحمل عدم النفع على تقدير العبادة وعدم الضر على
تقدير تركها أو لأن المراد دفع الضر على حذف المضاف وتقييد هذا الحكم بذلك اليوم مع ثبوته على
* الإطلاق لانعقاد رجائهم على تحقق النفع يومئذ وقوله عز وجل (ونقول للذين ظلموا) عطف على نقول
للملائكة لا على لا يملك كما قيل فإنه مما يقال يوم القيامة خطاباً للملائكة مترتباً على جوابهم المحكي وهذا
حكاية لرسول الله ﷺ لما سيقال للعبدة يومئذ إثر حكاية ما سيقال للملائكة أي يوم نحشرهم جميعاً ثم
نقول للملائكة كذا وكذا ويقولون كذا وكذا ونقول للمشركين (ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها
٤٣ تكذبون) يكون من الأهوال والأحوال ما لا يحيط به نطاق المقال وقوله تعالى (وإذا تتلى عليهم آياتنا

وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ ٣٤ سبإ

وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ٣٤ سبإ

قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ ٣٤ سبإ

بينات) بيان لبعض آخر من كفرانهم أى إذا تتلى عليهم بلسان الرسول ﷺ آياتنا الناطقة بحقية
التوحيد وبطلان الشرك (قالوا ماهذا) يعنون رسول الله ﷺ (إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد
آباؤكم) فيستتبعكم بما يستدعيه من غير أن يكون هناك دين إلهى وإضافة الآباء إلى المخاطبين لا إلى أنفسهم
لتحريك عرق العصبية منهم مبالغة فى تقريرهم على الشرك وتنفيرهم عن التوحيد (وقالوا ماهذا) يعنون
القرآن الكريم (إلا إفك) أى كلام مصروف عن وجهه لا مصداق له فى الواقع (مفترى) بإسناده إلى الله
تعالى (وقال الذين كفروا للحق) أى لأمر النبوة أو الإسلام أو القرآن على أن العطف لاختلاف العنوان
بأن يراد بالأول معناه وبالثانى نظمه المعجز (لما جاءهم) من غير تدبر ولا تأمل فيه (إن هذا إلا سحر مبين)
ظاهر سحريته وفى تكرير الفعل والتصريح بذكر الكفرة وما فى اللامين من الإشارة إلى القائلين والمقول
٤٤ فيه وما فى لما من المسارعة إلى البت بهذا القول الباطل إنكار عظيم له وتعجيب بليغ منه (وما آتيناهم من
كتب يدرسونها) فيها دليل على صحة الإشراك كما فى قوله تعالى أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا
به يشركون وقوله تعالى أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون وقرىء يدرسونها ويدرسونها
بتشديد الدال يفتعلون من الدرس (وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير) يدعوهم إليه وينذرهم بالعقاب إن
لم يشركوا وقد بان من قبل أن لا وجه له بوجه من الوجوه فمن أين ذهبوا هذا المذهب الزائغ وهذا غاية
٤٥ تجهيل لهم وتسفيه لرأيهم ثم هددهم بقوله تعالى (وكذب الذين من قبلهم) من الأمم المتقدمة والقرون الخالية
كما كذبوا (وما بلغوا معشار ما آتيناهم) أى ما بلغ هؤلاء عشر ما آتينا أولئك من القوة وطول العمر
وكثرة المال أو ما بلغ أولئك عشر ما آتينا هؤلاء من البينات والهدى (فكذبوا رسلى) عطف على كذب
الذين الخ بطريق التفصيل والتفسير كقوله تعالى كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا الخ (فكيف كان
٤٦ نكير) أى إنكارى لهم بالتدمير فليحذر هؤلاء من مثل ذلك (قل إنما أعظكم بواحدة) أى ما أرشدكم
وأنصح لكم إلا بخصلة واحدة هى مادل عليه قوله تعالى (أن تقوموا لله) على أنه بدل منها أو بيان لها أو
خبر مبتدأ محذوف أى هى أن تقوموا من مجلس رسول الله ﷺ أو تنتصبوا للأمر خالصاً لوجه الله
تعالى معرضاً عن المماراة والتقليد (مثنى وفرادى) أى متفرقين اثنين اثنين وواحداً واحداً فإن الازدحام
يشوش الأفهام ويخلط الأفكار بالأوهام وفى تقديم مثنى إيذان بأنه أوثق وأقرب إلى الاطمئنان (ثم

قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ ٣٤ سبإ

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ ٣٤ سبإ

قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ ٣٤ سبإ

قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ ٣٤ سبإ

تتفكروا) فى أمره ﷺ وما جاء به لتعلموا حقيقته وحقيته وقوله تعالى (مابصاحبكم من جنة) استئناف مسوق من جهته تعالى للتنبيه على طريقة النظر والتأمل بأن مثل هذا الأمر العظيم الذى تحته ملك الدنيا والآخرة لا يتصدى لا دعائه إلا مجنون لا يبالى بافتضاحه عند مطالبته بالبرهان وظهور عجزه أو مؤيد من عند الله مرشح للنبوة واثق بحجته وبرهانه وإذقد علمتم أنه ﷺ أرجح العالمين عقلا وأصدقهم قولا وأنزههم نفساً وأفضلهم علماً وأحسنهم عملا وأجمعهم للكمالات البشرية وجب أن تصدقوه فى دعواه فكيف وقد انضم إلى ذلك معجزات تخر لها صم الجبال ويجوز أن يتعلق بما قبله على معنى ثم تتفكروا فتعلموا مابصاحبكم من جنة وقد جوز أن تكون ما استفهامية على معنى ثم تتفكروا أى شىء به من آثار الجنون (إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد) هو عذاب الآخرة فإنه ﷺ مبعوث فى نسم الساعة
٤٧ (قل ماسألتكم من أجر) أى أى شىء سألتكم من أجر على الرسالة (فهو لكم) والمراد نفى السؤال رأساً كقول من قال لمن لم يعطه شيئاً إن أعطيتنى شيئاً فخذه وقيل ماموصولة أريد بها ماسألهم بقوله تعالى ماأسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا وقوله تعالى لاأسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى واتخاذ السبيل إليه تعالى منفعتهم الكبرى وقرباه ﷺ قرباهم (إن أجرى إلا على الله وهو على كل شىء شهيد) مطلع يعلم صدقى وخلوص نيتى وقرىء إن أجرى بسكون الياء (قل إن ربى يقذف بالحق) ٤٨
أى يلقيه وينزله على من يجتبيه من عباده أو يرمى به الباطل فيدمغه أو يرمى به فى أقطار الآفاق فيكون وعداً بإظهار الإسلام وإعلاء كلمة الحق (علام الغيوب) صفة محمولة على محل إن واسمها أو بدل من المستكن فى يقذف أو خبر ثان لإن أو خبر مبتدأ محذوف وقرىء بالنصب صفة لربى أو مقدراً بأعنى وقرىء
٤٩ بكسر الغين وبالفتح كصبور مبالغة غائب (قل جاء الحق) أى الإسلام والتوحيد (وما يبدىء الباطل وما يعيد) أى زهق الشرك بحيث لم يبق أثره أصلا مأخوذ من هلاك الحى فإنه إذا هلك لم يبق له إبداء ولا إعادة فجعل مثلا فى الهلاك بالمرة ومنه قول عبيد [أقفر من أهله عبيد * فليس يبدى ولا يعيد] وقيل الباطل إبليس أو الصنم والمعنى لا ينشىء خلقاً ولا يعيد أو لا يبدىء خيراً لأهله ولا يعيد وقيل
٥٠ مااستفهامية منصوبة بما بعدها (قل إن ضللت) عن الطريق الحق (فإنما أضل على نفسى) فإن وبال ضلالى عليها لأنه بسببها إذهى الجاهلة بالذات والأمارة بالسوء وبهذا الاعتبار قوبل الشرطية بقوله تعالى (وإن اهتديت فبما يوحى إلى ربى) لأن الاهتداء بهدايته وتوفيقه وقرىء ربى بفتح الياء (إنه سميع

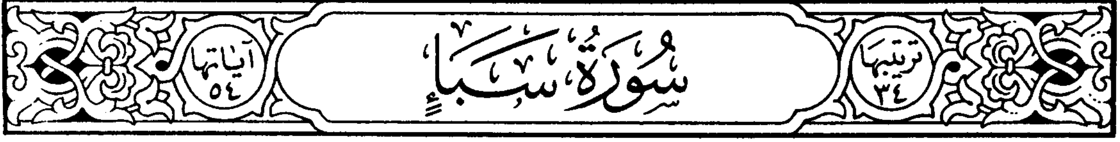
وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ ٣٤ سبإ

وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ ٣٤ سبإ

وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ ٣٤ سبإ

وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾ ٣٤ سبإ

٥١ قريب) يعلم قول كل من المهتدى والضال وفعله وإن بالغ فى إخفائهما (ولو ترى إذ فزعوا) عند الموت
أو البعث أو يوم بدر وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن ثمانين ألفاً يغزون الكعبة ليخربوها فإذا دخلوا
البيداء خسف بهم وجواب لو محذوف أى لرأيت أمراً هائلا (فلا فوت) فلا يفوتون الله عز وجل
بهرب أو تحصن (وأخذوا من مكان قريب) من ظهر الأرض أو من الموقف إلى النار أو من صحراء بدر
إلى قليبها أو من تحت أقدامهم إذا خسف بهم والجملة معطوفة على فزعوا وقيل على لا فوت على معنى إذ
فزعوا فلم يفوتوا وأخذوا ويؤيده أنه قرىء وأخذ بالعطف على محله أى فلا فوت هنا وهناك أخذ
٥٢ (وقالوا آمنا به) أى بمحمد ﷺ وقد مر ذكره فى قوله تعالى ما بصاحبكم (وأنى لهم التناوش) التناوش
التناول السهل أى ومن أين لهم أن يتناولوا الإيمان تناولا سهلا (من مكان بعيد) فإنه فى حيز التكليف
وهم منه بمعزل بعيد وهو تمثيل حالهم فى الاستخلاص بالإيمان بعد ما فات عنهم وبعد بحال من يريد أن
يتناول الشىء من غلوة تناوله من ذراع فى الاستحالة وقرىء بالهمز على قلب الواو لضمها وهو من نأشت
الشىء إذا طلبته وعن أبى عمرو التناؤش بالهمز التناول من بعد من قولهم نأشت إذا أبطأت وتأخرت
٥٣ ومنه قول من قال [تمنى نئيشاً أن يكون أطاعنى * وقد حدثت بعد الأمور أمور] (وقد كفروا به) أى
بمحمد ﷺ أو بالعذاب الشديد الذى أنذرهم إياه (من قبل) أى من قبل ذلك فى أوان التكليف (ويقذفون
بالغيب) ويرجمون بالظن ويتكلمون بما لم يظهر لهم فى حق الرسول ﷺ من المطاعن أو فى العذاب المذكور
من بت القول بنفيه (من مكان بعيد) من جهة بعيدة من حاله ﷺ حيث ينسبونه ﷺ إلى الشعر والسحر والكذب
وإن أبعد شىء مما جاء به الشعر والسحر وأبعد شىء من عادته المعروفة فيما بين الدانى والقاصى الكذب ولعله
تمثيل لحالهم فى ذلك بحال من يرمى شيئاً لا يراه من مكان بعيد لا مجال للوهم فى لحوقه وقرىء ويقذفون
على أن الشيطان يلقى إليهم ويلقنهم ذلك وهو معطوف على قد كفروا به على حكاية الحال الماضية أو على قالوا
٥٤ فيكون تمثيلا لحالهم بحال القاذف فى تحصيل ما ضيعوه من الإيمان فى الدنيا (وحيل بينهم وبين ما يشتهون)
من نفع الإيمان والنجاة من النار وقرىء بإشمام الضم للحاء (كما فعل بأشياعهم من قبل) أى بأشباههم
من كفرة الأمم الدارجة (إنهم كانوا فى شك مريب) أى موقع فى الريبة أو ذى ريبة والأول منقول ممن
يصح أن يكون مريباً من الأعيان إلى المعنى والثانى من صاحب الشك إلى الشك كما يقال شعر شاعر والله
أعلم عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة سبأ لم يبق رسول ولا نبى إلا كان له يوم القيامة رفيقاً ومصافحاً .



مكية كما روي عن ابن عباس وقتادة، وفي التحرير هي مكية بإجماعهم، وقال ابن عطية: مكية إلا قوله تعالى: ﴿ويرى الذين أوتوا العلم﴾ [سبأ: ٦] وروى الترمذي عن فروة بن مسيكة المرادي قال: أتيت النبي ﷺ فقلت يا رسول الله ألا أقاتل من أدبر من قومي الحديث، وفيه وأنزل في سبأ ما أنزل فقال رجل: يا رسول الله وما سبأ؟ الحديث. قال ابن الحصار هذا يدل على أن هذه القصة مدنية لأن مهاجرة فروة بعد إسلام ثقيف سنة تسع، ويحتمل أن يكون قوله وأنزل حكاية عما تقدم نزوله قبل هجرته فلا يأبى كونها مكية، وآياتها خمس وخمسون في الشامي وأربع وخمسون في الباقين، وما قيل خمس وأربعون سهو من قلم الناسخ، ووجه اتصالها بما قبلها أن الصفات التي أجريت على الله تعالى في مفتتحها مما يناسب الحكم التي في مختتم ما قبل من قوله تعالى: ﴿ليعذب الله المنافقين والمنافقات﴾ [الأحزاب: ٧٣] الخ.

وأيضاً قد أشير فيما تقدم إلى سؤال الكفار عن الساعة على جهة الاستهزاء وها هنا قد حكي عنهم إنكارها صريحاً والطعن بمن يقول بالمعاد على أتم وجه وذكر مما يتعلق بذلك ما لم يذكر هناك، وفي البحر أن سبب نزولها أن أبا سفيان قال لكفار مكة لما سمعوا ﴿ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات﴾ كأن محمداً يتوعدنا بالعذاب بعد أن نموت ويتخوفنا بالبعث واللات والعزى لا تأتينا الساعة أبداً ولا نبعث فقال الله تعالى قل يا محمد بلى وربي لتبعثن قاله مقاتل وباقي السورة تهديد لهم وتخويف، ومن هذا ظهرت المناسبة بين هذه السورة والتي قبلها انتهى.

بسم الله الرحمن الرحيم

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا
يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا
فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ

لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ
إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ
لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ
ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ
نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ
يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى
بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن
يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾

﴿**بسم الله الرَّحْمَن الرَّحيم الحَمْدُ لله الَّذِي لَهُ مَا في السَّمَاوَات وَمَا في الأَرْض**﴾ أي له عزّ وجل خلقاً وملكاً وتصرفاً بالإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة جميع ما وجد فيهما داخلاً في حقيقتهما أو خارجاً عنهما متمكناً فيهما فكأنه قيل: له هذا العالم بالأسر، ووصفه تعالى بذلك على ما قاله أبو السعود لتقرير ما أفاده تعليق الحمد المعرف بلام الحقيقة عند أرباب التحقيق بالاسم الجليل من اختصاص جميع أفراد المخلوقات به عزّ وجلّ ببيان تفرده تعالى واستقلاله بما يوجب ذلك وكون كل ما سواه سبحانه من الموجودات التي من جملتها الإنسان تحت ملكوته تعالى ليس لها في حد ذاتها استحقاق الوجود فضلاً عما عداه من صفاتها بل كل ذلك نعم فائضة عليها من جهته عزّ وجلّ فما هذا شأنه فهو بمعزل من استحقاق الحمد الذي مداره الجميل الصادر عن القادر بالاختيار فظهر اختصاص جميع أفراده به تعالى، وفي الوصف بما ذكر أيضاً إيذان بأنه تعالى المحمود على نعم الدنيا حيث عقب الحمد بما تضمن جميع النعم الدنيوية فيكون الكلام نظير قولك: احمد أخاك الذي حملك وكساك فإنك تريد به أحمده على حملانه وكسوته، وفي عطف قوله تعالى: ﴿**وَلَهُ الحَمْدُ في الآخرَة**﴾ على الصلة كما هو الظاهر إيذان بأنه سبحانه المحمود على نعم الآخرة ليتلاءم الكلام، وفي تقييد الحمد فيه بأن محله الآخرة إيذان بأن محل الحمد الأول الدنيا لذلك أيضاً فتفيد الجملتان أنه عزّ وجلّ المحمود على نعم الدنيا فيها وأنه تبارك وتعالى المحمود على نعم الآخرة فيها، وجوز أن يكون في الكلام صنعة الاحتباك وأصله الحمد لله الخ في الدنيا وله ما في الآخرة والحمد فيها فأثبت في كل منهما ما حذف من الآخر، وقال أبو السعود: إن الجملة الثانية لاختصاص الحمد الأخروي به تعالى إثر بيان اختصاص الدنيوي به سبحانه على أن ﴿**في الآخرة**﴾ متعلق بنفس الحمد أو بما تعلق به ﴿**له**﴾ من الاستقرار، وإطلاقه عن ذكر ما يشعر بالمحمود عليه ليس للاكتفاء بذكر كونه في الآخرة عن التعيين كما اكتفى فيما سبق بذكر كون المحمود عليه في الدنيا عن ذكر كون الحمد فيها أيضاً بل ليعم النعم الأخروية كما في قوله تعالى: ﴿الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء﴾ [الزمر: ٧٤] وقوله تعالى: ﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور الذي أحلنا دار المقامة من فضله﴾ [فاطر: ٣٥] وما يكون ذريعة إلى نيلها من النعم الدنيوية كما في قوله تعالى: ﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا﴾ [الأعراف: ٤٣] أي لما جزاؤه هذا النعيم من الإيمان والعمل الصالح.

وأنت تعلم أن المتبادر إلى الذهن هو ما قرر أولاً، والفرق بين الحمدين مع كون نعم الدنيا ونعم الآخرة بطريق التفضل أن الأول على نهج العبادة والثاني على وجه التلذذ والاغتباط، وقد ورد في الخبر أن أهل الجنة يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس، وقول الزمخشري: إن الأول واجب لأنه على نعمة متفضل بها والثاني ليس بواجب لأنه على نعمة واجبة الإِيصال إلى مستحقها مبني على رأي المعتزلة على أن قوله: لأنه على نعمة واجبة الإِيصال ليس على إطلاقه عندهم لأن ما يعطي الله تعالى العباد في الآخرة ليس مقصوراً على الجزاء عندهم بل بعض ذلك تفضل وبعضه أجر، وتقديم الخبر في الجملة الثانية لتأكيد الحصر المستفاد من اللام على ما هو الشائع اعتناء بشأن نعم الآخرة، وقيل: للاختصاص لأن النعم الدنيوية قد تكون بواسطة من يستحق الحمد لأجلها ولا كذلك نعم الآخرة، وكأنه أراد لتأكيد الاختصاص أو بنى الأمر على أن الاختصاص المستفاد من اللام بمعنى الملابسة التامة لا الحصر كما فصله الفاضل اليمني، وأما أنه أراد لاختصاص الاختصاص فكما ترى، ويرد على قوله: ولا كذلك نعم الآخرة ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ [الإسراء: ٧٩] فتأمل ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ الذي أحكم أمر الدارين ودبره حسبما تقتضيه الحكمة ﴿الْخَبِيرُ﴾ العالم ببواطن الأشياء ومكنوناتها ويلزم من ذلك علمه تعالى بغيرها، وعمم بعضهم من أول الأمر وما ذكر مبني على ما قاله بعض أهل اللغة من أن الخبرة تختص بالبواطن لأنها من خبر الأرض إذا شقها، وفي هذه الفاصلة إيذان بأنه تعالى كما يستحق الحمد لأنه سبحانه منعم يستحقه لأنه جل شأنه منعوت بالكمال الاختياري وتكميل معنى كونه تعالى منعماً أيضاً بأنه على وجه الحكمة والصواب وعن علم بموضع الاستحقاق والاستيجاب لا كمن يطلق عليه أنه منعم مجازاً، وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ الخ استئناف لتفصيل بعض ما يحيط به علمه تعالى من الأمور التي نيطت بها مصالحهم الدينية والدنيوية، وجوز أن يكون تفسيراً لخبير، وأن يكون حالاً من ضميره تعالى في ﴿له ما في السماوات﴾ فيكون ﴿له الحمد في الآخرة﴾ اعتراضاً بين الحال وصاحبها أي بعلم سبحانه ما يدخل في الأرض من المطر ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من النبات قاله السدي.

وقال الكلبي: ما يدخل فيها من الأموات وما يخرج منها من جواهر المعادن، والأولى التعميم في الموصولين فيشملان كل ما يلج في الأرض ولو بالوضع فيها وكل ما يخرج منها حتى الحيوان فإنه كله مخلوق من التراب.

﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ أي من الملائكة قاله السدي والكلبي، والأولى التعميم فيشمل ﴿ما ينزل﴾ المطر والثلج والبرد والصاعقة والمقادير ونحوها أيضاً ﴿وما يعرج﴾ الأبخرة والأدخنة وأعمال العباد وأدعيتهم ونحوها أيضاً، ويراد بالسماء جهة العلو مطلقاً ولعل ترتيب المتعاطفات كما سمعت إفادة للترقي في المدح، وضمن العروج معنى السير أو الاستقرار على ما قيل فلذا عدي بفي دون إلى، وقيل: لا حاجة إلى اعتبار التضمين والمراد بما يعرج فيها ما يعرج في ثخن السماء ويعلم من العلم بذلك العلم بما يعرج إليها من باب أولى فتدبر، وقرأ علي كرّم الله تعالى وجهه والسلمي «يُنَزَّلُ» بضم الياء وفتح النون وشد الزاي أي الله كذا في البحر.

وفي الكشاف عن علي كرّم الله تعالى وجهه أنه قرأ «نُنَزِّلُ» بالتشديد ونون العظمة ﴿وَهُوَ﴾ مع كثرة نعمته وسبوغ فضله ﴿الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ للمفرطين في أداء مواجب شكرها فهذا التذنيب مع كونه مقرراً للخبرة مفصل لما أجمل في قوله سبحانه: ﴿له ما في السماوات وما في الأرض﴾ يعرف منه كيف كان كله نعمة وكالتبصر لأنواع النعم الكلية فكل منه ومن التذنيب السابق في موضعه اللاحق فلا تتوهم أن العكس أنسب.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ أرادوا بضمير المتكلم جنس البشر قاطبة لا أنفسهم أو معاصريهم فقط وبنفي إتيانها نفي وجودها بالكلية لا عدم حضورها مع تحقيقها في نفس الأمر، وإنما عبروا عنه بذلك لأنهم كانوا

يوعدون بإتيانها، وقيل: لأن وجود الأمور الزمانية المستقبلة لا سيما أجزاء الزمان لا يكون إلا بالإتيان والحضور، وقيل: هو استبطاء لإتيانها الموعود بطريق الهزء والسخرية كقولهم: ﴿متى هذا الوعد﴾؟[الملك: ٢٥] والأول أولى، والجملة قيل: معطوفة على ما قبلها عطف القصة على القصة وجعلها حالية غير ظاهر ﴿قُلْ بَلَى﴾ رد لكلامهم وإثبات لما نفوه على معنى ليس الأمر إلا إتيانها، وقوله تعالى: ﴿وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ تأكيد له على أتم الوجوه وأكملها، وجاء القسم بالرب للإشارة إلى أن إتيانها من شؤون الربوبية، وأتى به مضافاً إلى ضميره ﷺ ليدل على شدة القسم، وروى هارون كما قال ابن جني عن طليق قال: سمعت أشياخنا يقرؤون «ليأتينكم» بالياء التحتية وخرجت على أن الفاعل ضمير البعث لأن مقصودهم من نفي إتيان الساعة أنهم لا يبعثون، وقيل: الفاعل ضمير ﴿الساعة﴾ على تأويلها باليوم أو الوقت. وتعقبه أبو حيان بأنه بعيد إذ لا يكون مثل هذا إلا في الشعر نحو:

ولا أرض أبــــقــــل إبــــقـــالـــهـــا

وقوله تعالى: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ﴾ بدل من المقسم به على ما ذهب إليه الحوفي وأبو البقاء، وجوز أن يكون عطف بيان، وأجاز أبو البقاء أن يكون صفة له.

وتعقب بأنه صفة مشبهة وهي كما ذكره سيبويه في الكتاب لا تتعرف بالإضافة إلى معرفة والجمهور على أنها تتعرف بها ولذا ذهب جمع من الأجلة إلى أنه صفة ووصف سبحانه بإحاطة العلم إمداداً للتأكيد وتشديداً له إثر تشديد فإن عظمة حال المقسم به تؤذن بقوة حال المقسم عليه وشدة ثباته واستقامته لأنه بمنزلة الاستشهاد على الأمر وكلما كان المستشهد به أعلى كعباً وأبين فضلاً وأرفع منزلة كانت الشهادة أقوى وآكد والمستشهد عليه أثبت وأرسخ، وخص هذا الوصف بالذكر من بين الأوصاف مع أن كل وصف يقتضي العظمة يتأتى به ذلك لما أن له تعلقاً خاصاً بالمقسم عليه فإنه أشهر إفراد الغيب في الخفاء ففيه مع رعاية التأكيد حسن الأقسام على منوال وثناياك أنها إغريض كأنه قيل: وربي العالم بوقت قيامها لتأتينكم، وفيه إدماج أن لا كلام في ثبوتها.

وقال صاحب الفرائد: جيء بالوصف المذكور لأن إنكارهم البعث باعتبار أن الأجزاء المتفرقة المنتشرة يمتنع اجتماعها كما كانت يدل عليه قوله تعالى: ﴿قد علمنا ما تنقص الأرض منهم﴾ [ق: ٤] الآية، فالوصف بهذه الأوصاف رد لزعمهم الاستحالة وهو أن من كان علمه بهذه المثابة كيف يمتنع منه ذلك انتهى، واستحسنه الطيبي، وقال في البحر: أتبع القسم بقوله تعالى: ﴿عالم الغيب﴾ وما بعده ليعلم أن إتيانها من الغيب الذي تفرد به عزّ وجلّ، وما ذكر أولاً أبعد مغزى، وفائدة الأمر بهذه المرتبة من اليمين أن لا يبقى للمعاندين عذر ما أصلاً فإنهم كانوا يعرفون أمانته ﷺ ونزاهته عن وصمة الكذب فضلاً عن اليمين الفاجرة وإنما لم يصدقوه عليه الصلاة والسلام مكابرة، وغفل صاحب الفرائد عن هذه الفائدة فقال: اقتضى المقام اليمين لأن من أنكر ما قيل له فالذي وجب بعد ذلك إذا أريد إعادة القول له أن يكون مقترناً باليمين وإلا كان خطأ بالنظر إلى علم المعاني وإن كان صحيحاً بالنظر إلى العربية والنحو وقد يغفل الأريب.

وقرأ نافع وابن عامر ورويس وسلام والجحدري وقعنب «عالمُ» بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هو عالم، وجوز الحوفي أن يكون مبتدأ خبره محذوف أي عالم الغيب هو، وجوز هو وأبو البقاء أن يكون مبتدأ والجملة بعده خبره.

وقرأ ابن وثاب والأعمش وحمزة والكسائي «علام» بصيغة المبالغة والخفض، وقرىء «عالمُ» بالرفع يكون بلا

مبالغة «الغيوب» بالجمع ﴿لا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ أي لا يبعد ومنه روض عزيب بعيد من الناس.

وقرأ الكسائي بكسر الزاي ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ مقدار أصغر نملة ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ﴾ أي كائنة فيهما ﴿وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ﴾ أي مثقال ذرة ﴿وَلا أَكْبَرُ﴾ أي منه، والكلام على حد ﴿لا يغادر صغيرة ولا كبيرة﴾ ورفعهما على الابتداء والخبر قوله تعالى: ﴿إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ هو اللوح المحفوظ عند الأكثرين.

والجملة مؤكدة لنفي العزوب، وقرأ الأعمش وقتادة وأبو عمرو ونافع في رواية عنهما ﴿ولا أصغر﴾ ﴿ولا أكبر﴾ بالنصب على أن ﴿لا﴾ لنفي الجنس عاملة عمل إن وما بعدها اسمها منصوب بها لأنه شبيه بالمضاف ولم ينون للوصف ووزن الفعل فليس ذلك نحو لا مانع لما أعطيت، والخبر هو الخبر على قراءة الجمهور، وقال أبو حيان: ﴿لا﴾ لنفي الجنس وهي وما بني معها مبتدأ على مذهب سيبويه والخبر ﴿إلا في كتاب﴾ وما ذكرناه في توجيه القراءتين هو الذي ذهب إليه كثير من الأجلة، وقيل: إن ذلك معطوف في قراءة الرفع على ﴿مثقال﴾ وفي القراءة الأخرى على ﴿ذرة﴾ والفتحة فيه نيابة عن الكسرة للوصف والوزن وإليه ذهب أبو البقاء واستشكل بأنه يصير المعنى عليه إذا كان الاستثناء متصلاً كما هو الأصل لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين فإنه يعزب عنه فيه، وفساده ظاهر، والتزم السراج البلقيني على تقدير العطف المذكور أن يكون الاستثناء من محذوف والتقدير ولا شيء إلا في كتاب ثم قال: ولا بدع في حذف ما قدر لدلالة الكلام عليه، ويحصل من مجموع ذلك إثبات العلم لله تعالى بكل معلوم وأن كل شيء مكتوب في الكتاب، وقيل العطف على ما ذكر والاستثناء منقطع والمعنى لا يعزب عنه تعالى شيء من ذلك لكن هو في كتاب، وقيل العطف على ذلك والكلام نهج قوله:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

فالمعنى إن كان يعزب عنه شيء فهو الذي في كتاب مبين لكن الذي في الكتاب لا يعزب عنه فلا يعزب عنه شيء، وفيه من البعد ما فيه، وقيل: إن المراد بقوله تعالى: ﴿لا يعزب﴾ الخ أنه تعالى عالم به والمراد بقوله سبحانه: ﴿إلا في كتاب﴾ نحو ذلك لأن الكتاب هو علم الله تعالى، والمعنى وما يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء إلا يعلمه ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في علمه فيكون نظير قوله: ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب﴾ [الأنعام: ٥٩] وفيه أنه أبعد مما قبله، وقيل: يعزب بمعنى يظهر ويذهب والعطف على ما سمعت، والمعنى لم يظهر شيء عن الله تعالى بعد خلقه له ألا وهو مكتوب في اللوح المحفوظ، وتلخيصه كل مخلوق مكتوب، وفيه أن هذا المعنى ليعزب غير معروف وإنما المعروف ما تقدم، نعم قال الصغاني في العباب قال: أبو سعيد الضرير يقال ليس لفلان امرأة تعزبه أي تذهب عزبته بالنكاح مثل قولك تمرضه أي تقوم عليه في مرضه ثم قال الصغاني: والتركيب يدل على تباعد وتنح فتفسيره بالظهور بعيد ولئن سلمنا قربه فلأي شيء جمع بين الظهور والذهاب، وقيل إلا بمعنى الواو وهو مقدر في الكلام والكلام قد تم عند ﴿أكبر﴾ كأنه قيل: لا يعزب عنه ذلك وهو في كتاب، ومجيء إلا بمعنى الواو ذهب إليه الأخفش من البصريين والفراء من الكوفيين.

وخرج عليه قوم: ﴿يجتنبون كبائر الإِثم والفواحش إلا اللمم﴾ [النجم: ٣٢] و ﴿خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك﴾ [هود: ١٠٧] وقد حكي هذا القول مكي في نظير الآية ثم قال: وهو قول حسن لولا أن جميع البصريين لا يعرفون إلا بمعنى الواو كأنه لم يقف على قول الأخفش وهو من رؤساء نحاة البصرة أو لم يعتبره فلذا قال جميع البصريين، وقد كثر الكلام في هذا الوجه وارتضاه السراج البلقيني وأنا لا أراه مرضياً وإن أوقد

له ألف سراج، وقيل العطف على ما سمعت وضمير ﴿عنه﴾ للغيب فلا إشكال إذ المعنى حينئذٍ لا يعد عن غيبه شيء إلا ما كان في اللوح لبروزه من الغيب إلى الشهادة واطلاع الملأ الأعلى عليه. وتعقب بأن المعنى لا يساعده لأن الأمر الغيبي إذا برز إلى الشهادة لم يعزب عنه بل بقي في الغيب على ما كان عليه مع بروزه، ومعناه أن كونه في اللوح المحفوظ كناية عن كونه من جملة معلوماته تعالى وهي إما مغيبة وإما ظاهرة وكل مغيب سيظهر وإلا كان معدوماً لا مغيباً وظهوره وقت ظهوره لا يرفع كونه مغيباً فلا يكون استثناء متصلاً، ألا ترى أنك لو قلت علم الساعة مغيب عن الناس إلا علمهم بها حين تقوم ويشاهدونها لم يكن هذا الاستثناء متصلاً كذا قيل فتأمل ولا تغفل.

وأنت تعلم أن هذا الوجه على فرض عدم ورود ما ذكر عليه ضعيف لأن الظاهر الذي يقتضيه قوله تعالى: **﴿وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء﴾** الآية رجوع الضمير إلى الله عزّ وجلّ.

والذي ذهب إليه أبو حيان أن الكتاب ليس هو اللوح وليس الكلام إلا كناية عن ضبط الشيء والتحفظ به وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما **﴿ولا أصغر من ذلك ولا أكبر﴾** بكسر الراءين.

وخرج علي أنه نوى مضاف إليه والتقدير ولا أصغره ولا أكبره، و **﴿من ذلك﴾** ليس متعلقاً بأفعل بل هو تبيين لأنه لما حذف المضاف إليه أبهم لفظاً فبين بقوله تعالى من ذلك أي أعني من ذلك، ولا يخفى أنه توجيه شذوذ.

﴿ليَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ متعلق بقوله سبحانه: **﴿لتأتينكم﴾** على أنه علة له وبيان لمقتضى إتيانها فهو من تتمة المقسم عليه، فحاصل الكلام أن الحكمة تقتضي إثباتها والعلم البالغ المحيط بالغيب وجميع الجزئيات جليها وخفيها حاصل والقدرة المقتضية لإيجاد العالم وما فيه وجعله نعمة على ما مر فقد تم المقتضى وارتفع المانع فليس في الآية اكتفاء في الرد بمجرد اليمين، واستظهر في البحر تعلقه بلا يعزب.

وذهب إليه أبو البقاء وتعقب بأن علمه تعالى ليس لأجل الجزاء، وقيل متعلق بمتعلق **﴿في كتاب﴾** وهو كما ترى.

﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول من حيث اتصافه بما في حيز الصلة، وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم في الفضل والشرف أي أولئك الموصوفون بالإيمان وعمل الأعمال الصالحات **﴿لَهُمْ﴾** بسبب ذلك **﴿مَغْفِرَةٌ﴾** لما فرط منهم من بعض فرطات قلما يخلو عنها البشر **﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾** حسن لا تعب فيه ولا من عليه **﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا﴾** بالقدح فيها وصيد الناس عن التصديق بها **﴿مُعَاجِزِينَ﴾** أي مسابقين يحسبون أنهم يفوتوننا قاله قتادة، وقال عكرمة: مراغمين، وقال ابن زيد: مجاهدين في إبطالها.

وقرأ جمع «معجزين» مخففاً، وابن كثير وأبو عمرو والجحدري وأبو السمال مثقلاً، قال ابن الزبير: أي مثبطين عن الإيمان من أراده مدخلين عليه العجز في نشاطه، وقيل معجزين قدرة الله عزّ وجلّ في زعمهم.

﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر وفيه إشارة إلى بعد منزلتهم في الشر **﴿لَهُمْ﴾** بسبب ذلك **﴿عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ﴾** أي من سيء العذاب وأشده، ومن للبيان **﴿أَلِيمٌ﴾** بالرفع صفة **﴿عذاب﴾** وقرأ أكثر السبعة بالجر على أنه صفة مؤكدة لرجز بناءً على ما سمعت من معناه، وجعله بعضهم صفة مؤسسة له بناءً على أن الرجز كما روي عن قتادة مطلق العذاب وجوز جعله صفة **﴿عذاب﴾** أيضاً والجر للمجاورة، والظاهر أن الموصول مبتدأ والخبر جملة **﴿أولئك لهم عذاب﴾** وجوز أن يكون في محل نصب عطفاً على الموصول قبله أي ويجزي الذي سعوا وجملة **﴿أولئك لهم﴾** الخ التي بعده مستأنفة والتي قبله معترضة. وفي البحر يحتمل على تقدير العطف على الموصول أن تكون الجملتان

المصدرتان بأولئك هما نفس الثواب والعقاب، ويحتمل أن يكونا مستأنفتين والثواب والعقاب غير ما تضمنتا مما هو أعظم كرضا الله تعالى عن المؤمن دائماً وسخطه على الكافر دائماً، وفيه أنه كيف يتأتى حمل ذلك على رضا الله تعالى وضده وقد صرح أولاً بالمغفرة والرزق الكريم وفي مقابله بالعذاب الأليم وجعل الأول جزاء.

﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلم﴾ أي ويعلم أولو العلم من أصحاب رسول الله ﷺ ومن يطأ أعقابهم من أمته عليه الصلاة والسلام أو من آمن من علماء أهل الكتاب كما روى عن قتادة كعبد الله بن سلام وكعب وأضرابهما رضي الله تعالى عنهم ﴿الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي القرآن ﴿هُوَ الحَقَّ﴾ بالنصب على أنه مفعول ثانٍ ليرى والمفعول الأول هو الموصول الثاني و ﴿هو﴾ ضمير الفصل.

وقرأ ابن أبي عبلة بالرفع على جعل الضمير مبتدأ وجعله خبراً والجملة في موضع المفعول الثاني ليرى وهي لغة تميم يجعلون ما هو فصل عند غيرهم مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿ويرى﴾ الخ ابتداء كلام غير معطوف على ما قبله مسوق للاستشهاد بأولي العلم على الجهلة الساعين في الآيات. وفي الكشف هو عطف على قوله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة﴾ على معنى وقال الجهلة: لا ساعة وعلم أولى العلم أنه الحق الذي نطق به المنزل إليك الحق. وتعقب بأنه تكلف بعيد فإن دلالة النظم الكريم على الاهتمام بشأن القرآن لا غير، وقيل عليه: أنت خبير بأن ما قبله من قوله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة﴾ وقوله سبحانه: ﴿وقال الذين كفروا هل ندلكم﴾ الخ في شأن الساعة ومنكري الحشر فكيف يكون ما ذكر بعيداً بسلامة الأمير فذكر حقية القرآن بطريق الاستطراد والمقصود بالذات حقية ما نطق به من أمر الساعة، وقال الطبري والثعلبي: إن ﴿يرى﴾ منصوب بفتحة مقدرة عطفاً على يجزي أي وليعلم أولو العلم عند مجيء الساعة معاينة أنه الحق حسبما علموه قبل برهاناً ويحتجوا به على المكذبين وعليه فقوله تعالى: ﴿والذين سعوا﴾ معطوف على الموصول الأول أو مبتدأ والجملة معترضة فلا يضر الفصل كما توهم، وجوز أن يراد بأولى العلم من لم يؤمن من الأحبار أي ليعلموا يومئذٍ أنه هو الحق فيزدادوا حسرة وغماً. وتعقب بأن وصفهم بأولى العلم يأباه لأنه صفة مادحة ولعل المجوز لا يسلم هذا، نعم كون ذلك بعيداً لا ينكر لا سيما وظاهر المقابلة بقوله تعالى. ﴿وقال الذين كفروا﴾ يقتضي الحمل على المؤمنين ﴿وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ﴾ الذي يقهر ولا يقهر ﴿الحَمِيد﴾ المحمود في جميع شؤونه عزّ وجلّ، والمراد بصراطه تعالى التوحيد والتقوى، وفاعل يهدي إما ضمير ﴿الذي أنزل﴾ أو ضمير الله تعالى ففي ﴿العزيز الحميد﴾ التفات، والجملة على الأول إما مستأنفة أو في موضع الحال من ﴿الذي﴾ على إضمار مبتدأ أي وهو يهدي كما في قوله:

نـجـوت وأرهـنـهـم مـالـكـا

أو معطوفة على ﴿الحق﴾ بتقدير وإنه يهدي وجوز أن يكون يهدي معطوفاً على ﴿الحق﴾ عطف الفعل على الاسم لأنه في تأويله كما في قوله تعالى: ﴿صافات ويقبضن﴾ [الملك: ١٩] أي قابضات وبعكسه قوله:

وألـفـيـتـه يـومـاً يـبـيـر عـدوه ... وبـحـر عـطـاء يـسـتـحـق الـمـعـابـرا

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هم كفار قريش قالوا مخاطباً بعضهم لبعض على جهة التعجب والاستهزاء ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُل﴾ يعنون به النبي ﷺ والتعبير عنه عليه الصلاة والسلام بذلك من باب التجاهل كأنهم لم يعرفوا منه ﷺ إلا أنه رجل وهو عليه الصلاة والسلام عندهم أظهر من الشمس:

ولـيـس قـولـك مـن هـذا بـضـائـره ... الـعـرب تـعـرف مـن أنـكـرت والـعـجـم

﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾ يحدثكم بأمر مستغرب عجيب. وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما «ينبيكم» بإبدال الهمزة ياء محضة وحكي عنه «ينبئكم» بالهمز من أنبأ ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ إذا شرطية وجوابها محذوف لدلالة ما بعده عليه أي تبعثون أو تحشرون وهو العامل في إذا على قول الجمهور والجملة الشرطية بتمامها معمولة لينبئكم لأنه في معنى يقول لكم إذا مزقتم كل ممزق تبعثون ثم أكد ذلك بقوله تعالى: ﴿إنكم لفي خلق جديد﴾ وجوز أن يكون «إنكم لفي خلق جديد» معمولاً لينبئكم وهو معلق ولولا اللام في خبر إن لكانت مفتوحة والجملة سدت مسد المفعولين والشرطية على هذا اعترض، وقد منع قوم التعليق في باب أعلم والصحيح جوزه وعليه قوله:

حذار فقد نبئت أنك للذي ... ستجزى بما تسعى فتسعد أو تشقى

وجوز أن تكون إذ المحض الظرفية فعاملها الذي دل عليه ما بعد يقدر مقدماً أي تبعثون أو تحشرون إذا مزقتم، ولا يجوز أن يكون العامل ﴿يدلكم﴾ أو ﴿ينبئكم﴾ لعدم المقارنة ولا ﴿مزقتم﴾ لأن إذا مضافة إليه والمضاف إليه لا يعمل في المضاف. ولا خلق ولا جديد لأن إن لها الصدر فلا يعمل ما بعدها فيما قبلها.

وقال الزجاج: إذا في موضع النصب بمزقتم وهي بمنزلة من الشرطية يعمل فيها الذي يليها، وقال السجاوندي: العامل محذوف وما بعدها إنما يعمل فيها إذا كان مجزوماً بها وهو مخصوص بالضرورة نحو. وإذا تصبك خصاصة فتجمل. فلا يخرج عليه القرآن فإذا لم تجزم كانت مضافة إلى ما بعدها والمضاف إليه لا يعمل في المضاف.

وقال أبو حيان: الصحيح أن العامل فيها فعل الشرط كسائر أدوات الشرط، وتمام الكلام على ذلك في كتب النحو، وممزق مصدر جاء على زنة اسم المفعول كمسرح في قوله:

ألم تعلم مسرَّحيَ القوافي ... فلا عيّاً بهن ولا اجتلابا

وتمزيق الشيء تخريقه وجعله قطعاً قطعاً ومنه قوله:

إذا كنت مأكولاً فكن خير آكل ... وإلا فأدركني ولما أمزق

والمراد إذا متم وفرقت أجسادكم كل تفريق بحيث صرتم رفاتاً وتراباً، ونصب ﴿كل﴾ على المصدرية.

وجوز أن يكون اسم مكان فنصب كل على الظرفية لأن لها حكم ما تضاف إليه أي إذا فرقت أجسادكم في كل مكان من القبور وبطون الطير والسباع وما ذهبت به السيول كل مذهب وما نسفته الرياح فطرحته كل مطرح، و ﴿جديد﴾ فعيل بمعنى فاعل عند البصريين من جد الشيء إذا صار جديداً وبمعنى مفعول عند الكوفيين من جده إذا قطعه ثم شاع في كل جديد وإن لم يكن مقطوعاً كالبناء، والسبب في الخلاف أنهم رأوا العرب لا يؤنثونه ويقولون ملحفة جديد لا جديدة فذهب الكوفيون إلى أنه بمعنى مفعول والبصريون إلى خلافه وقالوا ترك التأنيث لتأويله بشيء جديد أو لحمله على فعيل بمعنى مفعول كذا قيل: ﴿أَفْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً﴾ فيما ينسب إليه من أمر البعث ﴿أَم بِهِ جِنَّةٌ﴾ أي جنون يوهمه ذلك ويلقيه على لسانه، واستدل به أبو عمرو الجاحظ على ما ذهب إليه من أن صدق الخبر مطابقته للواقع مع الاعتقاد وكذبه عدمها معه وغيرهما ليس بصدق ولا كذب، وذلك أن الكفار وهم عقلاء من أهل اللسان عارفون باللغة حصروا أخبار النبي ﷺ بالبعث في الافتراء والأخبار حال الجنة على سبيل منع الخلو بالمعنى الأعم ولا شك أن المراد بالثاني غير الكذب لأنه قسيمه وغير الصدق لأنهم اعتقدوا عدمه، وأيضاً لا دلالة لقولهم: ﴿أم به جنة﴾ على معنى أم صدق بوجه من الوجوه فيجب أن يكون بعض الخبر ما ليس بصادق ولا كاذب ليكون ذلك منه بزعمهم وإن كان صادقاً في نفس الأمر، وتوضيحه أن ظاهر كلامهم هذا يدل على طلب تعيين أحد حالي النبي

ﷺ المستويين في اعتقاد المتكلم حين الإخبار بالبعث وهو يستلزم تعيين أحد حالي الخبر والاستفهام ها هنا للتقرير فيفيد ثبوت أحد الحالين للخبر ولا شك أن ثبوت أحدهما لا يثبت الواسطة ما لم يعتبر تنافيهما وكذا تنافيهما في الجمع لا يثبتها بل لا بدّ من تنافيهما في الارتفاع يعني أن خبره عليه الصلاة والسلام بالبعث لا يخلو عن أحد الأمرين المتنافيين فيكون المراد بالثاني ما هو منافٍ وقسيم للأول ومعلوم أنه غير الصدق فليس الصدق عبارة عن مطابقة الواقع فقط والكذب عن عدم المطابقة له كما يقول الجمهور أو عن مطابقة الاعتقاد له وعدم مطابقته له كما يقول النظام فيكونان عبارتين عن مطابقتهما وعدم مطابقتهما وتثبت الواسطة. وأجيب بأن معنى ﴿أم به جنة﴾ أم لم يفتر فعبر عن عدم الافتراء بالجنة لأن المجنون يلزمه أن لا افتراء له كما دل عليه نقل الأئمة واستعمال العرب الكذب عن عمد ولا عمد للمجنون فالثاني ليس قسيماً للكذب بل لما هو أخص منه أعني الافتراء فيكون ذلك حصراً للخبر الكاذب بزعمهم في نوعيه الكذب عن عمد والكذب لا عن عمد ولو سلم أن الافتراء بمعنى الكذب مطلقاً فالمعنى أقصد الافتراء أي الكذب أم لم يقصد بل كذب بلا قصد لما به من الجنة.

وقيل: المعنى افترى أم لم يفتر بل به جنون وكلام المجنون ليس بخبر لأنه لا قصد له يعتد به ولا شعور فيكون مرادهم حصره في كونه خبراً كاذباً أو ليس بخبر فلا يثبت خبر لا يكون صادقاً ولا كاذباً، ونوقش فيه كما لا يخفى على من راجع كتب المعاني. بقي ها هنا بحث وهو أن الطيبي أشار إلى أن مبنى الاستدلال كون ﴿أم﴾ متصلة واعترضه بأن الظاهر كونها منقطعة أما لفظاً فلاختلاف مدخول الهمزة وأم وأما معنى فلأن الكفرة المعاندين لما أخرجوا قولهم هل ندلكم على رجل ينبئكم مخرج الظن والسخرية متجاهلين برسول الله ﷺ وبكلامه من إثبات الحشر والنشر وعقبوه بقولهم ﴿افترى على الله كذباً﴾ أضربوا عنه إلى ما هو أبلغ منه ترقياً من الأهون إلى الأغلظ من نسبة الجنون إليه وحاشاه ﷺ فكأنهم قالوا: دعوا حديث الافتراء فإن ههنا ما هو أطم منه لأن العاقل كيف يحدث بإنشاء خلق جديد بعد الرفات والتراب، ولما كان التعويل على ما بعد الاضراب من إثبات الجنون أوقع الاضراب الثاني في كلامه تعالى رداً لقولهم ونفياً للجنون عنه صلوات الله تعالى وسلامه عليه وإثباتاً له فيهم إلى آخر ما قال، ولم يرتض ذلك صاحب الكشف فقال في كلام الكشاف إشارة إلى أن أم متصلة: وفائدة العدول عن الفعل في جن إيماء إلى أن الثابت هو ذلك الشق كأنه قيل: أعن افتراء هذا الكذب العجاب أم جنون، والتقابل لأن المجنون لا افتراء له فالاستدلال على الانقطاع بتخالف العديلين ساقط، وأما الترقي من الاتصال أيضاً على ما لوح إليه بوجه الطف ا هـ.

وأنت تعلم أن ظاهر الاستدلال يقتضي الاتصال لكن قال الخفاجي: إن كون الاستدلال مبنياً على الاتصال غير مسلم فتأمل، والظاهر أفترى على الله كذباً أم به جنة من قول بعضهم لبعض. وفي البحر يحتمل أن يكون من كلام السامع المجيب لمن قال هل ندلكم ردد بين شيئين ولم يجزم بإحدهما لما في كل من الفظاعة.

﴿بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ إبطال من جهته تعالى لما قالوا بقسيميه وإثبات ما هو أشد وأفظع لهم ولذا وضع الذين لا يؤمنون موضع الضمير توبيخاً لهم وإيماءً إلى سبب الحكم بما بعده كأنه قيل: ليس الأمر كما زعموا بل هم في كمال اختلال العقل وغاية الضلال عن الفهم والإدراك الذي هو الجنون حقيقة وفيما يؤدي إليه ذلك من العذاب حيث أنكروا حكمة الله تعالى في خلق العالم وكذبوه عزّ وجلّ في وعده ووعيده وتعرضوا لسخطه سبحانه. وتقديم العذاب على ما يوجبه ويستتبعه للمسارعة إلى بيان ما يسوءهم ويفت في أعضادهم والأشعار بغاية سرعة ترتبه عليه كأنه يسابقه فيسبقه، ووصف الضلال بالبعيد الذي هو وصف الضال للمبالغة لأن ضلالهم إذا كان بعيداً في نفسه فكيف بهم أنفسهم.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ

نُسقطْ عَلَيْهِمْ كسفاً منَ السَّمَاء ﴾ قيل: هو استئناف مسوق لتذكيرهم بما يعاينون مما يدل على كمال قدرته عزّ وجلّ وتنبيههم على ما يحتمل أن يقع من الأمور الهائلة في ذلك إزاحة لاستحالتهم الإحياء حتى قالوا ما قالوا فيمن أخبرهم به وتهديداً على ما اجترؤوا عليه، والمعنى أعموا فلم ينظروا إلى ما أحاط بجوانبهم من السماء والأرض ولم يتفكروا أنهم أشد خلقاً أم هي وأنا إن نشأ نخسف بهم الأرض كما خسفناها بقارون أو نسقط عليهم كسفاً أي قطعاً من السماء كما أسقطنا على أصحاب الأيكة لتكذيبهم بالآيات بعد ظهور البينات وهو تفسير ملائم للمقام إلا أن ربط قوله تعالى إن نشأ الخ بما قبله بالطريق الذي ذكره بعيد. وفي البحر أنه تعالى وقفهم في ذلك على قدرته الباهرة وحذرهم إحاطة السماء والأرض بهم وكأن ثم حالاً محذوفة أي أفلا يرون إلى ما يحيط بهم من سماء وأرض مقهوراً تحت قدرتنا نتصرف فيه كما نريد إن نشأ نخسف بهم الأرض الخ أو فلم ينظروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم محيطاً بهم وهم مقهورون فيما بينه إن نشأ الخ ولا يخلو عن شيء، وقال العلامة أبو السعود: إن قوله تعالى: **﴿أفلم يروا ﴾** الخ استئناف مسوق لتهويل ما اجترؤوا عليه من تكذيب آيات الله تعالى واستعظام ما قالوا في حقه عليه الصلاة والسلام وأنه من العظائم الموجبة لنزول أشد العقاب وحلول أفظع العذاب من غير ريث وتأخير، وقوله تعالى: **﴿إن نشأ ﴾** الخ بيان لما ينبىء عنه ذكر إحاطتهما بهم من المحذور المتوقع من جهتهما وفيه تنبيه على أنه لم يبق من أسباب وقوعه إلا تعلق المشيئة به أي فعلوا ما فعلوا من المنكر الهائل المستتبع للعقوبة فلم ينظروا إلى ما أحاط بهم من جميع جوانبهم بحيث لا مفر لهم عنه ولا محيص إن نشأ جرياً على موجب جناياتهم نخسف الخ، ولا يخفى أن فيه بعداً وضعف ربط بالنسبة إلى ما سمعت أولاً مع أن ما بعد ليس فيه كثير ملائمة لما قبله عليه، ويخطر لي أن قوله تعالى: **﴿أفلم يروا ﴾** مسوق لتذكيرهم بأظهر شيء لهم بحيث إنهم يعاينونه أينما التفتوا ولا يغيب عن أبصارهم حيثما ذهبوا يدل على كمال قدرته عزّ وجلّ إزاحة لما دعاهم إلى ذلك الاستهزاء والوقيعة بسيد الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام من زعمهم قصور قدرته تعالى عن البعث والإحياء ضرورة أن من قدر على خلق تلك الاجرام العظام لا يعجزه إعادة أجسام هي كلاً شيء بالنسبة إلى تلك الإجرام كما قال سبحانه: **﴿**أو ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم **﴾** [يس: ٨١] وفيه من التنبيه على مزيد جهلهم المشار إليه بالضلال البعيد ما فيه، وقوله تعالى: **﴿إِنَّ في ذَلكَ ﴾** أي فيما ذكر مما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض **﴿لآيَةً ﴾** أي لدلالة واضحة على كمال قدرة الله عزّ وجلّ وأنه لا يعجزه البعث بعد الموت وتفرق الأجزاء المحاطة بهما **﴿لكُلّ عَبْد مُّنيب ﴾** أي راجع إلى ربه تعالى مطيع له جل شأنه لأن المنيب لا يخلو من النظر في آيات الله عزّ وجلّ والتفكر فيها كالتعليل لما يشعر به قوله سبحانه **﴿أفلم يروا ﴾** الخ من الحث على الاستدلال بذلك على ما يزيح إنكارهم البعث وفيه تعريض بأنهم معرضون عن ربهم سبحانه غير مطيعين له جل وعلا وتخلص إلى ذكر المنيبين إليه تعالى على قول، وقوله تعالى: **﴿إن نشأ ﴾** كالاعتراض جيء به لتأكيد تقصيرهم والتنبيه على أنهم بلغوا فيه مبلغاً يستحقون به في الدنيا فضلاً عن الأخرى نزول أشد العقاب وحلول أفظع العذاب وأنه لم يبق من أسباب ذلك إلا تعلق المشيئة به إلا أنها لم تتعلق لحكمة، وظني أنه حسن وتحتمل الآية غير ذلك والله تعالى أعلم بأسرار كتابه، وقيل: إن ذلك إشارة إلى مصدر يروا وهو الرؤية وذكر لتأويله بالنظر والمراد به الفكر، وقيل إشارة إلى ما تلي من الوحي الناطق بما ذكر. وقرأ حمزة والكسائي وابن وثاب وعيسى والأعمش وابن مصرف **﴿يشأ ﴾** و **﴿يخسف ﴾** و **﴿يسقط ﴾** بالياء فيهن وأدغم الكسائي الفاء في الباء في **﴿يخسف بهم ﴾** قال أبو علي: ولا يجوز ذلك لأن الباء أضعف في الصوت من الفاء فلا تدغم فيها وإن كانت الباء تدغم في الفاء نحو اضرب فلاناً وهذا كما تدغم الباء في الميم نحو اضرب مالكاً ولا تدغم الميم في الباء نحو اضمم بك لأن الباء انحطت عن الميم بفقد الغنة التي فيها، وقال الزمخشري: قرأ الكسائي «يخسف بهم» بالإدغام وليست

بقوية، وأنت تعلم أن القراءة سنة متبعة ويوجد فيها الفصيح والأفصح وذلك من تيسير الله تعالى القرآن للذكر وما أدغم الكسائي إلا عن سماع فلا التفات إلى قول أبي علي ولا الزمخشري ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً﴾ أي آتيناه لحسن إنابته وصحة توبته فضلاً أي نعمة وإحساناً، وقيل فضلاً وزيادة على سائر الأنبياء المتقدمين عليه أو أنبياء بني إسرائيل أو على ما عدا نبينا ﷺ لأنه ما من فضيلة في أحد من الأنبياء عليهم السّلام إلا وقد أوتي عليه الصلاة والسلام مثلها بالفعل أو تمكن منها فلم يختر إظهارها أو على الأنبياء مطلقاً وقد يكون في المفضول ما ليس في غيره، وقد انفرد عليه السّلام بما ذكر ها هنا، وقيل: أو على سائر الناس فيندرج فيه النبوة والكتاب والملك والصوت الحسن. وتعقب بأنه إن أريد أن كلاً منها فضل لا يوجد في سائر الناس فعدم مثل ملكه وصوته محل شبهة وإن أريد المجموع من حيث هو نفيه أنه غير موجود في الأنبياء أيضاً فلا وجه لتخصيصه بهذا الوجه. وأنا أرى الفضل لتفسير الفضل بالإحسان وتنكيره للتفخيم و ﴿منا﴾ أي بلا واسطة لتأكيد فخامته الذاتية بفخامته الإضافية كما في قوله تعالى: ﴿وآتيناه من لدنا علما﴾[1] وتقديمه على المفعول الصريح للاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر ليتمكن في النفس عند وروده فضل تمكن، وذكر شؤون داود وسليمان عليهما السّلام هنا لمناسبة ذكر المنيب في قوله تعالى: ﴿إن في ذلك﴾ لآية لكل عبد منيب كما أشرنا إليه، وقال أبو حيان: مناسبة قصتيهما عليهما السّلام لما قبلها هي أن أولئك الكفار أنكروا البعث لاستحالته في زعمهم فأخبروا بوقوع ما هو مستحيل في العادة مما لا يمكنهم إنكاره إذ طفحت ببعضه أخبارهم وأشعارهم، وقيل: ذكر سبحانه نعمته عليهما احتجاجاً على ما منح نبينا ﷺ كأنه قيل: لا تستبعدوا هذا فقد تفضلنا على عبيدنا قديماً بكذا وكذا فلما فرغ التمثيل له عليه الصلاة والسلام رجع التمثيل لهم بسبا وما كان من هلاكهم بالكفر والعتو ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾ أي سبحي معه قاله ابن عباس وقتادة وابن زيد، وأخرجه ابن جرير عن أبي ميسرة إلا أنه قال: معناه ذلك بلغة الحبشة، والظاهر أنه عربي من التأويب والمراد رجعي معه التسبيح ورديه، وقال ابن عطية: إن أصل ماضيه آب وضعف للمبالغة. وتعقبه في البحر بقوله ويظهر أن التضعيف للتعدية لأن آب بمعنى رجع لازم صلته اللام فعدي بالتضعيف إذ شرحوه بقولهم رجعي معه التسبيح.

يروى أنه عليه السّلام كان إذا سبح سبحت الجبال مثل تسبيحه بصوت يسمع منها ولا يعجز الله عزّ وجلّ أن يجعلها بحيث تسبح بصوت يسمع وقد سبح الحصى في كف نبينا عليه الصلاة والسلام وسمع تسبيحه وكذا في كف أبي بكر رضي الله تعالى عنه، ولا يبعد على هذا أن يقال: إنه تعالى خلق فيها الفهم أولاً فناداها كما ينادى أولو الفهم وأمرها، وقال بعضهم: إنه سبحانه نزل الجبال منزلة العقلاء الذين إذا أمرهم أطاعوا وأذعنوا وإذا دعاهم سمعوا وأجابوا إشعاراً بأنه ما من حيوان وجماد إلا وهو منقاد لمشيئته تعالى غير ممتنع على إرادته سبحانه ودلالة على عزة الربوبية وكبرياء الألوهية حيث نادى الجبال وأمرها، وقيل: المراد بتأويبها حملها إياه على التسبيح إذا تأمل ما فيها، وفيه مع كونه خلاف المأثور أن ﴿معه﴾ يأباه، وأيضاً لا اختصاص له عليه السّلام بتأويب الجبال بهذا المعنى حتى يفضل به أو يكون معجزة له، وقيل: كان عليه السّلام ينوح على ذنبه بترجيع وتحزين وكانت الجبال تسعده بأصدائها. وفيه أن الصدى ليس بصوت الجبال حقيقة وإنما هو من آثار صوت المتكلم على ما قام عليه البرهان، والله تعالى نادى الجبال وأمرها أن تؤوب معه، وأيضاً أي اختصاص له عليه الصلاة والسلام بذلك ولصوت كل أحد صدى عند الجبال،

---

(١) نص الآية ٢٢ من سورة يوسف ﴿آتيناه حكماً وعلماً﴾ ونص الآية ٦٥ من سورة الكهف ﴿آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً﴾.

وعن الحسن أن معنى ﴿أوبي معه﴾ سيري معه أين سار، والتأويب سير النهار كأن الإنسان يسير الليل ثم يرجع السير بالنهار أي يردده.

ومن ذلك قول تميم بن مقبل:

لحقنا بحي أوبوا السير بعدما ... دفعنا شعاع الشمس والطرف يجنح

وقول آخر:

يومان يوم مقامات وأندية ... ويوم سير إلى الأعداء تأويب

وأورد عليه أن الجبال أوتاد الأرض ولم ينقل سيرها مع داود عليه السّلام أو غيره، وقيل: المعنى تصرفي معه على ما يتصرف فيه فكانت إذا سبح سبحت وإذا ناح ناحت وإذا قرأ الزبور قرأت. وتعقب بأنه لم يعرف التأويب بمعنى التصرف في لغة العرب، وقيل: المعنى ارجعي إلى مراده فيما يريد من حفر واستنباط أعين واستخراج معدن ووضع طريق، والجملة معمولة لقول مضمر أي قولنا يا جبال على أنه بدل من ﴿فضلاً﴾ بدل كل من كل أو بدل اشتمال أو قلنا يا جبال على أنه بدل من ﴿آتينا﴾ وجوز كونه بدلاً من ﴿فضلاً﴾ بناءً على أنه يجوز إبدال الجملة من المفرد، وجوز أبو حيان الاستئناف وليس بذاك.

وقرأ ابن عباس والحسن وقتادة وابن أبي إسحاق «أُوْبي» بضم الهمزة وسكون الواو أمر من الأوب وهو الرجوع وفرق بينهما الراغب بأن الأوب لا يقال إلا في الحيوان الذي له إرادة والرجوع يقال فيه وفي غيره.

والمعنى على هذه القراءة عند الجمهور ارجعي معه في التسبيح وأمر الجبال كأمر الواحدة المؤنثة لأن جمع ما لا يعقل يجوز فيه ذلك، ومنه يا خيل الله اركبي وكذا ﴿مآرب أخرى﴾ [طه: ١٨] وقد جاء ذلك في جمع من يعقل من المؤنث قال الشاعر:

تركنا الخيل والنعم المفدى ... وقلنا للنساء بها أقيمي

لكن هذا قليل ﴿وَالطَّيْرَ﴾ بالنصب وهو عند أبي عمرو بن العلاء بإضمار فعل تقديره وسخرنا له الطير وحكى أبو عبيدة عنه أن ذلك بالعطف على ﴿فضلاً﴾ ولا حاجة إلى الإضمار لأن إيتاءها إياه عليه السّلام تسخيرها له، وذكر الطيبي أن ذلك كقوله:

علفتها تبناً وماءً بارداً

وقال الكسائي: بالعطف أيضاً إلا أنه قدر مضافاً أي وتسبيح لطير ولا يحتاج إليه، وقال سيبويه: الطير معطوف على محل ﴿جبال﴾ نحو قوله:

ألا يا زيد والضحاك سيرا

بنصب الضحاك، ومنعه بعض النحويين للزوم دخول يا على المنادى المعرف بأل.

والمجيز يقول: رب شيء يجوز تبعاً ولا يجوز استقلالاً، وقال الزجاج: هو منصوب على أنه مفعول معه. وتعقبه أبو حيان بأنه لا يجوز لأن قبله ﴿معه﴾ ولا يقتضي اثنين من المفعول معه إلا على البدل أو العطف فكما لا يجوز جاء زيد مع عمرو مع زينب إلا بالعطف كذلك هذا، وقال الخفاجي: لا يأباه ﴿معه﴾ سواء تعلق بأوبي على أنه ظرف لغو أو جعل حالاً لأنهما معمولان متغايران إذ الظرف والحال غير المفعول معه وكل منها باب على حده وإنما الموهم

لذلك لفظ المعية فما اعترض به أبو حيان غير متوجه وإن ظن كذلك، وأقبح من الذنب الاعتذار حيث أجيب بأنه يجوز أن يقال حذفت واو العطف من قوله تعالى: ﴿والطير﴾ استثقالاً لاجتماع الواوين أو اعتبر تعلق الثاني بعد تعلق الأول.

وقرأ السلمي وابن هرمز وأبو يحيى وأبو نوفل ويعقوب وابن أبي عبلة وجماعة من أهل المدينة وعاصم في رواية «والطيرُ» بالرفع وخرج على أنه معطوف على ﴿جبال﴾ باعتبار لفظه وحركته لعروضها تشبه حركة الإعراب ويغتفر في التابع ما لا يغتفر في المتبوع، وقيل معطوف على الضمير المستتر في ﴿أوبي﴾ وسوغ ذلك الفصل بالظرف، وقيل: هو بتقدير ولتؤوب الطير نظير ما قيل في قوله تعالى: ﴿اسكن أنت وزوجك الجنة﴾ [البقرة: ٣٥، الأعراف: ١٩].

وقيل: هو مرفوع بالابتداء والخبر محذوف أي والطير تؤوب ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ وجعلناه في يده كالشمع والعجين يصرفه كما يشاء من غير نار ولا ضرب مطرقة قاله السدي وغيره، وقيل: جعلناه بالنسبة إلى قوته التي آتيناها إياه ليناً كالسمع بالنسبة إلى قوى سائر البشر ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾ ﴿أن﴾ مصدرية وهي على إسقاط حرف الجر أي ألنا له الحديد لعمل سابغات أو وأمرناه بعمل سابغات، والأول أولى، وأجاز الحوفي وغيره أن تكون مفسرة ولما كان شرط المفسرة أن يتقدمها معنى القول دون حروفه وألنّا ليس فيه ذلك قدر بعضهم قبلها فعلاً محذوفاً فيه معنى القول ليصح كونها مفسرة أي وأمرناه أن أعمل أي أي أعمل، وأورد عليه أن حذف المفسر لم يعهد، والسابغات الدروع وأصله صفة من السبوغ وهو التمام والكمال فغلب على الدروع كالأبطح قال الشاعر:

لا سابغات ولا جأواء باسلة ... تقي المنون لدى استيفاء آجال

ويقال سوابغ أيضاً كما في قوله:

عليها أسود ضاريات لبوسهم ... سوابغ بيض لا تخرقها النبل

فلا حاجة إلى تقدير موصوف أي دروعاً سابغات، ولا يرد هذا نقصاً على ما قيل إن الصفة ما لم تكن مختصة بالموصوف كحائض لا يحذف موصوفها. وقرىء «صابغات» بإبدال السين صاداً لأجل الغين.

﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ السرد نسج في الأصل كما قال الراغب خرز ما يخشن ويغلظ قال الشماخ:

فظلت سراعاً خيلنا في بيوتكم ... كما تابعت سرد العنان الخوارز

واستعير لنظم الحديد وفي البحر هو اتباع الشيء بالشيء من جنسه ويقال للدرع مسرودة لأنه توبع فيها الحلق بالحلق قال الشاعر:

وعليهما مسرودتان قضاهما ... داود أو صنع السوابغ تبع

ولصانعها سراد وزراد بإبدال السين زايا، وفسره هنا غير واحد بالنسج وقال: المعنى اقتصد في نسج الدروع بحيث تتناسب حلقها، وابن عباس فيما أخرجه عنه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طرق بالحلق أي اجعل حلقها على مقادير متناسبة، وقال ابن زيد: لا تعملها صغيرة فتضعف فلا يقوى الدرع على الدفاع ولا كبيرة فينال صاحبها من خلالها، وجاء في رواية أخرى عن ابن عباس تفسيرها بالمسامير وروي ذلك عن قتادة ومجاهد أي قدر مساميرها فلا تعملها دقاقاً ولا غلاظاً أي اجعلها على مقدار معين دقة وغيرها مناسبة للثقب الذي هيىء لها في الحلقة فإنها إن كانت دقيقة اضطربت فيها فلم تمسك طرفيها وإن كانت غليظة خرقت طرف الحلقة الموضوعة فيه فلا تمسك أيضاً، ويبعد هذا أن إلانة الحديد له عليه السّلام بحيث كان كالشمع والعجين يغني عن التسمير فإنه بعد جمع الحلق وإدخال بعضه في بعض يزال انفصال طرفي كل حلقة بمزج الطرفين كما يمزج طرفاً حلقة من شمع أو عجين والاحكام بذلك أتم من الاحكام بالتسمير بل لا يبقى معه حاجة إلى التسمير أصلاً فلعله إن صح مبني على أنه عليه

السّلام كان يعمل الحلق من غير مزج لطرفي كل فيسمر للاحكام بعد إدخال بعضه في بعض، ويظهر ذلك على التفسير الثاني لقوله تعالى: ﴿وألنا له الحديد﴾ إذ غاية القوة كسر الحديد كما يريد من غير آلة دون وصل بعضه ببعض، ولا يعارض ذلك ما نقل عن البقاعي أنه قال: أخبرنا بعض من رأى ما نسب إلى داود عليه السّلام من الدروع أنه بغير مسامير فإنه نقل عن مجهول فلا يلتفت لمثله، وقيل معنى ﴿قدر في السرد﴾ لا تصرف جميع أوقاتك فيه بل مقدار ما يحصل به القوت وأما الباقي فاصرفه إلى العبادة قيل وهو الأنسب بالأمر الآتي، وحكي أنه عليه السّلام أول من صنع الدرع حلقاً وكانت قبل صفائح وروي ذلك عن قتادة.

وعن مقاتل أنه عليه السّلام حين ملك على بني إسرائيل يخرج متنكراً فيسأل الناس عن حاله فعرض له ملك في صورة إنسان فسأله فقال: نعم العبد لولا خلة فيه فقال وما هي؟ قال: يرزق من بيت المال ولو أكل من عمل يده تمت فضائله فدعا الله تعالى أن يعلمه صنعة ويسهلها عليه فعلمه صنعة الدروع وألان له الحديد فأثرى وكان ينفق ثلث المال في مصالح المسلمين وكان يفرغ من الدرع في بعض يوم أو في بعض ليل وثمنها ألف درهم.

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول. وابن أبي حاتم عن ابن شوذب قال: كان داود عليه السّلام يرفع في كل يوم درعاً فيبيعها بستة آلاف درهم ألفان له ولأهله وأربعة آلاف يطعم بها بني إسرائيل الخبز الحواري، وقيل: كان يبيع الدرع بأربعة آلاف فينفق منها على نفسه وعياله ويتصدق على الفقراء، وفي مجمع البيان عن الصادق رضي الله تعالى عنه أنه عمل ثلاثمائة وستين درعاً فباعها بثلاثمائة وستين ألف درهم فاستغنى عن بيت المال ﴿وَاعمَلُوا صَالحِاً﴾ خطاب لداود وآله عليهم السّلام وهم وإن لم يجر لهم ذكر يفهمون على ما قال الخفاجي التزاماً من ذكره، وجوز أن يكون خطاباً له عليه السّلام خاصة على سبيل التعظيم، وأياً ما كان فالظاهر أنه أمر بالعمل الصالح مطلقاً، وليس هو على الوجه الثاني أمراً بعمل الدروع خالية من عيب.

﴿إِنّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فأجازيكم به وهو تعليل للأمر أو لوجوب الامتثال به على وجه الترغيب والترهيب ﴿وَلِسُلَيمَانَ الرِّيحَ﴾ أي وسخرنا له الريح، وقيل ﴿لسليمان﴾ عطف على ﴿له﴾ في ﴿ألنّا له الحديد﴾ والريح عطف على ﴿الحديد﴾ وإلانة الريح عبارة عن تسخيرها.

وقرأ أبو بكر «الريحُ» بالرفع على أنه مبتدأ و «لسليمان» خبره والكلام على تقدير مضاف أي ولسليمان تسخير الريح، وذهب غير واحد إلى أنه مبتدأ ومتعلق الجار كون خاص هو الخبر وليس هناك مضاف مقدر أي ولسليمان الريح مسخرة، وعندي أن الجملة على القراءتين معطوفة على قوله تعالى: ﴿ولقد آتينا داود منا فضلاً﴾ الخ عطف القصة على القصة، وقال ابن الشيخ: العطف على القراءة الأولى على ﴿ألنّا له الحديد﴾ وكلتا الجملتين فعلية وعلى القراءة الثانية العطف على اسمية مقدرة دلت عليها تلك الجملة الفعلية لا عليها للتخالف فكأنه قيل: ما ذكرنا لداود ولسليمان الريح فإنها كانت له كالمملوك المختص بالمالك يأمرها بما يريد ويسير عليها حيثما يشاء، ثم قال: وإنما لم يقل ومع سليمان الريح لأن حركتها ليست بحركة سليمان بل هي تتحرك بنفسها وتحرك سليمان وجنوده بحركتها وتسير بهم حيث شاء وهذا على خلاف تأويب الجبال فإنه كان تبعاً لتأويب داود عليه السّلام فلذا جيء هناك بمعه.

وقرأ الحسن وأبو حيوة وخالد بن إلياس «الرياح» بالرفع جمعاً ﴿غُدُوهَا شَهرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ أي جريها بالغداة مسيرة شهر وجريها بالعشي كذلك، والجملة أما مستأنفة أو حال من ﴿الريح﴾ ولا بدّ من تقدير مضاف في الخبر لأن الغدو والرواح ليس نفس الشهر وإنما يكونان فيه، ولا حاجة إلى تقدير في المبتدأ كما فعل مكي حيث قال: أي مسير غدوها مسيرة شهر ومسير رواحها كذلك لما لا يخفى، وقال ابن الحاجب في أماليه الفائدة في إعادة لفظ الشهر

الأعلام بمقدار زمن الغدو وزمن الرواح والألفاظ التي تأتي مبينة للمقادير لا يحسن فيها الإضمار ألا ترى أنك تقول زنة هذا مثقال وزنة هذا مثقال فلا يحسن الإضمار كما لا يحسن في التمييز، وأيضاً فإنه لو أضمر فالضمير إنما يكون لما تقدم باعتبار خصوصيته فإذا لم يكن له بذلك الاعتبار وجب العدول إلى الظاهر، ألا ترى أنك إذا أكرمت رجلاً وكسوت ذلك الرجل بخصوصه لكانت العبارة أكرمت رجلاً وكسوته ولو أكرمت رجلاً وكسوت رجلاً آخر لكانت العبارة أكرمت رجلاً وكسوت رجلاً فتبين أنه ليس من وضع الظاهر موضع الضمير كذا في حواشي الطيبي عليه الرحمة، ولا يخفى أن ما ذكره مبني على ما هو الغالب وإلا فقد قال تعالى: ﴿وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره﴾ [فاطر: ١١] ولم يقتصر على الإعلام بزمن الغدو ليقاس عليه زمن الرواح لأن الريح كثيراً ما تسكن أو تضعف حركتها بالعشي فدفع بالتنصيص على بيان زمن الرواح توهم اختلاف الزمانين، قال قتادة كانت الريح تقطع به عليه السّلام في الغدو إلى الزوال مسيرة شهر وفي الرواح من بعد الزوال إلى الغروب مسيرة شهر.

وأخرج أحمد في الزهد عن الحسن أنه قال في الآية كان سليمان عليه السّلام يغدو من بيت المقدس فيقيل بإصطخر ثم يروح من اصطخر فيقيل بقلعة خراسان.

وقد ذكر حديث هذه الريح في بعض الأشعار القديمة قال وهب: ونقله عنه في البحر وجدت أبياتاً منقورة في صخرة بأرض كسكر لبعض أصحاب سليمان عليه السّلام وهي:

ونحن ولا حول سوى حول ربنا ... نروح من الأوطان من أرض تدمر
إذا نحن رحنا كان ريث رواحنا ... مسيرة شهر والغدو لآخر
أناس شروا لله طوعاً نفوسهم ... بنصر ابن داود النبي المطهر
لهم في معالي الدين فضل ورفعة ... وإن نسبوا يوماً فمن خير معشر
متى تركب الريح المطيعة أسرعت ... مبادرة عن شهرها لم تقصر
تظلهم طير صفوف عليهم ... متى رفرفت من فوقهم لم تنفر

وذكر أيضاً رضي تعالى عنه أنه عليه السّلام كان مستقره تدمر وأن الجن قد بنتها له بالصفاح والعمد والرخام الأبيض والأشقر وقال: وفيه يقول النابغة:

ألا سليمان إذ قال الإله له ... قم في البرية فاصددها عن الفند
وجيش الجن إني قد أذنت لهم ... يبنون تدمر بالصفاح والعمد

انتهى، وما ذكره في تدمر هو المشهور عند العامة وقد ذكر ذلك الثعالبي في تفسيره مع الأبيات المذكورة لكن في القاموس تدمر كتنصر بنت حسان بن أذينة بها سميت مدينتها وهو ظاهر في المخالفة، ولعل التعويل على ما فيه إن لم يمكن الجمع والله تعالى أعلم بحقيقة الحال.

وقرأ ابن أبي عبلة «غدوتها» «وروحتها» على وزن فعلة وهي المرة الواحدة غدا وراح **﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾** أي النحاس الذائب من قطر يقطر قطراً وقطراناً بسكون الطاء وفتحها، وقيل الفلزات النحاس والحديد وغيرهما، وعلى الأول جمهور اللغويين، وأريد بعين القطر معدن النحاس ولكنه سبحانه أساله كما ألان الحديد لداود فنبع كما ينبع الماء من العين فلذلك سمي عين القطر باسم ما آل إليه، وذكر الجلبي أن نسبة الإسالة إلى العين مجازية كما في جري النهر.

وقال الخفاجي: إن كانت العين هنا بمعنى الماء المعين أي الجاري وإضافتها كما في لجين الماء فلا تجوز في

النسبة وإنما هو من مجاز الأول على أن العين منبع الماء ولا حاجة إليه ا هـ فتأمل.

وقال بعضهم: القطر النحاس وعين بمعنى ذات ومعنى أسلنا أذبنا فالمعنى أذبنا له النحاس على نحو ما كان الحديد يلين لداود عليه السّلام فكانت الأعمال تتأتى منه وهو بارد دون نار ولم يلن ولا ذاب لأحد قبله والظاهر المؤيد بالآثار أنه تعالى جعله في معدنه عيناً تسيل كعيون الماء.

أخرج ابن المنذر عن عكرمة أنه قال في الآية: أسال الله تعالى له القطر ثلاثة أيام يسيل كما يسيل الماء قيل: إلى أين؟ قال: لا أدري. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: سيلت له عين من نحاس ثلاثة أيام، وفي البحر عن ابن عباس والسدي ومجاهد قالوا، أجريت له عليه السّلام ثلاثة أيام بلياليهن وكانت بأرض اليمن، وفي رواية عن مجاهد أن النحاس سال من صنعاء وقيل: كان يسيل في الشهر ثلاثة أيام.

﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يحتمل أن يكون الجار والمجرور متعلقاً بمحذوف هو خبر مقدم و ﴿من﴾ في محل رفع مبتدأ ويحتمل أن يكون متعلقاً بمحذوف وقع حالاً مقدماً من ﴿من﴾ وهي في محل نصب عطف على ﴿الريح﴾ وجوز أن يكون ﴿من الجن﴾ عطفاً على الريح على أن من للتبعيض و ﴿من يعمل﴾ بدل منه وهو تكلف و ﴿يعمل﴾ إما منزل منزلة اللازم أو مفعوله مقدر يفسره ما سيأتي إن شاء الله تعالى ليكون تفصيلاً بعد الإجمال وهو أوقع في النفس ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ بأمره عزّ وجلّ ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ أي ومن يعدل منهم عما أمرناه به من طاعة سليمان عليه السّلام. وقرىء «يُزِغْ» بضم الياء من أزاغ مبنياً للفاعل ومفعوله محذوف أي من يمل ويصرف نفسه أو غيره، وقيل مبنياً للمفعول فلا يحتاج إلى تقدير مفعول ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ أي عذاب النار في الآخرة كما قال أكثر المفسرين وروي ذلك عن ابن عباس، وقال بعضهم: المراد تعذيبه في الدنيا.

روي عن السدي أنه عليه السّلام كان معه ملك بيده سوط من نار كل ما استعصى عليه جني ضربه من حيث لا يراه الجني.

وفي بعض الروايات أنه كان يحرق من يخالفه، واحتراق الجني مع أنه مخلوق من النار غير منكر فإنه عندنا ليس ناراً محضة وإنما النار أغلب العناصر فيه.

يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا
وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ
مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ
فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ
﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن
سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى
بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ
أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ

﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ
إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْأٓخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ
زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ
وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا
قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ
أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾

﴿**يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ من محاريبَ**﴾ جمع محراب وهو كما قال عطية القصر، وسمي باسم صاحبه لأنه يحارب غيره في حمايته، فإن المحراب في الأصل من صيغ المبالغة اسم لمن يكثر الحرب وليس منقولاً من اسم الآلة وإن جوزه بعضهم، ولابن حيوس:

جمع الشجاعة والخشوع لربه ... ما أحسن المحراب في محرابه

ويطلق على المكان المعروف الذي يقف بحذائه الإمام، وهو مما أحدث في المساجد ولم يكن في الصدر الأول كما قال السيوطي وألف في ذلك رسالة ولذا كره الفقهاء الوقوف في داخله.

وقال ابن زيد: المحاريب المساكر، وقيل ما يصعد إليه بالدرج كالغرف، وقال مجاهد: هي المساجد سميت باسم بعضها تجوزاً على ما قيل، وهو مبني على أن المحراب اسم لحجرة في المسجد يعبد الله تعالى فيها أو لموقف الإمام.

وأخرج ابن المنذر وغيره عن قتادة تفسيرها بالقصور والمساجد معاً، وجملة ﴿**يعملون له ما يشاء**﴾ استئناف لتفصيل ما ذكر من عملهم، وجوز كونها حالاً وهو كما ترى ﴿**وَتَمَاثِيلَ**﴾ قال الضحاك: كانت صور حيوانات، وقال الزمخشري: صور الملائكة والأنبياء والصلحاء كانت تعمل في المساجد من نحاس وصفر وزجاج ورخام ليراها الناس فيعبدوا نحو عبادتهم وكان اتخاذ الصور في ذلك الشرع جائزاً كما قال في الآية اتخذ سليمان عليه السّلام تماثيل من نحاس فقال يا رب انفخ فيها الروح فإنها أقوى على الخدمة فينفخ الله تعالى فيها الروح فكانت تخدمه واسفنديار من بقاياهم، وهذا من العجب العجاب ولا ينبغي اعتقاد صحته وما هو إلا حديث خرافة، وأما ما روي من أنهم عملوا له عليه السّلام أسدين في أسفل كرسيه ونسرين فوقه فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان له ذراعيهما وإذا قعد أظله النسران بأجنحتهما فأمر غير مستبعد فإن ذلك يكون بآلات تتحرك عند الصعود وعند القعود فتحرك الذراعين والأجنحة، وقد انتهت صنائع البشر إلى مثل ذلك في الغرابة، وقيل: التماثيل طلسمات فتعمل تمثالاً للتمساح أو للذباب أو للبعوض فلا يتجاوزه الممثل به ما دام في ذلك المكان، وقد اشتهر عمل نحو ذلك عن الفلاسفة وهو مما لا يتم عندهم إلا بواسطة بعض الأوضاع الفلكية، وعلى الباب الشهيرة بباب الطلسم من أبواب بغداد تمثال حية يزعمون أنه لمنع الحيات عن الإيذاء داخل بغداد ونحن قد شاهدنا مراراً أناساً لسعتهم الحيات فمنهم من لم يتأذ ومنهم من تأذى يسيراً ولم نشاهد موت أحد من ذلك وقلما يسلم من لسعته خارج بغداد لكن لا نعتقد أن لذلك التمثال مدخلاً فيما ذكر ونظن أن ذاك لضعف الصنف الموجود في بغداد من الحيات وقلة شره بالطبيعة، وقيل كانت التماثيل صور شجر أو حيوانات

محذوفة الرؤوس مما جوز في شرعنا، ولا يحتاج إلى التزام ذلك إذا صح فيه نقل فإن الحق أن حرمة تصوير الحيوان كاملاً لم تكن في ذلك الشرع وإنما هي في شرعنا ولا فرق عندنا بين أن تكون الصورة ذات ظل وأن لا تكون كذلك كصورة الفرس المنقوشة على كاغد أو جدار مثلاً.

وحكى مكي في الهداية أن قوماً أجازوا التصوير وحكاه النحاس أيضاً وكذا ابن الفرس واحتجوا بهذه الآية، وأنت تعلم أنه ورد في شرعنا من تشديد الوعيد على المصورين ما ورد فلا يلتفت إلى هذا القول ولا يصح الاحتجاج بالآية، وكأنه إنما حرمت التماثيل لأنه بمرور الزمان اتخذها الجهلة مما يعبد وظنوا وضعها في المعابد لذلك فشاعت عبادة الأصنام أو سداً لباب التشبه بمتخذي الأصنام بالكلية ﴿وجِفَان﴾ جمع جفنة وهي ما يوضع فيها الطعام مطلقاً كما ذكره غير واحد، وقال بعض اللغويين: الجفنة أعظم القصاع ويليها القصعة وهي ما تشبع العشرة ويليها الصحفة وهي ما تشبع الخمسة ويليها المئكلة وهي ما تشبع الاثنين والثلاثة ويليها الصحيفة وهي ما تشبع الواحد، وعليه فالمراد هنا المطلق لظاهر قوله تعالى: ﴿كَالجَوَاب﴾ أي كالحياض العظام جمع جابية من الجباية أي الجمع فهي في الأصل مجاز في الطرف أو النسبة لأنها يجبي إليها لا جابية ثم غلبت على الإناء المخصوص غلبة الدابة في ذوات الأربع، وجاء تشبيه الجفنة بالجابية في كلامهم من ذلك قول الأعشى:

نفي الذم عن آل المحلق جفنة ... كجابية السيح العراقي تفهق

وقول الأفوه الأودي:

وقدور كالربى راسيه ... وجفان كالجوابي مترعه

وذكر في سعة جفان سليمان عليه السّلام أنها كان على الواحدة منها ألف رجل. وقرىء «كالجوابي» بياء وهو الأصل وحذفها للاجتزاء بالكسرة وإجراء أل مجرى ما عاقبها وهو التنوين فكما يحذف مع التنوين يحذف مع ما عاقبه ﴿وَقُدُور﴾ جمع قدر وهو ما يطبخ فيه من فخار أو غيره وهو على شكل مخصوص ﴿رَاسِيَات﴾ ثابتات على الأثافي لا تنزل عنها لعظمها قاله قتادة، وقيل: كانت عظيمة كالجبال وقدمت المحاريب على التماثيل لأن الصور توضع في المحاريب أو تنقش على جدرانها، وقدمت الجفان على القدور مع أن القدور آلة الطبخ والجفان آلة الأكل والطبخ قبل الأكل لأنه لما ذكرت الأبنية الملكية ناسب أن يشار إلى عظمة السماط الذي يمد فيها فذكرت الجفان أولاً لأنها تكون فيها بخلاف القدور فإنها لا تحضر هناك كما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿راسيات﴾ على ما سمعت أولاً، وكأنه لما بين حال الجفان اشتاق الذهن إلى حال القدور فذكرت للمناسبة.

﴿اعمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكراً﴾ بتقدير القول على الاستئناف أو الحالية من فاعل ﴿سخرنا﴾ المقدر وآل منادى حذف منه حرف النداء و ﴿شكراً﴾ نصب على أنه مفعول له، وفيه إشارة إلى أن العمل حقه أن يكون للشكر لا للرجاء والخوف أو على أنه مفعول مطلق لاعملوا لأن الشكر نوع من العمل فهو كقعدت القرفصاء، وقيل: لتضمين ﴿اعملوا﴾ معنى اشكروا، وقيل: لا شكروا محذوفاً أو على أنه حال بتأويل اسم الفاعل أي اعملوا شاكرين لأن الشكر يعم القلب والجوارح أو على أنه صفة لمصدر محذوف أي اعملوا عملاً شكراً أو على أنه مفعول به لا عملوا فالكلام كقولك عملت الطاعة، وقيل: إن اعملوا أقيم مقام اشكروا مشاكلة لقوله سبحانه يعملون.

وقال ابن الحاجب: إنه جعل مفعولاً به تجوزاً. وأياً ما كان فقد روى ابن أبي الدنيا والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود قال: لما قيل لهم اعملوا آل داود شكراً، لم يأت ساعة على القوم إلا ومنهم قائم يصلي، وفي رواية

كان مصلى آل داود لم يخل من قائم يصلي ليلاً ونهاراً وكانوا يتناوبونه وكان سليمان عليه السّلام يأكل خبز الشعير ويطعم أهله خشادته، والمساكين الدرمك وهو الدقيق الحواري وما شبع قط، وقيل: له في ذلك فقال: أخاف إذا شبعت أن أنسى الجياع، وجوز بعض الأفاضل دخول داود عليه السّلام في الآل هنا لأن آل الرجل قد يعمه.

ويؤيده ما أخرجه أحمد في الزهد: وابن المنذر والبيهقي في شعب الإيمان عن المغيرة بن عتيبة قال: قال داود عليه السّلام يا رب هل بات أحد من خلقك أطول ذكراً مني فأوحى الله تعالى إليه الضفدع وأنزل سبحانه عليه عليه السّلام ﴿اعملوا آل داود شكراً﴾ فقال داود عليه السّلام كيف أطيق شكرك وأنت الذي تنعم عليّ ثم ترزقني على النعمة الشكر فالنعمة منك والشكر منك فكيف أطيق شكرك؟ فقال جل وعلا: يا داود الآن عرفتني حق معرفتي.

وجاء في رواية ابن أبي حاتم عن الفضيل أنه عليه السّلام قال يا رب: كيف أشكرك والشكر نعمة منك؟ قال سبحانه: الآن شكرتني حين علمت النعم مني، وكذا ما أخرجه الفريابي: وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: قال داود لسليمان عليهما السّلام: قد ذكر الله تعالى الشكر فاكفني قيام النار أكفك قيام الليل قال: لا أستطيع قال: فأكفني صلاة النهار فكفاه ﴿وَقَلِيلٌ مِّن عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ قال ابن عباس: هو الذي يشكر على أحواله كلها، وفي الكشاف هو المتوفر على أداء الشكر الباذل وسعه فيه قد شغل به قلبه ولسانه وجوارحه اعترافاً واعتقاداً وكدحاً وأكثر أوقاته، وقال السدي هو من يشكر على الشكر، وقيل: من يرى عجزه عن الشكر لأن توفيقه للشكر نعمة يستدعي شكراً آخر لا إلى نهاية، وقد نظم هذا بعضهم فقال:

إذا كان شكري نعمة الله نعمة ... علي له في مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله ... وإن طالت الأيام واتسع العمر
إذا مس بالنعماء عم سرورها ... وإن مس بالضراء أعقبها الأجر

وقد سمعت آنفاً ما روي عن داود عليه السّلام، وهذه الجملة يحتمل أن تكون داخلة في خطاب آل داود وهو الظاهر وأن تكون جملة مستقلة جيء بها إخباراً لنبينا ﷺ وفيها تنبيه وتحريض على الشكر.

وقرأ حمزة «عبادي» بسكون الياء وفتحها الباقون ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ﴾ قيل أي أوقعنا على سليمان الموت حاكمين به عليه، وفي مجمع البيان أي حكمنا عليه بالموت، وقيل: أوجبناه عليه، وفي البحر أي أنفذنا عليه ما قضينا عليه في الأزل من الموت وأخرجناه إلى حيز الوجود، وفيه تكلف، وأياً ما كان فليس المراد بالقضاء أخا القدر فتدبر، ولما شرطية ما بعدها شرطها وجوابها قوله تعالى: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ﴾ واستدل بذلك على حرفيتها وفيه نظر، وضمير ﴿دلهم﴾ عائد على الجن الذين كانوا يعملون له عليه السّلام، وقيل: عائد على آل سليمان، ويأباه بحسب الظاهر قوله تعالى بعد ﴿تبينت الجن﴾ والمراد بدابة الأرض الأرضة بفتحات وهي دويبة تأكل الخشب ونحوه وتسمى سرفة بضم السين وإسكان الراء المهملة وبالفاء، وفي حياة الحيوان عن ابن السكيت إنها دويبة سوداء الرأس وسائرها أحمر تتخذ لنفسها بيتاً مربعاً من دقاق العيدان تضم بعضها إلى بعض بلعابها ثم تدخل فيه وتموت، وفي المثل أصنع من سرفة وسماها في البحر بسوسة الخشب، والأرض على ما ذهب إليه أبو حاتم وجماعة مصدر أرضت الدابة الخشب تأرضه إذا أكلته من باب ضرب يضرب فإضافة ﴿دابة﴾ إليه من إضافة الشيء إلى فعله، ويؤيد ذلك قراءة ابن عباس والعباس بن الفضل ﴿الأرض﴾ بفتح الراء لأنه مصدر أرض من باب علم المطاوع لأرض من باب ضرب يقال أرضت الدابة الخشب بالفتح فأرض بالكسر كما يقال أكلت القوادح الأسنان أكلاً فأكلت أكلاً فالأرض بالسكون الأكل والأرض بالفتح التأثر من ذلك الفعل.

وقد يفسر الأول بالتأثر الذي هو الحاصل بالمصدر لتتوافق القراءتان، وقيل الأرض بالفتح جمع أرضة وإضافة ﴿دابة﴾ إليه من إضافة العام إلى الخاص، وقيل: إن الأرض بالسكون بمعناها المعروف وإضافة ﴿دابة﴾ إليها قيل لأن فعلها في الأكثر فيها، وقيل لأنها تؤثر في الخشب ونحوه كما تؤثر الأرض فيه إذا دفن فيها وقيل غير ذلك والأولى التفسير الأول وإن لم تجىء الأرض في القرآن بذلك المعنى في غير هذا الموضع، وقوله تعالى: ﴿تَأْكُلُ منسَأَتَهُ﴾ في موضع الحال من ﴿دابة﴾ أي آكلة منسأته والمنسأة العصا من نسأت البعير إذا طردته لأنها يطرد بها أو من نسأته إذا أخرته ومنه النسيء، ويظهر من هذا أنها العصا الكبيرة التي تكون مع الراعي وأضرابه.

وقرأ نافع وابن عامر وجماعة «منساته» بألف وأصله منسأته فأبدلت الهمزة ألفاً بدلاً غير قياسي.

وقال أبو عمرو: أنا لا أهمزها لأني لا أعرف لها اشتقاقاً فإن كانت مما لا تهمز فقد احتطت وإن كانت مما تهمز فقد يجوز لي ترك الهمز فيما يهمز، ولعله بيان لوجه اختيار القراءة بدون همزة وبالهمز جاءت في قول الشاعر:

ضربت بمنسأة وجهه ... فصار بذاك مهيناً ذليلا

وبدونه في قوله:

إذا دببت على المنساة من هرم ... فقد تباعد منك اللهو والغزل

وقرأ ابن ذكوان وبكار والوليد بن أبي عتبة وابن مسلم وآخرون «منسأْته» بهمزة ساكنة وهو من تسكين المتحرك تخفيفاً وليس بقياس، وضعف النحاة هذه القراءة لأنه يلزم فيها أن يكون ما قبل تاء التأنيث ساكناً غير ألف، وقيل: قياسها التخفيف بين بين والراوي لم يضبط، وأنشد هارون بن موسى الأخفش الدمشقي شاهداً على السكون في هذه القراءة قول الراجز:

صريع خمر قام من وكأته ... كقومة الشيخ إلى منسأته

وقرىء بفتح الميم وتخفيف الهمزة قلباً وحذفاً و «منساءته» بالمد على وزن مفعالة كما يقال في الميضأة وهي آلة التوضؤ وتطلق على محله أيضاً ميضاءة، وقرىء «منسيته» بإبدال الهمزة ياء. وقرأت فرقة منهم عمرو بن ثابت عن ابن جبير «من» مفصولة حرف جر «ساته» بجر التاء وهي طرف العصا وأصلها ما انعطف من طرفي القوس ويقال فيه سية أيضاً استعيرت لما ذكر إما استعارة اصطلاحية لأنها كانت خضراء فاعوجت بالاتكاء عليها على ما ستسمعه إن شاء الله تعالى في القصة أو لغوية باستعمال المقيد في المطلق، وبما ذكر علم رد ما قاله البطليوسي بعد ما نقل هذه القراءة عن القراء أنه تعجرف لا يجوز أن يستعمل في كتاب الله عزّ وجلّ ولم يأت به رواية ولا سماع ومع ذلك هو غير موافق لقصة سليمان عليه السّلام لأنه لم يكن معتمداً على قوس وإنما كان معتمداً على عصا. وقرىء «أكلت منسأته» بصيغة الماضي فالجملة إما حال أيضاً بتقدير قد أو بدونه وإما استئناف بياني.

﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ أي سقط ﴿تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ﴾ أي علمت بعد التباس أمر سليمان من حياته ومماته عليهم ﴿أَن لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ أنهم لو كانوا يعلمون الغيب كما يزعمون لعلموا موته زمن وقوعه فلم يلبثوا بعده حولاً في الأعمال الشاقة إلى أن خر، والمراد بالجن الذين علموا ذلك ضعفاء الجن وبالذين نفي عنهم علم الغيب رؤساؤهم وكبارهم على ما روي عن قتادة، وجوز عليه أن يراد بالأمر الملتبس عليهم أمر علم الغيب أو المراد بالجن الجنس بأن يسند للكل ما للبعض أو المراد كبارهم المدعون علم الغيب أي علم المدعون علم الغيب منهم عجزهم وأنهم لا يعلمون الغيب، وهم وإن كانوا عالمين قبل ذلك بحالهم لكن أريد التهكم بهم كما تقول

للمبطل إذا دحضت حجته هل تبينت أنك مبطل. وأنت تعلم أنه لم يزل كذلك متبيناً.

وجوز أن يكون تبين بمعنى بأن وظهر فهو وغير متعد لمفعول كما في الوجه الأول فإن مفعوله فيه **﴿أن لو كانوا﴾** الخ وهو في هذا الوجه بدل من **﴿الجن﴾** بدل اشتمال نحو تبين زيد جهله، والظهور في الحقيقة مسند إليه أي فلما خر بأن للناس وظهر أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب، ولا حاجة على ما قرر إلى اعتبار مضاف مقدر هو فاعل تبين في الحقيقة إلا أنه بعد حذفه أقيم المضاف إليه مقامه وأسند إليه الفعل ثم جعل **﴿أن لو كانوا﴾** الخ بدلاً منه بدل كل من كل والأصل تبين أمر الجن أن لو كانوا الخ، وجعل بعضهم في قوله تعالى **﴿أن لو كانوا يعلمون﴾** الخ قياساً طويت كبراه فكأنه قيل لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين لكنهم لبثوا في العذاب المهين فهم لا يعلمون الغيب، ومجيء تبين بمعنى بأن وظهر لازماً وبمعنى أدرك وعلم متعدياً موجود في كلام العرب قال الشاعر:

تـبـين لـي أن الـقـمـاءة ذلـة وأن أعـزاء الـرجـال طـيـالـهـا

وقال الآخر:

أفـاطـم إنـي مـيـت فـتـبـيني ولا تـجـزعـي كـل الأنـام تمـوت

وفي البحر نقلاً عن ابن عطية قال: ذهب سيبويه إلى أن **﴿أن﴾** لا موضع لها من الأعراب وإنما هي منزلةُ منزلةَ القسم من الفعل الذي معناه التحقيق واليقين، لأن هذه الأفعال التي هي تحققت وتيقنت وعلمت ونحوها تحل محل القسم ـ فما لبثوا ـ جواب القسم لا جواب لو ا هـ فتأمله فإني لا أكاد أتعقله وجهاً يلتفت إليه.

وفي أمالي العز بن عبد السّلام أن الجن ليس فاعل **﴿تبينت﴾** بل هو مبتدأ **﴿وإن لو كانوا يعلمون﴾** خبره والجملة مفسرة لضمير الشأن في **﴿تبينت﴾** إذ لولا ذلك لكان معنى الكلام لما مات سليمان وخر ظهر لهم أنهم لا يعلمون الغيب وعلمهم بعدم علمهم الغيب لا يتوقف على هذا بل المعنى تبينت القصة ما هي والقصة قوله تعالى: **﴿تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين﴾** ا هـ، والعجب من صدور مثله عن مثله، وما جعله مانعاً عن فاعلية **﴿الجن﴾** مدفوع بما سمعت في تفسير الآية كما لا يخفى، وفي كتاب النحاس إشارة إلى أنه قرىء «تبينت الجن» بالنصب على أن تبينت بمعنى علمت والفاعل ضمير الإنس **﴿والجن﴾** مفعوله، وقرأ ابن عباس فيما ذكر ابن خالويه ويعقوب بخلاف عنه «تُبُيِّنَتْ» مبنياً للمفعول، وقرأ أبي «تبينت الإنس» وعن الضحاك «تباينت الإنس» بمعنى تعارفت وتعالمت والضمير في **﴿كانوا﴾** للجن المذكور فيما سبق وقرأ ابن مسعود «تبينت الإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب» وهي قراءات مخالفة لسواد المصحف مخالفة كثيرة وفي القصة روايات فروي أنه كان من عادة سليمان عليه السّلام أن يعتكف في مسجد بيت المقدس المدد الطوال فلما دنا أجله لم يصبح إلا رأى في محرابه شجرة نابتة قد أنطقها الله تعالى فيسألها لأي شيء أنت؟ فتقول: لكذا حتى أصبح ذات يوم فرأى الخرنوبة فسألها فقالت نبت لخراب هذا المسجد فقال: ما كان الله تعالى ليخربه وأنا حي أنت التي على وجهك هلاكي وخراب بيت المقدس فنزعها وغرسها في حائط له واتخذ منها عصا وقال: اللهم عم على الجن موتى حتى يعلم أنهم لا يعلمون الغيب كما يموهون وقال لملك الموت: إذا أمرت بي فاعلمني فقال: أمرت بك وقد بقي من عمرك ساعة فدعا الجن فبنوا عليه صرحاً من قوارير ليس له باب فقام يصلي متكئاً على عصاه فقبض روحه وهو متكىء عليها وكانت الجن تجتمع حول محرابه أينما صلى فلم يكن جني ينظر إليه في صلاته إلا احترق فمر جني فلم يسمع صوته ثم رجع فلم يسمع فنظر إذا سليمان قد خر ميتاً ففتحوا عنه فإذا العصا قد أكلتها الأرضة فأرادوا أن يعرفوا وقت موته

فوضعوا الأرضة على العصا فأكلت منها في يوم وليلة مقداراً فحسبوا على ذلك النحو فوجدوه قد مات منذ سنة وكانوا يعملون بين يديه ويحسبونه حياً فتبين أنهم لو كانوا يعلمون الغيب لما لبثوا في العذاب سنة، ولا يخفى أن هذا من باب التخمين والاقتصار على الأقل وإلا فيجوز أن تكون الأرضة بدت بالأكل بعد موته بزمان كثير وأنها كانت تأكل أحياناً وتترك أحياناً.

وأما كون بدئها في حياته فبعيد، وكونه بالوحي إلى نبي في ذلك الزمان كما قيل فواه لأنه لو كان كذلك لم يحتاجوا إلى وضع الأرضة على العصا ليستعلموا المدة، وروي أن داود عليه السّلام أسس بناء بيت المقدس في موضع فسطاط موسى عليه السّلام فمات قبل أن يتمه فوصى به إلى سليمان فأمر الجن بإتمامه فلما بقي من عمره سنة سأل أن يعمى عليهم موته حتى يفرغوا منه ولتبطل دعواهم علم الغيب، وهذا بظاهره مخالف لما روي أن إبراهيم عليه السّلام هو الذي أسس بيت المقدس بعد الكعبة بأربعين سنة ثم خرب وأعاده داود ومات قبل أن يتمه، وأيضاً إن موسى عليه السّلام لم يدخل بيت المقدس بل مات في التيه، وجاء في الحديث الصحيح أنه عليه السّلام سأل ربه عند وفاته أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر، وأيضاً قد روي أن سليمان قد فرغ من بناء المسجد وتعبد فيه وتجهز بعده للحج شكراً لله تعالى على ذلك. وأجيب عن الأول بأن المراد تجديد التأسيس، وعن الثاني بأن المراد بفسطاط موسى فسطاطه المتوارث وكانوا يضربونه يتعبدون فيه تبركاً لا أنه كان يضرب هنالك في زمنه عليه السّلام، ويحتاج هذا إلى نقل فإن مثله لا يقال بالرأي فإن كان فأهلاً ومرحباً، وقيل المراد به مجمع العبادة على دين موسى كما وقع في الحديث فسطاط إيمان.

وقال القرطبي في التذكرة: المراد به فرقة منحازة عن غيرها، مجتمعة تشبيهاً بالخيمة، ولا يخفى ما فيهما وإن قيل إنهما أظهر من الأول، وعن الثالث بأن المراد بالفراغ القرب من الفراغ وما قارب الشيء له حكمه وفيه بعد واختير أن هذا رواية وذاك رواية والله تعالى أعلم بالصحيح منهما. وروي أنه عليه السّلام قد أمر ببناء صرح له فبنوه فدخله مختلياً ليصفو له يوم في الدهر من الكدر فدخل عليه شاب فقال: له كيف دخلت عليّ بلا إذن؟ فقال: إنما دخلت بإذن فقال: ومن أذن لك؟ قال: رب هذا الصرح فعلم أنه ملك الموت أتى لقبض روحه فقال: سبحان الله هذا اليوم الذي طلبت فيه الصفا فقال له: طلبت ما لم يخلق فاستوثق من الاتكاء على عصاه فقبض روحه وخفي على الجن موته حتى سقط، وروي أن أفريدون جاء ليصعد كرسيه فلما دنا ضرب الأسدان ساقه فكسراها فلم يجسر أحد بعده أن يدنو منه، ولذا لم تقربه الجن وخفي أمر موته عليهم.

ونظر فيه بأن سليمان كان بعد موسى بمدة مديدة وأفريدون كان قبله لأن منوجهر من أسباط أفريدون وظهر موسى عليه في زمانه، وعلى جميع الروايات الدالة على موته عليه السّلام خروره لما كسرت العصا لضعفها بأكل الأرضة منها، ونسبة الدلالة في الآية إليها نسبة إلى السبب البعيد.

ومن الغريب ما نقل عن ابن عباس أنه عليه السّلام مات في متعبده على فراشه، وقد أغلق الباب على نفسه فأكلت الأرضة المنسأة أي عتبة الباب فلما خر أي الباب علم موته فإن فيه جعل ضمير ﴿خر﴾ للباب وإليه ذهب بعضهم، وفيه أنه لم يعهد تسمية العتبة منسأة، وأيضاً كان اللازم عليه خرت بتاء التأنيث ولا يجيء حذفها في مثل ذلك إلا في ضرورة الشعر، وكون التذكير على معنى العود بعيد فالظاهر عدم صحة الرواية عن الحبر والله تعالى أعلم.

وحكى البغوي عنه أن الجن شكروا الأرضة فهم يأتونها بالماء والطين في جوف الخشب وهذا شيء لا أقول به ولا أعتقد صحة الرواية أيضاً، وكان عمره عليه السّلام ثلاثاً وخمسين سنة وملك بعد أبيه وعمره ثلاثة عشر سنة وابتدأ

في بناء بيت المقدس لأربع سنين مضين من ملكه ثم مضى وانقضى وسبحان من لا ينقضي ملكه ولا يزول سلطانه، وفي الآية دليل على أن الغيب لا يختص بالأمور المستقبلة بل يشمل الأمور الواقعة التي هي غائبة عن الشخص أيضاً ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ﴾ لما ذكر عزّ وجلّ حال الشاكرين لنعمه المنيبين إليه تعالى ذكر حال الكافرين بالنعمة المعرضين عنه جل شأنه موعظة لقريش وتحذيراً لمن كفر بالنعم وأعرض عن المنعم، وسبأ في الأصل اسم رجل وهو سبأ بن يشجب بالشين المعجمة والجيم كينصر بن يعرب بن قحطان، وفي بعض الأخبار عن فروة بن مسيك قال: أتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله أخبرني عن سبأ أرجل هو أم امرأة؟ فقال: هو رجل من العرب ولد عشرة تيامن منهم ستة وتشاءم منهم أربعة فأما الذين تيامنوا فالأزد وكندة ومذحج والأشعريون وأنمار ومنهم بجيلة وأما الذين تشاءموا فعاملة وغسان ولخم وجذام، وفي شرح قصيدة عبد المجيد بن عبدون لعبد الملك بن عبد الله بن بدرون الحضرمي البستي أن سبأ بن يشجب أول ملوك اليمن في قول واسمه عبد شمس وإنما سمي سبأ لأنه أول من سبى السبي من ولد قحطان وكان ملكه أربعمائة وأربعاً وثمانين سنة ثم سمي به الحي، ومنع الصرف عنه ابن كثير وأبو عمرو باعتبار جعله اسماً للقبيلة ففيه العلمية والتأنيث، وقرأ قنبل بإسكان الهمزة على نية الوقف، وعن ابن كثير قلب همزته ألفاً ولعله سكنها أولاً بنية الوقف كقنبل ثم قلبها ألفاً والهمزة إذا سكنت يطرد قلبها من جنس حركة ما قبلها، وقيل: لعله أخرجها بين بين فلم يؤده الراوي كما وجب، والمراد بسبأ هنا إما الحي أو القبيلة وإما الرجل الذي سمعت وعليه فالكلام على تقدير مضاف أي لقد كان في أولاد سبأ، وجوز أن يراد به البلد وقد شاع إطلاقه عليه وحينئذٍ فالضمير في قوله تعالى: ﴿فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ لأهلها أولها مراداً بها الحي على سبيل الاستخدام والأمر فيه على ما تقدم ظاهر، والمسكن اسم مكان أي في محل سكناهم وهو كالدار يطلق على المأوى للجميع وإن كان قطراً واسعاً كما تسمى الدنيا داراً، وقال أبو حيان: ينبغي أن يحمل على المصدر أي في سكناهم لأن كل أحد له مسكن وقد أفرد في هذه القراءة وجعل المفرد بمعنى الجمع كما في قوله:

كلوا في بعض بطنكم تعفوا

وقوله:

قد عض أعناقهم جلد الجواميس

يختص بالضرورة عند سيبويه انتهى.

وبما ذكرنا لا تبقى حاجة إليه كما لا يخفى، واسم ذلك المكان مأرب كمنزل وهي من بلاد اليمن بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث، وقرأ الكسائي والأعمش وعلقمة «مَسْكِنِهِمْ» بكسر الكاف على خلاف القياس كمسجد ومطلع لأن ما ضمت عين مضارعه أو فتحت قياس المفعل منه زماناً ومكاناً ومصدراً الفتح لا غير، وقال أبو الحسن كسر الكاف لغة فاشية وهي لغة الناس اليوم والفتح لغة الحجاز وهي اليوم قليلة، وقال الفراء: هي لغة يمانية فصيحة.

وقرأ الجمهور «مساكنهم» جمعاً أي في مواضع سكناهم ﴿آيَةٌ﴾ أي علامة دالة بملاحظة إخواتها السابقة واللاحقة على وجود الصانع المختار وأنه سبحانه قادر على ما يشاء من الأمور العجيبة مجاز للمحسن والمسيء وهي اسم كان وقوله تعالى: ﴿جَنَّتَانِ﴾ بدل منها على ما أشار إليه الفراء وصرح به مكي وغيره، وقال الزجاج: خبر مبتدأ محذوف أي هي جنتان ولا يشترط في البدل المطابقة إفراداً وغيره وكذا الخبر إذا كان غير مشتق ولم يمنع المعنى من اتحاده مع المبتدأ، ولعل وجه توحيد الآية هنا مثله في قوله تعالى: ﴿وجعلنا ابن مريم وأمه آية﴾ [المؤمنون: ٥٠] ولا حاجة إلى اعتبار مضاف مفرد محذوف هو البدل أو الخبر في الحقيقة أي قصة جنتين، وذهب ابن عطية بعد أن

ضعف وجه البدلية ولم يذكر الجهة إلى أن ﴿جنتان﴾ مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿عَنْ يَمِين وشَمَال﴾ ولا يظهر لأنه نكرة لا مسوغ للابتداء بها إلا أن اعتقد أن ثم صفة محذوفة أي جنتان لهم أو جنتان عظيمتان وعلى تقدير ذلك يبقى الكام متلفتاً عما قبله. وقرأ ابن أبي عبلة «جنتين» بالنصب على المدح، وقال أبو حيان: على أن آية اسم كان و «جنتين» الخبر وأياً ما كان فالمراد بالجنتين على ما روي عن قتادة جماعتان من البساتين جماعة عن يمين بلدهم وجماعة عن شماله وإطلاق الجنة على كل جماعة لأنها التقارب أفرادها وتضامها كأنها جنة واحدة كما تكون بلاد الريف العامرة وبساتينها، وقيل: أريد بستاناً كل رجل منهم عن يمين مسكنه وشماله كما قال سبحانه: ﴿جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب﴾ [الكهف: ٣٢] قيل: ولم تجمع لئلا يلزم أن لكل مسكن رجل جنة واحدة لمقابلة الجمع بالجمع، ورد بأن قوله تعالى: ﴿عن يمين وشمال﴾ يدفع ذلك لأنه بالنظر إلى كل مسكن إلا أنها لو جمعت أو هم أن لكل مسكن جنات عن يمين وجنات عن شمال هذا لا محذور فيه إلا أن يدعى أنه مخالف للواقع ثم أنه قيل إن في فيما سبق بمعنى عند فإن المساكن محفوفة بالجنتين لا ظرف لهما، وقيل: لا حاجة إلى هذا فإن القريب من الشيء قد يجعل فيه مبالغة في شدة القرب ولكل جهة لكن أنت تعلم أنه إذا أريد بالمساكن أو المسكن ما يصلح أن يكون ظرفاً لبلدهم المحفوفة بالجنتين أو لمحل كل منهم المحفوفة بهما لم يحتج إلى التأويل أصلاً فلا تغفل ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ جملة مستأنفة بتقدير قول أي قال لهم نبيهم كلوا الخ، وفي مجمع البيان قيل: إن مساكنهم كانت ثلاثة عشر قرية في كل قرية نبي يدعوهم إلى الله عزّ وجلّ يقول كلوا من رزق ربكم الخ، وقيل: ليس هناك قول حقيقة وإنما هو قول بلسان الحال ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ أي هذه البلدة التي فيها رزقكم بلدة طيبة وربكم الذي رزقكم وطلب شكركم رب غفور فرطات من يشكره، والجملة استئناف للتصريح بموجب الشكر، ومعنى طيبة زكية مستلذة.

يروى أنها كانت لطيفة الهواء حسنة التربة لا تحدث فيها عاهة ولا يكون فيها هامة حتى أن الغريب إذا حلها وفي ثيابه قمل أو براغيث ماتت، وقيل: المراد بطيبها صحة هوائها وعذوبة مائها ووفور نزهتها وأنه ليس فيها حر يؤذي في الصيف ولا برد يؤذي في الشتاء، وقرأ رويس بنصب «بلدةً» وجميع ما بعدها وذلك على المدح والوصفية.

وقال أحمد بن يحيى: بتقدير اسكنوا بلدة طيبة واعبدوا رباً غفوراً ومن الاتفاقات النادرة إن لفظ بلدة طيبة بحساب الجمل واعتبار هاء التأنيث بأربعمائة كما ذهب إليه كثير من الأدباء وقع تاريخاً لفتح القسطنطينية وكانت نزهة بلاد الروم ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ أي عن الشكر كما يقتضيه المقام ويدخل فيه الأعراض عن الإيمان لأنه أعظم الكفر والكفران، وقال أبو حيان: أعرضوا عما جاء به إليهم أنبياؤهم الثلاثة عشر حيث دعوهم إلى الله تعالى وذكروهم نعمه سبحانه فكذبوهم وقالوا ما نعرف لله نعمة ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سيل العَرِم﴾ أي الصعب من عرم الرجل مثلث الراء فهو عارم وعرم إذا شرس خلقه وصعب، وفي معناه ما جاء في رواية عن ابن عباس من تفسيره بالشديد، وإضافة السيل إليه من إضافة الموصوف إلى الصفة، ومن أباها من النحاة قال التقدير سيل الأمر العرم.

وقيل: العرم المطر الشديد والإضافة على ظاهرها، وقيل: هو اسم للجرذ الذي نقب عليهم سدهم فصار سبباً لتسلط السيل عليهم وهو الفار الأعمى الذي يقال له الخلد وإضافة السيل إليه لأدنى ملابسة، وقال ابن جبير: العرم المسناة بلسان الحبشة، وقال الأخفش، هو بهذا المعنى عربي، وقال المغيرة بن حكيم وأبو ميسرة: العرم في لغة اليمن جمع عرمة وهي كل ما بني أو سنم ليمسك الماء ويقال لذلك البناء بلغة الحجاز المسناة، والإضافة كما في سابقه والملابسة في هذا أقوى، وعن ابن عباس وقتادة والضحاك ومقاتل هو اسم الوادي الذي كان يأتي السيل منه وبني السد فيه، ووجه إضافة السيل إليه ظاهر، وقرأ عزرة بن الورد فيما حكى ابن خالويه «العَرْم» بإسكان الراء تخفيفاً كقولهم في

الكبد الكبد. روي أن بلقيس لما ملكت اقتتل قومها على ماء واديهم فتركت ملكها وسكنت قصرها وراودوها على أن ترجع فأبت فقالوا: لترجعن أو لنقتلنك فقالت لهم: أنتم لا عقول لكم ولا تطيعوني فقالوا: نطيعك فرجعت إلى واديهم وكانوا إذا مطروا أتاهم السيل من مسيرة ثلاثة أيام فأمرت فسد ما بين الجبلين بمسناة بالصخر والقار وحبست الماء من وراء السد وجعلت له أبواباً بعضها فوق بعض وبنت من دونه بركة منها اثنا عشر مخرجاً على عدة أنهارهم وكان الماء يخرج لهم بالسوية إلى أن كان من شأنها مع سليمان عليه السّلام ما كان.

وقيل: الذي بنى لهم السد هو حمير أبو القبائل اليمنية، وقيل بناه لقمان الأكبر بن عاد ورصف أحجاره بالرصاص والحديد وكان فرسخاً في فرسخ ولم يزالوا في أرغد عيش وأخصب أرض حتى أن المرأة تخرج وعلى رأسها المكتل فتعمل بيديها وتسير فيمتلىء المكتل مما يتساقط من أشجار بساتينهم إلى أن أعرضوا عن الشكر وكذبوا الأنبياء عليهم السّلام فسلط الله تعالى على سدهم الخلد فوالد فيه فخرقه فأرسل سبحانه سيلاً عظيماً فحمل السد وذهب بالجنان وكثير من الناس، وقيل إنه أذهب السد فاختل أمر قسمة الماء ووصوله إلى جنانهم فيبست وهلكت، وكان ذلك السيل على ما قيل في ملك ذي الأذعار بن حسان في الفترة بين نبينا ﷺ وعيسى عليه السّلام، وفيه بحث على تقدير القول بأن الاعراض كان عما جاءهم من أنبيائهم الثلاثة عشر كما ستعلمه إن شاء الله تعالى عن قريب.

﴿**وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيهِم**﴾ أي أذهبنا جنتيهم وأتينا بدلها ﴿**جَنَّتَين ذَوَاتَيْ أُكُل**﴾ أي ثمر ﴿**خَمط**﴾ أي حامض أو مر، وعن ابن عباس الخمط الأراك ويقال لثمره مطلقاً أو إذا اسود وبلغ البربر، وقيل شجر الغضا ولا أعلم هل له ثمر أم لا، وقال أبو عبيدة: كل شجرة مرة ذات شوك، وقال ابن الأعرابي: هو ثمر شجرة على صورة الخشخاش لا ينتفع به وتسمى تلك الشجرة على ما قيل بفسوة الضبع وهو على الأول صفة لأكل والأمر في ذلك ظاهر، وعلى الأخير عطف بيان على مذهب الكوفيين المجوزين له في النكرات، وقيل بدل وعلى ما بينهما الكلام على حذف مضاف أي أكل أكل خمط وذلك المضاف بدل من أكل أو عطف بيان عليه ولما حذف أقيم المضاف إليه مقامه وأعرب بإعرابه كما في البحر، وقيل هو بتقدير أكل ذي خمط، وقيل هو بدل من باب يعجبني القمر فلكه وهو كما ترى. ومنع جعله وصفاً من غير ضرب من التأويل لأن الثمر لا يوصف بالشجر لا لأن الوصف بالأسماء الجامدة لا يطرد وإن جاء منه شيء نحو مررت بقاع عرفج فتأمل.

وقرأ أبو عمرو «أكل خمط» بالإضافة وهو من باب ثوب خز، وقرأ ابن كثير «أُكْل» بسكون الكاف والتنوين ﴿**وَأَثْل**﴾ ضرب من الطرفاء على ما قاله أبو حنيفة اللغوي في كتاب النبات له، وعن ابن عباس تفسيره بالطرفاء، ونقل الطبرسي قولاً أنه السمر وهو عطف على ﴿**أكل**﴾ ولم يجوز الزمخشري عطفه على ﴿**خمط**﴾ معللاً بأن الأثل لا ثمر له، والأطباء كداود الأنطاكي وغيره يذكرون له ثمراً كالحمص ينكسر عن حب صغار ملتصق بعضه ببعض ويفسرون الأثل بالعظيم من الطرفاء ويقولون في الطرفاء هو بري لا ثمر له وبستاني له ثمر لكن قال الخفاجي: لا يعتمد على الكتب الطبية في مثل ذلك وفي القلب منه شيء، ونحن قد حققنا أن للأثل ثمراً. وكذا لصنف من الطرفاء إلا أن ثمرهما لا يؤكل ولعل مراد النافي نفي ثمرة تؤكل، والأطباء يعدون ما تخرجه الشجر غير الورق ونحوه ثمرة أكلت أم لا، ومثله في العطف على ذلك في قوله تعالى:

﴿**وَشَيْء من سدر قَلِيل**﴾ وحكى الفضيل بن إبراهيم أنه قرىء «أثلا وشيئاً» بالنصب عطفاً على ﴿**جنتين**﴾ والسدر شجر النبق، وقال الأزهري: السدر سدران سدر لا ينتفع به ولا يصلح ورقه للغسول وله ثمرة عفصة لا تؤكل

وهو الذي يسمى الضال وسدر ينبت على الماء وثمره النبق وورقه غسول يشبه شجر العناب انتهى. واختلف في المراد هنا فقيل الثاني، ووصف بقليل لفظاً ومعنى أو معنى فقط وذلك إذا كان نعتاً لشيء المبين به لأن ثمره مما يطيب أكله فجعل قليلاً فيما بدلوا به لأنه لو كثر كان نعمة لا نقمة، وإنما أوتوه تذكيراً للنعم الزائلة لتكون حسرة عليهم، وقيل المراد به الأول حتماً لأنه الأنسب بالمقام، ولم يذكر نكتة الوصف بالقليل عليه. ويمكن أن يقال في الوصف به مطلقاً أن السدر له شأن عند العرب ولذا نص الله تعالى على وجوده في الجنة والبستاني منه لا يخفى نفعه والبري يستظل به أبناء السبيل ويأنسون به ولهم فيه منافع أخرى ويستأنس لعلو شأنه بما أخرجه أبو داود في سننه والضياء في المختارة عن عبد الله بن حبشي قال: قال رسول الله ﷺ من قطع سدرة صوب الله رأسه في النار وبما أخرجه البيهقي عن أبي جعفر قال: «قال رسول الله ﷺ لعلي كرّم الله تعالى وجهه في مرض موته: اخرج يا علي فقل عن الله لا عن رسول الله لعن الله من يقطع السدر» وفي معناهما عدة أخبار لها عدة طرق، والكل فيما أرى محمول على ما إذا كان القطع عبثاً ولو كان السدر في ملكه. وقيل في ذلك مخصوص بسدر المدينة، وإنما نهى عن قطعه ليكون إنساً وظلاً لمن يهاجر إليها، وقيل بسدر الفلاة ليستظل به أبناء السبيل والحيوان، وقيل بسدر مكة لأنها حرم، وقيل بما إذا كان في ملك الغير وكان القطع بغير حق، والكل كما ترى، وأياً ما كان ففي التنصيص عليه ما يشير إلى أن له شأناً فلما ذكر سبحانه ما آل إليه حال أولئك المعرضين وما بدلوا بجنتيهم أتى جل وعلا بما يتضمن الإيذان بحقارة ما عوضوا به وهو مما له شأن عند العرب أعني السدر وقلته، والإيذان بالقلة ظاهر وأما الإيذان بالحقارة فمن ذكر شيء والعدول عن أن يقال وسدر قليل مع أنه الأخصر الأوفق بما قبله ففيه إشارة إلى غاية انعكاس الحال حيث أومأ الكلام إلى أنهم لم يؤتوا بعد إذهاب جنتيهم شيئاً مما لجنسه شأن عند العرب إلا السدر وما أوتوه من هذا الجنس حقير قليل، وتسمية البدل جنتين مع أنه ما سمعت للمشاكله والتهكم ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر من التبديل، وما فيه من معنى البعد للإشارة إلى بعد رتبته في الفظاعة أو إلى مصدر قوله تعالى:

﴿جَزَيْنَاهُم﴾ كما قيل في قوله سبحانه: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾ [البقرة: ١٤٣] ومحله على الأول النصب على أنه مفعول ثانٍ، وعلى الثاني النصب على أنه مصدر مؤكد للفعل المذكور، والتقديم للتعظيم والتهويل وقيل للتخصيص أي ذلك التبديل جزيناهم لا غيره أو ذلك الجزاء الفظيع جزيناهم لا جزاء آخر ﴿بِمَا كَفَرُوا﴾ بسبب كفرانهم النعمة حيث نزعناها منهم ووضعنا مكانها ضدها. وقيل بسبب كفرهم بالرسل الثلاثة عشر الذين بعثوا إليهم. واستشكل هذا مع القول بأن السيل العرم كان زمن الفترة بأن الجمهور قالوا: لا نبي بين نبينا وعيسى عليهما الصلاة والسلام، ومن الناس من قال: بينهما ﷺ أربعة أنبياء ثلاثة من بني إسرائيل وواحد من العرب وهو خالد العبسي وهو قد بعث لقومه وبنو إسرائيل لم يبعثوا للعرب وأجيب بأن ما كان زمن الفترة هو السيل العرم لا غير والرسل الثلاثة عشر هم جملة من كان في قومهم من سبأ بن يشجب إلى أن أهلكهم الله تعالى أجمعين فتأمل ولا تغفل.

﴿وَهَل نُجَازِي إلاَّ الكَفُورَ﴾ أي ما نجازي مثل هذا الجزاء الشديد المستأصل إلا المبالغ في الكفران أو الكفر فلا يتوجه على الحصر إشكال أن المؤمن قد يعاقب في العاجل. وفي الكشف لا يراد أن المؤمن أيضاً يعاقب فإنه ليس بعقاب على الحقيقة بل تمحيص ولأنه أريد المعاقبة بجميع ما يفعله من السوء، ولا كذلك للمؤمن، ولا مانع من أن يكون الجزاء عاماً في كل مكافأت وأريد به المعاقبة مطلقاً من غير تقييد بما سبق لقرينة ﴿جزيناهم بما كفروا﴾ لتعيين المعاقبة فيه بل قال الزمخشري: هو الوجه الصحيح وذلك لعدم الإضمار ولأن التذييل هكذا آكد وأسد موقعاً ولا يتوجه الإشكال لما في الكشف وقرأ الجمهور «يُجَازَي» بضم الياء وفتح الزاي مبنياً للمفعول «الكفورُ» بالرفع على النيابة عن

الفاعل. وقرىء «يُجَازِي» بضم الياء وكسر الزاي مبنياً للفاعل وهو ضميره تعالى وحده «الكفورَ» بالنصب على المفعولية، وقرأ مسلم بن جندب «يُجْزَى» مبنياً للمفعول «الكفورُ» بالرفع على النيابة، والمجازاة على ما سمعت عن الزمخشري المكافآت لكن قال الخفاجي لم ترد في القرآن إلا مع العقاب بخلاف الجزاء فإنه عام وقد يخص بالخير، وعن أبي إسحاق تقول جزيت الرجل في الخير وجازيته في الشر، وفي معناه قول مجاهد يقال في العقوبة يجازي وفي المثوبة يجزى.

وقال بعض الأجلة: ينبغي أن يكون أبو إسحاق قد أراد أنك إذا أرسلت الفعلين ولم تعدهما إلى المفعول الثاني كانا كذلك وأما إذا ذكرته فيستعمل كل منهما في الخير والشر، ويرد على ما ذكر ﴿جزيناهم بما كفروا﴾ وكذا «وهل يجزى» في قراءة مسلم إذ الجزاء في ذلك مستعمل في الشر مع عدم ذكر المفعول الثاني، وقوله:

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر ... وحسن فعل كما يجزى سنمار

وقال الراغب: يقال جزيته وجازيته ولم يجيء في القرآن إلا جزى دون جازى وذلك لأن المجازاة المكافأة وهي مقابلة نعمة بنعمة هي كفؤها ونعمة الله عزّ وجلّ تتعالى عن ذلك ولهذا لا يستعمل لفظ المكافأة فيه سبحانه وتعالى، وفيه غفلة عما هنا إلا أن يقال: أراد أنه لم يجيء في القرآن جازى فيما هو نعمة مسنداً إليه تعالى فإنه لم يخطر لي مجيء ذلك فيه والله تعالى أعلم، ويحسن عندي قول أبي حيان: أكثر ما يستعمل الجزاء في الخير والمجازاة في الشر لكن في تقييدهما قد يقع كل منهما موقع الآخر، وفي قوله سبحانه: ﴿جزيناهم بما كفروا﴾ دون جازيناهم بما كفروا على الوجه الثاني في اسم الإشارة ما يحكى تمتع القوم بما يسر ووقوعهم بعده فيما يسيء ويضر، ويمكن أن تكون نكتة التعبير بجزى الأكثر استعمالاً في الخير، ويجوز أن يكون التعبير بذاك أول وبنجازي ثانياً ليكون كل أوفق بعلته وهذا جار على كلا الوجهين في الإشارة فتدبر جداً.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً﴾ إلى آخره عطف بمجموعه على مجموع ما قبله عطف القصة على القصة وهو حكاية لما أوتوا من النعم في مسايرهم ومتاجرهم وما فعلوا بها من الكفران وما حاق بهم بسبب ذلك وما قبل كان حكاية لما أوتوا من النعم في مساكنهم ومحل إقامتهم وما فعلوا بها وما فعل بهم، والمراد بالقرى التي بورك فيها قرى الشام وذلك بكثرة أشجارها وأثمارها والتوسعة على أهلها وعن ابن عباس هي قرى بيت المقدس وعن مجاهد هي السراوية وعن وهب قرى صنعاء وقال ابن جبير: قرى مأرب والمعول عليه الأول حتى قال ابن عطية إن إجماع المفسرين عليه، ومعنى ﴿ظاهرة﴾ على ما روي عن قتادة متواصلة يقرب بعضها من بعض بحيث يظهر لمن في بعضها ما في مقابلته من الأخرى وهذا يقتضي القرب الشديد لكن سيأتي قريباً إن شاء الله تعالى ما قيل في مقدار ما بين كل قريتين وقال المبرد ظاهرة مرتفعة أي على الآكام والظراب وهي أشرف القرى، وقيل ظاهرة معروفة يقال هذا أمر ظاهر أي معروف وتعرف القرية لحسنها ورعاية أهلها المارين عليها، وقيل ظاهرة موضوعة على الطرق ليسهل سير السابلة فيها.

وقال ابن عطية: الذي يظهر لي أن معنى ﴿ظاهرة﴾ خارجة عن المدن فهي عبارة عن القرى الصغار التي في ظواهر المدن كأنه فصل بهذه الصفة بين القرى الصغار وبين القرى المطلقة التي هي المدن، وظواهر المدن ما خرج عنها في الفيافي ومنه قولهم نزلنا بظاهر البلد الفلاني أي خارجاً عنه، ومنه قول الشاعر:

فلو شهدتني من قريش عصابة ... قريش البطاح لا قريش الظواهر

يعني أن الخارجين من بطحاء مكة ويقال للساكنين خارج البلد أهل الضواحي وأهل البوادي أيضاً.

﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ أي جعلنا نسبة بعضها إلى بعض على مقدار معين من السير قيل من سار من قرية صباحاً وصل إلى أخرى وقت الظهيرة والقيلولة ومن سار بعد الظهر وصل إلى أخرى عند الغروب فلا يحتاج لحمل زاد ولا مبيت في أرض خالية ولا يخاف من عدو ونحوه، وقيل: كان بين كل قريتين ميل، وقال الضحاك: مقادير المراحل كانت القرى على مقاديرها وهذا هو إلا وفق بمعنى ﴿ظاهرة﴾ على ما سمعت عن قتادة وكذا بقوله سبحانه ﴿سِيرُوا فِيهَا﴾ فإنه مؤذن بشدة القرب حتى كأنهم لم يخرجوا من نفس القرى، والظاهر أن ﴿سيروا﴾ أمر منه عزّ وجلّ على لسان نبي أو نحوه وهو بتقدير القول أي قلنا لهم سيروا في تلك القرى ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّاماً﴾ أي متى شئتم من ليل ونهار ﴿آمنِينَ﴾ من كل ما تكرهونه لا يختلف إلا من فيها باختلاف الأوقات، وقدم الليالي لأنها مظنة الخوف من مغتال وإن قيل الليل أخفى للويل أو لأنها سابقة على الأيام أو قلنا سيروا فيها آمنين وإن تطاولت مدة سفركم وامتدت ليالي وأياماً كثيرة، قال قتادة: كانوا يسيرون مسيرة أربعة أشهر في أمان ولو وجد الرجل قاتل أبيه لم يهجه أو سيروا فيها لياليكم وأيامكم أي مدة أعماركم لا تلقون فيها إلا الأمن، وقدمت الليالي لسبقها.

وأياً ما كان فقد علم فائدة ذكر الليالي والأيام وإن كان السير لا يخلو عنهما، وجوز أن لا يكون هناك قول حقيقة وإنما نزل تمكينهم من السير المذكور وتسوية مبادئه وأسبابه منزلة القول لهم وأمرهم بذلك والأمر على الوجهين للإباحة.

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ لما طالت بهم مدة النعمة بطروا وملوا وآثروا الذي هو أدنى على الذي هو خير كما فعل بنو إسرائيل وقالوا: لو كانت متاجرنا أبعد كان ما نجلبه منها أشهى وأغلى فطلبوا تبديل اتصال العمران وفصل المفاوز والقفار وفي ضمن ذلك إظهار القادرين منهم على قطعها بركوب الرواحل وتزود الأزواد الفخر والكبر على الفقراء العاجزين عن ذلك فعجل الله تعالى لهم الإجابة بتخريب القرى المتوسطة وجعلها بلقعاً لا يسمع فيها داع ولا مجيب، والظاهر أنهم قالوا ذلك بلسان القال، وجوز الإمام أن يكونوا قالوا: ﴿باعد﴾ بلسان الحال أي فلما كفروا فقد طلبوا أن يبعد بين أسفارهم ويخرب المعمور من ديارهم.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وهشام «بَعِّد» بتشديد العين فعل طلب، وابن عباس وابن الحنفية وعمرو بن قائد «رَبنا» رفعا «بَعَّد» بالتشديد فعلاً ماضياً، وابن عباس. وابن الحنفية أيضاً وأبو رجاء: والحسن ويعقوب وزيد بن علي وأبو صالح، وابن أبي ليلى والكلبي ومحمد بن علي وسلام وأبو حيوة «رَبُّنا» رفعاً و «باعد» طلباً من المفاعلة، وابن الحنفية أيضاً وسعيد بن أبي الحسن أخو الحسن وسفيان بن حسين وابن السميقع «رَبَّنا» بالنصب «بَعُد» بضم العين فعلاً ماضياً «بين» بالنصب إلا سعيداً منهم فإنه يضم النون ويجعل «بين» فاعلاً، ومن نصب فالفاعل عنده ضمير يعود على «السير» ومن نصب «ربنا» جعله منادى فإن جاء بعده طلب كان ذلك أشراً وبطراً.

وفاعل بمعنى فعل وإن جاء فعلاً ماضياً كان ذلك شكوى من مسافة ما بين قراهم مع قصرها لتجاوزهم في الترفه والتنعم أو شكوى مما حل بهم من بعد الأسفار التي طلبوها بعد وقوعها أو دعاء بلفظ الخبر، ومن رفع «ربنا» فلا يكون الفعل عنده إلا ماضياً والجملة خبريه متضمنة للشكوى على ما قيل، ونصب «بين» بعد كل فعل متعد في إحدى القراءات ماضياً كان أو طلباً عند أبي حيان على أنه مفعول به، وأيد ذلك بقراءة الرفع أو على الظرفية والفعل منزل منزلة اللازم أو متعدٍ مفعوله محذوف أي السير وهو أسهل من إخراج الظرف الغير المتصرف عن ظرفيته. وقرىء «بوعد» مبنياً للمفعول. وقرأ ابن يعمر «سفرنا» بالأفراد ﴿وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ حيث عرضوها للسخط والعذاب حين بطروا النعمة

وغمطوها ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ جمع أحدوثة وهي ما يتحدث به على سبيل التلهي والاستغراب لا جمع حديث على خلاف القياس، وجعلهم نفس الأحاديث إما على المبالغة أو تقدير المضاف أي جعلناهم بحديث يتحدث الناس بهم متعجبين من أحوالهم ومعتبرين بعاقبتهم ومآلهم.

وقيل المراد لم يبق منهم إلا الحديث عنهم ولو بقي منهم طائفة لم يكونوا أحاديث ﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي فرقناهم كل تفريق على أن الممزق مصدر أو كل مطرح ومكان تفريق على أنه اسم مكان، وفي التعبير بالتمزيق الخاص بتفريق المتصل وخرقه من تهويل الأمر والدلالة على شدة التأثير والإيلام ما لا يخفى أي مزقناهم تمزيقاً لا غاية وراءه بحيث يضرب مثلاً في كل فرقة ليس بعدها وصال، وعن ابن سلام أن المراد جعلناهم تراباً تذروه الرياح وهو أوفق بالتمزيق إلا أن جميع أجلة المفسرين على خلافه وأن المراد بتمزيقهم تفريقهم بالتباعد، وقد تقدم لك غير بعيد حديث كيفية تفرقهم في جواب رسول الله ﷺ لفروة بن مسيك.

وفي الكشاف لحق غسان بالشام وأنمار بيثرب وجذام بتهامة والأزد بعمان. وفي التحرير وقع منهم قضاعة بمكة وأسد بالبحرين وخزاعة بتهامة، وظاهر الآية أن ذلك كان بعد إرسال السيل العرم. وفي البحر أن في الحديث أن سبأ أبو عشرة قبائل فلما جاء السيل على مأرب تيامن منها ستة قبائل وتشاءمت أربعة، وزعم بعضهم أن تفرقهم كان قبيل مجيء السيل.

قال عبد الملك في شرح قصيدة ابن عبدون إن أرض سبأ من اليمن كانت العمارة فيها أزيد من مسيرة شهرين للراكب المجد وكان أهلها يقتبسون النار بعضهم من بعض مسيرة أربعة أشهر فمزقوا كل ممزق وكان أول من خرج من اليمن في أول الأمر عمرو بن عامر مزيقياً، وكان سبب خروجه أنه كانت له زوجة كاهنة يقال لها طريفة الخير وكانت رأت في منامها أن سحابة غشيت أرضهم فأرعدت وأبرقت ثم صعقت فأحرقت كل ما وقعت عليه ففزعت طريفة لذلك فزعاً شديداً وأتت الملك عمراً وهي تقول ما رأيت كاليوم أزال عني النوم رأيت غيماً أرعد وأبرق وزمجر وأصعق فما وقع على شيء إلا أحرق فلما رأى ما داخلها من الفزع سكنها ثم إن عمراً دخل على حديقة له ومعه جاريتان من جواريه فبلغ ذلك طريفة فخرجت إليه وخرج معها وصيف لها اسمه سنان فلما برزت من بيتها عرض لها ثلاث مناجد منتصبات على أرجلهن واضعات أيديهن على أعينهن وهي دواب تشبه اليرابيع فقعدت إلى الأرض واضعة يديها على عينيها وقالت: لوصيفها إذا ذهبت هذه المناجد فأخبرني فلما ذهبت أخبرها فانطلقت مسرعة فلما عارضها الخليج الذي في حديقة عمرو وثبت من الماء سلحفاة فوقعت على الطريق على ظهرها وجعلت تروم الانقلاب فلا تستطيع وتستعين بذنبها فتحثو التراب على بطنها من جنباته وتقذف بالبول على بطنها قذفاً فلما رأتها طريفة جلست إلى الأرض فلما عادت السلحفاة إلى الماء مضت طريفة إلى أن دخلت على عمرو وذلك حين انتصف النهار في ساعة شديد حرها فإذا الشجر يتكافأ من غير ريح فلما رآها استحى منها وأمر الجاريتين بالانصراف إلى ناحية ثم قال لها يا طريفة فكهنت وقالت: والنور والظلماء والأرض والسماء أن الشجر لهالك وليعودن الماء كما كان في الزمن السالك قال عمرو: من أخبرك بهذا؟ قالت: أخبرتني المناجد بسنين شدائد يقطع فيها الولد الوالد قال: ما تقولين؟ قالت: أقول قول الندمان لهيفاً لقد رأيت سلحفاً تجرف التراب جرفاً وتقذف بالبول قذفاً فدخلت الحديقة فإذا الشجر من غير ريح يتكفى قال: ما ترين في ذلك؟ قالت: هي داهية دهياء من أمور جسيمة ومصائب عظيمة قال: وما هو ويلك؟ قالت: أجل وإن فيه الويل ومالك فيه من نيل وإن الويل فيما يجيء به السيل فألقي عمرو عن فراشه وقال: ما هذا يا طريفة؟ قالت: خطب جليل وحزن طويل وخلف قليل قال: وما علامة ما تذكرين؟ قالت: اذهب إلى السد فإذا

رأيت جرذاً يكثر بيديه في السد الحفر ويقلب برجليه من أجل الصخر فاعلم أن الغمر عمر وأنه قد وقع الأمر قال: وما الذي تذكرين؟ قالت: وعد من الله تعالى نزل وباطل بطل ونكال بنا نكل فبغيرك يا عمرو يكون الثكل فانطلق عمرو فإذا الجرذ يقلب برجليه صخرة ما يقلها خمسون رجلاً فرجع وهو يقول:

أبصرت أمراً عادني منه ألم ... وهاج لي من هوله برح السقم
من جرذ كفحل خنزير الأجم ... أو كبش صرم من أفاويق الغنم
يسحب قطراً من جلاميد العرم ... له مخاليب وأنياب قضم
ما فاته سحلاً من الصخر قصم

فقالت طريفة: وإن من من علامة ذلك الذي ذكرته لك أن تجلس فتأمر بزجاجة فتوضع بين يديك فإن الريح يملؤها من تراب البطحاء من سهل الوادي وحزنه وقد علمت أن الجنان مظللة لا يدخلها شمس ولا ريح فأمر عمرو بزجاجة فوضعت بين يديه ولم تمكث إلا قليلاً حتى امتلأت من التراب فأخبرها بذلك، وقال لها: متى يكون ذلك الخراب الذي يحدث في السد؟ قالت له: فيما بيني وبينك سبع سنين قال: ففي أيها يكون؟ قالت: لا يعلم بذلك إلا الله تعالى ولو علمه أحد لعلمته وأنه لا تأتي على ليلة فيما بيني وبين السبع سنين إلا ظننت هلاكه في غدها أو في مسائها ثم رأى عمرو في منامه سيل العرم، وقيل له: إن آية ذلك أن ترى الحصباء قد ظهرت في سعف النخل فنظر إليها فوجد الحصباء قد ظهرت فيها فعلم أنه واقع وأن بلادهم ستخرب فكتم ذلك وأجمع على بيع كل شيء له بأرض مأرب وأن يخرج منها هو وولده ثم خشي أن تنكر الناس عليه ذلك فأمر أحد أولاده إذا دعاه لما يدعوه إليه أن يتأبى عليه وأن يفعل ذلك به في الملأ من الناس وإذا لطمه يرفع هو يده ويلطمه ثم صنع عمرو طعاماً وبعث إلى أهل مأرب أن عمراً قد صنع طعاماً يوم مجد وذكر فأحضروا طعامه فلما جلس الناس للطعام جلس عنده ابنه الذي أمره بما قد أمره فجعل يأمره فيتأبى عليه فرفع عمرو يده فلطمه ابنه وكان اسمه مالكاً فصاح عمرو واذلاه يوم فخر عمرو وبهجته صبي يضرب وجهه وحلف ليقتلنه فلم يزالوا يرغبون إليه حتى ترك وقال: والله لا أقيم بموضع صنع فيه بي هذا ولأبيعن أموالي حتى لا يرث بعدي منها شيئاً فقال الناس بعضهم لبعض: اغتنموا غيظ عمرو واشتروا منه أمواله قبل أن يرضى فابتاع الناس منه كل ماله بأرض مأرب وفشا بعض حديثه فيما بلغه من شأن سيل العرم فقام ناس من الأزد فباعوا أموالهم فلما أكثروا البيع استنكر الناس ذلك فأمسكوا عن الشراء فلما اجتمعت إلى عمرو أمواله أخبر الناس بشأن السيل وخرج فخرج لخروجه منها بشر كثير فنزلوا أرض عك فحاربتهم عك فارتحلوا عن بلادهم ثم اصطلحوا وبقوا بها حتى مات عمرو وتفرقوا في البلاد فمنهم من سار إلى الشام وهم أولاد جفنة بن عمرو بن عامر ومنهم من سار إلى يثرب وهم أبناء قبيلة الأوس والخزرج وأبوهما حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر وسارت أزد السراة إلى السراة وأزد عمان إلى عمان وسار مالك بن فهم إلى العراق ثم خرجت بعد عمرو بيسير من أرض اليمن طيىء فنزلت أجأ وسلمى ونزلت أبناء ربيعة ابن حارثة بن عامر بن عمرو تهامة وسموا خزاعة لانخزاعهم من إخوانهم ثم أرسل الله تعالى على السد السيل فهدمه، وفي ذلك يقول ميمون بن قيس الأعشى:

وفي ذاك للمؤتسي أسوة ... ومأرب عفا عليها العرم
رخام بنته لهم حمير ... إذا جاء مواره لم يرم
فأروى الزروع وأعنابها ... على سعة ماؤهم إذ قسم
فصاروا أيادي ما يقدرو ... ن منه على شرب طفل فطم

وذكر الميداني عن الكلبي عن أبي صالح أن طريفة الكاهنة قد رأت في كهانتها أن سد مأرب سيخرب وأنه سيأتي سيل العرم فيخرب الجنتين فباع عمرو بن عامر أمواله وسار هو وقومه حتى انتهوا إلى مكة فأقاموا بها وبما حولها فأصابتهم الحمى وكانوا ببلد لا يدرون فيه ما الحمى فدعوا طريفة فشكوا إليها الذي أصابهم فقالت لهم: أصابني الذي تشكون وهو مفرق بيننا قالوا فماذا تأمرين قالت: من كان منكم ذا هم بعيد وجمل شديد ومزاد جديد فليلحق بقصر عمان المشيد فكانت أزد عمان ثم قالت: من كان منكم ذا جلد وقسر وصبر على أزمات الدهر فعليه بالأراك من بطن مر فكانت خزاعة ثم قالت: من كان منكم يريد الراسيات في الوحل المطعمات في المحل فليلحق بيثرب ذات النخل فكانت الأوس والخزرج ثم قالت: من كان منكم يريد الخمر والخمير والملك والتأسير ويلبس الديباج والحرير فليلحق ببصرى وغوير وهما من أرض الشام فكان الذين سكنوها آل جفنة من غسان ثم قالت: من كان منكم يريد الثياب الرقاق والخيل العتاق وكنوز الأرزاق والدم المهراق فليلحق بأرض العراق فكان الذين سكنوها آل جذيمة الأبرش ومن كان بالحيرة وآل محرق، والحق أن تمزيقهم وتفريقهم في البلاد كان بعد إرسال السيل، نعم لا يبعد خروج بعضهم قبيله حين استشعروا وقوعه، وفي المثل ذهبوا أيدي سبأ ويقال تفرقوا أيدي سبأ ويروى أيادي وهو بمعنى الأولاد لأنهم أعضاد الرجل لتقويه بهم.

وفي المفصل أن الأيدي الأنفس كناية أو مجازاً قال في الكشف: وهو حسن، ونصبه على الحالية بتقدير مثل لاقتضاء المعنى إياه مع عدم تعرفه بالإضافة، وقيل: إنه بمعنى البلاد أو الطرق من قولهم خذ يد البحر أي طريقه وجانبه أي تفرقوا في طرق شتى، والظاهر أنه على هذا منصوب على الظرفية بدون تقدير ـ في ـ كما أشار إليه الفاضل اليمني، وربما يظن أن الأيدي أو الأيادي بمعنى النعم وليس كذلك، ويقال في الشخص إذا كان مشتت الهم موزع الخاطر كان أيادي سبأ، وعليه قول كثيّر عزة:

أيادي سبأ يا عز ما كنت بعدكم ... فلم يحل بالعينين بعدك منظر

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي فيما ذكر من قصتهم ﴿لَآيَاتٍ﴾ عظيمة ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أي شأنه الصبر على الشهوات ودواعي الهوى وعلى مشاق الطاعات، وقيل: شأنه الصبر على النعم بأن لا يبطر ولا يطغى وليس بذاك ﴿شَكُورٍ﴾ شأنه الشكر على النعم، وتخصيص هؤلاء بذلك لأنهم المنتفعون بها ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ أي حقق عليهم ظنه أو وجد ظنه صادقاً، والظاهر أن ضمير ﴿عليهم﴾ عائد على سبأ، ومنشأ ظنه رؤية أنهماكهم في الشهوات، وقيل: هو لبني آدم ومنشأ ظنه أنه شاهد أباهم آدم عليه السّلام وهو هو قد أصغى إلى وسوسته فقاس الفرع على الأصل والولد على الوالد، وقيل: إنه أدرك ما ركب فيهم من الشهوة والغضب وهما منشآن للشرور، وقيل: إن ذاك كان ناشئاً من سماع قول الملائكة عليهم السّلام: ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾ [البقرة: ٣٠] يوم قال سبحانه لهم: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ [البقرة: ٣٠] ويمكن أن يكون منشأ ذلك ما هو عليه من السوء كما قيل:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه ... وصدق ما يعتاده من توهم

وجوز أن يكون كل ما ذكر منشأ لظنه في سبأ، والكلام على الوجه الأول في الضمير على ما قال الطيبي تتمة لسابقه إما حلالاً أو عطفاً، وعلى الثاني هو كالتذييل تأكيداً له. وقرأ البصريون «صَدَقَ» بالتخفيف فنصب «ظَنَّهُ» على إسقاط حرف الجر والأصل صدق في ظنه أي وجد ظنه مصيباً في الواقع فصدق حينئذٍ بمعنى أصاب مجازاً.

وقيل هو منصوب على أنه مصدر لفعل مقدر أي يظن ظنه كفعلته جهدك أي تجهد جهدك، والجملة في موقع

الحال و ﴿صدق﴾ مفسر بما مر، ويجوز أن يكون منصوباً على أنه مفعول به والفعل متعد إليه بنفسه لأن الصدق أصله في الأقوال والقول مما يتعدى إلى المفعول به بنفسه، والمعنى حقق ظنه كما في الحديث «صدق وعده ونصر عبده» وقوله تعالى: ﴿رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وقرأ زيد بن علي وجعفر بن محمد رضي الله تعالى عنهم والزهري وأبو الجهجاه الأعرابي من فصحاء العرب وبلال بن أبي برزة بنصب «إبليسَ» ورفع «ظَنُّهُ» كذا في البحر والظان ذلك مع قراءة «صَدَّقَ» بالتشديد أي وجده ظنه صادقاً لكن ذكر ابن جني أن الزهري كان يقرأ ذلك مع تخفيف «صَدَقَ» أي قال له الصدق حين خيل له إغواؤهم.

وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو «إبليسُ ظَنُّهُ» برفعهما بجعل الثاني بدل اشتمال، وأبهم الزمخشري القارىء بذلك فقال قرىء بالتخفيف ورفعهما على معنى صدق عليهم ظن إبليس ولو قرىء بالتشديد مع رفعهما لكان على المبالغة في ﴿صدق﴾ كقوله:

فدت نفسي وما ملكت يميني ... فوارس صدقت فيهم ظنوني

وهو ظاهر في أنه لم يقرأ أحد بذلك والله تعالى أعلم، وعلى جميع القراءات ﴿عليهم﴾ متعلق بالفعل السابق وليس متعلقاً بالظن على شيء منها ﴿فَاتَّبَعُوهُ﴾ أي سبأ وقيل بنو آدم ﴿إِلاَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي إلا فريقاً هم المؤمنون لم يتبعوه على أن من بيانية، وتقليلهم إما لقلتهم في حد ذاتهم أو لقلتهم بالإضافة إلى الكفار، وهذا متعين على القول برجوع الضمير إلى بني آدم، وكأني بك تختار كون القلة في حد ذاتهم على القول برجوع الضمير إلى سبأ لعدم شيوع كثرة المؤمنين في حد ذاتهم منهم أو إلا فريقاً من فرق المؤمنين لم يتبعوه وهم المخلصون فمن تبعيضية والمراد مطلق الاتباع الذي هو أعم من الكفر.

﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي تسلط واستيلاء بالوسوسة والاستغواء.

﴿إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ استثناء مفرغ من أعم العلل، و ﴿من﴾ موصوله وجعلها استفهامية بعيد، والعلم المستقبل المعلل ليس هو العلم الأزلي القائم بالذات المقدس بل تعلقه بالمعلوم في عالم الشهادة الذي يترتب عليه الجزاء بالثواب والعقاب وهو مضمن معنى التميز لمكان من أي ما كان له عليهم تسلط لأمر من الأمور إلا لتعلق علمنا بمن يؤمن بالآخرة متميزاً ممن هو منها في شك تعلقاً حالياً يترتب عليه الجزاء وإلى هذا يشير كلام كثير من أئمة التفسير، وقيل: المعنى لنجعل المؤمن متميزاً من غيره في الخارج فيتميز عند الناس، وقيل: المراد من وقوع العلم في المستقبل وقوع المعلوم لأنه لازمه فكأنه قيل ما كان ذلك لأمر من الأمور إلا ليؤمن من قدر إيمانه ويضل من قدر ضلاله، وعدل عنه إلى ما في النظم الجليل للمبالغة لما فيه من جعل المعلوم عين العلم، وقيل المراد بالعلم الجزاء فكأنه قيل على الإيمان وضده، وقيل: العلم على ظاهره إلا أن المستقبل بمعنى الماضي وعلم الله تعالى الأزلي بأهل الشك يستدعي تسلط الشيطان عليهم.

وقيل: المراد لنعامل معاملة من كأنه لا يعلم ذلك وإنما يعمل ليعلم، وقيل: المراد ليعلم أولياؤنا وحزبنا ذلك، ولا يخفى عليك ما في بعض هذه الأقوال، وكان الظاهر إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن لا يؤمن بها وعدل عنه إلى ما فيه النظم الجليل لنكتة وهي أنه قوبل الإيمان بالشك ليؤذن بأن أدنى مراتب الكفر مهلكة، وأورد المضارع في الجملة الأولى إشارة إلى أن المعتبر في الإيمان الخاتمة ولأنه يحصل بنظر تدريجي متجدد، وأتى بالثانية اسمية إشارة إلى أن المعتبر الدوام والثبات على الشك إلى الموت، ونون شكا للتقليل، وأتى بفي إشارة إلى أن قليله كأنه محيط بصاحبه،

وعداه بمن دون في وقدمه لأنه إنما يضر الشك الناشىء منها وأنه يكفي شك ما فيما يتعلق بها.

وقرأ الزهري «ليعلم» بضم الياء وفتح اللام مبنياً للمفعول ﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ أي وكيل قائم على أحواله وشؤونه، وهو إما مبالغة في حافظ وإما بمعنى محاط كجليس ومجالس وخليط ومخالط ورضيع ومراضع إلى غير ذلك.

﴿قُلْ﴾ يا محمد للمشركين الذين ضرب لهم المثل بقصة سبأ المعروفة عندهم بالنقل في أخبارهم وأشعارهم تنبيهاً على بطلان ما هم عليه وتبكيتاً لهم ﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أي زعمتموهم آلهة كذا قدره الجمهور على أن الضمير مفعول أول وآلهة مفعول ثانٍ وحذف الأول تخفيفاً لأن الصلة والموصول بمنزلة اسم واحد فهناك طول يطلب تخفيفه والثاني لأن صفته أعني قوله تعالى: ﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾ سدت مسده فلا يلزم إجحاف بحذفهما معاً، ولا يجوز أن يكون ﴿من دون الله﴾ هو المفعول الثاني إذ لا يتم به مع الضمير الكلام ولا يلتئم النظام فأي معنى معتبر لهم من دون الله على أن في جواز حذف أحد مفعولي هذا الباب اختصاراً خلافاً ومن أجازه قال هو قليل في كلامهم، وكذا لا يجوز أن يكون لا يملكونه لأن ما زعموه ليس كونهم غير مالكين بل خلافه، وليس ذلك أيضاً بزعم بالمعنى الشائع لو سلم أنه صدر منهم بل حق، وقال ابن هشام: الأولى أن يقدر زعمتم أنهم آلهة لأن الغالب على ـ زعم ـ أن لا يقع على المفعولين الصريحين بل على ما يسد مسدهما من أن وصلتهما ولم يقع في التنزيل إلا كذلك أي فالأنسب أن يوافق المقدر المصرح به في التنزيل.

ورجح تقدير الجمهور بأنه أبعد عن لزوم الإجحاف والأمر للتوبيخ والتعجيز أي ادعوهم فيما يهمكم من دفع ضر أو جلب نفع لعلهم يستجيبون لكم إن صح دعواكم. روي أن ذلك نزل عند الجوع الذي أصاب قريشاً.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ كلام مستأنف في موقع الجواب ولم يمهلهم ليجيبوا إشعاراً بتعينه فإنه لا يقبل المكابرة، وجوز تقدير ثم أجب عنهم قائلاً لا يملكون الخ وهو متضمن بيان حال الآلهة في الواقع وأنهم إذا لم يملكوا مقدار ذرة أي من خير وشر ونفع وضر كيف يكونون آلهة تعبد.

﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي في أمر من الأمور، وذكر السماوات والأرض للتعميم عرفاً فيراد بهما جميع الموجودات، وهذا كما يقال المهاجرون والأنصار ويراد جميع الصحابة رضي الله تعالى عنهم فلا يتوهم أنهم يملكون في غيرهما، ويجوز أن يقال: إن ذكرهما لأن بعض آلهة المخاطبين سماوية كالملائكة والكواكب وبعضها أرضية كالأصنام فالمراد نفي قدرة السماوي منهم على أمر سماوي والأرضي على أمر أرضي ويعلم نفي قدرته على غيره بالطريق الأولى أو لأن الأسباب القريبة للخير والشر سماوية وأرضية فالمراد نفي قدرتهم بشيء من الأسباب القريبة فكيف بغيرها ﴿وَمَا لَهُمْ﴾ أي لآلهتهم ﴿فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ أي شركة ما لا خلقاً ولا ملكاً ولا تصرفاً ﴿وَمَا لَهُ﴾ أي لله عزّ وجلّ ﴿مِنْهُم﴾ أي من آلهتهم ﴿مِنْ ظَهِيرٍ﴾ أي معين يعينه سبحانه في تدبير أمرهما ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ﴾ أي لا توجد رأساً كما في قوله:

على لاحب لا يهتدى بمناره

لقوله تعالى: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ وإنما علق النفي بنفعها دون وقوعها تصريحاً بنفي ما هو غرضهم من وقوعها.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال على ما اختاره الزمخشري، و ﴿من﴾ عبارة

عن الشافع واللام الداخلة عليه للاختصاص مثلها في الكرم لزيد ولام ﴿له﴾ صلة أذن، والمراد نفي شفاعة آلهتهم لهم لكن ذكر ذلك على وجه عام ليكون طريقاً برهانياً أي لا تنفع الشفاعة في حال من الأحوال أو كائنة لمن كانت إلا كائنة لشافع أذن له فيها من النبيين والملائكة ونحوهم من المستأهلين لمقام الشفاعة، ومن البين أنهم لا يؤذن لهم في الشفاعة للكفار فقد قال الله تعالى: ﴿لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً﴾ [النبأ: ٣٨] والشفاعة لهم بمعزل عن الصواب وعدم الإذن للأصنام أبين وأبين فتبين حرمان هؤلاء الكفرة منها بالكلية أو ﴿من﴾ عبارة عن المشفوع له واللام الداخلة عليه للتعليل ولام ﴿له﴾ صلة ﴿أذن﴾ أي لا تنفع الشفاعة إلا كائنة لمشفوع أذن له أي لشفيعه على الإضمار لأن المشفوع لم يصدر عنه فعل حتى يؤذن له فيه أن يشفعه، واختار الزمخشري أن لام ﴿له﴾ للتعليل أي إلا لمن وقع الإذن للشفيع لأجله، ووجهه على ما في الكشف حصول الإشارة إلى الشافع والمشفوع لأن المأذون لأجله المشفوع والمأذون الشافع ولأن الغرض بيان محل النفع وهو المشفوع كان التصريح بذكره أهم، ولا يخفى أن الوجه السابق ظاهر التكلف فيه الإضمار الذي لا يقتضيه المقام، وحاصل المعنى على هذا لا تنفع الشفاعة من الشفعاء المستأهلين لها إلا كائنة لمن وقع الإذن للشفيع لأجله وفي شأنه من المستحقين للشفاعة وأما من عداهم من غير المستحقين لها فلا تنفعهم أصلاً وإن فرض وقوعها من الشفعاء إذ لم يؤذن لهم في شفاعتهم بل في شفاعة غيرهم، ويثبت من هذا حرمان هؤلاء الكفرة من شفاعة الشفعاء المستأهلين للشفاعة بعبارة النص وعن شفاعة الأصنام بدلالته إذ حين حرموها من جهة القادرين عليها في الجملة فلأن يحرموها من جهة العجزة عنها بالكلية أولى، وذهب أبو حيان إلى أن الاستثناء من أعم الذوات أي لا تنفع الشفاعة لأحد إلا لمن الخ، واستظهر احتمال أن تكون من عبارة عن المشفوع له واللام نظراً إلى الظاهر متعلقة بالشفاعة، وجوز أبو البقاء تعلقها بتنفع. وتعقبه بأنه لا يتعدى إلا بنفسه وقال أبو حيان فيه: إن المفعول متأخر فدخول اللام قليل. وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي ﴿أذن﴾ مبنياً للمفعول فله قائم مقام فاعله ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ﴾ صيغة التفعيل للسلب كما في قردت البعير إذا أزلت قراده ومنه التمريض فالتفزيع إزالة الفزع، وهو على ما قال الراغب انقباض ونفار يعتري الإنسان من الشيء المخيف، و ﴿حتى﴾ للغاية واختلفوا في المغيا إذ لم يكن قبلها ما يصلح أن يكون مغياً بحسب الظاهر، واختلفوا لذلك في المراد بالآية اختلافاً كثيراً، فقيل: هو ما يفهم من حديث الشفاعة ويشير إليه، وذلك أن قوله تعالى: ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾ يؤذن بشفعاء ومشفوع لهم وأن هناك استئذاناً في الشفاعة ضرورة أن وقوع الإذن يستدعي سابقية ذلك وهو مستدع للترقب والانتظار للجواب وحيث أنه كلام صادر عن مقام العظمة والكبرياء كيف وقد تقدمه ما تقدمه يدل على كون الكل في ذلك الموقف خلف سرادق العظمة ملقى عليهم رداء الهيبة، وما بعد حرف الغاية أيضاً شديد الدلالة على ذلك فكأنه قيل: تقف الشفعاء والمشفوع لهم في ذلك الموقف الذي يتشبث فيه المستشفعون بأذيال الرجاء من المستشفع بهم ويقوم فيه المستشفع به على قدم الالتجاء إلى الله جل جلاله فيطرق باب الشفاعة بالاستئذان فيها ويبقون جميعاً منتظرين وجلين فزعين لا يدرون ما يوقع لهم الملك الأعظم جل وعلا على رقعة سؤالهم وماذا يصح لهم بعد عرض حالهم حتى إذا أزيل الفزع عن قلوب الشفعاء والمشفوع لهم بظهور تباشير حسن التوقيع وسطوع أنوار الإجابة والارتضاء من آفاق رحمة الملك الرفيع قالوا أي قال بعضهم لبعض، والظاهر أن البعض القائل المشفوع لهم وإن شئت فأعد الضمير إليهم من أول الأمر إذ هم الأشد احتياجاً إلى الإذن والأعظم اهتماماً بأمره ماذا قال ربكم في شأن الإذن بالشفاعة قالوا: أي الشفعاء فإنهم المباشرون للاستئذان بالذات المتوسطون لأولئك السائلين بالشفاعة عنده عزّ وجلّ قال ربنا القول الحق أي الواقع بحسب ما تقتضيه الحكمة وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى.

والظاهر أن قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ من تتمة كلام الشفعاء قالوه اعترافاً بعظمة جناب العزة جل جلاله وقصور شأن كل من سواه أي هو جل شأنه المتفرد بالعلو والكبرياء لا يشاركه في ذلك أحد من خلقه وليس لكل منهم كائناً من كان أن يتكلم إلا من بعد إذنه جل وجلا، وفيه من تواضعهم بعد ترفيع قدرهم بالإذن لهم بالشفاعة ما فيه، وفيه أيضاً نوع من الحمد كما لا يخفى وهذه الجملة المغيات بما ذكر لا يبعد أن تكون جواباً بالسؤال مقدر كأنه قيل: كيف يكون الإذن في ذلك الموقف للمستأذنين وكيف الحال فيه للشافعين والمستشفعين؟ فقيل: يقفون منتظرين وجلين فزعين حتى إذا الخ، والآيات دالة على أن المشفوع لهم هم المؤمنون وأما الكفرة فهم عن موقف الاستشفاع بمعزل وعن التفزيع عن قلوبهم بألف ألف منزل، وجعل بعضهم على هذا الوجه من كون المغيا ما ذكر ضمير ﴿قلوبهم﴾ للملائكة وخص الشفعاء بهم وضمير ﴿قالوا﴾ الأول لهم أيضاً وضمير ﴿قالوا﴾ الثاني للملائكة الذين فوقهم وهم الذين يبلغون ذلك إليهم وقال: إن فزعهم إما لما يقرن به الإذن من الأمر الهائل أو لغشية تصيبهم عند سماع كلام الله جل شأنه أو من ملاحظة وقوع التقصير في تعيين المشفوع لهم بناءً على ورود الإذن بالشفاعة إجمالاً وهو كما ترى.

وقال الزجاج: تفسير هذا أن جبريل عليه السّلام لما نزل إلى النبي ﷺ بالوحي ظنت الملائكة عليهم السّلام أنه نزل بشيء من أمر الساعة ففزعت لذلك فلما انكشف عنها الفزع قالوا: ماذا قال: ربكم سألت لأي شيء نزل جبريل عليه السّلام قالوا: الحق ا هـ.

روي ذلك عن قتادة ومقاتل وابن السائب بيد أنهم قالوا: إن الملائكة صعقوا لذلك فجعل جبريل عليه السّلام يمر بكل سماء ويكشف عنهم الفزع ويخبرهم أنه الوحي، ولم يبين الزجاج وجه اتصال الآية بما قبلها ولا بحث عن الغاية بشيء وقد ذكر نحو ذلك الإمام الرازي ثم قال في ذلك: أن ﴿حتى﴾ غاية متعلقة بقوله تعالى: ﴿قل﴾ لأنه تبينه بالوحي فلما قال سبحانه ﴿قل﴾ فزع من في السماوات وهو لعمري من العجب العجاب.

وقال الفاضل الطيبي بعد نقله ذلك التفسير: وعليه أكثر كلام المفسرين ويعضده ما روينا عن البخاري والترمذي وابن ماجة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا قضى الله تعالى الأمر في السماء ضربت الملائكة أجنحتها خضعاناً لقوله تعالى كأنه سلسلة على صفوان فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم، قالوا الذي قال الحق وهو العلي الكبير» وعن أبي داود عن ابن مسعود قال: «إذا تكلم الله تعالى بالوحي سمع أهل السماء صلصلة كجر السلسلة على الصفا فيصعقون فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل فإذا أتاهم جبريل عليه السّلام فزّع عن قلوبهم فيقولون: يا جبريل ماذا قال ربكم؟ فيقول: الحق الحق» ثم ذكر في أمر الغاية واتصال الآية بما قبلها عل ذلك أنه يستخرج معنى المغيا من المفهوم وذلك إن المشركين لما ادعوا شفاعة الآلهة والملائكة وأجيبوا بقوله تعالى: ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله﴾ من الأصنام والملائكة وسميتموهم باسمه تعالى والتجؤوا إليهم فإنهم لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا تنفع الشفاعة من هؤلاء إلا للملائكة لكن من الإذن والفزع العظيم وهم لا يشفعون إلا للمرضيين فعبر عن الملائكة عليهم السّلام بقوله تعالى: ﴿إلا لمن أذن له حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم﴾ الآية كناية كأنه قيل: لا تنفع الشفاعة إلا لمن هذا شأنه ودأبه وأنه لا يثبت عند صدمة من صدمات هذا الكتاب المبين وعند سماع كلام الحق يعني الذين إذا نزل عليهم الوحي يفزعون ويصعقون حتى إذا أتاهم جبريل عليه السّلام فزع عن قلوبهم فيقولون: ماذا قال ربكم؟ فيقول: الحق انتهى، ولا يخفى على من له أدنى تمييز حاله وأنه مما لا ينبغي أن يعول عليه.

وقول ابن عطية: إن تأويل الآية بالملائكة إذا سمعت الوحي إلى جبريل أو الأمر بأمر الله تعالى به فتسمع كجر سلسلة الحديد على الحديد فتفزع تعظيماً وهيبة، وقيل خوف قيام الساعة هو الصحيح وهو الذي تظاهرت به الأحاديث ناشىء من حرمان عطية سلامة الذوق وتدقيق النظر، والتفسير الذي ذكرناه أولاً بمراحل في الحسن عما ذكر عن أكثر المفسرين، وما سمعت من الرواية لا ينافيه إذ لا دلالة فيه على أنه عليه الصلاة والسلام ذكر ذلك في معرض تفسير الآية ولا تنافي بين التفزيعين وكأن الأكثر من المفسرين نظروا إلى ظاهر طباق اللفظ مع الحديث فنزلوا الآية على ذلك فوقعوا فيما وقعوا فيه وإن كثروا وجلوا، والقائل بما سبق نظر إلى طباق المقام وحقق عدم المنافاة وظهر له حال ما قالوه فعدل عنه.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الضحاك أنه قال في الآية: زعم ابن مسعود أن الملائكة المعقبات الذين يختلفون إلى أهل الأرض يكتبون أعمالهم إذا أرسلهم الرب تبارك وتعالى فانحدروا سمع لهم صوت شديد فيحسب بالذين أسفل منهم من الملائكة أنه من أمر الساعة فيخرون سجداً وهذا كلما مروا عليهم فيفعلون من خوف ربهم تبارك وتعالى، وابن مسعود عندي أجل من أن يحمل الآية على هذا فالظاهر أنه لا يصح عنه.

ومثل هذا ما زعمه بعضهم أن ذاك فزع ملائكة أدنى السماوات عند نزول المدبرات إلى الأرض، وقيل: إن ﴿**حتى**﴾ غاية متعلقة بقوله تعالى ﴿**زعمتم**﴾ أي زعمتم الكفر إلى غاية التفزيع ثم تركتم ما زعمتم وقلتم قال الحق وإليه يشير ما أخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم أنه قال في الآية: حتى إذا فزع الشيطان عن قلوبهم ففارقهم وأمانيهم وما كان يضلهم به قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير ثم قال: وهذا في بني آدم أي كفارهم عند الموت أقروا حين لا ينفعهم الإقرار، والظاهر أن في الكلام عليه التفاتاً من الخطاب في ﴿**زعمتم**﴾ إلى الغيبة في ﴿**قلوبهم**﴾ وأن ضمير ﴿**قالوا**﴾ الأول للملائكة الموكلين بقبض أرواحهم والمراد بالتفزيع عن القلوب كشف الغطاء وموانع إدراك الحق عنها. وما نقل عن الحسن من أنه قال: إنما يقال للمشركين ماذا قال ربك أي على لسان الأنبياء عليهم السّلام فأقروا حين لا ينفع يحتمل أن يكون كالقول المذكور في أن ذلك عند الموت ويحتمل أن يكون قولاً بأن ذلك يوم القيامة إلا أن في جعل حتى غاية للزعم عليه غير ظاهر إذ لا يستصحبهم ذلك إلى يوم القيامة حقيقة كما لا يخفى، وأبعد من هذا القول كون ذلك غاية لقوله تعالى: ﴿**ممن هو منها في شك**﴾ وضمير قلوبهم لمن باعتبار معناه، والتفزيع كشف الغطاء ومواقع إدراك الحق بل هو مما لا ينبغي حمل كلام الله تعالى عليه.

وزعم بعضهم أن المعنى إذا دعاهم إسرافيل عليه السّلام من قبورهم قالوا مجيبين ماذا قال ربكم حكاه في البحر ثم قال: والتفزيع من الفزع الذي هو الدعاء والاستصراخ كما قال زهير:

إذا فزعوا طاروا إلى مستغيثهم ... طوال الرماح لا ضعاف ولا عزل

وأنت تعلم أن التفزيع بالمعنى المذكور لا يتعدى بعن وأمر الغاية عليه غير ظاهر، وبالجملة ذلك الزعم ليس بشيء.

واختار أبو حيان أن المغيا الاتباع في قوله تعالى: ﴿**ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين**﴾ وضمير قلوبهم عائد إلى ما عاد إليه ضمير الرفع في ﴿**اتبعوه**﴾ أعني الكفار وكذا ضمير ﴿**قالوا**﴾ الثاني وضمير ﴿**قالوا**﴾ الأول للملائكة وكذا ضمير ﴿**ربكم**﴾ وجملة قوله تعالى: ﴿**قل ادعوا الذين**﴾ الخ اعتراضية بين الغاية والمغيا والتفزيع حال مفارقة الحياة أو يوم القيامة وبجعل اتباعهم إبليس مستصحباً لهم إلى ذلك اليوم مجازاً، ولا

يخفى بعده، والوجه عندي ما ذكر أولاً، و ﴿ماذا﴾ تحتمل أن تكون منصوبة بقال أي أي شيء قال ربكم، وتحتمل أن تكون في موضع رفع على أن ما اسم استفهام مبتدأ وذا اسم موصول خبره وجملة قال صلة الموصول والعائد محذوف أي ما الذي قاله ربكم، وقرأ ابن عباس وابن مسعود وطلحة وأبو المتوكل الناجي وابن السميفع وابن عامر ويعقوب «فَزَّعَ» بالتشديد والبناء للفاعل والفاعل ضمير الله تعالى المستتر أي أزال الله تعالى الفزع عن قلوبهم.

وقال أبو حيان: هو ضميره تعالى إن كان ضمير قلوبهم للملائكة وإن كان للكفار فهو ضمير مغريهم.

وقرأ الحسن «فُزِعَ» بالتخفيف والبناء للمفعول فعن قلوبهم نائب الفاعل كما في قراءة الجمهور، وقرأ هو وأبو المتوكل أيضاً وقتادة ومجاهد «فرغ» بالفاء والراء المهملة والغين المعجمة مشدداً مبنياً للفاعل بمعنى أزال، وقرأ الحسن أيضاً كذلك إلا أنه خفف الراء، وقرأ عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما والحسن أيضاً وأيوب السختياني وقتادة أيضاً وأبو مجلز «فرغ» كذلك إلا أنهم بنوه للمفعول وقرأ ابن مسعود في رواية وعيسى «افرنقع» قيل بمعنى تفرق.

وقال الزمخشري: بمعنى انكشف، والكلمة مركبة من حروف المفارقة مع زيادة العين كما ركب اقمطر من حروف القمط مع زيادة الراء، وفيه إيهام أن العين والراء من حروف الزيادة وليس كذلك، وقرأ ابن أبي عبلة «الحقُّ» بالرفع أي مقوله الحق ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أمر ﷺ أن يقول ذلك تبكيتاً للمشركين بحملهم على الإقرار بأن آلهتهم لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض وإن الرزاق هو الله عزّ وجلّ فإنهم لا ينكرونه وحيث كانوا يتلعثمون أحياناً في الجواب مخافة الإلزام قيل له عليه الصلاة والسلام ﴿قُلِ الله﴾ إذ لا جواب سواه عندهم أيضاً ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي وإن أحد الفريقين منا معشر الموحدين المتوحد بالرزق والقدرة الذاتية العابدية وحده عزّ وجلّ ومنكم فرقة المشركين به العاجزين في أنفسهم عن دفع أدنى ضر وجلب أحقر نفع وفيهم النازل إلى أسفل المراتب الإمكانية المتصفون بأحد الأمرين من الاستقرار على الهدى والانغماس في الضلال، وهذا من الكلام المنصف الذي كل من سمعه من موال أو مناف قال لمن خوطب به: قد أنصفك صاحبك، وفي درجة بعد تقدمة ما قدم من التقرير البليغ دلالة ظاهرة على من هو من الفريقين على هدى ومن هو في ضلال ولكن التعريض أبلغ من التصريح وأوصل بالمجادل إلى الغرض وأهجم به على الغلبة مع قلة شغب الخصم وفل شوكته بالهوينا، ونحوه قول الرجل لصاحبه قد علم الله تعالى الصادق مني ومنك وإن أحدنا لكاذب، ومنه قول حسان يخاطب أبا سفيان بن حرب وكان قد هجا رسول الله ﷺ قبل أن يسلم:

أتهجوه ولست له بكفء ... فشركما لخيركما الفداء

وقول أبي الأسود:

يقول الأرذلون بنو قشير ... طوال الدهر لا تنسى عليا
بنو عم النبي وأقربوه ... أحب الناس كلهم اليا
فإن يك حبهم خيراً أصبه ... ولست بمخطىء إن كان غيا

وذهب أبو عبيدة إلى أن أو بمعنى الواو كما في قوله:

سيان كسر رغيفه ... أو كسر عظم من عظامه

والكلام من باب اللف والنشر المرتب بأن يكون ﴿على هدى﴾ راجعاً لقوله تعالى: ﴿إنا﴾ و ﴿في ضلال﴾ راجعاً لقوله سبحانه: ﴿إياكم﴾ فإن العقل يحكم بذلك كما في قول امرىء القيس:

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً ... لدى وكرها العناب والحشف البالي

ولا يخفى بعده، وأياً ما كان فليس هذا من باب التقية في شيء كما يزعمه بعض الجهلة، والظاهر أن ﴿**لعلى هدى**﴾ الخ خبر ﴿**إنا أو إياكم**﴾ من غير تقدير حذف إذ المعنى إن أحدنا لمتصف بأحد الأمرين كقولك زيد أو عمرو في السوق أو في البيت، وقيل: هو خبر ﴿**إنا**﴾ وخبر ﴿**إياكم**﴾ محذوف تقديره لعلى هدى أو في ضلال مبين وقيل هو خبر ﴿**إياكم**﴾ وخبر ﴿**إنا**﴾ محذوف لدلالة ما ذكر عليه، و ﴿**إياكم**﴾ على تقديران ولكنها لما حذفت انفصل الضمير.

وفي البحر لا حاجة إلى تقدير الحذف في مثل هذا وإنما يحتاج إليه في نحو زيد أو عمرو قائم فتدبر، والمتبادر أن ﴿**مبين**﴾ صفة ﴿**ضلال**﴾ ويجوز أن يكون وصفاً له ولهدى والوصف وكذا الضمير يلزم إفراده بعد المعطوف بأو، وأدخل على على الهدى للدلالة على استعلاء صاحبه وتمكنه واطلاعه على ما يريد كالواقف على مكان عالٍ أو الراكب على جواد يركضه حيث شاء، و ﴿**في**﴾ على الضلال للدلالة على انغماس صاحبه في ظلام حتى كأنه في مهواة مظلمة لا يدري أين يتوجه ففي الكلام استعارة مكنية أو تبعية. وفي قراءة أبي ﴿**إنا أو إياكم إما على هدى أو في ضلال مبين**﴾.

قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ
ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ
أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ
هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾
وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ
مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟
لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ
جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ
تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ
أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ
لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا
مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ
فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ
وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ

لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ
أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ
ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا
كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ
مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن
قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن
تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ
شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي
يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ
نَفْسِي وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن
مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ
وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ
كَانُواْ فِي شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾

﴿**قُلْ لاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾ هذا أبلغ في الإنصاف حيث عبر عن الهفوات التي لا يخلو عنها مؤمن بما يعبر به عن العظائم وأسند إلى النفس وعن العظائم من الكفر ونحوه بما يعبر به عن الهفوات وأسند للمخطابين وزيادة على ذلك أنه ذكر الإجرام المنسوب إلى النفس بصيغة الماضي الدالة على التحقق وعن العمل المنسوب إلى الخصم بصيغة المضارع التي لا تدل على ذلك، وذكر أن في الآية تعريضاً وأنه لا يضر بما ذكر، وزعم بعضهم أنها من باب المتاركة وأنها منسوخة بآية السيف.

﴿**قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا**﴾ يوم القيامة عند الحشر والحساب ﴿**ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بالْحَقِّ**﴾ يقضي سبحانه بيننا ويفصل بعد ظهور حال كل منا ومنكم بالعدل بأن يدخل المحقين الجنة والمبطلين النار ﴿**وَهُوَ الفَتَّاحُ**﴾ القاضي في القضايا المنغلقة فكيف بالواضحة كإبطال الشرك وإحقاق التوحيد أو القاضي في كل قضية خفية كانت أو واضحة، والمبالغة على الأول في الكيف وعلى الثاني في الكم، ولعل الوجه الأول أولى، وفيه إشارة إلى وجه تسمية فصل الخصومات فتحاً وأنه في الأصل لتشبيه ما حكم فيه بأمر منغلق كما يشبه بأمر منعقد في قولهم: حلال المشكلات، وقرأ عيسى «الفاتح» ﴿**الْعَلِيمُ**﴾ بما ينبغي أن يقضي به أو بكل شيء.

﴿**قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ به شُرَكَاءَ**﴾ استفسار عن شبهتهم بعد إلزام الحجة عليهم زيادة في تبكيتهم، وأرى على ما استظهره أبو حيان بمعنى أعلم فتتعدى إلى ثلاثة مفاعيل ياء المتكلم والموصول و ﴿**شركاء**﴾ وعائد الموصول محذوف أي ألحقتموهم، والمراد أعلموني بالحجة والدليل كيف وجه الشركة، وجوز كون رأي بصرية تعدت بالنقل

لاثنين ياء المتكلم والموصول و ﴿شركاء﴾ حال من ضمير الموصول المحذوف أي ألحقتموهم متوهماً شركتهم أو مفعول ثانٍ لألحق لتضمينه معنى الجعل أو التسمية، والمراد أرونيهم لأنظر بأي صفة ألحقتموهم بالله عزّ وجلّ الذي ليس كمثله شيء في استحقاق العبادة أو ألحقتموهم به سبحانه جاعليهم أو مسميهم شركاء، والغرض إظهار خطئهم العظيم.

وقال بعض الأجلة: لم يرد من ﴿أروني﴾ حقيقته لأنه ﷺ كان يراهم ويعلمهم فهو مجاز وتمثيل، والمعنى ما زعمتموه شريكاً إذا برز للعيون وهو خشب وحجر تمت فضيحتكم، وهذا كما تقول للرجل الخسيس الأصل اذكر لي أباك الذي قايست به فلاناً الشريف ولا تريد حقيقة الذكر وإنما تريد تبكيته وأنه إن ذكر أباه افتضح.

﴿كَلاَّ﴾ ردع لهم عن زعم الشركة بعدما كسره بالإبطال كما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿أف لكم ولما تعبدون من دون الله﴾ [الأنبياء: ٦٧] بعد ما حج قومه ﴿بَلْ هُوَ اللهُ الْعَزِيزُ﴾ أي الموصوف بالغلبة القاهرة المستدعية لوجوب الوجود ﴿الْحَكِيمُ﴾ الموصوف بالحكمة الباهرة المستدعية للعلم المحيط بالأشياء، وهؤلاء الملحقون عن الاتصاف بذلك في معزل وعن الحوم حول ما يقتضيه بألف ألف منزل، والضمير أما عائد لما في الذهن وما بعده وهو الله الواقع خبراً له يفسره و ﴿العزيز الحكيم﴾ صفتان للاسم الجليل أو عائد لربنا في قوله سبحانه: «يفتح بيننا ربنا» على ما قيل أو هو ضمير الشأن و ﴿الله﴾ مبتدأ و ﴿العزيز الحكيم﴾ خبره والجملة خبر ضمير الشأن لأن خبره لا يكون إلا جملة على الصحيح ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ المتبادر أن ﴿كافة﴾ حال من الناس قدم مع إلا عليه للاهتمام كما قال ابن عطية، وأصله من الكف بمعنى المنع وأريد به العموم لما فيه من المنع من الخروج واشتهر في ذلك حتى قطع النظر فيه عن معنى المنع بالكلية فمعنى جاء الناس كافة جاؤوا جميعاً، ويشير إلى هذا الإعراب ما أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن مجاهد أنه قال في الآية: أي إلى الناس جميعاً، وما أخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب أنه قال: أي للناس كافة، وكذا ما أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة أنه قال في الآية: أرسل الله تعالى محمداً ﷺ إلى العرب والعجم فأكرمهم على الله تعالى أطوعهم له، وما نقل عن ابن عباس أنه قال: أي إلى العرب والعجم وسائر الأمم، وهو مبني على جواز تقديم الحال على صاحبها المجرور بالحرف وهو الذي ذهب إليه خلافاً لكثير من النحاة أبو علي وابن كيسان وابن برهان والرضي وابن مالك حيث قال:

وسبق حال ما بحرف جر قد ... أبوا ولا أمنعه فقد ورد

وأبو حيان حيث قال بعد أن نقل الجواز عمن عدا الرضى من المذكورين وهو الصحيح: ومن أمثلة أبي علي زيد خير ما يكون خير منك، وقال الشاعر:

إذا المرء أعيته المروءة ناشئاً ... فمطلبها كهلاً عليه شديد

وقال آخر:

تسليت طراً عنكم بعد بينكم ... بذكراكم حتى كأنكم عندي

وقد جاء تقديم الحال على صاحبها المجرور وعلى ما يتعلق به، ومن ذلك قوله:

مشغوفة بك قد شغفت وإنما ... حتم الفراق فما إليك سبيل

وقول آخر:

غافلاً تعرض المنية للمرء ... فيدعى ولات حين إباء

وإذا جاز تقديمها على المجرور والعامل فتقديمها عليه دون العامل أجوز انتهى، وجعلوا هذا الوجه أحسن الأوجه في الآية وقالوا: إن ما عداه تكلف، واعترض بأنه يلزم عليه عمل ما قبل إلا وهو ـ أرسل ـ فيما بعدها وهو ﴿للناس﴾ وليس بمستثنى ولا مستثنى منه ولا تابعاً له وقد منعوه، وأجيب بأن التقدير وما أرسلناك للناس إلا كافة فهو مقدم رتبة ومثله كاف في صحة العمل مع أنهم يتوسعون في الظرف ما لا يتوسعون في غيره.

وقال الخفاجي عليه الرحمة: الأحسن أن يجعل ﴿للناس﴾ مستثنى على أن الاستثناء فيه مفرغ وأصله ما أرسلناك لشيء من الأشياء إلا لتبليغ الناس كافة، وأما تقديره بما أرسلناك للخلق مطلقاً إلا للناس كافة على أنه مستثنى فركيك جداً ا هـ، ولا يخفى أن في الآية على ما أستحسنه حذف المضاف والفصل بين أداة الاستثناء والمستثنى وتقديم الحال على صاحبها والكل خلاف الأصل وقلما يجتمع مثل ذلك في الكلام الفصيح. واعترض عليه أيضاً بأنه يلزم حينئذٍ جعل اللام في ﴿للناس﴾ بمعنى إلى وليس بشيء لأن أرسل يتعدى باللام وإلى كما ذكره أبو حيان وغيره فلا حاجة إلى جعلها بمعنى إلى على أنه لو جعلت بمعناها لا يلزم خطأ أصلاً لمجيء كل من اللام وإلى بمعنى الآخر، وكذا لا حاجة إلى جعلها تعليلية إلا على ما استحسنه الخفاجي.

وقال غير واحد: إن ﴿كافة﴾ اسم فاعل من كف والتاء فيه للمبالغة كتاء راوية ونحوه وهو حال من مفعول ﴿أرسلناك﴾ و ﴿للناس﴾ متعلق به وإليه ذهب أبو حيان أي ما أرسلناك إلا كافاً ومانعاً للناس عن الكفر والمعاصي. وإلى الحالية من الكاف ذهب أبو علي أيضاً إلا أنه قال: المعنى إلا جامعاً للناس في الإبلاغ. وتعقبه أبو حيان بأن اللغة لا تساعد على ذلك لأن كف ليس بمحفوظ أن معناه جمع، وفيه منع ظاهر لأنه يقال: كف القميص إذا جمع حاشيته وكف الجرح إذا ربطه بخرقة تحيط به وقد قال ابن دريد: كل شيء جمعته فقد كففته مع أنه جوز أن يكون مجازاً من المنع لأن ما يجمع يمتنع تفرقه وانتشاره، وقيل: إنه مصدر كالكاذبة والعاقبة والعافية وهو أيضاً حال من الكاف إما باق على مصدريته بلا تقدير شيء مبالغة وإما بتأويل اسم الفاعل أو بتقدير مضاف أي إلا إذا كافة أي ذا كف أي منع للناس من الكفر، وقيل ذا منع من أن يشذوا عن تبليغك، وذهب بعضهم إلى أنه مصدر وقع مفعولاً له ولم يشترط في نصبه اتحاد الفاعل كما ارتضاه الرضي، وذهب العلامة الزمخشري إلى أنه اسم فاعل من الكف صفة لمصدر محذوف وتاؤه للتأنيث أي ما أرسلناك إلا إرسالة كافة أي عامة لهم محيطة بهم لأنها إذا شملتهم فقد كفتهم عن أن يخرج منها أحد منهم. واعترض عليه بأن كافة لم ترد عن العرب إلا منصوبة على الحال مختصة بالمتعدد من العقلاء وأن حذف الموصوف، وإقامة الصفة مقامه إنما يكون لما عهد وصفه بها بحيث لا تصلح لغيره وأجيب بأن كافة ها هنا غير ما التزم فيه الحالية وإن رجعا إلى معنى واحد، وما قيل من أنه لم تستعمله العرب إلا كذلك ليس بشيء وإقامة الصفة مقام موصوفها منقاس مطرد بدون شرط إذا قامت عليه قرينة، وذكر الفعل قبله دال على تقدير مصدره كما في قمت طويلاً وحسناً أي قياماً طويلاً وحسناً. وفي الحواشي الخفاجية قد صح أن عمر رضي الله تعالى عنه قال في كتابه لآل بني كاكلة: قد جعلت لآل بني كاكلة على كافة بيت المسلمين لكل عام مائتي مثقال ذهباً إبريزاً وقاله علي كرّم الله تعالى وجهه حين أمضاه فقد استعمل هذان الإمامان كافة في غير العقلاء وغير منصوب على الحالية.

ولا يخفى أن بعض ما اعترض به على هذا الوجه يعترض به على بعض الأوجه السابقة أيضاً، والجواب هو الجواب.

والذي اختاره في الآية ما هو المتبادر، ولا بأس بالتقدم والاستعمال وارد عليه ولا قياس يمنعه، وأمر تخطي العامل إلا إلى ما ليس مستثنى ولا مستثنى منه سهل لحديث التوسع في الظرف، والآية عليه أظهر في الاستدلال على

عموم رسالته ﷺ وهي في ذلك كقوله تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ [الأعراف: ١٥٨] ولو استدل بها القاضي أبو سعيد لبهت اليهودي، وقد يستدل عليه بما لا يكاد ينكره من فعله ﷺ مع اليهود في عصره ودعوته عليه الصلاة والسلام إياهم إلى الإسلام ﴿بَشيراً ﴾ لمن أسلم بالثواب ﴿وَنَذيراً ﴾ لمن لم يسلم بالعقاب، والوصفان حالان من مفعول ﴿أرسلناك ﴾ وقد يجعلان على بعض الأوجه السابقة بدلاً من ﴿كافة ﴾ نحو بدل المفصل من المجمل فتأمل.

﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك فيحملهم جهلهم على الإصرار على ما هم عليه من الغي والضلال ﴿وَيَقُولُونَ ﴾ أي لجهلهم حقيقة أو حكماً ولذا لم يعطف بالفاء وقيل يقولون أي من فرط تعنتهم وعدم العطف بالفاء لذلك.

وقيل الحامل فرط الجهل وعدم العطف بالفاء لظهور تفرعه على ما قبله ومثله يوكل إلى ذهن السامع، وقيل إن ذاك لأن فرط الجهل غير الجهل وهو كما ترى، وقيل لأن هذا حال بعض وعدم العلم في قوله تعالى: ﴿لا يعلمون ﴾ حال بعض آخر، والذي يظهر لي أن القائلين بالفعل هم بعض المشركين المعاصرين له ﷺ لا أكثر الناس مطلقاً وأن المراد بصيغة المضارع الاستمرار التجددي، وقيل عبر بها استحضاراً للصورة الماضية لنوع غرابة والأصل وقالوا: ﴿مَتَىٰ هَـٰذَا الْوَعْدُ ﴾ بطريق الاستهزاء يعنون المبشر به والمنذر عنه أو الموعود بقوله تعالى: ﴿يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا ﴾ ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ مخاطبين رسول الله ﷺ والمؤمنين به.

﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ ﴾ أو وعد يوم على أن ﴿ميعاد ﴾ مصدر ميمي أو اسم أقيم مقام المصدر على ما نقل عن أبي عبيدة وهو بمعنى الموعود، وقيل: الكلام على تقدير مضاف أي لكم وقوع وعد يوم أو نجز وعد يوم، وتنوين يوم للتعظيم أي يوم عظيم، وجوز أن يكون الميعاد اسم زمان وإضافته إلى ﴿يوم ﴾ للتبيين أي لبيان زمان الوعد بأنه يوم مخصوص نحو سحق ثوب وبعير سانية، وأيد الوجه الأول بوقوع الكلام جوابٌ لقولهم ﴿متى هذا الوعد ﴾ والوجه الثاني أنه قرىء «ميعادٌ يومٌ» برفعهما وتنوينهما فإن يوم على هذه القراءة بدل وذلك يقتضي أن الميعاد نفس اليوم، وكونه بدل اشتمال بعيد، وكذا ما قال أبو حيان من أنه على تقدير محذوف أي قل لكم ميعاد ميعاد يوم فلما حذف المضاف أعرب ما قام مقامه بإعرابه، وقرأ ابن أبي عبلة «ميعادٌ» بالرفع والتنوين «يوماً» بالنصب والتنوين قال الزمخشري: وهو على التعظيم بإضمار فعل تقديره لكم ميعاد أعني يوماً من صفته كيت وكيت، ويجوز الرفع على هذا أيضاً، وجوز أن يكون على الظرفية لميعاد على أنه مصدر بمعنى الموعود لا اسم زمان، وقال في البحر: يجوز أن يكون انتصابه على الظرف والعامل فيه مضاف محذوف أي إنجاز وعد يوماً من صفته كيت وكيت. وقرأ عيسى «ميعادٌ» منوناً «يومَ» بالنصب من غير تنوين مضافاً إلى الجملة ووجه النصب ما مر آنفاً.

﴿لاَّ تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً ﴾ إذا فاجأكم ﴿وَلاَ تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ أي عنه ساعة، والهاء على ما قال أبو البقاء يجوز أن تعود على ﴿ميعاد ﴾ وإن تعود على ﴿يوم ﴾ وعلى أيهما عادت كانت الجملة وصفاً له. وفي الإرشاد هي صفة لازمة لميعاد، وفي الجواب على تقدير تقييد النفي بالمفاجأة من المبالغة في التهديد ما لا يخفى، ويجوز أن يكون النفي غير مقيد بذلك فيكون وصف الميعاد بما ذكر لتحقيقه وتقديره، وقد تقدم الكلام في نظير هذه الجملة فتذكر.

ولما كان سؤالهم عن الوقت على سبيل التعنت أجيبوا بالتهديد، وحاصله أنه لوحظ في الجواب المقصود من سؤالهم لا ما يعطيه ظاهر اللفظ وليس هذا من الأسلوب الحكيم فإن البليغ يلتفت لفت المعنى، وقال الطيبي: هو منه سألوا عن وقت إرساء الساعة وأجيبوا عن أحوالهم فيها فكأنه قيل: دعوا السؤال عن وقت إرسائها فإن كينونته لا بدّ منه

بل سلوا عن أحوال أنفسكم حيث تكونون مبهوتين متحيرين فيها من هول ما تشاهدون فهذا أليق بحالكم من أن تسألوا عنه وهو كما ترى، وقيل: إنه متضمن الجواب بأن ذلك اليوم لا يعلمه إلا الله عزّ وجلّ لمكان تنكير ﴿يوم﴾ وهو تعسف لا حاجة إليه. واختلف في هذا اليوم فقيل يوم القيامة وعليه كلام الطيبي، وقيل: يوم مجيء أجلهم وحضور منيتهم، وقيل: يوم بدر ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهم مشركو العرب ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي من الكتب القديمة كما روي عن قتادة والسدي وابن جريج، ومرادهم نفي الإيمان بجميع ما يدل على البعث من الكتب السماوية المتضمنة لذلك، ويروى أن كفار مكة سألوا أهل الكتاب عن الرسول ﷺ فأخبروهم أنهم يجدون صفته عليه الصلاة والسلام في كتبهم فأغضبهم ذلك فقالوا ما قالوا، وضعف بأنه ليس في السياق والسباق ما يدل عليه، وقيل الذي بين يديه القيامة.

وخطأ ابن عطية قائله بأن ما بين اليد في اللغة المتقدم. وتعقب بأنه قد يراد به ما مضى وقد يراد به ما سيأتي.

نعم يضعف ذلك أن ما بين يدي الشيء يكون من جنسه لكن محصل كلامهم على هذا أنهم لم يؤمنوا بالقرآن ولا بما دل عليه، وأما ادعاء أن الأكثر كونه لما مضى فقد قيل أيضاً إنه غير مسلم، وحكى الطبرسي أن المراد بالذين كفروا اليهود وحينئذٍ يراد بما بين يديه الإنجيل، ولا يخفى أن هذا القول مما لا ينبغي أن يلتفت إليه وليس في السباق والسياق ما يدل عليه ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ أو لكل واقف عليه، ومفعول ﴿ترى﴾ إذا أو محذوف و ﴿إذ﴾ ظرف له أي أي حال الظالمين و ﴿لو﴾ للتمني مصروفاً إلى غيره تعالى لا جواب لها أو هو مقدر أي لرأيت أمراً فظيعاً أو نحوه، و ﴿الظالمون﴾ ظاهر وضع موضع للتسجيل وبيان علة استحقاقهم، والأصل ولو ترى إذ هم موقوفون عند ربهم أي في موقف المحاسبة ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾ أي يتحاورون ويتراجعون القول، والجملة في موضع الحال، وقوله تعالى: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ استئناف لبيان تلك المجاورة أو بدل من ﴿يرجع﴾ الخ أي يقول الأتباع ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ في الدنيا واستتبعوهم في الغي والضلال ﴿لَوْلَا أَنتُمْ﴾ صددتمونا عن الهدى ﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ بما جاء به الرسول ﷺ.

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ استئناف بياني كأنه قيل: فماذا قال الذين استكبروا لما اعترض عليهم الأتباع ووبخوهم؟ فقيل قالوا: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ أنكروا أن يكونوا هم الذين صدوهم عن الإيمان وأثبتوا أنهم هم الذين صدوا أنفسهم أي لسنا نحن الذين حلنا بينكم وبين الإيمان بعد إذ صممتم على الدخول فيه بل أنتم منعتم أنفسكم حظها بإجرامكم وإيثاركم الكفر على الإيمان.

ووقوع إذ مضافاً إليها الظرف شائع في كلامهم كوقوعها مضافة وذلك من باب الاتساع في الظروف لا سيما الزمانية، وبهذا يجاب عما قيل إن إذ من الظروف اللازمة للظرفية فكيف وقعت ها هنا مجرورة مضافاً إليها.

وقال صاحب الفرائد إن إذ ها هنا جردت عن معنى الظرفية وانسلخت عنه رأساً وصيرت اسماً صرفاً لأن المراد من وقت مجيء الهدى هو الهدى لا الوقت نفسه فلذا أضيف إليها.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ إضراباً عن إضرابهم وإبطالاً له ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي بل صدنا مكركم بنا في الليل والنهار فحذف المضاف إليه وأقيم مقامه الظرف اتساعاً أو جعل الليل والنهار ماكرين على الإسناد المجازي، وقيل لا حاجة إلى ذلك فإن الإضافة على معنى في. وتعقب بأنها مع أن المحققين لم يقولوا بها يفوت باعتبارها المبالغة، ويعلم مما أشرنا إليه أن ﴿مكر﴾ فاعل لفعل محذوف، وجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف

أو مبتدأ خبره محذوف أي سبب كفرنا مكر الليل والنهار أو مكر الليل والنهار سبب كفرنا. وقرأ قتادة ويحيى بن يعمر ﴿بل مكر الليل والنهار﴾ بالتنوين ونصب الظرفين أي بل صدنا مكركم أو مكر عظيم في الليل والنهار.

وقرأ محمد بن جعفر وسعيد بن جبير وأبو رزين وابن يعمر أيضاً «مَكَرُّ الليل والنهار» بفتح الميم والكاف وتشديد الراء والرفع مع الإضافة أي بل صدنا كرور الليل والنهار واختلافهما، وأرادوا على ما قيل الإحالة على طول الأمل والاغترار بالأيام مع هؤلاء الرؤساء بالكفر بالله عزّ وجلّ.

وقرأ ابن جبير أيضاً وراشد القاري وطلحة كذلك إلا أنهم نصبوا ﴿مكراً﴾ على الظرف أي بل صددتمونا مكر الليل والنهار أي في مكرهما أي دائماً، وجوز أن يكون مفعولاً مطلقاً أي تكرون الإغراء مكراً دائماً لا تفترون عنه، وجوز صاحب اللوامح كونه ظرفاً لتأمروننا بعد. وتعقبه أبو حيان بأنه وهم لأن ما بعد إذ لا يعمل فيما قبلها، وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَا﴾ بدل من الليل والنهار أو تعليل للمكر، وجعله في الإرشاد ظرفاً له أي بل مكركم الدائم وقت أمركم لنا ﴿أَن نَّكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً﴾ على أن مكرهم إما نفس أمرهم بما ذكر وأما أمور آخر مقارنة لأمرهم داعية إلى الامتثال به من الترغيب والترهيب وغير ذلك.

وجملة ﴿قال الذين استضعفوا﴾ الخ عطف على جملة ﴿يقول الذين استضعفوا﴾ الخ وإن تغايرتا مضياً واستقبالاً.

ولما كان هذا القول رجوعاً منهم إلى الكلام دون قول المستكبرين أنحن صددناكم فإنه ابتداء كلام وقع جواباً للاعتراض عليهم جيء بالعاطف ها هنا ولم يجيء به هناك على ما اختاره بعضهم، وقيل: إن النكتة في ذلك أنه لما حكي قول المستضعفين بعد قوله تعالى ﴿يرجع بعضهم إلى بعض القول﴾ كان مظنة إن يقال: فماذا قال الذين استكبروا للذين استضعفوا وهل كان بين الفريقين تراجع؟ فقيل: قال الذين استكبروا كذا، وقال الذين استضعفوا كذا فأخرج مجموع القولين مخرج الجواب وعطف بعض الجواب على بعض فتدبر، والأنداد جمع ند هو شائع فيمن يدعي أنه شريك مطلقاً لكن ذكر الشيخ الأكبر قدس سره في تفسيره الجاري فيه على مسلك المفسرين إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن وبخطه الشريف النوراني رأيته أنه مخصوص بمن يدعي الألوهية كفرعون وأضرابه لأنه بذلك ند عن الله تعالى وشرد عن رحمته سبحانه وقال الشيخ: لأنه شرد عن العبودية له جل شأنه ﴿وَأَسَرُّوا﴾ أي أضمر الظالمون من الفريقين المستكبرين والمستضعفين ﴿النَّدَامَةَ﴾ على ما كان منهم في الدنيا من الضلال والإضلال نظراً للمستكبرين ومن الضلال فقط نظراً للمستضعفين، والقول بحصول ندامتهم على الإضلال أيضاً باعتبار قبوله تكلف، ولم يظهروا ما يدل عليها من المحاورة وغيرها ﴿لَمَّا رَأَوُا العذاب﴾ لأنهم بهتوا لما عاينوه فلم يقدروا على النطق واشتغلوا عن إظهارها بشغل شاغل، وقيل: اخفاها كل عن صاحبه مخافة التعيير، وتعقب بأنه كيف يتأتى هذا مع قول المستضعفين لرؤساهم لولا أنتم لكنا مؤمنين وأي ندامة أشد من هذا، وأيضاً مخافة التعيير في ذلك المقام بعيدة، وقيل: أسرّوا الندامة بمعنى أظهورها فإن أسر من الأضداد إذ الهمزة تصلح للإثبات وللسلب فمعنى أسره جعله سراً أو أزال سره ونظيره أشكيت، وأنشد الزمخشري لنفسه:

شكوت إلى الأيام سوء صنيعها ... ومن عجب باك فشكا إلى المبكي
فما زادت الأيام إلا شكاية ... وما زالت الأيام تشكى ولا تشكي

وتعقب ابن عطية هذا القول بأنه لم يثبت قط في لغة إن أسر من الأضداد، وأنت تعلم أن المثبت مقدم على النافي فلا تغفل ﴿وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ﴾ أي القيود ﴿فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهم المستكبرون والمستضعفون

والأصل في أعناقهم إلا أنه أظهر في مقام الإضمار للتنويه بذمهم والتنبيه على موجب إغلالهم، واستظهر أبو حيان عموم الموصول فيدخل فيه الفريقان المذكوران وغيرهم لأن من الكفار من لا يكون له اتباع تراجعه القول في الآخرة ولا يكون هو تابعاً لرئيس له كالغلام الذي قتله الخضر عليه السّلام ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي لا يجزون إلا مثل الذي كانوا يعملونه من الشر، وحاصله لا يجزون إلا شراً، وجزى قد يتعدى إلى مفعولين بنفسه كما يشير إليه قول الراغب يقال جزيته كذا وبكذا، وجوز كون ما في محل النصب بنزع الخافض وهو إما الباء أو عن أو على فإنه ورد تعدية جزى بها جميعاً، وقيل: إن هذا التعدي لتضمينه معنى القضاء ومتى صح ما سمعت عن الراغب لم يحتج إلى هذا ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ﴾ من القرى ﴿مِنْ نَذِيرٍ﴾ أي نذيراً من النذر ﴿إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ أي المتوسعون في النعم فيها، والجملة في موضع الحال ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ بزعمكم من التوحيد وغيره، والجار الثاني متعلق بما عنده والأول متعلق بقوله تعالى: ﴿كَافِرُونَ﴾ وهو خبر إن، وظاهر الآية أن مترفي كل قرية قالوا لرسولهم ذلك وعليه فالجمع في أرسلتم للتهكم، وقيل: لتغليب المخاطب على جنس الرسل أو على اتباعه المؤمنين به، وقال بعض الأجلة الكلام من باب مقابلة الجمع بالجمع فقيل الجمع الأول الرسل المدلول عليه بقوله تعالى: ﴿أرسلتم﴾ والثاني ﴿كافرون﴾ فقد كفر كل برسوله وخاطبه بمثله فلا تغليب في الخطاب في أرسلتم، وقيل: الجمع الأول ﴿نذير﴾ لأنه يفيد العموم في الحكاية لا المحكي لوقوعه في سياق النفي، وليس كل قوم منكراً لجميع الرسل فحمل على المقابلة، والكلام مسوق لتسلية رسول الله ﷺ مما ابتلى به من مخالفة مترفي قومه وعداوتهم له عليه الصلاة والسلام، وتخصيص المترفين بالتكذيب لأنهم في الأغلب أول المكذبين للرسل عليهم السّلام لما شغلوا به من زخرفة الدنيا وما غلب على قلوبهم منها فهم منهمكون في الشهوات والاستهانة بمن لم يحظ منها بخلاف الفقراء فإن قلوبهم لخلوها من ذلك أقبل للخير ولذلك تراهم أكثر اتباع الأنبياء عليهم السّلام كما جاء في حديث هرقل ﴿وَقَالُوا﴾ الضمير للمترفين الذين تقدم ذكرهم، وقيل: لقريش، والظاهر المتبادر هو الأول، والمراد حكاية ما شجعهم على الكفر بما أرسل به المنذرون أي وقال المترفون: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً﴾ أي أموالنا وأولادنا كثيرة جداً فأفعل للزيادة المطلقة، وجوز بقاؤه على ما هو الأكثر استعمالاً والمفضل عليه محذوف أي نحن أكثر منكم أموالاً وأولاداً ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ بشيء من أنواع العذاب الذي يكدر علينا لذة كثرة الأموال والأولاد من خوف الملوك وقهر الأعداء وعدم نفوذ الكلمة والكد في تحصيل المقاصد ونحو ذلك، وإيلاء الضمير حرف النفي للإشارة إلى أن المخاطبين أو المؤمنين ليسوا كذلك، وحاصل قولهم نحن في نعمة لا يشوبها نقمة وهو دليل كرامتنا على الله عزّ وجلّ ورضاه عنا فلو كان ما نحن عليه من الشرك وغيره مما تدعونا إلى تركه مخالفاً لرضاه لما كنا فيما كنا فيه من النعمة، ويجوز أن يكونوا قد قاسوا أمور الآخرة الموهومة أو المفروضة عندهم على أمور الدنيا وزعموا أن المنعم عليه في الدنيا منعم عليه في الآخرة، وإلى هذا الوجه ذهب جمع وقالوا: نفي كونهم معذبين إما بناءً على انتفاء العذاب الأخروي رأساً وإما بناءً على اعتقاد أنه تعالى أكرمهم في الدنيا فلا يهينهم في الآخرة على تقدير وقوعها، وقال الخفاجي في وجه إيلاء الضمير حرف النفي: إنه إشارة إلى أن المؤمنين معذبون استهانة بهم لظنهم أن المال والولد يدفع العذاب عنهم كما قاله بعض المشركين، وأنت تعلم أن الأظهر عليه التفريع، وذهب أبو حيان إلى أن المراد بالعذاب المنفي أعم من العذاب الأخروي والعذاب الدنيوي الذي قد ينذر به الأنبياء عليهم السّلام ويتوعدون به قومهم إن لم يؤمنوا بهم، ولعل ما ذكرناه أولاً أنسب بالمقام فتأمل جداً ﴿قُلْ﴾ رداً لما زعموه من أن ذلك دليل الكرامة والرضا ﴿إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أن يبسط له ﴿وَيَقْدِرُ﴾ على من يشاء أن يقدره عليه فربما يوسع سبحانه على العاصي ويضيق على المطيع وربما يعكس الأمر وربما يوسع عليهما معاً وقد يضيق عليهما معاً وقد يوسع على شخص مطيع أو عاص تارة ويضيق عليه أخرى يفعل

كلاً من ذلك حسبما تقتضيه مشيئته عزّ وجلّ المبنية على الحكم البالغة فلو كان البسط دليل الإكرام والرضا لاختص به المطيع وكذا لو كان التضييق دليل الإهانة والسخط لاختص به العاصي وليس فليس، والحاصل كما قيل منع كون ذلك دليلاً على ما زعموا لاستواء المعادي والموالي فيه، وقال جمع: أريد أنه تعالى يفعل ذلك حسب مشيئته المبنية على الحكم فلا ينقاس عليه أمر الثواب والعقاب اللذين مناطهما الطاعة وعدمها، وقال ناصر الدين: لو كان ذلك لكرامة أو هوان يوجبانه لم يكن بمشيئته تعالى، وهو مبني على أن الإيجاب ينافي الاختيار والمشيئة وقد قال به الخفاجي أخذاً من كلام مولانا جلال الدين ورد به على من رد، ولا يخفى أن دعوى المترفين الإيجاب على الله تعالى فيما هم فيه من بسط الرزق وكذا فيما فيه أعداؤهم من تضييقه غير ظاهرة حتى يرد عليهم بإثبات المشيئة التي لا تجامع الإيجاب، وقرأ الأعمش «ويقدّر» مشدد هنا وفيما بعد ﴿ولَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاس لاَ يَعْلَمُونَ﴾ ذلك فمنهم من يزعم أن مدار البسط الشرف والكرامة ومدار التضييق الهوان والحقارة، ومنهم من تحير واعترض على الله تعالى في البسط على أناس والتضييق على آخرين حتى قال قائلهم:

كم عالم عالم أعيت مذاهبه | وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا
هذا الذي ترك الأفهام حائرة | وصير العالم النحرير زنديقا

وعنى هذا القائل بالعالم النحرير نفسه، ولعمرى إنه بوصف الجاهل البليد أحق منه بهذا الوصف فالعالم النحرير من يقول:

ومن الدليل على القضاء وحكمه[1] | بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بالَّتي تُقَرِّبُكُمْ عندَنَا زُلْفَى﴾ كلام مستأنف من جهته عزّ وجلّ خوطب به الناس بطريق التلوين والالتفات مبالغة في تحقيق الحق وتقرير ما سبق كذا في إرشاد العقل السليم، وجوز أن يكون ما تقدم لنفي أن يكون القرب والكرامة مداراً وعلة لكثرة الرزق وهذا النفي أن تكون كثرة الرزق سبباً للقرب والكرامة ويكون الخطاب للكفرة، والتي واقع على الأموال والأولاد، وحيث إن الجمع المكسر عقلاؤه وغير عقلائه سواء في حكم التأنيث وكان المجموع بمعنى جماعة صح الأفراد والتأنيث أي وما جماعة أموالكم وأولادكم بالجماعة التي تقربكم عندنا قربة، ولا حاجة إلى تقدير مضاف في النظم الكريم، وما ذكر تقدير معنى لا إعراب، وعن الزجاج أن في الكلام حذفاً في أوله لدلالة ما في آخره والتقدير وما أموالكم بالتي تقربكم عندنا زلفى ولا أولادكم بالتي الخ، وأنت تعلم أنه لا حاجة إليه أيضاً، وجوز أن تكون التي صفة لموصوف مفرد مؤنث تقديره بالتقوى أو بالخصلة التي، وجوز الزمخشري أن تكون التي كناية عن التقوى لأن المقرب إلى الله تعالى ليس إلا تلك أي وما أموالكم ولا أولادكم بتلك الموضوعة للتقريب. وقرأ الحسن «باللاتي» جمعاً وهو راجع للأموال والأولاد كالتي على ما سمعت أولاً. وقرىء «بالذي» أي بالشيء الذي يقربكم.

وزلفى مصدر كالقربى وانتصابه على المصدرية من المعنى. وقرأ الضحاك «زلفاً» بفتح اللام وتنوين الفاء جمع زلفة وهي القربة ﴿إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ استثناء من مفعول ﴿تقربكم﴾ على ما ذهب إليه جمع، وهو استثناء متصل إذا كان الخطاب عاماً للمؤمنين والكفرة ومنقطع إذا كان خاصاً بالكفرة فالموصول في محل نصب أو رفع على

---

(١) نسخة وكونه بدل حكمه.

أنه مبتدأ ما بعده خبره أو خبره مقدر أي لكن من آمن وعمل صالحاً فإيمانه وعمله يقربانه.

واستظهر أبو حيان الانقطاع، وقال في البحر: فإن الزجاج ذهب إلى بدليته من المفعول المذكور وغلطه النحاس بأن ضمير المخاطب لا يجوز الإبدال منه فلا يقال رأيتك زيداً، ومذاهب الأخفش والكوفيين أنه يجوز أن يبدل من ضميري المخاطب والمتكلم لكن البدل في الآية لا يصح ألا ترى أنه لا يصح تفريغ الفعل الواقع صلة لما بعد إلا فلو قلت ما زيد بالذي يضرب إلا خالداً لم يصح ا هـ.

وذكر بعض الأجلة أن جعله استثناء من المفعول لا يصح على جعل التي كناية عن التقوى لأنه يلزم أن تكون الأموال والأولاد تقوى في حق غير من آمن وعمل صالحاً لكنها غير مقربة، وقيل لا بأس بذلك إذ يصح أن يقال وما أموالكم ولا أولادكم بتقوى إلا المؤمنين، وحاصله أن المال والولد لا يكونان تقوى ومقربين لأحد إلا للمؤمنين، وإذا كان الاستثناء منقطعاً صح واتضح ذلك، وجوز أن يكون استثناء من ﴿أموالكم وأولادكم﴾ على حذف مضاف أي إلا أموال من آمن وعمل صالحاً وأولادهم، وفي هذا إذا جعل التي كناية عن التقوى مبالغة من حيث إنه جعل مال المؤمن الصالح وولده نفس التقوى. ثم إن تقريب الأموال المؤمن الصالح بإنفاقها فيما يرضي الله تعالى وتقريب الأولاد بتعليمهم الخير وتفقيههم في الدين وترشيحهم للصلاح والطاعة.

﴿فَأُولَئِكَ﴾ إشارة إلى من والجمع باعتبار معناها كما أن الأفراد فيما تقدم باعتبار لفظها، وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو رتبتهم وبعد منزلتهم في الفضل أي فأولئك المنعوتون بالإيمان والعمل الصالح ﴿لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ﴾ أي لهم أن يجازيهم الله تعالى الضعف أي الثواب المضاعف فيجازيهم على الحسنة بعشر أمثالهم أو بأكثر إلى سبعمائة فإضافة جزاء إلى الضعف من إضافة المصدر إلى مفعوله. وقرأ قتادة «جزاءُ الضِّعْفُ» برفعهما فالضعف بدل، وجوز الزجاج كونه خبر مبتدأ محذوف أي هو الضعف. ويعقوب في رواية بنصب «جزاءَ» ورفع «الضعفُ» فجزاء تمييز أو حال من فاعل ﴿لهم﴾ إن كان الضعف مبتدأ أو منه إن كان فاعلاً أو نصب على المصدر لفعله الذي دل عليه ﴿لهم﴾ أي يجزون جزاء، وقرىء «جزاءٌ» بالرفع والتنوين «الضعفَ» بالنصب على أعمال المصدر ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ من الصالحات ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ﴾ أي في غرفات الجنة ومنازلها العالية ﴿آمِنُونَ﴾ من جميع المكاره الدنيوية والأخروية وقرأ الحسن وعاصم بخلاف عنه والأعمش ومحمد بن كعب ﴿ في الغُرْفَاتِ ﴾ بإسكان الراء، وقرأ بعض القراء بفتحها، وابن وثاب والأعمش وطلحة وحمزة وخلف «في الغرفة» بالتوحيد وإسكان الراء، وابن وثاب أيضاً بالتوحيد وضم الراء والتوحيد على إرادة الجنس لأن الكل ليسوا في غرفة واحدة والمفرد أخصر مع عدم اللبس فيه ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا﴾ بالرد والطعن فيها ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ أي بحسب زعمهم الباطل الله عزّ وجلّ أو الأنبياء عليهم السّلام، وحاصله زاعمين سبقهم وعدم قدرة الله تعالى أو أنبيائه عليهم السّلام، ومعنى المفاعلة غير مقصود ها هنا ﴿أُولَئِكَ﴾ الذي بعدت منزلتهم في الشر ﴿فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ لا يجديهم ما ولوا عليه نفعاً، وفي ذكر العذاب دون موضعه ما لا يخفى من المبالغة ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ أي يوسعه سبحانه عليه تارة ويضيقه عليه أخرى فلا تخشوا الفقر وأنفقوا في سبيل الله تعالى وتقربوا لديه عزّ وجلّ بأموالكم وتعرضوا لنفحاته جل وعلا فمساق الآية للوعظ والتزهيد في الدنيا والحض على التقرب إليه تعالى بالإنفاق وهذا بخلاف مساق نظيرها المتقدم فإنه للرد على الكفرة كما سمعت، وأيضاً ما سبق عام وما هنا خاص في البسط والتضييق لشخص واحد باعتبار وقتين كما يشعر به قوله تعالى هنا ﴿له﴾ وعدم قوله هناك، والضمير وإن كان في موضع من المبهم إلا أن سبق النظير خالياً عن ذلك وذكر هذا بعد مشتملاً عليه كالقرينة على إرادة ما ذكر فلا تغفل.

﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ يحتمل أن تكون ما شرطية في موضع نصب بأنفقتم وقوله تعالى: ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ جواب الشرط، ويحتمل أن تكون بمعنى الذي في موضع رفع بالابتداء والجملة بعد خبره ودخلت الفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط، و ﴿من شيء﴾ تبيين على الاحتمالين، ومعنى ﴿يخلفه﴾ يعطي بدله وما يقوم مقامه عوضاً عنه وذلك إما في الدنيا بالمال كما هو الظاهر أو بالقناعة التي هي كنز لا يفنى كما قيل وإما في الآخرة بالثواب الذي كل خلف دونه وخصه بعضهم بالآخرة، أخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: إذا كان لأحدكم شيء فليقتصد ولا يتأول هذه الآية ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه﴾ فإن الرزق مقسوم ولعل ما قسم له قليل وهو ينفق الموسع عليه، وأخرج من عدا الفريابي من المذكورين عنه أنه قال في الآية: أي ما كان من خلف فهو منه تعالى وربما أنفق الإنسان ماله كله في الخير ولم يخلف حتى يموت، ومثلها: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾ [هود: ٦] يقول ما آتاها من رزق فمنه تعالى وربما لم يرزقها حتى تموت، والأول أظهر لأن الآية في الحث على الإنفاق وأن البسط والقدر إذا كانا من عنده عزّ وجلّ فلا ينبغي لمن وسع عليه أن يخاف الضيعة بالإنفاق ولا لمن قدر عليه زيادتها، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ تذييل يؤيد ذلك كأنه قيل: فيرزقه من حيث لا يحتسب. وقد أخرج الشيخان عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله ﷺ ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقاً خلفاً ويقول الآخر اللهم أعط ممسكاً تلفاً» وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: «كل ما أنفق العبد نفقة فعلى الله تعالى خلفها ضامناً إلا نفقة في بنيان أو معصية».

وأخرج البخاري وابن مردويه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عزّ وجلّ أنفق يا ابن آدم أنفق عليك» وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عنه قال: «قال عليه الصلاة والسلام إن المعونة تنزل من السماء على قدر المؤونة» وفي حديث طويل عن الزبير قال الله تبارك وتعالى: «أنفق أنفق عليك وأوسع أوسع عليك ولا تضيق أضيق عليك ولا تصر فأصر عليك ولا تخزن فأخزن عليك إن باب الرزق مفتوح من فوق سبع سماوات متواصل إلى العرش لا يغلق ليلاً ولا نهاراً ينزل الله تعالى منه الرزق على كل امرىء بقدر نيته وعطيته وصدقته ونفقته فمن أكثر أكثر له ومن أقل أقل له ومن أمسك أمسك عليه يا زبير فكل وأطعم ولا توكي فيوكى عليك ولا تحصي فيحصى عليك ولا تقتر فيقتر عليك ولا تعسر فيعسر عليك» الحديث، ومعنى الرازقين الموصلين للرزق والموهبين له فيطلق الرازق حقيقة على الله عزّ وجلّ وعلى غيره ويشعر بذلك ﴿فارزقوهم منه﴾ [النساء: ٨] نعم لا يقال لغيره سبحانه رازق فلا إشكال في قوله سبحانه: ﴿وهو خير الرازقين﴾ ووجه الأخيرية في غاية الظهور، وقيل إطلاق الرازق على غيره تعالى مجاز باعتبار أنه واسطة في إيصال رزقه تعالى فهو رازق صورة فاستشكل أمر التفضيل بأنه لا بدّ من مشاركة المفضل المفضل عليه في أصل الفعل حقيقة لا صورة.

وأجاب الآمدي بأن المعنى خير من تسمى بهذا الاسم وأطلق عليه حقيقة أو مجازاً وهو ضرب من عموم المجاز ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً﴾ أي المستكبرين والمستضعفين أو الفريقين وما كانوا يعبدون من دون الله عزّ وجلّ، و ﴿يوم﴾ ظرف لمضمر متقدم أي واذكر يوم أو متأخر أي ويوم نحشرهم جميعاً ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ إلى آخرة يكون من الأحوال والأهوال ما لا يحيط به نطاق المقال، وظاهر العطف بثم يقتضي أن القول للملائكة متراخ عن الحشر وفي الآثار ما شهد له، فقد روي أن الخلق بعد أن يحشروا يبقون قياماً في الموقف سبع آلاف سنة لا يكلمون حتى يشفع في فصل القضاء نبينا ﷺ فلعله عند ذلك يقول سبحانه للملائكة عليهم السّلام ﴿أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ تقريعاً للمشركين وتبكيتاً وإقناطاً لهم عما علقوا به أطماعهم الفارغة من شفاعة الملائكة عليهم السّلام

لعلمه سبحانه بما تجيب به على نهج قوله تعالى لعيسى عليه السّلام: ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين﴾ [المائدة: ١١٦] وتخصيصهم بالذكر لأنهم أشرف شركاء المشركين الذين لا كتاب لهم والصالحون عادة للخطاب وعبادتهم مبدأ الشرك بناءً على ما نقل ابن الوردي في تاريخه في أن سبب حدوث عبادة الأصنام في العرب أن عمرو ابن لحي مر بقوم بالشام فرآهم يعبدون الأصنام فسألهم فقالوا له هذه أرباب نتخذها على شكل الهياكل العلوية فنستنصر بها ونستسقي فتبعهم وأتى بصنم معه إلى الحجاز ورسول للعرب فعبدوه واستمرت عبادة الأصنام فيهم إلى أن جاء الإسلام وحدثت عبادة عيسى عليه السّلام بعد ذلك بزمان كثير فبظهور قصورهم عن رتبة المعبودية وتنزههم عن عبادتهم يظهر حال سائر الشركاء بطريق الأولوية.

و ﴿هؤلاء﴾ مبتدأ و ﴿كانوا يعبدون﴾ خبره و ﴿إياكم﴾ مفعول ﴿يعبدون﴾ قدم للفاصلة مع أنه أهم لأمر التقريع واستدل بتقديمه على جواز تقديم خبر كان إذا كان جملة عليها كما ذهب إليه ابن السراج فإن تقديم المعمول مؤذن بجواز تقديم العامل. وتعقبه أبو حيان بأن هذه القاعدة ليست مطردة ثم قال: والأولى منع ذلك إلا أن يدل على جوازه سماع من العرب، وقرأ جمهور القراء «نحشرهم» «ثم نقول» بالنون في الفعلين ﴿قَالُوا﴾ استئناف بياني كأنه قيل: فماذا تقول الملائكة حينئذٍ؟ فقيل تقول منزهين عن ذلك ﴿سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ﴾ والعدول إلى صيغة الماضي للدلالة على التحقق أي أنت الذي نواليه من دونهم لا موالاة بيننا وبينهم كأنهم بينوا بذلك براءتهم من الرضا بعبادتهم ثم أضربوا عن ذلك ونفوا أنهم عبدوهم حقيقة بقولهم: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ أي الشياطين كما روي عن مجاهد حيث كانوا يطيعونهم فيما يسولون لهم من عبادة غير الله تعالى، وقيل صورت الشياطين لهم صور قوم من الجن وقالوا: هذه صورة الملائكة فاعبدوها فعبدوها، وقيل: كانوا يدخلون في أجواف الأصنام إذا عبدت فيعبدون بعبادتها، وقيل أرادوا أنهم عبدوا شيئاً تخيلوه صادقاً على الجن لا صادقاً علينا فهم يعبدون الجن حقيقة دوننا، وقال ابن عطية: يجوز أن يكون في الأمم الكافرة من عبد الجن وفي القرآن آيات يظهر منها أن الجن عبدت في سورة الأنعام وغيرها ﴿أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ الضمير الثاني للجن والأول للمشركين، والأكثر على ظاهرة لأن من المشركين من لم يؤمن بهم وعبدهم اتباعاً لقومه كأبي طالب أو الأكثر بمعنى الكل، واختار في البحر الأول لأن كونه بمعنى الكل ليس حقيقة وقال: إنهم لم يدعوا الإحاطة إذ يكون في الكفار من لم يطلع الله تعالى الملائكة عليهم السّلام عليهم أو أنهم حكموا على الأكثر بإيمانهم بالجن لأن الإيمان من أعمال القلب فلم يذكروا الاطلاع على عمل جميع قلوبهم لأن ذلك لله عزّ وجلّ، وجوز أن يكون الضمير الأول للإنس فالأكثر على ظاهره أي غالبهم مصدقون أنهم آلهة، وقيل مصدقون أنهم بنات الله ﴿وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً﴾ [الصافات: ١٥٨] وقيل مصدقون أنهم ملائكة.

﴿فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلا ضَراً﴾ من جملة ما يقال للملائكة عليهم السّلام عند جوابهم بالتبري عما نسب إليهم المشركون يخاطبون بذلك على رؤوس الأشهاد إظهاراً لعجزهم وقصورهم عن زاعمي عبادتهم وتنصيصاً على ما يوجب خيبة رجائهم بالكلية، وقيل للكفار وليس بذاك، والفاء لترتيب الأخبار بما بعدها على جواب الملائكة عليهم السّلام، ونسبة عدم النفع والضر إلى البعض المبهم للمبالغة فيما هو المقصود الذي هو بيان عدم نفع الملائكة للعبدة بنظمه في سلك عدم نفع العبدة لهم كأن نفع الملائكة لعبدتهم في الاستحالة والانتفاء كنفع العبدة لهم، والتعرض لعدم الضر مع أنه لا بحث عنه لتعميم العجز أو لحمل عدم النفع على تقدير العبادة وعدم الضر على تقدير تركها، وقيل لأن المراد دفع الضر على حذف المضاف وفيه بعد، والمراد باليوم يوم القيامة وتقييد الحكم به مع ثبوته على الإطلاق لانعقاد رجاء المشركين على تحقق النفع يومئذٍ.

﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ عطف على ﴿نقول للملائكة﴾ وقيل على لا يملك وتعقب بأنه مما يقال يوم القيامة خطاباً للملائكة مترتباً على جوابهم المحكي وهذا حكاية لرسول الله ﷺ لما سيقال للعبدة يومئذٍ إثر حكاية ما سيقال للملائكة عليهم السّلام. وأجيب بأن ذلك ليس بمانع فتدبر. ووقع الموصول هنا وصفاً للمضاف إليه وفي السجدة في قوله تعالى: ﴿عذاب النار الذي كنتم به تكذبون﴾ صفة للمضاف فقال أبو حيان: لأنهم ثمت كانوا ملابسين للعذاب كما ينبيء عنه قوله تعالى: ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منه أعيدوا فيها﴾ [السجدة: ٢٠] فوصف لهم ثمت ما لابسوه وهنا لم يكونوا ملابسين له بل ذلك أول ما رأوا النار عقب الحشر فوصف ما عاينوه لهم، وكون الموصول هنا نعتاً للمضاف على أن تأنيثه مكتسب لتتحد الآيتان تكلف سمج. ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ بيان لبعض آخر من كفرهم أي إذا تتلى عليهم بلسان الرسول ﷺ آياتنا الناطقة بحقية التوحيد وبطلان الشرك ﴿قَالُوا مَا هَذَا﴾ يعنون رسول الله ﷺ التالي للآيات، والإشارة للتحقير قاتلهم الله تعالى ﴿إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ﴾ فيجعلكم من أتباعه من غير أن يكون له دين إلهي، وإضافة الآباء إلى المخاطبين لا إلى أنفسهم لتحريك عرق العصبية منهم مبالغة في تقريرهم على الشرك وتنفيرهم عن التوحيد ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا﴾ يعنون القرآن المتلو والإشارة كالإشارة السباقة ﴿إِلاَّ إِفْكٌ﴾ أي كلام مصروف عن وجهه لا مصداق له في الواقع ﴿مُّفْتَرًى﴾ بإسناده إلى الله عزّ وجلّ.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ﴾ أي لأمر النبوة التي معها من خوارق العادة ما معها أو للإسلام المفرق بين المرء وزوجه وولده أو القرآن الذي تتأثر به النفوس على أن العطف لاختلاف العنوان بأن يراد بالأول معناه وبالثاني نظمه المعجز ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ من غير تدبر ولا تأمل فيه ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر سحريته.

وفي ذكر ﴿قال﴾ ثانياً والتصريح بذكر الكفرة وما في اللامين من الإشارة إلى القائلين والمقول فيه وما في لما من المسارعة إلى البت بهذا القول الباطل إنكار عظيم له وتعجب بليغ منه، وجوز أن تكون كل جملة صدرت من قوم من الكفرة ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ أي أهل مكة ﴿مِّنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ تقتضي صحة الإشراك ليعذروا فيه فهو كقوله تعالى: ﴿أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون﴾ [الروم: ٣٥] وقوله سبحانه: ﴿أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون﴾ [الزخرف: ٢١] وإلى هذا ذهب ابن زيد، وقال السدي: المعنى ما آتيناهم كتباً يدرسونها فيعلموا بدراستها بطلان ما جئت به، ويرجع إلى الأول، والمقصود نفي أن يكون لهم دليل على صحة ما هم عليه من الشرك، ومن صلة. وجمع الكتب إشارة على ما قيل إلى أنه لشدة بطلانه واستحالة إثباته بدليل سمعي أو عقلي يحتاج إلى تكرر الأدلة وقوتها فكيف يدعى ما توارت الأدلة النيرة على خلافه. وقرأ أبو حيوة «يدَّرِسُونها» بفتح الدال وشدها وكسر الراء مضارع أدرس افتعل من الدرس ومعناه يتدارسونها، وعنه أيضاً «يَدَرِّسُونَها» من التدريس وهو تكرير الدرس أو من درس الكتاب مخففاً ودرس الكتب مشدداً التضعيف فيه باعتبار الجمع.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ أي وما أرسلنا إليهم قبلك نذيراً يدعوهم إلى الشرك وينذرهم بالعقاب على تركه وقد بان من قبل أن لا وجه له بوجه من الوجوه فمن أين ذهبوا هذا المذهب الزائغ، وفيه من التهكم والتجهيل ما لا يخفى، ويجوز أن يراد أنهم أميون كانوا في فترة لا عذر لهم في الشرك ولا في عدم الاستجابة لك كأهل الكتاب الذين لهم كتب ودين يأبون تركه ويحتجون على عدم المتابعة بأن نبيهم حذرهم ترك دينه مع أنه بين البطلان لثبوت أمر من قبله باتباعه وتبشير الكتب به، وذكر ابن عطية أن الأرض لم تخل من داع إلى توحيد الله تعالى

فالمراد نفي إرسال نذير يختص بهؤلاء ويشافههم، وقد كان عند العرب كثير من نذارة إسماعيل عليه السّلام والله تعالى يقول: ﴿إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً﴾ [مريم: ٥٤] ولكن لم يتجرد للنذارة وقاتل عليها إلا محمد ﷺ ا هـ، ثم إنه تعالى هددهم بقوله سبحانه: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم المتقدمة والقرون الخالية بما كذبوا ﴿وَمَا بَلَغُوا﴾ أي أهل مكة ﴿مِعْشَارَ﴾ أي عشر ﴿مَا آتَيْنَاهُمْ﴾ وقال: قوم المعشار عشر العشر ولم يرتضه ابن عطية، وقال الماوردي: المراد المبالغة في التقليل أي ما بلغوا أقل قليل مما آتينا أولئك المكذبين من طول الأعمار وقوة الأجسام وكثرة الأموال ﴿فَكَذَّبُوا﴾ أي أولئك المكذبون ﴿رُسُلِي﴾ الذين أرسلتهم إليهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي إنكاري لهم بالتدمير فليحذر هؤلاء من مثل ذلك.

والفاء الأولى سببية و ﴿كذب﴾ الأول نتزل منزلة اللازم أي فعل الذين من قبلهم التكذيب وأقدموا عليه، ونظير ذلك أن يقول القائل أقدم فلان على الكفر فكفر بمحمد ﷺ ومن هنا قالوا: إن ﴿كذبوا رسلي﴾ عطف على ﴿كذب الذين﴾ عطف المقيد على المطلق وهو تفسير معنى ﴿وما بلغوا﴾ اعتراض والفاء الثانية فصيحة فيكون المعنى فحين كذبوا رسلي جاءهم إنكاري بالتدمير فكيف كان نكيري لهم، وجعل التدمير إنكار تنزيلاً للفعل منزلة القول كما في قوله. ونشتم بالأفعال لا بالتكلم. أو على نحو. تحية بينهم ضرب وجيع. وجوز بعضهم أن يكون صيغة التفعيل في ﴿كذب الذين﴾ للتكثير وفي ﴿كذبوا﴾ للتعدية والمكذب فيهما واحد أي أنهم أكثروا الكذب وألفوه فصار سجية لهم حتى اجترؤوا على تكذيب الرسل، وعلى الوجهين لا تكرار، وجوز أن يكون ﴿كذبوا رسلي﴾ منعطفاً على ﴿ما بلغوا﴾[1] من تتمة الاعتراض والضمير لأهل مكة يعني هؤلاء لم يبلغوا معشار ما آتينا أولئك المكذبين الأولين وفضلوهم في التكذيب لأن تكذيبهم لخاتم الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام تكذيب لجميع الرسل عليهم السّلام من وجهين وعليه لا يتوهم تكرار كما لا يخفى، وكون جمل ﴿ما بلغوا﴾ معترضة هو الظاهر وجعل ﴿وكذب الذين من قبلهم﴾ تمهيداً لئلا تكون تلك الجملة كذلك يدفعه ﴿فكيف كان نكير﴾ لأن معناه للمكذبين الأولين البتة فلا التئام دون القول بكونها معترضة، إرجاع ضمير ﴿بلغوا﴾ إلى أهل مكة والضمير المنصوب في ﴿آتيناهم﴾ إلى ﴿الذين من قبلهم﴾ وبيان الموصول بما سمعت هو المروي عن ابن عباس وقتادة وابن زيد، وقيل الضمير الأول للذين من قبلهم والضمير الثاني لأهل مكة أي وما بلغ أولئك عشر ما آتينا هؤلاء من البينات والهدى، وقيل: الضميران للذين من قبلهم، أي كذبوا وما بلغوا في شكر النعمة ومقابلة المنّة عشر ما آتيناهم من النعم والإحسان إليهم، واستظهر ذلك أبو حيان معللاً له بتناسق الضمائر حيث جعل ضمير ﴿فكذبوا﴾ للذين من قبلهم فلا تغفل ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ﴾ أي ما أرشدكم وأنصح لكم إلا بخصلة واحدة وهي على ما قال قتادة ما دل عليه ما دل عليه بقوله تعالى: ﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ﴾ على أنه في تأويل مصدر بدل منها أو خبر مبتدأ محذوف أي هي قيامكم أو مفعول لفعل محذوف أي أعني قيامكم، وجوز الزمخشري كونه عطف بيان لواحدة. واعترض بأن ﴿أن تقوموا﴾ معرفة لتقديرة بقيامكم وعطف البيان يشترط فيه عند البصريين أن يكون معرفة من معرفة وهو عند الكوفيين يتبع ما قبله في التعريف والتنكير والتخالف مما لم يذهب إليه ذاهب.

والظاهر أن الزمخشري ذاهب إلى جواز التخالف، وقد صرح ابن مالك في التسهيل بنسبة ذلك إليه وهو من مجتهدي علماء العربية، وجوز أن يكون قد عبر بعطف البيان وأراد البدل لتآخيها وهذا إمام الصناعة سيبويه يسمي

---

(١) والفاء للفذلكة على ما قيل ا هـ منه.

التوكيد صفة وعطف البيان صفة، ثم إن كون المصدر المسبوك معرفة أو مؤولاً بها دائماً غير مسلم، والقيام مجاز عن الجد والاجتهاد، وقيل هو على حقيقته والمراد القيام عن مجلس رسول الله ﷺ وليس بذاك، وقد روي نفي إرادته عن ابن جريج أي إن تجدوا وتجتهدوا في الأمر بإخلاص لوجه الله تعالى ﴿مَثْنَى وَفُرَادَى﴾ أي متفرقين اثنين اثنين وواحداً واحداً فإن في الازدحام على الأغلب تهويش الخاطر والمنع من الفكر وتخليط الكلام وقلة الإنصاف كما هو مشاهد في الدروس التي يجتمع فيها الجماعة فإنه لا يكاد يوقف فيها على تحقيق وفي تقديم مثنى إيذان بأنه أوثق وأقرب إلى الاطمئنان، وفي البحر قدم لأن طلب الحقائق من متعاضدين في النظر أجدى من فكرة واحدة فإذا انقدح الحق بين الاثنين فكر كل واحد منهما بعد ذلك فيزيد بصيرة وشاع الفتح بين الاثنين ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ في أمره ﷺ وما جاء به لتعلموا حقيته، والوقف عند أبي حاتم هنا، وقوله تعالى ﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ استئناف مسوق من جهته تعالى للتنبيه على طريقة النظر والتأمل بأن مثل هذا الأمر العظيم الذي تحته ملك الدنيا والآخرة لا يتصدى لادعائه إلا مجنون لا يبالي بافتضاحه عند مطالبته بالبرهان وظهور عجزه أو مؤيد من عند الله تعالى مرشح للنبوة واثق بحجته وبرهانه وإذ قد علمتم أنه عليه الصلاة والسلام أرجح الناس عقلاً وأصدقهم قولاً وأذكاهم نفساً وأفضلهم علماً وأحسنهم عملاً وأجمعهم للكمالات البشرية وجب أن تصدقوه في دعواه فكيف وقد انضم إلى ذلك معجزات تخر لها صم الجبال، والتعبير عنه عليه الصلاة والسلام بصاحبكم للإيماء إلى أن حاله ﷺ مشهور بينهم لأنه نشأ بين أظهرهم معروفاً بما ذكرنا، وجوز أن يكون متعلقاً بما قبله والوقف على ﴿جنة﴾ على أنه مفعول لفعل علم مقدر لدلالة التفكر عليه لكونه طريق العلم أي ثم تتفكروا فتعلموا ما بصاحبكم من جنة أو معمول لتتفكروا على أن التفكر مجاز عن العلم أو معمول له بدون ارتكاب تجوز بناءً على ما ذهب إليه ابن مالك في التسهيل من أن تفكر يعلق حملاً على أفعال القلوب، وجوز أن يكون هناك تضمين أي ثم تتفكروا عالمين ما بصاحبكم من جنة، وقال ابن عطية: هو عند سيبويه جواب ما ينزل منزلة القسم لأن تفكر من الأفعال التي تعطي التمييز كتبين وتكون الفكرة على هذا في آيات الله تعالى والإيمان به ا هـ وهو كما ترى، و﴿ما﴾ مطلقاً نافية والباء بمعنى في ومن صلة، وقيل: ما للاستفهام إلا نكاري ومن بيانية، وجوز أن تكون صلة أيضاً وفيه تطويل المسافة وطيها أولى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ هو عذاب الآخرة فإنه ﷺ مبعوث في نسم الساعة وجاء «بعثت أنا والساعة كهاتين» وضم عليه الصلاة والسلام الوسطى والسبابة على المشهور.

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي مهما سألتكم من نفع على تبليغ الرسالة ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ والمراد نفي السؤال رأساً كقولك لصاحبك إن أعطيتني شيئاً فخذه وأنت تعلم أنه لم يعطك شيئاً، فما شرطية مفعول ﴿سألتكم﴾ وهو المروي عن قتادة، وقيل هي موصولة والعائد محذوف ومن للبيان، ودخلت الفاء في الخبر لتضمنها معنى الشرط أي الذي سألتكموه من الأجر فهو لكم وثمرته تعود إليكم، وهو على ما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما إشارة إلى المودة في القربى في قوله تعالى: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾ [الشورى: ٢٣] وكون ذلك لهم على القول بأن المراد بالقربى قرباهم ظاهر، وأما على القول بأن المراد بها قرباه عليه الصلاة والسلام فلأن قرباه ﷺ قرباهم أيضاً أو هو إشارة إلى ذلك وإلى ما تضمنه قوله تعالى: ﴿ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً﴾ [الفرقان: ٥٧] وظاهر أن اتخاذ السبيل إليه تعالى منفعتهم الكبرى، وجوز كون ما نافية ومن صلة وقوله سبحانه: ﴿فهو لكم﴾ جواب شرط مقدر أي فإذا لم أسألكم فهو لكم، وهو خلاف الظاهر.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ يؤيد إرادة نفي السؤال رأساً. وقرىء «إن أجْرِيْ» بسكون الياء ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي مطلع فيعلم سبحانه صدقي وخلوص نيتي ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ قال السدي

وقتادة بالوحي، وفي رواية أخرى عن قتادة بالقرآن والمآل واحد، وأصل القذف الرمي بدفع شديد وهو هنا مجاز عن الإلقاء، والباء زائدة أي إن ربي يلقي الوحي وينزله على قلب من يجتبيه من عباده سبحانه، وقيل القذف مضمن معنى الرمي فالباء ليست زائدة، وجوز أن يراد بالحق مقابل الباطل والباء للملابسة والمقذوف محذوف، والمعنى إن ربي يلقي ما يلقي إلى أنبيائه عليهم السّلام من الوحي بالحق لا بالباطل.

وعن ابن عباس أن المعنى يقذف الباطل بالحق أي يورده عليه حتى يبطله عزّ وجلّ ويزيله، والحق مقابل الباطل والباء مثلها في قولك قتلته بالضرب، وفي الكلام استعارة مصرحة تبعية والمستعار منه حسي والمستعار له عقلي، وجوز أن تكون الاستعارة مكنية، وقيل: المعنى يرمي بالحق إلى أقطار الآفاق على أن ذلك مجاز عن إشاعته فيكون الكلام وعداً بإظهار الإسلام وإفشائه، وفيه من الاستعارة ما فيه ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ خبر ثانٍ أو خبر مبتدأ محذوف أي هو سبحانه علام الغيوب أو صفة محمولة على محل إن مع اسمها كما جوزه الكثير من النحاة وإن منعه سيبويه أو بدل من ضمير ﴿يقذف﴾ ولا يلزم خلو جملة الخبر من العائد لأن المبدل منه ليس في نية الطرح من كل الوجوه، وقال الكسائي: هو نعت لذلك الضمير ومذهبه جواز نعت المضمر الغائب.

وقرأ عيسى وزيد بن علي وابن أبي إسحاق وابن أبي عبلة وأبو حيوة وحرب عن طلحة ﴿علام﴾ بالنصب فقال الزمخشري: صفة لربي، وقال أبو الفضل الرازي وابن عطية: بدل، وقال الحوفي: بدل أو صفة، وقيل نصب على المدح. وقرأ ابن ذكوان وأبو بكر وحمزة والكسائي «الغيوب» بالكسر كالبيوت، والباقون بالضم كالشعور وهو فيهما جمع، وقرىء بالفتح كصبور على أنه مفرد للمبالغة ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ أي الإسلام والتوحيد أو القرآن، وقيل السيف لأن ظهور الحق به وهو كما ترى ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي الكفر والشرك ﴿وَمَا يُعِيدُ﴾ أي ذهب واضمحل بحيث لم يبق له أثر مأخوذ من هلاك الحي فإنه إذا هلك لم يبق له إبداء أي فعل أمر ابتداء ولا إعادة أي فعله ثانياً كما يقال لا يأكل ولا يشرب أي ميت فالكلام كناية عما ذكر أو مجاز متفرع على الكناية، وأنشدوا لعبيد بن الأبرص:

أقفر من أهله عبيد ... فاليوم لا يبدي ولا يعيد

وقال جماعة: الباطل إبليس وإطلاقه عليه لأنه مبدؤه ومنشؤه، ولا كناية في الكلام عليه، والمعنى لا ينشىء خلقاً ولا يعيد أو لا يبدىء خيراً لأهله ولا يعيد أي لا ينفعهم في الدنيا والآخرة، وقيل هو الصنم والمعنى ما سمعت، وعن أبي سليمان أن المعنى إن الصنم لا يبتدىء من عنده كلاماً فيجاب ولا يرد ما جاء من الحق بحجة.

و ﴿ما﴾ على جميع ذلك نافية، وقيل: هي على ما عدا القول الأول للاستفهام الإنكاري منتصبة بما بعدها أي أي شيء يبدي الباطل وأي شيء يعيد ومآله النفي، والكلام جوز أن يكون تكميلاً لما تقدم وأن يكون من باب العكس والطرد وأن يكون تذييلاً مقرراً لذلك فتأمل ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ﴾ عن الحق ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ أي عائداً ضرر ذلك ووباله عليها فإنها الكاسبة للشرور والأمارة بالسوء ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ﴾ إلى الحق ﴿فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ فإن الاهتداء بهدايته تعالى وتوفيقه عزّ وجلّ، وما موصولة أو مصدرية، وكان الظاهر وإن اهتديت فلها كقوله تعالى: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها﴾ [فصلت: ٤٦] أو إن ضللت فإنما أضل بنفسي ليظهر التقابل لكنه عدل عن ذلك اكتفاء بالتقابل بحسب المعنى لأن الكلام عليه أجمع فإن كل ضرر فهو من النفس وبسببها وعليها وباله، وقد دل لفظ على في القرينة الأولى على معنى اللام في الثانية والباء في الثانية على معنى السببية في الأولى فكأنه قيل: قل إن ضللت فإنما أضل بسبب نفسي على نفسي وإن اهتديت فإنما اهتدى لنفسي بهداية الله تعالى وتوفيقه سبحانه، وعبر عن هذا ﴿بما يوحي إليّ ربي﴾ لأنه لازمه، وجعل علي للتعليل وإن ظهر عليه التقابل ارتكاب لخلاف الظاهر من غير نكتة.

وجوز أن يكون معنى القرينة الأولى قل إن ضللت فإنما أضل عليّ لا على غيري، ولا يظهر عليه أمر التقابل

مطلقاً، والحكم على ما قال الزمخشري عام وإنما أمر ﷺ أن يسنده إلى نفسه لأن الرسول إذا دخل تحته مع جلالة محله وسداد طريقته كان غيره أولى به، وقال الإمام: أي إن ضلال نفسي كضلالكم لأنه صادر من نفسي ووباله عليها وأما اهتدائي فليس كاهتدائكم بالنظر والاستدلال وإنما هو بالوحي المنير فيكون مجموع الحكمين عنده مختصاً به عليه الصلاة والسلام، وفيما ذكره دلالة على ما قاله الطيبي على أن دليل النقل أعلى وأفخم من دليل العقل وفيه بحث. وقرأ الحسن وابن وثاب وعبد الرحمن المقرىء «ضلِلت» بكسر اللام و «أضل» بفتح الضاد وهي لغة تميم، وكسر عبد الرحمن همزة «أضل» وقرىء «ربي» بفتح الياء ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ فلا يخفى عليه سبحانه قول كل من المهتدي والضال وفعله وإن بالغ في إخفائهما فيجازي كلا بما يليق.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا﴾ أي اعتراهم انقباض ونفار من الأمر المهول المخيف، والخطاب في ترى للنبي ﷺ أو لكل من تصح منه الرؤية، ومفعول ﴿ترى﴾ محذوف أي الكفار أو فزعهم أو هو ﴿إذ﴾ على التجوز إذ المراد برؤية الزمان رؤية ما فيه أو هو متروك لتنزيل الفعل منزلة اللازم أي لو تقع منك رؤية وجواب ﴿لو﴾ محذوف أي لرأيت أمراً هائلاً، وهذا الفزع على ما أخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد يوم القيامة، والظاهر عليه أنه فزع البعث وهو مروي عن الحسن وأخرج ابن المنذر وغيره عن قتادة أنه في الدنيا عند الموت حين عاينوا الملائكة عليهم السّلام. وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك أنه يوم بدر فقيل هو فزع الحرب، وعن السدي وابن زيد فزع ضرب أعناقهم ومعاينة العذاب، وقيل في آخر الزمان حين يظهر المهدي ويبعث إلى السفياني جنداً فيهزمهم ثم يسير السفياني إليه حتى إذا كان ببيداء من الأرض خسف به وبمن معه فلا ينجو منهم إلا المخبر عنهم فالفزع فزع ما يصيبهم يومئذٍ ﴿فَلاَ فَوْتَ﴾ فلا يفوتون الله عزّ وجلّ بهرب أو نحوه عما يريد سبحانه بهم ﴿وَأُخِذُوا مِن مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ من الموقف إلى النار أو من ظهر الأرض إلى بطنها أو من صحراء بدر إلى القليب أو من تحت أقدامهم إذا خسف بهم، والمراد بذكر قرب المكان سرعة نزول العذاب بهم والاستهانة بهم وبهلاكهم وإلا فلا قرب ولا بعد بالنسبة إلى الله عزّ وجلّ، والجملة عطف على ﴿فزعوا﴾ على ما ذهب إليه جماعة قال في الكشف: وكأن فائدة التأخير أن يقدر فلا فوت ثانياً إما تأكيداً وإما أن أحدهما غير الآخر تنبيهاً على أن عدم الفوت سبب للأخذ وأن الأخذ سبب لتحققه وجوداً، وفيه مبالغة حسنة، وقيل على ﴿لافوت﴾ على معنى فلم يفوتوا وأخذوا، واختاره ابن جني معترضاً على ما تقدم بأنه لا يراد ولو ترى وقت فزعهم وأخذهم وإنما المراد ولو ترى إذ فزعوا ولم يفوتوا وأخذوا، وبما نقل عن الكشف يتحصل الجواب عنه.

وجوز كونها حالاً من فاعل ﴿فزعوا﴾ أو من خبر لا المقدر وهو لهم بتقدير قد أو بدونه، والفاء في ﴿فلا فوت﴾ قيل إن كانت سببية فهي داخلة على المسبب لأن عدم فوتهم من فزعهم وتحيرهم وإن كانت تعليلية فهي تدخل على السبب لترتب ذكره على ذكر المسبب، وإذا عطف ﴿أخذوا﴾ عليه أو جعل حالاً من الخبر يكون هو المقصود بالتفريع. وقرأ عبد الرحمن مولى بني هاشم عن أبيه وطلحة «فلا فوتٌ وأخذٌ» مصدرين منونين.

وقرأ أبي «فلا فوت» مبنياً «وأخذٌ» مصدراً منوناً، وإذا رفع أخذ كان خبر مبتدأ محذوف أي وحالهم أخذ أو مبتدأ خبره محذوف أي وهناك أخذ وإلى ذلك ذهب أبو حيان، وقال الزمخشري: قرىء وأخذ بالرفع على أنه معطوف على محل ﴿لا فوت﴾ ومعناه فلا فوت هناك وهناك أخذ ﴿وَقَالُوا آمَنَّا به﴾ أي بالله عزّ وجلّ على ما أخرجه جمع عن مجاهد، وقالت فرقة: أي بمحمد لله وقد مر ذكره في قوله سبحانه: ﴿ما بصاحبكم من جنة﴾ وقيل الضمير للعذاب، وقيل للبعث، ورجح رجوعه إلى محمد عليه الصلاة والسلام لأن الإيمان به ﷺ شامل للإيمان بالله عزّ وجلّ وبما ذكر من العذاب والبعث ﴿وأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ﴾ التناوش التناول كما قال الراغب وروي عن مجاهد.

وقال الزمخشري: هو تناول سهل لشيء قريب يقال ناشه ينوشه وتناوشه القوم وتناوشوا في الحرب ناش بعضهم بعضاً بالسلاح، وقال الراجز:

فهي تنوش الحوض نوشاً من علا ... نوشاً به تقطع أجواز الفلا

وإبقاؤه على عمومه أولى أي من أين لهم أن يتناولوا الإيمان ﴿مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾ فإنه في حيز التكليف وهم منه بمعزل بعيد، ونقل في البحر عن ابن عباس تفسير ﴿التناوش﴾ بالرجوع أي من أين لهم الرجوع إلى الدنيا، وأنشد ابن الأنباري:

تمنى أن تؤوب إلى مي ... وليس إلى تناوشها سبيل

ولا يخفى أنه ليس بنص في ذلك، والمراد تمثيل حالهم في الاستخلاص بالإيمان بعد ما فات عنهم وبعد بحال من يريد أن يتناول الشيء بعد أن بعد عنه وفات في الاستحالة. وقرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو وأبو بكر «التناؤش» بالهمز وخرج على قلب الواو همزة، قال الزجاج: كل واو مضمومة ضمة لازمة فأنت بالخيار فيها إن شئت أبقيتها وإن شئت قلبتها همزة فتقول ثلاث أدور بلا همز وثلاث أدؤر بالهمز. وتعقب ذلك أبو حيان فقال: إنه ليس على إطلاقه بل لا يجوز ذلك في المتوسطة إذا كانت مدغماً فيها نحو تعود وتعوذ مصدرين وقد صرح بذلك في التسهيل ولا إذا صحت في الفعل نحو ترهوك ترهوكاً وتعاون تعاوناً، وعلى هذا لا يصح التخريج المذكور لأن التناوش كالتعاون في أن واوه قد صحت في الفعل إذ تقول تناوش فلا يهمز. وقال الفراء: هو من نأشت أي تأخرت وأنشد قول نهشل:

تمنى نئيشا أن يكون أطاعني ... وقد حدثت بعد الأمور أمور

أي تمنى أخيراً، والضمير للمولى في قوله:

ومولى عصاني واستبد برأيه ... كما لم يطع فيما أشاء قصير

فالهمزة فيه أصلية واللفظ ورد من مادتين، وقال بعضهم: هو من نأشت الشيء إذا طلبته، قال رؤبة:

أقحمني جار أبي الخاموش ... إليك نأش القدر النؤوش

فالهمزة أصلية أيضاً، قيل والتناؤش على هذين القولين بمعنى التناول من بعد لأن الأخير يقتضي ذلك والطلب لا يكون للشيء القريب منك الحاضر عندك فيكون من ﴿مكان بعيد﴾ تأكيداً أو يجرد التناوش لمطلق التناول، وحمل البعد في قيده على البعد الزماني بحث فيه الشهاب بأنه غير صحيح لأن المستعار منه هو في المكان وما ذكر من أحوال المستعار له ﴿وَقَدْ كَفَرُوا به﴾ حال أو معطوف أو مستأنف والأول أقرب، والضمير المجرور ولما عاد عليه الضمير السابق في ﴿آمنا به﴾ ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل ذلك في أوان التكليف.

﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ﴾ أي كانوا يرجمون بالمظنون ويتكلمون بما لم يظهر لهم ولم ينشأ عن تحقيق في شأن الله عزّ وجلّ فينسبون إليه سبحانه الشريك ويقولون الملائكة بنات الله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً أو في شأن الرسول عليه الصلاة والسلام فيقولون فيه وحاشاه: شاعر وساحر وكاهن أو في شأن العذاب أو البعث فيبتون القول بنفيه ﴿مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾ من جهة بعيدة من أمر من تكلموا في شأنه، والجملة عطف على ﴿وقد كفروا﴾ وكان الظاهر وقذفوا إلا أنه عدل إلى صيغة المضارع حكاية للحال الماضية، والكلام قيل لعله تمثيل لحالهم من التكلم بما يظهر لهم ولم ينشأ عن تحقيق بحال من يرمي شيئاً لا يراه من مكان بعيد لا مجال للظن في لحوقه، وجوز الزمخشري كونه عطفاً على ﴿قالوا آمنا به﴾ على أنهم مثلوا في طلبهم تحصيل ما عطلوه من الإيمان في الدنيا بقولهم آمنا في

الآخرة وذلك مطلب مستبعد بمن يقذف شيئاً من مكان بعيد لا مجال للظن في لحوقه حيث يريد أن يقع فيه لكونه غائباً عنه شاحطاً. وقرأ مجاهد وأبو حيوة ومحبوب عن أبي عمرو «يُقْذَفُونَ» مبنياً للمفعول، قال مجاهد: أي ويرجمهم الوحي بما يكرهون مما غاب عنهم من السماء، وكأن الجملة في موضع الحال من ضمير كفروا كأنه قيل: وقد كفروا به من قبل وهم يقذفون بالحق الذي غاب عنهم وخفي عليهم، والمراد تعظيم أمر كفرهم، وجوز أن يراد بالغيب ما خفي من معايبهم أي وقد كفروا وهم يقذفهم الوحي من السماء ويرميهم بما خفي من معايبهم.

وقال أبو الفضل الرازي: أي ويرمون بالغيب من حيث لا يعلمون، ومعناه يجازون بسوء أعمالهم ولا علم لهم بمأتاه إما في حال تعذر التوبة عند معاينة الموت وإما في الآخرة انتهى، وفي حالية الجملة عليه نوع خفاء.

وقال الزمخشري: أي وتقذفهم الشياطين بالغيب ويلقنونهم إياه وكان الجملة عطف على ﴿**قد كفروا**﴾ وقيل أي يلقون في النار وهو كما ترى ﴿**وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ**﴾ قال ابن عباس: هو الرجوع إلى الدنيا، وقال الحسن: هو الإيمان المقبول، وقال قتادة: طاعة الله تعالى، وقال السدي: التوبة، وقال مجاهد: الأهل والمال والولد.

وقيل أي حيل بين الجيش والمؤمنين بالخسف بالجيش أو بينهم وبين تخريب الكعبة أو بينهم وبين النجاة من العذاب أو بينهم وبين نعيم الدنيا ولذتها وروي ذلك عن مجاهد أيضاً و«حيل» مبني للمجهول ونائب الفاعل كما قال أبو حيان ضمير المصدر أي وحيل هو أي الحول، وحاصله وقعت الحيلولة ولإضماره لم يكن مصدراً مؤكداً فناب مناب الفاعل، وعلى ذلك يخرج قوله:

وقالت متى يبخل عليك ويعتلل ... يسؤك وإن يكشف غرامك تدرب

أي يعتلل هو أي الاعتلال، وقال الحوفي: قام الظرف مقام الفاعل، وتعقبه في البحر بأنه لو كان كذلك لكان مرفوعاً والإضافة إلى الضمير لا تسوغ البناء وإلا لساغ جاء غلامك بالفتح ولا يقوله أحد، نعم للبناء للإضافة إلى المبني مواضع أحكمت في النحو، وماذا يقول الحوفي في قوله. وقد حيل بين العير والنزوان. فإنه نصب بين مع إضافتها إلى معرب وقرأ ابن عامر والكسائي بإشمام الضم للحاء.

﴿**كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ**﴾ أي بأشباههم من كفرة الأمم الدارجة، و﴿**من قبل**﴾ متعلق بأشياعهم على أن المراد من اتصف بصفتهم من قبل أي في الزمان الأول، ويرجحه أن ما يفعل بجميعهم في الآخرة إنما هو في وقت واحد أو متعلق بفعل إذا كانت الحيلولة في الدنيا، وعن الضحّاك أن المراد بأشياعهم أصحاب الفيل، الظاهر أنه جعل الآية في السفياني ومن معه.

﴿**إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ**﴾ أي موقع في ريبة على أنه من أرابه أوقعه في ريبة وتهمة أو ذي ريبة من أراب الرجل صار ذا ريبة فإما أن يكون قد شبه الشك بإنسان يصح أن يكون مريباً على وجه الاستعارة المكنية التخييلية أو يكون الإسناد مجازياً أسند فيه ما لصاحب الشك للشك مبالغة كما يقال شعر شاعر، وكأنه من هنا قال ابن عطية: الشك المريب أقوى ما يكون من الشك، وضمير الجمع للإشباع وقيل لأولئك المحدث عنهم والله تعالى أعلم ومن باب الإشارة في بعض آيات السورة ما قيل ﴿**ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أوبي معه والطير**﴾ أشير بالجبال إلى عالم الملك وبالطير إلى عالم الملكوت، وقد ذكروا أنه إذا تمكن الذكر سرى في جميع أجزاء البدن فيسمع الذاكر كل جزء منه ذاكراً فإذا ترقى حاله يسمع كل ما في عالم الملك كذلك فإذا ترقى يسمع كل ما في الوجود كذلك وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴿**وألنّا له الحديد**﴾ القلب ﴿**أن اعمل سابغات**﴾ وهي الحكم البالغة التي تظهر من القلب

على اللسان ﴿**وقدر في السرد**﴾ أي في سرد الحديث بأن تتكلم بالحكمة على قدر ما يتحمله عقل مخاطبك، وقد ورد كلموا الناس بما يعرفون أتريدون أن يكذب الله تعالى ورسوله ﷺ.

ومن هنا يصعب الجواب عمن تكلم من المتصوفة بما ينكره أكثر من يسمعه من العلماء وبه ضل كثير من الناس ﴿**ولسليمان الريح**﴾ ريح العناية ﴿**غدوها شهر ورواحها شهر**﴾ فكان يتصرف بالهمة وقذف الأنوار في قلوب متبعيه من مسافة شهر ﴿**ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه**﴾ إشارة إلى قوة باطنه حيث انقاد له من جبل على المخالفة وفعل الشرور ﴿**وقليل من عبادي الشكور**﴾ وهو من شكره بالأحوال أعني التخلق بأخلاق الله تعالى: ﴿**فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته**﴾ فيه إشارة إلى أن الضعيف قد يفيد القوي علماً ﴿**وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها**﴾ وهي مقامات أهل الباطن من العارفين ﴿**قرى ظاهرة**﴾ وهي مقامات أهل الظاهر من الناسكين ﴿**سيروا فيها ليالي**﴾ في ليالي البشرية ﴿**وأياماً**﴾ في أيام الروحانية ﴿**آمنين**﴾ في خفارة الشريعة.

وقال بعض الفرقة الجديدة الكشفية: القرى المبارك فيها الأئمة رضي الله تعالى عنهم والقرى الظاهرة الدعاة إليهم والسفراء بينهم وبين شيعتهم ﴿**وظلموا أنفسهم**﴾ بميلهم إلى الدنيا وترك السير لسوء استعدادهم ﴿**حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم**﴾ فيه إشارة إلى أن الهيبة تمنع الفهم ﴿**وما أرسلناك**﴾ أي ما أخرجناك من العدم إلى الوجود ﴿**إلا كافة للناس**﴾ الأولين والآخرين ﴿**بشيراً ونذيراً**﴾ وهذا حاله عليه الصلاة والسلام في عالم الأرواح وفي عالم الأجساد ﴿**ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾ إذ لا نور لهم يهتدون به ﴿**وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم**﴾ هؤلاء قطاع الطريق على عباد الله تعالى ومثلهم المنكرون على أولياء الله تعالى الذين ينفرون الناس عن الاعتقاد بهم واتباعهم ﴿**قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي**﴾ إن النفس لأمارة بالسوء ﴿**وإن اهتديت فيما يوحي إلي ربي**﴾ من القرآن وفيه إشارة إلى أنه نور لا يبقى معه ديجور أو مراتب الاهتداء به متفاوتة حسب تفاوت الفهم الناشىء من تفاوت صفاء الباطن وطهارته، وقد ورد أن للقرآن ظاهراً وباطناً ولا يكاد يصل الشخص إلى باطنه إلا بتطهير باطنه كما يرمز إليه قوله تعالى: ﴿**لا يمسه إلا المطهرون**﴾ [الواقعة: ٧٩] نسأل الله تعالى أن يوفقنا لفهم ظاهره وباطنه إلى ما شاء من البطون فإنه جل وعلا القادر الذي يقول للشيء كن فيكون.

(٣٥) سُورَةُ فَاطِرٍ مَكِّيَّةٌ
وَآيَاتُهَا خَمْسٌ وَأَرْبَعُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا ﴾ قد ذكرنا فيما تقدم أن الحمد يكون على النعمة فى أكثر الأمر، ونعم الله قسمان: عاجلة وآجلة، والعاجلة وجود وبقاء، والآجلة كذلك إيجاد مرة وإبقاء أخرى، وقوله تعالى (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور) إشارة إلى النعمة العاجلة التى هى الإيجاد، واستدللنا عليه بقوله تعالى (هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا) وقوله فى الكهف (الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب) إشارة إلى النعمة العاجلة التى هى الإبقاء، فان البقاء والصلاح بالشرع والكتاب، ولولاه لوقعت المنازعة والمخاصمة بين الناس ولا يفصل بينهم، فكان يفضى ذلك إلى التقاتل والتفانى، فإنزال الكتاب نعمة يتعلق بها البقاء العاجل، وفى قوله فى سورة سبأ (الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وله الحمد فى الآخرة) إشارة إلى نعمة الإيجاد الثانى بالحشر، واستدللنا عليه بقوله (يعلم مايلج فى الأرض) من الأجسام (وما يخرج منها وما ينزل من السماء) من الأرواح (وما يعرج فيها) وقوله عن الكافرين (وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة، قل بلى وربى) وههنا الحمد إشارة إلى نعمة البقاء فى الآخرة، ويدل عليه قوله تعالى (جاعل الملائكة رسلا) أى يجعلهم رسلا يتلقون عباد الله، كما قال تعالى (وتتلقاهم الملائكة) وعلى هذا فقوله تعالى (فاطر السموات) يحتمل وجهين (الأول) معناه مبدعها كما نقل عن ابن عباس (والثانى) (فاطر السموات والأرض) أى شاقهما لنزول الأرواح من السماء وخروج الأجساد من الأرض ويدل عليه قوله تعالى (جاعل الملائكة رسلا) فإن فى ذلك اليوم تكون الملائكة رسلا، وعلى هذا فأول هذه السورة متصل بآخر ما مضى، لأن قوله كما فعل بأشياعهم بيان لانقطاع رجاء من كان فى شك مريب وتيقنه بأن لا قبول لتوبته ولا فائدة لقوله آمنت. كما قال تعالى عنهم (وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش) فلما ذكر حالهم بين حال الموقن وبشره بإرساله الملائكة إليهم

أُولِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ

مبشرين ، وبين أنه يفتح لهم أبواب الرحمة .

قوله تعالى : ﴿ أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع ﴾ أقل ما يكون لذى الجناح أن يكون له جناحان وما بعدهما زيادة ، وقال قوم فيه إن الجناح إشارة إلى الجهة ، وبيانه هو أن الله تعالى ليس فوقه شيء ، وكل شيء فهو تحت قدرته ونعمته ، والملائكة لهم وجه إلى الله يأخذون منه نعمه ويعطون من دونهم مما أخذوه بإذن الله ، كما قال تعالى (نزل به الروح الأمين على قلبك) وقوله (علمه شديد القوى) وقال تعالى فى حقهم (فالمدبرات أمراً) فهما جناحان ، وفيهم من يفعل ما يفعل من الخير بواسطة ، وفيهم من يفعله لا بواسطة ، فالفاعل بواسطة فيه ثلاث جهات ، ومنهم من له أربع جهات وأكثر ، والظاهر ما ذكرناه أولا وهو الذى عليه إطباق المفسرين .

قوله تعالى : ﴿ يزيد فى الخلق ما يشاء ﴾ من المفسرين من خصصه وقال المراد الوجه الحسن ، ومنهم من قال الصوت الحسن ، ومنهم من قال كل وصف محمود ، والأولى أن يعمم ، ويقال الله تعالى قادر كامل يفعل ما يشاء فيزيد ما يشاء وينقص ما يشاء .

قوله تعالى : ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ يقرر قوله (يزيد فى الخلق ما يشاء) .

قوله تعالى : ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده ﴾ لما بين كمال القدرة ذكر بيان نفوذ المشيئة ونفاذ الأمر ، وقال ما يفتح الله للناس ، يعنى إن رحم فلا مانع له . وإن لم يرحم فلا باعث له عليها ، وفى الآية دليل على سبق رحمته غضبه من وجوه (أحدها) التقديم حيث قدم بيان فتح أبواب الرحمة فى الذكر ، وهو وإن كان ضعيفاً لكنه وجه من وجوه الفضل (وثانيها) هو أنه أنث الكناية فى الأول فقال (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها) وجاز من حيث العربية أن يقال له ويكون عائداً إلى ما ، ولكن قال تعالى (لها) ليعلم أن المفتوح أبواب الرحمة ولا ممسك لرحمته فهى وصلة إلى من رحمته ، وقال عند الإمساك (وما يمسك فلا مرسل له) بالتذكير ولم يقل لها فما صرح بأنه لا مرسل للرحمة ، بل ذكره بلفظ يحتمل أن يكون الذى لا يرسل هو غير الرحمة فإن قوله تعالى (وما يمسك) عام من غير بيان وتخصيص بخلاف قوله تعالى (ما يفتح الله للناس من رحمة) فانه مخصص مبين (وثالثها) قوله (من بعده) أى من بعد الله ، فاستثنى ههنا وقال لا مرسل له إلا الله فنزل له مرسلا ، وعند الإمساك

وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ
ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ
فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ
ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾

الإمساك قال لا ممسك لها ، ولم يقل غير الله لأن الرحمة إذا جاءت لا ترتفع فان من رحمه الله فى الآخرة لا يعذبه بعدها هو ولا غيره ، ومن يعذبه الله فقد يرحمه الله بعد العذاب كالفساق من أهل الإيمان .

قوله تعالى : ﴿ وهو العزيز ﴾ أى كامل القدرة ﴿ الحكيم ﴾ أى كامل العلم .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اذكروا نعمت الله عليكم ﴾ لما بين أن الحمد لله وبين بعض وجوه النعمة التى تستوجب الحمد على سبيل التفصيل بين نعمه على سبيل الإجمال فقال (اذكروا نعمة الله) وهى مع كثرتها منحصرة فى قسمين نعمة الإيجاد ، ونعمة الإبقاء .

قوله تعالى : ﴿ هل من خالق غير الله ﴾ إشارة إلى نعمة الإيجاد فى الابتداء .

قوله تعالى : ﴿ يرزقكم من السماء والأرض ﴾ إشارة إلى نعمة الإبقاء بالرزق إلى الانتهاء .

ثم بين أنه ﴿ لا إله إلا هو ﴾ نظراً إلى عظمته حيث هو عزيز حكيم قادر على كل شىء قدير نافذ الإرادة فى كل شىء ولا مثل لهذا ولا معبود لذاته غير هذا ونظراً إلى نعمته حيث لا خالق غيره ولا رازق إلا هو .

قوله تعالى : ﴿ فأنى تؤفكون ﴾ أى كيف تصرفون عن هذا الظاهر ، فكيف تشركون المنحوت بمن له الملكوت .

ثم لما بين الأصل (الأول) وهو التوحيد ذكر الأصل (الثانى) وهو الرسالة فقال تعالى ﴿ وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك ﴾ .

ثم بين من حيث الإجمال أن المكذب فى العذاب . والمكذب له الثواب بقوله تعالى ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ ثم بين الأصل (الثالث) وهو الحشر .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾

إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾

أى الشيطان وقد ذكرنا مافيه من المعنى اللطيف فى تفسير سورة لقمان ونعيده ههنا فنقول المكلف قد يكون ضعيف الذهن قليل العقل سخيف الرأى فيغتر بأدنى شيء . وقد يكون فوق ذلك فلا يغتر به ولكن إذا جاءه غار وزين له ذلك الشيء وهون عليه مفاسده . ويبين له منافع . يغتر لما فيها من اللذة مع ما ينضم إليه من دعاء ذلك الغار إليه ، وقد يكون قوى الجأش غزير العقل فلا يغتر ولا يغر فقال الله تعالى (لا تغرنكم الحياة الدنيا) إشارة إلى الدرجة الأولى ، وقال (ولا يغرنكم بالله الغرور) إشارة إلى الثانية ليكون واقعاً فى الدرجة الثالثة وهى العليا فلا يغر ولا يغتر .

قوله تعالى : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً ﴾ لما قال تعالى (ولا يغرنكم بالله الغرور) ذكر ما يمنع العاقل من الاغترار ، وقال (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً) ولا تسمعوا قوله ، وقوله (فاتخذوه عدوا) أى اعملوا ما يسوءه وهو العمل الصالح .

قوله تعالى : ﴿ إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ إشارة إلى معنى لطيف وهو أن من يكون له عدو فله فى أمره طريقان : (أحدهما) أن يعاديه مجازاة له على معاداته (والثانى) أن يذهب عداوته بإرضائه ، فلما قال الله تعالى (إن الشيطان لكم عدواً) أمرهم بالعداوة وأشار إلى أن الطريق ليس إلا هذا ، وأما الطريق الآخر وهو الإرضاء فلا فائدة فيه لأنكم إذا راضيتموه واتبعتموه فهو لا يؤديكم إلا إلى السعير .

واعلم أن من علم أن له عدو لا مهرب له منه وجزم بذلك فانه يقف عنده ويصبر على قتاله والصبر معه الظفر ، فكذلك الشيطان لا يقدر الإنسان أن يهرب منه فانه معه ، ولا يزال يتبعه إلا أن يقف له ويهزمه ، فهزيمة الشيطان بعزيمة الانسان ، فالطريق الثبات على الجادة والاتكال على العبادة.

ثم بين الله تعالى حال حزبه وحال حزب الله . فقال :

﴿ الذين كفروا لهم عذاب شديد ﴾ فالمعادى للشيطان وإن كان فى الحال فى عذاب ظاهر وليس بشديد ، والإنسان إذا كان عاقلا يختار العذاب المنقطع اليسير دفعاً للعذاب الشديد المؤبد ألا ترى أن الإنسان إذ عرض فى طريقه شوك ونار ولا يكون له بد من أحدهما يتخطى الشوك ولا يدخل النار ونسبة النار التى فى الدنيا إلى النار التى فى الآخرة دون نسبة الشوك إلى النار العاجلة .

قوله تعالى : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير ﴾ قد ذكر تفسيره مراراً ،

أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾

وبين فيه أن الإيمان فى مقابلته المغفرة فلا يؤبد مؤمن فى النار ، والعمل الصالح فى مقابلته الأجر الكبير .

قوله تعالى : ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ، فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون ﴾ .

يعنى ليس من عمل سيئاً كالذى عمل صالحاً ، كما قال بعد هذا بآيات وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ، وله تعلق بما قبله وذلك من حيث إنه تعالى لما بين حال المسىء الكافر والمحسن المؤمن ، وما من أحد يعترف بأنه يعمل سيئاً إلا قليل ، فكان الكافر يقول الذى له العذاب الشديد هو الذى يتبع الشيطان وهو محمد وقومه الذين استهوتهم الجن فاتبعوها ، والذى له الأجر العظيم نحن الذين دمنا على ما كان عليه آباؤنا فقال الله تعالى لستم أنتم بذلك فان المحسن غير ، ومن زين له العمل السيئ فرآه حسناً غير ، بل الذين زين لهم السيئ دون من أساء وعلم أنه مسىء فان الجاهل الذى يعلم جهله والمسىء الذى يعلم سوء عمله يرجع ويتوب والذى لا يعلم يصر على الذنوب والمسىء العالم له صفة ذم بالإساءة وصفة مدح بالعلم . والمسىء الذى يرى الإساءة إحسانا له صفتا ذم الإساءة والجهل ، ثم بين أن الكل بمشيئة الله ، وقال (فان لله يضل من يشاء ويهدى من يشاء) وذلك لأن الناس أشخاصهم متساوية فى الحقيقة والإساءة والإحسان ، والسيئة والحسنة يمتاز بعضها عن بعض فاذا عرفها البعض دون البعض لا يكون ذلك باستقلال منهم ، فلا بد من الاستناد إلى إرادة الله .

ثم سلى رسول الله ﷺ حيث حزن من إصرارهم بعد إتيانه بكل آية ظاهرة وحجة باهرة فقال: ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم نفسك حسرات ﴾ كما قال تعالى (فلعلك باخع نفسك على آثارهم) .

ثم بين أن حزنه إن كان لما بهم من الضلال فالله عالم بهم وبما يصنعون لو أراد إيمانهم وإحسانهم لصدهم عن الضلال وردهم عن الإضلال ، وإن كان لما به منهم من الايذاء فالله عالم بفعلهم يجازيهم على ما يصنعون .

ثم عاد إلى البيان فقال تعالى ﴿ والله الذى أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور ﴾ .

مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾

هبوب الرياح دليل ظاهر على الفاعل المختار وذلك لأن الهواء قد يسكن ، وقد يتحرك وعند حركته قد يتحرك إلى اليمين ، وقد يتحرك إلى اليسار ، وفى حركاته المختلفة قد ينشىء السحاب ، وقد لا ينشىء ، فهذه الاختلافات دليل على مسخر مدبر ومؤثر مقدر ، وفى الآية مسائل :

﴿ **المسألة الأولى** ﴾ قال تعالى (والله الذى أرسل) بلفظ الماضى وقال (فتثير سحاباً) بصيغة المستقبل ، وذلك لأنه لما أسند فعل الارسال إلى الله وما يفعل الله يكون بقوله كن فلا يبقى فى العدم لا زماناً ولا جزأ من الزمان ، فلم يقل بلفظ المستقبل لوجوب وقوعه وسرعة كونه كأنه كان وكأنه فرغ من كل شىء فهو قدر الارسال فى الأوقات المعلومة إلى المواضع المعينة والتقدير كالارسال ، ولما أسند فعل الاثارة إلى الريح وهو يؤلف فى زمان فقال (تثير) أى على هيئتها .

﴿ **المسألة الثانية** ﴾ قال (أرسل) إسناداً للفعل إلى الغائب وقال (سقناه) بإسناد الفعل إلى المتكلم وكذلك فى قوله (فأحيينا) وذلك لأنه فى الأول عرف نفسه بفعل من الأفعال وهو الارسال ، ثم لما عرف قال أنا الذى عرفتنى سقت السحاب وأحييت الأرض ففى الأول كان تعريفاً بالفعل العجيب ، وفى الثانى كان تذكيراً بالنعمة فان كمال نعمة الرياح والسحب بالسوق والاحياء وقوله (سقناه وأحيينا) بصيغة الماضى يؤيد ما ذكرناه من الفرق بين قوله (أرسل) وبين قوله (تثير) .

﴿ **المسألة الثالثة** ﴾ ما وجه التشبيه بقوله (كذلك النشور) فيه وجوه (أحدها) أن الأرض الميتة لما قبلت الحياة اللائقة بها كذلك الأعضاء تقبل الحياة (وثانيها) كما أن الريح يجمع القطع السحابية كذلك يجمع بين أجزاء الأعضاء وأبعاض الأشياء (وثالثها) كما أنا نسوق الريح والسحاب إلى البلد الميت نسوق الروح والحياة إلى البدن الميت .

﴿ **المسألة الرابعة** ﴾ ما الحكمة فى اختيار هذه الآية من بين الآيات مع أن الله تعالى له فى كل شىء آية تدل على أنه واحد ، فنقول لما ذكر الله أنه فاطر السموات والأرض ، وذكر من الأمور السماوية الأرواح وإرسالها بقوله (جاعل الملائكة رسلا) ذكر من الأمور الأرضية الرياح وإرسالها بقوله (والله الذى أرسل الرياح) .

قوله تعالى : ﴿ من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور ﴾

لما بين برهان الايمان إشارة إلى ما كان يمنع الكفار منه وهو العزة الظاهرة التى كانوا يتوهمونها من حيث إنهم ما كانوا فى طاعة أحد ولم يكن لهم من يأمرهم وينهاهم ، فكانوا ينحتون الأصنام وكانوا يقولون إن هذه آلهتنا ، ثم إنهم كانوا ينقلونها مع أنفسهم وأية عزة فوق المعية مع المعبود فهم كانوا يطلبون العزة وهى عدم التذلل للرسول وترك الاتباع له ، فقال إن كنتم تطلبون بهذا الكفر العزة فى الحقيقة ، فهى كلها لله ومن يتذلل له فهو العزيز ، ومن يتعزز عليه فهو الذليل وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال فى هذه الآية (فلله العزة جميعاً) وقال فى آية أخرى (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) فقوله (جميعاً) يدل على أن لا عزة لغيره فنقول قوله (فلله العزة) أى فى الحقيقة وبالذات وقوله (ولرسوله) أى بواسطة القرب من العزيز وهو الله وللمؤمنين بواسطة قربهم من العزيز بالله وهو الرسول ، وذلك لأن عزة المؤمنين بواسطه النبى ﷺ ألا ترى قوله تعالى (إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (إليه يصعد الكلم الطيب) تقرير لبيان العزة ، وذلك لأن الكفار كانوا يقولون نحن لا نعبد من لا نراه ولا نحضر عنده ، لأن البعد من الملك ذلة ، فقال تعالى إن كنتم لا تصلون إليه ، فهو يسمع كلامكم ويقبل الطيب فمن قبل كلامه وصعد إليه فهو عزيز ومن رد كلامه فى وجهه فهو ذليل ، وأما هذه الأصنام لا يتبين عندها الذليل من العزيز إذ لا علم لها فكل أحد يمسها وكذلك يرى عملكم فمن عمل صالحاً رفعه إليه ، ومن عمل سيئاً رده عليه فالعزيز من الذى عمله لوجهه والذليل من يدفع الذى عمله فى وجهه ، وأما هذه الأصنام فلا تعلم شيئاً فلا عزيز يرفع عندها ولا ذليل ، فلا عزة بها بل عليها ذلة ، وذلك لأن ذلة السيد ذلة للعبد ومن كان معبوده وربه وإلهه حجارة أو خشباً ماذا يكون هو ! .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى قوله (إليه يصعد الكلم الطيب) وجوه (أحدها) كلمة لا إله إلا الله هى الطيبة (وثانيها) سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر طيب (ثالثها) هذه الكلمات الأربع وخامسة وهى تبارك الله والمختار أن كل كلام هو ذكر الله أو هو لله كالنصيحة والعلم ، فهو إليه يصعد .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله تعالى (والعمل الصالح يرفعه) وفى الهاء وجهان (أحدهما) هى عائدة إلى الكلم الطيب أى العمل الصالح هو الذى يرفعه الكلم الطيب ورد فى الخبر « لا يقبل الله قولا بلا عمل » (وثانيهما) هى عائدة إلى العمل الصالح وعلى هذا فى الفاعل الرافع وجهان (أحدهما) هو الكلم الطيب أى الكلم الطيب يرفع العمل الصالح ، وهذا يؤيده قوله تعالى (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن (وثانيهما) الرافع هو الله تعالى .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ ما وجه ترجيح الذكر على العمل على الوجه الثانى حيث يصعد الكلم

وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾

بنفسه ويرفع العمل بغيره ، فنقول الكلام شريف ، فان امتياز الانسان عن كل حيوان بالنطق ولهذا قال تعالى (ولقد كرمنا بنى آدم) أى بالنفس الناطقة والعمل حركة وسكون يشترك فيه الإنسان وغيره ، والشريف إذا وصل إلى باب الملك لا يمنع ومن دونه لا يجد الطريق إلا عند الطلب ويدل على هذا أن الكافر إذا تكلم بكلمة الشهادة إن كان عن صدق أمن عذاب الدنيا والآخرة ، وإن كان ظاهراً أمن فى نفسه ودمه وأهله وحرمه فى الدنيا ولا كذلك العمل بالجوارح ، وقد ذكرنا ذلك فى تفسير قوله تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) ، (ووجه آخر) القلب هو الأصل وقد تقدم ما يدل عليه ، وقال النبى ﷺ «ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب » وما فى القلب لا يظهر إلا باللسان وما فى اللسان لا يتبين صدقه إلا بالفعل ، فالقول أقرب إلى القلب من الفعل ، ألا ترى أن الإنسان لا يتكلم بكلمة إلا عن قلب ، وأما الفعل قد يكون لا عن قلب كالعبث باللحية ولأن النائم لا يخلو عن فعل من حركة وتقلب وهو فى أكثر الأمر لا يتكلم فى نومه إلا نادراً ، لما ذكرنا إن الكلام بالقلب ولا كذلك العمل ، فالقول أشرف .

﴿ المسألة السادسة ﴾ قال الزمخشرى المكر لا يتعدى فبم انتصاب السيئات ؟ وقال بأن معناه الذين يمكرون المكرات السيئات فهو وصف مصدر محذوف ، ويحتمل أن يقال استعمل المكر استعمال العمل فعداه تعديته كما قال (الذين يعملون السيئات) وفى قوله (الذين يعملون السيئات) يحتمل ما ذكرناه أن يكون السيئات وصفاً لمصدر تقديره الذين يعملون العملات السيئات ، وعلى هذا فيكون هذا فى مقابلة قوله (والعمل الصالح يرفعه) إشارة إلى بقائه وارتقائه (ومكر أولئك) أى العمل السىء (هو يبور) إشارة إلى فنائه .

قوله تعالى : ﴿ والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب إن ذلك على الله يسير ﴾

قد ذكرنا مراراً أن الدلائل مع كثرتها وعدم دخولها فى عدد محصور منحصرة فى قسمين دلائل الآفاق ودلائل الأنفس ، كما قال تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم) فلما ذكر دلائل الآفاق من السموات وما يرسل منها من الملائكة والأرض وما يرسل فيها من الرياح شرع

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾

فى دلائل الأنفس ، وقد ذكرنا تفسيره مراراً وذكرنا ما قيل من أن قوله (من تراب) إشارة إلى خلق آدم (ثم من نطفة) إشارة إلى خلق أولاده . وبينا أن الكلام غير محتاج إلى هذا التأويل بل (خلقكم) خطاب مع الناس وهم أولاد آدم كلهم من تراب ومن نطفة لأن كلهم من نطفة والنطفة من غذاء ، والغذاء بالآخرة ينتهى إلى الماء والتراب ، فهو من تراب صار نطفة .

وقوله (وما تحمل من أنثى ولا تضع) إشارة إلى كمال العلم ، فان ما فى الأرحام قبل الانخلاق بل بعده مادام فى البطن لايعلم حاله أحد ، كيف والأم الحاملة لاتعلم منه شيئاً ، فلما ذكر بقوله (خلقكم من تراب) كمال قدرته بين بقوله (وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه) كمال علمه ثم بين نفوذ إرادته بقوله (وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب) فبين أنه هو القادر العالم المريد والأصنام لاقدرة لها ولا علم ولا إرادة ، فكيف يستحق شىء منها العبادة ، وقوله (إن ذلك على الله يسير) أى الخلق من التراب ويحتمل أن يكون المراد التعمير والنقصان على الله يسير ، ويحتمل أن يكون المراد أن العلم بما تحمله الأنثى يسير والكل على الله يسير ، والأول أشبه فإن اليسير استعماله فى الفعل أليق ،

قوله تعالى : ﴿ وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ، ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ .

قال أكثر المفسرين : إن المراد من الآية ضرب المثل فى حق الكفر والإيمان أو الكافر والمؤمن ، فالإيمان لايشتبه بالكفر فى الحسن والنفع كما لايشتبه البحران العذب الفرات والملح الأجاج . ثم على هذا ، فقوله (ومن كل تأكلون لحماً طرياً) لبيان أن حال الكافر والمؤمن أو الكفر والإيمان دون حال البحرين لأن الأجاج يشارك الفرات فى خير ونفع إذ اللحم الطرى يوجد فيهما والحلية توجد منهما والفلك تجرى فيهما ، ولا نفع فى الكفر والكافر ، وهذا على نسق قوله تعالى (أولئك كالأنعام بل هم أضل) وقوله (كالحجارة أو أشد قسوة ، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار) والأظهر أن المراد منه ذكر دليل آخر على قدرة الله وذلك من حيث إن البحرين يستويان فى الصورة ويختلفان فى الماء ، فان أحدهما عذب فرات والآخر ملح

يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾

أجاج، ولو كان ذلك بإيجاب لما اختلف المتساويان، ثم إنهما بعد اختلافهما يوجد منهما أمور متشابهة، فان اللحم الطرى يوجد فيهما، والحلية تؤخذ منهما، ومن يوجد فى المتشابهين اختلافاً ومن المختلفين اشتباهاً لايكون إلا قادراً مختاراً. وقوله (وما يستوى البحران) إشارة إلى أن عدم استوائهما دليل على كمال قدرته ونفوذ إرادته وفى الآية مسائل:

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال أهل اللغة لايقال فى ماء البحر إذا كان فيه ملوحة مالح. وإنما يقال له ملح، وقد يذكر فى بعض كتب الفقه يصير بها ماء البحر مالحاً، ويؤاخذ قائله به. وهو أصح مما يذهب إليه القوم وذلك لأن الماء العذب إذا ألقى فيه ملح حتى ملح لايقال له إلا مالح، وماء ملح يقال للماء الذى صار من أصل خلقته كذلك، لأن المالح شىء فيه ملح ظاهر فى الذوق، والماء الملح ليس ماء وملحاً بخلاف الطعام المالح فالماء العذب الملقى فيه الملح ماء فيه ملح ظاهر فى الذوق، بخلاف ماهو من أصل خلقته كذلك، فلما قال الفقيه الملح أجزاء أرضية سبخة يصير بها ماء البحر مالحاً راعى فيه الأصل فانه جعله ماء جاوره ملح، وأهل اللغة حيث قالوا فى البحر ماؤه ملح جعلوه كذلك من أصل الخلقة، والأجاج المر، وقوله (ومن كل تأكلون لحماً طرياً) من الطير والسمك وتستخرجون حلية تلبسونها من اللؤلؤ والمرجان (وترى الفلك فيه مواخر) أى ماخرات تمخر البحر بالجريان أى تشق، وقوله (ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) يدل على ماذكرناه من أن المراد من الآية الاستدلال بالبحرين وما فيهما على وجود الله ووحدانيته وكمال قدرته.

قوله تعالى: ﴿ يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ﴾

استدلال آخر باختلاف الأزمنة وقد ذكرناه مراراً، وذكرنا أن قوله تعالى بعده (وسخر الشمس والقمر) جواب لسؤال يذكره المشركون وهو أنهم قالوا اختلاف الليل والنهار بسبب اختلاف القسى الواقعة فوق الأرض وتحتها، فان فى الصيف تمر الشمس على سمت الرؤوس فى بعض البلاد المائلة فى الآفاق، وحركة الشمس هناك حمائلية فتقع تحت الأرض أقل من نصف دائرة زمان مكثها تحت الأرض فيقصر الليل وفى الشتاء بالضد فيقصر النهار فقال الله

إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾

تعالى (وسخر الشمس والقمر) يعنى سبب الاختلاف وإن كان ماذكرتم ، لكن سير الشمس والقمر بإرادة الله وقدرته فهو الذى فعل ذلك .

قوله تعالى : ﴿ ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير) .

أى ذلك الذى فعل هذه الأشياء من فطر السموات والأرض وإرسال الأرواح وإرسال الرياح وخلق الإنسان من تراب وغير ذلك له الملك كله فلا معبود إلا هو لذاته الكامل ولكونه ملكا والملك مخدوم بقدر ملكه ، فاذا كان له الملك كله فله العبادة كلها ، ثم بين ماينافى صفة الإلهية ، وهو قوله (والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير) ، (وههنا لطيفة) وهى أن الله تعالى ذكر لنفسه نوعين من الأوصاف (أحدهما) أن الخلق بالقدرة والإرادة (والثانى) الملك واستدل بهما على أنه إله معبود كما قال تعالى (قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس) ذكر الرب والملك ورتب عليهما كونه إلهاً أى معبوداً ، وذكر فيمن أشركوا به سلب صفة واحدة وهو عدم الملك بقوله (والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير) ولم يذكر سلب الوصف الآخر لوجهين (أحدهما) أن كلهم كانوا معترفين بأن لا خالق لهم إلا الله وإنما كانوا يقولون بأن الله تعالى فوض أمر الأرض والأرضيات إلى الكواكب التى الأصنام على صورتها وطوالعها فقال لا ملك لهم ولا ملكهم الله شيئاً ولا ملكوا شيئاً (وثانيهما) أنه يلزم من عدم الملك عدم الخلق لأنه لو خلق شيئاً لملكه فاذا لم يملك قطميراً ماخلق قليلا ولا كثيراً .

قوله تعالى : ﴿ إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا مااستجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير ﴾ .

إبطالا لما كانوا يقولون إن فى عبادة الأصنام عزة من حيث القرب منها والنظر إليها وعرض الحوائج عليها ، والله لايرى ولا يصل إليه أحد فقال هؤلاء لا يسمعون دعاءكم والله يصعد إليه الكلم الطيب ، يسمع ويقبل ثم نزل عن تلك الدرجة ، وقال هب أنهم يسمعون كما يظنون فإنهم كانوا يقولون بأن الأصنام تسمع وتعلم ولكن ماكان يمكنهم أن يقولوا إنهم يجيبون لأن ذلك إنكار للحس به وعدم سماعهم إنكار للمعقول والنزاع وإن كان يقع فى المعقول فلا يمكن وقوعه فى الحس به ، ثم إنه تعالى قال (ويوم القيامة يكفرون بشرككم) لما بين عدم النفع فيهم فى الدنيا بين عدم النفع منهم فى الآخرة بل أشار إلى وجود الضرر منهم فى الآخرة بقوله (ويوم القيامة يكفرون بشرككم) أى باشراككم بالله شيئاً ، كما قال تعالى (إن الشرك لظلم عظيم) أى

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾

الإشراك وقوله (ولا ينبئك مثل خبير) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون ذلك خطاباً مع النبي ﷺ ووجهه هو أن الله تعالى لما أخبر أن الخشب والحجر يوم القيامة ينطق ويكذب عابده وذلك أمر لا يعلم بالعقل المجرد لولا إخبار الله تعالى عنه أنهم يكفرون بهم يوم القيامة ، وهذا القول مع كون الخبر عنه أمراً عجيباً هو كما قال ، لأن المخبرعنه خبير (وثانيهما) هو أن يكون ذلك خطاباً غير مختص بأحد ، أى هذا الذى ذكر هو كما قال (ولا ينبئك) أيها السامع كائناً من كنت (مثل خبير) .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد ﴾

لما كثر الدعاء من النبي ﷺ والإصرار من الكفار وقالوا إن الله لعله يحتاج إلى عبادتنا حتى يأمرنا بها أمراً بالغاً ويهددنا على تركها مبالغاً فقال تعالى (أنتم الفقراء إلى الله والله هوالغنى) فلا يأمركم بالعبادة لاحتياجه إليكم وإنما هو لإشفاقه عليكم ، وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾. التعريف فى الخبر قليل والأكثر أن يكون الخبر نكرة والمبتدأ معرفة وهو معقول وذلك لأن المخبر لا يخبر فى الأكثر إلا بأمر لا يكون عند المخبر به علم أو فى ظن المتكلم أن السامع لاعلم له به ، ثم أن يكون معلوماً عند السامع حتى يقول له أيها السامع الأمر الذى تعرفه أنت فيه المعنى الفلانى كقول القائل زيد قائم أو قام أى زيد الذى تعرفه ثبت له قيام لاعلم عندك به ، فان كان الخبر معلوماً عند السامع والمبتدأ كذلك ويقع الخبر تنبيهاً لاتفهيماً يحسن تعريف الخبرغاية الحسن ، كقول القائل الله ربنا ومحمد نبينا ، حيث عرف كون الله رباً ، وكون محمد نبياً . وههنا لما كان كون الناس فقراء أمراً ظاهراً لا يخفى على أحد قال (أنتم الفقراء) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (إلى الله) إعلام بأنه لا افتقار إلا إليه ولا اتكال إلا عليه وهذا يوجب عبادته لكونه مفتقراً إليه وعدم عبادة غيره لعدم الافتقار إلى غيره ، ثم قال (والله هو الغنى) أى هو مع استغنائه يدعوكم كل الدعاء وأنتم من احتياجكم لا تجيبونه ولا تدعونه فيجيبكم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى قوله (الحميد) لما زاد فى الخبرالأول وهو قوله (أنتم الفقراء) زيادة وهو قوله (إلى الله) إشارة لوجوب حصرالعبادة فى عبادته زاد فى وصفه بالغنى زيادة وهو كونه حميداً إشارة إلى كونكم فقراء وفى مقابلته الله غنى وفقركم إليه فى مقابلة نعمه عليكم لكونه حميداً واجب الشكر ، فلستم أنتم فقراء والله مثلكم فى الفقر بل هوغنى على الاطلاق ولستم أنتم لما افتقرتم إليه تركـكم غير مقضى الحاجات بل قضى فى الدنيا حوائجكم ، وإن آمنتم يقضى في الآخرة حوائجكم فهو حميد .

إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ
وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ

قوله تعالى : ﴿ إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ﴾ بياناً لغناه وفيه بلاغة كاملة وبيانها أنه تعالى قال (إن يشأ يذهبكم) أى ليس إذهابكم موقوفاً إلا على مشيئته بخلاف الشئ المحتاج إليه ، فان المحتاج لا يقول فيه إن يشأ فلان هدم داره وأعدم عقاره ، وإنما يقول لولا حاجة السكنى إلى الدار لبعتها أو لولا الافتقار إلى العقار لتركتها ، ثم إنه تعالى زاد بيان الاستغناء بقوله (ويأت بخلق جديد) يعنى إن كان يتوهم متوهم أن هذا الملك له كمال وعظمة فلو أذهبه لزال ملكه وعظمته فهو قادر بأن يخلق خلقاً جديداً أحسن من هذا وأجمل وأتم وأكمل .

قوله تعالى : ﴿ وما ذلك على الله بعزيز ﴾ أى الإذهاب والإتيان وههنا مسألة : وهى أن لفظ العزيز استعمله الله تعالى تارة فى القائم بنفسه حيث قال فى حق نفسه (وكان الله قوياً عزيزاً) وقال فى هذه السورة (إن الله عزيز غفور) واستعمله فى القائم بغيره حيث قال (وما ذلك على الله بعزيز) وقال (عزيز عليه ما عنتم) فهل هما بمعنى واحد أم بمعنيين ؟ فنقول العزيز هو الغالب فى اللغة يقال من عز بز أى من غلب سلب ، فالله عزيز أى غالب والفعل إذا كان لا يطيقه شخص يقال هو مغلوب بالنسبة إلى ذلك الفعل فقوله (وما ذلك على الله بعزيز) أى لا يغلب الله ذلك الفعل بل هو هين على الله وقوله (عزيز عليه ما عنتم) أى يحزنه ويؤذيه كالشغل الغالب .

قوله تعالى : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شئ ولو كان ذا قربى ﴾ متعلق بما قبله ، وذلك من حيث إنه تعالى لما بين الحق بالدلائل الظاهرة والبراهين الباهرة ذكر ما يدعوهم إلى النظر فيه فقال (ولا تزر وازرة وزر أخرى) أى لا تحمل نفس ذنب نفس فالنبى ﷺ لو كان كاذباً فى دعائه لكان مذنباً وهو معتقد بأن ذنبه لا تحملونه أنتم فهو يتوقى ويحترز ، والله تعالى غير فقير إلى عبادتكم فتفكروا واعلموا أنكم إن ضللتم فلا يحمل أحد عنكم وزركم وليس كما يقول (أكابركم اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم) وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (وازرة) أى نفس وازرة ولم يقل ولا تزر نفس وزر أخرى ولا جمع بين الموصوف والصفة فلم يقل ولا تزر نفس وازرة وزرة أخرى لفائدة (أما الأول) فلأنه لو قال ولا تزر نفس وزر أخرى ، لما علم أن كل نفس وازرة مهمومة بهم وزرها متحيرة فى أمرها (ووجه آخر) وهو أن قول القائل ولا تزر نفس وزر أخرى ، قد يجتمع معها أن

إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

لاتزر وزراً أصلا كالمعصوم لا يزر وزر غيره ومع ذلك لا يزر وزراً رأساً فقوله (ولا تزر وازرة) بين أنها تزر وزرها ولا تزر وزر الغير (وأما) ترك ذكر الموصوف فلظهور الصفة ولزومها للموصوف .

ثم قال تعالى (وإن تدع مثقلة) إشارة إلى أن أحداً لا يحمل عن أحد شيئاً مبتدئاً ولا بعد السؤال ، فان المحتاج قد يصبر وتقضى حاجته من غير سؤاله ، فاذا انتهى الافتقار إلى حد الكمال يحوجه إلى السؤال .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى قوله (مثقلة) زيادة بيان لما تقدم من حيث إنه قال أولا (ولا تزر وازرة وزر أخرى) فيظن أن أحداً لا يحمل عن أحد لكون ذلك الواحد قادراً على حمله ، كما أن القوى إذا أخذ بيده رمانة أو سفرجلة لاتحمل عنه ، وأما إذا كان الحمل ثقيلا قد يرحم الحامل فيحمل عنه فقال (مثقلة) يعنى ليس عدم الوزر لعدم كونه محلا للرحمة بالثقل بل لكون النفس مثقلة ولا يحمل منها شيء .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ زاد فى ذلك بقوله (ولو كان ذا قربى) أى المدعو لو كان ذا قربى لايحمله وفى الأول كان يمكن أن يقال لايحمله لعدم تعلقه به كالعدو الذى يرى عدوه تحت ثقل ، أو الأجنبى الذى يرى أجنبياً تحت حمل لايحمل عنه فقال (ولو كان ذا قربى) أى يحصل جميع المعانى الداعية إلى الحمل من كون النفس وازرة قوية تحتمل وكون الأخرى مثقلة لا يقال كونها قوية قادرة ليس عليها حمل وكونها سائلة داعية فإن السؤال مظنة الرحمة ، لو كان المسئول قريباً فاذن لا يكون التخلف إلا لمانع وهو كون كل نفس تحت حمل ثقيل .

ثم قال تعالى ﴿ إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلوة ﴾ إشارة إلى أن لا إرشاد فوق ماأتيت به ، ولم يفدهم ، فلا تنذر إنذاراً مفيداً إلا الذين تمتلىء قلوبهم خشية وتتحلى ظواهرهم بالعبادة كقوله (الذين آمنوا) إشارة إلى عمل القلب (وعملوا الصالحات) إشارة إلى عمل الظواهر فقوله (الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة) فى ذلك المعنى ، ثم لما بين (أن لا تزر وازرة وزر أخرى) بين أن الحسنة تنفع المحسنين .

فقال ﴿ ومن تزكى فانما يتزكى لنفسه ﴾ أى فتزكيته لنفسه .

قوله تعالى : ﴿ وإلى الله المصير ﴾ أى المتزكى إن لم تظهر فائدته عاجلا فالمصير إلى الله يظهر عنده فى يوم اللقاء فى دار البقاء . والوازر إن لم تظهر تبعة وزره فى الدنيا فهى تظهر فى الآخرة إذ المصير إلى الله .

وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ

قوله تعالى :﴿ وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور، وما يستوى الأحياء ولا الأموات ﴾

لما بين الهدى والضلالة ولم يهتد الكافر، وهدى الله المؤمن ضرب لهم مثلا بالبصير والأعمى ، فالمؤمن بصير حيث أبصر الطريق الواضح والكافر أعمى ، وفى تفسير الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما الفائدة فى تكثير الأمثلة ههنا حيث ذكر الأعمى والبصير ، والظلمة والنور، والظل والحرور، والأحياء والأموات ؟ فنقول الأول مثل المؤمن والكافر فالمؤمن بصير والكافر أعمى ، ثم إن البصير وإن كان حديد البصر ولكن لا يبصر شيئاً إن لم يكن فى ضوء فذكر للايمان والكفر مثلا ، وقال الإيمان نور والمؤمن بصير والبصير لا يخفى عليه النور ، والكفر ظلمة والكافر أعمى فله صاد فوق صاد ، ثم ذكر لمآلهما ومرجعهما مثلا وهو الظل والحرور ، فالمؤمن بإيمانه فى ظل وراحة والكافر بكفره فى حر وتعب ، ثم قال تعالى (وما يستوى الأحياء ولا الأموات) مثلا آخر فى حق المؤمن والكافر كأنه قال تعالى حال المؤمن والكافر فوق حال الأعمى والبصير ، فإن الأعمى يشارك البصير فى إدراك ما . والكافر غير مدرك إدراكا نافعاً فهو كالميت ويدل على ما ذكرنا أنه تعالى أعاد الفعل حيث قال أولا (وما يستوى الأعمى والبصير) وعطف الظلمات والنور والظل والحرور ، ثم أعاد الفعل ، وقال (وما يستوى الأحياء ولا الأموات) كأنه جعل هذا مقابلا لذلك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ كرر كلمة النفى بين الظلمات والنور والظل والحرور والأحياء الأموات ، ولم يكرر بين الأعمى والبصير ، وذلك لأن التكرير للتأكيد والمنافاة بين الظلمة والنور والظل والحرور مضادة ، فالظلمة تنافى النور وتضاده والعمى والبصر كذلك ، أما الأعمى والبصير ليس كذلك بل الشخص الواحد قد يكون بصيراً وهو بعينه يصير أعمى ، فالأعمى والبصير لا منافاة بينهما إلا من حيث الوصف ، والظل والحرور والمنافاة بينهما ذاتية لأن المراد من الظل عدم الحر والبرد فلما كانت المنافاة هناك أتم ، أكد بالتكرار ، وأما الأحياء والأموات ، وإن كانوا كالأعمى والبصير من حيث إن الجسم الواحد يكون حياً محلا للحياة فيصير ميتاً محلا للموت ولكن المنافاة بين الحى والميت أتم من المنافاة بين الأعمى والبصير ، كما بينا أن الأعمى والبصير يشتركان فى إدراك أشياء ، ولا كذلك الحى والميت ، كيف والميت يخالف الحى فى الحقيقة لا فى الوصف على ما تبين فى الحكمة الإلهية .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قدم الأشرف فى مثلين وهو الظل والحرور ، وأخره فى مثلين وهو البصر والنور ، وفى مثل هذا يقول المفسرون إنه لتواخى أواخر الآى ، وهو ضعيف لأن تواخى الأواخر راجع إلى السجع ، ومعجزة القرآن فى المعنى لا فى مجرد اللفظ ، فالشاعر يقدم ويؤخر للسجع فيكون اللفظ حاملا له على تغيير المعنى ، وأما القرآن فحكمة بالغة والمعنى فيه صحيح واللفظ فصيح فلا يقدم ولا يؤخر اللفظ بلا معنى ، فنقول الكفار قبل النبى ﷺ كانوا فى ضلالة فكانوا كالعمى وطريقهم كالظلمة ثم لما جاء النبى ﷺ وبين الحق ، واهتدى به منهم قوم فصاروا بصيرين وطريقتهم كالنور فقال وما يستوى من كان قبل البعث على الكفر ومن اهتدى بعده إلى الإيمان ، فلما كان الكفر قبل الإيمان فى زمان محمد ﷺ ، والكافر قبل المؤمن قدم المقدم ، ثم لما ذكر المآل والمرجع قدم ما يتعلق بالرحمة على ما يتعلق بالغضب لقوله فى الإلهيات سبقت رحمتى غضبى ، ثم إن الكافر المصر بعد البعثة صار أضل من الأعمى وشابه الأموات فى عدم إدراك الحق من جميع الوجوه فقال (وما يستوى الأحياء) أى المؤمنون الذين آمنوا بما أنزل الله والأموات الذين تليت عليهم الآيات البينات ، ولم ينتفعوا بها وهؤلاء كانوا بعد إيمان من آمن فأخرهم عن المؤمنين لوجود حياة المؤمنين قبل ممات الكافرين المعاندين ، وقدم الأعمى على البصير لوجود الكفار الضالين قبل البعثة على المؤمنين المهتدين بعدها .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ فان قلت قابل الأعمى بالبصير بلفظ المفرد وكذلك الظل بالحرور وقابل الأحياء بالأموات بلفظ الجمع ، وقابل الظلمات بالنور بلفظ الجمع فى أحدهما والواحد فى الآخر ، فهل تعرف فيه حكمة؟ قلت نعم بفضل الله وهدايته ، أما فى الأعمى والبصير والظل والحرور ، فلأنه قابل الجنس بالجنس ، ولم يذكر الأفراد لأن فى العميان وأولى الأبصار قد يوجد فرد من أحد الجنسين يساوى فرداً من الجنس الآخر كالبصير الغريب فى موضع والأعمى الذى هو تربية ذلك المكان ، وقد يقدر الأعمى على الوصول إلى مقصد ولا يقدر البصير عليه ، أو يكون الأعمى عنده من الذكاء ما يساوى به البليد البصير ، فالتفاوت بينهما فى الجنسين مقطوع به فان جنس البصير خير من جنس الأعمى ، وأما الأحياء والأموات فالتفاوت بينهما أكثر ، إذ ما من ميت يساوى فى الإدراك حياً من الأحياء ، فذكر أن الأحياء لا يساوون الأموات سواء قابلت الجنس بالجنس أو قابلت الفرد بالفرد ، وأما الظلمات والنور فالحق واحد وهو التوحيد والباطل كثير وهو طرق الإشراك على ما بينا أن بعضهم يعبدون الكواكب وبعضهم النار وبعضهم الأصنام التى هى على صورة الملائكة ، وإلى غير ذلك والتفاوت بين كل فرد من تلك الأفراد وبين هذا الواحد بين ، فقال الظلمات كلها إذا اعتبرتها لا تجد فيها ما يساوى النور ، وقد ذكرنا فى تفسير قوله (وجعل الظلمات والنور) السبب فى توحيد النور وجمع الظلمات ، ومن جملة ذلك أن النور لا يكون إلا بوجود منور ومحل قابل للاستنارة وعدم الحائل بين النور والمستنير . مثاله الشمس

إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾

إذا طلعت وكان هناك موضع قابل للاستنارة وهو الذى يمسك الشعاع ، فان البيت الذى فيه كوة يدخل منها الشعاع إذا كان فى مقابلة الكوة منفذ يخرج منه الشعاع ويدخل بيتاً آخر ويبسط الشعاع على أرضه يرى البيت الثانى مضيئاً والأول مظلماً ، وإن لم يكن هناك حائل كالبيت الذى لا كوة له فانه لا يضىء ، فإذا حصلت الأمور الثلاثة يستنير البيت وإلا فلا تتحقق الظلمة بفقد أى أمر كان من الأمور الثلاثة .

قوله تعالى : ﴿ إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور ﴾ وفيه احتمال معنيين (الأول) أن يكون المراد بيان كون الكفار بالنسبة إلى سماعهم كلام النبى والوحى النازل عليه دون حال الموتى فإن الله يسمع الموتى والنبى لا يسمع من مات وقبر ، فالموتى سامعون من الله والكفار كالموتى لا يسمعون من النبى (والثانى) أن يكون المراد تسلية النبى صلى الله عليه وسلم فانه لما بين له أنه لا ينفعهم ولا يسمعهم قال له هؤلاء لا يسمعهم إلا الله ، فانه يسمع من يشاء ولو كان صخرة صماء ، وأما أنت فلا تسمع من فى القبور ، فما عليك من حسابهم من شىء .

قوله تعالى : ﴿ إن أنت إلا نذير ﴾ بياناً للتسلية .

قوله تعالى : ﴿ إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ﴾ لما قال (إن أنت إلا نذير) بين أنه ليس نذيراً من تلقاء نفسه إنما هو نذير باذن الله وإرساله .

قوله تعالى : ﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ تقريراً لأمرين (أحدهما) لتسلية قلبه حيث يعلم أن غيره كان مثله محتملا لتأذى القوم (وثانيهما) إلزام القوم قبوله فانه ليس بدعا من الرسل وإنما هو مثل غيره يدعى ماادعاه الرسل ويقرره .

قوله تعالى : ﴿ وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير ﴾

يعنى أنت جئتهم بالبينة والكتاب فكذبوك وآذوك وغيرك أيضاً أتاهم بمثل ذلك وفعلوا بهم مافعلوا بك وصبروا على ما كذبوا فكذلك نلزمهم بأن من تقدم من الرسل لم يعلم كونهم رسلا إلا بالمعجزات البينات وقد آتيناها محمداً صلى الله عليه وسلم (وبالزبر وبالكتاب المنير)

ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا

والكل آتيناها محمداً ، فهو رسول مثل الرسل يلزمهم قبوله كما لزم قبول موسى وعيسى عليهم السلام أجمعين ، وهذا يكون تقريراً مع أهل الكتاب . واعلم أنه تعالى ذكر أموراً ثلاثة أولها البينات ، وذلك لأن كل رسول فلا بد له من معجزة وهي أدنى الدرجات ، ثم قد ينزل عليه كتاب يكون فيه مواعظ وتنبيهات وإن لم يكن فيه نسخ وأحكام مشروعة شرعا ناسخاً ، ومن ينزل عليه مثله أعلى مرتبة ممن لا ينزل عليه ذلك وقد تنسخ شريعته الشرائع وينزل عليه كتاب فيه أحكام على وفق الحكمة الإلهية ، ومن يكون كذلك فهو من أولي العزم فقال الرسل تبين رسالتهم بالبينات وإن كانوا أعلى مرتبة فبالزبر ، وإن كانوا أعلى فبالكتاب والنبي آتيناه الكل فهو رسول أشرف من الكل لكون كتابه أتم وأكمل من كل كتاب .

قوله تعالى : ﴿ ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير ﴾ .

أي من كذب بالكتاب المنزل من قبل وبالرسول المرسل أخذه الله تعالى فكذلك من يكذب بالنبي عليه السلام ، وقوله (فكيف كان نكير) سؤال للتقرير فانهم علموا شدة إنكار الله عليهم وإتيانه بالأمر المنكر من الاستئصال .

قوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ﴾ .

وهذا استدلال بدليل آخر على وحدانية الله وقدرته وفي تفسيرها مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكر هذا الدليل على طريقة الاستخبار ، وقال (ألم تر) وذكر الدليل المتقدم على طريقة الإخبار وقال (والله الذي أرسل الرياح) وفيه وجهان (الأول) أن انزال الماء أقرب إلى النفع والمنفعة فيه أظهر فانه لا يخفى على أحد في الرؤية أن الماء منه حياة الأرض فعظم دلالته بالاستفهام لأن الاستفهام الذي للتقرير لا يقال إلا في الشيء الظاهر جداً كما أن من أبصر الهلال وهو خفي جداً ، فقال له غيره أين هو ، فانه يقول له في الموضع الفلاني ، فان لم يره ، يقول له الحق معك إنه خفي وأنت معذور ، وإذا كان بارزاً يقول له أما تراه هذا هو ظاهر (والثاني) وهو أنه ذكره بعد ما قرر المسألة بدليل آخر وظهر بما تقدم للمدعو بصارة بوجوه الدلالات ، فقال له أنت صرت بصيراً بما ذكرناه ولم يبق لك عذر ، ألا ترى هذه الآية .

﴿ المسألة الثانية ﴾ المخاطب من هو يحتمل وجهين (أحدهما) النبي ﷺ وفيه حكمة وهي أن الله تعالى لما ذكر الدلائل ولم تنفعهم قطع الكلام معهم والتفت إلى غيرهم ، كما أن السيد إذا نصح بعض العبيد ومنعهم من الفساد ولا ينفعهم الإرشاد ، يقول لغيره اسمع ولا تكن مثل هذا

وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ

ويكرر معه ماذكره مع الأول ويكون فيه إشعار بأن الأول فيه نقيضة لا يستأهل للخطاب فيتنبه له ويدفع عن نفسه تلك النقيصة (والآخر) أن لا يخرج إلى كلام أجنبى عن الأول ، بل يأتى بما يقاربه لئلا يسمع الأول كلاماً آخر فيترك التفكر فيما كان فيه من النصيحة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ هذا استدلال على قدرة الله واختياره حيث أخرج من الماء الواحد ثمرات مختلفة وفيه لطائف (الأولى) قال أنزل وقال أخرجنا . وقد ذكرنا فائدته ونعيدها فنقول : قال الله تعالى (ألم تر أن الله أنزل) فإن كان جاهلا يقول نزول الماء بالطبع لثقله فيقال له ، فالإخراج لا يمكنك أن تقول فيه إنه بالطبع فهو بإرادة الله ، فلما كان ذلك أظهر أسنده إلى المتكلم (ووجه آخر) هو أن الله تعالى لما قال (إن الله أنزل) علم الله بدليل ، وقرب المتفكر فيه إلى الله تعالى فصار من الحاضرين ، فقال له أخرجنا لقربه (ووجه ثالث) الإخراج أتم نعمة من الإنزال ، لأن الإنزال لفائدة الإخراج فأسند الأتم إلى نفسه بصيغة المتكلم وما دونه بصيغة الغائب .

(اللطيفة الثانية) قال تعالى ﴿ ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ﴾

كأن قائلا قال اختلاف الثمرات لاختلاف البقاع . ألا ترى أن بعض النباتات لاتنبت ببعض البلاد كالزعفران وغيره ، فقال تعالى اختلاف البقاع ليس إلا بارادة الله وإلا فلم صار بعض الجبال فيه مواضع حمر ومواضع بيض ، والجدد جمع جدة وهى الخطة أو الطريقة ، فان قيل الواو فى (ومن الجبال)ما تقديرها ؟ نقول هى تحتمل وجهين(أحدهما)أن تكون للاستئناف كأنه قال تعالى وأخرجنا بالماء ثمرات مختلفة الألوان ، وفى الأشياء الكائنات من الجبال جدد بيض دالة على القدرة ، رادة على من ينكر الارادة فى اختلاف ألوان الثمار (ثانيهما) أن تكون للعطف تقديرها وخلق من الجبال . قال الزمخشرى : أراد ذو جدد (واللطيفة الثالثة) ذكر الجبال ولم يذكر الأرض كما قال فى موضع آخر (وفى الأرض قطع متجاورات) مع أن هذا الدليل مثل ذلك ، وذلك لأن الله تعالى لما ذكر فى الأول (أخرجنا به ثمرات) كان نفس إخراج الثمار دليلا على القدرة ثم زاد عليه بياناً ، وقال مختلفاً كذلك فى الجبال فى نفسها دليل للقدرة والإرادة ، لأن كون الجبال فى بعض نواحى الأرض دون بعضها والاختلاف الذى فى هيئة الجبل فان بعضها يكون أخفض وبعضها أرفع دليل القدرة والاختيار ، ثم زاده بياناً وقال جدد بيض ، أى مع دلالتها بنفسها هى دالة باختلاف ألوانها ، كما أن إخراج الثمرات فى نفسها دلائل واختلاف

إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾

ألوانها دلائل .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ مختلف ألوانها . الظاهر أن الاختلاف راجع إلى كل لون ، أى بيض مختلف ألوانها ، وحمر مختلف ألوانها ، لأن الأبيض قد يكون على لون الجص ، وقد يكون على لون التراب الأبيض دون بياض الجص ، وكذلك الأحمر ، ولو كان المراد أن البيض والحمر مختلف الألوان لكان مجرد تأكيد والأول أولى ، وعلى هذا فنقول لم يذكر مختلف ألوانها بعد البيض والحمر والسود ، بل ذكره بعد البيض والحمر وأخر السود الغرابيب ، لأن الأسود لما ذكره مع المؤكد وهو الغرابيب يكون بالغاً غاية السواد فلا يكون فيه اختلاف .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قيل بأن الغربيب مؤكد للأسود ، يقال أسود غربيب والمؤكد لايجيء إلا متأخراً فكيف جاء غرابيب سود ؟ نقول قال الزمخشرى : غرابيب مؤكد لذى لون مقدر فى الكلام كأنه تعالى قال سواد غرابيب ، ثم أعاد السود مرة أخرى وفيه فائدة وهى زيادة التأكيد لأنه تعالى ذكره مضمراً ومظهراً ، ومنهم من قال هو على التقديم والتأخير ، ثم قال تعالى (ومن الناس والدواب والأنعام) استدلالا آخر على قدرته وإرادته ، وكأن الله تعالى قسم دلائل الخلق فى العالم الذى نحن فيه وهو عالم المركبات قسمين : حيوان وغير حيوان ، وغير الحيوان إما نبات وإما معدن ، والنبات أشرف ، وأشار إليه بقوله (فأخرجنا به ثمرات) ثم ذكر المعدن بقوله (ومن الجبال) ثم ذكر الحيوان وبدأ بالأشرف منها وهو الانسان فقال (ومن الناس) ثم ذكر الدواب ، لأن منافعها فى حياتها والأنعام منفعتها فى الأكل منها ، أو لأن الدابة فى العرف تطلق على الفرس وهو بعد الانسان أشرف من غيره ، وقوله (مختلف ألوانه) القول فيه كما أنها فى أنفسها دلائل ، كذلك فى اختلافها دلائل . وأما قوله (مختلف ألوانه) فذكر لكون الإنسان من جملة المذكورين ، وكون التذكير أعلى وأولى .

قوله تعالى : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور ﴾

الخشية بقدر معرفة المخشى ، والعالم يعرف الله فيخافه ويرجوه . وهذا دليل على أن العالم أعلى درجة من العابد ، لأن الله تعالى قال (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) فبين أن الكرامة بقدر التقوى ، والتقوى بقدر العلم . فالكرامة بقدر العلم لا بقدر العمل ، نعم العالم إذا ترك العمل قدح ذلك فى علمه ، فان من يراه يقول : لو علم لعمل . ثم قال تعالى (إن الله عزيز غفور) ذكر ما يوجب الخوف والرجاء ، فكونه عزيزاً ذا انتقام يوجب الخوف التام ، وكونه غفوراً لما دون ذلك يوجب الرجاء البالغ . وقراءة من قرأ بنصب العلماء ورفع الله ، معناها إنما يعظم ويبجل .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ

قوله تعالى : ﴿ إن الذين يتلون كتاب الله ﴾

لما بين العلماء بالله وخشيتهم وكرامتهم بسبب خشيتهم ذكر العالمين بكتاب الله العاملين بما فيه . وقوله (يتلون كتاب الله) إشارة إلى الذكر .

قوله تعالى : ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ إشارة إلى العمل البدنى .

وقوله ﴿ وأنفقوا مما رزقناهم ﴾ إشارة إلى العمل المالى ، وفى الآيتين حكمة بالغة ، فقوله إنما يخشى الله إشارة إلى عمل القلب ، وقوله (إن الذين يتلون) إشارة إلى عمل اللسان . وقوله (وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم) إشارة إلى عمل الجوارح ، ثم إن هذه الأشياء الثلاثة متعلقة بجانب تعظيم الله والشفقة على خلقه ، لأنا بينا أن من يعظم ملكاً إذا رأى عبداً من عباده فى حاجة يلزمه قضاء حاجته وإن تهاون فيه يخل بالتعظيم ، وإلى هذا أشار بقوله : عبدى مرضت فما عدتنى ، فيقول العبد : كيف تمرض وأنت رب العالمين ، فيقول الله مرض عبدى فلان وما زرته ولو زرته لوجدتنى عنده ، يعنى التعظيم متعلق بالشفقة فحيث لاشفقة على خلق الله لا تعظيم لجانب الله .

قوله تعالى : ﴿ سراً وعلانية ﴾ حث على الإنفاق كيفما يتهيأ ، فان تهيأ سراً فذاك ونعم وإلا فعلانية ولا يمنعه ظنه أن يكون رياء ، فان ترك الخير مخافة أن يقال فيه إنه مراء عين الرياء ويمكن أن يكون المراد بقوله (سراً) أى صدقة (وعلانية) أى زكاة . فان الإعلان بالزكاة كالإعلان بالفرض وهو مستحب .

قوله تعالى : ﴿ يرجون تجارة لن تبور ﴾ إشارة إلى الإخلاص ، أى ينفقون لا ليقال إنه كريم ولا لشىء من الأشياء غير وجه الله ، فان غير الله بائر والتاجر فيه تجارته بائرة .

قوله تعالى : ﴿ ليوفيهم أجورهم ﴾ أى مايتوقعونه ولو كان أمراً بالغ الغاية ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ أى يعطيهم ما لم يخطر ببالهم عند العمل ، ويحتمل أن يكون يزيدهم النظر إليه كما جاء فى تفسير الزيادة ﴿ إنه غفور ﴾ عند إعطاء الأجور ﴿ شكور ﴾ عند إعطاء الزيادة .

قوله تعالى : ﴿ والذى أوحينا إليك من الكتاب هو الحق ﴾.

لما بين الأصل الأول وهو وجود الله الواحد بأنواع الدلائل من قوله (والله الذى أرسل

مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ

الرياح ، وقوله (والله خلقكم) وقوله (ألم تر أن الله أنزل) ذكر الأصل الثانى وهو الرسالة ، فقال (والذى أوحينا إليك من الكتاب هو الحق) وأيضاً كأنه قد ذكر أن الذين يتلون كتاب الله يوفيهم الله فقال (والذى أوحينا إليك من الكتاب هو الحق) تقريراً لما بين من الأجر والثواب فى تلاوة كتاب الله فانه حق وصدق فتاليه محق ومحقق وفى تفسيرها مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (من الكتاب) يحتمل أن يكون لابتداء الغاية كما يقال أرسل إلى كتاب من الأمير أو الوالى وعلى هذا فالكتاب يمكن أن يكون المراد منه اللوح المحفوظ يعنى الذى أوحينا من اللوح المحفوظ إليك حق ، ويمكن أن يكون المراد هو القرآن يعنى الإرشاد والتبيين الذى أوحينا إليك من القرآن ويحتمل أن يكون للبيان كما يقال أرسل إلى فلان من الثياب والقماش جملة.

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (هو الحق) آكد من قول القائل الذى أوحينا إليك حق من وجهين (أحدهما) أن تعريف الخبر يدل على أن الأمر فى غاية الظهور لأن الخبر فى الأكثر يكون نكرة ، لأن الإخبار فى الغالب يكون إعلاما بثبوت أمر لا معرفة للسامع به لأمر يعرفه السامع كقولنا زيد قام فان السامع ينبغى أن يكون عارفاً بزيد ولا يعلم قيامه فيخبر به ، فاذا كان الخبر أيضاً معلوماً فيكون الاخبار للتنبيه فيعرفان باللام كقولنا زيد العالم فى هذه المدينة إذا كان علمه مشهوراً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله ﴿ مصدقاً لما بين يديه ﴾ حال مؤكدة لكونه حقاً لأن الحق إذا كان لاخلاف بينه وبين كتب الله يكون خالياً عن احتمال البطلان وفى قوله مصدقا تقرير لكونه وحياً لأن النبى ﷺ لما لم يكن قارئاً كاتباً وأتى ببيان مافى كتب الله لا يكون ذلك إلا من الله تعالى وجواب عن سؤال الكفار وهو أنهم كانوا يقولون بأن التوراة ورد فيها كذا والإنجيل ذكر فيه كذا وكانوا يفترون من التثليث وغيره وكانوا يقولون بأن القرآن فيه خلاف ذلك فقال التوراة والإنجيل لم يبق بهما وثوق بسبب تغييركم فهذا القرآن ما ورد فيه إن كان فى التوراة فهو حق وباق على ما نزل ، وإن لم يكن فيه ويكون فيه خلافه فهو ليس من التوراة ، فالقرآن مصدق للتوراة (وفيه وجه آخر) وهو أن يقال إن هذا الوحى مصدق لما تقدم لأن الوحى لو لم يكن وجوده لكذب موسى وعيسى عليهما السلام فى إنزال التوراة والإنجيل فاذا وجد الوحى ونزل على محمد ﷺ علم جوازه وصدق به ما تقدم ، وعلى هذا ففيه لطيفة : وهى أنه تعالى جعل القرآن مصدقاً لما مضى مع أن مامضى أيضاً مصدق له لأن الوحى إذا نزل على واحد جاز أن ينزل على غيره وهو محمد ﷺ ولم يجعل ماتقدم مصدقا للقرآن لأن القرآن كونه معجزة يكفى فى تصديقه بأنه وحى ، وأما ماتقدم فلابد معه من معجزة تصدقه .

إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله ﴿ إن الله بعباده لخبير بصير ﴾ فيه وجهان (أحدهما) أنه تقرير لكونه هو الحق لأنه وحي من الله والله خبير عالم بالبواطن بصير عالم بالظواهر ، فلا يكون باطلا فى وحيه لا فى الباطن ولا فى الظاهر (وثانيهما) أن يكون جواباً لما كانوا يقولونه إنه لم لم ينزل على رجل عظيم؟ فيقال إن الله بعباده لخبير يعلم بواطنهم وبصير يرى ظواهرهم فاختار محمداً عليه السلام ولم يختر غيره فهو أصلح من الكل .

قوله تعالى : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين أصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴾ اتفق أكثر المفسرين على أن المراد من الكتاب القرآن وعلى هذا فالذين اصطفيناهم الذين أخذوا بالكتاب وهم المؤمنون والظالم والمقتصد والسابق كلهم منهم ويدل عليه قوله تعالى (جنات عدن يدخلونها) أخبر بدخولهم الجنة وكلمة (ثم أورثنا) أيضاً تدل عليه لأن الإيراث إذا كان بعد الايحاء ولا كتاب بعد القرآن فهو الموروث والايراث المراد منه الاعطاء بعد ذهاب من كان بيده المعطى ، ويحتمل أن يقال المراد من الكتاب هو جنس الكتاب كما فى قوله تعالى (جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير) والمعنى على هذا : إنا أعطينا الكتاب الذين اصطفينا وهم الأنبياء ويدل عليه أن لفظ المصطفى على الأنبياء اطلاقه كثير ولا كذلك على غيرهم ولأن قوله (من عبادنا) دل على أن العباد أكابر مكرمون بالاضافة إليه ، ثم إن المصطفين منهم أشرف منهم ولا يليق بمن يكون أشرف من الشرفاء أن يكون ظالماً مع أن لفظ الظالم أطلقه الله فى كثير من المواضع على الكافر وسمى الشرك ظلماً ، وعلى الوجه الأول الظاهر بين هناه آتينا القرآن لمن آمن بمحمد وأخذوه منه وافترقوا (فمنهم ظالم) وهو المسيء (ومنهم مقتصد) وهو الذى خلط عملا صالحاً وآخر سيئاً (ومنهم سابق بالخيرات) وهو الذى أخلص العمل لله وجرده عن السيئات ، فان قال قائل كيف قال فى حق من ذكر فى حقه أنه من عباده وأنه مصطفى إنه ظالم؟ مع أن الظالم يطلق على الكافر فى كثير من المواضع ، فنقول المؤمن عند المعصية يضع نفسه فى غير موضعها فهو ظالم لنفسه حال المعصية وإليه الإشارة بقوله ﷺ « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » ويصحح هذا قول عمر رضى الله عنه عن النبى ﷺ « ظالمنا مغفور له » وقال آدم عليه السلام مع كونه مصطفى (ربنا ظلمنا أنفسنا) وأما الكافر فيضع قلبه الذى به اعتبار الجسد فى غير موضعه فهو ظالم على الاطلاق ، وأما قلب المؤمن فطمئن بالإيمان لا يضعه فى غير التفكر فى آلاء الله ولا يضع فيه غير محبة الله ، وفى المراتب الثلاث أقوال كثيرة (أحدها) الظالم هو الراجح السيئات والمقتصد هو الذى

ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾

تساوت سيئاته وحسناته والسابق هو الذى ترجحت حسناته (ثانيها) الظالم هو الذى ظاهره خير من باطنه ، والمقتصد من تساوى ظاهره وباطنه ، والسابق من باطنه خير (ثالثها) الظالم هو الموحد بلسانه الذى تخالفه جوارحه ، والمقتصد هو الموحد الذى يمنع جوارحه من المخالفة بالتكليف ، والسابق هو الموحد الذى ينسيه التوحيد عن التوحيد (ورابعها) الظالم صاحب الكبيرة ، والمقتصد صاحب الصغيرة ، والسابق المعصوم (خامسها) الظالم التالى للقرآن غير العالم به والعامل بموجبه ، والمقتصد التالى العالم ، والسابق التالى العالم العامل (سادسها) الظالم الجاهل والمقتصد المتعلم والسابق العالم (سابعها) الظالم أصحاب المشأمة ، والمقتصد أصحاب الميمنة ، والسابق السابقون المقربون (ثامنها) الظالم الذى يحاسب فيدخل النار ، والمقتصد الذى يحاسب فيدخل الجنة ، والسابق الذى يدخل الجنة من غير حساب (تاسعها) الظالم المصر على المعصية ، والمقتصد هو النادم والتائب ، والسابق هو المقبول التوبة (عاشرها) الظالم الذى أخذ القرآن ولم يعمل ، به والمقتصد الذى عمل به ، والسابق الذى أخذه وعمل به وبين للناس العمل به فعملوا به بقوله فهو كامل ومكمل ، والمقتصد كامل والظالم ناقص ، والمختار هو أن الظالم من خالف فترك أوامر الله وارتكب مناهيه فانه واضع للشىء فى غير موضعه ، والمقتصد هو المجتهد فى ترك المخالفة وإن لم يوفق لذلك وندر منه ذنب وصدر عنه إثم فانه اقتصد واجتهد وقصد الحق والسابق هو الذى لم يخالف بتوفيق الله ويدل عليه قوله تعالى (باذن الله) أى اجتهد ووفق لما اجتهد فيه وفيما اجتهد فهو سابق بالخير يقع فى قلبه فيسبق إليه قبل تسويل النفس والمقتصد يقع فى قلبه فتردده النفس ، والظالم تغلبه النفس ، ونقول بعبارة أخرى من غلبته النفس الأمارة وأمرته فأطاعها ظالم ومن جاهد نفسه فغلب تارة وغلب أخرى فهو المقصد ومن قهر نفسه فهو السابق وقوله (ذلك هو الفضل الكبير) يحتمل وجوهاً (أحدها) التوفيق المدلول عليه بقوله (باذن الله ذلك هو الفضل الكبير) ، (ثانيها) السبق بالخيرات هو الفضل الكبير (ثالثها) الإيراث فضل كبير هذا على الوجه المشهور من التفسير ، أما الوجه الآخر وهو أن يقال (ثم أورثنا الكتاب) أى جنس الكتاب ، كما قال تعالى (جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير) يرد عليه أسئلة (أحدها) ثم للتراخى وإيتاء الكتاب بعد الإيحاء إلى محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن فما المراد بكلمة ثم ؟ نقول معناه إن الله خبير بصير خبرهم وأبصرهم ثم أورثهم الكتاب كأنه قال تعالى إنا علمنا البواطن وأبصرنا الظواهر فاصطفينا عباداً (ثم أورثناهم الكتاب) ، (ثانيها) كيف يكون من الأنبياء ظالم لنفسه؟ نقول منهم غير راجع إلى الأنبياء المصطفين ، بل المعنى إن الذى أوحينا إليك هو الحق وأنت المصطفى كما اصطفينا رسلا وآتيناهم كتباً ، ومنهم أى من قومك

جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٣٣﴾

ظالم كفر بك وبما أنزل إليك ومقتصد آمن بك ولم يأت بجميع ما أمرته به وسابق آمن وعمل صالحاً (وثالثها) قوله (جنات عدن يدخلونها) الداخلون هم المذكورون وعلى ما ذكرتم لا يكون الظالم داخلا ، نقول الداخلون هم السابقون ، وأما المقتصد فأمره موقوف أو هو يدخل النار أولا ثم يدخل الجنة والبيان لأول الأمر لا لما بعده ، ويدل عليه قوله (يحلون فيها من أساور من ذهب) وقوله (أذهب عنا الحزن) .

ثم قال ﴿ جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير ﴾ وفي الداخلين وجوه (أحدها) الأقسام الثلاثة وهي على قولنا أن الظالم والمقتصد والسابق أقسام المؤمنين (والثاني) الذين يتلون كتاب الله (والثالث) هم السابقون وهو أقوى لقرب ذكرهم ولأنه ذكر إكرامهم بقوله (يحلون) فالمكرم هو السابق وعلى هذا فيه أبحاث :

﴿ الأول ﴾ تقديم الفاعل على الفعل وتأخير المفعول عنه موافق لترتيب المعنى إذا كان المفعول حقيقياً كقولنا (الله خلق السموات) وقول القائل : زيد بنى الجدار فان الله موجود قبل كل شيء ، ثم له فعل هو الخلق ، ثم حصل به المفعول وهو السموات ، وكذلك زيد قبل البناء ثم الجدار من بنائه ، وإذا لم يكن المفعول حقيقياً كقولنا زيد دخل الدار وضرب عمراً فان الدار في الحقيقة ليس مفعولا للداخل وإنما فعل من أفعاله تحقق بالنسبة إلى الدار ، وكذلك عمرو فعل من أفعال زيد تعلق به فسمي مفعولا لا يحصل هذا الترتيب ، ولكن الأصل تقديم الفاعل على المفعول ولهذا يعاد المفعول المقدم بالضمير تقول عمراً ضربه زيد فتوقعه بعد الفعل بالهاء العائدة إليه وحينئذ يطول الكلام فلا يختاره الحكيم إلا لفائدة ، فما الفائدة في تقديم الجنات على الفعل الذي هو الدخول وإعادة ذكر بالهاء في يدخلونها ، وما الفرق بين هذا وبين قول القائل يدخلون جنات عدن ؟ نقول السامع إذا علم أن له مدخلا من المداخل وله دخول ولم يعلم عين المدخل فاذا قيل له أنت تدخل فالى أن يسمع الدار أو السوق يبقى متعلق القلب بأنه في أي المداخل يكون ، فاذا قيل له دار زيد تدخلها فبذكر الدار ، يعلم مدخله وبما عنده من العلم السابق بأن له دخولا يعلم الدخول فلا يبقى له توقف ولا سيما الجنة والنار ، فان بين المدخلين بوناً بعيداً (الثاني) قوله (يحلون فيها) إشارة إلى سرعة الدخول فان التحلية لو وقعت خارجا لكان فيه تأخير الدخول فقال (يدخلونها) وفيها تقع تحليتهم (الثالث) قوله (من أساور) بجمع الجمع فانه جمع أسورة وهي جمع سوار ، وقوله (ولباسهم فيها حرير) ليس كذلك لأن الإكثار من اللباس

وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ

يدل على حاجة من دفع برد أو غيره والاكثار من الزينة لايدل إلا على الغنى (الرابع) ذكر الأساور من بين سائر الحلى فى كثير من المواضع منها قوله تعالى (وحلوا أساور من فضة) وذلك لأن التحلى بمعنيين (أحدهما) إظهار كون المتحلى غير مبتذل فى الأشغال لأن التحلى لا يكون حالة الطبخ والغسل (وثانيهما) إظهار الاستغناء عن الأشياء وإظهار القدرة على الأشياء وذلك لأن التحلى إما باللآلىء والجواهر وإما بالذهب والفضة والتحلى بالجواهر واللآلىء يدل على أن المتحلى لا يعجز عن الوصول إلى الأشياء الكبيرة عند الحاجة حيث يعجز عن الوصول إلى الأشياء القليلة الوجود لا لحاجة ، والتحلى بالذهب والفضة يدل على أنه غير محتاج حاجة أصلية وإلا لصرف الذهب والفضة إلى دفع الحاجة ، إذا عرفت هذا فنقول الأساور محلها الأيدى وأكثر الأعمال باليد فانها للبطش ، فاذا حليت بالأساور علم الفراغ والذهب واللؤلؤ إشارة إلى النوعين اللذين منهما الحلى .

قوله تعالى : ﴿ وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور ﴾ .

فى الحزن أقوال كثيرة والأولى أن يقال المراد إذهاب كل حزن والألف واللام للجنس واستغراقه وإذهاب الحزن بحصول كل ماينبغى وبقائه دائماً فان شيئاً منه لو لم يحصل لكان الحزن موجوداً بسببه وإن حصل ولم يدم لكان الحزن غير ذاهب بعد بسبب زواله وخوف فواته ، وقوله (إن ربنا لغفور شكور) ذكر الله عنهم أموراً كلها تفيد الكرامة من الله (الأول) الحمد فان الحامد مثاب (الثانى) قولهم ربنا فان الله لم يناد بهذا اللفظ إلا واستجاب لهم ، اللهم إلا أن يكون المنادى قد ضيع الوقت الواجب أو طلب مالا يجوز كالرد إلى الدنيا من الآخرة (الثالث) قولهم (غفور) ، (الرابع) قولهم (شكور) والغفور إشارة إلى ما غفر لهم فى الآخرة بما وجد لهم من الحمد فى الدنيا ، والشكور إشارة إلى ما يعطيهم ويزيد لهم بسبب ما وجد لهم فى الآخرة من الحمد .

قوله تعالى : ﴿ الذى أحلنا دار المقامة من فضله ﴾ أى دار الإقامة ، لما ذكر الله سرورهم وكرامتهم بتحليتهم وإدخالهم الجنات بين سرورهم ببقائهم فيها وأعلمهم بدوامها حيث قالوا (الذى أحلنا دار المقامة) أى الإقامة والمفعول ربما يجىء للمصدر من كل باب يقال ماله معقول أى عقل ، وقال تعالى (مدخل صدق) وقال تعالى (ومزقناهم كل ممزق) وكذلك مستخرج للاستخراج وذلك لأن المصدر هو المفعول فى الحقيقة ، فانه هو الذى فعل فجاز إقامة المفعول مقامه وفى قوله (دار المقامة) إشارة إلى أن الدنيا منزلة ينزلها المكلف ويرتحل عنها إلى منزلة القبور ومنها إلى منزلة

لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾

العرصة التى فيها الجمع ومنها التفريق . وقد تكون النار لبعضهم منزلة أخرى والجنة دار المقامة ، وكذلك النار لأهلها وقولهم (من فضله) أى بحكم وعده لا بايجاب من عنده .

قوله تعالى : ﴿ لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب ﴾ . اللغوب الإعياء والنصب هو السبب للاعياء فان قال قائل إذا بين أنه (لا يمسهم فيها نصب) علم أنه (لا يمسهم فيها لغوب) ولا ينفى المتكلم الحكيم السبب ، ثم ينفى مسببه بحرف العطف فلا يقول القائل لا أكلت ولا شبعت أو لا قمت ولا مشيت والعكس كثير فانه يقال لا شبعت ولا أكلت لما أن نفى الشبع لا يلزمه إنتفاء الأكل وسياق ما تقرر أن يقال لا يمسنا فيها إعياء ولا مشقة ، فنقول ما قال الله فى غاية الجلالة وكلام الله أجل وبيانه أجمل ، ووجهه هو أنه تعالى بين مخالفة الجنة لدار الدنيا فان الدنيا أماكنها على قسمين : (أحدهما) موضع تمس فيه المشاق والمتاعب كالبرارى والصحارى والطرقات والأراضى (والآخر) موضع يظهر فيه الإعياء كالبيوت والمنازل التى فى الأسفار من من الخانات فان من يكون فى مباشرة شغل لا يظهر عليه الاعياء إلا بعد ما يستريح فقال تعالى (لا يمسنا فيها نصب) أى ليست الجنة كالمواضع التى فى الدنيا مظان المتاعب بل هى أفضل من المواضع التى هى مواضع مرجع العى ، فقال (ولا يمسنا فيها لغوب) أى ، لانخرج منها إلى مواضع نتعب ونرجع إليها فيمسنا فيها الاعياء وقرىء (لغوب) بفتح اللام والترتيب على هذه القراءة ظاهر كأنه قال لا نتعب ولا يمسنا مايصلح لذلك ، وهذا لأن القوى السوى إذا قال ماتعبت اليوم لا يفهم من كلامه أنه ما عمل شيئاً لجواز أنه عمل عملا لم يكن بالنسبة إليه متعباً لقوته ، فإذا قال ما مسنى ما يصلح أن يكون متعباً يفهم أنه لم يعمل شيئاً لأن نفس العمل قد يصلح أن يكون متعباً لضعيف أو متعباً بسبب كثرته ، واللغوب هو ما يلغب منه وقيل النصب التعب الممرض ، وعلى هذا لحسن الترتيب ظاهر كأنه قال لا يمسنا مرض ولا دون ذلك وهو الذى يعيا منه مباشره .

قوله تعالى : ﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم ﴾ عطف على قوله (إن الذين يتلون كتاب الله) وما بينهما كلام يتعلق بالذين يتلون كتاب الله على ما بينا وقوله (جنات عدن يدخلونها) قد ذكرنا أنه على بعض الأقوال راجع إلى (الذين يتلون كتاب الله) .

قوله تعالى : ﴿ لا يقضى عليهم فيموتوا ﴾ أى لا يستريحون بالموت بل العذاب دائم .

قوله تعالى : ﴿ ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزى كل كفور ﴾ أى النار وفيه لطائف

وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ

(الأولى) أن العذاب فى الدنيا إن دام كثيراً يقتل فان لم يقتل يعتاده البدن ويصير مزاجا فاسداً متمكنا لايحس به المعذب ، فقال عذاب نار الآخرة ليس كعذاب الدنيا ، إما أن يفنى ، وإما أن يألفه البدن بل هو فى كل زمان شديد والمعذب فيه دائم (الثانية) راعى الترتيب على أحسن وجه وذلك لأن الترتيب أن لا ينقطع العـذاب ، ولا يفتر فقال لا ينقطع ولا بأقوى الأسباب وهو الموت حتى يتمنون الموت ولايجابون كما قال تعالى (ونادوا يامالك ليقض علينا ربك) أى بالموت (الثالثة) فى المعذبين اكتفى بأنه لا ينقص عذابهم ، ولم يقل نزيدهم عذاباً . وفى المثابين ذكر الزيادة بقوله (ويزيدهم من فضله) ثم لما بين أن عذابهم لايخفف .

قال تعالى ﴿وهم يصطرخون فيها﴾ أى لايخفف وإن اصطرخوا واضطربوا لايخفف الله من عنده إنعاماً إلى أن يطلبوه بل يطلبون ولايجدون والاصطراخ من الصراخ والصراخ صوت المعذب

وقوله تعالى ﴿ ربنا أخرجنا ﴾ أى صراخهم بهذا أى يقولون (ربنا أخرجنا). لأن صراخهم كلام وفيه إشارة إلى أن إيلامهم تعذيب لاتأديب ، وذلك لأن المؤدب إذا قال لمؤدبه : لا أرجع إلى مافعلت وبئسما فعلت يتركه ، وأما المعذب فلا وترتيبه حسن وذلك لأنه لما بين أنه لايخفف عنهم بالكلية ولايعفو عنهم بين أنه لايقبل منهم وعداً وهذا لأن المحبوس يصبر لعله يخرج من غير سؤال فاذا طال لبثه تطلب الاخراج من غير قطيعة على نفسه فان لم يفده يقطع على نفسه قطيعة ويقول أخرجنى أفعل كذا وكذا .

واعلم أن الله تعالى قد بين أن من يكون فى الدنيا ضالا فهو فى الآخرة ضال كما قال تعالى (ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى) ثم إنهم لم يعلموا أن العود إلى الدنيا بعيد محال بحكم الإخبار.

وعلى هذا قالوا ﴿نعمل صالحاً﴾ جازمين من غير إستعانة بالله ولامثنوية فيه ، ولم يقولوا إن الأمر بيد الله ، فقال الله لهم إذا كان اعتمادكم على أنفسكم فقد عمرناكم مقداراً يمكن التذكر فيه والإتيان بالإيمان والإقبال على الأعمال .

وقولهم ﴿ غير الذى كنا نعمل ﴾ إشارة إلى ظهور فساد عملهم لهم وكأن الله تعالى كما لم يهدهم فى الدنيا لم يهدهم فى الآخرة ، فما قالوا ربنا زدت للمحسنين حسنات بفضلك لابعملهم ونحن أحوج إلى تخفيف العذاب منهم إلى تضعيف الثواب فافعل بنا ما أنت أهله نظراً إلى فضلك ولا تفعل بنا ما نحن أهله نظراً إلى عدلك وانظر إلى مغفرتك الهاطلة ولاتنظر إلى معذرتنا الباطلة ، وكما هدى الله المؤمن فى الدنيا هداه فى العقبى حتى دعاه بأقرب دعاء إلى الاجابة وأثنى عليه بأطيب ثناء عند الإنابة فقالوا الحمد لله وقالوا ربنا غفور اعترافا بتقصيرهم شكور إقراراً بوصول مالم يخطر ببالهم إليهم وقالوا (أحلنا دار المقامة من فضله) أى لاعمل لنا بالنسبة إلى نعم الله وهم قالوا (أخرجنا نعمل صالحاً

نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾

إغماضاً فى حق تعظيمه وإعراضاً عن الاعتراف بعجزهم عن الإتيان بما يناسب عظمته، ثم إنه تعالى بين أنه آتاهم ما يتعلق بقبول المحل من العمر الطويل وما يتعلق بالفاعل فى المحل، فإن النبى ﷺ كفاعل الخير فيهم ومظهر السعادا .

قوله تعالى : ﴿ أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير ﴾

فإن المانع إما أن يكون فيهم حيث لم يتمكنوا من النظر فيما أنزل الله . وإما أن يكون فى مرشدهم حيث لم يتل عليهم ما يرشدهم .

قوله تعالى : ﴿ فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾ وقوله (فذوقوا) إشارة إلى الدوام وهو أمر إهانة . فما للظالمين الذين وضعوا أعمالهم وأقوالهم فى غير موضعها وأتوا بالمعذرة فى غير وقتها من نصير فى وقت الحاجة ينصرهم ، قال بعض الحكماء قوله (فما للظالمين من نصير) وقوله (وما للظالمين من أنصار) يحتمل أن يكون المراد من الظالم الجاهل جهلا مركباً ، وهو الذى يعتقد الباطل حقاً فى الدنيا (وما له من نصير) أى من علم ينفعه فى الآخرة ، والذى يدل عليه هو أن الله تعالى سمى البرهان سلطاناً ، كما قال تعالى (فأتوا بسلطان) والسلطان أقوى ناصر إذ هو القوة أو الولاية وكلاهما ينصر والحق التعميم ، لأن الله لا ينصره وليس غيره نصيراً فما لهم من نصير أصلا ، ويمكن أن يقال إن الله تعالى قال فى آل عمران (وما للظالمين من أنصار) وقال (فمن يهدى من أضل الله وما لهم من ناصرين) وقال ههنا (فما للظالمين من نصير) أى هذا وقت كونهم واقعين فى النار ، فقد أيس كل منهم من كثير ممن كانوا يتوقعون منهم النصرة ولم يبق إلا توقعهم من الله فقال (ما لكم من نصير) أصلا ، وهناك كان الأمر محكياً فى الدنيا أو فى أوائل الحشر ، فنفى ما كانوا يتوقعون منهم النصرة وهم آلهتهم .

قوله تعالى : ﴿ إن الله عالم غيب السموات والأرض إنه عليم بذات الصدور ﴾

تقريراً لدوامهم فى العذاب ، وذلك من حيث إن الله تعالى لما قال (وجزاء سيئة سيئة مثلها) ولا يزاد عليها ، فلو قال قائل : الكافر ما كفر بالله إلا أياماً معدودة ، فكان ينبغى أن لا يعذب إلا مثل تلك الأيام ، فقال تعالى إن الله لا يخفى عليه غيب السموات فلا يخفى عليه ما فى الصدور ، وكان يعلم من الكافر أن فى قلبه تمكن الكفر بحيث لو دام إلى الأبد لما أطاع الله ولا عبده .

وفى قوله تعالى (بذات الصدور) مسألة قد ذكرناها مرة ونعيدها أخرى ، وهى أن لقائل أن يقول الصدور هى ذات اعتقادات وظنون ، فكيف سمى الله الاعتقادات بذات الصدور ؟

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾

ويقرر السؤال قولهم أرض ذات أشجار وذات جنى إذا كان فيها ذلك ، فكذلك الصدر فيه اعتقاد فهو ذو اعتقاد ، فيقال له لما كان اعتبار الصدر بما فيه صار ما فيه كالساكن المالك حيث لا يقال الدار ذات زيد ، ويصح أن يقال زيد ذو دار ومال وإن كان هو فيها .

قوله تعالى : ﴿ هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض ﴾

تقريراً لقطع حجتهم فانهم لما قالوا (ربنا أخرجنا نعمل صالحاً) وقال تعالى (أو لم نعمركم مايتذكر) إشارة إلى أن التمكين والإمهال مدة يمكن فيها المعرفة قد حصل وما آمنتم وزاد عليه بقوله (وجاءكم النذير) أى آتيناكم عقولا ، وأرسلنا إليكم من يؤيد المعقول بالدليل المنقول زاد على ذلك بقوله تعالى (هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض) أى نبهكم بمن مضى وحال من انقضى فانكم لو لم يحصل لكم علم بأن من كذب الرسل أهلك لكان عنادكم أخفى وفسادكم أخف ، لكن أمهلتم وعمرتم وأمرتم على لسان الرسل بما أمرتم وجعلتم خلائف فى الأرض ، أى خليفة بعد خليفة تعلمون حال الماضين وتصبحون بحالهم راضين ﴿ فمن كفر ﴾ بعد هذا كله ﴿ فعليه كفره ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً ﴾ لأن الكافر السابق كان ممقوتاً كالعبد الذى لا يخدم سيده واللاحق الذى أنذره الرسول ولم ينتبه أمقت كالعبد الذى ينصحه الناصح ويأمره بخدمة سيده ويعده ويوعده ولا ينفعه النصح ولا يسعده والتالى لهم الذى رأى عذاب من تقدم ولم يخش عذابه أمقت الكل .

قوله تعالى : ﴿ ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً ﴾ أى الكفر لا ينفع عند الله حيث لا يزيد إلا المقت ، ولا ينفعهم فى أنفسهم حيث لا يفيدهم إلا الخسارة ، فان العمر كرأس مال من اشترى به رضا الله ربح ، ومن اشترى به سخطه خسر .

قوله تعالى : ﴿ قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً ﴾

إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾

تقريراً للتوحيد وإبطالا للاشراك ، وقوله (أرأيتم) المراد منه أخبرونى ، لأن الاستفهام يستدعى جواباً ، يقول القائل أرأيت ماذا فعل زيد ؟ فيقول السامع باع أو اشترى ، ولولا تضمنه معنى أخبرنى وإلا لما كان الجواب إلا قوله لا أو نعم ، وقوله (شركاءكم) إنما أضاف الشركاء إليهم من حيث إن الأصنام فى الحقيقة لم تكن شركاء لله ، وإنما هم جعلوها شركاء ، فقال شركاءكم ، أى الشركاء بجعلكم ويحتمل أن يقال شركاءكم ، أى شركاءكم فى النار لقوله (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) وهو قريب ، ويحتمل أن يقال هو بعيد لاتفاق المفسرين على الأول وقوله (أرونى) بدل عن (أرأيتم) لأن كلهما يفيد معنى أخبرونى ، ويحتمل أن يقال قوله (أرأيتم) استفهام حقيق و (أرونى) أمر تعجيز للتبيين ، فلما قال (أرأيتم) يعنى أعلمتم هذه التى تدعونها كما هى وعلى ما هى عليه من العجز أو تتوهمون فيها قدرة ، فان كنتم تعلمونها عاجزة فكيف تعبدونها ؟ وإن كان وقع لكم أن لها قدرة فأرونى قدرتها فى أى شىء هى ، أهى فى الأرض : كما قال بعضهم : إن الله إله السماء وهؤلاء آلهة الأرض ، وهم الذين قالوا أمور الأرض من الكواكب والأصنام صورها ؟ أم هى فى السموات ، كما قال بعضهم : إن السماء خلقت باستعانة الملائكة والملائكة شركاء فى خلق السموات ، وهذه الأصنام صورها ؟ أم قدرتها فى الشفاعة لكم ، كما قال بعضهم إن الملائكة ماخلقوا شيئاً ولكنهم مقربون عند الله فنعبدها ليشفعوا لنا ، فهل معهم كتاب من الله فيه إذنه لهم بالشفاعة ؟ وقوله (أم آتيناهم كتابا) فى العائد إليه الضمير وجهان (أحدهما) أنه عائد إلى الشركاء ، أى هل آتينا الشركاء كتاباً (وثانيهما) أنه عائد إلى المشركين ، أى هل آتينا المشركين كتاباً وعلى الأول فمعناه ماذكرنا ، أى هل مع ماجعل شريكا كتاب من الله فيه أن له شفاعة عند الله ، فان أحداً لا يشفع عنده إلا باذنه ، وعلى الثانى معناه أن عبادة هؤلاء إما بالعقل ولا عقل لمن يعبد من لم يخلق من الأرض جزءاً من الأجزاء ولا فى السماء شيئاً من الأشياء ، وإما بالنقل ونحن ما آتينا المشركين كتاباً فيه أمرنا بالسجود لهؤلاء ولو أمرنا لجاز كما أمرنا بالسجود لآدم وإلى جهة الكعبة ، فهذه العبادة لا عقلية ولا نقلية فوعد بعضهم بعضاً ليس إلا غروراً غرهم الشيطان وزين لهم عبادة الأصنام.

ثم لما بين أنه لا خلق للأصنام ولا قدرة لها ولا على جزء من الأجزاء بين أن الله قدير بقوله ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفوراً ﴾ ويحتمل أن يقال لما بين شركهم قال مقتضى شركهم زوال السموات والأرض كما قال تعالى (تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً أن دعوا

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ

للرحمن ولداً) ويدل على هذا قوله تعالى فى آخر الآية (إنه كان حليما غفورا) كان حليما ما ترك تعذيبهم إلا حلماً منه وإلا كانوا يستحقون إسقاط السماء وانطباق الأرض عليهم وإنما أخر إزالة السموات إلى قيام الساعة حلماً ، وتحتمل الآية وجهاً (ثالثاً) وهو أن يكون ذلك من باب التسليم وإثبات المطلوب على تقدير التسليم أيضاً كأنه تعالى قال شركاؤكم ماخلقوا من الأرض شيئاً ولا فى السماء جزءاً ولا قدروا على الشفاعة ، فلاعبادة لهم . وهب أنهم فعلوا شيئاً من الأشياء فهل يقدرون على إمساك السموات والأرض ؟ ولا يمكنهم القول بأنهم يقدرون لأنهم ماكانوا يقولون به ، كما قال تعالى عنهم (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) ويؤيد هذا قوله (ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد بعده) فاذا تبين أن لا معبود إلا الله من حيث إن غيره لم يخلق من الأشياء وإن قال الكافر بأن غيره خلق فما خلق مثل ما خلق فلا شريك له إنه كان حليما غفوراً ، حليما حيث لم يعجل فى اهلاكهم بعد إصرارهم على إشراكهم وغفوراً يغفر لمن تاب ويرحمه وإن استحق العقاب .

قوله تعالى : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ، فلما جاءهم نذير مازادهم إلا نفوراً ، استكباراً فى الأرض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ﴾ .

لما بين إنكارهم للتوحيد ذكر تكذيبهم الرسول ومبالغتهم فيه حيث إنهم كانوا يقسمون على أنهم لا يكذبون الرسل إذا تبين لهم كونهم رسلا وقالوا إنما نكذب بمحمد ﷺ لكونه كاذباً ، ولو تبين لنا كونه رسولا لآمنا كما قال تعالى عنهم (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها) وهذا مبالغة منهم فى التكذيب ،كما أن من ينكر دين إنسان قد يقول والله لو علمت أن له شيئاً على لقضيته وزدت له ، إظهاراً لكونه مطالباً بالباطل ، فكذلك ههنا عاندوا وقالوا والله لو جاءنا رسول لكنا أهدى الأمم فلما جاءهم نذير أى محمد ﷺ جاءهم أى صح مجيؤه لهم بالبينة ما زادهم إلا نفورا ، فإنهم قبل الرسالة كانوا كافرين بالله وبعدها صاروا كافرين بالله ورسوله ولأنهم قبل الرسالة ماكانوا معذبين كما صاروا ، بعد الرسالة وقال بعض المفسرين إن أهل مكة كانوا يلعنون اليهود والنصارى على أنهم كذبوا برسلهم لما جاءوهم وقالوا لو جاءنا رسول لأطعناه

واتبعناه ، وهذا فيه اشكال من حيث إن المشركين كانوا منكرين الرسالة والحشر مطلقاً ، فكيف كانوا يعترفون بالرسل ، فمن أين عرفوا أن اليهود كذبوا وماجاءهم كتاب ولولا كتاب الله وبيان رسوله من أين كان يعلم المشركون أنهم صدقوا شيئاً وكذبوا فى شيء ؟ بل المراد ماذكرنا أنهم كانوا يقولون نحن لو جاءنا رسول لا ننكره وإنما ننكر كون محمد رسولا من حيث إنه كاذب ولو صح كونه رسولا لآمنا وقوله (فلما جاءهم) أى فلما صح لهم مجيؤه بالمعجزة ، وفى قوله (أهدى) وجهان (أحدهما) أن يكون المراد أهدى مما نحن عليه وعلى هذا فقوله (من إحدى الأمم) للتبيين كما يقول القائل زيد من المسلمين ويدل على هذا قوله تعالى (فلما جاءهم نذير مازادهم إلا نفورا) أى صاروا أضل مما كانوا وكانوا يقولون نكون أهدى (وثانيهما) أن يكون المراد أن نكون أهدى من إحدى الأمم كما يقول القائل زيد أولى من عمرو ، وفى الأمم وجهان (أحدهما) أن يكون المراد العموم أى أهدى من أى إحدى الأمم وفيه تعريض (وثانيهما) أن يكون المراد تعريف العهد أى أمة محمد وموسى وعيسى ومن كان فى زمانهم .

قوله تعالى : ﴿ استكباراً فى الأرض ﴾ ونصبه يحتمل ثلاثة أوجه (أحدها) أن يكون حالا أى مستكبرين فى الأرض (وثانيها) أن يكون مفعولا له أى للاستكبار (وثالثها) أن يكون بدلا عن النفور وقوله (ومكر السيء) إضافة الجنس إلى نوعه كما يقال علم الفقه وحرفة الحدادة وتحقيقه أن يقال معناه ومكروا مكراً سيئاً ثم عرف لظهور مكرهم ، ثم ترك التعريف باللام وأضيف إلى السيء لكون السوء فيه أبين الأمور ، ويحتمل أن يقال بأن المكر يستعمل استعمال العمل كما ذكرنا فى قوله تعالى (والذين يمكرون السيئات) أى يعملون السيئات ، ومكرهم السيء ، وهو جميع ما كان يصدر منهم من القصد إلى الإيذاء ومنع الناس من الدخول فى الايمان واظهار الانكار ، ثم قال (ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله) أى لا يحيط إلا بفاعله وفى قوله (ولا يحيق) وقوله (إلا بأهله) فوائد ، أما فى قوله (يحيق) فهى أنها تنبيء عن الإحاطة التى هى فوق اللحوق وفيه من التحذير ما ليس فى قوله ولا يلحق أو ولا يصل ، وأما فى قوله (بأهله) ففيه ماليس فى قول القائل ولا يحيق المكر السيء إلا بالماكر ، كى لا يأمن المسيء فإن من أساء ومكره سيء آخر قد يلحقه جزاء على سيئه ، وأما إذا لم يكن سيئاً فلا يكون أهلا فيأمن المكر السيء ، وأما فى النفى والإثبات ففائدته الحصر بخلاف مايقول القائل المكر السيء يحيق بأهله ، فلا ينبيء عن عدم الحيق بغير أهله ، فان قال قائل كثيراً مانرى أن الماكر يمكر ويفيده المكر ويغلب الخصم بالمكر والآية تدل على عدم ذلك ، فنقول الجواب عنه من وجوه (أحدها) أن المكر المذكور فى الآية هو المكر الذى مكروه مع النبى ﷺ من العزم على القتل والإخراج ولم يحق إلا بهم ، حيث قتلوا يوم بدر وغيره (وثانيها) هو أن نقول المكر السيء عام وهو الأصح فان النبى عليه السلام نهى عن المكر وأخبر عن النبى ﷺ أنه قال « لا تمكروا ولا تعينوا ماكراً فان الله يقول ولا يحيق المكر السيء

فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾

إلا بأهله » وعلى هذا فذلك الرجل الممكور به [لا] يكون أهلا فلا يرد نقضاً (وثالثها) أن الأمور بعواقبها ، ومن مكر به غيره ونفذ فيه المكر عاجلا فى الظاهر ففى الحقيقة هو الفائز والماكر هو الهالك وذلك مثل راحة الكافر ومشقة المسلم فى الدنيا ، ويبين هذا المعنى قوله تعالى (فهل ينظرون إلا سنة الأولين) يعنى إذا كان لمكرهم فى الحال رواج فالعاقبة للتقوى والأمور بخواتيمها ، فيهلكون كما هلك الأولون .

قوله تعالى : ﴿ فهل ينظرون إلا سنة الأولين ﴾ أى ليس لهم بعد هذا إلا انتظار الإهلاك وهو سنة الأولين وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الإهلاك ليس سنة الأولين إنما هوسنة الله بالأولين ، فنقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن المصدر الذى هو المفعول المطلق يضاف إلى الفاعل والمفعول لتعلقه بهما من وجه دون وجه فيقال فيما إذا ضرب زيد عمراً عجبت من ضرب عمرو كيف ضرب مع ماله من العزم والقوة وعجبت من ضرب زيد كيف ضرب مع ماله من العلم والحكمة فكذلك سنة الله بهم أضافها إليهم لأنها سنة سنت بهم وأضافها إلى نفسه بعدها بقوله :

﴿ فلن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ لأنها سنة من سنن الله ، إذا علمت هذا فنقول أضافها فى الأول إليهم حيث قال (سنة الأولين) لأن سنة الله الإهلاك بالاشراك والاكرام على الاسلام فلا يعلم أنهم ينتظرون أيهما فاذا قال سنة الأولين تميزت وفى الثانى أضافها إلى الله ، لأنها لما علمت فالاضافة إلى الله تعظمها وتبين أنها أمر واقع ليس لها من دافع (وثانيهما) أن المراد من سنة الأولين استمرارهم على الانكار واستكبارهم عن الاقرار ، وسنة الله استئصالهم باصرارهم فكأنه قال أنتم تريدون الإتيان بسنة الأولين والله يأتى بسنة لا تبديل لها ولا تحويل عن مستحقها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ التبديل تحويل فما الحكمة فى التكرار ؟ نقول بقوله (فلن تجد لسنت الله تبديلا) حصل العلم بأن العذاب لا تبديل له بغيره ، وبقوله (ولن تجد لسنة الله تحويلا) حصل العلم بأن العذاب مع أنه لا تبديل له بالثواب لا يتحول عن مستحقه إلى غيره فيتم تهديد المسىء .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ المخاطب بقوله (فلن تجد) يحتمل وجهين وقد تقدم مراراً (أحدهما) أن يكون عاما كأنه قال فلن تجد أيها السامع لسنة الله تبديلا (والثانى) أن يكون مع محمد صلى الله عليه وسلم وعلى هذا فكأنه قال سنة الله أنه لا يهلك ما بقى فى القوم من كتب الله إيمانه ، فاذا

أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾

آمن من فى علم الله أنه يؤمن يهلك الباقين كما قال نوح (إنك إن تذرهم) أى تمهل الأمر وجاء وقت سنتك .

قوله تعالى : ﴿ أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة ﴾ .

لما ذكر أن للأولين سنة وهى الاهلاك نبههم بتذكير حال الأولين فانهم كانوا مارين على ديارهم رائين لآثارهم وأملهم كان فوق أملهم وعملهم كان دون عملهم ، أما الأول فلطول أعمارهم وشدة اقتدارهم ، وأما عملهم فلأنهم لم يكذبوا مثل محمد ولا محمداً وأنتم ياأهل مكة كذبتم محمداً ومن تقدمه ، وقوله تعالى (وكانوا أشد منهم قوة) قد ذكرناه فى سورة الروم ، بقى فيه أبحاث :

﴿ الأول ﴾ قال هناك (كانوا أشد) من غير واو ، وقال ههنا بالواو فما الفرق ؟ نقول قول القائل : أما رأيت زيداً كيف أكرمنى وأعظم منك ، يفيد أن القائل يخبره بأن زيداً أعظم ، وإذا قال أما رأيته كيف أكرمنى هو أعظم منك يفيد أنه تقرر أن كلا المعنيين حاصل عند السامع كأنه رآه أكرمه ورآه أكبر منه ولا شك أن هذه العبارة الأخيرة تفيد كون الأمر الثانى فى الظهور مثل الأول بحيث لايحتاج إلى إعلام من المتكلم ولا إخبار ، إذا علمت هذا فنقول المذكور ههنا كونهم أشد منهم قوة لا غير ، ولعل ذلك كان ظاهراً عندهم فقال بالواو أى نظركم كما يقع على عاقبة أمرهم يقع على قوتهم ، وأما هناك فالمذكور أشياء كثيرة فانه قال (كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها) وفى موضع آخر قال (أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً فى الأرض) ولعل علمهم لم يحصل بإثارتهم الأرض أو بكثرتهم ولكن نفس القوة ورجحانهم فيها عليهم كان معلوماً عندهم فان كل طائفة تعتقد فيمن تقدمهم أنهم أقوى منهم ولا نزاع فيه .

قوله تعالى : ﴿ وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليما قديراً ﴾ يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون بياناً لهم أى أن الأولين مع شدة قوتهم ما أعجزوا الله وما فاتوه فهم أولى بأن لايعجزوه (والثانى) أن يكون قطعاً لأطماع الجهال فان قائلا لو قال هب أن الأولين كانوا أشد قوة وأطول أعماراً لكننا نستخرج بذكائنا ما يزيد على قواهم ونستعين

وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾

بأمور أرضية لها خواص أو كواكب سماوية لها آثار فقال تعالى (وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليما) بأفعالهم وأقوالهم (قديراً) على إهلاكهم واستئصالهم .

قوله تعالى : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فاذا جاء أجلهم فان الله كان بعباده بصيراً ﴾ .

لما خوف الله المكذبين بمن مضى وكانوا من شدة عنادهم وفساد اعتقادهم يستعجلون بالعذاب ويقولون عجل لنا عذابنا فقال الله : للعذاب أجل والله لا يؤاخذ الله الناس بنفس الظلم فان الإنسان ظلوم جهول ، وإنما يؤاخذ بالاصرار وحصول يأس الناس عن إيمانهم ووجود الايمان ممن كتب الله إيمانه فاذا لم يبق فيهم من يؤمن يهلك المكذبين ولو آخذهم بنفس الظلم لكان كل يوم إهلاك وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ إذا كان الله يؤاخذ الناس بما كسبوا فما بال الدواب يهلكون ؟ نقول الجواب من وجوه (أحدها) أن خلق الدواب نعمة فاذا كفر الناس يزيل الله النعم والدواب أقرب النعم لأن المفرد أولا ثم المركب والمركب إما أن يكون معدنياً وإما أن يكون نامياً والنامي إما أن يكون حيواناً وإما أن يكون نباتاً ، والحيوان إما إنسان وإما غير إنسان فالدواب أعلى درجات المخلوقات في عالم العناصر للانسان (الثاني) هو أن ذلك بيان لشدة العذاب وعمومه فان بقاء الأشياء بالانسان كما أن بقاء الإنسان بالاشياء وذلك لأن الانسان يدبر الأشياء ويصلحها فتبقى الأشياء ثم ينتفع بها الانسان فيبقى الإنسان فاذا كان الهلاك عاماً لا يبقى من الانسان من يعمر فلا تبقى الأبنية والزروع فلا تبقى الحيوانات الأهلية لأن بقاءها بحفظ الانسان إياها عن التلف والهلاك بالسقي والعلف (الثالث) هو أن إنزال المطر هو إنعام من الله في حق العباد فاذا لم يستحقوا الإنعام قطعت الأمطار عنهم فيظهر الجفاف على وجه الأرض فتموت جميع الحيوانات وقوله تعالى (ماترك على ظهرها من دابه) (الوجه الثالث) لأن بسبب انقطاع الأمطار تموت حيوانات البر ، أما حيوانات البحر فتعيش بماء البحار .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله تعالى (على ظهرها) كناية عن الأرض وهي غير مذكورة فكيف علم ؟ نقول بما تقدم وبما تأخر ، أما ما تقدم فقوله (وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض) فهو أقرب المذكورات الصالحة لعود الهاء إليها ، وأما ما تأخر فقوله (من دابة) لأن الدواب على ظهر الأرض ، فان قيل كيف يقال لما عليه الخلق من الأرض وجه الأرض

وظهر الأرض ، مع أن الوجه مقابل الظهر كالمضاد ؟ نقول من حيث إن الأرض كالدابة الحاملة للأثقال والحمل يكون على الظهر يقال له ظهر الأرض ، ومن حيث إن ذلك هو المقابل للخلق المواجه لهم يقال له وجهها ، على أن الظهر فى مقابلة البطن والظهر والظاهر من باب والبطن والباطن من باب ، فوجه الأرض ظهر لأنه هو الظاهر وغيره منها باطن وبطن .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى قوله تعالى (ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى) وجوه : (أحدها) إلى يوم القيامة وهو مسمى مذكور فى كثير من المواضع (ثانيها) يوم لا يوجد فى الخلق من يؤمن على ما تقدم (ثالثها) لكل أمة أجل ولكل أجل كتاب وأجل قوم محمد ﷺ أيام القتل والأسر كيوم بدر وغيره .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله تعالى (فاذا جاء أجلهم ، فان الله كان بعباده بصيراً) تسلية للمؤمنين للمؤمنين ، وذلك لأنه تعالى لما قال (ما ترك على ظهرها من دابة) وقال (لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) قال فاذا جاء الهلاك فالله بالعباد بصير ، إما أن ينجيهم أو يكون توفيهم تقريباً من الله لا تعذيباً ، لا يقال قد ذكرت أن الله لا يؤاخذ بمجرد الظلم ، وإنما يؤاخذ حين يجتمع الناس على الضلال ونقول بأنه تعالى عند الإهلاك يهلك المؤمن فكيف هذا ، نقول قد ذكرنا أن الإماتة والإفناء إن كان للتعذيب فهو مؤاخذة بالذنب وإهلاك ، وإن كان لإيصال الثواب فليس بإهلاك ولا بمؤاخذة ، والله لا يؤاخذ الناس إلا عند عموم الكفر ، وقوله (بصير) اللفظ أتم فى التسلية من العلم وغيره لأن البصير بالشيء الناظر إليه أولى بالإنجاء من العالم بحالة دون أن يراه والله أعلم . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سورة فاطر

مكيةٌ في قولِ الجميع، وهي خمسٌ وأربعون آيةً

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يجوز في «فاطر» ثلاثةُ أوْجُهٍ: الخفضُ على النعت، والرفعُ على إضمارِ مبتدأ، والنصبُ على المدح. وحكى سيبويه: الحمدُ للهِ أهل الحمد [مثله]، وكذا «جاعِلِ الملائكةِ»(١). والفاطِرُ: الخالق. وقد مضى في «يوسف»(٢) وغيرِها. والفَطْر: الشَّقُّ عن الشيء؛ يقال: فَطرتُه فانْفَطَر. ومنه: فَطَرَ نابُ البعير: طَلَعَ، فهو بعيرٌ فاطِرٌ. وتفطَّر الشيءُ: تَشَقَّق. وسيفٌ فُطَار، أي: فيه تشقُّقٌ؛ قال عنترة:

وسيفي كالعقيقة فهو كِمْعِي   سلاحي لا أفَلَّ ولا فُطارا(٣)

والفَطْرُ: الابتداءُ والاختراع؛ قال ابن عباس: كنتُ لا أدري ما ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ حتى أتاني أعرابيَّان يختصمان في بئر، فقال أحدُهما: أنا فَطَرتُها، أي: أنا ابتدأتُها. والفَطْر: حلبُ الناقة بالسبَّابة والإبهام(٤). والمرادُ بِذِكْرِ السماوات والأرض

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٥٩، وما سلف بين حاصرتين منه. وقول سيبويه في الكتاب ٢/ ٦٢-٦٣.
(٢) ١١/ ٤٦٣.
(٣) ديوان عنترة ص٤٣، والمعاني الكبير ٢/ ١٠٨٢، والصحاح (فطر) والكلام منه. قال ابن قتيبة: العقيقة: لمعة البرق. كِمْعي: ضجيعي، يريد أنه إلى جانبي، أفلّ: به فُلول، والفُطار: الذي لم يصقل، فهو متشقِّق.
(٤) الصحاح (فطر)، وخبر ابن عباس أخرجه أبو عبيد في غريب القرآن ٤/ ٤٧٣، والطبري ٩/ ١٧٥، وأبو بكر الأنباري في إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٧١-٧٢، وابن عبد البر في التمهيد ١٨/ ٧٨.

العالمُ كلُّه، ونبَّه بهذا على أنَّ مَن قدر على الابتداء قادرٌ على الإعادة.

﴿جَاعِلِ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ لا يجوزُ فيه التنوين؛ لأنَّه لِمَا مَضَى. ﴿رُسُلًا﴾ مفعولٌ ثانٍ، ويقالُ: على إضمارِ فعلٍ؛ لأنَّ «فاعلاً» إذا كان لِمَا مضى لم يعمل[1] شيئاً، وإعمالُه على أنه مستقبلٌ حُذِفَ التنوينُ منه تخفيفاً. وقرأ الضحاك: «الحمدُ للهِ فَطَر السماواتِ والأرض» على الفعل الماضي[2].

﴿جَاعِلِ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ الرسلُ منهم جبريلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ ومَلَكُ الموت، صلى الله عليهم أجمعين. وقرأ الحسن: «جَاعِلُ الملائكة» بالرفع[3]. وقرأ خُلَيد بن نَشِيط: «جَعَلَ الملائكة»[4] وكلُّه ظاهر.

﴿أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ﴾ نعتٌ، أي: أصحابَ أجنحةٍ. ﴿مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾ أي: اثنين اثنين، وثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة. قال قتادة: بعضُهم له جناحان، وبعضُهم ثلاثةٌ، وبعضُهم أربعةٌ[5]، ينزلون بها من السماء إلى الأرض، ويعرجون من الأرض إلى السماء، وهي مسيرةُ كذا في وقتٍ واحد، أي: جَعَلَهم رسلاً. قال يحيى بن سلام: إلى الأنبياء. وقال السُّدِّيُّ: إلى العباد برحمةٍ أو نقمة[6].

وفي «صحيح» مسلم[7] عن ابن مسعود ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ رأى جبريلَ عليه السلام له ستُّ مئة جَناح.

وعن الزُّهريِّ: أنَّ جبريل عليه السلام قال له: «يا محمد، لو رأيتَ إسرافيل، إنَّ

---

(١) بعدها في النسخ عدا (ظ): فيه، والمثبت من (ظ)، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٥٩، والكلام منه.
(٢) القراءات الشاذة: ص١٢٣، والمحتسب ٢/ ١٩٨.
(٣) القراءات الشاذة: ص١٢٣، والمحتسب ٢/ ١٩٨.
(٤) المحتسب ٢/ ١٩٨.
(٥) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٢٦.
(٦) ذكر القولين الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٦١. وقول السدي أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ٢٤٤.
(٧) برقم (١٧٤)، وهو عند أحمد (٣٧٨٠)، والبخاري (٣٢٣٢).

له لَاثْنَي عَشَرَ جناحاً[١]، منها جناحٌ بالمَشْرِقِ، وجناحٌ بالمغرب، وإنَّ العرش لَعَلَى كاهله، وإنه في الأحايين ليتضاءلُ لعظمةِ الله حتى يعود مثل الوَصَع ـ والوَصَعُ: العصفورُ الصغير ـ حتى ما يحمل عرشَ ربِّك إلاَّ عَظَمتُه»[٢].

و«أُولُو» اسمُ جمعٍ لـ«ذو»، كما أن هؤلاء اسم جمع لـ «ذا»، ونظيرُهما في المتمكِّنة: المخَاض والخَلِفة[٣]. وقد مضى الكلام في ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ في «النساء» وأنه غيرُ منصرِف[٤].

﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ أي: في خَلْقِ الملائكة، في قول أكثر المفسِّرين؛ ذكره المهدويُّ. وقال الحسن: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ﴾ أي: في أجنحة الملائكة ما يشاء.

وقال الزُّهريُّ وابنُ جُريج: يعني حُسْنَ الصوت[٥]. وقد مضى القولُ فيه في مقدِّمة الكتاب[٦]. وقال الهيثم الفارسيُّ: رأيت النبيَّ ﷺ في منامي، فقال: أنت الهيثمُ الذي تُزيِّن القرآنَ بصوتك، جزاك الله خيراً[٧].

وقال قتادة: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ المَلاحَة في العينين، والحُسْن في الأنف، والحلاوة في الفم[٨].

---

(١) في النسخ: لاثني عشر ألف جناح، والمثبت من المصادر على ما يأتي.

(٢) أخرجه مطولاً ابن المبارك في الزهد (٢٢١)، وذكره أبو الليث ٣/ ٨٠ ، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٩٨ .

(٣) الكشاف ٣/ ٢٩٨. والمخاض اسم للنوق الحوامل، واحدتها خَلِفَة. النهاية (مخض).

(٤) ٦/ ٣٠ .

(٥) النكت والعيون ٤/ ٤٦٢ ، وقول الزهري أخرجه البيهقي في الشعب (١١٥)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢٤٤ لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٦) ١/ ٢١ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٩ .

(٨) أخرجه ابن عدي ٣/ ٩١٧ ، والبيهقي في الشعب (٩١٦) مختصراً بذكر الملاحة في العينين. وكذا ورد في المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٩ ، والكشاف ٣/ ٢٩٨ .

وقيل: الخطُّ الحَسَن. وقال مُهاجِر الكَلاعيُّ: قال النبيُّ ﷺ: «الخطُّ الحَسَنُ يَزيدُ الكلامَ وضوحاً»(١).

وقيل: الوجه الحسن. وقيل في الخبر في هذه الآية: هو الوجهُ الحسن، والصوتُ الحَسَن، والشَّعر الحسن(٢)؛ ذكره القُشَيريُّ.

النقَّاش: هو الشعرُ الجَعْد. وقيل: العقلُ والتمييز. وقيل: العلومُ والصنائع(٣).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من النقصان والزيادة.

الزمخشريُّ(٤): والآيةُ مُطْلَقةٌ تتناولُ كلَّ زيادةٍ في الخَلْقِ؛ من طولِ قامةٍ، واعتدالِ صورةٍ، وتَمامٍ في الأعضاء، وقوةٍ في البَطْش، وحَصَافةٍ في العقل، وجَزَالةٍ في الرأي، وجرأةٍ في القلب، وسَماحةٍ في النفس، وذَلاقةٍ في اللسان، ولَباقةٍ في التكلُّم، وحُسْنِ تأتٍّ في مُزَاولةِ الأمور؛ وما أَشْبَهَ ذلك ممَّا لا يحيطُ به وَصْفٌ.

قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ﴾ وأجاز النَّحْويون في غير القرآن: «فلا مُمْسِكَ له» على لَفْظِ «ما». و«لها» على المعنى. وأجازوا: «وما يُمْسِكْ فلا مُرْسِلَ لها» [على معنى «ما»]. وأجازوا: «ما يفتحُ الله للناس من رحمةٍ» - بالرفع - تكونُ «ما» بمعنى الذي(٥).

---

(١) أخرجه ابن قانع في معجم الصحابة ٣/ ٦٠ ، وقال عن مهاجر، ولست أعرف له صحبة. وذكر الخبر ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٩ ، والذهبي في الميزان ٢/ ٣٥٨ وقال: هذا خبر منكر. ووقع في هذه المصادر: «... يزيد الحق وضوحاً».

(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٩٨.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٤٦٢ .

(٤) في الكشاف ٣/ ٢٩٨ .

(٥) وقال الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٢٦٢: ولا أعلم أحداً قرأ به. والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٠، وما سلف بين حاصرتين منه.

أي: إنَّ الرسل بُعثوا رحمةً للناس، فلا يَقْدِرُ على إرسالهم غيرُ الله. وقيل: ما يأتيهم به اللهُ من مطرٍ أو رزقٍ فلا يقدرُ أحدٌ أن يمسكه، وما يُمسِك من ذلك فلا يقدرُ أحدٌ على أن يرسله.

وقيل: هو الدعاء؛ قاله الضحاك. ابن عباس: من توبة. وقيل: من توفيقٍ وهداية(١).

قلت: ولفظُ الرحمةِ يجمعُ ذلك؛ إذ هي منكَّرةٌ للإشاعة والإبهام، فهي مُتَناولةٌ لكلِّ رحمةٍ على البدل، فهو عامٌّ في جميع ما ذُكر. وفي «موطأ» مالك(٢): أنَّه بلغه أنَّ أبا هريرة كان يقول إذا أصبح وقد مُطر الناس: مُطِرْنا بنَوْءِ الفتح، ثم يتلو هذه الآية: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تقدَّم(٣).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ معنى هذا الذِّكرِ الشُّكْرُ. ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ يجوز في «غير» الرفعُ والنَّصْبُ والخَفْض، فالرفعُ من وجهين: أحدُهما بمعنى: هل من خالقٍ إلاَّ اللهُ؛ بمعنى ما خالقٌ إلاَّ اللهُ. والوجه الثاني: أن يكون نعتاً على الموضع؛ لأنَّ المعنى: هل خالقٌ غيرُ اللهِ، و«مِن» زائدة. والنصبُ على الاستثناء. والخفضُ على اللفظ(٤).

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٤٦٢-٤٦٣ . وخبر ابن عباس أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٥/ ٢٤٤ .

(٢) ١/ ١٩٢ .

(٣) ١/ ٤٢٩ و٢/ ٤٠٣ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٠ . وقرأ بنصب «غير» الفضل بن إبراهيم النحوي كما في القراءات الشاذة ص١٢٣ ، وستأتي القراءة بالرفع والجر.

قال حُميد الطويل: قلت للحسن: مَن خَلَق الشرَّ؟ فقال: سبحان الله! هل مِن خالقٍ غيرُ الله جلَّ وعزَّ خَلَقَ الخيرَ والشرّ[١].

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: ﴿هل مِن خالقٍ غيرِ اللهِ﴾ بالخفض. الباقون بالرفع[٢].

﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: المطر ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: النبات. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ من الأَفْك ـ بالفتح ـ وهو الصَّرْف؛ يقال: ما أَفَكَكَ عن كذا؟ أي: ما صَرَفَكَ عنه. وقيل: من الإِفك ـ بالكسر ـ وهو الكذب، ويرجع هذا أيضاً إلى ما تقدَّم؛ لأنه قولٌ مصروفٌ عن الصِّدْقِ والصَّواب، أي: مِن أين يقعُ لكم التكذيبُ بتوحيد الله. والآيةُ حُجَّةٌ على القَدَرية لأنه نَفَى خالقاً غيرَ اللهِ، وهم يُثْبِتون معه خالِقينَ، على ما تقدَّم في غير موضع[٣].

قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ يعني كفارَ قريش ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ يعزِّي نبيَّه ويسلِّيه ﷺ، وليتأسَّى بمَن قَبْلَه في الصَّبْر. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ قرأ الحسنُ والأعرجُ ويعقوبُ وابنُ عامرٍ وأبو حيوةَ وابن مُحَيْصِنٍ وحميدٌ والأعمشُ وحمزةُ ويحيى والكسائيُّ وخلفٌ بفتح التاء على أنه مسمَّى الفاعل[٤]. واختاره أبو عبيد لقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣]. الباقون: ﴿تُرْجَعُ﴾ على الفعل المجهول.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ هذا وعْظٌ للمُكَذِّبين للرسول بعد إيضاح

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٠.

(٢) السبعة ص٥٣٤، والتيسير ص١٨٢.

(٣) ينظر ١/ ٢٣٠ و٢٨٥.

(٤) السبعة ص١٨١، والتيسير ص٨٠، والنشر ٢/ ٢٠٨-٢٠٩.

الدليل على صحةِ قوله: إنَّ البعثَ والثوابَ والعقابَ حقٌّ. ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ قال سعيد بن جُبير: غرورُ الحياةِ الدنيا: أنْ يشتغل الإنسانُ بنعيمها ولذَّاتها عن عمل الآخرة، حتى يقول: ﴿يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ [الفجر: ٢٤][١].

﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ قال ابن السكِّيت وأبو حاتم: «الغَرور»: الشيطان[٢]. وغُرورٌ: جمعُ غَرٍّ، وغَرٌّ مصدر. ويكون «الغُرور» مصدراً، وهو بعيدٌ عند أبي إسحاق[٣]؛ لأنَّ «غَرَرْته» متعدٍّ، والمصدر [من] المتعدِّي إنَّما هو على فَعْل؛ نحو: ضربتُه ضرباً، إلاَّ في أشياءَ يسيرةٍ لا يُقاسُ عليها؛ قالوا: لزمْته لُزوماً، ونَهَكه المرض نُهوكا. فأمَّا معنى الحرفِ فأحْسَنُ ما قيل فيه ما قاله سعيد بن جبير؛ قال: الغرورُ بالله أن يكون الإنسان يعمل بالمعاصي ثم يتمنَّى على الله المغفرةَ.

وقراءة العامة: ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ بفتح الغين: وهو الشيطان، أي: لا يَغرَّنَّكم بوساوسه في أنَّه تعالى[٤] يتجاوزُ عنكم لفَضْلِكم. وقرأ أبو حَيْوةَ وأبو السَّمَّال العدويُّ ومحمد ابن السَّمَيْفَع: «الغُرور» برفع الغين[٥]، وهو الباطل، أي: لا يغرَّنَّكم الباطل. وقال ابن السِّكِّيت: والغُرور بالضم: ما اغتُرَّ به من متاعِ الدنيا[٦]. قال الزجَّاج[٧]: ويجوز أن يكون الغُرور جمعَ غارٍّ، مثل قاعد وقُعود. النحاس: أو جمع غَرٍّ، أو يُشبَّه بقولهم:

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦١ . وأخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ٢٤٥ .

(٢) قول ابن السكيت في إصلاح المنطق ص٣٦٧ ، وأخرجه الطبري ١٩/ ٣٣١ عن ابن عباس.

(٣) في النسخ: عند غير أبي إسحاق، والتصويب من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦١ (والكلام وما سيرد بين حاصرتين منه). وكلام أبي إسحاق (وهو الزجاج) في معانيه ٤/ ٢٦٣-٢٦٤ .

(٤) قوله: تعالى، من (ظ).

(٥) ذكرها النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٦١ عن سماك، ووقع في النسخ الخطية: وأبو سماك، بدل: وأبو السمال، والمثبت من (م)، وهو موافق لما في البحر ٧/ ٣٠٠ ووقع في المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٩ : سماك العبدي. وسلف ١٤/ ٨١ أن سماك بن حرب وأبا حيوة وابن السميفع قرؤوا: «الغُرور» بالضم في الآية (٣٣) من سورة لقمان.

(٦) إصلاح المنطق ص٣٦٧ ، والصحاح (غرر).

(٧) في معاني القرآن ٤/ ٢٦٣ .

نَهَكَه المرضُ نُهوكاً، ولَزِمَه لُزوماً[١]. الزمخشريُّ[٢]: أو مصدرُ «غرَّه» كاللُّزوم والنُّهوك.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ أي: فَعَادُوه ولا تُطيعوه. ويدلُّكم على عَداوتِهِ إخراجُه أباكم من الجنة، وضمانُه إضلالَكم في قوله: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ الآية [النساء: ١١٩]. وقوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ . ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ الآية [الأعراف: ١٦-١٧]. فأخبرنا جلَّ وعزَّ أنَّ الشيطان لنا عدوٌّ مبين، واقتصَّ علينا قصَّته، وما فَعلَ بأبينا آدمَ ﷺ، وكيف انْتَدَبَ لعداوتنا وغرورنا من قَبْلِ وجودنا وبعده، ونحن على[٣] ذلك نتولاه ونطيعه فيما يريد منا مما فيه هلاكنا. وكان الفضيل ابن عِياض يقول: يا كذَّاب يا مُفْتَرٍ، اتَّقِ الله ولا تَسُبَّ الشيطانَ في العَلانية وأنت صديقُه في السِّرّ. وقال ابن السَّمّاك: يا عَجباً لمن عصَى المُحْسِنَ بعد معرفته بإحسانه، وأطاع اللَّعينَ بعد معرفته بعداوته! وقد مضى هذا المعنى في «البقرة» مجوَّداً[٤].

و﴿عَدُوٌّ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ يجوز أن يكون بمعنى: مُعَادٍ، فيثنَّى ويُجمع ويؤنَّث[٥]. ويكون بمعنى النَّسبِ، فيكون موحَّداً بكلِّ حال، كما قال جلَّ وعزَّ: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ [الشعراء: ٧٧]. وفي المؤنَّث على هذا أيضاً: عدوّ. النحاس[٦]: فأمَّا

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٣٨ .

(٢) في الكشاف ٣/ ٣٠٠ .

(٣) في (د): مع.

(٤) ٣/ ١٣ .

(٥) بعدها في (ظ)، ويذكر.

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٣٦١ ، وما قبله منه.

قولُ بعضِ النَّحويين: إنَّ الواوَ خفيةٌ[١]، فجاؤوا بالهاء، فخطأٌ، بل الواو حرفٌ جَلْدٌ.

﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ﴾ كفَّتْ «ما» «إنَّ» عن العمل فوقع بعدها الفعلُ. ﴿حِزْبَهُۥ﴾ أي: أشياعَه. ﴿لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ فهذه عداوتُه.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ يكونُ «الَّذينَ» بدلاً من «أصحابِ» فيكون في موضعِ خَفْضٍ، أو يكونُ بدلاً من «حِزْبَه» فيكون في موضع نصبٍ، أو يكون بدلاً من الواو، فيكون في موضعِ رفعٍ. وقولٌ رابعٌ وهو أحسنُها: يكونُ في موضعِ رفعٍ بالابتداء، ويكونُ خبرُهُ: «لَهم عذابٌ شديدٌ»[٢]، وكأنه سبحانه بَيَّنَ حالَ مُوافقتِه ومُخالفتِه، ويكون الكلامُ قد تَمَّ في قوله: ﴿مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾، ثم ابتدأ فقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ في موضعِ رفعٍ بالابتداء أيضاً، وخبرُه: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ أي: لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وهو الجنة.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ «مَنْ» في موضعِ رفعٍ بالابتداء، وخبرُه محذوفٌ. قال الكسائيُّ: والذي يدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ فالمعنى: أفَمَن زُينَ له سوءُ عمله فرآه حسناً ذهبتْ نفسُك عليهم حسرات! قال: وهذا كلامٌ عربيٌّ ظريفٌ[٣] لا يعرفُه إلاَّ قليل ـ وذكره الزمخشريُّ عن الزجاج[٤] ـ قال النحاس[٥]: والذي قاله الكسائيُّ أحسنُ ما قيل في الآية؛ لِمَا ذَكَره من الدلالةِ

(١) في (ظ): خفيفة، والمثبت من باقي النسخ وإعراب القرآن للنحاس.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٢.

(٣) في (خ) و(م): طريف، والمثبت من باقي النسخ، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٢، والكلام منه.

(٤) الكشاف ٣/ ٣٠١، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ٢٦٤.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٣٦٢.

على المحذوف، والمعنى: أنَّ الله جلَّ وعزَّ نهى نبيَّه عن شدة الاغتمام بهم والحزنِ عليهم، كما قال جلَّ وعزَّ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ [الكهف:٦] قال أهل التفسير: قاتِلٌ. قال نصر بن عليٍّ: سألتُ الأصمعيَّ عن قول النبيِّ ﷺ في أهل اليمن: «هم أرقُّ قلوباً وأبْخَعُ طاعةً»[١] ما معنى أبْخَعُ؟ فقال: أنْصَحُ. فقلت له: إنَّ أهلَ التفسيرِ مجاهداً وغيرَه يقولون في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ [الشعراء:٣]: معناه: قاتِلٌ نفسَك. فقال: هو مِن ذاك بعَيْنه، كأنه من شدة النُّصْح لهم قاتِلٌ نفسَه.

وقال الحسين بن الفضل: فيه تقديمٌ وتأخير، مَجازُهُ: أفمن زُيِّن له سوءُ عمله فرآه حَسَناً، فلا تَذهبْ نفسُك عليهم حسَراتٍ، فإنَّ الله يُضلُّ مَن يشاءُ ويهدي مَن يشاء[٢].

وقيل: الجوابُ محذوفٌ، المعنى: أَفمن زُيِّن له سوءُ عملِه كَمَن هُدي، ويكون يَدلُّ على هذا المحذوف: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[٣].

وقرأ يزيد بن القَعْقاع: ﴿فلا تُذْهِبْ نَفْسَك﴾[٤].

وفي ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أربعةُ أقوال:

أحدها: أنَّهم اليهودُ والنصارى والمجوس؛ قاله أبو قِلابة[٥]. ويكون «سُوءُ عَمَلِهِ»: معاندة الرسولِ عليه الصلاة والسلام.

الثاني: أنَّهم الخوارج؛ رواه عمرو[٦] بن القاسم. فيكونُ «سُوءُ عَمَلِهِ»: تحريف التأويل.

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٤٠٦)، ووقع في مطبوعه: أنجع، وعليه شرح السندي - كما في حاشية المسند - فقال: أنجع طاعة، أي: الطاعة فيهم أكثر نفعاً لخلوص قلوبهم! والذي في الفائق ١/ ٨٢، والنهاية (بخع)، وغريب الحديث لابن الجوزي ١/ ٥٨ : أبخع - بالخاء - كما ذكره المصنف عن النحاس.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٥٦٥ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٨٣ .

(٤) النشر ٢/ ٣٥١ ، والقراءة من العشرة.

(٥) أخرجه مطولاً ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ٢٤٥ ، والكلام في النكت والعيون ٤/ ٤٦٣ .

(٦) في النسخ عدا (ظ): عمر، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في النكت والعيون.

الثالث: الشيطان؛ قاله الحسن[١]. ويكون «سُوءُ عَمَلِهِ»: الإغواء.

الرابع: كفارُ قريشٍ؛ قاله الكلبيُّ. ويكون «سُوءُ عَمَلِهِ»: الشِّرْك. وقال: إنَّها نزلت في العاص بنِ وائل السَّهْمي والأسود بنِ المطَّلب. وقال غيره: نزلت في أبي جهل بنِ هشام. ﴿فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ أي: صواباً؛ قاله الكلبيُّ. وقيل: جميلاً[٢].

قلت: والقولُ بأنَّ المرادَ كفارُ قريشٍ أظْهَرُ الأقوالِ؛ لقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقوله: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [آل عمران: ١٧٦]، وقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، وقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، وقولِه في هذه الآية: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾. وهذا ظاهِرٌ بيِّن، أي: لا ينفعُ تأسُّفُك على مُقامِهم على كفرهم، فإنَّ الله أضلَّهم. وهذه الآيةُ تَردُّ على القدرية قولَهم على ما تقدَّم[٣]، أي: أفمن زُيِّن له سوءُ عمله فرآه حسناً تُريدُ أن تَهْدِيَه، وإنَّما ذلك إلى الله لا إليك، والذي إليك هو التبليغ.

وقرأ أبو جعفر وشيبةُ وابنُ مُحَيْصن: «فَلا تُذهِب» بضمِّ التاءِ وكَسْرِ الهاءِ، «نفسَك» نصباً على المفعول، والمعنَيان مُتقارِبان[٤].

«حَسَرَاتٍ» منصوبٌ مفعولٌ من أجْله، أي: فلا تَذْهَبْ نَفسُكَ للحسرات. و«عليهم» صلةُ «تَذْهَبْ»، كما تقول: هَلَكَ عليه حُبًّا، ومات عليه حزناً. أو هو بيانٌ للمتحسَّر عليه[٥]. ولا يجوز أن يتعلَّق بالحسرات؛ لأنَّ المصدر لا يتقدَّمُ عليه صِلَتُه.

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٣٤، والكلام في النكت والعيون ٤/ ٤٦٣.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٤٦٣.

(٣) ينظر ١/ ٢٣٠ و٢٨٥.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٣ عن أبي جعفر، وهو يزيد بن القعقاع، وهو من العشرة، وسلفت قريباً.

(٥) في النسخ: وهو بيان للمتحسَّر عليه، والمثبت من الكشاف ٣/ ٣٠١، والكلام منه، وكذا وقع في البحر ٧/ ٣٠١، وروح المعاني ٢٢/ ١٧٠، قال الألوسي: فيكون ظرفاً مستقرًّا، ومتعلَّقهُ مقدَّرٌ، كأنه قيل: على مَن تذهب؟ فقيل: عليهم.

ويجوز أن يكون حالاً، كأنَّ كلَّها صارتْ حسراتٍ لفَرْطِ التَّحَسُّرِ، كما قال جرير:

مَشَقَ الهواجِرُ لحمَهُنَّ مع السُّرَى حتى ذَهَبْنَ كَلاَكِلاً وصُدُورا[1]

يريد: رَجَعْنَ كَلاكِلاً وصدوراً، أي: لم يَبْقَ إلاَّ كَلالُها وصدورُها. ومنه قولُ الآخر:

فَعَلَى إثْرِهِم تَساقَطُ نَفْسِي حَسَراتٍ وذِكْرُهم لي سَقامُ[2]

أو مَصْدراً.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾ مَيِّت ومَيْت واحد، وكذا مَيِّتَة ومَيْتة، هذا قولُ الحُذَّاق من النَّحْويين. وقال محمد بن يزيد: هذا قولُ البصريين، ولم يَسْتثنِ أحداً، واستدلَّ على ذلك بدلائلَ قاطعةٍ، وأنشد:

لَيس مَن مات فاستراحَ بِمَيْتٍ إنَّما المَيْتُ مَيِّتُ الأحياءِ
إنَّما المَيْتُ مَن يعيشُ كئيباً كاسِفاً بالُه قليلَ الرَّخاءِ[3]

قال: فهل تَرى بين مَيْتٍ ومَيِّتٍ فرقاً؟ وأنشد:

هَيْنونَ لَيْنونَ أيسارٌ بنو يَسَرٍ سُوَّاسُ مَكْرُمةٍ أبناءُ أيْسارِ[4]

---

(١) ديوان جرير ١/ ٢٢٧، والكشاف ٣/ ٣٠١، والكلام منه، وهو في كتاب سيبويه ١/ ١٦٢، قوله: مَشَقَ، أي: أذهب لحومهن، والكلاكل: الصدور، كأنه أراد هنا أعلى الصدرِ فلذلك ذكر معه الصدر، وصف رواحلَ أهْزلها دُؤوبُ السير في الهواجر والليل. شرح الشواهد للشنتمري ص١٣٣.

(٢) البيت لأبي دؤاد الإيادي كما في الشعر والشعراء ١/ ٢٣٩، والأصمعيات ص١٨٨، والحماسة البصرية ١/ ٢٣٨.

(٣) البيتان لعديّ بن الرَّعلاء النسائي، وسلف البيت الأول ٣/ ٢٣، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٣. قال النحاس: ويروى: قليل الرجاء.

(٤) نُسب لعبيد بن العرندس الكلابي كما في الكامل للمبرد ١/ ١٠٦، والحماسة البصرية ١/ ١٥٠، =

قال: فقد أَجمعوا على أنَّ هَيْنون وهيِّنون[١] واحدٌ، وكذا مَيْتٌ ومَيِّت، وسَيْدٌ وسَيِّد.

وقال: ﴿فَسُقْنَٰهُ﴾ بعدَ أن قال: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ وهو من بابِ تَلْوينِ الخطاب. وقال أبو عبيدةَ: سبيلُه «فَنَسُوقُه»[٢]، لأنَّه قال: «فَتُثِيرُ سَحَاباً». الزَّمَخْشريّ[٣]: فإن قلتَ: لمَ جاء «فتثير» على المُضارَعةِ دونَ ما قَبْلَه وما بعدَه؟ قلت: لتَحْكيَ الحالَ التي تقعُ فيها إثارةُ الرياحِ السحابَ، وتَسْتَحْضِرَ تلك الصورةَ البديعةَ الدالَّةَ على القدرة الربانية، وهكذا يفعلون بفعلٍ فيه نوعُ تمييزٍ وخصوصيةٌ بحالٍ تُستغرب، أو تَهمُّ المخاطَبَ، أو غير ذلك؛ كما قال تأبَّط شَرًّا:

بأني قد لقيتُ الغُولَ تَهْوي ... بسَهْبٍ كالصحيفةِ صَحْصَحانِ
فأضرِبُها بلا دَهَشٍ فخرَّتْ ... صريعاً لليدين وللجِرَانِ[٤]

لأنه قَصَدَ أنْ يصوِّر لقومه الحالةَ التي تَشَجَّع فيها بزَعْمِه على ضَرْبِ الغُول، كأنه يُبصِّرهم إياها، ويُطْلِعُهم على كُنْهِها مشاهدةً، للتعجب[٥] من جرأته على كلِّ هَوْلٍ، وثَباته عند كلِّ شدَّةٍ. وكذلك سَوقُ السحابِ إلى البلد الميِّت وإحياءُ الأرض بالمطر بعدَ موتها لمَّا كانا من الدلائلِ على القدرةِ الباهرةِ قيل: «فَسُقْنا» و«أحيينا» معدولاً

= ونسب للعرندس كما في أمالي القالي ١/ ٢٣٩ ، ومعجم الشعراء ص١٣٧ ، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٤/ ١٥٩٣ ، وقال المرزباني: وقيل: هو أبو العرندس. قوله: أيسار، قال المرزوقي: جمع يَسَر، وهم الذين يجتمعون في الميسر على الجزور عند الجدب والقحط، فَيُجيلون القِدَاح عليها، ثم يفرقونه في الفقراء وأرباب الحاجة.

(١) في النسخ: هينون ولينون، والمثبت عن إعراب القرآن للنحاس.

(٢) مجاز القرآن ٢/ ١٥٢، ووقع في (د) و(ز) و(م): فتسوقه. قال أبو عبيدة: والعرب قد تضع «فعلنا» في موضع «نفعل».

(٣) في الكشاف ٣/ ٣٠١-٣٠٢ ، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٤) ديوان تأبَّط شرًّا ص٢٢٤-٢٢٥، والأغاني ٢١/ ١٣٤ . قوله: بسهب، السهب: الفلاة، والصحصحان: ما استوى من الأرض. قوله: وللجِران، جِران البعير: مقدَّم عنقه من مذبحه إلى منحره. القاموس (سهب) و(صحح) و(جرن).

(٥) في الكشاف: للتعجيب.

بهما عن لفظِ الغيبةِ إلى ما هو أدْخَلُ في الاختصاص وأدَلُّ عليه.

وقراءةُ العامَّةِ: ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾. وقرأ ابن مُحَيْصِنٍ وابنُ كثير والأعمشُ ويحيى وحمزةُ والكسائيُّ: ﴿الريحَ﴾ توحيداً(١). وقد مضى بيانُ هذه الآيةِ والكلامُ فيها مستوفىً(٢).

﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ أي: كذلك تحيَوْن بعد ما متُّم، مِن نَشَرَ الإنسانَ نشوراً. فالكافُ في محلِّ الرفع، أي: مثلُ إحياءِ المواتِ نَشْرُ الأمواتِ. وعن أبي رَزِينٍ العُقَيْليِّ قال: قلتُ: يا رسول الله، كيف يُحْيِي الله المَوْتَى، وما آيةُ ذلك في خَلْقِه؟ قال: «أمَا مَرَرْتَ بوادي أهلِكَ مُمْحِلاً، ثم مَرَرْتَ به يَهتزُّ خَضِراً؟» قلت: نعم يا رسولَ الله. قال: «فكذلك يُحيي الله الموتَى، وتلك آيتُه في خَلقِه»(٣) وقد ذكرنا هذا الخبرَ في «الأعراف» وغيرِها(٤).

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ۝١٠﴾

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ التقديرُ عندَ الفرَّاء: مَن كان يريد عِلْمَ العزَّةِ. وكذا قال غيرُه من أهلِ العلم. أي: مَن كان يريدُ عِلْمَ العزَّةِ التي لا ذِلَّةَ معها؛ لأنَّ العزةَ إذا كانت تؤدِّي إلى ذلَّةٍ فإنَّما هي تَعَرُّضٌ للذلَّة، والعزةُ التي لا ذُلَّ معها للهِ عزَّ وجلَّ. ﴿جَمِيعًا﴾ منصوبٌ على الحال. وقدَّر الزجَّاج معناه: مَن كان يريد بعبادته اللهَ عزَّ وجلَّ العزَّةَ ـ والعزةُ له سبحانه ـ فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يُعِزُّه في الآخرة والدنيا(٥).

---

(١) السبعة ص١٧٢-١٧٣ ، والتيسير ص٧٨ عن ابن كثير وحمزة والكسائي.

(٢) ٢/ ٤٩٨-٥٠٢ و٩/ ٢٥٣-٢٥٥ .

(٣) الكشاف ٣/ ٣٠٢ .

(٤) ١/ ٢٩٦ و٩/ ٢٥٥ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٤ ، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣٦٧ ، وقول الزجاج بنحوه في معاني القرآن له ٤/ ٢٦٤ .

قلت: وهذا أحسنُ، وروي مرفوعاً على ما يأتي.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ ظاهِرُ هذا إيئاسُ السَّامِعينَ من عزَّته، وتعريفُهم أنَّ ما وجب له من ذلك لا مَطْمَعَ فيه لغيره، فتكون الألفُ واللامُ للعَهْدِ عند العالِمينَ به سبحانه، وبما وَجَبَ له من ذلك، وهو المفهومُ من قوله الحقِّ في سورة يونس: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ﴾ [الآية: ٦٥].

ويحتملُ أنْ يريدَ سبحانه أنَّ يُنبِّهَ ذوي الأقدارِ والهمم من أين تُنالُ العزةُ، ومن أين تُستحقُّ، فتكونُ الألفُ واللامُ للاستغراق، وهو المفهومُ من آيات هذه السورة. فَمَن طلب العزةَ من الله وصدقه في طلبها بافتقارٍ وذلٍّ وسكونٍ وخضوعٍ، وجَدَها عنده ـ إن شاء الله ـ غيرَ ممنوعةٍ ولا محجوبةٍ عنه؛ قال ﷺ: «مَن تَواضعَ للهِ رَفَعَه الله»[1]. ومَن طَلَبها من غيرِه وكَله[2] إلى مَن طَلَبها عنده. وقد ذَكَر تعالى قوماً طلبوا العزةَ عندَ مَن سواه فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩]. فأنبأك[3] صريحاً لا إشكالَ فيه أنَّ العزةَ له يُعِزُّ بها مَن يشاء ويُذِلُّ مَن يشاء. وقال ﷺ مفسِّراً لقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾: «مَن أراد عزَّ الدَّارينِ فَلْيُطِعِ العزيز»[4]. وهذا معنى قولِ الزجَّاج، ولقد أحْسَنَ مَن قال:

وإذا تذلَّلت الرقابُ تواضُعاً ... منَّا إليك فعزُّها في ذلِّها[5]

فَمن كان يريد العزةَ لينال الفوزَ الأكبر، ويدخلَ دارَ العزَّةِ ـ ولله العزةُ ـ فلْيقصِدْ بالعزة[6] اللهَ سبحانه والاعتزازَ به؛ فإنَّه مَن اعتزَّ بالعبيد أذلَّه الله، ومَن اعتزَّ بالله

---

(١) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٧٢٠٦)، ومسلم (٢٥٨٨) عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) في (ظ): وكل.

(٣) في (ظ): فأبان.

(٤) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد ٦/ ٨٠ و٨/ ١٧١، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٧/١٢.

(٥) قائله أبو إسحاق الصابي كما في يتيمة الدهر ٢/ ٣٢٥، وسلف ١١/ ١٢٩.

(٦) في (خ) و(ط): بالذلة.

أعزَّه الله.

قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ وتمَّ الكلام. ثم تَبتدئُ ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ على معنى: يرفعُه الله، أو يرفعُ صاحبَه. ويجوز أن يكون المعنى: والعملُ الصالح يرفعُ الكلمَ الطيِّبَ[1]؛ فيكون الكلامُ متَّصلاً على ما يأتي بيانه.

والصعود: هو الحركةُ إلى فوق، وهو العروجُ أيضاً. ولا يُتَصَوَّرُ ذلك في الكلام لأنَّه عَرَضٌ، لكنْ ضُرب صعودُه مثلاً لقبوله؛ لأنَّ موضعَ الثوابِ فوق، وموضعُ العذابِ أسفل[2].

وقال الزجَّاج: يقال: ارتفع الأمر إلى القاضي، أي: عَلِمَه، فهو بمعنى العلم[3]. وخصَّ الكلام الطيب[4] بالذكر لبيانِ الثوابِ عليه.

وقوله: «إليه» أي: إلى الله يصعد. وقيل: يصعد إلى سمائه والمحلِّ[5] الذي لا يجري فيه لأحدٍ غيرِه حُكْمٌ. وقيل: أي: يُحمل الكتاب الذي كُتب فيه طاعاتُ العبدِ إلى السماء.

و«الكَلِمُ الطيِّبُ» هو التوحيدُ الصادرُ عن عقيدةٍ طيِّبةٍ. وقيل: هو التحميدُ والتمجيدُ، وذكرُ اللهِ ونحوُه. وأنشدوا:

لا تَرْضَ من رجلٍ حلاوةَ قولِهِ ... حتى يُزَيِّنَ ما يقولُ فَعالُ
فإذا وَزَنْتَ فَعالَه بِمَقالِهِ ... فتوازَنا فإخاءُ ذاك جَمالُ[6]

---

(١) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٤٨، والوقف عند ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ وقف حسن، كما ذكر أبو بكر الأنباري.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٥٩٣.

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٥٠٢ دون نسبة، ولم نقف عليه في معاني القرآن للزجاج.

(٤) في (ظ): الكلم الطيب، وفي (م): الكلام والطيب.

(٥) في الوسيط للواحدي ٣/ ٥٠٢ (والكلام منه): وهو المحل، بدل: والمحل.

(٦) ذكرهما ابن عساكر في تاريخ دمشق ٨/ ١٦٢ عن إسحاق بن إبراهيم بن ميمون الموصلي. قوله: فَعال، كسَحاب: هو اسم الفعل الحسن. القاموس (فعل).

وقال ابنُ المُقَفَّع: قولٌ بلا عملٍ، كَثَرِيدٍ بلا دَسَمٍ، وسَحابٍ بلا مَطَرٍ، وقَوْسٍ بلا وَتَرٍ[١]. وفيه قيل:

لا يكونُ المقالُ إلاّ بفعلٍ كلُّ قولٍ بلا فِعالٍ هَباءُ

إنَّ قولاً بلا فِعالٍ جميلٍ ونِكاحاً بلا وَليٍّ سواءُ

وقرأ الضحاك: «يُصعَد» بضمِّ الياء[٢]. وقرأ جمهورُ الناسِ: «الكَلِمُ» جمع كلمة. وقرأ أبو عبد الرحمن: «الكلامُ»[٣].

قلت: فالكلامُ على هذا قد يُطْلَقُ بمعنى الكلِمِ وبالعكس؛ وعليه يخرَّج قولُ أبي القاسم: أقسامُ الكلامِ ثلاثة[٤]؛ فوَضَعَ الكلامَ مَوْضعَ الكَلِم، والله أعلم.

﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ قال ابن عباس ومجاهدٌ وغيرهما: المعنى: والعملُ الصالح يرفعُ الكَلِمَ الطيب[٥]. وفي الحديث «لا يَقْبلُ الله قولاً إلا بعملٍ، ولا يقبلُ قولاً وعملاً إلا بنيَّةٍ، ولا يقبلُ قولاً وعملاً ونيَّةً إلا بإصابةِ السَّنة»[٦]. قال ابن عباس: فإذا ذكر العبدُ الله وقال كلاماً طيِّباً وأدَّى فَرائضَه، ارتفع قولُه مع عمله، وإذا قال ولم يؤدِّ فرائضَه؛ رُدَّ قولُه على عمله. قال ابن عطية[٧]: وهذا قولٌ يَردُّه مُعتقَدُ أهلِ السُّنةِ،

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٠٢.

(٢) الكشاف ٣/ ٣٠٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٣١.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣١، وقراءة: «الكلام» في القراءات الشاذة ص١٢٣.

(٤) الجمل في النحو لأبي القاسم الزَّجَّاجي ص١.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٤، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٩/ ٣٤٠.

(٦) الكشاف ٣/ ٣٠٢، وأخرجه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٦٩٢) من حديث أنس ﷺ، وفي إسناده أبان بن أبي عياش وهو متروك. وأخرجه ابن حبان في المجروحين ١/ ١٥٠ من حديث ابن مسعود ﷺ، وفي إسناده أحمد بن الحسن المصري قال ابن حبان: كذاب. وأخرجه ابن حبان في المجروحين ١/ ٢٨٠، وابن عدي في الكامل ٣/ ٩١٤ من حديث أبي هريرة ﷺ، وفي إسناده أبو يحيى زكريا بن يحيى الوَقّار، قال ابن عدي: يضع الحديث، كذَّبه صالح جَزَرة. وينظر أيضاً الكامل لابن عدي ٣/ ١٠٧١، والميزان ١/ ٦٣٣ و٢/ ٧٧، وتخريج أحاديث الكشاف ص١٣٨-١٣٩.

(٧) في المحرر الوجيز ٤/ ٤٣١، وما قبله منه، وخبر ابن عباس أخرجه بنحوه الطبري ١٩/ ٣٣٩.

ولا يصحُّ عن ابن عباس. والحقُّ أنَّ العاصيَ التاركَ للفرائض إذا ذَكَر الله وقال كلاماً طيباً فإنَّه مكتوبٌ له مُتقَبَّلٌ منه، وله حسناتُه وعليه سيئاتُه، واللهُ تعالى يتقبَّلُ مِن كلِّ مَن اتَّقى الشِّرْك. وأيضاً فإنَّ الكلامَ[1] الطيبَ عملٌ صالح. وإنَّما يستقيمُ قولُ مَن يقول: إنَّ العملَ هو الرافعُ للكَلِم، بأنْ يُتأوَّلَ أنه يزيده[2] في رَفْعِه وحُسْنِ مَوْقِعِه إذا تعاضَدَ معه. كما أنَّ صاحب الأعمالِ من صلاةٍ وصيام وغير ذلك؛ إذا تخلَّل أعمالَه كَلِمٌ طَيِّبٌ وذِكْرُ اللهِ تعالى كانت الأعمالُ أشرفَ، فيكون قولُه: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ موعظةً وتَذْكرةً وحَضًّا على الأعمال. وأمَّا الأقوالُ التي هي أعمالٌ في نفوسها، كالتوحيد والتسبيح فمقبولةٌ.

قال ابن العربيّ[3]: إنَّ كلامَ المرءِ بِذِكْرِ اللهِ إنْ لم يقترن به عملٌ صالح لم يَنْفَع، لأنَّ مَن خالَفَ قولَه فِعْلُه فهو وبالٌ عليه. وتحقيقُ هذا: أنَّ العملَ إذا وقع شرطاً في قبول القول أو مُرْتَبِطاً به، فإنه لا قبولَ له إلا به، وإن لم يكن شرطاً فيه [ولا مرتبطاً به] فإنَّ كَلِمَه الطيبَ يُكتبُ له. وعملُه السَّيِّئ يُكتبُ عليه، وتقعُ الموازنةُ بينهما، ثم يحكم الله بالفوز والربح والخسران.

قلت: ما قاله ابنُ العربيّ تحقيقٌ. والظاهِرُ أنَّ العمل الصالح شَرْطٌ في قَبولِ القولِ الطيِّب. وقد جاء في الآثار: «أنَّ العبدَ إذا قال: لا إلهَ إلاَّ الله بنيَّةٍ صادقةٍ، نَظَرت الملائكةُ إلى عمله، فإن كان العملُ مُوافقاً لقوله صَعِدَا[4] جميعاً، وإن كان عملُه مخالفاً وقفَ قولُه حتى يتوبَ من عمله»[5]. فعلى هذا: العملُ الصالح يَرفعُ الكَلِمَ

---

(١) في (ظ) والمحرر الوجيز: الكلم.

(٢) في المحرر الوجيز: يزيد.

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٥٩٤، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٤) في (ظ): فإن كان العمل صالحاً صعدا.

(٥) أخرجه بنحوه الثعلبي وابن مردويه عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً، كما ذكر الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص١٣٨، وذكر نحوه أيضاً الواحدي في الوسيط ٣/ ٥٠٢ عن الحسن قولَه، وهو الأشبه.

الطيِّبَ إلى الله، والكنايةُ في «يرفعُه» ترجعُ إلى الكَلِم الطيِّب. وهذا قولُ ابنِ عباسٍ وشَهْر بن حَوشَب وسعيد بن جُبير ومجاهدٍ وقتادةَ وأبي العاليةِ والضَّحاك[١].

وعلى أنَّ «الكَلِم الطيِّب» هو التوحيدُ، فهو الرافِعُ للعمل الصالح؛ لأنه لا يُقبَلُ العملُ الصالح إلاَّ مع الإيمانِ والتوحيد، أي: والعملُ الصالح يرفعُه الكَلِمُ الطيِّبُ، فالكناية تعودُ على العمل الصالح. ورُوي هذا القولُ عن شَهْر بن حَوْشَب قال: «الكَلِمُ الطيِّبُ» القرآن، «والعمل الصالحُ يرفعُه» القرآن[٢].

وقيل: تعودُ على الله جلَّ وعزَّ، أي: أنَّ العملَ الصالحَ يرفعُه اللهُ على الكَلِم الطيِّب؛ لأنَّ العمل تحقيقُ الكلِم، والعاملُ أكثرُ تعباً[٣] من القائل، وهذا هو حقيقةُ الكلام؛ لأنَّ الله هو الرافعُ الخافِضُ. والثاني والأولُ مَجازٌ، ولكنَّه سائغٌ جائز.

قال النحاس[٤]: القولُ الأوَّلُ أَوْلاها وأصحُّها لعلُوِّ مَن قال به، وأنَّه في العربية أَوْلى؛ لأنَّ القُرَّاءَ على رَفْعِ العمل، ولو كان المعنى: والعمل الصالح يرفعُه الله، أو العمل الصالح يرفعُه[٥] الكَلِمُ الطيِّب، لكان الاختيارُ نَصْبَ العمل. ولا نَعلمُ أحداً قرأه منصوباً إلاَّ شيئاً رُوي عن عيسى بن عمر أنه قال: قرأه أناس: «والعملَ الصالحَ يرفعُه الله»[٦].

وقيل: والعملُ الصالح يرفعُ صاحبَه، وهو الذي أراد العزَّةَ وعَلِمَ أنَّها تُطلب من الله تعالى؛ ذكره القُشيريُّ.

الثانية: ذكروا عند ابن عباس أنَّ الكلب يقطعُ الصلاةَ، فقرأ هذه الآية: ﴿إِلَيْهِ

---

(١) تفسير الطبري ١٩/ ٣٣٩-٣٤٠، ومعاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٤١.

(٢) ذكر هذا القول عن شهر بن حوشب النحاس في معاني القرآن ٥/ ٤٤٢.

(٣) في (ظ): نفعا.

(٤) في معاني القرآن ٥/ ٤٤٢.

(٥) في النسخ: يرفع، والمثبت من معاني القرآن للنحاس.

(٦) القراءات الشاذة ص١٢٣.

﴿يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ .وهذا استدلالٌ بعموم، على مذهب السَّلَفِ في القول بالعموم. وقد دخل [هذا] في الصلاة بشروطها، فلا يقطعُها عليه شيءٌ إلا بثبوتِ ما يُوجبُ ذلك، من مِثْلِ ما انعقدت به من قرآنٍ أو سُنَّةٍ أو إجماع[١]. وقد تعلَّق مَن رأى ذلك بقوله عليه الصلاة والسلام: «يقطعُ الصلاةَ المرأةُ والحمارُ والكلبُ الأسود» فقلت: ما بالُ الكلب الأسودِ من الكلب الأبيض من الكلب الأحمر؟ فقال: «إنَّ الأسْوَدَ شيطانٌ» خرَّجه مسلم[٢]. وقد جاء ما يُعارِضُ هذا، وهو ما خرَّجه البخاريُّ عن ابن أخي ابنِ شهابٍ أنَّه سأل عمَّه عن الصلاة: يَقْطَعُها شيءٌ؟ فقال: لا يقطعُها شيء؛ أخبرني عروة بنُ الزبير أنَّ عائشةَ زوجَ النبيِّ ﷺ قالت: لقد كان رسولُ الله ﷺ يقوم فيُصلِّي من الليل، وإنِّي لَمعتَرِضةٌ بينه وبينَ القبلةِ على فراشِ أهله[٣].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ ذكر الطبريُّ في كتابِ «آداب النفوس»: حدثني يونس بن عبد الأعلى قال: حدثنا سفيانُ، عن لَيْث بنِ أبي سُليم، عن شَهْر ابن حَوْشَبٍ الأشعريِّ في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ قال: هم أصحابُ الرِّياء[٤]. وهو قولُ ابن عباس ومجاهدٍ وقتادة[٥].

وقال أبو العالية: هم الذين مَكَروا بالنبيِّ ﷺ لمَّا اجتمعوا في دار النَّدْوة. وقال

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٥٩٤ ، وما سلف بين حاصرتين منه. وخبر ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه عبد الرزاق (٢٣٦٠)، والطحاوي في شرح معاني الآثار ١/ ٤٥٩ .

(٢) في صحيحه (٥١٠)، وهو عند أحمد (٢١٣٢٣)، وهو من حديث أبي ذر ﷺ. والقائل: فقلت، هو عبد الله بن الصامت الرواي عن أبي ذرّ ﷺ.

(٣) صحيح البخاري (٥١٥)، وبنحوه عند أحمد (٢٤٠٨٨)، ومسلم (٥١٢).

(٤) وأخرجه الطبري أيضاً بهذا الإسناد في التفسير ١٩/ ٣٤١ ، وسلف الكلام على كتابه آداب النفوس ١/ ٣٥ .

(٥) أخرجه عن مجاهد ابن المبارك في الزهد (٦١- زوائد نعيم)، والبيهقي في الشعب (٦٨٤٥)، ولم نقف عليه عن ابن عباس وقتادة.

الكلبيُّ: يعني الذين يعملون السيئاتِ في الدنيا. مقاتل: يعني الشرك[١]، فتكون «السَّيئات» مفعولةً[٢]. ويقال: بارَ يَبورُ: إذا هَلَكَ وبطل. وبارتْ السوقُ، أي: كَسَدتْ، ومنه: نعوذُ بالله من بَوَارِ الأيِّم. وقولُه: ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢] أي: هَلْكَى. والمَكْر: ما عُمل على سبيل احتيالٍ وخديعة. وقد مضى في «سبأ»[٣].

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ قال سعيدٌ عن قتادةَ: يعني آدمَ عليه السلام، والتقديرُ على هذا: خَلَقَ أصْلَكم من تراب. ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ قال: أي: التي أخْرجَها من ظهورِ آبائِكم ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ قال: أي: زوَّجَ بعضَكم بعضاً[٤]. فالذَّكَرُ زوجُ الأنثى ليتمَّ البقاءُ في الدنيا إلى انقضاءِ مُدَّتِها. ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ أي: جَعَلَكم أزواجاً، فيتزوَّجُ الذكرُ بالأنثى فيتناسلان بعلم الله، فلا يكون حملٌ ولا وضعٌ إلا واللهُ عالمٌ به، فلا يخرجُ شيءٌ عن تدبيره.

﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ سمَّاه معمَّراً بما هو صائرٌ إليه. قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ إلاَّ كُتِبَ عمرُه، كم هو سنةً، كم هو شهراً، كم هو يوماً، كم هو ساعةً، ثم يُكتبُ في كتابٍ آخرَ: نقصَ من عمره يومٌ، نقصَ شهرٌ، نقصَ سنةٌ، حتى يستوفيَ أجَلَه[٥]. وقاله سعيد بن جبير أيضاً؛

---

(١) ذكر هذه الأقوال البغوي ٣/ ٥٦٧ .

(٢) يعني على قول الكلبي ومقاتل، حيث ضُمِّن «يمكرون» معنى يكسبون، وعلى قول أبي العالية ينتصب «السيئات» على نعتِ مصدرٍ محذوف، أي: المكراتِ السيئات، وهي: إثباته أو قتله أو إخراجه. ينظر البحر ٧/ ٣٠٤ ، والدر المصون ٩/ ٢١٨ .

(٣) ص٣٠٢ من هذا الجزء.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٥ ، وأخرجه بنحوه الطبري ١٩/ ٣٤٢ .

(٥) بنحوه في تفسير الطبري ١٩/ ٣٤٥، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٥ ، ومعاني القرآن له ٥/ ٤٤٤ .

قال: فما مَضى من أجَلِه فهو النقصانُ، وما يُستقبلُ فهو الذي يُعَمَّرُه[١]، فالهاءُ على هذا للمعمَّر.

وعن سعيد أيضاً: يكتبُ عمرُه كذا وكذا سنةً، ثم يكتب في أسفلِ ذلك: ذهب يومٌ، ذهب يومان، حتى يأتيَ على آخره. وعن قتادةَ: المعمَّرُ مَن بلغ ستِّينَ سنةً، والمَنْقوصُ من عمره مَن يَموتُ قبل ستِّين سنة[٢].

ومذهبُ الفرَّاءِ[٣] في معنى ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ أي: ما يكونُ من عمره ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ بمعنى معمَّرٍ آخرَ، أي: ولا يُنْقَصُ الآخرُ من عمره ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ فالكنايةُ في «عمره» تَرْجِعُ إلى آخرَ غيرِ الأوَلِ، وكَنَى عنه بالهاء كأنه الأوّلُ، ومثلُه قولُك: عندي درهمٌ ونصفُه، أي: نصفُ آخرَ.

وقيل: إنَّ الله كتب عمرَ الإنسان مئةَ سنةٍ إن أطاع، وتسعين إن عَصَى، فأيُّهما بلغ فهو في كتاب[٤]. وهذا مثلُ قوله عليه الصلاة والسلام: «مَن أحَبَّ أن يُبْسَط له في رزقه، ويُنْسأ له في أثَرِه، فَلْيَصِلْ رَحِمَه»[٥]. أي: إنَّه يُكتَبُ في اللَّوح المحفوظ: عمرُ فلانٍ كذا سنةً، فإنْ وَصَلَ رَحِمَه زِيْدَ في عمرِه كذا سنةً. فبيَّن ذلك في موضع آخَرَ من اللَّوحِ المحفوظ، أنَّه سَيَصِلُ رَحِمَه. فَمَن اطَّلع على الأوّل دونَ الثاني ظَنَّ أنَّه زيادةٌ أو نقصان. وقد مضى هذا المعنى عند قوله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد:٣٩]. والكنايةُ على هذا ترجعُ إلى العمر.

وقيل: المعنى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ أي: هَرِم ﴿وَلَا يُنقَصُ﴾ آخَرُ [﴿مِنْ

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٤٥ .

(٢) الكشاف ٣/ ٣٠٣ ، وأخرج الخبرين ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٥/ ٢٤٧ .

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٣٦٨ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٤٦ .

(٥) أخرجه أحمد (١٣٥٨٥)، والبخاري (٢٠٦٧)، ومسلم (٢٥٥٧) من حديث أنس ﷺ، وسلف ١٠/ ٢٠٢ و١٢/ ٨٩ .

عُمُرِهِۦٓ﴾] من عمرِ الهَرِمِ ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ أي: بقضاءٍ من الله جلَّ وعزَّ. رُوي معناه عن الضحَّاك واختاره النحَّاس، قال: وهو أشبهها بظاهرِ التنزيل[(١)]. ورُوي نحوُه عن ابن عباس[(٢)]. فالهاءُ على هذا يَجوزُ أن تكون للمعمَّر، ويجوز أن تكون لغيرِ المعمَّر.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: كتابةُ الأعمالِ والآجالِ غيرُ مُتعذِّرٍ عليه. وقراءةُ العامَّةِ: ﴿يُنقَصُ﴾ بضمِّ الياء وفتحِ القاف. وقَرأتْ فرقةٌ منهم يعقوبُ: ﴿يَنْقُص﴾ بفتح الياء وضمِّ القاف[(٣)]، أي: لا يَنْقُصُ من عمرِه شيءٌ. يقال: نَقَصَ الشيءُ بنفسه ونقَصَه غيرُه، وزاد بنفسه وزاده غيره، متعدٍّ ولازمٌ.

وقرأ الأعرجُ والزُّهريُّ: «مِن عُمْره» بتخفيفِ الميم[(٤)]. وضمَّها الباقون. وهما لغتان مثل: السُّحْق والسُّحُق. و«يَسيرٌ» أي: إحْصَاءُ طويلِ الأعمارِ وقصيرِها لا يتعذَّر عليه شيءٌ منها ولا يَعْزُب. والفعلُ منه: يَسُر. ولو سمَّيتَ به إنساناً انْصَرَفَ؛ لأنه فَعِيل[(٥)].

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ **فيه أربعُ مسائلَ:**

الأولى: قال ابن عباس: «فُراتٌ» حُلْوٌ، و«أُجَاجٌ» مرٌّ. وقرأ طلحةُ: «هذا مَلِحٌ أُجاجٌ» بفتحِ الميم وكَسْرِ اللامِ بغير ألف. وأمَّا المالحُ فهو الذي يُجعلُ فيه الملح[(٦)].

(١) معاني القرآن للنحاس ٢/ ٤٤٣، وما سلف بين حاصرتين منه. وقول الضحاك أخرجه الطبري ١٩/ ٣٤٣.
(٢) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٤٣.
(٣) النشر ٢/ ٣٥٢.
(٤) ذكرها ابن مجاهد في السبعة ص٥٣٤ رواية عن أبي عمرو، وهي في القراءات الشاذة ص١٢٣.
(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٦.
(٦) المصدر السابق.

وقرأ عيسى وابنُ أبي إسحاقَ: «سيِّغ شرابه» مثل: سيِّد وميِّت[١]. ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ لا اختلافَ في أنه منهما جميعاً. وقد مضى في «النحل» الكلامُ فيه[٢].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ مذهبُ أبي إسحاق أنَّ الحلية إنَّما تستخرجُ من الملح، فقيل: منهما؛ لأنَّهما مُخْتلِطان. وقال غيره: إنَّما تُسْتَخرجُ الأصدافُ التي فيها الحليةُ ـ من الدرِّ وغيرِه ـ من المواضع التي فيها العذبُ والمِلْحُ نحو العيون[٣]، فهو مأخوذٌ منهما[٤]؛ لأنَّ في البحر عيوناً عذبةً، وبينهما يخرج اللؤلؤُ عند التَّمازُجِ. وقيل: من مطر السماء.

وقال محمد بنُ يزيد قولاً رابعاً، قال: إنَّما تُستخرَجُ الحليةُ من المِلْح خاصةً؛ النحاس[٥]: وهذا أحْسَنُها، وليس هذا عندَه لأنَّهما مُختلِطان، ولكنْ جُمِعا ثم أخبر عن أحدهما كما قال جلَّ وعزَّ: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ [القصص: ٧٣] وكما تقول: لو رأيتَ الحسنَ والحجَّاجَ لرأيتَ خيراً وشرّاً. وكما تقول: لو رأيتَ الأصمعيَّ وسيبويه لملأتَ يدك لغةً ونَحْواً. فقد عرف معنى هذا، وهو كلامٌ فصيحٌ كثير، فكذا: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ فاجتمعا في الأوَّلِ وانفردَ المِلْحُ بالثاني.

الثالثة: وفي قوله: ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ دليل على أنَّ لباسَ كلِّ شيءٍ بحَسَبِه؛ فالخاتمُ يُجعل في الإصبع، والسِّوارُ في الذِّراع، والقِلادةُ في العنق، والخَلْخالُ في الرِّجْل.

---

(١) القراءات الشاذة ص٣٣٤، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٣٣ عن عيسى. وقرأ عيسى أيضاً: «سَيْغ» مخفَّفاً من المشدَّد، وكذا ضبطت في (ز)، وهي في المحتسب ٢/ ١٩٨، والبحر ٧/ ٣٠٥.

(٢) ١٢/ ٢٩٥.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٦، وقول أبي إسحاق الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٢٦٦.

(٤) في (ظ): منها، وليست في (د). والمثبت من باقي النسخ والنكت والعيون ٤/ ٤٦٧، والكلام منه.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٣٦٦، وما قبله منه.

وفي البخاريِّ والنسائيِّ عن ابن سِيرين قال: قلتُ لعَبِيدةَ: افتراشُ الحرير كَلُبْسِه؟ قال: نعم[١]. وفي الصِّحاح عن أنس: فقمتُ على حَصيرٍ لنا قد اسْوَدَّ من طولِ ما لُبس. الحديث[٢].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ قال النحاس[٣]: أي: ماءِ الملحِ خاصةً، ولولا ذلك لقال: فيهما. وقد مَخَرت السفينةُ تَمْخُر: إذا شقَّت الماءَ. وقد مضى هذا في «النحل»[٤].

﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ قال مجاهد: التجارةُ في الفُلْكِ إلى البلدان البعيدةِ في مدَّةٍ قريبة[٥]، كما تقدَّم في «البقرة»[٦]. وقيل: ما يُستخرج من حِلْيتهِ ويُصادُ من حِيتَانه. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ على ما آتاكم من فَضْلِه. وقيل: على ما أَنْجاكم مِن هَوْله.

قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ تقدَّم في «آل عمران»[٧] وغيرِها. ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ تقدَّم في «لقمان»

---

(١) ذكره البخاري تعليقاً في: باب افتراش الحرير، فقال: وقال عبيدة: هو كَلُبْسِه. ووصله الحارث بن أبي أسامة من طريق محمد بن سيرين بلفظ المصنف، كما في الفتح ١٠/ ٩٢، ولم يخرجه النسائي، ولكن أخرجه من طريقه ابن عبد البر في التمهيد ١/ ٢٦٥.

(٢) صحيح البخاري (٣٨٠)، وصحيح مسلم (٦٥٨)، وهو عند أحمد (١٢٣٤٠).

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٣٦٧.

(٤) ١٢/ ٣٠٢.

(٥) ذكره مختصراً الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٦٧.

(٦) ٢/ ٤٩٧.

(٧) ٥/ ٨٥ - ٨٧.

بيانُه[١]. ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ أي: هذا الذي مِن صُنْعِه ما تَقرَّرَ هو الخالقُ المدبِّر، والقادرُ المقتدرُ، فهو الذي يُعْبَد. ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ يعني: الأصنامَ ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ أي: لا يقدرون عليه ولا على خَلْقِه. والقِطْميرُ: القِشْرةُ الرقيقةُ البيضاءُ التي بين التمرة والنواة؛ قاله أكثر المفسِّرين[٢]. وقال ابن عباس: هو شَقُّ النَّواةِ[٣]، وهو اختيارُ المبرِّد، وقاله قتادةُ. وعن قتادةَ أيضاً: القِطْميرُ: القَمْعُ الذي على رأس النواة[٤]. الجوهَرِيُّ[٥]: ويقال: هي النكتةُ البيضاءُ التي في ظَهْرِ النواةِ، تَنْبُتُ منها النخلة.

قوله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ أي: إنْ تَستغيثوا بهم في النَّوائب لا يسمعوا دعاءَكم؛ لأنَّها جماداتٌ لا تُبصِرُ ولا تسمع. ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ إذ ليس كلُّ سامعٍ ناطقاً. وقال قتادةُ: المعنى: لو سَمِعوا لم ينفعوكم[٦]. وقيل: أي: لو جَعَلْنا لهم عقولاً وحياةً فسمعوا دعاءَكم لكانوا أطوعَ للهِ منكم، ولمَا استجابوا لكم على الكفر.

---

(١) عند تفسير الآية (٢٩) منها.

(٢) ذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطاء وعطية العوفي والحسن وقتادة وغيرهم.

(٣) لم نقف عليه، وقد روي هذا القول عن ابن عباس في تفسير الفتيل، كما في معاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٤٨، والدر المنثور ٢/ ١٧١، وعزاه السيوطي لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر، وروي عنه في معنى القطمير أنه القشر ـ وفي لفظ: الجلد ـ الذي يكون على ظهر النواة. تفسير الطبري ١٩/ ٣٤٩، ومعاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٤٨، والدر المنثور ٢/ ١٧١ و ٥/ ٢٤٨.

(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٥٠ من طريق جويبر عن بعض أصحابه، وأخرج عن قتادة أنه قال: القطمير: القشرة التي على رأس النواة.

(٥) في الصحاح (قطمر).

(٦) أخرجه بنحوه الطبري ١٩/ ٣٥١.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ أي: يجحدون أنَّكم عَبَدْتُموهم، ويَتَبرَّؤون منكم. ثم يجوزُ أن يرجع هذا إلى المعبودينَ ممَّا يَعْقِلُ، كالملائكة والجنِّ والأنبياءِ والشَّياطين، أي: يجحدون أن يكون ما فعلتُموه حقًّا، وأنَّهم أمروكم بعبادتهم، كما أخبر عن عيسى بقوله: ﴿مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦]. ويجوزُ أن يندرج فيه الأصنامُ أيضاً، أي: يحُييها الله حتى تُخْبِرَ أنَّها ليست أهلاً للعبادة. ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ هو اللهُ جلَّ وعزَّ، أي: لا أحدَ أَخْبَرُ بخلقِ اللهِ من الله، فلا ينبِّئك مثلُه في عمله[1].

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: المحتاجون إليه في بقائكم وكلِّ أحْوالِكم. الزَّمخشريُّ: فإنْ قلتَ: لِمَ عرَّف «الفقراء؟» قلتُ: قَصَدَ بذلك أن يُريَهم أنَّهم لشدَّةِ افتقارِهم إليه هم جنسُ الفقراء، وإن كانت الخلائقُ كلُّهم مفتقرين إليه؛ من الناس وغيرِهم؛ لأنَّ الفقر ممَّا يَتْبعُ الضَّعْفَ، وكلَّما كان الفقيرُ أضْعَفَ كان أفقرَ[2]؛ وقد شَهِدَ اللهُ سبحانه على الإنسان بالضَّعْفِ في قوله: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ وقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ ولو نَكَّر لكان المعنى: أنتم بعضُ الفقراء.

فإن قلت: قد قُوبِلَ «الفقراء» بـ«الغنيّ» فما فائدةُ «الحميد»؟

قلتُ: لمَّا أثبتَ فَقْرَهم إليه وغِناهُ عنهم، وليس كلُّ غنيٍّ نافعاً بغناه إلاَّ إذا كان الغنيُّ جواداً مُنْعِماً، وإذا جاد وأنْعمَ حَمِدَه المنْعَمُ عليهم واستحقَّ عليهم الحمدَ، ذَكَر «الحميد» ليدلَّ به على أنَّه الغنيُّ النافِعُ بغناه خَلْقَه، الجوادُ المنعمُ عليهم، المستحِقُّ بإنعامه عليهم أن يَحْمَدوه[3].

---

(١) في (خ) و (ز): علمه.

(٢) في (خ): أحقر.

(٣) الكشاف ٣/ ٣٠٤ - ٣٠٥ .

وتخفيفُ الهمزةِ الثانيةِ أَجْوَدُ الوجوهِ عند الخليلِ، ويجوزُ تخفيفُ الأولى وحدَها[١]، وتخفيفُهما وتحقيقُهما جميعاً. ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ تكون «هو» زائدةً، فلا يكون لها موضعٌ من الإعراب، وتكون مبتدأةً فيكون موضعُها رفعاً[٢].

قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ فيه حذفٌ، المعنى: إنْ يشأْ [أن] يُذْهِبَكم يُذْهِبْكم[٣]، أي: يفنيكم. ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: أَطْوعَ منكم وأزْكَى. ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي: ممتنعٍ عَسيرٍ مُتعذِّر. وقد مضى هذا في «إبراهيم»[٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾

تقدَّم الكلامُ فيه[٥]، وهو مقطوعٌ ممَّا قَبْلَه. والأصلُ: «تَوْزِر» حُذفت الواوُ اتباعاً لِيَزِر. ﴿وَازِرَةٌ﴾ نعتٌ لمحذوفٍ، أي: نفسٌ وازِرةٌ. وكذا ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ قال الفرَّاء[٦]: أي: نفسٌ مُثْقَلةٌ، أو دابَّة. قال: وهذا يقع للمذكَّر والمؤنَّث. قال الأخفش[٧]: أي: وإنْ تَدْعُ مُثْقَلةٌ إنساناً إلى حِمْلِها، وهو ذنوبها. والحِمْلُ: ما كان

---

(١) في (د): وحذفها، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٨ ، وسهَّل الثانية كالياء وأبدلها واواً مكسورة: نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس، وحققها الباقون وأما تخفيف الأولى؛ فهو لحمزة وهشام عند الوقف حسب أصولهما فيه.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٧-٣٦٨ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٨ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) ١٢/ ١٢٥ .

(٥) ٩/ ١٤٥ .

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٣٦٨ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٦٨ .

(٧) في معاني القرآن له ٢/ ٦٦٥ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٦٨ .

على الظَّهْر، والحَمْل: حَمْلُ المرأةِ، وحَمْلُ النخلة؛ حكاهما الكسائيُّ بالفتح لا غير. وحَكَى ابن السِّكِّيت أنَّ حمل النخلة يُفتح ويُكسر.

﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ التقدير على قول الأخفش: ولو كان الإنسانُ المدعوُّ ذا قُرْبَى. وأجاز الفرَّاء: ولو كان ذو قُرْبَى. وهذا جائزٌ عند سيبويه، ومثلُه: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠] فتكون «كان» بمعنى: وقع، أو يكون الخبرُ محذوفاً، أي: وإن كان فيمَن تطالبون ذو عسرة. وحكى سيبويه: الناسُ مَجْزِيُّونَ بأعمالهم إنْ خيرٌ فخيرٌ؛ على هذا، وخيراً فخيراً[(١)]؛ على الأوّل.

وروي عن عكرمةَ أنه قال: بلغني أنَّ اليهوديَّ والنَّصْرانيَّ يرى الرجلَ المسلمَ يومَ القيامةِ فيقولُ له: ألم أكن قد أَسْديتُ إليك يداً، ألم أكن قد أَحْسنتُ إليك؟ فيقول: بلى. فيقول: انفعني؛ فلا يزالُ المسلم يسأل الله تعالى حتى يُنْقِصَ من عذابه. وأنَّ الرجل ليَأتي إلى أبيه يومَ القيامةِ فيقول: ألم أَكُنْ بك بارّاً، وعليك مُشْفِقاً، وإليك مُحْسِناً؟ وأنت ترى ما أنا فيه، فهَبْ لي حسنةً من حسناتك، أو احْمِلْ عنِّي سيئةً، فيقول: إنَّ الذي سَألْتني يسيرٌ، ولكنِّي أخافُ مثلَ ما تَخاف. وأنَّ الأبَ ليقول لابنه مثلَ ذلك، فَيرُدُّ عليه نحواً من هذا. وأنَّ الرجل ليقول لزوجته: ألم أَكُنْ حَسَنَ[(٢)] العِشرة لكِ؟ فاحْمِلي عنِّي خطيئةً لَعَلِّي أنْجو، فتقول: إنَّ ذلك ليسيرٌ ولكنِّي أخاف ممَّا تخاف منه. ثم تلا عكرمة: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾[(٣)].

---

(١) في (د) و (م): وخيراً فخيرٌ، والمثبت من باقي النسخ وإعراب القرآن للنحاس، وكلا الوجهين صحيح، والتقدير: إن كان الذي عَمِلَ خيراً جُزي خيراً، أو: إن كان الذي عَمِلَ خيراً فالذي يُجزى به خيرٌ. وإذا رفع الاثنين فالتقدير: إن كان في عمله خير فالذي يجزى به خير. ينظر الكتاب ١/ ٢٥٨-٢٦٠. وقول الفراء في معاني القرآن ٢/ ٣٦٨. وقول الأخفش في معاني القرآن ٢/ ٦٦٥.

(٢) في (د) و (م): أحسن.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٩، وأخرجه بنحوه عبد بن حميد وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ٢٤٨.

وقال الفُضيل بنُ عِياض: هي المرأةُ تَلْقَى ولدَها فتقول: يا ولدي، ألم يكن بطني لك وعاءً؟ ألم يكن ثديي لك سِقَاءً؟ ألم يكن حِجْري لك وِطَاءً؟ فيقول: بلى يا أمَّاه! فتقول: يا بنيَّ، قد أثْقلتني ذنوبي فاحمِلْ عنِّي منها ذنباً واحداً، فيقول: إليكِ عنِّي يا أمَّاه، فإنِّي بذَنْبي عنكِ مشغول.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: إنَّما يقبلُ إنذارَك مَن يخشى عقابَ الله تعالى، وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يس: ١١].

قوله تعالى: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ أي: مَن اهتَدَى فإنَّما يَهْتدي لنفسه. وقُرئ: «ومَنِ ازَّكَّى فإنَّما يَزَّكَّى لِنفسِه»[1]. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: إليه مَرْجِعُ جميعِ الخَلْق.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ أي: الكافرُ والمؤمنُ، والجاهلُ والعالم. مثل: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ [المائدة: ١٠٠]. ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ قال الأخفشُ سعيد[2]: «لا» زائدةٌ؛ والمعنى: ولا الظلماتُ والنور، ولا الظلُّ والحَرُور.

قال الأخفش: والحَرُورُ لا يكون إلا مع شمسِ النهار، والسَّمُوم يكون بالليل[3]،

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٦، والبحر ٧/ ٣٠٨ عن طلحة، وهي قراءة شاذة.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٦٦٥، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٦٩.

(٣) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤١٩، وفيه: ... والسموم يكون بالليل والنهار، ولم نقف على هذا القول في معاني القرآن للأخفش.

وقيل بالعكس[١]. وقال رُؤْبةُ بنُ العجاج: الحَرُورُ يكونُ بالليل[٢] خاصةً، والسَّمُومُ يكون بالنهار[٣] خاصةً، حكاه المهدوِيُّ[٤]. وقال الفرَّاء: السَّمومُ لا يكونُ إلا بالنهار، والحرورُ يكونُ فيهما[٥]. النحاس[٦]: وهذا أصحُّ؛ لأنَّ الحَرُور فَعُولٌ من الحرِّ، وفيه معنى التكثير، أي: الحرّ المؤذي.

قلت: وفي «صحيح» مسلم عن أبي هريرةَ عن رسول الله ﷺ قال: «قالت النار: ربِّ أكلَ بَعْضِي بعضاً، فأْذَنْ لي أتنفَّسْ، فأَذِنَ لها بنَفَسَيْنِ: نَفَسٍ في الشِّتاءِ، ونَفَسٍ في الصيف، فما وجدتُم من بَرْدٍ أو زَمْهرَيرٍ فمِنْ نَفَسِ جهنَّمَ، وما وجدتُم من حرٍّ أو حَرُورٍ فمِنْ نَفَسِ جهنَّم»[٧].

ورُوي من حديث الزُّهريِّ، عن سعيدٍ، عن أبي هريرة: «فما تَجِدون من الحرِّ فَمِنْ سَمُومِها، وشدَّةُ ما تَجِدون من البرد فمِن زَمْهَريرِها»[٨] وهذا يجمعُ تلك الأقوالَ، وأنَّ السَّمومَ والحَرُورَ يكون بالليل والنهار، فتأمَّله.

وقيل: المرادُ بالظلِّ والحَرُورِ: الجنة والنار، فالجنةُ ذاتُ ظلٍّ دائمٍ، كما قال

---

(١) ذكره النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٦٩ فقال: وقيل: الحرور لا يكون إلا بالليل، والسموم يكون بالنهار.

(٢) في (د) و (م): بالنهار.

(٣) في النسخ: بالليل، والمثبت عن مجاز القرآن ٢/ ١٥٤ ، وتفسير الطبري ١٩/ ٣٥٦ ، ومعاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٥١ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٣٥ ، وزاد المسير ٦/ ٤٨٣ .

(٤) بعدها في (ظ): وقال السموم في الليل.

(٥) تفسير الطبري ١٩/ ٣٠٨ ، والنكت والعيون ٤/ ٤٦٩ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٣٦ ، وزاد المسير ٦/ ٤٨٣ ، ولم نقف عليه في معاني القرآن له.

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٣٦٩-٣٧٠ .

(٧) صحيح مسلم (٦١٧) : (١٨٧) ، وهو عند أحمد (٧٧٢٢) ، والبخاري (٥٣٧) و(٣٢٦٠) .

(٨) أخرجه بنحوه بهذا الإسناد مرفوعاً أحمد (٧٢٤٧)، والبخاري (٥٣٧). وأخرجه بلفظ المصنف ابن ماجه (٤٣١٩) وابن عبد البر في التمهيد ٥/ ١٦-١٧ عن طريق الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ.

تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥]، والنارُ ذات حَرُورٍ؛ قال معناه السُّدِّيُّ[(١)]. وقال ابن عباس: أي ظلُّ الليل، وحَرُّ السَّموم بالنهار. قُطرب: الحَرُورُ: الحرُّ، والظلُّ: البرد[(٢)].

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ قال ابن قُتيبة[(٣)]: الأحياءُ: العُقَلاء، والأموات: الجهَّال. قال قتادة: هذه كلُّها أمثالٌ، أي: كما لا تستوي هذه الأشياءُ كذلك لا يستوي الكافرُ والمؤمن[(٤)].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يُسمعُ أولياءَه الذين خلَقَهم لجنَّته، ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ أي: الكفارَ الذين أمات الكفرُ قلوبَهم، أي: كما لا تُسمع مَن مات، كذلك لا تُسمع من مات قلبُه.

وقرأ الحسنُ وعيسى الثَّقَفيُّ وعمرو بن ميمون: «بمسمِعِ مَن في القبورِ» بحذفِ التنوينِ تخفيفاً، أي: هم بمنزلةِ [أهلِ] القبورِ في أنَّهم لا ينتفعون بما يسمعونه ولا يَقْبَلونه[(٥)].

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾

أي: رسولٌ منذِرٌ، فليس عليك إلا التبليغ، ليس لك من الهُدَى شيءٌ، إنَّما الهُدَى بيد الله تبارك وتعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: بشيراً بالجنة أهلَ طاعَتِه،

---

(١) ذكره عنه الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٦٩، وأخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٥/ ٢٤٩.
(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٦٩، ولم نقف على خبر ابن عباس.
(٣) في تفسير غريب القرآن ص٣٦١.
(٤) الوسيط ٣/ ٥٠٤، وأخرجه بنحوه عبد الرزاق ٢/ ١٣٥.
(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٠، وما سلف بين حاصرتين منه، والقراءة في القراءات الشاذة ص١٢٣ عن علي ﷺ.

ونذيراً بالنار أهلَ معصيته. ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ أي: سَلَفَ فيها نبيٌّ. قال ابن جُريج: إلا العرب(١).

قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ يعني: كفارَ قريشٍ ﴿فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أنبياءَهم، يُسلِّي رسولَه ﷺ. ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالمعجزاتِ الظَّاهِراتِ والشرائعِ الواضحات. ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾ أي: الكتب المكتوبة ﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ أي: الواضح. وكرَّر الزُّبرَ والكتابَ وهما واحدٌ لاختلافِ اللفظين. وقيل: تَرجعُ البيناتُ والزبرُ والكتابُ إلى معنىً واحدٍ، وهو ما أنزل على الأنبياء من الكتب.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: كيف كانت عقوبتي لهم. وأثبت وَرْشٌ عن نافعٍ وشيبة الياءَ في «نكيري» حيث وقعت في الوَصْلِ دون الوَقْف. وأثبتَها يعقوب في الحالَيْن، وحَذَفَها الباقون في الحالين(٢). وقد مضى هذا كلُّه، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ هذه الرؤيةُ رؤيةُ القَلْبِ والعلمِ، أي: أَلَمْ ينتهِ علمُكَ ورأيتَ بقلبك أنَّ الله أنزل، فـ«أنَّ» واسمُها وخبرُها سَدَّت مَسَدَّ مفعولَيْ الرؤية.

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٤٧٠.

(٢) التيسير ص١٨٣، والنشر ٢/ ٣٥٢.

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ﴾ هو من بابِ تلوينِ الخطاب. ﴿مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ نُصِبتْ «مُختَلِفاً» نعتاً لـ«ثَمَرَاتٍ»، «أَلْوَانُهَا» رفع بـ«مختلف». وصلح أن يكون نعتاً لـ«ثَمَرَات» لِمَا عاد عليه مِن ذِكْرِه. ويجوزُ في غيرِ القرآنِ رَفْعُه، ومثلُه: رأيتُ رجلاً خارجاً أبوه[(١)].

﴿بِهِۦ﴾ أي: بالماء وهو واحدٌ، والثمراتُ مختلفةٌ. ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ الجُدَدُ: جمعُ جُدَّة، وهي الطرائقُ المختلفةُ الألوان، وإنْ كان الجميعُ حجراً أو تراباً. قال الأخفش[(٢)]: ولو كان جمعَ جديدٍ لقال: جُدُد ـ بضمِّ الجيمِ والدال ـ نحو: سَرير وسُرُر. وقال زهير:

كأنه أسفعُ الخدَّين ذو جُدَدٍ   طاوٍ ويرتعُ بعد الصيفِ عُريانا[(٣)]

وقيل: إنَّ الجُدَدَ: القِطَع، مأخوذٌ من جددتُ الشيء: إذا قطعتَه؛ حكاه ابن بحر[(٤)].

قال الجوهريُّ[(٥)]: والجُدَّة: الخُطَّة التي في ظهر الحمارِ تُخالفُ لونَه. والجُدَّة: الطَّريقة، والجمعُ جُدَد؛ قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ أي: طرائقُ تُخالفُ لونَ الجبل. ومنه قولُهم: رَكِبَ فلانٌ جُدَّةً من الأمر: إذا رأى فيه رأياً. وكساءٌ مجدَّد: فيه خطوطٌ مختلفة.

الزمخشريُّ[(٦)]: وقرأ الزُّهريُّ: «جُدُد» بالضم جمع جَدِيدة، وهي الجُدَّة؛ يقال:

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٠.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٦٦٥.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٤٧٠، ولم نقف عليه في ديوان زهير. قوله: أسفع الخدين، قال ابن قتيبة في المعاني الكبير ١/ ٢٧٢: السفعة في الخد: كل لون يخالف سائر لونه.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٤٧٠.

(٥) في الصحاح (جدد).

(٦) في الكشاف ٣/ ٣٠٧.

جديدة وجُدُد وجَدَائد، كسفينة وسُفُن وسَفَائن. وقد فسّر بها قول أبي ذُؤيب:

جَـوْنُ الـسَّـرَاةِ لـه جَـدَائـدُ أربـعُ[1]

ورُوي عنه «جَدَد» بفتحتين، وهو الطريقُ الواضح المُسْفِر، وَضَعَه موضعَ الطرائقِ والخطوطِ الواضحةِ المنفصِلِ بعضُها من بعضٍ[2].

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ﴾ وقُرِئ: «والدوابِ» مخفَّفاً، ونظيرُ هذا التخفيفِ قراءةُ مَن قرأ: «وَلا الضَّألِّين»؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهما فرَّ من التقاءِ الساكنَيْنِ، فحرَّك ذاك أوَّلهما، وحَذفَ هذا آخِرَهما؛ قاله الزمخشريُّ[3].

﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أي: فيهم الأحمرُ والأبيضُ والأسودُ وغيرُ ذلك، وكلُّ ذلك دليلٌ على صانعٍ مُختارٍ، وقال: «مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ» فذكَّر الضميرَ مُراعاةً لـ«من»؛ قاله المُؤرِّج. وقال أبو بكر بن عياش: إنَّما ذكَّر الكنايةَ لأَجْلِ أنَّها مردودةٌ إلى «ما» مُضْمَرةٍ، مَجازُه: ومِن الناس ومن الدوابِّ ومن الأنعام ما هو مختلفٌ ألوانه، أي: أبيضُ وأحمرُ وأسود.

﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ قال أبو عبيدة[4]: الغِربيبُ: الشديدُ السَّوادِ، ففي الكلام تقديمٌ وتأخيرٌ، والمعنى: ومن الجبال سودٌ غرابيبُ. والعربُ تقول للشديد السَّوادِ الذي لونُه كَلَوْنِ الغُراب: أسودُ غِربيبٌ.

---

(١) ديوان الهذليين ص٤، والخزانة ١/ ٤٢٠، وصدره: والدهر لا يبقى على حِدْثانه قال البغدادي: الحدثان بمعنى الحادثة، والسَّراة: أعلى الظهر. والجَوْن: الأسود المائل إلى الحمرة، أراد الحمار الوحشي. اهـ. والجدائد: الأُتُنُ التي لا ألبانَ لها، واحدها جَدود، بفتح الجيم. أو أنها الخطوط التي على ظهر الحمار ـ وهو المراد هنا ـ كما نقل المصنف عن الزمخشري أعلاه.

(٢) الكشاف ٣/ ٣٠٧، والقراءتان في المحتسب ٢/ ١٩٩-٢٠٠، وقراءة «جَدَد» بفتح الجيم ذكرها أيضاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٢٣-١٢٤.

(٣) في الكشاف ٣/ ٣٠٧، وقراءة: «والدوابِ» بالتخفيف في المحتسب ٢/ ٢٠٠ عن الزهري. وقراءة: «الضألين» بالهمز في القراءات الشاذة ص١، والمحتسب ١/ ٤٦ عن أيوب السختياني.

(٤) بنحوه في مجاز اللغة ٢/ ١٥٤.

قال الجوهريُّ(١): وتقول: هذا أسودُ غِربيبٌ، أي: شديدُ السَّواد. وإذا قلتَ: غرابيبُ سودٌ، تَجعلُ السودَ بدلاً من غرابيبَ؛ لأنَّ تواكيدَ الألوانِ لا تَتقدَّم.

وفي الحديث عن النبيِّ ﷺ: «إنَّ الله يُبغِضُ الشيخَ الغِرْبيبَ» يعني الذي يَخْضِبُ بالسَّواد(٢). قال امرؤ القيس:

العينُ طامحةٌ واليَدُ سابحةٌ والرِّجْلُ لافحةٌ والوجهُ غِرْبيبُ(٣)

وقال آخرُ يَصِفُ كَرْماً:

ومن تَعاجيبِ خَلْقِ اللهِ غاطِيَةٌ يُعصَر منها مُلاَحِيٌّ وغِرْبيبُ(٤)

﴿كَذَٰلِكَ﴾ هنا تمامُ الكلام(٥)، أي: كذلك تختلفُ أحوالُ العبادِ في الخشية، ثم اسْتَأنفَ فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ يعني بالعلماء: الذين يخافون قدرته، فَمَن عَلِم أنه عزَّ وجلَّ قديرٌ، أيْقنَ بمعاقبته على المعصية، كما رَوَى عليّ بن أبي طلحةَ عن ابن عباس: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ قال: الذين عَلِموا أنَّ الله على كلِّ شيءٍ قدير(٦).

وقال الربيع بنُ أنس: مَن لم يَخْشَ الله تعالى فليس بعالِم(٧).

---

(١) في الصحاح (غرب).

(٢) النكت والعيون ٤/ ٤٧٠ . والحديث أخرجه ابن عدي ٣/ ١٠١٦ ، وفي إسناده رشدين بن سعد، قال فيه الحافظ في التقريب: ضعيف.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٤٧١ ، ورواية الديوان ص٢٢٦:

والعينُ قادِحةٌ واليدُ سابِحةٌ والرجلُ طامحةٌ واللونُ غربيبُ

قال شارح الديوان: قادحة: غائرة، واليد سابحة: إذا مدَّت يديها فكأنها تسبح، يريد السرعة (والكلام عن فرسه)، وقوله: طامحة، أي: سريعة الدفع. وقوله: غربيب، يريد السواد، يعني أنها دهماء.

(٤) أدب الكاتب ص٣٧٨، وجمهرة اللغة ٢/ ١٩١، واللسان (غطي). قال ابن دريد: كل شجرة منبسطة على الأرض فهي غاطية، يعني الكرم، وعنب مُلاَحي: إذا كان أبيض.

(٥) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٤٨٩ .

(٦) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٦٤ .

(٧) النكت والعيون ٤/ ٤٧١ .

وقال مجاهد: إنَّما العالِمُ مَن خَشِيَ اللهَ عزَّ وجلَّ. وعن ابن مسعود: كَفَى بخشية الله تعالى عِلماً، وبالاغترار [به] جَهْلاً[١].

وقيل لسعد بن إبراهيم: مَن أفْقهُ أهل المدينة؟ قال: أتقاهُم لربِّه عزَّ وجلَّ[٢]. وعن مجاهدٍ قال: إنَّما الفقيهُ مَن يَخافُ الله عزَّ وجلَّ[٣]. وعن عليٍّ ﷺ قال: إنَّ الفقيه حقَّ الفقيهِ مَن لم يُقنِّط الناسَ من رحمة الله، ولم يُرخِّص لهم في معاصي اللهِ تعالى، ولم يؤمِّنْهم من عذابِ الله، ولم يَدَع القرآنَ رغبةً عنه إلى غيره؛ إنَّه لا خيرَ في عبادةٍ لا علمَ فيها، ولا عِلْمٍ لا فِقْهَ فيه، ولا قراءةٍ لا تَدَبُّر فيها[٤].

وأسند الدارميُّ أبو محمد عن مكحولٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ فَضْلَ العالِمِ على العابِدِ كفَضْلي على أدْناكُم». ثم تلا هذه الآيةَ: «﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ إنَّ الله وملائكتَه وأهلَ سماواتِه وأهلَ أرَضِيه والنونَ في البحر يُصلُّون على الذين يعلِّمون الناس الخير» الخبرُ مرسَل[٥].

قال الدارميُّ[٦]: وحدَّثني أبو النعمان، حدَّثنا حمَّاد بن زيد، عن يزيد بن حازم قال: حدثني عمِّي جرير بنُ زيد[٧] أنه سمع تُبَيْعاً يحدِّثُ عن كعبٍ قال: إنِّي لأَجِدُ نعتَ قومٍ يتعلَّمون لغيرِ العمل، ويَتفقَّهون لغيرِ العبادة، ويطلبون الدنيا بعملِ الآخرَةِ،

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧١ ، وما بين حاصرتين منه، وقول ابن مسعود ﷺ أخرجه ابن المبارك في الزهد (٤٦)، وابن أبي شيبة ١٣/ ٢٩١ . وسيرد تخريج قول مجاهد.

(٢) أخرجه الدارمي (٢٩٥).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٥٦٧ ، والدارمي (٢٩٦).

(٤) أخرجه الدارمي (٢٩٧) و(٢٩٨)، وابن الضريس في فضائل القرآن (٦٩)، والخطيب في الفقيه والمتفقه ٢/ ١٦٠-١٦١ .

(٥) سنن الدارمي (٢٨٩)، وأخرجه الترمذي (٢٦٨٥) مرفوعاً من حديث أبي أمامة الباهلي ﷺ، وقال: هذا حديث غريب.

(٦) في سننه (٢٩٩).

(٧) في النسخ: يزيد، والمثبت من سنن الدارمي، وهو الصواب. وترجمته في تهذيب الكمال ٤/ ٥٣٢ .

ويَلْبَسون جلودَ الضَّأنِ، قلوبُهم أمَرُّ من الصَّبر؛ فبي يغترُّون، وإياي يُخادِعون، فبي حلفتُ لأُتيحَنَّ لهم فتنةً تَذَرُ الحليمَ فيهم حَيْرانَ. خرَّجه الترمذيُّ مرفوعاً من حديث أبي الدرداء، وقد كتبناه في مقدِّمة الكتاب(١).

الزمخشريُّ(٢): فإن قلتَ: فما وجهُ قراءةِ مَن قَرأ: «إنَّما يَخْشَى اللهُ» بالرفع «مِن عِبادِهِ العُلَمَاءَ» بالنصب، وهو عمر بنُ عبد العزيز، وتُحكى عن أبي حنيفةَ.

قلتُ: الخشيةُ في هذه القراءةِ استعارةٌ، والمعنى: إنَّما يُجِلُّهم ويُعظِّمُهم ـ كما يُجَلُّ المَهيبُ المخَشِيُّ من الرجال بين الناسِ ـ من بين جميعِ عبادِه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ تعليلٌ لوجوبِ الخشيةِ، لدلالته على عقوبةِ العُصَاةِ وقَهْرِهم، وإثابةِ أهلِ الطاعةِ والعفوِ عنهم. والمعاقِبُ والمُثيبُ حقُّه أن يُخْشَى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ هذه آيةُ القُرَّاءِ العامِلين العالِمينَ الذين يُقيمون الصَّلاةَ الفرضَ والنفلَ، وكذا في الإنفاق. وقد مضى في مقدِّمة الكتابِ ما ينبغي أن يتخلَّق به قارئُ القرآن(٣).

﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ قال أحمد بن يحيى: خبرُ «إنَّ»: «يرجون»(٤).

﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ قيل: الزيادةُ: الشفاعةُ في الآخرة. وهذا مِثلُ الآيةِ الأُخرى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾

---

(١) ١/ ٣٥، ولم يخرجه الترمذي، وينظر الكلام على الحديث ثمة.

(٢) في الكشاف ٣/ ٣٠٨.

(٣) ١/ ٤٨ وما بعدها.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧١.

[النور:٣٧]، وقوله في آخرِ «النساء»: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [الآية:١٧٣] وهناك بيَّنَّاه. ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ﴾ للذُّنوب. ﴿شَكُورٌ﴾ يَقْبلُ القليلَ من العمل الخالص، ويُثيب عليه الجزيلَ من الثواب.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني القرآنَ ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: من الكتب. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾

فيه أربعُ مسائلَ:

الأولى: هذه الآيةُ مُشْكِلةٌ؛ لأنَّه قال جلَّ وعزَّ: ﴿ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ ثم قال: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ وقد تكلَّم العلماءُ فيها مِن الصحابة والتابعين ومَن بعدَهم. قال النحاس[1]: فَمِن أصحِّ ما رُوي في ذلك ما رُوي عن ابن عباس ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ قال: الكافر؛ رواه ابنُ عُيَيْنَةَ، عن عمرو بن دينار[2]، عن ابن عباس. وعن

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٣٧١ .

(٢) بعدها في النسخ: عن عطاء، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس، وكذلك أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٣٥ ، والبيهقي في البعث والنشور (٧٤)، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية، وليس فيه: عن عطاء.

ابن عباس أيضاً: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ قال: نَجَتْ فرقتان[١]، ويكون التقدير في العربية: «فمِنهم» أي: مِن عبادنا «ظالمٌ لنفسه» أي: كافر - وقال الحسن: أي: فاسق - ويكون الضميرُ الذي في «يَدْخُلُونَهَا» يعود على المقتصِدِ والسابقِ لا على الظالم.

وعن عكرمةَ وقتادةَ والضحَّاكِ والفرَّاءِ أنَّ المقتصدَ: المؤمنُ العاصي، والسابق: التَّقيُّ على الإطلاق. قالوا: وهذه الآيةُ نظيرُ قوله تعالى في سورة الواقعة: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ الآية [الواقعة: ٧]. قالوا: وبَعيدٌ أن يكون ممَّن يُصطَفَى ظالم[٢]. ورواه مجاهدٌ عن ابن عباس[٣]. قال مجاهد: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾: أصحاب المَشْأمة، ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾: أصحاب المَيْمَنة، ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾: السابقون من الناس كلِّهم[٤].

وقيل: الضميرُ في «يَدْخُلُونَهَا» يعود على الثلاثةِ الأصناف، على ألاَّ يكون الظالمُ هاهنا كافراً ولا فاسقاً. وممَّن روي عنه هذا القولُ عمرُ وعثمانُ وأبو الدَّرْداءِ، وابنُ مسعودٍ وعقبةُ بن عمرو وعائشةُ، والتقديرُ على هذا القولِ: أن يكون الظالمُ لنفسه: الذي عَمِلَ الصغائر. والمقتصِدُ، قال محمد بن يزيد: هو الذي يعطي الدنيا حقَّها والآخرةَ حقَّها، فيكون «جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدخُلُونَها» عائداً على الجميع على هذا الشرح والتَّبيين[٥]. وروي عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ[٦].

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٧١ بنحوه، والكلام من إعراب القرآن للنحاس.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٩، وقول الفراء في معاني القرآن ٢/ ٣٦٩-٣٧٠، وأخرجه عن عكرمة وقتادة الطبري ١٩/ ٣٧١، ٣٧٢.

(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٧١ عن طريق عطية العوفي عن ابن عباس.

(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٧٢.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٢، وأخرجه عن عمر وعثمان رضي الله عنهما سعيد بن منصور (٢٣٠٨)، والبيهقي في البعث والنشور (٦٦)، وإسناده غير قوي كما ذكر في البيهقي، وخبر عمر ﷺ سيرد مرفوعاً من حديثه، وسيأتي الخبر عن أبي الدرداء وابن مسعود وعائشة ﷺ.

(٦) أخرجه أحمد (١١٧٤٥)، والترمذي (٣٢٢٥) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وقال ابن كثير عند هذه الآية: وفي إسناده مَن لم يُسَمَّ.

وقال كعب الأحبار: استَوَتْ مَنَاكِبُهم وربِّ الكعبة، وتفاضَلوا بأعمالهم. وقال أبو إسحاق السَّبيعيُّ: أمَّا الذي سمعت منذ ستين سنةً: فكلُّهم ناجٍ[(١)].

وروى أسامةُ بن زيد: أنَّ النبيَّ ﷺ قرأ هذه الآية وقال: «كلُّهم في الجنة»[(٢)].

وقرأ عمر بن الخطاب هذه الآيةَ ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «سابِقُنا سابِقٌ، ومُقْتَصِدُنا ناجٍ، وظالمنا مغفورٌ له»[(٣)]. فعلى هذا القولِ يقدَّر مفعولُ الاصطفاءِ من قوله: ﴿أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ مضافاً حُذف كما حُذف المضافُ في ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] أي: اصْطَفَيْنا دينَهم، فبقي: اصْطَفَيْناهم، فحذف العائدُ إلى الموصول كما حُذف في قوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ﴾ [هود: ٣١] أي: تَزْدَرِيهم، فالاصطفاءُ إذاً موجَّهٌ إلى دِينهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

قال النحاس[(٤)]: وقولٌ ثالثٌ: يكون الظالمُ صاحبَ الكبائر، والمقتصدُ الذي لم يَستحِقَّ الجنةَ بزيادةِ حسناته على سيئاته، فيكون: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ للذين سَبَقوا بالخيرات لا غير. وهذا قولُ جماعةٍ من أهلِ النَّظَرِ؛ لأنَّ الضمير ـ في حقيقةِ النَّظَرِ ـ لِمَا يليه أوْلَى.

قلت: القولُ الوَسَطُ أوْلاها وأصحُّها إن شاء الله؛ لأنَّ الكافر والمنافقَ لم

---

(١) المحرر الوجيز ٤/٤٣٩ ، وأخرجهما الطبري ١٩/ ٣٧٠ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٩ ، وأخرجه بنحوه الطبراني في الكبير (٤١٠). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٩٦ : فيه محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى وهو سيِّئ الحفظ.

(٣) أخرجه البيهقي في البعث والنشور (٦٥) عن طريق ميمون بن سياه عن عمر به، وهو منقطع كما ذكر البيهقي، وأخرجه العقيلي في الضعفاء ٣/ ٤٤٣ ، والبغوي ٣/ ٥٧١ من وجه آخر من طريق ميمون من سياه عن أبي عثمان النهدي عن عمر به، وفيه الفضل بن عميرة وهو ضعيف. ينظر تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر ص١٣٩ . وذكر البغوي عن أبي قلابة قوله: فحدثت به يحيى بن معين فجعل يتعجب منه.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٣٧٢ .

يُصْطفَوْا بحمد الله، ولا اصْطُفيَ دينُهم، وهذا قولُ ستةٍ من الصحابة، وحَسْبُك. وسَنَزيدُه بياناً وإيضاحاً في باقي الآية.

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: أعْطَينا. والميراثُ عطاءٌ حقيقةً أو مَجازاً؛ فإنَّه يقال فيما صار للإنسان بعد موتِ آخَرَ. و«الكتابَ» هاهنا يريد به معانيَ الكتابِ وعِلْمَه وأحكامَه وعقائدَه، وكأنَّ الله تعالى لمَّا أعْطَى أمةَ محمدٍ ﷺ القرآنَ، وهو قد تضمَّنَ، معانيَ الكتبِ المنزلة، فكأنه وَرَّثَ أمَّةَ محمدٍ عليه الصلاة والسلام الكتابَ الذي كان في الأمم قَبْلَها[1].

﴿ٱصْطَفَيْنَا﴾ أي: اخْتَرْنا. واشتقاقُه من الصَّفْو، وهو الخلوصُ من شوائب الكَدَر. وأصلُه: اصْتفَوْنا، فأُبْدِلَت التاءُ طاءً والواوُ ياءً.

﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ قيل: المرادُ أمةُ محمدٍ ﷺ؛ قاله ابنُ عباسٍ وغيرُه. وكأن اللَّفظَ يَحْتَمِلُ جميعَ المؤمنين من كلِّ أمةٍ، إلاَّ أنَّ عبارةَ توريثِ الكتابِ لم تكن إلاَّ لأمةِ محمدٍ ﷺ، والأُوَلُ لم يَرِثُوه[2].

وقيل: المصطفَوْن الأنبياء، تَوَارَثوا الكتابَ، بمعنى: أنَّه انتقل عن[3] بعضهم إلى آخَر، قال الله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل:١٦]، وقال: ﴿يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم:٦]. فإذا جاز أن تكون النبوَّةُ موروثةً فكذلك الكتابُ، ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ مَن وَقَعَ في صغيرةٍ. قال ابن عطية[4]: وهذا قولٌ مردودٌ من غير ما وَجْهٍ.

قال الضحاك: معنى ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ أي: من ذرِّيَّتهم ظالمٌ لنفسه، وهو المُشْرِكُ. الحسن: من أُمَمِهم، على ما تقدَّم ذِكْرُه من الخلاف في الظالم. والآيةُ في أمَّةِ محمدٍ ﷺ.

---

(١) في النسخ عدا (ظ): قبلنا، والمثبت من (ظ) والمحرر الوجيز ٤/ ٤٣٨ ، والكلام منه.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٨ ، وخبر ابن عباس أخرجه الطبري ١٩/ ٣٦٨ ، والبيهقي في البعث والنشور (٧٣).

(٣) في (ظ): من.

(٤) في المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٩ .

وقد اختلفت عبارات أربابِ القلوبِ في الظالم والمُقْتَصِدِ والسَّابِق، فقال سهل ابن عبد الله: السابِقُ العالم، والمقتصِدُ المتعلِّم، والظالمُ الجاهل.

وقال: ذو النون المصريُّ: الظالم الذَّاكِرُ اللهَ بلسانه فقط، والمقتصدُ الذاكرُ بقلبه، والسابقُ الذي لا ينساه.

وقال الأنطاكيُّ: الظالمُ صاحبُ الأقوال، والمقتصدُ صاحبُ الأفعال، والسابقُ صاحبُ الأحوال(١).

وقال ابن عطاء: الظالمُ الذي يحبُّ اللهَ من أَجْلِ الدنيا، والمقتصدُ الذي يحبُّه من أجل العُقْبَى، والسابقُ الذي أسقط مُرادَه بمراد الحقِّ(٢).

وقيل: الظالم الذي يعبدُ اللهَ خوفاً من النار، والمقتصد الذي يعبدُ الله طمعاً في الجنة، والسابقُ الذي يعبدُ الله لوجهه لا لسبب.

وقيل: الظالم الزاهدُ في الدنيا؛ لأنَّه ظلم نَفْسَه فترك لها حظّاً وهي المعرفةُ والمحبة، والمقتصِدُ العارِفُ، والسابقُ المحِبُّ.

وقيل: الظالمُ الذي يَجزعُ عند البلاء، والمقتصدُ الصابرُ على البلاء، والسابقُ المتلذِّذُ بالبلاء.

وقيل: الظالم الذي يعبدُ الله على الغَفْلةِ والعادة، والمقتصدُ الذي يعبدُه على الرَّغْبةِ والرَّهْبة، والسابقُ الذي يعبدُه على الهَيْبة.

وقيل: الظالمُ الذي أُعْطِيَ فمَنَعَ، والمقتصدُ الذي أُعْطِيَ فبذَل، والسابقُ الذي مُنع فشَكَر وآثَرَ.

ويروَى أنَّ عابِدَين التقيا، فقال: كيف حالُ إخوانِكم بالبَصرة؟ قال: بخير، إنْ أُعْطُوا شَكروا، وإن مُنعوا صبروا. فقال: هذه حالةُ الكلابِ عندنا ببَلْخٍ! عُبَّادُنا إنْ

---

(١) ذكر هذه الأقوال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/٤٣٩.

(٢) في (ظ): بمراد الله.

مُنِعوا شَكروا، وإن أُعطوا آثَروا[١].

وقيل: الظالمُ مَن استغنَى بماله، والمقتصدُ من استغنَى بدينه، والسابقُ مَن استغنَى بربِّه.

وقيل: الظالمُ التالي للقرآن ولا يعملُ به، والمقتصِدُ التالي للقرآن ويعملُ به، والسابقُ القارئُ للقرآن العاملُ به والعالِم به.

وقيل: السابقُ الذي يدخل المسجدَ قبل تأذين المؤذِّن، والمقتصدُ الذي يدخل المسجدَ وقد أذّن، والظالم الذي يدخل المسجدَ وقد أُقيمت الصلاة؛ لأنه ظَلَم نفسَه الأجرَ فلم يحصِّل لها ما حصَّله غيرُه[٢].

وقال بعضُ أهلِ العلمِ في هذا: بل السابقُ الذي يدركُ الوقتَ والجماعةَ فيُدْرِكُ الفضيلتين، والمقتصد الذي إنْ فاتَتْه الجماعةُ لم يُفرِّط في الوقت، والظالمُ الغافِلُ عن الصلاة حتى يفوتَ الوقتُ والجماعةُ، فهو أَوْلَى بالظُّلم.

وقيل: الظالمُ الذي يحبُّ نفسَه، والمقتصدُ الذي يحبُّ دِينَه، والسابقُ الذي يحبُّ ربَّه.

وقيل: الظالمُ الذي ينتصِفُ ولا يُنصِفُ، والمقتصدُ الذي يَنتصِفُ ويُنصِفُ، والسابقُ الذي يُنصِفُ ولا ينتصِفُ.

وقالت عائشةُ رضي الله عنها: السابقُ الذي أَسْلَم قبلَ الهجرة، والمقتصدُ مَن أَسْلَم بعدَ الهجرة، والظالمُ مَن لم يُسْلِم إلَّا بالسيف، وهم كلُّهم مغفورٌ لهم[٣].

---

(١) ذكره أبو نعيم في الحلية ٨/ ٣٧ عن إبراهيم بن أدهم وشقيق البلخي.

(٢) في (ظ): فلم يحصل له ما حصل لغيره.

(٣) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٣٩ وعزاه للثعلبي، إلا أنه قال في آخره: والظالم نحن، بدل: والظالم من لم يسلم...، وأخرجه بنحوه الطيالسي (١٤٨٩)، والحاكم ٢/ ٤٢٦ وصححه، وتعقبه الذهبي بأن فيه الصلت بن دينار، قال النسائي: ليس بثقة، وقال أحمد: ليس بالقوي. وقولها رضي الله عنها: والظالم نحن، (كما في رواية ابن عطية، وبنحوه عند الطيالسي والحاكم) هو من باب التواضع =

قلت: ذكر هذه الأقوالَ وزيادةً عليها الثعلبيُّ في «تفسيره». وبالجملة فَهُمْ طَرَفانِ وواسِطَةٌ، وهو المقتصدُ الملازِمُ للقَصْدِ، وهو تَرْكُ الميل، ومنه قولُ جابر بن حُنَيٍّ التَّغْلبيِّ:

نُعاطي الملوكَ السِّلْمَ ما قَصَدُوا لنا   وليس علينا قَتْلُهم بمحَرَّمِ[(١)]

أي: نُعاطيهم[(٢)] الصُّلْحَ ما ركبوا بنا القَصْدَ، أي: ما لم يجوروا، وليس قَتْلُهم بمحرَّمٍ علينا إنْ جاروا، فلذلك[(٣)] كان المقتصِدُ منزلةً بين المنزلتين، فهو فوقَ الظالمِ لنفسِه ودون السابقِ بالخيرات.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ يعني إتيانَنا[(٤)] الكتابَ لهم. وقيل: ذلك الاصطفاءُ مع عِلْمِنا بعيوبهم هو الفضلُ الكبير. وقيل: وعْدُ الجنةِ لهؤلاء الثلاثةِ فضلٌ كبير.

الثالثة: وتكلَّم الناسُ في تقديم الظالمِ على المقتصِدِ والسابِقِ؛ فقيل: التقديمُ في الذِّكر لا يقتضي تشريفاً، كقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠].

وقيل: قدَّم الظالمَ لكثرةِ الفاسقين منهم وغَلَبتِهم، وأنَّ المقتصدين قليلٌ بالإضافة إليهم، والسابقون أقلُّ من القليل؛ ذَكَره الزَّمخشري[(٥)]، ولم يَذْكُرْه غيرُه.

وقيل: قدَّم الظالم لتأكيدِ الرجاءِ في حقِّه؛ إذ ليس له شيءٌ يتَّكِلُ عليه إلاَّ رحمةُ

= كما ذكر ابن كثير في تفسيره، وقال: وهي من أكبر السابقين بالخيرات؛ لأن فضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام.

(١) المفضليات ص٢١١، ومنتهى الطلب ٤/ ٤٩.

(٢) في (ظ): نعطيهم.

(٣) في (ظ): فكذلك.

(٤) في (ظ): ايتاؤنا.

(٥) في الكشاف ٣/ ٣٠٩.

ربِّه. واتَّكَلَ المقتصدُ على حُسْنِ ظنِّه، والسابقُ على طاعته.

وقيل: قدَّم الظالمَ لئلاَّ ييئسَ من رحمة الله، وأخَّر السابقَ لئلَّا يُعجب بعمله.

وقال جعفر بنُ محمد بن عليٍّ الصادقُ ﷺ: قدَّم الظالمَ ليُخْبِرَ أنه لا يُتَقرَّبُ إليه إلا بصِرْفِ رحمته وكرمه، وأنَّ الظلم لا يؤثِّر في الاصطفائيةِ إذا كانت ثَمَّ عنايةٌ، ثم ثنَّى بالمقتصدينَ لأنَّهم بين الخوفِ والرجاء، ثم خَتَم بالسابقين لئلَّا يَأمنَ أحدٌ مَكْرَ الله، وكلُّهم في الجنة بحُرْمةِ كلمةِ الإخلاص: لا إلهَ إلَّا اللهُ محمدٌ رسولُ اللهِ[١].

وقال محمد بن عليٍّ الترمذيُّ: جَمَعَهم في الاصطفاءِ إزالةً للعللِ عن العطاء؛ لأنَّ الاصطفاءَ يوجبُ الإرْثَ، لا الإرث يوجبُ الاصطفاءَ، ولذلك قيل في الحكمة: صحِّح النِّسْبةَ ثم ادَّعِ في الميراث[٢].

وقيل: أخَّر السابقَ ليكون أقربَ إلى الجناتِ والثواب، كما قدَّم الصوامعَ والبيَعَ في سورة الحج على المساجد، لتكون الصوامعُ أقربَ إلى الهدمِ والخراب، وتكون المساجدُ أقربَ إلى ذكر الله.

وقيل: إنَّ الملوك إذا أرادوا الجمعَ بين الأشياءِ بالذِّكْر[٣] قدَّموا الأدْنى؛ كقوله تعالى: ﴿لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف:١٦٧]، وقوله: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ [الشورى:٤٩]، وقوله: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠].

قلت: ولقد أَحْسَنَ مَن قال:

وغايةُ هذا الجودِ أنتَ وإنَّما يُوَافَى إلى الغاياتِ في آخِرِ الأمْرِ

الرابعة: قولُه: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ جَمَعَهم في الدخول لأنَّه ميراثٌ، والعاقُّ

---

(١) ذكره بنحوه البغوي ٣/ ٥٧٢.

(٢) في (ظ): ثم ادعى للميراث، وفي (خ) و(د) و(ز): ثم ادعى في الميراث، والمثبت من (م).

(٣) في (ظ): في الذكر.

والبارُّ في الميراثِ سواءٌ إذا كانوا مُعترِفينَ بالنَّسَب، فالعاصي والمطيعُ مُقِرُّون بالرَّبِّ.

وقرئ: «جَنَّةُ عَدْنٍ» على الإفراد، كأنَّها جنةٌ مُختصَّةٌ بالسابقين لقلَّتهم، على ما تقدَّم[1].

و«جَنَّاتِ عَدْنٍ» بالنصب على إضمارِ فعلٍ يفسِّرُه الظاهِرُ، أي: يَدخُلون جناتِ عَدْنٍ يَدْخُلونها[2]. وهذا للجميع، وهو الصحيحُ إن شاء الله تعالى.

وقرأ أبو عمرو: ﴿يُدْخَلونها﴾ بضمِّ الياءِ وفتح الخاء[3]. قال: لقوله: «يُحَلَّوْن». وقد مضى في «الحجّ» الكلامُ في قوله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣].

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ قال أبو ثابت: دخل رجلٌ المسجدَ فقال: اللهمَّ ارْحَمْ غُرْبتي، وآنِسْ وَحْدتي، ويَسِّرْ لي جليساً صالحاً. فقال أبو الدَّرْداءِ: لئن كنتَ صادقاً فلأنَا أسْعَدُ بذلك منكَ، سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ قال: فيجيءُ هذا السابِقُ فيدخل الجنةَ بغير حساب، وأمَّا المقتصدُ فيُحاسَبُ حساباً يسيراً، وأمَّا الظالمُ لنفسِه فيُحبَس في المقام ويُوَبَّخ ويقرَّعُ، ثم يدخل الجنة، فهم الذين قالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾[4].

وفي لَفْظٍ آخَر: «وأمَّا الذين ظلموا أنفسَهم فأولئك يُحبَسون في طولِ المَحْشَرِ،

---

(١) في المسألة السابقة، والقراءة في الكشاف ٣/ ٣٠٩، ونسبها ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٤٠ لزر ابنِ حُبَيْش.

(٢) الكشاف ٣/ ٣٠٩ . والقراءة في القراءات الشاذة ص١٢٣ عن الجحدري.

(٣) السبعة ص٥٣٤ ، والتيسير ص١٨٢ .

(٤) أخرجه بنحوه أحمد (٢١٦٩٧)، والطبري ١٩/ ٣٧٥ ، والبغوي ٣/ ٥٧١ ، من طريق الأعمش عن أبي ثابت. وأبو ثابت ـ أو ثابت كما وقع على الشك عند أحمد ـ غير منسوب، وفي إسناد الحديث اختلاف على الأعمش.

ثم هم الذين يَتَلافاهم[١] الله برحمته، فهم الذين يقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾»[٢].

وقيل: هو الذي يُؤخَذُ منه في مُقامه، يعني يُكفَّر عنه بما يُصيبُه من الهمِّ والحزن، ومنه قولُه تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣] يعني: في الدنيا. قال الثعلبيُّ: وهذا التأويلُ أشْبهُ بالظاهر؛ لأنه قال: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾، ولقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾، والكافرُ والمنافقُ لم يُصْطفَوْا.

قلت: وهذا هو الصحيحُ، وقد قال ﷺ: «ومَثلُ المنافقِ الذي يقرأ القرآنَ مَثلُ الرَّيحانة، رِيحُها طيِّبٌ وطَعْمُها مرٌّ»[٣]. فأخبر أنَّ المنافق يقرؤه، وأخبر الحقُّ سبحانه وتعالى أنَّ المنافق في الدَّرْكِ الأسفلِ من النار، وكثيرٌ من الكفارِ اليهودِ[٤] والنصارى يقرؤونه في زماننا هذا. وقال مالكٌ: قد يَقْرأُ القرآنَ مَن لا خيرَ فيه[٥]. والنَّصَب: التعب. واللُّغوب: الإعياء.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ لمَّا ذَكَر أهلَ الجنةِ وأحوالَهم ومَقَالتَهم، ذَكَر أهلَ النارِ وأحوالَهم ومقالتَهم، ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟﴾ مثل: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤]. ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ مثل: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم

(١) في (م): يتلقاهم.

(٢) أخرجه أحمد (٢١٧٢٧)، وفي إسناده انقطاع.

(٣) قطعة من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ أخرجه البخاري (٥٠٥٩) ومسلم (٧٩٧)، وسلف ١/ ١٣.

(٤) في (م): وكثير من الكفار واليهود، وفي (ظ): وكثير من اليهود.

(٥) سلف ٢/ ١٦٦.

بَدَّلْنَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]. ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ أي: كافرٍ باللهِ ورسوله.

وقرأ الحسن: «فيموتون» بالنون، ولا يكونُ للنفي حينئذٍ جوابٌ، ويكون «فيموتون» عطفاً على «يُقْضَى»، تقديرُه: لا يُقضَى عليهم ولا يموتون[1]، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦] قال الكسائيُّ: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ بالنون في المصحف لأنَّه رأسُ آيةٍ، و﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ [بغير نون] لأنه ليس رأسَ آيةٍ. ويجوزُ في كلٍّ واحدٍ منهما ما جاز في صاحبه[2].

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ أي: يستغيثون في النار بالصوت العالي. والصُّراخُ: الصوتُ العالي، والصارخُ: المستغيثُ، والمُصْرِخُ: المُغيثُ؛ قال:

كـنَّـا إذا مـا أتـانـا صـارخٌ فَـزِعٌ   كـان الـصراخُ لـه قـرعَ الـظَّـنابيبِ[3]

﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا﴾ أي: يقولون: ربَّنا أخرِجْنا من جهنَّم، ورُدَّنا إلى الدنيا. ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ قال ابن عباس: نَقُلْ: لا إله إلا الله[4]. وهو معنى[5] قولهم: ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أي: من الشرك، أي: نؤمنُ بَدَلَ الكفر، ونطيعُ بدلَ المعصية، ونمتثلُ أمرَ الرُّسل.

﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ هذا جوابُ دعائِهم، أي: فيقالُ لهم، فالقولُ مضمَر. وترجم البخاريُّ: بابُ مَن بَلَغ ستِّين سنةً فقد أَعْذَرَ اللهُ إليه في العمر،

---

(١) المحتسب ٢/ ٢٠٢، قال ابن جني: والمفعول محذوف، أي: لا يقضى عليهم الموت.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٧، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) البيت لسلامة بن جندل، وهو في ديوانه ص١٢٥، والصحاح (ظنب). قال الجوهري: الظُّنْبوب: العظم اليابس من قدم الساق، عنى به سرعة الإجابة، وجعل قرع السوط على ساق الخفِّ في زجر الفرس قرعاً للظُّنبوب. وقال الأصمعي في شرح الديوان: يقال: ضَرب لهذا الأمر ظنبوبه: إذا هو جَدَّ فيه.

(٤) الوسيط ٣/ ٥٠٦.

(٥) في (د) و(ظ): ومعنى، بدل: وهو معنى.

لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ يعني الشيب. حدَّثنا عبد السلام بن مُطَهَّر قال: حدَّثنا عمر بنُ علي قال: حدَّثنا مَعْن بنُ محمد الغِفاريُّ، عن سعيد بن أبي سعيد المَقْبُرِيِّ، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ قال: «أعْذَرَ اللهُ إلى امرئٍ أَخَّرَ أجَلَه حتى بلَّغه ستِّين سنةً»[(١)].

قال الخَطَّابيّ[(٢)]: أَعْذَرَ إليه، أي: بلَغ به أقْصَى العُذْرِ، ومنه قولُهم: قد أعْذَرَ مَن أنْذَر، أي: أقام عُذْرَ نَفْسِه في تقديم نِذارتِه. والمعنى: أنَّ مَن عمَّره الله ستِّين سنةً لم يَبْقَ له عذرٌ؛ لأنَّ الستِّين قريبٌ من مُعتَركِ المنايا، وهو سنُّ الإنابةِ والخشوعِ، وترقُّبِ المنيَّة ولقاءِ الله تعالى، ففيه إعذارٌ بعد إعذار[(٣)]، الأوّلُ بالنبيِّ ﷺ، والمُوْتان[(٤)] في الأربعين والستين[(٥)]. قال عليٌّ وابن عباس وأبو هريرةَ في تأويلِ قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾: إنَّه سِتُّون سنة[(٦)]. وقد روي عن النبيِّ ﷺ أنه قال في موعظته: «ولقد أبْلَغَ في الإعذارِ مَن تقدَّم في الإنذار، وإنه لينادي مُنادٍ من قِبَلِ الله تعالى أبناءَ الستين: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾»[(٧)].

---

(١) صحيح البخاري (٦٤١٩)، وهو عند أحمد (٧٧١٣)، وقوله: يعني الشيب، هو في بعض روايات البخاري دون بعض كما ذكر الحافظ ابن حجر في الفتح ١١/ ٢٣٩ .

(٢) بنحوه في غريب الحديث له ٢/ ٣٥٩ .

(٣) في (د): إنذار، وفي (ظ): إنذاره.

(٤) أي: الموت الكثير الوقوع. معجم متن اللغة (موت). ووقع في (ز) و(ظ): والمرتان، بدل: والموتان وينظر التعليق التالي.

(٥) سلف نحو هذا الكلام ٩/ ٣٢٢ ، وفيه: ففيه إعذار بعد إعذار، الأول بالنبي ﷺ، والثاني بالشيب، وذلك عند كمال الأربعين.

(٦) أخرجه عن ابن عباس رضي الله عنهما عبد الرزاق ٢/ ١٣٨ ، والطبري ١٩/ ٣٨٥ . وأخرجه عن علي ﷺ الطبري ١٩/ ٣٨٦ .أما أبو هريرة ﷺ فقد سلف الحديث عنه مرفوعاً: «أعذر الله إلى امرئ...» وقد أخرجه بنحوه الرامهرمزي في الأمثال ص٩٨ وزاد بعده: يريد: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾.

(٧) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وروي نحوه عن ابن عباس على ما يأتي.

وذكر الترمذيُّ الحكيم من حديثِ عطاء بنِ أبي رَباح، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يومُ القيامةِ نُوديَ أبناءُ الستِّين، وهو العمرُ الذي قال الله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾»[١].

وعن ابن عباس أيضاً: أنه أربعون سنةً. وعن الحسن البصريِّ ومسروقٍ مثلُه[٢]. ولهذا القولِ أيضاً وجهٌ، وهو صحيحٌ؛ والحجةُ له قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ الآية [الأحقاف: ١٥]. ففي الأربعين تَنَاهي العقلِ، وما قبلَ ذلك وما بعدَه مُنْتقِصٌ عنه، والله أعلم.

وقال مالك: أدركتُ أهلَ العلمِ ببلدنا وهم يطلبون الدنيا والعلمَ ويُخالِطون الناسَ، حتى يأتيَ لأحدهم أربعون سنةً، فإذا أتت عليهم اعتزلوا الناسَ واشتغلوا بالقيامة حتى يأتيَهم الموتُ. وقد مضى هذا المعنى في سورة الأعراف[٣].

وخرَّج ابن ماجه عن أبي هريرةَ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أعمارُ أمَّتي ما بين الستِّين إلى السبعين، وأَقلُّهم مَن يُجاوِزُ ذلك»[٤].

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾، وقرئ: «وجاءتكم النُّذُرُ»[٥] واخْتُلفَ فيه؛ فقيل: القرآن. وقيل: الرسول؛ قاله زيد بنُ عليٍّ وابن زيد[٦]. وقال ابنُ عباس وعكرمةُ وسفيان ووكِيعٌ والحسين بن الفضل والفرَّاء والطبريُّ: هو الشيب[٧].

---

(١) نوادر الأصول ص١٧٧، وأخرجه الطبري ١٩/ ٣٨٥، والطبراني في الكبير (١١٤١٥)، وفي إسناده إبراهيم بن الفضل، قال الحافظ في التقريب: متروك.

(٢) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٨٤ عن ابن عباس ومسروق. وذكره عن الحسن البغوي ٣/ ٥٧٣.

(٣) ٩/ ٣٢٢.

(٤) سنن ابن ماجه (٤٢٣٦)، وسلف ٥/ ٢١٨.

(٥) الكشاف ٣/ ٣١١.

(٦) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٨٧ عن ابن زيد.

(٧) أخرجه عن ابن عباس البيهقي ٣/ ٣٧٠، وسلف ٩/ ٣٢٢، وذكره عن عكرمة وسفيان ووكيع البغويُّ =

وقيل: النذيرُ الحُمَّى. وقيل: موتُ الأهلِ والأقارب. وقيل: كمالُ العقلِ[(١)]. والنذير بمعنى الإنذار.

قلت: فالشيبُ والحُمَّى وموتُ الأهلِ كلُّه إنذارٌ بالموت؛ قال ﷺ: «الحُمَّى رائدُ الموت»[(٢)]. قال الأزهريُّ: معناه: أنَّ الحمَّى رسولُ الموت[(٣)]، أي: كأنَّها تُشعِرُ بقدومه وتُنْذرُ بمجيئه. والشيبُ نذيرٌ أيضاً؛ لأنه يأتي في سنِّ الاكتهال، وهو علامةٌ لمفارقةِ سنِّ الصِّبَا الذي هو سِنُّ اللَّهوِ واللَّعِب، قال:

رأيتُ الشيبَ من نُذُرِ المنايا ... لصاحبه وحَسْبُكَ مِن نذيرِ

وقال آخرُ:

فقلتُ لها المَشيبُ نذيرُ عمري ... ولستُ مُسَوِّداً وَجْهَ النَّذيرِ[(٤)]

وأمَّا موتُ الأهلِ والأقاربِ والأصحابِ والإخوانِ؛ فإنذارٌ بالرحيل في كلِّ وقتٍ وأوَان، وحينٍ وزمان، قال:

وأراكَ تحمِلُهم ولستَ تَردُّهم ... فكأنَّني بك قد حُمِلتَ فلم تُرَدّ

وقال آخرُ:

الموتُ في كلِّ حينٍ ينشُر الكَفَنَا ... ونحن في غفلةٍ عمَّا يُرادُ بنا[(٥)]

= ٣/ ٥٧٣ . وذكره عن الفراء والطبري الماورديُّ في النكت والعيون ٤/ ٤٧٦ ، وسلف في ترجمة عند البخاري قريباً.

(١) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٧٦ .

(٢) قطعة من حديث أخرجه ابن قانع في معجم الصحابة ٢/ ١٦٤ ، والطبراني كما في مجمع الزوائد ٥/ ٩٤-٩٥ من حديث عبد الرحمن بن المرقع ﵁. قال الهيثمي: فيه المحبر بن هارون، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات. اهـ. وأخرجه البيهقي في الشعب (٩٨٧٠) عن الحسن مرسلاً.

(٣) تهذيب اللغة ١٤/ ١٦٣ .

(٤) نسبه المبرِّد في الكامل ٢/ ٧٠٣ للعُتْبي، وهو بلا نسبة في عيون الأخبار ٤/ ٥١ ، والعقد الفريد ٣/ ٥١ .

(٥) البيت لمحمد بن عبد الله بن عيسى المعروف بابن أبي زمنين، كما في جذوة المقتبس ص٥٧ ، والصلة لابن بشكوال ص ٤٨٤ .

وأمَّا كمالُ العقلِ فبِهِ تُعرفُ حقائقُ الأمور، ويُفْصَلُ بين الحسناتِ والسيئات، فالعاقلُ يَعملُ لآخِرته ويَرغَبُ فيما عندَ ربِّه، فهو نذير.

وأمَّا محمدٌ ﷺ فبعثَه الله بشيراً ونذيراً إلى عباده قَطْعاً لحججهم؛ قال الله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥] وقال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥].

قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟﴾ يريدُ عذابَ جهنَّم؛ لأنَّكم ما اعتبرتُم ولا اتَّعَظْتُم[١]. ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ أي: مانعٍ من عذاب الله.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾﴾

تقدَّم معناه في غير موضع. والمعنى: عَلِمَ أنه لو ردَّكم إلى الدنيا لم تعملوا صالحاً، كما قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام:٢٨]. و﴿عَٰلِمُ﴾ إذا كان بغيرِ تنوينٍ صلح أن يكون للماضي والمستقبل [والحال]، وإذا كان منوَّناً لم يَجُزْ أن يكون للماضي[٢].

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال قتادةُ: خَلَفاً بعد خَلَفٍ، وقَرْناً بعد قرن[٣]. والخَلَفُ هو التالي للمتقدِّم، ولذلك قيل لأبي بكر: يا خليفةَ الله، فقال: لستُ بخليفةِ الله، ولكنِّي خليفةُ رسولِ الله ﷺ، وأنا راضٍ بذلك[٤].

---

(١) في (ظ): ما آمنتم ولا أطعتم.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٥ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٤٧٧ ، وأخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٣٧ ، والطبري ١٩/ ٣٨٨-٣٨٩ .

(٤) أخرجه أحمد (٥٩) من طريق ابن أبي مليكة قال: قيل: لأبي بكر...، وابن أبي مليكة لم يدرك أبا بكر ﷺ.

﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ أي: جزاءُ كُفرِه، وهو العقابُ والعذاب. ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ أي: بغضاً وغضباً. ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي: هلاكاً وضلالاً.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ «شركاءكم» منصوبٌ بالرؤية، ولا يجوزُ رَفْعُه، وقد يجوز الرفعُ عند سيبويه في قولهم: قد علمتُ زيداً أبو مَن هو؟ لأنَّ زيداً في المعنى مُسْتَفهَمٌ عنه. ولو قلتَ: أرأيتَ زيداً أبو مَن هو؟ لم يَجُزِ الرفعُ. والفرقُ بينهما أنَّ معنى هذا: أخْبِرني عنه، وكذا معنى هذا: أخْبِروني عن شركائكم الذين تَدْعون من دون الله، أعَبَدْتُموهم لأنَّ لهم شَرِكةً في خَلْقِ السماوات، أم خَلَقوا من الأرض شيئاً؟! ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا﴾ أي: أم عندَهم كتابٌ أنزلناه إليهم بالشَّرِكَة. وكان في هذا رَدٌّ على مَن عَبَدَ غيرَ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّهم لا يجدون في كتابٍ من الكتب أنَّ الله عزَّ وجلَّ أمر أن يُعْبَد غيرُه[1].

﴿فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزةُ وحفصٌ عن عاصم: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَتٍ﴾ بالتوحيد، وجَمَعَ الباقون[2]. والمَعْنَيان مُتقاربان إلّا أنَّ قراءةَ الجمع أوْلَى؛ لأنَّه لا يخلو مَن قرأه: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَتٍ﴾ من أن يكون خالَفَ السوادَ الأعظمَ، أو يكون جاء به على لغةِ مَن قال: جاءني طلحت[3]، فوقف بالتاء، وهذه لغةٌ شاذَّةٌ قليلة؛

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٥-٣٧٦ .

(٢) السبعة ص٥٣٥، والتيسير ص١٨٢ .

(٣) في (د) و (ظ): طلحة. وهو موافق لما في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٦ والكلام منه.

قاله النحاس[١].

وقال أبو حاتم وأبو عبيد: الجمعُ أَوْلَى لموافقته الخطَّ، لأنَّها في مصحفِ عثمانَ: «بيِّناتٍ» بالألف والتاء.

﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّـٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: أباطيلَ تَغرُّ، وهو قولُ السادةِ للسِّفْلة: إنَّ هذه الآلهةَ تَنْفعُكم وتقرِّبكم. وقيل: إنَّ الشيطان يَعِدُ المشركين ذلك. وقيل: وَعَدَهم بأنَّهم يُنصَرون عليهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ لمَّا بيَّنَ أنَّ آلهتَهم لا تَقْدِرُ على خَلْقِ شيءٍ من السماوات والأرض بيَّن أنَّ خالقَهما ومُمْسِكَهما هو الله، فلا يوجد حادثٌ إلَّا بإيجاده، ولا يبقى إلَّا ببقائه. و«أنَّ» في موضعِ نصبٍ بمعنى: كراهةَ أنْ تَزولا، أو لئلَّا تزولا، أو يُحملُ على المعنى؛ لأنَّ المعنى: إنَّ الله يَمنعُ السماواتِ والأرضَ مِن[٢] أنْ تزولا، فلا حاجةَ على هذا إلى إضمارٍ، وهذا قولُ الزجَّاج[٣].

﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ قال الفرَّاء[٤]: أي: ولو زالتا ما أمسكهما مِن أحدٍ، و«إنْ» بمعنى ما. قال: وهو مثلُ قوله: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾ [الروم: ٥١]. وقيل: المرادُ زوالُهما يومَ القيامة[٥].

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٣٧٦.

(٢) قوله: من، من (ظ)، وهو الموافق لما في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٧٣، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٦، والكلام منه.

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٢٧٣.

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٣٧٠، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٧٦.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٧٣-٢٧٤.

وعن إبراهيمَ قال: دخل رجلٌ من أصحاب ابنِ مسعودٍ إلى كعب الأحبارِ يتعلَّم منه العلمَ، فلمَّا رجع قال له ابن مسعود: ما الذي أصبتَ من كعب؟ قال: سمعتُ كعباً يقول: إنَّ السماء تدورُ على قُطْبٍ مثلِ قُطْبِ الرَّحَى، في عمودٍ على منكبِ مَلَكٍ، فقال له عبد الله: وددتُ أنك انقلبتَ براحلتك ورَحْلِها، كَذَبَ كعبٌ، ما ترك يهوديَّته! إنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ إنَّ السماواتِ لا تدورُ، ولو كانت تدورُ لكانت قد زالت(١).

وعن ابن عباس نحوُه، وأنه قال لرجلٍ مُقْبِلٍ من الشام: مَن لَقِيتَ به؟ قال: كعباً. قال: وما سمعتَه يقول؟ قال: سمعتُه يقول: إنَّ السماوات على منكبِ مَلَكٍ. قال: كَذَبَ كعب، أمَا ترك يهوديَّته بعدُ! إنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ﴾(٢).

والسماواتُ سبعٌ والأرضونَ سبعٌ، ولكنْ لمَّا ذكَّرهما أجراهما مجرى شيئين، فعادت الكنايةُ إليهما، وهو كقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

ثم ختم الآيةَ بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ لأنَّ المعنى فيما ذكره بعضُ أهلِ التأويلِ: إنَّ الله يمسكُ السماواتِ والأرضَ أنْ تزولا مِن كُفْرِ الكافرين، وقولِهم: اتَّخذ الله ولداً. قال الكلبيُّ: لمَّا قالت اليهودُ: عزيرٌ ابنُ اللهِ، وقالت النصارى المسيحُ ابنُ الله، كادت السماواتُ والأرضُ أنْ تزولا عن أمكنتهما، فمنعهما الله، وأنزل هذه الآية فيه، وهو كقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا . تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ الآية [مريم: ٨٩-٩٠].

---

(١) أخرجه بنحوه الطبري ١٩/ ٣٩٢، وأخرجه أيضاً ١٩/ ٣٩١ من طريق أبي وائل عن ابن مسعود ﷺ.

(٢) الكشاف ٣/ ٣١٢.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ هم قريشٌ؛ أقسموا قبل أنْ يبعث الله رسولَه محمداً ﷺ، حين بَلَغهم أنَّ أهلَ الكتابِ كذَّبوا رسلَهم، فلَعنوا مَن كذَّب نبيَّه منهم، وأقسموا بالله جلَّ اسمُه: ﴿لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ أي: نبيٌّ ﴿لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ يعني ممَّن كذَّب الرسلَ من أهلِ الكتاب(١).

وكانت العربُ تتمنَّى أن يكون منهم رسولٌ كما كانت الرسلُ من بني إسرائيلَ، فلمَّا جاءهم ما تَمنَّوْه ـ وهو النذيرُ من أنفسهم ـ نَفَروا عنه ولم يؤمنوا به.

﴿اسْتِكْبَارًا﴾ أي: عُتُوًّا عن الإيمان ﴿وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾ أي: مَكْرَ العملِ السيِّئ، وهو الكفرُ وخَدْعُ الضعفاء، وصدُّهم عن الإيمان ليكثُر أتباعُهم. وأنَّث «مِن إحدى الأمم» لتأنيثِ أُمَّة؛ قاله الأخفش(٢).

وقرأ حمزةُ والأعمش: ﴿ومكرَ السيِّءْ ولا يَحِيق المَكْرُ السيئُ﴾(٣) فحذف الإعرابَ من الأول وأثبته في الثاني. قال الزجَّاج: وهو لحن(٤)، وإنَّما صار لحناً لأنَّه حَذَفَ الإعراب منه. وزعم المبرِّدُ أنه لا يجوزُ في كلامٍ ولا في شعرٍ؛ لأنَّ حركاتِ الإعرابِ لا يجوز حَذْفُها، لأنها دخلت للفرق بين المعاني. وقد أعْظَم بعضُ النحويين أن يكون الأعمشُ على جلالته ومحلِّه يقرأ بهذا، وقال: إنَّما كان يقف عليه، فغلط

(١) النكت والعيون ٤/ ٤٧٨ .

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٦٦٦ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٧٧ .

(٣) السبعة ص٥٣٥-٥٣٦، والتيسير ص١٨٢ ، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٧ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٧٥ ، ونقله المصنف بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٧٧ ، وما سيأتي هو من كلام النحاس.

مَن أدَّى[١] عنه، قال: والدليلُ على هذا أنه تمامُ الكلامِ، وأنَّ الثاني لمَّا لم يكن تمامَ الكلامِ أُعرِبَ باتِّفاق، والحركةُ في الثاني أَثْقَلُ منها في الأوّل لأنها ضمةٌ بين كسرتين.

وقد احتجَّ بعض النحويين لحمزةَ في هذا بقولِ سيبويه، وأنه أنشد هو وغيرُه:

إذا اعْـوَجَـجْـنَ قـلـتُ صـاحِـبْ قَـوِّمِ[٢]

وقال الآخر:

فـالـيـومَ أشْـرَبْ غـيـرَ مُـسْـتَـحْـقِـبٍ إثْـمـاً مِـن الـلـهِ ولا واغِـلِ[٣]

وهذا لا حجةَ فيه؛ لأنَّ سيبويه لم يُجِزْه، وإنَّما حكاه عن بعض النحويين، والحديثُ إذا قيل فيه عن بعض العلماء لم يكن فيه حجةٌ، فكيف وإنَّما جاء به على الشُّذوذِ ولضرورةِ الشعر. وقد خُولفَ فيه، وزعم الزجَّاج أنَّ أبا العباس أنشده:

إذا اعْـوَجَـجْـنَ قـلـتُ صـاحِ قَـوِّمِ

وأنه أنشد:

فـالـيـومَ فـاشْـرَبْ[٤] غـيـرَ مُـسْـتَـحْـقِـبٍ

ذَكَر جميعَه النحاس[٥].

الزمخشريُّ: وقرأ حمزةُ: «ومكر السيِّءْ» بسكون الهمزة، وذلك لاستثقاله الحركات [مع الياء والهمزة]، ولعله اخْتَلَسَ فظُنَّ سكوناً، أو وَقَفَ وقفةً خفيفةً ثم

---

(١) في (د): ادعى.

(٢) الكتاب ٤/ ٢٠٣، وسلف ٢/ ١١٢، وعجزه: بالدَّوِّ أمثالَ السَّفينِ العُوَّمِ.

(٣) الكتاب ٤/ ٢٠٤، والبيت لامرئ القيس، وسلف ٢/ ١١٢، وجاء في رواية الأصمعي للديوان ص١٢٢: فاليوم أسقى. وفي رواية الطوسي ص٢٥٨: فاليوم فاشرب، وستأتي.

(٤) في النسخ: اشرب، والمثبت من معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٧٥، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٨ والكلام منه، قال النحاس: فاليوم فاشرب بالفاء. اهـ. وهذا موافق لرواية الطوسي للديوان ص٢٥٨.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٣٧٧-٣٧٨، ووقع في (د) و (م) قبل قوله ذكر جميعه النحاس: بوصل الألف على الأمر.

ابتدأ: «ولا يحِيق». وقرأ ابن مسعود: «ومَكْراً سيئاً»[١].

وقال المهدويُّ: ومَن سكَّن الهمزةَ من قوله: «ومكر السيِّئْ» فهو على تقدير الوقفِ عليه، ثم أجرى الوصلَ مُجرى الوقفِ، أو على أنه أَسكن الهمزةَ لتَوالي الكَسْراتِ[٢] والياءات، كما قال:

فاليومَ أشربْ غيرَ مستحقبٍ

قال القُشَيريُّ: وقرأ حمزة: «ومكر السيِّئْ» بسكون الهمزة، وخطَّأه أقوامٌ. وقال قومٌ: لعله وقف عليه لأنه تمامُ الكلام، فغَلِطَ الراوي ورَوَى ذلك عنه في الإدراج.

وقد سبق الكلامُ في أمثالِ هذا، وقلنا: ما ثبت بالاستفاضةِ أو التواتُرِ أنَّ النبيَّ ﷺ قرأه فلابدَّ من جوازِه، ولا يجوزُ أن يقال: إنه لحنٌ[٣]. ولعلَّ مُرادَ مَن صار إلى التخطئةِ أنَّ غيره أفصحُ منه، وإنْ كان هو فصيحاً.

﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ أي: لا تَنْزِلُ عاقبةُ الشركِ إلاَّ بمَن أَشْرَكَ. وقيل: هذا إشارةٌ إلى قتلهم ببدر.

وقال الشاعر:

وقد دفعوا المنيةَ فاستقلَّتْ ... ذراعاً بعد ما كانت تحيقُ[٤]

---

(١) الكشاف ٣/ ٣١٢ ، وما سلف بين حاصرتين منه، وقراءة ابن مسعود في المحتسب ٢/ ٢٠٢ .

(٢) في (ظ): الحركات.

(٣) ينظر ص١٤٠ من هذا الجزء.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٤٧٩ ، والبيتُ للمفضَّل النُّكْري كما في الأصمعيات ص٢٠٠ ، والمعاني الكبير ٢/ ٩٤٥ ، ومنتهى الطلب ٨/ ٢٣٩ ، ونسبه الأخفش في الاختيارين ص٢٤٥ لعامر بن معشر. وذكر السيوطي في شرح شواهد المغني ١/ ١٧١ أن المفضل هو عامر بن معشر، وإنما سمي مفضلاً لهذه القصيدة. ووقع في المصادر: وهم، بدل: وقد. ودراكاً: بدل: ذراعاً. وفي بعضها: رفعوا، بدل: دفعوا. وكادت، بدل: كانت. قال الأخفش: المنية: الحرب، ويروى: رفعوا، بالراء، أي: رفعوا الراية، وتحتها الموت. دراكاً، أي: مُدارَكة.

أي: تنزل، وهذا قولُ قُطْرُب. وقال الكلبيُّ: «يَحيق» بمعنى يُحيط[١]. والحَوْق: الإحاطة، يقال: حاق به كذا، أي: أحاط به.

وعن ابن عباس أنَّ كعباً قال له: إنّي أَجِدُ في التوراة: مَن حَفَر لأخيه حُفرةً وقع فيها. فقال ابن عباس: فإنّي أوجِدُكَ في القرآن ذلك. قال: وأين؟ قال: فاقرأ: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[٢]. وفي أمثالِ العرب: مَن حفَر لأخيه جُبًّا وقَعَ فيه مُنْكَبًّا[٣].

وروى الزُّهريُّ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لا تَمْكُرْ ولا تُعِنْ ماكراً؛ فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾، ولا تَبْغِ ولا تُعِنْ باغياً؛ فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [الفتح: ١٠] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس: ٢٣]»[٤]. وقال بعضُ الحكماء:

يـا أيـهـا الـظـالـمُ فـي فِـعْـلِـهِ والـظُّـلْـمُ مَـردودٌ عـلـى مَـن ظَـلَـمْ
إلـى مـتـى أنـت وحـتَّـى مـتـى تُحصي المُصيباتِ وتَنسى النِّعمْ[٥]

وفي الحديث: «المكرُ والخديعةُ في النار»[٦]. فقولُه: «في النار» يعني: في

(١) ذكر القولين الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٧٩.

(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٣١٢، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٤٣.

(٣) المستقصى ٢/ ٣٥٤، والكشاف ٣/ ٣١٢.

(٤) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٧٢٥)، وفيه: ولا تَبْغِ ولا تُعِنْ باغياً؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾، ولا تنكُث ولا تُعِنْ ناكثاً؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾. وهو مرسل.

(٥) البيتان لمحمود الوراق كما في الشعب للبيهقي (٤٦٣٠)، والتدوين في أخبار قزوين ١/ ٥٠٠، ووقع في (م): المصائب، بدل: المصيبات. وفي المصادر: تشكو، بدل: تحصي.

(٦) أخرجه ابن حبان (٥٦٧) والطبراني في الكبير (١٠٢٣٤) من حديث ابن مسعود ﷺ. وأخرجه الحاكم ٤/ ٦٠٧ من حديث أنس ﷺ. وأخرجه ابن عدي ٤/ ٥٨٤ من حديث قيس بن سعد ﷺ. وأخرجه البزار (١٠٣ ـ كشف) وابن عدي ٤/ ١٦٣٤ من حديث أبي هريرة ﷺ وأخرجه أبو داود في المراسيل (١٦٥) عن الحسن عن النبي ﷺ مرسلاً، وزاد: والخيانة.

الآخرة تُدخِلُ أصحابَها في النار؛ لأنَّها من أخلاق الكفَّار لا من أخلاقِ المؤمنين الأخيار؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام في سياق هذا الحديث: «وليس من أخلاق المؤمنِ المكرُ والخديعةُ والخيانة»[1]. وفي هذا أُبلغ تحذيرٍ عن التخلُّقِ بهذه الأخلاقِ الذميمة، والخروجِ عن أخلاق الإيمان الكريمة.

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: إنَّما ينتظرون العذابَ الذي نزل بالكفَّار الأوَّلين. ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ أي: أَجْرَى اللهُ العذابَ على الكفار، وجعل[2] ذلك سُنَّةً فيهم، فهو يعذِّبُ بمثله مَن استحَقَّه، لا يقدر أحدٌ أن يبدِّل ذلك، ولا أنْ يحوِّل العذابَ عن نفسه إلى غيره.

والسُّنَّة: الطريقة، والجمعُ سُنَن. وقد مضى في «آل عمران»[3]. وأضافَها إلى الله عزَّ وجلَّ، وقال في موضعٍ آخَرَ: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ [الإسراء: ٧٧] فأضافَ إلى القوم؛ لتعلُّق الأمر بالجانبين، وهو كالأَجَل، تارةً يضافُ إلى الله، وتارةً إلى القوم؛ قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ [العنكبوت: ٥] وقال: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ [النحل: ٦١].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾

بيَّن السُّنَّةَ التي ذَكَرها، أي: أَوَلم يَرَوْا إلى ما أنزلنا بعادٍ وثمودَ ومَدْين وأمثالِهم لمَّا كذَّبوا الرسلَ، فيتدبَّروا ذلك بنظرهم[4] إلى مساكنهم ودُورِهم، وبما سمعوا على

---

(١) أخرجه بهذه الزيادة ابن وهب في الجامع ص٧٦ من طريق مجاهد عن النبي ﷺ مرسلاً، ولم ترد هذه الزيادة في الأحاديث التي ذكرناها في التعليق السابق.

(٢) في النسخ عدا (ظ): ويجعل، والمثبت من (ظ) وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٨، والكلام منه.

(٣) ٥/ ٣٣٢.

(٤) في (د): فتدبروا ذلك بنظركم، وفي (خ) و (م): فتدبروا ذلك بنظرهم.

التواتُر بما حلَّ بهم، أفليس فيه عبرةٌ وبيانٌ لهم، ليسوا خيراً من أولئك ولا أقوى، بل كان أولئك أقوى، دليلُه قولُه: ﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي: إذا أراد إنزالَ عذابٍ بقومٍ لم يُعجِزْه ذلك .﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ﴾ يعني من الذنوب ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ﴾ قال ابن مسعود: يريد جميعَ الحيوانِ ممَّا دَبَّ ودَرَج. قال قتادةُ: وقد فُعل ذلك زَمنَ نوحٍ عليه السلامُ. وقال الكلبيُّ: ﴿مِن دَآبَّةٖ﴾ يريد الجنَّ والإنسَ دونَ غيرِهما؛ لأنَّهما مُكَلَّفان بالعقل[(١)].

وقال ابن جُريج[(٢)] والأخفشُ والحسين بنُ الفضل: أراد بالدابَّة هنا الناسَ وحدَهم دونَ غيرِهم.

قلت: والأوّلُ أَظْهَرُ، لأنَّه عن صحابيٍّ كبير. قال ابن مسعود: كاد الجُعَلُ أن يُعذَّب في جُحره بذنبِ ابنِ آدم[(٣)]. وقال يحيى بنُ أبي كثير: أَمَر رجلٌ بالمعروف ونَهى عن المنكر، فقال له رجل: عليك بنفسك؛ فإنَّ الظالم لا يَضُرُّ إلا نَفْسَه. فقال أبو هريرة: كذبتَ؟ والله الذي لا إلهَ إلاَّ هو، ثم قال: والذي نفسي بيده إنَّ الحُبَارَى

---

(١) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٧٩ ، وقول قتادة أخرجه الطبري ١٩/ ٣٩٧ .

(٢) ذكره عن ابن جريج الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٧٩، ووقع في (م) بدلاً منه: ابن جرير، وهو تصحيف.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٣٠١ ، والحاكم ٢/ ٤٢٨ وصححه. والجُعَل: حيوان كالخنفساء يكثر في المواضع الندية. المعجم الوسيط (جعل).

لَتموتُ هَزْلاً في وَكْرِها بظلم الظالم[١].

وقال الثُّماليُّ ويحيى بنُ سلام في هذه الآية: يحبسُ الله المطرَ، فيهلك كلّ شيء[٢].

وقد مضى في «البقرة»[٣] نحوُ هذا عن عكرمةَ ومجاهدٍ في تفسير ﴿وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [الآية:١٥٩]: هم الحشراتُ والبهائم يصيبهم الجَدْبُ بذنوبِ علماءِ السوءِ الكاتمين فيلعنونهم. وذكرنا هناك حديثَ البَرَاء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ قال: «دوابُّ الأرضِ».

﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۖ﴾ قال مقاتل: الأجلُ المسمَّى هو ما وَعَدَهم في اللَّوح المحفوظ. وقال يحيى: هو يومُ القيامة[٤]. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ﴾ أي: بمَن يستحقُّ العقابَ منهم ﴿بَصِيرَۢا﴾.

ولا يجوزُ أن يكون العاملُ في «إذا» «بصيراً» كما لا يجوز: اليومَ إنَّ زيداً خارجٌ. ولكن العامل فيها «جاء»؛ لشَبَهها بحروفِ المُجازاة[٥]، والأسماءُ التي يُجازَى بها يَعملُ فيها ما بعدَها. وسيبويه لا يرى المجازاةَ بـ«إذا» إلّا في الشعر، كما قال:

إذا قَصُرتْ أسيافُنا كان وَصْلُها ... خُطانا إلى أعدائنا فنُضارِبِ[٦]

ختمت سورة «فاطر» والحمد لله

---

(١) أخرجه بنحوه الطبري ١٤/ ٢٦٠ ، وابن أبي الدنيا في العقوبات (٢٦٩). والحبارى: طائر طويل العنق رمادي اللون على شكل الإوزة، الذكر والأنثى والجمع فيه سواء. المعجم الوسيط (حبر).

(٢) ذكره بنحوه عن يحيى بن سلام الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٧٩ . والثُّمالي: هو أبو حمزة ثابت ابن أبي صفية، وسلف ذكره ٥/ ٤٨ .

(٣) ٢/ ٤٨٣ .

(٤) النكت والعيون ٤/ ٤٨٠ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٩ .

(٦) البيت لقيس بن الخطيم، وهو في ديوانه ص٨٨ ، والكتاب ٣/ ٦٠ ، وسلف ١/ ٣٠٥ .

تفسير سورة فاطر

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُوْلِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) ﴾ .

قال سفيان الثورى ، عن إبراهيم بن مهاجر ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : كنت لا أدرى ما فاطر السموات والأرض ، حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر ، فقال أحدهما [لصاحبه] (١): أنا فطرتها ، أنا بدأتها . فقال ابن عباس أيضاً : ﴿ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ : بديع السموات والأرض (٢) .

وقال الضحاك : كل شىء فى القرآن فاطر السموات والأرض فهو: خالق السموات والأرض .

وقوله :﴿ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلا ﴾ أى : بينه وبين أنبيائه ، ﴿ أُوْلِي أَجْنِحَةٍ ﴾ أى : يطيرون بها ليبلغوا ما أمروا به سريعاً ﴿ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ ﴾ أى : منهم من له جناحان ، ومنهم من له ثلاثة (٣)، ومنهم من له أربعة ، ومنهم من له أكثر من ذلك ، كما جاء فى الحديث : أن رسول اللّه ﷺ رأى جبريل ليلة الإسراء وله ستمائة جناح ، بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب ؛ ولهذا قال : ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾. قال السدى: يزيد فى الأجنحة وخلقهم ما يشاء .

وقال الزهرى ، وابن جُرَيْج (٤) فى قوله : ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ يعنى: حسن الصوت . رواه عن الزهرى البخارى فى الأدب ، وابن أبى حاتم فى تفسيره .

وقرئ فى الشاذ : « يَزِيد فى الحلق » ، بالحاء المهملة ، واللّه أعلم .

﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) ﴾ .

يخبر تعالى أنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع .

قال (٥) الإمام أحمد : حدثنا على بن عاصم ، حدثنا مغيرة ، أخبرنا عامر ، عن ورّاد ـ مولى المغيرة بن شعبة ـ قال : كتب معاوية إلى المغيرة بن شعبة : اكتب إلى بما سمعتَ من رسول اللّه ﷺ. فدعانى المغيرة فكتبت إليه : إنى سمعت (٦) رسول اللّه ﷺ إذا انصرف من الصلاة قال : « لا

(١) زيادة من ت ، س ، أ .
(٢) رواه البيهقى فى شعب الإيمان برقم (١٦٨٢) من طريق يحيي بن سعيد عن سفيان به .
(٣) فى ت : « ثلاثة أجنحة » . (٤) فى ت : « جرير » . (٥) فى ت : « وروى » .
(٦) فى أ : « سمعت من » .

إله إلا اللّه ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجَدّ منك الجَدّ » ، وسمعته ينهى عن قيل وقال ، وكثرة السؤال وإضاعة المال ، وعن وأد البنات ، وعقوق الأمهات ، ومَنْع وهَات .

وأخرجاه من طرق عن ورّاد ، به (١) .

وثبت فى صحيح مسلم عن أبى سعيد الخدرى ، رضى اللّه عنه ، أن رسول اللّه ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول : « سمع اللّه لمن حمده ، اللهم ربنا لك الحمد ، ملْء السماء (٢) والأرض(٣) ، وملء ما شئت من شيء بعد . اللهم ، أهلَ الثناء والمجد . أحقّ ما قال العبد ، وكلنا لك عبد . اللهمّ لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجَدّ منك الجَدّ » (٤) .

وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس : ١٠٧] . ولهذا (٥) نظائر كثيرة .

وقال الإمام مالك : كان أبو هريرة إذا مُطِروا يقول : مُطرنا بنَوْء الفتح ، ثم يقرأ هذه الآية :﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾. ورواه ابن أبى حاتم ، عن يونس ، عن ابن وهب ، عنه (٦) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣) ﴾ .

ينبه تعالى عباده ويرشدهم إلى الاستدلال على توحيده فى إفراد العبادة له ، كما أنه المستقل بالخلق والرزق فكذلك فَليفرد بالعبادة (٧) ، ولا يشرك به غيره من الأصنام والأنداد والأوثان ؛ ولهذا قال :﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُون (٨) ﴾ ، أي : فكيف تؤفكون (٩) بعد هذا البيان ، ووضوح هذا البرهان ، وأنتم بعد هذا تعبدون الأنداد والأوثان ؟

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) ﴾ .

يقول : وإن يكذبوك ـ يامحمد ـ هؤلاء المشركون باللّه ويخالفوك فيما جئتهم به من التوحيد ، فلك فيمن سلف قبلك من الرسل أسوة ؛ فإنهم كذلك جاؤوا قومهم بالبينات وأمروهم بالتوحيد

---

(١) المسند (٤/ ٢٥٤) وصحيح البخارى برقم (٨٤٤) وصحيح مسلم برقم (٥٩٣) .
(٢) فى ت ، س ، أ : « السموات » .
(٣) فى ت ، س ، أ : « وملء الأرض » .
(٤) صحيح مسلم برقم (٤٧٧) .
(٥) فى ت : « ولهما » ، وفى س : « ولها » .
(٦) الموطأ (١/ ١٩٢) .
(٧) فى أ : « بالعبادة وحده » . (٨، ٩) فى س ، أ : « يؤفكون » .

فكذبوهم وخالفوهم ، ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ أى : وسنجزيهم على ذلك أوفر الجزاء .

ثم قال :﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌ﴾ أى : المعاد كائن لا محالة ، ﴿فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أى : العيشة الدنيئة (١) بالنسبة إلى ما أعد (٢) الله لأوليائه وأتباع رسله من الخير العظيم فلا تتلهّوا (٣) عن ذلك (٤) الباقى بهذه الزهرة الفانية ،﴿ وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ وهو الشيطان . قاله ابن عباس . أى : لا يفتننكم الشيطان ويصرفنكم عن اتباع رسل الله وتصديق كلماته فإنه غرّار كذاب أفاك . وهذه الآية كالآية التى فى آخر لقمان:﴿فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان:٣٣] .

قال مالك ، عن زيد بن أسلم : هو الشيطان . كما قال : يقول المؤمنون للمنافقين يوم القيامة حين يضرب ﴿ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ . يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ [الحديد: ١٣، ١٤] .

ثم بين تعالى عداوة إبليس لابن آدم فقال :﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا (٥)﴾ أى : هو مبارز لكم بالعداوة ، فعادوه أنتم أشد العداوة ، وخالفوه وكذبوه فيما يغركم به ، ﴿ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أى : إنما يقصد أن يضلكم حتى تدخلوا معه إلى عذاب السعير ، فهذا هو العدو المبين . فنسأل الله القوى العزيز أن يجعلنا أعداء الشيطان (٦) ، وأن يرزقنا اتباع كتابه ، والاقتفاء بطريق رسوله ، إنه على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير . وهذه كقوله : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ [الكهف : ٥٠] .

[وقال بعض العلماء : وتحت هذا الخطاب نوع لطيف من العتاب كأنه يقول : إنما عاديت إبليس من أجل أبيكم ومن أجلكم ، فكيف يحسن بكم أن توالوه ؟ بل اللائق بكم أن تعادوه وتخالفوه ولا تطاوعوه] (٧) .

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨) ﴾ .

لما ذكر [الله] (٨) تعالى أن أتباع إبليس مصيرهم إلى [عذاب] (٩) السعير ، ذكر بعد ذلك أن الذين كفروا لهم عذاب شديد (١٠) ؛ لأنهم أطاعوا الشيطان وعصوا الرحمن ، وأن الذين آمنوا بالله

(١) فى أ : « المعيشة الدنية » . (٢) فى ت : « ما وعد » . (٣) فى أ : « فلا يلتهوا » .
(٤) فى س : « ذاك » . (٥) فى س بعدها :« إنما يدعو حزبه » .
(٦) فى ت : « للشياطين » (٧) زيادة من ت ، أ . (٨) زيادة من ت .
(٩) زيادة من ت ، أ . (١٠) فى ت : « للذين كفروا عذابا شديدا » .

ورسله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ أى: لما كان منهم من ذنب، ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ على ما عملوه من خير .

ثم قال : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ يعنى : كالكفار والفجار ، يعملون أعمالا سيئة ، وهم فى ذلك يعتقدون ويحسون [١] أنهم يحسنون صنعاً ، أى : أفمن كان هكذا قد أضله الله ، ألك فيه حيلة ؟ لا حيلة لك فيه ، ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ أى : بقدره كان ذلك، ﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ أى : لا تأسف على ذلك فإن الله حكيم فى قدره ، إنما يضل من يضل[٢] ويهدى من يهدى [٣] ، لما له فى ذلك من الحجة البالغة ، والعلم التام ؛ ولهذا قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ .

وقال [٤] ابن أبى حاتم عند هذه الآية : حدثنا أبى ، حدثنا محمد بن عوف الحِمْصى ، حدثنا محمد بن كثير ، عن الأوزاعى ، عن يحيى بن أبى عمرو السَّيبانى ـ أو : ربيعة ـ عن عبد الله بن الديلمى قال : أتيت عبد الله بن عمرو ، وهو فى حائط بالطائف يقال له: الوهط ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله خلق خلقه فى ظلمة ، ثم ألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من نوره يومئذ فقد اهتدى ، ومن أخطأه منه ضل ، فلذلك أقول : جف القلم على ما علم الله عز وجل» [٥] .

ثم قال : حدثنا يحيى بن عبدك القزوينى ، حدثنا حسان بن حسان البصرى ، حدثنا إبراهيم بن بشر [٦] ، حدثنا يحيى بن معين [٧] ، حدثنا إبراهيم القرشى ، عن سعد بن شرحبيل [٨] ، عن زيد ابن أبى أوفى قال : خرج علينا رسول الله ﷺ فقال : « الحمد لله الذى يهدى من [٩] الضلالة، ويلبس الضلالة على من أحب » [١٠] .

وهذا أيضا حديث غريب جداً .

﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا

---

(١) فى ت ، س ، أ : « يحسبون » . (٢، ٣) فى أ : « يشاء » .
(٤) فى ت : « وروى » .
(٥) ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (١٨١٢) « موارد » والحاكم فى المستدرك (١/ ٣٠) من طريق الأوزاعى عن ربيعة بن يزيد، عن عبد الله الديلمى بنحوه ، ورواه الترمذى فى السنن برقم (٢٦٤٢) من طريق إسماعيل بن عياش عن يحيى بن أبى عمرو السيبانى عن عبد الله الديلمى بنحوه ، وقال الترمذى : « هذا حديث حسن » .
(٦) فى هـ ، ت ، س ، أ : « بشير » ، والصواب ما أثبتناه . (٧) فى هـ ، ت ، س ، أ : « معن » ،والصواب ما أثبتناه .
(٨) فى ت : « ثم روى بسنده » . (٩) فى ت ، أ : « يهدى من يشاء من » .
(١٠) ورواه البخارى فى التاريخ الأوسط (١/ ٢٥٠) : حدثنا حسان بن حسان عن إبراهيم بن بشر عن يحيى بن معين المدنى عن إبراهيم القرشى عن سعيد بن شرحبيل عن زيد بن أبى أوفى ، ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٥/ ٢٢٠) من طريق عبد المؤمن بن عباد عن يزيد بن معن عن عبد الله بن شرحبيل عن رجل من قريش عن زيد بن أبى أوفى بأطول منه ، ورواه ابن الأثير فى أسد الغابة (٢/ ١٢٦) من طريق شعيب بن يونس عن موسى بن صهيب عن يحيى بن زكريا عن عبد الله بن شرحبيل عن رجل من قريش عن زيد بن أبى أوفى ، وقال البخارى بعدما أورده : « وهذا إسناد مجهول لا يتابع عليه ، ولا يعرف سماع بعضهم من بعض ، رواه بعضهم عن إسماعيل بن خالد عن عبد الله بن أبى أوفى ، عن النبى ﷺ ولا أصل له » .

كَذَلِكَ النُّشُورُ (٩) مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ (١٠) وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١١) ﴾ .

كثيرا ما يستدل تعالى على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها ـ كما فى [أول] (١) سورة الحج ـ ينبه عباده أن يعتبروا بهذا على ذلك ، فإن الأرض تكون ميتة هامدة لا نبات فيها ، فإذا أرسل إليها(٢) السحاب تحمل الماء وأنزله عليها ، ﴿ **اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ** ﴾ [الحج : ٥] ، كذلك الأجساد (٣) ، إذا أراد اللّه سبحانه بعثها ونشورها ، أنزل من تحت العرش مطرا يعم (٤) الأرض جميعاً فتنبت الأجساد فى قبورها كما ينبت (٥) الحب فى الأرض ؛ ولهذا جاء فى الصحيح : « كل ابن آدم يبلى إلا عَجْبُ الذنب ، منه خلق ومنه يركب » ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ **كَذَلِكَ النُّشُورُ** ﴾.

وتقدم فى « الحج » (٦) حديث أبى رَزِين : قلت : يا رسول اللّه ، كيف يحيى اللّه الموتى ؟ وما آية ذلك فى خلقه ؟ قال : « يا أبا رزين ، أما مررت بوادى قومك محْلا (٧) ثم مررت به يهتز خَضِرا ؟ » قلت : بلى . قال : « فكذلك يحيى اللّه الموتى » .

وقوله : ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا** ﴾ أى : من كان يحب أن يكون عزيزاً فى الدنيا والآخرة ، فليلزم طاعة اللّه ، فإنه يحصل له مقصوده ؛ لأن اللّه مالك الدنيا والآخرة ، وله العزة جميعها ، كما قال تعالى : ﴿ **الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا** ﴾[النساء : ١٣٩] .

وقال تعالى ﴿ **وَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا** ﴾ [يونس : ٦٥] ، وقال : ﴿ **وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [المنافقون : ٨] .

قال مجاهد : ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ** ﴾ بعبادة الأوثان ، ﴿ **فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا** ﴾.

وقال قتادة : ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا** ﴾ أى : فليتعزز بطاعة اللّه عز وجل .

وقيل : من كان يريد علْم العزة ، لمن هى، ﴿ **فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا** ﴾ ، حكاه ابن جرير .

وقوله : ﴿ **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ** ﴾ يعنى: الذكر والتلاوة والدعاء . قاله غير واحد من السلف.

وقال ابن جرير : حدثنى محمد بن إسماعيل الأحْمَسىّ ، أخبرنى جعفر بن عَوْن ، عن عبد الرحمن بن عبد اللّه المسعودى ، عن عبد اللّه بن المخارق ، عن أبيه المخارق بن سليم (٨) قال :

---

(١) زيادة من ت ، س ، أ . (٢) فى ت : « عليها » . (٣) فى ت ، س : « الأجسام » .
(٤) فى أ : « فعم » . (٥) فى ت : « كما تنبت » .
(٦) عند الآيات : ١٢ ـ ١٦ .
(٧) فى ت ، س ، أ : « ممحلاً » . (٨) فى ت : « وروى ابن جرير بإسناده عن عبد اللّه بن أبى المخارق بن سليم » .

قال لنا عبد اللّه ـ هو ابن مسعود ـ إذا حدثناكم حديثا أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب اللّه : إن العبد المسلم إذا قال : « سبحان اللّه وبحمده ، والحمد للّه ، ولا إله إلا اللّه ، واللّه أكبر ، تبارك اللّه » ، أخذهن ملك فجعلهن تحت جناحه ، ثم صَعَد بهن إلى السماء فلا يمُرّ بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن ، حتى يجيء بهن وجه الرحمن عز وجل ، ثم قرأ عبد اللّه : ﴿ **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ** ﴾ .

وحدثنى يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن عُلَيَّةَ ، أخبرنا سعيد الجُرَيْرِى [١] ، عن عبد اللّه بن شقيق قال[٢] : قال كعب الأحبار : إن لـ « سبحان اللّه، والحمد للّه ، ولا إله إلا اللّه ، واللّه أكبر » لدويا حول العرش كدوىّ النحل ، يُذَكِّرْن بصاحبهن ، والعمل الصالح فى الخزائن [٣] .

وهذا إسناد صحيح إلى كعب الأحبار ، رحمه اللّه ، وقد روى مرفوعاً .

قال الإمام أحمد : حدثنا ابن نُمَيْر ، حدثنا موسى ـ يعنى : ابن مسلم الطحان ـ عن عون بن عبد اللّه ، عن أبيه ـ أو : عن أخيه [٤] ـ عن النعمان بن بشير قال : قال رسول اللّه ﷺ : « الذين يذكرون من جلال اللّه ، من تسبيحه وتكبيره وتحميده وتهليله ، يتعاطفن حول العرش ، لهن دوى كدوى النحل ، يذكرون بصحابهن ألا يحب أحدكم ألا يزال له عند اللّه شيء يذكر به؟ » [٥] .

وهكذا رواه ابن ماجه عن أبى بشر بكر بن خلف ، عن يحيى بن سعيد [٦] القطان ، عن موسى ابن أبى [عيسى] [٧] الطحان ، عن عون بن عبد اللّه بن عتبة بن مسعود ،عن أبيه ـ أو : عن أخيه ـ عن النعمان بن بشير ، به [٨] .

وقوله :﴿ **وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ** ﴾ : قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : الكلم الطيب : ذكر اللّه ، يصعد به إلى اللّه، عز وجل ، والعمل الصالح : أداء فرائضه . ومن ذكر اللّه ولم يؤد فرائضه ، رد كلامه على عمله ، فكان أولى به .

وكذا قال مجاهد : العمل الصالح يرفع الكلام الطيب . وكذا قال أبو العالية ، وعكرمة ، وإبراهيم النَّخَعى ، والضحاك ، والسُّدِّىَ ، والربيع بن أنس ، وشَهْر بن حَوْشَب ، وغير واحد [من السلف] [٩] .

وقال إياس بن معاوية القاضى : لولا العمل الصالح لم يرفع الكلام .

وقال الحسن ، وقتادة : لا يقبل قولٌ إلا بعمل .

وقوله : ﴿ **وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ** ﴾ : قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وشهر بن حوشب : هم المراؤون بأعمالهم ، يعنى : يمكرون بالناس ، يوهمون أنهم فى طاعة اللّه ، وهم بُغَضاء إلى اللّه

(١) فى أ : « سعيد بن الجريرى » . (٢) فى ت : « وروى بإسناده » .
(٣) تفسير الطبرى (٢٢/ ٨٠) .
(٤) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده » .
(٥) المسند (٤/٢٦٨) .
(٦) فى أ : « عيسى » .
(٧) زيادة من ت ، س ، وابن ماجه .
(٨) سنن ابن ماجة برقم (٣٨٠٩) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ١٩٣) : « هذا إسناد صحيح رجاله ثقات » .
(٩) زيادة من ت .

عز وجل ، يراؤون بأعمالهم ، ﴿ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [النساء : ١٤٢] .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هم المشركون .

والصحيح أنها عامة ، والمشركون داخلون بطريق الأولى ؛ ولهذا قال : ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ ، أى : يفسد ويبطل ويظهر زيفهم عن قريب لأولى البصائر والنهى ، فإنه ما أسر عبد [(١)] سريرة إلا أبداها اللّه على صفحات وجهه وفلتات لسانه ، وما أسر أحد سريرة إلا كساه اللّه رداءها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . فالمرائى لا يروج أمره ويستمر إلا على غبى ، أما المؤمنون المتفرسون فلا يروج ذلك عليهم، بل يُكشَف [(٢)] لهم عن قريب ، وعالم الغيب لا تخفى عليه خافية .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ أى : ابتدأ خلق أبيكم آدم من تراب ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، ﴿ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ أى : ذكرا وأنثى ، لطفاً منه ورحمة أن جعل لكم أزواجا من جنسكم ، لتسكنوا إليها .

وقوله : ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ ﴾ أى : هو عالم بذلك ، لا يخفى عليه من ذلك شىء ، بل ﴿ مَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩] . وقد تقدم الكلام على قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ [وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ . عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ] [(٣)] الْمُتَعَالِ ﴾ [الرعد: ٨، ٩].

وقوله : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ ﴾ أى : ما يعطى بعض النطف من العمر الطويل يعلمه ، وهو عنده فى الكتاب الأول ، ﴿ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ ﴾ الضمير عائد على الجنس ، لا على العين؛ لأن العين الطويل للعمر فى الكتاب وفى علم اللّه لا ينقص من عمره ، وإنما عاد الضمير على الجنس .

قال ابن جرير : وهذا كقولهم : « عندى ثوب ونصفه » أى : ونصف آخر .

ورُوى من طريق العَوْفَى ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ ، يقول : ليس أحد قضيت له طول عُمُر [(٤)] وحياة إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر وقد قضيت ذلك له ، فإنما ينتهى إلى الكتاب الذى قدرت لا يزاد عليه ، وليس أحد قَضَيتُ له أنه قصير العمر والحياة ببالغ للعمر ، ولكن ينتهى إلى الكتاب الذى كتبت له ، فذلك قوله : ﴿ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ ، يقول : كل ذلك فى كتاب عنده.

وهكذا قال الضحاك بن مزاحم .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن أبيه: ﴿ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ ﴾ قال: ما لَفَظت الأرحام من الأولاد من غير تمام .

---

(١) فى أ : « أحد » .
(٢) فى ت ، س ، أ : « ينكشف » .
(٣) زيادة من ت ، س ، أ ، وفى هـ : « إلى قوله ».
(٤) فى ت ، س : « العمر » .

وقال عبد الرحمن فى تفسيرها : ألا ترى الناس ، يعيش الإنسان مائة سنة ، وآخر يموت حين يولد فهذا هذا .

وقال قتادة : والذى ينقص من عمره : فالذى يموت قبل ستين سنة .

وقال مجاهد : ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ﴾ أى : فى بطن أمه يكتب له ذلك ، لم يخلق الخلق على عمر واحد ، بل لهذا عمر ، ولهذا عمر هو أنقص من عمره ، وكل ذلك مكتوب لصاحبه ، بالغ ما بلغ .

وقال بعضهم : بل معناه : ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ أى : ما يكتب من الأجل ﴿وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾، وهو ذهابه قليلا قليلا ، الجميع معلوم عند الله سنة بعد سنة ، وشهراً بعد شهر ، وجمعة بعد جمعة ، ويوماً بعد يوم ، وساعة بعد ساعة ، الجميع مكتوب عند الله فى كتاب .

نقله [١] ابن جرير عن أبى مالك . وإليه ذهب السدى ، وعطاء الخراسانى . واختار ابن جرير [القول] [٢] الأول ، وهو كما قال .

وقال النسائى عند تفسير هذه الآية الكريمة : حدثنا أحمد بن يحيى بن أبى زيد بن سليمان ، سمعت ابن وهب يقول : حدثنى يونس ، عن ابن شهاب ، عن أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سره أن يُبْسَط له فى رزقه، ويُنْسَأ له فى أجله [٣] فلَيصِلْ رَحِمه » .

وقد رواه البخارى ومسلم وأبو داود ، من حديث يونس بن يزيد الأيْلى ، به [٤] .

وقال [٥] ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا الوليد بن عبد الملك بن عبيد الله أبو مسرح ، حدثنا عثمان بن عطاء ، عن مسلمة [٦] بن عبد الله ، عن عمه أبى مَشْجَعَة بن ربعى ، عن أبى الدرداء ، رضى الله عنه ، قال : ذكرنا عند رسول الله ﷺ فقال : « إن الله لا يأخر نفساً إذا جاء أجلها ، وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة يرزقها العبد ، فيدعون له من بعده ، فيلحقه دعاؤهم فى قبره ، فذلك زيادة العمر » .

وقوله : ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أى : سهل عليه ، يسير لديه علمه بذلك وبتفصيله فى جميع مخلوقاته ، فإن علمه شامل لجميع ذلك لا يخفى منه عليه شىء .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) ﴾ .

يقول تعالى منبها على قدرته العظيمة فى خلقه الأشياء المختلفة : وخلق البحرين العذب الزلال،

---

(١) فى أ : « رواه » . (٢) زيادة من ت ، أ . (٣) فى ت ، س ، أ : « أثره » .
(٤) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٢٩) وصحيح البخارى برقم (٢٠٦٧) وصحيح مسلم برقم (٢٥٥٧) وسنن أبى داود برقم(١٦٩٣) .
(٥) فى ت « وروى » . (٦) فى أ : « سلمة » .

وهو هذه الأنهار السارحة بين الناس ، من كبار وصغار ، بحسب الحاجة إليها في الأقاليم والأمصار، والعمران والبرارى والقفار ، وهى عذبة سائغ شرابها لمن أراد ذلك ، ﴿ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ ، وهو البحر الساكن الذى تسير فيه السفن الكبار ، وإنما تكون مالحة زُعَاقاً مُرَّة ، ولهذا قال : ﴿ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾، أى : مر .

ثم قال :﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحمًا طَرِيًّا﴾ يعنى : السمك ، ﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ ، كما قال تعالى : ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[الرحمن : ٢٢، ٢٣] .

وقوله :﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ (١)﴾ أى : تمخره وتشقه بحيزومها ، وهو مقدمها المُسَنَّم الذى يشبه جؤجؤ الطير ـ وهو : صدره .

وقال مجاهد : تمخر الريح السفن ، ولا يمخر الريح من السفن إلا العظام .

وقوله ﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ أى : بأسفاركم بالتجارة ، من قطر إلى قطر ، وإقليم إلى إقليم. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أى تشكرون ربكم على تسخيره لكم هذا الخلق العظيم ، وهو البحر ، تتصرفون فيه كيف شئتم ، وتذهبون أين أردتم ، ولا يمتنع عليكم شيء منه ، بل بقدرته قد سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض ، الجميع من فضله ومن رحمته .

﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤) ﴾ .

وهذا أيضاً من قدرته التامة وسلطانه العظيم ، فى تسخيره الليل بظلامه والنهار بضيائه ، ويأخذ من طول هذا فيزيده على قصر هذا (٢) فيعتدلان . ثم يأخذ من هذا فى هذا ، فيطول هذا ويقصر هذا، ثم يتقارضان صيفاً وشتاء ،﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أى : والنجوم السيارات ، والثوابت الثاقبات بأضوائهن أجرام السموات ، الجميع يسيرون بمقدار معين ، وعلى منهاج مقنن محرر ، تقديراً من عزيز عليم .

﴿ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى (٣)﴾ أى : إلى يوم القيامة .

﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُم﴾ أى : الذى فعل هذا هو الرب العظيم ، الذى لا إله غيره ،﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ أى : من الأنداد والأصنام التى هى على صورة من تزعمون (٤) من الملائكة المقربين ، ﴿ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾.

---

(١) فى ت ، س : « وترى الفلك مواخر فيه » ولعلهما أرادا الآية : ١٤ من سورة النحل .

(٢) فى ت ، أ : « فيزيد فى قصر هذا » .

(٣) فى ت ، س : « إلى أجل مسمى » .

(٤) فى س : « يزعمون » .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكْرِمة ، وعطاء وعطية العوفى ، والحسن ، وقتادة ، وغيرهم: القطمير : هو اللفافة التى تكون على نواة التمرة ، أى : لا يملكون من السموات والأرض شيئاً ، ولا بمقدار هذا القطمير .

ثم قال : ﴿ **إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُم** ﴾ يعنى : الآلهة التى تدعونها من دون الله لا يسمعون(١) دعاءكم (٢) ؛ لأنها جماد لا أرواح فيها ﴿ **وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ** ﴾ أى : لا يقدرون(٣) على ما تطلبون منها ، ﴿ **وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ** ﴾ ،أى: يتبرؤون منكم ، كما قال تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ** ﴾ [الاحقاف : ٥، ٦] ، وقال : ﴿ **وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا . كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا** ﴾ [مريم :٨١ ، ٨٢] .

وقوله : ﴿ **وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ** ﴾ أى : ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه ، مثلُ خبير بها .

قال قتادة : يعنى نفسه تبارك وتعالى ، فإنه أخبر بالواقع لا محالة .

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧) وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (١٨)** ﴾ .

يخبر تعالى بغنائه عما سواه ، وبافتقار المخلوقات كلها إليه ، وتذللها بين يديه ، فقال : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ** ﴾ أى : هم محتاجون إليه فى جميع الحركات والسكنات ، وهو الغنى عنهم بالذات ؛ ولهذا قال : ﴿ **وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** ﴾ أى : هو المنفرد (٤) بالغنى وحده لا شريك له، وهو الحميد فى جميع ما يفعله ويقوله ، ويقدره ويشرعه .

وقوله : ﴿ **إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ** ﴾ أى : لو شاء لأذهبكم أيها الناس وأتى بقوم غيركم، وما هذا عليه بصعب ولا ممتنع ؛ ولهذا قال : ﴿ **وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ** ﴾ .

وقوله : ﴿ **وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ** ﴾ أى : يوم القيامة ، ﴿ **وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا** ﴾ ، أى : وإن تدع نفس مثقلة بأوزارها إلى أن تُساعَدَ على حمل ما عليها من الأوزار أو بعضه ، ﴿ **لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ** ﴾ ، أى : ولو كان قريبا إليها ، حتى ولو كان أباها أو ابنها ، كل مشغول بنفسه وحاله ، [كما قال تعالى : ﴿ **يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ** ﴾] (٥) [عبس : ٣٤ ـ ٣٧] .

قال (٦) عكرمة فى قوله : ﴿ **وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا** ﴾ الآية ، قال : هو الجار يتعلق بجاره يوم

---

(١) فى ت ، أ : « يسمعوا » . (٢) فى أ : «دعاءهم» . (٣) فى ت:« يقيمون » .
(٤) فى ت ، س: «المتفرد » . (٥) زيادة من ت . (٦) فى ت : « كما قال » .

القيامة ، فيقول : يا رب ، سل هذا : لم كان يغلق بابه دونى . وإن الكافر ليتعلق بالمؤمن يوم القيامة، فيقول له : يا مؤمن ، إن لى عندك يداً ، قد عرفت كيف كنت لك فى الدنيا ؟ وقد احتجت إليك اليوم . فلا يزال المؤمن يشفع له إلى ربه حتى يرده إلى [منزل دون] [١] منزله [٢] ، وهو فى النار . وإن الوالد ليتعلق بولده يوم القيامة ،فيقول: يا بنى ، أىّ والد كنتُ لك ؟ فيثنى خيرا، فيقول له : يا بنى إنى قد احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك أنجو بها مما ترى . فيقول له ولده : يا أبت، ما أيسر ما طلبت ، ولكنى أتخوف مثل ما تتخوف ، فلا أستطيع أن أعطيك شيئا ، ثم يتعلق بزوجته فيقول : يا فلانة ـ أو : يا هذه ـ أى زوج كنت لك ؟ فتثنى خيرا ، فيقول لها : إنى أطلب إليك حسنة واحدة تَهَبينَها لى ،لعلى أنجو بها مما ترين. قال :فتقول:ما أيسر ما طلبت.ولكنى لا أطيق أن أعطيك شيئا ، إنى أتخوف مثل الذى تتخوف ، يقول اللّه : ﴿**وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ [إِلَىٰ حِمْلِهَا]** [٣] ﴾ الآية، ويقول اللّه : ﴿**لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا**﴾ [لقمان : ٣٣] ، ويقول تعالى : ﴿ **يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ. وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ. وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ. لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ**﴾.

رواه ابن أبى حاتم ، رحمه اللّه ، عن أبى عبد اللّه الطهرانى [٤] ، عن حفص بن عمر ، عن الحكم بن أبان ، عن عِكْرِمة ، به .

ثم قال :﴿ **إِنَّمَا تُنذِرُ** [٥] **الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ**﴾ أى : إنما يتعظ بما جئت به أولو البصائر والنهى ، الخائفون من ربهم ، الفاعلون ما أمرهم به ، ﴿**وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ**﴾ أى : ومن عمل صالحا فإنما يعود نفعه على نفسه ،﴿**وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ**﴾ أى : وإليه المرجع والمآب ، وهو سريع الحساب ، وسيجزى كل عامل بعمله ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ (٢٠) وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ (٢٢) إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ (٢٣) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٢٦) ﴾ .

يقول تعالى : كما لا تستوى هذه الأشياء المتباينة المختلفة ، كالأعمى والبصير لا يستويان ، بل بينهما فرق وبون كثير ، وكما لا تستوى الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور ، كذلك لا تستوى الأحياء ولا الأموات. وهذا مثل ضربه اللّه للمؤمنين وهم الأحياء ، وللكافرين وهم الأموات ، كقوله تعـالى :﴿ **أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ**

---

(١) زيادة من ت ، أ .
(٢) فى ت : « فى منزلة دون منزلته » .
(٣) زيادة من ت ، س ، أ .
(٤) فى أ : « الطبرانى » .
(٥) فى س : « ينذر » .

مِّنْهَا ﴾ [الأنعام : ١٢٢] ،وقال تعالى: ﴿ **مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَىٰ وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً** ﴾ [هود : ٢٤] فالمؤمن سميع بصير فى نور يمشى ، على صراط مستقيم فى الدنيا والآخرة ، حتى يستقر به الحال فى الجنات ذات الظلال والعيون ، والكافر أعمى أصم ، فى ظلمات يمشى ، لا خروج له منها ، بل هو يتيه فى غيه وضلاله فى الدنيا والآخرة ، حتى يفضى به ذلك إلى الحرور والسموم والحميم ، ﴿ **وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ. لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ** ﴾ [الواقعة : ٤٣ ، ٤٤] .

وقوله : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ** ﴾ أى : يهديهم إلى سماع الحجة وقبولها والانقياد لها ﴿ **وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ** ﴾ أى : كما لا [يسمع و] (١) ينتفع الأموات بعد موتهم وصيرورتهم إلى قبورهم، وهم كفار بالهداية والدعوة إليها ، كذلك هؤلاء المشركون الذين كُتب عليهم الشقاوة لا حيلةَ لك فيهم ، ولا تستطيع هدايتهم .

﴿ **إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ** ﴾ أى : إنما عليك البلاغ والإنذار ، والله يضل من يشاء ويهدى من يشاء .

﴿ **إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً** ﴾ أى : بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين ، ﴿ **وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ** ﴾ أى : وما من أمة خلت من بنى آدم إلا وقد بعث الله إليهم النّذر ، وأزاح عنهم العلل ، كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ** ﴾ [الرعد : ٧] ، وكما قال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ** ﴾ الآية [النحل : ١٣٦]، والآيات فى هذا كثيرة .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ **وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ** ﴾ وهى : المعجزات الباهرات ، والأدلة القاطعات ، ﴿ **وَبِالزُّبُرِ** ﴾ وهى الكتب ، ﴿ **وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ** ﴾ أى : الواضح البين . ﴿ **ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ أى : ومع هذا كله كَذّب أولئك رسلَهم فيما جاؤوهم به، فأخذتهم ، أى : بالعقاب والنكال ،﴿ **فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ** ﴾ أى : فكيف رأيت(٢) إنكارى عليهم عظيما شديدا بليغا ؟

﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨)** ﴾ .

يقول تعالى منبها على كمال قدرته فى خلقه الأشياء المتنوعة المختلفة من الشىء الواحد ، وهو الماء الذى ينزله من السماء ، يخرج به ثمرات مختلفا ألوانها ، من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض ، إلى غير ذلك من ألوان الثمار ، كما هو المشاهد من تنوع ألوانها وطعومها وروائحها ، كما قال تعالى فى الآية الآخرى : ﴿ **وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ (٣) بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ [الرعد : ٤] .

---

(١) زيادة من ت ، أ . (٢) فى ت : « رأيت كان » . (٣) فى ت ، س : « تسقى » .

وقوله تبارك وتعالى :﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ أى : وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان ، كما هو المشاهد أيضا من بيض وحمر ، وفى بعضها طرائق ـ وهى : الجُدَد ، جمع جُدّة ـ مختلفة الألوان أيضا .

قال ابن عباس ، رضى اللّه عنهما : الجُدَد : الطرائق . وكذا قال أبو مالك ، والحسن ، وقتادة، والسدى (١) .

ومنها ﴿ غَرَابِيبُ سُود﴾ ، قال عكرمة : الغرابيب : الجبال الطوال السود . وكذا قال أبو مالك، وعطاء الخراسانى وقتادة .

وقال ابن جرير : والعرب إذا وصفوا الأسود بكثرة السواد ، قالوا : أسود غربيب .

ولهذا قال بعض المفسرين فى هذه الآية : هذا من المقدم والمؤخر فى قوله تعالى : ﴿ وَغَرَابِيبُ سُود﴾ أى : سود غرابيب .

وفيما قاله نظر .

وقوله تعالى :﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ﴾ أى : [و] (٢) كذلك الحيوانات من الأناسى والدواب ـ وهو : كل ما دب على قوائم ـ والأنعام ، من باب عطف الخاص على العام . كذلك هى مختلفة أيضا ، فالناس منهم بربر وحُبُوش وطُمَاطم فى غاية السواد ، وصقالبة وروم فى غاية البياض ، والعرب بين ذلك ، والهنود دون ذلك ؛ولهذا قال تعالى فى الآية الأخرى :﴿وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ [الروم : ٢٢] . وكذلك الدواب والأنعام مختلفة الألوان ، حتى فى الجنس الواحد ، بل النوع الواحد منهن مختلف الألوان ، بل الحيوان الواحد يكون أبلق ، فيه من هذا اللون وهذا اللون ، فتبارك اللّه أحسن الخالقين .

وقد قال (٣) الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده : حدثنا الفضل بن سهل ، حدثنا عبد اللّه بن عمر ابن أبان بن صالح ، حدثنا زياد بن عبد اللّه ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال :جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : أيصبغ ربك ؟ فقال : « نعم صبغا لا يُنفَض ، أحمر وأصفر وأبيض » (٤) . ورُوى مرسلا وموقوفا ، واللّه أعلم .

ولهذا قال تعالى بعد هذا :﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ أى : إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به ؛ لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى ـ كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل ، كانت الخشية له أعظم وأكثر .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ قال: الذين يعلمون أن اللّه على كل شىء قدير .

وقال ابن لَهِيعَة،عن ابن أبى عمرة ، عن عِكْرِمة ،عن ابن عباس (٥) قال : العالم بالرحمن(٦) من لم يشرك به شيئا ،وأحل حلاله،وحرم حرامه،وحفظ وصيته،وأيقن أنه ملاقيه ومحاسب بعمله .

---

(١) فى ت : « وكذلك قال غيره » . (٢) زيادة من ت ، س ، أ . (٣) فى ت : « وقد روى » .
(٤) مسند البزار برقم (٢٩٤٤) « كشف الأستار » وقال الهيثمى فى المجمع (١٢٨/٥) : « وفيه عطاء بن السائب وقد اختلط » .
(٥) فى ت : « وعنه » . (٦) فى أ : « بالرحمن من عباده » .

وقال سعيد بن جبير : الخشية هى التى تحول بينك وبين معصية اللّه عز وجل .

وقال الحسن البصرى : الإيمان مَنْ خشى الرحمن بالغيب ، ورغب فيما رغب اللّه فيه ، وزهد فيما سَخط اللّه فيه ، ثم تلا الحسن : ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ** ﴾ .

وعن ابن مسعود ، رضى اللّه عنه ، أنه قال : ليس العلم عن كثرة الحديث، ولكن العلم عن (١) كثرة الخشية .

وقال أحمد بن صالح المصرى ، عن ابن وهب ، عن مالك قال : إن العلم ليس بكثرة الرواية ، وإنما العلم نور يجعله اللّه فى القلب .

قال أحمد بن صالح المصرى (٢) : معناه : أن الخشية لا تدرك بكثرة الرواية ، وأما العلم الذى فرض (٣) اللّه ، عز وجل ، أن يتبع فإنما هو الكتاب والسنة ، وما جاء عن الصحابة ، رضى اللّه عنهم ، ومن بعدهم من أئمة المسلمين ، فهذا لا يدرك إلا بالرواية ويكون تأويل قوله : « نور » يريد به فهم العلم، ومعرفة معانيه .

وقال سفيان الثورى ، عن أبى حيان [التيمى] (٤) ، عن رجل قال : كان يقال : العلماء ثلاثة: عالم باللّه عالم بأمر اللّه ، وعالم باللّه ليس بعالم بأمر اللّه ، وعالم بأمر اللّه ليس بعالم باللّه. فالعالم باللّه وبأمر اللّه : الذى يخشى اللّه ويعلم الحدود والفرائض . والعالم باللّه ليس بعالم بأمر اللّه : الذى يخشى اللّه ولا يعلم الحدود ولا الفرائض . والعالم بأمر اللّه ليس بعالم باللّه : الذى يعلم الحدود والفرائض ، ولا يخشى اللّه عز وجل .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠) ﴾ .

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين الذين يتلون كتابه ويؤمنون به ويعملون بما فيه ، من إقام الصلاة ، والإنفاق مما رزقهم اللّه فى الأوقات المشروعة ليلا ونهارا ، سرا وعلانية ، ﴿ **يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ** ﴾، أى : يرجون ثوابا عند اللّه لا بد من حصوله . كما قدمنا فى أول التفسير عند فضائل القرآن أنه يقول لصاحبه : « إن كل تاجر من وراء تجارته ، وإنك اليوم من وراء كل تجارة » ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿**لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ**﴾ أى : ليوفيهم ثواب ما فعلوه ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم ، ﴿**إِنَّهُ غَفُورٌ**﴾ أى : لذنوبهم ، ﴿**شَكُورٌ**﴾ للقليل من أعمالهم.

قال قتادة : كان مُطَرِّف ، رحمه اللّه ، إذا قرأ هذه الآية يقول : هذه آية القراء .

---

(١) فى ت ، س : « من » .
(٢) فى ت : « المرى » .
(٣) فى ت ، س : « فرضه » .
(٤) زيادة من ت ، س ، أ .

قال (١) الإمام أحمد : حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا حيوة ، حدثنا سالم بن غيلان أنه سمع درّاجا أبا السمح يحدث عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد الخُدْرىّ ، رضى اللّه عنه ، أنه سمع رسول اللّه ﷺ يقول : « إن اللّه تعالى (٢) إذا رضى عن العبد أثنى عليه سَبْعَةَ (٣) أصناف من الخير لم يعمله، وإذا سخط على العبد أثنى عليه سَبْعَةَ (٤) أصناف من الشر لم يعمله (٥) ». غريب جدا .

﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١) ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ **وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ** ﴾ يا محمد من الكتاب ، وهو القرآن﴿ **هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ** ﴾ أى : من الكتب المتقدمة يصدقها، كما شهدت (٦) له بالتنويه(٧)، وأنه منزل من رب العالمين .

﴿ **إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ** ﴾ أى : هو خبير بهم ، بصير بمن يستحق ما يفضله به على من سواه. ولهذا فضل الأنبياء والرسل على جميع البشر ، وفضل النبيين بعضهم على بعض ، ورفع بعضهم درجات ، وجعل منزلة محمد ﷺ فوق جميعهم ، صلوات اللّه عليهم أجمعين .

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) ﴾ .

يقول تعالى : ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم ، المصدق لما بين يديه من الكتب ، الذين اصطفينا من عبادنا ، وهم هذه الأمة ، ثم قسمهم إلى ثلاثة أنواع (٨) ، فقال : ﴿ **فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ** ﴾، وهو : المفرط فى فعل بعض الواجبات ، المرتكب لبعض المحرمات. ﴿ **وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ** ﴾ وهو: المؤدى للواجبات ، التارك للمحرمات ، وقد يترك بعض المستحبات ، ويفعل بعض المكروهات. ﴿ **وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾ وهو : الفاعل للواجبات والمستحبات ، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا [مِنْ عِبَادِنَا]**(٩) ﴾ ، قال : هم أمة محمد ﷺ ، ورَّثهم اللّه كل كتاب (١٠) أنزله ، فظالمهم يُغفَر له ، ومقتصدهم يحاسب حسابا يسيرا ، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب .

وقال أبو القاسم الطبرانى : حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح ، وعبد الرحمن بن معاوية العُتْبىّ قالا : حدثنا أبو الطاهر بن السرح ، حدثنا موسى بن عبد الرحمن الصنعانى ، حدثنى ابن جُرَيْج ، عن عطاء ، عن (١١) ابن عباس ، عن رسول اللّه ﷺ أنه قال ذات يوم : « شفاعتى لأهل الكبائر من

---

(١)فى ت : « وروى » . (٢) فى أ : « عز وجل » . (٣، ٤) فى ت ، س ، أ : « بسبعة » .
(٥) المسند (٣/٣٨) ودراج له مناكير وروايته عن أبى الهيثم ضعيفة .
(٦) فى ت ، س ، أ : « شهدت هى » .
(٧) فى ت ، أ : « بالنبوة » . (٨) فى ت : « أقسام » . (٩) زيادة من ت ، س .
(١٠) فى ت : « ورثهم اللّه كتابا ». (١١) فى ت : « وروى القاسم الطبرانى بسنده إلى » .

أمتى » . قال ابن عباس : السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب ، والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله ، والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاعة محمد ﷺ (١) .

وهكذا (٢) رُوى عن غير واحد من السلف : أن الظالم لنفسه من هذه الأمة من المصطفين ، على ما فيه من عوج وتقصير .

وقال آخرون : بل الظالم لنفسه ليس من هذه الأمة ، ولا من المصطفين الوارثين الكتاب .

قال ابن أبى حاتم ، حدثنا أبى ، حدثنا على بن هاشم بن مرزوق ، حدثنا ابن عيينة ، عن عمرو(٣) ، عن ابن عباس ، رضى الله عنهما (٤) : ﴿ **فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ** ﴾ قال : هو الكافر . وكذا رَوَى عنه عكرمة ، وبه قال عكرمة أيضا فيما رواه ابن جرير .

وقال ابن أبى نَجِيح ، عن مجاهد فى قوله : ﴿ **فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ** ﴾ قال : هم أصحاب المشأمة.

وقال مالك عن زيد بن أسلم ، والحسن ، وقتادة : هو المنافق .

ثم قد قال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة : وهذه الأقسام الثلاثة كالأقسام الثلاثة المذكورة فى أول سورة « الواقعة » وآخرها .

والصحيح : أن الظالم لنفسه من هذه الأمة . وهذا اختيار ابن جرير كما هو ظاهر الآية ، وكما جاءت به الأحاديث عن رسول الله ﷺ ، من طرق يشد بعضها بعضا ، ونحن نورد منها ما تيسر :

الحديث الأول : قال (٥) الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن الوليد بن العيزار ؛ أنه سمع رجلا من ثقيف يُحَدِّث عن رجل من كنانة ، عن أبى سعيد الخدرى ، رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال فى هذه الآية : ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾ ، قال : « هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة ، وكلهم فى الجنة » .

هذا (٦) حديث غريب من هذا الوجه ، وفى إسناده من لم يسمّ . وقد رواه ابن جرير وابن أبى حاتم ، من حديث شعبة ، به نحوه (٧) .

ومعنى قوله : « بمنزلة واحدة » أى : فى أنهم من هذه الأمة ، وأنهم من أهل الجنة ، وإن كان بينهم فرق فى المنازل فى الجنة .

الحديث الثانى : قال الإمام أحمد : حدثنا إسحاق بن عيسى ، حدثنا أنس بن عياض الليثى أبو ضَمْرة ، عن موسى بن عقبة ، عن [على] (٨) بن عبد الله الأزدى ، عن أبى الدرداء (٩) ، رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله : ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾ ، فأما الذين سبقوا فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، وأما الذين اقتصدوا فأولئك (١٠) يحاسبون حسابا يسيرا ، وأما

---

(١) المعجم الكبير (١١/ ١٨٩) وابن جرير مدلس وقد عنعن .
(٢) فى ت ، س : « وكذا » . (٣) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بسنده » . (٤) فى ت ، س : « عنه » .
(٥) فى ت : « رواه » . (٦) فى ت : « وهذا » .
(٧) المسند (٣/ ٧٨) وتفسير الطبرى (٢٢/ ٩٠) .
(٨) زيادة من س ، أ .
(٩) فى ت : « رواه الإمام أحمد بسنده عن أبى الدرداء » . (١٠) فى أ : « فأولئك الذين» .

الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذين يحبسون فى طول المحشر ، ثم هم الذين تلافاهم [١] برحمته ، فهم الذين يقولون : ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ . الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ** ﴾ » [٢].

طريق أخرى [٣] : قال ابن أبى حاتم : حدثنا أسيد بن عاصم ، حدثنا الحسين بن حفص ، حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن رجل ، عن أبي ثابت ، عن أبي الدرداء قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ﴿**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ**﴾ قال : « فأما الظالم لنفسه فيحبس حتى يصيبه الهم والحزن ، ثم يدخل الجنة » .

ورواه ابن جرير من حديث سفيان الثورى ، عن الأعمش قال : ذكر أبو ثابت أنه دخل المسجد، فجلس إلى جنب أبى الدرداء ، فقال : اللهم ، آنس وحشتى ، وارحم غربتى ، ويسر لى جليسا صالحا . قال أبو الدرداء : لئن كنت صادقا لأنا أسعد بك منك ، سأحدثك حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ لم أحدث به منذ سمعته منه ، ذكر هذه الآية :﴿**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ**﴾ ، « فأما السابق بالخيرات فيدخلها بغير حساب وأما المقتصد فيحاسب حسابا يسيرا ، وأما الظالم لنفسه فيصيبه فى ذلك المكان من الغم والحزن ، وذلك قوله : ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ**﴾ » [٤] .

الحديث الثالث : قال الحافظ أبو القاسم الطبرانى : حدثنا عبد الله بن محمد بن العباس ، حدثنا ابن مسعود ، أخبرنا سهل بن عبد ربه [٥] الرازى ، حدثنا عمرو بن أبى قيس ، عن ابن أبى ليلى ، عن أخيه ، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى [٦] ، عن أسامة بن زيد : ﴿**فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ**﴾ الآية ، قال : قال رسول الله ﷺ : « كلهم من هذه الأمة » [٧] .

الحديث الرابع : قال [٨] ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عَزيز ، حدثنا سلامة ، عن عَقيل ، عن ابن شهاب ، عن عَوْف [٩] بن مالك ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أمتى ثلاثة أثلاث : فثلث يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، وثلث يحاسبون حسابا يسيرا ثم يدخلون الجنة ، وثلث يُمَحَّصون ويكشفون ، ثم تأتى الملائكة فيقولون : وجدناهم يقولون : « لا إله إلا الله وحده » . يقول الله عز وجل : صدقوا ، لا إله إلا أنا [١٠] ، أدخلوهم الجنة بقولهم: « لا إله إلا الله وحده» واحملوا خطاياهم على أهل النار ، وهى التى قال الله تعالى : ﴿**وَلَيَحْمِلُنَّ** [١١] **أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ**﴾ [العنكبوت : ١٣] ، وتصديقها فى التى فيها ذكر الملائكة ، قال الله تعالى : ﴿**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا**﴾ ،فجعلهم ثلاثة أنواع [١٢] ، وهم أصناف كلهم ، فمنهم ظالم

---

(١) فى ت ، س ، أ : « تلافاهم الله » .
(٢) المسند (٥/١٩٨) .
(٣) فى ت : « وروى من طريق أخرى » .
(٤) تفسير الطبرى (٢٢/ ٩٠) ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/٤٢٦) ومن طريقه البيهقى فى البعث برقم(٦٢)من طريق الأعمش،به .
(٥) فى أ : « عبد الله » . (٦) فى ت : « رواه الحافظ أبو القاسم الطبرانى بإسناده » .
(٧) المعجم الكبير (١/١٦٧) وقد وقع فى إسناده سقط ، ورواه البيهقى فى البعث برقم (٦٤) من طريق محمد بن سعيد ، عن عمرو ابن أبى قيس، عن ابن أبى ليلى، عن أخيه عيسى، عن أبيه، عن أسامة بن زيد ،به . ورواه أيضا برقم (٦٣) من طريق حصين بن نمير عن ابن أبى ليلى ،عن أخيه ،عن أبيه ،عن أسامة بن زيد ، بنحوه .
(٨) فى ت : « رواه » . (٩) فى أ : « أنس » .
(١٠) فى س : « إلا الله ». (١١) فى س : «ولتحملن » . (١٢) فى ت ، س : « أفواج » .

لنفسه، فهذا الذى يكشف ويمحص » . غريب جدا (١) .

أثر عن ابن مسعود : قال ابن جرير : حدثنى ابن حميد ، حدثنا الحكيم بن بشير ، عن عمرو ابن قيس ، عن عبد اللّه بن عيسى ، عن يزيد بن الحارث ، عن شَقِيق أبى وائل ، عن عبد اللّه بن مسعود ؛ أنه قال : هذه الأمة ثلاثة أثلاث يوم القيامة : ثلث يدخلون الجنة بغير حساب ، وثلث يحاسبون حسابا يسيرا ، وثلث يجيئون بذنوب عظام حتى يقول : ما هؤلاء ؟ ــ وهو أعلم تبارك وتعالى ــ فتقول الملائكة : هؤلاء جاؤوا بذنوب عظام ، إلا أنهم لم يشركوا بك فيقول الرب عز وجل : أدخلوا هؤلاء فى سعة رحمتى : وتلا عبد اللّه هذه الآية : ﴿**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا [فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ]** (٢)﴾ الآية .

أثر آخر : قال أبو داود الطيالسى ، عن الصلت بن دينار أبو شُعيب (٣) ، عن عقبة بن صُهْبان الهُنَائى قال : سألت عائشة ، رضى اللّه عنها ، عن قول اللّه : ﴿**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ**﴾ الآية ، فقالت لى : يا بنى ، هؤلاء فى الجنة ، أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول اللّه ﷺ ، شهد له رسول اللّه ﷺ بالحياة والرزق ، وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به ، وأما الظالم لنفسه فمثلى ومثلكم. قال : فجعلت نفسها معنا (٤) .

وهذا منها ، رضى اللّه عنها ، من باب الهَضْم والتواضع ، وإلا فهى من أكبر السابقين بالخيرات؛ لأن فضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام .

وقال عبد اللّه بن المبارك ، رحمه اللّه : قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، رضى اللّه عنه : فى قوله تعالى :﴿ **فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ**﴾ قال : هى لأهل بدونا ، ومقتصدنا أهل حضرنا ، وسابقنا أهل الجهاد . رواه ابن أبى حاتم .

وقال عَوْف الأعرابى : حدثنا عبد اللّه بن الحارث بن نوفل قال : حدثنا كعب الأحبار قال : إن الظالم لنفسه من هذه الأمة ، والمقتصد والسابق بالخيرات كلهم فى الجنة ، ألم تر أن اللّه تعالى قال : ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ .جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ**﴾ قال: فهؤلاء أهل النار .

[و] (٥) رواه ابن جرير من طرق ، عن عوف ، به . ثم قال :

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن عُلَيَّةَ ، أخبرنا حميد ، عن إسحاق بن عبد اللّه بن الحارث ، عن أبيه أن ابن عباس سأل كعبا (٦) عن قوله : ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا**﴾ إلى قوله : ﴿**بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾ قال : تماسَّت مناكبهم ورَب كعب (٧)، ثم أعطوا الفضل بأعمالهم.

---

(١) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٨/ ٨٠) من طريق محمد بن عزيز ، به. وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٩٦) : « فيه سلامة بن روح وثقه ابن حبان ، وضعفه جماعة ، وبقية رجاله ثقات » .

(٢) زيادة من أ .

(٣) فى هـ ، س : « دينار بن الأشعث » ، وفى أ : « عن الأشعث » ، والمثبت من مسند الطيالسى .

(٤) مسند الطيالسى برقم (١٤٨٩) .

(٥) زيادة من ت .

(٦) فى ت : « ثم روى عن ابن عباس أنه سأل كعبا » . (٧) فى أ : « الكعبة » .

ثم قال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا الحكم بن بشير ، حدثنا عمرو بن قيس ، عن أبى إسحاق السَّبيعى فى هذه الآية : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ الآية ، قال أبو إسحاق : أما ما سمعت منذ ستين سنة فكلهم ناج .

ثم قال : حدثنا ابن حميد ، حدثنا الحكم ، حدثنا عمرو ، عن (١) محمد بن الحنفية قال : إنها أمة مرحومة ، الظالم مغفور له ، والمقتصد فى الجنان عند الله ، والسابق بالخيرات فى الدرجات عند الله .

ورواه الثورى ، عن إسماعيل بن سَمِيع ، عن رجل ، عن محمد بن الحنفية ، بنحوه .

وقال أبو الجارود : سألت محمد بن على ـ يعنى : الباقر ـ عن قوله : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ فقال : هو الذى خلط عملا صالحا وآخر سيئا .

فهذا ما تيسر من إيراد الأحاديث والآثار المتعلقة بهذا المقام . وإذا تقرر هذا فإن الآية عامة فى جميع الأقسام الثلاثة من هذه الأمة ، فالعلماء أغبط الناس بهذه النعمة ، وأولى الناس بهذه الرحمة ، فإنهم كما قال الإمام أحمد ، رحمه الله :

حدثنا محمد بن يزيد ، حدثنا عاصم بن رجاء بن حَيْوَة (٢) ، عن قيس بن كثير قال : قدم رجل من المدينة إلى أبى الدرداء ـ وهو بدمشق ـ فقال : ما أقدمك أىْ أخى ؟ قال : حديث بلغنى أنك تحدث به عن رسول الله ﷺ . قال أما قدمت لتجارة ؟ قال : لا . قال : أما قدمت لحاجة ؟ قال : لا ؟ قال : أما قدمت إلا فى طلب هذا الحديث ؟ قال : نعم . قال : فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سلك طريقا يطلب فيه (٣) علماً ، سلك الله به طريقا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم (٤) ، وإنه ليستغفر للعالم من فى السموات والأرض حتى الحيتان فى الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب . إن العلماء هم ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر » .

وأخرجه (٥) أبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه ، من حديث كثير بن قيس ــ ومنهم من يقول : قيس بن كثير ــ عن أبى الدرداء (٦) . وقد ذكرنا طرقه واختلاف الرواة فيه فى شرح « كتاب العلم » من « صحيح البخارى » ، ولله الحمد والمنة .

وقد تقدم فى أول « سورة طه » حديث ثعلبة بن الحكم ، عن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله تعالى يوم القيامة للعلماء : إنى لم أضع علمى وحكمى فيكم إلا وأنا أريد [أن] (٧) أغفر لكم ، على ما كان منكم ، ولا أبالى » (٨) .

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾

---

(١) فى ت : « وعن » .
(٢) فى ت : « كما روى الإمام أحمد رحمه الله بإسناده » . (٣) فى س : « فيها » .
(٤) فى أ : « العلم رضا بما يصنع » . (٥) فى ت : « رواه » .
(٦) المسند (٥/١٩٦) وسنن أبى داود برقم (٣٦٤١) وسنن الترمذى برقم (٢٦٨٢) وسنن ابن ماجة برقم (٢٢٣) .
(٧) زيادة من ت ، س ، أ .
(٨) تقدم تخريج الحديث عند تفسير الآية (٢) من سورة طه .

وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥)﴾ .

يخبر تعالى أن مأوى هؤلاء المصطفين من عباده ، الذين أورثوا الكتاب المنزل من رب العالمين يوم القيامة ﴿**جَنَّاتُ عَدْنٍ**﴾ أى : جنات الإقامة يدخلونها يوم معادهم وقدومهم على ربهم،عز وجل ، ﴿**يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا**﴾ ، كما ثبت فى الصحيح عن أبى هريرة ، رضى اللّه عنه ، عن رسول اللّه ﷺ أنه قال : « تبلغ الحلية (١) من المؤمن حيث يبلغ الوضوء » (٢) .

﴿ **وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ** ﴾ ، ولهذا كان محظوراً عليهم فى الدنيا ، فأباحه اللّه لهم فى الدار الآخرة، وثبت فى الصحيح أن رسول اللّه ﷺ قال : « من لبس الحرير فى الدنيا، لم يلبسه فى الآخرة ». وقال :« [لا تشربوا فى آنية الذهب والفضة](٣)هى لهم فى الدنيا ولكم (٤) فى الآخرة» .

وقال (٥) ابن أبى حاتم : حدثنا عمرو بن سواد السَّرْحىّ ، أخبرنا ابن وهب ، عن ابن لَهيعة ، عن عقيل بن خالد ، عن الحسن ، عن أبى هريرة ، رضى اللّه عنه ؛ أن أبا أمامة حدث: أن رسول اللّه ﷺ حدثهم ، وذكر حلى أهل الجنة فقال : « مسورون بالذهب والفضة ، مُكَلَّلة بالدر ، وعليهم أكاليل من درّ وياقوت متواصلة ، وعليهم تاج كتاج الملوك ، شباب جُرْدٌ مُردٌ مكحّلُون » (٦) .

﴿**وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ**﴾ وهو الخوف من المحذور ، أزاحه عنا ، وأراحنا مما كنا نتخوفه ، ونحذره من هموم الدنيا والآخرة .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن ابن عمر قال : قال رسول اللّه ﷺ : «ليس على أهل « لا إله إلا اللّه » وحشة فى قبورهم ولا فى منشرهم ، وكأنى بأهل « لا إله إلا اللّه» ينفضون التراب عن رؤوسهم ، ويقولون : ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ**﴾ ». رواه ابن أبى حاتم من حديثه (٧) .

وقال (٨) الطبرانى : حدثنا جعفر بن محمد الفريابى ، حدثنا يحيى بن موسى (٩) المروزى ، حدثنا سليمان بن عبد اللّه بن وهب الكوفى ، عن عبد العزيز بن حكيم ، عن ابن عمر قال : قال رسول اللّه ﷺ : « ليس على أهل « لا إله إلا اللّه » وحشة فى الموت ولا فى قبورهم ولا فى النشور(١٠) . وكأنى أنظر إليهم عند الصيحة ينفضون رؤوسهم من التراب ، يقولون : ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ**﴾ » (١١) .

---

(١) فى ت : « الحليلة » ،وفى أ : « الحلة » .
(٢) صحيح مسلم برقم (٢٤٦) .
(٣) زيادة من ت ، أ . (٤) فى س : « ولنا » . (٥) فى ت : « وروى » .
(٦) ورواه أبو نعيم فى صفة الجنة برقم (٢٦٧) من طريق على بن الحسن عن عمرو بن سواد، به. والحسن البصرى لم يسمع من أبى هريرة.
(٧) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٤٥٣١) « مجمع البحرين » وابن عدى فى الكامل (٤/ ٢٧١) من طريق يحيى الحمانى عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، به . وقال ابن عدى فى ترجمة عبد الرحمن بن زيد : « أحاديثه غير محفوظة » .وقال المنذرى فى الترغيب (٢/٤١٦) : « فى متنه نكارة » .
(٨) فى ت : « وروى » .
(٩) فى هـ ، ت ، س ، أ : « موسى بن يحيى » والصواب ما أثبتناه من الإكمال وتخريج الكشاف للزيلعى .
(١٠) فى س : « منشرهم » .
(١١) قال الهيثمى فى المجمع (١٠/٣٣٣) : « رواه الطبرانى وفيه جماعة لم أعرفهم » . ورواه ابن عدى فى الكامل (٢/ ٦٥) والبيهقى فى البعث برقم (٨٨) من طريق الحسن عن بهلول بن عبيد عن سلمة بن كهيل عن ابن عمر بنحوه، وقال البيهقى : «هذا مرسل عن سلمة بن كهيل وابن عمر ، وبهلول تفرد به وليس بالقوى » .

قال ابن عباس ، وغيره : غَفَر لهم الكثير [١] من السيئات ، وشكر لهم اليسير من الحسنات .

﴿ **الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ** ﴾ : يقولون : الذى أعطانا هذه المنزلة ، وهذا المقام من فضله ومَنّه [٢] ورحمته ، لم تكن أعمالنا تساوى ذلك . كما ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : «لن يدخل أحداً منكم عمله الجنة » .قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا ، إلا أن يَتَغَمَّدَنى الله برحمة منه وفضل »[٣].

﴿ **لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ** ﴾ أى : لا يمسنا فيها عناء ولا إعياء .

والنصَب واللغوب : كل منهما يستعمل فى التعب . وكأن المراد ينفى هذا وهذا عنهم أنهم لا تعب على أبدانهم ولا أرواحهم [٤] ،والله أعلم . فمن ذلك أنهم كانوا يُدْئِبُون أنفسهم فى العبادة فى الدنيا ،فسقط عنهم التكليف بدخولها ،وصاروا فى راحة دائمة مستمرة ،قال الله تعالى:﴿ **كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ** ﴾ [الحاقة : ٢٤] .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٣٧) ﴾ .

لما ذكر تعالى حال السعداء ، شرع فى بيان مآل الأشقياء ، فقال :﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا** ﴾، كما قال تعالى : ﴿ **لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ** ﴾ [طه : ٧٤] . وثبت فى صحيح مسلم : أن رسول الله ﷺ قال : « أما أهل النار الذين هم أهلها ، فلا يموتون فيها ولا يحيون» [٥] . قال [الله] [٦] تعالى :﴿ **وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ** ﴾ [الزخرف:٧٧] . فهم فى حالهم ذلك يرون موتهم راحة لهم ، ولكن لا سبيل إلى ذلك ، قال الله تعالى : ﴿ **لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا** ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ. لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ** ﴾[الزخرف : ٧٤ ، ٧٥] ، وقال :﴿ **كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا** ﴾ [الإسراء : ٩٧] ﴿ **فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا** ﴾[النبأ : ٣٠] .

ثم قال : ﴿ **كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ** ﴾ أى : هذا جزاء كل من كفر بربه ، وكذب بالحق .

وقوله :﴿ **وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا** ﴾ أى : ينادون فيها ، يجأرون إلى الله، عز وجل، بأصواتهم : ﴿ **رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ** ﴾ أى : يسألون الرجعة إلى الدنيا ، ليعملوا غير عملهم

---

(١) فى أ : « الكبير » . (٢) فى س : « ومنته » .
(٣) صحيح البخارى برقم (٥٦٧٣) وصحيح مسلم برقم (٢٨١٦) .
(٤) فى ت ، أ : « ولا على أرواحهم » .
(٥) صحيح مسلم برقم (١٨٥) .
(٦) زيادة من ت ، س .

الأول ، وقد علم الرب، جل جلاله ،أنه لو ردهم إلى الدار الدنيا ، لعادوا لما نهوا عنه ، **وإنهم** لكاذبون. فلهذا لا يجيبهم إلى سؤالهم ، كما قال تعالى مخبرا عنهم فى قولهم: ﴿**فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ**(١) **مِّن سَبِيلٍ. ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا**﴾ [غافر : ١١، ١٢] ، أى : لا يجيبكم إلى ذلك ، لأنكم كنتم كذلك ، ولو رددتم لعدتّم إلى ما نهيتم عنه ؛ ولهذا قال هاهنا :﴿**أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ**﴾ أى : أو ما عشتم فى الدنيا أعمارا لو كنتم ممن ينتفع بالحق لانتفعتم به فى مدة عمركم ؟

وقد اختلف المفسرون فى مقدار العمر المراد هاهنا ، فروى عن على بن الحسين زين العابدين أنه قال : مقدار سبع عشرة سنة .

وقال قتادة : اعلموا أن طول العمر حجة ، فنعوذ بالله أن نُعَيَّر (٢) بطول العمر ، **قد نزلت هذه** الآية : ﴿**أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ**﴾ ، وإن فيهم لابن ثمانى عشرة سنة . وكذا قال أبو غالب الشيبانى .

وقال عبد الله بن المبارك ، عن مَعْمَر ، عن رجل ، عن وهب بن مُنَبِّه فى قوله :﴿**أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ**﴾ ، قال : عشرين (٣) سنة .

وقال هُشَيْم ، عن منصور ، عن زاذان ، عن الحسن فى قوله : ﴿**أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ**﴾ قال : أربعين سنة .

وقال هشيم [أيضا] (٤) ، عن مجاهد ، عن الشعبى ، عن مسروق أنه كان يقول : إذا بلغ أحدكم أربعين سنة ، فليأخذ حذره من الله عز وجل .

وهذا رواية عن ابن عباس فيما قال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا بشر بن المفضل، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خُثَيْم ، عن مجاهد قال : سمعت ابن عباس يقول : **العمر** الذى أعذر الله إلى ابن آدم : ﴿**أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ**﴾ أربعون سنة .

هكذا رواه من هذا الوجه ، عن ابن عباس . وهذا القول هو اختيار ابن جرير . ثم رواه من طريق الثورى وعبد الله بن إدريس ، كلاهما عن عبد الله بن عثمان بن خثيم (٥) ، عن مجاهد(٦)، عن ابن عباس قال : العمر الذى أعذر الله فيه لابن آدم فى قوله : ﴿**أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ**﴾ ستون سنة .

فهذه الرواية أصح عن ابن عباس ، وهى الصحيحة فى نفس الأمر أيضاً ، لما ثبت فى ذلك من الحديث ـ كما سنورده ـ لا كما زعمه ابن جرير ، من أن الحديث لم يصح ؛ لأن فى إسناده من يجب التثبت فى أمره .

وقد روى (٧) أصبغ بن نُباتة ، عن على ، رضى الله عنه ، أنه قال : العمر الذى عَيّرهم الله به فى قوله تعالى : ﴿**أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ**﴾ ستون سنة .

---

(١) فى ت ، س : « مرد » وهو خطأ . (٢) فى أ : « نغتر » . (٣) فى ت ، س ، أ : « عشرون » .
(٤) زيادة من س . (٥) فى أ : « خيثم » . (٦) فى ت: « وفى رواية أخرى » .
(٧) فى ت : « فروى » .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى : حدثنا دُحَيْم ، حدثنا ابن أبى فُدَيْك ، حدثنى إبراهيم بن الفضل المخزومى ، عن ابن أبى حُسَين المكى ؛ أنه حدثه عن عَطاء ـ هو ابن أبى رباح ـ عن [١] ابن عباس ، رضى اللّه عنهما [٢] ، أن النبى ﷺ قال : « إذا كان يوم القيامة قيل : أين أبناء الستين ؟ وهو العمر الذى قال اللّه فيه : ﴿أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ » .

وكذا رواه ابن جرير ، عن على بن شعيب ، عن محمد بن إسماعيل [٣] بن أبى فُدَيك ، به . وكذا رواه الطبرانى من طريق ابن أبى فُدَيك ، به [٤] . وهذا الحديث فيه نظر ؛ لحال إبراهيم بن الفضل ، واللّه أعلم .

حديث آخر : قال [٥] الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا مَعْمَر ، عن رَجُل من بنى غفَار، عن سعيد المَقْبُرِىّ ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ أنه قال : « لقد أعذر اللّه إلى عبد أحياه حتى بلغ ستين أو سبعين سنة ، لقد أعذر اللّه إليه، لقد أعذر الله إليه » [٦] .

وهكذا رواه الإمام البخارى فى « كتاب الرقاق » من صحيحه : حدثنا عبد السلام بن مُطَهَّر ، عن عُمَر بن علىّ ، عن مَعْن بن محمد الغفَارى ، عن سعيد المَقْبُرى ، عن أبى هريرة ، رضى اللّه عنه،قال : قال رسول اللّه ﷺ : « أعذر اللّه عز وجل إلى امرئ أخَّر عمره حتى بَلَّغَه ستين سنة » .

ثم قال البخارى : تابعه أبو حازم وابن عَجْلان ، عن سعيد المَقْبُرى [٧] .

فأما أبو حازم فقال ابن جرير : حدثنا أبو صالح الفَزَارىّ ، حدثنا محمد بن سَوَّار ، أخبرنا يعقوب بن عبد الرحمن بن عبد القارىّ الإسكندرىّ ، حدثنا أبو حازم ، عن سعيد المقبرى ، عن أبى هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ « [من عَمَّره] [٨] اللّه ستين سنة ، فقد أعذر إليه فى العمر » .

وقد رواه الإمام أحمد والنسائى فى الرقاق جميعا عن قتيبة،عن يعقوب بن عبد الرحمن، به[٩] .

ورواه البزار قال : حدثنا هشام بن يونس ، حدثنا عبد العزيز بن أبى حازم ، عن أبيه ، عن سعيد المقبرى ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « العمر الذى أعذر اللّه فيه إلى ابن آدم ستون سنة » . يعنى : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾[١٠] .

وأما متابعة « ابن عجلان » فقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو السفر يحيى بن محمد بن عبد الملك ابن قرعة بسامراء ، حدثنا أبو عبد الرحمن المقرى ، حدثنا سعيد بن أبى أيوب ، حدثنى محمد بن

(١) فى ت : « فقال ابن أبى حاتم بإسناده إلى » . (٢) فى ت ، س : « عنه » .
(٣) فى جميع النسخ : « عن إسماعيل ، والمثبت من الطبرى » .
(٤) تفسير الطبرى (٢٢/ ٩٣) والمعجم الكبير للطبرانى (١١/ ١٧٧) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٩٧):«وفيه إبراهيم بن الفضل المخزومى وهو ضعيف » .
(٥) فى ت : « وروى » .
(٦) المسند (٢/ ٢٧٥) .
(٧) صحيح البخارى برقم (٦٤١٩) .
(٨) زيادة من ت ، والطبرى .
(٩) تفسير الطبرى (٢٢/ ٩٣) والمسند (٢/ ٤١٧) والنسائى فى السنن الكبرى كما فى تحفة الأشراف للمزى (٩/ ٤٧٢) .
(١٠) ورواه ابن مردويه فى تفسيره كما فى تخريج الكشاف للزيلعى (٣/ ١٥٥) من طريق سليمان بن حرب ، عن أبى حازم،عن سهل بن سعد ، وربما لم يقل : عن سهل ، فذكر نحوه دون الآية ، والمحفوظ عن أبى هريرة ،رضى اللّه عنه .

عجلان ، عن سعيد المقبرى ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من أتت عليه ستون سنة فقد أعذر الله، عز وجل، إليه فى العمر » . وكذا رواه الإمام أحمد عن أبى عبد الرحمن هو المقرئ (١) ، به (٢) . ورواه أحمد أيضا عن خلف عن أبى مَعْشَر ،عن سعيد المقْبُرِىّ.

طريق أخرى عن أبى هريرة : قال ابن جرير : حدثنى أحمد بن الفرج أبو عُتْبَة (٣) الحمْصى، حدثنا بَقيَّة بن الوليد ، حدثنا المطرف بن مازن الكنانى ، حدثنى مَعْمَر بن راشد قال : سمعت محمد ابن عبد الرحمن الغفارى يقول: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «لقد أعذر الله عز وجل، إلى صاحب الستين سنة والسبعين » (٤) .

فقد صح هذا الحديث من هذه الطرق ، فلو لم يكن (٥) إلا الطريق التى ارتضاها أبو عبد الله البخارى شيخ هذه الصناعة لكفت . وقول ابن جرير : (إن فى رجاله بعض من يجب التثبت فى أمره) ، لا يلتفت إليه مع تصحيح البخارى ، والله أعلم .

وذكر بعضهم أن العمر الطبيعى عند الأطباء مائة وعشرون سنة ، فالإنسان لايزال فى ازدياد إلى كمال الستين ، ثم يشرع بعد هذا فى النقص والهرم ، كما قال الشاعر :

إذَا بَلَغَ الفتى ستين عَاما ... فقد ذَهَبَ المَسَرّةُ والفَتَاءُ (٦)

ولما كان هذا هو العمر الذى يعذر الله إلى عباده به ، ويزيح به عنهم العلل ، كان هو الغالب على أعمار هذه الأمة ، كما ورد بذلك الحديث ، قال الحسن بن عرفة ، رحمه الله :

حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربى ، حدثنا محمد بن عمرو ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أعمار أمتى ما بين الستين إلى السبعين،وأقلهم مَن يجوز ذلك».

وهكذا رواه الترمذى وابن ماجه جميعا فى كتاب الزهد ، عن الحسن بن عرفة ، به . ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه (٧) .

وهذا عَجَب من الترمذى ، فإنه قد رواه أبو بكر بن أبى الدنيا من وجه أخر وطريق أخرى ، عن أبى هريرة ، حيث قال :

حدثنا سليمان (٨) بن عمر ، عن محمد بن ربيعة ،عن كامل أبى العلاء،عن أبى صالح،عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أعمار أمتى ما بين الستين إلى السبعين،وأقلهم من يجوز ذلك » .

وقد رواه الترمذى فى « كتاب الزهد » أيضا ، عن إبراهيم بن سعيد الجوهرى ، عن محمد بن ربيعة ، به (٩) . ثم قال : هذا حديث حسن غريب ، من حديث أبى صالح عن أبى هريرة ، وقد

(١) فى أ : « المقبرى » .
(٢) المسند (٢/ ٣٢٠) .
(٣) فى أ : « أبو عيينة » .
(٤) تفسير الطبرى (٢٢/ ٩٣) .
(٥) فى س : « لم تكن » .
(٦) البيت نسبه أبو عبيدة للربيع بن ضبع الفزارى مستفاداً من حاشية طبعة الشعب .
(٧) سنن الترمذى برقم (٣٥٥٠) وسنن ابن ماجه برقم (٤٢٣٦) .
(٨) فى أ : « سليم » .
(٩) سنن الترمذى برقم (٢٣٣١) .

روى من غير وجه عنه . هذا نصه بحروفه فى الموضعين ، والله أعلم .

وقال (١) الحافظ أبو يعلى : حدثنا أبو موسى الأنصارى ، حدثنا ابن أبى فُدَيك ،حدثنى إبراهيم ابن الفضل ـ مولى بنى مخزوم ـ عن المقبُرى ، عن أبى هريرة ، قال :قال رسول الله ﷺ : « مُعْتَرك المنايا ما بين الستين إلى السبعين » .

وبه قال : قال رسول الله ﷺ : « أقل أمتى أبناء سبعين » . إسناده ضعيف (٢) .

حديث آخر فى معنى ذلك : قال (٣) الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده :

حدثنا إبراهيم بن هانئ ، حدثنا إبراهيم بن مهدى ، حدثنا عثمان بن مطر ، عن أبى مالك ، عن رِبْعِى عن حذيفة أنه قال : يا رسول الله ، أنبئنا بأعمار أمتك . قال : « ما بين الخمسين إلى الستين » . قالوا : يارسول الله ، فأبناء السبعين ؟ قال : « قل من يبلغها من أمتى ، رحم الله أبناء السبعين ،ورحم الله أبناء الثمانين » .

ثم قال البزار : لا يروى بهذا اللفظ إلا بهذا الإسناد ، وعثمان بن مطر من أهل البصرة ليس بقوى (٤) .

وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ عاش ثلاثة وستين سنة . وقيل : ستين . وقيل : خمسا وستين سنة . والمشهور الأول ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ **وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ** ﴾ : روى عن ابن عباس ، وعِكْرِمة ، وأبى جعفر الباقر ، وقتادة ، وسفيان بن عُيَينة أنهم قالوا : يعنى: الشيب .

وقال السُّدِّى ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعنى به الرسول ﷺ وقرأ ابن زيد : ﴿ **هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الأُولَى** ﴾ [النجم : ٥٦] . وهذا هو الصحيح عن قتادة ، فيما رواه شيبان ، عنه أنه قال: احتج عليهم بالعمر والرسل .

وهذا اختيار ابن جرير ، وهو الأظهر ؛ لقوله تعالى :﴿ **وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُون . لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُون** ﴾ [الزخرف :٧٧، ٧٨]،أى:لقد بينا لكم الحق على ألسنة الرسل،فأبيتم وخالفتم،وقال تعالى:﴿ **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولا** ﴾ [الإسراء: ١٥] ، وقال تبارك وتعالى : ﴿ **كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِير . قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ كَبِير** ﴾ [الملك : ٨، ٩] .

وقوله :﴿ **فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ** ﴾ أى : فذوقوا عذابَ النار جزاء على مخالفتكم للأنبياء فى مدة أعمالكم ، فما لكم اليوم ناصر ينقذكم مما أنتم فيه من العذاب والنكال والأغلال .

﴿ **إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٣٨) هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ**

---

(١) فى ت : « وروى » .

(٢) مسند أبى يعلى (١١/ ٤٢٢، ٤٢٣) وفيه إبراهيم بن الفضل وهو متروك .

(٣) فى ت : « وروى » .

(٤) مسند البزار برقم (٣٥٨٦) « كشف الأستار » وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٠٦) : « وفيه عثمان بن مطر وهو ضعيف » .

خَلائفَ فِي الأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتًا وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَارًا (٣٩) ﴾ .

يخبر تعالى بعلمه غيب السموات والأرض ، وأنه يعلم ما تكنه السرائر وتنطوى عليه الضمائر ، وسيجازى كل عامل بعمله .

ثم قال : ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائفَ فِي الأَرْضِ** ﴾ أى : يخلف قوم لآخرين قبلهم ، وجيل لجيل قبلهم ، كما قال : ﴿ **وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ** ﴾ [النمل : ٦٢] ﴿ **فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ** ﴾ ، أى : فإنما يعود وبال ذلك (١) على نفسه (٢) دون غيره ، ﴿ **وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتًا** ﴾ ، أى : كلما استمروا على كفرهم أبغضهم الله ، وكلما استمروا فيه خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، بخلاف المؤمنين فإنهم كلما طال عمر أحدهم وحَسُن عمله ، ارتفعت درجته ومنزلته فى الجنة ، وزاد أجره ، وأحبه خالقه وبارئه رب العالمين ، [فسبحان المقدر المدبر رب العالمين] (٣) .

﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلاَّ غُرُورًا (٤٠) إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤١)** ﴾ .

يقول تعالى لرسوله ﷺ أن يقول للمشركين : ﴿ **أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ** ﴾ أى : من الأصنام والأنداد ، ﴿ **أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ** ﴾ أى : ليس لهم شىء من ذلك ، ما يملكون من قطمير .

وقوله : ﴿ **أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ** ﴾ أى : أم أنزلنا عليهم كتابا بما يقولون من الشرك والكفر ؟ ليس الأمر كذلك ، ﴿ **بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلاَّ غُرُورًا** ﴾ أى : بل إنما اتبعوا فى ذلك أهواءهم وآراءهم وأمانيهم التى تمنوها لأنفسهم ، وهى غرور وباطل وزور .

ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة التي بها تقوم السماء والأرض عن أمره ، وما جعل فيهما من القوة الماسكة لهما ، فقال : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا** ﴾ أى : أن تضطربا عن أماكنهما ، كما قال : ﴿ **وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ** ﴾ [الحج : ٦٥] ، وقال تعالى : ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ** ﴾ [الروم : ٢٥] ﴿ **وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ** ﴾ ، أى : لا يقدر على دوامهما وإبقائهما إلا هو ، وهو مع ذلك حليم غفور ، أى : يرى عباده وهم يكفرون به ويعصونه ، وهو يحلم (٤) فيؤخر وينظر ويؤجل ولا يَعجَل، ويستر آخرين ويغفر ؛ ولهذا قال : ﴿ **إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا** ﴾.

---

(١) فى ت ، س ، أ : « وبال كفره ذلك » .
(٢) فى ت : « وعليه » .
(٣) زيادة من أ .
(٤) فى ت ، أ : « يحلم عنهم » .

وقد أورد ابن أبى حاتم هاهنا حديثا غريبا بل منكراً ، فقال : حدثنا على بن الحسين بن الجنيد ، حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنى هشام بن يوسف ، عن أمية بن شبل ، عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، عن [١] أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يحكى عن موسى ، عليه السلام [٢] ، على المنبر قال : « وقع فى نفس موسى ، عليه السلام : هل ينام الله ،عز وجل ، فأرسل الله إليه ملكا ، فأرقه ثلاثا [٣] ، وأعطاه قارورتين ، فى كل يد قارورة،وأمره أن [٤] يحتفظ بهما. قال: فجعل ينام وتكاد يداه تلتقيان،ثم يستيقظ فيحبس إحداهما [٥] عن الأخرى،حتى نام نومه، فاصطفقت يداه فتكسَّرَت القارورتان. قال: ضرب الله له مثلا: إن الله لو كان ينام لم تستمسك السماء والأرض » [٦] .

والظاهر أن هذا الحديث ليس بمرفوع ، بل من الإسرائيليات المنكرة ؛ فإن موسى ، عليه السلام، أجَلّ من أن يُجوِّز على الله ،سبحانه وتعالى،النوم،وقد أخبر الله تعالى فى كتابه العزيز بأنه: **﴿ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾** [البقرة : ٢٥٥]. وثبت فى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله لا ينام ، ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القسْط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل،حجابه النور أو النار ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » [٧] .

وقد قال أبو جعفر بن جرير [٨] : حدثنا ابن بشار ، حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن أبى وائل قال : جاء رجل إلى عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ فقال : من أين جئت ؟ قال : من الشام . قال : من لقيت ؟ قال : لقيت كعبا . قال: ما حدثك كعب ؟ قال : حدثنى أن السموات تدور على منْكَب مَلَك . قال : أفصدقته أو كذبته ؟ قال : ما صدقته ولا كذبته . قال : لوددت أنك افتديت من رحلتك إليه براحلتك ورَحْلها ، كَذَب كعب . إن الله تعالى يقول : **﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ﴾** [٩] .

وهذا إسناد صحيح إلى كعب وإلى ابن مسعود . ثم رواه ابن جرير عن ابن حميد ، عن جرير، عن مغيرة ، عن إبراهيم قال : ذهب جُنْدَب البَجَلى إلى كعب بالشام ، فذكر نحوه [١٠] . وقد رأيت فى مصنف الفقيه [١١] يحيى بن إبراهيم بن مُزَين الطليطلى ، سماه « سير الفقهاء » ، أورد هذا الأثر عن محمد بن عيسى بن الطَّبَّاع ، عن وكيع ، عن الأعمش ، به . ثم قال : وأخبرنا زونان ـ يعنى : عبد الملك بن الحسن ـ عن ابن وهب ، عن مالك أنه قال : السماء لا تدور . واحتج بهذه الآية ، وبحديث : « إن بالمغرب بابا للتوبة لا يزال مفتوحا حتى تطلع الشمس منه » .

---

(١) فى ت : « بسنده إلى أبى هريرة» . (٢) فى ت : « ﷺ» . (٣) فى ت : « ثلثا » .
(٤) فى ت : « بأن » . (٥) فى س : « أحدهما » .
(٦) ورواه أبو يعلى فى مسنده (١٢/ ٢١) من طريق إسحاق بن إبراهيم ، به ، وسبق أيضا تخريج هذا الحديث عند تفسير الآية : ٢٥٥ من سورة البقرة .
(٧) صحيح مسلم برقم (١٧٩) وليس فى صحيح البخارى ، فإن الحافظ ذكره عند تفسير الآية : ٢٥٥ من سورة البقرة فقال : « وفى الصحيح هكذا بالإفراد » .
(٨) فى ت : « وروى ابن جرير » .
(٩) تفسير الطبرى (٢٢/ ٩٤) .
(١٠) تفسير الطبرى (٢٢/ ٩٥) .
(١١) فى س ، أ : « للفقيه » .

قلت : وهذا الحديث فى الصحيح (١) ، والله أعلم .

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤٢) اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا (٤٣) ﴾ .

يخبر تعالى عن قريش والعرب أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم ، قبل إرسال الرسول إليهم : **﴿لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾** أى : من جميع الأمم الذين أرسل إليهم الرسل . قاله الضحاك وغيره ، كقوله تعالى : **﴿أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ. أَوْ تَقُولُوا** (٢) **لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾** [الأنعام : ١٥٦ ، ١٥٧] ، وكقوله تعالى : **﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ. لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ . لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ. فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾** [الصافات: ١٦٧ــ ١٧٠] .

قال الله تعالى : **﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾** ــ وهو : محمد ﷺ ــ بما أنزل معه من الكتاب العظيم ، وهو القرآن المبين ، **﴿ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾** أى : ما ازدادوا (٣) إلا كفراً إلى كفرهم ، ثم بين ذلك بقوله : **﴿ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ﴾** أى : استكبروا عن اتباع آيات الله ، **﴿وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾** أى : ومكروا بالناس فى صدّهم إياهم عن سبيل الله ، **﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾** ، [أى : وما يعود وبال ذلك إلا عليهم (٤) أنفسهم دون غيرهم .

قال (٥) ابن أبى حاتم : ذكر على بن الحسين ، حدثنا ابن أبى عمر ، حدثنا سفيان ، عن أبى زكريا الكوفى عن رجل حدثه ، أن رسول الله ﷺ قال : « إياك ومكر السيئ ، فإنه لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله] (٦) ، ولهم من الله طالب » (٧) ، وقد قال محمد بن كعب القُرَظى : ثلاث من فعلهن لم ينجُ حتى ينزل به من مكر أو بغى أو نكث ، وتصديقها فى كتاب الله : **﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾** ، **﴿ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم﴾** [يونس : ٢٣]، **﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾** [الفتح : ١٠].

وقوله : **﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾** يعنى : عقوبة الله لهم على تكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره (٨) ، **﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾** أى(٩): لا تغير ولا تبدل ، بل هى جارية كذلك فى كل

---

(١) لم أعثر على الحديث فى الصحيحين ، وهو فى سنن الترمذى برقم (٣٥٣٦) وصحيح ابن خزيمة برقم (١٩٣) والمسند للإمام أحمد (٤/ ٢٤٠) ما يوافق ذلك من حديث صفوان بن عسال، رضى الله عنه ، ولفظه عند ابن خزيمة : « إن بالمغرب باباً مفتوحاً للتوبة مسيرته سبعون سنة لا يغلق حتى تطلع الشمس من مغربها » نحوه .

(٢) فى ت : « أو يقولوا » . (٣) فى ت : « ما زادوهم » . (٤) فى ت : « على » .

(٥) فى ت : « روى » . (٦) زيادة من ت ، س ، أ .

(٧) وهذا مرسل ولم أجد من أخرجه غير ابن أبى حاتم ، وقد روى ابن المبارك فى الزهد برقم (٧٢٥) عن الزهرى مرسلاً نحوه .

(٨) فى ت : « على تكذيبهم أمره ومخالفتهم رسله » . (٩) فى ت : « يعنى » .

مكذب ،﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾ أى : ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ ﴾ [الرعد :١١]، ولا يكشف ذلك عنهم ، ويحوله عنهم أحد .

﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤) وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (٤٥) ﴾ .

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به من الرسالة : سيروا فى الأرض ، فانظروا كيف كان عاقبة الذين كذبوا الرسل ؟ كيف دمر اللّه عليهم وللكافرين أمثالها ، فَخُلِّيَتْ منهم منازلهم ، وسلبوا ما كانوا فيه من النِّعَم بعد كمال القوة ، وكثرة العدد والعُدَد ، وكثرة الأموال والأولاد ، فما أغنى ذلك شيئا ، ولا دفع [(١)] عنهم من عذاب اللّه من شىء ، لما جاء أمر ربك لأنه تعالى لا يعجزه شىء ، إذا أراد كونه فى السموات والأرض ؟ ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ أى : عليم بجميع الكائنات ، قدير على مجموعها .

ثم قال تعالى : ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ أى : لو آخذهم [(٢)] بجميع ذنوبهم ، لأهلك جميع أهل الأرض ، وما يملكونه من دواب وأرزاق .

قال [(٣)] ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان الثورى ، عن أبى إسحاق ، عن أبى الأحوص ، عن عبد اللّه قال : كاد الجُعَلُ أن يعذب فى جُحْره بذنب ابن آدم ، ثم قرأ : ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾.

وقال سعيد بن جبير ، والسُّدىّ فى قوله : ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ أى : لما سقاهم المطر، فماتت جميع الدواب .

﴿وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أى : ولكن يُنْظِرهُم إلى يوم القيامة ، فيحاسبهم يومئذ ، ويوفى كل عامل بعمله ، فيجازى بالثواب أهلَ الطاعة ، وبالعقاب أهل المعصية ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾ .

آخر تفسير سورة « فاطر » وللّه الحمد والمنة

(١) فى ت ، س : « ولا يدفع » .
(٢) فى ت ، أ : « يؤاخذهم ».
(٣) فى ت : « روى » .

٣٥ — سورة فاطر
(مكية وهى خمس وأربعون آية)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُولِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٣٥ فاطر

﴿ سورة فاطر مكية وهى خمس وأربعون آية ﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (الحمد لله فاطر السموات والأرض) مبدعهما من غير مثال يحتذيه ولا قانون ينتحيه من الفطر وهو الشق وقيل الشق طولا كأنه شق العدم بإخراجهما منه وإضافته محضة لأنه بمعنى الماضى فهو نعت للاسم الجليل ومن جعلها غير محضة جعله بدلا منه وهو قليل فى المشتق (جاعل الملائكة) الكلام فى إضافته وكونه نعتاً أو بدلا كما قبله وقوله تعالى (رسلا) منصوب به على الوجه الثانى من الإضافة بالاتفاق وأما على الوجه الأول فكذلك عند الكسائى وأما عند البصريين فبمضمر يدل هو عليه لأن اسم الفاعل إذا كان بمعنى الماضى لا يعمل عندهم إلا معرفا باللام وقال أبو سعيد السيرافى اسم الفاعل المتعدى إلى اثنين يعمل فى الثانى لأن باضافته إلى الأول تعذرت إضافته إلى الثانى فتعين نصبه له وعلل بعضهم ذلك بأنه بالإضافة أشبه المعرف باللام فعمل عمله وقرىء جاعل بالرفع على المدح وقرىء الذى فطر السموات والأرض وجعل الملائكة أى جاعلهم وسائط بينه تعالى وبين أنبيائه والصالحين من عباده يبلغون إليهم رسالاته بالوحى والإلهام والرؤيا الصادقة أو بينه تعالى وبين خلقه أيضاً حيث يوصلون إليهم آثار قدرته وصنعه هذا على تقدير كون الجعل تصييرياً أما على تقدير كونه إبداعياً فرسلا نصب على الحالية وقرىء رسلا بسكون السين (أولى أجنحة) صفة لرسلا وأولو اسم جمع لذو كما أن أولاء اسم لذا ونظيرهما فى الأسماء المتمكنة المخاض والخلفة وقوله تعالى (مثنى وثلاث ورباع) صفات لأجنحة أى ذوى أجنحة متعددة متفاوتة فى العدد حسب تفاوت مالهم من المراتب ينزلون بها ويعرجون أو يسرعون بها والمعنى أن من الملائكة خلقاً لكل واحد منهم جناحان وخلقاً أجنحة كل منهم ثلاثة وخلقاً آخر لكل منهم أربعة أجنحة ويروى أن صنفاً من الملائكة لهم ستة أجنحة بجناحين منها يلقون أجسادهم وبآخرين منها يطيرون فيما أمروا به من جهته تعالى وجناحان منها مرخيان على وجوههم حياء من الله عز وجل وعن رسول الله ﷺ أنه رأى جبريل عليه السلام ليلة المعراج وله ستمائة جناح وروى أنه سأله عليهما السلام أن يتراءى له فى صورته فقال إنك لن تطيق ذلك قال إنى أحب أن تفعل فخرج ﷺ فى ليلة مقمرة فأتاه جبريل عليهما السلام فى صورته فغشى عليه ﷺ ثم أفاق وجبريل مسنده وإحدى يديه على صدره والأخرى بين كتفيه فقال سبحان الله ما كنت أرى أن شيئاً من الخلق هكذا فقال جبريل عليه السلام فكيف لو رأيت

مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ٣٥ فاطر

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ ٣٥ فاطر

إسرافيل له اثنا عشر جناحا جناح منها بالمشرق وجناح منها بالمغرب وإن العرش على كاهله وإنه ليتضاءل
الأحايين لعظمة الله عز وجل حتى يعود مثل الوصع وهو العصفور الصغير (يزيد فى الخلق مايشاء)
استئناف مقرر لما قبله من تفاوت أحوال الملائكة فى عدد الأجنحة ومؤذن بأن ذلك من أحكام مشيئته
تعالى لا لأمر راجع إلى ذواتهم ببيان حكم كلى ناطق بأنه تعالى يزيد فى أى خلق كان كل مايشاء أن يزيده
بموجب مشيئته ومقتضى حكمته من الأمور التى لايحيط بها الوصف وماروى عن النبى ﷺ من تخصيص
بعض المعانى بالذكر من الوجه الحسن والصوت الحسن والشعر الحسن فبيان لبعض المواد المعهودة
بطريق التمثيل لا بطريق الحصر فيها وقوله تعالى (إن الله على كل شىء قدير) تعليل بطريق التحقيق للحكم
المذكور فإن شمول قدرته تعالى لجميع الأشياء مما يوجب قدرته تعالى على أن يزيد كل مايشاؤه إيجاباً بيناً
٢ (مايفتح الله للناس من رحمة) عبر عن إرسالها بالفتح إيذاناً بأنها أنفس الخزائن التى يتنافس فيها المتنافسون
وأعزها منالا وتنكيرها للإشاعة والإبهام أى أى شىء يفتح الله من خزائن رحمته أية رحمة كانت من نعمة
وصحة وأمن وعلم وحكمة إلى غير ذلك مما لايحاط به (فلا ممسك لها) أى لا أحد يقدر على إمساكها (وما
يمسك) أى أى شىء يمسك (فلا مرسل له) أى لا أحد يقدر على إرساله واختلاف الضميرين لما أن
مرجع الأول مفسر بالرحمة ومرجع الثانى مطلق يتناولها وغيرها كائناً ماكان وفيه إشعار بأن رحمته
سبقت غضبه (من بعده) أى من بعد إمساكه (وهو العزيز) الغالب على كل مايشاء من الأمور التى من
جملتها الفتح والإمساك (الحكيم) الذى يفعل كل مايفعل حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة والجملة تذييل
مقرر لما قبلها ومعرب عن كون كل من الفتح والإمساك بموجب الحكمة التى عليها يدور أمر التكوين
وبعدمابين سبحانه أنه الموجد للملك والملكوت والمتصرف فيهما بالقبض والبسط من غير أن يكون
٣ لأحد فى ذلك دخل مابوجه من الوجوه أمر الناس قاطبة أو أهل مكة خاصة بشكر نعمه فقال (ياأيها
الناس اذكروا نعمة الله عليكم) أى إنعامه عليكم إن جعلت النعمة مصدراً أو كائنة عليكم إن جعلت اسماً
أى راعوها واحفظوها بمعرفة حقها والاعتراف بها وتخصيص العبادة والطاعة بموليها ولما كانت نعم الله
تعالى مع تشعب فنونها منحصرة فى نعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء نفى أن يكون فى الوجود شىء غيره تعالى
يصدر عنه إحدى النعمتين بطريق الاستفهام الإنكارى المنادى باستحالة أن يجاب عنه بنعم فقال (هل
من خالق غير الله) أى هل خالق مغاير له تعالى موجود على أن خالق مبتدأ محذوف الخبر زيدت عليه كلمة
من لتأكيد العموم وغير الله نعت له باعتبار محله كما أنه نعت له فى قراءة الجر باعتبار لفظه وقرىء

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ ٣٥ فاطر

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ ٣٥ فاطر

بالنصب على الاستثناء وقوله تعالى (يرزقكم من السماء والأرض) أى بالمطر والنبات كلام مبتدأ على التقادير لا محل له من الإعراب داخل فى حيز النفى والإنكار ولا مساغ لما قيل من أنه صفة أخرى لخالق مرفوعة المحل أو مجرورته لأن معناه نفى وجود خالق موصوف بوصفى المغايرة والرازقية معاً من غير تعرض لنفى وجود ما اتصف بالمغايرة فقط ولا لما قيل من أنه الخبر للمبتدأ ولا لما قيل من أنه مفسر لمضمر ارتفع به قوله تعالى من خالق على الفاعلية أى هل يرزقكم من خالق الخ لما أن معناهما نفى رازقية خالق مغاير له تعالى من غير تعرض لنفى وجوده رأساً مع أنه المراد حتماً ألا يرى إلى قوله تعالى (لا إله إلا هو) فإنه استئناف مسوق لتقرير النفى المستفاد منه قصداً وجار مجرى الجواب عما يوهمه الاستفهام صورة لحيث كان هذا ناطقاً بنفى الوجود تعين أن يكون ذلك أيضاً كذلك قطعاً والفاء فى قوله تعالى (فأنى تؤفكون) لترتيب إنكار عدولهم عن التوحيد إلى الإشراك على ما قبلها كأنه قيل وإذا تبين تفرده تعالى بالألوهية والخالقية والرازقية فمن أى وجه تصرفون عن التوحيد إلى الشرك وقوله تعالى (وإن

٤ يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك) تلوين للخطاب وتوجيه له إلى رسول الله ﷺ بين خطابى الناس مسارعة إلى تسليته ﷺ بعموم البلية أولا والإشارة إلى الوعد والوعيد ثانياً أى وإن استمروا على أن يكذبوك فيما بلغت إليهم من الحق المبين بعد ما أقمت عليهم الحجة وألقمتهم الحجر فتأس بأولئك الرسل فى المصابرة على ما أصابهم من قبل قومهم فوضع موضعه ما ذكر اكتفاء بذكر السبب عن ذكر المسبب وتنكير الرسل للتفخيم الموجب لمزيد التسلية والتوجه إلى المصابرة أى رسل أولو شأن خطير وذوو عدد كثير (وإلى الله ترجع الأمور) لا إلى غيره فيجازى كلا منك ومنهم بما أنتم عليه من الأحوال التى من جملتها صبرك وتكذيبهم وفى الاقتصار على ذكر اختصاص المرجع بالله تعالى مع إبهام الجزاء ثواباً وعقاباً من المبالغة فى الوعد والوعيد ما لا يخفى وقرىء ترجع بفتح التاء من الرجوع والأول أدخل فى التهويل

٥ (يأيها الناس) رجوع إلى خطابهم وتكرير النداء لتأكيد العظة والتذكير (إن وعد الله) المشار إليه برجع الأمور إليه تعالى من البعث والجزاء (حق) ثابت لا محالة من غير خلف (فلا تغرنكم الحياة الدنيا) بأن يذهلكم التمتع بمتاعها ويلهيكم التلهى بزخارفها عن تدارك ما يهمكم يوم حلول الميعاد والمراد نهيهم عن الاغترار بها وإن توجه النهى صورة إليها كما فى قوله تعالى لا يجرمنكم شقاقى (ولا يغرنكم بالله) وعفوه وكرمه تعالى (الغرور) أى المبالغ فى الغرور وهو الشيطان بأن يمنيكم المغفرة مع الإصرار على المعاصى قائلا اعملوا ما شئتم إن الله غفور يغفر الذنوب جميعاً فإن ذلك وإن أمكن لكن تعاطى الذنوب بهذا التوقع من قبيل تناول السم تعويلا على دفع الطبيعة وتكرير فعل النهى للمبالغة فيه ولاختلاف الغرورين فى الكيفية وقرىء الغرور بالضم على أنه مصدر أو جمع غار كقعود جمع قاعد ،

إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٣٥ فاطر

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ ٣٥ فاطر

أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ٣٥ فاطر

٦ (إن الشيطان لكم عدو) عداوة قديمة لا تكاد تزول وتقديم لكم للاهتمام به (فاتخذوه عدواً)
بمخالفتكم له فى عقائدكم وأفعالكم وكونكم على حذر منه فى مجامع أحوالكم وقوله تعالى (إنما يدعو
حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) تقرير لعداوته وتحذير من طاعته بالتنبيه على أن غرضه فى دعوة
شيعته إلى اتباع الهوى والركون إلى ملاذ الدنيا ليس تحصيل مطالبهم ومنافعهم الدنيوية كما هو
مقصد المتحابين فى الدنيا عند سعى بعضهم فى حاجة بعض بل هو توريطهم وإلقاؤهم فى العذاب
٧ المخلد من حيث لا يحتسبون (الذين كفروا لهم) بسبب كفرهم وإجابتهم لدعوة الشيطان واتباعهم
لخطواته (عذاب شديد) لا يقادر قدره مديد لا يبلغ مداه (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم)
بسبب ما ذكر من الإيمان والعمل الصالح الذى من جملته عداوة الشيطان (مغفرة) عظيمة (وأجر
٨ كبير) لا غاية لهما (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً) إما تقرير لما سبق من التباين البين بين عاقبتى الفريقين
ببيان تباين حاليهما المؤديين إلى تينك العاقبتين والفاء لإنكار ترتيب مابعدها على ماقبلها أى أبعد كون
حاليهما كما ذكر يكون من زين له الكفر من جهة الشيطان فانهمك فيه كمن استقبحه واجتنبه واختار
الإيمان والعمل الصالح حتى لا تكون عاقبتاهما كما ذكر فحذف ماحذف لدلالة ماسبق عليه وقوله تعالى
(فإن الله يضل) الخ تقرير له وتحقيق للحق ببيان أن الكل بمشيئته تعالى أى فإنه تعالى يضل (من يشاء)
أن يضله لاستحسانه واستحبابه الضلال وصرف اختياره إليه فيرده أسفل سافلين (ويهدى من يشاء)
أن يهديه بصرف اختياره إلى الهدى فيرفعه إلى أعلى عليين وإما تمهيد لما يعقبه من نهيه ﷺ عن التحسر
والتحزن عليهم لعدم إسلامهم ببيان أنهم ليسوا بأهل لذلك بل لأن يضرب عنهم صفحاً ولا يبالى بهم قطعاً
أى أبعد كون حالهم كما ذكر تتحسر عليهم فحذف لما دل عليه قوله تعالى (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات)
دلالة بينة وإما تمهيد لصرفه ﷺ عما كان عليه من الحرص الشديد على إسلامهم والمبالغة فى دعوتهم
إليه ببيان استحالة تحولهم عن الكفر لكونه فى غاية الحسن عندهم أى أبعد ما ذكر من زين له الكفر من
قبل الشيطان فرآه حسناً فانهمك فيه يقبل الهداية حتى تطمع فى إسلامه وتتعب نفسك فى دعوته فحذف
ماحذف لدلالة مامر من قوله تعالى فإن الله يضل من يشاء الخ على أنه ممن شاء الله تعالى أن يضله فمن يهدى
من أضل الله وما لهم من ناصرين وقرىء فلا تذهب نفسك وقوله تعالى حسرات إما مفعول له أى فلا

وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾
٣٥ فاطر

مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾
٣٥ فاطر

تهلك نفسك للحسرات والجمع للدلالة على تضاعف اغتمامه ﷺ على أحوالهم أو على كثرة قبائح أعمالهم الموجبة للتأسف والتحسر وعليهم صلة تذهب كما يقال هلك عليه حباً ومات عليه حزناً أو هو بيان للتحسر عليه ولا يجوز أن يتعلق بحسرات لأن المصدر لا تتقدم عليه صلته وإما حال كان كلها صارت حسرات وقوله تعالى (إن الله عليم بما يصنعون) أى من القبائح تعليل لماقبله على الوجوه الثلاثة مع مافيه من الوعيد. عن ابن عباس رضى الله عنهما أنها نزلت فى أبى جهل ومشركى مكة
٩ (والله الذى أرسل الرياح) مبتدأ وخبر وقرىء الريح وصيغة المضارع فى قوله تعالى (فتثير سحاباً) لحكاية الحال الماضية استحضاراً لتلك الصورة البديعة الدالة على كمال القدرة والحكمة ولأن المراد بيان إحداثها لتلك الخاصية ولذلك أسند إليها أو للدلالة على استمرار الإثارة (فسقناه إلى بلد ميت) وقرىء بالتخفيف (فأحيينا به الأرض) أى بالمطر النازل منه المدلول عليه بالسحاب فإن بينهما تلازماً فى الذهن كما فى الخارج أو بالسحاب فإنه سبب السبب (بعد موتها) أى يبسها وإيراد الفعلين على صيغة الماضى للدلالة على التحقق وإسنادهما إلى نون العظمة المنبىء عن اختصاصهما به تعالى لما فيهما من مزيد الصنع ولتكميل المماثلة بين إحياء الأرض وبين البعث الذى شبه به بقوله تعالى (كذلك النشور) فى كمال الاختصاص بالقدرة الربانية والكاف فى حيز الرفع على الخبرية أى مثل ذلك الإحياء الذى تشاهدونه إحياء الأموات فى صحة المقدورية وسهولة التأتى من غير تفاوت بينهما أصلا سوى الألف فى الأول دون الثانى وقيل فى كيفية الإحياء يرسل الله تعالى من تحت العرش ماء فينبت منه أجساد الخلق
١٠ (من كان يريد العزة) هم المشركون الذين كانوا يتعززون بعبادة الأصنام كقوله تعالى واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً والذين كانوا يتعززون بهم من الذين آمنوا بألسنتهم كما فى قوله تعالى الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة والجمع بين كان ويريد الدلالة على دوام الإرادة واستمرارها (فلله العزة جميعاً) أى له تعالى وحده لا لغيره عزة الدنيا وعزة الآخرة أى فليطلبها منه لا من غيره فاستغنى عن ذكره بذكر دليله إيذاناً بأن اختصاص العزة به تعالى موجب لتخصيص طلبها به تعالى وقوله تعالى (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) بيان لما يطلب به العزة وهو التوحيد والعمل الصالح وصعودهما إليه مجاز عن قبوله تعالى إياهما أو صعود الكتبة بصحيفتهما وتقديم الجار والمجرور عبارة عن كمال الاعتداد به كقوله تعالى وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات أى إليه يصل الكلم الطيب الذى به يطلب العزة لا إلى الملائكة الموكلين بأعمال العباد فقط وهو يعز صاحبه ويعطى طلبته بالذات

وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ
وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ (١١) ٣٥ فاطر

والمستكن في يرفعه للكلم فإن مدار قبول العمل هو التوحيد ويؤيده القراءة بنصب العمل أو للعمل فإنه يحقق الإيمان ويقويه ولا ينال الدرجات العالية إلا به وقرىء يصعد من الإصعاد على البناءين والمصعد هو الله سبحانه أو المتكلم به أو الملك وقيل الكلم الطيب يتناول الذكر والدعاء والاستغفار وقراءة القرآن وعنه ﷺ أنه سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر إذا قالها العبد عرج بها الملك إلى السماء فحيا بها وجه الرحمن فإذا لم يكن عمل صالح لم تقبل وعن ابن مسعود رضي الله عنه ما من عبد مسلم يقول خمس كلمات سبحان والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وتبارك الله إلا أخذهن ملك فجعلهن تحت جناحه ثم صعد بهن فلا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن حتى يحيي بهن وجه رب العالمين ومصداقه قوله عز
* وجل إليه يصعد الكلم الطيب الخ (والذين يمكرون السيئات) بيان لحال الكلم الخبيث والعمل السيء وأهلهما بعد بيان حال الكلم الطيب والعمل الصالح وانتصاب السيئات على أنها صفة للمصدر المحذوف أي يمكرون المكرات السيئات وهي مكرات قريش بالنبي ﷺ في دار الندوة وتداورهم الرأى في إحدى
* الثلاث التي هي الإثبات والقتل والإخراج (لهم) بسبب مكراتهم (عذاب شديد) لا يقادر قدره ولا يؤبه
* عنده لما يمكرون (ومكر أولئك) وضع اسم الإشارة موضع ضميرهم للإيذان بكمال تميزهم بما هم فيه من الشر والفساد عن سائر المفسدين واشتهارهم بذلك وما فيه من معنى البعد للتنبيه على ترامي أمرهم في الطغيان
* وبعد منزلتهم في العدوان أي ومكر أولئك المفسدين الذين أرادوا أن يمكروا به ﷺ (هو يبور) أي هو يهلك ويفسد خاصة لا من مكروا به ولقد أبارهم الله تعالى بعد إبارة مكراتهم حيث أخرجهم من مكة
١١ وقتلهم وأثبتهم في قليب بدر فجمع عليهم مكراتهم الثلاث التي اكتفوا في حقه ﷺ بواحدة منهن (والله خلقكم من تراب) دليل آخر على صحة البعث والنشور أي خلقكم ابتداء منه في ضمن خلق آدم عليه السلام
* خلقاً إجمالياً كما مر في تحقيقه مراراً (ثم من نطفة) أي ثم خلقكم منها خلقاً تفصيلياً (ثم جعلكم أزواجاً) أي أصنافاً أو ذكراناً وإناثاً وعن قتادة جعل بعضكم زوجاً لبعض (وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه) إلا ملتبسة بعلمه تابعة لمشيئته (وما يعمر من معمر) أي من أحد وإنما سمي معمراً باعتبار مصيره
* أي وما يمد في عمر أحد (ولا ينقص من عمره) أي من عمر أحد على طريقة قولهم لا يثيب الله عبداً ولا يعاقبه إلا بحق لكن لا على معنى لا ينقص عمره بعد كونه زائداً بل على معنى لا يجعل من الابتداء ناقصاً وقيل الزيادة والنقص في عمر واحد باعتبار أسباب مختلفة أثبتت في اللوح مثل أن يكتب فيه إن حج فلان فعمره ستون وإلا فأربعون وإليه أشار ﷺ بقوله الصدقة والصلة تعمران الديار وتزيدان في الأعمار وقيل المراد بالنقص ما يمر من عمره وينقص فإنه يكتب في الصحيفة عمره كذا وكذا سنة ثم يكتب تحت ذلك ذهب يوم ذهب يومان وهكذا حتى يأتي على آخره وقرىء ولا ينقص على البناء للفاعل ومن عمره

وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ ٣٥ فاطر

يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ ٣٥ فاطر

بسكون الميم (إلا فى كتاب) عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه اللوح وقيل علم الله عز وجل وقيل صحيفة كل إنسان (إن ذلك) أى ماذكر من الخلق وما بعده مع كونه محاراً للعقول والأفهام (على الله يسير) لاستغنائه عن الأسباب فكذلك البعث (وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح
١٢
أجاج) مثل ضرب للمؤمن والكافر والفرات الذى يكسر العطش والسائغ الذى يسهل انحداره لعذوبته والأجاج الذى يحرق بملوحته وقرىء سيغ كسيد وسيغ بالتخفيف وملح ككتف وقوله تعالى (ومن كل) أى من كل واحد منهما (تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون) أى من المالح خاصة (حلية تلبسونها) إما استطراد فى صفة البحرين وما فيهما من النعم والمنافع وإما تكملة للتمثيل والمعنى كما أنهما وإن اشتركا فى بعض الفوائد لا يتساويان من حيث أنهما متفاوتان فيما هو المقصود بالذات من الماء لما خالط أحدهما ما أفسده وغيره عن كمال فطرته لا يساوى الكافر المؤمن وإن شاركه فى بعض الصفات كالشجاعة والسخاوة ونحوهما لتباينهما فيما هو الخاصية العظمى لبقاء أحدهما على فطرته الأصلية وحيازته لكماله اللائق دون الآخر أو تفضيل للأجاج على الكافر من حيث أنه يشارك العذب فى منافع كثيرة والكافر خلو من المنافع بالكلية على طريقة قوله تعالى ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله والمراد بالحلية اللؤلؤ والمرجان (وترى الفلك فيه) أى فى كل منهما وإفراد ضمير الخطاب مع جمعه فيما سبق وما لحق لأن الخطاب لكل حد تتأتى منه الرؤية دون المنتفعين بالبحرين فقط (مواخر) شواق للماء بجريها مقبلة ومدبرة بريح واحدة (لتبتغوا من فضله) من فضل الله تعالى بالنقلة فيها واللام متعلقة بمواخر وقد جوز تعلقها بما يدل عليه الأفعال المذكورة أى فعل ذلك لتبتغوا من فضله (ولعلكم تشكرون) أى ولتشكروا على ذلك وحرف
١٣
الترجى للإيذان بكونه مرضياً عند الله تعالى (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) بزيادة أحدهما ونقص الآخر بإضافة بعض أجزاء كل منهما إلى الآخر (وسخر الشمس والقمر) عطف على يولج واختلافهما صيغة لما أن إيلاج أحد الملوين فى الآخر متجدد حيناً فحيناً وأما تسخير النيرين فأمر لا تعدد فيه وإنما المتعدد والمتجدد آثاره وقد أشير إليه بقوله تعالى (كل يجرى) أى بحسب حركته الخاصة وحركته القسرية على المدارات اليومية المتعددة حسب تعدد أيام السنة جرياناً مستمراً (لأجل مسمى)

إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ٣٥ فاطر

يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ٣٥ فاطر

إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ ٣٥ فاطر

وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ ٣٥ فاطر

قدره الله تعالى لجريانهما وهو يوم القيامة كما روى عن الحسن رحمه الله وقيل جريانهما عبارة عن حركتيهما الخاصتين بهما فى فلكيهما والأجل المسمى هو منتهى دورتيهما ومدة الجريان للشمس سنة والقمر شهر وقد مر تفصيله فى سورة لقمان (ذلكم) إشارة إلى فاعل الأفاعيل المذكورة وما فيه من معنى البعد للإيذان بغاية العظمة وهو مبتدأ وما بعده أخبار مترادفة أى ذلكم العظيم الشأن الذى أبدع هذه الصنائع البديعة (الله ربكم له الملك) وفيه من الدلالة على أن إبداعه تعالى لتلك البدائع مما يوجب ثبوت تلك الأخبار له مالا يخفى ويجوز أن يكون الأخير كلاما مبتدأ فى مقابلة قوله تعالى (والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير) للدلالة على تفرده تعالى بالألوهية والربوبية وقرىء يدعون بالياء التحتانية

١٤ والقطمير لفافة النواة وهو مثل فى القلة والحقارة (إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم) استئناف مقرر لمضمون ماقبله كاشف عن جلية حال مايدعونه بأنه جماد ليس من شأنه السماع (ولو سمعوا) على الفرض والتقدير (مااستجابوا لكم) لعجزهم عن الأفعال بالمرة لا لما قيل من أنهم متبرئون منكم ومما تدعون لهم فإن ذلك مما لا يتصور منهم فى الدنيا (ويوم القيامة يكفرون بشرككم) أى يجحدون بإشراككم لهم وعبادتكم إياهم بقولهم ما كنتم إيانا تعبدون (ولا ينبئك مثل خبير) أى لا يخبرك بالأمر مخبر مثل خبير أخبرك به وهو الحق سبحانه فإنه الخبير بكنه الأمور دون سائر المخبرين والمراد تحقيق ماأخبر به من حال آلهتهم ونفى

١٥ مايدعون لهم من الإلهية (يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله) فى أنفسكم وفيما يعن لكم من أمر مهم أو خطب ملم وتعريف الفقراء للمبالغة فى فقرهم كأنهم لكثرة افتقارهم وشدة احتياجهم هم الفقراء فحسب وأن افتقار سائر الخلائق بالنسبة إلى فقرهم بمنزلة العدم ولذلك قال تعالى وخلق الإنسان ضعيفاً (والله هو الغنى الحميد) أى

١٦ المستغنى على الإطلاق المنعم على سائر الموجودات المستوجب للحمد (إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد)

١٧ ليسوا على صفتكم بل مستمرون على الطاعة أو بعالم آخر غير ما تعرفونه (وما ذلك) أى ماذكر من الإذهاب بهم والإتيان بآخرين (على الله بعزيز) بمتعذر ولا متعسر.

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ٣٥ فاطر

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ ٣٥ فاطر

وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ ٣٥ فاطر

وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ ٣٥ فاطر

وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ ٣٥ فاطر

---

١٨ (ولا تزر وازرة) أى لاتحمل نفس آثمة (وزر أخرى) إثم نفس أخرى بل إنما تحمل كل منهما وزرها
وأماما فى قوله تعالى وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم من حمل المضلين أثقالا غير أثقالهم فهو حمل
أثقال إضلالهم مع أثقال ضلالهم وكلاهما أوزارهم ليس فيها من أوزار غيرهم شىء (وإن تدع مثقلة)
أى نفس أثقلها الأوزار (إلى حملها) لحمل بعض أوزارها (لايحمل منه شىء) لم تجب بحمل شىء منه
(ولو كان) أى المدعو المفهوم من الدعوة (ذا قربى) ذا قرابة من الداعى وقرىء ذو قربى وهذا نفى
للحمل اختياراً والأول نفى له جباراً (إنما تنذر) استئناف مسوق لبيان من يتعظ بما ذكر أى إنما تنذر
بهذه الإنذارات (الذين يخشون ربهم بالغيب) أى يخشونه تعالى غائبين عن عذابه أو عن الناس فى
خلواتهم أو يخشون عذابه وهو غائب عنهم (وأقاموا الصلاة) أى راعوها كما ينبغى وجعلوها مناراً
منصوباً وعلماً مرفوعا أى إنما ينفع إنذارك وتحذيرك هؤلاء من قومك دون من عداهم من أهل التمرد
والعناد (ومن تزكى) أن تطهر من أوضار الأوزار والمعاصى بالتأثر من هذه الإنذارات (فإنما يتزكى
لنفسه) لاقتصار نفعه عليها كما أن من تدنس بها لايتدنس إلا عليها وقرىء من أزكى فإنما يزكى وهو
اعتراض مقرر لخشيتهم وإقامتهم الصلاة لأنها من معظم مبادى التزكى (وإلى الله المصير) لا إلى أحد
١٩ غيره استقلالا أو اشتراكا فيجازيهم على تزكيهم أحسن الجزاء (وما يستوى الأعمى والبصير) أى
٢٠ الكافر والمؤمن (ولا الظلمات ولا النور) أى ولا الباطل ولا الحق وجمع الظلمات مع إفراد النور لتعدد
٢١ فنون الباطل واتحاد الحق (ولا الظل ولا الحرور) أى ولا الثواب ولا العقاب وإدخال لا على المتقابلين
لتذكير نفى الاستواء وتوسيطها بينهما للتأكيد والحرور فعول من الحر غلب على السموم وقيل السموم
٢٢ مايهب نهاراً والحرور مايهب ليلا (وما يستوى الأحياء ولا الأموات) تمثيل آخر للمؤمنين والكافرين

إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ ٣٥ فاطر

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ٣٥ فاطر

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ٣٥ فاطر

ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ ٣٥ فاطر

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ ٣٥ فاطر

أبلغ من الأول ولذلك كرر الفعل وأوثر صيغة الجمع فى الطرفين تحقيقاً للتباين بين أفراد الفريقين وقيل
• تمثيل للعلماء والجهلة (إن الله يسمع من يشاء) أن يسمعه ويوفقه لفهم آياته والاتعاظ بعظاته (وما أنت
بمسمع من فى القبور) ترشيح لتمثيل المصرين على الكفر بالأموات وإشباع فى إقناطه ﷺ من إيمانهم
٢٣ (إن أنت إلا نذير) ما عليك إلا الإنذار وأما الإسماع البتة فليس من وظائفك ولا حيلة لك إليه فى
٢٤ المطبوع على قلوبهم (إنا أرسلناك بالحق) أى محقين أو محقاً أنت أو إرسالا مصحوباً بالحق ويجوز أن
يتعلق بقوله (بشيراً ونذيراً) أى بشيراً بالوعد الحق ونذيراً بالوعيد الحق (وإن من أمة) أى ما من
أمة من الأمم الدارجة فى الأزمنة الماضية (إلا خلا) أى مضى (فيها نذير) من نبى أو عالم ينذرهم
والاكتفاء بذكره للعلم بأن النذارة قرينة البشارة لاسيما وقد اقترنا آنفاً ولأن الإنذار هو الأنسب
٢٥ بالمقام (وإن يكذبوك) أى تموا على تكذيبك فلا تبال بهم وبتكذيبهم (فقد كذب الذين من قبلهم)
من الأمم العاتية (جاءتهم رسلهم بالبينات) أى المعجزات الظاهرة الدالة على نبوتهم (وبالزبر) كصحف
إبراهيم (وبالكتاب المنير) كالتوراة والإنجيل والزبور على إرادة التفصيل دون الجمع ويجوز أن يراد
٢٦ بهما واحد والعطف لتغاير العنوانين (ثم أخذت الذين كفروا) وضع الموصول موضع ضميرهم لذمهم
بما فى حيز الصلة والإشعار بعلة الأخذ (فكيف كان نكير) أى إنكارى بالعقوبة وفيه مزيد تشديد
٢٧ وتهويل لها (ألم تر) استئناف مسوق لتقرير ماقبله من اختلاف أحوال الناس ببيان أن الاختلاف
والتفاوت أمر مطرد فى جميع المخلوقات من النبات والجماد والحيوان والرؤية قلبية أى ألم تعلم (أن الله
أنزل من السماء ماء فأخرجنا به) بذلك الماء والالتفات لإظهار كمال الاعتناء بالفعل لما فيه من الصنع
البديع المنبىء عن كمال القدرة والحكمة (ثمرات مختلفاً ألوانها) أى أجناسها أو أصنافها على أن كلا منها
ذو أصناف مختلفة أو هيآتها وأشكالها أو ألوانها من الصفرة والخضرة والحمرة وغيرها وهو الأوفق
لما فى قوله تعالى (ومن الجبال جدد) أى ذو جدد أى خطط وطرائق ويقال جدة الحمار للخطة السوداء

وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ
ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ٣٥ فاطر
إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ
تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ ٣٥ فاطر

على ظهره وقرىء جدد بالضم جمع جديدة بمعنى الجدة وجدد بفتحتين وهو الطريق الواضح (بيض وحمر مختلف ألوانها) بالشدة والضعف (وغرابيب سود) عطف على بيض أو على جدد كأنه قيل ومن الجبال مخطط ذو جدد ومنها ماهو على لون واحد غرابيب وهو تأكيد لمضمر يفسره مابعده فإن الغربيب تأكيد للأسود كالفاقع للأصفر والقانى للأحمر ومن حق التأكيد أن يتبع المؤكد ونظيره فى الصفة قول النابغة [والمؤمن العائذات الطير يمسحها] وفى مثله مزيد تأكيد لما فيه من التكرار باعتبار الإضمار والإظهار (ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه) أى ومنهم بعض مختلف ألوانه أو وبعضهم ٢٨
مختلف ألوانه على مامر فى قوله تعالى ومن الناس من يقول آمنا بالله وإيراد الجملتين اسميتين مع مشاركتهما لما قبلهما من الجملة الفعلية فى الاستشهاد بمضمونهما على تباين الناس فى الأحوال الباطنة لما أن اختلاف الجبال والناس والدواب والأنعام فيما ذكر من الألوان أمر مستمر فعبر عنه بما يدل على الاستمرار وأما إخراج الثمرات المختلفة لحيث كان أمراً حادثاً عبر عنه بما يدل على الحدوث ثم لما كان فيه نوع خفاء علق به الرؤية بطريق الاستفهام التقريرى المنبىء عن الحمل عليها والترغيب فيها بخلاف أحوال الجبال والناس وغيرهما فإنها مشاهدة غنية عن التأمل فلذلك جردت عن التعليق بالرؤية فتدبر وقوله تعالى (كذلك) مصدر تشبيهى لقوله تعالى مختلف أى صفة لمصدره المؤكد تقديره مختلف اختلافاً كائناً كذلك أى كاختلاف الثمار والجبال وقرىء ألواناً وقرىء والدواب بالتخفيف مبالغة فى الهرب من التقاء الساكنين وقوله تعالى (إنما يخشى الله من عبده العلماء) تكملة لقوله تعالى إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب بتعيين من يخشاه عز وجل من الناس بعد بيان اختلاف طبقاتهم وتباين مراتبهم أما فى الأوصاف المعنوية فبطريق التمثيل وأما فى الأوصاف الصورية فبطريق التصريح توفية لكل واحدة منهما حقها اللائق بها من البيان أى إنما يخشاه تعالى بالغيب العالمون به عز وجل وبما يليق به من صفاته الجليلة وأفعاله الجميلة لما أن مدار الخشية معرفة المخشى والعلم بشئونه فمن كان أعلم به تعالى كان أخشى منه عز وجل كما قال ﷺ أنا أخشاكم لله وأتقاكم له ولذلك عقب بذكر أفعاله الدالة على كمال قدرته وحيث كان الكفرة بمعزل من هذه المعرفة امتنع إنذارهم بالكلية وتقديم المفعول لأن المقصود حصر الفاعلية ولو أخر انعكس الأمر وقرىء برفع الاسم الجليلة ونصب العلماء على أن الخشية مستعارة للتعظيم فإن المعظم يكون مهيباً (إن الله عزيز غفور) تعليل لوجوب الخشية لدلالته على أنه معاقب للمصر على طغيانه
٢٩ غفور للتائب عن عصيانه (إن الذين يتلون كتاب الله) أى يداومون على قراءته أو متابعة مافيه حتى

لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ٣٥ فاطر

وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ٣٥ فاطر

ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ٣٥ فاطر

صارت سمة لهم وعنوانا والمراد بكتاب الله تعالى القرآن وقيل جنس كتب الله فيكون ثناء على المصدقين من الأمم بعد اقتصاص حال المكذبين منهم وليس بذاك فإن صيغة المضارع منادية باستمرار مشروعية تلاوته والعمل بما فيه واستتباعهما لما سيأتي من توفية الأجور وزيادة الفضل وحملها على حكاية الحال الماضية مع كونه تعسفاً ظاهراً مما لا سبيل إليه كيف لا والمقصود الترغيب في دين الإسلام والعمل بالقرآن الناسخ لما بين يديه من الكتب فالتعرض لبيان حقيتها قبل انتساخها والإشباع في ذكر استتباعها لما ذكر من الفوائد العظيمة مما يورث الرغبة في تلاوتها والإقبال على العمل بها وتخصيص التلاوة بما لم ينسخ منها باطل قطعاً لما أن الباقي مشروعا ليس إلا حكمها لكن لا من حيث إنه حكمها بل من حيث إنه حكم القرآن وأما تلاوتها فبمعزل من المشروعية واستتباع الأجر بالمرة فتدبر (وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية) كيفما اتفق من غير قصد إليهما وقيل السر في المسنونة والعلانية في المفروضة (يرجون تجارة) تحصيل ثواب بالطاعة وهو خبر إن وقوله تعالى (لن تبور) أي لن تكسد ولن تهلك بالخسران أصلا صفة لتجارة جيء بها للدلالة على أنها ليست كسائر التجارات الدائرة بين الربح والخسران لأنه اشتراء باق بفان والإخبار برجائهم من أكرم الأكرمين عدة قطعية بحصول مرجوهم وقوله

٣٠ تعالى (ليوفيهم أجورهم) متعلق بلن تبور على معنى أنه ينتفي عنها الكساد وتنفق عند الله تعالى ليوفيهم أجور أعمالهم (ويزيدهم من فضله) على ذلك من خزائن رحمته مايشاء وقيل بمضمر دل عليه ماعدمن أفعالهم المرضية أي فعلوا ذلك ليوفيهم الخ وقيل بيرجون على أن اللام للعاقبة (إنه غفور شكور) تعليل لما قبله من التوفية والزيادة أي غفور لفرطاتهم شكور لطاعاتهم أي مجازيهم عليها وقيل هو خبر إن

٣١ الذين ويرجون حال من واو أنفقوا (والذي أوحينا إليك من الكتاب) وهو القرآن ومن للتبيين أو الجنس ومن للتبعيض وقيل اللوح ومن للابتداء (هو الحق مصدقا لما بين يديه) أي أحقه مصدقا لما تقدمه من الكتب السماوية حال مؤكدة لأن حقيته تستلزم موافقته إياه في العقائد وأصول الأحكام (إن الله بعباده لخبير بصير) محيط ببواطن أمورهم وظواهرها فلو كان في أحوالك ماينافي النبوة لم يوح إليك مثل هذا الحق المعجز الذي هو عيار على سائر الكتب وتقديم الخبير للتنبيه على أن العمدة هي

٣٢ الأمور الروحانية (ثم أورثنا الكتاب) أي قضينا بتوريثه منك أو نورثه والتعبير عنه بالماضي لتقرره

جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ ٣٥ فاطر
وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٣٥ فاطر

وتحققه وقيل أورثناه من الأمم السالفة أى أخرناه عنهم وأعطيناه (الذين اصطفينا من عبادنا) وهم علماء الأمة من الصحابة ومن بعدهم ممن يسير سيرتهم أو الأمة بأسرهم فإن الله تعالى اصطفاهم على سائر الأمم وجعلهم أمة وسطاً ليكونوا شهداء على الناس واختصهم بكرامة الانتماء إلى أفضل رسله عليهم الصلاة والسلام وليس من ضرورة وراثة الكتاب مراعاته حق رعايته لقوله تعالى فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب الآية (فمنهم ظالم لنفسه) بالتقصير فى العمل به وهو المرجأ لأمر الله (ومنهم مقتصد) يعمل به فى أغلب الأوقات ولا يخلو من خلط السيء (ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله) قيل هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار وقيل هم المداومون على إقامة مواجبه علماً وعملا وتعليما وفى قوله بإذن الله أى بتيسيره وتوفيقه تنبيه على عزة منال هذه الرتبة وصعوبة مأخذها وقيل الظالم الجاهل والمقتصد المتعلم والسابق العالم وقيل الظالم المجرم والمقتصد الذى خلط الصالح بالسيء والسابق الذى ترجحت حسناته بحيث صارت سيئاته مكفرة وهو معنى قوله ﷺ وأما الذين سبقوا فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب وأما المقتصد فأولئك يحاسبون حساباً يسيراً وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك يحبسون فى طول المحشر ثم يتلقاهم الله تعالى برحمته وقد روى أن عمر رضى الله عنه قال وهو على المنبر قال رسول الله ﷺ سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له (ذلك) إشارة إلى السبق بالخيرات وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإشعار بعلو رتبته وبعد منزلته فى الشرف (هو الفضل
٣٣ الكبير) من الله عز وجل لا ينال إلا بتوفيقه تعالى (جنات عدن) إما بدل من الفضل الكبير بتنزيل السبب منزلة المسبب أو مبتدأ خبره (يدخلونها) وعلى الأول هو مستأنف وجمع الضمير لأن المراد بالسابق الجنس وتخصيص حال السابقين ومآلهم بالذكر والسكوت عن الفريقين الآخرين وإن لم يدل على حرمانهما من دخول الجنة مطلقاً لكن فيه تحذيراً لهما من التقصير وتحريضاً على السعى فى إدراك شأو السابقين وقرىء جنات عدن وجنة عدن على النصب بفعل يفسره الظاهر وقرىء يدخلونها على البناء للمفعول (يحلون فيها) خبر ثان أو حال مقدرة وقرىء يحلون من حليت المرأة فهى حالية (من أساور) هى جمع أسورة جمع سوار (من ذهب) من الأولى تبعيضية والثانية بيانية أى يحلون بعض أساور من ذهب كأنه أفضل من سائر أفرادها (ولؤلؤاً) بالنصب عطفاً على محل من أساور وقرىء بالجر عطفاً على ذهب أى من ذهب مرصع باللؤلؤ أو من ذهب فى صفاء اللؤلؤ (ولباسهم فيها حرير)
٣٤ وتغيير الأسلوب قد مر فى سورة الحج (وقالوا) أى يقولون وصيغة الماضى للدلالة على التحقق (الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن) وهو ما أهمهم من خوف سوء العاقبة وعن ابن عباس رضى الله عنهما حزن الأعراض والآفات وعنه حزن الموت وعن الضحاك حزن وسوسة إبليس وقيل هم المعاش وقيل حزن

ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ ٣٥ فاطر

وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ

نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ ٣٥ فاطر

وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ

مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ٣٥ فاطر

زوال النعم والظاهر أنه الجنس المنتظم لجميع أحزان الدين والدنيا وقرىء الحزن وعن رسول الله ﷺ ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة فى قبورهم ولا فى محشرهم ولا فى مسيرهم وكأنى بأهل لا إله إلا الله يخرجون من قبورهم ينفضون التراب عن وجوههم ويقولون الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن (إن ربنا لغفور)

٣٥ أى للمذنبين (شكور) للمطيعين (الذى أحلنا دار المقامة) أى دار الإقامة التى لا انتقال عنها أبداً (من فضله) من إنعامه وتفضله من غير أن يوجبه شىء من قبلنا (لا يمسنا فيها نصب) تعب (ولا يمسنا فيها لغوب) كلال والفرق بينهما أن النصب نفس المشقة والكلفة واللغوب ما يحدث منه من الفتور والتصريح

٣٦ بنفى الثانى مع استلزام نفى الأول له وتكرير الفعل المنفى للمبالغة فى بيان انتفاء كل منهما (والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم) لا يحكم عليهم بموت ثان (فيموتوا) ويستريحوا ونصبه بإضمار أن وقرىء فيموتون عطفاً على يقضى كقوله تعالى ولا يؤذن لهم فيعتذرون (ولا يخفف عنهم من عذابها) بل كلما خبت زيد إسعارها (كذلك) أى مثل ذلك الجزاء الفظيع (نجزى كل كفور) مبالغ فى الكفر أو الكفران لا جزاء أخف وأدنى منه وقرىء يجزى على البناء للمفعول وإسناده إلى الكل وقرىء يجازى

٣٧ (وهم يصطرخون فيها) يستغيثون والاصطراخ افتعال من الصراخ استعمل فى الاستغاثة لجهد المستغيث صوته (ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذى كنا نعمل) بإضمار القول وتقييد العمل الصالح بالوصف المذكور للتحسر على ما عملوه من غير الصالح والاعتراف به والإشعار بأن استخراجهم لتلافيه وأنهم كانوا يحسبونه صالحاً والآن تبين خلافه وقوله تعالى (أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر) جواب من جهته تعالى وتوبيخ لهم والهمزة للإنكار والنفى والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام وما نكرة موصوفة أى ألم نمهلكم أو ألم نؤخركم ولم نعمركم عمراً يتذكر فيه من تذكر أى يتمكن فيه المتذكر من التذكر والتفكر قيل هو أربعون سنة وعن ابن عباس رضى الله عنهما ستون سنة وروى ذلك عن على رضى الله عنه وهو العمر الذى أعذر الله فيه إلى ابن آدم قال ﷺ أعذر الله إلى امرىء أخر أجله حتى بلغ ستين سنة وقوله تعالى (وجاءكم النذير) عطف على الجملة الاستفهامية لأنها فى معنى قد عمرناكم كما فى قوله تعالى ألم نشرح لك صدرك ووضعنا الخ لأنه فى معنى قد شرحنا الخ والمراد بالنذير رسول الله ﷺ أو ما معه من القرآن وقيل العقل وقيل الشيب وقيل موت الأقارب والاقتصار على ذكر النذير لأنه الذى

إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ ٣٥ فاطر

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ ٣٥ فاطر

قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ٣٥ فاطر

يقتضيه المقام والفاء فى قوله تعالى (فذوقوا) لترتيب الأمر بالذوق على ماقبلها من التعمير ومجىء النذير
وفى قوله تعالى (فما للظالمين من نصير) للتعليل (إن الله عالم غيب السموات والأرض) بالإضافة وقرىء ٣٨
بالتنوين ونصب غيب على المفعولية أى لايخفى عليه خافية فيهما فلا تخفى عليه أحوالهم (إنه عليم بذات
الصدور) قيل إنه تعليل لما قبله لأنه إذا علم مضمرات الصدور وهى أخفى ما يكون كان أعلم بغيرها (هو الذى ٣٩
جعلكم خلائف فى الأرض) يقال للمستخلف خليفة وخليف والأول يجمع خلائف والثانى خلفاء والمعنى أنه
تعالى جعلكم خلفاءه فى أرضه وألقى إليكم مقاليد التصرف فيها وسلطكم على ما فيها وأباح لكم منافعها أو جعلكم
خلفاء عن قبلكم من الأمم وأورثكم ما بأيديهم من متاع الدنيا لتشكروه بالتوحيد والطاعة (فمن كفر)
منكم مثل هذه النعمة السنية وغمطها (فعليه كفره) أى وبال كفره لا يتعداه إلى غيره وقوله تعالى (ولا يزيد
الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً) بيان لوبال الكفر وغائلته وهو
مقت الله تعالى إياهم أى بغضه الشديد الذى ليس وراءه خزى وصغار وخسار الآخرة الذى ما بعده شر وخسار
والتكرير لزيادة التقرير والتنبيه على أن اقتضاء الكفر لكل واحد من الأمرين الهائلين القبيحين بطريق
الاستقلال والأصالة (قل) تبكيتاً لهم (أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله) أى آلهتكم والإضافة ٤٠
إليهم لأنهم جعلوهم شركاء الله تعالى من غير أن يكون له أصل ما أصلا وقيل جعلوهم شركاء لأنفسهم فيما يملكونه
ويأباه سباق النظم الكريم وسياقه (أرونى ماذا خلقوا من الأرض) بدل اشتمال من أرأيتم كأنه قيل
أخبرونى عن شركائكم أرونى أى جزء خلقوا من الأرض (أم لهم شرك فى السموات) أى أم لهم شركة
مع الله سبحانه فى خلق السموات ليستحقوا بذلك شركة فى الألوهية ذاتية (أم آتيناهم كتاباً) ينطق
بأنا اتخذناهم شركاء (فهم على بينة منه) أى حجة ظاهرة من ذلك الكتاب بأن لهم شركة جعلية ويجوز
أن يكون ضمير آتيناهم للمشركين كما فى قوله تعالى أم أنزلنا عليهم سلطاناً الخ وقرىء على بينات وفيه إيماء
إلى أن الشرك أمر خطير لابد فى إثباته من تعاضد الدلائل (بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً)
لما نفى أنواع الحجج فى ذلك أضرب عنه بذكر ما حملهم عليه وهو تغرير الأسلاف للأخلاف وإضلال
الرؤساء للأتباع بأنهم شفعاء عند الله يشفعون لهم بالتقريب إليه .

إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ٣٥ فاطر

وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٣٥ فاطر

ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ٣٥ فاطر

أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ ٣٥ فاطر

---

٤١ (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا) استئناف مسوق لبيان غاية قبح الشرك وهوله أى يمسكهما كراهة زوالهما أو يمنعهما أن تزولا لأن الإمساك منع (ولئن زالتا إن أمسكهما) أى ما أمسكهما (من أحد من بعده) من بعد إمساكه تعالى أو من بعد الزوال والجملة سادة مسد الجوابين ومن الأولى مزيدة لتأكيد العموم والثانية للابتداء (إنه كان حليما غفوراً) غير معاجل بالعقوبة التى تستوجبها جناياتهم حيث أمسكهما وكانتا جديرتين بأن تهدا هداً حسبما قال تعالى تكاد السموات يتفطرن منه

٤٢ وتنشق الأرض وقرىء ولو زالتا (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم) بلغ قريشاً قبل مبعث رسول الله ﷺ أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم فقالوا لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم فو الله لئن أتانا رسول لنكونن أهدى من إحدى الأمم اليهود والنصارى وغيرهم أو من الأمة التى يقال لها إحدى الأمم تفضيلا لها على غيرها فى الهدى والاستقامة (فلما جاءهم نذير) وأى نذير أشرف الرسل عليهم الصلاة والسلام (مازادهم) أى النذير أو مجيئه (إلا

٤٣ نفوراً) تباعداً عن الحق (استكباراً فى الأرض) بدل من نفوراً أو مفعول له (ومكر السيء) أصله وإن مكروا السيء أي المكر السيء ثم ومكراً السيء ثم ومكر السيء وقرىء بسكون الهمزة فى الوصل ولعله اختلاس ظن سكوتاً أو وقفة خفيفة وقرىء مكراً سيئاً (ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله فهل ينظرون) أى ماينتظرون (إلا سنة الأولين) أى سنة الله فيهم بتعذيب مكذبيهم (فلن تجد لسنة الله تبديلا) بأن يضع موضع العذاب غير العذاب (ولن تجد لسنة الله تحويلا) بأن ينقله من المكذبين إلى غيرهم والفاء لتعليل مايفيده الحكم بانتظارهم العذاب من مجيئه ونفى وجدان التبديل والتحويل عبارة عن نفى وجودهما

٤٤ بالطريق البرهانى وتخصيص كل منهما بنفى مستقل لتأكيد انتفائهما (أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كان عاقبة الذين من قبلهم) استشهاد على ماقبله من جريان سنته تعالى على تعذيب المكذبين بما يشاهدونه

وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾ ٣٥ فاطر

فى مسايرهم إلى الشام واليمن والعراق من آثار دمار الأمم الماضية العاتية والهمزة للإنكار والنفى والواو للعطف على مقدر يليق بالمقام أى أقعدوا فى مساكنهم ولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم (وكانوا أشد منهم قوة) وأطول أعماراً فما نفعهم طول المدى وما أغنى عنهم شدة القوى * ومحل الجملة النصب على الحالية وقوله تعالى (وما كان الله ليعجزه من شىء) أى ليسبقه ويفوته (فى السموات ولا فى الأرض) اعتراض مقرر لما يفهم مما قبله من استئصال الأمم السالفة وقوله تعالى (إنه كان عليما قديراً) أى مبالغاً فى العلم والقدرة ولذلك علم بجميع أعمالهم السيئة فعاقبهم بموجبها تعليل لذلك (ولو
٤٥ يؤاخذ الله الناس) جميعاً (بما كسبوا) من السيئات كما فعل بأولئك (ما ترك على ظهرها) أى على ظهر الأرض (من دابة) من نسمة تدب عليها من بنى آدم وقيل ومن غيرهم أيضاً من شؤم معاصيهم وهو المروى عن ابن مسعود وأنس رضى الله عنهما ويعضد الأول قوله تعالى (ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى) وهو يوم القيامة (فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً) فيجازيهم عند ذلك بأعمالهم إن * خيراً فخير وإن شراً فشر. عن النبى ﷺ من قرأ سورة الملائكة دعته ثمانية أبواب الجنة أن ادخل من أى باب شئت والله تعالى أعلم.

آياتها ٤٥ | سُورَةُ فَاطِرٍ | ترتيبها ٣٥

سورة فاطر

وتسمى سورة الملائكة، وهي مكية كما روي عن ابن عباس وقتادة وغيرهما، وفي مجمع البيان قال الحسن: مكية إلا آيتين: ﴿إن الذين يتلون كتاب الله﴾ [فاطر: ٢٩] الآية: ﴿ثم أورثنا الكتاب﴾ [فاطر: ٣٢] الآية، وآيها ست وأربعون في المدني الأخير والشامي وخمس وأربعون في الباقين، والمناسبة على ما في البحر أنه عزّ وجلّ لما ذكر في آخر السورة المتقدمة هلاك المشركين أعداء المؤمنين وإنزالهم منازل العذاب تعين على المؤمنين حمده تعالى وشكره كما في قوله تعالى: ﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾ [الأنعام: ٤٥] وينضم إلى ذلك تواخي السورتين في الافتتاح بالحمد وتقاربهما في المقدار وغير ذلك.

بسم الله الرحمن الرحيم

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُۚ
إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ (١) مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٖ فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ
وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٢) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
وَٱلْأَرْضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٞ مِّن قَبْلِكَۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ
ٱلْأُمُورُ (٤) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ (٥) إِنَّ
ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ (٦) ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٞ
شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٞ وَأَجْرٞ كَبِيرٌ (٧) أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ
ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨) وَٱللَّهُ
ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ (٩) مَن كَانَ
يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ
لَهُمْ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ (١٠) وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجٗاۚ وَمَا

تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ
يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا
طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ
﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ
مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ
﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ
وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾

﴿بسم الله الرَّحْمن الرَّحيم الْحَمْدُ لله فاطر السَّماوات وَالأَرْض﴾ أي موجدهما من غير مثال يحتذيه ولا قانون ينتحيه، فالفطر الإبداع، وقال الراغب: هو إيجاده تعالى الشيء وإبداعه على هيئة مترشحة لفعل من الأفعال.

وأخرج عبد بن حميد والبيهقي في شعب الإيمان. وغيرهما عن ابن عباس قال: كنت لا أدري ما فاطر السماوات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها يعني ابتدأتها، وأصل الفطر الشق، وقال الراغب: الشق طولاً ثم تجوز فيه عما تقدم وشاع فيه حتى صار حقيقة أيضاً، ووجه المناسبة أن السماوات والأرض والمراد بهما العالم بأسره لكونهما ممكنين والأصل في الممكن العدم كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ [القصص: ٨٨] وقوله عليه الصلاة والسلام: «ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن» وصرح بذلك فلاسفة الإسلام قال رئيسهم: الممكن في نفسه ليس وهو عن علته آيس كان العدم كامن فيهما وبإيجادهما يشقان ويخرج العدم منهما.

وقيل في ذلك: كأنه تعالى شق العدم بإخراجهما منه، وقيل: لا مانع من حمله على أصله هنا ويكون إشارة إلى الأمطار والنبات فكأنه قيل: الحمد لله فاطر السماوات بالأمطار وفاطر الأرض بالنبات وفيه نظر ستأتي الإشارة إليه قريباً، وقوله تعالى: ﴿جَاعِل الْمَلائكَة رُسُلاً﴾ على القولين يحتمل أن يكون معناه جاعل الملائكة عليهم السلام وسائط بينه وبين أنبيائه والصالحين من عباده يبلغون إليهم رسالته سبحانه بالوحي والإلهام والرؤيا الصادقة أو جاعلهم وسائط بينه وبين خلقه عزّ وجلّ يوصلون إليهم آثار قدرته وصنعه كالأمطار والرياح وغيرهما وهم الملائكة الموكلون بأمور العالم، وهذا أنسب بالقول الثاني لكن يرد عليه أنه لا معنى لكون الأمطار شاقة للسماوات، وقال الإمام: إن الحمد يكون على النعم ونعمه تعالى عاجلة وآجلة، وهو في سورة سبأ إشارة إلى نعمة الإيجاد والحشر ودليله: ﴿يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها﴾ [سبأ: ٢، الحديد: ٤] وقوله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة﴾ [سبأ: ٣] والحمد في هذه السورة إشارة إلى نعمة البقاء في الآخرة ودليله جاعل الملائكة رسلاً أي يجعلهم سبحانه رسلاً يتلقون عباد الله تعالى كما قال سبحانه تتلقاهم الملائكة فيجوز أن يكون المعنى الحمد لله شاق السماوات والأرض يوم القيامة لنزول الأرواح من السماء وخروج الأجساد من الأرض وجاعل الملائكة رسلاً في ذلك اليوم يتلقون عباده، وعليه فأول هذه السورة متصل بآخر ما مضى لأن قوله تعالى: ﴿كما فعل بأشياعهم﴾ [سبأ: ٥٤] بيان لانقطاع رجاء من كان في شك مريب، ولما ذكر سبحانه حالهم ذكر حال المؤمنين

وبشرهم بإرسال الملائكة إليهم وأنه تعالى يفتح أبواب الرحمة لهم انتهى، وفيه من البعد ما فيه، و ﴿**فاطر**﴾ صفة لله وإضافته محضة قال أبو البقاء: لأنه للماضي لا غير، وقال غيره: هو معروف بالإضافة إذ لم يجر على الفعل بل أريد به الاستمرار والثبات كما يقال زيد مالك العبيد جاء أي زيد الذي من شأنه أن يملك العبيد جاء، ومن جعل الإضافة غير محضة جعله بدلاً وهو قليل في المشتقات، وكذا الكلام في ﴿**جاعل**﴾ و ﴿**رسلاً**﴾ على القول بأن إضافته غير محضة منصوب به بالاتفاق، وأما على القول الآخر فكذلك عند الكسائي، وذهب أبو علي إلى أنه منصوب بمضمر يدل هو عليه لأن اسم الفاعل إذا كان بمعنى الماضي لا يعمل عنده كسائر البصريين إلا معرفاً باللام، وقال أبو سعيد السيرافي: اسم الفاعل المتعدي إلى اثنين يعمل بالثاني لأنه بإضافته إلى الأول تعذرت إضافته إلى الثاني فتعين نصبه له.

وعلل بعضهم ذلك بأنه بالإضافة أشبه المعرف باللام فعمل عمله هذا على تقدير كون الجعل تصييرياً أما على تقدير كونه إبداعياً فرسلاً حال مقدرة، وقرأ الضحاك والزهري ﴿**فطر**﴾ ﴿**جعل**﴾ فعلاً ماضياً ونصب ما بعده قال أبو الفضل الرازي: يحتمل أن يكون ذلك على إضمار الذي نعتاً لله تعالى أو على تقدير قد فتكون الجملة حالاً.

وأنت تعلم أن حذف الموصول الاسمي لا يجوز عند جمهور البصريين، وذهب الكوفيون والأخفش إلى إجازته وتبعهم ابن مالك وشرط في بعض كتبه كونه معطوفاً على موصول آخر ومن حجتهم «آمنوا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم»(١) وقول حسان:

أمن يهجو رسول الله منكم ... ويمدحه وينصره سواء

وقول آخر:

ما الذي دأبه احتياط وحزم ... وهواه أطاع يستويان

واختار أبو حيان كون الجملة خبر مبتدأ محذوف أي هو فطر. وقرأ الحسن «جاعلُ» بالرفع على المدح وجر ﴿الملائكة﴾ وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو «جاعلُ» بالرفع بلا تنوين ونصب «الملائكة» وخرج حذف التنوين على أنه لالتقاء الساكنين ونصب الملائكة إذا كان جاعل للمضي على مذهب الكسائي وهشام في جواز أعمال الوصف الماضي النصب. وقرأ ابن يعمر وخليد «جَعَلَ» فعلاً ماضياً «الملائكةَ» بالنصب وذلك بعد قراءته ﴿**فاطر**﴾ كالجمهور كقراءة من قرأ: ﴿فالق الأصباح وجعل الليل سكنا﴾ [الأنعام: ٩٦] وفي الكشاف قرىء «فطر» و «جعل» كلاهما بلفظ الفعل الماضي.

وقرأ الحسن وحميد بن قيس «رُسْلاً» بسكون السين وهي لغة تميم، وقوله تعالى: ﴿**أُولي أَجْنِحَة**﴾ صفة لرسلاً وأولو اسم جمع لذو كما إن أولاه اسم جمع لذا، ونظير ذلك من الأسماء المتمكنة المخاض، قال الجوهري: هي الحوامل من النوق واحدتها خلفة. و ﴿**أجنحة**﴾ جمع جناح صيغة جمع القلة ومقتضى المقام أن المراد به الكثرة.

وفي البحر قياس جمع الكثرة فيه جنح فإن كان لم يسمع كان أجنحة مستعملاً في القليل والكثير، والظاهر أن الجناح بالمعنى المعروف عند العرب بيد أنا لا نعرف حقيقته وكيفيته ولا نقول إنه من ريش كريش الطائر.

نعم أخرج ابن المنذر عن ابن جريج أن أجنحة الملائكة عليهم السّلام زغبة، ورأيت في بعض كتب الإمامية أن الملائكة تزدحم في مجالس الأئمة فيقع من ريشها ما يقع وأنهم يلتقطونه ويجعلون منه ثياباً لأولادهم.

---

(١) لا يوجد آية بهذا النصّ.

وهذا عندي حديث خرافة، والكشفية منهم يؤولونه بما لا يخرجه عن ذلك، وقوله تعالى: ﴿مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ الظاهر أنه صفة لأجنحة، والمنع من الصرف على المشهور للصفة والعدل عن اثنين اثنين وثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة.

وقال الزمخشري: إنما لم تنصرف هذه الألفاظ لتكرار العدل فيها وذلك أنها عدلت عن ألفاظ الأعداد من صيغ إلى صيغ آخر كما عدل عمر عن عامر وحزام عن حازمة وعن تكرير إلى غير تكرير ففيها عدلان وأما الوصفية فلا يفترق الحال فيها بين المعدولة والمعدول عنها ألا ترك تقول مررت بنسوة أربع وبرجال ثلاثة فلا يعرج عليها. وتعقبه أبو حيان بأنه قاس الصفة في هذا المعدول على الصفة في أربع وثلاثة وليس بصحيح لأن مطلق الصفة لم يعدوه علة بل اشترطوا أن تكون الوصفية غير عارضة كما في أربع وأن لا يقبل تاء التأنيث أو تكون فيه كثلاث وثلاثة، وقال صاحب الكشف فيه: إن العدول عن التكرر لا يعتبر فيه للصيغة واعتبر في تحقق العدل ذلك ثم العدول عن الصيغة الأصلية لإفادة التكرر فلا عدولين بوجه، وبعد تسليم أن المعتبر في الوصف مقارنته لوضع المعدول فلا يضر عروضه في المعدول عنه لا اتجاه للمنع ولا معول على السند وهو قول سيبويه على ما نقله الجوهري وهو المنصور على ما نبهت إليه انتهى وتعقبه أيضاً صاحب الفرائد وصاحب التقريب بعروض الوصفية في المعدول عنه وعدمه في المعدول، لكن قال الطيبي: وجدت لبعض المغاربة كلاماً يصلح أن يكون جواباً عنه وهو أن ثلاث مثلاً لا يخلو من أن يكون موضوعاً للصفة من غير اعتبار العدد أو لا يكون فإن كان الأول لم يكن فيه العدد والمقدر خلافه، وإن كان الثاني كان الوصف عارضاً لثلاث كما كان عارضاً لثلاثة فيمكن أن يقال إن هذه الأعداد غير منصرفة للعدل المكرر كالجمع وألفي التأنيث انتهى، وفيه ما لا يخفى.

وقال ابن عطية: إن هذه الألفاظ عدلت في حال التنكير فتعرفت بالعدل فهي لا تنصرف للعدل والتعريف وهذا قول غريب ذكر في البحر لبعض الكوفيين وفي الكشاف هي نكرات يعرفن بلام التعريف تقول فلان ينكح المثنى والثلاث والرباع، وقيل ﴿مثنى﴾ الخ حال من محذوف والعامل فيه محذوف يدل عليه ﴿رسلاً﴾ أي يرسلون مثنى وثلاث ورباع، والمعول عليه ما تقدم، والمراد ذوي أجنحة متعددة متفاوتة في العدد حسب تفاوت ما لهم من المراتب ينزلون بها ويعرجون أو يسرعون بها حين يؤمرون، ويجوز أن تكون كلاً أو بعضاً لأمور أخر كالزينة فيما بينهم وكالإرخاء على الوجه حياءً من الله تعالى إلى غير ذلك، والمعنى أن من الملائكة خلقاً لكل واحد منهم جناحان وخلقاً لكل منهم ثلاثة أجنحة وخلقاً لكل منهم أربعة أجنحة، ولا دلالة في الآية على نفي الزائد بل قال بعض المحققين: إن ما ذكر من العدد للدلالة على التكثير والتفاوت لا للتعيين ولا لنفي النقصان عن اثنين.

وقد أخرج الشيخان والترمذي عن ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾ [النجم: ١٨] رأى جبريل له ستمائة جناح، والترمذي عن مسروق عن عائشة أن رسول الله ﷺ لم يرَ جبريل في صورته إلا مرتين مرة عند سدرة المنتهى ومرة في جياد له ستمائة جناح قد سد الأفق، وقال الزمخشري: مر بي في بعض الكتب أن صنفاً من الملائكة عليهم السّلام لهم ستة أجنحة فجناحان يلفون بهما أجسادهم وجناحان يطيرون بهما في أمر من أمور الله تعالى وجناحان مرخيان على وجوههم حياءً من الله عزّ وجلّ.

والبحث عن كيفية وضع الأجنحة شفعاً كانت أو وتراً فيما أرى مما لا طائل تحته ولم يصح عندي في ذلك شيء ولقياس الغائب على الشاهد، قال بعضهم: إن المعنى إن في كل جانب لبعض الملائكة عليهم السّلام جناحين ولبعضهم ثلاثة ولبعضهم أربعة وإلا فلو كانت ثلاثة لواحد لما اعتدلت، وهو كما ترى.

وقال قوم: إن الجناح إشارة إلى الجهة، وبيانه أن الله تعالى ليس فوقه شيء وكل شيء سواه فهو تحت قدرته سبحانه والملائكة عليهم السّلام لهم وجه إلى الله تعالى يأخذون منه نعمه ويعطون من دونهم مما أخذوه بإذنه سبحانه كما قال تعالى: ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤] وقال تعالى: ﴿علمه شديد القوى﴾ [النجم: ٥] وقال تعالى: ﴿فالمدبرات أمراً﴾ [النازعات: ٥] وهما جناحان وفيهم من يفعل ما يفعل من الخير بواسطة وفيهم من يفعله لا بواسطة فالفاعل بواسطة منهم من له ثلاث جهات ومنهم من له أربع جهات وأكثر، وهذا خلاف الظاهر جداً ولا يحتاج إليه السني القائل بأن الملائكة عليهم السّلام أجسام لطيفة نورية يقدرون على التشكل بالصور المختلفة وعلى الأفعال الشاقة وإنما يحتاج إليه أو إلى نحوه الفلاسفة وأتباعهم فإن الملائكة عندهم هي العقول المجردة ويسميها أهل الإشراق بالأنوار الظاهرة وبعض المتصوفة بالسرادقات النورية، وقد ذكر بعض متأخريهم أن لها ذوات حقيقية وذوات إضافية مضافة إلى ما دونها إضافة النفس إلى البدن فأما ذاوتها الحقيقة فإنما هي أمرية قضائية قولية وأما ذواتها الإضافية فإنما هي خلقية قدرية تنشأ منها الملائكة اللوحية وأعظمهم إسرافيل عليه السّلام، وتطلق الملائكة عندهم على غير العقول كالمدبرات العلوية والسفلية من النفوس والطبائع، وأطالوا الكلام في ذلك وظواهر الآيات والأخبار تكذبهم والله تعالى الموفق للصواب.

﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ استئناف مقرر لما قبله من تفاوت الملائكة عليهم السّلام في عدد الأجنحة ومؤذن بأن ذلك من أحكام مشيئته تعالى لا لأمر راجع إلى ذواتهم ببيان حكم كلي ناطق بأنه عزّ وجلّ يزيد في أي خلق كان كل ما يشاء أن يزيده بموجب مشيئته سبحانه ومقتضى حكمته من الأمور التي لا يحيط بها الوصف، وقال الفراء والزجاج: هذا في الأجنحة التي للملائكة أي يزيد في خلق الأجنحة للملائكة ما يشاء فيجعل لكل ستة أجنحة أو أكثر وروي ذلك عن الحسن، وكأن الجملة لدفع توهم عدم الزيادة على الأربعة.

وعن ابن عباس يزيد في خلق الملائكة والأجنحة ما يشاء، وقيل ﴿الخلق﴾ خلق الإنسان و ﴿ما يشاء﴾ الخلق الحسن أو الصوت الحسن أو الحظ الحسن أو الملاحة في العينين أو في الأنف أو في الوجه أو خفة الروح أو جعودة الشعر وحسنه أو العقل أو العلم أو الصنعة أو العفة في الفقر أو حلاوة النطق، وذكروا في بعض ذلك أخباراً مرفوعة والحق أن ذلك من باب التمثيل لا الحصر، والآية شاملة لجميع ذلك بل شاملة لما يستحسن ظاهراً ولما لا يستحسن وكل شيء من الله عزّ وجلّ حسن.

﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تعليل بطريق التحقيق للحكم المذكور فإن شمول قدرته تعالى لجميع الأشياء مما يوجب قدرته سبحانه على أن يزيد في كل خلق كل ما يشاؤه تعالى إيجاباً بينا ﴿مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ﴾ أي ما يطلقها ويرسلها فالفتح مجاز عن الإرسال بعلاقة السببية فإن فتح المغلق سبب لإطلاق ما فيه وإرساله ولذا قوبل بالإمساك والإطلاق كناية عن الإعطاء كما قيل أطلق السلطان للجند أرزاقهم فهو كناية متفرعة على المجاز.

وفي اختيار لفظ الفتح رمز إلى أن الرحمة من أنفس الخزائن وأعزها منالاً، وتنكيرها للإشاعة والإبهام أي أي شيء يفتح الله تعالى من خزائن رحمته أي رحمة كانت من نعمة وصحة وأمن وعلم وحكمة إلى غير ذلك مما لا يحاط به حتى أن عروة كان يقول كما أخرج ابن المنذر عن محمد بن جعفر بن الزبير عنه في ركوب المحمل هي والله رحمة فتحت للناس ثم يقول ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة﴾ الخ.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي الرحمة المطر، وعن ابن عباس التوبة والمراد التمثيل، والجار والمجرور في موضع الحال لا في موضع الصفة لأن اسم الشرط لا يوصف ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ أي فلا أحد يقدر على إمساكها

﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾ أي أي شيء يمسك ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُ﴾ أي فلا أحد يقدر على إرساله، واختلاف الضميرين لما أن مرجع الأول مبين بالرحمة ومرجع الثاني مطلق يتناولها وغيرها، وفي ذلك مع تقديم أمر فتح الرحمة إشعار بأن رحمته تعالى سبقت غضبه عزّ وجلّ كما ورد في الحديث الصحيح، وقيل المراد وما يمسك من رحمة إلا أنه حذف المبين لدلالة ما قبل عليه، والتذكير باعتبار اللفظ وعدم ما يقوي اعتبار المعنى في التلفظ.

وأيد بأنه قرىء «فلا مرسل لها» بتأنيث الضمير ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي من بعد إمساكه ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب على كل ما يشاء من الأمور التي من جملتها الفتح والإمساك ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يفعل كل ما يفعل حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة، والجملة تذييل مقرر لما قبلها ومعرب عن كون كل من الفتح والإمساك بموجب الحكمة التي يدور عليها أمر التكوين، وما ادعى هذه الآية إلى الانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عما سواه عزّ وجلّ وإراحة البال عن التخيلات الموجبة للتهويش وسهر الليالِ.

وقد أخرج ابن المنذر عن عامر بن عبد قيس: قال أربع آيات من كتاب الله تعالى إذا قرأتهن فما أبالي ما أصبح عليه وأمسي ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده﴾ ﴿وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله﴾ [يونس: ١٠٧] ﴿وسيجعل الله بعد عسر يسراً﴾ [الطلاق: ٧] ﴿وما من دابة في الأرض إلاّ على الله رزقها﴾ [هود: ٦] وبعد ما بين سبحانه أنه الموجد للملك والملكوت والمتصرف فيهما على الإطلاق أمر الناس قاطبة أو أهل مكة كما روي عنه ابن عباس واختاره الطيبي بشكر نعمه عزّ وجلّ فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي إنعامه تبارك وتعالى عليكم إن جعلت النعمة مصدراً أو كائنة عليكم أن جعلت اسماً أي راعوها واحفظوها بمعرفة حقها والاعتراف بها وتخصيص العبادة والطاعة بموليها فليس المراد مجرد الذكر باللسان بل هو كناية عما ذكر، وعن ابن عباس وقد جعل الخطاب لمن سمعت اذكروا نعمة الله عليكم حيث أسكنكم حرمه ومنعكم من جميع العالم والناس يتخطفون من حولكم، وعنه أيضاً نعمة الله تعالى العافية، والأولى عدم التخصيص، ولما كانت نعم الله تعالى مع تشعب فنونها منحصرة في نعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء نفي سبحانه أن يكون في الوجود شيء غيره سبحانه يصدر عنه إحدى النعمتين بطريق الاستفهام الذي هو لإنكار التصديق وتكذيب الحكم فقال عزّ وجلّ: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ﴾ وهل تأتي لذلك كما في المطول وحواشيه، وقول الرضى: إن هل لا تستعمل للإنكار أراد به الإنكار على مدعي الوقوع كما في قوله تعالى: ﴿أفأصفاكم ربكم بالبنين﴾ [الإسراء: ٤٠] ويلزمه النفي والإنكار على من أوقع الشيء كما في قولك أتضرب زيداً وهو أخوك أي هل خالق مغاير له تعالى موجود لكم أو للعالم على أن ﴿خالق﴾ مبتدأ محذوف الخبر زيدت عليه ﴿من﴾ لتأكيد العموم و ﴿غير الله﴾ صفة له باعتبار محله، وصحت الوصفية به مع إضافته إلى أعرف المعارف لتوغله في التنكير فلا يكتسب تعريفاً في مثل هذا التركيب، وجوز أن يكون بدلاً من ﴿خالق﴾ بذلك الاعتبار ويعتبر الإنكار في حكم النفي ليكون غير الله هو الخالق المنفي ولأن المعنى على الاستثناء أي لا خالق إلا الله تعالى والبدلية في الاستثناء بغير إنما تكون في الكلام المنفي وبهذا الاعتبار زيدت ﴿من﴾ عند الجمهور وصح الابتداء بالنكرة، وكذا جوز أن يكون فاعلاً بخالق لاعتماده على أداة الاستفهام نحو أقائم زيد في أحد وجهيه وهو حينئذٍ ساد مسد الخبر. وتعقبه أبو حيان بقوله فيه نظر وهو أن اسم الفاعل أو ما يجري مجراه إذا اعتمد على أداة الاستفهام وأجرى مجرى الفعل فرفع ما بعده هل يجوز أن تدخل عليه من التي للاستغراق فيقال هل من قائم الزيدون كما تقول هل قائم الزيدون، والظاهر أنه لا يجوز ألا ترى أنه إذا أجرى مجرى الفعل لا يكون فيه عموم بخلافه إذا دخلت عليه من ولا أحفظ مثله في لسان العرب،

وينبغي أن لا يقدم على إجازة مثل هذا إلا بسماع من كلامهم، وفيه أن شرط الزيادة والأعمال موجود ولم يد مانعاً يعول عليه فالتوقف تعنت من غير توقف. وفي الكشف لا مانع من أن يكون ﴿غير﴾ خبراً. ومنعه الشهاب بأن المعنى ليس عليه، وقرأ ابن وثاب وشقيق وأبو جعفر وزيد بن علي وحمزة والكسائي ﴿غير﴾ بالخفض صفة لخالق على اللفظ، وهذا متعين في هذه القراءة ولأن توافق القراءتين أولى من تخالفهما كان الأظهر في القراءة الأولى كونه وصفاً لخالق أيضاً، وقرأ الفضل بن إبراهيم النحوي «غيرَ» بالنصب على الاستثناء، وقوله تعالى: ﴿يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ﴾ بالمطر والنبات كلام مبتدأ لا محل له من الإعراب لا صفة ﴿خالق﴾ باعتبار لفظه أو محله، قال في الكشف: لأن المعنى على التقريع والتذكير بما هم معترفون به فكأنه قيل: هل من خالق لتلك النعم التي أمرتم بذكرها أو مطلقاً وهو أولى وتدخل دخولاً أولياً ﴿غير الله﴾ ثم تمم ذلك بأنه يرزقكم من السماء والأرض وذلك أيضاً يقتضي اختصاصه تعالى بالعبادة كما أن الخالقية تقتضي ذلك، وفيه أن الخالق لا يكون إلا رازقاً ولو قيل هل من خالق رازق من السماء والأرض غير الله يخرج الكلام عن سننه المقصود.

وجوز أن يكون ﴿خالق﴾ فاعلاً لفعل مضمر يفسره المذكور والأصل هل يرزقكم خالق و ﴿من﴾ زائدة في الفاعل، وتعقب بأن ما في النظم الجليل إن كان من باب هل رجل عرف فقد صرح السكاكي بقبح هذا التركيب لأن هل إنما تدخل على الجملة الخبرية فلا بدّ من صحتها قبل دخول هل ورجل عرف لا يصح بدون اعتبار التقديم والتأخير لعدم مصحح الابتدائية سواه وإذا اعتبر التقديم والتأخير كان الكلام مفيداً لحصول التصديق بنفس الفعل فلا يصح دخول هل عليه لأنها لطلب التصديق وما حصل لا يطلب لئلا يلزم تحصيل الحاصل ولاحتمال أن يكون رجل فاعل فعل محذوف قال بالقبح دون الامتناع وإن كان من باب هل زيد عرف فقد صرح العلامة الثاني السعد التفتازاني بأنه قبيح باتفاق النحاة وأن ما ذكره صاحب المفصل من أن نحو هل زيد خرج على تقدير الفعل تصحيح للوجه القبيح البعيد لا أنه شائع حسن غاية ما في الباب أن سبب قبحه ليس ما ذكر في قبح هل زيد عرف عند السكاكي لعدم تأتيه فيه بل السبب أن هل بمعنى قد في الأصل وأصله أهل كقوله:

أهـــل عـــرفـــت الـــدار بـــالـــغـــرتـــيـــن

وترك الهمزة قبلها لكثرة وقوعها في الاستفهام فأقيمت هي مقام الهمزة وتطفلت عليها في الاستفهام، وقد من لوازم الأفعال فكذا ما هي بمعناها، ولم يقبح دخولها على الجملة الاسمية التي طرفاها اسمان لأنها إذا لم ترَ الفعل في حيزها تتسلى عنه ذاهلة وهذا بخلاف ما إذا رأته فإنها حينئذٍ تتذكر عهوداً بالحمى وتحن إلى الألف المألوف وتطلب معانقته ولم ترض بافتراق الاسم بينهما، ويعلم من هذا أنه لا فرق عند النحاة بين هل رجل عرف وهل زيد تعرف في القبح لذلك. وأجاب بعضهم بأن مجوز هذا الوجه الزمخشري ومتابعوه وهو لا يسلم ما ذكر لأن حرف الشرط كان مثلاً ألزم للفعل من هل لأنه لا يجوز دخوله على الجملة الاسمية التي طرفاها اسمان كما دخلت عليها هل وقد جاز بلا قبح عمل الفعل بعده على شريطة التفسير كقوله تعالى: ﴿وإن أحد من المشركين استجارك﴾ فيجوز في هل بالطريق الأولى، وقيل: يجوز أن يكون ﴿يرزقكم﴾ الخ مستأنفاً في جواب سؤال مقدر تقديره أي خالق يسأل عنه، وأن يكون هو الخبر لخالق، ولا يخفى على متأمل أن ما نقل عن الكشف قاضٍ بمرجوحية هذه الأوجه جميعها فتأمل. وفي الآية على ما هو الأولى في تفسيرها وإعرابها رد على المعتزلة في قولهم: العبد خالق لأفعاله ونصرة لأهل السنّة في قولهم لا خالق إلا الله تعالى: ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ استئناف مقرر للنفي المفهوم مما تقدم قصداً، ولم يجوز جار الله أن يجعل صفة لخالق كما جعل ﴿يرزقكم﴾ صفة له حيث قال: ولو وصلت جملة ﴿لا إله إلا هو﴾ كما وصلت

﴿يرزقكم﴾ لم يساعد عليه المعنى لأن قولك هل من خالق آخر سوى الله لا إله إلا ذلك الخالق غير مستقيم لأن قولك هل من خالق سوى الله إثبات لله تعالى فلو ذهبت تقول ذلك كنت مناقضاً بالنفي بعد الإثبات ا هـ، وبين صاحب الكشف وجه المناقضة على تقدير أن يكون غير الله صفة بأن الكلام مسوق لنفي المشاركة في الصفة المحققة أعني الخلق فقولك هل من خالق آخر سوى الله إثبات لله تعالى ونفي المشارك له فيها ثم وصف الآخر بانحصار الإلهية فيه يكون لنفي خالقيته دون تفرد بالإلهية والتفرد بالإلهية مع مغايرته لله تعالى متناقضان لأن الأول ينفيه تعالى عن ذلك علواً كبيراً والثاني يثبته مع الغير جل عن كل شريك ونقص، ثم قال: والتحقيق في هذا أن هل لإنكار ما يليها وما تلاه إن كان من تتمته ينسحب عليه حكم الإنكار بالبقية وإلا كان مبقى على حاله نفياً وإثباتاً، ولما كان الكلام في الخالقية على ما مر لم يكن الوصفان أعني تفرد الآخر بالإلهية ومغايرته للقيوم الحق مصباً له وهما متناقضان في أنفسهما على ما بين فيلزم ما ذكره جار الله لزوماً بيناً ا هـ، وقد دفع بتقريره ذلك كثيراً من القال والقيل بيد أنه لا يخلو عن بحث، ويمكن تقرير المناقضة على تقدير الوصفية بوجه أظهر لعله لا يخفى على المتأمل، ويجوز أن يكون المانع من الوصفية النظم المعجز وحاكمه الذوق السليم والكلام في ذلك طويل فتأمل، والفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ لترتيب إنكار عدولهم عن التوحيد إلى الإشراك على ما قبلها كأنه قيل: وإذا تبين تفرده تعالى بالألوهية والخالقية والرازقية فمن أي وجه تصرفون عن التوحيد إلى الشرك، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ الخ تسلية له عليه الصلاة والسلام بعموم البلية والوعد له ﷺ والوعيد لأعدائه، والمعنى وإن استمروا على أن يكذبوك فيما بلغت إليهم من الحق المبين بعد ما أقمت عليهم الحجة وألقمتهم الحجر فتأس بأولئك الرسل في الصبر فقد كذبهم قومهم وصبروا فجملة ﴿قد كذبت رسل من قبلك﴾ قائمة مقام جواب الشرط والجواب في الحقيقة تأس، وأقيمت تلك الجملة مقامه اكتفاء بذكر السبب عن ذكر المسبب، وجوز أن تجعل هي الجواب من غير تقدير ويكون المترتب على الشرط الإعلام والإخبار كما في قوله تعالى: ﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾ [النحل: ٥٣] وتنكير رسل للتعظيم والتكثير الموجبين لمزيد التسلية والحث على التأسي والصبر على ما أصابه عليه الصلاة والسلام من قومه أي رسل أولو شأن خطير وعدد كثير ﴿وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ لا إلى غيره عزّ وجلّ فيجازي سبحانه كلا منك ومنهم بما يليق به، وفي الاقتصار على ذكر اختصاص المرجع به تعالى مع إبهام الجزاء ثواباً وعقاباً من المبالغة في الوعد والوعيد ما لا يخفى. وقرىء «تَرْجِعُ» بفتح التاء من الرجوع والأول أدخل في التهويل.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ﴾ المشار إليه بقوله سبحانه: ﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾ من البعث والجزاء ﴿حَقٌّ﴾ ثابت لا محالة من غير خلف ﴿فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنيَا﴾ بأن يذهلكم التمتع بمتاعها ويلهيكم التلهي بزخارفها عن تدارك ما ينفعكم يوم حلول الميعاد، والمراد نهيهم عن الاغترار بها وإن توجه النهي صورة إليها نظير قوله تعالى: ﴿لا يجرمنكم شقاقي﴾ [هود: ٨٩] وقولك لا أرينك هنا ﴿وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ باللهِ﴾ حيث إنه جل شأنه عفو كريم رؤوف رحيم ﴿الْغَرُورُ﴾ أي المبالغ في الغرور، وهو على ما روي عن ابن عباس والحسن ومجاهد الشيطان فالتعريف للعهد، ويجوز التعميم أي لا يغرنكم كل من شأنه المبالغة في الغرور بأن يمنيكم المغفرة مع الإصرار على المعصية قائلاً إن الله يغفر الذنوب جميعاً فإن ذلك وإن أمكن لكن تعاطي الذنوب بهذا التوقع من قبيل تناول السم تعويلاً على دفع الطبيعة، وتكرير فعل النهي للمبالغة فيه ولاختلاف الغرورين في الكيفية.

وقرأ أبو حيوة وأبو السمال «الغُرُورُ» بالضم على أنه مصدر غره يغره وإن قل في المتعدي أو جمع غار كقعود وسجود مصدرين وجمعين، وعلى المصدرية الإسناد مجازي ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ عداوة عامة قديمة لا تكاد

تزول، ويشعر بذلك الجملة الاسمية و «لكم» وتقديمه للاهتمام ﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُواً﴾ بمخالفتكم إياه في عقائدكم وأفعالكم وكونوا على حذر منه في مجامع أحوالكم ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ تقرير لعداوته وتحذير من طاعته بالتنبيه على أن غرضه في دعوة شيعته إلى اتباع الهوى والركون إلى ملاذ الدنيا ليس إلا توريطهم وإلقاءهم في العذاب المخلد من حيث لا يشعرون فاللام ليست للعاقبة. وزعم ابن عطية أنها لها.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ بسبب كفرهم وإجابتهم لدعوة الشيطان واتباعهم لخطواته، ولعل تنكير «عذاب» لتعظيمه بحسب المدة فكأنه قيل: لهم عذاب دائم شديد ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ عظيمة ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ لا غاية لهما بسبب ما ذكر من الإيمان والعمل الصالح، و ﴿الذين كفروا﴾ مبتدأ خبره ﴿لهم عذاب﴾ وكذا ﴿الذين آمنوا﴾ و ﴿لهم مغفرة﴾ الخ، وجوز بعضهم كون ﴿الذين كفروا﴾ في موضع خفض بدلاً من ﴿أصحاب السعير﴾ أو صفة له أو في موضع نصب بدلاً من ﴿حزبه﴾ أو صفة له أو في موضع رفع بدلاً من ضمير ﴿ليكونوا﴾ والكل مفوت لجزالة التركيب كما لا يخفى على الأريب ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ أي حسن له عمله السيىء ﴿فرآه﴾ فاعتقده بسبب التزيين ﴿حَسَناً﴾ فهو من إضافة الصفة إلى الموصوف، و ﴿من﴾ موصولة في موضع رفع على الابتداء والجملة بعدها صلتها والخبر محذوف والفاء للتفريع والهمزة للإنكار فإن كانت مقدمة من تأخير كما هو رأي سيبويه والجمهور في نظير ذلك فالمراد تفريع إنكار ما بعدها على ما قبلها من الحكمين السابقين أي إذا كانت عاقبة كل من الفريقين ما ذكر فليس الذي زين له الكفر من جهة عدوه الشيطان فاعتقده حسناً وانهمك فيه كمن استقبحه واجتنبه واختار الإيمان والعمل الصالح وإن كانت في محلها الأصلي وكان العطف على مقدر تكون هي داخلة إليه كما ذهب إليه جمع فالمراد ما في حيزها ويكون التقدير أهما أي الذين كفروا والذين آمنوا وعملوا الصالحات متساويان فالذي زين له الكفر من جهة عدوه الشيطان فاعتقده حسناً وانهمك فيه كمن استقبحه واجتنبه واختار الإيمان والعمل الصالح أي ما هما متساويان ليكون الذي زين له الكفر كمن استقبحه، وحذف هذا الخبر لدلالة الكلام عليه واقتضاء النظم الجليل إياه، وقد صرح بالجزأين في نظير الآية الكريمة من قوله تعالى: ﴿أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله﴾ [محمد: ١٤] وقوله سبحانه: ﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى﴾ [الرعد: ١٩] وقوله عزّ وجلّ: ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات﴾ [الأنعام: ١٢٢] وفي التعبير عن الكافر بمن زين له سوء عمله فرآه حسناً إشارة إلى غاية ضلاله حتى كأنه غلب على عقله وسلب تمييزه فشأن المغلوب على عقله ذلك كما يشير إليه قول أبي نوّاس:

اسقني حتى تراني ... حسناً عندي القبيح

وظاهر كلام الزجاج أن من شرطية حيث قال: الجواب على ضربين، أحدهما ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿فلا تذهب نفسك﴾ الخ ويكون المعنى أفمن زين له سوء عمله فأضله الله ذهبت نفسك عليهم حسرة، وثانيهما ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿فإن الله﴾ الخ ويكون المعنى أفمن زين له سوء عمله كمن هداه الله تعالى، وإلى ذلك ذهب ابن مالك أيضاً، واعترض ابن هشام على التقدير الثاني بأن الظرف لا يكون جواباً وإن قلنا إنه جملة، ووجهه أن الرضي صرح بأنه لا يكون مستقراً في غير الخبر والصفة والصلة والحال ولم يذكر الجواب لا أن ذلك لعدم الفاء، وتقديرها داخلة على مبتدأ يكون الظرف خبره والجملة بتمامها جزاء غير جائز لما فيه من التكلف كما قيل.

وزعم بعضهم أنه يجوز أن يكون الزجاج قد ذهب إلى أن من موصولة وأطلق على خبرها الجواب لشبهه به في المعنى ألا تراهم يدخلون الفاء في خبر الموصول الذي صلته جملة فعلية كما يدخلونها في جواب الشرط فيقولون

الذي يأتيني فله درهم، وفيه أنه خلاف الظاهر ولا قرينة على إرادته سوى عدم صحة الجزائية، وضعف التقدير الأول بالفصل بين ما فيه الحذف ودليل المحذوف مع خفاء ربط الجملة بما قبلها عليه، ولا ينبغي أن تكون من شرطية جوابها فرآه لما في ذلك من الركاكة الصناعية فإن الماضي في الجواب لا يقترن بالفاء بدون قد مع خفاء أمر إنكار رؤية سوء العمل حسناً بعد التزيين وتفريعه على ما قبله من الحكمين، وكون الإنكار لما أن المزين هو الشيطان العدو والتفريع على قوله تعالى: ﴿**إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير**﴾ لا يخفى حاله فالوجه المعول عليه ما تقدم جعل عليه، وقوله تعالى:

﴿**فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ**﴾ تعليلاً لسببية التزيين لرؤية القبيح حسناً، وفيه دفع استبعاد أن يرى الشخص القبيح حسناً بتزيين العدو أياه ببيان أن ذلك بمشيئة الله عزّ وجلّ التابعة للعلم المتعلق بالأشياء على ما هي عليه في نفس الأمر وإيذان بأن أولئك الكفرة الذين زين لهم سوء عملهم فرأوه حسناً ممن شاء الله تعالى ضلالهم، وقوله تعالى: ﴿**فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ**﴾ تفريع عليه أي إذا كان الأمر كذلك فلا تذهب نفسك الخ، وذكر المولى سعدي جلبي أن الهمزة في ﴿**أفمن**﴾ على التقدير الأول من التقديرين اللذين نقلا عن الزجاج لإنكار ذهاب نفسه ﷺ عليه عليهم حسرة والفاء في قوله سبحانه ﴿**فإن الله**﴾ الخ تعليل لما يفهمه النظم الجليل من أنه لا جدوى للتحسر، وفي الكشف أنه تعالى لما ذكر الفريقين الذين كفروا والذين آمنوا قال سبحانه لنبيه ﷺ ﴿**أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً**﴾ يعني أفمن زين له سوء عمله من هذين الفريقين كمن لم يزين له فكأن رسول الله ﷺ قال لا فقال تعالى ﴿**فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات**﴾ ويفهم من كلام الطيبي أن فاء ﴿**فلا تذهب**﴾ جزائية وفاء ﴿**فإن الله**﴾ للتعليل وأن الجملة مقدمة من تأخير فقد قال: إنه ﷺ كان حريصاً على إيمان القوم وأن يسلك الضالين في زمرة المهتدي فقيل له عليه الصلاة والسلام على سبيل الإنكار لذلك: أفمن زين له سوء عمله من هذين الفريقين كمن لم يزين له فلا بدّ أن يقر ﷺ بالنفي ويقول لا فحينئذٍ يقال له فإذا كان كذلك فلا تذهب نفسك عليهم حسرات فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فقدم وأخر انتهى وفيه نظر، وفي الآيات على ما يقتضيه ظاهر كلام الزمخشري لف ونشر وبذلك صرح الطيبي ثم قال: الأحسن أن تجعل الآيات من الجمع والتقسيم والتفريق فقوله تعالى: ﴿**يا أيها الناس إن وعد الله حق**﴾ جمع الفريقين معاً في حكم نداء الناس وجمع ما لهما من الثواب والعقاب في حكم الوعد وحذرهما معاً عن الغرور بالدنيا والشيطان، وأما التقسيم فهو قوله تعالى: ﴿**الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير**﴾ وأما التفريق فقوله تعالى: ﴿**أفمن زين له سوء عمله**﴾ لأنه فرق فيه وبين التفاوت بين الفريقين كما قال الزمخشري أفمن زين له سوء عمله من هذين الفريقين كمن لم يزين له، وفرع على ذلك ظهور أن الفاء في ﴿**أفمن**﴾ للتعقيب والهمزة الداخلة بين المعطوف والمعطوف عليه لإنكار المساواة وتقرير البون العظيم بين الفريقين وأن المختار من أوجه ذكرها السكاكي في المفتاح تقدير كمن هداه الله تعالى فحذف لدلالة ﴿**فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء**﴾ ولهم في نظم الآيات الكريمة كلام طويل غير ما ذكرناه من أراده فليتبع كتب التفاسير والعربية، ولعل فيما ذكرناه مقنعاً لمن أوتي ذهناً سليماً وفهماً مستقيماً.

والحسرات جمع حسرة وهي الغم على ما فاته والندم عليه كأنه انحسر عنه ما حمله على ما ارتكبه أو انحسر قواه من فرط غم أو أدركه إعياء عن تدارك ما فرط منه، وانتصبت على أنها مفعول من أجله أي فلا تهلك نفسك للحسرات، والجمع مع أن الحسرة في الأصل مصدر صادق على القليل والكثير للدلالة على تضاعف اغتمامه عليه الصلاة والسلام على أحوالهم أو على كثرة قبائح أعمالهم الموجبة للتأسف والتحسر، و ﴿**عليهم**﴾ صلة ﴿**تذهب**﴾

كما يقال هلك عليه حباً ومات عليه حزناً أو هو بيان للمتحسر عليه فيكون ظرفاً مستقراً ومتعلقه مقدر كأنه قيل: على من تذهب؟ فقيل: عليهم، وجوز أن يتعلق بحسرات بناءً على أنه يغتفر تقديم معمول المصدر عليه إذا كان ظرفاً وهو الذي أختاره والزمخشري لا يجوز ذلك، وجوز أن يكون حسرات حالاً من ﴿نفسك﴾ كأن كلها صارت حسرات لفرط التحسر كما قال جرير:

مشق الهواجر لحمهن مع السرى ... حتى ذهبن كلاكلا وصدورا

يريد رجعن كلاكلا وصدوراً أي لم يبق إلا كلاكلها وصدورها، وهو الذي ذهب إليه سيبويه في البيت، وقال المبرد: كلاكلا وصدوراً تمييز محول عن الفاعل أي حتى ذهب كلاكلها وصدورها، ومن هذا قوله:

فعلى أثرهم تساقط نفسي ... حسرات وذكرهم لي سقام

وفيه مبالغات ثلاث، وقرأ عبيد بن عمير «زَيَّنَ» مبنياً للفاعل، ونصب «سوأ» وعنه أيضاً «أسوأ» على وزن أفعل وأريد بأسوأ عمله الشرك، وقرأ طلحة «أمن» بغير فاء قال صاحب اللوامح: فالهمزة للاستخبار والتقرير ويجوز أن تكون للنداء وحذف ما نودي لأجله أي تفكر وارجع إلى الله فإن الله الخ، والظاهر أنها للإنكار كما في قراءة الجمهور، وقرأ أبو جعفر، وقتادة وعيسى والأشهب وشيبة وأبو حيوة وحميد والأعمش وابن محيصن «تذهب» من أذهب مسنداً إلى ضمير المخاطب «نَفْسَكَ» بالنصب على المفعولية ورويت عن نافع.

﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ في موضع التعليل لما قبله وفيه وعيد للكفرة أي إنه تعالى عليم بما يصنعونه من القبائح فيجازيهم عليه، والآيات من قوله تعالى: ﴿أفمن زين له سوء عمله﴾ إلى هنا نزلت على ما روي عن ابن عباس في أبي جهل ومشركي مكة، وأخرج جويبر عن الضحاك أنها نزلت في عمر رضي الله تعالى عنه. وأبي جهل حيث هدى الله تعالى عمر وأضل أبا جهل ﴿وَاللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ﴾ مبتدأ وخبر، وقرأ حمزة، والكسائي وابن كثير «الريح» وصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿فَتُثِيرُ سَحَاباً﴾ لحكاية الحال الماضية استحضاراً لتلك الصورة البديعة الدالة على كمال القدرة والحكمة وكثيراً ما يفعلون ذلك بفعل فيه نوع تميز وخصوصية بحال تستغرب أو تهم المخاطب أو غير ذلك، ومنه قول تأبط شراً:

ألا من مبلغ فتيان فهم ... بما لاقيت عند رحى بطان
بأني قد رأيت الغول تهوي ... بسهب كالصحيفة صحصحان
فقلت لها كلانا نضو أرض ... أخو سفر فخلي لي مكاني
فشدت شدة نحوي فأهوت ... لها كفي بمصقول يماني
فأضربها بلا دهش فخرت ... صريعاً لليدين وللجران

ولأن الإثارة خاصية للرياح وأثر لا ينفك في الغالب عنها فلا يوجد إلا بعد إيجادها فيكون مستقبلاً بالنسبة إلى الإرسال، وعلى هذا يكون استعمال المضارع على ظاهره وحقيقته من غير تأويل لأن المعتبر زمان الحكم لا زمان التكلم، والفاء دالة على عدم تراخي ذلك وهو شيء آخر وجوز أن يكون الإتيان بما يدل على الماضي ثم بما يدل على المستقبل إشارة إلى استمرار الأمر وأنه لا يختص بزمان دون زمان إذ لايصح المضي والاستقبال في شيء واحد إلا إذا قصد ذلك، وقال الإمام: اختلاف الفعلين لأنه لما أسند فعل الإرسال إلى الله تعالى وما يفعل سبحانه يكون بقوله عزّ وجلّ: ﴿كن﴾ [البقرة: ١١٧ وغيرها] فلا يبقى في العدم زماناً ولا جزء زمان جيء بلفظ الماضي دون المستقبل

لوجوب وقوعه وسرعة كونه كأنه كان ولأنه تعالى فرغ من كل شيء فهو سبحانه قدر الإرسال في الأوقات المعلومة وإلى المواضع المعينة والتقدير كالإرسال ولما أسند فعل الإثارة إلى الرياح وهي تؤلف في زمان قال سبحانه: ﴿تثير﴾ بلفظ المستقبل ا هـ.

وأورد عليه قوله تعالى: في سورة الروم ﴿الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً﴾ وفي سورة الأعراف: ﴿وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته﴾ [الأعراف: ٥٧] حيث جيء في الإرسال فيها بالمضارع فتأمل.

﴿فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَد مَيِّت﴾ قطعة من الأرض لا نبات فيها. وقرىء «مَيْتٍ» بالتخفيف وهما بمعنى واحد في المشهور وفي كليات أبي البقاء الكفوي الميت بالتخفيف هو الذي مات والميت بالتشديد والمائت هو الذي لم يمت بعد، وأنشد:

ومن يك ذا روح فذلك ميت ... وما الميت إلا من إلى القبر يحمل

والمعول عليه هو المشهور ﴿فَأَحْيَيْنَا به الأَرْضَ﴾ أي بالمطر النزل منه المدلول عليه بالسحاب فإن بينهما تلازماً في الذهن كما في الخارج أو بالسحاب فإنه سبب السبب وإحياء الأرض إنبات الشجر والكلأ فيها ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يبسها وخلوها عن ذلك، وإيراد الفعلين بصيغة الماضي للدلالة على التحقيق، وإسنادهما إلى نون العظمة المنبيء عن الاختصاص به تعالى لما فيهما من مزيد الصنع ولتكميل المماثلة بين إحياء الأرض وبين البعث الذي شبه به بقوله تعالى: ﴿كَذلكَ النُّشُورُ﴾ في كمال الاختصاص بالقدرة الربانية، وقال الإمام عليه الرحمة: أسند ﴿أرسل﴾ إلى الغائب وساق «وأحيي» إلى المتكلم لأنه في الأول عرف سبحانه نفسه بفعل من الأفعال وهو الإرسال ثم لما عرف قال تعالى: أنا الذي عرفتني سقت السحاب وأحييت الأرض ففي الأول كان تعريفاً بالفعل العجيب وفي الثاني كان تذكيراً بالنعمة فإن كمال نعمتي الرياح والسحب بالسوق والإحياء، وهو كما ترى.

وقال سبحانه: فأحيينا به الأرض دون فأحييناه أي البلد الميت به تعليقاً للإحياء بالجنس المعلوم عند كل أحد وهو الأرض ولأن ذلك أوفق بأمر البعث، وقال تعالى: ﴿بعد موتها﴾ مع أن الإحياء مؤذن بذلك لما فيه من الإشارة إلى أن الموت للأرض الذي تعلق بها الإحياء معلوم لهم وبذلك يقوي أمر التشبيه فليتأمل.

والنشور على ما في البحر مصدر نشر الميت إذا حيي قال الأعشى:

حتى يقول الناس مما رأوا ... يا عجبا للميت الناشر

وفي نهاية ابن الأثير يقال نشر لميت ينشر نشوراً إذا عاش بعد الموت وانشره الله تعالى أحياه، وقال الراغب: قيل نشر الله تعالى الميت وأنشره بمعنى والحقيقة أن نشر الله تعالى الميت مستعار من نشر الثوب أي بسطه كما قال الشاعر:

طوتك خطوب دهرك بعد نشر ... كذاك خطوبه طياً ونشرا

والمراد بالنشور هنا إحياء الأموات في يوم الحساب وهو مبتدأ والجار والمجرور قبله في موضع الخبر وقيل الكاف في حيز الرفع على الخبرية أي مثل ذلك الأحياء الذي تشاهدونه إحياء الأموات يوم القيامة في صحة المقدورية وسهولة التأتي من غير تفاوت بينهما أصلاً سوى الألف في الأول دون الثاني، وقال أبو حيان: وقع التشبيه بجهات لما قبلت الأرض الميتة الحياة اللائقة بها كذلك الأعضاء تقبل الحياة أو كما أن الريح تجمع قطع السحاب كذلك يجمع الله تعالى أجزاء الأعضاء وأبعاض الموتى أو كما يسوق سبحانه الحساب إلى البلد الميت يسوق عزّ وجلّ الروح والحياة إلى البدن، وقال بعضهم: التشبيه باعتبار الكيفية.

فقد أخرج ابن جرير وغيره عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: يقوم ملك بالصور بين السماء والأرض فينفخ فيه فلا يبقى خلق لله في السماوات والأرض إلا من شاء الله تعالى إلا مات ثم يرسل الله تعالى من تحت العرش ماء كمني الرجال فتنبت أجسامهم من ذلك الماء وقرأ الآية ثم يقوم ملك فينفخ فيه فتنطلق كل نفس إلى جسدها، وفي حديث مسلم مرفوعاً ينزل الله تعالى مطراً كأنه الطل فينبت أجساد الناس.

ونبات الأجساد من عجب الذنب على ما ورد في الآثار وقد جاء أنه لا يبلى وهو العظم الذي في أسفل الصلب عند العجز، وقال أبو زيد الوقواقي: هو جوهر فرد يبقى من هذه النشأة لا يتغير، ولا حاجة إلى التزام أنه جوهر فرد، ووراء ذلك أقوال عجيبة في هذا العجب فقيل هو العقل الهيولاني، وقيل بل الهيولى، وعن الغزالي إنما هو النفس وعليها تنشأ النشأة الآخرة، وعن الشيخ الأكبر أنه العين الثابت من الإنسان، وعن بعض المتكلمين أنه الأجزاء الأصلية، وقال الملا صدرا الشيرازي في أسفاره: هو عندنا القوة الخيالية لأنها آخر الأكوان الحاصلة في الإنسان من القوى الطبيعية والحيوانية والنباتية المتعاقبة في الحدوث للمادة الإنسانية في هذا العالم وهي أول الأكوان الحاصلة في النشأة الآخرة ثم بين ذلك بما بين وإنه لأضعف من بيت العنكبوت وأوهن. والمعول عليه ما يوافق فهم أهل اللسان، وأي حاجة إلى التأويل بعد التصديق بقدرة الملك الديان جل شأنه وعظم سلطانه.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ﴾ الشرف والمنعة من قولهم أرض عزاز أي صلبة وتعريفها للجنس، والآية في الكافرين كانوا يتعززون بالأصنام كما قال تعالى: ﴿واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً﴾ [مريم: ٨١] والذين آمنوا بألسنتهم من غير مواطأة قلوبهم كانوا يتعززون بالمشركين كما قال سبحانه: ﴿الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة﴾ [النساء: ١٣٩] ومن اسم شرط وما بعده فعل الشرط، والجمع بين كان ويريد للدلالة على دوام الإرادة واستمرارها، وقوله تعالى: ﴿فلله الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾ دليل الجواب ولا يصح جعله جواباً من حيث الصناعة لخلوه عن ضمير يعود على من، وقد قالوا: لا بدّ أن يكون في جملة الجواب ضمير يعود على اسم الشرط إذا لم يكن ظرفاً، والتقدير من كان يريد العزة فليطلبها من الله تعالى فلله وحده لا لغيره العزة فهو سبحانه يتصرف فيها كما يريد فوضع السبب موضع المسبب لأن الطلب ممن هي له وفي ملكه جميعها مسبب عنه، وتعريف العزة للإستغراق بقرينة ﴿جميعاً﴾ وانتصابه على الحال، والمراد عزة الدنيا والآخرة، وتقديم الخبر على المبتدأ للاختصاص كما أشرنا إليه.

ولا ينافي ذلك قوله تعالى: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ [المنافقون: ٨] لأن ما لله تعالى وحده العزة بالذات وللرسول ﷺ العزة بواسطة قربه من الله تعالى وما للمؤمنين العزة بواسطة الرسول عليه الصلاة والسلام، وكأنه للإشارة إلى ذلك أعيد الجار، وقدر بعضهم الجواب فليطع الله تعالى، وأيد بما رواه أنس كما في مجمع البيان عن النبي ﷺ قال: «إن ربكم يقول كل يوم أنا العزيز فمن أراد عز الدارين فليطع العزيز» ومن قدر فليطلبها من الله تعالى قال: إن الطلب منه تعالى إنما يكون بالطاعة والانقياد، وعن الفراء المعنى من كان يريد علم العزة أي القدرة على القهر لمن هي فلينسبها إلى الله تعالى فهي له تعالى وحده، وقيل: المعنى من كان يريد العزة أي الغلبة فهو مغلوب لأن الغلبة لله تعالى وحده ولا تتم إلا به عزّ وجلّ ونسب هذا إلى مجاهد، وقيل: تعريف العزة الأولى للاستغراق أيضاً أو للعهد والمراد الفرد الكامل، والمعنى من كان يريد العزة جميعها أو الفرد الكامل منها وهي العزة التي لا يشوبها ذلة من وجه فهو لا ينالها فإنها لله تعالى وحده، وهذا القول أحسن من القولين قبله، وأظهر الأقوال عندي الأول وهو منسوب إلى قتادة، وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ إلى آخره كالبيان لطريق تحصيل العزة وسلوك السبيل إلى نيلها

وهو الطاعة القولية والفعلية، وقيل: بيان لكون العزة كلها لله تعالى وبيده سبحانه لأنها بالطاعة وهي لا يعتد بها ما لم تقبل، وقيل: استئناف كلام، وعلى الأول المعول. و ﴿الكلم﴾ اسم جنس جمعي عند جمع واحده كلمة، والمراد بالكلم الطيب على ما في الكشاف والبحر عن ابن عباس لا إله إلا الله، ومعنى كونه طيباً على ما قيل إن العقل السليم يستطيبه ويستلذه لما فيه من الدلالة على التوحيد الذي هو مدار النجاة والوسيلة إلى النعيم المقيم أو يستلذه الشرع أو الملائكة عليهم السّلام، وقيل: إنه حسن يقبله العقل ولا يرده، وإطلاق الكلم على ذلك إن كان واحده الكلمة بالمعنى الحقيقي ظاهر لتضمنه عدة كلمات لكن في وصفه بالطيب بالنظر إلى غير الاسم الجليل خفاء، ولعل ذلك باعتبار خصوصية التركيب، وإن كان واحده هنا الكلمة بالمعنى المجازي كما في قوله تعالى: ﴿وتمت كلمة ربك﴾ [الأنعام: ١٥٥، الأعراف: ١٣٧] و ﴿كلا إنها كلمة هو قائلها﴾ [المؤمنون: ١٠٠] وقوله عليه الصلاة والسلام: «أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد» وقولهم لا إله إلا الله كلمة التوحيد إلى ما لا يحصى كثرة فإطلاق الكلم على ذلك لتعدده بتعدد القائل: وكأن القرينة على إرادة المعنى المجازي للكلمة الصادق على الكلام الوصف بالطيب بناءً على أن ما يستطيب ويستلذ هو الكلام دون الكلمة العرية عن إفادة حكم تنبسط منه النفس أو تنقبض أو يقال: إن كثرة إطلاق الكلمة على الكلام وشيوعه فيما بينهم حتى قال بعضهم كم نقل الحمصي في حواشي التصريح عن بعض شراح الآجرومية أنه حقيقة لغوية تغني عن القرينة، وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عن الحبر أنه فسر الكلم الطيب بذكر الله تعالى، وقيل: هو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، وهو ظاهر أثر أخرجه ابن مردويه والديلمي عن أبي هريرة.

وقيل: هو سبحان الله وبحمده والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وتبارك الله، وهو ظاهر أثر أخرجه جماعة عن ابن مسعود، وأخرجه ابن أبي حاتم عن شهر بن حوشب أنه القرآن، وقيل: هو الثناء بالخير على صالحي المؤمنين، وقيل: هو الدعاء الذي لا ظلم فيه، وقال الإمام وبه أقتدي: المختار أنه كل كلام هو ذكر الله تعالى أو هو لله سبحانه كالنصيحة والعلم، وأما ما أفاده كلام الملا صدراً في أسفاره من أنه النفوس الطاهرة الزكية فإنه تطلق الكلمة على النفس إذا كانت كذلك كما قال تعالى في عيسى عليه السّلام: ﴿وكلمته ألقاها إلى مريم﴾ [النساء: ١٧١] فلا ينبغي أن يعد في عداد أقوال المفسرين كما لا يخفى، وصعود الكلم إليه تعالى مجاز مرسل عن قبوله بعلاقة اللزوم واستعارة بتشبيه القبول بالصعود، وجوز أن يجعل الكلم مجازاً عما كتب فيه بعلاقة الحلول أو يقدر مضاف أي إليه يصعد صحيفة الكلم الطيب أو يشبه وجوده الخارجي هنا ثم الكتابي في السماء بالصعود ثم يطلق المشبه به على المشبه ويشتق منه الفعل على ما هو المعروف في الاستعارة التبعية، وقيل: لا مانع من اعتبار حقيقة الصعود للكلم فلله تعالى تجسيد المعاني، وكون الصعود إليه عزّ وجلّ من المتشابه والكلام فيه شهير، والكلام بعد ذلك كناية عن قبوله والاعتناء بشأن صاحبه، وتقديم الجار والمجرور لإفادة الحصر، وقرأ علي كرّم الله تعالى وجهه وابن مسعود رضي الله تعالى عنه والسلمي وإبراهيم «يصعد» من أصعد للكلام الطيب بالنصب، وقال ابن عطية: وقرأ الضحاك «يصعد» بضم الياء ولم يذكر مبنياً للفاعل ولا مبنياً للمفعول ولا إعراب ما بعده، وفي الكشاف وقرىء ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾ على البناء للمفعول و ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾ من أصعد والمصعد هو الرجل أي يصعد إلى الله عزّ وجلّ الكلم الطيب، وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما ﴿إليه يصعد﴾ من صعد الكلام بالرفع.

﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ مبتدأ وخبر على المشهور، واختلف في فاعل ﴿يرفع﴾ فقيل ضمير يعود على العمل الصالح وضمير النصب يعود على ﴿الكلم﴾ أي والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب وروي ذلك عن ابن عباس

والحسن وابن جبير ومجاهد والضحاك وشهر بن حوشب على ما أخرجه عنه سعيد بن منصور وغيره.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس أنه فسر العمل الصالح بأداء الفرائض ثم قال: فمن ذكر الله تعالى وأدى فرائضه حمل عمله ذكر الله تعالى فصعد به إلى الله تعالى ومن ذكر الله تعالى ولم يؤد فرائضه رد كلامه على عمله وكان عمله أولى به، وتعقب ذلك ابن عطية فقال: هذا قول يرد معتقد أهل السنّة ولا يصح عن ابن عباس، والحق أن العاصي بترك فرائضه إذا ذكر الله تعالى وقال كلاماً طيباً كتب له ذلك وتقبل منه وعليه وزر ترك الفرائض، والله تعالى يتقبل من كل من اتقى الشرك انتهى.

ولعل المراد برفع العمل الصالح الكلم الطيب رفع قدره وجعله بحيث يترتب عليه من الثواب ما لم يترتب عليه إذا كان بلا عمل، وحديث لا يقبل الله قولاً إلا بعمل ولا يقبل قولاً وعملاً إلا بنية ولا يقبل قولاً وعملاً ونية إلا بإصابة السنة المذكور في الكشاف لا أظن صحته، وقيل: إنه لو سلم صحته فالمراد نفي القبول التام، ويجوز أن يكون المراد برفعه إياه تحقيقه وتقويته وذلك باعتبار أن الكلام الطيب هو الإيمان فإنه لا شك أن العمل الصالح يثبت الإيمان ويحققه بإظهار آثاره إذ به يعلم التصديق القلبي، وقيل: الفاعل ضمير يعود على الكلم الطيب وضمير النصب يعود على العمل الصالح أي يرفع الكلم الطيب العمل الصالح.

ونسب أبو حيان هذا القول إلى أبي صالح وشهر بن حوشب، وأيد بقراءة عيسى وابن أبي عبلة «والعمل الصالح» بالنصب على الاشتغال، وفيه بحث لعدم تعين ضمير ﴿الكلم﴾ للفاعلية عليها، ومعنى رفع الكلم الطيب العمل الصالح قيل إن يزيده بهجة وحسناً. ومن فسر الكلم الطيب بالتوحيد قال: معنى ذلك جعله مقبولاً فإن العمل لا يقبل إلا بالتوحيد، وقيل: الفاعل ضميره تعالى وضمير النصب يعود على العمل، وأخرج ذلك ابن المبارك عن قتادة أي والعمل الصالح يرفعه الله تعالى ويقبله. قال ابن عطية: هذا أرجح الأقوال عندي، وقيل: ضمير الفاعل يعود على العمل وكذا الضمير المنصوب والكلام على حذف مضاف أي والعمل الصالح يرفع عامله ويشرفه، ونسب ذلك أبو حيان إلى ابن عباس ثم قال: ويجوز عندي أن يكون ﴿العمل﴾ معطوفاً على ﴿الكلم﴾ و ﴿يرفعه﴾ استئناف أخبار أي يرفعهما الله تعالى، ووحد الضمير لاشتراكهما في الصعود والضمير قد يجري مجرى اسم الإشارة فيكون لفظه مفرداً والمراد به التثنية فكأنه قيل: ليس صعودهما من ذاتهما بل ذلك برفع الله تعالى إياهما ا هـ، وهو خلاف الظاهر جداً، ومثله ما نسبه ابن عباس وأنا لا أظن صحة نسبته إليه، وعلى التسليم يحتمل أنه رضي الله تعالى عنه أراد بقوله العمل الصالح يرفع عامله ويشرفه بيان ما تشير إليه الآية في الجملة. والذي يتبادر إلى ذهني من الآية ما روي عن قتادة واختاره ابن عطية، وتخصيص العمل الصالح برفع الله تعالى إياه على ذلك قيل لما فيه من الكلفة والمشقة إذ هو الجهاد الأكبر، وظاهر هذا أن العمل أشرف من الكلام ولا كلام في ذلك إذا أريد بالعمل الصالح ما يشمل العمل القلبي كالتصديق، ولعل الكلام عليه نظير قوله تعالى: ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا﴾ [الأعراف: ١٤٣] وقوله سبحانه: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده﴾ [الإسراء: ١] وكلام الإمام صريح في أن الكلم الطيب المفسر بالذكر أشرف من العمل حيث جعل صعود الكلم بنفسه دليل ترجيحه على العمل الذي يرفعه غيره، وقال في وجه ذلك: الكلام شريف فإن امتياز الإنسان عن كل حيوان بالنطق والعمل حركة وسكون يشترك فيه الإنسان وغيره والشريف إذا وصل إلى باب الملك لا يمنع ومن دونه لا يجد الطريق إلا عند الطلب، ويدل على هذا أن الكافر إذا تكلم بكلمة الشهادة أمن من عذاب الدارين إن كان ذلك عن صدق وأمن في نفسه ودمه وحرمه في الدنيا إن كان ظاهراً ولا كذلك العمل بالجوارح، وأيضاً أن القلب هو الأصل وما فيه لا يظهر إلا باللسان وما في اللسان لا يبين صدقه إلا بالفعل فالقول أقرب إلى القلب من الفعل فيكون أشرف منه، ا هـ وفي القلب منه شيء فتدبر.

﴿والَّذينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي المكرات السيئات أو أصناف المكرات السيئات على أن ﴿السيئات﴾ صفة لمحذوف وليس مفعولاً به ليمكرون لأن مكر لازم، وجوز أن يكون مفعولاً على تضمين يقصدون أو يكسبون وعلى الأول فيه مبالغة للوعيد الشديد على قصد المكر أو هو إشارة إلى عدم تأثير مكرهم، والموصول مبتدأ وجملة قوله تعالى ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ خبره أي لهم بسبب مكرهم عذاب شديد لا يقادر قدره ولا يعبأ بالنسبة إليه بما يمكرون. والآية على ما روي عن أبي العالية في الذين مكروا برسول الله ﷺ في دار الندوة كما قال تعالى: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك﴾ [الأنفال: ٣٠] والمضارع لحكاية الحال الماضية، ووضع اسم الإشارة موضع ضميرهم في قوله سبحانه ﴿وَمَكْرُ أُولَئِكَ﴾ للإيذان بكمال تميزهم بما هم عليه من الشر والفساد عن سائر المفسدين واشتهارهم بذلك، وما فيه من معنى البعد للتنبيه على ترامي أمرهم في الطغيان وبعد منزلتهم في العدوان أي ومكر أولئك المفسدين المشهورين ﴿هُوَ يَبُورُ﴾ أي يفسد، وأصل البوار فرط الكساد أو الهلاك فاستعير هنا للفساد عدم التأثير لأن فرط الكساد يؤدي إلى الفساد كما قيل كسد حتى فسد أو لأن الكاسد يكسد في الغالب لفساده ولأن الهالك فاسد لا أثر له. و ﴿مكر﴾ مبتدأ خبره جملة ﴿هو يبور﴾ وتقديمُ الضمير للتقوى أو الاختصاص أي مكرهم هو يفسد خاصة لأَمكرنا بهم، وأجاز الحوفي وأبو البقاء كون الخبر جملة ﴿يبور﴾ و ﴿هو﴾ ضمير فصل. وتعقبه في البحر بأن ضمير الفصل لا يكون ما بعده فعلاً ولم يذهب إلى ذلك أحد فيما علمنا إلا عبد القاهر الجرجاني في شرح الإيضاح له فإنه أجاز في كان زيد هو يقوم أن يكون هو فصلاً. ورد ذلك عليه.

وجوز أبو البقاء أيضاً كون ﴿هو﴾ تأكيداً للمبتدأ، والظاهر ما قدمناه، وقد أبار الله تعالى أولئك الماكرين بعد إبارة مكرهم حيث أخرجهم من مكة وقتلهم وأثبتهم في قليب بدر فجمع عليهم مكراتهم الثلاث التي اكتفوا في حقه عليه الصلاة والسلام بواحدة منهن وحقق عزّ وجلّ فيهم قوله سبحانه: ﴿ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين﴾ [آل عمران: ٥٤] وقوله تعالى: ﴿ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله﴾ [فاطر: ٤٣] ووجه ارتباط الآية بما قبلها على ما ذكره شيخ الإسلام أنها بيان لحال الكلم الخبيث والعمل السيىء وأهلهما بعد بيان حال الكلم الطيب والعمل الصالح.

وقال في الكشف: كأنه لما حصر سبحانه العزة وخصها به تعالى يعطيها من يشاء وأرشد إلى نيل ما به ينال ذلك المطلوب ذكر على سبيل الاستطراد حال من أراد العزة من عند غيره عزّ وجلّ وأخذ في إهانة من أعزه الله تعالى فوق السماكين قدراً وما رجع إليهم من وبال ذلك كالاستشهاد لتلك الدعوى وهو خلاصة ما ذكره الطيبي في وجه الانتظام، وروي عن مجاهد وسعيد بن جبير وشهر بن حوشب أن الآية في أصحاب الرياء وهي متصلة بما عندها على ما روي عن شهر حيث قال: ﴿والذين يمكرون السيئات﴾ أي يراؤون ﴿ومكر أولئك هو يبور﴾ هم أصحاب الرياء عملهم لا يصعد، وقال الطيبي: إن الجملة على هذه الرواية عطف على جملة الشرط والجزاء أعني قوله تعالى: ﴿من كان يريد العزة﴾ الخ فيجب حينئذٍ مراعاة التطابق بين القرينتين والتقابل بين الفقرتين بحسب الإمكان بأن يقدر في كل منهما ما يحصل به التقابل بدلالة المذكور في الأولى على المتروك في الأخرى وبالعكس ا هـ ولا يخفى بعده، وأياً ما كان فالمضارع للاستمرار التجددي ﴿وَاللهُ خَلَقَكُم مِّنْ تُرَابٍ﴾ دليل آخر على صحة البعث والنشور أي خلقكم ابتداء منه في ضمن خلق آدم عليه السّلام خلقاً إجمالياً ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ أي ثم خلقكم منها خلقاً تفصيلياً ﴿ثُمَّ جعَلَكُم أَزْوَاجاً﴾ أي أصنافاً ذكراناً وإناثاً كما قال سبحانه: ﴿أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً﴾ [الشورى: ٥٠] وأخرجه ابن أبي حاتم عن السدي، وأخرج هو وغيره عن قتادة أنه قال قدر بينكم الزوجية وزوج بعضكم بعضاً ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلا تَضَعُ إِلاَّ بعِلْمه﴾ حال من الفاعل ومن زائدة أي إلا ملتبسة بعلمه تعالى ومعلومية الفاعل راجعة

إلى معلومية أحواله مفصلة ومنها حال ما حملته الأنثى ووضعته فجعله من ذلك أبلغ معنى وأحسن لفظاً من جعله من المفعول أعني المحمول والموضوع لأن المفعول محذوف متروك كما صرح به الزمخشري في حم السجدة، وجعله حالاً من الحمل والوضع أنفسهما خلاف الظاهر ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ أي من أحد أي وما يمد في عمر أحد وسمي معمراً باعتبار الأول نحو ﴿إني أراني أعصر خمراً﴾ [يوسف: ٣٦] ومن قتل قتيلاً على ما ذكر غير واحد وهذا لئلا يلزم تحصيل الحاصل، وجوز أن يقال لأن ﴿يعمر﴾ مضارع فيقتضي أن لا يكون معمراً بعد ولا ضرورة للحمل على الماضي ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ الضمير عائد على معمر آخر نظير ما قال ابن مالك في عندي درهم ونصفه أي نصف درهم آخر، ولا يضر في ذلك احتمال أن يكون المراد مثل نصفه لأنه مثال وهو استخدام أو شبيه به وإلى ذلك ذهب الفراء وبعض النحويين ولعله الأظهر، وفسروا المعمر بالمزاد عمره بدليل ما يقابله من قوله تعالى: ﴿ولا ينقص﴾ الخ وهو الذي دعاهم إلى إرجاع الضمير إلى نظير المذكور دون عينه ضرورة أنه لا يكون المزيد في عمره منقوصاً من عمره، وقيل عليه: هب أن مرجع الضمير معمر آخر أليس قد نسب النقص في العمر إلى معمر وقد قلتم إنه المزاد عمره. أجيب بأن الأصل وما يعمر من أحد فسمي معمراً باعتبار ما يؤول إليه وعاد الضمير باعتبار الأصل المحول عنه فمال ذلك ولا ينقص من عمر أحد أي ولا يجعل من ابتداء الأمر ناقصاً فهو نظير قولهم ضيق فم الركية، وقال آخرون: الضمير عائد على المعمر الأول بعينه والمعمر هو الذي جعل الله تعالى له عمراً طال أو قصر، ولا مانع أن يكون المعمر ومن ينقص من عمره شخصاً واحداً والمراد بنقص عمره ما يمر منه وينقضي مثلاً يكتب عمره مائة سنة ثم يُكتب تحته مضى يوم مضى يومان وهكذا حتى يأتي الخ وروي هذا عن ابن عباس وابن جبير وأبي مالك وحسان بن عطية والسدي، وقيل بمعناه:

حياتك أنفاس تعد فكلما ... مضى نفس منها انتقصت به جزءا

وقيل الزيادة والنقص في عمر واحد باعتبار أسباب مختلفة أثبتت في اللوح كما ورد في الخبر الصدقة تزيد في العمر فيجوز أن يكون أحد معمراً أي مزاداً في عمره إذا عمل عملاً وينقص من عمره إذا لم يعمله، وهذا لا يلزم منه تغيير التقدير لأنه في تقديره تعالى معلق أيضاً وإن كان ما في علمه تعالى الأزليْ وقضائه المبرم لا يعتريه محو على ما عرف عن السلف ولذا جاز الدعاء بطول العمر.

وقال كعب: لو أن عمر رضي الله تعالى عنه دعا الله تعالى أخر أجله، ويعلم من هذا أن قول ابن عطية: هذا قول ضعيف مردود يقتضي القول بالأجلين كما ذهبت إليه المعتزلة ليس بشيء، ومن العجيب قول ابن كمال: النظر الدقيق يحكم بصحة أن المعمر أي الذي قدر له عمر طويل يجوز أن يبلغ ذلك العمر وأن لا يبلغ فيزيد عمره على الأول وينقص على الثاني ومع ذلك لا يلزم التغيير في التقدير لأن المقدر في كل شخص هو الأنفاس المعدودة لا الأيام المحدودة والأعوام الممدودة ثم قال: فإنهم هذا السر العجيب وكتب في الهامش حتى ينكشف لك سر اختيار حبس النفس ويتضح وجه صحة قوله عليه الصلاة والسلام: «إن الصدقة والصلة تعمران الديار وتزيدان في الأعمار» ا هـ. وتعقبه الشهاب الخفاجي بأنه مما لا يعول عليه عاقل ولم يقل به أحد غير بعض جهلة الهنود مع أنه مخالف لما ورد في الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم والنسائي وابن أبي شيبة وأبو الشيخ عن عبد الله بن مسعود من قول النبي ﷺ لأم حبيبة وقد قالت: اللهم امتعني بزوجي النبي ﷺ وبأبي أبي سفيان وبأخي معاوية، سألت الله تعالى لآجال مضروبة وأيام معدودة الحديث وأطال الجلبي في رده وهو غني عنه ا هـ.

وقال بعضهم: يجوز أن لا يبلغ من قدر له عمر طويل ما قدر له بأن يغير ما قدر أولاً بتقدير آخر ولا حجر على

الله تعالى، ويشير إلى ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في حديث التراويح «خشيت أن تفرض عليكم» وقوله ﷺ في دعاء القنوت «وقني شر ما قضيت» وخوفه عليه من الله تعالى آلاف آلاف صلاة وسلام من قيام الساعة إذا اشتدت الريح مع إخباره بأن بين يديها خروج المهدي والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها إلى غير ذلك مما لم يحدث بعد، وغاية ما يلزم من ذلك تغير المعلوم ولا يلزم منه تغير العلم على ما بين في موضعه وعلى هذا لا إشكال في خبر «الصدقة تزيد في العمر» ويتضح أمر فائدة الدعاء، وما يحكى عن بعضهم من نفي القضاء المبرم يرجع إليه، وقد رأيت كراسة لبعض الأفاضل أطال الكلام فيها لتشييد هذا القول وتثبيت أركانه، والحق عندي أن ما في العلم الأزلي المتعلق بالأشياء على ما هي عليه في نفس الأمر لا يتغير ويجب أن يقع كما علم وإلا يلزم الانقلاب، وما يتبادر منه خلاف ذلك إذا صح مؤول، وخبر «الصدقة تزيد في العمر» قيل إنه خبر آحاد فلا يعارض القطعيات، وقيل المراد أن الصدقة وكذا غيرها من الطاعات تزيد فيما هو المقصود الأهم من العمر وهو اكتساب الخير والكمال والبركة التي بها تستكمل النفوس الإنسانية فتفوز بالسعادة الأبدية، والدعاء حكمه حكم سائر الأسباب من الأكل والشرب والتحفظ من شدة الحر والبرد مثلاً ففائدته كفائدتها، وقيل هو لمجرد إظهار الاحتياج والعبودية فليتدبر.

وقيل الضمير المعمر والنقص لغيره أي ولا ينقص من عمر المعمر لغيره بأن يعطي له عمر ناقص من عمره، وقيل الضمير للمنقوص من عمره وهو وإن لم يصرح به في حكم المذكور كما قيل. وبضدها تتبين الأشياء. فيكون عائداً على ما علم من السياق أي ولا ينقص من عمر المنقوص من عمره بجعله ناقصاً.

وقرأ الحسن وابن سيرين وعيسى «ولا يَنْقُصُ» بالبناء للفاعل وفاعله ضمير المعمر أو ﴿عمره﴾ و ﴿من﴾ زائدة في الفاعل وإن كان متعدياً جاز كونه ضمير الله تعالى. وقرأ الأعرج ﴿ من عُمْرِه ﴾ بسكون الميم ﴿إلاَّ في كتَاب﴾ عن ابن عباس هو اللوح المحفوظ، وجوز أن يراد به صحيفة الإنسان فقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال قال: رسول الله ﷺ: «يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين أو بخمس وأربعين ليلة فيقول يا رب أشقي أم سعيد أذكر أم أنثى فيقول الله تعالى ويكتب ثم يكتب عمله ورزقه وأجله وأثره ومصيبته ثم تطوى الصحيفة فلا يزاد فيها ولا ينقص منها» وجوز أيضاً أن يراد به علم الله عزّ وجلّ، وذكر في ربط الآيات أن قوله تعالى: ﴿والله خلقكم من تراب ﴾ الخ مساق للدلالة على القدرة الكاملة وقوله سبحانه: ﴿وما تحمل من أنثى ﴾ [فصلت: ٤٧] الخ للعلم الشامل وقوله عزّ وجلّ: ﴿وما يعمر من معمر ﴾ الخ لإثبات القضاء والقدر، والمعنى وما يعمر منكم خطاباً لأفراد النوع الإنساني وأيد بذلك الوجه الأول من أوجه ﴿وما يعمر ﴾ الخ ﴿إِنَّ ذَلكَ ﴾ أي ما ذكر من الخلق وما بعده مع كونه محاراً للعقول والأفهام ﴿عَلى الله يَسيرٌ ﴾ لاستغنائه تعالى عن الأسباب فكذلك البعث والنشور ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَان هَذَا عَذْبٌ ﴾ طيب ﴿فُرَاتٌ ﴾ كاسر العطش ومزيله.

وقال الراغب: الفرات الماء العذب يقال للواحد، والجمع، ولعل الصوف على هذا على طرز أسود حالك وأصفر فاقع ﴿سَائغٌ شَرَابُهُ ﴾ سهل انحداره لخلوه مما تعافه النفس. وقرأ عيسى «سيغ» كميت بالتشديد، وجاء كذلك عن أبي عمرو وعاصم، وقرأ عيسى أيضاً «سيغ» كميت بالتخفيف ﴿وَهَذَا مِلْحٌ ﴾ متغير طعمه التغير المعروف، وقرأ أبو نهيك وطلحة «مِلْحٌ» بفتح الميم وكسر اللام، وقال أبو الفتح الرازي: وهي لغة شاذة، وجوز أن يكون مقصوراً من مالح للتخفيف، وهو مبني على ورود مالح والحق وروده بقلة وليس بلغة رديئة كما قيل.

وفرق الإمام بين الملح والمالح بأن الملح الماء الذي فيه الطعم المعروف من أصل الخلقة كماء البحر والمالح الماء الذي وضع فيه ملح فتغير طعمه ولا يقال فيه إلا مالح ولم أره لغيره، وقال بعضهم: لم يرد مالح أصلاً وهو قول

ليس بالمليح ﴿أُجَاجٌ﴾ شديد الملوحة والحرارة من قولهم أجيج النار وأجتها، ومن هنا قيل هو الذي يحرق بملوحته، وهذا مثل ضرب للمؤمن والكافر، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلّ﴾ أي من كل واحد منهما ﴿تَأْكُلُونَ لَحماً طَرِيًّا﴾ أي غضاً جديداً وهو السمك على ما روي عن السدي، وقيل الطير والسمك واختار كثير الأول، والتعبير عن السمك باللحم مع كونه حيواناً قيل للتلويح بانحصار الانتفاع به في الأكل، ووصفه بالطراوة للإشعار بلطافته والتنبيه على المسارعة إلى أكله لئلا يتسارع إليه الفساد كما ينبىء عنه جعل كل من البحرين مبدأ أكله.

واستدل مالك والثوري بالآية حيث سمي فيها السمك لحماً على حنث من حلف لا يأكل لحماً وأكل سمكاً، وقال غيرهما: لا يحنث لأن مبنى الايمان على العرف وهو فيه لا يسمى لحماً ولذلك لا يحنث من حلف لا يركب دابة فركب كافراً مع أن الله تعالى سماه دابة في قوله سبحانه: ﴿إن شر الدواب عند الله الذين كفروا﴾ [الأنفال: ٥٥] ولا يبعد عندي أن يراد بلحماً لحم السمك ودعوى التلويح بانحصار الانتفاع بالسمك في الأكل لا أظنها تامة ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ﴾ ظاهره ومن كل تستخرجون ﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ والحلية التي تستخرج من البحر الملح اللؤلؤ والمرجان ويلبس ذلك الرجال والنساء وإن اختلفت كيفية اللبس، أو يقال عبر عن لبس نسائهم بلبسهم لكونهن منهم أو لكون لبسهن لأجلهم، ولا نعلم حلية تستخرج من البحر العذب، ولا يظهر هنا اعتبار إسناد ما للبعض إلى الكل كما اعتبر ذلك في قوله تعالى: ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾ [الرحمن: ٢٢] وكون بعض الصخور التي في مجاري السيول قد تكسر فيوجد فيها ماس وهو حلية تلبس إن صح لا ينفع اعتباره هنا إذ ليس فيه استخراج الحلية من البحر العذب ظاهراً، وقيل: لا يبعد أن تكون الحلية المستخرجة من ذلك عظام السمك التي يصنع منها قبضات للسيوف والخناجر مثلاً فتحمل ويتحلى بها، وفيه ما فيه لا سيما إذا كانت الحلية كالحلي ما يتزين به من مصنوع المعدنيات أو الحجارة، وقال الخفاجي: لا مانع من أن يخرج اللؤلؤ من المياه العذبة وإن لم نره، ولا يخفى ما فيه من البعد.

وذهب بعض الأجلة للخلاص من القيل والقال أن المراد وتستخرجون من البحر الملح خاصة حلية تلبسونها ويشعر به كلام السدي يحتمل ثلاثة أوجه، الأول أنه استطراد في صفة لبحرين وما فيهما من النعم والمنافع.

والثاني أنه تتميم وتكميل للتمثيل لتفضيل المشبه به على المشبه وليس من ترشيح الاستعارة كما زعم الطيبي في شيء بل إنما هو استدراك لدعوى الاشتراك بين المشبه والمشبه به يلزم منه أن يكون المشبه أقوى وهذا الاستدراك مخصوص بالملح، وإيضاحه أنه شبه المؤمن والكافر بالبحرين ثم فضل الأجاج على الكافر بأنه قد شارك الفرات في منافع والكافر خلو من النفع فهو على طريقة قوله تعالى: ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾ [البقرة: ٧٤] ثم قال سبحانه: ﴿وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله﴾ [البقرة: ٧٤] والثالث أنه من تتمة التمثيل على معنى أن البحرين وإن اشتركا في بعض الفوائد تفاوتا فيما هو المقصود بالذات لأن أحدهما خالطه ما لم يبقه على صفاء فطرته كذلك المؤمن والكافر وإن اتفق اتفاقهما في بعض المكارم كالشجاعة والسخاوة متفاوتان فيما هو الأصل لبقاء أحدهما على الفطرة الأصلية دون الآخر فجملة ﴿ومن كل﴾ الخ حالية، وعندي خير الأوجه الثلاثة أوسطها، وعلى كل يحصل الجواب عما قيل كيف يناسب ذكر منافع البحر الملح وقد شبه به الكافر؟ وقل أبو حيان: إن قوله تعالى: ﴿وما يستوي البحران﴾ الخ لبيان ما يستدل به كل عاقل على أنه مما لا مدخل لصنم فيه.

وقال الإمام: الأظهر أنه دليل لكمال قدرة الله عزّ وجلّ، وما ذكرنا أولاً من أنه تمثيل للمؤمن والكافر هو المشهور رواية ودراية وفيه من محاسن البلاغة ما فيه ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ﴾ السفن ﴿فيه﴾ أي في كل منهما وانظر هل يحسن

رجوع الضمير للبحر الملح لانسياق الذهن إليه من قوله سبحانه: ﴿وتستخرجون حلية تلبسونها﴾ بناءً على أن المعروف استخراجها منه خاصة وأمر الفلك فيه أعظم من أمرها في البحر العذب ولذا اقتصر على رؤية الفلك فيه على الحال التي ذكر الله تعالى، وأفرد ضمير الخطاب مع جمعه فيما سبق وما لحق لأن الخطاب لكل أحد تتأتى منه الرؤية دون المنتفعين بالبحرين فقط ﴿مَوَاخِرَ﴾ شواق للماء يجريها مقبلة ومدبرة بريح واحدة فالمخر الشق.

قال الراغب: يقال مخرت السفينة مخراً ومخوراً إذا شقت الماء بجوجئها، وفي الكشاف يقال: مخرت السفينة الماء ويقال للسحاب بنات مخر لأنها تمخر الهواء، والسفن الذي اشتقت منه السفينة قريب من المخر لأنها تسفن الماء كأنها تقشره كما تمخره، وقيل المخر صوت جرى الفلك وجاء في سورة: ﴿وترى الفلك مواخر فيه﴾ [النحل: ١٤] بتقديم ﴿مواخر﴾ وتأخير ﴿فيه﴾ وعكس ها هنا فقيل في وجهه لأنه علق ﴿فيه﴾ هنا بترى وثمت بمواخر، ولا يحسم مادة السؤال.

والذي يظهر لي في ذلك أن آية النحل سيقت لتعداد النعم كما يؤذن بذاك سوابقها ولواحقها وتعقيب الآيات بقوله سبحانه: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ [إبراهيم: ٣٤، النحل: ١٨] فكان الأهم هناك تقديم ما هو نعمة وهو مخر الفلك للماء بخلاف ما هنا فإنه إنما سيق استطراداً أو تتمة للتمثيل كما علمت آنفاً فقدم فيه ﴿فيه﴾ إيذاناً بأنه ليس المقصود بالذات ذلك، وكأن الاهتمام بما هناك اقتضى أن يقال في تلك الآية ﴿ولتبتغوا﴾ بالواو، ومخالفة ما هنا لذلك اقتضت ترك الواو في قوله سبحانه: ﴿لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِه﴾ أي من فضل الله تعالى بالنقلة فيها وهو سبحانه وإن لم يجر له ذكر في الآية فقد جرى له تعالى ذكر فيما قبلها ولو لم يجر لم يشكل لدلالة المعنى عليه عز شأنه.

واللام متعلقة بمواخر، وجوز تعلقها بمحذوف دل عليه الأفعال المذكورة كسخر البحرين وهيأهما أو فعل ذلك ﴿لتبتغوا من فضله﴾ ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ تعرفون حقوقه تعالى فتقومون بطاعته عزّ وجلّ وتوحيده سبحانه.

ولعل للتعليل على ما عليه جمع من الأجلة وقد قدمنا ذلك، وقال كثير: هي للترجي ولما كان محالاً عليه تعالى كان المراد اقتضاء ما ذكر من النعم للشكر حتى كأن كل أحد يترجاه من المنعم عليه بها فهو تمثيل يؤول إلى أمره تعالى بالشكر للمخاطبين ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ بزيادة أحدهما ونقص الآخر بإضافة بعض أجزاء كل منهما إلى الآخر ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ عطف على ﴿يولج﴾ واختلافهما صيغة لما أن إيلاج أحد الملوين في الآخر متجدد حيناً فحيناً وأما تسخير النيرين فأمر لا تعدد فيه وإنما المتعدد والمتجدد آثاره، وقد أشير إليه بقوله تعالى: ﴿كُلٌّ﴾ من الشمس والقمر ﴿يَجْرِي﴾ أي بحسب حركته على المدارات اليومية المتعددة حسب تعدد أيام السنة أو بحسب حركتيه الخاصة وهي من المغرب إلى المشرق والقسرية التي هي من المشرق إلى المغرب جرياناً مستمراً ﴿لأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ قدره الله تعالى لجريانهما وهو يوم القيامة كما روي عن الحسن.

وقيل جريانهما عبارة عن حركتيهما الخاصتين بهما والأجل المسمى عبارة عن مجموع مدة دورتيهما أو منتهاها وهي للشمس سنة وللقمر شهر وقد تقدم الكلام في ذلك مفصلاً ﴿ذَلِكُمُ﴾ إشارة إلى فاعل الأفاعيل المذكورة، وما فيه من معنى البعد للإيذان بغاية العظمة وهو مبتدأ وما بعده أخبار مترادفة أي ذلكم العظيم الشأن الذي أبدع هذه الصنائع البديعة ﴿اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ وفيه من الدلالة على أن إبداعه تعالى لتلك البدائع مما يوجب ثبوت تلك الأخبار له تعالى، وفي الكشاف ويجوز في حكم الإعراب إيقاع اسم الله تعالى صفة لاسم الإشارة أو عطف بيان و ﴿ربكم﴾ خبراً لولا أن المعنى يأباه ا هـ.

قال في الكشف: فيه نظر لأن الاسم الجليل جار مجرى العلم فلا يجوز أن يقع وصفاً لاسم الإشارة البتة لا

لفظاً ولا معنى، وكأنه فرض على تقدير عدم الغلبة، وأما إباء المعنى على تقدير تجويز الوصف فقد قيل: إن المقصود أنه تعالى المنفرد بالإلهية لا أن المنفرد بالإلهية هو ربكم لأن المشركين ما كانوا معترفين بالمنفرد على الإطلاق، وأما عطف البيان فقيل لأنه يوهم تخييل الشركة ألا ترى أنك إذا قلت ذلك الرجل سيدك عندي ففيه نوع شركة لأن ذا اسم مبهم، وكأنه أراد أن البيان حيث يذهب الوهم إلى غيره ويحتمل الشركة مناسب لا في مثل هذا المقام، وأفاد الطيبي أن ذلك يشار به إلى ما سبق للدلالة على جدارة ما بعده بسبب الأوصاف السابقة ولو كان وصفاً أو بياناً لكان المشار إليه ما بعده، وهذا في الأول حسن دون الثاني اللهم إلا أن يكون قوله: أو عطف بيان إشارة إلى المذهب الذي يجعل الجنس الجاري على المبهم غير وصف فيكون حكمه حكم الوصف إذ ذاك، وبعد أن تبين أن المقام للإشارة إلى السابق فاسم الإشارة قد يجاء به لأغراض آخر ا هـ.

وأبو حيان: منع صحة الوصفية للعلمية ثم قال لا يظهر إباء المعنى ذلك، ويجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿**له الملك**﴾ جملة مبتدأة واقعة في مقابلة قوله تعالى: ﴿**وَالَّذين تَدْعُونَ من دُونه مَا يَمْلكُونَ منْ قطمير**﴾ ويكون ذلك مقرراً لما قبله من التفرد بالإلهية والربوبية واستدلالاً عليه إذ حاصله جميع الملك والتصرف في المبدأ والمنتهى له تعالى وليس لغيره سبحانه منه شيء، ولذا قيل إن فيه قياساً منطقياً مطوياً. وجوز أن يكون مقرراً لقوله تعالى: ﴿**والله خلقكم**﴾ الخ وقوله تعالى: ﴿**يولج**﴾ الخ فجملة ﴿**الذين تدعون**﴾ الخ عليه إما استئنافية أيضاً وهي معطوفة على جملة ﴿**له الملك**﴾ وإما حال من الضمير المستقر في الظرف أعني له، وعلى الوجه الأول هي معطوفة على جملة ﴿**ذلكم الله**﴾ الخ أو حال أيضاً، والقطمير على ما أخرج ابن جرير وغيره عن مجاهد لفافة النواة وهي القشر الأبيض الرقيق الذي يكون بين التمر والنواة وهو المعنى المشهور.

أخرج ابن جرير وابن المنذر أنه القمع الذي هو على رأس التمرة، وأخرج عبد بن حميد عن قتادة أنه القشرة على رأس النواة وهو ما بين القمع والنواة، وقال الراغب: إنه الأثر على ظهر النواة، وقيل هو قشر الثوم، وأياً ما كان فهو مثل للشيء الدنيء الطفيف، قال الشاعر:

وأبوك يخصف نعله متوركاً ... ما يملك المسكين من قطمير

وقرأ عيسى وسلام ويعقوب يدعون بالياء التحتانية ﴿**إنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دعَاءَكُمْ**﴾ استئناف مقرر لما قبله كاشف عن جلية حال ما يدعونه بأنه جماد ليس من شأنه السماع، هذا إذا كان الكلام مع عبدة الأصنام ويحتمل أن يكون مع عبدتها وعبدة الملائكة وعيسى وغيرهم من المقربين، وعدم السماع حينئذٍ إما لأن المعبود ليس من شأنه ذلك كالأصنام وإما لأنه في شغل شاغل وبعد بعيد عن عابده كعيسى عليه السّلام، وروي هذا عن البلخي أو لأن الله عزّ وجلّ حفظ سمعه من أن يصل إليه مثل هذا الدعاء لغاية قبحه وثقله على سمع من هو في غاية العبودية لله سبحانه، فلا يرد أن الملائكة عليهم السّلام يسمعون وهم في السماء كما ورد في بعض الآثار دعاء المؤمنين ربهم سبحانه، وفي نظم ذي النفوس القدسية في سلك الملائكة عليهم السّلام من حيثية السماع وهم في مقار نعيمهم توقف عندي بل في سماع كل من الملائكة عليهم السّلام وهم في السماء وذوي النفوس القدسية وهم في مقار نعيمهم نداء من ناداهم غير معتقد فيهم الالهية توقف عندي أيضاً إذ لم أظفر بدليل سمعي على ذلك والعقل يجوزه لكن لا يكتفي بمجرد تجويزه في القول به.

﴿**وَلَوْ سَمعُوا**﴾ على سبيل الفرض والتقدير ﴿**مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ**﴾ لأنهم لم يرزقوا قوة التكلم والسماع لا يستلزم ذلك فالمراد بالاستجابة الاستجابة بالقول، ويجوز أن يراد بها الاستجابة بالفعل أي ولو سمعوا ما نفعوكم

لعجزهم عن الأفعال بالمرة، هذا إذا كان المدعون الأصنام وأما إذا كانوا الملائكة عليهم السّلام أو نحوهم من المقربين فعدم الاستجابة القولية لأن دعاءهم من حيث زعم أنهم آلهة وهم بمعزل عن الإلهية فكيف يجيبون زاعم ذلك فيهم وفيه من التهمة ما فيه، وعدم الاستجابة الفعلية يحتمل أن يكون لهذا أيضاً ويحتمل أن يكون لأن نفع من دعاهم ليس من وظائفهم، وقيل لأنهم يرون ذلك نقصاً في العبودية والخضوع لله عزّ وجلّ.

ويجوز أن يكون هذا تعليلاً للأول أيضاً فتأمل ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ فضلاً عن أن يستجيبوا لكم إذا دعوتموهم، وشرك مصدر مضاف إلى الفاعل أي ويوم القيامة يجحدون إشراككم إياهم وعبادتكم إياهم وذلك بأن يقدر الله تعالى الأصنام على الكلام فيقولون لهم ما كنتم إيانا تعبدون أو يظهر من حالها ظهور نار القرى ليلاً على علم ما يدل على ذلك ولسان الحال أفصح من لسان المقال، ومن هذا القبيل قول ذي الرمة:

وقفت على ربع لمية ناطق ... يخاطبني آثاره وأخاطبه
وأسقيه حتى كاد مما أبثه ... تكلمني أحجاره وملاعبه

وإن كان المدعوون الملائكة ونحوهم فأمر التكلم ظاهر، وقد حكى الله تعالى قول الملائكة للمشركين في السورة السابقة بقوله سبحانه: ﴿ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١] ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ أي لا يخبرك بالأمر مخبر مثل مخبر خبيراً أخبرك به يعني به تعالى نفسه كما روي عن قتادة وغيره فإنه سبحانه الخبير بكنه الأمور، وهو خطاب للنبي ﷺ ويجوز أن يكون غير مختص أي لا يخبرك أيها السامع كائناً من كنت مخبر هو مثل الخبير العالم الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، والمراد تحقيق ما أخبر سبحانه به من حال آلهتهم ونفي ما يدعون لهم من الإلهية.

وقال ابن عطية: يحتمل أن يكون ذلك من تمام ذكر الأصنام كأنه قيل: ولا يخبرك مخبر مثل من يخبرك عن نفسه وهي قد أخبرت عن أنفسها بأنها ليست بآلهة، وفيه من البعد ما فيه.

۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ
جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ
مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا
يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا
ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ
﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ
فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ
ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ

مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ﴾ في أنفسكم وفيما يعن لكم من أمر مهم أو خطب ملم، وتعريف ﴿الفقراء﴾ للجنس أو للاستغراق إذ لا عهد، وعرف كذلك للمبالغة في فقرهم كأنهم لكثرة افتقارهم وشدة احتياجهم هم الفقراء فحسب وأن افتقار سائر الخلائق بالنسبة إلى فقرهم بمنزلة العدم ولذلك قال تعالى: ﴿وخلق الإنسان ضعيفاً﴾ [النساء: ٢٨] ولا يرد الجن إذ هم لا يحتاجون في المطعم والملبس وغيرهما كما يحتاج الإنسان وضعفهم ليس كضعفه فلا حاجة إلى إدخالهم في الناس تغليباً على أنه قيل لا يضر ذلك إذ الكلام مع من يظهر القوة والعناد من الناس، والقول أن القصر إضافي بالنسبة إليه تعالى لا يخفى ما فيه، وقال صاحب الفرائد: الوجه أن يقال والله تعالى أعلم المراد الناس وغيرهم وهو على طريقة تغليب الحاضر على الغائب وأولي العلم على غيرهم، وهو بعيد جداً.

وقال العلامة الطيبي: الذي يقتضيه النظم الجليل أن يحمل التعريف في الناس على العهد وفي الفقراء على الجنس لأن المخاطبين هم الذي خوطبوا في قوله تعالى: ﴿ذلكم الله ربكم له الملك﴾ الآية أي ذلكم المعبود هو الذي وصف بصفات الجلال لا الذين تدعون من دونه وأنتم أشد الخلائق احتياجاً إليه عزّ وجلّ ولا يخلو عن حسن ﴿وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عن كل شيء لا غيره ﴿الْحَمِيدُ﴾ المنعم على جميع الموجودات المستحق بإنعامه سبحانه للحمد، وأصله المحمود وأريد به ذلك على طريق الكناية ليناسب ذكره بعد فقرهم إذ الغني لا ينفع الفقير إلا إذا كان جواداً منعماً ومثله مستحق للحمد، وهذا كالتكميل لما قبله كما في قول كعب الغنوي:

حليم إذا ما الحلم زين أهله ... مع الحلم في عين العدو مهيب

ويدخل في عموم المستغني عنه المخاطبون وعبادتهم، وفي كلام الطيبي رائحة التخصيص حيث قال ما سمعت نقله وهو سبحانه غني عنكم وعن عبادتكم لأنه تعالى حميد له عباد يحمدونه وإن لم تحمدوه أنتم والأولى التعميم.

وما روي في سبب النزول من أنه لما كثر من النبي ﷺ الدعاء وكثر الإصرار من الكفار قالوا لعل الله تعالى محتاج لعبادتنا فنزلت لا يقتضي شيئاً من التخصيص في الآية كما لا يخفى ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أي إن يشأ سبحانه إذهابكم أيها الناس والإتيان بخلق جديد يذهبكم ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ بعالم غير الناس لا تعرفونه هذا إذا كان الخطاب عاماً أو إن يشأ يذهبكم أيها المشركون أو العرب ويأت بخلق جديد ليسوا على صفتكم بل مستمرون على طاعته وتوحيده. وهذا إذا كان الخطاب خاصاً، وتفسير الجديد بما سمعت مروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وأياً ما كان فالجملة تقرير لاستغنائه عزّ وجلّ ﴿وَمَا ذَلِكَ﴾ أي ما ذكر من إذهابهم والإتيان بخلق جديد ﴿عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي بصعب فإن أمره تعالى إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

وإن كان في الناس تغليب الحاضر على الغائب وأولى العلم على غيرهم وكان الخطاب هنا على ذلك الطرز وقلنا إن الآية تشعر بأن ما يأتي به سبحانه من العالم أبدع أشكل بحسب الظاهر قول حجة الإسلام ليس في الإمكان أبدع مما كان. وأجيب بأن ذلك على فرض وقوعه داخل في حيز ما كان وهو مع هذا العالم كبعض أجزاء هذا العالم مع بعض أو بأن الأبدعية المشعور بها بمعنى والأبدعية في كلام حجة الإسلام بمعنى آخر فتدبر.

﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾ أي لا تحمل نفس آثمة ﴿وِزْرَ أُخْرَى﴾ أي إثم نفس أخرى بل تحمل كل نفس وزرها.

ولا منافاة بين هذا وقوله تعالى في سورة العنكبوت ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾ [العنكبوت: ١٣] فإنه في الضالين المضلين وهم يحملون إثم إضلالهم مع إثم ضلالهم وكل ذلك آثامهم ليس فيها شيء من آثام غيرهم، ولا ينافيه قوله سبحانه: ﴿مع أثقالهم﴾ لأن المراد بأثقالهم ما كان بمباشرتهم وبما معها ما كان بسوقهم وتسببهم فهو للمضلين من وجه وللآخرين من آخر ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾ أي نفس أثقلتها الأوزار ﴿إِلَى حِمْلِهَا﴾ الذي أثقلها ووزرها الذي بهظها ليحمل شيء منه ويخفف عنها، وقيل: أي إلى حمل حملها ﴿لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ لم تجب بحمل شيء منه، والظاهر أن ﴿ولا تزر﴾ الخ نفي للحمل الاختياري تكرماً من نفس الحامل رداً لقول المضلين ﴿ولنحمل خطاياكم﴾ ويؤيده سبب النزول فقد روي أن الوليد بن المغيرة قال لقوم من المؤمنين اكفروا بمحمد ﷺ وعلي وزركم فنزلت.

وهذا نفي للحمل بعد الطلب من الوازرة أعم من أن يكون اختياراً أو جبراً وإذا لم يجبر أحد على الحمل بعد الطلب والاستعانة علم عدم الجبر بدونه بالطريق الأولى فيعم النفي أقسام الحمل كلها، وكذا الحامل أعم من أن يكون وازراً أم لا، وجاء العموم من عدم ذكر المدعو ظاهراً، وقد يقال مع ذلك: إن في الأولى نفي حمل جميع الوزر بحيث يتعرى منه المحمول عنه، وفي الثاني نفي التخفيف فلا اتخاذ بين مضموني الجملتين كما لا يخفى، وقيل في الفرق بينهما: إن الأول نفي الحمل إجباراً والثاني نفي له اختياراً، وتعقب بأن المناسب على هذا ولا يوزر على وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها أحداً لا يحمل منه شيئاً، وأيضاً حق نفي الإجبار أن يتعرض له بعد نفي الاختيار، وقيل: إن الجملة الأولى كما دلت على أن المثقل بالذنوب لا يحمل أحد من ذنوبه شيئاً دلت على عدله تعالى الكامل، والجملة الثانية دلت على أنه لا مستغاث من هول ذلك اليوم أيضاً وهما المقصودان من الآيتين فالفرق باعتبار ذلك، ولعل ما ذكرناه أولاً أولى، وذكر بعض الأفاضل في الجملة الأولى ثلاثة أسئلة قال في الأخيرين منها: لم أرَ من تفطن لهما وقد أجاب عن كل، الأول أن عدم حمل الغير على الغير عام في النفس الآثمة وغير الآثمة فلم خص بالآثمة مع أن التصريح بالعموم أم في العدل وأبلغ في البشارة وأخصر في اللفظ وذلك بأن يقال: ولا تحمل نفس حمل أخرى، وجوابه أن الكلام في أرباب الأوزار المعذبين لبيان أن عذابهم إنما هو بما اقترفوه من الأوزار لا بما اقترفه غيرهم، الثاني أن معنى وزر حمل الوزر لا مطلق الحمل على ما في النهاية الأثيرية حيث قال: يقال وزر يزر فهو وازر إذا حمل ما يثقل ظهره من الأشياء المثقلة ومن الذنوب فكيف صح ذكر وزر مع يزر وجوابه أنه من باب التجريد، الثالث أن ﴿وازرة﴾ يفهم من تزر كما يفهم ضارب من يضرب مثلاً فأي فائدة في ذكره؟ وجوابه أنه إذا قيل ضرب ضارب زيداً فالذي يستفاد من ضرب إنما هو ذات قام بها ضرب حدث من تعلق هذا الفعل بتلك الذات ولما عبر عن شيء بما فيه معنى الوصفية وعلق به معنى مصدري في صيغة فعل أو غيرها فهم منه في عرف اللغة أن ذلك الشيء موصوف بتلك الصفة حال تعلق ذلك المعنى به لا بسببه كما حققه بعض أجلة شراح الكشاف فيجب أن يكون معنى ضارب في المثال متصفاً بضرب سابق على تعلق ضرب به وكذا يقال في ﴿ولا تزر وازرة﴾ وهذه فائدة جليلة ويزيدها جلالة استفادة العموم إذا أورد اسم الفاعل نكرة في حيز نفي، وبذلك يسقط قول العلامة التفتازاني إن ذكر فاعل الفعل بلفظ اسم فاعله نكرة قليل الجدوى جداً انتهى.

وأنت تعلم أنه من مجموع الجملتين يستفاد ما ذكره في السؤال الأول من العموم، وفي خصوص هاتين الجملتين وذكرهما معاً ما لا يخفى من الفائدة، وفي القاموس وزره كوعده وزراً بالكسر حمله، وفي الكشاف وزر الشيء إذا حمله، ونحوه في البحر، وعلى ذلك لا حاجة إلى التجريد فلا تغفل، وأصل الحمل ما كان على الظهر من

ثقيل فاستعير للمعاني من الذنوب والآثام، وقرأ أبو السمال عن طلحة وإبراهيم عن الكسائي «لا تحمل» بفتح التاء المثناة من فوق وكسر الميم وتقتضي هذه القراءة نصب شيء على أنه مفعول به لتحمل وفاعله ضمير عائد على مفعول تدعو المحذوف أي وإن تدع مثقلة نفساً إلى حملها لم تحمل منه شيئاً ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ أي المدعو المفهوم من الدعوة ﴿ذَا قُرْبَى﴾ ذا قرابة من الداعي، وقال ابن عطية: اسم كان ضمير الداعي أي ولو كان الداعي ذا قرابة من المدعو، والأول أحسن لأن الداعي هو المثقلة بعينه فيكون الظاهر عود الضمير عليه وتأنيثه.

وقول أبي حيان ذكر الضمير حملاً على المعنى لأن قوله تعالى: ﴿مثقلة﴾ لا يراد بها مؤنث المعنى فقط بل كل شخص فكأنه قيل وإن يدع شخص مثقل لا يخفي ما فيه. وقرىء ولو كان «ذو قربى» بالرفع، وخرج على أن ﴿كان﴾ ناقصة أيضاً و «ذو قربى» اسمها والخبر محذوف أي ولو كان ذو قربى مدعواً، وجوز أن تكون تامة. وتعقب بأنه لا يلتئم معها النظم الجليل لأن الجملة الشرطية كالتتميم والمبالغة في أن لا غياث أصلاً فيقتضي أن يكون المعنى أن المثقلة إن دعت أحداً إلى حملها لا يجيبها إلى ما دعته إليه ولو كان ذو القربى مدعواً، ولو قلنا إن المثقلة إن دعت أحداً إلى حملها لا يحمل مدعوها شيئاً ولو حضر ذو قربى لم يحسن ذلك الحسن، وملاحظة كون ذي القربى مدعواً بقرينة السياق أو تقدير فدعته كما فعل أبو حيان خلاف الظاهر فيخفى عليه أمر الانتظام ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ الخ استئناف مسوق لبيان من يتعظ بما ذكر أي إنما تنذر بهذه الإنذارات ونحوها ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالغَيْبِ﴾ أي يخشونه تعالى غائبين عن عذابه سبحانه أو عن الناس في خلواتهم أو يخشون عذاب ربهم غائباً عنهم فالجار والمجرور في موضع الحال من الفاعل أو من المفعول ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ﴾ أي راعوها كما ينبغي وجعلوها مناراً منصوباً وعلماً مرفوعاً أي إنما ينفع إنذارك وتحذيرك هؤلاء من قومك دون من عداهم من أهل التمرد والعناد، ونكتة اختلاف الفعلين تعلم مما مر في قوله تعالى: ﴿الله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً﴾ فتذكر ما في العهد من قدم.

﴿وَمَنْ تَزَكَّى﴾ تطهر من أدناس الأوزار والمعاصي بالتأثر من هذا الإنذارات ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِه﴾ لاقتصار نفعه عليها كما أن من تدنس بها لا يتدنس إلا عليها، والتزكي شامل للخشية وإقامة الصلاة فهذا تقرير وحث عليهما.

وقرأ العباس عن أبي عمرو «ومن يزكي فإنما يزكي» بالياء من تحت وشد الزاي فيهما وهما مضارعان أصلهما ومن يتزكى فإنما يتزكى فأدغمت التاء في الزاي كما أدغمت في يذكرون، وقرأ ابن مسعود وطلحة «ومن أزكى» بإدغام التاء في الزاي واجتلاب همزة الوصل في الابتداء، وطلحة أيضاً «فإنما تزكى» بإدغام التاء في الزاي ﴿وَإِلَى اللهِ الـمَصِيرُ﴾ لا إلى أحد غيره استقلالاً أو اشتراكاً فيجازيهم على تزكيهم أحسن الجزاء ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿وما يستوي البحران﴾ والأعمى والبصير مثلان للكافر والمؤمن كما قال قتادة والسدي وغيرهما.

وقيل: هما مثلان للصنم ولله عزّ وجلّ فهو من تتمة قوله تعالى: ﴿ذلكم الله ربكم له الملك﴾ والمعنى لا يستوي الله تعالى مع ما عبدتم ﴿وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ﴾ أي ولا الباطل ولا الحق ﴿وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ﴾ ولا الثواب ولا العقاب، وقيل: ولا الجنة ولا النار، والحرور فعول من الحر وأطلق كما حكي عن الفراء على شدة الحر ليلاً أو نهاراً، وقال أبو البقاء: هو شدة حر الشمس، وفي الكشاف الحرور السموم إلا أن السموم يكون بالنهار والحرور بالليل والنهار، وقيل: بالليل ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ﴾ تمثيل آخر للمؤمنين الذين دخلوا في الدين بعد البعثة والكافرين الذين أصروا واستكبروا فالتعريف كما قال الطيبي للعهد، وقيل: للعلماء والجهلاء.

والثعالبي جعل الأعمى والبصير مثلين لهما وليس بذاك ﴿إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي يسمعه ويجعله مدركاً

للأصوات، وقال الخفاجي وغيره: ولعل في الآية ما يقتضي أن المراد يسمع من يشاء سماع تدبر وقبول لآياته عزّ وجلّ ﴿**وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ**﴾ ترشيح لتمثيل المصرين على الكفر بالأموات وإشباع في إقناطه عليه الصلاة والسلام من إيمانهم، والباء مزيدة للتأكيد أي وما أنت مسمع، والمراد بالسماع هنا ما أريد به في سابقه، ولا يأبى إرادة السماع المعروف ما ورد في حديث القليب لأن المراد نفي الأسماع بطريق العادة وما في الحديث من باب ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾ [الأنفال: ١٧] وإلى هذا ذهب البعض، وقد مر الكلام في ذلك فلا تغفل.

وما ألطف نظم هذه التمثيلات فقد شبه المؤمن والكافر أولاً بالبحرين وفضل البحر الأجاج على الكافر لخلوه من النفع ثم بالأعمى والبصير مستتبعاً بالظلمات والنور والظل والحرور فلم يكتف بفقدان نور البصر حتى ضم إليه فقدان ما يمده من النور الخارجي وقرن إليه نتيجة ذلك العمى والفقدان فكان فيه ترق من التشبيه الأول إليه ثم بالأحياء والأموات ترقياً ثانياً وأردف قوله سبحانه: ﴿**وما أنت بمسمع من في القبور**﴾.

وذكر الطيبي أن إخلاء الثاني من لا المؤكدة لأنه كالتمهيد لقوله تعالى: ﴿**وما يستوي الأحياء ولا الأموات**﴾ ولهذا كرر ﴿**وما يستوي**﴾ وأما ذكرها في التمثيلين بعده فلأنهما مقصودان في أنفسهما إذ ما فيهما مثلان للحق والباطل وما يؤديان إليه من الثواب والعقاب دون المؤمن والكافر كما في غيرهما، وإنما حملت على أنها زائدة للتأكيد إذ ليس المراد أن الظلمات في نفسها لا تستوي بل تتفاوت فمن ظلمة هي أشد من أخرى مثلاً وكذا يقال فيما بعد بل المراد أن الظلمات لا تساوي النور والظل لا يساوي الحرور والأحياء لا تساوي الأموات.

وزعم ابن عطية أن دخول لا على نية التكرار كأنه قيل: ولا الظلمات والنور ولا النور والظلمات وهكذا فاستغنى بذكر الأوائل عن الثواني ودل مذكور الكلام على متروكه، والقول بأنها مزيدة لتأكيد النفي يغني عن اعتبار هذا الحذف الذي لا فائدة فيه.

وقال الإمام: كررت لا فيما كررت لتأكيد المنافاة فالظلمات تنافي النور وتضاده والظل والحرور كذلك لأن المراد من الظل عدم الحر والبرد بخلاف الأعمى والبصير فإن الشخص الواحد قد يكون بصيراً. ثم يعرض له العمى فلا منافاة إلا من حيث الوصف، وأما الأحياء والأموات فيهما وإنت كانا كالأعمى والبصير من حيث إن الجسم الواحد قد يكون حياً ثم يعرض له الموت لكن المنافاة بين الحي والميت أتم من المنافاة بين الأعمى والبصير فإنهما قد يشتركان في إدراك أشياء ولا كذلك الحي والميت كيف والميت مخالف الحي في الحقيقة على ما تبين في الحكمة الإلهية، وقيل لم تكرر قيل وكررت بعد لأن المخاطب في أول الكلام لا يقصر في فهم المراد، وقيل كررت فيما عدا الأخير لأنه لو قيل وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات والنور مثلاً لتوهم نفي الاستواء بين مجموع الأعمى والبصير ومجموع الظلمات والنور، وفي الأخير للإعتناء وإدخال (لا) على المتقابلين لتذكير نفي الاستواء، وقدم الأعمى على البصير مع أن البصير أشرف لأنه إشارة إلى الكافر وهو موجود قبل البعثة والدعوة إلى الإيمان، ولنحو هذا قدم الظلمات على النور فإن الباطل كان موجوداً فدمغه الحق ببعثته عليه الصلاة والسلام، ولم يقدم الحرور على الظل ليكون على طرز ما سبق من تقديم غير الأشرف بل قدم الظل رعاية لمناسبته للعمى والظلمة من وجه أو لسبق الرحمة مع ما في ذلك من رعاية الفاصلة.

وقدم الأحياء على الأموات ولم يعكس الأمر ليوافق الأولين في تقديم غير الأشرف لأن الأحياء إشارة إلى المؤمنين بعد الدعوة والأموات إشارة إلى المصرين على الكفر بعدها ولذا قيل بعد ﴿**إن الله يسمع من يشاء**﴾ الخ ووجود المصرين بوصف الإصرار بعد وجود المؤمنين، وقيل قدم ما قدم فيما عدا الأخير لأنه عدم وله مرتبة السبق وفي

الأخير لأن المراد بالأموات. فاقدو الحياة بعد الاتصاف بها كما يشعر به أرداف ذلك بقوله تعالى: ﴿**وما أنت بمسمع من في القبور**﴾ فيكون للحياة مع أنها وجودية رتبة السبق أيضاً، وقيل إن تقديم غير الأشرف مع انفهام أنه غير أشرف على الأشرف للإشارة إلى أن التقديم صورة لا يخل بشرف الأشرف:

فالنار يعلوها الدخان وربما ... يعلو الغبار عمائم الفرسان

وجمع الظلمات مع إفراد النور لتعدد فنون الباطل واتحاد الحق، وقيل لأن الظلمة قد تتعدد فتكون في محال قد تخلل بينهما نور والنور في هذا العالم وإن تعدد إلا أنه يتحد وراء محل تعدده، وجمع الأحياء والأموات على بابه لتعدد المشبه بهما ولم يجمع الأعمى والبصير لذلك لأن القصد إلى الجنس والمفرد أظهر فيه مع أن في البصراء ترك رعاية الفاصلة وهو على الذوق السليم دون البصير، فتدبر جميع ذلك والله تعالى أعلم بأسرار كتابه وهو العليم الخبير.

وقرأ الأشهب والحسن «بمسمع من» بالإضافة ﴿**إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ**﴾ أي ما عليك إلا أن تبلغ وتنذر فإن كان المنذر ممن أراد الله تعالى هدايته سمع واهتدى وإن كان ممن أراد سبحانه ضلاله وطبع على قلبه فما عليك منه تبعة ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ**﴾ أي محقين على أنه حال من الفاعل أو محقاً على أنه حال من المفعول أو إرسالاً مصحوباً بالحق على أنه صفة لمصدر محذوف، وجوز الزمخشري تعلقه بقوله سبحانه: ﴿**بَشِيراً**﴾ ومتعلق قوله تعالى: ﴿**وَنَذِيراً**﴾ محذوف لدلالة المقابل على مقابله أي بشيراً بالوعد الحق ونذيراً بالوعيد الحق.

﴿**وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ**﴾ أي ما من جماعة كثيرة أهل عصر وأمة من الأمم الدارجة في الأزمنة الماضية ﴿**إِلاَّ خَلاَ**﴾ مضى ﴿**فِيهَا نَذِيرٌ**﴾ من نبي أو عالم ينذرها، والاكتفاء بذكره للعلم بأن النذارة قريبة البشارة لا سيما وقد اقترنا آنفاً مع أن الإنذار أنسب بالمقام، وقيل خص النذير بالذكر لأن البشارة لا تكون إلا بالسمع فهو من خصائص الأنبياء عليهم السّلام فالبشير نبي أو ناقل عنه بخلاف النذارة فإنه تكون سمعاً وعقلاً فلذا وجه النذير في كل أمة، وفيه بحث.

واستدل بعض الناس بهذه الآية مع قوله تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم﴾ [الأنعام: ٣٨] على في البهائم وسائر الحيوانات أنبياء أو علماء ينذرون، والاستدلال بذلك باطل لا يكاد نفي بطلانه على أحد حتى على البهائم، ولم نسمع القول بنبوة فرد من البهائم ونحوها إلا عن الشيخ محيي الدين ومن تابعه قدس الله سره، ورأيت في بعض الكتب أن القول بذلك كفر والعياذ بالله تعالى.

﴿**وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**﴾ من الأمم العاتية فلا تحزن من تكذيب هؤلاء إياك.

﴿**جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ**﴾ في موضع الحال على ما قال أبو البقاء إما بدون تقدير قد أو بتقديرها أي كذب الذين من قبلهم وقد جاءتهم رسلهم ﴿**بِالْبَيِّنَاتِ**﴾ أي بالمعجزات الظاهرة الدالة على صدقهم فيما يدعون ﴿**وَبِالزُّبُرِ**﴾ كصحف إبراهيم عليه السّلام ﴿**وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ**﴾ كالتوراة والإنجيل على إرادة التفصيل يعني أن بعضهم جاء بهذا وبعضهم جاء بهذا لا على إرادة الجمع وأن كل رسول جاء بجميع ما ذكر حتى يلزم أن يكون لكل رسول كتاب وعدد الرسل أكثر بكثير من عدد الكتب كما هو معروف، ومآل هذا إلى منع الخلو، ويجوز أن يراد بالزبر والكتاب واحد والعطف لتغاير العنوانين لكن فيه بعد ﴿**ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ وضع الظاهر موضع ضميرهم لذمهم بما حيز الصلة والأشعار بعلة الأخذ ﴿**فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ**﴾ أي إنكاري عليهم بالعقوبة، وفيه مزيد تشديد وتهويل وقد تقدم الكلام في نظير هذا في سبأ فتذكر.

وفي الآية من تسليته ﷺ ما فيها ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً**﴾ الخ استئناف مسوق على ما يخطر

بالبال لتقرير ما أشعر به قوله تعالى: ﴿ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير﴾ من عظيم قدرته عزّ وجلّ، وقال الشيخ الإِسلام: هو لتقرير ما قبله من اختلاف الناس ببيان أن الاختلاف والتفاوت أمر مطرد في جميع المخلوقات من النبات والجماد والحيوان.

وقال أبو حيان: تقرير لوحدانيته تعالى بأدلة سماوية وأرضية أثر تقريرها بأمثال ضربها جل شأنه، وهذا كما ترى، والاستفهام للتقرير، والرؤية قلبية لأن إنزال المطر وإن كان مدركاً بالبصر لكن إنزال الله تعالى إياه ليس كذلك، والخطاب عام أي ألم تعلم أن الله تعالى أنزل من جهة العلو ماء ﴿فَأَخْرَجْنَا به﴾ أي بذلك الماء على أنه سبب عادي للإِخراج، وقيل أي أخرجنا عنده، والالتفات لإِظهار كمال الاعتناء بالفعل لما فيه من الصنع البديع المنبىء عن كمال القدرة والحكمة ﴿ثَمَرَات مُخْتلفاً أَلْوَانُهَا﴾ أي أنواعها من التفاح والرمان والعنب والتين وغيرها مما لا يحصر، وهذا كما يقال فلان أتى بألوان من الأحاديث وقدم كذا لوناً من الطعام، واختلاف كل نوع بتعدد أصنافه كما في التفاح فإن له أصنافاً متغايرة لذة وهيئة وكذا في سائر الثمرات ولا يكاد يوجد نوع منها إلا وهو ذو أصناف متغايرة، ويجوز أن يراد اختلاف كل نوع باختلاف أفراده.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة أنه حمل الألوان على معناها المعروف واختلافها بالصفرة والحمرة والخضرة وغيرها، وروي ذلك عن ابن عباس أيضاً وهو الأوفق لما في قوله تعالى.

﴿وَمِنَ الـجِبَال جُدَدٌ بيضٌ وَحـمْرٌ﴾ وهو إما عطف على ما قبله بحسب المعنى أو حال وكونه استئنافاً مع ارتباطه بما قبله غير ظاهر، و ﴿جدد﴾ جمع جدة بالضم وهي الطريقة من جده إذا قطعه.

وقال أبو الفضل: هي من الطرائق ما يخالف لونه لون ما يليه ومنه جدة الحمار للخط الذي في وسط ظهره يخالف لونه، وسأل ابن الأزرق ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن الجدد فقال طرائق طريقة بيضاء وطريقة خضراء، وأنشد قول الشاعر:

قد غادر السبع في صفحاتها جددا ... كأنها طرق لاحت على أكم

والكلام على تقدير مضاف إن لم تقصد المبالغة لأن الجبال ليست نفس الطرائق أي ذو جدد. وقرأ الزهري «جُدُدٌ» بضمتين جمع جديدة كسفينة وسفن وهي بمعنى جدة. وقال صاحب اللوامح هو جمع جديد بمعنى آثار جديدة واضحة الألوان. وقال أبو عبيدة: لا مدخل لمعنى الجديدة في هذه الآية. ولعل من يقول بتجدد حدوث الجبال وتكونها من مياه تنبع من الأرض وتتحجر أولاً فأولاً ثم تنبع من موضع قريب مما تحجر فتتحجر أيضاً وهكذا حتى يحصل جبل لا يأبى حمل الآية على هذه القراءة على ما ذكر، والظاهر من الآيات والأخبار أن الجبال أحدثها الله تعالى بعيد خلق الأرض لئلا تميد بسكانها، والفلاسفة يزعمون أنها كانت طيناً في بحار انحسرت ثم تحجرت، وقد أطال الإِمام الكلام على ذلك في كتابه المباحث المشرقية واستدل على ذلك، بوجود أشياء بحرية كالصدف بين أجزائها، وهذا عند تدقيق النظر هباء وأكثر الأدلة مثلة، ومن أراد الاطلاع على ما قالوا فليرجع إلى كتبهم. وروي عنه أيضاً أنه قرأ «جَدَدٌ» بفتحتين ولم يجز ذلك أبو حاتم وقال: إن هذه القراءة لا تصح من حيث المعنى وصححها غيره وقال: الجدد الطريق الواضح المبين إلا أنه وضع المفرد موضع الجمع ولذا وصف بالجمع، وقيل هو من باب نطفة أمشاج وثوب أخلاق لاشتمال الطريق على قطع.

وتعقب بأنه غير ظاهر ولا مناسب لجمع الجبال ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ أي أصنافها بالشدة والضعف لأنها مقولة

بالتشكيك فمختلف صفة بيض وحمر، و ﴿ألوانها﴾ فاعل له وليس بمبتدأ، و ﴿مختلف﴾ خبره لوجوب مختلفة حينئذٍ، وجوز أن يكون صفة ﴿جدد﴾ ﴿وَغَرَابِيبُ﴾ عطف على ﴿بيض﴾ فهو من تفاصيل الجدد والصفات القائمة بها أي ومن الجبال ذو جدد بيض وحمر، وغرابيب والغربيب هو الذي أبعد في السواد وأغرب فيه ومنه الغراب، وكثر في كلامهم اتباعه للأسود على أنه صفة له أو تأكيد لفظي فقالوا أسود غربيب كما قالوا أبيض يقق وأصفر فاقع وأحمر قاني.

وظاهر كلام الزمخشري أن ﴿غرابيب﴾ هنا تأكيد لمحذوف والأصل وسود غرابيب أي شديدة السواد.

وتعقب بأنه لا يصح إلا على مذهب من يجوز حذف المؤكد ومن النحاة من منع ذلك وهو اختيار ابن مالك لأن التأكيد يقتضي الاعتناء والتقوية وقصد التطويل والحذف يقتضي خلافه. ورده الصفار كما في شرح التسهيل لأن المحذوف لدليل كالمذكور فلا ينافي تأكيده، وفي بعض شروح المفصل أنه صفة لذلك المحذوف أقيم مقامه بعد حذفه، وقوله تعالى: ﴿سُودٌ﴾ بدل منه أو عطف بيان له وهو مفسر للمحذوف، ونظير ذلك قول النابغة:

والمؤمن العائذات الطير يمسحها ... ركبان مكة بين الغيل والسند

وفيه التفسير بعد الإبهام ومزيد الاعتناء بوصف السواد حيث دل عليه من طريق الإضمار والإظهار.

ويجوز أن يكون العطف على ﴿جدد﴾ على معنى ومن الجبال ذو جدد مختلف اللون ومنها غرابيب متحدة اللون كما يؤذن به المقابلة وإخراج التركيب على الأسلوب الذي سمعته، وكأنه لما اعتنى بأمر السواد بإفادة أنه في غاية الشدة لم يذكر بعده الاختلاف بالشدة والضعف.

وقال الفراء: الكلام على التقديم والتأخير أي سود غرابيب، وقيل ليس هناك مؤكد ولا موصوف محذوف وإنما ﴿غرابيب﴾ معطوف على ﴿جدد﴾ أو على بيض من أول الأمر و ﴿سود﴾ بدل منه، قال في البحر: وهذا حسن ويحسنه كون غربيب لم يلزم فيه أن يستعمل تأكيداً، ومنه ما جاء في الحديث إن الله تعالى يبغض الشيخ الغربيب وهو الذي يخضب بالسواد، وفسره ابن الأثير بالذي لا يشيب أي لسفاهته أو لعدم اهتمامه بأمر آخرته، وحكي ما في البحر بصيغة قيل، وقول الشاعر:

العين طامحة واليد سامحة ... والرجل لائحة والوجه غربيب

﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ أي ومنهم بعض مختلف ألوانه أو بعضهم مختلف ألوانه على ما ذكروا في قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله﴾ [البقرة: ٨] والجملة عطف على الجملة التي قبلها وحكمها حكمها.

وفي إرشاد العقل السليم أن إيراد الجملتين اسميتين مع مشاركتهما لما قبلهما من الجملة الفعلية في الاستشهاد بمضمونها على تباين الناس في الأحوال الباطنة لما أن اختلاف الجبال والناس والدواب والأنعام فيما ذكر من الألوان أمر مستمر فعبر عنه بما يدل على الاستمرار وأما إخراج الثمرات المختلفة فحيث كان أمراً حادثاً عبر عنه بما يدل على الحدوث ثم لما كان فيه نوع خفاء علق به الرؤية بطريق الاستفهام التقريري المنبيء عن الحمل عليها والترغيب فيها بخلاف أحوال الجبال والناس وغيرهما فإنها مشاهدة غنية عن التأمل فلذلك جردت عن التعليق بالرؤية فتدبر ا هـ، وما ذكره من أمر تعليق الرؤية مخالف لما في البحر حيث قال: وهذا استفهام تقرير ولا يكون إلا في الشيء الظاهر جداً فتأمل.

وقرأ الزهري «والدواب» بتخفيف الباء مبالغة في الهرب من التقاء الساكنين كما همز بعضهم ﴿ولا الضالين﴾ لذلك.

وقرأ ابن السميفع «ألوانها» وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ في محل نصب صفة لمصدر مختلف المؤكد والتقدير مختلف اختلافاً كائناً كذلك أي كاختلاف الثمرات والجبال فهو من تمام الكلام قبله والوقف عليه حسن بإجماع أهل الأداء وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ تكملة لقوله تعالى: ﴿إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب﴾ [فاطر: ١٨] بتعيين من يخشاه عزّ وجلّ من الناس بعد الإيماء إلى بيان شرف الخشية ورداءة ضدها وتوعد المتصفين به وتقرير قدرته عزّ وجلّ المستدعي للخشية على ما نقول أو بعد بيان اختلاف طبقات الناس وتباين مراتبهم أما في الأوصاف المعنوية فبطريق التمثيل وأما في الأوصاف الصورية فبطريق التصريح توفية لكل واحدة منهما حقها اللائق بها من البيان، وقيل ﴿كذلك﴾ في موضع رفع خبر مبتدأ محذوف أي الأمر كذلك أي كما بين ولخص ثم قيل: ﴿إنما يخشى الله﴾ الخ وسلك به مسلك الكناية من باب العرب لا تخفر الذمم دلالة على أن العلم يقتضي لخشية ويناسبها وهو تخلص إلى ذكر أوليائه تعالى مع إفادة أنهم الذين نفع فيهم الإنذار وأن لك بهم غنية عن هؤلاء المصرين، قال صاحب الكشف: والرفع أظهر ليكون من فصل الخطاب.

وقال ابن عطية يحتمل أن يكون ﴿كذلك﴾ متعلقاً بما بعده خارجاً مخرج السبب أي كذلك الاعتبار والنظر في مخلوقات الله تعالى واختلاف ألوانها يخشى الله العلماء، ورده السمين بأن إنما لا يعمل ما بعدها فيما قبلها وبأن الوقف على كذلك عند أهل الأداء جميعاً، وارتضاه الخفاجي وقال: وبه ظهر ضعف ما قيل: إن المعنى الأمر كذلك أي كما بين ولخص على أنه تخلص لذكر أولياء الله تعالى، وفيه أنه ليس في هذا المعنى عمل ما بعد إنما فيما قبلها وإجماع أهل الأداء على الوقف على ﴿كذلك﴾ إن سلم لا يظهر به ضعف ذلك، وفي بعض التفاسير المأثورة عن السلف ما يشعر بتعلق ﴿كذلك﴾ بما بعده.

أخرج ابن المنذر عن ابن جريج أنه قال في الآية كما اختلفت هذه الأنعام تختلف الناس في خشية الله تعالى كذلك وهذا عندي ضعيف والأظهر ما عليه الجمهور وما قيل أدق وألطف، والمراد بالعلماء العالمون بالله عزّ وجلّ وبما يليق به من صفاته الجليلة وأفعاله الحميدة وسائر شؤونه الجميلة لا العارفون بالنحو والصرف مثلاً فمدار الخشية ذلك العلم لا هذه المعرفة فكل من كان أعلم به تعالى كان أخشى. روى الدارمي عن عطاء قال: قال موسى عليه السّلام يا رب أي عبادك أحكم؟ قال الذي يحكم للناس كما يحكم لنفسه قال: يا رب أي عبادك أغنى؟ قال: أرضاهم بما قسمت له قال: يا رب أي عبادك أخشى؟ قال: أعلمهم بي وصح عنه ﷺ أنه قال: «أنا أخشاكم لله وأتقاكم له» ولكونه المدار ذكرت الخشية بعد ما يدل على كمال القدرة، ولهذه المناسبة فسر ابن عباس كما أخرج عنه ابن المنذر وابن جرير ﴿العلماء﴾ في الآية بالذين يعلمون أن الله تعالى على كل شيء قدير، وتقديم المفعول لأن المقصود بيان الخاشين والإخبار بأنهم العلماء خاصة دون غيرهم ولو أخر لكان المقصود بيان المخشي والإخبار بأنه الله تعالى دون غيره كما في قوله تعالى: ﴿ولا يخشون أحداً إلا الله﴾ [الأحزاب: ٣٩] والمقام لا يقتضيه بل يقتضي الأول ليكون تعريضاً بالمنذرين المصرين على الكفر والعناد وأنهم جهلاء بالله تعالى وبصفاته ولذلك لا يخشون الله تعالى ولا يخافون عقابه.

وأنكر بعضهم إفادة ﴿إنما﴾ هنا للحصر وليس بشيء، وروي عن عمر بن عبد العزيز. وأبي حنيفة رضي الله تعالى عنهما أنهما قرءا «إنما يخشى اللهُ» بالرفع «العلماءَ» بالنصب وطعن صاحب النشر في هذه القراءة، وقال أبو حيان: لعلها لا تصح عنهما، وقد رأينا كتباً في الشواذ ولم يذكروا هذه القراءة وإنما ذكرها الزمخشري وذكرها عن أبي حيوة أبو القاسم يوسف بن علي بن جنادة في كتابه الكامل وخرجت على أن الخشية مجاز عن التعظيم بعلاقة اللزوم فإن المعظم يكون مهيباً، وقيل الخشية ترد بمعنى الاختيار كقوله:

خشيت بني عمي فلم أر مثلهم

﴿إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ تعليل لوجوب الخشية لأن العزة دالة على كمال القدرة على الانتقام ولا يوصف بالمغفرة والرحمة إلا القادر على العقوبة، وقيل ذكر ﴿غفور﴾ من باب التكميل نظير ما في بيت الغنوي المذكور آنفاً.

والآية على ما في بعض الآثار نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وقد ظهرت عليه الخشية حتى عرفت فيه.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ
تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾
وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ
أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ
بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ
مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ
شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ
كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم
مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ
غَيْبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ
فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ
أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ
كِتَـٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّـٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ
ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا۟
بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا
﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ
ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ
عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن
دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ﴾ أي يداومون على قراءته حتى صارت سمة لهم وعنواناً كما يشعر به صيغة المضارع ووقوعه صلة واختلاف الفعلين والمراد بكتاب الله القرآن فقد قال مطرف بن عبد الله بن الشخير: هذه آية القراء.

وأخرج عبد الغني بن سعيد الثقفي في تفسيره عن ابن عباس أنها نزلت في حصين بن الحارث بن عبد المطلب القرشي، ثم إن العبرة بعموم اللفظ فلذا قال السدي في التالين: هم أصحاب رسول الله ﷺ وقال عطاء: هم المؤمنون أي عامة وهو الأرجح ويدخل الأصحاب دخولاً أولياً، وقيل معنى يتلون كتاب الله يتبعونه فيعملون بما فيه، وكأنه جعل يتلو من تلاه إذا تبعه أو حمل التلاوة المعروفة على العمل لأنها ليس فيها كثير نفع دونه، وقد ورد: «رب قارىء للقرآن والقرآن يلعنه» ويشعر كلام بعضهم باختيار المعنى المتبادر حيث قال: إنه تعالى لما ذكر الخشية وهي عمل القلب ذكر بعدها علم اللسان والجوارح والعبادة المالية، وجوز أن يراد بكتاب الله تعالى جنس كتبه عزّ وجلّ الصادق على التوراة والإنجيل وغيرهما فيكون ثناءً على المصدقين من الأمم بعد اقتصاص حال المكذبين بقوله تعالى: ﴿وإن يكذبوك﴾ الخ والمضارع لحكاية الحال الماضية، والمقصود من الثناء عليهم وبيان ما لهم حث هذه الأمة على اتباعهم وأن يفعلوا نحو ما فعلوا، والوجه الأول أوجه كما لا يخفى وعليه الجمهور.

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سراً وَعَلَانِيَةً﴾ أي مسرين ومعلنين أو في سر وعلانية، والمراد ينفقون كيفما اتفق من غير قصد إليهما، وقيل السر في الإنفاق المسنون والعلانية في الإنفاق المفروض، وفي كون الإنفاق مما رزقوا إشارة إلى أنهم لم يسرفوا ولم يبسطوا أيديهم كل البسط، ومقام التمدح مشعر بأنهم تحروا الحلال الطيب، وقيل جيء بمن لذلك، والمعتزلة يخصون الرزق بالحلال وهو أنسب بإسناد الفعل إلى ضمير العظمة، ومن لا يخصه بالحلال يقول هو التعظيم والحث على الإنفاق ﴿يَرْجُونَ﴾ بما آتوا من الطاعات ﴿تِجَارَةً﴾ أي معاملة مع الله تعالى لنيل ربح الثواب على أن التجارة مجاز عما ذكر والقرينة حالية كما قال بعض الأجلة، وقوله تعالى: ﴿لَنْ تَبُورَ﴾ أي لن تكسد، وقيل لن تهلك بالخسران صفة تجارة وترشيح للمجاز، وجملة ﴿يرجون﴾ الخ على ما قال الفراء وأبو البقاء خبر إن، وفي إخباره تعالى عنهم بذلك إشارة إلى أنهم لا يقطعون بنفاق تجارتهم بل يأتون ما آتوا من الطاعات وقلوبهم وجلة أن لا يقبل منهم، وجعل بعضهم التجارة مجازاً عن تحصيل الثواب بالطاعة وأمر الترشيح على حاله وإليه ذهب أبو السعود ثم قال: والإخبار برجائهم من أكرم الأكرمين عدة قطعية بحصول مرجوهم.

وظاهر ما روي عن قتادة من تفسيره التجارة بالجنة أنها مجاز عن الربح وفسر ﴿لن تبور﴾ بلن تبيد وهو كما ترى، وقوله تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ متعلق عند بعض بما دل عليه لن تعلق ﴿بنعمة ربك﴾ في قوله تعالى: ﴿ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾ [القلم: ٢] بما دل عليه ـ ما ـ لا بالحرف إذ لا يتعلق الجار به على المشهور أي ينتفي الكساد عنها وتنفق عند الله تعالى ليوفيهم أجور أعمالهم ﴿وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ على ذلك من خزائن رحمته ما يشاء وعن أبي وائل زيادته تعالى إياهم بتشفيعهم فيمن أحسن إليهم.

وقال الضحاك: بتفسيح القلوب، وفي الحديث بتضعيف حسناتهم، وقيل بالنظر إلى وجهه تعالى الكريم.

والظاهر أن ﴿من فضله﴾ راجع لما عنده ففيه إشارة إلى أن توفية أجورهم كالواجب لكونه جزاء لهم بوعده

سبحانه ويجوز أن يكون راجعاً إليهما أو متعلق بمقدر يدل عليه ما قبله وهو ما عد من أفعالهم المرضية أي فعلوا ذلك ليوفيهم أجورهم الخ، وجوز تعلقه بما قبله على التنازع وصنيع أبي البقاء يشعر باختيار تعلقه بيرجون وجعل اللام عليه لام الصيرورة. ويعقب بأنه لا مانع من جعلها لام العلة كما هو الشائع الكثير ولا يظهر للعدول عنه وجه.

ووجه ذلك الطيبي بأن غرضهم فيما فعلوا لم يكن سوى تجارة غير كاسدة لأن صلة الموصول هنا علة وإيذان بتحقق الخبر ولما أدى ذلك إلى أن وفاهم الله تعالى أجورهم أتى باللام، وإنما لم يذهب إليه بعض الأجلة كالزمخشري لأن هذه اللام لا توجد إلا فيما يترتب الثاني الذي هو مدخولها على الأول ولا يكون مطلوباً نحو تعالى: ﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً﴾ [القصص: ٨] وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ تعليل لما قبله من التوفية والزيادة عند الكثير أي غفور لفرطات المطيعين شكور لطاعاتهم أي مجازيهم عليها أكمل الجزاء فيوفي هؤلاء أجورهم ويزيدهم من فضله، وجوز أن يكون خبراً بعد خبر والعائد محذوف أي لهم، وجوز أن يكون هو الخبر بتقدير العائد وجملة ﴿يرجون﴾ حال من ضمير ﴿أنفقوا﴾ بناءً على أن القيد المتعقب لأمور متعددة يختص بالأخير كما هو مذهب أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه أو على أن رجاء التجارة النافقة أوفق بالإنفاق أو من مقدر أي فعلوا جميع ذلك راجين.

واستظهره الطيبي، والجملة عليه معترضة فلا يرد أن فيه الفصل بين المبتدأ وخبره بأجنبي، وجوز أن يكون حالاً من ضمير ﴿الذين﴾ على سبيل التنازع، ولم يشتهر التنازع في الحال وأنا لا أرى فيه بأساً، واستظهر بعض المعاصرين جعل الجملة المذكورة حالاً من ضمير ﴿أنفقوا﴾ لقربه وشدة الملاءمة بين الإنفاق ورجاء تجارة لها نفاق ولا يبعد أن يكون قد حذف فيما تقدم نظيرها لدلالتها عليه وجعل ﴿ليوفيهم﴾ متنازعاً فيه للأفعال الثلاثة المتعاطفة أو جعل الجملة حالاً من مقدر كما سمعت آنفاً و ﴿ليوفيهم﴾ متعلقاً بيرجون وجملة ﴿إنه غفور شكور﴾ خير المبتدأ والربط محذوف وفي جملة ﴿يرجون﴾ الخ احتمال الاستعارة التمثيلية ولو على بعد ولم أرَ من أشار إليه فتدبر.

﴿وَالَّذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ وهو القرآن، و ﴿من﴾ للتبيين إذ القرآن أخص من الذي أوحينا مفهوماً وإن اتحدا ذاتاً أو جنس الكتاب ومن للتبعيض إذ المراد من ﴿الذي أوحينا﴾ هو القرآن وهو بعض جنس الكتاب، وقيل هو اللوح ومن للابتداء ﴿هُوَ الحَقُّ﴾ إذا كان المراد الحصر فهو من قصر المسند إليه على المسند لا العكس لعدم استقامة المعنى إلا أن يقصد المبالغة قاله الخفاجي والمتبادر الشائع في أمثاله قصر المسند على المسند إليه وهو ها هنا إن لم تقصد المبالغة قصر إضافي بالنسبة إلى ما يفتريه أهل الكتاب وينسبونه إلى الله تعالى.

﴿مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْه﴾ أي لما تقدمه من الكتب السماوية ونصب ﴿مصدقاً﴾ على الحالية والعامل فيه مقدر يفهم من مضمون الجملة قبله أي أحققه مصدقاً وهو حال مؤكدة لأن حقيته تستلزم موافقته الكتب الإلهية المتقدمة عليه بالزمان في العقائد وأصول الأحكام، واللام للتقوية ﴿إِنَّ الله بعباده لَخَبيرٌ بَصيرٌ﴾ محيط ببواطن أمورهم وظواهرها فلو كان في أحوالك ما ينافي النبوة لم يوح إليك مثل هذا الحق المعجز الذي هو عيار على سائر الكتب، وتقديم «الخبير» للتنبيه على أن العمدة هي الأمور الروحانية، وإلى ذلك أشار ﷺ بقوله: «إن الله لا ينظر إلى أعمالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم» ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكِتَابَ﴾ أي القرآن كما عليه الجمهور، والعطف قيل على ﴿الذي أوحينا﴾ وقيل على ﴿أوحينا﴾ بإقامة الظاهر مقام الضمير العائد على الموصول، واستظهر ذلك بالقرب وتوافق الجملتين أي ثم أعطيناه من غير كد وتعب في طلبه ﴿الَّذينَ اصْطَفَيْنَا من عبَادنَا﴾ وهم كما قال ابن عباس وغيره أمة محمد ﷺ فإن الله تعالى اصطفاهم على سائر الأمم وجعلهم أمة وسطاً ليكونوا شهداء على الناس وخصهم بالانتماء

إلى أكرم رسله وأفضلهم عليهم الصلاة والسلام، و ﴿ثم﴾ للتراخي الرتبي فإن إيحاء الكتاب إليه ﷺ أشرف من الإيراث المذكور كأنه كالعلة له وبه تحققت نبوته عليه الصلاة والسلام التي هي منبع كل خير وليست للتراخي الزماني إذ زمان إيحائه إليه عليه الصلاة والسلام هو زمان إيراثه، وإعطائه أمته بمعنى تخصيصه بهم وجعله كتابهم الذي إليه يرجعون وبالعمل بما فيه ينتفعون، وإذا أريد بإيراثه إياهم إيراثه منه ﷺ وجعلهم منتفعين به فاهمين ما فيه بالذات كالعلماء أو بالواسطة كغيرهم بعده عليه الصلاة والسلام فهي للتراخي الزماني، والتعبير عن ذلك بالماضي لتحققه، وجوز أن يكون معنى ﴿أورثنا الكتاب﴾ حكمنا بإيراثه وقدرناه على أنه مجاز من إطلاق السبب على المسبب فتكون ثم للتراخي الرتبي وإلا فزمان الحكم سابق على زمان الإيحاء.

ووجه التعبير بالماضي عليه ظاهر. وفي شرح الرضي أن ثم قد تجيء في عطف الجمل خاصة لاستبعاد مضمون ما بعدها عن مضمون ما قبلها وعدم مناسبته له كما في قوله تعالى: ﴿استغفروا ربكم ثم توبوا إليه﴾ [هود: ٣، ٩٠] فإن بين توبة العباد وهي انقطاع العبد إليه تعالى بالكلية وبين طلب لمغفرة بوناً بعيداً وهذا المعنى فرع التراخي ومجازه ا هـ.

وابن الشيخ جعل ما هنا كما في هذه الآية، وجوز أن يكون ﴿ثم أورثنا﴾ الخ متصلاً بما سبق من قوله تعالى: ﴿إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً﴾ [البقرة: ١١٩] و ﴿وإن من أمة إلاّ خلا فيها نذير﴾ [فاطر: ٢٤] والمراد ثم أورثنا الكتاب من الأمم السالفة وأعطيناه بعدهم الذين اصطفيناهم من الأمة المحمدية، والكتاب القرآن كما قيل: ﴿وإنه لفي زبر الأولين﴾ [الشعراء: ١٩٦] وقيل لا يحتاج إلى اعتبار ذلك ويجعل المعنى ثم أخرنا القرآن عن الأمم السالفة وأعطيناه هذه الأمة، ووجه النظم أنه تعالى قدم إرساله في كل أمة رسولاً وعقبه بما ينبيء أن تلك الأمم تفرقت حزبين حزب كذبوا الرسل وما أنزل معهم وهم المشار إليهم بقوله تعالى: ﴿فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير﴾ [فاطر: ٢٥] وحزب صدقوهم وتلوا كتاب الله تعالى وعملوا بمقتضاه وهم المشار إليهم بقوله سبحانه: ﴿إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة﴾ الخ وبعد أن أثنى سبحانه على التالين لكتبه العاملين بشرائعه من بين المكذبين بها من سائر الأمم جاء بما يختص برسوله ﷺ من قوله سبحانه: ﴿والذي أوحينا إليك من الكتاب﴾ الخ استطراداً معترضاً ثم أخبر سبحانه بإيراثه هذا الكتاب الكريم هذه الأمة بعد إعطاء تلك الأمم الزبر والكتاب المنير، وعلى هذا يكون المعنى في ﴿أورثنا﴾ على ظاهره، وثم للتراخي في الأخبار أو للتراخي في الرتبة إيذاناً بفضل هذا الكتاب على سائر الكتب وفضل هذه الأمة على سائر الأمم، وفي هذا الوجه حمل الكتاب في قوله سبحانه: ﴿إن الذين يتلون كتاب الله﴾ على الجنس وجعل الآية ثناءً على الأمم المصدقين بعد اقتصاص حال المكذبين منهم، فإن دفع ما فيه فهو من الحسن بمكان. وجوز أن يكون عطفاً على ﴿إن الذين يتلون كتاب الله﴾ وإذا كان إيراث الكتاب سابقاً على تلاوته فالمعنى على ظاهره وثم للتفاوت الرتبي أو للتراخي في الأخبار ﴿والذي أوحينا﴾ الخ اعتراض لبيان كيفية الإيراث لأنه إذا صدقها بمطابقته لها في العقائد والأصول كان كأنه هي وكأنه انتقل إليهم ممن سلف، وهو كما ترى، وجوز على هذا وما قبله أن يراد بالكتاب الجنس، ولا يخفى أن إرادة القرآن هو الظاهر، وقيل المراد بالمصطفين علماء الأمة من الصحابة ومن بعدهم ممن يسير بسيرتهم وإيراثهم القرآن جعلهم فاهمين معناه واقفين على حقائقه ودقائقه أمناء على أسراره.

وروى الإمامية عن الصادق والباقر رضي الله تعالى عنهما أنهما قالا: هي لنا خاصة وإيانا عنى أرادا أن أهل البيت أو الأئمة منهم هم المصطفون الذين أورثوا الكتاب، واختار هذا الطبرسي الإمامي قال في تفسيره مجمع البيان: وهذا

أقرب الأقوال لأنهم أحق الناس بوصف الاصطفاء والاجتباء وإيراث علم الأنبياء عليهم السّلام.

وربما يستأنس له بقوله عليه الصلاة والسلام: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله تعالى وعترتي لن يفترقا حتى يردا على الحوض» وحملهم على علماء الأمة أولى من هذا التخصيص ويدخل فيهم علماء أهل البيت دخولاً أولياً ففي بيتهم نزل الكتاب ولن يفترقا حتى يردا الحوض يوم الحساب، وإذا كانت الإضافة في ﴿عبادنا﴾ للتشريف واختص العباد بمؤمني هذه الأمة وكانت من للتبعيض كأن حمل المصطفين على العلماء كالمتعين، وعن الجبائي أنهم الأنبياء عليهم السّلام اختارهم الله تعالى وحباهم رسالته وكتبه، وعليه يكون تعريف الكتاب للجنس والعطف على قوله تعالى: ﴿والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق﴾ وثم للتراخي في الأخبار، أخبر سبحانه أولاً عما أوتيه نبينا ﷺ وهو متضمن للأخبار بإيتائه عليه الصلاة والسلام الكتاب على أكمل وجه ثم أخبر سبحانه بتوريث إخوانه الأنبياء عليهم السّلام وإيتائهم الكتب، ومما يرد عليه أن إيتاء الأنبياء عليهم السّلام الكتب قد علم قبل من قوله تعالى: ﴿فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير﴾ [فاطر: ٢٥].

وعن أبي مسلم أنهم المصطفون المذكورون في قوله تعالى: ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين﴾ [آل عمران: ٣٣] وهو دون ما قبله، وأياً ما كان فالموصول مفعول أول لأورثنا، و﴿الكتاب﴾ مفعول ثانٍ له قدم لشرفه والاعتناء به وعدم اللبس، ومن للبيان أو للتبعيض ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِه﴾ الفاء للتفصيل لا للتعليل كما قيل، وضمير الجمع على ما سمعت أولاً في تفسير الموصول للموصول، والظالم لنفسه من قصر في العمل بالكتاب وأسرف على نفسه وهو صادق على من ظلم غيره لأنه بذلك ظالم لنفسه والمشهور مقابلته بالظالم لغيره، واللام للتقوية.

﴿وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ يتردد بين العمل به ومخالفته فيعمل تارة ويخالف أخرى، وأصل معنى الاقتصاد التوسط في الأمر ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ﴾ متقدم إلى ثواب الله تعالى وجنته ﴿بِالْخَيْرَاتِ﴾ أي بسبب الخيرات أي الأعمال الصالحة، وقيل: سابق على الظالم لنفسه والمقتصد في الدرجات بسبب الخيرات، وقيل: أي محرز الفضل بسببها ﴿بِإِذْنِ الله﴾ أي بتيسيره تعالى وتوفيقه عزّ وجلّ، وفيه تنبيه على عزة منال هذه الرتبة وصعوبة مأخذها، وفسر بمن غلبت طاعته معاصيه وكثر عمله بكتاب الله تعالى، وما ذكر في تفسير الثلاثة مما يشير إليه كلام الحسن فقد روي عنه أنه قال: الظالم من خفت حسناته والمقتصد من استوت والسابق من رجحت، ووراء ذلك أقوال كثيرة فقال معاذ: الظالم لنفسه الذي مات على كبيرة لم يتب منها والمقتصد من مات على صغيرة ولم يصب كبيرة لم يتب منها والسابق من مات تائباً من كبيرة أو صغيرة أو لم يصب ذلك، وقيل الظالم لنفسه العاصي المسرف والمقتصد متقي الكبائر والسابق المتقي على الإطلاق، وقيل الأول المقصر في العمل والثاني العامل بالكتاب في أغلب الأوقات ولم يخل عن تخليط والثالث السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار.

وقيل الأولان كما ذكر والثالث المداوم على إقامة مواجب الكتاب علماً وعملاً وتعليماً، وقيل: الأول من أسلم بعد الفتح والثاني من أسلم قبله والثالث من أسلم قبل الهجرة، وقيل: هم من لا يبالي من أين ينال ومن قوته من الحلال ومن يكتفي من الدنيا بالبلاغ، وقيل: من همه الدنيا ومن همه العقبى ومن همه المولى، وقيل: طالب النجاة وطالب الدرجات وطالب المناجاة، وقيل: تارك الزلة وتارك الغفلة وتارك العلاقة، وقيل: من شغله معاشه عن معاده ومن شغله بهما ومن شغله معاده عن معاشه وقيل: من يأتي بالفرائض خوفاً من البار ومن يأتي بها خوفاً منها ورضاً واحتساباً ومن يأتي بها رضاً واحتساباً فقط، وقيل: الغافل عن الوقت والجماعة والمحافظ على الوقت دون الجماعة والمحافظ

عليهما، وقيل: من غلبت شهوته عقله ومن تساويا ومن غلب عقله شهوته، وقيل: من لا ينهى عن المنكر ويأتيه ومن ينهى عن المنكر ويأتيه ومن يأمر بالمعروف ويأتيه، وقيل: ذو الجور وذو العدل وذو الفضل، وقيل: ساكن البادية والحاضرة والمجاهد، وقيل: من كان ظاهره خيراً من باطنه ومن استوى باطنه وظاهره ومن باطنه خير من ظاهره.

وقيل: التالي للقرآن غير العالم به ولا العامل بموجبه والتالي العالم غير العامل والتالي العالم العامل، وقيل: الجاهل والمتعلم والعالم، وقيل: من خالف الأوامر وارتكب المناهي ومن اجتهد في أداء التكاليف وإن لم يوفق لذلك ومن لم يخالف تكاليف الله تعالى.

وروى بعض الإمامية عن ميسر بن عبد العزيز عن جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه الظالم لنفسه منا من لا يعرف حق الإمام والمقتصد العارف بحق الإمام والسابق هو الإمام، وعن زياد بن المنذر عن أبي جعفر رضي الله تعالى عنه الظالم لنفسه منا من علم صالحاً وآخر سيئاً والمقتصد المتعبد المجتهد والسابق بالخيرات علي والحسن والحسين رضي الله تعالى عنهم ومن قتل من آل محمد شهيداً، وقيل: هم الموحد بلسانه الذي تخالفه جوارحه والموحد الذي يمنع جوارحه بالتكليف والموحد الذي ينسيه التوحيد غير التوحيد، وقيل: من يدخل الجنة بالشفاعة ومن يدخلها بفضل الله تعالى ومن يدخلها بغير حساب، وقيل: من أوتي كتابه من وراء ظهره ومن أوتي كتابه بشماله ومن أوتي كتابه بيمينه، وقيل: الكافر مطلقاً والفاسق والمؤمن التقي، وفي معناه ما جاء في رواية عن ابن عباس وقتادة وعكرمة الظالم لنفسه أصحاب المشأمة والمقتصد أصحاب الميمنة والسابق بالخيرات السابقون المقربون، والظاهر أن هؤلاء ومن قال نحو قولهم يجعلون ضمير ﴿**منهم**﴾ للعباد لا للموصول ولا شك أن منهم الكافر وغيره وكون العباد المضاف إلى الله تعالى مخصوصاً بالمؤمنين ليس بمطرد وإنما يكون كذلك إذا قصد بالإضافة التشريف، والقول برجوع الضمير للموصول والتزام كون الاصطفاء بحسب الفطرة تعسف كما لا يخفى، وقيل: في تفسير الثلاثة غير ما ذكر، وذكر في التحرير ثلاثة وأربعين قولاً في ذلك، ومن تتبع التفاسير وجدها أكثر من ذلك لكن لا يجد في أكثرها كثير تفاوت، والذي يعضده معظم الروايات والآثار أن الأصناف الثلاثة من أهل الجنة فلا ينبغي أن يلتفت إلى تفسير الظالم بالكافر إلا بتأويل كافر النعمة وإرادة العاصي منه.

أخرج الإمام أحمد والطيالسي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي والترمذي وحسنه عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال في هذه الآية: ﴿**ثم أورثنا الكتاب ــــ إلى ــــ الخيرات**﴾ هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة وكلهم في الجنة، وقوله عليه الصلاة والسلام وكلهم الخ عطف تفسيري.

وأخرج الطبراني وابن مردويه في البعث عن أسامة بن زيد أنه قال في الآية: «قال رسول الله ﷺ كلهم من هذه الأمة وكلهم في الجنة» وأخرج ابن النجار عن أنس أن النبي ﷺ قال «سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له» وأخرج العقيلي وابن مردويه والبيهقي عن عمر بن الخطاب مرفوعاً نحوه.

وأخرج الإمام أحمد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وابن مردويه والبيهقي عن أبي الدرداء قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول قال الله تعالى: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله﴾ فأما الذين سبقوا فأولئك يدخلون الجنة بغير حساب وأما الذين اقتصدوا فأولئك الذين يحاسبون حساباً يسيراً وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك يحبسون في طول المحشر ثم هم الذين يتلقاهم الله تعالى برحمته فهم الذين يقولون الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور» الآية قال البيهقي: إذا كثرت الروايات في حديث ظهر أن للحديث أصلاً، والأخبار في هذا الباب كثيرة وفيما

ذكر كفاية، وقدم الظالم لنفسه لكثرة الظالمين لأنفسهم وعقب بالمقتصد لقلة المقتصدين بالنسبة إليهم وأخر السابق لأن السابقين أقل من القليل قاله الزمخشري، وحكى الطبرسي أن هذا الترتيب على مقامات الناس فإن أحوال العباد ثلاث معصية ثم توبة ثم قربة فإذا عصى العبد فهو ظالم فإذا تاب فهو مقتصد فإذا صحت توبته وكثرت مجاهدته فهو سابق، وقيل: قدم الظالم لئلا ييأس من رحمة الله تعالى وأخر السابق لئلا يعجب بعمله فتعين توسيط المقتصد، وقال قطب الدين: النكتة في تقديم الظالم أنه أقرب الثلاثة إلى بداية حال العبد قبل اصطفائه بإيراث الكتاب فإذا باشره الاصطفاء فمن العباد من يتأثر قليلاً وهو الظالم لنفسه ومنهم من يتأثر تأثراً وسطاً وهو المقتصد ومنهم من يتأثر تأثراً تاماً وهو السابق، وقريب منه ما قيل: إن الاصطفاء مشكك تتفاوت مراتبه وأولها ما يكون للمؤمن الظالم لنفسه وفوقه ما يكون للمقتصد وفوق الفوق ما يكون للسابق بالخيرات فجاء الترتيب كالترقي في المراتب، وقيل: أخر السابق لتعدد ما يتعلق به فلو قدم أو وسط لبعد في الجملة ما بين الأقسام المتعاطفة ولما كان الاقتصاد كالنسبة بين الظلم والسبق اقتضى ذلك تقديم الظالم وتأخير المقتصد ليكون المقتصد بين الظالم والسابق لفظاً كما هو بينهما معنى، وقد يقال: رتب هذه الثلاثة هذا الترتيب ليوافق حالهم في الذكر بالنسبة إلى ما وعدوا به من الجنات في قوله سبحانه ﴿**جنات عدن**﴾ الآية حالهم في الحشر عند تحقق الوعد فأخر السابق الداخل في الجنان أولاً ليتصل ذكره بذكر الجنات الموعود بها وذكر قبله المقتصد وجعل السابق فاصلاً بينه وبين الجنات لأنه إنما يدخلها بعده فيكون فاصلاً بينه وبينها في الدخول وذكر قبلهما الظالم لنفسه لأنه إنما يدخلها ويتصل بها بعد دخولهما فتأخير السابق في المعنى تقديم وتقديم الظالم في المعنى تأخير، ويحتمل ذلك أوجهاً أخرى تظهر بالتأمل فتأمل، وقرأ أبو عمران الجوني وعمر بن أبي شجاع ويعقوب في رواية والقزاز عن أبي عمرو «سباق» بصيغة المبالغة ﴿**ذَٰلِكَ**﴾ أي ما تقدم من الإيراث والاصطفاء ﴿**هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ**﴾ من الله عزّ وجلّ لا دخل للكسب فيه ﴿**جَنَّٰتُ عَدْنٍ**﴾ مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿**يَدْخُلُونَهَا**﴾ ويؤيده قراءة الجحدري وهارون عن عاصم «جناتَ» بالنصب على الاشتغال أي يدخلون جنات عدن يدخلونها واحتمال جره بدلاً من الخيرات بعيد وفيه الفصل بين البدل والمبدل منه بأجنبي فلا يلتفت إليه.

وضمير الجمع للذين اصطفينا أو للثلاثة. وقال الزمخشري: ذلك إشارة إلى السبق بالخيرات ﴿**وجنات عدن**﴾ بدل من الفضل الذي هو السبق ولما كان السبق بالخيرات سبباً لنيل الثواب جعل نفس الثواب إقامة للسبب مقام المسبب ثم أبدل منه وضمير الجمع للسابق لأن القصد إلى الجنس، فخص الوعد بالقسم الأخير مراعاة لمذهب الاعتزال وهو على ما سمعت للأقسام الثلاثة وذلك هو الأظهر في النظم الجليل ليطابقه قوله تعالى بعد ﴿**والذين كفروا لهم نار جهنم**﴾ وليناسب حديث التعظيم والاختصاص المدمج في قوله سبحانه ﴿**ثم أورثنا الكتاب**﴾ وإلا فأي تعظيم في ذلك الذكر بعد أن لز أكثر المصطفين في قرن الكافرين وليناسب ذكر الغفور بعد حال الظالم والمقتصد والشكور حال السابق ولتعسف ما ذكره من الاعراب وبعده عن الذوق وكيف لا يكون الأظهر وقد فسره كذلك أفضل الرسل ومن أنزل عليه هذا الكتاب المبين على ما مر آنفاً وإليه ذهب الكثير من أصحابه الفخام ونجوم الهداية بين الأنام رضي الله تعالى عنهم وعد منهم في البحر عمر وعثمان وابن مسعود وأبا الدرداء وأبا سعيد وعائشة رضي الله تعالى عنهم، وقد أخرج سعيد بن منصور والبيهقي في البعث عن البراء بن عازب أنه قال بعد أن قرأ الآية: أشهد على الله تعالى أنه يدخلهم الجنة جميعاً، وأخرج غير واحد عن كعب أنه قرأ الآية إلى ﴿**لغوب**﴾ فقال دخلوها ورب الكعبة، وفي لفظ كلهم في الجنة ألا ترى على أثره ﴿**والذين كفروا لهم نار جهنم**﴾ نعم إن أريد بالظالم لنفسه الكافر يتعذر رجوع الضمير إلى ما ذكر ويتعين رجوعه إلى السابق وإليه وإلى المقتصد لأن المراد بهما الجنس لكن لا

ينبغي أن يراد بعد هاتيك الأخبار، وقرأ زر بن حبيش والزهري «جنة عدن» بالأفراد والرفع وقرأ أبو عمرو «يُدْخَلُونَها» بالبناء للمفعول ورويت عن ابن كثير، وقوله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ خبر ثانٍ لجنات أو حال مقدرة، وقيل: إنها لقرب الوقوع بعد الدخول تعد مقارنة وقرى «يَحْلُون» بفتح الياء وسكون الحاء وتخفيف اللام من حليت المرأة فهي حالية إذا لبست الحلي ويقال جيد حال إذا كان عليه الحلي ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ جمع سوار على ما في الإرشاد، وفي القاموس السوار ككتاب وغراب القلب كالأسوار بالضم جمعه إسورة وأساور وأساورة وسور وسؤور ا هـ، وإطلاق الجمع على جمع الجمع كثير فلا مخالفة، وسوار المرأة معرب كما قال الراغب وأصله دستواره، ومن للتبعيض أي يحلون بعض أساور كأنه بعض له امتياز وتفوق على سائر الأبعاض، وجوز أن تكون للبيان لما أن ذكر التحلية مما ينبيء عن الحلي المبهم، وقيل: زائدة بناءً على ما يرى الأخفش من جواز زيادتها في الإثبات، وقيل: نعت لمفعول محذوف ليحلون وأنه بمعنى يلبسون ﴿ومن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنْ ذَهَبٍ﴾ بيانية ﴿وَلُؤْلُؤاً﴾ عطف على محل ﴿من أساور﴾ أي ويحلون فيها لؤلؤاً. أخرج الترمذي والحاكم وصححه والبيهقي في البعث عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ تلا الآية فقال: إن عليهم التيجان إن أدنى لؤلؤة منها لتضيء ما بين المشرق والمغرب، وقيل: عطف على المفعول المحذوف أو منصوب بفعل مضمر يدل عليه ﴿يحلون﴾ أي ويؤتون لؤلؤاً. وقرأ جمع من السبعة «لؤلؤ» بالجر عطفاً على ﴿ذهب﴾ أي يحلون فيها بعض أساور من مجموع ذهب ولؤلؤ بأن تنظم حبات ذهب مع حبات لؤلؤ ويتخذ من ذلك سوار كما هو معهود اليوم في بلادنا أو بأن يرصع الذهب باللؤلؤ كما يرصع ببعض الأحجار، وقيل: أي من ذهب في صفاء اللؤلؤ، وفيه ما فيه من الكدر.

ولعل من يقول بأنه لا اشتراك بين ذهب الدنيا ولؤلؤها وذهب الآخرة ولؤلؤها إلا بالاسم لا يلتزم النظم ولا الترصيع كما لا يخفى، وقرىء «لؤلؤاً» بتخفيف الهمزة الأولى ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ أي إبريسم محض كما في مجمع البيان، وقال الراغب: مارق من الثياب. وتغيير الأسلوب حيث لم يقل ويلبسون فيها حريراً قيل للإيذان بأن ثبوت اللباس لهم أمر محقق غني عن البيان إذ لا يمكن عراؤهم عنه وإنما المحتاج إلى البيان إن لباسهم ماذا بخلاف الأساور واللؤلؤ فإنها ليست من اللوازم الضرورية ولذا لا يلزم العدل بين الزوجات فيها فجعل بيان تحليتهم مقصوراً بالذات، ولعل هذا هو الباعث على تقديم التحلية على بيان حال اللباس، وقيل: إن ذلك للدلالة على أن الحرير ثيابهم المعتادة مع المحافظة على هيئة الفواصل وليس بذاك ﴿وَقَالُوا﴾ أي ويقولون.

وصيغة الماضي للدلالة على التحقق ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ حزن تقلب القلب وخوف العاقبة على ما روي عن القاسم بن محمد، وقال أبو الدرداء: حزن أهوال القيامة وما يصيب من ظلم نفسه هنالك.

وأخرج الحاكم وصححه: وابن أبي حاتم وغيرهما عن ابن عباس حزن النار. وقال الضحاك حزن الموت يقولون ذلك إذا ذبح الموت، وقال مقاتل: حزن الانتقال يقولون ذلك إذا استقروا فيها، وقال قتادة: حزن أن لا تنقبل أعمالهم، وقال الكلبي: خوف الشيطان، وقال سمرة بن جندب: حزن معيشة الدنيا الخبز ونحوه، وعن ابن عباس حزن الآفات والأعراض وقيل: حزن كراء الدار والأولى أن يراد جنس الحزن المنتظم لجميع أحزان الدين والدنيا والآخرة، وكل ما سمعت من باب التمثيل وقد تقدم في الحديث «إن الذين ظلموا أنفسهم هم الذين يقولون» أي بعد أن يتلقاهم الله تعالى برحمته ﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن﴾ الخ فلا تغفل وقرىء الحزن بضم الحاء وسكون الزاي ذكره جناح بن حبيش ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ للمذنبين ﴿شَكُورٌ﴾ للمطيعين.

وأخرج ابن المنذر وغيره عن ابن عباس أنه قال في ذلك غفر لنا العظيم من ذنوبنا وشكر لنا القليل من أعمالنا،

وفي الكشاف ذكر الشكور دليل على أن القوم كثير والحسنات، وكان عليه أن يقول: وذكر الغفور دليل على أنهم كثير والفرطات فينطبق على الفرق ولا ينفك النظم ولكن منعه المذهب ﴿الَّذي أَحَلَّنَا دَارَ المُقَامَةِ﴾ أي دار الإقامة التي لا انتقال عنها أبداً وهي الجنة ﴿مِن فَضْلِه﴾ من إنعامه سبحانه وتفضله وكرمه فإن العمل وإن كان سبباً لدخول الجنة في الجملة لكن سببيته بفضل الله عزّ وجلّ أيضاً إذ ليس هناك استحقاق ذاتي، ومن علم أن العمل متناهٍ زائل وثواب الجنة دائم لا يزول لم يشك في أن الله تعالى ما أحل من أحل دار الإقامة إلا من محض فضله سبحانه وقال الزمخشري: أي من إعطائه تعالى وإفضاله من قولهم لفلان فضول على قومه وفواضل وليس من الفضل الذي هو التفضل لأن الثواب بمنزلة الأجر المستحق والتفضل كالتبرع وفيه من الاعتزال ما فيه ﴿لا يَمَسُّنَا فيهَا نَصَبٌ﴾ أي تعب ﴿وَلا يَمَسُّنَا فيهَا لُغُوبٌ﴾ كلال وفتور وهو نتيجة النصب، وضمه إليه وتكرير الفعل المنفي للمبالغة في بيان انتفاء كل منهما كذا قال جمع من الأجلة، وقال بعضهم: النصب التعب الجسماني واللغوب التعب النفساني.

وأخرج ابن جرير عن قتادة أنه فسر النصب بالوجع والكلام من باب:

لا تـرى الـضـب بـهـا يـنـجـحـر

والجملة حال من أحد مفعولي أحل. وقرأ علي كرّم الله تعالى وجهه والسلمي «لَغُوبٌ» بفتح اللام، قال الفراء: هو ما يغب به كالفطور والسحور، وجاز أن يكون صفة لمصدر محذوف أي لا يمسنا فيها لغوب لغوب نحو شعر شاعر كأنه وصف اللغوب بأنه قد لغب أي أعيى وتعب.

وقال صاحب اللوامح: يجوز أن يكون مصدراً كالقبول وإن شئت جعلته صفة لمضمر أي أمر لغوب.

﴿وَالَّذين كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيهِمْ﴾ أي لا يحكم عليهم بموت ثانٍ ﴿فَيَمُوتُوا﴾ ليستريحوا بذلك من عذابها بالكلية وإنما فسر لا يقضي بما ذكر دون لا يموتون لئلا يلغوا فيموتوا ويحتاج إلى تأويله بيستريحوا.

ونصب يموتوا في جواب النفي بإضمار أن والمراد انتفاء المسبب لانتفاء السبب أي ما يكون حكم بالموت فكيف يكون الموت. وقرأ عيسى والحسن «فيموتون» بالنون عطفاً كما قال أبو عثمان المازني على ﴿يقضي﴾ كقوله تعالى: ﴿لا يؤذن لهم فيعتذرون﴾ أي لا يقضى عليهم ولا يموتون ﴿وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ المعهود لهم بل كلما خبت زيد إسعارها، والمراد دوام العذاب فلا ينافي تعذيبهم بالزمهرير ونحوه، ونائب فاعل يخفف ﴿عنهم﴾ ومن عذابها في موضع نصب ويجوز العكس، وجوز أن تكون من زائدة فيتعين رفع مجرورها على أنه النائب عن الفاعل على ما قال أبو البقاء وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو «ولا يُخَفف» بإسكان الفاء شبه المنفصل بالمتصل كقوله:

فـالـيـوم أشـرب غـيـر مـسـتـحـقـب

﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الفظيع ﴿نَجزي كُلَّ كَفُور﴾ مبالغ في الكفر أو الكفران لا جزاء أخف وأدنى منه.

وقرأ أبو عمرو وأبو حاتم عن نافع «يجزى» بالياء مبنياً للمفعول و «كلٌّ» بالرفع على النيابة عن الفاعل وقرىء «نجازي» بنون مضمومة وألف بعد الجيم ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فيهَا﴾ افتعال من الصراخ وهو شدة الصياح والأصل يصترخون فأبدلت التاء طاء ويستعمل كثيراً في الاستغاثة لأن المستغيث يصيح غالباً، وبه فسره هنا قتادة فقال: يستغيثون فيها، واستغاثتهم بالله عزّ وجلّ بدليل ما بعده وقيل ببعضهم لحيرتهم وليس بذاك.

﴿رَبَّنَا أَخرِجْنَا نَعْمَلْ صَالحاً غَيْرَ الَّذي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ بإضمار القول أي ويقولون بالعطف أو يقولون بدونه على أنه تفسير لما قبله أو قائلين على أنه حال من ضميرهم، وتقييد العمل الصالح بالوصف المذكور للتحسر على ما عملوه

من غير الصالح مع الاعتراف به والأشعار بأن استخراجهم لتلافيه فهو وصف مؤكد ولأنهم كانوا يحسبون أنهم يحسنون صنعاً فكأنهم قالوا: نعمل صالحاً غير الذي كنا نحسبه صالحاً فنعمله فالوصف مقيد.

وذكر أبو البقاء أن ﴿صالحاً﴾ و ﴿غير الذي﴾ يجوز أن يكونا صفتين لمصدر محذوف أو لمفعول محذوف وأن يكون ﴿صالحاً﴾ نعتاً لمصدر و ﴿غير الذي﴾ مفعول ﴿نعمل﴾ وأياً ما كان فالمراد أخرجنا من النار وردنا إلى الدنيا نعمل صالحاً وكأنهم أرادوا بالعمل الصالح التوحيد وامتثال أمر الرسول عليه الصلاة والسلام والانقياد له، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: ﴿نعمل صالحاً﴾ نقل لا إله إلا الله ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فيه مَنْ تَذَكَّرَ﴾ جواب من جهته تعالى وتوبيخ لهم في الآخرة حين يقولون ﴿ربنا﴾ الخ فهو بتقدير فنقول لهم أو فيقال لهم «أو لم نعمركم» الخ، وفي بعض الآثار أنهم يجابون بذلك بعد مقدار الدنيا، والهمزة للإنكار والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام وما موصولة أو موصوفة أي ألم نمهلكم ونعمركم الذي أي العمر الذي أو عمراً يتذكر فيه من تذكر أي يتمكن فيه من أراد التذكر وتحققت منه تلك الإرادة من التذكر والتفكر.

وقال أبو حيان: ما مصدرية ظرفية أي ألم نعمركم في مدة تذكر، وتعقب بأن ضمير ﴿فيه﴾ يأباه لأنها لا يعود عليها ضمير إلا على نظر الأخفش فإنه يرى اسميتها وهو ضعيف، ولعله يجعل الضمير للعمر المفهوم من ﴿نعمر﴾ وفيه بعد.

وجعل ما نافية لا يصح كما قال ابن الحاجب لفظاً ومعنى، وهذا العمر على ما روي عن علي كرّم الله تعالى وجهه وأخرجه جماعة وصححه الحاكم عن ابن عباس ستون سنة، وقد أخرج الإمام أحمد والبخاري والنسائي وغيرهم عن سهل بن سعد قال: «قال رسول الله ﷺ اعذر الله تعالى إلى امرىء أخر عمره حتى بلغ ستين سنة»، ـ وقيل: ـ هو خمسون سنة» وفي رواية عن ابن عباس أنه ست وأربعون سنة، وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن الحسن أنه أربعون سنة، وفي رواية أخرى عنه أنه سن البلوغ، وقيل: سبع عشرة سنة، وعن قتادة ثمانِ عشرة سنة، وعن عرم بن عبد العزيز عشرون سنة، وعن مجاهد ما بين العشرين إلى الستين، وقرأ الأعمش «ما يذكر فيه من اذكر» بالإدغام واجتلاب همزة الوصل ملفوظاً بها في الدرج ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ عطف على معنى الجملة الاستفهامية فكأنه قيل: عمرناكم وجاءكم النذير فليس من عطف الخبر على الإنشاء كما في قوله تعالى: ﴿ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك﴾ [الشرح: ١، ٢] وجوز أن يكون عطفاً على ﴿نعمركم﴾ ودخول الهمزة عليهما فلا تغفل. والمراد بالنذير على ما روي عن السدي وابن زيد رسول الله ﷺ، وقيل: ما معه من القرآن، وقال أبو حيان: المراد جنس النذير وهم الأنبياء عليهم السّلام فكل نبي نذير أمته، ويؤيده أنه قرىء «النُذُر» جمعاً، وعن ابن عباس وعكرمة وسفيان بن عيينة ووكيع والحسين بن الفضل والفراء والطبري هو الشيب وفي الأثر ما من شعرة تبيض إلا قالت لأختها استعدي فقد قرب الموت، ومن هنا قيل:

رأيت الشيب من نذر المنايا ... لصاحبه وحسبك من نذير
وقائلة تخضب يا حبيبي ... وسود شعر شيبك بالعبير
فقلت لها المشيب نذير عمري ... ولست مسوداً وجه النذير

وقيل: الحمى، وقيل: موت الأهل والأقارب، وقيل: كمال العقل، والاقتصار على النذير لأنه الذي يقتضيه المقام، والفاء في قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا﴾ لترتيب الأمر بالذوق على ما قبلها من التعمير ومجيء النذير، وفي قوله سبحانه: ﴿فَمَا لِلظَّالمينَ مِنْ نَصير﴾ للتعليل، والمراد بالظلم هنا الكفر، قيل كان الظاهر فمالكم لكن عدل إلى

المظهر لتقريعهم، والمراد استمرار نفي أن يكون لهم نصير يدفع عنهم العذاب ﴿إِنَّ اللهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي كل غيب فيهما أي لا يخفى عليه سبحانه خافية فيهما فلا تخفى عليه جل شأنه أحوالهم التي اقتضت الحكمة أن يعاملوا بها هذه المعاملة ولا يخرجوا من النار، وقرأ جناح بن حبيش «عالمٌ» بالتنوين «غيب» بالنصب على المفعولية لعالم ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ قيل إنه تعليل لما قبله لأنه تعالى إذا علم مضمرات الصدور وهي أخفى ما يكون كان عزّ وجلّ أعلم بغيرها، وفيه نوع خفاء، وقال الإمام: إن قوله تعالى: ﴿إن الله﴾ الخ تقرير لدوامهم في العذاب مع أنهم ما كفروا إلا أياماً معدودة فكأن سائلاً يسأل عن وجه ذلك فقيل: إن الله تعالى لا يخفى عليه غيب السماوات والأرض فلا يخفى عليه ما في الصدور فكان يعلم سبحانه من الكافر أن الكفر قد تمكن في قلبه بحيث لو دام إلى الأبد لما أطاع الله تعالى ولا عبده انتهى، وظاهره أن الجملة الأولى تعليل للثانية على عكس ما قيل، ويمكن أن يقال: إن قوله تعالى: ﴿فما للظالمين من نصير﴾ متضمن نفي أن يكون لهم نصير على سبيل الاستمرار ومستدع خلودهم في العذاب فكان مظنة أن يقال: كيف ينفي ذلك على سبيل الاستمرار والعادة في الشاهد قاضية بوجود نصير لمن تطول أيام عذابه فأجيب بأن الله تعالم غيب السماوات والأرض على معنى أنه تعالى محيط بالأشياء علماً فلو كان لهم نصير في وقت من الأوقات لعلمه ولما نفي ذلك على سبيل الاستمرار، وكذا مظنة أن يقال: كيف يخلدون في العذاب وهم قد ظلموا في أيام معدودة؟ فأجيب بأنه عليم بذات الصدور على معنى أنه تعالى يعلم ما انطوت عليه ضمائرهم فيعلم أنهم صمموا على ما هم فيه من الضلال والكفر إلى الأبد فكل من الجملتين مستأنف استئنافاً بيانياً فتأمل ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ﴾ ملقى إليكم مقاليد التصرف والانتفاع بما فيها أو جعلكم خلفاء ممن قبلكم من الأمم وأورثكم ما بأيديكم من متاع الدنيا لتشكروه بالتوحيد والطاعة أو جعلكم بدل من كان قبلكم من الأمم الذين كذبوا الرسل فهلكوا فلم تتعظوا بحالهم وما حل بهم من الهلاك، والخطاب قيل عام، واستظهره في البحر، وقيل: لأهل مكة، والخلائف جمع خليفة وقد اطرد جمع فعيلة على فعائل وأما الخلفاء فجمع خليف ككريم وكرماء، وجوز الواحدي كونه جمع خليفة أيضاً وهو خلاف المشهور ﴿فَمَنْ كَفَرَ﴾ منكم مثل هذه النعمة السنية وغمطها أو فمن استمر على الكفر وترك الإيمان بعد أن لطف به وجعل له ما ينبهه على ما يترتب على ذلك ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ أي وبال كفره وجزاؤه لا على غيره.

﴿وَلاَ يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتاً﴾ أشد الاحتقار والبغض والغضب.

﴿وَلاَ يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَاراً﴾ في الآخرة وجملة ﴿ولا يزيد﴾ الخ بيان وتفسير لقوله سبحانه ﴿فعليه كفره﴾ ولزيادة تفصيله نزل منزلة المغاير له ولولا ذلك لفصل عنه، والتكرير لزيادة التقرير والتنبيه على أن اقتضاء الكفر لكل واحد واحد من الأمرين الأمرين المقت والخسارة مستقل باقتضاء قبحه ووجوب التجنب عنه بمعنى أنه لو لم يكن الكفر مستوجباً لشيء سوى مقت الله تعالى لكفى ذلك في قبحه وكذا لو لم يستوجب شيئاً سوى الخسار لكفى ﴿قُلْ﴾ تبكيتاً لهم ﴿أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أي آلهتكم، والإضافة إليهم لأدنى ملابسة حيث إنهم هم الذين جعلوهم شركاء الله تعالى واعتقدوهم كذلك من غير أن يكون له أصل ما أصلاً. وقيل: الإضافة حقيقية من حيث إنهم جعلوهم شركاء لأنفسهم فيما يملكونه أو جعلهم الله تعالى شركاء لهم في النار كما قال سبحانه: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ والصفة عليهما مقيدة لا مؤكدة، وسياق النظم الكريم وسباقه ظاهر أن فيما تقدم ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ﴾ بدل اشتمال من ﴿أرأيتم﴾ لأنه بمعنى أخبروني كأنه قيل: أخبروني عن شركائكم أروني أي جزء خلقوا من الأرض حتى يستحقوا الإلهية والشركة. وجوز أن يكون بدل كل،

وقال أبو حيان: لا تجوز البدلية لأنه إذا أبدل مما دخل عليه الاستفهام فلا بدّ من دخول الأداة على البدل، وأيضاً إبدال الجملة من الجملة لم يعهد في لسانهم ثم البدل على نية تكرار العامل ولا يتأتى ذلك ها هنا لأنه لا عامل لأرأيتم ثم قال: والذي أذهب إليه أن ﴿أرأيتم﴾ بمعنى أخبروني وهي تطلب مفعولين أحدهما منصوب والآخر مشتمل على الاستفهام كقول العرب أرأيت زيداً ما صنع فالأول هنا ﴿شركاؤكم﴾ والثاني ﴿ماذا خلقوا﴾ و ﴿أروني﴾ جملة اعتراضية فيها تأكيد للكلام وتسديد، ويحتمل أن يكون ذلك أيضاً من باب الأعمال لأنه توارد على ﴿ماذا خلقوا﴾ أرأيتم. وأروني لأن أروني قد تعلق عن مفعولها الثاني كما علقت رأى التي لم تدخل عليها همزة النقل عن مفعولها في قولهم: أما ترى أي برق ها هنا ويكون قد أعمل الثاني على المختار عند البصريين فانتهى، وما ذكره احتمال في الآية الكريمة كما أن ما ذكر أولاً احتمال وما قاله في رده ليس بشيء، أما الأول فلأن لزوم دخول الأداة على البدل فيما إذا كان الاستفهام باقٍ على معناه أما إذا نسخ عنه كما هنا فليس ذلك بلازم، وأما الثاني فلأن أهل العربية والمعاني نصوا على خلافه وقد ورد في كلام العرب كقوله:

أقول له ارحل لا تقيمن عندنا وإلا فكن في السر والجهر مسلما

وأما الثالث فلأن كون البدل على نية تكرار العامل إنما هو كما نقل الخفاجي عنهم في بدل المفردات.

وليس لك أن تقول العامل هنا موجود وهو ﴿قل﴾ لأن العبرة بالمقول ولا عامل فيه إذ يقال وهو ظاهر، وجوز أن لا يكون ﴿أرأيتم﴾ بمعنى أخبروني بل المراد حقيقة الاستفهام عن الرؤية وأروني أمر تعجيز للتبيين أي أعلمتم هذه التي تدعونها ما هي وعلى ما هي عليه من العجز أو تتوهمون فيها قدرة فإن كنتم تعلمونها عاجزة فكيف تعبدونها أو كنتم توهمتم فيها قدرة فأروني أثرها، وما تقدم أظهر ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ أي بل ألهم شركة مع الله عزّ وجلّ في خلق السماوات حتى يستحقوا ما زعمتم فيهم، وقال بعضهم: الأولى أن لا يقدر مضاف على أن المعنى أم لهم شركة معه سبحانه في السماوات خلقاً وإبقاءً وتصرفاً لأن المقصود نفي آيات الإلهية عن الشركاء وليست محصورة في الخلق والتقدير أوفق بما قبله، والكلام قيل من باب التدرج من الاستقلال إلى الشركة ثم منها إلى حجة وبينة مكتوبة بالشركة كأنه قيل: أخبروني عن الذين تدعون من دون الله هل استبدوا بخلق شيء من الأرض حتى يكونوا معبودين مثل الله تعالى بل ألهم شركة معه سبحانه في خلق السماوات ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً﴾ أي بل آتيناهم كتاباً ينطق بأنا اتخذناهم شركاء ﴿فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ﴾ أي حجة ظاهرة من ذلك الكتاب بأن لهم شركة معنا.

وقال في الكشف: الظاهر أن الكلام مبني على الترقي في إثبات الشركة لأن الاستبداد بخلق جزء من الأرض شركة ما معه عزّ وجلّ والاشتراك معه سبحانه في خلق السماوات أدل على إثباتها ثم إيتاء كتاب منه تعالى على أنهم شركاؤه أدل وأدل، وقيل: هم في ﴿آتيناهم﴾ للمشركين وكذا في ـ فهم ـ كما في قوله تعالى: ﴿أم أنزلنا عليهم سلطاناً﴾ [الروم: ٣٥] الخ ففي الكلام التفات من ضمير الخطاب إلى ضمير الغيبة إعراضاً عن المشركين وتنزيلاً لهم منزلة الغيب.

والمعنى أن عبادة هؤلاء إما بالعقل ولا عقل يحكم بصحة عبادة من لا يخلق جزءاً ما من الأرض دلالة شرك في السماء وإما بالنقل ولم نؤت المشركين كتاباً فيه الأمر بعبادة هؤلاء، وفيه تفكيك للضمائر، وقال بعضهم: ضمير ﴿آتيناهم﴾ للشركاء كالضمائر السابقة وضمير ﴿فهم على بينة﴾ للمشركين و ﴿أم﴾ منقطعة للإضراب عن الكلام السابق وزعم أن لا التفات حينئذٍ ولا تفكيك فتأمل.

وقرأ نافع وابن عامر ويعقوب وأبو بكر «على بينات» بالجمع فيكون إيماء إلى أن الشرك خطير لا بدّ فيه من تعاضد الدلائل وهو ضرب من التهكم ﴿بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلاَّ غُرُوراً﴾ لما نفي سبحانه ما نفي من الحجج في ذلك أضرب عزّ وجلّ عنه بذكر ما حملهم على الشرك وهو تقرير الأسلاف للأخلاف وإضلال الرؤساء للأتباع بأنهم شفعاء عند الله تعالى يشفعون لهم بالتقرب إليهم، والآية عند الكثير في عبدة الأصنام وحكمها عام، وقيل: في عبدة غير الله عزّ وجلّ صنماً كان أو ملكاً أو غيرهما.

﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولاَ﴾ استئناف مقرر لغاية قبح الشرك وهو له أي إن الله تعالى يحفظ السماوات والأرض كراهة زوالهما أو لئلا تزولا وتضمحلا فإن الممكن كما يحتاج إلى الواجب سبحانه حال إيجاده يحتاج إليه حال بقائه، وقال الزجاج: ﴿يمسك﴾ بمعنى يمنع و ﴿أن تزولا﴾ مفعوله على الحذف والإيصال لأنه يتعدى بمن أي يمنعهما من أن تزولا، وفي البحر يجوز أن يكون أن تزولا بدل اشتمال من السماوات والأرض أي يمنع سبحانه زوال السماوات والأرض، وفسر بعضهم الزوال بالانتقال عن المكان أي إن الله تعالى يمنع السماوات من أن تنتقل عن مكانها فترتفع أو تنخفض ويمنع الأرض أيضاً من أن تنتقل كذلك، وفي أثر أخرجه عبد بن حميد وجماعة عن ابن عباس ما يقتضيه، وقيل: زوالهما دورانهما فهما ساكنتان والدائرة بالنجوم أفلاكها وهي غير السماوات، فقد أخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وعبد بن حميد عن شقيق قال: قيل لابن مسعود إن كعباً يقول: إن السماء تدور في قطبة مثل قطبة الرحى في عمود على منكب ملك فقال: كذب كعب إن الله تعالى يقول: ﴿إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا﴾ وكفى بها زوالاً أن تدور، والمنصور عند السلف أن السماوات لا تدور وأنها غير الأفلاك، وكثير من الإسلاميين ذهبوا إلى أنها تدور وأنها ليست غير الأفلاك، وأما الأرض فلا خلاف بين المسلمين في سكونها والفلاسفة مختلفون والمعظم على السكون، ومنهم من ذهب إلى أنها متحركة وأن الطلوع والغروب بحركتها ورد ذلك في موضعه، والأولى في تفسير الآية ما سمعت أولاً وكذا كونها مسوقة لما ذكرنا، وقيل إنه تعالى لما بين فساد أمر الشركاء ووقف على الحجة في بطلانها عقب بذلك عظمته عزّ وجلّ وقدرته سبحانه ليتبين الشيء بضده وتتأكد حقارة الأصنام بذكر عظمة الله عزّ وجلّ ﴿وَلَئِن زَالَتَا﴾ أي إن أشرفتا على الزوال على سبيل الفرض والتقدير، ويؤيده قراءة ابن أبي عبلة «ولو زالتا» وقيل إن ذلك إشارة إلى ما يقع يوم القيامة من طي السماوات ونسف الجبال.

﴿إِنْ أَمْسَكَهُمَا﴾ أي ما أمسكهما ﴿مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي من بعد إمساكه تعالى أو من بعد الزوال، والجملة جواب القسم المقدر قبل لام التوطئة في «لئن» وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه، وأمسك بمعنى يمسك كما في قوله تعالى: ﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك﴾ [البقرة: ١٤٥] ومن الأول مزيدة لتأكيد العموم والثانية للإبتداء ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ فلذا حلم على المشركين وغفر لمن تاب منهم مع عظم جرمهم المقتضي لتعجيل العقوبة وعدم إمساك السماوات والأرض وتخريب العالم الذي هم فيه فلا يتوهم أن إلمام يقتضي ذكر القدرة لا الحلم والمغفرة ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي حلفوا واجتهدوا في الحلف أن يأتوا به على أبلغ ما في وسعهم ﴿لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ﴾ الضمائر لقريش، وذلك أنهم بلغهم قبل مبعث النبي ﷺ أن طائفة من أهل الكتاب كذبوا رسلهم فقالوا: لعن الله تعالى اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم فوالله لئن جاءنا رسول لنكونن أهدى من إحدى الأمم فكان منهم بعد ما كان فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿ولئن جاءهم﴾ جاء على المعنى وإلا فهم قالوا: «جاءنا» وكذا «ليكونن» وإحدى بمعنى واحدة، والظاهر أنها عامة وإن كانت نكرة في الإثبات لاقتضاء المقام العموم، وتعريف ﴿الأمم﴾ للعهد والمراد الأمم الذين كذبوا رسلهم أي لئن جاءنا

نذير لنكونن أهدى من كل واحدة من الأمم اليهود والنصارى وغيرهم فتؤمن جميعاً ولا يكذب أحد منا أو المعنى لنكونن أهدى من أمة يقال فيها إحدى الأمم تفضيلاً لها على غيرها من الأمم كما يقال هو واحد القوم وواحد عصره وكما قالوا هو أحد الأحدين وهي إحدى الأحد يريدون التفضيل في الدعاء والعقل، قال الشاعر:

حتى استشاروا بي إحدى الأحد ... ليثاً هزبراً ذا سلاح معتمد

وقد نص ابن مالك في التسهيل على أنه قد يقال لما يستعظم مما لا نظير له هو إحدى الأحد لكن قال الدماميني في شرحه: إنما ثبت استعماله في إحدى ونحوه المضاف إلى جمع مأخوذ من لفظه كإحدى الأحد وأحد الأحدين أو المضاف إلى وصف كأحد العلماء وإحدى الكبر أما في المضاف إلى أسماء الأجناس كالأمم فيحتاج إلى نقل، وبحث فيه بأنه قد ثبت استعمال إحدى في الاستعظام من دون إضافة أصلاً فإنهم يقولون للداهية العظيمة هي إحدى من سبع أي إحدى ليالي عاد في الشدة وشاع واحد قومه وأوحدهم وأوحد أمه ولم يظهر فارق بين المضاف إلى الجمع المأخوذ من اللفظ والمضاف إلى الوصف وبين المضاف إلى أسماء الأجناس ولا أظن أن مثل ذلك يحتاج إلى نقل فليتدبر.

وقال صاحب الكشف: إن دلالة ﴿إحدى الأمم﴾ على التفضيل ليست بواضحة بخلاف واحد القوم ونحوه ثم وجهها أنه على أسلوب. أو يرتبط بعض النفوس حمامها. يعني أن البعض المبهم قد يقصد به التعظيم كالتنكير فإحدى مثله، وفيه أنه متى ثبت استعماله للإستعظام كانت دلالته على التفضيل في غاية الوضوح.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ وأي نذير وهو أشرف الرسل محمد ﷺ كما روي عن ابن عباس وقتادة وهو الظاهر، وعن مقاتل هو انشقاق القمر وهو أخفى من السها والمقام عنه يأبى ﴿مَا زَادَهُمْ﴾ أي النذير أو مجيئه ﴿إِلاَّ نُفُوراً﴾ تباعداً عن الحق وهرباً منه، وإسناد الزيادة إلى ذلك مجاز لأنه هو السبب لها. والجملة جواب لها.

واستدل بالآية على حرفيتها المكان النفي المانع عن عمل ما بعده فيها، وفيه بحث، وقوله تعالى: ﴿اسْتِكْبَاراً فِي الأَرْضِ﴾ بدل من ﴿نفوراً﴾ وقال أبو حيان: الظاهر أنه مفعول من أجله، ونقل الأول عن الأخفش، وقيل: هو حال أي مستكبرين ﴿وَمَكْرَ السَّيِّىءِ﴾ هو الخداع الذي يرومونه برسول الله ﷺ والكيد له، وقال قتادة هو الشرك وروى ذلك عن ابن جريج، وهو عطف على ﴿استكباراً﴾ وأصل التركيب وأن مكروا السيىء على أن ﴿السيىء﴾ صفة لموصوف مقدر أي المكر المسيىء ثم أقيم المصدر مقام أن والفعل وأضيف إلى ما كان صفة، وجوز أن يكون عطفاً على ﴿نفوراً﴾ وقرأ الأعمش وحمزة «السيىء» بإسكان الهمزة في الوصل إجراءً له مجرى الوقف أو لتوالي الحركات وإجراء المنفصل مجرى المتصل، وزعم الزجاج أن هذه القراءة لحن لما فيها من حذف الإعراب كما قال أبو جعفر.

وزعم محمد بن يزيد أن الحذف لا يجوز في نثر ولا شعر لأن حركات الإعراب دخلت للفرق بين المعاني، وقد أعظم بعض النحويين أن يكون الأعمش قرأ بها، وقال: إنما كان يقف على هذه الكلمة فغلط من أدى عنه، والدليل على هذا أنها تمام الكلام ولذا لم يقرأ في نظيرها كذلك مع أن الحركة فيه أثقل لأنها ضمة بين كسرتين، والحق أنها ليست بلحن، وقد أكثر أبو علي في الحجة من الاستشهاد والاحتجاج للإسكان من أجل توالي الحركات والوصل بنية الوقف، وقال ابن القشيري: ما ثبت بالاستفاضة أو التواتر أنه قرىء به فلا بدّ من جوازه ولا يجوز أن يقال لحن، ولعمري أن الإِسكان ها هنا أحسن من الإِسكان في ﴿بارئكم﴾ [البقرة: ٥٤] كما في قراءة أبي عمرو، وروي عن

ابن كثير «ومكر السأي» بهمزة ساكنة بعد السين وياء بعدها مكسورة وهو مقلوب السيىء المخفف من السيىء كما قال الشاعر:

ولا يجزون من حسن بسيىء ولا يجزون من غلظ بلين

وقرأ ابن مسعود «مكراً سيئاً» عطف نكرة على نكرة ﴿وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ﴾ أي لا يحيط ﴿إِلاَّ بِأَهْلِه﴾.

وقال الراغب: أي لا يصيب ولا ينزل، وأياً ما كان فهو إنما ورد فيما يكره، وزعم بعضهم أن أصل حاق حق فجيء بدل أحد المثلين بالألف نحو ذم وذام وزل وزال، وهذا من إرسال المثل ومن أمثال العرب: من حفر لأخيه جباً وقع فيه منكباً، وعن كعب أنه قال لابن عباس: قرأت في التوراة من حفر مغواة وقع فيها قال: أنا وجدت ذلك في كتاب الله تعالى فقرأ الآية، وفي الخبر «لا تمكروا ولا تعينوا ماكراً فإن الله تعالى يقول ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ولا تبغوا ولا تعينوا باغياً فإن الله سبحانه يقول إنما بغيكم على أنفسكم» وقد حاق مكر هؤلاء بهم يوم بدر.

والآية عامة على الصحيح والأمور بعواقبها والله تعالى يمهل ولا يهمل ووراء الدنيا الآخرة وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، وبالجملة من مكر به غيره ونفذ فيه المكر عاجلاً في الظاهر ففي الحقيقة هو الفائز والماكر هو الهالك، أسأل الله تعالى بحرمة حبيبه الأعظم ﷺ أن يدفع ويرفع عنا مكر الماكرين وأن يعاملهم في الدارين بعدله إنه سبحانه القوي المتين. وقرىء «ولا يُحيق» بضم الياء «المكرَ السيءَ» بالنصب على أن يحيق من أحاق المتعدي وفاعله ضمير راجع إليه تعالى و ﴿الْمَكْر﴾ مفعوله ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ﴾ أي ما ينتظرون، وهو مجاز بجعل ما يستقبل بمنزلة ما ينتظر ويتوقع ﴿إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ﴾ أي إلا سنة الله تعالى فيهم بتعذيب مكذبيهم.

﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾ بأن يضع سبحانه موضع العذاب ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً﴾ بأن ينقل عذابه من المكذبين إلى غيرهم، والفاء لتعليل ما يفيده الحكم بانتظارهم العذاب من مجيئه، ونفي وجدان التبديل والتحويل عبارة عن نفي وجودهما بالطريق البرهاني، وتخصيص كل منهما بنفي مستقل لتأكيد انتفائهما، والخطاب عام أو خاص به عليه الصلاة والسلام.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ استشهاد على ما قبله من جريان سنة الله تعالى على تعذيب المكذبين بما يشاهدونه في مسايرهم ومتاجرهم في رحلتهم إلى الشام واليمن والعراق من آثار الأمم الماضية وعلامات هلاكهم، والهمزة للإنكار والواو للعطف على مقدر يليق بالمقام على رأي أي أقعدوا ولم يسيروا، وقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ في موضع الحال بتقدير قد أو بدونها.

﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ﴾ أي ليس من شأنه عز شأنه أن يسبقه ويفوته ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ أي شيء ومن لاستغراق الأشياء ﴿فِي السماوات وَلاَ فِي الأَرْضِ﴾ هو نظير.

﴿لا يغادر صغيرة ولا كبيرة﴾ [الكهف: ٤٩] والواو حالية أو عاطفة.

وفي الإرشاد الجملة اعتراض مقرر لما يفهم مما قبله من استئصال الأمم السالفة، وظاهره أن الواو اعتراضية.

﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً﴾ مبالغاً في العلم والقدرة، والجملة تعليل لنفي الإعجاز ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ﴾ جميعاً ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ فعلوا من السيئات كما أخذ أولئك ﴿مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا﴾ أي ظهر الأرض وقد سبق ذكرها في قوله تعالى: ﴿في السماوات ولا في الأرض﴾ فليس من الإضمار قبل الذكر كما زعمه الرضي، وظهر الأرض مجاز عن ظاهرها كما قال الراغب. وغيره، وقيل: في الكلام استعارة مكنية تخييلية والمراد ما ترك عليها ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾

أي من حيوان يدب على الأرض لشؤم المعاصي، وقد قال سبحانه: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبين الذين ظلموا منكم خاصة﴾ [الأنفال: ٢٥] وهو المروي عن ابن مسعود، وقيل: المراد بالدابة الإنس وحدهم وأيد بقوله تعالى: **﴿وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾** وهو يوم القيامة فإن الضمير للناس لأنه ضمير العقلاء ويوم القيامة الأجل المضروب لبقاء نوعهم، وقيل: هو لجميع من ذكر تغليباً ويوم القيامة الأجل المضروب لبقاء جنس المخلوقات **﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً﴾** فيجازي المكلفين منهم عند ذلك بأعمالهم إن شراً فشر وإن خيراً فخير، وجملة **﴿فإن الله﴾** الخ موضوعة موضع الجزاء والجزاء في الحقيقة يجازي كما أشرنا إليه، هذا والله تعالى هو الموفق للخير ولا اعتماد إلا عليه.

ومن باب الإشارة **﴿الحمد لله فاطر السماوات والأرض﴾** إشارة إلى إيجاد عالمي اللطافة والكثافة وإلى أن إيجاد عالم اللطافة مقدم على إيجاد عالم الكثافة، ويشير إلى ذلك ما شاع خلق الله تعالى الأرواح قبل الأبدان بأربعة آلاف سنة **﴿جاعل الملائكة رسلاً﴾** في إيصال أوامره إلى من يشاء من عباده أو وسائط تجري إرادته سبحانه في مخلوقاته على أيديهم **﴿أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع﴾** إشارة إلى اختلافهم في الاستعداد **﴿يزيد في الخلق ما يشاء﴾** عام في الملك وغيره، وفسرت الزيادة بهبة استعداد رؤيته عزّ وجلّ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة **﴿ما يفتح الله للناس من رحمة﴾** الزيادة المشار إليها وغيرها **﴿فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده﴾** فيه إشارة إلى أن رحمته سبحانه سبقت غضبه عزّ وجلّ **﴿وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك﴾** تسلية لحبيبه ﷺ وإرشاد لورثته إلى الصبر على إيذاء أعدائهم لهم وتكذيبهم إياهم وإنكارهم عليهم **﴿والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها﴾** جرت سنته تعالى في إحياء الأرض بهذه الكيفية كذلك إذا أراد سبحانه إحياء أرض القلب فيرسل أولاً رياح الإرادة فتسير سحاب المحبة ثم يأتي مطر الجود والعناية فينبت في القلب رياحين الروح وأزهار البسط ونوار الأنوار ويطيب العيش.

﴿من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً﴾ إشارة إلى أن العزة الحقيقية لا تحصل بدون الفناء، ولا تغفل عن حديث: «لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل» الخ **﴿والله خلقكم من تراب﴾** وهو أبعد المخلوقات من الحضرة وأسفلها وأكثفها **﴿ثم من نطفة﴾** وفيها نوع ما من اللطافة **﴿ثم جعلكم أزواجاً﴾** إشارة إلى ما حصل لهم من ازدواج الروح اللطيف العلوي والقالب الكثيف السفلي وهو مبدأ استعداد لوقوف على عوالم الغيب والشهادة **﴿وما يستوي البحران﴾** قيل أي بحر العلم الوهبي وبحر العلم الكسبي **﴿هذا﴾** أي بحر العلم الوهبي **﴿عذب فرات سائغ شرابه﴾** لخلوه عن عوارض الشكوك والأوهام **﴿وهذا﴾** أي بحر العلم الكسبي **﴿ملح أجاج﴾** لما فيه من مشقة الفكر ومرارة الكسب وعروض الشكوك والتردد والاضطراب **﴿ومن كل تأكلون لحماً طرياً﴾** إشارات لطيفة تتغذون بها وتتقوون على الأعمال **﴿وتستخرجون حلية تلبسونها﴾** وهي الأخلاق الفاضلة والآداب الجميلة والأحوال المستحسنة التي تكسب صاحبها زينة **﴿وترى الفلك﴾** سفن الشريعة والطريقة **﴿فيه مواخر﴾** جارية **﴿لتبتغوا من فضله﴾** بالوصول إلى حضرته عزّ وجلّ فعل ذلك **﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله﴾** في سائر شؤونكم، ومراتب الفقر متفاوتة وكلما ازداد الإنسان قرباً منه عزّ وجلّ ازداد فقره إليه لازدياد المحبة حينئذٍ وكلما زاد العشق زاد فقر العاشق إلى المعشوق حتى يفنى **﴿والله هو الغني الحميد﴾** فيه من البشارة ما فيه **﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾** أي العلماء به تعالى وبشؤونه فهم كلما ازدادوا علماً ازدادوا خشية لما يظهر لهم من عظمته عزّ وجلّ وأنهم بالنسبة إليه تعالى شأنه لا شيء **﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد

ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴾ قيل: الظالم لنفسه السالك والمقتصد السالك المجذوب والسابق المجذوب السالك، والسالك هو المتقرب والمجذوب هو المقرب والمجذوب السالك هو المستهلك في كمالات القرب الفاني عن نفسه الباقي بربه عزّ وجلّ: ﴿**وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن**﴾ حزن تخيل الهجر فلا حزن للعاشق أعظم من حزن تخيل هجر معشوقه له وجفوته إياه ﴿**إن ربنا لغفور شكور**﴾ فلا بدع إذا أذهب عنا ذلك وآمننا من القطيعة والهجران ﴿**الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب**﴾ هو نصب الأبدان وتعبها من أعمال الطاعة للتقرب إليه سبحانه ﴿**ولا يمسنا فيها لغوب**﴾ هو لغوب القلوب واضطرابها من تخيل القطيعة والرد وهجر الحبيب، وقيل: لا يمسنا فيها نصب السعي في تحصيل أي أمر أردناه ولا يمسنا فيها لغوب تخيل ذهاب أي مطلوب حصلناه، وقد أشاروا إلى أن كل ذلك من فضل الله تعالى والله عزّ وجلّ ذو الفضل العظيم، هذا ونسأل الله تعالى من فضله الحلو ما تنشق منه مرارة الحسود وينفطر به قلب كل عدو وينتعش فؤاد كل محب ودود

(٣٦) سورة يس مكية
وآياتها ثلاث وثمانون

بسم الله الرحمن الرحيم

يس ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يس والقرآن الحكيم ﴾ قد ذكرنا كلاماً كلياً فى حروف التهجى فى سورة العنكبوت وذكرنا أن فى كل سورة بدأ الله فيها بحروف التهجى كان فى أوائلها الذكر أو الكتاب أو القرآن ولنذكر ههنا أبحاثاً :

﴿ البحث الأول ﴾ هو أن فى ذكر هذه الحروف فى أوائل السور أموراً تدل على أنها غير خالية عن الحكمة ولكن علم الانسان لايصل إليها بعينها فنقول ما هو الكلى من الحكمة فيها ، أما بيان أن فيها ما يدل على الحكمة فهو أن الله تعالى ذكر من الحروف نصفها وهى أربعة عشر حرفاً وهى نصف ثمانية وعشرين حرفاً ، وهى جميع الحروف التى فى لسان العرب على قولنا الهمزة ألف متحركة ، ثم إنه تعالى قسم الحروف ثلاثة أقسام تسعة أحرف من الألف إلى الذال وتسعة أحرف أخر فى آخر الحروف من الفاء إلى الياء وعشرة من الوسط من الراء إلى الغين ، وذكر من القسم الأول حرفين هما الألف والحاء وترك سبعة وترك من القسم الآخر حرفين هما الفاء والواو وذكر سبعة ، ولم يترك من القسم الأول من حروف الحلق والصدر إلا واحداً لم يذكره وهو الخاء ، ولم يذكر من القسم الآخر من حروف الشفة إلا واحداً لم يتركه وهو الميم ، والعشر الأواسط ذكر منها حرفاً وترك حرفاً فذكر الراء وترك الزاى وذكر السين وترك الشين وذكر الصاد وترك الضاد وذكر الطاء وترك الظاء وذكر العين وترك الغين ، وليس هذا أمراً يقع اتفاقا بل هو ترتيب مقصود فهو لحكمة ، وأما أن عينها غير معلومة فظاهر وهب أن واحداً يدعى فيه شيئاً فماذا يقول فى كون بعض السور مفتتحة بحرف كسورة ن . و ق . و ص . وبعضها بحرفين كسورة حم . ويس . وطس . وطه . وبعضها بثلاثة أحرف كسورة الم . وطسم . والر . وبعضها بأربعة كسورتى المر . والمص . وبعضها بخمسة أحرف كسورتى حمعسق . وكهيعص . وهب أن قائلا يقول إن هذا إشارة إلى أن الكلام ، إما حرف ، وإما فعل ، وإما اسم ، والحرف كثيراً ماجاء على حرف كواو العطف وفاء التعقيب وهمزة الاستفهام وكاف التشبيه وباء الالصاق

إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾

وغيرها وجاء على حرفين كمن للتبعيض، وأو للتخيير وأم للاستفهام المتوسط وأن للشرط وغيرها والاسم والفعل والحرف جاء على ثلاثة أحرف كإلى وعلى فى الحرف وإلى وعلى فى الاسم وألا يألو وعلا يعلو فى الفعل ، والاسم والفعل جاء على أربعة ، والاسم خاصة جاء على ثلاثة وأربعة وخمسة كفجل وسجل وجردحل فما جاء فى القرآن إشارة إلى أن تركيب العربية من هذه الحروف على هذه الوجوه ، فماذا يقول هذا القائل فى تخصيص بعض السور بالحرف الواحد والبعض بأكثر فلا يعلم تمام السر إلا الله ومن أعلمه الله به ، إذا علمت هذا فنقول اعلم أن العبادة منها قلبية ، ومنها لسانية ، ومنها جارحية ، وكل واحدة منها قسمان قسم عقل معناه وحقيقته وقسم لم يعلم ، أما القلبية مع أنها أبعد عن الشك والجهل ففيها مالم يعلم دليله عقلا ، وإنما وجب الإيمان به والاعتقاد سمعاً كالصراط الذى [هو] أرق من الشعرة وأحد من السيف ويمر عليه المؤمن والموقن كالبرق الخاطف والميزان الذى توزن به الأعمال التى لاثقل لها فى نظر الناظر وكيفيات الجنة والنار فان هذه الأشياء وجودها لم يعلم بدليل عقلى، وإنما المعلوم بالعقل إمكانها ووقوعها معلوم مقطوع به بالسمع ومنها ما علم كالتوحيد والنبوة وقدرة الله وصدق الرسول ، وكذلك فى العبادات الجارحية ما علم معناه ومالم نعلم كمقادير النصب وعدد الركعات ، وقد ذكرنا الحكمة فيه وهى أن العبد إذا أتى بما أمر به من غير أن يعلم مافيه من الفائدة لا يكون إلا آتياً بمحض العبادة بخلاف ما لو علم الفائدة فربما يأتى به للفائدة وإن لم يؤمن كما لو قال السيد لعبده انقل هذه الحجارة من ههنا ولم يعلمه بما فى النقل فنقلها ولو قال انقلها فان تحتها كنزاً هو لك ينقلها وإن لم يؤمن ، إذا علم هذا فكذلك فى العبادات اللسانية الذكرية وجب أن يكون منها مالا يفهم معناه حتى إذا تكلم به العبد علم منه أنه لا يقصد غير الانقياد لأمر المعبود الآمر الناهى فاذا قال (حم ، يس ، الم ، طس) علم أنه لم يذكر ذلك لمعنى يفهمه أو يفهمه فهو يتلفظ به إقامة لما أمر به .

﴿ البحث الثانى ﴾ قيل فى خصوص يس إنه كلام هو نداء معناه يا إنسان ، وتقريره هو أن تصغير إنسان أنيسين فكأنه حذف الصدر منه وأخذ العجز وقال (يس) أى أنيسين ، وعلى هذا يحتمل أن يكون الخطاب مع محمد ﷺ ويدل عليه قوله تعالى بعده (إنك لمن المرسلين) .

﴿ البحث الثالث ﴾ قرئ يس إما بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف هو قوله هذه كأنه قال هذه يس ، وإما بالضم على نداء المفرد أو على أنه مبنى كحيث ، وقرئ يس إما بالنصب على معنى اتل يس وإما بالفتح كأين وكيف ، وقرئ يس بالكسر كجير لإسكان الياء وكسرة ما قبلها ولا يجوز أن يقال بالجر لأن إضمار الجار غير جائز وليس فيه حرف قسم ظاهر وقوله تعالى (والقرآن الحكيم) أى ذى الحكمة كعيشة راضية أى ذات رضا أو على أنه ناطق بالحكمة فهو كالحى المتكلم .

قوله تعالى : ﴿ إنك لمن المرسلين ﴾ مقسم عليه وفيه مسائل:

عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝

﴿ المسألة الأولى ﴾ الكفار أنكروا كون محمد مرسلا والمطالب تثبت بالدليل لا بالقسم فما الحكمة فى الإقسام ؟ نقول فيه وجوه (الأول) هو أن العرب كانوا يتوقون الأيمان الفاجرة وكانوا يقولون إن اليمين الفاجرة توجب خراب العالم وصحح النبى ﷺ ذلك بقوله «اليمين الكاذبة تدع الديار بلاقع» ثم إنهم كانوا يقولون إن النبى ﷺ يصيبه من آلهتهم عذاب وهى الكواكب فكان النبى ﷺ يحلف بأمر الله وإنزال كلامه عليه وبأشياء مختلفة ، وما كان يصيبه عذاب بل كان كل يوم أرفع شأناً وأمنع مكاناً فكان ذلك يوجب اعتقاد أنه ليس بكاذب (الثانى) هو أن المتناظرين إذا وقع بينهما كلام وغلب أحدهما الآخر بتمشية دليله وأسكته يقول المطلوب إنك قررت هذا بقوة جدالك وأنت خبير فى نفسك بضعف مقالك وتعلم أن الأمر ليس كما تقول وإن أقمت عليه صورة دليل وعجزت أنا عن القدح فيه ، وهذا كثير الوقوع بين المتناظرين فعند هذا لا يجوز أن يأتى هو بدليل آخر ، لأن الساكت المنقطع يقول فى الدليل الآخر ما قاله فى الأول فلا يجد أمراً إلا اليمين ، فيقول والله إنى لست مكابراً وإن الأمر على ما ذكرت ولو علمت خلافه لرجعت إليه فههنا يتعين اليمين ، فكذلك النبى ﷺ لما أقام البراهين وقالت الكفرة (ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم) (وقالوا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين) تعين التمسك بالأيمان لعدم فائدة الدليل (الثالث) هو أن هذا ليس مجرد الحلف ، وإنما هو دليل خرج فى صورة اليمين لأن القرآن معجزة ودليل كونه مرسلا هو المعجزة والقرآن كذلك فان قيل فلم لم يذكر فى صورة الدليل ؟ وما الحكمة فى ذكر الدليل فى صورة اليمين ؟ قلنا الدليل إذا ذكره فى صورة اليمين قد لا يقبل عليه سامع فلا يقبله فؤاده فاذا ابتدئ به على صورة اليمين واليمين لا يقع لا سيما من العظيم الأعلى أمر عظيم والأمر العظيم تتوفر الدواعى على الإصغاء إليه فلصورة اليمين تشرئب إليه الأجسام ، ولكونه دليلا شافياً يتشربه الفؤاد فيقع فى السمع وينفع فى القلب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ كون القرآن حكيما عندهم لكون محمد رسولا ، فلهم أن يقولوا إن هذا ليس بقسم ، نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن كون القرآن معجزة بين إن أنكروه قيل لهم فأتوا بسورة من مثله (والثانى) أن العاقل لا يثق بيمين غيره إلا إذا حلف بما يعتقد عظمته ، فالكافر إن حلف بمحمد لا نصدقه كما نصدقه لو حلف بالصليب والصنم ، ولو حلف بديننا الحق لا يوثق بمثل ما يوثق به لو حلف بدينه الباطل وكان من المعلوم أن النبى ﷺ وأصحابه يعظمون القرآن فحلفه به هو الذى يوجب ثقتهم به .

تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾

أقرب الطرق الموصلة إلى المقصد والذين كذلك فإنه توجه إلى الله تعالى وتولى عن غيره والمقصد هو الله والمتوجه إلى المقصد أقرب إليه من المولى عنه والمنحرف منه ولا يذهب فهم أحد إلى أن قوله إنك منهم على صراط مستقيم مميز له عن غيره كما يقال إن محمداً من الناس مجتبى لأن جميع المرسلين على صراط مستقيم ، وإنما المقصود بيان كون النبي صلى الله عليه وسلم على الصراط المستقيم الذى يكون عليه المرسلون وقوله (على صراط مستقيم) فيه معنى لطيف يعلم منه فساد قول المباحية الذين يقولون المكلف يصير واصلا إلى الحق فلا يبقى عليه تكليف وذلك من حيث إن الله بين أن المرسلين ما داموا فى الدنيا فهم سالكون سائحون مهتدون منتهجون إلى السبيل المستقيم فكيف ذلك الجاهل العاجز .

قوله تعالى : ﴿ تنزيل العزيز الرحيم ﴾ قرىء بالجر على أنه بدل من القرآن كأنه قال (والقرآن الحكيم ، تنزيل العزيز الرحيم ، إنك لمن المرسلين لتنذر) وقرىء بالنصب وفيه وجهان (أحدهما) أنه مصدر فعله منوى كأنه قال نزل تنزيل العزيز الرحيم لتنذر ويكون تقديره نزل القرآن أو الكتاب الحكيم (والثانى) أنه مفعول فعل منوى كأنه قال والقرآن الحكيم أعنى تنزيل العزيز الرحيم إنك لمن المرسلين لتنذر ، وهذا مااختاره الزمخشرى وقرىء بالرفع على أنه خبر مبتدأ منوى كأنه قال هذا تنزيل العزيز الرحيم لتنذر ويحتمل وجهاً آخر على هذه القراءة وهو أن يكون مبتدأ خبره لتنذر كأنه قال تنزيل العزيز للانذار وقوله (العزيز الرحيم) إشارة إلى أن الملك إذا أرسل رسولا فالمرسل إليهم إما أن يخالفوا المرسل ويهينوا المرسل وحينئذ لا يقدر الملك على الانتقام منهم إلا إذا كان عزيزاً أو يخافوا المرسل ويكرموا المرسل وحينئذ يرحمهم الملك ، أو نقول المرسل يكون منه فى رسالته منع عن أشياء وإطلاق لأشياء فالمنع يؤكد العزة والإطلاق يدل على الرحمة .

قوله تعالى : ﴿ لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون ﴾ .

قد تقدم تفسيره فى قوله (لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك) وقيل المراد الإثبات وهو على وجهين (أحدهما) لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم ، فتكون ما مصدرية (الثانى) أن تكون موصولة معناه : لتنذر قوماً الذين أنذر آباؤهم فهم غافلون ، فعلى قولنا ما نافية تفسيره ظاهر فإن من لم ينذر آباؤه وبعد الإنذار عنه فهو يكون غافلا ، وعلى قولنا هى للاثبات كذلك لأن معناه لتنذرهم إنذار آبائهم فإنهم غافلون ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ كيف يفهم التفسيران وأحدهما يقتضى أن لا يكون آباؤهم منذرين والآخر يقتضى أن يكونوا منذرين وبينهما تضاد ؟ نقول على قولنا ما نافية معناه ما أنذر آباؤهم وإنذار آبائهم الأولين لا ينافى أن يكون المتقدمون من آبائهم منذرين والمتأخرون منهم غير منذرين .

لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم) يقتضى أن لا يكون النبي صلى الله عليه وسلم مأموراً بانذار اليهود لأن آباءهم أنذروا ، نقول ليس كذلك ، أما على قولنا ما للاثبات لا للنفى فظاهر ، وأما على قولنا هى نافية فكذلك ، وقد بينا ذلك فى قوله تعالى (بل هو الحق من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك) وقلنا إن المراد أن آباءهم قد أنذروا بعد ضلالهم وبعد إرسال من تقدم فان الله إذا أرسل رسولا فما دام فى القوم من يبين دين ذلك النبى ويأمر به لا يرسل الرسول فى أكثر الأمر ، فاذا لم يبق فيهم من يبين ويضل الكل ويتباعد العهد ويفشو الكفر يبعث رسولا آخر مقرراً لدين من كان قبله أو واضعاً لشرع آخر ، فمعنى قوله تعالى (لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم) أى ما أنذروا بعد ما ضلوا عن طريق الرسول المتقدم واليهود والنصارى دخلوا فيه لأنهم لم تنذر آباؤهم الأدنون بعد ماضلوا ، فهذا دليل على كون النبى صلى الله عليه وسلم مبعوثاً بالحق إلى الخلق كافة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (فهم غافلون) دليل على أن البعثة لا تكون إلا عند الغفلة ، أما إن حصل لهم العلم بما أنزل الله بأن يكون منهم من يبلغهم شريعة ويخالفونه فحق عليهم الهلاك ولا يكون ذلك تعذيباً من قبل أن يبعث الله رسولا ، وكذلك من خالف الأمور التى لا تفتقر إلى بيان الرسل يستحق الإهلاك من غير بعثة ، وليس هذا قولا بمذهب المعتزلة من التحسين والتقبيح العقلى بل معناه أن الله تعالى لو خلق فى قوم علماً بوجوب الأشياء وتركوه لا يكونون غافلين فلا يتوقف تعذيبهم على بعثة الرسل .

قوله تعالى :﴿ لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ﴾ .

لما بين أن الإرسال أو الإنزال للانذار ، أشار إلى أن النبى صلى الله عليه وسلم ليس عليه الهداية المستلزمة للاهتداء ، وإنما عليه الإنذار وقد لا يؤمن من المنذرين كثير وفى قوله تعالى (لقد حق القول) وجوه (الأول) وهو المشهور أن المراد من القول هو قوله تعالى (حق القول منى لأملأن جهنم منك وممن تبعك) ، (الثانى) هو أن معناه لقد سبق فى علمه أن هذا يؤمن وأن هذا لا يؤمن فقال فى حق البعض أنه لا يؤمن ، وقال فى حق غيره أنه يؤمن (فحق القول) أى وجد وثبت بحيث لا يبدل بغيره (الثالث) هو أن يقال المراد منه لقد حق القول الذى قاله الله على لسان الرسل من التوحيد وغيره وبأن برهانه فأكثرهم لا يؤمنون بعد ذلك لأن من يتوقف لاستماع الدليل فى مهلة النظر يرجى منه الايمان إذا بان له البرهان ، فاذا تحقق وأكد بالإيمان ولم يؤمن أكثرهم فأكثرهم تبين أنهم لا يؤمنون لمضى وقت رجاء الايمان ولأنهم لما لم يؤمنوا عند ماحق القول واستمروا فان كانوا يريدون شيئاً أوضح من البرهان فهو العيان

إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾

وعند العيان لا يفيد الإيمان ، وقوله (على أكثرهم) على هذا الوجه معناه أن من لم تبلغه الدعوة والبرهان قليلون لحق القول على أكثر من لم يوجد منه الإيمان وعلى الأول والثاني ظاهر فان أكثر الكفار ماتوا على الكفر ولم يؤمنوا (وفيه وجه رابع) وهو أن يقال لقد حقت كلمة العذاب العاجل على أكثرهم فهم لا يؤمنون وهو قريب من الأول .

قوله تعالى : ﴿ إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون ﴾ .

لما بين أنهم لا يؤمنون بين أن ذلك من الله فقال (إنا جعلنا) وفيه وجوه ١ أحدها) أن المراد إنا جعلناهم ممسكين لا ينفقون فى سبيل الله كما قال تعالى (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك) (والثانى) أن الآية نزلت فى أبى جهل وصاحبيه المخزوميين حيث حلف أبو جهل أنه يرضخ رأس محمد ، فرآه ساجداً فأخذ صخرة ورفعها ليرسلها على رأسه فالتزقت بيده ويده بعنقه . (والثالث) وهو الأقوى وأشد مناسبة لما تقدم وهو أن ذلك كناية عن منع الله إياهم عن الاهتداء وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ هل للوجهين الأولين مناسبة مع ما تقدم من الكلام ؟ نقول : (الوجه الأول) له مناسبة وهى أن قوله تعالى (فهم لا يؤمنون) يدخل فيه أنهم لا يصلون كما قال تعالى (وما كان الله ليضيع إيمانكم) أى صلاتكم عند بعض المفسرين والزكاة مناسبة للصلاة على ما بينا فكأنه قال لا يصلون ولا يزكون ، وأما على الوجه الثانى فمناسبة خفية وهى أنه لما قال (لقد حق القول على أكثرهم) وذكرنا أن المراد به البرهان قال بعد ذلك بل عاينوا وأبصروا ما يقرب من الضرورة حيث التزقت يده بعنقه ومنع من إرسال الحجر وهو يضطر إلى الإيمان ولم يؤمن علم أنه لا يؤمن أصلا والتفسير هو الوجه الثالث .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (فهى) راجعة إلى ماذا ؟ نقول فيها وجهان (أحدهما) أنها راجعة إلى الأيدى وإن كانت غير مذكورة ولكنها معلومة لأن المغلول تكون أيديه مجموعة فى الغل إلى عنقه (وثانيهما) وهو ما اختاره الزمخشرى أنها راجعة إلى الأغلال ، معناه إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا ثقالا غلاظاً بحيث تبلغ إلى الأذقان فلم يتمكن المغلول معها من أن يطأطىء رأسه.

﴿ المسألة الثالثة ﴾ كيف يفهم من الغل فى العنق المنع من الإيمان حتى يجعل كناية فنقول المغلول الذى بلغ الغل إلى ذقنه وبقى مقمحاً رافع الرأس لا يبصر الطريق الذى عند قدمه وذكر بعده أن بين يديه سداً ومن خلفه سداً فهو لا يقدر على انتهاج السبيل ورؤيته وقد ذكر من قبل أن المرسل على صراط مستقيم فهذا الذى يهديه النبى إلى الصراط المستقيم العقلى جعل ممنوعا كالمغلول الذي يجعل ممنوعا من إبصار الطريق الحسى ، ويحتمل وجها آخر وهو أن يقال الأغلال في الأعناق

وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ



عبارة عن عدم الانقياد فان المنقاد يقال فيه إنه وضع رأسه على الخط وخضع عنقه والذى فى رقبته الغل الثخين إلى الذقن لا يطأطىء رأسه ولا يحركه تحريك المصدق ، ويصدق هذا قوله (مقمحون) فان المقمح هو الرافع رأسه كالمتأبى يقال بعير قامح إذا رفع رأسه فلم يشرب الماء ولم يطأطئه للشرب والإيمان كالماء الزلال الذى به الحياة وكأنه تعالى قال (إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهم مقمحون) لا يخضعون الرقاب لأمر الله .

وعلى هذا فقوله تعالى ﴿ وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾ يكون متمماً لمعنى جعل الله إياهم مغلولين لأن قوله (وجعلنا من بين أيديهم سداً) إشارة إلى أنهم لا ينتهجون سبيل الرشاد فكأنه قال لا يبصرون الحق فينقادون له لمكان السد ولا ينقادون لك فيبصررن الحق فينقادون له لمكان الغل والإيمان المورث للايقان . أما باتباع الرسول أولا فتلوح له الحقائق ثانياً وإما بظهور الأمور أولا واتباع الرسول ثانياً ، ولا يتبعون الرسول أولا لأنهم مغلولون فلا يظهر لهم الحق من الرسول ثانياً ، ولا يظهر لهم الحق أولا لأنهم واقعون فى السد فلا يتبعون الرسول ثانياً (وفيه وجه آخر) وهو أن يقال المانع ، إما أن يكون فى النفس ، وإما أن يكون خارجاً عنها ، ولهم المانعان جميعاً من الإيمان ، أما فى النفس فالغل ، وأما من الخارج فالسد ، ولا يقع نظرهم على أنفسهم فيرون الآيات التى فى أنفسهم كما قال تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم) وذلك لأن المقمح لا يرى نفسه ولا يقع بصره على يديه ، ولا يقع نظرهم على الآفاق لأن من بين السدين لا يبصرون الآفاق فلا تبين لهم الآيات التى فى الآفاق وعلى هذا فقوله (إنا جعلنا فى أعناقهم) (وجعلنا من بين أيديهم) إشارة إلى عدم هدايتهم لآيات الله فى الأنفس والآفاق ، وفى تفسير قوله تعالى (وجعلنا من بين أيديهم سداً) مسائل :

﴿ **المسألة الأولى** ﴾ السد من بين الأيدى ذكره ظاهر الفائدة فانهم فى الدنيا سالكون وينبغى أن يسلكوا الطريقة المستقيمة (ومن بين أيديهم سداً) فلا يقدرون على السلوك ، وأما السد من خلفهم ، فما الفائدة فيه ؟ فنقول الجواب عنه من وجوه : (الاول) هو أن الانسان له هداية فطرية والكافر قد يتركها وهداية نظرية والكافر ما أدركها فكأنه تعالى يقول (جعلنا من بين أيديهم سداً) فلا يسلكون طريقة الاهتداء التى هى نظرية (وجعلنا من خلفهم سداً) فلا يرجعون إلى الهداية الجبلية التى هى الفطرية (الثانى) هو أن الانسان مبدأه من الله ومصيره إليه فعمى الكافر لا يبصر ما بين يديه من

وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠)

المصير إلى الله ولا ما خلفه من الدخول فى الوجود بخلق الله (الثالث) هو أن السالك إذا لم يكن له بد من سلوك طريق فان انسد الطريق الذى قدامه يفوته المقصد ولكنه يرجع وإذا انسد الطريق من خلفه ومن قدامه فالموضع الذى هو فيه لايكون موضع إقامة لأنه مهلك فقوله (وجعلنا من بين أيديهم سداً ، ومن خلفهم) إشارة إلى إهلاكهم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله تعالى (فأغشيناهم) بحرف الفاء يقتضى أن يكون للاغشاء بالسد تعلق ويكون الإغشاء مرتباً على جعل السد فكيف ذلك ؟ فنقول ذلك من وجهين (أحدهما) أن يكون ذلك بياناً لأمور مترتبة يكون بعضها سبباً للبعض فكأنه تعالى قال (إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا) فلا يبصرون أنفسهم لإقماحهم (وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً) فلا يبصرون ما فى الآفاق وحينئذ يمكن أن يروا السماء وما على يمينهم وشمالهم فقال بعد هذا كله (وجعلنا على أبصارهم غشاوة) فلا يبصرون شيئاً أصلا (وثانيهما) هو أن ذلك بيان لكون السد قريباً منهم بحيث يصير ذلك كالغشاوة على أبصارهم فان من جعل من خلفه ومن قدامه سدين ملتزقين به بحيث يبقى بينهما ملتزقاً بهما تبقى عينه على سطح السد فلا يبصر شيئاً ، أما غير السد فللحجاب ، وأما عين السد فلكون شرط المرئى أن لايكون قريباً من العين جداً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ذكر السدين من بين الأيدى ومن خلف ولم يذكر من اليمين والشمال ما الحكمة فيه ؟ فنقول ، أما على قولنا إنه إشارة إلى الهداية الفطرية والنظرية فظاهر ، وأما على غير ذلك فنقول بما ذكر حصل العموم والمنع من انتهاج المناهج المستقيمة ، لأنهم إن قصدوا السلوك إلى جانب اليمين أو جانب الشمال صاروا متوجهين إلى شىء ومولين عن شىء فصار ما إليه توجههم ما بين أيديهم فيجعل الله السد هناك فيمنعه من السلوك ، فكيفما يتوجه الكافر يجعل الله بين يديه سداً (ووجه آخر) أحسن مما ذكرنا وهو أنا لما بينا أن جعل السد صار سبباً للاغشاء كان السد ملتزقاً به وهو ملتزق بالسدين فلا قدرة له على الحركة يمنة ولا يسرة فلا حاجة إلى السد عن اليمين وعن الشمال وقوله تعالى (فأغشيناهم فهم لا يبصرون) يحتمل ما ذكرنا أنهم لا يبصرون شيئاً ، ويحتمل أن يكون المراد هو أن الكافر مصدود وسبيل الحق عليه مسدود وهو لا يبصر السد ولا يعلم الصد فيظن أنه على الطريقة المستقيمة ، وغير ضال .

ثم إنه تعالى بين أن الإنذار لاينفعهم مع ما فعل الله بهم من الغل والسد والإغشاء والإعماء . بقوله تعالى ﴿ وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ أى الإنذار وعدمه سيان بالنسبة إلى الإيمان منهم إذ لاوجود له منهم على التقديرين ، فان قيل إذا كان الإنذار وعدمه سواء فلماذا الإنذار ؟ نقول قد أجبنا فى غير هذا الموضع أنه تعالى قال (سواء عليهم) وما قال سواء

إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾

عليك فالإنذار بالنسبة إلى النبي ﷺ ليس كعدم الإنذار لأن أحدهما مخرج له عن العهدة وسبب في زيادة سيادته عاجلا وسعادته آجلا ، وأما بالنسبة اليهم على السواء فانذار النبي ﷺ ليخرج عما عليه وينال ثواب الإنذار وإن لم ينتفعوا به لما كتب عليهم من البوار في دار القرار .

قوله تعالى : ﴿ إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم ﴾ والترتيب ظاهر وفي التفسير مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال من قبل (لتنذر) وذلك يقتضى الانذار العام على ما بينا وقال (إنما تنذر) وهو يقضى التخصيص فكيف الجمع بينهما ؟ نقول من وجوه : (الأول) هو أن قوله (لتنذر) أى كيفما كان سواء كان مفيداً أو لم يكن وقوله (إنما تنذر) أى الإنذار المفيد لا يكون إلا بالنسبة إلى من يتبع الذكر ويخشى (الثاني) هو أن الله تعالى لما قال إن الارسال والانزال ، وذكر أن الانذار وعدمه سيان بالنسبة إلى أهل العناد قال لنبيه ليس إنذارك غير مفيد من جميع الوجوه فأنذر على سبيل العموم وإنما تنذر بذلك الإنذار العام من يتبع الذكر كأنه يقول يا محمد إنك بإنذارك تهدى ولا تدرى من تهدى فأنذر الأسود والأحمر ومقصودك من يتبع إنذارك وينتفع بذكراك (الثالث) هو أن نقول قوله (لتنذر) أى أولا فاذا أنذرت وبالغت وبلغت واستهزأ البعض وتولى واستكبر وولى ، فأعرض بعد ذلك فإنما تنذر الذين اتبعوك (الرابع) وهو قريب من الثالث إنك تنذر الكل بالأصول ، وإنما تنذر بالفروع من ترك الصلاة والزكاة من اتبع الذكر وآمن .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (من اتبع الذكر) يحتمل وجوهاً (الأول) وهو المشهور من أتبع القرآن (الثاني) من اتبع ما في القرآن من الآيات ويدل عليه قوله تعالى (والقرآن ذى الذكر) فما جعل القرآن نفس الذكر (الثالث) من اتبع البرهان فانه ذكر يكمل الفطرة وعلى كل وجه فمعناه : إنما تنذر العلماء الذين يخشون وهو كقوله تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) وكقوله تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) فقوله (اتبع الذكر) أى آمن ، وقوله (وخشى الرحمن) أى عمل صالحاً وهذا الوجه يتأيد بقوله (فبشره بمغفرة وأجر كريم) لأنا ذكرنا مراراً أن الغفران جزاء الإيمان فكل مؤمن مغفور والأجر الكريم جزاء العمل كما قال تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم) وتفسير الذكر بالقرآن يتأيد بتعريف الذكر بالألف واللام ، وقد تقدم ذكر القرآن في قوله تعالى (والقرآن الحكيم) وقوله (وخشى الرحمن) فيه لطيفة وهى أن الرحمة تورث الاتكال والرجاء فقال مع أنه رحمن ورحيم فالعاقل

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ (١٢)

لاينبغى أن يترك الخشية فان كل من كانت نعمته بسبب رحمته أكثر فالخوف منه أتم مخافة أن يقطع عنه النعم المتواترة (وتكملة اللطيفة) هى أن من أسماء الله اسمين يختصان به هما الله والرحمن كما قال تعالى (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن) حتى قال بعض الأئمة هما علمان إذا عرفت هذا فالله اسم ينبئ عن الهيبة والرحمن ينبىء عن العاطفية فقال فى موضع يرجو الله ، وقال ههنا (وخشى الرحمن) يعنى مع كونه ذاهيبة لا تقطعوا عنه رجاءكم ومع كونه ذا رحمة لا تأمنوه ، وقوله (بالغيب) يعنى بالدليل وإن لم ينته إلى درجة المرئى المشاهد فان عند الانتهاء إلى تلك الدرجة لا يبقى للخشية فائدة ، والمشهور أن المراد بالغيب ما غاب عنا وهو أحوال القيامة ، وقيل إن الوحدانية تدخل فيه ، وقوله (فبشره) فيه إشارة إلى الأمر الثانى من أمرى الرسالة فان النبى صلى الله عليه وسلم بشير ونذير وقد ذكر أنه أرسل لينذر وذكر أن الانذار النافع عند اتباع الذكر ، فقال بشر : كما أنذرت ونفعت ، وقوله (بمغفرة) على التنكير أى بمغفرة واسعة تستر من جميع الجوانب حتى لايرى عليه أثر من آثار النفس ويظهر عليه أنوار الروح الزكية (وأجر كريم) أى ذى كرم ، وقد ذكرنا مافى الكريم فى قوله (ورزق كريم) وفى قوله (ورزقا كريما) .

قوله تعالى : ﴿ إنا نحن نحي الموتى ونكتب ماقدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه فى إمام مبين ﴾ .

فى الترتيب وجوه (أحدها) أن الله تعالى لما بين الرسالة وهو أصل من الأصول الثلاثة التى يصير بها المكلف مؤمناً مسلماً ذكر أصلا آخر وهو الحشر (وثانيها) وهو أن الله تعالى لما ذكر الانذار والبشارة بقوله (فبشره بمغفرة) ولم يظهر ذلك بكماله فى الدنيا فقال إن لم ير فى الدنيا فالله يحي الموتى ويجزى المنذرين ويجزى المبشرين (وثالثها) أنه تعالى لما ذكر خشية الرحمن بالغيب ذكر ما يؤكده وهو إحياء الموتى وفى التفسير مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ (إنا نحن) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون مبتدأ وخبراً كقول القائل : أنا أبو النجم وشعرى شعرى

ومثل هذا يقال عند الشهرة العظيمة ، وذلك لأن من لايعرف يقال له من أنت ؟ فيقول أنا ابن فلان فيعرف ومن يكون مشهوراً إذا قيل له من أنت يقول أنا أى لامعرف لى أظهر من نفسى فقال إنا نحن معروفون بأوصاف الكمال ، وإذا عرفنا بأنفسنا فلا تنكر قدرتنا على إحياء الموتى (وثانيهما) أن يكون الخبر (نحي) كأنه قال إنا نحي الموتى ، و(نحن) يكون تأكيداً والأول أولى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إنا نحن فيه إشارة إلى التوحيد لأن الاشتراك يوجب التمييز بغير النفس فان زيداً إذا شاركه غيره فى الاسم ، فلو قال أنا زيد لم يحصل التعريف التام . لأن للسامع أن يقول : أيما زيد ؟ فيقول ابن عمرو ولو كان هناك زيد آخر أبوه عمرو لا يكفى قوله ابن عمرو . فلما قال الله (إنا نحن) أى ليس غيرنا أحد يشاركنا حتى تقول أنا كذا فنمتاز ، وحينئذ تصير الأصول الثلاثة مذكورة ؛ الرسالة والتوحيد والحشر .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (ونكتب ماقدموا) فيه وجوه (أحدها) المراد ماقدموا وأخروا فاكتفى بذكر أحدهما كما فى قوله تعالى (سرابيل تقيكم الحر) والمراد والبرد أيضاً (وثانيها) المعنى ما أسلفوا من الأعمال صالحة كانت أو فاسدة وهو كما قال تعالى (بما قدمت أيديهم) أى بما قدمت فى الوجود على غيره وأوجدته (وثالثها) نكتب نياتهم فانها قبل الأعمال وآثارهم أى أعمالهم على هذا الوجه .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ وآثارهم فيه وجوه (الأول) آثارهم أقدامهم فان جماعة من أصحابه بعدت دورهم عن المساجد فأرادوا النقلة فقال صلى الله عليه وسلم « إن الله يكتب خطواتكم ويثيبكم عليه فالزموا بيوتكم » (والثانى) هى السنن الحسنة ، كالكتب المصنفة والقناطر المبنيه ، والحبائس الدارة ، والسنن السيئة كالظلمات المستمرة التى وضعها ظالم والكتب المضلة ، وآلات الملاهى وأدوات المناهى المعمولة الباقية ، وهو فى معنى قوله صلى الله عليه وسلم « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجر العامل شىء ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها » فما قدموا هو أفعالهم وآثارهم أفعال الشاكرين فبشرهم حيث يؤاخذون بها ويؤجرون عليها (والثالث) ما ذكرنا أن الآثار الأعمال وما قدموا النيات فان النية قبل العمل

﴿ المسألة الخامسة ﴾ الكتابة قبل الإحياء فكيف أخر فى الذكر حيث قال نحيى ونكتب ولم يقل نكتب ماقدموا ونحييهم نقول الكتابة معظمة لأمر الإحياء لأن الإحياء إن لم يكن للحساب لا يعظم والكتابة فى نفسها إن لم تكن إحياء وإعادة لا يبقى لها أثر أصلا فالإحياء هو المعتبر والكتابة مؤكدة معظمة لأمره ، فلهذا قدم الاحياء ولأنه تعالى لما قال (إنا نحن) وذلك يفيد العظمة والجبروت ، والإحياء عظيم يختص بالله والكتابة دونه فقرن بالتعريف الأمر العظيم وذكر ما يعظم ذلك العظيم وقوله (وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين) يحتمل وجوهاً (أحدها) أن يكون ذلك بياناً لكون ماقدموا وآثارهم أمراً مكتوباً عليهم لا يبدل ، فان القلم جف بما هو كائن فلما قال (نكتب ماقدموا) بين أن قبل ذلك كتابة أخرى فإن الله كتب عليهم أنهم سيفعلون كذا وكذا ثم إذا فعلوه كتب عليهم أنهم فعلوه (وثانيها) أن يكون ذلك مؤكدا لمعنى قوله (ونكتب) لأن من يكتب شيئاً فى أوراق ويرميها قد لا يجدها فكأنه لم يكتب فقال نكتب ونحفظ ذلك فى إمام مبين وهذا كقوله تعالى (علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى) (وثالثها) أن يكون ذلك تعميما بعد

وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾

التخصيص كأنه تعالى يكتب ماقدموا وآثارهم وليست الكتابة مقتصرة عليه ، بل كل شيء محصي فى إمام مبين ، وهذا يفيد أن شيئاً من الأقوال والأفعال لا يعزب عن علم الله ولا يفوته ، وهذا كقوله تعالى (وكل شيء فعلوه فى الزبر ، وكل صغير وكبير مستطر) يعنى ليس ما فى الزبر منحصراً فيما فعلوه بل كل شيء فعلوه مكتوب ، وقوله (أحصيناه) أبلغ من كتبناه لأن من كتب شيئاً مفرقاً يحتاج إلى جمع عدده فقال هو محصى فيه وسمى الكتاب إماماً لأن الملائكة يتبعونه فما كتب فيه من أجل ورزق وإحياء وإماتة اتبعوه وقيل هو اللوح المحفوظ ، وإمام جاء جمعاً فى قوله تعالى (يوم ندعوا كل أناس بإمامهم) أى بأئمتهم وحينئذ فإمام إذا كان فرداً فهو ككتاب وحجاب وإذا كان جمعاً فهو كجبال وحبال والمبين هو المظهر للأمور لكونه مظهراً للملائكة مايفعلون وللناس مايفعل بهم وهو الفارق يفرق بين أحوال الخلق فيجعل فريقاً فى الجنة وفريقاً فى السعير .

قوله تعالى : ﴿ واضرب لهم مثلا أصحاب القريه إذ جاءها المرسلون ﴾

وفيه وجهان ، والترتيب ظاهر على الوجهين (الوجه الأول) هو أن يكون المعنى واضرب لأجلهم مثلا (والثانى) أن يكون المعنى واضرب لأجل نفسك أصحاب القرية لهم مثلا أى مثلهم عند نفسك بأصحاب القرية وعلى الاول نقول لما قال الله (إنك لمن المرسلين) وقال (لتنذر) قال قل لهم (ما كنت بدعاً من الرسل) بل قبلى بقليل جاء أصحاب القرية مرسلون وأنذروهم بما أنذرتكم وذكروا التوحيد وخوفوا بالقيامة وبشروا بنعيم دار الإقامة ، وعلى الثانى نقول لما قال الله تعالى إن الانذار لاينفع من أضله الله وكتب عليه أنه لا يؤمن قال للنبى عليه الصلاة والسلام فلا تأس واضرب لنفسك ولقومك مثلا ، أى مثل لهم عند نفسك مثلا حيث جاءهم ثلاثة رسل ولم يؤمنوا وصبر الرسل على القتل والإيذاء ، وأنت جئتهم واحداً وقومك أكثر من قوم الثلاثة فإنهم جاؤا قرية وأنت بعثت إلى العالم ، وفى التفسير مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما معنى قول القائل ضرب مثلا ؟ وقوله تعالى (واضرب) مع أن الضرب فى اللغة ، إما إمساس جسم جسما بعنف ، وإما السير إذا قرن به حرف فى كقوله تعالى (إذا ضربتم فى الأرض) ؟ نقول قوله ضرب مثلا معناه مثل مثلا ، وذلك لأن الضرب اسم للنوع يقال هذه الأشياء من ضرب واحد أى اجعل هذا وذاك من ضرب واحد .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أصحاب القرية ، معناه واضرب لهم مثلا مثل أصحاب القرية فترك المثل وأقيم الأصحاب مقامه فى الإعراب كقوله (واسأل القرية) هذا قول الزمخشرى فى الكشاف ، ويحتمل أن يقال لا حاجة إلى الاضمار بل المعنى اجعل أصحاب القرية لهم مثلا أو مثل أصحاب القرية بهم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إذ جاءها المرسلون . إذ منصوبة لأنها بدل من أصحاب القرية كأنه قال تعالى

إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ

(واضرب لهم) وقت مجيء المرسلين ومثل ذلك الوقت بوقت مجيئك ، وهذا أيضاً قول الزمخشرى وعلى قولنا إن هذا المثل مضروب لنفس محمد صلى الله عليه وسلم تسلية فيحتمل أن يقال إذظرف منصوب بقوله (اضرب) أى اجعل الضرب ، كأنه حين مجيئهم وواقع فيه ، والقرية أنطاكية والمرسلون من قوم عيسى وهم أقرب مرسل أرسل إلى قوم إلى زمان محمد صلى الله عليه وسلم وهم ثلاثة كما بين الله تعالى وقوله (إذ أرسلنا) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون إذ أرسلنا بدلا من إذ جاءها كأنه قال اضرب لهم مثلا ، إذ أرسلنا إلى أصحاب القرية اثنين (وثانيهما) وهو الأصح والأوضح أن يكون إذ ظرفا والفعل الواقع فيه جاءها أى جاءها المرسلون حين أرسلناهم إليهم أى لم يكن مجيئهم من تلقاء أنفسهم وإنما جاءوهم حيث أمروا ، وهذا فيه لطيفة : وهى أن فى الحكاية أن الرسل كانوا مبعوثين من جهة عيسى عليه السلام أرسلهم إلى انطاكية فقال تعالى إرسال عيسى عليه السلام هو إرسالنا ورسول رسول الله بإذن الله رسول الله فلا يقع لك يا محمد أن أولئك كانوا رسل الرسول وأنت رسول الله فإن تكذيبهم كتكذيبك فتم التسلية بقوله (إذ أرسلنا) وهذا يؤيد مسألة فقهية وهى أن وكيل الوكيل بإذن الموكل وكيل الموكل لا وكيل الوكيل حتى لا ينعزل بعزل الوكيل إياه وينعزل إذا عزله الموكل الأول ، وهذا على قولنا (واضرب لهم مثلا) ضرب المثل لأجل محمد ﷺ ظاهر .

وقوله ﴿ إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما ﴾

فى بعثة الاثنين حكمة بالغة وهى أنهما كانا مبعوثين من جهة عيسى باذن الله فكان عليهما انهاء الأمر إلى عيسى والإتيان بما أمر الله ، والله عالم بكل شيء لا يحتاج إلى شاهد يشهد عنده ، وأما عيسى فهو بشر فأمره الله بارسال اثنين ليكون قولهما على قومهما عند عيسى حجة تامة .

وقوله ﴿فعززنا بثالث﴾ أى قوينا وقرىء فعززنا بثالث مخففاً ، من عز إذا غلب فكأنه قال فغلبنا نحن وقهرنا بثالث والأول أظهر وأشهر وترك المفعول حيث لم يقل فعززناهما لمعنى لطيف وهو أن المقصود من بعثهما نصرة الحق لا نصرتهما والكل مقوون للدين المتين بالبرهان المبين ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ النبى صلى الله عليه وسلم بعث رسله إلى الأطراف واكتفى بواحد وعيسى عليه السلام بعث اثنين ، نقول النبى بعث لتقرير الفروع وهو دون الأصول فاكتفى بواحد فان خبر الواحد فى الفروع مقبول ، وأما هما فبعثا بالأصول وجعل لهما معجزة تفيد اليقين وإلا لما كفى إرسال اثنين أيضاً ولا ثلاثة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الله تعالى لموسى عليه السلام (سنشد عضدك) فذكر المفعول هناك ولم يذكره ههنا مع أن المقصود هناك أيضاً نصرة الحق ، نقول موسى عليه السلام كان أفضل من هرون

إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ﴿١٦﴾

وهرون بعث معه بطلبه حيث قال (فأرسله معى) فكان هرون مبعوثاً ليصدق موسى فيما يقول ويقوم بما يأمره ، وأما هما فكل واحد مستقل ناطق بالحق فكان هناك المقصود تقوية موسى وإرسال من يؤنس معه وهو هرون ، وأما ههنا فالمقصود تقوية الحق فظهر الفرق .

ثم بين الله ما جرى منهم وعليهم مثل ماجرى من محمد ﷺ وعليه فقالوا ﴿ إنا إليكم مرسلون ﴾ كما قال (إنك لمن المرسلين) وبين ما قال القوم بقوله ﴿ قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء ﴾ جعلوا كونهم بشراً مثلهم دليلا على عدم الإرسال ، وهذا عام من المشركين قالوا فى حق محمد (أأنزل عليه الذكر) وإنما ظنوه دليلا بناء على أنهم لم يعتقدوا فى الله الاختيار ، وإنما قالوا فيه إنه موجب بالذات وقد استوينا فى البشرية فلا يمكن الرجحان ، والله تعالى رد عليهم قولهم بقوله (الله أعلم حيث يجعل رسالته) وبقوله (الله يجتبى إليه من يشاء) إلى غير ذلك ، وقوله (وما أنزل الرحمن من شيء) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون متمما لما ذكروه فيكون الكل شبهة واحدة . ووجهه هو أنهم قالوا أنتم بشر فما نزلتم من عند الله وما أنزل الله إليكم أحداً، فكيف صرتم رسلا لله ؟ (وثانيهما) أن يكون هذا شبهة أخرى مستقلة ووجهه هو أنهم لما قالوا أنتم بشر مثلنا فلا يجوز رجحانكم علينا ذكروا الشبهة من جهة النظر إلى المرسلين ، ثم قالوا شبهة أخرى من جهة المرسل ، وهو أنه تعالى ليس بمنزل شيئاً فى هذا العالم ، فإن تصرفه فى العالم العلوى وللعلويات التصرف فى السفليات على مذهبهم ، فالله تعالى لم ينزل شيئاً من الأشياء فى الدنيا فكيف أنزل إليكم ، وقوله (الرحمن) إشارة إلى الرد عليهم ، لأن الله لما كان رحمن الدنيا والإرسال رحمة ، فكيف لاينزل رحمته وهو رحمن ، فقال إنهم قالوا : ما أنزل الرحمن شيئاً ، وكيف لاينزل الرحمن مع كونه رحمن شيئاً ، هو الرحمة الكاملة .

قوله تعالى : ﴿ إن أنتم إلا تكذبون ﴾ أى ما أنتم إلا كاذبين .

﴿ قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون ﴾ إشارة إلى أنهم بمجرد التكذيب لم يسأموا ولم يتركوا ، بل أعادوا ذلك لهم وكرروا القول عليهم وأكدوه باليمين و (قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون) وأكدوه باللام ، لأن يعلم الله يجرى مجرى القسم ، لأن من يقول يعلم الله فيما لا يكون فقد نسب الله إلى الجهل وهو سبب العقاب ، كما أن الحنث سببه ، وفى قوله (ربنا يعلم) إشارة إلى الرد عليهم حيث قالوا أنتم بشر ، وذلك لأن الله إذا كان يعلم أنهم لمرسلون ، يكون كقوله تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالاته) يعنى هو عالم بالأمور وقادر ، فاختارنا بعلمه لرسالته .

وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾

ثم قال ﴿ وما علينا إلا البلاغ المبين ﴾ تسلية لأنفسهم ، أى نحن خرجنا عن عهدة ما علينا وحثاً لهم على النظر ، فإنهم لما قالوا (ما علينا إلا البلاغ) كان ذلك يوجب تفكرهم فى أمرهم حيث لم يطلبوا منهم أجراً ولا قصدوا رياسة ، وإنما كان شغلهم التبليغ والذكر ، وذلك مما يحمل العاقل على النظر (والمبين) يحتمل أموراً (أحدها) البلاغ المبين للحق عن الباطل ، أى الفارق بالمعجزة والبرهان (وثانيها) البلاغ المظهر لما أرسلنا للكل ، أى لا يكفى أن نبلغ الرسالة إلى شخص أو شخصين (وثالثها) البلاغ المظهر للحق بكل ما يمكن ، فاذا تم ذلك ولم يقبلوا يحق هنالك الهلاك .

ثم كان جوابهم بعد هذا أنهم ﴿ قالوا إنا تطيرنا بكم ﴾ وذلك أنه لما ظهر من الرسل المبالغة فى البلاغ ظهر منهم الغلو فى التكذيب ، فلما قال المرسلون (إنا إليكم لمرسلون) قالوا (إن أنتم إلا تكذبون) ولما أكد الرسل قولهم باليمين حيث قالوا (ربنا يعلم) أكدوا قولهم بالتطير بهم فكأنهم قالوا فى الأول كنتم كاذبين ، وفى الثانى صرتم مصرين على الكذب ، حالفين مقسمين عليه ، و«اليمين الكاذبة تدع الديار بلاقع» فتشاءمنا بكم ثانياً ، وفى الأول كنا تركتم وفى الثانى لانتركم لكون الشؤم مدركنا بسببكم فقالوا ﴿ لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم ﴾ وقوله لنرجمنكم يحتمل وجهين (أحدهما) لنشتمنكم من الرجم بالقول وعلى هذا فقوله (وليمسنكم) ترق كأنهم قالوا ولا يكتفى بالشتم ، بل يؤدى ذلك إلى الضرب والإيلام الحسى (وثانيهما) أن يكون المراد الرجم بالحجارة ، وحينئذ فقوله (وليمسنكم) بيان للرجم ، يعنى ولا يكون الرجم رجماً قليلا نرجمكم بحجر وحجرين ، بل نديم ذلك عليكم إلى الموت وهو عذاب أليم ، ويكون المراد (لنرجمنكم وليمسنكم) بسبب الرجم عذاب منا أليم ، وقد ذكرنا فى الأليم أنه بمعنى المؤلم ، والفعيل بمعنى مفعل قليل ، ويحتمل أن يقال هو من باب قوله (عيشة راضية) أى ذات رضا ، فالعذاب الأليم هو ذو ألم ، وحينئذ يكون فعيلا بمعنى فاعل وهو كثير .

ثم أجابهم المرسلون بقولهم ﴿ قالوا طائركم معكم ﴾ أى شؤمكم معكم وهو الكفر .

ثم قالوا ﴿ أئن ذكرتم ﴾ جواباً عن قولهم (لنرجمنكم) يعنى أتفعلون بنا ذلك ، وإن ذكرتم أى بين لكم الأمر بالمعجز والبرهان ﴿ بل أنتم قوم مسرفون ﴾ حيث تجعلون من يتبرك به كمن

وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾

يتشاءم به وتقصدون إيلام من يجب فى حقه الإكرام أو (مسرفون) حيث تكفرون ، ثم تصرون بعد ظهور الحق بالمعجز والبرهان ، فان الكافر مسيء فاذا تم عليه الدليل وأوضح له السبيل ويصر يكون مسرفاً ، والمسرف هو المجاوز الحد بحيث يبلغ الضد وهم كانوا كذلك فى كثير من الأشياء ، أما فى التبرك والتشاؤم فقد علم وكذلك فى الإيلام والإكرام ، وأما فى الكفر فلأن الواجب اتباع الدليل ، فان لم يوجد به فلا أقل من أن لا يجزم بنقيضه وهم جزموا بالكفر بعد البرهان على الإيمان ، فان قيل بل للاضراب فما الأمر المضرب عنه ؟ نقول يحتمل أن يقال قوله (أئن ذكرتم) وارد على تكذيبهم ونسبتهم الرسل إلى الكذب بقولهم (إن أنتم إلا تكذبون) فكأنهم قالوا أنحن كاذبون وإن جئنا بالبرهان ، لا (بل أنتم قوم مسرفون) ويحتمل أن يقال أنحن مشئومون ، وإن جئنا ببيان صحة ما نحن عليه ، لا (بل أنتم قوم مسرفون) ويحتمل أن يقال أنحن مستحقون للرجم والإيلام ، وإن بينا صحة ما أتينا به ، لا (بل أنتم قوم مسرفون) وأما الحكاية فمشهورة ، وهى أن عيسى عليه السلام بعث رجلين إلى أنطاكية فدعيا إلى التوحيد وأظهرا المعجزة من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى فحبسهما الملك ، فأرسل بعدهما شمعون فأتى الملك ولم يدع الرسالة ، وقرب نفسه إلى الملك بحسن التدبير ، ثم قال له : إنى أسمع أن فى الحبس رجلين يدعيان أمراً بديعاً ، أفلا يحضران حتى نسمع كلامهما ؟ قال الملك بلى ، فأحضرا وذكرا مقالتهما الحقة ، فقال لهما شمعون : فهل لكما بينة ؟ قالا نعم ، فأبرآ الأكمه والأبرص وأحييا الموتى ، فقال شمعون : أيها الملك ، إن شئت أن تغلبهم ، فقل للآلهة التى تعبدونها تفعل شيئاً من ذلك ، قال الملك : أنت لا يخفى عليك أنها لا تبصر ولا تسمع ولا تقدر ولا تعلم ، فقال شمعون : فإذن ظهر الحق من جانبهم ، فآمن الملك وقوم وكفر آخرون ، وكانت الغلبة المكذبين .

قوله تعالى : ﴿ وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال ياقوم اتبعوا المرسلين ﴾ .

وفى فائدته وتعلقه بما قبله وجهان : (أحدهما) أنه بيان لكونهم أتوا بالبلاغ المبين حيث آمن بهم الرجل الساعى ، وعلى هذا فقوله (من أقصى المدينة) فيه بلاغة باهرة ، وذلك لأنه لما (جاء من أقصى المدينة رجل) وهو قد آمن دل على أن إنذارهم وإظهارهم بلغ إلى أقصى المدينة (وثانيهما) أن ضرب المثل لما كان لمحمد ﷺ تسلية لقلبه ذكر بعد الفراغ من ذكر الرسل سعى المؤمنين فى تصديق رسلهم وصبرهم على ما أوذوا ، ووصول الجزاء الأوفى اليهم ليكون ذلك تسلية لقلب أصحاب محمد ، كما أن ذكر المرسلين تسلية لقلب محمد ﷺ ، وفى التفسير مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (وجاء من أقصى المدينة رجل) فى تنكير الرجل مع أنه كان معروفاً معلوماً عند الله فائدتان : (الأولى) أن يكون تعظيما لشأنه أى رجل كامل فى الرجولية

ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَالِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى

(الثانية) أن يكون مفيداً لظهور الحق من جانب المرسلين حيث آمن رجل من الرجال لا معرفة لهم به فلا يقال إنهم تواطئوا ، والرجل هو حبيب النجار كان ينحت الأصنام وقد آمن بمحمد ﷺ قبل وجوده حيث صار من العلماء بكتاب الله ، ورأى فيه نعت محمد صلى الله عليه وسلم وبعثته .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (يسعى) تبصرة للمؤمنين وهداية لهم ، ليكونوا فى النصح باذلين جهدهم ، وقد ذكرنا فائدة قوله (من أقصى المدينة) وهى تبليغهم الرسالة بحيث انتهى إلى من فى (أقصى المدينة) والمدينة هى أنطاكية ، وهى كانت كبيرة شاسعة وهى الآن دون ذلك ومع هذا فهى كبيرة وقوله تعالى (قال ياقوم اتبعوا المرسلين) فيه معان لطيفة (الأول) فى قوله (ياقوم) فانه ينبىء عن إشفاق عليهم وشفقة فان إضافتهم إلى نفسه بقوله (ياقوم) يفيد أنه لا يريد بهم إلا خيراً ، وهذا مثل قول مؤمن آل فرعون ياقوم اتبعونى فان قيل قال هذا الرجل (اتبعوا المرسلين) وقال ذلك اتبعونى فما الفرق ؟ نقول هذا الرجل جاءهم وفى أول مجيئه نصحهم وما رأوا سيرته ، فقال اتبعوا هؤلاء الذين أظهروا لكم الدليل وأوضحوا لكم السبيل ، وأما مؤمن آل فرعون فكان فيهم واتبع موسى ونصحهم مراراً فقال اتبعونى فى الإيمان بموسى وهرون عليهما السلام ، واعلموا أنه لو لم يكن خيراً لما اخترته لنفسى وأنتم تعلمون أنى اخترته ، ولم يكن للرجل الذى جاء من أقصى المدينة أن يقول أنتم تعلمون اتباعى لهم (الثانى) جمع بين إظهار النصيحة وإظهار إيمانه فقوله (اتبعوا) نصيحة وقوله (المرسلين) إظهار أنه آمن (الثالث) قدم إظهار النصيحة على إظهار الايمان لأنه كان ساعياً فى النصح ، وأما الإيمان فكان قد آمن من قبل وقوله (رجل يسعى) يدل على كونه مريداً للنصح وما ذكر فى حكايته أنه كان يقتل وهو يقول «اللهم اهد قومى» .

قوله تعالى : ﴿ اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون ﴾ وهذا فى غاية الحسن وذلك من حيث إنه لما قال (اتبعوا المرسلين) كأنهم منعوا كونهم مرسلين فنزل درجة وقال لاشك أن الخلق فى الدنيا سالكون طريقة وطالبون للاستقامة ، والطريق إذا حصل فيه دليل يدل يجب اتباعه ، والامتناع من الاتباع لايحسن إلا عند أحد أمرين ، إما مغالاة الدليل فى طلب الأجرة ، وإما عند عدم الاعتماد على اهتدائه ومعرفته الطريق ، لكن هؤلاء لا يطلبون أجرة وهم مهتدون عالمون بالطريقة المستقيمة الموصلة إلى الحق ، فهب أنهم ليسوا بمرسلين هادين ، أليسوا بمهتدين ، فاتبعوهم .

قوله تعالى : ﴿ ومالى لا أعبد الذى فطرنى ﴾ لما قال (وهم مهتدون) بين ظهور اهتدائهم بأنهم يدعون من عبادة الجماد إلى عبادة الحى القيوم ، ومن عبادة مالا ينفع إلى عبادة من منه كل نفع (وفيه لطائف) الأولى قوله (مالى) أى مالى مانع من جانبى . إشارة إلى أن الأمر من جهة المعبود ظاهر لاخفاء فيه ، فمن يمتنع من عبادته يكون من جانبه مانع ولامانع من جانبى فلا جرم

وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾

عبدته ، وفى العدول عن مخاطبة القوم إلى حال نفسه حكمة أخرى (ولطيفة ثانية) وهى أنه لو قال مالكم لا تعبدون الذى فطركم ، لم يكن فى البيان مثل قوله (ومالى) لأنه لما قال (ومالى) وأحد لايخفى عليه حال نفسه علم كل أحد أنه لا يطلب العلة وبيانها من أحد لأنه أعلم بحال نفسه فهو يبين عدم المانع ، وأما لو قال (مالكم) جاز أن يفهم منه أنه يطلب بيان العلة لكون غيره أعلم بحال نفسه ، فان قيل قال الله (مالكم لاترجون لله وقاراً) نقول القائل هناك غير مدعو ، وإنما هوداع وههنا الرجل مدعو إلى الإيمان فقال (ومالى لاأعبد) وقد طلب منى ذلك (الثانية) قوله (الذى فطرنى) إشارة إلى وجود المقتضى فان قوله (ومالى) إشارة إلى عدم المانع وعند عدم المانع لا يوجد الفعل ما لم يوجد المقتضى ، فقوله (الذى فطرنى) ينبىء عن الاقتضاء ، فان الخالق ابتداء مالك والمالك يجب على المملوك إكرامه وتعظيمه ، ومنعم بالإيجاد والمنعم يجب على المنعم شكر نعمته (الثالثة) قدم بيان عدم المانع على بيان وجود المقتضى مع أن المستحسن تقديم المقتضى حيث وجد المقتضى ولا مانع ، فيوجد لأن المقتضى لظهوره كان مستغنياً عن البيان رأساً فلا أقل من تقديم ما هو أولى بالبيان لوجود الحاجة إليه (الرابعة) اختار من الآيات فطرة نفسه لأنه لما قال (ومالى لا أعبد) باسناد العبادة إلى نفسه اختار ما هو أقرب إلى إيجاب العبادة على نفسه ، وبيان ذلك هو أن خالق عمرو يجب على زيد عبادته لأن من خلق عمراً لا يكون إلا كامل القدرة شامل العلم واجب الوجود وهو مستحق للعبادة بالنسبة إلى كل مكلف لكن العبادة على زيد بخلق زيد أظهر إيجاباً .

واعلم أن المشهور فى قوله (فطرنى) خلقنى اختراعا وابتداعا ، والغريب فيه أن يقال (فطرنى) أى جعلنى على الفطرة كما قال الله تعالى (فطرة الله التى فطر الناس عليها) وعلى هذا فقوله (ومالى لا أعبد) أى لم يوجد فى مانع فأنا باق على فطرة ربى الفطرة كافية فى الشهادة والعبادة فإن قيل فعلى هذا يختلف معنى الفطر فى قوله (فاطر السموات) فنقول قد قيل بأن (فاطر السموات) من الفطر الذى هو الشق فالمحذور لازم أو نقول المعنى فيهما واحد كأنه قال فطر المكلف على فطرته وفطر السموات على فطرتها والأول من التفسير أظهر .

قوله تعالى : ﴿ وإليه ترجعون ﴾ اشارة إلى الخوف والرجاء كما قال ادعوه خوفاً وطمعاً وذلك لأن من يكون إليه المرجع يخاف منه ويرجى ، وفيه أيضاً معنى لطيف وهو أن العابد على أقسام ثلاثة ذكرناها مراراً (فالأول) عابد يعبد الله ، لكونه الهاً مالكا سواء أنعم بعد ذلك أولم ينعم ، كالعبد الذى يجب عليه خدمة سيده سواء أحسن إليه أو أساء (والثانى) عابد يعبد

ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً

الله للنعمة الواصلة إليه (والثالث) عابد يعبد الله خوفا مثال الأول من يخدم الجواد ، ومثال الثانى من يخدم الغاشم فجعل القائل نفسه من القسم الاعلى وقال (ومالى لاأعبد الذى فطرنى) أى هو مالكى أعبده لأنظر إلى ماسيعطينى ولأنظر إلى أن لايعذبنى وجعلهم دون ذلك فقال (وإليه ترجعون) أى خوفكم منه ورجاؤكم فيه فكيف لاتعبدونه ، ولهذا لم يقل وإليه أرجع كما قال فطرنى لأنه صار عابداً من القسم الأول فرجوعه إلى الله لا يكن إلا للاكرام وليس سبب عبادته ذلك بل غيره .

قوله تعالى : ﴿ أأتخذ من دونه آلهة ﴾ ليتم التوحيد ، فان التوحيد بين التعطيل والاشراك ، فقال وما لى لا أعبد إشارة إلى وجود الإله وقال (أأتخذ من دونه) إشارة إلى نفى غيره فيتحقق معنى لا إله إلا الله ، وفى الآية أيضاً لطائف (الأولى) ذكره على طريق الاستفهام فيه معنى وضوح الأمر ، وذلك أن من أخبر عن شىء فقال مثلا لا أتخذ يصح من السامع أن يقول له لم لا تتخذ فيسأله عن السبب ، فاذا قال (أأتخذ) يكون كلامه أنه مستغن عن بيان السبب الذى يطالب به عند الإخبار ،كأنه يقول استشرتك فدلنى والمستشار يتفكر ، فكأنه يقول تفكر فى الأمر تفهم من غير إخبار منى (الثانية) قوله من دونه وهى (لطيفة عجيبة) وبيانها هو أنه لما بين أنه يعبد الله بقوله (الذى فطرنى) بين أن من دونه لا تجوز عبادته فان عبد غير الله وجب عبادة كل شىء مشارك للمعبود الذى اتخذ غير الله ، لأن الكل محتاج مفتقر حادث ، فلو قال لاأتخذ آلهة لقيل له ذلك يختلف إن اتخذت إلهاً غير الذى فطرك ، ويلزمك عقلا أن تتخذ آلهة لاحصرلها ، وإن كان إلهك ربك وخالقك فلا يجوز أن تتخذ آلهة (الثالثة) قوله (أأتخذ) إشارة إلى أن غيره ليس بإله لأن المتخذ لايكون إله ، ولهذا قال تعالى (مااتخذ صاحبة ولاولدا) وقال (الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً) لأنه تعالى لا يكون له ولد حقيقة ولا يجوز ، وإنما النصارى قالوا تبنى الله عيسى وسماه ولداً فقال (ولم يتخذ ولداً) ولا يقال قال الله تعالى (فاتخذه وكيلا) فى حق الله تعالى حيث قال (رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا) نقول ذلك أمر متجدد ، وذلك لأن الإنسان فى أول الأمر يكون قليل الصبر ضعيف القوة ، فلا يجوز أن يترك أسباب الدنيا ويقول إنى أتوكل فلا يحسن من الواحد منا أن لايشتغل بأمر أصلا ويترك أطفاله فى ورطة الحاجة ولا يوصل إلى أهله نفقتهم ويجلس فى مسجد وقلبه متعلق بعطاء زيد وعمرو ، فاذا قوى بالعبادة قلبه ونسى نفسه فضلا عن غيره وأقبل على عبادة ربه بجميع قلبه وترك الدنيا وأسبابها وفوض أمره إلى الله حينئذ يكون من الأبرار الأخيار ، فقال الله لرسوله أنت علمت أن الأمور كلها بيد الله وعرفت الله حق المعرفة وتيقنت أن المشرق والمغرب ، وما فيهما وما يقع بينهما بأمر الله ، ولا إله يطلب لقضاء

إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾

الحوائج إلا هو فاتخذه وكيلا ، وفوض جميع أمورك إليه فقد ارتقيت عن درجة من يؤمر بالكسب الحلال وكنت من قبل تتجر فى الحلال ومعنى قوله (فاتخذه وكيلا) أى فى جميع أمورك وقوله تعالى (لا تغن عنى) يحتمل وجهين : (أحدهما) أن يكون كالوصف كأنه قال أأتخذ آلهة غير مغنية عند إرادة الرحمن بى ضراً (وثانيهما) أن يكون كلاماً مستأنفاً كأنه قال لا أتخذ من دونه آلهة .

قوله تعالى : ﴿ إن يردن الرحمن بضر لاتغن عنى شفاعتهم شيئاً ولاينقذون ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال (إن يردن الرحمن بضر) ولم يقل إن يرد الرحمن بى ضراً ، وكذلك قال تعالى (إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره) ولم يقل إن أراد الله بى ضراً ، نقول الفعل إذا كان متعدياً إلى مفعول واحد تعدى إلى مفعولين بحرف كاللازم يتعدى بحرف فى قولهم ذهب به وخرج به ، ثم إن المتكلم البليغ يجعل المفعول بغير حرف ما هو أولى بوقوع الفعل عليه ويجعل الآخر مفعولا بحرف فإذا قال القائل مثلا ؟ كيف حال فلان : يقول اختصه الملك بالكرامة والنعمة فإذا قال كيف كرامة الملك ؟ يقول اختصها بزيد فيجعل المسئول مفعولا بغير حرف لأنه هو المقصود إذا علمت هذا فالمقصود فيما نحن فيه بيان كون العبد تحت تصرف الله يقلبه كيف يشاء فى البؤس والرخاء ، وليس الضر بمقصود بيانه ، كيف والقائل مؤمن يرجو الرحمة والنعمة بناء على إيمانه بحكم وعد الله ويؤيد هذا قوله من قبل الذى فطرنى حيث جعل نفسه مفعول الفطرة فكذلك جعلها مفعول الإرادة وذكر الضر وقع تبعاً وكذا القول فى قوله تعالى (إن أرادنى الله بضر) المقصود بيان أنه يكون كما يريد الله وليس الضر بخصوصه مقصوداً بالذكر ويؤيده ماتقدم حيث قال تعالى (أليس الله بكاف عبده) يعنى هو تحت إرادته ويتأيد ما ذكرناه بالنظر فى قوله تعالى (قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً) حيث خالف هذا النظم وجعل المفعول من غير حرف السوء وهو كالضر والمفعول بحرف هو المكلف ، وذلك لأن المقصود ذكر الضر للتخويف وكونهم محلا له ، وكيف لا وهم كفرة استحقوا العذاب بكفرهم فجعل الضر مقصوداً بالذكر لزجرهم ، فإن قيل فقد ذكر الله الرحمة أيضاً حيث قال (أو أراد بكم رحمة) نقول المقصود ذلك ، ويدل عليه قوله تعالى (من بعده ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً) وإنما ذكر الرحمة تتمة للأمر بالتقسيم الحاصر ، وكذلك إذا تأملت فى قوله تعالى (يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً) فان الكلام أيضاً مع الكفار وذكر النفع وقع تبعاً لحصر الأمر بالتقسيم ، ويدل عليه قوله تعالى (بل كان الله بما تعملون خبيراً) فانه للتخويف ، وهذا كقوله تعالى (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) ، والمقصود إنى على هدى وأنتم فى ضلال ، ولو قال هكذا لمنع مانع فقال بالتقسيم كذلك ههنا

إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾

المقصود الضر واقع بكم ولأجل دفع المانع قال الضر والنفع .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال ههنا (إن يردن الرحمن) وقال فى الزمر (إن أرادنى الله) فما الحكمة فى اختيار صيغة الماضى هنالك واختيار صيغة المضارع ههنا وذكر المريد باسم الرحمن هنا وذكر المريد باسم الله هناك ؟ نقول أما الماضى والمستقبل فان إن فى الشرط تصير الماضى مستقبلا وذلك لأن المذكور ههنا من قبل بصيغة الاستقبال فى قوله (أأتخذ) وقوله (وما لى لا أعبد) والمذكور هناك من قبل بصيغة الماضى فى قوله (أفرأيتم) وكذلك فى قوله تعالى (وإن يمسسك الله بضر) لكون المتقدم عليه مذكوراً بصيغة المستقبل وهو قوله (من يصرف عنه) وقوله (إنى أخاف إن عصيت) والحكمة فيه هو أن الكفار كانوا يخوفون النبى صلى الله عليه وسلم بضر يصيبه من آلهتهم فكأنه قال صدر منكم التخويف ، وهذا ما سبق منكم ، وههنا ابتداء كلام صدر من المؤمن للتقرير ، والجواب ما كان يمكن صدوره منهم فافترق الأمران ، وأما قوله هناك (إن أرادنى الله) فنقول قد ذكرنا أن الاسمين المختصين بواجب الوجود الله والرحمن كما قال تعالى (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن) والله للهيبة والعظمة والرحمن للرأفة والرحمة ، وهناك وصف الله بالعزة والانتقام فى قوله (أليس الله بعزيز ذى انتقام) وذكر ما يدل على العظمة ما يدل على العظمة بقوله (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض) فذكر الاسم الدال على العظمة وقال ههنا ما يدل على الرحمة بقوله (الذى فطرنى) فانه نعمة هى شرط سائر النعم فقال (إن يردن الرحمن بضر) ثم قال تعالى (لا تغن عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون) على ترتيب ما يقع من العقلاء ، وذلك لأن من يريد دفع الضر عن شخص أضر به شخص يدفع بالوجه الأحسن فيشفع أولا فان قبله وإلا يدفع فقال (لا تغن عنى شفاعتهم) ولا يقدرون على إنقاذى بوجه من الوجوه ، وفى هذه الآيات حصل بيان أن الله تعالى معبود من كل وجه إن كان نظراً إلى جانبه فهو فاطر ورب مالك يستحق العبادة سواء أحسن بعد ذلك أو لم يحسن وإن كان نظرا إلى إحسانه فهو رحمن ، وإن كان نظرا إلى الخوف فهو يدفع ضره ، وحصل بيان أن غيره لا يصلح أن يعبد بوجه من الوجوه ، فإن أدنى مراتبه أن يعد ذلك ليوم كريهة وغير الله لا يدفع شيئاً إلا إذا أراد الله وإن يرد فلا حاجة إلى دافع .

قوله تعالى : ﴿ إنى إذاً لفى ضلال مبين ﴾ . يعنى إن فعلت فأنا ضال ضلالا بيناً ، والمبين مفعل بمعنى فعيل كما جاء عكسه فعيل بمعنى مفعل فى قوله أليم أى مؤلم ، ويمكن أن يقال ضلال مبين أى مظهور الأمر للناظر والأول هو الصحيح .

قوله تعالى : ﴿ إنى آمنت بربكم فاسمعون ﴾ فى المخاطب بقوله (بربكم) وجوه (أحدها)

قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي

هم المرسلون ، قال المفسرون أقبل القوم عليه يريدون قتله فأقبل هو على المرسلين وقال : إنى آمنت بربكم فاسمعوا قولى واشهدوا لى (وثانيها) هم الكفار كأنه لما نصحهم وما نفعهم قال فأنا آمنت فاسمعون (وثالثها) بربكم أيها السامعون فاسمعون على العموم ، كما قلنا فى قول الواعظ حيث يقول يامسكين ما أكثر أملك وما أنزرعملك يريد به كل سامع يسمعه وفى قوله (فاسمعون) فوائد (أحدها) أنه كلام مترو متفكر حيث قال (فاسمعون) فان المتكلم إذا كان يعلم أن لكلامه جماعة سامعين يتفكر (وثانيها) أنه ينبه القوم ويقول إنى أخبرتكم بما فعلت حتى لاتقولوا لم أخفيت عنا أمرك ولو أظهرت لآمنا معك (وثالثها) أن يكون المراد السماع الذى بمعنى القبول ، يقول القائل نصحته فسمع قولى أى قبله ، فان قلت لم قال من قبل (ومالى لا أعبد الذى فطرنى) وقال ههنا (آمنت بربكم) ولم يقل آمنت بربى ؟ نقول قولنا الخطاب مع الرسل أمر ظاهر ، لأنه لما قال آمنت بربكم ظهر عند الرسل أنه قبل قولهم وآمن بالرب الذى دعوه إليه ولو قال بربى لعلهم كانوا يقولون كل كافر يقول لى رب وأنا مؤمن بربى ، وأما على قولنا الخطاب مع الكفار ففيه بيان للتوحيد ، وذلك لأنه لما قال (أعبد الذى فطرنى) ثم قال (آمنت بربكم) فهم أنه يقول ربى وربكم واحد وهو الذى فطرنى وهو بعينه ربكم ، بخلاف ما لو قال آمنت بربى فيقول الكافر وأنا أيضاً آمنت بربى ومثل هذا قوله تعالى (الله ربنا وربكم) .

قوله تعالى : ﴿ قيل ادخل الجنة ﴾ فيه وجهان (أحدهما) أنه قتل ثم قيل له ادخل الجنة بعد القتل (وثانيهما) قيل ادخل الجنة عقيب قوله آمنت وعلى الأول .

قوله تعالى :﴿ قال ياليت قومى يعلمون ﴾ يكون بعد موته والله أخبر بقوله وعلى الثانى قال ذلك فى حياته وكأنه سمع الرسل أنه من الداخلين الجنة وصدقهم وقطع به وعلمه ، فقال ياليت قومى يعلمون كما علمت فيؤمنون كما آمنت وفى معنى قوله تعالى (قيل) وجهان كما أن فى وقت ذلك وجهان (أحدهما) قيل من القول (والثانى) ادخل الجنة ، وهذا كما فى قوله تعالى (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن) ليس المراد القول فى وجه بل هو الفعل أى يفعله فى حينه من غير تأخير وتراخ وكذلك فى قوله تعالى (وقيل ياأرض ابلعى) فى وجه جعل الأرض بالعة ماءها .

قوله تعالى :﴿ بما غفر لى ربى ﴾ وجوه (أحدها) أن ما استفهامية كأنه قال ياليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى حتى يشتغلوا به وهو ضعيف ، وإلا لكان الأحسن أن تكون ما محذوفة الألف يقال بم وفيم وعم ولم (وثانيها) خبرية كأنه قال ياليت قومى يعلمون بالذى غفر لى ربى (وثالثها) مصدرية ، كأنه قال ياليت قومى يعلمون بمغفرة ربى لى ، والوجهان الآخران هما المختاران .

وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ

قوله تعالى : ﴿ وجعلني من المكرمين ﴾ قد ذكرنا أن الإيمان والعمل الصالح يوجبان أمرين هما الغفران والإكرام كما في قوله تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم) والرجل كان من المؤمنين الصلحاء ، والمكرم على ضد المهان والإهانة بالحاجة والإكرام بالاستغناء فيغني الله الصالح عن كل أحد ويدفع جميع حاجاته بنفسه .

ثم إنه تعالى لما بين حاله بين حال المتخلفين المخالفين له من قومه بقوله تعالى ﴿ وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء ﴾ إشارة إلى هلاكهم بعده سريعاً على أسهل وجه فانه لم يحتج إلى إرسال جند يهلكهم ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال ههنا (وما أنزلنا) باسناد الفعل إلى النفس ، وقال في بيان حال المؤمن قيل ادخل الجنة بإسناد القول إلى غير مذكور ، وذلك لأن العذاب من باب الهيبة فقال بلفظ التعظيم ، وأما في (ادخل الجنة) فقال قيل ليكون هو كالمهنأ بقول الملائكة حيث يقول له كل ملك وكل صالح يراه ادخل الجنة خالداً فيها ، وكثيراً ما ورد في القرآن قوله تعالى (وقيل ادخلوا) إشارة إلى أن الدخول يكون دخولا بإكرام كما يدخل العريس البيت المزين على رءوس الأشهاد يهنئه كل أحد .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لم أضاف القوم إليه مع أن الرسل أولى بكون الجمع قوماً لهم فان الواحد يكون له قوم هم آله وأصحابه والرسول لكونه مرسلا يكون جميع الخلق وجميع من أرسل إليهم قوماً له ؟ نقول لوجهين (أحدهما) ليبين الفرق بين اثنين هما من قبيلة واحدة أكرم أحدهما غاية الإكرام بسبب الإيمان وأهين الآخر غاية الإهانة بسبب الكفر ، وهذا من قوم أولئك في النسب (وثانيهما) أن العذاب كان مختصاً بأقارب ذلك ، لأن غيرهم من قوم الرسل آمنوا بهم فلم يصبهم العذاب .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ خصص عدم الإنزال بما بعده والله تعالى لم ينزل عليهم جنداً قبله أيضاً فما فائدة التخصيص ؟ نقول استحقاقهم العذاب كان بعده حيث أصروا واستكبروا فبين حال الهلاك أنه لم يكن بجند .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال (من السماء) وهو تعالى لم ينزل عليهم ولا أرسل إليهم جنداً من الأرض فما فائدة التقييد ؟ نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن يكون المراد وما أنزلنا عليهم جنداً بأمر من السماء فيكون للعموم (وثانيهما) أن العذاب نزل عليهم من السماء فبين أن النازل لم يكن جنداً لهم عظمة وإنما كان ذلك بصيحة أخمدت نارهم وخربت ديارهم .

وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ

﴿ المسألة الخامسة ﴾ ، ﴿ وما كنا منزلين ﴾ أية فائدة فيه مع أن قوله (وما أنزلنا) يستلزم أنه لايكون من المنزلين ؟ نقول قوله (وما كنا) أى ما كان ينبغى لنا أن ننزل لأن الأمر كان يتم بدون ذلك فما أنزلنا وما كنا محتاجين إلى إنزال ، أو نقول (وما أنزلنا ، وما كنا منزلين) فى مثل تلك الواقعة جنداً فى غير تلك الواقعة ، فان قيل فكيف أنزل الله جنوداً فى يوم بدر وفى غير ذلك حيث قال (وأنزل جنوداً لم تروها) ؟ نقول ذلك تعظيما لمحمد صلى الله عليه وسلم وإلا كان تحريك ريشة من جناح ملك كافياً فى استئصالهم وما كان رسل عيسى عليه السلام فى درجة محمد ﷺ .

ثم بين الله تعالى ماكان بقوله ﴿ إن كانت ﴾ الواقعة ﴿ إلا صيحة ﴾ وقال الزمخشرى أصله إن كان شىء إلا صيحة فكان الأصل أن يذكر، لكنه تعالى أنث لما بعده من المفسر وهو الصيحة .

قوله تعالى : ﴿ واحدة ﴾ تأكيد لكون الأمر هيناً عند الله .

قوله تعالى : ﴿ فاذا هم خامدون ﴾ فيه إشارة إلى سرعة الهلاك فان خمودهم كان مع الصيحة وفى وقتها لم يتأخر، ووصفهم بالخمود فى غاية الحسن وذلك لأن الحى فيه الحرارة الغريزية وكلما كانت الحرارة أوفر كانت القوة الغضبية والشهوانية أتم وهم كانوا كذلك ، أما الغضب فانهم قتلوا مؤمناً كان ينصحهم ، وأما الشهوة فلأنهم احتملوا العذاب الدائم بسبب استيفاء اللذات الحالية فاذن كانوا كالنار الموقدة ، ولأنهم كانوا جبارين مستكبرين كالنار ومن خلق منها فقال (فاذا هم خامدون) (وفيه وجه آخر) وهو أن العناصر الأربعة يخرج بعضها عن طبيعته التى خلقه الله عليها ويصير العنصر الآخر بارادة الله فالأحجار تصير مياها ، والمياه تصير أحجاراً وكذلك الماء يصير هواء عند الغليان والسخونة والهواء يصير ماء للبرد ولكن ذلك فى العادة بزمان ، وأما الهواء فيصير ناراً والنار تصير هواء بالاشتعال والخمود فى أسرع زمان ، فقال خامدين بسببها نخمود النار فى السرعة كاطفاء سراج أو شعلة .

قوله تعالى : ﴿ ياحسرة على العباد ﴾ أى هذا وقت الحسرة فاحضرى يا حسرة والتنكير للتكثير ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الألف واللام فى العباد يحتمل وجهين (أحدهما) للمعهود وهم الذين أخذتهم الصيحة فياحسرة على أولئك (وثانيهما) لتعريف الجنس جنس الكفار المكذبين .

﴿ المسألة الثانية ﴾ من المتحسر ؟ نقول فيه وجوه (الأول) لا متحسر أصلا فى الحقيقة إذ المقصود بيان أن ذلك وقت طلب الحسرة حيث تحققت الندامة عند تحقق العذاب .

مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾

(وههنا بحث لغوى) وهو أن المفعول قد يرفض رأساً إذا كان الغرض غير متعلق به يقال إن فلاناً يعطى ويمنع ولا يكون هناك شىء معطى إذ المقصود أن له المنع والاعطاء ، ورفض المفعول كثير وما نحن فيه رفض الفاعل وهو قليل ، والوجه فيه ما ذكرنا ، أن ذكر المتحسر غير مقصود وإنما المقصود أن الحسرة متحققة فى ذلك الوقت (الثانى) أن قائل ياحسرة هو الله على الاستعارة تعظيما للأمر وتهويلا له وحينئذ يكون كالألفاظ التى وردت فى حق الله كالضحك والنسيان والسخر والتعجب والتمنى ، أو نقول ليس معنى قولنا ياحسرة وياندامة ، أن القائل متحسر أو نادم بل المعنى أنه مخبر عن وقوع الندامة ولا يحتاج إلى تجوز فى بيان كونه تعالى قال (ياحسرة) بل يخبر به على حقيقته إلا فى النداء ، فان النداء مجاز والمراد الاخبار (الثالث) المتلهفون من المسلمين والملائكة ألا ترى إلى ما حكى عن حبيب أنه حين القتل كان يقول اللهم اهد قومى وبعد ماقتلوه وأدخل الجنة قال ياليت قومى يعلمون ، فيجوز أن يتحسر المسلم للكافر ويتندم له وعليه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قرىء (ياحسرة) بالتنوين ، و(ياحسرة العباد) بالإضافة من غير كلمة على ، وقرىء ياحسرة على بالهاء إجراء للوصل مجرى الوقف .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ من المراد بالعباد ؟ نقول فيه وجوه (أحدها) الرسل الثلاثة كأن الكافرين يقولون عند ظهور البأس يا حسرة عليهم ياليتهم كانوا حاضرين شأننا لنؤمن بهم (وثانيها) هم قوم حبيب (وثالثها) كل من كفر وأصر واستكبر وعلى الأول فاطلاق العباد على المؤمنين كما فى قوله (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) وقوله (ياعبادى الذين أسرفوا) وعلى الثانى فاطلاق العباد على الكفار ، وفرق بين العبد مطلقاً وبين المضاف إلى الله تعالى فان الاضافة إلى الشريف تكسو المضاف شرفا تقول بيت الله فيكون فيه من الشرف مالا يكون فى قولك البيت ، وعلى هذا فقوله تعالى (وعباد الرحمن) من قبيل قوله (ان عبادى) وكذلك (عباد الله).

ثم بين الله تعالى سبب الحسرة بقوله تعالى ﴿ ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤون ﴾ وهذا سبب الندامة وذلك لأن من جاءه ملك من بادية ، وأعرفه نفسه ، وطلب منه أمراً هيناً فكذبه ولم يجبه إلى ما دعاه ، ثم وقف بين يديه وهو على سرير ملكه فعرفه أنه ذلك ، يكون عنده من الندامة ما لا مزيد عليه ، فكذلك الرسل هم ملوك وأعظم منهم باعزاز الله إياهم وجعلهم نوابه كما قال (إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) وجاؤا وعرفوا أنفسهم ولم يكن لهم عظمة ظاهرة فى الحس،ثم يوم القيامة أو عند ظهور البأس ظهرت عظمتهم عند الله لهم ، وكان مايدعون إليه أمراً هيناً نفعه عائد إليهم من عبادة الله وما كانوا يسألون عليه أجراً ، فعند ذلك تكون الندامة الشديدة ، وكيف لا وهم لم يقتنعوا بالإعراض حتى آذوا واستهزأوا واستخفوا واستهانوا

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾

وقوله (ما يأتيهم) الضمير يجوز أن يكون عائداً إلى قوم حبيب ، أى ما يأتيهم من رسول من الرسل الثلاثة (إلا كانوا به يستهزؤون) على قولنا الحسرة عليهم ، ويجوز أن يكون عائداً إلى الكفار المصرين .

ثم إن الله تعالى لما بين حال الأولين قال للحاضرين ﴿ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون﴾ أى الباقون لا يرون ماجرى على من تقدمهم ، ويحتمل أن يقال : إن الذين قيل فى حقهم (ياحسرة) هم الذين قال فى حقهم (ألم يروا) ومعناه أن كل مهلك تقدمه قوم كذبوا وأهلكوا إلى قوم نوح وقبله .

وقوله ﴿ أنهم إليهم لا يرجعون ﴾ بدل فى المعنى عن قوله (كم أهلكنا) وذلك لأن معنى (كم أهلكنا) ألم يروا كثرة إهلاكنا ، وفيه معنى ، ألم يروا المهلكين الكثيرين أنهم إليهم لا يرجعون ، وحينئذ يكون كبدل الاشتمال ، لأن قوله (أنهم إليهم لا يرجعون) حال من أحوال المهلكين ، أى أهلكوا بحيث لا رجوع لهم إليهم فيصير كقولك : ألا ترى زيداً أدبه ، وعلى هذا فقوله (أنهم إليهم لا يرجعون) فيه وجهان (أحدهما) أهلكوا إهلاكا لا رجوع لهم إلى من فى الدنيا (وثانيهما) هو أنهم لا يرجعون إليهم ، أى الباقون لا يرجعون إلى المهلكين بنسب ولا ولادة ، يعنى أهلكناهم وقطعنا نسلهم ، ولا شك فى أن الإهلاك الذى يكون مع قطع النسل أتم وأعم ، والوجه الأول أشهر نقلا ، والثانى أظهر عقلا .

قوله تعالى : ﴿ وإن كل لما جميع لدينا محضرون ﴾ لما بين الإهلاك بين أنه ليس من أهلكه الله تركه ، بل بعده جمع وحساب وحبس وعقاب ، ولو أن من أهلك ترك لكان الموت راحة ، ونعم ما قال القائل :

ولو أنا إذا متنا تركنا لكان الموت راحة كل حى
ولكنا إذا متنا بعثنا ونسأل بعده عن كل شى

وقوله (وإن كل لما) فى إن وجهان (أحدهما) أنها مخففة من الثقيلة واللام فى لما فارقة بينها وبين النافية ، وما زائدة مؤكدة فى المعنى ، والقراءة حينئذ بالتخفيف فى لما (وثانيهما) أنها نافية ولما بمعنى إلا ، قال سيبويه : يقال نشدتك بالله لما فعلت ، بمعنى إلا فعلت ، والقراءة حينئذ بالتشديد فى لما ، يؤيد هذا ما روى أن أبياً قرأ (وما كل إلا جميع) وفى قول سيبويه لما بمعنى إلا وارد معنى مناسب وهو أن لما كأنها حرفا نفى جمعا وهما لم وما فتأكد النفى ، ولهذا يقال فى

وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾
وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ
وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾

جواب من قال قد فعل لما يفعل ، وفى جواب من قال فعل لم يفعل ، وإلا كأنها حرفا نفى إن ولا فاستعمل أحدهما مكان الآخر ، قال الزمخشرى : فان قال قائل كل وجميع بمعنى واحد ، فكيف جعل جميعاً خبراً لكل حيث دخلت اللام عليه ، إذ التقدير وإن كل لجميع ، نقول معنى جميع مجموع ، ومعنى كل كل فرد بحيث لا يخرج عن الحكم أحد ، فصار المعنى كل فرد مجموع مع الآخر مضموم إليه ، ويمكن أن يقال محضرون ، يعنى عما ذكره ، وذلك لأنه لو قال: وإن جميع لجميع محضرون ، لكان كلاماً صحيحاً ولم يوجد ماذكره من الجواب ، بل الصحيح أن محضرون كالصفة للجميع ، فكأنه قال جميع جميع محضرون ، كما يقال الرجل رجل عالم ، والنبى نبى مرسل ، والواو فى وإن كل لعطف الحكاية على الحكاية ، كأنه يقول بينت لك ماذكرت ، وأبين أن كلا لدينا محضرون ، وكذلك الواو فى قوله تعالى :

﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون ، وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ، ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون ﴾

كأنه يقول : وأقول أيضاً آية لهم الأرض الميتة وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما وجه تعلق هذا بما قبله ؟نقول مناسب لما قبله من وجهين (أحدهما) أنه لما قال (وإن كل لما جميع) كان ذلك إشارة إلى الحشر ، فذكر ما يدل على إمكانه قطعاً لإنكارهم واستبعادهم وإصرارهم وعنادهم ، فقال (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها) كذلك نحيي الموتى (وثانيهما) أنه لما ذكر حال المرسلين وإهلاك المكذبين وكان شغلهم التوحيد ذكر ما يدل عليه ، وبدأ بالأرض لكونها مكانهم لا مفارقة لهم منها عند الحركة والسكون .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الأرض آية مطلقاً فلم خصصها بهم حيث قال (وآية لهم) نقول: الآية تعدد وتسرد لمن لم يعرف الشيء بأبلغ الوجوه ، وأما من عرف الشيء بطريق الرؤية لا يذكر له دليل، فان النبي وعباد الله المخلصين عرفوا الله قبل الأرض والسماء ، فليست الأرض معرفة لهم ، وهذا كما قال تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) وقال (أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد) يعنى أنت كفاك ربك معرفاً ، به عرفت كل شيء فهو شهيد لك على كل شيء ، وأما هؤلاء تبين لهم الحق بالآفاق والأنفس ، وكذلك ههنا آية لهم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾، إن قلنا إن الآية مذكورة للاستدلال على جواز إحياء الموتى فيكفي قوله (أحييناها) ولا حاجة إلى قوله (وأخرجنا منها حباً) وغير ذلك ، وإن قلنا إنها للاستدلال على وجود الإله ووحدته فلا فائدة فى قوله (الأرض الميتة أحييناها) لأن نفس الأرض دليل ظاهر وبرهان باهر ، ثم هب أنها غير كافية فقوله (الميتة أحييناها) كاف فى التوحيد فما فائدة قوله (وأخرجنا منها حباً) نقول مذكورة للاستدلال عليها ولكل ماذكره الله تعالى فائدة . أما قوله (وأخرجنا منها حباً) فله فائدة بالنسبة إلى بيان إحياء الموتى ، وذلك لأنه لما أحيا الأرض وأخرج منها حباً كان ذلك إحياء تاماً لأن الأرض المخضرة التى لا تنبت الزرع ولا تخرج الحب دون ما تنبته فى الحياة ، فكأنه قال تعالى الذى أحيا الأرض إحياء كاملا منبتاً للزرع يحيي الموتى إحياء كاملا بحيث تدرك الأمور ، وأما بالنسبة إلى التوحيد فلأن فيه تعديد النعم كأنه يقول آية لهم الأرض فانها مكانهم ومهدهم الذى فيه تحريكهم واسكانهم والأمر الضرورى الذى عنده وجودهم وامكانهم وسواء كانت ميتة أو لم تكن فهى مكان لهم لابد لهم منها فهى نعمة ثم إحياؤها بحيث تخضر نعمة ثانية فإنها تصير أحسن وأنزه ، ثم إخراج الحب منها نعمة ثالثة فان قوتهم يصير فى مكانهم ، وكان يمكن أن يجعل الله رزقهم فى السماء أو فى الهواء فلا يحصل لهم الوثوق ، ثم جعل الجنات فيها نعمة رابعة لأن الأرض تنبت الحب فى كل سنة ، وأما الأشجار بحيث تؤخذ منها الثمار فتكون بعد الحب وجوداً ، ثم فجرنا فيها العيون ليحصل لهم الاعتماد بالحصول ولو كان ماؤها من السماء لحصل ولكن لم يعلم أنها أين تغرس وأين يقع المطر وينزل القطر وبالنسبة إلى بيان إحياء الموتى كل ذلك مفيد وذلك لأن قوله (وأخرجنا منها حباً) كالإشارة إلى الأمر الضرورى الذى لا بد منه وقوله (وجعلنا فيها جنات) كالأمر المحتاج إليه الذى إن لم يكن لايغنى الانسان لكنه يبقى مختل الحال وقوله (وفجرنا فيها من العيون) إشارة إلى الزينة التى إن لم تكن لا تغنى الانسان ولا يبقى فى ورطة الحاجة ، لكنه لايكون على أحسن ماينبغى ، وكأن حال الانسان بالحب كحال الفقير الذى له ما يسد خلته من بعض الوجوه ولا يدفع حاجته من كل الوجوه وبالثمار يعتبر حاله كحال المكتفى بالعيون الجارية التى يعتمد عليها الانسان ويقوى بها قلبه كالمستغنى الغنى المدخر لقوت سنين ، فيقول الله عز وجل كما فعلنا فى موات الأرض كذلك نفعل فى الأموات فى الأرض فنحييهم ونعطيهم ما لابد لهم منه فى بقائهم وتكوينهم من الأعضاء المحتاج اليها وقواها كالعين والقوة الباصرة والأذن والقوة السامعة وغيرهما ونزيد له ما هو زينة كالعقل الكامل والإدراك الشامل فيكون كأنه قال نحيي الموتى إحياء تاماً كما أحيينا الأرض إحياء تاماً .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال عند ذكر الحب (فمنه يأكلون) وفى الأشجار والثمار قال (ليأكلوا من ثمره) وذلك لأن الحب قوت لابد منه فقال (فمنه يأكلون) أى هم آكلوه ، وأما الثمار ليست كذلك ، فكأنه تعالى قال إن كنا ما أخرجناها كانوا يبقون من غير أكل فأخرجناها ليأكلوها .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ خصص النخيل والأعناب بالذكر من سائر الفواكه لأن ألذ المطعوم الحلاوة ، وهي فيها أتم ولأن التمر والعنب قوت وفاكهة ، ولا كذلك غيرهما ولأنهما أعم نفعاً فإنها تحمل من البلاد إلى الأماكن البعيدة ، فإن قيل فقد ذكر الله الرمان والزيتون في الأنعام والقضب والزيتون والتين في مواضع ، نقول في الأنعام وغيرها المقصود ذكر الفواكه والثمار ألا ترى إلى قوله تعالى (أنزل من السماء ماء فأخرجنا به) وإلى قوله (فلينظر الإنسان إلى طعامه) فاستوفى الأنواع بالذكر وههنا المقصود ذكر صفات الأرض فاختار منها الألذ الأنفع ، وقد ذكرنا في سورة الأنعام ما يستفاد منه الفوائد ويعلم منه فائدة قوله تعالى (فاكهة ونخل ورمان) .

﴿ المسألة السادسة ﴾ في المواضع التي ذكر الله الفواكه لم يذكر التمر بلفظ شجرته وهي النخلة ولم يذكر العنب بلفظ شجرته بل ذكره بلفظ العنب والأعناب ، ولم يذكر الكرم وذلك لأن العنب شجرته بالنسبة إلى ثمرته حقيرة قليلة الفائدة والنخل بالنسبة إلى ثمرته عظيمة جليلة القدر كثيرة الجدوى ، فإن كثيراً من الظروف منها يتخذ وبلحائها ينتفع ولها شبه بالحيوان فاختار منها ما هو الأعجب منها ، وقوله تعالى (وفجرنا فيها من العيون) آية عظيمة لأن الأرض أجزاؤها بحكم العادة لا تصعد ونحن نرى منابع الأنهار والعيون في المواضع المرتفعة وذلك دليل القدرة والاختيار والقائلون بالطبائع قالوا إن الجبال كالقباب المبنية والأبخرة ترتفع إليها كما ترتفع إلى سقوف الحمامات وتتكون هناك قطرات من الماء ثم تجتمع ، فان لم تكن قوية تحصل المياه الراكدة كالآبار وتجري في القنوات ، إن كانت قوية تشق الأرض وتخرج أنهاراً جارية وتجتمع فتحصل الأنهار العظيمة وتمدها مياه الأمطار والثلوج ، فنقول اختصاص بعض الجبال بالعيون دليل ظاهر على الاختيار وما ذكروه تعسف ، فالحق هو أن الله تعالى خلق الماء في المواضع المرتفعة وساقها في الأنهار والسواقي أو صعد الماء من المواضع المتسفلة إلى الأماكن المرتفعة بأمر الله وجرى في الأودية إلى البقاع التي أنعم الله على أهلها .

قوله تعالى : ﴿ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون﴾ والترتيب ظاهر ويظهر أيضاً في التفسير وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ لم أخر التنبيه على الانتفاع بقوله (ليأكلوا) عن ذكر الثمار حتى قال (وفجرنا فيها من العيون) وقال في الحب (فمنه يأكلون) عقيب ذكر الحب ، ولم يقل عقيب ذكر النخيل والأعناب ليأكلوا ؟ نقول الحب قوت وهو يتم وجوده بمياه الأمطار ولهذا يرى أكثر البلاد لا يكون بها شيء من الأشجار والزرع والحراثة لا تبطل هناك اعتماداً على ماء السماء . وهذا لطف من الله حيث جعل ما يحتاج إليه الانسان أعم وجوداً ، وأما الثمار فلا تتم إلا بالأنهار ولا تصير الأشجار حاملة للثمار إلا بعد وجود الأنهار فلهذا أخر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الضمير في قوله (من ثمره) عائد إلى أي شيء ؟ نقول المشهور أنه عائد إلى الله أي

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

ليأكلوا من ثمر الله (وفيه لطيفة) وهي أن الثمار بعد وجود الأشجار وجريان الأنهار لم توجد إلا بالله تعالى ولولا خلق الله ذلك لم توجد فالثمر بعد جميع مايظن الظان أنه سبب وجوده ليس إلا بالله تعالى وإرادته فهي ثمره ، ويحتمل أن يعود إلى النخيل وترك الأعناب لحصول العلم بأنها فى حكم النخيل ويحتمل أن يقال هو راجع إلى المذكور أى من ثمر ما ذكرنا ، وهذان الوجهان نقلهما الزمخشرى ، ويحتمل وجهاً آخر أغرب وأقرب وهو أن يقال المراد من الثمر الفوائد يقال ثمرة التجارة الربح ويقال ثمرة العبادة الثواب ، وحينئذ يكون الضمير عائداً إلى التفجير المدلول عليه بقوله (وفجرنا فيها من العيون) تفجيراً ليأكلوا من فوائد ذلك التفجير وفوائده أكثر من الثمار بل يدخل فيه ماقال الله تعالى (إنا صببنا الماء صباً) إلى أن قال (فأخرجنا به حباً وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلا وحدائق غلباً وفاكهة وأبا) والتفجير أقرب فى الذكر من النخيل ، ولو كان عائداً إلى الله لقال من ثمرنا كما قال وجعلنا وفجرنا .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ما فى قوله (وما عملته) من أى الماءات هى؟ نقول فيها وجوه : (أحدها) نافية كأنه قال (وما عملت) التفجير أيديهم بل الله فجر (وثانيها) موصولة بمعنى الذى كأنه قال والذى عملته أيديهم من الغراس بعد التفجير يأكلون منه أيضاً ويأكلون من ثمر الله الذى أخرجه من غير سعى من الناس ، فعطف الذى عملته الأيدى على ما خلقه الله من غير مدخل للانسان فيه (وثالثها) هى مصدرية على قراءة من قرأ وما عملت من غير ضمير عائد معناه ليأكلوا من ثمره وعمل أيديهم يعنى يغرسون والله ينبتها ويخلق ثمرها فيأكلون مجموع عمل أيديهم وخلق الله ، وهذا الوجه لا يمكن على قراءة من قرأ مع الضمير .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ على قولنا ما موصولة ، يحتمل أن تكون بمعنى وما عملته أى بالتجارة كأنه ذكر نوعى ما يأكل الإنسان بهما ، وهما الزراعة والتجارة ، ومن النبات ما يؤكل من غير عمل الأيدى كالعنب والتمر وغيرهما ومنه ما يعمل فيه عمل صنعة فيؤكل كالأشياء التى لا تؤكل إلا مطبوخة أو كالزيتون الذى لا يؤكل إلا بعد إصلاح ، ثم لما عدد النعم أشار إلى الشكر بقوله (أفلا يشكرون) وذكر بصيغة الاستفهام لما بينا من فوائد الاستفهام فيما تقدم .

قوله تعالى : ﴿ سبحان الذى خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ﴾ قد ذكرنا أن لفظة سبحان علم دال على التسبيح وتقديره سبح تسبيح الذى خلق الازواج كلها ، ومعنى سبح نزه ، ووجه تعلق الآية بما قبلها هو أنه تعالى لما قال (أفلا يشكرون) وشكر

وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾

الله بالعبادة وهم تركوها ولم يقتنعوا بالترك بل عبدوا غيره وأتوا بالشرك فقال (سبحان الذى خلق الأزواج) وغيره لم يخلق شيئاً فقال أو نقول ، لما بين أنهم أنكروا الآيات ولم يشكروا بين ما ينبغى أن يكون عليه العاقل فقال (سبحان الذى خلق الأزواج كلها) أو نقول لما بين الآيات قال : (سبحان الذى خلق) ماذكره عن أن يكون له شريك أو يكون عاجزاً عن إحياء الموتى وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (كلها) يدل على أن أفعال العباد مخلوقة لله لأن الزوج هو الصنف وأفعال العباد أصناف ولها أشباه هى واقعة تحت أجناس الأعراض فتكون من الكل الذى قال الله فيها إنه خلق الأزواج كلها ، لايقال مما تنبت الأرض ، يخرج الكلام عن العموم لأن من قال أعطيت زيداً كل ماكان لى يكون للعموم إن اقتصر عليه ، فاذا قال بعده من الثياب لايبقى الكلام على عمومه لأنا نقول ذلك إذاكانت من لبيان التخصيص ، أما إذاكانت لتأكيد العموم فلا ، بدليل أن من قال أعطيته كل شىء من الدواب والثياب والعبيد والجوارى يفهم منه أنه يعدد الأصناف لتأكيد العموم ويؤيدهذا قوله تعالى فى حم (الذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون) من غير تقييد .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكر الله تعالى أموراً ثلاثة ينحصر فيها المخلوقات فقوله (مما تنبت الأرض) يدخل فيها مافى الأرض من الأمور الظاهرة كالنبات والثمار وقوله (ومن أنفسهم) يدخل فيها الدلائل النفسية وقوله (ومما لا يعلمون) يدخل مافى أقطار السموات وتخوم الأرضين وهذا دليل على أنه لم يذكر ذلك للتخصيص بدليل أن الأنعام مما خلقها الله والمعادن لم يذكرها وإنما ذكر الأشياء لتأكيد معنى العموم كما ذكرنا فى المثال .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (ومما لا يعلمون) فيه معنى لطيف وهو أنه تعالى إنما ذكر كون الكل مخلوقاً لينزه الله عن الشريك فان المخلوق لا يصلح شريكا للخلق ، لكن التوحيد الحقيقى لايحصل إلا بالاعتراف بأن لا إله إلا الله ، فقال تعالى اعلموا أن المانع من التشريك فيما تعلمون وما لا تعلمون لأن الخلق عام والمانع من الشركة الخلق فلا تشركوا بالله شيئاً مما تعلمون فانكم تعلمون أنه مخلوق ومما لا تعلمون فانه عند الله كله مخلوق لكون كله ممكناً .

قوله تعالى : ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون ﴾ .

لما استدل الله بأحوال الأرض وهى المكان الكلى استدل بالليل والنهار وهو الزمان الكلى فان دلالة المكان والزمان مناسبة لأن المكان لا تستغنى عنه الجواهر والزمان لا تستغنى عنه الأعراض ، لأن كل عرض فهو فى زمان ومثله مذكور فى قوله تعالى (ومن آياته الليل والنهار

والشمس والقمر) ثم قال بعده (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت) حيث استدل بالزمان والمكان هناك أيضاً . لكن المقصود أولا هناك إثبات الوحدانية بدليل قوله تعالى (لا تسجدوا للشمس) ثم الحشر بدليل قوله تعالى (إن الذى أحياها لمحي الموتى) وههنا المقصود أولا إثبات الحشر لأن السورة فيها ذكر الحشر أكثر . يدل عليه النظر فى السورة ، وهناك ذكر التوحيد أكثر بدليل قوله تعالى فيه (قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين) إلى غيره وآخر السورتين يبين الأمر ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ المكان يدفع عن أهل السنة شبه الفلاسفة ، والزمان يدفع عنهم شبه المشبهة . (أما بيان الأول) فذلك لأن الفلسفي يقول لوكان عدم العالم قبل وجوده لكان عند فرض عدم العالم قبل ، وقبل وبعد لا يتحقق إلا بالزمان ، فقبل العالم زمان والزمان من جملة العالم فيلزم وجود الشيء عند عدمه وهو محال ، فنقول لهم قد وافقتمونا على أن الأمكنة متناهية ، لأن الأبعاد متناهية بالاتفاق ، فإذن فوق السطح الأعلى من العالم يكون عدماً وهو موصوف بالفوقية ، وفوق وتحت لا يتحقق إلا بالمكان ففوق العالم مكان والمكان من العالم فيلزم وجود الشيء عند عدمه ، فان أجابوا بأن فوق السطح الأعلى لا خلا ولا ملا ، نقول قبل وجود العالم لا آن ولا زمان موجود .

(وأما بيان الثاني) فلأن المشبهي يقول لا يمكن وجود موجود إلا فى مكان ، فالله فى مكان . فنقول فيلزمكم أن تقولوا الله فى زمان لأن الوهم كما لا يمكنه أن يقول هو موجود ولا مكان لا يمكنه أن يقول هو كان موجوداً ولا زمان وكل زمان فهو حادث وقد أجمعنا على أن الله تعالى قديم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لو قال قائل إذا كان المراد منه الاستدلال بالزمان فلم اختار الليل حيث قال (وآية لهم الليل) ؟ نقول لما استدل بالمكان الذى هو المظلم وهو الأرض وقال (وآية لهم الأرض) استدل بالزمان الذى فيه الظلمة وهو الليل (ووجه آخر) وهو أن الليل فيه سكون الناس وهدوء الأصوات وفيه النوم وهو كالموت ويكون بعده طلوع الشمس كالنفخ فى الصور فيتحرك الناس فذكر الموت كما قال فى الأرض (وآية لهم الأرض الميتة) فذكر من الزمانين أشبههما بالموت كما ذكر من المكانين أشبههما بالموت .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ مامعنى سلخ النهار من الليل ؟ نقول معناه تمييزه منه يقال انسلخ النهار من الليل إذا أتى آخر النهار ودخل أول الليل وسلخه الله منه فانسلخ هو منه ، وأما إذا استعمل بغير كلمة من فقيل سلخت النهار أو الشمس فمعناه دخلت فى آخره ، فان قيل فالليل فى نفسه آية فأية حاجة إلى قوله (نسلخ منه النهار) ؟ نقول الشيء تتبين بضده منافعه ومحاسنه ، ولهذا لم يجعل الله الليل وحده آية فى موضع من المواضع إلا وذكر آية النهار معها ، وقوله (فاذا هم مظلمون) أى داخلون فى الظلام ، وإذا للمفاجأة أى ليس بيدهم بعد ذلك أمر ولا بد لهم من الدخول فيه .

وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى : ﴿ والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ .

يحتمل أن يكون الواو للعطف على الليل تقديره : وآية لهم الليل نسلخ والشمس تجرى والقمر قدرناه ، فهى كلها آية ، وقوله (والشمس تجرى) إشارة إلى سبب سلخ النهار فانها تجرى لمستقر لها وهو وقت الغروب فينسلخ النهار ، وفائدة ذكر السبب هو أن الله لما قال نسلخ منه النهار وكان غير بعيد من الجهال أن يقول قائل منهم سلخ النهار ليس من الله إنما يسلخ النهار بغروب الشمس فقال تعالى (والشمس تجرى لمستقر لها) بأمر الله فمغرب الشمس سالخ للنهار فبذكر السبب يتبين صحة الدعوى ويحتمل أن يقال بأن قوله (والشمس تجرى لمستقر لها) إشارة إلى نعمة النهار بعد الليل كأنه تعالى لما قال (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار) ذكر أن الشمس تجرى فتطلع عند انقضاء الليل فيعود النهار بمنافعه ، وقوله (لمستقر) اللام يحتمل أن تكون للوقت كقوله تعالى (أقم الصلاة لدلوك الشمس) وقوله تعالى (فطلقوهن لعدتهن) ووجه استعمال اللام للوقت هو أن اللام المكسورة فى الأسماء لتحقيق معنى الإضافة لكن إضافة الفعل إلى سببه أحسن الإضافات لأن الإضافة لتعريف المضاف بالمضاف إليه كما فى قوله : دار زيد لكن الفعل يعرف بسببه فيقال اتجر للربح واشتر للأكل ، وإذا علم أن اللام تستعمل للتعليل فنقول وقت الشىء يشبه سبب الشىء لأن الوقت يأتى بالأمر الكائن فيه ، والأمور متعلقة بأوقاتها فيقال خرج لعشر من كذا (وأقم الصلاة لدلوك الشمس) لأن الوقت معرف كالسبب وعلى هذا فمعناه تجرى الشمس وقت استقرارها أى كلما استقرت زماناً أمرت بالجرى فجرت ، ويحتمل أن تكون بمعنى إلى أى إلى مستقر لها وتقريره هو أن اللام تذكر للوقت وللوقت طرفان ابتداء وانتهاء يقال سرت من يوم الجمعة إلى يوم الخميس فجاز استعمال مايستعمل فيه فى أحد طرفيه لما بينهما من الاتصال ويؤيد هذا قراءة من قرأ (والشمس تجرى إلى مستقر لها) وعلى هذا ففى ذلك المستقر وجوه (الأول) يوم القيامة وعنده تستقر ولا يبقى لها حركة (الثانى) السنة (الثالث) الليل أى تجرى إلى الليل (الرابع) أن ذلك المستقر ليس بالنسبة إلى الزمان بل هو للمكان وحينئذ ففيه وجوه (الأول) هو غاية ارتفاعها فى الصيف وغاية انخفاضها فى الشتاء أى تجرى إلى أن تبلغ ذلك الموضع فترجع (الثانى) هو غاية مشارقها فان فى كل يوم لها مشرق إلى ستة أشهر ثم تعود إلى تلك المقنطرات وهذا هو القول الذى تقدم فى الارتفاع فان اختلاف المشارق بسبب اختلاف الارتفاع (الثالث) هو وصولها إلى بيتها فى الابتداء (الرابع) هو الدائرة التى عليها حركتها حيث لاتميل عن منطقة البروج على مرور الشمس وسنذكرها ، ويحتمل أن يقال لمستقر لها أى تجرى مجرى مستقرها . فإن أصحاب الهيئة قالوا الشمس فى فلك والفلك يدور فيدير الشمس

وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾

فالشمس تجرى مجرى مستقرها ، وقالت الفلاسفة تجرى لمستقرها أى لأمر لو وجدها لاستقر وهو استخراج الأوضاع الممكنة وهو فى غاية السقوط ، وأجاب الله عنه بقوله (ذلك تقدير العزيز العليم) أى ليس لإدارتها وإنما ذلك بارادة الله وتقديره وتدبيره وتسخيره إياها ، فان قيل عددت الوجوه الكثيرة وما ذكرت المختار ، فما الوجه المختار عندك ؟ نقول المختار هو أن المراد من المستقر المكان أى تجرى لبلوغ مستقرها وهو غاية الارتفاع والانخفاض فان ذلك يشمل المشارق والمغارب والمجرى الذى لايختلف والزمان وهو السنة والليل فهو أتم فائدة ، وقوله (ذلك) يحتمل أن يكون اشارة إلى جرى الشمس أى ذلك الجرى تقدير الله ويحتمل أن يكون إشارة إلى المستقر أى لمستقر لها وذلك المستقر تقدير الله والعزيز الغالب وهو بكمال القدرة يغلب ، والعليم كامل العلم أى الذى قدر على إجرائها على الوجه الأنفع وعلم الأنفع فأجراها على ذلك ، وبيانه من وجوه (الأول) هو أن الشمس فى ستة أشهر كل يوم تمر على مسامتة شىء لم تمر من أمسها على تلك المسامتة ، ولو قدر الله مرورها على مسامتة واحدة لاحترقت الأرض التى هى مسامتة لمرها وبقى المجموع مستولياً على الأماكن الأخر فقدر الله لها بعداً لتجمع الرطوبات فى باطن الأرض والأشجار فى زمان الشتاء ثم قدر قربها بتدريج لتخريج النبات والثمار من الأرض والشجر وتنضج وتجفف ، ثم تبعد لئلا يحترق وجه الأرض وأغصان الأشجار (الثانى) هو أن الله قدر لها فى كل يوم طلوعا وفى كل ليلة غروباً لئلا تكل القوى والأبصار بالسهر والتعب ولا يخرب العالم بترك العمارة بسبب الظلمة الدائمة ، (الثالث) جعل سيرها أبطأ من سير القمر وأسرع من سير زحل لأنها كاملة النور فلو كانت بطيئة السير لدامت زماناً كثيراً فى مسامتة شىء واحد فتحرقه ، ولو كانت سريعة السير لما حصل لها لبث بقدر ما ينضج الثمار فى بقعة واحدة .

قوله تعالى : ﴿ والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ﴾ .

قال الزمخشرى لابد من تقدير لفظ يتم به معنى الكلام لأن القمر لم يجعل نفسه منازل فالمعنى أنا قدرنا سيره منازل وعلى ماذكره يحتمل أن يقال المراد منه ، والقمر قدرناه ذا منازل لأن ذا الشىء قريب من الشىء ولهذا جاز قول القائل عيشة راضية لأن ذا الشىء كالقائم به الشىء فأتوا بلفظ الوصف .

وقوله (حتى عاد كالعرجون القديم) أى رجع فى الدقة إلى حالته التى كان عليها من قبل (والعرجون) من الانعراج يقال لعود العذق عرجون ، والقديم المتقادم الزمان ، قيل إن ماغبر عليه سنة فهو قديم ، والصحيح أن هذه بعينها لاتشترط فى جواز إطلاق القديم عليه وإنما تعتبر العادة ، حتى لايقال لمدينة بنيت من سنة وسنتين إنها بناء قديم أو هى قديمة

لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾

ويقال لبعض الأشياء إنه قديم ، وإن لم يكن له سنة ، ولهذا جاز أن يقال بيت قديم وبناء قديم ولم يجز أن يقال فى العالم إنه قديم ، لأن القدم فى البيت والبناء يثبت بحكم تقادم العهد ومرور السنين عليه ، واطلاق القديم على العالم لا يعتاد إلا عند من يعتقد أنه لا أول له ولا سابق عليه .

قوله تعالى : ﴿لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون﴾ .

إشارة إلى أن كل شىء من الأشياء المذكورة خلق على وفق الحكمة : فالشمس لم تكن تصلح لها سرعة الحركة بحيث تدرك القمر وإلا لكان فى شهر واحد صيف وشتاء فلا تدرك الثمار وقوله (ولا الليل سابق النهار) قيل فى تفسيره إن سلطان الليل وهو القمر ليس يسبق الشمس وهى سلطان النهار ، وقيل معناه ولا الليل سابق النهار أى الليل لا يدخل وقت النهار والثانى بعيد لأن ذلك يقع إيضاحاً للواضح والأول صحيح إن أريد به ما بينته وهو أن معنى قوله تعالى (ولا الليل سابق النهار) أن القمر إذا كان على أفق المشرق أيام الاستقبال تكون الشمس فى مقابلته على أفق المغرب ، ثم إن عند غروب الشمس يطلع القمر وعند طلوعها يغرب القمر ، كأن لها حركة واحدة مع أن الشمس تتأخر عن القمر فى ليلة مقداراً ظاهراً فى الحس ، فلو كان للقمر حركة واحدة بها يسبق الشمس ولا تدركه الشمس ؛ وللشمس حركة واحدة بها تتأخر عن القمر ولا تدرك القمر ؛ لبقى القمر والشمس مدة مديدة فى مكان واحد ، لأن حركة الشمس كل يوم درجة فخلق الله تعالى فى جميع الكواكب حركة أخرى غير حركة الشهر والسنة ، وهى الدورة اليومية وبهذه الدورة لا يسبق كوكب كوكباً أصلا ، لأن كل كوكب من الكواكب إذا طلع غرب مقابله وكلما تقدم كوكب إلى الموضع الذى فيه الكوكب الآخر بالنسبة إلينا تقدم ذلك الكوكب ، فبهذه الحركة لا يسبق القمر الشمس ، فتبين أن سلطان الليل لا يسبق سلطان النهار فالمراد من الليل القمر ومن النهار الشمس ، فقوله (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر) إشارة إلى حركتها البطيئة التى تتم الدورة فى سنة وقوله (ولا الليل سابق النهار) إشارة إلى حركتها اليومية التى بها تعود من المشرق إلى المشرق مرة أخرى فى يوم وليلة ، وعلى هذا ففيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ ما الحكمة فى اطلاق الليل وإرادة سلطانه وهو القمر ، وما ذا يكون لو قال ولا القمر سابق الشمس ؟ نقول لو قال ولا القمر سابق الشمس ما كان يفهم أن الاشارة إلى الحركة اليومية فكان يتوهم التناقض ، فان الشمس إذا كانت لا تدرك القمر والقمر أسرع ظاهراً ، وإذا قال

ولا القمر سابق يظن أن القمر لا يسبق فليس بأسرع، فقال الليل والنهار ليعلم أن الاشارة إلى الحركة التى بها تتم الدورة فى مدة يوم وليلة، ويكون لجميع الكواكب أو علها طلوع وغروب فى الليل والنهار .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ما الفائدة فى قوله تعالى (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك) بصيغة الفعل وقوله (ولا الليل سابق النهار) بصيغة اسم الفاعل ، ولم يقل ولا الليل يسبق ولا قال مدركة القمر؟ نقول الحركة الأولية التى للشمس ، ولا يدرك بها القمر مختصة بالشمس ، فجعلها كالصادرة منها ، وذكر بصيغة الفعل لأن صيغة الفعل لا تطلق على من لا يصدر منه الفعل فلا يقال هو يخيط ولا يكون يصدر منه الخياطة . والحركة الثانية ليست مختصة بكوكب من الكواكب بل الكل فيها مشتركة بسبب حركة فلك ليس ذلك فلكا لكوكب من الكواكب ، فالحركة ليست كالصادرة منه فأطلق اسم الفاعل لأنه لا يستلزم صدور الفعل يقال فلان خياط وإن لم يكن خياطاً ، فان قيل قوله تعالى (يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً) يدل على خلاف ما ذكرتم ، لأن النهار إذا كان يطلب الليل فالليل سابقه ، وقلتم إن قوله (ولا الليل سابق النهار) معناه ما ذكرتم فيكون الليل سابقاً ولا يكون سابقاً ، نقول قد ذكرنا أن المراد بالليل ههنا سلطان الليل وهو القمر ، وهو لا يسبق الشمس بالحركة اليومية السريعة ، والمراد من الليل هناك نفس الليل وكل واحد لما كان فى عقيب الآخر فكأنه طالبه ، فان قيل فلم ذكر ههنا (سابق النهار) وقد ذكر هناك يطلبه ، ولم يقل طالبه؟ نقول ذلك لما بينا من أن المراد فى هذه السورة من الليل كواكب الليل ، وهى فى هذه الحركة كأنها لا حركة لها ولا تسبق ، ولا من شأنها أنها سابقة ، والمراد هناك نفس الليل والنهار وهما زمانان والزمان لا قرار له فهو يطلب حثيثاً لصدور التقضى منه ، وقوله تعالى (وكل فى فلك يسبحون) يحقق ما ذكرنا أى للكل طلوع وغروب فى يوم وليلة لا يسبق بعضها بعضاً ، بالنسبة إلى هذه الحركة وكل حركة فى فلك تخصه وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ التنوين فى قوله وكل عوض عن الإضافة معناه كل واحد وإسقاط التنوين للاضافة حتى لا يجتمع التعريف والتنكير فى شىء واحد فلما سقط المضاف إليه لفظاً رد التنوين عليه لفظاً ، وفى المعنى معرف بالاضافة ، فان قيل فهل يختلف الأمر عند الاضافة لفظاً وتركها ؟ فنقول نعم ، وذلك لأن قول القائل كل واحد من الناس كذا لا يذهب الفهم إلى غيرهم فيفيد اقتصار الفهم عليه ، فاذا قال كل كذا يدخل فى الفهم عموم أكثر من العموم عند الاضافة ، وهذا كما فى قبل وبعد إذا قلت افعل قبل كذا فإذا حذفت المضاف وقلت افعل قبل أفاد فهم الفعل قبل كل شىء ، فإن قيل فهل بين قولنا كل منهم وبين قولنا كلهم وبين كل فرق ؟ نقول نعم عند قولك كلهم تثبت الأمر للاقتصار عليهم ، وعند قولك كل منهم تثبت الأمر أولا للعموم ، ثم استدركت بالتخصيص فقلت منهم ، وعند قولك كل تثبت الأمر على العموم وتتركه عليه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إذا كان كل بمعنى كل واحد منهم والمذكور الشمس والقمر فكيف قال (يسبحون) ؟ نقول الجواب عنه من وجوه : (أحدها) ماينا أن قوله كل للعموم فكأنه أخبر عن كل كوكب فى السماء سيار (ثانيها) أن لفظ كل يجوز أن يوحد نظراً إلى كونه لفظاً موحداً غير مثنى ولا مجموع ، ويجوز أن يجمع لكون معناه جمعاً ، وأما التثنية فلا يدل عليها اللفظ ولا المعنى فعلى هذا يحسن أن يقول القائل زيد وعمرو كل جاء أو كل جاءوا ولا يقول كل جاءا بالتثنية (وثالثها) لما قال (ولا الليل سابق النهار) والمراد ما فى الليل من الكواكب قال (يسبحون) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الفلك ماذا ؟ نقول الجسم المستدير أو السطح المستدير أو الدائرة لأن أهل اللغة اتفقوا على أن فلكة المغزل سميت فلكة لاستدارتها وفلكة الخيمة هى الخشبة المسطحة المستديرة التى توضع على رأس العمود لئلا يمزق العمود الخيمة وهى صفحة مستديرة ، فان قيل فعلى هذا تكون السماء مستديرة . وقد اتفق أكثر المفسرين على أن السماء مبسوطة ليس لها أطراف على جبال وهى كالسقف المستوى . ويدل عليه قوله تعالى (والسقف المرفوع) نقول ليس فى النصوص ما يدل دلالة قاطعة على كون السماء مبسوطة غير مستديرة ، ودل الدليل الحسى على كونها مستديرة فوجب المصير إليه . أما الأول فظاهر لأن السقف المقبب لايخرج عن كونه سقفاً ، وكذلك كونها على جبال ، وأما الدليل الحسى فوجوه (أحدها) أن من أمعن فى السير فى جانب الجنوب يظهر له كواكب مثل سهيل وغيره ظهوراً أبدياً حتى أن من يرصد يراه دائما ويخفى عليه بنات نعش وغيرها خفاء أبدياً ، ولو كان السماء مسطحاً مستوياً لبان الكل للكل بخلاف ما إذا كان مستديراً فان بعضه حينئذ يستتر بأطراف الأرض فلا يرى (الثانى) هو أن الشمس إذا كانت مقارنة للحمل(١) مثلا فاذا غربت ظهر لنا كوكب فى منطقة البروج من الحمل إلى الميزان ثم ثم فى قليل يستتر الكوكب الذى كان غروبه بعد غروب الشمس ويظهر الكوكب الذى كان طلوعه بعد طلوع الشمس وبالعكس وهو دليل ظاهر وإن بحث فيه يصير قطعياً (الثالث) هو أن الشمس قبل طلوعها وبعد غروبها يظهر ضوءها ويستنير الجو بعض الاستنارة ثم يطلع ولولا أن بعض السماء مستتر بالأرض وهو محل الشمس فلا يرى جرمها وينتشر نورها لما كان كذا بل كان عند إعادتها إلى السماء يظهر لكل أحد جرمها ونورها معاً لكون السماء مستوية حينئذ مكشوفة كلها لكل أحد (الرابع) القمر إذا انكسف فى ساعة من الليل فى جانب الشرق ، ثم سئل أهل الغرب عن وقت الكسوف أخبروا عن الخسوف فى ساعة أخرى قبل تلك الساعة التى رآى أهل المشرق فيها الخسوف لكن الخسوف فى وقت واحد فى جميع نواحى العالم والليل مختلف فدل على أن الليل فى جانب المشرق قبل الليل فى جانب المغرب فالشمس غربت من عند أهل المشرق وهى بعد فى السماء ظاهرة لأهل المغرب فعلم استتارها بالأرض ولو كانت مستوية

(١) الحمل من بروج الشمس الاثنى عشر وقد نظمت فى قول الشاعر : حمل الثور جوزة السرطان ورعى الليث سنبل الميزان
ورمى عقرب بقوس لجدى نزح الدلو بركة الحيتان

لما كان كذلك (الخامس) لو كانت السماء مبسوطة لكان القمر عند ما يكون فوق رءوسنا على المسامتة أقرب إلينا وعند ما يكون على الأفق أبعد منا لأن العموم أصغر من القطر والوتد ، وكذلك فى الشمس والكواكب كان يجب أن يرى أكبر لأن القريب يرى أكبر وليس كذلك فان قيل جاز أن يكون وهو على الأفق على سطح السماء وعند ما يكون على مسامتة رؤوسنا فى بحر السماء غائراً فيها لأن الخرق جائز على السماء ، نقول لا تنازع فى جواز الخرق لكن القمر حينئذ تكون حركته فى دائرة لا على خط مستقيم وهو غرضنا ولأنا نقول لو كان كذلك لكان القمر عند أهل المشرق وهو فى منتصف نهارهم أكبر مقداراً لكونه قريباً من رؤوسهم ضرورة فرضه على سطح السماء الأدنى وعندنا فى بحر السماء ، وبالجملة الدلائل كثيرة .والاكثار منها يليق بكتب الهيئة التى الغرض منها بيان ذلك العلم ، وليس الغرض فى التفسير بيان ذلك غير أن القدر الذى أوردناه يكفى فى بيان كونه فلكا مستديراً .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ هذا يدل على أن لكل كوكب فلكا ، فما قولك فيه ؟ نقول : أما السبعة السيارة(١) فلكل فلك ، وأما الكواكب الأخر فقيل للكل فلك واحد ، ولنذكر كلاماً مختصراً فى هذا الباب من الهيئة حيث وجب الشروع بسبب تفسير الفلك فنقول : قيل إن للقمر فلكا لأن حركته أسرع من حركة الستة الباقية ، وكذلك لكل كوكب فلك لاختلاف سيرها بالسرعة والبطء والممر ، فان بعضها يمر فى دائرة وبعضها فى دائرة أخرى حتى فى بعض الأوقات يمر بعضها ببعض ولا يكسفه وفى بعض الأوقات يكسفه فلكل كوكب فلك ، ثم إن أهل الهيئة قالوا فكل فلك هو جسم كرة وذلك غير لازم بل اللازم أن نقول لكل فلك هو كرة أو صفحة أو دائرة يفعلها الكوكب بحركته ، والله تعالى قادر على أن يخلق الكوكب فى كرة يكون وجوده فيها كوجود مسمار مغرق فى ثخن كرة مجوفة ويدير الكرة فيدور الكوكب بدوران الكرة ، وعلى مذهب أرباب الهيئة حركة الكواكب السيارة على هذا الوجه ، وكذلك قادر على أن يخلق حلقة يحيط بها أربع سطوح متوازية بها فانها أربع دوائر متوازية كحجر الرحى إذا قورناه وأخرجنا من وسطه طاحونة من طواحين اليد ويبقى منه حلقة يحيط بها سطوح ودوائر كما ذكرنا وتكون الكواكب فيه وهو فلك فتدور تلك الحلقة وتدير الكوكب ، والحركة على هذا الوجه وإن كانت مقدورة لكن لم يذهب إليه أحد ممن يعتبر وكذلك هو قادر على أن يجعل الكواكب بحيث تشق السماء فتجعل دائرة متوهمة كما لو فرضت سمكة فى الماء على وجهه تنزل من جانب وتصعد إلى موضع من الجانب الآخر على استدارة وهذا هو المفهوم من قوله تعالى (وكل فى فلك يسبحون) والظاهر أن حركة الكواكب على هذا الوجه ،وأرباب الهيئة أنكروا ذلك وقالوا لاتجوز الحركة

---

(١) نظم بعضهم السبعة السيارة فى بيت وهو : زحل شرى مريخه من شمسه فتزاهرت لعطارد الأقمار

والمراد من قوله شرى كوكب المشترى : ولم يكن معروفا غير هذه السبعة عند القدماء ، وقد اكتشف المحدثون كواكب أخرى جديدة منها نبتون وأورانوس .

على هذا الوجه لأن الكوكب له جرم فاذا شق السماء وتحرك فاما أن يكون موضع دورانه ينشق ويلتئم كالماء تحركه السمكة أولا ينشق ولا يلتئم ، بل هناك خلاء يدور الكوكب فيه ، لكن الخلاء محال والسماء لا تقبل الشق والالتئام ، هذا ما اعتمدوا عليه ، ونحن نقول كلاهما جائز . أما الخلاء فلا يحتاج إليه ههنا ، لأن قوله تعالى (يسبحون) يفهم منه أنه بشق والتئام ، وأما امتناع الشق والالتئام فلا دليل لهم عليه وشبهتهم فى المحدد للجهات وهى هناك ضعيفة ، ثم إنهم قالوا على ما بينا تخرج الحركات وبه علمنا الكسوفات ، ولو كان لها حركات مختلفة لما وجب الكسوف فى الوقت الذى يحكم فيه بالكسوف والخسوف وذلك لأنا نقول للشمس فلكان (أحدهما) مركزه مركز العالم (ثانيهما) مركزه فوق مركز العالم وهو مثل بياض البيض بين صفرته وبين القيض والشمس كرة فى الفلك الخارج المركز تدور بدورانه فى السنة دورة ، فاذا جعلت فى الجانب الأعلى تكون بعيدة عن الأرض فيقال إنها فى الأوج ، وإذا حصلت فى الجانب الأسفل تكون قريبة من الأرض فتكون فى الحضيض ، وأما القمر فله فلك شامل لجميع أجزائه وأفلاكه وفلك آخر هو بعض من الفلك الأول محيط به كالقشرة الفوقانية من البصلة وفلك ثالث فى الفلك التحتانى كما كان فى الفلك الخارج المركز فى فلك الشمس وفى الفلك الخارج المركز كرة مثل جرم الشمس وفى الكرة القمر مركوز كمسمار فى كرة مغرق فيها ويسمى الفلك الفوقانى الجوزهر والخارج المركز الفلك الحامل والفلك التحتانى الذى فيه الفلك الحامل الفلك المائل والكرة التى فى الحامل تسمى فلك التدوير ، وكذلك قالوا فى الكواكب الخمسة الباقية من السيارات غير أن الفوقاني الذى سموه فلك الجوزهر لم يثبتوه لها فأثبتوا أربعة وعشرين فلكا ، الفلك الأعلى وفلك البروج ، ولزحل ثلاثة أفلاك الممثل والحامل وفلك التدوير ، وللمشترى ثلاثة كما لزحل ، وللمريخ كذلك ثلاثة ، وللشمس فلكان الممثل والخارج المركز ، وللزهرة ثلاثة أفلاك كما للعلويات ، ولعطارد أربعة أفلاك الثلاثة التى ذكرناها فى العلويات ، وفلك آخر يسمونه المدير ، وللقمر أربعة أفلاك والرابع يسمونه فلك الجوزهر والمدير ليس كالجوزهر لأن المدير غير محيط بأفلاك عطارد وفلك الجوزهر محيط ، ومنهم من زاد فى الخمسة فى كل فلك فلكين آخرين وجعل تدويراتها مركبة من ثلاثة أفلاك ، وقالوا إن بسبب هذه الأجرام تختلف حركات الكواكب ويكون لها عروض ورجوع واستقامة وبطء وسرعة . هذا كلامهم على سبيل الاقتناص والإقتصار ونحن نقول لا يبعد من قدرة الله خلق مثل ذلك ، وأما على سبيل الوجوب فلا نسلم ورجوعها واستقامتها بإرادة الله وكذلك عرضها وطولها وبطؤها وسرعتها وقربها وبعدها هذا تمام الكلام .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قال المنجمون الكواكب أحياء بدليل أنه تعالى قال (يسبحون) وذلك لا يطلق إلا على العاقل ، نقول إن أردتم القدر الذى يصح به التسبيح فنقول به لأنه ما من شيء من هذه الأشياء إلا وهو يسبح بحمد الله وإن أردتم شيئاً آخر فلم يثبت ذلك والاستعمال لا يدل كما فى قوله تعالى فى حق الأصنام (ما لكم لا تنطقون) وقوله (ألا تنطقون) .

وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾

قوله تعالى : ﴿ وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون ﴾ ولها مناسبة مع ما تقدم من وجهين (أحدهما) أنه تعالى لما من بإحياء الأرض وهى مكان الحيوانات بين أنه لم يقتصر بل جعل للانسان طريقاً يتخذ من البحر خيراً ويتوسطه أو يسير فيه كما يسير فى البر وهذا حينئذ كقوله (وحملناكم فى البر والبحر) ويؤيد هذا قوله تعالى (وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) إذا فسرناه بأن المراد الإبل فانها كسفن البرارى (وثانيهما) هو أنه تعالى لما بين سباحة الكواكب فى الأفلاك وذكر ما هو مثله وهو سباحة الفلك فى البحار ، ولها (وجه ثالث) وهى أن الأمور التى أنعم الله بها على عباده منها ضرورية ومنها نافعة والأول للحاجة والثانى للزينة فخلق الأرض وإحياؤها من القبيل الأول فانها المكان الذى لولاه لما وجد الانسان ولولا إحياؤها لما عاش والليل والنهار فى قوله (وآية لهم الليل) أيضاً من القبيل الأول ، لأنه الزمان الذى لولاه لما حدث الإنسان ، والشمس والقمر وحركتهما لو لم تكن لما عاش ، ثم إنه تعالى لما ذكر من القبيل الأول آيتين ذكر من القبيل الثانى وهو الزينة آيتين (إحداهما) الفلك التى تجرى فى البحر فيستخرج من البحر ما يتزين به كما قال تعالى (ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر) (وثانيتهما) الدواب التى هى فى البر كالفلك فى البحر فى قوله (وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) فان الدواب زينة كما قال تعالى (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة) وقال (ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون) فيكون استدلالا عليهم بالضرورى والنافع لا يقال بأن النافع ذكره فى قوله (جنات من نخيل وأعناب) فإنها للزينة لأنا نقول ذلك حصل تبعاً للضرورى ، لأن الله تعالى لما خلق الأرض منبتة لدفع الضرورة وأنزل الماء عليها كذلك لزم أن يخرج من الجنة النخيل والأعناب بقدرة الله ، وأما الفلك فمقصود لا تبع ، ثم إذا علمت المناسبة ففى الآيات أبحاث لغوية ومعنوية :

(أما اللغوية) قال المفسرون الذرية هم الآباء أى حملنا آباءكم فى الفلك والألف واللام للتعريف أى فلك نوح وهو مذكور فى قوله (واصنع الفلك) ومعلوم عند العرب فقال الفلك ؛ هذا قول بعضهم ، وأما الأكثرون فعلى أن الذرية لا تطلق إلا على الولد وعلى هذا فلابد من بيان المعنى ، فنقول الفلك إما أن يكون المراد الفلك المعين الذى كان لنوح ، وإما أن يكون المراد الجنس كما قال تعالى (وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون) وقال تعالى (وترى الفلك فيه مواخر) وقال تعالى (فإذا ركبوا فى الفلك) إلى غير ذلك من استعمال لام التعريف فى الفلك لبيان الجنس ، فان كان المراد سفينة نوح عليه السلام ففيه وجوه (الأول) أن المراد إنا حملنا أولادكم إلى يوم القيامة فى ذلك الفلك ، ولولا ذلك لما بقى للآدمى نسل ولا عقب وعلى هذا فقوله

(حملنا ذريتهم) بدل قوله (حملناهم) إشارة إلى كمال النعمة أى لم تكن النعمة مقتصرة عليكم بل متعدية إلى أعقابكم إلى يوم القيامة ، هذا ما قاله الزمخشرى ، ويحتمل عندى أن يقال على هذا إنه تعالى إنما خص الذرية بالذكر ، لأن الموجودين كانوا كفاراً لا فائدة فى وجودهم فقال (حملنا ذريتهم) أى لم يكن الحمل حملا لهم ، وإنما كان حملا لما فى أصلابهم من المؤمنين كما أن من حمل صندوقا لا قيمة له وفيه جواهر إذا قيل له لم تحمل هذا الصندوق وتتعب فى حمله وهو لا يشترى بشىء؟ يقول لا أحمل الصندوق وإنما أحمل مافيه (الثانى) هو أن المراد بالذرية الجنس معناه حملنا أجناسهم وذلك لأن ولد الحيوان من جنسه ونوعه والذرية تطلق على الجنس ولهذا يطلق على النساء نهى النبي ﷺ عن قتل الذرارى ، أى النساء وذلك لأن المرأة وإن كانت صنفاً غير صنف الرجل لكنها من جنسه ونوعه يقال ذرارينا أى أمثالنا فقوله (أنا حملنا ذريتهم) أى أمثالهم وآباؤهم حينئذ تدخل فيهم (الثالث) هو أن الضمير فى قوله (وآية لهم) عائد إلى العباد حيث قال (ياحسرة على العباد) وقال بعد ذلك (وآية لهم الأرض) وقال (وآية لهم الليل) وقال (وآية لهم أنا حملنا ذريتهم) إذا علم هذا فكأنه تعالى قال وآية للعباد أنا حملنا ذريات العباد ولا يلزم أن يكون المراد بالضمير فى الموضعين أشخاصاً معينين كما قال تعالى (ولا تقتلوا أنفسكم) ويريد بعضكم بعضاً ، وكذلك إذا تقاتل قوم ومات الكل فى القتال ، يقال هؤلاء القوم هم قتلوا أنفسهم ، فهم فى الموضعين يكون عائداً إلى القوم ولا يكون المراد أشخاصاً معينين ، بل المراد أن بعضهم قتل بعضاً ، فكذلك قوله تعالى (وآية لهم) أى آية لكل بعض منهم أنا حملنا ذرية كل بعض منهم ، أو ذرية بعض منهم . وأما إن قلنا إن المراد جنس الفلك فهو أظهر ، لأن سفينة نوح لم تكن بحضرتهم ولم يعلموا من حمل فيها ، فأما جنس الفلك فانه ظاهر لكل أحد ، وقوله تعالى فى سفينة نوح (وجعلناها آية للعالمين) أى بوجود جنسها ومثلها ، ويؤيده قوله تعالى (ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) فنقول قوله تعالى (حملنا ذريتهم) أى ذريات العباد ولم يقل حملناهم ، لأن سكون الأرض عام لكل أحد يسكنها فقال (وآية لهم الأرض الميتة) إلى أن قال (فمنه يأكلون) لأن الأكل عام ، وأما الحمل فى السفينة فمن الناس من لا يركبها فى عمره ولا يحمل فيها ، ولكن ذرية العباد لا بد لهم من ذلك فان فيهم من يحتاج إليها فيحمل فيها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ جعل الفلك تارة جمعاً حيث قال (وترى الفلك فيه مواخر) جمع ماخرة وأخرى فرداً حيث قال (فى الفلك المشحون) نقول فيه تدقيق مليح من علم اللغة ، وهو أن الكلمة قد تكون حركتها مثل حركة تلك الكلمة فى الصورة ، والحركتان مختلفتان فى المعنى مثالها قولك : سجد يسجد سجوداً للمصدر وهم قوم سجود فى جمع ساجد ، تظن أنهما كلمة واحدة لمعنيين وليس كذلك ، بل السجود عند كونه مصدراً حركته أصلية إذا قلنا إن الفعل مشتق من المصدر

وحركة السجود عند كونه للجمع حركة متغيرة من حيث إن الجمع يشتق من الواحد ، وينبغي أن يلحق المشتق تغيير في حركة أو حرف أو في مجموعهما ، فساجد لما أردنا أن يشتق منه لفظ جمع غيرناه ، وجئنا بلفظ السجود ، فاذاً السجود للمصدر والجمع ليس من قبيل الألفاظ المشتركة التي وضعت بحركة واحدة لمعنيين ، إذا عرفت هذا فنقول الفلك عند كونه واحداً مثل قفل وبرد ، وعند كونها جمعاً مثل خشب ومرد وغيرهما ، فان قلت فاذا جعلته جمعاً ماذا يكون واحدها ؟ نقول جاز أن يكون واحدها فلكة أو غيرها مما لم يستعمل كواحد النساء حيث لم يستعمل ، وكذا القول في (إمام مبين) وفي قوله (ندعوا كل أناس(١) بامامهم) أي بأئمتهم عند قوله تعالى (إمام مبين) إمام كزمام وكتاب وعند قوله تعالى (كل أناس بامامهم) إمام كسهام وكرام وجعاب وهذا من دقيق التصريف (وأما المعنوية) فنذكرها في مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال ههنا (حملنا ذريتهم) من عليهم بحمل ذريتهم ، وقال تعالى (إنا لما طغى الماء حملنا كم في الجارية) من هناك عليهم بحمل أنفسهم ، نقول لأن من ينفع المتعلق بالغير يكون قد نفع ذلك الغير ، ومن يدفع الضرر عن المتعلق بالغير لا يكون قد دفع الضرر عن ذلك الغير ، بل يكون قد نفعه مثاله من أحسن إلى ولد إنسان وفرحه فرح بفرحه أبوه ، وإذا دفع واحد الألم عن ولد إنسان يكون قد فرح أباه ولا يكون في الحقيقة قد أزال الألم عن أبيه ، فعند طغيان الماء كان الضرر يلحقهم فقال دفعت عنكم الضرر ، ولو قال دفعت عن أولادكم الضرر لما حصل بيان دفع الضرر عنهم ، وههنا أراد بيان المنافع فقال (حملنا ذريتهم) لأن النفع حاصل بنفع الذرية ويدلك على هذا أن ههنا قال (في الفلك المشحون) فان امتلاء الفلك من الأموال يحصل بذكره بيان المنفعة ، وأما دفع المضرة فلا ، لأن الفلك كلما كان أثقل كان الخلاص به أبطأ وهنالك السلامة ، فاختار هنالك ما يدل على الخلاص من الضرر وهو الجري ، وههنا ما يدل على كمال المنفعة وهو الشحن ، فان قيل قال تعالى (وحملناهم في البر والبحر) ولم يقل (وحملنا ذريتهم) مع أن المقصود في الموضعين بيان النعمة ، لا دفع النقمة ، نقول لما قال (في البر والبحر) عم الخلق ، لأن ما من أحد إلا وحمل في البر أو البحر ، وأما الحمل في البحر فلم يعم ، فقال إن كنا ما حملنا كم بأنفسكم فقد حملنا من يهمكم أمره من الأولاد والأقارب والإخوان والأصدقاء .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (المشحون) يفيد فائدة أخرى غير ما ذكرنا وهي أن الآدمي يرسب في الماء ويغرق ، فحمله في الفلك واقع بقدرته ، لكن من الطبيعيين من يقول الخفيف لا يرسب في الماء ، لأن الخفيف يطلب جهة فوق فقال (الفلك المشحون) أثقل من الثقال التي ترسب ، ومع هذا حمل الله الانسان فيه مع ثقله ، فان قالوا ذلك لامتناع الخلاء نقول قد ذكرنا الدلائل الدالة على جواز الخلاء في الكتب العقلية ، فإذن ليس حفظ الثقيل فوق الماء إلا بارادة الله .

وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال تعالى (وآية لهم الأرض) وقال (وآية لهم الليل) ولم يقل وآية لهم الفلك جعلناها بحيث تحملهم ، وذلك لأن حملهم فى الفلك هو العجب . أما نفس الفلك فليس بعجب لأنه كبيت مبنى من خشب . وأما نفس الأرض فعجب ونفس الليل عجب لاقدرة عليهما لأحد إلا الله .

قوله تعالى : ﴿ وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ من حيث اللغة والمعنى . أما اللغة فقوله لهم يحتمل أن يكون عائداً إلى الذرية ، أى حملنا ذريتهم وخلقنا للمحمولين مايركبون ، ويحتمل أن يكون عائداً إلى العباد الذين عاد إليهم قوله (وآية لهم) وهو الحق لأن الظاهر عود الضمائر إلى شيء واحد .

﴿ المسألة الثانية ﴾ (من) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون صلة تقديره وخلقنا لهم مثله ، وهذا على رأى الأخفش ، وسيبويه يقول : من لايكون صلة إلا عند النفى ، تقول ماجاءنى من أحد كما فى قوله تعالى (وما مسنا من لغوب) ، (وثانيهما) هى مبينة كما فى قوله تعالى (يغفر لكم من ذنوبكم) كأنه لما قال (خلقنا لهم) والمخلوق كان أشياء قال من مثل الفلك للبيان .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الضمير فى (مثله) على قول الأكثرين عائد إلى الفلك فيكون هذا كقوله تعالى (وآخر من شكله أزواج) وعلى هذا فالأظهر أن يكون المراد الفلك الآخر الموجود فى زمانهم ويؤيد هذا هو أنه تعالى قال (وإن نشأ نغرقهم) ولو كان المراد الإبل على ما قاله بعض المفسرين لكان قوله (وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) فاصلا بين متصلين ، ويحتمل أن يقال الضمير عائد إلى معلوم غير مذكور تقديره أن يقال : وخلقنا لهم من مثل ما ذكرنا من المخلوقات فى قوله (خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض) وهذا كما قالوا فى قوله تعالى(ليأكلوا من ثمره) أن الهاء عائد إلى ماذكرنا ،أى من ثمر ماذكرنا ، وعلى هذا فقوله(خلقنا لهم)فيه لطيفة ، وهى أن ما من أحد إلا وله ركوب مركوب من الدواب وليس كل أحد يركب الفلك فقال فى الفلك حملنا ذريتهم وإن كنا ما حملناهم ، وأما الخلق فلهم عام وما يركبون فيه وجهان : (أحدهما) هو الفلك الذى مثل فلك نوح (ثانيهما) هو الابل التى هى سفن البر ، فان قيل إذا كان المراد سفينة نوح فما وجه مناسبة الكلام ؟ نقول ذكرهم بحال قوم نوح وأن المكذبين هلكوا والمؤمنين فازوا فكذلك هم إن آمنوا يفوزوا وإن كذبوا يهلكوا .

ثم قال تعالى ﴿ وإن نشأ نغرقهم ﴾ إشارة إلى فائدتين : (إحداهما) أن فى حال النعمة ينبغى أن لا يأمنوا عذاب الله (وثانيتهما) هو أن ذلك جواب سؤال مقدر وهو أن الطبيعى يقول السفينة تحمل بمقتضى الطبيعة والمجوف لا يرسب فقال ليس كذلك بل لو شاء الله أغرقهم وليس ذلك بمقتضى الطبع ولو صح كلامه الفاسد لكان لقائل أن يقول : ألست توافق أن من السفن ماينقلب

فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾

وينكسر ومنها ما يثقبه ثاقب فيرسب وكل ذلك بمشيئة الله فان شاء الله إغراقهم أغرقهم من غير شيء من هذه الأسباب كما هو مذهب أهل السنة أو بشيء من تلك الأسباب كما تسلم أنت .

قوله تعالى : ﴿ فلا صريخ لهم ﴾ أي لا مغيث لهم يمنع عنهم الغرق .

قوله تعالى : ﴿ ولاهم ينقذون ﴾ إذا أدركهم الغرق وذلك لأن الخلاص من العذاب ، إما أن يكون بدفع العذاب من أصله أو برفعه بعد وقوعه فقال لاصريخ لهم يدفع ولا هم ينقذون بعد الوقوع فيه ، وهذا مثل قوله تعالى (لا تغن عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون) فقوله (لاصريخ لهم ولاهم ينقذون) فيه فائدة أخرى غير الحصر وهى أنه تعالى قال لاصريخ لهم ولم يقل ولامنقذلهم وذلك لأن من لايكون من شأنه أن ينصر لايشرع فى النصرة مخافة أن يغلب ويذهب ماء وجهه ، وإنما ينصر ويغيث من يكون من شأنه أن يغيث فقال لاصريخ لهم ، وأما من لا يكون من شأنه أن ينقذ إذا رأى من يعز عليه فى ضر يشرع فى الإنقاذ ، وإن لم يثق بنفسه فى الإنقاذ ولا يغلب على ظنه . وإنما يبذل المجهود فقال (ولا هم ينقذون) ولم يقل ولا منقذ لهم .

ثم استثنى فقال ﴿ إلا رحمة منا ومتاعاً إلى حين ﴾ وهو يفيد أمرين : (أحدهما) انقسام الإنقاذ إلى قسمين الرحمة والمتاع ، أى فيمن علم الله منه أنه يؤمن فينقذه الله رحمة ، وفيمن علم أنه لايؤمن فليتمتع زمانا ويزداد إثماً (وثانيهما) أنه بيان لكون الإنقاذ غير مفيد للدوام بل الزوال فى الدنيا لابد منه فينقذه الله رحمة ويمتعه إلى حين ، ثم يميته فالزوال لازم أن يقع .

قوله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون ﴾ وجه تعلق الآية بما قبلها هو أن الله تعالى لما عدد الآيات بقوله (وآية لهم الأرض ، وآية لهم الليل ، وآية لهم أنا حملنا ذريتهم) وكانت الآيات تفيد اليقين وتوجب القطع بما قال تعالى ولم تفدهم اليقين ، قال فلا أقل من أن يحترزوا عن العذاب فان من أخبر بوقوع عذاب يتقيه ، وإن لم يقطع بصدق قول المخبر احتياطاً فقال تعالى إذا ذكر لهم الدليل القاطع لا يعترفون به وإذا قيل لهم اتقوا لايتقون فهم فى غاية الجهل ونهاية الغفلة ، لامثل العلماء الذين يتبعون البرهان ، ولامثل العامة الذين يبنون الأمر على الأحوط ، ويدل على ما ذكرنا قوله تعالى (لعلكم ترحمون) بحرف التمنى أى فى ظنكم فان من يخفى عليه وجه البرهان لايترك طريقة الاحتراز والاحتياط ، وجواب قوله (إذا قيل لهم اتقوا) محذوف معناه وإذا قيل لهم ذلك لا يتقون أو يعرضون ، وإنما حذف لدلالة مابعده عليه وهو قوله تعالى (وما تأتيهم من آية من آيات ربهم) وفى قوله تعالى (ما بين أيديكم وما خلفكم)

وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟

وجوه : (أحدها) (ما بين أيديكم) الآخرة فإنهم مستقبلون لها (وما خلفكم) الدنيا فانهم تاركون لها (وثانيها) (مابين أيديكم) من أنواع العذاب مثل الغرق والحرق ، وغيرهما المدلول عليه بقوله تعالى (وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون) وما خلفكم من الموت الطالب لكم إن نجوتم من هذه الأشياء فلا نجاة لكم منه يدل عليه قوله تعالى (ومتاعا إلى حين) (وثالثها) ما بين أيديكم من أمر محمد ﷺ فانه حاضر عندكم وما خلفكم من أمر الحشر فإنكم إذا اتقيتم تكذيب محمد ﷺ والتكذيب بالحشر رحمكم الله وقوله تعالى (لعلكم ترحمون) مع أن الرحمة واجبة ، فيه وجوه ذكرناها مراراً ونزيد ههنا وجهاً آخر وهو أنه تعالى لما قال (اتقوا) بمعنى أنكم إن لم تقطعوا بناء على البراهين فاتقوا احتياطاً قال (لعلكم ترحمون) يعنى أرباب اليقين يرحمون جزماً وأرباب الاحتياط يرجى أن يرحموا ، والحق ما ذكرنا من وجهين : (أحدهما) اتقوا راجين الرحمة فان الله لا يجب عليه شيء (وثانيهما) هو أن الاتقاء نظراً إليه أمر يفيد الظن بالرحمة فان كان يقطع به أحد لأمر من خارج فذلك لا يمنع الرجاء فان الملك إذا كان فى قلبه أن يعطى من يخدمه أكثر من أجرته أضعافاً مضاعفة لكن الخدمة لا تقتضى ذلك ، يصح منه أن يقول افعل كذا ولا يبعد أن يصل اليك أجرتك أكثر مما تستحق .

قوله تعالى : ﴿ وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ﴾ .

وهذا متعلق بما تقدم من قوله تعالى (ياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون) ، (وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين) يعنى إذا جاءتهم الرسل كذبوهم فإذا أتوا بالآيات أعرضوا عنها وما التفتوا اليها وقوله (ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون) إلى قوله (لعلكم ترحمون) كلام بين كلامين متصلين ويحتمل أن يقال هو متصل بما قبله من الآية وبيانه هو أنه تعالى لما قال (وإذا قيل لهم اتقوا) وكان فيه تقدير أعرضوا قال ليس إعراضهم مقتصراً على ذلك بل هم عن كل آية معرضون أو يقال إذا قيل لهم اتقوا اقترحوا آيات مثل إنزال الملك وغيره فقال (وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين) وعلى هذا كانوا فى المعنى يكون زائداً معناه إلا يعرضون عنها أى لا تنفعهم الآيات ومن كذب بالبعض هان عليه التكذيب بالكل .

قوله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من

أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾

لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا فى ضلال مبين ﴾ .

إشارة إلى أنهم يبخلون بجميع ما على المكلف ، وذلك لأن المكلف عليه التعظيم لجانب الله والشفقة على خلق الله وهم تركوا التعظيم حيث قيل لهم اتقوا ، فلم يتقوا وتركوا الشفقة على خلق الله حيث قيل لهم (أنفقوا) فلم ينفقوا (وفيه لطائف) الأولى خوطبوا بأدنى الدرجات فى التعظيم والشفقة فلم يأتوا بشيء منه وعباد الله المخلصون خوطبوا بالأدنى فأتوا بالأعلى إنما قلنا ذلك لأنهم فى التقوى أمروا بأن يتقوا ما بين أيديهم من العذاب أو الآخرة وما خلفهم من الموت أو العذاب وهو أدنى مايكون من الاتقاء ، وأما الخاص فيتقى تغيير قلب الملك عليه وإن لم يعاقبه ومتى العذاب لا يكون إلا للبعيد ، فهم لم يتقوا معصية الله ولم يتقوا عذاب الله ، والمخلصون اتقوا الله واجتنبوا مخالفته سواء كان يعاقبهم عليه أو لا يعاقبهم ، وأما فى الشفقة فقيل لهم (أنفقوا مما) أى بعض ماهو لله فى أيديكم فلم ينفقوا ، والمخلصون آثروا على أنفسهم وبذلوا كل مافى أيديهم ،بل أنفسهم صرفوها إلى نفع عباد الله ودفع الضرر عنهم (الثانية) كما أن فى جانب التعظيم ما كان فائدة التعظيم راجعة إلا إليهم فان الله مستغن عن تعظيمهم كذلك فى جانب الشفقة ما كان فائدة الشفقة راجعة إلا إليهم ، فان من لا يرزقه المتمول لا يموت إلا بأجله ولا بد من وصول رزقه إليه . لكن السعيد من قدر الله إيصال الرزق على يده إلى غيره (الثالثة) قوله (مما رزقكم) إشارة إلى أمرين (أحدهما) أن البخل به فى غاية القبح فان أبخل البخلاء من يبخل بمال الغير (وثانيهما) أنه لا ينبغى أن يمنعكم من ذلك مخافة الفقر فان الله رزقكم فاذا أنفقتم فهو يخلفه لكم ثانياً كما رزقكم أولا وفيه مسائل أيضاً :

﴿ المسألة الأولى ﴾ عند قوله تعالى (واذا قيل لهم أنفقوا) حذف الجواب ، وههنا أجاب وأتى بأكثر من الجواب وذلك لأنه تعالى لو قال (وإذا قيل لهم أنفقوا) قالوا (أنطعم من لو يشاء الله أطعمه) لكان كافياً ، فما الفائدة فى قوله تعالى (قال الذين كفروا للذين آمنوا) ؟ نقول الكفار كانوا يقولون بأن الإطعام من الصفات الحميدة وكانوا يفتخرون به ، وإنما أرادوا بذلك القول رداً على المؤمنين فقالوا نحن نطعم الضيوف معتقدين بأن أفعالنا ثناء ، ولولا إطعامنا لما اندفع حاجة الضيف وأنتم تقولون إن إلهكم يرزق من يشاء ، فلم تقولون لنا أنفقوا ؟ فلما كان غرضهم الرد على المؤمنين لا الامتناع من الإطعام ، قال تعالى عنهم (قال الذين كفروا للذين آمنوا) إشارة إلى الرد ، وأما فى قولهم (اتقوا مابين أيديكم) فلم يكن لهم رد على المؤمنين فأعرضوا وأعرض الله عن ذكر إعراضهم لحصول العلم به .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ما الفائدة فى تغيير اللفظ فى جوابهم حيث لم يقولوا أننفق على من لو يشاء الله رزقه ، وذلك لأنهم أمروا بالإنفاق فى قوله (وإذا قيل لهم أنفقوا) فكان جوابهم بأن

يقولوا أننفق فلم قالوا (أنطعم) ؟ نقول فيه بيان غاية مخالفتهم وذلك لأنهم إذا أمروا بالإنفاق والإنفاق يدخل فيه الإطعام وغيره لم يأتوا بالإنفاق ولا بأقل منه وهو الإطعام وقالوا لا نطعم ، وهذا كما يقول القائل لغيره أعط زيداً ديناراً يقول لا أعطيه درهما مع أن المطابق هو أن يقول لا أعطيه ديناراً ولكن المبالغة فى هذا الوجه أتم فكذلك ههنا .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ كان كلامهم حقاً فان الله لو شاء أطعمه فلماذا ذكره فى معرض الذم ؟ نقول لأن مرادهم كان الإنكار لقدرة الله أو لعدم جواز الأمر بالإتفاق مع قدرة الله وكلاهما فاسد بين الله ذلك فى قوله (مما رزقكم) فإنه يدل على قدرته ويصحح أمره بالإعطاء لأن من كان له فى يد الغير مال وله فى خزائنه مال فهو مخير إن أراد أعطى مما فى خزائنه وإن أراد أمر من عنده المال بالإعطاء ولا يجوز أن يقول من بيده ماله فى خزائنك أكثر مما فى يدى أعطه منه ، وقوله (إن أنتم إلا فى ضلال مبين) إشارة إلى اعتقادهم أنهم قطعوا المؤمنين بهذا الكلام وأن أمرهم بالإنفاق مع قولهم بقدرة الله ظاهر الفساد واعتقادهم هو الفاسد وفيه مباحث لغوية ومعنوية .

﴿أما اللغوية﴾ فنقول (إن) وردت للنفى بمعنى ما ، وكان الأرض فى إن أن تكون للشرط والأصل فى ما أن تكون للنفى لكنهما اشتركا من بعض الوجوه فتقارضا واستعمل ما فى الشرط واستعمل إن فى النفى ، أما الوجه المشترك فهو أن كل واحد منهما حرف مركب من حرفين متقاربين فان الهمزة تقرب من الألف والميم من النون ولا بد من أن يكون المعنى الذى يدخل عليه ما وأن لا يكون ثابتاً ، أما فى ما فظاهر ، وأما فى إن فلأنك إذا قلت إن جاءنى زيد أكرمه ينبغى أن لا يكون له فى الحال مجىء فاستعمل إن مكان ما ، وقيل إن زيد قائم أى ما زيد بقائم واستعمل ما فى الشرط تقول ماتصنع أصنع ، والذى يدل على ماذكرنا أن ما النافية تستعمل حيث لا تستعمل إن وذلك لأنك تقول ما إن جلس زيد فتجعل إن صلة ولا تقول إن جلس زيد بمعنى النفى وبمعنى الشرط تقول إما ترين فتجعل إن أصلا وما صلة ، فدلنا هذا على أن إن فى الشرط أصل وما دخيل وما فى النفى بالعكس .

﴿ البحث الثانى ﴾ قد ذكرنا أن قوله (إن أنتم إلا) يفيد مالا يفيد قوله (أنتم فى ضلال) لأنه يوجب الحصر وأنه ليسوا فى غير الضلال .

﴿ البحث الثالث ﴾ وصف الضلال بالمبين قد ذكرنا معناه أنه لظهوره يبين نفسه أنه ضلال أى فى ضلال لا يخفى على أحد أنه ضلال .

﴿ البحث الرابع ﴾ قد ذكرنا أن قوله (فى ضلال) يفيد كونهم مغمورين فيه غائصين ، وقوله فى مواضع على بينة (وعلى هدى) إشارة إلى كونهم راكبين متن الطريق المستقيم قادرين عليه

﴿وأما المعنوية﴾ فهى أنهم إنما وصفوا الذين آمنوا بكونهم فى ضلال مبين لكونهم ظانين أن المؤمن كلامه متناقض ومن تناقض كلامه يكون فى غاية الضلال ، إنما قلنا ذلك لأنهم قالوا (أنطعم من

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً

لو يشاء الله أطعمه) إشارة إلى أن الله إن شاء أن يطعمهم كان يطعمهم فلا تقدر على إطعامهم لأنه يكون تحصيلا للحاصل ، وإن لم يشأ الله إطعامهم لا يقدر أحد على إطعامهم لامتناع وقوع مالم يشأ الله فلا قدرة لنا على الإطعام ، فكيف تأمرونا بالإطعام (ووجه آخر) هو أنهم قالوا أراد الله تجويعهم فلو أطعمناهم يكون ذلك سعياً فى إبطال فعل الله وأنه لا يجوز وأنتم تقولون أطعموهم فهو ضلال ولم يكن فى الضلال إلا هم حيث نظروا إلى المراد ولم ينظروا إلى الطلب والأمر ، وذلك لأن العبد إذا أمره السيد بأمر لا ينبغي أن يكشف سبب الأمر والاطلاع على المقصود الذى أمر به لأجله . مثاله : الملك إذا أراد الركوب للهجوم على عدوه بحيث لا يطلع عليه أحد وقال لعبده أحضر المركوب ، فلو تطلع واستكشف المقصود الذى لأجله الركوب لنسب إلى أنه يريد أن يطلع عدوه على الحذر منه وكشف سره ، فالأدب فى الطاعة وهو اتباع الأمر لا تتبع المراد ، فالله تعالى إذ قال (أنفقوا مما رزقكم) لا يجوز أن يقولوا : لم لم يطعمهم الله مما فى خزائنه .

قوله تعالى : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ وهو إشارة إلى ما اعتقدوه وهو أن التقوى المأمور بها فى قوله (وإذا قيل لهم اتقوا) والإنفاق المذكور فى قوله تعالى (وإذا قيل لهم أنفقوا) لا فائدة فيه لأن الوعد لا حقيقة له وقوله (متى هذا الوعد) أى متى يقع الموعود به ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ وهى أن إن للشرط وهى تستدعى جزاء ومتى استفهام لا يصلح جزاء فما الجواب ؟ نقول هى فى الصورة استفهام ، وفى المعنى إنكار كأنهم قالوا إن كنتم صادقين فى وقوع الحشر فقولوا متى يكون .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الخطاب مع من فى قولهم (إن كنتم) ؟ نقول الظاهر أنه مع الأنبياء لأنهم لما أنكروا الرسالة قالوا إن كنتم يا أيها المدعون للرسالة صادقين فأخبرونا متى يكون .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ليس فى هذا الموضع وعد فالإشارة بقوله (هذا الوعد) إلى أى وعد ؟ نقول هو ما فى قوله تعالى (وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم) من قيام الساعة ، أو نقول هو معلوم وإن لم يكن مذكوراً لكون الأنبياء مقيمين على تذكيرهم بالساعة والحساب والثواب والعقاب .

قوله تعالى : ﴿ ما ينظرون إلا صيحة واحدة ﴾ أى لا ينتظرون إلا الصيحة المعلومة والتنكير للتكثير ، فان قيل هم ما كانوا ينتظرون بل كانوا يجزمون بعدمها ، فنقول الانتظار فعلى لأنهم كانوا يفعلون ما يستحق به فاعله البوار وتعجيل العذاب وتقريب الساعة لولا حكم الله وقدرته وعلمه فإنهم لا يقولون أو نقول لما لم يكن قوله متى استفهاماً حقيقياً قال ينتظرون انتظاراً غير حقيقى ، لأن القائل متى يفهم منه الانتظار نظراً إلى قوله . وقد ذكروا ههنا فى الصيحة أموراً تدل على

تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾

وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾

هولها وعظمها (أحدها) التنكير يقال لفلان مال أى كثير وله قلب أى جرىء (وثانيها) واحدة أى لا يحتاج معها إلى ثانية (وثالثها) تأخذهم أى تعمهم بالأخذ وتصل إلى من فى مشارق الأرض ومغاربها ، ولا شك أن مثلها لا يكون إلا عظيما .

وقوله ﴿ تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ﴾ مما يعظم به الأمر لأن الصيحة المعتادة إذا وردت على غافل يرجف فان المقبل على مهم إذا صاح به صائح يرجف فؤاده بخلاف المنتظر للصيحة ، فاذا كان حال الصيحة ما ذكرناه من الشدة والقوة وترد على الغافل الذى هو مع خصمه مشغول يكون الارتجاف أتم والإيجاف أعظم ، ويحتمل أن يقال (يخصمون) فى البعث ويقولون لا يكون ذلك أصلا فيكونون غافلين عنه بخلاف من يعتقد أنه يكون فيتهيأله وينتظر وقوعه فانه لا يرتجف وهذا هو المراد بقوله تعالى (فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء) ممن اعتقد وقوعها فاستعد لها ، وقد مثلنا ذلك فيمن شام برقاً وعلم أن سيكون رعد ومن لم يشمه ولم يعلم ثم رعد الرعد ترى الشائم العالم ثابتاً والغافل الذاهل مغشيا عليه ، ثم بين شدة الأخذ وهى بحيث لا تمهلهم إلى أن يوصوا . وفيه أمور مبينة للشدة (أحدها) عدم الاستطاعة فان قول القائل فلان فى هذه الحال لا يوصى دون قوله لا يستطيع التوصية لأن من لا يوصى قد يستطيعها (الثانى) التوصية وهى بالقول والقول يوجد اسرع مما يوجد الفعل فقال (لا يستطيعون) كلمة فكيف فعلا يحتاج إلى زمان طويل من أداء الواجبات ورد المظالم (الثالث) اختيار التوصية من بين سائر الكلمات يدل على أنه لاقدرة له على أهم الكلمات فان وقت الموت الحاجة إلى التوصية أمس (الرابع) التنكير فى التوصية للتعميم أى لا يقدر على توصية ما ولو كانت بكلمة يسيرة ، ولأن التوصية قد تحصل بالإشارة فالعاجزعنها عاجزعن غيرها (الخامس) قوله (ولا إلى أهلهم يرجعون) بيان لشدة الحاجة إلى التوصية لأن من يرجو الوصول إلى أهله قد يمسك عن الوصية لعدم الحاجة إليها ، وأما من يقطع بأنه لا وصول له إلى أهله فلا بد له من التوصية ، فاذا لم يستطع مع الحاجة دل على غاية الشدة .

وفى قوله (ولا إلى أهلهم يرجعون) وجهان (أحدهما) ما ذكرنا أنهم يقطعون بأنهم لا يمهلون إلى أن يجتمعوا بأهاليهم وذلك يوجب الحاجة إلى التوصية (وثانيهما) أنهم إلى أهلهم لايرجعون ، يعنى يموتون ولا رجوع لهم إلى الدنيا ، ومن يسافر سفراً ويعلم أنه لا رجوع له من ذلك السفر ولا اجتماع له بأهله مرة أخرى يأتى بالوصية .

ثم بين ما بعد بالصيحة الأولى فقال ﴿ ونفخ فى الصور فاذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون ﴾

أى نفخ فيه [مرة] أخرى كما قال تعالى (ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال تعالى فى موضع اخر (ثم نفخ فيه أخرى فاذاهم قيام ينظرون) وقال ههنا (فاذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون) والقيام غير النسلان وقوله فى الموضعين (فإذاهم) يقتضى أن يكونا معاً نقول (الجواب) عنه من وجهين (أحدهما) أن القيام لا ينافى المشى السريع لأن الماشى قائم ولا ينافى النظر (وثانيهما) أن السرعة مجيء الأمور كأن الكل فى زمان واحد كقول القائل :

مكر مفر مقبل مدبر معــــا [كجلمود صخر حطه السيل من عل]

﴿ المسألة الثانية ﴾ كيف صارت النفختان مؤثرتين فى أمرين متضادين الأحياء والإماتة ؟ نقول لا مؤثر غير الله والنفخ علامة ، ثم إن الصوت الهائل يزلزل الأجسام فعند الحياة كانت أجزاء الحى مجتمعة فزلزلها فحصل فيها تفريق ، وحالة الموت كانت الأجزاء متفرقة فزلزلها فحصل فيها اجتماع فالحاصل أن النفختين يؤثران تزلزلا وانتقالا للأجرام فعند الاجتماع تتفرق وعند الافتراق تجتمع .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ما التحقيق فى إذا التى للمفاجأة ؟ نقول هى إذا التى للظرف معناه نفخ فى الصور فاذا نفخ فيه هم ينسلون لكن الشيء قد يكون ظرفاً للشيء معلوماً كونه ظرفاً ، فعند الكلام يعلم كونه ظرفاً وعند المشاهدة لا يتجدد علم كقول القائل إذا طلعت الشمس أضاء الجو وغير ذلك ، فاذا رأى إضاءة الجو عند الطلوع لم يتجدد علم زائد ، وأما إذا قلت خرجت فاذا أسد بالباب كان ذلك الوقت ظرف كون الأسد بالباب . لكنه لم يكن معلوماً فاذا رآه علمه فحصل العلم بكونه ظرفاً له مفاجأة عند الإحساس فقيل إذا للمفاجأة .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ أين يكون فى ذلك الوقت أجداث وقد زلزلت الصيحة الجبال ؟ نقول يجمع الله أجزاء كل واحد فى الموضع الذى قبر فيه فيخرج من ذلك الموضع وهو جدثه .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ الموضع موضع ذكر الهيبة وتقدم ذكر الكافر ولفظ الرب يدل على الرحمة فلو قال بدل الرب المضاف إليهم لفظاً دالا على الهيبة هل يكون أليق أم لا ؟ قلنا : هذا اللفظ أحسن ما يكون ، لأن من أساء واضطر إلى التوجه إلى من أحسن إليه يكون ذلك أشد ألماً وأكثر ندماً من غيره .

﴿ المسألة السادسة ﴾ المسيء إذا توجه إلى المحسن يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، والنسلان هو سرعة المشى فكيف يوجد منهم ذلك ؟ نقول (ينسلون) من غير اختيارهم ، وقد ذكرنا فى تفسير قوله (فاذا هم ينظرون) أنه أراد أن يبين كمال قدرته ونفوذ إرادته حيث ينفخ فى الصور ، فيكون فى وقته جمع وتركيب وإحياء وقيام وعدو فى زمان واحد . فقوله (فإذاهم من الأجداث إلى ربهم ينسلون) يعنى فى زمان واحد ينتهون إلى هذه الدرجة وهى النسلان الذى لا يكون إلا بعد مراتب .

قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى : ﴿ قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾

يعنى لما بعثوا قالوا ذلك ، لأن قوله (ونفخ فى الصور) يدل على أنهم بعثوا وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ لو قال قائل : لو قال الله تعالى فاذاهم من الأجداث إلى ربهم ينسلون يقولون ياويلنا كان أليق ، نقول معاذ الله ، وذلك لأن قوله (فاذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون)على ماذكرنا إشارة إلى أنه تعالى فى أسرع زمان يجمع أجزاءهم ويؤلفها ويحييها ويحركها ، بحيث يقع نسلانهم فى وقت النفخ ، مع أن ذلك لا بد له من الجمع والتأليف ، فلو قال يقولون ، لكان ذلك مثل الحال لينسلون ، أى ينسلون قائلين ياويلنا وليس كذلك ، فان قولهم ياويلنا قبل أن ينسلوا ، وإنما ذكر النسلان لما ذكرنا من الفوائد .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لو قال قائل : قد عرفنا معنى النداء فى مثل يا حسرة وياحسرتا وياويلنا ، ولكن ما الفرق بين قولهم وقول الله حيث قال (ياحسرة على العباد) من غير إضافة ، وقالوا يا حسرتا ويا حسرتنا و ياويلنا ؟ نقول حيث كان القائل هو المكلف لم يكن لأحد علم إلا بحاله أو بحال من قرب منه ، فكان كل واحد مشغولا بنفسه ، فكان كل واحد يقول : يا حسرتنا ويا ويلنا ، فقوله (قالوا ياويلنا) أى كل واحد قال يا ويلى ، وأما حيث قال الله قال على سبيل العموم لشمول علمه بحالهم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ما وجه تعلق (من بعثنا من مرقدنا) بقولهم (يا ويلنا) نقول لما بعثوا تذكروا ما كانوا يسمعون من الرسل ، فقالوا (ياويلنا من بعثنا) أبعثنا الله البعث الموعود به أم كنا نياماً فنبهنا ؟ وهذا كما إذا كان إنسان موعوداً بأن يأتيه عدو لا يطيقه ، ثم يرى رجلا هائلا يقبل عليه فيرتجف فى نفسه ويقول : هذا ذلك أم لا ؟ ويدل على ما ذكرنا قولهم (من مرقدنا) حيث جعلوا القبور موضع الرقاد إشارة إلى أنهم شكوا فى أنهم كانوا نياماً فنبهوا أو كانوا موتى وكان الغالب على ظنهم هو البعث فجمعوا بين الأمرين ، فقالوا (من بعثنا) إشارة إلى ظنهم أنه بعثهم الموعود به ، وقالوا (من مرقدنا) إشارة إلى توهمهم احتمال الانتباه .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ هذا إشارة إلى ما ذا ؟ نقول فيه وجهان (أحدهما) أنه إشارة إلى المرقد كأنهم قالوا (من بعثنا من مرقدنا هذا) فيكون صفة للمرقد يقال كلامى هذا صدق (وثانيهما) هذا إشارة إلى البعث ، أى هذا البعث ماوعد به الرحمن وصدق فيه المرسلون .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ إذاكان هذا صفة للمرقد فكيف يصح قوله تعالى(ماوعد الرحمن وصدق المرسلون) ؟ نقول يكون ما وعد الرحمن ، مبتدأ خبره محذوف تقديره ما وعد الرحمن حق ، والمرسلون صدقوا ، أو يقال ما وعد به الرحمن وصدق فيه المرسلون حق ، والأول أظهر لقلة

إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾

فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾

الإضمار ، أو يقال ما وعد الرحمن خبر مبتدأ محذوف تقديره هو ما وعد الرحمن من البعث ليس تنبيهاً من النوم ، وصدق المرسلون فيما أخبروكم به .

﴿ المسألة السادسة ﴾ إن قلنا (هذا) إشارة إلى المرقد أو إلى البعث ، فجواب الاستفهام بقولهم من بعثنا أين يكون ؟ نقول : لما كان غرضهم من قولهم (من بعثنا) حصول العلم بأنه بعث أو تنبيه حصل الجواب بقوله هذا بعث وعد الرحمن به ليس تنبيهاً ، كما أن الخائف إذا قال لغيره ماذا تقول أيقتلني فلان ؟ فله أن يقول لا تخف ويسكت، لعلمه أن غرضه إزالة الرعب عنه وبه يحصل الجواب .

قوله تعالى : ﴿ إن كانت إلا صيحة واحدة فاذا هم جميع لدينا محضرون ﴾

أى ما كانت النفخة إلا صيحة واحدة ، يدل على النفخة قوله تعالى (ونفخ فى الصور) ويحتمل أن يقال إن كانت الواقعة ، وقرئت الصيحة مرفوعة على أن كان هى التامة ، بمعنى ما وقعت إلا صيحة ، وقال الزمخشرى : لو كان كذلك لكان الأحسن أن يقال : إن كان ، لأن المعنى حينئذ ما وقع شيء إلا صيحة ، لكن التأنيث جائز إحالة على الظاهر ، ويمكن أن يقول الذى قرأ بالرفع أن قوله (إذا وقعت الواقعة) تأنيث تهويل ومبالغة ، يدل عليه قوله (ليس لوقعتها كاذبة) فانها للمبالغة فكذلك ههنا قال (إن كانت إلا صيحة) مؤنثة تأنيث تهويل ، ولهذا جاءت أسماء يوم الحشر كلها مؤنثة كالقيامة والقارعة والحاقة والطامة والصاخة إلى غيرها ، والزمخشرى يقول كاذبة بمعنى ليس لوقعتها نفس كاذبة ، وتأنيث أسماء الحشر لكون الحشر مسمى بالقيامة ، وقوله (محضرون) دل على أن كونهم (ينسلون) إجبارى لا اختيارى .

ثم بين ما يكون فى ذلك اليوم بقوله تعـــالى ﴿ فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾

فقوله (لا تظلم نفس) ليأمن المؤمن (ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون) لييأس المجرم الكافر وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما الفائدة فى الخطاب عند الإشارة إلى يأس المجرم بقوله (ولا تجزون) وترك الخطاب فى الإشارة إلى أمان المؤمن من العذاب بقوله (لا تظلم) ولم يقل ولا تظلمون أيها المؤمنون ؟ نقول لأن قوله (لا تظلم نفس شيئاً) يفيد العموم وهو كذلك فانها لا تظلم أبداً (ولا تجزون) مختص بالكافر ، فان الله يجزى المؤمن وإن لم يفعل فان الله فضلا مختصاً بالمؤمن وعدلا عاماً ، وفيه بشارة .

إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾

﴿ المسألة الثانية ﴾ ما المقتضى لذكر فاء التعقيب ؟ نقول لما قال (محضرون) مجموعون والجمع للفصل والحساب ، فكأنه تعالى قال إذا جمعوا لم يجمعوا إلا للفصل بالعدل ، فلا ظلم عند الجمع للعدل ، فصار عدم الظلم مترتباً على الإحضار للعدل ، ولهذا يقول القائل للوالى أو للقاضى : جلست للعدل فلا تظلم ، أى ذلك يقتضى هذا ويستعقبه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لا يجزون عين ماكانوا يعملون ، بل يجزون بما كانوا أو على ما كانوا وقوله (ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون) يدل على أن الجزاء بعين العمل ، لا يقال جزى يتعدى بنفسه وبالباء ، يقال جزيته خيراً وجزيته بخير ، لأن ذلك ليس من هذا لأنك إذا قلت جزيته بخير لا يكون الخير مفعولك ، بل تسكون الباء للمقابلة والسببية كأنك تقول جزيته جزاء بسبب ما فعل ، فنقول الجواب عنه من وجهين : (أحدهما) أن يكون ذلك إشارة على وجه المبالغة إلى عدم الزيادة وذلك لأن الشيء لا يزيد على عينه ، فنقول قوله تعالى (يجزون بما كانوا يعملون) فى فى المساواة كأنه عين ماعملوا يقال فلان يجاوبنى حرفاً بحرف أى لا يترك شيئاً ، وهذا يوجب اليأس العظيم (الثانى) هو أن ما غير راجع إلى الخصوص ، وإنما هى للجنس تقديره ولا تجزون إلا جنس العمل أى إن كان حسنة فحسنة ، وإن كانت سيئة فسيئة فتجزون ما تعملون من السيئة والحسنة ، وهذا كقوله تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها) .

ثم بين حال المحسن وقال ﴿ إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون ، هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون ، لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون ﴾ .

وقوله (فى شغل) يحتمل وجوهاً : (أحدها) (فى شغل) عن هول اليوم بأخذ ما آتاهم الله من الثواب ، فما عندهم خبر من عذاب ولا حساب ، وقوله (فاكهون) يكون متمماً لبيان سلامتهم فالله لو قال (فى شغل) جاز أن يقال هم فى (شغل) عظم من التفكر فى اليوم وأهواله ، فإن من يصيبه فتنة عظيمة ثم يعرض عليه أمر من أموره ويخبر بخسران وقع فى ماله ، يقول أنا مشغول عن هذا بأهم منه ، فقال (فاكهون) أى شغلوا عنه باللذة والسرور لا بالويل والثبور (وثانيها) أن يكون ذلك بياناً لحالهم ولا يريد أنهم شغلوا عن شيء بل يكون معناه هم فى عمل ، ثم بين عملهم بأنه ليس بشاق ، بل هو ملذ محبوب (وثالثها) فى شغل عما توقعوه فإنهم تصوروا فى الدنيا أموراً وقالوا نحن إذا دخلنا الجنة لا نطلب إلا كذا وكذا ، فرأوا مالم يخطر ببالهم فاشتغلوا به ، وفيه وجوه : غير هذه ضعيفة (أحدها) قيل افتضاض الأبكار وهذا ما ذكرناه فى الوجه الثالث أن الانسان

قد يترجح فى نظره الآن مداعبة الكواعب فيقول فى الجنة ألتذ بها ، ثم إن الله ربما يؤتيه مايشغله عنها (وثانيها) قيل فى ضرب الأوتار وهو من قبيل ما ذكرناه توهم (وثالثها) فى التزاور (ورابعها) فى ضيافة الله وهو قريب مما قلنا لأن ضيافة الله تكون بألذما يمكن وحينئذ تشغله تلك عما توهمه فى دنياه وقوله (فاكهون) خبر إن ، و(فى شغل) بيان ما فكاهتهم فيه يقال زيد على عمله مقبل ، وفى بيته جالس فلا يكون الجار والمجرور خبراً ولو نصبت جالساً لكان الجار والمجرور خبراً . وكذلك لو قال فى شغل فاكهين لكان معناه أصحاب الجنة مشغولون فاكهين على الحال وقرىء بالنصب والفاكه(١) الملتذ المتنعم به ومنه الفاكهة لأنها لا تكون فى السعة إلا للذة فلا تؤكل لدفع ألم الجوع ، وفيه معنى لطيف ، وهو أنه أشار بقوله (فى شغل) عن عدمهم الألم فلا ألم عندهم ، ثم بين بقوله (فاكهون) عن وجدانهم اللذة وعادم الألم قدلايكون واجداً للذة . فبين أنهم على أتم حال ثم بين الكمال بقوله (هم وأزواجهم) وذلك لأن من يكون فى لذة قد تتنغص عليه بسبب تفكره فى حال من يهمه أمره فقال (هم وأزواجهم) أيضاً فلا يبقى لهم تعلق قلب ، وأما من فى النار من أقاربهم وإخوانهم فيكونون هم عنهم فى شغل ، ولا يكون منهم عندهم ألم ولا يشتهون حضورهم والأزواج يحتمل وجهين : (أحدهما) أشكالهم فى الإحسان وأمثالهم فى الإيمان كما قال تعالى (من شكله أزواج) ، (وثانيهما) الأزواج هم المفهومون من زوج المرأة وزوجة الرجل كما فى قوله تعالى (إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم) وقوله تعالى (ويذرون أزواجاً) فان المراد ليس هو الإشكال ، وقوله (فى ظلال) جمع ظل وظلال جمع ظلة والمراد به الوقاية عن مكان الألم ، فإن الجالس تحت كن لايخشى المطر ولاحر الشمس فيكون به مستعداً لدفع الألم ، فكذلك لهم من ظل الله ما يقيهم الأسواء ، كما قال تعالى (لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب) وقال (لايرون فيها شمساً ولا زمهريراً) إشارة إلى عدم الآلام (وفيه لطيفة) أيضاً وهى أن حال المكلف ، إما أن يكون اختلالها بسبب ما فيه من الشغل ، وإن كان فى مكان عال كالقاعد فى حر الشمس فى البستان المتنزه أو يكون بسبب المكان ، وإن كان الشغل مطلوباً كملاعبة الكواعب فى المكان المكشوف ، وإما أن يكون بسبب المأكل كالمتفرج فى البستان إذا أعوزه الطعام ، وإما بسبب فقد الحبيب ، وإلى هذا يشير أهل القلب فى شرائط السماع بقولهم : الزمان والمكان والإخوان فقال تعالى (فى شغل فاكهون) إشارة إلى أنهم ليسوا فى تعب وقال (هم وأزواجهم) إشارة إلى عدم الوحدة الموحشة وقال (فى ظلال على الأرائك متكئون) إشارة إلى المكان وقال (لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون) إشارة إلى دفع جميع حوائجهم وقوله (متكئون) إشارة إلى أدل وضع على القوة والفراغة فان القائم قد يقوم لشغل والقاعد قد يقعد لهم . وأما المتكىء فلا يتكىء إلا عند الفراغ والقدرة لأن المريض لايقدر على الإتكاء ، وإنما يكون مضطجعاً أو مستلقياً (والأرائك) جمع أريكة وهى السرير الذى عليه الفرش وهو تحت الحجلات فيكون مرئياً هو

(١) فى طبعة بولاق ، والفاكهة ، وهو خطأ واضح ، والفاكه اسم فاعل من فكه والتفكه التنعم والتعجب . والفكاهة المزاح .

وما فوقه وقوله (لهم فيها فاكهة) إشارة إلى أن لا جوع هناك ، وليس الأكل لدفع ألم الجوع ، وإنما مأكولهم فاكهة ، ولو كان لحماً طرياً ، لا يقال قوله تعالى (ولحم طير مما يشتهون) يدل على التغاير وصدق الشهوة وهو الجوع لأنا نقول قوله (مما يشتهون) يؤكد معنى عدم الألم لأن أكل الشيء قد يكون للتداوى من غير شهوة فقال مما يشتهون لأن لحم الطير فى الدنيا يؤكل فى حالتين (إحداهما) حالة التنعم (والثانية) حالة ضعف المعدة وحينئذ لا يأكل لحم طير يشتهيه ، وإنما يأكل ما يوافقه ويأمره به الطبيب ، وأما أنه يدل على التغاير ، فنقول مسلم ذلك لأن الخاص يخالف العام ، على أن ذلك لا يقدح فى غرضنا ، لأنا نقول إنما اختار من أنواع المأكول الفاكهة فى هذا الموضع لأنها أدل على التنعم والتلذذ وعدم الجوع والتنكير لبيان الكمال ، وقد ذكرناه مراراً وقوله (لهم فيها فاكهة) ولم يقل يأكلون ، إشارة إلى كون زمام الاختيار بيدهم وكونهم مالكين وقادرين وقوله (ولهم ما يدعون) فيه وجوه : (أحدها) (لهم فيها ما يدعون) لأنفسهم أى دعاؤهم مستجاب ، وحينئذ يكون هذا افتعالا بمعنى الفعل كالاحتمال بمعنى الحمل والارتحال بمعنى الرحيل ، وعلى هذا فليس معناه أنهم يدعون لأنفسهم دعاء فيستجاب دعاؤهم بعد الطلب بل معناه ولهم ما يدعون لأنفسهم أى ذلك لهم فلا حاجة لهم إلى الدعاء والطلب ، كما أن الملك إذا طلب منه مملوكه شيئاً يقول لك ذلك فيفهم منه تارة أن طلبك مجاب وأن هذا أمر هين بأن تعطى ماطلبت ، ويفهم تارة منه الرد وبيان أن ذلك لك حاصل فلم تطلبه فقال تعالى (ولهم مايدعون) ويطلبون فلا طلب لهم وتقريره هو أن يكون ما يدعون بمعنى ما يصح أن يطلب ويدعى يعنى كل ما يصح أن يطلب فهو حاصل لهم قبل الطلب ، أو نقول المراد الطلب والإجابة وذلك لأن الطلب من الله أيضاً فيه لذة فلو قطع الله الأسباب بينهم وبينه لما كان يطيب لهم فأبقى أشياء يعطيهم إياها عند الطلب ليكون لهم عند الطلب لذة وعند العطاء ، فإن كون المملوك بحيث يتمكن من أن يخاطب الملك فى حوائجه منصب عظيم ، والملك الجبار قد يدفع حوائج المماليك بأسرها قصداً منه لئلا يخاطب (الثانى) مايدعون مايتداعون وحينئذ يكون افتعالا بمعنى التفاعل كالاقتتال بمعنى التقاتل ، ومعناه ماذكرناه أن كل ما يصح أن يدعو أحد صاحبه إليه أو يطلبه أحد من صاحبه فهو حاصل لهم (الثالث) ما يتمنونه (الرابع) بمعنى الدعوى ومعناه حينئذ أنهم كانوا يدعون فى الدنيا أن لهم الله وهو مولاهم وأن الكافرين لا مولى لهم . فقال لهم فى الجنة مايدعون به فى الدنيا ، فتكون الحكاية محكية فى الدنيا ، كأنه يقول فى يومنا هذا لكم أيها المؤمنون غداً ماتدعون اليوم ، لا يقال بأن قوله (إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون هم وأزواجهم فى ظلال) يدل على أن القول يوم القيامة لأنا نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن قوله (هم) مبتدأ (وأزواجهم) عطف عليهم فيحتمل أن يكون هذا الكلام فى يومنا هذا يخبرنا أن المؤمن وأزواجه فى ظلال غداً وله ما يدعيه (والجواب الثانى)

سَلَٰمٌ قَوۡلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾

وهو أولى هو أن نقول : معناه لهم مايدعون أى ما كانوا يدعون . لايقال بأنه إضمار حيث لاضرورة وإنه غير جائز لأنا نقول على ماذكرنا يبقى الادعاء مستعملا فى معناه المشهور لأن الدعاء هو الإتيان بالدعوى وإنما قلنا إن هذا أولى لأن قوله (سلام قولا من رب رحيم) هو فى دار الآخرة وهو كالتفسير لقوله (مايدعون) ولأن قوله (ما يدعون) مذكور بين جمل كلها فى الآخرة فما يدعون أيضاً ينبغى أن يكون فى الآخرة وفى الآخرة لا يبقى دعوى وبينة لظهور الأمور والفصل بين أهل الثبور والحبور .

قوله تعالى : ﴿ سلام قولا من رب رحيم ﴾ هو أكمل الأشياء وهو آخرها الذى لا شىء فوقه ولنبينه فى مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما الرافع لقوله (سلام) ؟ نقول يحتمل ذلك وجوهاً (أحدها) هو بدل عما يدعون كأنه تعالى لما قال (لهم ما يدعون) بينه بيدله فقال لهم سلام فيكون فى المعنى كالمبتدأ الذى خبره جار ومجرور، كما يقال فى الدار رجل ولزيد مال ، وإن كان فى النحو ليس كذلك بل هو بدل وبدل النكرة من المعرفة جائز فتكون ما بمعنى الذى معرفة وسلام نكرة ، ويحتمل على هذا أن يقال ما فى قوله تعالى (ما يدعون) لا موصوفة ولا موصولة بل هى نكرة تقديره لهم شىء يدعون ثم بين بذكر البدل فقال (سلام) والأول هو الصحيح (وثانيها) سلام خبر ما ولهم لبيان الجهة تقديره ما يدعون سالم لهم أى خالص والسلام بمعنى السالم الخالص أوالسليم يقال عبد سلام أى سليم من العيوب كما يقال لزيد الشرف متوفر والجار والمجرور يكون لبيان من له ذلك والشرف هو المبتدأ ومتوفر خبره (وثالثها) قوله تعالى (سلام) منقطع عما تقدم وسلام مبتدأ وخبره محذوف تقديره سلام عليهم فيكون ذلك إخباراً من الله تعالى فى يومنا هذا كأنه تعالى حكى لنا وقال (إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل) ثم لما بين كمال حالهم قال سلام عليهم ، وهذا كما فى قوله تعالى (سلام على نوح ، سلام على المرسلين) فيكون الله تعالى أحسن إلى عباده المؤمنين كما أحسن إلى عباده المرسلين وهذا وجه مبتكر جيد ما يدل عليه منقول ، أو نقول تقديره سلام عليكم ويكون هذا نوعاً من الالتفات حيث قال لهم كذا وكذا ، ثم قال سلام عليكم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قولا ، منصوب بماذا ؟ نقول يحتمل وجوهاً (أحدها) نصب على المصدر تقديره على قولنا المراد لهم سلام هو أن يقال لهم سلام يقوله الله قولا أو تقوله الملائكة قولا وعلى قولنا ما يدعون سالم لهم تقديره قال الله ذلك قولا وعدهم بأن لهم ما يدعون سالم وعداً وعلى قولنا سلام عليهم تقديره أقوله قولا وقوله (من رب رحيم) يكون لبيان أن السلام منه أى سلام عليهم من رب رحيم أقوله قولا ، ويحتمل أن يقال على هذا إنه تمييز لأن السلام قد يكون قولا وقد

وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾

يكون فعلا فإن من يدخل على الملك فيطأطىء رأسه يقول سلمت على الملك ، وهو حينئذ كقول القائل البيع موجود حكما لاحساً وهذا ممنوع عنه قطعاً لاظناً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال فى السلام من رب رحيم وقال فى غيره من أنواع الإكرام (نزلا من غفور رحيم) فهل بينهما فرق ؟ نقول نعم ، أماهناك فلأن النزل مايرزق النزيل أولا ، وذلك وإن كان يدل عليه ما بعده فان النزيل إذا أكرم أولا يدل على أنه مكرم وإذا أخل بإكرامه فى الأول يدل على أنه مهان دائماً غير أن ذلك غير مقطوع به ، لجواز أن يكون الملك واسع الرزق فيرزق نزيله أولا ولا يمنع منه الطعام والشراب ويناقشه فى غيره فقال غفور لما صدر من العبيد ليأمن العبد ولا يقول بأن الإطعام قد يوجد ممن يعاقب بعده والسلام يظهر مزية تعظيمه للمسلم عليه لا بمغفرة فقال (رب غفور) لأن رب الشىء مالكه الذى إذا نظر إلى علو مرتبته لا يرجى منه الالتفات إليه بالتعظيم ، فاذا سلم عليه يعجب منه وقيل انظر هو سيده ويسلم عليه .

قوله تعالى : ﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون ﴾ وفيه وجوه منها تبيين وجه الترتيب أيضاً (الأول) امتازوا فى أنفسكم وتفرقوا كما قال تعالى (تكاد تميز من الغيظ) أى بعضه من بعض من غير أن تميزهم من الحسرة والندامة ووجه الترتيب حينئذ أن المجرم يرى منزلة المؤمن ورفعته ونزول دركته وضعته فيتحسر فيقال لهم (امتازوا اليوم) إذ لا دواء لألمكم ولا شفاء لسقمكم (الثانى) امتازوا عن المؤمنين وذلك لأنهم يكونون مشاهدين لما يصل إلى المؤمن من الثواب والإكرام ثم يقال لهم تفرقوا وادخلوا مساكنكم من النار فلم يبق لكم اجتماع بهم أبداً (الثالث) امتازوا بعضكم عن بعض على خلاف ما للمؤمن من الاجتماع بالإخوان الذى أشار إليه بقوله تعالى (هم وأزواجهم) فأهل النار يكون لهم العذاب الأليم وعذاب الفرقة أيضاً ولاعذاب فوق الفرقة ، بل العقلاء قالوا بأن كل عذاب فهو بسبب تفرق اتصال ، فإن من قطعت يده أو أحرق جسمه فإنما يتألم بسبب تفرق المتصلات بعضها عن بعض ، لكن التفرق الجسمى دون التفرق العقلى (الرابع) امتازوا عن شفعائكم وقرنائكم فما لكم اليوم حميم ولا شفيع (الخامس) امتازوا عما ترجون واعتزلوا عن كل خير ، والمجرم هو الذى يأتى بالجريمة ، ويحتمل أن يقال إن المراد منه أن الله تعالى يقول امتازوا فيظهر عليهم سيما يعرفون بها ، كما قال تعالى (يعرف المجرمون بسيماهم) وحينئذ يكون قوله تعالى امتازوا أمر تكوين ، كما أنه يقول (كن فيكون) كذلك يقول امتازوا فيتميزون بسيماهم ويظهر على جباههم أو فى وجوههم سواء .

أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿ ألم أعهد إليكم يابنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾
لما ذكر الله تعالى حال المؤمنين والمجرمين كان لقائل أن يقول : إن الإنسان كان ظلوماً جهولا ، والجهل من الأعذار ، فقال الله ذلك عند عدم الإنذار ، وقد سبق إيضاح السبل بإيضاح الرسل ، وعهدنا إليكم وتلونا عليكم ما ينبغى أن تفعلوه وما لا ينبغى ، وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى اللغات التى فى (أعهد) وهى كثيرة (الأولى) كسر همزة إعهد وحروف الاستقبال كلها تكسر إلا الياء فلا يقال يعلم ويعلم (الثانية) كسر الهاء من باب ضرب يضرب (الثالثة) قلب العين جيما ألم أجهد وذلك فى كل عين بعدها هاء (الرابعة) إدغام الهاء فى الحاء بعد القلب فيقال ألم أحد ، وقد سمع قوم يقولون دحا محا ، أى دعها معها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى معنى أعهد وجوه أقربها وأقواها ألم أوص إليكم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى هذا العهد وجوه (الأول) أنه هو العهد الذى كان مع أبينا آدم بقوله (وعهدنا إلى آدم) ، (الثانى) أنه هو الذى كان مع ذرية آدم بقوله تعالى (ألست بربكم قالوا بلى) فان ذلك يقتضى أن لا نعبد غير الله (الثالث) وهو الأقوى ، أن ذلك كان مع كل قوم على لسان رسول ، ولذلك اتفق العقلاء على أن الشيطان يأمر بالشر ، وإن اختلفوا فى حقيقته وكيفيته .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (لا تعبدوا الشيطان) معناه لا تطيعوه ، بدليل أن المنهى عنه ليس هو السجود له فحسب ، بل الانقياد لأمره والطاعة له فالطاعة عبادة ، لا يقال فنكون نحن مأمورين بعبادة الأمراء حيث أمرنا بطاعتهم فى قوله تعالى(أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) لأنا نقول طاعتهم إذا كانت بأمر الله ، لا تكون إلا عبادة لله وطاعة له ، وكيف لا ونفس السجود والركوع للغير إذا كان بأمر الله لا يكون إلا عبادة لله ، ألا ترى أن الملائكة سجدوا لآدم ولم يكن ذلك إلا عبادة لله ، وإنما عبادة الأمراء هو طاعتهم فيما لم يأذن الله فيه ، فان قيل بماذا تعلم طاعة الشيطان من طاعة الرحمن ، مع أنا لا نسمع من الشيطان خبراً ولا نرى منه أثراً ؟ نقول عبادة الشيطان فى مخالفة أمر الله أو الإتيان بما أمر الله لا لأنه أمر به ، ففى بعض الأوقات يكون الشيطان يأمرك وهو فى غيرك ، وفى بعض الأوقات يأمرك وهو فيك ، فاذا جاءك شخص يأمرك بشىء ، فانظر إن كان ذلك موافقاً لأمر الله أو ليس موافقاً ، فان لم يكن موافقاً فذلك الشخص معه الشيطان يأمرك بما يأمرك به ، فان أطعته فقد عبدت الشيطان ، وإن دعتك نفسك إلى فعل فانظر أهو مأذون فيه من جهة الشرع أو ليس كذلك ، فان لم يكن مأذوناً فيه فنفسك هى الشيطان ، أو معها الشيطان يدعوك ، فان اتبعته فقد عبدته ، ثم إن الشيطان يأمر أولا بمخالفة

الله ظاهراً ، فمن أطاعه فقد عبده ومن لم يطعه فلا يرجع عنه ، بل يقول له اعبد الله كي لا تهان ، وليرتفع عند الناس شأنك ، وينتفع بك إخوانك وأعوانك ، فان أجاب إليه فقد عبده لكن عبادة الشيطان على تفاوت ، وذلك لأن الأعمال منها مايقع والعامل موافق فيه جنانه ولسانه وأركانه ، ومنها ما يقع والجنان واللسان مخالف للجوارح أو للأركان ، فمن الناس من يرتكب جريمة كارهاً بقلبه لما يقترف من ذنبه ، مستغفراً لربه ، يعترف بسوء ما يقترف فهو عبادة الشيطان بالأعضاء الظاهرة ، ومنهم من يرتكبها وقلبه طيب ولسانه رطب ، كما أنك تجد كثيراً من الناس يفرح بكونه متردداً إلى أبواب الظلمة للسعاية ، ويعد من المحاسن كونه سارياً مع الملوك ويفتخر به بلسانه ، وتجدهم يفرحون بكونهم آمرين الملك بالظلم والملك ينقاد لهم ، أو يفرحون بكونه يأمرهم بالظلم فيظلمون ، فرحين بما ورد عليهم من الأمر ، إذا عرفت هذا فالطاعة التى بالأعضاء الظاهرة ، والبواطن طاهرة مكفرة بالأسقام والآلام ، كما ورد فى الأخبار ، ومن ذلك قوله ﷺ « الحمى من فيح جهنم » وقوله ﷺ « السيف محاء للذنوب » أى لمثل هذه الذنوب ، ويدل عليه ما قال ﷺ فى الحدود « إنها كفارات » وما يكون بالقلوب فلا خلاص عنه إلا بالتوبة والندم وإقبال القلب على الرب ، وما يكون باللسان فهو من قبيل ما يكون بالقلب فى الظاهر ، والمثال يوضح الحال فنقول إذا كان عند السلطان أمير وله غلمان هم من خواص الأمير وأتباع بعداء هم من عوام الناس ، فاذا صدر من الأمير مخالفة ومسارة مع عدو السلطان ومصادقة بينهما ، لا يعفو الملك عن ذلك إلا إذا كان فى غاية الصفح ، أو يكون للأمير عنده يد سابقة أو توبة لاحقة ، فان صدر من خواص الأمير مخالفة وهو به عالم ولم يزجره ، عدت المخالفة موجودة منه ، وإن كان كارهاً وأظهر الإنكار حسنت معاتبته دون معاقبته ، لأن إقدام خواصه على المخالفة دليل على سوء التربية ، فان كان الصادر من الحواشى الأباعد وبلغ الأمير ولم يزجره عوتب الأمير ، وإن زجرهم استحق الأمير بذلك الزجر الإكرام ، وحسن من الملك أن يسدى إلى المزجور الإحسان والإنعام إن علم حصول انزجاره ، إذا علمت هذا فالقلب أمير واللسان خاصته والأعضاء خدمه ، فما يصدر من القلب فهو العظيم من الذنب ، فإن أقبل على محبة غير الله فهو الويل العظيم والضلال المبين المستعقب للعقاب الأليم والعذاب المهين ، وما يصدر من اللسان فهو محسوب على القلب ولا يقبل قوله إن لم ينكر فعله وما يصدر من الأعضاء والقلب قد أظهر عليه الانكار وحصل له الانزجار فهو الذنب الذى حكى النبى ﷺ عن ربه أنه قال « لو لم تذنبوا لخلقت أقواماً يذنبون ويستغفرون فأغفر لهم » ، (وههنا لطيفة) وهى أن الشيطان قد يرجع عن عبد من عباد الله فرحاً فيظن أنه قد حصل مقصوده من الإغواء حيث يرى ذلك العبد ارتكب الذنب ظاهراً ويكون ذلك رافعاً لدرجة العبد ، فان بالذنب ينكسر قلب العبد فيتخلص من الإعجاب بنفسه وعبادته ، ويصير أقرب من المقربين ، لأن من يذنب مقرب عند الله كما قال تعالى (لهم درجات عند ربهم) والمذنب التائب النادم منكسر القلب والله عنده كما قال ﷺ حاكياً عن ربه « أنا عند المنكسرة قلوبهم » وفرق

بين من يكون عندالله ، وبين من يكون عنده الله ، ولعل ما يحكى من الذنوب الصادرة عن الأنبياء من هذا القبيل لتحصل لهم الفضيلة على الملائكة حيث تبجحوا بأنفسهم بقولهم (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) وقد يرجع الشيطان عن آخر يكون قد أمره بشيء فلم يفعله والشخص يظن أنه غلب الشيطان ورده خائباً فيتبجح فى نفسه وهو لا يعلم أن الشيطان رجع عنه محصل المقصود مقبولا غير مردود . ومن هذا يتبين أمر أصولى وهو أن الناس اختلفوا فى أن المذنب هل يخرج من الايمان أم لا ؟ وسبب النزاع وقوع نظر الخصمين على أمرين متباينين فالذنب الذى بالجسد لا بالقلب لا يخرج بل قد يزيد فى الإيمان والذى بالقلب يخاف منه الخروج عن ربقة الإيمان ولذلك اختلفوا فى عصمة الأنبياء من الذنوب ، والأشبه أن الجسدى جائز عليهم والقرآن دليل عليه ، والقلبى لايجوز عليهم ، ثم إنه تعالى لما نهى عباده عن عبادة الشيطان ذكر ما يحملهم على قبول ما أمروا به والانتهاء عما نهوا عنه بقوله (إنه لكم عدو مبين) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ من أين حصلت العداوة بين الشيطان والإنسان ؟ فنقول ابتداؤها من الشيطان وسببه تكريم الله بنى آدم ، لما رأى إبليس ربه كرم آدم وبنيه عاداهم فعاداه الله تعالى والأولى منه لؤم والثانى من الله كرم ، أما الأول فلأن الملك إذا أكرم شخصاً ولم ينقص من الآخر شيئاً إذ لا ضيق فى الخزانة ، فعداوة من يعادى ذلك المكرم لا تكون إلا لؤماً ، وأما الثانى فلأن الملك إذا علم أن إكرامه ليس إلا منه وذلك لأن الضعيف ما كان يقدر أن يصل إلى بعض تلك المنزلة لولا إكرام الملك ، يعلم أن من يبغضه ينكر فعل الملك أو ينسب إلى خزانته ضيقاً ، وكلاهما يحسن التعذيب عليه فيعاديه إتماماً للاكرام وإكمالا للافضال ، ثم إن كثيراً من الناس على مذهب إبليس إذا رأوا واحداً عند ملك محترماً بغضوه وسعوا فيه إقامة لسنة إبليس ، فالملك إن لم يكن متخلقاً بأخلاق الله لا يبعد الساعى ويسمع كلامه ويترك إكرام ذلك الشخص واحترامه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ من أين إبانة عداوة إبليس ؟ نقول لما أكرم الله آدم عاداه إبليس وظن أنه يبقى فى منزلته وآدم فى منزلته مثل متباغضين عند الملك والله كان عالماً بالضمائر فأبعده وأظهر أمره فأظهر هو من نفسه ما كان يخفيه لزوال ما كان يحمله على الإخفاء فقال (لأقعدن لهم صراطك المستقيم) وقال (لأحتنكن ذريته) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إذا كان الشيطان للانسان عدواً مبيناً فما بال الإنسان يميل إلى مراضيه من الشرب والزنا ، ويكره مساخطه من المجاهدة والعبادة ؟ نقول سبب ذلك استعانة الشيطان بأعوان من عند الإنسان وترك استعانة الإنسان بالله ، فيستعين بشهوته التى خلقها الله تعالى فيه لمصالح بقائه وبقاء نوعه ويجعلها سبباً لفساد حاله ويدعوه بها إلى مسالك المهالك ، وكذلك يستعين بغضبه الذى خلقه الله فيه لدفع المفاسد عنه ويجعله سبباً لوباله وفساد أحواله ، وميل الإنسان إلى المعاصى كميل المريض إلى المضار وذلك حيث ينحرف المزاج عن الاعتدال ، فترى المحموم يريد الماء البارد

وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾

وهو يريد فى مرضه . ومن به فساد المعدة فلا يهضم القليل من الغذاء يميل إلى الأكل الكثير ولا يشبع بشيء وهو يزيد فى معدته فساداً ، وصحيح المزاج لا يشتهى إلا ما ينفعه فالدنيا كالهواء الوبىء لا يستغنى الإنسان فيه عن استنشاق الهواء وهو المفسد لمزاجه ولا طريق له غير إصلاح الهواء بالروائح الطيبة والأشياء الزكية والرش بالخل والماورد من جملة المصلحات . فكذلك الانسان فى الدنيا لا يستغنى عن أمورها وهى المعينات للشيطان وطريقه ترك الهوى وتقليل التأميل وتحريف الهوى بالذكر الطيب والزهد ، فاذا صح مزاج عقله لا يميل إلا إلى الحق ولا يبقى عليه فى التكاليف كلفة ويحصل له مع الأمور الإلهية ألفة ، وهنالك يعترف الشيطان بأنه ليس له عليه سلطان .

قوله تعالى : ﴿ وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم ﴾ لما منع عبادة الشيطان حمل على عبادة الرحمن والشارع طبيب الأرواح كما أن الطبيب طبيب الأشباح ، وكما أن الطبيب يقول للمريض لا تفعل كذا ولا تأكل من ذا وهى الحمية التى هى رأس الدواء لئلا يزيد مرضه ، ثم يقول له تناول الدواء الفلانى تقوية لقوته المقاومة للمرض ، كذلك الشارع منع من المفسد وهو اتباع الشيطان وحمل على المصلح وهو عبادة الرحمن وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ عند المنع من عبادة الشيطان قال (إنه لكم عدو مبين) لأن العداوة أبلغ الموانع من الاتباع ، وعند الأمر بعبادة الرحمن لم يقل إنه لكم حبيب لأن المحبة لا توجب متابعة المحبوب بل ربما يورث ذلك الاتكال على المحبة . فيقول إنه يحبنى فلا حاجة إلى تحمل المشقة فى تحصيل مراضيه ، بل ذكر ما هو أبلغ الأشياء فى الحمل على العبادة وذلك كونه طريقاً مستقيما ، وذلك لأن الانسان فى دار الدنيا فى منزل قفر مخوف وهو متوجه إلى دار إقامة فيها إخوانه ، والنازل فى بادية خالية يخاف على روحه وماله ولا يكون عنده شيء أحب من طريق قريب آمن ، فلما قال الله تعالى (هذا صراط مستقيم) كان ذلك سبباً حاثاً على السلوك ، وفى ضمن قوله تعالى (هذا صراط) اشارة إلى أن الانسان مجتاز لأنه لو كان فى دار إقامة فقوله (هذا صراط مستقيم) لا يكون له معنى لأن المقيم يقول وماذا أفعل بالطريق وأنا من المقيمين .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ماذا يدل على كونه طريقاً مستقيما ؟ نقول الإنسان مسافر إما مسافرة راجع إلى وطنه ، وإما مسافرة تاجر له متاع يتجر فيه ، وعلى الوجهين فالله هو المقصد ، وأما الوطن فلأنه لا يوطن إلا فى مأمن ولا أمن إلا بملك لا يزول ملكه لأن عند زوال ملك الملوك لا يبقى الأمن والراحة ، والله سبحانه هو الذى ملكه دائم وكل ما عداه فهو فان ، وأما التجارة فلأن التاجر لا يقصد إلا إلى موضع يسمع أو يعلم أن لمتاعه هناك رواجا والله تعالى يقول إن العمل الصالح

وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾

عنده مثاب عليه مقابل بأضعاف مايستحق ، والله هو المقصد ، وعبادته توجه إليه ، ولا شك أن القاصد لجهة إذا توجه اليها يكون على الطريق المستقيم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ العبادة تنبىء عن معنى التذلل ، فلما قال لا تعبدوا الشيطان لزم أن يتكبر الإنسان على ما سوى الله ولما قال (وأن إعبدونى) ينبغى أن لا يتكبر على الله لكن التكبر على ما سوى الله ليس معناه أنه يرى نفسه خيراً من غيره ، فان نفسه من جملة ما سوى الله ، فينبغى أن لا يلتفت اليها ولو كانت متجملة بعبادة الله ، بل معنى التكبر على ماسوى الله أن لا ينقاد لشىء إلا بإذن الله وفي هذا التكبر غاية التواضع فانه حينئذ لا ينقاد إلى نفسه وحظ نفسه فى التفوق على غيره فلا يتفوق فيحصل التواضع التام ولا ينقاد لأمر الملوك إذا خالفوا أمر الله فيحصل التكبر التام فيرى نفسه بهذا التكبر دون الفقير وفوق الأمير .

ثم إن الله تعالى ذكر ما ينبه لعداوة الشيطان بقوله تعالى ﴿ ولقد أضل منكم جبلا كثيراً أفلم تكونوا تعقلون ﴾ وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى الجبل ست لغات كسر الجيم والباء مع تشديد اللام وضمهما مع التشديد وكسرهما مع التخفيف وضمهما معه وتسكين الباء وتخفيف اللام مع ضم الجيم ومع كسره .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى معنى الجبل الجيم والباء واللام لاتخلو عن معنى الاجتماع والجبل فيه اجتماع الأجسام الكثيرة ، وجبل الطين فيه اجتماع أجزاء الماء والتراب ، وشاة لجباء إذا كانت مجتمعة اللبن الكثير ، لا يقال البلجة نقض على ما ذكرتم فإنها تنبىء عن التفرق فإن الأبلج خلاف المقرون لأنا نقول هى لاجتماع الأماكن الخالية التى تسع المتمكنات ، فإن البلجة والبلدة بمعنى والبلد سمى بلداً للاجتماع لا للتفرق ، فالجبل الجمع العظيم حتى قيل إن دون العشرة آلاف لا يكون جبلا وإن لم يكن صحيحاً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ كيف الإضلال ؟ نقول على وجهين : (أحدهما) أن الإضلال تولية عن المقصد وصد عنه فالشيطان يأمر البعض بترك عبادة الله وبعبادة غيره فهو تولية فان لم يقدر يأمره بعبادة الله لأمر غير الله من رياسة وجاه وغيرهما فهو صد ، وهو يفضى إلى التولية لأن مقصوده لو حصل لترك الله وأقبل على ذلك الغير فتحصل التولية .

ثم بين مآل أهل الضلال بقوله تعالى ﴿ هذه جهنم التى كنتم توعدون ﴾ .

وحال الضال كحال شخص خرج من وطنه مخافة عدوه فوقع فى مشقة ولو أقام فى وطنه لعل

ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾

ذلك العدو كان لا يظفر به أو يرحمه ، كذلك حال من لم يتحرك لطاعة ولا عصيان كالمجانين وحال من استعمل عقله فأخطأ الطريق ، فإن المجنون من أهل النجاة وإن لم يكن من أهل الدرجات ، وقد قيل بأن البلاهة أدنى إلى الخلاص من فطانة بتراء ، وذلك ظاهر فى المحسوس فان من لم يعرف الطريق إذا أقام بمكانه لا يبعد عن الطريق كثيراً ومن سار إلى خلاف المقصد يبعد عنه كثيراً .

ثم بين أنهم واصلون اليها حاصلون فيها بقوله تعالى ﴿ اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون ﴾ . وفى هذا الكلام ما يوجب شدة ندامتهم وحسرتهم من ثلاثة أوجه : (أحدها) قوله تعالى (اصلوها) فانه أمر تنكيل وإهانة كقوله ذق (إنك أنت العزيز الكريم) ، (والثانى) قوله (اليوم) يعنى العذاب حاضر ولذاتك قد مضت وأيامها قد انقضت وبقى اليوم العذاب (الثالث) وقوله تعالى (بما كنتم تكفرون) فإن الكفر والكفران ينبىء عن نعمة كانت يكفر بها وحياء الكفور من المنعم من أشد الآلام . ولهذا كثيراً ما يقول العبد المجرم افعلوا بى ما يأمر به السيد ولا تحضرونى بين يديه وإلى هذا المعنى أشار القائل :

أليس بكاف لذى نعمة حياء المسىء من المحسن

قوله تعالى : ﴿ اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴾ فى الترتيب وجوه : (الأول) أنهم حين يسمعون قوله تعالى (بما كنتم تكفرون) يريدون [أن]ينكروا كفرهم كما قال تعالى عنهم ما أشركنا وقالوا آمنا به فيختم الله على أفواههم فلا يقدرون على الإنكار وينطق الله غير لسانهم من الجوارح فيعترفون بذنوبهم (الثانى) لما قال الله تعالى لهم (ألم أعهد إليكم) لم يكن لهم جواب فسكتوا وخرسوا وتكلمت أعضاؤهم غير اللسان ، وفى الختم على الأفواه وجوه : أقواها ، أن الله تعالى يسكت ألسنتهم فلا ينطقون بها وينطق جوارحهم فتشهد عليهم ، وإنه فى قدرة الله يسير ، أما الإسكات فلا خفاء فيه ، وأما الإنطاق فلأن اللسان عضو متحرك بحركة مخصوصة فكما جاز تحركه بها جاز تحرك غيره بمثلها والله قادر على الممكنات والوجه الآخر أنهم لا يتكلمون بشىء لانقطاع أعذارهم وانتهاك أستارهم فيقفون ناكسى الرءوس وقوف القنوط اليؤوس لا يجد عذراً فيعتذر ولا مجال توبة فيستغفر ، وتكلم الأيدى ظهور الأمور بحيث لا يسع معه الإنكار حتى تنطق به الأيدى والأبصار ، كما يقول القائل : الحيطان تبكى على صاحب الدار ، إشارة إلى ظهور الحزن ، والأول الصحيح وفيه لطائف لفظية ومعنوية .

أما اللفظية (فالأولى منها) هى أن الله تعالى أسند فعل الختم إلى نفسه وقال (نختم) وأسند

وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾

وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾

الكلام والشهادة إلى الأيدى والأرجل ، لأنه لو قال تعالى (نختم على أفواههم) وتنطق أيديهم يكون فيه احتمال أن ذلك منهم كان جبراً وقهراً والإقرار بالإجبار غير مقبول فقال تعالى (وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم) أى باختيارها بعد ما يقدرها الله تعالى على الكلام ليكون أدل على صدور الذنب منهم (الثانية) منها هى أن الله تعالى قال (تكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم) جعل الشهادة للأرجل والكلام للأيدى لأن الأفعال تسند إلى الأيدى قال تعالى (وما عملته أيديهم) أى ما عملوه وقال (ولا تلقوا بأيديكم) أى ولا تلقوا بأنفسكم فاذا الأيدى كالعاملة ، والشاهد على العامل ينبغى أن يكون غيره فجعل الأرجل والجلود من جملة الشهود لبعد إضافة الأفعال إليها ، وأما المعنوية (فالأولى) منها أن يوم القيامة من تقبل شهادته من المقربين والصديقين كلهم أعداء للمجرمين وشهادة العدو على العدو غير مقبولة ، وإن كان من الشهود العدول وغير الصديقين من الكفار والفساق غير مقبول الشهادة فجعل الله الشاهد عليهم منهم ، لا يقال الأيدى والأرجل أيضاً صدرت الذنوب منها فهى فسقة فينبغى أن لا تقبل شهادتها ، لأنا نقول فى رد شهادتها قبول شهادتها ، لأنها إن كذبت فى مثل ذلك اليوم فقد صدر الذنب منها فى ذلك اليوم ، والمذنب فى ذلك اليوم مع ظهور الأمور ، لابد من أن يكون مذنباً فى الدنيا ، وإن صدقت فى ذلك اليوم فقد صدر منها الذنب فى الدنيا ، وهذا كمن قال لفاسق : إن كذبت فى نهار هذا اليوم فعبدى حر ، فقال الفاسق: كذبت فى نهار هذا اليوم عتق العبد ، لأنه إن صدق فى قوله كذبت فى نهار هذا اليوم فقد وجد الشرط ووجب الجزاء ، وإن كذب فى قوله كذبت فقد كذب فى نهار ذلك اليوم ، فوجد الشرط أيضاً بخلاف ما لو قال فى اليوم الثانى كذبت فى نهار اليوم الذى علقت عتق عبدك على كذبى فيه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الختم لازم الكفار فى الدنيا على قلوبهم وفى الآخرة على أفواههم ، ففى الوقت الذى كان الختم على قلوبهم كان قولهم بأفواههم ، كما قال تعالى (ذلك قولهم بأفواههم) فلما ختم على أفواههم أيضاً لزم أن يكون قولهم بأعضائهم ، لأن الإنسان لا يملك غير القلب واللسان والأعضاء ، فاذا لم يبق القلب والفم تعين الجوارح والأركان .

قوله تعالى :﴿ ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون ، ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون ﴾

قد ذكرنا مراراً أن الصراط المستقيم هو بين الجبر والقدر وهو الطريقة الوسطى ، والله تعالى فى كل موضع ذكر ما يتمسك به المجبرة ذكر عقيبه ما يتمسك به القدرية وبالعكس ، وههنا

وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾

كذلك لما قال الله تعالى (وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) وقال (اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون) وكان ذلك متمسك القدرية حيث أسند الله الكفر والكسب إليهم وأحال الخير والشر عليهم ، ذكر عقيبه ما يدل على أن كفرهم وكسبهم بمشيئة الله ، وذلك لأن الكفر يعمى البصيرة ويضعف القوة العقلية ، وعمى البصيرة بإرادة الله ومشيئته ، إذا شاء أعمى البصائر ، كما أنه لو شاء لطمس على أعينهم المبصرة ، وسلب القوة العقلية باختياره ومشيئته ، كما أن سلب القوة الجسمية بمشيئته ، حتى لو شاء لمسخ المكلف على مكانته وأقامه بحيث لا يتحرك يمنة ولا يسرة ، ولا يقدر على المضى والرجوع . فإعماء البصائر عنده كإعماء الأبصار ، وسلب القوة العقلية كسلب القوة الجسمية ، فقال (ولو نشاء لطمسنا على أعينهم) إشارة إلى أنه لو شاء وأراد إعماء بصائرهم فضلوا ، وأنه لو شاء طمس أعينهم لما اهتدوا إلى طريقتهم الظاهرة ، وشاء واختار سلب قوة عقولهم فزلوا ، وأنه لو شاء سلب قوة أجسامهم ومسخهم لما قدروا على تقدم ولا تأخر . وفى الآيتين أبحاث لفظية :

﴿ البحث الأول ﴾ فى قوله (فاستبقوا الصراط) قال الزمخشرى فيه وجوه (الأول) أنه يكون فيه حذف حرف إلى واتصال الفعل من غير حرف وأصله فاستبقوا إلى الصراط (الثانى) أن يكون المراد من الاستباق الابتدار فأعمله أعمال الابتدار (الثالث) أن يجعل الصراط مستبقاً لا مستبقاً إليه ، يقال استبقنا فسبقتهم وحينئذ يكون مبالغة فى الاهتداء إلى الطريق ، كأنه يقول الصراط الذى هو معهم ليسوا طالبين له قاصدين إياه ، وإنما هم عليه إذا طمس الله على أعينهم لا يبصرونه ، فكيف إن لم يكونوا على الصراط .

﴿ البحث الثانى ﴾ قدم الطمس والإعماء على المسخ والإعجاز ليكون الكلام مدرجاً ، كأنه قال إن أعماهم لم يروا الطريق الذى هم عليه وحينئذ لايهتدون إليه ، فان قال قائل الأعمى قد يهتدى إلى الطريق بأمارات عقلية أو حسية غير حس البصر كالأصوات والمشى بحس اللمس ، فارتقى وقال فلو مسخهم وسلب قوتهم بالكلية لايهتدون إلى الصراط بوجه من الوجوه .

﴿ البحث الثالث ﴾ قدم المضى على الرجوع ، لأن الرجوع أهون من المضى ، لأن المضى لا ينبىء عن سلوك الطريق من قبل ، وأما الرجوع فينبىء عنه ، ولا شك أن سلوك طريق قد رؤى مرة أهون من سلوك طريق لم ير فقال (لا يستطيعون مضياً) ولا أقل من ذلك وهو الرجوع الذى هو أهون من المضى .

قوله تعالى : ﴿ ومن نعمره ننكسه فى الخلق أفلا يعقلون ﴾

فقد ذكرنا أن قوله تعالى (ألم أعهد إليكم) قطع للأعذار بسبق الإنذار ، ثم لما قرر ذلك

وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾

وأتمه شرع فى قطع عذر آخر ، وهو أن الكافر يقول لم يكن لبثنا فى الدنيا إلا يسيراً ، ولو عمرتنا لما وجدت مناتقصيراً ، فقال الله تعالى (أفلا تعقلون) أنكم كلما دخلتم فى السن ضعفتم وقد عمرنا كم مقدار ما تتمكنون من البحث والإدراك ، كما قال تعالى (أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر) ثم إنكم علمتم أن الزمان كلما يعبر عليكم يزداد ضعفكم فضيعتم زمان الإمكان . فلو عمرنا كم أكثر من ذلك لكان بعده زمان الإزمان ، ومن لم يأت بالواجب زمان الإمكان ما كان يأتى به زمان الإزمان.

قوله تعالى : ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغى له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ﴾ .

فى الترتيب وجهان ، قد ذكرنا أن الله فى كل موضع ذكر أصلين من الأصول الثلاثة ، وهى الوحدانية والرسالة والحشر ، ذكر الأصل الثالث منها ، وههنا ذكر الأصلين الوحدانية والحشر ، أما الوحدانية ففى قوله تعالى (ألم أعهد إليكم يابنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان) وفى قوله (وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم) وأما الحشر ففى قوله تعالى (اصلوها اليوم) وفى قوله (اليوم نختم على أفواههم) إلى غير ذلك ، فلما ذكرهما وبينهما ذكر الأصل الثالث وهو الرسالة فقال (وما علمناه الشعر وما ينبغى له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين) وقوله (وما علمناه الشعر) إشارة إلى أنه معلم من عند الله فعلمه ما أراد ولم يعلمه ما لم يرد ، وفى تفسير الآية مباحث :

﴿ البحث الأول ﴾ خص الشعر بنفى التعليم ، مع أن الكفار كانوا ينسبون إلى النبى ﷺ أشياء من جملتها السحر ، ولم يقل وما علمناه السحر وكذلك كانوا ينسبونه إلى الكهانة ، ولم يقل وما علمناه الكهانة ، فنقول أما الكهانة فكانوا ينسبون النبى ﷺ إليها عندما كان يخبر عن الغيوب ويكون كما يقول . وأما السحر فكانوا ينسبونه إليه عندما كان يفعل ما لا يقدر عليه الغير كشق القمر وتكلم الحصى والجذع وغير ذلك . وأما الشعر فكانوا ينسبونه إليه عند ما كان يتلو القرآن عليهم لكنه صلى الله عليه وسلم ما كان يتحدى إلا بالقرآن ، كما قال تعالى (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله) إلى غير ذلك ، ولم يقل إن كنتم فى شك من رسالتى فأنطقوا الجذوع أو أشبعوا الخلق العظيم أو أخبروا بالغيوب ، فلما كان تحديه صلى الله عليه وسلم بالكلام وكانوا ينسبونه إلى الشعر عند الكلام خص الشعر بنفى التعليم .

﴿ البحث الثانى ﴾ ما معنى قوله (وما ينبغى له) ؟ قلنا قال قوم ما كان يتأتى له ، وآخرون ما يتسهل له حتى أنه إن تمثل بيت شعر سمع منه مزاحفاً يروى أنه كان يقول صلى الله عليه وسلم « ويأتيك من لم تزود بالأخبار » . (وفيه وجه) أحسن من ذلك وهو أن يحمل ماينبغى له على مفهومه الظاهر وهو أن الشعر ماكان يليق به ولا يصلح له . وذلك لأن الشعر يدعو إلى تغيير

لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾

المعنى لمراعاة اللفظ والوزن ، فالشارع يكون اللفظ منه تبعاً للمعنى ، والشاعر يكون المعنى منه تبعاً للفظ ، لأنه يقصد لفظاً به يصح وزن الشعر أو قافيته فيحتاج إلى التحيل لمعنى يأتى به لأجل ذلك اللفظ ، وعلى هذا نقول : الشعر هو الكلام الموزون الذى قصد إلى وزنه قصداً أولياً ، وأما من يقصد المعنى فيصدر موزوناً مقفى فلا يكون شاعراً ، ألا ترى إلى قوله تعالى (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) ليس بشعر ، والشاعر إذا صدر منه كلام فيه متحركات وساكنات بعدد مافى الآية تقطيعه بفاعلاتن فاعلاتن يكون شعراً لأنه قصد الإتيان بألفاظ حروفها متحركة وساكنة كذلك والمعنى تبعه ، والحكيم قصد المعنى فجاء على تلك الألفاظ ، وعلى هذا يحصل الجواب عن قول من يقول إن النبى صلى الله عليه وسلم ذكر بيت شعر وهو قوله :

أنا النبى لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

أو بيتين لأنا نقول ذلك ليس بشعر لعدم قصده إلى الوزن والقافية ، وعلى هذا لو صدر من النبى صلى الله عليه وسلم كلام كثير موزون مقفى لا يكون شعراً ، لعدم قصده اللفظ قصداً أولياً ، ويؤيد ما ذكرنا أنك إذا تتبعت كلام الناس فى الأسواق تجد فيه ما يكون موزوناً واقعاً فى بحر من بحور الشعر ولا يسمى المتكلم به شاعراً ولا الكلام شعراً لفقد القصد إلى اللفظ أولا . ثم قوله تعالى (إن هو إلا ذكر وقرآن مبين) يحقق ذلك المعنى أى هو ذكر وموعظة للقصد إلى المعنى ، والشعر لفظ مزخرف بالقافية والوزن (وههنا لطيفة) وهى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن من الشعر لحكمة » يعنى قد يقصد الشاعر اللفظ فيوافقه معنى حكمى كما أن الحكيم قد يقصد معنى فيوافقه وزن شعرى ، لكن الحكيم بسبب ذلك الوزن لا يصير شاعراً والشاعر بسبب ذلك الذكر يصير حكيماً حيث سمى النبى ﷺ شعره حكمة ، ونفى الله كون النبى شاعراً ، وذلك لأن اللفظ قالب المعنى والمعنى قلب اللفظ وروحه فاذا وجد القلب لانظر إلى القالب . فيكون الحكيم الموزون كلامه حكيماً ، ولا يخرجه عن الحكمة وزن كلامه ، والشاعر الموعظ كلامه حكيماً .

قوله تعالى : ﴿ لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ﴾ .

قرىء بالتاء والياء ، بالتاء خطاباً مع النبى صلى الله عليه وسلم وبالياء على وجهين (أحدهما) أن يكون المنذر هو النبى صلى الله عليه وسلم حيث سبق ذكره فى قوله (وما علمناه) وقوله (وما ينبغى له) . (وثانيهما) أن يكون المراد أن القرآن ينذر والأول أقرب إلى المعنى (والثانى) أقرب إلى اللفظ ، أما الأول فلأن المنذر صفة للرسل أكثر وروداً من المنذر صفة للكتب (وأما الثانى) فلأن القرآن أقرب المذكورين إلى قوله (لينذر) وقوله (من كان حياً) أى من

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾

كان حي القلب ، ويحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون المراد من كان حياً فى علم الله فينذره به فيؤمن (الثانى) أن يكون المراد لينذر به من كان حياً فى نفس الأمر ، أى من آمن فينذره بما على المعاصى من العقاب وبما على الطاعة من الثواب (ويحق القول على الكافرين) أما قول العذاب وكلمته كما قال تعالى (ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) وقوله تعالى (حقت كلمة العذاب) وذلك لأن الله تعالى قال (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) فاذاً جاء حق التعذيب على من وجد منه التكذيب ، وأما القول المقول فى الوحدانية والرسالة والحشر وسائر المسائل الأصولية الدينية فان القرآن فيه ذكر الدلائل التى بها تثبت المطالب .

ثم إنه تعالى أعاد الوحدانية ودلائل دالة عليها فقال تعالى ﴿ أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً ﴾ أى من جملة ما عملت أيدينا أى ما عملناه من غير معين ولا ظهير بل عملناه بقدرتنا وإرادتنا .

قوله تعالى : ﴿ فهم لها مالكون ﴾ إشارة إلى إتمام الإنعام فى خلق الأنعام ، فانه تعالى لو خلقها ولم يملكها الإنسان ما كان ينتفع بها .

وقوله ﴿ وذللناها لهم ﴾ زيادة إنعام فإن المملوك إذا كان آبياً متمرداً لا ينفع ، فلو كان الإنسان يملك الأنعام وهى نادة صادة لما تم الإنعام الذى فى الركوب وإن كان يحصل الأكل كما فى الحيوانات الوحشية ، بل ما كان يكمل نعمة الأكل أيضاً إلا بالتعب الذى فى الاصطياد ، ولعل ذلك لا يتهيأ إلا للبعض وفى البعض .

قوله تعالى : ﴿ فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ﴾ بيان لمنفعة التذليل إذ لولا التذليل لما وجدت إحدى المنفعتين وكانت الأخرى قليلة الوجود .

ثم بين تعالى غير الركوب والأكل من الفوائد بقوله تعالى ﴿ ولهم فيها منافع ومشارب ﴾ وذلك لأن من الحيوانات مالا يركب كالغنم فقال منافع لتعمها والمشارب كذلك عامة ، إن قلنا بأن المراد جمع مشرب وهو الآنية فان من الجلود ما يتخذ أوانى للشرب والأدوات من القرب [وغيرها] ، وإن قلنا إن المراد المشروب وهو الألبان والأسمان فهى مختصة بالإناث ولكن بسبب الذكور فان ذلك متوقف على الحمل وهو بالذكور والإناث .

قوله تعالى : ﴿ أفلا يشكرون ﴾ هذه النعم التى توجب العبادة شكراً ، ولو شكرتم لزادكم

وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ

من فضله ، ولو كفرتم لسلبها منكم ، فما قولكم ، أفلا تشكرون استدامة لها واستزادة فيها؟

قوله تعالى : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون ﴾ إشارة إلى بيان زيادة ضلالهم ونهايتها ، فإنهم كان الواجب عليهم عبادة الله شكراً لأنعمه ، فتركوها وأقبلوا على عبادة من لايضر ولاينفع ، وتوقعوا منه النصرة مع أنهم هم الناصرون لهم كما قال عنهم (حرقوه وانصروا آلهتكم) وفى الحقيقة لاهى ناصرة ولا منصورة .

قوله تعالى :﴿ لايستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون ﴾ إشارة إلى الحشر بعد تقرير التوحيد ، وهذا كقوله تعالى (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) وقوله (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم) وقوله (أولئك فى العذاب محضرون) وهو يحتمل معنيين (أحدهما) أن يكون العابدون جنداً لما اتخذوه آلهة كما ذكرنا (الثانى) أن يكون الأصنام جنداً للعابدين ، وعلى هذا ففيه معنى لطيف وهو أنه تعالى لما قال (لا يستطيعون نصرهم) أكدها بأنهم لا يستطيعون نصرهم حال ما يكونون جنداً لهم ومحضرون لنصرتهم فان ذلك دال على عدم الإستطاعة ، فان من حضر واجتمع ثم عجز عن النصرة يكون فى غاية الضعف بخلاف من لم يكن متأهباً ولم يجمع أنصاره .

قوله تعالى :﴿ فلا يحزنك قولهم ﴾ إشارة إلى الرسالة لأن الخطاب معه بما يوجب تسلية قلبه دليل اجتبائه واختياره إياه .

قوله تعالى : ﴿ إنا نعلم مايسرون وما يعلنون ﴾ يحتمل وجوهاً (أحدها) أن يكون ذلك تهديداً للمنافقين والكافرين فقوله (مايسرون) من النفاق (ومايعلنون) من الشرك (والثانى) مايسرون من العلم بك ومايعلنون من الكفر بك (الثالث) مايسرون من العقائد الفاسدة ومايعلنون من الأفعال القبيحة .

ثم إنه تعالى لما ذكر دليلا من الآفاق على وجوب عبادته بقوله (أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً) ذكر دليلا من الأنفس .

فقال ﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة ﴾ قيل إن المراد بالإنسان أبى بن خلف فان الآية وردت فيه حيث أخذ عظما بالياً وأتى النبى ﷺ وقال إنك تقول إن إلهك يحي هذه العظام فقال رسول الله ﷺ نعم ويدخلك جهنم ، وقد ثبت فى أصول الفقه أن الاعتبار بعموم اللفظ

فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ

لا بخصوص السبب ، ألا ترى أن قوله تعالى (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها) نزلت فى واحدة وأراد الكل فى الحكم فكذلك كل إنسان ينكر الله أو الحشر فهذه الآية رد عليه إذا علمت عمومها فنقول فيها لطائف :

(اللطيفة الأولى) قوله (أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا) معناه الكافرون المنكرون التاركون عبادة الله المتخذون من دونه آلهة ، أو لم يروا خلق الأنعام لهم وعلى هذا فقوله تعالى (أو لم ير الإنسان) كلام أعم من قوله (أو لم يروا) لأنه مع جنس الانسان وهو مع جمع منهم فنقول سبب ذلك أن دليل الأنفس أشمل وأكمل وأتم وألزم ، فان الإنسان قد يغفل عن الإنعام وخلقها عند غيبتها ولكن [لا يغفل] هو مع نفسه متى ما يكون وأينما يكون . فقال : إن غاب عن الحيوان وخلقه فهو لا يغيب عن نفسه ، فما باله أو لم ير أنا خلقناه من نطفة وهو أتم نعمة ، فان سائر النعم بعد وجوده وقوله (من نطفة) إشارة إلى وجه الدلالة ، وذلك لأن خلقه لو كان من أشياء مختلفة الصور كان يمكن أن يقال العظم خلق من جنس صلب واللحم من جنس رخو ، وكذلك الحال فى كل عضو ، ولما كان خلقه عن نطفة متشابهة الأجزاء وهو مختلف الصور دل على الاختيار والقدرة وإلى هذا أشار بقوله تعالى (يسقى بماء واحد) .

وقوله ﴿ فاذا هو خصيم مبين ﴾ (فيه لطيفة) غريبة وهى أنه تعالى قال اختلاف صور أعضائه مع تشابه أجزاء ماخلق منه آية ظاهرة ومع هذا فهنالك ماهو أظهر وهو نطقه وفهمه ، وذلك لأن النطفة جسم ، فهب أن جاهلا يقول إنه استحال وتكون جسما آخر ، لكن القوة الناطقة والقوة الفاهمة من أين تقتضيهما النطفة ؟ فابداع النطق والفهم أعجب وأغرب من إبداع الخلق والجسم وهو إلى إدراك القدرة والإختيار منه أقرب فقوله (خصيم) أى ناطق وإنما ذكر الخصيم مكان الناطق لأنه أعلى أحوال الناطق ، فان الناطق مع نفسه لا يبين كلامه مثل ما يبينه وهو يتكلم مع غيره ، والمتكلم مع غيره إذا لم يكن خصماً لا يبين ولا يجتهد مثل ما يجتهد إذا كان كلامه مع خصمه وقوله (مبين) إشارة إلى قوة عقله ، واختار الإبانة لأن العاقل عند الإفهام أعلى درجة منه عند عدمه ، لأن المبين بان عنده الشيء ثم أبانه فقوله تعالى (من نطفة) إشارة إلى أدنى ما كان عليه وقوله (خصيم مبين) إشارة إلى أعلى ما حصل عليه وهذا مثل قوله تعالى (ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة) إلى أن قال تعالى (ثم أنشأناه خلقا آخر) فما تقدم من خلق النطفة علقة وخلق العلقة مضغة وخلق المضغة عظاما إشارة إلى التغيرات فى الجسم وقوله (ثم أنشأناه خلقاً آخر) إشارة إلى ما أشار إليه بقوله (فاذا هو خصيم مبين) أى ناطق عاقل .

قوله تعالى : ﴿ وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ﴾ إشارة إلى بيان الحشر وفى هذه الآيات إلى

قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

آخر السورة غرائب وعجائب نذكرها بقدر الإمكان إن شاء الله تعالى ، فنقول المنكرون للحشر منهم من لم يذكر فيه دليلا ولا شبهة واكتفى بالاستبعاد وادعى الضرورة وهم الأكثرون ، ويدل عليه قوله تعالى حكاية عنهم فى كثير من المواضع بلفظ الاستبعاد كما قال (وقالوا أئذا ضللنا فى الأرض أئنا لفى خلق جديد ، أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون ، أئنك لمن المصدقين ، أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون) إلى غير ذلك فكذلك ههنا قال ﴿ قال من يحيي العظام وهى رميم ﴾ على طريق الاستبعاد فبدأ أولا بإبطال استبعادهم بقوله (ونسى خلقه) أى نسى أنا خلقناه من تراب ومن نطفة متشابهة الأجزاء ، ثم جعلنا لهم من النواصى إلى الأقدام أعضاء مختلفة الصور والقوام وما اكتفينا بذلك حتى أودعناهم ما ليس من قبيل هذه الأجرام وهو النطق والعقل الذي[ن] بهما استحقوا الإكرام فان كانوا يقنعون بمجرد الاستبعاد فهلا يستبعدون خلق الناطق العاقل من نطفة قذرة لم تكن محل الحياة أصلا . ويستبعدون إعادة النطق والعقل إلى محل كانا فيه . ثم إن استبعادهم كان من جهة ما فى المعاد من التفتت والتفرق حيث قالوا (من يحيي العظام وهى رميم) اختاروا العظم للذكر لأنه أبعد عن الحياة لعدم الإحساس فيه ووصفوه بما يقوى جانب الاستبعاد من البلى والتفتت والله تعالى دفع استبعادهم من جهة ما فى المعيد من القدرة والعلم فقال (وضرب لنا مثلا) أى جعل قدرتنا كقدرتهم ونسى خلقه العجيب وبدأه الغريب ، ومنهم من ذكر شبهة وإن كانت فى آخرها تعود إلى مجرد الاستبعاد وهى على وجهين (أحدهما) أنه بعد العدم لم يبق شيئاً فكيف يصح على العدم الحكم بالوجود ، وأجاب عن هذه الشبهة .

قوله تعالى : ﴿قل يحييها الذى أنشأها أول مرة﴾ يعنى كما خلق الإنسان ولم يكن شيئاً مذكوراً كذلك يعيده وإن لم يبق شيئاً مذكوراً (وثانيها) أن من تفرقت أجزاؤه فى مشارق العالم ومغاربه وصار بعضه فى أبدان السباع وبعضه فى جدران الرباع كيف يجمع ؟ وأبعد من هذا هو أن إنساناً إذا أكل أنساناً وصار أجزاء المأكول فى أجزاء الآكل فان أعيد فأجزاء المأكول ، إما أن تعاد إلى بدن الآكل فلا يبقى للمأكول أجزاء تخلق منها أعضاؤه . وإما أن تعاد إلى بدن المأكول منه فلا يبقى للآكل أجزاء .

فقال تعالى فى إبطال هذه الشبهة ﴿ وهو بكل خلق عليم ﴾ ووجهه هو أن فى الآكل أجزاء أصلية وأجزاء فضلية ، وفى المأكول كذلك . فاذا أكل إنسان إنساناً صار الأصلى من أجزاء المأكول فضلياً من أجزاء الآكل والأجزاء الأصلية للآكل هى ما كان له قبل الأكل (والله بكل

ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ
ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ
ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾

خلق عليم) يعلم الأصلى من الفضلى فيجمع الأجزاء الأصلية للآكل وينفخ فيها روحه ويجمع الأجزاء الأصلية للمأكول وينفخ فيها روحه ، وكذلك يجمع الأجزاء المتفرقة فى البقاع ، المبددة فى الأصقاع بحكمته الشاملة وقدرته الكاملة .

ثم إنه تعالى عاد إلى تقرير ما تقدم من دفع استبعادهم وإبطال إنكارهم وعنادهم .

قوله تعالى : ﴿ الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فاذا أنتم منه توقدون ﴾ ووجهه هو أن الإنسان مشتمل على جسم يحس به وحياة سارية فيه ، وهى كحرارة جارية فيه فان استبعدتم وجود حرارة وحياة فيه فلا تستبعدوه ، فان النار فى الشجر الأخضر الذى يقطر منه الماء أعجب وأغرب وأنتم تحضرون حيث منه توقدون ، وإن استبعدتم خلق جسمه فخلق السموات والأرض أكبر من خلق أنفسكم فلا تستبعدوه فان الله خلق السموات والأرض فبان لطف قوله تعالى (الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فاذا أنتم منه توقدون) .

قوله تعالى : ﴿ أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ﴾ قدم ذكر النار فى الشجر على ذكر الخلق الأكبر ، لأن استبعادهم كان بالصريح واقعاً على الأحياء حيث قالوا (من يحيى العظام) ولم يقولوا من يجمعها ويؤلفها والنار فى الشجر تناسب الحياة .

قوله تعالى : ﴿ بلى وهو الخلاق ﴾ إشارة إلى أنه فى القدرة كامل .

قوله تعالى : ﴿ العليم ﴾ إشارة إلى أن علمه شامل .

ثم أكد بيانه بقوله تعالى ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ وهذا إظهار فساد تمثيلهم وتشبيههم وضرب مثلهم حيث ضربوا لله مثلا وقالوا لا يقدر أحد على مثل هذا قياساً للغائب على الشاهد فقال فى الشاهد الخاق يكون بالآلات البدنية والانتقالات المكانية ولا يقع إلا فى الأزمنة الممتدة والله يخلق بكن فيكون ، فكيف تضربون المثل الأدنى وله المثل الأعلى من أن يدرك . وفى الآية مباحث .

﴿ البحث الأول ﴾ قالت المعتزلة هذه الآية دالة على أن المعدوم شىء لأنه يقول لما أراده (كن فيكون) فهو قبل القول له كن لا يكون وهو فى تلك الحالة شىء حيث قال (إنما أمره إذا أراد شيئاً) والجواب أن هذا بيان لعدم تخلف الشىء عن تعلق إرادته به ، فقوله (إذا) مفهوم

الحين والوقت والآية دالة على أن المراد شيء حين تعلق الارادة به ولا دلالة فيها على أنه شيء قبل ما إذا أراد وحينئذ لا يرد ماذكروه لأن الشيء حين تعلق الإرادة به شيء موجود لا يريده فى زمان ويكون فى زمان آخر بل يكون فى زمان تعلق الارادة ، فاذاً الشيء هو الموجود لا المعدوم لا يقال كيف يريد الموجود وهو موجود فيكون ذلك إيجاداً لموجود؟ نقول هذا الإشكال من باب المعقولات ونجيب عنه فى موضعه ، وإنما غرضنا إبطال تمسكهم باللفظ ، وقد ظهر أن المفهوم من هذا الكلام أنه يريد ما هو شيء إذا أراد ، وليس فى الآية أنه إذا أراد ما كان شيئاً قبل تعلق الارادة .

﴿ البحث الثانى ﴾ قالت الكرامية لله إرادة محدثة بدليل قوله تعالى (إذا أراد) ووجه دلالته من أمرين : (أحدهما) من حيث إنه جعل للارادة زماناً ، فان إذا ظرف زمان وكل ماهو زمانى فهو حادث (وثانيهما) هو أنه تعالى جعل إرادته متصلة بقوله (كن) وقوله (كن) متصل بكون الشيء ووقوعه لأنه تعالى قال (فيكون) بفاء التعقيب لكن الكون حادث . وما قبل الحادث متصل به حادث ، والفلاسفة وافقوهم فى هذا الإشكال من وجه آخر فقالوا إرادته متصلة بأمره وأمره متصل بالكون ولكن إرادته قديمة فالكون قديم فمكونات الله قديمة ، وجواب الضالين من التمسك باللفظ هو أن المفهوم من قوله (إذا أراد) من حيث اللغة إذا تعلقت إرادته بالشيء لأن قوله (أراد) فعل ماض ، وإذا دخلت كلمة إذا على الماضى تجعله فى معنى المستقبل ، ونحن نقول بأن مفهوم قولنا أراد ويريد وعلم ويعلم يجوز أن يدخله الحدوث ، وإنما نقول لله تعالى صفه قديمة هى الارادة وتلك الصفة إذا تعلقت بشىء نقول أراد ويريد ، وقبل التعلق لا نقول أراد وإنما نقول له إرادة وهو بها مريد ، ولنضرب مثالا للأفهام الضعيفة ليزول ما يقع فى الأوهام السخيفة ، فنقول قولنا فلان خياط يراد به أن له صنعة الخياطة فلو لم يصح منا أن نقول إنه خاط ثوب زيد أو يخيط ثوب زيد لا يلزم منه نفى صحة قولنا إنه خياط بمعنى أن له صنعة بها يطلق عليه عند استعماله تلك الصنعة فى ثوب زيد فى زمان ماض خاط ثوبه ، وبها يطلق عليه عند استعماله تلك الصنعة فى ثوب زيد فى زمان مستقبل يخيط ثوبه ، ولله المثل الأعلى فافهم أن الارادة أمر ثابت إن تعلقت بوجود شيء نقول أراد وجوده أى يريد وجوده ، وإذا علمت هذا فهو فى المعنى من كلام أهل السنة تعلق الارادة حادث وخرج بما ذكرنا جواب الفريقين .

﴿ البحث الثالث ﴾ قالت المعتزلة والكرامية كلام الله حرف وصوت وحادث لأن قوله (كن) كلام (وكن) من حرفين ، والحرف من الصوت ، ويلزم من هذا أن كلامه من الحروف والأصوات ، وأما أنه حادث فلما تقدم من الوجهين : (أحدهما) أنه زمانى (والثانى) أنه متصل بالكون والكون حادث ، والجواب يعلم مما ذكرنا ، وذلك لأن الكلام صفة إذا تعلقت بشيء تقول قال ويقول فتعلق الخطاب حادث والكلام قديم فقوله تعالى (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) فيه تعلق وإضافة لأن قوله تعالى (يقول له) باللام للاضافة صريح فى التعلق

فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

ونحن نقول إن قوله للشيء الحادث حادث لأنه مع التعلق ، وإنما القديم قوله وكلامه لا مع التعلق وكل قديم وحادث إذا نظرت إلى مجموعهما لا تجدهما فى الأزل وإنما تجدهما جميعاً فيما لا يزال فله معنى الحدوث ولكن الإطلاق موهم ، فتفكر جداً ولا تقل المجموع حادث من غير بيان مرادك ، فان ذلك قد يفهم منه أن الجميع حادث ، بل حقق الإشارة وجود العبارة وقل أحد طرفى المجموع قديم والآخر حادث ولم يكن الآخر معـــه فى الأزل ، وأما قوله (كن) من الحروف ، تقول الكلام يطلق على معنيين (أحدهما) ما عند المتكلم (والثانى) ما عند السامع ، ثم إن أحدهما يطلق عليه أنه هو الآخر ومن هذا يظهر فوائد . أما بيان ما ذكرناه ، فلأن الإنسان إذا قال لغيره عندى كلام أريد أن أقوله لك غداً ، ثم إن السامع أتاه غداً وسأله عن الكلام الذى كان عنده أمس ، فيقول له إنى أريد أن تحضر عندى اليوم ، فهذا الكلام أطلق عليه المتكلم أنه كان عندك أمس ولم يكن عند السامع ، ثم حصل عند السامع بحرف وصوت ويطلق عليه أن هذا الذى سمعت هو الذى كان عندى ، ويعلم كل عاقل أن الصوت لم يكن عند المتكلم أمس ولا الحرف ، لأن الكلام الذى عنده جاز أن يذكره بالعربى فيكون له حروف ، وجاز أن يذكره بالفارسية فيكون له حروف أخر ، والكلام الذى عنده ووعد به واحد والحروف مختلفة كثيرة ، فاذاً معنى قوله هذا ما كان عندى ، هو أن هذا يؤدى إليك ما كان عندى ، وهذا أيضاً مجاز ، لأن الذى عنده ما انتقل إليه ، وإنما علم ذلك وحصل عنده به علم مستفاد من السمع أو البصر فى القراءة والكتابة أو الإشارة ، إذا علمت هذا فالكلام الذى عند الله وصفة له ليس بحرف على ما بان ، والذى يحصل عند السامع حرف وصوت وأحدهما الآخر لما ذكرنا من المعنى وتوسع الإطلاق ، فاذا قال تعالى (يقول له) حصل قائل وسامع . فاعتبرها من جانب السامع لكون وجود الفعل من السامع لذلك القول فعبر عنـه بالكاف والنون الذى يحدث عند السامع ويحدث به المطلوب .

قوله تعالى : ﴿ فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴾

لما تقررت الوحدانية والاعادة وأنكروها وقالوا بأن غير الله آلهة ، قال تعالى وتنزه عن الشريك (الذى بيده ملكوت كل شيء) وكل شيء ملكه فكيف يكون المملوك للمالك شريكا ، وقالوا بأن الإعادة لا تكون ، فقال (وإليه ترجعون) رداً عليهم فى الأمرين ، وقد ذكرنا ما يتعلق بالنحو فى قوله : سبحان . أى سبحوا تسبيح الذى أو سبح من فى السموات والأرض تسبيح الذى (فسبحان) علم للتسبيح ، والتسبيح هو التنزيه ، والملكوت مبالغة فى الملك كالرحموت والرهبوت ، وهو فعلول أو فعلوت فيه كلام ، ومن قال هو فعلول جعلوه ملحقاً به .

ثم إن النبي ﷺ قال « إن لكل شيء قلباً وقلب القرآن يس » وقال الغزالي فيه : إن ذلك لأن الايمان صحته بالاعتراف بالحشر ، والحشر مقرر في هذه السورة بأبلغ وجه ، فجعله قلب القرآن لذلك . واستحسنه فخر الدين الرازي رحمه الله تعالى(١) سمعته يترحم عليه بسبب هذا الكلام

ويمكن أن يقال بأن هذه السورة ليس فيها إلا تقرير الأصول الثلاثة بأقوى البراهين فابتداؤها بيان الرسالة بقوله (إنك لمن المرسلين) ودليلها ما قدمه عليها بقوله (والقرآن الحكيم) وما أخره عنها بقوله (لتنذر قوماً) وانتهاؤها بيان الوحدانية والحشر بقوله (فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء) إشارة إلى التوحيد ، وقوله (وإليه ترجعون) إشارة إلى الحشر ، وليس في هذه السورة إلا هذه الأصول الثلاثة ودلائله وثوابه ، ومن حصل من القرآن هذا القدر فقد حصل نصيب قلبه وهو التصديق الذى بالجنان . وأما وظيفة اللسان التي هي القول فكما في قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديداً) وفي قوله تعالى (ومن أحسن قولا) وقوله تعالى (بالقول الثابت ، وألزمهم كلمة التقوى ، وإليه يصعد الكلم الطيب) إلى غير هذه مما في غير هذه السورة ووظيفة الأركان وهو العمل ، كما في قوله تعالى (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) وقوله تعالى (ولا تقربوا الزنا . . ولا تقتلوا النفس) وقوله (واعملوا صالحاً) وأيضا مما في غير هذه السورة ، فلما لم يكن فيها إلا أعمال القلب لا غير سماها قلباً ، ولهذا ورد في الأخبار أن النبي ﷺ ندب إلى تلقين يس لمن دنا منه الموت ، وقراءتها عند رأسه ، لأن في ذلك الوقت يكون اللسان ضعيف القوة ، والأعضاء الظاهرة ساقطة البنية ، لكن القلب يكون قد أقبل على الله ورجع عن كل ماسواه ، فيقرأ عند رأسه ما يزاد به قوة قلبه ، ويشتد تصديقه بالأصول الثلاثة وهي شفاء له وأسرار كلام الله تعالى وكلام رسول الله ﷺ لا يعلمها إلا الله ورسوله ، وما ذكرناه ظن لا نقطع به ، ونرجو الله أن يرحمنا وهو أرحم الراحمين .

تم تفسير هذه السورة ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين.

(١) قوله « واستحسنه فخر الدين الرازي الخ » يفيد أن المتكلم غير المؤلف ، فلعل هذا الكلام زيادة علق بها تلميذ المؤلف رحمهما الله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة يس

وهي مكِّيَّةٌ بإجماعٍ، وهي ثلاثٌ وثمانون آيةً، إلَّا أنَّ فرقةً قالت: إنَّ قولَه تعالى ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ [الآية: ١٢] نزلت في بني سَلِمةَ من الأنصار حين أرادوا أن يتركوا ديارَهم، وينتقلوا إلى جوارِ مسجدِ الرسولِ ﷺ، على ما يأتي(١).

وفي كتابِ أبي داودَ عن مَعْقِلِ بنِ يَسَار قال: قال النبيُّ ﷺ: «اقرؤوا يَس على موتاكم»(٢).

وذكر الآجُرِّيُّ من حديثِ أمِّ الدَّرْداءِ عن النبيِّ ﷺ قال: «ما مِن ميِّتٍ يُقرَأُ عليه سورةُ يس إلَّا هوَّن اللهُ عليه»(٣).

وفي «مسند» الدَّارِميِّ عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن قَرأ سورةَ يس في ليلةٍ ابتغاءَ وَجْهِ اللهِ؛ غُفِرَ له في تلك اللَّيلة»(٤). خرَّجه أبو نعيم الحافظُ أيضاً(٥).

---

(١) ص٤٢٠-٤٢١ من هذا الجزء، والكلام من المحرر الوجيز ٤/ ٤٤٥ .

(٢) سنن أبي داود (٣١٢١)، وسلف ٥/ ٤٤٩ ، وذكرنا ثَمة قول الدارقطني: هذا حديث ضعيف الإسناد، مجهول المتن، ولا يصح في الباب حديث. اهـ. وأورده ابن حبان في صحيحه (٣٠٠٢) وقال: قوله: «اقرؤوا على موتاكم يَس»: أراد به من حَضَرَتْه المنيَّة، لا أنَّ الميتَ يُقرأ عليه، وكذلك قوله ﷺ: «لَقِّنُوا موتاكم لا إله إلا الله». وأخرج أحمد في المسند (١٦٩٦٩) عن أبي المغيرة، عن صفوان قال: حدثتني المشيخة أنهم حضروا غُضيف بن الحارث الثُّمالي حين اشتدَّ سَوْقُه، فقال: هل منكم أحدٌ يقرأ «يَس»؟ قال: فقرأها صالح بن شُريح السَّكوني، فلما بلغ أربعين منها قُبض. قال: وكان المشيخة يقولون: إذا قرئت عند الميّت خفف عنه بها. وحسَّن إسناد هذا الأثر الحافظ ابن حجر في الإصابة (ترجمة غضيف).

(٣) سلف ٥/ ٤٤٩ ، وينظر الكلام عليه هناك.

(٤) سنن الدارمي (٣٤١٧) وهو من طريق الحسن عن أبي هريرة به، والحسن لم يسمع من أبي هريرة، كما في المراسيل لابن أبي حاتم ص٣٨ . وأخرجه ابن حبان (٢٥٧٤) من طريق الحسن عن جندب بن عبد الله عن النبي ﷺ. قال أبو حاتم كما في المراسيل ص٤٢: لم يصح للحسن سماع من جندب. اهـ. وسئل الدارقطني عن حديث الحسن عن أبي هريرة فقال: اختلف فيه على الحسن... وليس فيها شيء ثابت. العلل ١٠/ ٢٦٧ - ٢٦٩ .

(٥) حلية الأولياء ٢/ ١٥٩ .

وَرَوَى الترمذيُّ عن أنسٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ لكلِّ شيءٍ قلباً، وقلبُ القرآنِ يَس، ومَن قَرأَ يَس كَتَبَ اللهُ له بقراءتها قراءةَ القرآنِ عَشْرَ مرَّاتٍ» قال: هذا حديثٌ غريبٌ، وفي إسنادِه هارونُ أبو محمدٍ شيخٌ مجهولٌ، وفي البابِ عن أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ، ولا يصحُّ حديثُ أبي بكرٍ من قِبَلِ إسنادِه، وإسنادُه ضعيف[١].

وعن عائشة أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ في القرآنِ لَسورةً تَشْفَعُ لقارئها ويُغفَرُ لمُستَمِعِها، أَلَا وهي سورةُ يَس، تُدْعَى في التوراة: المُعِمَّة» قيل: يا رسول الله، وما المُعِمَّةُ؟ قال: «تعمُّ صاحبَها بخيرِ الدُّنيا، وتَدفعُ عنه أهاويلَ الآخرة، وتدعى: الدافعةُ، والقاضية» قيل: يا رسولَ الله، وكيف ذلك؟ قال: «تَدْفَعُ عن صاحبها كلَّ سوءٍ، وتَقْضِي له كلَّ حاجةٍ، ومَن قرأها عَدَلَتْ له عشرين حَجَّةً، ومَن سمعها كانت له كألفِ دينارٍ تَصَدَّق بها في سبيل الله، ومَن كَتَبَها وشربها أدخلتْ جوفَه ألفَ دواءٍ، وألفَ نورٍ، وألف يقينٍ، وألفَ رحمةٍ، وألفَ رأفةٍ، وألفَ هدىً، ونُزِعَ عنه كلُّ داءٍ وغِلٍّ» ذكره الثعلبيُّ من حديثِ عائشةَ[٢]، والترمذيُّ الحكيمُ في «نوادر الأصول» من حديث أبي بكر الصدِّيقِ ﷺ مُسْنَداً[٣].

وفي «مسند» الدَّارِميِّ عن شَهر بنِ حَوْشَبٍ قال: قال ابن عباس: مَن قرأ «يس» حين يُصبِحُ؛ أُعطي يُسْرَ يومِه حتى يُمسي، ومَن قرأها في صَدْرِ ليلةٍ أُعطيَ يُسْرَ ليلتِه حتى يُصبح[٤].

وذكر النحاسُ عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: لكلِّ شيءٍ قلبٌ وقلبُ القرآن

---

(١) سنن الترمذي (٢٨٨٧). وسيأتي حديث أبي بكر ﷺ.

(٢) وذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٤٥ عن عائشة رضي الله عنها منه إلى قوله: «... ألا وهي سورة يس».

(٣) نوادر الأصول ص٣٢٥ وليس في مطبوعه ذكر الإسناد، وأخرجه أيضاً البيهقي في الشعب (٢٤٦٥)، وابن الجوزي في الموضوعات (٣٥٦)، وأخرجه ابن الجوزي أيضاً (٣٥٥) من حديث أنس ﷺ وقال: هذا الحديث من جميع طرقه باطل لا أصل له.

(٤) سنن الدارمي (٣٤١٩). وشهر بن حوشب؛ قال الحافظ في التقريب: صدوق كثير الإرسال والأوهام.

«يس»، مَن قرأها نهاراً كُفيَ همَّه، ومَن قرأها ليلاً غُفِرَ ذنبُه. وقال شهر بن حَوْشَب: يقرأ أهلُ الجنةِ «طه» و«يس» فقط[١]. رفع هذه الأخبارَ الثلاثةَ الماوَرْديُّ، فقال: روى الضحاك عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ لكلِّ شيءٍ قلباً وإنَّ قلبَ القرآن «يس»، ومَن قرأها في ليلةٍ أُعطيَ يُسْرَ تلك الليلةِ، ومَن قرأها في يومٍ أُعطيَ يُسْرَ ذلك اليومِ، وإنَّ أهلَ الجنةِ يُرفَعُ عنهم القرآنُ فلا يقرؤون شيئاً إلَّا «طه» و«يس»»[٢].

وقال يحيى بنُ أبي كثير: بلغني أنَّ مَن قرأ سورة يس ليلاً لم يَزَلْ في فرحٍ حتى يُصبِحَ، ومَن قرأها حين يُصبِحُ لم يَزَلْ في فرحٍ حتى يُمسي؛ وقد حدَّثني مَن جَرَّبها[٣]. ذكره الثعلبيُّ وابنُ عطيةَ، قال ابن عطية[٤]: ويُصَدِّقُ ذلك التجربة.

وذكر الترمذيُّ الحكيم في «نوادر الأصول» عن عبد الأعلى قال: حدَّثنا محمد بن الصَّلت، عن عمرو بن ثابت، عن محمد بن مروان، عن أبي جعفر قال: مَن وَجَد في قلبه قساوةً فَلْيَكْتُبْ «يس» في جامٍ بزَعْفَران ثم يَشْرَبْه[٥].

حدَّثني أبي رحمه الله قال: حدَّثنا أَصْرَم بنُ حَوْشَب، عن بقيَّةَ بن الوليد، عن المعتمر بن أشرف، عن محمد بن عليٍّ قال: قال رسول الله ﷺ: «القرآنُ أفضلُ من كلِّ شيءٍ دونَ اللهِ، وفضلُ القرآنِ على سائرِ الكلامِ كَفَضْلِ اللهِ على خَلْقِه، فَمَن وَقَّرَ القرآنَ فقد وقَّر اللهَ، ومَن لم يوقِّر القرآنَ لم يوقِّر اللهَ، وحرمةُ القرآنِ عند الله كحرمةِ

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٨١.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٥ ، ولم نقف عليه عن غيره، وسلف بعضه، وسلف كلام الدارقطني: لا يصح في هذا الباب حديث.

(٣) أخرجه ابن الضريس في فضائل القرآن (٢١٨).

(٤) في المحرر الوجيز ٤/ ٤٤٥ ، والخبر فيه دون قوله: ومَن قرأها حين يصبح...

(٥) نوادر الأصول ص٣٣٥ ، وهو مقطوع على أبي جعفر، وهو محمد بن علي. وأخرجه البيهقي في الشعب (٢٤٦٨) من طريق الحسن بن الحسين العرني عن عمرو بن ثابت به. وعمرو بن ثابت قال فيه ابن معين: ليس بشيء، وقال مرة: ليس بثقة ولا مأمون. وقال النسائي: متروك. الميزان ٣/ ٢٤٩ .

الوالدِ على ولده. القرآنُ شافعٌ مشفَّع، وماحِلٌ[1] مصدَّق، فَمَن شَفَع له القرآنُ شُفِّع، ومَن مَحَل به القرآنُ صُدِّق، ومَن جَعَلَه أمامَه قاده إلى الجنة، ومَن جعله خَلْفَه ساقه إلى النار. وحَمَلةُ القرآن هم المحفوفون برحمة الله، الملبَسون نورَ الله، المعلَّمون كلامَ الله، مَن والاهم فقد والَى اللهَ، ومَن عاداهم فقد عادَى اللهَ، يقول الله تعالى: يا حَملةَ القرآنِ استجيبوا لربِّكم بتوقير كتابِه يَزِدْكم حبّاً ويحبِّبكم إلى عباده، يدفعُ عن مستمِعِ القرآن بَلْوَى الدنيا، و[يدفع عن تالي القرآنِ] بَلْوَى الآخرة، ومَن استمع آيةً من كتاب الله كان له أفضلَ ممَّا تحت العرشِ إلى التُّخوم، وإنَّ في كتابِ اللهِ لسورةً تُدْعَى العزيزة، ويُدْعَى صاحبُها الشريف، يومَ القيامةِ تَشْفَع لصاحبها في أكثرَ من ربيعةَ ومُضَرَ، وهي سورة يَس»[2].

وذكر الثعلبيُّ عن أبي هريرةَ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَن قرأ سورةَ يَس ليلةَ الجمعةِ أَصبح مغفوراً له»[3]. وعن أنسٍ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَن دخل المقابرَ فقرأ سورةَ يَس خفَّف الله عنهم يومئذٍ، وكان له بعددِ حُروفِها حسناتٌ»[4].

قوله تعالى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿يسٓ﴾ في «يس» أَوْجُهٌ من القراءات: قرأ أهلُ المدينة والكسائيُّ: ﴿يسٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ بإدغام النونِ في الواو. وقرأ أبو عمرو والأعمشُ وحمزةُ:

---

(١) أي: خصم مجادِل. النهاية (محل).

(٢) نوادر الأصول ص٣٣٥ – ٣٣٦ ، وما سلف بين حاصرتين منه، وأصرم بن حوشب قال فيه يحيى: كذاب خبيث، وقال البخاري ومسلم والنسائي: متروك. الميزان ١/ ٢٧٢ .

(٣) وأخرجه أيضاً البيهقي في الشعب (٢٤٧٧) بلفظ: «من قرأ ليلة الجمعة «حم» الدخان و«يس» أصبح...» وقال: تفرد به هشام (وهو ابن زياد) وهو ضعيف. اهـ وقال النسائي: متروك، وقال ابن حبان: يروي الموضوعات عن الثقات. الميزان ٤/ ٢٩٨ .

(٤) أخرجه الثعلبي في تفسيره ٨/ ١١٩ ، وفي إسناده ضعفاء ومجاهيل.

«يَس» بإظهارِ النون[١]. وقرأ عيسى بنُ عمر: «يَسَ» بنصبِ النون. وقرأ ابنُ عباس وابنُ أبي إسحاقَ ونصر بنُ عاصم: «يَسِ» بالكسر. وقرأ هارونُ الأعورُ ومحمد بنُ السَّمَيْفَع: «يَسُ» بضمِّ النون، فهذه خمسُ قراءاتٍ[٢].

القراءةُ الأولى بالإدغام على ما يجب في العربية؛ لأنَّ النونَ تُدغَم في الواو. ومَن بيَّن قال: سبيلُ حروفِ الهجاءِ أن يُوقَفَ عليها، وإنَّما يكونُ الإدغامُ في الإدراج.

وذَكَر سيبويه النصبَ وجعله من جِهَتَين: إحداهما: أنْ يكون مفعولاً، ولا يَصْرِفُه؛ لأنَّه عنده اسمٌ أَعجميٌّ بمنزلةِ هابيلَ، والتقدير: اذكُر يَس، وجعله سيبويه اسماً للسورة. وقولُه الآخَرُ: أنْ يكونَ مبنيّاً على الفتح، مثل: كيفَ وأينَ. وأمَّا الكَسْرُ فزَعَم الفرَّاءُ أنه مشبَّهٌ بقول العرب: جَيرِ لا أفعلُ[٣]، فعلى هذا يكون «يَسِ» قَسَماً. وقاله ابن عباس[٤].

وقيل: مشبَّهٌ بأمسِ وحَذَامِ وهؤلاءِ ورَقاشِ. وأمَّا الضمُّ فمشبَّهٌ بمنذُ وحيثُ وقطُّ، وبالمنادى المُفْرَدِ إذا قلتَ: يا رجلُ، لِمَن يقف عليه. قال ابنُ السَّمَيْفَع وهارونُ: وقد جاء في تفسيرها: يا رجلُ، فالأَوْلَى بها الضمُّ.

قال ابن الأنباريِّ: «يس» وقفٌ حَسْنٌ لمَن قال: هو افتتاحٌ للسورة. ومَن قال: معنى «يس»: يا رجلُ، لم يقف عليه[٥].

ورُوِيَ عن ابن عباسٍ وابن مسعود وغيرِهما أنَّ معناه: يا إنسان[٦]، وقالوا في

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٨١، وقد قرأ بإدغام النون ورش وأبو بكر وابن عامر والكسائي والباقون من السبعة بإظهارها. التيسير ص١٨٣، وينظر السبعة ص٥٣٨.

(٢) تنظر هذه القراءات في القراءات الشاذة ص١٢٤، والمحتسب ٢/ ٢٠٣.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٨١ - ٣٨٢، وقول سيبويه في الكتاب ٣/ ٢٥٨، وقول الفراء في معاني القرآن ٢/ ٣٧١. وجَيرِ بكسر الراء، وقد ينوَّن، وكأيْنَ: يمين، أي: حقّاً. القاموس (جير).

(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٩٨.

(٥) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٥٢.

(٦) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٩٨ عن ابن عباس رضي الله عنهما، ولم نقف عليه عن ابن مسعود. ووقع في (ظ): وروي عن ابن عباس وغيره أن...

قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ﴾ [الصافات: ١٣٠] أي: على آلِ محمدٍ.

وقال سعيد بن جبير: هو اسمٌ من أسماءِ محمدٍ ﷺ، ودليلُه: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾. قال السيدُ الحِمْيريُّ:

يا نفسُ لا تَمحَضي بالنُّصْحِ جاهدةً عَلَى المودَّةِ إلَّا آلَ ياسينَ[1]

وقال أبو بكرٍ الورَّاقُ: معناه: يا سيدَ البشر[2].

وقيل: إنَّه اسمٌ من أسماء الله؛ قاله مالك. روى عنه أشهبُ قال: سألته هل ينبغي لأحدٍ أنْ يَتَسمَّى بـ «يس»؟ قال: ما أُراه ينبغي؛ لقول الله: ﴿يسٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ يقول: هذا اسمي «يس». قال ابن العربيِّ[3]: هذا كلامٌ بديعٌ، وذلك أنَّ العبد يجوزُ له أنْ يَتَسمَّى باسمِ الربِّ إذا كان فيه معنىً منه، كقوله: عالم وقادر ومريد ومتكلِّم. وإنَّما مَنَع مالكٌ من التسمية بـ «يس»؛ لأنَّه اسمٌ من أسماء الله لا يُدْرَى معناه، فربَّما كان معناه ينفردُ به الربُّ فلا يجوزُ أن يُقْدِمَ عليه العبدُ. فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ﴾ [الصافات: ١٣٠] قلنا: ذلك مكتوبٌ بهجاءٍ فتجوزُ التسميةُ به، وهذا الذي ليس بمُتَهجًّى هو الذي تكلَّم مالكٌ عليه؛ لِمَا فيه من الإشكال، والله أعلم.

وقال بعضُ العلماء: افتتحَ الله هذه السورةَ بالياء والسِّينِ وفيهما مَجمعُ الخير، ودلَّ المُفْتَتَحُ على أنَّه قلبٌ، والقلبُ أميرٌ على الجسد، وكذلك «يس» أميرٌ على سائر السور، مُشتمِلٌ على جميع القرآن.

ثم اختلفوا فيه أيضاً[4]؛ فقال سعيد بنُ جُبير وعكرمةُ: هو بلُغةِ الحبشة. وقال الشَّعبيُّ: هو بلُغةِ طيِّئ.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٤٥ . والسيد الحميري هو إسماعيل بن محمد بن يزيد، أبو هاشم، من فحول الشعراء، توفي سنة (١٧٣هـ) وقيل غير ذلك. السير ٨/ ٤٤ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٥ .

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٥٩٦ ، وما قبله منه.

(٤) قوله: اختلفوا، يعني به الذين قالوا: معناه: يا إنسان، وهو مروي عن الحسن وعكرمة والضحاك وسعيد بن جبير كما ذكر الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٥ ، والكلام الذي سيأتي منه.

الحسن: بلُغةِ كَلْبٍ. الكلبيُّ: هو بالسريانيَّة، فتكلَّمتْ به العربُ، فصار من لغتهم. وقد مضى هذا المعنى في «طه»[١]، وفي مقدِّمة الكتاب مستوفىً[٢].

وقد سَرَدَ القاضي عياضٌ أقوالَ المفسِّرين في معنى «يس»، فحكى أبو محمدٍ مكِّي أنه رُويَ عن النبيِّ ﷺ قال: «لي عند ربِّي عشرةُ أسماءٍ» ذَكَر أنَّ منها: طه ويس اسمان له[٣].

قلت: وذَكَر الماورديُّ عن عليٍّ ﷺ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ الله تعالى سمَّاني في القرآن سبعةَ أسماءٍ: محمد، وأحمد، وطه، ويس، والمزَّمِّل، والمدثِّر، وعبد الله»[٤] قاله القاضي[٥]. وحَكَى أبو عبد الرحمن السُّلَميُّ عن جعفر الصادقِ أنه أراد: يا سيد[٦]، مُخاطَبةً لنبيِّه ﷺ.

وعن ابن عباس: «يس»: يا إنسانُ، أراد محمداً ﷺ[٧]، وقال: هو قَسَمٌ، وهو من أسماء الله سبحانه[٨].

وقال الزجَّاج: قيل: معناه: يا محمدُ، وقيل: يا رجلُ، وقيل: يا إنسان[٩].

وعن ابن الحنفية: «يس»: يا محمد[١٠].

---

(١) ٨/١٤ وما بعدها.

(٢) ١/١٠٩ .

(٣) الشفا ١/٤٤٨ ، وقد سلف الكلام على هذا الحديث ٩/١٤ .

(٤) النكت والعيون ٥/٥ ، وذكره ابن العربي في أحكام القرآن ٤/١٥٩٦ عن ابن عباس رضي الله عنهما وقال: وهذا حديث لا يصح. قال النووي في تهذيب الأسماء ٤/ ٢٠٠ بعد أن ذكر الحديث عن الماوردي: قوله: سماني عبد الله، يعني في قول الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩].

(٥) في الشفا ١/ ٤٥٠ ، ووقع في (خ) و(ظ): قال القاضي.

(٦) ذكره القاضي عياض في الشفا ١/ ٤٤٩ .

(٧) الوسيط ٣/ ٥٠٩ ، وأخرج الطبري ١٩/ ٣٩٨ عنه في قوله تعالى: «يس» قال: يا إنسان، بالحبشية.

(٨) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٩٨ .

(٩) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٧٧ .

(١٠) النكت والعيون ٥/ ٥ .

وعن كعبٍ: «يس» قَسَم أَقسم الله به قبل أن يخلق السماءَ والأرضَ بألفَيْ عام: يا محمد ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[1].

ثم قال: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ فإنْ قدِّر أنه من أسمائه ﷺ، وصحَّ فيه أنه قَسَمٌ، كان فيه من التعظيم ما تقدَّم، ويؤكِّدُ فيه القَسَمَ عَطْفُ القَسَمِ الآخَرِ عليه. وإن كان بمعنى النداءِ؛ فقد جاء قَسَمٌ آخَرُ بعده لتحقيقِ رسالته والشهادةِ بهدايته. أَقْسَم الله تعالى باسمه وكتابِه إنه لَمِن المرسلين بوَحْيِه إلى عباده، وعلى صراطٍ مستقيم من إيمانه، أي: طريقٍ لا اعوجاجَ فيه، ولا عدولَ عن الحقّ.

قال النقَّاش: لم يُقْسِم الله تعالى لأحدٍ من أنبيائه بالرسالة في كتابه إلَّا له، وفيه من تعظيمه وتمجيده على تأويل مَن قال: إنه يا سيِّد، ما فيه، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «أنا سيدُ وَلَدِ آدمَ»[2]. انتهى كلامُه.

وحكى القُشيريُّ: قال ابن عباس: قالت كفَّارُ قريشٍ: لستَ مُرْسَلاً، وما أَرْسَلكَ الله إلينا، فأقسمَ الله بالقرآن المُحْكَم: إنَّ محمداً من المرسلين.

و«الحكيم»: المُحْكَم حتى لا يتعرَّض لبطلانٍ وتَناقُض، كما قال: ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١]. وكذلك أُحْكِمَ في نَظْمِه ومَعانيه، فلا يَلْحَقُه خَلَل. وقد يكونُ «الحكيم» في حقِّ الله بمعنى المُحْكِم بكَسْرِ الكافِ، كالأليم بمعنى المؤلم.

﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: دينٍ مستقيم وهو الإسلام. وقال الزجَّاج[3]: على طريق الأنبياءِ الذين تَقَدَّموك، وقال: «إِنَّكَ لَمِن المُرْسَلينَ» خبرُ إنَّ، و«على صراطٍ مُسْتَقيم» خبرٌ ثانٍ، أي: إنَّك لَمِنَ المرسلين، وإنك على صراطٍ مستقيم.

وقيل: المعنى: لَمِنَ المرسلين على استقامة، فيكونُ قولُه: «على صراطٍ مُسْتَقيم»

(١) أخرجه ابن مردويه كما في الدر المنثور ٥/ ٢٥٨.

(٢) سلف ٤/ ٢٥٤.

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٢٧٧ - ٢٧٨.

من صِلَةِ المرسلين، أي: إنك لَمِنَ المرسلين الذين أُرْسِلوا على طريقةٍ مستقيمة، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ . صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣] أي: الصِّراطِ الذي أمر اللهُ به.

قوله تعالى: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قرأ ابنُ عامرٍ وحفصٌ والأعمشُ ويحيى وحمزةُ والكسائيُّ وخَلَفٌ: ﴿تَنزِيلَ﴾ بنَصْبِ اللامِ على المصدر[1]، أي: نزَّل الله ذلك تنزيلاً. وأضاف المصدرَ فصار معرفةً كقوله: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤] أي: فضَرْباً للرِّقاب. الباقون: ﴿تنزيلُ﴾ بالرفع على خبرِ ابتداءٍ محذوفٍ، أي: هو تنزيلُ، أو: الذي أُنزل إليك تنزيلُ العزيزِ الرحيم.

هذا وقُرئ: «تَنْزِيلِ» بالجرِّ على البَدَل من «القرآن»[2].

والتنزيلُ يَرجعُ إلى القرآن. وقيل: إلى النبيِّ ﷺ، أي: إنَّك لَمِن المرسَلين، وإنَّك تَنْزِيلُ الْعَزِيزِ الرَّحِيم. فالتنزيلُ على هذا بمعنى الإرسال؛ قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا . رَّسُولًا يَتْلُوا۟﴾ [الطلاق: ١٠-١١] ويقال: أَرْسَلَ الله المطرَ وأنزله بمعنى. ومحمدٌ ﷺ رحمةُ الله أنزلها[3] من السماء. ومَن نَصَبَ قال: إنَّك لَمِن المرسلين إرسالاً من العَزيز الرحيم.

و«العزيز»: المنتقم ممَّن خالفه، «الرَّحِيم» بأهل طاعته.

قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨﴾

قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ «ما» لا موضعَ لها من الإعراب عند

---

(١) السبعة ص٥٣٩، والتيسير ص١٨٣، والنشر ٢/ ٣٥٣.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٨٣، والكشاف ٣/ ٣١٤، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٢٤ لليزيدي.

(٣) في (خ): رحمة الله أرسلها. وفي (ظ): رحمة أنزلها الله.

أكثرِ أهلِ التفسير[١]، منهم قتادة[٢]؛ لأنَّها نفيٌ، والمعنى: لتُنْذِرَ قوماً ما أَتى آباءَهم قبلك نذير.

وقيل: هي بمعنى الذي، فالمعنى: لتنذرهم مثلَ ما أُنذر آباؤهم؛ قاله ابن عباس وعكرمةُ وقتادةُ أيضاً[٣]. وقيل: إنَّ «ما» والفعلَ مصدرٌ، أي: لتنذر قوماً إنذارَ آبائِهم.

ثم يجوز أن تكون العرب قد بلغتهم بالتواتُرِ أخبارُ الأنبياء، فالمعنى: لم يُنْذَروا برسولٍ من أنفسهم. ويجوز أن يكون بَلَغهم الخبرُ ولكنْ غَفِلوا وأَعْرَضوا ونَسُوا.

ويجوز أن يكون هذا خطاباً لقومٍ لم يبلغهم خبرُ نبيٍّ، وقد قال الله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ [سبأ: ٤٤] وقال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [السجدة: ٣] أي: لم يأتهم نبيٌّ. وعلى قولِ مَن قال: بلغهم خبرُ الأنبياء، فالمعنى: فهم مُعْرِضون الآن مُتَغافِلون عن ذلك، ويقال للمُعْرِضِ عن الشيء: إنه غافلٌ عنه. وقيل: ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ عن عقاب الله.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾ أي: وَجَب العذابُ على أكثرهم ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بإنذارك. وهذا فيمَن سَبَقَ في علم الله أنه يموتُ على كفره.

ثم بيَّن سببَ تَرْكِهم الإيمانَ فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾. قيل: نزلت في أبي جهل بن هشام وصاحِبَيْه المخزوميَّيْنِ، وذلك أنَّ أبا جهلٍ حلف لئن رأى محمداً يُصلِّي لَيَرضَخنَّ رأسَه بحجر، فلمَّا رآه ذهب فرفع حجراً ليرميه، فلمَّا أَوْمأَ إليه رَجَعتْ يدُه إلى عنقه، والتَصقَ الحجر بيده؛ قاله ابن عباس وعكرمةُ وغيرُهما، فهو على هذا تمثيلٌ، أي: هو بمنزلةِ مَن غُلَّتْ يدُه إلى عنقه. فلمَّا عاد إلى أصحابه أخبرهم بما رأى، فقال الرجل الثاني وهو الوليد بنُ المغيرة: أنا أَرْضَخُ رأسَه. فأتاه وهو يصلِّي

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٨٣.

(٢) أخرجه الطبري ١٩/ ٤٠١ - ٤٠٢.

(٣) أخرجه عن عكرمة الطبري ١٩/ ٤٠١، وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٤٦، ولم نقف عليه عن ابن عباس وقتادة.

على حالته ليرميَه بالحجر، فأَعمى الله بصره، فجعل يسمع صوته ولا يراه، فرجع إلى أصحابه فلم يَرَهُم حتى نادَوْه، فقال: واللهِ ما رأيتُه، ولقد سمعتُ صوتَه! فقال الثالث: واللهِ لأَشْدَخَنَّ أنا رأسَه. ثم أخذ الحجر وانطلق، فرجع القَهْقَرَى ينكُصُ على عَقِبَيْه حتى خَرَّ على قَفَاه مَغْشِيّاً عليه. فقيل له: ما شأنُك؟ قال: عظيم[1]! رأيتُ الرجلَ، فلمَّا دنوتُ منه، وإذا فَحْلٌ يَخطِرُ بذَنَبِه؛ ما رأيتُ فحلاً قطُّ أعظمَ منه؛ حالَ بيني وبينَه، فَوَاللَّاتِ والعُزَّى لو دنوتُ منه لَأَكَلَني! فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾[2].

وقرأ ابن عباس: «إِنَّا جَعَلْنَا في أيمانِهِم». وقال الزجَّاج: وقُرِئَ: «إنَّا جَعَلْنا في أيديهِم». قال النحاس[3]: وهذه القراءةُ تفسيرٌ، ولا يُقرأ بما خالفَ المصحَفَ. وفي الكلام حذفٌ على قراءةِ الجماعة، التقدير: إنَّا جعلنا في أعناقهم وفي أيديهم أغلالاً فهي إلى الأذقان، فهي كنايةٌ عن الأيدي لا عن الأعناق، والعربُ تَحذفُ مثلَ هذا، ونظيره: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل:٨١] وتقديرُه: وسرابيل تقيكم البرد، فحذف؛ لأنَّ ما وَقَى من الحرِّ وَقَى من البرد؛ لأنَّ الغُلَّ إذا كان في العنق فلا بدَّ أن يكون في اليد، ولاسيَّما وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ فقد عُلم أنَّه يُراد به الأيدي[4] ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ أي: رافِعو رؤوسِهِم لا يستطيعون الإطراقَ؛ لأنَّ مَن غُلَّتْ يدُه إلى ذَقْنِه ارتَفَعَ رأسُه. روى عبد الله بن يحيى: أنَّ علي بن أبي طالب عليه السلام أراهم الإقماحَ، فجعل يديهِ تحت لحيته وأَلْصَقَهما ورفع رأسه. قال النحاس[5]: وهذا أَجَلُّ ما رُوي فيه، وهو مأخوذٌ ممَّا حكاه الأصمعيُّ؛ قال: يقال:

(١) في (م): قال شأني عظيم.

(٢) بنحوه في سيرة ابن هشام ١/ ٢٩٨ - ٢٩٩، وتفسير الطبري ١٩/ ٤٠٦ - ٤٠٧، ودلائل النبوة لأبي نعيم (١٥٢) و(١٥٣) و(١٥٦)، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٨٣ - ٣٨٤، وتفسير البغوي ٤/ ٦.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٣٨٤، وما قبله منه، وقول الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٢٧٩.

(٤) في إعراب القرآن: فقد أعلم الله عز وجل أنها يراد بها الأيدي.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٣٨٤، وما قبله منه، وخبر علي ﷺ أخرجه مطولاً الطبراني في الأوسط (٣٩٤٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ١٣١: فيه جابر الجعفي، وهو ضعيف.

أَقْمَحْتُ[1] الدابةَ: إذا جَذَبْتَ لِجامَها لترفع رأسها. قال النحاس: والقافُ مُبْدَلةٌ من الكاف لقُرْبِها منها. كما يقال: قَهَرْتُه وكَهَرْتُه.

قال الأصمعِيُّ: يقال: أَكْمَحْتُ الدابَّةَ: إذا جَذَبْتَ عِنانَها حتى يَنْتَصِبَ رأسُها، ومنه قول الشاعر:

... والـرأسُ مُـكـمَـحُ[2]

ويقال: أَكْمحتُها وأَكْفَحْتُها وكَبَحْتُها، هذه وحدَها بلا ألفٍ عن الأصمعيّ[3]. وقَمَح البعيرُ قُمُوحاً: إذا رفع رأسَه عند الحوضِ وامتنع من الشُّرْب، فهو بعيرٌ قامِحٌ و[الجمع]: قُمَّح؛ يقال: شَرِب فتَقَمَّحَ وانْقَمَحَ بمعنىً: إذا رفع رأسَه وترك الشُّرب رِيّاً. وقد قامَحَتْ إبلُك: إذا وَرَدَتْ ولم تشرب، ورَفَعتْ رأسَها من داءٍ يكونُ بها أو بردٍ، وهي إبلٌ مُقامِحَةٌ، وبعيرٌ مُقامِحٌ، وناقةٌ مُقامحٌ أيضاً، والجمع قِمَاحٌ على غير قياس؛ قال بشرٌ يصفُ سفينةً:

ونـحـن عـلـى جَـوانـبـهـا قُـعُـودٌ نَـغُـضُّ الـطَّـرْفَ كـالإبـلِ الـقِـمَـاحِ[4]

والإقماح: رفعُ الرأسِ وغضُّ البصر؛ يقال: أَقْمَحه الغُلُّ: إذا ترك رأسَه مرفوعاً مِن ضِيقِه. وشَهْرَا قماح[5]: أشدُّ ما يكون من البرد، وهما الكانونان، سمِّيا بذلك لأنَّ

---

(١) في إعراب القرآن: أكمحت. وكذا نقله الجوهري في الصحاح (كمح) عن الأصمعي على ما يأتي.

(٢) البيت لذي الرُّمَّة، وهو في ديوانه ٢/ ١٢٢١، والكلام من الصحاح (كمح)، ورواية البيت في الديوان: تموجُ ذراعاها وترمي بجَوْزها حِذاراً من الإيعاد والرأسُ مُكْفَحُ

قال أبو نصر الباهلي شارح الديوان: جَوْزُها: وَسَطُها. وقوله: تموج ذراعاها، يقول: ليست بلازقتين بالجنب. ومُكْفَح: مرفوع. وفي اللسان(كمح): وأراد الشاعر بقوله: الإيعاد، ضربُه لها بالسوط، فهي تجتهد في عَدْوِها لخوفها من سوطه.

(٣) الصحاح (كبح). قوله: أكفحت، يقال: أكفحتُ الدابة: إذا تلقيتَ فاه باللجام تضربه به ليلتقمه. وكبحت الدابة: إذا جذبتَها إليك باللجام لكي تقف ولا تجري. الصحاح (كفح) و(كبح).

(٤) ديوان بشر بن أبي خازم ص٩١، والصحاح (قمح)، والكلام وما سلف بين حاصرتين منه.

(٥) كِكتاب وغُراب. القاموس (قمح).

الإبلَ إذا وردت آذاها بردُ الماءِ فقامَحتْ رؤوسَها[١]، ومنه قَمِحْتُ السَّوِيق[٢].

وقيل: هو مَثَلٌ ضَرَبَه الله تعالى لهم في امتناعهم من الهدى كامتناعِ المغلولِ [من التصرُّف]؛ قاله يحيى بن سلام وأبو عبيدة[٣]. وكما يقال: فلانٌ حمار، أي: لا يُبْصِرُ الهُدَى. وكما قال:

لـهـم عـن الـرُّشْـدِ أغـلالٌ وأقـيـادُ[٤]

وفي الخبر: أنَّ أبا ذؤيبٍ كان يَهْوَى امرأةً في الجاهلية، فلمَّا أسلم راوَدَتْه، فأَبَى وأنشأ يقول:

فـلـيـس كـعـهـدِ الـدارِ يـا أُمَّ مَـالـكٍ ... ولـكـن أحـاطـت بـالـرقـاب الـسَّـلاسِـلُ
وعـاد الـفـتـى كـالـكَـهْـلِ لـيـس بـقـائـلٍ ... سِوى العدلِ شيئاً فاستراحَ العَواذِلُ[٥]

أراد: مُنِعْنَا بموانعِ الإسلامِ عن تَعَاطي الزِّنى والفسق.

وقال الفراء أيضاً[٦]: هذا ضَرْبُ مَثَلٍ، أي: حبسناهم عن الإنفاق في سبيل الله،

(١) الصحاح (قمح) دون قوله: رؤوسها.

(٢) قمح السَّوِيق (كسمع): رفع رأسه لسفِّه، والسَّوِيق: طعام يُتخذ من مدقوق الحنطة والشعير، سمي بذلك لانسياقه في الحلق. (المعجم الوسيط).

(٣) النكت والعيون ٥/ ٧، وما سلف بين حاصرتين منه، ولم يذكر أبا عبيدة، ولم نقف على هذا القول في مجاز القرآن لأبي عبيدة.

(٤) البيت للأَفْوَه الأَوْديّ صلاءة بن عمرو بن الحارث، كما في الحماسة البصرية ٢/ ٦٩، وصدره: كيف الرشاد إذا ما كنت من نفر، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٨٥.

(٥) البيتان في ديوان الهذليين ٢/ ١٥٠، وشرح أشعار الهذليين ٣/ ١٢٢٣ وسيرة ابن هشام ٢/ ٤٧٣، والكامل ٢/ ٥٦٥، والبيت الثاني في العمدة لابن رشيق ص٢٧٨، وقائلهما أبو خراش وليس أبا ذؤيب كما ذكر المصنف، وقد سلف الأول منهما ٦/ ١٩٩. قوله: فاستراح العواذل، أي: لأنهن لا يجدن ما يعذِلْنَ فيه سوى العدل، أي: سوى الحق. وقصة البيتين كما ذكر في المصادر السالفة أن جميل بن معمر الجمحي قتل قريباً لأبي خراش كان في ضمن الأسرى يوم حنين، فقال أبو خراش هذه الأبيات في رثائه، وهذا يخالف ما ذكره المصنف. وقوله: فليس كعهد الدار...، شرحوه أيضاً بخلاف ما سيشرحه فقال ابن رشيق: يقول: نحن من عهد الإسلام في مثل السلاسل، وإلا فكنا نقتل قاتله.

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٣٧٣.

وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩]، وقاله الضحاك[١].

وقيل: إنَّ هؤلاء صاروا في الاستكبار عن الحقِّ كَمَن جُعل في يده غُلٌّ فجمعت إلى عنقه، فبقي رافعاً رأسَه لا يَخفضُه، وغاضّاً بصرَه لا يفتحُه. والمتكبِّرُ يوصف بانتصابِ العنق.

وقال الأزهريُّ[٢]: إنَّ أيديَهم لمَّا غُلَّت عند أعناقهم؛ رَفعت الأغلالُ أذقانَهم ورؤوسَهم صُعُداً؛ كالإبل ترفع رؤوسَها.

وهذا المنعُ بخَلْقِ الكُفْرِ في قلوبِ الكفَّار. وعند قومٍ: بسَلْبِهم التوفيقَ عقوبةً لهم على كفرهم.

وقيل: الآيةُ إشارةٌ إلى ما يُفعَل بأقوامٍ غداً في النار من وضعِ الأغلالِ في أعناقهم والسلاسلِ، كما قال تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ [غافر: ٧١] وأَخْبرَ عنه بلَفْظِ الماضي.

﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ تقدَّم تفسيرُه. وقال مجاهد: «مُقْمَحُونَ»: مُغلَّلون عن كلِّ خير[٣].

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝١١﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ قال مقاتل: لمَّا عاد أبو جهلٍ إلى أصحابه، ولم يَصِلْ إلى النبيِّ ﷺ، وسقط الحجر من يده، أخذ الحجرَ رجلٌ آخَرُ من بني مخزوم وقال: أنا أقتلُه بهذا الحجر. فلمَّا دنا من النبيِّ ﷺ؛ طَمَسَ الله على بصره فلم يَرَ النبيَّ ﷺ، فرجع إلى أصحابه فلم يُبْصِرهم حتى نادَوْه، فهذا

(١) أخرجه الخرائطي في مساوئ الأخلاق (٣٦٢).

(٢) في تهذيب اللغة ٤/ ٨٢.

(٣) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٣٩ ، والطبري ١٩/ ٤٠٤ عن قتادة، ولم نقف عليه عن مجاهد.

معنى الآية[١].

وقال محمد بن إسحاق في روايته: جلس عتبةُ وشيبةُ ابنا ربيعةَ، وأبو جهلٍ وأميةُ ابن خَلَفٍ، يُراصِدون النبيَّ ﷺ ليبلُغوا مِن أذاه، فخرج عليهم عليه الصلاة والسلام وهو يقرأ «يس» وفي يده ترابٌ، فرماهم به وقرأ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ فأطرقوا حتى مرَّ عليهم عليه الصلاة والسلام[٢]. وقد مضى هذا في سورة سبحان[٣]، ومضى في «الكهف» الكلامُ في «سَدّاً» بضم السين وفتحها[٤]، وهما لغتان.

﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾ أي: غطَّينا أبصارهم، وقد مضى في أول «البقرة»[٥]. وقرأ ابن عباس وعكرمةُ ويحيى بن يعمر: «فأعشيناهم» بالعين غيرِ مُعْجمةٍ[٦] من العَشا في العين، وهو ضَعْفُ بصرِها حتى لا تُبْصِر بالليل، قال:

متى تأتِهِ تَعْشُو إلى ضَوْءِ نارِهِ[٧]

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الآية [الزخرف:٣٦]، والمعنى متقارِبٌ. والمعنى: أعميناهم، كما قال:

ومن الحوادثِ لا أَبَالَكَ أنَّني ضُرِبَتْ عليَّ الأرضُ بالأَسْدَادِ
لا أهتدي فيها لموضعِ تَلْعَةٍ بين العُذَيْبِ وبينَ أرضِ مُرَادِ[٨]

(١) ذكره عن مقاتل أبو الليث في تفسيره ٣/ ٩٣ - ٩٤ ، وسلف مطولاً ص٤١٢-٤١٣ من هذا الجزء.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٨٥ ، وبنحوه في سيرة ابن هشام ١/ ٤٨٣ .

(٣) ١٣/ ٩٢ .

(٤) ١٣/ ٣٨٣ .

(٥) ١/ ٢٩١ .

(٦) القراءات الشاذة ص١٢٤ ، والمحتسب ٢/ ٢٠٤ .

(٧) صدر بيت للحطيئة، وعجزه: تَجِدْ خيرَ نارٍ عندها خيرُ مُوْقِدِ. وهو في ديوانه ص١٦١ ، وسلف ٤/ ٤٩١ .

(٨) البيتان للأسود بن يَعْفُر النهشلي كما في المفضليات ص٢١٦ ، ومنتهى الطلب من أشعار العرب =

﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أي: الهُدَى؛ قاله قتادة[١]. وقيل: محمداً حين ائْتَمروا على قتله؛ قاله السُّدِّي[٢].

وقال الضحَّاك: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾ أي: الدنيا ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ أي: الآخرة، أي: عَمُوا عن البعث، وعَمُوا عن قبولِ الشرائعِ في الدنيا؛ قال الله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت: ٢٥] أي: زيَّنوا لهم الدنيا، ودَعَوْهم إلى التكذيب بالآخرة، وقيل: على هذا «مِن بينِ أيديهم سدّاً»، أي: اغتروا[٣] بالدنيا، «ومِن خَلْفِهم سدّاً» أي: كذبوا[٤] بالآخرة. وقيل: «ما بين أيديهم»: الآخرة، «وما خَلْفهم»[٥]: الدُّنيا.

﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ تقدَّم في «البقرة»، والآيةُ ردٌّ على القَدَرية وغيرِهم[٦].

وعن ابن شهاب: أنَّ عمر بنَ عبد العزيز أَحْضَرَ غيلانَ القَدَريَّ فقال: يا غيلانُ، بَلَغني أنَّك تتكلَّم بالقَدَر، فقال: يكذبون عليَّ يا أميرَ المؤمنين. ثم قال: يا أميرَ المؤمنين، أرأيتَ قولَ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢-٣] فقال: اقرأ يا غيلانُ، فقرأ حتى انتهى إلى قوله: ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٩] فقال: اقرأ، فقرأ: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾ فقال: واللهِ يا أميرَ المؤمنين، إنْ شعرتُ أنَّ

= ١/ ٤١٥ ، والاختيارين ص٥٥٩ ، وفيه: التَّلْعة: المسيل من الرابية إلى الوادي، والجمع: تِلاع. وقد سلف البيت الأول ١٣/ ٢٢٠ .

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٤٠٦ .

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٨ . وأخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٥/ ٢٥٩ .

(٣) في (م): اغترارا.

(٤) في (م): تكذيبا.

(٥) في (م): من بين أيديهم... ومن خلفهم.

(٦) ينظر ما سلف ١/ ٢٨١ و٢٨٥ .

هذا في كتابِ اللهِ قطُّ! فقال له: يا غيلان، اقرأ أوَّلَ سورةِ يس، فقرأ حتى بلغ: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فقال غيلان: والله يا أميرَ المؤمنين، لكأنِّي لم أقرأها قطُّ قَبْلَ اليوم! اشْهَدْ يا أمير المؤمنين أنِّي تائبٌ. فقال عمر: اللهمَّ إن كان صادقاً فتُبْ عليه وثَبِّته، وإن كان كاذباً فسَلِّطْ عليه مَن لا يرحمُه، واجْعَلْه آيةً للمؤمنين. فأخذه هشامٌ فقطع يديه ورجليه وصَلَبه. قال ابنُ عَوْن: فأنا رأيتُه مصلوباً على بابِ دمشقَ، فقلنا: ما شأنُك يا غيلان؟ فقال: أصابتني دعوةُ الرجلِ الصالحِ عمرَ بنِ عبد العزيز[1].

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ يعني القرآنَ، وعَمِلَ به ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾ أي: ما غاب من عذابه ونارِه؛ قاله قتادة[2]. وقيل: أي: يخشاه في مَغِيبِه عن أبصارِ الناسِ وانفرادِه بنفسه. ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ أي: لذَنْبه ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ أي: الجنة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴿١٢﴾﴾

فيه أربعُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾ أَخْبَر تعالى بإحيائه الموتى ردّاً على الكَفَرة. وقال الضحَّاك والحسن: أي: نُحْييهم بالإيمان بعد الجهل[3]. والأولُ أَظْهَر؛ أي: نُحييهم بالبعث للجزاء.

---

(١) بنحوه في السنة لعبد الله بن أحمد ص١٤٥ - ١٤٦، والشريعة للآجري ص٢٢٨ - ٢٢٩، وشرح أصول الاعتقاد ٤/ ٧٨٨، وتاريخ مدينة دمشق ٤٨/ ٢٠٨ - ٢٠٩. وقول ابن عون (وهو عبد الله بن عون) أخرجه أيضاً أحمد (٥٨٨١) مختصراً بذكر الصلب. وغيلان هو ابن أبي غيلان، أبو مروان، كان من بلغاء الكتّاب، وكان الأوزاعي هو الذي ناظره وأفتى بقتله. لسان الميزان ٤/ ٤٢٤.

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٨.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٩ عن الضحاك، وذكر الزمخشري في الكشاف ٣/ ٣١٦ عن الحسن قوله: إحياؤهم أن يخرجهم من الشرك إلى الإيمان.

ثم توعَّدهم بذِكْرِه كَتْبَ الآثارِ ـ وهي :

الثانية ـ وإحصاءَ كلِّ شيءٍ وكلِّ ما يصنعُه الإنسان. قال قتادةُ: معناه: مِن عَمَلٍ. وقاله مجاهدٌ وابنُ زيد(١). ونظيرُه قولُه: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ٥] وقولُه: ﴿يُنَبَّؤُا الْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣]. وقال: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ فآثارُ المرءِ التي تَبْقَى وتُذْكَرُ بعد الإنسانِ من خيرٍ أو شرٍّ يُجازَى عليها: من أثرٍ حَسَنٍ، كعِلْمٍ علَّموه، أو كتابٍ صنَّفوه، أو حبيسٍ احْتَبَسوه، أو بناءٍ بَنَوْه: من مسجدٍ أو رِباطٍ أو قَنْطَرةٍ أو نحوِ ذلك. أو سَيِّئٍ، كوظيفةٍ وظَّفها بعضُ الظُّلَّام على المسلمين، وسِكَّةٍ أَحْدَثَها فيها تَخْسيرُهُم، أو شيءٍ أَحْدَثَه فيه صدٌّ عن ذِكْرِ اللهِ من ألحانٍ ومَلَاهٍ. وكذلك كلُّ سُنَّةٍ حسنةٍ أو سيئةٍ يُسْتَنُّ بها.

وقيل: هي آثارُ المشَّائين إلى المساجد. وعلى هذا المعنى تَأَوَّلَ الآيةَ عمرُ وابن عباس وسعيد بن جُبير(٢). وعن ابن عباسٍ أيضاً أنَّ معنى: «وَآثَارَهُمْ»: خُطاهم إلى المساجد. قال النحاس(٣): وهذا أَوْلَى ما قيل فيه؛ لأنه قال: إنَّ الآيةَ نزلت في ذلك؛ لأنَّ الأنصار كانت منازلُهم بعيدةً عن المسجد. وفي الحديث مرفوعاً إلى النبيِّ ﷺ قال: «يُكتبُ له بِرِجْلٍ حسنةٌ، وتُحطُّ عنه بِرِجْلٍ سيئةٌ، ذاهباً وراجعاً إذا خرج إلى المسجد»(٤).

قلت: وفي الترمذيِّ عن أبي سعيد الخُدْريِّ قال: كانت بنو سَلِمةَ في ناحيةِ المدينةِ، فأرادوا النُّقلَةَ إلى قُرْبِ المسجدِ، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ آثارَكم تُكْتَبُ» فلم ينتقلوا. قال:

---

(١) أخرج قولهم الطبري ١٩/ ٤٠٨ - ٤٠٩ .

(٢) أخرجه عن ابن عباس ابن ماجه (٧٨٥) والطبري ١٩/ ٤٠٩ ، ولم نقف عليه عن عمر وسعيد بن جبير.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٣٨٦ ، وما قبله منه.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٨٦ ، وأخرجه بنحوه أحمد (٦٥٩٩) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما. وله شاهد من حديث أبي هريرة ﷺ عند مسلم (٦٦٦) ، وسلف ١٥/ ٢٨٨ . وآخر من حديث أبي هريرة أيضاً عند البخاري (٦٤٧)، وثالث من حديث عقبة بن عامر عند أحمد (١٧٤٤٠)، والطبراني في الكبير ١٧/ (٨٣١).

هذا حديثٌ [حسنٌ] غريبٌ من حديث الثوريّ[1].

وفي «صحيح» مسلم عن جابر بن عبد الله قال: أراد بنو سَلِمةَ أن يتحوَّلوا إلى قُرْبِ المسجدِ، قال: والبِقاعُ خاليةٌ، قال: فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ فقال: «يا بني سَلِمةَ، ديارَكم تُكتَبْ آثارُكم، ديارَكم تُكْتَبْ آثارُكم» فقالوا: ما كان يَسرُّنا أنّا كنّا تَحوَّلْنا[2].

وقال ثابت البُنَانيُّ: مَشَيتُ مع أنس بن مالكٍ إلى الصلاة فأسرعتُ، فَحبَسني، فلمَّا انقضت الصلاة [قال لي: مشيتُ مع زيد بن ثابت إلى الصلاة، فأسرعتُ في مشيي فحبَسني، فلمَّا انْقَضَت الصلاةُ] قال: مشيتُ مع النبيِّ ﷺ فأسرعتُ فحبسني، فلمَّا انقضت الصلاةُ قال: «أمَا علمتَ أنَّ الآثار تُكتَب» فهذا احتجاجٌ بالآية[3].

وقال قتادةُ ومجاهدٌ أيضاً والحسن: الآثارُ في هذه الآية: الخُطَا. وحكى الثعلبيُّ عن أنس أنه قال: الآثارُ هي الخُطَا إلى الجمعة[4]. وواحدُ الآثارِ أثَر، ويقال: أَثْر.

الثالثة: في هذه الأحاديثِ المفسِّرةِ لمعنى الآيةِ دليلٌ على أنَّ البُعْدَ من المسجد أفضلُ، فلو كان بجوار مسجدٍ؛ فهل له أن يُجاوِزَه إلى الأَبْعَدِ؟ اختُلف فيه؛ فروي عن أنس أنه كان يُجاوزُ المُحدَثَ إلى القديم. وروي عن غيره: الأبعدُ فالأبعد من المسجد أعظمُ أَجْراً. وكره الحسن وغيرُه هذا، وقال: لا يَدَعُ مسجداً قُرْبَه ويأتي غيرَه. وهذا مذهبُ مالك، وفي تَخَطِّي مسجدِه إلى المسجد الأعظم قولان[5].

---

(١) سنن الترمذي (٣٢٢٦)، وما بين حاصرتين منه، وهو موافق لما في تحفة الأشراف ٣/ ٤٦٦ ، وتحفة الأحوذي ٩/ ٩٥ .

(٢) صحيح مسلم (٦٦٥): (٢٨١)، وهو عند أحمد بنحوه (١٤٥٦٦). وأخرج نحوه البخاري (٦٥٥) و(٦٥٦) من حديث أنس ﷺ.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٤٤٨ ، وما سلف بين حاصرتين منه، والخبر أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٤٥٨)، والعقيلي في الضعفاء ٢/ ٢١٩ ، وفي إسناده الضحاك بن نبراس، قال فيه ابن معين فيما ذكر العقيلي: ليس بشيء. وأخرجه الطبراني في الكبير بإسناد آخر من طريق محمد بن ثابت البناني عن أبيه به، ومحمد بن ثابت قال فيه البخاري: فيه نظر، وقال ابن معين: ليس بشيء، وقال النسائي: ضعيف. الميزان ٣/ ٤٩٥ . وأخرجه الطبري ١٩/ ٤١٠ بإسناد آخر عن ثابت عن أنس عن زيد ﷺ موقوفاً.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٤٤٨ ، وأخرجه عن الحسن ومجاهد وقتادة الطبري ١٩/ ٤١١ . وعلقه البخاري عن مجاهد إثر الحديث (٦٥٥).

(٥) المفهم ٢/ ٢٩٢ .

وخرَّج ابن ماجه من حديثِ أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاةُ الرجلِ في بيته بصلاةٍ، وصلاتُه في مسجدِ القبائلِ بخَمْسٍ وعشرينَ صلاةً، وصلاتُه في المسجد الذي يُجمَّع فيه بخمسِ مئةِ صلاةٍ»(١).

الرابعة: «ديارَكم» منصوبٌ على الإغراء، أي: اِلْزَموا، و«تُكْتَبْ»جزمٌ على جوابِ ذلك الأمر(٢).

«وكُلَّ» نصبٌ بفعلٍ مضمَرٍ يدلُّ عليه «أحصيناه»، كأنه قال: وأحصينا كلَّ شيءٍ أحصيناه(٣). ويجوزُ رَفْعُه بالابتداء، إلَّا أنَّ نَصْبَه أَوْلَى؛ ليُعْطَفَ ما عَمِلَ فيه الفعلُ على ما عَملَ فيه الفعل. وهو قولُ الخليل وسيبويه(٤).

والإمام: الكتابُ المُقتَدَى به الذي هو حجة. وقال مجاهدٌ وقتادةُ وابن زيد: أراد اللوحَ المحفوظ. وقالت فرقةٌ: أراد صحائفَ الأعمال(٥).

قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ هذه القريةُ هي

---

(١) سنن ابن ماجه (١٤١٣). وإسناده ضعيف كما ذكر البوصيري في مصباح الزجاجة ١/ ٢٥٢. قوله: يُجمَّع بالتشديد، أي: يصلَّى فيه الجمعة. النهاية (جمع).

(٢) المفهم ٢/ ٢٩٢.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٤٤٨.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٨٧.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٤٤٨.

أَنْطاكِيَةُ في قولِ جميعِ المفسِّرين، فيما ذَكَر الماوَرْدِيُّ[١]. نُسِبَتْ إلى أهلِ أنطبيسَ، وهو اسمُ الذي بناها، ثم غُيِّر لمَّا عُرِّبَ؛ ذكره السُّهيليُّ[٢]. ويقال فيها: أنتاكِيَة؛ بالتاء بَدَلَ الطاء.

وكان بها فرعون يقال له: أنطيخس بن أنطيخس يعبد الأصنام؛ ذَكَره المَهْدَويُّ، وحكاه أبو جعفر النحاس[٣] عن كعبٍ ووَهْبٍ. فأرسل الله إليه ثلاثةً: وهم صادقٌ وصدوقٌ، وشلوم هو الثالث. هذا قولُ الطبريِّ[٤]. وقال غيرُه: شمعون ويوحنَّا. وحكى النقَّاش: سمعان ويحيى[٥]، ولم يذكرُوا صادقاً ولا صدوقاً.

ويجوز أن يكون «مَثَلاً» و«أصحابَ القريةِ» مفعولَيْنِ لـ «اضْرِبْ»، أو «أصحابَ القريةِ» بدلاً من «مَثَلاً» أي: اضْرِبْ لهم مثلاً مثلَ[٦] أصحابِ القريةِ، فحذف المضاف.

أُمر النبيُّ ﷺ بإنذارِ هؤلاءِ المشركين أنْ يَحِلَّ بهم ما حَلَّ بكفَّارِ أهلِ القريةِ المبعوثِ إليهم ثلاثةُ رسلٍ. قيل: رسلٌ من الله على الابتداء. وقيل: إنَّ عيسى بعثهم إلى أنطاكِيَةَ للدعاء إلى الله، وهو قولُه تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ﴾، وأضاف الربُّ ذلك إلى نفسه؛ لأنَّ عيسى أرسلهما بأمر الربِّ، وكان ذلك حين رُفع عيسى إلى السماء. ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ قيل: ضربوهما وسجنوهما. ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ أي: فقوَّيْنا وشَددنا الرسالةَ بثالث.

---

(١) في النكت والعيون ٥/ ١٠ .

(٢) في التعريف والإعلام ص١٤٣ ، وفيه: أنطيقس، بدل: أنطبيس.

(٣) في معاني القرآن ٥/ ٤٨٣ .

(٤) في التفسير ١٩/ ٤١٤ .

(٥) قول النقاش والقول الذي قبله ذكرهما الماوردي في النكت والعيون ٤/ ١٠ .

(٦) في (م): اضرب لهم مثل، وفي (ظ): اضرب لهم مثلاً، والمثبت من باقي النسخ ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٠١ ، والكلام منه. وقال مكي: فالمثل الثاني بدل من الأول.

وقرأ أبو بكر عن عاصم: ﴿فعَزَزْنا بثالثٍ﴾ بالتخفيف، وشدَّد الباقون[١]. قال الجوهريُّ[٢]: وقولُه تعالى: ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ يُخفَّفُ ويُشَدَّد، أي: قوَّينا وشدَّدنا. قال الأصمعيُّ: أنشدني فيه أبو عمرو بن العلاء للمتلمِّس:

أُجُدٌ إذا رُحِلَتْ تَعَزَّزَ لحمُها ... وإذا تُشَدُّ بِنِسْعِها لا تَنْبِسُ[٣]

أي: لا تَرْغُو. فعَلَى هذا تكونُ القراءتان بمعنىً.

وقيل: التخفيفُ بمعنى: غَلَبنا وقَهَرْنا، ومنه: ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾[٤] [ص:٢٣]. والتشديدُ بمعنى: قوَّينا وكثَّرنا.

وفي القصة: أنَّ عيسى أَرْسَلَ إليهم رسولَيْنِ، فلَقِيا شيخاً يَرْعَى غُنيماتٍ له، وهو حبيبٌ النجارُ صاحبُ «يس»، فدعَوْه إلى الله وقالا: نحن رسولا عيسى ندعوك إلى عبادة الله. فطالَبَهما بالمعجزة، فقالا: نحن نَشْفي المرضَى، وكان له ابنٌ مجنون. وقيل: مريضٌ على الفراش، فمسحاه، فقام بإذن الله صحيحاً، فآمَنَ الرجلُ بالله ـ وقيل: هو الذي جاء من أَقْصَى المدينةِ يَسْعَى ـ ففشا أمرُهما، وشَفَيا كثيراً من المرضى، فأرسل الملكُ إليهما ـ وكان يعبدُ الأصنامَ ـ يَستَخْبِرُهُما، فقالا: نحن رسولا عيسى. فقال: وما آيتُكما؟ قالا: نُبْرِئُ الأَكْمهَ والأَبْرصَ ونُبرِئُ المريضَ بإذن الله، وندعوك إلى عبادة اللهِ وحدَه، فهَمَّ الملكُ بضَرْبِهما. وقال وهب: حَبَسهما

---

(١) السبعة ص٥٣٩، والتيسير ص١٨٣.

(٢) في الصحاح (عزز).

(٣) غريب الحديث لابن قتيبة ٢/ ٧٩، وجمهرة اللغة ١/ ٢٩٠، والصحاح (عزز)، والكلام منه، واللسان (عزز)، وهو في المصادر عدا الصحاح برواية: ضمرت، بدل: رحلت. قوله: أُجُدٌ، هي الناقة القوية المُوَثَّقة الخَلْق. القاموس (أجد). والنِّسْع: سَيْرٌ يُضْفَرُ على هيئة أعنَّة النعال تُشدُّ به الرِّحال. اللسان (نسع).

(٤) يعني: غلبني في القول. تفسير أبي الليث ٣/ ٩٥، والكلام فيه بنحوه. وقال مكي في الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ٢١٤: ويكون المفعول محذوفاً، وهو المرسَلُ إليهم، تقديره: فَعَزَزناهم بثالث، أي: فغلبناهم بثالث.

الملكُ وجَلَدهما مئةَ جَلْدةٍ. فانتهى الخبرُ إلى عيسى فأرسل ثالثاً ـ قيل: شمعون الصَّفا رأسُ الحواريين ـ لنَصْرهما، فعاشَرَ حاشيةَ الملك حتى تمكَّن منهم واستأنَسوا به، ورفعوا حديثَه إلى الملك فأَنِسَ به. وأَظْهَر موافقتَه في دينه، فرضيَ الملك طريقتَه، ثم قال يوماً للملك: بَلَغني أنَّك حَبَسْتَ رجلين دَعَواكَ إلى الله، فلو سألتَ عنهما ما وراءَهما. فقال: إنَّ الغضب حال بيني وبين سُؤالِهما. قال: فلو أَحْضَرْتَهما. فأَمر بذلك، فقال لهما شمعون: ما بُرهانُكما على ما تدَّعيان؟ فقالا: نُبْرِئُ الأَكْمَهَ والأبرصَ. فجيءَ بغلامٍ ممسوحِ العينين؛ موضعُ عينيه كالجبهة، فدَعَوَا ربَّهما فانشقَّ موضعُ البصر، فأَخَذا بُنْدُقَتين طيناً، فوضعاهما في خدَّيه، فصارتا مُقْلَتين يُبْصِرُ بهما. فعجب الملك وقال: إنَّ هاهنا غلاماً مات منذ سبعةِ أيامٍ ولم أَدْفُنه حتى يَجيءَ أبوه، فهل يُحييه ربُّكما؟ فدَعَوَا اللهَ علانيةً، ودعاه شمعون سرّاً، فقام الميتُ حيّاً، فقال للناس: إنِّي متُّ منذ سبعةِ أيامٍ، فوُجِدتُ مشركاً، فأُدخِلْتُ في سبعةِ أوديةٍ من النار، فأُحذِّركم ما أنتم فيه، فآمِنوا بالله، ثم فتحت أبوابُ السماء، فرأيتُ شاباً حَسَنَ الوجهِ يشفع لهؤلاء الثلاثةِ شمعون وصاحبيه، حتى أحياني الله، وأنا أشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأنَّ عيسى روحُ اللهِ وكلمتُه، وأنَّ هؤلاء هم رسلُ الله. فقالوا له: وهذا شمعون أيضاً معهم؟ فقال: نعم، وهو أفضلُهم. فأَعْلَمهم شمعون أنه رسولُ المسيحِ إليهم، فأثَّر قولُه في الملك، فدعاه إلى الله، فآمن الملكُ في قومٍ كثير، وكَفَر آخرون[1]. وحكى القشيريُّ أنَّ الملك آمَنَ ولم يُؤمِنْ قومُه، وصاح جبريلُ صيحةً مات كلُّ مَن بقي منهم من الكفَّار.

ورُويَ أنَّ عيسى لمَّا أَمَرهُم أنْ يذهبوا إلى تلك القريةِ قالوا: يا نبيَّ اللهِ، إنَّا لا نَعرِفُ أنْ نَتكلَّم بألسنتهم ولُغاتِهم. فدعا اللهَ لهم فناموا بمكانهم، فهبُّوا من نَوْمَتهم

(١) بنحوه في تفسير أبي الليث ٣/ ٩٥، وعرائس المجالس ص٤٠٨، وتفسير البغوي ٤/ ٧ - ٩. قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٤٩: واللازم من الآية أن الله تعالى بعث إليها رسولين، فدَعَيا أهل القرية إلى عبادة الله وحده فكذَّبوهما، فشدَّد الله أمرهما بثالث، وقامت الحجة على أهل القرية.

وقد حملتهم الملائكةُ، فألْقتهم بأرضِ أنطاكِيَةَ، فكلَّم كلُّ واحدٍ منهم صاحبَه بلغةِ القوم، فذلك قولُه تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٢٥٣] فقالوا جميعاً: ﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ . قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ تأكلون الطعامَ وتمشون في الأسواق ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ﴾ يأمرُ به، ولا يَنْهَى عنه ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ في دَعْواكُم الرسالةَ، فقالت الرسل: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ وإنْ كذَّبتُمونا، ﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ في أنَّ اللهَ واحدٌ ﴿قَالُوٓاْ﴾ لهم: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي: تَشاءَمْنا بكم.

قال مقاتل: حُبِسَ عنهم المطرُ ثلاثَ سنين، فقالوا: هذا بشُؤْمِكم[١]. ويقال: إنَّهم أقاموا ينذرونهم عَشْرَ سنين.

﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ﴾ عن إنذارنا ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ قال الفراء[٢]: لنقتلنكم. قال: وعامَّةُ ما في القرآن من الرَّجْم معناه القتلُ. وقال قتادةُ: هو على بابه من الرَّجْم بالحجارة[٣]. وقيل: لَنَشْتِمنَّكم، وقد تقدَّم جميعه[٤].

﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قيل: هو القتل. وقيل: هو التعذيبُ المُؤلم. وقيل: هو التعذيبُ المؤلم قبلَ القتلِ، كالسَّلْخِ والقَطْعِ والصَّلْب.

فقالت الرسل: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ أي: شُؤْمُكم معكم، أي: حظُّكم من الخير والشرِّ معكم ولازمٌ في أعناقكم، وليس هو من شؤمنا؛ قال معناه الضحَّاك[٥]. وقال قتادةُ: أعمالُكم معكم[٦]. ابن عباس: معناه: الأرزاقُ والأقدارُ تَتْبعُكم[٧]. الفرَّاء[٨]:

---

(١) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٤٩ . قال ابن عطية: والأظهرُ أنَّ تطيُّر هؤلاء إنما كان بسبب ما دخل قريتهم من اختلاف الكلمة وافتتان الناس، وهذا على نحو تطيُّرِ قريش بمحمد ﷺ.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٣٧٤ .

(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٤١٦ - ٤١٧ .

(٤) ١١/ ٢٠١ .

(٥) ذكره البغوي ٤/ ٩ .

(٦) أخرجه الطبري ١٩/ ٤١٧ .

(٧) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٨٥ .

(٨) في معاني القرآن ٢/ ٣٧٤ .

«طائرُكم معكم»: رزقُكم وعملُكم، والمعنى واحد. وقرأ الحسن: «اطَّيُّرُكم» أي: تَطَيُّركم(١).

﴿أَئِن ذُكِّرْتُمْ﴾ قال قتادةُ: إن ذُكِّرتُم تَطَيَّرتم(٢). وفيه تسعةُ أوجُهٍ من القراءات: قرأ أهلُ المدينةِ: «أَيِنْ ذُكِّرتُم» بتخفيفِ الهمزةِ الثانية. وقرأ أهلُ الكوفة: «أَإِنْ» بتحقيق الهمزتين. والوجهُ الثالث: «أاإِنْ ذُكِّرْتُمْ» بهمزتين بينهما ألفٌ، أُدخلت الألفُ كراهةً للجمع بين الهمزتين. والوجهُ الرابع: «أاإِنْ» بهمزةٍ بعدها ألفٌ وبعدَ الألفِ همزةٌ مخفَّفة(٣).

والقراءةُ الخامسة: «أاأَنْ» بهمزتين مفتوحتين بينهما ألفٌ. والوجهُ السادس: «أَأَنْ» بهمزتين مُحقَّقتين مفتوحتين. وحكى الفرَّاء: أنَّ هذه قراءةُ أبي رَزين(٤).

قلت: وحكاه الثعلبيُّ عن زِرّ بنِ حُبيش وابنِ السَّمَيْفَع.

وقرأ عيسى بن عمر والحسن البصريُّ: «قالوا طائرُكم معكم أَيْنَ ذُكِّرْتُم» بمعنى حيث. وقرأ يزيد بن القعقَاع والحسنُ وطلحةُ: «ذُكِرْتُمْ» بالتخفيف؛ ذكر جميعَه النحاس(٥).

وذكر المهدويُّ عن طلحةَ بنِ مُصَرِّف وعيسى الهمدانيِّ: «آنْ ذُكِّرْتُم» بالمدِّ، على أنَّ همزةَ الاستفهام دخلت على همزةٍ مفتوحة. الماجشون: «أَنْ ذُكِّرْتُم» بهمزةٍ واحدةٍ

---

(١) الكشاف ٣/ ٣١٨. قال السمين في الدرّ المصون ٩/ ٢٥٢: «اطَّيُّركم» مصدر «اطَّيَّر» الذي أصله «تَطَيَّر»، فلما أُريدَ إدغامه أُبدلت التاء طاءً وسُكِّنت واجتُلبت همزة الوصل فصار «اطَّيَّر»، فيكون مصدره «اطَّيُّراً». وذكر السمين أنه روي عن الحسن: «طَيْركم»، وقال: ويغلب على الظن أنها هذه، وإنما تصحفت على الرائي فحسبها مصدراً، وظن أن ألف «قالوا» همزة وصل.

(٢) أخرجه بنحوه الطبري ١٩/ ٤١٨ - ٤١٩.

(٣) قرأ بتسهيل الهمزة الثانية نافع وابن كثير وأبو عمرو ورويس وأبو جعفر، وقالون وأبو عمرو يدخلان بينهما ألفاً، وكذلك أبو جعفر إلا أنه يفتح الثانية. وقرأ هشام بتحقيق الهمزتين مع الإدخال وعدمه، والباقون بالتحقيق مع عدم الإدخال. ينظر التيسير ص٣٢، والنشر ١/ ٣٧٠.

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٧٤، وهي في القراءات الشاذة ص١٢٥.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٣٨٨. وذكر ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٢٥، وابن جني في المحتسب ٢/ ٢٠٥ عن الأعمش أنه قرأ: «أَيْنَ ذُكِرتم». قال ابن جني: فكأنه قال: أين ذكرتم، أو أين وُجدتم وُجد شؤمكم معكم.

مفتوحة[١]. فهذه تسعُ قراءاتٍ.

وقرأ ابن هُرْمُز: «طَيْرُكم معكم»[٢]. «أَئِنْ ذُكِّرْتُم» أي: لَإِن وُعِظْتُم؛ وهو كلامٌ مستأنَفٌ، أي: إنْ وُعِظْتُم تطيَّرتُم. وقيل: إنَّما تطيَّروا لمَّا بلغهم أنَّ كلَّ نبيٍّ دعا قومَه فلم يُجيبوه كان عاقبة قومه الهلاك.

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ قال قتادةُ: مُسْرِفون في تَطَيُّركم. يحيى بن سلام: مُسرِفون في كفركم. وقال ابن بحر: السَّرَفُ هاهنا: الفساد، ومعناه: بل أنتم قومٌ مُفْسِدون[٣].

وقيل: مُسْرِفون: مشركون، والإسرافُ: مُجاوزةُ الحدِّ، والمشركُ يجاوِز[٤] الحدَّ.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ هو حبيب بن مرى[٥]، وكان

---

(١) ذكر هذه القراءة عن الماجشون ابن جني في المحتسب ٢/ ٢٠٥ . والماجشون هو يوسف بن يعقوب بن عبد الله بن أبي سلمة، توفي سنة (٢٨٤هـ). ينظر طبقات القراء لابن الجزري ٢/ ٤٠٥ ، وروح المعاني ٢٢/ ٢٢٤ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٥٠ عن ابن هرمز والحسن وعمرو بن عبيد، والقراءات الشاذة ص١٢٥ عن الحسن.

(٣) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٢ .

(٤) في (خ): مجاوز، وفي (ظ): تجاوز.

(٥) أخرجه الطبري ١٩/ ٤١٩ عن أبي مجلز.

نجاراً. وقيل: إسكافاً. وقيل: قصَّاراً. وقال ابنُ عباسٍ ومجاهدٌ ومقاتلٌ: هو حبيب بن إسرائيل النجار[١]، وكان يَنْحَت الأصنامَ، وهو ممن آمَنَ بالنبيِّ ﷺ وبينهما ستُّ مئةِ سنةٍ، كما آمن به تُبَّعٌ الأكبرُ وورقَةُ بنُ نوفل وغيرُهما. ولم يؤمن بنبيٍّ أحدٌ إلَّا بعد ظهوره[٢].

قال وَهْب: وكان حبيبٌ مجذوماً، ومنزلُه عند أقصى بابٍ من أبوابِ المدينة، وكان عكف على عبادةِ الأصنام سبعين سنةً يدعوهم لعلَّهم يرحمونه ويكشفون ضرَّه، فما استجابوا له، فلمَّا أَبْصَرَ الرسلَ دَعَوْه إلى عبادة الله، فقال: هل من آيةٍ؟ قالوا: نعم، ندعو ربَّنا القادِرَ فيفرِّج عنك ما بك. فقال: إنَّ هذا لَعَجَبٌ! أدعو هذه الآلهةَ سبعين سنةً تفرِّج عنِّي فلم تَسْتَطِع، يفرِّجُه ربُّكم في غداةٍ واحدة؟ قالوا: نعم، ربُّنا على ما يشاءُ قديرٌ، وهذه لا تنفعُ شيئاً ولا تضرّ. فآمَن، ودَعَوْا ربَّهم، فكشف الله ما به، كأنْ لم يكن به بأس، فحينئذٍ أَقْبَل على التكسُّب، فإذا أمسى تَصَدَّق بكَسْبِه، فأطْعَم عيالَه نصفاً وتَصدَّقَ بنصفٍ، فلمَّا همَّ قومُه بقَتْلِ الرسلِ جاءهم فـ ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ الآية[٣].

وقال قتادةُ: كان يعبدُ الله في غارٍ، فلمَّا سمع بخبرِ المرسلين جاء يَسْعَى، فقال للمرسَلين: أَتَطْلبون على ما جئتُم به أجراً؟ قالوا: لا، ما أَجْرُنا إلَّا على الله[٤]. قال أبو العالية: فاعتَقَدَ صِدْقَهم وآمَنَ بهم[٥]. وأَقْبَلَ على قومه فـ ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ * ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرًا﴾ أي: لو كانوا متَّهَمِينَ لطلبوا منكم المالَ. ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ فاهتدُوا بهم[٦].

---

(١) عرائس المجالس ص٤٠٩ عن ابن عباس ومقاتل، وفي الكشاف ٣/ ٣١٨ دون نسبة.

(٢) الكشاف ٣/ ٣١٨. وتُبَّع الأكبر: هو أسعد أبو كرب، ملك اليمن، أراد غزو البيت الحرام، ثم شرَّفه وعظَّمه وكساه. البداية والنهاية ٣/ ١٢٢ وسيذكره المصنف عند تفسير الآية (٣٧) من سورة الدخان.

(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٤١٩ - ٤٢٠ مختصراً.

(٤) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٤١، والطبري ١٩/ ٤٢١.

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٣.

(٦) قال الآلوسي في روح المعاني ٢٢/ ٢٢٦: ولا جَزْمَ لي بإيمانه ولا عَدَمِه قبل إرسال الرسل، =

﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ قال قتادة: قال له قومُه: أنتَ على دينهم. فقال: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ أي: خَلَقني ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾. وهذا احتجاجٌ منه عليهم. وأضاف الفطرةَ إلى نفسه؛ لأنَّ ذلك نعمةٌ عليه تُوجِبُ الشكر، والبعثَ إليهم؛ لأنَّ ذلك وعيدٌ يقتضي الزَّجْرَ، فكان إضافةُ النعمةِ إلى نفسه أَظْهَرَ شكراً، وإضافةُ البعثِ إلى الكافر أبلغ أثراً.

﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ يعني أصناماً ﴿إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ﴾ يعني ما أصابه من السُّقْم ﴿لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ﴾: يخلِّصوني ممَّا أنا فيه من البلاء ﴿إِنِّيٓ إِذٗا﴾ يعني: إن فعلتُ ذلك ﴿لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ أي: خُسرانٍ ظاهر ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ﴾ قال ابن مسعود: خاطَبَ الرسلَ بأنه مؤمنٌ بالله ربِّهم. ومعنى «فَاسْمَعُونِ» أي: فاشْهَدوا، أي: كونوا شُهودي بالإيمان[1]. وقال كعبٌ ووَهْبٌ: إنَّما قال ذلك لقومه: إنِّي آمنتُ بربِّكم الذي كفرتُم به[2].

وقيل: إنه لمَّا قال لقومه: ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ . ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا﴾ رفعوه إلى الملك وقالوا: قد تَبِعْتَ عدوَّنا، فطوَّل معهم الكلامَ ليَشْغَلَهم بذلك عن قَتْلِ الرسل، إلى أنْ قال: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ﴾ فوثبوا عليه فقتلوه. قال ابن مسعود: وَطِئوه بأَرْجُلهم حتى خرج قُصْبُه من دبره[3]. وأُلقي في بئرٍ، وهي الرَّسُّ، وهم أصحابُ الرَّسِّ. وفي رواية: أنهم قَتَلوا الرسلَ الثلاثة.

وقال السُّدّيُّ: رَمَوْه بالحجارة وهو يقول: اللهمَّ اهْدِ قومي، حتى قتلوه[4]. وقال الكلبيُّ: حفروا حفرةً وجعلوه فيها، ورَدَموا فوقَه الترابَ، فمات رَدْماً.

= وظواهر الأخبار في ذلك متعارضة، ومع ذلك لم يتحقق عندي صحة شيء منها.

(١) أخرجه الحاكم ٢/ ٤٢٩ .

(٢) أخرجه عنهما الطبري ١٩/ ٤٢٣ .

(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٤٢٤ . والقُصْب: المِعَى. القاموس (قصب).

(٤) عرائس المجالس ص٤٠٩ .

وقال الحسن: خرقوا خَرْقاً[1] [في حَلْقِه]، وعلَّقوه من سور المدينة، وقبرُه في سور أنطاكِيَة؛ حكاه الثعلبيُّ[2].

وقال القشيريُّ: وقال الحسن: لمَّا أراد القوم أن يقتلوه رفعه الله إلى السماء، فهو في الجنة لا يموتُ إلَّا بفناءِ السماءِ وهلاكِ الجنة، فإذا أعاد الله الجنةَ أُدْخِلَها[3].

وقيل: نَشَروه بالمنشار حتى خرج من بين رجليه، فَوَاللهِ ما خرجتْ روحُه إلَّا إلى الجنة فدخلها، فذلك قولُه: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ فلمَّا شاهدها ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ . بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ أي: بغفرانِ ربِّي لي، فـ «ما» مع الفعلِ بمنزلة المصدر. وقيل: بمعنى الذي، والعائدُ من الصلة محذوفٌ. ويجوزُ أن تكون استفهاماً فيه معنى التعجُّبِ، كأنَّه قال: ليت قومي يعلمون بأيِّ شيءٍ غفر لي ربِّي[4]؛ قاله الفرَّاء. واعترَضه الكسائيُّ فقال: لو صحَّ هذا لقال: بِمَ، من غير ألف. وقال الفرَّاء: يجوز أن يقال بما بالألف وهو استفهامٌ، وأنشد فيه أبياتاً[5].

الزمخشريُّ[6]: بِمَ غَفَرَ لي، بطرحِ الألف أَجْودُ، وإن كان إثباتُها جائزاً؛ يقال: قد علمتُ بما صنعتَ هذا، وبِمَ صنعت.

المهدويُّ: وإثباتُ الإلفِ في الاستفهام قليلٌ. فيُوقَفُ على هذا على «يَعْلَمُونَ». وقال جماعةٌ: معنى ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾: وَجَبَتْ لك الجنةُ، فهو خبرٌ بأنه قد استَحقَّ دخولَ الجنة؛ لأنَّ دخولها يُستَحَقُّ بعد البعث.

---

(١) في (ظ) و(م): حرقوه حرقاً، وفي (ز): حفروا حرقاً.

(٢) في عرائس المجالس ص٤٠٩ ، وما سلف بين حاصرتين منه. وفيه: وقبره في سوق أنطاكية.

(٣) قال الألوسي في مجمع البيان ٢٢/ ٢٢٨: والجمهور على أنه قتل. وذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٥١ أن الأحاديث والروايات تواترت بذلك.

(٤) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٠١ .

(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٧٤ - ٣٧٥ .

(٦) في الكشاف ٣/ ٣٢٠ .

قلت: والظاهِرُ من الآية أنَّه لمَّا قُتل قيل له: ادخل الجنة.

قال قتادةُ: أدخله الله الجنةَ وهو فيها حيٌّ يُرزَقُ، أراد قولَه تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩][1] على ما تقدَّم في «آل عمران» بيانُه. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ﴾ مرتَّبٌ على تقدير سؤالِ سائلٍ عمَّا وَجَدَ من قوله عند ذلك الفوزِ العظيم الذي هو ﴿بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾. وقرئ: «مِن المُكَرَّمينَ»[2].

وفي معنى تَمنِّيه قولان:

أحدُهما: أنه تمنَّى أن يَعْلَموا بحاله ليَعْلَموا حُسْنَ مَآلِه وحَمِيدَ عاقبته.

الثاني: تَمنَّى ذلك ليؤمنوا مثلَ إيمانِه فيَصيروا إلى مثلِ حاله. قال ابن عباس: نَصَح قومَه حيّاً وميتاً[3]. رَفَعه القشيريُّ فقال: وفي الخبر أنه عليه الصلاة والسلام قال في هذه الآية: «إنَّه نَصَحَ لهم في حياتِه وبعدَ مَوْتِه»[4].

وقال ابن أبي ليلى: سُبَّاقُ الأممِ ثلاثةٌ لم يكفروا بالله طَرْفَةَ عين: عليّ بنُ أبي طالب وهو أَفْضَلُهم، ومؤمنُ آلِ فرعون، وصاحبُ يس، فهم الصدِّيقون[5]. ذكره الزمخشريُّ مرفوعاً عن رسول الله ﷺ[6].

---

(١) الكشاف ٣/ ٣١٩.

(٢) الكشاف ٣/ ٣٢٠، وهي قراءة شاذة.

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٤.

(٤) أخرجه مطولاً ابن مردويه ـ كما في تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر ص١٤٠ ـ من حديث المغيرة ابن شعبة ﷺ.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٤٥٠ بنحوه.

(٦) الكشاف ٣/ ٣١٩، وأخرجه بنحوه أحمد في فضائل الصحابة (١٠٧٢) و(١١١٧) من طريق عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أبيه، عن النبي ﷺ، وفي إسناده عمرو بن جميع البصري، قال فيه الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص١٤٠: متروك. وأخرجه بنحوه أيضاً الطبراني في الكبير (١١١٥٢)، وقال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: حديث منكر.

وفي هذه الآيةِ تنبيهٌ عظيمٌ، ودلالةٌ على وجوبِ كَظْمِ الغيظ، والحِلْمِ عن أهلِ الجهل، والتَّرؤُّفِ على مَن أَدْخَلَ نفسَه في غمارِ الأشرار وأهلِ البغي، والتَّشمُّرِ في تخليصه، والتلطُّفِ في افتدائه، والاشتغال بذلك عن الشماتة به والدعاءِ عليه. ألَا ترى كيف تمنَّى الخيرَ لقَتَلَتِه والباغين له الغوائلَ، وهم كفرةٌ عَبَدَةُ أصنام؟![1]

فلمَّا قُتل حبيبٌ غضبَ الله له، وعجَّل النقمةَ على قومه، فأمر جبريلَ فصاح بهم صيحةً فماتوا عن آخرهم؛ فذلك قوله: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ أي: ما أنزلنا عليهم من رسالةٍ ولا نبيٍّ بعد قتله؛ قاله قتادةُ ومجاهدٌ والحسن[2]. قال الحسن: الجندُ: الملائكةُ النازِلون بالوحي على الأنبياء[3].

وقيل: الجندُ: العساكر، أي: لم أَحْتَجْ في هلاكهم إلى إرسالِ جنودٍ ولا جيوشٍ ولا عساكرَ، بل أَهْلَكْتُهم[4] بصيحةٍ واحدةٍ. قال معناه ابن مسعود وغيرُه[5]. فقولُه: «وما كنَّا منْزِلين» تصغيرٌ لأمرهم، أي: أهلكناهم بصيحةٍ واحدة من بعد ذلك الرجل، أو من بعد رَفْعِه إلى السماء.

وقيل: المعنى: «وما كنَّا مُنزِلين» على مَن كان قَبْلَهم. الزَّمخشريُّ[6]: فإن قلتَ: فلمَ أنزل الجنودَ من السماء يومَ بدرٍ والخندقِ؟ فقال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩]، وقال: ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩]، ﴿بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤]، ﴿بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

---

(١) الكشاف ٣/ ٣١٩ - ٣٢٠ .

(٢) تفسير الطبري ١٩/ ٤٢٦ - ٤٢٧ عن مجاهد وقتادة.

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٥ .

(٤) في (د) و(ظ) و(م): بل أهلكهم.

(٥) تفسير الطبري ١٩/ ٤٢٧ .

(٦) في الكشاف ٣/ ٣٢٠ ، وما سيرد بين حاصرتين منه.

قلت: إنَّما كان يكفي مَلَكٌ واحدٌ، فقد أُهلِكتْ مدائنُ قومِ لوطٍ بريشةٍ من جناحِ جبريل، وبلادُ ثمودَ وقومُ صالحٍ بصيحةٍ [منه]، ولكنَّ الله فضَّل محمداً ﷺ بكلِّ شيءٍ على كبار[١] الأنبياء وأُولي العَزْمِ من الرسل فضلاً عن حبيبِ النجارِ، وأَوْلَاه من أسباب الكرامة والإعزاز ما لم يُوْلِه أحداً، فَمِن ذلك أنه أَنزل له جنوداً من السماء، وكأنه أشار بقوله: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا﴾ .﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ إلى أنَّ إنزالَ الجنودِ من عظائم الأمور التي لا يؤهَّلُ لها إلَّا مثلُكَ، وما كنَّا نفعلُه لغيرك[٢].

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ قراءةُ العامَّةِ: ﴿صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ بالنصب على تقدير: ما كانت عقوبتُهم إلَّا صيحةً واحدةً.

وقرأ أبو جعفر بنُ القَعْقَاع وشيبةُ والأعرجُ: «صَيْحَةٌ» بالرفع هنا، وفي قوله « إنْ كانت إلَّا صيحةٌ واحدةٌ فإذا هم جميعٌ» [الآية: ٥٣][٣]، جعلوا الكَوْنَ بمعنى الوقوعِ والحدوثِ، فكأنَّه قال: ما وقعتْ عليهم إلَّا صيحةٌ واحدة. وأَنْكَر هذه القراءةَ أبو حاتمٍ وكثيرٌ من النَّحْويِّين بسبب التأنيثِ فهو ضعيف، كما تكون: ما قامت إلَّا هندٌ ضعيفاً، من حيث كان المعنى: ما قام أحدٌ إلَّا هندٌ. قال أبو حاتم: فلو كان كما قرأ أبو جعفر لقال: إنْ كان إلَّا صيحةٌ.

قال النحَّاس[٤]: لا يمتنع شيءٌ من هذا، يقال: ما جاءتني إلَّا جاريتُك، بمعنى: ما جاءتني امرأةٌ أو جاريةٌ إلَّا جاريتُك. والتقديرُ في القراءة بالرفع ما قاله أبو إسحاق، قال: المعنى: إنْ كانت عليهم صيحةٌ إلَّا صيحةٌ واحدةٌ، وقدَّره غيره: ما وقعت عليهم إلَّا صيحةٌ واحدةٌ. وكان بمعنى وَقَعَ كثيرٌ في كلام العرب.

وقرأ عبد الرحمن بنُ الأسود ـ ويقال: إنه في حَرْفِ عبدِ الله كذلك ـ: «إنْ كانت

---

(١) في (خ) و(م): سائر، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في الكشاف.

(٢) في (خ) و(ظ) والكشاف: بغيرك.

(٣) النشر ٢/ ٣٥٣ عن أبي جعفر، وهو من العشرة.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٣٩٠، وما قبله منه.

إِلَّا زَقْيةً واحدةً». وهذا مخالفٌ للمصحف. وأيضاً فإنَّ اللغةَ المعروفةَ: زَقَا يَزْقو: إذا صاح، ومنه المثلُ: أثقلُ من الزَّوَاقي، فكان يجب على هذا أن يكون: زَقْوةً. ذكره النحاس[١].

قلت: وقال الجوهريُّ[٢]: الزَّقْوُ والزَّقْيُ مصدر، وقد زَقَا الصَّدَى يزقو [ويَزْقي] زُقَاءً، أي: صاح، وكلُّ صائحٍ زاقٍ، والزَّقْيةُ: الصَّيحة.

قلت: وعلى هذا يقال: زَقْوة وزَقْية لغتان[٣]، فالقراءةُ صحيحةٌ لا اعتراضَ عليها. والله أعلم.

﴿فَإِذَا هُمْ خَـٰمِدُونَ﴾ أي: ميّتون هامِدون؛ تشبيهاً بالرَّماد الخامِد. وقال قتادةُ: هَلْكى[٤]. والمعنى واحد.

قوله تعالى: ﴿يَـٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَـٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ منصوبٌ؛ لأنه نداء نكرة، ولا يجوزُ فيه غيرُ النصبِ عند البصريين[٥]. وفي حرفِ أُبَيٍّ: «يا حسرةَ العبَادِ» على الإضافة[٦]. وحقيقةُ الحسرةِ في اللغة: أن يَلْحَقَ الإنسانَ من النَّدم ما يَصيرُ به حسيراً[٧].

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٣٩٠ - ٣٩١ ، دون ذكر المثل، وهو في جمهرة الأمثال ١/ ٢٩٣ ، ومجمع الأمثال ١/ ١٥٦ . قال العسكري: الزواقي: الديكة، وكان الفتيان يسمرون بالليل، فإذا زقت الديكة انصرف كلٌّ إلى رَحْلِه، فاستثقلوها لقطعها عليهم سَمَرَهم. وقراءة: «إن كانت إلا زقيةً» في القراءات الشاذة ص١٢٥ ، والمحتسب ٢/ ٢٠٦ .

(٢) في الصحاح (زقا)، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٧٥ .

(٤) ذكره النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٩١ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٩١ .

(٦) القراءات الشاذة ص١٢٥ ، والمحتسب ٢/ ٢٠٦ .

(٧) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٨٩ .

وزعم الفرَّاء أنَّ الاختيارَ النصبُ، وأنه لو رفعت النكرة الموصولة بالصفة[١] كان صواباً. واستَشْهدَ بأشياءَ؛ منها أنه سُمع من العرب: يا مُهتَمُّ بأمرنا لا تَهتمّ، وأنشد:

يـا دارُ غَـيَّـرهـا الـبِـلَـى تَـغـيـيـرَا[٢]

قال النحاس: وفي هذا إبطالُ بابِ النداءِ أو أكثرِه؛ لأنه يرفعُ النَّكرةَ المَحْضةَ، ويرفع ما هو بمنزلةِ المضافِ في طوله، ويحذفُ التنوين متوسِّطاً، ويرفع ما هو في المعنى مفعولٌ بغيرِ علَّةٍ أَوْجَبتْ ذلك. فأمَّا ما حكاه عن العرب فلا يُشْبِه ما أجازه؛ لأنَّ تقدير: يا مُهْتَمُّ بأمرنا لا تهتمَّ، على التقديم والتأخير، والمعنى: يا أيها المهتمُّ لا تَهتمَّ بأمرنا. وتقديرُ البيت: يا أيتها الدارُ، ثم حَوَّل المخاطبة، أي: يا هؤلاء غيَّر هذه الدارَ البِلَى، كما قال الله جل وعز: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يونس: ٢٢][٣]. فـ «حسرةً» منصوبٌ على النداء، كما تقولُ: يا رجلاً أَقْبِلْ، ومعنى النداء: هذا موضعُ حُضورِ الحسرة.

الطبريُّ[٤]: المعنى: يا حسرةً من العباد على أنفسهم، وتندُّماً وتلهُّفاً في استهزائهم برسل الله عليهم السلام.

---

(١) في النسخ: بالصلة، والمثبت من معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٧٦ ، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٩١ ، وعنه نقل المصنف.

(٢) البيت للأحوص كما في الكتاب ٢/ ٢٠١ ، ونسبه السيرافي في شرح أبيات سيبويه ١/ ٥٢٣ للحارث بن خالد المخزومي، وهو بلا نسبة في معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٧٦ ، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٩١ ، وروايته في الكتاب:

يـا دارُ حَـسَّـرَهـا الـبِـلَـى تَـحْـسـيـرا وسَفَـتْ عـلـيـهـا الـريـحُ بـعـدكَ مُـورا

قال السيرافي: حسَّرها: أزال ما كان فيها من الأطلال، والمور: الغبار.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٩١ - ٣٩٢ . وشرح الكلام أنه لما قال: يا دار، نادى داراً بعينها فصارت معرفة ولذلك بناها على الضم، ثم إنه أتى بعدها بقوله: حسَّرها البلى ـ والفعل لا ينعت به إلا النكرة ـ فكأنه قال: يا دار ، ثم أقبل على إنسان فقال: حسَّرها البلى، فحسَّرها ليس بنعت للدار. ينظر الكتاب ٢/ ٢٠١ ، وشرح أبيات سيبويه للسيرافي ١/ ٥٢٣ .

(٤) في التفسير ١٩/ ٤٢٩ .

ابن عباس: «يا حسرةً على العبادِ» أي: يا ويلاً على العباد[١]. وعنه أيضاً: حلَّ هؤلاء محلَّ مَن يتحسَّر عليهم[٢].

وروى الربيع بن[٣] أنس عن أبي العاليةِ: أنَّ العبادَ هاهنا الرسلُ، وذلك أنَّ الكفار لمَّا رأَوا العذابَ قالوا: «يا حسرةً على العبادِ»، فتحسَّروا على قَتْلِهم وتَرْكِ الإيمان بهم، فتمنَّوا الإيمانَ حين لم ينفعهم الإيمان[٤]. وقاله مجاهد.

وقال الضحاك: إنها حسرةُ الملائكةِ على الكفار حين كذَّبوا الرسل[٥].

وقيل: «يا حسرةً على العبادِ» مِن قول الرجلِ الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، لمَّا وثب القومُ لقتله.

وقيل: إنَّ الرسلَ الثلاثةَ هم الذين قالوا لمَّا قَتَلَ القومُ ذلك الرجلَ الذي جاء من أَقْصَى المدينةِ يسعى، وحلَّ بالقوم العذابُ: يا حسرةً على هؤلاء، كأنهم تَمنَّوْا أن يكونوا قد آمنوا.

وقيل: هذا من قول القوم؛ قالوا لمَّا قَتَلوا الرجلَ وفارقتهم الرسلُ، أو قتلوا الرجلَ مع الرسلِ الثلاثة، على اختلافِ الروايات: يا حسرةً على هؤلاء الرسل، وعلى هذا الرجل، ليتنا آمنَّا بهم في الوقت الذي ينفعُ الإيمان. وتمَّ الكلام على هذا، ثم ابتدأ فقال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾.

وقرأ ابن هُرْمُز ومسلم بنُ جُنْدب وعِكرمةُ: «يا حَسْرةْ على العبادِ» بسكون الهاء[٦]، للحرص على البيان وتقرير المعنى في النفس؛ إذ كان موضعَ وَعْظٍ وتنبيهٍ،

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٣٠ بلفظ: يا ويلاً للعباد.
(٢) النكت والعيون ٤/ ١٥ .
(٣) في النسخ. عن، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٩٢ .
(٤) بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٩٢ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٥٢ ، وتفسير البغوي ٤/ ١١ . قال ابن عطية: وقوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم﴾ الآية، يدفع هذا التأويل.
(٥) النكت والعيون ٤/ ١٥ .
(٦) القراءات الشاذة ص١٢٥ ، والمحتسب ٢/ ٢٠٨ .

والعربُ تفعلُ ذلك في مِثْله وإن لم يكن موضعاً للوقف. ومِن ذلك ما روي عن النبيِّ ﷺ: أنه كان يُقَطِّعُ قراءتَه حرفاً حرفاً[١]؛ حِرْصاً على البيان والإفهام.

ويجوز أن يكون «عَلَى الْعِبَادِ» متعلِّقاً بالحسرة. ويجوز أن يكون متعلِّقاً بمحذوفٍ لا بالحسرة، فكأنه قدَّر الوقفَ على الحسرة فأَسْكَنَ الهاءَ، ثم قال: «على العباد»، أي: أَتحسَّرُ على العباد.

وعن ابن عباسٍ والضحاكِ وغيرِهما: «يا حسرةَ العبادِ» مضافٌ بحذفِ «على»[٢]. وهو خلافُ المصحف. وجاز أن يكون من باب الإضافةِ إلى الفاعل، فيكونُ العبادُ فاعِلِينَ، كأنَّهم إذا شاهدوا العذابَ تحسَّروا، فهو كقولك: يا قيامَ زيدٍ. ويجوز أن تكونَ من بابِ الإضافةِ إلى المفعول، فيكون العبادُ مفعولِين، فكأنَّ العبادَ يتحسَّر عليهم مَن يُشْفِقُ لهم. وقراءةُ مَن قرأ: «يا حسرةً على العبادِ» مقوِّيةٌ لهذا المعنى[٣].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ قال سيبويه: «أنَّ» بدلٌ من «كَم»، ومعنى «كَم» هاهنا الخبر؛ فلذلك جاز أن يُبدَلَ منها ما ليس باستفهام. والمعنى: ألم يَرَوْا أنَّ القرونَ الذين أهلكناهم أنَّهم إليهم لا يرجعون[٤]. وقال الفرَّاء[٥]: «كَم» في موضعِ نصبٍ من وجهين: أحدُهما بـ «يَرَوْا»، واستَشْهدَ على هذا بأنه في قراءةِ ابنِ مسعود: «أَلَم يَرَوْا مَن أَهْلَكنا». والوجهُ الآخَرُ أن يكون «كَم» في موضعِ نصبٍ بـ «أهلكنا».

قال النحاس[٦]: القولُ الأولُ مُحالٌ؛ لأنَّ «كَم» لا يَعملُ فيها ما قَبْلَها؛ لأنَّها

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد (٢٦٥٨٣)، وأبو داود (٤٠٠١)، والترمذي (٢٩٢٣) من حديث أم سلمة رضي الله عنها.قال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب. ووقع عند أحمد وأبي داود: آية آية، بدل: حرفاً حرفاً.

(٢) القراءات الشاذة ص١٢٥، والمحتسب ٢/ ٢٠٨، وسلفت في بداية تفسير هذه الآية.

(٣) بنحوه في المحتسب ٢/ ٢١١.

(٤) بنحوه في الكتاب ٣/ ١٣٢.

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٣٧٦، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٩٢.

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٣٩٢ - ٣٩٣.

استفهامٌ، ومُحالٌ أن يَدخُلَ الاستفهامُ في خبرِ[(١)] ما قَبْلَه. وكذا حُكْمُها إذا كانت خبراً. وإنْ كان سيبويه قد أَوْمأَ إلى بعضِ هذا فجعل «أَنَّهم» بدلاً من «كم». وقد ردَّ ذلك محمد بن يزيد أشدَّ ردٍّ، وقال: «كَم» في موضعِ نصبٍ بـ«أَهْلَكنا»، و«أَنَّهم» في موضعِ نصبٍ، والمعنى عنده: بأنهم، أي: ألم يَرَوْا كم أهلكنا قَبْلَهم مِن القرون بالاستئصال. قال: والدليلُ على هذا: أنَّها في قراءةِ عبد الله: «مَن أهلكنا قبلَهم مِن القرون أنَّهم إليهم لا يَرجِعون»[(٢)].

وقرأ الحسن: «إنَّهم إليهم لا يَرْجِعون» بكَسْرِ الهمزة على الاستئناف[(٣)]. وهذه الآيةُ ردٌّ على مَن زعم أنَّ مِن الخَلْقِ مَن يَرجعُ قبل القيامةِ بعد الموت.

﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ يريد يومَ القيامةِ للجزاء. وقرأ ابن عامرٍ وعاصمٌ وحمزةُ: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا﴾ بتشديدِ «لمَّا»، وخفَّف الباقون[(٤)]. فـ«إنْ» مخفَّفةٌ من الثقيلة، وما بعدها مرفوعٌ بالابتداء، وما بعده الخبر. وبَطَلَ عملُها حين تغيَّر لفظُها. ولَزِمَت اللامُ في الخبر فَرْقاً بينَها وبين إنْ التي بمعنى ما. و«ما» عند أبي عبيدةَ زائدةٌ. والتقدير عنده: وإن كلٌّ لجميع[(٥)]. قال الفرَّاء[(٦)]: ومَن شدَّد جعل «لمَّا» بمعنى إلَّا و«إنْ» بمعنى ما، أي: ما كلٌّ إلَّا جميع[(٧)]، كقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ [المؤمنون: ٢٥]. وحكى [ذلك] سيبويه في قوله: سألتك بالله لمَّا فَعَلْتَ. وزعم الكسائيُّ أنه لا يعرف هذا[(٨)]. وقد مضى هذا المعنى في «هود»[(٩)]. وفي حرفِ أُبَيٍّ: «وإنْ منهم إلَّا جميعٌ

(١) في مطبوع إعراب القرآن: حيز.
(٢) من قوله: قال والدليل على هذا، إلى هذا الموضع ذكره النحاس في معاني القرآن ٥/ ٤٩٠ .
(٣) القراءات الشاذة ص١٢٥ .
(٤) التيسير ص١٢٩ .
(٥) مجاز القرآن ٢/ ١٦٠ .
(٦) بنحوه في معاني القرآن ٢/ ٣٧٧ .
(٧) في النسخ عدا (ظ): لجميع، وهو خطأ.
(٨) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٩٣ ، وما سلف بين حاصرتين منه.
(٩) ١١/ ٢١٩ .

لدينا مُحْضَرُون»[١].

قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا﴾ نبَّههم الله تعالى بهذا على إحياء الموتى، وذكَّرهم توحيدَه وكمالَ قدرته، وهي الأرضُ الميتةُ أحياها بالنبات وإخراجِ الحبِّ منها. ﴿فَمِنْهُ﴾ أي: من الحبّ ﴿يَأْكُلُونَ﴾ وبه يتغذَّوْن. وشدَّد أهلُ المدينةِ «الميتةُ» وخفَّف الباقون[٢]، وقد تقدَّم[٣].

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ أي: في الأرض ﴿جَنَّٰتٍ﴾ أي: بساتين ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ وخصَّصهما بالذكر لأنهما أعلى الثمار. ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ أي: في البساتين ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾ الهاء في «ثمرِهِ» تعودُ على ماءِ العيون؛ لأنَّ الثمر منه انْدرَج؛ قاله الجُرْجانيُّ والمَهْدَويُّ وغيرهما. وقيل: أي: ليأكلوا من ثمر ما ذَكرنا، كما قال: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ﴾ [النحل:٦٦].

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: «مِن ثُمُرِهِ» بضم الثاء والميم. وفَتَحَهما الباقون[٤]. وعن الأعمش ضمُّ الثاءِ وإسكانُ الميم[٥]. وقد مضى الكلامُ فيه في «الأنعام»[٦].

﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ «ما» في موضع خفضٍ على العطف على «مِن ثَمَرِهِ» أي:

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٩٤ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٥٢ .

(٢) قراءة التشديد هي قراءة نافع، والباقون من السبعة بالتخفيف. السبعة ص٢٠٣ ، والتيسير ص١٠٦ .

(٣) ٣/ ٢٣ .

(٤) السبعة ص٢٦٤ ، والتيسير ص١٠٥ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٤٥٣ .

(٦) ٨/ ٤٧٤ .

وممَّا عملته أيديهم. وقرأ الكوفيون: «وما عَمِلَتْ»بغير هاءٍ[١]. الباقون: ﴿عَمِلَتْهُ﴾ على الأصل من غيرِ حذفٍ. وحذفُ الصلةِ أيضاً في الكلام كثيرٌ لطول الاسم.

ويجوز أن تكون «ما» نافيةً لا موضعَ لها، فلا تحتاجُ إلى صلةٍ ولا راجعٍ، أي: ولم تعمله أيديهم من الزرع الذي أنبته الله لهم. وهذا قولُ ابنِ عباس والضحَّاك ومقاتل[٢].

وقال غيرهم: المعنى: ومِن الذي عَمِلَته أيديهم، أي: من الثمار، ومن أصنافِ الحَلاواتِ والأطعمة، وممَّا اتَّخذوا من الحبوب بعلاجٍ، كالخبز والدُّهْنِ المستَخْرَجِ من السِّمْسِم والزيتون. وقيل: يرجع ذلك إلى ما يغرسُه الناس. روي معناه عن ابن عباس أيضاً. ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ نِعَمَه؟!

قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ نزَّه نفسَه سبحانه عن قول الكفار؛ إذ عَبَدوا غيرَه مع ما رَأَوْه من نِعَمِه وآثارِ قدرته. وفيه تقديرُ الأمرِ، أي: سبِّحوه ونزِّهوه عمَّا لا يَليقُ به. وقيل: فيه معنى التعجُّبِ، أي: عجباً لهؤلاء في كفرهم مع ما يشاهدونه من هذه الآيات! ومَن تعجَّب مِن شيءٍ قال: سبحان الله!

والأزواجُ: الأنواعُ والأصناف، فكلُّ صِنْفٍ زَوْجٌ[٣]؛ لأنه مختلفٌ في الألوان والطُّعوم والأشكال والصِّغَرِ والكِبَر، فاختلافُها هو ازدواجُها. وقال قتادة: يعني الذَّكر والأنثى. ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ يعني من النبات؛ لأنه أصناف. ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ يعني وخَلقَ منهم أولاداً أزواجاً، ذكوراً وإناثاً. ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: من أصنافِ خَلْقِه في البرِّ والبحر والسماء والأرض. ثم يجوزُ أن يكون ما يَخْلقُه لا يَعْلمُه البشر وتَعْلمُه

(١) قرأ بغير هاء أبو بكر وحمزة والكسائي، والباقون من السبعة بالهاء. السبعة ص٥٤٠، والتيسير ص١٨٤.

(٢) ذكره عن ابن عباس رضي الله عنهما النحاس في معاني القرآن ٥/ ٤٩٢، وأخرجه عنه سعيد بن منصور وابن المنذر، كما في الدر المنثور ٥/ ٢٦٣. وذكره عن الضحاك ومقاتل الواحدي في الوسيط ٣/ ٥١٣، والبغوي ٤/ ١٢.

(٣) في (م): فكل زوج صنف.

الملائكة. ويجوزُ ألّا يعلمَه مخلوق. ووجهُ الاستدلالِ في الآية: أنه إذا انفردَ بالخَلْقِ فلا ينبغي أن يُشْرَك به.

قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ أي: وعلامةٌ دالَّةٌ على توحيدِ اللهِ وقدرته ووجوبِ إلاهِيَّته. والسَّلْخ: الكَشْطُ والنزع؛ يقال: سلخه الله من دينه، ثم تُستعمل بمعنى الإخراج. وقد جَعَلَ ذهابَ الضوءِ ومجيءَ الظلمةِ كالسَّلْخِ من الشيء وظهورِ المسلوخ، فهي استعارة.

و﴿مُّظْلِمُونَ﴾: داخِلون في الظلام؛ يقال: أَظْلَمْنا، أي: دخلنا في ظلام الليل، وأَظْهَرنا: دخلنا في وقتِ الظُّهر، وكذلك أصبحنا وأضحينا وأمسينا. وقيل: «منه» بمعنى: عنه، والمعنى: نسلخ عنه ضياءَ النهار. «فإذا هم مُظْلِمونَ» أي: في ظلمة؛ لأنَّ ضوءَ النهارِ يتداخلُ في الهواء فيُضيءُ، فإذا خرج منه أَظْلَمَ[١].

قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ يجوزُ أن يكون تقديره: وآيةٌ لهم الشمسُ. ويجوز أن يكون «الشمس» مرفوعاً بإضمارِ فعلٍ يفسِّره الثاني. ويجوز أن يكون مرفوعاً بالابتداء[٢] ﴿تَجْرِى﴾ في موضعِ الخبر، أي: جاريةٌ.

وفي «صحيح» مسلم عن أبي ذرٍّ قال: سألتُ رسولَ الله ﷺ عن قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ قال «مَسْتَقرُّها تحتَ العَرْشِ»[٣].

وفيه عن أبي ذرٍّ أنَّ النبيَّ ﷺ قال يوماً: «أَتَدْرون أين تذهبُ هذه الشمسُ؟» قالوا: اللهُ ورسولُه أَعْلَمُ. قال: «إنَّ هذه تَجرِي حتى تَنْتَهيَ إلى مُسْتَقرِّها تحت العرش، فتَخِرُّ

(١) النكت والعيون ١٥/١٧.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٩٤.

(٣) صحيح مسلم (١٥٩): (٢٥١)، وهو عند أحمد (٢١٤٠٦)، والبخاري (٤٨٠٣).

ساجدةً، فلا تَزالُ كذلك حتَّى يُقالَ لها: ارْتَفِعي، ارْجِعي من حيثُ جِئْتِ، فتَرْجِعُ، فتُصبِحُ طالِعةً من مَطْلِعِها، ثم تَجري حتَّى تنتهيَ إلى مستقرِّها تحتَ العرشِ، فتَخِرُّ ساجدةً، ولا تزالُ كذلك حتَّى يقالَ لها: ارتفعي، ارجعي من حيث جِئْتِ، فترجع، فتُصبحُ طالِعةً من مَطْلِعها، ثم تَجري لا يَسْتَنكرُ الناسُ منها شيئاً حتى تنتهيَ إلى مستقرِّها ذاك تحتَ العرش، فيقال لها: ارتفعي، أَصْبِحي طالعةً من مَغرِبِكِ، فتُصبِحُ طالعةً من مَغرِبها» فقال رسول الله ﷺ: «أتدرون متى ذلكم؟ ذاك حين ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]»[(١)].

ولفظُ البخاريِّ: عن أبي ذرٍّ قال: قال النبيُّ ﷺ لأبي ذرٍّ حين غَرَبت الشمسُ: «تَدْري أين تَذْهبُ؟» قلتُ: اللهُ ورسولُه أَعْلَمُ، قال: «فإنَّها تَذْهبُ حتى تَسْجُدَ تحت العرشِ، فتستأذنَ فيُؤْذَنُ لها، ويُوشِكُ أن تَسْجُدَ فلا يُقبلَ منها، وتستأذنَ فلا يؤذنَ لها، يقال لها: ارْجِعي من حيث جِئْتِ، فتَطْلعُ من مَغْرِبها فذلك قولُه تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾»[(٢)].

ولفظُ الترمذيِّ: عن أبي ذرٍّ قال: دخلتُ المسجدَ حين غابت الشمسُ والنبيُّ ﷺ جالسٌ. فقال النبيُّ ﷺ: «يا أبا ذرّ، أتدري أين تذهبُ هذه؟» قال: قلتُ: اللهُ ورسولُه أَعْلَمُ؛ قال: «فإنَّها تذهبُ فتستأذنُ في السُّجودِ فيؤذنُ لها، وكأنَّها قد قيل لها: اطلُعي من حيث جِئْتِ، فتطلعُ من مَغرِبها» قال: ثم قرأ: «ذلك مُسْتَقَرٌّ لها» قال: وذلك قراءةُ عبدِ الله. قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح[(٣)].

وقال عكرمةُ: إنَ الشمس إذا غَرَبت دخلت محراباً تحت العرش تسبِّحُ الله حتى تصبحَ، فإذا أصبحتْ استَعْفَتْ ربَّها من الخروج، فيقولُ لها الربُّ: ولمَ ذاك؟ قالت:

(١) صحيح مسلم (١٥٩): (٢٥٠)، وهو بنحوه عند أحمد (٢١٤٥٩).

(٢) صحيح البخاري (٣١٩٩).

(٣) سنن الترمذي (٣٢٢٧)، وأخرجه البخاري (٧٤٢٤)، ومسلم (١٥٩): (٢٥٠)، وبنحوه عند أحمد (٢١٥٤١).

إنِّي إذا خرجتُ عُبِدْتُ من دونك. فيقول الربُّ تبارك وتعالى: اخرجي، فليس عليك من ذلك شيءٌ، سأبعثُ إليهم[1] جهنَّمَ مع سبعين ألفَ مَلَكٍ يقودونها حتى يُدخلوهم فيها.

وقال الكلبيُّ وغيره: المعنى: تجري إلى أبعدِ منازلها في الغروب، ثم ترجع إلى أدنَى منازلها[2]، فمستقرُّها بلوغُها الموضعَ الذي لا تتجاوزُه بل ترجعُ منه، كالإنسان يقطعُ مسافةً حتى يبلغ أقصى مقصودِه فيقضي وَطَرَه، ثم يرجعُ إلى منزله الأوَّلِ الذي ابتدأ منه سَفَرَه. وعلى تبليغ الشمسِ أقصى منازِلها، وهو مستقرُّها إذا طلعت الهَنْعَة[3]، وذلك اليومُ أطولُ الأيامِ في السَّنة، وتلك الليلةُ أقصرُ الليالي، فالنَّهارُ خمسَ عَشْرةَ ساعةً، والليلُ تسعُ ساعات. ثم يأخذُ في النقصان وترجعُ الشمس، فإذا طلعت الثريّا استوى الليلُ والنهار، وكلُّ واحدٍ ثنتا عَشْرةَ ساعةً. ثم تبلغ أدنى منازلها وتَطْلعُ النَّعائم[4]، وذلك اليومُ أقصرُ الأيام، والليلُ خَمْسَ عَشْرةَ ساعةً. حتى إذا طلع فَرْغُ الدَّلْوِ المؤخَّرُ[5] استوى الليلُ والنهار، فيأخذ الليلُ من النهار كلَّ يومٍ عُشْرَ ثلثِ ساعة، وكلَّ عشرةِ أيامٍ ثلثَ ساعةٍ، وكلَّ شهرٍ ساعةً تامةً، حتى يستويا، ويأخذُ الليل حتى يبلغ خَمْسَ عَشْرةَ ساعةً، ويأخذ النهارُ من الليل كذلك. وقال الحسن: إنَّ للشمس في السنة ثلاثَ مئةٍ وستِّين مطلعاً، تنزلُ في كلِّ يومٍ مطلعاً، ثم لا تنزلُه إلى

(١) في (خ): عليهم.

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٧ .

(٣) الهَنْعة: كوكبان بينهما قيد سوط، وهي منزل من منازل القمر، ينظر الأزمنة والأمكنة ١/ ١٧٦ و١٧٩. ومنازل القمر ثمانية وعشرون منزلاً على ما يأتي، وفي العمدة لابن رشيق ٢/ ٢٥٣: السنة ثلاث مئة وخمسة وستون يوماً، وهو المقدار الذي تقطع فيه الشمس بروج الفلك الاثني عشر، لكل برج منزلتان وثلث منزلة. وينظر ما سيأتي ص٣١ من هذا الجزء.

(٤) منزل من منازل القمر، وهو ثمانية كواكب. ينظر الأزمنة والأمكنة ١/ ١٧٦ و١٨٤ .

(٥) من منازل القمر، وهما فرغان؛ فرغ الدلو المقدم، وفرغ الدلو المؤخَّر، وكلُّ واحد منهما كوكبان. الصحاح (فرغ)، وينظر الأزمنة والأمكنة ١/ ١٨٥ .

الحول، فهي تجري في تلك المنازلِ، وهي مستقرُّها[1]. وهو معنَى الذي قبله سواء.

وقال ابن عباس: إنَّها إذا غربتْ وانتهتْ إلى الموضع الذي لا تتجاوزُه استقرَّتْ تحت العرشِ إلى أن تطلع.

قلت: ما قاله ابنُ عباس يَجمعُ الأقوالَ فتأمَّلْه.

وقيل: إلى انتهاءِ أَمَدِها عند انقضاءِ الدنيا.

وقرأ ابن مسعود وابنُ عباس: «والشمسُ تَجري لا مُسْتَقَرَّ لها» أي: إنها تجري في الليل والنهار لا وقوفَ لها ولا قرار[2]، إلى أنْ يُكوِّرها اللهُ يومَ القيامة. وقد احتجَّ مَن خالفَ المصحفَ فقال: أنا أقرأُ بقراءةِ ابنِ مسعودٍ وابنِ عباس. قال أبو بكر الأنباريّ: وهذا باطلٌ مردودٌ على مَن نَقَلَه؛ لأنَّ أبا عمرٍو رَوَى عن مجاهدٍ عن ابن عباس، وابنُ كثير رَوَى عن مجاهدٍ عن ابن عباس: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ﴾ فهذان السَّنَدانِ عن ابن عباس ـ اللذان يَشهَدُ بصحَّتهما الإجماعُ ـ يُبْطِلان ما روي بالسند الضعيف ممَّا يخالفُ مذهبَ الجماعة وما اتفقتْ عليه الأمة.

قلت: والأحاديثُ الثابتةُ التي ذكرناها تردُّ قولَه، فما أَجْرأَه على كتاب الله، قاتله الله.

وقولُه: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ﴾ أي: إلى مستقرِّها، والمستقرُّ: موضعُ القرار. ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ﴾ أي: الذي ذُكر من أمرِ الليلِ والنهارِ والشمسِ تقديرُ ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿والقمرُ﴾ يكونُ تقديرُه: وآيةٌ لهم القمرُ. ويجوزُ أن يكون

(١) أخرجه بنحوه الطبري ٢٣/ ٢٨٣ عن ابن عباس رضي الله عنهما، ولم نقف عليه من الحسن.

(٢) النكت والعيون ٥/ ١٧، والقراءة في المحتسب ٢/ ٢١٢.

«والقمرُ» مرفوعاً بالابتداء. وقرأ الكوفيون ﴿وَٱلْقَمَرَ﴾ بالنصب على إضمارِ فعلٍ[١]، وهو اختيارُ أبي عبيد؛ قال: لأنَّ قبلَه فعلاً وبعدَه فعلاً؛ قبلَه: «نسلخُ»، وبعده «قدَّرْناه». النحاس[٢]: وأهلُ العربيةِ جميعاً فيما علمتُ على خلافِ ما قال، منهم الفراء[٣]؛ قال: الرفعُ أَعْجبُ إليّ. وإنَّما كان الرفعُ عندهم أَوْلَى؛ لأنه معطوفٌ على ما قبلَه، ومعناه: وآيةٌ لهم القمرُ. وقولُه: إنَّ قبله «نَسْلَخُ»، فقَبْلَه ما هو أقربُ [إليه] منه وهو «تَجْرِي» وقبلَه «والشمسُ» بالرفع. والذي ذَكَره بعده وهو «قدَّرناه» قد عَمل في الهاء. قال أبو حاتم: الرفعُ أَوْلَى؛ لأنك شَغَلْتَ الفعلَ عنه بالضمير، فرفعتَه بالابتداء.

ويقال: القمرُ ليس هو المنازِلَ، فكيف قال: ﴿قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾؟ ففي هذا جوابان: أحدهما: قدَّرناه ذا منازلَ، مثل: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]. والتقديرُ الآخَرُ: قدَّرنا له منازلَ، ثم حُذفت اللام، وكان حَذْفُها حسناً لتعدِّي الفعلِ إلى مفعولين، مثل: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ [الأعراف: ١٥٥].

والمنازلُ ثمانيةٌ وعشرون منزلاً، ينزلُ القمرُ كلَّ ليلةٍ منها بمنزل، وهي: الشَّرَطان. البُطَيْن. الثُّريَّا. الدَّبَران. الهَقْعَة. الهَنْعة. الذِّراع. النَّثْرة. الطَّرْف. الجَبْهة. الخَرَاتانِ. الصَّرْفة. العَوَّاء. السِّمَاك. الغَفْر. الزُّبَانَيَان. الإكْليل. القَلْب. الشَّوْلة. النَّعَائم. البَلْدَة. سَعْدُ الذَّابحُ. سَعْدُ بُلَعَ. سَعْدُ السُّعود. سَعْدُ الأَخْبِية. الفَرْغُ المقدَّمُ. الفَرغُ المؤخَّر. بطنُ الحوت[٤]. فإذا صار القمرُ في آخِرها عاد إلى أوَّلها، فيقطع الفَلَكَ في ثمانٍ وعشرين ليلةً. ثم يَسْتَسِرُّ، ثم يطلع هلالاً، فيعودُ في قطع الفَلَكِ على المنازل، وهي منقسمةٌ على البروج لكلِّ برجٍ منزلان وثلثٌ. فللحَمَلِ الشَّرَطانُ والبُطَينُ وثلثُ

(١) وهي قراءة عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي. السبعة ص٥٤٠ ، والتيسير ص١٨٤ .

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٣٩٤ ، وما قبله وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٣٧٨ .

(٤) ذكرها المرزوقي في الأزمنة والأمكنة ١/ ١٧٦ - ١٨٦ ، وابن رشيق في العمدة ٢/ ٢٥٣ - ٢٥٧ ، وينظر شرحها فيهما.

الثريا، وللثور ثلثا الثريا والدَّبَران وثلثا الهَقْعة، ثم كذلك إلى سائرها. وقد مضى في «الحجر» تسميةُ البروج[١]، والحمد لله.

وقيل: إنَّ الله تعالى خَلَقَ الشمسَ والقمرَ من نارٍ، ثم كُسِيا النورَ عند الطلوع، فأمَّا نورُ الشمسِ فمِن نورِ العرش، وأمَّا نورُ القمرِ فمِن نورِ الكرسيِّ، فذلك أصلُ الخلقةِ وهذه الكِسوة. فأمَّا الشمسُ فتُرِكتْ كِسوتُها على حالها لتُشَعشِعَ وتُشْرِقَ، وأمَّا القمرُ فأمرَّ الروحُ الأمينُ جناحَه على وجهه فمحا ضوءَه بسلطانِ الجناح، وذلك أنَّه روحٌ، والروحُ سلطانُه غالِبٌ على الأشياء. فبقي ذلك المحوُ على ما يراه الخَلْقُ، ثم جُعِلَ في غلافٍ من ماء، ثم جُعِلَ له مَجرىً، فكلّ ليلةٍ يبدو للخلق من ذلك الغلافِ قمراً بمقدارِ ما يُقْمِرُ لهم[٢]، حتى ينتهيَ بدؤُه ويراه الخلقُ بكماله واستدارته. ثم لا يزال يعودُ إلى الغلاف كلَّ ليلةٍ شيءٌ منه، فينقصُ من الرؤية والإقمارِ بمقدارِ ما زاد في البدء. ويبتدئُ في النقصان من الناحية التي لا تراه الشمس، وهي ناحيةُ الغروب، حتى يعودَ كالعُرْجون القديم، وهو العِذقُ المتقوِّسُ ليُبْسِه ودقَّتِه. وإنَّما قيل: القمر؛ لأنه يُقمِر، أي: يُبيِّضُ الجوَّ ببياضِه إلى أن يَسْتسِرَّ.

الثانية: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ قال الزجَّاج: هو عُودُ العِذْقِ الذي عليه الشَّمَاريخ، وهو فُعْلون من الانعراج، وهو الانعطافُ، أي: سار في مَنازِلِه، فإذا كان في آخِرها دقَّ واسْتَقْوسَ وضاق حتى صار كالعُرجون[٣]. وعلى هذا فالنونُ زائدة.

وقال قتادة: هو العِذْقُ اليابسُ المُنْحني من النخلة[٤].

ثعلب: «كالعُرْجونِ القديم» قال: العُرْجون: الذي يبقى من الكِباسة في النخلة إذا

---

(١) ١٢/ ١٨٦ .

(٢) كلام ظاهر البطلان.

(٣) بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٨٧ ، والكشاف ٣/ ٣٢٣ .

(٤) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٤١ .

قُطِعتْ، و«القديم»: البالي[١].

الخليل - في بابِ الرباعيِّ -: العُرْجون أصلُ العِذْق، وهو أصفرُ عريضٌ يشبَّه به الهلالُ إذا انحنى[٢].

الجوهريُّ[٣]: العُرْجُون: أصلُ العِذْقِ الذي يَعْوَجُّ وتُقْطَعُ منه الشماريخُ، فيبقى على النخل يابساً، وعَرْجَنه: ضَرَبَه بالعُرْجون. فالنونُ على قولِ هؤلاء أصليةٌ، ومنه شعرُ أعشى بني قيس:

شَرَقَ المِسْكُ والعبيرُ بها ... فهي صفراءُ كعُرْجونِ القمر[٤]

فالعرجونُ إذا عَتَقَ ويَبِس وتقوَّس شُبِّه القمرُ في دقَّته وصُفْرتِه به. ويقال له أيضاً: الإهان والكِباسةُ والقِنْو، وأهلُ مصر يسمُّونه الإسباطة.

وقرئ: «العِرْجَوْن» بوزن الفِرْجَون[٥]، وهما لغتان، كالبُزْيُون والبِزْيَوْن؛ ذكره الزمخشريُّ[٦] وقال: هو عودُ العِذْقِ ما بين شماريخِه إلى منبته من النخلة.

واعلم أن السَّنَة منقسمةٌ على أربعةِ فصولٍ، لكلِّ فصلٍ سبعةُ منازلَ: فأوَّلُها الربيعُ، وأولُه خمسةَ عشرَ يوماً من آذار، وعددُ أيامِه اثنان وتسعون يوماً، تقطعُ فيه

---

(١) ياقوتة الصراط لغلام ثعلب ص٤٢٢ . والكِباسة: العِذْق التام بشماريخه ورُطَبه. معجم متن اللغة (كبس).

(٢) بنحوه في العين ٢/ ٣٢٠ .

(٣) في الصحاح (عرجن).

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٨ ، وليس هو في ديوان أعشى قيس، وهو في المفضليات ص٩٢ ، والعمدة لابن رشيق ٢/ ١١٨ منسوب للمرَّار بن منقذ، وبلا نسبة في العين ١/ ١٨٢ ، واللسان (عبق)، وروايته في هذه المصادر عدا النكت: عَبِقَ العنبرُ والمسكُ بها، وفي المفضليات والعمدة: ... كعرجون العمر.

(٥) الفِرجَوْن، كبِرْذَوْن: المِحَسَّة (آلة من حديد لها أسنان تنظف بها الدابة) القاموس والمعجم الوسيط (فرجن).

(٦) في الكشاف ٣/ ٣٢٣ ، والقراءة في القراءات الشاذة ص١٢٥ . والبزيون؛ كجِرْدَحْل وعُصْفُور: السندس. القاموس (بزين).

الشمسُ ثلاثةَ بروجٍ: الحَمَل، والثور، والجَوْزاء، وسبعةَ منازِلَ: الشَّرَطان، والبُطَين، والثُّريَّا، والدَّبَران، والهَقْعة، والهَنْعة، والذِّراع. ثم يدخلُ فصلُ الصيف في خمسةَ عشر يوماً من حَزِيران، وعددُ أيامِه اثنان وتسعون يوماً، تقطعُ الشمسُ فيه ثلاثةَ بروجٍ: السَّرَطان، والأسد، والسُّنْبلة، وسبعةَ منازِلَ؛ وهي: النَّثْرة، والطَّرْف، والجبهةُ، والخَرَاتان، والصَّرْفة، والعَوَّاء، والسِّمَاك. ثم يدخل فصلُ الخريفِ في خمسةَ عشرَ يوماً من أيلول، وعددُ أيامِه أحدٌ وتسعون يوماً، تقطعُ فيه الشمسُ ثلاثةَ بروج، وهي الميزان، والعقرب، والقوس، وسبعةَ منازِلَ: الغَفْر، والزُّبانان، والإكليل، والقلب، والشَّوْلة، والنعائم، والبلدة. ثم يدخل فصلُ الشتاء في خمسةَ عَشَر يوماً من كانون الأوّل، وعددُ أيامِه تسعون يوماً، وربَّما كان أحداً وتسعين يوماً، تقطعُ فيه الشمسُ ثلاثةَ بروجٍ؛ وهي: الجَدْي، والدَّلْو، والحوت، وسبعةَ منازِلَ: سعد الذَّابح، وسعد بُلَع، وسعد السُّعود، وسعد الأخبِيَة، والفَرْغ المقدَّم، والفرغ المؤخَّر، وبطن الحوت. وهذه قسمة السريانيين لشهورها: تشرين الأوّل، تشرين الثاني، كانون الأوّل، كانون الثاني، أشباط[1]، آذار، نيسان، أيار، حَزِيران، تَمُّوز، آب، أيلول، وكلُّها أحدٌ وثلاثون إلَّا تشرينَ الثاني ونيسانَ وحزِيرانَ وأيلول، فهي ثلاثون، وأشباط ثمانيةٌ وعشرون يوماً وربعُ يوم.

وإنَّما أردنا بهذا أن تنظر في قدرةِ الله تعالى، فذلك قولُه تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾. فإذا كانت الشمسُ في منزلٍ أهلَّ الهلال بالمنزل الذي بعده، وكان الفجر بمنزلتين مِن قَبْلِه. فإذا كانت الشمسُ بالثريا في خمسةٍ وعشرين يوماً من نيسان، كان الفجرُ بالشَّرَطَيْن، وأهلَّ الهلالُ بالدَّبَران، ثم يكون له في كلِّ ليلةٍ منزلةٌ حتى يقطع في ثمانٍ وعشرين ليلةً ثمانياً وعشرين منزلةً، وقد قطعت الشمسُ منزلتين فيقطعُهما، ثم يَطْلعُ في المنزلةِ التي بعدَ منزلةِ الشمسِ فـ ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[2].

---

(١) وفي القاموس: شُباط، كغُراب.

(٢) من قوله: واعلم أن السنة منقسمة، إلى هذا الموضع وقع في (خ) و(ظ) قبل المسألة الثانية.

الثالثة: قولُه تعالى: ﴿ٱلْقَدِيمِ﴾ قال الزمخشريُّ[(١)]: القديم: المُحْوِل[(٢)]، وإذا قَدُم؛ دَقَّ وانحنى واصفرَّ، فشُبِّه القمرُ به من ثلاثةِ أوجُهٍ. وقيل: أقلُّ عدَّةِ الموصوفِ بالقديم[(٣)] الحَوْلُ، فلو أنَّ رجلاً قال: كلُّ مملوكٍ لي قديمٍ فهو حرٌّ، أو كَتَبَ ذلك في وصيته، عتقَ مَن مَضَى له حولٌ أو أكثر.

قلت: قد مضى في «البقرة» ما يترتَّب على الأهِلَّة من الأحكام[(٤)]، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ رُفعت «الشمس» بالابتداء، ولا يجوزُ أن تعمل «لا» في معرفة. وقد تكلَّم العلماءُ في معنى هذه الآية، فقال بعضهم: معناها أنَّ الشمس لا تُدْرِكُ القمرَ فتُبْطِل معناه[(٥)]، أي: لكلٍّ واحدٍ منهما سلطانٌ على حِياله، فلا يَدخُلُ أحدُهما على الآخَر فيُذهب سلطانه، إلى أن يُبْطِلَ الله ما دبَّر من ذلك، فتطلع الشمسُ من مَغْرِبها على ما تقدَّم في آخِر سورةِ الأنعام بيانُه[(٦)].

وقيل: إذا طلعت الشمسُ لم يكن للقمر ضوءٌ، وإذا طلع القمرُ لم يكن للشمس ضوءٌ. روي معناه عن ابن عباس والضحاك[(٧)].

وقال مجاهد: أي: لا يُشْبِه ضوءُ أحدِهما ضوءَ الآخَر[(٨)].

---

(١) في الكشاف ٣/ ٣٢٣ .

(٢) من أَحْوَلَ، يقال: أَحْوَل بالمكان، أي: أقام به حَوْلاً. ينظر القاموس (حول).

(٣) في الكشاف: أقل مدة الموصوف بالقدم.

(٤) ٣/ ٢٢٨ وما بعدها.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٩٥ .

(٦) ٩/ ١٢٧ وما بعدها.

(٧) أخرجه الطبري ١٩/ ٤٤٠ عن الضحاك، ولم نقف عليه عن ابن عباس.

(٨) النكت والعيون ٥/ ١٨ ، وعلقه البخاري عنه قبل الحديث (٤٨٠٢) وفيه: لا يستر، بدل: لا يشبه، وكذا أخرجه الطبري ١٩/ ٤٣٩ .

وقال قتادةُ: لكلٍّ حدٌّ وعَلَمٌ لا يَعْدُوه ولا يقصرُ دونه، إذا جاء سلطانُ هذا ذهب هذا[١].

وقال الحسن: إنَّهما لا يجتمعان في السماء ليلةَ الهلالِ خاصةً[٢]. أي: لا تبقى الشمسُ حتى يَطْلُعَ القمر، ولكنْ إذا غَرَبت الشمسُ طلع القمر.

يحيى بن سلام: لا تُدْرِكُ الشمسُ القمرَ ليلةَ البدرِ خاصةً؛ لأنه يبادر بالمَغيبِ قبل طلوعها. وقيل: معناه: إذا اجتمعا في السماء كان أحدُهما بين يدي الآخَرِ في منازلَ لا يَشْتَرِكانِ فيها؛ قاله ابنُ عباس أيضاً[٣].

وقيل: القمرُ في السماء الدنيا، والشمسُ في السماء الرابعة، فهي لا تُدركه؛ ذكره النحَّاس[٤] والمَهْدَويُّ.

قال النحاس: وأَحْسَنُ ما قيل في معناها وأَبْيَنُه ممَّا لا يُدفَع: أنَّ سَيْرَ القمرِ سَيْرٌ سريع، والشمسُ[٥] لا تُدْرِكُه في السَّيْر؛ ذكره المَهْدويُّ أيضاً.

فأمَّا قولُه سبحانه: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [القيامة: ٩] فذلك حين حَبْسِ الشمسِ عن الطُّلوع، على ما تقدَّم بيانُه في آخِرِ «الأنعام»[٦]، ويأتي في سورةِ القيامةِ أيضاً. وجَمْعُهما علامةٌ لانقضاءِ الدنيا وقيامِ الساعة.

﴿وَكُلٌّ﴾ يعني من الشمس والقمر والنجوم ﴿فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي: يَجْرون. وقيل: يَدُورون. ولم يَقُلْ: تَسْبَحُ؛ لأنه وَصَفَها بفِعْلِ مَن يَعْقِل.

وقال الحسن: الشمسُ والقمرُ والنجومُ في فَلَكٍ بين السماءِ والأرض غير

---

(١) في (م): ذهب سلطان هذا، والخبر أخرجه الطبري ١٩/ ٤٣٩ .
(٢) النكت والعيون ٥/ ١٨ ، وأخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٤٣ .
(٣) النكت والعيون ٥/ ١٨ ، وقول ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه الطبري ١٩/ ٤٤٠ بنحوه.
(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٣٩٥ .
(٥) في إعراب القرآن: فالشمس.
(٦) ٩/ ١٢٩ .

مُلْصَقةٍ، ولو كانت مُلْصَقةً ما جَرَتْ؛ ذكره الثعلبيُّ والماورديُّ[(١)].

واستدلَّ بعضُهم بقوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ على أنَّ النهار مخلوقٌ قبل الليل، وأنَّ الليل لم يَسْبِقْه بخَلْقٍ[(٢)].

وقيل: كلُّ واحدٍ منهما يجيءُ وقتُه ولا يَسْبِقُ صاحبَه، إلى أنْ يُجمعَ بينَ الشمسِ والقمرِ يومَ القيامة، كما قال: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [القيامة: ٩]، وإنَّما هذا التعاقُبُ الآنَ لتتمَّ مَصالحُ العِباد ﴿وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَۚ﴾ [الإسراء: ١٢] ويكونَ الليلُ للإجمام والاستراحة، والنهارُ للتصرُّف، كما قال تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [القصص: ٧٣] وقال: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ [النبأ: ٩] أي: راحةً لأبدانِكم من عمل النهار. فقولُه: ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ أي: غالب النهار؛ يقال: سبق فلانٌ فلاناً، أي: غلبه.

وذكر المبرِّد قال: سمعت عمارةَ[(٣)] يقرأ: «ولا الليلُ سابِقُ النهارَ» فقلت: ما هذا؟ قال: أردتُ: سابِقٌ النهارَ، فحذفتُ التنوين لأنه أَخفّ. قال النحاس[(٤)]: يجوزُ أن يكون «النهار» منصوباً بغيرِ تنوينٍ، ويكون التنوينُ حُذِفَ لالتقاءِ الساكِنَيْن.

قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ﴾ يَحتَمِلُ ثلاثةَ مَعَانٍ: أحدها: عِبرةٌ لهم؛ لأنَّ في الآياتِ اعتباراً. الثاني: نعمةٌ عليهم؛ لأنَّ في الآياتِ إنعاماً. الثالث: إنذارٌ لهم؛ لأنَّ

---

(١) في النكت والعيون ٥/ ١٨.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٩٥.

(٣) ابن عقيل بن بلال بن جرير بن عطية اليربوعي، يكنى أبا عقيل، شاعر فصيح قدم من اليمامة فمدح المأمون، وبقي إلى أيام الواثق ومدحه. معجم الشعراء للمرزباني ص٧٨.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٣٩٥ - ٣٩٦، وما قبله منه.

في الآياتِ إنذاراً[(١)].

﴿أنّا حَمَلْنا ذُرِّيّاتِهم[(٢)] في الفُلْكِ المشحون﴾ مِن أَشْكَلِ ما في السورة؛ لأَنَّهم هم المحمولون[(٣)]. فقيل: المعنى: وآيةٌ لأهلِ مكةَ أنّا حملنا ذُرِّيَّةَ القرونِ الماضيةِ في الفُلْكِ المشحون، فالضميران مختلفان؛ ذكره المهدويُّ. وحكاه النحّاس[(٤)] عن عليّ ابن سليمان أنَّه سمعه يقولُه.

وقيل: الضَّميران جميعاً لأهلِ مكةَ، على أنْ يكون ذرِّياتهم أولادَهم وضعفاءَهم. فالفُلْكُ على القولِ الأولِ سفينةُ نوح. وعلى الثاني يكونُ اسماً للجنس؛ خبَّر جلَّ وعزَّ بلُطْفِه وامتنانه، وأنَّه خَلَق السفنَ يُحمَلُ فيها مَن يَصْعبُ عليه المشيُ والركوبُ من الذُّرِّيَّة والضعفاء، فيكونُ الضَّميران على هذا مُتَّفقَين.

وقيل: الذُّرِّيَّةُ: الآباءُ والأجداد، حَمَلَهم الله تعالى في سفينةِ نوحٍ عليه السلام. فالآباءُ ذُرِّيَّةٌ، والأبناءُ ذُرِّيَّةٌ، بدليلِ هذه الآيةِ؛ قاله أبو عثمان. وسمَّى الآباءَ ذُرِّيَّةً؛ لأنَّ منهم ذَرَأَ الأبناء[(٥)].

وقولٌ رابعٌ: أنَّ الذُرِّيَّةَ النُّطَفُ، حَمَلَها الله تعالى في بطون النساء تشبيهاً بالفُلْكِ المشحون؛ قاله عليّ بن أبي طالب ﷺ؛ ذكره الماورديُّ[(٦)]. وقد مضى في «البقرة» اشتقاقُ الذُّرِّيَّةِ والكلامُ فيها مُسْتَوفىً[(٧)]. و«المَشْحُون»: المملوءُ المُوْقَر، و«الفُلْكُ» يكون واحداً وجمعاً. وقد تقدَّم في «يونس» القولُ فيه[(٨)].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٩ .

(٢) بالجمع، قراءة نافع وابن عامر من السبعة، وقرأ الباقون: «ذريتهم» بالتوحيد. السبعة ص٥٤٠ ، والتيسير ص١٨٤ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٩٦ .

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٣٩٦ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٩ ، وفيه: أبان بن عثمان، بدل: أبو عثمان.

(٦) في النكت والعيون ٥/ ١٩ . وقال أبو حيان في البحر ٧/ ٣٣٨: وهذا لا يصح؛ لأنه نوعٌ من تفسير الباطنية وغلاة المتصوفة الذين يفسرون كتاب الله على شيءٍ لا يَدلُّ عليه اللفظ بجهة من جهات الدلالة، يحرِّفون الكلم عن مواضعه.

(٧) ٢/ ٣٦٨ .

(٨) ١٠/ ٤٧٤ ، وينظر في الكلام فيه أيضاً ٢/ ٤٩٤ .

قوله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ والأصلُ: يركبونه، فحذفت الهاءُ لطولِ الاسم وأنَّه رأسُ آيةٍ. وفي معناه ثلاثةُ أقوالٍ:

مذهبُ مجاهدٍ وقتادةَ وجماعةٍ من أهل التفسير، وروي عن ابن عباس: أنَّ معنى «مِن مِثْلِه» للإبل[١]، خَلَقها لهم للركوب في البرِّ مثل السفن المركوبةِ في البحر، والعرب تشبِّه الإبلَ بالسفن؛ قال طَرَفةُ:

كأنَّ حُدُوجَ المالكيَّةِ غُدوةً خلايا سَفِينٍ بالنَّواصِفِ مِن دَدِ[٢]

جمعُ خَليَّة، وهي السفينةُ العظيمة.

والقولُ الثاني أنه للإبل والدوابِّ وكلِّ ما يُرْكَبُ.

والقولُ الثالث: أنه للسفن؛ النحاس: وهو أصحُّها؛ لأنَّه متَّصلُ الإسنادِ عن ابن عباس؛ ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ قال: خلَق لهم سفناً أمثالَها يركبون فيها[٣]. وقال أبو مالك: إنَّها السفنُ الصغارُ خَلَقها مثلَ السفنِ الكبار. ورُوي عن ابن عباس أيضاً والحسن[٤]. وقال الضحاك وغيره: هي السفنُ المتَّخذةُ بعد سفينةِ نوحٍ[٥].

قال الماوَرْديُّ: ويَجيءُ على مقتضَى تأويلِ عليٍّ ﷺ في أنَّ الذُّرِّيَّةَ في الفُلْكِ المشحونِ هي النُّطَفُ في بطونِ النساءِ قولٌ خامسٌ في قوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ أنْ يكون تأويلُه: النساءُ خُلِقْنَ لركوبِ الأزواجِ، لكنْ لمْ أرَه مَحْكيًّا[٦]!

قوله تعالى: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ أي: في البحر، فتَرجِعُ الكنايةُ إلى أصحاب

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٩٦، دون قوله: وروي عن ابن عباس. وأخرجه عن ابن عباس ومجاهد الطبري ١٩/٤٤٦.

(٢) ديوان طرفة ص٢٠، والنكت والعيون ٥/٢٠، والكلام منه. الحُدوج جمع حِدْج، وهو مَرْكَب من مراكب النساء. والمالكيَّة منسوبة إلى مالك بن سعد بن ضبيعة. والنواصف جمع ناصفة، وهي الرحبة الواسعة تكون في الوادي. ودد: موضع. اللسان (ددا).

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٩٦. والخبر أخرجه الطبري ١٩/٤٤٤.

(٤) أخرجه الطبري ١٩/٤٤٤ عن أبي مالك والحسن.

(٥) أخرجه الطبري ١٩/٤٤٥.

(٦) النكت والعيون ٥/٢٠، وسلف الكلام على خبر علي ﷺ في تفسير الآية السابقة، وأنه من تحريف الكلم عن مواضعه.

الذُّرِّيَّةِ، أو إلى الجميع. وهذا يدلُّ على صحَّة قولِ ابن عباس ومَن قال: إنَّ المرادَ «مِن مِثْلِه» السفنُ لا الإبل.

﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ أي: لا مُغيثَ لهم، رواه سعيدٌ عن قتادةَ. ورَوَى شيبان عنه: فلا مَنَعةَ لهم(١). ومعناهما مُتقاربان. و«صَرِيخ» بمعنى مُصرِخ، فعيلٌ بمعنى فاعل.

ويجوزُ: «فلا صَريخٌ لهم»(٢)؛ لأنَّ بعدَه ما لا يَجوزُ فيه إلَّا الرفعُ؛ لأنَّه معرفةٌ وهو ﴿وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ﴾، والنحويون يختارون: لا رجلٌ في الدارِ ولا زيدٌ. ومعنى: «يُنْقَذُونَ»: يُخلَّصون من الغَرَق. وقيل: من العذاب.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾ قال الكسائيُّ: هو نصبٌ على الاستثناء. وقال الزجَّاج: نُصِبَ [لأنه] مفعولٌ من أجله، أي: للرحمة، ﴿وَمَتَاعًا﴾ معطوفٌ عليه(٣).

﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾: إلى الموت؛ قاله قتادة. يحيى بن سلام: إلى القيامة(٤)، أي: إلَّا أنْ نَرْحَمَهم ونمتِّعهم إلى آجالهم، وأنَّ الله عجَّل عذابَ الأممِ السالفة، وأخَّر عذابَ أمَّةِ محمدٍ ﷺ ـ وإن كذَّبوه ـ إلى الموت والقيامة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ قال قتادةُ: يعني «اتَّقُوا

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٠ ، وأخرج الأول عبد الرزاق ٢/ ١٤٤ ، والطبري ١٩/ ٤٤٧ .
(٢) وقد قرئ بها كما ذكر العكبري في الإملاء ٤/ ٢٢٩ .
(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٩٧ ، وما سلف بين حاصرتين منه، وقول الزجاج في معاني القرآن٤/ ٢٨٩ .
(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٠ ، وقول قتادة أخرجه الطبري ١٩/ ٤٤٧ .

ما بين أيديكم» أي: من الوقائع فيمَن كان قَبْلَكم من الأمم، «وما خَلْفَكم» من الآخرة[١].

ابن عباس وابن جُبير ومجاهد: «ما بين أيديكم»: ما مضى من الذُّنوب، «وما خَلْفَكم»: ما يأتي من الذُّنوب[٢].

الحسن: «ما بين أَيديكم»: ما مضى من أجَلِكُمْ، «وما خَلْفَكم»: ما بقيَ منه.

وقيل: «ما بين أيديكم»: من الدنيا، «وما خَلْفَكم»: من عذاب الآخرة؛ قاله سفيان[٣]. وحَكَى عَكْسَ هذا القولِ الثعلبيُّ عن ابن عباس. قال: «ما بين أيديكم»: من أمر الآخرة فاعملوا لها[٤]، «وما خَلْفَكم»: من أمرِ الدنيا فاحذروها ولا تغترُّوا بها.

وقيل: «ما بين أيديكم»: ما ظَهَر لكم، «وَمَا خَلْفَكُمْ»: ما خفيَ عنكم.

والجوابُ محذوفٌ، والتقدير: إذا قيل لهم ذلك أَعْرَضوا، دليلُه قولُه بعدُ: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ فاكتفَى بهذا عن ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: تَصَدَّقوا على الفقراء. قال الحسن: يعني اليهودَ، أُمِروا بإطعامِ الفقراء[٥].

وقيل: هم المشركون قال لهم فقراءُ أصحابِ النبيِّ ﷺ: أَعْطُونا ما زعمتُم من أموالكم أنَّها لله، وذلك قولُه: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: ١٣٦]. فَحرَموهم وقالوا: لو شاء الله أَطْعَمَكم ـ استهزاءً ـ فلا نُطْعِمُكم حتى تَرْجِعوا إلى ديننا. قالوا: ﴿أَنُطْعِمُ﴾ أي: أنرزقُ ﴿مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُۥ﴾، كان بَلَغهم

(١) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٤٤، والطبري ١٩/ ٤٤٨.

(٢) أخرجه الطبري ١٩/ ٤٤٨ عن مجاهد، ولم نقف عليه عن ابن عباس وابن جبير.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢١.

(٤) في النسخ: من أمر الآخرة وما عملوا لها، والمثبت من الوسيط ٣/ ٥١٥، وتفسير البغوي ٤/ ١٤.

(٥) النكت والعيون ٤/ ٢١.

من قولِ المسلمين: أنَّ الرازق هو الله. فقالوا هزءاً: أنرزقُ مَن لو يشاءُ الله أغناه؟!(١)

وعن ابن عباس: كان بمكةَ زنادقةٌ، فإذا أُمروا بالصدقة على المساكين قالوا: لا واللهِ، أَيُفْقِرُه اللهُ ونُطْعِمُه نحن! وكانوا يسمعون المؤمنين يعلِّقون أفعالَ اللهِ تعالى بمشيئته فيقولون: لو شاء الله لأغْنَى فلاناً، ولو شاء اللهُ لأعزَّه(٢)، ولو شاء اللهُ لكان كذا. فأَخْرَجوا هذا الجوابَ مُخرَجَ الاستهزاءِ بالمؤمنين، وبما كانوا يقولونه من تعليقِ الأمورِ بمشيئةِ اللهِ تعالى.

وقيل: قالوا هذا تعلُّقاً بقولِ المؤمنين لهم: ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: فإذا كان الله رَزَقَنا فهو قادرٌ على أن يرزقكم، فَلِمَ تلتمسون الرزقَ منَّا؟. وكان هذا الاحتجاجُ باطلاً؛ لأنَّ الله تعالى إذا ملَّك عبداً مالاً ثم أَوْجَبَ عليه فيه حقّاً؛ فكأنه انتزع ذلك القَدْرَ منه، فلا معنى للاعتراض. وقد صَدَقوا في قولهم: لو شاء الله أطعمهم، ولكنْ كَذَبوا في الاحتجاج. ومثلُه قولُه: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقولُه: ﴿قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ قيل: هو من قولِ الكفارِ للمؤمنين، أي: في سؤالِ المالِ وفي اتِّباعكم محمداً. قال معناه مقاتلٌ وغيره. وقيل: هو من قولِ أصحاب النبيِّ ﷺ لهم. وقيل: هو من قولِ اللهِ تعالى للكفار حين ردُّوا بهذا الجواب.

وقيل: إنَّ أبا بكر الصدِّيقَ ﷺ كان يطعم مساكينَ المسلمين، فلقيه أبو جهلٍ فقال: يا أبا بكر، أتزعمُ أنَّ الله قادرٌ على إطعامِ هؤلاء؟! قال: نعم. قال: فما بالُه لم يُطْعِمْهم؟ قال: ابتَلى قوماً بالفقر، وقوماً بالغنى، وأمر الفقراءَ بالصبر، وأمر

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٣٢٥ إلى قوله: لو شاء الله أطعمكم. وذكره بنحوه البغوي ٤/ ١٤، وابن الجوزي ٧/ ٢٤ وعزاه لمقاتل.

(٢) في النسخ: لأعزَّ، والمثبت من الكشاف ٣/ ٣٢٥، والكلام منه.

الأغنياءَ بالإعطاء. فقال: واللهِ يا أبا بكر ما أنتَ إلَّا في ضلال! أتزعُم أنَّ الله قادرٌ على إطعامِ هؤلاء وهو لا يطعمُهم، ثم تطعمهم أنت؟! فنزلت هذه الآية، ونزل قولُه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ الآيات [الليل: ٥-٦][١]. وقيل: نزلت الآيةُ في قومٍ من الزنادقة، وقد كان فيهم أقوامٌ يتزندقون فلا يؤمنون بالصانع، واستهزؤوا بالمسلمين بهذا القول؛ ذكره القُشيريُّ والماوَرْديّ[٢].

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ لمَّا قيل لهم: ﴿ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ قالوا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ وكان هذا استهزاءً منهم أيضاً، أي: لا تحقيقَ لهذا الوعيدِ، قال الله تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ﴾ أي: ما ينتظِرون ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ وهي نفخةُ إسرافيلَ ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ أي: يَخْتَصِمون في أمورِ دنياهم، فيموتون في مكانهم؛ وهذه نفخةُ الصَّعْق.

وفي «يَخِصِّمُون» خمسُ قراءاتٍ: قرأ أبو عمرو وابنُ كثير: ﴿وهم يَخَصِّمُونَ﴾ بفتحِ الياءِ والخاءِ وتشديدِ الصَّاد. وكذا رَوَى وَرْشٌ عن نافع[٣]. فأمَّا أصحابُ القراءاتِ وأصحابُ نافعٍ سوى ورشٍ فَرَوَوْا عنه: «يَخْصِّمُونَ» بإسكان الخاء وتشديدِ الصاد على الجمع بين ساكنين.

وقرأ يحيى بن وثَّابٍ والأعمشُ وحمزةُ: ﴿وهم يَخْصِمُونَ﴾ بإسكان الخاءِ وتخفيفِ الصَّاد؛ من خَصَمَه.

وقرأ عاصمٌ والكسائيُّ: ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ بكَسْرِ الخاءِ وتشديدِ الصاد[٤]،

---

(١) لم نقف عليه.

(٢) في النكت والعيون ٥/ ٢١.

(٣) وهي قراءة هشام أيضاً. غير أن أبا عمرو كان يختلس فتحة الخاء. السبعة ص٥٤١، والتيسير ص١٨٤. والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٩٧.

(٤) وقرأ بها أيضاً من السبعة ابن عامر في رواية ابن ذكوان. والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٩٧.

ومعناه: يخصِمُ بعضُهم بعضاً. وقيل: تأخذُهم وهم عند أنفسِهم يَخْتَصِمون في الحجة أنَّهم لا يُبعثون.

وقد روى ابنُ جُبيرٍ عن أبي بكر عن عاصم، وحمادٌ عن عاصمٍ كَسْرَ الياءِ والخاءِ والتشديد[1].

قال النحاس: القراءةُ الأُولى أَبْيَنُها. والأصلُ فيها: يَخْتَصِمون، فأُدْغمت التاءُ في الصاد، فقُلبتْ حركتُها على الخاء[2]، وفي حَرْفِ أُبيٍّ: «وهم يَخْتَصمون». وإسكانُ الخاءِ لا يجوزُ؛ لأنه جمعٌ بين ساكنين وليس أحدُهما حرف مدٍّ ولِيْن[3]. وقيل: أَسْكَنوا الخاءَ على أصلها.

[فأمَّا مَن قرأ: «يَخْصِمون» فالتقدير:] يَخْصِم[4] بعضُهم بعضاً، فحذف المضاف[5]، وجاز أن يكون المعنى: يَخْصِمون مُجادِلَهم عند أنفُسِهم فحذف المفعول. قال الثعلبيُّ: وهي قراءةُ أُبيّ بنِ كعب.

قال النحَّاس[6]: فأمَّا «يَخِصِّمُون» فالأصلُ فيه أيضاً: يختصمون، فأُدغمت التاءُ في الصاد، ثم كُسِرت الخاءُ لالتقاءِ الساكنين. وزعم الفرَّاء[7] أنَّ هذه القراءةَ أَجْودُ وأكثر؛ فتَرَكَ ما هو أَوْلَى ـ من إلقاءِ حركةِ التاءِ على الخاء ـ واجْتَلَبَ لها حركةً

(١) جامع البيان للداني ٢/٣٦٦. والمشهور عن عاصم فتح الياء كما سلف. وابن جبير هو أحمد بن جبير ابن محمد، أبو جعفر الكوفي المقرئ.

(٢) في (م): فنقلت حركتها إلى الخاء.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٩٧ . وقراءة أبيٍّ ﷺ ذكرها أيضاً الفراء في معاني القرآن ٢/ ٣٧٩ .

(٤) قبلها في النسخ: والمعنى، والمثبت من الحجة للفارسي ٦/ ٤٢ .

(٥) قال مكي في الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ٢١٧ : حذفَ المضاف، وهو «بعض» الأول، وقام الضمير المخفوض مقام «بعض» في الإعراب، فصار ضميراً مرفوعاً، فاستتر في الفعل؛ لأن المضمر المرفوع لا ينفصل بعد الفعل، لا تقول: اختصم هم.

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٣٩٨ .

(٧) في معاني القرآن له ٢/ ٣٧٩ .

أخرى، وجَمَع بين ياءٍ وكسرة، وزعم أنه أجودُ وأكثر. وكيف يكونُ أكثرَ وبالفتح قراءةُ الخَلْقِ من أهل مكةَ وأهلِ البصرةِ وأهلِ المدينة!

وما رُوي عن عاصمٍ من كسرِ الياءِ والخاءِ فللإتْباع. وقد مضى هذا في «البقرة» في ﴿يَخۡطَفُ أَبۡصَـٰرَهُمۡۖ﴾ [الآية: ٢٠] وفي «يونس» في ﴿يَهِدِّيٓ﴾ [الآية: ٣٥].

وقال عِكرمةُ في قوله جلَّ وعزَّ: ﴿إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ قال: هي النفخةُ الأولى في الصُّور. وقال أبو هريرةَ: يُنفخُ في الصُّور والناسُ في أسواقهم؛ فمِن حالبٍ لَقْحةً، ومن ذارعٍ ثوباً، ومن مارٍّ في حاجة(١).

وروى نُعيمٌ عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «تقومُ الساعةُ والرجلان قد نَشَرا ثوبهما يتبايعانِه، فلا يَطْوِيانِه حتى تقومَ الساعة، والرجلُ يَلِيطُ حوضَه لِيَسْقيَ ماشيته، فما يسقيها حتى تقومَ الساعةُ، والرجلُ يخفِضُ ميزانه فما يرفعُه حتى تقوم الساعة، والرجلُ يرفع أُكْلَته إلى فيه، فما يَبْتَلعها(٢) حتى تقومَ الساعة»(٣).

وفي حديث عبد الله بن عمرو: «وأولُ مَن يسمعُه رجلٌ يَلُوطُ حوضَ إبله ـ قال ـ فيَصْعَقُ ويَصْعَقُ الناس» الحديث(٤).

﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةٗ﴾ أي: لا يستطيعُ بعضُهم أنْ يوصيَ بعضاً لِمَا في يده من حقٍّ(٥). وقيل: لا يستطيعُ أن يوصيَ بعضُهم بعضاً بالتوبة والإقلاع، بل يموتون في أسواقهم ومَواضِعِهم.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٩٨ .

(٢) في(خ): يبلعها، وفي (م): يتبلعها.

(٣) النكت والعيون ١٥/٢٢ ، وأخرجه بنحوه أحمد (٨٨٢٤)، والبخاري (٦٥٠٦)، ومسلم (٢٩٥٤) من طريق الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ. وأخرجه بنحوه أيضاً الداني في السنن الواردة في الفتن (٣٨٣) من طريق نعيم بن عبد الله عن أبي هريرة عن النبي ﷺ. قوله: يليط حوضه ـ وفي رواية: يلوط ـ أي: يطينه ويصلحه. النهاية (لوط).

(٤) أخرجه أحمد (٦٥٥٥)، ومسلم (٢٩٤٠)، وسلف ٨/ ٤٣٠ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٢ .

﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ إذا ماتوا. وقيل: إنَّ معنى «ولا إلى أهلهم يَرْجِعون»: لا يَرْجعون إليهم قولاً. وقال قتادة: «ولا إلى أهلهم يَرْجِعون» أي: إلى منازلهم؛ لأنَّهم قد أُعْجِلوا عن ذلك[١].

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ ۝٥١ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝٥٢ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ۝٥٣ فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٥٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ هذه النفخةُ الثانيةُ للنَّشْأة. وقد بيَّنَّا في سورة النملِ أنَّهما نفختان لا ثلاثٌ[٢] وهذه الآيةُ دالَّةٌ على ذلك. وروى المباركُ بنُ فَضالة عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «بين النَّفْخَتين أربعون سنةً: الأُولى يُميتُ الله بها كلَّ حيٍّ، والأُخرى يُحيي اللهُ بها كلَّ ميِّتٍ»[٣].

وقال قتادةُ: الصُّورُ جمعُ صُورَة، أي: نُفخ في الصُّوَر الأرواحُ[٤]. وصُورَةٌ وصُوَرٌ مثلُ سُورةِ البناءِ وسُوَر؛ قال العَجَّاج:

ورُبَّ ذي سُرادِقٍ مَحْجُورِ سُرْتُ إليهِ في أعالي السُّورِ[٥]

وقد رُوي عن ابن هرمز أنه قرأ: «ونُفِخَ في الصُّوَرِ»؛ النحاس[٦]: والصحيحُ أنَّ

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٢ ، وأخرجه الطبري ١٩/ ٤٥٤ دون قوله: أي إلى منازلهم.

(٢) عند تفسير الآية (٨٧) منها.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٣ ، وسلف عند تفسير الآية (٨٧) من سورة النمل.

(٤) في (م): والأرواح.

(٥) ديوان العجاج ص٢٢٩ - ٢٣٠، والكتاب ٤/ ٥١ ، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٩٩ ، والكلام منه. قوله: سُرْت، أي: وثبت. شرح الشواهد للشنتمري ص٥٤٩ ،

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٣٩٩ ، وما قبله منه، ووقع في النسخ: أبي هريرة، بدل: ابن هرمز، وهو تصحيف، وينظر المحرر الوجيز ٤/ ٤٥٧ ، والبحر ٧/ ٣٤١ . والقراءة في المحتسب ٢/ ٢١٢ عن قتادة.

«الصُّوْر» بإسكان الواو: القَرْن، جاء بذلك التوقيفُ عن رسولِ الله ﷺ، وذلك معروفٌ في كلامِ العرب، أنشد أهلُ اللغة:

نحنُ نَطَحْناهم غَداةَ الغُورَيْن بالضَّابِحاتِ في غُبَارِ النَّقْعَيْن

نَطْحاً شديداً لا كَنَطْحِ الصُّورَيْن

وقد مضى هذا في «الأنعام» مستوفىً[١].

﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي: القبور. وقرئ بالفاء: «مِن الأَجْدافِ» ذكره الزمخشريُّ[٢]. يقال: جَدَثٌ وَجَدَفٌ. واللغةُ الفصيحةُ: جَدَثٌ؛ بالثاء، والجمعُ أَجْدُثٌ وأجداث؛ قال المتنخِّلُ الهُذَليُّ:

عَرفتُ بأَجْدُثٍ فَنِعَافِ عِرْقٍ عَلَاماتٍ كتَحبِيرِ النِّمَاطِ[٣]

واجْتَدَثَ: أي: اتَّخذ جَدَثاً.

﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ أي: يخرجون؛ قاله ابنُ عباس وقتادة[٤]. ومنه قولُ امرئ القيس:

فَسُلِّي ثِيابي من ثيابِك تَنْسِلِ[٥]

ومنه قيل للولد: نَسْل؛ لأنَّه يخرج من بطنِ أمِّه.

---

(١) ٨/ ٤٣٠ وما بعدها، وسلف ثَمَّة البيت الأول والثالث، والأول برواية: الجمعين، بدل: الغورين، والأبيات الثلاثة في أمالي القالي ١/ ٣٦ . قوله: بالضابحات، من ضبحت الخيل: إذا عَدَت. اللسان (ضبح).

(٢) في الكشاف ٣/ ٣٢٥ .

(٣) ديوان الهذليين ٢/ ١٨ ، والصحاح (جدث)، والكلام منه. قال شارح الديوان: أجدث ونِعاف عِرقٍ: هي مواضع، كتحبير: كتنقيش. والنماط جمع نمط. اهـ وفي القاموس (نمط): النمط: ضربٌ من البُسُط.

(٤) أخرج قولهما الطبري ١٩/ ٤٥٥ - ٤٥٦ .

(٥) ديوان امرئ القيس ص١٣ ، وسلف ١٤/ ٢٨٧ . وصدره: وإن كنت قد ساءتك مني خليقة.

وقيل: يُسرعون. والنَّسَلان والعَسَلان: الإسراعُ في السَّيْر، ومنه مِشْيةُ الذئب؛ قال:

عَسَلانَ الذِّئبِ أمْسَى قارِباً بَرَدَ الليلُ عليه فنَسَلْ[1]

يقال: عَسَل الذئبُ ونَسَل، يَعْسل ويَنْسِل، من باب ضَرَبَ يَضْرِب. ويقال: يَنسُل بالضم أيضاً. وهو الإسراع في المشي، فالمعنى: يخرجون مسرعين. وفي التنزيل: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان:٢٨]، وقال: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر:٧]، وفي «سَأَلَ سائلٌ»: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [الآية:٤٣] أي: يُسْرعون. وفي الخبر: شَكَوْنا إلى النبيِّ ﷺ الضعفَ فقال: «عليكم بالنَّسْل»[2] أي: بالإسراع في المشي، فإنَّه ينشِّط.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا﴾ قال ابن الأنباريّ[3]: «يا ويلنا» وقفٌ حسنٌ، ثم تَبتدئُ: ﴿مَنْ بَعَثَنَا﴾. وروي عن بعضِ القراء: «يا ويلنا مِن بَعْثِنا» بكسر مِن والثاء من البعث، رُوي ذلك عن عليٍّ ﷺ، فعلى هذا المذهبِ لا يَحْسُنُ الوقفُ على قوله: «يا ويلنا»، حتى يقول: ﴿مِن مَّرْقَدِنَا﴾، وفي قراءةِ أبيّ بنِ كعب: «مَنْ أَهَبَّنا»[4] بالوصلِ[5] «مِن مَرْقَدِنا»، فهذا دليلٌ على صحةِ مذهبِ العامَّة.

---

(١) البيت للبيد أو للنابغة الجعدي، وقد سلف ١٤/ ٢٨٧ . قوله: قارباً؛ القارب هو طالب الماء ليلاً. اللسان (قرب).

(٢) غريب الحديث لابن الجوزي ٢/ ٤٠٥ ، والنهاية ٥/ ٥٠ ، وأخرجه بنحوه ابن قتيبة في غريب الحديث ١/ ٢٢١ من طريق ابن عيينة عن رجل: أن النبي ﷺ مر بأصحابه وهم يمشون، فشكوا إليه الإعياء، فأمرهم أن ينسلوا، وإسناده ضعيف.

(٣) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٥٤ .

(٤) في (ظ): أبعثنا، وفي (م): هبنا، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في إيضاح الوقف والابتداء، إلا أن ابن الأنباري نسبها لابن مسعود ﷺ. وذكر ابن جني في المحتسب ٢/ ٢١٤ عن أبيٍّ أنه قرأ: «هبَّنا»، وعن ابن مسعود أنه قرأ: «أهبَّنا».

(٥) قوله: بالوصل، ليس في (خ) و(ز) ولا في إيضاح الوقف والابتداء (والكلام منه). وسيذكر المصنف عن ابن الأنباري لاحقاً أنها بالوصل.

قال المهدويُّ: قرأ ابنُ أبي ليلى: «قالوا يا وَيْلَتَنا» بزيادةِ تاءٍ[١]، وهو تأنيثُ الويل، ومثلُه: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ [هود: ٧٢].

وقرأ عليٌّ ﷺ: «يا وَيْلَنا مِن بَعْثِنا» فـ«مِن» متعلِّقةٌ بالويل، أو حالٌ من «ويلنا» فتتعلَّق بمحذوف، كأنه قال: يا ويلنا كائناً مِن بَعْثِنا، وكما يجوزُ أن يكون خبراً عنه كذلك يجوزُ أن يكون حالاً منه. و«مِن» من قوله: «مِنْ مَرْقَدِنَا» متعلِّقةٌ بنفس البعث[٢].

ثم قيل: كيف قالوا هذا وَهُم من المعذَّبين في قبورهم؟ فالجوابُ: أنَّ أُبيّ بن كعب قال: ينامون نومة[٣]. وفي روايةٍ فيقولون: يا ويلنا من هَبَّنا[٤] من مرقدنا.

قال أبو بكر الأنباريُّ: لا يُحمَلُ هذا الحديثُ على أنَّ «هبَّنا» من لَفْظِ القرآن كما قاله مَن طَعَنَ في القرآن، ولكنه تفسيرُ «بَعَثَنا» أو مُعبِّرٌ عن بعضِ مَعَانيه.

قال أبو بكر: وكذا حَفِظْتهُ: «مَنْ هَبَّنا» بغيرِألفٍ في «هبَّنا» مع تَسْكينِ نونِ «مَن»، والصوابُ فيه على طريق اللغة: «مَنَ اهبَّنا» بفتحِ النون على أنَّ فتحةَ همزةِ أهبَّ أُلقِيتْ على نونِ «مَن» وأُسقطت الهمزة، كما قالت العرب: مَنَ اخْبَرَكَ، مَنَ اعْلَمك؟ وهم يريدون: مَنْ أخبرك. ويقال: أَهْببتُ النائم فهبَّ النائمُ. أنشدنا أحمد بن يحيى النحوي:

وعَـاذِلَـةٍ هَـبَّـتْ بِـلَـيْـلٍ تَـلُـومُـنـي ... ولـم يَـغـتـمِـزْنـي قـبـل ذاكَ عَـذُولُ[٥]

---

(١) القراءات الشاذة ص١٢٥ . وذكر ابن جني عن ابن أبي ليلى: «يا ويلتا» بالتاء بعدها ألف. وذكر أبو حيان في البحر ٧/ ٣٤١ القراءتين عن ابن أبي ليلى، وقال في الثانية: ومعنى هذه القراءة أن كل واحد منهم يقول: يا ويلتا.

(٢) المحتسب ٢/ ٢١٣ . وقراءة علي ﷺ ذكرها أيضاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٢٥ وقد سلفت قريباً.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٠٠ . وأخرج قول أبيٍّ ﷺ الطبري ١٩/ ٤٥٦ . قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٥٨ : وهذا غير صحيح الإسناد.

(٤) في (د) و(م): أهبنا.

(٥) الأمالي للقالي ١/ ٣٨ ، وزهر الآداب للحصري القيرواني ١/ ٣٥٦ . وأحمد بن يحيى هو ثعلب. قال =

وقال أبو صالح: إذا نُفِخَ النفخةُ الأُولى رُفِعَ العذابُ عن أهل القبور وهجعوا هجعةً إلى النفخة الثانية، وبينهما أربعون سنةً؛ فذلك قولُهم: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾(١). وقاله ابنُ عباس وقتادة(٢).

وقال أهلُ المعاني: إنَّ الكفار إذا عايَنوا جهنَّمَ وما فيها من أنواع العذابِ صار ما عُذِّبوا به في قبورهم إلى جنبِ عذابها كالنوم(٣).

قال مجاهد: فقال لهم المؤمنون: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾. وقال قتادةُ: فقال لهم مَن هَدَى الله: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ وقال الفرَّاء: فقال لهم الملائكة: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾. النحَّاس(٤): وهذه الأقوالُ متَّفِقةٌ؛ لأنَّ الملائكةَ من المؤمنين وممَّن هَدَى الله عزَّ وجلَّ. وعلى هذا يُتأوَّلُ قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ [البينة:٧] وكذا الحديث: «المؤمنُ عندَ اللهِ خيرٌ من كلِّ ما خلقَ»(٥). ويجوزُ أن يكون الملائكةُ صلى الله عليهم وغيرُهم من المؤمنين قالوا لهم: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾.

وقيل: إنَّ الكفَّارَ لمَّا قال بعضُهم لبعضٍ: «مَن بَعَثَنا مِن مَرْقَدِنا» صدَّقوا الرسلَ لمَّا عاينوا ما أخبروهم به، ثم قالوا: «هذا ما وَعَدَ الرحمنُ وصَدَقَ المُرْسَلون» فكذَّبْنا به. أَقرُّوا حين لم ينفعهم الإقرار.

= البكري في سمط اللآلي شرح أمالي القالي: هذا الشعر لبعض بني فزارة، والاغتماز: الاستضعاف.

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٠٠ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٥ ، وأخرجه عن قتادة الطبري ١٩/ ٤٥٦ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٥ .

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٤٠٠ ، وما قبله منه، وقول الفراء في معاني القرآن ٢/ ٣٨٠ .

(٥) لم نقف عليه بهذا اللفظ عند غير النحاس، وأخرج ابن ماجه (٣٩٤٧) من حديث أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «المؤمن أكرم على الله عز وجل من بعض ملائكته». قال البوصيري في مصباح الزجاجة ٢/ ٢٨٨ : هذا إسناد ضعيف لضعف يزيد بن سفيان.

وكان حفصٌ يقف على «مِن مَرْقَدِنا» ثم يبتدئُ فيقول: «هذا»[١]. قال أبو بكر بن الأنباريّ[٢]: «مَن بَعَثَنا مِن مَرْقَدِنا» وقفٌ حَسَنٌ، ثم تَبتدئُ: «هذا ما وَعَدَ الرحمنُ». ويجوزُ أن تقف على: «مرقدِنا هذا» فتخفضُ «هذا» على الإتْباعِ للمرقد، وتَبْتدئُ: «ما وَعَدَ الرحمنُ» على معنى: بَعْثُكم ما وعد الرحمن، أي: بَعْثُكم وعدُ الرحمن.

النحاس[٣]: التمامُ على «مِن مَرْقَدِنا»، و«هذا» في موضعِ رفعٍ بالابتداء وخبرُه «ما وَعَدَ الرحمنُ». ويجوزُ أن يكون في موضعِ خفضٍ على النعت لـ «مَرقَدِنا»، فيكونُ التمامُ «مِن مَرْقَدِنا هذا» [ويكون] «مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ» في موضعِ رفعٍ من ثلاثِ جهاتٍ، ذكر أبو إسحاقَ منها اثنتين قال: يكون بإضمارِ هذا. والجهةُ الثانية أن يكون بمعنى: حقّ ما وَعَد الرحمن[٤]. والجهةُ الثالثة أنْ يكون بمعنى: بَعْثُكم ما وعد الرحمن.

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ يعني: إنَّ بعثهم وإحياءَهم كان بصيحةٍ واحدةٍ، وهي قولُ إسرافيلَ: أيتها العظام الباليةُ، والأوصالُ المتقطِّعةُ، والعظام المتفرِّقة، والشعورُ المتمزِّقةُ، إنَّ الله يأمركنَّ أن تجتمعنَ لفَصْلِ القضاء[٥]. وهذا معنى قولِه الحقِّ: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ [ق: ٤٢]، وقال: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ [القمر: ٨] على ما يأتي. وفي قراءةِ ابن مسعودٍ ـ إن صح عنه ـ: «إنْ كانت إلَّا زَقْيَةً واحدةً»، والزقيةُ: الصيحةُ، وقد تقدَّم هذا[٦].

﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ «فإذا هم جميع» مبتدأٌ وخبرُه، «جَمِيعٌ» نكرةٌ،

(١) ذكر الداني في التيسير ص١٤٢ عن حفص أنه كان يسكت مع مراد الوصل على الألف في قوله تعالى: «من مرقدنا»، ثم يقول: «هذا».

(٢) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٥٤ .

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٤٠٠ ، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٤) بعدها في النسخ: بعثكم، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس، ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٩١ .

(٥) أخرجه بنحوه الطبري ٢١/ ٤٧٥ عن كعب الأحبار.

(٦) ص٢١ من هذا الجزء.

و«مُحْضَرُون» من صفته[1]. ومعنى «مُحْضَرُونَ»: مَجموعون أُحضروا موقفَ الحساب، وهو كقوله: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ [النحل: ٧٧].

قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ أي: لا تُنْقَصُ من ثوابِ عَمَلٍ. ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ «مَا» في محلِّ نَصْبٍ من وجهين: الأولُ انه مفعولٌ ثانٍ لِمَا لم يُسمَّ فاعلُه. والثاني بنَزْعِ حرفِ الصفة، تقديرُه: إلَّا بما كنتم تعملون، أي: تعملونه، فحذف.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس وقتادةُ ومجاهدٌ: شَغَلَهم افتِضاضُ العَذَارَى[2]. وذكر الترمذيُّ الحكيمُ في كتاب «مشكل القرآن» له: حدَّثنا محمد بن حميد الرَّازي حدَّثنا يعقوبُ القُمِّي، عن حفص ابن حميد، عن شمر بن عطية، عن شقيق بن سلمة، عن عبد الله بن مسعود في قوله: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ قال: شَغَلهم افْتِضاضُ العَذَارَى[3]. حدَّثنا محمد بن حميد، حدَّثنا هارون بن المغيرة، عن نهشل، عن الضحاك، عن ابن عباس بمثله[4].

وقال أبو قِلَابَةَ: بينما الرجلُ من أهل الجنة مع أهله إذ قيل له: تَحوَّلْ إلى أهلك، فيقول: أنا مع أهلي مشغولٌ! فيقال: تحوَّلْ أيضاً إلى أهلك. وقيل: أصحابُ الجنةِ

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٠١ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٠١ ، والنكت والعيون ٥/ ٢٤ ، وزاد المسير ٧/ ٢٧ .

(٣) أخرجه بهذا الإسناد الطبري ١٩/ ٤٦٠ .

(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٤٦٠ من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

في شغلٍ بما هم فيه من اللَّذَّاتِ والنعيم عن الاهتمام بأهل المعاصي ومصيرِهم إلى النار، وما هم فيه من أليمِ العذاب، وإنْ كان فيهم أقرباؤهم وأهلوهم[(١)]؛ قاله سعيد ابن المسيِّب وغيرُه.

وقال وكيع: يعني في السماع. وقال ابن كيسان: «في شُغُلٍ» أي: في زيارةِ بعضِهم بعضاً. وقيل: في ضيافة الله تعالى[(٢)].

وروي: أنه إذا كان يومُ القيامة نادى مُنادٍ: أين عبادي الذين أطاعوني وحَفِظوا عهدي بالغيب؟ فيقومون كأنَّما وجوهُهم البدرُ والكوكبُ الدُّرِّيُّ، ركباناً على نُجُبٍ من نورٍ أَزِمَّتُها من الياقوت، تَطيرُ بهم على رؤوس الخلائقِ، حتى يقوموا بين يدي العرش، فيقولُ الله جلَّ وعزَّ لهم: السلامُ على عبادي الذين أطاعوني وحَفِظوا عهدي بالغيب، أنا اصْطَفيتُكم، وأنا اجْتَبيتُكم، وأنا اخْتَرتُكم، اذهبوا فادخلوا الجنةَ بغيرِ حسابٍ، فَ ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾. فيمرُّون على الصراط كالبرقِ الخاطِفِ، فتفتح لهم أبوابها. ثم إنَّ الخَلْقَ في المحشر موقوفون، فيقولُ بعضُهم لبعضٍ: يا قوم، أين فلانٌ وفلان!؟ وذلك حين يسألُ بعضُهم بعضاً، فينادي منادٍ: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾[(٣)].

و«شُغْلٍ» و«شُغُلٍ» لغتان قُرئ بهما[(٤)]، مثل: الرُّعُبِ والرُّعْبِ؛ والسُّحُت والسُّحْت، وقد تقدَّم[(٥)].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٠١ .

(٢) ذكر هذه الأقوال البغوي ٤/ ١٦ . قال الألوسي في روح المعاني ٢٣/ ٣٤ : ليس مراد أهل هذه الأقوال بذلك حصر شغلهم فيما ذكروه فقط، بل بيان أنه من جملة أشغالهم.

(٣) لم نقف عليه.

(٤) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: «شُغْل» بإسكان الغين، والباقون بضمها. السبعة ص٥٤١ - ٥٤٢ ، والتيسير ص١٨٤ .

(٥) ٧/ ٤٨٧ - ٤٨٨ .

﴿فَٰكِهُونَ﴾ قال الحسن: مَسْرُورون. وقال ابن عباس: فَرِحُون. مجاهدٌ والضحاك: مُعْجَبون. السُّدِّيُّ: ناعِمون[1]. والمعنى متقارِبٌ. والفُكاهةُ: المزاحُ والكلامُ الطيِّبُ.

وقرأ أبو جعفر وشيبةُ والأعرجُ: «فَكِهُون» بغير ألفٍ[2]، وهما لغتان كالفارِه والفَرِه، والحاذِرِ والحَذِر؛ قاله الفرَّاء[3]. وقال الكسائيُّ وأبو عبيدةَ: الفاكِهُ: ذو الفاكِهَةِ، مثل: شاحِمٍ ولاحِمٍ وتامِرٍ ولابِنٍ، والفَكِه: المتفكِّه والمتنعِّم[4]. و«فَكِهُون» بغير ألفٍ في قولِ قتادةَ: مُعْجَبون[5]. وقال أبو زيد: يقال: رجلٌ فَكِهٌ: إذا كان طيِّبَ النفسِ ضَحوكاً[6].

وقرأ طلحَةُ بن مُصرِّف: «فاكِهين» نَصَبَه على الحال[7].

﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ مبتدأٌ وخبرُه. ويجوزُ أن يكون «هم» توكيداً، «وأزواجُهم» عطفٌ على المُضمَر، و«مُتَّكِئون» نعتٌ لقوله: «فاكِهُونَ»[8].

وقراءةُ العامَّةِ: «في ظِلَالٍ» بكَسْرِ الظَّاءِ والألف. وقرأ ابنُ مسعود وعبيد بنُ عمير والأعمشُ ويحيى وحمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ: «في ظُلَلٍ» بضمِّ الظاء من غير ألف[9].

---

(١) تنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ١٩/ ٤٦٣ ، والنكت والعيون ٥/ ٢٤ ، وتفسير البغوي ٤/ ١٦ ، وزاد المسير ٧/ ٢٨ .

(٢) النشر ٢/ ٣٥٤ عن أبي جعفر، وهو من العشرة.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٣٨٠ .

(٤) بنحوه في مجاز القرآن ٢/ ١٦٣ - ١٦٤ .

(٥) ذكره الأزهري في تهذيب اللغة ٦/ ٢٧ ، وأبو الليث ٣/ ١٠٣ ، وابن عزيز في تفسير الغريب ص٣٥٥ دون نسبة. قالوا: وفاكهون ناعمون.

(٦) تهذيب اللغة ٦/ ٢٦ .

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٠١ .

(٨) المصدر السابق.

(٩) السبعة ص٥٤٢ ، والتيسير ص١٨٤ ، والنشر ٢/ ٣٥٥ عن حمزة والكسائي وخلف.

فالظِّلالُ جمعُ ظِلٍّ، وظُلَل جمع ظُلَّة. ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ يعني السُّرُرَ في الحِجال[١]، واحدُها أريكة، مثل سفينةٍ وسفائن؛ قال الشاعر:

كـأنَّ احـمـرارَ الـوَرْدِ فـوقَ غُـصُـونِـه بوقتِ الضُّحى في رَوْضِهِ المُتضاحِكِ
خُدُودُ عَذارَى قـد خَجِلـنَ من الـحَيَـا تَـهَـادَيْـنَ بـالـرَّيْـحـانِ فـوقَ الأرائِـكِ

وفي الخبر عن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ: قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ أهلَ الجنةِ كلَّما جامَعوا نساءَهم عُدْنَ أبكاراً»[٢]. وقال ابن عباس: إنَّ الرجلَ من أهلِ الجنةِ لَيُعانِقُ الحَوْراءَ سبعين سنةً، لا يَمَلُّها ولا تَمَلُّه، كلَّما أتاها وَجَدَها بكراً، وكلَّما رجع إليها عادت إليه شهوتُه؛ فَيُجامِعُها بقوةِ سبعين رجلاً، لا يكونُ بينهما مَنيٌّ؛ يأتي من غير منيٍّ منه ولا منها[٣].

﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ ابتداءٌ وخبر ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ الدَّالُ الثانيةُ مُبْدَلةٌ من تاء؛ لأنَّه يفتعلون مِن دعا[٤]، أي: مَن دعا بشيء أُعطِيَه. قاله أبو عبيدة[٥]، فمعنى «يَدَّعُونَ»: يَتمنَّوْن، من الدعاء.

وقيل: المعنى: أنَّ مَن ادَّعى منهم شيئاً فهو له؛ لأنَّ الله تعالى قد طَبعَهم على ألَّا يدَّعيَ منهم أحدٌ إلَّا ما يَجمُلُ ويَحسُنُ أنْ يدَّعيه.

---

(١) جمع حَجَلَة، وهو موضع مثل القبة يتخذ للعروس، يزيَّن بالثياب والستور والأَسِرَّة. معجم متن اللغة (حجل).

(٢) أخرجه البزار (٣٥٢٧ - كشف)، و الطبراني في المعجم الصغير(٢٤٩)، وابن الجوزي في العلل ٢/ ٩٣٠ . قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٤١٧ : فيه عبد الرحمن بن معلى الواسطي، وهو كذاب. اهـ وفي الباب عن أبي هريرة ﷺ عند ابن حبان (٧٤٠٢).

(٣) لم نقف عليه بهذا السياق، ولأجزائه شواهد وردت مرفوعة، ينظر حديث أنس ﷺ عند الترمذي (٢٥٣٦) وصححه ابن حبان (٧٤٠٠)، وحديث زيد بن أرقم عند أحمد (١٩٢٦٩)، وحديث أبي أمامة عند الطبراني في الكبير (٧٤٧٩)، وحديث أبي هريرة في المعحم الكبير، الأحاديث الطوال ٢٥/ (٣٧).

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٠١ .

(٥) بنحوه في مجاز القرآن ٢/ ١٦٤ .

وقال يحيى بن سلام: «يَدَّعُونَ»: يَشْتَهون. ابن عباس: يَسألون[١]. والمعنى متقارب.

قال ابن الأنباريِّ[٢]: «ولهم ما يدَّعون» وقفٌ حَسنٌ، ثم تَبتدئُ: «سَلَامٌ»، على معنى: ذلك لهم سلامٌ. ويجوزُ أن يُرفَع السلامُ على معنى: ولهم ما يدَّعون مُسَلَّمٌ خالِصٌ. فعَلَى هذا المذهبِ لا يَحسُنُ الوقفُ على «ما يدَّعون».

وقال الزجَّاج[٣]: «سلامٌ» مرفوعٌ على البدل من «ما»، أي: ولهم أنْ يسلِّم اللهُ عليهم، وهذا مُنَى أهلِ الجنة. وروي من حديث جابر بن عبد الله[٤]: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «بينا أهلُ الجنةِ في نعيمهم؛ إذ سَطَع لهم نورٌ، فرفعوا رؤوسهم فإذا الربُّ تعالى قد اطَّلع عليهم من فوقهم، فقال: السلامُ عليكم يا أهلَ الجنةِ، فذلك قولُه: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾. فينظر إليهم وينظرونَ إليه، فلا يلتفتون إلى شيءٍ من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجبَ عنهم، فيبقَى نورُه وبركاتُه عليهم في ديارهم» ذَكَره الثعلبيُّ والقشيريُّ[٥]. ومعناه ثابتٌ في «صحيح» مسلم، وقد بيَّنَّاه في«يونس» عند قولِه تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [الآية: ٢٦][٦].

ويجوزُ أن تكون «ما» نكرةً، و«سَلَامٌ» نعتاً لها، أي: ولهم ما يدَّعون مُسَلَّمٌ. ويجوزُ أن يكون «ما» رفع بالابتداء، و«سلامٌ» خبر عنها. وعلى هذه الوجوهِ لا يوقَفُ على «ولهم ما يدَّعون». وفي قراءةِ ابنِ مسعودٍ: «سلاماً» يكونُ مصدراً، وإنْ شئتَ في

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٦ ، وفيه: ابن زياد، بدل: ابن عباس.

(٢) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٥٤ - ٨٥٥ .

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٢٩٢ .

(٤) في النسخ: جرير بن عبد الله البجلي، وهو خطأ وينظر التعليق بعده.

(٥) أخرجه ابن ماجه (١٨٤)، وابن عدي ٦/ ٢٠٣٩ ، والعقيلي في الضعفاء ٢/ ٢٧٤ ، وأخرجه من طريق الثعلبي الواحدي في الوسيط ٣/ ٥١٧ ، والبغوي ٤/ ١٦ جميعهم من حديث جابر ﷺ. قال البوصيري في مصباح الزجاجة ١/ ٦٨ : هذا إسناد ضعيف لضعف الفضل بن عيسى الرقاشي.

(٦) ١٠/ ٤٨٣ ، والحديث عند مسلم (١٨١) عن صهيب ﷺ.

موضع الحال، أي: ولهم ما يدَّعون ذا سلامٍ أو سلامةٍ، أو: مسلَّماً[١]؛ فعلَى هذا المذهبِ لا يَحسُنُ الوقفُ على «يدَّعون»[٢].

وقرأ محمد بن كعب القُرَظيُّ: «سِلْمٌ» على الاستئناف، كأنَّه قال: ذلك سِلْمٌ لهم لا يتنازعون فيه، ويكون «ولهم ما يدَّعون» تامّاً. ويجوزُ أن يكون «سِلْم»[٣] بدلاً من قوله: «ولهم ما يدَّعون»، وخبر «ما يدَّعون»: لهم. ويجوز أن يكون «سِلْم» خبراً آخَرَ، ويكون معنى الكلام: أنَّه لهم خالصٌ من غير منازِعٍ فيه.

﴿قَوْلًا﴾ مصدرٌ على معنى: قال الله ذلك قولاً. أو يقوله قولاً، ودلَّ على الفعل المحذوفِ لفظُ مَصْدرِه[٤]. ويجوزُ أن يكون المعنى: ولهم ما يدَّعون قولاً، أي: عِدَةً من الله. فعَلَى هذا المذهبِ الثاني لا يَحسُنُ الوقفُ على «يدَّعون». وقال السِّجِسْتانيُّ: الوقفُ على قوله: «سلامٌ» تامٌّ. وهذا خطأٌ؛ لأنَّ القولَ خارجٌ ممَّا قَبْلَه[٥].

قوله تعالى: ﴿وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ ويقال: تَميَّزوا وامَّازوا وامتازوا بمعنىً، ومِزْتُه فانْمَازَ وامْتاز، وميَّزته[٦] فتميَّز. أي: يقال لهم هذا عند الوقوف للسؤال حين يؤمر بأهل الجنة إلى الجنة، أي: اخْرُجوا من جملتهم. قال قتادة: عُزِلوا عن كلِّ خيرٍ[٧].

وقال الضحَّاك: يمتازُ المجرمون بعضُهم من بعض؛ فيمتازُ اليهودُ فرقةً،

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٠٢ . وقراءة: «سلاماً» في المحتسب ٢/ ٢١٥ عن عيسى الثقفي.

(٢) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٥٦ .

(٣) في (خ) و(ظ) و(م): سلام، وكذا في الموضع الذي بعده، والمثبت من (د) و(ز)، وهو موافق لما في المحتسب ٢/ ٢١٥ .

(٤) المحتسب ٢/ ٢١٥ .

(٥) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٥٥ .

(٦) في (د) و(ز) و(ظ): ومزته، وهما بمعنى ينظر العين ٣٩٤ والصحاح (ميز)، واللسان (ميز).

(٧) أخرجه الطبري ١٩/ ٤٦٩ .

والنصارى فرقةٌ والمجوس فرقةٌ، والصابئون فرقةٌ، وعبدةُ الأوثانِ فرقة[١]. وعنه أيضاً: إنَّ لكلِّ فرقةٍ في النار بيتاً تدخل فيه ويردُّ بابه، فتكون فيه أبداً لا تَرَى ولا تُرَى[٢].

وقال داود بن الجرَّاح: فيمتازُ المسلمون من المجرمين، إلَّا أصحابَ الأهواءِ، فيكونون مع المجرمين[٣].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ العهدُ هنا بمعنى الوصية، أي: ألَمْ أُوْصِكُم وأُبلِّغكم على ألسنةِ الرسل ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ أي: لا تُطيعوه في مَعْصِيتي. قال الكسائيُّ: لا للنَّهي ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى﴾ بكسر النون على الأصل، ومَن ضمَّ كَرِه كسرةً بعدَها ضمة[٤]. ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي: عبادتي دينٌ قويم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ﴾ أي: أَغْوَى ﴿جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ أي: خَلْقاً كثيراً؛ قاله مجاهد. قتادة: جموعاً كثيرة. الكلبيُّ: أُمماً كثيرةً[٥]، والمعنى واحد.

وقرأ أهل المدينة وعاصمٌ: «جِبِلّاً» بكسرِ الجيمِ والباء. وأبو عمرو وابنُ عامر: «جُبْلاً» بضمِّ الجيمِ وإسكانِ الباء. الباقون: «جُبُلاً» بضمِّ الجيم والباءِ وتخفيفِ اللام[٦]. وشدَّدها الحسنُ وابنُ أبي إسحاق وعيسى بنُ عمر وعبدُ الله بن عبيد والنَّضْرُ

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٦ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٦ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٧ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٠٢ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٧ ، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٩/ ٤٧١ .

(٦) وقرأ بها أيضاً من السبعة ابن كثير وحمزة والكسائي. السبعة ص٥٤٢ ، والتيسير ص١٨٤ .

ابن أنس[١]. وقرأ أبو يحيى والأشهبُ العقيليُّ: «جِبْلاً» بكسرِ الجيم وإسكانِ الباءِ وتخفيفِ اللّامِ[٢]. فهذه خمسُ قراءات. قال المهدويُّ والثعلبيُّ: وكلُّها لغاتٌ بمعنى الخَلْق.

النحّاس[٣]: أبينُها القراءةُ الأولى؛ والدليلُ على ذلك أنَّهم قد أجمعوا على أنْ قرؤوا: ﴿وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٤] فيكون «جِبِلّاً» جمعَ جِبِلَّةٍ، والاشتقاقُ فيه كلِّه واحدٌ. وإنَّما هو مِن: جَبَلَ الله عزَّ وجلَّ الخَلْقَ، أي: خَلَقَهم. وقد ذُكِرتْ قراءةٌ سادسةٌ وهي: «ولقد أَضَلَّ منكم جِيلاً كثيراً» بالياء.

وحكي عن الضحَّاك أنَّ الجِبِلَّ[٤] الواحدَ عشرةُ آلافٍ، والكثير ما لا يُحصيه إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ؛ ذَكَره الماورديُّ[٥].

﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ عداوتَه، وتَعْلَموا أنَّ الواجبَ طاعةُ الله. ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ أي: تقولُ لهم خزنةُ جهنَّم: هذه جهنَّمُ التي وُعِدتُم فكذَّبتم بها. ورُوي عن أبي هريرةَ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إذا كان يومُ القيامةِ جَمَعَ اللهُ الإنسَ والجنَّ والأوَّلينَ والآخِرينَ في صعيدٍ واحدٍ، ثم أَشْرفَ عنقٌ من النار على الخلائق فأحاط بهم، ثم ينادي منادٍ: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ . ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ فحينئذٍ تَجثو الأممُ على رُكبِها، وتَضَعُ كلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها، وتَذْهَل كلُّ مُرْضِعةٍ عمَّا أَرْضَعتْ، وتَرى الناسَ سُكَارَى وما هم بسُكَارَى ولكنَّ عذاب اللهِ شديدٌ»[٦].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٠٢ ، والمحتسب ٢/ ٢١٦ وشدَّدها أيضاً يعقوب ـ وهو من العشرة ـ في رواية رَوْح. اهـ. وعبد الله بن عبيد هو أبو هاشم الليثي المكي، تابعي جليل، توفي سنة (١١٣هـ). طبقات القراء لابن الجزري ١/ ٤٣٠ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٠٣ ، والمحتسب ٢/ ٢١٦ ، وهي قراءة شاذة.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٤٠٣ .

(٤) في (م): الجيل.

(٥) في النكت والعيون ٥/ ٢٧ .

(٦) أخرجه بنحوه الطبري ١٩/ ٤٧٠ ، من طريق إسماعيل بن رافع، عمن حدثه، عن محمد بن كعب، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ. وإسناده ضعيف لضعف إسماعيل بن رافع، ولإبهام شيخه.

قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٦٥ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ۝٦٦ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ۝٦٧ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ۝٦٨﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ في «صحيح» مسلم[(١)] عن أنس بنِ مالكٍ قال: كنَّا عندَ رسولِ الله ﷺ، فضحك فقال: «هل تَدْرونَ مِمَّ أَضْحكُ؟» قلنا: اللهُ ورسولُه أَعْلمُ. قال: «من مُخاطبةِ العبدِ ربَّه، يقول: يا ربِّ، أَلَمْ تُجِرْني من الظُّلْم؟ قال: يقول: بلى، فيقول: فإنِّي لا أُجيزُ على نفسي إلَّا شاهداً منِّي. قال: فيقولُ: كَفَى بنَفْسِكَ اليومَ عليكَ شهيداً، وبالكرامِ الكاتِبِينَ شُهوداً، فقال: فيُخْتَمُ على فِيهِ، فيقال لأركانه: انْطِقي، قال: فتَنْطِقُ بأعماله، قال: ثم يُخَلَّى بينه وبين الكلام، فيقول: بُعداً لَكُنَّ وسُحقاً، فعنكنَّ كنتُ أُناضِل».

خرَّجه أيضاً من حديث أبي هريرةَ. وفيه: «ثم يُقالُ له: الآنَ نَبْعثُ شاهدَنا عليك. ويَتَفكَّر[(٢)] في نفسه: مَن ذا الذي يَشْهدُ عليَّ، فيُخْتَم على فيه، ويقال لفَخِذِه [ولَحمِه وعظامه]: انْطِقي، فتَنْطِقُ فخذُه ولحمُه وعظامُه بعمله، وذلك ليُعْذِرَ مِن نَفْسِه، وذلك المنافقُ، وذلك الذي يَسْخَطُ الله عليه»[(٣)].

وخرَّج الترمذيُّ عن معاويةَ بن حَيْدَةَ عن النبيِّ ﷺ في حديثٍ ذَكَره قال: وأشار بيده إلى الشام فقال «ها هنا[(٤)] إلى ها هنا تُحشَرون ركباناً ومشاةً، وتُجرُّون على وجوهكم يومَ القيامةِ، على أفواهكم الفِدَامُ، تُوْفُون سبعينَ أمةً أنتم خيرُهم وأكرمُهم

---

(١) برقم (٢٩٦٩).

(٢) في النسخ الخطية: فيفكر، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في صحيح مسلم.

(٣) صحيح مسلم (٢٩٦٨)، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) في (د) و(م): من ها هنا.

على الله، وإنَّ أولَ ما يُعرِبُ عن أحدِكم فخذُه»[١] في روايةٍ أُخرى: «فخذُه وكفُّه»[٢]

الفِدامُ مِصْفاةُ الكوزِ والإبريقِ؛ قاله الليث. قال أبو عبيد: يعني أنَّهم مُنعوا الكلامَ حتى تكلَّم أفخاذُهم، فشبَّه ذلك بالفِدَامِ الذي يُجعل على الإبريق[٣].

ثم قيل في سببِ الختمِ أربعةُ أَوْجُهٍ:

أحدُها: لأنَّهم قالوا﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣] فختم الله على أفواههم حتى نَطَقتْ جوارحُهم؛ قاله أبو موسى الأشعريُّ[٤].

الثاني: لِيَعْرِفَهم أهلُ الموقفِ فيتميَّزون منهم؛ قاله ابن زياد.

الثالث: لأنَّ إقرارَ غيرِ النَّاطقِ أبلغُ في الحجة من إقرارِ النَّاطقِ؛ لخروجه مخرجَ الإعجاز، وإنْ كان يوماً لا يحتاج إلى إعجاز.

الرابع: لِيَعْلَم أنَّ أعضاءه التي كانت [له] أعواناً في حقِّ نفسِه صارت عليه شهوداً في حقِّ ربِّه.

فإن قيل: لِمَ قال: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ فجعل ما كان من اليد كلاماً، وما كان من الرِّجل شهادة؟

قيل: لأنَّ اليد مُباشِرةٌ لعملِه، والرجل حاضرةٌ، وقولُ الحاضِرِ على غيره شهادةٌ، وقولُ الفاعل على نفسِه إقرارٌ بما قال أو فَعَل؛ فلذلك عبَّر عمَّا صَدَر من الأيدي بالقول، وعمَّا صَدَر من الأَرْجُلِ بالشهادة. وقد رُوي عن عُقبة بن عامر قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «أولُ عظمٍ من الإنسان يتكلَّم يومَ يُخْتَمُ على الأفواهِ فَخِذُه من

(١) سنن الترمذي (٢٤٢٤) و(٣١٤٣)، وهو في مسند أحمد (٢٠٠٣١) و(٢٠٠٥٠)، والنسائي في الكبرى (١١٣٦٧) ولفظ المصنف أقرب إليه.

(٢) أخرجه أحمد (٢٠٠٢٦).

(٣) تهذيب اللغة ١٤/ ١٤٧ ، وقول أبي عبيد في غريب الحديث ١/ ٤٩ بنحوه.

(٤) أخرجه مطولاً الطبري ١٩/ ٤٧٢ - ٤٧٣ ، والكلام من النكت والعيون ٥/ ٢٧ ، وما سيرد بين حاصرتين منه.

الرِّجل اليسرى» ذَكَره الماورديُّ[(١)] والمهدويُّ. وقال أبو موسى الأشعريُّ: إنِّي لأحسبُ أنّ أولَ ما ينطقُ منه فخذُه اليمنى[(٢)]؛ ذكره المهدويُّ أيضاً.

قال الماورديُّ[(٣)]: فاحتَمَل أن يكون تقدُّمُ الفخذِ بالكلام على سائر الأعضاء؛ لأنَّ لذةَ معاصيهِ يُدْرِكُها بحواسِّه التي هي في الشطر [الأعلى من جسده، وأقربُ أعضاءِ الشطرِ] الأسفلِ منها الفخذُ، فجاز لقُرْبِه منها أنْ يتقدَّم في الشهادة عليها. قال: وتقدَّمت اليُسرى؛ لأنَّ الشهوةَ في ميامِنِ الأعضاءِ أقوى منها في مَيَاسِرِها؛ فلذلك تقدَّمت اليسرى على اليمنى لقلَّة شهوتها.

قلت: أو بالعكس لغلبةِ الشهوة، أو كلاهُما معاً والكفُّ؛ فإنَّ بمجموع ذلك يكونُ تمامُ الشهوةِ واللذة. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ حكى الكسائيُّ: طَمَسَ يَطمِسُ ويَطمُس[(٤)]. والمطموسُ والطَّمِيس عند أهلِ اللغةِ: الأعمى الذي ليس في عينيه شقٌّ. قال ابنُ عباس: المعنى: لأعميناهم عن الهدى، فلا يهتدون أبداً إلى طريقِ الحقّ[(٥)].

وقال الحسن والسُّدِّي: المعنى: لتركناهم عُمْياً يتردَّدون. فالمعنى: لأعميناهم فلا يُبصِرون طريقاً إلى تصرُّفهم في منازلهم ولا غيرِها. وهذا اختيارُ الطبريّ[(٦)]. وقولُه: ﴿فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ﴾ أي: استبَقوا الطريقَ ليَجُوزوا ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ أي: فمِنْ أين يُبصرون.

---

(١) في النكت والعيون ٥/ ٢٨ ، وأخرجه أحمد (١٧٣٧٤) وينظر الكلام عليه في حاشية المسند.

(٢) قطعة من خبر طويل عن أبي موسى ﷺ أخرجه الطبري ١٩/ ٤٧٢ - ٤٧٣ ، وقد سلف بعضه.

(٣) في النكت والعيون ٥/ ٢٨ ، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٠٣ .

(٥) أخرجه الطبري ١٩/ ٤٧٤ بنحوه.

(٦) في تفسيره ١٩/ ٤٧٥ ، وأخرجه عن الحسن. وذكره عن الحسن والسدي البغوي ٤/ ١٨ .

وقال عطاءٌ ومقاتلٌ وقتادةُ، وروي عن ابن عباس: ولو نشاء لفَقَأْنا أعينَ ضلالتِهم، وأعميناهم عن غَيِّهم، وحوَّلْنا أبصارَهم من الضلالة إلى الهدى؛ فاهتَدَوْا وأبْصرُوا رُشْدَهم، وتَبادَروا إلى طريقِ الآخرة. ثم قال: ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ ولم نَفْعَلْ ذلك بهم[١]، أي: فكيف يهتدون وعينُ الهدَى مطموسةٌ، على الضلالِ باقيةٌ.

وقد روي عن عبد الله بن سلامٍ في تأويل هذه الآيةِ غيرُ ما تقدَّم، وتَأوَّلها على أنَّها في يومِ القيامة. وقال: إذا كان يومُ القيامةِ ومُدَّ الصِّراطُ، نادى منادٍ: ليقُمْ محمدٌ ﷺ وأمتُه، فيقومون بَرُّهم وفاجِرُهم يَتبعونه ليَجُوزُوا الصِّراطَ، فإذا صاروا عليه طَمَسَ الله أعينَ فُجَّارِهم، فاستَبَقوا الصراطَ، فمِن أين يبصرونه حتى يُجاوِزُوه؟ ثم ينادي منادٍ: ليقُمْ عيسى ﷺ وأمتُه، فيقومُ فيتبعونه برُّهم وفاجرُهم، فيكون سبيلُهم تلك السبيلَ، وكذا سائرُ الأنبياءِ عليهم السلامُ. ذكره النحاس[٢]. وقد كتبناه في «التذكرة» بمعناه حَسْبَ ما ذكره ابنُ المبارك في «رقائقه»[٣].

وذكر[٤] القشيريُّ: وقال ابن عباسٍ ﷺ: أخذ الأسودُ بنُ عبد الأسودِ[٥] حجراً ومعه جماعةٌ من بني مخزومٍ ليطرحَه على النبيِّ ﷺ، فطَمَسَ الله على بَصَرِه، وألْصَقَ الحجرَ بيده، فما أبصره ولا اهتَدَى، ونزلت الآية فيه[٦]. والمطموسُ هو الذي لا يكونُ بين جَفْنَيه شَقٌّ، مأخوذٌ من: طَمَسَ الريحُ الأثَرَ؛ قاله الأخفشُ والقُتَبيُّ[٧].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٨ .

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٤٠٤ .

(٣) برقم (٣٩٨ ـ زوائد نعيم)، وهو في التذكرة ص٣٣٨ .

(٤) في (ظ) و(م): وذكره.

(٥) في (م): الأسود بن الأسود. ولعل الصواب: الأسود بن عبد الأسد، وهو أخو أبي سلمة ﷺ، وكان الأسود من المستهزئين بالنبي ﷺ ومات كافراً، كما ذكر الحافظ في الإصابة ١/ ٢٠٠ .

(٦) لم نقف عليه بهذا السياق، وينظر ما سلف ص٤١٢-٤١٣ و٤١٦ من هذا الجزء.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٢٩ ، وقول ابن قتيبة في تفسير الغريب له ص٣٦٧ .

﴿يَرْجِعُونَ﴾ المسخُ: تبديلُ الخِلْقَةِ وقَلْبُها حجراً أو جماداً أو بهيمةً. قال الحسن: أي: لأَقْعَدْناهم فلا يستطيعون أن يَمضوا أمامهم ولا يرجعوا وراءهم[١]. وكذلك الجمادُ لا يتقدَّم ولا يتأخَّر. وقد يكون المسخُ تبديلَ صورةِ الإنسانِ بهيمةً، ثم تلك البهيمةُ لا تَعْقِلُ موضعاً تقصدُه، فتتحيَّر، فلا تُقبِلُ ولا تُدبِر.

ابن عباس ﷺ: المعنى: لو نشاءُ لأهلكناهم في مساكنهم[٢]. وقيل: المعنى: لو نشاء لمسخناهم في المكان الذي اجترؤوا فيه على المعصية. ابن سلام: هذا كلُّه يومَ القيامةِ، يَطْمسُ الله تعالى أعينَهم على الصِّراط[٣].

وقرأ الحسن والسُّلَميُّ وزِرّ بن حُبَيش وعاصمٌ في روايةِ أبي بكر: «مَكَانَاتِهِمْ» على الجمع، الباقون بالتوحيد[٤]. وقرأ أبو حَيْوَة: «فما استطاعوا مَضِيّاً»[٥] بفتح الميم. والمُضيُّ بضمِّ الميم مصدر مَضَى يَمْضي مُضِيًّا: إذا ذهب.

قوله تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ﴾ قرأ عاصم وحمزةُ: «نُنَكِّسْه» بضمِّ النون الأُولى وتشديدِ الكافِ، من التنكيس. الباقون: «نَنْكُسْه» بفتح النونِ الأُولى وضمِّ الكاف[٦]، مِن نَكَسْتُ الشيءَ أَنْكُسُه نَكْساً: قلبته على رأسه فانْتَكَس.

قال قتادة: المعنى: أنَّه يَصيرُ إلى حالِ الهَرَمِ الذي يُشْبِه حالَ الصِّبا[٧].

وقال سفيان في قوله تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ﴾: إذا بلغ ثمانين سنةً تغيَّر جسمُه وضَعُفَتْ قوَّته[٨]، قال الشاعر:

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٤٧٧ مختصراً بلفظ: لو نشاء لأقعدناهم.

(٢) أخرجه الطبري ١٩/ ٤٧٧ - ٤٧٨ .

(٣) سلف قول عبد الله بن سلام بنحوه مطولاً في تفسير الآية السابقة.

(٤) السبعة ص٥٤٢ - ٥٤٣ ، والتيسير ص١٠٧ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٤٦١ . وقال الزمخشري في الكشاف ٣/ ٣٢٩: وقرئ «مضيّاً» بالحركات الثلاث.

(٦) السبعة ص٥٤٣ ، والتيسير ص١٨٥ .

(٧) أخرجه بنحوه الطبري ١٩/ ٤٧٨ .

(٨) ذكره بنحوه الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٩ .

مَـن عـاش أَخْـلَـقَـت الأيـامُ جِـدَّتَـهُ وخـانـه ثِـقَـتَـاه الـسَّـمْـعُ والـبـصـرُ[(١)]

فطولُ العمرِ يصيِّر الشباب هَرَماً، والقوةَ ضعفاً، والزيادةَ نقصاً، وهذا هو الغالبُ. وقد تَعوَّذَ ﷺ من أن يُردَّ إلى أَرْذَلِ العمرِ[(٢)]. وقد مضى في «النحل» بيانُه[(٣)].

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أنَّ مَن فَعَلَ هذا بكم قادرٌ على بَعْثِكم. وقرأ نافعٌ وابنُ ذكوان: «تَعقِلون» بالتاء. الباقون بالياء[(٤)].

قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ **فيه أربع مسائل:**

الأولى: أخبر تعالى عن حالِ نبيِّه ﷺ، وردَّ قولَ مَن قال مِن الكفار: إنَّه شاعر، وإنَّ القرآن شعرٌ، بقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ وكذلك كان رسولُ الله ﷺ لا يقولُ الشعرَ ولا يَزِنُه، وكان إذا حاولَ إنشادَ بيتٍ قديمٍ متمثِّلاً كَسَر وَزْنَه، وإنَّما كان يُحرِزُ المعانيَ فقط ﷺ. مِن ذلك أنَّه أَنْشَد يوماً قولَ طَرَفَةَ:

سَتُبـدِي لـكَ الأيـامُ مـا كـنـتَ جـاهـلاً ويـأتـيـكَ مَـن لـم تُـزَوِّدْه بـالأخـبـار[(٥)]

---

(١) البيت لابن أبي فنن، كما في عيون الأخبار ٢/ ٣٢٠ ، والعقد الفريد ٣/ ٥٧ .

(٢) صحيح البخاري (٢٨٢٢).

(٣) ١٢/ ٣٧٥ .

(٤) التيسير ص١٨٥ ، وذكرها ابن مجاهد في السبعة ص ١٤٣ عن نافع وحده.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٤٦١ ، والبيت من معلقة طرفة، وهو في ديوانه ص٤١ ، وأصله: ويأتيك بالأخبار من لم تزوِّد. والخبر أخرجه مطولاً عبد الرزاق ٢/ ١٤٥ ، وبنحوه الطبري ١٩/ ٤٨٠ من طريق قتادة عن عائشة رضي الله عنها. وحديث قتادة عن عائشة مرسل كما في المراسيل لابن أبي حاتم ص١٤٢ . وأخرجه أحمد (٢٤٠٢٣) و(٢٥٠٧١)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٩٢)، والترمذي (٢٨٤٨) من طرق عن عائشة رضي الله عنها، وفيه: ويأتيك بالأخبار من لم تزوِّد، على أصل رواية البيت. قال الترمذي: حسن صحيح. اهـ. وكذا أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٧٩٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وأنشد يوماً وقد قيل له: مَن أَشْعرُ الناسِ؟ فقال: الذي يقول:

أَلَمْ تَرَيَاني كلَّما جئتُ طارِقاً وجدتُ بها وإن لم تطيَّبْ طِيبا[1]

وأنشد يوماً:

أَتَجعلُ نَهْبي وَنَهبَ العُبَيدِ بينَ الأقرعِ وعُيَيْنَة[2]

وقد كان عليه الصلاة والسلام ربَّما أنشد البيتَ المستقيم في النادر؛ روي أنَّه أنشد بيتَ ابن رواحةَ:

يَبيتُ يُجافي جَنْبَهُ عن فراشهِ إذا استَثْقَلَتْ بالمشركين المضاجِعُ[3]

وقال الحسن بن أبي الحسن: أنشد النبيُّ عليه الصلاة والسلام:

كَفَى بالإسلام والشيبِ للمرء ناهيا

فقال أبو بكر ﷺ: يا رسولَ الله، إنَّما قال الشاعر:

هريرةَ ودِّعْ إن تَجهَّزْتَ غاديا كَفَى الشيبُ والإسلامُ للمرء ناهيا

فقال أبو بكر أو عمرُ: أَشهدُ أنك رسولُ الله، يقولُ الله عز وجل: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾[4].

وعن الخليل بن أحمد: كان الشِّعرُ أَحبَّ إلى رسول الله ﷺ من كثيرٍ من الكلام،

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٦١ ، والبيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص٤١ ، وأصله: وجدت بها طيباً وإن لم تُطَيَّبِ.

(٢) طبقات ابن سعد ٤/ ٢٧٢ ، ودلائل النبوة للبيهقي ٥/ ١٨١ ، والبيت للعباس بن مرداس وأصل البيت: بين عُيينة والأقرعِ، وسلف ١٠/ ٢٦٣ . والكلام من المحرر الوجيز ٤/ ٤٦١ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٤٦١ . وينظر حديث البراء بن عازب ﷺ الذي سلف ١٤/ ١٣٠ . وبيت عبد الله بن رواحة ﷺ سلف ٦/ ٣٤٦ .

(٤) أخرجه ابن سعد ١/ ٣٨٢ - ٣٨٣ ، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية. والبيت لسحيم عبد بني الحسحاس كما في شرح المفصل ٨/ ٩٣ ، والخزانة ١/ ٢٦٧ ، وفيهما: عميرة، بدل هريرة. وعجزه في كتاب سيبويه ٢/ ٢٦ و٤/ ٢٢٥ .

ولكن [كان] لا يتأتّى له[١].

الثانية: إصابتُه الوزنَ أحياناً لا يُوجِبُ أنه يعلَم الشعر، وكذلك ما يأتي أحياناً من نَثْرِ كلامِه ما يدخل في وزن، كقوله يومَ حُنين وغيره:

«هل أنتِ إلَّا إصبعٌ دَمِيتِ وفي سبيلِ اللهِ ما لَقِيتِ»[٢]

وقوله:

«أنا النبيُّ لا كَذِبْ أنا ابنُ عبدِ المطلبْ»[٣]

فقد يأتي مثلُ ذلك في آياتِ القرآن، وفي كلِّ كلام، وليس كلُّ ذلك شعراً ولا في معناه[٤]، كقوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، وقوله: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف: ١٣]، وقوله: ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ﴾ [سبأ: ١٣] إلى غير ذلك من الآيات. وقد ذكر ابن العربيِّ[٥] منها آياتٍ وتكلَّم عليها وأخرجها عن الوزن، على أنَّ أبا الحسن الأخفشَ قال في قوله: «أنا النبيُّ لا كَذِبْ»: ليس بشعر. وقال الخليل في كتاب «العين»: إنَّ ما جاء من السَّجْعِ على جُزْءَين لا يكون شعراً. ورُوي عنه: أنه من مَنْهوكِ الرَّجَز[٦]. وقد قيل: لا يكونُ من منهوك الرَّجز إلَّا بالوقف على الباء من قوله: «لا كذب»، ومِن قوله: «عبد المطلب». ولم يُعلم كيف قاله النبيُّ ﷺ. قال ابن العربيِّ[٧]: والأَظْهَرُ من حاله أنه قال: «لا كَذِبٌ» [بتنوين] الباء مرفوعةً، وبخفضِ الباء من عبد المطلب على الإضافة.

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٢٩، وما بين حاصرتين منه.

(٢) أخرجه أحمد (١٨٧٩٧)، والبخاري (٢٨٠٢)، ومسلم (١٧٩٦) من حديث جندب البَجَليِّ ﵁.

(٣) سلف ١٠/ ١٤٩.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٤٦٢ دون ذكر البيت الأول.

(٥) في أحكام القرآن ٤/ ١٥٩٨ - ١٦٠١.

(٦) بنحوه في العين ٦/ ٦٤ - ٦٥. والكلام من أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٠١.

(٧) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٠٢، وما قبله وما سيرد بين حاصرتين منه.

وقال النحاس[١]: قال بعضُهم: إنَّما الروايةُ بالإعراب، وإذا كانت بالإعراب لم يكن شعراً؛ لأنه إذا فتح الباء من البيت الأوّلِ أو ضمَّها أو نوَّنها، وكَسَر الباء من البيت الثاني، خرج عن وزنِ الشعر. وقال بعضُهم: ليس هذا الوزنُ من الشعر. وهذا مكابرةُ العيانِ؛ لأنَّ أشعارَ العربِ على هذا قد رواها الخليلُ وغيرُه.

وأمَّا قولُه: «هل أنتِ إلَّا إصبعٌ دَمِيتِ» فقيل: إنَّه من بحر السريع، وذلك لا يكونُ إلَّا إذا كُسِرت التاء من «دميت»، فإنْ سُكِّن لا يكونُ شعراً بحال؛ لأنَّ هاتين الكلمتين على هذه الصفة تكون فعول[٢]، ولا مدخلَ لفعول في بحر السريع. ولعل النبيَّ ﷺ قالها ساكنةَ التاءِ، أو متحرِّكةَ التاءِ مِن غيرِ إشباعٍ. والمعوَّلُ عليه في الانفصال على تسليم أنَّ هذا شعر، ويسقط الاعتراض، ولا يلزمُ منه أن يكون النبيُّ ﷺ عالماً بالشعر ولا شاعراً. إنَّ التمثُّلَ بالبيت الندر وإصابةَ القافيتين من الرَّجز وغيرِه لا يوجبُ أن يكونَ قائلُها عالماً بالشعر، ولا يُسمَّى شاعراً باتِّفاقِ العلماء، كما أنَّ مَن خاطَ خيطاً لا يكونُ خيَّاطاً.

قال أبو إسحاق الزجَّاج[٣]: معنى «وما علَّمناه الشِّعرَ»: وما علَّمناه أن يشعُر، أي: ما جعلناه شاعراً، وهذا لا يمنعُ أن يُنْشِدَ شيئاً من الشعر. قال النحَّاس[٤]: وهذا من أحْسَنِ ما قيل في هذا. وقد قيل: إنَّما خبَّر الله عزَّ وجلَّ أنه ما علَّمه الله الشعر، ولم يُخبر أنه لا ينشدُ شعراً، وهذا ظاهِرُ الكلام. وقيل فيه قولٌ بيِّنٌ، زعم صاحبُه أنه إجماعٌ من أهل اللغة، وذلك أنهم قالوا: كلُّ مَن قال قولاً موزوناً لا يَقْصِدُ به إلى شعرٍ فليس بشعرٍ، وإنَّما وافَقَ الشعر. وهذا قولٌ بيِّن.

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٤٠٥ .

(٢) في النسخ الخطية: لا تكون فعولاً، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٠٢ ، والكلام منه.

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٢٩٤ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٠٥ .

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٤٠٥ .

قالوا: وإنَّما الذي نفاه الله عن نبيِّه عليه الصلاة والسلام فهو العلمُ بالشعر وأصنافِه، وأَعاريضِه وقوافيه، والاتِّصافُ بقوله، ولم يكن موصوفاً بذلك بالاتفاق. ألا ترى أنَّ قريشاً تَراوَضَتْ فيما يقولون للعرب فيه إذا قَدِموا عليهم الموسمَ، فقال بعضهم: نقول إنَّه شاعرٌ. فقال أهل الفطنة منهم: واللهِ لتكذِّبنَّكم العربُ، فإنَّهم يعرفون أصنافَ الشعر، فواللهِ ما يُشْبِه شيئاً منها، وما قولُه بشعر. وقال أنيسٌ أخو أبي ذرٍّ: لقد وضعتُ قولَه على أقراءِ الشعرِ فلم يلتئم أنه شعرٌ. أخرجه مسلم[1]، وكان أنيسٌ من أَشْعَرِ العرب. وكذلك قال عتبة بنُ ربيعةَ لمَّا كلَّمه: واللهِ ما هو بشعرٍ ولا كهانةٍ ولا سحرٍ، على ما يأتي من خبره في سورة فصلت[2]، إنْ شاء الله تعالى. وكذلك قال غيرُهما من فُصَحاء العربِ العَرْباء، واللُّسْنِ البُلَغاء.

ثم إنَّ ما يجري على اللسان من موزون الكلام لا يُعَدُّ شعراً، وإنَّما يعدُّ منه ما يجري على وزن الشعر مع القَصْدِ إليه، فقد يقول القائل: حدَّثنا شيخٌ لنا، وينادي: يا صاحبَ الكسائي[3]، ولا يُعدُّ هذا شعراً. وقد كان رجلٌ ينادي في مَرَضِه وهو من عُرض العامَّةِ العقلاء: اذهبوا بي إلى الطبيب وقولوا قد اكْتَوى.

الثالثة: روى ابنُ القاسم عن مالكٍ أنَّه سُئل عن إنشاد الشعرِ فقال: لا تُكْثِرنَّ منه، فَمِن عيبه أنَّ الله يقول: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ قال: ولقد بلغني أنَّ عمر بنَ الخطاب ﷺ كتب إلى أبي موسى الأشعريِّ: أنِ اجْمَع الشعراءَ قِبَلكَ وسَلْهم عن الشعر، وهل بقي معهم معرفةٌ، وأَحْضِرْ لَبيداً ذلك، قال: فجمعهم فسألهم، فقالوا: إنَّا لَنَعْرِفُه ونقولُه، وسأل لبيداً فقال: ما قلتُ شعراً منذ سمعتُ الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ﴾ [البقرة: ١-٢].

قال ابن العربيِّ[4]: هذه الآيةُ ليستْ من عيب الشعر، كما لم يكن قولُه: ﴿وَمَا

---

(١) في صحيحه (٢٤٧٣)، وسلف ١/ ١١٦.

(٢) في أولها، وسلف ١/ ١١٦.

(٣) في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٠٣. والكلام منه: الكساء.

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٠٣، وما قبله منه.

كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت:٤٨] من عيب الكتابة، فلمَّا لم تكن الأميةُ من عيب الخطِّ، كذلك لا يكونُ نَفْيُ النَّظْمِ عن النبيِّ ﷺ من عيب الشعر.

روي أنَّ المأمون قال لأبي عليٍّ المِنْقَريِّ: بَلَغني أنَّك أُميٌّ، وأنَّك لا تُقيمُ الشعر، وأنَّك تَلْحَنُ. فقال: يا أميرَ المؤمنين، أمَّا اللحنُ فربَّما سبق لساني منه بشيء، وأمَّا الأميةُ وكَسْرُ الشعرِ فقد كان رسول الله ﷺ لا يكتبُ ولا يُقيم الشعر. فقال له: سألتك عن ثلاثةِ عيوبٍ فيك فزِدْتَني رابعاً وهو الجهلُ! يا جاهلُ، إنَّ ذلك كان للنبيِّ ﷺ فضيلةً، وهو فيك وفي أمثالك نقيصةٌ. وإنَّما مُنع النبيُّ ﷺ ذلك لنفي الظِّنَّةِ عنه، لا لعيبٍ في الشعر والكتابة[1].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ أي: وما ينبغي له أنْ يقولَه. وجعل الله جلَّ وعزَّ ذلك عَلَماً من أعلام نبيِّه عليه الصلاة والسلام؛ لئلَّا تدخلَ الشبهةُ على مَن أُرسِلَ إليه، فيظنّ أنه قَوِيَ على القرآن بما في طَبْعِه من القوَّة على الشعر. ولا اعتراضَ لِمُلْحِدٍ على هذا بما يتَّفقُ الوزنُ فيه من القرآنِ وكلامِ الرسول؛ لأنَّ ما وافقَ وَزْنُه وَزْنَ الشعر، ولم يُقْصَدْ به إلى الشعرِ، ليس بشعر، ولو كان شعراً لكان كلُّ مَن نَطَقَ بموزونٍ من العامَّة الذين لا يعرفون الوزنَ شاعراً، على ما تقدَّم بيانُه.

وقال الزجَّاج[2]: معنى ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ أي: ما يَتَسهَّلُ له قولُ الشعرِ، لا الإنشادُ[3]. ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: هذا الذي يتلوه عليكم ﴿إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿لِتُنْذِرَ مَن كان حيًّا﴾ أي: حيَّ القَلْبِ؛ قاله قتادة. الضحَّاك: عاقلاً[4]. وقيل: المعنى: لتُنذِرَ مَن كان مؤمناً في عِلْم الله. هذا على قراءةِ التاءِ خطاباً

(١) العقد الفريد ٢/ ٤٧٩ .

(٢) في معاني القرآن ٤/ ٢٩٣ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٠٥ .

(٣) في (م): الإنشاء.

(٤) أخرج القولين الطبري ١٩/ ٤٨١ .

للنبيِّ عليه الصلاة والسلام، وهي قراءةُ نافعٍ وابنِ عامر. وقرأ الباقون بالياء[١]، على معنى: ليُنذِرَ اللهُ عزَّ وجلَّ، أو لينذرَ محمدٌ ﷺ، أو لينذرَ القرآنُ. وروي عن ابن السَّمَيْفَع: «لِيَنْذَر» بفتحِ الياءِ والذَّال[٢]. ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: وتَجِبَ الحجةُ بالقرآن على الكَفَرة.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم﴾ هذه رؤيةُ القلب، أي: أَوَلَمْ ينظروا ويعتبروا ويتفكَّروا. ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ أي: مما أَبْدَعْناه وعَمِلْناه من غيرِ واسطةٍ ولا وكالةٍ ولا شركةٍ. و«ما» بمعنى الذي، وحُذفت الهاءُ لطولِ الاسم. وإن جَعَلْتَ«ما» مصدريةً لم تَحْتَجْ إلى إضمارِ الهاء.

﴿أَنْعَٰمًا﴾ جمعُ نَعَم، والنَّعَمُ مذكَّر. ﴿فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾: ضابِطون قاهِرون. ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ﴾ أي: سخَّرناها لهم، حتى يقود الصبيُّ الجملَ العظيم ويضربه ويصرِّفه كيف شاء لا يخرجُ من طاعته.

﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ قراءةُ العامَّةِ بفتح الراء، أي: مَرْكوبُهم، كما يقال: ناقةٌ حَلوبٌ، أي: محلوب. وقرأ الأعمش والحسن وابن السَّمَيْفَع: «فمِنها رُكوبُهم» بضمِّ الراءِ على المصدر[٣]. وروي عن عائشةَ أنَّها قرأت: «فمِنها رَكوبَتُهم»[٤]وكذا في مُصْحَفِها[٥].

---

(١) السبعة ص٥٤٤، والتيسير ص١٨٥.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٦٢، والبحر ٧/ ٣٤٦، قال أبو حيان: هو مضارع نَذِر بكسر الذال إذا علم بالشيء فاستعدَّ له. وفيهما عن ابن السميفع أيضاً أنه قرأ: «لِيُنذَر» بضم الياء وفتح الذال.

(٣) القراءات الشاذة ص١٢٦، والمحتسب ٢/ ٢١٦.

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٨١، والقراءات الشاذة ص١٢٦، والمحتسب ٢/ ٢١٦، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٠٦.

(٥) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص١٨٢ عن عروة بن الزبير.

والرَّكوبُ والرَّكوبة واحدٌ، مثل: الحَلوب والحَلوبة، والحَمولُ الحَمولة. وحكى النحويون الكوفيون أنَّ العرب تقول: امرأةٌ صبور وشَكور بغير هاء. ويقولون: شاةٌ حَلوبةٌ، وناقةٌ رَكوبةٌ؛ لأنَّهم أرادوا أن يفرِّقوا بين ما كان له الفعلُ، وبين ما كان الفعلُ واقعاً عليه، فحذفوا الهاء ممَّا كان فاعلاً وأثبتوها فيما كان مفعولاً، كما قال:

فيها اثنتانِ وأربعونَ حَلُوبَةً سُوداً كخافيةِ الغرابِ الأسْحَمِ[(١)]

فيجب أن يكون على هذا: رَكوبتهم. فأمَّا البصريون فيقولون: حُذفت الهاء على النسب. والحجةُ للقول الأول ما رواه الجَرْميُّ عن أبي عبيدةَ قال: الرَّكوبةُ تكون للواحدِ والجماعة، والرَّكُوب لا يكون إلَّا للجماعة. فعَلَى هذا يكونُ لتذكير الجمع. وزعم أبو حاتمٍ أنَّه لا يجوز: «فمِنها رُكوبُهم» بضمِّ الراء لأنَّه مصدرٌ، والرَّكُوب ما يُركب. وأجاز الفرَّاء[(٢)]: «فمِنها رُكوبُهم» بضمِّ الراءِ، كما تقول: فمِنها أُكُلُهم ومنها شُربهم.

﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ مِن لُحمانِها ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ من أصوافها وأوبارها وأشعارها وشحومها ولحومها وغيرِ ذلك. ﴿وَمَشَارِبُ﴾ يعني ألبانَها، ولم يَنْصَرِفا لأنَّهما من الجموع التي لا نظيرَ لها في الواحد [ولا يُجْمَع][(٣)]. ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ اللهَ على نِعَمِه.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ۝٧٤ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ۝٧٥ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٧٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً﴾ أي: قد رَأَوْا هذه الآياتِ من قُدْرَتنا، ثم اتَّخذوا من دوننا آلهةً لا قدرةَ لها على فِعْلٍ. ﴿لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: لِمَا يرجون من

---

(١) البيت لعنترة، وهو في ديوانه ص١٧، وسلف ٥/ ١١٨، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٠٦.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٣٨١، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٠٧.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٠٧، وما بين حاصرتين منه.

نُصْرَتها لهم إنْ نزلَ بهم عذابٌ. ومِن العرب مَن يقول: لعلَّه أن يفعل.

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ يعني الآلهة. وجُمعوا بالواو والنون؛ لأنَّه أخبر عنهم بخبرِ الآدميِّين. ﴿وَهُمْ﴾ يعني الكفار ﴿لَهُمْ﴾ أي: للآلهة، ﴿جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ قال الحسن: يمنعون منهم ويدفعون عنهم[١]. وقال قتادة: أي: يغضبون لهم في الدنيا[٢]. وقيل: المعنى أنهم يعبدون الآلهة ويقومون بها؛ فهم لها بمنزلة الجند، وهي لا تستطيع أن تنصرهم. وهذه الأقوالُ الثلاثةُ متقاربةُ المعنى. وقيل: إن الآلهة جندٌ للعابدين محضَرون معهم في النار، فلا يدفع بعضهم عن بعض.وقيل: معناه: وهذه الأصنام لهؤلاء الكفار جندُ الله عليهم في جهنم؛ لأنهم يلعنونهم ويَتَبرَّؤون من عبادتهم. وقيل: الآلهة جندٌ لهم محضَرون يومَ القيامة لإعانتهم في ظنونهم.

وفي الخبر: إنه يمثل لكل قوم ما كانوا يعبدونه في الدنيا من دون الله، فيتبعونه إلى النار؛ فهم لهم جند محضرون.

قلت: ومعنى هذا الخبرِ ما ثَبَتَ في «صحيح» مسلمٍ[٣] من حديث أبي هريرةَ، وفي الترمذيِّ عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «يَجمعُ اللهُ الناسَ يومَ القيامةِ في صَعيدٍ واحدٍ، ثم يَطَّلِع عليهم ربُّ العالمين فيقولُ: أَلَا لِيَتْبَعْ كلُّ إنسانٍ ما كان يَعبدُ، فيُمثَّلُ لصاحبِ الصليبِ صَليبُه، ولصاحب التصاوير تَصاويرُه، ولصاحب النار نارُه، فَيَتْبَعون ما كانوا يعبدون، ويبقى المسلمون» وذَكَر الحديثَ بطوله[٤].

﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ هذه اللغةُ الفصيحةُ، ومِن العرب مَن يقول: يُحزِنك[٥].

والمرادُ تسليةُ نبيِّه عليه الصلاة والسلام، أي: لا يَحزُنك قولُهم: شاعر، ساحر.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٠٧ ، وأخرجه بنحوه ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ٢٦٩ .

(٢) أخرجه الطبري ١٩/ ٤٨٥ .

(٣) برقم (١٨٢) مطولاً، وسلف ١٢/ ٤٠٨ .

(٤) سنن الترمذي (٢٥٥٧)، وقال: حسن صحيح. وسلف ١٢/ ٤٠٨ - ٤٠٩ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٠٧ .

وتمَّ الكلامُ، ثم استأنف فقال: ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ مِن القول والعملِ وما يُظْهِرون، فنُجازِيهم بذلك.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ﴾ قال ابن عباس: الإنسانُ هو عبدُ الله بن أُبيٍّ[(١)]. وقال سعيد بن جبير: هو العاصُ بنُ وائل السَّهميّ[(٢)]. وقال الحسن: هو أميةُ بن خلف[(٣)]. وقال مجاهدٌ وقتادةُ[(٤)]: هو أُبيّ بن خَلَف الجُمَحيّ[(٥)]. وقاله ابن إسحاق، ورواه ابن وهبٍ عن مالك[(٦)].

﴿أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ وهو اليسيرُ من الماء، نَطَف: إذا قَطَر. ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ أي: مُجادِلٌ في الخصومة مُبينٌ للحجَّة. يريد بذلك أنه صار بعد أنْ لم يكن شيئاً مذكوراً خصيماً مبيناً. وذلك أنه أتى النبيَّ ﷺ بعظمٍ حائلٍ فقال: يا محمدُ، أتَرى أنَّ الله يُحيي هذا بعد ما رَمَّ! فقال النبيُّ ﷺ: «نعم، ويَبعثُك الله ويُدخِلُك النار» فنزلت هذه الآية[(٧)].

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٤٨٧. قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: هذا منكر؛ لأن السورة مكية، وعبد الله ابن أبي ابن سلول إنما كان بالمدينة. وقال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٦٤: وهو وهم ممن نسبه لابن عباس؛ لأن السورة والآية مكية بإجماع، ولأن عبد الله بن أبيٍّ لم يجاهر قط هذه المجاهرة.

(٢) أخرجه الطبري ١٩/ ٤٨٧.

(٣) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٦٣، ونسبه أيضاً لمجاهد وقتادة.

(٤) من قوله: هو أمية... إلى هذا الموضع، ليس في (م).

(٥) أخرجه عنهما الطبري ١٩/ ٤٨٦، وأخرجه عن قتادة أيضاً عبد الرزاق ٢/ ١٤٦. وقال ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٤١: وعليه المفسرون.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٤٦٤. وقول ابن إسحاق ذكره ابن هشام في السيرة ١/ ٣٦١ - ٣٦٢.

(٧) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٤٦، والطبري ١٩/ ٤٨٦ عن قتادة. وينظر الدر المنثور ٥/ ٢٧١ - ٢٧٢.

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ أي: ونسي أنَّا أنشأناه من نطفةٍ ميتةٍ، فركَّبْنا فيه الحياة. أي: جوابُه من نفسِه حاضرٌ؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «نعم، يُحييك[1] الله ويدخلُك النار» ففي هذا دليلٌ على صحة القياس؛ لأنَّ الله جلَّ وعزَّ احتجَّ على مُنْكِري البعثِ بالنشأة الأولى.

﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ أي: بالية. رَمَّ العظمُ فهو رَميمٌ ورُمَام. وإنَّما قال: رميم، ولم يقل: رميمة؛ لأنَّها معدولةٌ عن فاعلة، وما كان معدولاً عن وجهه ووزنه كان مصروفاً عن إعرابه[2]، كقوله: ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم:٢٨] أسْقط الهاء؛ لأنَّها مصروفةٌ عن باغية.

وقيل: إنَّ هذا الكافرَ قال للنبيِّ ﷺ: أرأيتَ إن سحقتُها وأَذْرَيتُها في الريح، أَيُعيدُها الله! فنزلت: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: من غير شيء، فهو قادرٌ على إعادتها في النشأة الثانية من شيء، وهو عَجْم الذَّنْب. ويقال: عَجْبُ الذَّنَب بالباء. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ أي: كيف يُبدئُ ويُعيد.

الثانية: في هذه الآيةِ دليلٌ على أنَّ في العظام حياة، وأنَّها تَنْجَسُ بالموت. وهو قولُ أبي حنيفةَ وبعضِ أصحابِ الشافعيِّ. وقال الشافعيُّ ﷺ: لا حياةَ فيها[3]. وقد تقدَّم هذا في «النحل»[4].

فإن قيل: أراد بقوله: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ﴾ أصحابَ العظام، وإقامةُ المضافِ مُقامَ

---

(١) في (م): ويبعثك.

(٢) في تفسير البغوي ٤/ ٢٠ (والكلام منه): أخواته، بدل: إعرابه.

(٣) بنحوه في أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٣٥٥، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٠٤.

(٤) ١٢/ ٣٩٥ - ٣٩٧، ولكنه ذكر ثَمَّةَ عن أبي حنيفة قوله بطهارة القرن والسن والعظم، وأنها لا تنجس بموت الحيوان، وهذا يوافق ما ذكره الجصاص في أحكام القرآن ٣/ ٣٧٦، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٣٣٢.

المضافِ إليه كثيرٌ في اللغة، موجودٌ في الشريعة.

قلنا: إنَّما يكون [ذلك] إذا احتيج [إليه] لضرورة، وليس هاهنا ضرورةٌ تدعو إلى هذا الإضمار، ولا يفتقرُ إلى هذا التقدير، إذ الباري سبحانه قد أخبر به وهو قادرٌ عليه، والحقيقةُ تشهدُ له؛ فإنَّ الإحساس الذي هو علامةُ الحياةِ موجودٌ فيه؛ قاله ابن العربيّ[1].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ نبَّه تعالى على وَحْدانيته، ودلَّ على كمال قدرتِه في إحياء المَوْتى، بما يشاهدونه من إخراج المُحرِقِ اليابسِ من العود النديِّ الرَّطْب. وذلك أنَّ الكافر قال: النطفةُ حارةٌ رطبةٌ بطبعِ الحياة، فخرج منها الحياة، والعظمُ باردٌ يابسٌ بطبع الموت، فكيف تخرج منه الحياة! فأنزل الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ أي: إنَّ الشجر الأخضر من الماء، والماءُ باردٌ رطبٌ ضدُّ النار، وهما لا يجتمعان، فأخرج الله منه النار، فهو القادرُ على إخراج الضدِّ من الضد، وهو على كلِّ شيءٍ قدير. ويعني بالآية ما في المَرْخ والعَفَار، وهي زنادةُ العرب؛ ومنه قولُهم: في كلِّ شجرٍ نارٌ واسْتَمجَدَ المَرْخُ والعَفَار[2]؛ فالعَفَارُ الزَّنْد، وهو الأعلى، والمَرْخُ الزَّنْدةُ، وهي الأسفل؛ يؤخَذُ منهما غصنان مثلُ

(١) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٠٤ وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) جمهرة الأمثال ٢/ ٩٢ ، ومجمع الأمثال ٢/ ٧٤ ، والمستقصى ٢/ ١٨٣ ، والكشاف ٣/ ٣٣٢ . قال العسكري: يضرب في تفضيل الرجال بعضهم على بعض، أي: لكل واحد من هؤلاء فضل، إلا أن فلاناً أفضل.

المسواكَيْن[١] يقطران ماءً، فيُحَكُّ بعضُهما إلى بعضٍ، فتخرجُ منهما النار.

وقال: «مِن الشَّجَرِ الأخضرِ» ولم يقل: الخضراء، وهو جمع؛ لأنَّه ردَّه إلى اللَّفْظ. ومِن العرب مَن يقول: الشجرُ الخضراء؛ كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ [الواقعة: ٥٢-٥٣][٢].

ثم قال تعالى محتجاً: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ أي: أمثالَ المُنْكِرين للبعث. وقرأ سلَّام أبو المنذر ويعقوبُ الحضرميُّ[٣]: «يَقْدِرُ على أنْ يَخْلُقَ مِثْلَهم» على أنه فِعْل. ﴿بَلَىٰ﴾ أي: إنَّ خَلْقَ السماواتِ والأرضِ أعظمُ من خَلْقِهم، فالذي خَلَق السماواتِ والأرضَ يقدرُ على أنْ يبعثهم. ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ وقرأ الحسن باختلافٍ عنه: «الْخَالِقُ»[٤].

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ قرأ الكسائيُّ «فَيَكونَ» بالنصب[٥] عطفاً على «يقول»، أي: إذا أراد خَلْقَ شيءٍ، لا يحتاجُ إلى تعبٍ ومُعالَجةٍ. وقد مضى هذا في غير موضع.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ نزَّه نفسَه تعالى عن العجز والشَّرّ. ومَلكوتُ وَمَلَكُوتَى في كلام العرب بمعنى مِلْك. والعربُ تقول: جَبَروتَى خيرٌ مِن رَحَمُوتَى. وقال سعيدٌ عن قتادة: «مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ»: مفاتحُ كلِّ شيءٍ[٦].

وقرأ طلحةُ بن مصرِّفٍ وإبراهيم التَّيْميُّ والأعمشُ: «مَلَكَةُ»[٧]، وهو بمعنى

---

(١) في (خ): السواكين.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٠٨ .

(٣) في رواية رويس عنه. النشر ٢/ ٣٥٥ .

(٤) القراءات الشاذة ص١٢٦ .

(٥) وقرأ بها ابن عامر أيضاً. التيسير ص١٣٧ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٠٨ .

(٧) المحتسب ٢/ ٢١٧ .

ملكوت؛ إلَّا أنه خلافُ المصحف. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: تُردُّون وتَصيرون بعد مَماتكم. وقراءةُ العامة بالتاء على الخطاب. وقرأ السُّلَميُّ وزِرّ بنُ حُبيشٍ وأصحابُ عبد الله: «يرْجعُونَ» بالياء على الخبر.

تم الجزء السابع عشر من تفسير القرطبي

ويليه الجزء الثامن عشر ويبدأ بسورة الصافات

تفسير سورة يس

[وهى] (١) مكية .

قال أبو عيسى الترمذى : حدثنا قتيبة وسفيان بن وَكيع ، حدثنا حميد بن عبد الرحمن الرُّؤاسى ، عن الحسن بن صالح ، عن هارون أبى محمد ، عن مقاتل بن حيان ، عن قتادة (٢) ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لكل شىء قلبا ، وقلب القرآن يس . ومن قرأ يس كَتَب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات » .

ثم قال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حُميد بن عبد الرحمن . وهارون أبو محمد شيخ مجهول . وفى الباب عن أبى بكر الصديق ، رضى الله عنه ، ولا يصح لضعف إسناده ، وعن أبى هريرة منظور فيه (٣) .

أما حديث الصديق فرواه الحكيم الترمذى فى كتابه نوادر الأصول(٤) . وأما حديث أبى هريرة فقال(٥) أبو بكر البزار : حدثنا عبد الرحمن بن الفضل ،حدثنا زيد ـ هو ابن الحباب ـ حدثنا حُميد ـ هو المكى ، مولى آل علقمة ـ عن عطاء ـ هو ابن أبى رباح ـ عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ: « إن لكل شىء قلبا ، وقلب القرآن يس » .

ثم قال : لا نعلم رواه إلا زيد ، عن حميد (٦) .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا إسحاق بن أبى إسرائيل ، حدثنا حجاج بن محمد ، عن هشام بن زياد ، عن الحسن قال : سمعت أبا هريرة يقول (٧) : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ يس فى ليلة أصبح مغفوراً له . ومن قرأ : « حم » التى فيها الدخان أصبح مغفوراً له » . إسناد (٨) جيد (٩) .

وقال (١٠) ابن حبان فى صحيحه : حدثنا محمد بن إسحاق بن إبراهيم ـ مولى ثقيف ـ حدثنا الوليد بن شجاع بن الوليد السكونى ، حدثنا أبى ، حدثنا زياد بن خَيْثَمة، حدثنا محمد بن جُحَادة ،

---

(١) زيادة من ت ، س ، أ . (٢) فى ت : « روى أبو عيسى الترمذى بإسناده » .

(٣) سنن الترمذى برقم (٢٨٨٧) وقال ابن أبى حاتم فى العلل (٥٦/٢) بعد ما ذكر الحديث : « قال أبى : مقاتل هذا هو مقاتل بن سليمان رأيت هذا الحديث فى أول كتاب وضعه مقاتل وهو حديث باطل لا أصل له . قلت لأبى : مقاتل أدرك قتادة ؟ قال : وأكبر من قتادة أبو الزبير » .

(٤) نوادر الأصول ص (٣٣٥) ورواه ابن الضريس فى فضائل القرآن برقم (٢١٧) والبيهقى فى شعب الإيمان برقم (٢٤٦٥) وابن الجوزى فى الموضوعات (٢٤٧/١) من طرق عن إسماعيل بن أبى أويس عن محمد بن عبد الرحمن الجدعانى عن سليمان بن مرقاع عن هلال ابن الصلت عن أبى بكر ، رضى الله عنه . وقال ابن الجوزى : « هذا الحديث من جميع طرقه باطل لا أصل له » .

(٥) فى ت : « وروى » .

(٦) مسند البزار برقم (٢٣٠٤) « كشف الأستار » .

(٧) فى ت : « وروى الحافظ أبو يعلى عن أبى هريرة قال » . (٨) فى ت : « إسناده » .

(٩) مسند أبى يعلى (٩٣/١١) وفى إسناده هشام بن زياد ضعفه الأئمة ، وقال ابن حبان : « كان ممن يروى الموضوعات عن الثقات ، والمقلوبات عن الأثبات حتى يسبق إلى قلب المستمع أنه كان المعتمد لها ، لا يجوز الاحتجاج به » . والحسن لم يسمع من أبى هريرة ، وانظر التعليق على أبى يعلى عند قوله : « سمعت » .

(١٠) فى ت ، أ : « وروى » .

عن الحسن ، عن جُنْدَب بن [(١)] عبد اللّه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « من قرأ يس فى ليلة ابتغاء وجه اللّه ، غفر له » [(٢)] .

وقد قال [(٣)] الإمام أحمد : حدثنا عارم ، حدثنا معتمر ، عن أبيه ، عن رجل ، عن أبيه ، عن معقل بن يَسَار ، رضى اللّه عنه ، أن رسول اللّه ﷺ قال : « البقرة سنام القرآن وذِرْوَته ، نزل مع كل آية منها ثمانون ملكا،واستخرجت ﴿**اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّوم**﴾ [البقرة : ٢٥٥] من تحت العرش فوصلت بها ـ أو : فوصلت بسورة البقرة ـ ويس قلب القرآن ، لا يقرؤها رجل يريد اللّه والدار الآخرة ، إلا غفر له ، واقرؤوها على موتاكم » .

وكذا رواه النسائى فى «اليوم والليلة» عن محمد بن عبد الأعلى ،عن معتمر بن سليمان ، به [(٤)].

ثم قال الإمام أحمد : حدثنا عارم ، حدثنا ابن المبارك ، حدثنا سليمان التيمى ، عن أبى عثمان ـ وليس بالنهدى ـ عن أبيه ، عن مَعْقِل بن يَسَار قال : قال رسول اللّه ﷺ :« اقرؤوها على موتاكم » ـ يعنى : يس .

ورواه أبو داود ، والنسائى فى « اليوم والليلة » وابن ماجه من حديث عبد اللّه بن المبارك ، به[(٥)] إلا أن فى رواية النسائى : عن أبى عثمان ، عن معقل بن يسار .

ولهذا قال بعض العلماء : من خصائص هذه السورة : أنها لا تقرأ عند أمر عسير إلا يسره اللّه . وكأن قراءتها عند الميت لتنزل الرحمة والبركة ، وليسهل [(٦)] عليه خروج الروح ، واللّه أعلم .

قال الإمام أحمد ، رحمه اللّه : حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا صفوان قال : كان المشيخة يقولون : إذا قرئت ـ يعنى يس ـ عند الميت خُفِّف عنه بها [(٧)] .

وقال [(٨)] البزار : حدثنا سلمة بن شبيب ، حدثنا إبراهيم بن الحكم بن أبان ، عن أبيه ، عن عكرِمة ، عن ابن عباس قال : قال النبى[(٩)] ﷺ : « لوددت أنها فى قلب كل إنسان من أمتى » ـ يعنى: يس [(١٠)] .

---

(١) فى أ : « عن » .

(٢) صحيح ابن حبان برقم (٦٦٥) « موارد » والحسن لم يسمع من جندب ، قاله أبو حاتم .

(٣) فى ت : « وروى » .

(٤) المسند (٥/ ٢٦) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٩١٤) وقد أعله ابن القطان كما فى التلخيص لابن حجر (٢/ ١٠٤) بثلاث علل : الاضطراب فى الإسناد ، وبالوقف ، وبجهالة حال أبى عثمان وأبيه . ثم نقل عن الدارقطنى قوله : « هذا حديث ضعيف الإسناد ، مجهول المتن ، ولا يصح فى الباب حديث » .

(٥) المسند (٥/ ٢٦) وسنن أبى داود برقم (٣١٢١) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٩١٣) وسنن ابن ماجة برقم (١٤٤٨) .

(٦) فى ت ، س : « ولتسهل » .

(٧) المسند (٤/ ١٠٥) .

(٨) فى ت : « وروى » .

(٩) فى ت : « رسول اللّه » .

(١٠) مسند البزار برقم (٢٣٠٥) « كشف الأستار » .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يس ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ ﴾ .

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة فى أول « سورة البقرة » : ورُوى عن ابن عباس وعِكْرِمة ، والضحاك ، والحسن وسفيان بن عُيينة [1] أن « يس » بمعنى : يا إنسان .

وقال سعيد بن جبير : هو كذلك فى لغة الحبشة .

وقال مالك ، عن زيد بن أسلم : هو اسم من أسماء الله تعالى .

﴿ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾ أى : المحكم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ﴿إِنَّكَ﴾ يامحمد ﴿ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أى: على منهج ودين قويم ، وشرع مستقيم ، ﴿تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ أى : هذا الصراط والمنهج والدين الذى جئت به مُنَزَّل من رب العزة ، الرحيم بعباده المؤمنين ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ. صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾ [الشورى : ٥٢ ، ٥٣] .

وقوله تعالى : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ يعنى بهم : العرب ؛ فإنه ما أتاهم من نذير من قبله . وذكرهم وحدهم لا ينفى من عداهم [كما زعمه بعض النصارى] [2] ، كما أن ذكر بعض الأفراد لا ينفى العموم . وقد تقدم ذكر الآيات والأحاديث المتواترة فى عموم بعثته ، صلوات الله وسلامه عليه ، عند قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف:١٥٨].

وقوله : ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ ﴾ : قال ابن جرير : لقد وجب العذاب على أكثرهم بأن [الله قد][3] حتم عليهم فى أم الكتاب أنهم لا يؤمنون، ﴿ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ بالله،ولا يصدقون رسله.

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ .

يقول تعالى : إنا جعلنا هؤلاء المحتوم عليهم بالشقاء نسبتهم إلى الوصول إلى الهدى كنسبة من جُعِل فى عنقه غُل،فجمَع يديه مع عنقه تحت ذقنه ،فارتفع رأسُه ،فصار مقمَحا ؛ ولهذا قال: ﴿ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ ،والمقمح : هو الرافع رأسه ، كما قالت أم زرْع فى كلامها : « وأشرب فأتقمَّح » أى :

(١) فى ت : « وعكرمة وغيرهما » . (٢) زيادة من أ . (٣) زيادة من ت ، س .

أشرب فأروى ، وأرفع رأسى تهنيئا وتَرَوِّيا . واكتفى بذكر الغل فى العنق عن ذكر اليدين ، وإن كانتا مرادتين ، كما قال الشاعر [١] :

فَمَا أدْرى إذَا يَمَّمْتُ أرْضـا ... أريـد الخَيْـرَ أيّـهما يَـلِـينى

أألْخَيرُ الـذى أنَـا أبْتَـغـيـه ... أم الشَّرّ الـذى لا يَـأتَـلِـينى

فاكتفى بذكر الخير عن ذكر الشر لَمَّا دل السياق والكلام عليه [٢] ، وكذا هذا ، لما كان الغُلّ إنما يعرف فيما جَمَع اليدين مع العنق ، اكتفى بذكر العنق عن اليدين .

قال العوفى، عن ابن عباس فى قوله :﴿ **إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ** ﴾ قال :هو كقول الله [٣] تعالى : ﴿ **وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ** ﴾ [الإسراء : ٢٩] يعنى بذلك : أن أيديهم موثقة [٤] إلى أعناقهم ، لا يستطيعون أن يبسطوها بخير .

وقال مجاهد : ﴿ **فَهُم مُّقْمَحُونَ** ﴾ قال : رافعو[٥] رؤوسهم ، وأيديهم موضوعة على أفواههم ، فهم مغلولون عن كل خير .

وقوله : ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا** ﴾ :قال مجاهد : عن الحق ، ﴿ **وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا** ﴾ قال مجاهد : عن الحق ، فهم يترددون . وقال قتادة : الضلالات .

وقوله : ﴿ **فَأَغْشَيْنَاهُمْ** ﴾ أى : أغشينا أبصارهم عن الحق ، ﴿ **فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ** ﴾ أى : لا ينتفعون بخير ولا يهتدون إليه .

قال ابن جرير : وروى عن ابن عباس أنه كان يقرأ : « فأعشيناهم » بالعين المهملة ، من العشا وهو داء فى العين .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : جعل الله هذا السد بينهم وبين الإسلام والإيمان ، فهم لا يخلصون إليه ، وقرأ : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ** ﴾ [يونس : ٩٦، ٩٧] ثم قال : من منعه الله لا يستطيع .

وقال عكرمة : قال أبو جهل : لئن رأيتُ محمداً لأفعلن ولأفعلن ، فأنزلت : ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً** ﴾ إلى قوله : ﴿ [**فَهُمْ**] [٦] **لا يُبْصِرُونَ** ﴾ ، قال : وكانوا يقولون : هذا محمد . فيقول: أين هو ؟ أين هو ؟ لا يبصره . رواه ابن جرير .

وقال محمد بن إسحاق : حدثنى يزيد بن زياد ، عن محمد بن كعب قال : قال أبو جهل وهم جلوس : إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه[٧] كنتم ملوكا ، فإذا متم [٨] بعثتم بعد موتكم ، وكانت لكم جنانٌ خير من جنان الأرْدُنَ . وأنكم إن خالفتموه كان لكم منه ذبح ، ثم بعثتم بعد موتكم وكانت لكم نار تُعذّبون بها .وخرج [عليهم] [٩] رسول الله ﷺ عند ذلك،وفى يده حفنة من تراب، وقد أخذ الله على أعينهم دونه ، فجعل يذُرّها على رؤوسهم ، ويقرأ : ﴿ **يس . وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ** ﴾

---

(١) البيت فى تفسير الطبرى (٢٢/٩٨) .
(٢) فى ت : « لما دل عليه السياق » . (٣) فى ت : « كقوله » . (٤) فى ت : « موثوقة » .
(٥) فى ت ، س : « رافعى » . (٦) زيادة من ت ، أ . (٧) فى ت : « بايعتموه » .
(٨) فى ت : « أنتم » . (٩) زيادة من أ .

حتى انتهى إلى قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ﴾، وانطلق رسول اللّه ﷺ لحاجته ، وباتوا رُصَداء على بابه ، حتى خرج عليهم بعد ذلك خارج من الدار ، فقال: ما لكم ؟ قالوا : ننتظر محمداً . قال : قد خرج عليكم ، فما بقى منكم من رجل إلا [قد] [١] وضع على رأسه ترابا ، ثم ذهب لحاجته . فجعل كل رجل منهم ينفض ما على رأسه من التراب . قال : وقد بلغ النبىّ ﷺ قول أبى [٢] جهل فقال : « وأنا أقول ذلك : إن لهم منى لذبحا ، وإنه أحدهم » .

وقوله : ﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى : قد ختم اللّه عليهم بالضلالة ، فما يفيد فيهم الإنذار ولا يتأثرون به .

وقد تقدم نظيرها فى أول سورة البقرة [٣] ، وكما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٩٦ ، ٩٧] .

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ﴾ أى : إنما ينتفع بإنذارك المؤمنون الذين يتبعون الذكر ،وهو القرآن العظيم ، ﴿ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ ﴾ أى : حيث لا يراه أحد إلا اللّه ، يعلم أن اللّه مطلع عليه ، وعالم بما يفعله ، ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ ﴾ أى : لذنوبه ، ﴿ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ أى : كبير واسع حسن جميل ، كما قال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الملك : ١٢] .

ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾ أى: يوم القيامة ،وفيه إشارة إلى أن اللّه تعالى يحيى قلب من يشاء من الكفار الذين قد ماتت قلوبهم بالضلالة ، فيهديهم بعد ذلك إلى الحق ، كما قال بعد ذكر قسوة القلوب: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الحديد: ١٧].

وقوله : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا ﴾ أى : من الأعمال .

وفى قوله : ﴿ وَآثَارَهُمْ ﴾ قولان :

أحدهما : نكتب أعمالهم التى باشروها بأنفسهم ، وآثارهم التى أثروها من بعدهم ، فنجزيهم على ذلك أيضاً ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، كقوله ﷺ : « من سن فى الإسلام سنة حسنة ، كان له أجرها وأجر من عمل [٤] بها من بعده ، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ، ومن سن فى الإسلام سنة سيئة،كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده،من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً».

رواه مسلم ، من رواية شعبة ،عن عون بن أبى جُحَيفة ، عن المنذر بن جرير ، عن أبيه جرير بن عبد اللّه البجلى ، رضى اللّه عنه ، وفيه قصة مُجْتَابى النِّمار المُضَريِّين [٥] . ورواه ابن أبى حاتم عن أبيه ، عن يحيى بن سليمان الجعفى ، عن أبى المحياة يحيى بن يَعلَى ، عن عبد الملك بن عمير ، عن جرير بن عبد اللّه ، فذكر الحديث بطوله ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ﴾ .

وقد رواه مسلم من رواية أبى عوَانة ، عن عبد الملك بن عمير ، عن المنذر بن جرير ، عن أبيه ، فذكره [٦] .

---

(١) زيادة من أ .
(٢) فى ت : « قول أبا » وهو خطأ .
(٣) عند تفسير الآية السادسة .
(٤) فى أ : « يعمل » .
(٥، ٦) صحيح مسلم برقم (١٠١٧) .

وهكذا الحديث الآخر الذى فى صحيح مسلم عن أبى هريرة ، رضى اللّه عنه ، قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إذا مات ابن آدم ، انقطع عمله إلا من ثلاث : من علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له، أو صدقة جارية من بعده » (١) .

وقال سفيان الثورى ، عن أبى سعيد قال : سمعت مجاهداً يقول فى قوله (٢) : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُم﴾ قال : ما أورثوا من الضلالة .

وقال ابن لَهِيعة ، عن عطاء بن دينار ، عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُم﴾ يعنى : ما أثرُوا . يقول : ما سَنوا من سنة ، فعمل (٣) بها قوم من بعد موتهم ، فإن كان خيرا فله مثل أجورهم ، لا ينقص من أجر من عمله شيئاً ، وإن كانت شراً فعليه مثل أوزارهم ، ولا ينقص من أوزار من عمله شيئاً . ذكرهما ابن أبى حاتم .

وهذا القول هو اختيار البَغَوىّ (٤) .

والقول الثانى : أن المراد بذلك آثار خطاهم إلى الطاعة أو المعصية .

قال ابن أبى نَجِيح وغيره ، عن مجاهد : ﴿مَا قَدَّمُوا ﴾ : أعمالهم . ﴿ وَآثَارَهُم﴾ قال : خطاهم بأرجلهم . وكذا قال الحسن وقتادة : ﴿ وَآثَارَهُم﴾ يعنى : خطاهم . قال قتادة : لو كان اللّه تعالى (٥) مغفلاً شيئاً من شأنك يا بن آدم ، أغفل ما تعفى الرياح من هذه الآثار ، ولكن أحصى على ابن آدم أثره وعمله كله ، حتى أحصى هذا الأثر فيما هو من طاعة اللّه أو من معصيته ، فمن استطاع منكم أن يكتب أثره فى طاعة اللّه ، فليفعل .

وقد وَرَدت فى هذا المعنى أحاديث :

الحديث الأول : قال (٦) الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا أبى ، حدثنا الجُرَيرى ، عن أبى نَضْرة ، عن جابر بن عبد اللّه قال : خلت البقاع حول المسجد ، فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد ، فبلغ ذلك رسول اللّه ﷺ ، فقال لهم : « إنه بلغنى أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد». قالوا : نعم ، يا رسول اللّه ، قد أردنا ذلك . فقال : « يا بنى سلمة ، دياركم تكتب آثاركم ، دياركم تكتب آثاركم » .

وهكذا رواه مسلم ، من حديث سعيد الجريرى وكَهْمس بن الحسن ، كلاهما عن أبى نضرة ــ واسمه : المنذر بن مالك بن قطْعَة العَبْدى ــ عن جابر (٧) .

الحديث الثانى : قال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن الوزير الواسطى ، حدثنا إسحاق الأزرق ، عن سفيان الثورى ، عن أبى سفيان ، عن أبى نضرة ، عن أبى سعيد الخدرى قال : كانت بنو سلَمة فى ناحية من المدينة، فأرادوا أن ينتقلوا إلى قريب من المسجد، فنزلت: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ

(١) صحيح مسلم برقم (١٦٣١) .
(٢) فى ت : « وعن مجاهد فى قوله » .
(٣) فى أ : « يعمل » .
(٤) معالم التنزيل للبغوى (٧/ ٩) .
(٥) فى ت ، س ، أ : « عز وجل » .
(٦) فى ت : « رواه » .
(٧) المسند (٣/ ٣٣٢) وصحيح مسلم برقم (٦٦٥) .

مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُم ﴾ فقال لهم النبى ﷺ : « إن آثاركم تكتبُ » . فلم ينتقلوا .

انفرد بإخراجه الترمذى (١) عند تفسير هذه الآية الكريمة ،عن محمد بن الوزير ، به (٢) . ثم قال: « حسن غريب من حديث الثورى » (٣) .

ورواه ابن جرير ، عن سليمان بن عمر بن خالد الرقى ، عن ابن المبارك ، عن سفيان الثورى ، عن طريف ـ وهو ابن شهاب أبو سفيان السعدى ـ عن أبى نضرة ، به (٤) .

وقد رُوِىَ من غير طريق الثورى ، فقال الحافظ أبو بكر البزار :

حدثنا عباد بن زياد الساجى ، حدثنا عثمان بن عمر ، حدثنا شعبة ، عن سعيد الجُريرى ، عن أبى نضرة ، عن أبى سعيد قال : إن بنى سلَمة شكوا إلى رسول الله ﷺ بعد منازلهم من المسجد ، فنزلت : ﴿ **وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُم** ﴾ ، فأقاموا فى مكانهم .

وحدثنا ابن المثنى (٥) ، حدثنا عبد الأعلى ، حدثنا الجَريرى ، عن أبى نضرة ، عن أبى سعيد ، عن النبى ﷺ ، بنحوه .

وفيه غرابة من حيثُ ذكْرُ نزول هذه الآية ، والسورة بكمالها مكية ، فالله أعلم .

الحديث الثالث : قال ابن جرير :

حدثنا نصر بن على الجَهْضَمى ، حدثنا أبو أحمد الزبيرى ، حدثنا إسرائيل ، عن سماك ، عن عكْرمة ، عن (٦) ابن عباس قال : كانت منازل الأنصار متباعدة من المسجد ، فأرادوا أن ينتقلوا إلى المَسجد ، فنزلت : ﴿ **وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُم** ﴾ ، فقالوا : نثبت مكاننا . هكذا رواه وليس فيه شىء مرفوع (٧) .

ورواه الطبرانى عن عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبى مريم ، عن محمد بن يوسف الفريابى ، عن إسرائيل ، عن سمَاك ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : كانت الأنصار بعيدة منازلهم من المسجد ، فأرادوا أن يتحولوا إلى المسجد ، فنزلت : ﴿ **وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُم** ﴾ ،فثبتوا فى منازلهم (٨) .

الحديث الرابع : قال (٩) الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لَهيعة ، حدثنى حُيَىّ بن عبدالله ،عن أبى عبد الرحمن الحُبلى ، عن عبد الله بن عمرو قال : توفِىَ رجل بالمدينة ، فصلى عليه النبى ﷺ وقال : « يا ليته مات فى غير مولده » . فقال رجل من الناس : ولم يا رسول الله ؟ فقال رسول الله (١٠) ﷺ : « إن الرجل إذا توفى فى غير مولده ، قيس له من مولده إلى منقطع أثره

(١) فى أ : « مسلم » .
(٢) سنن الترمذى برقم (٣٢٢٦) .
(٣) فى ت : « أخرجه الترمذى وقال : حديث حسن غريب » .
(٤) تفسير الطبرى (٢٢/ ١٠٠) .
(٥) فى س ، أ : « وحدثناه محمد بن المثنى » .
(٦) فى ت : « رواه ابن جرير بإسناده إلى » .
(٧) تفسير الطبرى (٢٢/ ١٠٠) .
(٨) المعجم الكبير (١٢/ ٨) وشيخه عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبى مريم ضعيف .
(٩) فى ت : « رواه » .
(١٠) فى ت ، س : « النبى » .

فى الجنة » .

ورواه النسائى عن يونس بن عبد الأعلى ، وابن ماجه عن حرملة ، كلاهما عن ابن وهب ، عن حيى بن [١] عبد الله ، به [٢] .

وقال [٣] ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا أبو تُمَيْلَةَ ، حدثنا الحسين ، عن ثابت قال : مشيت مع أنس فأسرعت المشى ، فأخذ بيدى فمشينا رويداً ، فلما قضينا الصلاة قال أنس : مشيت مع زيد بن ثابت فأسرعت المشى ، فقال : يا أنس ، أما شَعَرتَ أن الآثار تكتب ؟ أما شَعَرتَ أن الآثار تكتب ؟ [٤] .

وهذا القول لا تنافى بينه وبين الأول ، بل فى هذا تنبيه ودلالة على ذلك [٥] بطريق الأولى والأحرى ، فإنه إذا كانت هذه الآثار تُكتَب ، فلأن تُكتَبَ تلك التى فيها قُدوة بهم من خير أو شر بطريق الأولى ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ **وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ** ﴾ أى : جميع الكائنات مكتوب فى كتاب مسطور مضبوط فى لوح محفوظ ، والإمام المبين هنا هو أم الكتاب . قاله مجاهد ، وقتادة ، وعبد الرحمن ابن زيد بن أسلم ، وكذا فى قوله تعالى : ﴿ **يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ** ﴾ [الإسراء : ٧١] أى : بكتاب أعمالهم الشاهد عليهم بما عملوه من خير وشر ، كما قال تعالى : ﴿ **وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ** ﴾ [الزمر : ٦٩] ، وقال تعالى : ﴿ **وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا** ﴾ [الكهف : ٤٩] .

﴿ **وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٧)** ﴾ .

يقول تعالى : واضرب ـ يا محمد ـ لقومك الذين كذبوك ﴿ **مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ** ﴾ .

قال ابن إسحاق ـ فيما بلغه عن ابن عباس ، وكعب الأحبار ، ووهب بن منبه ـ : إنها مدينة أنطاكية، وكان بها ملك يقال له : انطيخس بن انطيخس بن انطيخس ، وكان يعبد الأصنام ، فبعث الله إليه ثلاثة من الرسل ، وهم : صادق وصدوق وشلوم [٦] ، فكذبهم .

---

(١) فى أ : « عن » .

(٢) المسند (٢/ ١٧٧) وسنن النسائى (٤/ ٧) وسنن ابن ماجة برقم (١٦١٤) .

(٣) فى ت : « وروى » .

(٤) تفسير الطبرى (٢٢/ ١٠٠) .

(٥) فى أ : « ذاك » .

(٦) فى ت : « وشكوم » .

وهكذا روى عن بُرَيدة بن الحُصَيب ، وعِكْرِمة ، وقتادة ، والزهرى : أنها أنطاكية .

وقد استشكل بعضُ الأئمة كونَها أنطاكية ، بما سنذكره بعد تمام القصة ، إن شاء اللّه تعالى .

وقوله : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا ﴾ أى : بادروهما بالتكذيب ، ﴿ فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ ،أى: قويناهم [١] وشددنا أزرهما برسول ثالث .

قال ابن جُرَيْج ، عن وهب بن سليمان ، عن شعيب الجبائى قال : كان اسم الرسولين الأولين شمعون ويوحنا ، واسم الثالث بولص ، والقرية أنطاكية .

﴿فَقَالُوا﴾ أى : لأهل تلك القرية : ﴿ إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾ أى : من ربكم الذى خلقكم ، نأمركم بعبادته وحده لا شريك له . قاله أبو العالية .

وزعم قتادة بن دعامة : أنهم كانوا رسل المسيح ، عليه السلام ، إلى أهل أنطاكية . ﴿ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ أى : فكيف أوحى إليكم وأنتم بشر ونحن بشر ، فلم لا أوحىَ إلينا مثلكم ؟ ولو كنتم رسلاً لكنتم ملائكة . وهذه شبه [٢] كثير من الأمم المكذبة ، كما أخبر اللّه تعالى عنهم فى قوله: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ [التغابن :٦] ، فاستعجبوا [٣]من ذلك وأنكروه . وقوله : ﴿ قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم : ١٠] . وقوله حكاية عنهم فى قوله : ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ [المؤمنون : ٣٤] ، ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً ﴾ ؟ [الإسراء : ٩٤] . ولهذا قال هؤلاء : ﴿ مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ. قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ أى : أجابتهم رسلهم الثلاثة قائلين : اللّه يعلم أنا رسله إليكم ، ولو كنا كَذَبَة عليه لانتقم منا أشد الانتقام، ولكنه سيعزنا وينصرنا عليكم ، وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار ، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ[٤] وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [العنكبوت : ٥٢] .

﴿ وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ : يقولون : إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم ، فإن أطعتم كانت لكم السعادة فى الدنيا والآخرة ، وإن لم تجيبوا فستعلمون غِبّ ذلك ، واللّه أعلم .

﴿ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (١٩) ﴾ .

فعند ذلك قال لهم أهل القرية : ﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُم ﴾ أى : لم نر على وجوهكم خيراً فى عيشنا .

وقال قتادة : يقولون : إن أصابنا شر فإنما هو من أجلكم .

وقال مجاهد : يقولون : لم يدخل مثلكم إلى قرية إلا عذب أهلها .

﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ ﴾ : قال قتادة : بالحجارة . وقال مجاهد : بالشتم .

---

(١) فى ت : « قويناهما بثالث » . (٢) فى ت ، س : « شبهة » . (٣) فى ت ، س : « أى استعجبوا » .

(٤) فى ت ، س ، أ ، هـ : « يعلم ما فى السموات وما فى الأرض » والصواب ما أثبتناه .

﴿ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى :عقوبة شديدة . فقالت لهم رسلهم : ﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ ﴾ أى: مردود عليكم ، كقوله تعالى فى قوم فرعون : ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ ﴾ [الأعراف : ١٣١] ، وقال قوم صالح [(١)] : ﴿ اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ ﴾ [النمل : ٤٧] . وقال قتادة ، ووهب بن منبه : أى أعمالكم معكم . وقال تعالى : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ [النساء : ٧٨] .

وقوله : ﴿ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ أى : من أجل أنا ذكرناكم وأمرناكم بتوحيد الله وإخلاص العبادة له ، قابلتمونا بهذا الكلام ، وتوعدتمونا وتهددتمونا ؟ بل أنتم قوم مسرفون .

وقال قتادة : أى إن ذكرناكم بالله تطيرتم بنا ، بل أنتم قوم مسرفون .

﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَن لايَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥) ﴾ .

قال ابن إسحاق ـ فيما بلغه عن ابن عباس وكعب الأحبار ووهب بن منبه ـ : إن أهل القرية هَمّوا بقتل رسلهم فجاءهم رجل من أقصى المدينة يسعى ، أى : لينصرهم من قومه ـ قالوا : وهو حبيب ، وكان يعمل الجرير ـ وهو [(٢)] الحبال ـ وكان رجلا سقيما[(٣)] قد أسرع فيه الجذام ، وكان كثير الصدقة، يتصدق بنصف كسبه ، مستقيم النظرة [(٤)] .

وقال ابن إسحاق عن رجل سماه ، عن الحكم ، عن مِقْسَم ـ أو : عن مجاهد ـ عن ابن عباس قال: [كان] [(٥)] اسم صاحب يس حبيب ، وكان الجذام قد أسرع فيه .

وقال الثورى ، عن عاصم الأحول ، عن أبى مِجْلَز : كان اسمه حبيب بن مرى .

وقال شبيب بن بشر [(٦)] ، عن عِكْرِمة ، عن ابن عباس [أيضا][(٧)] قال : اسم صاحب يس حبيب النجار ، فقتله قومه .

وقال السدى : كان قَصَّارا . وقال عمر بن الحكم : كان إسكافا . وقال قتادة : كان يتعبد فى غار هناك .

﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ : يحض قومه على اتباع الرسل الذين أتوهم ،﴿ اتَّبِعُوا مَن لا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا ﴾ أى : على إبلاغ الرسالة ، ﴿ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ فيما يدعونكم إليه ، من عبادة الله وحده لا شريك له .

---

(١) فى ت ، س : « لوط » وفى أ : « شعيب » . (٢) فى ت ، س ، أ : « يعنى » . (٣) فى أ : « مستقيما » .
(٤) فى أ : « الفطرة » . (٥) زيادة من ت ، س . (٦) فى أ : « بشير » .
(٧) زيادة من ت .

﴿ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ أى : وما يمنعنى من إخلاص العبادة للذى خلقنى وحده لا شريك له ، ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أى : يوم المعاد ، فيجازيكم على أعمالكم ، إن خيرا فخير ، وإن شراً فشر.

﴿ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً ﴾ ؟ استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع ، ﴿ إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾ أى : هذه الآلهة التى تعبدونها من دونه لا يملكون من الأمر شيئا ، فإن الله لو أرادنى بسوء ، ﴿ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ﴾ [يونس : ١٠٧] . وهذه الأصنام لا تملك دفع ذلك ولا منعه ، ولا ينقذوننى مما أنا فيه ، ﴿ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أى : إن اتخذتها آلهة من دون الله.

وقوله : ﴿ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴾ : قال ابن إسحاق ـ فيما بلغه عن ابن عباس وكعب ووهب ـ يقول لقومه : ﴿ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ الذى كفرتم به ، ﴿ فَاسْمَعُونِ ﴾ أى :فاسمعوا قولى .

ويحتمل أن يكون خطابه للرسل بقوله :﴿ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ أى :الذى أرسلكم ، ﴿ فَاسْمَعُونِ ﴾ أى : فاشهدوا لى بذلك عنده . وقد حكاه ابن جرير فقال : وقال آخرون : بل خاطب بذلك الرسل، وقال لهم : اسمعوا قولى ، لتشهدوا لى بما أقول لكم عند ربى ، إنى [قد] (١) آمنت بربكم واتبعتكم (٢) .

وهذا [القول] (٣) الذى حكاه هؤلاء أظهر فى المعنى ، والله أعلم .

قال ابن إسحاق ـ فيما بلغه عن ابن عباس وكعب ووهب ـ : فلما قال ذلك وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه ، ولم يكن له أحد يمنع عنه .

وقال قتادة : جعلوا يرجمونه بالحجارة ، وهو يقول : « اللهم ، اهد قومى ، فإنهم لا يعلمون». فلم يزالوا به حتى أقعصوه وهو يقول كذلك ، فقتلوه ، رحمه الله .

﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧) وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ (٢٨) إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (٢٩) ﴾ .

قال محمد بن إسحاق ، عن بعض أصحابه ، عن ابن مسعود : إنهم وطئوه بأرجلهم حتى خرج قُصْبُه من دبره وقال الله له : ﴿ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ﴾ ، فدخلها فهو يرزق منها ، قد أذهب الله عنه سُقم الدنيا وحزنها ونَصَبها .

وقال مجاهد : قيل لحبيب النجار : ادخل الجنة . وذلك أنه قُتل فوجبت له (٤) ، فلما رأى الثواب ﴿ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ .

قال قتادة : لا تلقى المؤمن إلا ناصحا ، لا تلقاه غاشا ؛ لَمَّا عاين [ما عاين] (٥) من كرامة الله

---

(١) زيادة من ت .

(٢) تفسير الطبرى (٢٢/١٠٤).

(٣) زيادة من ت . (٤) فى ت ، س ، أ : « له الجنة » . (٥) زيادة من ت ، أ .

﴿ قَال يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُون . بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِين﴾ . تمنى على اللّه أن يعلم قومه ما عاين من كرامة اللّه [له] [١] ، وما هجم عليه .

وقال ابن عباس : نصح قومه فى حياته بقوله : ﴿ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِين ﴾ [يس : ٢٠] ، وبعد مماته فى قوله: ﴿ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُون . بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِين ﴾ . رواه ابن أبى حاتم .

وقال سفيان الثورى ، عن عاصم الأحول ، عن أبى مِجْلَز : ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِين ﴾ : بإيمانى بربى ، وتصديقى المرسلين .

ومقصوده أنهم لو اطلعوا على ما حصل من هذا الثواب والجزاء والنعيم المقيم ، لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل ، فرحمه اللّه ورضى عنه ، فلقد كان حريصا على هداية قومه .

قال [٢] ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا هشام بن عبيد اللّه ، حدثنا ابن جابر ـ وهو محمد ـ عن [٣] عبد الملك ـ يعنى : ابن عمير ـ قال : قال عروة بن مسعود الثقفى للنبى ﷺ : ابعثنى إلى قومى أدعوهم إلى الإسلام . فقال رسول اللّه ﷺ : « إنى أخاف أن يقتلوك » . فقال : لو وجدونى نائما ما أيقظونى . فقال له رسول اللّه ﷺ : « انطلق » . فانطلق فمر على اللات والعزى ، فقال : لأصبحنَّك غدا بما يسوؤك . فغضبت ثقيف ، فقال : يا معشر ثقيف ، إن اللات لا لات ، وإن العُزى لا عُزى ، أسلموا تسلموا . يا معشر الأحلاف ، إن العزى لا عزى ، وإن اللات لا لات ، أسلموا تسلموا . قال ذلك ثلاث مرات ، فرماه رجل فأصاب أكْحَله فقتله ، فبلغ رسولَ اللّه ﷺ فقال :«هذا مثله كمثل صاحب يس ، ﴿ قَال يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُون . بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِين ﴾ » [٤] .

وقال محمد بن إسحاق ، عن عبد اللّه بن عبد الرحمن بن مَعْمَر بن حَزم : أنه حدث عن كعب الأحبار : أنه ذكر له حبيب بن زيد بن عاصم ـ أخو بنى مازن بن النجار ـ الذى كان مسيلمة الكذاب قَطَّعه باليمامة ، حين جعل يسأله عن رسول اللّه ﷺ ، فجعل يقول : أتشهد أن محمدا رسول اللّه ؟ فيقول: نعم . ثم يقول : أتشهد أنى رسول اللّه ؟ فيقول : لا أسمع . فيقول له مسيلمة : أتسمع هذا ولا تسمع ذاك ؟ فيقول : نعم . فجعل يُقَطِّعه عضوا عضوا ، كلما سأله لم يزده على ذلك حتى مات فى يديه . فقال كعب حين قيل له : اسمه حبيب ، وكان واللّه صاحب يس اسمه حبيب [٥] .

وقوله : ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِين﴾ : يخبر تعالى أنه انتقم من قومه بعد قتلهم إياه ، غضباً منه تعالى عليهم ؛ لأنهم كذبوا رسله ، وقتلوا وليه . ويذكر تعالى : أنه ما أنزل عليهم ، وما احتاج فى إهلاكه إياهم إلى إنزال جند من الملائكة عليهم ، بل الأمر كان أيسر من ذلك . قاله ابن مسعود ، فيما رواه ابن إسحاق ، عن بعض أصحابه ، عنه أنه قال فى قوله: ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِين ﴾ أى : ما كاثرناهم بالجموع الأمر

---

(١) زيادة من أ .	(٢) فى ت : « روى » .	(٣) فى أ : « بن » .

(٤) ورواه الحاكم فى المستدرك (٣/ ٦١٥) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٤٨/١٧) من طريق ابن لهيعة ، عن أبى الأسود ، عن عروة ابن الزبير ، بنحوه . ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٤٨/١٧) من طريق موسى بن عقبة ، عن الزهرى ، بنحوه . وقال الهيثمى فى المجمع (٣٨٦/٩) : « وكلاهما مرسل ، وإسنادهما حسن » .

(٥) رواه الطبرى فى تفسيره (١٠٣/٢٢) .

كان أيسر علينا من ذلك ، ﴿ إن كَانَتْ إلا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُون ﴾ ، قال : فأهلك اللّه ذلك الملك ، وأهلك أهل أنطاكية ، فبادوا عن وجه الأرض ، فلم يبق (١) منهم باقية .

وقيل : ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِين﴾ أى : وما كنا ننزل الملائكة على الأمم إذا أهلكناهم ، بل نبعث عليهم عذابا يدمرهم .

وقيل : المعنى فى قوله : ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِه مِنْ بَعْدِه مِن جُند مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ أى : من رسالة أخرى إليهم . قاله مجاهد وقتادة . قال قتادة : فلا واللّه ما عاتب اللّه قومه بعد قتله ، ﴿ إِن كَانَتْ إلا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُون﴾ .

قال ابن جرير : والأول أصح ؛ لأن الرسالة لا تسمى جنداً .

قال المفسرون : بعث اللّه إليهم جبريل ، عليه السلام ، فأخذ بعضادتى باب بلدهم ، ثم صاح بهم صيحة واحدة فإذا هم خامدون عن آخرهم ، لم تبق بهم روح تتردد فى جسد .

وقد تقدم عن كثير من السلف أن هذه القرية هى أنطاكية ، وأن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلا من عند المسيح ، عليه السلام ، كما نص عليه قتادة وغيره ، وهو الذى لم يذكر عن (٢) واحد من متأخرى المفسرين غيره ، وفى ذلك نظر من وجوه :

أحدها : أن ظاهر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا رسل اللّه ، عز وجل ، لا من جهة المسيح ، كما قال تعالى:﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِث فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُون ﴾ إلى أن قالوا: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُون. وَمَا عَلَيْنَا إِلا الْبَلاغُ الْمُبِين﴾ [يس : ١٤ ـ ١٧] . ولو كان هؤلاء من الحواريين لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح ، عليه السلام ، واللّه أعلم . ثم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم : ﴿ما أَنتُمْ إِلا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ [يس : ١٥] .

الثانى : أن أهل أنطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم ، وكانوا أول مدينة آمنت بالمسيح ؛ ولهذا كانت عند النصارى إحدى المدائن الأربعة اللاتى فيهن بتَاركة ، وهن القدس لأنها بلد المسيح ، وأنطاكية لأنها أول بلدة آمنت بالمسيح عن آخر أهلها ، والإسكندرية لأن فيها (٣) اصطلحوا على اتخاذ البتاركة والمطارنة والأساقفة والقساوسة (٤) والشمامسة والرهابين . ثم رومية لأنها مدينة الملك قسطنطين الذى نصر دينهم وأطَّدَه. ولما ابتنى القسطنطينية نقلوا البترك من رومية إليها ، كما ذكره غير واحد ممن ذكر تواريخهم كسعيد بن بطريق وغيره من أهل الكتاب والمسلمين ، فإذا تقرر أن أنطاكية أول مدينة آمنت ، فأهل هذه القرية قد ذكر اللّه تعالى أنهم كذبوا رسله (٥) ، وأنه أهلكهم بصيحة واحدة أخمدتهم (٦) ، فاللّه أعلم .

الثالث : أن قصة أنطاكية مع الحواريين أصحاب المسيح بعد نزول التوراة ، وقد ذكر أبو سعيد الخدرى وغير واحد من السلف : أن اللّه تعالى بعد إنزاله التوراة لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم ، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين ، ذكروه عند قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَىٰ ﴾ [القصص : ٤٣] . فعلى هذا يتعين أن هذه القرية

(١) فى س : « تبق » . (٢) فى أ : « غير » . (٣) فى ت ، س : « منها » .
(٤) فى ت ، س : « القساقسة » . (٥) فى ت : « رسلهم » . (٦) فى ت ، س : « أخذتهم » .

المذكورة فى القرآن [العظيم] [(١)] قرية أخرى غير أنطاكية ، كما أطلق ذلك غير واحد من السلف أيضا . أو تكون أنطاكية إن كان لفظها محفوظا فى هذه القصة مدينة أخرى غير هذه المشهورة المعروفة، فإن هذه لم يعرف أنها أهلكت لا فى الملة النصرانية ولا قبل ذلك ، والله ، سبحانه وتعالى ، أعلم .

فأما الحديث الذى رواه الحافظ أبو القاسم الطبرانى : حدثنا الحسين بن إسحاق التُّسْترى ، حدثنا الحسين بن أبى السرى العسقلانى ، حدثنا حُسَين الأشقر ، حدثنا ابن عيينة ، عن ابن أبى نَجِيح ، عن مجاهد ، عن [(٢)] ابن عباس ، عن النبى ﷺ قال : « السُّبَّق ثلاثة : فالسابق إلى موسى يوشع بن نون ، والسابق إلى عيسى صاحب يس ، والسابق إلى محمد على بن أبى طالب » [(٣)] ، فإنه حديث منكر ، لا يعرف إلا من طريق [(٤)] حسين الأشقر ، وهو شيعى متروك ، [والله أعلم] [(٥)] .

﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٠) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ (٣١) وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢) ﴾ .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ﴾ أى : يا ويل العباد .

وقال قتادة : ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ﴾ : أى يا حسرة العباد على أنفسها ، على ما ضيعت من أمر الله ، فرطت فى جنب الله . قال : وفى بعض القراءة : « يا حسرة [(٦)] العباد على أنفسها » .

ومعنى هذا : يا حسرتهم وندامتهم يوم القيامة إذا عاينوا العذاب ، كيف كذبوا رسل الله ، وخالفوا أمر الله ، فإنهم كانوا فى الدار الدنيا المكذبون منهم .

﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أى : يكذبونه ويستهزئون به ، ويجحدون ما أرسل به من الحق .

ثم قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ ﴾ أى : ألم يتعظوا بمن أهلك الله قبلهم من المكذبين للرسل ، كيف لم تكن لهم إلى هذه الدنيا كرة ولا رجعة ، ولم يكن الأمر كما زعم كثير من جهلتهم وفَجَرتهم من [(٧)] قولهم : ﴿ إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ [المؤمنون : ٣٧] ، وهم القائلون بالدور من الدهرية ، وهم الذين يعتقدون جهلا منهم أنهم يعودون إلى الدنيا كما كانوا فيها ، فرد الله تعالى عليهم باطلهم ، فقال : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ أى : وإن جميع الأمم الماضية والآتية ستحضر

---

(١) زيادة من ت . (٢) فى ت : « رواه الحافظ الطبرانى بإسناده إلى » .

(٣) المعجم الكبير (١١/ ٩٣) ورواه ابن مردوية فى تفسيره ، والعقيلى فى الضعفاء كما فى تخريج الكشاف للزيلعى (٣/ ١٦٢) من طريق حسين الأشقر ، به ، وأعله العقيلى بحسين الأشعرى كما ذكر الحافظ ابن كثير هنا وقال : « إنه شيعى متروك ولا يعرف هذا إلا منجهته، وهو حديث منكر » .

(٤) فى أ : « حديث » . (٥) زيادة من ت ، س .

(٦) فى ت ، س ، أ : « حسرة على » . (٧) فى أ : « مثل » .

للحساب يوم القيامة بين يدى الله ، عز وجل ، فيجازيهم بأعمالهم كلها خيرها وشرها ، ومعنى هذه كقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [هود : ١١١].

وقد اختلف القراء فى أداء هذا الحرف ؛ فمنهم من قرأ : « وَإِن كل لَمَا » بالتخفيف ، فعنده أن « إن » للإثبات ، ومنهم من شدد « لَمَّا » ، وجعل « إن » نافية ، و « لَمَّا » بمعنى « إلا » تقديره : وما كل إلا جميع لدينا محضرون ، ومعنى القراءتين واحد ، والله أعلم .

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ (٣٥) سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦) ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ ﴾ أى: دلالة لهم على وجود الصانع وقدرته التامة وإحيائه الموتى ﴿ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ ﴾ أى : إذا كانت ميتة هامدة لا شىء فيها من النبات ، فإذا أنزل الله عليها الماء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج ؛ ولهذا قال : ﴿ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ أى : جعلناه رزقا لهم ولأنعامهم ، ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴾ أى : جعلنا فيها أنهاراً سارحة فى أمكنة ، يحتاجون إليها ليأكلوا من ثمره . لما امتن على خلقه بإيجاد الزروع لهم عَطَف بذكر الثمار وتنوعها وأصنافها .

وقوله : ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ أى:وما ذاك كله إلا من رحمة الله بهم ، لا بسعيهم ولا كدهم، ولا بحولهم وقوتهم . قاله ابن عباس وقتادة ؛ ولهذا قال : ﴿ أَفَلا يَشْكُرُونَ ﴾ ؟ أى : فهلا يشكرونه على ما أنعم به عليهم من هذه النعم التى لا تعد ولا تحصى ؟ واختار ابن جرير ـ بل جزم به ، ولم يحك غيره إلا احتمالا ـ أن « ما » فى قوله : ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ بمعنى : « الذى » ، تقديره : ليأكلوا من ثمره ومما عملته أيديهم ، أى : غرسوه ونصبوه ، قال : وهى كذلك فى قراءة ابن مسعود ﴿ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ ﴾ .

ثم قال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ ﴾ أى : من زروع وثمار ونبات . ﴿ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ فجعلهم ذكراً وأنثى ، ﴿ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : من مخلوقات شتى لا يعرفونها، كما قال تعالى : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٩] .

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) ﴾ .

يقول تعالى : ومن الدلالة لهم على قدرته تعالى العظيمة خلق الليل والنهار ، هذا بظلامه وهذا

بضيائه ، وجعلهما يتعاقبان ، يجىء هذا فيذهب هذا ، ويذهب هذا فيجىء هذا ، كما قال : ﴿ **يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا** ﴾ [الأعراف : ٥٤] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ **وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ** ﴾ أى: نصرمه منه فيذهب ، فيقبل الليل ؛ ولهذا قال : ﴿ **فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ** ﴾ ، كما جاء فى الحديث : « **إذا أقبل الليل من هاهنا ، وأدبر النهار من هاهنا ، وغربت الشمس ، فقد أفطر الصائم** » (١) .

هذا هو الظاهر من الآية ، وزعم قتادة أنها كقوله تعالى : ﴿ **يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ** ﴾ [الحج : ٦١] . وقد ضعف ابن جرير قولَ قتادة هاهنا ، وقال : إنما معنى الإيلاج : الأخذ من هذا فى هذا ، وليس هذا مراداً فى هذه الآية . وهذا الذى قاله ابن جرير حق .

وقوله: ﴿ **وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** ﴾، فى معنى قوله: ﴿ **لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا** ﴾ قولان:

أحدهما : أن المراد : مستقرها المكانى ، وهو تحت العرش مما يلى الأرض من ذلك الجانب ، وهى أينما كانت فهى تحت العرش هى وجميع المخلوقات ؛ لأنه سقفها ، وليس بكرة كما يزعمه كثير من أرباب الهيئة ، وإنما هو قبة ذات قوائم تحمله الملائكة ، وهو فوق العالم مما يلى رؤوس الناس ، فالشمس إذا كانت فى قبة الفلك وقت الظهيرة تكون أقرب ما تكون إلى العرش ، فإذا استدارت فى فلكها الرابع إلى مقابلة هذا المقام ، وهو وقت نصف الليل ، صارت أبعد ما تكون من العرش ، فحينئذ تسجد وتستأذن فى الطلوع ، كما جاءت بذلك الأحاديث .

قال البخارى : حدثنا أبو نُعَيم ، حدثنا الأعمش ، عن إبراهيم [التيمى] (٢) ، عن أبيه ، عن أبى ذر ، رضى اللّه عنه ، قال : كنت مع النبى ﷺ فى المسجد عند غروب الشمس ، فقال : « يا أبا ذر ، أتدرى أين تَغربُ الشمس ؟ » قلت : اللّه ورسوله أعلم . قال : « فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش ، فذلك قوله : ﴿ **وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** ﴾ » .

حدثنا عبد اللّه بن الزبير الحُميدىّ ، حدثنا وَكيع عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن أبيه ، عن أبى ذر قال : سألت رسول اللّه ﷺ عن قوله : ﴿ **وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا** ﴾، قال : « مستقرها تحت العرش » (٣) .

كذا أورده هاهنا . وقد أخرجه فى أماكن متعددة (٤) ، ورواه بقية الجماعة إلا ابن ماجه ، من طرق ، عن الأعمش ، به (٥) .

وقال (٦) الإمام أحمد :حدثنا محمد بن عبيد ، حدثنا الأعمش ، عن إبراهيم التيمى ، عن أبيه، عن أبى ذر قال : كنت مع رسول اللّه ﷺ فى المسجد حين وجبت الشمس ، فقال : « يا أبا ذر ، تدرى أين تذهب الشمس ؟ » قلت : اللّه ورسوله أعلم . قال :« فإنها تذهب حتى تسجد بين يدى

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (١٩٥٤) ومسلم فى صحيحه برقم (١١٠٠) من حديث عمر رضى اللّه عنه .

(٢) زيادة من ت ، س ، أ .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٨٠٢ ، ٤٨٠٣) .

(٤) صحيح البخارى برقم (٣١٩٩ ، ٧٤٢٤ ، ٧٤٣٣) .

(٥) صحيح مسلم برقم (١٥٩) وسنن أبى داود برقم (٤٠٠٢) وسنن الترمذى برقم (٣٢٢٧) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٣٠) .

(٦) فى ت : « وروى » .

ربها عز وجل ، فتستأذن فى الرجوع فيؤذن لها ، وكأنها قد قيل لها : ارجعى من حيث جئت . فترجع إلى مطلعها ، وذلك مستقرها ، ثم قرأ : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ » (١) .

وقال سفيان الثورى ، عن الأعمش ، عن إبراهيم التيمى ، عن أبيه ، عن أبى ذر ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ لأبى ذر حين غربت الشمس : « أتدرى أين هذا ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش ، فتستأذن فيؤذن لها ، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها ، وتستأذن فلا يؤذن لها ،ويقال لها :ارجعى من حيث جئت .فتطلع من مغربها، فذلك قوله : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ » (٢) .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معْمَر ، عن أبى إسحاق ، عن وهب بن جابر ، عن عبد الله بن عمرو قال فى قوله : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ ، قال : إن الشمس تطلع فتردها ذنوب بنى آدم ، حتى إذا غربت سلَّمت وسجدت واستأذنت فيؤذن لها ، حتى إذا كان يوم غربت فسلمت وسجدت ، واستأذنت فلا يؤذن لها ، فتقول : إن المسير بعيد وإنى إلا يؤذن لى لا أبلغ ، فتحبس ما شاء الله أن تحبس ، ثم يقال لها : « اطلعى من حيث غربت » . قال : « فمن يومئذ إلى يوم القيامة لا ينفع نفساً إيمانها ، لم تكن آمنت من قبل ، أو كسبت فى إيمانها خيراً » (٣) .

وقيل : المراد بقوله : ﴿ لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ : هو انتهاء سيرها وهو غاية ارتفاعها فى السماء فى الصيف وهو أوجها ، ثم غاية انخفاضها فى الشتاء وهو الحضيض .

والقول الثانى : أن المراد بمستقرها هو : منتهى سيرها ، وهو يوم القيامة ، يبطل سيرها وتسكن حركتها وتكور ، وينتهى هذا العالم إلى غايته ، وهذا هو مستقرها الزمانى .

قال قتادة : ﴿ لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ أى : لوقتها ولأجل لا تعدوه .

وقيل : المراد : أنها لا تزال تنتقل فى مطالعها الصيفية إلى مدة لا تزيد عليها ، يروى هذا عن عبد الله بن عمرو .

وقرأ ابن مسعود ، وابن عباس :« وَالشَّمْسُ تَجْرِى لا مُسْتَقر لَّهَا » أى : لا قرار لها ولا سكون ، بل هى سائرة ليلا ونهاراً ، لا تفتر ولا تقف . كما قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ [إبراهيم : ٣٣] أى : لا يفتران ولا يقفان إلى يوم القيامة .

﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ ﴾ أى :الذى لا يخالَف ولا يُمانَع ، ﴿ الْعَلِيمِ ﴾ بجميع الحركات والسكنات، وقد قدر ذلك وقنَّنه على منوال لا اختلاف فيه ولا تعاكس ، كما قال تعالى : ﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [الأنعام : ٩٦] . وهكذا ختم آية (٤) «حم السجدة » بقوله : ﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت : ١٢] .

ثم قال: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ ﴾ أى: جعلناه يسير سيراً آخر يستدل به على مضى الشهور، كما أن

---

(١) المسند (٥/١٥٢) .

(٢) رواية سفيان فى صحيح البخارى برقم (٣١٩٩) .

(٣) تفسير عبد الرزاق (٢/١١٥) ورواه أبو الشيخ فى العظمة برقم (٦٢٨) من طريق عبد الرزاق .

(٤) فى ت : « ختم آخر آية » .

الشمس يعرف بها الليل والنهار ، كما قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِ ﴾ [البقرة : ١٨٩] ، وقال : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ الآية [يونس : ٥]، وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً ﴾ [الإسراء : ١٢]، فجعل الشمس لها ضوء يخصها ، والقمر (١) له نور يخصه ، وفاوت بين سير هذه وهذا ، فالشمس تطلع كل يوم وتغرب فى آخره على ضوء واحد ، ولكن تنتقل فى مطالعها ومغاربها صيفاً وشتاء ، يطول بسبب ذلك النهار ويقصر الليل ،ثم يطول الليل ويقصر النهار ، وجعل سلطانها بالنهار ، فهى كوكب نهارى . وأما القمر ، فقدره منازل ، يطلع فى أول ليلة من الشهر ضئيلا قليل النور، ثم يزداد نوراً فى الليلة الثانية ، ويرتفع (٢) منزلة ، ثم كلما ارتفع ازداد ضياء ، وإن كان مقتبساً من الشمس ، حتى يتكامل نوره (٣) فى الليلة الرابعة عشرة ، ثم يشرع فى النقص إلى آخر الشهر ، حتى يصير كالعرجون القديم .

قال ابن عباس : وهو أصل العِذْق .

وقال مجاهد : العرجون القديم : أى العذق اليابس .

يعنى ابن عباس : أصل العنقود من الرطب إذا عتق ويبس وانحنى ، وكذا قال غيرهما . ثم بعد هذا يبديه اللّه جديداً فى أول الشهر الآخر ، والعرب تسمى كل ثلاث (٤) ليال من الشهر باسم باعتبار القمر ، فيسمون الثلاث الأول « غُرَر » واللواتى بعدها « نُفَل » ، واللواتى بعدها « تُسع » ؛ لأن أخراهن التاسعة ، واللواتى بعدها « عُشَر » ؛ لأن أولاهن العاشرة ، واللواتى بعدها « البيض» ؛ لأن ضوء القمر فيهن إلى آخرهن ، واللواتى بعدهن « دُرَع » جمع دَرْعاء ؛ لأن أولهن سُود (٥) ؛ لتأخر القمر فى أولهن ، ومنه الشاة الدرعاء وهى التى رأسها أسود . وبعدهن ثلاث « ظُلَم » ثم ثلاث «حَنَادس » ، وثلاث « دآدئ » (٦) ، وثلاث « محَاق » ؛ لانمحاق القمر أواخر الشهر فيهن . وكان أبو عبُيد (٧) ينكر التُسَع والعُشَر . كذا قال فى كتاب « غريب المصنف » .

وقوله : ﴿ لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ : قال مجاهد: لكل منهما حد لا يعدوه ولا يُقصر دونه ، إذا جاء سلطان هذا ذهب هذا ، وإذا ذهب سلطان هذا جاء سلطان هذا .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا مَعْمَر ، عن الحسن فى قوله : ﴿ لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ قال : ذلك ليلة الهلال .

وروى ابن أبى حاتم هاهنا عن عبد اللّه بن المبارك أنه قال : إن للريح جناحاً ، وإن القمر يأوى إلى غلاف من الماء .

وقال الثورى ، عن إسماعيل بن أبى خالد ، عن أبى (٨) صالح : لا يدرك هذا ضوء هذا ، ولا هذا ضوء هذا (٩) .

---

(١) فى س : « وللقمر » . (٢) فى ت : « فترتفع » . (٣) فى أ : « ضوؤه » .
(٤) فى ت : « ثلاثة » وهو خطأ . (٥) فى ت ، أ : « أسود » . (٦) فى أ : « درارى » .
(٧) فى أ : « أبو عبيدة » . (٨) فى ت ، س : « أبو » .
(٩) فى س : « لا يدرك هذا ضر هذا ولا هذا ضر هذا » .

وقال عكرمة [فى قوله] [(١)] : ﴿ **لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ** ﴾ : يعنى : أن لكل منهما سلطانا، فلا ينبغى للشمس أن تطلع بالليل .

وقوله : ﴿ **وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ** ﴾ : يقول : لا ينبغى إذا كان الليلُ أن يكون ليل آخر حتى يكون النهار ، فسلطان الشمس بالنهار ، وسلطان القمر بالليل .

وقال الضحاك : لا يذهب الليل من هاهنا حتى يجىء النهار من هاهنا . وأومأ بيده إلى المشرق .

وقال مجاهد : ﴿ **وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ** ﴾ : يَطَّلبان حثِيثين ، ينسلخ أحدهما من الآخر .

والمعنى فى هذا : أنه لا فترة بين الليل والنهار ، بل كل منهما يعقب الآخر بلا مهلة ولا تراخ ؛ لأنهما مسخران دائبين يتطالبان طلباً حثيثاً .

وقوله : ﴿ **وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** ﴾ يعنى : الليل والنهار ، والشمس والقمر ، كلهم يسبحون ، أى : يدورون فى فلك السماء . قاله ابن عباس ، وعكِرِمة ، والضحاك ، والحسن ، وقتادة ، وعطاء الخراسانى [(٢)] .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : فى فلك بين السماء والأرض . رواه ابن أبى حاتم ، وهو غريب جداً ، بل منكر .

قال ابن عباس وغير واحد من السلف : فى فَلْكةٍ كفَلْكَة المغْزَل .

وقال مجاهد : الفَلَك كحديدة الرَّحَى ، أو كفلكة المغزل،لا يدور المغزل إلا بها،ولا تدور إلا به.

﴿ **وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنقَذُونَ (٤٣) إِلاَّ رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (٤٤)** ﴾ .

يقول تعالى : ودلالة لهم أيضا على قدرته تعالى : تسخيره البحر ليحمل [(٣)] السفن ، فمن ذلك ـ بل أوله ـ سفينة نوح ، عليه السلام ، التى أنجاه اللّه فيها بمن معه من المؤمنين ، الذين لم يبق على وجه الأرض من ذرية آدم غيرهم ؛ ولهذا قال : ﴿ **وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ** ﴾ أى : آباءهم ، ﴿ **فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ** ﴾ أى : فى السفينة [الموقرة] [(٤)] المملوءة من الأمتعة والحيوانات ، التى أمره اللّه أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين .

قال ابن عباس:المشحون :المُوقَر.وكذا قال سعيد بن جبير ، والشعبى ، وقتادة ، [والضحاك][(٥)]، والسدى .

وقال الضحاك ، وقتادة ، وابن زيد : وهى سفينة نوح ، عليه السلام .

وقوله : ﴿ **وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ** ﴾ :قال العوفى ، عن ابن عباس : يعنى بذلك : الإبل، فإنها سفن البر يحملون عليها ويركبونها . وكذا قال عكرمة ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة ـ فى رواية ـ وعبد اللّه بن شَدّاد ، وغيرهم [(٦)] .

وقال السدى ـ فى رواية ـ : هى الأنعام .

---

(١) زيادة من أ . (٢) فى ت : « قاله ابن عباس وغيره » . (٣) فى أ : « ليحمل فيه » .
(٤) زيادة من ت ، أ . (٥) زيادة من أ . (٦) فى ت : « عكرمة وغيره » .

وقال ابن جرير : حدثنا الفضل بن الصباح ، حدثنا محمد بن فضيل ، عن عطاء ، عن سعيد بن جُبَير(١) ، عن ابن عباس قال : تدرون ما ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ ؟قلنا : لا. قال : هى السفن ، جعلت من بعد سفينة نوح على مثلها .

وكذا قال [غير واحد و](٢) أبو مالك ، والضحاك ، وقتادة ، وأبو صالح ، والسدى أيضاً : [المراد بقوله] (٣): ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ : أى السفن .

ويُقَوى هذا المذهب فى المعنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ. لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١١ ، ١٢] .

وقوله : ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُم ﴾ يعنى : الذين فى السفن ، ﴿فَلا صَرِيخَ لَهُم ﴾ أى : فلا مغيث لهم مما هم فيه ، ﴿وَلا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ أى :مما أصابهم ، ﴿ إِلا رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ .وهذا استثناء منقطع ، تقديره: لكن برحمتنا نسيركم فى البر والبحر ، ونُسَلّمكم إلى أجل مسمى ؛ ولهذا قال : ﴿وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أى : إلى وقت معلوم عند الله .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥) وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤٦) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٤٧) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن تمادى المشركين فى غيهم وضلالهم ، وعدم اكتراثهم بذنوبهم التى أسلفوها، وما هم يستقبلون بين أيديهم يوم القيامة : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ قال مجاهد : من الذنوب . وقال غيره بالعكس ، ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أى : لعل الله باتقائكم ذلك يرحمكم ويؤمنكم من عذابه . وتقدير كلامه : أنهم لا يجيبون إلى ذلك ويعرضون عنه . واكتفى عن ذلك بقوله : ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ أى : على التوحيد وصدق الرسل ﴿إِلا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ أى : لا يتأملونها ولا ينتفعون(٤) بها .

وقوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ أى: وإذا أمروا بالإنفاق مما رزقهم الله على الفقراء والمحاويج من المسلمين ﴿ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى: عن الذين آمنوا من الفقراء ، أى: قالوا لمن أمرهم من المؤمنين بالإنفاق محاجين لهم فيما أمروهم به : ﴿ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ ﴾ أى : هؤلاء الذين أمرتمونا بالإنفاق عليهم ، لو شاء الله لأغناهم ولأطعمهم من رزقه ، فنحن نوافق مشيئة الله فيهم ، ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلا فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ أى : فى أمركم لنا بذلك .

قال ابن جرير : ويحتمل أن يكون من قول الله للكفار حين ناظروا المسلمين(٥) وردوا عليهم، فقال لهم : ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلا فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٦) ، وفى هذا نظر .

---

(١) فى ت : « وروى ابن جرير بإسناده » . (٢) زيادة من ت . (٣) زيادة من أ .
(٤) فى أ : « ولا يشعرون » . (٥) فى أ : « المؤمنين » .
(٦) تفسير الطبرى (٢٣/ ٩) .

﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين (٤٨) ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون (٤٩) فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون (٥٠) ﴾ .

يخبر تعالى عن استبعاد الكفرة لقيام الساعة فى قولهم: ﴿ متى هذا الوعد [إن كنتم صادقين][1] ﴾؟ ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ﴾ [الشورى :١٨] ، قال الله تعالى : ﴿ ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون ﴾ أى : ما ينتظرون [2] إلا صيحة واحدة ، وهذه ــ والله أعلم ــ نفخة الفزع ، ينفخ فى الصور نفخة الفزع ، والناس فى أسواقهم ومعايشهم يختصمون ويتشاجرون على عادتهم ، فبينما هم كذلك إذ أمر الله تعالى إسرافيل فنفخ فى الصور نفخة يُطوّلها ويَمُدّها ، فلا يبقى أحد على وجه الأرض إلا أصغى ليتاً ، ورفع ليتاً ـ وهى[3] صفحة العنق ـ يتسمع الصوت من قبل السماء . ثم يساق الموجودون من الناس إلى محشر القيامة بالنار ، تحيط بهم من جوانبهم ؛ ولهذا قال: ﴿ فلا يستطيعون توصية ﴾ أى : على ما يملكونه ، الأمر أهم من ذلك ، ﴿ ولا إلى أهلهم يرجعون ﴾ .

وقد وردت هاهنا آثار وأحاديث ذكرناها فى موضع آخر[4] ، ثم تكون [5] بعد هذا نفخة الصعق ، التى تموت بها الأحياء كلهم ما عدا الحى القيوم ، ثم بعد ذلك نفخة البعث .

﴿ ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون (٥١) قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون (٥٢) إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون (٥٣) فاليوم لا تظلم نفس شيئا ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون (٥٤) ﴾ .

هذه هى النفخة الثالثة [6] ، وهى نفخة البعث والنشور للقيام من الأجداث والقبور ؛ ولهذا قال: ﴿ فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون ﴾ ، والنَّسلان هو : المشى السريع ، كما قال تعالى : ﴿ يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون ﴾ [المعارج : ٤٣] .

﴿ قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ﴾ ؟ يعنون : [من] [7] قبورهم التى كانوا يعتقدون فى الدار الدنيا أنهم لا يبعثون منها ، فلما عاينوا ما كذبوه فى محشرهم ﴿ قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ﴾ ، وهذا لا ينفى عذابهم فى قبورهم ؛ لأنه بالنسبة إلى ما بعده فى الشدة كالرقاد .

وقال أُبى بن كعب ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة : ينامون نومة قبل البعث .

قال قتادة : وذلك بين النفختين .

فلذلك يقولون : ﴿ من بعثنا من مرقدنا ﴾ ، فإذا قالوا ذلك أجابهم المؤمنون ـ قاله غير واحد من

---

(١) زيادة من أ . (٢) فى أ : « ما ينظرون » . (٣) فى أ : « وهو » .
(٤) عند تفسير الآية : ٧٣ من سورة الأنعام .
(٥) فى ت ، س ، أ : « ثم يكون » . (٦) فى ت : « الثانية » (٧) زيادة من ت .

السلف ـ : ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُون ﴾.

وقال الحسن : إنما يجيبهم بذلك الملائكة .

ولا منافاة إذ الجمع ممكن ، والله أعلم .

وقال عبد الرحمن بن زيد : الجميع من قول الكفار : ﴿ يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُون ﴾ .

نقله ابن جرير ، واختار الأول ، وهو أصح [(١)] ، وذلك كقوله تعالى فى الصافات : ﴿ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ . هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ [الصافات : ٢٠ ، ٢١] ، وقال [الله][(٢)] تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُون . وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٥٥ ، ٥٦] .

وقوله : ﴿ إِن كَانَتْ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ ، كقوله : ﴿ إِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَة ﴾ [النازعات : ١٣ ، ١٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَب[(٣)] ﴾ [النحل : ٧٧] ، وقال : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلا قَلِيلاً ﴾ [الإسراء : ٥٢] .

أى : إنما نأمرهم أمراً واحداً ، فإذا الجميع محضرون ، ﴿ فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ أى : من عملها ، ﴿ وَلا تُجْزَوْنَ إِلا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُون ﴾ .

﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨) ﴾ .

يخبر تعالى عن أهل الجنة : أنهم يوم القيامة إذا ارتحلوا من العَرَصات فنزلوا فى رَوْضات الجنات: أنهم ﴿ فِي شُغُلٍ [فَاكِهُون ﴾ أى : فى شغل][(٤)] عن غيرهم ، بما هم فيه من النعيم المقيم ، والفوز العظيم .

قال الحسن البصرى : وإسماعيل بن أبى خالد : ﴿ فِي شُغُلٍ ﴾ عما فيه أهل النار من العذاب .

وقال مجاهد : ﴿ فِي شُغُلٍ فَاكِهُون ﴾ أى : فى نعيم معجبون ، أى : به . وكذا قال قتادة .

وقال ابن عباس : ﴿ فَاكِهُون ﴾ : أى فرحون .

وقال عبد الله بن مسعود ، وابن عباس ، وسعيد بن المَسيب ، وعكْرِمة ، والحسن ، وقتادة ، والأعمش ، وسليمان التيمى ، والأوزاعى فى قوله : ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُون ﴾ قالوا : شغلهم افتضاص الأبكار .

---

(١) فى أ : « وهو صحيح » .

(٢) زيادة من أ .

(٣) فى ت : « وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر أو هو أقرب » وهو خطأ .

(٤) زيادة من ت ، أ .

وقال ابن عباس ـ فى رواية عنه [١] ـ : ﴿ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴾ : أى بسماع الأوتار .

وقال أبو حاتم : لعله غلط من المستمع ، وإنما هو افتضاض الأبكار .

وقوله :﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ ﴾ :قال مجاهد :وحلائلهم ﴿ فِي ظِلَالٍ ﴾ أى : فى ظلال الأشجار ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴾ .

قال ابن عباس ، ومجاهد وعكرمة ، ومحمد بن كعب ، والحسن ، وقتادة ، والسُّدِّىّ ، وخُصَيْف [٢] :﴿ الْأَرَائِكِ ﴾ :هى السرر تحت الحجال .

قلت : نظيره فى الدنيا هذه التخوت [٣] تحت البشاخين ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ ﴾ أى : من جميع أنوعها ، ﴿ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴾ أى : مهما طلبوا وجدوا من جميع أصناف الملاذ .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عوف الحمصى ، حدثنا عثمان بن سعيد بن كثير بن دينار ، حدثنا محمد بن مهاجر ، عن الضحاك المَعَافرى ، عن سليمان [٤] بن موسى ، حدثنى كُرَيْب ؛ أنه سمع أسامة بن زيد يقول [٥] : قال رسول الله ﷺ : « ألا هل مُشَمِّر إلى الجنة ؟ فإن الجنة لا خَطَر لها، هى ـ ورب الكعبة ـ نوركلها يتلألأ ، وريحانة تهتز ، وقصر مَشيد ، ونهر مُطَّرِد ، وثمرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة ، وحلل كثيرة ، ومقام فى أبد ، فى دار سلامة ، وفاكهة خضرة وحَبْرَة ونعمة ، ومحلة عالية بَهِيَّة » . قالوا : نعم يا رسول الله ، نحن المشمرون لها . قال : «قولوا: إن شاء الله » . قال القوم : إن شاء الله .

وكذا رواه ابن ماجه فى « كتاب الزهد » من سننه ، من حديث الوليد بن مسلم ، عن محمد بن مُهَاجر ، به [٦].

وقوله :﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ : قال ابن جريج: قال ابن عباس فى قوله : ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ : فإن الله نفسه سلام على أهل الجنة .

وهذا الذى قاله ابن عباس كقوله تعالى : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴾ [الأحزاب : ٤٤] .

وقد روى ابن أبى حاتم هاهنا حديثا فى إسناده نظر ، فإنه قال : حدثنا موسى بن يوسف ، حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبى الشوارب ، حدثنا أبو عاصم العَبَّادانى ، حدثنا الفضل الرَّقاشىّ ، عن محمد بن المُنْكَدِر ، عن جابر بن عبد الله ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « بينا أهل الجنة فى نعيمهم ، إذ سطع لهم نور ، فرفعوا رؤوسهم ، فإذا الرب تعالى قد أشرف عليهم من فوقهم، فقال : السلام عليكم يا أهل الجنة . فذلك قوله : ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ » . قال : «فينظر إليهم وينظرون إليه ، فلا يلتفتون إلى شىء من النعيم ما داموا ينظرون إليه ، حتى يحتجب عنهم ، ويبقى نوره وبركته عليهم وفى ديارهم » .

---

(١) فى ت : « وفى رواية عن ابن عباس » . (٢) فى ت : « ومحمد بن كعب وغيرهم » .

(٣) فى أ : « النحوت » . (٤) فى أ : « سليم » . (٥) فى ت : « روى ابن أبى حاتم عن أسامة بن زيد قال » .

(٦) سنن ابن ماجة برقم (٤٣٣٢) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ٣٢٥) : « هذا إسناد فيه مقال ، الضحاك المعافرى ذكره ابن حبان فى الثقات ، وقال الذهبى فى طبقات التهذيب : مجهول وسليمان الأموى مختلف فيه وباقى رجال الإسناد ثقات » .

ورواه ابن ماجه فى « كتاب السنة » من سننه [١] ، عن محمد بن عبد الملك بن أبى الشوارب[٢]، به .

وقال[٣] ابن جرير : حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، أخبرنا ابن وهب ، حدثنا حَرْمَلَة ، عن سليمان بن حُمَيد قال : سمعت محمد بن كعب القُرَظى يحدّث عن عمر بن عبد العزيز قال : إذا فرغ اللّه من أهل الجنة والنار ، أقبل فى ظُلَل من الغمام والملائكة ، قال : فيسلم على أهل الجنة ، فيردون عليه السلام ـ قال القرظى : وهذا فى كتاب اللّه ﴿سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ ـ فيقول : سلونى. فيقولون : ماذا نسألك أىْ ربّ ؟ قال : بلى سلونى . قالوا : نسألك ـ أىْ رب ـ رضاك . قال: رضائى أحلكم دار كرامتى . قالوا : يا رب ، فما الذى نسألك ، فوعزتك وجلالك وارتفاع مكانك ، لو قسمت علينا رزق الثقلين لأطعمناهم ولأسقيناهم ولألبسناهم ولأخدمناهم ، لا ينقصنا ذلك شيئاً . قال : إن لدىّ مزيداً . قال : فيفعل ذلك بهم فى درجهم ، حتى يستوى فى مجلسه . قال : ثم تأتيهم التحف من اللّه ، عز وجل ، تحملها إليهم الملائكة . ثم ذكر نحوه .

وهذا أثر غريب ، أورده ابن جرير من طرق [٤].

﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩) أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عما يؤول إليه حال الكفار يوم القيامة من أمره لهم أن يمتازوا ، بمعنى [٥] : يتميزون عن المؤمنين في موقفهم ، كقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ [يونس : ٢٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ [الروم :١٤] ، ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ [الروم : ٤٣] أى : يصيرون صدْعَين فرقتين ، ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ . مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ [الصافات:٢٢، ٢٣] .

وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ : هذا تقريع من اللّه للكفرة من بنى آدم ، الذين أطاعوا الشيطان وهو عدو لهم مبين ، وعصوا الرحمن وهو الذى خلقهم ورزقهم ؛ولهذا قال: ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أى : قد أمرتكم فى دار الدنيا بعصيان الشيطان ، وأمرتكم بعبادتى ، وهذا هو الصراط المستقيم ، فسلكتم غير ذلك واتبعتم الشيطان فيما أمركم به ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيرًا ﴾ ، يقال : «جِبلا» بكسر الجيم ، وتشديد اللام. ويقال : « جُبُلاً » بضم الجيم والباء ، وتخفيف اللام . ومنهم من يسكن الباء . والمراد

---

(١) فى ت : « رواه ابن ماجة فى سننه » .

(٢) سنن ابن ماجة برقم (١٨٤) وقال البوصيرى فى الزوائد (١/ ٨٦) : « هذا إسناد ضعيف لضعف الفضل بن عيسى بن أبان القرشى ».

(٣) فى ت : « وروى » .

(٤) تفسير الطبرى (٢٣/ ١٥) .

(٥) فى ت : « يعنى » .

بذلك : الخلق الكثير ، قاله مجاهد ، والسُّدِّيّ ، وقتادة ، وسفيان بن عيينة .

وقوله : ﴿ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ ؟ أى : أفما (١) كان لكم عقل فى مخالفة ربكم فيما أمركم به من عبادته (٢) وحده لا شريك له ، وعُدُولكم إلى اتباع الشيطان ؟!

قال ابن جرير : حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربى ، عن إسماعيل بن رافع ، عمن حدثه عن محمد بن كعب القرظى (٣) ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « إذا كان يوم القيامة أمر الله جهنم فيخرج منها عنُق ساطع مظلم ، يقول (٤) : ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ . وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ . وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ . هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ امتازوا اليوم أيها المجرمون . فيتميز الناس ويجثون ، وهى التى يقول الله تعالى : ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ » (٥) [الجاثية : ٢٨] .

﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤) الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥) وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ (٦٦) وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلا يَرْجِعُونَ (٦٧) ﴾ .

يقال للكفرة من بنى آدم يوم القيامة ، وقد برزَت الجحيم لهم تقريعاً وتوبيخاً: ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ أى: هذه التى حذرتكم الرسل فكذبتموهم ، ﴿ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا . هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ. أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لا تُبْصِرُونَ ﴾[الطور : ١٣ ـ ١٥] .

وقوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ : هذا حال الكفار والمنافقين يوم القيامة ، حين ينكرون ما اجترموه فى الدنيا ، ويحلفون ما فعلوه ، فيختم الله على أفواههم ، ويستنطق جوارحهم بما عملت .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو شيبة إبراهيم بن عبد الله بن أبى شيبة ، حدثنا مِنْجاب بن الحارث التميمى ، حدثنا أبو عامر الأسدى ، حدثنا سفيان ، عن عبيد المُكتب ، عن الفُضَيل بن عمرو ، عن الشعبى (٦) ، عن أنس بن مالك قال : كنا عند النبى ﷺ ، فضحك حتى بدت نواجذه ، ثم قال : «أتدرون مم أضحك ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : « من مجادلة العبد ربه يوم القيامة ، يقول: رب (٧) ألم تجرنى من الظلم ؟ فيقول : بلى . فيقول : لا أجيز على إلا شاهداً من نفسى .

---

(١) فى ت ، س : « أما » .
(٢) فى ت ، س : « عبادة الله » .
(٣) فى ت : « وروى ابن جرير بإسناده » .
(٤) فى ت ، س ، أ : « ثم يقول » .
(٥) تفسير الطبرى (٢٣/١٦) .
(٦) فى ت : « روى النسائى ومسلم » .
(٧) فى ت ، س : « يا رب » .

فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك حَسيباً ، وبالكرام الكاتبين (١) شهودا . فيختم علي فيه ، ويُقال لأركانه : انطقى . فتنطق بعمله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام ، فيقول : بُعداً لكن وسُحقاً ، فعنكنّ كنتُ أناضل» .

وقد رواه مسلم والنسائى ، كلاهما عن أبى بكر بن أبى النضر ، عن أبى النضر ، عن عُبيد اللّه ابن عبد الرحمن الأشجعى ، عن سفيان ـ هو الثورى ـ به (٢) . ثم قال النسائى : [لا أعلم (٣) أحداً روى هذا الحديث عن سفيان غير الأشجعى ، وهو حديث غريب ، واللّه تعالى أعلم .

كذا قال،وقد تقدم من رواية أبى عامر عبد الملك بن عمرو الأسدى ـ وهو العَقَدِىّ ـ عن سفيان .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا مَعْمَر ، عن بَهز(٤) بن حكيم ، عن أبيه ، عن جده ، عن النبى ﷺ قال : « إنكم تُدعَون مُفَدَّمة (٥) أفواهكم بالفِدَام ، فأول ما يسأل عن أحدكم فخذه وكتفه » . رواه النسائى] (٦) عن محمد بن رافع ، عن عبد الرَزاق ، به (٧) .

وقال سفيان بن عيينة ، عن سُهيَل ، عن أبيه ، عن أبى هريرة ، رضى اللّه عنه ، عن رسول اللّهﷺ فى حديث القيامة الطويل ، قال فيه : « ثم يلقى (٨) الثالث فيقول : ما أنت ؟ فيقول : أنا عبدك ، آمنت بك وبنبيك وبكتابك ، وصمت وصليت وتصدقت ـ ويثنى بخير ما استطاع ـ قال : فيقال له : ألا نبعث عليك شاهدنا (٩) ؟ قال : فيفكر فى نفسه ، من الذى يشهد عليه ، فيختَم على فيه ، ويقال لفخذه : انطقى . فتنطق (١٠) فخذه ولحمه وعظامه بما كان يعمل ، وذلك المنافق ، وذلك ليعذر من نفسه . وذلك الذى سخط اللّه عليه » .

ورواه مسلم وأبو داود ، من حديث سفيان بن عيينة ، به بطوله(١١) .

ثم قال ابن أبي حاتم ، رحمه اللّه : حدثنا أبى ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، حدثنا ضَمْضَم بن زُرْعَة عن شُرَيْح بن عبيد(١٢) ، عن عقبة بن عامر ؛ أنه سمع رسول اللّه ﷺ يقول :«إن أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يُختَم على الأفواه ، فَخذُه من الرجل اليسرى (١٣)».

ورواه ابن جرير عن محمد بن عوف ، عن عبد اللّه بن المبارك ، عن إسماعيل بن عياش ، به مثله (١٤) .

وقد جَوَّد إسناده الإمام أحمد ، رحمه اللّه ، فقال : حدثنا الحكم بن نافع ، حدثنا إسماعيل بن عَيَّاش ، عن ضَمضَم بن زُرْعَةَ ، عن شُرَيح بن عُبَيد الحَضْرَمى ، عمن حَدَّثه عن عقبة بن عامر ؛ أنه

(١) فى ت : « الكاتبين عليك » .
(٢) صحيح مسلم برقم (٢٩٦٩) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٦٥٣) .
(٣) فى س : « ما أعلم » . (٤) فى ت ، س : « يزيد » ، وفى أ : « زيد » . (٥) فى س : «مفدما » .
(٦) زيادة من ت ، س ، والسنن الكبرى .
(٧) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٦٩) .
(٨) فى ت : « يأتى » . (٩) فى ت ، أ : « شاهداً » . (١٠) فى ت ، س : « قال فتنطق » .
(١١) صحيح مسلم برقم (٢٩٦٨) وسنن أبى داود برقم (٤٧٣٠) .
(١٢) فى ت : « وروى الإمام أحمد » . (١٣) فى ت : « الشمال » .
(١٤) تفسير الطبرى (١٧/٢٣) .

سمع رسول اللّه ﷺ يقول : « إن أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يُختَم على الأفواه ، فَخذه من الرجل الشمال »[١] .

وقال ابن جرير : حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن عُلَيَّة ، حدثنا يونس بن عُبَيد ، عن حُميد ابن هلال قال : قال أبو بردة : قال أبو موسى [٢] ــ هو الأشعرى ، رضى اللّه عنه ــ : يدعى المؤمن للحساب يوم القيامة ، فَيَعرضُ عليه[٣] ربه عمله فيما بينه وبينه ، فيعترف [٤] فيقول : نعم أىْ رب ، عملتُ عملتُ عملت . قال :فيغفر اللّه له ذنوبه ، ويستره منها . قال:فما على الأرض خلَيقة ترى [٥] من تلك الذنوب شيئاً ، وتبدو حسناته ،فَوَدَّ أن الناس كلهم يرونها ،ويدعى الكافر والمنافق للحساب، فيعرض ربه عليه عمله ، فيجحد فيقول : أى رب ، وعزتك لقد كتب على هذا الملك ما لم أعمل . فيقول له الملك : أما عملت كذا ، فى يوم كذا ، فى مكان كذا ؟ فيقول : لا ، وعزتك أىْ رب ما عملتُه . فإذا فعل ذلك خُتم على فيه . قال أبو موسى الأشعرى : فإنى أحسب أول ما ينطق منه الفخذ [٦] اليمنى ، ثم تلا : ﴿ **الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ [٧] .

وقوله : ﴿ **وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ** ﴾ : قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى تفسيرها : يقول : ولو نشاء لأضللناهم عن الهدى ، فكيف يهتدون ؟ وقال مرة[٨]: أعميناهم .

وقال الحسن البصرى : لو شاء اللّه لطمس على أعينهم ، فجعلهم عُمياً يترددون .

وقال السدى : لو شِئْنا أعمينا أبصارهم .

قال مجاهد ، وأبو صالح ، وقتادة ، والسدى : ﴿ **فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ** ﴾ يعنى : الطريق .

وقال ابن زيد : يعنى بالصراط هاهنا : الحق ، ﴿ **فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ** ﴾ وقد طمسنا على أعينهم ؟

وقال العَوفى ، عن ابن عباس : ﴿ **فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ** ﴾ [يقول] [٩]: لا يبصرون الحق .

وقوله : ﴿ **وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ** ﴾ : قال العوفى عن ابن عباس : أهلكناهم .

وقال السدى : يعنى : لغيرنا خَلْقهم .

وقال أبو صالح : لجعلناهم حجارة .

وقال الحسن البصرى ، وقتادة : لأقعدهم على أرجلهم .

ولهذا قال تعالى : ﴿ **فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا** ﴾ أى : إلى أمام ، ﴿ **وَلَا يَرْجِعُونَ** ﴾ أى : إلى وراء ، بل يلزمون حالا واحداً ، لا يتقدمون ولا يتأخرون .

---

(١) المسند (٤/ ١٥١) وقال الهيثمى فى المجمع (١/ ٣٥١) :« إسناده جيد » .
(٢) فى ت : « وروى ابن جرير بإسناده عن أبى موسى » .
(٣) فى ت ، أ : « على » .
(٤) فى ت : « فيعرف » .
(٥) فى ت : « يرى » .
(٦) فى ت ، س : « لفخذه » .
(٧) تفسير الطبرى (٢٣/ ١٧) .
(٨) فى أ : « غيره » .
(٩) زيادة من أ .

﴿ **وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلا يَعْقِلُونَ (٦٨) وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ (٦٩) لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧٠)** ﴾ .

يخبر تعالى عن ابن (١) آدم أنه كلما طال عمره رُدّ إلى الضعف بعد القوة والعجز بعد النشاط ، كما قال تعالى : ﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ** ﴾ [الروم : ٥٤] . وقال : ﴿ **وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا** ﴾ [الحج : ٥] .

والمراد من هذا ـ والله أعلم ـ الإخبارُ عن هذه الدار بأنها دار زوال وانتقال ، لا دار دوام واستقرار ؛ ولهذا قال : ﴿ **أَفَلا يَعْقِلُونَ** ﴾ أى : يتفكرون بعقولهم فى ابتداء خلقهم ثم صيرورتهم إلى [نفس](٢) الشَّبِيبَة ، ثم إلى الشيخوخة ؛ ليعلموا أنهم خُلقوا لدار أخرى ، لا زوال لها ولا انتقال منها ، ولا محيد عنها ، وهى الدار الآخرة .

وقوله : ﴿ **وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ** ﴾ : يقول تعالى مخبراً عن نبيه محمد ﷺ (٣) : أنه ما علمه الشعر ، ﴿ **وَمَا يَنبَغِي لَهُ** ﴾ أى : وما هو فى طبعه ، فلا يحسنه ولا يحبه ، ولا تقتضيه جبلَّته؛ ولهذا ورَدَ أنه ، عليه الصلاة والسلام، كان لا يحفظ بيتاً على وزن منتظم ، بل إن أنشده زَحَّفه أَو لم يتمه .

وقال أبو زُرْعة الرازى : حُدِّثت عن إسماعيل بن مجالد ، عن أبيه ، عن الشعبى أنه قال : ما ولد عبد المطلب ذكراً ولا أنثى إلا يقول الشعر ، إلا رسول الله ﷺ . ذكره ابن عساكر فى ترجمة «عتبة بن أبى لهب » الذى أكله السَّبُع بالزرقاء (٤) .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو سلمة ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن على بن زيد ، عن الحسن (٥) ـ هو البصرى ـ قال : إن رسول الله ﷺ كان يتمثل بهذا البيت :

كَفى بالإسْلاَم والشيْب للمرْء نَاهياً

فقال أبو بكر : يا رسول الله :

كفى الشيب والإسلام للمرء ناهياً

قال أبو بكر ،أو عمر :أشهد أنك رسول الله ، يقول الله:﴿ **وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ** ﴾ (٦).

وهكذا روى البيهقى فى الدلائل : أن رسول الله ﷺ قال : للعباس بن مرداس السلمى : « أنت القائل : أتجعل نَهبى ونَهْب العُبَيد بينَ الأقرع وعيينة » .

فقال : إنما هو : « بين عيينة والأقرع » فقال : « الكل سواء » (٧) .

---

(١) فى أ : « بنى » . (٢) زيادة من أ . (٣) فى أ : « صلوات الله وسلامه عليه » .

(٤) لم أجد ترجمته فيما بين يدى من تاريخ دمشق ، ولا فى المختصر لابن منظور .

(٥) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بإسناده عن الحسن » .

(٦) ورواه ابن سعد فى الطبقات (١ / ٣٨٢) من طريق عارم عن حماد بن زيد عن على بن زيد عن الحسن به مرسلاً .

(٧) دلائل النبوة للبيهقى (٥/ ١٨١) .

يعنى : فى المعنى ، صلوات اللّه وسلامه عليه .

وقد ذكر السهيلى فى « الروض الأنف » لهذا التقديم والتأخير الذى وقع فى كلامه ، عليه السلام، فى هذا البيت مناسبة أغرب فيها ، حاصلها شَرَفُ الأقرع بن حابس على عُيَيْنَةَ بن بَدْر الفزارى؛ لأنه ارتد أيام الصديق ، بخلاف ذاك ، واللّه أعلم .

وهكذا روى الأموى فى مغازيه : أن رسول اللّه ﷺ جعل يمشى بين القتلى يوم بدر ، وهو يقول: « نُفلق هَاماً .... ».

فيقول الصديق ، رضىَ الله عنه ، متمماً للبيت :

...... مِنْ رجَال أعزَّةٍ عَلَينَا وهُمْ كَانُوا أعَقَّ وأظلما

وهذا لبعض شعراء العرب فى قصيدة له ، وهى فى الحماسة (١).

وقال الإمام أحمد : حدثنا هُشَيْم ، حدثنا مغيرة ، عن(٢) الشعبى ، عن عائشة ، رضى اللّه عنها، قالت : كان رسول اللّه إذا استراث الخبر ، تمثل فيه بيت طَرَفَةَ :

وَيَأتيك بالأخْبار مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

وهكذا رواه النسائى فى « اليوم والليلة » من طريق إبراهيم بن مهاجر ، عن الشعبى (٣) ، عنها . ورواه الترمذى والنسائى أيضاً من حديث المقدام بن شُرَيْح بن هانئ ، عن أبيه ، عن عائشة ، رضى اللّه عنها ، كذلك . ثم قال (٤) الترمذى : هذا حديث حسن صحيح (٥) .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا يوسف بن موسى ، حدثنا أسامة ، عن زائدة ، عن سِمَاك ، عن عِكْرِمة ، عن ابن عباس قال : كان رسول اللّهّ ﷺ يتمثل من الأشعار :

وَيَأتيكَ بالأخْبَار مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

ثم قال :رواه (٦) غير زائدة ، عن سِمَاك ، عن عكرمة ، عن عائشة (٧) .

وهذا فى شعر طرفة بن العبد ،فى معلقته المشهورة ،وهذا المذكور [هو عجز بيت] (٨) منها،أوله:

سَتُبْدى لكَ الأيامُ مَا كُنْتَ جَاهلا وَيَأتـيك بالأخْبَار مـنْ لَمْ تـُزَوِّدِ

وَيَأتيكَ بالأخـبَار مَنْ لَمْ تَبـع لـهُ بَتَاتا ولم تَضـرب له وَقْت مَوْعد(٩)

وقال الحافظ أبو بكر البيهقى : أخبرنا أبو عبد اللّه الحافظ ، حدثنا أبو حفص عمر بن أحمد بن

---

(١) الحماسة لأبى تمام (١/١٠٧) .

(٢) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده إلى » .

(٣) المسند (٦/ ٣١) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٨٣٤) .

(٤) فى ت : « وقال » .

(٥) سنن الترمذى برقم (٢٨٤٨) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٨٣٥) وقال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح » .

(٦) فى س : « ورواه » .

(٧) رواه ابن سعد فى الطبقات (١/ ٣٨٣) من طريق الوليد بن أبى ثور عن سماك عن عكرمة قال : سئلت عائشة فذكره نحوه .

(٨) زيادة من أ .

(٩) انظر ديوان طَرَفَةَ بن العبد ص (٦٦) .

نعيم ـ وكيل المتّقى ببغداد ـ حدثنا أبو محمد عبد الله بن هلال النحوى الضرير ، حدثنا على بن عمرو الأنصارى ، حدثنا سفيان بن عيينة (١) ، عن الزهرى ، عن عروة ، عن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : ما جمع رسول الله ﷺ بيت شعر قط ، إلا بيتاً واحدا (٢) .

تَفَاءلْ بما تَهْوَى يكُنْ فَلَقَلَّمَا   يُقَالُ لشىء كَانَ إلا تَحقَّقَا (٣)

سألت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزّى عن هذا الحديث ، فقال : هو منكر . ولم يعرف شيخ الحاكم ، ولا الضرير .

وقال سعيد بن أبى عَرُوبة عن قتادة : قيل لعائشة : هل كان رسول الله ﷺ يتمثل بشىء من الشعر ؟ قالت: كان أبغضَ الحديث إليه ، غير أنه كان يتمثل ببيت أخى بنى قيس ، فيجعل أوله آخره، وآخره أوله . فقال أبو بكر ليس هكذا . فقال رسول الله ﷺ : « إنى والله ما أنا بشاعر ولا ينبغى لى » . رواه ابن أبى حاتم وابن جرير ، وهذا لفظه (٤) .

وقال معمر عن قتادة : بلغنى أن عائشة سُئلت :هل كان رسول الله ﷺ يتمثل بشىء من الشعر ؟ فقالت : لا ، إلا بيت طَرَفَةَ :

سَتُبْدى لكَ الأيامُ مَا كُنْتَ جَاهلا   ويَأتيكَ بالأخبَار مَنْ لم تُزَوّدِ

فجعل يقول : « من لم تُزَوّد بالأخبار » . فقال أبو بكر : ليس هذا هكذا . فقال : « إنى لست بشاعر ، ولا ينبغى لى » (٥) .

وثبت فى الصحيحين أنه ، عليه الصلاة والسلام ، تمثل يوم حفر الخندق بأبيات عبد الله بن رواحة ، ولكن تبعاً لقول أصحابه ، فإنهم كانوا يرتجزون وهم يحفرون ، فيقولون :

لاهـمّ لولا أنت (٦) مَا اهْتَدينَا   ولاَ تَصـدَّقْنَا ولاَ صَلَّيناَ
فـأنْـزلَنْ سكينَة عـلَيْـنَـا   وثَبّـت الأقْدَام إنْ لاقـينَا
إنّ الأُلـى قـدْ بـغـوا عـلَـينـا   إذا أرادُوا فـتـنَـة أبـينَـا

ويرفع صوته بقوله : « أبينا » ويمدها(٧) . وقد روى هذا بزحاف فى الصحيح أيضاً . وكذلك ثبت أنه قال يوم حنين وهو راكب البغلة ، يُقدم بها فى نحور العدو :

أنا النبىّ لا كَذبْ   أنا ابنُ عَبْد المُطَّلبْ (٨)

لكن قالوا :هذا وقع اتفاقاً من غير قصد لوزن شعر ، بل جرى على اللسان من غير قصد إليه .

وكذلك ما ثبت فى الصحيحين عن جُنْدَب بن عبد الله قال : كنا مع رسول الله ﷺ فى غار

---

(١) فى س : « حاشية بخط جمال الدين المزى هذا موضوع على ابن عيينة » .   (٢) فى أ : « واحدا فقال » .
(٣) السنن الكبرى للبيهقى (٤٣/٧) وقال : « لم أكتبه إلا بهذا الإسناد ، وفيهم من يجهل حاله » .
(٤) تفسير الطبرى (١٩/٢٣) .
(٥) رواه عبد الرزاق فى تفسيره (١١٧/٢) عن معمر عن قتادة ، به .
(٦) فى ت : « لولا الله » .
(٧) صحيح البخارى برقم (٧٢٣٦) وصحيح مسلم برقم (١٨٠٣) من حديث البراء بن عازب ، رضى الله عنه .
(٨) صحيح البخارى برقم (٢٨٦٤) وصحيح مسلم برقم (١٧٧٦) .

فَنَكِبت أصبعه ، فقال :

هَلْ أنْت إلا إصْبَع دَميت　　وفى سبَيل اللّه مَا لَقيت[١]

وسيأتى عند قوله تعالى : ﴿ إلا اللَّمَمَ ﴾ [النجم : ٣٢] إنشاد[٢]

إنْ تَغْفر اللّهُمَ تَغْفرْ جَماً　　وأى عَبْد لكَ مَا ألَمَّا

وكل هذا لا ينافى كونه ﷺ ما عُلّم شعراً ولا ينبغى له ؛ فإن اللّه تعالى إنما علمه القرآن العظيم، ﴿ الذى لا يأْتيه الْبَاطلُ منْ بَيْنِ يَدَيْه وَلا منْ خَلْفه تنزيلٌ مّنْ حَكيمٍ حَميد ﴾ [فصلت : ٤٢] . وليس هو[٣] بشعر كما زعمه طائفة من جهلة كفار قريش ، ولا كهانة ، ولا مفتعل ، ولا سحر يُؤثر ، كما تنوعت فيه أقوال الضُلاَّل[٤] وآراء الجُهَّال . وقد كانت سجيته ﷺ تأبى صناعة الشعر طبعاً وشرعاً ، كما رواه أبو داود قال :

حدثنا عبيد اللّه بن عُمَر ، حدثنا عبد اللّه بن يزيد ، حدثنا سعيد بن أبى أيوب ، حدثنا شرحبيل ابن يزيد المَعَافرى ، عن عبد الرحمن[٥] بن رافع التَّنُوخى قال : سمعت عبد اللّه بن عمرو يقول[٦] : [سمعت رسول اللّه ﷺ يقول] [٧] : « ما أبالى ما أوتيت إن أنا شَرِبت ترياقا ، أو تعلقت تميمة ، أو قلت الشعر من قبل نفسى » . تفرد به أبو داود [٨] .

وقال [٩] الإمام أحمد ، رحمه اللّه : حدثنا عبد الرحمن بن مهدى ، عن الأسود بن شيبان ، عن أبى نوفل قال : سألتُ عائشة : أكان رسول اللّه ﷺ يتسامع عنده الشعر ؟ فقالت : كان أبغض الحديث إليه . وقال عن عائشة : كان رسول اللّه ﷺ يعجبه الجوامع من الدعاء ، ويدع ما بين ذلك[١٠] .

وقال أبو داود : حدثنا أبو الوليد الطيالسى ، حدثنا شعبة ، عن الأعمش ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة ، رضى اللّه عنه ، عن النبى ﷺ : « لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً ، خير له من أن يمتلئ شعراً » . تفرد به من هذا الوجه ، وإسناده على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه [١١] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا بريد ، حدثنا قَزَعَةُ بن سُوَيْد الباهلى ، عن عاصم بن مَخْلَد ، عن أبى الأشعث الصنعانى (ح) وحدثنا الأشيب فقال : عن ابن عاصم ، عن [أبى] [١٢] الأشعث[١٣] ، عن شَدّاد بن أوس قال : قال رسول اللّه ﷺ : « من قرض بيت شعر بعد العشاء الآخرة ، لم تقبل له[١٤] صلاة تلك الليلة» [١٥] .

---

(١) صحيح البخارى برقم (٢٨٠٢) وصحيح مسلم برقم (١٧٩٦) .
(٢) فى أ : « إنشاده » .　(٣) فى أ : « هذا » .　(٤) فى ت : « أقوال أهل الضلال ».
(٥) فى أ : « عبد اللّه » .　(٦) فى ت : « كما رواه أبو داود عن عبد اللّه بن عمرو قال » .
(٧) زيادة من ت ، س ، وأبى داود .
(٨) سنن أبى داود برقم (٣٨٦٩) .
(٩) فى ت : « وروى » .
(١٠) المسند (١٤٨/٦) .
(١١) سنن أبى داود برقم (٥٠٠٩).
(١٢) زيادة من ت ، س ، والمسند .　(١٣) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده ».　(١٤) فى ت : « لم يقبل اللّه له».
(١٥) المسند (١٢٥/٤) .

وهذا حديث غريب من هذا الوجه ، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة . والمراد بذلك نظمه لا إنشاده ، والله أعلم . على أن الشعر فيه ما هو مشروع ، وهو هجاء المشركين الذى كان يتعاطاه شعراء الإسلام ، كحسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رَوَاحة ، وأمثالهم وأضرابهم ، رضى الله عنهم أجمعين . ومنه ما فيه حكم ومواعظ وآداب ، كما يوجد فى شعر جماعة من الجاهلية ، ومنهم أمية بن أبى الصلت الذى قال فيه النبى ﷺ : « آمن شعره وكفر قلبه»[١] . وقد أنشد بعض الصحابة منه للنبى ﷺ مائة بيت ، يقول عقب كل بيت : « هيه » . يعنى يستطعمه ، فيزيده من ذلك [٢] .

وقد روى أبو داود من حديث أُبى بن كعب ، وبُريدة بن الحُصَيب[٣] ، وعبد الله بن عباس ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن من البيان سحراً ، وإن من الشعر حكما » [٤] .

ولهذا قال تعالى : ﴿ **وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ** ﴾ يعنى : محمداً ﷺ ما علمه الله شعراً ، ﴿ **وَمَا يَنْبَغِي لَهُ** ﴾ أى : وما يصلح له ، ﴿ **إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ** ﴾ أى : ما هذا الذى علمناه ، ﴿ **إِلا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ** ﴾ أى: بين واضح جلى لمن تأمله وتدبره . ولهذا قال : ﴿ **لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا** ﴾ أى: لينذر هذا القرآن البيّن كلّ حى على وجه الأرض ، كقوله : ﴿ **لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ** ﴾ [الأنعام:١٩]، وقال: ﴿ **وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ** ﴾ [هود : ١٧] . وإنما ينتفع بنذارته من هو حَىّ القلب ، مستنير البصيرة ، كما قال قتادة :حى القلب ، حى البصر . وقال الضحاك : يعنىّ : عاقلا ، ﴿ **وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴾ أى : هو رحمة للمؤمن ، وحجة على الكافر .

﴿ **أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ (٧٣)** ﴾ .

يذكر تعالى ما أنعم به على خلقه من هذه الأنعام التى سخرها لهم ، ﴿ **فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ** ﴾ . قال قتادة : مطيقون [٥] أى : جعلهم يقهرونها [٦] وهى ذليلة لهم ، لا تمتنع منهم ، بل لو جاء صغير إلى بعير لأناخه ، ولو شاء لأقامه وساقه ، وذاك ذليل منقاد معه . وكذا لو كان القطَارُ مائة بعير أو أكثر ، لسار الجميع بسير صغير .

وقوله : ﴿ **فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ** ﴾ أى : منها ما يركبون فى الأسفار ، ويحملون عليه الأثقال ، إلى سائر الجهات والأقطار . ﴿ **وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ** ﴾ إذا شاؤوا نحروا واجتزروا ، ﴿ **وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ** ﴾ أى : من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين ، ﴿ **وَمَشَارِبُ** ﴾ أى : من ألبانها وأبوالها لمن يتداوى ، ونحو ذلك . ﴿ **أَفَلا يَشْكُرُونَ** ﴾ ؟ أى : أفلا يُوحّدُون خالق ذلك ومسخره ، ولا يشركون به غيره ؟

---

(١) رواه ابن عبد البر فى التمهيد (٧/٤) من طريق أبى بكر الهذلى عن عكرمة عن ابن عباس ، رضى الله عنه .

(٢) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٢٥٥) من حديث الشريد ، رضى الله عنه .

(٣) فى أ : « الخصيف » .

(٤) سنن أبى داود برقم (٥٠١٠ ـ ٥٠١٢) .

(٥) فى أ : « مطيعون » .

(٦) فى أ : « يرونها » .

﴿ وَاتَّخَذُوا من دُونِ اللَّه آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ (٧٤) لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ (٧٥) فَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٦) ﴾ .

يقول تعالى منكراً على المشركين فى اتخاذهم الأنداد آلهة مع اللّه ، يبتغون بذلك أن تنصرهم تلك الآلهة وترزقهم وتقربهم إلى اللّه زلفى . قال اللّه تعالى : ﴿ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾ أى : لا تقدر الآلهة على نصر [١] عابديها ، بل هى أضعف من ذلك وأقل وأذل وأحقر وأدخر ، بل لا تقدر على الانتصار لأنفسها ، ولا الانتقام ممن أرادها بسوء ؛ لأنها جماد لا تسمع ولا تعقل .

وقوله : ﴿ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ : قال مجاهد : يعنى : عند الحساب ، يريد أن هذه الأصنام محشورة مجموعة يوم القيامة ، محضرة عند حساب عابديها ؛ ليكون ذلك أبلغ فى خِزْيهم ، وأدل عليهم فى إقامة الحجة عليهم .

وقال قتادة : ﴿ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾ يعنى : الآلهة ، ﴿ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ ، والمشركون يغضبون للآلهة فى الدنيا وهى لا تسوق إليهم خيراً ، ولا تدفع عنهم سوءاً ، إنما هى أصنام .

وهكذا قال الحسن البصرى . وهذا القول حسن ، وهو اختيار ابن جرير ، رحمه اللّه .

وقوله : ﴿ فَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ أى : تكذيبهم لك [٢] وكفرهم باللّه ، ﴿ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أى : نحن نعلم جميع ما هم عليه ، وسنجزيهم وصْفَهم ونعاملهم [٣] على ذلك ، يوم لا يفقدون من أعمالهم جليلا ولا حقيراً ، ولا صغيراً ولا كبيراً ، بل يعرض عليهم جميع ما كانوا يعملون قديماً وحديثاً .

﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) ﴾ .

قال مجاهد ، وعكرِمة ، وعروة بن الزبير ، والسُّدِّى . وقتادة : جاء أُبى بن خلف [لعنه اللّه][٤] إلى رسول اللّه ﷺ وفى يده عظم رميم وهو يُفَتِّتُه ويذريه [٥] فى الهواء ، وهو يقول : يا محمد ، أتزعم أن اللّه يبعث هذا ؟ فقال : « نعم ، يميتك اللّه ثم يبعثك ، ثم يحشرك إلى النار » . ونزلت هذه الآيات من آخر « يس » : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ ، إلى آخرهن .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين بن الجنيد ، حدثنا محمد بن العلاء ، حدثنا عثمان ابن سعيد الزيات ، عن هُشَيْم ، عن أبى بشر ، عن سعيد بن جُبير [٦] ، عن ابن عباس ، أن العاصى[٧] بن وائل أخذ عظماً من البطحاء ففتَّه بيده ، ثم قال لرسول اللّه ﷺ : أيحيى اللّه تعالى هذا بعد ما أرى ؟ [٨] فقال رسول اللّه ﷺ : « نعم ، يميتك اللّه ثم يحييك ، ثم يدخلك جهنم » . قال:

---

(١) فى أ : « نصرة » . (٢) فى أ : « ذلك » . (٣) فى أ : « ونقابلهم » .
(٤) زيادة من س ، أ . (٥) فى أ : « ويذروه » .
(٦) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بسنده » . (٧) فى ت ، س ، أ : « العاص » . (٨) فى أ : « أرم » .

ونزلت الآيات من آخر « يس » .

ورواه ابن جرير عن يعقوب بن إبراهيم ، عن هُشَيم ، عن أبى بشر ، عن سعيد بن جبير ، فذكره ولم يذكر « ابن عباس » (١) .

وروى من طريق العَوفى ، عن ابن عباس قال : جاء عبد الله بن أُبى بعظم ففته وذكر نحو ما تقدم .

وهذا منكر ؛ لأن السورة مكية ، وعبد الله بن أبى بن سلول إنما كان بالمدينة . وعلى كل تقدير سواء كانت هذه الآيات نزلت فى أبى بن خلف ، أو [فى] (٢) العاص [بن وائل] (٣) ، أو فيهما ، فهى عامة فى كل من أنكر البعث . والألف واللام فى قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ ﴾ للجنس ، يعم كل (٤) منكر للبعث .

﴿ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ أى :أو لم يستدل من أنكر البعث بالبدء على الإعادة، فإن الله ابتدأ خلق الإنسان من سلالة من ماء مهين ، فخلقه من شىء حقير ضعيف مهين ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ .فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ. إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [المرسلات : ٢٠ـ ٢٢] ، وقال : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ ﴾ [الإنسان : ٢] أى : من نطفة من أخلاط متفرقة، فالذى خلقه من هذه النطفة الضعيفة أليس بقادر على إعادته بعد موته ؟ كما قال (٥) الإمام أحمد فى مسنده :

حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا حَريز ، حدثنى عبد الرحمن بن مَيْسَرة ، عن جُبَيْر بن نفير ، عن بُسْر ابن جَحَّاش ؛ أن رسول الله ﷺ بَصق يوماً فى كفه ، فوضع عليها أصبعه ، ثم قال : « قال الله تعالى : ابن آدم ، أنَّى تُعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه ، حتى إذا سوّيتك وعدَلتك ، مشيت بين بردَيك وللأرض منك وئيد ، فجمعت ومنعت ، حتى إذا بَلَغَت التراقى قلت : أتصدق وأنّى أوان الصدقة ؟ » .

ورواه ابن ماجه عن أبى بكر بن أبى شيبة ، عن يزيد بن هارون ، عن حَريز بن عثمان ، به (٦) .

ولهذا قال : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ ؟ أى : استبعد إعادة الله تعالى ـ ذى القدرة العظيمة التى خلقت (٧) السموات والأرض ـ للأجساد والعظام الرميمة ، ونسى نفسه ، وأن الله خلقه من العدم ، فعلم من نفسه ما هو أعظم مما استبعده وأنكره وجحده ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ أى : يعلم العظام فى سائر أقطار الأرض وأرجائها ، أين ذهبت ، وأين تفرقت وتمزقت .

قال (٨) الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا أبو عَوَانة ، عن عبد الملك بن عمير ، عن رِبْعىّ قال: قال عقبة بن عمرو لحذيفة : ألا تحدثُنا ما سمعتَ من رسول الله ﷺ ؟ فقال : سمعته يقول : «إن رجلا حضره الموت ، فلما أيس من الحياة أوصى أهله : إذا أنا متّ فاجمعوا لى حَطَبا كثيراً

(١) تفسير الطبرى (٢٣/٢١) .

(٢) زيادة من أ . (٣) زيادة من س . (٤) فى س : « لكل » . (٥) فى ت : « كما روى » .

(٦) المسند (٤/ ٢١٠) وسنن ابن ماجة برقم (٢٧٠٧) وقال البوصيرى فى الزوائد (٢/ ٣٦٤) : « إسناد حديثه صحيح ورجاله ثقات » .

(٧) فى أ : « الذى خلق » . (٨) فى ت : « روى » .

جزَلاً ، ثم أوقدوا فيه ناراً ، حتى إذا [أكلت] [١] لحمي وخَلَصت إلى عظمى فامتُحشْتُ ، فخذوها فَذَرَوَها في اليم . ففعلوا ، فجمعه اللّه إليه فقال له : لم فعلت ذلك ؟ قال : من خشيتك . فغفر اللّه له » . فقال عقبة بن عمرو : وأنا سمعته يقول ذلك ، وكان نَبَّاشا [٢] .

وقد أخرجاه في الصحيحين ، من حديث عبد الملك بن عمير ، بألفاظ كثيرة [٣] ، منها : أنه أمر بنيه أن يحرقوه ثم يسحقوه ، ثم يذْرُوا نصفه في البر ونصفه في البحر ، في يوم رائح [٤] ، أي : كثير الهواء ـ ففعلوا ذلك . فأمر اللّه البحر فجمع ما فيه ، وأمر البر فجمع ما فيه ،ثم قال له: كن . فإذا هو رجل قائم . فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال : مخافتك وأنت أعلم . فما تلافاه أن غفر له » .

وقوله : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُون ﴾ أي : الذى بدأ خلق هذا الشجر من ماء حتى صار خَضراً نَضراً ذا ثمر ويَنْع ، ثم أعاده إلى أن صار حطباً يابساً ،توقد به النار ، كذلك هو فعال لما يشاء ، قادر على ما يريد لا يمنعه شيء .

قال قتادة في قوله : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُون ﴾ يقول : الذى أخرج هذه النار من هذا الشجر قادر أن يبعثه .

وقيل : المراد بذلك سَرْح المرخ والعَفَار ، ينبت في أرض الحجاز فيأتى من أراد قَدْح نار وليس معه زناد ، فيأخذ منه عودين أخضرين ، ويقدح [٥] أحدهما بالآخر ، فتتولد النار من بينهما ، كالزناد سواء . روى هذا عن ابن عباس ، رضى اللّه عنهما [٦] . وفى المثل [٧] : لكل شجر نار ، واستمجد المَرْخُ والعفَار [٨] . وقال الحكماء : في كل شجر نار إلا الغاب [٩] .

﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣) ﴾ .

يقول تعالى منبهاً على قدرته العظيمة في خلق السموات السبع ، بما فيها من الكواكب السيارة والثوابت ، والأرضين السبع وما فيها من جبال ورمال ، وبحار وقفار ، وما بين ذلك ، ومرشداً إلى الاستدلال على إعادة الأجساد بخلق هذه الأشياء العظيمة ، كقوله تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [غافر : ٥٧] . وقال هاهنا : ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ أى : مثل البشر ، فيعيدهم كما بدأهم . قاله ابن جرير [١٠] .

وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ

---

(١) زيادة من ت ، س ، والمسند .
(٢) المسند (٥/ ٣٩٥) .
(٣) صحيح البخارى برقم (٦٤٨٠) وصحيح مسلم برقم (٢٧٥٦) .
(٤) في س ، أ : « راح » . (٥) في أ : « فيحك » . (٦) في ت ، س : « عنه » . (٧) في أ : « الراجز » .
(٨) مجمع الأمثال للميدانى برقم (٢٧٥٢) .
(٩) في أ : « العتاب » .
(١٠) تفسير الطبرى (٢٣/ ٢١) .

عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف :٣٣] ، وقال : ﴿ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ . إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ أى : يأمر بالشىء أمراً واحداً ، لا يحتاج إلى تكرار :

إِذَا مَا أَرَادَ اللَّهُ أَمراً فَإِنَّمَا ... يَقُولُ لَهُ « كُنْ » قَوْلَة فَيَكُونُ (١)

وقال (٢) الإمام أحمد : حدثنا ابن نُمْيرٍ ، حدثنا موسى بن المسَيَّب ، عن شَهْر ، عن عبد الرحمن بن غَنْم ، عن أبى ذَر ، رضى اللّه عنه ، أن رسول اللّه ﷺ قال : « إن اللّه يقول : يا عبادى ، كلكم مذنب إلا من عافيت ، فاستغفرونى أغفر لكم . وكلكم فقير إلا من أغنيت ، إنى جواد ماجد واجد أفعل ما أشاء ، عطائى كلام ، وعذابى كلام ، إذا أردت شيئاً فإنما أقول له كن فيكون » (٣) .

وقوله : ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أى : تنزيه وتقديس وتبرئة من السوء للحى القيوم ، الذى بيده مقاليد السموات والأرض ، وإليه يرجع الأمر كله ، وله الخلق والأمر، وإليه نرجع العباد يوم القيامة ، فيجازى كل عامل بعمله ، وهو العادل المتفضل .

ومعنى قوله : ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ كقوله عز وجل : ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ (٤) ﴾ [المؤمنون : ٨٨] ، وكقوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ [الملك : ١] ، فالملك والملكوت واحد فى المعنى ، كرحمة ورَحَمُوت ، ورَهْبَة ورهبوت ، وجَبْر وجَبَروت . ومن الناس من زعم أن المُلْك هو عالم الأجساد (٥) ، والملكوت هو عالم الأرواح ، والأول هو الصحيح ، وهو الذى عليه الجمهور من المفسرين وغيرهم .

قال (٦) الإمام أحمد : حدثنا حماد ، عن عبد الملك بن عمير ، حدثنى ابن عم لحذيفة ، عن حذيفة ـ وهو ابن اليمان ـ رضى اللّه عنه ، قال : قمت مع رسول اللّه ﷺ ذات ليلة ، فقرأ السبع الطُّوَل (٧) فى سبع ركعات ، وكان إذا رفع رأسه من الركوع قال : « سمع اللّه لمن حمده » . ثم قال: « الحمد لذى (٨) ذى الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة » وكان ركوعه مثل قيامه ، وسجوده مثل ركوعه ، فأنصرف وقد كادت تنكسر رجلاى (٩) .

وقد روى أبو داود ، والترمذى فى الشمائل ، والنسائى ، من حديث شعبة ، عن عمرو بن مُرة، عن أبى حَمْزة ـ مولى الأنصار ـ عن رجل من بنى عَبْس ، عن حذيفة ؛ أنه رأى رسول اللّه ﷺ من الليل ، وكان يقول : « اللّه أكبر ـ ثلاثاً ـ ذو الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة » . ثم استفتح فقرأ البقرة، ثم ركع فكان ركوعه نحوا من قيامه ، وكان يقول فى ركوعه : « سبحان ربى العظيم » . ثم رفع رأسه من الركوع ، فكان قيامه نحوا من [ركوعه ، يقول : « لربى الحمد » . ثم سجد ، فكان سجوده نحوا من] (١٠) قيامه ، وكان يقول فى سجوده : « سبحان ربى الأعلى » . ثم رفع

(١) انظر البيت عند تفسير الآية : ٤٠ من سورة النحل .

(٢) فى ت : « وروى » .

(٣) المسند (٥/١٧٧).

(٤) فى ت : « قل من بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون » وهو خطأ .

(٥) فى ت ، س : « الأجسام » .

(٦) فى ت : « وروى ».

(٧) فى ت : « الطوال » .

(٨) فى ت ، س : « للّه » .

(٩) المسند (٥/٣٨٨) .

(١٠) زيادة من ت ، وأبى داود .

رأسه من السجود ، وكان يقعد فيما بين السجدتين نحوا من سجوده ، وكان يقول : « رب ، اغفر لى، رب اغفر لى » . فصلى أربع ركعات ، فقرأ فيهن البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ـ أو الأنعام[1]ـ شك شعبة ـ هذا لفظ أبى داود [2] .

وقال النسائى : « أبو حمزة عندنا : طلحة بن يزيد ، وهذا الرجل يشبه أن يكون صلة » . كذا قال . والأشبه أن يكون ابن عم حذيفة ، كما تقدم فى رواية الإمام أحمد ، [والله أعلم] [3] . فأما رواية صلة بن زفر ، عن حذيفة ، فإنها فى صحيح مسلم ، ولكن ليس فيها ذكر الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة .

وقال [4] أبو داود : حدثنا أحمد بن صالح ، حدثنا ابن وهب ، حدثنى معاوية بن صالح ، عن عمرو بن قيس ، عن عاصم بن حُميد ، عن عوف بن مالك الأشجعى قال : قمتُ مع رسول الله ﷺ ليلة فقام فقرأ سورة البقرة ، لا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل ، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوّذ . قال : ثم ركع بقدر قيامه ، يقول فى ركوعه : « سبحان ذى الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة » . ثم سجد بقدر قيامه ، ثم قال فى سجوده مثل ذلك ، ثم قام فقرأ بآل عمران ، ثم قرأ سورة سورة .

ورواه الترمذى فى الشمائل ، والنسائى ، من حديث معاوية بن صالح ، به [5] .

[آخر تفسير سورة « يس » ولله الحمد أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً] [6]

(١) فى ت : « والأنعام » .
(٢) سنن أبى داود برقم (٨٧٤) والشمائل للترمذى برقم (٢٦٠) وسنن النسائى (٢/ ١٩٩) .
(٣) زيادة من س .
(٤) فى ت : « وروى » .
(٥) سنن أبى داود برقم (٨٧٣) والشمائل للترمذى برقم (٢٩٦) وسنن النسائى (٢/ ١٩١) .
(٦) زيادة من س .

٣٦ — سورة يس

(مكية وآياتها ثلاث وثمانون)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يس ﴿١﴾ ٣٦ يس

وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ ٣٦ يس

إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ ٣٦ يس

﴿ سورة يس مكية . وعنه ﷺ تدعى المعمة تعم صاحبها خير الدارين والدافعة والقاضية تدفع عنه كل سوء وتقضى له كل حاجة وآياتها ثلاث وثمانون ﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (يس) إما مسرود على نمط التعديد فلا حظ له من الإعراب أواسم السورة كما نص عليه الخليل وسيبويه وعليه الأكثر فمحله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أو النصب على أنه مفعول لفعل مضمر وعليهما مدار قراءة يس بالرفع والنصب أى هذه يس أو اقرأ يس ولا مساغ للنصب بإضمار فعل القسم لأن مابعده مقسم به وقد أبوا الجمع بين قسمين على شيء واحد قبل انقضاء الأول ولا مجال للعطف لاختلافهما إعرابا وقيل هو مجرور بإضمار باء القسم مفتوح لكونه غير منصرف كما سلف فى فاتحة سورة البقرة من أن ما كانت من هذه الفواتح مفردة مثل صاد وقاف ونون أو كانت موازنة لمفرد نحو طس ويس وحم الموازنة لقابيل وهابيل يتأتى فيها الإعراب اللفظى ذكره سيبويه فى باب أسماء السور من كتابه وقيل هما حركتا بناء كما فى حيث وأين حسبما يشهد بذلك قراءة يس بالكسر كجير وقيل الفتح والكسر تحريك للجد فى الهرب من التقاء الساكنين وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن معناه يا إنسان فى لغة طيء قالوا المراد به رسول الله ﷺ ولعل أصله يا أنيسين فاقتصر على

٢ شطره كما قيل من الله فى أيمن الله (والقرآن) بالجر على أنه مقسم به ابتداء وقد جوز أن يكون عطفا على يس على تقدير كونه مجرورا بإضمار باء القسم (الحكيم) أى المتضمن للحكمة أو الناطق بها بطريق الاستعارة أو المتصف بها على الإسناد المجازى وقد جوز أن يكون الأصل الحكيم قائله فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فبانقلابه مرفوعا بعد الجر استكن فى الصفة المشبهة كما مر فى صدر سورة

٣ لقمان (إنك لمن المرسلين) جواب للقسم والجملة لرد إنكار الكفرة بقولهم فى حقه ﷺ لست مرسلا وهذه الشهادة منه عز وجل من جملة ما أشير إليه بقوله تعالى فى جوابهم قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم وفى تخصيص القرآن بالإقسام به أولا وبوصفه بالحكيم ثانيا تنويه بشأنه وتنبيه على أنه كما يشهد برسالته ﷺ من حيث نظمه المعجز المنطوى على بدائع الحكم يشهد بها من هذه الحيثية أيضا لما أن الإقسام بالشيء

عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ ٣٦ يس

تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ ٣٦ يس

لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ ٣٦ يس

لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ ٣٦ يس

استشهاد به على تحقق مضمون الجملة القسمية وتقوية لثبوته فيكون شاهداً به ودليلا عليه قطعاً وقوله
٤ تعالى (على صراط مستقيم) خبر آخر لإن أو حال من المستكن فى الجار والمجرور على أنه عبارة عن
الشريعة الشريفة بكمالها لا عن التوحيد فقط وفائدته بيان أن شريعته ﷺ أقوم الشرائع وأعدلها كما
٥ يعرب عنه التنكير التفخيمى والوصف إثر بيان أنه ﷺ من جملة المرسلين بالشرائع (تنزيل العزيز
الرحيم) نصب على المدح وقرىء بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف وبالجر على أنه بدل من القرآن وأياً
ما كان فهو مصدر بمعنى المفعول عبر به عن القرآن بياناً لكمال عراقته فى كونه منزلا من عند الله عز وجل
كأنه نفس التنزيل وإظهاراً لفخامته الإضافية بعد بيان فخامته الذاتية بوصفه بالحكمة وفى تخصيص
الاسمين الكريمين المعربين عن الغلبة التامة والرأفة العامة حث على الإيمان به ترهيباً وترغيباً وإشعار بأن
تنزيله ناشىء عن غاية الرحمة حسبما نطق به قوله تعالى وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين وقيل النصب على أنه
مصدر مؤكد لفعله المضمر أى نزل تنزيل العزيز الرحيم على أنه استئناف مسوق لبيان ماذكر من فخامة
٦ شأن القرآن وعلى كل تقدير ففيه فضل تأكيد لمضمون الجملة القسمية (لتنذر) متعلق بتنزيل على الوجوه
الأول وبعامله المضمر على الوجه الأخير أى لتنذر به كما فى صدر الأعراف وقيل هو متعلق بما يدل
عليه لمن المرسلين أى إنك مرسل لتنذر (قوما ما أنذر آباؤهم) أى لم ينذر آباؤهم الأقربون لتطاول مدة
الفترة على أن ما نافية فتكون صفة مبينة لغاية احتياجهم إلى الإنذار أو الذى أنذره أو شيئاً أنذره آباؤهم
الأبعدون على أنها موصولة أو موصوفة فيكون مفعولا ثانياً لتنذر أو إنذار آبائهم الأقدمين على أنها
مصدرية فيكون نعتاً لمصدر مؤكد أى لتنذر إنذار كائناً مثل إنذارهم (فهم غافلون) على الوجه الأول
متعلق بنفى الإنذار مترتب عليه والضمير للفريقين أى لم تنذر آباؤهم فهم جميعاً لأجله غافلون وعلى الوجوه
الباقية متعلق بقوله تعالى لتنذر أو بما يفيده إنك لمن المرسلين وارد لتعليل إنذاره ﷺ أو إرساله بغفلتهم
المحوجة إليهما على أن الضمير للقوم خاصة فالمعنى فهم غافلون عنه أى عما أنذر آباؤهم الأقدمون لامتداد
٧ المدة واللام فى قوله تعالى (لقد حق القول على أكثرهم) جواب القسم أى والله لقد ثبت وتحقق عليهم
البتة لكن لا بطريق الجبر من غير أن يكون من قبلهم ما يقتضيه بل بسبب إصرارهم الاختيارى على
الكفر والإنكار وعدم تأثرهم من التذكير والإنذار وغلوهم فى العتو والطغيان وتماديهم فى اتباع
خطوات الشيطان بحيث لا يلويهم صارف ولا يثنيهم عاطف كيف لا والمراد بما حق من القول قوله

إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ ٣٦ يس

وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ ٣٦ يس

وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ ٣٦ يس

إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ ٣٦ يس

تعالى لإبليس عند قوله لأغوينهم أجمعين لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين وهو المعنى بقوله تعالى
لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين كما يلوح به تقديم الجنة على الناس فإنه كما ترى قد أوقع فيه الحكم
بإدخال جهنم على من تبع إبليس وذلك تعليل له بتبعيته قطعاً وثبوت القول على هؤلاء الذين عبر عنهم
بأكثرهم إنما هو لكونهم من جملة أولئك المصرين على تبعية إبليس أبداً وإذ قد تبين أن مناط ثبوت
القول وتحققه عليهم إصرارهم على الكفر إلى الموت ظهر أن قوله تعالى (فهم لا يؤمنون) متفرع في
٨ الحقيقة على ذلك لا على ثبوت القول وقوله تعالى (إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا) تقرير لتصميمهم على
الكفر وعدم ارعوائهم عنه بتمثيل حالهم بحال الذين غلت أعناقهم (فهي إلى الأذقان) أي فالأغلال
منتهية إلى أذقانهم فلا تدعهم يلتفتون إلى الحق ولا يعطفون أعناقهم نحوه ولا يطأطئون رءوسهم له (فهم
٩ مقمحون) رافعون رءوسهم غاضون أبصارهم بحيث لا يكادون يرون الحق أو ينظرون إلى جهته (وجعلنا
من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون) إما تتمة للتمثيل وتكميل له أي تكميل أي
وجعلنا مع ماذكر من أمامهم سداً عظيما ومن ورائهم سداً كذلك فغطينا بهما أبصارهم فهم بسبب ذلك
لا يقدرون على إبصار شيء ما أصلا وإما تمثيل مستقل فإن ماذكر من جعلهم محصورين بين سدين
هائلين قد غطيا أبصارهم بحيث لا يبصرون شيئاً قطعاً كاف في الكشف عن كمال فظاعة حالهم وكونهم
محبوسين في مطمورة الغي والجهالات محرومين عن النظر في الأدلة والآيات وقرىء سداً بالضم وهي
لغة فيه وقيل ماكان من عمل الناس فهو بالفتح وماكان من خلق الله فبالضم وقرىء فأعشيناهم من العشا
وقيل الآيتان في بني مخزوم وذلك أن أبا جهل حلف لئن رأى رسول الله ﷺ يصلي ليرضخن رأسه فأتاه
وهو ﷺ يصلي ومعه حجر ليدمغه فلما رفع يده انثنت يده إلى عنقه ولزق الحجر بيده حتى فكوه عنها
بجهد فرجع إلى قومه فأخبرهم بذلك فقال مخزومي آخر أنا أقتله بهذا الحجر فذهب فأعمى الله تعالى
١٠ بصره (وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم) بيان لشأنهم بطريق التصريح إثر بيانه بطريق التمثيل أي
مستو عندهم إنذارك إياهم وعدمه حسبما مر تحقيقه في سورة البقرة وقوله تعالى (لا يؤمنون) استئناف
مؤكد لما قبله مبين لما فيه من إجمال ما فيه الاستواء أو حال مؤكدة له أو بدل منه ولما بين كون الإنذار
١١ عندهم كعدمه عقب ببيان من يتأثر منه فقيل (إنما تنذر) أي إنذاراً مستتبعاً للأثر (من اتبع الذكر)
أي القرآن بالتأمل فيه أو الوعظ ولم يصر على اتباع خطوات الشيطان (وخشي الرحمن بالغيب) أي

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ (١٢) ٣٦ يس

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) ٣٦ يس

إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (١٤) ٣٦ يس

خاف عقابه وهو غائب عنه على أنه حال من الفاعل أو المفعول أو خافه فى سريرته ولم يغتر برحمته فإنه منتقم قهار كما أنه رحيم غفار كما نطق به قوله تعالى نبيء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم وأن عذابى هو العذاب الأليم (فبشره بمغفرة) عظيمة (وأجر كريم) لا يقادر قدره والفاء لترتيب البشارة أو الأمر
١٢ بها على ماقبلها من اتباع الذكر والخشية (إنا نحن نحيى الموتى) بيان لشأن عظيم ينطوى على الإنذار والتبشير
انطواء إجماليا أى نبعثهم بعد مماتهم وعن الحسن إحياؤهم إخراجهم من الشرك إلى الإيمان فهو حينئذ
عدة كريمة بتحقيق المبشر به (ونكتب ماقدموا) أى ماأسلفوا من الأعمال الصالحة وغيرها (وآثارهم)
التى أبقوها من الحسنات كعلم علموه أو كتاب ألفوه أو حبيس وقفوه أو بناء بنوه من المساجد والرباطات والقناطر وغير ذلك من وجوه البر ومن السيئات كتأسيس قوانين الظلم والعدوان وترتيب مبادى الشر والفساد فيما بين العباد وغير ذلك من فنون الشرور التى أحدثوها وسنوها لمن بعدهم من المفسدين وقيل هى آثار المشائين إلى المساجد ولعل المراد أنها من جملة الآثار وقرىء ويكتب على البناء للمفعول ورفع آثارهم (وكل شىء) من الأشياء كائناً ماكان (أحصيناه فى إمام مبين) أصل عظيم الشأن مظهر لجميع
١٣ الأشياء مماكان وما سيكون وهو اللوح المحفوظ وقرىء كل شىء بالرفع (واضرب لهم مثلا أصحاب
القرية) ضرب المثل يستعمل تارة فى تطبيق حالة غريبة بحالة أخرى مثلها كما فى قوله تعالى ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط وأخرى فى ذكر حالة غريبة وبيانها للناس من غير قصد إلى تطبيقها بنظيرة لها كما فى قوله تعالى وضربنا لكم الأمثال على أحد الوجهين أى بينا لكم أحوالا بديعة هى فى الغرابة كالأمثال فالمعنى على الأول اجعل أصحاب القرية مثلا لهؤلاء فى الغلو فى الكفر والإصرار على تكذيب الرسل أى طبق حالهم بحالهم على أن مثلا مفعول ثان لاضرب وأصحاب القرية مفعوله الأول أخر عنه ليتصل به ماهو شرحه وبيانه وعلى الثانى اذكر وبين لهم قصة هى فى الغرابة كالمثل وقوله تعالى أصحاب القرية بدل منه بتقدير المضاف أو بيان له والقرية أنطاكية (إذ جاءها المرسلون) بدل اشتمال
١٤ من أصحاب القرية وهم رسل عيسى عليه السلام إلى أهلها ونسبة إرسالهم إليه تعالى فى قوله (إذ أرسلنا
إليهم اثنين) بناء على أنه كان بأمره تعالى لتكميل التمثيل وتتميم التسلية وهما يحيى وبولس وقيل غيرهما (فكذبوهما) أى فأتياهم فدعواهم إلى الحق فكذبوهما فى الرسالة (فعززنا) أى قوينا يقال عزز المطر الأرض إذا لبدها وقرىء بالتخفيف من عزه إذا غلبه وقهره وحذف المفعول لدلالة ماقبله عليه ولأن المقصد ذكر المعزز به (بثالث) هو شمعون (فقالوا) أى جميعاً (إنا إليكم مرسلون) مؤكدين كلامهم لسبق الإنكار لما أن تكذيبهما تكذيب للثالث لاتحاد كلمتهم وذلك أنهم كانوا عبدة أصنام فأرسل إليهم

قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ ٣٦ يس

قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ ٣٦ يس

وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ ٣٦ يس

عيسى عليه السلام اثنين فلما قربا من المدينة رأيا شيخاً يرعى غنيمات له وهو حبيب النجار صاحب يس، فسألهما فأخبراه قال أمعكما آية فقالا نشفى المريض ونبرىء الأكمه والأبرص وكان له ولد مريض منذ سنتين فمسحاه فقام فآمن حبيب وفشا الخبر وشفى على أيديهما خلق وبلغ حديثهما إلى الملك وقال لهما ألنا إله سوى آلهتنا قالا نعم من أوجدك وآلهتك فقال حتى أنظر فى أمركما فتبعهما الناس وقيل ضربوهما وقيل حبسا ثم بعث عيسى عليه السلام شمعون فدخل متنكراً وعاشر حاشية الملك حتى استأنسوا به ورفعوا خبره إلى الملك فأنس به فقال له يوما بلغنى أنك حبست رجلين فهل سمعت مايقولونه قال لا حال الغضب بينى وبين ذلك فدعاهما فقال شمعون من أرسلكما قالا الله الذى خلق كل شىء وليس له شريك فقال صفاه وأوجزا قالا يفعل مايشاء ويحكم مايريد قال وما آيتكما قالا مايتمنى الملك فدعا بغلام مطموس العينين فدعوا الله تعالى حتى انشق له بصر فأخذا بندقتين فوضعاهما فى حدقتيه فصار تامقلتين ينظر بهما فقال له شمعون أرأيت لوسألت إلهك حتى يصنع مثل هذا فيكون لك وله الشرف قال ليس لى عنك سر إن إلهنا لا يبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع وكان شمعون يدخل معهم على الصنم فيصلى ويتضرع وهم يحسبون أنه منهم ثم قال إن قدر إلهكما على إحياء ميت آمنا به فدعوا بغلام مات من سبعة أيام فقام وقال إنى أدخلت فى سبعة أودية من النار وإنى أحذركم ما أنتم فيه فآمنوا وقال فتحت أبواب السماء فرأيت شاباً حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة قال الملك من هم قال شمعون وهذان فتعجب الملك فلما رأى شمعون أن قوله قد أثر فيه نصحه فآمن وآمن قوم ومن لم يؤمن صاح عليهم جبريل عليه السلام فهلكوا هكذا قالوا ولكن لا يساعده سياق النظم الكريم حيث اقتصر فيه على حكاية تماديهم فى العناد واللجاج وركوبهم متن المكابرة فى الحجاج ولم يذكر فيه ممن يؤمن من أحد سوى حبيب ولو أن الملك وقوماً من حواشيه آمنوا لكان الظاهر أن يظاهروا الرسل ويساعدوهم قبلوا فى ذلك أو قتلوا كدأب النجار الشهيد ولكان لهم فيه ذكر ما بوجه من الوجوه اللهم إلا أن يكون إيمان الملك بطريق الخفية على خوف

١٥ من عتاة ملئه فيعتزل عنهم معتذراً بعذر من الأعذار (قالوا) أى أهل أنطاكية الذين لم يؤمنوا مخاطبين
للثلاثة (ما أنتم إلا بشر مثلنا) من غير مزية لكم علينا موجبة لاختصاصكم بما تدعونه ورفع بشر
لانتقاض النفى المقتضى لإعمال ما بإلا (وما أنزل الرحمن من شىء) مما تدعونه من الوحى والرسالة (إن
١٦ أنتم إلا تكذبون) فى دعوى رسالته (قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون) استشهدوا بعلم الله تعالى وهو
يجرى مجرى القسم مع ما فيه من تحذيرهم معارضة علم الله تعالى وزادوا اللام المؤكدة لما شاهدوا منهم
١٧ من شدة الإنكار (وما علينا) أى من جهة ربنا (إلا البلاغ المبين) أى إلا تبليغ رسالته تبليغاً ظاهراً بيناً

قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨﴾ ٣٦ يس

قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿١٩﴾ ٣٦ يس

وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٣٦ يس

ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢١﴾ ٣٦ يس

وَمَالِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ٣٦ يس

بالآيات الشاهدة بالصحة وقد خرجنا عن عهدته فلا مؤاخذة لنا بعد ذلك من جهة ربنا أو ماعلينا شيء
نطالب به من جهتكم إلا تبليغ الرسالة على الوجه المذكور وقد فعلناه فأى شيء تطلبون مناحتى تصدقونا
١٨ بذلك (قالوا) لما ضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل (إنا تطيرنا بكم) تشاءمنا بكم جرياً على ديدن الجهلة
حيث كانوا يتيمنون بكل مايوافق شهواتهم وإن كان مستجلباً لكل شر ووبال ويتشاءمون بما لا يوافقها
وإن كان مستتبعاً لسعادة الدارين أو بناء على أن الدعوة لاتخلو عن الوعيد بما يكرهونه من إصابة ضر
متعلق بأنفسهم وأهليهم وأموالهم إن لم يؤمنوا فكانوا ينفرون عنه وقد روى أنه حبس عنهم القطر
فقالوه (لئن لم تنتهوا) أى عن مقالتكم هذه (لنرجمنكم) بالحجارة (وليمسنكم منا عذاب أليم) لا يقادر
١٩ قدره (قالوا طائركم) أى سبب شؤمكم (معكم) لا من قبلنا وهو سوء عقيدتكم وقبح أعمالكم وقرىء طيركم
(أئن ذكرتم) أى وعظتم بما فيه سعادتكم وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة ماقبله عليه أى تطيرتم
وتوعدتم بالرجم والتعذيب وقرىء بألف بين الهمزتين وبفتح أن بمعنى أتطيرتم لأن ذكرتم وأن ذكرتم وأن
ذكرتم بغير استفهام وأين ذكرتم بمعنى طائركم معكم حيث جرى ذكركم وهو أبلغ (بل أنتم قوم مسرفون)
إضراب عما تقتضيه الشرطية من كون التذكير سبباً للشؤم أو مصححاً للتوعد أى ليس الأمر كذلك
بل أنتم قوم عادتكم الإسراف فى العصيان فلذلك أتاكم الشؤم أو فى الظلم والعدوان ولذلك توعدتم
٢٠ وتشاءمتم بمن يجب إكرامه والتبرك به (وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى) هو حبيب النجار وكان
ينحت أصنامهم وهو ممن آمن برسول الله ﷺ وبينهما ستمائة سنة كما آمن به تبع الأكبر وورقة بن نوفل
وغيرهما ولم يؤمن بنبى غيره ﷺ أحد قبل مبعثه وقيل كان فى غار يعبد الله تعالى فلما بلغه خبر
الرسل عليهم الصلاة والسلام أظهر دينه (قال) استئناف وقع جواباً عن سؤال نشأ من حكاية مجيئه
ساعياً كأنه قيل فماذا قال عند مجيئه فقيل قال (ياقوم اتبعوا المرسلين) تعرض لعنوان رسالتهم حثا لهم
٢١ على اتباعهم كما أن خطابهم بياقوم لتأليف قلوبهم واستمالتها نحو قبول نصيحته وقوله تعالى (اتبعوا من
لا يسألكم أجراً وهم مهتدون) تكرير للتأكيد وللتوسل به إلى وصفهم بما يرغبهم فى اتباعهم من التنزه
٢٢ عن الغرض الدنيوى والاهتداء إلى خير الدنيا والدين (ومالى لا أعبد الذى فطرنى) تلطف فى الإرشاد

ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ ٣٦ يس

إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ٣٦ يس

إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ ٣٦ يس

قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ٣٦ يس

بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ٣٦ يس

بإيراده فى معرض المناصحة لنفسه وإمحاض النصح حيث أراهم أنه اختار لهم مايختار لنفسه والمراد تقريعهم
على ترك عبادة خالقهم إلى عبادة غيره كما ينبىء عنه قوله (وإليه ترجعون) مبالغة فى التهديد ثم عاد إلى
٢٣ المساق الأول فقال (أأتخذ من دونه آلهة) إنكار ونفى لاتخاذ الآلهة على الإطلاق وقوله (إن يردن
الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئاً) أى لا تنفعنى شيئاً من النفع (ولا ينقذون) من ذلك الضر
بالنصرة والمظاهرة استئناف سيق لتعليل النفى المذكور وجعله صفة لآلهة كما ذهب إليه بعضهم ربما يوهم
أن هناك آلهة ليست كذلك وقرىء إن يردن بفتح الياء على معنى إن يوردنى ضراً أى يجعلنى مورداً
٢٤ للضر (إنى إذاً) أى إذا اتخذت من دونه آلهة (لفى ضلال مبين) فإن إشراك ماليس من شأنه النفع ولا
دفع الضر بالخالق المقتدر الذى لاقادر غيره ولا خير إلا خيره ضلال بين لايخفى على أحد ممن له تمييز فى
٢٥ الجملة (إنى آمنت بربكم) خطاب منه للرسل بطريق التلوين قيل لما نصح قومه بما ذكر هموا برجمه فأسرع
نحو الرسل قبل أن يقتلوه فقال ذلك وإنما أكده لإظهار صدوره عنه بكمال الرغبة والنشاط وأضاف
الرب إلى ضميرهم روما لزيادة التقرير وإظهاراً للاختصاص والاقتداء بهم كأنه قال بربكم الذى أرسلكم
أو الذى تدعوننا إلى الإيمان به (فاسمعون) أى اسمعوا إيمانى واشهدوا لى به عند الله تعالى وقيل الخطاب
للكفرة شافههم بذلك إظهاراً للتصلب فى الدين وعدم المبالاة بالقتل وإضافة الرب إلى ضميرهم لتحقيق
٢٦ الحق والتنبيه على بطلان ماهم عليه من اتخاذ الأصنام أرباباً وقيل للناس جميعاً (قيل ادخل الجنة) قيل
له ذلك لما قتلوه إكراماً له بدخولها حينئذ كسائر الشهداء وقيل لما هموا بقتله رفعه الله تعالى إلى الجنة
قاله الحسن وعن قتادة أدخله الله الجنة وهو فيها حى يرزق وقيل معناه البشرى بدخول الجنة وأنه من
أهلها وإنما لم يقل له لأن الغرض بيان المقول لا المقول له لظهوره وللمبالغة فى المسارعة إلى بيانه والجملة
استئناف وقع جواباً عن سؤال نشأ من حكاية حاله ومقاله كأنه قيل كيف كان لقاء ربه بعد ذلك
التصلب فى دينه والتسخى بروحه لوجهه تعالى فقيل قيل ادخل الجنة وكذلك قوله تعالى (قال ياليت قومى
٢٧ يعلمون) (بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين) فإنه جواب عن سؤال نشأ من حكاية حاله كأنه قيل فماذا
قال عند نيله تلك الكرامة السنية فقيل قال الخ وإنما تمنى علم قومه بحاله ليحملهم ذلك عن اكتساب مثله

وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ ٣٦ يس

إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ ٣٦ يس

يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ ٣٦ يس

أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ ٣٦ يس

بالتوبة عن الكفر والدخول فى الإيمان والطاعة جرياً على سنن الأولياء فى كظم الغيظ والترحم على
الأعداء أوليعلموا أنهم كانوا على خطأ عظيم فى أمره وأنه كان على الحق وأن عداوتهم لم تكسبه إلا
سعادةوقرىء من المكرمين وما موصولة أو مصدرية والباء صلة يعلمون أواستفهامية وردت على الأصل
والباء متعلقة بغفر أى بأى شىء غفر لى ربى يريد به تفخيم شأن المهاجرة عن ملتهم والمصابرة على أذيتهم
٢٨ (وما أنزلنا على قومه من بعده) من بعد قتله أو رفعه (من جند من السماء) لإهلاكهم والانتقام منهم
كما فعلناه يوم بدر والخندق بل كفينا أمرهم بصيحة ملك وفيه استحقار لهم ولإهلاكهم وإيماء إلى تفخيم
شأن الرسول ﷺ (وما كنا منزلين) وماصح فى حكمتنا أن ننزل لإهلاك قومه جنداً من السماء لما أناقدرنا ٥
لكل شىء سبباً حيث أهلكنا بعض من أهلكنا من الأمم بالحاصب وبعضهم بالصيحة وبعضهم بالخسف
وبعضهم بالإغرق وجعلنا إنزال الجند من خصائصك فى الانتصار من قومك وقيل ماموصولة معطوفة
٢٩ على جندأى وما كنا منزلين على من قبلهم من حجارة وريح وأمطار شديدة وغيرها (إن كانت) أى ماكانت
الأخذة أوالعقوبة (إلا صيحة واحدة) صاح بها جبريل عليه السلام وقرىء إلاصيحة بالرفع على أن
كان تامة وقرىء إلا زقية واحدة من زقا الطائر إذا صاح (فإذا هم خامدون) ميتون شبهوا بالنار الخامدة
رمزاً إلى أن الحى كالنار الساطعة فى الحركة والالتهاب والميت كالرماد كما قال لبيد [وما المرء إلا كالشهاب
٣٠ وضوئه * يحور رماداً بعد إذ هو ساطع] (ياحسرة على العباد) تعالى فهذه من الأحوال التى حقها
أن تحضرى فيها وهى مادل عليه قوله تعالى (ماياتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون) فإن المستهزئين
بالناصحين الذين نيطت بنصائحهم سعادة الدارين أحقاء بأن يتحسروا ويتحسر عليهم المتحسرون أو قد
تلهف على حالهم الملائكة والمؤمنون من الثقلين وقد جوز أن يكون تحسراً عليهم من جهة الله تعالى
بطريق الاستعارة لتعظيم ماجنوه على أنفسهم ويؤيده قراءة ياحسرتا لأن المعنى ياحسرتى ونصبها لطولها
بما تعلق بها من الجار وقيل بإضمار فعلها والمنادى محذوف وقرىء ياحسرة العباد بالإضافة إلى الفاعل أو
٣١ المفعول وياحسرة على العباد بإجراء الوصل مجرى الوقف (ألم يروا) أى ألم يعلموا وهو معلق عن العمل
فى قوله تعالى (كم أهلكنا قبلهم من القرون) لأن كم لا يعمل فيها ماقبلها وإن كانت خبرية لأن أصلها
الاستفهام خلا أن معناه نافذ فى الجملة كما نفذ فى قولك ألم تر أن زيداً لمنطلق وإن لم يعمل فى لفظه (أنهم

وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ ٣٦ يس

وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَـٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ ٣٦ يس

وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ ٣٦ يس

لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ ٣٦ يس

إليهم لا يرجعون) بدل من كم أهلكنا على المعنى أى ألم يروا كثرة إهلاكنا من قبلهم من المذكورين آنفاً
ومن غيرهم كونهم غير راجعين إليهم وقرىء بالكسر على الاستئناف وقرىء ألم يروا من أهلكنا والبدل
٣٢ حينئذ بدل اشتمال (وإن كل لما جميع لدينا محضرون) بيان لرجوع الكل إلى المحشر بعد بيان عدم
الرجوع إلى الدنيا وإن نافية وتنوين كل عوض عن المضاف إليه ولما بمعنى إلا وجميع فعيل بمعنى
مفعول ولدينا ظرف له أو لما بعده والمعنى ما كلهم إلا مجموعون لدينا محضرون للحساب والجزاء وقيل
محضرون معذبون فكل عبارة عن الكفرة وقرىء لما بالتخفيف على أن أن مخففة من الثقيلة واللام فارقة
٣٣ وما مزيدة للتأكيد والمعنى أن كلهم مجموعون الخ (وآية لهم الأرض الميتة) بالتخفيف وقرىء بالتشديد
وقوله تعالى آية خبر مقدم للاهتمام به وتنكيرها للتفخيم ولهم إما متعلقة بها لأنها بمعنى العلامة أو بمضمر
هو صفة لها والأرض مبتدأ والميتة صفتها وقوله تعالى (أحييناها) استئناف مبين لكيفية كونها آية
وقيل آية مبتدأ ولهم خبر والأرض الميتة مبتدأ موصوف وأحييناها خبره والجملة مفسرة لآية وقيل
الأرض مبتدأ وأحييناها خبره والجملة خبر لآية وقيل الخبر لها هو الأرض وأحييناها صفتها لأن المراد
بها الجنس لا المعينة والأول هو الأولى لأن مصب الفائدة هو كون الأرض آية لهم لا كون الآية
هى الأرض (وأخرجنا منها حباً) جنس الحب (فمنه يأكلون) تقديم الصلة للدلالة على أن الحب
٣٤ معظم ما يؤكل ويعاش به (وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب) أى من أنواع النخل والعنب ولذلك
جمعاً دون الحب فإن الدال على الجنس مشعر بالاختلاف ولا كذلك الدال على الأنواع وذكر النخيل •
دون التمور ليطابق الحب والأعناب لاختصاص شجرها بمزيد النفع وآثار الصنع (وفجرنا فيها) وقرىء
بالتخفيف والفجر والتفجير كالفتح والتفتيح لفظاً ومعنى (من العيون) أى بعضاً من العيون لحذف
٣٥ الموصوف وأقيمت الصفة مقامه أو العيون ومن مزيدة على رأى الأخفش (ليأكلوا من ثمره) متعلق
بجعلنا وتأخيره عن تفجير العيون لأنه من مبادى الإثمار أى وجعلنا فيها جنات من نخيل ورتبنا مبادى
إثمارها ليأكلوا من ثمر ما ذكر من الجنات والنخيل بإجراء الضمير مجرى اسم الإشارة وقيل الضمير لله
تعالى بطريق الالتفات إلى الغيبة والإضافة لأن الثمر بخلقه تعالى وقرىء بضمتين وهى لغة فيه أو جمع
• ثمار وبضمة وسكون (وما عملته أيديهم) عطف على ثمره وهو ما يتخذ منه من العصير والدبس ونحوهما
وقيل ما نافية والمعنى أن الثمر بخلق الله تعالى لا بفعلهم ومحل الجملة النصب على الحالية ويؤكد الأول قراءة

سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ٣٦ يس

وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ ٣٦ يس

وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ ٣٦ يس

عملت بلاهاء فإن حذف العائد من الصلة أحسن من الحذف من غيرها (أفلا يشكرون) إنكار واستقباح لعدم شكرهم للنعم المعدودة والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أيرون هذه النعم أو أيتنعمون بها

٣٦ فلا يشكرونها (سبحان الذى خلق الأزواج كلها) استئناف مسوق لتنزيهه تعالى عما فعلوه من ترك شكره على آلائه المذكورة واستعظام ماذكر فى حيز صلة من بدائع آثار قدرته وأسرار حكمته وروائع نعمائه الموجبة للشكر وتخصيص العبادة به والتعجيب من إخلالهم بذلك والحالة هذه وسبحان علم للتسبيح الذى هو التبعيد عن السوء اعتقاداً وقولا أى اعتقاد البعد عنه والحكم به من سبح فى الأرض والماء إذا أبعد فيهما وأمعن ومنه فرس سبوح أى واسع الجرى وانتصابه على المصدرية ولا يكاد يذكر ناصبه أى أسبح سبحانه أى أنزهه عما لا يليق به عقداً وعملا تنزيهاً خاصاً به حقيقاً بشأنه وفيه مبالغة من جهة الاشتقاق من السبح ومن جهة النقل إلى التفعيل ومن جهة العدول عن المصدر الدال على الجنس إلى الاسم الموضوع له خاصة لاسيما العلم المشير إلى الحقيقة الحاضرة فى الذهن ومن جهة إقامته مقام المصدر مع الفعل وقيل هو مصدر كغفران أريد به التنزه التام والتباعد الكلى عن السوء ففيه مبالغة من جهة إسناد التنزه إلى الذات المقدسة فالمعنى تنزه بذاته عن كل مالا يليق به تنزهاً خاصاً به فالجملة على هذا إخبار من الله تعالى بتنزهه وبراءته عن كل مالا يليق به مما فعلوه وما تركوه وعلى الأول حكم منه عز وجل بذلك وتلقين للمؤمنين أن يقولوه ويعتقدوا مضمونه ولا يخلوا به ولا يغفلوا عنه والمراد بالأزواج الأصناف والأنواع (مما تنبت الأرض) بيان لها والمراد به كل ماينبت فيها من الأشياء المذكورة وغيرها (ومن أنفسهم) أى خلق الأزواج من أنفسهم أى الذكر والأنثى (ومما لا يعلمون) أى والأزواج مما لم يطلعهم الله تعالى على خصوصياته لعدم قدرتهم على الإحاطة بها ولما لم يتعلق بذلك شىء من مصالحهم الدينية والدنيوية وإنما أطلعهم على ذلك بطريق الإجمال على منهاج قوله تعالى ويخلق

٣٧ مالا تعلمون لما نيط به وقوفهم على عظم قدرته وسعة ملكه وسلطانه (وآية لهم الليل) جملة من خبر مقدم ومبتدأ مؤخر كما مر وقوله تعالى (نسلخ منه النهار) جملة مبينة لكيفية كونه آية أى نزيله ونكشفه عن مكانه مستعار من السلخ وهو إزالة مابين الحيوان وجلده من الاتصال والأغلب فى الاستعمال تعليقه بالجلد يقال سلخت الإهاب من الشاة وقد يعكس ومنه الشاة المسلوخة (فإذا هم مظلمون) أى داخلون

٣٨ فى الظلام مفاجأة وفيه رمز إلى أن الأصل هو الظلام والنور عارض (والشمس تجرى لمستقر لها) لحد معين ينتهى إليه دورها فشبه بمستقر المسافر إذا قطع مسيره أو لكبد السماء فإن حركتها فيه توجد أبطأ

وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ ٣٦ يس

لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ٣٦ يس

وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ ٣٦ يس

بحيث يظن أن لها هناك وقفة قال [والشمس حيرى لها بالجو تدويم] أو لا استقرار لها على نهج مخصوص
أو لمنتهى مقدر لكل يوم من المشارق والمغارب فإن لها فى دورها ثلاثمائة وستين مشرقا ومغربا تطلع كل
يوم من مطلع وتغرب من مغرب ثم لا تعود إليهما إلى العام القابل أو لمنقطع جريها عند خراب العالم وقرىء
إلى مستقر لها وقرىء لا مستقر لها أى لا سكون لها فإنها متحركة دائما وقرىء لا مستقر لها على أن لا بمعنى ليس
(ذلك) إشارة إلى جريها وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان بعلو رتبته وبعد منزلته أى
ذلك الجرى البديع المنطوى على الحكم الرائعة التى تحار فى فهمها العقول والأفهام (تقدير العزيز) الغالب
٣٩ بقدرته على كل مقدور (العليم) المحيط علمه بكل معلوم (والقمر قدرناه) بالنصب بإضمار فعل يفسره الظاهر
وقرىء بالرفع على الابتداء أى قدرنا له (منازل) وقيل قدرنا مسيره منازل وقيل قدرناه ذا منازل وهى ثمانية
وعشرون الشرطين البطين الثريا الدبران الهقعة الهنعة الذراع النثرة الطرف الجبهة الزبرة الصرفة العوا
السماك الغفر الزبانى الإكليل القلب الشولة النعائم البلدة سعد الذابح سعد بلع سعد السعود سعد الأخبية فرغ
الدلو المقدم فرغ الدلو المؤخر الرشا وهو بطن الحوت ينزل كل ليلة فى واحد منها لا يتخطاها ولا يتقاصر
عنها فإذا كان فى آخر منازله وهو الذى يكون قبيل الاجتماع دق واستقوس (حتى عاد كالعرجون)
كالشمراخ المعوج فعلون من الانعراج وهو الاعوجاج وقرىء كالعرجون وهما لغتان كالبزيون والبزيون
٤٠ (القديم) العتيق وقيل هو ما مر عليه حول فصاعداً (لا الشمس ينبغى لها) أى يصح ويتسهل (أن
تدرك القمر) فى سرعة السير فإن ذلك يخل بتكون النبات وتعيش الحيوان أو فى الآثار والمنافع أو فى
المكان بأن تنزل فى منزله أو فى سلطانه فتطمس نوره وإيلاء حرف النفى الشمس للدلالة على أنها
مسخرات لا يتيسر لها إلا ما قدر لها (ولا الليل سابق النهار) أى يسبقه فيفوته ولكن يعاقبه وقيل المراد
بهما آيتاهما وهما النيران وبالسبق سبق القمر إلى سلطان الشمس فيكون عكساً للأول وإيراد السبق
مكان الإدراك لأنه الملائم لسرعة سيره (وكل) أى وكلهم على أن التنوين عوض عن المضاف إليه الذى
هو الضمير العائد إلى الشمس والقمر والجمع باعتبار التكاثر العارض لهما بتكاثر مطالعهما فإن اختلاف
الأحوال يوجب تعدداً ما فى الذات أو إلى الكواكب فإن ذكرهما مشعر بها (فى فلك يسبحون)
٤١ يسيرون بانبساط وسهولة (وآية لهم أنا حملنا ذريتهم) أولادهم الذين يبعثونهم إلى تجاراتهم أو صبيانهم
ونساءهم الذين يستصحبونهم فإن الذرية تطلق عليهن لاسيما مع الاختلاط وتخصيصهم بالذكر لما أن
استقرارهم فى السفن أشق واستمساكهم فيها أبدع (فى الفلك المشحون) أى المملوء وقيل هو فلك نوح

وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ ٣٦ يس

وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ ٣٦ يس

إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ ٣٦ يس

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ ٣٦ يس

عليه السلام وحمل ذرياتهم فيها حمل آبائهم الأقدمين وفى أصلابهم هؤلاء وذرياتهم وتخصيص أعقابهم
٤٢ بالذكر دونهم لأنه أبلغ فى الامتنان وأدخل فى التعجيب الذى عليه يدور كونه آية (وخلقنا لهم من مثله)
مما يماثل الفلك (مايركبون) من الإبل فإنها سفائن البر أو مما يماثل ذلك الفلك من السفن والزوارق
وجعلها مخلوقة لله تعالى مع كونها من مصنوعات العباد ليس لمجرد كون صنعهم بإقدار الله تعالى وإلهامه
بل لمزيد اختصاص أصلها بقدرته تعالى وحكمته حسبما يعرب عنه قوله عز وجل واصنع الفلك بأعيننا
ووحينا والتعبير عن ملابستهم بهذه السفن بالركوب لأنها باختيارهم كما أن التعبير عن ملابسة ذريتهم
٤٣ بفلك نوح عليه السلام بالحمل لكونها بغير شعور منهم واختيار (وإن نشأ نغرقهم) الخ من تمام الآية
فإنهم معترفون بمضمونه كما ينطق به قوله تعالى وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين
وقرىء نغرقهم بالتشديد وفى تعليق الإغراق بمحض المشيئة إشعار بأنه قد تكامل مايوجب إهلاكهم
من معاصيهم ولم يبق إلا تعلق مشيئته تعالى به أى إن نشأ نغرقهم فى اليم مع ماحملناهم فيه من الفلك فحديث
خلق الإبل حينئذ كلام جىء به فى خلال الآية بطريق الاستطراد لكمال التماثل بين الإبل والفلك فكأنها
نوع منه أو مع مايركبون من السفن والزوارق (فلا صريخ لهم) أى فلا مغيث لهم يحرسهم من الغرق •
ويدفعه عنهم قبل وقوعه وقيل فلا استغاثة لهم من قولهم أتاهم الصريخ (ولا هم ينقذون) أى ينجون
٤٤ منه بعد وقوعه وقوله تعالى (إلا رحمة منا ومتاعا) استثناء مفرغ من أعم العلل الشاملة للباعث المتقدم
والغاية المتأخرة أى لا يغاثون ولا ينقذون لشىء من الأشياء إلا لرحمة عظيمة من قبلنا داعية إلى الإغاثة
والانقاذ وتمتيع بالحياة مترتب عليهما ويجوز أن يراد بالرحمة مايقارن التمتيع من الرحمة الدنيوية فيكون
كلاهما غاية للإغاثة والإنقاذ أى لنوع من الرحمة وتمتيع (إلى حين) أى إلى زمان قدر فيه آجالهم كما قيل
٤٥ [ولم أسلم لكى أبقى ولكن • سلمت من الحمام إلى الحمام] (وإذا قيل لهم اتقوا) بيان لإعراضهم عن
الآيات التنزيلية بعد بيان إعراضهم عن الآيات الآفاقية التى كانوا يشاهدونها وعدم تأملهم فيها أى إذا
قيل لهم بطريق الإنذار بما نزل من الآيات أو بغيره اتقوا (مابين أيديكم وما خلفكم) من الآفات •
والنوازل فإنها محيطة بكم أو مايصيبكم من المكاره من حيث تحتسبون ومن حيث لا تحتسبون أو من
الوقائع النازلة على الأمم الخالية قبلكم والعذاب المعد لكم فى الآخرة أو من نوازل السماء ونوائب

وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ ٣٦ يس

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ
ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ ٣٦ يس

الأرض أو من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة أو ماتقدم من الذنوب وما تأخر (لعلكم ترحمون) إما
حال من واو اتقوا أو غاية له أي راجين أن ترحموا أو كي ترحموا فتنجوا من ذلك لما عرفتم أن مناط
٤٦ النجاة ليس إلا رحمة الله تعالى وجواب إذا محذوف ثقة بانفهامه من قوله تعالى (وما تأتيهم من آية من
آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين) انفهاما بينا أما إذا كان الإنذار بالآية الكريمة فبعبارة النص وأما إذا
كان بغيرها فبدلالته لأنهم حين أعرضوا عن آيات ربهم فلأن يعرضوا عن غيرها بطريق الأولوية كأنه
قيل وإذا قيل لهم اتقوا العذاب أعرضوا حسبما اعتادوه وما نافية وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار
التجددي ومن الأولى مزيدة لتأكيد العموم والثاني تبعيضية واقعة مع مجرورها صفة لآية وإضافة
الآيات إلى اسم الرب المضاف إلى ضميرهم لتفخيم شأنها المستتبع لتهويل مااجترءوا عليه في حقها والمراد
بها إما الآيات التنزيلية فإتيانها نزولها والمعنى مايتزل إليهم آية من الآيات القرآنية التي من جملتها هذه
الآيات الناطقة بما فصل من بدائع صنع الله تعالى وسوابغ آلائه الموجبة للإقبال عليها والإيمان بها إلا
كانوا عنها معرضين على وجه التكذيب والاستهزاء وإما مايعمها وغيرها من الآيات التكوينية الشاملة
المعجزات وغيرها من تعاجيب المصنوعات التي من جملتها الآيات الثلاث المعدودة آنفاً فالمراد بإتيانها مايعم
نزول الوحي وظهور تلك الأمور لهم والمعنى مايظهر لهم آية من الآيات التي من جملتها ماذكر من شئونه
الشاهدة بوحدانيته تعالى وتفرده بالألوهية إلا كانوا عنها معرضين تاركين للنظر الصحيح فيها المؤدى
إلى الإيمان به تعالى وإيثاره على أن يقال إلا أعرضوا عنها كما وقع مثله في قوله تعالى وإن يروا آية
يعرضوا ويقولوا سحر مستمر الدلالة على استمرارهم على الإعراض حسب استمرار إتيان الآيات
وعن متعلقة بمعرضين قدمت عليه مراعاة للفواصل والجملة في حيز النصب على أنها حال من مفعول تأتى
أو من فاعله المتخصص بالوصف لاشتمالها على ضمير كل منهما والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال أي
ماتأتيهم من آية من آيات ربهم في حال من أحوالهم إلا حال إعراضهم عنها أو ماتأتيهم آية منها في حال
٤٧ من أحوالها إلا حال إعراضهم عنها (وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله) أي أعطاكم بطريق التفضل
والإنعام من أنواع الأموال عبر عنها بذلك تحقيقاً للحق وترغيباً في الإنفاق على منهاج قوله تعالى
وأحسن كما أحسن الله إليك وتنبيهاً على عظم جنايتهم في ترك الامتثال بالأمر وكذلك من التبعيضية
أي إذا قيل لهم بطريق النصيحة أنفقوا بعض ما أعطاكم الله تعالى من فضله على المحتاجين فإن ذلك مما يرد
البلاء ويدفع المكاره (قال الذين كفروا) بالصانع عز وجل وهم زنادقة كانوا بمكة (للذين آمنوا) تهكماً
بهم وبما كانوا عليه من تعليق الأمور بمشيئة الله تعالى (أنطعم) حسبما تعظوننا به (من لو يشاء الله

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ ٣٦ يس

مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ ٣٦ يس

فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ ٣٦ يس

وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ ٣٦ يس

قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ ٣٦ يس

أطعمه) أى على زعمكم وعن ابن عباس رضى الله عنهما كان بمكة زنادقة إذا أمروا بالصدقة على المساكين قالوا لا والله أيفقره الله ونطعمه نحن وقيل قاله مشركو قريش حين استطعمهم فقراء المؤمنين من أموالهم التى زعموا أنهم جعلوها لله تعالى من الحرث والأنعام يوهمون أنه تعالى لما لم يشأ إطعامهم وهو قادر عليه فنحن أحق بذلك وما هو إلا لفرط جهالتهم فإن الله تعالى يطعم عباده بأسباب من جملتها حث الأغنياء على إطعام الفقراء وتوفيقهم لذلك (إن أنتم إلا فى ضلال مبين) حيث تأمروننا بما يخالف مشيئة الله تعالى وقد جوز أن يكون جواباً لهم من جهته تعالى أو حكاية لجواب المؤمنين لهم .

٤٨ (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) أى فيما تعدوننا به من قيام الساعة مخاطبين لرسول الله
ﷺ والمؤمنين لما أنهم أيضاً كانوا يتلون عليهم آيات الوعيد بقيامها ومعنى القرب فى هذا إما بطريق
٤٩ الاستهزاء وإما باعتبار قرب العهد بالوعد (ماينظرون) جواب من جهته تعالى أى ما ينتظرون (إلا
صيحة واحدة) هى النفخة الأولى (تأخذهم) مفاجأة (وهم يخصمون) أى يتخاصمون فى متاجرهم
ومعاملاتهم لا يخطر ببالهم شىء من مخايلها كقوله تعالى فأخذتهم الصاعقة بغتة وهم لا يشعرون فلا يغتروا
بعدم ظهور علاماتها ولا يزعموا أنها لا تأتيهم وأصل يخصمون يختصمون فسكنت التاء وأدغمت فى الصاد
ثم كسرت الخاء لالتقاء الساكنين وقرىء بكسر الياء للإتباع وبفتح الخاء على إلقاء حركة التاء عليه وقرىء
على الاختلاس وبالإسكان على تجويز الجمع بين الساكنين إذا كان الثانى مدغماً وإن لم يكن الأول حرف
٥٠ مد وقرىء يخصمون من خصمه إذا جاده (فلا يستطيعون توصية) فى شىء من أمورهم إن كانوا فيما
بين أهليهم (ولا إلى أهلهم يرجعون) إن كانوا فى خارج أبوابهم بل تبغتهم الصيحة فيموتون حيثما كانوا
٥١ (ونفخ فى الصور) هى النفخة الثانية بينها وبين الأولى أربعون سنة أى ينفخ فيه وصيغة الماضى للدلالة
على تحقق الوقوع (فإذا هم من الأجداث) أى القبور جمع جدث وقرىء بالفاء (إلى ربهم) مالك أمرهم
على الإطلاق (ينسلون) يسرعون بطريق الإجبار دون الاختيار لقوله تعالى لدينا محضرون وقرىء
٥٢ بضم السين (قالوا) أى فى ابتداء بعثهم من القبور (ياويلنا) احضر فهذا أوانك وقرىء ياويلتنا (من
بعثنا من مرقدنا) وقرىء من أهبنا من هب من نومه إذا انتبه وقرىء من هبنا بمعنى أهبنا وقيل أصله

إن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ ٣٦ يس

فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ ٣٦ يس

إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾ ٣٦ يس

هب بنا لحذف الجار وأوصل الفعل إلى الضمير قيل فيه ترشيح ورمز وإشعار بأنهم لاختلاط عقولهم يظنون أنهم كانوا نياما وعن مجاهد أن للكفار هجعة يجدون فيها طعم النوم فإذا صيح بأهل القبور يقولون ذلك وعن ابن عباس وأبي بن كعب وقتادة رحمهم الله تعالى أن الله تعالى يرفع عنهم العذاب بين النفختين فيرقدون فإذا بعثوا بالنفخة الثانية وشاهدوا من أهوال القيامة ماشاهدوا دعوا بالويل وقالوا ذلك وقيل إذا عاينوا جهنم وما فيها من أنواع العذاب يصير عذاب القبر فى جنبها مثل النوم فيقولون ذلك وقرىء من بعثنا ومن هبنا بمن الجارة والمصدر والمرقد إما مصدر أى من رقادنا أو اسم مكان أريد به الجنس فينتظم مراقد الكل (هذا ماوعد الرحمن وصدق المرسلون) جملة من مبتدأ وخبر وما موصولة محذوفة العائد أو مصدرية وهو جواب من قبل الملائكة أو المؤمنين عدل به عن سنن سؤالهم تذكيراً لكفرهم وتقريعاً لهم عليه وتنبيهاً على أن الذى يهمهم هو السؤال عن نفس البعث ماذا هو دون الباعث كأنهم قالوا بعثكم الرحمن الذى وعدكم ذلك فى كتبه وأرسل إليكم الرسل فصدقوكم فيه وليس الأمر كما تتوهمونه حتى تسألوا عن الباعث وقيل هو من كلام الكافرين حيث يتذكرون ماسمعوه من الرسل عليهم الصلاة والسلام فيجيبون به أنفسهم أو بعضهم بعضاً وقيل هذا صفة لمرقدنا وما وعد الخ خبر

٥٣ مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره محذوف أى ماوعدالرحمن وصدق المرسلون حق (إن كانت) أى ماكانت النفخة التى حكيت آنفاً (إلا صيحة واحدة) حصلت من نفخ إسرافيل عليه السلام فى الصور (فإذا هم جميع) أى مجموع (لدينا محضرون) من غير لبث ماطرفة عين وفيه من تهوين أمر البعث والحشر

٥٤ والإيذان باستغنائهما عن الأسباب مالا يخفى (فاليوم لا تظلم نفس) من النفوس برة كانت أو فاجرة (شيئاً) من الظلم (ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون) أى إلا جزاء ما كنتم تعملونه فى الدنيا على الاستمرار من الكفر والمعاصى على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه للتنبيه على قوة التلازم والارتباط بينهما كأنهما شىء واحد أو إلا بما كنتم تعملونه أى بمقابلته أو بسببه وتعميم الخطاب للمؤمنين يرده أنه تعالى يوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله أضعافا مضاعفة وهذه حكاية لما سيقال لهم حين يرون العذاب المعدلهم

٥٥ تحقيقاً للحق وتقريعاً لهم وقوله تعالى (إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون) من جملة ماسيقال لهم يومئذ زيادة لحسرتهم وندامتهم فإن الإخبار بحسن حال أعدائهم إثر بيان سوء حالهم مما يزيدهم مساءة على مساءة وفى هذه الحكاية مزجرة لهؤلاء الكفرة عماهم عليه ومدعاة إلى الاقتداء بسيرة المؤمنين والشغل هو الشأن الذى يصد المرء ويشغله عما سواه من شئونه لكونه أهم عنده من الكل إما لإيجابه كمال المسرة

هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ ٣٦ يس

لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ ٣٦ يس

والبهجة أو كمال المساءة والغم والمراد ههنا هو الأول وما فيه من التنكير والإبهام للإيذان بارتفاعه عن رتبة البيان والمراد به ماهم فيه من فنون الملاذ التى تلهيهم عما عداها بالكلية وأما أن المراد به افتصاص الأبكار أو السماع وضرب الأوتار أو التزاور أو ضيافة الله تعالى أو شغلهم عما فيه أهل النار على الإطلاق أو شغلهم عن أهاليهم فى النار لايهمهم أمرهم ولا يبالون بهم كيلا يدخل عليهم تنغيص فى نعيمهم كما روى كل واحد منها عن واحد من أكابر السلف فليس مرادهم بذلك حصر شغلهم فيما ذكروه فقط بل بيان أنه من جملة أشغالهم وتخصيص كل منهم كلا من تلك الأمور بالذكر محمول على اقتضاء مقام البيان إياه وهو مع جاره خبر لإن وفاكهون خبر آخر لها أى أنهم مستقرون فى شغل وأى شغل فى شغل عظيم الشأن متنعمون بنعيم مقيم فائزون بملك كبير والتعبير عن حالهم هذه بالجملة الاسمية قبل تحققها بتنزيل المترقب المتوقع منزلة الواقع للإيذان بغاية سرعة تحققها ووقوعها ولزيادة مساءة المخاطبين بذلك وقرىء فى شغل بسكون الغين وفى شغل بفتحتين وبفتحة وسكون والكل لغات وقرىء فكهون للمبالغة وفكهون بضم الكاف وهى لغة كنطس وفاكهين وفكهين على الحال من المستكن فى الظرف وقوله تعالى (هم ٥٦
وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون) استئناف مسوق لبيان كيفية شغلهم وتفكههم وتكميلهما بما يزيدهم بهجة وسروراً من شركة أزواجهم لهم فيما هم فيه من الشغل والفكاهة على أن هم مبتدأ وأزواجهم عطف عليه ومتكئون خبر والجاران صلتان له قدمتا عليه لمراعاة الفواصل أو هو والجاران بما تعلقاً به من الاستقرار أخبار مترتبة وقيل الخبر هو الظرف الأول والثانى مستأنف على أنه متعلق بمتكئون وهو خبر لمبتدأ محذوف وقيل على أنه خبر مقدم ومتكئون مبتدأ مؤخر وقرىء متكين بلا همز نصباً على الحال من المستكن فى الظرفين أو أحدهما وقيل هم تأكيد للمستكن فى خبر إن ومتكئون خبر آخر لها وعلى الأرائك متعلق به وكذا فى ظلال أو هذا بمضمر هو حال من المعطوفين والظلال جمع ظل كشعاب جمع شعب أو جمع ظلة كقباب جمع قبة ويؤيده قراءة فى ظلل والأرائك جمع أريكة وهى السرير المزين بالثياب والستور قال
٥٧ ثعلب لاتكون أريكة حتى تكون عليها حجلة وقوله تعالى (لهم فيها فاكهة) الخ بيان لما يتمتعون به فى الجنة من المآكل والمشارب ويتلذذون به من الملاذ الجسمانية والروحانية بعد بيان ما لهم فيها من مجالس الإنس ومحافل القدس تكميلا لبيان كيفية ماهم فيه من الشغل والبهجة أى لهم فيها فاكهة كثيرة من كل نوع من الفواكه وما فى قوله تعالى (ولهم مايدعون) موصولة أو موصوفة عبر بها عن مدعو عظيم الشأن معين أو مبهم إيذاناً بأنه الحقيق بالدعاء دون ماعداه ثم صرح به روما لزيادة التقرير بالتحقيق بعد التشويق كما ستعرفه أو هى باقية على عمومها قصد بها التعميم بعد تخصيص بعض المواد المعتادة بالذكر وأياً ما كان فهو مبتدأ ولهم خبره والجملة معطوفة على الجملة السابقة وعدم الاكتفاء بعطف مايدعون على فاكهة لئلا

سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ٣٦ يس

وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ٣٦ يس

يتوهم كون ماعبارة عن توابع الفاكهة وتتماتها والمعنى ولهم مايدعون به لأنفسهم من مدعو عظيم الشأن أو كل مايدعون به كائناً ما كان من أسباب البهجة وموجبات السرور وأياً ما كان ففيه دلالة على أنهم فى أقصى غاية البهجة والغبطة ويدعون يفتعلون من الدعاء كما أشير إليه مثل اشتوى واجتمل إذا شوى وجمل لنفسه وقيل بمعنى يتداعون كالارتماء بمعنى الترامى وقيل بمعنى يتمنون من قولهم ادع على ماشئت بمعنى تمنه على وقال الزجاج هو من الدعاء أى ما يدعو به أهل الجنة يأتيهم فيكون الافتعال بمعنى الفعل كالاحتمال
٥٨ بمعنى الحمل والارتحال بمعنى الرحلة ويعضده القراءة بالتخفيف كما ذكره الكواشى وقوله تعالى (سلام) على التقدير الأول بدل من مايدعون أو خبر لمبتدأ محذوف وقوله تعالى (قولا) مصدر مؤكد لفعل هو صفة لسلام وما بعده من الجار متعلق بمضمر هو صفة له كأنه قيل ولهم سلام أو مايدعون سلام يقال لهم قولا
• كائناً (من) جهة (رب رحيم) أى يسلم عليهم من جهته تعالى بواسطة الملك أو بدونها مبالغة فى تعظيمهم قال ابن عباس رضى الله عنهما والملائكة يدخلون عليهم بالتحية من رب العالمين وأما على التقدير الثانى فقد قيل إنه خبر لما يدعون ولهم لبيان الجهة كما يقال لزيد الشرف متوفر على أن الشرف مبتدأ ومتوفر خبره والجار والمجرور لبيان من له ذلك أى مايدعون سالم لهم خالص لاشوب فيه وقولا حينئذ مصدر مؤكد لمضمون الجملة أى عدة من رب رحيم والأوجه أن ينتصب على الاختصاص وقيل هو مبتدأ محذوف الخبر أى لهم سلام أى تسليم قولا من رب رحيم أو سلامة من الآفات فيكون قولا مصدراً مؤكداً لمضمون الجملة كما سبق وقيل تقديره سلام عليهم فيكون حكاية لما سيقال لهم من جهته تعالى يومئذ وقيل خبره الفعل المقدر ناصباً لقولا وقيل خبره من رب رحيم وقرىء سلاما بالنصب على الحالية أى
٥٩ لهم مرادهم سالماً خالصاً وقرىء سلم وهو بمعنى السلام فى المعنيين (وامتازوا اليوم) عطف إما على الجملة السابقة المسوقة لبيان أحوال أهل الجنة لا على أن المقصود عطف فعل الأمر بخصوصه حتى يتمحل له مشاكل يصح عطفه عليه بل على أنه عطف قصة سوء حال هؤلاء وكيفية عقابهم على قصة حسن حال أولئك ووصف ثوابهم كما مر فى قوله تعالى وبشر الذين آمنوا الآية وكأن تغيير السبك لتخييل كمال التباين بين الفريقين وحاليهما وإما على مضمر ينساق إليه حكاية حال أهل الجنة كأنه قيل إثر بيان كونهم
• فى شغل عظيم الشان وفوزهم بنعيم مقيم يقصر عنه البيان فليقروا بذلك عيناً وامتازوا عنهم (أيها المجرمون) إلى مصيركم وعن قتادة اعتزلوا عن كل خير وعن الضحاك لكل كافر بيت من النار يكون فيه لا يرى ولا يرى وأما ماقيل من أن المضمر فليمتازوا فبمعزل من السداد لما أن المحكى عنهم ليس مصيرهم إلى ماذكر من الحال المرضية حتى يتسنى ترتيب الأمر المذكور عليه بل إنما هو استقرارهم عليها بالفعل وكون ذلك بطريق تنزيل المترقب منزلة الواقع لايجدى نفعاً لأن مناط الإضمار انسياق الإفهام إليه وانصباب

أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ ٣٦ يس

وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ٣٦ يس

وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ٣٦ يس

نظم الكلام عليه فبعدما نزلت تلك الحالة منزلة الواقع بالفعل لما اقتضاه المقام من النكتة البارعة والحكمة
الرائعة حسبما مر بيانه وأسقط كونها مترقبة عن درجة الاعتبار بالكلية يكون التصدى لإضمار شيء يتعلق
٦٠ به إخراجا للنظم الكريم عن الجزالة بالمرة (ألم أعهد إليكم يابنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان) من جملة
مايقال لهم بطريق التقريع والإلزام والتبكيت بين الأمر بالامتياز وبين الأمر بدخول جهنم بقوله
تعالى اصلوها اليوم الخ والعهد الوصية والتقدم بأمر فيه خير ومنفعة والمراد ههنا ما كلفهم الله تعالى على
ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام من الأوامر والنواهى التى من جملتها قوله تعالى يابنى آدم لا يفتننكم
الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة الآية وقوله تعالى ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين
وغيرهما من الآيات الكريمة الواردة فى هذا المعنى وقيل هو الميثاق المأخوذ عليهم حين أخرجوا من ظهور
بنى آدم وأشهدوا على أنفسهم وقيل هو مانصب لهم من الحجج العقلية والسمعية الآمرة بعبادته تعالى
الزاجرة عن عبادة غيره والمراد بعبادة الشيطان طاعته فيما يوسوس به إليهم ويزينه لهم عبر عنها بالعبادة لزيادة
التحذير والتنفير عنها ولوقوعها فى مقابلة عبادته عز وجل وقرىء إعهد بكسر الهمزة وأعهد بكسر الهاء
وأحهد الحاء مكان العين وأحد بالإدغام وهى لغة بنى تميم (إنه لكم عدو مبين) أى ظاهر العداوة وهو
٦١ تعليل لوجوب الانتهاء عن المنهى عنه وقيل تعليل للنهى (وأن اعبدونى) عطف على أن لا تعبدوا على أن أن
فيهما مفسرة للعهد الذى فيه معنى القول بالنهى والأمر أو مصدرية حذف عنها الجار أى ألم أعهد إليكم فى ترك
عبادة الشيطان وفى عبادتى وتقديم النهى على الأمر لما أن حق التخلية التقدم على التحلية كما فى كلمة التوحيد
وليتصل به قوله تعالى (هذا صراط مستقيم) فإنه إشارة إلى عبادته تعالى التى هى عبارة عن التوحيد
والإسلام وهو المشار إليه بقوله تعالى هذا صراط على مستقيم والمقصود بقوله تعالى لأقعدن لهم
٦٢ صراطك المستقيم والتنكير للتفخيم واللام فى قوله تعالى (ولقد أضل منكم جبلا كثيرا) جواب قسم
محذوف والجملة استئناف مسوق لتشديد التوبيخ وتأكيد التقريع ببيان أن جناياتهم ليست بنقض العهد
فقط بل به وبعدم الاتعاظ بما شاهدوا من العقوبات النازلة على الأمم الخالية بسبب طاعتهم للشيطان
فالخطاب لمتأخريهم الذين من جملتهم كفار مكة خصوا بزيادة التوبيخ والتقريع لتضاعف جناياتهم
والجبل بكسر الجيم والباء وتشديد اللام الخلق وقرىء بضمتين وتشديد وبضمتين وتخفيف وبضمة
وسكون وبكسرتين وتخفيف وبكسرة وسكون والكل لغات وقرىء جبلا جمع جبلة كفطر وخلق فى
فطرة وخلقة وقرىء جيلا بالياء وهو الصنف من الناس أى وبالله لقد أضل منكم خلقا كثيرا أو صنفا

هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٣٦ يس

ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٣٦ يس

ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ ٣٦ يس

وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ ٣٦ يس

كثيراً عن ذلك الصراط المستقيم الذى أمرتكم بالثبات عليه فأصابهم لأجل ذلك ماأصابهم من العقوبات الهائلة التى ملأ الآفاق أخبارها وبقى مدى الدهر آثارها والفاء فى قوله تعالى (أفلم تكونوا تعقلون) للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أكنتم تشاهدون آثار عقوباتهم فلم تكونوا تعقلون أنها لضلالهم
٦٣ أو فلم تكونوا تعقلون شيئاً أصلا حتى ترتدعوا عما كانوا عليه كيلا يحيق بكم العقاب وقوله تعالى (هذه جهنم التى كنتم توعدون) استئناف يخاطبون به بعد تمام التوبيخ والتقريع والإلزام والتبكيت عند إشرافهم على شفير جهنم أى كنتم توعدونها على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام بمقابلة عبادة الشيطان مثل قوله تعالى لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين وقوله تعالى قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً وقوله تعالى قال اخرج منها مذءوماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم
٦٤ منكم أجمعين وغير ذلك مما لا يحصى وقوله تعالى (اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون) أمر تنكيل وإهانة كقوله تعالى ذق إنك أنت العزيز الخ أى ادخلوها من فوق وقاسوا فنون عذابها اليوم بكفركم المستمر
٦٥ فى الدنيا وقوله تعالى (اليوم نختم على أفواههم) أى ختما يمنعها عن الكلام التفات إلى الغيبة للإيذان بأن ذكر أحوالهم القبيحة استدعى أن يعرض عنهم ويحكى أحوالهم الفظيعة لغيرهم مع مافيه من الإيماء إلى
* أن ذلك من مقتضيات الختم لأن الخطاب لتلقى الجواب وقد انقطع بالكلية وقرىء تختم (وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) يروى أنهم يجحدون ويخاصمون فيشهد عليهم جيرانهم وأهاليهم وعشائرهم فيحلفون ما كانوا مشركين فحينئذ يختم على أفواههم وتكلم أيديهم وأرجلهم وفى الحديث يقول العبد يوم القيامة إنى لا أجيز على شاهداً إلا من نفسى فيختم على فيه ويقال لأركانه انطقى فتنطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول بعداً لكن وسحقاً فعنكن كنت أناضل وقيل تكليم الأركان وشهادتها دلالتها على أفعالها وظهور آثار المعاصى عليها وقرىء وتتكلم أيديهم وقرىء ولتكلمنا أيديهم وتشهد بلام كى
٦٦ والنصب على معنى ولذلك نختم على أفواههم وقرىء ولتكلمنا أيديهم ولتشهد بلام الأمر والجزم (ولو نشاء لطمسنا على أعينهم) الطمس تعفية شق العين حتى تعود ممسوحة ومفعول المشيئة محذوف على القاعدة المستمرة التى هى وقوعها شرطاً وكون مفعولها مضمون الجزاء أى لونشاء أن نطمس على أعينهم لفعلناه وإيثار صيغة الاستقبال وإن كان المعنى على المضى لإفادة أن عدم الطمس على أعينهم لاستمرار عدم المشيئة فإن المضارع المنفى الواقع موقع الماضى ليس بنص فى إفادة انتفاء استمرار

وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ ٣٦ يس

وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ ٣٦ يس

وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ ٣٦ يس

الفعل بل قد يفيد استمرار انتفائه بحسب المقام كما مر فى قوله تعالى ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير (فاستبقوا الصراط) أى فأرادوا أن يستبقوا إلى الطريق الذى اعتادوا سلوكه على أن انتصابه بنزع الجار أو هو بتضمين الاستباق معنى الابتدار أو بالظرفية (فأنى يبصرون) الطريق وجهة السلوك
٦٧ (ولو نشاء لمسخناهم) بتغيير صورهم وإبطال قواهم (على مكانتهم) أى مكانهم إلا أن المكانة أخص كالمقامة والمقام وقرىء على مكاناتهم أى لمسخناهم مسخاً يجمدهم مكانهم لا يقدرون أن يبرحوه بإقبال ولا إدبار ولا رجوع وذلك قوله تعالى (فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون) أى ولا رجوعا فوضع موضعه الفعل لمراعاة الفاصلة عن ابن عباس رضى الله عنهما قردة وخنازير وقيل حجارة وعن قتادة لأقعدناهم على أرجلهم وأزمناهم وقرىء مضياً بكسر الميم وفتحها وليس مساق الشرطيتين لمجرد بيان قدرته تعالى على ماذكر من عقوبة الطمس والمسخ بل لبيان أنهم بما هم عليه من الكفر ونقض العهد وعدم الاتعاظ بما شاهدوا من آثار دمار أمثالهم احقاء بأن يفعل بهم فى الدنيا تلك العقوبة كما فعل بهم فى الآخرة عقوبة الختم وأن المانع من ذلك ليس إلا عدم تعلق المشيئة الإلهية به كأنه قيل لو نشاء عقوبتهم بما ذكر من الطمس والمسخ جرياً على موجب جناياتهم المستدعية لها لفعلناها ولكنا لم نشأها جرياً
٦٨ على سنن الرحمة والحكمة الداعيتين إلى إمهالهم (ومن نعمره) أى نطل عمره (ننكسه فى الخلق) أى نقلبه فيه ونخلقه على عكس ماخلقناه أولا فلا يزال يتزايد ضعفه وتتناقص قوته وتنتقص بنيته ويتغير شكله وصورته حتى يعود إلى حالة شبيهة بحال الصبى فى ضعف الجسد وقلة العقل والخلو عن الفهم والإدراك وقرىء ننكسه من الثلاثى المجرد وننكسه من الإنكاس (أفلا يعقلون) أى أيرون ذلك فلا يعقلون أن من قدر على ذلك يقدر على ماذكر من الطمس والمسخ وأن عدم إيقاعهما لعدم تعلق مشيئته تعالى بهما تعقلون بالتاء
٦٩ لجرى الخطاب قبله (وما علمناه الشعر) رد وإبطال لما كانوا يقولونه فى حقه ﷺ من أنه شاعر وما يقوله شعر أى ماعلمناه الشعر بتعليم القرآن على معنى أن القرآن ليس بشعر فإن الشعر كلام متكلف موضوع ومقال مزخرف مصنوع منسوج على منوال الوزن والقافية مبنى على خيالات وأوهام واهية فأين ذلك من التنزيل الجليل الخطر المنزه عن مماثلة كلام البشر المشحون بفنون الحكم والأحكام الباهرة الموصلة إلى سعادة الدنيا والآخرة ومن أين اشتبه عليهم الشئون واختلط بهم الظنون قاتلهم الله أنى يؤفكون (وما ينبغى له) ومايصح له الشعر ولا يتأتى له لو طلبه أى جعلناه بحيث لو أراد قرض الشعر لم يتأت له كما جعلناه أمياً لا يهتدى للخط لتكون الحجة أثبت والشبهة أدحض وأما قوله ﷺ أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد

لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾ ٣٦ يس

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ ٣٦ يس

وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ ٣٦ يس

المطلب وقوله ﷺ هل أنت إلا أصبع دميت وفى سبيل الله مالقيت فمن قبيل الاتفاقات الواردة من غير
قصد إليها وعزم على ترتيبها وقيل الضمير فى له للقرآن أى وما ينبغى للقرآن أن يكون شعراً (إن هو)
أى ما القرآن (إلا ذكر) أى عظة من الله عز وجل وإرشاد للثقلين كما قال تعالى إن هو إلا ذكر للعالمين
(وقرآن مبين) أى كتاب سماوى بين كونه كذلك أو فارق بين الحق والباطل يقرأ فى المحاريب ويتلى فى
٧٠ المعابد وينال بتلاوته والعمل بما فيه فوز الدارين فكم بينه وبين ماقالوا (لينذر) أى القرآن أو الرسول
ﷺ ويؤيده القراءة بالتاء وقرىء لينذر من نذر به أى علمه ولينذر مبنياً للمفعول من الإنذار (من كان
حياً) أى عاقلا متأملا فإن الغافل بمنزلة الميت أو مؤمناً فى علم الله تعالى فإن الحياة الأبدية بالإيمان
وتخصيص الإنذار به لأنه المنتفع به (ويحق القول) أى تجب كلمة العذاب (على الكافرين) المصرين
على الكفر وفى إيرادهم بمقابلة من كان حياً إشعار بأنهم لخلوهم عن آثار الحياة وأحكامها التى هى المعرفة
٧١ أموات فى الحقيقة (أو لم يروا) الهمزة للإنكار والتعجيب والواو للعطف على جملة منفية مقدرة
مستتبعة للمعطوف أى ألم يتفكروا أو ألم يلاحظوا ولم يعلموا علماً يقينياً متاخماً للمعاينة (أنا خلقنا
لهم) أى لأجلهم وانتفاعهم (مما عملت أيدينا) أى مما تولينا إحداثه بالذات وذكر الأيدى وإسناد
العمل إليها استعارة تفيد مبالغة فى الاختصاص والتفرد بالإحداث والاعتناء به (أنعاماً) مفعول
خلقنا وتأخيره عن الجارين المتعلقين به مع أن حقه التقدم عليهما لما مر مراراً من الاعتناء بالمقدم
والتشويق إلى المؤخر فإن ماحقه التقديم إذا أخر تبقى النفس مترقبة له فيتمكن عند وروده عليها فضل
تمكن لا سيما عند كون المقدم منبئاً عن كون المؤخر أمراً نافعاً خطيراً كما فى النظم الكريم فإن الجار
الأول المعرب عن كون المؤخر من منافعهم والثانى المفصح عن كونه من الأمور الخطيرة يزيدان النفس
شوقا إليه ورغبة فيه ولأن فى تأخيره جمعاً بينه وبين أحكامه المتفرعة عليه بقوله تعالى (فهم لها مالكون)
الآيات الثلاث أى فملكناها إياهم وإيثار الجملة الاسمية على ذلك للدلالة على استقرار مالكيتهم لها
واستمرارها واللام متعلقة بمالكون مقوية لعمله أى فهم مالكون لها بتمليكنا إياها لهم متصرفون
فيها بالاستقلال مختصون بالانتفاع بها لا يزاحمهم فى ذلك غيرهم أو قادرون على ضبطها متمكنون من
التصرف فيها بإقدارنا وتمكيننا وتسخيرنا إياها لهم كما فى قول من قال [أصبحت لا أحمل السلاح ولا *
٧٢ أملك رأس البعير إن نفرا] والأول هو الأظهر ليكون قوله تعالى (وذللناها لهم) تأسيساً لنعمة على
حيالها لا تتمة لما قبلها أى صيرناها منقادة لهم بحيث لا تستعصى عليهم فى شىء مما يريدون بها حتى الذبح

وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ٣٦ يس

وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ ٣٦ يس

لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ ٣٦ يس

فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ ٣٦ يس

حسبما ينطق به قوله تعالى (فمنها ركوبهم) الخ فإن الفاء فيه لتفريع أحكام التذليل عليه وتفصيلها أى
فبعض منها ركوبهم أى مركوبهم أى معظم منافعها الركوب وعدم التعرض للحمل لكونه من تتمات
الركوب وقرىء ركوبتهم وهى بمعناه كالحلوب والحلوبة وقيل الركوبة اسم جمع وقرىء ركوبهم أى ذو
٧٣ ركوبهم (ومنها يأكلون) أى وبعض منها يأكلون لحمه (ولهم فيها) أى فى الأنعام بكلا قسميها (منافع)
أخر غير الركوب والأكل كالجلود والأصواف والأوبار وغيرها وكالحراثة بالثيران (ومشارب) من
اللبن جمع مشرب وهذا مجمل مافصل فى سورة النحل (أفلا يشكرون) أى أيشاهدون هذه النعم أو
٧٤ أيتنعمون بها فلا يشكرون المنعم بها (واتخذوا من دون الله) أى متجاوزين الله تعالى الذى شاهدوا
تفرده بتلك القدرة الباهرة وتفضله عليهم بهاتيك النعم المتظاهرة (آلهة) من الأصنام وأشركوها به تعالى
فى العبادة (لعلهم ينصرون) رجاء أن ينصروا من جهتهم فيما حزبهم من الأمور أو يشفعوا لهم فى الآخرة
٧٥ وقوله تعالى (لا يستطيعون نصرهم) الخ استئناف سيق لبيان بطلان رأيهم وخيبة رجائهم وانعكاس
تدبيرهم أى لا تقدر آلهتهم على نصرهم (وهم) أى المشركون (لهم) أى لآلهتهم (جند محضرون) يشيعونهم
عند مساقهم إلى النار وقيل معدون فى الدنيا لحفظهم وخدمتهم والذب عنهم ولا يساعده مساق النظم
٧٦ الكريم فإن الفاء فى قوله تعالى (فلا يحزنك قولهم) لترتيب النهى على ماقبله فلابد أن يكون عبارة عن
خسرانهم وحرمانهم عما علقوا به أطماعهم الفارغة وانعكاس الأمر عليهم بترتيب الشر على مارتبوه
لرجاء الخير فإن ذلك مما يهون الخطب ويورث السلوة وأما كونهم معدين لخدمتهم وحفظهم فبمعزل من
ذلك والنهى وإن كان بحسب الظاهر متوجهاً إلى قولهم لكنه فى الحقيقة متوجه إلى رسول الله ﷺ
ونهى له عليه السلام عن التأثر منه بطريق الكناية على أبلغ وجه وآكده فإن النهى عن أسباب الشىء
ومباديه المؤدية إليه نهى عنه بالطريق البرهانى وإبطال للسببية وقد يوجه النهى إلى المسبب ويراد النهى
عن السبب كما فى قوله لا أرينك ههنا يريد به نهى مخاطبه عن الحضور لديه والمراد بقولهم ماينبىء عنه
ماذكر من اتخاذهم الأصنام آلهة فإن ذلك مما لا يخلو عن التفوه بقولهم هؤلاء آلهتنا وأنهم شركاء لله سبحانه
فى المعبودية وغير ذلك مما يورث الحزن وقرىء يحزنك بضم الياء وكسر الزاى من أحزن المنقول من
• حزن اللازم وقوله تعالى (إنا نعلم مايسرون وما يعلنون) تعليل صريح للنهى بطريق الاستئناف بعد
تعليله بطريق الإشعار فإن العلم بما ذكر مستلزم للمجازاة قطعاً أى إنا نجازيهم بجميع جناياتهم الخافية

أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ ٣٦ يس

والبادية التى لا يعزب عن علمنا شىء منها وفيه فضل تسلية لرسول الله ﷺ وتقديم السر على العلن إما للمبالغة فى بيان شمول علمه تعالى لجميع المعلومات كأن علمه تعالى بما يسرونه أقدم منه بما يعلنونه مع استوائهما فى الحقيقة فإن علمه تعالى بمعلوماته ليس بطريق حصول صورها بل وجود كل شىء فى نفسه علم بالنسبة إليه تعالى وفى هذا المعنى لا يختلف الحال بين الأشياء البارزة والكامنة وإما لأن مرتبة السر متقدمة على مرتبة العلن إذ ما من شىء يعلن إلا وهو أو مباديه مضمر فى القلب قبل ذلك فتعلق علمه
٧٧ تعالى بحالته الأولى متقدم على تعلقه بحالته الثانية حقيقة (أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة) كلام مستأنف مسوق لبيان بطلان إنكارهم البعث بعد ماشاهدوا فى أنفسهم أوضح دلائله وأعدل شواهده كما أن ما سبق مسوق لبيان بطلان إشراكهم بالله تعالى بعد ماعاينوا فيما بأيديهم مايوجب التوحيد والإسلام وأما ماقيل من أنه تسلية ثانية لرسول الله ﷺ بتهوين مايقولونه بالنسبة إلى إنكارهم الحشر فكلا والهمزة للإنكار والتعجيب والواو للعطف على جملة مقدرة هى مستتبعة للمعطوف كما مر فى الجملة الإنكارية السابقة أى ألم يتفكر الإنسان ولم يعلم علماً يقينياً أنا خلقناه من نطفة الخ أو هى عين الجملة السابقة أعيدت تأكيداً للنكير السابق وتمهيداً لإنكار ماهو أحق منه بالإنكار والتعجيب لما أن المنكر هناك عدم علمهم بما يتعلق بخلق أسباب معايشهم وههنا عدم علمهم بما يتعلق بخلق أنفسهم ولا ريب فى أن علم الإنسان بأحوال نفسه أهم وإحاطته بها أسهل وأكمل فالإنكار والتعجيب من الإخلال بذلك أدخل كأنه قيل ألم يعلموا خلقه تعالى لأسباب معايشهم ولم يعلموا خلقه تعالى لأنفسهم أيضاً مع كون العلم بذلك فى غاية الظهور ونهاية الأهمية على معنى أن المنكر الأول بعيد قبيح والثانى أبعد وأقبح ويجوز أن تكون الواو لعطف الجملة الإنكارية الثانية على الأولى على أنها متقدمة فى الاعتبار وأن تقدم الهمزة عليها لاقتضائها الصدارة فى الكلام كما هو رأى الجمهور وإيراد الإنسان مورد الضمير لأن مدار الإنكار متعلق بأحواله من حيث هو إنسان كما فى قوله تعالى أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً
• وقوله تعالى (فإذا هو خصيم مبين) أى شديد الخصومة والجدال بالباطل عطف على الجملة المنفية داخل فى حيز الإنكار والتعجيب كأنه قيل أو لم ير أنا خلقناه من أخس الأشياء وأمهنها ففاجأ خصومتنا فى أمر يشهد بصحته وتحققه مبدأ فطرته شهادة بينة وإيراد الجملة الاسمية للدلالة على استقراره فى الخصومة واستمراره عليها روى أن جماعة من كفار قريش منهم أبى بن خلف الجمحى وأبو جهل والعاص بن وائل والوليد بن المغيرة تكلموا فى ذلك فقال لهم أبى بن خلف ألا ترون إلى مايقول محمد أن الله يبعث الأموات ثم قال واللات والعزى لأصيرن إليه ولأخصمنه وأخذ عظما باليا فجعل يفته بيده ويقول يامحمد أترى الله يحيى هذا بعد مارم قال ﷺ نعم ويبعثك ويدخلك جهنم فنزلت وقيل معنى قوله تعالى فإذا هو خصيم مبين فإذا هو بعدما كان ماء مهيناً رجل مميز منطيق قادر على الخصام مبين معرب عما فى نفسه فصيح فهو حينئذ معطوف على خلقناه غير داخل تحت الإنكار والتعجيب بل هو من متممات شواهد صحة البعث فقوله تعالى

وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ ٣٦ يس

قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٣٦ يس

الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ ٣٦ يس

---

٧٨ (وضرب لنا مثلا) معطوف حينئذ على الجملة المنفية داخل فى حيز الإنكار والتقبيح وأما على التقدير الأول
فهو عطف على الجملة الفجائية والمعنى ففاجأ خصومتنا وضرب لنا مثلا أى أورد فى شأننا قصة عجيبة فى
نفس الأمر هى فى الغرابة والبعد عن العقول كالمثل وهى إنكار إحيائنا العظام أو قصة عجيبة فى زعمه
واستبعدها وعدها من قبيل المثل وأنكرها أشد الإنكار وهى إحياؤنا إياها وجعل لنا مثلا ونظيراً من
الخلق وقاس قدرتنا على قدرتهم ونفى الكل على العموم وقوله تعالى (ونسى خلقه) أى خلقنا إياه على
الوجه المذكور الدال على بطلان ما ضرب به إما عطف على ضرب داخل فى حيز الإنكار والتعجيب أو حال
من فاعله بإضمار قد أو بدونه وقوله تعالى (قال) استئناف وقع جواباً عن سؤال نشأ من حكاية ضربه
المثل كأنه قيل أى مثل ضرب أو ماذا قال فقيل قال (من يحيي العظام) منكراً له أشد النكير مؤكداً له
بقوله تعالى (وهى رميم) أى بالية أشد البلى بعيدة من الحياة غاية البعد فالمثل على الأول هو إنكار إحيائه
تعالى للعظام فإنه أمر عجيب فى نفس الأمر حقيق لغرابته وبعده من العقول بأن يعد مثلا ضرورة جزم
العقول ببطلان الإنكار ووقوع المنكر لكونه كالإنشاء بل أهون منه فى قياس العقل وعلى الثانى هو
إحياؤه تعالى لها فإنه أمر عجيب فى زعمه قد استبعده وعده من قبيل المثل وأنكره أشد الإنكار مع أنه
فى نفس الأمر أقرب شىء من الوقوع لما سبق من كونه مثل الإنشاء أو أهون منه وأما على الثالث فلا
فرق بين أن يكون المثل هو الإنكار أو المنكر وعدم تأنيث الرميم مع وقوعه خبراً للمؤنث لأنه اسم لما
بلى من العظام غير صفة كالرفات وقد تمسك بظاهر الآية الكريمة من أثبت للعظم حياة وبنى عليه الحكم
بنجاسة عظم الميتة وأما أصحابنا فلا يقولون بحياته كالشعر ويقولون المراد بإحياء العظام ردها إلى ما كانت
٧٩ عليه من الغضاضة والرطوبة فى بدن حى حساس (قل) تبكيتاً له بتذكير ما نسيه من فطرته الدالة
على حقيقة الحال وإرشاده إلى طريقة الاستشهاد بها (يحييها الذى أنشأها أول مرة) فإن قدرته كما هى
لاستحالة التغير فيها والمادة على حالها (وهو بكل خلق عليم) مبالغ فى العلم بتفاصيل كيفيات الخلق والإيجاد
إنشاء وإعادة محيط بجميع الأجزاء المتفتتة المتبددة لكل شخص من الأشخاص أصولها وفروعها وأوضاع
بعضها من بعض من الاتصال والانفصال والاجتماع والافتراق فيعيد كلا من ذلك على النمط السابق مع
القوى التى كانت قبل والجملة إما اعتراض تذييلى مقرر لمضمون الجواب أو معطوفة على الصلة والعدول
٨٠ إلى الجملة الاسمية للتنبيه على أن علمه تعالى بما ذكر أمر مستمر ليس كإنشائه للمنشآت وقوله تعالى (الذى
جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً) بدل من الموصول الأول وعدم الاكتفاء بعطف صلته على صلته

أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ ٣٦ يس

إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ٣٦ يس

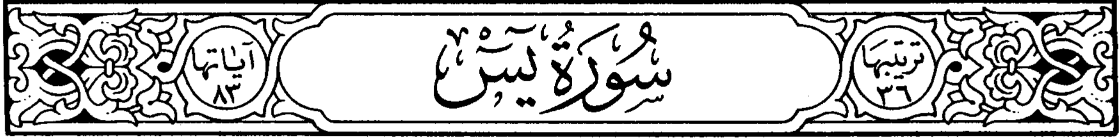
فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ٣٦ يس

للتأكيد ولتفاوتهما فى كيفية الدلالة أى خلق لأجلكم ومنفعتكم منه ناراً على أن الجعل إبداعى والجاران متعلقان به قدما على مفعوله الصريح مع تأخيرهما عنه رتبة لما مر من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر ووصف الشجر بالأخضر نظراً إلى اللفظ وقد قرىء الخضراء نظراً إلى المعنى وهو المرخ والعفار يقطع الرجل منهما عصيتين مثل السواكين وهما خضراوان يقطر منهما الماء فيسحق المرخ وهو ذكر على العفار وهو أنثى فتنقدح النار بإذن الله تعالى وذلك قوله تعالى (فإذا أنتم منه توقدون) فمن قدر على إحداث النار من الشجر الأخضر مع مافيه من المائية المضادة لها بكيفيته كان أقدر على إعادة الغضاضة

٨١ إلى ما كان غضاً فطرأ عليه اليبوسة والبلى وقوله تعالى (أوليس الذى خلق السموات والأرض) الخ استئناف مسوق من جهته عز وجل لتحقيق مضمون الجواب الذى أمر ﷺ بأن يخاطبهم بذلك ويلزمهم الحجة والهمزة للإنكار والنفى والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أليس الذى أنشأها أول مرة وليس الذى جعل لهم من الشجر الأخضر ناراً وليس الذى خلق السموات والأرض مع كبر جرمهما وعظم شأنهما (بقادر على أن يخلق مثلهم) فى الصغر والقماءة بالنسبة إليهما فإن بديهة العقل قاضية بأن من قدر على خلقهما فهو على خلق الأناسى أقدر كما قال تعالى لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس وقرىء يقدر وقوله تعالى (بلى) جواب من جهته تعالى وتصريح بما أفاده الاستفهام الإنكارى من تقرير مابعد النفى وإيذان بتعين الجواب نطقوا به أو تلعثموا فيه مخافة الإلزام وقوله تعالى (وهو الخلاق العليم) عطف على مايفيده الإيجاب أى بلى هو قادر على ذلك وهو المبالغ فى الخلق والعلم كيفاً

٨٢ وكما (إنما أمره) أى شأنه (إذا أراد شيئاً) من الأشياء (أن يقول له كن) أى أن يعلق به قدرته (فيكون) فيحدث من غير توقف على شىء آخر أصلا وهذا تمثيل لتأثير قدرته تعالى فيما أراده بأمر الآمر المطاع المأمور المطيع فى سرعة حصول المأمور به من غير توقف على شىء ما وقرىء فيكون

٨٣ بالنصب عطفاً على يقول (فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء) تنزيه له عز وعلا عما وصفوه تعالى به وتعجيب مما قالوا فى شأنه تعالى وقد مر تحقيق معنى سبحان والفاء للإشارة إلى أن مافصل من شئونه تعالى موجبة لتنزهه وتنزيهه أكمل إيجاب كما أن وصفه تعالى بالمالكية الكلية المطلقة للإشعار بأنها مقتضية لذلك أتم اقتضاء والملكوت مبالغة فى الملك كالرحموت والرهبوت وقرىء ملكة كل شىء ومملكة كل شىء وملك كل شىء (وإليه ترجعون) لا إلى غيره وقرىء ترجعون بفتح التاء من الرجوع وفيه من الوعد والوعيد مالا يخفى . عن ابن عباس رضى الله عنهما كنت لا أعلم ماروى فى فضائل يس



صح من حديث الإمام أحمد وأبي داود والنسائي وابن ماجة والطبراني وغيرهم عن معقل بن يسار أن رسول الله ﷺ قال: ﴿يس﴾ قلب القرآن وعد ذلك أحد أسمائها، وبين حجة الإسلام الغزالي عليه الرحمة وجه إطلاق ذلك عليها بأن المدار على الإيمان وصحته بالاعتراف بالحشر والنشر وهو مقرر فيها على أبلغ وجه وأحسنه ولذا شبهت بالقلب الذي به صحة البدن وقوامه واستحسنه الإمام الرازي، وأورد على ظاهره أن كل ما يجب الإيمان به لا يصح الإيمان بدونه فلا وجه لاختصاص الحشر والنشر بذلك. وأجيب بأن المراد بالصحة في كلام الحجة ما يقابل السقم والمرض ولا شك أن من صح إيمانه بالحشر يخاف من النار ويرغب في الجنة دار الأبرار فيرتدع عن المعاصي التي هي كأسقام الإيمان إذ بها يختل ويضعف ويشتغل بالطاعات التي هي كحفظ الصحة ومن لم يقو إيمانه به كان حاله على العكس فشابه الاعتراف به بالقلب الذي بصلاحه يصلح البدن وبفساده يفسد، وجوز أن يقال وجه الشبه بالقلب أن به صلاح البدن وفساده وهو غير مشاهد في الحس وهو محل لانكشاف الحقائق والأمور الخفية وكذا الحشر من المغيبات وفيه يكون انكشاف الأمور والوقوف على حقائق المقدور وبملاحظته وإصلاح أسبابه تكون السعادة الأبدية وبالإعراض عنه وإفساد أسبابه يبتلي بالشقاوة السرمدية. وفي الكشف لعل الإشارة النبوة في تسمية هذه السورة قلباً وقلب كل شيء لبه وأصله الذي ما سواه إما من مقدماته وإما من متمماته إلى ما أسلفناه في تسمية الفاتحة بأم القرآن من أن المقصود من إرسال الرسل وإنزال الكتب إرشاد العباد إلى غايتهم الكمالية في المعاد وذلك بالتحقق والتخلق المذكورين هنالك وهو المعبر عنه بسلوك الصراط المستقيم ومدار هذه السورة الكريمة على بيان ذلك أتم بيان ا هـ.

ويعلم منه وجه اختصاص الحشر بما ذكر في كلام الحجة فلا وجه لقول البعض في الاعتراض عليه فلا وجه الخ، وسيأتي إن شاء الله تعالى آخر الكلام في تفسير السورة الإشارة إلى ما اشتملت عليه من أمهات علم الأصول والمسائل المعتبرة بين الفحول وتقريرها إياها بأبلغ وجه وأتمه، ولعل هذا هو السر في الأمر الوارد في صحيح الأخبار بقراءتها على الموتى أي المحتضرين، وتسمى أيضاً العظيمة عند الله تعالى.

أخرج أبو نصر السجزي في الإبانة وحسنه عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: «قال رسول الله ﷺ إن في القرآن لسورة تدعى العظيمة عند الله تعالى ويدعى صاحبها الشريف عند الله تعالى يشفع صاحبها يوم القيامة في أكثر من ربيعة ومضر وهي سورة ﴿يس﴾ وذكر أنها تسمى أيضاً المعمة والمدافعة القاضية».

أخرج سعيد بن منصور والبيهقي عن حسان بن عطية أن رسول الله ﷺ قال: «سورة يس تدعى في التوراة

المعمة تعم صاحبها بخير الدنيا والآخرة وتكابد عنه بلوى الدنيا والآخرة وتدفع عنه أهاويل الدنيا والآخرة، وتدعى المدافعة القاضية تدفع عن صاحبها كل سوء وتقضي له كل حاجة» الخبر[١] وتعقبه البيهقي فقال: تفرد به محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الجدعاني عن سليمان بن دفاع وهو منكر، وهي على ما أخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس مكية، واستثنى منها بعضهم قوله تعالى: ﴿إنا نحن نحيي الموتى﴾ الآية مدعياً أنها نزلت بالمدينة لما أراد بنو سلمة النقلة إلى قرب مسجد النبي ﷺ وكانوا في ناحية المدينة فقال عليه الصلاة والسلام: «إن آثاركم تكتب» فلم ينتقلوا، وسيأتي إن شاء الله تعالى ما قيل في ذلك وقوله سبحانه: ﴿وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله﴾ الآية لأنها نزلت في المنافقين فتكون مدنية.

وتعقب بأنه لا صحة له، وآيها ثلاث وثمانون آية في الكوفي واثنتان وثمانون في غيره، وجاء مما يشهد بفضلها وعلو شأنها عدة أخبار وآثار وقد مر آنفاً بعض ذلك، وصح من حديث معقل بن يسار لا يقرؤها عبد يريد الله تعالى والدار الآخرة إلا غفر له ما تقدم من ذنبه.

وأخرج الترمذي والدارمي من حديث أنس «من قرأ يس كتب الله تعالى له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات» ولا يلزم من هذا تفضيل الشيء على نفسه إذ المراد بقراءة القرآن قراءته دون يس، وقال الخفاجي: لا يلزم ذلك إذ يكفي في صحة التفضيل المذكور التغاير الاعتباري فإن يس من حيث تلاوتها فردة غير كونها مقروءة في جملته كما إذا قلت: الحسناء في الحلة الحمراء أحسن منها في البيضاء وقد يكون للشيء مفرداً ما ليس له مجموعاً مع غيره كما يشاهد في بعض الأدوية ورجا أن يكون أقرب مما قدمنا وأنا لا أرجو ذلك، والظاهر أنه يكتب له الثواب المذكور مضاعفاً أي كل حرف بعشرة حسنات ولا بدع في تفضيل العمل القليل على الكثير فلله تعالى أن يمن بما شاء على من شاء، ألا ترى ما صح أن هذه الأمة أقصر الأمم أعماراً وأكثرها ثواباً وإنكر الخصوصيات مكابرة، ولله تعالى در من قال:

فإن تفق الأنام وأنت منهم ... فإن المسك بعض دم الغزال

وذكر بعضهم أن من قرأها أعطي من الأجر كمن قرأ القرآن اثنتين وعشرين مرة. وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن أبي قلابة ـ وهو من كبار التابعين ـ أن من قرأها فكأنما قرأ القرآن إحدى عشرة مرة.

وعن أبي سعيد أنه قال من قرأ يس مرة فكأنما قرأ القرآن مرتين.

وحديث العشر مرفوع عن ابن عباس ومعقل بن يسار وعقبة بن عامر وأبي هريرة وأنس رضي الله تعالى عنهم فعليه المعول، ووجهه اتصالها بما قبلها على ما قاله الجلال السيوطي أنه لما ذكر في سورة [فاطر: ٣٧، ٤٢] قوله سبحانه: ﴿وجاءكم النذير﴾ وقوله تعالى: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿فلما جاءهم نذير﴾ وأريد به محمد ﷺ وقد أعرضوا عنه وكذبوه افتتح هذه السورة بالإقسام على صحة رسالته عليه الصلاة والسلام وأنه على صراط مستقيم لينذر قوماً ما أنذر آباؤهم وقال سبحانه في [فاطر: ١٣] ﴿وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل﴾ وفي هذه السورة ﴿والشمس تجري لمستقر لها والقمر قدرناه منازل﴾ [يس: ٣٨] إلى غير ذلك ولا يخفى أن أمر المناسبة يتم على تفسير النذير بغيره ﷺ أيضاً فتأمل.

---

(١) وأخرج الخطيب عن أنس مثله ا هـ منه.

بسم الله الرحمن الرحيم

يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾
لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ
أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا
فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ
ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ
وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ
جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ
أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ
﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ
يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ
ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ
شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ
ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾

﴿بسم الله الرَّحْمَن الرَّحيم يس﴾ الكلام فيه كالكلام في **﴿الم﴾** ونحوه من الحروف المقطعة في أوائل السور إعراباً ومعنى عند كثير. وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس أنه قال: يس يا إنسان. وفي رواية أخرى عنه زيادة بالحبشية وفي أخرى عنه أيضاً في لغة طيّ.

قال الزمخشري: إن صح هذا فوجهه أن يكون أصله يا أنيسين فكثر النداء به على ألسنتهم حتى اقتصروا على شطره كما في القسم م الله في أيمن الله. وتعقبه أبو حيان بأن المنقول عن العرب في تصغير إنسان أنيسيان بياء قبل الألف وهو دليل على أن الإنسان من النسيان وأصله أنسيان فلما صغر رده التصغير إلى أصله ولا نعلمهم قالوا في تصغيره أنيسين، وعلى تقدير أنه بقية أنيسين فلا يجوز ذلك إلا أن يبنى على الضم ولا يبقى موقوفاً لأنه منادى مقبل عليه ومع ذلك لا يجوز التصغير في أسماء الأنبياء عليهم السّلام كما لا يجوز في أسماء الله عزّ وجلّ، وما ذكره في ـ م ـ من أنه شطر أيمن قول، ومن النحويين من يقول ـ م ـ حرف قسم وليس شطر أيمن انتهى.

قال الخفاجي: لزوم البناء على الضم مما لا كلام فيه فلعل من فسره بذلك يقرؤه بالضم على الأوجه فيه، وأما

الاعتراضان الآخران فلا ورود لهما أصلاً، فأما الأول فلأن من يقول أنيسيان على خلاف القياس وهو الأصح لا يلزمه فيما غير منه أن يقدره كذلك وهو لم يلفظ به حتى يقال له: إنك نطقت بما لم تنطق به العرب بل هو أمر تقديري، فإذا قال: المقدر مفروض عندي على القياس هل يتوجه عليه السؤال، وأما الأخير فلأن التصغير في نحو ذلك إنما يمتنع منا وأما من الله تعالى فله سبحانه أن يطلق على نفسه عزّ وجلّ وعظماء خلقه ما أراد ويحمل حينئذٍ على ما يليق كالتعظيم والتحبيب ونحوه من معاني التصغير كما قال ابن الفارض:

ما قلت حبيبي من التحقير ... بل يعذب اسم الشيء بالتصغير

والذي قاله أبو حيان في توجيه ذلك أنهم يقولون إيسان بمعنى إنسان ويجمعون على أياسين فهذا منه ولا يخفى أنه يحتاج إلى إثبات وبعده لا يخفى ما في التخريج عليه، وقالت فرقة: يا حرف نداء والسين مقامة مقام إنسان انتزع منه حرف فأقيم مقامه، ونظيره ما جاء في الحديث «كفى بالسيف شا» أي شاهداً، وأيد بما ذهب إليه ابن عباس في ﴿حم عسق﴾ ونحوه من أنها حروف من جملة أسماء له تعالى وهي رحيم وعليم وسميع وقدير ونحو ذلك. وظاهر كلام بعضهم كابن جبير أن يس بمجموعه اسم من أسمائه عليه الصلاة والسلام وهو ظاهر قول السيد الحميري:

يا نفس لا تمحضي بالود جاهدة ... على المودة إلا آل ياسينا

ولتسميته ﷺ بهذين الحرفين الجليلين سر جليل عند الواقفين على أسرار الحروف، وقد تكلمت ولله تعالى الحمد فيما تعلق بهذه الكلمة الشريفة ثلاثة أيام أشرع كل يوم منها بعد العصر وأختم قبيل المغرب وذلك في مجلس وعظي في المسجد الجامع الداودي واليوم لا أستطيع أن أذكر من ذاك بنت شفة بل لا أتذكر منه إلا رسماً هب عليه عاصف الزمان الغشوم فنسفه فحسبي الله عمن سواه فلا رب غيره ولا يرجى إلا خيره.

وقرىء بفتح الياء وإمالتها محضاً وبين بين.

وقرأ جمع بسكون النون مدغمة في الواو، وآخرون بسكونها مظهرة والقراءتان سبعيتان، وقرأ ابن أبي إسحاق وعيسى بفتح النون، قال أبو حاتم قياس قول قتادة إنه قسم أن يكون على حد ـ الله لأفعان ـ بالنصب. ويجوز أن يكون مجروراً بإضمار باء القسم وهو ممنوع من الصرف. وقال الزجاج: النصب على تقدير أتل يس وهذا على قول سيبويه أنه اسم للسورة، وقيل هو مبني والتحريك للجد في الهرب من التقاء الساكنين والفتح للخفة كما في أين، وسبب البناء غير خفي عليك إذا أحطت خبراً بما قرروا في «الم» أول سورة البقرة. ولا تغفل عما قالوا في النصب بإضمار فعل القسم من أنه لا يسوغ لما فيه من جمع قسمين على مقسم عليه واحد وهو مستكره، ولا سبيل إلى جعل الواو بعد للعطف لا للقسم لمكان الاختلاف إعراباً.

وقرأ الكلبي بضم النون وخرج على أنه منادى مقصود بناءً على أنه بمعنى إنسان أو على أنه خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره محذوف، ويقدر هذه إذا كان اسماً للسورة وهذا إن كان اسماً للقرآن وهو يطلق على البعض كما يطلق على الكل، وجعله مبتدأ محذوف الخبر وهو قسم أي يس قسمي نحو أمانة الله لأفعلن بالرفع لا يخفى حاله، وقيل الضمة فيه ضمة بناءً كما في حيث.

وقرأ أبو السمال وابن أبي إسحاق أيضاً بكسرها، وخرج على أنه للجد في الهرب عن الساكنين بما هو الأصلي فتأمل وتذكر ﴿وَالْقُرْآنِ﴾ ابتداء قسم، وجوز أن يكون عطفاً على يس على تقدير كونه مجروراً بإضمار باء القسم لا أنه قسم بعد قسم لما سمعت من كلامهم ﴿الْحَكِيمِ﴾ أي ذي حكمة على أنه صيغة نسبة كلابن وتامر أي متضمن

إياها أو لناطق بالحكمة كالحي على أن يكون من الاستعارة المكنية أو المتصف بالحكمة على أن الإسناد مجازي وحقيقته الإسناد إلى الله تعالى المتكلم به. وفي البحر هو إما فعيل بمعنى مفعل كأعقدت العسل فهو عقيد أي معقد وإما للمبالغة من حاكم ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ جواب للقسم، والجملة لرد إنكار الكفرة رسالته عليه الصلاة والسلام فقد قالوا: ﴿لست مرسلاً﴾ [الرعد: ٤٣] وتقدم ما يشعر بأنهم على جانب عظيم من الإنكار أعني قوله تعالى: ﴿فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً﴾ [فاطر: ٤٢] استكباراً في الأرض ومكر السيىء، وهذه الآية من جملة ما أشير إليه بقوله تعالى في جوابهم عن إنكارهم ﴿قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم﴾ [الرعد: ٤٣] وتخصيص القرآن بالإقسام به أولاً وبوصفه بالحكيم ثانياً تنويه بشأنه على أكمل وجه.

وقوله تعالى: ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ خبر ثانٍ لأن، واختاره الزجاج قائلاً: إنه الأحسن في العربية أو حل من ضميره عليه الصلاة والسلام المستكن في الجار والمجرور أو الواقع اسم إن بناء على رأي من يجوز الحال من المبتدأ، وجوز أن يكون متعلقاً بالمرسلين وليس المراد به الحال أو الاستقبال أي لمن الذين أرسلوا على صراط مستقيم، وأن يكون حالاً من عائد الموصول المستتر في اسم الفاعل، أو حالاً من نفس ﴿المرسلين﴾.

والزمخشري لم يذكر من هذه الأوجه سوى كونه خبراً وكونه صلة للمرسلين، وأياً ما كان فالمراد بالصراط المستقيم ما يعم العقائد والشرائع الحقة وليس الغرض من الإخبار الإعلام بتمييز من أرسل على صراط مستقيم عن غيره ممن ليس على صفته ليقال إن ذلك حاصل قبله لما أن كل أحد يعلم أن المرسلين لا يكونون إلا على صراط مستقيم بل الغرض الأعلام بأنه موصوف بكذا وأن ما جاء به الموصوف بكذا تفخيماً لشأنهما فسلكا في مسلك سلوكاً لطريق الاختصار، وأيضاً التنكير في ﴿صراط﴾ للتفخيم فهو دال على أنه أرسل من بين الصراط المستقيمة على صراط لا يكتنه وصفه وهذا شيء لم يعلم قبل، ولا يرد أن الطريق المستقيم واحد ليس إلا ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فاتبعوه ولا تتبعوا السبل﴾ لأن لكل نبي شارع منهاجاً هو مستقيم وباعتبار الرجوع إلى المرسل تعالى شأنه الكل متحد وباعتبار الاختصاص بالمرسل والشرائع مختلف فصح أنه أرسل من بين الصراط المستقيمة الخ. وأيضاً هو فرض والفرض تعظيم هذا الصراط بأنه لا صراط أقوم منه واقعاً أو مفروضاً ولا نظر إلى أن هنالك آخر أولاً، وهذا قريب من أسلوب مثلك لا يفعل كذا فافهم ولا تغفل.

وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ نصب على المدح أو على المصدرية لفعل محذوف أي نزل تنزيل.

وقرأ جمع من السبعة وأبو بكر وأبو جعفر وشيبة والحسن والأعرج والأعمش بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف والمصدر بمعنى المفعول أي هو تنزيل أي منزل العزيز الرحيم، والضمير للقرآن ويجوز إبقاؤه على أصله يجعله عين التنزيل، وجوز أن يكون خبر ﴿يس﴾ إن كان المراد بها السورة والجملة القسمية معترضة، والقسم لتأكيد المقسم عليه والمقسم به اهتماماً فلا يقال: إن الكفار ينكرون القرآن فكيف يقسم به لإلزامهم.

وقرأ أبو حيوة واليزيدي والقورضي عن أبي جعفر وشيبة بالخفض على البدلية من ﴿القرآن﴾ أو الصوفية له.

وأياً ما كان ففيه إظهار لفخامة القرآن الإضافية بعد بيان فخامته الذاتية بوصفه بالحكمة، وفي تخصيص الاسمين الكريمين المعربين عن الغلبة الكاملة والرحمة الفاضلة حث على الإيمان به ترهيباً وترغيباً وإشعاراً بأن تنزيله ناشىء عن غاية الرحمة حسبما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ﴿لِتُنذِرَ﴾ متعلق بتنزيل أو بفعله المضمر على الوجه الثاني في إعرابه أي نزل تنزيل العزيز الرحيم لتنذر به أو بما يدل عليه ﴿لمن المرسلين﴾ أي أرسلت أو إنك مرسل لتنذر ﴿قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾ أي لم تنذر آباؤهم على ما روي عن قتادة فما

نافية والجملة صفة ﴿قوماً﴾ مبينة لغاية احتياجهم إلى الإنذار، والمراد بالإنذار الأعلام أو التخويف ومفعوله الثاني محذوف أي عذاباً لقوله تعالى: ﴿إنا أنذرناكم عذاباً قريباً﴾ [النبأ: ٤٠] والمراد بآبائهم آباؤهم الأدنون وإلا فالأبعدون قد أنذرهم إسماعيل عليه السّلام وبلغهم شريعة إبراهيم عليه السّلام.

وقد كان منهم من تمسك بشرعه على أتم وجه ثم تراخي الأمر وتطاول المدد، فلم يبق من شريعته عليه السّلام إلا الاسم. وفي البحر الدعاء إلى الله تعالى لم ينقطع عن كل أمة إما بمباشرة من أنبيائهم وإما بنقل إلى وقت بعثة نبينا ﷺ والآيات التي تدل على أن قريشاً ما جاءهم نذير معناها لم يباشرهم ولا آباءهم القريبين. وأما أن النذارة انقطعت فلا، ولما شرعت آثارها ندرس بعث النبي ﷺ وما ذكره المتكلمون من حال أهل الفترات فهو على حسب الفرض ا هـ.

وعليه فالمعنى ما أنذر آباءهم رسول أي لم يباشرهم بالإنذار لا أنه لم ينذرهم منذر أصلاً فيجوز أن يكون قد أنذرهم من ليس بنبي كزيد بن عمرو بن نفيل وقس بن ساعدة فلا منافاة بين ما هنا وقوله تعالى: ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾ [فاطر: ٢٤] وليس في ذلك إنكار الفترة المذكورة في قوله تعالى: ﴿على فترة من الرسل﴾ [المائدة: ١٩] لأنها فترة إرسال وانقطاعها زماناً لا فترة إنذار مطلقاً، وعن عكرمة ﴿ما﴾ بمعنى الذي، وجوز أن تكون موصوفة وهي على الوجهين مفعول ثانٍ لتنذر أي لتنذر قوماً الذي أنذره أو شيئاً أنذره الرسل آباءهم الأبعدين، وقال ابن عطية: يحتمل أن تكون ما مصدرية فتكون نعتاً لمصدر مؤكد أي لتنذر قوماً إنذاراً مثل إنذار الرسل آباءهم الأبعدين، وقيل هي زائدة وليس بشيء ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ هو على الوجه الأول متفرع على نفي الإنذار ومتسبب عنه والضمير للفريقين أي لم ينذر آباؤهم فهم جميعاً لأجل ذلك غافلون، وعلى الأوجه الباقية متعلق بقوله تعالى: ﴿لتنذر﴾ أو بما يفيده ﴿إنك لمن المرسلين﴾ وارد لتعليل إنذاره عليه الصلاة والسلام أو إرساله بغفلتهم المحوجة إليه نحو اسقه فإنه عطشان على أن الضمير للقوم خاصة فالمعنى فهم غافلون عنه أي عما أنذر آباؤهم.

وقال الخفاجي: يجوز تعلقه بهذا على الأول أيضاً وتعلقه بقوله تعالى: ﴿لتنذر﴾ على الوجوه وجعل الفاء تعليلية والضمير لهم أو لآبائهم ا هـ، ولا يخفى عليك أن المنساق إلى الذهن ما قرر أولاً ﴿لَقَدْ حَقَّ﴾ جواب لقسم محذوف أي والله لقد ثبت ووجب ﴿الْقَوْلُ﴾ الذي قلته لإبليس يوم قال: ﴿لأغوينهم أجمعين﴾ [الحجر: ٣٩، ص: ٨٢] وهو ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ [هود: ١١٩، السجدة: ١٣] ﴿عَلَى أَكْثَرِهِمْ﴾ متعلق بحق. والمراد سبق في علمي دخول أكثرهم فيمن أملأ منهم جهنم وهم تبعة إبليس كما يشير إليه تقديم الجنة على الناس وصرح به قوله تعالى: ﴿لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين﴾ [ص: ٨٥].

ولا مانع من أن يراد بالقول لكن المشهور ما تقدم، وظاهر كلام الراغب أن المراد بالقول علم الله تعالى بهم ولا حاجة إلى إلتزام ذلك، وقيل: الجار متعلق بالقول ويقال قال عليه إذا تكلم فيه بالشر، والمراد لقد ثبت في الأزل عذابي لهم، وفيه ما فيه، ويؤيد تعلقه بحق قوله تعالى: ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون﴾ [يونس: ٩٦]، ونقل أبو حيان أن المعنى حق القول الذي قاله الله تعالى على لسان الرسل عليهم السّلام من التوحيد وغيره وبأن برهانه وهو كما ترى.

﴿فَهُمْ﴾ أي الأكثر ﴿لا يُؤْمِنُونَ﴾ بإنذارك إياهم، والفاء تفريعية داخلة على الحكم المسبب عما قبله فيفيد أن ثبوت القول عليهم علة لتكذيبهم وكفرهم وهو علة له باعتبار سبق العلم بسوء اختيارهم وما هم عليه في نفس الأمر فإن علمه تعالى لا يتعلق بالأشياء إلا على ما هي عليه في أنفسها ومآله إلى أن سوء اختيارهم وما هم عليه في نفس الأمر علة لتكذيبهم وعدم إيمانهم بعد الإنذار فليس هناك جبر محض ولا أن المعلوم تابع للعلم.

وقال بعضهم: الفاء إما تفريعية وكون ثبوت القول علة لعدم إيمانهم مبني على أن المعلوم تابع للعلم وإما تعليلية مفيدة أن عدم الإيمان علة لثبوت القول بناءً على أن العلم تابع للمعلوم ولا يلزم الجبر على الوجهين، أما على الثاني فظاهر، وأما على الأول فلأن العلم ليس علة مستقلة عند القائل بذلك بل لاختيارهم وكسبهم مدخل فيه فتأمل.

والتفريع هو الذي أميل إليه ﴿إِنَّا جَعَلْنَا أَعْنَاقِهِمْ﴾ جمع عنق بالضم وبضمتين وهو الجيد ويقال عنيق كأمير وعنق كصرد ﴿أَغْلَالاً﴾ جمع غل بالضم وهو على ما قيل ما يشد به اليد إلى العنق للتعذيب والتشديد، وفي البحر الغل ما أحاط بالعنق على معنى التثقيف والتضييق والتعذيب والأسر ومع العنق اليدان أو اليد الواحدة.

وذكر الراغب أنه ما يقيد به فتجعل الأعضاء وسطه، وأصله من الغلل تدرع الشيء وتوسطه ومنه الغلل للماء الجاري بين الشجر وقد يقال له الغيل، وكأن في الكلام عليه قلباً أي جعلنا أعناقهم في إغلال كما تقول جعلت الخاتم في إصبعي أي جعلت إصبعي في الخاتم، وجوز أن يكون على حد ﴿لأصلبنكم في جذوع النخل﴾ [طه: ٧١] والتنوين للتعظيم والتهويل أي أغلالاً عظيمة هائلة، وإسناد الفعل إلى ضمير العظمة مما يؤيد ذلك ﴿فَهِيَ﴾ أي الأغلال كما هو الظاهر ﴿إِلَى الأَذْقَانِ﴾ جمع ذقن بالتحريك مجتمع اللحيين من أسفلهما، وأل للعهد أو عوض عن المضاف إليه والظرف متعلق بكون خاص خبر هي أي فهي واصلة أو منتهية إلى أذقانهم، والفاء للتفريع، وقيل: لمجرد التعقيب بناءً على عدم حمل التنوين على التعظيم والتهويل، وقوله تعالى: ﴿فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ نتيجة ﴿فهي إلى الأذقان﴾ فالفاء تفريعية أيضاً، والمقمح على ما في النهاية الذي يرفع رأسه ويغض بصره وكأنه أراد المجهول بحيث يرفع الخ.

وقال أبو عبيدة: يقال قمح البعير قموحاً إذا رفع رأسه عن الحوض ولم يشرب والجمع قماح، ومنه قول بشر يصف سفينة أخذهم الميد فيها:

ونحن على جوانبها قعود ... نغض الطرف كالإبل القماح

وقال الليث: هو رفع البعير رأسه إذا شرب الماء الكريه ثم يعود، ومنه قيل للكانونين شهرا قُماح بضم القاف وكسرها لأن الإبل إذا وردت الماء ترفع رؤوسها لشدة برده، وقال الراغب القمح رفع الرأس لسف الشيء المتخذ من القمح أي البر إذا جرى في السنبل من لدن الإنضاج إلى حين الاكتناز ثم يقال لرفع الرأس كيفما كان قمح، وقمح البعير رفع رأسه وأقمحت البعير شددت رأسه إلى خلف، وقيل: المقمح الذي يجذب ذقنه حتى يصير في صدره ثم يرفع، وقال مجاهد: القامح الرافع الرأس الواضع يده على فيه، وقال الحسن: هو الطامح ببصره إلى موضع قدمه، وظاهره يقتضي أن يكون هناك نكس للرأس والمعروف في القمح الرفع، ووجه التفريع أن طوق الغل الذي في عنق المغلول يكون في ملتقى طرفيه تحت الذقن حلقة فيها رأس العمود نادراً من الحلقة إلى الذقن فلا يخليه يطأطىء ويوطىء قذاله فلا يزال مقمحاً لا سيما إذا كان الغل عظيماً، وقال ابن عطية: إن الإغلال عريضة تبلغ بحروفها الأذقان أي فيحصل القمح، وكلام ابن الأثير يشعر أن القمح لضيق الغل، وإن أريد جعلنا في كل من أعناقهم أغلالاً كان أمر القمح أظهر وأظهر، وقال البغوي والطبري والزجاج والطبرسي: ضمير هي للأيدي وإن لم يتقدم لها ذكر لوضوح مكانها من المعنى لأن الغل يتضمن العنق واليد ولذلك سمي جامعة وما يكون في العنق وحده أو في اليد وحدها لا يسمى غلاً فمتى ذكر مع العنق فاليد مرادة أيضاً ومتى ذكر مع اليد كما في قراءة ابن عباس «في أيديهم أغلالاً» وفي قراءة ابن مسعود «في أيمانهم أغلالاً» فالعنق مرادا أيضاً، وهذا ضرب من الإيجاز والاختصار ونظير ذلك قول الشاعر:

وما أدري إذا يممت أرضاً ... أريد الخير أيهما يليني

أألخير الذي أنا أبتغيه أم الشر الذي لا يأتليني

حيث ذكر الخير وحده وقال أيهما أي الخير والشر، وقد علم أن الخير والشر يعرضان للإنسان، واختار الزمخشري ما تقدم ثم قال: والدليل عليه قوله تعالى: ﴿فهم مقمحون﴾ ألا ترى كيف جعل الأقماح نتيجة ﴿فهي إلى الأذقان﴾ ولو كان الضمير للأيدي لم يكن معنى التسبب في الأقماح ظاهراً على أن هذا الإضمار فيه ضرب من التعسف، وترك الظاهر الذي يدعوه المعنى إلى نفسه إلى الباطن الذي يجفو عنه ترك للحق الأبلج إلى الباطل اللجلج ا هـ، وصاحب الانتصاف أراد الانتصار للجماعة فقال: يحتمل أن يكون الفاء في ﴿فهم مقمحون﴾ للتعقيب كسابقه أو للتسبب فإن ضغط اليد مع العنق يوجب الإقماح لأن اليد تبقى ممسكة بالغل تحت الذقن رافعة لها ولأن اليد إذا كانت مطلقة كانت راحة للمغلول فربما يتحيل بها على فكاك الغل فيكون منبهاً على انسداد باب الحيلة ا هـ.

قال صاحب الكشف: والجواب أنه لا فخامة للتعقيب المجرد، ثم إن ما ذكره الزمخشري وقد أشرنا إليه نحن فيما سبق مستقل في حصول الأقماح فأين التعقيب، وبه خرج الجواب عن التسبب، وقوله ولأن اليد الخ لا يستقل جواباً دون الأولين ا هـ، وعلى العلات رجوع الضمير إلى الأغلال هو الحري بالاعتبار وبلاغة الكتاب الكريم تقتضيه ولا تكاد تلتفت إلى غيره ﴿وَجَعَلْنَا﴾ عطف على ﴿جعلنا﴾ السابق ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ من قدامهم ﴿سَداً﴾ عظيماً وقيل نوعاً من السد ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ من ورائهم ﴿سَداً﴾ كذلك والقدام والوراء كناية عن جميع الجهات ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ فغطينا بما جعلناه من السد أبصارهم، وعن مجاهد ﴿فأغشيناهم﴾ فألبسنا أبصارهم غشاوة ﴿فَهُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿لا يُبْصِرُونَ﴾ لا يقدرون على إبصار شيء ما أصلاً.

وقرأ جمع من السبعة وغيرهم «سُداً» بضم السين وهي لغة فيه، وقيل ما كان من عمل الناس فهو بالفتح وما كان من خلق الله تعالى فهو بالضم، وقيل بالعكس. وقرأ ابن عباس وعمر بن عبد العزيز وابن يعمر وعكرمة والنخعي وابن سيرين والحسن وأبو رجاء وزيد بن علي وأبو حنيفة ويزيد البربري ويزيد بن المهلب وابن مقسم «فأغشيناهم» بالعين من العشا وهو ضعف البصر، ومجموع المتعاطفين من قوله تعالى: ﴿إن جعلنا﴾ الخ تأكيد وتقرير لما دل عليه قوله سبحانه: ﴿لقد حق القول على أكثرهم﴾ الخ من سوء اختيارهم وقبح حالهم فإن جعل الله تعالى إياهم بما أظهر فيهم من الإعجاب العظيم بأنفسهم مستكبرين عن اتباع الرسل عليهم السّلام شامخين برؤوسهم غير خاضعين لما جاؤوا به وسد أبواب النظر فيما ينفعهم عليهم بالكلية ليس إلا لأنهم سيئو الاختيار وقبيحو الأحوال قد عشقت ذواتهم ما هم عليه عشقاً ذاتياً وطلبته طلباً استعدادياً فلم تكن لها قابلية لغيره ولم تلتفت إلى ما سواه، وإذا قايست بين ذواتهم، وما هم عليه وبين الجسم والحيز أو الثلاثة والفردية مثلاً لم تكد تجد فرقاً ﴿وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ [النحل: ٣٣] ففي الكلام تشبيهات متعددة كما لوحنا إليه، وهذا الوجه هو الذي يقتضيه ما عليه كثير من الأجلة وإن لم يذكروه في الآية، وفي الانتصاف إذا فرق التشبيه كان تصميمهم على الكفر مشبهاً بالأغلال وكان استكبارهم عن قبول الحق والتواضع لاستماعه مشبهاً بالأقماح لأن المقمح لا يطأطأ رأسه، وقوله تعالى: ﴿فهي إلى الأذقان﴾ تتمة للزوم الإقماح لهم وكان عدم النظر في أحوال الأمم الخالية مشبهاً بسد من خلفهم وعدم النظر في العواقب المستقبلة مشبهاً بسد من قدامهم وفي التيسير جمع الأيدي إلى الأذقان بالأغلال عبارة عن منع التوفيق حتى استكبروا عن الحق لأن المتكبر يوصف برفع العنق والمتواضع بضده كما في وقوله تعالى: ﴿فظلت أعناقهم لها خاضعين﴾ [الشعراء: ٤] ولم يذكر المراد بجعل السد، وذكر الإمام أن المانع عن النظر في الآيات قسمان قسم يمنع عن النظر في الأنفس فشبه ذلك بالغل الذي يجعل صاحبه مقمحاً لا يرى نفسه ولا يقع بصره على بدنه وقسم يمنع عن

النظر في الآفاق فشبه ذلك بالسد المحيط فإن المحاط بالسد لا يقع نظره على الآفاق فلا يظهر له ما فيها من الآيات فمن ابتلي بهما حرم عن النظر بالكلية، واختار بعضهم كون ﴿إنا جعلنا﴾ الخ تمثيلاً مسوقاً لتقرير تصميمهم على الكفر وعدم ارعوائهم عنه فيكون قد مثل حالهم في ذلك بحال الذين غلت أعناقهم، وجوز في قوله تعالى: ﴿وجعلنا﴾ الخ أن يكون تتمة لذلك وتكميلاً له وأن يكون تمثيلاً مستقلاً فإن جعلهم محصورين بين سدين هائلين قد غطيا أبصارهم بحيث لا يبصرون شيئاً قطعاً كافٍ في الكشف عن كمال فظاعة حالهم وكونهم محبوسين في مطمورة الغي والجهالات.

وقال أبو حيان الظاهر أن قوله تعالى: ﴿إنا جعلنا﴾ الآية على حقيقتها لما أخبر تعالى أنهم لا يؤمنون أخبر سبحانه عن شيء من أحوالهم في الآخرة إذا دخلوا النار، والتعبير بالماضي لتحقق الوقوع، ولا يضعف هذا كما زعم ابن عطية قوله تعالى: ﴿فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾ لأن بصر الكافر يومئذٍ حديد يرى قبح حاله، ألا ترى إلى قوله سبحانه: ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً﴾ [الإسراء: ٩٧] وقوله سبحانه: ﴿قال رب لم حشرتني أعمى﴾ [طه: ١٢٥] فإما أن يكون ذلك حالين وإما أن يكون قوله تعالى: ﴿فبصرك اليوم حديد﴾ [ق: ٢٢] كناية عن إدراكه ما يؤول إليه حتى كأنه يبصره، واعترض بعضهم عليه بأنه يلزم أن يكون الكلام أجنبياً في البين وتوجيهه بأنه كالبيان لقوله تعالى: ﴿لقد حق القول على أكثرهم﴾ قد دغدغ فيه، والإنصاف أنه خلاف الظاهر، وقال الضحاك: والفراء في قوله تعالى: ﴿إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً﴾ استعارة لمنعهم من النفقة في سبيل الله تعالى كما قال سبحانه: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك﴾ [الإسراء: ٢٩] ولعله جعل الجملة الثانية استعارة لمنعهم عن رؤية الخير والسعي فيه، ولا يخفى أن كون الكلام على هذا أجنبياً في البين في غاية الظهور، وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ يقرأ في المسجد فيجهر بالقراءة فتأذى به ناس من قريش حتى قاموا ليأخذوه فإذا أيديهم مجموعة إلى أعناقهم وإذا هم لا يبصرون فجاؤوا إلى لنبي ﷺ فقالوا: ننشدك الله تعالى والرحم يا محمد قال ولم يكن بطن من بطون قريش إلا وللنبي ﷺ فيهم قرابة فدعا النبي عليه الصلاة والسلام حتى ذهب ذلك عنهم فنزلت ﴿يس والقرآن الحكيم﴾ إلى قوله سبحانه ﴿أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ فلم يؤمن من ذلك النفر أحد، وروي أن الآيتين نزلتا في بني مخزوم وذلك أن أبا جهل حمل حجراً لينال بها ما يريد برسول الله ﷺ وهو يصلي فأثبتت يده إلى عنقه حتى عاد إلى أصحابه والحجر قد لزق بيده فما فكوه إلا بجهد فأخذه مخزومي آخر فلما دنا من الرسول ﷺ طمس الله تعالى بصره فعاد إلى أصحابه فلم يبصرهم حتى نادوه فقام ثالث فقال: لأشدخن أنا رأسه ثم أخذ الحجر وانطلق فرجع القهقرى ينكص على عقبيه حتى خر على قفاه مغشياً عليه فقيل له: ما شأنك؟ قال: عظيم رأيت الرجل فلما دنوت منه فإذا فحل ما رأيت فحلاً أعظم منه حال بيني وبينه فواللات والعزى لو دنوت منه لأكلني فجعل الغل يكون استعارة عن منع من أراد أذاه عليه الصلاة والسلام وجعل السد استعارة عن سلب قوة الأبصار كما قيل، وقال السدي: السد ظلمة حالت فمنعت الرؤية، وجاء في الآثار غير ذلك مما يقرب منه والربط عليها غير ظاهر، ولعله باعتبار إشارة الآيتين إلى ما هو عليه من التصميم على الكفر وشدة العناد، ومع هذا الأرجح في نظر البليغ حمل الكلام على غير ما تقتضيه ظواهر الآثار مما سمعت وليس فيها ما ينافيه عند التحقيق فتأمل ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ﴾ أي مستو عندهم إنذارك إياهم وعدمه حسبما مر تحقيقه في أوائل سورة البقرة، والظاهر أن العطف على ﴿إنا جعلنا﴾ وكأنه جيء به للتصريح بما هم عليه في أنفسهم بعد الإشارة إليه فيما تقدم بناءً على أنه مما يستتبع الجعل المذكور.

وقريب منه القول بأن ما تقدم لبيان حالهم المجعول وهذا لبيان حالهم من غير ملاحظة جعل وفيه تمهيد لقوله تعالى: ﴿إنما تنذر﴾ الخ. وفي إرشاد العقل السليم هو بيان لشأنهم بطريق التصريح أثر بيانه بطريق التمثيل، وفي الحواشي الخفاجية لم يورد بالفاء مع ترتبه على ما قبله إما تفويضاً لذهن السامع أو لأنه غير مقصود هنا انتهى.

وانظر هل تجد مانعاً من العطف على ﴿لا يبصرون﴾ ليكون خبراً لهم أيضاً داخلاً في حيز الفاء والتفريع على ما تقدم كأنه قيل: فهم سواء عليهم الخ، واختلاف الجملتين بالاسمية والفعلية لا أراك تعده مانعاً، وقوله تعالى: ﴿لا يُؤْمِنُونَ﴾ استئناف مؤكد لما قبله مبين لما فيه من إجمال ما فيه الاستواء أو حال مؤكدة له أو بدل منه.

ولما بَين كون الإنذار عندهم كعدمه عقب ببيان من يتأثر منه فقال سبحانه ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ﴾ أي إنذاراً مستتبعاً للأثر ﴿مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ أي القرآن ما روي عن قتادة بالتأمل فيه والعمل به، وقيل: الوعظ، واتبع بمعنى يتبع، والتعبير بالماضي لتحقق الوقوع أو المعنى إنما ينفع إنذارك المؤمنين الذين اتبعوا، ويكون المراد بمن اتبع المؤمنين وبالإنذار الإنذار عما يفرط منهم بعد الاتباع فلا يلزم تحصيل الحاصل، وقيل: المراد من اتبع في علم الله تعالى وهم الأقلون الذين لم يحق القول عليهم ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ﴾ أي عقابه ولم يغتر برحمته عزّ وجلّ فإنه سبحانه مع عظم رحمته أليم العذاب كما نطق به قوله تعالى: ﴿نبىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم﴾ [الحجر: ٤٩] وأن عذابي هو العذاب الأليم.

ومما قرر يعلم سر ذكر الرحمن مع الخشية دون القهار ونحوه ﴿بِالْغَيْبِ﴾ حال من المضاف المقدر في نظم الكلام كما أشرنا إليه أي خشي عقاب الرحمن حال كون العقاب ملتبساً بالغيب أي غائباً عنه، وحاصله خشي العقاب قبل حلوله ومعاينة أهواله. ويجوز أن يكون حالاً من فاعل ﴿خشي﴾ أي خشي عقاب الرحمن غائباً عن العقاب غير مشاهد له أو خشي غائباً عن أعين الناس غير مظهر الخشية لهم لأنها علانية قلما تسلم عن الرياء، وبعضهم فسر الغيب بالقلب وجعل الجار متعلقاً بخشي أي خشي في قلبه ولم يكن مظهراً للخشية وليس بخاشٍ، قيل: ويجوز جعله حالاً من ﴿الرحمن﴾ ولا يخفى حاله، والكلام في خشي على طرز الكلام في ﴿اتبع﴾ ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ عظيمة لما سلف، وقيل: لما يفرط منه ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ حسن لا يقادر قدره لما أسلف، والفاء لترتيب البشارة أو الأمر بها على ما قبلها من اتباع الذكر والخشية. وفي البحر لما أجدت فيه النذارة فبشره الخ فلا تغفل، وعن قتادة تفسير الأجر الكريم بالجنة والمراد نعيمها الشامل لما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وأجل جميع ذلك رؤية الله عزّ وجلّ.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى﴾ الخ تذييل عام للفريقين المصممين على الكفر والمشفعين بالإنذار ترهيباً وترغيباً ووعيداً ووعداً، وتكرير الضمير لإفادة الحصر أو للتقوية، وما ألطف هذا الضمير الذي عكسه كطرده ها هنا، وضمير العظمة للإشارة إلى جلالة الفعل، والتأكيد للاعتناء بأمر الخبر أو لرد الإنكار فإن الكفرة كانوا يقولون: ﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين﴾ [المؤمنون: ٣٧] أي إنا نحن نحيي الأموات جميعاً ببعثهم يوم القيامة ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ ما أسلفوه من الأعمال الصالحة والطالحة ﴿وَآثَارَهُمْ﴾ التي أبقوها بعدهم من الحسنات كعلم علموه أو كتاب ألفوه أو حبيس وقفوه أو بناء في سبيل الله تعالى بنوه وغير ذلك من وجوه البر ومن السيئات كتأسيس قوانين الظلم والعدوان وترتيب مبادىء الشر والفساد فيما بين العباد وغير ذلك من فنون الشرور التي أحدثوها وسنوها بعدهم للمفسدين.

أخرج ابن أبي حاتم عن جرير بن عبد الله البجلي قال: «قال رسول الله ﷺ من سن سنّة حسنة فله أجرها وأجر

من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ومن سن سنّة سيئة كان عليه وزوها ووزر من عمل بها من بعده لا ينقص من أوزارهم شيئاً ثم تلا ﴿**ونكتب ما قدموا وآثارهم**﴾ وعن أنس أنه قال في الآية: هذا في الخطو يوم الجمعة، وفسر بعضهم الآثار بالخطأ إلى المساجد مطلقاً لما أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر والترمذي وحسنه عن أبي سعيد الخدري قال كان بنو سلمة في ناحية من المدينة فأرادوا أن ينتقلوا إلى قرب المسجد فأنزل الله تعالى: ﴿**إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم**﴾ فدعاهم رسول الله ﷺ فقال: إنه يكتب آثاركم ثم تلا عليهم الآية فتركوا.

وأخرج الإمام أحمد في الزهد وابن ماجة وغيرهما عن ابن عباس قال كانت الأنصار منازلهم بعيدة من المسجد فأرادوا أن ينتقلوا قريباً من المسجد فنزلت ﴿**ونكتب ما قدموا وآثارهم**﴾ فقالوا بل: نمكث مكاننا.

وأنت تعلم أنه لا دلالة فيما ذكر على أن الآثار هي الخطا لا غير وقصاري ما يدل عليه أنها من الآثار فلتحمل الآثار على ما يعمها وغيرها. واستدل بهذين الخبرين ونحوهما على أن الآية مدنية.

وقال أبو حيان: ليس ذلك زعماً صحيحاً وشنع عليه بما ورد مما يدل على ذلك، وانتصر له الخفاجي بأن الحديث الدال معارض بما في الصحيحين أن النبي ﷺ قرأ لهم هذه الآية ولم يذكر أنها نزلت فيهم وقراءته عليه الصلاة والسلام لا تنافي تقدم النزول ومراد أبي حيان هذا لا أنه أنكر أصل الحديث، ولا يخفى أن الحديثين السابقين ظاهران في أن الآية: نزلت يومئذٍ وليس في حديث الصحيحين ما يعارض ذلك، والعجب من الخفاجي كيف خفي عليه هذا، وقيل ما قدموا من النيات وآثارهم من الأعمال، والظاهر أن المراد بالكتابة الكتابة في صحف الملائكة الكرام الكاتبين ولكونها بأمره عزّ وجلّ أسندت إليه سبحانه، وأخرت في الذكر عن الأحياء مع أنها مقدمة عليه لأن أثرها إنما يظهر بعده وعلى هذا يضعف تفسير ما قدموا بالنيات بناءً على ما يدل عليه بعض الأخبار من أن النيات لا تطلع عليها الملائكة عليهم السّلام ولا يؤمرون بكتابتها.

وفسر بعضهم الكتابة بالحفظ أي نحفظ ذلك ونثبته في علمنا لا ننساه ولا نهمله كما يثبت المكتوب، ولعلك تختار أن كتابة ما قدموا وآثارهم كناية عن مجازاتهم عليها أن خيراً فخير وإن شراً فشر وحينئذٍ فوجه ذكرها بعد الأحياء ظاهر.

وعن الحسن والضحاك أن إحياء الله تعالى الموتى أن يخرجهم من الشرك إلى الإيمان وجعلا الموت مجازاً عن الجهل، وتعريف «الموتى» للعهد والكلام عليه توكيد الموعد المبشر به كأنه قيل: إنما ينفع إنذارك في هؤلاء لأنا نحييهم ونكتب صالح أعمالهم وآثارهم ولا يخفى ما في ذلك من البعد. وقرأ زر ومسروق «ويُكْتَبُ» بالياء مبنياً للمفعول «وآثارهم» بالرفع ﴿**وَكُلَّ شَيْءٍ**﴾ من الأشياء كائناً ما كان، والنصب على الاشتغال أي وأحصينا كل شيء ﴿**أَحْصَيْنَاهُ**﴾ أي بيناه وحفظناه، وأصل الإحصاء العد ثم تجوز به عما ذكر لأن العد لأجله.

﴿**فِي إِمَامٍ**﴾ أي أصل عظيم الشأن يؤتم ويقتدى به ويتبع ولا يخالف ﴿**مُّبِينٍ**﴾ مظهر لما كان وسيكون، وهو على ما في البحر حكاية عن مجاهد وقتادة وابن زيد اللوح المحفوظ، وبيان كل شيء فيه إذا حمل العموم على حقيقته بحيث يشمل حوادث الجنة وما يتجدد لأهلها من دون انقطاع على ما نحو ما يحكى من بيان الحوادث الكونية في الجفر الجامع لكنه على طرز أعلا وأشرف، ونحو هذا ما قال غير واحد من اشتمال القرآن الكريم على كل شيء حتى أسماء الملوك ومدد ملكهم أو يقال إن بيان ذلك فيه ليس دفعة واحدة بل دفعات بأن يبين فيه جملة من الأشياء كحوادث ألف سنة مثلاً ثم تمحى عند تمام الألف ويبين فيه جملة أخرى كحوادث ألف أخرى وهكذا، والداعي

لما ذكر أن اللوح عند المسلمين جسم وكل جسم متناهي الأبعاد كما تشهد به الأدلة وبيان كل شيء فيه على الوجه المعروف لنا دفعة مقتض لكون المتناهي ظرفاً لغير المتناهي وهو محال بالبديهة. وإذا أريد بكل شيء الأشياء التي في هذه النشأة وأفعال العباد وأحوالهم فيها فلا إشكال في البيان على الوجه المعروف دفعة.

والذي يترجح عندي أن ما كتب في اللوح ما كان وما يكون إلى يوم القيامة وهو متناهٍ وبعض الآثار تشهد بذلك والمطلق منها محمول على المقيد، وحقيقة اللوح لم يرد فيها ما يفيد القطع ولذا نمسك عن تعيينها، وكون أحد وجهيه ياقوتة حمراء والثاني زمردة خضراء جاء في بعض الآثار ولا جزم لنا بصحته، وكونه أحد المجردات وما من شيء إلا وهو يعلمه بالفعل مما لم يذهب إليه أحد من المسلمين وإنما هو من تخيلات الفلاسفة ومن حذا حذوهم فلا ينبغي أن يعول عليه، وفسر بعضهم الإمام المبين بعلمه تعالى الأزلي كما فسر أم الكتاب في قوله تعالى: ﴿وعنده أم الكتاب﴾ [الرعد: ٣٩] به وهو أصل لا يكون في صفوف صنوف الممكنات ما يخالفه كما يلوح به قول الشافعي:

خلقت العباد على ما علمت ... ففي العلم يجري الفتى والمسن

ووصفه بمبين لأنه مظهر فقد قالوا: العلم صفة يتجلى بها المذكور لمن قامت به أو لأن إظهار الأشياء من خزائن العدم يكون بعد تعلقه فإن القدرة إنما تتعلق بالشيء بعد العلم فالشيء يعلم أولاً ثم يراد ثم تتعلق القدرة بإيجاده فيوجد، ولا يخفى ما في هذا التفسير من ارتكاب خلاف الظاهر وعليه فلا كلام في العموم، نعم في كيفية وجود الأشياء في علمه تعالى كلام طويل محله كتب الكلام. وعن الحسن أنه أريد به صحف الأعمال وليس بذاك. وحكي لي عن بعض غلاة الشيعة أن المراد بالإمام المبين علي كرّم الله تعالى وجهه وإحصاء كل شيء فيه من باب:

ليس على الله بمستنكر ... أن يجمع العالم في واحد

ومنهم من يزعم أن ذلك على معنى جعله كرّم الله تعالى وجهه خزانة للمعلومات على نحو اللوح المحفوظ، ولا يخفى ما في ذلك من عظيم الجهل بالكتاب الجليل نسأل الله تعالى العفو والعافية، ويمكن أن يقال: إنهم أرادوا بذلك نحو ما أراده المتصوفة في إطلاقهم الكتاب المبين على الإنسان الكامل اصطلاحاً منهم على ذلك فيهون أمر الجهل، وكمال علي كرّم الله تعالى وجهه لا ينكره إلا ناقص العقل عديم الدين.

وقرأ أبو السمال «وكلّ» بالرفع على الابتداء ﴿**وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ**﴾ إما عطف على ما قبله عطف القصة على القصة وإما عطف على مقدر أي فأنذرهم واضرب لهم الخ، وضرب المثل يستعمل تارة في تطبيق حالة غريبة بأخرى مثلها كما في قوله تعالى: ﴿ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح﴾ [التحريم: ١٠] الآية. وأخرى في ذكر حالة غريبة وبيانها للناس من غير قصد إلى تطبيقها بنظيرة لها كما في قوله تعالى: ﴿وضربنا لكم الأمثال﴾ [إبراهيم: ٤٥] في وجه أي بينا لكم أحوالاً بديعة هي في الغرابة كالأمثال. فالمعنى على الأول اجعل أصحاب القرية مثلاً لهؤلاء في الغلو في الكفر والإصرار على التكذيب أي طبق حالهم بحالهم على أن ﴿**مثلاً**﴾ مفعول ثانٍ لا ضرب و ﴿**أصحاب القرية**﴾ مفعوله الأول أخر عنه ليتصل به ما هو شرحه وبيانه، وعلى الثاني اذكر وبين لهم قصة هي في الغرابة كالمثل، وقوله سبحانه ﴿**أصحاب القرية**﴾ بتقدير مضاف أي مثل أصحاب القرية وهذا المضاف بدل من ﴿**مثلاً**﴾ بدل كل من كل أو عطف بيان له على القول بجواز اختلافهما تعريفاً وتنكيراً، وجوز أن يكون المقدر مفعولاً وهذا حالاً.

والقرية كما روي عن ابن عباس وبريدة وعكرمة أنطاكية، وفي البحر أنها هي بلا خلاف.

﴿إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ بدل اشتمال ﴿من أصحاب القرية﴾ أو ظرف للمقدر، وجوز أن يكون بدل كل من ﴿أصحاب﴾ مراداً بهم قصتهم وبالظرف ما فيه وهو تكلف لا داعي إليه، وقيل، إذ جاءها دون إذ جاءهم إشارة إلى أن المرسلين أتوهم في مقرهم، والمرسلون عند قتادة وغيره من أجلة المفسرين رسل عيسى عليه السّلام من الحواريين بعثهم حين رفع إلى السماء، ونسبة إرسالهم إليه تعالى في قوله سبحانه:

﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ﴾ بناءً على أنه كان بأمره تعالى لتكميل التمثيل وتتميم التسلية، وقال ابن عباس وكعب هم رسل الله تعالى: واختاره بعض الأجلة وادعى أن الله تعالى أرسلهم ردءاً لعيسى عليه السّلام مقررين لشريعته كهارون لموسى عليهما السّلام، وأيد بظاهر ﴿إذ أرسلنا إليهم اثنين﴾ وقول المرسل إليهم ﴿ما أنتم إلا بشر مثلنا﴾ إذ البشرية تنافي على زعمهم الرسالة من الله تعالى لا من غيره سبحانه، واستدل البعض على ذلك بظهور المعجزة كإبراء الأكمه وإحياء الميت على أيديهم كما جاء في بعض الآثار والمعجزة مختصة بالنبي على ما قرر في الكلام، ومن ذهب إلى الأول أجاب عن الأول بما سمعت وعن الثاني بأنهم إما أن يكونوا دعوهم على وجه فهموا منه أنهم مبلغون عن الله تعالى دون واسطة أو أنهم جعلوا الرسل بمنزلة مرسلهم فخاطبوهم بما يبطل رسالته ونزلوه منزلة الحاضر تغليباً فقالوا ما قالوه، وعن الثالث بأن ما ظهر على أيديهم إن صح الأثر كان كرامة لهم في معنى المعجزة لعيسى عليه السّلام ولا يتعين كونه معجزة لهم إلا إذا كانوا قد ادعوا الرسالة من الله تعالى بدون واسطة وهو أول المسألة، و «إذ» بدل من إذ الأولى، والاثنان قيل يوحنا وبولس، وقال مقاتل تومان وبولس، وقال شعيب الجبائي شمعون ويوحنا، وقال وهب وكعب: صادق وصدوق، وقيل نازوص وماروص.

وقيل ﴿أرسلنا إليهم﴾ دون أرسلنا إليها ليطابق إذ جاءها لأن الإرسال حقيقة إنما يكون إليهم لا إليها بخلاف المجيء وأيضاً التعقيب بقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ عليه أظهر وهو هنا نظير التعقيب في قوله تعالى: ﴿فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت﴾ [الأعراف: ١٦٠] وسميت الفاء الفصيحة لأنها تفصح عن فعل محذوف وكان أصحاب القرية إذ ذاك عباد أصنام ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ أي قويناهما وشددنا قاله مجاهد وابن قتيبة، وقال يقال تعزز لحم الناقة إذا صلب، وقال غيره: يقال عزز المطر الأرض إذا لبدها وشدها ويقال للأرض الصلبة العزاز ومنه العز بمعناه المعروف، ومفعول الفعل محذوف أي فعززناهما ﴿بِثَالِثٍ﴾ لدلالة ما قبله عليه ولأن المقصود ذكر المعزز به.

وهو على ما روي عن ابن عباس شمعون الصفا ويقال سمعان أيضاً، وقال وهب وكعب: شلوم. وعند شعيب الجبائي بولص بالصاد وبعضهم يحكيه بالسين. وقرأ الحسن وأبو حيوة وأبو بكر والمفضل وأبان «فَعَزَزْنَا» بالتخفيف وهو التشديد لغتان كشدة وشدده فالمعنى واحد، وقال أبو علي المخفف من عزه إذا غلبه ومنه قولهم من عزيز أي من غلب سلب، والمعنى عليه فغلبناهم بحجة ثالث. وقرأ عبد الله «بالثالث» ﴿فَقَالُوا﴾ عطف على «فكذبوهما» فعززنا والفاء للتعقيب أي فقال الثلاثة بعد تكذيب الاثنين والتعزيز بثالث ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ﴾ ولا يضر في نسبة القول إلى الثلاثة سكوت البعض إذ يكفي الاتفاق بل قالوا طريقة التكلم مع الغير كون المتكلم واحداً والغير متفقاً معه ﴿قَالُوا﴾ أي أصحاب القرية مخاطبين للثلاثة ﴿مَا أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ من غير مزية لكم علينا موجبة لاختصاصكم بما تدعونه، ورفع ﴿بَشَرٌ﴾ لانتقاض النفي بالأفان ـ ما ـ عملت حملاً على ليس فإذا انتقض نفيها بدخول إلا على الخبر ضعف الشبه فيها فبطل عملها خلافاً ليونس، ومثل صفة ﴿بشر﴾ ولم يكتسب تعريفاً بالإضافة كما عرف في النحو ﴿وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ﴾ مما تدعون من الوحي على أحد وظاهر هذا القول يقتضي إقرارهم بالألوهية لكنهم ينكرون الرسالة ويتوسلون بالأصنام وكان تخصيص هذا الاسم الجليل من بين أسمائه عزّ وجلّ لزعمهم أن الرحمة تأبى إنزال

الوحي لاستدعائه تكليفاً لا يعود منه نفع له سبحانه ولا يتوقف إيصاله تعالى الثواب إلى العبد عليه، وقيل ذكر الرحمن في الحكاية لا في المحكي وهم قالوا لا إله ولا رسالة لما في بعض الآثار أنهم قالوا ألنا إله سوى آلهتنا، والتعبير به لحلمه تعالى عليهم ورحمته سبحانه إياهم بعدم تعجيل العذاب آن إنكارهم ولعل ما تقدم أولى وأظهر ولا جزم بصحة ما ينافيه من الأثر.

﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ﴾ فيما تدعون وهذا تصريح بما قصدوه من الجملتين السابقتين واختيار تكذبون على كاذبون للدلالة على التجدد.

﴿قَالُوا﴾ أي المرسلون ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ استشهدوا بعلم الله تعالى وهو جار مجرى القسم في التأكيد والجواب بما يجاب به، وذكر أن من استشهد به كاذباً يكفر ولا كذلك القسم على كذب، وفيه تحذيرهم معارضة علم الله تعالى، وفي اختيار عنوان الربوبية رمز إلى حكمة الإرسال كما رمز الكفرة إلى ما ينافيه بزعمهم.

وإضافة رب إلى ضمير الرسل لا يأبى ذلك، ويجوز أن يكون اختياره لأنه أوفق بالحال التي هم فيها من إظهار المعجز على أيديهم فكأنهم قالوا ناصرنا بالمعجزات يعلم إنا إليك لمرسلون، وتقديم المسند إليه لتقوية الحكم أو للحصر أي ربنا يعلم لا أنتم لانتفاء النظر في الآيات عنكم ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾ إلا بتبليغ رسالته تعالى تبليغاً ظاهراً بيناً بحيث لا يخفى على سامعه ولا يقبل التأويل والحمل على خلاف المراد أصلاً وقد خرجنا من عهدته فلا مؤاخذة علينا من جهة ربنا كذا قيل، والأولى أن يفسر التبليغ المبين بما قرن بالآيات الشاهدة على الصحة وهم قد بلغوا كذلك بناءً على ما روي من أنهم أبرؤوا الأكمه وأحيوا الميت أو أنهم فعلوا خارقاً غير ما ذكر ولم ينقل لنا ولم يلتزم في الكتاب الجليل ولا في الآثار ذكر خارق كل رسول كما لا يخفى، ثم إن ذلك أما معجزة لهم على القول بأنهم رسل الله تعالى بدون واسطة أو كرامة لهم معجزة لمرسلهم عيسى عليه السّلام على القول بأنهم رسله عليه السّلام، والمعنى ما علينا من جهة ربنا إلا التبليغ البين بالآيات وقد فعلنا فلا مؤاخذة علينا أو ما علينا شيء نطالب به من جهتكم إلا تبليغ الرسالة على الوجه المذكور وقد بلغنا كذلك فأي شيء تطلبون منا حتى تصدقونا بدعوانا ولكون تبليغهم كان بيناً بهذا المعنى حسن منهم الاستشهاد بالعلم فلا تغفل، وجاء كلام الرسل ثانياً في غاية التأكيد لمبالغة الكفرة في الإنكار جداً حيث أتوا بثلاث جمل وكل منها دال على شدة الإنكار كما لا يخفى على من له أدنى تأمل قال السكاكي: أكدوا في المرة الأولى لأن تكذيب الاثنين تكذيب للثالث لاتحاد المقالة فلما بالغوا في تكذيبهم زادوا في التأكيد، وقال الزمخشري: إن الكلام الأول ابتداء أخبار والثاني جواب عن إنكار، ووجه ذلك السيد السند بأن الأول ابتداء أخبار بالنظر إلى أن مجموع الثلاثة لم يسبق منهم أخبار فلا تكذيب لهم في المرة الأولى فيحمل التأكيد فيها على الاعتناء والاهتمام منهم بشأن الخبر انتهى، وفيه أن الثلاثة كانوا عالمين بإنكارهم والكلام المخرج مع المنكر لا يقال له ابتداء أخبار، وقال صاحب الكشف: أراد أنه غير مسبوق بأخبار سابق ولم يرد أنه كلام مع خالي الذهن أو جعل الابتداء باعتبار قول الثالث أو المجموع، وقال الجلبي: لعل مراده أنه بمنزلة ابتداء أخبار بالنسبة إلى إنكارهم الثاني في عدم احتياجه إلى مثل تلك المؤكدات فكان إنكارهم الأول لا يعد إنكاراً بالنسبة إلى إنكارهم الثاني لا أنه ابتداء أخبار حقيقة، ولا يخفى ضعف ذلك، وقال الفاضل اليمني: إنما أكد القول الأول لتنزيلهم منزلة من أنكر إرسال الثلاثة لأنه قد لاح ذلك من إنكار الاثنين فعلى هذا يكون ابتداء أخبار بالنظر إلى إخراج الكلام على مقتضى الظاهر وإنكارياً بالنظر إلى إخراج الكلام لا على مقتضى الظاهر فنظر الزمخشري أدق من نظر السكاكي وإن قال السيد السند بالعكس، ويعلم ما فيه مما تقدم بأدنى نظر، وقال أجل المتأخرين الفاضل عبد الحكيم السالكوتي: عندي أن ما ذكره السكاكي

مبني على عطف ﴿فقالوا إنا إليكم مرسلون﴾ على ﴿فكذبوهما فعززنا﴾ والفاء للتعقيب فيكون الكلام صادراً عن الثلاثة بعد تكذيب الاثنين والتعزيز بثالث فكان كلاماً مع المنكرين فجاء مؤكداً، وقول الزمخشري مبني على أنه عطف على ﴿إذ جاءها المرسلون﴾ وأنه تفصيل للقصة المذكورة إجمالاً بقوله سبحانه: ﴿إذ جاءها المرسلون﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فعززنا بثالث﴾ فالفاء للتفصيل فقوله تعالى: ﴿فقالوا إنا إليكم مرسلون﴾ بيان لقوله عزّ وجلّ: ﴿إذ أرسلنا إليهم اثنين﴾ فيكون ابتداء إخبار صدر من الاثنين قالوا بصيغة الجمع تقريراً لشأن الخبر وقوله تعالى: ﴿قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا﴾ الخ بيان لقوله تعالى: ﴿فكذبوهما﴾ وقوله سبحانه: ﴿ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون وما علينا إلا البلاغ المبين﴾ بيان لقوله عزّ شأنه: ﴿فعززنا بثالث﴾ فإن البلاغ لمبين هو إثباتهم الرسالة بالمعجزات وهو التعزيز والغلبة ثم قال: ولا يخفى حسن هذا التفسير لموافقته للقصة المذكورة في التفاسير وملاءمته لسوق الآية فإنها ذكرت أولاً إجمالاً بقوله تعالى: ﴿واضرب له مثلاً أصحاب القرية﴾ ثم فصلت بعض التفصيل بقوله تعالى: ﴿إذ جاءها المرسلون﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿فعززنا بثالث﴾ ثم فصلت تفصيلاً تاماً بقوله تعالى: ﴿قالوا إنا إليكم لمرسلون﴾ إلى قوله تعالى: ﴿خامدون﴾ وعدم احتياجه إلى جعل الفاء في ﴿فكذبوهما﴾ فصيحة بخلاف تفسير السكاكي فإنه يحتاج إلى تقدير فدعوا إلى التوحيد ا هـ.

ولا يخفى على المنصف أنه تفسير في غاية البعد والكلام عليه واصل إلى رتبة الألغاز، ومع هذا فيه ما فيه، وأنا أقول: لا يبعد أن يكون الزمخشري أراد بكلامه أحد الاحتمالات التي ذكرت في توجيهه إلا أن ما ذهب إليه السكاكي أبعد عن التكلف وأسلم عن القيل والقال ﴿قَالُوا﴾ لما ضاقت عليهم الحيل وعييت بهم العلل ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي تشاءمنا بكم جرياً على ديدن الجهلة حيث يتيمنون بكل ما يوافق شهواتهم وإن كان مستجلباً لكل شر ويتشاءمون بما لا يوافقها وإن كان مستتبعاً لكل خير أو بناءً على أن الدعوة لا تخلو عن الوعيد بما يكرهونه من إصابة ضر إن لم يؤمنوا فكانوا ينفرون عنه، وقد قال مقاتل: إنه حبس عنهم المطر وقال آخر: أسرع فيهم الجذام عند تكذيبهم الرسل عليهم السّلام، وقال ابن عطية: أن تطير هؤلاء كان بسبب ما دخل فيهم من اختلاف الكلمة وافتتان الناس، وأصل التطير التفاؤل بالطير البارح والسانح ثم عم، وكان مناط التطير بهم مقالتهم كما يشعر به قوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا﴾ أي عن مقالتكم هذه.

﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ بالحجارة قاله قتادة وذكر فيه احتمالان احتمال أن يكون الرجم للقتل أي لنقتلنكم بالرجم بالحجارة واحتمال أن يكون للأذى أي لنؤذينكم بذلك، وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد أنه قال: أي لنشتمنكم ثم قال: والرجم في القرآن كله الشتم.

﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال في البحر: وهو الحريق، وقيل عذاب غيره تبقى معه الحياة، والمراد لنقتلنكم بالحجارة أو لنعذبنكم إذا لم نقتلكم عذاباً أليماً لا يقادر قدره تتمنون معه القتل، وقيل أريد بالعذاب الأليم العذاب الروحاني وأريد بالرجم بالحجارة النوع المخصوص من الأذى الجسماني فكأنهم قد رددوا الأمر بين إيذاء جسماني وإيذاء روحاني، وقيل أريد بالعذاب الأليم الجسماني وبالرجم العذاب والأذى الروحاني بناءً على أن المراد به الشتم، وقيل غير ذلك ﴿قَالُوا﴾ أي الرسل رداً عليهم ﴿طَائِرُكُم﴾ أي سبب شؤمكم ﴿مَّعَكُمْ﴾ لا من قبلنا كما تزعمون وهو سوء عقيدتكم وقبح أعمالكم.

وأخرج ابن المنذر وعن ابن عباس أنه فسر الطائر بنفس الشؤم أي شؤمكم معكم وهو الإقامة على الكفر وأما نحن فلا شؤم معنا لأنا ندعو إلى التوحيد وعبادة الله تعالى وفيه غاية الدين والخير والبركة، وعن أبي عبيدة والمبرد

﴿طائركم﴾ أي حظكم ونصيبكم من الخير والشر معكم من أفعالكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

وقرأ الحسن وابن هرمز وعمرو بن عبيد وزر بن حبيش «طيركم» بياء ساكنة بعد الطاء، قال الزجاج: الطائر والطير بمعنى، وفي القاموس الطير جمع طائر وقد يقع على الواحد وذكر أن الطير لم يقع في القرآن الكريم إلا جمعاً كقوله تعالى: ﴿والطير صافات﴾ [النور: ٤١] فإذا كان في هذه القراءة كذلك فطائر وإن كان مفرداً لكنه بالإضافة شامل لكل ما يتطير به فهو في معنى الجمع فالقراءتان متوافقتان، وعن الحسن أنه قرأ «أطيركم» مصدر أطير الذي أصله تطير فأدغمت التاء في الطاء فاجتلبت همزة الوصل في الماضي والمصدر ﴿أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ﴾ بهمزتين الأولى همزة الاستفهام والثانية همزة إن الشرطية حققها الكوفيون وابن عامر وسهلها باقي السبعة.

واختلف سيبويه ويونس فيما إذا اجتمع استفهام وشرط أيهما يجاب فذهب سيبويه إلى إجابة الاستفهام أي تقدير المستفهم عنه وكأنه يستغني به عن تقدير جواب الشرط فالمعنى عليه أئن ذكرتم ووعظتم بما فيه سعادتكم تتطيرون أو تتوعدون أو نحو ذلك ويقدر مضارع مرفوع وإن شئت قدرت ماضياً كتطيرتم.

وذهب يونس إلى إجابة الشرط وكأنه يستغني به عن إجابة الاستفهام وتقدير مصب له فالتقدير أئن ذكرتم تتطيروا أو نحوه مما يدل عليه ما قبل ويقدر مضارع مجزوم وإن شئت قدرت ماضياً مجزوم المحل. وقرأ زر بهمزتين مفتوحتين وهي قراءة أبي جعفر. وطلحة إلا أنهما لينا الثانية بين بين، وعلى تحقيقهما جاء قول الشاعر:

إن كـنـت داود بـن أحـوى مـرجـلاً ... فـلـسـت بـراع لابـن عـمـك مـحـرمـا

فالهمزة الأولى للاستفهام والثانية همزة إن المصدرية والكلام على تقدير حرف لام الجر أي ألأن ذكرتم تطيرتم. وقرأ الماجشون يوسف بني عقوب المدني بهمزة واحدة مفتوحة فيحتمل تقدير همزة الاستفهام فتتحد هذه القراءة والتي قبلها معنى، ويحتمل عدم تقديرها فيكون الكلام على صورة الخبر، وهو على ما قيل مسوق للتعجب والتوبيخ، وتقدير حرف الجر على حاله، والجر متعلق بمحذوف على ما يشعر به كلام الكشاف أي تطيرتم لأن ذكرتم، وقال ابن جني ﴿إن ذكرتم﴾ على هذه القرءة معمول ﴿طائركم معكم﴾ فإنهم لما قالوا ﴿إنا تطيرنا بكم﴾ أجيبوا بل طائركم معكم إن ذكرتم أي هو معكم لأن ذكرتم فلم تذكروا ولم تنتهوا فاكتفي بالسبب الذي هو التذكير عن المسبب الذي هو الانتهاء كما وصفوا الطائر موضع مسببه وهو التشاؤم لما كانوا يألفونه من تكارههم نعيب الغراب أو بروحه. وقرأ الحسن بهمزة واحدة مكسورة وفي ذلك احتمالان تقدير الهمزة فتتحد هذه القراءة وقراءة الجمهور وعدم تقديرها فيكون الكلام على صورة الخبر والجواب محذوف لدلالة ما قبل عليه وتقديره كما تقدم، وقرأ أبو عمرو في رواية وزر أيضاً بهمزتين مفتوحتين بينهما مدة كأنه استثقل اجتماعهما ففصل بينهما بألف. وقرأ أيضاً أبو جعفر والحسن وكذا قرأ قتادة والأعمش وغيرهما «أين» بهمزة مفتوحة وياء ساكنة وفتح النون «ذكرتم» بتخفيف الكاف على أن أين ظرف أداة شرط وجوابها محذوف لدلالة طائركم عليه على ما قيل أي أين ذكرتم صحبكم طائركم والمراد شؤمكم معكم حيث جرى ذكركم وفيه من المبالغة بشؤمهم ما لا يخفى.

وفي البحر من جوز تقديم الجزاء على الشرط وهم الكوفيون وأبو زيد والمبرد يجوز أن يكون الجواب طائركم معكم وكان أصله أين ذكرتم فطائركم معكم فلما قدم حذفت الفاء ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ أي عادتكم الإسراف ومجاوزة الحد في العصيان مستمرون عليه فمن ثم أتاكم الشؤم لا من قبل رسل الله تعالى وتذكيرهم فهو إضراب عما يقتضيه قوله تعالى: ﴿أئن ذكرتم﴾ من إنكار أن يكون ما هو سبب السعادات أجمع سبب الشؤم لأنه تنبيه وتعريك إلى البت عليهم بلزام الشؤم وإثبات الإسراف الذي هو أبلغ وهو جالب الشؤم كله أو بل ﴿أنتم قوم مسرفون﴾ في

ضلالكم متمادون في غيكم حيث تتشاءمون بمن يجب التبرك به من الهداة لدين الله تعالى فهو إضراب عن مجموع الكلام أجابوهم بأنهم جعلوا أسباباً للسعادة مدمجين فيه التنبيه على سوء صنيعهم في الحرمان عنها ثم أضربوا عنه إلى ما فعل القوم من التعكيس لما يقتضيه النظر الصحيح فتأمل.

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الـمَدِينَةِ﴾ أي من أبعد مواضعها ﴿رَجُلٌ﴾ أي رجل عند الله تعالى فتنوينه للتعظيم، وجوز أن يكون التنكير لإفادة أن المرسلين لا يعرفونه ليتواطؤوا معه واسمه ـ على ما روي عن ابن عباس وأبي مجلز وكعب الأحبار ومجاهد ومقاتل ـ حبيب وهو ابن إسرائيل على ما قيل، وقيل: ابن مري وكان على المشهور نجاراً، وقيل: كان حراثاً، وقيل: قصاراً، وقيل: إسكافاً، وقيل: نحاتاً للأصنام ويمكن أن يكون جامعاً لهذه الصفات، وذكر بعضهم أنه كان في غار مؤمناً يعبد ربه عزّ وجلّ فلما سمع أن قومه كذبوا الرسل جاء ﴿يَسْعَى﴾ أي يعدو ويسرع في مشيه حرصاً على نصح قومه، وقيل: إنه يسمع أن قومه عزموا على قتل الرسل فقصدي وجه الله تعالى بالذب عنهم فسعى هنا مثلها في قوله تعالى: ﴿وسعى لها سعيها﴾ [الإسراء: ١٩] وهو مجاز مشهور وكونه في غار لا ينافي مجيئه من أقصى المدينة لجواز أن يكون في أقصاها غار، نعم هذا القول ظاهر في أنه كان مؤمناً وهو ينافي أنه كان نحاتاً للأصنام. وأجيب بأن المراد ينحت التماثيل لا للعبادة وكان في تلك الشريعة مباحاً، وحكي القول بإيمانه عن ابن أبي ليلى، ونقل في البحر عنه أنه قال: سباق الأمم ثلاثة لم يكفروا قط طرفة عين علي بن أبي طالب وصاحب يس ومؤمن آل فرعون.

وذكر الزمخشري وجماعة هذا حديثاً عن رسول الله ﷺ وكذا ذكروا أنه ممن آمن برسول الله ﷺ كما آمن به تبع الأكبر وورقة بن نوفل وغيرهما، ولم يؤمن أحد بنبي غيره عليه الصلاة والسلام قبل ظهوره.

وقيل كان مجذوماً وكان منزله أقصى باب من أبواب المدينة عبد الأصنام سبعين سنة يدعوهم لكشف ضره فلم يكشف فلما دعاه الرسل إلى عبادة الله تعالى قال: هل من آية؟ قالوا: نعم ندعو ربنا القادر يفرج عنك ما بك فقال: إن هذا لعجب لي سبعون سن أدعو هذه الآلهة فلم تستطع تفريجه فكيف يفرجه ربكم في غداة واحدة؟ قالوا: إن هذا لعجب لي سبعون سنة أدعو هذه الآلهة فلم تستطع تفريجه فكيف يفرجه ربكم في غداة واحدة؟ قالوا: ربنا على ما يشاء قدير وهذه لا تنفع شيئاً ولا تضر فآمن ودعوا ربهم سبحانه فكشف عزّ وجلّ ما به كأن لم يكن به بأس فأقبل على التكسب فإذا أمسى تصدق بنصف كسبه وأنفق النصف الآخر على نفسه وعياله فلما هم قومه بقتل الرسل جاء من أقصى المدينة يسعى، وعلى هذا نحته للأصنام غير مشكل ولا يحتاج إلى ذلك الجواب البعيد، نعم بين هذا وبين خبر سباق الأمم ثلاثة وأنه ممن آمن برسول الله ﷺ كما آمن تبع منافاة، وكون إيمانه به عليه الصلاة والسلام إنما كان على يد الرسل وإن كان خلاف الظاهر دافع للمنافاة بينه وبين الأخير فتبقى المنافاة بينه وبين الخبر الأول إلا أن يقال: المراد سباق الأمم إلى الإيمان بعد الدعوة ثلاثة لم يكفروا بعدها قط طرفة عين، ومما يدل بظاهره أن الرجل لم يكن قبل مؤمناً ما حكي أن المرسلين اللذين أرسلا أولاً لما قربا إلى المدينة رأياه يرعى غنماً فسألهما فأخبراه فقال: أمعكما آية؟ فقالا: نشفي المريض ونبرىء الأكمه والأبرص وكان له ولد مريض فمسحاه فبرىء فآمن، وحمل آمن على أظهر الإيمان خلاف الظاهر، والذي يترجح في نظري أنه كان مؤمناً بالمرسلين قبل مجيئه ونصحه لقومه ولا جزم لي بإيمانه ولا عدمه قبل إرسال الرسل، وظواهر الأخبار في ذلك متعارضة ومع هذا لم يتحقق عندي صحة شيء منها والله أعلم تعالى أعلم بحقيقة الحال.

وجاء ﴿من أقصى المدينة﴾ هنا مقدماً على ﴿رجل﴾ عكس ما جاء في القصص وجعله أبو حيان من التفنن في البلاغة.

وقال الخفاجي: قدم الجار والمجرور على الفاعل الذي حقه التقديم بياناً لفضله إذ هداه الله تعالى مع بعده عنهم وإن بعده لم يمنعه عن ذلك ولذا عبر بالمدينة هنا بعد التعبير بالقرية إشارة إلى السعة وإن الله تعالى يهدي من يشاء سواء قرب أو بعد، وقيل قدم للاهتمام حيث تضمن الإشارة إلى أن إنذارهم قد بلغ أقصى المدينة فيشعر بأنهم أتوا بالبلاغ المبين، وقيل إنه لو أخر توهم تعلقه بيسعى فلم يفد أنه من أهل المدينة مسكنه في طرفها وهو المقصود، وجملة ﴿**يسعى**﴾ صفة ﴿**رجل**﴾ وجوز كونها حالاً منه من جوز مجيء الحال من النكرة، وقوله تعالى: ﴿**قَالَ**﴾ استئناف بياني كأنه قيل: فماذا قال عند مجيئه؟ فقيل: قال ﴿**يَا قَومِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ**﴾ وجوز كونه بياناً للسعي بمعنى قصد وجه الله عزّ وجلّ ولا يخفى ما فيه، والتعرض لعنوان رسالتهم لحثهم على اتباعهم كما أن خطابهم بيا قوم لتأليف قلوبهم واستمالتها نحو قبول نصيحته، وقوله تعالى: ﴿**اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً**﴾ تكرير للتأكيد وللتوسل به إلى وصفهم بما يتضمن نفي المانع عن اتباعهم بعد الإشارة إلى تحقق المقتضى، وقوله سبحانه: ﴿**وَهُمْ مُهْتَدُونَ**﴾ أي ثابتون على الاهتداء بما هم عليه إلى خير الدنيا والآخرة جملة حالية فيها ما يؤكد كونهم لا يسألون الأجر ولا ما يتبعه من طلب جاه وعلو ولذا جعلت إيغالاً حسناً نحو قول الخنساء:

وإن صخراً لتأتم الهداة به ... كأنه علم في رأسه نار

والظاهر أن الرجل لم يقل ذلك إلا بعد سبق إيمانه، وروي أنه لما بلغته الدعوة جاء يسعى فسمع كلامهم وفهمه ثم قال لهم: أتطلبون أجراً على دعوتكم هذه؟ قالوا: لا فدعا عند ذلك قومه إلى اتباعهم والإيمان بهم قائلاً: ﴿**يا قوم**﴾ الخ، وللنحويين في مثل هذا التركيب وجهان، أحدهما أن تكون ﴿**من**﴾ بدلاً من ﴿**المرسلين**﴾ بإعادة العامل كما أعيد إذا كان حرف جر نحو قوله تعالى: ﴿**لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم**﴾ وإليه ذهب بعضهم وثانيهما وإليه ذهب الجمهور أنه ليس ببدل فإنه مخصوص بما إذا كان العامل المعاد حرف جر أما إذا كان رافعاً أو ناصباً فيسمون ذلك بالتتبيع لا بالبدل، واستدل بالآية على نقص من يأخذ أجرة على شيء من أفعال الشرع والبحث مستوفى في الفروع ﴿**وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي**﴾ تلطف في إرشاد قومه بإيراده في معرض المناصحة لنفسه وإمحاض النصح حيث أراهم أنه اختار لهم ما يختار لنفسه والمراد تقريعهم على ترك عبادة خالقهم إلى عبادة غيره كم ينبيء عنه قوله: ﴿**وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ مبالغة في تهديدهم بتخويفهم بالرجوع إلى شديد العقاب مواجهة وصريحاً ولو قال: وإليه أرجع كان فيه تهديد بطريق التعريض، وعد التعبير بإليه ترجعون بعد التعبير بما لي لا أعبد من باب الالتفات لمكان التعريض بالمخاطبين في ﴿**ما لي لا أعبد**﴾ الخ فيكون المغبر عنه في الأسلوبين واحداً بناءً على ما ذهب إليه الخطيب والسعد التفتازاني من أن التعريض إما مجاز أو كناية وهو ها هنا مجاز لامتناع إرادة الموضوع له فيكون اللفظ مستعملاً في غير ما وضع له فيتحد المعبر عنه، وحقق السيد السند أن المعنى التعريضي من مستتبعات الترتيب واللفظ ليس بمستعمل فيه بل هو بالنسبة إلى المستعمل فيه إما حقيقة أو مجاز أو كناية وعليه فضمير المتكلم في ﴿**ما لي**﴾ الخ ليس مستعملاً في المخاطبين فلا يكون المعبر عنه في الأسلوبين واحداً فلا التفات، وجوز بعضهم كون الآية من الاحتباك والأصل ﴿**وما لي لا أعبد الذي فطرني**﴾ وإليه أرجع ومالكم لا تعبدون الذي فطركم وإليه ترجعون فحذف من الأول نظير ما ذكر في الثاني وبالعكس وهو مفوت لما سمعت، وظاهر كلام الواحدي أنه لا تعريض في الآية حيث قال: لما قال الرجل: ﴿**يا قوم اتبعوا المرسلين**﴾ الخ رفعوه إلى الملك فقال له الملك: أفأنت تتبعهم؟ فقال: ﴿**ما لي لا أعبد الذي فطرني**﴾ أي أي شيء لي إذا لم أعبد خالقي ﴿**وإليه ترجعون**﴾ تردون عند البعث فيجيزكم بكفركم، ورد عليه بأنه إذا رجع الإنكار إليه دون القوم لم يكن لخطابهم بترجعون معنى وكان الظاهر أرجع.

وأجيب بأنه يمكن أن يقال: إن الرجل كان في غيظ شديد من تكذيبهم الرسل وتوعدهم إياهم فانتهز الفرصة للانتقام فلما تمكن من تهديدهم أوقع قوله: **﴿وإليه ترجعون﴾** في البين أي ما لي لا أعبد الذي من عليّ بنعمة الإيجاد ونعمة الانتقام منكم والتشفي من غيظكم إذ ترجعون إليه فيجزيكم بكفركم وتكذيبكم الرسل وعنادكم، وأنت تعلم أن النظم الجليل لا يساعد على هذا وهو ظاهر فيما تقدم، وقد عاد إلى المساق الأول من التلطف بالإرشاد فقال: **﴿أأتخذ من دُونه آلهةً﴾** إنكار ونفي لاتخاذ جنس الآلهة على الإطلاق وفيه من تحميق من يعبد الأصنام ما فيه.

وقوله تعالى: **﴿إن يُردنِ الرَّحْمٰنُ بضُرّ لا تُغْن عَنّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً﴾** استئناف سيق لتعليل النفي المذكور، وجعله صفة لآلهة كما ذهب إليه البعض ربما يوهم أن هناك آلهة ليست كذلك، ومعنى **﴿لا تغني﴾** الخ لا تنفعني شيئاً من النفع، وهو إما على حد. لا ترى الضب بها ينجحر. أي لا شفاعة لهم حتى تنفعني، وإما على فرض وقوع الشفاعة أي لا تغني عني شفاعتهم لو وقعت شيئاً **﴿وَلا يُنْقِذُون﴾** يخلصون من ذلك الضر بالنصر والمظاهرة، وهو ترق من الأدنى إلى الأعلى بدأ أولاً بنفي الجاه وذكر ثانياً انتفاء القدرة وعبر عنه بانتفاء الإنقاذ لأنه نتيجته، وفتح ياء المتكلم في **﴿يردني﴾** طلحة السمان على ما قال ابن عطية، وقال ابن خالويه: طلحة بن مصرف وعيسى الهمذاني وأبو جعفر، ورويت عن نافع وعاصم وأبي عمرو، وقال الزمخشري: وقرىء **﴿إن يردني الرحمن بضر﴾** بمعنى إن يوردني ضراً أي يجعلني مورداً للضر ا هـ، قال أبو حيان: كأنه والله تعالى أعلم رأى في كتب القراءات «يَرِدْنِي» بفتح الياء فتوهم أنها ياء المضارعة فجعل الفعل متعدياً بالياء المعدية كالهمزة فلذلك أدخل عليه همزة التعدية ونصب به اثنين، والذي في كتب الشواذ أنها ياء الإضافة المحذوفة خطاً ونطقاً لالتقاء الساكنين، قال في كتاب ابن خالويه: بفتح الياء ياء الإضافة، وقال في اللوامح: «أن يردني الرحمن» بالفتح وهو أصل الياء البصرية أي المثبتة بالخط الذي يرى بالبصر لكن هذه محذوفة ا هـ كلامه، وحسن الظن بالزمخشري يقتضي خلاف ما ذكره **﴿إنّي إذاً﴾** أي إذا اتخذت من دونه آلهة **﴿لَفِي ضَلاَل مُبين﴾** فإن إشراك ما يصنع وليس من شأنه النفع ولا دفع الضر بالخالق المقتدر الذي لا قادر غيره ولا خير إلا خيره ضلال وخطأ بين لا يخفى على من له أدنى تمييز **﴿إنّي آمَنْتُ بربّكُمْ﴾** الظاهر أن الخطاب لقومه شافههم بذلك وصدع بالحق إظهاراً للتصلب في الدين وعدم المبالاة بما يصدر منهم، والجملة خبرية لفظاً ومعنى، والتأكيد قيل إنهم لم يعلموا من كلامه أنه آمن بل ترددوا في ذلك لما سمعوا منه ما سمعوا.

وإضافة الرب إلى ضميرهم لتحقيق الحق والتنبيه على بطلان ما هم عليه من اتخاذ الأصنام أرباباً أي إني آمنت بربكم الذي خلقكم **﴿فَاسْمَعُون﴾** أي فاسمعوا قولي فإني لا أبالي بما يكون منكم على ذلك، وقيل: مراده دعوتهم إلى الخير الذي اختاره لنفسه، وقيل لم يرد بهذا الكلام إلا أن يغضبهم ويشغلهم عن الرسل بنفسه لما رآهم لا ينجع فيهم الوعظ وقد عزموا على الإيقاع بهم وليس بشيء وقدر بعضهم المضاف المحذوف عاماً وفسر السماع بالقبول كما في سمع الله تعالى لمن حمده أي فاسمعوا جميع ما قلته واقبلوه وهو مما يسمع.

وجعل الخطاب للقوم في الجملتين هو المروي عن ابن عباس وكعب ووهب وأخرج الحاكم عن ابن مسعود أنه قال: لما قال صاحب يس **﴿يا قوم اتبعوا المرسلين﴾** خنقوه ليموت فالتفت إلى الأنبياء فقال: **﴿إني آمنت بربكم فاسمعون﴾** أي فاشهدوا فالخطاب فيهما للرسل بطريق التلوين، وأكد الخبر إظهاراً لصدوره عنه بكمال الرغبة والنشاط، وأضاف الرب إلى ضميرهم روما لزيادة التقرير وإظهاراً للإختصاص والاقتداء بهم كأنه قال: بربكم الذي أرسلكم أو الذي تدعوننا إلى الإيمان به، وطلب السماع منهم ليشهدوا له بالإيمان عند الله عزّ وجلّ كما يشير إليه كلام ابن مسعود رضي الله تعالى عنه، وقيل الخطاب الأول لقومه والثاني للرسل خاطبهم على جهة الاستشهاد بهم

والاستحفاظ للأمر عندهم، وقيل الخطابان للناس جميعاً، وروي عن عاصم أنه قرأ «فاسمعونَ» بفتح النون، قال أبو حاتم: هذا خطأ لا يجوز لأنه أمر فإما أن تحذف كما حذفت نون الإعراب ويقال فاسمعوا وإما أن تبقى وتكسر، ومن الناس من وجهه بأن الأصل فاسمعونا أي فاسمعوا كلامنا أي كلامي وكلامهم لتشهدوا بما كان مني ومنهم.

﴿قِيلَ ادْخُلِ الجَنَّةَ﴾ استئناف لبيان ما وقع له بعد قوله ذلك، والظاهر أن الأمر إذن له بدخول الجنة حقيقة وفي ذلك إشارة إلى أن الرجل قد فارق الدنيا فعن ابن مسعود أنه بعد أن قال ما قال قتلوه بوطء الأرجل حتى خرج قصبه من دبره وألقى في بئر وهي الرس، وقال السدي: رموه بالحجارة وهو يقول: اللهم اهدِ قومي حتى مات، وقال الكلبي: رموه في حفرة وردوا التراب عليه فمات، وعن الحسن حرقوه حتى مات وعلقوه في بر المدينة وقبره في سور أنطاكية، وقيل: نشروه بالمنشار حتى خرج من بين رجليه.

ودخوله الجنة بعد الموت دخول روحه وطوافها فيها كدخول سائر الشهداء، وقيل الأمر للتبشير لا للإذن بالدخول حقيقة قالت له ملائكة الموت ذلك بشارة له بأنه من أهل الجنة يدخلها إذا دخلها المؤمنون بعد البعث، وحكي نحو ذلك عن مجاهد.

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أنه قال في قوله تعالى: ﴿قيل ادخل الجنة﴾ وجبت له الجنة، وجاء في رواية عن الحسن أنه قال: لما أراد قومه قتله رفعه الله تعالى إلى السماء حياً كما رفع عيسى عليه السّلام إلى السماء فهو في الجنة لا يموت إلا بفناء السماء وهلاك الجنة فإذا أعاد الله تعالى الجنة أعيد له دخولها فالأمر كما في الأول، والجمهور على أنه قتل، وادعى ابن عطية أنه تواتر الأخبار والروايات بذلك، وقول قتادة أدخله الله تعالى الجنة وهو فيها حي يرزق ليس نصاً في نفي القتل. وفي البحر أنه أراد بقوله وهو فيها حي يرزق قوله تعالى: ﴿بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ [آل عمران: ١٦٩] وقال بعضهم: الجملة جواب سؤال مقدر كأنه قيل: ما حاله عند لقاء ربه عزّ وجلّ بعد ذلك التصلب في دينه. فقيل: قيل أدخل الجنة، والتعبير بالماضي لتحقق الوقوع، ولعل الأولى ما أشرنا إليه أولاً، وإنما لم يقل قيل له لأن الغرض المهم بيان المقول لا القائل والمقول له، وقوله تعالى:

﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ المُكْرَمِينَ﴾ استئناف بياني أيضاً كأنه قيل بعد أن أخبر عنه بما أخبر: فماذا قال عند نيله تلك الكرامة السنّية؟ قال الخ، وإنما تمني علم قومه بحاله ليحملهم ذلك على اكتساب مثله بالتوبة عن الكفر والدخول في الإيمان والطاعة جرياً على سنن الأولياء في كظم الغيظ والترحم على الأعداء، وفي الحديث نصح قومه حياً وميتاً.

وقيل: يجوز أن يكون تمنيه ذلك ليعلموا أنهم كانوا على خطأ عظيم في أمره وأنه كان على صواب ونصيحة وشفقة وأن عداوتهم لم تكسبه إلا فوزاً ولم تعقبه إلا سعادة لأن في ذلك زيادة غبطة له وتضاعف لذة وسرور، والوجه الأول أولى، والظاهر أن ما مصدرية، ويجوز أن تكون موصولة والعائد مقدر أي يا ليت قومي يعلمون بالذي غفر لي به أي بسببه ربي أو بالذي غفره أي بالغفران الذي غفره لي ربي، والمراد تعظيم مغفرته تعالى له فتؤول إلى المصدرية، وقال الزمخشري: أي بالذي غفره لي ربي من الذنوب. وتعقب بأنه ليس بجيد إذ يؤول إلى تمني علمهم بذنوبه المغفورة ولا يحسن ذلك، وكذا عطف ﴿وجعلني من المكرمين﴾ عليه لا ينتظم، وما قيل من أن الغرض منه الأعلام بعظم مغفرة الله تعالى ووفور كرمه وسعة رحمته فلا يعد حينئذٍ إرادة معنى الاطلاع عليها لذلك بل هو أوقع في النفس من ذكر المغفرة مجردة عن ذكر المغفور لاحتمال حقارته تكلف. وأجاز الفراء أن تكون استفهامية والجار صلة

﴿غفر﴾ أي بأي شيء غفر لي ربي يريد به المهاجرة عن دينهم والمصابرة على أذيتهم حتى قتل. وتعقبه الكسائي بأنه لو صح ذلك لقيل بم بغير ألف فإن اللغة الفصيحة حذفها إذا جرت ما[1] الاستفهامية بحرف جر نحو عم يتساءلون، وقوله:

علام أقول الرمح أثقل عاتقي ... إذا أنا لم أطعن إذا الخيل كرت

فرقا بينها وبين الموصولة، وإثباتها نادر، وقيل مختص بالضرورة نحو قوله:

على ما قام يشتمني لئيم ... كخنزير تمرغ في رماد

وقوله:

إنا قتلنا بقتلانا سراتكم ... أهل اللواء ففيما يكثر القتل

وقراءة عكرمة وعيسى «عما يتساءلون» وقرأ «من المكرمين» مشدد الراء مفتوحها مفتوح الكاف.

تم والحمد لله الجزء الثاني والعشرون ويليه إن شاء الله تعالى الجزء
الثالث والعشرون وأوله ﴿وما أنزلنا على قومه﴾

---

(١) وخص الاستفهام لأنه اسم تام فهي معه كاسم واحد ا هـ منه.

بسم الله الرحمن الرحيم

۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا
هُمۡ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ
أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلّٞ لَّمَّا جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَةٞ لَّهُمُ
ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ
وَأَعۡنَٰبٖ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٥﴾
سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٞ
لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ
ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾

﴿**وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِه**﴾ أي قوم الرجل الذي قيل له ادخل الجنة ﴿**مِنْ بَعْدِه**﴾ أي من بعد قتله، وقيل من بعد رفعه إلى السماء حياً ﴿**مِنْ جُنْد**﴾ أي جنداً فمن مزيدة لتأكيد النفي، وقيل: يجوز أن تكون للتبعيض وهو خلاف الظاهر، والجند العسكر لما فيه من الغلظة كأنه من الجند أي الأرض الغليظة التي فيها حجارة والظاهر أن المراد بهذا الجند الملائكة أي ما أنزلنا لإهلاكهم ملائكة ﴿**مِنَ السَّمَاء وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ**﴾ وما صح في حكمتنا أن ننزل الجند لإهلاكهم لما أنا قدرنا لكل شيء سبباً حيث أهلكنا بعض من أهلكنا من الأمم بالحاصب وبعضهم بالصيحة وبعضهم بالخسف وبعضهم بالإغراق وجعلنا إنزال الجند من خصائصك في الانتصار لك من قومك وكفينا أمر هؤلاء بصيحة ملك صاح بهم فهلكوا كما قال سبحانه: ﴿**إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ**﴾ وفي ذلك استحقار لهم ولإهلاكهم وإيماء إلى تفخيم شأن النبي ﷺ، وفسر أبو حيان الجند بما يعم الملائكة فقال: كالحجارة والريح وغير ذلك والمتبادر ما تقدم، وقيل: الجند ملائكة الوحي الذين ينزلون على الأنبياء عليهم السلام أي قطعنا عنهم الرسالة حين فعلوا ما فعلوا ولم نعبأ بهم وأهلكناهم، وعن الحسن ومجاهد قالا قطع الله تعالى عنهم الرسالة حين قتلوا رسله، وهذا التفسير بعيد جداً، وقتل الرسل الثلاثة محكي في البحر بقيل وهو ظاهر هذا المروي لكن المعروف أنهم لم يقتلوا وإنما قتل حبيب فقط، وذهبت فرقة إلى أن ما في قوله تعالى ﴿**وما كنا منزلين**﴾ موصولة معطوفة على ﴿**جند**﴾ والمراد ما أنزلنا على قومه من بعده جنداً من السماء وما أنزلنا الذي كنا منزليه على الذين من قبلهم من حجارة وريح وغير ذلك.

وتعقبه أبو حيان بأنه يلزم عليه زيادة ﴿من﴾ في المعرفة، ومن هنا قيل الأولى جعلها نكرة موصوفة، وأجيب بأنه يغتفر في التابع ما لا يغتفر في المتبوع، ولا يخفى أن هذا لا يدفع بعده، ومن أبعد ما يكون قول أبي البقاء: يجوز أن تكون ما زائدة أي وقد كنا منزلين على غيرهم جنداً من السماء بل هو ليس بشيء، وإن نافية وكان ناقصة واسمها مضمر و ﴿صيحة﴾ خبرها أي ما كانت هي أي الأخذة أو العقوبة إلا صيحة واحدة، روي أن الله تعالى بعث عليهم جبريل عليه السلام حتى أخذ بعضادتي باب المدينة فصاح بهم صيحة واحدة فماتوا جميعاً، وإذا فجائية وفيها إشارة إلى سرعة هلاكهم بحيث كان مع الصيحة، وقد شبهوا بالنار على سبيل الاستعارة المكنية والخمود تخييل، وفي ذلك رمز إلى أن الحي كشعلة النار والميت كالرماد كما قال لبيد:

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه ... يحور رماداً بعد إذ هو ساطع

ويجوز أن تكون الاستعارة تصريحية تبعية في الخمود بمعنى البرودة والسكون لأن الروح لفزعها عند الصيحة تندفع إلى الباطن دفعة واحدة ثم تنحصر فتنطفىء الحرارة الغريزية لانحصارها، ولعل في العدول عن هامدون إلى ﴿خامدون﴾ رمزاً خفياً إلى البعث بعد الموت، والظاهر أنه لم يؤمن منهم سوى حبيب وإنهم هلكوا عن آخرهم، وفي بعض الآثار أنه آمن الملك وآمن قوم من حواشيه ومن لم يؤمن هلك بالصيحة، وهذا بعيد فإنه كان الظاهر أن يظاهر أولئك المؤمنون الرسل كما فعل حبيب ولكان لهم في القرآن الجليل ذكر ما بوجه من الوجوه اللهم إلا أن يقال: إنهم آمنوا خفية وكان لهم ما يعذرون به عن المظاهرة، ومع هذا لا يخلو بعد عن بعد، وقرأ أبو جعفر وشيبة ومعاذ بن الحارث القارىء «صيحةٌ» بالرفع على أن كان تامة أي ما حدثت ووقعت إلا صيحة وينبغي أن لا تلحق الفعل تاء التأنيث في مثل هذا التركيب فلا يقال ما قامت إلا هند بل ما قام إلا هند لأن الكلام على معنى ما قام أحد إلا هند والفاعل فيه مذكر، ولم يجوز كثير من النحويين الإلحاق إلا في الشعر كقول ذي الرمة:

طوى النحز والأجراز ما في غروضها ... وما بقيت إلا الضلوع الجراشع

وقول الآخر:

ما برئت من ريبة وذم ... في حربنا إلا بنات العم

ومن هنا أنكر الكثير كما قال أبو حاتم هذه القراءة، ومنهم من أجاز ذلك في الكلام على قلة كما في قراءة الحسن ومالك بن دينار وأبي رجاء والجحدري وقتادة وأبي حيوة وابن أبي عبلة وأبي بحرية «لا ترى إلاّ مساكنهم» بالتاء الفوقية، ووجهه مراعاة الفاعل المذكور، وكأني بك تميل إلى هذا القول، وقرأ ابن مسعود «إلا زقية» من زقى الطائر يزقو ويزقى زقواً وزقاء إذا صاح، ومنه المثل أثقل من الزواقي وهي الديكة لأنهم كانوا يسمرون إلى أن تزقوا فإذا صاحت تفرقوا ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ الحسرة على ما قال الراغب الغم على ما فات والندم عليه كأن المتحسر انحسر عنه قواه من فرط ذلك أو أدركه اعياء عن تدارك ما فرط منه، وفي البحر هي أن يركب الإنسان من شدة الندم ما لا نهاية بعده حتى يبقى حسيراً، والظاهر أن ﴿يا﴾ للنداء و ﴿حسرة﴾ هو المنادى ونداؤها مجاز بتنزيلها منزلة العقلاء كأنه قيل: يا حسرة احضري فهذه الحال من الأحوال التي من حقها أن تحضري فيها وهي ما دل عليها قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ والمراد بالعباد مكذبو الرسل ويدخل فيهم المهلكون المتقدمون دخولاً أولياً، وقيل: هم المراد وليس بذاك وبالحسرة المناداة حسرتهم والمستهزئون بالناصحين المخلصين المنوط بنصحهم خير الدارين أحقاء بأن يتحسروا على أنفسهم حيث فوتوا عليها السعادة الأبدية وعوضوها العذاب المقيم، ويؤيد هذا قراءة ابن عباس وأبي وعلي بن الحسين والضحاك ومجاهد والحسن «يا حسرة العباد» بالإضافة،

وكون المراد حسرة غيرهم عليهم والاضافة لأدنى ملابسة خلاف الظاهر؛ وأخرج ابن جرير. وغيره عن قتادة أنه قال في بعض القراءات «يا حسرة العباد على أنفسها ما يأتيهم» الخ.

وجوز أن تكون حسرة الملائكة عليهم السلام والمؤمنين من الثقلين، وعن الضحاك تخصيصها بحسرة الملائكة عليهم السلام وزعم أن المراد بالعباد الرسل الثلاثة وأبو العالية فسر ﴿العباد﴾ بهذا أيضاً لكنه حمل الحسرة على حسرة الكفار المهلكين قال: تحسروا حين رأوا عذاب الله تعالى وتلهفوا على ما فاتهم، وقيل: المراد بالعباد المهلكون والمتحسر الرجل الذي جاء من أقصى المدينة تحسر لما وثب القوم لقتله، وقيل: المراد بالعباد أولئك والمتحسر الرسل حين قتلوا ذلك الرجل وحل بهم العذاب ولم يؤمنوا، ولا يخفى حال هذه الأقوال وكان مراد من قال: المتحسر الرجل ومن قال المتحسر الرسل عنى أن القول المذكور قول الرجل أو قول الرسل، وفي كلام أبي حيان ما هو ظاهر في ذلك، ومع هذا لا ينبغي أن يعول على شيء مما ذكر، وجوز أن يكون التحسر منه سبحانه وتعالى مجازاً على استعظام ما جنوه على أنفسهم، وأيد بأنه قرىء «يا حسرتا على العباد» فإن الأصل عليها يا حسرتي فقلبت الياء ألفاً، ونحوها قراءة ابن عباس كما قال ابن خالويه «يا حسرةَ على العباد» بغير تنوين فإن الأصل أيضاً يا حسرتي فقلبت الياء ألفاً ثم حذفت الألف واكتفى عنها بالفتحة، وقرأ أبو الزناد وابن هرمز وابن جندب «يا حسرة على العباد» بالهاء الساكنة، قال في المنتقى: وقف «على حسره» وقفاً طويلاً تعظيماً للأمر ثم قيل «على العباد».

وفي اللوامح وقفوا على الهاء مبالغة في التحسر لما في الهاء من التأهه كالتأوه، ثم وصلوه على تلك الحال.

وقال الطيبي: إن العرب إذا أخبرت عن الشيء غير معتد به أسرعت فيه ولم تأت على اللفظ المعبر عنه نحو قلت لها قفي قالت لنا قاف أي وقفت فاقتصرت من جملة الكلمة على حرف منها تهاوناً بالحال وتثاقلاً عن الإجابة، ولا يخفى أن هذا لا يناسب المقام، وينبغي على هذا القراءة أن لا يكون ﴿على العباد﴾ متعلقاً بحسرة أو صفة له إذ لا يحسن الوقف حينئذ بل يجعل متعلقاً بمضمر يدل عليه ﴿حسرة﴾ نحو يتحسر أو أتحسر على العباد، وتقدير انظروا ليس بذاك أو خبر مبتدأ محذوف لبيان المتحسر عليه أي الحسرة على العباد وتخريج قراءة «يا حسرتا» بالألف على هذا الطرز بأن يقال: قدر الوقف على المنصوب المنون فإنه يوقف عليه بالألف ككان الله على كل شيء قديراً، وضرب زيد عمراً ليس بشيء ولو سلم أنه شيء لا ينافي التأييد، وقيل ﴿يا﴾ للنداء والمنادى محذوف و ﴿حسرة﴾ مفعول مطلق لفعل مضمر و ﴿على العباد﴾ متعلق بذلك الفعل أي يا هؤلاء تحسروا حسرة على العباد.

ولعل الأوفق للمقام المتبادر إلى الأفهام أن المراد نداء حسرة كل من يتأتى منه التحسر ففيه من المبالغة ما فيه.

وقوله تعالى ﴿ما يأتيهم﴾ الخ استئناف لبيان ما يتحسر منه، و ﴿به﴾ متعلق بيستهزئون. وقدم عليه للحصر الادعائي وجوز أن يكون لمراعاة الفواصل.

﴿أَلَمْ يَرَوا كم أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ منَ الْقُرُون﴾ الضمير لأهل مكة والاستفهام للتقرير وكم خبرية في موضع نصب باهلكنا و ﴿من القرون﴾ بيان لكم، وجوز بعض المتأخرين كون ﴿كم﴾ مبتدأ والجملة بعده خبره وهو كلام من لا خبر عنده والجملة معمولة ليروا نافذ معناها فيها و ﴿كم﴾ معلقة لها عن العمل في اللفظ لأنها وإن كانت خبرية لها صدر الكلام كالاستفهامية فلا يعمل فيها عامل متقدم على اللغة الفصيحة إلا إذا كان حرف جر أو اسماً مضافاً نحو على كم فقير تصدقت أرجو الثواب وابن كم رئيس صحبته.

وحكى الأخفش على ما في البحر جواز تقدم عامل عليها غير ذلك عن بعضهم نحو ملكت كم غلام أي ملكت كثيراً من الغلمان عاملوها معاملة كثير؛ والرؤية علمية لا بصرية خلافاً لابن عطية لأنها لا تعلق على المشهور ولأن أهل مكة لم يحضروا إهلاك من قبلهم حتى يروه بل علموه بالأخبار ومشاهدة الآثار، والقرون جمع قرن وهم القوم المقترنون في زمن واحد كعاد وثمود وغيرهم ﴿أَنَّهُمْ﴾ الضمير عائد على معنى ﴿كم﴾ وهي القرون أي إن القرون المهلكين ﴿إِلَيْهِمْ﴾ أي إلى أهل مكة ﴿لا يَرْجِعُونَ﴾ وأن وما بعدها في تأويل المفرد بدل من جملة ﴿كم أهلكنا﴾ على المعنى كما نقل عن سيبويه وتبعه الزجاج أي ألم يروا كثرة إهلاكنا من قبلهم وكونهم غير راجعين إليهم.

وقيل على المعنى لأن الكثرة المذكورة وعدم الرجوع ليس بينهما اتحاد بجزئية ولا كلية ولا ملابسة كما هو مقتضى البدلية لكن لما كان ذلك في معنى الذين أهلكناهم وأنهم لا يرجعون بمعنى غير راجعين اتضح فيه البدلية على أنه بدل اشتمال أو بدل كل من كل قاله الخفاجي: وأفاد صاحب الكشف على أنه من بدل الكل بجعل كونهم غير راجعين كثرة إهلاك تجوزاً، وعندي أن هذا الوجه وإن لم يكن فيه إبدال مفرد من جملة وتحقق فيه مصحح البدلية على ما سمعت ولا يخلو عن تكلف، وسيبويه ليس بنبي النحو ليجب اتّباعه.

وقال السيرافي: يجوز أن يجعل ﴿أنهم﴾ الخ صلة أهلكناهم أي أهلكناهم بأنهم لا يرجعون أي بهذا الضرب من الهلاك، وجوز ابن هشام في المغني أن يكون إن وصلتها معمول ﴿يروا﴾ وجملة ﴿كم أهلكنا﴾ معترضة بينهما وأن يكون معلقاً عن ﴿كم أهلكنا﴾ وأنهم إليهم لا يرجعون مفعولاً لأجله، قال الشمني: ليروا والمعنى أنهم علموا لأجل أنهم لا يرجعون إهلاكهم. ورد بأنه لا فائدة يعتد بها فيما ذكر من المعنى. وتعقبه الخفاجي بقوله: لا يخفى أن ما ذكر وارد على البدلية أيضاً، والظاهر أن المقصود من ذكره إما التهكم بهم وتحميقهم وإما إفادة ما يفيد تقديم ﴿إليهم﴾ من الحصر أي إنهم لا يرجعون إليهم بل إلينا فيكون ما بعده مؤكداً له اهـ وهو كما ترى، وقال الجلبي: لعل الحق أن يجعل أول الضميرين لمعنى ﴿كم﴾ وثانيهما للرسل وإن وصلتها مفعولاً لأجله لأهلكناهم، والمعنى أهلكناهم لاستمرارهم على عدم الرجوع عن عقائدهم الفاسدة إلى الرسل وما دعوهم إليه فاختيار ﴿لا يرجعون﴾ على لم يرجعوا للدلالة على استمرار النفي مع مراعاة الفاصلة انتهى. وهو على بعده ركيك معنى، وأرك منه ما قيل الضمير أن على ما يتبادر فيهما من رجوع الأول بمعنى ﴿كم﴾ والثاني لمن نسبت إليه الرؤية وأن وصلتها علة لأهلكنا، والمعنى أنهم لا يرجعون إليهم فيخبروهم بما حل بهم من العذاب وجزاء الاستهزاء حتى ينزجر هؤلاء فلذا أهلكناهم، ونقل عن الفراء أنه يعمل ﴿يروا﴾ في ﴿كم أهلكنا﴾ وفي ﴿أنهم﴾ الخ من غير إبدال ولم يبين كيفية ذلك.

وزعم ابن عطية أن أن وصلتها بدل من ﴿كم﴾ ولا يخفى أنه إذا جعلها معمول ﴿أهلكنا﴾ كما هو المعروف لا يسوغ ذلك لأن البدل على نية تكرار العامل ولا معنى لقولك أهلكنا أنهم لا يرجعون ولعله تسامح في ذلك، والمراد بدل من ﴿كم أهلكنا﴾ على المعنى كما حكي عن سيبويه، وأما جعل ﴿كم﴾ معمولة ليروا والإبدال منها نفسها إذ ذاك فلا يخفى حاله، وقال أبو حيان: الذي تقتضيه صناعة العربية أن ﴿أنهم﴾ الخ مفعول لمحذوف دل عليه المعنى وتقديره قضينا أو حكمنا أنهم إليهم لا يرجعون والجملة حال من فاعل ﴿أهلكنا﴾ على ما قال الخفاجي وأراه أبعد عن القيل والقال بيد أن في الدلالة على المحذوف خفاء فإن لم يلصق بقلبك لذلك فالأقوال بين يديك ولا حجر عليك.

وكأني بك تختار ما نقل عن السيرافي ولا بأس به، وجوز على بعض الأقوال أن يكون الضمير في ﴿أنهم﴾ عائداً على من أسند إليه يروا وفي ﴿إليهم﴾ عائداً على المهلكين، والمعنى أن الباقين لا يرجعون إلى المهلكين

بنسب ولا ولادة أي أهلكناهم وقطعنا نسلهم والإهلاك مع قطع النسل أتم وأعم، ويحسن هذا على الوجه المحكي عن السيرافي وقرأ ابن عباس والحسن «إنه» بكسر الهمزة على الاستئناف وقطع الجملة عما قبلها من جهة الاعراب. وقرأ عبد الله «ألم يروا من أهلكنا فإنهم» الخ على قراءة الفتح بدل اشتمال، ورد بالآية على القائلين بالرجعة كما ذهب إليه الشيعة.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن أبي إسحاق قال: قيل لابن عباس أن ناساً يزعمون أن علياً كرم الله تعالى وجهه مبعوث قبل يوم القيامة؟ فسكت ساعة ثم قال: بئس القوم نحن إن نكحنا نساءه واقتسمنا ميراثه أما تقرؤون **﴿ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون﴾**.

﴿وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ بيان لرجوع الكل إلى المحشر بعد بيان عدم الرجوع إلى الدنيا و **﴿إن﴾** نافية و **﴿كل﴾** مبتدأ وتنوينه عوض عن المضاف إليه، و **﴿لما﴾** بمعنى إلا ومجيئها بهذا المعنى ثابت في لسان العرب بنقل الثقات فلا يلتفت إلى زعم الكسائي أنه لا يعرف ذلك. وقال أبو عبد الله الرازي: في كونها بهذا المعنى معنى مناسب وهو أنها كأنها حرفا نفي أكد أولهما بثانيهما وهما لم وما وكذلك إلا كأنها حرفا نفي وهما إن النافية ولا فاستعمل أحدهما مكان الآخر، وهو عندي ضرب من الوساوس و **﴿جميع﴾** خبر المبتدأ وهو فعيل بمعنى مفعول فيفيد ما لا تفيده **﴿كل﴾** لأنها تفيد إحاطة الأفراد وهذا يفيد اجتماعها وانضمام بعضها إلى بعض و **﴿لدينا﴾** ظرف له أو لمحضرون و **﴿محضرون﴾** خبر ثان أو نعت وجمع على المعنى، والمعنى ما كلهم إلا مجموعون لدينا محضرون للحساب والجزاء.

وقال ابن سلام: محضرون أي معذبون فكل عبارة عن الكفرة، ويجوز أن يراد به هذا المعنى على الأول. وفي الآية تنبيه على أن المهلك لا يترك. وقرأ جمع من السبعة **﴿لما﴾** بالتخفيف على أن إن مخففة من الثقيلة واللام فارقة وما مزيدة للتأكيد والمعنى أن الشأن كلهم مجموعون الخ وهذا مذهب البصريين، وذهب الكوفيون إلى أن إن نافية واللام بمعنى إلا وما مزيدة والمعنى كما في قراءة التشديد **﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ﴾** بالتخفيف وقرأ نافع بالتشديد، و **﴿آية﴾** خبر مقدم للاهتمام وتنكيرها للتفخيم و **﴿لهم﴾** إما متعلق بها لأنها بمعنى العلامة أو متعلق بمضمر هو صفة لها وضمير الجمع لكفار أهل مكة ومن يجري مجراهم في إنكار الحشر، و **﴿الأرض﴾** مبتدأ و **﴿الميتة﴾** صفتها، وقوله تعالى **﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾** استئناف مبين لكيفية كونها آية، وقيل في موضع الحال والعامل فيها آية لما فيها من معنى الإعلام وهو تكلف ركيك، وقيل **﴿آية﴾** مبتدأ أول و **﴿لهم﴾** صفتها أو متعلق بها وكل من الأمرين مسوغ للابتداء بالنكرة و **﴿الأرض الميتة﴾** مبتدأ ثان وصفة وجملة **﴿أحييناها﴾** خبر المبتدأ الثاني وجملة المبتدأ الثاني وخبره خبر المبتدأ الأول ولكونها عين المبتدأ كخبر ضمير الشأن لم تحتج لرابط، قال الخفاجي: وهذا حسن جداً إلا أن النحاة لم يصرحوا به في غير ضمير الشأن، وقيل إنها مؤولة بمدلول هذا القول فلذا لم يحتج لذلك ولا يخفى بعده، وقيل **﴿آية﴾** مبتدأ و **﴿الأرض﴾** خبره وجملة **﴿أحييناها﴾** صفة الأرض لأنها لم يرد بها أرض معينة بل الجنس فلا يلزم توصيف المعرفة بالجملة التي هي في حكم النكرة، ونظير ذلك قوله:

ولقد أمر على اللئيم يسبني ... فمضيت ثمت قلت لا يعنيني

وأنكر جواز ذلك أبو حيان مخالفاً للزمخشري وابن مالك في التسهيل وجعل جملة يسبني حالاً من اللئيم، وأنت تعلم أن المعنى على استمرار مروره على من يسبه وإغماضه عنه ولهذا قال: أمر وعطف عليه فمضيت والتقييد بالحال لا يؤدي هذا المؤدى، ثم إن مدار الخبرية إرادة الجنس فليس هناك أخبار بالمعرفة عن النكرة ليكون مخالفاً للقواعد

كما قيل نعم أرجح الأوجه ما قرر أولاً وقد مر المراد بموت الأرض وإحيائها فتذكر.

﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً﴾ أي جنس الحب من الحنطة والشعير والأرز وغيرها، والنكرة قد تعم كما إذا كانت في سياق الامتنان أو نحوه، وفي ذكر الإخراج وكذا الجعل الآتي تنبيه على كمال الأحياء ﴿فَمِنْهُ﴾ أي من الحب بعد إخراجنا إياه، والفاء داخلة على المسبب ومن ابتدائية أو تبعيضية والجار والمجرور متعلق بقوله تعالى ﴿يَأْكُلُونَ﴾ والتقديم للدلالة على أن الحب معظم ما يؤكل ويعاش به لما في ذلك من إيهام الحصر للاهتمام به حتى كأنه لا مأكول غيره ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ﴾ جمع نخل كعبيد جمع عبد كما ذهب إليه أكثر الأئمة وصرح به في القاموس، وقيل اسم جمع، وقال الجوهري: النخل والنخيل بمعنى واحد وعلى الأول المعول ﴿وَأَعْنَابٍ﴾ جمع عنب ويقال على الكرم نفسه وعلى ثمرته كما قال الراغب: ولعله مشترك فيهما، وقيل حقيقة في الثمرة مجاز في الشجرة، وأياً ما كان فالمراد الأول بقرينة العطف على النخيل، وجمعاً دون الحب قيل لتدل الجمعية على تعدد الأنواع أي من أنواع النخل وأنواع العنب وذلك لأن النخل والعنب اسمان لنوعين فكل منهما مقول على إفراد حقيقة واحدة فلا يدلان على اختلاف ما تحتهما وتعدد أنواعه إلا إذا عبر عنهما بلفظ الجمع بخلاف الحب فإنه اسم جنس وهو يشعر باختلاف ما تحته لأنه المقول على كثرة مختلفة الحقائق قولاً ذاتياً فلا يحتاج في الدلالة على الاختلاف إلى الجمعية، وقولهم جمع العالم في قوله تعالى: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ [الفاتحة: ٢] وهو اسم جنس ليشمل ما تحته من الأجناس لا ينافي ذلك قيل لأن المراد ليشمل شمولاً ظاهراً متعيناً وإن حصل الإشعار بدونه، وقيل جمعاً للدلالة على مزيد النعمة، وأما الحب ففيه قوام البدن وهو حاصل بالجنس.

وامتن عز وجل في معرض الاستدلال على أمر الحشر بجعل الجنات من النخيل والأعناب المراد بها الأشجار ولم يمتن سبحانه وتعالى بجعل ثمرات تلك الأشجار من التمر والعنب كما امتن جل جلاله بإخراج الحب إعظاماً للمنة لتضمن ذلك الامتنان بالثمار وغيرها من منافع تلك الأشجار أنفسها بسائر أجزائها للإنسان نفسه بلا واسطة لا سيما النخيل، ولا دلالة في الكلام على حصر ثمرة الجعل بأكل الثمرة، وثمرة التنصيص على ذلك من بين المنافع ظاهرة وهذا بخلاف أشجار الحبوب فإنها ليست بهذه المثابة ولذا غير الأسلوب ولم يعامل ثمر ذلك معاملة الحبوب وكلام البيضاوي عليه الرحمة ظاهر في أن المراد بالأعناب الثمار المعروفة لا الكروم وعلل ذكر النخيل دون ثمارها مع أنه الأوفق بما قبل وما بعد باختصاصها بمزيد النفع وآثار الصنع وتفسير الأعناب بالثمار دون الكروم بعيد عندي لمكان العطف مع أن الجار والمجرور في موضع الصفة لجنات، والمعروف كونها من أشجار لا من ثمار.

قال الراغب: الجنة كل بستان ذي شجر يستر بأشجاره الأرض، وقد تسمى الأشجار الساترة جنة وعلى ذلك حمل قوله:

من النواضح تسقي جنة سحقاً

على أن في الآية بعد ما يؤيد إرادة الثمار فتدبر.

﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا﴾ أي شققنا في الأرض. وقرأ جناح بن حبيش «فَجَرْنَا» بالتخفيف والمعنى واحد بيد أن المشدد دال على المبالغة والتكثير ﴿مِنَ الْعُيُونِ﴾ أي شيئاً من العيون على أن الجار والمجرور في موضع الصفة لمحذوف، ومن بيانية وجوز كونها تبعيضية وليس بذاك، وقيل المفعول محذوف و ﴿من العيون﴾ متعلق بفجر ومن ابتدائية على معنى فجرنا من المنابع ما ينتفع به من الماء، وذهب الأخفش إلى زيادة من وجعل العيون مفعول فجرنا لأنه يرى جواز زيادتها في الإثبات مع تعريف مجرورها ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِه﴾ متعلق بجعلنا وتأخيره عن تفجير العيون

لأنه من مبادىء الثمر أي وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب ورتبنا مبادىء ثمرها ليأكلوا، وضمير ثمره عائد على المجعول وهو الجنات ولذا أفرد وذكر ولم يقل من ثمرها أي الجنات أو من ثمرهما أي النخيل والأعناب، ومثله ما قيل عائد على المذكور والضمير قد يجري مجرى اسم الاشارة كما في قول رؤبة:

فيها خطوط من سواد وبلق ... كأنه في الجلد توليع البهق(١)

فإنه أراد كما قال لأبي عبيدة وقد سأله كأن ذاك، وقيل عائد على الماء لدلالة العيون عليه أو لكون الكلام على حذف مضاف أي ماء العيون، وقيل على النخيل واكتفى به للعلم باشتراك الأعناب معه في ذلك، وقيل على التفجير المفهوم من ﴿فجرنا﴾ والمراد بثمره فوائده كما تقول ثمرة التجارة الربح أو هو ظاهره والإضافة لأدنى ملابسة والكل كما ترى، وجوز أن يكون الضمير له عز وجل وإضافة الثمر إليه تعالى لأنه سبحانه خالقه فكأنه قيل: ليأكلوا مما خلقه الله تعالى من الثمر. وكان الظاهر من ثمرنا لضمير العظمة على قياس ما تقدم إلا أنه التفت من التكلم إلى الغيبة لأن الأكل والتعيش مما يشغل عن الله تعالى فيناسب الغيبة فالالتفات في موقعه.

وزعم بعضهم أن هذا ليس من مظانه لأنه أولى بضمير الواحد المطاع لأنه المقصود بالإحياء والجعل والتفجير وقد أسندت إليه. ورد بأن ما سبق أفخم لأنها أفعال عامة النفع ظاهرة في كمال القدرة والثمر أحط مرتبة من الحب ولذا لم يورد على سبيل الاختصاص فلا يستحق ذلك التفخيم كيف وقد جعل بعضهم الثمر خلق الله تعالى وكماله بفعل الآدمي، وبما تقدم يستغنى عما ذكر. وقرأ طلحة وابن وثاب وحمزة والكسائي «من ثُمُرِهِ» بضمتين وهي لغة فيه أو هو جمع ثمار.

وقرأ الأعمش «من ثُمْرِهِ» بضم فسكون ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ ﴿ما﴾ موصولة في محل جر عطف على ﴿ثمره﴾ وجعله في محل نصب عطفاً على محل ﴿من ثمره﴾ خلاف الظاهر أي وليأكلوا من الذي عملوه أو صنعوه بقواهم، والمراد به ما يتخذ من الثمر كالعصير والدبس وغيرهما، وقال الزمخشري: أي من الذي عملته أيديهم بالغرس والسقي والآبار وليس بذاك، وجوز أن تكون ما نكرة موصوفة أي ومن شيء عملته أيديهم والأول أظهر، وقيل: ما نافية وضمير ﴿عملته﴾ راجع إلى الثمر والجملة في موضع الحال، والمراد من نفي عمل أيديهم إياه أنه بخلق الله تعالى لا بفعلهم ولا تقول المشايخ بالتوليد، وروي القول بأنها نافية عن ابن عباس والضحاك، وظاهر كلام الحبر أن الضمير راجع إلى شيئاً الموصوف المحذوف والجملة حال منه، فقد روى سعيد بن منصور وابن المنذر عنه أنه قال: وجدوه معمولاً لم تعمله أيديهم يعني الفرات ودجلة ونهر بلخ وأشباهها وفيه بعد. وأيد القول بالموصولية بقراءة طلحة وعيسى وحمزة والكسائي وأبي بكر «وما عملت» بلا هاء، ووجه التأييد أن الموصول مع الصلة كاسم واحد فيحسن معه لاستطالته ولاقتضائه إياه ودلالته عليه يكون كالمذكور، وتقدير اسم ظاهر غير ظاهر؛ وقال الطيبي: جعلها نافية أولى من جعلها موصولة لئلا يوهم استقلالهم بالعمل لأن ذكر الأيدي للتأكيد في هذا المقام كما في قوله تعالى ﴿أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً﴾ [يس: ٧١] لأن التركيب من باب أخذته بيدي ورأيته بعيني وحينئذ لا يناسب أن يكون قوله تعالى ﴿أحييناها﴾ الخ تفسيراً لكون الأرض الميتة آية. وتعقبه في الكشف بأنه ليس بشيء لأن العمل من العباد بمعنى الكسب وقد جاء بما قدمت أيديكم وبما قدمت يداك فهذا التأكيد دافع للإيهام انتهى فلا تغفل.

وجوز على هذه القراءة كون ما مصدرية أي وعمل أيديهم ويراد بالمصدر اسم المفعول أي معمول أيديهم

---

(١) ظهور النقط البيض على الشيء اهـ منه.

فيعود إلى معنى الموصولة ولا يخفى ما فيه ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ إنكار واستقباح لعدم شكرهم للمنعم بالنعم المعدودة بالتوحيد والعبادة، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي أيرون هذه النعم أو أيتنعمون بها فلا يشكرون المنعم بها ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ استئناف مسوق لتنزيهه تعالى عما فعلوه من ترك شكره عز وجل واستعظام ما ذكر في حين الصلة من بدائع آثار قدرته وأسرار حكمته وروائع نعمائه الموجبة لشكره تعالى وتخصيص العبادة به سبحانه والتعجيب من إخلالهم بذلك والحال هذه، وقد تقدم الكلام في ﴿سبحان﴾. وفي الإرشاد هنا أنه علم للتسبيح الذي هو التبعيد عن السوء اعتقاداً وقولاً أي اعتقاد البعد عنه والحكم به من سبح في الأرض والماء إذا بعد فيهما وأمعن وانتصابه على المصدرية أي أسبح سبحانه أي أنزهه عما لا يليق به عقداً وعملاً تنزيهاً خاصاً به حقيقاً بشأنه عز شأنه، وفيه مبالغة عن جهة الاشتقاق وجهة العدول إلى التفعيل وجهة العدول عن المصدر الدال على الجنس إلى الاسم الموضوع له خاصة لا سيما العلم وجهة إقامته مقام المصدر مع الفعل، وقيل: هو مصدر كغفران أريد به التنزه التام والتباعد الكلي عن السوء ففيه مبالغة من جهة اسناد التنزه إلى الذات المقدس فالمعنى تنزه بذاته عن كل ما لا يليق به تعالى تنزهاً خاصاً به سبحانه، فالجملة على هذا إخبار منه تعالى بتنزهه وبراءته عن كل ما لا يليق به مما فعلوه وما تركوه؛ وعلى الأول حكم منه عز وجل بذلك وتلقين للمؤمنين أن يقولوه ويعتقدوا مضمونه ولا يخلوا به ولا يغفلوا به.

وقدر بعضهم الفعل الناصب أمراً أي سبحوا سبحان، والمراد بالأزواج الأنواع والأصناف، وقال الراغب: الأزواج جمع زوج ويقال لكل واحد من القرينين ولكل ما يقترن بآخر مماثلاً له أو مضاداً وكل ما في العالم زوج من حيث إن له ضداً ما أو مثلاً ما أو تركيباً ما بل لا ينفك بوجه من تركيب صورة ومادة وجوهر وعرض.

﴿مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾ بيان للأزواج والمراد به كل ما ينبت فيها من الأشياء المذكورة وغيرها ﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي وخلق الأزواج من أنفسهم أي الذكر والأنثى ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي والأزواج مما لم يطلعهم الله تعالى ولم يجعل لهم طريقاً إلى معرفته بخصوصياته وإنما اطلعهم سبحانه على ذلك بطريق الإجمال على منهاج ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ [النحل ـ ٨] لما نيط به وقوفهم على عظم قدرته وسعة ملكه وجلالة سلطانه عز وجل، ولعله لما كان العلم من أخص صفات الربوبية لم يثبت على وجه الكمال والإحاطة لأحد سواه سبحانه ولو كان بطريق الفيض منه تبارك وتعالى على أن ظرف الممكن يضيق عن الاحاطة فما يجهله كل أحد أكثر مما يعلمه بكثير، وقد يقال على بعض الاعتبارات: إن ما يعلمه كل أحد متناه وما يجهله غير متناه ولا نسبة بين المتناهي وغير المتناهي أصلاً فلا نسبة بين معلوم كل أحد ومجهوله، وتأمل في هذا مع دعوى بعض الأكابر الوقوف على الأعيان الثابتة والاطلاع عليها وقل رب زدني علماً ﴿وآية لهم الليل﴾ بيان لقدرته تعالى الباهرة في الزمان بعد ما بينها سبحانه في المكان، و ﴿آية﴾ خبر مقدم و ﴿الليل﴾ مبتدأ مؤخر وقوله تعالى ﴿نسلخ منه النهار﴾ استئناف لبيان كونه آية، وفي التركيب احتمالات أخر تعلم مما مر إلا أن الأرجح ما ذكر أي نكشف ونزيل الضوء من مكان الليل وموضع إلقاء ظله وظلمته وهو الهواء فالنهار عبارة عن الضوء إما على التجوز أو على حذف المضاف، وقوله تعالى ﴿منه﴾ على حذف مضاف وذلك لأن النهار والليل عبارتان عن زمان كون الشمس فوق الأفق وتحته ولا معنى لكشف أحدهما عن الآخر وأصل السلخ كشط الجلد عن نحو الشاة فاستعير لكشف الضوء عن مكان الليل وملقى ظلمته وظله استعارة تبعية مصرحة والجامع ما يعقل من ترتب أمر على آخر فإنه يترتب ظهور اللحم على كشط الجلد وظهور الظلمة على كشف الضوء عن مكان الليل، وجوز أن يكون في النهار استعارة مكنية وفي السلخ استعارة تخييلية والجمهور على ما ذكرنا ومن

ابتدائية، وقيل: تبعيضية وجعلها سببية ليس بشيء، وهذا التفسير محكي عن الفراء ونحوه تفسير السلخ بالنزع، واستعمال الفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ أي داخلون في الظلام كما يفيده همزة الأفعال عليه ظاهر، ووقع في عبارة الشيخ عبد القاهر والإمام السكاكي أن المستعار له في الآية ظهور النهار من ظلمة الليل والمستعار منه ظهور المسلوخ من جلده وذلك على ما قال العلامة الطيبي والفاضل اليمني مأخوذ من قول الزجاج معنى نسلخ منه النهار نخرج منه النهار إخراجاً لا يبقى معه شيء من ضوئه فالظهور في عبارتهما بمعنى الخروج وهو يتعدى بمن فلا حاجة إلى جعلها بمعنى عن.

وقد جاء بهذا المعنى كما في قول عمر لأبي عبيدة رضي الله تعالى عنهما اظهر بمن معك من المسلمين إليها أي الأرض يعني أخرج إلى ظاهرها، وفي حديث عائشة رضي الله تعالى عنها كان ﷺ يصلي العصر ولم يظهر الفيء بعد من الحجرة أي لم يخرج إلى ظاهرها فسقط ما أورد عليه من أنه لو أريد الظهور لقيل «فإذا هم مبصرون» ولم يقل «فإذا هم مظلمون» لأن الواقع عقيب ظهور النهار من ظلمة الليل إنما هو الإبصار لا الإظلام من غير حاجة إلى حمل العبارة على القلب أي ظهور ظلمة الليل من النهار، وبعضهم[1] رفع هذا الإيراد بأن النهار عبارة عن مجموع المدة من طلوع الفجر أو الشمس إلى الغروب لا عن بعضها فالواقع عقيب هذه المدة كلها الدخول في الظلام. وتعقبه السالكوتي بأن الدخول في الظلام مترتب على السلخ لا على انقضاء مدة النهار.

ولعل مراد البعض أن السلخ بمعنى ظهور النهار لا يتحقق إلا بظهور كل أجزائه ومتى ظهرت أجزاء النهار كلها انقضت مدته، وذكر العلامة القطب أن السلخ قد يكون بمعنى النزع نحو سلخت الإهاب عن الشاة وقد يكون بمعنى الإخراج نحو سلخت الشاة من الأهاب والشاة مسلوخة فذهب الشيخ عبد القاهر والسكاكي إلى الثاني وغيرهما إلى الأول فاستعمال الفاء في ﴿فإذا هم﴾ ظاهر على قول الغير وأما على قولهما فإنما يصح من جهة أنها موضوعة لما يعد في العادة مرتباً غير متراخ وهذا يختلف باختلاف الأمور والعادات فقد يطول الزمان والعادة في مثله تقتضي عدم اعتبار المهلة وقد يكون بالعكس كما في هذه الآية فإن زمان النهار وإن توسط بين إخراج النهار من الليل وبين دخول الظلام لكن لعظم دخول الظلام بعد إضاءة النهار وكونه مما ينبغي أن لا يحصل إلا في أضعاف ذلك الزمان عد الزمان قريباً وجعل الليل كأنه يفاجئهم عقيب إخراج النهار من الليل بلا مهلة.

ثم لا يخفى أن إذ المفاجأة إنما تصح إذا جعل السلخ بمعنى الإخراج كما يقال: أخرج النهار من الليل ففاجأه دخول الليل فإنه مستقيم بخلاف ما إذا جعل بمعنى النزع فإنه لا يستقيم أن يقال: نزع ضوء الشمس عن الهواء ففاجأه الظلام كما لا يستقيم أن يقال كسرت الكوز ففاجأه الانكسار لأن دخولهم في الظلام عين حصول الظلام فيكون نسبة دخولهم في الظلام إلى نزع ضوء النهار كنسبة الانكسار إلى الكسر فلهذا جعلا السلخ بمعنى الاخراج دون النزاع ا هـ كلامه، وقواه العلامة الثاني بأنه لا شك أن الشيء إنما يكون آية إذا اشتمل على نوع استغراب واستعجاب بحيث يفتقر إلى نوع اقتدار إنما هو مفاجأة الظلام عقيب ظهور النهار لا عقيب زوال ضوء النهار.

وقال السالكوتي: إن عدم استقامة المفاجأة فيما ذكر لأنها إنما تتصور فيما لا يكون مترقباً بل يحصل بغتة حينئذ يمكن أن يقال في الجواب: إن نزع الضوء عن الليل لكون ظهوره في غاية الكمال كان المترقب فيه أن يكون في مدة

---

(١) هو شيخ الإسلام في حواشيه على المطول اهـ منه.

مديدة فحصول الظلام بعده في مدة قصيرة أمر غير مترقب ثم قال وبهذا ظهر الجواب عن التقوية، وقيل إن الظلمة لكونها مما تنفر عنها الطباع وتكرهها النفوس يكون حصولها كأنه غير مترقب ويكفي نفس السلخ في الدلالة على الاقتدار، والذي يقتضيه ما سبق عن الطيبي واليمني أن الشيخ والسكاكي أرادا إخراج النهار من الليل إخراجاً لا يبقى معه شيء من ضوئه كما قال الزجاج، ومآله إزالة ضوء النهار من مكان الليل وموضع ظلمته كما قال الفراء، وجاء في كلامهم الظهور بمعنى الزوال كما في قول أبي ذؤيب:

وعيرها الواشون أني أحبها ... وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

وحكى الجوهري: يقال هذا أمر ظاهر عنك عاره أي زائل. وقال المرزوقي في قول الحماسي:

وذلك عار يا ابن ريطة ظاهر

أيضاً كذلك فلا مانع من أن يكون في كلام الشيخين بهذا المعنى ويراد بالظهور الإظهار، والتعبير به مساهلة لظهور أن نسلخ متعد فيرجع الأمر إلى الإزالة فيتحد كلامهما بما قاله الفراء وكذا على ما قيل المراد بالظهور الخروج على وجه المفارقة لظهور الزوال فيه حينئذ وأمر المساهلة على حاله، وعلى القول بالاتحاد يجيء اعتراض العلامة والجواب هو الجواب فتأمل والله تعالى الهادي إلى الصواب.

وفي الآية على ما قال غير واحد دلالة على أن الأصل الظلمة والنور طارىء عليها يسترها بضوئه وفي الحديث ما يشعر بذلك أيضاً، روى الإمام أحمد والترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى خلق الخلق في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره فمن أصابه من نوره اهتدى ومن أخطأه ضل».

﴿**وَالشَّمْسُ**﴾ عطف على ﴿**الليل**﴾ أي وآية لهم الشمس.

وقوله تعالى ﴿**تَجْرِي**﴾ الخ استئناف لبيان كونها آية، وقيل ﴿**الشمس**﴾ مبتدأ وما بعده خبر والجملة عطف على ﴿**الليل نسلخ**﴾ وقيل غير ذلك فلا تغفل، والجري المَر السريع، وأصله لمر الماء ولما يجري يجريه والمعنى تسير سريعاً ﴿**لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا**﴾ لحد معين تنتهي إليه من فلكها في آخر السنة شبه بمستقر المسافر إذا قطع مسيره من حيث أن في كل انتهاء إلى محل معين وإن كان للمسافر قرار دونها، وروي هذا عن الكلبي واختاره ابن قتيبة، والمستقر عليه اسم مكان واللام بمعنى إلى وقرىء بها بدل اللام، وجوز أن تكون تعليلية أو لمنتهى لها من المشارق اليومية والمغارب لأنها تتقصاها مشرقاً مشرقاً ومغرباً مغرباً حتى تبلغ أقصاها ثم ترجع فذلك حدها ومستقرها لأنها لا تعدوه.

وروي هذا عن الحسن وهو متفق في أن المستقر اسم مكان واللام على ما سمعت، ومختلف باعتبار أن الأول من استقرار المسافر تشبيهاً لانتهاء الدورة بانتهاء السفرة وهذا باعتبار مقنطرات الارتفاع وبلوغ أقصاها ومقنطرات الانخفاض كذلك والاستقرار باعتبار عدم التجاوز عن الأول في استقصاء المشارق وعن الثاني في استقصاء المغارب أو لحد لها من مسيرها كل يوم في رأي عيوننا وهو المغرب، والمستقر عليه اسم مكان أيضاً واللام كما سمعت أو لكبد السماء ودائرة نصف النهاء فالمستقر[1] واللام على نظير ما تقدم. وكون ذلك محل قرارها إما مجاز عن الحركة البطيئة أو هو باعتبار ما يتراءى؛ قال ذو الرمة يصف فرسه وجريه في الظهيرة وشدة الحر:

معروريا رمض الرضراض تركضه ... والشمس حيرى لها بالجو تدويم[1]

---

(١) وجوز كونه مصدراً فلا تغفل اهـ منه.

أو لاستقرار لها ومكث في كل برج من البروج الاثني عشر على نهج مخصوص فالمستقر مصدر ميمي واللام داخلة على الغاية أو الحامل، وقيل تجري لبيتها وهو برج الأسد، واستقرارها عبارة عن حسن حالها فيه، وهذا غير مقبول إلا عند أهل الأحكام ولا يخفى حكمهم على محققي الإسلام، وقال قتادة. ومقاتل المعنى تجري إلى وقت لها لا تتعداه، قال الواحدي: وعلى هذا مستقرها انتهاء سيرها عند انقضاء الدنيا وهذا اختيار الزجاج كما قال النووي: في شرح صحيح مسلم، ومستقر عليه اسم زمان وفي غير واحد من الصحاح عن أبي ذر قال: «كنت مع النبي ﷺ في المسجد عند غروب الشمس فقال يا أبا ذر أتدري أين تذهب هذه الشمس؟ قلت الله تعالى ورسوله أعلم قال: تذهب لتسجد[٢] فتستأذن فيؤذن لها ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها وتستأذن فلا يؤذن لها فيقال لها ارجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها فذلك قوله عز وجل: ﴿**والشمس تجري لمستقر لها**﴾ وفي رواية أتدرون أين تذهب هذه الشمس؟ قالوا: الله تعالى ورسوله أعلم قال: إن هذه تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة، الحديث وفي ذلك عدة روايات وقد روي مختصراً جداً.

وأخرج أحمد والبخاري، ومسلم وأبو داود والترمذي، والنسائي وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿**والشمس تجري لمستقر لها**﴾ قال مستقرها تحت العرش فالمستقر اسم مكان والظاهر أن للشمس فيه قراراً حقيقة، قال النووي: قال جماعة بظاهر الحديث، قال الواحدي: وعلى هذا القول إذا غربت الشمس كل يوم استقرت تحت العرش إلى أن تطلع، ثم قال النووي: وسجودها بتمييز وإدراك يخلقه الله تعالى فيها.

وذكر ابن حجر الهيتمي في فتاويه الحديثية أن سجودها تحت العرش إنما هو عند غروبها وحكى فيها عن بعضهم أنها تطلع من سماء إلى سماء حتى تسجد تحت العرش وتقول: يا رب إن قوماً يعصونك فيقال لها ارجعي من حيث جئت فتنزل من سماء إلى سماء حتى تطلع من المشرق وبنزولها إلى سماء الدنيا يطلع الفجر، وفيها أيضاً أخرج أبو الشيخ عن عكرمة أنها إذا غربت دخلت نهراً تحت العرش فتسبح ربها حتى إذا أصبحت استعفت ربها عن الخروج فيقول سبحانه لم فتقول إني إذا خرجت عبدت من دونك، والسجود تحت العرش قد جاء أيضاً من روايات الإمامية ولهم في ذلك أخبار عجيبة منها أن الشمس عليها سبعون ألف كلاب وكل كلاب يجره سبعون ألف ملك من مشرقها إلى مغربها ثم ينزعون منها النور فتخر ساجدة تحت العرش ثم يسألون ربهم هل نلبسها لباس النور أم لا؟ فيجابون بما يريده سبحانه ثم يسألونه عز وجل هل نطلعها من مشرقها أو مغربها؟ فيأتيهم النداء بما يريد جل شأنه ثم يسألون عن مقدار الضوء فيأتيهم النداء بما يحتاج إليه الخلق من قصر النهار وطوله.

وفي الهيئة السنية للجلال السيوطي أخبار من هذا القبيل والصحيح من الأخبار قليل، وليس لي على صحة أخبار الإمامية وأكثر ما في الهيئة السنية تعويل نعم ما تقدم عن أبي ذر مما لا كلام في صحته وماذا يقال في أبي ذر وصدق لهجته، والأمر في ذلك مشكل إذا كان السجود والاستقرار كل ليلة تحت العرش سواء قيل منها تطلع من سماء إلى سماء حتى تصل إليه فتسجد أم قيل: إنها تستقر وتسجد تحته من غير طلوع فقد صرح إمام الحرمين وغيره بأنه لا خلاف في أنها تغرب عند قوم وتطلع على آخرين والليل يطول عند قوم ويقصر عند آخرين وبين الليل والنهار

---

(١) هو وقوف الطائر في الهواء اهـ منه.

(٢) أي في الرجوع كما جاء مصرحاً به في حديث آخر رواه أحمد والترمذي وغيرهما فلا تغفل اهـ منه.

اختلاف ما في الطول والقصر عند خط الاستواء، وفي بلاد بلغار قد يطلع الفجر قبل أن يغيب شفق الغروب، وفي عرض تسعين لا تزال طالعة ما دامت في البروج الشمالية وغاربة ما دامت في البروج الجنوبية فالسنة نصفها ليل ونصفها نهار على ما فصل في موضعه، والأدلة قائمة على أنها لا تسكن عند غروبها وإلا لكانت ساكنة عند طلوعها بناء على أن غروبها في أفق طلوع في غيره، وأيضاً هي قائمة على أنها لا تفارق فلكها فكيف تطلع من سماء إلى سماء حتى تصل إلى العرش بل كون الأمر ليس كذلك أظهر من الشمس لا يحتاج إلى بيان أصلاً وكذا كونها تحت العرش دائماً بمعنى احتوائه عليها وكونها في جوفه كسائر الأفلاك التي فوق فلكها والتي تحته وقد سألت كثيراً من أجلة المعاصرين عن التوفيق بين ما سمعت من الأخبار الصحيحة وبين ما يقتضي خلافها من العيان والبرهان فلم أوفق لأن أفوز منهم بما يروي الغليل ويشفي العليل، والذي يخطر بالبال في حل ذلك الإشكال والله تعالى أعلم بحقيقة الحال أن الشمس وكذا سائر الكواكب مدركة عاقلة كما ينبىء عن ذلك قوله تعالى الآتي ﴿**كل في فلك يسبحون**﴾ حيث جيء بالفعل مسنداً إلى ضمير جمع العقلاء وقوله تعالى ﴿إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين﴾ [يوسف: ٤] لنحو ما ذكر يدل وعليه ظاهر ما روي عن أبي ذر من أنها تسجد وتستأذن فإن المتبادر من الاستئذان ما يكون بلسان القال دون لسان الحال. وخلق الله تعالى الإدراك والتمييز فيها حال السجود والاستئذان ثم سلبه عنها مما لا حاجة إلى التزامه بل هو بعيد غاية البعد والشواهد من الكتاب والسنة وكلام العترة على كونها ذات إدراك وتمييز مما لا تكاد تحصي كثرة وبعض يدل على ثبوت ذلك لها بالخصوص وبعضها يدل على ثبوته لها باعتبار دخولها في العموم أو بالمقايسة إذ لا قائل بالفرق ومتى كانت كذلك فلا يبعد أن يكون لها نفس ناطقة كنفس الإنسان بل صرح بعض الصوفية بكونها ذات نفس ناطقة كاملة جداً، والحكماء أثبتوا النفس للفلك وصرح بعضهم بإثباتها للكواكب أيضاً وقالوا: كل ما في العالم العلوي من الكواكب والأفلاك الكلية والجزئية والتداوير حي ناطق والأنفس الناطقة الإنسانية إذا كانت قدسية قد تنسلخ عن الأبدان وتذهب متمثلة ظاهرة بصور أبدانها أو بصور أخرى كما يتمثل جبريل عليه السلام ويظهر بصورة دحية أو بصورة بعض الأعراب كما جاء في صحيح الأخبار حيث يشاء الله عز وجل مع بقاء نوع تعلق لها بالأبدان الأصلية يتأتى معه صدور الأفعال منها كما يحكى عن بعض الأولياء قدست أسرارهم أنهم يرون في وقت واحد في عدة مواضع وما ذاك إلا لقوة تجرد أنفسهم وغاية تقدسها فتمثل وتظهر في موضع وبدنها الأصلي في موضع آخر:

لا تـقـل دارهـا بـشـرقـي نـجـد كـل نـجـد لـلـعـامـريـة دار

وهذا أمر مقرر عند السادة الصوفية مشهور فيما بينهم وهو غير طي المسافة وإنكار من ينكر كلاً منهما عليهم مكابرة لا تصدر إلا من جاهل أو معاند، وقد عجب العلامة التفتازاني من بعض فقهاء أهل السنة أي كابن مقاتل حيث حكم بالكفر على معتقد ما روي عن إبراهيم بن أدهم قدس سره أنهم رأوه بالبصرة يوم التروية ورئي ذلك اليوم بمكة، ومبناه زعم أن ذلك من جنس المعجزات الكبار وهو مما لا يثبت كرامة لولي وأنت تعلم أن المعتمد عندنا جواز ثبوت الكرامة للولي مطلقاً إلا فيما يثبت بالدليل عدم إمكانه كالإتيان بسورة مثل إحدى سور القرآن، وقد أثبت غير واحد تمثل النفس وتطورها لنبينا ﷺ بعد الوفاة وادعى أنه عليه الصلاة والسلام قد يرى في عدة مواضع في وقت واحد مع كونه في قبره الشريف يصلي، وقد تقدم الكلام مستوفى في ذلك، وصح أنه ﷺ رأى موسى عليه السلام يصلي في قبره عند الكثيب الأحمر ورآه في السماء وجرى بينهما ما جرى في أمر الصلوات المفروضة، وكونه عليه السلام عرج إلى السماء بجسده الذي كان في القبر بعد أن رآه النبي ﷺ مما لم يقله أحد جزماً والقول به احتمال بعيد، وقد رأى

ﷺ ليلة أسري به جماعة من الأنبياء غير موسى عليه السلام في السماوات مع أن قبورهم في الأرض ولم يقل أحد إنهم نقلوا منها إليها على قياس ما سمعت آنفاً، وليس ذلك مما ادعى الحكميون استحالته من شغل النفس الواحدة أكثر من بدن واحد بل هو أمر وراءه كما لا يخفى على من نور الله تعالى بصريته فيمكن أن يقال: إن للشمس نفساً مثل تلك الأنفس القدسية وأنها تنسلخ عن الجرم المشاهد المعروف مع بقاء نوع من التعلق لها به فتعرج إلى العرش فتسجد تحته بلا واسطة وتستقر هناك وتستأذن ولا ينافي ذلك سير هذا الجرم المعروف وعدم سكونه حسبما يدعيه أهل الهيئة وغيرهم ويكون ذلك إذا غربت وتجاوزت الأفق الحقيقي وانقطعت رؤية سكان المعمور من الأرض إياها ولا يضر فيه طلوعها إذ ذاك في عرض تسعين ونحره لأن ما ذكرنا من كون السجود والسكون باعتبار النفس المنسلخة المتمثلة بما شاء الله تعالى لا ينافي سير الجرم المعروف بل لو كانا نصف النهار في خط الاستواء لم يضر أيضاً، ويجوز أن يقال سجودها بعد غروبها عن أفق المدينة ولا يضر فيه كونها طالعة إذ ذاك في أفق آخر لما سمعت إلا أن الذي يغلب على الظن ما ذكر أولاً، وعلى هذا الطرز يخرج ما يحكى أن الكعبة كانت تزور واحداً من الأولياء بأن يقال إن الكعبة حقيقة غير ما يعرفه العامة، وهي باعتبار تلك الحقيقة تزور والناس يشاهدونها في مكانها أحجاراً مبنية.

وقد ذكر الشيخ الأكبر قدس سره في الفتوحات كلاماً طويلاً ظاهراً في أن لها حقيقة غير ما يعرفه العامة وفيه أنه كان بينه وبينها زمان مجاورته مراسلات وتوسلات ومعاتبة دائمة وإنه دون بعض ذلك في جزء سماه تاج الوسائل ومنهاج الرسائل وقد سأل نجم الدين عمر النسفي مفتي الإنس والجن عما يحكى أن الكعبة كانت تزور الخ هل يجوز القول به فقال نقض العادة على سبيل الكرامة لأهل الولاية جائز عند أهل السنة وارتضاه العلامة السعد وغيره لكن لم أر من خرج زيارتها على هذا الطرز، وظاهر كلام بعضهم أن ذلك بذهاب الجسم المشاهد منها إلى المزور وانتقاله من مكانه، ففي عدة الفتاوى والولوالجية وغيرهما لو ذهبت الكعبة لزيارة بعض الأولياء فالصلاة إلى هوائها، ويمكن أن يكون أريد به غير ما يحكى فإنه والله تعالى أعلم لم يكن بانتقال الجسم المشاهد ثم الجمع بين الحديث في الشمس وبين ما يقتضيه الحس وكلام أهل الهيئة بهذا الوجه لم أره لأحد بيد أني رأيت في بعض مؤلفات عصرينا الرشتي رئيس الطائفة الإمامية الكشفية أن سجدة الشمس عند غروبها تحت العرش عبارة عن رفع الأنية ونزع جلباب الماهية وهو عندي نوع من الرطانة لا يفهمه من لا خبرة له باصطلاحاته ولو كان ذا فطانة: وقال في موضع آخر بعد أن ذكر حديث الكلاليب السابق إن ذلك لا ينافي كلام أهل الهيئة ولا بقدر سم الخياط ولم يبين وجه عدم المنافاة مع أنها أظهر من الشمس معتذراً بأن الكلام فيه طويل ولا أظنه لو كان آتياً به إلا من ذلك القبيل، وهذا ما عندي فليتأمل والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل.

وقرأ عبد الله وابن عباس وزين العابدين وابنه الباقر وعكرمة وعطاء بن أبي رباح «لا مستقر لها» بلا النافية للجنس وبناء «مستقر» على الفتح فتقتضي انتفاء كل مستقر حقيقي لجرمها المشاهد وذلك في الدنيا أي هي تجري في الدنيا دائماً لا تستقر. وقرأ ابن أبي عبلة بلا أيضاً إلا أنه رفع «مستقر» ونونه على أعمالها أعمال ليس كما في قوله:

تعز فلا شيء على الأرض باقيا ... ولا وزر مما قضى الله واقيا

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الجري المفهوم من ﴿تجري﴾ أي ذلك الجري البديع الشأن المنطوي على الحكم الرائقة التي تحار في فهمها العقول والأذهان ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ الغالب بقدرته على كل مقدور ﴿الْعَلِيمِ﴾ المحيط علمه بكل معلوم، وذكر بعضهم في حكمة جريها حتى تسجد كل ليلة تحت العرش ما يقتضيه الخبر السابق تجدد اكتساب النور من العرش ويترتب عليه في عالم الطبيعة والعناصر ما يترتب وباكتسابها النور من العرش صرح به غير

واحد، ومن العجيب ما ذكره الرشتي أنها تستمد النور من ظاهر العرش وتمد فلك القمر ومن باطن العرش وتمد فلك زحل وتستمد من ظاهر الكرسي وتمد فلك عطارد ومن باطنه وتمد فلك المشتري وتستمد من ظاهر تقاطع نقطتي المنطقتين وتمد فلك الزهرة ومن باطنه وتمد فلك المريخ، وليت شعري من أين استمد فقال ما قال وذلك مما لم نجد فيه نقلاً ولا نظن أنه مر بخيال، وقال الشيخ الأكبر: قدس سره إن نور الشمس ما هو من حيث عينها بل هو من تجل دائم لها من اسمه تعالى النور ونور سائر السيارات من نورها وهو في الحقيقة من تجلي اسمه سبحانه النور فما ثم إلا نوره عز وجل.

وادعى كثير من أجلة المحققين أن نور جميع الكواكب ثوابتها وسياراتها مستفاد من ضوء الشمس وهو مفاض عليها من الفياض المطلق جل جلاله وعم نواله. وفي الآية رد على القائلين بأن الشمس ساكنة وهي مركز العالم والكواكب والأرض كرات دائرة عليها ﴿**وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ**﴾ أي صيرنا مسيره أي محله الذي يسير فيه ﴿**مَنَازِلَ**﴾ فقدر بمعنى صير الناصب لمفعولين والكلام على حذف مضاف والمضاف المحذوف مفعوله الأول و ﴿**منازل**﴾ مفعوله الثاني واختار أبو حيان تقدير مصدر مضاف متعد إلى واحد و ﴿**منازل**﴾ منصوب على الظرفية أي قدرنا سيره في منازل وقدر بعضهم نوراً أي قدرنا نوره في منازل فيزيد مقدار النور كل يوم في المنازل الاجتماعية وينقص في المنازل الاستقبالية لما أن نوره مستفاد من ضوء الشمس لاختلاف تشكلاته بالقرب والبعد منها مع خسوفه بحيلولة الأرض بينه وبينها وبهذا يتم الاستدلال والحق أنه لا قطع بذلك وليس هناك إلا غلبة الظن، ويجوز أن يكون قدر متعدياً لاثنين و﴿**منازل**﴾ بتقدير ذا منازل، وأن يكون متعدياً لواحد وهو ﴿**منازل**﴾ والأصل قدرنا له منازل على الحذف والايصال واختاره أبو السعود، ونصب ﴿**القمر**﴾ بفعل يفسره المذكور أي وقدرنا القمر قدرناه وفي ذلك من الاعتناء بأمر التقدير ما فيه، وكأنه لما أن شهرهم باعتباره ويعلم منه سر تغيير الأسلوب.

وقرأ الحرميان وأبو عمرو وأبو جعفر وابن محيصن والحسن بخلاف عنه «والقمر» بالرفع قال غير واحد، على الابتداء وجملة ﴿**قدرناه**﴾ خبره، ويجوز فيما أرى أن يجري في التركيب ما جرى في قوله تعالى: ﴿**والشمس تجري**﴾ من الإعراب تدبر، والمنازل جمع منزل والمراد به المسافة التي يقطعها القمر في يوم وليلة وهي عند أهل الهند سبعة وعشرون لأن القمر يقطع فلك البروج في سبعة وعشرين يوماً وثلث فحذفوا الثلث لأنه ناقص عن النصف كما هو مصطلح أهل التنجيم، وعند العرب وساكني البدو ثمانية وعشرون لا لأنهم تمموا الثلث واحداً كما قال بعضهم بل لأنه لما كانت سنوهم باعتبار الأهلّة مختلفة الأوائل لوقوعها في وسط الصيف تارة وفي وسط الشتاء أخرى وكذا أوقات تجاراتهم وزمان أعيادهم احتاجوا إلى ضبط سنة الشمس لمعرفة فصول السنة حتى يشتغلوا في استقبال كل فصل بما يهمهم في ذلك الفصل من الانتقال إلى المراعي وغيرها فاحتالوا في ضبطها فنظروا أولاً إلى القمر فوجدوه يعود إلى وضع له من الشمس في قريب من ثلاثين يوماً ويختفي آخر الشهر لليلتين أو أقل أو أكثر فاسقطوا يومين من زمان الشهر فبقي ثمانية وعشرون وهو زمان ما بين أول ظهوره بالعشيات مستهلاً أول الشهر وآخر رؤيته بالغدوات مستتراً آخره فقسموا دور الفلك عليه فكان كل قسم اثنتي عشرة درجة وإحدى وخمسين دقيقة تقريباً وهو ستة أسباع درجة فنصيب كل برج منه منزلان وثلث ثم لما انضبط الدور بهذه القسمة احتالوا في ضبط سنة الشمس بكيفية قطعها لهذه المنازل فوجدوها تستر دائماً ثلاثة منازل ما هي فيه بشاعها وما قبلها بضياء الفجر وما بعدها بضياء الشمس ورصدوا ظهور المستتر بضياء الفجر ثم بشعاعها ثم بضياء الشفق فوجدوا الزمان بين كل ظهوري منزلتين ثلاثة عشر يوماً تقريباً فأيام جميع المنازل تكون ثلاثمائة وأربعة وستين لكن الشمس تقطع جميعها في ثلاثمائة وخمس وستين فزادوا يوماً في أيام

منزل غفر وزادوه هاهنا اصطلاحاً منهم أو لشرفه على ما تسمعه إن شاء الله تعالى وقد يحتاج إلى زيادة يومين ليكون انقضاء الثمانية والعشرين مع انقضاء السنة ويرجع الأمر إلى النجم الأول، واعلم أن العرب جعلت علامات الأقسام الثمانية والعشرين من الكواكب الظاهرة القريبة من المنطقة مما يقارب طريقة القمر في ممره أو يحاذيه فيرى القمر كل ليلة نازلاً بقرب أحدها وأحوال كواكب المنازل مع المنازل كأحوال كواكب البروج مع البروج عند أهل الهيئة من أنها مسامتة للمنازل وهي في فلك الأفلاك وإذا أسرع القمر في سيره فقد يخلي منزلاً في الوسط وإن أبطأ فقد يبقى ليلتين في منزل أول الليلتين في أوله وآخرهما في آخره وقد يرى في بعض الليالي بين منزلتين، وما يقال في الشهور إن الظاهر من المنازل في كل ليلة يكون أربعة عشر وكذا الخفي وأنه إذا طلع منزل غاب رقيبه وهو الخامس عشر من الطالع سمي به تشبيهاً له برقيب يرصده ليسقط في المغرب إذا ظهر ذلك في المشرق ظاهر الفساد لأنها ليست على نفس المنطقة ولا أبعاد ما بينها متساوية ولهذا قد يكون الظاهر ستة عشر وسبعة عشر وقد يكون الخفي ثلاثة عشر وهذه الكواكب المسماة بالمنازل المسامتة للمنازل الحقيقية على ما روي عن ابن عباس وغيره أولها الشرطان بفتح الشين والراء مثنى شرط بفتحتين وهي العلامة وهما كوكبان نيران من القدر الثالث على قرني الحمل معترضان بين الشمال والجنوب بينهما ثلاثة أشبار وبقرب الجنوبي منهما كوكب صغير سمت العرب الكل أشراطاً لأنها بسقوطها علامات المطر والريح والقمر يحاذيهما وبقرب الشمالي منهما كوكب نير هو الشرطان عند بعض ويقال للشرطين الناطح أيضاً ثم البطين تصغير البطن وهو ثلاثة كواكب خفية من القدر الخامس على شكل مثلث حاد الزوايا على فخذي الحمل بينه وبين الشرطين قيد رمح والقمر يجتاز بها أحياناً ثم الثريا[1] تصغير ثروى من الثراء وهو الكثرة ويسمى بالنجم وهي على المشهور عند المنجمين ستة كواكب مجتمعة كشكل مروحة مقبضها نحو المشرق وفيه انحناء في جانب الشمال، وقيل هي شبيهة بعنقود عنب وعليه قول أحيحة بن الجلاح أو قيس بن الأسلت:

وقد لاح في الصبح الثريا كما ترى ... كعنقود ملاحية حين نورا

والمرصود منها أربعة كلها من القدر الخامس وموضعها سنام الثور، وفي الكشف هي ألية الحمل وربما يكسفها القمر ثم الدبران بفتحتين سمي به لأنه دبر الثريا وخلفها وهو كوكب أحمر نير من القدر الأول على طرف صورة السبعة من رقوم الهند ويسمى المجدح وموقعه عين الثور والذي على طرفه الآخر من القدر الثالث على عينه الأخرى والثلاثة الباقية وهي من الثالث أيضاً على وجهه وزاوية هذا الرقم على خطم الثور وبعضهم يسمى الدبران بقلب الثور وقد يكسفه القمر ثم الهقعة بفتح الهاء وسكون القاف وفتح العين المهملة وهي ثلاثة كواكب خفية مجتمعة شبيهة بنقط الثاء كأنها لطخة سحابية شبهت بالدائرة التى تكون في عرض زور الفرس أو بحيث تصيب رجل الفارس أو بلمعة بياض تكون في جنب الفرس الأيسر تسمى بذلك وتسمى الأثافي أيضاً وهي على رأس الجبار المسمى بالجوزاء والقمر يحاذيها ولا يقاربها ثم الهنعة بوزن الهقعة وثانية نون وهي كوكبان من القدر الرابع والثالث شبهت بسمة في منخفض عنق الفرس وهما على رجلي التوأمين[2] مما يلي الشمال وفي الكشف هي منكب الجوزاء الأيسر والقمر يمر بهما ثم الذراع وهما كوكبان أزهران من القدر الثاني على رأسي التوأمين يعنون بهما ذراع الأسد المبسوطة إذ المقبوضة هي الشعرى الشامية مع مرزمها والقمر يقارب المبسوطة ثم النثرة وهي الفرجة بين الشاربين حيال وترة الأنف

---

(١) رأيت منها بواسطة بعض الآلات ما يزيد على ثلاثين كوكب اه منه.

(٢) الجوزاء اه منه.

وهو أنف الأسد وهما كوكبان خفيان من الرابع بينهما قيد ذراع ولطخة سحابية وهي على وسط السرطان ويقربها كوكبان يسميان بالحمارين واللطخة التي بينهما بالمعلف تشبهاً لها بالتبن وبمحطة الأسد أي موضع استتاره ويكسب القمر كلاً منهما ثم الطرف وهما كوكبان صغيران من الرابع أحدهما على رأس الأسد قدام عينيه والآخر قدام يده المقدمه والقمر يحاذي أشملهما ويكسف أجنبهما ويعنون بالطرف عين الأسد ثم الجبهة ويعنون بها جبهة الأسد وهي أربعة كواكب على سطر فيه تعويج آخذ من الشمال إلى الجنوب أعظمها على طرف السطر مما يلي الجنوب يسمى قلب الأسد لكونه في موضعه ويسمى الملكي أيضاً وهو من القدر الأول والقمر يمر به وبالذي يليه ثم الزبرة بضم الزاي وسكون الباء وهما كوكبان نيران على أثر الجبهة بينهما أرجح من ذراع وهما على زبرة الأسد أي كاهله عند العرب وعند المنجمين عند مؤخره فزبرة الأسد شعره الذي يزبر عند الغضب في قفاه أجنبهما من الثالث وأشملهما من الثاني وتسمى ظهر الأسد والقمر يحاذيهما من جهة الجنوب ثم الصرفة وهو كوكب واحد على طرف ذنب الأسد ويسمى ذنب الأسد والقمر يحاذيه من جهة الجنوب وسمي بذلك لأن البرد ينصرف عند سقوطه ثم العواء يمد ويقصر والقصر أجود وهي خمسة كواكب من الثالث على هيئة لام في الخط العربي ثلاثة منها آخذة من منكب العذراء الأيسر إلى تحت ثديها الأيسر وهي على سطر جنوبي من الصرفة ثم ينعطف اثنان على سطر يحيط مع الأول بزاوية منفرجة زعمت العرب أنها كلاب تعوي خلف الأسد ولذلك سميت العواء، وقيل في ذلك كأنها تعوي في أثر البرد ولهذا سميت طاردة البرد، وقيل هي من عوى الشيء عطفه فلما فيها من الانعطاف سميت بذلك.

وفي الكشف العواء سافلة الإنسان ويقال إنها ورك الأسد والقمر يخرقها ثم السماك الأعزل وهو كوكب نير من الأول على كتف العذراء اليسرى قريب من المنطقة والقمر يمر به ويكسفه ويقابل السماك الأعزل السماك الرامح وليس من المنازل وسمي رامحاً لكوكب يقدمه كأنه رمحه وسمي سماكاً لأنه سمك أي ارتفع ثم الغفر وهي ثلاثة كواكب من الرابع على ذيل العذراء ورجلها المؤخرة على سطر معوج حدبته إلى الشمال وقيل كوكبان والقمر يمر بجنوبيهما وقد يحاذي الشمالي وهو منزل خير بعد عن شرين مقدم الأسد ومؤخر العقرب ويقال: إنه طالع الأنبياء والصالحين وسميت غفراً لسترها ونقصان نورها وذكر بعضهم أنها من كواكب الميزان ثم الزبانا بالضم وآخره ألف وهما كوكبان نيران من الثاني متباعدان في الشمال والجنوب بينهما قيد رمح على كفتي الميزان.

وقال غير واحد: هما قرنا العقرب والقمر قد يكسف جنوبيهما ثم الإكليل وهي ثلاثة كواكب خفية معترضة من الشمال إلى الجنوب على سطر مقوس يشبه شكلها شكل الغفر الأوسط منها متقدم والاثنان تاليان وهي من الرابع والقمر يمر بجميعها، وقيل هي أربعة كواكب برأس العقرب ولذا سميت به وأصل معناه التاج ثم القلب وهو قلب العقرب كوكب أحمر نير أوسط الثلاثة التي على بدن العقرب على استقامة من المغرب إلى المشرق وهو من الثاني واللذان قبله وبعده ويسميان نياطين من الثالث والقمر يمر به ويكسفه من المنطقة ثم الشولة بفتح الشين المعجمة واللام وتسمى ابرة العقرب عند الحجازيين كوكبان من الثاني أزهران متقاربان على طرف ذنب العقرب في موضع الحمة والقمر يحاذيهما ثم النعائم أربعة كواكب من الثالث على منحرف تابع للشولة وتسمى النعائم الواردة أي إلى المجرة والقمر يمر باثنين منها ويحاذي الباقية ويقرب منها أربعة أخرى من الثالث على منحرف هي النعائم الصادرة أي من مجرة وكلها من صورة الرامي وسميت نعائم تشبيهاً بالخشبات التي تكون على البئر، ثم البلدة وهي قطعة من السماء خالية من الكواكب مستديرة شبهت ببلدة الثعلب وهي ما يكنسه بذنبه وتسمى أيضاً بالمفازة والفرجة، وقيل سميت بذلك تشبيهاً بالفرجة التي تكون بين الحاجبين وموضعها خلف الكواكب التي تسمى بالقلادة وهي عصابة الرامي ثم

سعد الذابح كوكبان على قرني الجدي بينهما قدر باع جنوبيهما من الثالث والقمر يقاربه ولا يكسفه ويقرب الشمالي كوكب صغير يكاد يلتصق به يقال: إنه شاته التي يريد أن يذبحها، وقيل: إنه في مذبحة ولهذا يسمى بالذابح ثم سعد بلع[1] كوكبان على كف ساكب الماء اليسرى فوق ظهر الجدي بينهما قدر باع غربيهما من الثالث وشرقيهما من الرابع ويقرب متقدمهما كوكب صغير كأنه ابتلعه فلهذا سمي به، وفي القاموس سعد بلع كزفر معرفة منزل للقمر طلع لما قال الله تعالى ﴿يا أرض ابلعي ماءك﴾ [هود: ٤٤] وهو نجمان مستويان في المجرى أحدهما خفي والآخر مضيء يسمى بالعاً كأنه بلع الآخر، وقيل: لأنه ليس له ما لسعد الذابح فكأنه بلغ شاته والقمر يقارب أجنبهما ولا يكسفه ثم سعد السعود كوكبان، وقيل: ثلاثة على خط مقوس بين الشمال والجنوب حدبته إلى المغرب أجنبهما والقمر يقرب منه من الخامس على طرف ذنب الجدي وأشملهما من الثالث وهو مع الآخر في القول الآخر من كواكب القوس والقمر يقارب أجنبهما وسمي بذلك لأنه في وقت طلوعه ابتداء ما به يعيشون وتعيش مواشيهم ثم سعد الأخبية أربعة كواكب من الثالث ومن كواكب الرامي على يد ساكب الماء اليمنى ثلاثة منها على شكل مثلث حاد الزوايا والرابع وسطه وهو السعد والثلاث خباؤه ولذا سمي بذلك، وقيل: لأنه يطلع قبل الدفء فيخرج من الهوام ما كان مختبئاً والقمر يقاربها من ناحية الجنوب ثم الفرغ المقدم ويقال الأعلى كوكبان نيران من الثاني بينهما قيد رمح اجنبهما على متن الفرس الأكبر المجنح[2] وأشملهما على منكبه والقمر يمر بالبعد منهما ثم الفرغ المؤخر كوكبان نيران من الثاني بينهما قيد رمح أيضاً أجنبهما على جناح الفرس وأشملهما مشترك بين سرته ورأس المسلسلة شبهت العرب الأربعة بفرغ الدلو وهو بفتح الفاء وسكون الراء المهملة وغين معجمة مصب الماء منها لكثرة الأمطار في وقتها ثم بطن الحوت ويقال له: الرشاه بكسر الراء أي رشاء الدلو وقلب الحوت أيضاً كوكب نير من الثالث على جنب المرأة المسلسلة يحاذيه القمر ولا يقاربه وإنما سمي به لوقوعه في بطن سمكة عظيمة تحت نحر الناقة تصورها العرب من سطرين عليهما كواكب خفية بعضها من المسلسلة وبعضها من إحدى سمكتي الحوت.

هذا واعلم أن هذه المنازل الثمانية والعشرين تسمي العرب الأربعة عشر الشمالية منها التي أولها الشرطان وآخرها السماك شامية والباقية منها التي أولها الغفر وآخرها بطن الحوت يمانية وأنها تسمى خروج المنزل من ضياء الفجر طلوعه وغروب رقيبه وقت الصبح سقوطه والمنازل التي يكون طلوعها في مواسم المطر الأنواء ورقباؤها إذا طلعت في غير مواسم المطر البوارح قاله القطب، وقال الجوهري: النوء سقوط نجم من المنازل في المغرب مع الفجر وطلوع رقيبه من المشرق يقابله من ساعته في كل ليلة إلى مضي ثلاثة عشر يوماً ما خلا الجبهة فإن لها أربعة عشر يوماً، قال أبو عبيد: ولم يسمع في النوء أنه السقوط إلا في هذا الموضع والعرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط منها، وقال الأصمعي: إلى الطالع في سلطانه فتقول مطرنا بنوء الثريا مثلاً والجمع أنواء ونوان مثل عبد وعبدان، وذكر الطيبي عن المرزوقي أن نوء الشرطين ثلاثة أيام ونوء البطين ثلاث ليال ونوء الثريا خمس ليال ونوء الدبران ثلاث ليال ونوء الهقعة ست ليال ولا يذكرون نوأها إلا بنوء الجوزاء ونوء الهنعة لا يذكر أيضاً وإنما يكون في أنواء الجوزاء والذراع لا نوء له ونوء النثرة سبع ليال ونوء الطرف ثلاث ليال ونوء الجبهة سبع والزبرة أربع والصرفة ثلاث والعواء ليلة والسماك أربع والغفر ثلاث وقيل ليلة والزبانا ثلاث والأكليل أربع والقلب ثلاث والشولة كذلك

---

(١) طلوعه لليلة تبقى من كانون الآخر وسقوطه لليلة تمضي من آب اه قاموس اه منه.

(٢) أي ذي الجناحين اه منه.

والنعائم ليلة والبلدة ثلاث، وقيل: ليلة وسعد الذابح ليلة وبلع وسعد السعود وسعد الأخبية والفرغ المقدم ثلاث والمؤخر أربع ولم يذكر في نسختي للرشاء نوءاً. ثم إن قول الإنسان مطرنا بنوء كذا إن أراد به أن النوء نزل بالماء فهو كفر والقائل كافر حلال دمه إن لم يتب كما نص عليه الشافعي وغيره، وفي الروضة من اعتقد أن النوء يمطر حقيقة كفر وصار مرتداً وإن أراد به أن النوء سبب ينزل الله تعالى به الماء حسبما علم وقدر فهو ليس بكفر بل مباح لكن قال ابن عبد البر: هو وإن كان مباحاً كفر بنعمة الله تعالى وجهل بلطيف حكمته. وفي الصحيحين عن زيد بن خالد الجهني أن النبي ﷺ قال أثر سماء: «هل تدرون ما قال ربكم؟ قالوا: الله تعالى ورسوله أعلم قال: قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر فأما من قال مطرنا بفضل الله تعالى ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا فهو كافر بي مؤمن بالكوكب» وظاهره أن الكفر مقابل الإيمان فيحمل على ما إذا أراد القائل ما سمعت أولاً والله تعالى الحافظ من كل سوء لا رب غيره ولا يرجى إلا خيره. والقمر في العرف العام هو الكوكب المعروف في جميع ليالي الشهر، والمشهور عند اللغويين أنه بعد الاجتماع مع الشمس ومفارقته إياها لا يسمى قمراً إلا من ثلاث ليال وست وعشرين ليلة وفيما عدا ذلك يسمى هلالاً ولعل الأظهر في الآية حمله على المعنى الأول وهو الشائع إذا ذكر مع الشمس أي قدرنا هذا الجرم المعروف منازل ومسافات مخصوصة فسار فيها ونزلها منزلة منزلة ﴿حَتَّىٰ عَادَ﴾ أي صار في أواخر سيره وقربه من الشمس في رأي العين ﴿كالعرجون﴾ هو عود عزق النخلة من بين الشمراخ إلى منبته منها وروي ذلك عن الحسن وقتادة، وعن ابن عباس أنه أصل العذق، وقيل الشمراخ وهو ما عليه البسر من عيدان العذق والكباسة، والمشهور الأول، ونونه على ما حكي عن الزجاج زائدة فوزنه فعلون من الانعراج وهو الاعوجاج والانعطاف، وذهب قوم واختاره الراغب والسمين وصاحب القاموس إلى أنها أصلية فوزنه فعلول، وقرأ سليمان التيمي «كالعِرْجَونِ» بكسر العين وسكون الراء وفتح الجيم وهي لغة فيه كالبزيون والبزيون وهو بساط رومي أو السندس ﴿الْقَدِيمِ﴾ أي العتيق الذي مر عليه زمان يبس فيه ووجه الشبه الاصفرار والدقة والاعوجاج، وقيل: أقل مدة القدم حول فلو قال رجل كل مملوك لي قديم فهو حر عتق منهم من مضى له حول وأكثر، وقيل: ستة أشهر وحكاه بعض الإمامية عن أبي الحسن الرضا رضي الله عنه.

لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا
حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ
وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ
تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ
ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾
فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ
يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن
كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا

﴿تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٥٤ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ۝٥٥ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ۝٥٦ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ۝٥٧ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ۝٥٨﴾

﴿لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغي لَها﴾ أي يتسخر ويتسهل كما في قولك النار ينبغي أن تحرق الثوب أو يحسن ويليق أي حكمة كما في قولك الملك ينبغي أن يكرم العالم، واختار غير واحد المعنى الأول، وأصل **﴿ينبغي﴾** مطاوع بغى بمعنى طلب وما طاوع وقبل الفعل فقد تسخر وتسهل، والنفي راجع في الحقيقة إلى **﴿ينبغي﴾** فكأنه قيل: لا يتسهل للشمس ولا يتسخر **﴿أَنْ تُدْرِكَ الْقَمرَ﴾** أي في سلطانه بأن تجتمع معه في الوقت الذي حده الله تعالى له وجعله مظهراً لسلطانه فإنه عز وجل جعل لتدبير هذا العالم بمقتضى الحكمة لكل من النيرين الشمس والقمر حداً محدوداً ووقتاً معيناً يظهر فيه سلطانه فلا يدخل أحدهما في سلطان الآخر بل يتعاقبان إلى أن يأتي أمر الله عز وجل، وهذه الجملة لنفي أن تدرك الشمس القمر فيما جعل له وقوله تعالى **﴿وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهار﴾** لنفي أن يدرك القمر الشمس فيما جعل لها أي ولا آية الليل سابقة أية النهار وظاهر سلطانها في وقت ظهور سلطانها وإلى هذا المعنى يشير كلام قتادة والضحاك وعكرمة وأبي صالح واختاره الزمخشري ليناسب قوله تعالى **﴿لا الشمس ينبغي لها﴾** ولأن الكلام في الآيتين دل عليه قوله تعالى **﴿والشمس تجري﴾** الآيتان وآخراً **﴿كل في فلك يسبحون﴾** وعبر بالإدراك أولاً وبالسبق ثانياً على ما في الكشاف لمناسبة حال الشمس من بطء السير وحال القمر من سرعته، ولم يقل ولا القمر سابق الشمس ليؤذن على ما قال الطيبي بالتعاقب بين الليل والنهار وبنصوصية التدبير على المعاقبة فإنه مستفاد من الحركة اليومية التي مدار تصرف كل منهما عليها. وفي الكشف التحقيق أن المقصود بيان معاقبة كل من الشمس والقمر في ترتب الإضاءة وسلطانه على الاستقلال وكذلك اختلاف الليل والنهار فقيل: **﴿ولا الليل سابق النهار﴾** كناية عن سبق آيته آيته فحصل الدلالة على الاختلاف أيضاً ادماجاً لأنها لا تنافي إرادة الحقيقة، وجاء من ضرورة التقابل هذا المعنى في النهار أيضاً من قوله تعالى: **﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر﴾** ولما ذكر مع الشمس الإدراك المؤذن بأنها طالبة للحاق قيل «لا ينبغي» رعاية للمناسبة وجيء بالفعل المؤذن بالتجدد ولما نفي السبق في المقابل أكد ذلك بأن جيء بالجملة الاسمية المحضة من دون الابتغاء لأنه مطلوب اللحوق اهـ.

ولم يذكر السر في إدخال حرف النفي على الشمس دون الفعل المؤذن بصفتها ويوشك أن يكون أخفى من السها وكان ذلك ليستشعر منه في المقام الخطابي أن الشمس إذا خليت وذاتها تكون معدومة كما هو شأن سائر الممكنات وإنما يحصل لها ما يحصل من علته التي هي عبارة عن تعلق قدرته تعالى به على وفق إرادته سبحانه الكاملة التي لا يأبى عنها شيء من أشياء عالم الإمكان ويفيد ذلك في غاية كونها مسخرة في قبضة تصرفه عز وجل لا شيء فوق تلك المسخرية وفيه تأكيد لما يفيده قوله تعالى **﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾** ورد بليغ لمن إليها يسند التأثير.

وجوز أن يكون ذلك لإفادة كونها مسخرة لا يتسهل لها إلا ما أريد بها من حيث تقديم المسند إليه على الفعل وجعله بعد حرف النفي نحو ما أنا قلت هذا وما زيد سعى في حاجتك يفيد التخصيص أي ما أنا قلت هذا بل غيري وما زيد سعي في حاجتك بل غيره على ما حققه علماء البلاغة والمقصود من نفي تسهل إدراك القمر في سلطانه عن الشمس نفى أن يتسهل لها أن تطمس نوره وتذهب سلطانه ويرجع ذلك إلى نفي قدرتها على الطمس وإذهاب السلطان فيكون المعنى بناء على قاعدة التقديم أن الشمس لا تقدر على ذلك بل غيرها يقدر عليه وهو الله عز وجل وهذا بعد إثبات الجريان لها بتقدير العزيز العليم مشعر بكونها مسخرة لا يتسهل لها إلا ما أريد بها.

وقال بعض الفضلاء فيما كتبه على هامش تفسير البيضاوي عند قوله: وإيلاء حرف النفي الشمس للدلالة على أنها مسخرة لا يتيسر لها إلا ما أريد بها وجه الدلالة أن الإيلاء المذكور يفيد التخصيص والابتغاء بمعنى الصحة والتسهيل المساوقين للاقتدار فيفيد الكلام أن الشمس ليس لها قدرة على إدراك القمر وسرعة المسير التي هي ضد لحركتها الخاصة بل القدرة عليهما لله سبحانه فهو فاعل لحركتها حقيقة ولها مجرد المحلية للحركة فصحت الدلالة المذكورة ثم قال: وتفصيل الكلام أن الله سبحانه ذكر أولاً أن الشمس تجري لمستقر لها إشارة إلى حركتها الخاصة ثم ذكر سبحانه أنه قدر القمر أيضاً في منازل الشمس حتى عاد كالعرجون القديم أي رجع إلى الشكل الهلالي وذلك إنما يكون عند قربه إلى الشمس ورجوعه إليها ولما كان للوهم سبيل إلى أن يتوهم أن جري الشمس وسيرها وتقدير أنوار القمر وجرمه المرئي مما يستند إلى إرادتهما على سبيل إرادتنا التي تتعلق تارة بالشيء وأخرى بضده فيصح ويتيسر للنيرين الأمران كما يصحان لنا وأن يتوهم أن إسناد أمر الشمس والقمر إلى التقدير الإلهي من قبيل إسناد أفعالنا إليه من حيث إن الأقدار والتمكين منه تعالى وأنه سبحانه المبدأ والمنتهى إلى غير ذلك من الاعتبارات.

نبه جل شأنه بالتخصيص المذكور على دفع على هذا التوهم على سبيل التنبيه على كون الشيء مسخراً مضطراً في أمره بسلب اقتداره على ضده وإن لم يذكر جميع أضداده فأشار سبحانه إلى أن الحركة السريعة المفضية إلى إدراك القمر التي هي ضد الحركة الخاصة للشمس لا يصح استنادها إليها والقدرة عليها مختصة بغيرها وهو ﴿**العزيز العليم**﴾ حتى يظهر أن وجود الحركة الخاصة لها مستند إلى تقديره تعالى وتدبيره جل شأنه من غير مشاركة للشمس معه سبحانه ثم أردف ذلك بحكم القمر حيث قال تعالى ﴿**ولا الليل سابق النهار**﴾ فإن الأقرب كون المعنى فيه ليس لآية الليل القدرة على أن تسبق آية النهار بحيث تفوتها ولا تكون لها مراجعة إليها ولحوق بها تنبيهاً على أن تقدير القمر في المنازل على الوجه المرصود الذي يعود به إلى الشكل الهلال الشبيه بالعرجون ويفضي إلى مقاربة الشمس مستند أيضاً إلى تقديره تعالى وتدبيره سبحانه من غير مشاركة للقمر فيه فالجملتان في قوة التأكيد للآيتين السابقتين ولهذا فصلتا اهـ، وفيه دغدغة لا تخفى على ذكي فتأمل.

وما أشار إليه من أن معنى ﴿**لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر**﴾ أن الشمس لا قدرة لها على أن تدرك القمر في سيره لبطء حركتها الخاصة وسرعة حركته كذلك قاله غير واحد. وادعى النحاس أنه أظهر ما قيل في معناه وبينه وبين ما تقدم من المعنى قرب ما بل قال بعضهم: الفرق بين الوجهين بالاعتبار، وقال بعض من ذهب إليه في ﴿**ولا الليل سابق النهار**﴾ إن المراد أن القمر لا يسبق الشمس بالحركة اليومية وهي ما تكون له وكذا لسائر الكواكب بواسطة فلك الأفلاك فإن هذه الحركة لا يقع بسببها تقدم ولا تأخر وقيل المراد بقوله تعالى ﴿**لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر**﴾ إنه لا ينبغي لها أن تدركه في آثاره ومنافعه فإنه سبحانه خص كلاً منهما بآثار ومنافع كالتلوين بالنسبة للقمر والنضج بالنسبة للشمس، وعن الحسن أن المراد أنهما لا يجتمعان فيما يشاهد من السماء ليلة الهلال خاصة أي لا تبقى الشمس طالعة إلى أن يطلع القمر ولكن إذا غربت طلع، وقال يحيى بن سلام: المراد لا تدركه ليلة البدر خاصة لأنه يبادر المغيب قبل طلوعها وكلا القولين لا يعول عليهما ولا ينبغي أن يلتفت إليهما، وقيل في معنى الجملة الثانية إن الليل لا يسبق النهار ويتقدم على وقته فيدخل قبل مضيه.

وفي الدر المنثور عن بعض الأجلة أي لا ينبغي إذا كان ليل أن يكون ليل آخر حتى يكون النهار، وعليك بما تقدم فهو لعمري أقوم، واستدل بالآية أن النهار سابق على الليل في الخلق روى العياشي في تفسير بالإسناد عن الأشعث بن حاتم قال كنت بخراسان حيث اجتمع الرضا رضي الله تعالى عنه والمأمون والفضل بن سهل في الإيوان

بمرو فوضعت المائدة فقال الرضا: إن رجلاً من بني إسرائيل سألني بالمدينة فقال: النهار خلق قبل أم الليل فما عندكم؟ فأرادوا الكلام فلم يكن عندهم شيء فقال الفضل للرضا: أخبرنا بها أصلحك الله تعالى قال نعم من القرآن أم من الحساب؟ قال له الفضل: من جهة الحساب فقال رضي الله تعالى عنه: قد علمت يا فضل أن طالع الدنيا السرطان والكواكب في مواضع شرفها فزحل في الميزان والمشتري في السرطان والمريخ في الجدي والشمس في الحمل والزهرة في الحوت وعطارد في السنبلة والقمر في الثور فتكون الشمس في العاشر وسط السماء فالنهار قبل الليل، ومن القرآن قوله تعالى: ﴿**ولا الليل سابق النهار**﴾ أي الليل قد سبقه النهار اهـ.

وفي الاستدلال بالآية بحث ظاهر وأما بالحساب فله وجه في الجملة. ورأى المنجمون أن ابتداء الدورة دائرة نصف النهار وله موافقة لما ذكر، والذي يغلب على الظن عدم صحة الخبر من مبتدئه فالرضى أجل من أن يستدل بالآية على ما سمعت من دعواه وفهم الإمام من قوله تعالى ﴿**ولا الليل سابق النهار**﴾ أن الليل مسبوق لا سابق ومن قوله سبحانه ﴿يغشي الليل النهار﴾ [الأعراف: ٥٤، الرعد: ٣] يطلبه حثيثاً أن الليل سابق لأن النهار يطلبه، وأجاب عما يلزم عليه من كون الليل سابقاً مسبوقاً بأن المراد من الليل هنا آيته وهو القمر وهو لا يسبق الشمس بالحركة اليومية والمراد من الليل هناك نفس الليل وكل واحد لما كان في عقب الآخر كان طالبه وتعقبه أبو حيان بأن فيه جعل الضمير الفاعل في ﴿**يطلبه**﴾ عائداً على النهار وضمير المفعول عائداً على ﴿**الليل**﴾ والظاهر أن ضمير الفاعل عائد على ما هو الفاعل في المعنى وهو الليل لأنه كان قبل دخول همزة النقل ﴿**يغشي الليل النهار**﴾ وضمير المفعول عائد على ﴿**النهار**﴾ لأنه المفعول قبل النقل وبعده وحينئذ كلتا الآيتين تفيد أن النهار سابق فلا سؤال انتهى. فتأمل ولا تغفل.

وقرأ عمار بن عقيل «سابقُ» بغير تنوين «النهارَ» بالنصب قال المبرد: سمعته يقرأ فقلت ما هذا؟ قال: أردت سابق النهار بالتنوين فحذفت لأنه أخف. وفي البحر حذف التنوين لالتقاء الساكنين «وكل» أي كل واحد من الشمس والقمر إذ هما المذكوران صريحاً والتنوين عوض عن المضاف إليه وقدره بعضهم ضمير جمع العقلاء ليوافق ما بعد أي كلهم وقدره آخر اسم إشارة أي كل ذلك أي المذكور الشمس والقمر ﴿**في فلك**﴾ هو كما قال الراغب مجرى الكوكب سمي به لاستدارته كفلكة المغزل وهي الخشبة المستديرة في وسطه وفلكة الخيمة وهي الخشبة المستديرة التي توضع على رأس العمود لئلا تتمزق الخيمة.

﴿**يسبحون**﴾ أي يسيرون فيه بانبساط وكل من بسط في شيء فهو يسبح فيه، ومنه السباحة في الماء، وهذا المجرى في السماء ولا مانع عندنا أن يجري الكوكب بنفسه في جوف السماء وهي ساكنة لا تدور أصلاً وذلك بأن يكون فيها تجويف مملوء هواء أو جسماً آخر لطيفاً مثله يجري الكوكب فيه جريان السمكة في الماء أو البندقة في الأنبوب مثلاً أو تجويف خال من سائر ما يشغله من الأجسام يجري الكوكب فيه أو بأن تكون السماء بأسرها لطيفة أو ما هو مجرى الكوكب منها لطيفاً فيشق الكوكب ما يحاذيه وتجري كما تجري السمكة في البحر أو في ساقية منه وقد انجمد سائره وانقطاع كرة الهواء عند كرة النار المماسة لمقعر فلك القمر عند الفلاسفة وانحصار الأجسام اللطيفة بالعناصر الثلاثة وصلابة جرم السماء وتساوي أجزائها واستحالة الخرق والالتئام عليها واستحالة وجود الخلاء لم يتم دليل على شيء منه، وأقوى ما يذكر في ذلك شبهات أوهن من بيت العنكبوت وإنه ورب السماء لأوهن البيوت.

ويجوز أن يكون الفلك عبارة عن جسم مستدير ويكون الكوكب فيه يجري بجريانه في ثخن السماء من غير دوران للسماء، ولا مانع من أن يعتبر هذا الفلك لبعض الكواكب الفلك الكلي ويكون فيه نحو ما يثبته أهل الهيئة لضبط الحركات المختلفة من الأفلاك الجزئية لكن لا يضطر إلى ذلك بناء على القواعد الإسلامية كما لا يخفى إلا أن في

نسبة السبح إلى الكوكب نوع إباء بظاهره عن هذا الاحتمال، وفي كلام الأئمة من الصحابة وغيرهم إيماء إلى بعض ما ذكرنا.

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس أنه قال في الآية: ﴿**كل في فلك**﴾ فلكة كفلكة المغزل يسبحون يدورون في أبواب السماء كما تدور الفلكة في المغزل. وأخرج الأخيران عن مجاهد أنه قال: لا يدور المغزل إلا بالفلكة ولا تدور الفلكة إلا بالمغزل والنجوم في فلكة كفلكة المغزل فلا يدرن إلا بها ولا تدور إلا بهن. وفي الفتوحات المكية للشيخ الأكبر قدس سره جعل الله تعالى السماوات ساكنة وخلق فيها سبحانه نجوماً وجعل لها في عالم سيرها وسباحتها في هذه السماوات حركات مقدرة لا تزيد ولا تنقص وجعلها عاقلة سامعة مطيعة وأوحى في كل سماء أمرها ثم إنه عز وجل لما جعل السباحة للنجوم في هذه السماوات حدثت لسيرها طرق لكل كوكب طريق وهو قوله تعالى ﴿والسماء ذات الحبك﴾ [الذاريات: ٧] فسميت تلك الطرق أفلاكاً فالأفلاك تحدث بحدوث سير الكواكب وهي سريعة السير في جرم السماء الذي هو مساحتها فتخرق الهواء المماس لها فيحدث لسيرها أصوات ونغمات مطربة لكون سيرها على وزن معلوم فتلك نغمات الأفلاك الحادثة من قطع الكواكب المسافات السماوية فهي تجري في هذه الطرق بعادة مستمرة قد علم بالرصد مقادير ودخول بعضها على بعض في السير وجعل سيرها للناظرين بين بطء وسرعة وجعل سبحانه لها تقدماً وتأخراً في أماكن معلومة من السماء تعينها أجرام الكواكب لإضاءتها دونها إلى آخر ما قال. وقال الإمام: إن الله تعالى قادر على أن يجعل الكوكب بحيث يشق السماء فيجعل دائرة متوهمة كما لو جرت سمكة في الماء على الاستدارة وهذا هو المفهوم من قوله تعالى ﴿**في فلك يسبحون**﴾ والظاهر أن حركة الكوكب على هذا الوجه.

وأرباب الهيئة انكروا ذلك للزوم الخرق والالتئام إن انشق موضع الجري والتأم أو الخلاء إن انشق ولم يلتئم والكل محال عندهم وعندنا لا محالية في ذلك وما يلزم هنا الخرق والالتئام لأنه المفهوم من يسبحون ولا دليل لهم على الاستحالة فيما عدا المحدد وهو هناك شبهة ضعيفة لا دليل، وظاهر الآية أن كل واحد من من النيرين في فلك أي في مجرى خاص به وهذا مما يشهد به الحس وذهب إلى نحوه فلاسفة الإسلام كغيرهم من الفلاسفة بيد أنهم يقولون باتحاد الفلك والسماء ولما سمعوا عمن قبلهم أن كلاً من السبع السيارة في فلك وكل الكواكب الثوابت في فلك وفوق كل ذلك فلك يحرك الجميع من المشرق إلى المغرب ويسمى فلك الأفلاك لتحريكه إياها والفلك الأعظم لإحاطته بها والفلك الأطلس لأنه كاسمه غير مكوكب وسمعوا عن الشارع ذكر السماوات السبع والكرسي والعرش أرادوا أن يطبقوا بين الأمرين فقالوا: السماوات السبع في كلام الشارع هي الأفلاك السبعة في كلام الفلاسفة فلكل من السيارات سماء من السماوات والكرسي هو فلك الثوابت والعرش هو الفلك المحرك للجميع المسمى بفلك الأفلاك وقد أخطؤوا في ذلك وخالفوا سلف الأمة فيه فالفلك غير السماء، وقوله تعالى مع ما هنا ﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً﴾ [نوح: ١٥، ١٦] لا يدل على الاتحاد لما قلنا من أن الكوكب في الفلك والفلك في السماء فيكون الكوكب فيها بلا شبهة فلا يحوج الجمع إلى القول بالعينية ولم يقم دليل على كرية العرش بل ظاهر ما ورد في الأخبار من أن له قوائم يدل على عدم الكرية، نعم ورد ما يدل بظاهره أنه مقبب وهذا شيء غير ما يزعمونه فيه وكذا الكرسي لم يدل دليل على كريته كما يزعمون ومع هذا ليس عندهم دليل تام على كون الثوابت كلها في فلك فيجوز أن تكون في أفلاك كممثلات كلها فوق زحل أو بعضها فوقه وبعضها بين أفلاك العلوية وهي لا تكسف الثوابت التي عروضها أكثر من عروضها ولا لها اختلاف منظر ليعرف بأحد الوجهين كون

الجميع فوق العلوية أو كتداوير ولا يلزم اختلاف إبعاد بعضها من بعض لجواز تساوي أجرام التداوير وحركاتها ولا اختلاف حركاتها بالسرعة والبطء للبعد والقرب وموافقة الممثل ومخالفته لأنا لا نسلم أن حركاتها لا تختلف بذلك المقدار ولا اختلاف أبعادها من الأرض لأنها غير محققة، ويجوز أيضاً أن تكون كلها مركوزة في محدب بمثل زحل على أنه يتحرك الحركة البطيئة والمعدل الحركة السريعة، وأيضاً يجوز أن يكون فيما سموه الفلك الأطلس كواكب لا ترى لصغرها جداً أو ترى وهي سريعة الحركة ولم يرصد كل كوكب ليتحقق بطء حركة الجميع، وأيضاً يجوز أن تكون السيارات أكثر من سبع فيحتاج إلى أزيد من سبع سماوات، ويقرب هذا ظفر أهل الأرصاد الجديدة بكوكب سيار غير السبع سموه باسم من ظفر به وأدركه وهو هرشل، وبالجملة لا قاطع فيما قالوه، وللشيخ الأكبر قدس سره في هذا الباب كلام آخر مبناه الكشف وهو أن العرش الذي استوى الرحمن سبحانه عليه سرير ذو أركان أربعة ووجوه أربعة هي قوائمه الأصلية وهي على الماء الجامد وفي جوفه الكرسي وهو على شكله في التربيع لا في القوائم ومقره على الماء الجامد أيضاً وبين مقعر العرش وبينه فضاء واسع وهواء مخترق وفي جوف الكرسي خلق الله تعالى الفلك الأطلس جسماً شفافاً مستديراً مقسماً إلى اثني عشر قسماً هي البروج المعروفة وفي جوفه الفلك المكوكب وما بينهما الجنات وبعد أن خلق الله تعالى الأرضين واكتسى الهواء صورة الدخان خلق الله سبحانه السماوات السبع وجعل في كل منها كوكباً وهي الجواري، وزعم الخفاجي أن المراد بالفلك في الآية الفلك الأعظم لأن الشمس والقمر وكذا سائر الكواكب تتحرك بحركته فالسباحة عنده عبارة عن الحركة القسرية، وفي القلب من ذلك شيء، ثم على ما هو الظاهر من أن لكل واحد فلكاً يخصه ذهبوا إلى أن فلك الشمس فوق فلك القمر لما أنه يكسفها والمكسوف فوق الكاسف ضرورة، وذكر معظم أهل الهيئة أن الفلك الأدنى فلك القمر وفوقه فلك عطارد وفوقه فلك الزهرة وفوقه فلك الشمس وفوقه فلك المريخ وفوقه فلك المشتري وفوقه فلك زحل واستدلوا على بعض ذلك بالكسف وعلى بعضه الآخر بأن فيه حسن الترتيب وجودة النظام، ولا مانع فيما أرى من القول بذلك لكن لا على الوجه الذى قال به أهل الهيئة من كون السماوات هي الأفلاك الدائرة بل على وجه يتأتى معه القول بسكون السماوات ودوران الكواكب في أفلاكها ومجاريها بعضها فوق بعض، وقد مر لك ما ينفعك في هذا المقام فراجعه، وجوز كون ضمير ﴿**يسبحون**﴾ عائداً على الكواكب ويشعر بها ذكر الشمس والقمر والليل والنهار، ورجح على الأول بأن الاتيان بضمير الجمع عليه ظاهر لا يحتاج إلى تكلف بخلافه على الأول فإنه محوج إلى أن يقال اختلاف أحوال الشمس والقمر في المطالع وغيرها نزل منزلة تعدد أفرادهما فكان المرجع شموساً وأقماراً، وظني أنه لا يحتاج إلى ذلك بناء على أنه قد يعتبر الاثنان جمعاً أو بناء على ما قال الإمام من أن لفظ كل يجوز أن يوحد نظراً إلى لفظه وأن يجمع نظراً إلى كونه بمعنى الجميع وأما التثنية فلا يدل عليها اللفظ ولا المعنى قال: فعلى هذا يحسن أن يقال زيد وعمرو كل جاؤوا وكل جاءا ولا يحسن كل جاؤوا بالتثنية، واستدل بالإتيان بضمير جمع العقلاء على أن الشمس والقمر من ذوي العقول. وأجيب بأن ذلك لما أن المسند إليهما فعل ذوي العقول كما في قوله تعالى في حق الأصنام ﴿ما لكم لا تنطقون﴾ [الصافات: ٩٢] وقوله سبحانه ﴿ألا تأكلون﴾ [الذاريات: ٢٧] والظواهر غير ما ذكر مع المستدلين. واستدل بالآية بعض فلاسفة الإسلام القائلين باتحاد السماء والفلك على استدارة السماء وجعلوا من اللطائف فيها أن ﴿**كل في ذلك**﴾ لا يستحيل بالانعكاس نحو كلامك كمالك وسر فلا كبابك الفرس وقالوا: لا يعكر على ذلك أنه سبحانه سماها سقفاً في قوله عز قائلاً ﴿والسقف المرفوع﴾ [الطور: ٥] لأن السقف المقبب لا يخرج عن كونه سقفاً بالتقبيب، وأنت تعلم أن السماوات غير الأفلاك ومع هذا أقول باستدارة السماوات كما ذهب إليه بعض السلف، وبعض ظواهر الأخبار يقتضي أنها أنصاف كرات كل سماء نصف كرة كالقبة على أرض من الأرضين السبع وإليه ذهب الشيخ الأكبر

وقال بالاستدارة لفلك المنازل دون السماوات السبع وادعى أن تحت الأرضين السبع التي على كل منها سماء ماء، وتحته هواء، وتحته ظلمة وعليه فليتأمل في كيفية سير الكوكب بعد غروبه حتى يطلع.

ثم إن الفلاسفة الذاهبين إلى استدارة السماء تمسكوا في ذلك بأدلة أقربها على ما قيل دليلان، الأول أنا متى قصدنا عدة مساكن على خط واحد من عرض الأرض وحصلنا الكواكب المارة على سمت رأس في كل واحدة منها ثم اعتبرنا أبعاد ممرات تلك الكواكب في دائرة نصف النهار بعضها من بعض وجدناها على نسب المسافات الأرضية بين تلك المساكن، وكذلك وجدنا ارتفاع القطب فيها متفاضلاً بمثل تلك النسب فتحدب السماء في العرض مشابه لتحدب الأرض فيه لكن هذا التشابه موجود في كل خط من خطوط العرض وكذا في كل خط من خطوط الطول فسطح السماء بأسره مواز لسطح الظاهر من الأرض بأسره وهذا السطح مستدير حساً فكذا سطح السماء الموازي له، والثاني أن أصحاب الأرصاد دونوا في كتبهم مقادير أجرام الكواكب وأبعاد ما بينها في الأماكن المختلفة في وقت واحد ما في أنصاف نهار تلك الأماكن مثلاً متساوية وهذا يدل على تساوي أبعاد مراكز الكواكب عن مناظر الأبصار المستلزم لتساوي أبعادها عن مركز العالم لاستدارة الأرض المستلزم لكون جرم السماء كريا ونوقش في هذا بأنه إنما يصح أن لو كان الفلك ساكناً والكوكب متحركاً إذ لو كان الفلك متحركاً جاز أن يكون مربعاً وتكون مساواة أبعاد مراكز الكواكب عن مناظر الأبصار وتساوي مقادير الأجرام للكواكب حاصلة، وفي الأول بأنه إنما يصح لو كان الإعتبار المذكور موجوداً في كل خط من خطوط الطول والعرض ولا يخفى جريان كل من المناقشتين في كل من الدليلين، ولهم غير ذلك من الأدلة مذكورة بما لها وعليها في مطولات كتبهم ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي أولادهم، قال الراغب: الذرية أصلها الصغار من الأولاد ويقع في التعارف على الصغار والكبار معاً ويستعمل للواحد والجمع وأصله للجمع، وفيه ثلاثة أقوال فقيل هو من ذرأ الله الخلق فترك همزته نحو برية وروية، وقيل: أصله ذروية، وقيل: هو فعلية من الذر نحو قمرية واستظهر حمله على الأولاد مطلقاً أبو حيان، وجوز غير واحد أن يحمل على الكبار لأنهم المبعوثون للتجارة أي حملناهم حين يبعثوهم للتجارة ﴿فِي الْفُلْكِ﴾ أي السفينة سميت بذلك على ما في مجمع البيان لأنها تدور في الماء ﴿الْمَشْحُونِ﴾ أي المملوء، وقيل: هو مستعمل على أصله وهم الأولاد الصغار الذين يستصحبونهم، وقيل: المراد به النساء فإنه يطلق عليهن، وفي الحديث أنه عليه الصلاة والسلام نهى عن قتل الذراري وفسر بالنساء.

وفي الفائق قال حنظلة الكاتب: كنا في غزاة عند رسول الله ﷺ فرأى امرأة مقتولة فقال: هاه ما كانت هذه تقاتل الحق خالداً وقل لا تقتلن ذرية ولا عسيفاً، وهي نسل الرجل وأوقعت على النساء كقولهم للمطر سماء ويراد بالنساء اللاتي يستصحبونهن وتخصيص الذرية على هذين القولين بالذكر لأن استقرارهم وتماسكهم في الفلك أعجب، وقيل: تطلق الذرية على الآباء وعلى الأبناء قاله أبو عثمان وتعقبه ابن عطية بأنه تخليط لا يعرف في اللغة، وقيل: الذرية النطف والفلك المشحون بطون النساء ذكره الماوردي ونسب إلى علي كرم الله تعالى وجهه، والظاهر أنه لم يصح ذلك عنه رضي الله تعالى عنه وفي الآية ما يبعده وهو أشبه شيء بتأويلات الباطنية والمراد بالفلك جنسه والوصف بالمشحون أقوى في الامتنان بسلامتهم فيه، وقيل: لأنه أبعد من الخطر، وإرادة الجنس مروية عن ابن عباس ومجاهد والسدي، وفسر ما في قوله تعالى:

﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ عليه بالإبل فإنها سفائن البر لكثرة ما تحمل وقلة كلالها في المسير، وإطلاق السفائن عليها شائع كما قيل:

سفائن برٍّ والسراب بحارها

وروي ذلك عن الحسن وعبد الله بن شداد، وفسره مجاهد بالأنعام الإبل وغيرها، وعن أبي مالك وأبي صالح وغيرهما وهي رواية عن ابن عباس أيضاً أن المراد بالفلك سفينة نوح عليه السلام على أن التعريف للعهد فما عبارة عما سمعت أيضاً عند بعض وعند آخرين هي السفن والزوارق التي كانت بعد تلك السفينة. واستشكل حمل ذريتهم في سفينة نوح عليه السلام. وأجيب بأن ذلك بحمل آبائهم الأقدمين وفي أصلابهم هؤلاء وذريتهم، وتخصيص الذرية مع أنهم محمولون بالتبع لأنه أبلغ في الامتنان حيث تضمن بقاء عقبهم وأدخل في التعجب ظاهراً حيث تضمن حمل ما لا يكاد يحصى كثرة في سفينة واحدة مع الإيجاز لأنه كان الظاهر أن يقال حملناهم ومن معهم ليبقى نسلهم فذكر الذرية يدل على بقاء النسل وهو يستلزم سلامة أصولهم فدل بلفظ قليل على معنى كثير، وقال الإمام: يحتمل عندي أن التخصيص لأن الموجودين كانوا كفاراً لا فائدة في وجودهم أي لم يكن الحمل حملاً لهم وإنما كان حملاً لما في أصلابهم من المؤمنين، وقيل: الكلام على حذف مضاف أي حملنا ذريات جنسهم وهو كما ترى، وقيل: ضمير ﴿**لهم**﴾ لأهل مكة وضمير ﴿**ذريتهم**﴾ للقرون الماضية الذين هم منهم وحكي ذلك عن علي بن سليمان وليس بشيء، وجوز الإمام كون الضميرين للعباد في قوله تعالى ﴿يا حسرة على العباد﴾ [يس: ٣٠] ولا يكون المراد في كل أشخاصاً معينين بل ذلك على نحو هؤلاء القوم هم قتلوا أنفسهم على معنى قتل بعضهم بعضاً فالمعنى آية لكل بعض منهم أنا حملنا ذرية كل بعض منهم أو ذرية بعض منهم وفيه من البعد ما فيه، ورجح تفسير ﴿**ما**﴾ بالإبل ونحوها من الأنعام دون السفن بأن المتبادر من الخلق الإنشاء والاختراع فيبعد أن يتعلق بما هو مصنوع العباد. وتعقب بأن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى عند أهل الحق وتبادر الإنشاء ممنوع وعليه يكن في الآية رد على المعتزلة كما قيل في قوله تعالى ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ [الصافات: ٩٦] على تقدير كون ما موصولة، و ﴿**من**﴾ تحتمل أن تكون للبيان وأن تكون للتبعيض؛ وجوز زيادتها على نظر الأخفش ورأيه، والظاهر أن ضمير ﴿**لهم**﴾ الثاني عائد على ما عاد عليه ضمير الأول، وجوز عوده على الذرية، وجوز أيضاً عود ضمير ﴿**مثله**﴾ على معلوم غير مذكور تقديره من مثل ما ذكرنا من المخلوقات في قوله سبحانه ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض﴾ [يس: ٣٦] وهو أبعد من العيوق، وأياً ما كان فلا يخفى مناسبة هذه الآية لقوله تعالى: ﴿**كل في فلك يسبحون**﴾ وإنما لم يؤت بها على أسلوب إخواتها بأن يقال وآية لهم الفلك حملنا ذريتهم فيه كما قال سبحانه ﴿وآية لهم الأرض الميتة أحييناها﴾ [يس: ٣٣] ﴿**وآية لهم الليل نسلخ منه النهار**﴾ لأنه ليس الفلك نفسه عجباً وإنما حملهم فيه هو العجب، وقرأ نافع وابن عامر والأعمش وزيد بن علي وأبان بن عثمان «ذرياتهم» بالجمع، وكسر زيد وأبان الذال ﴿**وَإِن نَشَأْ**﴾ إغراقهم ﴿**نُغْرِقْهُمْ**﴾ في الماء مع ما حملناهم فيه من الفلك وما يركبون من السفن والزوارق فالكلام من تمام ما تقدم فإن كان المراد بما هناك السفن والزوارق فالأمر ظاهر وإن كان المراد بها الإبل ونحوها كان الكلام من تمام صدر الآية أي نغرقهم مع ما حملناهم فيه من الفلك وكان حديث خلق الإبل ونحوها في البين استطراداً للتماثل، ولما في ذلك من نوع بعد قيل إن قوله سبحانه و ﴿**إن نشأ**﴾ الخ يرجح حمل ﴿**الفلك**﴾ على الجنس و ﴿**ما**﴾ على السفن والزوارق الموجودة بين بني آدم إلى يوم القيامة، وفي تعليق الإغراق بمحض المشيئة إشعار بأنه قد تكامل ما يستدعي اهلاكهم من معاصيهم ولم يبق إلا تعلق مشيئته تعالى به، وقيل إن في ذلك إشارة إلى الرد على من يتوهم إن حمل الفلك الذرية من غير أن يغرق أمر تقتضيه الطبيعة ويستدعيه امتناع الخلاء، وقرأ الحسن «نُغْرِقْهُمُ» بالتشديد ﴿**فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ**﴾ أي فلا مغيث لهم يحفظهم من الغرق، وتفسير الصريخ بالمغيث مروي عن مجاهد وقتادة، ويكون بمعنى

الصارخ وهو المستغيث ولا يراد هنا، ويكون مصدراً كالصراخ ويتجوز به عن الإغاثة لأن المستغيث ينادي من يستغيث به فيصرخ له ويقول جاءك العون والنصر قال المبرد في أول الكامل: قال سلامة بن جندل:

كنا إذا ما أتانا صارخ فزع ... كان الصراخ له فزع المطانيب[1]

يقول إذا أتانا مستغيث كانت اغاثته الجد في نصرته، وجوز إرادته هنا أي فلا اغاثة لهم ﴿وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ﴾ أي ينجون من الموت به بعد وقوعه ﴿إِلاَّ رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعاً﴾ استثناء مفرغ من أعم العلل الشاملة للباعث المتقدم والغاية المتأخرة أي لا يغاثون ولا ينقذون لشيء من الأشياء إلا لرحمة عظيمة من قبلنا داعية إلى الإغاثة والإنقاذ وتمتيع بالحياة مترتب عليهما، ويجوز أن يراد بالرحمة ما يقارن التمتيع بالحياة الدنيوية فيكون كلاهما غاية للإغاثة والانقاذ أي لنوع من الرحمة وتمتيع، وإلى كونه استثناء مفرغاً مما يكون مفعولاً لأجله ذهب الزجاج والكسائي، والاستثناء على ما يقتضيه الظاهر متصل، وقيل: الاستثناء منقطع على معنى ولكن رحمة منا ومتاع يكونان سبباً لنجاتهم وليس بذاك، وجوز أن يكون النصب بتقدير الباء أي إلا برحمة ومتاع، والجار متعلق بينقذون ولما حذف انتصب مجروره بنزع الخافض. وقيل هو على المصدرية لفعل محذوف أي إلا أن نرحمهم رحمة ونمتعهم تمتيعاً، ولا يخفى حاله وكذا حال ما قبله ﴿إِلَى حِينٍ﴾ أي إلى زمان قدر فيه حسبما تقتضيه الحكمة آجالهم، ومن هنا أخذ أبو الطيب قوله:

ولم أسلم لكي أبقى ولكن ... سلمت من الحمام إلى الحمام

والظاهر أن المحدث عنه من يشاء الله تعالى إغراقهم، وقال ابن عطية: إن ﴿فلا صريخ لهم﴾ الخ استئناف أخبار عن المسافرين في البحر ناجين كانوا أو مغرقين أي لا نجاة لهم إلا برحمة الله تعالى، وليس مربوطاً بالمغرقين وقد يصح ربطه به والأول أحسن فتأمله اهـ، وقد تأملناه فوجدناه لا حسن فيه فضلاً عن أن يكون أحسن.

والفاء ظاهرة في تعلق ما بعدها بما قبلها ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ الخ بيان لإعراضهم عن الآيات التنزيلية بعد بيان إعراضهم عن الآيات الآفاقية التي كانوا يشاهدونها وعدم تأملهم فيها أي إذا قيل لأهل مكة بطريق الإنذار بما نزل من الآيات أو بغيره ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ قال قتادة ومقاتل: أي عذاب الأمم التي قبلكم، والمراد اتقوا مثل عذابهم ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ أي عذاب الآخرة، وقال مجاهد في رواية عكس ذلك، وجاء عنه في رواية أخرى ما بين أيديهم، ما تقدم من ذنوبهم وما خلفهم ما يأتي منها، وعن الحسن مثله، وقيل ما بين أيديهم نوازل السماء وما خلفهم نوائب الأرض، وقيل ما بين أيديهم المكاره من حيث يحتسبون وما خلفهم المكاره من حيث لا يحتسبون، وحاصل الأمر على ما قيل اتقوا العذاب أو اتقوا ما يترتب العذاب عليه ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ حال من واو اتقوا أو غاية له راجين أن ترحموا أو كي ترحموا، وفسرت الرحمة بالإنجاء من العذاب، وجواب إذا محذوف ثقة بانفهامه من قوله تعالى ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ انفهاماً بينا، أما إذا كان الإنذار بالآية الكريمة فبعبارة النص، وأما إذا كان بغيرها فبدلالته لأنهم حين أعرضوا عن آيات ربهم فلأن يعرضوا عن غيرها بطريق الأولى كأنه قيل: وإذا قيل لهم اتقوا العذاب أو اتقوا ما يوجبه أعرضوا لأنهم اعتادوه وتمرنوا عليه، وما نافية وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار التجددي، ومن الأولى مزيدة لتأكيد العموم والثانية تبعيضية متعلقة بمحذوف وقع صفة لآية، وإضافة الآيات إلى اسم الرب المضاف إلى ضميرهم لتفخيم شأنها المستتبع لتهويل ما اجترؤوا عليه في حقها، والمراد بها إما هذه الآيات الناطقة بما فصل من بدائع صنع الله تعالى وسوابغ آلائه تعالى الموجبة للإقبال عليها والايمان وإيتاؤها نزول

---

(١) لعله جمع مطناب الجيش العظيم اهـ منه.

الوحي بها أي ما نزل الوحي بآية من الآيات الناطقة بذلك إلا كانوا عنها معرضين على وجه التكذيب والاستهزاء، وإما ما يعمها والآيات التكوينية الشاملة للمعجزات وتعاجيب المصنوعات التي من جملتها الآيات الثلاث المعدودة آنفاً وإيتاؤها ظهورها لهم أي ما ظهرت لهم آية من الآيات التي من جملتها ما ذكر من شؤونه تعالى الشاهدة بوحدانيته سبحانه وتفرده تعالى بالألوهية إلا كانوا عنها معرضين تاركين للنظر الصحيح فيها المؤدي إلى الإيمان به عز وجل.

وفي الكلام إشارة إلى استمرارهم على الاعراض حسب استمرار إتيان الآيات، و ﴿عن﴾ متعلقة بمعرضين قدمت عليه للحصر الإدعائي مبالغة في تقبيح حالهم، وقيل للحصر الإضافي أي معرضين عنها لا عما هم عليه من الكفر وقيل لرعاية الفواصل والجملة في حيز النصب على أنها حال من مفعول تأتي أو من فاعله المتخصص بالوصف لاشتمالها على ضمير كل منهما والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال أي ما تأتيهم آية من آيات ربهم في حال من أحوالهم إلا حال إعراضهم عنها أو ما تأتيهم آية منها في حال من أحوالها إلا حال اعراضهم عنها.

وجملة ﴿وما تأتيهم﴾ الخ ـ على ما يشعر به كلام الكشاف ـ تذييل يؤكد ما سبق من حديث الإعراض، وإلى كونه تذييلاً ذهب الخفاجي ثم قال: فتكون معترضة أو حالاً مسوقة لتأكيد ما قبلها لشمولها لما تضمنه مع زيادة إفادة التعليل الدال على الجواب المقدر المعلل به فليس من حقها الفصل لأنها مستأنفة كما توهم فتأمل ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي أعطاكم سبحانه بطريق التفضل والإنعام من أنواع الأموال، وعبر بذلك تحقيقاً للحق وترغيباً في الإنفاق على منهاج قوله تعالى ﴿وأحسن كما أحسن الله إليك﴾ [القصص: ٧٧] وتنبيهاً على عظم جنايتهم في ترك الامتثال بالأمر، وكذلك الإتيان بمن التبعيضية، والكلام على ما قيل لذمهم على ترك الشفقة على خلق الله تعالى أثر ذمهم على ترك تعظيمه عز وجل بترك التقوى، وفي ذلك إشارة إلى أنهم أخلوا بجميع التكاليف لأنها كلها ترجع إلى أمرين التعظيم لله تعالى والشفقة على خلقه سبحانه، وقيل هو للإشارة إلى عدم مبالاتهم بنصح الناصح وإرشاده إياهم إلى ما يدفع البلاء عنهم نظير قوله تعالى ﴿وإذا قيل لهم اتقوا﴾ الخ والمعنى عليه. إذا قيل لهم بطريق النصيحة والإرشاد إلى ما فيه نفعهم انفقوا بعض ما آتاكم الله من فضله على المحتاجين فإن ذلك مما يرد البلاء ويدفع المكاره ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَو يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ والأول أظهر، والظاهر أن الذين كفروا هم الذين قيل لهم انفقوا وعدل عن ضميرهم إلى الظاهر إيماء إلى علة القول المذكور، وفي كون القول للذين آمنوا إيماء إلى أنهم القائلون، قيل: لما أسلم حواشي الكفار من أقربائهم ومواليهم من المستضعفين قطعوا عنهم ما كانوا يواسونهم به وكان ذلك بمكة قبل نزول آيات القتال فندبهم المؤمنون إلى صلة حواشيهم فقالوا: ﴿أنطعم﴾ الخ، وقيل: شحت قريش بسبب أزمة على المساكين من مؤمن وغيره فندبهم النبي ﷺ إلى النفقة عليهم فقالوا هذا القول، وقيل: قال فقراء المؤمنين أعطونا ما زعمتم من أموالكم أنها لله تعالى فحرموا وقالوا ذلك، وروي هذا عن مقاتل، وقال ابن عباس: كان بمكة زنادقة إذا أمروا بالصدقة قالوا لا والله أيفقره الله تعالى ونطعمه نحن وكانوا يسمعون المؤمنين يعلقون الأفعال بمشيئة الله تعالى يقولون لو شاء الله تعالى لأغنى فلاناً ولو شاء لأعزه ولو شاء سبحانه لكان كذا فأخرجوا هذا الجواب مخرج الاستهزاء بالمؤمنين وبما كانوا يقولون.

وقال القشيري أيضاً: إن الآية نزلت في قوم من الزنادقة لا يؤمنون بالصانع وأنكروا وجوده فقولهم لو يشاء الله من باب الاستهزاء بالمسلمين. وجوز أن يكون مبنياً على اعتقاد المخاطبين ويفهم من هذا أن الزنديق من ينكر الصانع، وقد حقق الأمر فيه على الوجه الأكمل ابن الكمال في رسالة مستقلة فارجع إليها إن أردت ذلك وعن الحسن. وأبي خالد أن الآية نزلت في اليهود أمروا بالإنفاق على الفقراء فقالوا ذلك.

وظاهر ما تقدم يقتضي أنها في كفار مكة أمروا بالإنفاق مما رزقهم الله تعالى وهو عام في الإطعام وغيره فأجابوا بنفي الإطعام الذي لم يزالوا يفتخرون به دلالة على نفي غيره بالطريق الأولى ولذا لم يقل أننفق.

وقيل لم يقل ذلك لأن الإطعام هو المراد من الإنفاق أو لأن ﴿**نطعم**﴾ بمعنى نعطي وليس بذاك، و ﴿**أطعمه**﴾ جواب ﴿**لو**﴾ وورود الموجب جواباً بغير لام فصيح ومنه ﴿**أن لو نشاء أصبناهم**﴾ [الأعراف: ١٠٠] ﴿**لو نشاء جعلناه أجاجاً**﴾ [الواقعة: ٧٠] نعم الأكثر مجيئه باللام.

والظاهر أن قوله تعالى ﴿**إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾ من تتمة قول الذين كفروا للذين آمنوا أي ما أنتم إلا في ضلال ظاهر حيث طلبتم منا ما يخالف مشيئة الله عز وجل، ولعمري إن الإناء ينضح بما فيه فإن جوابهم يدل على غاية ضلالهم وفرط جهلهم حيث لم يعلموا أنه تعالى يطعم بأسباب منها حث الأغنياء على إطعام الفقراء وتوفيقهم سبحانه له، ويجوز أن يكون جواباً من جهته تعالى زجر به الكفرة وجهلهم به أو حكاية لجواب المؤمنين لهم فيكون على الوجهين استئنافاً بيانياً جواباً لما عسى أن يقال ما قال الله تعالى أو ما قال المؤمنون في جوابهم؟.

وقوله تعالى ﴿**وَيَقُولُونَ**﴾ عطف على الشرطية السابقة مفيد لإنكارهم البعث الذي هو مبدأ كل قبيح والنبي ﷺ لم يزل يعدهم بذلك، ومما يستحضر في اذهانهم ما تقدم من الأوامر فلذا أتوا بالإشارة إلى القريب في قولهم ﴿**مَتَى هٰذَا الْوَعْدُ**﴾ يعنون وعد البعث، وجوز أن يكون ذلك من باب الاستهزاء وأرادوا متى يكون ذلك ويتحقق في الخارج ﴿**إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ فيما تقولون وتعدون فأخبرونا بذلك، والخطاب لرسول الله ﷺ والمؤمنين لما أنهم أيضاً كانوا يتلون عليهم الآيات الدالة عليه والآمرة بالإيمان به وكأنه لم يعتبر كونه شراً لهم ولذا عبروا بالوعد دون الوعيد، وقيل: إن ذاك لأنهم زعموا إن لهم الحسنى عند الله تعالى إن تحقق البعث بناء على أن الآية في غير المعطلة ﴿**مَا يَنْظُرُونَ**﴾ جواب من جهته تعالى أي ما ينتظرون ﴿**إِلاَّ صَيْحَةً**﴾ عظيمة ﴿**وَاحِدَةً**﴾ وهي النفخة الأولى في الصور التي يموت بها أهل الأرض. وعبر بالإنظار نظراً إلى ظاهر قولهم ﴿**متى هذا الوعد**﴾ أو لأن الصيحة لما كانت لا بد من وقوعها جعلوا كأنهم منتظروها ﴿**تَأْخُذُهُمْ**﴾ تقهرهم وتستولي عليهم فيهلكون ﴿**وَهُمْ يُخِصِّمُونَ**﴾ أي يتخاصمون ويتنازعون في معاملاتهم ومتاجرهم لا يخطر ببالهم شيء من مخايلها كقوله تعالى ﴿أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون﴾ [يوسف: ١٠٧] فلا يغتروا بعدم ظهور علائمها حسبما يريدون ولا يزعمون أنها لا تأتي، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عمر قال: «لينفخن في الصور والناس في طرقهم وأسواقهم ومجالسهم حتى أن الثوب ليكون بين الرجلين يتساومان فما يرسله أحدهما من يده حتى ينفخ في الصور فيصعق به» وهي التي قال الله تعالى ﴿**ما ينظرون إلاّ صيحة واحدة**﴾ الخ، وأخرج الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله ﷺ لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ولتقومن الساعة والرجل يليط حوضه فلا يسقى منه ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن نعجته فلا يطعمه ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فمه فلا يطعمها» وأصل يخصمون يختصمون وبه قرأ أبي فسكنت التاء وأدغمت في الصاد بعد قلبها صاداً ثم كسرت الخاء لالتقاء الساكنين، وجوز أن يكون الكسر لاتباع حركة الصاد الثانية والساكن لا يضر حاجزاً.

وقرأ الحرميان وأبو عمرو والأعرج وشبل وابن قسطنطين بإدغام التاء في الصاد ونقل حركتها وهي الفتحة إلى الخاء، وأبو عمرو أيضاً وقالون بخلف باختلاس حركة الخاء وتشديد الصاد، وعنهما اسكان الخاء وتخفيف الصاد من خصمه إذا جادله، والمفعول عليها محذوف أي يخصم بعضهم بعضاً، وقيل يخصمون مجادلتهم عن أنفسهم، وبعضهم يكسر ياء المضارعة اتباعاً لكسرة الخاء وشد الصاد، وكسر ياء المضارعة لغة حكاها سيبويه عن الخليل في

مواضع، وعن نافع أنه قرأ بفتح الياء وسكون الخاء وتشديد الصاد المكسورة، وفيها الجمع بين الساكنين على حده المعروف، وكأنه يجوز الجمع بينهما إذا كان الثاني مدغماً كان الأول حرف مد أيضاً أم لا، وهذا ما اخترناه في نقل القراءات تبعاً لبعض الأجلة والرواة في ذلك مختلفون.

﴿فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ في شيء من أمورهم إذا كانوا فيما بين أهليهم، ونصب **﴿توصية﴾** على أنه مفعول به ليستطيعون، وجوز أن يكون مفعولاً مطلقاً لمقدر **﴿وَلا إِلَى أَهْلِهِم يَرجِعُونَ﴾** إذا كانوا في خارج أبوابهم بل تبغتهم الصيحة فيموتون حيثما كانوا ويرجعون إلى الله عز وجل لا إلى غيره سبحانه. وقرأ ابن محيصن «يُرجَعُونَ» بالبناء للمفعول والضمائر للقائلين **﴿متى هذا الوعد﴾** لا من حيث أعيانهم أعني أهل مكة الذين كانوا وقت النزول بل لمنكري البعث مطلقاً **﴿وَنُفِخَ فِي الصُّور﴾** هي النفخة الثانية بينها وبين الأولى أربعون أي النفخ فيه، وصيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع.

وقرأ الأعرج «الصُوَرِ» بفتح الواو وقد مر الكلام في ذلك **﴿فإِذَا هُمْ من الأَجْدَاث﴾** أي القبور جمع جدث بفتحتين، وقرىء بالفاء بدل الثاء والمعنى واحد **﴿إلى ربهم﴾** مالك أمرهم **﴿يَنْسِلُونَ﴾** يسرعون بطريق الإجبار لقوله تعالى **﴿لدينا محضرون﴾** قيل: وذكر الرب للإشارة إلى إسراعهم بعد الإساءة إلى من أحسن إليهم حين اضطروا إليه، ولا منافاة بين هذه الآية وقوله تعالى ﴿فإذا هم قيام ينظرون﴾ [الزمر: ٦٨] لجواز اجتماع القيام والنظر والمشي أو لتقارب زمان القيام ناظرين وزمان الإسراع في المشي. وقرأ ابن أبي إسحاق وأبو عمرو بخلاف عنه بضم السين **﴿قَالُوا﴾** أي في ابتداء بعثهم من القبور **﴿يَا وَيْلَنَا﴾** أي هلاكنا أحضر فهذا أوانك وقيل أي يا قومنا انظروا ويلنا وتعجبوا منه، وعلى حذف المنادي قيل وي كلمة تعجب ولنا بيان ونسب للكوفيين وليس بشيء.

وقرأ ابن أبي ليلى «يا ويلتنا» بتاء التأنيث، وعنه أيضاً «يا ويلتي» بتاء بعدها ألف بدل من ياء الإضافة، والمراد أن كل واحد منهم يقول يا ويلتي **﴿مَنْ بَعَثَنَا مِن مَرْقَدِنَا﴾** أي رقادنا على أنه مصدر ميمي أو محل رقادنا على أنه اسم مكان ويراد بالمفرد الجمع أي مراقدنا، وفيه تشبيه الموت بالرقاد من حيث عدم ظهور الفعل والاستراحة من الأفعال الاختيارية، ويجوز أن يكون المرقد على حقيقته والقوم لاختلاط عقولهم ظنوا كانوا نياماً ولم يكن لهم إدراك لعذاب القبر لذلك فاستفهموا عن موقظهم، وقيل سموا ذلك مرقداً مع علمهم بما كانوا يقاسون فيه من العذاب لعظم ما شاهدوه فكأن ذلك مرقد بالنسبة إليه، فقد روي أنهم إذا عاينوا جهنم وما فيها من ألوان العذاب يرون ما كانوا فيه مثل النوم في جنبها فيقولون ذلك.

وأخرج القرباني وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي بن كعب أنه قال: ينامون قبل البعث نومة، وأخرج هؤلاء ما عدا ابن جرير عن مجاهد قال: للكفار هجعة يجدون فيها طعم النوم قبل يوم القيامة فإذا صيح بأهل القبور يقولون **﴿يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا﴾** وروي عن ابن عباس أن الله تعالى يرفع عنهم العذاب بين النفختين فيرقدون فإذا بعثوا بالنفخة الثانية وشاهدوا الأهوال قالوا: ذلك.

وفي البحر أن هذا غير صحيح الإسناد واختار أن المرقد استعارة عن مضجع الموت.

وقرأ أمير المؤمنين عليّ وابن عباس والضحاك وأبو نهيك «مِنْ بَعْثِنَا» بمن الجارة والمصدر المجرور وهو متعلق بويل أو بمحذوف وقع حالاً منه: ونحوه في الخبر:

ويلي عليك وويلي منك يا رجل

ومن الثانية متعلقة ببعث.

وعن ابن مسعود أنه قرأ «مَنْ أَهبنا» بمن الاستفهامية وأهب بالهمز من هب من نومه إذا انتبه وأهببته أنا أي أنبهته.

وعن أبي أنه قرأ «هبنا» بلا همز قال ابن جني: وقراءة ابن مسعود أقيس فهبني بمعنى أيقظني لم أر لها أصلاً ولا مر بنا في اللغة مهبوب بمعنى موقظ اللهم إلا أن يكون حرف الجر محذوفاً أي هب بنا أي أيقظنا ثم حذف وأوصل الفعل، وليس المعنى على من هب فهببنا معه وإنما معناه من أيقظنا. وقال البيضاوي: هبنا بدون الهمز بمعنى أهبنا بالهمز، وقرىء «مِنْ هبنا» بمن الجارة والمصدر من هب يهب ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ﴾ جملة من مبتدأ وخبر ﴿وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ عطف على ما في حيز ما، وعطفه على الجملة الاسمية أو جعله حالاً بتقدير قد بدونه خلاف الظاهر، وما موصولة محذوفة العائد أي هذا الذي وعده الرحمن والذي صدقه المرسلون أي صدق فيه من قولهم صدقت زيداً الحديث أي صدقته فيه ومنه قولهم صدقني سن بكره أو مصدرية أي هذا وعد الرحمن وصدق المرسلين على تسمية الموعود والمصدوق فيه بالوعد والصدق، وهو على ما قيل جواب من جهته عز وجل وعلى ما قال الفراء من قبل الملائكة وعلى ما قال قتادة ومجاهد من قبل المؤمنين؛ وكان الظاهر أن يجابوا بالفاعل لأنه الذي سألوا عنه بأن يقال الرحمن أو الله بعثكم لكن عدل عنه إلى ما ذكر تذكيراً لكفرهم وتقريعاً لهم عليه مع تضمنه الاشارة إلى الفاعل، وذكر غير واحد أنه من الأسلوب الحكيم على أن المعنى لا تسألوا عن الباعث فإن هذا البعث ليس كبعث النائم وإن ذلك ليس مما يهمكم الآن وإنما الذي يهمكم أن تسألوا ما هذا البعث ذو الأهوال والافزاع، وفيه من تقريعهم ما فيه.

وزعم الطيبي أن ذكر الفاعل ليس بكاف في الجواب لأن قولهم ﴿من بعثنا من مرقدنا﴾ حكاية عن قولهم ذلك عند البعث بعد ما سبق من قولهم ﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ فلا بد في الجواب من قول مضمن معنيين فكان مقتضى الظاهر أن يقال بعثكم الرحمن الذي وعدكم البعث وأنبأكم به الرسل لكن عدل إلى ما يشعر بتكذيبهم ليكون أهول وفي التقريع أدخل، وهو وارد على الأسلوب الحكيم وفي دعوى عدم كفاية ذكر الفاعل في الجواب نظر، وفي إيثارهم اسم الرحمن قيل اشارة إلى زيادة التقريع من حيث إن الوعد بالبعث من آثار الرحمة وهم لم يلقوا له بالا ولم يلتفتوا إليه و كذبوا به ولم يستعدوا لما يقتضيه، وقيل آثره المجيبون من المؤمنين لما أن الرحمة قد غمرتهم فهي نصب أعينهم، واختصاص رحمة الرحمن بما يكون في الدنيا ورحمة الرحيم بما يكون في الأخرى ممنوع فقد ورد يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما.

وقال ابن زيد: هذا الجواب من قبل الكفار على أنهم أجابوا أنفسهم حيث تذكروا ما سمعوه من المرسلين عليهم السلام أو أجاب بعضهم بعضاً، وآثروا اسم الرحمن طمعاً في أن يرحمهم وهيهات ليس لكافر نصيب يومئذ من رحمته عز وجل، وجوز الزجاج كون ﴿هذا﴾ صفة لمرقدنا لتأويله بمشتق فيصح الوقف عليه، وقد روي عن حفص أنه وقف عليه وسكت سكتة خفيفة فحكاية إجماع القراء على الوقف على ﴿مرقدنا﴾ غير تامة، وما مبتدأ محذوف الخبر أي حق أو مبتدأ خبره محذوف أي هو أو هذا ما وعد، وفيه من البديع صنعة التجاذب وهو أن تكون كلمة محتملة أن تكون من السابق وأن تكون من اللاحق، ومثله كما قال الشيخ الأكبر قدس سره في تفسيره[1] المسمى بإيجاز البيان في الترجمة عن القرآن ومن خطه الشريف نقلت ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه﴾ [البقرة: ١٤٦، الأنعام: ٢٠] الآية بعد قوله تعالى ﴿ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين﴾ [البقرة:١٤٥]

---

(١) وهو على اسلوب تفاسير المفسرين دون أهل التأويل ا هـ منه.

وقوله تعالى ﴿فيه هدى ـ بعد ـ لا ريب﴾ [البقرة: ٢] فليحفظ ﴿إن كانت﴾ أي ما كانت الفعلة أو النفخة التي حكيت آنفاً ﴿إلا صيحة واحدة﴾ حصلت من نفخ إسرافيل عليه السلام في الصور، وقيل: هي قول إسرافيل عليه السلام أيتها العظام النخرة والأوصال المتقطعة والشعور المتمزقة إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء. وقرىء برفع «صيحة» ومر توجيهها ﴿فإذا هم جميع﴾ مجموع ﴿لدينا﴾ عندنا وفي محل حكمنا وانقطاع التصرف الظاهري من غيرنا ﴿محضرون﴾ لفصل الحساب من غير لبث ما طرفة عين، وفيه من تهوين أمر البعث والحشر والإيذان باستغنائهما عن الأسباب ما لا يخفى.

﴿فاليوم﴾ الحاضر أو المعهود وهو يوم القيامة الدال نفخ الصور عليه؛ وانتصب على الظرف والعامل فيه قوله تعالى ﴿لا تظلم نفس﴾ من النفوس برة كانت أو فاجرة ﴿شَيْئاً﴾ من الظلم فهو نصب على المصدرية أو شيئاً من الأشياء على أنه مفعول به على الحذف والإيصال ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي الإجزاء ما كنتم تعملونه في الدنيا على الاستمرار من الكفر والمعاصي فالكلام على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه للتنبيه على قوة التلازم والارتباط بينهما كأنهما شيء واحد أو إلا بما كنتم تعملونه أي بمقابلته أو بسببه، وقيل: لا تجزون إلا نفس ما كنتم تعملونه بأن يظهر بصورة العذاب، وهذا حكاية عما يقال للكافرين حين يرون العذاب المعد لهم تحقيقاً للحق وتقريعاً لهم، واستظهر أبو حيان أن الخطاب يعم المؤمنين بأن يكون الكلام اخباراً من الله تعالى عماً لأهل المحشر على العموم كما يشير إليه تنكير ﴿نفس﴾ واختاره السكاكي، وقيل: عليه يأباه الحصر لأنه تعالى يوفي المؤمنين أجورهم ويزيدهم من فضله أضعافاً مضاعفة. ورد بأن المعنى أن الصالح لا ينقص ثوابه والطالح لا يزاد عقابه لأن الحكمة تأبى ما هو على صورة الظلم أما زيادة الثواب ونقص العقاب فليس كذلك أو المراد بقوله تعالى ﴿ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾ إنكم لا تجزون إلا من جنس عملكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

وقوله تعالى ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ على تقدير كون الخطاب السابق خاصاً بالكفرة من جملة ما سيقال لهم يومئذ زيادة لحسرتهم وندامتهم فإن الأخبار يحسن حال أعدائهم أثر بيان سوء حالهم مما يزيدهم مساءة على مساءة وفي حكاية ذلك مزجرة لهؤلاء الكفرة عما هم عليه ومدعاة إلى الاقتداء بسيرة المؤمنين، وعلى تقدير كونه عاماً ابتداء كلام وأخبار لنا بما يكون في يوم القيامة إذا صار كل إلى ما أعد لهم من الثواب والعقاب، والشغل هو الشأن الذي يصد المرء ويشغله عما سواه من شؤونه لكونه أهم عنده من الكل إما لايجابه كمال المسرة أو كمال المساءة والمراد هاهنا هو الأول، وتنكيره للتعظيم كأنه شغل لا يدرك كنهه، والمراد به ما هم فيه من النعيم الذي شغلهم عن كل ما يخطر بالبال، وعن ابن عباس وابن مسعود، وقتادة هو افتضاض الأبكار وهو المروي عن جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه، وفي رواية أخرى عن ابن عباس ضرب الأوتار.

وقيل السماع وروي عن وكيع وعن ابن كيسان التزاور، وقيل ضيافة الله تعالى وهي يوم الجمعة في الفردوس الأعلى عند كثيب المسك وهناك يتجلى سبحانه لهم فيرونه جل شأنه جميعاً، وعن الحسن نعيم شغلهم عما فيه أهل النار من العذاب، وعن الكلبي شغلهم عن أهاليهم من أهل النار لا يذكرونهم لئلا يتنغصوا، ولعل التعميم أولى.

وليس مراد أهل هذه الأقوال بذلك حصر شغلهم فيما ذكروه فقط بل بيان أنه من جملة أشغالهم، وتخصيص كل منهم كلاً من تلك الأمور بالذكر محمول على اقتضاء مقام البيان إياه، وأفرد الشغل باعتبار أنه نعيم وهو واحد بهذا الاعتبار، والجار مع مجروره متعلق بمحذوف وقع خبراً لأن و ﴿فاكهون﴾ خبر ثان لها وجوز أن يكون هو الخبر و﴿في شغل﴾ متعلق به أو حال من ضميره؛ والمراد بفاكهون على ما أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن

ابن عباس فرحون، وأخرجوا عن مجاهد أن المعنى يتعجبون بما هم فيه.

وقال أبو زيد: الفاكه الطيب النفس الضحوك ولم يسمع له فعل من الثلاثي، وقال أبو مسلم: إنه مأخوذ من الفكاهة بالضم وهي التحدث بما يسرّ، وقيل التمتع والتلذذ قيل ﴿**فاكهون**﴾ ذوو فاكهة نحو لابن وتامر.

وظاهر صنيع أبي حيان اختياره، والتعبير عن حالهم هذه بالجملة الاسمية قبل تحققها لتنزيل المترقب المترفع منزلة الواقع للإيذان بغاية سرعة تحققها ووقوعها، وفيه على تقدير خصوص الخطاب زيادة لمساءة المخاطبين.

وقرأ الحرميان وأبو عمرو «شُغْلٍ» بضم الشين وسكون الغين وهي لغة في شغل بضمتين للحجازيين ما قال الفراء.

وقرأ مجاهد وأبو السمال وابن هبيرة فيما نقل عنه ابن خالويه بفتحتين، ويزيد النحوي وابن هبيرة أيضاً فيما نقل عنه أبو الفضل الرازي بفتح الشين وإسكان الغين وهما لغتان أيضاً فيه.

وقرأ الحسن وأبو جعفر وقتادة وأبو حيوة ومجاهد وشيبة وأبو رجاء ويحيى بن صبيح ونافع في رواية «فاكهون» جمع فكه كحذر وحذرون وهو صفة مشبهة تدل على المبالغة والثبوت، وقرأ طلحة والأعمش «فاكهين» بالألف وبالياء نصباً على الحال[1] و ﴿**في شغل**﴾ هو الخبر، وقرىء «فكهين» بغير ألف وبالياء كذلك، وقرىء «فكهون» بفتح الفاء وضم الكاف وفعل بضم العين من أوزان الصفة المشبهة كنطس وهو الحاذق الدقيق النظر الصادق الفراسة، وقوله تعالى: ﴿**هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ**﴾ استئناف مسوق لبيان كيفية شغلهم وتفكههم وتكميلها بما يزيدهم بهجة وسروراً من شركة أزواجهم، فهم مبتدأ و ﴿**أزواجهم**﴾ عطف عليه و ﴿**متكئون**﴾ خبر والجار أن صلة له قيل قدماً عليه لمراعاة الفواصل أو هو والجاران بما تعلقاً به من الاستقرار أخبار مترتبة، وجوز أن يكون الخبر هو الظرف الأول والظرف الثاني متعلق بمتكئون وهو خبر مبتدأ محذوف أي هم متكئون على الأرائك أو الظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم و ﴿**متكئون**﴾ مبتدأ مؤخر والجملة على الوجهين استئناف بياني، وقيل ﴿**هم**﴾ تأكيد للمستكن في خبر إن أعني فاكهون أو في شغل.

ومنعه بعضهم زعماً منه أن فيه الفصل بين المؤكد والمؤكد بأجنبي و ﴿**متكئون**﴾ خبر آخر لها و ﴿**على الأرائك**﴾ متعلق به وكذا ﴿**في ظلال**﴾ أو هو متعلق بمحذوف هو حال من المعطوف والمعطوف عليه، ومن جوز مجيء الحال من المبتدأ جوز هذا الاحتمال على تقدير أن يكون ﴿**هم**﴾ مبتدأ أيضاً، والظلال جمع ظل وجمع فعل على فعال كثير كشعب وشعاب وذئب وذئاب، ويحتمل أن يكون جمع ظلة بالضم كقبة وقباب وبرمة وبرام، وأيد بقراءة عبد الله والسلمي وطلحة وحمزة والكسائي «في ظلل» بضم ففتح فإنه جمع ظلة لا ظل والأصل توافق القراءات، ومنذر بن سعيد يقول: مع ظلة بالكسر وهي لغة في ظلة بالضم فيكون كلقحة ولقاح وهو قليل.

وفسر الإمام الظل بالوقاية عن مظان الألم؛ ولأهل الجنة من ظل الله تعالى ما يقيهم الأسواء والجمع باعتبار ما لكل واحد منهم من ذلك أو هو متعدد للشخص الواحد باعتبار تعدد ما منه الوقاية. ويحتمل أنه جمع باعتبار كونه عظيم الشأن جليل القدر كجمع اليد بمعنى القدرة على قول في قوله تعالى: ﴿والسماء بنيناها بأيد﴾ [الذاريات: ٤٧].

وفسر أبو حيان الظلال جمع ظلة بالملابس ونحوها من الأشياء التي تظل كالستور، وأقول قال ابن الأثير: الظل الفيء الحاصل من الحاجز بينك وبين الشمس أي شيء كان، وقيل هو مخصوص بما كان منه إلى زوال الشمس وما

---

(١) في الظرف أي من المستكن اهـ.

كان بعد فهو الفيء، وأنت تعلم أن الظل بالمعنى الذي تعتبر فيه الشمس لا يتصور في الجنة إذ لا شمس فيها، ومن هنا قال الراغب: الظل ضد الضح وهو أعم من الفيء فإنه يقال ظل الليل وظل الجنة، وجاء في ظلها ما يدل على أنه كالظل الذي يكون في الدنيا قبل طلوع الشمس، فقد روى ابن القيم في حادي الأرواح عن ابن عباس أنه سئل ما أرض الجنة؟ قال: مرمرة بيضاء من فضة كأنها مرآة قيل: ما نورها؟ قال: ما رأيت الساعة التي قبل طلوع الشمس فذلك نورها إلا أنها ليس فيها شمس ولا زمهرير، وذكر ابن عطية نحو هذا لكن لم يعزه. وتعقبه أبو حيان بأنه يحتاج إلى نقل صحيح وكيف يكون ذلك وفي الحديث ما يدل على أن حوراء من حور الجنة لو ظهرت لأضاءت منها الدنيا أو نحو من هذا، ويمكن الجواب بأن المراد تقريب الأمر لفهم السائل وإيضاح الحال بما يفهمه أو بيان نورها في نفسها لا الأعم منه ومما يحصل فيها من أنوار سكانها الحور العين وغيرهم.

نعم نورها في نفسها أتم من نور الدنيا قبل طلوع الشمس كما يومىء إليه ما أخرجه ابن ماجة عن أسامة قال: «قال رسول الله ﷺ: ألا هل مشمر للجنة فإن الجنة لا خطر لها أي لا عدل ولا مثل وهي ورب الكعبة نور يتلألأ» الحديث، ويجوز حمل الظلال جمع ظل هنا على هذا المعنى وجمعه للتعدد الاعتباري، ويجوز حمل الظل على العزة والمناعة فإنه قد يعبر به عن ذلك وبهذا فسر الراغب قوله تعالى: ﴿إن المتقين في ظلال وعيون﴾ [المرسلات: ٤١] وهو غير معنى الوقاية عن مظان الألم الذي ذكره الإمام، ويجوز حمله على أنه جمع ظلة على الستور التي تكون فوق الرأس من سقف وشجر ونحوهما ووجود ذلك في الجنة مما لا شبهة فيه فقد جاء في الكتاب وصح في السنة أن فيها غرفاً وهي ظاهرة فيما كان ذا سقف بل صرح في بعض الأخبار بالسقف وجاء فيها أيضاً ما هو ظاهر في أن فيها شجراً مرتفعاً يظل من تحته، وقد صح من رواية الشيخين أنه ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها فاقرؤوا إن شئتم ﴿وظل ممدود﴾ [الواقعة: ٣٠]» وأخرج ابن أبي الدنيا عن ابن عباس أنه قال الظل الممدود شجرة في الجنة على ساق قدر ما يسير الراكب المجد في ظلها مائة عام في كل نواحيها يخرج إليها أهل الجنة أهل الغرف وغيرهم فيتحدثون في ظلها الخبر، وابن الأثير يقول: معنى في ظلها في ذراها وناحيتها، وكان هذا لدفع أنها تظل من الشمس أو نحوها، و ﴿**الأرائك**﴾ جمع أريكة وهو السرير في قول، وقيل: الوسادة حكاه الطبرسي وقال الزهري: كل ما اتكيء عليه فهو أريكة، وقال ابن عباس: لا تكون أريكة حتى يكون السرير في الحجلة فإن كان سرير بغير حجلة لا تكون أريكة وإن كانت حجلة بغير سرير لم تكن أريكة فالسرير والحجلة أريكة وفي حادي الأرواح لا تكون أريكة إلا أن يكون السرير في الحجلة وأن يكون على السرير فراش، وفي الصحاح الأريكة سرير منجد مزين في قبة أو بيت، وقال الراغب: الأريكة حجلة على سرير والجمع آرائك، وتسميتها بذلك إما لكونها في الأرض متخذة من أراك هو شجر معروف أو لكونها مكاناً للإقامة من قولهم أرك بالمكان أروكا، وأصل الأروك الإقامة على رعي الأراك ثم تجوز به في غيره من الاقامات.

وبالجملة إن كلام الأكثرين يدل على أن السرير وحده لا يسمى أريكة نعم يقال للمتكىء على أريكة متكىء على سرير فلا منافاة بين ما هنا وقوله تعالى: ﴿متكئين على سرر مصفوفة﴾ [الطور: ٢٠] لجواز أن تكون السرر في الحجال فتكون أرائك، ويجوز أن يقال: إن أهل الجنة تارة يتكئون على الأرائك وأخرى يتكئون على السرر التي ليست بآرائك، وسيأتي إن شاء تعالى ما ورد في وصف سررهم رزقنا الله تعالى وإياكم الجلوس على هاتيك السرر والاتكاء مع الأزواج على الأرائك، والظاهر أن المراد بالأزواج أزواجهم المؤمنات اللاتي كن لهم في الدنيا، وقيل أزواجهم اللاتي زوجهم الله تعالى إياهن من الحور العين، ويجوز فيما يظهر أن يراد الأعم من الصنفين ومن المؤمنات اللاتي متن

ولم يتزوجن في الدنيا فزوجهن الله تعالى في الجنة من شاء من عباده بل الأعم من ذلك كله ومن المؤمنات اللاتي تزوجن في الدنيا بأزواج ماتوا كفاراً فأدخلوا النار مخلدين فيها وأدخلن الجنة كامرأة فرعون فقد جاء في الأخبار أنها تكون زوجة نبينا ﷺ وجوز أن يكون المراد بأزواجهم أشكالهم في الإحسان وأمثالهم في الإيمان كما قال سبحانه: ﴿وآخر من شكله أزواج﴾ [ص: ٥٨] وقريب منه ما قيل المراد به أخلاؤهم كما في قوله تعالى: ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم﴾ [الصافات: ٢٢] وقيل يجوز أن يراد به ما يعم الأشكال والاخلاء ومن سمعت أولاً، وأنت تعلم بعد إرادة ذلك وكذا إرادة الأشكال أو الإخلاء بالخصوص ﴿**لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ**﴾ بيان لما يتمتعون به في الجنة من المآكل والمشارب وما يتلذذون به من الملاذ الجسمانية والروحانية بعد بيان ما لهم فيها من مجالس الأنس ومحافل القدس تكميلاً لبيان كيفية ما هم فيه من الشغل والبهجة كذا قيل، ويجوز أن يكون استئنافاً بيانياً وقع جواب سؤال نشأ مما يدل عليه اللام السابق من اشتغالهم بالأنس واتكائهم على الأرائك عدم تعاطيهم أسباب المأكل والمشرب فكأنه قيل: إذا كان حالهم ما ذكر فكيف يصنعون في أمر مأكلهم؟ فأجيب بقوله سبحانه: ﴿**لهم فيها فاكهة**﴾ وهو مشير إلى أن لهم من المأكل ما لهم على أتم وجه، وأفيد أن فيه إشارة إلى أنه لا جوع هناك وليس الأكل لدفع ألم الجوع، وإنما مأكولهم فاكهة ولو كان لحماً، والتنوين للتفخيم أي فاكهة جليلة الشأن، وفي قوله سبحانه: ﴿**لهم فيها فاكهة**﴾ دون يأكلون فيها فاكهة إشارة إلى كون زمام الاختيار بأيديهم وكونهم مالكين قادرين فإن شاؤوا أكلوا وإن شاؤوا أمسكوا.

﴿**وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ**﴾ أي ما يدعون به لأنفسهم أي لهم كل ما يطلبه أحد لنفسه لا إنهم يطلبون فإنه حاصل كما إذا سألك أحد فقلت: لك ذلك تعني فلم تطلب أو لهم ما يطلبون بالفعل على أن هناك طلباً وإجابة لأن الغبطة بالإجابة توجب اللذة بالطلب فإنه مرتبة سنية لا سيما والمطلوب منه والمجيب هو الله تعالى الملك الجليل جل جلاله وعم نواله، فيدعون من الدعاء بمعنى الطلب، وأصله يد تعيون على وزن يفتعلون سكنت الياء بعد أن ألقيت حركتها على ما قبلها وحذفت لسكونها وسكون الواو بعدها، وقيل بل ضمت العين لأجل واو الجمع ولم يلق حركة الياء عليها وإنما حذفت استثقالاً ثم حذفت الياء لالتقاء الساكنين فصار يدتعون فقلبت التاء دالاً وأدغمت، وافتعل بمعنى فعل الثلاثي كثير ومنه اشتوى بمعنى شوي واجتمل بمعنى جمل أي أذاب الشحم.

قال لبيد: فاشتوى[1] ليلة ريح واجتمل. ﴿**ولهم**﴾ خبر مقدم وما مبتدأ مؤخر وهي موصولة والجملة بعدها صلة والعائد محذوف وهو إما ضمير مجرور أو ضمير منصوب على الحذف والإيصال، وجوز أن تكون ما نكرة موصوفة وأن تكون مصدرية فالمصدر[2] حينئذ مبتدأ وهو خلاف الظاهر، والجملة عطف على الجملة قبلها، وعدم الاكتفاء بعطف ﴿**ما**﴾ على ﴿**فاكهة**﴾ لئلا يتوهم كونها عبارة عن توابع الفاكهة ومتمماتها.

وجوز أن يكون ﴿**يدعون**﴾ من الافتعال بمعنى التفاعل كارتموه بمعنى تراموه أي لهم ما يتداعون، والمعنى كل ما يصح أن يطلبه أحد من صاحبه فهو حاصل لهم أو ما يطلبه بعضهم من بعض بالفعل لما في ذلك من التحاب، وأن يكون من الافتعال على ما سمعت أولاً إلا إن الدعاء بمعنى التمني.

قال أبو عبيدة: العرب تقول ادع علي ما شئت بمعنى تمن علي، وتقول فلان في خير ما ادعى أي تمنى أي لهم ما

---

(١) وغلام أرسلته أمه بألوك فبذلنا ما سأل. أرسلته فأتاه رزقه فاشترى الخ اهـ منه.

(٢) قيل إذا جعلت مصدرية فالمصدر بمعنى المفعول اهـ منه.

يتمنون، قال الزجاج: وهو مأخوذ من الدعاء أي كل ما يدعونه أهل الجنة يأتيهم، قيل افتعل بمعنى فعل فيدعون بمعنى يدعون من الدعاء بمعناه المشهور أي لهم ما كان يدعون به الله عز وجل في الدنيا من الجنة ودرجاتها.

وقوله تعالى: ﴿سَلَامٌ﴾ جوز أن يكون بدلاً من ما يدل بعض من كل ولزوم الضمير غير مسلم، وقوله تعالى: ﴿قَوْلاً﴾ مفعول مطلق لفعل محذوف والجملة صفة سلاماً، وقوله تعالى ﴿مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ صفة ﴿قولاً﴾ أي سلام يقال لهم قولاً من جهة رب رحيم أي يسلم عليهم من جهته تعالى بلا واسطة تعظيماً لهم، فقد أخرج ابن ماجة وجماعة عن جابر قال: «قال النبي ﷺ بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب قد أشرف عليهم من فوقهم فقال السلام عليكم يا أهل الجنة وذلك قول الله تعالى ﴿سلام قولاً من رب رحيم﴾ قال فينظر إليهم وينظرون إليه فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم ويبقى نوره وبركته عليهم في ديارهم» وقيل بواسطة الملائكة عليهم السلام لقوله تعالى ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤] وروي ذلك عن ابن عباس وعلى الأول الأكثرون، وأما ما قيل إن ذلك سلام الملائكة على المؤمنين عند الموت فليس بشيء، والبدلية المذكورة مبنية على أن ما عامة.

وجوز أن يكون بدل كل من كل على تقدير أن يراد بها خاص أو على ادعاء الاتحاد تعظيماً، ولا بأس في إبدال هذه النكرة منها على تقدير موصوليتها لأنها نكرة موصوفة بالجملة بعدها، على أنه يجوز أن يلتزم جواز إبدال النكرة من المعرفة مطلقاً من غير قبح، ويجوز أن يكون ﴿سلام﴾ خبر مبتدأ محذوف والجملة بعده صفته أي هو أو ذلك سلام يقال قولاً من رب رحيم، والضمير لما وكذا الاشارة، وجوز أن يكون صفة لما أي لهم ما يدعون سالم أو ذو سلامة مما يكره، و ﴿قولاً﴾ مصدر مؤكد لقوله تعالى ﴿لهم ما يدعون﴾ سلام أي عدة من رب رحيم، وهذه الوصفية على تقدير كون ما نكرة موصوفة ولا يصح على تقدير كونها موصولة للتخالف تعريفاً وتنكيراً وأن يكون خبراً لما، و ﴿لهم﴾ متعلق به لبيان الجهة كما يقال لزيد الشرف متوفر أي ما يدعون سالم لهم خالص لا شوب فيه، ونصب ﴿قولاً﴾ على ما سمعت آنفاً.

وفي الكشاف الأوجه أن ينتصب على الاختصاص وهو من مجازه فيكون الكلام جملة مفصولة عما سبق ولا ضير في نصب النكرة على ذلك، وجوز أن يكون مبتدأ خبره محذوف أي ولهم سلام يقال قولاً من رب رحيم، وقدر الخبر مقدماً لتكون الجملة على أسلوب أخواتها لا ليسوغ الابتداء بالنكرة فإن النكرة موصوفة بالجملة بعدها، وظاهر كلامهم تقدير العاطف أيضاً ويمكن أن لا يقدر، وفصل الجملة على ما قيل لأنها كالتعليل لما تضمنته لآي قبلها فإن سلام الرب الرحيم منشأ كل تعظيم وتكريم، وجوز على تقدير كونه مبتدأ تقدير الخبر المحذوف عليهم؛ قال الإمام: فيكون ذلك اخباراً من الله تعالى في الدنيا كأنه سبحانه حكى لنا وقال جل شأنه ﴿إن أصحاب الجنة في شغل﴾ ثم لما كمل بيان حالهم قال ﴿سلام﴾ عليهم وهذا كما قال سبحانه ﴿سلام على نوح﴾ [الصافات: ٧٩] ﴿وسلام على المرسلين﴾ [الصافات: ١٨١] فيكون جل وعلا قد أحسن إلى عباده المؤمنين كما أحسن إلى عباده المرسلين ثم قال: وهذا وجه مبتكر يد ما يدل عليه فنقول: أو نقول تقديره سلام عليكم ويكون هذا نوعاً من الالتفات حيث قال تعالى لهم كذا وكذا ثم قال سبحانه ﴿سلام عليكم﴾ [الأنعام: ٥٤، الأعراف: ٤٦، الرعد: ٢٤، القصص: ٥٥، الزمر: ٧٣] اهـ. ووجه الابتداء بسلام في مثل هذا التركيب موصوفاً كان أم لا معروف عند أصاغر الطلبة. وقرأ محمد بن كعب القرظي «سِلْمٌ» بكسر السين وسكون اللام ومعناه سلام. وقال أبو الفضل الرازي: مسالم لهم أي ذلك مسالم وليس بذاك.

وقرأ أبي وعبد الله وعيسى والغنوي «سلاماً» بالنصب على المصدر أي يسلم عليهم سلاماً أو على الحال من

ضمير ما في الخبر أو منها على القول بجواز مجيء الحال من المبتدأ أي ولهم مرادهم خالصاً.

وَٱمْتَـٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَـٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَـٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾

﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ أي انفردوا عن المؤمنين إلى مصيركم من النار. وأخرج عبد بن حميد وغيره عن قتادة أي اعتزلوا عن كل خير، وعن الضحاك لكل كافر بيت من النار يكون فيه لا يرى ولا يرى أي على خلاف ما للمؤمنين من الاجتماع مع من يحبون، ولعل هذا بعد زمان من أول دخولهم فلا ينافي عتاب بعضهم بعضاً الوارد في آيات أخر كقوله تعالى ﴿وإذ يتحاجون في النار﴾ [غافر: ٤٧] ويحتمل أنه أراد لكل صنف كافر كاليهود والنصارى، وجوز الإمام كون الأمر أمر تكوين كما في ﴿كن فيكون﴾ [البقرة: ١١٧، وغيرها] على معنى أن الله تعالى يقول لهم ذلك فتظهر عليهم سيماء يعرفون بها كما قال سبحانه ﴿يعرف المجرمون بسيماهم﴾ [الرحمن: ٤١] ولا يخفى بعده، والجملة عطفاً ما على الجملة السابقة المسوقة لبيان أحوال أصحاب الجنة من عطف القصة على القصة فلا يضر التخالف إنشائية وخبرية، وكأن تغيير السبك لتخييل كمال التباين بين الفريقين وحاليهما، وإما على مضمر ينساق إليه حكاية حال أصحاب الجنة كأنه قيل إثر بيان كونهم في شغل عظيم الشأن وفوزهم بنعيم مقيم يقصر عنه البيان فليقروا بذلك عيناً وامتازوا عنهم أيها المجرمون.

قال أبو السعود، وقال الخفاجي: يجوز أن يكون بتقدير ويقال امتازوا على أنه معطوف على يقال المقدر العامل في قولاً وهو أقرب وأقل تكلفاً لأن حذف القول وقيام معموله مقامه كثير حتى قيل فيه هو البحر حدث عنه ولا حرج، وفيه بحث يظهر بأدنى تأمل، وقيل: إن المذكور من قوله تعالى **﴿إن أصحاب الجنة﴾** إلى هنا تفصيل للمجمل السابق أعني قوله تعالى: **﴿ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾** وبني عليه أن المعطوف عليه متضمن لمعنى الطلب على معنى فليمتز المؤمنون عنكم يا أهل المحشر إلى الجنة وامتازوا عنهم إلى النار، وتعقبه في الكشف بأنه ليس بظاهر إذ بأحد الأمرين غنية عن الآخر ثم قال: والوجه أن المقصود عطف جملة قصة أصحاب النار على جملة قصة أصحاب الجنة وأوثرها هنا الطلب زيادة للتهويل والتعنيف ألا ترى إلى قوله تعالى **﴿اصلوها اليوم﴾** وإن كان لا بد من التضمين فالمعطوف أولى بأن يجعل في معنى الخبر على معنى وأن المجرمون ممتازون منفردون.

وفائدة العدول ما في الخطاب والطلب من النكتة اهـ، وما ذكره من حديث أغناه أحد الأمرين عن الآخر سهل لكون الأمر تقديرياً مع أن الامتياز الأول على وجه الاكرام وتحقيق الوعد والآخر على وجه الإهانة وتعجيل الوعيد

فيفيد كل منهما ما لا يفيده الآخر، نعم قال العلامة أبو السعود في ذلك: إن اعتبار فليمتز المؤمنون واضماره بمعزل عن السداد لما أن المحكي عنهم ليس مصيرهم إلى ما ذكر من الحال المرضية حتى يتسنى ترتيب الأمر المذكور عليه بل إنما هو استقرارهم عليها بالفعل، وكون ذلك تنزيل المترقب منزلة الواقع لا يجدي نفعاً لأن مناط الاعتبار والاضمار انسياق الأفهام إليه وانصباب نظم الكلام عليه فبعد التنزيل المذكور وإسقاط الترقب عن درجة الاعتبار يكون التصدي لإضمار شيء يتعلق به إخراجاً للنظم الكريم عن الجزالة بالمرة، والظاهر أنه لا فرق في هذا بين التضمين والاضمار، والذي يغلب على الظن أن ما ذكر لا يفيد أثر من أولوية تقدير فليقروا عيناً على تقدير فليمتازوا فليفهم، وقال بعض الأذكياء: يجوز أن يكون ﴿امتازوا﴾ فعلاً ماضياً والضمير للمؤمنين أي انفرد المؤمنون عنكم بالفوز بالجنة ونعيمها أيها المجرمون ففيه تحسير لهم والعطف حينئذ من عطف الفعلية الخبرية على الاسمية الخبرية ولا منع منه، وتعقب بأنه مع ما فيه من المخالفة للأسلوب المعروف من وقوع النداء مع الأمر نحو ﴿يوسف أعرض عن هذا﴾ [يوسف: ٢٩] قليل الجدوى وما ذكره من التحسير يكفي فيه ما قبل من ذكر ما هم عليه من التنعم وأيضاً المأثور يأبى عنه غاية الإباء وهو كالنص في أن ﴿امتازوا﴾ فعل أمر ولا يكاد يخطر لقارىء ذلك.

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ من جملة ما يقال لهم بطريق التقريع والإلزام والتبكيت بين الأمر بالامتياز والأمر بمقاساة حر جهنم، والعهد الوصية والتقدم بأمر فيه خير ومنفعة، والمراد به هاهنا ما كان منه تعالى على ألسنة الرسل عليهم السلام من الأوامر والنواهي التي من جملتها قوله تعالى ﴿يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة﴾ [الأعراف: ٢٧] الآية، وقوله تعالى ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾ [البقرة: ١٦٨] وغيرهما من الآيات الواردة في هذا المعنى، وقيل: هو الميثاق المأخوذ عليهم في عالم الذر إذ قال سبحانه لهم ﴿ألست بربكم﴾ [الأعراف: ١٧٢] وقيل: هو ما نصب لهم من الحجج العقلية والسمعية الآمرة بعبادة الله تعالى الزاجرة عن عبادة غيره. عز وجل فكأنه استعارة لإقامة البراهين والمراد بعبادة الشيطان طاعته فيما يوسوس به إليهم ويزينه لهم عبر عنها بالعبادة لزيادة التحذير والتنفير عنها ولوقوعها في مقابلة عبادته عز وجل، وجوز أن يراد بها عبادة غير الله تعالى من الآلهة الباطل وإضافتها إلى الشيطان لأنه الآمر بها والمزين لها فالتجوز في النسبة، وقرأ طلحة والهذيل بن شرحبيل الكوفي «إعهد» بكسر الهمزة قاله صاحب اللوامح وقال هي لغة تميم، وهذا الكسر في النون والتاء أكثر من بين أحرف المضارعة؛ وقال ابن عطية قرأ الهذيل وابن وثاب «ألم إعهد» بكسر الميم والهمزة وفتح الهاء وهي من كسر حرف المضارعة سوى الياء، وروي عن ابن وثاب «ألم أعهِد» بكسر الهاء ويقال عهد وعهد اهـ.

ولعله أراد أن كسر الميم يدل على كسر الهمزة لأن حركة الميم هي الحركة التي نقلت إليها من الهمزة وحذفت الهمزة بعد نقل حركتها لا أن الميم مكسورة والهمزة بعدها مكسورة أيضاً فتلفظ بها، وقال الزمخشري: قرىء «إعهد» بكسر الهمزة وباب فعل كله يجوز في حروف مضارعته الكسر إلا في الياء و «أعهِد» بكسر الهاء وقد جوز الزجاج أن يكون من باب نعم ينعم وضرب يضرب و «احهد» بإبدال العين وحدها حاء مهملة و «أحد» بإبدالها مع إبدال الهاء وادغامها وهي لغة تميم ومنه قولهم دحا محا أي دعها معها وما ذكره من قوله: إلا في الياء مبني على بعض اللغات وعن بعض كلب أنهم يكسرون الياء أيضاً فيقولون يعلم مثلاً وقوله في أحهد وأحد لغة بني تميم هو المشهور، وقيل: أحهد لغة هذيل وأحد لغة بني تميم وقولهم دحا محا إما يريدوا به دع هذه القربة مع هذه المرأة أودع هذه المرأة مع هذه القربة ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي ظاهر العداوة وهو تعليل لوجوب الانتهاء، وقيل: تعليل للنهي وعداوة اللعين جاءت من قبل عداوته لآدم عليه السلام والنداء بوصف النبوة لآدم كالتمهيد لهذا التعليل والتأكيد لعدم جريهم على

مقتضى العلم فهم والمنكرون سواء ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾ عطف على ﴿أن لا تعبدوا الشيطان﴾ على أن ﴿أن﴾ فيها مفسرة للعهد الذي فيه معنى القول دون حروفه أو مصدرية حذف عنها الجار أي ألم أعهد إليكم في ترك عبادة الشيطان وفي عبادتي وتقديم النهي على الأمر لما أن حق التخلية التقدم على التحلية قيل: وليتصل به قوله تعالى: ﴿هَذا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ بناء على أن الإشارة إلى عبادته تعالى لأنه المعروف في الصراط المستقيم. وجعل بعضهم الاشارة إلى ما عهد إليهم من ترك عبادة الشيطان وفعل عبادة الله عز وجل.

ورجح بأن عبادته تعالى إذا لم تنفرد عن عبادة غيره سبحانه لا تسمى صراطاً مستقيماً فتأمل والجملة استئنافية جيء بها لبيان المقتضى للعهد بعبادته تعالى أو للعهد بشقيه والتنكير للمبالغة والتعظيم أي هذا صراط بليغ في استقامته جامع لكل ما يجب أن يكون عليه واصل لمرتبة يقصر عنها التوصيف والتعريف ولذا لم يقل هذا الصراط المستقيم أو هذا هو الصراط المستقيم وإن كان مفيداً للحصر، وجوز أن يكون التنكير للتبعيض على معنى هذا بعض الصراط المستقيمة وهو للهضم من حقه على الكلام المنصف، وفيه ادماج التوبيخ على معنى أنه لو كان بعض الصراط الموصوفة بالاستقامة لكفى ذلك في انتهاجه كيف وهو الأصل والعدة كما قيل:

وأقول بعض الناس عنك كناية ... خوف الوشاة وأنت كل الناس

وفيه أن المطلوب الاستقامة والأمر دائر معها وقليلها كثير ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبلاً كَثِيراً﴾ استئناف مسوق لتشديد التوبيخ وتأكيد التقريع ببيان عدم اتعاظهم بغيرهم أثر بيان نقضهم العهد فالخطاب لمتأخريهم الذين من جملتهم كفار خصوا بزيادة التوبيخ والتقريع لتضاعف جناياتهم، وإسناد الإضلال إلى ضمير الشيطان لأنه المباشر للإغواء.

والجبل ـ قال الراغب ـ الجماعة العظيمة أطلق عليهم تشبيهاً بالجبل في العظم، وعن الضحاك أقل الجبل وهي الأمة العظيمة عشرة آلاف، وفسره بعضهم بالجماعة وبعض بالأمة بدون الوصف وقيل هو الطبع المخلوق عليه الذي لا ينتقل كأنه جبل وهو هنا خلاف الظاهر.

وقرأ العربيان، والهذيل «جُبْلاً» بضم اليم وإسكان الباء. وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بضمتين مع تخفيف اللام والحسن وابن أبي إسحاق والزهري وابن هرمز وعبد الله بن عبيد بن عمير وحفص بن حميد بضمتين وتشديد اللام، والأشهب العقيلي واليماني وحماد بن سلمة عن عاصم بكسر الجيم وسكون الباء، والأعمش بكسرتين وتخفيف اللام جمع جبلة نحر فطرة وفطر، وقرأ أمير المؤمنين علي كرم الله تعالى وجهه وبعض الخراسانيين «جِيلاً» بكسر الجيم بعدها ياء آخر الحروف واحد الأجيال وهو الصنف من الناس كالعرب والروم.

﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ عطف على مقدر يقتضيه المقام أي أكنتم تشاهدون آثار عقوباتهم فلم تكونوا تعقلون أنها لضلالهم أو فلم تكونوا تعقلون شيئاً أصلاً حتى ترتدعوا عما كانوا عليه كيلا يحيق بكم العذاب الأليم.

وقرأ طلحة وعيسى وعاصم في رواية عبد بن حميد عنه بياء الغيبة فالضمير للجبل.

وقوله تعالى: ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ استئناف يخاطبون به بعد تمام التوبيخ والتقريع والإلزام والتبكيت عند إشرافهم على شفير جهنم أي هذه التي ترونها جهنم التي لم تزالوا توعدون بدخولها على ألسنة الرسل عليهم السلام والمبلغين عنهم بمقابلة عبادة الشيطان ﴿اصْلَوْهَا الْيَوْمَ﴾ أمر تحقير وإهانة كقوله تعالى ﴿ذق إنك

أنت﴾ [الدخان: ٤٩] الخ أي قاسوا حرها في هذا اليوم الذي لم تستعدوا له، وقال أبو مسلم: أي صيروا صلاها أو وقودها.

وقال الطبرسي: ألزموا العذاب بها وأصل الصلا اللزوم ومنه المصلى الذي يجيء في أثر السابق للزومه أثره. ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ كفركم المستمر في الدنيا فالباء للسببية وما مصدرية واحتمال كونها موصولة بعيد. ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ﴾ كناية عن منعهم من التكلم، ولا مانع من أن يكون هناك ختم على أفواههم حقيقة.

وجوز أن يكون الختم مستعاراً لمعنى المنع بأن يشبه أحداث حالة في أفواههم مانعة من التكلم بالختم الحقيقي ثم يستعار له الختم ويشتق منه نختم فالاستعارة تبعية أي اليوم نمنع أفواههم من الكلام منعاً شبيهاً بالختم، والأول أولى في نظري ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي بالذي استمروا على كسبه في الدنيا وكأن الجار والمجرور قد تنازع فيه تكلم وتشهد، ولعل المعنى والله تعالى أعلم تكلمنا أيديهم بالذي استمروا على عمله ولم يتوبوا عنه وتخبرنا به وتقول فعلوا بنا وبواسطتنا كذا وكذا وتشهد عليهم أرجلهم بذلك.

ونسبة التكليم إلى الأيدي دون الشهادة لمزيد اختصاصها بمباشرة الأعمال حتى أنها كثر نسبة العمل إليها بطريق الفاعلية كما في قوله تعالى: ﴿يوم ينظر المرء ما قدمت يداه﴾ [النبأ: ٤٠] وقوله سبحانه ﴿وما عملته أيديهم﴾ [يس: ٣٥] وقوله عز وجل ﴿بما كسبت أيدي الناس﴾ [الروم: ٤١] وقوله جل وعلا ﴿فبما كسبت أيديكم﴾ [الشورى: ٣٠] إلى غير ذلك ولا كذلك إلا رجل فكانت الشهادة أنسب بها لما أنها لم تضف إليها الأعمال فكانت كالأجنبية، وكان التكليم أنسب بالأيدي لكثرة مباشرتها الأعمال وإضافتها إليها فكأنها هي العاملة، هذا مع ما في جمع التكليم مع الختم على الأفواه المراد منه المنع من التكلم من الحسن.

وكأنه سبحانه لما صدر آية النور وهي قوله تعالى ﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم﴾ [النور: ٢٤] بالشهادة وذكر جل وعلا الأعضاء من الأعالي إلى الأسافل أسندها إلى الجميع ولم يخص سبحانه الأيدي بالتكليم لوقوعها بين الشهود مع أن ما يصدر منها شهادة أيضاً في الحقيقة فإن كونها عاملة ليس على الحقيقة بل هي آلة والعامل هو الإنسان حقيقة وكان اعتبار الشهادة من المصدر هناك أوفق بالمقام لسبق قصة الإفك وما يتعلق لها ولذا نص فيها على الألسنة ولم ينص هاهنا عليها بل الآية ساكتة عن الإفصاح بأمرها من الشهادة وعدمها، والختم على الأفواه ليس بعدم شهادتها إذ المراد منه منع المحدث عنهم عن التكلم بألسنتهم وهو أمر وراء تكلم الألسنة أنفسها وشهادتها بأن يجعل فيها علم وإرادة وقدرة على التكلم فتتكلم هي وتشهد بما تشهد وأصحابها مختوم على أفواههم لا يتكلمون.

ومنه يعلم أن آية النور ليس فيها ما هو نص في عدم الختم على الأفواه، نعم الظاهر هناك أن لا ختم وهنا أن لا شهادة من الألسنة، وعلى هذا الظاهر يجوز أن يكون المحدث عنه في الآيتين واحداً بأن يختم على أفواههم وتنطق أيديهم وأرجلهم أولاً ثم يرفع الختم وتشهد ألسنتهم أما مع تجدد ما يكون من الأيدي والأرجل أو مع عدمه والاكتفاء بما كان قبل منهما وذلك أما في مقام واحد من مقامات يوم القيامة أو في مقامين، وليس في كل من الآيتين ما يدل على الحصر ونفي شهادة غير ما ذكر من الأعضاء فلا منافاة بينهما وبين قوله تعالى ﴿حتى إذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون﴾ [فصلت: ٢٠] فيجوز أن يكون هناك شهادة السمع والأبصار والألسنة والأيدي والأرجل وسائر الأعضاء كما يشعر بهذا ظاهر قوله تعالى والجلود في آية السجدة لكن لم يذكر

بعض من ذلك في بعض من الآيات اكتفاء بذكره في البعض الآخر منها أو دلالته عليه بوجه، ويجوز أن يكون المحدث عنه في كل طائفة من الناس، وقد جعل بعضهم المحدث عنه في آية السجدة قوم ثمود، وحمل أعداء الله عليهم بقوله تعالى بعد ﴿وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس﴾ [فصلت ٢٥] ولا يبعد أن يكون المحدث عنه في آية النور أصحاب الإفك من المنافقين والذين يرمون المحصنات ثم إن آية السجدة ظاهرة في أن الشهادة عند المجيء إلى النار وآية النور ليس فيها ما يدل على ذلك، وأما هذه الآية فيشعر كلام البعض بأن الختم والشهادة فيها بعد خطاب المحدث عنهم بقوله تعالى ﴿**هذه جهنم التي كنتم توعدون اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون**﴾ فيكون ذلك عند المجيء إلى النار أيضاً، قال في إرشاد العقل السليم: إن قوله تعالى ﴿**اليوم نختم**﴾ الخ التفات إلى الغيبة للإيذان بأن ذكر أحوالهم القبيحة استدعى أن يعرض عنهم وتحكى أحوالهم الفظيعة لغيرهم مع ما فيه من الإيماء إلى أن ذلك من مقتضيات الختم لأن الخطاب لتلقي الجواب وقد انقطع بالكلية، لكن قال في موضع آخر: إن الشهادة تتحقق في موقف الحساب لا بعد تمام السؤال والجواب وسوقهم إلى النار، والأخبار ظاهرة في ذلك.

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي موسى الأشعري من حديث «يدعي الكافر والمنافق للحساب فيعرض ربه عليه عمله فيجحد ويقول أي رب وعزتك لقد كتب على هذا الملك ما لم أعمل فيقول له الملك أما عملت كذا في يوم كذا في مكان كذا فيقول لا وعزتك أي رب ما عملته فإذا فعل ذلك ختم علي فيه فإني أحسب أول ما تنطق منه فخذه اليمنى ثم تلا اليوم تختم على أفواههم الآية» وفي حديث أخرجه مسلم والترمذي والبيهقي عن أبي سعيد وأبي هريرة مرفوعاً «إنه يلقى العبد ربه فيقول الله تعالى له أي فل ألم أكرمك إلى أن قال ﷺ فيقول آمنت بك وبكتابك وبرسولك وصليت وصمت وتصدقت ويثني بخير ما استطاع فيقول: ألا نبعث شاهدنا عليك فيفكر في نفسه من الذي يشهد علي فيختم علي فيه ويقال لفخذه انطقي فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله».

وفي بعض الأخبار ما يدل على أن العبد يطلب شاهداً منه فيختم على فيه، أخرج أحمد ومسلم وابن أبي الدنيا واللفظ له عن أنس في قوله تعالى ﴿**اليوم نختم على أفواههم**﴾ قال كنا عند النبي ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه قال: أتدرون مم ضحكت؟ قلنا: لا يا رسول الله قال: من مخاطبة العبد ربه يقول: يا رب ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى فيقول: إني لا أجيز عليَّ إلَّا شاهداً مني فيقول كفى بنفسك عليك شهيداً وبالكرام الكاتبين شهوداً فيختم على فيه ويقال لأركانه انطقي فتنطق بأعماله ثم يخلي بينه وبين الكلام فيقول: بعداً لكن وسحقاً فعنكن كنت أناضل» والجمع بالتزام القول بالتعدد فتارة يكون ذلك عند الحساب وأخرى عند النار والقول باختلاف أحوال الناس فيما ذكر.

وما تقدم في حديث أبي موسى من أن الفخذ اليمنى أول ما تنطق على ما يحسب جزم به الحسن، وأخرج أحمد وجماعة عن عقبة بن عامر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يختم على الأفواه فخذه من الرجل الشمال» ثم الظاهر أن التكلم والشهادة بنطق حقيقة وذلك بعد إعطاء الله تعالى الأعضاء حياة وعلماً وقدرة فيرد بذلك على من زعم أن البينة المخصوصة شرط فيما ذكر وإسناد الختم إليه تعالى دون ما بعد قيل لئلا يحتمل الجبر على الشهادة والكلام فدل على ذلك باختيار الأعضاء المذكورة بعد أقدار الله تعالى فإنه أدل على تفضيح المحدث عنهم، وهل يشهد كل عضو بما فعل به أو يشهد بذلك وبما فعل بغيره فيه خلاف والثاني أبلغ في التفظيع، والعلم بالمشهود به يحتمل أن يكون حصوله بخلق الله تعالى إياه في ذلك الوقت ولا يكون حاصلاً في الدنيا ويحتمل أن يكون حصوله في الدنيا بأن تكون الأعضاء قد خلق الله تعالى فيها الإدراك فهي تدرك الأفعال كما يدركها الفاعل فإذا كان يوم القيامة رد الله تعالى لها ما كان وجعلها مستحضرة لما عملته أولاً وأنطقها نطقاً يفقهه المشهود

عليه، وهذا نحو ما قالوا من تسبيح جميع الأشياء بلسان القال والله تعالى على كل شيء قدير والعقل لا يحيل ذلك وليس هو بأبعد من خلق الله تعالى فيها العلم والارادة والقدرة حتى تنطق يوم القيامة فمن يؤمن بهذا فليؤمن بذلك، والتشبث بذيل الاستبعاد يجر إلى إنكار الحشر بالكلية والعياذ بالله تعالى أو تأويله بما أوله به الباطنية الذين قتل واحد منهم ـ قال حجة الإسلام الغزالي ـ أفضل من قتل مائة كافر، وعلى هذا تكون الآية من مؤيدات القول بالتسبيح القالي للجمادات ونحوها، وعلى الاحتمال الأول يؤيد القول بجواز شهادة الشاهد إذا حصل عنده العلم الذي يقطع به بأي وجه حصل وإن لم يشهد ذلك ولا حضره، وقد أفاد الشيخ الأكبر قدس سره في تفسيره المسمى بإيجاز البيان في ترجمة القرآن إن قوله تعالى ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس﴾ [البقرة: ١٤٣] يفيد جواز ذلك، وذكر فيه أن الشاهد يأثم إن لم يشهد بعلمه، ولا يخفى عليك ما للفقهاء في المسألة من الكلام، وكأن الشهادة على الاحتمال الثاني بعد الاستشهاد بأن يقال للأركان ألم يفعل كذا فتقول بلى فعل.

ويمكن أن تكون بعد أن تؤمر الأركان بالشهادة بأن يقال لها اشهدي بما فعلوا فتشهد معددة أفعالهم، وهذا إما بأن تذكر جميع أفعالهم من المعاصي وغيرها غير مميزة المعصية عن غيرها، وكون ذلك شهادة عليهم باعتبار الواقع لتضمنها ضررهم بذكر ما هو معصية في نفس الأمر، وإما بأن تذكر المعاصي فقط، وهذا يحتاج إلى التزام القول بأن الأركان تميز في الدنيا ما كان معصية من الأفعال ما لم يكن كذلك ولا أظنك تقول به ولم أسمع أن أحداً يدعيه. وذهب بعضهم إلى أن تكليم الأركان وشهادتها دلالتها على أفعالها وظهور آثار المعاصي عليها بأن يبدل الله تعالى هيئاتها بأخرى يفهم منها أهل الحشر ويستدلون بها على ما صدر منهم فجعلت الدلالة الخالية بمنزلة المقالية مجازاً، وفيه أنه لا يصار إلى المجاز مع إمكان الحقيقة لا سيما وما يأتي في سورة السجدة من قوله تعالى ﴿قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء﴾ [فصلت: ٢١] ظاهر جداً في النطق القالي والأخبار أظهر وأظهر، نعم يهون على هذا القول أمر الاستبعاد ولا يكاد يترك لأجله الظواهر العلماء الأمجاد، وهذا والآية كالظاهرة في تكليف الكفار بالفروع إذ لو لم يكونوا مكلفين بها لا فائدة في شهادة الأعضاء بما كسبوا، وإتمام الحجة عليهم بها وتخصيص ما كسبوا بالكفر مما لا يكاد يلتفت إليه ولا أظن أن أحداً يقول به بل ربما يدعي تخصيصه بما سوى الكفر بناء على أنه من أفعال القلب دون الأعضاء التي تشهد لكن الذي يترجح في نظري العموم.

وشهادتها به إما بشهادتها بما يدل عليه من الأفعال البدنية والأقوال اللسانية أو بالعلم الضروري الذي يخلقه الله تعالى لها ذلك اليوم أو بالعلم الحاصل لها بخلق لله تعالى في الدنيا فتعلمه بواسطة الأفعال والأقوال الدالة عليه أو بطريق آخر يعلمه الله تعالى، وهي ظاهرة في أن الحشر يكون بأجزاء البدن الأصلية لا ببدن آخر ليس فيه الأجزاء الأصلية للبدن الذي كان في الدنيا إذ أركان ذلك البدن لم تكن الأعمال السيئة معمولة بها فلا يحسن الشهادة بها منها فليحفظ. وقرىء «يُخْتَم» مبنياً للمفعول «وتتكلم أيديهم» بتاءين، وقرىء «ولتكلمنا أيديهم ولتشهد أرجلهم» بلام الأمر على أن الله تعالى يأمر الأعضاء بالكلام والشهادة. وروى عبد الرحمن بن محمد بن طلحة عن أبيه عن جده طلحة أنه قرأ «ولتكلمنا أيديهم ولتشهد» بلام كي والنصب على معنى لتكليم الأيدي إيانا ولشهادة الأرجل نختم على أفواههم ﴿**وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ**﴾ بيان أنهم اليوم في قبضة القدرة ومستحقون للعذاب إلا أن عز وجل لم يشأ ذلك لحكمته جل وعلا الباهرة، والطمس إزالة الأثر بالمحو، والمعنى لو نشاء الطمس على أعينهم وإزالة ضوئها وصورتها بالكلية بحيث تعود ممسوحة لطمسنا عليها وأذهبنا أثرها.

وجوز أن يراد بالطمس إذهاب الضوء من غير إذهاب العضو وأثره أي ولو نشاء لأعميناهم، وإيثار صيغة

الاستقبال وإن كان المعنى على المضي لإفادة أن عدم الطمس على أعينهم لاستمرار عدم المشيئة فإن المضارع المنفي الواقع موقع المضي ليس بنص في إفادة انتفاء استمرار الفعل بل قد يفيد استمرار انتفائه.

وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ عطف على ﴿لطمسنا﴾ على الفرض والصراط منصوب بنزع الخافض أي فأرادوا الاستباق إلى الطريق الواضح المألوف لهم ﴿فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ أي فكيف يبصرون ذلك الطريق وجهة السلوك والمقصود إنكار أبصارهم، وحاصله لو نشاء لأذهبنا أحداقهم وأبصارهم فلو أرادوا الاستباق وسلوك الطريق الذي اعتادوا سلوكه لا يقدرون عليه ولا يبصرونه، وتأويل استبقوا بأرادوا الاستباق مما ذهب إليه البعض، وقيل لا حاجة لتأويله فإن الأعمى يجوز شروعه في السباق، ونصب ﴿الصراط﴾ بنزع الخافض ولم ينصب على الظرفية لأنه كالطريق مكان مختص ومثله لا ينتصب على الظرفية، وجوز كونه مفعولاً به لتضمين استبقوا معنى ابتدروا، ونقل عن الأساس في قسم الحقيقة ﴿استبقوا الصراط﴾ ابتدروه، قال في الكشف: شبيه لا تضمين، وادعى بعضهم توهم دعوى أن ذلك معنى حقيقي وصاحب الأساس إنما ذكره في آخر قسم المجاز والمعنى لو شئنا لفعلنا ما فعلنا في أعينهم فلو أرادوا الاستباق متبدرين الطريق لا يبصرون، وقيل يجوز كونه مفعولاً به على أن استبقوا بمعنى سبقوا ويجعل الطريق مسبوقاً على التجوز في النسبة أو الاستعارة المكنية أو على أنه بمعنى جاوزوا، قال في القاموس: استبق الصراط جاوزه وظاهره أنه حقيقة في ذلك، وقال غير واحد: هو مجاز والعلاقة اللزوم، والمعنى ولو نشاء لفعلنا ما فعلنا في أعينهم فلو طالبوا أن يخلفوا الصراط الذي اعتادوا المشي فيه لعجزوا ولم يعرفوا طريقاً يعني أنهم لا يقدرون إلا على سلوك الطريق المعتاد دون ما وراءه من سائر الطرق والمسالك كما ترى العميان يهتدون فيما ألفوا وضربوا به من المقاصد دون غيرها. وذهب ابن الطراوة إلى أن الصراط والطريق وما أشبههما من الظروف المكانية ليست مختصة فيجوز انتصابها على الظرفية، وهذا خلاف ما صرح به سيبويه وجعل انتصابها على الظرفية من الشذوذ وأنشد:

لدن بهز الكف يعسل متنه ... فيه كما عسل الطريق الثعلب

والمعنى في الآية لو انتصب على الظرفية لو نشاء لفعلنا ما فعلنا في أعينهم فلو أرادوا أن يمشوا مستبقين في الطريق المألوف كما كان ذلك هجيراهم لم يستطيعوا، وحمل الأعين على ما هو الظاهر منها أعني الأعضاء المعروفة والصراط على الطريق المحسوس هو المروي عن الحسن وقتادة، وعن ابن عباس حمل الأعين على البصائر والصراط على الطريق المعقول.

أخرج ابن جرير وجماعة عنه أنه قال: ولو نشاء لطمسنا على أعينهم أعميناهم وأضللناهم عن الهدى فأنّى يبصرون فكيف يهتدون وهو خلاف الظاهر. وقرأ عيسى «فاسْتَبِقُوا» على الأمر وهو على إضمار القول أي فيقال لهم استبقوا وهو أمر تعجيز إذ لا يمكنهم الاستباق مع طمس الأعين ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ﴾ أي لحولنا صورهم إلى صور أخرى قبيحة. عن ابن عباس أي لمسخناهم قردة وخنازير، وقيل: لمسخناهم حجارة وروي ذلك عن أبي صالح، ويعلم من هذا الخلاف أن في مسخ الحيوان المخصوص لا يشترط بقاء الصورة الحيوانية، وسمي بعضهم قلب الحيوان جماداً رسخاً وقلبه نباتاً فسخاً وخص المسخ بقلبه حيواناً آخر، ومفعول المشيئة على قياس السابق أي ولو نشاء مسخهم على مكانتهم لمسخناهم ﴿عَلَى مَكَانَتِهِمْ﴾ أي مكانهم كالمقامة والمقام.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال في معنى الآية لو نشاء لأهلكناهم في مساكنهم.

وقال الحسن وقتادة وجماعة المعنى لو نشاء لأقعدناهم وأزمناهم وجعلناهم كسحاً لا يقومون. وقرأ الحسن وأبو

بكر «مكاناتهم» بالجمع لتعددهم ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا﴾ لذلك ﴿مُضِيّاً﴾ أي ذهاباً إلى مقاصدهم ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ قيل هو عطف على ﴿مضياً﴾ المفعول به لاستطاعوا وهو من باب ـ تسمع بالمعيدي خير من أن تراه ـ فيكون التقدير فما استطاعوا مضياً ولا رجوعاً وإلا فمفعول استطاعوا لا يكون جملة، والتعبير بذلك دون الاسم الصريح قيل للفواصل مع الإيماء إلى مغايرة الرجوع للمضي بناء على ما قال الإمام من أنه أهون من المضي لأنه ينبيء عن سلوك الطريق من قبل والمضي لا ينبيء عنه، وقيل لذلك مع الإيماء إلى استمرار النفي نظراً إلى ظاهر اللفظ ويكون هناك ترق من جهتين إذا لوحظ ما أومأ إليه الإمام، وقيل له مع الإيماء إلى أن الرجوع المنفي ما كان عن إرادة واختيار فإن اعتبارهما في الفعل المسند إلى الفاعل أقرب إلى التبادر من اعتبارهما في المصدر.

واقتصر بعضهم في النكتة على رعاية الفواصل، والإمام بعد الاقتصار على رعاية الفواصل في بيان نكتة العدول عن الظاهر تقصيراً؛ وقيل هو عطف على جملة ما استطاعوا، والمراد ولا يرجعون عن تكذيبهم لما أنه قد طبع على قلوبهم، وقيل هو عطف على ما ذكر إلا أن المعنى ولا يرجعون إلى ما كانوا عليه قبل المسخ وليس بالبعيد.

وعلى القولين المراد بالمضي الذهاب عن المكان ونفي استطاعته مغن عن نفي استطاعة الرجوع، وأياً ما كان فالظاهر أن هذا وكذا ما قبله لو كان لكان في الدنيا، وقال ابن سلام: هذا التوعد كله يوم القيامة وهو خلاف الظاهر ولا يكاد يصح على بعض الأقوال.

وأصل ﴿مضياً﴾ مضوي اجتمعت الواو ساكنة مع الياء فقلبت ياء كما هو القاعدة وأدغمت الياء في الياء وقلبت ضمة الضاد كسرة لتخف وتناسب الياء. وقرأ أبو حيوة وأحمد بن جبير الأنطاكي عن الكسائي «مِضّياً» بكسر الميم إتباعاً لحركة الضاد كالعتى بضم العين والعتى بكسرها. وقرىء «مَضياً» بفتح الميم فيكون من المصادر التي جاءت على فعيل كالرسيم والوجيف والصئي بفتح الصاد المهملة بعدها همزة مكسورة ثم ياء مشددة مصدر صأى الديك أو الفرخ إذا صاح ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ﴾ أي نطل عمره.

﴿نُنَكِّسْه فِي الْخَلْقِ﴾ نقلبه فيه فلا يزال يتزايد ضعفه وانتقاص بنيته وقواه عكس ما كان عليه بدء أمره، وفيه تشبيه التنكيس المعنوي بالتنكيس الحسي واستعارة الحسي له، وعن سفيان أن التنكيس في سن ثمانين سنة، والحق أن زمان ابتداء الضعف وانتقاص البنية مختلف لاختلاف الأمزجة والعوارض كما لا يخفى.

والكلام عطف على قوله تعالى ﴿ولو نشاء لطمسنا﴾ الخ عطف العلة على المعلول لأنه كالشاهد لذلك.

وقرأ جمع من السبعة «نُنْكِسْهُ» مخففاً من الانكاس ﴿أَفَلاَ يَعْقِلُونَ﴾ أي أيرون ذلك فلا يعقلون أن من قدر على ذلك قدر على ما ذكر من الطمس والمسخ وأن عدم إيقاعهما لعدم تعلق مشيئته تعالى بهما.

وقرأ نافع وابن ذكوان وأبو عمرو في رواية عياش «تعقلون» بتاء الخطاب لجرى الخطاب قبله.

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ بتعليم الكتاب المشتمل على هذا البيان والتلخيص في أمر المبدأ والمعاد ﴿الشِّعْرَ﴾ إذ لا يخفى على من به أدنى مسكة أن هذا الكتاب الحكيم المتضمن لجميع المنافع الدينية والدنيوية على أسلوب أفحم كل منطيق ببيان الشعر ولا مثل الثريا للثرى، أما لفظاً فلعدم وزنه وتقفيته، وأما معنى فلأن الشعر تخيلات مرغبة أو منفرة أو نحو ذلك وهو مقر الأكاذيب، ولذا قيل أعذبه أكذبه، والقرآن حكم وعقائد وشرائع.

والمراد من نفي تعليمه ﷺ بتعليم الكتاب الشعر نفي أن يكون القرآن شعراً على سبيل الكناية لأن ما علمه الله

تعالى هو القرآن وإذا لم يكن المعلم شعراً لم يكن القرآن شعراً البتة، وفيه أنه عليه الصلاة والسلام ليس بشاعر ادماجاً وليس هناك كناية تلويحية كما قيل، وهذا رد لما كانوا يقولونه من أن القرآن شعر والنبي ﷺ شاعر وغرضهم من ذلك أن ما جاء به عليه الصلاة والسلام من القرآن افتراء وتخيل وحاشاه ثم حاشاه من ذلك ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾ اعتراض لتقرير ما أدمج أي لا يليق ولا يصلح له ﷺ الشعر لأنه يدعو إلى تغيير المعنى لمراعاة اللفظ والوزن ولأن أحسنه المبالغة والمجازفة والإغراق في الوصف وأكثره تحسين ما ليس بحسن وتقبيح ما ليس بقبيح وكل ذلك يستدعي الكذب أو يحاكيه الكذب وجل جناب الشارع عن ذلك كذا قيل.

وقال ابن الحاجب: أي لا يستقيم عقلاً أن يقول ﷺ الشعر لأنه لو كان ممن يقوله لتطرقت التهمة عند كثير من الناس في أن ما جاء به من قبل نفسه وأنه من تلك القوة الشعرية ولذا عقب هذا بقوله تعالى **﴿ويحق القول على الكافرين﴾** لأنه إذا انتفت الريبة لم يبق إلا المعاندة فيحق القول عليهم، وتعقب بأن الإيجاز يرفع التهمة وإلا فكونه عليه الصلاة والسلام في المرتبة العليا من الفصاحة والبلاغة في النثر ليس بأضعف من قول الشعر في كونه مظنة تطرق التهمة بل ربما يتخيل أنه أعظم من قول الشعر في ذلك فلو كانت علة منعه عليه الصلاة والسلام من الشعر ما ذكر لزم أن يمنع من الكلام الفصيح البليغ سداً لباب الريبة ودحضاً للشبهة وإعظاماً للحجة فحيث لم يكن ذلك اكتفاء بالإعجاز وأن التهمة والريب معه مما لا ينبغي أن يصدر من عاقل ولذا نفي الريب مع أنه وقع علم أن العلة في أنه عليه الصلاة والسلام لا ينبغي له الشعر شيء آخر، واختار هذا ابن عطية وجعل العلة ما في قول الشعر من التخييل والتزويق للقول وهو قريب مما سمعت أولاً، وهو الذي ينبغي أن يعول عليه، وفي الآية عليه دلالة على غضاضة الشعر وهي ظاهرة في أنه عليه الصلاة والسلام لم يعط طبيعة شعرية اعتناء بشأنه ورفعاً لقدره وتبعيداً له ﷺ من أن يكون فيه مبدأ لما يخل بمنصبه في الجملة.

وإنما لم يعط ﷺ القدرة على الشعر مع حفظه عن إنشائه لأن ذلك سلب القدرة عليه في الإبعاد عما يخل بمنصبه الجليل ﷺ ونظير ما ذكرنا العصمة والحفظ، ويفهم من كلام المواهب اللدنية أن من الناس من ذهب إلى أنه عليه الصلاة والسلام كان له قدرة على الشعر إلا أنه يحرم عليه أن يشعر وليس بذاك، نعم القول بحرمة إنشاء الشعر مقبول ومعناه على القول السابق على ما قيل حرمة التوصل إليه، وقد يقال: لا حاجة إلى التأويل وحرمة الشيء تجامع عدم القدرة عليه، وهل عدم الشعر خاص به عليه الصلاة والسلام أو عام لنوع الأنبياء قال بعضهم هو عام لهذه الآية إذ لا يظهر للخصوص نكتة، وقيل يجوز أن يكون خاصاً والنكتة زيادة التكريم لما أن مقامه ﷺ فوق مقام الأنبياء عليهم السلام ويكون الثابت لهم الحفظ عن الإنشاء مع ثبوت القدرة عليه وإن صح خبر إنشاء آدم عليه السلام يوم قتل ولده:

تغيرت البلاد ومن عليها ... ووجه الأرض مغبر قبيح
تغير كل ذي طعم ولون ... وقل بشاشة الوجه الصبيح

اتضح أمر الخصوص وعلم أن لا حفظ من الإنشاء أيضاً، ولعل الحفظ حينئذ مما فيه ما يشين ويخل بمنصب النبوة مطلقاً، والنكتة في الخصوص ظاهرة على ما نقل عن ابن الحاجب لأن أعظم معجزاته عليه الصلاة والسلام القرآن فربما تحصل التهمة فيه لو قال ﷺ الشعر وكذلك معجزات الأنبياء عليهم السلام فتأمل.

وأيّاً ما كان لا يرد أنه عليه الصلاة والسلام قال يوم حنين وهو على بغلته البيضاء وأبو سفيان بن الحارث آخذ بزمامها ولم يبق معه عليه الصلاة والسلام من الناس إلا قليل[1].

---

(١) نحو مائة او اثني عشر او عشرة ا هـ منه.

ـ أنا النبي لا كذب(١) أنا ابن عبد المطلب ـ

لأنا لا نسلم أنه شعر فقد عرفوه بأنه الكلام المقفى الموزون على سبيل القصد وهذا مما اتفق له عليه الصلاة والسلام من غير قصد لوزنه ومثله يقع كثيراً في الكلام المنثور ولا يسمى شعراً ولا قائله شاعراً، ولا يتوهم من انتسابه ﷺ فيه إلى جده دون أبيه دليل القصد لأن النسبة إلى الجد شائعة ولأنه هو الذي قام بتربيته حيث توفي أبوه عليه الصلاة والسلام وهو حمل فحين ولد قام بأمره فوق ما يقوم الوالد بأمر الولد ولأنه كان مشهوراً بينهم بالصدق والشرف والعزة فلذا خصه بالذكر ليكون كالدليل على ما قبل أو كمانع آخر من الإنهزام ولأن كثيراً من الناس كانوا يدعونه عليه الصلاة والسلام بابن عبد المطلب. ومنه حديث ضمام بن ثعلبة أيكم ابن عبد المطلب على أن منهم من لم يعد الرجز مطلقاً وأصله ما كان على مستفعلن ست مرات شعراً ولذا يسمى قائله راجزاً لا شاعراً، وعن الخليل أن المشطور منه وهو ما حذف نصفه فبقي وزنه مستفعلن ثلاث مرات؛ والمنهوك وهو ما حذف ثلثاه فبقي وزنه مستفعلن مرتين ليسا بشعر، وفي رواية أخرى عنه أن المجزوء وهو ما حذف من كل مصراع منه جزء فبقي وزنه مستفعلن أربع مرات كذلك فقوله ﷺ أنا النبي لا كذب إن كان نصف بيت فهو مجزو فليس بشعر على هذه الرواية وأن فرض أن هناك قصداً وإن كان بيتاً تاماً فهو فليس منهوك بشعر أيضاً على الرواية الأولى وكونه ليس بشعر على قول من لا يرى الرجز مطلقاً شعراً ظاهر.

وجاء في بعض الروايات أنه عليه الصلاة والسلام حرك الباء من كذب والمطلب فلا يكون ذلك موزوناً فكونه ليس بشعر أظهر وأظهر، والقول بأن ضمير ﴿له﴾ للقرآن المعلوم من السياق أي وما يصح للقرآن أن يكون شعراً فيجوز صدور الشعر عنه ﷺ ولا يحتاج إلى توجيه ليس بشيء فإنه يكفي في نفي الشعر عنه عليه الصلاة والسلام قوله سبحانه ﴿وما علمناه الشعر﴾ مع أن الظاهر عود الضمير عليه عليه الصلاة والسلام، وأولى التوجيهات إخراج ذلك من الشعر بانتفاء القصد وبذلك يخرج ما وقع في القرآن من نظائره منه، وقد ذكرنا لك فيما مر كثيراً منها، وليس في الآية ما يدل على أن النبي ﷺ لا ينبغي له التكلم بشعر قاله بعض الشعراء والمتمثل به، وفي الأخبار ما يدل على وقوع التكلم بالبيت متزناً نادراً كما روي أنه عليه الصلاة والسلام أنشد بيت ابن رواحة:

يبيت يجافي جنبه عن فراشه ... إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

وإنشاده إياه كذلك مذكور في البحر، وروي أنه ﷺ أصاب أصبعه الشريفة حجر في بعض غزواته فدميت فتمثل بقول الوليد بن المغيرة: على ما قاله ابن هشام في السيرة أو ابن رواحة على ما صححه ابن الجوزي:

ما أنت إلا أصبع دميت ... وفي سبيل الله ما لقيت

قيل: هو له عليه الصلاة والسلام والكلام فيه كالكلام في قوله ﷺ أنا النبي الخ إلا أن هذا يحتمل أن يكون مشطوراً إذا كان كل من شطريه بيتاً وعلى وقوع التكلم بالبيت غير متزن مع إحراز المعنى كثيراً كما روي أنه عليه الصلاة والسلام أنشد:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ... ويأتيك من لم تزود بالأخبار

---

(١) فيه اشارة الى استحالة الكذب على النبي فكانه قال أنا النبي والنبي لا يكذب فلست بكاذب فيما اقول حتى أنهزم وانا متيقن ان الذي وعدني الله تعالى من النصر حق فلا يجوز عليَّ الفرار. ثم اشار عليه الصلاة والسلام الى انه لا يليق به من حيث نسبه الجليل الفرار ايضاً تدبر ا هـ منه.

فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه ليس هكذا يا رسول الله فقال عليه الصلاة والسلام «إني والله ما أنا بشاعر ولا ينبغي لي» وفي خبر أخرجه أحمد وابن أبي شيبة عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا استراث الخبر تمثل ببيت طرفة ويأتيك من لم تزود بالأخبار.

وأخرج ابن سعد وابن أبي حاتم عن الحسن أنه ﷺ كان يتمثل بهذا البيت:

كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهياً

فقال أبو بكر: أشهد أنك رسول الله ما علمك الشعر وما ينبغي لك، وأخرج ابن سعيد عن عبد الرحمن بن أبي الزناد أن النبي ﷺ قال للعباس بن مرداس: أرأيت قولك:

أتجعل نهبي ونهب العبيـ ... ـد بين الأقرع وعيينة

فقال له أبو بكر: رضي الله تعالى عنه بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما أنت بشاعر ولا راوية ولا ينبغي لك إنما قال بين عيينة والأقرع، وروي أنه قيل له عليه الصلاة والسلام: من أشعر الناس؟ فقال: الذي يقول:

ألم تریاني كلما جئت طارقاً ... وجدت بها وإن لم تطيب طيبا

وأخرج البيهقي في سننه بسند فيه مجهول عن عائشة قالت ما جمع رسول الله ﷺ بيت شعر قط إلا بيتاً واحداً:

تفاءل بما تهوى يكن فلقلما ... يقال لشيء كان إلا تحقق

قالت عائشة ولم يقل تحققاً لئلا يعربه فيصير شعراً، ثم إنه عليه الصلاة والسلام مع هذا لم يكن يحب الشعر ففي مسند أحمد بن حنبل عن عائشة قالت: كان أبغض الحديث إليه ﷺ الشعر، وفي الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلىء شعراً» وهذا ظاهر في ذم الإكثار منه، وما روي عن الخليل أنه قال كان الشعر أحب إلى رسول الله ﷺ من كثير من الكلام مناف لما سمعت عن المسند، ولعل الجمع بالتفصيل بين شعر وشعر، وقد تقدم الكلام في الشعر مفصلاً في سورة الشعراء فتذكر.

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي ما القرآن ﴿إِلاَّ ذِكْرٌ﴾ أي عظة من الله عز وجل وإرشاد للثقلين كما قال سبحانه: ﴿إن هو إلا ذكر للعالمين﴾ [يوسف: ١٠٤، ص: ٨٧، التكوير: ٢٧] ﴿وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ أي كتاب سماوي ظاهر أنه ليس من كلام البشر لما فيه من الإعجاز الذي ألقم من تصدي للمعارضة الحجر ﴿لِيُنْذِرَ﴾ أي القرآن أو الرسول عليه الصلاة والسلام، ويؤيده قراءة نافع وابن عامر «لتنذر» بتاء الخطاب. وقرأ اليماني «لِيُنْذَر» مبنياً للمفعول ونقلها ابن خالويه عن الجحدري وقال: عن أبي السمال واليماني أنهما قرءا «لِيَنْذَر» بفتح الياء والذال مضارع نذر بالشيء بكسر الذال إذا علم به.

﴿مَن كَانَ حَيّاً﴾ أي عاقلاً كما أخرج ذلك ابن جرير والبيهقي في شعب الإيمان عن الضحاك، وفيه استعارة مصرحة بتشبيه العقل بالحياة أو مؤمناً بقرينة مقابلته بالكافرين، وفيه أيضاً استعارة مصرحة لتشبيه الإيمان بالحياة، ويجوز كونه مجازاً مرسلاً لأنه سبب للحياة الحقيقية الأبدية، والمضي في ﴿كان﴾ باعتبار ما في علمه عز وجل لتحققه، وقيل كان بمعنى يكون، وقيل في الكلام مجاز المشارفة ونزلت منزلة المضي وهو كما ترى، وتخصيص الإنذار به لأنه المنتفع بذلك ﴿وَيَحِقَّ الْقَوْلُ﴾ أي تجب كلمة العذاب ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ الموسومين بهذا الوسم المصرين على الكفر، وفي إيرادهم بمقابلة من كان حياً إشعار بأنهم لخلوهم عن آثار الحياة وأحكامها كالمعرفة أموات في الحقيقة، وجوز أن يكون في الكلام استعارة مكنية قرينتها استعارة أخرى. وكأنه جيء بقوله سبحانه ﴿لينذر﴾ الخ رجوعاً إلى

ما بدىء به السورة من قوله عز وجل: ﴿لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم﴾ [يس: ٦] ولو نظرت إلى هذا التخلص من حديث المعاد إلى حديث القرآن والإنذار لقضيت العجب من حسن موقعه ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ الهمزة للإنكار والتعجيب والواو للعطف على جملة منفية مقدرة مستتبعة للمعطوف أي ألم يتفكروا أو ألم يلاحظوا أو ألم يعلموا علماً يقينياً مشابهاً للمعاينة زعم بعضهم أن هذا عطف على قوله تعالى: ﴿ألم يروا كم أهلكنا﴾ [يس: ٣١] الخ والأول للحث على التوحيد بالتحذير من النقم وهذا بالتذكير بالنعم المشار إليها بقوله تعالى: ﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ﴾ أي لأجلهم وانتفاعهم ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ أي مما تولينا إحداثه بالذات من غير مدخل لغيرنا فيه لا خلقاً ولا كسباً.

والكلام استعارة تمثيلية فيما ذكر، وجوز أن يكون قد كني عن الايجاد بعمل الأيدي فيمن له ذلك ثم بعد الشيوع أريد به ما أريد مجازاً متفرعاً على الكناية، وقال بعضهم: المراد بالعمل الأحداث وبالأيدي القدرة مجازاً، وأوثرت صيغة التعظيم والأيدي مجموعة تعظيماً لشأن الأثر وإنه أمر عجيب وصنع غريب وليس بذاك، وقيل الأيدي مجاز عن الملائكة المأمورين بمباشرة الأعمال حسبما يريده عز وجل في عالم الكون والفساد كملائكة التصوير وملائكة نفخ الأرواح في الأبدان بعد إكمال تصويرها ونحوهم، ولا يخفى ما فيه.

ونحوه ما قيل الأيدي مجاز عن الأسماء فإن كل أثر في العالم بواسطة اسم خاص من أسمائه عز وجل.

وأنت تعلم أن الآية من المتشابه عند السلف وهم لا يجعلون اليد مضافة إليه تعالى بمعنى القدرة أفردت ـ كيد الله فوق أيديهم ـ أو ثنيت كخلقت بيدي أو جمعت كما هنا بل يثبتون اليد له عز وجل كما أثبتها لنفسه مع التنزيه الناطق به قوله سبحانه: ﴿ليس كمثله شيء﴾ [الشورى: ١١] وارتضاه كثير ممن وفقه الله تعالى من الخلق، ولا أرى الطاعنين عليهم إلا جهلة ﴿أنعاماً﴾ مفعول ﴿خلقنا﴾ وأخر عن الجارين المتعلقين به اعتناء بالمقدم وتشويقاً إلى المؤخر وجمعاً بينه وبين ما يتعلق به من أحكامه المتفرعة عليه والمراد بالأنعام الأزواج الثمانية وخصها بالذكر لما فيها من بدائع الفطرة وكثرة المنافع، وهذا كقوله تعالى: أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ أي متملكون لها بتمليكنا إياها لهم، والفاء قيل للتفريع على مقدر أي خلقنا لهم أنعاماً وملكناها لهم فهم بسبب ذلك مالكون لها، وقيل للتفريع على خلقها لهم وفيه خفاء. وجوز أن يكون الملك بمعنى القدرة والقهر من ملكت العجين إذا أجدت عجنه، ومنه قول الربيع بن منيع الفزاري وقد سئل عن حاله بعد إذ كبر:

أصبحت لا أحمل السلاح ولا ... أملك رأس البعير إن نفرا

والأول أظهر ليكون ما بعد تأسيساً لا تأكيداً، وأياً ما كان فلها متعلق بمالكون واللام مقوية للعمل وقدم لرعاية الفواصل مع الاهتمام، وإثار الجملة الاسمية للدلالة على استقرار مالكيتهم لها واستمرارها.

وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُواْ مِن
دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ
قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ
مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ
أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ
تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾ أي وصيرناها سهلة غير مستعصية عليهم في شيء مما يريدون بها حتى الذبح حسبما ينطق به قوله تعالى ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ فإن الفاء فيه لتفريع أحكام التذليل عليه وتفصيلها أي فبعض منها مركوبهم فركوب فعول بمعنى مفعول كحصور وحلوب وقزوع وهو مما لا ينقاس. وقرأ أبي وعائشة «ركوبتهم» بالتاء وهي فعولة بمعنى مفعولة كحلوبة، وقيل جمع ركوب، وتعقب بأنه لم يسمع فعولة بفتح الفاء في الجموع ولا في أسمائها. وقرأ الحسن والأعمش وأبو البرهسم «رُكُوبهم» بضم الراء وبغير تاء وهو مصدر كالقعود والدخول فأما أن يؤول بالمفعول أو يقدر مضاف في الكلام إما في جانب المسند إليه أي ذو ركوبهم أو في جانب المسند أي فمن منافعها ركوبهم ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ أي وبعض منها يأكلون لحمه، والتبعيض هنا باعتبار الأجزاء وفيما قيل باعتبار الجزئيات والجملة معطوفة على ما قبلها، وغير الأسلوب لأن الأكل عام في الأنعام جميعها وكثير مستمر بخلاف الركوب كذا قيل، وقيل الفعل موضوع موضع المصدر وهو بمعنى المفعول للفاصلة.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا﴾ أي في الأنعام بكلا قسميها ﴿مَنَافِعُ﴾ غير الركوب والأكل كالجلود والأصواف والأوبار وغيرها وكالحراثة بالثيران ﴿وَمَشَارِبُ﴾ جمع مشرب مصدر بمعنى المفعول والمراد به اللبن، وخص مع دخوله في المنافع لشرفه واعتناء العرب به، وجمع باعتبار أصنافه ولا ريب في تعددها، وتعميم المشارب للزبد والسمن والجبن والأقط لا يصح إلا بالتغليب أو التجوز لأنها غير مشروبة ولا حاجة إليه مع دخولها في المنافع، وجوز أن تكون المشارب جمع مشرب موضع الشرب.

قال الإمام: وهو الآنية فإن من الجلود يتخذ أواني الشرب من القرب ونحوها، وقال الخفاجي: إذا كان موضعاً فالمشارب هي نفسها لقوله سبحانه: ﴿فيها﴾ فإنها مقرة، ولعله أظهر من قول الإمام ﴿أَفَلاَ يَشْكُرُونَ﴾ أي يشاهدون هذه النعم فلا يشكرون المنعم بها ويخصونه سبحانه بالعبادة ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أي متجاوزين الله تعالى الذي رأوا منه تلك القدرة الباهرة والنعم الظاهرة وعلموا أنه سبحانه المتفرد بها ﴿آلِهَةً﴾ من الأصنام وأشركوها به عز وجل في العبادة ﴿لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ﴾ رجاء أن ينصروا أو لأجل أن ينصروا من جهتهم فيما نزل بهم وأصابهم من الشدائد أو يشفعوا لهم في الآخرة، وقوله تعالى:

﴿لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ الخ استئناف سيق لبيان بطلان رأيهم وخيبة رجائهم وانعكاس تدبيرهم أي لا تقدر آلهتهم على نصرهم، وقول ابن عطية، يحتمل أن يكون ضمير ﴿يستطيعون﴾ للمشركين وضمير ﴿نصرهم﴾ للأصنام ليس بشيء أصلاً ﴿وَهُمْ﴾ أي أولئك المتخذون المشركون ﴿لَهُمْ﴾ أي لآلهتهم ﴿جُنْدٌ مُحْضَرُونَ﴾ أي معدون لحفظهم والذب عنهم في الدنيا.

أخرجه ابن أبي حاتم وابن المنذر عن الحسن وقتادة، وقيل: المعنى أن المشركين جند لآلهتهم في الدنيا محضرون للنار في الآخرة، وجاء بذلك في رواية أخرجها ابن أبي حاتم عن الحسن، واختار بعض الأجلة أن معنى والمشركون لآلهتهم جند محضرون يوم القيامة أثرهم في النار وجعلهم جنداً من باب التهكم والاستهزاء. وكذلك لام لهم الدالة على النفع، وقيل ﴿هم﴾ للآلهة وضمير ﴿لهم﴾ للمشركين أي وإن الآلهة معدون محضرون لعذاب أولئك المشركين يوم القيامة لأنهم يجعلون وقود النار أو محضرون عند حساب الكفرة إظهاراً لعجزهم وإقناطاً للمشركين عن

شفاعتهم وجعلهم جنداً، والتعبير باللام في الوجهين على ما مر آنفاً، واختلاف مراجع الضمائر في الآية ليس من التفكيك المحظور، والواو في قوله سبحانه ﴿**وهم**﴾ الخ على جميع ما مر إما عاطفة أو حالية إلا أن الحال مقدرة في بعض الأوجه كما لا يخفى. والفاء في قوله تعالى ﴿**فَلاَ يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ**﴾ فصيحة أي إذا كان هذا حالهم مع ربهم عز وجل فلا تحزن بسبب قولهم عليك هو شاعر أو إذا كان حالهم يوم القيامة ما سمعت فلا تحزن بسبب قولهم على الله سبحانه إن له شركاء تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً أو عليك هو شاعر أو على الله تعالى وعليك ما لا يليق بشأنه عز وجل وشأنك، والاقتصار في بيان قولهم عليه ﷺ بأنه وحاشاه شاعر لأنه الأوفق بما تقدم من قوله تعالى ﴿**وما علمناه الشعر وما ينبغي له**﴾ وقد يعمم فيشمل جميع ما لا يليق بشأنه عليه الصلاة والسلام من الأقوال، وتفسير الشرط الذي أفصحت عنه الفاء بما ذكرنا أولاً هو المناسب لما روي عن الحسن وقتادة في معنى قوله تعالى ﴿**وهم لهم جند محضرون**﴾ وبما ذكرنا ثانياً هو المناسب لما ذكر بعد في معنى ذلك، وقيل التقدير على الأول إذا كانوا في هذه المرتبة من سخافة العقول حيث اتخذوا رجاء النصر آلهة من دون الله عز وجل لا يقدرون على نصرهم والذب عنهم بل هم يذبون عن تلك الآلهة فلا تحزن بسبب قولهم عليك ما قالوا ولعل الأول أولى، وأياً ما كان فالنهي وإن كان بحسب الظاهر متوجهاً إلى قولهم لكنه في الحقيقة كما أشرنا إليه متوجه إلى رسول الله ﷺ والمراد نهيه عليه الصلاة والسلام عن التأثر من الحزن بطريق الكناية على أبلغ وجه وأكده كما لا يخفى.

وقرأ نافع «فلا يُحْزِنْكَ» بضم الياء وكسر الزاي من أحزن المنقول من حزن اللازم وجاء حزنه وأحزنه. ﴿**إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ**﴾ تعليل صريح للنهي بطريق الاستئناف بعد تعليلة بطريق الإشعار بناء على التقدير الثاني في الشرط فإن العلم بما ذكر مجاز عن مجازاتهم عليه أو كناية عنها للزومها إياه إذ علم الملك القادر الحكيم بما جرى من عدوه الذي تقتضي الحكمة الانتقام منه مقتض لمجازاته والانتقام منه، وهو على التقدير الأول قيل استئناف بياني وقع جواب سؤال مقدر كأنه قيل: يا رب فإذا كان حالهم معك ومع نبيك ذلك فماذا تصنع بهم؟ فقيل: ﴿**إنا نعلم**﴾ الخ أي نجازيهم بجميع جناياتهم، وقيل هو تعليل لترتيب النهي على الشرط فتأمل، وما موصولة والعائد محذوف أي نعلم الذي يسرونه من العقائد الزائغة والعداوة لك ونحو ذلك والذي يعلنونه من كلمات الإشراك والتكذيب ونحوها، وجوز أن تكون مصدرية أي نعلم أسرارهم وإعلانهم والمفعول محذوف أو الفعلان منزلان منزلة اللازم والمتبادر الأول وهو الأولى.

وتقديم السر على العلن لبيان احاطة علمه سبحانه بحيث إن علم السر عنده تعالى كأنه أقدم من علم العلن، وقيل: لأن مرتبة السر متقدمة على مرتبة العلن إذ ما من شيء يعلن إلا وهو أو مباديه مضمر في القلب قبل ذلك فتعلق علمه تعالى بحالته الأولى متقدم على تعلقه بحالته الثانية حقيقة، وقيل: للإشارة إلى الاهتمام بإصلاح الباطن فإنه ملاك الأمر ولأنه محل الاشتباه المحتاج للبيان، وشاع أن الوقف على ﴿**قولهم**﴾ متعين، وقيل: ليس به لأنه جوز في ﴿**أنا نعلم**﴾ الخ كونه مقول القول على أن ذلك من باب الإلهاب والتعريض كقوله تعالى ﴿**ولا تكونن من المشركين**﴾ [الأنعام: ١٤، يونس: ١٠٥، القصص: ٨٧] أو على أن المراد فلا يحزنك قولهم على سبيل السخرية والاستهزاء إنا نعلم الخ، ومنه يعلم أنه لو قرأ قارىء أنا نعلم بالفتح وجعل ذلك بدلاً من ﴿**قولهم**﴾ لا تنتقض صلاته ولا يكفر لو اعتقد ما يعطيه من المعنى كما لو جعله تعليلاً على حذف حرف التعليل، والحق أن مثل هذا التوجيه لا بأس بقبوله في درء الكفر، وأما أمر الوقف فالذي ينبغي أن يقال فيه إنه على قولهم كالمتعين ﴿**أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ**﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان بطلان إنكارهم البعث بعد ما شاهدوا في أنفسهم ما يوجب التصديق به كما أن ما سبق

مسوق لبيان بطلان إشراكهم بالله عز وجل وبعد ما عاينوا فيما بأيديهم ما يوجب التوحيد والإسلام، وقيل: إنه تسلية له عليه الصلاة والسلام كقوله تعالى ﴿**فلا يحزنك قولهم**﴾ وذلك بتهوين ما يقولونه بالنسبة إلى إنكارهم الحشر وليس بشيء.

والهمزة للإنكار والتعجب والواو للعطف على جملة مقدرة هي مستتبعة للمعطوف كما مر في قوله تعالى ﴿**أو لم يروا**﴾ الخ أي ألم يتفكر الإنسان ولم يعلم أنا خلقناه من نطفة أو هي عين تلك الجملة أعيدت تأكيداً للنكير السابق وتمهيداً لإنكار ما هو أحق منه بالإنكار لما أن المنكر عين علمهم بما يتعلق بخلق أنفسهم، ولا ريب في أن علم الإنسان بأحوال نفسه أهم وإحاطته بها أسهل وأتم فالإنكار والتعجيب من الإخلال بذلك كأنه قيل ألم يعلموا خلقه تعالى لأسباب معايشهم ولم يعلموا خلقه تعالى لأنفسهم أيضاً مع كون العلم بذلك في غاية الظهور ونهاية الأهمية، ويشير كلام بعض الأجلة إلى أن العطف على ﴿**أولم يروا**﴾ السابق والجامع ابتناء كل منهما على التعكيس فإنه تعالى خلق للإنسان ما خلق ليشكر فكفر وجحد المنعم والنعم وخلقه سبحانه من نطفة قذرة ليكون منقاداً متذللاً فطغى وتكبر وخاصم، وإيراد الإنسان مورد الضمير لأن مدار الإنكار متعلق بأحواله من حيث هو إنسان.

وقوله تعالى ﴿**فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ**﴾ أي مبالغ في الخصومة والجدال الباطل ﴿**مُّبِينٌ**﴾ ظاهر متجاهر في ذلك عطف على الجملة المنفية داخل في حيز الإنكار والتعجيب كأنه قيل: أو لم يرانا خلقناه من أخس الأشياء وأمهنها ففاجأ خصومتنا في أمر يشهد بصحته مبدأ فطرته شهادة بينة، وإيراد الجمل اسمية للدلالة على استقراره في الخصومة واستمراره عليها. وفي الحواشي الخفاجية أن تعقيب الإنكار بالفاء وإذا الفجائية على ما يقتضي خلافه مقو للتعجيب، والمراد بالإنسان الجنس، والخصيم إنما هو الكافر المنكر للبعث مطلقاً، نعم نزلت الآية في كافر مخصوص، أخرج جماعة منهم الضياء في المختارة عن ابن عباس قال: جاء العاص بن وائل إلى رسول الله ﷺ بعظم حائل ففته بيده فقال: يا محمد أيحيي الله تعالى هذا بعد ما أرم؟ قال: نعم يبعث الله تعالى هذا ثم يميتك ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم فنزلت الآيات ﴿**أولم ير الإنسان**﴾ إلى آخر السورة، وفي رواية ابن مردويه عنه أن الجائي ذلك القائل أبي بن خلف وهو الذي قتله رسول الله ﷺ يوم أحد بالحربة، وروي ذلك عن أبي مالك ومجاهد وقتادة والسدي وعكرمة وغيرهم كما في الدر المنثور. وفي رواية أخرى عن الحبر أنه أبو جهل بن هشام، وفي أخرى عنه أيضاً أنه عبد الله بن أبي، وتعقب ذلك أبو حيان بأن نسبة ذلك إلى أن عباس رضي الله تعالى عنهما وهم لأن السورة والآية مكية بإجماع ولأن عبد الله بن أبي لم يجاهر قط هذه المجاهرة، وحكي عن مجاهد وقتادة أنه أمية بن خلف، والذي اختاره وأدعى أنه أصح الأقوال أنه أبي بن خلف ثم قال: ويحتمل أن كلاً من هؤلاء الكفرة وقع منه ذلك، وقيل معنى قوله تعالى ﴿**فإذا هو خصيم مبين**﴾ فإذا هو بعد ما كان ماء مهيناً رجل مميز منطيق قادر على الخصام مبين معرب عما في ضميره فصيح فهو حينئذ معطوف على «خلقناه» والتعقيب والمفاجأة ناظران إلى خلقه، و ﴿**مبين**﴾ متعد والكلام من متممات شواهد صحة البعث فقوله تعالى ﴿**وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً**﴾ معطوف حينئذ على الجملة المنفية داخل في حيز الإنكار، وأما على الأول فهو عطف على الجملة الفجائية، والمعنى ففاجأ خصومتنا وضرب لنا مثلاً أي أورد في شأننا قصة عجيبة في نفس الأمر هي في الغرابة كالمثل وهي إنكار احيائنا العظام أو قصة عجيبة في زعمه واستبعدها وعدها من قبيل المثل وأنكرها أشد الإنكار وهي أحياؤنا إياها أو جعل لنا مثلاً ونظيراً من الخلق وقاس قدرتنا على قدرتهم ونفي الكل على العموم، وقوله تعالى ﴿**وَنَسِيَ خَلْقَهُ**﴾ أي خلقنا إياه على الوجه المذكور الدال على بطلان ما ضربه أما عطف على «ضرب» داخل في حيز الإنكار والتعجيب أو حال من فاعله بإضمار قد أو بدونه، ونسيان خلقه بأن لم

يتذكره على ما قيل وفيه دغدغة أو ترك تذكره لكفره وعناده أو هو كالناسي لعدم جريه على مقتضى التذكر وقوله سبحانه ﴿قَالَ﴾ استئناف وقع جواباً عن سؤال نشأ من حكاية ضربه المثل كأنه قيل: أي مثل ضرب أو ماذا قال؟ فقيل: قال ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ منكراً ذلك ناكراً من أحوال العظام ما تبعد معه من الحياة غاية البعد وهو كونها رميماً أي بالية أشد البلى، والظاهر أن «رميم» صفة لا اسم جامد فإن كان من رم اللام بمعنى بلى فهو فعيل بمعنى فاعل، وإنما لم يؤنث لأنه غلب استعماله غير جار على موصوف فالحق بالأسماء الجامدة أو حمل على فعيل بمعنى مفعول وهو يستوي فيه المذكر والمؤنث، وقال محيي السنة: لم يقل رميمة لأنه معدول من فاعلة فكل ما كان معدولاً عن وجهه ووزنه كان مصروفاً عن أخواته، ومثله «بغياً» في قوله تعالى «ما كانت أمك بغياً» أسقط الهاء منها لأنها كانت مصروفة عن باغية، وقال الأزهري: إن عظاماً لكونه بوزن المفرد ككتاب وقراب عومل معاملته فقيل رميم دون رميمة وذكر له شواهد وهو غريب، وإن كان من رم المتعدي بمعنى ابلى يقال رمه أي أبلاه؛ وأصل معناه الأكل كما ذكره الأزهري من رمث الإبل الحشيش فكان ما بلى أكلته الأرض فهو فعيل بمعنى مفعول، وتذكيره على هذا ظاهر للإجماع على أن فعيلاً بمعنى مفعول يستوي فيه المذكر والمؤنث. وفي المطلع الرميم اسم غير صفة كالرمة والرفات لا فعيل بمعنى فاعل أو مفعول ولأجل أنه اسم لا صفة لا يقال لم لم يؤنث وقد وقع خبراً لمؤنث؟ ولا يخفى أن له فعلاً وهو رم كما ذكره أهل اللغة وهو وزن من أوزان الصفة فكونه جامداً غير ظاهر ﴿قُلْ﴾ تبكيتاً له بتذكير ما نسيه من فطرته الدالة على حقيقة الحال وإرشاده إلى طريقة الاستشهاد بها ﴿يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا﴾ أي أوجدها وربابها ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي في أول مرة إذ لم يسبق لها إيجاد ولا شك أن الإحياء بعد أهون من الإنشاء قبل فمن قدر على الإنشاء كان على الأحياء أقدر وأقدر، ولا احتمال لعروض العجز فإن قدرته عز وجل ذاتية أزلية لا تقبل الزوال ولا التغير بوجه من الوجوه. وفي الحواشي الخفاجية كان الفارابي يقول وددت لو أن أرسطو وقف على القياس الجلي في قوله تعالى «قل يحييها» الخ وهو الله تعالى أنشأ العظام وأحياها أول مرة وكل من انشأ شيئاً أولاً قادر على إنشائه وإحيائه ثانياً فيلزم أن الله عز وجل قادر على انشائها وإحيائها بقواها ثانياً، والآية ظاهرة فيما ذهب إليه الإمام الشافعي قيل ومالك وأحمد من أن العظم تحله الحياة فيؤثر فيه الموت كسائر الأعضاء وبنوا على ذلك الحكم بنجاسة عظم الميتة ومسألة حلول الحياة في العظم وعدمه مما اختلف فيه الفقهاء والحكماء، واستدل من قال منهما بعدم حلولها فيه بأن الحياة تستلزم الحس والعظم لا إحساس له فإنه لا يتألم بقطعة كما يشاهد في القرن، وما قد يحصل في قطع العظم من التألم إنما هو لما يجاوره، وقال ابن زهر في كتاب التيسير: اضطرب كلام جالينوس في العظام هل لها احساس أم لا والذي ظهر لي أن لها حساً بطيئاً وليت شعري ما يمنعها من التعفن والتفتت في الحياة غير حلول الروح الحيواني فيها انتهى.

وبعض من ذهب من الفقهاء إلى أن العظام لا حياة فيها بنى عليه الحكم بطهارتها من الميتة إذ الموت زوال الحياة فحيث لم تحلها الحياة لم يحلها الموت فلم تكن نجسة. وأورد عليهم هذه الآية فقيل المراد بالعظام فيها صاحبها بتقدير أو تجوز أو المراد بإحيائها ردها لما كانت عليه غضة رطبة في بدن حي حساس، ورجح هذا على إرادة صاحبها بأن سبب النزول لا بد من دخوله وعلى تلك الإرادة لا يدخل، ويدخل على تأويل إحيائها بإعادتها لما كانت عليه. ولا يخفى أن حمل الآية على ذلك خلاف الظاهر، والظاهر مع الشافعية ومن الفقهاء القائلين بعدم نجاسة عظام الميتة من رأى قوة الاستدلال بالآية على أن العظام تحلها الحياة فعلل الطهارة بغير ما سمعت فقال: إن نجاسة الميتة ليست لعينها بل لما فيها من الرطوبة والدم السائل والعظم ليس فيه ذلك فلذا لم يكن نجساً، ومنع الشافعية كون النجاسة للرطوبة وتمام الكلام في الفروع ﴿وَهُوَ﴾ عز وجل ﴿بِكُلِّ خَلْقٍ﴾ أي مخلوق ﴿عَلِيمٌ﴾ مبالغ في العلم

فيعلم جل وعلا بجميع الأجزاء المتفتتة المتبددة لكل شخص من الأشخاص أصولها وفروعها وأوضاع بعضها من بعض من الاتصال والانفصال والاجتماع والافتراق فيعيد كلاً من ذلك على النمط السابق مع القوى التي كانت قبل، والجملة إما اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما تقدم أو معطوفة على الصلة، والعدول إلى الاسمية للتنبيه على أن علمه تعالى بما ذكر أمر مستمر ليس كإنشائه للمنشآت.

وقوله تعالى ﴿**الَّذي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً**﴾ بدل من الموصول الأول وعدم الاكتفاء بعطف صلته على صلته للتأكيد ولتفاوتهما في كيفية الدلالة، والظرفان متعلقان بجعل قدماً على ﴿**ناراً**﴾ مفعوله الصريح للاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر، و ﴿**الأخضر**﴾ صفة الشجر وقرىء الخضراء، وأهل الحجاز يؤنثون الجنس المميز واحدة بالتاء مثل الشجر إذ يقال في واحده شجرة، وأهل نجد يذكرونه إلا ألفاظاً استثنيت في كتب النحو، وذكر بعضهم أن التذكير لرعاية اللفظ والتأنيث لرعاية المعنى لأنه في معنى الأشجار والجمع تؤنث صفة، وقيل لأنه في معنى الشجرة وكما يؤنث صفته يؤنث ضميره كما في قوله تعالى ﴿من شجر من زقوم فمالئون منها البطون﴾ [الواقعة: ٥٢، ٥٣] والمشهور أن المراد بهذا الشجر المرخ والعفار يتخذ من المرخ وهو ذكر الزند الأعلى ومن العفار بفتح العين وهو أنثى الزندة السفلى ويسحق الأول على الثاني وهما خضراوان يقطر منهما الماء فتنقدح النار بإذن الله تعالى، وكون المرخ بمنزلة الذكر والعفار بمنزلة الأنثى هو ما ذكره الزمخشري وغيره واللفظ كالشاهد له، وعكس الجوهري وعن ابن عباس والكلبي في كل شجر نار إلا العناب قيل ولذا يتخذ منه مدق القصارين، وأنشد الخفاجي لنفسه:

أيا شجر العناب نارك أوقدت ... بقلبي وما العناب من شجر النار

واشتهر العموم وعدم الاستثناء ففي المثل في كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار أي استكثرا من النار من مجدت الإبل إذا وقعت في مرعى واسع كثير، ومنه رجل ماجد أي مفضال، واختار بعضهم حمل الشجر الأخضر على الجنس وما يذكر من المرخ والعفار من باب التمثيل، وخصاً لكونهما أسرع ورياً وأكثر ناراً كما يرشد إليه المثل، ومن إرسال المثل المرخ والعفار لا يلدان غير النار.

﴿**فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقِدُونَ**﴾ كالتأكيد لما قبله والتحقيق له أي فإذا أنتم من ذلك الشجر الأخضر توقدون النار لا تشكون في أنها نار حقيقة تخرج منه وليست كنار الحباحب، وأشار سبحانه بقوله تعالى ﴿**الذي**﴾ الخ إلى أن من قدر على إحداث النار من الشجر الأخضر مع ما فيه من المائية المضادة لها بكيفيته فإن الماء بارد رطب والنار حارة يابسة كان جل وعلا أقدر على إعادة الغضاضة إلى ما كان غضاً فيبس وبلي، ثم إن هذه النار يخلقها الله تعالى عند سحق إحدى الشجرتين على الأخرى لا أن هناك ناراً كامنة تخرج بالسحق و ﴿**من الشجر**﴾ لا يصلح دليلاً لذلك، وفي كل شجر نار من مسامحات العرب فلا تغفل، وإياك واعتقاد الكمون.

وقوله تعالى ﴿**أَوَلَيْسَ الَّذي خَلَقَ السَّمَاوات وَالأَرْضَ**﴾ الخ استئناف مسوق من جهته تعالى لتحقيق مضمون الجواب الذي أمر ﷺ أن يخاطبهم به ويلزمهم الحجة، والهمزة للإنكار والنفي والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي أليس الذي أنشاها أول مرة وليس الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً وليس الذي خلق السماوات والأرض مع كبر جرمهما وعظم شأنهما ﴿**بِقَادرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ**﴾ في الصغر والحقارة بالنسبة إليهما على أن المراد بمثلهم هم وأمثالهم أو على أن المراد به هم أنفسهم بطريق الكناية كما في مثلك يفعل كذا، وقال بعضهم: مثلهم في أصول الذات وصفاتها وهو المعاد، وسيأتي إن شاء الله تعالى تفصيل الكلام في هذا المقام، وزعم جماعة

من المفسرين عود ضمير ﴿مثلهم﴾ للسماوات والأرض لشمولهما لمن فيهما من العقلاء فلذا كان ضمير العقلاء تغليباً والمقصود بالكلام دفع توهم قدم العالم المقتضي لعدم إمكان اعادته وهو تكلف ومخالف للظاهر والمشركون لا يقولون بقدم العالم فيما يظهر. وتعقب أيضاً بأن قدم العالم لو فرض مع قدم النوع الإنساني وعدم تناهي أفراده في جانب المبدأ لا يأبى الحشر الجسماني إذ هو بالنسبة إلى المكلفين وهم متناهون. وزعم أن ما ثبت قدمه استحال عدمه غير تام كما قرر في محله فلا تغفل، وقرأ الجحدري وابن أبي إسحاق والأعرج وسلام ويعقوب في رواية «يَقْدِر» بفتح الياء وسكون القاف فعلاً مضارعاً.

﴿بَلَىٰ﴾ جواب من جهته تعالى وتصريح بما أفاده الاستفهام الإنكاري من تقرير ما بعد النفي من القدرة على الخلق وإيذان بتعيينه للجواب نطقوا به أو تلعثموا فيه مخافة الالتزام، وقوله تعالى ﴿وَهُوَ الخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ عطف على ما يفيده الإيجاب أي بلى هو سبحانه قادر على ذلك وهو جل وعلا المبالغ في الخلق والعلم كيفا وكما.

وقرأ الحسن والجحدري وزيد بن علي ومالك بن دينار «الخالق» بزنة الفاعل ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ﴾ أي شأنه تعالى شأنه في الإيجاد، وجوز فيه أن يراد الأمر القولي فيوافق قوله تعالى ﴿إنما قولنا لشيء﴾ [النحل: ٤٠] ويراد به القول النافذ.

﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئاً﴾ أي إيجاد شيء من الأشياء ﴿أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ﴾ أي أوجد ﴿فَيَكُونُ﴾ أي فهو يكون ويوجد، والظاهر أن هناك قولاً لفظياً هو لفظ كن وإليه ذهب معظم السلف وشؤون الله تعالى وراء ما تصل إليه الأفهام فدع عنك الكلام والخصام، وقيل ليس هناك قول لفظي لئلا يلزم التسلسل، ويجوز أن يكون هناك قول نفسي وقوله للشيء تعلقه به، وفيه ما يأباه السلف غاية الإباء، وذهب غير واحد إلى أنه لا قول أصلاً وإنما المراد تمثيل لتأثير قدرته تعالى في مراده بأمر الآمر المطاع للمأمور المطيع في سرعة حصول المأمور به من غير امتناع وتوقف على شيء.

وقرأ ابن عامر والكسائي «فيكون» بالنصب عطفاً على ﴿يقول﴾ وجوز كونه منصوباً في جواب الأمر، وأباه بعضهم لعدم كونه أمراً حقيقة، وفيه بحث ﴿فَسُبْحَانَ الَّذي بيَده مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ تنزيه له عز وجل مما وصفوه به تعالى وتعجيب عما قالوا في شأنه عز شأنه، والفاء جزائية أي إذا علم ذلك فسبحان أو سببية لأن ما قبل سبب لتنزيهه سبحانه، والملكوت مبالغة في الملك كالرحموت والرهبوت فهو الملك التام، وفي تعليق سبحان بما في حيزه إيماء إلى أن كونه تعالى مالكاً للملك كله قادراً على كل شيء مقتض للتسبيح، وفسر الملكوت أيضاً بعالم الأمر والغيب فتخصيصه بالذكر قيل لاختصاص التصرف فيه به تعالى من غير واسطة بخلاف عالم الشهادة.

وقرأ طلحة والأعمش «ملكة» على وزن شجرة أي بيده ضبط كل شيء، وقرىء «مملكة» على وزن مفعلة وقرىء «ملك» ﴿وَإِلَيْه تُرْجَعُونَ﴾ لا إلى غيره تعالى وهذا وعد للمقرين ووعيد للمنكرين فالخطاب عام للمؤمنين والمشركين، وقيل هو وعيد فقط على أن الخطاب للمشركين لا غير توبيخاً لهم ولذا عدل عن مقتضى الظاهر وهو وإليه يرجع الأمر كله ففيه دلالة على أنهم استحقوا غضباً عظيماً. وقرأ زيد بن علي «تَرْجَعُون» مبنياً للفاعل.

هذا ما لخص من كلامهم في هذه الآيات الكريمة وفيها دلالة واضحة على المعاد الجسماني وإيماء إلى دفع بعض الشبه عنه، وهذه المسألة من مهمات مسائل الدين وحيث إن هذه السورة الكريمة قد تضمنت من أمره ماله كانت عند أجلة العلماء الصدور قلب القرآن لا بأس بأن يذكر في إتمام الكلام فيها ما للعلماء في تحقيق أمر ذلك فأقول طالباً من الله عز وجل التوفيق إلى القول المقبول: اعلم أولاً أن المسلمين اختلفوا في أن الإنسان ما هو فقيل هو هذا الهيكل المحسوس مع أجزاء سارية فيه سريان ماء الورد والنار في الفحم وهي جسم لطيف نوراني مخالف بالحقيقة والماهية

للأجسام التي منها ائتلف هذا الهيكل وإن كان لسريانه فبه بشبهه صورة ولا نعلم حقيقة هذا الجسم وهو الروح المشار إليها بقوله تعالى: ﴿قل الروح من أمر ربي﴾ [الإسراء: ٨٥] عند معظم السلف الصالح وبينه وبين البدن علاقة يعبر عنها بالروح الحيواني وهو بخار لطيف إذا فسد وخرج عن الصلاحية لأن يكون علاقة تخرج الروح عن البدن خروجاً اضطرارياً وتزول الحياة، وما دام باقياً على الوجه الذي يصلح به لأن يكون علاقة تبقي الروح والحياة، وهذا الجسم المعبر عنه بالروح على ما قال الإمام القرطبي في التذكرة مما له أول وليس له آخر بمعنى أنه لا يفنى وإن فارق البدن المحسوس، وذكر فيها أن من قال إنه يفنى فهو ملحد، وقيل هو هذا الهيكل المحسوس مع النفس الناطقة التي هي جوهر مجرد بل هو الإنسان حقيقة على ما صرح به بعضهم، وإلى إثبات هذا الجوهر ذهب الحليمي والغزالي والراغب وأبو زيد الدبوسي ومعمر من قدماء المعتزلة وجمهور متأخري الإمامية وكثير من الصوفية وهو الروح الأمرية وليست داخلة البدن ولا خارجة عنه فنسبتها إليه نسبة الله سبحانه وتعالى إلى العالم وهي بعد حدوثها الزماني عندهم لا تفنى أيضاً.

ورد هذا المذهب ابن القيم في كتاب الروح بما لا مزيد عليه، وكما اختلفوا في ذلك اختلفوا في أن البدن هل يتفرق بعد الموت فقط أم يتفرق وتعدم ذاته بكل قال بعض، ولعل من قال بالثاني استثنى عجب الذنب لصحة خبر استثنائه من البلى، وكل هؤلاء المختلفين اتفقوا على القول بالحشر الجسماني إلا أن منهم من قال بالحشر الجسماني فقط بمعنى أنه لا يحشر إلا جسم إذ ليس وراء الجسم عندهم جوهر مجرد يسمى بالنفس الناطقة، ومنهم من قال بالحشر الجسماني والحشر الروحاني معاً بمعنى أنه يحشر الجسم متعلقاً به أمر ليس بجسم هو النفس الناطقة وكل من أصحاب هذين القولين منهم من يقول بأن البدن إذا تفرق تجمع أجزاؤه يوم القيامة للحشر وتقوم فيها الروح أو تتعلق كما في الدنيا بل القيام أو التعلق هناك أتم إذ لا انقطاع له أصلاً بعد تحققه فالحشر عند هؤلاء بجمع الأجزاء المتفرقة وعود قيام الروح أو تعلقها إليها، والمراد بالأجزاء الأجزاء الأصلية وهي أجزاء البدن حال نفخ الروح فيه في الدنيا لا الذرة التي أخذ عليها العهد يوم ﴿ ألست بربكم ﴾ [الأعراف: ١٧٢] كما قيل: والله تعالى قادر على حفظها من التحلل والتبدل وكذا على حفظها من ان تكون أجزاء بدن آخر وإن تفرقت في أقطار الأرض واختلطت بالعناصر، وقيل: يجوز أن تكون الأجزاء الأصلية يقبضها الملك بإذن الله تعالى عند حضور الموت فلا يتعلق بها الأكل ولا تختلط بالتراب ولا يحصل منها نماء نبات أو حيوان؛ وهو مجرد احتمال لا دليل عليه بل مخالف لقوله سبحانه: ﴿**قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة**﴾ فإنه ظاهر في أن المحشور أجزاء رميمة مخلوطة بالتراب، ويجوز أن تكون الأجزاء الأصلية هي الأجزاء الترابية التي ينثرها الملك في الرحم على المني كما ورد في الحديث الصحيح وهو لا ينثر تراباً واحداً مرتين ويحشر البدن بعد الجمع على أكمل حالاته كما يشير إليه قوله عليه الصلاة والسلام «يحشر الناس حفاة عراة غرلاً» ثم يزاد في أجساد أهل الجنة فيكون أحدهم كآدم عليه السلام طولاً وعرضاً، وكذا يزاد في أجساد أهل النار خلافاً للمعتزلة حتى أن سن أحدهم لتكون كجبل أحد، وجاء كل من الزيادتين في الحديث فالمقطوع أو المجذوع مثلاً لا يحشر إلا كاملاً كما كان قبل القطع أو الجذع ومن خلق في الدنيا بأربع أيد مثلاً يحشر على ما هو المعتاد المعروف في بني نوعه وكذا من خلق بلا يد أو رجل مثلاً، والقول بأنه يلزم تعذيب جسد لم يعص وترك تعذيب جسد عصى ناشيء عن غفلة عظيمة إذ المعذب إنما هو الروح وهو الذي عصى ولا يعقل العصيان والتعذيب لنفس الجسد وحرقه بالنار ليس تعذيباً له نفسه وإلا لكان حرق الخشب تعذيباً له بل هو وسيلة إلى تعذيب الروح وهذا كما لو جعل شخص في صندوق حديد مثلاً ووضع في النار أو لف في ثوب وضرب بالسياط حتى

تخرق الثوب فالروح بمنزلة هذا الشخص والجسد بمنزلة الصندوق أو الثوب، وعلى القول بأن لكل شيء حياة لائقة به لا يلزم التعذيب أيضاً إذ ليس كل حي تؤلمه النار، واعتبر ذلك بالسمند وبالنعامة وكذا بخزنة جهنم وحياتها وعقاربها والعياذ بالله عز وجل. ومنهم من يقول: إن البدن يعدم لا أنه تتفرق أجزاؤه فقط ثم يعاد للحشر بعينه، ومنهم من يقول يعدم ثم يخلق يوم القيامة مثله فتقوم فيه الروح أو تتعلق به. واستدل للقول الأول بقوله تعالى: ﴿**قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة**﴾ فإنه ظاهر في أن العظام لا تعدم ذواتها في الخارج ولا يكاد يفهم من الرميم أكثر من تفرق الأجزاء وكأن المنكرين استبعدوا جمعها فأشير إلى دفع استبعادهم بأن الإنشاء أبعد وقد وقع ثم دفع ما عسى يتوهم من أن اختلاط الأجزاء بعد تفرقها وعودها إلى عناصرها يوجب عدم تميزها فلا يتيسر جمعها بقوله سبحانه: ﴿**وهو بكل خلق عليم**﴾ ثم أشير إلى دفع ما يتوهم من أن الإنشاء كان تدريجياً نقلت فيه الأجزاء من حالة إلى حالة حتى حصل استعدادها للحياة ومناسبتها للروح ولا كذلك ما يكون يوم القيامة فلا مناسبة بين الأجزاء التي تجمع وبين الروح والحياة فلا يلزم من صحة الإنشاء صحة الحشر بقوله تعالى: ﴿**الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً**﴾ وحيث كان هذا معروفاً بينهم يشاهده الكبير والصغير منهم أشار سبحانه إلى الدفع به وإلا فإنشاؤه تعالى لما يكون بالتولد من الحيوان كالفأر والذباب دافع لذلك.

ومن الناس من زعم أن ما يكون قبيل الساعة من الزلازل وإنزال مطر كمني الرجال ونحو ذلك لتحصيل استعداد للروح في تلك الأجزاء، وهو مما لا يحتاج إلى التزامه، وكذا استدل لذلك القول بما أرشد إليه إبراهيم عليه السلام حين قال ﴿رب أرني كيف تحيي الموتى﴾ [البقرة: ٢٦٠] وبقوله تعالى: ﴿أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوي بنانه﴾ [القيامة: ٣، ٤] إلى غير ذلك من الآيات وفي الأخبار ما يقتضيه أيضاً، واستدل لدعوى أن البدن يعدم ذاتاً في القول الثاني بقوله سبحانه: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ [القصص: ٨٨] وقوله تعالى: ﴿كل من عليها فان﴾ [الرحمن: ٢٦] ورد بأنه يجوز أن يكون التفرق هلاكاً بل قال بعض المحققين: إن معنى الآية كل شيء ليس بموجود في الحال في حد نفسه إلا ذات الواجب تعالى بناء على أن وجود الممكن مستفاد من الغير فلا وجود فيه مع قطع النظر عن الغير بخلاف وجود الواجب تعالى فإنه من ذاته سبحانه بل عين ذاته، ويقال نظير ذلك في الآية الثانية لو سلم دخول البدن في عموم من، واستدل لدعوى أنه يخلق يوم القيامة مثله في القول الثالث بقوله تعالى: ﴿**أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى**﴾ وأجيب بأن المراد مثلهم في الصغر والقماة على ما سمعت فيما تقدم، ولا يراد أنه تعالى قادر على أن يخلق يوم القيامة مثل أبدانهم التي كانت في الدنيا ويعيد أرواحهم إليها إذ لا يكاد يفهم هذا من الآية ولا داعي لالتزام القول بأن الحشر بخلق مثل البدن السابق وإن قيل بأن ذلك البدن تعدم ذاته في الخارج. ومن الناس من توهم وجوب التزامه إن قيل بذلك لاستحالة إعادة المعدوم.

واستدل على الاستحالة بأنه لو أعيد لزم تخلل العدم بين الشيء ونفسه وهو محال.

ورد بناء على أن الوقت ليس من المشخصات المعتبرة في الوجود بأنا لا نسلم أن التخلل هاهنا محال لأن معناه أنه كان موجوداً زماناً ثم زال عنه الوجود في زمان آخر ثم اتصف بالوجود في الزمان الثالث وهو في الحقيقة تخلل العدم وقطع الاتصال بين زماني الوجود ولا استحالة فيه لوجود الطرفين المتغايرين بالذات إنما المحال تخلل العدم بين ذات الشيء ونفسه بمعنى قطع الاتصال بين الشيء ونفسه بأن يكون الشيء موجوداً ولم يكن نفسه موجوداً ثم يجد نفسه وهاهنا ليس كذلك فإن الشيء وجد مع نفسه في الزمان الأول ثم اتصف مع نفسه بالعدم في الزمان الآخر

ثم اتصف بالوجود مع نفسه في الزمان الثالث فلم يتحقق قطع الاتصال بين الشيء ونفسه في زمان من الأزمنة وهل هذا إلا كلبس شخص ثوباً معيناً ثم خلعه ثم لبسه. واستدل أيضاً بأنه لو جاز إعادة المعدوم بعينه لجاز اعادته مع مثله من كل وجه واللازم باطل لأن المتماثلين إما أن يكون أحدهما معاداً دون الآخر وذلك باطل مستلزم للتحكم والترجيح بلا مرجح. وإما أن يكونا معادين وهو أيضاً باطل مستلزم لاتحاد الاثنين، وإما أن لا يكون شيء منهما معاداً وهو أيضاً باطل مستلزم خلاف المفروض إذ قد فرض كون أحدهما معاداً، وفيه أنه لا يتم إلا بإثبات فقدان الذات وبطلان الهوية فيما بين الوجودين السابق واللاحق فإنه مدار لزوم التحكم، ويجوز أن يقال: الشيء إذا عدم في الخارج بقي في نفس الأمر بحسب وجوده الذهني فيحفظ وحدته الشخصية بحسب ذلك الوجود كما لو كان متميزاً ثابتاً في العدم ثبوتاً منفكاً عن الوجود الخارجي كما ذهب إليه المعتزلة وموافقوهم، وزعم أن وحدته الشخصية غير محفوظة في الذهن إذ لا وحدة بدون الوجود ولا وجود بدون التشخص سواء كان وجوداً خارجياً أو ذهنياً، والهوية الذهنية إنما تكون موجودة في الذهن بمشخصاتها الذهنية وهي بتلك المشخصات ليست هوية خارجية وإلا لزم اتصاف الهوية الخارجية بالعوارض المختصة بالوجود الذهني وهو ضروري البطلان بل بشرط تجريدها عنها، وقولهم باتحادها معها بمعنى أنها بعد التجريد عينها فليست إياها مطلقاً بالفعل يتجه عليه أنه ليس معنى تجريد الهوية عن مشخصاتها جعلها خالية عنها في الواقع بل معناه قطع النظر عنها وعدم اعتبارها ولا يلزم من عدم اعتبارها اعتبار عدمها فضلاً عن عدمها في الواقع وقطع النظر لا يمنع من الاتحاد في الواقع، والقول بأن قولنا: هذا معاد وهذا مبدأ قضية شخصية خارجية يتوقف صدقها على وجود الموضوع في الخارج لا ذهنية يكفي في صدقها وجود الموضوع في الذهن فقط فلا بد من انحفاظ الوحدة في الخارج ولا يكفي انحفاظها في الذهن يتجه عليه أن صدق الحكم الذهني كاف في اندفاع التحكم فتدبر، وقيل: كما أن المعدوم موجود في الذهن كذلك المبتدأ المفروض موجود فيه أيضاً فليست نسبة الموجود الثاني إلى المعدوم السابق أولى من نسبته إلى المبتدأ المفروض. وتعقب بأن فيه بحثاً، أما على مذهب الفلاسفة فلأن صورة المعدوم السابق مرتسمة في القوى المنطبعة للأفلاك عندهم بناء على أن صور جميع الحوادث الجسمانية منطبعة فيها بزعمهم فله صورة خيالية جزئية محفوظة الوحدة الشخصية بعد عدمه بخلاف المستأنف فإنه ليس له تلك الصورة قبل وجوده بصورته الجزئية فإذا وجد بتلك الصورة الجزئية كان معاداً وإذا وجد بالصورة الكلية فإن مستأنفاً، وأما على مذهب الأشاعر من المتكلمين فلأن للمعدوم أيضاً صورة جزئية حاصلة بتعلق صفة البصر من الموجد تعالى شأنه وليس تلك الصورة للمستأنف وجوده فإنها وإن كانت جزئية حقيقية أيضاً إلا أنها لم تترتب على تعلق صفة البصر، ولا شك أن المترتب على تعلق صفة البصر أكمل من غير المترتب عليه فبين الصورتين تمايز واضح، وإذا انحفظ وحدة الموجود الخارجي بالصورة الجزئية الخيالية لنا فانحفاظها بالصورة الجزئية الحاصلة له سبحانه بواسطة تعلق البصر بالطريق الأولى، والقول بأن نسبة الصورة الخيالية وما هو بمنزلتها إلى كل من المعاد والمستأنف سواء أيضاً فتكون الوحدة المحفوظة نوعية لا شخصية يلزم عليه أن لا تكون الصورة الخيالية جزئية بل كلية وهو خلاف ما صرحوا.

واستدل أيضاً بأنه لو جاز إعادة المعدوم بعينه لما حصل القطع بحدوث شيء إذ يجوز أن يكون لكل ما نعتقده حادثاً وجود سابق يعدم تارة ويعاد أخرى واللازم باطل باتفاق العقلاء. وتعقب بأن التجويز العقلي لا ينكر إلا أن الأصل عدم الوجود السابق وبه يحصل نوع من العلم، ولعل ذلك من قبيل علمنا بأن جبل أحد لا ينقلب ذهباً مع تجويز العقل انقلابه وبالجملة أدلة استحالة إعادة المعدوم غير سليمة من القوادح كما لا يخفى على من راجع المطولات من كتب

الكلام، وقد أشير فيما تقدم من الآيات إلى دفع شبهة عدم انحفاظ الوحدة الشخصية بقوله تعالى ﴿**وهو بكل خلق عليم**﴾ والذي يترجح من هذه المذاهب أن الحشر يجمع الأجزاء الأصلية الباقية من أول العمر إلى آخره وهي إما أجزاء عنصرية أكثرها ترجع إلى التراب وتختلط به كما تختلط سائر الأجزاء بعناصرها أو أجزاء ترابية فقط على ما سمعت فيما تقدم غير بعيد، وهذا هو الذي ينبغي أن يعول عليه إذ حديث العناصر الأربعة وتركب البدن منها لا سيما حديث عنصر النار لم يصح فيه شيء من الشارع ﷺ ولم يذكر في كتب السلف بل هو شيء ولع فيه الفلاسفة، على أن أصحاب الفلسفة الجديدة نسمعهم ينكرون كرة النار التي قال بها المتقدمون فالأجزاء الأصلية بعد أن تتفرق وتصير تراباً يجمعها الله تعالى حيث كانت وهو سبحانه بها عليم ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾ [الملك: ١٤] وهذا إن ضم إليه القول بإعادة الصورة التي هي جزء جوهري من الجسم عند القائلين بتركبه منها ومن الهيولى أو العوارض المختصة بالأنواع التي هي جزء من أفراد النوع كالصورة النوعية الجوهرية كما هو مذهب النافين لتركب الجسم من الهيولى والصورة من المتكلمين يتوقف القول به على جواز إعادة المعدوم وإذا لم يضم إليه ذلك بل اكتفى بالقول يجمع الأجزاء الأصلية العنصرية وتشكيلها بشكل مثل الشكل الأول وتحليتها بعوارض مشابهة للعوارض السابقة لم يتوقف القول به على ذلك أصلاً والمغايرة في الشكل وعدم اتحاد العوارض بالذات مما لا يضر في كون المحشور هو المبدأ شرعاً وعرفاً، ولا يلزم على ذلك التناسخ المصطلح كما لا يخفى. وفي ابكار الأفكار للآمدي بعد التفصيل المشبع بذكر الآيات والأحاديث الدالة على وقوع المعاد الجسماني والأدلة السمعية في ذلك لا يحويها كتاب ولا يحصرها خطاب وكلها ظاهرة في الدلالة على حشر الأجساد ونشرها مع إمكان ذلك في نفسه فلا يجوز تركها من غير دليل لكن هل الإعادة للأجسام بإيجادها بعد عدمها أو بتأليف أجزائها بعد تفرقها فقد اختلف فيه، والحق إمكان كل واحد من الأمرين والسمع موجب لأحدهما من غير تعيين. وبتقدير أن تكون الإعادة للأجسام بتأليف أجزائها بعد تفرقها فهل تجب إعادة عين ما تقضى ومضى من التأليفات في الدنيا أو أن الله تعالى يجوز أن يؤلفها بتأليف آخر فذهب أبو هاشم إلى المنع من إعادتها بتأليف آخر مصيراً منه إلى أن جواهر الأشخاص متماثلة وإنما يتميز كل واحد من الأجزاء بتعيينه وتأليفه الخاص فإذا لم يعد ذلك التأليف الخاص به فذلك الشخص لا يكون هو العائد بل غيره وهو مخالف حينئذ لما ورد به السمع من حشر أجساد الناس على صورهم، ومذهب من عداه من أهل الحق أن كل واحد من الأمرين جائز عقلاً ولا دليل على التعيين من سمع وغيره، وما قيل من أن تعين كل شخص إنما هو بخصوص تأليفه غير مسلم بل جاز أن يكون بلونه أو بعض آخر مع التأليف. ومذهب أبي هاشم أنه لا تجب إعادة غير التأليف من الأعراض فما هو جوابه عن غير التأليف فهو جواب لنا في التأليف وما ورد من حشر الناس على صورهم ليس فيه ما يدل على إعادة عين ما تقضى من التأليف ولا مانع أن يكون الإعادة بمثل ذلك التأليف لا عينه اهـ.

وزعم الإمام إجماع المسلمين على المعاد بجمع الأجزائية بعد افتراقها وليس بذاك لما سمعت من الخلاف في كيفيته وهو مذكور في المواقف وغيره. ومسألة إعادة الأعراض أكثر خلافاً من مسألة إعادة الجواهر فذهب معظم أهل الحق إلى جواز إعادتها مطلقاً حتى أن منهم من جوز إعادتها في غير محالها. والمعتزلة اتفقوا على جواز إعادة ما كان منها على أصولهم باقياً غير متولد واختلفوا في جواز إعادة ما لا بقاء له كالحرارة والأصوات والارادات فذهب الأكثرون منهم إلى المنع من اعادتها وجوزها الأقلون كالبلخي وغيره. وذهب إلى عدم جواز إعادة المعدوم مطلقاً من المسلمين أبو الحسن البصري وبعض الكرامية. ومن الناس من خص المنع فيما عدم ذاتاً ووجوداً وجوز فيما عدم وجوداً. وإلى القول بالمعاد الجسماني ذهب اليهود والنصارى على ما نص عليه الدواني لكن ذكر الإمام في

المحصل أن سائر الأنبياء سوى نبينا ﷺ لم يقولوا إلا بالمعاد الروحاني.

وقال المحقق الطوسي في تلخيصه: أما الأنبياء المتقدمون على نبينا ﷺ فالظاهر من كلام أممهم أن موسى عليه السلام لم يذكر المعاد البدني ولا أنزل عليه في التوراة لكن جاء ذلك في كتب الأنبياء الذين جاؤوا بعده كحزقيل وشعيا عليهما السلام ولذا أقر اليهود به، وأما الإنجيل فالأظهر أن المذكور فيه المعاد الروحاني وهو مخالف لما سمعت عن الإمام، ويخالفهما ما قاله حجة الإسلام الغزالي في كتابه الموسوم بالمضنون به على غير أهله من أن في التوراة أن أهل الجنة يمكثون في النعيم خمسة عشر ألف سنة ثم يصيرون ملائكة وأن أهل النار يمكثون بها كذا وأزيد ثم يصيرون شياطين فإنه ظاهر في أن موسى عليه السلام ذكر المعاد الجسماني ونزل عليه في التوراة، والحق أن الأناجيل مملوءة مما يدل ظاهراً على أن الإنسان يحشر نفساً وجسماً وأما التوراة فليس ما ذكر فيها على سبيل التصريح على ما نقل لي بعض المطلعين من مسلمي أهل الكتاب على ذلك وأنكره الفلاسفة الإلهيون وقالوا بالمعاد الروحاني فقط، وهذا الإنكار مبني إما على زعم استحالة اعادة المعدوم فيه ما فيه أو على استحالة عدم تناهي الأبعاد فإن منهم من قال: الإنسان قديم بالنوع والنفوس الناطقة غير متناهية كالأبدان فلو قيل بالحشر الجسماني يلزم اجتماع الأبدان الغير المتناهية في الوجود إذ لا بد لكل نفس من بدن مستقل فيلزم بعد غير متناه لتجتمع فيه تلك الأبدان الغير المتناهية. وقال بعضهم: إن الإنسان افراده غير متناهية والعناصر متناهية فأجزاؤها لا تفي بتلك الأبدان فكيف تحشر. وتعقب بأن القدم النوعي للإنسان وعدم التناهي لأفراده مما لا يتم لهم عليه برهان.

وقال ابن الكمال: بناء استحالة الحشر الجسماني على استحالة عدم تناهي الأبعاد وهم سبق إليه وهم بعض أجلة الناظرين وليس الأمر كما توهم فإن حشر الأجساد اللازم على تقدير وقوع المعاد الجسماني هو حشر المكلفين من المطيع المستحق للثواب والعاصي المستحق للعقاب لا حشر جميع أفراد البشر مكلفاً كان أو غيره فإنه ليس من ضروريات الدين لأن الأخبار فيه لم تصل إلى حد التواتر ولم ينعقد عليه الإجماع وقد نبه عليه المحقق الطوسي في التجريد حيث قال: والسمع دل عليه ويتأول في المكلف بالتفريق، وقال الشارح: يعني لا إشكال في غير المكلفين فإنه يجوز أن ينعدم بالكلية ولا يعاد وأما بالنسبة إلى المكلفين فإنه يتأول العدم بتفريق الأجزاء.

وفي تلخيص المحصل أيضاً حيث قال: وقال القائلون بإمكان إعادة المعدوم أن الله تعالى يعدم المكلفين ثم يعيدهم ونبه على ذلك أيضاً الآمدي في ابكار الأفكار حيث قرر الخلاف في إعادة المكلف ولا خفاء في أن عدم تناهي جميع أفراد البشر لا يستلزم عدم تناهي المكلفين منهم ليحتاج أمر حشرهم إلى الأبعاد الغير المتناهية اهـ.

والحق الطعن في قولهم بالقدم النوعي وعدم تناهي أفراد الإنسان وبرهان التطبيق متكفل عندنا بإبطال الغير المتناهي اجتمعت أجزاؤه في الوجود أم لم تجتمع ترتبت أم لم تترتب، وأما قصر الحشر على المكلفين دون غيرهم من المجانين والصغار والذين لم تبلغهم الدعوة ونحوهم فليس بشيء، والأخبار في ذلك كثيرة ولعلها من قبيل المتواتر المعنوي على أنها لو لم تكن كذلك لا داعي إلى عدم اعتبارها والقول بخلاف ما تدل عليه كما لا يخفى، وذهب القدماء من الفلاسفة الطبيعيين إلى عدم ثبوت شيء من الحشر الجسماني والحشر الروحاني، ويحكى ذلك عن التناسخية ما عدا اليهود والتناسخ عندهم غير مستمر بل يقع للنفس الواحدة ثلاث مرات على ما قيل.

وحكي عن جالينوس التوقف في أمر الحشر فإنه قال: لم يتبين لي أن النفس هل هي المزاج الذي ينعدم عند الموت فيستحيل إعادتها أو هي جوهر باق بعد فساد البنية فيمكن المعاد، والمشركون في شك منه مريب لذا ترى

كلامهم مضطرباً فيه، والمسلمون مجمعون على وقوعه إلا أنهم مختلفون كما سمعت في كيفيته وكذا هم مختلفون في وجوبه سمعاً أو عقلاً، فأهل السنة على وجوبه سمعاً مطلقاً، والمعتزلة على أنه للمكلفين واجب عقلاً لوجوب الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية عندهم وكل من الأمرين يتوقف على الحشر، وفيه نظر والله تعالى أعلم. ﴿**وقد اشتملت**﴾ هذه السورة الكريمة على تقرير مطالب علية وتضمنت أدلة جليلة جلية ألا ترى أنه تعالى أقسم على كونه ﷺ أكمل الرسل وأن طريقه أوضح السبل وأشار سبحانه إلى أن المقصود ما ذكر بقوله تعالى ﴿**لتنذر**﴾ الخ ثم بينه إجمالاً أنه اتباع الذكر وخشية الرحمن بالغيب وتممه بضرب المثل مدمجاً فيه التحريض على التمسك بحبل الكتاب والمنزل عليه وتفضيلهما على الكتب والرسل والتنبيه عليه ثانياً بأنه عبادة من إليه الرجعى وحده ثم أخذ في بيان المقدمات بذكر الآيات وأوثر منها الواضحات الدالة على العلم والقدرة والحكمة والرحمة وضمن فيه أن العبادة شكر المنعم وتلقي النعمة بالصرف في رضاه والحذر من الركون إلى من سواه ثم في بيان المتمم بذكر الوعد والوعيد بما ينال في المعاد وأدرج فيه حديث من سلك ومن ترك وذكر غايتهما ولخص فيه أن الصراط المستقيم هو عبادة الله تعالى بالإخلاص عن شائبتي الهوى والرياء حيث قدم على الأمر بعبادته تعالى التجنب عن عبادة الشيطان وضمن فيه أن أساسها التوحيد وكما أنه ذكر الآيات لئلا يكون الكلام خطابياً في المقدمات ختم بالبرهان على الإعادة ليكون على منواله في المتممات وجعل سبحانه ختام الخاتمة أنه عز وجل لا يتعاظمه شيء ولا ينقص خزائنه عطاء وأنه لا يخرج عن ملكته من قربه قبول أو بعده إباء تحقيقاً لكل ما سلف على الوجه الأتم، ولما كان كلاماً صادراً عن مقام العظمة والجلال وجب أن يراعى فيه نكتة الالتفات في قوله تعالى ﴿**وإليه ترجعون**﴾ ليكون إجمالاً لتوضيح التفصيل كذا قرره صاحب الكشف والله تعالى يقول الحق وهو يهدي السبيل.

«ومن باب الاشارة» قيل إن قوله سبحانه ﴿**يس**﴾ إشارة إلى سيادته عليه الصلاة والسلام على جميع المخلوقات فالسيد المتولي للسواد أي الجماعة الكثيرة وهي هاهنا جميع الخلق فكأنه قيل: يا سيد الخلق وتوليته عليه الصلاة والسلام عليهم لأنه الواسطة العظمى في الإفاضة والامداد؛ وفي الخبر: الله تعالى المعطي وأنا القاسم فمنزلته ﷺ من العالم بأسره بمنزلة القلب من البدن فما ألطف افتتاح قلب القرآن بقلب الأكوان وفي السين بيناتها وزبرها أسرار لا تحصى وكذا في مجموع ﴿**يس والقرآن**﴾ قد يكون إشارة إليه ﷺ فقد ذكر الصوفية أنه يشار به إلى الإنسان الكامل وكذا الكتاب المبين وعلى ذلك جاء قول الشيخ الأكبر قدس سره:

أنا القرآن والسبع المثاني ... وروح الروح لا روح الأواني

ولا أحد أكمل من النبي عليه الصلاة والسلام، وطبق بعضهم قصة أهل انطاكية على ما في الأنفس بجعل القرية إشارة إلى القلب وأصحابها إشارة إلى النفس وصفاتها والاثنين إشارة إلى الخاطر الرحماني والإلهام الرباني والثالث المعزز به إشارة إلى الجذبة والرجل الجائي من أقصى المدينة إشارة إلى الروح، وطبق كثيراً من آيات هذه السورة على هذا الطرز، وقيل: في قوله سبحانه ﴿**طائركم معكم**﴾ إنه إشارة إلى استعدادهم الشيء الذي طار بهم عنقاء مغربة:

إلى حيث ألقت رحلها أم قشعم

وقيل: في ﴿**أصحاب الجنة**﴾ في قوله تعالى: ﴿**إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون**﴾ إنه إشارة إلى طائفة من المؤمنين كان الغالب عليهم في الدنيا طلب الجنة ولذا أضيفوا إليها وهم دون أهل الله تعالى وخاصته الذين لم يلتفتوا إلى شيء سواه عز وجل فأولئك مشغولون بلذائذ ما

طلبوه وهؤلاء جلساء الحضرة المشغولون بمولاهم جل شأنه المتنعمون بوصاله ومشاهدة جماله وفرق بين الحالين وشتان ما بين الفريقين، ولذا قيل: أكثر أهل الجنة البله فافهم الإشارة.

والشيطان في قوله تعالى ﴿**ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان**﴾ إشارة إلى كل ما يطاع ويذل له غير الله عز وجل كائناً ما كان وعداوته لما أنه سبب الحجاب عن رب الأرباب، وفي قوله تعالى ﴿**فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون**﴾ إشارة إلى أنه لا ينبغي الاكتراث بأذى الأعداء والالتفات إليه فإن الله تعالى سيجازيهم عليه إذا أوقفهم بين يديه، هذا ونسأل الله تعالى أن يحفظنا من شر الأشرار وأن ينور قلوبنا بمعرفته كما نور قلوب عباده الأبرار ونصلي ونسلم على حبيبه قلب جسد الأعيان وعلى آله وصحبه ما دامت سورة يس قلب القرآن.

(٣٧) سورة الصافات مكية
وآياتها اثنتان وثمانون ومائة

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ والصافات صفاً ، فالزاجرات زجراً ، فالتاليات ذكراً ، إن إلهكم لواحد ، رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق ﴾ وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة (والصافات صفاً) بإدغام التاء فيما يليه ، وكذلك فى قوله (فالزاجرات زجراً ، فالتاليات ذكراً) والباقون بالإظهار ، وقال الواحدى رحمه الله : إدغام التاء فى الصاد حسن لمقاربة الحرفين ، ألا ترى أنهما من طرف اللسان وأصول الثنايا يسمعان فى الهمس ، والمدغم فيه يزيد على المدغم بالإطباق والصفير ، وإدغام الأنقص فى الأزيد حسن ، ولا يجوز أن يدغم الأزيد صوتاً فى الأنقص ، وأيضاً إدغام التاء فى الزاى فى قوله (فالزاجرات زجراً) حسن لأن التاء مهموسة والزاى مجهورة وفيها زيادة صفير كما كان فى الصاد ، وأيضاً حسن إدغام التاء فى الذال فى قوله (فالتاليات ذكراً) لاتفاقهما فى أنهما من طرف اللسان وأصول الثنايا ، وأما من قرأ بالإظهار وترك الإدغام فذلك لاختلاف المخارج والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى هذه الأشياء الثلاثة المذكورة المقسم بها يحتمل أن تكون صفات ثلاثة لموصوف واحد ، ويحتمل أن تكون أشياء ثلاثة متباينة ، أما على التقدير الأول ففيه وجوه (الأول) أنها صفات الملائكة ، وتقديره أن الملائكة يقفون صفوفاً . إما فى السموات لأداء العبادات كما أخبر الله عنهم أنهم قالوا (وإنا لنحن الصافون) وقيل إنهم يصفون أجنحتهم فى الهواء يقفون منتظرين وصول أمر الله إليهم ، ويحتمل أيضاً أن يقال معنى كونهم صفوفاً أن لكل واحد منهم مرتبة معينة ودرجة معينة فى الشرف والفضيلة أو فى الذات والعلية وتلك الدرجة المرتبة باقية غير متغيرة وذلك يشبه الصفوف .

وأما قوله (فالزاجرات زجراً) فقال الليث يقال زجرت البعير فأنا أزجره زجراً إذا حثثته ليمضى ، وزجرت فلاناً عن سوء فانزجر أى نهيته فانتهى ، فعلى هذا الزجر للبعير كالحث وللانسان

كالنهى ،إذا عرفت هذا فنقول فى وصف الملائكة بالزجر وجوه (الأول) قال ابن عباس يريد الملائكة الذى وكلوا بالسحاب يزوجرونها بمعنى أنهم يأتون بها من موضع إلى موضع (الثانى) المراد منه أن الملائكة لهم تأثيرات فى قلوب بنى آدم على سبيل الإلهامات فهم يزجرونهم عن المعاصى زجراً (الثالث) لعل الملائكة أيضاً يزجرون الشياطين عن التعرض لبنى آدم بالشر والإيذاء ، وأقول قد ثبت فى العلوم العقلية أن الموجودات على ثلاثة أقسام مؤثر لا يقبل الأثر وهو الله سبحانه وتعالى وهو أشرف الموجودات ومتأثر لا يؤثر وهم عالم الأجسام وهو أخس الموجودات وموجود يؤثر فى شىء ويتأثر عن شىء آخر وهوعالم الأرواح وذلك لأنها تقبل الأثر عن عالم كبرياء الله ، ثم إنها تؤثر فىعالم الأجسام ، واعلم أن الجهة التى باعتبارها تقبل الأثرمن عالم كبرياء الله غير الجهة التى باعتبارها تستولى على عالم الأجسام وتقدر على التصرف فيها وقوله (فالتاليات ذكراً) اشارة إلى الأشرف من الجهة التى باعتبارها تقوى على التأثير فى عالم الأجسام إذا عرفت هذا فقوله (والصافات صفا) إشارة إلى وقوفها صفاً صفاً فى مقام العبودية والطاعة بالخشوع والخضوع وهى الجهة التى باعتبارها تقبل تلك الجواهر القدسية أصناف الأنوار الإلهية والكمالات الصمدية وقوله تعالى (فالزاجرات زجراً) إشارة إلى تأثير الجواهر الملكية فى تنوير الأرواح القدسية البشرية وإخراجها من القوة إلىالفعل ، وذلك لما ثبت أنهذه الأرواح النطقية البشرية بالنسبة إلى أرواح الملائكة كالقطرة بالنسبة إلى البحر وكالشعلة بالنسبة إلى الشمس ، وأن هذه الأرواح البشرية إنما تنتقل من القوة إلى الفعل فى المعارف الإلهية والكمالات الروحانية بتأثيرات جواهر الملائكة ونظيره قوله تعالى (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده) وقوله (نزل به الروح الأمين على قلبك) وقوله تعالى (فالملقيات ذكراً) إذا عرفت هذا فنقول فى هذه الآية دقيقة أخرى وهى أن الكمال المطلق للشىء إنما يحصل إذا كان تاماً وفوق التام والمراد بكونه تاماً أن تحصل جميع الكمالات اللائقة به حصولا بالفعل والمراد بكونه فوق التام أن تفيض منه أصناف الكمالات والسعادات على غيره ، ومن المعلوم أن كونه كاملا فى ذاته مقدم على كونه مكملا لغيره ، إذا عرفت هذا فقوله (والصافات صفا) إشارة إلى استكمال جواهر الملائكة فى ذواتها وقت وقوفها فى مواقف العبودية وصفوف الخدمة والطاعة وقوله تعالى (فالزاجرات زجراً) إشارة إلى كيفية تأثيراتها فى إزالة ما لا ينبغى عن جواهر الأرواح البشرية وقوله تعالى (فالتاليات ذكراً) إشارة إلى كيفية تأثيراتها فى إفاضة الجلايا القدسية والأنوار الإلهية على الأرواح الناطقة البشرية ، فهذه مناسبات عقلية واعتبارات حقيقية تنطبق عليها هذه الألفاظ الثلاثة ، قال أبو مسلم الأصفهانى لا يجوز حمل هذه الألفاظ على الملائكة لأنها مشعرة بالتأنيث والملائكة مبرءون عن هذه الصفة ، والجواب من وجهين (الأول) أن الصافات جمع الجمع فانه يقال جماعة صافة ثم يجمع على صافات (والثانى) أنهم مبرءون عن التأنيث المعنوى ،أما التأنيث فى

اللفظ فلا ، وكيف وهم يسمون بالملائكة مع أن علامة التأنيث حاصلة فى هذا الوجه (الثانى) أن تحمل هذه الصفات على النفوس البشرية الطاهرة المقدسة المقبلة على عبودية الله تعالى الذين هم ملائكة الأرض وبيانه من وجهين (الأول) أن قوله تعالى (والصافات صفاً) المراد الصفوف الحاصلة عند أداء الصلوات بالجماعة وقوله (فالزاجرات زجراً) إشارة إلى قراءة أعوذ بالله من الشيطان الرجيم كأنهم بسبب قراءة هذه الكلمة يزجرون الشياطين عن إلقاء الوساوس فى قلوبهم فى أثناء الصلاة وقوله (فالتاليات ذكراً) إشارة إلى قراءة القرآن فى الصلاة وقيل (فالزاجرات زجراً) إشارة إلى رفع الصوت بالقراءة كأنه يزجر الشيطان بواسطة رفع الصوت ، روى أنه ﷺ طاف على بيوت أصحابه فى الليالى فسمع أبابكر يقرأ بصوت منخفض وسمع عمر يقرأ بصوت رفيع فسأل أبا بكر لم تقرأ هكذا ؟ فقال المعبود سميع عليم وسأل عمر لم تقرأ هكذا فقال أوقظ الوسنان وأطرد الشيطان (الوجه الثانى) فى تفسير هذه الألفاظ الثلاث فى هذه الآية أن المراد من قوله (والصافات صفاً) الصفوف الحاصلة من العلماء المحققين الذين يدعون إلى دين الله تعالى والمراد من قوله (والزاجرات زجراً) اشتغالهم بالزجر عن الشبهات والشهوات ، والمراد من قوله تعالى (فالتاليات ذكرا) اشتغالهم بالدعوة إلى دين الله والترغيب فى العمل بشرائع الله (الوجه الثالث) فى تفسير هذه الألفاظ الثلاثة أن نحملها على أحوال الغزاة والمجاهـــدين فى سبيل الله فقوله (والصافات صفاً) المراد منه صفوف القتال لقوله تعالى (إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً) وأما (الزاجرات زجراً) فالزجرة والصيحة سواء ، والمراد منه رفع الصوت بزجر الخيل ، وأما (التاليات ذكراً) فالمراد اشتغال الغزاة وقت شروعهم فى محاربة العدو بقراءة القرآن وذكر الله تعالى بالتهليل والتقديس (الوجه الرابع) فى تفسير هذه الألفاظ الثلاثة أن نجعلها صفات لآيات القرآن فقوله (والصافات صفاً) المراد آيات القرآن فانها أنواع مختلفة بعضها فى دلائل التوحيد وبعضها فى دلائل العلم والقدرة والحكمة وبعضها فى دلائل النبوة وبعضها فى دلائل المعاد وبعضها فى بيان التكاليف والأحكام وبعضها فى تعليم الأخلاق الفاضلة ، وهذه الآيات مرتبة ترتيباً لا يتغير ولا يتبدل فهذه الآيات تشبه أشخاصاً واقفين فى صفوف معينة وقوله (فالزاجرات زجراً) المراد منه الآيات الزاجرة عن الأفعال المنكرة وقوله (فالتاليات ذكراً) المراد منه الآيات الدالة على وجوب الإقدام على أعمال البر والخير وصف الآيات بكونها تالية على قانون ما يقال شعر شاعر وكلام قائل قال تعالى (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) وقال (يس والقرآن الحكيم) قيل الحكيم بمعنى الحاكم فهذه جملة الوجوه المحتملة على تقدير أن تجعل هذه الألفاظ الثلاثة صفات لشىء واحد (وأما الاحتمال الثانى) وهو أن يكون المراد بهذه الثلاثة أشياء متغايرة فقيل المراد بقوله (والصافات صفاً) الطير من قوله تعالى (والطـــير صافات) (والزاجرات) كل ما زجر عن معاصى الله (والتاليات) كل ما يتلى من كتاب الله وأقول فيه

وجه آخر وهو أن مخلوقات الله إما جسمانية وإما روحانية ، أما الجسمانية فانها مرتبة على طبقات ودرجات لا تتغير البتة ، فالأرض وسط العالم وهى محفوفة بكرة الماء والماء محفوف بالهواء ، والهواء محفوف بالنار ، ثم هذه الأربعة محفوفة بكرات الأفلاك إلى آخر العالم الجسمانى فهذه الأجسام كأنها صفوف واقفة على عتبة جلال الله تعالى . وأما الجواهر الروحانية فهى على اختلاف درجاتها وتباين صفاتها مشتركة فى صفتين أحدهما التأثير فى عالم الأجسام بالتحريك والتصريف وإليه الاشارة بقوله (فالزاجرات زجراً) فانا قد بينا أن المراد من هذا الزجر السوق والتحريك ، والثانى الإدراك والمعرفة والاستغراق فى معرفة الله تعالى والثناء عليه ، واليه الاشارة بقوله تعالى (فالتاليات ذكراً) ولما كان الجسم أدنى منزلة من الأرواح المستقلة فالتصرف فى الجسمانيات أدون منزلة من الأرواح المستغرقة فى معرفة جلال الله المقبلة على تسبيح الله كما قال (ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته) لا جرم بدأ فى المرتبة الأولى بذكر الأجسام فقال (والصافات صفاً) ثم ذكر فى المرتبة الثانية الأرواح المدبرة لأجسام هذا العالم ثم ذكر فى هذه المرتبة الثالثة أعلى الدرجات وهى الأرواح المقدسة المتوجهة بكليتها إلى معرفة جلال الله والاستغراق فى الثناء عليه ، فهذه احتمالات خطرت بالبال ، والعالم بأسرار كلام الله تعالى ليس إلا الله .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ للناس فى هذا الموضع قولان (الأول) قول من يقول المقسم به ههنا خالق هذه الأشياء لا أعيان هذه الأشياء ، واحتجوا عليه بوجوه (الأول) أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن الحلف بغير الله فكيف يليق بحكمة الله أن يحلف بغير الله (والثانى) أن الحلف بالشيء فى مثل هذا الموضع تعظيم عظيم للمحلوف به ، ومثل هذا التعظيم لا يليق إلا بالله . (والثالث) أن هذا الذى ذكرناه تأكد بما أنه تعالى صرح به فى بعض السور وهو قوله تعالى (والسماء وما بناها ، والأرض وما طحاها ، ونفس وما سواها) ، (والقول الثانى) قول من يقول إن القسم واقع بأعيان هذه الأشياء واحتجوا عليه بوجوه (الأول) أن القسم وقع بهذه الأشياء بحسب ظاهر اللفظ فالعدول عنه خلاف الدليل (والثانى) أنه تعالى قال (والسماء وما بناها) فعلق لفظ القسم بالسماء ، ثم عطف عليه القسم بالبانى للسماء ، فلو كان المراد من القسم بالسماء القسم بمن بنى السماء لزم التكرار فى موضع واحد وأنه لا يجوز (الثالث) أنه لا يبعد أن تكون الحكمة فى قسم من الله تعالى بهذه الأشياء التنبيه على شرف ذواتها وكمال حقائقها ، لا سيما إذا حملنا هذه الألفاظ على الملائكة فإنه تكون الحكمة فى القسم بها التنبيه على جلالة درجاتها وكمال مراتبها والله أعلم ، فان قيل ذكر الحلف فى هذا الموضع غير لائق وبيانه من وجوه (الأول) أن المقصود من هذا القسم إما إثبات هذا المطلوب عند المؤمن أو عند الكافر والأول باطل لأن المؤمن مقر به سواء حصل الحلف أو لم يحصل ، فهذا الحلف عديم الفائدة على كل التقديرات

(الثانى) أنه تعالى حلف فى أول هـذه السورة على أن الإله واحد ، وحلف فى أول سورة والذاريات على أن القيامة حق فقال (والذاريات ذرواً) إلى قوله (إنما توعدون لصادق ، وإن الدين لواقع) وإثبات هذه المطالب العالية الشريفة على المخالفين من الدهرية وأمثالهم بالحلف واليمين لا يليق بالعقلاء ، والجواب من وجوه (الأول) أنه تعالى قرر التوحيد وصحة البعث والقيامة فى سائر السور بالدلائل اليقينية ، فلما تقدم ذكر تلك الدلائل لم يبعد تقريرها فذكر القسم تأكيداً لما تقدم لاسيما والقرآن إنمـا أنزل بلغة العرب وإثبات المطالب بالحلف واليمين طريقة مألوفة عند العرب (والوجه الثانى) فى الجواب أنه تعالى لمـا أقسم بهذه الأشياء على صحة قوله تعالى (إن إلهكم لواحد) ذكر عقيبه ما هو كالدليل اليقينى فى كون الإله واحداً ، وهو قوله تعالى (رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق) وذلك لأنه تعالى بين فى قوله (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) أن انتظام أحوال السموات والأرض يدل على أن الإله واحد ، فههنا لمـا قال (إن إلهكم لواحد) أردفه بقوله (رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق) كأنه قيل قد بينا أن النظر فى انتظام هذا العالم يدل على كون الإله واحداً فتأملوا فى ذلك الدليـل ليحصل لكم العلم بالتوحيد (الوجه الثالث) فى الجواب أن المقصود من هذا الكلام الرد على عبدة الأصنام فى قولهم بأنها آلهة فكأنه قيل هذا المذهب قد بلغ فى السقوط والركاكة إلى حيث يكفى فى إبطاله مثل هذه الحجة والله أعلم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ أما دلالة أحوال السموات والأرض على وجود الإله القادر العالم الحكيم ، وعلى كونه واحداً منزهاً عن الشريك فقد سبق تقريرها فى هذا الكتاب مراراً وأطواراً وأما قوله تعالى (ورب المشارق) فيحتمل أن يكون المراد مشارق الشمس قال السدى المشارق ثلثمـائة وستون مشرقاً وكذلك المغارب فانه تطلع الشمس كل يوم من مشرق وتغرب كل يوم فى مغرب ، ويحتمل أن يكون المراد مشارق الكواكب لأن لكل كوكب مشرقا ومغرباً ، فان قيل لم اكتفى بذكر المشارق ؟ قلنا لوجهين (الاول) أنه اكتفى بذكر المشارق كقوله (تقيكم الحر) والثانى أن الشرق أقوى حالا من الغروب وأكثر نفعاً من الغروب فذكر الشرق تنبيهاً على كثرة إحسان الله تعالى على عباده ، ولهذه الدقيقة استدل إبراهيم عليه السلام بالمشرق فقال (فإن الله يأتى بالشمس من المشرق) .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ احتج الأصحاب بقوله تعالى (رب السموات والأرض وما بينهما) على كونه تعالى خالقاً لأعمال العباد ، قالوا لأن أعمال العباد موجودة فيما بين السموات والأرض ، وهذه الآية دالة على أن كل ما حصل بين السموات والأرض فالله ربه ومالكه ، فهذا يدل على أن فعل العبد حصل بخلق الله ، وإن قالوا الأعراض لا يصح وصفها بأنها حصلت بين السموات والأرض لأن هذا الوصف إنمـا يليق بما يكون حاصلا فى حيز وجهة والأعراض ليست كذلك ، قلنا إنها لمـا

إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾

كانت حاصلة فى الأجسام الحاصلة بين السموات والأرض فهى أيضاً حاصلة بين السماء والأرض

قوله تعالى : ﴿إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظاً من كل شيطان مارد ، لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب ، دحوراً ولهم عذاب واصب ، إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب﴾ فى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ حمزة وحفص عن عاصم زينة منونة الكواكب بالجر وهو قراءة مسروق بن الأجدع ، قال الفراء وهورد معرفة على نكرة كما قال (بالناصية ناصية) فرد نكرة على معرفة وقال الزجاج الكواكب بدل من الزينة ، لأنها هى كما تقول مررت بأبى عبد الله زيد . وقرأ عاصم بالتنوين فى الزينة ونصب الكواكب قال الفراء يريد زينا الكواكب ، وقال الزجاج يجوز أن تكون الكواكب فى النصب بدلا من قوله بزينة ، لأن بزينة فى موضع نصب وقرأ الباقون بزينة الكواكب بالجر على الإضافة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ بين تعالى أنه زين السماء الدنيا ، وبين أنه إنما زينها لمنفعتين (إحداهما) تحصيل الزينة (والثانية) الحفظ من الشيطان المارد ، فوجب أن نحقق الكلام فى هذه المطالب الثلاثة (أما الأول) وهو تزيين السماء الدنيا بهذه الكواكب ، فلقائل أن يقول إنه ثبت فى علم الهيئة أن هذه الثوابت مركوزة فى الكرة الثامنة ، وأن السيارات الستة مركوزة فى الكرات الست المحيطة بسماء الدنيا فكيف يصح قوله (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب) والجواب أن الناس الساكنين على سطح كرة الأرض إذا نظروا إلى السماء فإنهم يشاهدونها مزينة بهذه الكواكب ، وعلى أنا قد بينا فى علم الهيئة أن الفلاسفة لم يتم لهم دليل فى بيان أن هذه الكواكب مركوزة فى الفلك الثامن ، ولعلنا شرحنا هذا الكلام فى تفسير سورة (تبارك الذى بيده الملك) فى تفسير قوله تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح) ، (وأما المطلوب الثانى) وهو كون هذه الكواكب زينة السماء الدنيا ففيه بحثان :

﴿البحث الأول﴾ أن الزينة مصدر كالنسبة واسم لما يزان به ، كالليقة اسم لما تلاق به الدواة قال صاحب الكشاف وقوله (بزينة الكواكب) يحتملهما فان أردت المصدر فعلى إضافته إلى الفاعل أى بأن زينتها الكواكب أو على إضافته إلى المفعول أى بأن زان الله الكواكب وحسنها ، لأنها

إنما زينت السماء بحسنها فى أنفسها ، وإن أردت الاسم فللاضافة وجهان أن تقع الكواكب بياناً للزينة ، لأن الزينة قد تحصل بالكواكب وبغيرها ، وأن يراد ما زينت به الكواكب .

﴿ البحث الثانى ﴾ فى بيان كيفية كون الكواكب زينة للسماء وجوه : (الأول) أن النور والضوء أحسن الصفات وأكملها ، فأن تحصل هذه الكواكب المشرقة المضيئة فى سطح الفلك لاجرم بقى الضوء والنور فى جرم الفلك بسبب حصول هذه الكواكب فيها قال ابن عباس (بزينة الكواكب) أى بضوء الكواكب (الوجه الثانى) يجوز أن يراد أشكالها المتناسبة المختلفة كشكل الجوزاء وبنات نعش والثريا وغيرها (الوجه الثالث) يجوز أن يكون المراد بهذه الزينة كيفية طلوعها وغروبها (الوجه الرابع) أن الإنسان إذا نظر فى الليلة الظلماء إلى سطح الفلك ورأى هذه الجواهر الزواهر مشرقة لامعة متلألئة على ذلك السطح الأزرق ، فلا شك أنها أحسن الأشياء وأكملها فى التركيب والجوهر ، وكل ذلك يفيد كون هذه الكواكب زينة (وأما المطلوب الثالث) وهو قوله (وحفظاً من كل شيطان مارد) ففيه بحثان :

﴿ البحث الأول ﴾ فيما يتعلق باللغة فقوله (وحفظاً) أى وحفظناها ، قال المبرد إذا ذكرت فعلا ثم عطفت عليه مصدر فعل آخر نصبت المصدر لأنه قد دل على فعله ، مثل قولك أفعل وكرامة لأنه لما قال أفعل علم أن الأسماء لا تعطف على الأفعال ، فكان المعنى أفعل ذلك وأكرمك كرامة ، قال ابن عباس يريد حفظ السماء بالكواكب و (من كل شيطان مارد) يريد الذى تمرد على الله قيل إنه الذى لا يتمكن منه ، وأصله من الملاسة ومنه قوله (صرح ممرد) ومنه الأمرد وذكرنا تفسير المارد عند قوله (مردوا على النفاق) .

﴿البحث الثانى﴾ فيما يتعلق بالمباحث العقلية فى هذا الموضع ، فنقول الاستقصاء فيه مذكور فى قوله تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين) قال المفسرون الشياطين كانوا يصعدون إلى قرب السماء فربما سمعوا كلام الملائكة وعرفوا به ما سيكون من الغيوب ، وكانوا يخبرونهم به ويوهمونهم أنهم يعلمون الغيب فمنعهم الله تعالى من الصعود إلى قرب السماء بهذه الشهب فانه تعالى يرميهم بها فيحرقهم بها ، وبقى ههنا سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ هذه الشهب هل هى من الكواكب التى زين الله السماء بها أم لا ؟ والأول باطل لأن هذه الشهب تبطل وتضمحل فلو كانت هذه الشهب تلك الكواكب الحقيقية لوجب أن يظهر نقصان كثير من أعداد كواكب السماء ، ومعلوم أن هذا المعنى لم يوجد البتة فإن أعداد كواكب السماء باقية على حالة واحدة من غير تغير البتة ، وأيضاً فجعلها رجوماً للشياطين مما يوجب وقوع النقصان فى زينة السماء فكأن الجمع بين هذين المقصودين كالمتناقض ، وأما القسم الثانى : وهو أن يقال إن هذه الشهب جنس آخر غير الكواكب المركوزة فى الفلك فهذا أيضاً مشكل لأنه تعالى قال فى سورة (تبارك الذى بيده الملك) ، (ولقد زينا السماء الدنيا

بمصابيح (وجعلناها رجوماً للشياطين) فالضمير فى قوله (وجعلناها) عائد إلى المصابيح ، فوجب أن تكون تلك المصابيح هى الرجوم بأعيانها من غير تفاوت ، والجواب أن هذه الشهب غير تلك الثواقب الباقية . وأما قوله تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين) فنقول كل نير يحصل في الجو العالى فهو مصابيح لأهل الأرض إلا أن تلك المصابيح منها باقية على وجه الدهر آمنة من التغير والفساد ، ومنها ما لا يكون كذلك ، وهى هذه الشهب التى يحدثها الله تعالى ويجعلها رجوماً للشياطين ، وبهذا التقدير فقد زال الإشكال ، والله أعلم .

﴿ السؤال الثانى ﴾ كيف يجوز أن تذهب الشياطين إلى حيث يعلمون بالتجويز أن الشهب تحرقهم ولا يصلون إلى مقصودهم البتة ، وهل يمكن أن يصدر مثل هذا الفعل عن عاقل ، فكيف من الشياطين الذين لهم مزية فى معرفة الحيل الدقيقة (والجواب) أن حصول هذه الحالة ليس له موضع معين وإلا لم يذهبوا إليه ، وإنما يمنعون من المصير إلى مواضع الملائكة ومواضعها مختلفة ، فربما صاروا إلى موضع تصيبهم فيه الشهب ، وربما صاروا إلى غيره ولا يصادفون الملائكة فلا تصيبهم الشهب ، فلما هلكوا فى بعض الأوقات ، وسلموا فى بعض الأوقات ، جاز أن يصيروا إلى مواضع يغلب على ظنونهم أنه لا تصيبهم الشهب فيها ، كما يجوز فيمن يسلك البحر أن يسلكه فى موضع يغلب على ظنه حصول النجاة ، هذا ماذكره أبو على الجبائى من الجواب عن هذا السؤال فى تفسيره ، ولقائل أن يقول : إنهم إذا صعدوا فإما أن يصلوا إلى مواضع الملائكة ، أو إلى غير تلك المواضع ، فإن وصلوا إلى مواضع الملائكة احترقوا ، وإن وصلوا إلى غير مواضع الملائكة لم يفوزوا بمقصودهم أصلا ، فعلى كلا التقديرين المقصود غير حاصل ، وإذا حصلت هذه التجربة وثبت بالاستقراء أن الفوز بالمقصود محال وجب أن يمتنعوا عن هذا العمل وأن لا يقدموا عليه أصلا بخلاف حال المسافرين فى البحر ، فإن الغالب عليهم السلامة والفوز بالمقصود ، أما ههنا فالشيطان الذى يسلم من الإحتراق إنما يسلم إذا لم يصل إلى مواضع الملائكة ، وإذا لم يصل إلى تلك المواضع لم يفز بالمقصود ، فوجب أن لا يعود إلى هذا العمل البتة ، والأقرب فى الجواب أن نقول هذه الواقعة إنما تتفق فى الندرة ، فلعلها لا تشتهر بسبب كونها نادرة بين الشياطين والله أعلم .

﴿ السؤال الثالث ﴾ قالوا دلت التواريخ المتواترة على أن حدوث الشهب كان حاصلا قبل مجىء النبى ﷺ ، فان الحكماء الذين كانوا موجودين قبل مجىء النبى ﷺ بزمان طويل ذكروا ذلك وتكلموا فى سبب حدوثه ، وإذا ثبت أن ذلك كان موجوداً قبل مجىء النبى ﷺ امتنع حمله على مجىء النبى ﷺ ، أجاب القاضى بأن الأقرب أن هذه الحالة كانت موجودة قبل النبى ﷺ لكنها كثرت فى زمان النبى ﷺ فصارت بسبب الكثرة معجزة .

﴿ السؤال الرابع ﴾ الشيطان مخلوق من النار ، قال تعالى حكاية عن إبليس (خلقتني من نار) وقال(والجان خلقناه من قبل من نار السموم) ولهذا السبب يقدر على الصعود إلى السموات ، وإذا كان كذلك فكيف يعقل إحراق النار بالنار ؟ والجواب يحتمل أن الشياطين وإن كانوا من النيران إلا أنها نيران ضعيفة ، فاذا وصلت نيران الشهب إليهم ، وتلك النيران أقوى حالا منهم لاجرم صار الأقوى مبطلا للأضعف ،ألا ترى أن السراج الضعيف إذا رجع في النار القوية فانه ينطفيء فكذلك ههنا .

﴿ السؤال الخامس ﴾ أن مقر الملائكة هو السطح الأعلى من الفلك ، والشياطين لا يمكنهم الوصول إلا إلى الأقرب من السطح الأسفل من الفلك ، فيبقى جرم الفلك مانعاً من وصول الشياطين إلى القرب من الملائكة ، ولعل الفلك عظيم المقدار دفع حصول هذا المانع العظيم ، كيف يعقل أن تسمع الشياطين كلام الملائكة ، فان قلتم إن الله تعالى يقوى سمع الشيطان حتى يسمع كلام الملائكة ، فنقول فعلى هذا التقدير إذا كان الله تعالى يقوى سمع الشيطان حتى يسمع كلام الملائكة ، وجب أن لا ينفي سمع الشيطان ، وإن كان لا يريد منع الشيطان من العمل فما الفائدة في رميه بالرجوم ؟ (فالجواب) مذهبنا أن أفعال الله تعالى غير معللة ، فيفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد ، ولا اعتراض لأحد عليه في شيء من أفعاله ، فهذا ما يتعلق بمباحث هذا الباب ، وإذا أضيف ما كتبناه ههنا إلى ما كتبناه في سورة الملك ، وفي سائر الآيات المشتملة على هذه المسألة بلغ تمام الكفاية في هذا الباب ، والله أعلم .

وأما قوله ﴿لا يسمعون إلى الملأ الأعلى﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم (لا يسمعون) بتشديد السين والميم وأصله يتسمعون ، فأدغمت التاء في السين لاشتراكهما في الهمس ، والتسمع تطلب السماع يقال تسمع سمع أو لم يسمع ، والباقون بتخفيف السين ، واختار أبو عبيد التشديد في يسمعون ، قال لأن العرب تقول تسمعت إلى فلان ويقولون سمعت فلاناً ، ولا يكادون يقولون سمعت إلى فلان ، وقيل في تقوية هذه القراءة إذا نفي التسمع ، فقد نفي سمعه ، وحجة القراءة الثانية قوله تعالى (إنهم عن السمع لمعزولون) وروى مجاهد عن ابن عباس : أن الشياطين يسمعون إلى الملأ الأعلى ، ثم يمنعون فلا يسمعون ، وللأولين أن يجيبوا فيقولون التنصيص على كونهم معزولين عن السمع لا يمنع من كونهم معزولين أيضاً عن التسمع بدلالة هذه الآية ، بل هو أقوى في ردع الشياطين ومنعهم من استماع أخبار السماء ، فان الذي منع من الاستماع فبأن يكون ممنوعاً من السمع أولى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الفرق بين قولك سمعت حديث فلان ، وبين قولك سمعت إلى حديثه ، بأن قولك سمعت حديثه يفيد الإدراك ، وسمعت إلى حديثه يفيد الإصغاء مع الإدراك .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى قوله (لا يسمعون إلى الملأ الأعلى) قولان (الأول) وهو المشهور أن تقدير الكلام لئلا يسمعوا ، فلما حذف الناصب عاد الفعل إلى الرفع كما قال (يبين الله لكم أن تضلوا) وكما قال (رواسى أن تميد بكم) قال صاحب الكشاف : حذف أن واللام كل واحد منهما جائز بانفراده . أما اجتماعهما فمن المنكرات التى يجب صون القرآن عنها (والقول الثانى) وهو الذى اختاره صاحب الكشاف أنه كلام مبتدأ منقطع عما قبله ، وهو حكاية حال المسترقة للسمع وأنهم لا يقدرون أن يسمعوا إلى كلام الملائكة ويتسمعوا وهم مقذوفون بالشهب ، مدحورون عن ذلك المقصود .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ الملأ الأعلى الملائكة لأنهم يسكنون السموات . وأما الإنس والجن فهم الملأ الأسفل لأنهم سكان الأرض .

واعلم أنه تعالى وصف أولئك الشياطين بصفات ثلاثة (الأولى) أنهم لا يسمعون (الثانية) أنهم يقذفون من كل جانب دحوراً ، وفيه أبحاث :

﴿ الأول ﴾ قد ذكرنا معنى الدحور فى سورة الأعراف عند قوله (اخرج منها مذءوماً مدحوراً) قال المبرد الدحور أشد الصغار والذل وقال ابن قتيبة دحرته دحراً ودحوراً أى دفعته وطردته .

﴿ البحث الثانى ﴾ فى انتصاب قوله (دحوراً) وجوه (الأول) أنه انتصب بالمصدر على معنى يدحرون دحوراً ، ودل على الفعل قوله تعالى (ويقذفون) (الثانى) التقدير ويقذفون للدحور ثم حذف اللام (الثالث) قال مجاهد دحوراً مطرودين ، فعلى هذا هو حال سميت بالمصدر كالركوع والسجود والحضور .

﴿ البحث الثالث ﴾ قرأ أبو عبد الرحمن السلمى دحوراً بفتح الدال قال الفراء كأنه قال يقذفون يدحرون بما يدحر . ثم قال ولست أشتهى الفتح ، لأنه لو وجد ذلك على صحة لكان فيها الباء كما تقول يقذفون بالحجارة ولا تقول يقذفون الحجارة إلا أنه جائز فى الجملة كما قال الشاعر :

تعال اللحم للأضياف نيئاً

أى تعال باللحم (الصفة الثالثة) قوله تعالى (ولهم عذاب واصب) والمعنى أنهم مرجومون بالشهب وهذا العذاب مسلط عليهم على سبيل الدوام ، وذكرنا تفسير الواصب فى سورة النحل عند قوله تعالى (وله الدين واصباً) قالوا كلهم إنه الدائم ، قال الواحدى ومن فسر الواصب بالشديد والموجع فهو معنى وليس بتفسير .

ثم قال تعالى (إلا من خطف الخطفة) ذكرنا معنى الخطف فى سورة الحج قال الزجاج وهو أخذ الشىء بسرعة ، وأصل خطف اختطف قال صاحب الكشاف (من) فى محل الرفع بدل من الواو فى لا يسمعون أى لا يسمع الشياطين إلا الشيطان الذى خطف الخطفة أى اختلس الكلمة على

فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾

وجه المسارقة (فأتبعه) يعني لحقه وأصابه يقال تبعه وأتبعه إذا مضى فى أثره وأتبعه إذا لحقه وأصله من قوله تعالى (فأتبعه الشيطان) وقد مر تفسيره وقوله تعالى (شهاب ثاقب) قال الحسن ثاقب أي مضيء وأقول سمى ثاقباً لأنه يثقب بنوره الهواء ،قال ابن عباس فى تفسير قوله (والنجم الثاقب) قال إنه رجل(١) سمى بذلك لأنه يثقب بنوره سمك سبع سموات والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب﴾ فى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى بيان النظم اعلم أنا قد ذكرنا أن المقصد الأقصى من هذا الكتاب الكريم إثبات الأصول الأربعة وهى الإلهيات والمعاد والنبوة وإثبات القضاء والقدر . فنقول إنه تعالى افتتح هذه السورة بإثبات مايدل على وجود الصانع ويدل على وحدانيته وهو خلق السموات والأرض وما بينهما وخلق المشارق والمغارب ، فلما أحكم الكلام فى هذا الباب فرع عليها إثبات القول بالحشر والنشر والقيامة .

واعلم أن الكلام فى هذه المسألة يتعلق بطرفين أولها إثبات الجواز العقلى وثانيهما إثبات الوقوع أما الكلام فى المطلوب الأول فاعلم أن الإستدلال على الشيء يقع على وجهين (أحدهما) أن يقال إنه قدر على ماهو أصعب وأشد وأشق منه فوجب أيضاً أن يقدر عليه (والثانى) أن يقال إنه قدر عليه فى إحدى الحالتين والفاعل والقابل باقيين كما كانا ، فوجب أن تبقى القدرة عليه فى الحالة الثانية والله تعالى ذكر هذين الطريقين فى بيان أن القول بالبعث والقيامة أمر جائز ممكن . (أما الطريق الأول) فهو المراد من قوله (فاستفتهم أهم أشد خلقاً) والتقدير كأنه تعالى يقول استفت يا محمد هؤلاء المنكرين أهم أشد خلقاً من خلق السموات والأرض وما بينهما وخلق المشارق والمغارب وخلق الشياطين الذين يصعدون الفلك ، ولا شك أنهم يعترفون بأن خلق هذا القسم أشق وأشد فى العرف من خلق القسم الأول ، فلما ثبت بالدلائل المذكورة فى إثبات التوحيد كونه تعالى قادراً على هذا القسم الذى هو أشد وأصعب ، فبأن يكون قادراً على إعادة الحياة فى هذه الأجساد كان أولى ، ونظير هذه الدلالة قوله تعالى فى آخر يس (أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم) وقوله تعالى (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس) (وأما الطريق الثانى) فهو المراد من قوله (إنا خلقناهم من طين لازب) والمعنى أن هذه الأجسام قابلة للحياة إذ لولم تكن قابلة للحياة لما صارت حية فى المرة الأولى والإله قادر على خلق هذه الحياة فى هذه الأجسام ، ولولا كونه تعالى قادراً على هذا المعنى لما حصلت الحياة فى المرة الأولى ، ولاشك أن قابلية تلك الأجسام باقية وأن قادرية الله تعالى باقية لأن هذه القابلية وهذه القادرية من الصفات الذاتية فامتنع زوالها فثبت بهذين الطريقين أن القول بالبعث والقيامة أمر

(١) كذا فى الأصل ولعل الصواب إنه نجم ، إذ لا معنى لكونه رجلا .

ممكن ، ولما بين تعالى إمكان هذا المعنى بهذين الطريقين بين وقوعه بقوله (قل نعم وأنتم داخرون) وذلك لأنه ثبت صدق الرسول ﷺ لأجل ظهور المعجزات عليه والصادق إذا أخبر عن أمر ممكن الوقوع وجب الاعتراف بوقوعه فهذا تقرير نظم هذه الآية وهو فى غاية الحسن والله أعلم .

﴿ **المسألة الثانية** ﴾ فى تفسير ألفاظ هذه الآية ، أما قوله (فاستفتهم) يعنى أنه لما ثبت بالدلائل القاطعة كونه تعالى خالقاً للسموات والأرض وما بينهما فاستفت هؤلاء المنكرين وقل لهم (أهم أشد خلقاً) أم هذه الأشياء التى بينا كونه تعالى خالقاً لها ولم يحك عنهم أنهم أقروا أن خالق هذه الأشياء أصعب لأجل أن ظهور ذلك كالمعلوم بالضرورة فلا حاجة أن يحكى عنهم صحة أن الأمر كذلك .

ثم قال تعالى (إنا خلقناهم من طين لازب) يعنى أنا لما قدرنا على خلق الحياة فى ذواتهم أولا وجب أن نبقى قادرين على خلق الحياة فيهم ثانياً ، لما بينا أن حال القابل وحال الفاعل ممتنع التغير . وفيه دقيقة أخرى وهى أن القوم قالوا كيف يعقل تولد الانسان لا من النطفة ولا من الأبوين ؟ فكأنه قيل لهم إنكم لما أقررتم بحدوث العالم واعترفتم بأن السموات والأرض وما بينهما إنما حصل بتخليق الله تعالى وتكوينه فلا بد وأن تعترفوا بأن الإنسان الأول إنما حدث لامن الأبوين ؟ فإذا عقلتم ذلك واعترفتم به فقد سقط قولكم الانسان كيف يحدث من غير النطفة ومن غير الأبوين ، وأيضاً قد اشتهر عند الجمهور أن آدم مخلوق من الطين اللازب ومن قدر على خلق الحياة فى الطين للازب فكيف يعجز عن إعادة الحياة إلى هذه الذوات . وأما كيفية خلق الإنسان من الطين اللازب فهى مذكورة فى السورة المتقدمة ، واعلم أن هذا الوجه إنما يحسن إذا قلنا المراد من قوله تعالى (إنا خلقناهم من طين لازب) هو أنا خلقنا أباهم آدم من طين لازب ، وفيه وجوه أخر وهو أن يكون المراد أنا خلقنا كل إنسان من طين لازب ، وتقريره أن الحيوان إنما يتولد من المنى ودم الطمث والمنى يتولد من الدم فالحيوان إنما يتولد من الدم والدم إنما يتولد من الغذاء ، والغذاء إما حيوانى وإما نباتى أما تولد الحيوان الذى صار غذاء فالكلام فى كيفية تولده كالكلام فى تولد الإنسان ، فثبت أن الأصل فى الأغذية هو النبات ، والنبات إنما يتولد من امتزاج الأرض بالماء وهو الطين اللازب وإذا كان الأمر كذلك فقد ظهر أن كل الخلق متولدون من الطين اللازب ، وإذا ثبت هذا فنقول إن هذه الأجزاء التى منها تركب هذا الطين اللازب قابلة للحياة والله تعالى قادر عليها ، وهذه القابلية والقادرية واجبة البقاء فوجب بقاء هذه الصحة فى كل الأوقات وهذه بيانات ظاهرة واضحة ، وأما االلازب فقيل اللاصق ، وقيل اللزج وقيل الحتد ، وأكثر أهل اللغة على أن الباء فى لازب بدل من الميم يقال لازب ولازم .

بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ بل عجبت ويسخرون ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ تقرير الكلام أن يقال إن هؤلاء المنكرين أقروا بأنه تعالى قادر على تكوين أشياء أصعب من إعادة الحياة الى هذه الأجساد ، وقد تقرر فى صرائح العقول أن القادر على الأشق الأشد يكون قادراً على الأسهل الأيسر ، ثم مع قيام هذه الحجة البديهية بقى هؤلاء الأقوام مصرين على إنكار البعث والقيامة وهذا فى موضع التعجب الشديد فان مع ظهور هذه الحجة الجلية الظاهرة كيف يعقل بقاء القوم على الإصرار فيه . فأنت يا محمد تتعجب من إصرارهم على الإنكار وهم فى طرف الإنكار وصلوا إلى حيث يسخرون منك فى قولك بإثبات الحشر والنشر والبعث والقيامه ، فهذا هو المراد من قوله (بل عجبت ويسخرون) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ حمزه والكسائى (عجبت) بضم التاء والباقون بفتحها قال الواحدى والضم قراءة ابن عباس وابن مسعود وإبراهيم ويحيى بن وثاب والأعمش وقراءة أهل الكوفة واختيار أبى عبيدة ، أما الذين قرأوا بالفتح فقد احتجوا بوجوه (الأول) أن القراءة بالضم تدل على إسناد العجب إلى الله تعالى وذلك محال ، لأن التعجب حالة تحصل عند الجهل بصفة الشيء ومعلوم أن الجهل على الله محال (والثانى) أن الله تعالى أضاف التعجب إلى محمد صلى الله عليه وسلم فى آية أخرى فى هذه المسألة فقال (وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنا تراباً) ، (والثالث) أنه تعالى قال (بل عجبت ويسخرون) والظاهر أنهم إنما سخروا لأجل ذلك التعجب فلما سخروا منه وجب أن يكون ذلك التعجب صادراً منه ، وأما الذين قرأوا بضم التاء ، فقد أجابوا عن الحجة الأولى من وجوه (الأول) أن القراءة بالضم لانسلم أنها تدل على إسناد التعجب إلى الله تعالى ، وبيانه أنه يكون التقدير قل يا محمد (بل عجبت ويسخرون) ونظيره قوله تعالى (أسمع بهم وأبصر) معناه أن هؤلاء ما تقولون فيه أنتم هذا النحو من الكلام ، وكذلك قوله تعالى (فما أصبرهم على النار) (الثانى) سلمنا أن ذلك يقتضى إضافة التعجب إلى الله تعالى فلم قلتم إن ذلك محال ؟ ويروى أن شريحاً كان يختار القراءة بالنصب ويقول العجب لايليق إلا بمن لايعلم ، قال الأعمش فذكرت ذلك لإبراهيم فقال إن شريحاً يعجب بعلمه وكان عبد الله أعلم ، وكان يقرأ بالضم وتحقيق القول فيه أن نقول : دل القرآن والخبر على جواز إضافة العجب إلى الله تعالى ، أما القرآن فقوله تعالى (وإن تعجب فعجب قولهم) والمعنى وإن تعجب يا محمد من قولهم ، فهو أيضاً عجب عندى ، وأجيب عنه أنه لايمتنع أن يكون المراد وإن تعجب فعجب قولهم عندكم ، وأما الخبر فقوله صلى الله عليه وسلم « عجب ربكم من إلكم وقنوطكم ، وعجب ربكم من شاب ليست له صبوة » وإذا ثبت هذا فنقول العجب من الله تعالى خلاف العجب من الآدميين كما قال (ويمكرون ويمكر

وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾

الله) وقال (سخر الله منهم) وقال تعالى (وهو خادعهم) والمكر والخداع والسخرية من الله تعالى بخلاف هذه الأحوال من العباد ، وقد ذكرنا أن القانون فى هذا الباب أن هذه الألفاظ محمولة على نهايات الأعراض لا على بدايات الأعراض . وكذلك ههنا من تعجب من شيء فانه يستعظمه فالتعجب فى حق الله تعالى محمول على أنه تعالى يستعظم تلك الحالة إن كانت قبيحة فيترتب العقاب العظيم عليه ، وإن كانت حسنة فيترتب الثواب العظيم عليه ، فهذا تمام الكلام فى هذه المناظرة ، والأقرب أن يقال القراءة بالضم إن ثبتت بالتواتر وجب المصير إليها ويكون التأويل ما ذكرناه وإن لم تثبت هذه القراءة بالتواتر كانت القراءة بفتح التاء أولى والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وإذا ذكروا لا يذكرون . وإذا رأوا آية يستسخرون ، وقالوا إن هذا إلا سحر مبين ، أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون ، أو آباؤنا الأولون ، قل نعم وأنتم داخرون ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما قرر الدليل القاطع فى إثبات إمكان البعث والقيامة حكى عن المنكرين أشياء أولها : أن النبى صلى الله عليه وسلم يتعجب من إصرارهم على الإنكار وهم يسخرون منه فى إصراره على الإثبات ، وهذا يدل على أنه صلى الله عليه وسلم مع أولئك الأقوام كانوا فى غاية التباعد وفى طرفى النقيض وثانيها قوله (وإذا ذكروا لا يذكرون) ، وثالثها قوله (وإذا رأوا آية يستسخرون) ويجب أن يكون المراد من هذا الثانى والثالث غير الأول لأن العطف يوجب التغاير ولأن التكرير خلاف الأصل ، والذى عندى فى هذا الباب أن يقال القوم كانوا يستبعدون الحشر والقيامة ويقولون من مات وصار تراباً وتفرقت أجزاؤه فى العالم كيف يعقل عوده بعينه ؟ وبلغوا فى هذا الاستبعاد إلى حيث كانوا يسخرون ممن يذهب إلى هذا المذهب وإذا كان كذلك فلا طريق إلى إزالة هذا الاستبعاد عنهم إلا من وجهين (أحدهما) أن يذكر لهم الدليل الدال على صحة الحشر والنشر مثل أن يقال لهم : هل تعلمون أن خلق السموات والأرض أشد وأصعب من إعادة إنسان بعد موته ؟ وهل تعلمون أن القادر على الأصعب الأشق يجب أن يكون قادراً على الأسهل الأيسر ؟ فهذا الدليل وإن كان جلياً قوياً إلا أن أولئك المنكرين إذا عرض على عقولهم هذه المقدمات لا يفهمونها ولا يقفون عليها ، وإذا ذكروا لم يذكروها لشدة

بلادتهم وجهلهم ، فلا جرم لم ينتفعوا بهذا النوع من البيان .

(الطريق الثاني) أن يثبت الرسول ﷺ جهة رسالته بالمعجزات ثم يقول لما ثبت بالمعجز كوني رسولا صادقاً من عند الله فأنا أخبركم بأن البعث والقيامة حق ، ثم إن أولئك المنكرين لا ينتفعون بهذا الطريق أيضاً لأنهم إذا رأوا معجزة قاهرة وآية باهرة حملوها على كونها سحراً وسخروا بها واستهزؤا منها وهذا هو المراد من قوله (وإذا رأوا آية يستسخرون) فظهر بالبيان الذى ذكرناه أن هذه الألفاظ الثلاثة منبهة على هذه الفوائد الجليلة .

. واعلم أن أكثر الناس لم يقفوا على هذه الدقائق ، فقالوا إنه تعالى قال (بل عجبت ويسخرون) . ثم قال (وإذا رأوا آية يستسخرون) فوجب أن يكون المراد من قوله (يستسخرون) غير ما تقدم ذكره من قوله (ويسخرون) فقال هذا القائل المراد من قوله (ويسخرون) اقدامهم على السخرية والمراد من قوله (يستسخرون) طلب كل واحد منهم من صاحبه أن يقدم على السخرية وهذا التكليف إنما لزمهم لعدم وقوفهم على الفوائد التى ذكرناها والله أعلم (والرابع) من الأمور التى حكاها الله تعالى عنهم أنهم قالوا (إن هذا إلا سحر مبين) يعنى أنهم إذا رأوا آية ومعجزة سخروا منها ، والسبب فى تلك السخرية اعتقادهم أنها من باب السحر وقوله (مبين) معناه أن كونه سحراً أمر بين لا شبهة لأحد فيه ، ثم بين تعالى أن السبب الذى يحملهم على الاستهزاء بالقول بالبعث وعلى عدم الإلتفات إلى الدلائل الدالة على صحة القول وعلى الاستهزاء بجميع المعجزات هو قولهم إن الذى مات وتفرقت أجزاؤه فى جملة العالم فما فيه من الأرضية اختلط بتراب الأرض ومافيه من المائيه والهوائية اختلط ببخارات العالم فهذا الانسان كيف يعقل عوده بعينه حياً فاهماً ؟ فهذا الكلام هو الذى يحملهم على تلك الأحوال الثلاثة المتقدمة ، ثم إنه تعالى لما حكى عنهم هذه الشبهة قال قل يا محمد نعم وأنتم داخرون وإنما اكتفى تعالى بهذا القدر من الجواب لأنه ذكر فى الآية المتقدمة بالبرهان اليقينى القطعى أنه أمر ممكن وإذا ثبت الجواز القطعى فلا سبيل إلى القطع بالوقوع إلا بإخبار المخبر الصادق ، فلما قامت المعجزات على صدق محمد ﷺ كان واجب الصدق فكان بمجرد قوله (قل نعم) دليلا قاطعاً على الوقوع . ومن تأمل فى هذه الآيات علم أنها وردت على أحسن وجوه الترتيب ، وذلك لأنه بين الإمكان بالدليل العقلى وبين وقوع ذلك الممكن بالدليل السمعى ، ومن المعلوم أن الزيادة على هذا البيان كالأمر الممتنع .

أما قوله (أو آباؤنا) فالمعنى أو تبعث آباؤنا وهذه ألف الاستفهام دخلت على حرف العطف وقرأ نافع وابن عامر ههنا ، وفى سورة الواقعة ساكنة الواو وذكرنا الكلام فى هذا فى سورة الأعراف عند قوله (أو أمن أهل القرى) .

أما قوله تعالى (قل نعم) فنقول قرأ الكسائى وحده نعم بكسر العين .

أما قوله تعالى (وأنتم داخرون) أى صاغرون ، قال أبو عبيد الدخور أشد الصغار . وذكرنا تفسير هذه اللفظة عند قوله (سجداً لله وهم داخرون) .

فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ فإنما هى زجرة واحدة فاذا هم ينظرون ، وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين ، هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما بين فى الآية المتقدمة مايدل على إمكان البعث والقيامة ، ثم أردفه بما يدل على وقوع القيامة ، ذكر فى هذه الآيات بعض تفاصيل أحوال القيامة ، وأنه تعالى ذكر فى هذه الآية أنواعاً من تلك الأحوال (فالحالة الأولى) قوله تعالى (فانما هى زجرة واحدة ، فاذا هم ينظرون) وفيه أبحاث :

﴿ البحث الأول ﴾ قوله (فانما) جواب شرط مقدر والتقدير إذا كان كذلك فما هى إلا زجرة واحدة .

﴿ البحث الثانى ﴾ الضمير فى قوله (فانما هى) ضمير على شريطة التفسير ، والتقدير فانما البعث زجرة واحدة .

﴿ البحث الثالث ﴾ الزجرة فى اللغة الصيحة التى يزجر بها كالزجرة بالنعم والابل عند الحث ثم كثر استعمالها حتى صارت بمعنى الصيحة وإن لم يكن فيها معنى الزجر كما فى هذه الآية وأقول لا يبعد أن يقال إن تلك الصيحة إنما سميت زجرة لأنها تزجر الموتى عن الرقود فى القبور وتحثهم على القيام من القبور والحضور فى موقف القيامة ، فاذا عرفت هذا فنقول المراد من هذه الزجرة ما ذكره الله تعالى فى قوله (ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون) فبالنفخة الأولى يموتون وبالنفخة الثانية يحيون ويقومون ، وههنا سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ ما الفائدة فى هذه الصيحة فان القوم فى تلك الساعة أموات لأن النفخة جارية مجرى السبب لحياتهم فتكون مقدمة على حصول حياتهم فثبت أن هذه الصيحة إنما حصلت حال كون الخلق أمواتاً ، فتكون تلك الصيحة عديمة الفائدة فهى عبث والعبث لا يجوز فى فعل الله (والجواب) أما أصحابنا فيقولون يفعل الله ما يشاء ، وأما المعتزلة فقال القاضى فيه وجهان (الأول) أن تعتبر بها الملائكة (الثانى) أن تكون الفائدة التخويف والإرهاب .

﴿ السؤال الثانى ﴾ هل لتلك الصيحة تأثير فى إعادة الحياة ؟ الجواب لا ، بدليل أن الصيحة الأولى استعقبت الموت والثانية الحياة وذلك يدل على أن الصيحة لا أثر لها فى الموت ولا فى الحياة ، بل خالق الموت والحياة هو الله تعالى كما قال (الذى خلق الموت والحياة) .

﴿ السؤال الثالث ﴾ تلك الصيحة صوت الملائكة أو الله تعالى يخلقها ابتداء ؟ (الجواب) الكل

جائز إلا أنه روى أن الله تعالى يأمر إسرافيل حتى ينادى : أيتها العظام النخرة والجلود البالية والأجزاء المتفرقة اجتمعوا باذن الله تعالى (اللفظ الرابع) من الألفاظ المذكورة فى هذه الآية قوله تعالى (فاذا هم ينظرون) فيحتمل أن يكون المراد ينظرون ما يحدث بهم ويحتمل ينظر بعضهم إلى بعض وأن يكون المراد ينظرون إلى البعث الذى كذبوا به (الحالة الثانية) من وقائع القيامة ما أخبر الله عنهم أنهم بعد القيام من القبور قالوا (يا ويلنا هذا يوم الدين) قال الزجاج الويل كلمة يقولها القائل وقت الهلكة والمقصود أنهم لما شاهدوا القيامة قالوا (هذا يوم الدين) أى يوم الجزاء هذا ، والمقصود أن الله تعالى ذكر فى آيات كثيرة من القرآن . أنا نرى فى الدنيا محسناً ومسيئاً وعاصياً وصديقاً وزنديقاً ، ورأينا أنه لم يصل إليهم فى الدنيا ما يليق بهم من الجزاء فوجب القول باثبات القيامة (ليجزى الذين أساؤا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى) وبالجملة فهذا يدل على أن الجزاء إنما يحصل بعد الموت ، والكفار وإن سمعوا هذا الدليل القوى لكنهم أنكروا وتمردوا ثم إنه تعالى إذا أحياهم يوم القيامة فإذا شاهدوا القيامة يذكرون ذلك اليوم ويقولون (هذا يوم الدين) أى يوم الجزاء الذى ذكر الله الدلائل الكثيرة عليه فى القرآن فكفرنا بها ، ونظيره أن من خوف بشيء ولم يلتفت اليه ، ثم عاينه بعد ذلك فقد يقول هذا يوم الواقعة الفلانية فكذا ههنا ، وفيه احتمال آخر وهو أنه تعالى قال فى سورة الفاتحة (مالك يوم الدين) فبين أنه لا مالك فى ذلك اليوم إلا الله فقولهم هذا يوم الدين ، إشارة إلى أن هذا هو اليوم الذى لا حكم فيه لأحد إلا لله ، وإنما ذكروه لما حصل فى قلوبهم من الخوف الشديد .

أما قوله تعالى (هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون) ففيه بحثان :

﴿ الأول ﴾ اختلفوا فى أن هذا هل هو من بقية كلام الكفار أو يقال تم كلامهم عند قوله تعالى (هذا يوم الدين) . وأما قوله (هذا يوم الفصل) فهو كلام غيرهم ، فبعضهم قال بالأول وزعم أن قوله (هذا يوم الفصل) الآية من كلام بعضهم لبعض ، والأكثرون على القول الثانى واحتجوا بوجهين : (الأول) أن قوله (كنتم به تكذبون) من كلام بعضهم لبعض خطاب مع جميع الكفار فقائل هذا القول لابد وأن يكون غير الكفار (الثانى) أن قوله (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم) منسوق على قوله (هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون) فلما كان قوله (احشروا الذين ظلموا) كلام غير الكفار فكذلك قوله (هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون) يجب أن يكون كلام غير الكفار ، وعلى هذا التقدير فقوله (هذا يوم الدين) من كلام الكفار ، وقوله (هذا يوم الفصل) من كلام الملائكة جواباً لهم ، والوجه فى كونه جواباً لهم أن أولئك الكفار ، إنما اعتقدوا فى أنفسهم كونهم محقين فى إنكار دعوة الأنبياء عليهم السلام وكونهم محقين فى تلك الأديان الفاسدة فقالوا (هذا يوم الدين) أى هذا اليوم الذى يصل فيه إلينا جزاء طاعتنا وخيراتنا ، فالملائكة يقولون لهم إنه لا اعتبار بظواهر الأمور فى هذا اليوم فإن هذا اليوم

احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾

يفصل فيه الجزاء الحقيقي عن الجزاء الظاهرى وتميز فيه الطاعات الحقيقية عن الطاعات المقرونة بالرياء والسمعة فبهذا الطريق صار هذا الكلام من الملائكة جواباً لما ذكره الكفار .

قوله تعالى : ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وماكانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴾ وفى الآية إبحاث :

﴿ البحث الأول ﴾ اعلم أنه لا نزاع فى أن هذا من كلام الملائكة فإن قيل ما معنى (احشروا) مع أنهم قد حشروا من قبل وحضروا فى محفل القيامه وقالوا (هذا يوم الدين) وقالت الملائكة لهم بل (هذا يوم الفصل) أجاب القاضى عنه ،فقال المراد احشروهم إلى دار الجزاء وهى النار ، ولذلك قال بعده (فاهدوهم إلى صراط الجحيم) أى خذوهم إلى ذلك الطريق ودلوهم عليه ثم سأل نفسه فقال كيف يصح ذلك وقد قال بعده وقفوهم إنهم مسئولون ومعلوم أن حشرهم إلى الجحيم ، إنما يكون بعد المسألة ، وأجاب أنه ليس فى العطف بحرف الواو ترتيب فلا يمتنع أن يقال احشروهم وقفوهم ، مع أنا بعقولنا نعلم أن الوقوف كان قبل الحشر إلى النار ، هذا ما قاله القاضى ، وعندى فيه وجه آخر وهو أن يقال إنهم إذا قاموا من قبورهم لم يبعد أن يقفوا هناك بحيرة تلحقهم بسبب معاينة أهوال القيامة ، ثم إن الله تعالى يقول للملائكة : احشروا الذين ظلموا واهدوهم إلى صراط الجحيم ، أى سوقوهم إلى طريق جهنم وقفوهم هناك وتحصل المسألة هناك ثم من هناك يساقون إلى النار وعلى هذا التقدير فظاهر النظم موافق لما عليه الوجه .

﴿ البحث الثانى ﴾ الآمر فى قوله تعالى (احشروا الذين ظلموا) هو الله فهو تعالى أمر الملائكة أن يحشروا الكفار إلى موقف السؤال والمراد من الحشر أن الملائكة يسوقونهم إلى ذلك الموقف .

﴿ البحث الثالث ﴾ أن الله أمر الملائكة بحشر ثلاثة أشياء : الظالمين ، وأزواجهم ، والأشياء التى كانوا يعبدونها . وفيه فوائد :

﴿ الفائدة الأولى ﴾ أنه تعالى قال (احشروا الذين ظلموا) ثم ذكر من صفات الذين ظلموا كونهم عابدين لغير الله وهذا يدل على أن الظالم المطلق هو الكافر وذلك يدل على أن كل وعيد ورد فى حق الظالم فهو مصروف إلى الكفار ومما يؤكد هذا قوله تعالى (والكافرون هم الظالمون)

﴿ الفائدة الثانية ﴾ اختلفوا فى المراد بأزواجهم وفيه ثلاثة أقوال: (الأول) المراد بأزواجهم أشباههم أى أحزابهم ونظراؤهم من الكفر فاليهودى مع اليهودى والنصرانى مع النصرانى والذى يدل على جواز أن يكون المراد من الأزواج الأشباه وجوه : (الأول) قوله تعالى (وكنتم

أزواجاً ثلاثة) أي أشكالا وأشباهاً (الثاني) أنك تقول عندي من هذا أزواج أي أمثال وتقول زوجان من الخف لكون كل واحد منهما نظير الآخر وكذلك الرجل والمرأة سميا زوجين لكونهما متشابهين في أكثر أحكام النكاح وكذلك العدد الزوج سمي بهذا الاسم لكون كل واحد من سميه مثالا للقسم الثاني في العدد الصحيح ، قال الواحدي فعلى هذا القول يجب أن يكون المراد بالذين ظلموا الرؤساء لأنك لو جعلت الذين ظلموا عاماً في كل من أشرك لم يكن للأزواج معنى (القول الثاني) في تفسير الأزواج أن المراد قرناؤهم من الشياطين لقوله تعالى (وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون) . (والقول الثالث) أن المراد نساؤهم اللواتي على دينهم . أما قوله (وما كانوا يعبدون من دون الله) ففيه قولان : (الأول) المراد ما كانوا يعبدون من دون الله من الأوثان والطواغيت . ونظيره قوله (فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة) قيل المراد بالناس عباد الأوثان والمراد بالحجارة الأصنام التي هي أحجار منحوتة ، فان قيل إن تلك الأحجار جمادات فما الفائدة في حشرها إلى جهنم ؟ أجاب القاضي بأنه ورد الخبر بأنها تعاد وتحيا لتحصل المبالغة في توبيخ الكفار الذين كانوا يعبدونها ولقائل أن يقول هب أن الله تعالى يحيي تلك الأصنام إلا أنه لم يصدر عنها ذنب ، فكيف يجوز من الله تعالى تعذيبها ؟ والأقرب أن يقال إن الله تعالى لا يحيي تلك الأصنام بل يتركها على الجمادية . ثم يلقيها في جهنم لأن ذلك مما يزيد في تخجيل الكفار (القول الثاني) أن المراد من قوله (وما كانوا يعبدون من دون الله) الشياطين الذين دعوهم إلى عبادة ما عبدوه فلما قبلوا منهم ذلك الدين صاروا كالعابدين لأولئك الشياطين وتأكد هذا بقوله تعالى (ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان) والقول الأول أولى لأن الشياطين عقلاء وكلمة ما لا تليق بالعقلاء . والله أعلم .

ثم قال (فاهدوهم إلى صراط الجحيم) قال ابن عباس : دلوهم يقال هديت الرجل إذا دللته وإنما استعملت الهداية ههنا ، لأنه جعل بدل الهداية إلى الجنة ، كما قال (فبشرهم بعذاب أليم) فوقعت البشارة بالعذاب لهؤلاء بدل البشارة بالنعيم لأولئك ، وعن ابن عباس (فاهدوهم) سوقوهم وقال الأصم: قدموهم ، قال الواحدي: وهذا وهم . لأنه يقال هدى إذا تقدم ومنه الهداية والهوادي والهاديات الوحش ، قال ولا يقال هدى بمعنى قدم . ثم قال وقفوهم ، يقال وقفت الدابة أقفها وقفاً فوقفت هي وقوفاً ، والمعنى احبسوهم وفي الآية قولان (أحدهما) على التقديم والتأخير . والمعنى قفوهم واهدوهم ، والأصوب أنه لا حاجة إليه ، بل كأنه قيل (فاهدوهم إلى صراط الجحيم) فاذا انتهوا إلى الصراط قيل وقفوهم ، فإن السؤال يقع هناك وقوله (إنهم مسئولون) قيل عن أعمالهم في الدنيا وأقوالهم ، وقيل المراد سألتهم الخزنة (ألم يأتكم رسل منكم بالبينات ، قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين) ويجوز أن يكون هذا السؤال ما ذكر بعد ذلك وهو قوله تعالى (مالكم لا تناصرون) أي أنهم يسألون توبيخاً لهم ، فيقال (مالكم لا تناصرون) قال ابن عباس

وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ
مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا
عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن
سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾
فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا
كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ
﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ

رضى الله عنهما : لا ينصر بعضكم بعضاً كما كنتم فى الدنيا ، وذلك أن أبا جهل قال يوم بدر : نحن جميع منتصر ، فقيل لهم يوم القيامة مالكم غير متناصرين ، وقيل يقال للكفار ما لشركائكم لا يمنعونكم من العذاب .

ثم قال تعالى ﴿ بل هم اليوم مستسلمون ﴾ يقال استسلم للشىء إذا انقاد له وخضع ، ومعناه فى الأصل طلب السلامة بترك المنازعة ، والمقصود أنهم صاروا منقادين لا حيلة لهم فى دفع تلك المضار لا العابد ولا المعبود .

ثم قال تعالى ﴿ وأقبل بعضهم على بعض ﴾ قيل هم والشياطين ، وقيل الرؤساء والأتباع . ﴿ يتساءلون ﴾ أى يسأل بعضهم بعضاً ، وهذا التساؤل عبارة عن التخاصم وهو سؤال التبكيت يقولون غررتمونا ، ويقول أولئك لم قبلتم منا ، وبالجملة فليس ذلك تساؤل المستفهمين ، بل هو تساؤل التوبيخ واللوم ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين ، قالوا بل لم تكونوا مؤمنين ، وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوماً طاغين ، فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون ، فأغويناكم إنا كنا غاوين ، فإنهم يومئذ فى العذاب مشتركون ، إنا كذلك نفعل بالمجرمين ، إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ، ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون ، بل جاء بالحق وصدق

ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾

إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾

المرسلين ، إنكم لذائقوا العذاب الأليم ، وما تجزون إلا ما كنتم تعملون ، إلا عباد الله المخلصين ﴾

واعلم أن الله تعالى لما حكى عنهم أنه أقبل بعضهم على بعض يتساءلون شرح كيفية ذلك التساؤل فقالوا (إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين) وهذا قول الأتباع لمن دعاهم إلى الضلالة ، وفى تفسير اليمين وجوه (الأول) أن لفظ اليمين ههنا استعارة عن الخيرات والسعادات ، وبيان كيفية هذه الاستعارة ، أن الجانب الأيمن أفضل من الجانب الأيسر لوجوه (أحدها) اتفاق الكل على أن أشرف الجانبين هو اليمين (والثانى) لا يباشرون الأعمال الشريفة إلا باليمين مثل مصافحة الأخيار والأكل والشرب وما على العكس منه يباشرونه باليد اليسرى (الثالث) أنهم كانوا يتفاءلون وكانوا يتيمنون بالجانب الأيمن ويسمونه بالبارح (الرابع) أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يحب التيامن فى كل شىء (الخامس) أن الشريعة حكمت بأن الجانب الأيمن لكاتب الحسنات والأيسر لكاتب السيئات (السادس) أن الله تعالى وعد المحسن أن يؤتى كتابه بيمينه ، والمسىء أن يؤتى كتابه بيساره ، فثبت أن الجانب الأيمن أفضل من الجانب الأيسر ، وإذا كان كذلك لا جرم ، استعير لفظ اليمين للخيرات والحسنات والطاعات ، فقوله (إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين) يعنى أنكم كنتم تخدعوننا وتوهموننا أن مقصودكم من الدعوة إلى تلك الأديان نصرة الحق وتقوية الصدق (والوجه الثانى) فى التأويل أنه يقال فلان يمين فلان ، إذا كان عنده بالمنزلة الحسنة ، فقال هؤلاء الكفار لأئمتهم الذين أضلوهم وزينوا لهم الكفر : إنكم كنتم تخدعوننا وتوهموننا ، أننا عندكم بمنزلة اليمين ، أى بالمنزلة الحسنة ، فوثقنا بكم وقبلنا عنكم (الوجه الثالث) أن أئمة الكفار كانوا قد حلفوا لهؤلاء المستضعفين أن ما يدعونهم إليه هو الحق ، فوثقوا بأيمانهم وتمسكوا بعهودهم التى عهدوها لهم ، فمعنى قوله (كنتم تأتوننا عن اليمين) أى من ناحية المواثيق والأيمان التى قدمتموها لنا (الوجه الرابع) أن لفظ اليمين مستعار من القوة والقهر ، لأن اليمين موصوفة بالقهر وبها يقع البطش ، والمعنى أنكم كنتم تأتوننا عن القوة والقهر ، وتقصدوننا عن السلطان والغلبة حتى تحملونا على الضلال وتعيرونا عليه ، ثم حكى الله تعالى عن الرؤساء أنهم أجابوا الأتباع من وجوه (الأول) أنهم قالوا لهم (بل لم تكونوا مؤمنين) يعنى أنكم ما كنتم موصوفين بالإيمان حتى يقال إنا أزلناكم عنه (الثانى) قولهم (وما كان لنا عليكم من سلطان) يعنى لا قدرة لنا عليكم حتى نقهركم ونجبركم (الثالث) (بل كنتم قوما طاغين) أى ضالين غالين فى معصية الله (الرابع) قولهم (فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون) والمعنى أن الله تعالى لما أخبر عن

وقوعنا فى العذاب ، فلو لم يحصل وقوعنا فى العذاب لما كان خبر الله حقاً ، بل كان باطلا ، و كان خبر الله أمراً واجباً لاجرم ، كان الوقوع فى العذاب الأليم لازماً ، قال مقاتل قوله تعالى (فحق علينا قول ربنا) إشارة إلى قول الله لإبليس (لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) وقوله تعالى (إنا لذائقون) يعنى لما وجب أن يحق علينا قول ربنا وجب أن نكون ذائقين لهذا العذاب (الخامس) قولهم (فأغويناكم إنا كنا غاوين) والمعنى أنا إنما أقدمنا على أغوائكم لأنا كنا موصوفين فى أنفسنا بالغواية ، وفيه دقيقة أخرى ، كأنهم قالوا إن اعتقدتم أن غوايتكم بسبب إغوائنا فغوايتنا إن كانت بسبب إغواء غاو آخر ولزم التسلسل وذلك محال ، فعلمنا أن حصول الغواية والرشاد ليس من قبلنا ، بل من قبل غيرنا ، وذلك الغير هو الذى ذكره فيما قبل ، وهو قوله (فحق علينا قول ربنا) ولما حكى الله تعالى كلام الأتباع للرؤساء وكلام الرؤساء للأتباع قال بعده (فانهم يومئذ فى العذاب مشتركون) يعنى فالمتبوع والتابع والمخدوم والخادم مشتركون فى الوقوع فى العذاب كما كانوا فى الدنيا مشتركين فى الغواية ، ثم قال أيضاً (إنا كذلك نفعل بالمجرمين) وعنى بالمجرمين ، ههنا الكفار بدليل أنه تعالى قال بعد هذه الكلمة (إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون) والضمير فى قوله (إنهم) عائد إلى المذكور السابق وهو قوله (بالمجرمين) وهذا يدل على أن لفظ المجرم المطلق مختص فى القرآن بالكافر ، ثم بين تعالى أنهم إنما وقعوا فى ذلك العذاب لأنهم كانوا مكذبين بالتوحيد وبالنبوة ، أما التكذيب بالتوحيد فهو قوله تعالى (إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون) يعنى ينكرون ويتعصبون لإثبات الشرك ويستنكفون عن الإقرار بالتوحيد . وأما التكذيب بالنبوة فهو قولهم (أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون) ويعنون محمداً . ثم إنه تعالى كذبهم فى ذلك الكلام فقال (بل جاء بالحق وصدق المرسلون) وتقرير هذا الكلام أنه جاء بالدين الحق لأنه ثبت بالعقل أنه تعالى منزه عن الضد والند والشريك فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم بتقرير هذه المعانى كان مجيئه بالدين الحق ، قرأ ابن كثير (أينا لتاركوا آلهتنا) بهمزة وياء بعدها خفيفة ساكنة بلا مد ، وقرأ نافع فى رواية قالون وأبو عمرو على هذا التفسير يمدان والباقون بهمزتين بلا مد وقوله تعالى (وصدق المرسلون[1]) يعنى صدقهم فى مجيئهم بالتوحيد ونفى الشريك ، وهذا تنبيه على أن القول بالتوحيد دين لكل الأنبياء ، ولما حكى الله عنهم تكذيبهم بالتوحيد والنبوة نقل الكلام من الغيبة إلى الحضور فقال (إنكم لذائقوا العذاب الأليم) كأنه قيل فكيف يليق بالرحيم الكريم المتعالى عن النفع والضر أن يعذب عباده فأجاب عنه بقوله (وما تجزون إلا ما كنتم تعملون) والمعنى أن الحكم يقتضى الأمر بالحسن والطاعة والنهى عن القبيح والمعصية والأمر والنهى لا يكمل المقصود منهما

(١) وصدق المرسلون فى المصحف مرفوعة بالواو والنون . ولكن المفسر جرى فى تفسيره على أنها منصوبة بالياء والنون ومعنى قراءة الرفع أن المرسلين صدقوا فى كل ما اخبروا به وإنما شدد الدال من صدق للمبالغة فى وصفهم بالصدق . وقراءة الرفع عامة تشمل جميع الأنبياء ومنهم محمد . وأما قراءة النصب فلا تشمل نبينا عليه السلام إذ يكون الخطاب عنه .

أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾
عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ
﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾
كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾

إلا بالترغيب فى الثواب والترهيب بالعقاب وإذا وقع الإخبار عنه وجب تحقيقه صوناً للكلام عن الكذب ، فلهذا السبب وقعوا فى العذاب ثم قال (إلا عباد الله المخلصين) يعنى ولكن عباد الله [المخلصين ناجون وهو] من الاستثناء المنقطع .

قوله تعالى : ﴿ أولئك لهم رزق معلوم ، فواكه وهم مكرمون ، فى جنات النعيم ، على سرر متقابلين ، يطاف عليهم بكأس من معين ، بيضاء لذة للشاربين . لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون ، وعندهم قاصرات الطرف عين ، كأنهن بيض مكنون . فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما وصف أحوال المتكبرين عن قبول التوحيد المصرين على إنكار النبوة أردفه بذكر حال المخلصين فى كيفية الثواب ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكرنا فى فتح اللام وكسرها من المخلصين قراءتين فالفتح أن الله تعالى أخلصهم بلطفه واصطفاهم بفضله والكسر هو أنهم أخلصوا الطاعة لله تعالى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اعلم أنه تعالى وصف رزقهم بكونه معلوماً ، ولم يبين أن أى الصفات منه هو المعلوم فلذلك اختلفت الأقوال ، فقيل معناه إن ذلك الرزق معلوم الوقت وهو مقدار غدوة وعشية وإن لم يكن ثمة لا بكرة ولا عشية ، قال تعالى (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً) ، وقيل معناه أن ذلك الرزق معلوم الصفة لكونه مخصوصاً بخصائص خلقها الله فيه من طيب طعم ورائحة ولذة وحسن منظر ، وقيل معناه أنهم يتيقنون دوامه لا كرزق الدنيا الذى لا يعلم متى يحصل ولا متى ينقطع ، وقيل معناه : القدر الذى يستحقونه بأعمالهم من ثواب الله وكرامته عليهم ، وقد بين الله تعالى أنه يعطيهم غير ذلك على سبيل التفضل ، ثم لما ذكر تعالى أن لهم رزقاً بين أن ذلك الرزق ماهو فقال (فواكه) وفيه قولان (الأول) أن الفاكهة عبارة عما يؤكل لأجل التلذذ لا لأجل الحاجة ، وأرزاق أهل الجنة كلها فواكه لأنهم مستغنون عن حفظ الصحة بالأقوات

فإنهم أجسام محكمة مخلوقة للأبد ، فكل ما يأكلونه فهو على سبيل التلذذ (والثانى) أن المقصود من ذكر الفاكهة التنبيه بالأدنى على الأعلى ، يعنى لما كانت الفاكهة حاضرة أبداً كان الأدام أولى بالحضور ، والقول الأول أقرب إلى التحقيق ، واعلم أنه تعالى لما ذكر الأكل بين أن ذلك الأكل حاصل مع الإكرام والتعظيم فقال (وهم مكرمون) لأن الأكل الخالى عن التعظيم يليق بالبهائم .

ولما ذكر تعالى مأكولهم وصف تعالى مساكنهم فقال (فى جنات النعيم ، على سرر متقابلين) ومعناه أنه لا كلفة عليهم فى التلاقى للأنس والتخاطب ، وفى بعض الأخبار أنهم إذا أرادوا القرب سار السرير تحتهم ، ولا يجوز أن يكونوا متقابلين إلا مع حصول الخواطر والسرائر ولن يكونوا كذلك إلا مع الفسحة والسعة ، ولا يجوز أن يسمع بعضهم خطاب بعض ويراه على بعد إلا بأن يقوى الله أبصارهم وأسماعهم وأصواتهم ، ولما شرح الله صفة المأكل والمسكن ذكر بعده صفة الشراب فقال (يطاف عليهم بكأس من معين) يقال للزجاجة التى فيها الخمر كأس وتسمى الخمرة نفسها كأساً قال :

وكأس شربت على لذة [وأخرى تداويت منها بها]

وعن الأخفش : كل كأس فى القرآن فهى الخمر ، وقوله (من معين) أى من شراب معين ، أو من نهر معين ، المعين مأخوذ من عين الماء أى يخرج من العيون كما يخرج الماء وسمى معيناً لظهوره يقال عان الماء إذا ظهر جارياً ، قاله ثعلب فهو مفعول من العين نحو مبيع ومكيل ، وقيل سمى معيناً لأنه يجرى ظاهر العين ، ويجوز أن يكون فعيلا من المعين وهو الماء الشديد الجرى ومنه أمعن فى المسير إذا اشتد فيه ، وقوله (بيضاء) صفة للخمر ، قال الأخفش . خمر الجنة أشد بياضاً من اللبن ، وقوله (لذة) فيه وجوه (أحدها) أنها وصفت باللذة كأنها نفس اللذة وعينها كما يقال فلان جود وكرم إذا أرادوا المبالغة فى وصفه بهاتين الصفتين (وثانيها) قال الزجاج أى ذات لذة فعلى هذا حذف المضاف (وثالثها) قال الليث : اللذ واللذيذ يجريان مجرى واحداً فى النعت ويقال شراب لذ ولذيذ قال تعالى (بيضاء لذة الشاربين) وقال تعالى (من خمر لذة للشاربين) ولذلك سمى النوم لذاً لاستلذاذه ، وعلى هذا لذة بمعنى لذيذة . والأقرب من هذه الوجوه الأول .

ثم قال تعالى (لا فيها غول) وفيه أبحاث :

﴿البحث الأول﴾ قال الفراء العرب تقول ليس فيها غيلة وغائلة وغول سواء ، وقال أبو عبيدة الغول أن يغتال عقولهم ، وأنشد قول مطيع بن إياس :

وما زالت الكأس تغتالهم وتذهب بالأول الأول

وقال الليث : الغول الصداع والمعنى ليس فيها صداع كما فى خمر الدنيا ، قال الواحدى رحمه الله وحقيقته الإهلاك ، يقال غاله غولا أى أهلكه ، والغول والغائل المهلك ، ثم سمى الصداع غولا لأنه يؤدى إلى الهلاك .

ثم قال تعالى (ولا هم عنها ينزفون) وقرىء بكسر الزاى قال الفراء من كسر الزاى فله معنيان يقال أنزف الرجل إذا نفدت خمرته ، وأنزف إذا ذهب عقله من السكر ومن فتح الزاى فمعناه

قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾

لا يذهب عقولهم أى لا يسكرون يقال نزف الرجل فهو منزوف ونزيف ، والمعنى ليس فيها قط نوع من أنواع الفساد التى تكون فى شرب الخمر من صداع أو خمار أو عربدة ولا هم يسكرون أيضاً ، وخصه بالذكر لأنه أعظم المفاسد فى شرب الخمر ، ولما ذكر الله تعالى صفة مشروبهم ذكر عقيبه صفة منكوحهم من ثلاثة أوجه (الأول) قوله (وعندهم قاصرات الطرف) ومعنى القصر فى اللغة الحبس ومنه قوله تعالى (حور مقصورات فى الخيام) والمعنى أنهن يحبسن نظرهن ولا ينظرن إلى غير أزواجهن .

﴿ الصفة الثانية ﴾ قوله تعالى (عين) قال الزجاج كبار الأعين حسانها واحدها عيناء .

﴿ الصفة الثالثة ﴾ قوله تعالى (كأنهن بيض مكنون) المكنون فى اللغة المستور يقال كننت الشىء وأكننته ، ومعنى هذا التشبيه أن ظاهر البيض بياض يشوبه قليل من الصفرة ، فاذا كان مكنوناً كان مصوناً عن الغبرة والقترة ، فكان هذا اللون فى غاية الحسن والعرب كانوا يسمون النساء بيضات الخدور .

ولما تمم الله صفات أهل الجنة قال (فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) فان قيل على أى شىء عطف قوله (فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) ؟ قلنا على قوله (يطاف عليهم) والمعنى يشربون ويتحادثون على الشراب قال الشاعر :

وما بقيت من اللذات إلا محادثة الكرام على المدام

والمعنى فيقبل بعضهم على بعض يتساءلون عما جرى لهم وعليهم فى الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ قال قائل منهم إنى كان لى قرين ، يقولون أئنك لمن المصدقين . أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون ، قال هل أنتم مطلعون ، فاطلع فرآه فى سواء الجحيم ، قال تالله إن كدت لتردين ، ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين ، أفما نحن بميتين ، إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين ، إن هذا لهو الفوز العظيم لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾ فى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أنه تعالى كما ذكر فى أهل الجنة أنهم يتساءلون عند الاجتماع على

شرب خمر الجنة فان محادثة العقلاء بعضهم مع بعض على الشرب من الأمور اللذيذة ، وتذكر الخلاص عند اجتماع أسباب الهلاك من الأمور اللذيذة ، ذكر تعالى فى هذه الآية أن أهل الجنة إذا اجتمعوا على الشرب وأخذوا فى المكالمة والمساءلة كان من جملة تلك الكلمات أنهم يتذكرون أنهم كان قد حصل لهم فى الدنيا مايوجب لهم الوقوع فى عذاب الله ، ثم إنهم تخلصوا عنه وفازوا بالسعادة الأبدية ، والمقصود من ذكر هذه الأشياء أن أهل الجنة يتكامل سرورهم وبهجتهم .

أما قوله (قال قائل منهم إنى كان لى قرين) أى قال قائل من أهل الجنة إنى كان لى قرين فى الدنيا (يقول أئنك لمن المصدقين) أى كان يوبخنى على التصديق بالبعث والقيامة ويقول تعجباً (أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون) أى لمحاسبون ومجازون ، والمعنى أن ذلك القرين كان يقول هذه الكلمات على سبيل الاستنكار ، ثم إن ذلك الرجل الذى هو من أهل الجنة يقول لجلسائه يدعوهم إلى كمال السرور بالاطلاع إلى النار لمشاهدة ذلك القرين ومخاطبته (هل أنتم مطلعون . فاطلع) والأقرب أنه تكلف أمراً اطلع معه لأنه لو كان مطلعاً بلا تكلف لم يكن إلى اطلاعه حاجة فلذلك قال بعضهم إنه ذهب إلى بعض أطراف الجنة فاطلع عندها إلى النار (فرآه فى سواء الجحيم) أى فى وسط الجحيم قال له موبخاً (تالله إن كدت لتردين) أى لتهلكنى بدعائك إياى إلى إنكار البعث والقيامة (ولولا نعمة ربى) بالإرشاد إلى الحق والعصمة عن الباطل (لكنت من المحضرين) فى النار مثلك ، ولما تمم ذلك الكلام مع الرجل الذى كان فى الدنيا قريناً له وهو الآن من أهل النار عاد إلى مخاطبة جلسائه الذين هم من أهل الجنة فقال (أفما نحن بميتين) وفيه قولان (الأول) أن أهل الجنة لايعلمون فى أول دخولهم فى الجنة أنهم لايموتون ، فاذا جيء بالموت على صورة كبش أملح وذبح فعند ذلك يعلمون أنهم لا يموتون فلعل هذا الكلام حصل قبل ذبح الموت (والثانى) أن الذى يتكامل خيره وسعادته فاذا عظم تعجبه بها قد يقول أيدوم هذا لى ؟ أفيبقى هذا لى ؟ وإن كان على يقين من دوامه ، ثم عند فراغهم من هذه المباحثات يقولون (إن هذا لهو الفوز العظيم)

وأما قوله (لمثل هذا فليعمل العاملون) فقيل إنه من بقية كلامهم ، وقيل إنه ابتداء كلام من الله تعالى أى لطلب مثل هذه السعادات يجب أن يعمل العاملون .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال بعضهم المراد من هذا القائل ومن قرينه ماذكره الله تعالى فى سورة الكهف فى قوله (واضرب لهم مثلا رجلين) إلى آخر الآيات ، وروى أن رجلين كانا شريكين فحصل لهما ثمانية آلاف دينار فقال أحدهما للآخر أقاسمك فقاسمه واشترى داراً بألف دينار فأراها صاحبه وقال كيف ترى حسنها فقال ما أحسنها فخرج وقال اللهم إن صاحبى هذا قد ابتاع هذه الدار بألف دينار وإنى أسألك داراً من دور الجنة ، فتصدق بألف دينار ، ثم إن صاحبه تزوج بامرأة حسناء بألف دينار فتصدق هذا بألف دينار لأجل أن يزوجه الله من الحور العين ، ثم إن صاحبه اشترى بساتين بألفى دينار فتصدق هذا بألفى دينار ، ثم إن الله أعطاه فى الجنة ماطلب

أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا
شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ
لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾
ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ

فعند هذا قال (إنى كان لى قرين ـ إلى قوله ـ فاطلع فرآه فى سواء الجحيم) .

﴿ **المسألة الثالثة** ﴾ قوله (أئنك لمن المصدقين . أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون) اختلف القراء فى هذه الاستفهامات الثلاثة قرأ نافع الأولى والثانية بالاستفهام بهمزة غير ممدودة والثالثة بكسر الألف من غير استفهام . ووافقه الكسائى إلا أنه يستفهم الثالثة بهمزتين ، وقرأ ابن عامر الأولى والثالثة بالاستفهام بهمزتين والثانية بكسر الألف من غير استفهام ، وقرأ الباقون بالاستفهام فى جميعها ، ثم اختلفوا فابن كثير يستفهم بهمزة واحدة غير مطولة وبعدها ياء ساكنة خفيفة ، وأبو عمرو مطولة ، وعاصم وحمزة بهمزتين .

وأما قوله (إن كدت لتردين) قرأ نافع برواية ورش لتردينى بإثبات الياء فى الوصل والباقون بحذفها .

﴿ **المسألة الرابعة** ﴾ احتج أصحابنا على أن الهدى والضلال من الله تعالى بقوله تعالى (ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين) وقالوا مذهب الخصم أن كل مافعله الله تعالى من وجوه الإنعام فى حق المؤمن فقد فعله فى حق الكافر ، وإذا كان ذلك الإنعام مشتركا فيه امتنع أن يكون سبباً لحصول الهداية للمؤمن . وأن يكون سبباً لخلاصه من الكفر والردى فوجب أن تكون تلك النعمة المخصوصة أمراً زائداً على تلك الإنعامات التى حصل الاشتراك فيها . وما ذلك إلا بقوة الداعى إلى الإيمان وتكميل الصارف عن الكفر .

﴿ **المسألة الخامسة** ﴾ احتج نفاة عذاب القبر بقول الرجل الذى من أهل الجنة (أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى) فهذا يدل على أن الإنسان لا يموت إلا مرة واحدة ولو حصلت الحياة فى القبر لكان الموت حاصلا مرتين (والجواب) أن قوله (إلا موتتنا الأولى) المراد منه كل ما وقع فى الدنيا والله أعلم

قوله تعالى : ﴿ أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم . إنا جعلناها فتنة للظالمين . إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم . طلعها كأنه رءوس الشياطين . فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون . ثم إن لهم عليها

عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾

لشوباً من حميم ، ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم ، إنهم ألفوا آباءهم ضالين ، فهم على آثارهم يهرعون ، ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين ، ولقد أرسلنا فيهم منذرين ، فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ، إلا عباد الله المخلصين ﴾ .

إعلم أنه تعالى لما قال بعد ذكر أهل الجنة ووصفها (لمثل هذا فليعمل العاملون) أتبعه بقوله (أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم) فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يورد ذلك على كفار قومه ليصير ذلك زاجراً لهم عن الكفر ، وكما وصف من قبل مآكل أهل الجنة ومشاربهم وصف أيضاً فى هذه الآية مآكل أهل النار ومشاربهم .

أما قوله (أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم) فالمعنى أن الرزق المعلوم المذكور لأهل الجنة (خير نزلا) أى خير حاصلا (أم شجرة الزقوم) وأصل النزل الفضل الواسع فى الطعام يقال طعام كثير النزل ، فاستعير للحاصل من الشىء ، ويقال أرسل الأمير إلى فلان نزلا وهو الشىء الذى يصلح حال من ينزل بسببه ، إذا عرفت هذا فنقول حاصل الرزق المعلوم لأهل الجنة اللذة والسرور ، وحاصل شجرة الزقوم الألم والغم ، ومعلوم أنه لا نسبة لأحدهما إلى الآخر فى الخيرية إلا أنه جاء هذا الكلام ، إما على سبيل السخرية بهم أو لأجل أن المؤمنين لما اختاروا ما أوصلهم إلى الرزق الكريم ، والكافرين اختاروا ما أوصلهم إلى العذاب الأليم فقيل لهم ذلك توبيخاً لهم على سوء اختيارهم ، وأما (الزقوم) فقال الواحدى رحمه الله لم يذكر المفسرون للزقوم تفسيراً إلا الكلبى فانه روى أنه لما نزلت هذه الآية قال ابن الزبعرى أكثر الله فى بيوتكم الزقوم ، فان أهل اليمن يسمون التمر والزبد بالزقوم ، فقال أبو جهل لجاريته زقمينا فأتته بزبد وتمر ، وقال تزقموا . ثم قال الواحدى ومعلوم أن الله تعالى لم يرد بالزقوم ههنا الزبد والتمر ، قال ابن دريد لم يكن للزقوم اشتقاق من التزقم وهو الإفراط من أكل الشىء حتى يكره ذلك يقال بات فلان يتزقم . وظاهر لفظ القرآن يدل على أنها شجرة كريهة الطعم منتنة الرائحة شديدة الخشونة موصوفة بصفات كل من تناولها عظم من تناولها ، ثم إنه تعالى يكره أهل النار على تناول بعض أجزائها .

أما قوله تعالى (إنا جعلناها فتنة للظالمين) ففيه أقوال : (الأول) أنها إنما صارت فتنة للظالمين ، من حيث إن الكفار لما سمعوا هذه الآية ، قالوا كيف يعقل أن تنبت الشجرة فى جهنم

مع أن النار تحرق الشجرة ؟ والجواب عنه أن خالق النار قادر على أن يمنع النار من إحراق الشجر ، ولأنه إذا جاز أن يكون فى النار زبانية والله تعالى يمنع النار عن إحراقهم فلم لا يجوز مثله فى هذه الشجرة ؟ إذا عرفت هذا السؤال والجواب فمعنى كون شجرة الزقوم فتنة للظالمين هو أنهم لما سمعوا هذه الآية وقعت تلك الشبهة فى قلوبهم وصارت تلك الشبهة سبباً لتماديهم فى الكفر فهذا هو المراد من كونها فتنة لهم (والوجه الثانى) فى التفسير أن يكون المراد صيرورة هذه الشجرة فتنة لهم فى النار لأنهم إذا كلفوا تناولها وشق ذلك عليهم ، فحينئذ يصير ذلك فتنة فى حقهم (الوجه الثالث) أن يكون المراد من الفتنة الامتحان والاختبار ، فان هذا شىء بعيد عن العرف والعادة مخالف للمألوف والمعروف ، فإذا ورد على سمع المؤمن فوض علمه إلى الله وإذا ورد على الزنديق توسل به إلى الطعن فى القرآن والنبوة .

ثم إنه تعالى لما ذكر هذه الشجرة وصفها بصفات : (الصفة الأولى) قوله إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم قيل منبتها فى قعر جهنم وأغصانها ترتفع إلى دركاتها (الصفة الثانية) قوله (طلعها كأنه رءوس الشياطين) قال صاحب الكشاف : الطلع للنخلة فاستعير لما طلع من شجرة الزقوم من حملها ، إما استعارة لفظية أو معنوية ، وقال ابن قتيبة سمى (طلعاً) لطلوعه كل سنة ، ولذلك قيل طلع النخل لأول ما يخرج من ثمره ، وأما تشبيه هذا الطلع برءوس الشياطين ففيه سؤال ، لأنه قيل إنا ما رأينا رءوس الشياطين فكيف يمكن تشبيه شىء بها ؟ وأجابوا عنه من وجوه : (الأول) وهو الصحيح أن الناس لما اعتقدوا فى الملائكة كمال الفضل فى الصورة والسيرة واعتقدوا فى الشياطين نهاية القبح والتشويه فى الصورة والسيرة ، فكما حسن التشبيه بالملك عند إرادة تقرير الكمال والفضيلة فى قوله (إن هذا إلا ملك كريم) فكذلك وجب أن يحسن التشبيه برءوس الشياطين فى القبح وتشويه الخلقة ، والحاصل أن هذا من باب التشبيه لا بالمحسوس بل بالمتخيل ، كأنه قيل إن أقبح الأشياء فى الوهم والخيال هو رءوس الشياطين فهذه الشجرة تشبهها فى قبح النظر وتشويه الصورة ، والذى يؤكد هذا أن العقلاء إذا رأوا شيئاً شديداً الاضطراب منكر الصورة قبيح الخلقة ، قالوا إنه شيطان ، وإذا رأوا شيئاً حسن الصورة والسيرة ، قالوا إنه ملك ، وقال امرؤ القيس :

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال

(والقول الثانى) أن الشياطين حيات لها رءوس وأعراف ، وهى من أقبح الحيات ، وبها يضرب المثل فى القبح ، والعرب إذا رأت منظراً قبيحاً قالت كأنه شيطان الحماطة ، والحماطة شجرة معينة (والقول الثالث) أن رءوس الشياطين ، نبت معروف قبيح الرأس ، والوجه الأول هو الجواب الحق ، واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه الشجرة وذكر صفتها بين أن الكفار (لآكلون منها فمالئون منها البطون) واعلم أن إقدامهم على ذلك الأكل يحتمل وجهين : (الأول) أنهم أكلوا منها لشدة الجوع ، فان قيل وكيف يأكلونها مع نهاية خشونتها ونتنها ومرارة

طعمها؟ قلنا إن الواقع فى الضرر العظيم ربما استروح منه إلى ما يقاربه فى الضرر، فاذا جوعهم الله الجوع الشديد فزعوا فى إزالة ذلك الجوع إلى تناول هذا الشىء. وإن كان بالصفة التى ذكرتموها (الوجه الثانى) أن يقال الزبانية يكرهونهم على الأكل من تلك الشجرة تكميلا لعذابهم.

واعلم أنهم إذا شبعوا فحينئذ يشتد عطشهم ويحتاجون إلى الشراب، فعند هذا وصف الله شرابهم، فقال (ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم) قال الزجاج: الشوب اسم عام فى كل ما خلط بغيره، والحميم الماء الحار المتناهى فى الحرارة، والمعنى أنه إذا غلبهم ذلك العطش الشديد سقوا من ذلك الحميم، فحينئذ يشوب الزقوم بالحميم نعوذ بالله منهما.

واعلم أن الله وصف شرابهم فى القرآن بأشياء منها كونه غساقاً، ومنها قوله (وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم) ومنها ماذكره فى هذه الآية، فان قيل ما الفائدة فى كلمة (ثم) فى قوله (ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم)؟ قلنا فيه وجهان (الأول) أنهم يملأون بطونهم من شجرة الزقوم وهو حار يحرق بطونهم فيعظم عطشهم، ثم إنهم لا يسقون إلا بعد مدة مديدة والغرض تكميل التعذيب، (والثانى) أنه تعالى ذكر الطعام بتلك البشاعة والكراهة، ثم وصف الشراب بما هو أبشع منه، فكان المقصود من كلمة ثم بيان أن حال المشروب فى البشاعة أعظم من حال المأكول، ثم قال تعالى (ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم) قال مقاتل: أى بعد أكل الزقوم وشرب الحميم، وهذا يدل على أنهم عند شرب الحميم لم يكونوا فى الجحيم، وذلك بأن يكون الحميم من موضع خارج عن الجحيم، فهم يوردون الحميم لأجل الشرب كما تورد الابل إلى الماء، ثم يوردون إلى الجحيم، فهذا قول مقاتل، واحتج على صحته بقوله تعالى (هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن) وذلك يدل على صحة ما ذكرناه، ثم إنه تعالى لما وصف عذابهم فى أكلهم وشربهم قال (إنهم ألفوا آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون) قال الفراء: الإهراع الإسراع يقال هرع وأهرع إذا استحث، والمعنى أنهم يتبعون آباءهم اتباعاً فى سرعة كأنهم يزعجون إلى اتباع آبائهم، والمقصود من الآية أنه تعالى علل استحقاقهم للوقوع فى تلك الشدائد كلها بتقليد الآباء فى الدين وترك اتباع الدليل، ولو لم يوجد فى القرآن آية غير هذه الآية فى ذم التقليد لكفى.

ثم إنه تعالى ذكر لرسوله ما يوجب التسلية له فى كفرهم وتكذيبهم، فقال (ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين، ولقد أرسلنا فيهم منذرين) فبين تعالى أن إرساله للرسل قد تقدم والتكذيب لهم قد سلف، ويجب أن يكون له ﷺ أسوة بهم حتى يصبر كما صبروا، ويستمر على الدعاء إلى الله وإن تمردوا، فليس عليه إلا البلاغ.

ثم قال تعالى (فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) وهذا وإن كان فى الظاهر خطاباً مع الرسول ﷺ، إلا أن المقصود منه خطاب الكفار لأنهم سمعوا بالأخبار جميع ما جرى من أنواع العذاب على قوم نوح وعلى عاد وثمود وغيرهم، فان لم يعلموا ذلك فلا أقل من ظن وخوف يصلح أن

وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ
﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ
عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾

يكون زاجراً لهم عن كفرهم . وقوله تعالى (إلا عباد الله المخلصين) فيه قولان (أحدهما) أنه استثناء من قوله (ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين) (والثانى) أنه استثناء من قوله (كيف كان عاقبة المنذرين) فانها كانت أقبح العواقب وأفظعها إلا عاقبة عباد الله المخلصين ، فانها كانت مقرونة بالخير والراحة .

﴿ القصة الأولى ـ قصة نوح عليه السلام ﴾

قوله تعالى :﴿ ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون ، ونجيناه وأهله من الكرب العظيم ، وجعلنا ذريته هم الباقين ، وتركنا عليه فى الآخرين ، سلام على نوح فى العالمين ، إنا كذلك نجزى المحسنين ، إنه من عبادنا المؤمنين ، ثم أغرقنا الآخرين ﴾

اعلم أنه تعالى لما قال من قبل (ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين) وقال (فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) أتبعه بشرح وقائع الأنبياء عليهم السلام (فالقصة الأولى) حكاية حال نوح عليه السلام وقوله (ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون) فيه مباحث :

﴿ الأول ﴾ أن اللام فى قوله (فلنعم المجيبون) جواب قسم محذوف والمخصوص بالمدح محذوف ، أى فلنعم المجيبون نحن .

﴿ البحث الثانى ﴾ أنه تعالى ذكر أن نوحاً نادى ولم يذكر أن ذلك النداء فى أىّ الوقائع كان ؟ لا جرم حصل فيه قولان (الأول) وهو المشهور عند الجمهور أنه نادى الرب تعالى فى أن ينجيه من محنة الغرق وكرب تلك الواقعة (والقول الثانى) أن نوحاً عليه السلام لما اشتغل بدعوة قومه إلى الدين الحق بالغوا فى إيذائه وقصدوا قتله . ثم إنه عليه السلام نادى ربه واستنصره على كفار قومه . فأجابه الله تعالى ومنعهم من قتله وإيذائه ، واحتج هذا القائل على ضعف القول الأول بأنه عليه السلام إنما دعا عليهم لأجل أن ينجيه الله تعالى وأهله ، وأجاب الله دعاءه فيه فكان حصول تلك النجاة كالمعلوم المتيقن فى دعائه ، وذلك يمنع من أن يقال المطلوب من هذا النداء حصول هذه النجاة .
ثم انه تعالى لما حكى عن نوح أنه ناداه قال بعده (فلنعم المجيبون) وهذه اللفظة تدل على أن

وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ
وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم
بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا

تلك الإجابة كانت من النعم العظيمة ، وبيانه من وجوه (الأول) أنه تعالى عبر عن ذاته بصيغة الجمع فقال (ولقد نادانا نوح) والقادر العظيم لا يليق به إلا الإحسان العظيم (والثانى) أنه أعاد صيغة الجمع فى قوله (فلنعم المجيبون) وذلك أيضاً يدل على تعظيم تلك النعمة . لا سيما وقد وصف تلك الإجابة بأنها نعمت الإجابة (والثالث) أن الفاء فى قوله (فلنعم المجيبون) يدل على أن حصول هذه الإجابة مرتب على ذلك النداء ، والحكم المرتب على الوصف المناسب يقتضى كونه معللا به ، وهذا يدل على أن النداء بالإخلاص سبب لحصول الإجابة ، ثم إنه تعالى لما بين أنه سبحانه نعم المجيب على سبيل الإجمال ، بين أن الإنعام حصل فى تلك الإجابة من وجوه (الأول) قوله تعالى (ونجيناه وأهله من الكرب العظيم) وهو على القول الأول الكرب الحاصل بسبب الخوف من الغرق ، وعلى الثانى الكرب الحاصل من أذى قومه (والثانى) قوله (وجعلنا ذريته هم الباقين) يفيد الحصر وذلك يدل على أن كل من سواه وسوى ذريته فقد فنوا ، قال ابن عباس ذريته بنوه الثلاثة : سام وحام ويافث ، فسام أبو العرب وفارس والروم ، وحام أبو السودان ، ويافث أبو الترك .

﴿ النعمة الثالثة ﴾ قوله تعالى (وتركنا عليه فى الآخرين ، سلام على نوح فى العالمين ﴾ يعنى يذكرون هذه الكلمة ، فان قيل فما معنى قوله (فى العالمين) قلنا معناه الدعاء بثبوت هذه التحية فيهم جميعاً أى لا يخلو أحد منهم منها ، كأنه قيل أثبت الله التسليم على نوح وأدامه فى الملائكة والثقلين فيسلمون عليه بكليتهم ، ثم إنه تعالى لما شرح تفاصيل إنعامه عليه قال (إنا كذلك نجزى المحسنين) والمعنى أنا إنما خصصنا نوحاً عليه السلام بتلك التشريفات الرفيعة من جعل الدنيا مملوأة من ذريته ومن تبقية ذكره الحسن فى ألسنة جميع العالمين لأجل أنه كان محسناً ، ثم علل كونه محسناً بأنه كان عبداً لله مؤمناً ، والمقصود منه بيان أن أعظم الدرجات وأشرف المقامات الإيمان بالله والانقياد لطاعته .

﴿ القصة الثانية ـ قصة إبراهيم عليه السلام ﴾

قوله تعالى : ﴿ وإن من شيعته لإبراهيم ، إذ جاء ربه بقلب سليم ، إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون ، أئفكا آلهة دون الله تريدون ، فما ظنكم برب العالمين ، فنظر نظرة فى النجوم ، فقال إنى سقيم ، فتولوا

عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾

عنه مدبرين . فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون . مالكم لا تنطقون . فراغ عليهم ضرباً باليمين . فأقبلوا إليه يزفون ﴾ فى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الضمير فى قوله من شيعته إلى ماذا يعود ؟ فيه قولان (الأول) وهو الأظهر أنه عائد إلى نوح عليه السلام أى من شيعة نوح أى من أهل بيته وعلى دينه ومنهاجه لإبراهيم ، قالوا وماكان بين نوح وإبراهيم إلا نبيان هود وصالح ، وروى صاحب الكشاف أنه كان بين نوح وإبراهيم ألفان وستمائة وأربعون سنة (الثانى) قال الكلبى المراد من شيعة محمد لإبراهيم بمعنى أنه كان على دينه ومنهاجه فهو من شيعته وإن كان سابقاً له والأول أظهر ، لأنه تقدم ذكر نوح عليه السلام ، ولم يتقدم ذكر النبى ﷺ فعود الضمير إلى نوح أولى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ العامل فى (إذ) ما دل عليه قوله (وإن من شيعته) من معنى المشايعة يعنى وإن ممن شايعه على دينه وتقواه حين جاء ربه بقلب سليم لإبراهيم .

أما قوله (إذ جاء ربه بقلب سليم) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى قوله (بقلب سليم) قولان (الأول) قال مقاتل والكلبى يعنى خالص من الشرك ، والمعنى أنه سلم من الشرك فلم يشرك بالله (والثانى) قال الأصوليون المراد أنه عاش ومات على طهارة القلب من كل دنس من المعاصى ، فيدخل فيه كونه سليما عن الشرك وعن الشك وعن الغل والغش والحقد والحسد . عن ابن عباس أنه كان يحب للناس مايحب لنفسه ، وسلم جميع الناس من غشه وظلمه وأسلمه الله تعالى فلم يعدل به أحداً ، واحتج الذاهبون إلى القول الأول بأنه تعالى ذكر بعد هذه الكلمة إنكاره على قومه الشرك بالله ، وهو قوله (إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون) واحتج الذاهبون إلى القول الثانى بأن اللفظ مطلق فلا يقيد بصفة دون صفة ، ويتأكد هذا بقوله تعالى (ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين) مع أنه تعالى قال (الله أعلم حيث يجعل رسالته) وقال (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين) فإن قيل ما معنى المجيء بقلبه ربه ؟ قلنا معناه أنه أخلص لله قلبه ، فكأنه أتحف حضرة الله بذلك القلب ، ورأيت فى التوراة أن الله قال لموسى أجب إلهك بكل قلبك .

واعلم أنه تعالى لما ذكر أن إبراهيم جاء ربه بقلب سليم ذكر أن من جملة آثار تلك السلامة أن دعا أباه وقومه إلى التوحيد فقال (إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون) والمقصود من هذا الكلام تهجين تلك الطريقة وتقبيحها .

ثم قال (أئفكا آلهة دون الله تريدون) قال صاحب الكشاف أئفكا مفعول له تقديره أتريدون آلهة من دونه إفكا، وإنما قدم المفعول على الفعل للعناية وقدم المفعول له على المفعول به لأنه كان الأهم عنده أن يقرر عندهم بأنهم على إفك وباطل فى شركهم، ويجوز أن يكون إفكا مفعولا به يعنى أتريدون إفكا، ثم فسر الإفك بقوله (آلهة دون الله) على أنها إفك فى أنفسها، ويجوز أن يكون حالا بمعنى تريدون آلهة من دون الله آفكين .

ثم قال (فما ظنكم برب العالمين) وفيه وجهان (أحدهما) أتظنون برب العالمين أنه يجوز جعل هذه الجمادات مشاركة له فى المعبودية (وثانيها) أتظنون برب العالمين أنه من جنس هذه الأجسام حتى جعلتموها مساوية له فى المعبودية فنبههم بذلك على أنه ليس كمثله شيء .

ثم قال (فنظر نظرة فى النجوم فقال إنى سقيم) عن ابن عباس أنهم كانوا يتعاطون علم النجوم فعاملهم على مقتضى عادتهم، وذلك أنه أراد أن يكايدهم فى أصنامهم ليلزمهم الحجة فى أنها غير معبودة وكان لهم من الغد يوم عيد يخرجون إليه فأراد أن يتخلف عنهم ليبقى خالياً فى بيت الأصنام فيقدر على كسرها وههنا سؤالان (الأول) أن النظر فى علم النجوم غير جائز فكيف أقدم عليه إبراهيم (والثانى) أنه عليه السلام ما كان سقيما فلما قال إنى سقيم كان ذلك كذباً . واعلم أن العلماء ذكروا فى الجواب عنهما وجوهاً كثيرة (الأول) أنه نظر نظرة فى النجوم فى أوقات الليل والنهار وكانت تأتيه سقامة كالحمى فى بعض ساعات الليل والنهار، فنظر ليعرف هل هى فى تلك الساعة وقال (إنى سقيم) لجعله عذراً فى تخلفه عن العيد الذى لهم وكان صادقاً فيما قال، لأن السقم كان يأتيه فى ذلك الوقت، وإنما تخلف لأجل تكسير أصنامهم (الوجه الثانى) فى الجواب أن قوم إبراهيم عليه السلام كانوا أصحاب النجوم يعظمونها ويقضون بها على غائب الأمور . فلذلك نظر إبراهيم فى النجوم أى فى علوم النجوم وفى معانيه لا أنه نظر بعينه إليها، وهو كما يقال فلان نظر فى الفقه وفى النحو وإنما أراد أن يوهمهم أنه يعلم ما يعلمون ويتعرف من حيث يتعرفون حتى إذا قال (انى سقيم) سكنوا إلى قوله .

أما قوله (إنى سقيم) فمعناه سأسقم كقوله (إنك ميت) أى ستموت (الوجه الثالث) أن قوله (فنظر نظرة فى النجوم) هو قوله تعالى (فلما جن عليه الليل رأى كوكباً) إلى آخر الآيات وكان ذلك النظر لأجل أن يتعرف أحوال هذه الكواكب هل هى قديمة أو محدثة، وقوله (إنى سقيم) يعنى سقيم القلب غير عارف بربى وكان ذلك قبل البلوغ (الوجه الرابع) قال ابن زيد كان له نجم مخصوص. وكلما طلع على صفة مخصوصة مرض إبراهيم ولأجل هذا الاستقراء لما رآه فى ذلك الوقت طالعاً على تلك الصفة المخصوصة قال (إنى سقيم) أى هذا السقم واقع لا محالة (الوجه الخامس) أن قوله (إنى سقيم) أى مريض القلب بسبب إطباق ذلك الجمع العظيم على الكفر والشرك، قال تعالى لمحمد ﷺ (لعلك باخع نفسك) (الوجه السادس) فى الجواب أنا لا نسلم أن النظر فى

علم النجوم والاستدلال بمقايستها حرام . لأن من اعتقد أن الله تعالى خص كل واحد من هذه الكواكب بقوة وبخاصية لأجلها يظهر منه أثر مخصوص . فهذا العلم على هذا الوجه ليس بباطل . وأما الكذب فغير لازم لأنه ذكر قوله (إنى سقيم) على سبيل التعريض بمعنى أن الإنسان لاينفك فى أكثر أحواله عن حصول حالة مكروهة . إما فى بدنه وإما فى قلبه وكل ذلك سقم . (الوجه السابع) قال بعضهم ذلك القول عن ابراهيم عليه السلام كذبة ورووا فيه حديثاً عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما كذب ابراهيم إلا ثلاث كذبات » قلت لبعضهم هذا الحديث لاينبغى أن يقبل لأن نسبة الكذب إلى إبراهيم لاتجوز فقال ذلك الرجل فكيف يحكم بكذب الرواة العدول ؟ فقلت لما وقع التعارض بين نسبة الكذب إلى الراوى وبين نسبته إلى الخليل عليه السلام كان من المعلوم بالضرورة أن نسبته إلى الراوى أولى ، ثم نقول لم لا يجوز أن يكون المراد بكونه كذباً خبراً شبيهاً بالكذب ؟(والوجه الثامن) أن المراد من قوله فنظر نظرة فى النجوم أى نظر فى نجوم كلامهم ومتفرقات أقوالهم ، فان الأشياء التى تحدث قطعة قطعة يقال إنها منجمة أى متفرقة ومنه نجوم الكتابة . والمعنى أنه لما سمع كلماتهم المتفرقة نظر فيها كى يستخرج منها حيلة يقدر بها على إقامة عذر لنفسه فى التخلف عنهم فلم يجد عذراً أحسن من قوله (إنى سقيم) والمراد أنه لا بد من أن أصير سقيماً كما تقول لمن رأيته على أوقات السفر إنك مسافر . واعلم أن إبراهيم عليه السلام لما قال (إنى سقيم) تولوا عنه معرضين فتركوه وعذروه فى أن لايخرج اليوم فكان ذلك مراده (فراغ إلى آلهتهم) يقال راغ إليه إذا مال إليه فى السر على سبيل الخفية ، ومنه روغان الثعلب . وقوله (ألا تأكلون) يعنى الطعام الذى كان بين أيديهم ، وإنما قال ذلك استهزاء بها ، وكذا قوله (ما لكم لا تنطقون ، فراغ عليهم ضرباً) فأقبل عليهم مستخفياً كأنه قال فضربهم ضرباً لأن راغ عليهم فى معنى ضربهم أو فراغ عليهم ضرباً بمعنى ضارباً . وفى قوله (باليمين) قولان (الأول) معناه بالقوة والشدة لأن اليمين أقوى الجارحتين (والثانى) أنه أتى بذلك الفعل بسبب الحلف ، وهو قوله تعالى عنه (وتالله لأكيدن أصنامكم) ثم قال (فأقبلوا إليه يزفون) قرأ حمزة (يزفون) بضم الياء والباقون بفتحها وهما لغتان ، قال ابن عرفة من قرأ بالنصب فهو من زف يزف ، ومن قرأ بالضم فهو من أزف يزف ، قال الزجاج : يزفون يسرعون وأصله من زفيف النعامة وهو ابتداء عدوها ، وقرأ حمزة يزفون أى يحملون غيرهم على الزفيف ، قال الأصمعى يقال أزففت الإبل إذا حملتها على أن تزف ، قال وهو سرعة الخطو ومقاربة المشى والمفعول محذوف على قراءته كأنهم حملوا دوابهم على الإسراع فى المشى ، فان قيل مقتضى هذه الآية أن إبراهيم عليه السلام لما كسرها عدوا إليه وأخذوه ، وقال فى سورة أخرى فى عين هذه القصة (قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ، قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم) وهذا يقتضى أنهم فى أول الأمر ماعرفوه فبين هاتين الآيتين تناقض ؟ قلنا لايبعد أن يقال إن جماعة

قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا
فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي
ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ
حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾

عرفوه فعمدوا إليه مسرعين . والأكثرون ماعرفوه فتعرفوا أن ذلك الكاسر من هو ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قال أتعبدون ما تنحتون ، والله خلقكم وما تعملون ، قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم ، فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين ، وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين ، رب هب لي من الصالحين ، فبشرناه بغلام حليم ﴾ وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أن القوم لما عاتبوا إبراهيم على كسر الأصنام فهو أيضاً ذكر لهم الدليل الدال على فساد المصير إلى عبادتها فقال (أتعبدون ماتنحتون ، والله خلقكم وما تعملون) ووجه الاستدلال ظاهر وهو أن الخشب والحجر قبل النحت والإصلاح ما كان معبوداً للانسان البتة . فاذا نحته وشكله على الوجه المخصوص لم يحدث فيه إلا آثار تصرفه ، فلو صار معبوداً عند ذلك لكان معناه أن الشيء الذي ما كان معبوداً لما حصلت آثار تصرفاته فيه صار معبوداً عند ذلك ، وفساد ذلك معلوم ببديهة العقل .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج جمهور الأصحاب بقوله (والله خلقكم وما تعملون) على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى فقال النحويون : اتفقوا على أن لفظ ما مع ما بعده في تقدير المصدر فقوله (وما تعملون) معناه وعملكم ، وعلى هذا التقدير صار معنى الآية والله خلقكم وخلق عملكم ، فان قيل هذه الآية حجة عليكم من وجوه (الأول) أنه تعالى قال (أتعبدون ما تنحتون) أضاف العبادة والنحت إليهم إضافة الفعل إلى الفاعل ولو كان ذلك واقعاً بتخليق الله لاستحال كونه فعلا للعبد (الثاني) أنه تعالى إنما ذكر هذه الآية توبيخاً لهم على عبادة الأصنام ، لأنه تعالى بين أنه خالقهم وخالق لتلك الأصنام والخالق هو المستحق للعبادة دون المخلوق . فلما تركوا عبادته سبحانه وهو خالقهم وعبدوا الاصنام لاجرم أنه سبحانه وتعالى وبخهم على هذا الخطأ العظيم فقال : (أتعبدون ماتنحتون والله خلقكم وماتعملون) ولولم يكونوا فاعلين لأفعالهم لما جاز توبيخهم عليها سلمنا أن هذه الآية ليست حجة عليكم لكن لانسلم أنها حجة لكم ، قوله لفظة ما مع مابعدها في تقدير المصدر ، قلنا هذا ممنوع وبيانه أن سيبويه والأخفش اختلفا في أنه هل يجوز أن يقال أعجبني

ماقمت أى قيامك فجوزه سيبويه ومنعه الأخفش وزعم أن هذا لايجوز إلا فى الفعل المتعدى وذلك يدل على أن ما مع مابعدها فى تقدير المفعول عند الأخفش ، سلمنا أن ذلك قد يكون بمعنى المصدر . لكنه أيضاً قد يكون بمعنى المفعول ويدل عليه وجوه (الاول) قوله (أتعبدون ما تنحتون) والمراد بقوله (ما تنحتون) المنحوت لا النحت لأنهم ماعبدوا النحت وإنما عبدوا المنحوت فوجب أن يكون المراد بقوله (ما تعملون) المعمول لا العمل حتى يكون كل واحد من هذين اللفظين على وفق الآخر (والثانى) أنه تعالى قال (فاذا هى تلقف ما يأفكون) وليس المراد أنها تلقف نفس الإفك بل أراد العصى والحبال التى هى متعلقات ذلك الإفك فكذا ههنا (الثالث) أن العرب تسمى محل العمل عملا يقال فى الباب والخاتم هذا عمل فلان والمراد محل عمله فثبت بهذه الوجوه الثلاثة أن لفظة ما مع بعدها كما تجيء بمعنى المصدر فقد تجيء أيضاً بمعنى المفعول فكان حمله ههنا على المفعول أولى لأن المقصود فى هذه الآية تزييف مذهبهم فى عبادة الأصنام لا بيان أنهم لا يوجدون أفعال أنفسهم ، لأن الذى جرى ذكره فى أول الآية إلى هذا الموضع هو مسألة عبادة الأصنام لا خلق الأعمال . واعلم أن هذه السؤالات قوية وفى دلائلنا كثرة ، فالأولى ترك الاستدلال بهذه الآية والله أعلم .

واعلم أن إبراهيم عليه السلام لما أورد عليهم هذه الحجة القوية ولم يقدروا على الجواب عدلوا إلى طريق الإيذاء (فقالوا ابنوا له بنياناً) واعلم أن كيفية ذلك البناء لايدل عليها لفظ القرآن ، قال ابن عباس : بنو حائطاً من حجر طوله فى السماء ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً وملأوه ناراً فطرحوه فيها ، وذلك هو قوله تعالى (فألقوه فى الجحيم) وهى النار العظيمة ، قال الزجاج : كل نار بعضها فوق بعض فهى جحيم ، والألف واللام فى الجحيم يدل على النهاية والمعنى فى جحيمه ، أى فى جحيم ذلك البنيان ، ثم قال تعالى (فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين) والمعنى أن فى وقت المحاجة حصلت الغلبة له ، وعندما ألقوه فى النار صرف الله عنه ضرر النار ، فصار هو الغالب عليهم. واعلم أنه لما انقضت هذه الواقعة قال إبراهيم (إنى ذاهب إلى ربى سيهدين) ونظير هذه الآية قوله تعالى (وقال إنى مهاجر إلى ربى) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ دلت هذه الآية على أن الموضع الذى تكثر فيه الأعداء تجب مهاجرته ، وذلك لأن إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه ، مع أن الله سبحانه خصه بأعظم أنواع النصرة ، لما أحس منهم بالعداوة الشديدة هاجر من تلك الديار ، فلأن يجب ذلك على الغير كان أولى

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى قوله (إنى ذاهب إلى ربى) قولان (الأول) المراد منه مفارقة تلك الديار ، والمعنى إنى ذاهب إلى مواضع دين ربى (والقول الثانى) قال الكلبى : ذاهب بعبادتى إلى ربى ، فعلى القول الأول المراد بالذهاب إلى الرب هو الهجرة من الديار ، وبه اقتدى موسى حيث قال (كلا إن معى ربى سيهدين) وعلى القول الثانى المراد رعاية أحوال القلوب ، وهو أن لا يأتى

بشيء من الأعمال إلا لله تعالى ، كما قال (وجهت وجهي للذى فطر السموات والأرض) قيل إن القول الأول أولى ، لأن المقصود من هذه الآية بيان مهاجرته إلى أرض الشأم ، وأيضاً يبعد حمله على الهداية في الدين ، لأنه كان على الدين فى ذلك الوقت إلا أن يحمل ذلك على الثبات عليه ، أو يحمل ذلك على الاهتداء إلى الدرجات العالية والمراتب الرفيعة فى أمر الدين .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (سيهدين) يدل على أن الهداية لا تحصل إلا من الله تعالى ، كما يقول أصحابنا ولا يمكن حمل هذه الهداية على وضع الأدلة وإزاحة الأعذار . لأن كل ذلك قد حصل فى الزمان الماضى ، وقوله (سيهدين) يدل على اختصاص تلك الهداية بالمستقبل ، فوجب حمل الهداية فى هذه الآية على تحصيل العلم والمعرفة فى قلبه . فان قيل إبراهيم عليه السلام جزم فى هذه الآية بأنه تعالى سيهديه ، وأن موسى عليه السلام لم يجزم به ، بل قال (عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل) فما الفرق؟ قلنا العبد إذا تجلى له مقامات رحمة الله فقد يجزم بحصول المقصود ، وإذا تجلى له مقامات كونه غنياً عن العالمين ، فحينئذ يستحقر نفسه فلا يجزم ، بل لا يظهر إلا الرجاء والطمع .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله تعالى (إنى ذاهب إلى ربى) يدل على فساد تمسك المشبهة بقوله تعالى (إليه يصعد الكلم الطيب) لأن كلمة إلى موجودة فى قوله (إنى ذاهب إلى ربى) مع أنه لم يلزم أن يكون الإله موجوداً فى ذلك المكان ، فكذلك ههنا .

واعلم أنه صلوات الله عليه لما هاجر إلى الأرض المقدسة أراد الولد فقال (هب لى من الصالحين) أى هب لى بعض الصالحين ، يريد الولد ، لأن لفظ الهبة غلب فى الولد ، وإن كان قد جاء فى الأخ فى قوله تعالى (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبياً) وقال تعالى (ووهبنا له إسحق ويعقوب ووهبنا له يحيى) وقال على بن أبى طالب لابن عباس رضى الله عنهم حين هنأه بولده : على أبى الأملاك شكرت الواهب ، وبورك لك فى الموهوب . ولذلك وقعت التسمية بهبة الله تعالى وبهبة الوهاب وبموهوب ووهب .

واعلم أن هذا الدعاء اشتمل على ثلاثة أشياء : على أن الولد غلام ذكر ، وأنه يبلغ الحلم ، وأنه يكون حليما ، وأى حلم يكون أعظم من ولد حين عرض عليه أبوه الذبح (قال ستجدنى إن شاء الله من الصابرين) ثم استسلم لذلك ، وأيضاً فان إبراهيم عليه السلام كان موصوفاً بالحلم ، قال تعالى (إن إبراهيم لأواه حليم . إن إبراهيم لحليم أواه منيب) فبين أن ولده موصوف بالحلم ، وأنه قائم مقامه فى صفات الشرف والفضيلة ، واعلم أن الصلاح أفضل الصفات بدليل أن الخليل عليه السلام طلب الصلاح لنفسه . فقال (رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين) وطلبه للولد فقال (رب هب لى من الصالحين) وطلبه سليمان عليه السلام بعد كمال درجته فى الدين والدنيا ، فقال (وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين) وذلك يدل على أن الصلاح أشرف مقامات العباد .

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَـٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰۚ
قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا
وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾
وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾
إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَـٰرَكْنَا عَلَيْهِ
وَعَلَىٰٓ إِسْحَـٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ فلما بلغ معه السعى قال يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ، قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ، فلما أسلما وتله للجبين ، وناديناه أن يا إبراهيم . قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم ، وتركنا عليه فى الآخرين ، سلام على إبراهيم ، كذلك نجزى المحسنين ، إنه من عبادنا المؤمنين ، وبشرناه بإسحق نبياً من الصالحين ، وباركنا عليه وعلى إسحق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾ .

اعلم أنه سبحانه وتعالى لما قال (فبشرناه بغلام حليم) أتبعه بما يدل على حصول ما بشر به وبلوغه . فقال (فلما بلغ معه السعى) ومعناه فلما أدرك وبلغ الحد الذى يقدر فيه على السعى ، وقوله (معه) فى موضع الحال والتقدير كائناً معه ، والفائدة فى اعتبار هذا المعنى أن الأب أرفق الناس بالولد ، وغيره ربما عنف به فى الاستسعاء فلا يحتمله لأنه لم تستحكم قوته ، قال بعضهم كان فى ذلك الوقت ابن ثلاث عشرة سنة ، والمقصود من هذا الكلام أن الله تعالى لما وعده فى الآية الأولى بكون ذلك الغلام حليما . بين فى هذه الآية ما يدل على كمال حلمه ، وذلك لأنه كان به من كمال الحلم وفسحه الصدر مافواه على احتمال تلك البلية العظيمة ، والإتيان بذلك الجواب الحسن .

أما قوله (إنى أرى فى المنام أنى أذبحك) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى تفسير هذه اللفظة وجهان (الأول) قال السدى : كان إبراهيم حين بشر بإسحق قبل أن يولد له قال هو إذن لله ذبيح فقيل لابراهيم قد نذرت نذراً ففِ بنذرك فلما أصبح (قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك) .

وروى من طريق آخر أنه رأى ليلة التروية فى منامه ، كأن قائلا يقول له إن الله يأمرك بذبح ابنك هذا ، فلما أصبح تروى فى ذلك من الصباح إلى الرواح ، أمن الله هذا الحلم أم من الشيطان ؟ فمن ثم سمى يوم التروية ، فلما أمسى رأى مثل ذلك ، فعرف أنه من الله فسمى يوم عرفة ، ثم رأى مثله فى الليلة الثالثة فهم بنحره فسمى يوم النحر ، وهذا هو قول أهل التفسير وهو يدل على أنه رأى فى المنام ما يوجب أن يذبح ابنه فى اليقظة ، وعلى هذا فتقدير اللفظ : إنى أرى فى المنام ما يوجب أن أذبحك (والقول الثانى) أنه رأى فى المنام أنه يذبحه ورؤيا الأنبياء عليهم السلام من باب الوحى ، وعلى هذا القول فالمرئى فى المنام ليس إلا أنه يذبح ، فإن قيل إما أن يقال إنه ثبت بالدليل عند الأنبياء عليهم السلام أن كل ما رآه فى المنام فهو حق حجة أو لم يثبت ذلك بالدليل عندهم ، فان كان الأول فلم راجع الولد فى هذه الواقعة ، بل كان من الواجب عليه أن يشتغل بتحصيل ذلك المأمور ، وأن لا يراجع الولد فيه ، وأن لا يقول له (فانظر ماذا ترى) وأن لا يوقف العمل على أن يقول له الولد (افعل ما تؤمر) ؟ ، وأيضاً فقد قلتم إنه بقى فى اليوم الأول متفكراً ، ولو ثبت عنده بالدليل أن كل مارآه فى النوم فهو حق لم يكن إلى هذا التروى والتفكر حاجة ، وإن كان الثانى ، وهو أنه لم يثبت بالدليل عندهم أن مايرونه فى المنام حق ، فكيف يجوز له أن يقدم على ذبح ذلك الطفل بمجرد رؤيا لم يدل الدليل على كونها حجة ؟ (والجواب) لا يبعد أن يقال إنه كان عند الرؤيا متردداً فيه ثم تأكدت الرؤيا بالوحى الصريح ، والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفوا فى أن هذا الذبيح من هو ؟ فقيل إنه اسحق وهذا قول عمر وعلى والعباس بن عبد المطلب وابن مسعود وكعب الأحبار وقتادة وسعيد بن جبير ومسروق وعكرمة والزهرى والسدى ومقاتل رضى الله عنهم ، وقيل إنه اسماعيل وهو قول ابن عباس وابن عمر وسعيد بن المسيب والحسن والشعبى ومجاهد والكلبى ، واحتج القائلون بأنه اسماعيل بوجوه : (الأول) أن رسول الله ﷺ قال « أنا ابن الذبيحين » وقال له أعرابى « يا ابن الذبيحين فتبسم فسئل عن ذلك فقال : إن عبد المطلب لما حفر بئر زمزم نذر لله لئن سهل الله له أمرها ليذبحن أحد ولده ، فخرج السهم على عبد الله فمنعه أخواله وقالوا له افد إبنك بمائة من الإبل ، ففداه بمائة من من الإبل ، والذبيح الثانى إسمعيل » .

﴿ الحجة الثانية ﴾ نقل عن الأصمعى أنه قال سألت أباعمرو بن العلاء عن الذبيح ، فقال يا أصمعى أين عقلك ، ومتى كان إسحق بمكة وإنما كان إسماعيل بمكة وهو الذى بنى البيت مع أبيه والمنحر بمكة ؟ .

﴿ الحجة الثالثه ﴾ أن الله تعالى وصف اسماعيل بالصبر دون إسحق فى قوله (وإسماعيل

واليسع وذا الكفل كل من الصابرين) وهو صبره على الذبح ، ووصفه أيضاً بصدق الوعد فى قوله (إنه كان صادق الوعد) لأنه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح فوفى به .

﴿ الحجة الرابعة ﴾ قوله تعالى (فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب) فنقول لو كان الذبيح إسحق لكان الأمر بذبحه إما أن يقع قبل ظهور يعقوب ، منه أو بعد ذلك (فالأول) باطل لأنه تعالى لما بشرها باسحق ، وبشرها معه بأنه يحصل منه يعقوب فقبل ظهور يعقوب منه لم يجز الأمر بذبحه ، وإلا حصل الخلف فى قوله (ومن وراء اسحق يعقوب) (والثانى) باطل لأن قوله (فلما بلغ معه السعى ، قال يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك) يدل على أن ذلك الإبن لما قدر على السعى ووصل إلى حد القدرة على الفعل أمر الله تعالى إبراهيم بذبحه ، وذلك ينافى وقوع هذه القصة فى زمان آخر ، فثبت أنه لايجوز أن يكون الذبيح هو إسحق .

﴿ الحجة الخامسة ﴾ حكى الله تعالى عنه أنه قال (إنى ذاهب إلى ربى سيهدين) ثم طلب من الله تعالى ولداً يستأنس به فى غربته فقال (رب هب لى من الصالحين) وهذا السؤال إنما يحسن قبل أن يحصل له الولد ، لأنه لو حصل له ولد واحد لما طلب الولد الواحد ، لأن طلب الحاصل محال وقوله (هب لى من الصالحين) لا يفيد إلا طلب الولد الواحد ، وكلمة من للتبعيض وأقل درجات البعضية الواحد فكأن قوله (من الصالحين) لا يفيد إلا طلب الولد الواحد فثبت أن هذا السؤال لا يحسن إلا عند عدم كل الأولاد فثبت أن هذا السؤال وقع حال طلب الولد الأول ، وأجمع الناس على أن إسماعيل متقدم فى الوجود على إسحق ، فثبت أن المطلوب بهذا الدعاء وهو اسماعيل ، ثم إن الله تعالى ذكر عقيبه قصة الذبيح فوجب أن يكون الذبيح هو إسماعيل .

﴿ الحجة السادسة ﴾ الأخبار الكثيرة فى تعليق قرن الكبش بالكعبة ، فكأن الذبيح بمكة . ولو كان الذبيح إسحق لكان الذبح بالشام ، واحتج من قال إن ذلك الذبيح هو إسحق بوجهين : (الوجه الأول) أن أول الآية وآخرها يدل على ذلك ، أما أولها فانه تعالى حكى عن ابراهيم عليه السلام قبل هذه الآية أنه قال (إنى ذاهب إلى ربى سيهدين) وأجمعوا على أن المراد منه مهاجرته إلى الشام ثم قال (فبشرناه بغلام حليم) فوجب أن يكون هذا الغلام ليس إلا اسحق ، ثم قال بعده (فلما بلغ معه السعى) وذلك يقتضى أن يكون المراد من هذا الغلام الذى بلغ معه السعى هو ذلك الغلام الذى حصل فى الشام ، فثبت أن مقدمة هذه الآية تدل على أن الذبيح هو إسحق ، وأما آخر الآية فهو أيضاً يدل على ذلك لأنه تعالى لما تمم قصه الذبيح قال بعده (وبشرناه باسحق نبياً من الصالحين) ومعناه أنه بشره بكونه نبياً من الصالحين ، وذكر هذه البشارة عقيب حكاية تلك القصة يدل على أنه تعالى إنما بشره بهذه النبوة لأجل أنه تحمل هذه الشدائد فى قصة الذبيح ، فثبت بما ذكرنا أن أول الآية وآخرها يدل على أن الذبيح هو إسحق عليه السلام .

﴿ الحجة الثانية ﴾ على صحة ذلك ما اشتهر من كتاب يعقوب إلى يوسف عليه السلام من

يعقوب اسرائيل نبى الله بن اسحق ذبيح الله بن ابراهيم خليل الله فهذا جملة الكلام فى هذا الباب ، وكان الزجاج يقول الله أعلم أيهما الذبيح والله أعلم . واعلم أنه يتفرع على ما ذكرنا اختلافهم فى موضع الذبح فالذين قالوا الذبيح هو إسماعيل قالوا كان الذبح بمنى ، والذين قالوا إنه إسحق قالوا هو بالشام وقيل ببيت المقدس ، والله أعلم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اختلف الناس فى أن ابراهيم عليه السلام كان مأموراً بهذا بما رأى ، وهذا الاختلاف مفرع على مسألة من مسائل أصول الفقه ، وهى أنه هل يجوز نسخ الحكم قبل حضور مدة الامتثال فقال أكثر أصحابنا إنه يجوز ، وقالت المعتزلة وكثير من فقهاء الشافعية والحنفية إنه لا يجوز ، فعلى القول الأول أنه سبحانه وتعالى أمره بالذبح ، ثم إنه تعالى نسخ هذا التكليف قبل حضور وقته ، وعلى القول الثانى أنه تعالى ما أمره بالذبح ، وإنما أمره بمقدمات الذبح وهذه مسألة شريفة من مسائل باب النسخ ، واحتج أصحابنا على أنه يجوز نسخ الأمر قبل مجىء مدة الامتثال بأن الله تعالى أمر إبراهيم عليه السلام بذبح ولده ، ثم إنه تعالى نسخه عنه قبل إقدامه عليه وذلك يفيد المطلوب إنما قلنا إنه تعالى أمره بذبح الولد لوجهين (الأول) أنه عليه السلام قال لولده إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فقال الولد افعل ما تؤمر وهذا يدل على أنه عليه السلام كان مأموراً بمقدمات الذبح لا بنفس الذبح ، ثم إنه أتى بمقدمات الذبح وأدخلها فى الوجود ، فحينئذ يكون قد أمر بشىء وقد أتى به ، وفى هذا الموضع لا يحتاج إلى الفداء ، لكنه احتاج إلى الفداء بدليل قوله تعالى (وفديناه بذبح عظيم) فدل هذا على أنه أتى بالمأمور به ، وقد ثبت أنه أتى بكل مقدمات الذبح ، وهذا يدل على أنه تعالى كان قد أمره بنفس الذبح ، وإذا ثبت هذا فنقول إنه تعالى نسخ ذلك الحكم قبل إثباته وذلك يدل على المقصود ، وقالت المعتزلة لا نسلم أن الله أمره بذبح الولد بل نقول إنه تعالى أمره بمقدمات الذبح ، ويدل عليه وجوه (الأول) أنه ما أتى بالذبح وإنما أتى بمقدمات الذبح ، ثم إن الله تعالى أخبر عنه بأنه أتى بما أمر به بدليل قوله تعالى (وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا) وذلك يدل على أنه تعالى إنما أمره فى المنام بمقدمات الذبح لا بنفس الذبح وتلك المقدمات عبارة عن إضجاعه ووضع السكين على حلقه ، والعزم الصحيح على الإتيان بذلك الفعل إن ورد (الأمر الثانى) الذبح عبارة عن قطع الحلقوم فلعل إبراهيم عليه السلام قطع الحلقوم إلا أنه كلما قطع جزءاً أعاد الله التأليف إليه ، فلهذا السبب لم يحصل الموت (والوجه الثالث) وهو الذى عليه تعويل القوم أنه تعالى لو أمر شخصاً معيناً بإيقاع فعل معين فى وقت معين ، فهذا يدل على أن إيقاع ذلك الفعل فى ذلك الوقت حسن ، فإذا نهاه عنه فذلك النهى يدل على أن إيقاع ذلك الفعل فى ذلك الوقت قبيح ، فلو حصل هذا النهى عقيب ذلك الأمر لزم أحد أمرين ، لأنه تعالى إن كان عالماً بحال ذلك الفعل لزم أن يقال إنه أمر بالقبيح أو نهى عن الحسن ، وإن لم يكن عالماً به لزم جهل الله تعالى وإنه محال ، فهذا تمام الكلام فى هذا الباب (والجواب) عن الأول أنا قد دللنا على أنه تعالى إنما أمره بالذبح .

أما قوله تعالى (قد صدقت الرؤيا) فهذا يدل على أنه اعترف بكون تلك الرؤيا واجب العمل بها ولا يدل على أنه أتى بكل مارآه فى ذلك المنام . وأما قوله ثانياً كلما قطع إبراهيم عليه السلام جزءاً أعاد الله تعالى التأليف إليه ، فنقول هذا باطل لأن ابراهيم عليه السلام لو أتى بكل ما أمر به لما احتاج إلى الفداء. وحيث احتاج إليه علمنا أنه لم يأت بما أمر به . وأما قوله ثالثاً إنه يلزم ، إما الأمر بالقبيح وإما الجهل ، فنقول هذا بناء على أن الله تعالى لا يأمر إلا بما يكون حسناً فى ذاته ولا ينهى إلا عمايكون قبيحاً فى ذاته ، وذلك بناء على تحسين العقل وتقبيحه وهو باطل ، وأيضاً فهب أنا نسلم ذلك إلا أنا نقول لم لا يجوز أن يقال إن الأمر بالشىء تارة يحسن لكون المأمور به حسناً وتارة لأجل أن ذلك الأمر يفيد صحة مصلحة من المصالح وإن لم يكن المأمور به حسناً ألا ترى أن السيد إذا أراد أن يروض عبده ، فانه يقول له إذا جاء يوم الجمعة فافعل الفعل الفلانى ، ويكون ذلك الفعل من الأفعال الشاقة ، ويكون مقصود السيد من ذلك الأمر ليس أن يأتى ذلك العبد بذلك الفعل ، بل أن يوطن العبد نفسه على الإنقياد والطاعة ، ثم إن السيد إذا علم منه أنه وطن نفسه على الطاعة فقد يزيل الألم عنه ذلك التكليف ، فكذا ههنا ، فما لم تقيموا الدلالة على فساد هذا الاحتمال لم يتم كلامكم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية على أن الله تعالى قد يأمر بما لا يريد وقوعه ، والدليل عليه أنه أمر بالذبح وما أراد وقوعه ، أما أنه أمر بالذبح فلما تقدم فى المسألة الأولى . وأما أنه ما أراد وقوعه فلأن عندنا أن كل ما أراد الله وقوعه فانه يقع ، وحيث لم يقع هذا الذبح علمنا أنه تعالى ما أراد وقوعه ، وأما عند المعتزلة فلأن الله تعالى نهى عن ذلك الذبح ، والنهى عن الشىء يدل على أن الناهى لا يريد وقوعه فثبت أنه تعالى أمر بالذبح ، وثبت أنه تعالى ما أراده ، وذلك يدل على أن الأمر قد يوجد بدون الإرادة ، وتمام الكلام فى أن الله تعالى أمر بالذبح ماتقدم فى المسألة المتقدمة ، والله أعلم .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ فى بيان الحكمة فى ورود هذا التكليف فى النوم لا فى اليقظة وبيانه من وجوه (الأول) أن هذا التكليف كان فى نهاية المشقة على الذابح والمذبوح ، فورد أولا فى النوم حتى يصير ذلك كالمنبه لورود هذا التكليف الشاق ، ثم يتأكد حال النوم بأحوال اليقظة ، فحينئذ لا يهجم هذا التكليف دفعة واحدة بل شيئاً فشيئاً (الثانى) أن الله تعالى جعل رؤيا الأنبياء عليهم السلام حقاً ، قال الله تعالى فى حق محمد ﷺ (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام) وقال عن يوسف عليه السلام (إنى رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين) وقال فى حق إبراهيم عليه السلام (إنى أرى فى المنام أنى أذبحك) والمقصود من ذلك تقوية الدلالة على كونهم صادقين ، لأن الحال إما حال يقظة وإما حال منام ، فإذا تظاهرت الحالتان على الصدق ، كان ذلك هو النهاية فى بيان كونهم محقين صادقين فى كل الأحوال ، والله أعلم .

ثم نقول مقامات الأنبياء عليهم السلام على ثلاثة أقسام منها مايقع على وفق الرؤية كما فى قوله تعالى فى حق رسولنا ﷺ (لتدخلن المسجد الحرام) ثم وقع ذلك الشيء بعينه ، ومنها ما يقع على الضد كما فى حق إبراهيم عليه السلام فانه رأى الذبح وكان الحاصل هو الفداء والنجاة ، ومنها مايقع على ضرب من التأويل والمناسبة كما فى رؤيا يوسف عليه السلام ، فلهذا السبب أطبق أهل التعبير على أن المنامات واقعة على هذه الوجوه الثلاثة .

﴿ المسألة السادسة ﴾ قرأ حمزة والكسائى (ترى) بضم التاء وكسر الراء ، أن ماترى من نفسك من الصبر والتسليم ؟ وقيل ماتشير ، والباقون بفتح التاء ، ثم منهم من يميل ومنهم من لا يميل .

﴿ المسألة السابعة ﴾ الحكمة فى مشاورة الإبن فى هذا الباب أن يطلع ابنه على هذه الواقعة ليظهر له صبره فى طاعة الله فتكون فيه قرة عين لإبراهيم حيث يراه قد بلغ فى الحلم إلى هذا الحد العظيم ، وفى الصبر على أشد المكاره إلى هذه الدرجة العالية ويحصل للابن الثواب العظيم فى الآخرة والثناء الحسن فى الدنيا ، ثم إنه تعالى حكى عن ولد ابراهيم عليه السلام أنه قال افعل ماتؤمر ، ومعناه افعل ماتؤمر به ، فحذف الجار كما حذف من قوله :

أمرتك الخير فافعل ما أمرت [به]

ثم قال (ستجدنى إن شاء الله من الصابرين) وإنما علق ذلك بمشيئة الله تعالى على سبيل التبرك والتيمن ، وأنه لاحول عن معصية الله إلا بعصمة الله ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله .

ثم قال تعالى (فلما أسلما) يقال سلم لأمر الله وأسلم واستسلم بمعنى واحد ، وقد قرىء بهن جميعاً إذ انقاد له وخضع ، وأصلها من قولك سلم هذا لفلان إذا خلص له ، ومعناه سلم من أن ينازع فيه ، وقولهم سلم لأمر الله وأسلم له منقولان عنه بالهمزة ، وحقيقة معناها أخلص نفسه لله وجعلها سالمة له خالصة ، وكذلك معنى استسلم استخلص نفسه لله وعن قتادة فى أسلما أسلم هذا ابنه وهذا نفسه ، ثم قال تعالى (وتله للجبين) أى صرعه على شقه فوقع أحد جبينيه على الأرض وللوجه جبينان ، والجبهة بينهما ، قال ابن الأعرابى التليل والمتلول المصروع والمتل الذى يتل به أى يصرع ، فالمعنى أنه صرعه على جبينه ، وقال مقاتل كبه على جبهته ، وهذا خطأ لأن الجبين غير الجبهة .

ثم قال تعالى (وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا) وفيه قولان (الأول) أن هذا جواب فلما عند الكوفيين والفراء والواو زائدة (والقول الثانى) أن عند البصريين لا يجوز ذلك والجواب مقدر والتقدير : فلما فعل ذلك وناداه الله أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ، سعد سعادة عظيمة وآتاه الله نبوة ولده وأجزل له الثواب ، قالوا وحذف الجواب ليس بغريب فى القرآن والفائدة فيه أنه إذا كان محذوفاً كان أعظم وأفخم ، قال المفسرون لما أضجعه للذبح نودى من الجبل (يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا) قال المحققون السبب فى هذا التكليف كمال طاعة ابراهيم لتكاليف الله تعالى فلما كلفه الله تعالى بهذا التكليف الشاق الشديد وظهر منه كمال الطاعة وظهر من ولده كمال الطاعة والانقياد ، لاجرم قال قد صدقت الرؤيا ، يعنى حصل المقصود من تلك الرؤيا

وقوله (إنا كذلك نجزي المحسنين) ابتداء إخبار من الله تعالى ، وليس يتصل بما تقدم من الكلام ، والمعنى أن ابراهيم وولده كانا محسنين فى هذه الطاعة ، فكما جزينا هذين المحسنين فكذلك نجزي كل المحسنين .

ثم قال تعالى (إن هذا لهو البلاء المبين) أى الاختبار البين الذى يتميز فيه المخلصون من غيرهم أو المحنة البينة الصعوبة التى لامحنة أصعب منها (وفديناه بذبح عظيم) الذبح مصدر ذبحت والذبح أيضاً ما يذبح وهو المراد فى هذه الآية ، وههنا مباحث تتعلق بالحكايات (فالأول) حكى فى قصة الذبيح أن إبراهيم عليه السلام لما أراد ذبحه قال يابنى خذ الحبل والمدية وانطلق بنا إلى الشعب نحتطب ، فلما توسطا شعب ثبير أخبره بما أمر به ، فقال يا أبت اشدد رباطى فى كيلا أضطرب ، واكفف عني ثيابك لا ينتضح عليها شيء من دمى فتراه أمى فتحزن ، واستحد شفرتك وأسرع إمرارها على حلق ليكون أهون فان الموت شديد . واقرأ على أمى سلامى وإن رأيت أن ترد قميصى على أمى فافعل فانه عسى أن يكون أسهل لها . فقال ابراهيم عليه السلام نعم العون أنت يا بنى على أمر الله ، ثم أقبل عليه يقبله وقد ربطه وهما يبكيان ثم وضع السكين على حلقه فقال كبنى على وجهى فانك إذا نظرت وجهى رحمتني وأدركتك رقة وقد تحول بينك وبين أمر الله سبحانه وتعالى ففعل ثم وضع السكين على قفاه فانقلبت السكين ونودى ياإبراهيم قد صدقت الرؤيا .

﴿ البحث الثانى ﴾ اختلفوا فى ذلك الكبش فقيل إنه الكبش الذى تقرب به هابيل ابن آدم إلى الله تعالى فقبله ، وكان فى الجنة يرعى حتى فدى الله تعالى به إسماعيل ، وقال آخرون أرسل الله كبشاً من الجنة قد رعى أربعين خريفاً ، وقال السدى نودى إبراهيم فالتفت فإذا هو بكبش أملح انحط من الجبل ، فقام عنه ابراهيم فأخذه فذبحه ، وخلى عن ابنه ، ثم اعتنق ابنه وقال يابنى اليوم وهبت لى ، وأما قوله (عظيم) فقيل سمى عظيما لعظمه وسمنه ، وقال سعيد بن جبير حق له أن يكون عظيما وقد رعى فى الجنة أربعين خريفاً ، وقيل سمى عظيما لعظم قدره حيث قبله الله تعالى فداء عن ولد ابراهيم ، ثم قال تعالى (إنه من عبادنا المؤمنين) الضمير فى قوله (إنه) عائد إلى ابراهيم ، ثم قال تعالى (وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين) فقوله (نبياً) حال مقدرة أى بشرناه بوجود اسحاق مقدرة نبوته ، ولمن يقول إن الذبيح هو اسماعيل أن يحتج بهذه الآية ، وذلك لأن قوله (نبياً) حال ولا يجوز أن يكون المعنى فبشرناه باسحاق حال كون إسحق نبياً لأن البشارة به متقدمة على صيرورته نبياً ، فوجب أن يكون المعنى وبشرناه بإسحاق حال ما قدرناه نبياً ، وحال ماحكمنا عليه فصبر ، وإذا كان الأمر كذلك فحينئذ كانت هذه البشارة بشارة بوجود إسحاق حاصلة بعد قصة الذبيح ، فوجب أن يكون الذبيح غير اسحاق ، أقصى مافى الباب أن يقال لا يبعد أن يقال هذه الآية وإن كانت متأخرة فى التلاوة عن قصة الذبيح إلا أنها كانت متقدمة عليها فى الوقوع والوجود ، إلا أنا نقول الأصل رعاية الترتيب وعدم التكرير فى النظم ، والله أعلم بالصواب .

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾
وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ
﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ
عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾

ثم قال تعالى (وباركنا عليه وعلى اسحق) وفى تفسير هذه البركة وجهان (الأول) أنه تعالى أخرج جميع أنبياء بنى اسرائيل من صلب اسحاق (والثانى) أنه أبقى الثناء الحسن على إبراهيم واسحاق إلى يوم القيامة ، لأن البركة عبارة عن الدوام والثبات ، ثم قال تعالى (ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين) وفى ذلك تنبيه على أنه لايلزم من كثرة فضائل الأب فضيلة الابن ، لئلا تصير هذه الشبهة سبباً لمفاخرة اليهود ، ودخل تحت قوله (محسن) الأنبياء والمؤمنون وتحت قوله (ظالم) الكافر والفاسق والله أعلم .

﴿ قصة موسى وهرون عليهما السلام ﴾

قوله تعالى : ﴿ ولقد مننا على موسى وهارون ، ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم ، ونصرناهم فكانوا هم الغالبين ، وآتيناهما الكتاب المستبين ، وهديناهما الصراط المستقيم ، وتركنا عليهما فى الآخرين ، سلام على موسى وهارون ، إنا كذلك نجزى المحسنين ، إنهما من عبادنا المؤمنين ﴾ .

اعلم أن هذا هو القصة الثالثة من القصص من المذكورة فى هذه السورة ، واعلم أن وجوه الأنعام وإن كانت كثيرة إلا أنها محصورة فى نوعين إيصال المنافع إليه ودفع المضار عنه والله تعالى ذكر القسمين ههنا ، فقوله (ولقد مننا على موسى وهارون) إشارة إلى إيصال المنافع إليهما ، وقوله (ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم) إشارة إلى دفع المضار عنهما .

﴿ أما القسم الأول ﴾ وهو إيصال المنافع ، فلا شك أن المنافع على قسمين : منافع الدنيا ومنافع الدين ، أما منافع الدنيا فالوجود والحياة والعقل والتربية والصحة وتحصيل صفات الكمال فى ذات كل واحد منهما ، وأما منافع الدين فالعلم والطاعة ، وأعلى هذه الدرجات النبوة الرفيعة المقرونة بالمعجزات الباهرة القاهرة ، ولما ذكر الله تعالى هذه التفاصيل فى سائر السور ، لاجرم اكتفى ههنا بهذا الرمز .

وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾

﴿ وأما القسم الثانى ﴾ وهو دفع الضرر فهو المراد من قوله (ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم) وفيه قولان : قيل إنه الغرق ، أغرق الله فرعون وقومه ، ونجى الله بنى إسرائيل ، وقيل المراد أنه تعالى نجاهم من إيذاء فرعون حيث كان يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم .

واعلم أنه تعالى لما ذكر أنه من على موسى وهرون ، فصل أقسام تلك المنة والهاء فى قوله (ونصرناهم) أى نصرنا موسى وهرون وقومهما (وكانوا هم الغالبين) فى كل الأحوال بظهور الحجة وفى آخر الأمر بالدولة والرفعة (وثانيهما) قوله تعالى (وآتيناهما الكتاب المستبين) والمراد منه التوراة ، وهو الكتاب المشتمل على جميع العلوم التى يحتاج إليها فى مصالح الدين والدنيا ، كما قال (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور) ، (وثالثها) قوله تعالى (وهديناهما الصراط المستقيم) أى دللناهما على طريق الحق عقلا وسمعاً ، وأمددناهما بالتوفيق والعصمة ، وتشبيه الدلائل الحقة بالطريق المستقيم واضح (ورابعها) قوله تعالى (وتركنا عليهما فى الآخرين) وفيه قولان (الأول) أن المراد (وتركنا عليهما فى الآخرين) وهم أمة محمد ﷺ قولهم (سلام على موسى وهرون) (والثانى) أن المراد (وتركنا عليهما فى الآخرين) وهم أمة محمد ﷺ الثناء الحسن والذكر الجميل ، وعلى هذا التقدير فقوله بعد ذلك (سلام على موسى وهرون) هو كلام الله تعالى ، ولما ذكر تعالى هذه الأقسام الأربعة من أبواب التعظيم والتفضيل قال (إنا كذلك نجزى المحسنين) وقد سبق تفسيره ، ثم قال تعالى (إنهما من عبادنا المؤمنين) والمقصود التنبيه ، على أن الفضيلة الحاصلة بسبب الإيمان أشرف وأعلى وأكمل من كل الفضائل ، ولولا ذلك لما حسن ختم فضائل موسى وهرون بكونهما من المؤمنين ، والله أعلم .

﴿ قصة إلياس عليه السلام ﴾

قوله تعالى : ﴿ وإن إلياس لمن المرسلين ، إذ قال لقومه ألا تتقون ، أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين ، الله ربكم ورب آبائكم الأولين ، فكذبوه فإنهم لمحضرون ، إلا عباد الله المخلصين ، وتركنا عليه فى الآخرين ، سلام على إل ياسين ، إنا كذلك نجزى المحسنين ، إنه من عبادنا المؤمنين ﴾

اعلم أن هذه القصة الرابعة من القصص المذكورة فى هذه السورة وفيه مسائل :

﴿ **المسألة الأولى** ﴾ قرأ ابن عامر (وإن إلياس) بغير همزة على وصل الألف والباقون بالهمزة وقطع الألف ، قال أبو بكر بن مهران : من ذكر عند الوصل الألف فقد أخطأ ، وكان أهل الشأم ينكرونه ولا يعرفونه ، قال الواحدى وله وجهان (أحدهما) أنه حذف الهمزة من إلياس حذفاً ، كما حذفها ابن كثير من قوله (إنها لإحدى الكبر) وكقول الشاعر :

ويلمها فى هواء الجو طالبة

والآخر أنه جعل الهمزة التى تصحب اللام للتعريف كقوله (واليسع) .

﴿ **المسألة الثانية** ﴾ فى إلياس قولان : يروى عن ابن مسعود أنه قرأ وإن إدريس ، وقال إن إلياس هو إدريس ، وهذا قول عكرمة ، وأما أكثر المفسرين فهم متفقون على أنه نبى من أنبياء بنى إسرائيل وهو إلياس بن ياسين من ولد هرون أخى موسى عليهم السلام ، ثم قال تعالى (إذ قال لقومه ألا تتقون) والتقدير اذكر يامحمد لقومك (إذ قال لقومه ألا تتقون) أى ألا تخافون الله ، وقال الكلبى ألا تخافون عبادة غير الله . واعلم أنه لما خوفهم أولا على سبيل الإجمال ذكر ما هو السبب لذلك الخوف فقال (أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين) وفيه أبحاث :

﴿ الأول ﴾ فى بعل قولان (أحدهما) أنه اسم علم لصنم كان لهم كمناة وهبل ، وقيل كان من ذهب ، وكان طوله عشرين ذراعاً وله أربعة أوجه ، وفتنوا به وعظموه ، حتى عينوا له أربعمائة سادن وجعلوهم أنبياء ، وكان الشيطان يدخل فى جوف بعل ويتكلم بشريعة الضلالة ، والسدنة يحفظونها ويعلمونها الناس وهم أهل بعلبك من بلاد الشأم ، وبه سميت مدينتهم بعلبك . واعلم أن قولهم بعل إسم لصنم من أصنامهم لابأس به ، وأما قولهم إن الشيطان كان يدخل فى جوف بعلبك ويتكلم بشريعة الضلالة ، فهذا مشكل لأنا إن جوزنا هذا كان ذلك قادحاً فى كثير من المعجزات ، لأنه نقل فى معجزات النبى ﷺ كلام الذئب معه وكلام الجمل معه وحنين الجذع ، ولو جوزنا أن يدخل الشيطان فى جوف جسم ويتكلم ، فحينئذ يكون هذا الاحتمال قائماً فى الذئب والجمل والجذع ، وذلك يقدح فى كون هذه الأشياء معجزات (القول الثانى) أن البعل هو الرب بلغة اليمن ، يقال من بعل هذه الدار ، أى من ربها ، وسمى الزوج بعلا لهذا المعنى ، قال تعالى (وبعولتهن أحق بردهن) وقال تعالى (وهذا بعلى شيخاً)فعلى هذا التقدير المعنى ، أتعبدون بعض البعول وتتركون عبادة الله .

﴿ البحث الثانى ﴾ المعتزلة احتجوا بهذه الآية على كون العبد خالقاً لأفعال نفسه ، فقالوا لو لم يكن غير الله خالقاً لما جاز وصف الله بأنه أحسن الخالقين ، والكلام فيه قد تقدم فى قوله تعالى (فتبارك الله أحسن الخالقين) .

﴿ البحث الثالث ﴾ كان الملقب بالرشيد الكاتب يقول لو قيل : أتدعون بعلا وتدعون أحسن الخالقين . أوهم أنه أحسن ، لأنه كان قد تحصل فيه رعاية معنى التجنيس (وجوابه) أن فصاحة

وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾

القرآن ليست لأجل رعاية هذه التكاليف ، بل لأجل قوة المعانى وجزالة الألفاظ . واعلم أنه لما عابهم على عبادة غير الله صرح بالتوحيد ونفى الشركاء ، فقال (الله ربكم ورب آبائكم الأولين) وفيه مباحث .

﴿ الأول ﴾ أنا ذكرنا فى هذا الكتاب أن حدوث الأشخاص البشرية كيف يدل على وجود الصانع المختار ، وكيف يدل على وحدته وبراءته عن الأضداد والأنداد ، فلا فائدة فى الإعادة .

﴿ البحث الثانى ﴾ قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم (الله ربكم ورب آبائكم) كلها بالنصب على البدل من قوله (أحسن الخالقين) والباقون بالرفع على الاستئناف ، والأول اختيار أبي حاتم وأبى عبيد ، ونقل صاحب الكشاف أن حمزة إذا وصل نصب ، وإذا وقف رفع ، ولما حكى الله عنه أنه قرر مع قومه التوحيد قال (فكذبوه فانهم لمحضرون) أى لمحضرون النار غداً ، وقد ذكرنا الكلام فيه عند قوله (لكنت من المحضرين) ثم قال تعالى (إلا عباد الله المخلصين) وذلك لأن قومه ما كذبوه بكليتهم ، بل كان فيهم من قبل ذلك التوحيد فلهذا قال تعالى (إلا عباد الله المخلصين) يعنى الذين أتوا بالتوحيد الخالص فانهم لا يحضرون ثم قال (وتركنا عليه فى الآخرين سلام على إل ياسين) قرأ نافع وابن عامر ويعقوب آل ياسين على إضافة لفظ آل إلى لفظ ياسين والباقون بكسر الألف وجزم اللام موصولة بياسين ، أما القراءة الأولى ففيها وجوه : (الأول) وهو الأقرب أنا ذكرنا أنه إلياس بن ياسين فكان إلياس آل ياسين (الثانى) آل ياسين آل محمد ﷺ (والثالث) أن ياسين اسم القرآن ، كأنه قيل سلام الله على من آمن بكتاب الله الذى هو ياسين ، والوجه هو الأول لأنه أليق بسياق الكلام ، وأما القراءة الثانية ففيها وجوه (الأول) قال الزجاج يقال ميكال وميكائيل وميكالين ، فكذا ههنا إلياس وإلياسين (والثانى) قال الفراء هو جمع وأراد به إلياس وأتباعه من المؤمنين ، كقولهم المهلبون والسعدون قال :

أنا ابن سعد أكرم السعدينا

﴿ قصة لوط عليه السلام ﴾

ثم قال تعالى (إنا كذلك نجزى المحسنين ، إنه من عبادنا المؤمنين) وقد سبق تفسيره والله أعلم ، قوله تعالى : ﴿وإن لوطاً لمن المرسلين ، إذ نجيناه وأهله أجمعين ، إلا عجوزاً فى الغابرين ، ثم دمرنا الآخرين ، وإنكم لتمرون عليهم مصبحين ، وبالليل أفلا تعقلون ﴾

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾

هذا هو القصة الخامسة ، وإنه تعالى إنما ذكر هذه القصة ليعتبر بها مشركو العرب ، فان الذين كفروا من قومه هلكوا والذين آمنوا نجوا ، وقد تقدم شرح هذه القصة ، وقد نبههم بقوله تعالى (وإنكم لتمرون عليهم مصبحين ، وبالليل) وذلك لأن القوم كانوا يسافرون إلى الشام والمسافر فى أكثر الأمر إنما يمشى فى الليل وفى أول النهار ، فلهذا السبب عين تعالى هذين الوقتين .

ثم قال تعالى (أفلا تعقلون) يعنى أليس فيكم عقول تعتبرون بها ، والله أعلم .

﴿ قصة يونس عليه السلام ﴾

قوله تعالى : ﴿وإن يونس لمن المرسلين ، إذ أبق إلى الفلك المشحون ، فساهم فكان من المدحضين ، فالتقمه الحوت وهو مليم . فلولا أنه كان من المسبحين ، للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون ، فنبذناه بالعراء وهو سقيم . وأنبتنا عليه شجرة من يقطين ، وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ، فآمنوا فمتعناهم إلى حين﴾

إعلم أن هذا هو القصة السادسة وهو آخر القصص المذكورة فى هذه السورة ، وإنما صارت هذه القصة خاتمة للقصص ، لأجل أنه لما لم يصبر على أذى قومه وأبق إلى الفلك وقع فى تلك الشدائد فيصير هذا سبباً لتصبر النبى ﷺ على أذى قومه .

أما قوله (وإن يونس لمن المرسلين ، إذ أبق إلى الفلك المشحون) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال صاحب الكشاف قرىء يونس بضم النون وكسرها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ دلت هذه الآية على أن هذه الواقعة إنما وقعت ليونس عليه السلام بعد أن صار رسولا ، لأن قوله (وإن يونس لمن المرسلين ، إذ أبق إلى الفلك) معناه أنه كان من المرسلين حينما أبق إلى الفلك ، ويمكن أن يقال إنه جاء فى كثير من الروايات أنه أرسله ملك زمانه إلى أولئك القوم ليدعوهم إلى الله ، ثم أبق والتقمه الحوت فعند ذلك أرسله الله تعالى ، والحاصل أن قوله (لمن المرسلين) لا يدل على أنه كان فى ذلك الوقت مرسلا من عند الله تعالى ، ويمكن أن يجاب بأنه سبحانه وتعالى ذكر هذا الوصف فى معرض تعظيمه ، ولن يفيد هذه الفائدة إلا إذا كان المراد من

قوله (لمن المرسلين) أنه من المرسلين عند الله تعالى .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أبق من إباق العبد وهو هربه من سيده ، ثم اختلف المفسرون فقال بعضهم إنه أبق من الله تعالى ، وهذا بعيد لأن ذلك لا يقال إلا فيمن يتعمد مخالفة ربه ، وذلك لا يجوز على الأنبياء واختلفوا فيما لأجله صار مخطئاً ، فقيل لأنه أمر بالخروج إلى بنى اسرائيل فلم يقبل ذلك التكليف وخرج مغاضباً لربه ، وهذا بعيد سواء أمره الله تعالى بذلك بوحى أو بلسان نبى آخر ، وقيل إن ذنبه أنه ترك دعاء قومه ، ولم يصبر عليهم . وهذا أيضاً بعيد لأن الله تعالى لما أمره بهذا العمل فلا يجوز أن يتركه ، والأقرب فيه وجهان : (الأول) أن ذنبه كان لأن الله تعالى وعده إنزال الإهلاك بقومه الذين كذبوه فظن أنه نازل لا محالة ، فلأجل هذا الظن لم يصبر على دعائهم ، فكان الواجب عليه أن يستمر على الدعاء لجواز أن لا يهلكهم الله بالعذاب وإن أنزله ، وهذا هو الأقرب لأنه إقدام على أمر ظهرت أماراته فلا يكون تعمداً للمعصية ، وإن كان الأولى فى مثل هذا الباب أن لا يعمل فيه بالظن ثم انكشف ليونس من بعد أنه أخطأ فى ذلك الظن ، لأجل أنه ظهر الإيمان منهم فمعنى قوله (إذ أبق الى الفلك) ما ذكرناه (الوجه الثانى) أن يونس كان وعد قومه بالعذاب فلما تأخر عنهم العذاب خرج كالمستور عنهم فقصد البحر وركب السفينة ، فذلك هو قوله (إذ أبق الى الفلك) وتمام الكلام فى مشكلات هذه الآية ذكرناه فى قوله تعالى (وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه) وقوله (الى الفلك المشحون) مفسر فى سورة يونس والسفينة إذا كان فيها الحمل الكثير والناس يقال إنها مشحونة ، ثم قال تعالى (فساهم) المساهمة هى المقارعة ، يقال أسهم القوم اذا اقترعوا ، قال المبرد وإنما أخذ من السهام التى تجال للقرعة (فكان من المدحضين) أى المغلوبين يقال أدحض الله حجته فدحضت أى أزالها فزالت وأصل الكلمة من الدحض الذى هو الزلق ، يقال دحضت رجل البعير اذا زلقت ، وذكر ابن عباس فى قصة يونس عليه السلام انه كان يسكن مع قومه فلسطين فغزاهم ملك وسبى منهم تسعة أسباط ونصفاً وبقى سبطان ونصف ، وكان الله تعالى أوحى إلى بنى اسرائيل إذا أسركم عدوكم أو أصابتكم مصيبة فادعونى أستجب لكم ، فلما نسوا ذلك وأسروا أوحى الله تعالى بعد حين الى نبى من أنبيائهم أن اذهب إلى ملك هؤلاء الاقوام وقل له حتى يبعث الى بنى اسرائيل نبياً ، فاختار يونس عليه السلام لقوته وأمانته ، قال يونس الله أمرك بهذا قال لا ولكن أمرت أن أبعث قوياً أميناً وأنت كذلك ، فقال يونس وفى بنى اسرائيل من هو أقوى منى فلم لا تبعثه ، فألح الملك عليه فغضب يونس منه وخرج حتى أتى بحر الروم ووجد سفينة مشحونة فحملوه فيها ، فلما دخلت لجة البحر أشرفت على الغرق ، فقال الملاحون إن فيكم عاصياً وإلا لم يحصل فى السفينة ما نراه من غير ريح ولا سبب ظاهر ، وقال التجار قد جربنا مثل هذا فاذا رأيناه نقترع ، فمن خرج سهمه نغرقه ، فلأن يغرق واحد خير من غرق الكل فخرج سهم يونس ، فقال التجار نحن أولى بالمعصية من نبى الله ، ثم عادوا ثانياً وثالثاً يقترعون فيخرج سهم

يونس ، فقال يا هؤلاء أنا العاصي وتلفف في كساء ورمى بنفسه فابتلعته السمكة فأوحى الله تعالى إلى الحوت «لا تكسر منه عظماً ولا تقطع له وصلا» ثم إن السمكة أخرجته إلى نيل مصر ثم إلى بحر فارس ثم إلى بحر البطائح ثم دجلة فصعدت به ورمته بأرض نصيبين بالعراء ، وهو كالفرخ المنتوف لا شعر ولا لحم ، فأنبت الله عليه شجرة من يقطين ، فكان يستظل بها ويأكل من ثمرها حتى تشدد ، ثم إن الأرض أكلتها فخرت من أصلها فحزن يونس لذلك حزناً شديداً ، فقال يارب كنت أستظل تحت هذه الشجرة من الشمس والريح وأمص من ثمرها وقد سقطت ، فقيل له يا يونس تحزن على شجرة أنبتت في ساعة واقتلعت في ساعة ولا تحزن على مائة ألف أو يزيدون تركتهم ! انطلق إليهم ، والله أعلم بحقيقة الواقعة .

ثم قال تعالى (فالتقمه الحوت وهو مليم) يقال التقمه والتهمه والكل بمعنى واحد ، وقوله تعالى (وهو مليم) يقال ألام إذا أتى بما يلام عليه ، فالمليم المستحق للوم الآتي بما يلام عليه .

ثم قال تعالى (فلولا أنه كان من المسبحين ، للبث في بطنه إلى يوم يبعثون) وفي تفسير كونه من المسبحين قولان (الأول) أن المراد منه ما حكى الله تعالى عنه في آية أخرى أنه كان يقول في تلك الظلمات لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين (الثاني) أنه لولا أنه كان قبل أن التقمه الحوت من المسبحين يعني المصلين وكان في أكثر الأوقات مواظباً على ذكر الله وطاعته للبث في بطن ذلك الحوت ، وكان بطنه قبراً له إلى يوم البعث ، قال بعضهم اذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة ، فان يونس عليه السلام كان عبداً صالحاً ذاكراً لله تعالى ، فلما وقع في بطن الحوت قال الله تعالى فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ، وإن فرعون كان عبداً طاغياً ناسياً ، فلما أدركه الغرق قال (آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل) قال الله تعالى (آلآن وقد عصيت قبل) واختلفوا في أنه كم لبث في بطن الحوت ، ولفظ القرآن لا يدل عليه . قال الحسن لم يلبث إلا قليلا وأخرج من بطنه بعد الوقت الذي التقمه ، وعن مقاتل ابن حيان ثلاثة أيام وعن عطاء سبعة أيام وعن الضحاك عشرين يوماً وقيل شهراً ولا أدري بأي دليل عينوا هذه المقادير ، وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال « سبح يونس في بطن الحوت فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا ربنا إنا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة ، فقال ذاك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر ، فقالوا العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح ؟ قال نعم ، فشفعوا له فأمر الحوت فقذفه في الساحل » فذاك هو قوله (فنبذناه بالعراء) وفيه مباحث :

﴿ الأول ﴾ العراء المكان الخالي قال أبو عبيدة إنما قيل له العراء لأنه لا شجر فيه ولا شيء يغطيه .

﴿ الثاني ﴾ أنه تعالى قال (فنبذناه بالعراء) فأضاف ذلك النبذ إلى نفسه ، والنبذ إنما حصل بفعل الحوت ، وهذا يدل على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى .

فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ

ثم قال تعالى (وهو سقيم) قيل المراد أنه بلى لحمه وصار ضعيفاً كالطفل المولود كالفرخ الممعط الذى ليس عليه ريش ، وقال مجاهد سقيم أى سليب .

ثم قال تعالى (وأنبتنا عليه شجرة من يقطين) ظاهر اللفظ يدل على أن الحوت لما نبذه فى العراء فالله تعالى أنبت عليه شجرة من يقطين وذلك المعجز له ، قال المبرد والزجاج كل شجر لا يقوم على ساق وإنما يمتد على وجه الأرض فهو يقطين ، نحو الدباء والحنظل والبطيخ ، قال الزجاج أحسب اشتقاقها من قطن بالمكان إذا أقام به وهذا الشجر ورقه كله على وجه الأرض فلذلك قيل له اليقطين ، روى الفراء أنه قيل عند ابن عباس هو ورق القرع ، فقال ومن جعل القرع من بين الشجر يقطيناً كل ورقة اتسعت وسترت فهى يقطين ، قال الواحدى رحمه الله والآية تقتضى شيئين لم يذكرهما المفسرون (أحدهما) أن هذا اليقطين لم يكن قبل فأنبته الله لأجله (والآخر) أن اليقطين كان معروشاً ليحصل له ظل ، لأنه لو كان منبسطاً على الأرض لم يمكن أن يستظل به

ثم قال تعالى (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون) وفيه مباحث :

﴿ الأول ﴾ يحتمل أن يكون المراد وأرسلناه قبل أن يلتقمه الحوت وعلى هذا الإرسال وإن ذكر بعد الالتقام ، فالمراد به التقديم والواو معناها الجمع ، ويحتمل أن يكون المراد به الإرسال بعد الالتقام ، عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال كانت رسالة يونس عليه السلام بعد ما نبذه الحوت ، وعلى هذا التقدير يجوز أن يكون أرسل إلى قوم آخرين سوى القوم الأول ، ويجوز أن يكون أرسل إلى الأولين ثانياً بشريعة فآمنوا بها .

﴿ البحث الثانى ﴾ ظاهر قوله (أو يزيدون) يوجب الشك وذلك على الله تعالى محال ونظيره قوله تعالى (عذراً أو نذراً) وقوله تعالى (لعله يتذكر أو يخشى) وقوله تعالى (لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا) وقوله تعالى (وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب) وقوله تعالى (فكان قاب قوسين أو أدنى) وأجابوا عنه من وجوه كثيرة والأصح منها وجه واحد وهو أن يكون المعنى أو يزيدون فى تقديركم بمعنى أنهم إذا رآهم الرائى قال هؤلاء مائة ألف أو يزيدون على المائة ، وهذا هو الجواب عن كل ما يشبه هذا .

ثم قال تعالى (فآمنوا فمتعناهم إلى حين) والمعنى أن أولئك الأقوام لما آمنوا أزال الله الخوف عنهم وآمنهم من العذاب ومتعهم الله إلى حين ، أى إلى الوقت الذى جعله الله أجلا لكل واحد منهم .

قوله تعالى : ﴿ فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون ، أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ،

شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى
ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ
سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ
نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا
عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾

ألا إنهم من إفكهم ليقولون ، ولد الله وإنهم لكاذبون ، أصطفى البنات على البنين ، ما لكم كيف تحكمون ، أفلا تذكرون ، أم لكم سلطان مبين ، فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين ، وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ، ولقدعلمت الجنة أنهم لمحضرون ، سبحان‌الله عمايصفون ، إلاعباد الله المخلصين ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أنه تعالى لما ذكر أقاصيص الأنبياء عليهم السلام عاد إلى شرح مذاهب المشركين وبيان قبحها وسخافتها ، ومن جملة أقوالهم الباطلة أنهم أثبتوا الأولاد لله سبحانه وتعالى ، ثم زعموا أنها من جنس الإناث لا من جنس الذكور فقال (فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون) وهذا معطوف على قوله فى أول السورة (فاستفتهم أهم أشد خلقاً أمن خلقنا) وذلك لأنه تعالى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم باستفتاء قريش عن وجه إنكار البعث أولا ثم ساق الكلام موصولا بعضه ببعض إلى أن أمره بأن يستفتيهم فى أنهم لم أثبتوا لله سبحانه البنات ولأنفسهم البنين ، ونقل الواحدى عن المفسرين أنهم قالوا إن قريشاً وأجناس العرب جهينة وبنى سلمة وخزاعة وبنى مليح قالوا الملائكة بنات الله ، واعلم أن هذا الكلام يشتمل على أمرين : (أحدهما) إثبات البنات لله وذلك باطل لأن العرب كانوا يستنكفون من البنت ، والشيء الذى يستنكف المخلوق منه كيف يمكن إثباته للخالق (والثانى) إثبات أن الملائكة إناث : وهذا أيضاً باطل لأن طريق العلم إما الحس وإما الخبر وإما النظر ، أما الحس ففقودهنا لأنهم ماشهدوا كيفية تخليق الله الملائكة وهو المراد من قوله (أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون) وأما الخبر فمفقود أيضاً لأن الخبر إنما يفيد العلم إذا علم كونه صدقا قطعاً وهؤلاء الذين يخبرون عن هذا الحكم كذابون أفاكون ، لم يدل على صدقهم لادلالة ولا أمارة ، وهو المراد من قوله (ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون) واما النظر ففقود وبيانه من وجهين

(الاول) أن دليل العقل يقتضى فساد هذا المذهب . لأن الله تعالى أكمل الموجودات ، والأكمل لا يليق به اصطفاء الأخس وهو المراد من قوله (أصطفى البنات على البنين ، مالكم كيف تحكمون) يعنى إسناد الأفضل إلى الأفضل أقرب عند العقل من إسناد الأخس إلى الأفضل ، فان كان حكم العقل معتبراً فى هذا الباب كان قولكم باطلا (والوجه الثانى) أن نترك الاستدلال على فساد مذهبهم ، بل نطالبهم بإثبات الدليل الدال على صحة مذهبهم.فاذا لم يجدوا ذلك الدليل فضده يظهر أنه لم يوجد ما يدل على صحة قولهم وهذا هو المراد من قوله (أم لكم سلطان مبين . فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين) فثبت بما ذكرنا أن القول الذى ذهبوا إليه لم يدل على صحته ، لا الحس ولا الخبر ولا النظر ، فكان المصير إليه باطلا قطعاً ، واعلم أنه تعالى لما طالبهم بما يدل على صحة مذهبهم دل ذلك على أن التقليد باطل ، وأن الدين لا يصح إلا بالدليل .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (أصطفى البنات على البنين) قراءة العامة بفتح الهمزة وقطعها من (أصطفى) ثم بحذف ألف الوصل وهو استفهام توبيخ وتقريع ، كقوله تعالى (أم اتخذ مما يخلق بنات) وقوله تعالى (أم له البنات ولكم البنون) وقوله تعالى (ألكم الذكر وله الأنثى) وكما أن هذه المواضع كلها استفهام فكذلك فى هذه الآية ، وقرأ نافع فى بعض الروايات (لكاذبون اصطفى) موصولة بغير استفهام ، وإذا ابتدأ كسر الهمزة على وجه الخبر والتقدير اصطفى البنات فى زعمهم كقوله (ذق إنك أنت العزيز الكريم) فى زعمه واعتقاده .

ثم قال تعالى (وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً) واختلفوا فى المراد بالجنة على وجوه (الأول) قال مقاتل أثبتوا نسباً بين الله تعالى وبين الملائكة حين زعموا أنهم بنات الله ، وعلى هذا القول فالجنة هم الملائكة سموا جناً لاجتنانهم عن الأبصار أو لأنهم خزان الجنة ، وأقول هذا القول عندى مشكل ، لأنه تعالى أبطل قولهم الملائكة بنات الله ، ثم عطف عليه قوله (وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً) والعطف يقتضى كون المعطوف مغايراً للمعطوف عليه ، فوجب أن يكون المراد من هذه الآية غير ما تقدم (الثانى) قال مجاهد قالت كفار قريش الملائكة بنات الله . فقال لهم أبو بكر الصديق فمن أمهاتهم ؟ قالوا سروات الجن ، وهذا أيضاً عندى بعيد لأن المصاهرة لا تسمى نسباً (والثالث) روينا فى تفسير قوله تعالى (وجعلوا لله شركاء الجن) أن قوماً من الزنادقة يقولون الله وإبليس أخوان فالله الخير الكريم وإبليس هو الأخ الشرير الخسيس ، فقوله تعالى (وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً) المراد منه هذا المذهب ، وعندى أن هذا القول أقرب الأقاويل . وهو مذهب المجوس القائلين بيزدان واهرمن(١) ثم قال تعالى (ولقد علمت الجنة أنهم لمحضرون) أى قد علمت الجنة أن الذين قالوا هذا القول محضرون النار ويعذبون وقيل المراد ولقد علمت الجنة أنهم سيحضرون فى العذاب ، فعلى القول الأول الضمير عائد إلى قائل هذا القول ، وعلى القول الثانى عائد إلى الجنة أنفسهم ، ثم إنه تعالى

(١) يزدان واهرمن أى الشر والخير أو النور والظلمة وهذا المذهب هو المذهب المعروف بمذهب المانوية نسبة إلى « مانى »

فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ
﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ
ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾
لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾

نزه نفسه عما قالوا من الكذب فقال (سبحان الله عما يصفون ، إلا عباد الله المخلصين) وفى هذا الاستثناء وجوه ، قيل استثناء من المحضرين ، يعنى أنهم ناجون ، وقيل هو استثناء من قوله تعالى (وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً) وقيل هو استثناء منقطع من المحضرين ، ومعناه ولكن المخلصين برآء من أن يصفوه بذلك ، والمخلص بكسر اللام من أخلص العبادة والاعتقاد لله وبفتحها من أخلصه الله بلطفه والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فانكم وما تعبدون ، ما أنتم عليه بفاتنين ، إلا من هو صال الجحيم ، وما منا إلا له مقام معلوم ، وإنا لنحن الصافون ، وإنا لنحن المسبحون ، وإن كانوا ليقولون . لو أن عندنا ذكراً من الأولين ، لكنا عباد الله المخلصين ، فكفروا به فسوف يعلمون ﴾ فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أنه تعالى لما ذكر الدلائل على فساد مذهب الكفار أتبعه بما نبه به على أن هؤلاء الكفار لا يقدرون على حمل أحد على الضلال إلا إذا كان قد سبق حكم الله فى حقه بالعذاب والوقوع فى النار ، وذكر صاحب الكشاف فى قوله (فانكم وما تعبدون ، ماأنتم عليه بفاتنين) قولين (الأول) الضمير فى (عليه) لله عز وجل معناه فانكم ومعبوديكم ما أنتم وهم جميعاً بفاتنين على الله إلا أصحاب النار الذين سبق فى علم الله كونهم من أهل النار ، فان قيل كيف يفتنونهم على الله ؟ قلنا يفتنونهم عليه بإغوائهم من قولك فتن فلان على فلان امرأته كما تقول أفسدها عليه : (والوجه الثانى) أن تكون الواو فى قوله (وما تعبدون) بمعنى مع كما فى قولهم كل رجل وضيعته ، فكما جاز السكوت على كل رجل وضيعته ، فكذلك جاز أن يسكت على قوله (فانكم وما تعبدون) لأن قوله (وما تعبدون) ساد مسد الخبر ، لأن معناه فانكم مع ماتعبدون ، والمعنى فانكم مع آلهتكم أى فانكم قرناؤهم وأصحابهم لا تبرحون تعبدونها ، ثم قال تعالى (ما أنتم عليه) أى على ماتعبدون (بفاتنين) بباعثين أو حاملين على طريق الفتنة والإضلال (إلا من هو صال الجحيم) مثلكم . وقرأ الحسن (صال الجحيم) بضم اللام ووجهه أن يكون جمعاً وسقوط واوه لالتقاء

الساكنين ، فإن قيل كيف يستقيم الجمع مع قوله (من هو) قلنا (من) موحد اللفظ مجموع المعنى فحمل هو على لفظه والصالون على معناه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه لا تأثير لإغواء الشيطان ووسوسته ، وإنما المؤثر قضاء الله تعالى وتقديره ، لأن قوله تعالى (فإنكم وما تعبدون ما أنتم عليه بفاتنين) تصريح بأنه لا تأثير لقولهم ولا تأثير لأحوال معبوديهم فى وقوع الفتنة والضلال ، وقوله تعالى (إلا من هو صال الجحيم) يعنى إلا من كان كذلك فى حكم الله وتقديره ، وذلك تصريح بأن المقتضى لوقوع هذه الحوادث حكم الله تعالى ، وكان عمر بن عبد العزيز يحتج بهذه الآية فى إثبات هذا المطلوب ، قال الجبائى المراد أن الذين عبدوا الملائكة يزعمون أنهم بنات الله لا يكفرون أحداً إلا من ثبت فى معلوم الله أنه سيكفر ، فدل هذا على أن من ضل بدعاء الشيطان لم يكن ليؤمن بالله لو منع الله الشيطان من دعائه وإلا كان يمنع الشيطان ، فصح بهذا أن كل من يعصى لم يكن ليصلح عنه شيء من الأفعال (والجواب) حاصل هذا الكلام أنه لا تأثير لإغواء شياطين الإنس والجن . وهذا لا نزاع فيه إلا أن وجه الاستدلال أنه تعالى بين أنه لا تأثير لكلامهم فى وقوع الفتنة ، ثم استثنى منه ما فى قوله تعالى (إلا من هو صال الجحيم) فوجب أن يكون المراد من وقوع الفتنة هو كونه محكوماً عليه بأنه صال الجحيم ، وذلك تصريح بأن حكم الله بالسعادة والشقاوة هو الذى يؤثر فى حصول الشقاوة والسعادة . واعلم أن أصحابنا قرروا هذه الحجة بالحديث المشهور وهو أنه حج آدم موسى ، قال القاضى هذا الحديث لم يقبله علماء التوحيد ، لأنه يوجب أن لا يلام أحد على شيء من الذنوب ، لأنه إن كان آدم لا يجوز لموسى أن يلومه على عمل كتبه الله عليه قبل أن يخلقه ، فكذلك كل مذنب . فان صحت هذه الحجة لآدم عليه السلام ، فلماذا قال موسى عليه السلام فى الوكزة هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين ؟ ولماذا قال فلن أكون ظهيراً للمجرمين ؟ ولماذا لام فرعون وجنوده على أمر كتبه الله عليهم ؟ ومن عجيب أمرهم أنهم يكفرون القدرية ، وهذا الحديث يوجب أن آدم كان قدرياً ، فلزمهم أن يكفروه ، وكيف يجوز مع قول آدم وحواء عليهما السلام (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) أن يحتج على موسى بأنه لا لوم عليه ، وقد كتب عليه ذلك قبل أن يخلقه ، هذا جملة كلام القاضى فيقال له هب أنك لا تقبل ذلك الخبر ، فهل ترد هذه الآية أم لا ، فإنا بينا أن صريح هذه الآية يدل على أنه لا تأثير للوساوس فى هذا الباب ، فان الكل يحصل بحكمة الله تعالى ، والذى يدل عليه وجوه (الأول) أن الكافر إن ضل بسبب وسوسة الشيطان فضلال الشيطان إن كان بسبب شيطان آخر لزم تسلسل الشياطين وهو محال ، وإن انتهى إلى ضلال لم يحصل بسبب وسوسة متقدمة فهو المطلوب (الثانى) أن كل أحد يريد أن يحصل لنفسه الاعتقاد الحق والدين الصدق ، فحصول ضده يدل على أن ذلك ليس منه (الثالث) أن الأفعال موقوفة على الدواعى وحصول الدواعى بخلق الله ، فيكون الكل

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ

من الله تعالى (الرابع) أنه تعالى لما اقتضت حكمته شيئاً ، وعلم وقوعه ، فلو لم يقع ذلك الشيء لزم انقلاب ذلك الحكم كذباً وانقلاب ذلك العلم جهلا وهو محال ، وأما الآيات التي تمسك بها القاضي فهي معارضة بالآيات الدالة على أن الكل من الله والقرآن كالبحر المملوء من هذه الآيات فتبقى الدلائل العقلية التي ذكرناها سليمة ، والله أعلم .

ثم قال تعالى ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ﴾ فالجمهور على أنهم الملائكة ، وصفوا أنفسهم بالمبالغة في العبودية ، فانهم يصطفون للصلاة والتسبيح ، والغرض منه التنبيه على فساد قول من يقول إنهم أولاد الله وذلك لأن مبالغتهم في العبودية تدل على اعترافهم بالعبوديه ، واعلم أن هذه الآية تدل على ثلاثة أنواع من صفات الملائكة (فأولها) قوله تعالى (ومامنا إلا له مقام معلوم) وهذا يدل على أن لكل واحد منهم مرتبة لا يتجاوزها ودرجة لايتعدى عنها ، وتلك الدرجات إشارة إلى درجاتهم في التصرف في أجسام هذا العالم وإلى درجاتهم في معرفة الله تعالى أما درجاتهم في التصرفات والأفعال فهي قوله (وإنا لنحن الصافون) والمراد كونهم صافين في أداء الطاعات ومنازل الخدمة والعبودية ، وأما درجاتهم في المعارف فهي قوله تعالى (وإنا لنحن المسبحون) والتسبيح تنزيه الله عما لا يليق به .

واعلم أن قوله (وإنا لنحن الصافون ، وإنا لنحن المسبحون) يفيد الحصر ومعناه أنهم هم الصافون في مواقف العبودية لاغيرهم وأنهم هم المسبحون لا غيرهم ، وذلك يدل على أن طاعات البشر ومعارفهم بالنسبة إلى طاعات الملائكة وإلى معارفهم كالعدم ، حتى يصح هذا الحصر . وبالجملة فهذه الألفاظ الثلاثة تدل على أسرار عجيبة من صفات الملائكة فكيف يجوز مع هذا الحصر أن يقال البشر تقرب درجته من الملك فضلا عن أن يقال هل هو أفضل منه أم لا .

وأما قوله (وإن كانوا ليقولون لو أن عندنا ذكراً من الأولين لكنا عباد الله المخلصين) فالمعنى أن مشركي قريش وغيرهم كانوا يقولون (لو أن عندنا ذكراً) أي كتاباً من كتب الأولين الذين نزل عليهم التوراة والإنجيل لأخلصنا العبادة لله ، ولما كذبنا كما كذبوا . ثم جاءهم الذكر الذي هو سيد الأذكار والكتاب المهيمن على كل الكتب ، وهو القرآن فكفروا به . ونظير هذه الآية قوله تعالى (فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً) ثم قال تعالى (فسوف يعلمون) أي فسوف يعلمون عاقبة هذا الكفر والتكذيب .

قوله تعالى : ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، إنهم لهم المنصورون ، وإن جندنا لهم الغالبون ،

﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾

وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ

عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾

فتول عنهم حتى حين ، وأبصرهم فسوف يبصرون أفبعذابنا يستعجلون ، فاذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين ، وتول عنهم حتى حين ، وأبصر فسوف يبصرون ، سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ﴾

اعلم أنه تعالى لما هدد الكفار بقوله تعالى (فسوف يعلمون) أي عاقبة كفرهم أردفه بما يقوى قلب الرسول صلى الله عليه وسلم فقال (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، إنهم لهم المنصورون ، وإن جندنا لهم الغالبون) فبين أن وعده بنصرته قد تقدم والدليل عليه قوله تعالى كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ، وأيضاً أن الخير مقضى بالذات والشر مقضى بالعرض ، وما بالذات أقوى مما بالعرض ، وأما النصرة والغلبة فقد تكون بقوة الحجة ، وقد تكون بالدولة والاستيلاء ، وقد تكون بالدوام والثبات فالمؤمن وإن صار مغلوباً في بعض الأوقات بسبب ضعف أحوال الدنيا فهو الغالب ، ولا يلزم على هذه الآية أن يقال : فقد قتل بعض الأنبياء وقد هزم كثير من المؤمنين ، ثم قال تعالى لرسوله وقد أخبره بما تقدم (فتول عنهم حتى حين) والمراد ترك مقاتلتهم والثقة بما وعدناهم إلى حين يتمتعون ، ثم تحل بهم الحسرة والندامة ، واختلف المفسرون فقيل المراد إلى يوم بدر ، وقيل إلى فتح مكة ، وقيل إلى يوم القيامة ، ثم قال (وأبصرهم فسوف يبصرون) والمعنى فأبصرهم وما يقضى عليهم من القتل والأسر في الدنيا والعذاب في الآخرة ، فسوف يبصرونك مع ما قدر لك من النصرة والتأييد في الدنيا والثواب العظيم في الآخرة ، والمراد من الأمر المشاهد بإبصارهم على الحال المنتظرة الموعودة الدلالة على أنها كائنة واقعة لا محالة ، وأن كينونتها قريبة كأنها قدام ناظريك ، وقوله (فسوف يبصرون) للتهديد والوعيد ، ثم قال (أفبعذابنا يستعجلون) والمعنى أن الرسول عليه السلام كان يهددهم بالعذاب ، وما رأوا شيئاً فكانوا يستعجلون نزول ذلك العذاب على سبيل الاستهزاء ، فبين تعالى أن ذلك الاستعجال جهل ، لأن لكل شيء من أفعال الله تعالى وقتاً معيناً لا يتقدم ولا يتأخر ، فكأن طلب حدوثه قبل مجيء ذلك الوقت جهلا ، ثم قال تعالى في صفة العذاب الذي يستعجلونه (فإذا نزل بساحتهم) أي هذا العذاب (فساء صباح المنذرين) وإنما وقع

هذا التعبير عن هذه المعانى كأنهم كانوا يقدمون على العادة فى وقت الصباح ، فجعل ذكر ذلك الوقت كناية عن ذلك العمل ، ثم أعاد تعالى قوله (فتول عنهم حتى حين ، وأبصر فسوف يبصرون) فقيل المراد من هذه الكلمة فيما تقدم أحوال الدنيا ، وفى هذه الكلمة أحوال القيامة ، وعلى هذا التقدير فالتكرير زائل ، وقيل إن المراد من التكرير المبالغة فى التهديد والتهويل، ثم إنه تعالى ختم السورة بخاتمة شريفة جامعة لكل المطالب العالية ، وذلك لأن أهم المهمات للعاقل معرفة أحوال ثلاثة (فأولها) معرفة إله العالم بقدر الطاقة البشرية ، وأقصى ما يمكن عرفانه من صفات الله تعالى ثلاثة أنواع (أحدها) تنزيهه وتقديسه عن كل ما لا يليق بصفات الإلهية ، وهو لفظة سبحان (وثانيها) وصفه بكل ما يليق بصفات الإلهية وهو قوله (رب العزة) فإن الربوبية إشارة إلى التربية وهى دالة على كمال الحكمة ،والرحمة والعزة إشارة إلى كمال القدرة (وثالثها) كونه منزهاً فى الإلهية عن الشريك والنظير ، وقوله (رب العزة) يدل على أنه القادر على جميع الحوادث ، لأن الألف واللام فى قوله (العزة) تفيد الاستغراق ، وإذا كان الكل ملكا له وملكا له لم يبق لغيره شىء ، فثبت أن قوله (سبحان ربك رب العزة عما يصفون) كلمة محتوية على أقصى الدرجات وأكمل النهايات فى معرفة إله العالم (والمهم الثانى) من مهمات العاقل أن يعرف أنه كيف ينبغى أن يعامل نفسه ويعامل الخلق فى هذه الحياة الدنيوية.

واعلم أن أكثر الخلق ناقصون ولا بد لهم من مكمل يكملهم ، ومرشد برشدهم ، وهاد يهديهم، وما ذاك إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وبديهة الفطرة شاهدة بأنه يجب على الناقص الاقتداء بالكامل ، فنبه على هذا الحرف بقوله (وسلام على المرسلين) لأن هذا اللفظ يدل على أنهم فى الكمال اللائق بالبشر فاقوا غيرهم ، ولا جرم يجب على كل من سواهم الاقتداء بهم(والمهم الثالث) من مهمات العاقل أن يعرف أنه كيف يكون حاله بعد الموت .

واعلم أن معرفة هذه الحالة قبل الموت صعبة ، فالإعتماد فيها على حرف واحد ، وهو أنه إله العالم غنى رحيم ، والغنى الرحيم لا يعذب ، فنبه على هذا الحرف بقوله (والحمد لله رب العالمين) وذلك لأن استحقاق الحمد لا يحصل إلا بالإنعام العظيم ، فبين بهذا كونه منعما ، وظاهر كونه غنياً عن العالمين ، ومن هذا وصفه كان الغالب منه هو الرحمة والفضل والكرم ، فكان هذا الحرف منبهاً على سلامة الحال بعد الموت ، فظهر بما ذكرنا أن هذه الخاتمة كالصدفة المحتوية على درر أشرف من درارى الكواكب ، ونسأل الله سبحانه وتعالى حسن الخاتمة والعافية فى الدنيا والآخرة.

تم تفسير هذه السورة ضحوة يوم الجمعة السابع عشر من ذى القعدة سنة ثلاث وستمائة والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وآله وصحبه وأزواجه وذرياته أجمعين .

تفسير سورة الصافات

مكية في قول الجميع[(١)]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (٣) إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (٥)﴾

قوله تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ هذه قراءةُ أكثر القرّاء. وقرأ حمزةُ بالإدغام فيهنّ[(٢)]. وهذه القراءة التي نَفَر منها أحمدُ بن حنبل لمَّا سَمِعَها.

النحاس[(٣)]: وهي بعيدةٌ في العربية من ثلاث جهات: إحداهنّ: أن التاء ليست من مَخْرج الصاد، ولا من مَخْرَج الزاي، ولا من مَخْرَج الذال، ولا من أَخَواتهن، وإنما أُختاها الطاء والدال، وأختُ الزاي الصاد والسين، وأختُ الذال الظاء والثاء.

والجهة الثانية: أن التاء في كلمة، وما بعدها في كلمة أُخرى.

والجهة الثالثة: أنك إذا أدغمتَ جمعتَ بين ساكنين من كلمتين، وإنما يجوز الجمعُ بين ساكنين في مثل هذا إذا كانا في كلمة واحدة؛ نحو: دابَّة، وشابَّة. ومجازُ قراءة حمزة أن التاء قريبةُ المَخْرج من هذه الحروف.

«وَالصَّافَّاتِ» قَسَمٌ، الواو بدل من الباء. والمعنى: بربِّ الصَّافَّات، و«الزَّاجِراتِ» عطف عليه. ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ جوابُ القسم. وأجاز الكسائي فتحَ إنَّ في القسم[(٤)].

---

(١) زاد المسير ٧/ ٤٤ .

(٢) وهي قراءة أبي عمرو في رواية السوسي. السبعة ص٥٤٩ ، والتيسير ص١٨٥ .

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٤٠٩ ، وما قبله منه.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٠ .

والمراد بـ «الصَّافَّاتِ» وما بعدها إلى قوله: «فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً» الملائكةُ في قول ابن عباس وابن مسعود وعِكرمة وسعيد بن جُبير ومجاهد وقتادة[١]، تصفُّ في السماء كصفوف الخَلْق في الدنيا للصلاة[٢]. وقيل: تَصُفُّ أجنحتَها في الهواء واقفةً فيه حتى يأمرَها الله بما يُريد. وهذا كما تقومُ العبيدُ بين أيدي ملوكهم صفوفاً. وقال الحسن: «صَفًّا» لِصفوفهم عند ربهم في صلاتهم[٣].

وقيل: هي الطير، دليلُه قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ﴾[٤] [الملك: ١٩].

والصفُّ ترتيبُ الجمع على خطٍّ، كالصفّ في الصلاة. «وَالصَّافَّاتِ» جمع الجمع؛ يقال: جماعةٌ صافَّة، ثم يُجمَع صافَّات[٥].

وقيل: «الصّافات» جماعةُ الناس المؤمنين إذا قاموا صفًّا في الصلاة أو في الجهاد؛ ذكره القشيري[٦].

«فَالزَّاجِرَاتِ» الملائكةُ في قول ابن عباس وابن مسعود ومسروق وغيرهم على ما ذكرناه. إما لأنها تَزجُر السحابَ وتَسوقه في قول السُّدي. وإما لأنها تَزجُر عن المعاصي بالمواعظ والنصائح. وقال قتادة: هي زواجر القرآن.

«فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراَ» الملائكة، تقرأ كتابَ الله تعالى؛ قاله ابن مسعود وابن عباس والحسن ومجاهد وابن جُبير والسُّدي[٧].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٦ ، وزاد المسير ٧/ ٤٤ .

(٢) نزهة القلوب للسجستاني ص٢٩٩ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٦ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٢ ، وزاد المسير ٧/ ٤٤ .

(٥) تفسير الطبري ١٩/ ٤٩٢ بنحوه.

(٦) وذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٦ .

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٧ . وقول قتادة أخرجه الطبري ١٩/ ٤٩٤ .

وقيل: المراد جبريلُ وحده، فَذُكِرَ بلفظ الجمع؛ لأنه كبيرُ الملائكة، فلا يخلو من جنود وأتباع.

وقال قتادة: المراد: كلُّ من تلا ذِكْرَ الله تعالى وكُتُبَهُ[١]. وقيل: هي آياتُ القرآن، وَصَفَها بالتلاوة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [النمل: ٧٦]. ويجوز أن يقال لآيات القرآن: تاليات؛ لأن بعضَ الحروف يتبع بعضاً؛ ذكره القشيري.

وذكره الماوردي[٢]: أن المراد بـ «التَّالِيَات» الأنبياءُ يتلون الذِّكر على أُمَمِهم.

فإن قيل: ما حكم الفاء إذا جاءت عاطفةً في الصفات؟ قيل له: إما أن تدلَّ على ترتُّب معانيها في الوجود، كقوله:

يا لَهْفَ زَيَّابَةَ للحارِث الصـ ... ـابِح فالغَانِم فالآيِبِ[٣]

كأنه قال: الذي صَبَّحَ فَغَنِمَ فآبَ. وإما على ترتُّبها في التفاوت من بعض الوجوه، كقولك: خُذِ الأفضلَ فالأكمل، واعمَلِ الأحسنَ فالأجمل. وإما على ترتُّب موصوفاتها في ذلك، كقوله: رَحِمَ الله المُحلِّقين فالمقصِّرين. فعلى هذه القوانين الثلاثة ينساقُ أمرُ الفاء العاطفة في الصفات قاله الزمخشري[٤].

«إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ» جوابُ القسم. قال مقاتل: وذلك أنَّ الكفار بمكة قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥] وكيف يَسَعُ هذا الخَلْقَ فردٌ إله[٥]؟! فأقسمَ اللهُ بهؤلاء تشريفاً، ونزلت الآية.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٦٥، والكشاف ٣/ ٣٣٣.

(٢) في النكت والعيون ٥/ ٣٧.

(٣) البيت لابن زيَّابة التيمي، وهو في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/ ١٤٧ وأمالي ابن الشجري ٢/ ٥٠٨، وخزانة الأدب ٥/ ١٠٧. وزيَّابة اسم أمّ الشاعر، فيما قاله البغدادي.

(٤) في الكشاف ٣/ ٣٣٤.

(٥) ذكره بنحوه البغوي في تفسيره ٤/ ٢٢ دون نسبة.

قال ابن الأنباري[١]: وهو وقفٌ حسن، ثم تبتدئ ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ على معنى: هو ربُّ السماوات.

النحاس[٢]: ويجوز أن يكون «رَبُّ السَّمَاوَاتِ والأرض» خبراً بعد خبرٍ، ويجوز أن يكون بدلاً من «وَاحِدٌ».

قلت: وعلى هذين الوجهين لا يوقف «لَوَاحِدٌ». وحكى الأخفش[٣]: «رَبَّ السَّماواتِ» و«رَبَّ الْمَشَارِقِ» بالنَّصْب على النعت لاسم «إن»[٤].

بيَّن سبحانه معنى وحدانيَّتِه وأُلوهيَّته وكمالِ قُدرته بأنه «رَبُّ السَّماواتِ والأرض» أي: خالقُهما ومالِكُهما ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ أي: مالكُ مطالعِ[٥] الشمس. ابن عباس: للشمس كلَّ يوم مشرقٌ ومغرب؛ وذلك أن اللهَ تعالى خلقَ للشمس ثلاثَ مئة وخمسةً وستين كَوَّة في مَطْلِعها، ومثلها في مَغْرِبها على عَدَد أيام السنة الشمسية، تطلُع في كل يوم في كَوَّة منها، وتغيبُ في كَوَّة، لا تطلعُ في تلك الكَوَّة إلا في ذلك اليوم من العام المُقبِل. ولا تطلعُ إلا وهي كارهةٌ فتقول: ربِّ لا تُطلِعني على عبادك، فإني أَراهم يعصونك[٦].

ذكرَ[٧] أبو عمر في كتاب «التمهيد»[٨]، وابنُ الأنباري في كتاب «الرد» عن عكرمة، قال: قلت لابن عباس: أرأيتَ ما جاء عن النبي ﷺ في أُميَّةَ بن أبي الصَّلْت:

---

(١) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٥٧ .

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٤١٠ .

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٦٦٨ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤١٠ .

(٤) وهذا يجوز في اللغة لا في التلاوة.

(٥) في النسخ: مطلع، والمثبت من (م).

(٦) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٦٥٠) و (٦٧٢).

(٧) في (د) و (ز) و (م): ذكره، ولم تجود في (ظ)، والمثبت من (ف).

(٨) ٤/ ٧ - ٨ .

«آمنَ شِعرهُ وكَفَرَ قَلْبُه»[١] قال: هو حقٌّ، فما أنكرتُم من ذلك؟ قلت: أنكرنا قوله:

والشمسُ تطلُعُ كلَّ آخِرِ ليلةٍ حمراءَ يُصبِحُ لونُها يتورَّدُ
ليستْ بطالعةٍ لَهم في رِسْلِها إلّا مُعَذَّبةً وإلّا تُجْلَدُ[٢]

ما بالُ الشمس تُجْلَد؟ فقال: والذي نفسي بيده، ما طلعتْ شمسٌ قطُّ حتى يَنْخُسَها سبعون ألف مَلَك، فيقولون لها: اطلعي اطلعي، فتقول: لا أَطْلُعُ على قوم يعبدونني من دون الله، فيأتيها ملكٌ فيستقل لضياء بني آدم، فيأتيها شيطانٌ يريد أن يصدَّها عن الطُّلوع، فتطلعُ بين قَرْنيه فيحرقه الله تعالى تحتها، فذلك قولُ رسول الله ﷺ: «ما طلعتْ إلا بين قرنَيْ شيطان، ولا غربَتْ إلا بين قَرْني شيطان»[٣] وما غربَتْ قط إلا خَرَّتْ لله ساجدةً، فيأتيها شيطانٌ يريدُ أن يصدَّها عن السجود، فتغربُ بين قرنيه فيحرقه الله تعالى تحتها[٤]. لفظ ابن الأنباري.

وذَكَر عن عكرمة، عن ابن عباس قال: صدَّق رسولُ الله ﷺ أُميّةَ بن أبي الصَّلْت في هذا الشعر:

رَجُلٌ[٥] وثَوْرٌ تحتَ رِجلِ يَمينِهِ والنَّسرُ للأُخرى وليثٌ مُرْصَدُ
والشمسُ تَطلُعُ كلَّ آخرِ ليلةٍ حمراءَ يُصبِحُ لونُها يَتَورَّدُ

(١) سلف ٩/ ٣٨٤ بهذا اللفظ، وأخرجه مسلم (٢٢٥٥) من حديث الشَّريد بن سُويد ﵁ أن النبيَّ ﷺ، استنشده من شعر أمية فأنشده.. فقال النبي ﷺ: «فلقد كاد يُسلم في شعره».

(٢) ديوان أمية بن أبي الصلت ص٥٠ - ٥١ وصدر البيت الثاني فيه: تأبى فلا تبدو لنا في رسلها.

(٣) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وفي الباب عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «لا تَحيَّنوا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها، فإنها تطلع بين قرني شيطان» أخرجه أحمد (٤٦١٢)، والبخاري (٣٢٧٣)، ومسلم (٨٢٨) : (٢٩٠).

(٤) بعدها في النسخ الخطية: فذلك قول رسول الله ﷺ: «ولا غربت إلا بين قرني شيطان» والمثبت من (م).

(٥) في (م): زحل، وهو كذلك في الإصابة ١/ ٢١١ ، والمثبت من النسخ الخطية، وديوان أمية ص٥٠-٥١ ، وخزانة الأدب ١/ ٢٤٨ .

ليست بطالعةٍ لهم في رِسْلِها إلّا مُعذَّبةً وإلّا تُجْلَدُ

قال عكرمة: فقلت لابن عباس: يا مولاي، أَتُجْلَدُ الشمس؟ فقال: إنما اضطره الرَّويّ إلى الجلد، لكنها تخافُ العقاب[١].

ودلَّ بذكر المطالع على المغارب؛ فلهذا لم يذكُر المغارب، وهو كقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]. وخصَّ المشارقَ بالذِّكر؛ لأن الشُّروق قبل الغروب[٢]. وقال في سورة «الرحمن»: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الآية: ١٧] أراد بالمشرقين أقصى مَطْلِع تطلُع منه الشمسُ في الأيام الطِّوال، وأقصر يوم في الأيام القِصار على ما تقدَّم في «يس»[٣] والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ قال قتادة: خُلقت النجومُ ثلاثاً: رجوماً للشياطين، ونوراً يُهتدَى بها، وزينةَ السماء الدنيا[٤].

وقرأ مسروق والأعمش والنخعي وعاصم وحمزة: «بِزِينةٍ» مخفوض منوَّن «الكواكبِ» خفض على البدل من «زينةٍ» لأنها هي. وقرأ أبو بكر كذلك إلا أنه نصب «الكواكبَ»[٥] بالمصدر الذي هو «زينة». والمعنى: بأنْ زيَّنا الكواكبَ فيها.

ويجوز أن يكون منصوباً بإضمار أعني؛ كأنه قال: إنَّا زيَّنَّاها «بِزينة» أعني

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ٤/ ٨ - ٩ دون قول عكرمة: يا مولاي، أتجلد الشمس.. وقول عكرمة هذا أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٦٥٠).

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٧ -٣٨ ، وزاد المسير ٧/ ٤٥ - ٤٦ ، وينظر تفسير الطبري ١٩/ ٤٩٦ .

(٣) ١٥/ ٢٨ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٨ .

(٥) السبعة ص٥٤٦ ، والتيسير ص١٨٦ .

«الكواكِبَ». وقيل: هي بدل من «زينة» على الموضع.

ويجوز «بِزِينَةٍ الكواكبُ»[1] بمعنى: بأنَّ زينتَها الكواكبُ. أو بمعنى: هي الكواكب.

الباقون: «بِزِينَةِ الكواكبِ» على الإضافة. والمعنى: زيَّنا السماءَ بتزيين الكواكِبِ؛ أي: بُحسْنِ الكواكب. ويجوز أن يكون كقراءة من نوَّن إلا أنه حذفَ التنوين استخفافاً[2].

﴿وَحِفْظًا﴾ مصدر؛ أي: حَفِظناها حِفْظاً ﴿مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ لمَّا أخبر أن الملائكة تنزل بالوحي من السماء، بيَّن أنه حَرَس السماءَ عن استراق السَّمع بعد أن زيَّنها بالكواكب.

والمارد: العاتي من الجنّ والإنس، والعرب تُسمِّيه شيطاناً[3].

قوله تعالى: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ قال أبو حاتم: أي: لئلا يسمَّعوا، ثم حذفَ [اللام و] «أن» فرفع الفعل[4].

الملأ الأعلى: أهلُ السماء الدنيا فما فوقها، وسمَّى الكلَّ منهم أعلى بالإضافة إلى ملأ الأرض. الضمير في «يَسَّمَّعُون» للشياطين.

وقرأ جمهورُ الناس: «يَسْمَعُونَ» بسكون السين وتخفيف الميم. وقرأ حمزةُ وعاصمٌ في رواية حفص: «لا يَسَّمَّعُونَ» بتشديد السين والميم، من التسميع[5].

فينتفي على القراءة الأُولى سماعُهم وإنْ كانوا يستمعون، وهو المعنى الصحيح، ويعضُده قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٢] وينتفي على القراءة

---

(١) حكاها الزهراوي كما في المحرر الوجيز ٤/ ٤٦٦ .

(٢) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٠ - ٤١١ ، وينظر الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ٢٢١ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١١ .

(٤) ذكره السمين الحلبي في الدر المصون ٩/ ٢٩٣ (وما بين حاصرتين منه) ثم قال: وفيه تعسُّف.

(٥) وهي قراءة الكسائي. السبعة ص٥٤٧ ، والتيسير ص١٨٦ .

الأخيرة أن يقعَ منهم استماعٌ أو سَماع.

قال مجاهد: كانوا يتسمَّعون، ولكن لا يسمعون. وروي عن ابن عباس: «لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الملأ» قال: هم يَسَّمَّعون ولا يَسْمَعون[١].

وأصل «يَسَّمَّعُونَ» يتسمَّعون، فأُدغِمَتِ التاءُ في السين لِقُربها منها. واختارها أبو عُبيد؛ لأن العربَ لا تكاد تقول: سمعتُ إليه، وتقول: تسمَّعت إليه[٢].

﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ أي: يُرمَون من كل جانب؛ أي: بالشُّهب. ﴿دُحُورًا﴾ مصدر؛ لأن معنى «يُقْذَفُونَ» يُدْحَرون؛ دحرته دَحْراً ودُحُوراً، أي: طردته.

وقرأ السُّلَمي ويعقوب الحَضْرمي: «دَحُوراً» بفتح الدال[٣]، يكون مصدراً على فَعول. وأما الفرَّاء، فقدَّره[٤] على أنه اسمُ الفاعل. أي: ويُقْذَفون بما يَدْحَرهم، أي: بدحور، ثم حذف الباء؛ والكوفيون يستعملون هذا كثيراً [كما أنشدوا]:

تَـمُـرُّون الـديـارَ ولـم تَـعـوجُـوا[٥]

واختُلف هل كان هذا القذف قبل المَبْعث، أو بعده لأجل المَبْعث؛ على قولين. وجاءت الأحاديثُ بذلك على ما يأتي من ذكرها في سورة «الجن»[٦] عن ابن عباس. وقد يُمكن الجمعُ بينهما أن يقال: إنَّ الذين قالوا: لم تكن الشياطين تُرْمَى بالنجوم قبل مَبْعث النبيِّ ﷺ، ثم رُميت؛ أي: لم تكن تُرمَى رمياً يَقْطَعُها عن السَّمع، ولكنها

(١) في (خ) و(د) و(ز) و(م): هم لا يسمعون ولا يتسمعون. وفي (ظ): هم لا يتسمعون. والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١١ ، والنكت والعيون ٥/ ٣٨ ، وتفسير الرازي ٢٦/ ١٢٢ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٦٦ .

(٣) وهي غير المشهورة عن يعقوب، وقراءته المشهورة عنه كقراءة الجماعة، وقراءة السلمي في القراءات الشاذة ص١٢٧ .

(٤) في (م): فإنه قدَّره.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٢ ، وما بين حاصرتين منه. والبيت لجرير، وهو في ديوانه ١/ ٢٧٨ ، وعجزه: كلامُكُمُ عليَّ إذاً حرامُ. ووقع صدره في الديوان: أتمضون الرسومَ ولا تُحيَّى. وهو برواية المصنف في الخزانة ٩/ ١٢١ .

(٦) في تفسير الآيات (٨ - ١٠).

كانت تُرمَى وقتاً ولا تُرمَى وقتاً، وتُرمى من جانب ولا تُرمَى من جانب. ولعل الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ . دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ إلى هذا المعنى، وهو أنهم كانوا لا يُقذَفون إلا من بعض الجوانب، فصاروا يُرمَوْن واصباً. وإنما كانوا من قبلُ كالمُتَجَسِّسة من الإنس، يبلغُ الواحدُ منهم حاجتَه ولا يبلُغها غيرُه، ويَسْلَمُ واحدٌ ولا يَسلَمُ غيره، بل يُقبَضُ عليه ويُعاقب وينكل.

فلما بُعث النبيُّ ﷺ زِيد في حِفظ السماء، وأُعِدَّت لهم شُهُبٌ لم تكن من قبل؛ لِيُدْحَروا عن جميع جوانب السماء، ولا يَقَرُّوا في مقعد من المقاعد التي كانت لهم منها؛ فصاروا لا يقدِرون على سماع شيء مما يجري فيها، إلا أن يَختطِفَ أحدٌ منهم بخفَّة حركته خطفةً، فيتبعه شهابٌ ثاقبٌ قبلَ أن يَنزِلَ إلى الأرض، فَيُلقيها إلى إخوانه فيحرقه؛ فبطلت من ذلك الكَهانة، وحصلت الرسالةُ والنبوَّة.

فإن قيل: إن هذا القذفَ إن كان لأجل النبوَّة فَلِمَ دامَ بعد النبي ﷺ؟ فالجواب: أنه دامَ بدوام النبوَّة، فإن النبي ﷺ أخبر ببطلان الكَهانة فقال: «ليس منَّا من تَكَهَّن»[(١)] فلو لم تُحرَسْ بعد موته لعادت الجنُّ إلى تسمُّعها؛ وعادت الكهانة. ولا يجوز ذلك بعد أن بطل، ولأنَّ قَطْعَ الحراسة عن السماء إذا وقع لأجل النبوّة فعادت الكهانة دخلت الشُّبهة على ضُعفاء المسلمين، ولم يُؤمَن أن يظنُّوا أنَّ الكهانة إنما عادت لِتناهي النبوّة، فصحَّ أن الحِكمة تقتضي دوامَ الحراسة في حياة النبي عليه الصلاة والسلام، وبعد أن توفَّاه الله إلى كرامته صلى الله عليه وعلى آله.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أي: دائم؛ عن مجاهد وقتادة. وقال ابن عباس: شديد. الكلبي والسدّي وأبو صالح: مُوجِع؛ أي: الذي يَصِلُ وجعُه إلى القلب؛ مأخوذٌ من الوَصَب، وهو المرض[(٢)].

---

(١) أخرجه البزار في البحر الزخار (٣٥٧٨) من حديث عمران بن حصين ﷺ بلفظ: «ليس منا تطيَّر أو تُطيِّر له، أو تكَهَّنَ أو تُكُهِّنَ له..» قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/ ١١٧ : رواه البزار ورجاله رجال الصحيح خلا إسحاق بن الربيع، وهو ثقة. وسلف نحوه ٩/ ٣٠٧ .

(٢) تفسير الطبري ١٩/ ٥٠٦ - ٥٠٧ ، والنكت والعيون ٥/ ٣٩ .

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾ استثناء من قوله: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ وقيل: الاستثناء يرجِع إلى غير الوحي؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٢] فيسترقُ الواحدُ منهم شيئاً مما يَتفاوضُ فيه الملائكة مما سيكون في العالم قبلَ أن يعلمَه أهلُ الأرض؛ وهذا لِخفَّة أجسام الشياطين، فَيُرجَمون بالشُّهب حينئذ.

ورُوي في هذا الباب أحاديثُ صحاح، مضمنها: أن الشياطين كانت تَصعَدُ إلى السماء، فتقعد للسمع واحداً فوق واحد، فيتقدَّم الأجسرُ نحو السماء، ثم الذي يَليه، ثم الذي يَليه، فيقضي اللهُ تعالى الأمرَ من أمر الأرض، فيتحدَّث به أهلُ السماء، فيسمعه منهم الشيطان الأدنى، فَيُلقيه إلى الذي تحته، فربما أحرقَه شهاب وقد ألقى الكلامَ، وربما لم يُحْرِقه، على ما بيَّناه. فتنزل تلك الكلمةُ إلى الكُهَّان، فيكذِبون معها مئةَ كذبة، وتصدق تلك الكلمة، فَيُصدِّق الجاهلون الجميعَ، كما بيَّناه في «الأنعام»[1].

فلما جاء الله بالإسلام حُرِست السماء بشدَّة، فلا يُفلت شيطانٌ سمع بَتَّةً. والكواكبُ الراجمة هي التي يراها الناس تنقضّ. قال النقَّاش ومكّي: وليست بالكواكب الجارية في السماء؛ لأن تلك لا تُرى حركتها، وهذه الراجمة تُرى حركتها؛ لأنها قريبة منا[2].

وقد مضى في هذا الباب في سورة «الحجر»[3] من البيان ما فيه كفاية. وذكرنا في «سبأ»[4] حديثَ أبي هريرة. وفيه: «والشياطينُ بعضُهم فوق بعض» وقال فيه الترمذي: حديث حسن صحيح. وفيه: عن ابن عباس: «ويختطفُ الشياطينُ السَّمْعَ، فَيُرمَوْن،

(١) ٨/ ٤٠٥ ، وذكر المصنف ثمة في هذا المعنى حديث عائشة رضي الله عنها، وهو عند البخاري (٣٢١٠)، وينظر حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند مسلم (٢٢٢٩)، وهذا الكلام وما بعده من المحرر الوجيز ٤/ ٤٦٦ .

(٢) قال ابن عطية: في هذا نظر.

(٣) ١٢/ ١٨٧ وما بعدها .

(٤) ١٤/ ٢٩٦ .

فَيَقذِفُونه إلى أوليائهم، فما جاءوا به على وَجْهِهِ فهو حقٌّ، ولكنهم يُحرِّفونه ويَزيدون». قال: هذا حديثٌ حسن صحيح[١].

والخَطْف: أخذُ الشيء بسرعة؛ [يقال:] خَطَفَ وخَطِفَ وخَطَّفَ وخِطَّفَ وخِطِّف[٢]. والأصل في المُشدَّدات: اختطف، فأدغم التاء في الطاء لأنها أُختها، وفتحت الخاء؛ لأن حركةَ التاء أُلقيت عليها. ومَن كَسَرها فلالتقاء الساكنين. ومَن كَسَرَ الطاء أتبع الكسر الكسر[٣].

﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ أي: مُضيء؛ قاله الضحاك والحسن وغيرهما[٤]. وقيل: المراد كواكبُ النار تَتْبعهم حتى تُسقطهم في البحر. وقال ابن عباس في الشهب: تُحرقهم من غير موت[٥]. وليست الشُّهُب التي يرجم[٦] بها من الكواكب الثوابت. يدلُّ على ذلك رؤيةُ حركاتها، والثابتة تجري ولا تُرى حركاتُها لِبُعْدها. وقد مضى هذا.

وجمعُ شِهاب شُهُب، والقياسُ في القليل أَشْهِبة وإن لم يُسمَع من العرب[٧]. و«ثَاقِبٌ» معناه: مُضِيء؛ قاله الحسن ومجاهد وأبو مِجْلَز. ومنه قوله: وَزَنْدُكَ أَثْقَبُ أزنادِها[٨]. أي: أضوأ. وحكى الأخفش في الجمع: شُهُبٌ ثُقُبٌ، وثواقب وثقاب. وحكى الكسائي: ثَقَبتِ النارُ تَثقُبُ ثَقابةً وثقوبا، إذا اتَّقدت، وأثقبتُها أنا[٩]. وقال زيد ابن أسلم في الثاقب: إنه المستوقد؛ من قولهم: أَثْقِب زَنْدَك، أي: استوقد نارَك؛

(١) سنن الترمذي (٣٢٢٤).

(٢) وهذه قراء الحسن وقتادة وعيسى كما في القراءات الشاذة ص١٢٧ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٢ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٩ عن الضحاك.

(٥) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٠٨ .

(٦) بعدها في (م): الناس.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٣ .

(٨) معاني القرآن للنحاس ٦/ ١٣ ، والزَّند: خشبة يُستَقْدَح بها. اللسان (زند).

(٩) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٣ ، وينظر اللسان (ثقب).

قاله الأخفش. وأنشد قول الشاعر:

بينما المرءُ شِهابٌ ثاقبٌ ضربَ الدهرُ سَناهُ فَخَمدْ[١]

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ أي: سَلْهم، يعني أهلَ مكة؛ مأخوذٌ من استفتاء المُفتي. ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ قال مجاهد: أي: مَن خَلَقنا مِن السماوات والأرض والجبال والبحار. وقيل: يدخل فيه الملائكة ومَن سلف من الأُمم الماضية. يدلّ على ذلك أنه أخبر عنهم بـ«مَنْ» قال سعيد بن جُبير: الملائكة. وقال غيره: من الأُمم الماضية، وقد هلكوا، وهم أشدُّ خَلْقاً منهم[٢].

نزلت في أبي الأشدّ بن كَلَدَة، وسُمّي بأبي الأشدّ لِشِدَّة بَطْشه وقوّته[٣]. وسيأتي في «البلد»[٤] ذِكْره. ونظيرُ هذه: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر:٥٧]، وقوله: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾[٥] [النازعات:٢٧].

﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ﴾ أي: لاصق؛ قاله ابن عباس. ومنه قول عليّ ﷺ:

تَعَلَّمْ فَإنّ الله زادكَ بَسطةً وأخلاقَ خيرٍ كلّها لكَ لَازِبُ

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٩ ، وقول زيد بن أسلم أخرجه الطبري ١٩/ ٥٠٩ ، والبيت لعبد الله بن عبد الأعلى الشيباني، ذكره الجاحظ في «البرصان» ص١٢٢ .

(٢) هذه الأقوال في النكت والعيون ٥/ ٤٠ ، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٩/ ٥١٠ .

(٣) الكشاف ٣/ ٣٣٧ ، وأبو الأشدّ الجمحي قُتل كافراً، وذكر السهيلي في الروض الأنف ٢/ ٦٥ أنه قال للنبي ﷺ: إن صرعتَني آمنت بك، فصرعه رسول الله ﷺ مراراً فلم يؤمن.

(٤) في تفسير الآيات (٥ – ٩).

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٣ .

وقال قتادة وابن زيد: معنى «لَازِبٍ» لازق. الماوردي[١]: والفرقُ بين اللّاصق واللّازق: أن اللَّاصق: هو الذي قد لَصِقَ بعضُه ببعض، واللَّازق: هو الذي يلتزق بما أصابه.

وقال عِكرمة: «لَازِبٍ» لزج[٢]. سعيد بن جُبير: أي: جيد حرٌّ يَلْصَق باليد. مجاهد: «لَازِب» لاتم[٣]. والعرب تقول: طينٌ لازِبٌ ولازِمٌ، تبدل الباء من الميم. ومثله قولهم: لاتب و لاتم[٤]. على إبدال الباء بالميم. واللازب الثابت؛ تقول: صار الشيء ضَرْبَةَ لازب، وهو أفصحُ من لازم. قال النابغة:

ولا يَحْسِبُونَ الخيرَ لا شَرَّ بعدَهُ ولا يَحْسِبُونَ الشرَّ ضربةَ لَازِبِ[٥]

وحكى الفرّاء عن العرب: طين لاتب بمعنى لازِم[٦]. واللاتِب الثابت؛ تقول منه: لَتَب يَلْتُب لَتْباً ولُتُوباً، مثل: لَزَب يَلْزُب ـ بالضم ـ لُزوباً؛ وأنشد أبو الجرَّاح في اللَّاتب:

فإن يَكُ هذا من نَبيذٍ شربْتُهُ فإنّيَ من شُربِ النَّبيذِ لَتائِبُ
صُداعٌ وَتَوْصيمُ العِظامِ وفَتْرَةٌ وغَمٌّ مع الإشْرَاقِ في الْجَوفِ لَاتِبُ

واللَّاتب أيضاً: اللَّاصق: مثل: اللَّازب، عن الأصمعي، حكاه الجوهري[٧].

---

(١) في النكت والعيون ٥/ ٤٠ ، وما قبله منه، وقول قتادة أخرجه الطبري ١٩/ ٥١٣ .

(٢) أحرجه الطبري ١٩/ ٥١٢ .

(٣) تفسير مجاهد ٢/ ٥٤٠ ، وأخرجه الطبري ١٩/ ٥١٣ .

(٤) في (خ) و (ز) و (ف): لاثب ولاثم، وفي (د): لاثب و لازم، وفي (م): لاتب ولازم، والمثبت من (ظ). واللَّتْب واللَّتْم: الطعن في النحر. اللسان (لتم).

(٥) تفسير الطبري ١٩/ ٥١١ ، والصحاح (لزب) والبيت في ديوان النابغة ص١٣ .

(٦) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٨٤ ، ونسب هذه اللغة لقيس، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤١٣ .

(٧) في الصحاح (لتب) و (لزب) والبيتان فيه، والبيت الثاني في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٨٤ ، وتفسير الطبري ١٩/ ٥١١ ، وفيهما: وغثيٌ، بدل: وغمٌّ.

وقال السدي والكلبي في اللّازب: إنه الخالص. مجاهد والضحَّاك: إنه المُنتن[١].

قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ قراءةُ أهل المدينة وأبي عمر وعاصم بفتح التاء خِطاباً للنبي ﷺ[٢]؛ أي: بل عجبتَ مما نزل عليك من القرآن وهم يَسخرون به. وهي قراءة شُرَيح و[أنكر قراءة الضم وقال:] إن الله لا يعجب من شيء، وإنما يعجب من لا يعلم. وقيل: المعنى بل عجبت من إنكارها للبعث[٣].

وقرأ الكوفيون إلا عاصماً بضم التاء[٤].

واختارها أبو عُبيد والفرّاء، وهي مرويَّة عن عليٍّ وابن مسعود؛ رواها شعبة عن الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله بن مسعود أنه قرأ: «بَلْ عَجِبْتُ» بضم التاء. وتُروَى عن ابن عباس[٥].

قال الفرَّاء[٦] في قوله سبحانه: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ قرأها الناس بنصب التاء ورفعها، والرفعُ أحبُّ إليَّ؛ لأنها عن علي وعبد الله وابن عباس. وقال أبو زكريا الفراء: العجبُ إن أُسْنِد إلى الله عز وجل فليس معناه من الله كمعناه من العباد؛ وكذلك قوله ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥] ليس ذلك من الله كمعناه من العباد. وفي هذا بيان الكسر لقول شُرَيْح حيث أنكر القراءة بها.

روى جرير عن الأعمش[٧] عن أبي وائل شَقِيق بن سَلَمة قال: قرأها عبد الله يعني ابن مسعود: «بَلْ عَجِبْتُ وَيَسْخَرُونَ» قال شُريح: إنَّ الله لا يعجبُ من شيء، إنما يعجبُ مَن لا يعلم. قال الأعمش: فذكرته لإبراهيم فقال: إنَّ شُريحاً كان يُعجبه

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٤.

(٢) السبعة ص٥٤٧، والتيسير ص١٨٦، والنشر ٢/ ٣٥٦.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ١٥، وما بين حاصرتين منه. وقال الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٣٠٠: وإنكارها هذا غلط؛ لأن القراءة والرواية كثيرة، والعجبُ من الله عز وجل خِلافُه من الآدميِّين.

(٤) السبعة ص٥٤٧، والتيسير ص١٨٦، والنشر ٢/ ٣٥٦.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٣.

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٣٨٤.

(٧) في (م): والأعمش. وجرير: هو ابن عبد الحميد الضبي.

رأيه، إن عبد الله كان أعلمَ من شُرَيح، وكان يقرؤها عبد الله: «بَلْ عَجِبْتُ»[(١)].

قال الهرويّ: وقال بعضُ الأئمة: معنى قوله: «بَلْ عَجِبْتُ»: بل جازيتهم على عجبهم[(٢)]؛ لأن الله تعالى أخبر عنهم في غير موضع بالتعجب من الحقّ؛ فقال: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ [ص: ٤]، وقالوا[(٣)]: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ [يونس: ٢] فقال تعالى: «بَلْ عَجِبْتُ» بل جازيتهم على التعجُّب.

قلت: وهذا تمامُ قول الفرّاء، واختاره البيهقي[(٤)].

وقال علي بن سليمان: معنى القراءتين واحد، والتقدير: قُلْ يا محمد: بل عجبت؛ لأن النبيَّ ﷺ مُخاطب بالقرآن. النحاس[(٥)]: وهذا قول حسن، وإضمارُ القول كثير.

البيهقي[(٦)]: والأول أصحّ.

المهدوي: ويجوز أن يكون إخبارُ اللهِ عن نفسه بالعجب محمولاً على أنه أظهر من أمره وسخطه على من كَفَر به ما يقوم مقامَ العجب من المخلوقين؛ كما يُحْمَل إخباره تعالى عن نفسه بالضَّحِك لمن يرضى عنه ـ على ما جاء في الخبر عن النبي ﷺ[(٧)] ـ على أنه أَظْهرَ له من رضاه عنه ما يقوم له مقام الضحك من المخلوقين مجازاً واتّساعاً.

---

(١) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٩٩١).

(٢) نسبه ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٥٠ لابن الأنباري.

(٣) في (م): وقال.

(٤) في الأسماء والصفات ٢/ ٤١٦ .

(٥) في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٣ ، وما قبله منه.

(٦) في الأسماء والصفات ٢/ ٤١٦ .

(٧) مثل حديث: «يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة، يقاتل هذا في سبيل الله فيقتل، ثم يتوب الله على القاتل فيستشهد» أخرجه البخاري (٢٨٢٦)، ومسلم (١٨٩٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

قال الهرويّ: ويقال: معنى «عَجِبَ رَبُّكُم»: أي: رضي وأثاب؛ فسمَّاه عجباً، وليس بعجب في الحقيقة؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠] معناه: ويُجازيهم الله على مَكْرهم، ومثلُه في الحديث: «عَجبَ رَبُّكُمْ مِنْ إِلِّكُمْ وقُنوطكم»[(١)]. وقد يكون العجبُ بمعنى وقوع ذلك العمل عند الله عظيماً. فيكون معنى قوله: ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ أي: بل عَظُم فِعْلُهم عندي.

قال البيهقي[(٢)]: ويُشبه أن يكون هذا معنى حديثِ عُقبة بن عامر قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «عَجِبَ ربُّك من شاب ليست له صَبْوة»[(٣)] وكذلك ما خرَّجه البخاري عن [أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «عَجِبَ اللهُ من قومٍ يدخلون الجنة في السلاسل»[(٤)]].

قال البيهقي: وقد يكون هذا الحديثُ وما ورد من أمثاله أنه يعجبُ ملائكته من كرمه ورأفته بعباده[(٥)]، حين حَمَلَهم على الإيمان به بالقتال والأَسْر في السلاسل، حتى إذا آمنوا أَدْخلهم الجنة.

وقيل: معنى «بَلْ عَجِبْتُ»: بل أنكرتُ. حكاه النقَّاش.

وقال الحسين بن الفَضْل: التعجبُ من الله إنكارُ الشيء وتعظيمه، وهو لغةُ العرب. وقد جاء في الخبر: «عَجِبَ ربُّكم من إِلّكم وقُنوطكم».

﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ قيل: الواو واو الحال؛ أي: عَجِبتُ منهم في حال سُخريتهم.

---

(١) أورده أبو عبيد في غريب الحديث ٢/ ٢٦٩. وقال: فإن كان المحفوظ قوله: «من إِلّكم» بكسر الألف، فإني أحسبها: من أَلّكم، بالفتح، وهو أشبه بالمصادر. وهو أن يرفع الرجل صوته بالدعاء، ويجأر فيه.

(٢) في الأسماء والصفات ٢/ ٤١٧ -٤١٨.

(٣) أخرجه أحمد (١٧٣٧١).

(٤) من قوله: وكذلك.. إلى هنا، ليس في (خ) و (د) و (ز) و (ظ)، ووقع في (ف): وكذلك ما خرجه البخاري عن، وبعده بياض إلى هنا، وما بين حاصرتين من صحيح البخاري (٣٠١٠)، وأخرجه أحمد (٩٢٧١).

(٥) الصواب إثبات صفة العَجَب لله عز وجل على ما يليق بجلاله وعظمته.

وقيل: تمَّ الكلام عند قوله: «بَلْ عَجِبْتَ» ثم استأنف فقال: «وَيَسْخَرُونَ» أي: مما جئتَ به إذا تلوتَه عليهم. وقيل: يَسخرون منك إذا دعوتَهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا۟﴾ أي: وُعظوا بالقرآن في قول قتادة ﴿لَا يَذْكُرُونَ﴾ لاينتفعون به. وقال سعيد بن جُبير: أي: إذا ذُكر لهم ما حلَّ بالمُكَذِّبين من قبلهم أعرضوا عنه ولم يتدبَّروا(١).

﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً﴾ أي: معجزة ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ أي: يسخرون في قول قتادة. ويقولون: إنها سحر. واستسخر وسَخِرَ بمعنىً، مثل: استقر وقرَّ، واستعجب وعَجِبَ(٢).

وقيل: «يَسْتَسْخِرُونَ» أي: يستدعون السُّخْري من غيرهم(٣). وقال مجاهد: يستهزئون(٤). وقيل: أي: يظنُّون أن تلك الآية سُخرية.

﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: إذا عَجزوا عن مقابلة المُعجزات بشيء قالوا: هذا سحرٌ وتَخييل وخِداع.

﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾ أي: أنُبعثُ إذا مِتنا؟. فهو استفهامُ إنكار منهم وسُخرية. ﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ أي: أَوَ تُبعثُ آباؤنا. دخلت ألفُ الاستفهام على حرف العطف. وقرأ نافع: «أَوْ آبَاؤُنَا» بسكون الواو(٥). وقد مضى هذا في سورة «الأعراف» في قوله تعالى: ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [الآية: ٩٧].

قوله تعالى: ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ نَعَمْ﴾ أي: تُبعثون. ﴿وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾ أي: صاغرون أذلَّاء(٦)؛

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤١ بنحوه، وقول قتادة أخرجه الطبري ١٩/ ٥١٥ .

(٢) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٣٧٠ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٤ .

(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٥١٥ - ٥١٦ .

(٥) قرأ بها نافع في رواية قالون، وابن عامر. السبعة ص٢٨٧ ، والتيسير ص١٨٦ .

(٦) زاد المسير ٧/ ٥٢ .

لأنهم إذا رأَوا وقوعَ ما أنكروه فلا محالةَ يَذِلُّون. وقيل: أي: ستقوم القيامةُ وإنْ كَرِهتم، فهو أمرٌ واقع على رغمكم وإنْ أنكرتموه اليومَ بزعمكم.

﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ أي: صيحةٌ واحدةٌ؛ قاله الحسن. وهي النفخة الثانية. وسُمِّيت الصيحةُ زجرةً؛ لأن مقصودَها الزجر[١]؛ أي: يُزْجَر بها كزجر الإبل والخيل عند السَّوق.

﴿فَإِذَا هُم﴾ قِيَامٌ ﴿يَنظُرُونَ﴾ أي: ينظر بعضهم إلى بعض. وقيل: المعنى: ينتظرون ما يفعل بهم. وقيل: هي مثل قوله: ﴿فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الأنبياء: ٩٧]. وقيل: أي: ينظرون إلى البعث الذي أنكروه[٢].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ نادَوْا على أنفسهم بالويل؛ لأنهم يومئذ يعلمون ما حلَّ بهم. وهو منصوبٌ على أنه مصدر عند البصريين. وزعم الفرّاء أن تقديره: يا وَيْ لَنَا، ووَيْ بمعنى حُزْن. النحاس[٣]: ولو كان كما قال لكان منفصلاً، وهو في المصحف مُتَّصل، ولا نعلم أحداً يكتبه إلا مُتَّصلاً.

و«يَوْمُ الدِّينِ» يوم الحساب. وقيل: يوم الجزاء[٤].

﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ قيل: هو من قول بعضهم لبعض؛ أي: هذا اليوم الذي كذَّبنا به. وقيل: هو من قول الله تعالى لهم[٥]. وقيل: من قول الملائكة؛ أي: هذا يومُ الحكم بين الناس، فيبين المُحِقَ من المُبطل. فـ ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾[٦] [الشورى: ٧].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٤٢ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٢ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٦٨ بنحوه.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٤١٤ ، وما قبله منه.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٢ .

(٥) تفسير الطبري ١٩/ ٥١٨ .

(٦) تفسير الرازي ٢٦/ ١٣٠ بنحوه.

قوله تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ هو مِن قول الله تعالى للملائكة: «احْشُرُوا» المشركين «وَأزْوَاجَهُمْ» أي: أشياعَهم في الشِّرك، والشِّرك الظُّلم؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] فيُحشَر الكافر مع الكافر؛ قاله قتادة وأبو العالية.

وقال عمر بن الخطاب في قول الله عز وجل: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ قال: الزاني مع الزاني، وشاربُ الخمر مع شاربِ الخمر، وصاحبُ السرقة مع صاحبِ السرقة. وقال ابن عباس: «وأَزْوَاجَهُمْ» أي: أشباههم. وهذا يَرجِعُ إلى قول عمر.

وقيل: «وَأَزْوَاجَهُمْ» نساءهم المُوافِقات عل الكُفر؛ قاله مجاهد والحسن، ورواه النعمان بن بَشير عن عمر بن الخطاب.

وقال الضحاك: «وَأَزْوَاجَهُمْ» قُرَناءهم من الشياطين. وهذا قولُ مقاتل أيضاً: يُحشَر كلُّ كافر مع شيطانه في سلسلة(١).

﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُون مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أي: من الأصنام والشياطين وإبليس(٢). ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: سُوقوهم إلى النار. وقيل: «فَاهْدُوهُمْ» أي: دُلُّوهم.

---

(١) الأقوال السالفة في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٥، والنكت والعيون ٥/ ٤٣، وزاد المسير ٧/ ٥٢. وقول ابن عباس وعمر رضي الله عنهم أخرجه الطبري ١٩/ ٥١٩ - ٥٢٠.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٣.

يقال: هَدَيْتُه إلى الطريق، وهَدَيْتُه الطريق؛ أي: دَلَلْته عليه. وأهديتُ الهديَّةَ، وهَديتُ العروسَ، ويقال: أهديتها؛ أي: جعلتها بمنزلة الهديَّة[١].

قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ وحكى عيسى بن عمر: «أَنَّهُمْ» بفتح الهمزة. قال الكسائي: أي: لأنهم، وبأنهم[٢]، يقال: وَقفتُ الدابَّةَ أَقِفُها وَقْفاً فوقفتْ هي وقوفاً، يتعدَّى ولا يتعدَّى[٣]؛ أي: احبِسوهم. وهذا يكون قبلَ السَّوق إلى الجحيم؛ وفيه تقديمٌ وتأخيرٌ، أي: قِفُوهم للحساب، ثم سُوقوهم إلى النار. وقيل: يُساقون إلى النار أولاً، ثم يُحشَرون للسؤال إذا قَرُبوا من النار.

«إِنَّهُمْ مسؤولون» عن أعمالهم وأقوالهم وأفعالهم؛ قاله القُرَظي والكلبي. الضحاك: عن خطاياهم. ابن عباس: عن لا إله إلا الله[٤]. وعنه أيضاً: عن ظُلم الخَلْق.

وفي هذا كلِّه دليلٌ على أن الكافر يُحاسَب. وقد مضَى في «الحجر» الكلام فيه[٥].

وقيل: سؤالهم: أن يقال لهم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] إقامة للحجة. ويقال لهم: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ على جهة التقريع والتوبيخ؛ أي: ينصُر بعضُكم بعضاً، فيمنعه من عذاب الله[٦].

وقيل: هو إشارةٌ إلى قول أبي جهل يومَ بدر: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾[٧] [القمر: ٤٤]. وأصلُه: تتناصرون، فطُرحت إحدى التاءين تخفيفاً. وشدَّد البَزِّي التاء في الوصل[٨].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٦.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٦، وقراءة عيسى بن عمر في القراءات الشاذة ص ١٢٧.

(٣) الصحاح (وقف).

(٤) هذه الأقوال في زاد المسير ٧/ ٥٣.

(٥) ١٢/ ٢٥٩ - ٢٦٠.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٤٤ بنحوه.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٤٦٩، وزاد المسير ٧/ ٥٣.

(٨) التيسير ص ٨٣.

قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ قال قتادة: مستسلمون في عذاب الله عز وجل[١]. ابن عباس: خاضعون ذليلون. الحسن: مُنقادون. الأخفش: مُلقون بأيديهم. والمعنى مُتقارب.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ يعني: الرؤساء والأتباع ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ يتخاصمون[٢].

ويقال: لا يتساءلون، فسقطت لا. النحاس[٣]: وإنما غلِطَ الجاهل باللغة، فتوهَّم أنَّ هذا من قوله: ﴿فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون:١٠١]، إنما هو: لا يتساءلون بالأرحام، فيقول أحدُهم: أسألك بالرَّحِم الذي بيني وبينك لما نفعتني، أو أسقطتَ لي حقّاً لك عليَّ، أو وهبتَ لي حسنة. وهذا بيِّن؛ لأن قبلَه ﴿فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾. أي: ليس ينتفعون بالأنساب التي بينهم؛ كما جاء في الحديث «إنَّ الرجلَ لَيُسَرُّ بأن يصحَّ له على أبيه أو على ابنه حقٌّ فيأخذَه منه، لأنها الحسناتُ والسيئات»[٤]، وفي حديث آخر: «رَحِمَ اللهُ امرءا كان لأخيه عنده مَظْلِمةٌ من مال أو عِرْض، فأتاه فاستحلَّه قبل أن يُطالبَه به، فيأخذَ من حسناته، فإنْ لم تكن له حسناتٌ زِيد عليه من سيئات المُطالِب»[٥].

و«يَتَسَاءَلُونَ» هاهنا إنما هو أن يسألَ بعضُهم بعضاً ويُوبِّخه في أنه أضلَّه أو فتح له باباً من المعصية؛ يُبيِّن ذلك أن بعده ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾[٦].

قال مجاهد: هو قولُ الكفار للشياطين. قتادة: هو قولُ الإنس للجن. وقيل: هو من قول الأتباع للمتبوعين[٧]؛ دليلُه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٢٤.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٥.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٤١٦ - ٤١٧.

(٤) لم نقف عليه.

(٥) أخرجه الترمذي (٢٤١٩) بنحوه من حديث أبي هريرة ﷺ. وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٧.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٤٥، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٦٩، وقول قتادة أخرجه الطبري ١٩/ ٥٢٤.

رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ الآية [سبأ: ٣١].

قال سعيد عن قتادة: أي: تأتوننا عن طريق الخير وتصدُّوننا عنها. وعن ابن عباس نحو منه. وقيل: تأتوننا عن اليمين التي نُحبها ونتفاءل بها لتغرونا بذلك من جهة النُّصح. والعربُ تتفاءل بما جاء عن اليمين وتُسمِّيه السانح. وقيل: «تَأْتُونَنا عن اليمينِ» تأتوننا مجيء من إذا حلفَ لنا صدَّقناه[١]. وقيل: تأتوننا من قِبل الدِّين فتهوِّنون علينا أمرَ الشريعة وتُنفِّروننا عنها[٢].

قلت: وهذا القولُ حسنٌ جدّاً؛ لأن من جهة الدِّين يكون الخير والشرّ، واليمين بمعنى الدِّين؛ أي: كنتم تزيِّنون لنا الضَّلالة.

وقيل: اليمين بمعنى القوَّة؛ أي: تمنعوننا بقوّة وغلبة وقهر؛ قال الله تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِٱلْيَمِينِ﴾ أي: بالقوّة وقوّة الرجل في يمينه؛ وقال الشاعر:

إذا مَا رَايةٌ رُفِعتْ لمجدٍ تَلَقّاها عَرابَةُ باليمين[٣]

أي: بالقوَّة والقُدرة. وهذا قولُ ابن عباس. وقال مجاهد: «تَأْتُونَنَا عَنِ اليمِينِ» أي: من قِبَل الحقّ أنه معكم[٤]؛ وكلُّه مُتقارب المعنى.

﴿قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ قال قتادة: هذا قولُ الشياطين لهم[٥]. وقيل: من قول الرؤساء؛ أي: لم تكونوا مؤمنين قطُّ حتى ننقلكم منه إلى الكفر، بل كنتم على الكفر فأقمتُم عليه لِلإلف والعادة ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ﴾ أي: من حُجة في ترك الحق. ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾ أي: ضالِّين مُتجاوزين الحدّ.

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ﴾ هو أيضاً من قول المتبوعين؛ أي: وجب علينا وعليكم قولُ

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٧.

(٢) زاد المسير ٧/ ٥٤ بنحوه.

(٣) قائله الشماخ بن ضرار، وهو في ديوانه ص ٣٣٦.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٥ - ٤٦.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٧.

ربَّنا، فكلنا ذائقو العذاب، كما كتب اللهُ وأخبرَ على ألسنة الرُّسل ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[1] [هود:١١٩]. وهذا موافق للحديث: «إنَّ اللهَ جلّ وعزّ كتب للنار أهلاً وللجنة أهلاً، لا يُزادُ فيهم ولا ينقصُ منهم»[2].

﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ﴾ أي: زيَّنا لكم ما كنتم عليه من الكفر ﴿إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ بالوسوسة والاستدعاء. ثم قال خبراً عنهم: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ الضالّ والمُضِلّ. ﴿إِنَّا كَذَلِكَ﴾ أي: مثل هذا الفعل ﴿نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ أي: المشركين.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: إذا قيل لهم: قولوا، فأضمرَ القولَ.

و«يَسْتَكْبرُونَ» في موضع نصب على خبر كان. ويجوز أن يكون في موضع رفع على أنه خبر إنّ، وكان مُلغاة[3]. ولما قال النبي ﷺ لأبي طالب عند موته واجتماع قريش «قولوا: لا إله إلا الله، تَملِكوا بها العربَ، وتَدين لكم بها العَجَم»[4] أبَوْا وأَنِفُوا من ذلك. وقال أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «أنزل اللهُ تعالى في كتابه فذكَر قوماً استكبروا فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح:٢٦] وهي: لا إلهَ إلا اللهُ محمدٌ رسولُ الله» استكبر عنها المشركون يومَ الحُدَيْبِيَة يومَ كاتَبهم رسولُ الله ﷺ

(١) الكلام بنحوه في تفسير البغوي ٤/ ٣٦ ، وزاد المسير ٧/ ٥٤ - ٥٥ .

(٢) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرج نحوه أحمد (٦٥٦٣) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وإسناده ضعيف، وفي هذا المعنى عدة أحاديث ثابتة سلفت الإشارة إليها ٩/ ٣٧٦ ، منها حديث علي ﷺ، ولفظه: «ما منكم من أحدٍ، ما من نفس منفوسة إلا كُتِبَ مكانُها من الجنة والنار..» أخرجه أحمد (٦٢١)، والبخاري (١٣٦٢)، ومسلم (٢٦٤٧).

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١٨ .

(٤) أخرجه أحمد (٢٠٠٨)، والترمذي (٣٢٣٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بنحوه.

على قضية المُدَّة؛ ذكر هذا الخبرَ البيهقيُّ[١]، والذي قبله القشيري.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾ أي: لِقول شاعرٍ مجنون؛ فردَّ الله جل وعز عليهم فقال: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ﴾ يعني القرآن والتوحيد ﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فيما جاؤوا به من التوحيد.

﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ الأصلُ: لذائقون، فَحُذِفَت النون استخفافاً وخُفضت للإضافة. ويجوز النصبُ كما أنشد سيبويه[٢]:

فَـأَلْـفَـيْـتُـهُ غـيـرَ مُـسْـتَـعْـتِـبٍ ... وَلَا ذَاكِـرِ الـلـهَ إِلَّا قَـلِـيـلاً[٣]

وأجاز سيبويه «وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةَ» [الحج: ٣٥][٤] على هذا.

﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: إلا بما عَمِلتم من الشِّرك ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء ممن يذوق العذاب. وقراءة أهل المدينة والكوفة: «الْمُخْلَصِينَ» بفتح اللام[٥]، يعني الذين أخلصهم اللهُ لطاعته ودينه وولايته. الباقون بكسر اللام؛ أي: الذين أخلصوا لله العبادة. وقيل: هو استثناءٌ منقطع؛ أي: إنكم أيها المجرمون ذائقو العذاب، لكن عباد الله المخلصين لا يذوقون العذاب[٦].

---

(١) في الأسماء والصفات (١٩٦)، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (٢١٨).

(٢) في الكتاب ١/١٦٩، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/٤١٨ .

(٣) قائله أبو الأسود الدؤلي، وسلف ٢/١٥ .

(٤) قرأ بها ابن أبي إسحاق، كما ذكرناه ١٤/٣٩٣ .

(٥) السبعة ص ٣٤٨ ، والتيسير ص ١٢٨ .

(٦) تفسير الرازي ٢٦/١٣٦ بنحوه.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ يعني المخلَصين؛ أي: لهم عطيةٌ معلومةٌ لاتنقطع. قال قتادة: يعني الجنة. وقال غيره: يعني رزق الجنة. وقيل: هي الفواكهُ التي ذَكَر. قال مقاتل: حين يَشتهونه. وقال ابن السائب: إنه بمقدار الغَداة والعَشِيّ؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢].

﴿فَوَٰكِهُ﴾ جمع فاكهة؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ﴾ [الطور: ٢٢] وهي الثِّمار كلُّها رَطْبها ويابسها؛ قاله ابن عباس(١).

﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ أي: ولهم إكرامٌ من الله جل وعز برفع الدرجات وسماع كلامه ولقائه. ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: في بساتين يتنعَّمون فيها. وقد تقدَّم أن الجِنان سبعٌ في سورة «يونس» منها النعيم(٢).

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ قال عكرمة ومجاهد: لا ينظر بعضُهم في قَفا بعض(٣)، تواصلاً وتحاباً. وقيل: الأَسِرَّة تدور كيف شاؤوا، فلا يرى أحدٌ قفا أحد. وقال ابن عباس: على سُرر مُكلَّلة بالدُّرّ والياقوت والزَّبرجد؛ السرير ما بين صنعاء إلى الجابية، وما بين عَدَن إلى أيلة(٤). وقيل: تدور بأهل المنزل الواحد. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ لـمَّا ذكَر مطاعِمَهم ذَكَر شرابَهم.

---

(١) زاد المسير ٧/ ٥٥ - ٥٦ .

(٢) ١٠/ ٤٨١ .

(٣) قول مجاهد أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ١٣/ ١٣٨ ، وقول عكرمة أورده النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤١٩ .

(٤) لم نقف عليه. وأيلة: جبل بين مكة والمدينة قرب ينبع.

والكأسُ عند أهل اللغة اسمٌ شامل لكلِّ إناء مع شرابه؛ فإنْ كان فارغاً فليس بكأس[١]. قال الضحاك والسدي: كلُّ كأس في القرآن فهي الخمر، والعربُ تقول للإناء إذا كان فيه خمرٌ: كأس، فإذا لم يكن فيه خمر قالوا: إناء وقدح[٢].

النحاس[٣]: وحكَى من يُوثق به من أهل اللغة أن العرب تقول لِلقَدَح إذا كان فيه خمر: كأس؛ فإذا لم يكن فيه خمرٌ فهو قَدَح؛ كما يقال للخُوَان إذا كان عليه طعام: مائدة، فإذا لم يكن عليه طعام لم تقل له: مائدة. قال أبو الحسن بن كيسان: ومنه: ظَعينة، للهودج إذا كان فيه المرأة.

وقال الزجاج[٤]: «بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ» أي: من خمر تجري كما تجرى العيون على وجه الأرض. والمعين: الماء الجاري الظاهر[٥].

﴿بَيْضَآءَ﴾ صفةٌ للكأس. وقيل: للخمر. ﴿لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ قال الحسن: خمرُ الجنة أشدُّ بياضاً من اللبن[٦]. «لَذَّةٍ»، قال الزجاج[٧]: أي: ذات لذَّة، فحذف المضاف. وقيل: هو مصدر جعل اسما، أي: بيضاء لذيذة؛ يقال: شرابٌ لذٌّ ولذيذ، مثل: نباتٌ غَضٌّ وغَضِيض. فأما قولُ القائل:

ولَـذٍّ كـطَـعْـمِ الـصَّـرْخَـدِيِّ تـركـتُـهُ   بـأرض الـعِدَا مِنْ خَشيةِ الـحَدَثَانِ[٨]

(١) زاد المسير ٧/ ٥٦، وينظر تهذيب اللغة ١٠/ ٣١٤.

(٢) تفسير الطبري ١٩/ ٥٣١.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٤١٩.

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٣٠٣، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤١٩.

(٥) تهذيب اللغة ٣/ ١٦.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٤٧٢، وزاد المسير ٧/ ٥٦.

(٧) في معاني القرآن ٤/ ٣٠٣، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤١٩.

(٨) البيت للراعي النميري، وهو في ديوانه ص١٨٦، وروايته:

ولَـذٍّ كـطـعـم الـصـرخـدي طـرحـتُـه   عشية خمس القوم والعين عاشقه

والبيت ذكره مثل رواية المصنف الأزهريُّ في تهذيب اللغة ١٤/ ٤٠٩، والزمخشري في الكشاف =

فإنه يريد النوم. وقيل: «بَيْضَاءَ» أي: لم يعتصرها الرجال بأقدامهم. ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي: لا تغتال عقولهم، ولا يُصيبهم منها مرضٌ ولا صُداع[١].

﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ أي: لا تذهبُ عقولُهم بشربها[٢]؛ يقال: الخمرُ غَوْل للحِلْم، والحربُ غولٌ للنفوس؛ أي: تذهبُ بها. ويقال: نُزِف الرجلُ يُنْزَف، فهو منزوفٌ ونَزِيفٌ، إذا سَكِرَ. قال امرؤ القيس:

وإذ هي تمشِي كمشي النَّزيـ ... ـفِ يَصْرَعُه بالكثيب البُهُرْ[٣]

وقال أيضاً:

نَزِيفٌ إذا قامتْ لِوجهٍ تمايلَتْ ... تُراشِي الفؤادَ الرَّخْصَ ألَّا تَختَّرا[٤]

وقال آخر:

فلثمتُ فاها آخِذاً بِقُرونها ... شُرْبَ النَّزيفِ ببرد ماءِ الحَشْرجِ[٥]

وقرأ حمزة والكسائي بكسر الزاي[٦]؛ من أنزف القومُ، إذا حان منهم النَّزْف، وهو السُّكر. يقال: أحصدَ الزَّرعُ، إذا حان حَصادُه، وأَقطفَ الكرمُ، إذا حان قِطافُه، وأَركبَ المهرُ، إذا حان رُكوبه. وقيل: المعنى: لا يُنفِدون شرابَهم؛ لأنه دأبهم؛ يقال: أَنزف الرجل، فهو منزوف، إذا فَنِيتْ خمرُه. قال الحُطيئة:

= ٣/ ٣٤٠ . وصرخد: موضع ينسب إليه الشراب. اللسان (صرخد). قال الأزهري: أراد: أنه لما دخل ديار أعدائه لم ينم حذاراً لهم.

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٧ ، وزاد المسير ٧/ ٥٦.

(٢) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٣٥ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) ديوان امرئ القيس ص ١٥٦ . قال شارحه: البهر: من الانبهار، وهو انقطاع النَّفَس.

(٤) ديوان امرئ القيس ص٦١. الرخص: الناعم. القاموس (رخص). قال شارح الديوان: أي: تداري فؤادها لتشتدّ عند المشي ولا تفتر.

(٥) البيت في الأغاني ١/ ١٩١ ضمن أبيات لعمر بن أبي ربيعة. وهو في اللسان (حشرج) وفيه: قال ابن بري: البيت لجميل بن معمر وليس لعمر بن أبي ربيعة. والنزيف: المحموم الذي مُنع من الماء. والحشرج: النُّقرة في الجبل يجتمع فيها الماء فيصفو.

(٦) السبعة ص ٥٤٧ والتيسير ص ١٨٦ .

لَعَمْرِي لئن أنْزفْتُم أو صَحَوْتُم لَبئس النَّدامَى كنتمُ آلَ أَبْجَرا[١]

النحاس[٢]: والقراءةُ الأولى[٣] أبينُ وأصحُّ في المعنى؛ لأن معنى «يُنْزَفُونَ» عند جِلَّة أهل التفسير ـ منهم مجاهد[٤] ـ: لا تذهب عقولهم؛ فنفى الله عز وجل عن خمر الجنة الآفاتِ التي تلحق في الدنيا من خمرها، من الصُّداع والسُّكر. ومعنى «يُنْزِفُونَ» الصحيح فيه أنه يقال: أنزف الرجل إذا نَفِدَ شرابُه، وهو يبعد أن يُوصَفَ به شرابُ الجنة؛ ولكن مجازه أن يكون بمعنى: لا يَنفَدُ أبداً.

وقيل: «لَايُنْزِفُونَ» بكسر الزاي: لا يَسْكَرون؛ ذكره الزجاج وأبو عليّ[٥] على ما ذكره القُشَيري.

المهدوي: ولا يكون معناه: يَسْكَرون؛ لأن قبلَه «لا فيها غَوْلٌ». أي: لا تغتال عقولَهم فيكون تكراراً؛ ويسوغ ذلك في «الواقعة»[٦].

ويجوز أن يكون معنى «لا فيها غَوْلٌ» لا يمرضون؛ فيكون معنى «ولاهُمْ عنها يُنْزِفُونَ» لا يَسْكَرون أو لا ينفَدُ شرابُهم[٧]. قال قتادة: الغول وجعُ البطن. وكذا روى ابنُ أبي نَجيح عن مجاهد: «لا فيها غَوْلٌ» قال: لا فيها وجعُ بطن. الحسن: صُداع. وهو قول ابن عباس «لا فيها غَوْلٌ»: لا فيها صُداع[٨]. وحكى الضحاك عنه أنه قال:

---

(١) لم نقف عليه في ديوان الحطيئة، ونسبه الطبري في تفسيره ١٩/ ٥٣٧ ، والجوهري في صحاحه (نزف)، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٧٢ للأُبَيْرد الرِّياحي، والكلام بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٣٠٣ ، والحجة لأبي علي الفارسي ٦/ ٥٤ - ٥٥ ، والنكت والعيون ٥/ ٤٨ ، وزاد المسير ٧/ ٥٧ ، وكلهم أورد البيت شاهداً على أن أنزف بمعنى سَكِرَ.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٤١٩ .

(٣) يعني قراءة: «يُنزَفون» بفتح الزاي.

(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٣٦ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٣٠٣ ، والحجة لأبي علي الفارسي ٦/ ٥٥ .

(٦) في تفسير الآية (١٩).

(٧) الكلام بنحوه في الحجة لأبي علي الفارسي ٦/ ٥٥ .

(٨) أخرج هذه الأقوال ـ ماعدا قول الحسن ـ الطبري ١٩/ ٥٣٢ - ٥٣٣ وقول الحسن ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٢٧

في الخمر أربعُ خِصال: السُّكر والصُّداع والقيء والبول؛ فذكر الله خمرَ الجنة فنزَّهَها عن هذه الخِصال[١]. مجاهد: داء. ابن كيسان: مَغْص. وهذه الأقوالُ متقاربة.

وقال الكلبي: «لا فيها غَوْلٌ» أي: إثم[٢]؛ نظيره: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ [الطور: ٢٣]. وقال الشعبي والسدي وأبو عُبيدة: لا تغتال عقولَهم فتذهب بها. ومنه قول الشاعر:

وما زالتِ الكأسُ تغتالُنا ... وتَذهبُ بالأولِ الأولِ[٣]

أي: تصرعُ واحداً واحداً.

وإنما صرفَ الله تعالى السُّكر عن أهل الجنة لئلا ينقطعَ الالتذاذ عنهم بنعيمهم.

وقال أهل المعاني: الغَوْل فسادٌ يلحق في خفاء. يقال: اغتاله اغتيالاً إذا أفسدَ عليه أمره في خُفية[٤]. ومنه الغَوْل والغِيلة: وهو القتل خُفية.

قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي: نساء قد قَصَرْنَ طرفهنَّ على أزواجهنَّ فلا ينظرن إلى غيرهم؛ قاله ابن عباس ومجاهد ومحمد بن كعب وغيرهم. عكرمة: «قَاصِرَات الطَّرْف» أي: محبوساتٌ على أزواجهنّ. والتفسير الأوّل أبينُ؛ لأنه ليس في الآية مقصورات، ولكن في موضع آخر: ﴿مَّقْصُورَٰتٌ﴾ [الرحمن: ٧٢] يأتي بيانُه[٥].

و«قاصرات» مأخوذ من قولهم: قد اقتصر على كذا، إذا اقتنع به وعدلَ عن غيره؛ قال امرؤ القيس:

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه كما في الدر المنثور ٥/ ٢٧٤.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٤٧.

(٣) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ١٦٩، وقول السدي أخرجه الطبري ١٩/ ٥٣٤، والبيت نسبه الرازي في تفسيره ٢٦/ ١٣٧ لمطيع بن إياس، وهو غير منسوب في تفسير الطبري ١٩/ ٥٣٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٧٢.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٧.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٠، وقول ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد أخرجه الطبري ١٩/ ٥٣٧ - ٥٣٨.

من القاصراتِ الطَّرْفِ لو دَبَّ مُحْوِلٌ ... مِن الذَّرِّ فَوْقَ الإتْبِ منها لأَثَّرا[(١)]

ويروى: فوق الخد[(٢)]. والأوّل أبلغ. والإتْب القميص، والمُحْوِل: الصغير من الذر. وقال مجاهد أيضاً: معناه: لا يَغَرْنَ[(٣)].

﴿عِينٌ﴾ عِظامُ العيون، الواحدة عَيْناء؛ وقاله السُّدي. مجاهد: «عِينٌ» حِسان العيون[(٤)]. الحسن: الشديداتُ بياض العين، الشديدات سوادها[(٥)]. والأوّل أشهرُ في اللغة. يقال: رجلٌ أعينُ، واسع العين، بيِّن العَيَن، والجمع: عِين، وأصله فُعْل بالضم، فكسرت العين؛ لئلا تنقلب الواو ياء. ومنه قيل لبقر الوحش: عِين، والثور أعينُ، والبقرة عَيْناء[(٦)].

﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ أي: مصون. قال الحسن وابن زيد: شُبِّهن ببيض النَّعام، تَكُنُّها النعامة بالريش من الريح والغبار، فلونُها أبيضُ في صُفرة، وهو أحسنُ ألوان النساء. وقال ابن عباس وابن جُبير والسدي: شُبِّهن ببطن البيض قبل أن يُقْشَرَ وتَمَسُّه الأيدي. وقال عطاء: شُبِّهن بالسِّحاء الذي يكون بين القِشرة العليا ولُباب البَيْض[(٧)]. وسَحَاةُ كل شيء قِشْره، والجمع سَحًا؛ قاله الجوهري[(٨)]. ونحوه قول الطبري[(٩)]، قال: هو القِشر الرقيق، الذي على البيضة بين ذلك. ورَوَى نحوه عن النبيّ ﷺ[(١٠)].

---

(١) ديوان امرئ القيس ص ٦٨ .

(٢) ذكره بهذه الرواية الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٤٨، والكلام السالف فيه.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٧ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٤٨ ، وزاد المسير ٧/ ٥٨ ، وقول السدي أخرجه الطبري ١٩/ ٥٣٩ .

(٥) مجمع البيان ٢٣/ ٥٧ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٠ ، والصحاح (عين).

(٧) هذه الأقوال في تفسير الطبري ١٩/ ٥٤٠ ، والنكت والعيون ٥/ ٤٨، وتفسير البغوي ٤/ ٢٧ ، وزاد المسير ٧/ ٥٨ .

(٨) في الصحاح (سحا).

(٩) في تفسيره ١٩/ ٥٤١ .

(١٠) من حديث أم سلمة رضي الله عنها، بلفظ: قلت: يا رسول الله، أخبرني عن قوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ =

والعربُ تُشبِّه المرأة بالبيضة لِصفائها وبياضها[١]؛ قال امرؤ القيس:

وبيضةِ خِدْرٍ لا يُرامُ خِباؤها تَمتَّعتُ من لَهْوٍ بها غيرَ مُعْجَلِ[٢]

وتقول العرب إذا وصفت الشيء بالحُسن والنظافة: كأنه بيضُ النعام المُغطَّى بالريش[٣]. وقيل: المكنون: المَصُون عن الكسر؛ أي: إنهنَّ عذارَى. وقيل: المرادُ بالبيض اللؤلؤ[٤]؛ كقوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة: ٢٢-٢٣] أي: في أصدافه؛ قاله ابن عباس أيضاً. ومنه قول الشاعر:

وهي بيضاءُ مِثلُ لُؤلُؤة الغَوَّاصِ مِيزَتْ مِن جَوْهَرٍ مَكْنونِ[٥]

وإنما ذكر المكنون والبيض جمع؛ لأنه ردَّ النَّعت إلى اللَّفظ[٦].

قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: يتفاوضون فيما بينهم

= قال: «رِقَّتُهنَّ كرِقَّة الجلدة التي رأيتها في داخل البيضة التي تلي القشرة..» وفي إسناده سليمان ابن أبي كريمة. ضعَّفه أبو حاتم، وقال ابن عدي: عامة أحاديثه مناكير، ميزان الاعتدال ٢/ ٢٢١.

(١) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٨، و تفسير البغوي ٤/ ٢٧، وزاد المسير ٧/ ٥٨، وفيهما: والعرب تُشبِّه المرأة ببيضة النعامة.

(٢) ديوان امرئ القيس ص ١٣، والبيت من معلقته.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٠.

(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٤١ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) قائله أبو دهبل، وهو في تفسير الطبري ١٩/ ٥٤١، والنكت والعيون ٥/ ٤٨، وخزانة الأدب (طبعة دار صادر) ٣/ ٢٨٠ وعند الطبري والبغدادي: زهراء، بدل: بيضاء.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٧.

أحاديثَهم في الدنيا. وهو من تمام الأُنس في الجنة. وهو معطوفٌ على معنى «يُطَاف عليهم» المعنى: يشربون فيتحادثون على الشَّراب كعادة الشُّرَّاب. قال بعضهم:

وما بَقِيَتْ من اللّذاتِ إلّا أحاديثُ الكِرامِ على المُدام

فَيُقبِل بعضُهم على بعض يتساءلون عمَّا جرى لهم وعليهم في الدنيا؛ إلا أنه جيء به ماضياً على عادة الله تعالى في إخباره[1].

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: من أهل الجنة: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ أي: صديقٌ مُلازم ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ أي: بالمبعث والجَزاء. وقال سعيد بن جُبير: قرينه شريكه[2]. وقد مضى في «الكهف» ذكرهما وقصَّتهما والاختلافُ في اسميهما مستوفىً عند قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ [الآية: ٢٢]. وفيهما أنزل اللهُ جلّ وعزّ: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ إلى ﴿مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾.

وقيل: أراد القرين قرينَه من الشياطين، كان يُوسوس إليه بإنكار البعث[3].

وقرئ: «أئِنَّكَ لمنَ المُصَّدِّقِينَ» بتشديد الصاد. رواه عليّ بن كِيْسة عن سليم عن حمزة[4]. قال النحاس[5]: ولا يجوز «أئِنَّكَ لمنَ المُصَّدِّقِينَ» لأنه لا معنى للصَّدقة هاهنا.

وقال القشيري: وفي قراءة عن حمزة: «أئِنَّكَ لَمنَ المُصَّدِّقِينَ» بتشديد الصاد.

---

(١) تفسير الرازي ٢٦/ ١٣٨، والبيت فيه دون نسبة.

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٤٩، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٥٩ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٤٩، وتفسير البغوي ٤/ ٢٨، وزاد المسير ٧/ ٥٩ عن مجاهد.

(٤) وهي غير المشهورة عن حمزة، والمشهورة عنه كقراءة الجماعة، وذكرها عن حمزة غير المصنف ابنُ الجوزي في زاد المسير ٧/ ٥٩ لكن من طريق بكر بن عبد الرحمن القاضي عنه. وعلي بن كِيْسة روى القراءة عن سليم، وهو ابن عيسى بن سليم أبو محمد الحنفي، مولاهم، الكوفي، المقرئ، توفي سنة (١٨٨ هـ). الإكمال لابن ماكولا ٧/ ١٥٧ - ١٥٨، وطبقات القراء ١/ ٣١٨.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٤٢١.

واعتُرِضَ عليه بأنَّ هذا من التصديق لا من التصدُّق. والاعتراضُ باطل؛ لأن القراءة إذا ثَبتتْ عن النبيّ ﷺ فلا مَجال للطَّعن فيها. فالمعنى «أَئِنَّكَ لمنَ المُصَّدِّقِينَ» بالمال طلباً في ثواب الآخرة.

﴿لَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ أي: مَجْزِيُّون مُحاسَبون بعد الموت.

فـ ﴿قَالَ﴾ الله تعالى لأهل الجنة: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾. وقيل: هو من قول المؤمن لإخوانه في الجنة: هل أنتم مُطَّلعون إلى النار لِننظُرَ كيف حالُ ذلك القرين[1].

وقيل: هو من قول الملائكة. وليس «هَلْ أَنتُم مُطَّلِعُونَ» باستفهام، إنما هو بمعنى الأمر، أي: اِطَّلِعوا؛ قال ابن الأعرابي[2] وغيره. ومنه لمَّا نزلت آية الخمر قام عمرُ قائماً بين يدي النبيّ ﷺ، ثم رفع رأسَه إلى السماء، ثم قال: يا ربّ، بياناً أشفى من هذا في الخمر. فنزلت: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١] قال: فنادى عمرُ: انتهينا يا ربَّنا[3].

وقرأ ابن عباس: «هل أنتم مُطْلِعُونَ» بإسكان الطاء خفيفة «فَأُطْلِعَ»، بقطع الألف مخفَّفة[4]، على معنى: هل أنتم مُقبلون فأقبل.

قال النحاس[5]: «فَأُطْلِعَ فَرَآهُ» فيه قولان: أحدهما أن يكون فعلاً مستقبلاً، معناه: فأطلع أنا، ويكون منصوباً على أنه جوابُ الاستفهام. والقول الثاني: أن يكون فعلاً ماضياً، ويكون اطَّلعَ وأطلع واحداً. قال الزجاج[6]: يقال: طَلَع وأَطْلَعَ واطَّلعَ بمعنىً واحد. وقد حُكي: «هَلْ أَنْتُمْ مُطْلِعُونِ» بكسر النون، وأنكره أبو حاتم[7] وغيره.

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٨.

(٢) ياقوتة الصراط ص ٤٢٧ - ٤٢٨، وما بعده منه.

(٣) أخرجه أحمد (٣٧٨)، وأبو داود (٣٦٧٠)، والترمذي (٣٠٤٩)، وسلف ٨/ ٥٧.

(٤) القراءات الشاذة ص ١٢٨، والمحتسب ٢/ ٢١٩.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٤٢٣.

(٦) في معاني القرآن ٤/ ٣٠٤، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٢٢.

(٧) نسبها أبو حيان في البحر ٧/ ٣٦١ لعمار بن أبي عمار، وإنكار أبي حاتم ذكره ابن جني في المحتسب ٢/ ٢٢٠.

النحاس[١]: وهو لحنٌ لا يجوز؛ لأنه جمعٌ بين النون والإضافة، ولو كان مضافاً لكان: هل أنتم مُطْلِعِيّ، وإن كان سيبويه والفرّاء قد حكيا مثلَه، وأنشدا:

هُـمُ الـقـائـلـونَ الـخـيـرَ والآمِـرونَـهُ ... إذا ما خَشَوا مِن مُحْدَثِ الأمرِ مُعْظَما[٢]

وأنشد الفراء: والفاعلونه. وأنشد سيبويه وحدَه:

ولـم يَـرْتـفِـق والـنـاس مُـحـتَـضِـرونـه[٣]

وهذا شاذٌّ خارجٌ عن كلام العرب[٤]، وما كان مثل هذا لم يُحتَجَّ به في كتاب الله عز وجل، ولا يدخل في الفصيح. وقد قيل في توجيهه: إنه أجرى اسمَ الفاعل مجرى المضارع لِقُربه منه، فجرى «مُطْلِعُونِ» مجرى يُطْلِعُونِ. ذكره أبو الفتح عثمان بن جني[٥] وأنشد:

أَرَيــتَ[٦] إن جــئــتُ بــه أُمْــلُــودا ... مُــرَجَّــلاً ويَــلْــبَــسُ الــبُــرُودا

أَقــائِــلُــنَّ أَحــضِــروا[٧] الــشُّــهُــودا

فأجرى أقائلُنّ مجرى أَتَقولُن. وقال ابن عباس في قوله تعالى: «هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ فاطَّلَعَ فَرَآهُ» إنّ في الجنة كُوًى ينظر أهلُها منها إلى النار وأهلِها[٨]. وكذلك قال كعب

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٤٢٢.

(٢) الكتاب لسيبويه ١/ ١٨٨ ، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٣٨٦ ،

(٣) الشطر الثاني كما في الكتاب ١/ ١٨٨ : جميعاً وأيدي المُعتَفين رَواهِقُه.

(٤) هذا قول النحاس، وقد قال قبله: أما البيتان اللذان أنشدهما سيبويه وشركه الفراء في أحدهما فلا يُعرف من قالهما، ولا تثبت بهما حجة، ا هـ . ونقل البغدادي في خزانة الأدب ٤/ ٢٧٠ عن النحاس قوله: وهذا لا يلزم سيبويه منه غلط؛ لأنه قد قال نصًّا: وزعموا أنه مصنوع، فهو عنده مصنوع لا يجوز، فكيف يلزمه منه غلط؟!

(٥) المحتسب ٢/ ٢٢٠ .

(٦) في النسخ: أرأيت، والمثبت من الخزانة ١١/ ٤٢٠ ، قال البغدادي: أصله: أرأيت، بمعنى: أخبرني، حذفت الهمزة تخفيفاً.

(٧) في الخزانة: أحضري، قال البغدادي: رواه العيني: أحضروا، بواو الجمع، ولا وجه له. والأُملود: الناعم. وهذا من رجز أورده السكري في أشعار هذيل لرجل منهم.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٢٨ ، وزاد المسير ٧/ ٦٠ .

فيما ذكر ابن المبارك، قال: إنَّ بين الجنة والنار كُوًى، فإذا أراد المؤمن أن ينظُرَ إلى عدوٍّ كان له في الدنيا اطلع من بعض الكُوى؛ فقال الله تعالى: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: في وسط النار والحسَكُ حواليه؛ قاله ابن مسعود(١).

ويقال: تعبتُ حتى انقطع سَوَائي: أي وسطي. وعن أبي عُبيدة: قال لي عيسى بن عمر: كنتُ أكتبُ يا أبا عُبيدة حتى ينقطع سَوَائي(٢).

وعن قتادة قال: قال بعض العلماء: لولا أنَّ الله جلّ وعزّ عرَّفه إيَّاه لما عَرَفه، لقد تغيَّر حِبْرهُ وسِبْرهُ(٣). فعند ذلك يقول: ﴿تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ «إنْ» مُخفَّفة من الثقيلة دخلتْ على كاد كما تدخل على كان. ونحوه ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾ [الفرقان: ٤٢] واللامُ هي الفارقةُ بينها وبين النافية(٤).

﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ في النار. وقال الكسائي: «لَتُرْدِينِ» أي: لَتُهْلِكني، والرَّدَى الهَلاك. وقال المبرد: لو قيل: «لَتُردِينِ» لَتُوقِعني في النار لكان جائزاً(٥). «وَلَولا نِعْمَةُ رَبِّي» أي: عصمتُه وتوفيقُه بالاستمساك بعروة الإسلام والبراءة من القَرين السوء. وما بعد «لولا» مرفوعٌ بالابتداء عند سيبويه، والخبرُ محذوف.

«لَكُنْتُ مِنَ المُحْضَرِينَ» قال الفراء(٦): أي: لَكنتُ معك في النار مُحضَراً. وأحضر لا يُستعمل مطلقاً إلا في الشرّ؛ قاله الماوردي(٧).

قوله تعالى: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ وقرئ: «بِمائِتِين»(٨)، والهمزة في «أفما»

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٣ .

(٢) مجاز القرآن ٢/ ١٧٠.

(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٤٨ عن قتادة عن مطرف بن عبد الله، وأورده الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٥٠ عن قتادة. وقوله: حبره وسبره، يعني: لونه وهيئته. الصحاح (حبر).

(٤) الكشاف ٣/ ٣٤١ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٨ .

(٦) نقله المصنف عنه بواسطه النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٢٤ ، وما قبله منه.

(٧) في النكت والعيون ٥/ ٥٠ .

(٨) قرأ بها زيد بن علي كما في البحر المحيط ٧/ ٣٦٢ .

للاستفهام دخلتْ على فاء العطف، والمعطوف محذوفٌ، معناه: أنحن مخَلَّدون مُنعَّمون فما نحن بميِّتين ولا مُعذَّبين[١]؟

﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ يكون استثناءً ليس من الأول، ويكون مصدراً؛ لأنه منعوت[٢]. وهو من قول أهل الجنة للملائكة حين يُذبَح الموت، «ويقال: يا أهلَ الجنة، خلودٌ ولا موت، ويا أهلَ النار، خلودٌ ولا موت»[٣].

وقيل: هو من قول المؤمن على جهة الحديث بنعمة الله في أنهم لا يموتون ولا يُعذَّبون؛ أي: هذه حالُنا وصفتُنا.

وقيل: هو من قول المؤمن توبيخاً للكافر لِمَا كان يُنكره من البعث، وأنه ليس إلا الموت في الدنيا. ثم قال المؤمن مُشيراً إلى ما هو فيه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[٤] يكون «هو» مبتدأ، وما بعده خبرٌ عنه، والجملةُ خبرُ «إنّ». ويجوز أن يكون «هو» فاصلاً[٥]. ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ يَحتمِل أن يكونَ من كلام المؤمن لمَّا رأى ما أعدَّ اللهُ له في الجنة وما أعطاه قال: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا﴾ العطاء والفضل ﴿فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾. نظير ما قال له الكافر: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤]. ويَحتمِلُ أن يكون من قول الملائكة. وقيل: هو من قول الله عز وجل لأهل الدنيا؛ أي: قد سمعتم ما في الجنة من الخيرات والجزاء، و«لمثل هذا» الجزاء «فَلْيَعْمَلِ العاملُونَ»[٦].

النحاس: وتقدير الكلام ـ والله أعلم ـ: فَلْيعملِ العاملون لمثل هذا. فإن قال

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٤١.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٤.

(٣) قطعة من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، أخرجه أحمد (١١٠٦٦)، والبخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩)، وأوله: «يُؤتى بالموت كهيئة كبش أملح... فيُذبَح»، وسلف بتمامه ١٣/ ٤٥٥.

(٤) زاد المسير ٧/ ٦٠ – ٦١.

(٥) إعراب النحاس ٣/ ٤٢٤.

(٦) زاد المسير ٧/ ٦١ بنحوه.

قائل: الفاء في العربية تدلُّ على أن الثاني بعد الأول، فكيف صار ما بعدها يُنوَى به التقديم؟ فالجواب أن التقديم كمثل التأخير؛ لأن حقَّ حروفِ الخفض وما بعدها أن تكون متأخرة[١].

قوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ مبتدأ وخبر، وهو من قول الله جل وعز. ﴿نُّزُلًا﴾ على البيان؛ والمعنى: أنعيمُ الجنة خيرٌ نُزلاً ﴿أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ خيرٌ نزلاً؟. والنُّزُل في اللغة: الرِّزق الذي له سَعَة. النحاس[٢]: وكذا النَّزل والنُّزل[٣]، إلا أنه يجوز أن يكون النُّزْل بإسكان الزاي لغة، ويجوز أن يكون أصلُه النُّزُل [فَحُذِفت الضَّمةِ لِثقلها]؛ ومنه: أُقيم للقوم نُزُلهم. واشتقاقُه أنه الغذاء الذي يصلُح أن ينزلوا معه ويُقيموا فيه. وقد مضى هذا في آخر سورة «آل عمران»[٤]. وشجرةُ الزَّقُّوم مشتقةٌ من التزقُّم، وهو البَلْع على جهد لكراهتها ونَتْنها[٥].

قال المفسرون: وهي في الباب السادس، وأنها تحيا بِلهَبِ النار كما تحيا الشجرة ببرد الماء[٦]؛ فلابدَّ لأهل النار من أن ينحدرَ إليها مَن كان فوقها فيأكلون منها، وكذلك يصعَد إليها من كان أسفلَ.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٤.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٤٢٤، وما قبله منه، وما بين حاصرتين الآتي منه.

(٣) قوله: النُّزْل، ليست في (م).

(٤) ٥/ ٤٨٣ - ٤٨٤.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٥.

(٦) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٥١ عن يحيى بن سلام.

واختلف فيها هل هي من شجر الدنيا التي تعرفها العرب أم لا؟ على قولين: أحدهما: أنها معروفةٌ من شجر الدنيا. ومن قال بهذا اختلفوا فيها؛ فقال قطرب: إنها شجرةٌ مُرَّة تكون بِتِهامة من أخبثِ الشجر. وقال غيره: بل هو كلُّ نبات قاتل. القول الثاني: إنها لا تُعرف في شجر الدنيا. فلما نزلت هذه الآية في شجرة الزقُّوم قالت كفار قريش: ما نعرف هذه الشجرة. فقَدِمَ عليهم رجلٌ من إفريقية، فسألوه فقال: هو عندنا الزُّبْد والتَّمر. فقال ابن الزِّبَعْرى: أكثرَ اللهُ في بيوتنا الزَّقُّوم. فقال أبو جهل لجاريته: زَقِّمينا؛ فأَتَتْه بِزُبْد وتمر. ثم قال لأصحابه تَزَقَّموا؛ هذا الذي يُخوِّفنا به محمد؛ يزعمُ أن النار تُنبِتُ الشجر، والنارُ تَحرِقُ الشجر[١].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: المشركين، وذلك أنهم قالوا: كيف تكون في النار شجرةٌ وهي تَحرِق الشجر؟ وقد مضى هذا المعنى في «سبحان»[٢]. واستخفافُهم في هذا كقولهم في قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٣٠]: ما الذي يُخصِّص هذا العَدَد؟ حتى قال بعضُهم: أنا أكفيكم منهم كذا، فاكفُوني الباقين[٣]. فقال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المدثر: ٣١] والفتنة الاختبار، وكان هذا القولُ منهم جهلاً، إذ لا يستحيل في العقل أن يخلُقَ اللهُ في النار شجراً من جنسها لا تأكلُه النار، كما يخلقُ اللهُ فيها الأغلالَ والقيود والحياتِ والعقاربَ وخَزَنَةَ النار.

وقيل: هذا الاستبعاد الذي وقع للكفار هو الذي وقع الآن للملحدة، حتى حملوا الجنةَ والنار على نعيم أو عقاب تتخلَّله الأرواح، وحملوا وزنَ الأعمال والصراط واللوح والقلم على معانٍ زوَّروها في أنفسهم، دون ما فَهِمه المسلمون من موارد

(١) النكت والعيون ٥/ ٥٠ - ٥١. وخبر أبي جهل أخرجه الطبري ١٩/ ٥٥٢ عن السدي، وسلف قوله وقول ابن الزبعرى ١٣/ ١١١-١١٢.

(٢) ١٣/ ١١١.

(٣) هو أبو الأشدّ الجمحي، وسيأتي خبره في تفسير الآية (٣٠) من سورة المدثر.

الشَّرع، وإذا ورد خبرُ الصادق بشيء موهوم في العقل، فالواجب تصديقُه وإن جاز أن يكون له تأويل، ثم التأويل في موضع إجماع المسلمين على أنه تأويلٌ باطلٌ لا يجوز، والمسلمون مُجمعون على الأَخْذِ بهذه الأشياء من غير مصير إلى علم الباطن وقيل: إنها فتنة، أي: عقوبة للظالمين؛ كما قال: ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الذاريات: ١٤].

قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: قَعْر النار، ومنها منشؤها، ثم هي متفرِّعة في جهنم[١]. ﴿طَلْعُهَا﴾أي: ثمرها؛ سُمِّي طَلْعاً لِطلوعه ﴿كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ قيل: يعني: الشياطين بأعيانهم، شَبَّهها برؤوسهم لِقُبْحِهم، ورؤوس الشياطين متصوَّر في النفوس وإن كان غيرَ مرئيّ. ومن ذلك قولهم لكل قبيح: هو كصورة الشيطان، ولكلِّ صورة حسنة: هي كصورة مَلَك. ومنه قوله تعالى مُخبراً عن صَواحب يوسف: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١] وهذا تشبيهٌ تخييلي؛ رُوي معناه عن ابن عباس والقُرَظي[٢]. ومنه قول امرئ القيس:

وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كأنيابِ أَغْوَالِ[٣]

وإن كانت الغولُ لا تُعرَف؛ ولكن لِمَا تصوَّر من قُبحها في النفوس[٤]. وقد قال الله تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢] فمردةُ الإنس شياطينُ مرئية. وفي الحديث الصحيح: «ولَكأنَّ نَخْلها رؤوس الشياطين»[٥] وقد ادَّعى كثيرٌ من العرب رؤيةَ الشياطين والغيلان.

---

(١) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٦٣ عن الحسن بنحوه.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٩ بنحوه.

(٣) ديوان امرئ القيس ص ٣٣، وصدره: أَيَقتُلني والمَشْرَفيُّ مُضاجِعي. قال شارحه: المَشْرَفي: سيف نسب إلى قرى بالشام يقال لها: المشارف. وأراد بالمسنونة الزُّرق: سهاماً محدَّدة الأزجَّة صافية، شبَّهها بأنياب الأغوال تشنيعاً لها.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٥١ - ٥٢ بنحوه.

(٥) قطعة من حديث سِحْر النبي ﷺ أخرجه أحمد (٢٤٣٠٠)، والبخاري (٥٧٦٦)، ومسلم (٢١٨٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وقال الزجاج والفرّاء[١]: الشياطين حياتٌ لها رؤوس وأعراف، وهي من أقبح الحيَّات وأخبثها وأخفِّها جسماً. قال الراجز وقد شبَّه المرأة بحية لها عُرْف:

عَنْجَرِدٌ تَحْلِفُ حين أحلِف   كمثلِ شيطانِ الحَماطِ أعْرَفُ

الواحدة حَمَاطة[٢]. والأعرف: الذي له عُرْف.

وقال الشاعر يَصِفُ ناقته:

تُلاعِبُ مَثْنَى حَضْرَميٍّ كأنّه   تَعَمُّجُ شيطان بذي خِرْوَعٍ قَفْرِ

التَّعَمُّج: الاعوجاج في السَّير. وسهم عَمُوج: يتلوَّى في ذهابه. وتَعَمَّجَتِ الحية: إذا تلوَّتْ في سَيْرها. وقال يَصِفُ زِمام الناقة:

تُلاعِبُ مَثْنَى حَضْرَميٍّ كأنه   تَعَمُّجُ شيطانٍ بذي خِرْوَعٍ قَفْرِ[٣]

وقيل: إنما شبه ذلك بِنَبْتٍ قبيح في اليمن يقال له: الأَسْتَن والشيطان. قال النحاس[٤]: وليس ذلك معروفاً عند العرب. الزمخشري[٥]: هو شجرٌ خَشِنٌ مُنتِنٌ مُرٌّ مُنكَر الصورة يُسمَّى ثمره رؤوسَ الشياطين. النحاس[٦]: وقيل: الشياطين ضربٌ من الحيات قِباح.

﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ فهذا طعامُهم وفاكهتهم بدل رِزْق أهل الجنة. وقال في «الغاشية»: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ [الآية: ٦] وسيأتي.

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا﴾ أي: بعد الأكل من الشجرة ﴿لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ الشَّوب

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٣٠٦، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٣٨٧.

(٢) الصحاح (حمط)، والرجز فيه وفي معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٨٧، وتفسير الطبري ١٩/ ٥٥٤ دون نسبة. وامرأة عَنْجَرِدٌ: خبيثة سيئة الخُلق. اللسان (عنجرد). والحَمَاط: شجر شبيهٌ بالتين أحبُّ شجر إلى الحيَّات. القاموس (حمط).

(٣) الصحاح (عمج)، والبيت فيه دون نسبة، ونسبه الجاحظ في الحيوان ٤/ ١٣٣ لطرفة.

(٤) في معاني القرآن ٦/ ٣٤، وما قبله منه.

(٥) في الكشاف ٣/ ٣٤٢.

(٦) في معاني القرآن ٦/ ٣٥.

الخلط، والشَّوْب والشُّوب لغتان[١]، كالفَقْر والفُقْر، والفتح أشهر. قال الفراء[٢]: شابَ طعامَه وشرابَه إذا خلطَهما بشيء، يشوبهما شَوْباً وشيابة. فأخبر أنه يُشاب لهم. والحميم: الماءُ الحار، ليكونَ أشنع؛ قال الله تعالى: ﴿وَسُقُوا مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

السّدي: يُشاب لهم الحميم بغسّاق أعينهم وصديدٍ من قيحهم ودمائهم[٣]. وقيل: يُمزَج لهم الزقُّوم بالحميم ليجمع لهم بين مرارةِ الزقُّوم وحرارةِ الحميم؛ تغليظاً لِعذابهم وتجديداً[٤] لبلائهم.

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ قيل: إنَّ هذا يدلُّ على أنهم كانوا حين أكلوا الزقُّوم في عذابٍ في غيرِ النار، ثم يُرَدُّون إليها. وقال مقاتل: الحميم خارجُ الجحيم، فهم يُوردون الحميم لِشُربه، ثم يُرَدُّون إلى الجحيم؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ . يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٣-٤٤].

وقرأ ابن مسعود: «ثُمَّ إِنَّ مُنْقَلَبَهُم لإلى الجحيم»[٥] وقال أبو عُبيدة: يجوز أن تكون «ثم» بمعنى الواو. القشيري: ولعلَّ الحميمَ في موضع من جهنم على طَرَفٍ منها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ﴾ أي: صادفوهم كذلك فاقتَدَوا بهم ﴿فَهُمْ

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٣٠٧، وقال: الشَّوب المصدر، والشُّوب الاسم.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٣٨٧، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٢٥.

(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٥٥ عن ابن زيد.

(٤) في النكت والعيون ٥/ ٥٢ (والكلام منه): وتشديداً.

(٥) تفسير الطبري ١٩/ ٥٥٦، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٧٦، وتفسير البغوي ٤/ ٢٩.

﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ أي: يُسرعون؛ عن قتادة. وقال مجاهد: كهيئة الهرولة[1]. قال الفراء[2]: الإهراعُ الإسراع برِعْدة. وقال أبو عُبيدة[3]: «يُهْرَعُونَ» يُستحَثُّون من خَلْفهم. ونحوه قول المبرّد. قال: المُهرَع المُستحثّ؛ يقال: جاء فلان يُهْرَع إلى النار إذا استحثَّه البردُ إليها[4]. وقيل: يُزعَجون من شِدَّة الإسراع؛ قاله الفضل[5]. الزجاج[6]: يقال: هُرِع وأُهْرِع، إذا استحثَّ وأزعج.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: من الأُمم الماضية. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾ أي: رُسُلاً أنذروهم العذاب فكفروا. ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي: آخر أمرهم. ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ أي: الذين استخلصهم اللهُ من الكفر. وقد تقدَّم[7]. ثم قيل: هو استثناء من «المُنْذَرِينَ». وقيل: هو من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[8].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ﴾ من النداء الذي هو الاستغاثة؛ ودعا، قيل: بمسألة هلاك قومه. فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[9] [نوح: ٢٦].

(١) أخرجهما الطبري ١٩/ ٥٥٧.
(٢) في معاني القرآن ٢/ ٣٨٧، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٢٥.
(٣) في مجاز القرآن ٢/ ١٧١.
(٤) إعراب القرآن ٣/ ٤٢٥.
(٥) ذكره النحاس في معاني القرآن ٦/ ٣٦ دون نسبة.
(٦) في معاني القرآن ٤/ ٣٠٧، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٢٦.
(٧) ١١/ ٣١٨ و١٢/ ٢١٢.
(٨) تفسير الرازي ٢٦/ ١٤٥.
(٩) تفسير الطبري ١٩/ ٥٥٩.

﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ قال الكسائي: أي: فَلَنِعْمَ المُجِيبُون له كنَّا[١]. ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ يعني أهلَ دِينه؛ وهم مَن آمن معه؛ وكانوا ثمانين على ما تقدَّم[٢]. ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ وهو الغَرَق.

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ قال ابن عباس: لمَّا خرج نوحٌ من السفينة مات مَن معه من الرجال والنساء إلا ولدَه ونساءه؛ فذلك قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾[٣]. وقال سعيد بن المسيَّب: كان ولد نوح ثلاثة، والناس كلُّهم من ولد نوح: فسام أبو العرب وفارس والروم واليهود والنصارى. وحام أبو السودان من المشرق إلى المغرب: السِّند والهند والنوب والزنج والحبشة والقِبط والبربر وغيرهم. ويافث أبو الصقالبة والترك والأبر[٤] والخزر ويأجوج ومأجوج وما هنالك. وقال قوم: كان لغير ولد نوح أيضاً نسل[٥]؛ بدليل قوله: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ٣]. وقوله: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨] فعلى هذا معنى الآية: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ دون ذرية مَن كفَر؛ فإنَّا أغْرقنا أولئك.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ﴾ أي: تركنا عليه ثناءً حسناً في كل أمة، فإنه مُحبَّب إلى الجميع؛ حتى إنَّ في المجوس من يقول: إنه أفريدون[٦]. رُوي معناه عن مجاهد وغيره.

وزعم الكسائي أن فيه تقديرين: أحدهما: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ﴾ يقال: ﴿سَلَٰمٌ

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٦.

(٢) ١١/ ١١٧.

(٣) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٥٣، والبغوي في تفسيره ٤/ ٣٠.

(٤) كذا في النسخ: الأبر، ولم نقف على من ذكر أُمة بهذا الاسم من أبناء يافث. وقول سعيد بن المسيَّب هذا ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٣٠.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٤٧٧ بمعناه، وقال ابن عطية: والأول أشهر عند علماء الأمة.

(٦) نسبه الطبري في تاريخه ١/ ٢١١ لبعض نسابي الفرس.

عَلَىٰ نُوحٍ﴾ أي: تركنا عليه هذا الثناء الحسن. وهذا مذهب أبي العباس المبرّد[١]. أي: تركنا عليه هذه الكلمة باقية؛ يعني: يُسلِّمون عليه تسليماً ويدعون له؛ وهو من الكلام المَحْكي؛ كقوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾ [النور: ١][٢].

والقول الآخر: أن يكون المعنى: وأبقينا عليه؛ وتمَّ الكلام، ثم ابتدأ فقال: «سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ» أي: سلامة له من أن يُذكر بسوء «في الآخرين». قال الكسائي: وفي قراءة ابن مسعود: «سلاماً» منصوب بـ «تركنا» أي: تركنا عليه ثناءً حسناً سلاماً[٣].

وقيل: «فِي الآخِرِينَ» أي: في أمة محمد ﷺ[٤]. وقيل: في الأنبياء إذْ لم يُبعث بعده نبيٌّ إلا أُمر بالاقتداء به؛ قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ [الشورى: ١٣].

وقال سعيد بن المسيَّب: وبلغني أنه مَن قال حين يُمسي: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ لم تَلْدغه عقرب. ذكره أبو عمر في «التمهيد»[٥]. وفي «الموطأ»: عن خولة بنت حكيم أن رسولَ الله ﷺ قال: «مَنْ نزلَ مَنزِلاً فليقل: أعوذُ بكلمات الله التامَّاتِ مِن شرِّ ما خَلَقَ، فإنه لن يضرَّه شيء حتى يَرتَحِلَ»[٦]. وفيه: عن أبي هريرة أن رجلاً مِن أسلم قال: ما نمتُ هذه الليلة؛ فقال رسول الله ﷺ: «مِن أيِّ شيء» فقال: لَدغتني عقرب؛ فقال رسولُ الله ﷺ: «أمَا إنَّك لو قلتَ حين أمسيتَ: أعوذُ بكلماتِ الله التامّات من شرِّ ما خَلَق لم تضرَّك»[٧].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٧ .

(٢) يعني كقولك: قرأت: «سورةٌ أنزلناها». الكشاف ٣/ ٣٤٣، والدر المصون ٩/ ٣١٧ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٧ ، وقراءة ابن مسعود ﷺ ذكرها أيضاً ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٧٧ .

(٤) مجمع البيان ٢٣/ ٦٥ .

(٥) ٢١/ ٢٤١ .

(٦) الموطأ ٢/ ٩٧٨ ، وأخرجه أحمد (٢٧١٢٢)، ومسلم (٢٧٠٨).

(٧) الموطأ ٢/ ٩٥١ ، وأخرجه أحمد (٨٨٨٠)، ومسلم (٢٧٠٩).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: نُبقي عليهم الثَّناء الحسن. والكاف في موضع نصب؛ أي: جزاء كذلك. ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا بيانُ إحسانه.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾ أي: مَن كَفر. وجمعه آخر[1]. والأصلُ فيه أن يكون معه «مِن» إلا أنها حُذفت؛ لأن المعنى معروف، ولا يكون آخر إلا وقبلَه شيء من جِنسه. و«ثمّ» ليس للتراخي هاهنا، بل هو لتعديد النِّعم؛ كقوله: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البلد:١٦-١٧] أي: ثم أُخبركم أني قد أغرقتُ الآخرين، وهم الذين تأخَّروا عن الإيمان.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ قال ابن عباس: أي: من أهل دينه. وقال مجاهد: أي: على مِنهاجه وسُنَّته[2]. قال الأصمعي: الشِّيعة الأعوان، وهو مأخوذٌ من الشِّياع، وهو الحَطَبُ الصِّغار الذي يُوقَد مع الكبار حتى يستوقد. وقال الكلبي والفراء[3]: المعنى: وإنَّ من شيعة محمد لإبراهيم. فالهاء في «شيعته» على هذا لمحمد عليه الصلاة والسلام[4]. وعلى الأوّل لنوح، وهو أظهرُ؛ لأنه هو المذكور أوّلاً، وما كان بين نوح وإبراهيم إلا نبيّان: هود وصالح، وكان بين نوح وإبراهيمَ ألفان وستُّ مئة وأربعون سنة؛ حكاه الزمخشري[5].

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أي: مُخلص من الشِّرك والشَّك. وقال

---

(١) كذا في النسخ، والصواب: الآخَرين جمع آخَر. والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٧ .

(٢) أخرجهما الطبري ١٩/ ٥٦٤ .

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٣٨٨ ، ونقله المصنف عنه بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٥٤ ، وما قبله منه.

(٤) قال الشوكاني في فتح القدير ٤/ ٤٠١: ولايخفى ما في هذا من الضعف والمخالفة للسياق.

(٥) في الكشاف ٣/ ٣٤٤.

عوف الأعرابي: سألتُ محمد بن سيرين: ما القلب السليم؟ فقال: الناصحُ لله عز وجل في خلقه[١].

وذكر الطبري عن غالب القطّان وعوف وغيرهما عن محمد بن سيرين أنه كان يقول للحجّاج: مسكين أبو محمد، إن عذَّبه الله فبذنبه، وإنْ غَفَرَ له فهنيئاً له، وإن كان قلبه سليماً فقد أصاب الذنوبَ من هو خير منه. قال عوف: فقلتُ لمحمد: ما القلب السليم؟ قال: أن يعلمَ أن الله حقٌّ، وأن الساعةَ قائمة، وأن الله يبعثُ مَن في القبور[٢]. وقال هشام بن عروة: كان أبي يقول لنا: يا بَنيّ، لا تكونوا لَعَّانِين، ألم تَرَوْا إلى إبراهيم لم يلعن شيئاً قطّ، فقال تعالى: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[٣].

ويَحتمِل مجيئه إلى ربّه وجهين: أحدهما عند دعائه إلى توحيده وطاعته، الثاني: عند إلقائه في النار[٤].

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ وهو آزر، وقد مضى الكلام فيه[٥]. ﴿وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ تكون «ما» في موضع رفع بالابتداء و«ذا» خبره. ويجوز أن تكون «ما» و«ذا» في موضع نصب بـ «تعبدون». ﴿أَئِفْكًا﴾ نصب على المفعول به؛ بمعنى: أتُريدون إِفْكاً. قال المبرّد: والإفك أسوأُ الكذب، وهو الذي لا يثبتُ ويضطرب، ومنه ائتفكَتْ بهم الأرض. ﴿ءَالِهَةً﴾ بدل من إفك[٦].

﴿دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ أي: تعبدون. ويجوز أن يكون حالاً بمعنى: أتريدون آلهةً من دون الله آفكين[٧]. ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: ما ظنُّكم به إذا لَقِيتموه وقد عَبَدْتم

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٧.
(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٢/ ١٩٠.
(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٦٥.
(٤) النكت والعيون ٥/ ٥٥.
(٥) ٨/ ٤٣٢ وما بعدها.
(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٨.
(٧) الكشاف ٣/ ٣٤٤.

غيرَه[١]؟ فهو تحذير، مثل قوله: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦] وقيل: المعنى: أي شيء توهَّمتموه[٢] حتى أشركتُم به غيره؟.

قوله تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ قال ابن زيد عن أبيه: أَرسل إليه مَلِكُهم: إنَّ غداً عيدُنا فاخرُج معنا، فنظر إلى نجم طالع فقال: إنَّ هذا يطلُع مع سقمي[٣].

وكان علمُ النجوم مستعملاً عندهم منظوراً فيه، فأوهمهم هو من تلك الجِهة، وأَراهم من مُعتقدهم عُذراً لنفسه؛ وذلك أنهم كانوا أهلَ رِعاية وفلاحة، وهاتان المعيشتان يُحتاج فيهما إلى نظرٍ في النجوم[٤].

وقال ابن عباس: كان علمُ النجوم من النبوّة، فلما حَبَسَ الله تعالى الشمسَ على يوشع بن نون أبطل ذلك، فكان نظرُ إبراهيم فيها علماً نبويّاً. وحكى جُوَيبر عن الضحاك: كان عِلمُ النجوم باقياً إلى زمن عيسى عليه السلام، حتى دخلوا عليه في موضع لا يطلُع عليه منه، فقالت لهم مريم: من أين عَلِمتم بموضعه؟ قالوا: من النجوم. فدعا ربَّه عند ذلك فقال: اللهم لا تُفهمهم في عِلْمها، فلا يعلم علمَ النجوم أحدٌ؛ فصار حكمها في الشَّرع محظوراً، وعِلْمها في الناس مجهولاً.

قال الكلبي: وكانوا في قرية بين البصرة والكوفة يقال لها: هرمزجرد، وكانوا ينظرون في النجوم[٥]. فهذا قول.

وقال الحسن: المعنى: أنهم لما كلَّفوه الخُروجَ معهم تفكَّر فيما يعمل. فالمعنى على هذا: أنه نظرَ فيما نَجَمَ له من الرأي، أي: فيما طَلَع له منه، فعلم أن كلَّ حيٍّ

(١) تفسير الطبري ١٩/٥٦٦.
(٢) في (خ) و(ظ): توهموه، وفي (م): أوهمتموه، والمثبت من (د) و(ز) و(ف).
(٣) أخرجه الطبري ١٩/٥٦٧.
(٤) المحرر الوجيز ٤/٤٧٨.
(٥) قول ابن عباس رضي الله عنهما وقول الضحاك وقول الكلبي في النكت والعيون ٥/٥٥ - ٥٦.

يَسْقَم فقال: «إِنِّي سَقِيم»[١].

الخليل والمبرّد: يقال للرجل إذا فكَّر في الشيء يدبِّره: نظرَ في النجوم. وقيل: كانت الساعةُ التي دَعَوْه إلى الخروج معهم فيها ساعةً تغشاه فها الحُمَّى. وقيل: المعنى: فنظر فيما نَجَمَ من الأشياء، فعلم أنَّ لها خالقاً ومُدبِّراً، وأنه يتغير كتغيرها فقال: «إِنِّي سَقِيمٌ»[٢]. وقال الضحاك: معنى «سَقِيمٌ»: سَأَسْقَم سَقَم الموت؛ لأنَّ من كُتب عليه الموت يَسْقَم في الغالب، ثم يموت، وهذا توريةٌ وتعريضٌ[٣]؛ كما قال للمَلِك لما سأله عن سارَّة: هي أختي؛ يعني أُخوَّةَ الدين[٤]. وقال ابن عباس وابن جُبير والضحاك أيضاً: أشار لهم إلى مرضٍ وسَقَمٍ يُعدي كالطاعون، وكانو يهربون من الطاعون[٥]، فلذلك «تَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ» أي: فارّين منه خوفاً من العَدْوى.

وروى الترمذيّ الحكيم قال: حدثنا أبي قال: حدثنا عمرو بن حماد، عن أسباط، عن السّديّ، عن أبي مالك وأبي صالح، عن ابن عباس، وعن سَمُرةَ عن الهَمْداني، عن ابن مسعود قال: قال أبو إبراهيم: إنَّ لنا عيداً، لو خرجتَ معنا لأَعجبكَ دِينُنا. فلما كان يومُ العيد خرجوا إليه وخرج معهم، فلما كان ببعض الطريق ألقى بنفسه، وقال: إني سقيمٌ أشتكي رجلي، فوطئوا رِجْلَه وهو صريعٌ، فلما مضَوا نادى في آخرهم: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾. قال أبو عبد الله: وهذا ليس بمعارِضٍ لما قال ابن عباس وابن جُبير؛ لأنه يَحتمِل أن يكون قد اجتمع له أمران.

قلت: وفي الصحيح عن النبي ﷺ: «لم يكذبْ إبراهيمُ النبيُّ عليه السلام إلا ثلاثَ كَذَبات» الحديث. وقد مضى في سورة «الأنبياء»[٦]. وهو يدلُّ على أنه لم يكن

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٠.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤١.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٨ بنحوه.

(٤) قطعة من حديث أخرجه البخاري (٣٣٥٨)، ومسلم (٢٣٧١) من حديث أبي هريرة ﷺ وأوله: «لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات..» وسلف ١٤/ ٢٢٢.

(٥) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٦٧ عن ابن عباس رضي الله عنهما والضحاك بنحوه.

(٦) ١٤/ ٢٢٢، وينظر التعليق قبل السابق.

سقيماً، وإنما عَرَّضَ لهم. وقد قال جلّ وعزّ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]. فالمعنى: إني سقيمٌ فيما أستقبل، فتوهَّموا هم أنه سقيمٌ الساعة. وهذا من مَعاريض الكلام على ما ذكرنا[١]، ومنه المثل السائر: «كَفَى بالسلامة داءً»[٢]، وقول لَبيد:

فدعوتُ ربِّي بالسَّلامةِ جاهِداً ليُصحّني فإذا السَّلامةُ داءُ[٣]

وقد مات رجلٌ فجأة فالتفَّ عليه الناس فقالوا: مات وهو صحيح، فقال أعرابي: أصحيح مَنِ الموت في عنقه[٤]؟.

فإبراهيمُ صادق، لكن لما كان الأنبياءُ لِقُرب محلّهم واصطفائهم عُدَّ هذا ذنباً؛ ولهذا قال: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢] وقد مضى هذا كلُّه مبيَّناً، والحمد لله.

وقيل: أراد: سقيم النفس لِكُفرهم[٥].

والنجوم يكون جمع نَجْم، ويكون واحداً مصدراً[٦].

قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ ءَالِهَتِهِمْ﴾ قال السّدي: ذهبَ إليهم. وقال أبو مالك: جاء

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٨.

(٢) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١٤٠٩) من حديث أنس ﷺ.

(٣) لم نقف عليه في ديوان لبيد، وقد نسبه له الزمخشري في الكشاف (والكلام منه) ٣/ ٣٤٤، ونسبه القيرواني في زهر الآداب ١/ ٢٢٣ لعمرو بن قميئة، ونسبه البغدادي في الخزانة ٢/ ٢١٧ لبعض شعراء الجاهلية.

(٤) الكشاف ٣/ ٣٤٤.

(٥) المصدر السابق.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٨.

إليهم. وقال قتادة: مال إليهم. وقال الكلبي: أقبل عليهم. وقيل: عَدَل[١]. والمعنى مُتقارب. فراغ يَرُوغ رَوْغاً ورَوَغاناً، إذا مال. وطريقٌ رائغ، أي: مائل[٢]. وقال الشاعر:

ويُرِيكَ مِن طَرَفِ اللسانِ حَلاوةً ويَروغ عنك كما يَرُوغ الثعلبُ[٣]

فقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ فخاطَبها كما يُخاطب مَن يعقِل؛ لأنهم أنزلوها بتلك المنزلة. وكذا ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾[٤].

قيل: كان بين يدي الأصنام طعامٌ تركوه ليأكلوه إذا رجَعوا من العيد، وإنما تركوه لِتُصيبه بركةُ أصنامهم بزعمهم[٥]. وقيل: تركوه لِلسَّدَنة. وقيل: قرَّب هو إليها طعاماً على جهة الاستهزاء؛ فقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾[٦].

﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ خصَّ الضَّرب باليمين لأنها أقوى والضربُ بها أشدُّ؛ قاله الضحاك والربيع بن أنس. وقيل: المراد باليمين اليمين التي حَلَفها حين قال: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾[٧].

وقال الفراء وثعلب: ضرباً بالقوة، واليمين القوة[٨].

وقيل: بالعَدْل، واليمين هاهنا العَدْل. ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٥] أي: بالعَدْل، فالعَدْل لليمين؛ والجَوْر للشمال. ألا

---

(١) هذه الأقوال في معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٢ - ٤٣، والنكت والعيون ٥/ ٥٧، وقولا السدي وقتادة أخرجهما الطبري ١٩/ ٥٧٠.

(٢) الصحاح (روغ).

(٣) لم نهتد إلى قائله.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٩.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٥٧.

(٦) تفسير الطبري ١٩/ ٥٧٠ - ٥٧١ بنحوه.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٥٧، ومجمع البيان ٢٣/ ٦٩.

(٨) قول الفراء في زاد المسير ٧/ ٦٩، وقول ثعلب في النكت والعيون ٥/ ٥٧.

ترى أن العدوَّ عن الشمال، والمعاصي عن الشمال، والطاعة عن اليمين؛ ولذلك قال: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الصافات:٢٨] أي: من قِبل الطاعة .فاليمينُ هو موضع العَدْل من المسلم، والشِّمال موضع الجَوْر. ألا ترى أنه بايع اللهَ بيمينه يومَ المِيثاق، فالبيعةُ باليمين؛ فلذلك يُعطَى كتابَه غداً بيمينه؛ لأنه وفَّى بالبيعة، ويُعطَى الناكثُ للبيعة الهاربُ برقبته من الله بشماله؛ لأنَّ الجَوْرَ هناك. فقوله: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾ أي: بذلك العَدْل الذي كان بايعَ اللهَ عليه يومَ الميثاق، ثم وفَّى له هاهنا. فجعل تلك الأوثان جُذاذاً، أي: فُتاتاً كالجَذِيدة،وهي السَّوِيق، وليس من قَبيل القوة؛ قاله الترمذي الحكيم .

﴿فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ قرأ حمزة: «يُزِفُّونَ» بضم الياء. الباقون بفتحها[1]. أي: يُسرعون؛ قاله ابن زيد[2]. قتادة والسُّدي: يَمشون[3]. وقيل: المعنى: يمشون بجمعهم على مَهَل آمنين أن يُصيب أحدٌ آلهتَهم بسوء. وقيل: المعنى: يتسلَّلون تسلُّلاً بين المَشْي والعَدْو؛ ومنه زَفيف النَّعامة. وقال الضحاك: يسعَوْن. وحكى يحيى بن سلَّام: يُرْعَدون غَضَباً. وقيل: يختالون، وهو مشيُ الخُيَلاء؛ قاله مجاهد. ومنه أُخِذَ زِفاف العروس إلى زوجها[4]. وقال الفرزدق:

وجاء قَرِيعُ الشَّولِ قبلَ إفَالِها ... يَزِفُّ وجاءتْ خَلْفَه وهي زُفَّفُ[5]

ومن قرأ: «يُزِفُّون» فمعناه: يُزِفُّون غيرهم، أي: يَحملونهم على التزفيف. وعلى هذا فالمفعول محذوف. قال الأصمعي: أزففت الإبل، أي: حملتُها على أن تَزِفَّ[6]. وقيل: هما لغتان، يقال: زَفَّ القوم وأزفُّوا .

---

(١) السبعة ص ٥٤٨ ، والتيسير ص ١٨٦ .

(٢) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ٢٣/ ٦٩ .

(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٧٤ عن السدي، وذكره النحاس في معاني القرآن ٦/ ٤٤ عن قتادة.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٥٧ .

(٥) ديوان الفرزدق ص٢٧ ، وفيه: وراحت، بدل: وجاءت.

(٦) الحجة لأبي علي الفارسي ٦/ ٥٧، والكشف عن وجوه القراءات ٢/ ٢٢٥ .

وزَفَفتُ العروسَ وأَزففتها وازدففتها بمعنًى، والمِزفّة: المِحَفّة التي تُزَفُّ فيها العروس؛ حُكي ذلك عن الخليل[١].

النحاس[٢]: «يُزِفُّون» بضم الياء. زعم أبو حاتم أنه لا يعرف هذه اللغة، وقد عَرَفَها جماعةٌ من العلماء منهم الفراء[٣] وشبَّهها بقولهم: أطردتُ الرجل، أي: صيَّرته إلى ذلك. وطردته نَحَّيته؛ وأنشد هو وغيره:

تَمنَّى حُصينٌ أن يَسودَ جِذَاعَهُ فأمسى حُصينٌ قد أَذَلَّ وأَقهَرا[٤]

أي: صُيِّر إلى ذلك؛ فكذلك «يُزِفُّون» يَصيرون على الزفيف. قال محمد بن يزيد: الزفيف الإسراع. وقال أبو إسحاق[٥]: الزفيفُ أول عَدْو النَّعام. وقال أبو حاتم: وزعم الكسائي أن قوماً قرؤوا: «فَأَقْبَلُوا إليه يَزِفُونَ»[٦] خفيفة؛ من وَزَف يَزِف، مثل: وَزَن يَزِن.

قال النحاس[٧]: فهذه حكايةُ أبي حاتم، وأبو حاتم لم يسمع من الكسائي شيئاً. وروى الفراء[٨] ـ وهو صاحبُ الكسائي ـ عن الكسائي أنه لا يعرف «يَزِفُون» مخفَّفة.

---

(١) الصحاح (زفف).

(٢) في إعراب القرآن ٣/٤٢٩.

(٣) في معاني القرآن ٢/٣٨٩.

(٤) البيت للمخبَّل السعدي يهجو به الزِّبرقان بن بدر ـ وهو حصين المذكور في البيت ـ وهو في أدب الكاتب ص٤٤٧، والخزانة ٨/١٠١. والجِذاع: هم رهط حُصين. وهذه رواية الأصمعي للبيت ويروى: أُذِلَّ وأُقهِرا، بالبناء للمجهول. ينظر الاقتضاب في شرح أدب الكتاب ٣/٢٨٠.

(٥) هو الزجاج، وقوله في معاني القرآن ٤/٣٠٩، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/٤٢٩، وما قبله وما بعده منه.

(٦) قرأ بها عبد الله بن يزيد كما سيأتي عند المصنف، وذكرها ابن جني في المحتسب ٢/٢٢١، وزاد أبو حيان في البحر ٧/٣٦٦ نسبتها لمجاهد والضحاك ويحيى بن عبد الرحمن المقرئ وابن أبي عبلة.

(٧) في إعراب القرآن ٣/٤٢٩.

(٨) في معاني القرآن ٢/٣٨٩.

قال الفراء: وأنا لا أعرفُها. قال أبو إسحاق[١]: وقد عَرَفَها غيرهما [أنه يقال] وَزَف يَزِف إذا أسرعَ. قال النحاس: ولا نعلم أحداً قرأ: «يَزِفُون».

قلت: هي قراءةُ عبد الله بن يزيد فيما ذكر المهدوي.

الزمخشري[٢]: و«يُزَفُّون» على البناء للمفعول. و«يَزْفُونَ» من زَفَاه إذا حَدَاه؛ كأنَّ بعضَهم يزفو بعضاً لِتسارعهم إليه.

وذكر الثعلبي عن الحسن ومجاهد وابن السَّمَيْفع: «يَرفون» بالراء [من] رفيف النعام، وهو ركضٌ بين المَشْي والطيران.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا نَنْحِتُونَ﴾ فيه حذف؛ أي: قالوا: مَن فَعل هذا بآلهتنا؟ فقال مُحتجّاً: «أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتونَ» أي: أتعبدون أصناماً أنتم تَنْحِتونها بأيديكم تَنْجُرُونها. والنَّحْت: النَّجْر والبَرْي؛ نَحَته يَنْحِتُه ـ بالكسر ـ نحتاً، أي: بَراه. والنُّحَاتةُ البُرَاية، والمِنْحَت: ما يُنْحَتُ به[٣].

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ «ما» في موضع نصب، أي: وخلق ما تعملونه من الأصنام[٤]، يعني الخشب والحجارة وغيرهما كقوله ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ [الأنبياء: ٥٦].

وقيل: إن «ما» استفهام، ومعناه: التحقير لِعملهم. وقيل: هي نَفْي، والمعنى: وما تعملون ذلك، لكنَّ اللهَ خالقُه. والأحسنُ أن تكون «ما» مع الفعل مصدراً، والتقديرُ: والله خَلَقَكم وعملكم[٥].

وهذا مذهبُ أهل السنة: أنَّ الأفعالَ خلقٌ لله عز وجل واكتسابٌ للعباد. وفي هذا إبطالُ

(١) هو الزجاج، وقوله في معاني القرآن ٤/ ٣٠٩، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٢٩ - ٤٣٠، وما بين حاصرتين الآتي منه.

(٢) في الكشاف ٣/ ٣٤٥.

(٣) الصحاح (نحت).

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٠.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٥ - ٤٦.

مذاهب القَدَرية والجَبْرية. وروى أبو هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «إنّ الله خالقُ كلِّ صانع وصَنْعته» ذكره الثعلبي. وخرَّجه البيهقي من حديث حُذَيفة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ اللهَ عزّ وجلّ صنعَ كلَّ صانع وصَنْعتَه»[١] فهو الخالقُ، وهو الصانع سبحانه، وقد بيَّناهما في «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»[٢].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا﴾ أي: تشاوروا في أمره لمَّا غَلَبهم بالحُجَّة حَسَبَ ما تقدَّم في «الأنبياء» بيانه[٣]. فـ ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا﴾ تملؤونه حَطَباً فَتُضْرِمونه، ثم أَلقوه فيه، وهو الجحيم. قال ابن عباس: بَنَوْا حائطاً من حجارة طوله في السماء ثلاثون ذراعاً، ومَلَؤوه ناراً وطرحوه فيها[٤]. وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: فلما صار في البُنيان قال: حسبي الله ونعم الوكيل[٥]. والألف واللام في «الجحيم» تدلُّ على الكناية؛ أي: في جحيمه؛ أي: في جحيم ذلك البُنيان[٦].

وذكر الطبري[٧]: أنَّ قائلَ ذلك اسمه الهيزن[٨]، رجلٌ من أعراب فارس، وهو

(١) الأسماء والصفات للبيهقي (٣٧)، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد ص ٢٥.

(٢) ص٣٣٤ و٣٤٤.

(٣) ١٤/٢٢٦.

(٤) ذكره الرازي في تفسيره ٢٦/ ١٥٠، والطبرسي في مجمع البيان ٢٣/ ٧٠.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٠.

(٦) تفسير الرازي ٢٦/١٥٠.

(٧) في تفسيره ١٦/ ٣٠٥، ونقله المصنف عنه بواسطة السهيلي في التعريف والإعلام ص ١٤٦، وقد أخرجه الطبري عن ابن عمر رضي الله عنهما ومجاهد وابن جريج. وسلف ١٤/٢٢٦.

(٨) اضطرب رسمها في النسخ، والمثبت من (م)، وتفسير الطبري والتعريف والإعلام. وقال أبو حيان في البحر ٦/٣٢٨: وذكروا لهذا القائل اسماً مختلفاً فيه لا يوقف منه على حقيقة لكونه ليس مضبوطاً بالشكل والنقط، وهكذا تقع أسماء كثيرة أعجمية في التفاسير لا يمكن الوقوف منها على حقيقة لفظ لعدم الشكل والنقط.

التُّرك[١]، وهو الذي جاء فيه الحديث: «بينما رجلٌ يمشي في حُلّة له يَتبخترُ فيها فَخُسِفَ به، فهو يَتجلْجَلُ في الأرض إلى يوم القيامة»[٢]. والله أعلم.

﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا﴾ أي: بإبراهيم. والكَيْد المَكْر؛ أي: احتالوا لإهلاكه ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ المقهورين المغلوبين إذْ نَفَذَتْ حُجَّته من حيث لم يُمكنهم دَفْعها، ولم يَنفُذْ فيه مكرُهم ولا كيدُهم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: هذه الآيةُ أصلٌ في الهجرة والعزلة، وأوَّل مَن فَعَلَ ذلك إبراهيمُ عليه السلام، وذلك حين خلَّصه الله من النار قال: «إِنِّي ذَاهِبٌ إِلى رَبِّي» أي: مُهاجر من بلدِ قومي ومولدي إلى حيث أتمكَّن من عبادة ربي، فإنه «سَيَهْدينِ» فيما نويتُ إلى الصواب. قال مقاتل: هو أوَّلَ مَن هاجر من الخَلْق مع لوط وسارَّة إلى الأرض المقدَّسة، وهي أرضُ الشام. وقيل: ذاهبٌ بعملي وعبادتي، وقلبي ونيَّتي[٣]. فعلى هذا ذهابُه بالعمل لا بالبدن. وقد مضى بيانُ هذا في «الكهف» مستوفىً[٤]. وعلى الأوّل بالمهاجرة إلى الشام وبيت المَقْدس. وقيل: خرج إلى حرَّان، فأقام بها مُدَّة. ثم قيل: قال ذلك لمن فارقه من قومه؛ فيكون ذلك توبيخاً لهم. وقيل: قاله لمن هاجر معه من أهله؛ فيكون ذلك منه ترغيباً .

وقيل: قال هذا قبلَ إلقائه في النار. وفيه على هذا القول تأويلان: أحدهما: إني ذاهبٌ إلى ما قضاه عليَّ ربي. الثاني: إني ميِّت؛ كما يقال لمن مات: قد ذهب إلى

(١) كذا في النسخ والتعريف والإعلام: الترك، وفي المصادر: الكرد، وهو الصواب.
(٢) أخرجه أحمد (٩٣٤٦)، ومسلم (٢٠٨٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٣) النكت والعيون ٥/ ٥٩ .
(٤) ١٣/ ٢١٦ وما بعدها.

الله تعالى؛ لأنه عليه السلام تصوَّر أنه يموت بإلقائه في النار، على المعهود من حالها في تَلَفِ ما يُلقى فيها، إلى أن قيل لها: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾ [الأنبياء: ٦٩] فحينئذ سَلِمَ إبراهيمُ منها.

وفي قوله: «سَيَهْدِينِ» على هذا القول تأويلان: أحدُهما: «سَيَهْدِينِ» إلى الخَلاص منها. الثاني: إلى الجنة[١].

وقال سليمان بن صُرَد ـ وهو ممن أدركَ النبيَّ ﷺ ـ: لما أرادوا إلقاءَ إبراهيم في النار جعلوا يجمعون له الحَطَب؛ فجعلت المرأةُ العجوز تحملُ على ظهرها وتقول: أذهبُ به إلى هذا الذي يذكُر آلهتنا؛ فلما ذُهب به لِيُطرح في النار «قال إِنِّي ذَاهِبٌ إلى رَبِّي»، فلما طُرح في النار قال: «حَسْبِيَ اللَّهُ ونِعْمَ الوَكِيل» فقال الله تعالى: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾ [الأنبياء: ٦٩] فقال أبو لوط ـ وكان ابنَ عمِّه ـ: إنَّ النارَ لم تحرِقْه من أجل قَرابته مني. فأرسل اللهُ عُنقاً من النار فأحرقه[٢].

الثانية: قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ لما عرَّفه اللهُ أنه مُخَلِّصه دعا اللهَ لِيعضُدَه بولدٍ يأنَسُ به في غُرْبته. وقد مضى في «آل عمران» القولُ في هذا[٣]. وفي الكلام حذفٌ؛ أي: هَبْ لي ولداً صالحاً من الصالحين، وحذفُ مثل هذا كثيرٌ.

قال الله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ أي: إنه يكون حليماً في كِبَره[٤]، فكأنه بُشِّر ببقاء ذلك الولد؛ لأنّ الصغيرَ لا يُوصف بذلك، فكانت البُشرى على ألسنة الملائكةِ كما تقدَّم في «هود»[٥]. ويأتي أيضاً في «الذاريات»[٦].

---

(١) هذه الأقوال في النكت والعيون ٥/ ٥٩ - ٦٠.

(٢) أخرجه عبد بن حميد كما في الدر المنثور ٤/ ٣٢٢، والطبري ١٩/ ٥٧٧، وفيه: فقال ابن لوط، أو ابن أخي لوط.

(٣) ٥/ ١١٠.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٠.

(٥) ١١/ ١٥٧.

(٦) في تفسير الآية (٢٨).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾

فيه سبعَ عشرةَ مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ أي: فوهبنا له الغلام؛ فلما بلغ معه المبلغ الذي يَسعى مع أبيه في أمور دنياه مُعيناً له على أعماله ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾.

وقال مجاهد: «فلما بلغ معه السَّعْيَ» أي: شبَّ وأدرك سَعْيُهُ سَعْيَ إبراهيم[1]. وقال الفراء[2]: كان يومئذ ابنَ ثلاثَ عشرةَ سنة. وقال ابن عباس: هو الاحتلام[3]. قتادة: مَشَى مع أبيه. الحسن ومقاتل: هو سعي العقل الذي تقومُ به الحُجَّة. ابن زيد: هو السَّعْي في العبادة. ابن عباس: صام وصلَّى، ألم تسمع اللهَ عزّ وجلّ يقول: ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾[4] [الإسراء: ١٩].

واختلف العلماءُ في المأمور بذبحه. فقال أكثرُهم: الذبيحُ إسحاق. وممن قال بذلك العباسُ بن عبد المطلب وابنه عبد الله[5]، وهو الصحيحُ عنه. روى الثوريّ

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٧٩.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٣٨٩.

(٣) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرج الطبري ١٩/ ٥٧٩ عنه قال: السعي العمل.

(٤) هذه الأقوال في النكت والعيون ٥/ ٦٠، وقولا قتادة وابن زيد أخرجهما الطبري ١٩/ ٥٨٠.

(٥) أخرجه عنهما الطبري ١٩/ ٥٨٨.

وابن جُريج يرفعانه إلى ابن عباس قال: الذبيح إسحاق. وهو الصحيحُ عن عبد الله بن مسعود أن رجلاً قال له: أنا ابن[(١)] الأشياخِ الكرام. فقال عبد الله: ذلك يوسفُ بن يعقوبَ بنِ إسحاقَ ذبيحِ الله بنِ إبراهيمَ خليلِ الله صلى الله عليهم وسلم.

وقد روى حمَّاد بن زيد يرفعه[(٢)] إلى رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الكريمَ ابنَ الكريمِ ابنِ الكريم ابنِ الكريم يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بن إبراهيم» ﷺ.

وروى أبو الزبير عن جابر قال: الذبيح إسحاق. وذلك مَرويٌّ أيضاً عن عليّ بن أبي طالب ﷺ. وعن عبد الله بن عمر: أن الذبيحَ إسحاق. وهو قولُ عمر ﷺ.

فهؤلاء سبعةٌ من الصحابة. وقال به من التابعين وغيرهم عَلْقَمة والشَّعبي ومجاهد وسعيد بن جُبير وكعب الأحبار وقتادة ومسروق وعِكرمة والقاسم بن أبي بَزَّة وعطاء ومقاتل وعبد الرحمن بن سابط والزهريّ والسُّدي وعبد الله بن أبي الهُذيل ومالك بن أنس، كلُّهم قالوا: الذبيح إسحاق. وعليه أهلُ الكتابَيْن اليهود والنصارى، واختاره غير واحد، منهم النحاس والطبري وغيرهما[(٣)]. قال سعيد بن جُبير: أُرِيَ إبراهيمُ ذبحَ إسحاق في المنام، فسار به مَسيرة شهر في غَداة واحدة، حتى أتى به المَنْحر من مِنىً؛ فلما صرف اللهُ عنه الذَّبح وأمره أنْ يَذبحَ الكبشَ فذبحه[(٤)]، وسار به مسيرةَ شهر في

(١) في (ز) و(ظ): أيا ابن، وفي (د) و(ف) و(م): يا بن. والمثبت المصادر، والخبر أخرجه الطبري ١٩/ ٥٨٩، والطبراني في الكبير (٨٩١٦)، والحاكم ٢/ ٥٧١.

(٢) الكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣١، وفيه: وقد روى حماد بن زيد، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ.. وذكر الحديث ا. هـ. وأخرجه أحمد (٩٣٨٠) من طريق حماد ابن سلمة عن محمد بن عمرو به، ولم نقف على الحديث في المصادر من طريق حماد بن زيد كما ذكر النحاس. وسلف ١١/ ٣٧١.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣١ ـ والكلام السالف منه ـ وتفسير الطبري ١٩/ ٥٩٨، وليس فيهما نسبة القول لعمر ﷺ وقد ذكره عن عمر البغوي في تفسيره ٤/ ٣٢، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٧٢. وقد استبعد الدكتور محمد أبو شهبة في كتابه الإسرائيليات والموضوعات في التفسير ص ٢٥٧ أن يكون عمر ﷺ قال ذلك. قال: وكذلك اختُلف في عليّ ﷺ، فالبغوي على أنه يقول: إسحاق، وابن أبي حاتم [كما في تفسير ابن كثير ٧/ ٣٤] على أنه يقول: إسماعيل.

(٤) كذا في النسخ، ولعل الصواب: أمره أن يذبح الكبش فذبحه، دون واو، ولم ترد لفظة: فذبحه في (ظ). والخبر في تفسير البغوي ٤/ ٣٢ وفيه: فلما أمره الله تعالى بذبح الكبش ذبحه وسار به...

رَوْحة واحدة طُويت له الأودية والجبال. وهذا القولُ أقوى في النَّقل عن النبي ﷺ[(١)] وعن الصحابة والتابعين[(٢)].

وقال آخرون: هو إسماعيل. وممن قال ذلك أبو هريرة[(٣)] وأبو الطُّفيل عامر بن واثله[(٤)]. ورُوي ذلك عن ابن عمر وابن عباس أيضاً، ومن التابعين سعيدُ بن المسيَّب والشّعبي ويوسف بن مِهْران ومجاهد والربيع بن أنس ومحمد بن كعب القُرَظيّ والكلبي وعلقمة[(٥)]. وسُئل أبو سعيد الضَّرير عن الذبيح فأنشد:

إنّ الذبيح هُدِيتَ إسماعيلُ ... نَطقَ الكتابُ بِذاك والتنزيلُ
شرفٌ به خصَّ الإلهُ نبيَّنا ... وأتى به التفسيرُ والتأويلُ
إن كنتَ أُمَّتَه فلا تُنْكِرْ له ... شرفاً به قد خصَّه التفضيلُ[(٦)]

وعن الأصمعي قال: سألتُ أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح، فقال: يا أصمعيُّ، أين عَزَب عنك عقلك؟! ومتى كان إسحاق بمكة؟ وإنما كان إسماعيل بمكة، وهو الذي بنى البيت مع أبيه والمَنْحر بمكة[(٧)].

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/٥٨٨ من حديث العباس ﷺ مرفوعاً. قال الحافظ ابن كثير: في إسناده ضعيفان، وهما الحسن بن دينار البصري، متروك، وعلي بن زيد بن جُدعان، منكر الحديث.

(٢) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره ٧/٣٢: وهذه الأقوال (يعني الواردة في أن الذبيح إسحاق عليه السلام) والله أعلم كلها مأخوذة عن كعب الأحبار، فإنه لما أسلم.. جعل يحدث عمر ﷺ عن كتبه.. ونقلوا عنه غثَّها وسمينَها، وليس لهذه الأمة حاجة إلى حرف واحد مما عنده.

(٣) ذكره عنه النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٣١.

(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٩٥.

(٥) هذه الأقوال في تفسير البغوي ٤/ ٣٢، وزاد المسير ٧/ ٧٢ - ٧٣. وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره ٧/ ٣٣: وهو الصحيح المقطوع به. وينظر كتاب الإسرائيليات والموضوعات للدكتور محمد أبو شهبة ص٢٥٢ -٢٦٠.

(٦) ذكر هذه الأبيات الآلوسي في روح المعاني ٢٣/ ١٣٣.

(٧) تفسير البغوي ٤/ ٣٣.

ورُوي عن النبيِّ ﷺ أنَّ الذبيحَ إسماعيل(١)

والأوّل أكثرُ عن النبي ﷺ وعن أصحابه وعن التابعين.

واحتجُّوا بأنَّ اللهَ عزّ وجلّ قد أخبر عن إبراهيم حين فارق قومَه، فهاجر إلى الشام مع امرأته سارَّة وابن أخيه لوط فقال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ أنه دعا فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٤٩]؛ ولأنَّ اللَّه قال: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ فذكر أن الفداء في الغلام الحليم الذي بُشِّر به إبراهيم، وإنما بُشِّر بإسحاق؛ لأنه قال: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ﴾ [الصافات: ١١٢]، وقال هنا: ﴿بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ وذلك قبلَ أن يتزوَّج هاجرَ وقبلَ أن يُولَد له إسماعيل، وليس في القرآن أنه بُشر بولد إلا إسحاق.

احتجَّ من قال: إنه إسماعيل، بأن اللهَ تعالى وصفَه بالصبر دون إسحاق في قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥] وهو صبرُه على الذَّبح، ووصفَه بِصِدْق الوَعْد في قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ [مريم: ٥٤]؛ لأنه وعدَ أباه من نفسه الصبرَ على الذَّبح فوفَّى به؛ ولأن الله تعالى قال: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا﴾ [الصافات: ١١٢] فكيف يأمرُه بذبحه وقد وعدَه أن يكون نبيّاً، وأيضاً فإنَّ الله تعالى قال: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] فكيف يُؤمَر بذبح إسحاق قبلَ إنجاز الوعد في يعقوب. وأيضاً ورد في الأخبار تعليقُ قَرْن الكبش في الكعبة، فدلَّ على أن الذبيحَ إسماعيل، ولو كان إسحاقَ لكان الذبحُ يقع ببيت المَقْدس(٢).

وهذا الاستدلال كلُّه ليس بقاطع، أمَّا قولُهم: كيف يأمره بذبحه وقد وعدَه بأنه يكون نبيّاً، فإنه يَحتمِلُ أن يكونَ المعنى: وبشَّرناه بنبوَّته بعد أن كان من أمره ما كان؛

---

(١) لعله يريد حديث معاوية ﷺ أن رجلاً قال للنبي ﷺ: يا بن الذبيحين.. وهو ضعيف، وسيأتي بتمامه في المسألة السادسة عشرة.

(٢) تفسير الرازي ٢٦/١٥٣ - ١٥٥.

قاله ابن عباس. وسيأتي[١] .

ولعلَّه أُمِرَ بذبح إسحاق بعد أن وُلِدَ لإسحاق يعقوب[٢]. أو يقال: لم يَرِدْ في القرآن أن يعقوبَ يُولَد من إسحاق .

وأما قولهم: ولو كان الذبيح إسحاقَ لكان الذبح يقع ببيت المقدس، فالجواب عنه ما قاله سعيد بن جُبير على ما تقدَّم .

وقال الزجاج[٣]: الله أعلمُ أيّهما الذبيح. وهذا مذهبٌ ثالث.

الثانية: قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ قال مقاتل: رأى ذلك إبراهيمُ عليه السلام ثلاثَ ليال مُتتابعات[٤]. وقال محمد بن كعب: كانت الرُّسُل يأتيهم الوحيُ من الله تعالى أيقاظاً ورُقوداً؛ فإنَّ الأنبياءَ لا تنام قلوبُهم. وهذا ثابتٌ في الخبر المرفوع، قال ﷺ: «إنَّا معاشرَ الأنبياء تنامُ أَعينُنا ولا تنامُ قلوبُنا»[٥]. وقال ابن عباس: رؤيا الأنبياء وَحْيٌ؛ واستدلَّ بهذه الآية[٦] .

وقال السّدي: لما بُشِّر إبراهيمُ بإسحاق قبلَ أن يُولَد له قال: هو إذاً لله ذبيح. فقيل له في منامه: قد نذرتَ نذراً فَفِ بنذرك[٧] .

---

(١) في المسألة السادسة عشرة.

(٢) الكلام بمعناه في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٢ دون ذكر ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣١١ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣٣.

(٥) أخرجه بهذا اللفظ ابن سعد في طبقاته ١/ ١٧١ عن عطاء مرسلاً. وأخرج البخاري (٣٥٧٠) عن أنس بن مالك ﷺ قوله ضمن حديث الإسراء: وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم. وأخرج أحمد (٢٤٠٧٣)، والبخاري (٢٠١٣)، ومسلم (٧٣٨) حديث عائشة رضي الله عنها ولفظه: «يا عائشة، إن عينيَّ تنامان ولا ينام قلبي» وفي الباب عن ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه أحمد (١٩١١)، والبخاري (١٣٨).

(٦) أخرجه ابن ابي حاتم كما في تفسير ابن كثير ٧/ ٢٨ ، الطبراني في الكبير (١٢٣٠٢) قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٧٦ : رواه الطبراني عن شيخه عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبي مريم، وهو ضعيف، وبقية رجاله رجال الصحيح. وأخرجه البخاري (١٣٨) من قول عُبيد بن عُمير.

(٧) تفسير البغوي ٤/ ٣٣ .

ويقال: إنَّ إبراهيمَ رأى في ليلة التروية كأنَّ قائلاً يقول: إنَّ الله يأمركَ بذبح ابنك؛ فلما أصبحَ رَوَّى في نفسه، أي: فَكَّر؛ أهذا الحُلْم من الله أَمْ من الشيطان؟ فَسُمِّي يومَ التَّرْوية. فلما كانت الليلةُ الثانيةُ رأى ذلك أيضاً، وقيل له: الوعدَ، فلما أصبح عَرَفَ أن ذلك من الله، فَسُمِّيَ يومَ عَرَفة. ثم رأى مثلَه في الليلة الثالثة، فَهَمَّ بنحره، فسُمِّي يومَ النَّحر[1]. ورُوي أنه لما ذَبحه قال جبريل: الله أكبرُ، الله أكبر. فقال الذبيح: لا إله إلا الله والله أكبر. فقال إبراهيم: الله أكبرُ والحمدُ لله؛ فبقي سُنَّةً. وقد اختلف الناسُ في وقوع هذا الأمر وهي:

الثالثة: فقال أهلُ السنة: إنَّ نفسَ الذَّبح لم يَقَعْ، وإنما وقع الأمرُ بالذبح قبل أن يقعَ الذَّبح، ولو وقع لم يُتصوَّر رَفْعُه، فكان هذا من باب النَّسخ قبل الفعل؛ لأنه لو حصل الفراغُ من امتثال الأمر بالذَّبح ما تحقَّق الفِداء[2]. وقوله تعالى: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾. أي: حقَّقت ما نبَّهناك عليه، وفعلتَ ما أمكنكَ، ثم امتنعتَ لمَّا منعناك. هذا أصحُّ ما قيل به في هذا الباب.

وقالت طائفة: ليس هذا مما يُنسخ بوجه؛ لأن معنى ذبحت الشيء قطعته. واستدلّ على هذا بقول مجاهد: قال إسحاق لإبراهيم لا تنظر إليَّ فترحمَني، ولكن اجعَلْ وجهيَ إلى الأرض؛ فأخذَ إبراهيمُ السِّكين فأمَرَّها على حَلْقه فانقلبتْ. فقال له: ما لكَ؟ قال: انقلبتِ السِّكين. قال: اطعنِّي بها طَعْناً[3].

وقال بعضهم: كان كلما قطعَ جُزءاً اِلْتأم. وقالت طائفة: وجدَ حَلْقه نُحاساً أو مُغشّى بنحاس، وكان كلَّما أراد قطعاً وجدَ منعاً. هذا كلُّه جائزٌ في القُدرة الإلهيّة، لكنه يفتقرُ إلى نقل صحيح، فإنه أَمْرٌ لا يُدرك بالنَّظر وإنما طريقُه الخبر[4].

---

(١) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٣٣ بنحوه عن محمد بن إسحاق، وفيه أن هذه القصة جرت مع إسماعيل عليه السلام.

(٢) تفسير الرازي ٢٦/ ١٥٥ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٠٦ بنحوه.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٢ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٠٦ .

ولو كان قد جرى ذلك لَبيَّنه اللهُ تعالى تعظيماً لِرُتْبة إسماعيل وإبراهيم صلوات الله عليهما، وكان أولى بالبيان من الفِداء[1].

وقال بعضُهم: إنَّ إبراهيم ما أُمر بالذَّبح الحقيقي الذي هو فَرْيُ الأوداج وإنهارُ الدم، وإنما رأى أنه أَضجعه للذبح فتوهَّم أنه أُمر بالذبح الحقيقي، فلما أتى بما أُمر به من الإضجاع قيل له: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّؤْيَآ﴾.

وهذا كلُّه خارجٌ عن المفهوم. ولا يُظَنُّ بالخليل والذبيح أن يَفهما من هذا الأمر ما ليس له حقيقة حتى يكون منهما التوهُّم. وأيضاً لو صحَّتْ هذه الأشياءُ لما احتيج إلى الفِداء.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ قرأ أهلُ الكوفة غير عاصم: «ماذَا تُرِي» بضم التاء وكسر الراء مِن: أُرِي يُرِي[2]. قال الفرّاء[3]: أي: فانظُر ماذا تري من صبرك وجَزَعك. قال الزجاج[4]: لم يَقُلْ هذا أحدٌ غيره، وإنما قال العلماء: ماذا تُشير؛ أي: ما تُريك نفسُك من الرأي. وأنكر أبو عُبيد «تُرِي» وقال: إنما يكون هذا من رؤية العين خاصة. وكذلك قال أبو حاتم.

النحاس[5]: وهذا غلطٌ، وهذا يكون من رؤية العين وغيرها، وهو مشهور، يقال: أَريت فلاناً الصواب، وأَريته رُشدَه، وهذا ليس من رؤية العين.

الباقون: «تَرَى» مضارع رَأَيت.

وقد رُوي عن الضحاك والأعمش: «تُرَى» غير مسمى الفاعل[6]. ولم يقل له ذلك

---

(١) أحكام القرآن للكيا ٤/ ٣٥٧.

(٢) السبعة ص ٥٤٨، والتيسير ص ١٨٦.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٣٩٠، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٣٣.

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٣١٠، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في معاني القرآن ٦/ ٤٧.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٤٣٣، وما قبله منه.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٣٣، وزاد المسير ٧/ ٧٥.

على وجه المُؤامرة في أمر الله، وإنما شاوره لِيعلم صبرَه لأمر الله[١]؛ أو لِتقرَّ عينُه إذا رأى من ابنه طاعةً في أمر الله فـ ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ أي: ما تُؤمر به، فحذفَ الجار كما حذف من قوله:

أَمَرْتُكَ الخيرَ فافعلْ مَا أُمِرتَ بِهِ[٢]

فوصل الفعل إلى الضمير فصار: تُؤمره، ثم حذفت الهاء؛ كقوله: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٥٩] أي: اصطفاهم على ما تقدَّم. و«ما» بمعنى الذي.

﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ قال بعضُ أهل الإشارة: لما استثنى وفَّقه الله للصبر. وقد مضى الكلامُ في «يا أَبَتِ» وكذلك في «يا بُنَيَّ» في «يوسف» وغيرها[٣].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾ أي: انقادا لأمر الله. وقرأ ابن مسعود وابن عباس وعليٌّ رضوان الله عليهم: «فلمَّا سَلَّما»[٤] أي: فوَّضا أمرَهما إلى الله. وقال ابن عباس: استسلما. وقال قتادة: أسلم أحدُهما نفسَه لله عز وجل وأسلمَ الآخرُ ابنَه[٥].

﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ قال قتادة: كَبَّه وحوَّل وجهَه إلى القِبلة. وجواب «لَمَّا» محذوفٌ عند البصريين تقديره: «فلمَّا أَسْلَما وَتَلَّهُ للجبين» فديناه بكبش.

وقال الكوفيون: الجوابُ: «نَادَيْنَاهُ» والواو زائدة مُقْحَمة[٦]؛ كقوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ﴾ [يوسف: ١٥] أي: أوحينا. وقوله: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ . وَٱقْتَرَبَ﴾ [الأنبياء: ٩٦-٩٧] أي: اقترب. وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا

(١) المحتسب ٢/ ٢٢٢.
(٢) الكشاف ٣/ ٣٤٨، والبيت سلف بتمامه ٤/ ١٢٣، واختلف في قائله، وقد بيَّناه ثمة.
(٣) ١١/ ٢٤٥.
(٤) المحتسب ٢/ ٢٢٢.
(٥) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٨٤.
(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٣.

جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ﴾ [الزمر: ٧٣] أي: قال لهم. وقال امرؤ القيس:

فلمّا أَجَزْنا ساحةَ الحيِّ وانتحى[1]

أي: انتحى، والواو زائدة. وقال أيضاً:

حتّى إذا حَمَلَتْ بُطُونُكُمُ ورأيتُمُ أبناءَكم شَبُّوا
وَقَلَبْتُمُ ظهرَ المِجَنِّ لنا إنَّ اللئيمَ الفاجِرُ الخِبُّ[2]

أراد: قلبتم. النحاس[3]: والواو من حروف المعاني لا يجوز أن تُزاد.

وفي الخبر: إنَّ الذبيحَ قال لإبراهيم عليه السلام حين أراد ذبحه: يا أبت اشدُدْ رِباطي حتى لا أَضطرب، واكفف ثيابَك لئلا ينتضِحَ عليها شيء من دمي فتراه أُمّي فتحزن، وأَسْرِعْ مَرَّ السِّكين على حَلْقي ليكونَ الموتُ أهونَ عليَّ، واقذُفني للوجه؛ لئلا تنظر إلى وجهي فترحَمَني، ولئلا أنظرَ إلى الشَّفرة فأجزع، وإذا أتيتَ إلى أُمي فأقرئها مني السلام. فلما جَرَّ إبراهيمُ عليه السلام السِّكين ضربَ اللهُ عليه صفيحةً من نُحاس، فلم تعمل السكين شيئاً، ثم ضرب به على جبينه وحزَّ في قفاه فلم تعمل السِّكين شيئاً[4]؛ فذلك قوله تعالى: «وَتَلَّهُ للجبينِ»، كذلك قال ابن عباس: معناه: كبَّه على وجهه[5]، فنُودي ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ فالتفت فإذا بكبش؛ ذكره المهدوي. وقد تقدّمت الإشارة إلى عدم صحته[6]، وأن المعنى لما اعتقد الوجوبَ وتهيَّأ للعمل؛ هذا بهيئة الذبح، وهذا بصورة المَذْبوح، أعطيا محلّاً للذبح فِداء، ولم

(١) سلف ٢/ ٨٥.

(٢) البيتان في معاني القرآن للفراء ١/ ١٠٧، وأمالي ابن الشجري ٢/ ١٢١، وخزانة الأدب ١١/ ٤٤، واللسان (قمل) من غير نسبة، وفيها: قَمِلَتْ، بدل: حملت، والعاجز، بدل: الفاجر. وقملت بطونكم، أي: كثرت قبائلكم. اللسان (قمل).

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٤٣٣.

(٤) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٣٣ - ٣٤ بنحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٨٥.

(٦) في المسألة الثالثة.

يكن هناك مرُّ سكين[١]. وعلى هذا يتصوَّر النَّسخ قبل الفعل على ما تقدَّم[٢]. والله أعلم.

قال الجوهري: «وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ» أي: صرعه؛ كما تقول: كَبَّه لِوجهه[٣]. الهروي: والتَّلُّ: الدَّفع والصَّرع؛ ومنه حديث أبي الدرداء ﷺ: وتركوك لِمَتَلِّكَ[٤]، أي: لمصرعك. وفي حديث آخر: «فجاء بناقةٍ كَوْماء فَتلَّها»[٥] أي: أناخها. وفي الحديث: «بينا أنا نائمٌ أُتيتُ بمفاتيح خَزائنِ الأرض فَتُلَّتْ في يدي»[٦]، قال ابن الأنباري: أي: فَأُلقيتْ في يدي؛ يقال: تَلَلْتُ الرجل، إذا ألقيته. قال ابن الأعرابي: فَصُبَّتْ في يدي؛ والتَّلُّ الصَّبُّ؛ يقال: تلَّ يتلُّ إذا صبَّ، وتَلَّ يَتِلّ - بالكسر - إذا سقط[٧].

قلت: وفي «صحيح مسلم»: عن سهل بن سعد السَّاعدي أن رسولَ الله ﷺ أُتي بشراب فشرب منه، وعن يمينه غلامٌ وعن يساره أشياخ؛ فقال للغلام: «أَتأْذَنُ لي أن أُعطي هؤلاء» فقال الغلام: لا والله، لا أُوثر بنصيبي منك أحداً. قال: فتلَّه رسولُ الله ﷺ في يده[٨]؛ يُريد: جعله في يده.

وقال بعضُ أهل الإشارة: إنَّ إبراهيمَ ادَّعى محبةَ الله، ثم نظر إلى الولد بالمحبة، فلم يرضَ حبيبه محبةً مشتركة؛ فقيل له: يا إبراهيم، اذبح ولدَك في

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٠٧ بنحوه.

(٢) في المسألة الثالثة.

(٣) الصحاح (تلل).

(٤) ذكره ابن الجوزي في غريب الحديث ١/ ١١٠، وابن الأثير في النهاية (تلل).

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٢/ ٤٠ - ٤١ مطولاً من حديث وائل بن حجر ﷺ. وفي الباب عن سُويد ابن غَفَلَة ﷺ أخرجه أحمد (١٨٨٣٧)، والنسائي ٥/ ٣٠ . وقوله: كوماء: أي: مشرفة السنام عالية. حاشية السندي على المجتبى.

(٦) أخرجه أحمد (١٠٥١٧)، والبخاري (٢٩٧٧)، ومسلم (٥٢٣) من حديث أبي هريرة ﷺ، وعند البخاري ومسلم: فَوُضِعَتْ، بدل: فَتُلَّت.

(٧) تهذيب اللغة ١٤/ ٢٥١ .

(٨) صحيح مسلم (٢٠٣٠)، وأخرجه أحمد (٢٢٨٢٤)، والبخاري (٢٤٥١).

مرضاتي، فشمَّر وأخذ السكين وأَضجع ولدَه، ثم قال: اللهم تَقبَّلْهُ مني في مرضاتك. فأوحى الله إليه: يا إبراهيم لم يكن المرادُ ذبحَ الولد، وإنما المرادُ أن تَرُدَّ قلبك إلينا، فلما رددتَ قلبك بكُلِّيَّته إلينا رددنا ولدَك إليك[1].

وقال كعب وغيره: لما أُري إبراهيمُ ذبحَ ولده في منامه، قال الشيطان: والله، لئن لم أَفتن عند هذا آلَ إبراهيم لا أَفتن منهم أحداً أبداً. فتمثَّل الشيطانُ لهم في صورة الرجل، ثم أتى أُمَّ الغُلام وقال: أتدرينَ أين يذهب إبراهيمُ بابنك؟ قالت: لا. قال: إنه يذهبُ به لِيذبحه. قالت: كلاّ، هو أرأفُ به من ذلك. فقال: إنه يَزعُم أن ربَّه أمره بذلك. قالت: فإنْ كان ربُّه قد أمره بذلك فقد أحسنَ أن يُطيعَ ربَّه. ثم أتى الغُلام فقال: أتدري أين يذهبُ بك أبوك؟ قال: لا. قال: فإنه يذهب بك لِيذبحك. قال: ولم؟ قال: زَعم أنَّ ربَّه أمره بذلك. قال: فَلْيفعَلْ ما أمره اللهُ به، سمعاً وطاعةً لأمر الله. ثم جاء إبراهيمُ فقال: أين تُريد؟ والله، إني لأَظنُّ أن الشيطانَ قد جاءك في منامك، فأمرك بذبح ابنك. فَعَرفَه إبراهيمُ عليه السلام، فقال: إليك عني يا عدوَّ الله، فوالله لأَمضِينَّ لأمر ربي. فلم يُصب الملعونُ منهم شيئاً[2].

وقال ابن عباس: لما أُمر إبراهيمُ بذبح ابنه عرضَ له الشيطان عند جمرة العقبة فرماه بسبع حَصَيَات حتى ذهب، ثم عرضَ له عند الجَمْرة الوسطى، فرماه بسبع حَصَيات حتى ذهب، ثم عرضَ له عند الجمرة الأُخرى، فرماه بسبع حَصَيات حتى ذهب، ثم مضَى إبراهيمُ لأمر الله تعالى[3].

واختُلف في الموضع الذي أراد ذبحه [فيه] فقيل: بمكة في المقام[4]. وقيل: في المَنْحر بمنى عند الجمار التي رمَى بها إبليسَ لعنه الله؛ قاله ابن عباس وابن عمر

(١) لطائف الإشارات ٣/ ٢٣٩ بمعناه.

(٢) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٩٠، وذكره أبو الليث في تفسيره ٣/ ١٢٠، والبغوي في تفسيره ٤/ ٣٤.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣٤.

(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٦٠١. عن عُبيد بن عُمير.

ومحمد بن كعب وسعيد بن المسيَّب.

وحُكي عن سعيد بن جُبير: أنه ذبحه على الصخرة التي بأصل ثَبِير بِمنىً. وقال ابن جُريج: ذبحه بالشام، وهو من بيت المقدس على مِيلين[١].

والأول أكثر[٢]؛ فإنه ورد في الأخبار تعليقُ قَرْن الكبش في الكعبة، فدلَّ على أنه ذبحه بمكة. وقال ابن عباس: فوالذي نفسي بيده، لقد كان أول الإسلام، وإنَّ رأسَ الكبش لَمعلَّق بقرنيه في مِيزاب الكعبة وقد يَبِسَ[٣].

أجاب مَن قال بأنَّ الذبح وقع بالشام: لعلَّ الرأسَ حُمِلَ من الشام إلى مكة. والله أعلم[٤].

السادسة: قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: نَجزيهم بالخَلاص من الشدائد في الدنيا والآخرة. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: النِّعمة الظاهرة؛ يقال: أبلاه الله إبْلاءً وبَلاءً، إذا أنعم عليه. وقد يقال: بَلاهُ. قال زهير:

فأَبْلاهما خَيْرَ البلاءِ الذي يَبْلو[٥]

فزعم قومٌ أنه نجاء باللُّغتين. وقال آخرون: بل الثاني من: بَلاهُ يَبْلُوهُ إذا اختبره، ولا يقال من الاختبار إلا بَلاه يَبْلوه، ولا يقال من الابتلاء: يبلوه. وأصلُ هذا كلِّه من الاختبار أن يكون بالخير والشرّ؛ قال الله عز وجل: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]. وقال ابن زيد[٦]: هذا في[٧] البلاء الذي نزلَ به في أن يذبحَ ابنه؛ قال:

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٦٢.

(٢) وقال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٨٣: وما يستغرب في هذه الآية أن عُبيد بن عُمير قال: ذُبح في المقام.. وقال الجمهور: ذُبح بمنى.

(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٦٠٣.

(٤) تفسير الطبري ١٩/ ٦٠٣ بنحوه.

(٥) شرح ديوان زهير ص١٠٩، وصدره: رأى الله بالإحسان ما فعلا بكم. وفي رواية: جزى الله..

(٦) في النسخ: أبو زيد، وهو خطأ، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٤ والكلام منه. والخبر أخرجه الطبري ١٩/ ٥٨٧ عن ابن زيد.

(٧) في (م): من.

وهذا من البلاء المكروه.

السابعة: قوله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ الذِّبح اسمُ المَذْبوح وجمعه ذبوح؛ كالطِّحن اسم المَطْحون. الذَّبح بالفتح المصدر[١]. «عظِيم» أي: عظيم القَدْر، ولم يُرِدْ عظيمَ الجُثَّة، وإنما عَظُم قدرُه لأنه فدى به الذبيح؛ أو لأنه مُتقبَّل.

قال النحاس[٢]: عظيم في اللغة يكون للكبير وللشريف. وأهلُ التفسير على أنه هاهنا للشريف، أي: المُتقبَّل.

وقال ابن عباس: هو الكبش الذي تقرَّب به هابيلُ، وكان في الجنة يرعى حتى فدى اللهُ به إسماعيل. وعنه أيضاً: أنه كبشٌ أرسله اللهُ من الجنة كان قد رعَى في الجنة أربعين خريفاً. وقال الحسن: ما فُدِيَ إسماعيلُ إلا بتيس من الأَرْوَى أُهبِطَ عليه من ثَبِير، فذبحه إبراهيم فِداءً عن ابنه، وهذا قولُ علي ﷺ[٣]. فلما رآه إبراهيمُ أخذَه فذبحه وأعتق ابنَه. وقال: يا بُنيَّ، اليومَ وُهِبتَ لي.

وقال أبو إسحاق الزجاج[٤]: قد قيل: إنه فُدِيَ بوَعْل، والوَعْل: التيس الجبليّ وأهلُ التفسير على أنه فُدِيَ بكبش.

الثامنة: في هذه الآية دليلٌ على أنَّ الأُضحيَّةَ بالغنم أفضلُ من الإبل والبقر. وهذا مذهبُ مالك وأصحابه. قالوا: أفضلُ الضحايا الفُحول من الضَّأن، وإناثُ الضأن أفضلُ من فحل المَعْز، وفُحول المَعْز خيرٌ من إناثها، وإناثُ المَعز خيرٌ من الإبل والبقر. وحُجَّتهم قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ أي: ضخم الجُثَّة سمين، وذلك كبشٌ لا جملٌ ولا بقرةٌ.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٤.

(٢) في معاني القرآن ٦/ ٥١.

(٣) أخرج هذه الأقوال الطبري ١٩/ ٦٠٠ - ٦٠٤. والأروى: غنم الجبل، وثبير: جبل بمكة. النهاية (أرو) و(ثبر).

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٣١٢.

وروى مجاهد وغيره عن ابن عباس أنه سأله رجل: إني نذرتُ أن أنحرَ ابني؟ فقال: يجزيك كبشٌ سمين[١]، ثم قرأ: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾.

وقال بعضهم: لو علم اللهُ حيواناً أفضلَ من الكبش لَفدَى به إسحاق.

وضحّى رسول الله ﷺ بكبشين أمْلحين[٢]. وأكثر ما ضحّى به الكباش. وذكر ابن أبي شيبة عن ابن عُلَيَّة، عن الليث، عن مجاهد قال: الذِّبح العظيم الشاة[٣]؟

التاسعة: واختلفوا أيما أفضل: الأُضحيَّة أو الصدقة بثمنها. فقال مالك وأصحابه: الضَّحِيَّة أفضلُ إلا بمنىً؛ لأنه ليس موضع الأُضحيَّة؛ حكاه أبو عمر[٤].

وقال ابن المنذر: روينا عن بلال أنه قال: ما أُبالي ألّا أُضَحِّي إلا بديك، ولأن أَضعَه في يتيم قد تَرِب فيه - هكذا قال المُحدِّث - أحبُّ إليَّ من أنْ أُضحِّيَ به[٥]. وهذا قولُ الشعبي: إنَّ الصدقةَ أفضلُ. وبه قال مالك وأبو ثور. وفيه قول ثانٍ: وهو أن الضَّحِيَّة أفضل؛ هذا قولُ ربيعةَ وأبي الزِّناد. وبه قال أصحاب الرأي. زاد أبو عمر[٦] وأحمد بن حنبل قالوا: الضحيَّة أفضلُ من الصدقة؛ لأن الضحيَّة سنةٌ وكيدة[٧] كصلاة العيد، ومعلومٌ أن صلاةَ العيد أفضلُ من سائر النوافل، وكذلك صلواتُ السُّنَن أفضلُ من التطوّع كلِّه.

قال أبو عمر[٨]: وقد رُوي في فضل الضحايا آثارٌ حِسان؛ فمنها ما رواه سعيدُ بن

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١٥٩٠٤)، وفيه وفي التمهيد ٢٢/ ٢٩ - والكلام منه - أن السائل نذر أن ينحر نفسه.

(٢) أخرجه البخاري (٥٥٥٨)، ومسلم (١٩٦٦) من حديث أنس ﷺ، وسلف ١٤/ ٤٠٤.

(٣) التمهيد ٢٢/ ٢٩.

(٤) في التمهيد ٢٣/ ١٩٢.

(٥) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٨١٥٦)، وفيه: .. ولأن أتصدَّق بثمنها على يتيم أو مغبرّ أحبُّ إليَّ..

(٦) في التمهيد ٢٣/ ١٩٢.

(٧) في (م): مؤكدة، وكلاهما بمعنى.

(٨) في التمهيد ٢٣/ ١٩٢ - ١٩٣.

داود بن أبي زَنْبَر[١]، عن مالك، عن ثور بن زيد، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما مِنْ نفقةٍ بعد صِلَةِ الرحم أفضلُ عند الله من إهراق الدَّمِ». قال أبو عمر: وهو حديثٌ غريب من حديث مالك.

وعن عائشة قالت: يا أيها الناس، ضَحُّوا وطِيبوا أَنْفُساً؛ فإني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ما مِنْ عبد توجَّه بأُضْحِيَّته إلى القِبلة إلا كان دَمُها وقَرْنُها وصوفُها حسناتٍ مُحضراتٍ في ميزانه يومَ القيامة، فإنَّ الدَّمَ إن وقعَ في التراب فإنما يقعُ في حِرْز الله حتى يُوفيه صاحبه يومَ القيامة» ذكره أبو عمر في كتاب «التمهيد». وخرَّجه الترمذي أيضاً عنها أن رسولَ الله ﷺ قال: «ما عَمِلَ آدميٌّ من عملٍ يومَ النَّحرِ أحبَّ إلى الله من إهراق الدم، إنها لَتأتي[٢] يومَ القيامة بقرونها وأشعارها وأظلافها، وإنَّ الدَّم ليقعُ من الله بمكانٍ قبل أن يقع إلى الأرض، فَطِيبوا بها نفساً» قال: وفي الباب عن عِمْران بن حُصَين وزيد بن أَرْقَم، وهذا حديث حسن[٣].

العاشرة: الضحيَّة ليست بواجبة، ولكنها سنّة ومعروف. وقال عكرمة: كان ابن عباس يَبعثني يومَ الأضحى بدرهمين أشتري له لحماً، ويقول: مَنْ لَقِيتَ فقل: هذه أُضْحِيَّة ابن عباس.

قال أبو عمر[٤]: ومَحْمل هذا وما رُوي عن أبي بكر وعمر أنهما لا يُضَحِّيان عند أهل العلم؛ لئلا يُعتقَدَ في المواظبة عليها أنها واجبةٌ فرض، وكانوا أئمةً يقتدي بهم

(١) قال فيه الحافظ ابن حجر في التقريب ص ١٧٥: صدوق، له مناكير عن مالك، ويقال: اختلط عليه بعض حديثه، وكذَّبه عبد الله بن نافع في دعواه أنه سمع من لفظ مالك.

(٢) في النسخ الخطية: إنه ليأتي، والمثبت من (م)، وهو الموافق لسنن الترمذي.

(٣) سنن الترمذي (١٤٩٣) وقول الترمذي فيه: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه من حديث هشام بن عروة: لا من هذا الوجه. قال ابن العربي في عارضة الأحوذي ٦/ ٢٨٨: ليس في فضل الأضحية حديث صحيح.

(٤) في التمهيد ٢٣/ ١٩٤ - ١٩٥، وما قبله منه. وخبر ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه عبد الزاق في مصنفه (٨١٤٦).

مَن بعدَهم ممن ينظر في دينه إليهم؛ لأنهم الواسطةُ بين النبي ﷺ وبين أُمَّته، فساغ لهم من الاجتهاد في ذلك ما لا يَسوغ اليومَ لغيرهم.

وقد حكى الطحاوي في «مختصره»[(١)]: وقال أبو حنيفة: الأُضْحِيَّةُ واجبةٌ على المقيمين الواجدين من أهل الأمصار، ولا تجبُ على المسافر. قال: ويجبُ على الرجل من الأُضحيَّة على ولده الصغير مثل الذي يجب عليه عن نفسه. وخالفه أبو يوسف ومحمد فقالا: ليست بواجبة، ولكنها سنةٌ غيرُ مُرخَّص لمن وجدَ السبيل إليها في تركها. قال: وبه نأخذ.

قال أبو عمر[(٢)]: وهذا قولُ مالك؛ قال: لا ينبغي لأحدٍ تركُها مسافراً كان أو مقيماً، فإنْ تركها فبئس ما صنع إلا أن يكونَ له عذرٌ إلا الحاجَّ بمنىً. وقال الإمام الشافعي: هي سنة على جميع الناس وعلى الحاجِّ بمنىً، وليست بواجبة. وقد احتجَّ من أوجبها بأنَّ النبيَّ ﷺ أمر أبا بُرْدةَ بن نِيَار أن يُعيدَ ضَحِيَّةً أُخرى[(٣)]؛ لأنَّ ما لم يكن فرضاً لا يُؤمر فيه بالإعادة.

احتجَّ الآخرون بحديث أُمِّ سلمةَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إذا دخلَ العشرُ وأراد أحُدكم أن يُضَحِّيَ»[(٤)] قالوا: فلو كان ذلك واجباً لم يَجعلْ ذلك إلى إرادة المُضَحِّي. وهو قولُ أبي بكر وعمر وأبي مسعود البَدريّ وبلال.

الحادية عشرة: والذي يُضَحَّى به بإجماع المسلمين الأزواج الثمانية: وهي: الضأن، والمَعْز، والإبل، والبقر[(٥)].

قال ابن المنذر: وقد حُكي عن الحسن بن صالح أنه قال: يُضحَّى ببقرة الوحش

---

(١) ص٣٠٠، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عبد البر في التمهيد ٢٣/ ١٨٩، والاستذكار ١٥/ ١٥٨.

(٢) في التمهيد ٢٣/ ١٩١ - ١٩٢، والاستذكار ١٥/ ١٥٥ - ١٥٦.

(٣) أخرجه أحمد (١٦٤٨٥)، والبخاري (٩٥٥)، ومسلم (١٩٦١)، وسلف قسم منه ٢/ ٧٥.

(٤) أخرجه أحمد (٢٦٤٧٤)، ومسلم (١٩٧٧)، وتتمته: «.. فلا يمسَّ من شعره وبشره شيئاً».

(٥) التمهيد ٢٣/ ١٨٨.

عن سبعة، وبالظَّبي عن رجل. وقال الإمام الشافعي[١]: لو نزا ثورٌ وحشيٌّ على بقرة إنسيّة، أو ثورٌ إنسيٌّ على بقرة وحشية لا يجوز شيء من هذا أُضْحِيَّةً. وقال أصحابُ الرأي: جائز[٢]؛ لأن ولدَها بمنزلة أُمِّه. وقال أبو ثور: يجوز إذا كان منسوباً إلى الأنعام.

الثانية عشرة: قد مضى في سورة «الحج»[٣] الكلامُ في وقت الذبح والأكل من الأُضحيَّة مستوفىً. وفي «صحيح مسلم»: عن أنس قال: «ضحَّى النبيُّ ﷺ بكبشين أَمْلحين أَقْرنين ذَبَحهما بيده وسمَّى وكبَّر، ووضع رِجْلَه على صِفَاحِهما». في رواية قال: «ويقول: بسم الله والله أكبر[٤]». وقد مضَى في آخر «الأنعام» حديثُ عِمران بن حُصَين[٥]، ومضَى في «المائدة» القولُ في التذكية وبيانها وما يُذَكَّى به، وأنَّ ذكاةَ الجنين ذكاةُ أُمِّه مستوفىً[٦].

وفي «صحيح» مسلم: عن عائشةَ أن رسولَ الله ﷺ أَمَر بكبشٍ أقرنَ يَطَأُ في سواد، ويبرك في سواد، وينظرُ في سواد فأتي به لِيُضَحِّيَ به، فقال لها: «يا عائشةُ، هَلُمِّي المُدْيَةَ» ثم قال: «اشْحَذِيها بحجر» ففعلت، ثم أَخذها وأخذَ الكبش فأَضجعه، ثم ذَبحه، ثم قال: «بسم الله، اللهمَّ تقبَّل من محمد وآل محمد ومن أمة محمد» ثم ضحَّى به[٧].

وقد اختلف العلماءُ في هذا فكان الحسنُ البصري يقول في الأُضحيَّة: بسم الله واللهُ أكبر، هذا منكَ ولك، تقبَّل من فلان. وقال مالك. إنْ فَعَلَ ذلك فحسن، وإن لم

(١) في الأم ٢/ ١٦.

(٢) يعني في الحالة الأولى.

(٣) ١٤/ ٣٦٦ وما بعدها.

(٤) صحيح مسلم (١٩٦٦)وسلف في المسألة الثامنة وفي ١٤/ ٤٠٣.

(٥) ٩/ ١٤٣.

(٦) ٧/ ٢٧٤ وما بعدها.

(٧) صحيح مسلم (١٩٦٧)، وهو في مسند أحمد (٢٤٤٩١).

يفعلْ وسمَّى اللهَ أجزأه. وقال الشافعي: والتسميةُ على الذبيحة: بسم الله، فإنْ زاد بعد ذلك شيئاً من ذِكْر الله، أو صلَّى على محمد عليه الصلاة والسلام لم أكرهه، أو قال: اللهم تقبَّلْ مني، أو قال: تقبَّلْ من فلان فلا بأس. وقال النعمان: يُكره أن يذكُرَ مع اسمِ الله غيرَه[١]؛ يُكره أن يقول: اللهمَّ تقبَّلْ من فلان عند الذَّبح. وقال: لا بأس إذا كان قبلَ التسمية وقبلَ أن يضجعَ للذبح. وحديث عائشة يردُّ هذا القولَ. وقد تقدَّم أن إبراهيمَ عليه السلام قال لما أراد ذبح ابنه: الله أكبرُ والحمد لله. فبقي سُنَّةً[٢].

الثالثة عشرة: روى البَرَاءُ بن عازِب أن رسولَ الله ﷺ سُئل: ماذا يُتَّقَى من الضحايا؟ فأشار بيده وقال: «أربعاً» وكان البراءُ يُشير بيده ويقول: يدي أقصرُ من يَدِ رسول الله ﷺ: «العَرْجاء البَيِّنُ ظَلَعُها، والعوراءُ البَيِّنُ عَوَرُها، والمريضةُ البَيِّن مرضُها، والعَجْفاءُ التي لا تُنْقي» لفظ مالك، ولا خلاف فيه[٣]. واختلف في اليَسير من ذلك.

وفي الترمذيّ: عن عليّ ﷺ قال: أمرنا رسولُ الله ﷺ أن نستَشرِفَ العينَ والأُذن وألَّا نُضَحِّيَ بمقابلة ولا مُدَابَرة ولا شَرْقاء ولا خَرْقاء. قال: والمُقابلة: ما قُطِع طرفُ أُذنها، والمُدَابَرة: ما قطِع من جانب الأُذن، والشَّرقاء المشقوقة، والخَرْقاء المثقوبة؛ قال هذا حديثٌ حسن صحيح[٤].

وفي «الموطأ» عن نافع: أنَّ عبدَ الله بن عمر كان يَتَّقي من الضحايا والبُدْن التي لم تُسْنِنْ والتي نقصَ مِن خَلْقها. قال مالك: وهذا أحبُّ ما سمعتُ إليَّ[٥].

---

(١) ذكر قول أبي حنيفة وقول الحسن البصري السالف ابنُ قدامة في المغني ١٣/ ٣٩٠ - ٣٩١.

(٢) في المسألة الثانية.

(٣) الموطأ ص٤٨٢، وأخرجه أحمد (١٨٥١٠)، وأبو داود (٢٨٠٢)، والترمذي (١٤٩٧)، وعند أحمد وأبي داود: الكسير، بدل: العجفاء. وقوله: «لا تُنقي»؛ من: أنقى، إذا صار ذا نِقْي، أي: مخ، فالمعنى: التي ما بقي لها مخ من غاية العجف. حاشية السندي على مسند أحمد.

(٤) سنن الترمذي (١٤٩٨)، وهو في مسند أحمد (٨٥١). وسلف ٧/ ٣٧.

(٥) الموطأ ص٤٨٢.

قال القُتبي: لم تُسْنَنْ، أي: لم تَنبُتْ أسنانُها، كأنها لم تُعْطَ أسناناً. وهذا كما يقال: فلانٌ لم يُلْبَنْ، أي: لم يُعْطَ لبناً، ولم يُسْمَنْ، أي: لم يُعْطَ سمناً، ولم يُعسَلْ أي: لم يُعْطَ عسلاً[١]. وهذا مثل النهي في الأضاحي عن الهَتْماء.

قال أبو عمر[٢]: ولا بأسَ أن يُضحِّيَ عند مالك بالشاة الهَتْماء إذا كان سقوط أسنانها من الكِبَر والهَرَم وكانت سمينةً؛ فإنْ كانت ساقطةَ الأسنان وهي فتيةٌ لم يَجُزْ أن يُضحِّيَ بها، لأنه عيبٌ غير خفيف. والنقصان كلُّه مكروه، وشرحُه وتفصيلُه في كتب الفقه. وفي الخبر عن النبيِّ ﷺ: «استشرفوا ضحاياكم، فإنها على الصِّراط مَطَاياكم» ذكره الزمخشري[٣].

الرابعة عشرة: ودلَّت الآيةُ على أنَّ من نَذَرَ نَحْرَ ابنه أو ذبحه أنه يَفديه بكبش، كما فدَى به إبراهيمُ ابنَه؛ قاله ابن عباس. وعنه رواية أُخرى: يَنحر مئةً من الإبل كما فَدى بها عبدُ المطَّلب ابنَه؛ روى الروايتين عنه الشعبي. وروى عنه القاسم بن محمد: يَجزيه كفارةُ يمين. وقال مسروق: لا شيء عليه[٤].

وقال الشافعي: هو معصيةٌ يستغفر اللهَ منها. وقال أبو حنيفة: هي كلمةٌ يَلزمه بها في ولده ذبحَ شاة ولا يَلزمه في غير ولده شيء[٥]. وقال محمد: عليه في الحلف بنحر

---

(١) غريب الحديث لابن قتيبة ٢/ ٧٧، ونقله المصنف عنه بواسطة التمهيد ٢٠/ ١٧٠ وما بعده منه. وقوله: لم تسنن، قال ابن الأثير في النهاية (سنن): رواه القتيبي بفتح النون الأولى، قال الأزهري: وهم في الرواية، وإنما المحفوظ عن أهل الثبت والضبط بكسر النون، وهو الصواب في العربية. وقال الأزهري: وقوله أيضاً: لم يُلبَن ولم يُسمَن، أي: لم يُعطَ لبناً وسمناً خطأ أيضاً، وإنما معناهما: لم يُطعَم سمناً، ولم يُسْقَ عسلاً. ينظر تهذيب اللغة ١٢/ ٣٠٠، واللسان (سنن).

(٢) في الكافي ١/ ٤٢٢.

(٣) في الكشاف ٣/ ٣٤٩، قال الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير ٤/ ١٣٨: لم أره، ونقل عن ابن الصلاح قوله فيه: هذا الحديث غير معروف ولا ثابت فيما علمناه.

(٤) الاستذكار ١٥/ ٥٤، وأقوال ابن عباس رضي الله عنهما أخرجها عبد الرزاق في مصنفه (١٥٩٠٣) و(١٥٩٠٥) و(١٥٩٠٨) و(١٥٩١٠).

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٠٧.

عبده مثل الذي عليه في الحلف بنحر ولده إذا حنث(١) .

وذكره ابنُ عبد الحكم عن مالك فيمن قال: أنا أَنحرُ ولدي عند مقام إبراهيم في يمين ثم حنثَ، فعليه هَدْيٌ. قال: ومَن نذَر أن ينحرَ ابنَه، ولم يقل: عند مقام إبراهيم ولا أراده(٢)، فلا شيء عليه. قال: ومَن جعل ابنَه هَدْياً أهدى عنه(٣) .

قال القاضي ابن العربي(٤): يلزمه شاةٌ كما قال أبو حنيفة؛ لأنَّ اللهَ تعالى جعل ذبح الولد عبارة عن ذبح الشاة شرعاً، فألزم اللهُ إبراهيمَ ذبح الولد، وأخرجه عنه بذبح شاة. وكذلك إذا نذَر العبدُ ذبح ولده يَلزمه أن يذبحَ شاة؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج:٧٨] والإيمانُ التزامٌ أصليٌّ، والنَّذر التزامٌ فرعيٌّ؛ فيجب أن يكونَ محمولاً عليه .

فإنْ قيل: كيف يُؤمر إبراهيمُ بذبح الولد وهو معصيةٌ، والأمرُ بالمعصية لا يجوز. قلنا: هذا اعتراضٌ على كتاب الله، ولا يكون ذلك ممن يعتقد الإسلامَ، فكيف بمن يُفتي في الحلال والحرام؟! وقد قال الله تعالى: ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ والذي يجلو الإلباس عن قُلوب الناس في ذلك: أن المعاصي والطاعاتِ ليست بأوصافٍ ذاتية للأعيان، وإنما الطاعاتُ عبارةٌ عما تعلَّق به الأمرُ من الأفعال، والمعصيةُ عبارةٌ عمَّا تعلَّق به النَّهي من الأفعال؛ فلما تعلَّق الأمرُ بذبح الولدِ إسماعيلَ من إبراهيم صار طاعةً وابتلاء، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ في الصبر على ذبح الولد والنَّفس، ولما تعلَّق النهي بنا في ذبح أبنائنا صار معصية .

فإنْ قيل: كيف يصير نَذْراً وهو معصية؟. قلنا: إنما يكون معصيةً لو كان يقصِدُ ذبحَ الولد بنذره ولا يَنوي الفِداء. فإن قيل: فلو وقع ذلك وقصدَ المعصيةَ ولم ينوِ

---

(١) مختصر اختلاف العلماء ٢/ ٢٣٩ .

(٢) في (م): أراد.

(٣) الاستذكار ١٥/ ٥٥ .

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٠٨ - ١٦٠٩ ، والكلام منه إلى آخر المسألة.

الفِداء؟ قلنا: لو قَصَدَ ذلك لم يَضُرَّه في قَصْده، ولا أثَر في نَذْره؛ لأنَّ نذرَ[١] الولد صار عبارةً عن ذبح الشاة شرعاً.

الخامسة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ أي: على إبراهيم ثناءً جميلاً في الأُمم بعدَه؛ فما من أُمَّة إلا تُصلِّي عليه وتُحِبُّه. وقيل: هو دعاءُ إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾[٢] [الشعراء: ٨٤].

وقال عكرمة: هو السلامُ على إبراهيم[٣]، أي: سلاماً منَّا. وقيل: سلامة له من الآفات مثل: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٩] حَسَبَ ما تقدَّم. ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: من الذين أُعطوا العبودية حقَّها حتى استحقُّوا الإضافةَ إلى الله تعالى.

السادسة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ قال ابن عباس: بُشِّر بنبوَّته، وذهب إلى أن البِشارة كانت مرتين[٤]؛ فعلى هذا الذبيحُ هو إسحاقُ، بُشِّرَ بنبوَّته جزاءً على صَبْره ورِضاهُ بأمر ربِّه واستسلامه له.

﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ أي: ثَنَّينا عليهم النِّعمة وقيل: كثَّرنا ولدَهما؛ أي: باركنا على إبراهيم وعلى أولاده، وعلى إسحاق حين أخرجَ أنبياءَ بني إسرائيل من صُلبه. وقد قيل: إنَّ الكنايةَ في «عليه» تعودُ على إسماعيل وأنه هو الذبيحُ.

قال المفضَّل: الصحيحُ الذي يدلُّ عليه القرآن أنه إسماعيلُ، وذلك أنه قصَّ قِصَّة الذبيح، فلما قال في آخر القِصَّة: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ ثم قال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ . كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ قال: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ . وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: على إسماعيل ﴿وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ كنَى عنه؛ لأنه قد تقدَّم ذِكره ثم قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ فدلَّ

(١) في (ظ) و(ف) وأحكام القرآن لابن العربي: ذبح.

(٢) تفسير الطبري ١٩/ ٦٠٥ - ٦٠٦.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٦٣.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٥، وأخرجه الطبري ١٩/ ٦٠٧.

على أنها ذريَّة إسماعيل وإسحاق، وليس تختلف الرواةُ في أنَّ إسماعيل كان أكبرَ من إسحاق بثلاثَ عشرةَ سنةً[١].

قلت: قد ذكرنا أوَّلاً ما يدلُّ على أنَّ إسحاقَ أكبرُ من إسماعيل، وأن المُبَشَّر به هو إسحاق بنصِّ التنزيل[٢]؛ فإذا كانت البِشارة بإسحاق نصّاً، فالذبيحُ لاشكَّ هو إسحاق، وبُشِّر به إبراهيمُ مرتين؛ الأُولى بولادته، والثانية بنبوَّته؛ كما قال ابن عباس[٣]. ولا تكون النبوَّة إلا في حال الكِبَر.و«نَبِيّاً» نصب على الحال، والهاء في «عليهِ» عائدةٌ إلى إبراهيم، وليس لإسماعيل في الآية ذِكْر حتى ترجِعَ الكِناية إليه.

وأما ما رُوي من طريق معاوية قال: سمعتُ رجلاً يقول للنبي ﷺ: يا ابنَ الذَّبيحين؛ فضحك النبيُّ ﷺ. ثم قال معاوية: إنَّ عبد المُطَّلب لما حفر بئرَ زمزم، نذَر لله إنْ سهَّل عليه أمرَها لَيذبحنَّ أحدَ ولده لله، فسهَّلَ الله عليه أمرَها، فوقع السهمُ على عبد الله، فمنعه أخوالُ بنو مخزوم، وقالوا: افدِ ابنَك: فَفَداهُ بمئة من الإبل، وهو الذبيح، وإسماعيل هو الذبيحُ الثاني[٤]. فلا حُجَّةَ فيه؛ لأنَّ سندَه لا يثبتُ على ما ذكرناه في كتاب «الإعلام في معرفة مَوْلد المصطفى عليه الصلاة والسلام»؛ ولأن العربَ تجعلُ العم أباً؛ قال الله تعالى: ﴿قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [البقرة:١٣٣] وقال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يوسف:١٠٠] وهما أبوه وخالته. وكذلك ما رُوي عن الشاعر الفرزدق عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ[٥] لو صحَّ إسنادُه فكيف وفي الفرزدق نَفْسِه مَقَال؟!.

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره ٤/ ٥١٣ ، وسلف ذكر اختلاف العلماء في المأمور بذبحه في المسألة الأولى، ونقلنا ثمة قول ابن كثير أن الصحيح المقطوع به أنه إسماعيل عليه السلام

(٢) ١٨/ ٦٣ وما بعدها.

(٣) سلف قريباً.

(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٥٩٧ - ٥٩٨ . قال ابن كثير في تفسيره ٧/ ٣٥: وهذا حديث غريب جداً.

(٥) أخرج عبد بن حُميد كما في الدر المنثور ٥/ ٢٨١ عن الفرزدق قال: رأيت أبا هريرة ﷺ يخطب على منبر رسول الله ﷺ ويقول: إن الذي أُمر بذبحه إسماعيل.

السابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ﴾ لمَّا ذكر البركةَ في الذرية والكَثْرة قال: منهم مُحسن، ومنهم مُسيء، وأن المُسيء لا تَنفعه بُنوَّةُ النبوَّة؛ فاليهودُ والنصارى وإن كانوا من ولد إسحاق، والعربُ وإنْ كانوا من ولد إسماعيل، فلابدَّ من الفرق بين المُحسن والمُسيء والمؤمن والكافر، وفي التنزيل: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة:١٨] الآية؛ أي: أبناء رُسُلِ الله فرأَوْا لأنفسهم فَضْلاً. وقد تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ لمَّا ذكر إنجاءَ إسحاق من الذبح، وما مَنَّ به عليه بعد النبوة، ذكر ما مَنَّ به أيضاً على موسى وهارون من ذلك. وقوله: ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ قيل: من الرِّقِّ الذي لَحِقَ بني إسرائيل. وقيل: من الغَرَق الذي لَحِقَ فرعون.

﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ﴾ قال الفراء(١): الضميرُ لموسى وهارون وحدَهما؛ وهذا على أنَّ الاثنين جمع؛ دليلُه قوله: «وآتيناهُما» «وهَدَيْناهُما». وقيل: الضميرُ لموسى وهارون وقومِهما، وهذا هو الصوابُ؛ لأنَّ قبلَه«ونَجَّيْناهُما وقَوْمَهُما»(٢).

و﴿ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ﴾ التوراة؛ يقال: استبان كذا، أي: صار بَيِّناً، واستبانه فلانٌ مثل: تبيَّن الشيءُ بنفسه وتبيَّنه فلانٌ.

و﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ الدِّين القَويم الذي لا اعوجاج فيه، وهو دينُ الإسلام.

(١) في معاني القرآن ٢/ ٣٩٠، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٣٥.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٥٣.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ يريدُ الثَّناء الجميل. ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ . إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ قال المفسرون: إلياسُ نبيٌّ من بني إسرائيل. ورُوي عن ابن مسعود قال: إسرائيلُ هو يعقوبُ، وإلياسُ هو إدريس[١]، وقرأ: «وإنَّ إدْرِيسَ»[٢]. وقاله عكرمة. وقال: هو في مصحف عبد الله: «وإنَّ إدْرِيس لَمِنَ المُرْسَلينَ» وانفرد بهذا القول. وقال ابن عباس: هو عمُّ اليَسع[٣].

وقال ابن إسحاق وغيره: كان القَيِّمُ بأمر بني إسرائيل بعد يوشع كالبَ بن يوقنا، ثم حِزقيل، ثم لمَّا قبض اللهُ حِزقيلَ النبيَّ عظمتِ الأحداثُ في بني إسرائيل، ونَسُوا عهدَ الله، وعبدوا الأوثان من دونه، فبعث اللهُ إليهم إلياسَ نبيّاً، وتَبِعه اليَسع وآمن به، فلما عتا عليه بنو إسرائيل دعا ربَّه أن يُريحَه منهم، فقيل له: اخرج يومَ كذا وكذا إلى موضع كذا وكذا فما استقبلكَ من شيء فارْكَبه ولا تَهَبْه. فخرج ومعه اليَسع فقال: يا إلياسُ، ما تأمرني، فقذفَ إليه بكِسائه من الجوِّ الأعلى، فكان ذلك علامةَ استخلافه إيَّاه على بني إسرائيل، وكان ذلك آخرَ العَهْد به. وقطعَ اللهُ على إلياسَ لذَّةَ المَطْعَم والمَشْرَب، وكساه الرِّيش، وألبسه النَّور[٤]، فطار مع الملائكة، فكان إنسيّاً مَلَكيّاً سماويّاً أرضيّاً[٥].

(١) أخرجه الطبري ٩/ ٣٨٣.

(٢) القراءات الشاذة ص ١٢٨، والمحتسب ٢/ ٢٢٤.

(٣) في تفسير البغوي ٤/ ٣٦ (والكلام فيه بنحوه): هو ابن عم اليسع.

(٤) النَّور: الزَّهر، أو الأبيض منه. القاموس (نور).

(٥) عرائس المجالس ص ٢٥٥ و٢٦٢، وينظر النكت والعيون ٥/ ٦٤، وتفسير البغوي ٤/ ٣٦.

قال ابن قتيبة: وذلك أنَّ اللهَ تعالى قال لإلياس: «سَلْني أُعطِكَ». قال: تَرفَعُني إليك وتُؤَخِّرعني مَذاقة الموت. فصار يطيرُ مع الملائكة.

وقال بعضهم: كان قد مَرِضَ وأحسَّ الموتَ فبكى، فأوحى الله إليه: لِمَ تبكِ؟ حرصاً على الدنيا، أو جزعاً من الموت، أو خوفاً من النار؟ قال: لا، ولا لشيء[1] من هذا وعِزَّتِك، إنما جَزَعي كيف يَحْمَدُك الحامدون بعدي ولا أَحْمَدُك، ويذكُرك الذاكرون بعدي ولا أَذْكُرك، ويصومُ الصائمون بعدي ولا أصوم، ويُصلِّي المصلُّون ولا أُصلّي.

فقيل له: «يا إلياسُ، وعزَّتي لأُؤَخِّرنَّك إلى وقت لا يذكُرني فيه ذاكر». يعني يومَ القيامة.

وقال عبدُ العزيز بن أبي روَّاد: إنَّ إلياسَ والخَضِرَ عليهما السلام يصومان شهرَ رمضانَ في كلِّ عام ببيتِ المَقْدس يُوافيان الموسم في كل عام[2].

وذكر ابن أبي الدنيا أنهما يقولان عند افتراقهما عن الموسم: ما شاء الله، ما شاء الله، لا يسوقُ الخير إلا الله، ما شاء الله، ما شاء الله، لا يَصرِفُ السُّوء إلا الله، ما شاء الله، ما شاء الله، ما يكون من نعمة فمن الله، ما شاء الله، ما شاء الله، توكَّلت على الله، حسبُنا الله ونِعْم الوكيل. وقد مضَى في «الكهف»[3].

وذكر من طريق مكحول عن أنس قال: غَزَوْنا مع رسولِ الله ﷺ حتى إذا كُنَّا بفَجِّ الناقة عند الحِجْر، إذا نحن بصوت يقول: اللهمَّ اجعَلْني من أُمَّة محمدٍ المرحومة، المغفورِ لها، المَتوبِ عليها، المُستجابِ لها. فقال رسولُ الله ﷺ: «يا أنسُ، انظُرْ ما هذا الصوت». فدخلتُ الجبلَ، فإذا أنا برجلٍ أبيضِ اللِّحية والرأس، عليه ثيابٌ بِيْضٌ، طوله أكثرُ من ثلاث مئة ذراع، فلما نظر إليَّ قال: أنت رسولُ النبي؟ قلت:

---

(١) في (م): ولا شيء.

(٢) أخرجه أحمد في الزهد ص ٢٨١.

(٣) ١٣/ ١٧٠.

نعم؛ قال: اِرْجِعْ إليه فأَقرِئْه مني السلام وقل له: هذا أخوك إلياسُ يُريد لِقاءك. فجاء النبي ﷺ وأنا معه، حتى إذا كنا قريباً منه، تقدَّم النبي ﷺ وتأخَّرت، فتحدَّثا طويلاً، فنزل عليهما شيء من السماء شبه السُّفرة فدَعَواني فأكلتُ معهما، فإذا فيها كَمْأة ورُمَّان وكَرَفْس، فلما أكلتُ قمتُ فتنحَّيتُ، وجاءت سحابةٌ فاحتملَتْه، فإذا أنا أنظرُ إلى بَيَاضِ ثيابِه فيها تَهوي به. فقلتُ للنبي ﷺ: بأبي أنت وأُمّي، هذا الطعامُ الذي أكلنا أَمِنَ السماء نزل عليه؟ فقال النبي ﷺ: «سألتُه عنه فقال: يأتيني به جبريلُ في كل أربعين يوماً أَكْلة، وفي كلِّ حول شَرْبة من ماء زمزم، وربما رأيتُه على الجُبِّ يملأ بالدَّلو فيشرب، وربما سَقَاني»[1].

قال ثعلب: اختلف الناسُ في قوله عز وجل هاهنا: «بَعْلاً» فقالت طائفة: البَعْل هاهنا الصَّنَم. وقالت طائفة: البعل هاهنا مَلَك. وقال ابن إسحاق: امرأة كانوا يعبدُونها. والأوّل أكثر.

وروى الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس: «أَتَدْعُونَ بَعْلاً» قال: صنماً. وروى عطاء بن السائب عن عكرمة عن ابن عباس: «أَتَدْعُونَ بَعْلاً» قال: رَبّاً.

النحاس: والقولان صحيحان؛ أي: أتدعون صنماً عَمِلْتموه ربّاً. يقال: هذا بعلُ الدار، أي: ربُّها. فالمعنى: أتدعون ربّاً اختلقتموه، و«أَتَدْعُونَ» بمعنى أتُسمُّون. حكى ذلك سيبويه[2].

وقال مجاهد وعكرمة وقتادة والسُّدي: البعل الربُّ بلغة اليمن[3]. وسمع ابن عباس رجلاً من أهل اليمن يسومُ ناقةً بمنىً فقال: منَ بعلُ هذه؟[4]. أي: مَن رَبُّها؛

(١) الهواتف لابن أبي الدنيا ص ٧٨ - ٧٩، وأخرجه بنحوه الحاكم ٢/ ٦١٧ ونقله المصنف عن ابن أبي الدنيا بواسطة السُّهيلي في التعريف والإعلام ص ١٠٧ -١٠٨. قال الذهبي في التلخيص: موضوع، قبَّح الله من وضعه، وقال ابن كثير في البداية والنهاية ٢/ ٢٧٥: موضوع. وقد سلفت الإشارة إليه في تفسير سورة الكهف [الآية: ٨٢] المسألة الرابعة.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٥، ومعاني القرآن له ٦/ ٥٥.

(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٦١٢ - ٦١٣.

(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٦١٣ بنحوه، ونقله المصنف من النكت والعيون ٥/ ٦٤.

ومنه سُمِّي الزوج بعلاً. قال أبو دؤاد:

ورأيــتُ بَــعْــلَــكِ فــي الــوغَــى مُــتــقــلِّــدا ســيــفــاً ورُمْــحــاً[1]

مقاتل: صنمٌ كسره إلياسُ وهربَ منهم. وقيل: كان مِن ذهب وكان طولُه عشرين ذراعاً، وله أربعةُ أوجه، فُتِنوا به وعظَّموه حتى أخدموه أربع مئة سادن وجعلوهم أنبياءه، فكان الشيطانُ يدخل في جوف بَعْل ويتكلَّم بشريعة الضلالة، والسَّدَنة يحفظُونها ويُعلِّمونها الناس، وهم أهل بعلبك من بلاد الشام. وبه سُمِّيت مدينتهم بعلبك كما ذكرنا[2].

﴿وَتَذَرُونَ أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ أي: أحسنَ من يقال له: خالق. وقيل: المعنى: أحسن الصانعين؛ لأن الناسَ يصنعون ولا يخلُقون[3].

﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ بالنصب في الأسماء الثلاثة قرأ الربيع بن خُثَيم والحسن وابن أبي إسحاق وابن وثّاب والأعمش وحمزة والكسائي[4]. وإليها يذهب أبو عُبيد وأبو حاتم. وحكى أبو عُبيد أنها على النعت. النحاس[5]: وهو غلطٌ، وإنما هو على البَدَل، ولا يجوز النعت هاهنا؛ لأنه ليس بتحلية.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وأبو جعفر وشيبة ونافع بالرفع[6]. قال أبو حاتم: بمعنى: هو اللهُ ربُّكم. قال النحاس: وأولى مما قال أنه مبتدأ وخبر بغير إضمار ولا حذف. ورأيتُ عليَّ بن سليمان يذهبُ إلى أن الرفع أولى وأحسن؛ لأن

(١) النكت والعيون ٥/ ٦٤، وقول مقاتل التالي منه. والبيت لعبد الله بن الزِّبعرى كما في المصادر وليس لأبي دؤاد كما ذكر الماوردي، وقد سلف ١/ ٢٩١ وفي عدة مواضع أخر. وأبو دؤاد اسمه: جارية بن الحجَّاج، كان في عصر كعب بن مامَةَ الإيادي. الشعر والشعراء ١/ ٢٣٧

(٢) عرائس المجالس ص ٢٥٧ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٦٥ .

(٤) وقرأ بها عاصم في رواية حفص. السبعة ص ٥٤٩ ، والتيسير ص ١٨٧ .

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ١١٧ ، وما قبله منه.

(٦) السبعة ص ٥٤٩ ، والتيسير ص ١٨٧ ، والنشر ٢/ ٣٦٠ .

قبلَه رأسُ آية، فالاستئنافُ أولى.

ابن الأنباري[١]: مَن نصبَ أو رفعَ لم يَقِفْ على «أحسَنَ الخَالِقِينَ» على جهة التَّمام؛ لأنَّ اللهَ عزّ وجلّ مُترجمٌ عن «أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ» من الوجهين جميعاً.

قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أخبر عن قوم إلياس أنهم كذَّبوه. ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي: في العذاب. ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي: من قومه، فإنهم نَجَوْا من العذاب. وقُرئ: «المُخلِصينَ» بكسر اللام، وقد تقدّم[٢]. ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ تقدَّم.

﴿سَلَامٌ عَلَى آلِ ياسينَ﴾ قراءة الأعرج وشيبة ونافع[٣]. وقرأ عكرمةُ وأبو عمرو وابن كثير وحمزةُ والكسائي: «سَلَامٌ على إِلْيَاسِينَ»[٤]. وقرأ الحسن: «سَلَامٌ على الياسِينَ» بوصل الألف[٥]، كأنها «ياسين» دخلتْ عليها الألف واللام التي للتعريف. والمُراد إلياسُ عليه السلام، وعليه وقع التسليم، ولكنه اسمٌ أعجميٌّ. والعربُ تضطرب في هذه الأسماء الأعجمية ويَكثُر تغييرُهم لها[٦].

قال ابن جِنِّي[٧]: العربُ تتلاعب بالأسماء الأعجمية تلاعباً؛ فياسين وإلياس والياسِين شيء واحد.

الزمخشريّ[٨]: وكان حمزةُ إذا وصَلَ نصَبَ، وإذا وقَفَ رفَعَ. وقُرئ: «على إلياسين» و«إِدْرِيسِينَ وإِدْرَسِين وَإِدْرَاسِينَ»[٩] على أنها لُغات في إلياس وإدريس. ولعلَّ

---

(١) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٥٩.

(٢) ١٨/ ٢٨.

(٣) وهي قراءة ابن عامر.

(٤) وهي قراءة عاصم.

(٥) المحتسب ٢/ ٢٢٣.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٦ و٤٣٨.

(٧) ذكره عنه السُّهيلي في الروض الأنف ١/ ٧٢.

(٨) في الكشاف ٣/ ٣٥٢.

(٩) المحتسب ٢/ ٢٢٥.

لزيادةِ الياء والنون في السُّريانية معنى .

النحاس[١]: ومن قرأ: «سَلَامٌ على آلِ ياسِينَ» فكأنه ـ والله أعلم ـ جعل اسمه إلياس وياسين، ثم سلَّم على آله؛ أي: أهل دينه ومَن كان على مذهبه، وعَلِم أنه إذا سلَّم على آله من أجله، فهو داخلٌ في السلام؛ كما قال النبيّ ﷺ: «اللهم صلِّ على آل أبي أوفى»[٢] وقال الله تعالى: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]. ومن قرأ: «إِلياسِين» فللعلماء فيه غير قول. فروى هارون عن ابن أبي إسحاق قال: إلياسين مثل إبراهيم؛ يذهبُ إلى أنه اسمٌ له. وأبو عُبيدة[٣] يذهب إلى أنه جُمع جمعَ التسليم على أنه وأهل بيته سلّم عليهم؛ وأنشد:

قَدْنِيَ مِنْ نَصْرِ الخُبَيْبِينَ قَدِي[٤]

يقال: قدني وقَدِي لغتان بمعنى حَسْب. وإنما يُريد أبا خُبَيْب عبدَ الله بن الزبير، فجمعه على أنَّ مَن كان على مَذْهبه داخلٌ معه. وغير أبي عُبيدة يرويه: الخُبَيْبَيْن، على التثنية، يُريد عبد الله ومُصْعباً. ورأيت عليَّ بن سليمان يشرحه بأكثرَ من هذا؛ [قال]: فإن العربَ تُسمِّي قومَ الرجل باسم الرجل الجليل منهم، فيقولون: المهالِبة على أنهم سمَّوْا كلَّ رجل منهم بالمهلَّب. قال: فعلى هذا «سَلَامٌ عَلَى إِلْياسِينَ» سمَّى كلَّ رجل منهم بإلياس. وقد ذكر سيبويه في «كتابه»[٥] شيئاً من هذا، إلا أنه ذكَر أن العربَ تفعلُ هذا على جهة النِّسبة؛ فيقولون: الأشعرون، يريدون به النَّسب .

المهدوي: ومن قرأ: «إِلياسِين» فهو جمع يدخل فيه إلياس، فهو جمع إلياسيّ،

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٤٣٦ .

(٢) أخرجه البخاري (١٤٩٧)، ومسلم (١٠٧٨)، وسلف ٢/ ٨٢ .

(٣) في مجاز القرآن ٢/ ١٧٢ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس.

(٤) الرجز لحُمَيْد الأرقط، وبعده: ليس الإمام بالشَّحيح المُلحِدِ. وهو في الكتاب ٢/ ٣٧١ ، والخزانة ٥/ ٣٨٢ .

(٥) ٣/ ٤١٠ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس ٣/ ٤٣٧ ، وما قبله وما بين حاصرتين منه.

فحذفت ياء النِّسبة؛ كما حُذفت ياء النسبة في جمع المُكَسَّر في نحو المهالبة في جمع مهلبيّ، كذلك حُذفت في المسلَّم فقيل: المهلّبون.

وقد حكى سيبويه[١]: الأشعرون والنميرون، يُريدون الأشعريِّين والنميريِّين.

السهيليّ[٢]: وهذا لا يصحُّ، بل هي لغةٌ في إلياس، ولو أراد ما قالوه لأدخلَ الألفَ واللام كما تدخلُ في المهالبة والأشعريين؛ فكان يقول: «سلامٌ على الإلياسِين» لأن العَلم إذا جُمع يُنكَّر حتى يُعرَّف بالألف واللام؛ لاتقول: سلام على زيدين، بل: على الزيدين، بالألف واللام. فإلياسُ عليه السلام فيه ثلاثُ لغات.

النحاس[٣]: واحتجَّ أبو عُبيدة في قراءته: «سَلَامٌ على إِلْيَاسِينَ» وأنه اسمه كما أن اسمَه إلياس؛ لأنه ليس في السورة سلامٌ على «آل» لغيره من الأنبياء ﷺ، فكما سُمِّي الأنبياء كذا سُمِّي هو. وهذا الاحتجاجُ أصلُه لأبي عمرو، وهو غيرُ لازم؛ لأنَّا بيَّنا قولَ أهل اللغة أنه إذا سلَّم على آله من أجله، فهو سلام عليه. والقولُ بأن اسمه «إلياسين» يحتاجُ إلى دليل ورواية؛ فقد وقع في الأمر إشكال.

قال الماوردي[٤]: وقرأ الحسن: «سلَامٌ على ياسِينَ» بإسقاط الألف واللام[٥]، وفيه وجهان: أحدُهما: أنهم آلُ محمد ﷺ؛ قاله ابن عباس. الثاني: أنهم آل ياسين؛ فعلى هذا في دخول الزيادة في ياسين وجهان: أحدهما: أنها زِيدت لِتَساوي الآي، كما قال في موضع: ﴿طُورِ سَيْنَآءَ﴾ [المؤمنون: ٢٠] وفي موضع آخر ﴿طُورِ سِينِينَ﴾ [التين: ٢]، فعلى هذا يكون السلام على أهله دونَه، وتكون الإضافة إليه تشريفاً له. الثاني: أنها دخلت للجمع فيكون داخلاً في جُملتهم فيكون السلامُ عليه وعليهم.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) في التعريف والإعلام ص ١٤٨ .

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٤٣٧ .

(٤) في النكت والعيون ٥/ ٦٥ .

(٥) سلف أن الحسن قرأ: «سلام على الياسين» بغير همز.

وقال السُّهيلي(١): قال بعضُ المتكلّمين في معاني القرآن: آلُ ياسين آلُ محمد عليه الصلاة والسلام، ونزعَ إلى قول من قال في تفسير «يس»: يا محمد. وهذا القولُ يَبطُلُ من وجوه كثيرة: أحدها: أن سِياقة الكلام في قصة إلياسين يَلزم أن تكون كما هي في قصة إبراهيم ونوح وموسى وهارون، وأنَّ التسليم راجعٌ عليهم، ولا معنى للخروج عن مقصودِ الكلام لِقول قيل في تلك الآية الأُخرى مع ضَعْف ذلك القول أيضاً؛ فإنَّ «يس» و«حم» و«الم» ونحوَ ذلك القولُ فيها واحدٌ، إنما هي حروفٌ مُقطَّعة؛ إما مأخوذةٌ من أسماء الله تعالى كما قال ابن عباس، وإما من صفات القرآن، وإما كما قال الشعبي: لله في كلِّ كتاب سرٌّ، وسرُّه في القرآن فواتحُ القرآن(٢). وأيضاً فإنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لي خمسةُ أسماء»(٣) ولم يذكُرْ فيها «يس». وأيضاً فإنَّ «يس» جاءت التلاوة فيها بالسكون والوقف، ولو كان اسماً للنبي ﷺ لقال: «ياسينُ» بالضم؛ كما قال تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ [يوسف:٤٦] وإذا بطلَ هذا القولُ لِما ذكرناه؛ فـ«إلياسين» هو إلياسُ المذكور، وعليه وقع التسليم.

وقال أبو عمرو بن العلاء: هو مثل: إدريس وإدراسين، كذلك هو في مصحف ابن مسعود: ﴿وَإِنَّ إِدْرِيسَ لِمَنَ المُرسلينَ﴾ ثم قال: «سَلَامٌ على إدراسِين»(٤). ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ . إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾

(١) في التعريف والإعلام ص ١٤٨.

(٢) سلفت هذه الأقوال، والكلام على الحروف المقطعة أول سورة البقرة ١/ ٢٣٧.

(٣) أخرجه البخاري (٣٥٣٢)، ومسلم (٢٣٥٤) من حديث جبير بن مطعم ﷺ، وسلف ٩/ ٣٩٢.

(٤) المحتسب ٢/ ٢٢٥، وسلفت الإشارة إليها قريباً.

تقدَّم قصة لوط(١). ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾ أي: بالعقوبة. ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾ خاطب العرب: أي تمرُّون على منازلهم وآثارهم «مُصْبِحِينَ» وقتَ الصَّباح ﴿وَبِاللَّيْلِ﴾ تمرُّون عليهم أيضاً. وتمَّ الكلام. ثم قال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: تعتبرون وتتدبَّرون.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾

فيه ثمان مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ يونس: هو ذو النون، وهو ابن متَّى، وهو ابن العجوز التي نزل عليها إلياس، فاستخفى عندها من قومه ستةَ أشهر ويونسُ صبيٌّ يرضع، وكانت أُمُّ يونس تخدُمه بنفسها وتُؤانسه، ولا تدَّخر عنه كرامة تقدرُ عليها. ثم إن إلياس سئم ضِيقَ البيوت فلحق بالجبال، ومات ابنُ المرأة يونسُ، فخرجت في إثر إلياسَ تطوف وراءه في الجبال حتى وجدَتْه، فسألته أن يدعوَ اللهَ لها لعلّه يُحيي لها ولدها؛ فجاء إلياسُ إلى الصبي بعد أربعةَ عشر يوماً من موته، فتوضأ وصلَّى ودعا اللهَ، فأحيا اللهُ يونسَ بن متى بدعوة إلياس عليه السلام(٢).

وأرسل الله يونس إلى أهل نينَوَى من أرض المَوْصل وكانوا يعبدون الأصنام ثم تابوا، حسبما تقدَّم بيانه في سورة «يونس»(٣)، ومضى في «الأنبياء»(٤) قصة يونس في خروجه مُغاضِباً.

واختلف في رسالته هل كانت قبل التقام الحوت إيَّاه أو بعده.

قال الطبري(٥): عن شهر بن حَوْشَب: إن جبريل عليه السلام أتى يونس فقال:

---

(١) ١١/١٧٣ وما بعدها.
(٢) تفسير البغوي ٤/٣٩.
(٣) ١١/٥٤.
(٤) ١٤/٢٦٦، وما بعدها.
(٥) في تفسيره ١٩/٦٣٩.

انطلق إلى أهل نِينَوَى فأَنْذِرْهم أن العذاب قد حَضَرهم. قال: ألتمس دابَّة. قال: الأمرُ أعجلُ من ذلك. قال: ألتمس حذاءً. قال: الأمرُ أعجلُ من ذلك. قال: فغضب فانطلق إلى السفينة فركب، فلما ركب السفينةَ احتبست السفينةُ لا تتقدَّم ولا تتأخَّر. قال: فتساهموا، قال: فسُهِم، فجاء الحوتُ يُبصبص بذنبه؛ فنُودي الحوت: أيا حوت، إنَّا لم نجعل لك يونسَ رزقاً؛ إنما جعلناك له حِرْزاً ومسجداً. قال: فالتقمه الحوتُ من ذلك المكان حتى مَرَّ به إلى الأُبُلَّة[1]، ثم انطلق به حتى مرَّ به على دِجلة، ثم انطلق حتى ألقاه في نِينوى.

حدّثنا الحارث قال: حدثنا الحسن قال: حدثنا أبو هلال قال: حدثنا شهرُ بن حَوْشَب عن ابن عباس قال: إنما كانت رسالةُ يونس بعد ما نبذه الحوت، واستدلَّ هؤلاء بأن الرسولَ لا يخرج مُغاضباً لربِّه، فكان ما جرى منه قبل النبوَّة.

وقال آخرون: كان ذلك منه بعد دعائه من أرسل [إليهم][2] إلى ما أمره اللهُ بدعائهم إليه، وتبليغه إيَّاهم رسالةَ ربِّه، ولكنه وعدَهم نزولَ ما كان حذَّرهم من بأس الله في وقتٍ وَقَّته لهم، ففارقهم إذْ لم يتوبوا ولم يراجعوا طاعة الله، فلما أظلَّ القومَ العذابُ وغَشِيَهم ـ كما قال الله تعالى في تنزيله ـ تابوا إلى الله، فرفع الله العذاب عنهم، وبلغ يونسَ سلامتُهم وارتفاعُ العذاب الذي كان وعدهموه، فغضب من ذلك وقال: وعدتهم وعداً فكذب وعدي. فذهب مغاضباً ربَّه وكَرِهَ الرجوع إليهم، وقد جرَّبوا عليه الكذب؛ رواه سعيد بن جُبير عن ابن عباس[3]. وقد مضى هذا في «الأنبياء»[4] وهو الصحيح على ما يأتي عند قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾.

---

(١) هي بلدة على شاطئ دجلة. معجم البلدان ١/ ٧٧.

(٢) ما بين حاصرتين زيادة ليست في النسخ.

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ٣٧٥ و٣٧٦.

(٤) ١٤/ ٢٦٦، وما بعدها.

ولم ينصرف يونسُ؛ لأنه اسمٌ أعجميّ، ولو كان عربيّاً لانصرف وإن كانت في أوّله الياء؛ لأنه ليس في الأفعال يُفْعُل كما أنك إذا سمَّيت بيُعْفُر صرفته؛ وإن سمَّيت بيَعْفُر لم تَصرِفْه[١].

الثانية: قوله تعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ﴾ قال المبرِّد: أصلُ أَبَقَ تباعد؛ ومنه غلامٌ آبقٌ. وقال غيره: إنما قيل ليونس: أَبَقَ؛ لأنه خرج بغير أمر الله عز وجل مستتراً من الناس. ﴿إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ أي: المملوءة. و«الفُلك» يُذكَّر ويُؤنَّث ويكون واحداً وجمعاً[٢]. وقد تقدّم[٣].

قال الترمذي الحكيم: سمَّاه آبقاً لأنه أَبَقَ عن العبودية، وإنما العبودية تركُ الهوى وبذل النفس عند أمور الله؛ فلما لم يبذل النَّفْسَ عندما اشتدَّت عليه العَزمة من المَلِك ـ حسَبما تقدَّم بيانُه في «الأنبياء»[٤] ـ آثرَ هواه لَزِمَه اسمُ الآبق، وكانت عزمة المَلِك في أمر الله لا في أمر نفسه، وبحظّ حقِّ الله لا بحظّ نفسه؛ فتحرَّى يونسُ فلم يُصِبِ الصوابَ الذي عند الله، فسمَّاه: آبقاً، ومُلِيماً.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ﴾ قال المبرّد: فقارع، قال: وأصلُه من السِّهام التي تُجَال. ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ قال: من المغلوبين. قال الفرّاء[٥]: دَحَضَتْ حُجَّتُه وأَدْحضها الله، وأصلُه من الزَّلَق؛ قال الشاعر:

قَتَلْنا الْمُدْحَضِينَ بكُلِّ فَجٍّ ... فقد قَرَّتْ بقتلِهِمُ العيونُ[٦]

أي: المغلوبين.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٨ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٩ .

(٣) ٢/ ٤٩٢ .

(٤) ١٤/ ٢٦٨ ، واسم الملك: حزقيا، كما سلف.

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٣٩٣ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٣٩ ، وما قبله منه.

(٦) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٦٧ ونسبه لأبي قيس.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي: أتى بما يُلام عليه فأما المَلوم: فهو الذي يُلام، استحقَّ ذلك أو لم يستحقَّ[١].

وقيل: المُليم المعيب. يقال: لام الرجل إذا عمل شيئاً فصار معيباً بذلك العمل.

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ قال الكسائي: لم تكسر «أن» لدخول اللام؛ لأن اللام ليست لها. النحاس[٢]: والأمر كما قال؛ إنما اللام في جواب «لولا». ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ أي: من المصلِّين ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي: عقوبةً له؛ أي: يكون بطنُ الحوت قبراً له إلى يوم القيامة.

واختُلف كم أقام في بطن الحوت؟. فقال السديّ والكلبيّ ومقاتل بن سليمان: أربعين يوماً. الضحاك: عشرين يوماً. عطاء: سبعة أيام. مقاتل بن حيان: ثلاثة أيام. وقيل: ساعة واحدة[٣]. والله أعلم.

الخامسة: روى الطبري من حديث أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لما أراد اللهُ ـ تعالى ذِكْره ـ حَبْسَ يونس في بطن الحوت أَوحى اللهُ إلى الحوت أن خُذْه ولا تَخدِشْ لحماً، ولا تكسِرْ عظماً، فأخذه ثم هوَى به إلى مَسْكنه من البحر؛ فلما انتهى به إلى أسفل البحر سَمِعَ يونسُ حسّاً، فقال في نفسه: ما هذا؟ فأوحى الله تبارك وتعالى إليه وهو في بطن الحوت: إنَّ هذا تسبيحُ دوابِّ البحر» قال: «فسبَّحَ وهو في بطن الحوت» قال: «فسمعتِ الملائكةُ تسبيحَه فقالوا: يا ربَّنا، إنَّا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرضٍ غريبة» قال: «ذلك عبدي يونُس عصَاني فحبستُه في بطن الحوت في البحر. قالوا: العبدُ الصالح الذي كان يَصعَدُ إليك منه في كل يوم وليلة عملٌ صالح؟ قال: نعم. فشفعوا له عند ذلك فأمرَ الحوتَ بِقَذْفه في الساحل كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾»[٤].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٩.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٤٣٩، وما قبله منه.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٤٨٦، وتفسير البغوي ٤/ ٤٣.

(٤) تفسير الطبري ١٦/ ٣٨٥، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٩٨: فيه ابن إسحاق، وهو مدلس، وبقيه رجاله رجال الصحيح.

وكان سقمُه الذي وصفَه به الله تعالى ذكره: أنه ألقاه الحوتُ على الساحل كالصبيّ المَنْفوس قد نُشِر اللحمُ والعظم[١].

وقد رُوي: أن الحوتَ سار مع السفينة رافعاً رأسَه يتنفس فيه يونسُ ويُسبّح، ولم يُفارقهم حتى انتَهَوْا إلى البرّ، فلفظَهُ سالماً لم يتغيَّر منه شيء فأَسلموا؛ ذكره الزمخشريّ في «تفسيره»[٢].

وقال ابن العربي[٣]: أخبرني غيرُ واحد من أصحابنا عن إمام الحرمين أبي المعَالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجُويني: أنه سُئل: هل[٤] الباري في جهة؟ فقال: لا، هو يتعالَى عن ذلك. قيل له: ما الدليلُ عليه؟ قال: الدليلُ عليه قولُ النبي صله الله عليه وسلم: «لا تُفضِّلوني على يونسَ بن متَّى»[٥] فقيل له: ما وجهُ الدليل في هذا الخبر؟ فقال: لا أَقوله حتى يأخُذَ ضيفي هذا ألفَ دينار يقضي بها دَيْناً[٦]. فقام رجلان فقالا: هي علينا. فقال: لا يتبع بها اثنين؛ لأنه يشقُّ عليه. فقال واحد: هي عليّ. فقال: إنَّ يونسَ بن متّى رمى بنفسه في البحر فالتقمه الحوت، فصار في قَعْر البحر في ظُلمات ثلاث، ونادى ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧] كما أخبر الله عنه، ولم يكن محمدٌ ﷺ حين جَلَس على الرَّفرف الأخضر وارتقى به صعداً، حتى انتهى به إلى موضع يسمعُ فيه صَرِيفَ الأقلام، وناجاه ربُّه بما ناجاه به، وأوحى إليه ما أوحى، بأقربَ إلى الله تعالى من يونس في بطن الحوت في ظُلمة البحر.

السادسة: ذكر الطبري: أنَّ يونسَ عليه السلام لما رَكِبَ في السفينة أصابَ أهلَها

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٦٣ من قول ابن زيد.

(٢) الكشاف ٣/ ٣٥٣.

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٠٩.

(٤) في النسخ: عن، والمثبت من أحكام القرآن.

(٥) أخرجه البخاري (٣٤١٣)، ومسلم (٢٣٧٧) بنحوه، وسلف ٤/ ٢٥٤ و١٤/ ٢٧٤.

(٦) في أحكام القرآن: دينه.

عاصفٌ من الريح، فقالوا: هذه بخطيئة أحدِكم. فقال يونسُ وعَرَفَ أنه هو صاحبُ الذنب: هذه خطيئتي، فألقُوني في البحر، وأنهم أبَوْا عليه حتى أفاضوا بسهامهم ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ فقال لهم: قد أخبرتُكم أن هذا الأمرَ بذنبي. وأنهم أبَوْا عليه حتى أفاضوا بسهامهم الثانية، فكان من المدحضين، وأنهم أبَوْا أن يُلقوه في البحر حتى أعادوا سِهامهم الثالثةَ فكان من المدحضين. فلما رأى ذلك ألقى نفسه في البحر، وذلك تحت الليل فابتلعه الحوت.

ورُوي أنه لما رَكِبَ في السفينة تَقنَّع ورقدَ، فساروا غيرَ بعيد إذْ جاءتهم ريحٌ كادت السفينةُ أن تغرقَ، فاجتمع أهلُ السفينة فدعَوْا فقالوا: أيقظوا الرجلَ النائم يدعو معنا؛ فدعا اللهَ معهم فرفع اللهُ عنهم تلك الريح. ثم انطلق يونسُ إلى مكانه فرقد، فجاءت ريحٌ كادت السفينةُ أن تغرقَ، فأيقظوه ودعَوا اللهَ فارتفعت الريح.

قال: فبينما هم كذلك إذ رفع حوتٌ عظيم رأسَه إليهم أراد أن يبتلعَ السفينةَ، فقال لهم يونس: يا قوم، هذا من أجلي، فلو طرحتموني في البحر لَسِرْتُم، ولَذَهب الريح عنكم والرَّوْع. قالوا: لا نطرحك حتى نتساهم، فمن وقعت عليه رَمَيْناه في البحر. قال: فتساهموا، فوقع على يونس؛ فقال لهم: يا قوم، اطرحوني، فمن أجلي أُوتيتم؛ فقالوا: لا نفعل حتى نتساهم مرةً أُخرى. ففعلوا فوقع على يونس. فقال لهم: يا قوم، اطرحوني، فمن أجلي أُوتيتم؛ فذلك قولُ الله عز وجل: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ أي: وقع السهم عليه؛ فانطلقوا به إلى صَدْر السفينة لِيُلقوه في البحر، فإذا الحوت، فاتحٌ فاه، ثم جاءوا به إلى جانب السفينة، فإذا بالحوت، ثم رجَعوا به إلى الجانب الآخر، فإذا بالحوت فاتحٌ فاه؛ فلما رأى ذلك ألقى بنفسه فالتقمه الحوت؛ فأوحى الله تعالى إلى الحوت: إني لم أجعله لك رزقاً، ولكن جعلتُ بطنك له وعاءً. فمكث في بطن الحوت أربعين ليلة فنادى في الظلمات: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ . فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨] وقد تقدم ويأتي.

ففي هذا من الفِقه أن القُرْعة كانت معمولاً بها في شرع مَن قبلنا، وجاءت في شرعنا على ما تقدَّم في «آل عمران»[(١)] .

قال ابن العربي[(٢)]: وقد وردت القُرعة في الشَّرع في ثلاثة مواطن:

الأول: كان النبي ﷺ إذا أراد سفراً أَقرعَ بين نسائه، فأيتهنَّ خرج سَهْمها خرج بها معه[(٣)] .

الثاني: أن النبي ﷺ رُفِعَ إليه أن رجلاً أَعتق ستةَ أَعْبُدٍ لا مالَ له غيرهم، فأَقرعَ بينهم؛ فأَعتق اثنين وأرقَّ أربعة[(٤)] .

الثالث: أن رجلين اختصما إليه في مواريثَ قد دَرَسَتْ فقال: «اذهبا وتوخَّيا الحق واستَهِما ولِيُحلل كل واحدٍ منكما صاحبَه»[(٥)] .

فهذه ثلاثةُ مواطن، وهي القَسْم في النكاح، والعِتق، والقِسمة. وجَريان القُرعة فيها لِرَفْع الإشكال وحَسْم داء التشهِّي .

واختلف علماؤنا في القُرعة بين الزوجات في الغزو على قولين؛ الصحيح منهما الاقتراع؛ وبه قال فقهاءُ الأمصار. وذلك أن السَّفر بجميعهن لا يُمكن، واختيار واحدة منهن إيثارٌ، فلم يبقَ إلا القُرعة. وكذلك في مسألة الأَعْبُد الستة؛ فإن كلَّ اثنين منهما ثلث، وهو القَدْر الذي يجوز له فيه العِتق في مرض الموت، وتعيينهما بالتشهِّي لا يجوز شرعاً؛ فلم يبقَ إلا القُرعة. وكذلك التشاجر إذا وقع في أعيان المواريث لم يُميِّز الحقَّ إلا القُرْعة، فصارت أصلاً في تعيين المستحقّ إذا أَشكل. قال: والحقُّ

---

(١) ٥/ ١٣٢ .

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٦١٠ - ١٦١١ ، والكلام منه إلى آخر المسألة.

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٨٨)، ومسلم (٢٧٧٠)، وسلف ٥/ ١٣٣ .

(٤) أخرجه أحمد (١٩٩٣٢)، ومسلم (١٦٦٨) من حديث عمران بن حصين ﷺ.

(٥) قطعة من حديث أم سلمة رضي الله عنها، أخرجه أحمد (٢٦٧١٧)، وأبو داود (٣٥٨٤)، وأوله: «إنكم تختصمون إليّ، وإنما أنا بشر، ولعل بعضكم ألحنُ بحجته من بعض..» وأخرجه بأخصر منه البخاري (٢٤٥٨)، ومسلم (١٧١٣).

عندي أن تجري في كل مُشكِل، فذلك أبينُ لها، وأقوى لفصل الحُكم فيها، وأجلى لرفع الإشكال عنها؛ ولذلك قلنا: إنَّ القرعة بين الزوجات في الطلاق كالقُرعة بين الإماء في العِتق.

السابعة: الاقتراع على إلقاء الآدمي في البحر لا يجوز. وإنما كان ذلك في يونس وزمانِه مقدِّمةً لتحقيق برهانه، وزيادةً في إيمانه؛ فإنه لا يجوز لمن كان عاصياً أن يُقتل ولا يُرمى به في النار أو البحر، وإنما تجري عليه الحدود والتعزير على مقدار جنايته. وقد ظنَّ بعضُ الناس أن البحر إذا هال على القوم فاضطروا إلى تخفيف السفينة أن القُرعة تُضْرَبُ عليهم، فَيُطرَح بعضُهم تخفيفاً؛ وهذا فاسدٌ؛ فإنها لا تخفُّ برمي بعض الرجال، وإنما ذلك في الأموال، ولكنهم يصبِرون على قضاء الله عز وجل[١].

الثامنة: أخبر اللهُ عز وجل أن يونسَ كان من المُسبِّحين، وأن تسبيحَه كان سببَ نَجاته؛ ولذلك قيل: إن العملَ الصالح يرفعُ صاحبَه إذا عَثَر. قال ابن عباس: «مِنَ المُسَبِّحِينَ» من المُصلِّين. قال قتادة: كان يُصلِّي قبلَ ذلك لحفظ الله عز وجل له فنجَّاه. وقال الربيع بن أنس: لولا أنه كان له قبلَ ذلك عملٌ صالح ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾قال: ومكتوب في الحكمة: إنَّ العملَ الصالح يرفع ربَّه إذا عَثَر[٢].

وقال مقاتل: «مِنَ المُسَبِّحِينَ»: من المصلِّين المُطيعين قبلَ المعصية. وقال وهب: من العابدين. وقال الحسن: ما كان له صلاةٌ في بطن الحوت؛ ولكنه قدَّم عملاً صالحاً في حال الرَّخَاء فذكره اللهُ به في حال البلاء، وإنَّ العملَ الصالحَ ليَرفع صاحبَه، وإذا عَثَر وجد مُتَّكَأً[٣]. قلت: ومن هذا المعنى قولُه ﷺ: «مَنْ استطاعَ منكم أن تكونَ له خَبيئةٌ مِن عَمَل صالحٍ فَليفعَلْ»[٤] فيجتهد العبد، ويَحرِص على خَصْلة من

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦١١ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٤٠، وتنظر الأقوال في تفسير الطبري ١٩/ ٦٢٨ - ٦٣٠ .

(٣) ذكر قولي وهب والحسن البغوي في تفسيره ٤/ ٤٣ .

(٤) أخرجه الدارقطني في العلل ٤/ ٢٤٥ ، وابن الجوزي في العلل المتناهية (١٣٧٦) من حديث الزبير بن العوام ﷺ مرفوعاً، وأخرجه الدارقطني عنه موقوفاً، وقال: وهو الصحيح.

صالح عمله، يُخلص فيها بينه وبين ربِّه، ويدَّخرها ليوم فاقته وفَقْره، ويَخْبَؤُها بجهده، ويستُرها عن خَلْقه، يَصِلُ إليه نفعُها أحوجَ ما كان إليه. وقد خرَّج البخاري ومسلم من حديث ابن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بينما ثلاثةُ نَفر ـ في رواية ممن كان قبلَكم ـ يتماشَوْن أخذَهم المطرُ، فَأَوَوْا إلى غارٍ في جبل فانحطَّت على فم الغار صخرةٌ من الجبل فانطبقَتْ عليهم، فقال بعضُهم لبعض انظُروا أعمالاً عَمِلْتُموها صالحةً لله، فادعوا اللهَ بها لعلَّه يَفرُجها عنكم» الحديث بكماله وهو مشهور[١] شُهْرتُه أغنتْ عن تمامه.

وقال سعيد بن جُبير: لما قال في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قَذَفهُ الحوتُ[٢]. وقيل: ﴿مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ﴾ من المُصلِّين في بطن الحوت.

قلت: والأظهرُ أنه تسبيحُ اللسان الموافق للجنان، وعليه يدلُّ حديثُ أبي هريرة المذكورقبل الذي ذكره الطبري. قال: فسبَّح في بطن الحوت. قال: فسمعت الملائكةُ تسبيحَه؛ فقالوا: يا ربَّنا، إنا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة[٣]. وتكون «كان» على هذا القول زائدةً؛ أي: فلولا أنه من المُسبِّحين. وفي كتاب أبي داود: عن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ قال: «دعاءُ ذي النون في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لم يدعُ به رجلٌ مسلمٌ في شيء قطُّ إلا استُجيب له» وقد مضَى هذا في سورة «الأنبياء»[٤].

فيونس عليه السلام كان قبلُ مصلِّيا مُسبِّحاً، وفي بطن الحوت كذلك.وفي الخبر:

---

(١) أخرجه أحمد (٥٩٧٤) والبخاري (٢٣٣٣)، ومسلم (٢٧٤٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الطبري ١٩/ ٦٣١.

(٣) سلف في المسألة الخامسة.

(٤) ١٤/ ٢٧٥، وقد ذكرنا ثمة أننا لم نقف عليه في سنن أبي داود ولا في تحفة الأشراف، وهو في سنن الترمذي (٣٥٠٥).

فنُودي الحوت: إنا لم نجعَلْ يونسَ لك رِزقاً؛ إنما جعلناك له حِرْزاً ومسجداً. وقد تقدَّم[١].

قوله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ . وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ روي أن الحوت قَذَفه بساحل قرية من المَوْصل. وقال ابن قُسَيْط عن أبي هريرة: طُرح يونس بالعراء وأنبت اللهُ يَقْطِينةً، فقلنا: يا أبا هريرة، وما اليقطينة؟ قال: شجرةالدُّبَّاء؛ هيَّأ اللهُ له أُرْوِيَّةً[٢] وحشيَّة تأكل من خَشَاش الأرض ـ أو هَشَاش الأرض ـ فتَفْشِج[٣] عليه فترويه من لَبنها كلَّ عشية وبُكرة حتى نبت. وقال سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال: خرج به ـ يعني الحوت ـ حتى لَفَظه في ساحل البحر، فطرحه مثلَ الصبيِّ المنفوس لم ينقص من خَلْقه شيء[٤].

وقيل: إن يونس لما ألقاه الحوتُ على ساحل البحر أنبت اللهُ عليه شجرةً من يقطين، ـ وهي فيما ذُكر شجرةُ القرع ـ يتقطر عليه من اللبن حتى رَجَعت إليه قوَّته. ثم رَجَع ذاتَ يوم إلى الشجرة فوجدها يَبِسَتْ، فحزن وبكى عليها فعُوتب؛ فقيل له: أحَزِنت على شجرة وبكيتَ عليها، ولم تحزنْ على مئة ألف وزيادة من بني إسرائيل، من أولاد إبراهيمَ خليلي، أسرى في أيدي العدو، وأردتَ إهلاكهم جميعاً[٥]؟.

وقيل: هي شجرة التين. وقيل: شجرة الموز تغطَّى بورقها، واستظلَّ بأغصانها، وأفطرَ على ثمارها. والأكثرُ على أنها شجرة اليقطين على ما يأتي.

---

(١) في المسألة السادسة.

(٢) الأُرْوِيَّة: أنثى الوعول. القاموس (روي).

(٣) الفَشْج: تفريج ما بين الرجلين.

(٤) أخرجهما الطبري ١٩/ ٦٣٥ و٦٣٢.

(٥) تفسير الطبري ١٩/ ٦٣٥ - ٦٣٦ بنحوه.

ثم إن الله تبارك وتعالى اجتباه فجعله من الصالحين. ثم أمره أن يأتي قومَه ويُخبرهم أن الله تعالى قد تاب عليهم، فعمدَ إليهم حتى لقي راعياً فسأله عن قوم يونس وعن حالهم وكيف هم، فأخبره أنهم بخير، وأنهم على رجاء أن يرجعَ إليهم رسولُهم. فقال له: فأخبِرْهم أني قد لقيتُ يونس. فقال: لا أستطيعُ إلا بشاهد. فسمَّى له عنزاً من غنمه فقال: هذه تشهد لك أنك لقيتَ يونس. قال: وماذا؟ قال: وهذه البقعة التي أنت فيها تشهدُ لك أنك لقيتَ يونس. قال: وماذا؟ قال: وهذه الشجرةُ تشهد لك أنك لقيتَ يونس. وأنه رجَع الراعي إلى قومه فأخبرهم أنه لقي يونسَ فكذَّبوه، وهمُّوا به شرّاً فقال: لا تَعْجَلوا عليَّ حتى أُصبح، فلما أصبح غدا بهم إلى البقعة التي لقي فيها يونس، فاستنطقها فأخبرتهم أنه لقي يونس، واستنطق الشاةَ والشجرةَ فأخبرتاهم إنه لقي يونس، ثم إن يونس أتاهم بعد ذلك. ذكر هذا الخبرَ وما قبله الطبري رحمه الله[١].

«فَنَبَذْنَاهُ» طرحناه. وقيل: تركناه «بالعراءِ» بالصحراء؛ قاله ابن الأعرابي[٢]. الأخفش: بالفضاء. أبو عُبيدة: الواسع من الأرض.

الفراء: العراء المكان الخالي. قال: وقال أبو عُبيدة: العراء وجهُ الأرض[٣]؛ وأنشد لرجل من خُزاعة:

ورفعتُ رِجلاً لا أخافُ عِثارها ونَبَذْتُ بالبلدِ العَراءِ ثِيابِي[٤]

وحكى الأخفش[٥] في قوله: «وَهُوَ سَقِيمٌ» جمع سقيم [سَقْمى و] وسقامَى وسِقام.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ١١/ ٥٤١ - ٥٤٢، وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ٢٨٨. وهو في عرائس المجالس ص ٤١٣ - ٤١٤.

(٢) ياقوتة الصراط ص٤٣٢.

(٣) مجاز القرآن ٢/ ١٧٥، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في معاني القرآن ٦/ ٥٧، وقول الفراء السالف منه وعبارة مجاز القرآن: بالعراء، أي: الأرض الفضاء.

(٤) أورده المبرد في الكامل ٤/ ٣٦٠، والطبري في تفسيره ١٩/ ٦٣١.

(٥) نقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٤٠، وما بين حاصرتين الآتي منه.

وقال في هذه السورة: «فَنَبَذْنَاهُ بِالعَرَاءِ» وقال في «نون والقلم»: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ [الآية:٤٩] والجواب: أن الله عز وجل خبَّر هاهنا أنه نبذه بالعراء وهو غيرُ مذموم، ولولا رحمةُ الله عز وجل لَنُبِذَ بالعراء وهو مذموم؛ قاله النحاس.

وقوله: «وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ» يعني «عَلَيْهِ» أي: عنده؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ﴾ [الشعراء:١٤] أي: عندي. وقيل: «عَلَيْه» بمعنى له.

«شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ» اليقطين: شجر الدُّبَّاء: وقيل غيرها؛ ذكره ابن الأعرابي[١]. وفي الخبر: «الدُّبَّاء والبِطِّيخ من الجنة»[٢] وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة».

وقال المبرّد: يقال لكل شجرة ليس لها ساق يفترشُ ورقها على الأرض: يقطينة، نحو: الدُّبَّاء، والبطيخ، والحنظل، فإن كان لهاساق يُقِلُّها فهي شجرة فقط، وإنْ كانت قائمةً، أي: بعروق تفترش فهي نجمة، وجمعها: نَجْم[٣]؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن:٦] ورُوي نحوه عن ابن عباس والحسن ومقاتل. قالوا: كلُّ نبت يمتدُّ ويبسط على الأرض، ولا يبقى على استواء، وليس له ساق نحو القِثَّاء والبطيخ والقرع والحنظل فهو يقطين. وقال سعيد بن جبير: هو كلُّ شيء ينبتُ، ثم يموت من عامِه[٤]. فيدخل في هذا الموز.

قلت: وهو مماله ساق. الجوهري[٥]: واليقطين مالا ساق له كشجر القرع ونحوه. الزجاج[٦]: اشتقاق اليقطين من: قَطَنَ بالمكان، إذا أقام به، فهو يَفْعيل.

---

(١) ياقوتة الصراط ص ٤٣٢.

(٢) لم نقف عليه.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٤٠.

(٤) قولا ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير أخرجهما الطبري ١٩/ ٦٣٣.

(٥) الصحاح (قطن).

(٦) في معاني القرآن ٤/ ٣١٤.

وقيل: هو اسمٌ أعجميٌّ. وقيل: إنما خص اليقطين بالذكر؛ لأنه لا ينزل عليه ذباب[١]. وقيل: ما كان ثَمَّ يقطين فأنبته اللهُ في الحال.

القشيري: وفي الآية ما يدلُّ على أنه كان مفروشاً ليكون له ظلّ.

الثعلبي: كانت تُظِلُّه فرأى خُضرتها فأعجبته، فيبستْ فجعل يتحزن عليها؛ فقيل له: يا يونس، أنت الذي لم تَخلُق، ولم تَسقِ، ولم تُنبتْ تحزن على شُجيرة، فأنا الذي خلقتُ مئة ألف من الناس أو يزيدون تُريد مني أن أستأصِلَهم في ساعة واحدة، وقد تابوا وتبتُ عليهم؟! فأين رحمتي يا يونس، أنا أرحمُ الراحمين[٢].

ورُوي عن النبيّ ﷺ أنه كان يأكل الثَّريد باللحم والقرع. وكان يَحبُّ القرع ويقول: «إنها شجرةُ أخي يونس»[٣].

وقال أنس: قُدِّم للنبيّ ﷺ مَرَقٌ فيه دُبّاء وقَدِيد، فجعل يتَّبع الدُّبَّاء من حوالَى القَصْعة. قال أنس: فلم أَزَلْ أُحبُّ الدُّبّاء من يومئذ. أخرجه الأئمة[٤].

قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ قد تقدَّم عن ابن عباس أن رسالةَ يونس عليه السلام إنما كانت بعد ما نبذَه الحوت[٥]، وليس له طريقٌ إلا عن شَهْر بن حَوْشَب.

النحاس[٦]: وأجودُ منه إسناداً وأصحُّ ما حدَّثناه عليّ[٧] بن الحسين قال: حدّثنا الحسن بن محمد قال: حدّثنا عمرو بن العَنْقَزيّ قال: حدّثنا إسرائيل، عن أبي

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٨٧.

(٢) عرائس المجالس ص ٤١٣ - ٤١٤ بنحوه.

(٣) لم نقف عليه.

(٤) أخرجه البخاري (٥٤٣٩)، ومسلم (٢٠٤١).

(٥) ١٨/ ٩٢ - ٩٣.

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٤٤٠، وما قبله منه.

(٧) في (م): عن علي.

إسحاق، عن عمرو بن ميمون قال: حدّثنا عبدُ الله بن مسعود في بيت المال عن يونس النبيّ ﷺ قال: إنَّ يونسَ وعدَ قومَه العذابَ وأخبرهم أنه[1] يأتيهم إلى ثلاثة أيام، ففرَّقوا بين كلِّ والدةٍ وولدِها، وخرجوا فجأروا إلى الله عز وجل واستغفروا، فكفَّ اللهُ عز وجل عنهم العذابَ، وغدا يونسُ عليه السلام ينتظر العذابَ فلم يَرَ شيئاً ـ وكان مَن كَذَب ولم تكن له بَيِّنةٌ قُتِلَ ـ فخرج يونسُ مُغاضِباً، فأتى قوماً في سفينة فحملوه وعَرَفوه، فلما دخل السفينة ركدت السفينةُ، والسُّفن تَسير يميناً وشِمالاً، فقالوا: ما لِسفينتكم؟ فقالوا: لا نَدري. فقال يونسُ عليه السلام: إنَّ فيها عبداً آبقاً من ربِّه جلَّ وعزَّ، وإنها لن تسيرَ حتى تُلقوه. قالوا: أمَّا أنت يا نبيَّ الله فإنَّا لا نُلقيك.

قال: فاقتَرِعوا، فمن قُرِع فَلْيقَعْ، فاقتَرعوا فقرعهم يونسُ فأبَوْا أن يدعوه، قال: فاقترِعوا ثلاثاً فمن قُرِع فَلْيقع، فاقترَعوا فقرعهم يونسُ ثلاثَ مرات ـ أو قال: ثلاثاً ـ فوقع. وقد وكَّل الله به جلَّ وعزَّ حوتاً فابتلعه وهو يهوي به إلى قَرار الأرض، فسمع يونسُ عليه السلام تسبيح الحصى ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧] قال: ظُلمة الليل، وظُلمة البحر، وظُلمة بطن الحوت.

قال: ﴿فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ﴾ قال: كهيئة الفَرْخ الممعوط الذي ليس عليه ريش. قال: وأنبت اللهُ عليه شجرةً من يقطين فنبتت، فكان يستظلّ بها ويُصيب منها، فيبست فبكى عليها؛ فأوحى الله جل وعز إليه: أتبكي على شجرة يَبستْ، ولا تبكي على مئة ألف أو يَزيدون أردتَ أن نُهلِكَهم[2]؟! قال: وخَرج رسولُ الله يونس فإذا هو بغلام يرعى؛ قال: يا غلام، من أنت؟ قال: من قوم يونس. قال: فإذا جئتَ إليهم فأخبرهم أنك قد لقيتَ يونس. قال: إن كنتَ يونس فقد علمتَ أنه من كذب قُتِل إذا لم تكن له بينة، فمن يشهدُ لي؟ قال: هذه الشجرة وهذه البقعة. قال: فَمُرْهما؛ فقال لهما

(١) في النسخ: أن، والمثبت من إعراب القرآن.

(٢) في (د) و(م): تهلكهم.

يونس: إذا جاءَكُما هذا الغلامُ فاشهدا له. قالتا: نعم.

قال: فرجَع الغلام إلى قومه وكان في مَنَعة، وكان له إخوة، فأتى المَلِكَ فقال: إني قد لقيتُ يونسَ وهو يقرأ عليك السلام. قال: فأمرَ به أن يُقتل؛ فقالوا: إن له بيّنةً، فأرسلوا معه. فأتى الشجرة والبقعةَ فقال لهما: نشدتُكما بالله جل وعز، أتشهدانِ أني لقيتُ يونس؟ قالتا: نعم، قال: فرجعَ القومُ مذعورين يقولون له: شهدَتْ له الشجرة والأرض، فأتَوا الملكَ فأخبروه بما رأَوْا. قال عبد الله: فتناول الملكُ يدَ الغلام فأجلسه في مجلسه، وقال: أنت أحقُّ بهذا المكان مني.

قال عبد الله: فأقام لهم ذلك الغلام أمرَهم أربعين سنة.

قال أبو جعفر النحاس: فقد تبين في هذا الحديث أن يونسَ كان قد أُرسل قبل أن يلتقمه الحوتُ بهذا الإسناد الذي لا يُؤخَذ بالقياس.

وفيه أيضاً من الفائدة أن قوم يونس آمنوا ونَدِموا قبل أن يَرَوُا العذابَ؛ لأن فيه أنه أخبرهم أنه يأتيهم العذابُ إلى ثلاثة أيام، ففرَّقوا بين كل والدة وولدها، وضجُّوا ضجةً واحدة إلى الله عز وجل. وهذا هو الصحيح في الباب، وأنه لم يكن حكم الله عز وجل فيهم كحكمه في غيرهم في قوله عز وجل: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر:٨٥] وقوله عز وجل: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ الآية [النساء:١٨].

وقال بعض العلماء: إنهم رأَوْا مخائلَ العذاب فتابوا. وهذا لا يمنع[١]، وقد تقدَّم ما للعلماء في هذا في سورة «يونس» فَلْيُنظر هناك[٢]. قوله تعالى: «أَوْ يَزِيدُونَ» قد مضَى في «البقرة»[٣] محاملُ «أو» في قوله تعالى: ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾. وقال الفراء[٤]:

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٤٢.

(٢) ١١/ ٥٤ - ٥٥.

(٣) ٢/ ٢٠٥.

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٣٩٣، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٤٣.

«أو» بمعنى بل. وقال غيره: إنها بمعنى الواو، ومنه قول الشاعر:

فلما اشتدَّ أمرُ الحربِ فينا تأمَّلنا رِياحاً أو رِزاما[١]

أي: ورِزاماً. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾ [النحل: ٧٧].

وقرأ جعفر بن محمد: «إلى مئة ألف ويزِيدون» بغير همز[٢]؛ فـ «يزِيدون» في موضع رفع بأنه خبر مبتدأ محذوف، أي: وهم يَزيدون.

النحاس[٣]: ولا يصحُّ هذان القولان عند البصريين، وأنكروا كونَ «أو» بمعنى بل وبمعنى الواو؛ لأن بل للإضراب عن الأوّل والإيجاب لما بعده، وتعالى الله عز وجل عن ذلك، أو خروج من شيء إلى شيء، وليس هذا موضعَ ذلك؛ والواو معناه خلافُ معنى «أو» فلو كان أحدُهما بمعنى الآخر لَبطلت المعاني؛ ولو جاز ذلك لكان: وأرسلناه إلى أكثرَ من مئة[٤] ألف أخصرَ.

وقال المبرد: المعنى: وأرسلناه إلى جماعة لو رأيتموهم لَقُلتم: هم مئةُ ألف أو أكثر، وإنما خُوطب العباد على ما يعرفون.

وقيل: هو كما تقول: جاءني زيد أو عمرو، وأنت تعرِف مَن جاءك منهما إلا أنك أبهمتَ على المُخاطَب.

وقال الأخفش والزجاج: أي: أو يزيدون في تقديركم[٥]. قال ابن عباس: زادوا على مئة ألف عشرين ألفاً. ورواه أُبيّ بن كعب مرفوعاً[٦]. وعن ابن عباس أيضاً:

---

(١) لم نقف عليه، وسلف ١٧/ ٣١٣.

(٢) المحتسب ٢/ ٢٢٦.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٤٤٣.

(٤) في النسخ: مئتي ألف، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس.

(٥) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٦٩، ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ٣١٤.

(٦) أخرجه الترمذي (٣٢٢٩)، والطبري ١٩/ ٦٣٧. قال الترمذي: هذا حديث غريب.

ثلاثين ألفاً[(١)]. الحسن والربيع: بضعاً وثلاثين ألفاً. وقال مقاتل بن حيان: سبعين ألفاً[(٢)]. ﴿فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾ أي: إلى مُنتهى آجالهم.

قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ١٤٩ أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثٗا وَهُمۡ شَٰهِدُونَ ١٥٠ أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٥٢ أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ١٥٣ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ١٥٤ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٥٥ أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ ١٥٦ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٥٧﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ﴾ لما ذكر أخبارَ الماضين تسليةً للنبي ﷺ احتجَّ على كفار قريش في قولهم: إنَّ الملائكةَ بناتُ الله؛ فقال: «فَاسْتَفْتِهِمْ». وهو معطوفٌ على مثله في أول السورة وإنْ تباعدَتْ بينهم المسافة؛ أي: فَسَلْ يا محمد أهلَ مكة: «أَلِرَبِّكَ البناتُ». وذلك أن جُهَينةَ وخُزاعةَ وبني مُلَيْح وبني سلمة وعبد الدار زعَموا أن الملائكةَ بناتُ الله. وهذا سؤالُ توبيخ.

﴿أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثٗا وَهُمۡ شَٰهِدُونَ﴾ أي: حاضرون لِخَلْقنا إيَّاهم إناثاً؛ وهذا كما قال الله عز وجل: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ﴾ [الزخرف: ١٩][(٣)]. ثم قال: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ﴾ وهو أسوأُ الكذب ﴿لَيَقُولُونَ . وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ في قولهم: إنَّ لله ولداً وهو الذي لَا يلِدُ ولا يُولد.

و«إنّ» بعد «أَلَا» مكسورة؛ لأنها مبتدأة. وحكى سيبويه أنها تكون بعد أَمَا مفتوحةً أو مكسورة؛ فالفتح على أن تكون أَمَا بمعنى حقّاً، والكسر على أن تكون أَمَا بمعنى أَلَا.

النحاس[(٤)]: وسمعتُ علي بن سليمان يقول: يجوز فتحُها بعد أَلَا تشبيهاً بأَمَا،

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٦٣٧.

(٢) أخرجه الطبري ١٩/ ٦٣٧ من قول سعيد بن جبير.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٤٤ بنحوه.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٤٤٣ - ٤٤٤، وما قبله منه.

وأمّا في الآية فلا يجوز إلا كسرُها؛ لأن بعدَها اللام[١].

وتمامُ الكلام «لَكَاذِبُونَ». ثم يبتدئ ﴿أَصْطَفَى﴾ على معنى التقريع والتوبيخ كأنه قال: وَيْحَكم «أَصْطَفَى البناتِ» أي: أَختار البناتِ وتركَ البنين؟.

وقراءةُ العامة: «أَصْطَفَى» بقطع الألف؛ لأنها ألفُ استفهام دخلت على ألفِ الوصل، فَحُذفت ألفُ الوصل وبقيتْ ألفُ الاستفهام مفتوحةً مقطوعةً على حالها، مثل: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾[٢] [مريم:٧٨] على ما تقدَّم.

وقرأ أبو جعفر وشيبةُ ونافع وحمزة: «اصْطَفَى» بوصل الألف على الخبر بغير استفهام[٣]. وإذا ابتدأ كَسَرَ الهمزة. وزعم أبو حاتم أنه لا وجهَ لها؛ لأن بعدها ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ فالكلام جارٍ على التوبيخ. [قال أبو جعفر[٤]: هذه القراءة وإن كانت شاذة فهي تجوز من جهتين: إحداهما: أن يكون تبييناً وتفسيراً لما قالوه من الكذب ويكون ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ منقطعاً مما قبلَه. والجِهةُ الثانية: أنه قد حكى النحويون - منهم الفراء - أن التوبيخَ يكون باستفهام وبغير استفهام كما قال جل وعز: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأحقاف: ٢٠].

وقيل: هو على إضمار القول، أي: ويقولون: «اصطفى البنات» أو يكون بدلاً من قوله: «وَلَدَ اللهُ»[٥] لأنَّ ولادةَ البناتِ واتخاذَهنَّ اصطفاءٌ لهنَّ، فأبدل مثالَ الماضي من مثال الماضي، فلا يوقف على هذا على «لَكاذِبُونَ».

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ في أنه لا يجوز أن يكونَ له ولد. ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ﴾ حُجَّة

(١) في النسخ: الرفع، والمثبت من إعراب القرآن.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٤٤ بنحوه.

(٣) قراءة أبي جعفر في النشر ٢/ ٣٦٠، وقراءة نافع وحمزة - وهي غير المشهورة عنهما - ذكرها النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٤، والكلام منه بنحوه.

(٤) هو النحاس وما بين حاصرتين منه من إعراب القرآن له.

(٥) الكشاف ٣/ ٣٥٤ بنحوه.

وبُرهان. ﴿فَأْتُوا بِكِتَٰبِكُمْ﴾ أي: بحججكم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في قولكم.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ أكثرُ أهل التفسير أنَّ الجِنَّة هاهنا الملائكة. روى ابن أبي نَجيح عن مجاهد قال: قالوا ـ يعني كفار قريش ـ: الملائكة بناتُ الله جل وتعالى. فقال: أبو بكر الصديق ﷺ: فمن أُمَّهاتُهنَّ. قالوا: مُخدَّرات الجنّ[(١)].

وقال أهل الاشتقاق: قيل لهم: جِنَّة، لأنهم لا يُرَوْن[(٢)]. وقال مجاهد: إنهم بطنٌ من بطون الملائكة يقال لهم: الجِنَّة[(٣)].

ورُوي عن ابن عباس. وروى إسرائيل عن السدي عن أبي مالك قال: إنما قيل لهم: جِنة؛ لأنهم خُزَّانٌ على الجِنان والملائكةُ كلُّهم جِنَّة[(٤)].

«نَسَباً» مصاهرة. قال قتادة والكلبي ومقاتل: قالت اليهودُ لَعَنهم الله: إنَّ الله صاهر الجِنّ، فكانت الملائكةُ من بينهم. وقال مجاهد والسُّدي ومقاتل أيضاً: القائلُ ذلك كِنانة وخُزاعة؛ قالوا: إنَّ الله خطبَ إلى ساداتِ الجنّ فزوَّجوه من سَرَوات بناتهم، فالملائكةُ بناتُ الله من سَرَوات بنات الجنّ. وقال الحسن: أشركوا الشيطانَ في عبادة الله، فهو النَّسب الذي جعلوه[(٥)].

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٦٥، وأخرجه الطبري ١٩/ ٦٤٥ مخدرات، جمع مخدرة، قال ابن الأثير في النهاية (خدر): الخِدْر: ناحية في البيت.. تكون فيه الجارية البكر، خُدِّرت، فهي مُخدَّرة. اهـ، وفي تفسير الطبري: سروات الجن. يعني أشرافهم. اللسان (سرو).

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٤٤.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٧١.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٤٤.

(٥) ذكر هذه الأقوال بنحوها الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٧٠ - ٧١.

قلت: قولُ الحسن في هذا أحسنُ؛ دليلُه قوله تعالى: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:٩٨] أي: في العبادة. وقال ابن عباس والضحاك والحسن أيضاً: هو قولُهم إنَّ الله تعالى وإبليسَ أَخوان؛ تعالى الله عن قولهم علوّاً كبيراً[١].

قوله تعال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ﴾ أي: الملائكة ﴿إِنَّهُمْ﴾ يعني قائل هذا القول ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ في النار؛ قاله قتادة. وقال مجاهد: للحساب[٢].

الثعلبي: الأولُ أولى؛ لأن الإحضار تكرَّر في هذه السورة، ولم يُرِدِ الله به غيرَ العذاب. ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: تنزيهاً لله عما يَصِفون. ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ فإنهم ناجون من النار.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ «ما» بمعنى الذي. وقيل: بمعنى المصدر، أي: فإنكم وعبادتَكم لهذه الأصنام. وقيل: أي: فإنكم مع ما تعبُدون من دون الله؛ يقال: جاء فلانٌ وفلان. وجاء فلانٌ مع فلان. ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على الله ﴿بِفَٰتِنِينَ﴾ بمضلِّين[٣].

النحاس[٤]. أهلُ التفسير مُجمعون فيماعلمت على أن المعنى: ما أنتم بمضلِّين أحداً إلا من قدَّر اللهُ عز وجل عليه أن يَضِلَّ.

وقال الشاعر:

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٦٤٤ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٧١ ، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٩/ ٦٤٦ .

(٣) الكلام بنحوه في الكشاف ٣/ ٣٥٥ ، وينظر الدر المصون ٩/ ٣٣٥ .

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٤٤٥ .

فــردَّ بــنــعــمــتــه كــيــدَهُ عــلــيــهِ وكــان لــنــا فــاتِــنــا

أي: مُضِلاً[١].

الثانية: في هذه الآية ردٌّ على القَدَرية. قال عمر[٢] بن ذرّ: قَدِمنا على عمر بن عبد العزيز فذُكِر عنده القَدَر، فقال عمر: لو أراد اللهُ ألَّا يُعْصَى ما خلقَ إبليسَ وهو رأسُ الخطيئة، وإن في ذلك لَعلماً في كتاب الله جل وعز، عَرَفه من عَرَفه، وجَهِلَه مَن جَهِلَه؛ ثم قرأ: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ . مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ﴾ إلا مَن كَتب الله عز وجل عليه أن يَصلَى الجحيم. وقال: فَصَلَتْ هذه الآيةُ بين الناس[٣].

وفيها من المعاني أن الشياطين لا يَصِلون إلى إضلال أحدٍ إلا مَن كَتَبَ الله عليه أنه لا يهتدي، ولو علم اللهُ جل وعز أنه يهتدي لَحَالَ بينه وبينهم؛ وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤] أي: لستَ تَصِلُ منهم إلى شيء إلَّا إلى ما في علمي[٤]. وقال لَبِيد بن ربيعة في تثبيت القدَرِ فأَحسنَ:

إنّ تَــقْــوى ربِّــنــا خــيــرُ نَــفَــلْ وبِــإذنِ الــلــه رَيْــثــي وعَــجَــلْ
أَحــمَــدُ الــلــهَ فــلا نِــدَّ لــهُ بِــيــديــهِ الــخــيــرُ مــا شــاء فَــعَــلْ
مَــنْ هَــدَاهُ سُــبُــلَ الــخــيــر اهــتــدى نــاعِــم الــبَــالِ ومَــنْ شــاء أَضَــلْ[٥]

قال الفراء[٦]: أهلُ الحجاز يقولون: فتنتُ الرجل، وأهل نجد يقولون: أَفتنته.

الثالثة: رُوي عن الحسن أنه قرأ: «إلَّا مَن هو صَالُ الجحيمِ» بضم اللام.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٧٢.

(٢) في (د) و(ز) و(ظ) و(م): عمرو، والمثبت من (ف). وهو عمر بن ذر بن عبد الله بن زرارة الهَمْداني، المرهبي، أبو ذر الكوفي، رُمي بالإرجاء. تهذيب التهذيب ٣/ ٢٢٣.

(٣) أخرجه بنحوه الآجري في الشريعة ص ٢٣٠، واللا لكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١٢٤٥)، والبيهقي في الاعتقاد ص ١٠٤.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٤٥.

(٥) ديوان لبيد ص١٧٤، والبيت الأول سلف ٩/ ٤٤٣.

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٣٩٤، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٤٥.

النحاس[1]: وجماعةُ أهل التفسير يقولون: إنه لحن؛ لأنه لا يجوزُ: هذا قاضُ المدينةِ. ومن أحسن ما قيل فيه ما سمعتُ عليَّ بن سليمان يقوله؛ قال: هو محمولٌ على المعنى؛ لأن معنى «مَنْ» جماعة؛ فالتقدير: صالون؛ فحذفت النون للإضافة، وحُذفت الواو لالتقاء الساكنين. وقيل: أصلُه فاعل إلا أنه قُلب من صالٍ إلى صايل، وحذفت الياء وبقيت اللام مضمومةً، فهو مثل: «شَفَا جُرُفٍ هَارٍ».

ووجهٌ ثالث: أن تحذف لام «صال» تخفيفاً، وتجري الإعراب على عينه، كما حُذف من قولهم: ما باليت به بالة. وأصلُها: بالية، من بالَى، كعافية من عافَى؛ ونظيرُه قراءةُ من قرأ: «وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٌ[2]» [الرحمن: ٥٤]، «وَلَهُ الْجَوَارُ الْمُنْشَآتُ»[3] [الرحمن: ٢٤] أجرى الإعرابَ على العين[4]. والأصلُ في قراءة الجماعة: صالي، بالياء، فحذفها الكاتبُ من الخطّ لِسُقوطها في اللفظ.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾

هذا مِن قول الملائكة تعظيماً لله عز وجل، وإنكاراً منهم عبادةَ مَنْ عَبَدَهم. ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ . وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ قال مقاتل: هذه الثلاثُ الآيات نزلتْ ورسول الله ﷺ عند سِدرة المُنتهى، فتأخَّر جبريلُ، فقال النبي ﷺ: «أَهُنا تُفارقني» فقال: ما أستطيع أن أتقدَّمَ عن مكاني[5]. وأنزل الله تعالى حكايةً عن قول الملائكة: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ الآيات.

والتقدير عند الكوفيين: وما منا إلا مَن له مقامٌ معلوم، فحذف الموصول.

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٤٤٥ - ٤٤٦، وما قبله منه، وقراءة الحسن في القراءات الشاذة ص١٢٨، والمحتسب ٢/ ٢٢٨.

(٢) لم نقف على من قرأ بها.

(٣) قرأ بها ابن مسعود والحسن كما في القراءات الشاذة ص١٤٩.

(٤) الكشاف ٣/ ٣٥٦، وينظر البيان لأبي البركات الأنباري ٢/ ٣١٠.

(٥) لم نقف عليه.

والتقدير عند الكوفيين: وما منا إلا مَن له مقامٌ معلوم، فحذف الموصول. وتقديره عند البصريين: وما منا مَلَكٌ إلا له مقامٌ معلوم[١]؛ أي: مكان معلومٌ في العبادة؛ قاله ابن مسعود وابن جُبير[٢]. وقال ابن عباس: ما في السماوات موضعُ شبرٍ إلا وعليه مَلَكٌ يُصلِّي ويُسبح[٣]. وقالت عائشة رضي الله عنها: قال النبي ﷺ: «ما في السماء موضعُ قَدَم إلا عليه مَلَكٌ ساجدٌ أو قائم[٤]».

وعن أبي ذرٍّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إني أرى ما لا تَرون، وأسمعُ ما لا تسمعون أَطَّتِ السماءُ وحُقَّ لها أن تَئِطّ، ما فيها موضعُ أربعِ أصابعَ إلا وَملَكٌ واضعٌ جبهتَه ساجداً لله، والله، لو تعلمون ما أعلمُ لَضَحِكْتُم قليلاً ولَبَكَيتُم كثيراً، وما تلذَّذتُم بالنساء على الفُرش، ولخَرجتم إلى الصُّعُدات تَجْأَرون إلى الله» لَوَدِدْتُ أني كنتُ شجرةً تُعضَد. خرجه أبو عيسى الترمذي[٥]، وقال فيه: حديث حسن غريب. ويروى من غير هذا الوجه أن أبا ذرّ قال: لَوَدِدْتُ أني كنت شجرةً تُعْضَد[٦]. ويروى عن أبي ذرّ موقوفاً[٧].

وقال قتادة: كان يُصلِّي الرجال والنساء جميعاً حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾. قال: فتقدَّم الرجال وتأخَّر النساء[٨].

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ قال الكلبي: صفوفُهم كصفوفِ أهل الدنيا في الأرض[٩].

وفي «صحيح مسلم»: عن جابر بن سَمُرةَ قال: خرجَ علينا رسولُ الله ﷺ ونحن

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٤٦.
(٢) النكت والعيون ٥/ ٧٢.
(٣) تفسير البغوي ٤/ ٤٥.
(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٦٥١.
(٥) في سننه (٢٣١٢)، وسلف ٥/ ٤٢٨.
(٦) أخرجه أحمد (٢١٥١٦).
(٧) أخرجه الحاكم ٤/ ٥٧٩ مختصراً على قوله: لو تعلمون ما أعلم... إلى آخره.
(٨) النكت والعيون ٥/ ٧٢.
(٩) تفسير البغوي ٤/ ٤٥.

كيف تَصُفُّ الملائكةُ عند ربِّها؟ قال: «يُتِمُّون الصفوفَ الأُول، ويتراصُّون في الصفّ»[١].

وكان عمر يقول إذا قام للصلاة: أَقيموا صُفوفَكم واستووا، إنما يريدُ الله بكم هَدْيَ الملائكة عند ربِّها ويقرأ: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ تأخَّر يا فلان، تقدَّم يا فلان؛ ثم يتقدَّم فَيُكَبِّر[٢]. وقد مضى في سورة «الحجر» بيانُه[٣].

وقال أبو مالك: كان الناسُ يُصلُّون مُتبدِّدين، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ فأمرهم النبيُّ ﷺ أن يَصْطفُّوا[٤].

وقال الشعبي: جاء جبريلُ أو ملَكٌ إلى النبي ﷺ فقال: تقوم أَدنى من ثُلثي الليل ونِصْفَه وثُلُثَه؛ إنَّ الملائكة لَتُصلي وتُسبِّح، ما في السماء ملَك فارغ[٥].

وقيل: أي: لَنحن الصافُّون أجنحتنا في الهواء وقوفاً ننتظرُ ما نُؤمَر به. وقيل: أي: نحن الصافُّن حولَ العرش.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ أي: المُصلُّون؛ قاله قتادة. وقيل: أي: المُنزِّهون اللهَ عمَّا أضافه إليه المشركون[٦]. والمراد أنهم يُخبرون أنهم يعبدون اللهَ بالتسبيح والصلاة، وليسوا معبودين ولا بناتِ الله.

وقيل: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ من قول الرسول ﷺ والمؤمنين للمشركين؛ أي: لكل واحدٍ منا ومنكم في الآخرة مقامٌ معلوم، وهو مقامُ الحساب. وقيل: أي: مِنَّا من له مقامُ الخوف، ومِنَّا من له مقامُ الرَّجاء، ومِنا من له مقامُ الإخلاص، ومِنَّا مَن له مقامُ الشُّكر، إلى غيرها من المقامات.

---

(١) صحيح مسلم (٤٣٠)، وهو في مسند أحمد (٢٠٩٦٤).

(٢) أخرجه الطبري ١٩/ ٦٥٣ .

(٣) ١٢/ ٢٠١ - ٢٠٢ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٧٢ .

(٥) ذكره أبو الليث في تفسيره ٣/ ١٢٦ دون نسبة.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٧٢ .

قلت: والأظهرُ أن ذلك راجعٌ إلى قول الملائكة: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾

عاد إلى الإخبار عن قول المشركين، أي: كانوا قبلَ بعثة محمد ﷺ إذا عُيِّروا بالجهل قالوا: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: لو بُعِثَ إلينا نبيٌّ ببيان الشرائع لاتَّبعناه.

ولمّا خففت «إنْ» دخلتْ على الفعل ولَزِمتها اللامُ فَرْقاً بين النَّفي والإيجاب. والكوفيون يقولون: «إنْ» بمعنى ما، واللام بمعنى إلا[1]. وقيل: معنى ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا﴾ أي: كتاباً من كتب الأنبياء ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ أي: لو جاءنا ذكرٌ كما جاء الأوّلين لأخلصنا العبادةَ لله. ﴿فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: بالذِّكر. والفراء[2] يُقدِّره على حذف؛ أي: فجاءهم محمد ﷺ بالذِّكر فكفروا به. وهذا تعجيبٌ منهم، أي: فقد جاءهم نبيٌّ وأُنزلَ عليهم كتابٌ فيه بيانُ ما يحتاجون إليه فكفروا وما وفَوْا بما قالوا.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ قال الزجاج[3]: يعلمون مَغَبَّة كُفْرهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ قال الفراء[4]: أي: بالسعادة.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٤٦ - ٤٤٧ .

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٣٩٥ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٤٧ .

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣١٦ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٤٧ .

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٣٩٥ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٤٧ .

وقيل: أراد بالكلمة قوله عز وجل: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾[١] [المجادلة: ٢١] قال الحسن: لم يُقتَل من [الرُّسُل] أصحابِ الشرائع قط أحدٌ[٢].

﴿إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ﴾ أي: سبق الوعدُ بنصرهم بالحُجَّة والغَلَبة. ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ على المعنى، ولو كان على اللَّفظ لكان: هو الغالبَ مثل ﴿جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾. وقال الشَّيباني[٣]: جاء هاهنا على الجمع من أجل أنه رأسُ آية.

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾ أي: أعرِضْ عنهم. ﴿حَتَّىٰ حِينٖ﴾ قال قتادة: إلى الموت. وقال الزجاج[٤]: إلى الوقت الذي أُمهلوا إليه. وقال ابن عباس: يعني القتل ببدر. وقيل: يعني فتح مكة. وقيل: الآيةُ منسوخةٌ بآية السيف[٥].

﴿وَأَبۡصِرۡهُمۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ﴾ قال قتادة: سوف يُبصرونه حين لا يَنفعهم الإبصارُ[٦]. وعسى من الله للوجوب[٧]، وعبّر بالإبصار عن تقريب الأمر؛ أي: عن قريبٍ يُبصرون. وقيل: المعنى: فسوف يُبصرون العذابَ يومَ القيامة.

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ كانوا يقولون من فَرْط تكذيبهم: متى هذا العذابُ؛ أي: لا تستعجلوه، فإنه واقعٌ بكم.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمۡ﴾ أي: العذاب. قال الزجاج[٨]: وكان عذابُ هؤلاء بالقتل. ومعنى «بِسَاحَتِهِمْ» أي: بدارهم؛ عن السُّدّي[٩] وغيره. والساحة

(١) زاد المسير ٧/ ٩٣ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٧٣، وما بين حاصرتين منه.

(٣) في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٤٧ (والكلام منه): الكسائي.

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٣١٦ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٤٨ ، وقول قتادة الذي قبله منه، وأخرجه الطبري ١٩/ ٦٥٨ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٧٣ بنحوه.

(٦) أخرجه الطبري ١٩/ ٦٥٩ .

(٧) كذا في النسخ، وليس في الآيات لفظ «عسى».

(٨) في معاني القرآن ٤/ ٣١٧ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٤٨ .

(٩) أخرجه الطبري ١٩/ ٦٦٠ .

والسَّحْسَة في اللغة: فِناءُ الدار الواسع[١]. الفرّاء[٢]: «نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ» ونزل بهم سواء.

﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي: بئس صباحُ الذين أُنذروا بالعذاب. وفيه إضمارٌ، أي: فساءَ الصباحُ صباحُهم[٣]. وخُصَّ الصباح بالذِّكر؛ لأن العذابَ كان يأتيهم فيه. ومنه الحديث الذي رواه أنس ﷺ قال: لما أتى رسولُ الله ﷺ خَيْبَر، وكانوا خارجين إلى مزارعهم ومعهم المَسَاحي، فقالوا: محمدٌ والخميسُ، ورجَعوا إلى حِصْنهم؛ فقال ﷺ: «اللهُ أكبرُ، خَرِبت خيبرُ، إنا إذا نَزَلْنا بساحةِ قومٍ فساءَ صباحُ المُنذَرين»[٤]. وهو يُبيِّن معنى ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ يُريد النبيَّ ﷺ.

﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ كرَّر تأكيداً، وكذا ﴿وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ تأكيدٌ أيضاً

قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾

فيه أربعُ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ﴾ نزَّه سبحانه نفسَه عما أضافَ إليه المشركون. ﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ على البَدَل. ويجوزُ النصب على المَدْح، والرفعُ بمعنى: هو ربُّ العِزَّة[٥].

﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: من الصاحبة والولد. وسُئل رسولُ الله ﷺ عن معنى «سبحانَ اللّهِ» فقال: «هو تنزيهُ الله عن كلِّ سوء» وقد مضَى في «البقرة» مستوفى[٦].

---

(١) العين ٣/ ١٦.

(٢) معاني القرآن ٢/ ٣٩٦.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٧٠.

(٤) أخرجه أحمد (١١٩٩٢)، والبخاري (٣٧١)، ومسلم (١٣٦٥) (٨٤) و(٨٧) مطولاً. والخميس: الجيش، سُمّي به لأنه مقسوم بخمسة أقسام: المقدمة، والساقة، والميمنة، والميسرة، والقلب، وقيل: لأنه تُخَمَّس فيه الغنائم. النهاية (خمس).

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٤٨.

(٦) ١/ ٤١٢، وهو حديث ضعيف.

الثانية: سُئل محمد بن سُحْنون عن معنى «رَبِّ العزَّة» لِمَ جاز ذلك، والعِزَّةُ من صِفات الذَّات، ولا يقال: ربُّ القُدرة ونحوها من صفات ذاته جلّ وعزّ؟ فقال: العِزّة تكون صفةَ ذاتٍ وصفةَ فِعْل، فَصِفةُ الذات نحو قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ [فاطر: ١٠] وصفةُ الفعل نحو قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ والمعنى: ربّ العِزّة التي يتعازُّ بها الخَلْق فيما بينهم، فهي من خَلْق الله عز وجل. قال: وقد جاء في التفسير: إنَّ العِزَّة هاهنا يُراد بها الملائكة.

قال: وقال بعض علمائنا[1]: مَن حلف بعزَّة الله، فإنْ أراد عزَّتَه التي هي صِفتُه فَحَنِثَ فعليه الكَفَّارة، وإنْ أراد التي جعلها اللهُ بين عبادِه فلا كفَّارةَ عليه.

الماوردي[2]: «رَبِّ العِزَّةِ» يَحتمِلُ وجهين: أحدهما: مالك العِزَّة، والثاني: ربّ كلِّ شيء مُتعزِّز من مَلِك أو مُتجبِّر.

قلت: وعلى الوجهين فلا كفَّارةَ إذا نواها الحالفُ.

الثالثة: رُوي من حديث أبي سعيد الخُدريّ أن رسولَ الله ﷺ كان يقول قبلَ أن يُسلِّم: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ إلى آخر السورة[3]؛ ذكره الثعلبي.

قلت: قرأتُ على الشيخ الإمامِ المُحدِّث الحافظ أبي عليّ الحسن بن محمد بن محمد بن محمد بن عمروك البكريّ بالجزيرة قُبالةَ المنصورة من الديار المصرية، قال: أخبرتنا الحُرَّة أمُّ المُؤَيَّد زينبُ بنت عبد الرحمن بن الحسن الشَّعْري بنيسابور في المرة الأُولى، أخبرنا أبو محمد إسماعيل بن أبي بكر القارئ، قال: حدثنا أبو الحسن عبد القادر بن محمد الفارسيّ، قال: حدّثنا أبو سهل بِشرُ بن أحمد الإسفراييني، قال: حدَّثنا أبو سليمان داودُ بن الحسين البيهقي، قال: حدَّثنا أبو زكريا يحيى بن يحيى بن عبد الرحمن التميمي النيسابوري، قال: حدّثنا هُشَيم،

(١) هو محمد بن سحنون كما في المحرر الوجيز ٤/ ٤٩٠.

(٢) في النكت والعيون ٥/ ٧٤.

(٣) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (١١٩)، والخطيب البغدادي في موضح أوهام الجمع والتفريق (٤٧٨).

عن أبي هارون العبدي، عن أبي سعيد الخُدريّ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ غيرَ مرة ولا مرتين يقول في آخر صلاته أو حين ينصرف: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ . وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ .

قال الماوردي: روى الشعبي قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ سرَّه أن يكتالَ بِالمكيال الأوفى من الأجرِ يومَ القيامة فَلْيقُلْ آخرَ مَجْلسهِ حين يُريد أن يقوم: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ . وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(١). ذكره الثعلبي من حديث عليّ ﷺ مرفوعاً(٢).

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي: الذين بلَّغوا عن الله تعالى التوحيد والرسالة.

وقال أنسٌ: قال النبي ﷺ: «إذا سلَّمتم عليَّ فسلِّموا على المُرسلين، فإنما أنا رسولٌ من المرسلين»(٣).

وقيل: معنى «وسلامٌ على المرسلين» أي: أمنٌ لهم من الله جلَّ وعزَّ يومَ الفَزَع الأكبر.

«والحمد لله ربِّ العالمين» أي: على إرسال المرسلين مُبشِّرين ومُنذرين. وقيل: أي: على جميع ما أنعم اللهُ به على الخَلق أجمعين(٤)، وقيل: أي: على هلاك المشركين(٥)؛ دليلُه: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

قلت: والكلُّ مُراد، والحمدُ يَعُمُّ. ومعنى «يَصِفُونَ» يكذِبون، والتقدير: عما يَصِفون من الكذب. تَمَّ تفسيرُ «الصافات».

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٣٤، وهو مرسل.

(٢) أخرجه البغوي في تفسيره ٤/ ٤٦ من طريق الثعلبي عن علي ﷺ موقوفاً.

(٣) أخرجه أبو الشيخ في طبقات المحدثين بأصبهان (٩٢)، وأخرجه الطبري ١٩/ ٦٦١ عن قتادة مرسلاً.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٧٤.

(٥) زاد المسير ٧/ ٩٥.

تفسير سورة الصافات

[وهى] [١] مكية.

قال النسائى: أخبرنا إسماعيل بن مسعود، حدثنا خالد ـ يعنى ابن الحارث ـ عن ابن أبى ذئب قال: أخبرنى الحارث بن عبد الرحمن، عن سالم بن عبد الله، عن عبد الله بن عمر، رضى الله عنهما، قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا [٢] بالتخفيف، ويؤمنا بالصافات. تفرد به النسائى[٣].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴿٥﴾﴾.

قال سفيان الثورى، عن الأعمش، عن أبى الضُّحَى، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه، أنه قال: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ وهى: الملائكة، ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ وهى: الملائكة، ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾، هى: الملائكة.

وكذا قال ابن عباس، ومسروق، وسعيد بن جُبَيْر، وعِكْرِمة، ومجاهد، والسُّدِّىّ، وقتادة، والربيع بن أنس.

قال قتادة: الملائكة صفوف فى السماء.

وقال[٤] مسلم: حدثنا أبو بكر بن أبى شَيْبَة، حدثنا محمد بن فُضَيْل، عن أبى مالك الأشجعى، عن رِبْعِىّ، عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضِّلنا على الناس بثلاث: جُعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً [٥] وجُعلت لنا تُربتها [٦] طهوراً إذا لم نجد الماء»[٧].

وقد روى مسلم أيضاً، وأبو داود، والنسائى، وابن ماجه، من حديث الأعمش، عن المُسَيَّب بن رافع، عن تميم بن طَرَفة، عن جابر بن سَمُرَة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا تَصُفُّون كما تصف الملائكة عند ربهم؟» قلنا: وكيف تصف الملائكة عند ربهم؟ قال: «يُتمون الصفوف المتقدمة ويَتَرَاصون فى الصف»[٨].

وقال السدى وغيره: معنى قوله: ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾: أنها تزجر السحاب.

وقال الربيع بن أنس: ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾: ما زجر الله عنه فى القرآن. وكذا رَوَى مالك، عن

(١) زيادة من ت، س. (٢) فى ت: «يأمر».
(٣) سنن النسائى (٢/ ٩٥).
(٤) فى ت: «وروى». (٥) فى س: «مسجدا وطهورا». (٦) فى ت، س: «تربتها لنا».
(٧) صحيح مسلم برقم (٥٢٢).
(٨) صحيح مسلم برقم (٤٣٠) وسنن أبى داود برقم (٦٦١) وسنن النسائى (٢/ ٩٢) وسنن ابن ماجه برقم (٩٢٢).

زيد بن أسلم.

﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ قال السدى: الملائكة يجيئون بالكتاب، والقرآن من عند الله إلى الناس. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا .عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴾ [المرسلات: ٥، ٦].

وقوله: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾، هذا هو المقسم عليه؛ أنه تعالى لا إله إلا هو ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أى: من المخلوقات، ﴿وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾أى: هو المالك المتصرف فى الخلق بتسخيره بما فيه من كواكب[1] ثوابت، وسيارات تبدو من المشرق، وتغرب من المغرب. واكتفى بذكر المشارق عن المغارب لدلالتها عليه. وقد صرح بذلك فى قوله: ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾ [المعارج: ٤٠]. وقال فى الآية الأخرى: ﴿رَبُّ المشرقين ورب المغربين﴾ [الرحمن: ١٧]، يعنى: فى الشتاء والصيف، للشمس والقمر.

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ (٧) لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلأِ الأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠) ﴾ .

يخبر تعالى أنه زَين السماء الدنيا للناظرين إليها من أهل الأرض﴿ بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾، قرئ بالإضافة وبالبدل، وكلاهما بمعنى واحد، فالكواكب السيارة والثوابت يثقب ضوؤها جرمَ السماء الشفاف، فتضىء[2] لأهل الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾ [الملك: ٥]، وقال: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ. وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ. إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٦ ـ ١٨].

وقوله هاهنا: ﴿ وَحِفْظًا﴾ تقديره: وحفظناها حفظاً، ﴿مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴾يعنى: المتمرد العاتى إذا أراد أن يسترق السمع، أتاه شهاب ثاقب فأحرقه؛ ولهذا قال: ﴿لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلأِ الأَعْلَى﴾ أى: لئلا يصلوا[3] إلى الملأ الأعلى، وهى السموات ومن فيها من الملائكة، إذا تكلموا بما يوحيه الله مما يقوله من شرعه وقدره، كما تقدم بيان ذلك فى الأحاديث التى أوردناها عند قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ [سبأ: ٢٣].

ولهذا قال: ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾ أى: يرمون، ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ أى: من كل جهة يقصدون السماء منها، ﴿دُحُورًا﴾ أى: رجما يدحرون به ويزجرون، ويمنعون من الوصول إلى ذلك، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أى: فى الدار الآخرة لهم عذاب دائم موجع مستمر، كما قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾[الملك: ٥].

وقوله: ﴿ إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ أى: إلا من اختطف من الشياطين الخطفة، وهى الكلمة يسمعها

(١) فى ت: «الكواكب». (٢) فى ت، س: «فيضىء». (٣) فى ت، س: «يصلون».

من السماء فيلقيها إلى الذى تحته، ويلقيها الآخر إلى الذى تحته، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها بقدر الله قبل أن يأتيه الشهاب فيحرقه، فيذهب بها الآخر إلى الكاهن، كما تقدم فى الحديث؛ ولهذا قال: ﴿إلا منْ خطفَ الْخطْفةَ فأَتْبعهُ شهابٌ ثاقبٌ﴾ أى: مستنير.

قال[١] ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا وكَيع، عن إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس قال: كانت للشياطين مقاعد فى السماء فكانوا[٢] يستمعون الوحى. قال: وكانت النجوم لا تجرى، وكانت الشياطين لا تُرْمى. قال: فإذا سمعوا[٣] الوحى نزلوا إلى الأرض، فزادوا فى الكلمة تسعاً. قال: فلما بعث رسول الله ﷺ، جعل الشيطان إذا قعد مقعده جاء شهاب فلم يُخْطئه حتى يُحرقَه. قال: فشكوا ذلك إلى إبليس، فقال: ما هو إلا من أمْر حدث. قال: فَبَثّ جنوده، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلى بين جبلى نخلة ـ قال وكيع: يعنى بطن نخلة ـ قال: فرجعوا إلى إبليس فأخبروه، فقال: هذا الذى حدث[٤].

وستأتى الأحاديث الواردة مع الآثار فى هذا المعنى عند قوله تعالى إخبارا عن الجن أنهم قالوا: ﴿وأَنَّا لَمسْنَا السَّماءَ فوجدْنَاهَا مُلئتْ حرسًا شَديدًا وشُهُبًا . وأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ منْهَا مقَاعدَ للسَّمْعِ فمَن يَسْتَمعِ الآنَ يجدْ لَهُ شهَابًا رَّصَدًا . وأَنَّا لا نَدْري أَشرٌّ أُرِيدَ بمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ٨ ـ ١٠].

﴿فاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لاَّزِبٍ (١١) بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٥) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ (١٩)﴾ .

يقول تعالى: فَسَل هؤلاء المنكرين للبعث: أيما أشد خلقاً هم أم[٥] السموات والأرض، وما بينهما من الملائكة والشياطين والمخلوقات العظيمة؟ ـ وقرأ ابن مسعود: «أم من عددنا» ـ فإنهم يُقرّون أن هذه المخلوقات أشد خلقاً منهم، وإذا كان الأمر كذلك فلم ينكرون البعث؟ وهم يشاهدون ما هو أعظم مما أنكروا[٦]، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

ثم بين أنهم خُلقوا من شىء ضعيف، فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لاَّزِبٍ﴾،

قال مجاهد، وسعيد بن جبير، والضحاك: هو الجيّد الذى يلتزق بعضه ببعض. وقال ابن

---

(١) فى ت: «وروى». (٢) فى ت، س: «قال: فكانوا». (٣) فى أ: «استمعوا».
(٤) تفسير الطبرى (٢٣/ ٢٥).
(٥) فى س: «أو». (٦) فى ت، أ: «أنكروه».

عباس، وعكرمة: هو اللزج. وقال قتادة: هو الذى يلزق باليد.

وقوله: ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ أى: بل عجبت ـ يا محمد ـ من تكذيب هؤلاء المنكرين للبعث، وأنت موقن مصدق بما أخبر الله به من الأمر العجيب، وهو إعادة الأجسام بعد فنائها. وهم بخلاف أمرك، من شدة تكذيبهم يسخرون مما تقول لهم من ذلك.

قال قتادة: عجب محمد ﷺ، وسَخِر ضُلاَّل بنى آدم.

﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً﴾ أى: دلالة واضحة على ذلك ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ قال مجاهد، وقتادة: يستهزئون.

﴿وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أى: إن هذا الذى جئت به إلا سحر مبين، ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ . أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ﴾ يستبعدون ذلك ويكذبون به، ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾ أى: قل لهم يا محمد: نعم تبعثون يوم القيامة بعد ما تصيرون ترابا وعظاما، ﴿وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾ أى: حقيرون تحت القدرة العظيمة، كما قال تعالى: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

ثم قال: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ أى: إنما هو أمر واحد من الله عز وجل، يدعوهم دعوة واحدة أن يخرجوا من الأرض، فإذا هم [قيام][١] بين يديه، ينظرون إلى أهوال يوم القيامة.

﴿ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١) احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) ﴾ .

يخبر تعالى عن قِيلِ الكفار يوم القيامة أنهم يرجعون على أنفسهم بالملامة، ويعترفون بأنهم[٢] كانوا ظالمين لأنفسهم فى الدار الدنيا، فإذا عاينوا أهوال القيامة نَدمُوا كلَّ الندم حيث لا ينفعهم الندم، ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ ، فتقول لهم الملائكة والمؤمنون: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾. وهذا يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ، ويأمر الله الملائكة أن تُميزَ الكفار من المؤمنين فى الموقف فى محشرهم ومنشرهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ قال النعمان ابن بشير[٣]، رضى الله عنه: يعنى بأزواجهم أشباههم وأمثالهم. وكذا قال ابن عباس، وسعيد بن

(١) زيادة من ت، س، أ.
(٢) فى ت: «أنهم».
(٣) فى أ: «بشر».

جُبَيْر، وعِكْرِمة ومجاهد، والسُّدِّى، وأبو صالح، وأبو العالية، وزيد بن أسلم [وغيرهم](١).

وقال سفيان الثورى، عن سِمَاك، عن النعمان بن بشير(٢)، عن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ قال: إخوانهم(٣).

وقال شريك، عن سماك، عن النعمان قال: سمعت عمر يقول: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ قال: أشباههم. قال: يجىء صاحب الربا مع أصحاب الربا، وصاحب(٤) الزّنا مع أصحاب الزّنا، وصاحب(٥) الخمر مع أصحاب الخمر.

وقال خُصَيْف، عن مِقْسَم، عن ابن عباس: ﴿أَزْوَاجَهُمْ﴾: نساءهم.

وهذا غريب، والمعروف عنه الأول، كما رواه مجاهد وسعيد بن جبير، عنه: ﴿أَزْوَاجَهُمْ﴾: قُرَناءهم(٦).

﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أى: من الأصنام والأنداد، تحشر معهم فى أماكنهم.

وقوله: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ أى: أرشدوهم إلى طريق جهنم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

وقوله: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ أى: قفوهم حتى يُسألوا عن أعمالهم وأقوالهم التى صدرت عنهم فى الدار الدنيا كما قال الضحاك، عن ابن عباس: يعنى احبسوهم إنهم محاسبون.

وقال ابن أبى حاتم(٧): حدثنا أبى، حدثنا النُّفَيلى، حدثنا المعتمر بن سليمان قال: سمعت ليثا يُحدّث عن بشر، عن أنس بن مالك [رضى الله عنه](٨) قال: قال رسول الله ﷺ: «أيما داع دعا إلى شىء كان موقوفاً معه إلى يوم القيامة، لا يغادره ولا يفارقه، وإن دعا رجل رجلا»، ثم قرأ: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾.

ورواه الترمذى، من حديث ليث بن أبى سليم(٩). ورواه ابن جرير، عن يعقوب بن إبراهيم، عن معتمر، عن ليث، عن رجل، عن أنس مرفوعا(١٠).

وقال عبد الله بن المبارك: سمعت عثمان بن زَائِدَةَ يقول: إن أول ما يُسأل عنه الرجل جلساؤه، ثم يقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ أى: كما(١١) زعمتم أنكم جميع منتصر، ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ أى: منقادون لأمر الله، لا يخالفونه ولا يحيدون عنه.

(١) زيادة من ت.
(٢) فى أ: «بشر».
(٣) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٣/ ٣١).
(٤، ٥) فى ت، س، أ: «أصحاب».
(٦) فى س: «قرباؤهم».
(٧) فى ت: «الترمذى».
(٨) زيادة من ت.
(٩) سنن الترمذى برقم (٣٢٢٨).
(١٠) تفسير الطبرى (٢٣/ ٣٢).
(١١) فى ت: «كلما».

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ(٣٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧)﴾ .

يذكر تعالى أن الكفار يتلاومون فى عرصات القيامة، كما يتخاصمون فى دركات النار، ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٧، ٤٨]. وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ (١) مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ .وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣١ـ٣٣]. قالوا لهم هاهنا: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ قال الضحاك، عن ابن عباس: يقولون: كنتم تقهروننا بالقدرة منكم علينا؛ لأنا(٢) كنا أذلاء وكنتم أعزاء.

وقال مجاهد: يعنى: عن الحق، الكفار تقوله(٣) للشياطين.

وقال قتادة: قالت الإنس للجن: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ قال: من قبل الخير، فتنهونا عنه وتبطئونا عنه.

وقال السدى: تأتوننا [عن اليمين](٤) من قبل الحق، تزينون(٥) لنا الباطل، وتصدونا عن الحق.

وقال الحسن فى قوله: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ إِىْ والله، يأتيه عند كل خير يريده فيصده عنه.

وقال ابن زيد: معناه تحولون بيننا وبين الخير، ورددتمونا عن الإسلام والإيمان والعمل بالخير الذى أمرنا به.

وقال يزيد الرِّشْك: من قبل «لا إله إلا الله». وقال خُصيف: يعنون من قبل ميامنهم. وقال

---

(١) فى ت، س: «المجرمون». (٢) فى أ: «لأننا». (٣) فى ت: «بقوله».
(٤) زيادة من أ. (٥) فى أ: «وتزينوا».

عكرمة: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ ،قال: من حيث نأمنكم.

وقوله: ﴿قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ : تقول القادة من الجن، والإنس للأتباع: ما الأمر كما تزعمون؟ بل كانت قلوبكم منكرة للإيمان، قابلة للكفر والعصيان، ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم[١] مِّن سُلْطَانٍ﴾ أى: من حجة على صحة ما دعوناكم إليه، ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾ أى: بل كان فيكم طغيان ومجاوزة للحق؛ فلهذا استجبتم لنا وتركتم الحق الذى جاءتكم به الأنبياء، وأقاموا لكم الحجج على صحة ما جاؤوكم به، فخالفتموهم.

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ . فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾، يقول الكبراء للمستضعفين: حقت علينا كلمة الله[٢]: إنا من الأشقياء الذائقين العذاب يوم القيامة، ﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ﴾ أى: دعوناكم إلى الضلالة، ﴿إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ أى: دعوناكم[٣] إلى ما نحن فيه، فاستجبتم لنا، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أى: الجميع فى النار، كل بحسبه، ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ . إِنَّهُمْ كَانُوا﴾ أى: فى الدار الدنيا ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أى: يستكبرون أن يقولوها، كما يقولها المؤمنون.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخى ابن وَهْب، حدثنا عمى، حدثنا الليث، عن ابن مُسافر ـ يعنى عبد الرحمن بن خالد ـ عن ابن شهاب، عن سعيد بن المسيب، عن أبى هُرَيرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله، وأنزل الله فى كتابه ـ وذكر قوما استكبروا ـ فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾»[٤].

وقال[٥] ابن أبى حاتم أيضا: حدثنا أبى، حدثنا أبو سلمة موسى بن إسماعيل، حدثنا حمَّاد، عن سعيد الجُرَيرى، عن أبى العلاء قال: يؤتى باليهود يوم القيامة فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: الله وعُزَيراً. فيقال لهم: خذوا ذات الشمال، ثم يؤتى بالنصارى فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: نعبد الله والمسيح. فيقال لهم: خذوا ذات الشمال. ثم يؤتى بالمشركين فيقال لهم: «لا إله إلا الله»، فيستكبرون. ثم يقال لهم: «لا إله إلا الله»، فيستكبرون. ثم يقال لهم: «لا إله إلا الله» فيستكبرون. فيقال لهم: خذوا ذات الشمال ـ قال أبو نضرة: فينطلقون أسرع من الطير ـ قال أبوالعلاء: ثم يؤتى بالمسلمين فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد الله. فيقال لهم: هل تعرفونه إذا رأيتموه؟ فيقولون: نعم. فيقال لهم: فكيف تعرفونه ولم تروه؟ قالوا: نعلم أنه لا عِدْلَ له. قال: فيتعرف لهم تبارك وتعالى، وينجى الله المؤمنين.

---

(١) فى ت: «لكم علينا». (٢) فى أ: «كلمة ربك».

(٣) فى ت، س: «فدعوناكم».

(٤) وقد رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢١) بدون ذكر الآية من طريق يونس عن الزهرى به.

(٥) فى ت: «وروى».

﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ أى: أنحن[١] نترك عبادة آلهتنا وآلهة آبائنا عن قول [هذا][٢] الشاعر المجنون، يعنون رسول الله ﷺ؟! قال الله تعالى تكذيبا لهم، وردا عليهم: ﴿ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ ﴾، يعنى رسول الله ﷺ جاء بالحق فى جميع شرْعة[٣] الله له من الإخبار والطلب، ﴿ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أى: صدّقهم فيما أخبروه[٤] عنه من الصفات الحميدة، والمناهج السديدة، وأخبر عن الله فى شرعه [وقدره][٥] وأمره كما أخبروا، ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ الآية [فصلت: ٤٣].

﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الأَلِيمِ (٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩) إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (٤١) فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (٤٥) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ (٤٦) لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧) وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ (٤٩)﴾.

يقول تعالى مخاطباً للناس: ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الأَلِيمِ . وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، ثم استثنى من ذلك عباده المخلصين، كما قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ. إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العصر: ١-٣].

وقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ . ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ. إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [التين: ٤-٦]، وقال: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا . ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١، ٧٢]، وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ. إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ [المدثر: ٣٨، ٣٩]؛ولهذا قال هاهنا: ﴿ إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أى: ليسوا يذوقون العذاب الأليم، ولا يناقشون فى الحساب، بل يتجاوز عن سيئاتهم، إن كان لهم سيئات، ويجزون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، إلى ما يشاء الله من التضعيف.

وقوله: ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴾ قال قتادة، والسدى: يعنى الجنة. ثم فسره بقوله تعالى: ﴿فَوَاكِهُ﴾ أى: متنوعة ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ أى: يُخْدمون [ويرزقون][٦] ويرفهون وينعمون، ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ . عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ قال مجاهد: لا ينظر بعضهم فى قفا بعض.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا يحيى بن عبدك[٧] القزوينى، حدثنا حسان بن حسان[٨]، حدثنا إبراهيم ابن بشر[٩]، حدثنا يحيى بن معين، حدثنا إبراهيم القرشى، عن سعيد بن شرحبيل، عن زيد بن أبى أوفى قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فتلا هذه الآية: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ ينظر بعضهم إلى بعض.

---

(١) فى ت: «نحن». (٢) زيادة من ت، س. (٣) فى أ: «ما شرعه».
(٤) فى ت، س: «أخبروا». (٥) زيادة من ت، أ. (٦) زيادة من أ.
(٧) فى أ: «عبد الله». (٨) فى أ: «حبان». (٩) فى أ: «بشير».

حديث غريب[(١)].

وقوله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ. بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ. لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ . بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ . لا يُصَدَّعُونَ عَنهَا وَلاَ يُنْزِفُونَ ﴾ [الواقعة: ١٧ ـ ١٩]، فنزه الله خمر الآخرة[(٢)] عن الآفات التى فى خمر الدنيا، من صداع الرأس ووجع البطن ـ وهو الغول ـ وذهابها بالعقل جملة، فقال هاهنا:﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ أى: بخمر من أنهار جارية، لا يخافون انقطاعها ولا فراغها.

قال مالك، عن زيد بن أسلم: خمر جارية[(٣)] بيضاء، أى: لونها مشرق حسن بهى لا كخمر الدنيا فى منظرها البشع الردىء، من حمرة أو سواد أو اصفرار أو كدورة[(٤)]، إلى غير ذلك مما ينفر الطبع السليم.

وقوله: ﴿لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ أى: طعمها طيب كلونها، وطيب الطعم دليل على طيب الريح، بخلاف خمر الدنيا فى جميع ذلك.

وقوله: ﴿لا فِيهَا غَوْلٌ﴾ يعنى: لا تؤثر فيهم غولا ـ وهو وجع البطن. قاله مجاهد، وقتادة، وابن زيد ـ كما تفعله خمر الدنيا من القُولَنْج ونحوه، لكثرة مائيتها.

وقيل: المراد بالغول هاهنا: صداع الرأس. وروى هكذا عن ابن عباس.

وقال قتادة: هو صداع الرأس، ووجع البطن. وعنه، وعن السدى: لا تغتال عقولهم، كما قال الشاعر:

فما زَالَتِ الكَأسُ تَغْتَالُنا وتَذْهبُ بالأوَّل الأوَّلِ[(٥)] [(٦)]

وقال سعيد بن جبير: لا مكروه فيها ولا أذى. والصحيح قول مجاهد: أنه وجع البطن.

وقوله: ﴿وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ قال مجاهد: لا تذهب عقولهم، وكذا قال ابن عباس، ومحمد بن كعب، والحسن، وعطاء بن أبى مسلم الخراسانى، والسدى، وغيرهم.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: فى الخمر أربع خصال: السكر، والصداع، والقىء، والبول. فذكر الله خمر الجنة فنزهها عن هذه الخصال، كما ذكر فى سورة «الصافات» [(٧)].

وقوله: ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ أى: عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن. كذا قال ابن

---

(١) ورواه البخارى فى التاريخ الكبير (٣/ ٣٨٦) فى ترجمة زيد بن أبى أوفى من طريق حسان بن حسان به، وقال: «لا يتابع عليه».
(٢) فى ت، س: «الجنة». (٣) فى ت، س: «جارى». (٤) فى ت: «كدرة».
(٥) فى ت: «فالأول».
(٦) البيت فى تفسير الطبرى (٢٣/ ٣٥).
(٧) فى ت: «والصافات».

عباس، ومجاهد، وزيد بن أسلم، وقتادة، والسدى، وغيرهم.

وقوله: ﴿عِينٌ﴾ أى: حسان الأعين. وقيل: ضخام الأعين. وهو يرجع إلى الأول، وهى النجلاء العيناء، فوصف عيونهن بالحسن والعفة، كقول زليخا فى يوسف حين جملته وأخرجته على تلك النسوة، فأعظمنه وأكبرنه، وظنن أنه ملك من الملائكة لحسنه وبهاء منظره، قالت: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢] أى: هو مع هذا الجمال عفيف تقى نقى، [فأرتهن جماله الظاهر وأخبرتهن بجماله الباطن](١). وهكذا الحور العين ﴿ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾ [الرحمن: ٧٠]، ولهذا قال: ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ﴾ .

وقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾: وصفهن بترافة الأبدان بأحسن الألوان.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس، رضى الله عنهما: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ يقول: اللؤلؤ المكنون.

وينشد هاهنا بيت أبى دهبل الشاعر فى قصيدة له:

وَهْيَ زَهْرَاء مثْلَ لؤلؤة الغوّ ... اص مُيِّزَتْ مِن جوهر مكْنُون(٢)

وقال الحسن: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ يعنى: محصون(٣) لم تمسه الأيدى.

وقال السدى: البيض فى عشه مكنون.

وقال سعيد بن جبير: ﴿[كَأَنَّهُنَّ](٤)بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾، يعنى: بطن البيض(٥).

وقال عطاء الخراسانى: هو السحاء الذى يكون بين قشرته العليا ولباب البيضة.

وقال السدى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ يقول: بياض البيض حين ينزع قشره. واختاره ابن جرير لقوله: ﴿ مَّكْنُونٌ﴾، قال: والقشرة العليا يمسها جناح الطير والعش، وتنالها الأيدى بخلاف داخلها، والله أعلم.

وقال ابن جرير: حدثنا أحمد بن عبد الرحمن بن وهب، حدثنا محمد بن الفرج الصدفى الدمياطى، عن عمرو بن هاشم، عن ابن أبى كريمة، عن هشام، عن الحسن، عن أمه، عن أم سلمة(٦)، رضى الله عنها، قلت(٧): يا رسول الله، أخبرنى عن قول الله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾(٨) قال: «رقتهن كرقة الجلدة التى رأيتها فى داخل البيضة، التى تلى القشر، وهى الغِرْقِئ»(٩).

(١) زيادة من ت.
(٢) البيت فى تفسير الطبرى (٢٣/ ٣٧).
(٣) فى ت: «مصون». (٤) زيادة من ت. (٥) فى ت: «العين».
(٦) فى ت: « وروى ابن جرير بإسناده عن أم سلمة». (٧) فى ت: «عنها قالت: قلت».
(٨) فى ت، س: « أخبرنى عن قول الله: ﴿حور عين﴾ قال: « العين: الضخام العيون، شفر الحوراء مثل جناح النسر». قلت: يا رسول الله، أخبرنى عن قول الله: ﴿كأنهن بيض مكنون﴾.
(٩) تفسير الطبرى (٢٣/ ٣٧) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٣/ ٣٦٧) حدثنا بكر بن سهل الدمياطى حدثنا عمرو بن هاشم به، قال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١١٩): «فيه سليمان بن أبى كريمة ضعفه أبو حاتم وابن عدى».

وقال[(١)] ابن أبى حاتم: حدثنا أبى: حدثنا أبو غسان النهدى، حدثنا عبد السلام بن حرب، عن ليث، عن الربيع بن أنس، عن أنس، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا، وأنا مبشرهم إذا حزنوا، وأنا شفيعهم إذا حبسوا، لواء الحمد يومئذ بيدى، وأنا أكرم ولد آدم على ربى عز وجل ولا فخر، يطوف على ألف خادم كأنهن البيض المكنون ـ أو: اللؤلؤ المكنون»[(٢)].

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١) ﴾ .

يخبر تعالى عن أهل الجنة أنه أقبل بعضهم على بعض يتساءلون، أى: عن أحوالهم، وكيف كانوا فى الدنيا، وماذا كانوا يعانون فيها؟ وذلك من حديثهم على شرابهم[(٣)]، واجتماعهم فى تنادمهم وعشرتهم فى مجالسهم، وهم جلوس على السرر، والخدم بين أيديهم، يسعون ويجيؤون بكل خير عظيم، من مآكل ومشارب وملابس، وغير ذلك مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ قال مجاهد: يعنى شيطانا.

وقال العوفى، عن ابن عباس: هو الرجل المشرك، يكون له صاحب من أهل الإيمان فى الدنيا.

ولا تنافى بين كلام مجاهد، وابن عباس؛ فإن الشيطان يكون من الجن فيوسوس فى النفس، ويكون من الإنس فيقول كلاما تسمعه الأذنان، وكلاهما متعاديان[(٤)]، قال الله تعالى: **﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾** [الأنعام: ١١٢]. وكل منهما يوسوس، كما قال[(٥)] تعالى: **﴿[قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ. مَلِكِ النَّاسِ . إِلَٰهِ النَّاسِ][(٦)] . مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ . الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ . مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾** [سورة الناس]؛ ولهذا **﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ . يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾** أى: أأنت تصدق بالبعث والنشور والحساب والجزاء؟! يعنى: يقول ذلك على وجه التعجب والتكذيب والاستبعاد، والكفر والعناد، **﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ﴾** قال مجاهد، والسدى: لمحاسبون؟ وقال ابن عباس، ومحمد بن كعب القرظى: لمجزيون بأعمالنا؟

(١) فى ت: «وروى».
(٢) ورواه البيهقى فى دلائل النبوة (٥/ ٤٨٣) من طريق منصور بن أبى الأسود عن ليث عن الربيع بن أنس به، ثم رواه من طريق حبان بن على عن ليث عن عبيد الله بن زحر عن الربيع عن أنس به، وقال: «تابعه ـ أى الليث ـ محمد بن فضيل عن عبيد الله بن زحر».
(٣) فى أ: «سراتهم». (٤) فى ت، س: «متعاونان». (٥) فى ت: «قال الله تعالى».
(٦) زيادة من ت، س، أ .

قال: ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ أى: مشرفون. يقول المؤمن لأصحابه وجلسائه من أهل الجنة. ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾. قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، وخليد العصرى وقتادة، والسدى، وعطاء الخراسانى [وغيرهم][١]: يعنى فى وسط الجحيم.

وقال الحسن البصرى: فى وسط الجحيم كأنه شهاب يتقد.

وقال قتادة: ذكر لنا أنه اطلع فرأى جماجم القوم تغلى. وذكر لنا أن كعب الأحبار قال: فى الجنة كوى إذا أراد أحد من أهلها أن ينظر إلى عدوه فى النار اطلع فيها، فازداد شكرا.

﴿قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾، يقول المؤمن مخاطبا للكافر: والله إن كدت لتهلكنى لو أطعتك، ﴿وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ أى: ولولا فضل الله على لكنت مثلك فى سواء الجحيم حيث أنت، محضر معك فى العذاب، ولكنه تفضل [علىّ][٢] ورحمنى فهدانى للإيمان، وأرشدنى إلى توحيده، ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وقوله: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ . إِلا مَوْتَتَنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾، هذا من كلام المؤمن مغبطا نفسه بما أعطاه الله من الخلد فى الجنة[٣] والإقامة فى دار الكرامة، لا موت فيها ولا عذاب؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

قال[٤] ابن أبى حاتم: حدثنا أبو عبد الله الظهرانى، حدثنا حفص بن عمر العَدَنى، حدثنا الحكم ابن أبان، عن عكرمة قال: قال ابن عباس، رضى الله عنهما، فى قول الله تبارك وتعالى لأهل الجنة: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الطور: ١٩]، قال ابن عباس، رضى الله عنهما: قوله: ﴿هَنِيئًا﴾ أى: لا يموتون[٥] فيها. فعندها قالوا: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ . إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾.

وقال الحسن البصرى: علموا أن كل نعيم فإن الموت يقطعه، فقالوا: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ . إِلا مَوْتَتَنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾، قيل [لهم][٦]: لا. قالوا: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

وقوله: ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ قال قتادة: هذا من كلام أهل الجنة.

وقال ابن جرير: هو من كلام الله تعالى، ومعناه: لمثل هذا النعيم وهذا الفوز فليعمل العاملون فى الدنيا، ليصيروا إليه فى الآخرة[٧].

وقد ذكروا قصة رجلين كانا شريكين فى بنى إسرائيل، تدخل فى ضمن عموم هذه الآية الكريمة.

قال أبو جعفر بن جرير: حدثنى إسحاق بن إبراهيم بن حبيب بن الشهيد، حدثنا عتاب بن بشير، عن خصيف، عن فرات بن ثعلبة البهرانى فى قوله: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ قال: إن رجلين كانا

---

(١) زيادة من ت. (٢) زيادة من س، أ. (٣) فى ت: «فى الجنة من الخلد».
(٤) فى ت: «روى». (٥) فى ت، س: «لا تموتون». (٦) زيادة من ت، أ.
(٧) تفسير الطبرى (٢٣/ ٤٠).

شريكين، فاجتمع لهما ثمانية آلاف دينار، وكان أحدهما له حرفة، والآخر ليس له حرفة، فقال الذى له حرفة للآخر: ليس عندك حرفة، ما أرانى إلا مفارقك ومقاسمك، فقاسمه وفارقه، ثم إن الرجل اشترى دارًا بألف دينار كانت لملك، مات، فدعا صاحبه فأراه فقال: كيف[١] ترى هذه الدار؟ ابتعتها بألف دينار؟ قال: ما أحسنها! فلما خرج قال: اللهم، إن صاحبى ابتاع[٢] هذه الدار بألف دينار، وإنى أسألك دارا من دور الجنة، فتصدق بألف دينار، ثم مكث ما شاء الله أن يمكث، ثم إنه تزوج بامرأة[٣] بألف دينار، فدعاه وصنع له طعاما. فلما أتاه قال: إنى تزوجت امرأة بألف دينار. قال: ما أحسن هذا! فلما انصرف قال: يارب، إن صاحبى تزوج امرأة بألف دينار، وإنى أسألك امرأة من الحور العين. فتصدق بألف دينار، ثم إنه مكث ما شاء الله أن يمكث. ثم اشترى بستانين بألفى دينار، ثم دعاه فأراه فقال: إنى ابتعت هذين البستانين[٤]. فقال: ما أحسن هذا! فلما خرج قال: يارب، إن صاحبى قد اشترى بستانين بألفى دينار، وأنا أسألك بستانين فى الجنة. فتصدق بألفى دينار، ثم إن الملك أتاهما فتوفاهما، ثم انطلق بهذا المتصدق، فأدخله دارا تعجبه، وإذا امرأة تطلع يضىء ما تحتها من حسنها، ثم أدخله بستانين وشيئا الله به عليم[٥]، فقال عند ذلك: ما أشبه هذا برجل كان من أمره كذا وكذا. قال: فإنه ذاك، ولك هذا المنزل والبستانان والمرأة. قال: فإنه كان لى صاحب يقول: أئنك لمن المصدقين؟ قيل له: فإنه فى الجحيم. قال: هل أنتم مطلعون؟ فاطلع فرآه فى سواء الجحيم. فقال عند ذلك: ﴿ **تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ .وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ**﴾ الآيات.

قال ابن جرير: وهذا يقوى قراءة من قرأ: «أئنك لمن الْمُصَّدِّقِينَ» بالتشديد.

وقال[٦] ابن أبى حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا عمر بن عبد الرحمن الأبار أبو حفص قال: سألت إسماعيل السدى عن هذه الآية: ﴿ **قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ . يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ**﴾ ؟ قال: فقال لى: ما ذكرك هذا؟ قلت: قرأته آنفا فأحببت أن أسألك عنه؟ فقال: أما فاحفظ، كان شريكان فى بنى إسرائيل، أحدهما مؤمن والآخر كافر، فافترقا على ستة آلاف دينار، كل واحد منهما ثلاثة آلاف دينار، فمكثا ما شاء الله أن يمكثا، ثم التقيا فقال الكافر للمؤمن: ما صنعت فى مالك؟ أضربت به شيئا؟ أتجرت به فى شىء؟ فقال له المؤمن: لا، فما صنعت أنت؟ فقال: اشتريت به أرضا ونخلا وثمارا وأنهارا[٧] قال: فقال له المؤمن: أو فعلت؟ قال: نعم. فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ما شاء الله أن يصلى، فلما انصرف أخذ ألف دينار فوضعها بين يديه، ثم قال: اللهم إن فلانا ـ يعنى شريكه الكافر ـ اشترى أرضا ونخلا وثمارا وأنهارا بألف دينار، ثم يموت غدا ويتركها، اللهم إنى اشتريت منك بهذه الألف دينار[٨] أرضا ونخلا وثمارا وأنهارا فى الجنة. قال: ثم أصبح فقسمها فى المساكين. قال: ثم مكثا ما شاء الله أن يمكثا، ثم التقيا فقال الكافر

---

(١) فى ت، س: «فكيف». (٢) فى ت، س: «إن صاحبى هذا قد ابتاع». (٣) فى ت، س: «امرأة».
(٤) فى ت، أ: «البستانين بألفى دينار». (٥) فى ت: «وفيهما ما الله به عليم». (٦) فى ت: «وروى».
(٧) فى ت، س: «وأنهار بألف دينار». (٨) فى س: «الدينار».

للمؤمن: ما صنعت فى مالك، أضربت به فى شىء؟ أتجرت به فى شىء؟ قال: لا، فما صنعت أنت. قال: كانت ضيعتى قد اشتد على مؤنتها، فاشتريت رقيقا بألف دينار، يقومون بى[١] فيها، ويعملون لى فيها. فقال له المؤمن: أو فعلت؟ قال: نعم. قال: فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ما شاء الله أن يصلى، فلما انصرف أخذ ألف دينار فوضعها بين يديه، ثم قال: اللهم إن فلانا ـ يعنى شريكه الكافر ـ اشترى رقيقا من رقيق الدنيا بألف دينار، يموت غدا ويتركهم، أو يموتون فيتركونه، اللهم، وإنى أشترى منك بهذه الألف الدينار رقيقا فى الجنة. ثم أصبح فقسمها فى المساكين. قال: ثم مكثا ما شاء الله أن يمكثا، ثم التقيا فقال الكافر للمؤمن: ما صنعت فى مالك؟ أضربت به فى شىء؟ أتجرت به فى شىء؟ قال: لا، فما صنعت أنت؟ قال: أمرى كله قد تم إلا شيئا واحدا، فلانة قد مات عنها زوجها، فأصدقتها ألف دينار، فجاءتنى بها ومثلها معها. فقال له المؤمن: أو فعلت؟ قال: نعم. فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ما شاء الله أن يصلى، فلما انصرف أخذ الألف الدينار الباقية، فوضعها بين يديه، وقال: اللهم إن فلانا ـ يعنى شريكه الكافر ـ تزوج زوجة من أزواج الدنيا[٢]، فيموت غدا فيتركها، أو يموت فتتركه، اللهم وإنى أخطب إليك بهذه الألف الدينار[٣] حوراء عيناء فى الجنة. ثم[٤] أصبح فقسمها بين المساكين. قال: فبقى المؤمن ليس عنده شىء. قال: فلبس قميصا من قطن، وكساء من صوف، ثم أخذ مَرًا فجعله على رقبته، يعمل الشىء ويحفر الشىء بقوته. قال: فجاءه رجل فقال: يا عبد الله، أتؤاجرنى نفسك مشاهرة، شهرا بشهر، تقوم على دواب لى تعلفها وتكنس سَرْقينها؟ قال: نعم. قال: فواجره نفسه مشاهرة، شهرا بشهر، يقوم على دوابه. قال: فكان صاحب الدواب يغدو كل يوم ينظر إلى دوابه، فإذا رأى منها دابة ضامرة، أخذ برأسه فوجأ عنقه، ثم يقول له: سرقت شعير هذه[٥] البارحة؟ فلما رأى المؤمن هذه الشدة قال: لآتين شريكى الكافر، فلأعملن فى أرضه فيطعمنى هذه الكسرة يوما[٦]، ويكسونى هذين الثوبين إذا بليا. قال: فانطلق يريده، فلما انتهى إلى بابه وهو ممس، فإذا قصر مشيد فى السماء، وإذا حوله البوابون، فقال لهم: استأذنوا لى[٧] صاحب هذا القصر، فإنكم إذا فعلتم سره ذلك، فقالوا له: انطلق إن كنت صادقا فنم فى ناحية، فإذا أصبحت فتعرض له. قال: فانطلق المؤمن، فألقى نصف كسائه تحته، ونصفه فوقه، ثم نام. فلما أصبح أتى شريكه فتعرض له، فخرج شريكه الكافر وهو راكب، فلما رآه عرفه فوقف عليه وسلم عليه وصافحه، ثم قال له: ألم تأخذ من المال مثل ما أخذت؟ قال: بلى وهذه حالى[٨] وهذه حالك. قال: أخبرنى ما صنعت فى مالك؟ قال: لا تسألنى عنه. قال: فما جاء بك؟ قال: جئت أعمل فى أرضك هذه، فتطعمنى هذه الكسرة يوما بيوم، وتكسونى هذين الثوبين إذا بليا. قال: لا، ولكن أصنع بك ما هو خير من هذا، ولكن لا ترى منى خيرا حتى تخبرنى ما صنعت فى مالك؟ قال: أقرضته: قال: من؟ قال: الملىء الوفى. قال: من؟ قال: الله ربى. قال: وهو

---

(١) فى ت، س، أ: «لى».
(٢) فى ت، س: «الدنيا بألف دينار».
(٣) فى ت: «دينار».
(٤) فى ت، س: «قال: ثم».
(٥) فى ت: «هذه الدابة».
(٦) فى ت، س: «يوما بيوم».
(٧) فى ت، س: «لى على».
(٨) فى ت: «حالتى».

مصافحه، فانتزع يده من يده، ثم قال: ﴿ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ. أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ ـ قال السدى: محاسبون ـ قال: فانطلق[1] الكافر وتركه. قال: فلما رآه المؤمن ليس يلوى عليه، رجع وتركه، يعيش المؤمن فى شدة من الزمان، ويعيش الكافر فى رخاء من الزمان. قال: فإذا كان يوم القيامة وأدخل الله المؤمن الجنة، يمر فإذا هو بأرض ونخل وثمار وأنهار، فيقول: لمن هذا[2]؟ فيقال: هذا لك. فيقول: يا سبحان الله! أوَ بلغ من فضل عملى أن أثاب بمثل هذا؟! قال: ثم يمر فإذا هو برقيق لا تحصى عدتهم، فيقول: لمن هذا؟ فيقال: هؤلاء لك. فيقول: ياسبحان الله! أو بلغ من فضل عملى أن أثاب بمثل هذا؟! قال: ثم يمر فإذا هو بقبة من ياقوتة حمراء مجوفة، فيها حوراء عيناء، فيقول: لمن هذه؟ فيقال: هذه لك. فيقول: يا سبحان الله! أو بلغ من فضل عملى أن أثاب بمثل هذا؟! قال: ثم يذكر المؤمن شريكه الكافر فيقول: ﴿ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ . يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ. أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ قال: فالجنة عالية، والنار هاوية. قال: فيريه الله شريكه فى وسط الجحيم، من بين أهل النار، فإذا رآه المؤمن عرفه، فيقول: ﴿ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ. وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ. أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ . إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ. إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ : بمثل ما [3] مَنَّ عليه. قال: فيتذكر المؤمن ما مر عليه فى الدنيا من الشدة، فلا يذكر مما مر عليه فى الدنيا من الشدة، أشد عليه من الموت[4].

﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الْجَحِيمِ (٦٨) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ (٧٠) ﴾ .

يقول الله تعالى: أهذا الذى ذكره[5] من نعيم الجنة وما فيها من مآكل ومشارب ومناكح وغير ذلك من الملاذ ـ خير ضيافة وعطاء ﴿أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾؟ أى: التى فى جهنم.

وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك شجرة واحدة معينة، كما قال بعضهم من أنها شجرة تمتد فروعها إلى جميع محال جهنم كما أن شجرة طوبى ما من دار فى الجنة إلا وفيها منها غصن.

وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك جنس شجر، يقال له: الزقوم، كقوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، يعنى الزيتونة. ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ . لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ [الواقعة: ٥١، ٥٢].

وقوله: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ﴾، قال قتادة: ذكرت شجرة الزقوم، فافتتن بها أهل الضلالة،

(١) فى ت، س: «وانطلق». (٢) فى أ: «هذه». (٣) فى ت، س: «ما قد».
(٤) وهذا من أخبار بنى إسرائيل التى لا يعتمد عليها. (٥) فى أ: «ذكرته».

وقالوا: صاحبكم ينبئكم أن فى النار شجرة، والنار تأكل الشجر، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ غذت من النار، ومنها خلقت.

وقال مجاهد: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ﴾، قال أبو جهل ـ لعنه الله ـ: إنما الزقوم التمر والزبد أتزقمه.

قلت: ومعنى الآية: إنما أخبرناك يا محمد بشجرة الزقوم اختبارا تختبر[1] به الناس، من يصدق منهم ممن يكذب، كقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠].

وقوله: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ أى: أصل منبتها فى قرار النار، ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ تبشيع [لها][2] وتكريه لذكرها.

قال وهب بن منبه: شعور الشياطين قائمة إلى السماء.

وإنما شبهها برؤوس الشياطين وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين؛ لأنه قد استقر فى النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر.

وقيل: المراد بذلك ضرب من الحيات، رؤوسها بشعة المنظر.

وقيل: جنس من النبات، طلعه فى غاية الفحاشة.

وفى هذين الاحتمالين نظر، وقد ذكرهما ابن جرير، والأول أقوى وأولى، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾، ذكر تعالى أنهم يأكلون من هذه الشجرة التى لا أبشع منها، ولا أقبح من منظرها، مع ما هى عليه من سوء الطعم والريح والطبع، فإنهم ليضطرون إلى الأكل منها، لأنهم لا يجدون إلا إياها، وما[3] فى معناها، كما قال [تعالى][4]: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ . لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ [الغاشية: ٦، ٧].

وقال ابن أبى حاتم، رحمه الله: حدثنا أبى، حدثنا عمرو بن مرزوق، حدثنا شعبة، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس، رضى الله عنهما، أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية، وقال: «اتقوا الله حق تقاته، فلو أن قطرة من الزقوم قطرت فى بحار الدنيا، لأفسدت على أهل الأرض معايشهم، فكيف بمن يكون طعامه؟».

ورواه الترمذى، والنسائى، وابن ماجه، من حديث شعبة[5]، وقال الترمذى: حسن صحيح.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ قال ابن عباس: يعنى شرب الحميم على الزقوم.

---

(١) فى ت، س: «تختبر».
(٢) زيادة من ت، س، أ.
(٣) فى ت، س: «أو ما هو».
(٤) زيادة من ت، س.
(٥) سنن الترمذى برقم (٢٥٨٥) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٠٧٠) وسنن ابن ماجه برقم (٤٣٢٥).

وقال في رواية عنه: ﴿ شَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ : مزجا من حميم.

وقال غيره: يعنى يمزج لهم الحميم بصديد وغساق، مما يسيل من فروجهم وعيونهم.

وقال[١] ابن أبى حاتم، حدثنا أبى، حدثنا حَيْوَة بن شُرَيح الحضرمى، حدثنا بَقيَّة بن الوليد، عن صفوان بن عمرو، أخبرنى عبيد الله بن بسر[٢] عن[٣] أبى أمامة الباهلى، رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ، أنه كان يقول: «يقرب ـ يعنى إلى أهل النار ـ ماء فيتكرهه، فإذا أدنى منه شوى وجهه، ووقعت فروة رأسه فيه[٤]. فإذا شربه قطع أمعاءه حتى تخرج من دبره»[٥].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عمرو بن رافع، حدثنا يعقوب بن عبد الله، عن جعفر وهارون بن عنترة[٦]، عن سعيد بن جبير قال: إذا جاع أهل النار استغاثوا بشجرة الزقوم، فأكلوا منها فاختلست جلود وجوههم [فيها][٧]، فلو أن مارا يمر بهم يعرفهم لعرف وجوههم فيها، ثم يصب عليهم العطش، فيستغيثون فيغاثون بماء كالمهل ـ وهو الذى قد انتهى حره ـ فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التى قد سقطت عنها الجلود، ويصهر ما فى بطونهم، فيمشون تسيل أمعاؤهم وتتساقط جلودهم، ثم يضربون بمقامع من حديد، فيسقط كل عضو على حياله، يدعون بالثبور.

وقوله: ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴾ أى: ثم إن مردهم بعد هذا الفصل لإلى نار تتأجج، وجحيم تتوقد، وسعير تتوهج، فتارة فى هذا وتارة فى هذا، كما قال تعالى: ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴾ [الرحمن: ٤٤]. هكذا تلا قتادة هذه الآية عند هذه الآية، وهو تفسير حسن قوى.

وقال السدى فى قراءة عبد الله: « ثم إن مقيلهم لإلى الجحيم» وكان عبد الله يقول: والذى نفسى بيده لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة فى الجنة، وأهل النار فى النار. ثم قرأ: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤].

وروى الثورى، عن ميسرة، عن المنهال بن عمرو، عن أبى عبيدة، عن عبد الله قال: لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل هؤلاء ويقيل هؤلاء. قال سفيان: أراه، ثم قرأ: ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾، «ثم إن مقيلهم لإلى الجحيم».

قلت: على هذا التفسير تكون «ثم» عاطفة لخبر على خبر.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾ أى: إنما جازيناهم بذلك لأنهم وجدوا آباءهم على الضلالة فاتبعوهم فيها بمجرد ذلك، من غير دليل ولا برهان؛ ولهذا قال: ﴿ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ قال

---

(١) فى ت: «وروى». (٢) فى س، أ: «بشير». (٣) فى ت: «بإسناده».

(٤) فى ت، أ: «فروة رأسه فى فيه».

(٥) ورواه أحمد فى مسنده (٥/ ٢٦٥) والحاكم فى المستدرك (٢/ ٣٥١) من طريق عبد الله بن المبارك عن صفوان بن عمرو به.

(٦) فى ت: «وروى أيضا بإسناده». (٧) زيادة من ت.

مجاهد: شبيهة بالهرولة. وقال سعيد بن جبير: يسفهون.

﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ (٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ (٧٢) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣) إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ(٧٤) ﴾ .

يخبر تعالى عن الأمم الماضية أن أكثرهم كانوا ضالين يجعلون مع الله آلهة أخرى. وذكر تعالى أنه أرسل فيهم منذرين، ينذرون بأس الله، ويحذرونهم سطوته ونقمته، ممن كفر به وعبد غيره، وأنهم تمادوا على مخالفة رسلهم وتكذيبهم. فأهلك المكذبين ودمرهم، ونجى المؤمنين ونصرهم وظفرهم؛ ولهذا قال: ﴿ **فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ . إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ** ﴾.

﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (٧٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ (٧٨) سَلامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ (٨٢) ﴾ .

لما ذكر تعالى عن أكثر الأولين أنهم ضلوا عن سبيل النجاة، شرع يبين ذلك مفصلا، فذكر نوحا، عليه السلام، وما لقى من قومه من التكذيب، وأنه لم يؤمن منهم إلا القليل مع طول المدة، [فإنه][١] لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما، فلما طال عليه ذلك واشتد عليه تكذيبهم، وكلما دعاهم ازدادوا نفرة، فدعى ربه أنى مغلوب فانتصر، فغضب الله لغضبه عليهم؛ ولهذا قال: ﴿ **وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ** ﴾ أى: فلنعم المجيبون[٢] له، ﴿ **وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ** ﴾، وهو التكذيب والأذى، ﴿ **وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ** ﴾ قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس يقول: لم تبق إلا ذرية نوح عليه السلام.

وقال سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة فى قوله: ﴿ **وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ** ﴾ قال: الناس كلهم من ذرية نوح [عليه السلام][٣].

وقد روى الترمذى، وابن جرير، وابن أبى حاتم، من حديث سعيد بن بشير، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة، عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿ **وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ** ﴾، قال: «سام، وحام، ويافث».

وقال[٤] الإمام أحمد: حدثنا عبد الوهاب، عن سعيد، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة؛ أن نبى الله[٥] ﷺ قال: «سام أبو العرب، وحام أبو الحبش، ويافث أبو الروم».

ورواه الترمذى عن بشر بن معاذ العَقَدىّ، عن يزيد بن زُرَيع، عن سعيد ـ وهو ابن أبى عروبة ـ

(١) زيادة من ت.
(٢) فى ت، س، أ: «المجيبون كنا له».
(٣) زيادة من ت، أ.
(٤) فى ت: «وروى».
(٥) فى ت: «النبى».

عن قتادة، به[١].

قال الحافظ أبو عمر بن عبد البرّ: وقد روى عن عمران[٢] بن حُصين، عن النبى ﷺ مثله[٣].
والمراد بالروم هاهنا: هم الروم الأوَل، وهم اليونان المنتسبون إلى رومى بن ليطى بن يونان بن يافث ابن نوح، عليه السلام. ثم روى من حديث إسماعيل بن عياش، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب قال: ولد نوح ثلاثة: سام وحام ويافث، وولد كل واحد من هذه الثلاثة ثلاثة، فولد سامُ العربَ وفارسَ والرومَ، وولد يافثُ التركَ والصقالبةَ ويأجوج ومأجوج، وولد حامُ القبطَ والسودان والبربر. وروى عن وهب بن منبه نحو هذا[٤]، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ﴾، قال ابن عباس: يذكر بخير.

وقال مجاهد: يعنى لسان صدق للأنبياء كلهم.

وقال قتادة والسدى: أبقى الله عليه الثناء الحسن فى الآخرين. قال الضحاك: السلام والثناء الحسن.

وقوله تعالى: ﴿سَلامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ مفسر لما أبقى عليه من الذكر الجميل والثناء الحسن أنه يسلم عليه فى جميع الطوائف والأمم.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أى: هكذا نجزى من أحسن من العباد فى طاعة الله، نجعل[٥] له لسانَ صدْق يذكر به بعده بحسب مرتبته فى ذلك.

ثم قال: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: المصدقين الموحدين الموقنين، ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ﴾ أى: أهلكناهم، فلم تبْق[٦] منهم عين تطرف، ولا ذكر لهم ولا عين ولا أثر، ولا يعرفون إلا بهذه الصفة القبيحة.

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧)﴾ .

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ﴾ يقول: من أهل دينه. وقال مجاهد: على منهاجه وسنته.

﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ قال ابن عباس: يعنى: شهادة أن لا إله إلا الله.

---

(١) المسند (٥/ ٩) وسنن الترمذى برقم (٣٩٣١) وقال الترمذى: «هذا حديث حسن».
(٢) فى س: «عمر».
(٣) حديث عمران بن حصين: رواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٨/ ١٤٦) من طريق سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن عن عمران بن حصين وسمرة بن جندب به.
(٤) فى ت: «مثله». (٥) فى ت، س: «يجعل». (٦) فى ت، أ: «يبق».

وقال [١]ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشَجّ، حدثنا أبو أسامة، عن عَوْف: قلت لمحمد بن سيرين: ما القلب السليم؟ قال: يعلم [٢]أن الله حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من فى القبور.

وقال الحسن: سليم من الشرك، وقال عروة: لا يكون لعانا.

وقوله: ﴿ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾: أنكر عليهم عبادة الأصنام والأنداد؛ ولهذا قال: ﴿أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ . فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . قال قتادة: [يعنى][٣]: ما[٤]ظنكم به أنه فاعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره؟!

﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لا تَنطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ(٩٤) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦) قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ (٩٨) ﴾ .

إنما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه ذلك؛ليقيم فى البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم، فإنه كان قد أزف خروجُهم إلى عيد لهم، فأحب أن يختلى بآلهتهم فيكسرها، فقال لهم كلاما هو حق فى نفس الأمر، فَهموا منه أنه سقيم على مقتضى ما يعتقدونه، ﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ قال قتادة: والعرب تقول لمن تفكر: نظر فى النجوم: يعنى قتادة: أنه نظر فى[٥] السماء متفكرا فيما يلهيهم[٦] به، فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أى: ضعيف.

فأما الحديث الذى رواه ابن جرير هاهنا: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا أبو أسامة، حدثنى هشام، عن محمد، عن أبى هريرة[٧]؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لم يكذب إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، غير ثلاث كذبات: ثنتين فى ذات الله، قوله: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾[الأنبياء: ٦٣]، وقوله فى سارة: هى أختى»[٨].فهو حديث مخرج فى الصحاح[٩] والسنن من طرق [١٠]، ولكن ليس هذا من باب الكذب الحقيقى الذى يذم فاعله، حاشا وكلا وإنما أطلق الكذب على هذا

---

(١) فى ت: «وروى». (٢) فى ت: «تعلم». (٣) زيادة من س، أ.

(٤) فى ت: «فما». (٥) فى ت، س: «إلى». (٦) فى س: «يكيدهم».

(٧) فى ت: « فأما الحديث الذى رواه البخارى وأهل السنن عن أبى هريرة»

(٨) تفسير الطبرى (٢٣/ ٤٥) ورواه النسائى فى السنن الكبرى برقم (٨٣٧٤) من طريق حماد بن أسامة به.

(٩) فى ت: «الصحيح».

(١٠) جاء من طريق أيوب عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة: رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٠٨٤) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٣٧١) من طريق جرير بن حازم به، ورواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٣٥٨) من طريق حماد بن زيد به. وجاء من طريق أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة: رواه الترمذى فى السنن برقم (٣١٦٦) من طريق محمد بن إسحاق به، ورواه النسائى فى السنن الكبرى برقم (٨٣٧٥) من طريق شعيب بن أبى حمزة به.

تجوزا، وإنما هو من المعاريض في الكلام لمقصد شرعي ديني، كما جاء في الحديث: «إن [في][١] المعاريض لمندوحة عن الكذب»[٢].

وقال[٣] ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان، عن علي بن زيد بن جدعان، عن أبي نَضْرَة[٤]، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ في كلمات إبراهيم الثلاث التي قال: «ما منها كلمة إلا ما حمَل بها عن دين الله تعالى، فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقال: ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾، وقال للملك حين أراد المرأة: هي أختي»[٥].

قال سفيان في قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ يعني: طعين. وكانوا يفرون من المطعون، فأراد أن يخلو بآلهتهم. وكذا قال العوفي، عن ابن عباس: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ.فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾، فقالوا له وهو في بيت آلهتهم: اخرج. فقال: إني مطعون، فتركوه مخافة الطاعون.

وقال قتادة، عن سعيد بن المسيب: رأى نجما طلع فقال: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ كابد نبي الله عن دينه[٦] ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾.

وقال آخرون: فقال[٧]: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ بالنسبة إلى ما يستقبل، يعني: مرض الموت.

وقيل: أراد ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ﴾أي: مريض القلب من عبادتكم الأوثان من دون الله عز وجل.

وقال الحسن البصري: خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم، فأرادوه على الخروج، فاضطجع على ظهره وقال: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وجعل ينظر في السماء، فلما خرجوا أقبل إلى آلهتهم فكسرها. رواه ابن أبي حاتم.

ولهذا قال تعالى: ﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ أي: إلى عيدهم، ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ﴾ أي: ذهب إليها بعد أن خرجوا في سرعة واختفاء، ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾، وذلك أنهم كانوا قد وضعوا بين أيديها طعاما قربانا لتُبرِّك لهم فيه.

قال السدي: دخل إبراهيم، عليه السلام، إلى بيت الآلهة، فإذا هم[٨] في بَهْوٍ عظيم، وإذا مستقبل باب البهو صنم عظيم، إلى جنبه [صنم آخر][٩] أصغر منه، بعضها إلى جنب بعض، كل صنم يليه أصغر منه، حتى بلغوا باب البهو، وإذا هم قد جعلوا طعاما وضعوه بين أيدي الآلهة، وقالوا: إذا كان حين نرجع وقد بَرَكَت الآلهةُ في طعامنا أكلنا، فلما نظر إبراهيم، عليه السلام، إلى ما بين أيديهم من الطعام قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ . مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾؟!

---

(١) زيادة من ت، س، أ.

(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى (١٠/١٩٩) من طريق داود بن الزبرقان عن سعيد عن قتادة عن زرارة عن عمران بن الحصين مرفوعًا.

ورواه أيضًا من طريق عبد الوهاب بن عطاء عن سعيد عن قتادة عن مطرف عن عمران بن الحصين موقوفًا وقال: «هذا هو الصحيح موقوفًا».

(٣) في ت: «وروى». (٤) في ت: «بإسناده».

(٥) ورواه الترمذي في السنن برقم (٣١٤٨) حدثنا ابن أبي عمر عن سفيان به فذكر حديث الشفاعة مطولاً، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح» وعلي بن زيد بن جدعان أجمع الأئمة على ضعفه.

(٦) في ت، أ: «ذنبه». (٧) في ت، س: «أراد». (٨) في أ: «هن».

(٩) زيادة من ت، أ.

وقوله: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾: قال الفراء: معناه مال عليهم ضربا باليمين.

وقال قتادة والجوهرى: فأقبل عليهم ضربا باليمين.

وإنما ضربهم باليمين لأنها أشد وأنكى؛ ولهذا تركهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون، كما تقدم فى سورة الأنبياء تفسير ذلك.

وقوله هاهنا: ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾: قال مجاهد وغير واحد: أى يسرعون.

وهذه القصة هاهنا مختصرة، وفى سورة الأنبياء مبسوطة، فإنهم لما رجعوا ما عرفوا من أول وهلة من فعل ذلك حتى كشفوا واستعلموا، فعرفوا أن إبراهيم، عليه السلام، هو الذى فعل ذلك. فلما جاؤوا ليعاتبوه أخذ فى تأنيبهم وعيبهم، فقال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ ؟! أى: أتعبدون من دون الله من الأصنام ما أنتم تنحتونها وتجعلونها بأيديكم؟! ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ يحتمل أن تكون «ما» مصدرية، فيكون تقدير الكلام: والله خلقكم وعملكم. ويحتمل أن تكون بمعنى «الذى» تقديره: والله خلقكم والذى تعملونه. وكلا القولين متلازم، والأول أظهر؛ لما رواه البخارى فى كتاب «أفعال العباد»، عن على بن المدينى، عن مروان [(١)] بن معاوية، عن أبى مالك، عن ربْعىّ بن حراش، عن حذيفة مرفوعا قال: «إن الله يصنع كل صانع وصنعته»[(٢)]. وقرأ بعضهم: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾.

فعند ذلك لما قامت عليهم الحجة عدلوا إلى أخذه باليد والقهر، فقالوا: ﴿ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ وكان من أمرهم ما تقدم بيانه فى سورة الأنبياء، ونجاه الله من النار وأظهره عليهم، وأعلى حجته ونصرها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾.

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣)﴾.

يقول تعالى مخبرا عن خليله إبراهيم [عليه السلام][(٣)]: أنه بعد ما نصره الله على قومه وأيس من

(١) فى ت، س: «هارون».

(٢) خلق أفعال العباد (ص٧٣).

(٣) زيادة من ت، س.

إيمانهم بعد ما شاهدوا من الآياتِ العظيمة، هاجر من بين أظهرهم، وقال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ . رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ يعنى: أولادا مطيعين عوَضاً من قومه وعشيرته الذين فارقهم. قال الله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ وهذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام، فإنه أولُ ولد بشر به إبراهيم، عليه السلام، وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب، بل فى نص كتابهم أن إسماعيل وُلِدَ ولإبراهيم، عليه السلام، ست وثمانون سنة، وولد إسحاق وعمْر إبراهيم تسع وتسعون سنة. وعندهم أن الله تعالى أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده، وفى نسخة: بكْره، فأقحموا هاهنا كذبا وبهتانا «إسحاق»، ولا يجوز هذا لأنه مخالف لنص كتابهم، وإنما أقحموا «إسحاق» لأنه أبوهم، وإسماعيل أبو العرب، فحسدوهم، فزادوا ذلك وحَرّفوا وحيدك، بمعنى الذى ليس عندك غيره، فإن إسماعيل كان ذهب به وبأمه إلى جنب[1] مكة . وهذا تأويل وتحريف باطل، فإنه لا يقال: «وحيد» إلا لمن ليس له غيره، وأيضا فإن أول ولد له معزة ما ليس لمن بعده من الأولاد، فالأمر بذبحه أبلغ فى الابتلاء والاختبار.

وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق، وحكى ذلك عن طائفة من السلف، حتى نقل عن بعض الصحابة أيضا، وليس ذلك فى كتاب ولا سنة، وما أظن ذلك تُلقى إلا عن أحبار أهل الكتاب، وأخذ ذلك مسلما من غير حجة. وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل، فإنه ذكر البشارة بالغلام الحليم، وذكر أنه الذبيح، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾. ولما بشرت الملائكة إبراهيم بإسحاق قالوا: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: ٥٣]. وقال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، أى: يولد له فى حياتهما ولد يسمى يعقوب، فيكون من ذريته عقب ونسل. وقد قدمنا هناك أنه لا يجوز بعد هذا أن يؤمر بذبحه وهو صغير؛ لأن الله [تعالى][2] قد وعدهما بأنه سيعقب، ويكون له نسل، فكيف يمكن بعد هذا أن يؤمر بذبحه صغيرا، وإسماعيل وصف هاهنا بالحلم؛ لأنه مناسب لهذا المقام.

وقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ أى: كبر وترعرع وصار يذهب مع أبيه ويمشى معه. وقد كان إبراهيم، عليه السلام، يذهب فى كل وقت يتفقد ولده وأم ولده ببلاد «فاران» وينظر فى أمرهما، وقد ذكر أنه كان يركب على البراق سريعا إلى هناك، فالله أعلم.

وعن ابن عباس، ومجاهد، وعِكْرِمة، وسعيد بن جُبَيْر، وعطاء الخراسانى، وزيد بن أسلم، وغيرهم: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ يعنى: شب وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السعى والعمل، ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ قال عبيد بن عمير: رؤيا الأنبياء وَحْى، ثم تلا هذه الآية: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾.

وقد قال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين بن الجنيد، حدثنا أبو عبد الملك الكرندى، حدثنا

(١) فى ت: «حيث».
(٢) زيادة من ت.

سفيان بن عيينة، عن إسرائيل بن يونس، عن سِمَاك، عن عكرمة[١]، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «رؤيا الأنبياء فى المنام وَحْى» ليس هو فى شىء من الكتب الستة من هذا الوجه[٢].

وإنما أعلم ابنه بذلك ليكون أهون عليه، وليختبر صبره وجلده وعزمه من صغره على طاعة الله وطاعة أبيه.

﴿ **قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ** ﴾ أى: امض لما أمرك[٣] الله من ذبحى، ﴿**سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ**﴾ أى: سأصبر وأحتسب ذلك عند الله عز وجل. وصدق، صلوات الله وسلامه عليه، فيما وعد؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا. وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا**﴾ [مريم: ٥٤، ٥٥]. قال الله تعالى: ﴿ **فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ**﴾ أى: فلما تشهدا وذكرا الله تعالى[٤]: إبراهيم على الذبح والولد على شهادة الموت. وقيل: ﴿**أَسْلَمَا**﴾، [يعنى][٥]: استسلما وانقادا؛ إبراهيم امتثل أمْرَ الله، وإسماعيل طاعة الله وأبيه. قاله مجاهد، وعكرمة والسدى، وقتادة، وابن إسحاق، وغيرهم.

ومعنى ﴿ **تَلَّهُ لِلْجَبِينِ**﴾ أى: صرعه على وجهه ليذبحه من قفاه، ولا يشاهد وجهه عند ذبحه، ليكون أهون عليه، قال ابن عباس، ومجاهد[٦]، وسعيد بن جبير، والضحاك، وقتادة: ﴿**وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ**﴾: أكبه على وجهه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا سُرَيْج[٧] ويونس قالا: حدثنا حماد بن سلمة، عن أبى عاصم الغَنَوِىّ، عن أبى الطفيل[٨]، عن ابن عباس أنه قال: لما أمر إبراهيم بالمناسك[٩] عَرَض له الشيطان عند السعى، فسابقه فسبقه إبراهيم، ثم ذهب به جبريل إلى جمرة العقبة، فعرض له الشيطان، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات، وثَمّ تَلَّه للجبين، وعلى إسماعيل قميص أبيض، فقال له: يا أبت، إنه ليس لى ثوب تكفننى فيه غيره، فاخلعه حتى تكفننى فيه. فعالجه ليخلعه، فنُودىَ من خلفه: ﴿**أَن يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا**﴾، فالتفت إبراهيم فإذا بكبش أبيض أقرن أعين. قال ابن عباس: لقد رأيتنا نتبع ذلك الضرب من الكباش.

وذكر تمام الحديث فى «المناسك» بطوله[١٠]. ثم رواه أحمد بطوله عن يونس، عن حماد بن سلمة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير[١١]، عن ابن عباس، فذكر نحوه إلا أنه قال: «إسحاق»[١٢]. فعن ابن عباس فى تسمية الذبيح[١٣] روايتان، والأظهر عنه إسماعيل، لما سيأتى بيانه.

(١) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بإسناده».
(٢) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٦/١٢) من وجه آخر عن سماك: فرواه من طريق الفريابى عن سفيان عن سماك بن حرب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به.
(٣) فى أ: «أنزل». (٤) فى ت، س، أ: «عز وجل». (٥) زيادة من ت، وفى أ: «بمعنى».
(٦) فى ت: «ومجاهد وغيرهما». (٧) فى أ: «شريح». (٨) فى ت: «بإسناده».
(٩) فى أ: «لما أمر الله إبراهيم عليه السلام بالمناسك».
(١٠) المسند (١/٢٩٧).
(١١) فى ت: «بسنده».
(١٢) المسند (١/٣٠٦).
(١٣) فى أ: «الذبح».

وقال محمد بن إسحاق، عن الحسن بن دينار، عن قتادة، عن جعفر بن إياس، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ قال: خرج عليه كبش من الجنة. قد رعى قبل ذلك أربعين خريفاً، فأرسل إبراهيم ابنه واتبع الكبش، فأخرجه إلى الجمرة الأولى، فرماه بسبع حصيات فأفلتَه عندها، فجاء الجمرةَ الوسطى فأخرجه عندها، فرماه بسبع حصيات ثم أفلته[1] فأدركه عند الجمرة الكبرى، فرماه بسبع حصيات فأخرجه عندها. ثم أخذه، فأتى به المنحر من منى فذبحه، فوالذى نفسُ ابن عباس بيده لقد كان أول الإسلام، وإن رأس الكبش لمعلق بقرنيه فى ميزاب الكعبة قد حَشَّ[2]، يعنى: يبس.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن الزهرى، أخبرنا القاسم قال: اجتمع أبو هريرة وكعب، فجعل أبو هريرة يحدث عن النبى ﷺ، وجعل كعب يحدث عن الكُتُب، فقال أبو هريرة: قال النبى ﷺ: «إن لكل نبى دعوة مستجابة، وإنى قد خبَأتُ دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة». فقال له كعب: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: فداك أبى وأمى ـ أو: فداه أبى وأمى ـ أفلا أخبرك عن إبراهيم عليه السلام؟ إنه لما أُرِىَ ذَبْح ابنه إسحاق قال الشيطان: إن لم أفتن هؤلاء عند هذه لم أفتنهم أبدا. فخرج إبراهيم بابنه ليذبحه، فذهب الشيطان فدخل على سارة، فقال: أين ذهب إبراهيم بابنك؟ قالت: غدا به لبعض حاجته. قال: لم يغد لحاجة، وإنما ذهب به ليذبحه. قالت: ولِم يذبحه؟ قال: زعم أن ربه أمره بذلك. قالت: فقد أحسن أن يطيع ربه. فذهب الشيطان فى أثرهما فقال للغلام: أين يذهب بك أبوك؟ قال: لبعض حاجته. قال[3]: إنه[4] لا يذهب بك لحاجة، ولكنه يذهب بك ليذبحك. قال: ولم يذبحنى؟ قال: زعم أن ربه أمره بذلك. قال: فوالله لئن كان الله أمره بذلك ليفعلن. قال: فيئس منه فلحق[5] بإبراهيم، فقال: أين غدوت بابنك؟ قال: لحاجة. قال: فإنك لم تغد به لحاجة، وإنما غدوت به لتذبحه قال: ولَم أذْبَحه؟ قال: تزعم أن ربك أمرك بذلك. قال: فوالله لئن كان الله أمرنى[6] بذلك لأفعلن. قال: فتركه ويئس أن يطاع[7].

وقد رواه ابن جرير عن يونس، عن ابن وَهْب، عن يونس بن يزيد، عن ابن شهاب، أن عمرو ابن أبى سفيان بن أسيد[8] بن جَارِيَةَ الثقفى أخبره، أن كعباً قال لأبى هريرة... فذكره بطوله، وقال فى آخره: وأوحى الله إلى إسحاق أنى أعطيتك دعوة أستجيب لك فيها. قال إسحاق: اللهم، إنى أدعو [9]أن تستجيب لى: أيُّما عَبْد لقيك من الأولين والآخرين، لا يشرك بك شيئاً، فأدخله الجنة[10].

---

(١) فى س: «فأفلته». (٢) فى س: «وشح». (٣) فى أ: «فقال».
(٤) فى س: «فإنه». (٥) فى ت، س: «فيئس منه فتركه فلحق».
(٦) فى أ: «كان أمرنى ربى».
(٧) تفسير عبد الرزاق (٢/ ١٢٣).
(٨) فى أ: «أسد».
(٩) فى ت، س: «أدعوك».
(١٠) تفسير الطبرى (٢٣/ ٥٢).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا محمد بن الوزير الدمشقى، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عطاء بن يسار[١]، عن أبى هريرة [رضى الله عنه][٢]قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خيرنى بين أن يغفر لنصف أمتى، وبين أن أختبئ شفاعتى، فاختبأت شفاعتى، ورجوت أن تكفر الجَم[٣] لأمتى، ولولا الذى سبقنى إليه العبد الصالح لتعجلت فيها دعوتى، إن الله لما فرج عن إسحاق كرْبَ الذبح قيل له: يا إسحاق، سَلْ تُعْطَهْ. فقال: أما والذى نفسى بيده لأتعجلنها قبل نزغات الشيطان، اللهم من مات لا يشرك بك شيئا فاغفر له وأدخله الجنة».

هذا حديث غريب منكر[٤]. وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف الحديث، وأخشى أن يكون فى الحديث زيادة مُدْرَجَة، وهى قوله: «إن الله تعالى لما فرج عن إسحاق» إلى آخره، والله أعلم. فهذا إن كان محفوظاً فالأشبه أن السياق إنما هو عن «إسماعيل»، وإنما حرفوه بإسحاق؛ حَسَداً منهم كما تقدم، وإلا فالمناسك والذبائح إنما محلها بمنى من أرض مكة، حيث كان إسماعيل لا إسحاق [عليهما السلام][٥]، فإنه إنما كان ببلاد كنعان من أرض الشام.

وقوله تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ.قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا﴾ أى: قد حصل المقصودُ من رؤياك بإضجاعك ولدك للذبح.

وذكر السدى وغيره أنه أمَرّ السكين على رقبته فلم تقطع شيئاً، بل حال بينها وبينه صفيحة من نحاس، ونودى إبراهيم، عليه السلام، عند ذلك: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا﴾.

وقوله: ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أى: هكذا نصرف عمن أطاعنا المكاره والشدائد، ونجعل لهم من أمرهم فرجا ومخرجا، كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

وقد استدل بهذه الآية والقصة جماعة من علماء الأصول على صحة النسخ قبل التمكن من الفعل، خلافا لطائفة من المعتزلة، والدلالة من هذه ظاهرة، لأن الله تعالى شرع لإبراهيم ذَبْحَ ولده، ثم نسخه عنه وصرفه إلى الفداء، وإنما كان المقصود من شرعه أولا إثابة الخليل على الصبر على ذبح ولده وعزمه على ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ ﴾ أى: الاختبار الواضح الجلى؛ حيث أمر بذبح ولده، فسارع إلى ذلك مستسلما لأمر الله، منقادا لطاعته؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧].

(١) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بإسناده».
(٢) زيادة من ت.
(٣) فى أ: «أن تكون أعم».
(٤) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٣٦٠٣) وابن عدى فى الكامل (٤/ ٢٧٢) من طريق الوليد بن مسلم عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم به، وذكره ابن أبى حاتم فى العلل (٢/ ٢١٩) وقال: «سألت أبى، فقال: هذا حديث منكر».
(٥) زيادة من أ.

وقوله: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ قال سفيان الثورى، عن جابر الجُعْفى، عن أبى الطفيل، عن على، رضى الله عنه: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ قال: بكبش أبيض أعين أقرن، قد ربط بسمرة ـ قال أبو الطفيل وجدوه مربوطاً بسُمَرة فى ثَبِير[١].

وقال الثورى أيضا، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كبش قد رعى فى الجنة أربعين خريفاً.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا يوسف بن يعقوب الصفار، حدثنا داود العَطّار، عن ابن خثيم[٢]، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: الصخرة التى بمنى بأصل ثَبِير هى الصخرة التى ذبح عليها إبراهيم فداء ابنه، هبط عليه من ثبير كبش أعين أقرن له ثغاء، فذبحه، وهو الكبش الذى قَرّبه ابن آدم فتقبل منه، فكان مخزونا حتى فدى به إسحاق.

وروى أيضا عن سعيد بن جبير أنه قال: كان الكبش يرتع فى الجنة حتى تَشَقَق عنه ثبير، وكان عليه عِهْن أحمر.

وعن الحسن البصرى: أنه كان اسم كبش إبراهيم: جرير.

وقال ابن جُرَيْج: قال عبيد بن عمير: ذبحه بالمقام. وقال مجاهد: ذبحه بمنى عند المنحر[٣]. وقال هُشَيْم، عن سيار، عن عكرمة؛ أنّ ابن عباس كان أفتى الذى جعل عليه نذراً أن ينحر نفسه، فأمره بمائة من الإبل. ثم قال بعد ذلك: لو كنت أفتيته بكبش لأجزأه أن يذبح كبشا، فإن الله تعالى قال فى كتابه: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾.

والصحيح الذى عليه الأكثرون أنه فُدى بكبش. وقال الثورى، عن رجل، عن أبى صالح، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ قال: وَعْلٌ.

وقال محمد بن إسحاق، عن عمرو بن عبيد، عن الحسن أنه كان يقول: ما فدى إسماعيل إلا بتيس من الأرْوَى، أهبط عليه من ثبير[٤].

وقد قال[٥] الإمام أحمد: حدثنا سفيان، حدثنا منصور، عن خاله مُسافع[٦]، عن صفية بنت شيبة قالت: أخبرتنى امرأة من بنى سليم ـ ولَدت عامة أهل دارنا ـ أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان ابن طلحة ـ وقال[٧] مرة: إنها سألت عثمان: لم دعاك النبى ﷺ؟ قال: قال: «إنى كنتُ رأيتُ قرنى الكبش، حين دخلت البيت، فنسيت أن آمرك أن تخمرهما، فَخَمِّرْهما، فإنه لا ينبغى أن يكون فى البيت شىء يشغل المصلى». قال سفيان: لم يزل قرنا الكبش معلقين[٨] فى البيت حتى احترق البيت، فاحترقا[٩].

---

(١) فى أ: «ثبين». (٢) فى أ: «خيثم». (٣) فى أ: «النحر».
(٤) فى أ: «ثبين». (٥) فى ت: «وروى». (٦) فى أ: «شافع».
(٧) فى أ: «وقالت». (٨) فى أ: «معلقة».
(٩) المسند (٤/٦٨).

وهذا دليل مستقل على أنه إسماعيل، عليه السلام، فإن قريشا توارثوا قرنى الكبش الذى فدى به إبراهيم [١]خلفا عن سلف وجيلا بعد جيل، إلى أن بعث الله رسوله ﷺ.

فصل فى ذكر الآثار الواردة عن السلف فى أن الذبيح من هو؟:

ذكر من قال :هو إسحاق [عليه السلام][٢]:

قال حمزة الزيات، عن أبى ميسرة، رحمه الله، قال: قال يوسف، عليه السلام، للملك فى وجهه: ترغب أن تأكل معى، وأنا ـ والله ـ يوسف بن يعقوب نبى الله، ابن إسحاق ذبيح الله، ابن إبراهيم خليل الله.

وقال الثورى، عن أبى سنان، عن ابن أبى الهذيل: إن يوسف، عليه السلام، قال للملك كذلك أيضا.

وقال سفيان الثورى، عن زيد بن أسلم، عن عبد الله بن عبيد بن عمير، عن أبيه قال: «قال موسى: يارب، يقولون: يا إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فبم قالوا ذلك؟ قال: إن إبراهيم لم يعدل بى شىء قط إلا اختارنى عليه. وإن إسحاق جاد لى بالذبح، وهو بغير ذلك أجود. وإن يعقوب كلما زدته بلاء زادنى حسن ظن».

وقال شعبة، عن أبى إسحاق، عن أبى الأحوص قال: افتخر رجل عند ابن مسعود فقال: أنا فلان بن فلان، ابن الأشياخ الكرام. فقال عبد الله: ذاك يوسف بن يعقوب بن إسحاق ذبيح الله، ابن إبراهيم خليل الله [صلوات الله وسلامه عليهم][٣].

وهذا صحيح إلى ابن مسعود، وكذا روى عكرمة، عن ابن عباس أنه إسحاق. وعن أبيه العباس، وعلى بن أبى طالب مثل ذلك. وكذا قال عكرمة، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والشعبى، وعبيد بن عمير، وأبو ميسرة، وزيد بن أسلم، وعبد الله بن شقيق، والزهرى، والقاسم بن أبى بزة، ومكحول، وعثمان بن حاضر، والسدى، والحسن، وقتادة، وأبو الهذيل، وابن سابط. وهو اختيار ابن جرير. وتقدم روايته عن كعب الأحبار أنه إسحاق.

وهكذا روى ابن إسحاق عن عبد الله بن أبى بكر، عن الزهرى، عن أبى سفيان بن العلاء بن جارية[٤]، عن أبى هريرة، عن كعب الأحبار، أنه قال: هو إسحاق[٥].

وهذه الأقوال ـ والله أعلم ـ كلها مأخوذة عن كعب الأحبار، فإنه لما أسلم فى الدولة العمرية جعل يحدث عمر، رضى الله عنه، عن كتبه، فربما استمع له عمر، رضى الله عنه، فترخص الناس فى استماع ما عنده، ونقلوا عنه غثها وسمينها، وليس لهذه الأمة ـ والله أعلم ـ حاجة إلى حرف

---

(١) فى ت: «إسماعيل».
(٢) زيادة من ت، س.
(٣) زيادة من ت.
(٤) فى أ: «والعلاء بن حارث».
(٥) ورواه الطبرى فى تفسيره (٢٣/ ٥٢).

واحد مما عنده. وقد حكى البغوى هذا القول بأنه إسحاق عن عمر، وعلى، وابن مسعود، والعباس، ومن التابعين عن كعب الأحبار، وسعيد بن جبير، وقتادة، ومسروق، وعكرمة، ومقاتل، وعطاء، والزهرى، والسدى ـ قال: وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس(١).

وقد ورد فى ذلك حديث ـ لو ثبت لقلنا به على الرأس والعين، ولكن لم يصح سنده ـ قال ابن جرير:

حدثنا أبو كريب، حدثنا زيد بن حباب، عن الحسن بن دينار، عن على بن زيد بن جدعان، عن الحسن، عن الأحنف بن قيس، عن العباس بن عبد المطلب، عن النبى ﷺ فى حديث ذكره قال: هو إسحاق(٢).

ففى إسناده ضعيفان(٣)، وهما الحسن بن دينار البصرى، متروك. وعلى بن زيد بن جدعان منكر الحدث. وقد رواه ابن أبى حاتم، عن أبيه، عن مسلم بن إبراهيم، عن حماد بن سلمة، عن على بن زيد بن جدعان، به مرفوعا (٤). ثم قال: قد رواه مبارك بن فضالة، عن الحسن، عن الأحنف، عن العباس قوله، وهذا(٥) أشبه وأصح.

[ذكر الآثار الواردة بأنه إسماعيل ـ عليه السلام ـ وهو الصحيح المقطوع به](٦):

قد تقدمت الرواية عن ابن عباس أنه إسحاق. قال سعيد بن جبير، وعامر الشعبى، ويوسف بن مهران، ومجاهد، وعطاء، وغير واحد، عن ابن عباس، هو إسماعيل عليه السلام.

وقال ابن جرير: حدثنى يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى عمرو بن قيس، عن عطاء بن أبى رباح(٧)، عن ابن عباس أنه قال: المفدى إسماعيل، عليه السلام، وزعمت اليهود أنه إسحاق، وكذبت اليهود(٨).

وقال إسرائيل، عن ثور، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: الذبيح إسماعيل.

وقال ابن أبى نجيح، عن مجاهد: هو إسماعيل. وكذا قال يوسف بن مهران.

وقال الشعبى: هو إسماعيل، عليه السلام، وقد رأيت قرنى الكبش فى الكعبة.

وقال(٩) محمد بن إسحاق، عن الحسن بن دينار، وعمرو بن عبيد، عن الحسن البصرى: أنه كان لا يشك فى ذلك: أن الذى أمر بذبحه من ابنى إبراهيم إسماعيل.

قال ابن إسحاق: وسمعت محمد بن كعب القرظى وهو يقول: إن الذى أمر الله إبراهيم بذبحه

---

(١) معالم التنزيل للبغوى (٧/ ٤٦).
(٢) تفسير الطبرى (٢٣/ ٥٢).
(٣) فى ت: «لأن فى سنده ضعيفين».
(٤) فى ت: « مرفوعا قال :هو إسحاق».
(٥) فى ت: «وهو».
(٦) زيادة من ت، س.
(٧) فى ت: «وروى ابن جرير بإسناده».
(٨) تفسير الطبرى (٢٣/ ٥٢).
(٩) فى ت: «وروى».

من ابنيه إسماعيل. وإنا لنجد ذلك فى كتاب الله، وذلك أن الله حين فرغ من قصة المذبوح من ابنى إبراهيم قال: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾. يقول الله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾، يقول: بابن وابن ابن، فلم يكن ليأمره بذبح إسحاق وله فيه من [الله](١) الموعود بما وعده(٢)، وما الذى أمر بذبحه إلا إسماعيل.

وقال ابن إسحاق، عن بريدة بن سفيان بن فروة(٣) الأسلمى، عن محمد بن كعب القرظى أنه حدثهم؛ أنه(٤) ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة إذ كان معه بالشام، فقال له عمر: إن هذا لشىء ما كنت أنظر فيه، وإنى لأراه كما قلت. ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام، كان يهوديا فأسلم وحسن إسلامه، وكان يرى أنه من علمائهم، فسأله عمر بن عبد العزيز عن ذلك ـ قال محمد ابن كعب: وأنا عند عمر بن عبد العزيز ـ فقال له عمر: أىُّ ابنى إبراهيم أُمِر بذبحه؟ فقال: إسماعيل والله يا أمير المؤمنين، وإن يهود لتعلم بذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب، على أن يكون أباكم الذى كان من أمر الله فيه، والفضل الذى ذكره الله منه لصبره لما أمر به، فهم يجحدون ذلك، ويزعمون أنه إسحاق، بكون(٥) إسحاق أبوهم، والله أعلم أيهما كان، وكل قد كان طاهرا طيبا مطيعا لله عز وجل(٦).

وقال عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله: سألت أبى عن الذبيح، من هو؟ إسماعيل أو إسحاق؟ فقال: إسماعيل. ذكره فى كتاب الزهد.

وقال ابن أبى حاتم: وسمعت أبى يقول: الصحيح أن الذبيح إسماعيل، عليه السلام. قال: وروى عن على، وابن عمر، وأبى هريرة، وأبى الطفيل، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، والحسن، ومجاهد، والشعبى، ومحمد بن كعب القرظى، وأبى جعفر محمد بن على، وأبى صالح أنهم قالوا: الذبيح إسماعيل.

وقال البغوى فى تفسيره: وإليه ذهب عبد الله بن عمر، وسعيد بن المسيب، والسدى، والحسن البصرى، ومجاهد، والربيع بن أنس، ومحمد بن كعب القرظى، والكلبى، وهو رواية عن ابن عباس، وحكاه أيضا عن أبى عمرو بن العلاء(٧).

وقد روى ابن جرير فى ذلك حديثا غريبا فقال: حدثنى محمد بن عمار الرازى، حدثنا إسماعيل ابن عبيد بن أبى كريمة، حدثنا عمر بن عبد الرحيم الخطابى، عن عبيد الله بن محمد العتبى ـ من ولد عتبة بن أبى سفيان ـ عن أبيه: حدثنى عبد الله بن سعيد، عن الصنابحى قال: كنا عند معاوية بن

---

(١) زيادة من أ.
(٢) فى أ: «ما أوعده».
(٣) فى أ: «بردة».
(٤) فى ت: «به».
(٥) فى أ: «لأن».
(٦) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٣/ ٥٤).
(٧) معالم التنزيل للبغوى (٧/ ٤٧).

أبى سفيان، فذكروا الذبيح: إسماعيل أو إسحاق؟ فقال: على الخبير[١] سقطتم، كنا عند رسول الله ﷺ، فجاءه رجل فقال: يا رسول الله، عُدْ على مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين. فضحك رسول الله ﷺ، فقيل له: يا أمير المؤمنين، وما الذبيحان؟ فقال: إن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم نذر لله إن سهل الله أمرها عليه، ليذبحن أحد ولده، قال: فخرج السهم على عبد الله، فمنعه أخواله وقالوا: افد ابنك بمائة من الإبل. ففداه بمائة من الإبل، وإسماعيل الثانى[٢].

وهذا حديث غريب جدا. وقد رواه الأموى فى مغازيه: حدثنا بعض أصحابنا، أخبرنا إسماعيل ابن عبيد بن أبى كريمة، حدثنا عمر بن عبد الرحمن القرشى، حدثنا عبيد الله[٣] بن محمد العتبى ـ من ولد عتبة بن أبى سفيان ـ حدثنا عبد الله بن سعيد، حدثنا الصنابحى قال: حضرنا مجلس معاوية، فتذاكر القوم إسماعيل وإسحاق، وذكره. كذا كتبته من نسخة مغلوطة[٤].

وإنما عول ابن جرير فى اختياره أن الذبيح إسحاق على قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ﴾، فجعل هذه البشارة هى البشارة بإسحاق فى قوله: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨]. وأجاب عن البشارة بيعقوب بأنه قد كان بلغ معه السعى، أى العمل. ومن الممكن أنه قد كان ولد له أولاد مع يعقوب أيضا. قال: وأما القرنان اللذان كانا معلقين بالكعبة فمن الجائز أنهما نقلا من بلاد الشام. قال: وقد تقدم أن من الناس من ذهب إلى أنه ذبح إسحاق هناك. هذا ما اعتمد عليه فى تفسيره، وليس ما ذهب إليه بمذهب ولا لازم، بل هو بعيد جدا، والذى استدل به محمد بن كعب القرظى على أنه إسماعيل أثبت وأصح وأقوى، والله أعلم[٥].

وقوله: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾، لما تقدمت البشارة بالذبيح ـ وهو إسماعيل ـ عطف بذكر البشارة بأخيه إسحاق، وقد ذكرت فى سورتى[٦] «هود» و «الحجر»[٧].

وقوله: ﴿نَبِيًّا﴾ حال مقدرة، أى: سيصير منه نبى من الصالحين.

وقال ابن جرير: حدثنى يعقوب، حدثنا ابن علية، عن داود، عن عكرمة قال: قال ابن عباس، رضى الله عنهما: الذبيح إسحاق. قال: وقوله: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ قال: بشر بنبوته. قال: وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣] قال: كان هارون أكبر من موسى، ولكن أراد: وهب له نبوته.

وحدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر بن سليمان قال: سمعت داود يحدث، عن عكرمة، عن ابن عباس فى هذه الآية: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ قال: إنما بشر به نبيا حين فداه الله من الذبح، ولم تكن البشارة بالنبوة عند مولده[٨].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان الثورى، عن داود، عن عكرمة،

(١) فى س: «الخبر».
(٢) تفسير الطبرى (٢٣/ ٥٤).
(٣) فى أ: «عبد الله».
(٤) فى أ: «من نسخة كذا والله أعلم».
(٥) وقد حرر هذه المسألة الإمام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ فى الفتاوى. انظر المواضع فى: الفهرس العام (٣٦/ ٣٢).
(٦) فى ت: «سورة».
(٧) سورة هود، الآية: ٧١، وسورة الحجر، الآية: ٥٣ .
(٨) تفسير الطبرى (٢٣/ ٥٧).

عن ابن عباس: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ قال: بشر به حين ولد، وحين نبئ.

وقال سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة فى قوله: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ قال: بعد ما كان من أمره، لما جاد لله بنفسه، وقال الله: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾ .

وقوله: ﴿ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾، كقوله تعالى: ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [هود: ٤٨].

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١١٤) وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (١١٥) وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (١١٦) وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (١١٧) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (١١٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الآخِرِينَ (١١٩) سَلامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٢٢) ﴾ .

يذكر تعالى ما أنعم به على موسى وهارون من النبوة والنجاة بمن آمن معهما من قهر فرعون وقومه، وما كان يعتمده فى حقهم من الإساءة العظيمة، من قتل الأبناء واستحياء النساء، واستعمالهم فى أخس الأشياء. ثم بعد هذا كله نصرهم عليهم، وأقر أعينهم منهم، فغلبوهم وأخذوا أرضهم وأموالهم وما كانوا جمعوه طول حياتهم. ثم أنزل الله على موسى الكتاب العظيم الواضح الجلى المستبين، وهو التوراة، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً﴾ [الأنبياء: ٤٨]، وقال هاهنا: ﴿ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ. وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أى: فى[1] الأقوال والأفعال، ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الآخِرِينَ﴾ أى: أبقينا لها[2] من بعدهما ذكرا جميلا وثناء حسنا، ثم فسره بقوله: ﴿سَلامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ . إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ (١٢٩) سَلامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ(١٣٢) ﴾ .

قال[3] قتادة، ومحمد بن إسحاق، يقال: إلياس هو إدريس.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو نعيم، حدثنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن عبيدة ابن ربيعة[4]، عن عبد الله بن مسعود،رضى الله عنه، قال: إلياس هو إدريس. وكذا قال الضحاك. .

---

(١) فى أ: «من» .
(٢) فى ت، س: «لهما».
(٣) فى ت: «وروى».
(٤) فى ت: «وقال ابن أبى حاتم بإسناده».

وقال وَهْب بن منبِّه: هو إلياس بن ياسين[١] بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران، بعثه الله فى بنى إسرائيل بعد حزقيل، عليهما السلام، وكانوا قد عبدوا صنما يقال له: «بعل»، فدعاهم إلى الله، ونهاهم عن عبادة ما سواه. وكان قد آمن به ملكهم ثم ارتد[٢]، واستمروا على ضلالتهم، ولم يؤمن به منهم أحد. فدعا الله عليهم، فحبس عنهم القطر ثلاث سنين، ثم سألوه أن يكشف ذلك عنهم، ووعدوه[٣] الإيمان به إن هم أصابهم المطر. فدعا الله لهم، فجاءهم الغيث فاستمروا على أخبث ما كانوا عليه من الكفر، فسأل الله أن يقبضه إليه. وكان قد نشأ على يديه اليسع بن أخطوب، عليه السلام، فأمر إلياس أن يذهب إلى مكان كذا وكذا، فمهما جاءه فليركبه ولا يهبه، فجاءته فرس من نار فركب[٤]، وألبسه الله النور وكساه الريش، وكان يطير مع الملائكة ملكا إنسيا سماويا أرضيا، هكذا حكاه وهب عن أهل الكتاب، والله أعلم بصحته.

﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أى: ألا تخافون الله فى عبادتكم غيره؟ **﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾** قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والسدى: **﴿بَعْلاً﴾** يعنى: ربا.

قال قتادة وعكرمة: وهى لغة أهل اليمن. وفى رواية عن قتادة قال: هى لغة أزد شنوءة.

وقال ابن إسحاق: أخبرنى بعض أهل العلم أنهم كانوا يعبدون امرأة اسمها: «بعل».

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه: هو اسم صنم كان يعبده أهل مدينة يقال لها: «بعلبك»، غربى دمشق.

وقال الضحاك: هو صنم كانوا يعبدونه.

وقوله: **﴿أَتَدْعُونَ بَعْلاً﴾** أى: أتعبدون صنما؟ **﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ. اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾** أى: هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له.

قال الله تعالى: **﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾** أى للعذاب يوم الحساب، **﴿ إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾** أى: الموحدين منهم. وهذا استثناء منقطع من مثبت.

وقوله: **﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ﴾** أى: ثناء جميلا، **﴿سَلامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ﴾** كما يقال فى إسماعيل: إسماعين. وهى لغة بنى أسد. وأنشد بعض بنى نمير فى ضَبٍّ صَادَه.

يَقُولُ رَبّ السوق لما جينا   هذا وربِّ البيت إسْرَائينا[٥]

ويقال: ميكال، وميكائيل، وميكائين، وإبراهيم وإبراهام، وإسرائيل وإسرائين ، وطور سيناء، وطور سينين. وهو موضع واحد، وكل هذا سائغ[٦].

وقرأ آخرون: «سلام على إدراسين»، وهى قراءة عبد الله بن مسعود. وآخرون: **«سَلامٌ عَلَىٰ آلْ يَاسِينَ»**، يعنى: آل محمد ﷺ.

وقوله: **﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾** قد تقدم تفسيره[٧].

---

(١) فى ت: «شبى» وفى س: «تبى».
(٢) فى ت: «ارتدوا».
(٣) فى ت، س: «فوعدوه».
(٤) فى ت، س: «فركبه».
(٥) البيت فى تفسير الطبرى (٢٣/٥٧).
(٦) فى أ: «شائع».
(٧) فى ت: «كما تقدم من تفسيرها».

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴾ .

يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط، عليه السلام، أنه بعثه إلى قومه فكذبوه، فنجاه الله من بين أظهرهم هو وأهله، إلا امرأته فإنها هلكت مع من هلك من قومها، فإن الله تعالى أهلكهم بأنواع من العقوبات، وجعل محلتهم من الأرض بحيرة منتنة قبيحة المنظر والطعم والريح، وجعلها بسبيل مقيم يمر بها المسافرون ليلا ونهارا؛ ولهذا قال: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ. وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾: أى: أفلا تعتبرون بهم، كيف دمر الله عليهم، وتعلمون أن للكافرين أمثالها؟

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (١٤٨) ﴾ .

قد تقدمت قصة يونس، عليه السلام، فى سورة الأنبياء. وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما ينبغى لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متَّى ونَسَبَه إلى أمه»[(١)]، وفى رواية قيل: «إلى أبيه».

وقوله: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ قال ابن عباس: هو الموقر، أى: المملوء بالأمتعة.

﴿فَسَاهَمَ﴾ أى: قارع، ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ أى: المغلوبين. وذلك أن السفينة تَلَعَّبَت[(٢)] بها الأمواج من كل جانب، وأشرفوا على الغرق، فساهموا على من تقع عليه القرعة يلقى فى البحر، لتخف بهم السفينة، فوقعت القرعة على نبى الله يونس، عليه الصلاة والسلام[(٣)]، ثلاث مرات، وهم يضنون[(٤)] به أن يلقى من بينهم، فتجرد من ثيابه ليلقى نفسه وهم يأبون عليه ذلك. وأمر الله تعالى حوتا من البحر الأخضر أن يشق البحار، وأن يلتقم يونس، عليه السلام، فلا يَهْشِمُ له لحما، ولا يكسر له عظما[(٥)] . فجاء ذلك الحوت وألقى يونس، عليه السلام، نفسه، فالتقمه الحوت وذهب به فطاف به البحار كلها. ولما استقر يونس فى بطن الحوت، حسب أنه قد مات، ثم حرك رأسه ورجليه وأطرافه فإذا هو حى، فقام يصلى فى بطن الحوت، وكان من جملة دعائه: «يا رب، اتخذتُ لك مسجدا فى موضع لم يبلغه أحد من الناس» واختلفوا فى مقدار ما لبث فى بطن الحوت، فقيل: ثلاثة أيام، قاله قتادة. وقيل: جُمْعَة[(٦)]، قاله جعفر الصادق. وقيل: أربعين يوما، قاله أبو مالك.

---

(١) صحيح البخارى برقم (٣٣٩٥) وصحيح مسلم برقم (٢٣٧٧).
(٢) فى أ: «تلعب». (٣) فى ت: «عليه السلام». (٤) فى ت: «يظنون».
(٥) فى س: «فلا تهشم له لحما ولا تكسر له عظما». (٦) فى ت، س، أ: «سبعة».

وقال مُجَالد[١]، عن الشعبي: التقمه ضحى، وقذفه[٢] عشية.

والله أعلم بمقدار ذلك. وفي شعر أمية بن أبي الصلت:

وَأَنْتَ بفَضلٍ منْكَ نَجَّيتَ يُونُساً وَقَدْ بَاتَ فِي أضْعَاف حُوتٍ ليَاليا[٣]

وقوله: ﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، قيل: لولا ما تقدم له من العمل في الرخاء. قاله الضحاك بن قيس، وأبو العالية، ووهب بن مُنَبِّه، وقتادة، وغير واحد. واختاره ابن جرير. وقد ورد في الحديث الذي سنورده ما يدل على ذلك إن صح الخبر. وفي حديث عن ابن عباس: «تَعَرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة»[٤].

وقال ابن عباس، وسعيد بن جُبَيْر، والضحاك، وعطاء بن السائب، والسدي، والحسن، وقتادة: ﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾، يعني: المصلين.

وصرح بعضهم بأنه كان من المصلين قبل ذلك. وقال بعضهم: كان من المسبحين في جوف أبويه.

وقيل: المراد: ﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾، هو قوله: ﴿ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ. فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨]، قاله سعيد بن جبير وغيره.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخي ابن وهب، حدثنا عمي، حدثنا أبو صخر[٥]: أن يزيد الرّقاشي حَدّثه: أنه سمع أنس بن مالك ـ ولا أعلم إلا أنّ أنسا يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ ـ «أن يونس النبي ﷺ[٦] حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات، وهو في بطن الحوت، فقال: اللهم، لا إله إلا أنت سبحانك، إني كنت من الظالمين. فأقبلت الدعوة تحف بالعرش، قالت الملائكة: يا رب، هذا صوت ضعيف معروف من بلاد بعيدة غريبة؟ فقال: أما تعرفون ذلك؟ قالوا: يا رب، ومن هو؟ قال: عبدي يونس. قالوا: عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل متقبل، ودعوة مستجابة؟ قالوا: يا رب، أو لا ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتنجِّيه من البلاء؟ قال: بلى. فأمر الحوت فطرحه بالعَراء».

ورواه ابن جرير، عن يونس، عن ابن وهب، به[٧][٨]. زاد ابن أبي حاتم: قال أبو صخر حُمَيد ابن زياد: فأخبرني ابن قُسَيط وأنا أحدثه هذا الحديث: أنه سمع أبا هريرة يقول: طرح بالعراء، وأنبت الله عليه اليقطينة. قلنا: يا أبا هريرة، وما اليقطينة، قال: شجرة الدُّباء. قال أبو هريرة: وَهَيَّأَ الله له أرْوِيَّة وحشية تأكل من خشاش الأرض ـ أو قال: هشاش الأرض ـ قال: فتَتَفشَّح[٩] عليه فتَرْويه من لبنها كل عَشيَّة وبُكرةٍ حتى نَبَت.

(١) في ت: «مجاهد». (٢) في أ: «ونقله».
(٣) البيت في السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٢٨).
(٤) سيأتي تخريجه عند الآية: ٣٨ من سورة الزمر.
(٥) في ت: «بإسناده». (٦) في ت، س: «عليه السلام». (٧) بياض في س.
(٨) تفسير الطبري (٢٣/ ٦٤).
(٩) في ت ، س: «فتنفشخ» .

وقال أمية بن أبى الصلت فى ذلك بيتا من شعره:

فَأنْبَتَ يَقْطيناً عَلَيه برَحْمَةٍ   مِن الله، لَولا اللهُ ألفى ضَاحيا(١)

وقد تقدم حديث أبى هريرة مسنداً مرفوعا فى تفسير سورة «الأنبياء»(٢).

ولهذا قال تعالى: ﴿فَنَبَذْنَاهُ﴾ أى: ألقيناه ﴿بِالْعَرَاءِ﴾ قال ابن عباس، وغيره: وهى الأرض التى ليس بها نبت ولا بناء. قيل: على جانب دجلة. وقيل: بأرض اليمن. فالله أعلم.

﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ أى: ضعيف البدن. قال ابن مسعود، رضى الله عنه: كهيئة الفرخ ليس عليه ريش. وقال السدى: كهيئة الصبى (٣): حين يولد، وهو المنفوس. وقاله ابن عباس، وابن زيد أيضا.

﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾: قال ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ووهب بن منبه، وهلال بن يَسَاف، وعبد الله بن طاوس، والسدى، وقتادة، والضحاك، وعطاء الخراسانى(٤)، وغير واحد قالوا كلهم: اليقطين هو القرع.

وقال هُشَيم، عن القاسم بن أبى أيوب، عن سعيد بن جُبَيْر: كل شجرة لا ساق لها فهى من اليقطين.

وفى رواية عنه: كل شجرة تَهْلك من(٥) عَامِها فهى من اليقطين.

وذكر بعضهم فى القرع فوائد، منها: سرعة نباته، وتظليلُ ورقه لكبره، ونعومته، وأنه لا يقربها الذباب، وجودة أغذية ثمره، وأنه يؤكل نيئا ومطبوخا بلبه وقشره أيضا. وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يُحِبّ الدُّبَّاء، ويتتبعه(٦) من حَوَاشى الصَّحْفة(٧)(٨).

وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾: روى شَهْر بن حَوْشَب، عن ابن عباس أنه قال: إنما كانت رسالة يونس بعد ما نبذه الحوت. رواه ابن جرير: حدثنى الحارث قال: حدثنا الحسن قال: حدثنا أبو(٩) هلال، عن شهر، به.

وقال ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد: أرسل إليهم قبل أن يلتقمه الحوت.

قلت: ولا مانع أن يكون الذين أرسل إليهم أولا، أمر بالعود إليهم بعد خروجه من الحوت، فصدقوه كلهم وآمنوا به. وحكى البغوى أنه أرسل إلى أمة أخرى بعد خروجه من الحوت، كانوا مائة ألف أو يزيدون.

وقوله: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ قال ابن عباس ـ فى رواية عنه ـ: بل يزيدون، وكانوا مائة وثلاثين ألفا.

---

(١) البيت فى السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٢٨).
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٨٧.
(٣) فى أ: «الصبى يعنى».
(٤) فى ت: «وابن عباس وغيرهما من التابعين».
(٥) فى ت: «فى».
(٦) فى أ: «ويتبعه».
(٧) فى ت: «القصعة».
(٨) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٤٣٩) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه.
(٩) فى أ: «ابن».

وعنه: مائة ألف وبضعةً وثلاثين ألفا. وعنه: مائة ألف وبضعةً وأربعين ألفا.

وقال سعيد بن جبير: يزيدون سبعين ألفا.

وقال مكحول: كانوا مائة ألف وعشرة آلاف. رواه ابن أبى حاتم.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الرحيم البَرْقى[١]، حدثنا عمرو بن أبى سلمة قال: سمعت زُهَيراً عمن سمع أبا العالية قال: حدثنى أبى بن كعب: أنه سأل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾، قال: «يزيدون عشرين ألفا»[٢].

ورواه الترمذى عن على بن حُجْر، عن الوليد بن مسلم، عن زُهَير، عن رجل، عن أبى العالية، عن أبى بن كعب، به، وقال: غريب. ورواه ابن أبى حاتم من حديث زهير، به[٣].

قال ابن جرير: وكان بعض أهل العربية من أهل البصرة يقول فى ذلك: معناه إلى المائة الألف[٤]، أو كانوا يزيدون عندكم، يقول: كذلك كانوا عندكم.

وهكذا سلك ابن جرير هاهنا ما سلكه عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، وقوله: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧]، وقوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾[النجم: ٩] أن المراد ليس أنقص من ذلك، بل أزيد.

وقوله: ﴿فَآمَنُوا﴾ أى: فآمن هؤلاء القوم الذين أرسل إليهم يونس، عليه السلام، جميعهم. ﴿فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أى: إلى وقت آجالهم، كقوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (١٥٠) أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ (١٥٦) فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٥٧) وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٠)﴾.

يقول تعالى منكراً على هؤلاء المشركين فى جعلهم لله البنات، سبحانه، ولهم ما يشتهون، أى: من الذكور، أى: يَودّون لأنفسهم الجيد. ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: ٥٨] أى: يسوؤه ذلك، ولا يختار لنفسه إلا البنين. يقول تعالى: فكيف نسبوا إلى الله

(١) فى أ: «الرقى».
(٢) تفسير الطبرى (٢٣/ ٦٧).
(٣) سنن الترمذى برقم (٣٢٢٩).
(٤) فى أ: «ألف».

[تعالى][(١)] القسم الذى لا يختارونه لأنفسهم؟ ولهذا قال: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ أى: سلهم على سبيل الإنكار عليهم: ﴿ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ كقوله: ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ. تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ [النجم: ٢١، ٢٢].

وقوله: ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ أى: كيف حكموا على الملائكة أنهم إناث وما شاهدوا خلقهم؟ كقوله: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩] أى: يسألون عن ذلك يوم القيامة.

وقوله: ﴿أَلا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ﴾ أى: من كذبهم ﴿لَيَقُولُونَ. وَلَدَ اللَّهُ﴾أى: صدر منه الولد ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، فذكر الله عنهم فى الملائكة ثلاثة أقوال فى غاية الكفر والكذب، فأولا جعلوهم بنات الله، فجعلوا لله ولداً. وجعلوا ذلك الولد أنثى، ثم عبدوهم من دون الله. وكل منها كاف فى التخليد فى نار جهنم.

ثم قال منكرا عليهم: ﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ أى: أىّ شىء يحمله عن[(٢)] أن يختار البنات دون البنين؟ كقوله: ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا ﴾ [الإسراء: ٤٠]؛ ولهـذا قال: ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ أى: ما لكم عقول تتدبرون بها ما تقولون؟ ﴿ أَفَلا تَذَكَّرُونَ .أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ أى: حجة على ما تقولونه، ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى: هاتوا برهانا على ذلك يكون مستنداً إلى كتاب مُنَزّل من السماء عن الله: أنه اتخذ ما تقولونه، فإن ما تقولونه لا يمكن استناده[(٣)] إلى عقل، بل لا يُجَوّزُه العقل بالكلية.

وقوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ قال مجاهد: قال المشركون: الملائكةُ بناتُ الله. فسأل أبو بكر، رضى الله عنه: فمن أمهاتهن؟ قالوا: بنات سَرَوات الجن. وكذا قال قتادة، وابن زيد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ﴾ أى: الذين نسبوا إليهم ذلك: ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أى: إن الذين قالوا ذلك لمحضرون فى العذاب يوم الحساب لكذبهم فى ذلك وافترائهم، وقولهم الباطل بلا علم.

وقال العوفى: عن[(٤)] ابن عباس فى قوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ قال: زعم أعداء الله أنه تبارك وتعالى هو وإبليس أخوان . حكاه ابن جرير[(٥)].

وقوله: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أى: تعالى وتقدس وتنزه عن أن يكون له ولد، وعما يصفه به الظالمون الملحدون علوا كبيرا.

وقوله: ﴿إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ استثناء منقطع، وهو من مثبت، إلا أن يكون الضمير فى قوله: ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ عائد إلى جميع الناس ثم استثنى منهم المخلصين، وهم المتبعون للحق المنزل على كل نبى ومرسل. وجعل ابن جرير هذا الاستثناء من قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ.إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾، وفى هذا الذى قاله نظر.

---

(١) زيادة من ت، أ.
(٢) فى أ: «على».
(٣) فى س: «إسناده».
(٤) فى ت: «وعن».
(٥) تفسير الطبرى (٢٣/ ٦٩).

﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣) وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦) وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠) ﴾.

يقول تعالى مخاطبا للمشركين: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ . مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ . إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ أى: ما ينقاد[1] لمقالكم وما[2] أنتم عليه من الضلالة والعبادة الباطلة إلا من هو أضل منكم ممن ذُرِى للنار. ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. فهذا الضرب من الناس هو الذى ينقاد لدين الشرك والكفر والضلالة، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ . يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات: ٨، ٩] أى: إنما يضل به من هو مأفوك ومبطل.

ثم قال تعالى مُنَزّها للملائكة مما نَسبَوا[3] إليهم من الكفر بهم والكذب عليهم أنهم بنات الله: ﴿ وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ أى: له موضع مخصوص فى السماوات ومقامات العبادة[4] لا يتجاوزه ولا يتعداه[5].

وقال ابن عساكر فى ترجمته لمحمد بن خالد، بسنده إلى عبد الرحمن بن العلاء بن سعد[6]، عن أبيه ـ وكان ممن بايع يوم الفتح ـ أن رسول الله ﷺ قال يوما لجلسائه: «أطَّت السماء وحُقّ لها أن تَئطّ، ليس فيها موضع قَدَم إلا عليه ملك راكع أو ساجد». ثم قرأ: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ . وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴾[7].

وقال الضحاك فى تفسيره: ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ قال: كان مسروق يَرْوى عن عائشة، رضى الله عنها، أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما من السماء الدنيا موضع إلا عليه ملك ساجد أو قائم». فذلك قوله: ﴿ وَمَا مِنَّا إِلا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾[8].

وقال الأعمش، عن أبى إسحاق، عن مسروق: عن[9] ابن مسعود، رضى الله عنه، قال: إن فى السموات لسماء ما فيها موضع شبر إلا عليه جبهة ملك أو قدماه، ثم قرأ عبد الله: ﴿ وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ . وكذا قال سعيد بن جبير.

وقال قتادة: كانوا يُصَلُّون الرجال والنساء جميعاً، حتى نزلت: ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾، فتقدم الرجال وتأخر النساء.

---

(١) فى أ: «منقاد». (٢) فى س: «ولما». (٣) فى أ: «نسبوهم».
(٤) فى ت، س، أ: «العبادات». (٥) فى س: «لا نتجاوزه ولا نتعداه». (٦) فى أ: «سعيد».
(٧) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٥/ ٢٧٧ «القسم المخطوط»).
(٨) ورواه أبو الشيخ فى العظمة برقم (٥٠٨) والمروزى فى تعظيم قدر الصلاة برقم (٢٥٣) من طريق عبيد بن سليمان عن الضحاك به.
(٩) فى ت: «وعن».

﴿ وَإِنَّا لَنحنُ الصَّافُّونَ﴾ أى: نقف صفوفاً فى الطاعة، كما تقدم عند قوله: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾. قال ابن جُرَيْج، عن الوليد بن عبد الله بن أبى مغيث قال: كانوا لا يصفون فى الصلاة حتى نزلت: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾، فصفوا.

وقال أبو نَضْرَة: كان عمر إذا أقيمت الصلاة استقبل الناس بوجهه، ثم قال: أقيموا صفوفكم، استووا قياماً، يريد الله بكم هدى الملائكة، ثم يقول: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾، تأخر يا فلان، تقدم يا فلان، ثم يتقدم فيكبر، رضى الله عنه. رواه ابن أبى حاتم، وابن جرير.

وفى صحيح مسلم عن حذيفة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضِّلنا على الناس بثلاث: جُعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض مسجداً، وتربتها طهورا» الحديث[١].

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ أى: نصطف فنسبح الرب ونمجده ونقدسه وننزهه عن النقائص، فنحن عبيد له، فقراء إليه، خاضعون لديه.

وقال ابن عباس، ومجاهد: ﴿ وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ : الملائكة، ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾: الملائكة، ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾: الملائكة يسبحون الله عز وجل.

وقال قتادة: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ ، يعنى: المصلون، يثبتون[٢] بمكانهم من العبادة، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ . لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ. يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ. وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٩].

وقوله: ﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ . لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الأَوَّلِينَ . لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أى: قد كانوا يتمنون قبل أن تأتيهم يا محمد لو كان عندهم من يذكرهم بأمر الله، وما كان من أمر القرون الأولى، ويأتيهم بكتاب الله، كما قال تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢]، وقال: ﴿ أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ. أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٦، ١٥٧]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، وعيد أكيد وتهديد شديد، على كفرهم بربهم ـ سبحانه وتعالى ـ وتكذيبهم ـ رسوله ﷺ[٣].

(١) سبق تخريجه فى أول السورة.
(٢) فى ت: «ينبثون».
(٣) فى أ: « ﷺ تسليمًا».

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ (١٧٧) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٨) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) ﴾ .

يقول تعالى: ﴿**وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ**﴾ أى: تقدم فى الكتاب الأول أن العاقبة للرسل وأتباعهم فى الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ **كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿ **إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ** ﴾ [غافر: ٥١]؛ ولهذا قال: ﴿ **وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ** ﴾ أى: فى الدنيا والآخرة. كما تقدم بيان نصرتهم على قومهم ممن كذبهم وخالفهم، وكيف أهلك الله الكافرين، ونجى عباده المؤمنين: ﴿ **وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ** ﴾ أى: تكون لهم العاقبة. وقوله جل وعلا: ﴿ **فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ** ﴾ أى: اصبر على أذاهم لك، وانتظر إلى وقت مؤجل، فإنا سنجعل لك العاقبة والنصرة والظفر؛ ولهذا قال بعضهم: غَيَّى[١] ذلك إلى يوم بدر. وما بعدها أيضاً فى معناها.

وقوله: ﴿ **وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ** ﴾ أى: انظرهم وارتقب ماذا يحل بهم من العذاب والنكال على مخالفتك[٢] وتكذيبك؛ ولهذا قال على وجه التهديد والوعيد: ﴿ **فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ** ﴾. ثم قال عز وجل: ﴿ **أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ** ﴾ أى: هم إنما يستعجلون العذاب لتكذيبهم وكفرهم[٣]، فإن الله يغضب عليهم بذلك، ويعجل لهم العقوبة، ومع هذا أيضا كانوا من كفرهم وعنادهم يستعجلون العذاب والعقوبة، قال الله تعالى: ﴿ **فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ** ﴾ أى: فإذا نزل العذاب بمحلتهم، فبئس ذلك اليوم يومهم، بإهلاكهم ودمارهم[٤].

قال السدى: ﴿ **فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ** ﴾ يعنى: بدارهم، ﴿ **فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ** ﴾ أى: فبئس ما يصبحون، أى: بئس الصباح صباحهم؛ ولهذا ثبت فى الصحيحين من حديث إسماعيل بن عُلَيَّةَ، عن عبد العزيز بن صُهَيْب، عن أنس، رضى الله عنه، قال: صَبَّح رسول الله ﷺ خيبر، فلما خرجوا بفؤوسهم ومساحيهم ورأوا الجيش، رجعوا [وهم][٥] يقولون: محمد والله، محمد والخميس. فقال النبى ﷺ: «الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»[٦].

ورواه البخارى من حديث مالك، عن حُميد، عن أنس[٧].

وقال الإمام أحمد: حدثنا رَوح، حدثنا سعيد بن أبى عَرُوبَة، عن قتادة، عن أنس بن مالك، عن أبى طلحة قال: لما صَبَّح رسول الله ﷺ خيبر، وقد أخذوا مساحيهم وغَدَوا إلى حروثهم

---

(١) فى أ: «عنا». (٢) فى ت، أ: «بمخالفتك». (٣) فى أ: «لتكذيبك وكفرهم بك».
(٤) فى أ: «وبإدمارهم». (٥) زيادة من أ.
(٦) صحيح البخارى برقم (٣٧١) وصحيح مسلم برقم (١٣٦٥).
(٧) صحيح البخارى برقم (٤١٩٧).

وأرضيهم، فلما رأوا النبى ﷺ ولوا[١] مدبرين، فقال نبى الله ﷺ: «الله أكبر، الله أكبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»[٢].

لم يخرجوه من هذه الوجه، وهو صحيح على شرط الشيخين.

وقوله: ﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ . وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك.

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢) ﴾.

ينزه تعالى نفسه الكريمة ويقدسها ويبرئها عما يقوله الظالمون المكذبون المعتدون ـ تعالى وتقدس عن قولهم علواً كبيراً ـ ولهذا قال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ ، أى: ذى العزة التى لا تُرَام، ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أى: عن قول هؤلاء المعتدين المفترين، ﴿وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ أى: سلام الله عليهم فى الدنيا والآخرة، لسلامة ما قالوه فى ربهم، وصحته وحقيته[٣]، ﴿ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: له الحمد فى الأولى والآخرة فى كل حال. ولما كان التسبيح يتضمن التنزيه والتبرئة[٤] من النقص بدلالة المطابقة، ويستلزم إثبات الكمال، كما أن الحمد يدل على إثبات صفات الكمال مطابقة، ويستلزم التنزيه من النقص ـ قرن بينهما في هذا الموضع، وفى مواضع كثيرة من القرآن؛ ولهذا قال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ .وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وقال سعيد بن أبى عَرُوبَة، عن قتادة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سلمتم علىَّ فسلموا على المرسلين، فإنما أنا رسول من المرسلين».

هكذا رواه ابن جرير، وابن أبى حاتم، من حديث سعيد، عنه كذلك[٥].

وقد أسنده ابن أبى حاتم، رحمه الله، فقال: حدثنا على بن الحسين بن الجنيد، حدثنا أبو بكر الأعين، ومحمد بن عبد الرحيم صاعقة قالا: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا شيبان، عن قتادة قال: حدث أنس بن مالك، عن أبى طلحة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سلمتم علىّ فسلموا على المرسلين»[٦].

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا محمد بن أبى بكر، حدثنا نوح، حدثنا أبو هارون، عن أبى سعيد، عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا سلم[٧] قال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلامٌ عَلَى

---

(١) فى س، أ: «نكصوا».

(٢) المسند (٢/ ٢٨).

(٣) فى أ: «وحقيقته». (٤) فى أ: «والتنزيه».

(٥) تفسير الطبرى (٢٣/ ٧٤).

(٦) ورواه ابن مردويه وابن سعد كما فى الدر المنثور (٧/ ١٤٠) من طريق سعيد عن قتادة عن أنس عن أبى طلحة به مرفوعا.

(٧) فى س، أ: «إذا أراد أن يسلم».

الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ثم يسلم . إسناده ضعيف[١] .

وقال[٢] ابن أبى حاتم : حدثنا عمار بن خالد الواسطى ، حدثنا شبابة ، عن يونس بن[٣] أبى إسحاق[٤] ، عن الشعبى قال : قال رسول الله ﷺ : «من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة ، فليقل آخر مجلسه حين يريد أن يقوم : ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٥] .

وروى من وجه آخر متصل موقوف على[٦] على ، رضى الله عنه .

قال أبو محمد البغوى فى تفسيره : أخبرنا أبو سعيد أحمد بن شريح ، أخبرنا أبو إسحاق الثعلبى ، أخبرنى ابن فنجويه ، حدثنا أحمد بن جعفر بن حمدان ، حدثنا إبراهيم بن سهلويه ، حدثنا على بن محمد الطنافسى ، حدثنا وكيع ، عن ثابت بن أبى صفية ، عن الأصبغ بن نباتة ، عن على ، رضى الله عنه ، قال : من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه فى مجلسه : ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٧] .

وروى الطبرانى من طريق عبد الله بن صخر بن أنس[٨] ، عن عبد الله بن زيد بن أرقم ، عن أبيه ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : «من قال دبر كل صلاة : ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ثلاث مرات ، فقد اكتال بالجريب الأوفى من الأجر»[٩] .

وقد وردت أحاديث فى كفارة المجلس : سبحانك اللهم وبحمدك ، لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك . وقد أفردت لها جزءا على حدة ، فلتكتب هاهنا إن شاء الله تعالى[١٠] .

آخر تفسير سورة الصافات

(١) وفى إسناده عمارة بن جوين - أبو هارون العبدى - متروك الحديث ، ورواه أبو يعلى فى مسنده (٢/ ٣٦٣) فقال : حدثنا إسحاق ، حدثنا حماد ، عن أبى هارون بنحوه .

(٢) فى ت : «وروى» . (٣) فى أ : «عن» . (٤) فى ت : «بسنده» .

(٥) وذكره السيوطى فى الدر (٧/ ١٤١) ولم يعزه لغيره ، وهو مرسل .

(٦) فى ت : «بسنده» .

(٧) معالم التنزيل للبغوى (٧/ ٦٦) ورواه الواحدى فى الوسيط (٣/ ٥٣٦) عن الأصبغ بن نباتة به ، والأصبغ بن نباتة ضعفه الأئمة .

(٨) فى أ : «الأنسى» .

(٩) المعجم الكبير (٥/ ٢١١) من طريق عبد المنعم بن بشير عن عبد الله بن محمد الأنسى عن عبد الله بن زيد بن أرقم عن أبيه مرفوعا . قال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١٠٣) : «فيه عبد المنعم بن بشير ، وهو ضعيف جدا» .

(١٠) كذا ولم أجد إثباته فى النسخ ، والأحاديث التى وردت فى كفارة المجلس جاءت عن جمع من الصحابة والتابعين وهم :

١ - أبو هريرة :

قال الترمذى فى سننه برقم (٣٤٣٣) : أخبرنا أبو عبيدة بن أبى السفر الكوفى - أحمد بن عبد الله الهمدانى - حدثنا حجاج بن محمد قال : قال ابن جريج : أخبرنى موسى بن عقبة عن سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «من جلس فى مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك : سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك إلا غفر له ما كان فى مجلسه ذلك» .

ورواه النسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٢٣٠) ، والحاكم فى المستدرك (١/ ٥٣٦) من طريق ابن جريج به ، وقال الترمذى : حسن صحيح» ، وقال الحاكم : «إسناد على شرط مسلم إلا أن البخارى علله» .

=

. . . .

قال الحافظ ابن كثير: «علله الإمام أحمد والبخارى ومسلم وأبو حاتم وأبو زرعة والدارقطنى وغيرهم، ونسبوا الوهم فيه إلى ابن جريج»، على أن أبا داود قد رواه فى سننه برقم (٤٨٥٨) من طريق عبد الرحمن بن أبى عمرو عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة بنحوه.

٢ ـ أبو برزة الأسلمى:

قال أبو داود فى السنن برقم (٤٨٥٩): حدثنا محمد بن حاتم الجرجرائى وعثمان بن أبى شيبة، أن عبدة بن سليمان أخبرهم عن الحجاج بن دينار عن أبى هاشم عن أبى العالية عن أبى برزة الأسلمى قال: كان رسول الله ﷺ يقول بأخرة إذا أراد أن يقوم من المجلس: «سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك»، فقال رجل: يا رسول الله، إنك لتقول قولا ما كنت تقوله فيما مضى، قال: «كفارة لما يكون فى المجلس»، ورواه النسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٢٥٩)، والحاكم فى المستدرك (١/ ٥٣٧) من طريق الحجاج بن دينار به.

٣ ـ رافع بن خديج:

قال النسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٢٦٠): أخبرنا عبيد الله بن إبراهيم بن سعد قال: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا مصعب بن حيان ـ أخو مقاتل بن حيان ـ عن مقاتل بن حيان، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية الرياحى، عن رافع بن خديج قال: كان رسول الله ﷺ بأخرة إذا اجتمع إليه أصحابه فأراد أن ينهض قال: «سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، عملت سوءا، وظلمت نفسى، فاغفر لى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»، قال: فقلنا يا رسول الله، إن هذه كلمات أحدثتهن؟ قال: «أجل جاءنى جبريل عليه السلام فقال: يا محمد، هن كفارات المجلس»، ورواه الحاكم فى المستدرك (١/ ٥٣٧) من طريق يونس بن محمد به.

٤ ـ عبد الله بن عمرو بن العاص:

قال أبو داود فى السنن برقم (٤٨٥٧): حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب قال: أخبرنى عمرو أن سعيد بن هلال حدثه أن سعيد بن أبى سعيد المقبرى حدثه عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: كلمات لا يتكلم بهن أحد فى مجلسه عند قيامه ثلاث مرات إلا كفر بهن عنه، ولا يقولهن فى مجلس خير ومجلس ذكر إلا ختم له بهن عليه كما يختم بالخاتم على الصحيفة: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

هكذا رواه أبو داود موقوفا، وقد رواه الطبرانى من وجه آخر مرفوعا، قال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١٤٢): «وفيه محمد بن جامع العطار وثقه ابن حبان وضعفه جماعة، وبقية رجاله رجال الصحيح.

٥ ـ عبد الله بن مسعود:

قال الطبرانى فى المعجم الكبير (١٠/ ٢٠٣): حدثنا أحمد بن زهير التسترى، حدثنا عثمان بن حفص التومنى، حدثنا يحيى ابن كثير، عن عطاء بن السائب، عن أبى عبد الرحمن السلمى، عن عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كفارة المجلس أن يقول العبد: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا الله، أستغفرك وأتوب إليك» .

٦ ـ عائشة:

قال الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٤٦١١) «مجمع البحرين»: حدثنا محمد بن أحمد الرقام، حدثنا أحمد بن المقدام العجلى، حدثنا النضر بن أبى النضر، عن عمرو بن عبد الجبار، عن الحكم بن عتيبة، عن مسروق، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه إلى سقف البيت قال: «سبحانك اللهم وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك» قالت عائشة: فسألته عنهن، فقال: «أمرت بهن».

قال الطبرانى: لم يروه عن الحكم إلا عمرو، ولا عنه إلا النضر تفرد به أبو الأشعث.

وفى إسناده من لا يعرف.

ورواه النسائى فى عمل اليوم والليلة من وجه آخر، فرواه من طريق سعيد بن الحكم، عن خلاد بن سليمان، عن خالد بن أبى عمران، عن عروة بن الزبير، عن عائشة قالت: ما جلس رسول الله ﷺ مجلسا، ولا تلا قرآنا إلا ختم ذلك بكلمات، فقلت: يا رسول الله أراك ما تجلس مجلسا، ولا تتلو قرآنا، ولا تصلى إلا ختمت بهؤلاء الكلمات قال: «نعم، من قال خيرا كان له طابعا على ذلك الخير، ومن قال شرا كن كفارة له: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك».

٧ ـ جبير بن مطعم:

قال الطبرانى فى المعجم الكبير (٢/ ١٣٨): حدثنا العباس بن حمدان الحنفى، حدثنا عبد الجبار بن العلاء، حدثنا =

. . . .

=سفيان، حدثنى ابن عجلان عن مسلم بن أبى مريم، عن نافع بن جبير عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال: سبحان الله وبحمده، سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، فقالها فى مجلس ذكر؛ كان كالطابع يطبع عليه، ومن قالها فى مجلس لغو؛ كانت كفارة له»، ثم رواه من طريق خالد بن يزيد العمرى، عن داود بن قيس، عن نافع ابن جبير بنحوه.

٨ ـ الزبير بن العوام:

قال الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٤٦٠٦) «مجمع البحرين»: حدثنا محمد بن على الطرائفى الرقى، حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا الحسن بن محمد بن أعين قال: كتب محمد بن سلمة النصيبى يذكر أن عبد العزيز بن صهيب حدثه عن خباب مولى الزبير بن العوام عن الزبير قال: قلنا: يا رسول الله، إنا إذا قمنا من عندك أخذنا فى حديث الجاهلية فقال: «إذا جلستم تلك المجالس التى تخافون فيها على أنفسكم فقولوا عند مقامكم: سبحانك اللهم وبحمدك، نشهد أن لا إله إلا أنت، نستغفرك ونتوب إليك، يكفر عنكم ما أصبتم» قال الطبرانى: لا يروى عن الزبير إلا بهذا الإسناد، تفرد به محمد بن على. وفى إسناده مَن لا يعرف.

٩ ـ أنس بن مالك:

قال البزار فى مسنده برقم (٣١٢٣) «كشف الأستار»: حدثنا عمر بن موسى الشامى، حدثنا عثمان بن مطر، عن ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «كفارة المجلس أن تقول: سبحانك اللهم وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك»، قال البزار: لا نعلمه يروى عن أنس إلا من هذا الوجه، وعثمان لين الحديث روى عنه مسلم وغيره، ورواه الطبرانى فى الأوسط برقم (٤٦١٠) «مجمع البحرين» من طريق عثمان بن مطر به.

١٠ ـ أم سلمة:

قال الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٤٦٠٩) «مجمع البحرين»: حدثنا عبد الرحمن بن سلم، حدثنا سهل بن عثمان، حدثنا حفص بن غياث، عن عاصم، عن الشعبى، عن أم سلمة قالت: كان رسول الله ﷺ قبل أن يموت يكثر أن يقول: سبحانك اللهم وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك، قلت: يا رسول الله، إنى أراك تكثر أن تقول: سبحانك اللهم وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك قال: «إنى أمرت بأمر فقرأ: ﴿**إذا جاء نصر الله والفتح**﴾» قال الطبرانى: لم يروه عن عاصم إلا حفص تفرد به سهل.

١١ ـ السائب بن يزيد:

قال الإمام أحمد فى مسنده (٣/ ٤٥٠): حدثنا يونس، عن ليث، عن يزيد ـ يعنى ابن الهاد ـ عن إسماعيل بن عبد الله بن جعفر قال: بلغنى أن رسول الله ﷺ قال: «ما من إنسان يكون فى مجلس فيقول حين يريد أن يقوم: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك؛ إلا غفر له ما كان فى ذلك المجلس»، فحدثت هذا الحديث يزيد بن خصيفة، قال: هكذا حدثنى السائب بن يزيد عن رسول الله ﷺ. ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٧/ ١٥٤) من طريق الليث به.

وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١٤١): «رجالهما رجال الصحيح».

١٢ ـ إسماعيل بن عبد الله بن جعفر:

وسياق حديثه فى الذى قبله وهو مرسل.

١٣ ـ عمر بن الخطاب:

لم أقع على إسناده، وقد ذكره الحافظ ابن كثير عند تفسير سورة الطور، وعزاه للإسماعيلى.

١٤ ـ جبير بن نفير:

لم أقع على إسناده، وقد ساقه المتقى الهندى فى كنز العمال برقم (٢٥٤٦٩) ولفظه: «كفارة المجلس ألا يقوم أحد حتى يقول: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، تب علىَّ، واغفر لى، يقولها ثلاث مرات، فإن كان فى مجلس لغو، كانت كفارته، وإن كان فى مجلس ذكر، كان طابعا عليه»، وعزاه لابن النجار.

١٥ ـ أبو عثمان الفقير:

قال عبد الرزاق فى المصنف برقم (١٩٧٩٦): أخبرنا معمر، عن عبد الكريم الجزرى عن أبى عثمان الفقير أن جبريل علَّم =

. . . .

= النبى ﷺ إذا قام من مجلسه أن يقول: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

قال معمر: وسمعت غيره يقول: هذا القول كفارة المجلس.

١٦ ـ أبو العالية الرياحى:

قال النسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٢٦١): أخبرنا محمد بن بشار، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا سفيان، عن منصور، عن زياد بن حصين، عن أبى العالية الرياحى قال: قالوا: يا رسول الله ما كلمات سمعناك تقولهن؟ قال: «كلمات علمنيهن جبريل عليه السلام كفارة المجلس: «سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك» .

ثم رواه من طريق فضيل بن عمر وعاصم عن زياد بن حصين به مرسلا.

٣٧ — سورة الصافات

(مكية وآياتها مائة واثنتان وثمانون)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) ٣٧ الصافات

فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) ٣٧ الصافات

فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (٣) ٣٧ الصافات

وقراءتها كيف خصت بذلك فإذا أنه لهذه الآية قال رسول الله ﷺ إن لكل شيء قلباً وإن قلب القرآن يس من قرأها يريد بها وجه الله تعالى غفر الله له وأعطى من الأجر كأنما قرأ القرآن اثنتين وعشرين مرة وأيما مسلم قرىء عنده إذا نزل به ملك الموت سورة يس نزل بكل حرف منها عشرة أملاك يقومون بين يديه صفوفاً يصلون عليه ويستغفرون له ويشهدون غسله ويتبعون جنازته ويصلون عليه ويشهدون دفنه وأيما مسلم قرأ يس وهو في سكرات الموت لم يقبض ملك الموت روحه حتى يجيئه رضوان خازن الجنة بشربة من شراب الجنة فيشربها وهو على فراشه فيقبض ملك الموت روحه وهو ريان ويمكث فى قبره وهو ريان ولا يحتاج إلى حوض من حياض الأنبياء حتى يدخل الجنة وهو ريان . وقال ﷺ إن فى القرآن سورة تشفع لقارئها وتستغفر لمستمعها ألا وهى سورة يس .

﴿ سورة الصافات مكية وآياتها مائة واثنتان وثمانون آية ﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (والصافات صفاً) إقسام من الله عز وجل بطوائف الملائكة الفاعلات
للصفوف على أن المراد إيقاع نفس الفعل من غير قصد إلى المفعول أو الصافات أنفسها أى الناظمات لها
فى سلك الصفوف بقيامها فى مقاماتها المعلومة حسبما ينطق به قوله تعالى وما منا إلا له مقام معلوم وعلى
هذين المعنيين مدار قوله تعالى وإنا لنحن الصافون وقيل الصافات أقدامها فى الصلاة وقيل أجنحتها فى
٢ الهواء (فالزجرات زاجراً) أى الفاعلات للزجر أو الزاجرت لما نيط بها زجره من الأجرام العلوية
والسفلية وغيرها على وجه يليق بالمزجور ومن جملة ذلك زجر العباد عن المعاصى وزجر الشياطين عن
الوسوسة والإغواء وعن استراق السمع كما سيأتى وصفاً وزجراً مصدران مؤكدان لما قبلهما أى صفاً
٣ بديعاً وزجراً بليغاً وأما ذكراً فى قوله تعالى (فالتاليات ذكراً) فمفعول التاليات أى التاليات ذكراً عظيم
الشأن من آيات الله تعالى وكتبه المنزلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وغيرها من التسبيح والتقديس
والتحميد والتمجيد وقيل هو أيضاً مصدر مؤكد لما قبله فإن التلاوة من باب الذكر ثم إن هذه الصفات
إن أجريت على الكل فعطفها بالفاء للدلالة على ترتبها فى الفضل إما بكون الفضل للصف ثم للزجر ثم

إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ ٣٧ الصافات

رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴿٥﴾ ٣٧ الصافات

إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ ٣٧ الصافات

للتلاوة أو على العكس وإن أجريت كل واحدة منهن على طوائف معينة فهو الدلالة على ترتب الموصوفات في مراتب الفضل بمعنى أن طوائف الصافات ذوات فضل والزاجرات أفضل والتاليات أبهر فضلا أو على العكس وقيل المراد بالمذكورات نفوس العلماء العمال الصافات أنفسها في صفوف الجماعات وأقدامها في الصلوات الزاجرات بالمواعظ والنصائح التاليات آيات الله تعالى الدارسات شرائعه وأحكامه وقيل طوائف الغزاة الصافات أنفسهم في مواطن الحروب كأنهم بنيان مرصوص أو طوائف قوادهم الصافات لهم فيها الزاجرات الخيل للجهاد سوقا والعدو في المعارك طردا التاليات آيات الله تعالى وذكره وتسبيحه في تضاعيف ذلك والكلام في العطف ودلالته على ترتب الصفات في الفضل أو ترتب موصوفاتها فيه كالذي سلف وأما الدلالة على الترتب في الوجود كما في قوله [يالهف زيابة للحرث الصابح فالغانم فالآيب] فغير ظاهرة في شيء من الطوائف المذكورة فإنه لو سلم تقدم الصف على الزجر في الملائكة والغزاة فتأخر التلاوة عن الزجر غير ظاهر وقيل الصافات الطير من قوله تعالى والطير صافات والزاجرات كل ما يزجر عن المعاصي والتاليات كل من يتلو كتاب الله تعالى وقيل الزاجرات القوارع القرآنية وقرىء

٤ بإدغام التاء في الصاد والزاي والذال (إن إلهكم لواحد) جواب القسم والجملة تحقيق للحق الذي هو التوحيد بما هو المألوف في كلامهم من التأكيد القسمي وتمهيد لما يعقبه من البرهان الناطق به أعني قوله تعالى

٥ (رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق) فإن وجودها وانتظامها على هذا النمط البديع من أوضح دلائل وجود الصانع وعلمه وقدرته وأعدل شواهد وحدته كما مر في قوله تعالى لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ورب خبر ثان لأن أو خبر مبتدأ محذوف أي مالك السموات والأرض وما بينهما من الموجودات ومربيها ومبلغها إلى كمالاتها والمراد بالمشارق مشارق الشمس وإعادة الرب فيها لغاية ظهور آثار الربوبية فيها وتجددها كل يوم فإنها ثلثمائة وستون مشرقا تشرق كل يوم من مشرق منها وبحسبها تختلف المغارب وتغرب كل يوم في مغرب منها وأما قوله تعالى رب المشرقين ورب المغربين فهما مشرقا

٦ الصيف والشتاء ومغرباهما (إنا زينا السماء الدنيا) أي القربى منكم (بزينة) عجيبة بديعة (الكواكب) بالجر بدل من زينة على أن المراد بها الاسم أي ما يزان به لا المصدر فإن الكواكب بأنفسها وأوضاع بعضها من بعض زينة وأي زينة وقرىء بالإضافة على أنها بيانية لما أن الزينة مبهمة صادقة على كل ما يزان به فتقع الكواكب بيانا لها ويجوز أن يراد بزينة الكواكب ما زينت هي به وهو ضوؤها وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما بزينة الكواكب بضوء الكواكب هذا وأما على تقدير كون الزينة مصدرا فالمعنى على

وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ ٣٧ الصافات

لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ ٣٧ الصافات

دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ ٣٧ الصافات

إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ ٣٧ الصافات

تقدير إضافتها إلى الفاعل بأن زانت الكواكب إياها وأصله بزينة الكواكب وعلى تقدير إضافتها إلى
المفعول بأن زان الله الكواكب وحسنها وأصله بزينة الكواكب والمراد هو التزيين فى رأى العين
فإن جميع الكواكب من الثوابت والسيارات تبدو للناظرين كأنها جواهر متلألئة فى سطح سماء الدنيا
بصور بديعة وأشكال رائعة ولا يقدح فى ذلك ارتكاز الثوابت فى الفلك الثامن وما عدا القمر فى الستة
٧ المتوسطة إن ثبت ذلك (وحفظاً) منصوب إما بعطفه على زينة باعتبار المعنى كأنه قيل إنا خلقنا الكواكب
زينة للسماء وحفظاً (من كل شيطان مارد) أى خارج عن الطاعة برمى الشهب وإما بإضمار فعله وإما بتقدير
فعل مؤخر معلل به كأنه قيل وحفظاً من كل شيطان مارد زيناها بالكواكب كقوله تعالى ولقد
٨ زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين وقوله تعالى (لا يسمعون إلى الملأ الأعلى) كلام
مبتدأ مسوق لبيان حالهم بعد بيان حفظ السماء عنهم مع التنبيه على كيفية الحفظ وما يعتريهم فى أثناء
ذلك من العذاب ولا سبيل إلى جعله صفة لكل شيطان ولا جواباً عن سؤال مقدر لعدم استقامة
المعنى ولا علة للحفظ على أن يكون الأصل لئلا يسمعوا لحذفت اللام كما حذفت من قولك جئتك أن
تكرمنى فبقى أن لا يسمعوا ثم يحذف أن ويهدر عملها كما فى قول من قال [ألا أيهذا الزاجرى أحضر
الوغى] لما أن كل واحد من ذينك الحذفين غير منكر بانفراده فأما اجتماعهما فمن أنكر المنكرات التى
يجب تنزيه ساحة التنزيل الجليل عن أمثالها وأصل يسمعون يتسمعون والملأ الأعلى الملائكة وعن ابن عباس
رضى الله عنهما هم الكتبة وعنه أشراف الملائكة عليهم الصلاة والسلام أى لا يتطلبون السماع والإصغاء
إليهم وقرىء يسمعون بالتخفيف (ويقذفون) يرمون (من كل جانب) من جميع جوانب السماء إذا
٩ قصدوا الصعود إليها (دحوراً) علة للقذف أى للدحور أو حال بمعنى مدحورين أو مصدر مؤكد له
لأنهما من واد واحد وقرىء دحوراً بفتح الدال أى قذفا دحوراً مبالغاً فى الطرد وقد جوز أن يكون
مصدراً كالقبول والولوع (ولهم عذاب واصب) أى ولهم فى الآخرة غير ما فى الدنيا من عذاب
١٠ الرجم بالشهب عذاب شديد دائم غير منقطع كقوله تعالى وأعتدنا لهم عذاب السعير (إلا من خطف
الخطفة) استثناء من واو يسمعون ومن بدل منه والخطف الاختلاس والمراد اختلاس كلام الملائكة
مسارقة كما يعرب عنه تعريف الخطفة وقرىء بكسر الخاء والطاء المشددة وبفتح الخاء وكسر الطاء

فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ (١١) ٣٧ الصافات

بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) ٣٧ الصافات

وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (١٣) ٣٧ الصافات

وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) ٣٧ الصافات

وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٥) ٣٧ الصافات

أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) ٣٧ الصافات

وتشديدها وأصلهما اختطف (فأتبعه شهاب) أى تبعه ولحقه وقرىء فاتبعه والشهاب مايرى منقضا من السماء (ثاقب) مضىء فى الغاية كأنه يثقب الجو بضوئه يرجم به الشياطين إذا صعدوا لاستراق السمع فيقتلهم أو يحرقهم أو يخبلهم قالوا وإنما يعود من يسلم منهم حياً طمعاً فى السلامة ونيل المراد كراكب
١١ السفينة (فاستفتهم) فاستخبر مشركى مكة (أهم أشد خلقاً) أى أقوى خلقة وأمتن بنية أو أصعب خلقاً وأشق إيجاداً (أم من خلقنا) من الملائكة والسماء والأرض وما بينهما والمشارق والكواكب والشهب الثواقب ومن لتغليب العقلاء على غيرهم ويدل عليه إطلاقه ومجيئه بعد ذلك لاسيما قراءة من قرأ أم من
٥ عددنا وقوله تعالى (إنا خلقناهم من طين لازب) فإنه الفارق بينهم وبينها لا بينهم وبين من قبلهم من الأمم كعاد وثمود ولأن المراد إثبات المعاد ورد استحالتهم والأمر فيه بالإضافة إليهم وإلى من قبلهم
١٢ سواء وقرىء لازم ولاتب (بل عجبت) أى من قدرة الله تعالى على هذه الخلائق العظيمة وإنكارهم للبعث (ويسخرون) من تعجيبك وتقريرك للبعث وقرىء بضم التاء على معنى أنه بلغ كمال قدرتى وكثرة مخلوقاتى إلى حيث عجبت منها وهؤلاء لجهلهم يسخرون منها أو عجبت من أن ينكروا البعث ممن هذه أفاعيله ويسخروا ممن يجوزه والعجب من الله تعالى إما على الفرض والتخييل أو على معنى الاستعظام اللازم له فإنه روعة
١٣ تعترى الإنسان عند استعظام الشىء وقيل إنه مقدر بالقول أى قل يامحمد بل عجبت (وإذا ذكروا) أى ودأبهم المستمر أنهم إذا وعظوا بشىء من المواعظ (لايذكرون) لايتعظون وإذا ذكر لهم مايدل على
١٤ صحة البعث لاينتفعون به لغاية بلادتهم وقصور فكرهم (وإذا رأوا آية) أى معجزة تدل على صدق القائل به (يستسخرون) يبالغون فى السخرية ويقولون إنه سحر أو يستدعى بعضهم من بعض أن يسخر منها
١٥ ، ١٦ (وقالوا إن هذا) أى مايرونه من الآيات الباهرة (إلا سحر مبين) ظاهر سحريته (أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً) أى كان بعض أجزائنا تراباً وبعضها عظاماً وتقديم التراب لأنه منقلب من الأجزاء البادية والعامل فى إذا مادل عليه مبعوثون فى قوله تعالى (أئنا لمبعوثون) أى نبعث لا نفسه لأن ما بعده خطوباً

أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ ٣٧ الصافات

قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ ٣٧ الصافات

فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ ٣٧ الصافات

وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ ٣٧ الصافات

هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ٣٧ الصافات

ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ ٣٧ الصافات

لو تفرد واحد منها لكفى فى المنع و تقديم الظرف لتقوية الإنكار للبعث بتوجيهه إلى حالة منافية له غاية
المنافاة وكذا تكرير الهمزة فى أئنا للمبالغة والتشديد فى ذلك و كذا تحلية الجملة بأن واللام لتأكيد الإنكار
لا لإنكار التأكيد كما يوهمه ظاهر النظم الكريم فإن تقديم الهمزة لاقتضائها الصدارة كما فى مثل قوله تعالى
أفلا تعقلون على رأى الجمهور فإن المعنى عندهم تعقيب الإنكار لا إنكار التعقيب كما هو المشهور وقرىء بطرح
الهمزة الأولى وبطرح الثانية فقط (أوآباؤنا الأولون) رفع على الابتداء وخبره محذوف عند سيبويه أى ١٧
وآباؤنا الأولون أيضاً مبعوثون وقيل عطف على محل إن واسمها وقيل على الضمير فى مبعوثون للفصل بهمزة
الإنكار الجارية مجرى حرف النفى فى قوله تعالى ما أشركنا ولا آباؤنا وأياً ما كان فمرادهم زيادة الاستبعاد
بناء على أنهم أقدم فبعثهم أبعد على زعمهم وقرىء أو آباؤنا (قل) تبكيتاً لهم (نعم) والخطاب فى قوله ١٨
تعالى (وأنتم داخرون) لهم ولآبائهم بطريق التغليب والجملة حال من فاعل مادل عليه نعم أى كلكم
مبعوثون والحال أنكم صاغرون أذلاء وقرىء نعم بكسر العين وهى لغة فيه (فإنما هى زاجرة واحدة) ١٩
هى إما ضمير مبهم يفسره خبره أو ضمير البعثة والجملة جواب شرط مضمر أو تعليل لنهى مقدر أى إذا كان
كذلك فإنما هى الخ أو لا تستصعبوه فإنما هى الخ والزجرة الصيحة من زجر الراعى غنمه إذا صاح عليها
وهى النفخة الثانية (فإذا هم) قائمون من مراقدهم أحياء (ينظرون) يبصرون كما كانوا أو ينتظرون مايفعل
بهم (وقالوا) أى المبعوثون وصيغة الماضى للدلالة على التحقق والتقرر (ياويلنا) أى هلا كنا احضر ٢٠
فهذا أوان حضورك وقوله تعالى (هذا يوم الدين) تعليل لدعائهم الويل بطريق الاستئناف أى اليوم
الذى نجازى فيه بأعمالنا وإنما علموا ذلك لأنهم كانوا يسمعون فى الدنيا أنهم يبعثون ويحاسبون ويجزون
بأعمالهم فلما شاهدوا البعث أيقنوا بما بعده أيضاً وقوله تعالى (هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون) ٢١
كلام الملائكة جواباً لهم بطريق التوبيخ والتقريع وقيل هو أيضاً من كلام بعضهم لبعض والفصل القضاء
أو الفرق بين فرق الهدى والضلال وقوله تعالى (احشروا الذين ظلموا) خطاب من الله عز وجل للملائكة ٢٢

مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ ٣٧ الصافات

وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ ٣٧ الصافات

مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ ٣٧ الصافات

بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ ٣٧ الصافات

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ ٣٧ الصافات

قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ ٣٧ الصافات

أو من بعضهم لبعض بحشر الظلمة من مقامهم إلى الموقف وقيل من الموقف إلى الجحيم (وأزواجهم) أى أشباههم ونظراءهم من العصاة عابد الصنم مع عبدته وعابد الكواكب مع عبدته كقوله تعالى وكنتم أزواجا
٢٣ ثلاثة وقيل قرناءهم من الشياطين وقيل نساءهم اللاتى على دينهم (وما كانوا يعبدون) (من دون الله) من الأصنام ونحوها زيادة فى تحسيرهم وتخجيلهم قيل هو عام مخصوص بقوله تعالى إن الذين سبقت لهم منا الحسنى الآية الكريمة وأنت خبير بأن الموصول عبارة عن المشركين خاصة جىء به لتعليل الحكم بما فى حيز صلته فلا
٢٤ عموم ولا تخصيص (فاهدوهم إلى صراط الجحيم) أى عرفوهم طريقها ووجهوهم إليها وفيه تهكم بهم (وقفوهم) احبسوهم فى الموقف كأن الملائكة سارعوا إلى ما أمروا به من حشرهم إلى الجحيم فأمروا بذلك وعلل بقوله تعالى (إنهم مسئولون) إيذاناً من أول الأمر بأن ذلك ليس للعفو عنهم ولا ليستريحوا بتأخير العذاب فى الجملة بل ليسألوا لكن لا عن عقائدهم وأعمالهم كما قيل فإن ذلك قد وقع قبل الأمر بهم إلى الجحيم بل عما ينطق
٢٥ به قوله تعالى (مالكم لا تناصرون) بطريق التوبيخ والتقريع والتهكم أى لا ينصر بعضكم بعضاً كما كنتم تزعمون فى الدنيا وتأخير هذا السؤال إلى ذلك الوقت لأنه وقت تنجز العذاب وشدة الحاجة إلى النصرة وحالة انقطاع الرجاء عنها بالكلية فالتوبيخ والتقريع حينئذ أشد وقعاً وتأثيراً وقرىء لا تتناصرون ولا
٢٦ تناصرون بالإدغام (بل هم اليوم مستسلمون) منقادون خاضعون لظهور عجزهم وانسداد باب الحيل عليهم
٢٧ أو أسلم بعضهم بعضاً وخذله عن عجز فكلهم مستسلم غير منتصر (وأقبل) حينئذ (بعضهم على بعض) هم الأتباع والرؤساء أو الكفرة والقرناء (يتساءلون) يسأل بعضهم بعضاً سؤال توبيخ بطريق الخصومة والجدال
٢٨ (قالوا) استئناف وقع جواباً عن سؤال نشأ من حكاية تساؤلهم كأنه قيل كيف تساءلوا فقيل قالوا أى الأتباع للرؤساء أو الكل للقرناء (إنكم كنتم تأتوننا) فى الدنيا (عن اليمين) عن أقوى الوجوه وأمتنها أو عن الدين أو عن الخير كأنكم تنفعوننا نفع السانح فتبعناكم فهلكنا مستعار من يمين الإنسان الذى هو أشرف الجانبين وأقواهما وأنفعهما ولذلك سمى يميناً ويتيمن بالسانح أو عن القوة والقسر فتقسروننا على الغى وهو الأوفق للجواب أو عن الحلف حيث كانوا يحلفون أنهم على الحق .

قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ ٣٧ الصافات

وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ ٣٧ الصافات

فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ ٣٧ الصافات

فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ ٣٧ الصافات

فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ٣٧ الصافات

إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ ٣٧ الصافات

إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ ٣٧ الصافات

وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ ٣٧ الصافات

بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ ٣٧ الصافات

إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ ٣٧ الصافات

(قالوا) استئناف كما سبق أى قال الرؤساء أو القرناء (بل لم تكونوا مؤمنين) أى لم نمنعكم من الإيمان ٢٩
بل لم تؤمنوا باختياركم وأعرضتم عنه مع تمكنكم منه وآثرتم الكفر عليه (وما كان لنا عليكم من سلطان) ٣٠
من قهر وتسلط نسلبكم به اختياركم (بل كنتم قوما طاغين) مختارين للطغيان مصرين عليه (فحق علينا) ٣١
أى لزمنا وثبت علينا (قول ربنا) وهو قوله تعالى لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين (إنا لذائقون)
أى العذاب الذى ورد به الوعيد (فأغويناكم) فدعوناكم إلى الغى دعوة غير ملجئة فاستجبتم لنا باختياركم ٣٢
واستحببتم الغى على الرشد (إنا كنا غاوين) فلاعتب علينا فى تعرضنا لإغوائكم بتلك المرتبة من الدعوة
لتكونوا أمثالنا فى الغواية (فإنهم) أى الأتباع والمتبوعين (يومئذ فى العذاب مشتركون) حسبما كانوا ٣٣
مشتركين فى الغواية (إنا كذلك) أى مثل ذلك الفعل البديع الذى تقتضيه الحكمة التشريعية (نفعل ٣٤
بالمجرمين) المتناهين فى الإجرام وهم المشركون كما يعرب عنه التعليل بقوله تعالى (إنهم كانوا إذا قيل ٣٥
لهم) بطريق الدعوة والتلقين (لا إله إلا الله يستكبرون) عن القبول (ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر ٣٦
مجنون) (بل جاء بالحق وصدق المرسلين) رد عليهم وتكذيب لهم ببيان أن ماجاء به من التوحيد هو ٣٧
الحق الذى قام به البرهان وأجمع عليه كافة الرسل عليهم الصلاة والسلام فأين الشعر والجنون من ساحته
الرفيعة (إنكم) بما فعلتم من الإشراك وتكذيب الرسول ﷺ والاستكبار (لذائقو العذاب الأليم) ٣٨

وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ ٣٧ الصافات

إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ٣٧ الصافات

أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ ٣٧ الصافات

فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ ٣٧ الصافات

فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ ٣٧ الصافات

والالتفات لإظهار كمال الغضب عليهم وقرىء بنصب العذاب على تقدير النون كقوله [ولا ذاكر الله إلا
٣٩ قليلا] وقرىء لذائقون العذاب على الأصل (وما تجزون إلا ما كنتم تعملون) أى إلا جزاء ما كنتم تعملونه
٤٠ من السيئات أو إلا بما كنتم تعملونه منها (إلا عباد الله المخلصين) استثناء منقطع من ضمير ذائقو وما بينهما
اعتراض جىء به مسارعة إلى تحقيق الحق ببيان أن ذوقهم العذاب ليس إلا من جهتهم لا من جهة غيرهم
أصلا وجعله استثناء من ضمير تجزون على معنى أن الكفرة لايجزون إلا بقدر أعمالهم دون عباد الله
المخلصين فإنهم يجزون أضعافا مضاعفة مما لا وجه له أصلا لا سيما جعله استثناء متصلا بتعميم الخطاب فى
تجزون لجميع المكلفين فإنه ليس فى حيز الاحتمال فالمعنى إنكم لذائقون العذاب الأليم لكن عباد الله المخلصين
٤١ الموحدين ليسوا كذلك وقوله تعالى (أولئك) إشارة إليهم للإيذان بأنهم ممتازون بما اتصفوا به من
الإخلاص فى عبادة الله تعالى عمن عداهم امتيازاً بالغاً منتظمون بسببه فى سلك الأمور المشاهدة وما فيه
من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإشعار بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم فى الفضل وهو مبتدأ وقوله
تعالى (لهم) إما خبر له وقوله تعالى (رزق) مرتفع على الفاعلية بما فيه من الاستقرار أو مبتدأ ولهم خبر
مقدم والجملة خبر لأولئك والجملة الكبرى استئناف مبين لما أفاده الاستثناء إجمالا بياناً تفصيلياً وقيل هى
خبر للاستثناء المنقطع على أنه متأول بالمبتدأ وقوله تعالى (معلوم) أى معلوم الخصائص من حسن المنظر
ولذة الطعم وطيب الرائحة ونحوها من نعوت الكمال وقيل معلوم الوقت كقوله تعالى ولهم رزقهم فيها
٤٢ بكرة وعشياً وقوله تعالى (فواكه) إما بدل من رزق أو خبر مبتدأ مضمر أى ذلك الرزق فواكه وتخصيصها
بالذكر لأن أرزاق أهل الجنة كلها فواكه أى ما يؤكل لمجرد التلذذ دون الاقتيات لأنهم مستغنون عن
القوت لكون خلقتهم محكمة محفوظة من التحلل المحوج إلى البدل وقيل لأن الفواكه من أتباع سائر
الأطعمة فذكرها مغن عن ذكرها (وهم مكرمون) عند الله عز وجل لا يلحقهم هوان وذلك أعظم
المثوبات وأليقها بأولى الهمم وقيل مكرمون فى نيله حيث يصل إليهم بغير تعب وسؤال كما هو شأن
٤٣ أرزاق الدنيا وقرىء مكرمون بالتشديد (فى جنات النعيم) أى فى جنات ليس فيها إلا النعيم وهو ظرف
أو حال من المستكن فى مكرمون أو خبر ثان لأولئك .

عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ ٣٧ الصافات

يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ ٣٧ الصافات

بَيۡضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ ٣٧ الصافات

لَا فِيهَا غَوۡلٌ وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ ٣٧ الصافات

وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ ٣٧ الصافات

كَأَنَّهُنَّ بَيۡضٌ مَّكۡنُونٌ ﴿٤٩﴾ ٣٧ الصافات

فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ ٣٧ الصافات

---

٤٤ وقوله تعالى (على سرر) محتمل للحالية والخبرية فقوله تعالى (متقابلين) حال من المستكن فيه أو فى
٤٥ مكرمون وقوله تعالى (يطاف عليهم) إما استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية تكامن مجالس أنسهم
أو حال من الضمير فى متقابلين أو فى أحد الجارين وقد جوز كونه صفة لمكرمون (بكأس) بإناء فيه خمر
أو بخمر فإن الكأس تطلق على نفس الخمر كما فى قول من قال [وكأس شربت على لذة ۞ وأخرى تداويت
منها بها] (من معين) متعلق بمضمر هو صفة لكأس أى كائنة من شراب معين أو من نهر معين وهو
الجارى على وجه الأرض الظاهر للعيون أو الخارج من العيون من عان الماء إذا نبع وصف به الخمر وهو
٤٦ للماء لأنها تجرى فى الجنة فى أنهار كما يجرى الماء. قال تعالى وأنهار من خمر (بيضاء لذة للشاربين) صفتان أيضاً
لكأس ووصفها بلذة إما للمبالغة كأنها نفس اللذة أو لأنها تأنيث اللذ بمعنى اللذيذ ووزنه فعل قال [ولذ
٤٧ كطعم الصرخدى تركته ۞ بأرض العدا من خيفة الحدثان] يريد به النوم (لا فيها غول) أى غائلة كما فى
خمور الدنيا من غاله إذا أفسده وأهلكه ومنه الغول (ولا هم عنها ينزفون) يسكرون من نزف الشارب
فهو نزيف ومنزوف إذا ذهب عقله ويقال للمطعون نزف فمات إذا خرج دمه كله أفرد هذا بالنفى مع
اندراجه فيما قبله من نفى الغول عنها لما أنه من معظم مفاسد الخمر كأنه جنس برأسه والمعنى لا فيها نوع من
أنواع الفساد من مغص أو صداع أو خمار أو عربدة أو لغو أو تأثيم ولا هم يسكرون وقرىء ينزفون
بكسر الزاى من أنزف الشارب إذا نفد عقله أو شرابه وقرىء ينزفون بضم الزاى من نزف ينزف بضم الزاى
٤٨ فيهما (وعندهم قاصرات الطرف) قصرن أبصارهن على أزواجهن لا يمددن طرفا إلى غيرهم (عين) نجل
٤٩ العيون جمع عيناء والنجل سعة العين (كأنهن بيض مكنون) شبههن ببيض النعام المصون من الغبار ونحوه
٥٠ فى الصفاء والبياض المخلوط بأدنى صفرة فإن ذلك أحسن ألوان الأبدان (فأقبل بعضهم على بعض
يتساءلون) معطوف على يطاف أى يشربون فيتحادثون على الشراب كما هو عادة الشرب قال [وما

قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ ٣٧ الصافات

يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ ٣٧ الصافات

أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ ٣٧ الصافات

قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ ٣٧ الصافات

فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ ٣٧ الصافات

قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ ٣٧ الصافات

بقيت من اللذات إلا * أحاديث الكرام على المدام] فيقبل بعضهم على بعض يتساءلون عن الفضائل
والمعارف وعما جرى لهم وعليهم فى الدنيا فالتعبير عنه بصيغة الماضى للتأكيد والدلالة على تحقق الوقوع
٥١،٥٢ حتما (قال قائل منهم) فى تضاعيف محاوراتهم (إنى كان لى) فى الدنيا (قرين) مصاحب (يقول)
لى على طريقة التوبيخ بما كنت عليه من الإيمان والتصديق بالبعث (أئنك لمن المصدقين) أى بالبعث
٥٣ وقرىء بتشديد الصاد من التصدق والأول هو الأوفق لقوله تعالى (أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا
لمدينون) أى لمبعوثون ومجزيون من الدين بمعنى الجزاء أو لمسوسون يقال دانه أى ساسه ومنه الحديث
العاقل من دان نفسه وقيل كان رجل تصدق بماله لوجه الله تعالى فاحتاج فاستجدى بعض إخوانه فقال
أين مالك قال تصدقت به ليعوضنى الله تعالى فى الآخرة خيراً منه فقال أئنك لمن المصدقين بيوم الدين أو
من المتصدقين لطلب الثواب والله لا أعطيك شيئاً فيكون التعرض لذكر موتهم وكونهم تراباً وعظاماً
٥٤ حينئذ لتأكيد إنكار الجزاء المبنى على إنكار البعث (قال) أى ذلك القائل بعد ما حكى لجلسائه مقالة قرينه
فى الدنيا (هل أنتم مطلعون) أى إلى أهل النار لأريكم ذلك القرين يريد بذلك بيان صدقه فيما حكاه وقيل
القائل هو الله تعالى أو بعض الملائكة يقول لهم هل تحبون أن تطلعوا على أهل النار لأريكم ذلك القرين
٥٥ فتعلموا أين منزلتكم من منزلتهم قيل إن فى الجنة كوى ينظر منها أهلها إلى أهل النار (فاطلع) أى عليهم (فرآه)
أى قرينه (فى سواء الجحيم) أى فى وسطها وقرىء فأطلع على لفظ المضارع المنصوب وقرىء مطلعون
فأطلع وفأطلع بالتخفيف على لفظ الماضى والمضارع المنصوب يقال طلع علينا فلان واطلع وأطلع بمعنى
واحد والمعنى هل أنتم مطلعون إلى القرين فأطلع أنا أيضاً أو عرض عليهم الاطلاع فقبلوا ما عرضه
فاطلع هو بعد ذلك وإن جعل الاطلاع متعدياً فالمعنى أنه لما شرط فى إطلاعه إطلاعهم كما هو ديدن
الجلساء فكأنهم مطلعوه وقيل الخطاب على هذا للملائكة وقرىء مطلعون بكسر النون أراد مطلعون
إياى فوضع المتصل موضع المنفصل كقولهم [هم الفاعلون الخير والآمرونه] أو شبه اسم الفاعل بالمضارع
٥٦ لما بينهما من التآخى (قال) أى القائل مخاطباً لقرينه (تالله إن كدت لتردين) أى لتهلكنى بالإغواء وقرىء

وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ ٣٧ الصافات

أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ ٣٧ الصافات

إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ ٣٧ الصافات

إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ ٣٧ الصافات

لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾ ٣٧ الصافات

أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ ٣٧ الصافات

لتغوين والتاء فيه معنى التعجب وإن هى المخففة من إن وضمير الشأن الذى هو اسمها محذوف واللام فارقة
أى تالله إن الشأن كدت لتردين (ولولا نعمة ربى) بالهداية والعصمة (لكنت من المحضرين) أى من ٥٧
الذين أحضروا العذاب كما أحضرته أنت وأضرابك وقوله تعالى (أفما نحن بميتين) رجوع إلى محاورة ٥٨
جلسائه بعد إتمام الكلام مع قرينه تبجحاً وابتهاجاً بما أتاح الله عز وجل لهم من الفضل العظيم والنعيم
المقيم والهمزة للتقرير وفيها معنى التعجب والفاء للعطف على مقدر يقتضيه نظم الكلام أى أنحن مخلدون
منعمون فما نحن بميتين أى بمن شأنه الموت وقرىء بمائتين (إلا موتتنا الأولى) التى كانت فى الدنيا وهى ٥٩
متناولة لما فى القبر بعد الإحياء للسؤال قاله تصديقاً لقوله تعالى لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى
وقيل إن أهل الجنة أول مادخلوا الجنة لا يعلمون أنهم لا يموتون فإذا جىء بالموت على صورة كبش
أملح فذبح ونودى يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت يعلمونه فيقولون ذلك تحدثاً
بنعمة الله تعالى واغتباطاً بها (وما نحن بمعذبين) كالكفار فإن النجاة من العذاب أيضاً نعمة جليلة
مستوجبة للتحدث بها (إن هذا) أى الأمر العظيم الذى نحن فيه (لهو الفوز العظيم) وقيل هو من قول ٦٠
الله عز وجل تقريراً لقولهم وتصديقاً له وقرىء لهو الرزق العظيم وهو مارزقوه من السعادة العظمى
(لمثل هذا فليعمل العاملون) أى لنيل هذا المرام الجليل يجب أن يعمل العاملون لا للحظوظ الدنيوية ٦١
السريعة الانصرام المشوبة بفنون الآلام وهذا أيضاً يحتمل أن يكون من كلام رب العزة (أذلك خير ٦٢
نزلا أم شجرة الزقوم) أصل النزل الفضل والريع فاستعير للحاصل من الشىء فانتصابه على التمييز أى
أذلك الرزق المعلوم الذى حاصله اللذة والسرور خير نزلا أم شجرة الزقوم التى حاصلها الألم والغم ويقال
النزل لما يقام ويهيأ من الطعام الحاضر للنازل فانتصابه على الحالية والمعنى أن الرزق المعلوم نزل أهل
الجنة وأهل النار نزلهم شجرة الزقوم فأيهما خير فى كونه نزلا والزقوم اسم شجرة صغيرة الورق دفرة
مرة كريهة الرائحة تكون فى تهامة سميت به الشجرة الموصوفة .

لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ٥٦ الواقعة

ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ ٥٦ الواقعة

وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾ ٥٦ الواقعة

وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ ٥٦ الواقعة

فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ ٥٦ الواقعة

وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ ٥٦ الواقعة

لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ ٥٦ الواقعة

إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ ٥٦ الواقعة

---

* جمع عروب وهى المتحببة إلى زوجها الحسنة التبعل وقرىء عرباً بسكون الراء (أتراباً) مستويات
٣٨ فى السن بنات ثلاث وثلاثين سنة وكذا أزواجهن واللام فى قوله تعالى (لأصحاب اليمين) متعلقة بأنشأنا أو
جعلنا أو باتراباً كقولك هذا ترب لهذا أى مساو له فى السن وقيل بمحذوف هو صفة لأبكار أى كائنات
٣٩ لأصحاب اليمين أو خبر مبتدأ محذوف أى هن لأصحاب اليمين وقيل خبر لقوله تعالى (ثلة من الأولين)
٤٠ (وثلة من الآخرين) وهو بعيد بل هو خبر مبتدأ محذوف ختمت به قصة أصحاب اليمين أى هم أمة
من الأولين وأمة من الآخرين وقد مر الكلام فيهما وعن أبى العالية ومجاهد وعطاء والضحاك ثلة
من الأولين أى من سابقى هذه الأمة وثلة من الآخرين من هذه الأمة فى آخر الزمان وعن سعيد بن
جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما فى هذه الآية قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هم جميعاً من
٤١ أمتى (وأصحاب الشمال) شروع فى تفصيل أحوالهم التى أشير عند التنويع إلى هولها وفظاعتها بعد
* تفصيل حسن حال أصحاب اليمين والكلام فى قوله تعالى (ما أصحاب الشمال) عين ما فصل فى نظيره وكذا
٤٢ فى قوله تعالى (فى سموم وحميم) والسموم حر نار ينفذ فى المسام والحميم الماء المتناهى فى الحرارة
٤٣،٤٤ (وظل من يحموم) من دخان أسود بهيم (لا بارد) كسائر الظلال (ولا كريم) فيه خير ما فى الجملة
سمى ذلك ظلا ثم نفى عنه وصفاه البرد والكرم الذى عبر به عن دفع أذى الحر لتحقيق أنه ليس بظل
٤٥ وقرىء لا بارد ولا كريم بالرفع أى لا هو بارد ولا كريم وقوله تعالى (إنهم كانوا قبل ذلك مترفين)
تعليل لابتلائهم بما ذكر من العذاب أى إنهم كانوا قبل ما ذكر من سوء العذاب فى الدنيا منعمين بأنواع
النعم من المآكل والمشارب والمساكن الطيبة والمقامات الكريمة منهمكين فى الشهوات فلا جرم عذبوا

فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ ٣٧ الصافات

وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ ٣٧ الصافات

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ ٣٧ الصافات

فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ٣٧ الصافات

إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ ٣٧ الصافات

وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ ٣٧ الصافات

وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ ٣٧ الصافات

---

٧٠ الأمر ليس لهم مايصلح شبهة فضلا عن صلاحية الدليل (فهم على آثارهم يهرعون) من غير أن يتدبروا
أنهم على الحق أولا مع ظهور كونهم على الباطل بأدنى تأمل والإهراع الإسراع الشديد كأنهم يزعجون
٧١ ويحثون حثاً على الإسراع على آثارهم وقيل هو إسراع فيه شبه رعدة (ولقد ضل قبلهم) أى قبل قومك
٧٢ قريش (أكثر الأولين) من الأمم السالفة وهو جواب قسم محذوف وكذا قوله تعالى (ولقد أرسلنا
فيهم منذرين) أى أنبياء أولى عدد كثير وذوى شأن خطير بينوا لهم بطلان ماهم عليه وأنذروهم عاقبته
٧٣ الوخيمة وتكرير القسم لإبراز كمال الاعتناء بتحقيق مضمون كل من الجملتين (فانظر كيف كان عاقبة
المنذرين) من الهول والفظاعة لما لم يلتفتوا إلى الإنذار ولم يرفعوا له رأساً والخطاب إما لرسول الله ﷺ
أو لكل أحد ممن يتمكن من مشاهدة آثارهم وحيث كان المعنى أنهم أهلكوا هلاكا فظيعاً استثنى منهم
٧٤ المخلصون بقوله تعالى (إلا عباد الله المخلصين) أى الذين أخلصهم الله تعالى بتوفيقهم للإيمان والعمل
٧٥ بموجب الإنذار وقرىء المخلصين بكسر اللام أى الذين أخلصوا دينهم لله تعالى (ولقد نادانا نوح) نوع
تفصيل لما أجمل فيما قبل ببيان أحوال بعض المرسلين وحسن عاقبتهم متضمن لبيان سوء عاقبة بعض
المنذرين حسبما أشير إليه بقوله تعالى فانظر كيف كان عاقبة المنذرين كقوم نوح وآل فرعون وقوم لوط وقوم
إلياس ولبيان حسن عاقبة بعضهم الذين أخلصهم الله تعالى ووفقهم للإيمان كما أشار إليه الاستثناء كقوم
يونس عليه السلام ووجه تقديم قصة نوح على سائر القصص غنى عن البيان واللام جواب قسم محذوف
وكذا ما فى قوله تعالى (فلنعم المجيبون) أى وبالله لقد دعانا نوح حين يئس من إيمان قومه بعد مادعاهم
إليه أحقاباً ودهوراً فلم يزدهم دعاؤه إلا فراراً ونفوراً فأجبناه أحسن الإجابة فوالله لنعم المجيبون
٧٦ نحن فحذف ماحذف ثقة بدلالة ماذكر عليه والجمع دليل العظمة والكبرياء (ونجيناه وأهله من الكرب
العظيم) أى من الغرق وقيل من أذية قومه .

لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ ٥٦ الواقعة

فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ ٥٦ الواقعة

فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ ٥٦ الواقعة

فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ ٥٦ الواقعة

هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ ٥٦ الواقعة

نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ ٥٦ الواقعة

٥٢ (لآكلون) بعد البعث والجمع ودخول جهنم (من شجرة من زقوم) من الأولى لابتداء الغاية والثانية لبيان الشجر وتفسيره أى مبتدئون الأكل من شجر هو زقوم وقيل من الثانية متعلقة بمضمر هو
٥٣،٥٤ وصف لشجر أى كائن من زقوم (فمالئون منها البطون) أى بطونكم من شدة الجوع (فشاربون
* عليه) عقيب ذلك بلا ريث (من الحميم) أى الماء الحار فى الغاية وتأنيث ضمير الشجر أولا وتذكيره ثانياً باعتبار المعنى واللفظ وقرىء من شجرة فضمير عليه حينئذ للزقوم وقيل للآكل وقوله تعالى
٥٥ (فشاربون شرب الهيم) كالتفسير لما قبله على طريقة قوله تعالى فكذبوا عبدنا أى لا يكون شربكم شرباً معتاداً بل يكون مثل شرب الهيم وهى الإبل التى بها الهيام وهو داء يصيبها فتشرب ولا تروى جمع أهيم وهيماء وقيل الهيم الرمال على أنه جمع الهيام بفتح الهاء وهو الرمل التى لا يتماسك جمع على فعل كسحاب وسحب ثم خفف وفعل به مافعل بجمع أبيض والمعنى أنه يسلط عليهم من الجوع والتهاب النار فى أحشائهم مايضطرهم إلى أكل الزقوم الذى هو كالمهل فإذا ملئوا منه بطونهم وهو فى غاية الحرارة والمرارة سلط عليهم من العطش مايضطرهم إلى شرب الحميم الذى يقطع أمعاءهم فيشربون شرب الهيم
٥٦ وقرىء شرب الهيم بالفتح وهو أيضاً مصدر وقرىء بالكسر على أنه اسم المشروب (هذا) الذى ذكر
* من أنواع العذاب (نزلهم يوم الدين) أى يوم الجزاء فإذا كان ذلك نزلهم وهو مايعد للنازل مما حضر فما ظنك بما لهم بعد مااستقر لهم القرار واطمأنت بهم الدار فى النار وفيه من التهكم بهم مالا يخفى وقرىء نزلهم بسكون الزاى تخفيفاً والجملة مسوقة من جهته تعالى بطريق الفذلكة مقررة لمضمون الكلام
٥٧ الملقن غير داخلة تحت القول وقوله تعالى (نحن خلقناكم فلولا تصدقون) تلوين للخطاب وتوجيه له إلى الكفرة بطريق الإلزام والتبكيت والفاء لترتيب التحضيض على ماقبلها أى فهلا تصدقون بالخلق فإن مالا يحققه العمل ولا يساعده بل ينبىء عن خلافه ليس من التصديق فى شىء وقيل بالبعث استدلالا عليه بالإنشاء فإن من قدر عليه قدر على الإعادة حتما والأول هو الوجه كما ستحيط به خبراً .

إِذْ جَاءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ ٣٧ الصافات

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ ٣٧ الصافات

أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ ٣٧ الصافات

فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ ٣٧ الصافات

فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ ٣٧ الصافات

فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ ٣٧ الصافات

فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ ٣٧ الصافات

٨٤ كان بينهما إلا نبيان هود وصالح عليهم السلام وكان بين نوح وإبراهيم ألفان وستمائة وأربعون سنة (إذ جاء
ربه) منصوب باذكر أو متعلق بما فى الشيعة من معنى المشايعة (بقلب سليم) أى من آفات القلوب أو من
العلائق الشاغلة عن التبتل إلى الله عز وجل ومعنى المجيء به ربه إخلاصه له كأنه جاء به متحفاً إياه بطريق
٨٥ التمثيل (إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون) بدل من الأولى أو ظرف لجاء أو لسليم أى أى شيء تعبدونه
٨٦ (أئفكا آلهة دون الله تريدون) أى أتريدون آلهة من دون الله إفكا أى للإفك فقدم المفعول على الفعل
للعناية ثم المفعول له على المفعول به لأن الأهم مكافحتهم بأنهم على إفك وباطل فى شركهم ويجوز أن يكون
إفكا مفعولا به بمعنى أتريدون إفكا ثم يفسر الإفك بقوله آلهة من دون الله دلالة على أنها إفك فى نفسها
٨٧ للمبالغة أو يراد بها عبادتها بحذف المضاف ويجوز أن يكون حالا بمعنى آفكين (فما ظنكم برب العالمين)
أى بمن هو حقيق بالعبادة لكونه رباً للعالمين حتى تركتم عبادته خاصة وأشركتم به أخس مخلوقاته أو فما
ظنكم به أى شيء هو من الأشياء حتى جعلتم الأصنام له أنداداً أو فما ظنكم به ماذا يفعل بكم وكيف يعاقبكم
٨٨ بعد ما فعلتم من الإشراك به (فنظر نظرة فى النجوم) قيل كانت له عليه الصلاة والسلام حمى لها
٨٩ نوبة معينة فى بعض ساعات الليل فنظر ليعرف هل هى تلك الساعة فإذا هى قد حضرت (فقال إنى سقيم)
وكان صادقا فى ذلك فجعله عذراً فى تخلفه عن عيدهم وقيل أراد إنى سقيم القلب لكفركم وقيل نظر فى علمها
أو فى كتبها أو فى أحكامها ولا منع من ذلك حيث كان قصده عليه الصلاة والسلام إيهامهم حين أرادوا
أن يخرجوا به عليه الصلاة والسلام إلى معيدهم ليتركوه فإن القوم كانوا نجامين فأوهمهم أنه قد استدل
بأمارة فى النجوم على أنه سقيم أى مشارف للسقم وهو الطاعون وكان أغلب الأسقام عليهم وكانوا
٩٠ يخافون العدوى ليتفرقوا عنه فهربوا منه إلى معبدهم وتركوه فى بيت الأصنام وذلك قوله تعالى (فتولوا
عنه مدبرين) أى هاربين مخافة العدوى .

إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ ٥٦ الواقعة

بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ ٥٦ الواقعة

أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ٥٦ الواقعة

ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ ٥٦ الواقعة

لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ٥٦ الواقعة

أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ٥٦ الواقعة

ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ ٥٦ الواقعة

• (فظلتم) بسبب ذلك (تفكهون) تتعجبون من سوء حاله إثر ماشاهدتموه على أحسن ما يكون من
الحال أو تندمون على ماتعبتم فيه وأنفقتم عليه أو على ما اقترفتم لأجله من المعاصى فتتحدثون فيه والتفكه
التنقل بصنوف الفاكهة وقد استعير للتنقل بالحديث وقرىء تفكنون أى تتندمون وقرىء فظلتم
٦٦ بالكسر وفظللتم على الأصل (إنا لمغرمون) أى لملزمون غرامة ما أنفقنا أو مهلكون بهلاك رزقنا
من الغرام وهو الهلاك وقرىء أئنا على الاستفهام والجملة على القراءتين مقدرة بقول هو فى حيز النصب
٦٧ على الحالية من فاعل تفكهون أى قائلين أو تقولون إنا لمغرمون (بل نحن محرومون) حرمنا رزقنا
٦٨ أو محارفون محدودون لاحظ لنا ولا بخت لا مجدودون (أفرأيتم الماء الذى تشربون) عذباً فراتاً
٦٩ وتخصيص هذا الوصف بالذكر مع كثرة منافعه لأن الشرب أهم المقاصد المنوطة به (أأنتم أنزلتموه
• من المزن) أى من السحاب واحده مزنة وقيل هو السحاب الأبيض وماؤه أعذب (أم نحن المنزلون)
٧٠ له بقدرتنا (لو نشاء جعلناه أجاجا) ملحاً زعاقا لايمكن شربه وحذف اللام ههنا مع إثباتها فى الشرطية
الأولى للتعويل على علم السامع أو الفرق بين المطعوم والمشروب فى الأهمية وصعوبة الفقد والشرطيتان
مستأنفتان مسوقتان لبيان أن عصمته تعالى للزرع والماء عما يخل بالتمتع بهما نعمة أخرى بعد نعمة
٧١ الإنبات والإنزال مستوجبة للشكر فقوله تعالى (فلولا تشكرون) تحضيض على شكر الكل (أفرأيتم
٧٢ النار التى تورون) أى تقدحونها وتستخرجونها من الزناد (أأنتم أنشأتم شجرتها) التى منها الزناد وهى
• المرخ والعفار (أم نحن المنشئون) لها بقدرتنا والتعبير عن خلقها بالإنشاء المنبىء عن بديع الصنع
المعرب عن كمال القدرة والحكمة لما فيه من الغرابة الفارقة بينها وبين سائر الشجر التى لاتخلو عن النار
حتى قيل فى كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار كما أن التعبير عن نفخ الروح بالإنشاء فى قوله تعالى
ثم أنشأناه خلقاً آخر لذلك .

قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ ٣٧ الصافات

فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ ٣٧ الصافات

وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ ٣٧ الصافات

رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ ٣٧ الصافات

فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ ٣٧ الصافات

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَـٰٓأَبَتِ
ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ٣٧ الصافات

أولياً مع مافيه من تحقيق الحق ببيان أن جميع مايعملونه كائنا ما كان مخلوق له سبحانه وقيل ما مصدرية
أى عملكم على أنه بمعنى المفعول وقيل بمعناه فإن فعلهم إذا كان بخلق الله تعالى كان مفعولهم المتوقف على
فعلهم أولى بذلك (قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه فى الجحيم) أى فى النار الشديدة الاتقاد من الجحمة وهى ٩٧
شدة التأجج واللام عوض من المضاف إليه أى جحيم ذلك البنيان وقد ذكر كيفية بنائهم له فى سورة
الأنبياء (فأرادوا به كيداً) فإنه عليه الصلاة والسلام لما قهرهم بالحجة وألقمهم الحجر قصدوا ماقصدوا ٩٨
لئلا يظهر للعامة عجزهم (فجعلناهم الأسفلين) الأذلين بإبطال كيدهم وجعله برهاناً نيراً على علو شأنه
عليه الصلاة والسلام بجعل النار عليه برداً وسلاماً (وقال إنى ذاهب إلى ربى) أى مهاجر إلى حيث ٩٩
أمرنى ربى كما قال إنى مهاجر إلى ربى وهو الشام أو إلى حيث أتجرد فيه لعبادته تعالى (سيهدين) أى إلى
مافيه صلاح دينى أو إلى مقصدى وبت القول بذلك لسبق الوعد أو لفرط توكله أو للبناء على عادته تعالى
معه ولم يكن كذلك حال موسى عليه السلام حيث قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل ولذلك أتى بصيغة
التوقع (رب هب لى من الصالحين) أى بعض الصالحين يعيننى على الدعوة والطاعة ويؤنسنى فى الغربة ١٠٠
يعنى الولد لأن لفظ الهبة على الإطلاق خاص به وإن كان قد ورد مقيداً بالأخوة فى قوله تعالى ووهبنا
له من رحمتنا أخاه هرون نبياً ولقوله تعالى (فبشرناه بغلام حليم) فإنه صريح فى أن المبشر به عين ما استوهبه ١٠١
عليه الصلاة والسلام ولقد جمع فيه بشارات ثلاث بشارة أنه غلام وأنه يبلغ أوان الحلم وأنه يكون حليما
وأى حلم يعادل حلمه عليه الصلاة والسلام حين عرض عليه أبوه الذبح فقال يا أبت افعل ماتؤمر ستجدنى
إن شاء الله من الصابرين وقيل مانعت الله الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بأقل مما نعتهم بالحلم لعزة وجوده
غير إبراهيم وابنه فإنه تعالى نعتهما به وحالهما المحكية بعد أعدل بينة بذلك والفاء فى قوله تعالى (فلما بلغ ١٠٢
معه السعى) فصيحة معربة عن مقدر قد حذف تعويلا على شهادة الحال وإيذاناً بعدم الحاجة إلى التصريح

فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ ٥٦ الواقعة

لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ٥٦ الواقعة

تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ٥٦ الواقعة

أَفَبِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ ٥٦ الواقعة

وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ٥٦ الواقعة

فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ ٥٦ الواقعة

أى كثير النفع لاشتماله على أصول العلوم المهمة فى صلاح المعاش والمعاد أو حسن مرضى أو كريم
عند الله تعالى وبقوله تعالى لو تعلمون بين الموصوف وصفته وجواب لو إما متروك أريد به نفى علمهم
٧٨ أو محذوف ثقة بظهوره أى لعظمتموه أو لعملتم بموجبه (فى كتاب مكنون) أى مصون من غير
٧٩ المقربين من الملائكة لايطلع عليه من سواهم وهو اللوح (لا يمسه إلا المطهرون) إما صفة أخرى
لكتاب فالمراد بالمطهرين الملائكة المنزهون عن الكدورات الجسمانية وأوضار الأوزار أو للقرآن
فالمراد بهم المطهرون من الأحداث فيكون نفياً بمعنى النهى أى لا ينبغى أن يمسه إلا من كان على طهارة
من الناس على طريقة قوله عليه الصلاة والسلام المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه أى لا ينبغى له
أن يظلمه وقيل لايطلبه إلا المطهرون من الكفر وقرىء المتطهرون والمطهرون بالإدغام والمطهرون
٨٠ من أطهره بمعنى طهره والمطهرون أى أنفسهم أو غيرهم بالاستغفار أو غيره (تنزيل من رب العالمين)
٨١ صفة أخرى للقرآن وهو مصدر نعت به حتى جرى مجرى اسمه وقرىء تنزيلا (أفبهذا الحديث)
* الذى ذكرت نعوته الجليلة الموجبة لإعظامه وإجلاله وهو القرآن الكريم (أنتم مدهنون) أى
٨٢ متهاونون به كمن يدهن فى الأمر أى يلين جانبه ولا يتصلب فيه تهاوناً به (وتجعلون رزقكم) أى
* شكر رزقكم (أنكم تكذبون) أى تضعون التكذيب موضع الشكر وقرىء وتجعلون شكركم
أنكم تكذبون أى تجعلون شكركم لنعمة القرآن أنكم تكذبون به وقيل الرزق المطر والمعنى وتجعلون
شكر مايرزقكم الله تعالى من الغيث أنكم تكذبون بكونه من الله تعالى حيث تنسبونه إلى الأنواء
٨٣ والأول هو الأوفق لسباق النظم الكريم وسياقه فإن قوله عز وجل (فلولا إذا بلغت الحلقوم) الخ
تبكيت مبنى على تكذيبهم بالقرآن فيما نطق به قوله تعالى نحن خلقناكم إلى هنا من القوارع الدالة
على كونهم تحت ملكوته تعالى من حيث ذواتهم ومن حيث طعامهم وشرابهم وسائر أسباب معايشهم
كما ستقف عليه ولولا للتحضيض لإظهار عجزهم وإذا ظرفية أى فهلا إذا بلغت النفس أى الروح وقيل

وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ ٣٧ الصافات

قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ ٣٧ الصافات

إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ ٣٧ الصافات

وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ٣٧ الصافات

وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ ٣٧ الصافات

سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ ٣٧ الصافات

وجعلها سالمة له وكذلك معنى استسلم استخلص نفسه له تعالى وعن قتادة رضى الله عنه فى أسلما أسلم إبراهيم ابنه وإسماعيل نفسه (وتله للجبين) صرعه على شقه فوقع جبينه على الأرض وهو أحد جانبى الجبهة وقيل كبه على وجهه بإشارته كيلا يرى منه ما يورث رقة تحول بينه وبين أمر الله تعالى وكان ذلك عند الصخرة من منى وقيل فى الموضع المشرف على مسجد منى وقيل فى المنحر الذى ينحر اليوم فيه (وناديناه أن ياإبراهيم) ١٠٤
(قد صدقت الرؤيا) بالعزم على الإتيان بالمأمور به وترتيب مقدماته وقد روى أنه أمر السكين بقوته ١٠٥
على حلقه مراراً فلم يقطع ثم وضع السكين على قفاه فانقلب السكين فعند ذلك وقع النداء جواب لما محذوف إيذاناً بعدم وفاء التعبير بتفاصيله كأنه قيل كان ما كان مما لا يحيط به نطاق البيان من استبشارهما وشكرهما لله تعالى على ما أنعم به عليهما من دفع البلاء بعد حلوله والتوفيق لما لم يوفق أحد لمثله وإظهار فضلهما بذلك على العالمين مع إحراز الثواب العظيم إلى غير ذلك (إنا كذلك نجزى المحسنين) تعليل لتفريج تلك الكربة عنهما بإحسانهما واحتج به من جوز النسخ قبل وقوع المأمور به فإنه عليه الصلاة والسلام كان مأموراً
بالذبح لقوله تعالى افعل ما تؤمر ولم يحصل (إن هذا لهو البلاء المبين) الابتلاء البين الذى يتميز فيه المخلص ١٠٦
عن غيره أو المحنة البينة الصعوبة إذ لا شىء أصعب منها (وفديناه بذبح) بما يذبح بدله فيتم به الفعل (عظيم) ١٠٧
أى عظيم الجثة سمين أو عظيم القدر لأنه يفدى به الله نبياً ابن نبى وأى نبى من نسله سيد المرسلين قيل كان ذلك كبشاً من الجنة عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه الكبش الذى قربه هابيل فتقبل منه وكان يرعى فى الجنة حتى فدى به إسمعيل عليه السلام وقيل فدى بوعل أهبط عليه من ثبير وروى أنه هرب من إبراهيم عليه السلام عند الجمرة فرماه بسبع حصيات حتى أخذه فبقى سنة فى الرمى وروى أنه رمى الشيطان حين تعرض له بالوسوسة عند ذبح ولده وروى أنه لما ذبحه قال جبريل عليه السلام الله أكبر الله أكبر فقال الذبيح لا إله إلا الله والله أكبر فقال إبراهيم الله أكبر ولله الحمد فبقى سنة والفادى فى الحقيقة هو إبراهيم وإنما قيل وفديناه لأنه تعالى هو المعطى له والآمر به على التجوز فى الفداء أو الإسناد (وتركنا عليه فى ١٠٨
الآخرين سلام على إبراهيم) قد سلف بيانه فى خاتمة قصة نوح عليه السلام . ١٠٩

كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ ٣٧ الصافات

إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ ٣٧ الصافات

وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ ٣٧ الصافات

وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ ٣٧ الصافات

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ ٣٧ الصافات

وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ ٣٧ الصافات

وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ ٣٧ الصافات

---

١١٠ (كذلك نجزى المحسنين) ذلك إشارة إلى إبقاء ذكره الجميل فيما بين الأمم لا إلى ما أشير إليه فيما سبق
١١١ فلا تكرار وعدم تصدير الجملة بأنا للاكتفاء بما مر آنفاً (إنه من عبادنا المؤمنين) الراسخين فى الإيمان
١١٢ على وجه الايقان والاطمئنان (وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين) أى مقضياً بنبوته مقدراً كونه من الصالحين وبهذا الاعتبار وقعا حالين ولا حاجة إلى وجود المبشر به وقت البشارة فإن وجود ذى الحال ليس بشرط وإنما الشرط مقارنة تعلق الفعل به لاعتبار معنى الحال فلا حاجة إلى تقدير مضاف يجعل عاملا فيهما مثل وبشرناه بوجود إسحاق أى بأن يوجد إسحاق نبياً من الصالحين ومع ذلك لا يصير نظير قوله تعالى فادخلوها خالدين فإن الداخلين كانوا مقدرين خلودهم وقت الدخول وإسحاق عليه السلام لم يكن مقدراً نبوة نفسه وصلاحها حين مايوجد ومن فسر الغلام بإسحاق جعل المقصود من البشارة نبوته عليه الصلاة والسلام وفى ذكر الصلاح بعد تعظيم لشأنه وإيماء إلى أنه الغاية لها لتضمنها معنى الكمال والتكميل
١١٣ بالفعل على الإطلاق (وباركنا عليه) على إبراهيم فى أولاده (وعلى إسحاق) بأن أخرجنا من صلبه أنبياء بنى إسرائيل وغيرهم كأيوب وشعيب عليهم السلام أو أفضنا عليهما بركات الدين والدنيا وقرىء وبركنا (ومن ذريتهما محسن) فى عمله أو لنفسه بالإيمان والطاعة (وظالم لنفسه) بالكفر والمعاصى (مبين) ظاهر ظلمه وفيه تنبيه على أن النسب لا تأثير له فى الهداية والضلال وأن الظلم فى أعقابهما لا يعود عليهما بنقيصة
١١٤ ولا عيب (ولقد مننا على موسى وهرون) أى أنعمنا عليهما بالنبوة وغيرها من النعم الدينية والدنيوية
١١٥ (ونجيناهما وقومهما) وهم بنو إسرائيل (من الكرب العظيم) هو ملكة آل فرعون وتسلطهم عليهم بألوان الغشم والعذاب كما فى قوله تعالى وإذ أنجيناكم من آل فرعون وقيل هو الغرق وهو بعيد لأنه
١١٦ لم يكن عليهم كرباً ومشقة (ونصرناهم) أى إياهما وقومهما على عدوهم (فكانوا) بسبب ذلك (هم الغالبين) عليهم غلبة لا غاية وراءها بعد أن كان قومهما فى أسرهم وقسرهم مقهورين تحت أيديهم العادية يسومونهم

وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ ٣٧ الصافات

وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ ٣٧ الصافات

وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ ٣٧ الصافات

سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ ٣٧ الصافات

إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ ٣٧ الصافات

إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ ٣٧ الصافات

وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ ٣٧ الصافات

إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ ٣٧ الصافات

أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٣٧ الصافات

سوء العذاب وهذه التنجية وإن كانت بحسب الوجود مقارنة لما ذكر من النصر والغلبة لكنها لما كانت
بحسب المفهوم عبارة عن التخليص من المكروه بدىء بها ثم بالنصر الذى يتحقق مدلوله بمحض تنجية
المنصور من عدوه من غير تغليبه عليه ثم بالغلبة لتوفية مقام الامتنان حقه بإظهار أن كل مرتبة من هذه
المراتب الثلاث نعمة جليلة على حيالها (وآتيناهما) بعد ذلك (الكتاب المستبين) أى البليغ فى البيان ١١٧
والتفصيل وهو التوراة (وهديناهما) بذلك (الصراط المستقيم) الموصل إلى الحق والصواب بما فيه ١١٨
من تفاصيل الشرائع وتفاريع الأحكام (وتركنا عليهما فى الآخرين) (سلام على موسى وهرون) أى ١١٩، ١٢٠
أبقينا فيما بين الأمم الآخرين هذا الذكر الجميل والثناء الجزيل (إنا كذلك) الجزاء الكامل (نجزى المحسنين) ١٢١
الذين هما من جملتهم لا جزاء قاصراً عنه (إنهما من عبادنا المؤمنين) سبق بيانه (وإن إلياس لمن ١٢٢، ١٢٣
المرسلين) هو إلياس بن ياسين من سبط هرون أخى موسى عليهم السلام بعث بعده وقيل إدريس لأنه
قرىء مكانه إدريس وإدراس وقرىء إيليس وقرىء إلياس بحذف الهمزة (إذ قال لقومه ألا تتقون) ١٢٤
أى عذاب الله تعالى (أتدعون بعلا) أتعبدونه وتطلبون الخير منه وهو اسم صنم كان لأهل بك من ١٢٥
الشأم وهو البلد المعروف اليوم ببعلبك قيل كان من ذهب طوله عشرون ذراعا وله أربعة أوجه فتنوا به
وعظموه حتى أخدموه أربعمائة سادن وجعلوهم أنبياء فكان الشيطان يدخل جوفه ويتكلم بشريعة الضلالة
والسدنة يحفظونها ويعلمونها الناس وقيل البعل الرب بلغة اليمن أى أتعبدون بعض البعول (وتذرون «

ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ ٣٧ الصافات

فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ ٣٧ الصافات

إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ ٣٧ الصافات

وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ ٣٧ الصافات

سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ ٣٧ الصافات

إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣١﴾ ٣٧ الصافات

إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ٣٧ الصافات

وَإِنَّ لُوطٗا لَّمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ ٣٧ الصافات

إِذۡ نَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ ٣٧ الصافات

إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ٣٧ الصافات

ثُمَّ دَمَّرۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ ٣٧ الصافات

أحسن الخالقين) أى وتتركون عبادته وقد أشير إلى المقتضى للإنكار المعنى بالهمزة ثم صرح به بقوله
١٢٦ تعالى (الله ربكم ورب آبائكم الأولين) بالنصب على البدلية من أحسن الخالقين وقرىء بالرفع على الابتداء
والتعرض لذكر ربوبيته تعالى لآبائهم لتأكيد إنكار تركهم عبادته تعالى والإشعار ببطلان آراء آبائهم
١٢٧ أيضاً (فكذبوه فإنهم) بسبب تكذيبهم ذلك (لمحضرون) أى العذاب والإطلاق للاكتفاء بالقرائن
١٢٨ على أن الإحضار المطلق مخصوص بالشر عرفا (إلا عباد الله المخلصين) استثناء من ضمير محضرون
١٢٩، ١٣٠ (وتركنا عليه فى الآخرين سلام على إلياسين) هو لغة فى إلياس كسيناء فى سينين وقيل هو جمع
له أريد به هو وأتباعه كالمهلبين والخبيبين وفيه أن العلم إذا جمع يجب تعريفه كالمثالين وقرىء بإضافة آل
١٣١، ١٣٢ إلى ياسين لأنهما فى المصحف مفصولان فيكون ياسين أبا إلياس (إنا كذلك نجزى المحسنين إنه
١٣٣، ١٣٤ من عبادنا المؤمنين) مر تفسيره (وإن لوطاً لمن المرسلين إذ نجيناه) أى اذكر وقت تنجيتنا إياه
١٣٥، ١٣٦ (وأهله أجمعين إلا عجوزاً فى الغابرين) أى الباقين فى العذاب أو الماضين الهالكين (ثم دمرنا
الآخرين) فإن فى ذلك شواهد على جلية أمره وكونه من جملة المرسلين .

وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ ٣٧ الصافات

وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ٣٧ الصافات

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ ٣٧ الصافات

إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ ٣٧ الصافات

فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ ٣٧ الصافات

فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ ٣٧ الصافات

فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ ٣٧ الصافات

لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ٣٧ الصافات

فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ ٣٧ الصافات

(وإنكم) ياأهل مكة (لتمرون عليهم) على منازلهم فى متاجركم إلى الشأم وتشاهدون آثار هلاكهم فإن ١٣٧
سدوم فى طريق الشأم (مصبحين) داخلين فى الصباح (وبالليل) أى ومساء أو نهاراً وليلا ولعلها وقعت ١٣٨
بقرب منزل يمر بها المرتحل عنه صباحا والقاصد له مساء (أفلا تعقلون) أتشاهدون ذلك فلا تعقلون
حتى تعتبروا به وتخافوا أن يصيبكم مثل ما أصابهم (وإن يونس لمن المرسلين) وقرىء بكسر النون ١٣٩
(إذ أبق) أى هرب وأصله الهرب من السيد لكن لما كان هربه من قومه بغير إذن ربه حسن إطلاقه عليه ١٤٠
(إلى الفلك المشحون) أى المملوء (فساهم) فقارع أهله (فكان من المدحضين) فصار من المغلوبين بالقرعة ١٤١
وأصله المزلق عن مقام الظفر روى أنه عليه الصلاة والسلام لما وعد قومه بالعذاب خرج من بينهم قبل
أن يأمره الله تعالى به فركب السفينة فوقفت فقالوا فيها عبد آبق فاقترعوا فخرجت القرعة عليه فقال أنا
الآبق ورمى بنفسه فى الماء (فالتقمه الحوت) فابتلعه من اللقمة (وهو مليم) داخل فى الملامة أو آت بما ١٤٢
يلام عليه أو مليم نفسه وقرىء مليم بالفتح مبنياً من ليم كشيب فى مشوب (فلولا أنه كان من المسبحين) ١٤٣
الذاكرين الله كثيراً بالتسبيح مدة عمره أو فى بطن الحوت وهو قوله لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت
من الظالمين وقيل من المصلين فإنه عليه الصلاة والسلام كان كثير الصلاة فى الرخاء (للبث فى بطنه إلى يوم ١٤٤
يبعثون) حياً وقيل ميتاً وفيه حث على إكثار الذكر وتعظيم لشأنه ومن أقبل عليه فى السراء أخذ بيده
عند الضراء (فنبذناه بالعراء) بأن حملنا الحوت على لفظه بالمكان الخالى عما يغطيه من شجر أو نبت روى ١٤٥

وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ﴿١٤٦﴾ ٣٧ الصافات

وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ ٣٧ الصافات

فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴿١٤٨﴾ ٣٧ الصافات

فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ ٣٧ الصافات

أن الحوت سار مع السفينة رافعاً رأساً يتنفس فيه يونس عليه السلام ويسبح ولم يفارقهم حتى انتهوا إلى
البر فلفظه سالماً لم يتغير منه شيء فأسلموا وروى أن الحوت قذفه بساحل قرية من الموصل واختلف في
مقدار لبثه فقيل أربعون يوما وقيل عشرون وقيل سبعة وقيل ثلاثة وقيل لم يلبث إلا قليلا ثم أخرج
من بطنه بعيد الوقت الذى التقم فيه روى عطاء أنه حين ابتلعه أوحى الله تعالى إلى الحوت إنى جعلت
١٤٦ بطنك له سجناً ولم أجعله لك طعاما (وهو سقيم) بما ناله قيل صار بدنه كبدن الطفل حين يولد (وأنبتنا
عليه) أى فوقه مظلة عليه (شجرة من يقطين) وهو كل ماينبسط على الأرض ولا يقوم على ساق كشجر
البطيخ والقثاء والحنظل وهو يفعيل من قطن بالمكان إذا أقام به والأكثرون على أنه الدباء غطته
بأوراقها عن الذباب فإنه لا يقع عليه ويدل عليه أنه قيل لرسول الله ﷺ إنك تحب القرع قال أجل
هى شجرة أخى يونس وقيل هى التين وقيل الموز تغطى بورقه واستظل بأغصانه وأفطر على ثماره وقيل
١٤٧ كان يستظل بالشجرة وكانت وعلة تختلف إليه فيشرب من لبنها (وأرسلناه إلى مائة ألف) هم قومه الذين
هرب منهم وهم أهل نينوى والمراد به إرساله السابق أخبر أولا بأنه من المرسلين على الإطلاق ثم أخبر
بأنه قد أرسل إلى أمة جمة وكأن توسيط تذكير وقت هربه إلى الفلك وما بعده بينهما لتذكير سببه وهو
ماجرى بينه عليه الصلاة والسلام وبين قومه من إنذاره إياهم عذاب الله تعالى وتعيينه لوقت حلوله
وتعللهم وتعليقهم لإيمانهم بظهور أماراته كما مر تفصيله فى سورة يونس ليعلم أن إيمانهم الذى سيحكى
بعد لم يكن عقيب الإرسال كما هو المتبادر من ترتيب الإيمان عليه بالفاء بل بعد اللتيا والتى وقيل هو
إرسال آخر إليهم وقيل إلى غيرهم وليس بظاهر (أو يزيدون) أى فى مرأى الناظر فإنه إذا نظر إليهم قال
١٤٨ إنهم مائة ألف أو يزيدون والمراد هو الوصف بالكثرة وقرىء بالواو (فآمنوا) أى بعد ماشاهدوا علائم
حلول العذاب إيماناً خالصاً (فمتعناهم) أى بالحياة الدنيا (إلى حين) قدره الله سبحانه لهم قيل ولعل عدم
ختم هذه القصة وقصة لوط بما ختم به سائر القصص للتفرقة بينهما وبين أرباب الشرائع وأولى العزم من
١٤٩ الرسل أو اكتفاء بالتسليم الشامل لكل الرسل المذكورين فى آخر السورة (فاستفتهم) أمر الله عز وجل
فى صدر السورة الكريمة رسوله ﷺ بتبكيت قريش وإبطال مذهبهم فى إنكار البعث بطريق الاستفتاء
وساق البراهين القاطعة الناطقة بتحققه لا محالة وبين وقوعه وما سيلقونه عند ذلك من فنون العذاب
واستثنى منهم عباده المخلصين وفصل مالهم من النعيم المقيم ثم ذكر أنه قد ضل من قبلهم أكثر الأولين

أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِنَـٰثًا وَهُمْ شَـٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ ٣٧ الصافات

أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ ٣٧ الصافات

وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ ٣٧ الصافات،

أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ ٣٧ الصافات

وأنه تعالى أرسل إليهم منذرين على وجه الإجمال ثم أورد قصص كل واحد منهم على وجه التفصيل مبيناً
فى كل قصة منها أنهم من عباده تعالى واصفاً لهم تارة بالإخلاص وأخرى بالإيمان ثم أمره ﷺ ههنا
بتبكيتهم بطريق الاستفتاء عن وجه أمر منكر خارج عن العقول بالكلية وهى القسمة الباطلة اللازمة
لما كانوا عليه من الاعتقاد الزائغ حيث كانوا يقولون كبعض أجناس العرب جهينة وبنى سلمة وخزاعة
وبنى مليح الملائكة بنات الله والفاء لترتيب الأمر على ماسبق من كون أولئك الرسل الذين هم أعلام
الخلق عليهم الصلاة والسلام عباده تعالى فإن ذلك مما يؤكد التبكيت ويظهر بطلان مذهبهم الفاسد ثم
تبكيتهم بما يتضمنه كفرهم المذكور من الاستهانة بالملائكة بجعلهم إناثاً ثم أبطل أصل كفرهم المنطوى
على هذين الكفرين وهو نسبة الولد إليه سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً ولم ينظمه فى سلك التبكيت
لمشاركتهم النصارى فى ذلك أى فاستخبرهم (ألربك البنات) اللاتى هن أوضع الجنسين (ولهم البنون)
١٥٠ الذين هم أرفعهما فإن ذلك مما لا يقول به من له أدنى شىء من العقل وقوله تعالى (أم خلقنا الملائكة إناثاً)
إضراب وانتقال من التبكيت بالاستفتاء السابق إلى التبكيت بهذا كما أشير إليه أى بل أخلقنا الملائكة
الذين هم من أشرف الخلائق وأبعدهم من صفات الأجسام ورذائل الطبائع إناثاً والأنوثة من أخس صفات
الحيوان وقوله تعالى (وهم شاهدون) استهزاء بهم وتجهيل لهم كقوله تعالى أشهدوا خلقهم وقوله تعالى
ماأشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم فإن أمثال هذه الأمور لا تعلم إلا بالمشاهدة إذ
لا سبيل إلى معرفتها بطريق العقل وانتفاء النقل مما لا ريب فيه فلابد أن يكون القائل بأنوثتهم شاهداً
عند خلقهم والجملة إما حال من فاعل خلقنا أى بل أخلقناهم إناثاً والحال أنهم حاضرون حينئذ أو عطف
١٥١، ١٥٢ على خلقنا أى بل أهم شاهدون وقوله تعالى (ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله) استئناف
من جهته غير داخل تحت الأمر بالاستفتاء مسوق لإبطال أصل مذهبهم الفاسد ببيان أن مبناه ليس إلا
الإفك الصريح والافتراء القبيح من غير أن يكون لهم دليل أو شبهة قطعاً (وإنهم لكاذبون) فى قولهم
ذلك كذباً بيناً لاريب فيه وقرىء ولد الله على أنه خبر مبتدأ محذوف أى الملائكة ولده تعالى عن ذلك
١٥٣ علواً كبيراً فإن الولد فعل بمعنى مفعول يستوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث (أصطفى البنات على
البنين) إثبات لإفكهم وتقرير لكذبهم فيما قالوا ببيان استلزامه لأمر بين الاستحالة هو اصطفاؤه تعالى
البنات على البنين والاصطفاء أخذ صفوة الشىء لنفسه وقرىء بكسر الهمزة على حذف حرف الاستفهام

مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ ٣٧ الصافات

أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ ٣٧ الصافات

أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿١٥٦﴾ ٣٧ الصافات

فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ ٣٧ الصافات

وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ ٣٧ الصافات

ثقة بدلالة القرائن عليه وجعله بدلا من ولد الله ضعيف و تقدير القول أى لكاذبون فى قولهم أصطفى
١٥٤،١٥٥ الخ تعسف بعيد (مالكم كيف تحكمون) بهذا الحكم الذى يقضى ببطلانه بديهة العقل (أفلا
تذكرون) بحذف إحدى التاءين من تتذكرون وقرىء تذكرون من ذكر والفاء للعطف على مقدر أى
١٥٦ ألا تلاحظون ذلك فلا تتذكرون بطلانه فإنه مركوز فى عقل كل ذكى وغبى (أم لكم سلطان مبين)
إضراب وانتقال من توبيخهم وتبكيتهم بما ذكر إلى تبكيتهم بتكليفهم مالا يدخل تحت الوجود أصلا
أى بل ألكم حجة واضحة نزلت عليكم من السماء بأن الملائكة بناته تعالى ضرورة أن الحكم بذلك لا بد له من
١٥٧ سند حسى أو عقلى وحيث انتفى كلاهما فلا بد من سند نقلى (فأتوا بكتابكم) الناطق بصحة دعواكم (إن
كنتم صادقين) فيها وفى هذه الآيات من الأنباء عن السخط العظيم والإنكار الفظيع لأقاويلهم والاستبعاد
الشديد لأباطيلهم وتسفيه أحلامهم وتركيك عقولهم وأفهامهم مع استهزاء بهم وتعجيب من جهلهم مالا
١٥٨ يخفى على من تأمل فيها وقوله تعالى (وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً) التفات إلى الغيبة للإيذان بانقطاعهم
عن الجواب وسقوطهم عن درجة الخطاب واقتضاء حالهم أن يعرض عنهم وتحكى جناياتهم لآخرين
والمراد بالجنة الملائكة قالوا الجنس واحد ولكن من خبث من الجن ومرد وكان شراً كله فهو شيطان ومن
طهر منهم ونسك وكان خيراً كله فهو ملك وإنما عبر عنهم بذلك الاسم وضعاً منهم وتقصيراً بهم مع عظم
شأنهم فيما بين الخلق أن يبلغوا منزلة المناسبة التى أضافوها إليهم بجعلهم هذا عبارة عن قولهم الملائكة بنات
الله وإنما أعيد ذكره تمهيداً لما يعقبه من قوله تعالى (ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون) أى وبالله لقد علمت
الجنة التى عظموها بأن جعلوا بينها وبينه تعالى نسباً وهم الملائكة أن الكفرة لمحضرون النار معذبون بها لكذبهم
وافترائهم فى قولهم ذلك والمراد به المبالغة فى التكذيب ببيان أن الذين يدعى هؤلاء لهم تلك النسبة ويعلمون
أنهم أعلم منهم بحقيقة الحال يكذبونهم فى ذلك ويحكمون بأنهم معذبون لأجله حكما مؤكداً وقيل إن قوما
من الزنادقة يقولون الله تعالى وإبليس إخوان فالله هو الخير الكريم وإبليس هو الشرير اللئيم وهو
المراد بقوله تعالى وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً قال الإمام الرازى وهذا القول عندى أقرب الأقاويل
وهو مذهب المجوس القائلين بيزدان واهرمن ويعبرون عنهما بالنور والظلمة وقال مجاهد قالت قريش

سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ ٣٧ الصافات

إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ ٣٧ الصافات

فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ ٣٧ الصافات

مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ ٣٧ الصافات

إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ ٣٧ الصافات

وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ ٣٧ الصافات

الملائكة بنات الله فقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه فمن أمهاتهم تبكيتاً لهم فقالوا سروات الجن وقيل
معنى جعلوا بينه وبين الجنة نسباً جعلوا بينهما مناسبة حيث أشركوا به تعالى الجن فى استحقاق العبادة فعلى هذه
الأقاويل يجوز أن يكون الضمير فى إنهم لمحضرون للجنة فالمعنى لقد علمت الشياطين أن الله تعالى يحضرهم
النار ويعذبهم بها ولو كانوا مناسبين له تعالى أو شركاء فى استحقاق العبادة لما عذبهم والوجه هو الأول فإن
قوله (سبحان الله عما يصفون) حكاية لتنزيه الملائكة إياه تعالى عما وصفه المشركون به بعد تكذيبهم ١٥٩
لهم فى ذلك بتقدير قول معطوف على علمت وقوله تعالى (إلا عباد الله المخلصين) شهادة منهم ببراءة المخلصين ١٦٠
من أن يصفوه تعالى بذلك متضمنة لتبرئهم منه بحكم اندراجهم فى زمرة المخلصين على أبلغ وجه وآكده
على أنه استثناء منقطع من واو يصفون كأنه قيل ولقد علمت الملائكة أن المشركين لمعذبون لقولهم
ذلك وقالوا سبحان الله عما يصفونه به لكن عباد الله الذين نحن من جملتهم برآء من ذلك الوصف وقوله
تعالى (فإنكم وما تعبدون) (ما أنتم عليه بفاتنين) تعليل وتحقيق لبراءة المخلصين عما ذكر ببيان ١٦١، ١٦٢
عجزهم عن إغوائهم وإضلالهم والالتفات إلى الخطاب لإظهار كمال الاعتناء بتحقيق مضمون الكلام وما
تعبدون عبارة عن الشياطين الذين أغووهم وفيه إيذان بتبرئهم عنهم وعن عبادتهم كقولهم بل كانوا يعبدون
الجن وما نافية وأنتم خطاب لهم ولمعبوديهم تغليباً وعلى متعلقة بفاتنين يقال فتن فلان على فلان امرأته
أى أفسدها عليه والمعنى فإنكم ومعبوديكم أيها المشركون لستم بفاتنين عليه تعالى بإفساد عباده وإضلالهم
(إلا من هو صال الجحيم) منهم أى داخلها لعلمه تعالى بأنه يصير على الكفر بسوء اختياره ويصير من ١٦٣
أهل النار لا محالة وأما المخلصون منهم فأنتم بمعزل من إفسادهم وإضلالهم فهم لا جرم برآء من أن يفتتنوا
بكم ويسلكوا مسلككم فى وصفه تعالى بما وصفتموه به وقرىء صال بضم اللام على أنه جمع محمول على
معنى من قد سقط واوه لالتقاء الساكنين وقوله تعالى (وما منا إلا له مقام معلوم) تبيين لجلية أمرهم ١٦٤
وتعيين لحيزهم فى موقف العبودية بعد ماذكر من تكذيب الكفرة فيما قالوا وتنزيه الله تعالى عن ذلك

وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ ٣٧ الصافات

وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ ٣٧ الصافات

وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ ٣٧ الصافات

لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ ٣٧ الصافات

لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ ٣٧ الصافات

فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ ٣٧ الصافات

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ ٣٧ الصافات

إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ ٣٧ الصافات

وتبرئة المخلصين عنه وإظهار لقصور شأنهم وقماءتهم أى ومامنا إلا له مقام معلوم فى العبادة والانتهاء إلى أمر
الله تعالى مقصور عليه لا يتجاوزه ولا يستطيع أن يزيل عنه خضوعا لعظمته وخشوعا لهيبته وتواضعاً
لجلاله كما روى فمنهم راكع لا يقيم صلبه وساجد لا يرفع رأسه قال ابن عباس رضى الله عنهما ما فى
السموات موضع شبر إلا وعليه ملك يصلى أو يسبح وروى أنه ﷺ قال أطت السماء وحق لها أن تئط
والذى نفسى بيده مافيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك واضع جبهته ساجد لله تعالى وقال السدى إلا له
١٦٥، ١٦٦ مقام معلوم فى القربة والمشاهدة (وإنا لنحن الصافون) فى مواقف الطاعة ومواطن الخدمة (وإنا
لنحن المسبحون) المقدسون لله سبحانه عن كل مالا يليق بجناب كبريائه وتحلية كلامهم بفنون التأكيد
لإبراز أن صدوره عنهم بكمال الرغبة والنشاط هذا هو الذى تقتضيه جزالة التنزيل وقد ذكر فى تفسير
١٦٧ الآيات الكريمة وإعرابها وجوه أخر فتأمل والله الموفق (وإن كانوا ليقولون) إن هى المخففة من الثقيلة
١٦٨ وضمير الشأن محذوف واللام هى الفارقة أى إن الشأن كانت قريش تقول (لو أن عند ذكراً من الأولين)
١٦٩ أى كتاباً من كتب الأولين من التوراة والإنجيل (لكنا عباد الله المخلصين) أى لأخلصنا العبادة لله
تعالى ولما خالفنا كما خالفوا وهذا كقولهم لئن جاءنا نذير لنكونن أهدى من إحدى الأمم والفاء فى قوله
١٧٠ تعالى (فكفروا به) فصيحة كما فى قوله تعالى فقلنا اضرب بعصاك البحر فانفلق أى لجاءهم ذكر وأى
ذكر سيد الأذكار وكتاب مهيمن على سائر الكتب والأسفار فكفروا به (فسوف يعلمون) أى عاقبة
١٧١ كفرهم وغائلته (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين) استئناف مقرر للوعيد وتصديره بالقسم لغاية
١٧٢ الاعتناء بتحقيق مضمونه أى وبالله لقد سبق وعدنا لهم بالنصرة والغلبة هو قوله تعالى (إنهم

وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ٣٧ الصافات

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ ٣٧ الصافات

وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ ٣٧ الصافات

أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ ٣٧ الصافات

فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ ٣٧ الصافات

وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ ٣٧ الصافات

وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ ٣٧ الصافات

١٧٣ لهم المنصورون وإن جندنا) وهم أتباع المرسلين (لهم الغالبون) على أعدائهم فى الدنيا والآخرة ولا يقدح فى
ذلك انهزامهم فى بعض المشاهد فإن قاعدة أمرهم وأساسه الظفر والنصرة وإن وقع فى تضاعيف ذلك شوب
من الابتلاء والمحنة والحكم للغالب وعن ابن عباس رضى الله عنهما إن لم ينصروا فى الدنيا نصروا فى
الآخرة وقرىء على عبدنا بتضمين سبقت معنى حقت وتسميتها كلمة مع أنها كلمات لانتظامها فى معنى واحد
١٧٤ وقرىء كلماتنا (فتول عنهم) فأعرض عنهم واصبر (حتى حين) إلى مدة يسيرة وهى مدة الكف عن القتال
١٧٥ وقيل يوم بدر وقيل يوم الفتح (وأبصرهم) على أسوأ حال وأفظع نكال حل بهم من القتل والأسر والمراد
بالأمر بإبصارهم الإيذان بغاية قربه كأنه بين يديه (فسوف يبصرون) مايقع حينئذ من الأمور وسوف
١٧٦ للوعيد دون التبعيد (أفبعذابنا يستعجلون) روى أنه لما نزل فسوف يبصرون قالوا متى هذا فنزل
١٧٧ (فإذا نزل بساحتهم) أى فإذا نزل العذاب الموعود بفنائهم كأنه جيش قدهجمهم فأناخ بفنائهم بغتة فشن
عليهم الغارة وقطع دابرهم بالمرة وقيل المراد نزول رسول الله ﷺ يوم الفتح وقرىء نزل بساحتهم على
إسناده إلى الجار والمجرور وقرىء نزل مبنياً للمفعول من التنزيل أى نزل العذاب (فساء صباح المنذرين) *
فبئس صباح المنذرين صباحهم واللام للجنس والصباح مستعار من صباح الجيش المبيت لوقت نزول
العذاب ولما كثرت منهم الغارة فى الصباح سموها صباحا وإن وقعت ليلا روى أن رسول الله ﷺ لما أتى
خيبر وكانوا خارجين إلى مزارعهم ومعهم المساحى قالوا محمد والخميس ورجعوا إلى حصنهم فقال ﷺ
١٧٨، ١٧٩ الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين (فتول عنهم حتى حين) (وأبصر
فسوف يبصرون) تسلية لرسول الله ﷺ إثر تسلية وتأكيد لوقوع الميعاد غب تأكيد مع مافى إطلاق
الفعلين عن المفعول من الإيذان بأن مايبصره ﷺ حينئذ من فنون المسار ومايبصرونه من أنواع المضار
لايحيط به الوصف والبيان وقيل أريد بالأول عذاب الدنيا وبالثانى عذاب الآخرة .

سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ ٣٧ الصافات

وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٨١﴾ ٣٧ الصافات

وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ٣٧ الصافات

١٨٠ (سبحان ربك رب العزة عما يصفون) تنزيه لله سبحانه عن كل مايصفه المشركون به مما لا يليق بجناب
كبريائه وجبروته مما ذكر فى السورة الكريمة ومالم يذكر من الأمور التى من جملتها ترك إنجاز الموعود
على موجب كلمته السابقة لاسيما فى حق رسول الله ﷺ كما ينبىء عنه التعرض لعنوان الربوبيـــة
المعربة عن التربية والتكميل والمالكية الكلية مع الإضافة إلى ضميره ﷺ أولا وإلى العزة ثانياً كأنه
قيل سبحان من هو مربيك ومكملك ومالك العزة والغلبة على الإطلاق عمايصفه المشركون به من الأشياء
١٨١ التى منها ترك نصرتك عليهم كما يدل عليه استعجالهم بالعذاب وقوله تعالى (وسلام على المرسلين)
لتشريف لهم عليهم السلام بعد تنزيهه تعالى عما ذكر وتنويه بشأنهم وإيذان بأنهم سالمون عن كل المكاره
١٨٢ فائزون بجميع المآرب وقوله تعالى (والحمد لله رب العالمين) إشارة إلى وصفه عزوجل بصفاته الكريمة
الثبوتية بعد التنبيه على اتصافه تعالى بجميع صفاته السلبية وإيذان باستتباعها للأفعال الجميلة التى من جملتها
إفاضته عليهم من فنون الكرامات السنية والكمالات الدينية والدنيوية وإسباغه عليهم وعلى من تبعهم
صنوف النعماء الظاهرة والباطنة الموجبة لحمده تعالى وإشعار بأن ماوعده ﷺ من النصرة والغلبة قد
تحققت والمراد تنبيه المؤمنين على كيفية تسبيحه تعالى وتحميده والتسليم على رسله الذين هم وسايط بينهم
وبينه عز وعلا فى فيضان الكمالات الدينية والدنيوية عليهم ولعل توسيط التسليم على المرسلين بين
تسبيحه تعالى وتحميده لختم السورة الكريمة بحمده تعالى مع مافيه من الإشعار بأن توفيقه تعالى للتسليم
عليهم من جملة نعمه الموجبة للحمد . عن على رضى الله عنه من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر
يوم القيامة فليكن آخر كلامه إذا قام من مجلسه سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين
والحمد لله رب العالمين . عن رسول الله ﷺ من قرأ والصافات أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد كل
جنى وشيطان وتباعدت عنه مردة الشياطين وبرىء من الشرك وشهد له حافظاه يوم القيامة أنه كان
مؤمناً بالمرسلين .

سورة الصافات

آياتها ١٨٢ — ترتيبها ٣٧

مكية ولم يحكوا في ذلك خلافاً وهي مائة وإحدى وثمانون آية عند البصريين ومائة واثنتان وثمانون عند غيرهم، وفيها تفصيل أحوال القرون المشار إلى إهلاكها في قوله تعالى في السورة المتقدمة ﴿ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون﴾ [يس: ٣١] وفيها من تفصيل أحوال المؤمنين وأحوال أعدائهم الكافرين يوم القيامة ما هو كالإيضاح لما في تلك السورة من ذلك، وذكر فيها شيء مما يتعلق بالكواكب لم يذكر فيما تقدم، ولمجموع ما ذكر ذكرت بعدها. وفي البحر مناسبة أول هذه السورة لآخر سورة يس أنه تعالى لما ذكر المعاد وقدرته سبحانه على إحياء الموتى وأنه هو منشئهم وأنه إذا تعلقت إرادته بشيء كان ذكر عز وجل هنا وحدانيته سبحانه إذ لا يتم ما تعلقت به الإرادة إيجاداً وإعداماً إلا بكون المريد واحداً كما يشير إليه قوله تعالى ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ [الأنبياء: ٢٢]

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا
بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا
يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ
فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ
عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالصَّافَّاتِ صَفّاً﴾ إقسام من الله تعالى بالملائكة عليهم السلام كما روي عن ابن عباس وابن مسعود ومسروق ومجاهد وعكرمة وقتادة والسدي، وأبى أبو مسلم ذلك وقال: لا يجوز حمل هذا اللفظ وكذا ما بعد على الملائكة لأن اللفظ مشعر بالتأنيث والملائكة مبرؤون عن هذه الصفة، وفيه أن هذا في معنى جمع الجمع فهو جمع صافة أي طائفة أو جماعة صافة، ويجوز أن يكون تأنيث المفرد باعتبار أنه ذات ونفس والتأنيث المعنوي هو الذي لا يحسن أن يطلق عليهم وأما اللفظي فلا مانع منه كيف وهم المسمون بالملائكة، والوصف

المذكور منزل منزلة اللازم على أن المراد إيقاع نفس الفعل من غير قصد إلى المفعول أي الفاعلات للصفوف أو المفعول محذوف أي الصافات أنفسها أي الناظمات لها في سلك الصفوف بقيامها في مقاماتها المعلومة حسبما ينطق به قوله تعالى ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾ [الصافات: ١٦٤] وذلك باعتبار تقدم الرتبة والقرب من حظيرة القدس أو الصافات أنفسها القائمات صفوفاً للعبادة، وقيل: الصافات أقدامها للصلاة، وقيل: الصافات أجنحتها في الهواء منتظرات أمر الله تعالى، وقيل: المراد بالصافات الطير من قوله تعالى ﴿والطير صافات﴾ [النور: ٤١] ولا يعول على ذلك، و ﴿صفاً﴾ مصدر مؤكد وكذا ﴿زجراً﴾ في قوله تعالى ﴿فَالزَّاجِرَات زَجْراً﴾ وقيل: صفاً مفعول به وهو مفرد أريد به الجمع أي الصافات صفوفها وليس بذاك، والمراد بالزاجرات الملائكة عليهم السلام أيضاً عند الجمهور، والزجر في الأصل الدفع عن الشيء بتسلط وصياح وأنشدوا:

زجـر أبـي عـروة الـسـبـاع إذا ... أشـفـق أن يـخـتـلـطـن بـالـغـنـم

ويستعمل بمعنى السوق والحث وبمعنى المنع، والنهي وإن لم يكن صياح والوصف منزل منزلة اللازم أو مفعوله محذوف أي الفاعلات للزجر أو الزاجرات ما نيط بها زجره من الأجرام العلوية والسفلية وغيرها على وجه يليق بالمزجور، ومن جملة ذلك زجر العباد عن المعاصي بإلهام الخير وزجر الشياطين عن الوسوسة والإغواء وعن استراق السمع كما سيأتي قريباً إن شاء الله تعالى، وعن قتادة المراد بالزاجرات آيات القرآن لتضمنها النواهي الشرعية، وقيل كل ما زجر عن معاصي الله عز وجل، والمعول عليه ما تقدم، وكذا المراد كما روي عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما في قوله تعالى: ﴿فَالتَّالِيَات ذِكْراً﴾ الملائكة عليهم السلام.

و ﴿ذكراً﴾ نصب على أنه مفعول وتنوينه للتفخيم، وهو بمعنى المذكور المتلو وفسر بكتاب الله عز وجل.

قال أبو صالح: هم الملائكة يجيئون بالكتاب والقرآن من عند الله عز وجل إلى الناس فالمراد بتلاوته تلاوته على الغير، وفسره بعضهم بالآيات والمعارف الإلهية والملائكة يتلونهما على الأنبياء والأولياء، وسيأتي إن شاء الله تعالى في باب الاشارة ما يتعلق بتلاوة الملائكة ذلك على الأولياء قدس الله تعالى أسرارهم، وقال بعض: أي فالتاليات آيات الله تعالى وكتبه المنزلة على الأنبياء عليهم السلام وغيرها من التسبيح والتقديس والتحميد والتمجيد، ولعل التلاوة على هذا أعم من التلاوة على الغير وغيرها، وقيل ﴿ذكراً﴾ نصب على أنه مصدر مؤكد على غير اللفظ لتكون المنصوبات على نسق واحد، وقال قتادة: التاليات ذكراً بنو آدم يتلون كتابه تعالى المنزل وتسبيحه وتكبيره، وجوز أن يكون الله تعالى أقسم بنفوس العلماء العمال الصافات أنفسها في صفوف الجماعات أو أقدامها في الصلوات الزاجرات بالمواعظ والنصائح التاليات آيات الله تعالى الدارسات شرائعه وأحكامه أو بطوائف قواد الغزاة في سبيل الله تعالى التي تصف الصفوف في مواطن الحروب الزاجرات الخيل للجهاد سوقاً أو العدو في المعارك طرداً التاليات آيات الله سبحانه وذكره وتسبيحه في تضاعيف ذلك.

وجوز أيضاً أن يكون أقسم سبحانه بطوائف الأجرام الفلكية المرتبة كالصفوف المرصوصة بعضها فوق بعض والنفوس المدبرة لتلك الأجرام بالتحريك ونحوه والجواهر القدسية المستغرقة في بحار القدس يسبحون الليل والنهار لا يفترون وهم الملائكة الكروبيون ونحوهم؛ وهذا بعيد بمراحل عن مذهب السلف الصالح بل عن مذهب أهل السنة مطلقاً كما لا يخفى، والفاء العاطفة للصفات قد تكون لترتيب معانيها الوصفية في الوجود الخارجي إذا كانت الذات المتصفة بها واحدة كما في قوله:

يـا لـهـف زيـابـة لـلـحـادث الـسـ ... ـابـح فـالـغـانـم فـالآيـب

أي الذي صبح فغنم فآب ورجع أو لترتيب معانيها في الرتبة إذا كانت الذات واحدة أيضاً كما في قولك: أتم العقل فيك إذا كنت شاباً فكهلاً أو لترتيب الموصوفات بها في الوجود كما في قولك: وقفت كذا على بني بطناً فبطناً أو في الرتبة نحو رحم الله تعالى المحلقين فالمقصرين، وكلاهما مع تعدد الموصوف والترتيب الرتبي إما باعتبار الترقي أو باعتبار التدلي، وهي إذا كانت الذات المتصفة بالصفات هنا واحدة وهم الملائكة عليهم السلام بأسرهم تحتمل أن تكون للترتيب الرتبي باعتبار الترقي فالصف في الرتبة الأولى لأنه عمل قاصر والزجر أعلى منه لما فيه من نفع الغير والتلاوة أعلى وأعلى لما فيها من نفع الخاصة الساري إلى نفع العامة بما فيه صلاح المعاش والمعاد أو للترتيب الخارجي من حيث وجود ذوات الصفات فالصف يوجد أولاً لأنه كمال للملائكة في نفسها ثم يوجد بعده الزجر للغير لأنه تكميل للغير يستعد به الشخص ما لم يكمل في نفسه لا يتأهل لأن يكمل غيره ثم توجد التلاوة بناء على أنها إفاضة على الغير المستعد لها وذا لا يتحقق إلا بعد حصول الاستعداد الذي هو من آثار الزجر، وإذا كانت الذات المتصفة بها من الملائكة عليهم السلام متعددة بمعنى أن صنفاً منهم كذا وصنفاً آخر كذا فالظاهر أنها للترتيب الرتبي باعتبار الترقي كما في الشق الأول فالجماعات الصافات كاملون والزاجرات أكمل منها والتاليات أكمل وأكمل كما يعلم مما سبق، وقيل يجوز أن يكون بعكس ذلك بأن يراد بالصافات جماعات من الملائكة صافات من حول العرش قائمات في مقام العبودية وهم الكروبيون المقربون أو ملائكة آخرون يقال لهم كما ذكر الشيخ الأكبر قدس الله سره المهيمون مستغرقون بحبه تعالى لا يدري أحدهم أن الله عز وجل خلق غيره وذكر أنهم لم يؤمروا بالسجود لآدم عليه السلام لعدم شعورهم باستغراقهم به تعالى وأنهم المعنيون بالعالين في قوله تعالى: ﴿أستكبرت أم كنت من العالين﴾ [ص: ٧٥] وبالزاجرات جماعات أخر أمرت بتسخير العلويات والسفليات وتدبيرها لما خلقت له وهي في الفضل على ما لها من النفع للعباد دون الصافات وبالتاليات ذكراً جماعات أخر أمرت بتلاوة المعارف على خواص الخلق وهي لخصوص نفعها دون الزاجرات أو المراد بالزاجرات الزاجرات الناس عن القبيح بإلهام جهة قبحه وما ينفر عن ارتكابه وبالتاليات ذكراً المهمات للخير والجهات المرغبة فيه، ولكون دفع الضر أولى من جلب الخير ودرأ المفاسد أهم من جلب المصالح ولذا قيل التخلية بالخاء مقدمة على التحلية كانت التاليات دون الزاجرات، وحال الفاء على سائر الأقوال السابقة في الصفات لا يخفى على من له أدنى تأمل ويجوز عندي والله تعالى أعلم أن يراد بالصافات المصطفون للعبادة من صلاة ومحاربة كفرة مثلاً ملائكة كانوا أم أناسي أم غيرهما وبالزاجرات الزاجرون عن ارتكاب المعاصي بأقوالهم أو أفعالهم كائنين من كانوا وبالتاليات ذكراً التالون لآيات الله تعالى على الغير للتعليم أو نحوه كذلك، ولا عناد بين هذه الصفات فتجتمع في بعض الأشخاص، ولعل الترتيب على سبيل الترقي باعتبار نفس الصفات فالاصطفاف للعبادة كمال والزجر عن ارتكاب المعاصي أكمل والتلاوة لآيات الله تعالى للتعليم لتضمنه الأمر بالطاعات والنهي عن المعاصي والتخلي عن الرذائل والتحلي بالمعارف إلى أمور أخر أكمل وأكمل؛ وجعل الصفات المذكورة لموصوف واحد من الملائكة على ما مر بأن تكون جماعات منهم صافات بمعنى صافات أنفسها في سلك الصفوف بالقيام في مقاماتها المعلومة أو القائمات صفوفاً للعبادة وتاليات ذكراً بمعنى تاليات الآيات بطريق الوحي على الأنبياء عليهم السلام لا يخلو عن بعد فيما أرى على أن تعدد الملائكة التالين للوحي سواء كان صنفاً مستقلاً أم لا مما يشكل عليه ما ذكره غير واحد أن الأمين على الوحي التالي للذكر على الأنبياء هو جبريل عليه السلام لا غير، نعم من الآيات ما ينزل مشيعاً بجمع من الملائكة عليهم السلام ونطق الكتاب الكريم بالرصد عند إبلاغ الوحي وهذا أمر والتلاوة على الأنبياء عليهم السلام أمر آخر فتأمل جميع ذلك، وفي المراد بالصفات المتناسقة احتمالات غير ما ذكر فلا تغفل.

وأياً ما كان فالقسم بتلك الجماعات أنفسها ولا حجر على الله عز وجل فله سبحانه أن يقسم بما شاء فلا حاجة إلى القول بأن الكلام على حذف مضاف أي ورب الصافات مثلاً، والآية ظاهرة الدلالة على مذهب سيبويه والخليل في مثل ﴿والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى﴾ [الليل: ١، ٢] من أن الواو الثانية وما بعدها للعطف خلافاً لمذهب غيرهما من أنها للقسم لوقوع الفاء فيها موقع الواو إلا أنها تفيد الترتيب. وأدغم ابن مسعود ومسروق والأعمش وأبو عمرو وحمزة التاءات الثلاث فيما يليها للتقارب فإنها من طرف اللسان وأصول الثنايا.

﴿إِنَّ إِلٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ جواب للقسم وقد جرت عادتهم على تأكيد ما يهتم به بتقديم القسم ولذا قدم هاهنا فلا يقال: إنه كلام مع منكر مكذب فلا فائدة في القسم، وما قيل من أن وحدة الصانع قد ثبتت بالدليل النقلي بعد ثبوتها بالعقل ففائدته ظاهرة هنا غير تام لأن الكلام مع من لا يعترف بالتوحيد، وقد أشير إلى البرهان في قوله سبحانه ﴿رَبُّ السَّمَاوات وَالأَرْض وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ المَشَارِق﴾ فإن وجودها على هذا النمط البديع أوضح دليل على وحدته عز وجل بل في كل ذرة من ذرات العالم دليل على ذلك:

وفي كل شيء له آية

تدل على أنه واحد، ورب خبر ثان لأن على مذهب من يجوز تعدد الأخبار أو خبر مبتدأ محذوف أو هو رب السماوات الخ.

وجوز أبو البقاء وغيره كونه بدلاً من «واحد» فهو المقصود بالنسبة أي خالق السماوات والأرض وما بينهما من الموجودات ويدخل في عموم الموصول أفعال العباد فتدل الآية على أنها مخلوقة له تعالى ولا ينافي ذلك كون قدرة العبد مؤثرة بإذنه عز وجل كما ذهب إليه معظم السلف حتى الأشعري نفسه في آخر الأمر على ما صرح به بعض الأجلة، وفسر بعضهم الرب هنا بالملك وبالمربي، ولعل الأول أظهر. وفي دلالة الآية على كون أفعال العباد مخلوقة له على ذلك بحث، والمراد بالمشارق عند جمع مشارق الشمس لأنها المعروفة الشائعة فيما بينهم وهي بعدد أيام السنة فإنها في كل يوم تشرق من مشرق وتغرب من مغرب فالمغارب متعددة تعدد المشارق، وكأن الاكتفاء بها لاستلزامها ذلك مع أن الشروق أدل على القدرة وأبلغ في النعمة. ولهذا استدل به إبراهيم عليه السلام عند محاجة النمروذ، وعن ابن عطية أن مشارق الشمس مائة وثمانون، ووفق بعضهم بين هذا وما يقتضيه ما تقدم من مضاعفة العدد بأن مشارقها من رأس السرطان وهو أول بروج الصيف إلى رأس الجدي وهو أول بروج الشتاء متحدة معها من رأس الجدي إلى رأس السرطان فإن اعتبر ما كانت عليه وما عادت إليه واحداً كانت مائة وثمانين وإن نظر إلى تغايرهما كانت ثلاثمائة وستين، وفي هذا إسقاط الكسر فإن السنة الشمسية تزيد على ذلك العدد بنحو ستة أيام على ما بين في موضعه، وفسرت المشارق أيضاً بمشارق الكواكب، ورجح بأنه المناسب لقوله تعالى بعد ﴿إنا زينا﴾ الخ، وهي للسيارات منها متفاوتة في العدد، وأكثرها مشارق على ما هو المعروف عند المتقدمين زحل ومشارقه إلى أن يتم دورته أكثر من مشارق الشمس إلى أن تتم دورتها بألوف، ومشارق الثوابت إلى أن تتم الدورة أكثر وأكثر فلا تغفل وتبصر، وتثنية المشرق والمغرب في قوله تعالى ﴿رب المشرقين ورب المغربين﴾ [الرحمن: ١٧] على إرادة مشرق الصيف ومشرق الشتاء ومغربيهما، وإعادة ﴿رب﴾ هنا مع المشارق لغاية ظهور آثار الربوبية فيها وتجددها كل يوم ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ أي أقرب السماوات من أهل الأرض فالدنيا هنا مؤنث أدنى بمعنى أقرب أفعل تفضيل ﴿بزِينَة﴾ عجيبة بديعة ﴿الْكَوَاكِب﴾ بالجر بدل من «زينة» بدل كل على أن المراد بها الاسم أي ما يزان به لا المصدر فإن الكواكب بأنفسها وأوضاع بعضها من بعض زينة وأي زينة:

فكأن أجرام النجوم لوامعاً درر نثرن على بساط أزرق

وجوز أن تكون عطف بيان. وقرأ الأكثرون ﴿بزينة الكواكب﴾ بالإضافة على أنها بيانية لما أن الزينة مبهمة صادقة على كل ما يزان به فتقع الكواكب بياناً لها، ويجوز أن تكون لامية على أن الزينة للكواكب أضواؤها أو أوضاعها، وتفسيرها بالأضواء منقول عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وجوز أن يكون الزينة مصدراً كالنسبة وإضافتها من إضافة المصدر إلى مفعوله أي زينا السماء الدنيا بتزييننا الكواكب فيها أو من إضافة المصدر إلى فاعله أي زيناها بأن زينتها الكواكب. وقرأ ابن وثاب ومسروق بخلاف عنهما والأعمش وطلحة وأبو بكر «بزينةٍ» منوناً «الكواكب» نصباً فاحتمل أن يكون زينة مصدراً والكواكب مفعول به كقوله تعالى ﴿أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً﴾ وليس هذا من المصدر المحدود كالضربة حتى يقال لا يصح أعماله كما نص عليه ابن مالك لأنه وضع مع التاء كالكتابة والإصابة وليس كل تاء في المصدر للوحدة، وأيضاً ليست هذه الصيغة صيغة الوحدة، واحتمل أن يكون ﴿الكواكب﴾ بدلاً من ﴿السماء﴾ بدل اشتمال واشتراط الضمير معه للمبدل منه إذا لم يظهر اتصال أحدهما بالآخر ما قرروه في قوله تعالى ﴿قتل أصحاب الأخدود النار﴾ [البروج: ٤].

وقيل: اللام بدل منه، وجوز كونه بدلاً من محل الجار والمجرور أو المجرور وحده على القولين، وكونه منصوباً بتقدير أعني. وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما «بزينةٍ» منوناً «الكواكبُ» رفعاً على أنها خبر مبتدأ محذوف أي هي الكواكب أو فاعل المصدر ورفعه الفاعل قد أجازه البصريون على قلة، وزعم الفراء أنه ليس بمسموع. وظاهر الآية أن الكواكب في السماء الدنيا ولا مانع من ذلك وإن اختلفت حركاتها وتفاوتت سرعة وبطأ لجواز أن تكون في أفلاكها وأفلاكها في السماء الدنيا وهي ساكنة ولها من الثخن ما يمكن معه نضد تلك الأفلاك المتحركة بالحركات المتفاوتة وارتفاع بعضها فوق بعض. وحكى النيسابوري في تفسير سورة التكوير عن الكلبي أن الكواكب في قناديل معلقة بين السماء والأرض بسلاسل من نور وتلك السلاسل بأيدي الملائكة عليهم السلام، وهو مما يكذبه الظاهر ولا أراه إلا حديث خرافة. وأما ما ذهب إليه جل الفلاسفة من أن القمر وحده في السماء الدنيا وعطارد في السماء الثانية والزهرة في الثالثة والشمس في الرابعة والمريخ في الخامسة والمشتري في السادسة وزحل في السابعة والثوابت في فلك فوق السابعة هو الكرسي بلسان الشرع فمما لا يقوم عليه برهان يفيد اليقين، وعلى فرض صحته لا يقدح في الآية لأنه يكفي لصحة كون السماء الدنيا مزينة بالكواكب كونها كذلك في رأي العين ﴿وحفظاً﴾ نصب على أنه مفعول مطلق لفعل معطوف على ﴿زينا﴾ أي وحفظناها حفظاً أو عطف على «زينة» باعتبار المعنى فإنه معنى مفعول له كأنه قيل: إنا خلقنا الكواكب زينة للسماء وحفظاً لها، والعطف على المعنى كثير وهو غير العطف على الموضوع وغير عطف التوهم وجوز كونه مفعولاً له بزيادة الواو أو على تأخير العامل أي ولحفظها زيناها. وقوله تعالى:

﴿مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِد﴾ متعلق بحفظنا المحذوف أو بحفظا، والمارد كالمريد المتعري عن الخيرات من قولهم شجر أمرد إذا تعرى من الورق، ومنه قيل رملة مرداء إذا لم تنبت شيئاً، ومنه الأمرد لتجرده عن الشعر، وفسر هنا أيضاً بالخارج عن الطاعة وهو في معنى التعري عنها، وقوله تعالى: ﴿لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلأَ الأَعْلَى﴾ أي لا يتسمعون وهذا أصله فأدغمت التاء في السين، وضمير الجمع لكل شيطان لأنه بمعنى الشياطين.

وقرأ الجمهور «لا يَسْمَعُونَ» بالتخفيف، والملأ في الأصل جماعة يجتمعون على رأي فيملؤون العيون رواء والنفوس جلالة وبهاء، ويطلق على مطلق الجماعة وعلى الأشراف مطلقاً، والمراد بالملأ الأعلى الملائكة عليهم السلام كما روي عن السدي لأنهم في جهة العلو ويقابله الملأ الأسفل وهم الإنس والجن لأنهم في جهة السفل.

وقال ابن عباس: هم أشراف الملائكة عليهم السلام، وفي رواية أخرى عنه أنهم كتابهم، وفسر العلو على الروايتين بالعلو المعنوي.

وتعدية الفعل على قراءة الجمهور بإلى لتضمينه معنى الإصغاء أي لا يسمعون مصغين إلى الملأ الأعلى، والمراد نفي سماعهم مع كونهم مصغين، وفيه دلالة على مانع عظيم ودهشة تذهلهم عن الإدراك، وكذا على القراءة الأخرى وهي قراءة ابن عباس بخلاف عنه. وابن وثاب وعبد الله بن مسلم وطلحة والأعمش وحمزة والكسائي وحفص بناء على ما هو الظاهر من أن التفعل لا يخالف ثلاثيه في التعدية، واستعمال تسمع مع إلى لا يقتضي كونه غير مضمن، وقيل لا يحتاج إلى اعتبار التضمين عليها والتفعل مؤذن بالطلب فتسمع بمعنى طلب السماع، قيل: ويشعر ذلك بالإصغاء لأن طلب السماع يكون بالإصغاء فتتوافق القراءتان وإن لم يقل بالتضمين في قراءة التشديد، ولعل الأولى القول بالتضمين ونفي طلبهم السماع مع وقوعه منهم حتى قيل: إنه يركب بعضهم بعضاً لذلك إما ادعائي للمبالغة في نفي سماعهم أو هو على ما قيل بعد وصولهم إلى محل الخطر لخوفهم من الرجم حتى يدهشوا عن طلب السماع، وقال أبو حيان: إن نفي التسمع لانتفاء ثمرته وهو السمع. وقال ابن كمال: عدي الفعل في القراءتين بإلى لتضمنه معنى الانتهاء أي لا ينتهون بالسمع أو التسمع إلى الملأ إلا على وليس بذاك كما لا يخفى على المتأمل الصادق، والجملة في المشهور مستأنفة استئنافاً نحوياً ولم يجوز كونها صفة لشيطان قالوا إذ لا معنى للحفظ من شياطين لا تسمع أو لا تسمع مع إيهامه لعدم الحفظ عمن عداها. وكذا لم يجوز كونها استئنافاً بيانياً واقعاً جواب سؤال مقدر إذ المتبادر أن يؤخذ السؤال من فحوى ما قبله فتقديره حينئذ لم تحفظ فيعود محذور الوصفية، وكذا كونها حالاً مقدرة لأن الحال كذلك يقدرها صاحبها والشياطين لا يقدرون عدم السماع أو عدم التسمع ولا يريدونه، وجوز ابن المنير كونها صفة والمراد حفظ السماوات ممن لا يسمع أولاً يسمع بسبب هذا الحفظ، وهو نظير ﴿ثم أرسلنا رسلنا﴾ [المؤمنون: ٤٤]، ﴿وسخر لكم الليل والنهار﴾ [إبراهيم: ٣٣، النحل: ١٢]، ﴿والقمر والنجوم مسخرات بأمره﴾ [الأعراف: ٥٤] ومن هنا لم يجعل بعض الأجلة قوله عليه الصلاة والسلام «من قتل قتيلاً فله سلبه» من مجاز الأول. وتعقب بأن ذلك خلاف المتبادر ولا يكاد يفهم من أضرب الرجل المضروب كونه مضروباً بهذا الضرب المأمور به لا بضرب آخر قبله، وكذا جوز صاحب الكشف كونها صفة وكونها مستأنفة استئنافاً بيانياً أيضاً ودفع المحذور وأبعد في ذلك المغزى كعادته في سائر تحقيقاته فقال: المعنى لا يمكنون من السماع مع الاصغاء أو لا يمكنون من التسمع مبالغة في نفي السماع كأنهم مع مبالغتهم في الطلب لا يمكنهم ذلك، ولا بد من ذلك جعلت الجملة وصفاً أولاً جمعاً بين القراءتين وتوفية لحق الإصغاء المدلول عليه بإلى وحينئذ يكون الوصف شديد الطباق؛ ورد الاستئناف البياني وارد على تقدير السؤال لم تحفظ؟[1] وليس كذلك بل السؤال عما يكون عند الحفظ وعن كيفيته لأن قوله تعالى **﴿وحفظاً من كل شيطان مارد﴾** مما يحرك الذهن له فقيل **﴿لا يسمعون﴾** جواباً عما يكون عنده و **﴿يقذفون﴾** لكيفية الحفظ، وهذا أولى من جعلها مبدأ اقتصاص مستطرد لئلا ينقطع ما ليس بمنقطع معنى انتهى.

واستدقه الخفاجي واستحسنه وذكر أن حاصله أنه ليس المنفي هنا السماع المطلق حتى يلزم ما ظنوه من فساد المعنى لأنه لما تعدى بإلى وتضمن معنى الإصغاء صار المعنى حفظناها من شياطين لا تنصت لما فيها إنصاتاً تاماً تضبط به ما تقوله الملائكة عليهم السلام، ومآله حفظناها من شياطين مسترقة للسمع، وقوله سبحانه: **﴿إلا من**

---

(١) هكذا الأصل فليحرر.

﴿خطف﴾ الخ ينادي على صحته، والمناقشة بحديث الأوصاف قبل العلم بها أخبار إن جاءت لا تتم فالحديث غير مطرد، وقيل: إن الأصل لأن لا يسمعوا على أن الجار متعلق بحفظاً فحذفت اللام كما في جئتك أن تكرمني ثم حذفت أن ورفع الفعل كما في قوله:

ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى ... وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي

وفيه أن حذف اللام وحذف أن ورفع الفعل وإن كان كل منهما واقعاً في الفصيح إلا أن اجتماع الحذفين منكر يصان كلام الله تعالى عنه. وأبو البقاء يجوز كون الجملة صفة وكونها استئنافاً وكونها حالاً فلا تغفل.

﴿وَيُقْذَفُونَ﴾ أي يرمون ويرجمون ﴿مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ من جوانب السماء إذا قصدوا الصعود إليها، وليس المراد أن كل واحد يرمى من كل جانب بل هو على التوزيع أي كل من صعد من جانب رمي منه.

وقرأ محبوب عن أبي عمرو «يَقْذِفُونَ» بالبناء للفاعل ولعل الفاعل الملائكة، وجوز أن يكون الكواكب، وأمر ضمير العقلاء سهل، وقوله تعالى ﴿دُحُوراً﴾ مفعول له وعلة للقذف أي للدحور وهو الطرد والإبعاد أو مفعول مطلق ليقذفون كقعدت جلوساً لتنزيل المتلازمين منزلة المتحدين فيقام دحوراً مقام قذفاً أو ﴿يقذفون﴾ مقام يدحرون، وعلى التقديرين هو مصدر مؤكد أو حال من ضمير ﴿يقذفون﴾ على أنه مصدر باسم المفعول على القراءة الشائعة وهو في معنى الجمع لشموله للكثير أي مدحورين، وجوز كونه جمع داحر بمعنى مدحور كقاعد وقعود، وكونه جمع داحر من غير تأويل بناء على القراءة الأخرى، وجوز أن يكون منصوباً بنزع الخافض وهو الباء على أنه جمع دحر كدهر ودهور وهو ما يدحر به أي يقذفون بدحور. وقرأ السلمي وابن أبي عبلة والطبراني عن أبي جعفر «دَحُوراً» بفتح الدال فاحتمل كونه نصباً بنزع الخافض أيضاً وهو على هذه القراءة أظهر لأن فعولاً بالفتح بمعنى ما يفعل به كثير كطهور وغسول لما يتطهر ويغسل به، واحتمل أن يكون صفة كصبور لموصوف مقدر أي قذفاً دحوراً طارداً لهم، وأن يكون مصدراً كالقبول وفعول في المصادر نادر ولم يأت في كتب التصريف منه إلا خمسة أحرف الوضوء والطهور والولوع والوقود والقبول كما حكي عن سيبويه وزيد عليه الوزوع بالزاي المعجمة والهوى بفتح الهاء بمعنى السقوط والرسول بمعنى الرسالة. ﴿وَلَهُمْ﴾ أي في الآخرة ﴿عَذَابٌ﴾ آخر غير ما في الدنيا من عذاب الرجم بالشهب ﴿وَاصِبٌ﴾ أي دائم كما قال قتادة وعكرمة وابن عباس وأنشدوا لأبي الأسود:

لا أشتري الحمد القليل بقاؤه ... يوماً بذم الدهر أجمع واصبا

وفسره بعضهم بالشديد، قيل والأول حقيقة معناه وهذا تفسير له بلازمه. والآية على ما سمعت كقوله تعالى: ﴿وأعتدنا لهم عذاب السعير﴾ [الملك: ٥] وجوز أبو حيان أن يكون هذا العذاب في الدنيا وهو رجمهم دائماً وعدم بلوغهم ما يقصدون من استراق السمع ﴿إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ استثناء متصل من واو ﴿يسمعون﴾ و ﴿من﴾ بدل منه على ما ذكره الزمخشري ومتابعوه، وقال ابن مالك: إذا فصل بين المستثنى والمستثنى منه فالمختار النصب لأن الإبدال للتشاكل وقد فات بالتراخي، وذكره في البحر هنا وجهاً ثانياً، وقيل: هو منقطع على أن ﴿من﴾ شرطية جوابها الجملة المقرونة بالفاء بعد وليس بذاك، والخطف الاختلاس والأخذ بخفة وسرعة على غفلة المأخوذ منه، والمراد اختلاس كلام الملائكة مسارقة كما يعرف عنه تعريف الخطفة بلام العهد لأن المراد بها أمر معين معهود فهي نصب على المصدرية، وجوز أن تكون مفعولاً به على إرادة الكلمة. وقرأ الحسن وقتادة «خِطِّف» بكسر الخاء والطاء مشددة، قال أبو حاتم: ويقال هي لغة بكر بن وائل وتميم بن مر والأصل اختطف فسكنت التاء للإدغام وقبلها خاء ساكنة

فالتقى ساكنان فحركت الخاء بالكسر على الأصل وكسرت الطاء للاتباع وحذفت ألف الوصل للاستغناء عنها. وقرىء «خَطَّفَ» بفتح الخاء وكسر الطاء مشددة ونسبها ابن خالويه إلى الحسن وقتادة وعيسى، واستشكلت بأن فتح الخاء سديد لإلقاء حركة التاء عليها، وأما كسر الطاء فلا وجه له، وقيل في توجيهها: إنهم نقلوا حركة الطاء إلى الخاء وحذفت ألف الوصل ثم قلبوا التاء وأدغموا وحركوا الطاء بالكسر على أصل التقاء الساكنين وهو كما ترى، وعن ابن عباس «خِطِفَ» بكسر الخاء والطاء مخففة أتبع على ما في البحر حركة الخاء لحركة الطاء كما قالوا نعم ﴿فَأَتْبَعَهُ﴾ أي تبعه ولحقه على أن أتبع من الأفعال بمعنى تبع الثلاثي فيتعدى لواحد ﴿شِهَابٌ﴾ هو في الأصل الشعلة الساطعة من النار الموقدة، والمراد به العارض المعروف في الجو الذي يرى كأنه كوكب منقض من السماء ﴿ثَاقِبٌ﴾ مضيء كما قال الحسن وقتادة كأنه ثقب الجو بضوئه، وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن يزيد الرقاشي أنه قال: يثقب الشيطان حتى يخرج من الجانب الآخر فذكر ذلك لأبي مجلز فقال: ليس ذاك ولكن ثقوبه ضوءه، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد «الثاقب» المتوقد وهو قريب مما تقدم.

وأخرج عن السدي «الثاقب» المحرق، وليست الشهب نفس الكواكب التي زينت بها السماء فإنها لا تنقض وإلا لانتقصت زينة السماء بل لم تبق، على أن المنقض إن كان نفس الكواكب بمعنى أنه ينقلع عن مركزه ويرمي به الخاطف فيرى لسرعة الحركة كرمح من نار لزم أن يقع على الأرض وهو إن لم يكن أعظم منها فلا أقل من أن ما انقض من الكواكب من حين حدث الرمي إلى اليوم أعظم منها بكثير فيلزم أن تكون الأرض اليوم مغشية بإجرام الكواكب والمشاهدة تكذب ذلك بل لم نسمع بوقوع جرم كوكب أصلاً.

وأصغر الكواكب عند الإسلاميين كالجبل العظيم، وعند الفلاسفة أعظم وأعظم بل صغار الثوابت عندهم أعظم من الأرض وإن التزم أنه يرمى به حتى إذا تم الغرض رجع إلى مكانه قيل عليه: إنه حينئذ يلزم أن يسمع لهويه صوت هائل فإن الشهب تصل إلى محل قريب من الأرض، وأيضاً عدم مشاهدة جرم كوكب هابطاً أو صاعداً يأبى احتمال انقلاع الكوكب والرمي به نفسه، وإن كان المنقض نوره فالنور لا أذى فيه فالأرض مملوءة من نور الشمس وحشوها الشياطين، على أنه إن كان المنقض جميع نوره يلزم انتقاص الزينة أو ذهابها بالكلية، وإن كان بعض نوره يلزم أن تتغير أضواء الكواكب ولم يشاهد في شيء منها ذلك، وأمر انقضاضه نفسه أو انفصال ضوئه على تقدير كون الكواكب الثوابت في الفلك الثامن المسمى بالكرسي عند بعض الإسلاميين وإنه لا شيء في السماء الدنيا سوى القمر أبعد وأبعد. والفلاسفة يزعمون استحالة ذلك لزعمهم عدم قبول الفلك الخرق والالتئام إلى أمور أخر، ويزعمون في الشهب أنها أجزاء بخارية دخانية لطيفة وصلت كرة النار فاشتعلت وانقلبت ناراً ملتهبة فقد ترى ممتدة إلى طرف الدخان ثم ترى كأنها طفئت وقد تمكث زماناً كذوات الأذناب وربما تتعلق بها نفس على ما فصلوه، وهم مع هذا لا يقولون بكونها ترمى بها الشياطين بل هم ينكرون حديث الرمي مطلقاً، وفي النصوص الإلهية رجوم لهم، ولعل أقرب الاحتمالات فى أمر الشهب أن الكوكب يقذف بشعاع من نوره فيصل أثره إلى هواء وتكيف بكيفية مخصوصة يقبل بها الاشتعال بما يقع عليه من شعاع الكوكب بالخاصية فيشتعل فيحصل ما يشاهد من الشهب، وإن شئت قلت: إن ذلك الهواء المتكيف بالكيفية المخصوصة إذا وصل إلى محل مخصوص من الجو أثرت فيه أشعة الكواكب بما أودعه الله تعالى فيها من الخاصية فيشتعل فيحصل ما يحصل، وتأثير الأشعة الحرق في القابل له مما لا ينكر فإنا نرى شعاع الشمس إذا قوبل ببعض المناظر على كيفية مخصوصة أحرق قال الإحراق ولو توسط بين المنظرة وبين القابل إناء بلور مملوء ماء، ويقال: إن الله تعالى يصرف ذلك الحاصل إلى الشيطان المسترق للسمع وقد يحدث ذلك وليس هناك

مسترق، ويمكن أن يقال: إنه سبحانه يخلق الكيفية التي بها يقبل الهواء الإحراق في الهواء الذي في جهة الشيطان، ولعل قرب الشيطان من بعض أجزاء مخصوصة من الهواء معد بخاصية أحدثها الله تعالى فيه لخلقه عز وجل تلك الكيفية في ذلك الهواء القريب منه مع أنه عز وجل يخلق تلك الكيفية في بعض أجزاء الهواء الجوية حيث لا شيطان هناك أيضاً.

وإن شئت قلت: إنه يخرج شؤبوب من شعاع الكوكب فيتأذى به المارد أو يحترق، والله عز وجل قادر على أن يحرق بالماء ويروى بالنار والمسببات عند الأسباب لا بها وكل الأشياء مسندة إليه تعالى ابتداء عند الأشاعرة، ولا يلزم على شيء مما ذكر انتقاص ضوء الكوكب، ولو سلم أنه يلزم انتقاص على بعض الاحتمالات قلنا: إنه عز وجل يخلق بلا فصل في الكوكب بدل ما نقص منه وأمره سبحانه إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

ولا ينافي ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين﴾ [الملك: ٥] لأن جعلها رجوماً يجوز أن يكون لأنه بواسطة وقوع إشعاع على ما ذكرنا من الهواء تحدث الشهب فهي رجوم بذلك الاعتبار ولا يتوقف جعلها رجوماً على أن تكون نفسها كذلك بأن تنقلع عن مراكزها ويرجم بها، وهذا كما تقول: جعل الله تعالى الشمس يحرق بها بعض الأجسام فإنه صادق فيما إذا أحرق بها بتوسيط بعض المناظر وانعكاس شعاعها على قابل الإحراق. وزعم بعض الناس أن الشهب شعل نارية تحدث من أجزاء متصاعدة إلى كرة النار وهي الرجوم ولكونها بواسطة تسخين الكواكب للأرض قال سبحانه: ﴿**وجعلناها رجوماً**﴾ على التجوز في إسناد الجعل إليها أو في لفظها، ولا يخفى أن كرة النار مما لم تثبت في كلام السلف ولا ورد فيها عن الصادق عليه الصلاة والسلام خبر، وقيل: يجوز أن تكون المصابيح هي الشهب وهي غير الكواكب وزينة والسماء بالمصابيح لا يقتضي كونها فيها حقيقة إذ يكفي كونها في رأي العين ذلك، وقيل: يجوز أن يراد بالسماء جهة العلو وهي مزينة بالمصابيح والشهب كما هي مزينة بالكواكب. وتعقب هذا بأن وصف السماء بالدنيا يبعد إرادة الجهة منها. وتعقب ما قبله بأن المتبادر أن المصابيح هي الواكب ولا يكاد يفهم من قوله تعالى: ﴿**إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب**﴾ وقوله سبحانه: ﴿**ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح**﴾ إلا شيء واحد، وأن كون الشهب المعروفة زينة السماء مع سرعة تقضيها وزوالها وربما دهش من بعضها مما لا يسلم، والقول بأنه يجوز اطلاق الكوكب على الشهاب للمشابهة فيجوز أن يراد بالكواكب ما يشمل الشهب وزينة السماء على ما مر آنفاً زيد فيه على ما تقدم ما لا يخفى ما فيه، نعم يجوز أن يقال: إن الكوكب ينفصل منه نور إذا وصل إلى محل مخصوص من الجو انقلب ناراً ورؤى منقضاً ولا يعجز الله عز وجل شيء، وقد يقال: إن في السماء كواكب صغاراً جداً غير مرئية ولو بالأرصاد لغاية الصغر وهي التي يرمي بها أنفسها، وقوله تعالى: ﴿**ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين**﴾ من باب عندي درهم ونصفه و ﴿**إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظاً**﴾ الآية إن كان على معنى وحفظاً بها فهو من ذلك الباب أيضاً وإلا فالأمر أهون فتدبر. واختلف في أن المرجوم هل يهلك بالشهاب إذا أصابه أو يتأذى به من غير هلاك فعن ابن عباس أن الشياطين لا تقتل بالشهاب ولا تموت ولكنها تحرق وتخبل أي يفسد منها بعض أعضائها، وقيل تهلك وتموت ومتى أصاب الشهاب من اختطف منهم كلمة قال للذي يليه كان كذا وكذا قبل أن يهلك، ولا يأبى تأثير الشهاب فيهم كونهم مخلوقين من النار لأنهم ليسوا من النار الصرفة كما أن الإنسان ليس من التراب الخالص مع أن النار القوية إذا استولت على الضعيفة استهلكتها، وأياً ما كان لا يقال: إن الشياطين ذوو فطنة فكيف يعقل منهم العود إلى استراق السمع مرة بعد مرة مع أن المسترق يهلك أو يتأذى الأذى الشديد واستمرار انقضاض الشهب دليل استمرار هذا الفعل

منهم لأنا نقول: لا نسلم استمرار هذا الفعل منهم واستمرار الانقضاض ليس دليلاً عليه لأن الانقضاض ليس دليلاً عليه لأن الانقضاض يكون للاستراق ويكون لغيره فقد أشرنا فيما سبق أن الهواء قد يتكيف بكيفية مخصوصة فيحترق بسبب أشعة الكواكب وإن لم يكن هناك مسترق، وقيل: يجوز أن ترى الشهب لتعارض في الأهوية واصطكاك يحصل منه ما ترى كما يحصل البرق باصطكاك السحاب على ما روي عن بعض السلف وحوادث الجو لا يعلمها إلا الله تعالى فيجوز أن يكونوا قد استرقوا أولاً فشاهدوا ما شاهدوا فتركوا واستمرت الشهب تحدث لما ذكر لا لاستراق الشياطين، ويجوز أن يقع أحياناً ممن حدث منهم ولم يعلم بما جرى على رؤوس المسترقين قبله أو ممن لا يبالي بالأذى ولا بالموت حباً لأن يقال ما أجسره أو ما أشجعه مثلاً كما يشاهد في كثير من الناس يقدمون في المعارك على ما يتيقنون هلاكهم به حباً لمثل ذلك، ولعل في وصف الشيطان بالمارد ما يستأنس به لهذا الاحتمال، وأما ما قيل: إن الشهاب قد يصيب الصاعد مرة وقد لا يصيب كالموج لراكب السفينة ولذلك لا يرتدعون عنه رأساً فخلاف المأثور، فقد أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: إذا رمي بالشهاب لم يخطىء من رمي به، ثم إن ما ذكر من احتمال أنهم قد تركوا بعد أن صحت عندهم التجربة لا يتم إلا على ما روي عن الشعبي من أنه لم يقذف بالنجوم حتى ولد النبي ﷺ فلما قذف بها جعل الناس يسيبون أنعامهم ويعتقون رقيقهم يظنون أنه القيامة فأتوا عبد يا ليل الكاهن وقد عمي وأخبروه بذلك فقال: انظروا إن كانت النجوم المعروفة من السيارة والثوابت فهو قيام الساعة وإلا فهو أمر حادث فنظروا فإذا هي غير معروفة فلم يمض زمن حتى أتى خبر النبي ﷺ، ووافق على عدم حدوثه قبل ابن الجوزي في المنتظم لكنه قال: إنه حدث بعد عشرين يوماً من مبعثه، والصحيح أن القذف كان قبل ميلاده عليه الصلاة والسلام، وهو كثير في أشعار الجاهلية إلا أنه يحتمل أنه لم يكن طارداً للشياطين وأن يكون طارداً لهم لكن لا بالكلية وأن يكون طارداً لهم بالكلية، وعلى هذا لا يتأتى الاحتمال السابق، وعلى الاحتمال الأول من هذه الاحتمالات يكون الحادث يوم الميلاد طردهم بذلك، وعلى الثاني طردهم بالكلية وتشديد الأمر عليهم لينحسم أمرهم وتخليطهم ويصح الوحي فتكون الحجة أقطع، والذي يترجح أنه كان قبل الميلاد طارداً لكن لا بالكلية فكان يوجد استراق على الندرة وشدد في بدء البعثة، وعليه يراد بخبر لم يقذف بالنجوم حتى ولد النبي ﷺ أنه لم يكثر القذف بها، وعلى هذا يخرج غيره إذا صح كالخبر المنقول في السير أن إبليس كان يخترق السماوات قبل عيسى عليه السلام فلما بعث أو ولد حجب عن ثلاث سماوات ولما ولد النبي ﷺ حجب عنها كلها وقذفت الشياطين بالنجوم فقالت قريش: قامت الساعة فقال عتبة بن ربيعة: انظروا إلى العيوق فإن كان رمي به فقد آن قيام الساعة وإلا فلا، وقال بعضهم: اتفق المحدثون على أنه كان قبل لكن كثر وشدد لما جاء الإسلام ولذا قال تعالى ﴿ملئت حرساً شديداً وشهباً﴾ [الجن: ٨] ولم يقل حرست، وبالجملة لا جزم عندنا بأن ما يقع من الشهب في هذه الأعصار ونحوها رجوم للشياطين والجزم بذلك رجم بالغيب ﴿**هذا وقد استشكل**﴾ أمر الاستراق بأمور، منها أن الملائكة في السماء مشغولون بأنواع العبادة أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع قدم إلا وفيه ملك قائم أو راكع أو ساجد فماذا تسترق الشياطين منهم؟ وإذا قيل: إن منهم من يتكلم بالحوادث الكونية فهم على «مَحْدَبِها» والشياطين تسترق تحت مقعرها وبينهما كما صح في الأخبار خمسمائة عام فكيف يتأتى السماع لا سيما والظاهر أنهم لا يرفعون أصواتهم إذا تكلموا بالحوادث إذ لا يظهر غرض برفعها، وعلى تقدير أن يكون هناك رفع صوت فالظاهر أنه ليس بحيث يسمع من مسيرة خمسمائة عام. وعلى تقدير أن يكون بهذه الحيثية فكرة الهواء تنقطع عند كرة النار ولا يسمع صوت بدون هواء.

وأجيب بأن الاستراق من ملائكة العنان وهم يتحدثون فيما بينهم بما أمروا به من السماء من الحوادث الكونية. و ﴿لمسنا السماء﴾ [الجن: ٨] طلبنا خبرها أو من الملائكة النازلين من السماء بالأمر فإن ملائكة على أبواب السماء ومن حيث ينزلون يسألونهم بماذا تذهبون؟ فيخبرونهم، وليس الاستراق من الملائكة الذين على محدب السماء، وأمر كرة النار لا يصح، والهواء غير منقطع وهو كلما رق ولطف كأن أعون على السماع، على أن وجود الهواء مما لا يتوقف عليه السماع على أصول الأشاعرة ومثله عدم البعد المفرط، وظاهر خبر أخرجه ابن أبي حاتم عن عكرمة أن الاستراق من الملائكة في السماء قال: «إذا قضى الله تعالى أمراً تكلم تبارك وتعالى فتخر الملائكة كلهم سجداً فتحسب الجن أن أمراً يقضى فتسترق فإذا فزع عن قلوب الملائكة عليهم السلام ورفعوا رؤوسهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا جميعاً: الحق وهو العلي الكبير» وجاء في خبر أخرجه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن إبراهيم التيمي «إذا أراد ذو العرش أمراً سمعت الملائكة كجر السلسلة على الصفا فيغشى عليهم فإذا قاموا قالوا: ماذا قال ربكم؟ قال من شاء: الله الحق وهو العلي الكبير» ولعله بعد هذا الجواب يذكر الأمر بخصوصه فيما بين الملائكة عليهم السلام، وظاهر ما جاء في بعض الروايات عن ابن عباس من تفسير الملأ الأعلى بكتبة الملائكة عليهم السلام أيضاً أن الاستراق من ملائكة في السماء إذ الظاهر أن الكتبة في السماء، ولعله يتلى عليهم من اللوح ما يتلى فيكتبونه لأمر ما فتطمع الشياطين باستراق شيء منه، وأمر البعد كأمر الهواء لا يضر في ذلك على الأصول الأشعرية، ويمكن أن يدعى أن جرم السماء لا يحجب الصوت وإن كثف، وكم خاصية اثبتها الفلاسفة للأفلاك ليس عدم الحجب أغرب منها. ومنها أنه يغني عن الحفظ من استراق الشياطين عدم تمكينهم من الصعود إلى حيث يسترق السمع، أو أمر الملائكة عليهم السلام بإخفاء كلامهم بحيث لا يسمعونه، أو جعل لغتهم مخالفة للغتهم بحيث لا يفهمون كلامهم. وأجيب بأن وقوع الأمر على ما وقع من باب الابتلاء، وفيه أيضاً من الحكم ما فيه، ولا يخفى أن مثل هذا الإشكال يجري في أشياء كثيرة إلا أن كون الصانع حكيماً وأنه جل شأنه قد راعى الحكمة فيما خلق وأمر على أتم وجه حتى قيل: ليس في الإمكان أبدع مما كان يحل ذلك ولا يبقى معه سوى تطلب وجه الحكمة وهو مما يتفضل الله تعالى به على من يشاء من عباده، والكلام في هذا المقام قد مر شيء منه فارجع إليه، ومما هنا وما هناك يحصل ما يسر الناظرين ويرضي العلماء المحققين.

﴿**فَاسْتَفْتِهِمْ**﴾ أي فاستخبرهم، وأصل الاستفتاء الاستخبار عن أمر حدث، ومنه الفتى لحداثة سنه، والضمير لمشركي مكة، قيل: والآية نزلت في أبي الأشد بن كلدة الجمحي وكني بذلك لشدة بطشه وقوته واسمه أسيد، والفاء فصيحة أي إذا كان لنا من المخلوقات ما سمعت أو إذا عرفت ما مر فاستخبر مشركي مكة واسألهم على سبيل التبكيت ﴿**أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً**﴾ أي أقوى خلقة وأمتن بنية أو أصعب خلقاً وأشق إيجاداً ﴿**أَم مَّنْ خَلَقْنَا**﴾ من الملائكة والسماوات والأرض وما بينهما والمشارق والكواكب والشياطين والشهب الثواقب. وتعريف الوصول عهدي أشير به إلى ما تقدم صراحة ودلالة وغلب العقلاء على غيرهم والاستفهام تقريري، وجوز أن يكون انكارياً، وفي مصحف عبد الله «أم من عددنا» وهو مؤيد لدعوى العهد بل قاطع بها. وقرأ الأعمش «أَمَنْ» بتخفيف الميم دون أم جعله استفهاماً ثانياً تقريرياً فمن مبتدأ خبره محذوف أي أمن خلقنا أشد ﴿**إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ**﴾ أي ملتصق كما أخرج ذلك ابن جرير وجماعة عن ابن عباس، وفي رواية أرى بلفظ ملتزق وبه أجاب ابن الأزرق وأنشد له قول النابغة:

فلا تحسبون الخير لا شر بعده ... ولا تحسبون الشر ضربة لازب

قيل: والمراد ملتزق بعضه ببعض، وبذلك فسره ابن مسعود كما أخرجه ابن أبي حاتم ويرجع إلى حسن العجن

جيد التخمير، وأخرج ابن المنذر وغيره عن قتادة أنه يلزق باليد إذا مس بها، وقال الطبري: خلق آدم من تراب وماء وهواء ونار وهذا كله إذا خلط صار طيناً لازباً يلزم ما جاوره، واللازب عليه بمعنى اللازم وهو قريب مما تقدم، وقد قرىء «لازِم» بالميم بدل الباء و «لاتِب» بالتاء بدل الزاي والمعنى واحد. وحكي في البحر عن ابن عباس أنه عبر عن اللازب بالحر أي الكريم الجيد، وفي رواية أنه قال: اللازب الجيد.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد أنه قال: لازب أي لازم منتن، ولعل وصفه بمنتن مأخوذ من قوله تعالى ﴿من حمأ مسنون﴾ [الحجر: ٢٦، ٢٧، ٣٣] لكن أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال: اللازب والحمأ والطين واحد كان أوله تراباً ثم صار حمأ منتناً ثم صار طيناً لازباً فخلق الله تعالى منه آدم عليه السلام.

وأياً ما كان فخلقهم من طين لازب إما شهادة عليهم بالضعف والرخاوة لأن ما يصنع من الطين غير موصوف بالصلابة والقوة أو احتجاج عليهم في أمر البعث بأن الطين اللازب الذي خلقوا منه في ضمن خلق أبيهم آدم عليه السلام تراب فمن أين استنكروا أن يخلقوا منه مرة ثانية حيث قالوا ﴿أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون﴾ [المؤمنون: ٨٢، الصافات: ١٦، الواقعة: ٤٧] ويعضد هذا على ما في الكشاف ما يتلوه من ذكر إنكارهم البعث. وقوله تعالى: ﴿**بَلْ عَجبْتَ**﴾ خطاب للرسول ﷺ وجوز أن يكون لكل من يقبله. ﴿**وبل**﴾ للإضراب إما عن مقدر يشعر به ﴿**فاستفتهم**﴾ الخ أي هم لا يقرون ولا يجيبون بما هو لحق بل مثلك ممن يذعن ويتعجب من تلك الدلائل أو عن الأمر بالاستفتاء أي لا تستفتهم فإنهم معاندون لا ينفع فيهم الاستفتاء ولا يتعجبون من تلك الدلائل بل مثلك ممن يتعجب منها ﴿**وَيَسْخَرُونَ**﴾ أي وهم يسخرون منك ومن تعجبك ومما تريهم من الآيات، وجوز أن يكون المعنى بل عجبت من إنكارهم البعث مع هذه الآيات وهم يسخرون من أمر البعث، واختير أن يكون المعنى بل عجبت من قدرة الله تعالى على هذه الخلائق العظيمة وإنكارهم البعث وهم يسخرون من تعجبك وتقريرك للبعث، وزعم بعضهم أن المراد بمن خلقنا الأمم الماضية وليس بشيء إذ لم يسبق لهذه الأمم ذكر وإنما سبق الذكر للملائكة عليهم السلام وللسماوات والأرض وما سمعت مع أن حرف التعقيب مما يدل على خلافه، ومن قال كصاحب الفرائد عليه جمهور المفسرين سوى الإمام ووجهه بأنه لما احتج عليهم بما هم مقرون به من كونه رب السماوات والأرض ورب المشارق وألزمهم بذلك وقابلوه بالعناد قيل لهم: فانتظروا الإهلاك كمن قبلكم لأنكم لستم أشد خلقاً منهم فوضع موضعه ﴿**فاستفتهم أهم أشد خلقاً**﴾ وقوله تعالى: ﴿**إنا خلقناهم**﴾ تعليل لأنهم ليسوا أشد خلقاً أو دليل لاستكبارهم المنتج للعناد. وأيده بدلالة الاضراب واستبعاد البعث بعده لدلالته على أنه غير متعلق بما قبل الإضراب فقد ذهب عليه أن اللفظ خفي الدلالة على ما ذكر من العناد واستحقاق الإهلاك كسالف الأمم؛ وتعليل نفي الأشدية بما علل ليس بشيء لوضوح أن السابقين أشد في ذلك، وكم من ذلك في الكتاب العزيز، وأما الإضراب فعن الاستفتاء إلى أن مثلك ممن يذعن ويتعجب من تلك الدلائل ولذا عطف عليه ﴿**ويسخرون**﴾ وجعل ما أنكروه من البعث من بعض مساخرهم قاله صاحب الكشف فلا تغفل. وقرأ حمزة والكسائي وابن سعدان وابن مقسم «عَجِبْتُ» بتاء المتكلم ورويت عن علي كرم الله تعالى وجهه وابن عباس وابن مسعود والنخعي وابن وثاب وطلحة وشقيق والأعمش.

وأنكر شريح القاضي هذه القراءة وقال: إن الله تعالى لا يعجب من شيء وإنما يعجب من لا يعلم، وإنكار هذا القاضي مما أفتي بعدم قبوله لأنه في مقابل بينة متواترة، وقد جاء أيضاً في الخبر عجب ربكم من إلكم وقنوطكم.

وأولت القراءة بأن ذلك من باب الفرض أي لو كان العجب مما يجوز عليّ لعجبت من هذه الحال أو التخييل فيجعل تعالى كأنه لإنكاره لحالهم يعدها أمراً غريباً ثم يثبت له سبحانه العجب منها، فعلى الأول تكون الاستعارة

تخييلية تمثيلية كما في قولهم: قال الحائط للوتد لم تشقني فقال سل من يدقني، وعلى الثاني تكون مكنية وتخييلية كما في نحو لسان الحال ناطق بكذا والمشهور في أمثاله الحمل على اللازم فيكون مجازاً مرسلاً فيحمل العجب على الاستعظام وهو رؤية الشيء عظيماً أي بالغاً في الحسن أو القبح، والمراد هنا رؤية ما هم عليه بالغاً الغاية في القبح، وليس استعظام الشيء مسبوقاً بانفعال يحصل في الروع عن مشاهدة أمر غريب كما توهم ليقال: إن التأويل المذكور لا يحسم مادة الاشكال.

وقال أبو حيان: يؤول على أن صفة فعل يظهرها الله تعالى في صفة المتعجب منه من تعظيم أو تحقير حتى يصير الناس متعجبين منه فالمعنى بل عجبت من ضلالتهم وسوء نحلتهم وجعلتها للناظرين فيها وفيما اقترن بها من شرعي وهداي متعجباً، وقال مكي وعلي بن سليمان: ضمير ﴿**عجبت**﴾ للنبي عليه الصلاة والسلام والكلام بتقدير القول أي قل بل عجبت، وعندي لو قدر القول بعد بل كان أحسن أي بل قل عجبت، والذي يقتضيه كلام السلف إن العجب فينا انفعال يحصل للنفس عند الجهل بالسبب ولذا قيل: إذا ظهر السبب بطل العجب وهو في الله تعالى بمعنى يليق لذاته عز وجل هو سبحانه أعلم به فلا يعينون المراد والخلف يعينون.

﴿**وَإِذَا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ**﴾ أي ودأبهم أنهم إذا وعظوا بشيء لا يتعظون به أو أنهم إذا ذكر لهم ما يدل على صحة الحشر لا ينتفعون به لبلادتهم وقلة فكرهم، واستفادة الاستمرار من مقام الذم، ولعل في إذا والعطف على الماضي ما يؤيده، وقرأ ابن حبيش «ذَكِرُوا» بتخفيف الكاف ﴿**وَإِذَا رَأَوْا آيَةً**﴾ أي معجزة تدل على صدق من يعظهم ويدعوهم إلى ترك ما هم فيه إلى ما هو خير أو معجزة تدل على صدق القائل بالحشر ﴿**يَسْتَسْخِرونَ**﴾ أي يبالغون في السخرية ويقولون إنه سحر أو يطلب بعضهم من بعض أن يسخر منها، روي أن ركانة رجلاً من المشركين من أهل مكة لقيه الرسول ﷺ في جبل خال يرعى غنماً له وكان من أقوى الناس فقال له: يا ركانة أرأيت إن صرعتك أتؤمن بي؟ قال: نعم فصرعه ثلاثاً ثم عرض له بعض الآيات دعا عليه الصلاة والسلام شجرة فأقبلت فلم يؤمن وجاء إلى مكة فقال: يا بني هاشم ساحروا بصاحبكم أهل الأرض فنزلت فيه وفي أضرابه. وقرىء «يستسحرون» بالحاء المهملة أي يعدونها سحراً.

وَقَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ
وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى
كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ
صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ
عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم
مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ
يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ
يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ
لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ

مَّعۡلُومٞ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُۖ وَهُم مُّكۡرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ
﴿٤٥﴾ بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوۡلٞ وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ عِينٞ ﴿٤٨﴾
كَأَنَّهُنَّ بَيۡضٞ مَّكۡنُونٞ ﴿٤٩﴾ فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٞ ﴿٥١﴾ يَقُولُ
أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي
سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحۡنُ
بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوۡتَتَنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ
ٱلۡعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾

﴿وَقَالُوا إِنْ هَذَا﴾ ما يرونه من الآيات الباهرة **﴿إِلاَّ سِحْرٌ مُبِين﴾** ظاهر سحريته في نفسه. **﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً﴾** أي كان بعض أجزائنا تراباً وبعضها عظاماً، وتقديم التراب لأنه منقلب عن الأجزاء البادية، وإذا إما شرطية وجوابها محذوف دل عليه قوله تعالى: **﴿أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾** أي نبعث وفي عاملها الكلام المشهور، وإما متمحضة للظرفية فلا جواب لها ومتعلقها محذوف يدل عليه ذلك أيضاً لا هو لأن ما بعد إن واللام لا يعمل فيما قبله أي أنبعث إذا متنا، وإن شئت فقدره مؤخراً فتقديم الظرف لتقوية الإنكار للبعث بتوجيهه إلى حالة منافية له غاية المنافاة، وكذا تكرير الهمزة للمبالغة والتشديد في ذلك وكذا تحلية الجملة بأن، واللام لتأكيد الإنكار لا لإنكار التأكيد كما يوهمه ظاهر النظم الكريم فإن تقديم الهمزة لاقتضائها الصدارة. وقرأ ابن عامر بطرح الهمزة الأولى. وقرأ نافع والكسائي ويعقوب بطرح الثانية **﴿أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ﴾** مبتدأ حذف خبره لدلالة خبر أن عليه أي أو آباؤنا الأولون مبعوثون أيضاً والجملة معطوفة على الجملة قبلها. وهذا أحد مذاهب في نحو هذا التركيب. وظاهر كلام أبي حيان في شرح التسهيل أن حذف الخبر واجب فقد قال: قال من نحا إلى هذا المذهب: الأصل في هذه المسألة عطف الجمل إلا أنهم لما حذفوا الخبر لدلالة ما قبل عليه أنابوا حرف العطف مكانه ولم يقدروا إذ ذاك الخبر المحذوف في اللفظ لئلا يكون جمعاً بين العوض والمعوض عنه فأشبه عطف المفردات من جهة أن حرف العطف ليس بعده في اللفظ إلا مفرد. وثاني المذاهب أن يكون معطوفاً على الضمير المستتر في خبر إن إن كان مما يتحمل الضمير وكان الضمير مؤكداً أو كان بينه وبين المعطوف فاصل ما وإلا ضعف العطف. ونسب ابن هشام هذا المذهب والذي قبله إلى المحققين من البصريين. وفي تأتيه هنا من غير ضعف للفصل بالهمزة بحث فقد قال أبو حيان: إن همزة الاستفهام لا تدخل على المعطوف إلا إذا كان جملة لئلا يلزم عمل ما قبل الهمزة فيما بعدها وهو غير جائز لصدارتها. والجواب بأن الهمزة هنا مؤكدة للاستبعاد فهي في النية مقدمة داخلة على الجملة في الحقيقة لكن فصل بينهما بما فصل قد بحث فيه بأن الحرف لا يكرر للتوكيد بدون مدخوله والمذكور في النحو أن الاستفهام له الصدر من غير فرق بين مؤكد ومؤسس مع أن كون الهمزة في نية التقديم يضعف أمر الاعتداد بالفصل بها لا سيما وهي حرف واحد فلا يقاس الفصل بها على الفصل بلا في قوله تعالى: ﴿ما أشركنا ولا آباؤنا﴾ [الأنعام: ١٤٨] .

وثالثها أن يكون عطفاً على محل إن مع ما عملت فيه، والظاهر أنه حينئذ من عطف الجمل في الحقيقة، ورابعها أن يكون عطفاً على محل اسم إن لأنه كان قبل دخولها في موضع رفع، والظاهر أنه حينئذ من عطف المفردات.

واعترض بأن الرفع كان بالابتداء وهو عامل معنوي، وقد بطل بالعامل اللفظي. وأجيب بأن وجوده كلا وجود لشبهه بالزائد من حيث إنه لا يغير معنى الجملة وإنما يفيد التأكيد فقط. واعترض أيضاً بأن الخبر المذكور كمبعوثون في الآية يكون حينئذ خبراً عنهما وخبر المبتدأ رافعه الابتداء أو المبتدأ أو هما وخبر إن رافعه إن فيتوارد عاملان على معمول واحد: وأجيب بأن العوامل النحوية ليست مؤثرات حقيقية بل هي بمنزلة العلامات فلا يضر تواردها على معمول واحد وهو كما ترى، وتمام الكلام في محله، وعلى كل حال الأولى ما تقدم من كونه مبتدأ حذف خبره؛ وقد قال أبو حيان: إن أرباب الأقوال الثلاثة الأخيرة متفقون على جواز القول الأول وهو يؤيد القول بأولويته، وأياً ما كان فمراد الكفرة زيادة استبعاد بعث آبائهم بناء على أنهم أقدم فبعثهم أبعد على عقولهم القاصرة. وقرأ أبو جعفر وشيبة وابن عامر ونافع في رواية. وقالوا «أو» بالسكون على أنها حرف عطف وفيه الاحتمالات الأربعة إلا أن العطف على الضمير على هذه القراءة ضعيف لعدم الفصل بشيء أصلاً ﴿قُلْ نَعَمْ﴾ أي تبعثون أنتم وآباؤكم الأولون والخطاب في قوله سبحانه: ﴿وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾ لهم ولآبائهم بطريق التغليب، والجملة في موضع الحال من فاعل ما دل عليه ﴿نعم﴾ أي تبعثون كلكم والحال إنك صاغرون أذلاء، وهذه الحال زيادة في الجواب نظير ما وقع في جوابه عليه الصلاة والسلام لأبي ابن خلف حين جاء بعظم قد رم وجعل يفته بيده ويقول: يا محمد أترى الله يحيي هذا بعد ما رم فقال ﷺ له على ما في بعض الروايات «نعم ويبعثك ويدخلك جهنم» وقال غير واحد: إن ذلك من الأسلوب الحكيم. وتعقب بأن عد الزيادة منه لا توافق ما قرر في المعاني وإن كان ذلك اصطلاحاً جديداً فلا مشاحة في الاصطلاح واكتفى في الجواب عن إنكارهم البعث على هذا المقدار ولم يقم دليل عليه اكتفاء بسبق ما يدل على جوازه في قوله سبحانه ﴿فاستفتهم﴾ الخ مع أن المخبر قد علم صدقه بمعجزاته الواقعة في الخارج التي دل عليها قوله سبحانه ﴿وإذا رأوا آية﴾ الآية. وهزؤهم وتسميتهم لها سحراً لا يضر طالب الحق، والقول بأن ذلك للاكتفاء بقيام الحجة عليهم في القيامة ليس بشيء. وقرأ ابن وثاب والكسائي «نعِم» بكسر العين وهي لغة فيه. وقرىء «قال» أي الله تعالى أو رسوله ﷺ ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ الضمير راجع إلى البعثة المفهومة مما قبل، وقيل للبعث والتأنيث باعتبار الخبر. والزجرة الصيحة من زجر الراعي غنمه صاح عليها. والمراد بها النفخة الثانية في الصور ولما كانت بعثتهم ناشئة عن الزجرة جعلت إياها مجازاً. والفاء واقعة في جواب شرط مقدر أو تعليلية لنهي مقدر أي إذا كان كذلك فإنما البعثة زجرة واحدة أو لا تستصعبوها فإنما هي زجرة. وجوز الزجاج أن تكون للتفسير والتفصيل وما بعدها مفسر للبعث وتعقب بأن تفسير البعث الذي في كلامهم لا وجه له والذي في الجواب غير مصرح به. وتفسير ما كني عنه بنعم مما لم يعهد. والظاهر أنه تفسير لما كني عنه بنعم وهو بمنزلة المذكور لا سيما وقد ذكر ما يقوى إحضاره من الجملة الحالية. وعدم عهد التفسير في مثل ذلك مما لا جزم لي به.

وأبو حيان نازع في تقدير الشرط فقال: لا ضرورة تدعو إليه ولا يحذف الشرط ويبقى جوابه إلا إذا انجزم الفعل في الذي يطلق عليه أنه جواب الأمر والنهي وما ذكر معهما على قول بعضهم إما ابتداء فلا يجوز حذفه والجمهور على خلاف والحق معهم، وهذه الجملة إما من تتمة المقول وإما ابتداء كلام من قبله عز وجل.

﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ أي فإذا هم قيام من مراقدهم أحياء يبصرون كما كانوا في الدنيا أو ينتظرون ما يفعل بهم وما يؤمرون به ﴿وَقَالُوا﴾ أي المبعوثون، وصيغة الماضي لتحقق الوقوع ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ أي يا هلاكنا احضر فهذا أوان حضورك ﴿هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ استئناف منهم لتعليل دعائهم الويل.

والدين بمعنى الجزاء كما في كما تدين تدان أي هذا اليوم الذي نجازى فيه بأعمالنا، وإنما علموا ذلك لأنهم

كانوا يسمعون في الدنيا أنهم يبعثون ويحاسبون ويجزون بأعمالهم فلما شاهدوا البعث أيقنوا بما بعده أيضاً، وقوله تعالى: ﴿**هَذا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذي كُنتُمْ به تُكَذِّبُونَ**﴾ كلام الملائكة جواباً لهم بطريق التوبيخ والتقريع، وقيل: هو من كلام بعضهم لبعض أيضاً، ووقف أبو حاتم على ﴿**يا ويلنا**﴾ وجعل ما بعده كلام الله تعالى أو كلام الملائكة عليهم السلام لهم كأنهم أجابوهم بأنه لا تنفع الولولة والتلهف، والفصل القضاء أو الفرق بين المحسن والمسيء وتمييز كل عن الآخر بدون قضاء ﴿**احْشُرُوا الَّذينَ ظَلَمُوا**﴾ خطاب من الله تعالى للملائكة أو من الملائكة بعضهم لبعض. أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما تقول الملائكة للزبانية: احشروا الخ، وهو أمر بحشر الظالمين من أماكنهم المختلفة إلى موقف الحساب؛ وقيل من الموقف إلى الجحيم، والسباق والسياق يؤيدان الأول ﴿**وَأَزْوَاجَهُمْ**﴾ أخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وابن منيع في مسنده والحاكم وصححه وجماعة من طريق النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أنه قال: أزواجهم أمثالهم الذين هم مثلهم يحشر أصحاب الربا مع أصحاب الربا وأصحاب الزنا مع أصحاب الزنا وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر. وأخرج جماعة عن ابن عباس في لفظ أشباههم وفي آخر نظراءهم. وروي تفسير الأزواج بذلك أيضاً عن ابن جبير ومجاهد وعكرمة وأصل الزوج المقارن كزوجي النعل فأطلق على لازمه وهو المماثل. وجاء في رواية عن ابن عباس أنه قال: أي نساءهم الكافرات ورجحه الرماني. وقيل قرناءهم من الشياطين وروي هذا عن الضحاك والواو للعطف وجوز أن تكون للمعية. وقرأ عيسى بن سليمان الحجازي «وأزواجُهم» بالرفع عطفاً على ضمير ﴿**ظلموا**﴾ على ما في البحر أي وظلم أزواجهم.

وأنت تعلم ضعف العطف على الضمير المرفوع في مثله، والقراءة شاذة ﴿**وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله**﴾ من الأصنام ونحوها، وحشرهم معهم لزيادة التحسير والتخجيل، و ﴿**ما**﴾ قيل عام في كل معبود حتى الملائكة والمسيح وعزير عليهم السلام لكن خص منه البعض بقوله تعالى ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾ [الأنبياء: ١٠١] الآية.

وقيل ﴿**ما**﴾ كناية عن الأصنام والأوثان فهي لما لا يعقل فقط لأن الكلام في المشركين عبدة ذلك، وقيل ﴿**ما**﴾ على عمومها والأصنام ونحوها غير داخلة لأن جميع المشركين إنما عبدوا الشياطين التي حملتهم على عبادتها، ولا يناسب هذا تفسير ﴿**أزواجهم**﴾ بقرنائهم من الشياطين، ومع هذا التخصيص أقرب، وفي هذا العطف دلالة على أن الذين ظلموا المشركون وهم الأحقاء بهذا الوصف فإن الشرك لظلم عظيم ﴿**فاهدوهم إلى صِراط الجحيم**﴾ فعرفوهم طريقها وأروهم إياه، والمراد بالجحيم النار ويطلق على طبقة من طبقاتها وهو من الجحمة شدة تأجج النار، والتعبير بالصراط والهداية للتهكم بهم ﴿**وقفوهم**﴾ أي احبسوهم في الموقف ﴿**إنهم مسؤولون**﴾ عن عقائدهم وأعمالهم، وفي الحديث «لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن خمس عن شبابه فيما أبلاه وعن عمره فيما أفناه وعن ماله مما كسبه وفيما أنفقه وعن علمه ماذا عمل به» وعن ابن مسعود يسألون عن لا إله إلا الله، وعنه أيضاً يسألون عن شرب الماء البارد على طريق الهزء بهم. وروى بعض الإمامية عن ابن جبير عن ابن عباس يسألون عن ولاية علي كرم الله تعالى وجهه، ورووه أيضاً عن أبي سعيد الخدري وأولى هذه الأقوال أن السؤال عن العقائد والأعمال، ورأس ذلك لا إله إلا الله، ومن أجله ولاية علي كرم الله تعالى وجهه وكذا ولاية إخوانه الخلفاء الراشدين رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

وظاهر الآية أن الحبس للسؤال بعد هدايتهم إلى صراط الجحيم بمعنى تعريفهم إياه ودلالتهم عليه لا بمعنى ادخالهم فيه وإيصالهم إليه، وجوز أن يكون صراط الجحيم طريقهم له من قبورهم إلى مقرهم وهو ممتد فيجوز كون الوقف في بعض منه مؤخراً عن بعض، وفيه من البعد ما فيه، وقيل: إن الوقف للسؤال قبل الأمر المذكور والواو لا تقتضي الترتيب، وقيل الوقف بعد الأمر عند مجيئهم النار والسؤال عما ينطق به قوله تعالى ﴿**مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ**﴾ أي

لا ينصر بعضكم بعضاً، والخطاب لهم وآلهتهم أو لهم فقط أي ما لكم لا ينصر بعضكم بعضاً كما كنتم تزعمون في الدنيا، فقد روي أن أبا جهل قال يوم بدر: نحن جميع منتصر، وتأخير هذا السؤال إلى ذلك الوقت لأنه وقت تنجيز العذاب وشدة الحاجة إلى النصرة وحالة انقطاع الرجاء والتقريع والتوبيخ حينئذ أشد وقعاً وتأثيراً، وقيل: السؤال عن هذا في موقف المحاسبة بعد استيفاء حسابهم والأمر بهدايتهم إلى الجحيم كأن الملائكة عليهم السلام لما أمروا بهدايتهم إلى النار وتوجيههم إليها سارعوا إلى ما أمروا به فقيل لهم قفوهم أنهم مسؤولون، والذي يترجح عندي أن الأمر بهدايتهم إلى الجحيم إنما هو بعد إقامة الحجة عليهم وقطع أعذارهم وذلك بعد محاسبتهم، وعطف ﴿**اهدوهم**﴾ على ﴿**احشروا**﴾ بالفاء إشارة إلى سرعة وقوع حسابهم، وسؤالهم ما لكم لا تناصرون الأليق أن يكون بعد تحقق ما يقتضي التناصر وليس ذلك إلا بعد الحساب والأمر بهم إلى النار فلعل الوقف لهذا السؤال في ابتداء توجههم إلى النار والله تعالى أعلم. وقرأ عيسى «أنهم» بفتح الهمزة بتقدير لأنهم، وقرأ البزي عن ابن كثير «لا تتناصرون» بتاءين بلا إدغام، وقرىء بإدغام إحداهما في الأخرى ﴿**بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ**﴾ منقادون لعجزهم وانسداد الحيل عليهم، وأصل الاستسلام طلب السلامة والانقياد لازم لذلك عرفاً فلذا استعمل فيه أو متسالمون كأنه يسلم بعضهم بعضاً للهلاك ويخذله، وجوز في الاضراب أن يكون عن مضمون ما قبله أي لا ينازعون في الوقوف وغيره بل ينقادون أو يخذلون أو عن قوله سبحانه ﴿**لا تناصرون**﴾ أي لا يقدر بعضهم على نصر بعض بل هم منقادون للعذاب أو مخذولون ﴿**وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ**﴾ هم الأتباع والرؤساء المضلون أو الكفرة من الإنس وقرناؤهم من الجن، وروي هذا عن مجاهد وقتادة وابن زيد ﴿**يَتَسَاءَلُونَ**﴾ يسأل بعضهم بعضاً سؤال تقريع بطريق الخصومة والجدال ﴿**قَالُوا**﴾ استئناف بياني كأنه قيل: كيف يتساءلون؟ فقيل: قالوا أي الأتباع للرؤساء أو الكفرة مطلقاً للقرناء ﴿**إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا**﴾ في الدنيا ﴿**عَنِ الْيَمِينِ**﴾ أي من جهة الخير وناحيته فتنهونا عنه وتصدونا قاله قتادة، ولشرف اليمين جاهلية وإسلاماً دنيا وأخرى استعيرت لجهة الخير استعارة تصريحية تحقيقية، وجعلت اليمين مجازاً عن جهة الخير مع أنه مجاز في نفسه فيكون ذلك مجازاً على المجاز لأن جهة الخير لشهرة استعماله التحق بالحقيقة فيجوز فيه المجاز على المجاز كما قالوا في المسافة فإنها موضع الشم في الأصل لأنه من ساف التراب إذا شمه فإن الدليل إذا اشتبه عليه الطريق أخذ تراباً فشمه ليعرف أنه مسلوك أولاً ثم جعل عبارة عن البعد بين المكانين ثم استعير لفرق ما بين الكلامين ولا بعد هناك، واستظهر بعضهم حمل الكلام على الاستعارة التمثيلية واعتبار التجوز في مجموع ﴿**تأتوننا عن اليمين**﴾ لمعنى تمنعوننا وتصدوننا عن الخير فيسلم الكلام من دعوى المجاز على المجاز؛ وكأن المراد بالخير الإيمان بما يجب الإيمان به، وجوز أن يكون المراد به الخير الذي يزعمه المضلون خيراً وأن المعنى تأتوننا من جهة الخير وتزعمون ما أنتم عليه خيراً ودين حق فتخدعوننا وتضلوننا وحكي هذا عن الزجاج.

وقال الجبائي: المعنى كنتم تأتوننا من جهة النصيحة واليمن والبركة فترغبوننا بما أنتم عليه فتضلوننا وهو قريب مما قبله، وجوزوا أن تكون اليمين مجازاً مرسلاً عن القوة والقهر فإنها موصوفة بالقوة وبها يقع البطش فكأنه أطلق المحل على الحال أو السبب على المسبب، ويمكن أن يكون ذلك بطريق الاستعارة وتشبيه القوة بالجانب الأيمن في التقدم ونحوه، والمعنى إنكم كنتم تأتوننا عن القوة والقهر وتقصدوننا عن السلطان والغلبة حتى تحملونا على الضلال وتقسرونا عليه وإليه ذهب الفراء، وأن يكون اليمين حقيقة بمعنى القسم ومعنى إتيانهم عنه أنهم يأتونهم مقسمين لهم على حقية ما هم عليه من الباطل، والجار والمجرور في موضع الحال، وعن بمعنى الباء كما في قوله تعالى ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ [النجم: ٣] أو هو ظرف لغو، وفيه بعد، وأبعد منه أن يفسر اليمين بالشهوة والهوى لأن جهة اليمين

موضع الكبد، وهو مخالف لما حكي عن بعض من أن من أتاه الشيطان من جهة اليمين أتاه من قبل الدين فلبس عليه الحق ومن أتاه من جهة الشمال أتاه من قبل الشهوات ومن أتاه من بين يديه أتاه من قبل التكذيب بالقيامة والثواب والعقاب ومن أتاه من خلفه خوفه الفقر على نفسه وعلى من يخلف بعده فلم يصل رحماً ولم يؤد زكاة **﴿قالوا﴾** استئناف على طرز السابق أي قال الرؤساء أو قال القرناء في جوابهم بطريق الاضراب عما قالوه لهم **﴿بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾** وهو إنكار لإضلالهم إياهم أي أنتم أضللتم أنفسكم بالكفر ولم تكونوا مؤمنين في حد ذَاتِكم لا أنّا نحن أضللناكم، وقولهم: **﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾** أي من قهر وتسلط نسلبكم به اختياركم **﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْماً طَاغِينَ﴾** مجاوزين الحد في العصيان مختارين له مصرين عليه جواب آخر تسليمي على فرض اضلالهم بأنهم لم يجبروهم عليه وإنما دعوهم له فأجابوا باختيارهم لموافقة ما دعوا له هواهم، وقيل: الكل جواب واحد محصله إنكم اتصفتم بالكفر من غير جبر عليه، وقولهم: **﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾** تفريع على صريح ما تقدم من عدم إيمان أولئك المخاصمين لهم وكونهم قوماً طاغين في حد ذاتهم وعلى ما اقتضاه وأشعر به خصامهم من كفر هؤلاء المجيبين لأولئك الطاغين وغوايتهم في أنفسهم، وضمائر الجمع للفريقين فكأنهم قالوا: ولأجل أنا جميعاً في حد ذاتنا لم نكن مؤمنين وكنا قوماً طاغين لزمنا قول ربنا وخالقنا العالم بما نحن عليه وبما يقتضيه استعدادنا وثبت علينا وعيده سبحانه بأنا ذائقون لا محالة لعذابه عز وجل، ومرادهم أن منشأ الخصام في الحقيقة الذي هو العذاب أمر مقضي لا محيص عنه وأنه قد ترتب على كل منا بسبب أمر هو عليه في نفسه وقد اقتضاه استعداده وفعله باختياره فلا يلومن بعضنا بعضاً ولكن ليلم كل منا نفسه، ونظموا أنفسهم معهم في ذلك للمبالغة في سد باب اللوم والخصام من أولئك القوم، والفاء في قولهم: **﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ﴾** أي فدعوناكم إلى الغي لتفريع الدعاء المذكور على حقية الوعيد عليهم لا لمجرد التعقيب كما قيل، وعلية ذلك للدعاء باعتبار أن وجوده الخارجي متعلقاً بهم كان متفرعاً عن ذلك في نفس الأمر لا باعتبار أن اصداره وإيقاعه منهم على المخاطبين كان بملاحظة ذلك كما تلاحظ العلل الغائية في الأفعال الاختيارية لأن الظاهر أو رؤساء الكفر لم يكونوا عالمين في الدنيا حقية الوعيد عليهم، نعم لا يبعد أن يكون القرناء من الشياطين عالمين بذلك من أبيهم، وكذا تسمية دعائهم إياهم إلى ما دعوهم إليه أغواء أي دعاء إلى الغي بناء على أن الكلام المذكور من الرؤساء باعتبار نفس الأمر التي ظهرت لهم في يوم القيامة، ومثل هذا يقال في قولهم: **﴿إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾** بناء على أنهم إنما علموا ذلك يوم التساؤل والخصام، والجملة مستأنفة لتعليل ما قبلها، وكأن ما أشعر به التفريع باعتبار تعلق الإغواء بالمخاطبين وهذا باعتبار صدور الإغواء نفسه منهم، وهو تصريح بما يستفاد من التفريع السابق.

ويجوز أن يكون إشارة إلى وجه ترتب إغوائهم إياهم على حقية الوعيد عليهم وهو حب أن يتصف أولئك المخاطبون بنحو ما اتصفوا به من الغي ويكونوا مثلهم فيه. وملخص كلامهم أنه ليس منافي حقكم على الحقيقة سوى حب أن تكونوا مثلنا وهو غير ضار لكم وإنما الضار سوء اختياركم وقبح استعدادكم فذلك الذي ترتب عليه حقية الوعيد عليكم وثبوت هذا العذاب لكم، وجوز أن يقال: إنهم نفوا عنهم الإيمان والاعتقاد الحق وأثبتوا لهم الطغيان ومجاوزة الحد في العصيان حيث لم يلتفتوا إلى ما يجب الاعتقاد الصحيح مع كثرته وظهوره ورتبوا على ذلك مع ما يقتضيه البحث حقية الوعيد وفرعوا على مجموع الأمرين أنهم دعوهم إلى الغي مراداً به الكفر لاعتقاد أمر فاسد لا مجرد عدم الإيمان أي عدم التصديق بما يجب التصديق به بدون اعتقاد أمر آخر يكفر باعتقاده، وأشاروا إلى وجه ترتب ذلك على ما ذكر وهو محبة أن يكونوا مثلهم فكأنهم قالوا: كنتم تاركين الاعتقاد الحق غير ملتفتين إليه مع ظهور أدلته

وكثرتها وكنا جميعاً قد حق علينا الوعيد فدعوناكم إلى ما نحن عليه من الاعتقاد الفاسد حباً لأن تكونوا أسوة أنفسنا وهذا كقولهم ﴿ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا﴾ [القصص: ٦٣] قال الراغب: هو إعلام منهم أنا قد فعلنا بهم غاية ما كان في وسع الإنسان أن يفعل بصديقه ما يريد بنفسه أي أفدناهم ما كان لنا وجعلناهم أسوة أنفسنا وعلى هذا فأغويناكم إنا كنا غاوين انتهى، وجوز على هذا التقدير أن يكون ﴿**فأغويناكم**﴾ مفرعاً على شرح حال المخاطبين من انتفاء كونهم مؤمنين وثبوت كونهم طاغين وعن الآيات معرضين، وقولهم ﴿**فحق علينا**﴾ الخ اعتراض لتعجيل بيان أن ما الفريقان فيه أمر مقضي لا ينفع فيه القيل والقال والخصام والجدال، ويجوز على هذا أن يراد بضمير الجمع في ﴿**فحق علينا**﴾ الخ الرؤساء أو القرناء لا ما يعمهم والمخاطبين وأشاروا بذلك إلى أن ما هم فيه يكفي عن اللوم ويومىء إلى زيادة عذابهم، ولا يخفى أن تجويز الاعتراض لا يخلو عن اعتراض، وتجويز كون الضمير في ﴿**علينا**﴾ الخ للرؤساء أو القرناء يجري على غير هذا الاحتمال فتدبر.

وأياً ما كان فقولهم ﴿**إنا لذائقون**﴾ هو قول ربهم عز وجل ووعيده سبحانه إياهم، ولو حكي كما قيل لقيل إنكم لذائقون ولكنه عدل إلى لفظ المتكلم لأنهم متكلمون بذلك من أنفسهم. ونحوه قول القائل:

لقد زعمت هوازن قل مالي ... وهل لي غير ما أنفقت مال

ولو حكى قولها لقال قل مالك ومنه قول المحلف للحالف احلف لأخرجن ولتخرجن الهمزة لحكاية لفظ الحالف والتاء لإقبال المحلف على المحلف. وقال بعض الأجلة: قول الرب عز وجل هو قوله سبحانه وتعالى: ﴿لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين﴾ [ص: ٨٥] والربط على ما تقدم أظهر ﴿**فَإِنَّهُمْ**﴾ أي الفريقين المتسائلين، والكلام تفريع على ما شرح من حالهم ﴿**يَوْمَئِذٍ**﴾ أي يوم إذ يتساءلون والمراد به يوم القيامة ﴿**فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ**﴾ كما كانوا مشتركين في الغواية. واستظهر أن المغوين أشد عذاباً وذلك في مقابلة أوزارهم وأوزار مثل أوزارهم فالشركة لا تقتضي المساواة ﴿**إِنَّا كَذَٰلِكَ**﴾ أي مثل ذلك الفعل البديع الذي تقتضيه الحكمة التشريعية ﴿**نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ**﴾ أي بالمشركين لقوله سبحانه وتعالى: ﴿**إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ**﴾ بطريق الدعوة والتلقين ﴿**لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ**﴾ عن القبول.

وفي إعراب هذه الكلمة الطيبة أقوال: الأول أن يكون الاسم الجليل مرفوعاً على البدلية من اسم لا باعتبار المحل الأصلي وهو الرفع على الابتداء بدل بعض من كل وإلا مغنية عن الربط بالضمير. وإذا قلنا إن البدل في الاستثناء قسم على حدة مغاير لغيره من الإبدال اندفع عن هذا الوجه كثير من القيل والقال وهو الجاري على ألسنة المعربين والخبر عليه عند الأكثرين مقدر والمشهور تقديره موجود، والكلمة الطيبة في مقابلة المشركين وهم إنما يزعمون وجود آلهة متعددة ولا يقولون بمجرد الإمكان على أن نفي الوجود في هذا المقام يستلزم نفي الإمكان وكذا نفي الإمكان عمن عداه عز وجل يستلزم ثبوت الوجود بالفعل له تعالى.

وجوز تقديره مستحق للعبادة ونفي استحقاقها يستلزم نفي التعدد لكن لا يتم هذا التقدير على تفسير الإله بالمستحق بالعبادة كما لا يخفى.

واختار البازلي تقدير الخبر مؤخراً عن إلا الله بناء على أن تقديره مقدماً يوهم كون الاسم مستثنى مفرغاً من ضمير الخبر وهو لا يجوز عند المحققين وأجازه بعض وهو القول الثاني، والثالث ونسب إلى الكوفيين أن إلا عاطفة والاسم الجليل معطوف على الإله باعتبار المحل وهي عندهم بمنزلة لا العاطفة في أن ما بعدها يخالف ما قبلها إلا أن لا لنفي الإيجاب وإلا لإيجاب النفي، والرابع أن الاسم الكريم هو الخبر ولا عمل لها فيه على رأي سيبويه من أن الخبر

مرفوع بما كان مرفوعاً به قبل دخولها فلا يلزم عملها في المعارف على رأيه وهو لازم على رأي غيره، وضعف هذا القول به وكذا بلزوم كون الخاص خبراً عن العام.

وكون الكلام مسوقاً لنفي العموم والتخصيص بواحد من أفراد ما دل عليه العام لا يجدي نفعاً ضرورة أن لا هذه عند الجمهور من نواسخ المبتدأ والخبر، والخامس أن إلا بمعنى غير وهي مع اسمه عز اسمه صفة لاسم لا باعتبار المحل أي لا إله غير الله تعالى في الوجود، ولا خلل فيه صناعة وإنما التخلل فيه كما قيل معنى لأن المقصود نفي الألوهية عن غيره تعالى واثباتها له سبحانه وعلى الاستثناء يستفاد كل من المنطوق وعلى هذا لا يفيد المنطوق إلا نفي الألوهية من غيره تعالى دون اثباتها له عز وجل، واعتبار المفهوم غير مجمع عليه لا سيما مفهوم اللقب فإنه لم يقل به إلا الدقائق وبعض الحنابلة، والسادس ونسب إلى الزمخشري أن لا إله في موضع الخبر وإلا الله في موضع المبتدأ والأصل الله إله فلما أريد قصر الصفة على الموصوف قدم الخبر وقرن المبتدأ بإلا إذ المقصور عليه هو الذي يلي إلا والمقصور هو الواقع في سياق النفي والمبتدأ إذا قرن بإلا وجب تقديم الخبر عليه كما هو مقرر في موضعه، وفيه تمحل مع أنه يلزم عليه أن يكون الخبر مبنياً مع لا وهي لا يبنى معها إلا المبتدأ وإنه لو كان الأمر كما ذكر لم يكن لنصب الاسم الواقع بعد الأوجه وقد جوزه جماعة في هذا الترتيب وترك كلامهم لواحد إن التزمته لا تجد لك ثانياً فيه، والسابع أن الاسم المعظم مرفوع بإله كما هو حال المبتدأ إذا كان وصفاً فإن إلهاً بمعنى مألوه من أله إذا عبد فيكون قائماً مقام الفاعل وساداً مسد الخبر كما في ما مضروب العمران.

وتعقب بمنع أن يكون إله وصفاً وإلا لوجب إعرابه وتنوينه ولا قائل به. ثم إن هذه الكلمة الطيبة يندرج فيها معظم عقائد الإيمان لكن المقصود الأهم منها التوحيد ولذا كان المشركون إذا لقنوها أولاً يستكبرون وينفرون **﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾** يعنون بذلك قاتلهم الله تعالى النبي ﷺ. وقد جمعوا بين إنكار الوحدانية وإنكار الرسالة. ووصفهم الشاعر بالمجنون قيل تخليط وهذيان لأن الشعر يقتضي عقلاً تاماً به تنظم المعاني الغريبة وتصاغ في قوالب الألفاظ البديعة. وفيه نظر وكم رأينا شعراء ناقصي العقول ومنهم من يزعم أنه لا يحسن شعره حتى يشرب المسكر فيسكر ثم يقول، نعم كل من الوصفين هذيان في حقه ﷺ **﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾** رد عليهم وتكذيب لهم ببيان أن ما جاء به عليه الصلاة والسلام من التوحيد هو الحق الثابت الذي قام عليه البرهان وأجمع عليه كافة المرسلين فأين الشعر والجنون من ساحته ﷺ الرفيعة الشأن.

وقرأ عبد الله «وَصَدَقَ» بتخفيف الدال «الْمُرْسَلُونَ» بالواو رفعاً أي وصدق المرسلون في التبشير به وفي أنه يأتي آخرهم **﴿إِنَّكُمْ﴾** بما فعلتم من الإشراك وتكذيب الرسول عليه الصلاة والسلام والاستكبار **﴿لَذَائِقُو الْعَذَابِ الأَلِيمِ﴾** والالتفات لإظهار كمال الغضب عليهم بمشافهتهم بهذا الوعيد وعدم الاكتراث بهم وهو اللائق بالمستكبرين. وقرأ أبو السمال وأبان رواية عن عاصم **﴿لذائقو العذاب﴾** بالنصب على أن حذف النون للتخفيف كما حذف التنوين لذلك في قول أبي الأسود:

فألفيته غير مستعتب ... ولا ذاكر الله إلا قليلا

بجرّ ذاكر بلا تنوين ونصب الاسم الجليل. وهذا الحذف قليل في غير ما كان صلة لأل. أما فيما كان صلة لها فكثير الورود لاستطالة الصلة الداعية للتخفيف نحو قوله:

الحافظو عورة العشيرة لا ... يأتيهم من ورائهم نطف

ونقل ابن عطية عن أبي السمال أنه قرأ «لذائق» بالإفراد والتنوين «العَذَابَ» بالنصب، وخرج الإفراد على أن

التقدير لجمع ذائق، وقيل: على تقدير إن جمعكم لذائق. وقرىء «لذائقون» بالنون «العَذَابَ» بالنصب على الأصل ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي إلا جزاء ما كنتم تعملونه من السيئات أو إلا بما كنتم تعملونه منها ﴿إلا عباد الله المخلصين ﴾ استثناء منقطع من ضمير ذائقوا وما بينهما اعتراض جيء به مسارعة إلى تحقيق الحق ببيان أن ذوقهم العذاب ليس إلا من جهتهم لا من جهة غيرهم أصلاً فإلا مؤولة بلكن وما بعد كخبرها فيصير التقدير لكن عباد الله المخلصين أولئك لهم رزق وفواكه الخ.

ويجوز أن يكون المعنى لكن عباد الله المخلصين ليسوا كذلك، وقيل استثناء منقطع من ضمير ﴿تجزون ﴾ على أن المعنى تجزون بمثل ما عملتم لكن عباد الله المخلصين يجزون أضعافاً مضاعفة بالنسبة إلى ما عملوا. ولا يخفى بعده، وأبعد منه جعل الاستثناء من ذلك متصلاً بتعميم الخطاب في «تجزون» لجميع المكلفين لما فيه مع احتياجه إلى التكلف الذي في سابقه من تفكيك الضمائر، و ﴿المخلصين ﴾ صفة مدح حيث كانت الإضافة للتشريف ﴿أُولَئِكَ ﴾ أي العباد المذكورون، وفيه إشارة إلى أنهم ممتازون بما اتصفوا به من الإخلاص في عبادته تعالى عمن عداهم امتيازاً بالغاً، وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإشعار بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم في الفضل.

وهو مبتدأ وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ ﴾ أما خبر له وقوله سبحانه: ﴿رِزْقٌ ﴾ مرتفع على الفاعلية للظرف وإما خبر مقدم و ﴿رزق ﴾ مبتدأ مؤخر والجملة خبر المبتدأ والمجموع كالخبر للمستثنى المنقطع على ما أشرنا إليه أو استئناف لما أفاده الاستثناء إجمالاً بياناً تفصيلياً وقوله تعالى: ﴿مَعْلُومٌ ﴾ أي معلوم الخصائص ككونه غير مقطوع ولا ممنوع حسن المنظر لذيذ الطعم طيب الرائحة إلى غير ذلك من الصفات المرغوبة، فلا يقال: إن الرزق لا يكون معلوماً إلا إذا كان مقدراً بمقدار وقد جاء في آية أخرى ﴿يرزقون فيها بغير حساب ﴾ [غافر: ٤٠] وما لا يدخل تحت الحساب لا يحد ولا يقدر فلا يكون معلوماً، وقيل المراد معلوم الوقت لقوله تعالى ﴿ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً ﴾ [مريم: ٦٢] وعن قتادة الرزق المعلوم الجنة، وتعقب بأنه ﴿في جنات ﴾ بعد يأباه. واعترض بأنه إذا كان المعنى وهم مكرمون فيها لم يكن به بأس. أجيب بأن جعلها مقر المرزوقين لا يلائم جعلها رزقاً وأما إذا كان قيداً للرزق فهو ظاهر الإباء، وكون المساكن رزقاً للساكن فإذا اختلف العنوان لم يكن به بأس لا يدفع ما قرر كما لا يخفى على المنصف، وقوله تعالى: ﴿فَوَاكِهُ ﴾ بدل من ﴿رزق ﴾ بدل كل من كل، وفيه تنبيه على أنه مع تميزه بخواصه كله فواكه أو خبر مبتدأ محذوف والجملة مستأنفة أي ذلك الرزق فواكه والمراد بها ما يؤكل لمجرد التلذذ دون الاقتيات وجميع ما يأكله أهل الجنة كذلك حتى اللحم لكونهم مستغنين عن القوت لإحكام خلقتهم وعدم تحلل شيء من أبدانهم بالحرارة الغريزية ليحتاجوا إلى بدل يحصل من القوت، فالمراد بالفاكهة هنا غير ما أريد بها في قوله تعالى ﴿وفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون ﴾ [الواقعة: ٢٠، ٢١] وهي هناك بالمعنى المعروف فلا منافاة. وجوز أن يكون عطف بيان للرزق المعلوم فوجه الاختصاص ما علم به من بين الأرزاق أنه فواكه، وقيل هو بدل بعض من كل، وتخصيصها بالذكر لأنها من أتباع سائر الأطعمة فتدل على تحقق غيرها ﴿وَهُمْ مُكْرَمُونَ ﴾ عند الله تعالى لا يلحقهم هوان وذلك أعظم المثوبات وأليقها بأولي الهمم، ولعل هذا إشارة إلى النعيم الروحاني بعد النعيم الجسماني الذي هو بواسطة الأكل.

وقيل مكرمون في نيل الرزق حيث يصل إليهم من غير كسب وكد وسؤال كما هو شأن أرزاق الدنيا.

وقرىء «مُكَرَّمُونَ» بالتشديد ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ أي في جنات ليس فيها إلا النعيم على أن الإضافة على معنى لام الاختصاص المفيدة للحصر. والظرف متعلق بمكرمون أو بمعلوم أو بمحذوف حال من المستكن في

﴿مكرمون﴾ أو خبر ثان لأولئك أو ﴿لهم﴾ وقوله تعالى: ﴿عَلَى سُرُر﴾ يحتمل أن يكون حالاً من المستكن في ﴿مكرمون﴾ أو في الظرف قبله وأن يكون خبراً فيكون قوله سبحانه ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ حالاً من المستكن فيه أو في ﴿مكرمون﴾ أو في الظرف أعني ﴿في جنات﴾ وأن يتعلق بمتقابلين فيكون حالاً من المستكن في غيره.

وأشير بتقابلهم إلى استئناس بعضهم ببعض فبعضهم يقابل بعضاً للاستئناس والمحادثة. وفي بعض الأحاديث أنه ترفع عنهم الستور أحياناً فينظر بعضهم إلى بعض، وقرأ أبو السمال «سُرَر» بفتح الراء وهي لغة بعض تميم وكلب يفتحون ما كان جمعاً على فعل من المضعف إذا كان اسماً، واختلف النحويون في الصفة فمنهم من قاسها على الاسم ففتح فيقول ذلل بفتح اللام على تلك اللغة. ومنهم من خص ذلك بالاسم وهو مورد السماع. وقوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ﴾ إما استئناف لبيان ما يكون لهم في مجالس أنسهم أو حال من الضمير في ﴿متقابلين﴾ أو في أحد الجارين: وجوز كونه صفة لمكرمون. وفاعل الطواف على ما قيل من مات من أولاد المشركين قبل التكليف. ففي الصحيح أنهم خدم أهل الجنة. وقد صرح به في موضع آخر وهو قوله تعالى ﴿يطوف عليهم ولدان مخلدون﴾ [الواقعة: ١٧] وقوله سبحانه ﴿يطوف عليهم غلمان لهم﴾ [الطور: ٢٤] ﴿بِكَأْسٍ﴾ أي بخمر كما روي عن ابن عباس وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وغيرهما عن الضحاك قال: كل كأس ذكره الله تعالى في القرآن إنما عنى به الخمر. ونقل ذلك أيضاً عن الحبر والأخفش وهو مجاز مشهور بمنزلة الحقيقة. وعليه قول الأعشى:

وكأس شربت على لذة ... وأخرى تداويت منها بها

ويدل على أنه أراد بها الخمر إطلاقاً للمحل على الحال قوله شربت وتقدير شربت ما فيها تكلف، والقرينة هاهنا ما يأتي بعد. وجوز تفسيره بمعناه الحقيقي وهو إناء فيه خمر، وأكثر اللغويين على أن إناء الخمر لا يسمى كأساً حقيقة إلا وفيه خمر فإن خلا منه فهو قدح، والخمر ليس بمتعين، قال في البحر: الكأس ما كان من الزجاج فيه خمر أو نحوه من الأنبذة ولا يسمى كأساً إلا وفيه ذلك، وقال الراغب: الكأس الإناء بما فيه من الشراب ويسمى كل واحد منهما بانفراده كأساً يقال كأس خال ويقال شربت كأساً وكأس طيبة، ولعل كلامه أظهر في أن تسمية الخالي كأساً مجاز، وحكي عن بعضهم أنه قال: الكأس من الأواني كل ما اتسع فمه ولم يكن له مقبض ولا يراعى كونه لخمر أو لغيره ﴿مِنْ مَعِين﴾ في موضع الصفة لكأس أي كائنة من شراب معين أو نهر معين أي ظاهر للعيون جار على وجه الأرض كما تجري الأنهار أو خارج من العيون والمنابع. وأصله معيون من عان الماء إذا ظهر أو نبع على أن ميمه زائدة أو هو من معن فهو فعيل على أن الميم أصلية.

ووصف به خمر الجنة تشبيهاً لها بالماء لكثرتها حتى تكون أنهاراً جارية في الجنان. ويؤذن ذلك برقتها ولطافتها وأنها لم تدس بالأقدام كخمر الدنيا كما ينبىء عن دوسها بها قوله:

بنت كرم يتموها أمها ... ثم هانوها بدوس بالقدم
ثم عادوا حكموها فيهم ... ويلهم من جور مظلوم حكم

وقوله الآخر:

وشمولة من عهد عاد قد غدت ... صرعى تداس بأرجل العصار
لانت لهم حتى انتشوا فتمكنت ... منهم فصاحت فيهم بالثار

وهذا مبني على أنها خمر في الحقيقة، وجوز أن تكون ماء فيه لذة الخمر ونشأته فالوصف بذلك ظاهر، وتفيد

الآية وصف مائهم باللذة والنشأة، وما ذكر أولاً هو الظاهر نعم قال غير واحد: لا اشتراك بين ما في الدنيا وما في الجنة إلا بالأسماء فحقيقة خمر الجنة غير حقيقة خمر الدنيا وكذا سائر ما فيهما ﴿بَيْضَاءَ﴾ وصف آخر للكأس يدل على أنها مؤنثة. وعن الحسن أن خمر الجنة أشد بياضاً من اللبن. وأخرج ابن جرير عن السدي أن عبد الله قرأ «صفراء» وقد جاء وصف الخمر الدنيا بذلك كما في قول أبي نواس:

صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها ... لو مسها حجر مسته سراء

والمشهور أن هذا بعد المزج وإلا فهي قبله حمراء كما قال الشاعر:

وحمراء قبل المزج صفراء بعده ... أتت في ثيابي نرجس وشقائق

حكت وجنة المحبوب صرفاً فسلطوا ... عليها مزاجاً فاكتست لون عاشق

﴿لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ وصفت بالمصدر للمبالغة بجعلها نفس اللذة، وجوز أن تكون لذة تأنيث لذ بمعنى لذيذ كطب بمعنى طبيب حاذق، وأنشدوا قوله:

ولذ كطعم الصرخدي تركته ... بأرض العدا من خشية الحدثان

يريد وعيش لذيذ كطعم الخمر المنسوب لصرخد بلد بالشام، وفسره الزمخشري بالنوم وأراد أنه بمعنى لذيذ غلب على النوم لا أنه اسم جامد، وقوله:

بحديثك اللذ الذي لو كلمك ... أسد الفلاة به أتين سراعا

وفي قوله تعالى ﴿للشاربين﴾ دون لهم إشارة إلى أنها يلتذ بها الشارب كائناً من كان ﴿لا فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي غائلة كما في خمر الدنيا من غاله يغوله إذا أفسده، وقال الراغب: الغول إهلاك الشيء من حيث لا يحس به يقال غاله يغوله غولاً واغتاله اغتيالاً، ومنه سمي السعلاة غولاً، والمراد هنا نفي أن يكون فيها ضرر أصلاً.

وروى البيهقي وجماعة عن ابن عباس أنه قال في ذلك ليس فيها صداع؛ وفي رواية ابن أبي حاتم عنه لا تغول عقولهم من السكر، وأخرج الطستي عنه أن نافع بن الأزرق قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿لا فيها غول﴾ فقال: ليس فيها نتن ولا كراهية كخمر الدنيا قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ فقال: نعم أما سمعت قول امرىء القيس:

رب كأس شربت لا غول فيها ... وسقيت النديم منها مزاجا

وفي رواية أخرى عنه أنه فسر ذلك بوجع البطن، وروي ذلك عن مجاهد وابن زيد وابن جبير واختير التعميم وأن التنصيص على مخصوص من باب التمثيل، وتقديم الظرف على ما قيل للتخصيص، والمعنى ليس فيها ما في خمور الدنيا من الغول، وفيه كلام في كتب المعاني ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ أي لا يسكرون كما روي عن ابن عباس وغيره، وهو بيان لحاصل المعنى، وأصل النزف نزع الشيء وإذهابه بالتدريج يقال نزفت الماء من البئر إذا نزحته ونزعته كله منها شيئاً بعد شيء، ونزف الهم دمعه نزعه كله، ويقال شارب نزيف أي نزفت الخمر عقله بالسكر وأذهبته كما ينزف الرجل البئر وينزع ماءها فكأن الشارب ظرف للعقل فنزع منه، فلا ينزفون مبنياً للمفعول كما قرأ الحرميان والعربيان معناه لا تنزع عقولهم أي لا تنزع الخمر عقولهم ولا تذهبها أو الفاعل هو الله تعالى وتعدية الفعل بعن قيل لتضمينه معنى يصدرون، وقيل عن للتعليل والسببية، وأفرد هذا الفساد بالنفي وعطف على ما يعمه لأنه من عظم فساده كأنه جنس برأسه، وله سميت الخمر أم الخبائث، والمراد استمرار النفي لا نفي الاستمرار. وقرأ حمزة والكسائي

«يُنْزِفُون» بضم الياء وكسر الزاي وتابعهما عاصم في الواقعة على أنه من أنزف الشارب إذا صار ذا نزف أي عقل أو شراب نافد ذاهب فالهمزة فيه للصيرورة، وقيل للدخول في الشيء ولذا صار لازماً فهو مثل كبه فأكب، وهو أيضاً بمعنى السكر لنفاد عقل السكران أو نفاد شرابه لكثرة شربه فيلزمه عليهما السكر ثم صار حقيقة فيه، قال الأبيرد اليربوعي:

لعمري لئن أنزفتم أو صحوتم ... لبئس الندامى كنتم آل أبجرا

وفي البحر أن أنزف مشترك بين سكر ونفذ فيقال أنزف الرجل إذا سكر وأنزف إذا نفد شرابه، وتعدية الفعل للتضمين كما سبق، وجوز إرادة معنى النفاد من غير إرادة معنى السكر أي لا ينفد ولا يفنى شرابهم حتى ينغص عيشهم وليس بذاك. وقرأ ابن أبي إسحاق «يَنْزِفُونَ» بفتح الياء وكسر الزاي، وطلحة بفتح الياء وضم الزاي، والمراد في جميع ذلك نفي السكر على ما هو المأثور عن الجمهور. ومن الغريب ما أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال: في الخمر أربع خصال السكر والصداع والقيء والبول فنزه الله تعالى خمر الجنة عنها لا فيها غول لا تغول عقولهم من السكر ولا هم عنها ينزفون لا يقيئون عنها كما يقيء صاحب خمر الدنيا عنها، وهو أقرب لاستعمال النزف في الأمور الحسية كنزف البئر والركية وما أشبه القيء وإخراج الفضلات من الجوف بنزف البئر وإخراج مائها عند نزحها، ولولا أن الجمهور على ما سمعت أولاً حتى ابن عباس في أكثر الروايات عنه لقلت: إن هذا التفسير هو الأولى ﴿**وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ**﴾ قصرن أبصارهن على أزواجهن لا يمددن طرفاً إلى غيرهم قاله ابن عباس ومجاهد وابن زيد فمتعلق القصر محذوف للعلم به، والكلام إما على ظاهره أو كناية عن فرط محبتهن لأزواجهن وعدم ميلهن إلى سواهم، وقيل المراد لا يفتحن أعينهن دلالاً وغنجاً، والوصف على القولين متعد، وجوز كونه قاصراً على أن المعنى ذابلات الجفن مراضه، وما أحيل ذبول الأجفان في الغواني الحسان، ولذا كثر التغزل بذلك قديماً وحديثاً، ومنه قول ابن الأزدي:

مرضت سلوتي وصح غرامي ... من لحاظ هي المراض الصحاح

والطرف في كل ذلك طرفهن، وجوز أن يكون الوصف متعدياً والطرف طرف غيرهن، والمعنى قاصرات طرف غيرهن عن التجاوز إلى سواهن لغاية حسنهن فلا يتجاوزهن طرف الناظر إليهن كقول المتنبي:

وخصر تثبت الأبصار فيه ... كأن عليه من حدق نطاقا

وقد ذكر هذا المعنى أيضاً ابن رشيق في قول امرىء القيس:

من **القاصرات** الطرف لو دب محول ... من الذر فوق الأنف منها لأثرا

وهو لعمري رشيق بيد أني أقول: الظاهر هنا أن العندية في مجالس الشرب إتماماً للذة فلعل الأوفق للغيرة وإن كانت الحظيرة حظيرة قدس المعنى الأول، والجمهور قد قصروا الطرف عليه ولا يظن بهم أنهم من القاصرين، والجملة قيل عطف على ما قبلها، وقيل: في موضع الحال أي يطاف عليهم بكأس والحال عندهم نساء قاصرات الطرف ﴿**عِينٌ**﴾ جمع عيناء وهي الواسعة العين في جمال، ومنه قيل للبقر الوحشي عين، وقيل: العيناء واسعة العين أي كثيرة محاسن عينها، والحق أن السعة اتساع الشق والتقييد بالجمال يدفع ما عسى أن يقال، وما ألطف وأظرف ذكر عين بعد قاصرات الطرف ﴿**كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ**﴾ البيض معروف وهو اسم جنس الواحدة بيضة ويجمع على بيوض كما في قوله:

بتيهاء قفر والمطي كأنها ... قطا الحزن قد كانت فراخاً بيوضها

والمراد تشبيههن بالبيض الذي كنه الريش في العش أو غيره في غيره فلم تمسه الأيدي ولم يصبه الغبار في الصفاء وشوب البياض بقليل صفرة مع لمعان كما في الدر، والأكثرون على تخصيصه ببيض النعام في الأداحي لكونه أحسن منظراً من سائر البيض وأبعد عن مس الأيدي ووصول ما يغير لونه إليه، والعرب تشبه النساء بالبيض ويقولون لهن بيضات الخدور، ومنه قول امرىء القيس:

وبيضة خدر لا يرام خباؤها ... تمتعت من لهو بها غير معجل

والبياض المشوب بقليل صفرة في النساء مرغوب فيه جداً؛ قيل وكذا البياض المشوب بقليل حمرة في الرجال وأما البياض الصرف فغير محمود ولذا ورد في الحلية الشريفة أبيض ليس بالأمهق.

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس وهو وغيره عن ابن جبير وابن أبي حاتم وابن حرير عن السدي أن البيض المكنون ما تحت القشر الصلب بينه وبين اللباب الأصفر والمراد تشبيههن بذلك بعد الطبخ في النعومة والطراوة فالبيضة إذا طبخت وقشرت ظهر ما تحت القشرة على أتم نعومة وأكمل طراوة، ومن هنا تسمع العامة يقولون في مدح المرأة: كأنها بيضة مقشرة، ورجح ذلك الطبري بأن الوصف بمكنون يقتضيه دون المشهور لأن خارج قشر البيضة ليس بمكنون، وفيه أن المتبادر من البيض مجموع القشر وما فيه وأكلت كذا بيضة الأكل فيه قرينة إرادة ما في القشر دون المجموع إذ لا يؤكل عادة وحينئذ لا يتم ما قاله الطبري فالأول هو المقبول، ومعنى المكنون فيه ظاهر على ما سمعت، وقد نقل الخفاجي هذا المعنى عن بعض المتأخرين وتعقبه بأنه ناشىء من عدم معرفة كلام العرب وكأنه لم يقف على روايته عن الحبر ومن معه وإلا لا يتسنى له ما قال، ولعل الرواية المذكورة غير ثابتة وكذا ما حكاه أبو حيان عن الحبر من أن البيض المكنون الجوهر المصون لنبو ظاهر اللفظ عن ذلك، وقالت فرقة: المراد تشبيههن بالبيض في تناسب الأجزاء والبيضة أشد الأشياء تناسب أجزاء والتناسب ممدوح، ومن هنا قال بعض الأدباء متغزلاً:

تناسبت الأعضاء فيه فلا ترى ... بهن اختلافاً بل أتين على قدر

وأنت تعلم بعد فرض تسليم أن تناسب الأجزاء في البيضة معروف بينهم أن الوصف بالمكنون مما لا يظهر له دخل في التشبيه، واستشكل التشبيه على ما تقدم بآية عروس القرآن ﴿كأنهن الياقوت والمرجان﴾ [الرحمن: ٥٨] فإنها ظاهرة في أن في ألوانهن حمرة وأين هذا من التشبيه بالبيض المكنون على ما سمعت قبل فيتعين أن يراد التشبيه من حيث النعومة والطراوة كما روي ثانياً أو من حيث تناسب الأجزاء كما قيل أخيراً. وأجيب بأنه يجوز أن يكون المشبهات بالبيض المكنون غير المشبهات بالياقوت والمرجان، وكون البياض المشوب بالصفرة أحسن الألوان في النساء غير مسلم بل هو حسن ومثله في الحسن البياض المشوب بحمرة على أن الأحسنية تختلف باختلاف طباع الرائين، وللناس فيما يعشقون مذاهب. والجنة فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.

وقيل يجوز أن يكون تشبيههن بالبيض المكنون بالنظر إلى بياض أبدانهن المشوب بصفرة ما عدا وجوههن وتشبيههن بالياقوت والمرجان بالنظر إلى بياض وجوههن المشوب بحمرة، وقيل تشبيههن بهذا ليس من جهة أن بياضهن مشوب بحمرة بل تشبيههن بالياقوت من حيث الصفاء وبالمرجان من حيث الإملاس وجمال المنظر.

وإذا أريد بالمرجان الدرر الصغار كما ذهب إليه جمع دون الخرز الأحمر المعروف يجوز أن يكون التشبيه من حيث البياض المشوب بصفرة فلا إشكال أصلاً ﴿**وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ**﴾ معطوف على ﴿**يطاف**﴾ وما بينهما معترض أو من متعلقات الأول أي يشربون فيتحادثون على الشرب كما هو عادة المجتمعين عليه قال محمد ابن فياض:

وما بقيت من اللذات إلا محادثة الكرام على الشراب
ولثمك وجنتي قمر منير يجول بوجهه ماء الشباب

وعبر بالماضي مع أن المعطوف عليه مضارع للإشعار بالاعتناء بهذا المعطوف بالنسبة إلى المعطوف عليه فكيف لا يقبلون على الحديث وهو أعظم لذاتهم التي يتعاطونها مع ما في ذلك من الإشارة إلى تحقق الوقوع حتما وتساؤلهم عن المعارف والفضائل وما جرى لهم وعليهم في الدنيا، وما أحلى تذكر ما فات عند رفاهية الحال وفراغ البال ﴿**قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ**﴾ في تضاعيف محاورتهم ﴿**إِنِّي كَانَ لِي**﴾ في الدنيا ﴿**قَرِينٌ**﴾ مصاحب ﴿**يَقُولُ**﴾ لي على طريق التوبيخ بما كنت عليه من الإيمان والتصديق بالبعث المفضي إلى ما أنا عليه اليوم ﴿**إِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ**﴾ أي بالبعث كما ينبىء عنه قوله سبحانه ﴿**أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَدِينُونَ**﴾ أي لمبعوثون ومجازون من الدين بمعنى الجزاء؛ وقيل لمسوسون مربوبون من ذاته إذا ساسه ومنه الحديث «العاقل من دان نفسه». وقرىء «المُصَّدقين» بتشديد الصاد من التصدق واعترضت هذه القراءة بأن الكلام عليها لا يلائم قوله سبحانه ﴿**أئذا متنا**﴾ الخ، وتعقب بأن فيه غفلة عن سبب النزول، أخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن عطاء الخراساني قال: كان رجلان شريكان وكان لهما ثمانية آلاف دينار فاقتسماها فعمد أكبرهما فاشترى بألف دينار أرضاً فقال صاحبه: اللهم إن فلاناً اشترى بألف دينار أرضاً وإني أشتري منك بألف دينار أرضاً في الجنة فتصدق بألف دينار ثم ابتنى صاحبه دار بألف دينار فقال: اللهم إن فلاناً قد ابتنى دار بألف دينار وإني أشتري منك في الجنة داراً بألف دينار فتصدق بألف دينار ثم تزوج امرأة فأنفق عليها ألف دينار فقال: اللهم إن فلاناً تزوج امرأة فأنفق عليها ألف دينار وإني أخطب إليك من نساء الجنة بألف دينار فتصدق بألف دينار ثم اشترى خدماً ومتاعاً بألف دينار فقال: اللهم أن فلاناً اشترى خدماً ومتاعاً بألف دينار وإني أشتري منك خدماً ومتاعاً في الجنة بألف دينار فتصدق بألف دينار ثم أصابته حاجة شديدة فقال لو أتيت صاحبي هذا لعله ينالني منه معروف فجلس على طريقه حتى مر به في حشمه وأهله فقام إليه فنظر الآخر فعرفه فقال: فلان قال نعم فقال: ما شأنك؟ فقال: أصابتني بعدك حاجة فأتيتك لتصيبني بخير قال: فما فعلت بمالك؟ فقص عليه القصة فقال: أئنك لمن المصدقين بهذا اذهب فوالله لا أعطيك شيئاً فرده فقضى لهما أن توفيا فكان مال المتصدق الجنة ومال الآخر النار وفيهما نزلت الآية، وقيل هما اخوان ورثا ثمانية آلاف دينار واقتسماها فكان من خبرهما ما كان، وكان الاثنان من بني إسرائيل وهذا السبب يدل على أن أحدهما كان مصدقاً ومتصدقاً أيضاً والآخر وهو القرين أنكر عليه أنه أنفق ليجازي على إنفاقه بما هو أعظم وأبقى فقد ضيع بزعمه ماله فيما لا أصل له وهو الجزاء الأخروي ولا يكون هذا بدون البعث فلذا أنكره، وليت شعري كيف يتوهم عدم الملاءمة مع قوله تعالى ﴿**أئنا لمدينون**﴾ ولعله أنسب بتلك القراءة، وحاصل المعنى أنت المتصدق طلباً للجزاء في الآخرة فهل نحن بعد ما نفنى نبعث ونجازى، وذكر العظام مع التراب مع أن ذكر التراب يكفي ويغني عن ذلك لتصوير حال ما يشاهده ذلك الشخص من الأجساد البالية من مصير اللحم وغيره تراباً عليه عظام نخرة ليذكره ويخطر بباله ما ينافي مدعاه، وكونه للتنزل في الإنكار أو للتأكيد لا يرجحه بل يجوزه ﴿**قَالَ**﴾ أي ذلك القائل الذي كان قرين لجلسائه بعد ما حكي لهم مقالة قرينة له في الدنيا ﴿**هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ**﴾ على أهل النار لأريكم ذلك القرين الذي قال لي ما حكيت لكم، والمراد من الاستفهام العرض أو الأمر على ما قيل، والغرض من ذلك إراءتهم سوء حال القرين ليؤنسهم نوع إيناس وقيل يريد بذلك بيان صدقه فيما حكاه، ولا يخفى أن ظن الكذب في غاية البعد واطلاع أهل الجنة على أهل النار ومعرفة من فيها مع ما بينهما من التباعد غير بعيد بأن يخلق الله تعالى فيهم حدة نظر ويعرفهم من أرادوا الاطلاع عليه، ولعلهم إذا أرادوا ذلك وقفوا على الأعراف

فاطلعوا على من أرادوا من أهل النار؛ وقيل إن لهم طاقات في الجنة ينظرون منها من علو إلى أهل النار وعلم القائل بأن القرين من أهل النار لعلمه بأنه كان ينكر البعث ومنكره منهم قطعاً والأصل بقاؤه على الكفر وقيل علم ذلك بأخبار الملائكة عليهم السلام إياه، وقيل قائل ﴿**هل أنتم**﴾ الخ هو الله تعالى أو بعض الملائكة عليهم السلام يقول للمتحادثين من أهل الجنة هل تحبون أن تطلعوا على أهل النار لأريكم ذلك القرين فتعلموا أين منزلتكم من منزلتهم، وقيل القائل من كان له قرين والمخاطبون بأنتم الملائكة عليهم السلام وفي الكلام حذف كأنه قيل: فقال لهذا القائل حاضروه من الملائكة قرينك هذا يعذب في النار فقال للملائكة الذين أخبروه: هل أنتم مطلعون ولا يخفى ما فيه ﴿**فاطلع**﴾ أي على أهل النار ﴿**فرآه**﴾ أي فرأى قرينه ﴿**في سواء الجحيم**﴾ أي في وسطها، ومنه قول عيسى بن عمر لأبي عبيدة كنت أكتب حتى ينقطع سوائي، وسمي الوسط سواء لاستواء المسافة منه إلى الجوانب. وقرأ أبو عمرو في رواية حسين الجعفي ﴿**مطلعون**﴾ بإسكان الطاء وفتح النون «فأُطْلِعَ» بضم الهمزة وسكون الطاء وكسر اللام فعلاً ماضياً مبنياً للمفعول، وهي قراءة ابن عباس وابن محيصن وعمار بن أبي عمار وأبي سراج وقرىء «مُطَّلِعُون» مشدداً «فاطَّلِعُ» مشدداً أيضاً مضارعاً منصوباً على جواب الاستفهام.

وقرىء مطلعون بالتخفيف «فَأَطْلَعَ» مخففاً فعلاً ماضياً و «فَأَطلع» مخففاً مضارعاً منصوباً. وقرأ أبو البرهسم وعمار بن أبي عمار فيما ذكره خلف عنه «مُطْلِعون» بتخفيف الطاء وكسر النون «فاطَّلِع» ماضياً مبنياً للمفعول ورد هذه القراءة أبو حاتم وغيره لجمعها بين نون الجمع وياء المتكلم والوجه مطلعي كما قال عليه الصلاة والسلام «أو مخرجي هم» ووجهها أبو الفتح على تنزيل اسم الفاعل منزلة المضارع فيقال عنده ضاربونه مثلاً كما يقال يضربونه وعليه قوله:

هم الآمرون الخير والفاعلونه ... إذا ما خشوا من محدث الدهر معظما

وأنشد الطبري قول الشاعر:

وما أدري وظني كل ظن ... أمسلمني إلى قومي شراحي(١)

ومثله قول الآخر:

فهل فتى من سراة الحي يحملني ... وليس حاملني إلا ابن حمال

وهذه النون عند جمع نون الوقاية ألحقت مع الوصف حملاً له على الفعل وليست مثل النون في القراءة. وفي البيت وإن كان إلحاق كل للحمل. وقال بعضهم: إنها نون التنوين وحركت لالتقاء الساكنين، ورد بأنه سمع إلحاقها مع أل كقوله: وليس الموافيني ومع أفعل التفضيل كما وقع في الحديث غير الدجال أخوفني عليكم.

ويعلم من هذا عدم اختصاص إلحاقها بالشعر نعم هو في غيره قليل، وضعف بعضهم ما وجه به أبو الفتح وقال: إن ذلك لا يقع إلا في الشعر وخرجت أيضاً على أنها من وضع المتصل موضع المنفصل وأريد بذلك أن الأصل مطلعون إياي ثم جعل المنفصل متصلاً فقيل مطلعوني ثم حذفت الياء واكتفى عنها بالكسرة كما في قوله تعالى ﴿فكيف كان نكير﴾ [الحج: ٤٤، سبأ: ٤٥، فاطر: ٢٦، الملك: ١٨] ومثله يقال في الفاعلونه في البيت السابق، ورد ذلك أبو حيان بأن ما ذكر ليس من محال المنفصل حتى يدعي أن المتصل وقع موقعه وادعى أولوية تخريج أبي الفتح، والبيت قيل مصنوع لا يصح الاستشهاد به، وقيل: إن الهاء هاء السكت حركت للضرورة وهو فرار من ضرورة لأخرى إذ تحريكها وإثباتها في الوصل غير جائز، وللنحاة في مسألة إثبات النون مع إضافة الوصف إلى الضمير كلام

---

(١) قال الفراء يريد شراحيل اهـ منه.

طويل، حاصله أن نحو ضاربك وضارباك وضاربوك ذهب سيبويه إلى أن الضمير فيه في محل جر بالإضافة ولذا حذف التنوين ونون التثنية والجمع، وذهب الأخفش وهشام إلى أن الضمير في محل نصب وحذفها للتخفيف حتى وردتا ثابتين كما في الفاعلونه وأمسلمني فالنون عندهما في الأخير ونحوه تنوين حرك لالتقاء الساكنين وقد سمعت ما فيه، وحديث الحمل على الفعل على العلات أحسن ما قيل في التوجيه، هذا وطلع وأطلع بالتشديد وأطلع بالتخفيف بمعنى واحد والكل لازم ويجيء الاطلاع متعدياً يقال أطلعه على كذا فاطلع، و «مطلعون» في قراءة أبي عمرو بمعنى مطلعون بالتشديد ونائب فاعل أطلع ضمير القائل والفاعل هم المخاطبون وإطلاعهم إياه باعتبار التسبب كأنه لما أراد الاطلاع وأحب أن لا يستبد به أدباً عرض عليهم أن يطلعوا فرغبوا وأطلعوا فكان ذلك وسيلة إلى اطلاعه فكأنهم هم الذين أطلعوه ففاء ﴿**فأطلع**﴾ فصيحة والعطف على مقدر، والمعنى على القراءة التي بعدها هل أنتم مطلعون حتى أطلع أنا أيضاً فاطلعوا وأطلع هو بعد ذلك فرآه في سواء الجحيم ولا بد من تقدير اطلع بعد ذلك ليصلح ترتب ﴿**فرآه**﴾ على ما قبله و ﴿**هل أنتم مطلعون**﴾ عليه بمعنى الأمر تأدباً ومبالغة وعلى القراءة الثانية وهي قراءة التخفيف في الكلمتين والثانية فعل ماض المعنى كما في قراءة الجمهور، وكذا على القراءة التي بعدها، وعن قراءة أبي البرهسم ومن معه هل أنتم مطلعي فأطلعوه فرآه الخ، واطلاعهم إياه إذا كان الخطاب للجلساء بطريق التسبب كأنه طلب أن يطلعوا ليوافقهم فيطلع وهو إذا كان[1] الخطاب للملائكة عليهم السلام على ما يتبادر إلى الذهن، وعن صاحب اللوامح إن طلع وأطلع اطلاعاً بمعنى أقبل وجاء والقائم مقام الفاعل على قراءة أطلع مبنياً للمفعول ضمير المصدر أو جار ومجرور محذوفان أي اطلع به لأن اطلع لازم كأقبل وقد علمت أن اطلع يجيء متعدياً كأطلعت زيداً. ورد أبو حيان الاحتمال الثاني بأن نائب الفاعل لا يجوز حذفه كالفاعل فتأمل جميع ما ذكرنا ولا تغفل ﴿**قَالَ**﴾ أي القائل لقرينه ﴿**تَاللهِ إِنْ كِدْتَ لتردين**﴾ أي لتهلكني، وفي قراءة عبد الله «لتغوين»، و «إنْ» مخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة. وفي البحر أن القسم فيه التعجب من سلامته منه إذ كان قرينه قارب أن يرديه ﴿**وَلَوْلاَ نِعْمَةُ رَبِّي**﴾ على وهي التوفيق والعصمة ﴿**لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ**﴾ للعذاب كما أحضرته أنت وأضرابك ﴿**أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ**﴾ الخ رجوع إلى محاورة جلسائه بعد إتمام الكلام مع قرينه تبجحاً وابتهاجاً بما أتاح الله تعالى له من الفضل العظيم والنعيم المقيم وتعريضاً للقرين بالتوبيخ، وجوز أن يكون من كلام المتسائلين جميعاً وأن يكون من تتمة كلام القائل يسمع قرينه على جهة التوبيخ له، واختير الأول، والهمزة للتقرير وفيها معنى التعجب والفاء للعطف على مقدر يقتضيه نظم الكلام على ما ذهب إليه الزمخشري ومتبعوه أي أنحن مخلدون فما نحن بميتين أي ممن شأنه الموت كما يؤذن به الصفة المشبهة.

وقرىء «بمائتين» ﴿**إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَى**﴾ التي كانت في الدنيا وهي متناولة عند أهل السنة لما في القبر بعد الإحياء للسؤال لعدم الاعتداد بالحياة فيه لكونها غير تامة ولا قارة وزمانها قليل جداً، والاستثناء مفرغ من مصدر مقدر كأنه قيل أفما نحن بميتين موتة إلا موتتنا الأولى، وجوز أن يكون منقطعاً أي لكن الموتة الأولى كانت لنا في الدنيا وعلمهم بأنهم لا يموتون ناشىء من إخبار أنبيائهم لهم في الدنيا وإعلامهم إياهم بأن أهل الجنة لا يموتون أو من قول الملائكة عليهم السلام لهم حين دخول الجنة ﴿طبتم فادخلوها خالدين﴾ [الزمر: ٧٣] وقولهم ﴿ادخلوها بسلام آمنين﴾ [الحجر: ٤٦] وقيل إن أهل الجنة أول ما دخلوا لا يعلمون أنهم لا يموتون فإذا جيء بالموت على صورة كبش أملح وذبح فنودي يا أهل الجنة خلود بلا موت ويا أهل النار خلود بلا موت فحينئذ يعلمونه فيقولون ذلك

---

(١) قوله وهو إذا كان الخطاب الخ كذا في أصله وانظر اهـ.

تحدثاً بنعمة الله تعالى واغتباطاً بها، ولا يخفى أن كون هذا القول المحكي هنا عند علمهم بعدم الموت من ذبحه بعيد في هذا المقام والظاهر أن هذا بعد الاطلاع والكلام مع القرين ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ كأصحاب النار، والمراد استمرار النفي وتأكيده وكذا فيما تقدم واستمرار هذا النفي نعمة جليلة وهو متضمن نفي زوال نعيمهم المحكي في قوله تعالى: ﴿أولئك لهم رزق معلوم﴾ [الصافات: ٤١] الآيات فإن زوال النعيم نوع من العذاب بل هو من أعظم أنواعه بل تصور الزوال عذاب أيضاً لا يلذ معه عيش، ولذا قيل:

إذا شئت أن تحيا حياة هنية ... فلا تتخذ شيئاً تخاف له فقدا

وكذا يتضمن نفي الهرم واختلال القوى الذي يوهمه نفي الموت فإن ذلك نوع من العذاب أيضاً، وأنه إنما اختير التعرض لاستمرار نفي العذاب دون إثبات استمرار النعيم لأن نفي العذاب أسرع خطوراً ببال من لم يعذب عند مشاهدة من يعذب، وقيل إن ذاك لأن درء الضرر أهم من جلب المنفعة ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الظاهر أن الإشارة إلى ما أخبروا به من استمرار نفي الموت واستمرار نفي التعذيب عنهم، ويجوز أن تكون إشارة إلى ما هم فيه من النعيم مع استمرار النفيين فإذا كان الكلام من تتمة كلام القائل ﴿أفما نحن بميتين﴾ الخ فهو متضمن إشارة ذلك القائل إلى ظهور النعيم ويكون ترك التعرض للتصريح به للاستغناء بذلك الظهور.

وجوز أن يكون هذا كلامه تعالى قاله سبحانه تقريراً لقول ذلك القائل وتصديقاً له مخاطباً جل وعلا به حبيبه عليه الصلاة والسلام وأمته والتأكيد للاعتناء بشأن الخبر. وقرىء «لهو الرزق العظيم» وهو ما رزقوه من السعادة العظمى ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ أي لنيل مثل هذا الأمر الجليل ينبغي أن يعمل العاملون لا للحظوظ الدنيوية السريعة الانصرام المشوبة بفنون الآلام فتقديم الجار والمجرور للحصر وهذا إن كان إشارة إلى مشخص من حيث تشخصه فمثل غير مقحمة وإن كان إشارة إلى الجنس فهي مقحمة كما في ـ مثلك لا يبخل ـ والكلام يحتمل أن يكون من تتمة كلام القائل ولا يعكر عليه أن الآخرة ليست بدار عمل إذ ليس المراد الأمر بالعمل فيها ويحتمل أن يكون من كلامه عز وجل.

أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ
ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ
عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ
يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ
عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ
وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَإِنَّ مِن
شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ
ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ

مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟
إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى
ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾

وأما قوله سبحانه ﴿**أَذْلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّوم**﴾ فمن كلامه جل وعلا عند الأكثرين وهو متعلق بقوله تعالى: ﴿**أولئك لهم رزق معلوم**﴾ والقصة بينهما ذكرت بطريق الاستطراد فالإشارة إلى الرزق المعلوم.

وزعم بعضهم جواز كونه من كلام القائل السابق وما هو من كلامه عز وجل قطعاً هو ما يأتي إن شاء الله تعالى.

وأصل النزل الفضل والريع في الطعام ويستعمل(١) في الحاصل من الشيء ومنه العسل ليس من إنزال الأرض أي مما يحصل منها، وقول الشافعي لا يجب في العسل العشر لأنه نزل طائر ويقال لما يعد للنازل من الرزق.

والزقوم اسم شجرة صغيرة الورق مرّة كريهة الرائحة ذات لبن إذا أصاب جسد إنسان تورم تكون في تهامة وفي البلاد المجدبة المجاورة للصحراء سميت بها الشجرة الموصوفة بما في الآية، وكلا المعنيين للنزل محتمل هنا بيد أنه يتعين على الأول انتصابه على التمييز أي أذلك الرزق المعلوم الذي حاصله اللذة والسرور خير نزلاً وحاصلاً أم شجرة الزقوم التي حاصلها الألم والغم، ومعنى التفاضل بين النزلين التوبيخ والتهكم وهو أسلوب كثير الورود في القرآن، والحمل على المشاركة جائز، وعلى الثاني الظاهر انتصابه على الحال، والمعنى أن الرزق المعلوم نزل أهل الجنة وأهل النار نزلهم شجرة الزقوم فأيهما خير حال كونه نزلاً، وفيه ما مر من التهكم.

والحمل على التمييز لا مانع منه لفظاً كما في نحوهم أكفاهم ناصراً ولكن المعنى على الحال أسد لأن المعنى المفاضلة بين تلك الفواكه وهذا الطعام في هذه الحال لا التفاضل بينهما في الوصف وإن ذلك في النزلية أدخل من الآخرة فافهم.

﴿**إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ**﴾ محنة وعذاباً لهم في الآخرة وابتلاء في الدنيا فإنهم سمعوا أنها في النار قالوا كيف يمكن ذلك والنار تحرق الشجر وكذا قال أبو جهل ثم قال استخفافاً بأمرها لا إنكاراً للمدلول اللغوي: والله ما نعلم الزقوم إلا التمر والزبد فتزقموا ولم يعلموا أن من قدر على خلق حيوان يعيش في النار ويتلذذ بها أقدر على خلق الشجر في النار وحفظه من الإحراق فالنار لا تحرق إلا بإذنه أو أن الإحراق عندها لا بها.

﴿**إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيم**﴾ منبتها في قعر النار وأغصانها ترتفع إلى دركاتها. وقرىء ﴿**نابتة**﴾ في أصل الجحيم ﴿**طَلْعُهَا**﴾ أي حملها، وأصله طلع النخل وهو أول ما يبدو وقبل أن تخرج شماريخه أبيض غض مستطيل كاللوز سمي به حمل هذه الشجرة إما لأنه يشابهه في الشكل أو الطلوع ولعله الأولى لمكان التشبيه بعد فيكون استعارة تصريحية أو لاستعماله بمعنى ما يطلع مطلقاً فيكون كالمرسل للأنف فهو مجاز مرسل.

﴿**كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِين**﴾ أي في تناهي الكراهة وقبح المنظر والعرب تشبه القبيح الصورة بالشيطان فيقولون

---

(١) وهو إما استعارة لفظية إذا رجعت فيها إلى التشبيه يأتيك عفواً نحو رأيت أسداً يرمي وإما استعارة معنوية إذا رجعت فيها إلى التشبيه لم يؤاتك تلك المؤاتاة نحو إذا أصبحت بيد الشمال زمامها كذا قال نور الدين الحكيم وتمامه في حواشي الطيبي اهـ منه.

كأنه وجه شيطان أو رأس شيطان وإن لم يروه لما أنه مستقبح جداً في طباعهم لاعتقادهم أنه شر محض لا يخلطه خير فيرتسم في خيالهم بأقبح صورة، ومن ذلك قول امرىء القيس:

أتقتلني والمشرفي مُضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

فشبه بأنياب الأغوال وهي نوع من الشياطين ولم يرها لما ارتسم في خياله، وعلى عكس هذا تشبيههم الصورة الحسنة بالملك وذلك أنهم اعتقدوا فيه أنه خير محض لا شر فيه فارتسم في خيالهم بأحسن صورة، وعليه قوله تعالى ﴿ما هذا بشراً إن هذا إلاّ ملك كريم﴾ [يوسف: ٣١] وبهذا يرد على بعض الملاحدة حيث طعن في هذا التشبيه بأنه تشبيه بما لا يعرف، وحاصله أنه لا يشترط أن يكون معروفاً في الخارج بل يكفي كونه مركوزاً في الذهن والخيال. وحمل التشبيه في الآية على ما ذكر هو المروي عن ابن عباس ومحمد بن كعب القرظي وغيرهما، وزعم الجبائي أن الشياطين حين يدخلون النار تشوه صورهم جداً وتستبشع أعضاؤهم فالمراد كأنه رؤوس الشياطين الذين في النار، وفيه أن التشبيه عليه أيضاً غير معروف في الخارج عند النزول، وقيل: رؤوس الشياطين شجرة معروفة تكون بناحية اليمن منكرة الصورة يقال لها الإستن وإياها عنى النابغة بقوله:

تحيد عن استن سود أسافله مثل الإماء الغوادي تحمل الحزما

قال الأصمعي: ويقال لها الصوم وأنشد:

موكل بشدوف الصوم يرقبه من المغارب مهضوم الحشا زرم(١)

وقيل: الشياطين جنس من الحيات ذوات أعراف، وأنشد الفراء:

عجيز تحلف حين أحلف كمثل شيطان الحماط أعرَف

أي له عرف، وأنشد المبرد:

وفي البقل إن لم يدفع الله شره شياطين يعدو بعضهن على بعض

﴿فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا﴾ تفريع على جعلها فتنة أي محنة وعذاباً للظالمين، وضمير المؤنث للشجرة، ومن ابتدائية أو تبعيضية وهناك مضاف مقدر أي من طلعها، وقيل: من تبعيضية والضمير للطلع وأنث لإضافته إلى المؤنث أو لتأويله بالثمرة أو للشجرة على التجوز، ولا يخلو كل عن بعدما ﴿فمالئونَ منْهَا الْبُطُونَ﴾ لغلبة الجوع وإن كرهوها أو للقسر على أكلها ﴿ثُمَّ إنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا﴾ أي على الشجرة التي ملؤوا منها بطونهم ﴿لَشَوْباً منْ حَميم﴾ أي لشراباً ممزوجاً بماء شديد الحرارة وهذا الشراب هو الغساق أي ما يقطر من جراح أهل النار وجلودهم، وقيل: هذا هو الصديد وأما الغساق فعين في النار تسيل إليها سموم الحيات والعقارب أو دموع الكفرة فيها، وشربهم ذلك لغلبة عطشهم بما أكلوا من الشجرة فإذا شربوا تقطعت أمعاؤهم.

وقرىء «لَشُوباً» بضم الشين وهو اسم لما يشاب به، وعلى الأول هو مصدر سمي به، وكلمة ثم قيل للتراخي الزماني وذلك أنه بعد أن يملؤوا البطون من تلك الشجرة يعطشون ويؤخر سقيهم زماناً ليزداد عطشهم فيزداد عذابهم.

واعترض بأنه يأباه عطف الشرب بالفاء في قوله تعالى ﴿فمالئون منها البطون فشاربون عليه من الحميم﴾ [الواقعة: ٥٣، ٥٤] فلا بد من عدم توسط زمان. وأجيب بأنه يجوز أن يكون شرب الشراب الممزوج بالحميم متأخراً

---

(١) يصف وعلاً يظن هذا الشجر قناصاً فهو يرقبه والشدوف الشخوص واحدها شدف اهـ منه.

بزمان عن ملئهم البطون دون شرب الحميم وحده، وكذا يجوز أن يكون الحال مختلفاً فتارة يتأخر الشرب مطلقاً زماناً وأخرى لا يتأخر كذلك، وقال بعضهم: ملؤهم البطون أمر ممتد فباعتبار ابتدائه يعطف بثم وباعتبار انتهائه بالفاء.

وجوز كون ثم للتراخي الرتبي لأن شرابهم أشنع من مأكولهم بكثير، وعطف ملئهم البطون بالفاء لأنه يعقب ما قبله، ولا يحسن فيه اعتبار التفاوت الرتبي حسنه في شرب الشراب المشوب بالحميم مع الأكل ﴿**ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ**﴾ أي مصيرهم، وقد قرىء كذلك، وقرىء أيضاً «ثم أن منفذهم» ﴿**لإِلَى الْجَحِيمِ**﴾ أي إلى مقرهم من النار فإن في جهنم مواضع أعد في كل موضع منها نوع من البلاء فالقوم يخرجون من محل قرارهم حيث تأجج النار ويساقون إلى موضع آخر مما دارت عليه جهنم فيه ذلك الشراب ليردوه ويسقوا منه ثم يردون إلى محلهم كما تخرج الدواب إلى مواضع الماء في البلد مثلاً لترده ثم ترد إلى محلها، وإلى هذا المعنى أشار قتادة ثم تلا قوله تعالى: ﴿هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن﴾ [الرحمن: ٤٣، ٤٤] ويؤيده قراءة ابن مسعود «ثم إن منقلبهم» إذ الانقلاب أظهر في الرد أو المراد ثم إن مرجعهم إلى دركات الجحيم فهو يرددون في الجحيم من مكان إلى آخر أدنى منه، وقيل: إن الشراب يقدم إليهم قبل دخول النار فيشربون ويصيرون إلى الجحيم، وهذا يحتاج إلى توقيف وإلا فهو خلاف الظاهر، وكأن بين خروج القوم للشرب وعودهم إلى مساكنهم زماناً غير يسير يتجرعون فيه ذلك الشراب ولذا جيء بثم، وهذا الشراب في مقابلة ما لأهل الجنة من الشراب المدلول عليه بقوله تعالى: ﴿يطاف عليهم بكأس من معين بيضاء لذة للشاربين﴾ [الصافات: ٤٥، ٤٦] الخ كما أن الزقوم في مقابلة ما لهم من الفواكه.

وقد جاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لو أن قطرة من زقوم جهنم أنزلت إلى الأرض لأفسدت على الناس معايشهم أخرجه ابن أبي شيبة فكيف بمن هو طعامه وشرابه الغساق والصديد مع الحميم، نسأل الله تعالى رضاه والجنة ونعوذ به عز وجل من غضبه والنار، وقوله سبحانه:

﴿**إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ * فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ**﴾ تعليل لاستحقاقهم ما ذكر من فنون العذاب بتقليد الآباء في أصول الدين من غير أن يكون لهم ولا لآبائهم شيء يتمسك به أصلاً أي وجدوهم ضالين في نفس الأمر ليس لهم ما يصلح شبهة فضلاً عن صلاحية كونه دليلاً فهم[1] من غير أن يتدبروا أنهم على الحق أولاً مع ظهور كونهم على الباطل بأدنى تأمل، والإهراع الإسراع الشديد، وقيل: هو إسراع فيه شبه رعدة.

وفي بناء الفعل للمفعول إشارة إلى مزيد ورغبتهم في الإسراع على آثارهم كأنهم يزعجون ويحثون حثاً عليه

﴿**وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ**﴾ أي قبل هؤلاء الظالمين الذين جعلت شجرة الزقوم فتنة لهم قريش ﴿**أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ**﴾ من الأمم السابقة، وهو جواب قسم محذوف، وكذا قوله تعالى ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ**﴾ أنبياء أنذروهم سوء عاقبة ما هم عليه من الباطل، وتكرير القسم لإبراز كمال الاعتناء بتحقيق مضمون كل من الجملتين ﴿**فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ**﴾ من الهول والفظاعة لما لم يلتفتوا إلى الإنذار ولم يرفعوا إليه رأساً.

والخطاب إما لسيد المخاطبين ﷺ أو لكل من يتأتى منه مشاهدة آثارهم، وحيث كان المعنى أنهم أهلكوا إهلاكاً فظيعاً استثنى عنهم المخلصين بقوله عز وجل ﴿**إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ**﴾ أي الذين أخلصهم الله تعالى بتوفيقهم للإيمان والعمل بموجب الإنذار. وقرىء ﴿ **الْمُخْلِصِينَ** ﴾ بكسر اللام أي الذين أخلصوا دينهم لله سبحانه

---

(١) قوله: فهم من غير أن يتدبروا الخ: كذا في أصله ولعله سقط من قلمه خبر قوله فهم نحو مقلدون لهم.

وتعالى، والاستثناء على القراءتين إما منقطع إن خصص المنذرين وإما متصل أن عمم.

﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ﴾ نوع تفصيل لما أجمل فيما قبل ببيان أحوال بعض المرسلين وحسن عاقبتهم متضمن لبيان سوء عاقبة بعض المنذرين كقوم نوح عليه السلام ولبيان حسن عاقبة بعضهم الذين أخلصهم الله تعالى أو أخلصوا دينهم على القرءاتين كقوم يونس عليه السلام، وتقديم قصة نوح عليه السلام على سائر القصص غني عن البيان، ونداؤه عليه السلام يتضمن الدعاء على كفار قومه وسؤاله النجاة وطلب النصرة، واللام واقعة في جواب قسم محذوف، وكذا ما في قوله تعالى: ﴿فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ والمخصوص بالمدح فيه محذوف والفاء فصيحة أي وتالله لقد دعانا نوح حين أيس من إيمان قومه بعد أن دعاهم أحقاباً ودهوراً فلم يزدهم دعاؤه إلا فراراً ونفوراً فأجبناه أحسن الإجابة فوالله لنعم المجيبون نحن فحذف ما حذف ثقة بدلالة ما ذكر عليه، والجمع للعظمة والكبرياء وفيه من تعظيم أمر الإجابة ما فيه؛ وأخرج ابن مردويه عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: «كان النبي ﷺ إذا صلى في بيتي فمر بهذه الآية ﴿ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون﴾ قال: صدقت ربنا أنت أقرب من دعى وأقرب من بغى فنعم المدعو ونعم المعطي ونعم المسؤول ونعم المولى أنت ربنا ونعم النصير».

﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ من الغرق على ما روي عن السدي، وقيل: أذى قومه ولا مانع من الجمع، والكرب على ما قال الراغب: الغم الشديد، وأصل ذلك من كرب الأرض وهو قلبها بالحفر فالغم يثير النفس إثارة ذلك، ويصح أن يكون من كربت الشمس إذا دنت للمغيب وقولهم إناء كربان نحو قربان أي قريب من الملء أو من الكرب وهو عقد غليظ في رشاء الدلو، وقد يوصف الغم بأنه عقدة على القلب.

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ فحسب حيث أهلكنا الكفرة بموجب دعائه ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾ [نوح: ٢٦] وقد روي أنه مات كل من في السفينة ولم يعقبوا عقباً باقياً غير أبنائه الثلاث سام وحام ويافث وأزواجهم فإنهم بقوا متناسلين إلى يوم القيامة.

أخرج الترمذي وحسنة وابن سعد وأحمد وأبو يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه عن سمرة أن النبي ﷺ قال: «سام أبو العرب وحام أبو الحبش ويافث أبو الروم» وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه، نعم أخرج البزار وابن أبي حاتم والخطيب في تالي التلخيص عنه قال: «قال رسول الله ﷺ ولد نوح ثلاثة: سام وحام ويافث فولد سام العرب وفارس والروم والخير فيهم وولد يافث يأجوج ومأجوج والترك والصقالبة ولا خير فيهم وولد حام القبط والسودان» ولا أعرف حال الخبر، والأكثرون على أن الناس كلهم في مشارق الأرض ومغاربها من ذرية نوح عليه السلام ولذا قيل له آدم الثاني. وإن صح أن لكنعان المغرق ولداً في السفينة لا يبعد إدراجه في الذرية فلا يقتصر على الأولاد الثلاثة، وعلى كون الناس كلهم من ذريته عليه السلام استدل بعضهم بالآية. وقالت فرقة: أبقى الله تعالى ذرية نوح عليه السلام ومد في نسله وليس الناس منحصرين في نسله بل من الأمم من لا يرجع إليه حكاه في البحر، وكأن هذه الفرقة لا تقول بعموم الغرق، ونوح عليه السلام إنما دعا على الكفار وهو لم يرسل إلى أهل الأرض كافة فإن عموم البعثة ابتداء من خواص خاتم المرسلين ﷺ ووصول خبر دعوته وهو في جزيرة العرب إلى جميع الأقطار كقطر الصين وغيره غير معلوم.

والحصر في الآية بالنسبة إلى من في السفينة ممن عدا أولاده وأزواجهم فكأنه قيل: وجعلنا ذريته هم الباقين لا ذرية من معه في السفينة وهو لا يستلزم عدم بقاء ذرية من لم يكن معه وكان في بعض الأقطار الشاسعة التي لم تصل إليها الدعوة ولم يستوجب أهلها الغرق كأهل الصين فيما يزعمون، ويجوز أن تكون قائلة بالعموم وتجعل الحصر

بالنسبة إلى المغرقين وتلتزم القول بأنه لم يبق عقب لأحد من أهل السفينة هو من ذرية أحد من المغرقين أي وجعلنا ذريته هم الباقين لا ذرية أحد غيره من المغرقين، وولد كنعان إن صح وصح بقاء نسله دخل في ذريته والله تعالى أعلم ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخرينَ﴾ في الباقين غابر الدهر ﴿سَلاَمٌ عَلَى نُوحٍ﴾ مبتدأ وخبر وجاز الابتداء بالنكرة لما فيه من معنى الدعاء، والكلام وارد على الحكاية كقولك: قرأت ﴿سورة أنزلناها﴾ [النور: ١] وهو على ما قال الفراء وغيره من الكوفيين محكي ـ بترك ـ في موضع نصب بها أي تركنا عليه هذا الكلام بعينه.

وقال آخرون: هو محكي بقول مقدر أي تركنا عليه في الآخرين قولهم سلام على نوح، والمراد أبقينا له دعاء الناس وتسليمهم عليه أمة بعد أمة، وقيل: هذا سلام منه عز وجل لا من الآخرين، ومفعول ﴿تركنا﴾ محذوف أي تركنا عليه الثناء الحسن وأبقيناه له فيمن بعده إلى آخر الدهر، ونسب هذا إلى ابن عباس ومجاهد قتادة والسدي وجملة ﴿سلام على نوح﴾ معمول لقول مقدر على ما ذكر الخفاجي أي وقلنا سلام الخ، وقال أبو حيان: مستأنفة سلم الله تعالى عليه السلام ليقتدي بذلك البشر فلا يذكره أحد بسوء، وقرأ عبد الله «سلاماً» بالنصب على أنه مفعول ﴿تركنا﴾ وقوله تعالى: ﴿فِي الْعَالَـمِينَ﴾ متعلق بالظرف لنيابته عن عامله أو بما تعلق الظرف به. جوز كونه حالاً من الضمير المستتر فيه، وأياً ما كان فهو من تتمة الجملة السابقة وجيء به للدلالة على الاعتناء التام بشأن السلام من حيث أنه أفاد الكلام عليه ثبوته في العالمين من الملائكة والثقلين أو أنه حال كونه في العالمين على نوح. وهذا كما تقول سلام على زيد في جميع الأمكنة وفي جميع الأزمنة. وزعم بعضهم جواز جعله بدلاً من قوله تعالى ﴿في الآخرين﴾ ويوشك أن يكون غلطاً كما لا يخفى.

وقوله تعالى ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَـجْزِي الْـمُـحْسِنِينَ﴾ تعليل لما فعل به مما قصه الله عز وجل بكونه عليه السلام من زمرة المعروفين بالإحسان الراسخين فيه فيكون ما وقع من قبيل مجازاة الإحسان بالإحسان، وإحسانه مجاهدته أعداء الله تعالى بالدعوة إلى دينه والصبر الطويل على أذاهم ونحو ما ذكر وذلك إشارة إلى ما ذكر من الكرامات السنية التي وقعت جزاء له عليه السلام، وما في من معنى البعد للإيذان بعلو رتبته وبعد منزلته في الفضل والشرف، والكاف متعلقة بما بعدها أي مثل ذلك الجزاء الكامل نجزي الكاملين في الإحسان لا جزاء أدنى منه، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْـمُؤْمِنِينَ﴾ تعليل لكونه عليه السلام محسناً المفهوم من الكلام بخلوص عبوديته وكمال إيمانه، وفيه من الدلالة على جلالة قدرهما ما لا يخفى وإلا فمنصب الرسالة منصب عظيم والرسول لا ينفك عن الخلوص بالعبودية وكمال الإيمان فالمقصود بالصفة مدحها نفسها لا مدح موصوفها ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ﴾ أي المغايرين لنوح عليه السلام وأهله وهم كفار قومه أجمعين، وثم للتراخي الذكرى إذ بقاؤه عليه السلام ومن معه متأخر عن الإغراق ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ﴾ أي ممن شايع نوحاً وتابعه في أصول الدين ﴿لَإِبْرَاهِيمَ﴾ وإن اختلفت فروع شريعتيهما أو ممن شايعه في التصلب في دين الله تعالى ومصابرة المكذبين ونقل هذا عن ابن عباس، وجوز أن يكون بين شريعتيهما اتفاق كلي أو أكثري وللأكثر حكم الكل، ورأيت في بعض الكتب ولا أدري الآن أي كتاب هو أن نوحاً عليه السلام لم يرسل إلا بالتوحيد ونحوه من أصول العقائد ولم يرسل بفروع، قيل: وكان بين إبراهيم وبينه عليهما السلام نبيان هود وصالح لا غير، ولعله أريد بالنبي الرسول لا ما هو أعم منه، وهذا بناء على أن ساماً كان نبياً وكان بينهما على ما في جامع الأصول ألف سنة ومائة واثنتان وأربعون سنة، وقيل ألفان وستمائة وأربعون سنة.

وذهب الفراء إلى أن ضمير ﴿شيعته﴾ لنبينا محمد ﷺ، والظاهر ما أشرنا إليه وهو المروي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي وقلما يقال للمتقدم هو شيعة للمتأخر، ومنه قول الكميت الأصغر بن زيد:

وما لي إلا آل أحمد شيعة وما لي إلا مشعب الحق مشعب

وذكر قصة إبراهيم عليه السلام بعد قصة نوح لأنه كآدم الثالث بالنسبة إلى الأنبياء والمرسلين بعده لأنهم من ذريته إلا لوطاً وهو بمنزلة ولده عليهما السلام، ويزيد حسن الإرداف أن نوحاً نجاه الله تعالى من الغرق وإبراهيم نجاه الله تعالى من الحرق ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ﴾ منصوب بأذكر كما هو المعهود في نظائره، وجوز تعلقه بفعل مقدر يدل عليه قوله تعالى: ﴿وإن من شيعته﴾ كأنه قيل: متى شايعه؟ فقيل: شايعه إذ جاء ربه، وقيل: هو متعلق بشيعة لما فيه من معنى المشايعة. ورد بأنه يلزم عمل ما قبل لام الابتداء فيما بعدها وهم لا يجوزون ذلك للصدارة فلا يقال: إن ضارباً لقادم علينا زيداً، وكذا يلزم الفصل بين العامل والمعمول بأجنبي وهو لا يجوز.

وأجيب بأنه لا مانع من كل إذا كان المعمول ظرفاً لتوسعهم فيه ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أي سالم من جميع الآفات كفساد العقائد والنيات السيئة والصفات القبيحة كالحسد والغل وغير ذلك، وعن قتادة تخصيص السلامة بالسلامة من الشرك، والتعميم الذي ذكرناه أولى أو سالم من العلائق الدنيوية بمعنى أنه ليس فيه شيء من محبتها والركون إليها وإلى أهلها، وقيل سليم أي حزين وهو مجاز من السليم بمعنى اللديغ من حية أو عقرب فإن العرب تسميه سليماً تفاؤلاً بسلامته وصار حقيقة فيه، وما تقدم أنسب بالمقام، والباء قيل للتعدية. والمراد بمجيئه ربه بقلبه اخلاصه قلبه له تعالى على سبيل الاستعارة التبعية التصريحية، ومبناها تشبيه اخلاصه قلبه له عز وجل بمجيئه إليه تعالى بتحفة في أنه سبب للفوز بالرضا، ويكتفي بامتناع الحقيقة مع كون المقام مقام المدح قرينة، فحاصل معنى التركيب إذ أخلص عليه السلام لله تعالى قلبه السليم من الآفات أو المنقطع عن العلائق أو الحزين المنكسر. وتعقب بأن سلامة القلب عن الآفات لا تكون بدون الإخلاص وكذا الانقطاع عن العلائق لا يكون بدونه. وأجيب بأنهما قد يكونان بدون ذلك كما في القلوب البله. وفي المطلع معنى مجيئه ربه بقلبه أنه أخلص قلبه لله تعالى وعلم سبحانه ذلك منه كما يعلم الغائب وأحواله بمجيئه وحضوره فضرب المجيء مثلاً لذلك اهـ، وجعل في الكلام عليه استعارة تمثيلية بأن تشبه الهيئة المنتزعة من اخلاص إبراهيم عليه السلام قلبه لربه تعالى وعلمه سبحانه ذلك الإخلاص منه موجوداً بالهيئة المنتزعة من المجيء بالغائب بمحضر شخص ومعرفته إياه وعلمه بأحواله ثم يستعار ما يستعار، ولتأدية هذا المعنى عدل عن جاء ربه سليم القلب إلى ما في النظم الجليل، وقيل الباء للملابسة ولعله المتبادر، والمراد بمجيئه ربه حلوله في مقام الامتثال ونحوه، وذكر أن نكتة العدول عما سمعت إلى ما في النظم سلامته من توهم أن الحال منتقلة لما أن الانتقال أغلب حاليها مع أنه أظهر في أن سلامة القلب كانت له عليه السلام قبل المجيء أيضاً فليتدبر.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ بدل من إذ الأولى أو ظرف لجاء أو لسليم أي أي شيء تعبدون؟.

﴿أَئِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ أي أتريدون آلهة من دون الله تعالى إفكاً أي للإفك فقدم المفعول به على الفعل للعناية لأن إنكاره أو التقرير به هو المقصود وفيه رعاية الفاصلة أيضاً ثم المفعول لأجله لأن الأهم مكافحتهم بأنهم على إفك وباطل في شركهم.

ويجوز أن يكون ﴿إفكاً﴾ مفعولاً به بمعنى أتريدون ﴿إفكاً﴾ وتكون آلهة بدلاً منه بدل كل من كل، وجعلها عين الإفك على المبالغة أو الكلام على تقدير مضاف أي عبادة آلهة وهي صرف للعبادة عن وجهها. وجوز كونه حالاً من ضمير تريدون أي أفاكين أو مفعوله أي مأفوكة. وتعقب بأن جعل المصدر حالاً لا يطرد إلا مع أما نحو أما علماً فعالم ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أيْ أيّ شيء ظنكم بمن هو حقيق بالعبادة لكونه رباً للعالمين أشككتم فيه حتى تركتم عبادته سبحانه بالكلية أو أعلمتم أي شيء هو حتى جعلتم الأصنام شركاءه سبحانه وتعالى أو أي شيء ظنكم

بعقابه عز وجل حتى اجترأتم على الإفك عليه تعالى ولم تخافوا، وكان قومه عليه السلام يعظمون الكواكب المعروفة ويعتقدون السعود والنحوس والخير والشر في العالم منها ويتخذون لكل كوكب منها هيكلاً ويجعلون فيها أصناماً تناسب ذلك الكوكب بزعمهم ويجعلون عبادتها وتعظيمها ذريعة إلى عبادة تلك الكواكب واستنزال روحانياتها وكانوا يستدلون بأوضاعها على الحوادث الكونية عامة أو خاصة فاتفق أنّ دنا يوم عيد لهم يخرجون فيه فأرسل ملكهم إلى إبراهيم عليه السلام أنْ غداً عيدنا فاحضر معنا فاستشعر حصول الفرصة لحصول ما عسى أن يكون سبباً لتوحيدهم فأراد أن يعتذر عن الحضور على وجه لا ينكرونه عليه ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ أي فتأمل نوعاً من التأمل في أحوالها وهو في نفس الأمر على طرز تأمل الكاملين في خلق السماوات والأرض وتفكرهم في ذلك إذ هو اللائق به عليه السلام لكنه أوهمهم أنه تفكر في أحوالها من الاتصال والتقابل ونحوهما من الأوضاع التي تدل بزعمهم على الحوادث ليرتب عليه ما يتوصل به الى غرضه الذي يكون وسيلة الى إنقاذهم مما هم فيه، والظاهر بعد اعتبار الايهام أنه إيهام التفكر في احكام طالع ولادته عليه السلام وما يدل عليه بزعمهم ما تجدد له من الأوضاع في ذلك الوقت، وهذا من معاريض الأفعال نظير ما وقع في قصة يوسف عليه السلام من تفتيش أوعية اخوته بني علاته قبل وعاء شقيقه فإن المفتش بدأ بأوعيتهم مع علمه أن الصاع ليس فيها وأخر تفتيش وعاء أخيه مع علمه بأنه فيها تعريضاً بأنه لا يعرف في أي وعاء هو ونفياً للتهمة عنه لو بدأ بوعاء الأخ ﴿فَقَالَ﴾ أي لهم ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أراد أنه سيسقم ولقد صدق عليه السلام فإن كل إنسان لا بد أن يسقم وكفى باعتلال المزاج أول سريان الموت في البدن سقاماً، وقيل أراد مستعد للسقم الآن أو خارج المزاج عن الاعتدال خروجاً قل من يخلو عنه أو سقيم القلب لكفركم والقوم توهموا أنه أراد قرب اتصافه بسقم لا يستطيع معه الخروج معهم إلى معيدهم، وهو على ما روي عن سفيان وابن جبير سقم الطاعون فإنهما فسرا ﴿سقيم﴾ بمطعون وكان كما قيل أغلب الأسقام عليهم وكانوا شديدي الخوف منه لاعتقادهم العدوى فيه، وهذا وكذا قوله عليه السلام ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾ [الأنبياء: ٦٣] وقوله في زوجته سارة هي أختي من معاريض الأقوال كقول نبينا ﷺ لمن قال له في طريق الهجرة: ممن الرجل؟ من ماء حيث أراد عليه الصلاة والسلام ذكر مبدأ خلقه ففهم السائل أنه بيان قبيلته وكقول صاحبه الصديق وقد سئل عنه عليه الصلاة والسلام في ذاك أيضاً: هو هاد يهديني حيث أراد شيئاً وفهم السائل آخر ولا يعد ذلك كذباً في الحقيقة.

وتسميته به في بعض الأحاديث الصحيحة بالنظر لما فهم الغير منه لا بالنسبة إلى ما قصده المتكلم وجعله ذنباً في حديث الشفاعة قيل لأنه ينكشف لإبراهيم عليه السلام أنه كان منه خلاف الأولى لا أن كل تعريض هو كذلك فإنه قد يجب والإمام لضيق محرابه ومجاله ينكر الحديث الوارد في ذلك وهو في الصحيحين ويقول: إسناد الكذب إلى راويه أهون من إسناده إلى الخليل عليه السلام، وقد مر الكلام في ذلك، وقيل: كانت له عليه السلام حمى لها نوبة معينة في بعض ساعات الليل فنظر ليعرف هل هي تلك الساعة فإذا هي قد حضرت فقال لهم أبي سقيم، وليس بشيء من ذلك من المعاريض، ونحوه ما أخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم قال: أرسل إليه عليه السلام ملكهم فقال: إن غداً عيدنا فاخرج معنا فنظر إلى نجم فقال: إن ذا النجم لم يطلع قط إلا طلع بسقم لي.

وأنت تعلم أن النظر المعدى بفي بمعنى التأمل والتفكر والنظر المشار إليه لا يحتاج إلى تفكر، وعن أبي مسلم أن المعنى نظر وتفكر في النجوم ليستدل بأحوالها على حدوثها وأنها لا تصلح أن تكون آلهة فقال: إني سقيم أي سقيم النظر حيث لم يحصل له كمال اليقين انتهى، وهذا لعمري يسلب فيما أرى عن أبي مسلم الإسلام وفيه من الجهل بمقام الأنبياء لا سيما الخليل عليه وعليهم السلام ما يدل على سقم نظره نعوذ بالله تعالى من خذلانه ومكره.

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة أن ﴿**نظر نظرة في النجوم**﴾ كلمة من كلام العرب تقول إذا تفكر الشخص: نظر في النجوم وعليه فليس هو من المعاريض بل قوله ﴿**إني سقيم**﴾ فقط منها وهذا إن أيده نقل من أهل اللغة حسن جداً، وقيل: المعنى نظر في أحوال النجوم أو في علمها أو في كتبها وأحكامها ليستدل على ما يحدث له والنظر فيها للاستدلال على بعض الأمور ليس بممنوع شرعاً إذا كان باعتقاد إن الله تعالى جعلها علامة عليه والممنوع الاستدلال باعتقاد أنها مؤثرة بنفسها والجزم بكلية أحكامها، وقد ذكر الكرماني في مناسكه على ما قال الخفاجي أن النبي ﷺ قال لرجل أراد السفر في آخر الشهر أتريد أن تخسر صفقتك ويخيب سعيك اصبر حتى يهل الهلال انتهى.

وهذا البحث من أهم المباحث فإنه لم يزل معترك العلماء والفلاسفة الحكماء، وقد وعدنا بتحقيق الحق فيه وبيان كدره وصافيه فنقول وبالله تعالى التوفيق إلى سلوك أقوم طريق:

اعلم أن بعض الناس أنكروا أن يكون للكواكب تأثير في هذا العالم غير وجود الضياء في المواضع التي تطلع عليها الشمس والقمر وعدمه فيما غابا عنه وما جرى هذا المجرى، وهذا خروج عن الإنصاف وسلوك في مسالك الجور والاعتساف، وبعضهم قالوا: إن لها تأثيراً ما يجري على الأمر الطبيعي مثل أن يكون البلد القليل العرض ذا مزاج مائل عن الاعتدال إلى الحر واليبس وكذا مزاج أهله وتكون أجسامهم ضعيفة وألوانهم سود وصفر كالنوبة والحبشة، وأن يكون البلد الكثير العرض ذا مزاج مائل عن الاعتدال إلى البرد والرطوبة وكذا مزاج أهله وتكون أجسامهم عبلة وألوانهم بيض وشعورهم شقر مثل الترك والصقالبة، ومثل نمو النبات واشتداده ونضج ثمره بالشمس والقمر ونحو ذلك مما يدرك بالحس، ولا بأس في نسبته إلى الكوكب على معنى أن الله تعالى أودع فيه قوة مؤثرة فأثر بإذن الله تعالى كما ينسب الإحراق إلى النار والري إلى الماء مثلاً على معنى ذلك وهو مذهب السلف على ما قال الشيخ إبراهيم الكوراني في جميع الأسباب والمسببات وصرح به بعض الماتريدية، أو على معنى أن الله تعالى خلق ذلك عنده وليس فيه قوة مؤثرة مطلقاً على ما يقوله الأشاعرة في كل سبب ومسبب فلا فرق بين الماء والنار مثلاً عندهم في أنه ليس في كل قوة يترتب عليها ما يترتب وإنما الفرق في أنه جرت عادة الله تعالى بأن يخلق الإحراق دون الري عند النار دون الماء ويخلق الري دون الإحراق عند الماء دون النار وليس للنار والماء مدخل في الأثر من الإحراق والري سوى أن كلاً مقارن لخلق الله تعالى الأثر بلا واسطة.

وظواهر الأدلة مع الأولين ولا ينافي مذهبهم توحيد الأفعال وأن عز وجل خالق كل شيء كما حقق في موضعه.

وبعضهم زعم أن لها تأثيراً يعرفه المنجم غير ذلك كالسعادة والنحوسة وطول العمر وقصره وسعة العيش وضيقه إلى غير ذلك مما لا يخفى على من راجع كتب أحكام طوالع المواليد وطوالع السنين والكسوف والخسوف والأعمال ونحوها، وهو مما لا ينبغي أن يعول عليه أو يلتفت إليه فليس له دليل عقلي أو نقلي بل الأدلة قائمة على بطلانه متكفلة بهدم أركانه، والقائلون به بعد اتفاقهم على أن الخير والشر والإعطاء والمنع وما أشبه ذلك يكون في العالم بالكواكب على حسب السعود والنحوس وكونها في البروج المنافرة لها أو الموافقة وحسب نظر بعضها إلى بعض بالتسديس والتربيع والتثليث والمقابلة وحسب كونها في شرفها وهبوطها ووبالها ورجعتها واستقامتها وإقامتها اختلفوا في كثير من الأصول وتكلموا بكلام يضحك منه أرباب العقول، وذلك أنهم اختلفوا في أنه على أي وجه يكون ذلك؟ فزعم قوم منهم أن فعلها بطبائعها، وزعم آخرون أن ذلك ليس فعلاً لها لكنها تدل عليه بطبائعها، وزعم آخرون أنها تفعل في البعض بالعرض وفي البعض بالذات، وزعم آخرون أنها تفعل بالاختيار لا بالطبع إلا أن السعد منها لا يختار إلا الخير والنحس لا يختار إلا الشر وهذا مع قولهم إنها قد تتفق على الخير وقد تتفق على الشر مما يتعجب منه، وزعم آخرون أنها لا تفعل بالاختيار بل تدل به وهو كلام لا يعقل معناه.

واختلفوا أيضاً فقالت فرقة: من الكواكب ما هو سعد ومنها ما هو نحس وهي تسعد غيرها وتنحسه. وقالت أخرى: هي في أنفسها طبيعة واحدة وإنما تختلف دلالتها على السعود والنحوس، وهذا قول من يقول منهم إن للفلك طبيعة مخالفة لطبيعة الاستقصات الكائنة الفاسدة وأنها لا حارة ولا باردة ولا يابسة ولا رطبة ولا سعد ولا نحس فيها وإنما يدل بعض أجرامها وبعض أجزائها على الخير والبعض على الشر وارتباط الخير والشر والسعد والنحس بها ارتباط المدلولات بأدلتها لا ارتباط المعلولات بعللها وهو أعقل من أصحاب القول بالاقتضاء الطبيعي والعلية وإن كان قوله أيضاً عند بعض الأجلة ليس بشيء لأن الدلالة الحسية لا تختلف ولا تتناقض.

واختلفوا أيضاً فقالت فرقة تفعل في الأبدان والأنفس جميعاً وهو قول بطليموس وأتباعه، وقال الأكثرون: تفعل في الأنفس دون الأبدان، ولعل الخلاف لفظي، واختلف رؤساؤهم بطليموس ودوروسوس وأنطيقوس وريمس وغيرهم من علماء الروم والهند وبابل في الحدود وغيرها وتضادوا في المواضع التي يأخذون منها دليلهم، ومن ذلك اختلافهم في أمر سهم السعادة فزعم بطليموس أنه يعلم بأن يؤخذ أبداً العدد الذي يحصل من موضع الشمس إلى موضع القمر ويبتدىء من الطالع فيرصد منه مثل ذلك العدد على التوالي فمنتهى العدد موضع السهم، وزعم بعضهم أنه يبتدىء من الطالع فيعد مثل ذلك على خلاف التوالي، وزعم بعض الفرس أن سهم السعادة يؤخذ بالليل من القمر إلى الشمس وبالنهار من الشمس إلى القمر، وزعم أهل مصر في الحدود أنها تؤخذ من أرباب البيوت وزعم الكلدانيون أنها تؤخذ من مدبري المثلثات، واختلفوا أيضاً فرتبت طائفة البروج المذكرة والمؤنثة من الطالع فعدوا واحداً مذكراً وآخر مؤنثاً وصبروا الابتداء بالمذكر، وقسمت طائفة أخرى البروج أربعة أجزاء وجعلوا المذكرة هي التي من الطالع إلى وسط السماء والتي تقابلها من الغارب إلى وتد الأرض وجعلوا الربعين الباقيين مؤنثين، ومما يضحك العقلاء أنهم جعلوا البروج قسمين حار المزاج وبارده وجعلوا الحار منها ذكراً والبارد أنثى وابتدؤوا بالحمل فقالوا: هو ذكر حار والذي بعده مؤنث بارد وهكذا إلى آخرها فصارت ستة ذكوراً وستة إناثاً.

وقال بعضهم: الأول ذكر والثلاثة بعده إناث والخامس ذكر والثلاثة بعده إناث والتاسع ذكر وما بعده إناث فالذكور ثلاثة وبعد كل ذكر إناث ثلاث مخالفة له في الطبيعة، ثم إن هذه القسمة للمذكر والمؤنث ذاتية للبروج ولها قسمة ثانية بالعرض وهي أنهم يبدؤون من الطالع إلى الثاني عشر فيأخذون واحداً ذكراً وآخر أنثى.

وبعضهم يقول هي أربعة أقسام فمن وتد المشرق إلى وتد العاشر ذكر شرقي مجفف سريع، ومن وتد العاشر إلى وتد الغارب مؤنث جنوبي محرق وسط، ومن وتد الغارب إلى وتد الرابع ذكر معتل رطب غربي بطيء، ومن وتد الرابع إلى الطالع مؤنث ذليل مبرد شمالي وسط، وبعض الأوائل منهم لم يقتصر على ذلك بل ابتدأ بالدرجة الأولى من الحمل فقال هي ذكر والدرجة الثانية أنثى وهكذا إلى آخر الحوت، ولبطليموس هذيان آخر فإنه ابتدأ بأول درجة كل برج ذكر فنسب منها إلى تمام اثنتي عشرة درجة ونصف إلى الذكورية ومنه إلى تمام خمس وعشرين درجة إلى الأنوثية ثم قسم باقي البروج إلى قسمين فنسب النصف الأول إلى الذكر والآخر إلى الأنثى وفعل مثل ذلك في كل برج أنثى، ولدوروسوس هذيان آخر أيضاً فإنه يقسم البروج كل برج ثمانية وخمسين دقيقة ومائة وخمسين دقيقة ثم ينظر إلى الطالع فإن كان برجاً ذكراً أعطى القسمة الأولى للذكر ثم الثانية للأنثى إلى أن يأتي على البروج كلها وإن كان أنثى أعطى القسمة الأولى للأنثى ثم الثانية للذكر إلى أن يأتي على آخرها، وما لهم في شيء من ذلك دليل مع أن قولهم ببساطة الفلك يأبى اختلاف أجزائه بالحرارة والبرودة والذكورة والأنوثة، ومثل هذيانهم في قسمة الأجزاء الفلكية إلى ما ذكر قسمتهم الكواكب إلى ذلك فزعموا أن القمر والزهرة مؤنثان وأن الشمس وزحل والمشتري والمريخ مذكرة وإن

عطارد ذكر أنثى وأن سائر الكواكب تذكر وتؤنث بسبب الأشكال التي تكون لها بالقياس إلى الشمس وذلك أنها إذا كانت مشرقة متقدمة على الشمس فهي مذكرة وإن كانت مغربة تابعة كانت مؤنثة وإن ذلك يكون لها بالقياس إلى أشكالها من الأفق، وذلك أنها إذا كانت في الأشكال التي من المشرق إلى وسط السماء مما تحت الأرض فهي مذكرة وإذا كانت في الربعين الباقيين فهي مؤنثة، ويلزم عليه انقلاب المذكر مؤنثاً والمؤنث مذكراً.

وأجاب بعضهم عن هذا الهذيان أنه لا مانع من اتصاف شيء بأمر بالقياس إلى شيء وبضده بالقياس إلى آخر وهو في نفسه غير متصف بشيء منهما كالأدكن فإنه يقال فيه أبيض بالقياس إلى الأسود وأسود بالقياس إلى الأبيض وهو في نفسه لا أسود ولا أبيض فكذا الكواكب يقال إنها ذكران وإناث بالقياس إلى الأشكال أعني الجهات والجهات إلى الرياح كالصبا والدبور والرياح إلى الكيفيات لا أنها ذكران وإناث في أنفسها، وهو تلبيس فإن الأدكن فيه شائبة بياض وسواد فمقتضى التشبيه يلزم أن يكون في الكوكب شائبة ذكورة وأنوثة، وأيضاً الظاهر أن الانقسام المذكور بحسب الطبيعة والتأثير والتأثر ولا يكاد يعرف انقلاب الحقيقة والطبيعة بحسب الموضع والقرب والبعد، ومنه يعلم فساد ما قالوا: إن القمر من أول ما يهل إلى وقت انتصافه الأول في الضوء يكون فاعلاً للرطوبة خاصة ومن ذلك إلى وقت الامتلاء يكون فاعلاً للحرارة ومنه إلى وقت الانتصاف الثاني في الضوء يكون فاعلاً لليبس ومن ذلك إلى وقت خفائه يكون فاعلاً للبرودة وقاسوا ذلك على تأثيرات الشمس في الفصول والفرق مثل الشمس ظاهر، ويلزم عليه كون الشهر الواحد ذا فصول والحس يدفعه، وأيضاً كلامهم هذا يخالف ما قالوه من أن قوة القمر الترطيب لقرب فلكه من الأرض وقبوله للبخارات الرطبة التي ترتفع منها إليه، ثم إن هذا القول باطل في نفسه لما أنه يلزم عليه ازدياد رطوبة القمر في كل يوم لو سلم تصاعد البخارات الرطبة إليه وتأثره منها، كذا القول بأن قوة زحل أن يبرد ويجفف تجفيفاً يسيراً لبعده عن حرارة الشمس والبخارات الرطبة، وإن قوة المريخ مجففة محرقة لمشاكلة لونه لون النار ولقربه من الشمس، وكوكب الدب الأكبر كالمريخ، وإن عطارداً معتدل في التجفيف والترطيب لأنه لا يبعد عن الشمس بعداً كثيراً ولا وضعه فوق كرة القمر. ومن العجائب استدلال فضلائهم على اختلاف طبائع الكواكب باختلاف ألوانها حيث قالوا: لما كان لون زحل الغبرة والكمودة حكمنا بأنه على طبع السوداء وهو البرد واليبس فإن لها من الألوان الغبرة، ولما كان لون المريخ كلون النار قلنا طبعه حار يابس والحرارة واليبس في الشمس ظاهرتان، ولما كان لون الزهرة كالمركب من البياض والصفرة والبياض أظهر فيها قلنا طبعها البرودة والرطوبة كالبلغم، ولما كان صفرة المشتري أكثر مما في الزهرة كانت سخونته أكثر من سخونة الزهرة وكان في غاية الاعتدال، وأما القمر فهو أبيض وفيه كمودة فيدل بياضه على البرودة.

وأما عطارد فتختلف ألوانه فربما رأيناه أخضر وربما رأيناه أغبر وربما رأيناه على خلاف هذين اللونين وذلك في أوقات مختلفة مع كونه من الأفق على ارتفاع واحد فلا جرم يكون له طبائع مختلفة إلا أنا لما وجدناه في الأغلب أغبر كالأرض قلنا هو مثلها في الطبع، ويرد عليه أن المشاركة في بعض الصفات لا تقتضي المشاركة في الطبيعة ولا في صفة أخرى، وأن دلالة مجرد اللون على الطبيعة ضعيفة جداً لاشتراك الكثير في لون مع اختلاف الطبائع، وأيضاً الزرقة أظهر في الزهرة واختلاف ألوان عطارد لأنّا نراه قريب الأفق فيكون بيننا وبينه بخارات مختلفة، وقال أبو معشر: إن القمر لا ينسب لونه إلى البياض إلا من عدم قوة الحس البصري وفيه بعد ما فيه ولو سلم جميع ما قالوه من اختلاف طبائع البروج والكواكب بالحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة فقصارى ما يترتب على ذلك ما نجده من اختلاف الأقاليم حرارة وبرودة مثلاً واختلاف أشجارها وأثمارها واختلاف أجسام أهلها وألوانهم واختلاف حيواناتها إلى غير

ذلك من الاختلافات، ومع هذا نقول: إن الكواكب جزء السبب في ذلك لكن من أين لهم القول بأن جميع الحوادث في هذا العالم خيرها وشرها وصلاحها وفسادها وجميع أشخاصه وأنواعه وصوره وقواه ومدد بقاء أشخاصه وجميع أحوالها العارضة لها وتكوّن الجنين ومدة لبثه في بطن أمه وخروجه إلى الدنيا وعمره ورزقه وشقاوته وحسنه وقبحه وأخلاقه وحذقه وبلادته وجهله وعلمه إلى ما لا يحصى من أحواله وانقسام الحيوان إلى الطير وأصنافه وإلى الحيوان البحري وأنواعه والبري وأقسامه واختلاف صور الحيوانات وأفعالها وأخلاقها وثبوت العداوة بين أفراد نوع وأفراد نوع آخر منها كالذئاب والغنم وثبوت الصداقة كذلك وكذا ثبوت العداوة أو الصداقة بين أفراد النوع الواحد إلى غير ذلك مما يكون في العالم لا يكون إلا بتأثير الكواكب وهو مما لا يكاد يصح لأن طريق صحته إما الخبر الصادق أو الحس الذي يشترك فيه الناس أو ضرورة العقل أو نظره وشيء من هذا كله غير موجود، ولا يمكن الأحكاميين أن يدعوا واحداً من الثلاثة الأول وغايتهم أن يدعوا أن التجربة قادتهم إلى ذلك، ولا شك أن أقل ما لا بد منه فيها أن يحصل ذلك الشيء على حالة واحدة مرتين والوضع المعين لمجموع الكواكب لا يتكرر أصلاً أو يتكرر بعد ألوف ألوف من السنين وعمر الإنسان الواحد بل عمر البشر لا تفي به. وزعم بعضهم لذلك أن مجموع الاتصالات ونسب الكواكب بعضها إلى بعض غير شرط في التأثير لتتوقف التجربة على تكراره بل يكفي بعض الاتصالات وقد يكفي واحد منها وذلك يتكرر في أزمنة قليلة فتتأتى التجربة، مثلاً رداءة السفر وقد نزل القمر برج العقرب يستند إلى هذا النزول بالتجربة فإنا وجدنا تكرر ذلك وترتب الرداءة عليه كل مرة وهذا هو التجربة وكذا يقال في نظائره، وأنت تعلم أن التجارب التي دلت على كذب ما يقولون بوقوع خلافه أضعاف التجارب التي دلت على صدقه، فقد أجمع حذّاقهم سنة سبع وثلاثين عام خروج علي كرم الله تعالى وجهه إلى صفين على أنه يقتل ويقهر جيشه فانتصر على أهل الشام ولم يقدروا على التخلص إلا بالحيلة، وإن لم يسلم هذا الاجماع فإجماعهم على مثل في خروجه كرم الله تعالى وجهه لحرب الخوارج حيث كان القمر في العقرب وقوله رضي الله تعالى عنه: نخرج ثقة بالله تعالى وتوكلاً عليه سبحانه وتكذيباً لقول المنجم، ونصرته الخارجة عن القياس مما شاع وذاع ولو قيل بتواتره لم يبعد، وأجمعوا سنة ست وستين على غلبة عبيد الله بن زياد وقد سار بنحو من ثمانين ألف مقاتل على المختار بن أبي عبيد فلقيه إبراهيم بن الأشتر صاحب المختار بأرض نصيبين فيما دون سبعة آلاف مقاتل فقتل من عسكره نحواً من ثلاثة وسبعين ألفاً وضربه وهو لا يعرفه فقتله ولم يقتل من أصحابه أكثر من مائة.

وأجمعوا يوم أسست بغداد سنة ست وأربعين ومائة على أن طالعها يقضي بأنه لا يموت فيها خليفة وشاع ذلك حتى قال بعض شعراء المنصور مهنئاً له:

يهنيك منها بلدة تقضى لنا ... ان الممات بها عليك حرام
لما قضت أحكام طالع وقتها ... أن لا يرى فيها يموت إمام

فأول ما ظهر كذب ذلك بقتل الأمين بشارع باب الأنبار فقال بعض الشعراء:

كذب المنجم في مقالته التي ... كان ادعاها في بنا بغدان
قتل الأمين بها لعمري يقتضي ... تكذيبهم في سائر الحسبان

ثم مات فيها جماعة من الخلفاء كالواثق والمتوكل والمعتضد والناصر وغيرهم إلى أمور أخر لا تكاد تحصى أجمعوا فيها على حكم وتبين كذبهم فيه، على أنه قد يقال لهم: المؤثر في السعود والنحوس ونحوهما هل هو الكوكب وحده أو البرج وحده أو الكوكب بشرط حصوله في البرج؟ فإن قالوا بأحد الأمرين الأولين لزمهم دوام الأثر

لدوام المؤثر، وإن قالوا بالثالث لزمهم القول باختلاف البروج في الطبيعة وإلا لاتحدت آثار الكوكب فيها وكلهم مجموعون على أن الفلك بسيط لا تركيب فيه، والتزام التركيب من طبائع مختلفة ينافي قولهم بامتناع الانحلال. وزعم بعضهم أنها تفعل ما تفعل بالاختيار يستدعي إلغاء أمر الاتصال والانفصال والمقارنة والهبوط ونحو ذلك؛ وكون ما ذكر شرطاً للاختيار لا يخفى حاله، والقول بأنها تستدعي من حيث طبيعة أشعتها التسخين والتبريد وهما يوجبان اختلاف أمزجة الأبدان واختلافها يوجب اختلاف أفعال النفس يرد عليه أنا نرى التسخين مثلاً يقتضي حرارة وحدة في المزاج يفعل بها شخص غاية الخير والأفعال الحميدة وآخر غاية الشر والأفعال الخبيثة فلا بد لهذا الاختلاف من موجب غير التسخين، وأيضاً هم يقولون: جميع الحوادث الكونية مستند إلى الكواكب وحديث التسخين والتبريد واستلزامهما اختلاف أفعال النفس لا يتم به هذا الغرض، وذكر الإمام الرازي عليه الرحمة أن المثبتين لعلم الأحكام والتأثيرات أي من الإسلاميين احتجوا من كتاب الله تعالى بآيات وهي أنواع، الأول الآيات الدالة على تعظيم الكواكب فمنها قوله تعالى ﴿فلا أقسم بالخنس الجواري الكنس﴾ [التكوير: ١٥، ١٦] وأكثر المفسرين على أن المراد هو الكواكب التي تصير راجعة تارة ومستقيمة أخرى، ومنها قوله تعالى ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾ [الواقعة: ٧٥، ٧٦] وقد صرح سبحانه بتعظيم هذا القسم وذلك يدل على غاية جلالة مواقع النجوم ونهاية شرفها، ومنها قوله تعالى ﴿والسماء والطارق وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب﴾ [الطارق: ١، ٣] قال ابن عباس: الثاقب هو زحل لأنه يثقب بنوره سمك السماوات السبع، ومنها قوله تعالى ﴿والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾ [الأعراف: ٥٤] فقد بيَّن سبحانه إلهيته بكون هذه الكواكب تحت تدبيره وتسخيره، النوع الثاني ما يدل على وصفه تعالى بعض الأيام بالنجوسة كقوله سبحانه ﴿فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات﴾ [فصلت: ١٦] النوع الثالث الآيات الدالة على أن لها تأثيراً في هذا العالم كقوله تعالى ﴿فالمدبرات أمراً﴾ [النازعات: ٥] وقوله تعالى ﴿فالمقسمات أمراً﴾ [الذاريات: ٤] قال بعضهم المراد هذه الكواكب.

الرابع الآيات الدالة على أنه تعالى جعل حركات هذه الأجرام وخلقها على وجه ينتفع بها في مصالح هذا العالم كقوله تعالى ﴿هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق﴾ [يونس: ٥] وقوله تعالى ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً﴾ [الفرقان: ٦١].

النوع الخامس أنه تعالى حكى عن إبراهيم عليه السلام أنه تمسك بعلم النجوم فقال سبحانه ﴿فنظر نظرة في النجوم فقال إني سقيم﴾ [يونس: ٥] السادس أنه تعالى قال ﴿لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ [غافر: ٥٧] ولا يكون المراد كبر الجثة لأن كل أحد يعلمه فوجب أن يكون المراد كبر القدر والشرف، وقال سبحانه ﴿ ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً﴾ [آل عمران: ١٩١] ولا يجوز أن يكون المراد أنه تعالى خلقها ليستدل بتركيبها وتأليفها على وجود الصانع لأن هذا القدر حاصل في تركيب البعوضة ودلالة حصول الحياة في بنية الحيوانات على وجود الصانع أقوى من دلالة تركيب الأجرام الفلكية عليه لأن الحياة لا يقدر عليها غيره تعالى وجنس التركيب يقدر عليه الغير فلما خصها سبحانه وتعالى بهذا التشريف المستفاد من قوله تعالى **﴿ربنا ما خلقت هذا باطلاً﴾** علمنا أن في تخليقها أسراراً عالية وحكماً بالغة تتقاصر عقول البشر عن إدراكها، ويقرب من هذه الآية قوله تعالى ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك

ظن الذين كفروا ﴾ [ص: ٢٧] ولا يمكن أن يكون المراد أنه تعالى خلقها على وجه يمكن الاستدلال بها على وجود الصانع الحكيم لأن كونها دالة على الافتقار إلى الصانع أمر ثابت لها لذاتها لأن كل متحيز محدث وكل محدث مفتقر إلى الفاعل فثبت أن دلالة المتحيزات على وجود الفاعل أمر ثابت لها لذواتها وأعيانها وما كان كذلك لم يكن سبب الفعل والجعل فلم يمكن حمل الآية على هذا الوجه فوجب حملها على الوجه الذي ذكر.

النوع السابع روي أن عمر بن الخيام كان يقرأ كتاب المجسطي على أستاذه فدخل عليهم واحد من المتفقهة فقال: ما تقومون؟ فقال عمر: نحن في تفسير آية من كتاب الله تعالى ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ﴾ [ق: ٦] فنحن ننظر كيف خلق السماء وكيف بناها وكيف صانها عن الفروج.

الثامن أن إبراهيم عليه السلام لما استدل على إثبات الصانع بقوله تعالى ﴿ربي الذي يحيي ويميت ﴾ [البقرة: ٢٥٨] قال له نمرود أتدعي أنه يحيي ويميت بواسطة الطبائع والعناصر أو لا بواسطتها فإن ادعيت الأول فذلك مما لا تجده البتة لأن كل ما يحدث في هذا العالم فهو بواسطة العناصر والحركات الفلكية وإن ادعيت الثاني فمثل هذا الإحياء والإماتة حاصل مني ومن كل أحد وهو المراد بقوله ﴿أنا أحيي وأميت ﴾ [البقرة: ٢٥٨] ثم إن إبراهيم عليه السلام لم ينازع في كون هذه الحوادث السفلية مرتبطة بالحركات الفلكية بل أجاب بأن الله تعالى هو المبدأ لتلك الحركات فيكون الفعل منه سبحانه حقيقة والواحد منا لا يقدر على تحريك الأفلاك على خلاف التحريك الإلهي وهذا هو المراد بقوله ﴿فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ﴾ [البقرة: ٢٥٨] وإذا عرفت نهج الكلام في هذا الباب عرفت أن القرآن العظيم مملوء من تعظيم الأجرام الفلكية وتشريف الكرات الكوكبية، وأما الأخبار فكثيرة منها ما روي أنه عليه الصلاة والسلام نهى عن استقبال الشمس والقمر واستدبارهما عند قضاء الحاجة، ومنها أنه لما مات ولده ﷺ إبراهيم انكسفت الشمس فقال الناس: إنما انكسفت لموت إبراهيم فقال عليه الصلاة والسلام: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله تعالى لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى الصلاة» ومنها ما روى ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «إذا ذكر القدر فأمسكوا وإذا ذكر أصحابي فأمسكوا وإذا ذكر النجوم فأمسكوا» ومن الناس من يروي أنه ﷺ قال: «لا تسافروا والقمر في العقرب» ومنهم من يرويه عن علي كرم الله تعالى وجهه وإن كان المحدثون لا يقبلونه، وأما الآثار فكثيرة أيضاً فعن علي كرم الله تعالى وجهه أن رجلاً أتاه آخر الشهر فقال: أريد الخروج في تجارة فقال: تريد أن يمحق الله تعالى تجارتك استقبل هلال الشهر بالخروج.

وعن عكرمة أن يهودياً منجماً قال له ابن عباس: ويحك تخبر الناس بما لا تدري فقال: إن لك ابنا في المكتب يحم غداً ويموت في اليوم العاشر فقال ابن عباس: ومتى تموت أنت؟ قال: على رأس السنة ثم قال له: ولا تموت أنت حتى تعمى فكان ذلك كل ذلك. وعن الشعبي قال: «قال أبو الدرداء لقد فارق رسول الله ﷺ وتركنا ولا طائر يطير بجناحيه إلا ونحن ندعي فيه علماً» وليست الكواكب موكلة بالفساد والصلاح ولكن فيها دليل بعض الحوادث عرف ذلك بالتجربة، وجاء في الآثار أن أول من أعطى هذا العلم آدم عليه السلام وذلك أنه عاش حتى أدرك من ذريته أربعين ألف أهل بيت وتفرقوا عنه في الأرض وكان يغتم لخفاء خبرهم فأكرمه الله تعالى بهذا العلم فكان إذا أراد أن يعرف حال أحدهم نظر في النجوم فعرفه.

وعن ميمون بن مهران أنه قال: إياكم والتكذيب بالنجوم فإنه من علم النبوة، وروي عن الشافعي أنه كان عالماً بالنجوم، وجاء لبعض جيرانه ولد فحكم له بأن هذا الولد ينبغي أن يكون على عضوه الفلاني خال صفته كذا وكذا فوجد الأمر كما قال، وروى ابن إسحاق أن المنجمين أخبروا فرعون أنه سيجيء ولد من بني إسرائيل يكون هلاكه على

يده. وكذا كان كما قص الله تعالى ﴿يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم﴾ [القصص: ٤] وأما المعقول فهو أن هذا العلم ما خلت عنه ملة من الملل ولا أمه من الأمم ولم يزالوا مشتغلين به معولين عليه في معرفة المصالح، ولو كان فاسداً بالكلية لاستحال إطباق أهل المشرق والمغرب من أول بناء العالم إلى آخره عليه، والتجارب في هذا الباب أكثر من أن تحصى اهـ كلامه.

ولعمري لقد نثر الكنانة ونفض الجعبة واستفرغ الوسع وبذل الجهد وروج وبهرج وقعقع وفرقع ومن غير طحن جعجع وجمع بين ما يعلم بالضرورة أنه كذب على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه وما يعلم بالضرورة أنه خطأ في تأويل كلام الله تعالى ومعرفة مراده سبحانه، ولا يروج ما ذكره إلا على مفرط في الجهل أو مقلد لأهل الباطل من المنجمين وإن أردت الإيضاح وأحببت الاتضاح فاسمع لما نقول: ما ذكره من الاستدلالات أو هي من بيوت العناكب وأشبه شيء بناء الحباحب؛ فأما الاستدلال بقوله تعالى: ﴿فلا أقسم بالخنس الجواري الكنس﴾ [التكوير: ١٥، ١٦] ففيه إنا لا نسلم إن هناك قسماً بالنجوم فقد روي عن ابن مسعود أن المراد بالخنس بقر الوحش وهي رواية عن ابن عباس واختاره ابن جبير، وحكى الماوردي أنها الملائكة، وإذا سلم ذلك بناء على أنه الذي ذهب إليه الجمهور فأي دلالة فيه على التأثير وقد أقسم سبحانه بالليل والنهار والضحى ومكة والوالد وما ولد والفجر وليال عشر والشفع والوتر والسماء والأرض واليوم الموعود وشاهد ومشهود والمرسلات والعاصفات والناشرات والفارقات والنازعات والناشطات والسابحات والسابقات والتين والزيتون وطور سينين إلى غير ذلك فلو كان الإقسام بشيء دليلاً على تأثيره لزم أن يكون جميع ما أقسم به تعالى مؤثراً وهم لا يقولون به وإن لم يكن دليلاً فالاستدلال به باطل، ومثله في ذلك الاستدلال بقوله تعالى: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾ [الواقعة: ٧٢] وقد فسر غير واحد مواقع النجوم بمنازل القرآن ونجومه التي نزلت على النبي ﷺ في مدة ثلاث وعشرين سنة، وكذا الاستدلال بقوله سبحانه وتعالى ﴿والسماء والطارق﴾ [الطارق: ١].

وأما قوله تعالى ﴿فالمدبرات أمراً﴾ [النازعات: ٥] فلم يقل أحد من الصحابة والتابعين وعلماء التفسير أنه إقسام بالنجوم فهذا ابن عباس وعطاء وعبد الرحمن بن سابط وابن قتيبة وغيرهم قالوا: إن المراد بالمدبرات أمراً الملائكة حتى قال ابن عطية: لا أحفظ خلافاً في ذلك، وكذلك ﴿المقسمات أمراً﴾ [الذاريات: ٤] فتفسيرهما بالنجوم تفسير المنجمين ومن سلك سبيلهم وهو تفسير بالرأي والعياذ بالله تعالى، وأما وصفه تعالى بعض الأيام بالنحوسة كما في الآية التي ذكرها فليس ذلك لتأثير الكواكب ونحوستها بحسب ما يزعم المنجم بل لأن الله تعالى عذب أعداءه فيها فهي أيام مشاتيم على الأعداء فوصف تلك الأيام بنحسات كوصف يوم القيامة بأنه عسير على الكافرين.

وكذا يقال في قوله تعالى ﴿في يوم نحس مستمر﴾ [القمر: ١٩] وليس ﴿**مستمر**﴾ فيه صفة ﴿**يوم**﴾ بل هو صفة ﴿**نحس**﴾ أي نحس دائم لا يقلع عنهم كما تقلع مصائب الدنيا عن أهلها، والقول بأنه صفة ﴿**يوم**﴾ وإن المراد به يوم أربعاء آخر الشهر وإنه نحس أبداً غلط ولا يكاد المنجم يزعم نحوسة يوم أربعاء آخر الشهر ولو شهر صفر أبداً بل كثيراً ما يحكم بغاية سعده حسبما تقتضيه الأوضاع الفلكية فيه بزعمه.

وأما استدلاله بالآيات الدالة على أنه سبحانه وضع حركات هذه الأجرام على وجه ينتفع بها في مصالح هذا العالم فمن الطرائف إذ الأليق لو صح زعم المنجم أن يذكر في الآية ما يقتضيه النجوم من السعد والنحس وتعطيه من السعادة والشقاوة وتهبه من الأعمار والأرزاق والعلوم والمعارف وسائر ما في العالم من الخير والشر فإن العبرة بذلك

أعظم من العبرة بمجرد الضياء والنور ومعرفة عدد السنين والحساب، وأما ما ذكر عن إبراهيم عليه السلام من أنه تمسك بعلم النجوم حين قال ﴿إني سقيم﴾ فسقيم جداً وقد سمعت ما قيل في الآية، ولا ينبغي أن يظن بإمام الحنفاء وشيخ الأنبياء وخليل رب الأرض والسماء أنه كان يتعاطى علم النجوم ويأخذ منه أحكام الحوادث ولو فتح هذا الباب على الأنبياء عليهم السلام لاحتمل أن يكون جميع أخبارهم عن المستقبلات من أوضاع النجوم لا من الوحي وهو كما ترى، وأما الاستدلال بقوله تعالى ﴿لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس﴾ [غافر: ٥٧] وإن المراد به كبر القدر والشرف لأكبر الجثة ففي غاية الفساد فإن المراد من الخلق هاهنا الفعل لا المفعول، والآية للدلالة على المعاد. أي إن الذي خلق السماوات والأرض وخلقهما أكبر من خلقكم كيف يعجزه أن يعيدكم بعد الموت، ونظيرها قوله تعالى ﴿أو ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم﴾ [يس: ٨١]] وأين هذا من بحث أحكام النجوم وتأثيراتها، ومثل هذا الاستدلال بقوله تعالى ﴿ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً﴾ [آل عمران: ١٩١] فإن خلق السماوات والأرض من أعظم الأدلة على وجود فاطرهما وكمال قدرته وحكمته وعلمه وانفراده بالربوبية ومن سوى بينهما وبين البقة فقد كابر، ولذا ترى الأشياء الضعيفة كالبعوضة والذباب والعنكبوت إنما تذكر في سياق ضرب الأمثال مبالغة في الاحتقار والضعف ولا تذكر في سياق الاستدلال على عظمة ذي الجلال جل شأنه، على أن الآية لو دلت على أن للكواكب تأثيراً لدلت على أن للأرض تأثيراً أيضاً كالكواكب وهم لم يقولوا به، وما ذكره بعد من أن دلالة حصول الحياة في أبدان الحيوانات أقوى من دلالة السماوات والأرض إلى آخر ما قال في حيز المنع، ونظير ذلك الاستدلال بقوله تعالى ﴿وما خلقنا والسماء والأرض وما بينهما باطلاً﴾ [ص: ٢٧] فإنه لا يدل أيضاً على أن للكواكب تأثيراً، وغاية ما تدل عليه هذه الآية ونظائرها أن تلك المخلوقات فيها حكم ومصالح وليست باطلة أي خالية عن ذلك، ونحن نقول بما تدل عليه ولكن لا نقول بأن تلك الحكم هي الإسعاد والإشقاء وهبة الأعمار والأرزاق إلى غير ذلك مما يزعمه المنجمون بل هي الآثار الظاهرة في عالم الطبيعة على ما سمعت ونحوها كالدلالة على وجود الصانع وكثير من صفاته جل شأنه التي ينكرها الكفرة ولا مانع من أن يقال خلق الله تعالى كذا لتظهر دلالته على كذا، ولا تتعين العبارة التي ذكرها على أنه لا بأس بها عند تدقيق النظر، ولعل ما قاله من فروع كون الماهيات غير مجعولة والكلام فيه شهير، وأما ما ذكره عن عمر بن الخيام فهو على طرف التمام، وأما ما ذكره في محاجة إبراهيم عليه السلام وتقرير المناظرة على ما قرره فلم يقل به أحد من المفسرين سلفهم وخلفهم بل قد يقطع بأنه لم يخطر بقلب المشرك الناظر وما هو إلا تفسير بالرأي والتشهي نعوذ بالله تعالى من ذلك، وأما استدلاله بما روي من نهيه عليه الصلاة والسلام عن استقبال الشمس والقمر عند قضاء الحاجة فبعيد عن حاجته بل لا دلالة للنهي المذكور على تأثير الكواكب الذي يزعمونه وإلا لدل النهي عن استقبال الكعبة عند قضاء الحاجة على أن لها تأثيراً، على أن بعض الأجلّة[1] قد ذكر أن ذلك النهي لم ينقل فيه عن رسول الله ﷺ كلمة واحدة لا بإسناد صحيح ولا ضعيف ولا متصل ولا مرسل وإنما قال بعض الفقهاء في آداب التخلي ولا يستقبل الشمس والقمر فقيل لأن ذلك أبلغ في التستر، وقيل: لأن نورهما من نوره تعالى، وقيل: لأن اسم الله تعالى مكتوب عليهما.

وأما ما ذكر من حديث كسوف الشمس يوم موت إبراهيم وقوله عليه الصلاة والسلام ما قال فصحيح لكن لا يدل على ما يزعمه المنجمون، وصدر الحديث يدل على أن الشمس والقمر آيتان وليسا بربين ولا إلهين ففيه إشارة إلى

---

(١) هو ابن القيم اهـ منه.

نفي التصرف عنهما، وفي قوله عليه الصلاة والسلام لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته قولان، أحدهما أن موت أحد وحياته لا يكونان سبباً لانكسافهما، وثانيهما أنه لا يحصل عن انكسافهما موت ولا حياة وإنما ذلك تخويف من الله تعالى لعباده أجرى العادة بحصوله في أوقات معلومة بالحساب لطلوع الهلال وإبداره وسراره، فأما سبب كسوف الشمس فتوسط القمر بين جرم الشمس وأبصارنا كسحابة تمر تحتها فإن لم يكن للقمر عرض ستر عنا كل الشمس وإن كان له عرض فبقدر ما يوجبه عرضه، وأما سبب خسوف القمر فهو توسط الأرض بينه وبين الشمس حتى يصير ممنوعاً من اكتساب النور من الشمس ويبقى ظلام ظل الأرض المخروط في ممره فقد يقع كله في المخروط وقد يقع بعضه فيه ويبقى بعضه الآخر خارجاً إلى آخر ما قرر في موضعه وليس في الشرع ما يأباه والوقوف على وقت الكسوف والخسوف ومقدارهما أمر سهل ولا يلزم من صدق المنجم في ذلك صدقه فيما يزعم من التأثيرات وما الإخبار بهما إلا كالإخبار بوقت طلوع الشمس في يوم كذا في ساعة كذا وكالإخبار بوقت الهلال والإبدار والسرار، ثم إنّا لا ننكر أن الله تعالى يحدث عند الكسوفين من أقضيته وأقداره ما يكون بلاء لقوم ومصيبة لهم ويجعل الكسوف سبباً لذلك ولهذا أمر ﷺ عند الكسوف بالفزع إلى ذكر الله تعالى والصلاة والعتاقة والصدقة لأن هذه الأشياء تكون سبباً لدفع موجب الكسف الذي جعله الله تعالى سبباً لما جعله فلولا انعقاد سبب التخويف لما أمر عليه الصلاة والسلام بدفع موجبه بهذه العبادات، ولله تعالى في أيام دهره أوقات يحدث فيها ما يشاء من البلاء والنعماء ويقضي من الأسباب بما يدفع موجب تلك الأسباب لمن قامت به أو يقلله أو يخففه فمن فزع إلى تلك الأسباب أو بعضها اندفع عنه الشر الذي جعل الله تعالى الكسوف سبباً له أو بعضه، ولهذا قل ما يسلم أطراف الأرض حيث يخفي الإيمان وما جاءت به الرسل فيها من شر عظيم يحصل بسبب الكسوف ويسلم منه الأماكن التي يظهر فيها نور النبوة والقيام بما جاءت به الرسل أو يقل فيها جداً.

وقد جاء أنه ﷺ لما كسفت الشمس في عهده قام فزعاً مسرعاً يجر رداءه ونادى في الناس الصلاة جامعة وخطبهم بتلك الخطبة البليغة وأخبر أنه لم ير كيومه ذلك في الخير والشر وأمرهم عند حصول مثل تلك الحالة بالعتاقة والصدقة والصلاة والتوبة وما ذلك إلا لكونه عليه الصلاة والسلام أعلم الخلق بالله تعالى وبأمره وشأنه وتصريفه أمور مخلوقاته وتدبيره وأنصحهم للأمة وأشفقهم على العباد ولم يبين لهم عليه الصلاة والسلام أسباب الكسوفين وحسابهما لأن الجهل بذلك لا يضر والعلم به لا ينفع نفع العلم بما جاءت به الرسل عليهم السلام.

وقد يقال: الأمور بالصلاة عندهما كالأمر بالصلاة عند طلوع الفجر والغروب والزوال مع تضمن ذلك رفع موجبهما الذي جعلهما الله تعالى سبباً له، ومن الناس من أنكر أن يكون الكسوفان سببين لشيء من البلاء أصلاً وأن سبب حصولهما ليس ما أطال الكلام فيه المنجمون ومر بعضه بل السبب هو تجلي الله تعالى عليهما لما أخرجه ابن ماجة في سننه. والإمام أحمد والنسائي من حديث النعمان بن بشير قال: انكسفت الشمس على عهد النبي ﷺ فخرج فزعاً يجر ثوبه حتى أتى المسجد فلم يزل يصلي حتى انجلت ثم قال: إن ناساً يزعمون أن الشمس والقمر لا ينكسفان إلا لموت عظيم من العظماء وليس كذلك إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا تجلى الله لشيء من خلقه خشع له وأن الأمر بالصلاة لظهور آثار تجلي الجلال في هذين الجرمين العظيمين أو هو كالأمر بالصلاة عند غروب الشمس وطلوع الفجر مثلاً وحكمته كحكمته والقائلون بهذا مكابرون للفلاسفة في أشياء لا ينبغي المكابرة فيها ولعلها تضر بالدين وتصير سبباً لطعن الملحدين فيكابرون في كون الأفلاك مستديرة والأرض كرية وأن نور القمر مستفاد من ضياء الشمس وأن الكسوف القمري عبارة عن انمحاء نور القمر بتوسط الأرض بينه وبين الشمس من حيث

إن نوره مقتبس منها وأن الكسوف الشمسي عبارة عن وقوع جرم القمر بين الناظر والشمس عند اجتماعهما في العقدتين على دقيقة واحدة وقولهم بتأثير الأسباب المحسوسة في مسبباتها وإثبات القوى والطبائع والأفعال والانفعالات إلى غير ذلك مما تقوم عليه الأدلة اليقينية ولا تعارضه النصوص الشرعية القطعية، وما ذكروه من الحديث تعقبه حجة الإسلام الغزالي فقال: إن زيادة فإن الله الخ لم يصح نقلاً فيجب تكذيب قائلها ولو صحت لكان تأويلها أهون من مكابرة أمور قطعية فكم من ظواهر أوّلت بالأدلة العقلية التي لم تبلغ في الوضوح إلى هذا الحد وأعظم ما يفرح به الملحدة أن يصرح ناصر الشرع بأن هذا وأمثاله على خلاف الشرع فيسهل عليه إبطال الشرع إن كان شرطه أمثال ذلك اهـ وليس الأمر في هذه كما قال من عدم الصحة فإن إسنادها لا مطعن فيه، فابن ماجة يروي الحديث بهذه الزيادة عن محمد بن المثنى وأحمد بن ثابت وحميد بن الحسن وهم يروونه عن عبد الوهاب عن خالد الحذاء عن أبي قلابة عن النعمان بن بشير وكل هؤلاء ثقات حفاظ نعم الحديث الخالي عنها رواه بضعة عشر صحابياً منهم علي كرم الله تعالى وجهه وابن عباس وعائشة وأسماء أختها وأبيّ بن كعب وجابر بن عبد الله وسمرة بن جندب وقبيصة الهلالي وعبد الله بن عمرو ومن هنا خاف بعض الأجلة أن تكون مدرجة في الحديث لكنه خلاف الظاهر وحينئذ يقال: إن كسوف الشمس والقمر يوجب لهما ضعف سلطاتهما وبهائهما وذلك يوجب لهما من الخشوع والخضوع لرب العالمين وعظمته وجلاله سبحانه ما يكون سبباً لتجليه عز وجل لهما، ولا يستنكر أن يكون تجلي الله سبحانه لهما في وقت معين كما يدنو سبحانه من أهل الموقف عشية عرفة وكما ينزل تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا عند مضي نصف الليل فيحدث لهما ذلك التجلي خشوعاً آخر ليس هو الكسوف فإنه إنما حدث بالسبب الذي عرفت ولم يقل النبي ﷺ إن الله تعالى إذا تجلى لهما انكسفا بل قال فإذا تجلى الله لشيء من خلقه خشع له. وفي رواية الإمام أحمد «إذا بدا الله لشيء من خلقه خشع له» فهاهنا خشوعان خشوع أوجبه كسوفهما الحادث من وضعهما الخاص وخشوع أوجبه تجليه تعالى لهما لذلك الخشوع الذي أوجبه الكسوف. وهذا توجيه لطيف المنزع يقبله العقل المستقيم والفطرة السليمة إن شاء الله تعالى. وأما استدلاله بحديث ابن مسعود ففيه على ما قيل أن الحديث لو ثبت لكان حجة عليه لا له إذ لو كان علم النجوم حقاً لم يأمر ﷺ بالإمساك عند ذكر النجوم فالظاهر أنه عليه الصلاة والسلام لم يأمر بذلك إلا لأن الخوض في ذلك خوض فيما لا علم للخائض به فتأمل.

وأما حديث النهي عن السفر والقمر في العقرب فصحيح من كلام المنجمين دون رسول رب العالمين ﷺ، وروايته عن علي كرم الله تعالى وجهه كذب أيضاً والمشهور عنه خلاف ذلك كما سمعت في قصة خروجه لقتال الخوارج، وأما ما احتج به من الأثر عن علي كرم تعالى وجهه أن رجلاً أتاه الخ فلا يعلم ثبوته عنه رضي الله تعالى عنه، والكذابون كثيراً ما ينفقون سلعهم الباطلة بنسبتها إليه أو إلى أهل بيته، ثم لو صح عنه فليس فيه تعرض لثبوت أحكام النجوم بوجه، وقد جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: «اللهم بارك لأمتي في بكورها» ونسبة أول الشهر إليه كنسبة أول النهار إليه، وكان صخر راوي الحديث إذا بعث تجارة له بعثها في أول النهار فأثرى وكثر ماله ولا يبعد أن يكون أول السنة كأول النهار أيضاً فللأوائل مزية القوة كما هو مشاهد في الشباب والشيخوخة، ولله تعالى تجليات في الأزمنة والأمكنة والأشخاص وليس ذلك من تأثير الكواكب في شيء، ومثل هذا يقال فيما ذكره الكرماني وقد مر، ما ذكره عن اليهودي الذي أخبر ابن عباس رضي الله تعالى عنه فلا نسلم صحته، وإن سلم ذلك فهو من جنس إخبار الكهان بشيء من المغيبات، وقد أخبر ابن الصياد النبي ﷺ بما أخبر فقال عليه الصلاة والسلام له «إنما أنت من إخوان الكهان» وعلم مقدمة المعرفة لا يختص بما ذكره المنجمون بل له عدة أسباب يصدق الحكم معها ويكذب منها

الكهانة ومنها المنامات ومنها الفأل والزجر وضرب الحصى والخط والكتف والكشف المستند إلى الرياضة وهو كشف جزئي عن بعض الحوادث ويشترك فيه المؤمن والكافر ومنها غير ذلك، وللعمال في البحر والسعاة ونحوهم في البر علامات يعرفون بها أوقات المطر والصحو والبرد والريح وغيرها وقلما يخطئون في أخبارهم بل صوابهم في ذلك أكثر من صواب المنجم.

وأما ما ذكره من حديث أبي الدرداء فالمحفوظ فيه «توفي رسول الله ﷺ وتركنا وما طائر يقلب جناحيه إلا وقد ذكر لنا منه علماً» وفيه روايات أخر صحيحة أيضاً وكلها ليس فيها وليست الكواكب الخ فهو من أعظم الأدلة على بطلان دعوى المنجمين إذ لم يذكر عليه الصلاة والسلام من أحكام النجوم شيئاً البتة وقد علمهم علم كل شيء حتى الخرأة، وأما قوله إنه جاء في الآثار أن أول من أعطى هذا العلم آدم عليه السلام الخ فكذب وافتراء على آدم عليه السلام، وقد عمل هذا الكاذب المفتري بالمثل السائر إذا كذبت فأبعد شاهدك، ونحوه ما روي عن ميمون بن مهران. وأما ما نسب إلى الشافعي فهو بعض من حكاية ذكرها أبو عبد الله الحاكم فيما ألفه في مناقبه والحكايات التي ذكرت عنه في أحكام النجوم ثلاث. إحداها قال الحاكم: قرىء على أبي يعلى حمزة بن محمد العلوي وأكثر ظني أني حضرته ثنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن العباس الأزدي في آخرين قالوا ثنا محمد بن أبي يعقوب الجوال الدينوري ثنا عبد الله بن محمد البلوي حدثني خالي عمارة بن زيد قال: كنت صديقاً لمحمد بن الحسن فدخلت معه يوماً على هارون الرشيد فسأله ثم إني سمعت محمد بن الحسن وهو يقول: إن محمد بن إدريس يزعم أنه للخلافة أهل قال فاستشاط هارون من قوله غضباً ثم قال: علي به فلما مثل بين يديه أطرق ساعة ثم رفع رأسه إليه فقال: أيها قال الشافعي: ما أيها أمير المؤمنين أنت الداعي وأنا المدعو وأنت السائل وأنا المجيب فذكر حكاية طويلة سأله فيها عن العلوم ومعرفته بها إلى أن قال: كيف علمك بالنجوم؟ قال: أعرف الفلك الدائر والنجم السائر والقطب الثابت والمائي والناري وما كانت العرب تسميه الأنواء ومنازل النيرين والاستقامة والرجوع والنحوس والسعود وهيئاتها وطبائعها وما أستدل به في بري وبحري وأستدل في أوقات صلاتي وأعرف ما مضى من الأوقات في إمسائي وإصباحي وظعني في أسفاري ثم ساق العلوم على هذا النحو، ومن له علم بالمنقولات يعلم أن هذه الحكاية كذب مختلق وإفك مفترى على الشافعي والبلاء فيها من عند محمد بن عبد الله البلوي فإنه كذاب وضاع وهو الذي وضع رحلة الشافعي وذكر فيها مناظرته لأبي يوسف بحضرة الرشيد ولم ير الشافعي أبا يوسف ولا اجتمع به قط وإنما دخل بغداد بعد موته ويشهد بكذبها أنها تدل على أن محمداً وشى بالشافعي إلى الرشيد وأراد قتله ومحمد أجلّ من أن ينسب إليه ذلك وتعظيمه للشافعي ومحبته إياه هو المعروف كتعظيم الشافعي له وثنائه عليه، وفيها شواهد أخر على الكذب يعرفها العالم بالمنقول إذا اطلع عليها كلها، وثانيتها وهي التي أخذت منها ما ذكرها الإمام، قال الحاكم: أخبرنا أبو الوليد الفقيه قال حدثت عن الحسن بن سفيان عن حرملة: قال: كان الشافعي يديم النظر في كتب النجوم وكان له صديق وعنده جارية قد حبلت فقال: إنها تلد إليّ سبعة وعشرين يوماً ويكون في فخذ الولد الأيسر خال أسود ويعيش أربعة وعشرين يوماً ثم يموت فكان الأمر كما قال فأحرق بعد ذلك تلك الكتب وما عاود النظر في شيء منها، وهذا الإسناد رجاله ثقات لكن الشأن فيمن حدث أبا الوليد عن الحسن بن سفيان أو فيمن حدث الحسن عن حرملة، ويدل على كذب الحكاية أنها لو صحت لوجب أن تثنى الخناصر على هذا العلم وتشد به الأيدي لا أن تحرق كتبه ولا يعاود النظر في شيء منها، وأن الطالع عند المنجمين طالعان: طالع مسقط النطفة وهو الطالع الأصلي الذي يزعمون دلالته على وقت الولادة والحكاية لم تتضمن أن الشافعي نظر فيه ولو كان لتضمنته وطالع الولادة وأخبار الشافعي قبلها ضرورة أنه قال:

إنها تلد إلى سبعة وعشرين يوماً، وثالثتها قال الحاكم: أنبأني عبد الرحمن بن الحسن القاضي أن زكريا بن يحيى الساجي حدثهم قال أخبرني أحمد بن محمد ابن بنت الشافعي قال سمعت أبي يقول: كان الشافعي وهو حدث ينظر في النجوم وما نظر في شيء إلا فاق فيه فجلس يوماً وامرأة تلد فحسب فقال: تلد جارية عوراء على فرجها خال أسود وتموت إلى كذا وكذا فولدت فكان كما قال فجعل على نفسه أن لا ينظر فيه أبداً، وأمر هذه الحكاية كالتي قبلها فإن ابن بنت الشافعي لم يلق الشافعي ولا رآه والشأن فيمن حدث بها عنه، وأيضاً طالع مسقط النطفة لم يؤخذ والخبر قبل تحقق طالع الولادة، ثم إن تحقق هذه الحكاية إن كان قبل تحقق الحكاية التي قبلها لم تكد تحقق وإن كان تحقق تلك قبل لم تكد هذه تحقق كما لا يخفى على المنصف، والذي صح عن الشافعي في أمر النجوم أنه كان يعرف ما كانت العرب تعرفه من علم المنازل والاهتداء بالنجوم في الطرقات وأما غير ذلك من الأحكام التي يزعمها المنجمون فلا، وكان رضي الله تعالى عنه شديد الإنكار على المتكلمين مزرياً بهم حكمه فيهم أن يضربوا بالجريد ويطاف بهم في القبائل فما تراه يرى في المنجمين الذين شاع هذيانهم وقبح عند ذوي العقول السليمة شأنهم، نعم كانت له رضي الله تعالى عنه اليد الطولى في علم الفراسة وقد خرج إلى اليمن لجمع كتبه فجمع منها ما جمع وله فيها حكايات يقضى منها العجب، ولعل إخباره بأمر المولود لو صح من ذلك العلم والناقل لجهله أو لأمر آخر أسنده للنظر في أحكام النجوم وقال ما قال. وأما ما ذكر عن ابن إسحاق من أن فرعون كان يقتل أبناء بني إسرائيل لإخبار المنجمين إياه بأنه سيولد لهم مولود يكون هلاكه على يده فهو كما قال بعض الأجلة من أخبار أهل الكتاب ومخالف لروايات أكثر المفسرين فإنهم أحالوا ذلك على أخبار الكهان. وروى بعضهم أن قومه أخبروه بأن بني إسرائيل يزعمون أنه يولد منهم مولود يكون هلاكك على يديه وفي أخبار الكهان ما هو أعجب من ذلك. ومنها خبرهم بظهور خاتم الرسل ﷺ وانتشار أمره، ونحن لا ننكر علم تقدمة المعرفة بأسباب مفضية إلى مثل ذلك يختلف قوى الناس في إدراكها وتحصيلها وإنما كلامنا مع المنجمين في أصول علم الأحكام وبيان فسادها وكذب أكثر الأحكام التي يسندونها إليها، وأما ما ذكره في الاستدلال بالمعقول من أنه ما خلت عن هذا العلم ملة من الملل ولا أمة من الأمم وأنهم لم يزالوا مشتغلين به معولين في معرفة المصالح عليه إلى آخر ما قال ففرية من غير مرية، ويا عجباً من دعواه إطباق أهل المشرق والمغرب من أول بناء العالم إلى آخره عليه وهم يقولون إنما أسست أصوله وأوضاعه في زمن هرمس الهرامسة يعنون به إدريس عليه السلام وهو بعد بناء العالم بكثير، وأيضاً قد رده كثير من الفلاسفة وجمع غفير من أساطين الإسلام حتى أنه قد ألف ما يزيده على مائة مصنف في رده وإبطاله، وقد قال أبو نصر الفارابي: اعلم أنك لو قلبت أوضاع المنجمين فجعلت الحار بارداً والبارد حاراً والسعد نحساً والنحس سعداً والذكر أنثى والأنثى ذكراً ثم حكمت لكانت أحكامك من جنس أحكامهم تصيب تارة وتخطىء تارات، وقد زيف أمرهم ابن سينا في كتابيه الشفاء والنجاة، وكذا أبو البركات البغدادي في كتاب التعبير له، هذا ما اختاره بعض المحققين في الرد على المنجمين وأعود فأقول: الذي أراه في هذا المقام ويترجح عندي من كلام العلماء الأعلام أن الله عز وجل لم يخلق شيئاً باطلاً خالياً عن حكمة ومنفعة بل خلق الأشياء علويها وسفليها جليلها ودنيها مشتملة على حكم لا تحصى ومنافع لا تستقصى وإن تفاوتت في أفرادها قلة وكثرة وخص كلاً منها بخاصة لا توجد في غيرها مع اشتراك الكل في الدلالة على وجوده تعالى ووحدته وعلمه وقدرته:

ولله فـــي كـــل تـــحـــريـــكـــة ... وتـــســـكـــينة أبـــداً شـــاهـــد

وفـــي كـــل شـــيء لـــه آيـــة ... تـــدل عـــلـــى أنـــه واحـــد

فالأجرام العلوية مشتركة في هذه الدلالة مختص كل منها بخاصة وشأن الكواكب في خواصها وتأثيراتها كشأن النباتات والمعدنيات والحيوانيات في خواصها وتأثيراتها، فمنها ما خاصته في نفسه غير متوقفة على ضم شيء آخر إليه، ومنها ما خاصته متوقفة على ضم شيء آخر، ومنها ما إذا ضم إليه شيء أسقط خاصته، وأبطل منفعته ومنها ما يعقل وجه تأثيره ومنها ما لا يعقل، ومنها ما يؤثر في مكان دون مكان وزمان دون مكان، ومنها ما يؤثر في جميع الأزمنة والأمكنة إلى غير ذلك من الأحوال، وكونها زينة للسماء لا يستدعي نفي أن يكون فيها منفعة أخرى على حد ما في الأرض فقد قال سبحانه: ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها﴾ [الكهف: ٧] مع اشتمال الأزهار وغيرها على ما تعلم وما لا تعلم من المنافع، وكذلك كونها علامات يهتدى بها في ظلمات البر والبحر وكونها رجوماً للشياطين. ولا أقول ببساطة الأفلاك ولا ببساطة الكواكب ولا بانحصارها فيما يشاهد ببصر أو رصد ولا بذكورة بعض وأنوثة آخر إلى كثير مما يزعمه المنجمون، وأقول: إن الله تعالى أودع في بعضها تأثيراً حسبما أودع في أزهار الأرض ونحوها وإنها لا تؤثر إلا بإذنه عز وجل كما هو مذهب السلف في سائر الأسباب العادية وإن شئت فقل كما قال الأشاعرة فيها، وأنه لا يبعد أن يكون بعضها علامات لإحداثه تعالى أموراً لا بواسطتها في أحد العالمين العلوي والسفلي يعرفها من يوقفه الله تعالى عليها من ملائكته وخواص عباده، وارتباط كثير من السفليات بالعلويات، مما قال به الأكابر ولا ينكره إلا مكابر، ولا أنسب أثراً من الآثار إلى كوكب بخصوصه على القطع لاحتمال شركة كوكب أو أمر آخر، نعم الظاهر يقتضي كثرة مدخلية بعض الكواكب في بعض الآثار كالقمر في مد البحار وجزرها فإن منها ما يأخذ في الازدياد حين يفارق القمر الشمس إلى وقت الامتلاء ثم إنه يأخذ في الانتقاص ولا يزال نقصانه يستمر بحسب نقصان القمر إلى المحاق ومنها ما يحصل فيه المد في كل يوم وليلة مع طلوع القمر وغروبه كبحر فارس وبحر الهند وبحر الصين، وكيفيته أنه إذا بلغ القمر مشرقاً من مشارق البحر ابتدأ البحر بالمد ولا يزال كذلك إلى أن يصير القمر في وسط سماء ذلك الموضع فإذا زال عن مغرب ذلك الموضع ابتدأ المد من تحت الأرض ولا يزال زائداً إلى أن يصل القمر إلى وتد الأرض فحينئذ ينتهي المد منتهاه ثم يبتدىء الجزر ثانياً ويرجع الماء كما كان، ومثل المد والجزر بحرانات الأمراض فإنها بحسب زيادة القمر ونقصانه على معنى كثرة مدخلية ذلك ظاهراً فيها إلى أمور كثيرة، ولا أقول: إن لكوكب تأثيراً في السعادة والشقاوة ونحوهما، ولا يبعد أن يكون كوكب أو كواكب باعتبار بعض الأحوال علامة لنحو ذلك يعرفها بعض الخواص، ولا وثوق بما قاله الأحكاميون وكل ما يقولونه ظن وتخمين لا دليل لهم عليه وهم فيما أسسوا عليه أحكامهم متناقضون وفي المذاهب مختلفون فللبابليين مذهب وللفرس مذهب ولأهل الهند مذهب ولأهل الصين مذهب وقد رد بعضهم على بعض وشهد بعض على بعض بفساد أصولهم ومبنى أحكامهم فقد كان أوائلهم من الأقدمين وكبار رصادهم من عهد بطليموس وطيموحارس ومانالارس قد حكموا حكماً في الكواكب واتفقوا على صحته وأقام الناس على تقليدهم وبناء الأمر على ما قالوه أكثر من سبعمائة سنة فجاء من بعدهم خالد بن عبد الملك المروزي. وحسن صاحب الزيج الماموني ومحمد بن الجهم ويحيى بن أبي منصور فامتحنوا ما قالوا فوجودهم غالطين وأجمعوا على غلطهم وسموا رصدهم الرصد الممتحن. ثم حدثت بعدهم بنحو ستين سنة طائفة أخرى زعيمهم أبو معشر محمد بن جعفر فرد عليهم وبين خطاهم كما ذكره أبو سعيد شاذان المنجم في كتاب أسرار النجوم له وفيه قلت لأبي معشر الذنب بارد يابس فلم قلتم إنه يدل على التأنيث؟ فقال: هكذا قالوا قلت: فقد قالوا إنه ليس بصادق اليبس لكنه بارد عفن ملتوى كل الأعراض الغائية توهم لا يكون شيء منها يقينياً وإنما يكون توهم أقوى من توهم.

ومن تأمل أحوال القوم علم أن ما معهم تفرس يصيبون معه ويخطئون، ثم حدثت بعدهم طائفة أخرى بنحو

سبعين سنة منهم أبو الحسين عبد الرحمن بن عمر المعروف بالصوفي فرد على من قبله وغلطه وألف كتاباً بين فيه من الأغلاط ما بين وحمله إلى عضد الدولة ابن بويه فاستحسنه وأجزل ثوابه، ثم جاءت بعد نحو ثلاثين سنة طائفة أخرى منهم كوشيار الديلمي فألف المجمل في الأحكام وجهل فيه من يحتج للأحكام من الأحكاميين، وقال عن صناعة التنجيم: هي صناعة غير مبرهنة وللخواطر والظنون فيها مجال إلى أن قال: ومن المنفردين بعلم الأحكام من يأتي على جزئياته بحجج على سبيل النظر والجدل فيظن أنها براهين لجهله بطريق البرهان وطبيعته، ثم حدثت طائفة أخرى منهم منجم الحاكم بالديار المصرية المعروف بالفكري فوضع هو وأصحابه رصداً آخر سموه الرصد الحاكمي فخالفوا فيه أصحاب الرصد الممتحن وبنوا أمر الأحكام عليه.

ثم حدثت طائفة أخرى منهم أبو الريحان البيروني مؤلف كتاب التفهيم إلى صناعة التنجيم وكان بعد كوشيار بنحو أربعين سنة فخالف من تقدمه وأتى من مناقضاتهم والرد عليهم بما هو دال على فساد صناعتهم وختم كتابه بقوله في الخبء والضمير ما أكثر افتضاح المنجمين فيه وما أكثر إصابة الزاجرين بما يستعمل من الكلام وقت السؤال ويرونه بادياً من الآثار والأفعال على السائل إلى آخر ما قال، ثم حدثت طائفة أخرى منهم أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي وكان بعد البيروتي بنحو ثمانين عاماً وكان رأساً في الصناعة ومع هذا اعترف بأن قول المنجمين هذيان، ثم حدثت طائفة أخرى بالمغرب منهم أبو إسحاق الزرقال وأصحابه وكان بعد أبي الصلت بنحو مائة سنة فخالف الأوائل والأواخر في الصناعتين الرصدية والأحكامية.

وآخر ما نعلم حدوثه زيج لالنت والقسيني وفيه من المخالفة لما قبله من الأزياج ما فيه. وقد ذكر فيه تقويم هرشل ومقدار حركته وهو كوكب سيار ظفر به هرشل أحد فلاسفة الإفرنج وسماه باسمه ولم يظفر به أحد قبله، وهذا الزيج أضبط الأزياج فيما يزعم المنجمون اليوم، والإفرنج على مهارة كثير منهم بعلم الرصد لا يقولون بشيء مما يقول به الأحكاميون الأوائل والأواخر ويسخرون منهم، وقد ذكر من يوثق به وجوهاً تدل على فساد ما بأيديهم من العلم وأنه لا يوثق به، الأول أن معرفة جميع المؤثرات الفلكية مما لا تتأتى، أما أولاً فلأنه لا سبيل إلى معرفة الكواكب إلا بواسطة القوى الباصرة وإذا كان المرئي صغيراً أو في غاية البعد يتعذر رؤيته فإن أصغر الكواكب التي في فلك الثوابت وهو الذي به قوة البصر مثل كرة الأرض بضعة عشر مرة وكرة الأرض أعظم من كرة عطارد كذا مرة فلو قدرنا أنه حصل في الفلك الأعظم كواكب كثيرة كل منها كعطارد حجماً فكيف ترى، ونفي هذا الاحتمال لا بدله من دليل ومع قيامه لا يحصل الجزم بمعرفة جميع المؤثرات، وإن قالوا: جاز ذلك إن أن آثار هذا الكوكب لصغره ضعيفة فلا تصل إلى هذا العالم. قلنا: صغر الجرم لا يوجب ضعف الأثر فقد أثبتم لعطارد آثاراً قوية مع صغره بالنسبة إلى سائر السيارات بل أثبتم للرأس والذنب وسهم السعادة وسهم الغيب آثاراً قوية وهي أمور وهمية، وأما ثانياً فالمرصود من الكواكب المرئية أقل قليل بالنسبة إلى غير المرصود فمن أين لهم الوقوف على طبيعة غير المرصود؟ وأما ثالثاً فلأنه لم يحصل الوقوف على طبائع جميع المرصود أيضاً وقلما تكلموا في معرفة غير الثوابت التي من القدر الأول والثاني، وأما رابعاً فآلات الرصد لا تفي بضبط الثواني والثوالث فما فوق ولا شك أن الثانية الواحدة مثل الأرض كذا ألف مرة أو أقل أو أكثر، ومع هذا التفاوت العظيم كيف الوصول إلى الغرض وقد قيل إن الإنسان الشديد الجري بين رفعه رجله ووضعه الأخرى يتحرك جرم الفلك الأقصى ثلاثة آلاف ميل فإذا كان كذلك فكيف ضبط هذه المؤثرات؟ وأما خامساً فبتقدير أنهم عرفوا طبائع هذه الكواكب حال بساطتها فهل وقفوا على طبائعها حال امتزاج بعضها ببعض والامتزاجات الحاصلة من طبائع ألف كوكب أو أكثر بحسب الأجزاء الفلكية تبلغ في الكثرة إلى حيث لا يقدر العقل على ضبطها. وأما

سادساً فيقال: هب أنا عرفنا تلك الامتزاجات الحاصلة في ذلك فلا ريب أنّه لا يمكننا معرفة الامتزاجات التي كانت حاصلة قبله مع أنا نعلم قطعاً أن الأشكال السالفة ربما كانت عائقة ومانعة عن مقتضيات الأشكال الحاصلة في الحال، ولا ريب أنّا نشاهد أشخاصاً كثيرة من النبات والحيوان والإنسان تحدث مقارنة لطالع واحد مع أن كل واحد منها مخالف للآخر في أكثر الأمور، وذلك أن الأحوال السابقة في حق كل واحد تكون مخالفة للأحوال السابقة في حق الآخر وذلك يدل على أنه لا اعتماد على مقتضى طالع الوقت بل لا بد من الإحاطة بالطوالع السالفة وذلك مما لا وقوف عليه فإنه ربما كانت تلك الطوالع دافعة مقتضيات هذا الطالع الحاضر، وعلى هذا الوجه عول ابن سينا في كتابيه الشفاء والنجاة في إبطال هذا العلم، الثاني أن تأثير الكواكب يختلف باختلاف أقدارها فما كان من القدر الأول أثر بوقوعه على الدرجة وإن لم تضبط الدقيقة، وما كان من القدر الأخير لم يؤثر إلا بضبط الدقيقة، ولا ريب بجهالة مقادير جميع الكواكب فكيف تضبط الآثار، الثالث فساد أصولهم وتناقض آرائهم واختلافهم اختلافاً عظيماً من غير دليل ومتى تعارضت الأقوال وتعذر الترجيح فيما بينها لا يعول على شيء منها.

الرابع أن أرصادهم لا تنفك عن نوع خلل وهي مبنى أحكامهم، وقد صنف أبو علي بن الهيثم رسالة بليغة في أقسام الخلل الواقع في آلات الرصد وبين أن ذلك ليس في وسع الإنسان دفعه وإزالته وإصابتهم في أوقات الخسوف والكسوف مع ذلك الخلل لا تستدعي إصابتهم في غيرها معه، الخامس أنا نشاهد عالماً كثيراً يقتلون في ساعة واحدة في حرب وخلقاً كثيراً يغرقون في ساعة واحدة مع اختلاف طوالعهم واقتضائها أحوالاً مختلفة عندكم وهذا يدل على عدم اعتبار ما اعتبرتموه أولاً، فإن قلتم: إن الطوالع قد يكون بعضها أقوى من بعض فلعل طالع الوقت أقوى من طالع الأصل فكان الحكم، قلنا: هذا بعينه يبطل عليكم اعتبار طالع المولود فإن الطوالع بعده مختلفة كثيرة ولعل بعضها أقوى منه فلا يفيد اعتباره شيئاً، السادس أن العقل لا مساغ له في اقتضاء كوكب معين أو وضع معين تأثيراً خاصاً والتجربة على قصورها معارضة بتجربة اقتضت خلافها إلى غير ذلك من من الوجوه، وأبو البركات البغدادي وإن زيف ما هم عليه إلا أنه يقر بقبول بعض الأحكام فإنه قال بعد ذكر شيء من أقوالهم التي لا دليل لهم عليها: وهذه أقوال قالها قائل فقبلها قابل ونقلها ناقل فحسن بها ظن السامع واغتر بها من لا خبرة له ولا قدرة له على النظر ثم حكم بحسبها الحاكمون بجيد ورديء وسلب وإيجاب وسعد ونحوس فصادف بعضه موافقة الوجود فصدق فاغتر به المغترون ولم يلتفتوا إلى كذب فيه بل عذروه وقالوا: هو منجم ما هو نبي حتى يصدق في كل ما يقول واعتذروا له بأن العلم أوسع من أن يحيط به ولو أحاط به لصدق في كل شيء، ولعمر الله تعالى إنه لو أحاط به علماً صادقاً لصدق والشأن أن يحيط به على الحقيقة لا على أن يفرض فرضاً ويتوهم وهماً فينقله إلى الوجود ويثبته في الموجود وينسب إليه ويقيس عليه، وبالذي يصح منه ويلتفت إليه العقلاء هي أشياء غير هذه الخرافات التي لا أصل لها مما حصل بتوقيف أو تجربة حقيقية كالقرانات والانتقالات والمقابلة وممر كوكب من المتحيرة تحت كوكب من الثابتة وما يعرض للمتحيرة من رجوع واستقامة ورجوع في شمال وانخفاض في جنوب وغير ذلك، وكأني أريد أن أختصر الكلام هاهنا وأوافق إشارتك وأعمل بحساب اختيارك رسالة في ذلك أذكر ما قيل فيها من علم أحكام النجوم من أصول حقيقية أو مجازية أو وهمية أو غلطية وفروع نتائج أنتجت عن تلك الأصول وأذكر الجائز من ذلك والممتنع والقريب والبعيد فلا أرد علم الأحكام من كل وجه كما رده من جهله ولا أقبل فيه كل قول كما قبله من لم يعقله بل أوضح موضع القبول والرد وموضع التوقيف والتجويز والذي من المنجم والذي من التنجيم والذي منهما وأوضح لك أنه لو أمكن الإنسان أن يحيط بشكل كل ما في الفلك علماً لأحاط بكل ما يحويه الفلك لأن منه مبادىء الأسباب لكنه لا يمكن ويبعد عن

الإمكان بعداً عظيماً والبعض الممكن منه لا يهدي إلى بعض الحكم لأن البعض الآخر المجهول قد يناقض المعلوم في حكمه ويبطل ما يوجبه فنسبة المعلوم إلى المجهول من الأحكام كنسبة المعلوم إلى المجهول من الأسباب وكفى بذلك بعداً انتهى، وفيه من التأييد لبعض ما تقدم من الأوجه ما فيه.

وأنا أقول: إن الإحاطة بالأسرار المودعة في الأجرام لا يبعد أن تحصل لبعض الخواص ذوي النفوس القدسية لكن بطريق الكشف أو نحوه دون الاستدلال الفكري والأعمال الرصدية مثلاً وهو الذي يقتضيه كلام الشيخ الأكبر قدس سره قال في الباب الثالث والسبعين من الفتوحات: ومن الأولياء النقباء وهم اثنا عشر نقيباً في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون على عدد البروج الاثني عشر كل نقيب عالم بخاصية كل برج وبما أودع الله تعالى في مقامه من الأسرار والتأثيرات وما يعطى للنزلاء فيه من الكواكب السيارة والثوابت ثم قال: ومنهم النجباء وهم ثمانية في كل زمان إلى أن قال: ولهم القدم الراسخة في علم تسيير الكواكب من جهة الكشف والاطلاع لا من جهة الطريقة المعلومة عند العلماء بهذا الشأن، والنقباء هم الذين حازوا علم الفلك التاسع والنجباء حازوا علم الثمانية الأفلاك التي دونه وهي كل فلك في كوكب، ويفهم من هذا القول بالتأثيرات وأنها مفاضة من البرج على النازل فيه من الكواكب.

وقد تكررت الاشارة منه إلى ذلك ففي الفصل الثالث من الباب الحادي والسبعين والثلاثمائة من الفتوحات أن الله تعالى خلق في جوف الكرسي جسماً شفافاً مستديراً يعني الفلك الأطلس قسمه اثني عشر قسماً هي البروج وأسكن كل برج منها ملكاً إلى أن قال: وجعل لكل نائب من هؤلاء الأملاك الاثني عشر في كل برج ملكه إياه ثلاثين خزانة تحتوي كل خزانة منها على علوم شتى يهبون منها لمن نزل بهم ما تعطيه مرتبته وهي الخزائن التي قال الله تعالى فيها ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾ [الحجر: ٢١] وهذه الخزائن تسمى عند أهل التعاليم درجات الفلك والنازلون بها هم الجواري والنازل وعيوقاتها من الثوابت والعلوم الحاصلة من هذه الخزائن الإلهية هي ما يظهر في عالم الأركان من التأثيرات بل ما يظهر في مقعر فلك الثوابت إلى الأرض، وجعل لهؤلاء الاثني عشر نظراً في الجنان وأهلها وما فيها مخلصاً من غير حجاب فما في الجنان من حكم فهو عن تولي هؤلاء بنفوسهم تشريفاً لأهل الجنة وأما أهل الدنيا وأهل النار فما يباشرون ما لهم من الحكم إلا بالنواب وهم النازلون عليهم الذين ذكرناهم، وقال قدس سره في الفصل الرابع: إن الله تعالى جعل لكل كوكب من هذه الكواكب قطعاً في الفلك الأطلس ليحصل من تلك الخزائن التي في بروجه وبأيدي ملائكته الاثني عشر من علوم التأثير ما تعطيه حقيقة كل كوكب وجعلها على حقائق مختلفة. انتهى المراد منه.

وله قدس سره كلام غير هذا أيضاً وقد سرح بنحو ما صرح به المنجمون من اختلاف طبائع البروج وأن كل ثلاثة منها على مرتبة واحدة في المزاج وأنا لا أزيد على القول بأن للأجرام العلوية كواكبها وأفلاكها أسراراً وحكماً وتأثيرات غير ذاتية بل مفاضة عليها من جانب الحق والفياض المطلق جل شأنه وعظم سلطانه ومنها ما هو علامة لما شاء الله تعالى ولا يتم دليل على نفي ما ذكر ولا يعلم كمية ذلك ولا كيفيته ولا أن تأثير كذا من كوكب كذا أو كوكب كذا علامة لكذا في نفس الأمر إلا الله تعالى العليم البصير ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾ [الملك: ١٤] إلا أنه سبحانه قد يطلع بعض خواص عباده من البشر والملك على شيء من ذلك، ولا يبعد أن يطلع سبحانه البعض على الكل ووقوع ذلك لنبينا ﷺ مما لا أكاد أشك فيه.

وقد نص بعض ساداتنا الصوفية قدست أسرارهم وأشرقت علينا أنوارهم على أن علومه عليه الصلاة والسلام التي وهبت له ثلاثة أنواع نوع أوجب عليه إظهاره وتبليغه وهو علم الشريعة والتكاليف الإلهية وقوله تعالى ﴿يا أيها الرسول

بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته﴾ [المائدة: ٦٧] ناظر إلى ذلك دون العموم المطلق أو خصوص خلافة علي كرم الله تعالى وجهه كما يقوله الشيعة، ونوع أوجب عليه كتمانه وهو علم الأسرار الإلهية التي لا تتحملها قوة غير قوته القدسية عليه الصلاة والسلام فكما أن لله تعالى علماً استأثر به دون أحد من خلقه كذلك لحبيبه الأعظم ﷺ علم استأثر به بعد ربه سبحانه لكنه مفاض منه تعالى عليه ولعله أشير إليه في قوله تعالى ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ [النجم: ١٠] وقد يكون بين المحب والمحبوب من الأسرار ما يضن به على الأغيار، ومن هنا قيل:

ومستخبر عن سر ليلى تركته ... بعمياء من ليلى بغير يقين
يقولون خبرنا فأنت أمينها ... وما أنا إن خبرتهم بأمين

ونوع خيره الله تعالى فيه بين الأمرين، وهذا منه ما أظهره لمن رآه أهلاً له ومنه ما لم يظهره لأمر ما فلعل ما وهب له عليه الصلاة والسلام من العلم بدقائق أسرار الأجرام العلوية وحكمها وما أراد الله تعالى بها مما لم يظهره للناس كعلم الشريعة لأنه مما لا يضبط بقاعدة وتفصيل الأمر فيه لا يكاد يتيسر والبعض مرتبط بالبعض ومع هذا لا يستطيع العالم به أن يحمل الإقامة سفراً ولا الهزيمة ظفراً ولا العقد فلا ولا الإبرام نقضاً ولا اليأس رجاء ولا العدو صديقاً ولا البعيد قريباً ولا ولا ويوشك لو انتشر أمره وظهر حلوه ومره أن يضعف توكل كثير من العوام على الله تعالى والانقطاع إليه والرغبة فيما عنده وأن يلهوا به عن غيره وينبذوا ما سواه من العلوم النافعة لأجله فكل يتمنى أن يعلم الغيب ويطلع عليه ويدرك ما يكون في غد أو يجد سبيلاً إليه بل ربما يكون ذلك سبباً لبعض الأشخاص مفضياً إلى الاعتقاد القبيح والشرك الصريح، وقد كان في العرب شيء من ذلك فلو فتح هذا الباب لاتسع الخرق وعظم الشر، وقد ترك ﷺ هدم الكعبة وتأسيسها على قواعد إبراهيم عليه السلام لنحو هذه الملاحظة، فقد روي أنه عليه الصلاة والسلام قال لعائشة رضي الله تعالى عنها: «لولا قومك حديثو عهد بكفر لهدمت الكعبة وأسستها على قواعد إبراهيم» ولا يبعد أيضاً أن يكون في علم الله تعالى إظهار ذلك وعلم الناس به سبباً لتعطل المصالح الدنيوية ومنافياً للحكمة الإلهية فأوجب على رسوله ﷺ كتمه وترك تعليمه كما علم الشرائع.

ويمكن أن يكون قد علم ﷺ أن العلم بذلك من العلوم الوهبية التي يمن الله تعالى بها على من يشاء من عباده وأن من وهب سبحانه له من أمته قوة قدسية يهب سبحانه له ما يتحمله قوته منه، وقد سمعت ما سمعت في النقباء والنجباء، ويمكن أن يكون قد علم عليه الصلاة والسلام ذلك أمثالهم ومن هو أعلى قدراً منهم كالأمير علي كرم الله تعالى وجهه وهو باب مدينة العلم بطريق من طرق التعليم ومنها الإفاضة التي يذكرها بعض أهل الطرائق من الصوفية، ويجوز أن يقال: إن سر البعثة إنما هو إرشاد الخلق إلى ما يقربهم إليه سبحانه زلفى، وليس في معرفة التأثيرات الفلكية والحوادث الكونية قرب إلى الله تعالى والنبي ﷺ لم يأل جهداً في دعوة الخلق وإرشادهم إلى ما يقربهم لديه سبحانه وينفعهم يوم قدومهم عليه جل شأنه وما يتوقف عليه من أمر النجوم أمور دياناتهم كمعرفة القبلة وأوقات العبادات قد أرشد إليه من أرشد منهم وترك ما يحتاجون إليه من ذلك في أمور دنياهم كالزراعة إلى عاداتهم وما جربه كل قوم في أماكنهم وأشار إشارة إجمالية إلى بعض الحوادث الكونية لبعض الكواكب في بعض أحوالها كما في حديث الكسوف والخسوف السابق وأرشدهم إلى ما ينفعهم إذا ظهر مثل ذلك ويتضمن الاشارة الإجمالية أيضاً أمره تعالى بالاستعاذة من شر القمر في بعض حالاته وذلك في قوله تعالى ﴿قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ومن شر غاسق إذا وقب﴾ [الفلق: ١ ـ ٣] على ما جاء في حديث عائشة رضي الله تعالى عنها ويقرب في بعض الوجوه من شأنه ﷺ شأنه عليه

الصلاة والسلام في أمر النباتات ونحوها فبين لهم ما يحل ويحرم من ذلك وأشار إلى منفعة بعض الأشياء من نبات وغيره ولم يفصل القول في الخواص وترك الناس فيما يأكلون ويشربون مما هو حلال على عاداتهم إلا أنه قال: ﴿كلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾ [الأعراف: ٣١] نعم نهى ﷺ عن الخوض في علم النجوم لطلب معرفة الحوادث المستقبلة بواسطة الأوضاع المتوقف بزعم المنجمين على معرفة الطبائع سداً لباب الشر والوقوع في الباطل لأن معرفة ذلك على التحقيق ليست كسبية كمعرفة خواص النباتات ونحوها والمعرفة الكسبية التي يزعمها المنجمون ليست بمعرفة وإنما هي ظنون لا دليل لهم عليها كما تقدم وصرح به ارسطاليس أيضاً فإنه قال في أول كتابه السماع الطبيعي: إنه لا سبيل إلى اليقين بمعرفة تأثير الكواكب وحكي نحوه عن بطليموس، وكون المنهي عنه ذلك هو الذي صرح به بعض الأجلة وعليه حمل خبر أبي داود وابن ماجة «من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر» وأما الخوض في علم النجوم لتحصيل ما يعرف به أوقات الصلوات وجهة القبلة وكم مضى من الليل أو النهار وكم بقي وأوائل الشهور الشمسية ونحو ذلك ومنه فيما أرى ما يعرف به وقت الكسوف والخسوف فغير منهي عنه بل العلم المؤدي لبعض ما ذكر من فروض الكفاية بل إن كان علم النجوم عبارة عن العلم الباحث عن النجوم باعتبار ما يعرض لها من المقارنة والمقابلة والتثليث والتسديس وكيفية سيرها ومقدار حركاتها ونحو ذلك مما يبحث عنه في الزيج أو كان عبارة عما يعم ذلك والعلم الذي يتوصل به إلى معرفة ارتفاع الكوكب وانخفاضه ومعرفة الماضي من الليل والنهار ومعرفة الأطوال والأعراض ونحو ذلك مما تضمنه علم الأسطرلاب والربع المجيب ونحوهما فهو مما لا أرى بأساً في تعلمه مطلقاً وإن كان عبارة عن العلم الباحث عن أحكامها وتأثيراتها التي تقتضيها باعتبار أوضاعها وطبائعها على ما يزعمه الأحكاميون.

فهذا الذي اختلف في أمره فقال بعضهم بحرمة تعلمه لحديث أبي داود وابن ماجة السابق والقائل بهذا قائل بحرمة تعلم السحر وهو أحد أقوال في المسألة فيها الإفراط والتفريط، ثانيها أنه مكروه، ثالثها أنه مباح، رابعها أنه فرض كفاية، خامسها أنه كفر والجمهور على الأول ولأن فيه ترويج الباطل وتعريض الجهلة لاعتقاد أن أحكام النجوم المعروفة بين أهلها حق والكواكب مؤثرة بنفسها، وقيل: يحرم تعلمه لأنه منسوخ فقد قال الكرماني في عجائبه: كان علم النجوم علماً نبوياً فنسخ. وتعقب هذا بأنه لا معنى لنسخ العلم نفسه وإن حمل الكلام على معنى كان تعلمه مباحاً فنسخ ذلك إلى التحريم كان في الاستدلال مصادرة وقال بعضهم: لا حرمة في تعلمه إنما الحرمة في اعتقاد صحة الأحكام وتأثيرات الكواكب على الوجه الذي يقوله جهلة الأحكاميين لا مطلقاً، وأجيب عن الخبر السابق بأنه محمول على تعلم شيء من علم النجوم على وجه الاعتناء بشأنه كما يرمز إليه ـ اقتبس ـ وذلك لا يتم بدون اعتقاد صحة حكمة وأن الكواكب مؤثرات، وتعلمه على هذا الوجه حرام وبدونه مباح وفيه بحث.

وقيل في الجواب: إن خبر فيمن ادعى علماً بحكم من الأحكام آخذاً له من النجوم قائلاً الأمر كذا ولا بد لأن النجم يقتضيه البتة وهو لا شك في إثمه وحرمة دعواه التي قامت الأدلة على كذبها وهو كما ترى، كلام بعض أجلة العلماء صريح في إباحة تعلمه متى اعتقد أن الله تعالى أجرى العادة بوقوع كذا عند حلول الكوكب الفلاني منزلة كذا مثلاً مع جواز التخلف، واستظهر بعض حرمة التعلم مطلقاً متى كان فيه اغراء الجهلة بذلك العلم وإيقاعهم في محذور اعتقاد التأثير أو كان فيه غير ذلك من المفاسد وكراهته إن سلم من ذلك لما فيه من تضييع الأوقات فيما لا فائدة فيه ومبناه ظنون وأوهام وتخيلات، ولا يبعد القول بأنه يباح للعالم الراسخ النظر في كتبه للإطلاع على ما قالوا والوقوف على مناقضاتهم واختلافاتهم التي سمعت بعضاً منها لينفر عنها الناس ويرد العاكفين عليها كما يباح له النظر في كتب

سائر أهل الباطل كاليهود والنصارى لذلك بل لو قيل بسنيته لهذا الغرض لم يبعد لكن أنت تعلم أن السلف الصالح لم يحوموا حول شيء منه بسوى ذمه وذم أهله ولم يتطلبوا كتاباً من كتبه لينظروا فيه على أي وجه كان النظر؛ ونسبة خلاف ذلك إلى أحد منهم لا تصح فالحزم اتباعهم في ذلك وسلوك مسلكهم فهو لعمري أقوم المسالك، وهذا واعترض القول باطلاعه ﷺ على ما ذكر من شأن الأجرام العلوية بأن فيه فتح باب الشبهة في كون اخباره ﷺ بالغيوب من الوحي لجواز أن تكون من أحكام النجوم على ذلك القول. وأجيب بأن الشبهة إنما تتأتى لو ثبت أنه عليه الصلاة والسلام رصد ولو مرة كوكباً من الكواكب وحقق منزلته وأخبر بغيب إذ مجرد العلم بأن لكوكب كذا حكم كذا إذا حل بمنزلة كذا لا يقيد بدون معرفة أنه حل في تلك المنزلة فحيث لم يثبت أنه ﷺ فعل ذلك لا يفتح باب الشبهة وفيه بحث ظاهر، وبأن علمه ﷺ بما تدل عليه الأوضاع عند القائلين به ليس إلا عن وحي فغاية ما يلزم على تلك الشبهة أن يكون خبره بالغيب بواسطة علم أحكام النجوم الذي علمه بالوحي وأي خلل يحصل من هذا في نبوته عليه الصلاة والسلام بل هذه الشبهة تستدعي كونه نبياً كما أن عدمها كذلك.

وتعقب بأنه متى سلم أن للأوضاع الفلكية دلالة على أمور الغيبية وأنه ﷺ يعلم ما تدل عليه يقع الاشتباه بينه وبين غيره من علماء ذلك العلم المخبرين بالغيب إذا وقع كما أخبروا والتفرقة بأنه عليه الصلاة والسلام قد أوحى إليه بذلك دون الغير فرع كونه نبياً وهو أول المسألة، واختير في الجواب أن يقال: إن إخباره ﷺ بالغيب إن كان بعد ثبوت نبوته بمعجز غير ذلك لا تتأتى الشبهة إن أفهم أن خبره بواسطة الوحي ولا تضر إن لم يفهم إذ غاية ما في الباب أنه نبي لظهور المعجز على يده قبل أن أخبر بغيب بواسطة وضع فلكي وشاركه غيره في ذلك، وإن كان قبل ثبوت نبوته بمعجز غيره بأن كان التحدي بذلك الخبر ووقوع ما أخبر به فالذي يدفع الشبهة حينئذ عدم القدرة على المعارضة فلا يستطيع منجم أن يخبر صادقاً بمثل ذلك بمقتضى علمه بالأوضاع ومقتضياتها فتدبر، ثم الظاهر على ما ذكره الشيخ الأكبر قدس سره في النقباء والنجباء أن لكل من الأنبياء عليهم السلام اطلاعاً على ذلك إذ رتبة النبي فوق رتبة الولي وعلمه فوق علمه إذ هو الركن الأعظم في الفضل.

ولا حجة في قصة موسى والخضر عليهما السلام على خلافه، أما على القول بنبوة الخضر عليه السلام فظاهر وكذا على القول بولايته وأنه فعل ما فعل عن أمر الله تعالى بواسطة نبي، وأما على القول بولايته وأنه فعل ذلك لعلم أوتيه بلا واسطة نبي فلأنه لا يدل إلا على فقدان موسى عليه السلام العلم بتلك الأمور الثلاثة وعلم الخضر بها ولا يلزم من ذلك أن يكون الخضر أعلم منه مطلقاً وهو ظاهر، وعلى هذا جوز إبقاء الآية على ظاهرها فيكون إبراهيم عليه السلام قد نظر في النجوم حسبما علمه الله تعالى من أحوال الملكوت الأعلى واستدل على أنه سيسقم بما استدل، ولعل نظره كان في طالع الوقت أو نحوه أو طالع ولادته أو طالع سقوط النطفة التي خلق منها والعلم به بالوحي أو بواسطة العلم بطالع الولادة؛ والاعتراض على ذلك بأنه يلزم عليه تقويته عليه السلام ما هم عليه من الباطل في أمر النجوم وارد أيضاً على حمل ما في الآية على التعريض والجواب هو الجواب، هذا وإذا أحطت خبراً بجميع ما ذكرت لك في هذا المقام فأحسن التأمل فيما تضمنه من النقض والإبرام وقد جمعت لك ما لم أعلم أنه جمع في تفسير ولا أبرىء نفسي عن الخطأ والسهو والتقصير والله سبحانه ولي التوفيق وبيده عز وجل أزمة التحقيق، وقوله تعالى ﴿**فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ**﴾ تفريع على قوله عليه السلام ﴿**إني سقيم**﴾ أي أعرضوا وتركوا قربه، والمراد أنهم ذهبوا إلى معيدهم وتركوه، و ﴿**مدبرين**﴾ إما حال مؤكدة أو حال مقيدة بناء على أن المراد بسقيم مطعون أو أنهم توهموا مرضاً له عدوى مرض الطاعون أو غيره فإن المرض الذي له عدوى بزعم الأطباء لا يختص بمرض الطاعون فكأنه قيل: فأعرضوا

عنه هاربين مخافة العدوى ﴿فَرَاغَ إِلَى آلهتهم﴾ فذهب بخفية إلى أصنامهم التي يعبدونها، وأصل الروغان ميل الشخص في جانب ليخدع من خلفه فتجوز به عما ذكر لأنه المناسب هنا ﴿فَقَالَ﴾ للأصنام استهزاء ﴿أَلاَ تَأْكُلُونَ﴾ من الطعام الذي عندكم، وكان المشركون يضعون في أيام أعيادهم طعاماً لدى الأصنام لتبرك عليه، وأتى بضمير العقلاء لمعاملته عليه السلام إياهم معاملتهم ﴿مَا لَكُمْ لا تنطقون﴾ بجوابي ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ﴾ فمال مستعلياً عليهم وقوله تعالى ﴿ضَرْباً﴾ مصدر لراغ عليهم باعتبار المعنى فإن المراد منه ضربهم أو لفعل مضمر هو مع فاعله حال من فاعله أي فراغ عليهم يضربهم ضرباً أو هو حال منه على أنه مصدر بمعنى الفاعل أي ضارباً أو مفعول له أي لأجل ضرب. وقرأ الحسن «سفقاً» و «صفقاً» أيضاً ﴿بالْيَمِين﴾ أي باليد اليمين كما روي عن ابن عباس، وتقييد الضرب باليمين للدلالة على شدته وقوته لأن اليمين أقوى الجارحتين وأشدهما في الغالب وقوة الآلة تقتضي شدة الفعل وقوته أو بالقوة على أن اليمين مجاز عنها.

روي أنه عليه السلام كان يجمع يديه في الآلة التي يضربها بها وهي الفأس فيضربها بكمال قوته، وقيل المراد باليمين الحلف، وسمي الحلف يميناً إما لأن العادة كانت إذا حلف شخص لآخر جعل يمينه بيمينه فحلف أو لأن الحلف يقوي الكلام ويؤكده، وأريد باليمين قوله عليه السلام ﴿تالله لأكيدن أصنامكم﴾ [الأنبياء: ٥٧] والباء عليه للسببية أي ضرباً بسبب اليمين الذي حلفه قبل وهي على ما تقدم للاستعانة أو للملابسة ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ﴾ أي إلى إبراهيم عليه السلام بعد رجوعهم من عيدهم وسؤالهم عن الكاسر وقولهم ﴿فأتوا به على أعين الناس﴾ [الأنبياء: ٦١] ﴿يَزِفُّونَ﴾ حال من واو أقبلوا أي يسرعون من زف النعام أسرع لخلطه الطيران بالمشي ومصدره الزف والزفيف، وقيل ﴿يزفون﴾ أي يمشون على تؤدة ومهل من زفاف العروس إذ كانوا في طمأنينة من أن ينال أصنامهم بشيء لعزتها، وليس بشيء.

وقرأ حمزة ومجاهد وابن وثاب والأعمش «يُزِفُّونَ» بضم الياء من أزف دخل في الزفيف فالهمزة ليست للتعدية أو حمل غيره على الزفيف فهي لها قاله الأصمعي وقرأ مجاهد أيضاً وعبد الله بن يزيد والضحاك ويحيى بن عبد الرحمن المقري وابن أبي عبلة «يزفون» مضارع وزف بمعنى أسرع، قال الكسائي، والفراء: لا نعرف وزف بمعنى زف وقد أثبته الثقات فلا يضر عدم معرفتهما. وقرىء «يزفون» بالبناء للمفعول، وقرىء «يَزْفُونَ» بسكون الزاي من زفاه إذا حداه كأن بعضهم يزفو بعضاً لتسارعهم إليه ﴿قَالَ﴾ بعد أن أتوا به عليه السلام وجرى ما جرى من المحاورة على سبيل التوبيخ والإنكار عليهم ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ أي الذي تنحتونه من الأصنام فما موصولة حذف عائدها وهو الظاهر المتبادر، وجوز كونها مصدرية أي أتعبدون نحتكم، وتوبيخهم على عبادة النحت مع أنهم يعبدون الأصنام وهي ليست نفس النحت للإشارة إلى أنهم في الحقيقة إنما عبدوا النحت لأن الأصنام قبله حجارة ولم يكونوا يعبدونها وإنما عبدوها بعد أن نحتوها ففي الحقيقة ما عبدوا إلا نحتهم، وفيه ما فيه ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿تعبدون﴾ لتأكيد الإنكار والتوبيخ والاحتجاج على أنه لا ينبغي تلك العبادة، وما موصولة حذف عائدها أيضاً أي خلقكم وخلق الذي تعملونه أي من الأصنام كما هو الظاهر، وهي عبارة عن مواد وهي الجواهر الحجرية وصور حصلت لها بالنحت؛ وكون المواد مخلوقة له عز وجل ظاهر، وكون الصور والأشكال كذلك مع أنها بفعلهم باعتبار أن الأقدار على الفعل وخلق ما يتوقف عليه من الدواعي والأسباب منه تعالى، وكون الأصنام وهي ما سمعت معمولة لهم باعتبار جزئها الصوري فهو مع كونه معمولاً لهم مخلوق لله تعالى بذلك الاعتبار فلا إشكال.

وفي المتمة للمسألة المهمة تأليف الشيخ إبراهيم الكوراني عليه الرحمة صريح الكلام دال على أن الله تعالى

خالق للأصنام بجميع أجزائها التي منها الأشكال، ومعلوم أن الأشكال إنما حصلت بتشكيلهم فتكون الأشكال مخلوقة لله تعالى معمولة لهم لكون نحتهم وتشكيلهم عين خلق الله تعالى الأشكال بهم.

ولا استحالة في ذلك لأن العبد لا قوة له إلا بالله تعالى بالنص ومن لا قوة له إلا بغيره فالقوة لذلك الغير لا له فلا قوة حقيقة إلا لله تعالى، ومن المعلوم أنه لا فعل للعبد إلا بقوة فلا فعل له إلا بالله تعالى فلا فعل حقيقة إلا لله تعالى، وكل ما كان كذلك كان النحت والتشكيل عين خلق الله سبحانه الأشكال بهم وفيهم بالذات وغيره بالاعتبار فيكون المعمول عين المخلوق بالذات وغيره بالاعتبار فإن إيجاد الله عز وجل يتعلق بذات الفعل من حيث هو وفعل العبد بالمعنى المصدري يتعلق بالفعل بمعنى الحاصل بالمصدر من حيث كونه طاعة أو معصية أو مباحاً لكونه مكلفاً والله تعالى له الاطلاق ولا حاكم عليه سبحانه انتهى فافهم.

والزمخشري جعل أيضاً ما موصولة إلا أنه جعل المخلوق له تعالى هو الجواهر ومعمولهم هو الشكل والصورة إما على أن الكلام على حذف مضاف أي وما تعملون شكله وصورته، وإما على أن الشائع في الاستعمال ذلك فإنهم يقولون عمل النجار الباب والصائغ الخلخال والبناء البناء ولا يعنون إلا عمل الشكل بدون تقدير شكل في النظم كأن تعلق العمل بالشيء هو هذا التعلق لا تعلق التكوين، وهو مبني على اعتقاده الفاسد من أن أفعال العباد مخلوقة لهم، والاحتجاج في الآية على الأول بأن يقال: إنه تعالى خلق العابد والمعبود مادة وصورة فكيف يعبد المخلوق المخلوق؟ وعلى الثاني بأنه تعالى خلق العابد ومادة المعبود فكيف يعبد المخلوق المخلوق على أن العابد منهما هو الذي عمل صورة المعبود، والأول أظهر، وعدل عن ضمير ﴿ما تنحتون﴾ أو الإتيان به دون ما تعملون للإيذان بأن مخلوقية الأصنام لله عز وجل ليس من حيث نحتهم لها فقط بل من حيث سائر أعمالهم أيضاً من التصوير والتحلية والتزيين. وفي الكشف فائدة العدول الدلالة على أن تأثيرهم فيها ليس النحت ثم العمل يقع على النحت والأثر الحاصل منه ولا يقع النحت على الثاني فلا بد من العدول لهذه النكتة وبه يتم الاحتجاج أي الذي قيل على اعتبار الزمخشري. وجوز أن يكون الموصول عاماً للأصنام وغيرها وتدخل أولياً ولا يتأتى عليه حديث العدول، وقيل ما مصدرية والمصدر مؤول باسم المفعول ليطابق ﴿ما تنحتون﴾ على ما هو الظاهر فيه ويتحد المعنى مع ما تقدم على احتمال الموصولية، وجوز بقاء المصدر على مصدريته والمراد به الحاصل بالمصدر أعني الأثر وكثيراً ما يراد به ذلك حتى قيل: إنه مشترك بينه وبين التأثير والإيقاع أي خلقكم وخلق عملكم، واحتج بالآية على المعتزلة وتعقب بأنه لا يصح لأن الاستدلال بذلك على أن العابد والمعبود جميعاً خلق الله تعالى فكيف يعبد المخلوق مخلوقاً ولو قيل: إن العابد وعمله من خلق الله تعالى لفات الملاءمة والاحتجاج، ولأن ﴿ما﴾ في الأول موصولة فهي في الثاني كذلك لئلا ينفك النظم، وما قاله القاضي البيضاوي من أنه لا يفوت الاحتجاج بل إنه أبلغ فيه لأن فعلهم إذا كان بخلق الله تعالى كان مفعولهم المتوقف على فعلهم أولى بذلك، وأيد بأن الأسلوب يصير من باب الكناية وهو أبلغ من التصريح ولا فائدة في العدول عن الظاهر إلا هذا فيجب صوناً لكلام الله تعالى عن العبث تعقبه في الكشف بأنه لا يتم لأن الملازمة ممنوعة عند القوم ألا ترى أنهم معترفون بأن العبد وقدرته وإرادته من خلق الله تعالى ثم المتوقف عليهما وهو الفعل يجعلونه خلق العبد، والتحقيق أنه يفيد التوقف عليه تعالى وهم لا ينكرونه إنما الكلام في الإيجاد والأحداث ثم قال: وأظهر منه أن يقال: لأن المعمول من حيث المادة كانوا لا ينكرون أنه من خلق الله تعالى فقيل هو من حيث الصورة أيضاً خلقه فهو مخلوق من جميع الوجوه مثلكم من غير فرق فلم تسوونه بالخالق وما ازداد بفعلكم إلا بعد استحقاق عن العبادة ولما كان هذا المعنى في تقرير الزمخشري على أبلغ وجه كان هذا البناء متداعياً كيفما قرر، على

أن فائدة العدول قد اتضحت حق الوضوح فبطل الحصر أيضاً، وقد قيل عليه: إن المراد بالفعل الحاصل بالمصدر لأنه بالمعنى الآخر أعني الإيقاع من النسب التي ليست بموجودة عندهم، وتوقف الحاصل بالإيقاع على قدرة العبد وإرادته توقف بعيد بخلاف توقفه على الايقاع الذي لا وجود له فيكون ما ذكره في معرض السند مجتمعاً مع المقدمة الممنوعة فلا يصلح للسندية، والمراد بمفعولهم أشكال الأصنام المتوقف على ذلك المعنى القائم بهم. إذا كان ذاك بخلقه تعالى فلأن يكون الذي لا يقوم بهم بل بما يباينهم بخلقه تعالى أولى.

ولا مجال للخصم أن يمنع هذه الملازمة إذ قد أثبت خلق المتولدات مطلقاً للعباد بواسطة خلقهم لما يقوم بهم، وانتفاء الأول ملزوم لانتفاء الثاني فتأمل، وقال في التقريب انتصاراً لمن قال بالمصدرية: إن الجواهر مخلوقة له تعالى وفاقاً والأعمال مخلوقة أيضاً لعموم الآية فكيف يعبد ما لا مدخل له في الخلق فدعوى فوات الاحتجاج باطلة وكذلك فك النظم والتبتير، وتعقبه في الكشف أيضاً فقال فيه: إن المقدمة الوفاقية إذا لم يكن بد منها ولم تكن معلومة من هذا السياق يلزم فوات الاحتجاج، وأما الحمل على التغليب في الخطاب فتوجيه لا ترجيح والكلام في الثاني.

ثم قال: وأما أن المصدرية أولى لئلا يلزم حذف الضمير فمعارض بأن الموصولة أكثر استعمالاً وهي أنسب بالسياق السابق على أنه لا بد من تقدير عملهم في المنحوت فيزداد الحذف.

واعترض بأنا لا نسلم الأكثرية وكذا لا نسلم أنها أنسب بالسياق لما سمعت من أن الأسلوب على ذلك من باب الكناية وهو أبلغ من التصريح والتقدير المذكور ليس بلازم لجواز إبقاء الكلام على عمومه الشامل للمنحوت بالطريق الأولى أو يقدر بمصدر مضاف إضافة عهدية، وبعضهم جعلها موصولة كناية عن العمل لئلا ينفك النظم ويظهر احتجاج الأصحاب على خلق أفعال العباد. وتعقبه أيضاً بأنه أفسد من الأول لما فيه من التعقيد وفوات الاحتجاج، وكون الموصول في الأول عبارة عن الأعيان وفي الثاني كناية عن المعاني وانفكاك النظم ليس لخصوص الموصولية والمصدرية بل لتباين المعنيين وهو باق. وصاحب الانتصاف قال بتعين حملها على المصدرية لأنهم لم يعبدوا الأصنام من حيث كونها حجارة وإنما عبدوها من حيث أشكالها فهم في الحقيقة إنما عبدوا عملهم وبذلك تبتلج الحجة عليهم بأنهم وعملهم مخلوقان لله تعالى فكيف يعبد المخلوق مخلوقاً مثله مع أن المعبود كسب العابد وعمله، وأجاب عن حديث لزوم انفكاك النظم بأن لنا أن نحمل الأولى على المصدرية أيضاً فإنهم في الحقيقة إنما عبدوا نحتوا، وفي دعوى التعين بحث، وجوز كون ما الثانية استفهامية للإنكار والتحقير أي وأي شيء تعملون في عبادتكم أصناماً نحتموها أي لا عمل لكم يعتبر، وكونها نافية أي وما أنتم تعملون شيئاً في وقت خلقكم ولا تقدرون على شيء، ولا يخفى أن كلا الاحتمالين خلاف الظاهر بل لا ينبغي أن يحمل عليه التنزيل، وأظهر الوجوه كونها موصولة وتوجيه ذلك على ما يقوله الأصحاب ثم كونها مصدرية، والاستدلال بالآية عليه ظاهر، وقول صاحب الكشف: والإنصاف أن استدلال الأصحاب بهذه الآية لا يتم أن أراد به ترجيح احتجاج المعتزلة خارج عن دائرة الانصاف، ثم إنها على تقدير أن لا تكون دليلاً لهم لا تكون دليلاً للمعتزلة أيضاً كما لا يخفى على المنصف، هذا ولما غلبهم إبراهيم عليه السلام بالحجة مالوا إلى الغلبة بقوة الشوكة ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً﴾ حائطاً توقدون فيه النار، وقيل: منجنيقاً.

﴿فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ في النار الشديدة من الجحمة وهي شدة التأجج والانقاد، واللام بدل عن المضاف إليه أو للعهد، والمراد جحيم ذلك البنيان التي هي فيه أو عنده ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً﴾ سوءاً باحتيال فإنه عليه السلام لما قهرهم بالحجة قصدوا تعذيبه بذلك لئلا يظهر للعامة عجزهم ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ الأذلين بإبطال كيدهم وجعله برهاناً ظاهراً ظهور نار القرى ليلاً على علم على علو شأنه عليه السلام حيث جعل سبحانه النار عليه برداً وسلاماً،

وقيل: أي الهالكين، وقيل: أي المعذبين في الدرك الأسفل من النار والأول أنسب.

وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ
السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن
شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ
نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾
سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ
الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا
عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ
﴿١١٦﴾ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾
سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ
﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ
﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾
وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾

﴿**وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي**﴾ إلى حيث أمرني أو حيث أتجرد فيه لعبادته عز وجل جعل الذهاب إلى المكان الذي أمره ربه تعالى بالذهاب إليه ذهاباً إليه وكذا الذهاب إلى مكان يعبده تعالى فيه لا أن الكلام بتقدير مضاف، والمراد بذلك المكان الشام، وقيل مصر وكأن المراد إظهار اليأس من إيمانهم وكراهة البقاء معهم أي إني مفارقكم ومهاجر منكم إلى ربي ﴿**سَيَهْدِين**﴾ إلى ما فيه صلاح ديني أو إلى مقصدي.

والسين لتأكيد الوقوع في المستقبل لأنها في مقابلة لن المؤكد للنفي كما ذكره سيبويه، وبت عليه السلام القول لسبق وعده تعالى إياه بالهداية لما أمره سبحانه بالذهاب أو لفرط توكله عليه السلام أو للبناء على عادته تعالى معه وإنما لم يقل موسى عليه السلام مثل ذلك بل قال: ﴿عسى ربي أن يهديني سواء السبيل﴾ [القصص: ٢٢] بصيغة التوقع قيل: لعدم سبق وعد وعدم تقدم عادة واقتضاء مقامه رعاية الأدب معه تعالى بأن لا يقطع عليه سبحانه بأمر قبل وقوعه، وتقديمه على رعاية فرط التوكل ومقامات الأنبياء متفاوتة وكلها عالية، وقيل لأن موسى عليه السلام قال ما قال قبل البعثة وإبراهيم عليه السلام قال ذلك بعدها، وقيل لأن إبراهيم كان بصدد أمر ديني فناسبه الجزم وموسى كان بصدد أمر دنيوي فناسبه عدم الجزم، ومن الغريب ما قيل ونحا إليه قتادة أنه لم يكن مراد إبراهيم عليه السلام بقوله ﴿**إني**﴾ الخ الهجرة وإنما أراد بذلك لقاء الله تعالى بعد الإحراق ظاناً أنه يموت في النار إذا ألقي فيها وأراد بقوله ﴿**سيهديني**﴾ الهداية إلى الجنة، ويدفع هذا القول دعاؤه بالوالد حيث قال: ﴿**رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾ بعض الصالحين يعينني على الدعوة والطاعة ويؤنسني في الغربة، والتقدير ولداً من الصالحين وحذف لدلالة الهبة عليه فإنها

في القرآن وكلام العرب غالب استعمالها مع العقلاء في الأولاد، وقوله تعالى ﴿ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً﴾ [مريم: ٥٣] من غير الغالب أو المراد فيه هبة نبوته لا هبة ذاته وهو شيء آخر، ولقوله تعالى ﴿**فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ**﴾ فإنه ظاهر في أن ما بشر به عين ما استوهبه مع أن مثله إنما يقال عرفاً في حق الأولاد، ولقد جمع بهذا القول بشارات أنه ذكر لاختصاص الغلام به وأنه يبلغ أو أن البلوغ بالسن المعروف فإنه لازم لوصفه بالحليم لأنه لازم لذلك السن بحسب العادة إذ قلما يوجد في الصبيان سعة صدر وحسن صبر وذلك إغضاء في كل أمر، وجوز أن يكون ذلك مفهوماً من قوله تعالى ﴿**غلام**﴾ فإنه قد يختص بما بعد البلوغ وإن كان ورد عاماً وعليه العرف كما ذكره الفقهاء وأنه يكون حليماً وأي حلم مثل حلمه عرض عليه أبوه وهو مراهق الذبح فقال ﴿**ستجدني إن شاء الله من الصابرين**﴾ فما ظنك به بعد بلوغه، وقيل مانعت الله تعالى نبياً بالحلم لعزة وجود غير إبراهيم وابنه عليهما السلام، وحالهما المذكورة فيما بعد تدل على ما ذكر فيهما.

والفاء في قوله تعالى ﴿**فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ**﴾ فصيحة تعرب عن مقدر قد حذف تعويلاً على شهادة الحال وإيذاناً بعدم الحاجة إلى التصريح به لاستحالة التخلف أي فوهبناه له ونشأ فلما بلغ رتبة أن يسعى معه في أشغاله وحوائجه، و «مع» ظرف للسعي وهي تدل على معنى الصحبة واستحداثها، وتعلقها بمحذوف دل عليه المذكور لأن صلة المصدر لا تتقدمه لأنه عند العمل مؤول بأن المصدرية والفعل ومعمول الصلة لا يتقدم على الموصول لأنه كتقدم جزء الشيء المرتب الأجزاء عليه أو لضعفه عن العمل فيه بحث، أما أولاً فلأن التأويل المذكور على المشهور في المصدر المنكر دون المعرف، وأما ثانياً فلأنه إذا سلم العموم فليس كل ما أول بشيء حكمه حكم ما أول به، وأما ثالثاً فلأن المقدم هنا ظرف وقد اشتهر أنه يغتفر فيه ما لا يغتفر في غيره.

وصرحوا بأنه يكفيه رائحة الفعل وبهذا يضعف حديث المنع لضعف العامل عن العمل فالحق أنه لا حاجة في مثل ذلك إلى التقدير معرفاً كان المصدر أو منكراً كقوله تعالى ﴿ولا تأخذكم بهما رأفة﴾ [النور: ٢] وهو الذي ارتضاه الرضى وقال به العلامة الثاني، واختار صاحب الفرائد كونها متعلقة بمحذوف وقع حالاً من ﴿**السعي**﴾ أي فلما بلغ السعي حال كون ذلك السعي كائناً معه، وفيه أن السعي معه معناه اتفاقهما فيه فالصحبة بين الشخصين فيه، وما قدره يقتضي الصحبة بين السعي وإبراهيم عليه السلام ولا يطابق المقام، وجوز تعلقه ببلغ، ورد بأنه يقتضي بلوغهما معاً حد السعي لما سمعت من معنى مع وهو غير صحيح، وأجيب بأن مع على ذلك لمجرد الصحبة على أن تكون مرادفة عند نحو فلان يتغنى مع السلطان أي عنده ويكون حاصل المعنى بلغ عند أبيه وفي صحبته متخلقاً بأخلاقه متطبعاً بطباعه ويستدعي ذلك كمال محبة الأب إياه، ويجوز على هذا أن تتعلق بمحذوف وقع حالاً من فاعل ﴿**بلغ**﴾ ومن مجيء مع لمجرد الصحبة قوله تعالى حكاية عن بلقيس ﴿أسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾ [النمل: ٤٤] فلتكن فيما نحن فيه مثلها في تلك الآية وتعقب بأن ذاك معنى مجازي والحمل على المجاز هنالك للصارف ولا صارف فيما نحن فيه فليحمل على الحقيقة على أنه لا يتعين هنالك أن تكون لمعية الفاعل لجواز أن يراد أسلمت لله ولرسوله مثلاً، تقديم ﴿**مع**﴾ إشعاراً منها بأنها كانت تظن أنها على دين قبل وأنها مسلمة لله تعالى فيما كانت تعبد من الشمس فدل على أنه إسلام يعتد به من أثر متابعة نبيه لا إسلام كالأول فاسد، قال صاحب الكشف: وهذا معنى صحيح جمل الآية عليه أولى وإن حمل على معية الفاعل لم يكن بد من محذوف مع بلوغ دعوته وإظهار معجزته لأن فرق ما بين المقيد ومطلق الجمع معلوم بالضرورة، وزعم بعض أنه لا مانع من إرادة الحقيقة واستحداث إسلامهما معاً على معنى أنه عليه السلام وافقها أو لقنها وليس بشيء كما لا يخفى.

وقيل يراد بالسعي على تقدير تعلق مع يبلغ المسعى وهو الجبل المقصود إليه بالمشي وهو تكلف لا يصار إليه.

وبالجملة الأولى تعلقها بالسعي، والتخصيص لأن الأب أكمل في الرفق وبالاستصلاح له فلا يستسعيه قبل أوانه أو لأنه عليه السلام استوهبه لذلك، وفيه على الأول بيان أوانه وأنه في غضاضة عوده كان فيه ما فيه من رصانة العقل ورزانة الحلم حتى أجاب بما أجاب، وعلى الثاني بيان استجابة دعائه عليه السلام وكان للغلام يومئذ ثلاث عشرة سنة والولد أحب ما يكون عند أبيه في سن يقدر فيه على إعانة الأب وقضاء حاجة ولا يقدر فيه على العصيان ﴿**قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ**﴾ يحتمل أنه عليه السلام رأى في منامه أنه فعل ذبحه فحمله على ما هو الأغلب في رؤيا الأنبياء عليهم السلام من وقوعها بعينها، ويحتمل أنه رأى ما تأويله ذلك لكن لم يذكره وذكر التأويل كما يقول الممتحن وقد رأى أنه راكب في سفينة رأيت في المنام أني ناج من هذه المحنة، وقيل إنه رأى معالجة الذبح ولم ير أنهار الدم فأني أذبحك أني أعالج ذبحك، ويشعر صنيع بعضهم اختيار أنه عليه السلام أتى في المنام فقيل له اذبح ابنك ورؤيا الأنبياء وحي كالوحي في اليقظة، وفي رواية أنه رأى ليلة التروية كأن قائلاً يقول إن الله تعالى يأمرك بذبح ابنك فلما أصبح روأ في ذلك وفكر من الصباح إلى الرواح أمن الله تعالى هذا الحلم أم من الشيطان فمن ثم سمي يوم التروية فلما أمسى رأى مثل ذلك فعرف أنه من الله تعالى فمن ثم سمي يوم عرفة ثم رأى مثله في الليلة الثالثة فهم بنحره فسمي يوم النحر، وقيل إن الملائكة حين بشرته بغلام حليم قال هو إذن ذبيح الله فلما ولد وبلغ حد السعي معه قيل له أوف بنذرك، ولعل هذا القول كان في المنام وإلا فما يصنع قوله ﴿**إني أرى في المنام أني أذبحك**﴾ وفي كلام التوراة التي بأيدي اليهود اليوم ما يرمز إلى أن الأمر بالذبح كان ليلاً فإنه بعد أن ذكر قول الله تعالى له عليه السلام خذ ابنك وامض إلى بلد العبادة وأصعده ثم قرباناً على أحد الجبال الذي أعرفك به قيل فأدلج إبراهيم بالغداة الخ فالأمر إما مناماً وإما يقظة لكن وقع تأكيداً لما في المنام إذ لا محيص عن الإيمان بما قصه الله تعالى علينا فيما أعجز به الثقلين من القرآن والحزم الجزم بكونه في المنام لا غير إذ لا يعول على ما في أيدي اليهود وليس في الأخبار الصحيحة ما يدل على وقوعه يقظة أيضاً.

ولعل السر في كونه مناماً لا يقظة أن تكون المبادرة إلى الامتثال أدل على كمال الانقياد والاخلاص.

وقيل: كان ذلك في المنام دون اليقظة ليدل على أن حالتي الأنبياء يقظة ومناماً سواء في الصدق، والأول أولى، والتأكيد لما في تحقق المخبر به من الاستبعاد، وصيغة المضارع في الموضعين قيل لاستحضار الصورة الماضية لنوع غرابة، وقيل: في الأول لتكرر الرؤيا وفي الثاني للاستحضار المذكور أو لتكرر الذبح حسب تكرر الرؤيا أو للمشاكلة؛ ومن نظر بعد ظهر له غير ذلك.

﴿**فَانظُرْ مَاذَا تَرَى**﴾ من الرأي؛ وإنما شاوره في ذلك وهو حتم ليعلم ما عنده فيما نزل من بلاء الله عز وجل فيثبت قدمه إن جزع ويأمن عليه إن سلم وليوطن نفسه عليه فيهون عليه ويكتسب المثوبة بالانقياد لأمر الله تعالى قبل نزوله وليكون سنة في المشاورة، فقد قيل: لو شاور آدم الملائكة في أكله من الشجرة لما فرط منه ذلك، وقرأ حمزة والكسائي «ماذا تُرِي» بضم التاء وكسر الراء خالصة أي ما الذي تريني إياه من الصبر وغيره أو أي شيء تريني على أن ما مبتدأ وذا موصول خبره ومفعولي ترى محذوفان أو ماذا كالشيء الواحد مفعول ثان لترى والمفعول الأول محذوف، وقرىء «ماذا تُرَى» بضم التاء وفتح الراء على البناء للمفعول أي ماذا تريك نفسك من الرأي، و ﴿**انظر**﴾ في جميع القراءات معلقة عن العمل وفي ﴿**ماذا**﴾ الاحتمالان فلا تغفل.

﴿**قال يا أبت افعل ما تؤمر**﴾ أي الذي تؤمر به فحذف الجار والمجرور دفعة أو حذف الجار أولاً فعدي الفعل

بنفسه نحو أمرتك الخير ثم حذف المجرور بعد أن صار منصوباً ثانياً، والحذف الأول شائع مع الأمر حتى كاد يعد متعدياً بنفسه فكأنه لم يجتمع حذفان أو افعل أمرك على أن ما مصدرية والمراد بالمصدر الحاصل بالمصدر أي المأمور به، ولا فرق في جواز إرادة ذلك من المصدر بين أن يكون صريحاً وأن يكون مسبوكاً.

وإضافته إلى ضمير إبراهيم إضافة إلى المفعول ولا يخفى بعد هذا الوجه، وهذا الكلام يقتضي تقدم الأمر وهو غير مذكور فإما أن يكون فهم من كلامه عليه السلام أنه رأى أنه يذبحه مأموراً أو علم أن رؤيا الأنبياء حق وأن مثل ذلك لا يقدمون عليه إلا بأمر، وصيغة المضارع للإيذان بغرابة ذلك مثلها في كلام إبراهيم على وجه وفيه إشارة إلى أن ما قاله لم يكن إلا عن حلم غير مشوب بجهل بحال المأمور به، وقيل: للدلالة على أن الأمر متعلق به متوجه إليه مستمر إلى حين الامتثال به، وقيل: لتكرر الرؤيا، وقيل: جيء بها لأنه لم يكن بعد أمر وإنما كانت رؤيا الذبح فأخبره بها فعلم لعلمه بمقام أبيه وإنه ممن لا يجد الشيطان سبيلاً بالقاء الخيالات الباطلة إليه في المنام أنه سيكون ذلك ولا يكون إلا بأمر إلهي فقال له افعل ما تؤمر بعد من الذبح الذي رأيته في منامك، ولما كان خطاب الأب ﴿**يا بني**﴾ على سبيل الترحم قال هو ﴿**يا أبت**﴾ على سبيل التوقير والتعظيم ومع ذلك أتى بجواب حكيم لأنه فوض الأمر حيث استشاره فأجاب بأنه ليس مجازها وإنما الواجب إمضاء الأمر.

﴿**ستجدني إن شاء الله من الصابرين**﴾ على قضاء الله تعالى ذبحاً كان أو غيره، وقيل: على الذبح والأول أولى لعموم ويدخل الذبح دخولاً أولياً، وفي قوله ﴿**من الصابرين**﴾ دون صابراً وإن كانت رؤوس الآي تقتضي ذلك من التواضع ما فيه، وقيل ولعله وفق للصبر ببركته مع بركة الاستثناء وموسى عليه السلام لما لم يسلك هذا المسلك من التواضع في قوله: ﴿ستجدني إن شاء الله صابراً﴾ [الكهف: ٦٩] حيث لم ينظم نفسه الكريمة في سلك الصابرين بل أخرج الكلام على وجه لا يشعر بوجود صابر سواه لم يتيسر له الصبر مع أنه لم يهمل أمر الاستثناء. وفيه أيضاً إغراء لأبيه عليه السلام على الصبر لما يعلم من شفقته عليه مع عظم البلاء حيث أشار إلى أن لله تعالى عباداً صابرين وهي زهرة ربيع لا تتحمل الفرك ﴿**فَلَمَّا أَسْلَمَا**﴾ أي استسلما وانقادا لأمر الله تعالى فالفعل لازم أو سلم الذبيح نفسه وإبراهيم ابنه على أنه متعد والمفعول محذوف.

وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه وابن عباس وعبد الله ومجاهد والضحاك وجعفر بن محمد والأعمش والثوري «سلما» وخرجت على ما سمعت ويجوز أن يكون المعنى فوضا إليه تعالى في قضائه وقدره، وقرىء «استسلما» وأصل لأفعال الثلاثة سلم هذا لفلان إذا خلص له فإنه سلم من أن ينازع فيه ﴿**وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ**﴾ صرعه على شقه فوقع جبينه على الأرض، وأصل التل الرمي على التل وهو التراب المجتمع ثم عمم في كل صرع، والجبين أحد جانبي الجبهة وشذ جمعه على أجبن وقياسه في القلة أجبنة ككثيب وأكثبة وفي الكثرة جبنان وجبن ككثبان وكثب، واللام لبيان ماخر عليه كما في قوله تعالى ﴿يخرون للأذقان﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٩] وقوله:

وخر صريعاً لليدين وللفم

وليست للتعدية، وقيل المراد كبه على وجهه وكان ذلك بإشارة منه. أخرج غير واحد عن مجاهد أنه قال لأبيه: لا تذبحني وأنت تنظر إلى وجهي عسى أن ترحمني فلا تجهز علي اربط يدي إلى رقبتي ثم ضع وجهي للأرض ففعل فكان ما كان، ولا يخفى أن ارادة ذلك من الآية بعيد، نعم لا يبعد أن يكون الذبيح قال هذا.

وفي الآثار حكاية أقوال غير ذلك أيضاً، منها ما في خبر للسدي أنه قال لأبيه عليهما السلام: يا أبت اشدد رباطي حتى لا اضطرب واكفف عن ثيابك حتى لا ينتضح عليها من دمي شيء فتراه أمي فتحزن واسرع مر السكين

على حلقي فيكون أهون للموت علي فإذا أتيت أمي فاقرأ عليها السلام مني فأقبل عليه إبراهيم يقبله. وكل منهما يبكي، ومنها ما في حديث أخرجه أحمد وجماعة عن ابن عباس أنه قال لأبيه وكان عليه قميص أبيض يا أبت ليس لي ثوب تكفنني فيه غيره فاخلعه حتى تكفنني فيه فعالجه ليخلعه فكان ما قص الله عز وجل. وكان ذلك عند الصخرة التي بمنى، وعن الحسن في الموضع المشرف على مسجد مني، وعن الضحاك في المنحر الذي ينحر فيه اليوم، وقيل كان ببيت المقدس وحكي ذلك عن كعب، وحكى الإمام مع هذا القول أنه كان بالشام.

﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ قيل ناداه من خلفه ملك من قبله تعالى بذلك، و ﴿أن﴾ مفسرة بمعنى أي[1] وقرأ زيد بن علي قد صدقت بحذفها، وقرىء «صدقت» بالتخفيف، وقرأ فياض «الريا» بكسر الراء والإدغام، وتصديقه عليه السلام الرؤيا توفيته حقها من العمل وبذل وسعه في ايقاعها وذلك بالعزم والإتيان بالمقدمات ولا يلزم فيه وقوع ما رآه بعينه، وقيل هو ايقاع تأويلها وتأويلها ما وقع، ويفهم من كلام الإمام أنه الاعتراف بوجوب العمل بها، ولا يدل على الإتيان بكل ما رآه في المنام، وهل أمر عليه السلام الشفرة على حلقه أم لا قولان ذهب إلى الثاني منهما كثير من الأجلة، وقد أخرج الإمام أحمد عن ابن عباس أنه عليه السلام لما أخذ الشفرة وأراد أن يذبحه نودي من خلفه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا، وأخرج هو وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عنه أنه عالج قميصه ليخلعه فنودي بذلك.

وأخرج ابن المنذر والحاكم وصححه من طريق مجاهد عنه أيضاً فلما أدخل يده ليذبحه فلم يحمل المدية حتى نودي أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا فأمسك يده، وأخرج عبد بن حميد وغيره من مجاهد فلما أدخل يده ليذبحه نودي أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا فأمسك يده ورفع رأسه فرأى الكبش ينحط إليه حتى وقع عليه فذبحه، وفي رواية أخرى عنه أخرجها عبد بن حميد أيضاً وابن المنذر أنه أمرّ السكين فانقلبت، وإلى عدم الإمرار ذهبت اليهود أيضاً لما في توراتهم مد إبراهيم يده فأخذ السكين فقال له ملاك الله من السماء قائلاً: يا إبراهيم يا إبراهيم قال: لبيك قال: لا تمد يدك إلى الغلام ولا تصنع به شيئاً، وذهب إلى الأول طائفة فمنهم من قال: إنه أمرها ولم تقطع مع عدم المانع لأن القطع بخلق الله تعالى فيها أو عندها عادة وقد لا يخلق سبحانه، ومنهم من قال: أنه أمرها ولم تقطع لمانع، فقد أخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن عطاء بن يسار أنه عليه السلام قام إليه بالشفرة فبرك عليه فجعل الله تعالى ما بين لبته إلى منحره نحاساً لا تؤثر فيه الشفرة، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي أنه عليه السلام جر السكين على حلقه فلم ينحر وضرب الله تعالى على حلقه صفيحة من نحاس، وأخرج الخطيب في تالي التلخيص عن فضيل بن عياض قال: أضجعه ووضع الشفرة فقلبها جبريل عليه السلام، وأخرج الحاكم بسند فيه الواقدي عن عطاء أنه نحر في حلقه فإذا هو قد نحر في نحاس فشحذ الشفرة مرتين أو ثلاثاً بالحجر، وضعف جميع ذلك. وقيل إنه عليه السلام ذبح لكن كان كلما قطع موضعاً من الحلق أوصله الله تعالى، وزعموا ورود ذلك في بعض الأخبار ولا يكاد يصح، وسيأتي قريباً إن شاء الله تعالى ما يتعلق بهذا المقام من الكلام، وجواب لما محذوف مقدر بعد ﴿صدقت الرؤيا﴾ أي كان ما كان مما تنطق به الحال ولا يحيط به المقال من استبشارهما وشكرهما الله تعالى على ما أنعم عليهما من دفع البلاء بعد حلوله والتوفيق لما لم يوفق غيرهما لمثله وإظهار فضلهما مع إحراز الثواب العظيم إلى غير ذلك، وهو أولى من تقدير فإذا ونحوه، وقدره بعض البصريين بعد ﴿وتله للجبين﴾ أي أجزلنا أجرهما، وعن الخليل وسيبويه تقديره قبل

---

(١) قوله وقرأ زيد بن علي قد صدقت بحذفها كذا في الأصل ولعل قد صدقت من زيادة القلم وحرر القراءة اهـ.

﴿وتله﴾ قال في البحر: والتقدير فلما أسلما أسلما وتله، وقال ابن عطية: وهو عندهم كقول امرىء القيس:

فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى

أي أجزنا وانتحى، وهو كما ترى، وقال الكوفيون: الجواب مثبت وهو ﴿وناديناه﴾ على زيادة الواو، وقالت فرقة: هو و ﴿تله﴾ على زيادتها أيضاً، ولعل الأولى ما تقدم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ابتداء كلام غير داخل في النداء وهو تعليل لإفراج تلك الشدة المفهوم من الجواب المقدر أو من الجواب المذكور أعني نادينا الخ على القول بأنه الجواب أو منه وإن لم يكن الجواب والعلة في المعنى إحسانهما، وكونه تعليلاً لما انطوى عليه الجواب من الشكر ليس بشيء.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ أي الابتلاء والاختبار البين الذي يتميز فيه المخلص من غيره أو المحنة البينة وهي المحنة الظاهرة صعوبتها وما وقع لا شيء أصعب منه ولا تكاد تخفى صعوبته على أحد ولله عز وجل أن يبتلي من شاء بما شاء وهو سبحانه الحكيم الفعال لما يريد. ولعل هذه الجملة لبيان كونهما من المحسنين، وقيل لبيان حكمة ما نالهما، وعلى التقديرين هي مستأنفة استئنافاً بيانياً فليتدبر.

﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ﴾ بحيوان يذبح بدله ﴿عَظِيمٍ﴾ قيل أي عظيم الجثة سمين وهو كبش أبيض أقرن أعين وفي رواية: أملح بدل أبيض، وعن الحسن أنه وعل اهبط عن ثبير، والجمهور على الأول ووافقهم الحسن في رواية رواها عنه ابن أبي حاتم وفيها أن اسمه حرير، واليهود على أنه كبش أيضاً. وفسر المعظم العظيم بعظيم القدر وذلك على ما روي عن ابن عباس لأنه الكبش الذي قربه هابيل فتقبل منه وبقي يرعى في الجنة إلى يوم هذا الفداء، وفي رواية عنه وعن ابن جبير أنهما قالا: عظمه كونه من كباش الجنة رعى فيها أربعين خريفاً.

وقال مجاهد وصف بالعظم لأنه متقبل يقيناً، وقال الحسن بن الفضل: لأنه كان من عند الله عز وجل، وقال أبو بكر الوراق: لأنه لم يكن عن نسل بل عن التكوين، وقال عمرو بن عبيد: لأنه جرت السنة به وصار ديناً باقياً آخر الدهر، وقيل لأنه فدى به نبي وابن نبي، وهبوطه من ثبير كما قال الحسن في الوعل وجاء ذلك في رواية عن ابن عباس.

وفي رواية عن علي كرم الله تعالى وجهه أنه وجده عليه السلام قد ربط بسمرة في أصل ثبير. وعن عطاء بن السائب أنه قال: كنت قاعداً بالمنحر فحدثني قرشي عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال له: إن الكبش نزل على إبراهيم في هذا المكان. وفي رواية عن ابن عباس أنه خرج عليه كبش من الجنة قد رعى فيها أربعين خريفاً فأرسل إبراهيم عليه السلام ابنه واتبعه فرماه بسبع حصيات وأحرجه عند الجمرة الأولى فافلت ورماه بسبع حصيات وأحرجه عند الجمرة الوسطى فأفلت ورماه بسبع حصيات وأحرجه عند الجمرة الكبرى فأتى به المنحر من منى فذبح قيل وهذا أصل سنية رمي الجمار، والمشهور أن أصل السنية رمي الشيطان هناك ففي خبر عن قتادة أن الشيطان أراد أن يصيب حاجته من إبراهيم وابنه يوم أمر يذبحه فتمثل بصديق له فأراد أن يصده عن ذلك فلم يتمكن فتعرض لابنه فلم يتمكن فأتى الجمرة فانتفخ حتى سد الوادي ومع إبراهيم ملك فقال له: ارم يا إبراهيم فرمى بسبع حصيات يكبر في أثر كل حصاة فأفرج له عن الطريق ثم انطلق حتى أتى الجمرة الثانية فسد الوادي أيضاً فقال الملك: ارم يا إبراهيم فرمى كما في الأولى وهكذا في الثالثة، وظاهر الآية أن الفداء كان بحيوان واحد وهو المعروف. وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس أنه فدى بكبشين أملحين أقرنين أعينين ولا أعرف له صحة، ويراد بالذبح عليه لو صح الجنس، والفادي على الحقيقة إبراهيم عليه السلام، وقال سبحانه: ﴿فديناه﴾ على التجوز في الفداء أي أمرنا أو أعطينا أو في اسناده إليه تعالى، وجوز أن يكون هناك استعارة مكنية أيضاً، وفائدة العدول عن الأصل التعظيم.

﴿وتركنا عليه في الآخرين * سلام على إبراهيم﴾ سبق ما يعلم منه بيانه عند تفسير نظيره في آخر قصة نوح، ولعل ذكر في العالمين هناك وعدم ذكره هنا لما أن لنوح عليه السلام من الشهرة لكونه كآدم ثان للبشر ونجاة من نجا من أهل الطوفان ببركته ما ليس لإبراهيم عليه السلام.

﴿كذلك نجزي المحسنين﴾ ذلك إشارة إلى إبقاء ذكره الجميل فيما بين الأمم لا إلى ما يشير إليه فيما سبق فلا تكرار وطرح هنا ﴿انا﴾ قيل مبالغة في دفع توهم اتحاده مع ما سبق كيف وقد سبق الأول تعليلاً لجزاء إبراهيم وابنه عليهما السلام بما أشير إليه قبل وسيق هذا تعليلاً لجزاء إبراهيم وحده بما تضمنه قوله تعالى ﴿وتركنا عليه﴾ الخ وما ألطف الحذف هنا اقتصاراً حيث كان فيما قبله ما يشبه ذلك من عدم ذكر الابن والاقتصار على إبراهيم.

وقيل لعل ذلك اكتفاء بذكر ﴿انا﴾ مرة في هذه القصة، وقال بعض الأجلة: إنه للإشارة إلى أن قصة إبراهيم عليه السلام لم تتم فإن ما بعد من قوله تعالى ﴿وبشرناه بإسحاق﴾ الخ من تكملة ما يتعلق به عليه السلام بخلاف سائر القصص التي جعل ﴿إنا كذلك نجزي المحسنين﴾ مقطعاً لها فإن ما بعد ليس مما يتعلق بما قبل ومع هذا لم تخل القصة من مثل تلك الجملة بجميع كلماتها وسلك فيها هذا المسلك اعتناء بها فتأمل، وقوله تعالى: ﴿إنه من عبادنا المؤمنين﴾ الكلام فيه كما تقدم ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً﴾ حال من إسحاق، وكذا قوله تعالى ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وفي ذلك تعظيم شأن الصلاح، وفي تأخيره إيماء إلى أنه الغاية لها لتضمنها معنى الكمال والتكميل والمقصود منهما الإتيان بالأفعال الحسنة السديدة وهو في الاستعمال يختص بها.

وجوز كون ﴿من الصالحين﴾ حالاً وكون ﴿نبياً﴾ حالاً من الضمير المستتر فيه، وقدم في اللفظ للاهتمام ولئلا تختل رؤوس الآي وفيه من البعد ما فيه، على أن في جواز تقديم الحال مطلقاً أو اطراده في مثل هذا التركيب كلاماً لا يخفى على من راجع الألفية وشروحها وفيه ما فيه بعد، وجوز أيضاً كونه في موضع الصفة لنبياً والكلام على الأول وهو الذي عليه الجمهور أمدح كما لا يخفى، والمراد كونه نبياً وكونه من الصالحين في قضاء الله تعالى وتقديره أي مقتضياً كون نبياً مقضياً كونه من الصالحين وإن شئت فقل مقدراً ولا يكونان بذلك من الحال المقدرة التي تذكر في مقابلة المقارنة بل هما بهذا الاعتبار حالان مقارنان للعامل وهو فعل البشارة أو شيء آخر محذوف أي بشرناه بوجود إسحاق نبياً الخ، وأوجب غير واحد تقدير ذلك معللاً بأن البشارة لا تتعلق بالأعيان بل بالمعاني. وتعقب بأنه إن أريد أنها لا تستعمل إلا متعلقة بالأعيان فالواقع خلافه كبشر أحدهم بالأنثى، فإن قيل إنما يصح بتقدير ولادة ونحوه من المعاني فهو محل النزاع فلا وجه له، والذي يميل إليه القلب أن المعنى على إرادة ذلك، وربما يدعي أن معنى البشارة تستدعي تقدير معنى من المعاني، وقيل هما حالان مقدران كقوله تعالى ﴿فادخلوها خالدين﴾ [الزمر: ٧٣] أي على إبراهيم عليه السلام ﴿وعلى إسحاق﴾ أي أفضنا عليهما بركات الدين والدنيا بأن كثرنا نسلهما وجعلنا منهم أنبياء ورسلاً.

﴿وظالم لنفسه﴾ بالكفر والمعاصي ويدخل فيها ظلم الغير ﴿مبين﴾ ظاهر ظلمه، وفي ذلك تنبيه على أن النسب لا أثر له في الهدى والضلال وأن الظلم في الأعقاب لايعود على الأصول بنقيصة وعيب، هذا وفي الآيات بعد أبحاث الأول أنهم اختلفوا في الذبيح فقال ـ على ما ذكره الجلال السيوطي في رسالته القول الفصيح في تعيين الذبيح ـ علي وابن عمر، وأبو هريرة وأبوالطفيل وسعيد جبير ومجاهد والشعبي ويوسف بن مهران والحسن البصري، ومحمد ابن كعب القرظي وسعيد بن المسيب وأبو جعفرالباقر وأبو صالح والربيع بن أنس، والكلبي. وأبو عمرو بن العلاء. وأحمد بن حنبل وغيرهم أنه إسماعيل عليه السلام لا إسحاق عليه السلام وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس ورجحه

جماعة خصوصاً غالب المحدثين وقال أبو حاتم: هو الصحيح، وفي الهدى أنه الصواب عند علماء الصحابة والتابعين فمن بعدهم، وسئل أبو سعيد الضرير عن ذلك فأنشد:

إن الذبيح هديت إسماعيل ... نص الكتاب بذاك والتنزيل

شرف به خص الإله نبينا ... وأتى به التفسير والتأويل

إن كنت أمته فلا تنكر له ... شرفاً به قد خصه التفضيل

وفي دعواه النص نظر وهو المشهور عند العرب قبل البعثة أيضاً كما يشعر به أبيات نقلها الثعالبي في تفسير عن أمية بن الصلت واستدل له بأنه الذي وهب لإبراهيم عليه السلام أثر الهجرة وبأن البشارة بإسحاق بعد معطوفة على البشارة بهذا الغلام، والظاهر التغاير فيتعين كونه إسماعيل وبأنه بشر بأن يوجد وينبأ فلا يجوز ابتلاء إبراهيم عليه السلام بذبحه لأنه علم أن شرط وقوعه منتف، والجواب بأن الأول بشارة بالوجود وهذا بشارة بالنبوة ولكن بعد الذبح - قال صاحب الكشف - ضعيف لأن نظم الآية لا يدل على أن البشارة بنبوته بل على أن البشارة بأمر مقيد بالنبوة فإما أن يقدر بوجود إسحاق بعد الذبح ولا دلالة في اللفظ عليه وإما أن يقدر الوجود مطلقاً وهو المطلوب، فإن قلت: يكفي في الدلالة تقدم البشارة بالوجود أو لا قلت: ذاك عليك لا لك ومن يسلم أن المتقدم بشارة بإسحاق حتى يستتب لك المرام وبأن البشارة به وقعت مقرونة بولادة يعقوب منه على ما هو الظاهر في قوله تعالى في هود ﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ [هود: ٧١] ومتى بشر بالولد وولد الولد دفعة كيف يتصور الأمر بذبح الولد مراهقاً قبل ولادة ولده، ومنع كونه إذ ذاك مراهقاً لجواز أن يكون بالغاً كما ذهب إليه اليهود قد ولد له يعقوب وغيره مكابرة لا يلتفت إليها وبأنه تعالى وصف إسماعيل عليه السلام بالصبر في قوله سبحانه ﴿وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين﴾ [الأنبياء: ٨٥] وبأنه عز وجل وصفه بصدق الوعد في قوله تعالى ﴿إنه كان صادق الوعد﴾ [مريم: ٥٤] ولم يصف سبحانه إسحاق بشيء منهما فهو الأنسب دونه بأن يقول القائل ﴿يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾ [مريم: ٥٤] المصدق في قوله بفعله وبأن ما وقع كان بمكة وإسماعيل هو الذي كان فيها وبأن قرني الكبش كانا معلقين في الكعبة حتى احترقا معها أيام حصار الحجاج بن الزبير رضي الله تعالى عنه وكانا قد توارثهما قريش خلفاً عن سلف، والظاهر أن ذاك لم يكن منهم إلا للفخر ولا يتم لهم إذا كان الكبش فدى لإسحاق دون أبيهم إسماعيل، وبأنه روى الحاكم في المستدرك وابن جرير في تفسيره. والأموي في مغازيه والخلعي في فوائده من طريق إسماعيل بن أبي كريمة عن عمر بن أبي محمد الخطابي عن العتبي عن أبيه عن عبد الله بن سعيد الصنابحي قال: حضرنا مجلس معاوية فتذاكر القوم إسماعيل وإسحاق أيهما الذبيح؟ فقال بعض القوم: إسماعيل وقال بعضهم: بل إسحاق فقال معاوية: على الخبير سقطتم كنا عند رسول الله ﷺ فأتاه أعرابي فقال: يا رسول الله خلفت الكلأ يابساً والماء عابساً هلك العيال وضاع المال فعد علي مما أفاء الله تعالى عليك يا ابن الذبيحين فتبسم رسول الله ﷺ ولم ينكر عليه فقال القوم: من الذبيحان يا أمير المؤمنين؟ قال: إن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم نذر لله تعالى إن سهل أمرها أن ينحر بعض بنيه فلما فرغ أسهم بينهم فكانوا عشرة فخرج السهم على عبد الله فأراد أن ينحره فمنعه أخواله بنو مخزوم وقالوا: ارض ربك وافد ابنك ففداه بمائة ناقة قال معاوية: هذا واحد والآخر إسماعيل وبأنه ذكر في التوراة إن الله تعالى امتحن إبراهيم فقال له: يا إبراهيم فقال: لبيك قال: خذ ابنك وحيدك الذي تحبه وامض إلى بلد العبادة وأصعده ثم قرباناً على أحد الجبال الذي أعرفك به فإن معنى وحيدك الذي ليس لك وغيره ولا يصدق ذلك على إسحاق حين الأمر بالذبح لأن إسماعيل كان موجوداً إذ ذاك لأنه ولد لإبراهيم على ما في التوراة وهو ابن ست وثمانين سنة وولد

إسحاق على ما فيها أيضاً وهو ابن مائة سنة، وأيضاً قوله تعالى الذي تحبه أليق بإسماعيل لأن أول ولد له من المحبة في الأغلب ما ليس لمن بعده من الأولاد ويعلم مما ذكر أن ما في التوراة الموجودة بأيدي اليهود اليوم من ذكر هو إسحاق بعد الذي تحبه من زياداتهم وأباطيلهم التي أدرجوها في كلام الله تعالى إذ لا يكاد يلتئم مع ما قبله، وأجاب بعض اليهود عن ذلك بأن إطلاق الوحيد على إسحاق لأن إسماعيل كان إذ ذاك بمكة وهو تحريف وتأويل باطل لأنه لا يقال الوحيد وصفاً للابن إلا إذا كان واحداً في النبوة ولم يكن له شريك فيها، وقال لي بعض منهم: إن إطلاق ذلك عليه لأنه كان واحداً لأمه ولم يكن لها ابن غيره فقلت: يبعد ذلك كل التبعيد إضافته إلى ضمير إبراهيم عليه السلام، ويؤيد ما قلنا ما قاله ابن إسحاق ذكر محمد بن كعب أن عمر بن عبد العزيز أرسل إلى رجل كان يهودياً فأسلم وحسن إسلامه وكان من علمائهم فسأله أي ابني إبراهيم أمر بذبحه؟ فقال إسماعيل: والله يا أمير المؤمنين وأن يهود لتعلم بذلك ولكنهم يحسدونكم معشر العرب، وذكر ابن كثير أن في بعض نسخ التوراة بكرك بدل وحيدك وهو أظهر في المطلوب، وقيل: هو إسحاق ونسبه القرطبي للأكثرين وعزاه البغوي. وغيره إلى عمر وعلي وابن مسعود والعباس وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد والشعبي وعبيد بن عمير وأبي ميسرة وزيد بن أسلم وعبد الله بن شقيق والزهري والقاسم بن يزيد ومكحول وكعب وعثمان بن حاضر والسدي والحسن وقتادة وأبي الهذيل وابن سابط ومسروق وعطاء ومقاتل وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس واختاره أبو جعفر بن جرير الطبري وجزم به القاضي عياض في الشفاء. والسهيلي في التعريف والأعلام واستدل له بأنه لم يذكر الله تعالى أنه بشر بإسماعيل قبل كونه فهو إسحاق لثبوته بالنص ولأنه لم تكن تحته هاجر أم إسماعيل فالمدعو ولد من سارة، وأجيب بأنه كفى هذه الآية دليلاً على أنه مبشر به أيضاً لأن قوله تعالى: ﴿**وبشرناه بإسحاق**﴾ بعد استيفاء هذه القصة وتذييلها بما ذيل ظاهر الدلالة على أن هنالك بشارتين متغايرتين ثم عدم الذكر لا يدل على عدم الوجود ولا يلزم أن يكون طلب ولد من سارة ولا علم أنه عليه السلام دعا بذلك قبل أن وهبت هاجر منه لأنها أهديت إليه في حران قبل الوصول إلى الشام على أن البشارة بإسحاق كانت في الشام نصاً فظاهر هذه الآية أنها قبل الوصول إليها لأن البشارة عقيب الدعاء وكان قبل الوصول إلى الشام قاله في الكشف.

وبما رواه ابن جرير عن أبي كريب عن زيد بن حباب عن الحسن بن دينار عن علي بن زيد بن جدعان عن الحسن عن الأحنف بن قيس عن العباس بن عبد المطلب عن النبي ﷺ قال: «الذبيح إسحاق».

وتعقب بأن الحسن بن دينار متروك وشيخه منكر الحديث، وبما أخرج الديلمي في مسند الفردوس من طريق عبد الله بن ناجية عن محمد بن حرب النسائي عن عبد المؤمن بن عباد عن الأعمش عن عطية عن أبي سعيد الخدري قال: «قال رسول الله ﷺ إن داود سأل ربه مسألة فقال اجعلني مثل إبراهيم وإسحاق ويعقوب فأوحى الله تعالى إليه إني ابتليت إبراهيم بالنار فصبر وابتليت إسحاق بالذبح فصبر وابتليت يعقوب فصبر» وبما أخرجه الدارقطني والديلمي في مسند الفردوس من طريقه عن محمد بن أحمد بن إبراهيم الكاتب عن الحسين بن فهم عن خلف بن سالم عن بهز بن أسد عن شعبة عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن ابن مسعود قال: «قال رسول الله ﷺ الذبيح إسحاق» وبما أخرجه الطبراني في الأوسط وابن أبي حاتم في تفسيره من طريق الوليد بن مسلم عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله ﷺ إن الله تعالى خيرني بين أن يغفر لنصف أمتي أو شفاعتي فاخترت شفاعتي ورجوت أن تكون أعم لأمتي ولولا الذي سبقني إليه العبد الصالح لعجلت دعوتي إن الله تعالى لما فرج عن إسحاق كرب الذبح قيل له: يا إسحاق سل تعطه قال: أما والله لأتعجلنها قبل نزغات الشيطان اللهم من مات

لا يشرك بك شيئاً قد أحسن فاغفر له» وتعقب هذا بأن عبد الرحمن ضعيف، وقال ابن كثير الحديث غريب منكر وأخشى أن يكون فيه زيادة مدرجة وهي قوله: إن الله تعالى لما فرج الخ وإن كان محفوظاً فالأشبه أن السياق عن إسماعيل وحرفوه بإسحاق إلى غير ذلك من الأخبار وفيها من الموقوف والضعيف والموضوع كثير، ومتى صح حديث مرفوع في أنه إسحاق قبلناه ووضعناه على العين والرأس.

والذاهبون إلى هذا القول يدعون صحة شيء منها في ذلك. وأجيب عن بعض ما استدل به للأول بأن وقوع القصة بمكة غير مسلم بل كان ذلك بالشام وتعليق القرنين في الكعبة لا يدل على وقوعها بمكة لجواز أنهما نقلا من بلاد الشام إلى مكة فعلقا فيها، وعلى تسليم الوقوع بمكة لا مانع من أن يكون إبراهيم قد سار به من الشام إليها بل قد روي القول به، أخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن سعيد بن جبير قال: لما رأى إبراهيم في المنام ذبح إسحاق سار به من منزله إلى المنحر بمنى مسيرة شهر في غداة واحدة فلما صرف عنه الذبح وأمر بذبح الكبش ذبحه ثم راح به رواحاً إلى منزله في عشية واحدة مسيرة شهر طويت له الأودية والجبال، وأمر الفخر لو سلم ليس بالاستدلال به كثير فخر، والخبر الذي فيه يا ابن الذبيحين غريب وفي إسناده من لا يعرف حاله وفيه ما هو ظاهر الدلالة على عدم صحته من قوله فلما فرغ أسهم بينهم فكانوا عشرة فخرج السهم على عبد الله فإن عبد الله بإجماع أهل الأخبار لم يكن مولوداً عند حفر زمزم، وقصة نذر عبد المطلب ذبح أحد أولاده تروى بوجه آخر وهو أنه نذر الذبح إذا بلغ أولاده عشراً فلما بلغوها بولادة عبد الله كان ما كان.

وما شاع من خبر أنا ابن الذبيحين قال العراقي لم أقف عليه، والخبر السابق بعد ما عرف حاله لا يكفي لثبوته حديثاً فلا حاجة إلى تأويله بأنه أريد بالذبيحين فيه إسحاق وعبد الله بناء على أن الأب قد يطلق على العم أو أريد بهما الذابحان وهما إبراهيم وعبد المطلب بحمل فعيل على معنى فاعل لا مفعول، وحمل هؤلاء ﴿**وبشرناه بإسحاق نبياً**﴾ على البشارة بنبوته وما تقدم على البشارة بأن يوجد قبل ولما كان التبشير هناك قبل الولادة والتسمية إنما تكون بعدها في الأغلب لم يسم هناك وسماه هنا لأنه بعد الولادة واستأنس للاتحاد بوصفه بكونه من الصالحين لأن مطلوبه كان ذلك فكأنه قيل له هذا الغلام الذي بشرت به أولاً هو ما طلبته بقولك ﴿رب هب لي من الصالحين﴾ [الصافات: ١٠٠] وأنت تعلم أن حمل على البشارة بالنبوة خلاف الظاهر إذ كان الظاهر أن يقال لو أريد ذلك بشرناه بنبوته ونحوه. وتقدير أن يوجد نبياً لا يدفعه كما لا يخفى وكذا وصفه بالصلاح الذي طلبه فتأمل.

ومن العلماء من رأى قوة الأدلة من الطرفين ولم يترجح شيء منها عنده فتوقف في التعيين كالجلال السيوطي عليه الرحمة فإنه قال في آخر رسالته السابقة: كنت ملت إلى القول بأن الذبيح إسحاق في التفسير وأنا الآن متوقف عن ذلك، وقال بعضهم كما نقله الخفاجي: إن في الدلالة على كونه إسحاق أدلة كثيرة وعليه جملة أهل الكتاب ولم ينقل في الحديث ما يعارضه فلعله وقع مرتين مرة بالشام لإسحاق ومرة بمكة لإسماعيل عليهما السلام، والتوقف عندي خير من هذا القول، والذي أميل أنا إليه أنه إسماعيل عليه السلام بناء على ظاهر الآية يقتضيه وأنه المروي عن كثير من أئمة أهل البيت ولم أتيقن صحة حديث مرفوع يقتضي خلاف ذلك، وحال أهل الكتاب لا يخفى على ذوي الألباب.

البحث الثاني أنه استدل بما في القصة على جواز النسخ قبل الفعل وهو مذهب كثير من الأصوليين وخالف فيه المعتزلة والصيرفي، ووجه الاستدلال على ما قرره بعض الأجلة أن إبراهيم عليه السلام أمر بذبح ولده بدليل قوله

﴿افعل ما تؤمر﴾ ولأنه عليه السلام أقدم على الذبح وترويع الولد ولو لم يكن مأموراً به لكان ذلك ممتنعاً شرعاً وعادة ونسخ عنه قبل الفعل لأنه لم يفعل ولو كان ترك الفعل مع حضور الوقت لكان عاصياً.

واعترض عليه بأنا لا نسلم أنه لو لم يفعل وقد حضر الوقت لكان عاصياً لجواز أن يكون الوقت موسعاً فيحصل التمكن فلا يعصى بالتأخير ثم ينسخ. وأجيب أما أولاً فبأنه لو كان موسعاً لكان الوجوب متعلقاً بالمستقبل لأن الأمر باق عليه قطعاً فإذا نسخ فقد نسخ تعلق الوجوب بالمستقبل وهو المانع من النسخ عندهم فإنهم يقولون: إذا تعلق الوجوب بالمستقبل مع بقاء الأمر عليه امتنع رفع ذلك التعلق بالنهي عنه وإلا لزم توارد الأمر والنهي على شيء واحد وهو محال، فإذا جوزوا النسخ في الواجب الموسع في وقته قبل فعله مع أن الوجوب فيه تعلق بالمستقبل والأمر باق عليه فقد اعترفوا بجواز ما منعوه وهو المطلوب، وأما ثانياً فبأنه لو كان موسعاً لأخر الفعل ولم يقدم على الذبح وترويع الولد عادة إما رجاء أن ينسخ عنه وإما رجاء أن يموت فيسقط عنه لعظم الأمر ومثله مما يؤخر عادة. وتعقب هذا بأن عادة الأنبياء عليهم السلام المبادرة إلى امتثال أمر الله تعالى على خلاف عادة أكثر الناس ولا تستبعد منهم خوارق العادات وإبراهيم من أجلِّهم قدراً سلمنا أن العادة ولو بالنسبة إلى الأنبياء تقتضي التأخير لكن من أين علم أنه عليه السلام لم يؤخر إلى آخر الوقت اتباعاً للعادة فالمعول عليه الجواب الأول وبه يتم الاستدلال، وربما دفعوه بوجوه أخر، منها أنه لم يؤمر بشيء وإنما توهم ذلك توهماً بإراءة الرؤيا ولو سلم فلم يؤمر بالذبح إنما أمر بمقدماته من إخراج الولد وأخذه المدية وتله للجبين، وتعقب هذا بأنه ليس بشيء لما مر من قوله ﴿افعل ما أؤمر﴾ واقدامه على الذبح والترويع المحرم لولا الأمر كيف ويدل على خلافه قوله تعالى ﴿إن هذا لهو البلاء الـ ـبين﴾ وقوله سبحانه ﴿وفديناه بذبح عظيم﴾ ولولا الأمر لما كان بلاء مبيناً ولما احتاج إلى الفداء، وكون الفداء عن ظنه أنه مأمور بالذبح لا يخفى حاله، وعلى أصل المعتزلة هو توريط لإبراهيم عليه السلام في الجهل بما يظهر أنه أمر وليس بأمر وذلك غير جائز، ومن لا يجوز الظن الفاسد على الأنبياء عليهم السلام فهذا عنده أدنى من لا شيء، ومنها أنا لا نسلم أنه لم يذبح بل روي أنه ذبح وكان كلما قطع شيئاً يلتحم عقيب القطع وأنه خلق صفيحة نحاس أو حديد تمنع الذبح، وتعقب بأن هذا لا يسمع، أما أولاً فلأنه خلاف العادة والظاهر ولم ينقل نقلاً معتبراً. وأجيب بأن الرواية سند للمنع والضعف لا ينافيه والاحتمال كاف في المقام ولا ريب في جوازه كإرسال الكبش من الجنة، وأما ثانياً فلأنه لو ذبح لما احتيج إلى الفداء، وكونه لأن الإزهاق لم يحصل ليس بشيء، ولو منع الذبح بالصفيحة مع الأمر به لكان تكليفاً بالمحال وهم لا يجوزونه ثم قد نسخ عنه وإلا لأثم بتركه فيكون نسخاً قبل التمكن فهو لنا لا علينا. ومن السادة الحنفية من قال: ما نحن فيه ليس من النسخ لأنه رفع الحكم لا إلى بدل وهنا له بدل قائم مقامه كالفدية للصوم في حق الشيخ الفاني فعلم أنه لم يرفع حكم المأمور به. وفي التلويح فإن قيل: هب أن الخلف قام مقام الأصل لكنه استلزم حرمة الأصل أي ذبحه وتحريم الشيء بعد وجوبه نسخ لا محالة لرفع حكمه، قيل: لا نسلم كونه نسخاً وإنما يلزم لو كان حكماً شرعياً وهو ممنوع فإن حرمة ذبح الولد ثابتة في الأصل فزالت بالوجوب ثم عادت بقيام الشاة مقام الولد فلا تكون حكماً شرعياً حتى يكون ثبوتها نسخاً للوجوب انتهى، وتعقب بأن هذا بناء على ما تقرر من أن رفع الإباحة الأصلية ليس نسخاً أما على أنه نسخ كما التزمه بعض الحنفية إذ لا إباحة ولا تحريم إلا بشرع كما قرروه يكون رفع الحرمة الأصلية نسخاً وإذا كان رفعها نسخاً أيضاً يبقى الإيراد المذكور من غير جواب على ما قرر في شرح التحرير، هذا وتمام الكلام في حجة الفريقين مفصل في أصول الفقه وهذا المقدار كاف لغرض المفسر.

البحث الثالث أنه استدل أبو حنيفة بالقصة على أن لو نذر أن يذبح ولده فعليه شاة، ووافقه في ذلك محمد،

ونقله الإمام القرطبي عن مالك. وفي تنوير الأبصار وشرحه الدر المختار نذر أن يذبح ولده فعليه شاة لقصة الخليل عليه السلام وألغاه الثاني والشافعي كنذره قتله[١] ونقل الجصاص أن نذر القتل كنذر الذبح، واعترض على الإمام بأنه نذر معصية وجاء لا نذر في معصية الله تعالى، وقال هو: إن ذلك في شرع إبراهيم عليه السلام عبارة عن ذبح شاة ولم يثبت نسخه فليس معصية، وقال بعض الشافعية: ليس في النظم الجليل ما يدل على أنه كان نذراً من إبراهيم عليه السلام حتى يستدل به. وأجيب بأنه ورد في التفسير المأثور أنه نذر ذلك وهو في حكم النص ولذا قيل له لما بلغ معه السعي: أوف بنذرك، وبأنه إذا قامت الشاة مقام ما أوجبه الله تعالى عليه علم قيامها مقام ما يوجبه على نفسه بالطريق الأولى فيكون ثابتاً بدلالة النص، والإنصاف أن مدرك الشافعي وأبي يوسف عليهما الرحمة أظهر وأقوى من مدرك الإمام الأعظم رضي الله تعالى عنه في هذه المسألة فتأمل ﴿**وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ**﴾ أنعمنا عليهما بالنبوة وغيرها من المنافع الدينية والدنيوية ﴿**وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ**﴾ هذا وما بعده من قبيل عطف الخاص على العام، والكرب العظيم تغلب فرعون ومن معه من القبط، وقيل الغرق وليس بذاك ﴿**وَنَصَرْنَاهُمْ**﴾ الضمير لهما مع القوم وقيل لهما فقط وجيء به ضمير جمع لتعظيمهما ﴿**فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ**﴾ بسبب ذلك على فرعون وقومه؛ و ﴿**هم**﴾ يجوز أن يكون فصلاً أو توكيداً أو بدلاً، والتنجية وإن كانت بحسب الوجود مقارنة لما ذكر من النصر لكنها لما كانت بحسب المفهوم عبارة عن التخليص عن المكروه بدأ بها ثم بالنصر الذي يتحقق مدلوله بمحض تنجية المنصور من عدوه من غير تغلب عليه ثم بالغلبة لتوفية مقام الامتنان حقه بإظهار أن كل مرتبة من هذه المراتب الثلاث نعمة جليلة على حيالها ﴿**وَآتَيْنَاهُمَا**﴾ بعد ذلك ﴿**الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ**﴾ أي البليغ في البيان والتفصيل كما يشعر به زيادة البنية وهو التوراة ﴿**وَهَدَيْنَاهُمَا**﴾ بذلك ﴿**الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾ الموصل إلى الحق والصواب بما فيه من تفاصيل الشرائع وتفاريع الأحكام ﴿**وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ**﴾ الكلام فيه نظير ما سبق في نظيره ﴿**وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾ قال الطبري: هو إلياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون أخي موسى عليهما السلام فهو إسرائيلي من سبط هارون، وحكى القتيبي أنه من سبط يوشع، وحكى الطبرسي أنه ابن عم اليسع وأنه بعث بعد حزقيل، وفي العجائب للكرماني أنه ذو الكفل، وعن وهب أنه عمر كما عمر الخضر ويبقى إلى فناء الدنيا.

وأخرج ابن عساكر عن الحسن أنه موكل بالفيافي والخضر بالبحار والجزائر وإنهما يجتمعان بالموسم في كل عام، وحديث اجتماعه مع النبي ﷺ في بعض الأسفار وأكله معه من مائدة نزلت عليهما عليهما الصلاة والسلام من السماء هي خبز وحوت وكرفس وصلاتهما العصر معاً رواه الحاكم عن أنس وقال: هذا حديث صحيح الإسناد وكل ذلك من التعمير وما بعده لا يعول عليه. وحديث الحاكم ضعفه البيهقي، وقال الذهبي. موضوع قبح الله تعالى من وضعه ثم قال: وما كنت أحسب ولا أجوز أن الجهل يبلغ بالحاكم إلى أن يصحح هذا، وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عساكر: عن ابن مسعود أن إلياس هو إدريس ونقل عنه أنه قرأ «وإن إدريس لمن المرسلين» والمستفيض عنه أنه قرأ كالجمهور نعم قرأ ابن وثاب والأعمش والمنهال بن عمرو والحكم بن عتيبة الكوفي كذلك.

وقرىء «إدراس» وهو لغة في إدريس كإبراهام في إبراهيم، وإذا فسر إلياس بإدريس على أن أحد اللفظين اسم

---

(١) قوله «كنذره قتله» قال الخفاجي عليه كفارة يمين عند الثاني نذر الذبح أو القتل اهـ منه.

والآخر لقب فإن كان المراد بهما من سمعت نسبه فلا بأس به وإن كان المراد بهما إدريس المشهور الذي رفعه الله تعالى مكاناً علياً وهو على ما قيل أخنوخ بن يزد بن مهلاييل بن أنوش بن قينان بن شيث بن آدم وكان على ما ذكره المؤرخون قبل نوح، وفي المستدرك عن ابن عباس أن بينه وبين نوح ألف سنة، وعن وهب أنه جد نوح أشكل الأمر في قوله تعالى ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلاً هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على العالمين﴾ [الأنعام: ٨٣ ـ ٨٦] لأن ضمير ﴿ذريته﴾ إما أن يكون لإبراهيم لأن الكلام فيه وإما أن يكون لنوح لأنه أقرب ولأن يونس ولوطاً ليسا من ذرية إبراهيم، وعلى التقديرين لا يتسنى نظم إلياس المراد به إدريس الذي هو قبل نوح على ما سمعت في عداد الذرية، ويرد على القول بالاتحاد مطلقاً أنه خلاف الظاهر فلا تغفل.

وقرأ عكرمة. والحسن بخلاف عنهما والأعرج وأبو رجاء وابن عامر وابن محيصن «وإن الياس» بوصل الهمزة فاحتمل أن يكون قد وصل همزة القطع واحتمل أن يكون اسمه يأساً ودخلت عليه أل كما قيل في اليسع، وفي حرف أبي ومصحفه و «أن إبليس» بهمزة مكسورة بعدها ياء أيضاً ساكنة آخر الحروف بعدها لام مكسورة بعدها ياء أيضاً ساكنة وسين مهملة مفتوحة.

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِه﴾ وهم على المشهور في إلياس سبط من بني إسرائيل أسكنهم يوشع لما فتح الشام المدينة المعروفة اليوم ببعلبك وزعم بعضهم أنها كانت تسمى بكة وقيل بك بلاها. ثم سميت بما عرف على طريق التركيب المزجي، و ﴿إذ﴾ عند جمع مفعول اذكر محذوفاً أي اذكر وقت قوله لقومه ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ عذاب الله تعالى ونقمته بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلاً﴾ أي أتعبدونه أو تطلبون حاجكم منه، وهو اسم صنم لهم كما قال الضحاك والحسن وابن زيد وفي بعض نسخ القاموس أنه لقوم يونس، ولا مانع من أن يكون لهما أو ذلك تحريف. قيل وكان من ذهب طوله عشرون ذراعاً وله أربعة أوجه فتنوا به وعظموه حتى أخدموه أربعمائة سادن وجعلوهم أنبياءه فكان الشيطان يدخل في جوفه ويتكلم بشريعة الضلالة والسدنة يحفظونها ويعلمونها الناس، وقيل هو اسم امرأة أتتهم بضلالة فاتبعوها واستؤنس له بقراءة بعضهم، ﴿بعلاء﴾ بالمد على وزن حمراء، وظاهر صرفه أنه عربي على القولين فلا تغفل.

وقال عكرمة وقتادة، البعل الرب بلغة اليمن: وفي رواية أخرى عن قتادة بلغة أزد شنوءة وأستام بن عباس ناقة رجل من حمير فقال له: أنت صاحبها؟ قال: بعلها فقال ابن عباس أتدعون بعلاً: أتدعون رباً ممن أنت؟ قال: من حمير، والمراد عليه أتدعون بعض البعول أي الأرباب والمراد بها الأصنام أو المعبودات الباطلة فالتنكير للتبعيض فيرجع لما قيل قبله ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ أي وتتركون عبادته تعالى أو طلب جميع حاجكم منه عز وجل على أن الكلام على حذف مضاف؛ وقيل إن المراد بتركهم إياه سبحانه تركهم عبادته عز وجل والمراد بالخالق من يطلق عليه ذلك، وله بهذا الاعتبار إفراد وإن اختلفت جهة الإطلاق فيها فلا إشكال في إضافة أفعل إلى ما بعده، وها هنا سؤال مشهور وهو ما وجه العدول عن تدعون بفتح التاء والدال مضارع ودع بمعنى ترك إلى ﴿تذرون﴾ مع مناسبته ومجانسته لتدعون قبله دون تذرون وأجيب عن ذلك بأجوبة الأول أن في ذلك نوع تكلف والجناس المتكلف غير ممدوح عند البلغاء ولا يمدح عندهم ما لم يجيء عفواً بطريق الاقتضاء ولذا ذموا متكلفة فقيل فيه:

طبع المجنس فيه نوع قيادة ... أو ما ترى تأليفه للأحرف

قاله الخفاجي، وفي كون هذا البيت في خصوص المتكلف نظر وبعد فيه ما فيه، الثاني أن في تدعون إلباساً

على من يقرأ من المصحف دون حفظ من العوام بأن يقرأه كتدعون الأول ويظن أن المراد إنكار بين دعاء بعل ودعاء أحسن الخالقين، وليس بالوجه إذ ليس من سنة الكتاب ترك ما يلبس على العوام كما لا يخفى على الخواص.

والصحابة أيضاً لم يراعوهم وإلا لما كتبوا المصحف غير منقوط ولا ذا شكل كما هو المعروف اليوم، وفي بقاء الرسم العثماني معتبراً إلى انقضاء الصحابة ما يؤيد ما قلنا، الثالث أن التجنيس تحسين وإنما يستعمل في مقام الرضا والإحسان لا في مقام الغضب والتهويل، وفيه بأنه وقع فيما نفاه قال تعالى ﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة﴾ [الروم: ٥٥] وقال سبحانه ﴿يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾ [النور: ٤٣، ٤٤] وفيهما الجناس التام ولا يخفى حال المقام، الرابع ما نقل عن الإمام فإنه سئل عن سبب ترك تدعون إلى ﴿تذرون﴾ فقال: ترك لأنهم اتخذوا الأصنام آلهة وتركوا الله تعالى بعد ما علموا أن الله سبحانه ربهم ورب آبائهم الأولين استكباراً واستنكاراً فلذلك قيل ﴿وتذرون﴾ ولم يقل وتدعون، وفيه القول بأن دع أمر بالترك قبل العلم وذر أمر بالترك بعده ولا تساعده اللغة والاشتقاق، الخامس أن لإنكار كل من فعلي دعاء بعل وترك أحسن الخالقين علة غير علة إنكار الآخر فترك التجنيس رمزاً إلى شدة المغايرة بين الفعلين، السادس أنه لما لم يكن مجانسة بين المفعولين بوجه من الوجوه ترك التجنيس في الفعلين المتعلقين بهما وإن كانت المجانسة المنفية بين المفعولين شيئاً والمجانسة التي نحن بصددها بين الفعلين شيئاً آخر، وكلا الجوابين كما ترى، السابع أن يدع إنما استعملته العرب في الترك الذي لا يذم مرتكبه لأنه من الدعة بمعنى الراحة ويذر بخلافه لأنه يتضمن إهانة وعدم اعتداد لأنه من الوذر قطعة اللحم الحقيرة التي لا يعتد بها. واعترض بأن المتبادر من قوله بخلافه أن يذر إنما استعملته العرب في الترك الذي يذم مرتكبه فيرد عليه قوله تعالى ﴿فذرهم وما يفترون﴾ [الأنعام: ١١٢، ١٣٧] وقوله سبحانه ﴿وذروا ما بقي من الربا﴾ [البقرة: ٢٧٨] إلى غير ذلك وفيه تأمل. الثامن أن يدع أخص من يذر لأنه بمعنى ترك الشيء مع اعتناء به بشهادة الاشتقاق نحو الإيداع فإنه ترك الوديعة مع الاعتناء بحالها ولهذا يختار لها من هو مؤتمن ونحوه موادعة الأحباب وأما يذر فمعناه الترك مطلقاً أو مع الاعراض والرفض الكلي، قال الراغب يقال فلان يذر الشيء أي يقذفه لقلة الاعتداد به ومنه الوذر وهو ما سمعت آنفاً، ولا شك أن السياق إنما يناسب هذا دون الأول إذ المراد تبشيع حالهم في الإعراض عن ربهم وهو قريب من سابقه لكنه سالم عن بعض ما فيه، التاسع أن في تدعون بفتح التاء والدال ثقلاً ما لا يخفى على ذي الذوق السليم والطبع المستقيم ﴿وتذْرون﴾ سالم عنه فلذا اختير عليه فتأمل والله تعالى أعلم، وقد أشار سبحانه وتعالى بقوله ﴿أحسن الخالقين﴾ إلى المقتضي للانكار المعنى بالهمز وصرح به للاعتناء بشأنه في قوله تعالى:

﴿اللهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ بالنصب على البدلية من أحسن الخالقين، قال أبو حيان: ويجوز كون ذاك عطف بيان إن قلنا إن إضافة أفعل التفضيل محضة، وقرأ غير واحد من السبعة بالرفع على أن الاسم الجليل مبتدأ و ﴿ربكم﴾ خبره أو هو خبر مبتدأ محذوف وربكم عطف بيان أو بدل منه، وروي عن حمزة أنه إذا وصل نصب وإذا وقف رفع، والتعرض لذكر ربوبيته تعالى لآبائهم الأولين لتأكيد إنكار تركهم إياه تعالى والإشعار ببطلان آراء آبائهم أيضاً ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فيما تضمنه كلامه من إيجاب الله تعالى التوحيد وتحريمه سبحانه الإشراك وتعذيبه تعالى عليه، وجوز أن يكون تكذيبهم راجعاً إلى ما تضمنه قوله الله ربكم ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿لَمُحضَرُون﴾ أي في العذاب وإنما اطلقه اكتفاء بالقرينة أو لأن الإحضار المطلق مخصوص بالشر في العرف العام أو حيث استعمل في القرآن لإشعاره بالجبر ﴿إِلاَّ عَبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء متصل من الواو في كذبوه فيدل على أن من قومه مخلصين لم يكذبوه، ومنع

كونه استثناء متصلاً من ضمير ﴿محضرون﴾ لأنه للمكذبين فإذا استثني منه اقتضى أنهم كذبوه ولم يحضروا وفساده ظاهر، وقيل: لأنه إذا لم يستثن من ضمير كذبوا كانوا كلهم مكذبين فليس فيهم مخلص فضلاً عن مخلصين ومآله ما ذكر، لكن اعترضه ابن كمال بأنه لا فساد فيه لأن استثناءهم من القوم المحضرين لعدم تكذيبهم على ما دل عليه التوصيف بالمخلصين لا من المكذبين فمآل المعنى واحد.

ورد بأن ضمير محضرين للقوم كضمير كذبوا. وقال الخفاجي: لا يخفى أن اختصاص الإحضار بالعذاب كما صرح به غير واحد يعين كون ضمير محضرين للمكذبين لا لمطلق القوم فإن لم يسلمه فهو أمر آخر، وفي البحر ولا يناسب أن يكون استثناء منقطعاً إذ يصير المعنى لكن عباد الله المخلصين من غير قومه لا يحضرون في العذاب وفيه بحث.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخرينَ * سَلامٌ عَلَى إِل يَاسِينَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ الكلام فيه كما في نظيره بيد أنه يقال هاهنا إن آل ياسين لغة في إلياس وكثيراً ما يتصرفون في الأسماء الغير العربية. وفي الكشاف لعل لزيادة الياء والنون معنى في اللغة السريانية، ومن هذا الباب سيناء وسينين، واختار هذه اللغة هنا رعاية للفواصل، وقيل: هو جمع إلياس على طريق التغليب بإطلاقه على قومه وأتباعه كالمهلبين للمهلب وقومه.

وضعف بما ذكره النحاة من أن العلم إذا جمع أو ثني وجب تعريفه باللام جبراً لما فاته من العلمية، ولا فرق فيه بين ما فيه تغليب وبين غيره كما صرح به ابن الحاجب في شرح المفصل، لكن هذا غير متفق عليه، قال ابن يعيش في شرح المفصل[1] يجوز استعماله نكرة بعد التثنية والجمع نحو زيدان كريمان وزيدون كريمون؛ وهو مختار الشيخ عبد القاهر وقد أشبعوا الكلام على ذلك في مفصلات كتب النحو، ثم إن هذا البحث إنما يتأتى مع من لم يجعل لام إلياس للتعريف أما من جعلها له فلا يتأتى البحث معه، وقيل: هو جمع إلياسي بياء النسبة فخفف لاجتماع الياءات في الجر والنصب كما قيل أعجمين في اعجميين وأشعرين في أشعريين، والمراد بالياسين قوم إلياس المخلصون فإنهم الاحقاء بأن ينسبوا إليه، وضعف بقلة ذلك والباسه بإلياس إذا جمع وإن قيل: حذف لام إلياس مزيل للإلباس، وأيضاً هو غير مناسب للسياق والسباق إذ لم يذكر آل أحد من الأنبياء.

وقرأ نافع وابن عامر ويعقوب وزيد بن علي «آل ياسين» بالإضافة، وكتب في المصحف العثماني منفصلاً ففيه نوع تأييد لهذه القراءة، وخرجت عن أن ياسين اسم أبي إلياس ويحمل الآل على إلياس وفي الكناية عنه تفخيم له كما في آل إبراهيم عن نبينا ﷺ، وجوز أن يكون الآل مقحماً على أن ياسين هو إلياس نفسه.

وقيل: ياسين فيها اسم لمحمد ﷺ فآل ياسين آله عليه الصلاة والسلام، أخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال في «سلام على آل ياسين» نحن آل محمد آل ياسين، وهو ظاهر في جعل ياسين اسما له ﷺ، وقيل: هو اسم للسورة المعروفة، وقيل: اسم للقرآن فآل ياسين هذه الأمة المحمدية أو خواصها.

وقيل: اسم لغير القرآن من الكتب، ولا يخفى عليك أن السياق والسباق يأبيان أكثر هذه الأقوال.

وقرأ أبو رجاء والحسن «على الياسين» بوصل الهمزة وتخريجها يعلم مما مر. وقرأ ابن مسعود ومن قرأ معه فيما سبق إدريس «سلام على ادراسين» وعن قتادة «وأن إدريس» وقرأ «على إدريسين» وقرأ أبي «على إيليس» كما قرأ «وإنّ إيليس لمن المرسلين».

---

(١) وهو في عشرة أجزاء من أنفس كتب النحو وقد طبعناه والحمدلله.

وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾
وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى
ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ
ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ
شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾
فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ
إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ
تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ
ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾
فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا
لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ
ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾
وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا
نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ
رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾

﴿وَإِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ *[1] إِلاَّ عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ * ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ﴾ سبق بيانه في الشعراء **﴿وَإِنَّكُمْ﴾** يا أهل مكة **﴿لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ﴾** على منازلهم في متاجركم إلى الشام فإن سذوم[2] في طريقه **﴿مُصْبِحِينَ﴾** داخلين في الصباح **﴿وَبِاللَّيْلِ﴾** قيل أي ومساء بأن يراد بالليل أوله لأنه زمان السير ولوقوعه مقابل الصباح، وقيل: أي نهاراً وليلاً وهو تأويل قبل الحاجة ولذا اختير الأول، ووجه التخصيص عليه بأنه لعل سدوم وقعت قريب منزل يمر بها المرتحل عنه صباحاً والقاصد مساء، وقال بعض الأجلة: لو أبقى على ظاهره لأن ديار العرب لحرها يسافر فيها في الليل إلى الصباح خلا عن التكلف في توجيه المقابلة **﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾** أتشاهدون ذلك فلا تعقلون حتى تعتبروا به وتخافوا أن يصيبكم مثل ما أصابهم فإن منشأ ذلك مخالفتهم رسولهم ومخالفة الرسول قدر مشترك بينكم.

---

(١) قال الضحاك مسخت حجراً وكانت تسمى هيشفع انتهى منه.

(٢) سذوم بالدال المهملة والذال المعجمة بلد قوم لوط عليه السلام.

﴿وَإِنَّ يُونسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ يروى على ما في البحر أنه عليه السلام نبيء وهو ابن ثمان وعشرين سنة، وحكي في البحر أنه كان في زمن ملوك الطوائف من الفرس وهو ابن متى بفتح الميم وتشديد التاء الفوقية مقصور، وهل هذا اسم أمه أو أبيه فيه خلاف فقيل اسم أمه وهو المذكور في تفسير عبد الرزاق، وقيل: اسم أبيه وهذا ـ كما قال ابن حجر ـ أصح، وبعض أهل الكتاب يسميه يونان بن مائي، وبعضهم يسميه يونه بن امتياي؛ ولم نقف في شيء من الأخبار على اتصال نسبه، وفي اسمه عند العرب ست لغات تثليث النون مع الواو والياء والهمزة، والقراءة المشهورة بضم النون مع الواو. وقرأ أبو طلحة بن مصرف بكسر النون قيل أراد أن يجعله عربياً مشتقاً من أنس وهو كما ترى ﴿إِذْ أَبَقَ﴾ هرب، وأصله الهرب من السيد لكن لما كان هربه من قومه بغير إذن ربه كما هو الأنسب بحال الأنبياء عليهم السلام حسن إطلاقه عليه فهو إما استعارة أو مجاز مرسل من استعمال المقيد في المطلق، والأول أبلغ، وقال بعض الكمل: الإباق الفرار من السيد بحيث لا يهتدي إليه طالب أي بهذا القصد، وكان عليه السلام هرب من قومه بغير إذن ربه سبحانه إلى حيث طلبوه فلم يجدوه فاستعير الإباق لهربه باعتبار هذا القيد لا باعتبار القيد الأول، وفيه بعد تسليم اعتبار هذا القيد على ما ذكره بعض أهل اللغة أنه لا مانع من اعتبار ذلك القيد فلا اعتبار بنفي اعتباره ﴿إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ المملوء ﴿فَسَاهَمَ﴾ فقارع عليه السلام من في الفلك، واستدل به من قال بمشروعية القرعة.

﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ فصار من المغلوبين بالقرعة، وأصله المزلق اسم مفعول عن مقام الظفر.

يروى أنه وعد قومه العذاب وأخبرهم أنه يأتيهم إلى ثلاثة أيام فلما كان اليوم الثالث خرج يونس قبل أن يأذن الله تعالى له ففقده قومه فخرجوا بالكبير والصغير والدواب وفرقوا بين كل والدة وولدها فشارف نزول العذاب بهم فعجوا إلى الله تعالى وأنابوا واستقالوا فأقالهم الله تعالى وصرف عنهم العذاب فلما لم ير يونس نزول العذاب استحى أن يرجع إليهم وقال: لا أرجع إليهم كذاباً أبداً ومضى على وجهه فأتى سفينة فركبها فلما وصلت اللجة وقفت فلم تسر فقال صاحبها: ما يمنعها أن تسير إلا أن فيكم رجلاً مشؤوماً فاقترعوا ليلقوا من وقعت عليه القرعة في الماء فوقعت على يونس ثم أعادوا فوقعت عليه ثم أعادوا فوقعت عليه فلما رأى ذلك رمى بنفسه في الماء.

﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ﴾ أي ابتلعه من اللقمة، وفي خبر أخرجه أحمد وغيره عن ابن مسعود أنه أتى قوماً في سفينة فحملوه وعرفوه فلما دخلها ركدت والسفن تسير يميناً وشمالاً فقال: ما بال سفينتكم؟ قالوا: ما ندري قال: ولكني أدري إن فيها عبداً آبق من ربه وإنها والله لا تسير حتى تلقوه قالوا: أما أنت والله يا نبي الله فلا نلقيك فقال لهم: اقترعوا فمن قرع فليلق فاقترعوا ثلاث مرات وفي كل مرة تقع القرعة عليه فرمى بنفسه فكان ما قص الله تعالى. وكيفية اقتراعهم على ما في البحر عن ابن مسعود أنهم أخذوا لكل سهماً على أن من طفا سهمه فهو ومن غرق سهمه فليس إياه فطفا سهم يونس. وروي أنه لما وقف على شفير السفينة ليرمي بنفسه رأى حوتاً ـ واسمه على ما أخرج ابن أبي حاتم وجماعة عن قتادة نجم ـ قد رفع رأسه من الماء قدر ثلاثة أذرع يرقبه ويترصده فذهب إلى ركن آخر فاستقبله الحوت فانتقل إلى آخر فوجده وهكذا حتى استدار بالسفينة فلما رأى ذلك عرف أنه أمر من الله تعالى فطرح نفسه فأخذه قبل أن يصل إلى الماء ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي داخل في الملامة على أن بناء افعل للدخول في الشيء نحو أحرم إذا دخل الحرم أو آت بما يلام عليه على أن الهمزة فيه للصيرورة نحو أغد البعير أي صار ذا غدة فهو هنا لما أتى بما يستحق اللوم عليه صار ذا لوم أو مليم نفسه على أن الهمزة فيه للتعدية نحو أقدمته والمفعول محذوف، وما روي عن ابن عباس ومجاهد من تفسيره بالمسيء والمذنب فبيان لحاصل المعنى وحسنات الأبرار سيئات المقربين. وقرىء «مَلِيم» بفتح أوله اسم مفعول وقياسه ملوم لأنه واوي يقال لمته ألومه لوماً لكنه جيء به على ليم كما قالوا مشيب

ومدعي في مشوب ومدعو بناء على شيب ودعي وذلك أنه لما قلبت الواو ياء في المجهول جعل كالأصل فحمل الوصف عليه.

﴿فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ أي من الذاكرين الله تعالى كثيراً بالتسبيح كما قيل، وفي كلام قتادة ما يشعر باعتبار الكثرة، واستفادتها على ما قال الخفاجي من جعله من المسبحين دون أن يقال مسبحاً فإنه يشعر بأنه عريق فيهم منسوب إليهم معدود في عدادهم ومثله يستلزم الكثرة، وقيل: من التفعيل. ورد بأن معنى سبح لم يعتبر فيه ذلك إذ هو قال سبحان الله، وقد يقال: هي من إرادة الثبوت من ﴿المسبحين﴾ فإنه يشعر بأن التسبيح ديدن لهم، والمراد بالتسبيح هاهنا حقيقته وهو القول المذكور أو ما في معناه وروي ذلك عن ابن جبير.

وهذا الكون عند بعض قبل التقام الحوت أيام الرخاء، واستظهر أبو حيان أنه في بطن الحوت وأن التسبيح ما ذكره الله تعالى في قوله سبحانه: ﴿فنادى في الظلمات أن لا إله إلاّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ [الأنبياء: ٨٧] وحمله بعضهم على الذكر مطلقاً، وبعض آخر على العبادة كذلك، وجماعة منهم ابن عباس على الصلاة بل روي عنه أنه قال: كل ما في القرآن من التسبيح فهو بمعنى الصلاة، وأنت تعلم أن كان اللفظ فيما ذكر حقيقة شرعية ولم يكن للتسبيح حقيقة أخرى شرعية أيضاً لم يحتج إلى قرينة، وإن كان مجازاً أو كان للتسبيح حقيقة شرعية أخرى احتيج إلى قرينة فإن وجدت فذاك وإلا فالأمر غير خفي عليك، وكما اختلف في زمان التسبيح بالمعنى السابق اختلف في زمانه بالمعاني الأخر، أخرج أحمد في الزهد. وغيره عن ابن جبير في قوله تعالى: ﴿**فلولا أنه كان من المسبحين**﴾ قال: من المصلين قبل أن يدخل بطن الحوت، وأخرج أحمد وغيره أيضاً عن الحسن في الآية قال: ما كان إلا صلاة أحدثها في بطن الحوت فذكر ذلك لقتادة فقال: لا إنما كان يعمل في الرخاء، وروي عن الحسن غير ما ذكر، فقد أخرج عنه ابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان والحاكم أنه قال في الآية: كان يكثر الصلاة في الرخاء فلما حصل في بطن الحوت ظن أنه الموت فحرك رجليه فإذا هي تتحرك فسجد وقال: يا رب اتخذت لك مسجداً في موضع لم يسجد فيه أحد.

وأخرج ابن أبي شيبة عن الضحاك بن قيس قال: اذكروا الله تعالى في الرخاء يذكركم في الشدة فإن يونس عليه السلام كان عبداً صالحاً ذاكر الله تعالى فلما وقع في بطن الحوت قال الله تعالى ﴿فلولا أنه كان من المسبحين﴾ [يونس: ٩٠] الخ وإن فرعون كان عبداً طاغياً ناسياً لذكر الله تعالى فلما أدركه الغرق قال ﴿آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾ [يونس: ٩٠]. فقيل له: ﴿الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين﴾ يونس: ٩١] والأولى حمل زمان كونه من المسبحين على ما يعم زمان الرخاء وزمان كونه في بطن الحوت فإن لاتصافه بذلك في كلا الزمانين مدخلاً في خروجه من بطن الحوت المفهوم من قوله تعالى: ﴿**فلولا أنه كان من المسبحين**﴾ ﴿**لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾ كما يشعر به ما في حديث أخرجه عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أنس مرفوعاً من أنه عليه السلام لما التقمه الحوت وهوى به حتى انتهى إلى ما انتهى من الأرض سمع تسبيح الأرض فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فأقبلت الدعوة نحو العرش فقالت الملائكة: يا ربنا إنا نسمع صوتاً ضعيفاً من بلاد غربة قال سبحانه: وما تدرون ما ذاكم؟ قالوا: لا يا ربنا قال: ذاك عبدي يونس قالوا: الذي كنا لا نزال نرفع له عملاً متقبلاً ودعوة مجابة؟ قال: نعم قالوا: يا ربنا ألا ترحم ما كان يصنع في الرخاء وتنجيه عند البلاء؟ قال: بلى فأمر عز وجل الحوت فلفظه.

واستظهر أبو حيان أن المراد بقوله سبحانه ﴿**للبث في بطنه**﴾ الخ لبقي في بطنه حياً إلى يوم البعث وبه أقول.

وتعقب بأنه ينافيه ما ورد من أنه لا يبقى عند النفخة الأولى ذو روح من البشر والحيوان في البر والبحر. وأجيب بعد تسليم ورود ذلك أو ما يدل عليه بأنه مبالغة في طول المدة مع أنه في حيز لو فلا يرد رأساً[١] أو المراد بوقت البعث ما يشمل زمان النفخة لأنه من مقدماته فكأنه منه، وعن قتادة لكان بطن الحوت قبراً له، وظاهره أنه أريد للبث ميتاً في بطنه إلى يوم البعث، ولا مانع من بقاء بنية الحوت كبنيته من غير تسلط البلاء إلى ذلك اليوم، وضمير ﴿يبعثون﴾ لغير مذكور وهو ظاهر ﴿فَنَبَذْنَاهُ﴾ بأن حملنا الحوت على لفظه فالإسناد مجازي، والنبذ على ما في القاموس طرحك الشيء أماماً أو وراء أو هو عام.

وقال الراغب: النبذ إلقاء الشيء وطرحه لقلة الاعتداد به، والمراد به هنا الطرح والرمي والقيد الذي ذكره الراغب لا أرغب فيه فإنه عليه السلام وإن أبق وخرج من غير إذن مولاه واعتراه من تأديبه تعالى ما اعتراه فالرب عز وجل بأنبيائه رحيم وله سبحانه في كل شأن اعتداد بهم عظيم فهو عليه السلام معتد به في حال الإلقاء وإن كان ذلك ﴿بالعَرَاء﴾ أي بالمكان الخالي عما يغطيه من شجر أو نبت، يروى أن الحوت سار مع السفينة رافعاً رأسه يتنفس ويونس يسبح حتى انتهوا إلى البر فلفظه. ورد بأنه يأباه قوله تعالى ﴿فنادى في الظلمات﴾ وأجيب بأنه بمجرد رفع رأسه للتنفس لا يخرج منها، ثم إنّ هذا لئلا يختنق يونس أو تنحصر نفسه بحكم العادة لا ليمتنع دخول الماء جوف الحوت حتى يقال السمك لا يحتاج لذلك، ومع هذا نحن لا نجزم بصحة الخبر فقد روي أيضاً أنه طاف به البحار كلها ثم نبذه على شط دجلة قريب نينوى بكسر النون الأولى وضم الثانية كما في الكشف من أرض الموصل، والالتقام كان في دجلة أيضاً على ما صرح به البعض وخالف فيه أهل الكتاب، وسيأتي إن شاء الله تعالى نقل كلامهم لك في هذه القصة لتقف على ما فيه.

والظاهر أن الحوت من حيتان دجلة أيضاً وقد شاهدنا فيها حيتاناً عظيمة جداً، وقيل كان من حيتان النيل. أخرج ابن شيبة عن وهب أنه جلس هو وطاوس ونحوهما من أهل ذلك الزمان فذكروا أي أمر الله تعالى أسرع؟ فقال بعضهم: قول الله تعالى ﴿كلمح البصر﴾ [النحل: ٧٧، القمر: ٥٠] وقال بعضهم: السرير حين أتى به سليمان، وقال وهب: أسرع أمر الله تعالى أن يونس على حافة السفينة إذ أوحى الله سبحانه إلى نون في نيل مصر فما خر من حافتها إلا في جوفه، ولا شبهة في أن قدرة الله عز وجل أعظم من ذلك لكن الشبهة في صحة الخبر.

وكأني بك تقول: لا شبهة في عدم صحته. واختلف في مدة لبثه فأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وغيره عن الشعبي قال: التقمه الحوت ضحى ولفظه عشية وكأنه أراد حين أظلم الليل، وأخرج عبد بن حميد وغيره عن قتادة قال: إنه لبث في جوفه ثلاثاً، وفي كتب أهل الكتاب ثلاثة أيام وثلاث ليال، وعن عطاء وابن جبير سبعة أيام، وعن الضحاك عشرين يوماً، وعن ابن عباس وابن جريج وأبي مالك والسدي ومقاتل بن سليمان والكلبي وعكرمة أربعين يوماً، وفي البحر ما يدل على أنه لم يصح خبر في مدة لبثه عليه السلام في بطن الحوت ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ مما ناله، قال ابن عباس والسدي: إنه عاد بدنه كبدن الصبي حين يولد، وعن ابن جبير أنه عليه السلام ألقي ولا شعر له ولا جلد ولا ظفر. ولعل ذلك يستدعي بحكم العادة أن لمدة لبثه في بطن الحوت طولاً ما.

﴿وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِن يَقْطِينٍ﴾ أي أنبتناها مطلة عليه مظلة له كالخيمة فعليه حال من ﴿شجرة﴾ قدمت

---

(١) أو أنه يبقى حياً إلى وقت النفخة ثم يموت مع من يموت ويبقى إلى يوم البعث في بطن الحوت فلا إشكال اهـ عبد الله نجل المصنف.

عليها لأنها نكرة، واليقطين يفعيل من قطن بالمكان إذا أقام به، وزاد الطبرسي إقامة زائل لا إقامة راسخ، والمراد به على ما جاء عن الحسن والسبط. وابن عباس في رواية وابن مسعود وأبي هريرة وعمرو بن ميمون وقتادة وعكرمة وابن جبير ومجاهد في إحدى الروايتين عنهما الدباء وهو القرع المعروف، وكان النبي ﷺ يحبه، وأنبتها الله تعالى مطلة عليه لأنها تجمع خصالاً برد الظل والملمس وعظم الورق وأن الذباب لا يقع عليها على ما قيل، وكان عليه السلام لرقة جلده بمكثه في بطن الحوت يؤذيه الذباب ومماسة ما فيه خشونة ويؤلمه حر الشمس ويستطيب بارد الظل فلطف الله تعالى به بذلك، وذكر أن ورق القرع أنفع شيء لمن ينسلخ جلده؛ واشتهر أن الشجر ما كان على ساق من عود فيشكل تفسير الشجرة هنا بالدباء.

وأجاب أبو حيان بأنه يحتمل أن الله تعالى أنبتها على ساق لتظله خرقاً للعادة، وقال الكرماني: العامة تخصص الشجر بما له ساق، وعند العرب كل شيء له أرومة تبقى فهو شجر وغيره نجم، ويشهد له قول أفصح الفصحاء ﷺ شجرة الثوم انتهى.

وقال بعض الأجلة: لك أن تقول أصل معناه ما له أرومة لكنه غلب في عرف أهل اللغة على ما له ساق وأغصان فإذا أطلق يتبادر منه المعنى الثاني وإذا قيد كما هنا. وفي الحديث يرد على أصله وهو الظاهر، ثم ذكر أن ما قاله أبو حيان تمحل في محل لا مجال للرأي فيه. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن ابن جبير أنه قال: كل شجرة لا ساق لها فهي من اليقطين والذي يكون على وجه الأرض من البطيخ والقثاء، وفي رواية أخرى عنه أنه سئل عن اليقطين أهو القرع؟ قال: لا ولكنها شجرة سماها الله تعالى اليقطين أظلته.

وفي رواية عن ابن عباس أنه كل شيء ينبت ثم يموت من عامه، وفي أخرى كل شيء يذهب على وجه الأرض.

وقيل شجرة اليقطين هي شجرة الموز تغطي بورقها واستظل بأغصانها وأفطر على ثمارها، وقيل شجرة التين والأصح ما تقدم.

وروي عن قتادة أنه عليه السلام كان يأكل من ذلك القرع، وجاء في رواية عن أبي هريرة أنه قال: طرح بالعراء فأنبت الله تعالى عليه يقطينة فقيل له: ما اليقطينة؟ قال: شجرة الدباء هيأ الله تعالى له أروية وحشية تأكل من حشاش الأرض فتنفسح عليه فترويه من لبنها كل عشية وبكرة حتى نبتت، وقيل: إنه كان يستظل بالشجرة وتختلف إليه الأروية فيشرب من لبنها، وفي بعض الآثار أنها نبتت وأظلته في يومها.

أخرج أحمد في الزهد وغيره عن وهب أنه لما خرج من البحر نام نومة فأنبت الله تعالى عليه شجرة من يقطين وهي الدباء فأظلته وبلغت في يومها فرآها قد أظلته ورأى خضرتها فأعجبته ثم نام نومة فاستيقظ فإذا هي قد يبست فجعل يحزن عليها فقيل له: أنت الذي لم تخلق ولم تسق ولم تنبت تحزن عليها وأنا الذي خلقت مائة ألف من الناس أو يزيدون ثم رحمتهم فشق عليك وهؤلاء هم أهل نينوى المعنيون بقوله تعالى:

﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ والإرسال على ما أخرج غير واحد عن مجاهد والحسن وقتادة هو الإرسال الأول الذي كان قبل أن يلتقمه الحوت فالعطف على قوله تعالى: **﴿وإن يونس﴾** الخ على سبيل البيان لدلالته على ابتداء الحال وانتهائه وعلى ما هو المقصود من الإرسال من الإيمان، واعترض بينهما بقصته اعتناء بها لغرابتها. وأورد عليه أنه يأبى عن حمله على الإرسال الأول الفاء في قوله تعالى: **﴿فَآمَنُوا﴾** فإن أولئك لم يؤمنوا عقيب إرساله الأول بل بعد ما فارقهم. وأجيب بأنه تعقيب عرفي نحو تزوج فولد له.

وقيل: الأقرب أن الفاء للتفصيل أو السببية، وقيل هو إرسال ثان إليهم بعد أن أصابه ما أصابه فالعطف على ما عنده.

وأورد عليه أن المروي أنهم بعد مفارقته لهم رأوا العذاب أو خافوه فآمنوا فقوله تعالى ﴿فآمنوا﴾ في النظم الجليل هنا يأبى عن حمله على إرسال ثان. وأجيب بأنه يجوز أن يكون الإيمان المقرون بحرف التعقيب إيماناً مخصوصاً أو أن آمنوا بتأويل أخلصوا الإيمان وجددوه لأن الأول كان إيمان بأس، وقيل هو إرسال إلى غيرهم، وقيل: إن الأولين بعد أن آمنوا سألوه أن يرجع إليهم فأبى لأن النبي إذا هاجر عن قومه لم يرجع إليهم مقيماً فيهم وقال لهم: إن الله تعالى باعث إليكم نبياً. وفي خبر طويل أخرجه أحمد في الزهد وجماعة عن ابن مسعود أنه عليه السلام بعد أن نبذ بالعراء وأنبت الله تعالى عليه الشجرة وحسن حاله خرج فإذا هو بغلام يرعى غنماً فقال: ممن أنت يا غلام؟ قال: من قوم يونس قال: فإذا رجعت إليهم فأقرئهم السلام وأخبرهم أنك لقيت يونس فقال له الغلام: إن تكن يونس فقد تعلم أنه من كذب ولم يكن له بينة قتل فمن يشهد لي؟ قال: تشهد لك هذه الشجرة وهذه البقعة فقال الغلام ليونس: مرهما فقال لهما يونس: إذا جاءكما هذا الغلام فاشهدا له قالتا: نعم فرجع الغلام إلى قومه وكان له اخوة فكان في منعة فأتى الملك فقال: إني لقيت يونس وهو يقرأ عليكم السلام فأمر به الملك أن يقتل فقال: إن لي بينة فأرسل معه فانتهوا إلى الشجرة والبقعة فقال لهما الغلام نشدتكما بالله هل أشهدكما يونس قالتا: نعم فرجع القوم مذعورين يقولون: تشهد لك الشجرة والأرض فأتوا الملك فحدثوه بما رأوا فتناول الملك يد الغلام فأجلسه في مجلسه وقال: أنت أحق بهذا المكان مني وأقام لهم أمرهم ذلك الغلام أربعين سنة، وهذا دال بظاهره أنه عليه السلام لم يرجع بعد أن أصابه ما أصابه إليهم فإن صح يراد بالإرسال هنا إما الإرسال الأول الذي تضمنه قوله تعالى ﴿وإن يونس لمن المرسلين﴾ وإما إرسال آخر إلى غير أولئك القوم، والمعروف عند أهل الكتاب أنه عليه السلام لم يرسل إلا إلى أهل نينوى، وسيأتي إن شاء الله تعالى قريباً تفصيل قصته عندهم؛ و ﴿أو﴾ على ما نقل عن ابن عباس بمعنى بل، وقيل: بمعنى الواو وبها قرأ جعفر بن محمد رضي الله تعالى عنهما، وقيل: للإبهام على المخاطب، وقال المبرد وكثير من البصريين: للشك نظراً إلى الناظر من البشر على معنى من رآهم شك في عددهم وقال مائة ألف أو يزيدون والمقصود بيان كثرتهم أو أن الزيادة ليست كثيرة كثرة مفرطة كما يقال هم ألف وزيادة، وقال ابن كمال: المراد يزيدون باعتبار آخر وذلك أن المكلفين بالفعل منهم كانوا مائة ألف وإذا ضم إليهم المراهقون الذين بصدد التكليف كانوا أكثر؛ ومن هاهنا ظهر وجه التعبير بصيغة التجدد دون الثبات. وتعقب بأنه مع أن المناسب له الواو تكلف ركيك، وأقرب منه أن الزيادة بحسب الإرسال الثاني ويناسبه صيغة التجدد وإن كانت للفاصلة، وهو معطوف على جملة ﴿أرسلنا﴾ بتقديرهم يزيدون لا على ﴿مائة﴾ بتقدير أشخاص يزيدون أو تجريده للمصدرية فإنه ضعيف، والزيادة على ما روي عن ابن عباس ثلاثون ألفاً، وفي أخرى عنه بضعة وثلاثون ألفاً، وفي أخرى بضعة وأربعون ألفاً، وعن نوف وابن جبير سبعون ألفاً، وأخرج الترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي بن كعب قال: سألت رسول الله ﷺ عن قول الله تعالى ﴿**وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون**﴾ قال: يزيدون عشرين ألفاً، وإذا صح هذا الخبر بطل ما سواه.

﴿فَمَتَّعْنَاهُمْ﴾ بالحياة ﴿إِلَى حِين﴾ إلى آجالهم المسماة في الأزل قاله قتادة والسدي، وزعم بعضهم أن تمتيعهم بالحياة إلى زمان المهدي وهم إذا ظهر من أنصاره فهم اليوم أحياء في الجبال والقفار لا يراهم كل أحد كالمهدي عند الإمامية والخضر عند بعض العلماء والصوفية، وربما يكشف لبعض الناس فيرى أحداً منهم، وهو كذب مفترى، ولعل عدم ختم هذه القصة والقصة التي قبلها بنحو ما ختم به سائر القصص من قوله تعالى ﴿وتركنا عليه في الآخرين سلام﴾ [الصافات: ١٣٠] الخ تفرقة بين شأن لوط ويونس عليهما السلام وشأن أصحاب الشرائع الكبر

وأولي العزم من المرسلين مع الاكتفاء فيهما بالتسليم الشامل لكل الرسل المذكور في آخر السورة ولتأخرهما في الذكر قرباً منه والله تعالى أعلم. والمذكور في شأن يونس عليه السلام في كتب أهل الكتاب أن الله عز وجل أمره بالذهاب إلى دعوة أهل نينوى وكانت إذ ذاك عظيمة جداً لا تقطع إلا في نحو ثلاثة أيام وكانوا قد عظم شرهم وكثر فسادهم فاستعظم الأمر وهرب إلى ترسيس فجاء يافا فوجد سفينة يريد أهلها الذهاب بها إلى ترسيس فاستأجر وأعطى الأجرة وركب السفينة فهاجت ريح عظيمة وكثرت الأمواج وأشرفت السفينة على الغرق ففزع الملاحون ورموا في البحر بعض الأمتعة لتخف السفينة وعند ذلك نزل يونس إلى بطن السفينة ونام حتى علا نفسه فتقدم إليه الرئيس فقال له: ما بالك نائماً؟ قم وادع إلهك لعله يخلصنا مما نحن فيه ولا يهلكنا، وقال بعضهم لبعض: تعالوا نتقارع لنعرف من أصابنا هذا الشر بسببه فتقارعوا فوقعت القرعة على يونس فقالوا له: أخبرنا ماذا عملت ومن أين أتيت وإلى أين تمضي ومن أي كورة أنت ومن أي شعب أنت؟ فقال لهم: أنا عبد الرب إله السماء خالق البر والبحر وأخبرهم خبره فخافوا خوفاً عظيماً. وقالوا له: لم صنعت ما صنعت يلومونه على ذلك ثم قالوا له: ما نصنع الآن بك ليسكن البحر عنا؟ فقال: ألقوني في البحر يسكن فإنه من أجلي صار هذا الموج العظيم فجهد الرجال أن يردوها إلى البر فلم يستطيعوا فأخذوا يونس وألقوه في البحر لنجاة جميع من في السفينة فسكن البحر وأمر الله تعالى حوتاً عظيماً فابتلعه فبقي في بطنه ثلاثة أيام وثلاث ليال وصلى في بطنه إلى ربه واستغاث به، فأمر سبحانه الحوت فألقاه إلى اليبس ثم قال عز وجل له: قم وامض إلى نينوى وناد في أهلها كما أمرتك من قبل فمضى عليه السلام ونادى وقال: تخسف نينوى بعد ثلاثة أيام فآمنت رجال نينوى بالله تعالى ونادوا بالصيام ولبسوا المسوح جميعاً ووصل الخبر إلى الملك فقام عن كرسيه ونزع حلته ولبس مسحاً وجلس على الرماد ونودي أن لا يذق أحد من الناس والبهائم طعاماً ولا شراباً وجأروا إلى الله تعالى ورجعوا عن الشر والظلم فرحمهم الله تعالى فلم ينزل بهم العذاب فحزن يونس وقال: إلهي من هذا هربت فإني علمت أنك الرحيم الرؤوف الصبور التواب يا رب خذ نفسي فالموت خير لي من الحياة فقال: يا يونس حزنت من هذا جداً؟ فقال: نعم يا رب وخرج يونس وجلس مقابل المدينة وصنع له هناك مظلة وجلس تحتها إلى أن يرى ما يكون في المدينة فأمر الله تعالى يقطيناً فصعد على رأسه ليكون ظلاله من كربه ففرح باليقطين فرحاً عظيماً وأمر الله تعالى دودة فضربت اليقطين فجف ثم هبت ريح سموم وأشرقت الشمس على رأس يونس عليه السلام فعظم الأمر عليه واستطيب الموت فقال له الرب: يا يونس أحزنت جداً على اليقطين؟ فقال: نعم يا رب حزنت جدا فقال سبحانه: حزنت عليه وأنت لم تتعب فيه ولم تربه بل صار من ليلته وهلك من ليلته فأنا لا أشفق على نينوى المدينة العظيمة التي فيها سكان أكثر من اثني عشر ربوة من الناس قوم لا يعلمون يمينهم ولا شمالهم وبهائمهم كثيرة انتهى، وفيه من المخالفة للحق ما فيه؛ ولتطلع على حاله نقلته لك وكم لأهل الكتاب من باطل:

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ أمر الله تعالى نبيه ﷺ في صدر السورة الكريمة بتبكيت قريش وإبطال مذهبهم في إنكار البعث بطريق الاستفتاء وساق البراهين الناطقة بتحققه لا محالة وبين وقوعه وما يلقونه عند ذلك من فنون العذاب واستثنى منهم عباده المخلصين وفصل سبحانه ما لهم من النعيم المقيم، ثم ذكر سبحانه أنه قد ضل من قبلهم أكثر الأولين وأنه تعالى أرسل إليهم منذرين على وجه الإجمال، ثم أورد قصص بعض الأنبياء عليهم السلام بنوع تفصيل متضمناً كل منها ما يدل على فضلهم وعبوديتهم له عز وجل، ثم أمره ﷺ هاهنا بتبكيتهم بطريق الاستفتاء عن وجه ما تنكره العقول بالكلية وهي القسمة الباطلة اللازمة لما كانوا عليه من الاعتقاد الزائغ حيث كانوا يقولون كبعض أجناس العرب جهينة وسليم وخزاعة وبني مليح: الملائكة بنات الله سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً، ثم بتبكيتهم بما يتضمنه كفرهم المذكور من الاستهانة بالملائكة عليهم السلام بجعلهم إناثاً، ثم أبطل سبحانه

أصل كفرهم المنطوي على هذين الكفرين وهو نسبة الولد إليه سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، ولم ينظمه سبحانه في سلك التبكيت لمشاركتهم اليهود القائلين عزير ابن الله والنصارى المعتقدين عيسى ابن الله تعالى الله عن ذلك، والفاء قيل لترتيب الأمر على ما يعلم مما سبق من كون أولئك الرسل أعلام الخلق عليهم السلام عباده تعالى فإن ذلك مما يؤكد التبكيت ويظهر بطلان مذهبهم الفاسد فكأنه قيل: إذا كان رسل ربك من علمت حالهم فاستخبر هؤلاء الكفرة عن وجه كون البنات وهن أوضع الجنسين له تعالى بزعمهم والبنين الذين هم أرفعهما لهم فإنهم لا يستطيعون أن يثبتوا له وجهاً لأنه في غاية البطلان لا يقوله من له أدنى شيء من العقل، وقال بعض الأجلة: الكلام متصل بقوله تعالى في أول السورة ﴿فاستفتهم أهم أشد خلقاً﴾ [الصافات: ١١] على أن الفاء هنا للعطف على ذاك، والتعقيب لأنه أمر بهما من غير تراخ، وهي هناك جزائية في جواب شرط مقدر، وبهذا القول أقول. وأورد عليه أبو حيان أن فيه الفصل الطويل وقد استقبح النحاة الفصل بجملة نحو أكلت لحماً وأضرب زيداً وخبزاً فما ظنك بالفصل بجمل بل بما يقرب من سورة. وأجيب بأن ما ذكر في عطف المفردات وأما الجمل فلاستقلالها يغتفر فيها ذلك، والكلام هنا لما تعانقت معانيه وارتبطت مبانيه وأخذ بعضها بحجز بعض حتى كأن الجميع كلمة واحدة لم يعد البعد بعداً كما قيل:

وليس يضير البعد بين جسومنا ... إذا كان ما بين القلوب قريبا

ووجه ترتب المعطوف على ما قبل كوجه ترتب المعطوف عليه فإن كونه تعالى رب السماوات والأرض وتلك الخلائق العظيمة كما دل على وحدته تعالى وقدرته عز وجل دال على تنزهه سبحانه عن الولد، ألا ترى إلى قوله جل شأنه ﴿بديع السماوات والأرض أنى يكون له ولد﴾ [الأنعام: ١٠١] والمناسبة بين الرد على منكري البعث والرد على مثبتي الولد ظاهرة، وقد اتحد في الجملتين السائل والمسؤول والأمر؛ وجوز بعضهم كون ضمير ﴿**استفتهم**﴾ للمذكورين من الرسل عليهم السلام والبواقي لقريش، والمراد الاستفتاء ممن يعلم أخبارهم ممن يوثق بهم ومن كتبهم وصحفهم أي ما منهم أحد ألا وينزه الله تعالى عن أمثال ذلك حتى يونس عليه السلام في بطن الحوت، ولعمري إن الرجل قد بلغ الغاية من التكلف من غير احتياج إليه، ولعله لو استغنى عن ارتكاب التجوز بالتزام كون الاستفتاء من المرسلين المذكورين حيث يجتمع رسول الله ﷺ معهم اجتماعاً روحانياً كما يدعيه لنفسه الشيخ محيي الدين قدس سره مع غير واحد من الأنبياء عليهم السلام ويدعي أن الأمر بالسؤال المستدعي للاجتماع أيضاً في قوله تعالى ﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾ [الزخرف: ٤٥] على هذا النمط لكان الأمر أهون وإن كان ذلك منزعاً صوفياً.

وأضيف الرب إلى ضميره عليه الصلاة والسلام دون ضميرهم تشريفاً لنبيه ﷺ وإشارة إلى أنهم في قولهم بالبنات له عز وجل كالنافين لربوبيته سبحانه لهم، وقوله سبحانه: ﴿**أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثاً**﴾ إضراب وانتقال من التبكيت بالاستفتاء السابق إلى التبكيت بهذا أي بل أخلقنا الملائكة الذين هم من أشرف الخلائق وأقواهم وأعظمهم تقدساً عن النقائص الطبيعية إناثاً والأنوثة من أخس صفات الحيوان.

وقوله تعالى: ﴿**وَهُمْ شَاهِدُونَ**﴾ استهزاء بهم وتجهيل لهم كقوله تعالى: ﴿أشهدوا خلقهم﴾ [الزخرف: ١٩] فإن أمثال هذه الأمور لا تعلم إلا بالمشاهدة إذ لا سبيل إلى معرفتها بطريق العقل وانتفاء النقل مما لا ريب فيه فلا بد أن يكون القائل بأنوثتهم شاهداً عند خلقهم، والجملة أما حال من فاعل ﴿**خلقنا**﴾ أي بل أخلقناهم إناثاً والحال أنهم حاضرون حينئذ أو عطف على ﴿**خلقنا**﴾ أي بل أهم شاهدون.

وقول تعالى ﴿**أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ**﴾ استئناف من جهته تعالى غير داخل تحت الاستفتاء

مسوق لإبطال أصل مذهبهم الفاسد ببيان أن مبناه ليس إلا الإفك الصريح والافتراء القبيح من غير أن يكون لهم دليل أو شبهة ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فيما يتدينون به مطلقاً أو في هذا القول، وفيه تأكيد لقوله تعالى: ﴿من إفكهم﴾ وقرىء «ولد الله» بالإضافة ورفع ولد على أنه خبر مبتدأ محذوف أي ليقولون الملائكة ولد الله والولد فعل بمعنى مفعول يقع على المذكر والمؤنث والواحد والجمع ولذا وقع هنا خبراً عن الملائكة المقدر ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ بهمزة مفتوحة هي حرف استفهام حذفت بعدها همزة الوصل والاستفهام للإنكار والمراد اثبات إفكهم وتقرير كذبهم، والاصطفاء أخذ صفوة الشيء لنفسه.

وقرأ نافع في رواية إسماعيل وابن جماز وجماعة وإسماعيل عن أبي جعفر وشيبة «اصطفى» بكسر الهمزة وهي همزة الوصل وتكسر إذا ابتدىء بها وخرجت على حذف أداة الاستفهام لدلالة أم بعد وإن كانت منقطعة غير معادلة لها لكثرة استعمالها معها، وجوز إبقاء الكلام على الأخبار إما على إضمار القول أي لكاذبون في قولهم اصطفى الخ أو يقولون اصطفى الخ على ما قيل: أو على الإبدال من قولهم ولد الله أو الملائكة ولد الله وليس دخيلاً بين نسيبين، والأولى التخريج على حذف الأداة وحسم البحث فتأمل.

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ بهذا الحكم الذي تقضي ببطلانه بداهة العقول والالتفات لزيادة التوبيخ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ بحذف أحد التاءين من تتذكرون. وقرأ طلحة بن مصرف تذكرون بسكون الذال وضم الكاف من ذكر. والفاء للعطف على مقدر أي تلاحظون ذلك فلا تتذكرون بطلانه فإنه مركوز في عقل كل ذكي وغبي ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ إضراب وانتقال من توبيخهم وتبكيتهم بما ذكر بتكليفهم ما لا يدخل تحت الوجود أصلاً أي بل ألكم حجة واضحة نزلت من السماء بأن الملائكة بناته تعالى ضرورة أن الحكم بذلك لا بد له من سند حسي أو عقلي وحيث انتفى كلاهما فلا بد من سند نقلي ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ﴾ الناطق بصحة دعواكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيها، والأمر للتعجيز، وإضافة الكتاب إليهم للتهكم، وفي الآيات من الأنباء عن السخط العظيم والإنكار الفظيع لأقاويلهم والاستبعاد الشديد لأباطيلهم وتسفيه أحلامهم وتركيك عقولهم وأفهامهم مع استهزاء بهم وتعجيب من جهلهم ما لا يخفى على من تأمل فيها، وقوله تعالى ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً﴾ التفات إلى الغيبة للإيذان بانقطاعهم عن الجواب وسقوطهم عن درجة الخطاب واقتضاء حالهم أن يعرض عنهم وتحكى لآخرين جناياتهم، واستظهر أن المراد بالجنة الشياطين وأريد بالنسب المجعول المصاهرة.

أخرج آدم بن أبي أياس وعبد بن حميد وابن جرير وغيرهم عن مجاهد قال: قال كفار قريش الملائكة بنات الله تعالى فقال لهم أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه أي على سبيل التبكيت: فمن أمهاتهم؟ فقالوا: بنات سروات الجن وروي هذا ابن أبي حاتم عن عطية، أو أريد جعلوا بينه سبحانه وبينهم مناسبة حيث أشركوهم به تعالى في استحقاق العبادة وروي هذا عن الحسن، وقيل إن قوماً من الزنادقة يقولون الله عز وجل وإبليس عليه اللعنة أخوان فالله تعالى هو الخير الكريم وإبليس هو الشرير اللئيم وهو المراد بقوله سبحانه: ﴿وجعلوا﴾ الخ وحكى هذا الطبرسي عن الكلبي، وقال الإمام الرازي: وهذا القول عندي أقرب الأقاويل وهو مذهب المجوس القائلين بيزدان وأهرمن ويعبرون عنهما بالنور والظلمة، ويبعد هذا القول عندي أن الظاهر أن ضمير ﴿جعلوا﴾ كالضمائر السابقة لقريش ولم يشتهر ذلك عنهم بل ولا عن قبيلة من قبائل العرب وليس المقام للرد على الكفرة مطلقاً.

وأخرج غير واحد عن مجاهد وعبد بن حميد عن عكرمة وابن أبي شيبة عن أبي صالح أن المراد بالجنة الملائكة، وحكاه في مجمع البيان عن قتادة واختاره الجبائي، والمراد بالجعل المذكور ما تضمنه قولهم: الملائكة

بنات الله، وأعيد تمهيداً لما يعقبه، وهو مبني على أن الجن والملك جنس واحد مخلوقون من عنصر واحد وهو النار لكن من كان من كثيفها الدخاني فهو شيطان وهو شرذ وتمرد ومن كان من صافي نورها فهو ملك وهو خير كله، ووجه التسمية بالجن الاستتار عن عيوننا فالجن والجنة بمعنى مفعول من جنه إذا ستره، ويكون على هذا تخصيص الجن بأحد نوعيه تخصيصاً طارئاً كتخصيص الدابة، وعلى الأصل جاء ما هنا، ونقل عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن نوعاً من الملائكة عليهم السلام يسمى الجن ومنهم إبليس؛ وعبر عن الملائكة بالجنة حطا لهم مع عظم شأنهم في أنفسهم أن يبلغوا منزلة المناسبة التي أضافوها إليهم في قولهم ذلك، وقد يقال: إن الاستتار كالداعي لهم إلى ذلك الزعم الباطل بناء على توهمهم بأنه إنما يليق بالإناث فقالوا: لو لم يكونوا بناته سبحانه وتعالى لما سترهم عن العيون فلذا عبر عنهم بالجنة ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي والله لقد علمت الشياطين أي جنسهم أن الله تعالى يحضرهم ولا بد النار ويعذبهم بها ولو كانوا مناسبين له تعالى أو شركاء في استحقاق العبادة أو التصرف لما عذبهم سبحانه فضمير ﴿إنهم﴾ للجنة على ما عدا الوجه الأخير من الأوجه السابقة وأما عليه فهو للكفرة أي والله لقد علمت الملائكة الذين جعلوا بينه تعالى وبينهم نسباً وقالوا هم بناته أن الكفرة لمحضرون النار معذبون بها لكذبهم وافترائهم في قولهم ذلك، والمراد به المبالغة في التكذيب ببيان أن الذين يدعى لهم هؤلاء تلك النسبة ويعلمون أنهم علم منهم بحقيقة الحال يكذبونهم في ذلك ويحكمون بأنهم معذبون لأجله حكماً مؤكداً، ويجوز على الأوجه الأول عود الضمير على الكفرة أيضاً والمعنى على نحو ما ذكر، وعلم الملائكة أن الكفرة معذبون ظاهر، وعلم الشياطين بأنهم أنفسهم وكذا سائر الكفرة معذبون لما أن الله عز وجل توعد إبليس عليه اللعنة بما يدل على ذلك.

وقوله سبحانه ﴿سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ على جميع الأوجه السابقة تنزيه من جهته تعالى لنفسه عن الوصف الذي لا يليق به، وقوله تعالى: ﴿إِلاَّ عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء منقطع من المحضرين وما بينهما اعتراض أي ولكن المخلصون ناجون، وجوز كونه استثناء متصلاً منه ويفسر ضمير ﴿أنهم﴾ بما يعم وهو خلاف الظاهر.

وجوز كونه استثناء منقطعاً من ضمير ﴿يصفون﴾ وكونه استثناء متصلاً منه وهو خلاف الظاهر أيضاً.

وجوز كونه استثناء من ضمير ﴿جعلوا﴾ على الانقطاع لا غير وما في البين اعتراض، واختار الواحدي الوجه الأول. قال الطيبي: ويحسن كل الحسن إذا فسر الجنة بالشياطين أي وضمير ﴿أنهم﴾ بالكفرة ليرجع معناه إلى قوله تعالى حكاية عن اللعين ﴿لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠، ص: ٨٢، ٨٣] أي إنهم لمحضرون النار ومعذبون حيث أطاعونا في اغوائنا إياهم لكن الذين أخلصوا الطاعة لله تعالى وطهروا قلوبهم من أرجاس الشرك وأنجاس الكفر والرذائل ما عمل فيهم كيدنا فلا يحضرون ويكون ذلك مدحاً للمخلصين وتعريضاً بالمشركين وإرغاماً لأنوفهم ومزيداً لغيظهم أي إنهم بخلاف ما هم عليه من سفه الأحلام وجهل النفوس وركاكة العقول اهـ. وفي بيان المعنى نوع قصور، وقوله تعالى:

﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ * إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ عود إلى خطابهم، والفاء في جواب شرط مقدر أي إذا علمتم هذا أو إذا كان المخلصون ناجين ﴿فإنكم﴾ الخ، والواو للعطف ﴿وما تعبدون﴾ معطوف على الضمير في ﴿إنكم﴾ وضمير ﴿عليه﴾ لله عز وجل والجار متعلق بفاتنين وعدي بعلى لتضمنه معنى الاستيلاء وهو استعارة من قولهم فتن غلامه أو امرأته عليه إذا أفسده والباء زائدة وهو خبر ما، والجملة خبر إن والاستثناء مفرغ من مفعول فاتنين المقدر و ﴿أنتم﴾ خطاب للكفرة ومعبوديهم على سبيل التغليب نحو أنت وزيد تخرجان أي ما أنتم

ومعبودوكم مفسدين أحداً على الله عز وجل بإغوائكم إلا من سبق في علم الله تعالى أنه من أهل النار يصلاها ويدخلها لا محالة.

وجوز كون الواو هنا مثلها في قولهم كل رجل وضيعته فجملة ﴿ما أنتم عليه﴾ الخ مستقلة ليست خبراً لأن وضمير ﴿عليه﴾ لما بتقدير مضاف وهو متعلق بفاتنين أيضا بتضمينه معنى البعث أو الحمل ولا تغليب في الخطاب كأنه قيل: إنك وآلهتكم قرناء لا تبرحون تعبدونها ثم قيل ما أنتم على عبادة ما تعبدون بباعثين أو حاملين على طريق الفتنة والإضلال أحداً إلا من سبق في علمه تعالى أنه من أهل النار، وظاهر صنيع بعضهم أن أمر التغليب في ﴿أنتم﴾ على هذا على حاله، وأنت تعلم أن الظاهر الاتصال، وجوز أن يراد معنى المعية وخبر إن جملة ﴿ما أنتم عليه﴾ الخ ويكون الكلام على أسلوب قول الوليد بن عقبة بن أبي معيط عامله الله تعالى بما هو أهله يحض معاوية على حرب الأمير علي كرم الله تعالى وجهه:

فـإنـك والـكـتـاب إلـى عـلـي ... كـدابـغـة وقـد حـلـم الأديم

قال في الكشف: ومعنى الآية أي عليه أنكم يا كفرة مع معبوديكم لا يتسهل لكم إلا أن تفتنوا من هو ضال مثلكم، وهو بيان لخلاصة المعنى، واستظهر أبو حيان العطف وكون الضمير للعبادة وتضمين فاتنين معنى الحمل وتغليب المخاطب على الغائب في ﴿أنتم﴾ وكون الجملة المنفية خبر إن. وحكي عن بعضهم القول بأن على بمعنى الباء والضمير المجرور به لما تعبدون فتأمل. وقرأ الحسن وابن أبي عبلة «صالوا الجحيم» بالواو على ما فيه كتاب الكامل للهذلي، وفي كتاب ابن خالويه عنهما «صال» بالضم ولا واو. وفي اللوامح والكشاف عن الحسن «صالوا الجحيم» بضم اللام فعلى إثبات الواو هو جمع سلامة سقطت النون للإضافة. وفي الكلام مراعاة لفظ من أولاً ومعناها ثانياً كما هو قوله تعالى ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين﴾ [البقرة: ٨] وعلى عدم إثباتها فيه ثلاثة أوجه، الأول أن يكون جمعاً حذفت النون منه للإضافة ثم واو الجمع لالتقاء الساكنين وأتبع الخط اللفظ.

الثاني أن يكون مفرداً حذفت لامه وهي الياء تخفيفاً جعلت كالمنسي وجرى الإعراب على عينه كما جرى على عين يد ودم وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿وجنى الجنتين دان﴾ [الرحمن: ٥٤] وقوله سبحانه ﴿وله الجوار المنشآت﴾ [الرحمن: ٢٤] بضم نون ﴿دان﴾ وراء ﴿الجوار﴾ وقولهم ما باليت به بالة فإن أصل بالة بالية بوزن عافية حذفت لامه فأجري الإعراب على عينه ولما لحقته الهاء انتقل إليها، الثالث أن يكون مفرداً أيضاً ويكون أصله صائل على القلب المكاني بتقديم اللام على العين ثم حذفت اللام المقدمة وهي الياء فبقي صال بوزن فاع وصار معرباً كباب ونظيره شاك الجاري إعرابه على الكاف في لغة، وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ حكاية لاعتراف الملائكة بالعبودية للرد على من يزعم فيهم خلافها فهو من كلامه تعالى لكنه حكي بلفظهم وأصله وما منهم إلا الخ أي وما منا إلا له مقام معلوم في العبادة والانتهاء إلى أمر الله تعالى في تدبير العالم مقصور عليه لا يتجاوزه ولا يستطيع أن يزل عنه خضوعاً لعظمته تعالى وخشوعاً لهيبته سبحانه وتواضعاً لجلاله جل شأنه كما روي «فمنهم راكع لا يقيم صلبه وساجد لا يرفع رأسه» وقد أخرج الترمذي وحسنه وابن ماجة وابن مردويه عن أبي ذر قال: «قال رسول الله ﷺ: إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون إن السماء أطت وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك واضعاً جبهته ساجداً لله».

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ومحمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: «ما في السماء موضع قدم إلا عليه ملك ساجد أو قائم وذلك قول الملائكة وما منا إلا له مقام معلوم

وإنا لنحن الصافون» وعن السدي ﴿إلا له مقام معلوم﴾ في القرب والمشاهدة، وجعل بعضهم ذلك من كلام الجنة بمعنى الملائكة متصلاً بما قبله من كلامهم وهو من قوله تعالى ﴿سبحان الله عما يصفون﴾ إلى ﴿المسبحون﴾ فقال بعد أن فسر الجنة بالملائكة: إن ﴿سبحان الله عما يصفون﴾ حكاية لتنزيه الملائكة إياه تعالى عما وصفه المشركون به بعد تكذيبهم لهم في ذلك بتقدير قول معطوف على ﴿علمت﴾ و ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾ شهادة منهم ببراءة المخلصين من أن يصفوه تعالى بذلك متضمنة لتبرئتهم منه بحكم اندراجهم في زمرة المخلصين على أبلغ وجه وأكده على أنه استثناء منقطع من واو ﴿يصفون﴾ كأنه قيل: ولقد علمت الملائكة أن المشركين لمعذبون لقولهم ذلك وقالوا سبحان الله عما يصفون لكن عباد الله الذين نحن من جملتهم برآء من ذلك الوصف، و ﴿فإنكم﴾ الخ تعليل وتحقيق لبراءة المخلصين عما ذكر ببيان عجزهم عن إغوائهم وإضلالهم، والالتفات إلى الخطاب لإظهار كمال الاعتناء بتحقيق مضمون الكلام وما تعبدون الشياطين الذين أغووهم وفيه إيذان بتبريهم عنهم وعن عبادتهم كقوله ﴿بل كانوا يعبدون الجن﴾ [سبأ: ٤١] وقولهم ﴿وما منا إلا له مقام﴾ الخ تبين لجلية أمرهم وتعيين لحيزهم في موقف العبودية بعد ما ذكر من تكذيب الكفرة فيما قالوا وتنزيه الله تعالى عن ذلك وتبرئة المخلصين عنه وإظهار لقصور شأنهم وجعل تفسير الجنة بالملائكة هو الوجه لاقتضاء ربط الآيات وتوجيهها بما ذكر إياه وفي التعليل شيء، نعم إن هذه الآية تقوي قول من يقول: المراد بالجنة فيما سبق الملائكة عليهم السلام تقوية ظاهرة جداً وإن الربط الذي ذكر في غاية الحسن، وقيل: هو من قول الرسول عليه الصلاة والسلام أي وما من المسلمين إلا له مقام معلوم على قدر أعماله يوم القيامة وهو متصل بقوله ﴿فاستفتهم﴾ كأنه قيل فاستفتهم وقل وما منا الخ على معنى بكتهم بذلك وانع عليهم كفرانهم وعدد ما أنت وأصحابك متصف به من أضدادها، وإن شئت لم تقدر قل بعد علمك بأن المعنى ينساق إليه وهو بعيد فافهم والله تعالى أعلم.

و ﴿منا﴾ خبر مقدم والمبتدأ محذوف للاكتفاء بصفته وهي جملة له مقام أي ﴿ما منا﴾ أحد إلا له مقام معلوم. وحذف الموصوف بجملة أو شبهها إذا كان بعض ما قبله من مجرور بمن أو في مطرد وهذا اختيار الزمخشري.

وقال أبو حيان ﴿منا﴾ صفة لمبتدأ محذوف والجملة المذكورة هي الخبر أي وما أحد كائن منا إلا له مقام معلوم.

وتعقب ما مر بأنه لا ينعقد كلام من ما منا أحد، وقوله سبحانه ﴿إلا له مقام معلوم﴾ هو محط الفائدة فيكون هو الخبر وإن تخيل أن إلا بمعنى غير وهي صفة لا يصح لأنه لا يجوز حذف موصوفها وفارقت غير إذا كانت صفة في ذلك لتمكن غير في الوصف وقلة تمكن إلا فيه، وقال غيره: إن فيه أيضاً التفريغ في الصفات وهم منعوا ذلك، ودفع بأنه ينعقد منه كلام مفيد مناسب للمقام إذ معناه ما منا أحد متصف بشيء من الصفات إلا بصفة أن يكون له مقام معلوم لا يتجاوزه والمقصود بالحصر المبالغة أو يقال إنه صفة بدل محذوف أي ما منا أحد إلا أحد له مقام معلوم كما قاله ابن مالك في نظيره، وفيه أن فيه اعترافاً بأن المقصود بالإفادة تلك الجملة وهو يستلزم أولوية كونها خبراً وما ذكر من احتمال كونه صفة لبدل محذوف فليس بشيء لأن فيه حذف المبدل والمبدل منه ولا نظير له، وبالجملة ما ذكره أبو حيان أسلم من القيل والقال، نعم قيل يجوز أن يقال: القصد هنا ليس إفادة مضمون الخبر بل الرد على الكفرة ولذا جعل الظرف خبراً وقدم فالمعنى ليس منا أحد يتجاوز مقام العبودية لغيرها بخلافكم أنتم فقد صدر منكم ما أخرجكم عن رتبة الطاعة، وفيه نظر.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ أنفسنا أو أقدامنا في الصلاة، وقال ناصر الدين: أي في أداء الطاعة ومنازل الخدمة، وقيل:

الصافون حول العرش ننتظر الأمر الإلهي، وفي البحر داعين للمؤمنين، وقيل: صافون أجنحتنا في الهواء منتظرين ما يؤمر.

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق ابن جريج عن الوليد بن عبد الله بن مغيث قال: كانوا لا يصفون في الصلاة حتى نزلت ﴿وإنا لنحن الصافون﴾ وأخرج مسلم عن حذيفة قال قال رسول الله ﷺ: «فضلنا على الناس بثلاث جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة وجعلت لنا الأرض مسجداً وجعلت لنا تربتها طهوراً إذا لم نجد الماء» وأخرج هو أيضاً وأبو داود والنسائي وابن ماجة عن جابر بن سمرة قال قال رسول الله ﷺ: «ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربهم» وهذه الأخبار ونحوها ترجح التفسير الأول. ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ أي المنزهون الله تعالى عما لا يليق به سبحانه ويدخل فيه ما نسبه إليه تعالى الكفرة، وقيل: أي القائلون سبحان الله.

وأخرج عبد بن حميد وغيره عن قتادة أنه قال: المسبحون أي المصلون ويقتضيه ما روي عن ابن عباس أن كل تسبيح في القرآن بمعنى الصلاة، والظاهر ما تقدم، ولعل الأول إشارة إلى مزيد أدبهم الظاهر مع ربهم عز وجل والثاني إشارة إلى كمال عرفانهم به سبحانه، وقال ناصر الدين: لعل الأول إشارة إلى درجاتهم في الطاعة وهذا في المعارف، وما في أن واللام وتوسيط الفصل من التأكيد والاختصاص لأنهم المواظبون على ذلك دائماً من غير فترة وخواص البشر لا تخلو من الاشتغال بالمعاش، ولعل الكلام لا يخلو عن تعريض بالكفرة، والظاهر أن الآيات الثلاث أعني قوله تعالى ﴿وما منا﴾ إلى هنا نزلت كما نزلت أخواتها.

وعن هبة الله المفسر أنها نزلت لا في الأرض ولا في السماء وعد معها آيتين من آخر سورة البقرة وآية من الزخرف ﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا﴾ [الزخرف: ٤٥] الآية قال ابن العربي: ولعله أراد في الفضاء بين السماء والأرض.

وقال الجلال السيوطي: لم أقف على مستند لما ذكره إلا آخر البقرة فيمكن أن يستدل له بما أخرجه مسلم عن ابن مسعود لما أسري برسول الله ﷺ انتهى إلى سدرة المنتهى الحديث وفيه فأعطى الصلوات الخمس وأعطى خواتيم سورة البقرة وغفر لمن لا يشرك من أمته بالله شيئاً المقحمات انتهى فلا تغفل ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ﴾ إن هي المخففة واللام هي الفارقة والضمير لكفار قريش كانوا يقولون قبل مبعث النبي ﷺ ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْراً مِنَ الأَوَّلِينَ﴾ أي كتاباً من جنس الكتب التي نزلت عليهم ومثلها في كونه من عند الله تعالى: ﴿لَكُنَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ لأخلصنا العبادة له تعالى ولكنا أهدى منهم، والفاء في قوله تعالى: ﴿فَكَفَرُوا به﴾ فصيحة مثلها في قوله تعالى: ﴿فاضرب بعصاك الحجر فانفلق﴾ [الشعراء: ٦٣] أي فجاءهم ذكر وأي ذكر سيد الأذكار وكتاب مهيمن على سائر الكتب والأخبار فكفروا به ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي عاقبة كفرهم وما يحل بهم من الانتقام، وقيل أريد بالذكر العلم أي لو أن عندنا علماً من الذين تقدمونا وما فعل الله تعالى بهم بعد أن ماتوا هل أثابهم أم عذبهم لأخلصنا العبادة له تعالى فجاءهم ذلك في القرآن العظيم فكفروا به، ولا يخفى بعده. ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ استئناف مقرر للوعيد وتصديره بالقسم لغاية الاعتناء بتحقيق مضمونه أي وبالله لقد سبق وعدنا لهم بالنصرة والغلبة وهو قوله تعالى:

﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ فيكون تفسيراً أو بدلاً من ﴿كلمتنا﴾ وجوز أن يكون مستأنفاً والوعد ما في محل آخر من قوله تعالى ﴿لأغلبن أنا ورسلي﴾ [المجادلة: ٢١] والأول أظهر، والمراد بالجند اتباع المرسلين وأضافهم إليه تعالى تشريفاً لهم وتنويهاً بهم، وقال بعض الأجلة: هو تعميم بعد تخصيص وفيه من التأكيد ما فيه، والمراد عند السدي بالنصرة والغلبة ما كان بالحجة، وقال الحسن: المراد النصرة والغلبة في الحرب فإنه لم يقتل نبي من الأنبياء في الحرب وإنما قتل من قتل منهم غيلة أو على وجه آخر في غير الحرب وإن مات نبي قبل

النصرة أو قتل فقد أجرى الله تعالى أن ينصر قومه من بعده فيكون في نصرة قومه نصرة له، وقريب منه ما قيل إن القصرين باعتبار عاقبة الحال وملاحظة المآل، وقال ناصر الدين: هما باعتبار الغالب والمقضي بالذات لأن الخير هو مراده تعالى بالذات وغيره مقضي بالتبع لحكمة وغرض آخر أو للاستحقاق بما صدر من العباد، ولذا قيل بيده الخير ولم يذكر الشر مع أن الكل من عنده عز وجل، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما إن لم ينصروا في الدنيا نصروا في الآخرة، وظاهر السياق يقتضي أن ذلك في الدنيا وأنه بطريق القهر والاستيلاء والنيل من الأعداء إما بقتلهم أو تشريدهم أو إجلائهم عن أوطانهم أو استئسارهم أو نحو ذلك، والجملتان دالتان على الثبات والاستمرار فلا بد من أن يقال: إن استمرار ذلك عرفي، وقيل: هو على ظاهره واستمرار الغلبة للجند مشروط بما تشعر به الإضافة فلا يغلب اتباع المرسلين في حرب إلا لإخلالهم بما تشعر به بميل ما إلى الدنيا أو ضعف التوكل عليه تعالى أو نحو ذلك، ويكفي في نصرة المرسلين اعلاء كلمتهم وتعجيز الخلق عن معارضتهم وحفظهم من القتل في الحروب ومن الفرار فيها ولو عظمت هنالك الكروب فافهم، ولا يخفى وجه التعبير بمنصورون مع المرسلين وبالغالبون مع الجند فلا تغفل، وسمى الله عز وجل وعده بذلك كلمة وهي كلمات لأنها لما اجتمعت وتضامت وارتبطت غاية الارتباط صارت في حكم شيء واحد فيكون ذلك من باب الاستعارة، والمشهور أن إطلاق الكلمة على الكلام مجاز مرسل من اطلاق الجزء على الكل، وقال بعض العلماء: إنه حقيقة لغوية واختصاص الكلمة بالمفرد اصطلاح لأهل العربية فعليه لا يحتاج إلى التأويل، وقرأ الضحاك «كلماتنا» بالجمع، ويجوز أن يراد عليها وعودنا فتفطن، وفي قراءة ابن مسعود «على عبادنا» على تضمين «سبقت» معنى حقت ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ فأعرض عنهم واصبر ﴿حَتَّى حِينٍ﴾ إلى وقت انتهاء مدة الكف عن القتال، وعن السدي إلى يوم بدر ورجحه الطبري وقيل: إلى يوم الفتح وكان قبله مهادنة الحديبية، وأخرج ابن جرير وغيره عن قتادة أنه قال: إلى يوم موتهم وحكاه الطبرسي عن ابن عباس أيضاً، وقال ابن زيد: إلى يوم القيامة، وهو والذي قبله ظاهر أن في عدم اختصاص النصرة بما كان في الدنيا ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ وهم حينئذ على اسوأ حال وأفظع نكال قد حل بهم ما حل من الأسر والقتل أو أبصر بلاءهم على أن الكلام على حذف مضاف، والأمر بمشاهدة ذلك وهو غير واقع للدلالة على أنه لشدة قربه كأنه حاضر قدامه وبين يديه مشاهد خصوصاً إذا قيل إن الأمر للحال أو الفور.

﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ ما يكون لك من التأييد والنصر، وقيل: المعنى أبصر ما يكون عليهم يوم القيامة من العذاب فسوف يبصرون ما يكون لك من مزيد الثواب، وسوف للوعيد لا للتسويف والتبعيد الذي هو حقيقتها وقرب ما حل بهم مستلزم لقرب ما يكون له عليه الصلاة والسلام فهو قرينة على عدم ارادة التبعيد منه.

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ استفهام توبيخ أخرج جويبر عن ابن عباس قال قالوا يا محمد أرنا العذاب الذي تخوفنا به وعجلنه لنا فنزلت، وروي أنه لما نزل ﴿فسوف يبصرون﴾ قالوا متى هذا؟ فنزلت ﴿فَإِذَا نَزَلَ﴾ أي العذاب الموعود ﴿بِسَاحَتِهِمْ﴾[1] وهي العرصة الواسعة عند الدور والمكان الواسع مطلقاً وتجمع على سوح قال الشاعر:

فكان سيان أن لا يسرحوا نعماً ... أو يسرحوه بها واغبرت السوح

وفي الضمير استعارة مكنية شبه العذاب بجيش يهجم على قوم وهم في ديارهم بغتة فيحل بها والنزول تخييل.

وقرأ ابن مسعود «نُزِلَ» بالتخفيف والبناء للمجهول وهو لازم فالجار والمجرور نائب الفاعل، وقرىء نزل بالتشديد والبناء للمجهول أيضاً وهو متعد فنائب الفاعل ضمير العذاب ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ أي فبئس صباح

(١) قال الفراء: العرب تقول نزل بساحتهم، ويريدون نزل بهم، فلا تغفل اهـ منه.

المنذرين صباحهم على أن ساء بمعنى بئس وبها قرأ عبد الله والمخصوص بالذم محذوف واللام في المنذرين للجنس لا للعهد لاشتراطهم الشيوع فيما بعد فعلى الذم والمدح ليكون التفسير بعد الإبهام والتفصيل بعد الاجمال ولو كان ساء بمعنى قبح على أصله جاز اعتبار العهد من غير تقدير، والصباح مستعار لوقت نزول العذاب أي وقت كان من صباح الجيش المبيت للعدو وهو السائر إليه ليلاً ليهجم عليه وهو في غفلته صباحاً، وكثيراً ما يسمون الغارة صباحاً لما أنها في الأعم الأغلب تقع فيه، وهو مجاز مرسل أطلق فيه الزمان وأريد ما وقع فيه كما يقال أيام العرب لوقائعهم.

وجوز حمل الصباح هنا على ذلك، وفي الكشاف مثل العذاب النازل بهم بعد ما أنذروه فأنكروه بجيش أنذر بهجومه قوماً بعض نصّاحهم فلم يلتفتوا إلى إنذاره ولا أخذوا أهبتهم ولا دبروا أمرهم تدبيراً ينجيهم حتى أناخ بفنائهم بغتة فشن عليهم الغارة وقطع دابرهم، وكانت عادة مغاويرهم إصباحاً فسميت الغارة صباحاً وإن وقعت في وقت آخر؛ وما فصحت هذه الآية ولا كانت لها الروعة التي يحس بها ويروقك موردها على نفسك وطبعك إلا لمجيئها على طريقة التمثيل انتهى، وظاهره أن الكلام على الاستعارة التمثيلية وفضلها على غيرها أشهر من أن يذكر وأجل من أن ينكر، وقيل: ضمير نزل للنبي ﷺ ويراد حينئذ نزوله يوم الفتح لا يوم بدر لأنه ليس بساحتهم الأعلى تأويل ولا بخيبر لقوله ﷺ حين صبحها الله أكبر خربت خيبر أنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين لأن تلاوته عليه الصلاة والسلام تمت لاستشهاده بها والكلام هنا مع المشركين، ولا يخفى بعد رجوع الضمير إليه عليه الصلاة والسلام.

﴿**وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ * وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ**﴾ تسلية لرسول الله ﷺ إثر تسلية وتأكيد لوقوع الميعاد غب تأكيد مع ما في اطلاق الفعلين عن المفعول من الإيذان ظاهراً بأن ما يبصره عليه الصلاة والسلام حينئذ من فنون المسار وما يبصرونه من فنون المضار لا يحيط به الوصف والبيان، وجوز أن يراد بما تقدم عذاب الدنيا وبهذا عذاب الآخرة ﴿**سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾ تنزيه لله تعالى شأنه عن كل ما يصفه المشركون به مما لا يليق بجناب كبريائه وجبروته مما حكي عنهم في السورة الكريمة وما لم يحك من الأمور التي من جملتها ترك إنجاز الموعود على موجب كلمته تعالى السابقة لا سيما في حق الرسول ﷺ كما ينبيء عنه التعرض لعنوان الربوبية المعربة عن التربية والتكميل والمالكية الكلية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام أولاً وإلى العزة ثانياً كأنه قيل: سبحان من هو مربيك ومكملك ومالك العزة والغلبة على الإطلاق عما يصفه المشركون به من الأشياء التي منها ترك نصرتك عليهم كما يدل عليه استعجالهم بالعذاب، ومعنى ملكه تعالى العزة على الإطلاق أنه ما من عزة لأحد من الملوك وغيرهم إلا وهو عز وجل مالكها، وقال الزمخشري: أضيف الرب إلى العزة لاختصاصه تعالى بها كأنه قيل ذو العزة كما تقول صاحب صدق لاختصاصه بالصدق، ثم ذكر جواز إرادة المعنى الذي ذكرناه، والفرق أن الإضافة على ما ذكرنا على أنه سبحانه المعز وعلى الآخر على أنه عز وجل العزيز بنفسه. ولكل وجه من المبالغة خلا عنه الآخر، وقوله تعالى: ﴿**وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ**﴾ تشريف للرسل كلهم بعد تنزيهه تعالى عما ذكر وتنويه بشأنهم وإيذان بأنهم سالمون عن كل المكاره فائزون بكل المآرب، وقوله سبحانه: ﴿**وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ إشارة إلى وصفه تعالى بصفاته الكريمة الثبوتية بعد التنبيه على اتصافه عز وجل بجميع صفاته السلبية وإيذان باستتباعها للأفعال الحميدة التي من جملتها إفاضته تعالى على المرسلين من فنون الكرامات السنية والكمالات الدينية والدنيوية وإسباغه جل وعلا عليهم وعلى من تبعهم من صنوف النعماء الظاهرة والباطنة الموجبة لحمده تعالى وإشعار بأن ما وعده عليه السلام من النصرة والغلبة قد تحقق، والمراد تنبيه المؤمنين على كيفية تسبيحه سبحانه وتحميده والتسليم على رسله عليهم السلام الذين هم وسائط بينه تعالى وبينهم في فيضان الكمالات مطلقاً عليهم.

وهو ظاهر في عدم كراهة إفراد السلام عليهم، ولعل توسيط التسليم على المرسلين بين تسبيحه تعالى وتحميده لختم السورة الكريمة بحمده تعالى مع ما فيه من الاشعار بأن توفيقه تعالى للتسليم من جملة نعمه تعالى الموجبة للحمد كذا في إرشاد العقل السليم. وقد يقال: تقديم التنزيه لأهميته ذاتاً ومقاماً، ولما كان التنزيه عما يصف المشركون وقد ذكر عز وجل إرشاد الرسل إياهم وتحذيرهم لهم من أن يصفوه سبحانه بما لا يليق به تعالى وضمن ذلك الإشارة إلى سوء حالهم وفظاعة منقلبهم أردف جلَّ وعلا ذلك بالإشارة إلى حسن حال المرسلين الداعين إلى تنزيهه تعالى عما يصفه به المشركون، وفيه من الاهتمام بأمر التنزيه ما فيه، وأتى عز وجل بالحمد للإشارة إلى أنه سبحانه متصف بالصفات الثبوتية كما أنه سبحانه متصف بالصفات السلبية وهذا وإن استدعى إيقاع الحمد بعد التسبيح بلا فصل كما في قولهم سبحان الله والحمد لله وهو المذكور في الأخبار والمشهور في الأذكار إلا أن الفصل بينهما هنا بالسلام على المرسلين مما اقتضاه مقام ذكرهم فيما مر وجدد الالتفات إليهم تقديم التنزيه عما يصفه به من يرسلون إليه، ولعل من يدقق النظر يرى أن السلام هنا أهم من الحمد نظراً للمقام وإن كان هو أهم منه ذاتاً والأهمية بالنظر للمقام أولى بالاعتبار عندهم ولذا تراهم يقدمون المفضول على الفاضل إذا اقتضى المقام الاعتناء به، ولعله من تتمة جملة التسبيح وبهذا ينحل ما يقال من أن حمده تعالى أجل من السلام على الرسل عليهم السلام فكان ينبغي تقديمه عليه على ما هو المنهج المعروف في الكتب والخطب، ولا يحتاج إلى ما قيل: إن المراد بالحمد هنا الشكر على النعم وهي الباعثة عليه ومن أجلها إرسال الرسل الذي هو وسيلة لخيري الدارين فقدم عليه لأن الباعث على الشيء يتقدم عليه في الوجود وإن كان هو متقدماً على الباعث في الرتبة فتدبر.

وهذه الآية من الجوامع والكوامل ووقوعها في موقعها هذا ينادي بلسان ذلق أنه كلام من له الكبرياء ومنه العزة جل جلاله وعم نواله. وقد أخرج الخطيب عن أبي سعيد قال: كان رسول الله ﷺ يقول بعد أن يسلم: سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

وأخرج الطبراني عن زيد بن أرقم عن رسول الله ﷺ قال: من قال دبر كل صلاة «سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ثلاث مرات فقد اكتال بالمكيال الأوفى من الأجر، وأخرج ابن أبي حاتم عن الشعبي قال: «قال رسول الله ﷺ من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليقل آخر مجلسه حين يريد أن يقوم سبحان ربك رب العزة» إلى آخر السورة، وأخرجه البغوي من وجه آخر متصل عن علي كرم الله تعالى وجهه موقوفاً، وجاء في ختم المجلس بالتسبيح غير هذا ولعله أصح منه، فقد أخرج أبو داود عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: «قال رسول الله ﷺ كلمات لا يتكلم بهن أحد في مجلسه عند قيامه ثلاث مرات إلا كفرَّ بهن عنه ولا يقولهن في مجلس خير وذكر إلا ختم له بهن عليه كما يختم بخاتم على الصحيفة سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك» لكن المشهور اليوم بين الناس أنهم يقرؤون عند ختم مجلس القراءة أو الذكر أو نحوهما الآية المذكورة ﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين﴾.

ومن باب الاشارة في الآيات ما قالوا ﴿والصافات صَفّاً﴾ هي الأرواح الكاملة المكملة من الصف الأول وهو صف الأنبياء عليهم السلام والصف الثاني وهو صف الأصفياء ﴿**فالزاجرات زجراً**﴾ عن الكفر والفسوق بالحجج والنصائح والهمم القدسية ﴿**فالتاليات ذكراً**﴾ آيات الله تعالى وشرائعه عز وجل، وقيل الصافات جماعة الملائكة

المهيمين والزاجرات جماعة الملائكة الزاجرين للأجرام العلوية والأجسام السفلية بالتدبير والتاليات جماعة الملائكة التالية آيات الله تعالى وجلا يا قدسه على أنبيائه وأوليائه، وتنزل الملائكة على الأولياء مما قال به الصوفية قدس الله تعالى أسرارهم وقد نطق بأصل التنزل عليهم قوله تعالى: ﴿**إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون**﴾ وقد يطلقون على بعض الأولياء أنبياء الأولياء.

قال الشعراوي في رسالة الفتح في تأويل ما صدر عن الكمل من الشطح: أنبياء الأولياء هم كل ولي أقامه الحق تعالى في تجل من مظهر تجلياته وأقام له محمد ﷺ ومظهر جبريل عليه السلام فأسمعه ذلك المظهر الروحاني خطاب الأحكام المشروعة لمظهر محمد ﷺ حتى إذا فرغ من خطابه وفزع عن قلب هذا الولي عقل صاحب هذا المشهد جميع ما تضمنه ذلك الخطاب من الأحكام المشروعة الظاهرة في هذه الأمة المحمدية فيأخذها هذا الولي كما أخذها المظهر المحمدي فيرد إلى حسه وقد وعى ما خاطب الروح به مظهر محمد ﷺ وعلم صحته علم يقين بل عين يقين فمثل هذا يعمل بما شاء من الأحاديث لا التفات له إلى تصحيح غيره أو تضعيفه فقد يكون ما قال بعض المحدثين بأنه صحيح لم يقله النبي عليه الصلاة والسلام وقد يكون ما قالوا فيه إنه ضعيف سمعه هذا الولي من الروح الأمين يلقيه على حقيقة محمد ﷺ كما سمع بعض الصحابة حديث جبريل في بيان الإسلام والإيمان والإحسان فهؤلاء هم أنبياء الأولياء ولا ينفردون قط بشريعة ولا يكون لهم خطاب بها إلا بتعريف أن هذا هو شرع محمد عليه الصلاة والسلام أو يشاهدن المنزل على رسوله ﷺ في حضرة التمثل الخارج عن ذاتهم والداخل المعبر عنه بالمبشرات في حق النائم غير أن الولي يشترك مع النبي في إدراك ما تدركه العامة في النوم في حال اليقظة فهؤلاء في هذه الأمة كالأنبياء في بني إسرائيل على مرتبة تعبد هارون بشريعة موسى مع كونه نبياً وهم الذين يحفظون الشريعة الصحيحة التي لا شك فيها على أنفسهم وعلى هذه الأمة فهم أعلم الناس بالشرع غير أن غالب علماء الشريعة لا يسلمون لهم ذلك وهم لا يلزمهم إقامة الدليل على صدقهم لأنهم ليسوا مشرعين فهم حفاظ الحال النبوي والعلم اللدني والسر الإلهي وغيرهم حفاظ الأحكام الظاهرة، وقد بسطنا الكلام على ذلك في الميزان اهـ. وقال بعيد هذا في رسالته المذكورة: اعلم أن بعض العلماء أنكروا نزول الملك على قلب غير النبي ﷺ لعدم ذوقه له، والحق أنه ينزل ولكن بشريعة نبيه ﷺ فالخلاف إنما ينبغي أن يكون فيما ينزل به الملك لا في نزول الملك وإذا نزل على غير نبي لا يظهر له حال الكلام أبداً إنما يسمع كلامه ولا يرى شخصه أن يرى شخصه من غير كلام فلا يجمع بين الكلام والرؤية إلا نبي والسلام اهـ. وقد تقدم لك طرف من الكلام في رؤية الملك فتذكر. ﴿**إن إلهكم لواحد**﴾ أخبار بذلك ليعلموه ولا يتخذوا من دونه تعالى آلهة من الدنيا والهوى والشيطان، ومعنى كونه عز وجل واحداً تفرده في الذات والصفات والأفعال وعدم شركة أحد معه سبحانه في شيء من الأشياء، وطبقوا أكثر الآيات بعد على ما في الأنفس، وقيل في قوله تعالى: ﴿**وقفوهم إنهم مسؤولون**﴾ فيه إشارة إلى أن للسالك في كل مقام وقفة تناسب ذلك المقام وهو مسؤول عن أداء حقوق ذلك المقام فإن خرج عن عهدة جوابه أذن له بالعبور وإلا بقي موقوفاً رهيناً بأحواله إلى أن يؤدي حقوقه، وكذا طبقوا ما جاء من قصص المرسلين بعد على ما في الأنفس، وقيل في قوله تعالى: ﴿**وما منا إلا له مقام معلوم**﴾ يشير إلى أن الملك لا يتعدى مقامه إلى ما فوقه ولا يهبط عنه إلى ما دونه وهذا بخلاف نوع الإنسان فإن من أفراده من سار إلى مقام قاب قوسين بل طار إلى منزل أو أدنى وجر هناك مطارف ﴿**فأوحى إلى عبده ما أوحى**﴾ ومنها من هوى إلى أسفل سافلين وانحط إلى قعر سجين ﴿**واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين**﴾ وقد ذكروا أن الإنسان قد يترقى حتى يصل إلى مقام الملك فيعبره إلى مقام قرب النوافل ومقام قرب

الفرائض وقد يهبط إلى درك البهيمية فما دونها ﴿**أولئك كالأنعام بل هم أضل**﴾ نسأل الله تعالى أن يرقينا إلى مقام يرضاه ويرزقنا رضاه يوم لقاه وأن يجعلنا من جنده الغالبين وعباده المخلصين بحرمة سيد المرسلين ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين سلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

(٣٨) سورة ص مكية
وآياتها ثمان وثمانون

بسم الله الرحمن الرحيم

صٓ وَالْقُرْءَانِ ذِى الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا
مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾

باسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ص والقرآن ذى الذكر ، بل الذين كفروا فى عزة وشقاق ، كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الكلام المستقصى فى أمثال هذه الفواتح مذكور فى أول سورة البقرة ولا بأس بإعادة بعض الوجوه (فالأول) أنه مفتاح أسماء الله تعالى التى أولها صاد ، كقولنا صادق الوعد ، صانع المصنوعات ، صمد (والثانى) معناه صدق محمد فى كل ما أخبر به عن الله (الثالث) معناه صد الكفار عن قبول هذا الدين ، كما قال تعالى (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله) (الرابع) معناه أن القرآن مركب من هذه الحروف وأنتم قادرون عليها ولستم قادرين على معارضة القرآن، فدل ذلك على أن القرآن معجز (الخامس) أن يكون صاد بكسر الدال من المصادة وهى المعارضة ومنها الصدى وهو مايعارض صوتك فى الأماكن الخالية من الأجسام الصلبة ، ومعناه عارض القرآن بعملك فاعمل بأوامره وانته عن نواهيه (السادس) أنه اسم السورة والتقدير هذه صاد ، فإن قيل ههنا إشكالان (أحدهما) أن قوله (والقرآن ذى الذكر) قسم وأين المقسم عليه ؟ (والثانى) أن كلمة (بل) تقتضى رفع حكم ثبت قبلها ، وإثبات حكم بعدها يناقض الحكم السابق ، فأين هذا المعنى ههنا ؟ (والجواب) عن الأول من وجوه (الأول) أن يكون معنى صاد ، بمعنى صدق محمد ﷺ ، فيكون صاد هو المقسم عليه ، وقوله (والقرآن ذى الذكر) هو القسم (الثانى) أن يكون المقسم عليه محذوفاً ، والتقدير سورة (ص والقرآن ذى الذكر) أنه لكلام معجز ، لأنا بينا أن قوله (ص) تنبيه على التحدى (والثالث) أن يكون صاد اسماً للسورة ، ويكون التقدير هذه ص والقرآن ذى الذكر ، ولما كان المشهور أن محمداً عليه السلام يدعى فى هذه السورة كونها معجزة ، كان قوله هذه (ص) جارياً مجرى قوله : هذه هى السورة المعجزة ، ونظيره قولك هذا حاتم والله ، أى هذا هو المشهور

بالسخاء (والجواب) عن السؤال الثانى أن الحكم المذكور قبل كلمة (بل(١)) أما ماذكره المفسر كون محمد صادقاً فى تبليغ الرسالة أو كون القرآن أو هذه السورة معجزة والحكم المذكور بعد كلمة (بل) ههنا هو المنازعة والمشاقة فى كونه كذلك لحصل المطلوب ، والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ الحسن صاد بكسر الدال لأجل التقاء الساكنين ، وقرأ عيسى بن عمر بنصب صاد ونون وبحذف حرف القسم وإيصال فعله كقولهم الله لأفعلن ، وأكثر القراء على الجزم لأن الأسماء العارية عن العوامل تذكر موقوفة الأواخر .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى قوله ذى الذكر وجهان (الأول) المراد ذى الشرف ، قال تعالى (وإنه لذكر لك ولقومك) وقال تعالى (لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم) ومجاز هذا من قولهم لفلان ذكر فى الناس ، كما يقولون له صيت (الثانى) ذى البيانين أى فيه قصص الأولين والآخرين ، وفيه بيان العلوم الأصلية والفرعية ومجازه من قوله (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قالت المعتزلة القرآن ذى الذكر والذكر محدث (بيان الأول) قوله تعالى (وإنه لذكر لك ولقومك ، وهذا ذكر مبارك ، والقرآن ذى الذكر ، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين) و (بيان الثانى) قوله (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث) وقوله (ما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث) (والجواب) أنا نصرف دليلكم إلى الحروف والأصوات وهى محدثة .

أما قوله (بل الذين كفروا) فالمراد منه الكفار من رؤساء قريش الذين يجوز على مثلهم الإجماع على الحسد والتكبر عن الإنقياد إلى الحق ، والعزة ههنا التعظيم وما يعتقده الإنسان فى نفسه من الأحوال التى تمنعه من متابعة الغير لقوله تعالى (وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم) والشقاق هو إظهار المخالفة على جهة المساواة للمخالف أو على جهة الفضيلة عليه ، وهو مأخوذ من الشق كأنه يرتفع عن أن يلزمه الانقياد له بل يجعل نفسه فى شق وخصمه فى شق ، فيريد أن يكون فى شقة نفسه ولا يجرى عليه حكم خصمه ، ومثله المعاداة وهو أن يكون أحدهما فى عدوة والآخر فى عدوة ، وهى جانب الوادى ، وكذلك المحادة أن يكون هذا فى حد غير حد الآخر ، ويقال انحرف فلان عن فلان وجانب فلان فلاناً أى صار منه على حرف وفى جانب غير جانبه والله أعلم ، ثم إنه تعالى لما وصفهم بالعزة والشقاق خوفهم فقال (كم أهلكنا قبلهم من قرن فنادوا) والمعنى أنهم نادوا عند نزول العذاب فى الدنيا ولم يذكر بأى شىء نادوا ، وفيه وجوه (الأول) وهو الأظهر أنهم نادوا بالاستغاثة لأن نداء من نزل به العذاب ليس إلا بالاستغاثة (الثانى) نادوا بالإيمان والتوبة عند معاينة العذاب (الثالث) نادوا أى رفعوا أصواتهم ، يقال فلان أندى صوتاً من فلان أى ارفع صوتاً ، ثم قال (ولات حين مناص) يعنى

(١) الحكم الذى قبل كلمة (بل) هو وصف القرآن بأنه تذكير لهم بوجوب التوحيد والايمان بالله ورسله واليوم الآخر وكل ما تفيده كلمة ذى الذكر وهذا هو الحكم المتبادر من ظاهر الآية ، وبهذا يكون للاضراب بل معنى ويجرى الكلام على الأساليب العربية . فهو قبيل الاستنتاج والاعتماد على ماجاء بعد (بل) من الآيات والاضراب لا يكون عن حكم لم يذكر .

وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ﴿٧﴾

ولم يكن ذلك الوقت وقت فرار من العذاب وهو كقوله (فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا) وقال (حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون) والجؤار رفع الصوت بالتضرع والاستغاثة وكقوله (آلآن وقد عصيت قبل) وقوله (فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا) بقي ههنا أبحاث :

﴿ البحث الأول ﴾ في تحقيق الكلام في لفظ (لات) زعم الخليل وسيبويه أن لات هي لا المشبهة بليس زيدت عليها تاء التأنيث كما زيدت على رب وثم للتأكيد ، وبسبب هذه الزيادة حدثت لها أحكام جديدة ، منها أنها لا تدخل إلا على الأحيان ، ومنها أن لا يبرز إلا أحد جزءيها ، إما الاسم وإما الخبر ويمتنع بروزهما جميعاً ، وقال الأخفش إنها لا النافية للجنس زيدت عليها التاء وخصت بنفي الأحيان (وحين مناص) منصوب بها كأنك قلت ولات حين مناص لهم ويرتفع بالإبتداء أي ولات حين مناص كائن لهم .

﴿ البحث الثاني ﴾ الجمهور يقفون على التاء من قوله (ولات) والكسائي يقف عليها بالهاء كما يقف على الأسماء المؤنثة ، قال صاحب الكشاف : وأما قول أبي عبيدة التاء داخلة على الحين فلا وجه له ، واستشهاده بأن التاء ملتزقة بحين في مصحف عثمان فضعيف فكم وقعت في المصحف أشياء خارجة عن قياس الخط .

﴿ البحث الثالث ﴾ المناص المنجا والغوث ، يقال ناصه ينوصه إذا أغاثه ، واستناص طلب المناص ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب ، أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب ، وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد ، ماسمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما حكى عن الكفار كونهم في عزة وشقاق أردفه بشرح كلماتهم الفاسدة فقال (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم) في قوله (منهم) وجهان (الأول) أنهم قالوا إن محمداً مساو لنا في الخلقة الظاهرة والأخلاق الباطنة والنسب والشكل والصورة ، فكيف يعقل أن يختص من بيننا بهذا المنصب العالي والدرجات الرفيعة (والثاني) أن الغرض من هذه الكلمة التنبيه على كمال

جهالتهم ، وذلك لأنه جاءهم رجل يدعوهم إلى التوحيد وتعظيم الملائكة والترغيب فى الآخرة ، والتنفير عن الدنيا ، ثم إن هذا الرجل من أقاربهم يعلمون أنه كان بعيداً من الكذب والتهمة ؛ وكل ذلك مما يوجب الاعتراف بتصديقه ، ثم إن هؤلاء الأقوام لحماقتهم يتعجبون من قوله ، ونظيره قوله (أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون) فقال (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم) ومعناه أن محمداً كان من رهطهم وعشيرتهم وكان مساوياً لهم فى الأسباب الدنيوية فاستنكفوا من الدخول تحت طاعته ومن الانقياد لتكاليفه ، وعجبوا أن يختص هو من بينهم برسالة الله وأن يتميز عنهم بهذه الخاصية الشريفة ، وبالجملة فما كان لهذا التعجب سبب إلا الحسد .

ثم قال تعالى (وقال الكافرون هذا ساحر كذاب) وإنما لم يقل وقالوا بل قال (وقال الكافرون) إظهاراً للتعجب ودلالة على أن هذا القول لا يصدر إلا عن الكفر التام ، فان الساحر هو الذى يمنع من طاعة الله ويدعو إلى طاعة الشيطان وهو عندكم بالعكس من ذلك والكذاب هو الذى يخبر عن الشيء لا على ما هو عليه وهو يخبر عن وجود الصانع القديم الحكيم العليم وعن الحشر والنشر وسائر الأشياء التى تثبت بدلائل العقول صحتها فكيف يكون كذاباً ، ثم إنه تعالى حكى جميع ما عولوا عليه فى إثبات كونه كاذباً وهى ثلاثة أشياء (أحدها) ما يتعلق بالإلهيات (وثانيها) ما يتعلق بالنبوات (وثالثها) ما يتعلق بالمعاد ، أما الشبهة المتعلقة بالإلهيات فهى قولهم (أجعل الآلهة إلها واحداً إن هذا الشيء عجاب) روى أنه لما أسلم عمر فرح به المسلمون فرحاً شديداً وشق ذلك على قريش فاجتمع خمسة وعشرون نفساً من صناديدهم ومشوا إلى أبى طالب وقالوا أنت شيخنا وكبيرنا وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء يعنون المسلمين فجئناك لتقضى بيننا وبين ابن أخيك فاستحضر أبو طالب رسول الله ﷺ وقال يا ابن أخى هؤلاء قومك يسألونك السؤال فلا تمل كل الميل على قومك ، فقال ﷺ ماذا يسألونني ، قالوا ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا وندعك وإلهك ، فقال ﷺ أرأيتم إن أعطيتكم ما سألتم أتعطونني أنتم كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم العجم ؟ قالوا نعم ، قال تقولوا لا إله إلا الله ، فقاموا وقالوا (أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب) أى بليغ فى التعجب وأقول منشأ التعجب من وجهين (الأول) هو أن القوم ما كانوا من أصحاب النظر والاستدلال بل كانت أوهامهم تابعة للمحسوسات فلما وجدوا فى الشاهد أن الفاعل الواحد لا تفى قدرته وعلمه بحفظ الخلق العظيم قاسوا الغائب على الشاهد ، فقالوا لا بد فى حفظ هذا العالم الكثير من آلهة كثيرة يتكفل كل واحد منهم بحفظ نوع آخر (الوجه الثانى) أن أسلافهم لكثرتهم وقوة عقولهم كانوا مطبقين على الشرك ، فقالوا من العجب العجيب أن يكون أولئك الأقوام على كثرتهم وقوة عقولهم كانوا جاهلين مبطلين ، وهذا الإنسان الواحد يكون محقاً صادقاً ، وأقول لعمرى لو سلمنا إجراء حكم الشاهد على الغائب من غير دليل وحجة ، لكانت الشبهة الأولى لازمة ، ولما توافقنا على فسادها علمنا أن إجراء حكم الشاهد على الغائب فاسد قطعاً . وإذا بطلت هذه القاعدة فقد بطل أصل كلام المشبهة فى الذات وكلام المشبهة فى الأفعال ، أما المشبهة

فى الذات فهو أنهم يقولون لما كان كل موجود فى الشاهد يجب أن يكون جسما ومختصاً بحيز وجب فى الغائب أن يكون كذلك ، وأما المشبهة فى الأفعال فهم المعتزلة الذين يقولون إن الأمر الفلانى قبيح منا، فوجب أن يكون قبيحاً من الله ، فثبت بما ذكرنا أنه إن صح كلام هؤلاء المشبهة فى الذات وفى الأفعال لزم القطع بصحة شبهة هؤلاء المشركين ، وحيث توافقنا على فسادها علمنا أن عمدة كلام المجسمة وكلام المعتزلة باطل فاسد . وأما الشبهة الثانية فلعمرى لو كان التقليد حقاً لكانت هذه الشبهة لازمة وحيث كانت فاسدة علمنا أن التقليد باطل بقى ههنا أبحاث :

﴿ البحث الأولى ﴾ أن العجاب هو العجيب إلا أنه أبلغ من العجيب كقولهم طويل وطوال وعريض وعراض وكبير وكبار وقد يشدد للمبالغة كقوله تعالى (ومكروا مكراً كباراً) .

﴿ الثانى ﴾ قال صاحب الكشاف قرىء عجاب بالتخفيف والتشديد فقال والتشديد أبلغ من التخفيف كقوله تعالى (مكراً كباراً) .

ثم قال تعالى (وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم) قد ذكرنا أن الملأ عبارة عن القوم الذين إذا حضروا فى المجلس فانه تمتلىء القلوب والعيون من مهابتهم وعظمتهم ، وقوله (منهم) أى من قريش انطلقوا عن مجلس أبى طالب ، بعد ما بكتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجواب العتيد قائلين بعضهم لبعض (أن امشوا واصبروا على آلهتكم) وفيه مباحث :

﴿ البحث الأول ﴾ القراءة المشهورة أن امشوا وقرأ ابن أبى عبلة امشوا بحذف أن قال صاحب الكشاف أن بمعنى أى لأن المنطلقين عن مجلس التقاول لا بد لهم من أن يتكلموا ويتفاوضوا فيما يجرى فى المجلس المتقدم ، فكان انطلاقهم مضمناً معنى القول ، وعن ابن عباس : وانطلق الملأ منهم يمشون .

﴿ البحث الثانى ﴾ معنى أن امشوا أنه قال بعضهم لبعض امشوا واصبروا ، فلا حيلة لكم فى دفع أمر محمد ، إن هذا لشىء يراد ، وفيه ثلاثة أوجه (أحدها) ظهور دين محمد صلى الله عليه وسلم ليس له سبب ظاهر يثبت أن تزايد ظهوره ليس إلا لأن الله يريده ، وما أراد الله كونه فلا دافع له (وثانيها) أن الأمر كشىء من نوائب الدهر فلا انفكاك لنا منه (وثالثها) أن دينكم لشىء يراد أى يطلب ليؤخذ منكم ، قال القفال هذه كلمة تذكر للتهديد والتخويف وكأن معناها أنه ليس غرض محمد من هذا القول تقرير الدين ، وإنما غرضه أن يستولى علينا فيحكم فى أموالنا وأولادنا بما يريد .

ثم قال (ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة) والملة الآخرة هى ملة النصارى فقالوا إن هذا التوحيد الذى أتى به محمد ﷺ ما سمعناه فى دين النصارى ، أو يكون المراد بالملة الآخرة ملة قريش التى أدركوا آباءهم عليها ، ثم قالوا (إن هذا إلا اختلاق) افتعال وكذب ، وحاصل الكلام من هذا الوجه أنهم قالوا نحن ما سمعنا عن أسلافنا القول بالتوحيد ، فوجب أن يكون باطلا ، ولو كان القول بالتقليد حقاً لكان كلام هؤلاء المشركين حقاً ، وحيث كان باطلا علمنا أن القول بالتقليد باطل .

أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَـٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾

قوله تعالى :﴿ أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هم فى شك من ذكرى بل لما يذوقوا عذاب ، أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب ، أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما فليرتقوا فى الأسباب ، جند ماهنالك مهزوم من الأحزاب ﴾.

اعلم أن هذا هو الشبهة الثالثة لأولئك الكفار وهى الشبهة المتعلقة بالنبوات وهى قولهم إن محمداً لما كان مساوياً لغيره فى الذات والصفات والخلقة الظاهرة والأخلاق الباطنة فكيف يعقل أن يختص هو بهذه الدرجة العالية والمنزلة الشريفة ؟ وهو المراد من قولهم (أأنزل عليه الذكر من بيننا) فانه استفهام على سبيل الإنكار ، وحكى الله تعالى عن قوم صالح أنهم قالوا مثل هذا القول فقالوا (أألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر) وحكى الله تعالى عن قوم محمد ﷺ أيضاً أنهم قالوا (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) وتمام الكلام فى تقرير هذه الشبهة : أنهم قالوا النبوة أشرف المراتب ، فوجب أن لاتحصل إلا لأشرف الناس ومحمد ليس أشرف الناس ، فوجب أن لاتحصل له النبوة ، والمقدمتان الأوليان حقيتان لكن الثالثة كاذبة وسبب رواج هذا التغليط عليهم أنهم ظنوا أن الشرف لا يحصل إلا بالمال والأعوان وذلك باطل ، فان مراتب السعادة ثلاثة أعلاها هى النفسانية وأوسطها هى البدنية وأدونها هى الخارجية وهى المال والجاه ، فالقوم عكسوا القضية وظنوا بأخس المراتب أشرفها فلما وجدوا المال والجاه عند غيره أكثر ظنوا أن غيره أشرف منه ، فحينئذ انعقد هذا القياس الفاسد فى أفكارهم ، ثم إنه تعالى أجاب عن هذه الشبهة من وجوه (الأول) قوله تعالى (بل هم فى شك من ذكرى بل لما يذوقوا عذاب) وفيه وجهان (أحدهما) أن قوله (بل هم فى شك من ذكرى) أى من الدلائل التى لو نظروا فيها لزال هذا الشك عنهم وذلك لأن كل ما ذكروه من الشبهات فهى كلمات ضعيفة وأما الدلائل التى تدل بنفسها على صحة نبوته ، فهى دلائل قاطعة فلو تأملوا حق التأمل فى الكلام لوقفوا على ضعف الشبهات التى تمسكوا بها فى إبطال النبوة ، ولعرفوا صحة الدلائل الدالة على صحة نبوته ، فحيث لم يعرفوا ذلك كان لأجل أنهم تركوا النظر والاستدلال ، فأما قوله تعالى (بل لما

يذوقوا عذاب) فموقعه من هذا الكلام أنه تعالى يقول هؤلاء إنما تركوا النظر والاستدلال لأنى لم أذقهم عذابى ، ولو ذاقوه لم يقع منهم إلا الإقبال على أداء المأمورات والانتهاء عن المنهيات (وثانيها) أن يكون المراد من قوله (بل هم فى شك من ذكرى هو أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يخوفهم من عذاب الله لو أصروا على الكفر ، ثم إنهم أصروا على الكفر ، ولم ينزل عليهم العذاب ، فصار ذلك سبباً لشكهم فى صدقه ، وقالوا (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء) فقال (بل هم فى شك من ذكرى) معناه ماذكرناه ، وقوله تعالى (بل لما يذوقوا عذاب) معناه أن ذلك الشك إنما حصل بسبب عدم نزول العذاب (والوجه الثانى) من الوجوه التى ذكرها الله تعالى فى الجواب عن تلك الشبهة قوله تعالى (أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب) وتقرير هذا الجواب أن منصب النبوة منصب عظيم ودرجة عالية والقادر على هبتها يجب أن يكون عزيزاً أى كامل القدرة ووهاباً أى عظيم الجود وذلك هو الله سبحانه وتعالى ، وإذا كان هو تعالى كامل القدرة وكامل الجود ، لم يتوقف كونه واهباً لهذه النعمة على كون الموهوب منه غنياً أو فقيراً ، ولم يختلف ذلك أيضاً بسبب أن أعداءه يحبونه أويكرهونه (والوجه الثالث) فى الجواب عن هذه الشبهة قوله تعالى (أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما فليرتقوا فى الأسباب) واعلم أنه يجب أن يكون المراد من هذا الكلام مغايراً للمراد من قوله (أم عندهم خزائن رحمة ربك) والفرق أن خزائن الله تعالى غير متناهية كما قال (وإن من شىء إلا عندنا خزائنه) ومن جملة تلك الخزائن هو هذه السموات والأرض ، فلما ذكرنا الخزائن أولا على عمومها أردفها بذكر (ملك السموات والأرض وما بينهما) يعنى أن هذه الأشياء أحد أنواع خزائن الله ، فاذا كنتم عاجزين عن هذا القسم ، فبأن تكونوا عاجزين عن كل خزائن الله كان أولى ، فهذا ما أمكننى ذكره فى الفرق بين الكلامين ، أما قوله تعالى (فليرتقوا فى الأسباب) فالمعنى أنهم أن ادعوا أن لهم ملك السموات والأرض فعند هذا يقال لهم ارتقوا فى الأسباب واصعدوا فى المعارج التى يتوصل بها إلى العرش حتى يرتقوا عليه ويدبروا أمر العالم وملكوت الله وينزلوا الوحى على من يختارون ، واعلم أن حكماء الاسلام استدلوا بقوله (فليرتقوا فى الأسباب) على أن الأجرام الفلكية وما أودع الله فيها من القوى والخواص أسباب لحوادث العالم السفلى لأن الله تعالى سمى الفلكيات أسباباً وذلك يدل على ماقلناه والله أعلم ، أما قوله تعالى (جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب) ففيه مقامان من البحث (أحدهما) فى تفسير هذه الألفاظ (والثانى) فى كيفية تعلقها بما قبلها (أما المقام الأول) فقوله (جند) مبتدأ وما للابهام كقوله جئت لأمر ما ، وعندى طعام ما ، و(من الأحزاب) صفة لجند و (مهزوم) خبر المبتدأ وأما قوله (هنالك) فيجوز أن يكون صفة لجند أى جند ثابت هنالك ، ويجوز أن يكون متعلقاً بمهزوم معناه أن الجند من الأحزاب مهزوم هنالك ، أى فى ذلك الموضع الذى كانوا يذكرون

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ
وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ
﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾

فيه هذه الكلمات الطاعنة فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم (وأما المقام الثانى) فهو أنه تعالى لما قال إن كانوا يملكون السموات و الأرض فليرتقوا فى الأسباب ، ذكر عقيبه أنهم جند من الأحزاب منهزمون ضعيفون ، فكيف يكونون مالكى السموات والأرض وما بينهما ، قال قتادة هنالك إشارة إلى يوم بدر فأخبر الله تعالى بمكة أنه سيهزم جند المشركين فجاء تأويلها يوم بدر ، وقيل يوم الخندق ، والأصوب عندى حمله على يوم فتح مكة ، وذلك لأن المعنى أنهم جند سيصيرون منهزمين فى الموضع الذى ذكروا فيه هذه الكلمات وذلك الموضع هو مكة ، فوجب أن يكون المراد أنهم سيصيرون منهزمين فى مكة وما ذاك إلا يوم الفتح . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد ، وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب ، إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب ، وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة مالها من فواق ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما ذكر فى الجواب عن شبهة القوم أنهم إنما توانوا وتكاسلوا فى النظر والاستدلال ، لأجل أنهم لم ينزل بهم العذاب ، بين تعالى فى هذه الآية أن أقوام سائر الأنبياء هكذا كانوا ثم بالآخرة نزل ذلك العقاب ، والمقصود منه تخويف أولئك الكفار الذين كانوا يكذبون الرسول فى إخباره عن نزول العقاب عليهم ، فذكر الله ستة أصناف منهم أولهم قوم نوح عليه السلام ولما كذبوا نوحا أهلكهم الله بالغرق والطوفان (والثانى) عاد قوم هود لما كذبوه أهلكهم الله بالريح (والثالث) فرعون لما كذب موسى أهلكه الله مع قومه بالغرق (والرابع) ثمود قوم صالح لما كذبوه فأهلكوا بالصيحة (والخامس) قوم لوط كذبوه فأهلكوا بالخسف (والسادس) أصحاب الأيكة وهم قوم شعيب كذبوه فأهلكوا بعذاب يوم الظلة ، قالوا وإنما وصف الله فرعون بكونه ذا الأوتاد لوجوه (الأول) ان أصل هذه الكلمة من ثبات البيت المطنب بأوتاده ، ثم استعير لإثبات العز والملك قال الشاعر :

ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة ... فى ظل ملك ثابت الأوتاد

قال القاضى حمل الكلام على هذا الوجه أولى لأنه لما وصف بتكذيب الرسل ، فيجب فيما وصف به أن يكون تفخيما لأمر ملكه ليكون الزجر بما ورد من قبل الله تعالى عليه من الهلاك

مع قوة أمره أبلغ (والثانى) أنه كان ينصب الخشب فى الهواء وكان يمد يدى المعذب ورجليه إلى تلك الخشب الاربع ، ويضرب على كل واحد من هذه الأعضاء وتداً ، ويتركه معلقاً فى الهواء إلى أن يموت (والثالث) أنه كان يمد المعذب بين أربعة أوتاد فى الأرض ويرسل عليه العقارب والحيات (والرابع) قال قتادة كانت أوتاداً وأرساناً وملاعب يلعب بها عنده (والخامس) أن عساكره كانوا كثيرين ، وكانوا كثيرى الأهبة عظيمى النعم ، وكانوا يكثرون من الأوتاد لأجل الخيام فعرف بها (والسادس) ذو الأوتاد والجموع الكثيرة ، وسميت الجموع أوتاداً لأنهم يقرون أمره ويشدون مملكته كما يقوى الوتد البناء(١) . وأما الإيكة فهى الغيضة الملتفة .

ثم قال تعالى (أولئك الأحزاب) وفيه أقوال (الاول) أن هؤلاء الذين ذكرناهم من الأمم هم الذين تحزبوا على أنبيائهم فأهلكناهم ، فكذلك نفعل بقومك ، لأنه تعالى بين بقوله (جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب) أن قوم محمد ﷺ جند من الأحزاب ، أى من جنس الأحزاب المتقدمين ، فلما ذكر أنه عامل الأحزاب المتقدمين بالإهلاك كان ذلك تخويفاً شديداً لقوم محمد ﷺ (الثانى) أن معنى قوله (أولئك الأحزاب) مبالغة لوصفهم بالقوة والكثرة ، كما يقال فلان هو الرجل ، والمعنى أن حال أولئك الأحزاب مع كمال قوتهم لما كان هو الهلاك والبوار ، فكيف حال هؤلاء الضعفاء المساكين.

واعلم أن هؤلاء الأقوام إن صدقوا بهذه الأخبار فهو تحذير ، وإن لم يصدقوا بها فهو تحذير أيضاً ، لأن آثار هذه الوقائع باقية وهو يفيد الظن القوى فيحذرون ، ولأن ذكر ذلك على سبيل التكرير يوجب الحذر أيضاً ، ثم قال إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب ، أى كل هذه الطوائف لما كذبوا أنبياءهم فى الترغيب والترهيب ، لاجرم نزل العقاب عليهم وإن كان ذلك بعد حين ، والمقصود منه زجر السامعين ، ثم بين تعالى أن هؤلاء المكذبين وإن تأخر هلاكهم فكأنه واقع بهم فقال (وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق) وفى تفسير هذه الصيحة قولان (الأول) أن يكون المراد عذاباً يفجؤهم ويجيئهم دفعة واحدة ،كما يقال صاح الزمان بهم إذا هلكوا قال الشاعر : صاح الزمان بآل برمك صيحة خروا لشدتها على الأذقان

ويشبه أن يكون أصل ذلك من الغارة إذا عافصت القوم فوقعت الصيحة فيهم ، ونظيره قوله تعالى (فهل ينظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم) الآية (والقول الثانى) أن هذه الصيحة هى صيحة النفخة الأولى فى الصور ، كما قال تعالى فى سورة يس (ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون) والمعنى أنهم وإن لم يذوقوا عذابى فى الدنيا فهو معد لهم يوم القيامة ، فكأنهم بذلك العذاب وقد جاءهم فجعلهم منتظرين لها على معنى قربها منهم ، كالرجل الذى ينتظر الشىء فهو ماد الطرف إليه يطمع كل ساعة فى حضوره ، ثم إنه سبحانه وصف هذه الصيحة فقال (ما لها من فواق) قرأ حمزة والكسائى (فواق) بضم الفاء ، والباقون بفتحها ، قال الكسائى والفراء

(١) الأولى أن تفسر الأوتاد هنا بالأهرام ، فانها خاصة بالفراعين فى مصر ، وإنما جاز أن نسميها أوتادا تشبيها لها بالجبال فى الرسوخ فى الأرض والعظم والسموق والعلو والارتفاع ، والله تعالى سمى الجبال أوتاداً فى القرآن بقوله و(الجبال أوتاداً) .

وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾

وأبو عبيدة والأخفش : هما لغتان من فواق الناقة . وهو ما بين حلبتى الناقة وأصله من الرجوع ، يقال أفاق من مرضه ، أى رجع إلى الصحة ، فالزمان الحاصل بين الحلبتين لعود اللبن إلى الضرع يسمى فواقاً بالفتح وبالضم ، كقولك قصاص الشعر وقصاصه . قال الواحدى والفواق والفواق اسمان من الافاقة ، والافاقة معناها الرجوع والسكون كأفاقة المريض ، إلا أن الفواق بالفتح يجوز أن يقام مقام المصدر ، والفواق بالضم اسم لذلك الزمان الذى يعود فيه اللبن إلى الضرع ، وروى الواحدى فى البسيط عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال فى هذه الآية « يأمر الله إسرافيل فينفخ نفخة الفزع ، قال فيمدها ويطولها » وهى التى يقول (مالها من فواق) ثم قال الواحدى:وهذا يحتمل معنيين (أحدهما) ما لها سكون(والثانى)ما لها رجوع ، والمعنى ما تسكن تلك الصيحة ولا ترجع إلى السكون ، ويقال لكل من بقى على حالة واحدة ، إنه لا يفيق منه ولا يستفيق ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب ، اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب ﴾

اعلم أنا ذكرنا فى تفسير قوله(وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب) أن القوم إنما تعجبوا لشبهات ثلاثة (أولها) تتعلق بالإلهيات ، وهو قوله (أجعل الآلهة إلهاً واحداً) (والثانية) تتعلق بالنبوات ، وهو قوله (أأنزل عليه الذكر من بيننا) (والثالثة)تتعلق بالمعاد ، وهو قوله تعالى (وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب) وذلك لأن القوم كانوا فى نهاية الإنكار للقول بالحشر والنشر ، فكانوا يستدلون بفساد القول بالحشر والنشر على فساد نبوته ، والقط القطعة من الشيء لأنه قطع منه من قطه إذا قطعه ويقال لصحيفة الجائزة قط ، ولما ذكر رسول الله ﷺ وعد المؤمنين بالجنة ، قالوا على سبيل الاستهزاء : عجل لنا نصيبنا من الجنة ، أو عجل لنا صحيفة أعمالنا حتى ننظر فيها .

واعلم أن الكفار لما بالغوا فى السفاهة على رسول الله ﷺ حيث قالوا (إنه ساحر كذاب) وقالوا له على سبيل الاستهزاء (عجل لنا قطنا) أمره الله بالصبر على سفاهتهم ، فقال (اصبر على ما يقولون) فإن قيل . أى تعلق بين قوله (اصبر على ما يقولون) وبين قوله(واذكر عبدنا داود)؟ قلنا بيان هذا التعلق من وجوه (الأول) كأنه قيل إن كنت قد شاهدت من هؤلاء الجهال جراءتهم على الله وإنكارهم الحشر والنشر ، فاذكر قصة داود حتى تعرف شدة خوفه من الله تعالى ومن

يوم الحشر ، فإن بقدر ما يزداد أحد الضدين شرفاً يزداد الضد الآخر نقصاناً (والثانى) كأنه قيل لمحمد ﷺ لا يضيق صدرك بسبب إنكارهم لقولك ودينك ، فإنهم إذا خالفوك فالأكابر من الأنبياء وافقوك (والثالث) أن للناس فى قصة داود قولين : منهم من قال إنها تدل على ذنبه ، ومنهم من قال إنها لا تدل عليه (فمن قال بالأول) كان وجه المناسبة فيه كأنه قيل لمحمد ﷺ إن حزنك ليس إلا ، لأن الكفار يكذبونك ، وأما حزن داود فكان بسبب وقوعه فى ذلك الذنب ولا شك أن حزنه أشد ، فتأمل فى قصة داود وما كان فيه من الحزن العظيم حتى يخف عليك ما أنت فيه من الحزن (ومن قال بالثانى) قال الخصمان اللذان دخلا على داود كانا من البشر ، وإنما دخلا عليه لقصد قتله فخاف منهما داود ، ومع ذلك لم يتعرض لإيذائهما ولا دعا عليهما بسوء بل استغفر لهما على ما سيجىء تقرير هذه الطريقة فلا جرم أمر الله تعالى محمداً عليه السلام بأن يقتدى به فى حسن الخلق (والخامس) أن قريشاً إنما كذبوا محمداً عليه السلام واستخفوا به لقولهم فى أكثر الأمر إنه يتيم فقير ، ثم إنه تعالى قص على محمد كمال مملكة داود ، ثم بين أنه مع ذلك ماسلم من الأحزان والغموم ، ليعلم أن الخلاص عن الحزن لاسبيل إليه فى الدنيا (والسادس) أن قوله تعالى (اصبر على مايقولون واذكر عبدنا داود) غير مقتصر على داود فقط بل ذكر عقيب قصة داود قصص سائر الأنبياء فكأنه قال (اصبر على ما يقولون) واعتبر بحال سائر الأنبياء ليعلمه أن كل واحد منهم كان مشغولا بهم خاص وحزن خاص ، فحينئذ يعلم أن الدنيا لا تنفك عن الهموم والأحزان ، وأن استحقاق الدرجات العالية عند الله لا يحصل إلا بتحمل المشاق والمتاعب فى الدنيا ، وهذه وجوه ذكرناها فى هذا المقام وههنا وجه آخر أقوى وأحسن من كل ماتقدم ، وسيجىء ذكره إن شاء الله تعالى عند الانتهاء إلى تفسير قوله (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته) واعلم أنه تعالى ذكر بعد ذلك حال تسعة من الأنبياء فذكر حال ثلاثة منهم على التفصيل وحال ستة آخرين على الإجمال .

﴿ فالقصة الأولى ﴾ قصة داود ، واعلم أن مجامع ما ذكره الله تعالى فى هذه القصة ثلاثة أنواع من الكلام (فالأول) تفصيل ما آتى الله داود من الصفات التى توجب سعادة الآخرة والدنيا (والثانى) شرح تلك الواقعة التى وقعت له من أمر الخصمين (والثالث) استخلاف الله تعالى إياه بعد وقوع تلك الواقعة (أما النوع الأول) وهو شرح الصفات التى آتاها الله داود من الصفات الموجبة لكمال السعادة فهى عشرة (الأول) قوله لمحمد صلى الله عليه وسلم (اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود) فأمر محمداً صلى الله عليه وسلم على جلالة قدره بأن يقتدى فى الصبر على طاعة الله بداود وذلك تشريف عظيم وإكرام لداود حيث أمر الله أفضل الخلق محمداً صلى الله عليه وسلم بأن يقتدى به فى مكارم الأخلاق (والثانى) أنه قال فى حقه (عبدنا داود) فوصفه بكونه عبداً له وعبر عن نفسه بصيغة الجمع الدالة على نهاية التعظيم ، وذلك غاية التشريف ، ألا ترى أنه سبحانه وتعالى لما أراد أن يشرف محمداً عليه السلام ليلة المعراج قال (سبحان الذى أسرى بعبده)

إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾

فههنا يدل على ذلك التشريف لداود فكان ذلك دليلا على علو درجته أيضاً ، فان وصف الله تعالى الأنبياء بعبوديته مشعر بأنهم قد حققوا معنى العبودية بسبب الاجتهاد فى الطاعة (والثالث) قوله (ذا الأيد) أى ذا القوة على أداء الطاعة والاحتراز عن المعاصى ، وذلك لأنه تعالى لما مدحه بالقوة وجب أن تكون تلك القوة موجبة للمدح ، والقوة التي توجب المدح العظيم ليست إلا القوة على فعل ما أمر به وترك مانهى عنه (والأيد) المذكور ههنا كالقوة المذكورة فى قوله (يا يحيى خذ الكتاب بقوة) وقوله تعالى (وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء ؛ فخذها بقوة) أى باجتهاد فى أداء الأمانة وتشدد فى القيام بالدعوة وترك إظهار الوهن والضعف (والأيد) والقوة سواء ومنه قوله تعالى (هو الذى أيدك بنصره) وقوله تعالى (وأيدناه بروح القدس) وقال (والسماء بنيناها بأيد) وعن قتادة أعطى قوة فى العبادة وفقهاً فى الدين . وكان يقوم الليل ويصوم نصف الدهر (الرابع) قوله (إنه أواب) أى أن داود كان رجاعا فى أموره كلها إلى طاعتى والأواب فعال من آب إذا رجع كما قال تعالى (إن الينا إيابهم) وفعال بناء المبالغة كما يقال قتال وضراب فانه أبلغ من قاتل وضارب (الخامس) .

قوله تعالى ﴿ إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق ﴾

ونظير هذه الآية قوله تعالى (ياجبال اوبى معه والطير) وفيه مباحث :

﴿ البحث الأول ﴾ وفيه وجوه : (الأول) أن الله سبحانه خلق فى جسم الجبل حياة وعقلا وقدرة ومنطقاً وحينئذ صار الجبل مسبحاً لله تعالى ونظيره قوله تعالى (فلما تجلى ربه للجبل) فان معناه أنه تعالى خلق فى الجبل عقلا وفهماً ، ثم خلق فيه رؤية الله تعالى فكذا ههنا (الثانى) فى التأويل ما رواه القفال فى تفسيره أنه يجوز أن يقال إن داود عليه السلام قد أوتى من شدة الصوت وحسنه ما كان له فى الجبال دوى حسن ، ومايصغى الطير إليه لحسنه فيكون دوى الجبال وتصويت الطير معه وإصغاؤه إليه تسبيحاً ، وذكر محمد بن إسحق أن الله تعالى لم يعط أحداً من خلقه مثل صوت داود حتى أنه كان إذا قرأ الزبور دنت منه الوحوش حتى يأخذ بأعناقها (الثالث) أن الله سبحانه سخر الجبال حتى أنها كانت تسير إلى حيث يريده داود وجعل ذلك السير تسبيحاً لأنه كان يدل على كمال قدرة الله تعالى وحكمته .

﴿ البحث الثانى ﴾ قال صاحب الكشاف (يسبحن) فى معنى مسبحات ، فان قالوا هل من فرق بين يسبحن ومسبحات قلنا نعم ، فان صيغة الفعل تدل على الحدوث والتجدد ، وصيغة الاسم على الدوام على مابينه عبد القاهر النحوى فى كتاب دلائل الإعجاز ، إذا ثبت هذا فنقول قوله (يسبحن) يدل على

وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (١٩) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ

حدوث التسبيح من الجبال شيئاً بعد شيء وحالا بعد حال وكان السامع حاضر تلك الجبال يسمعها تسبح .

﴿ البحث الثالث ﴾ قال الزجاج يقال شرقت الشمس إذا طلعت وأشرقت إذا أضاءت وقيل هما بمعنى ، والأول أكثر تقول العرب شرقت الشمس والماء يشرق .

﴿ البحث الرابع ﴾ احتجوا على شرعية صلاة الضحى بهذه الآية ، عن أم هانيء قالت « دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعا بوضوء فتوضأ ثم صلى صلاة الضحى ، وقال يا أم هانيء هذه صلاة الإشراق » وعن طاووس عن ابن عباس قال « هل تجدون ذكر صلاة الضحى في القرآن ؟ قالوا لا ، فقرأ إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق ، وقال كان يصليها داود عليه السلام وقال لم يزل في نفسي شيء من صلاة الضحى حتى وجدتها في قوله (يسبحن بالعشي والإشراق) »

﴿ الصفة السادسة ﴾ من صفات داود عليه السلام قوله تعالى (والطير محشورة كل له أواب(١)) وفيه مباحث :

﴿ البحث الأول ﴾ قوله (والطير) معطوفة على الجبال والتقدير وسخرنا الطير محشورة ، قال ابن عباس رضي الله عنهما كان داود إذا سبح جاوبته الجبال واجتمعت إليه الطير فسبحت معه ، واجتماعها إليه هو حشرها فيكون على هذا التقدير حاشرها هو الله (فان قيل) كيف يصدر تسبيح الله عن الطير مع أنه لا عقل لها ، قلنا لا يبعد أن يقال إن الله تعالى كان يخلق لها عقلا حتى تعرف الله فتسبحه حينئذ ، وكل ذلك كان معجزة لداود عليه السلام .

﴿ البحث الثاني ﴾ قال صاحب الكشاف قوله (محشورة) في مقابلة (يسبحن) إلا أنه ليس في الحشر مثل ما كان في التسبيح من إرادة الدلالة على الحدوث شيئاً بعد شيء ، فلا جرم جيء به اسماً لا فعلا ، وذلك أنه لو قيل وسخرنا الطير محشورة يسبحن على تقدير أن الحشر وجد من حاشرها جملة واحدة دل على القدر المذكور والله أعلم .

﴿ البحث الثالث ﴾ قرىء (والطير محشورة) بالرفع .

﴿ الصفة السابعة ﴾ من صفات داود عليه السلام ، قوله تعالى (كل له أواب) ومعناه كل واحد من الجبال والطير أواب أي رجاع ، أي كلما رجع داود إلى التسبيح جاوبته ، فهذه الأشياء أيضاً كانت ترجع إلى تسبيحاتها ، والفرق بين هذه الصفة وبين ما قبلها أن فيما سبق علمنا أن الجبال والطير سبحت مع تسبيح داود عليه السلام ، وبهذا اللفظ فهمنا دوام تلك الموافقة وقيل الضمير في قوله (كل له أواب) لله تعالى أي كل من داود والجبال والطير لله أواب أي مسبح مرجع للتسبيح .

﴿ الصفة الثامنة ﴾ قوله تعالى (وشددنا ملكه) أي قويناه وقال تعالى (سنشد عضدك

وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾

بأخيك) وقيل شددنا على المبالغة ، وأما الأسباب الموجبة لحصول هذا الشد فكثيرة ، وهى إما الأسباب الدنيوية أو الدينية ، أما الأول فذكروا فيه وجهين (الأول) روى الواحدى عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه كان يحرسه كل ليلة ستة وثلاثون ألف رجل ، فاذا أصبح قيل ارجعوا فقد رضى عنكم نبى الله ، وزاد آخرون فذكروا أربعين ألفاً . قالوا وكان أشد ملوك الأرض سلطاناً . وعن عكرمة عن ابن عباس أن رجلا ادعى عند دواد على رجل أخذ منه بقرة فأنكر المدعى عليه ، فقال داود للمدعى أقم البينة فلم يقمها ، فرأى داود فى منامه أن الله يأمره أن يقتل المدعى عليه فثبت داود وقال هو منام فأتاه الوحى بعدذلك بأن تقتله فاحضره وأعلمه أن الله أمره بقتله ، فقال المدعى عليه صدق الله إنى كنت قتلت أبا هذا الرجل غيلة فقتله داود . فهذه الواقعة شددت ملكه ، وأما الأسباب الدينية الموجبة لهذا الشد فهى الصبر والتأمل التام والاحتياط الكامل .

﴿ الصفة التاسعة ﴾ قوله (وآتيناه الحكمة) واعلم أنه تعالى قال (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً) واعلم أن الفضائل على ثلاثة أقسام النفسانية والبدنية والخارجية ، والفضائل النفسانية محصورة فى قسمين العلم والعمل ، أما العلم فهو أن تصير النفس بالتصورات الحقيقية والتصديقات النفسانية بمقتضى الطاقة البشرية ، وأما العمل فهو أن يكون الإنسان آتياً بالعمل الأصلح الأصوب بمصالح الدنيا والآخرة ، فهذا هو الحكمة وإنما سمى هذا بالحكمة لأن اشتقاق الحكمة من إحكام الأمور وتقويتها وتبعيدها عن أسباب الرخاوة والضعف ، والاعتقادات الصائبة الصحيحة لا تقبل النسخ والنقض فكانت فى غاية الأحكام ، وأما الأعمال المطابقة لمصالح الدنيا والآخرة فإنها واجبة الرعاية ولا تقبل النقض والنسخ ، فلهذا السبب سمينا تلك المعارف وهذه الأعمال بالحكمة .

﴿ الصفة العاشرة ﴾ قوله (وفصل الخطاب) واعلم أن أجسام هذا العالم على ثلاثة أقسام (أحدها) ما تكون خالية عن الإدراك والشعور وهى الجمادات والنباتات (وثانيها) التى يحصل لها إدراك وشعور ولكنها لا تقدر على تعريف غيرها الأحوال التى عرفوها فى الأكثر وهذا القسم هو جملة الحيوانات سوى الإنسان (وثالثها) الذى يحصل له إدراك وشعور ويحصل عنده قدرة على تعريف غيره الأحوال المعلومة له ، وذلك هو الإنسان وقدرته على تعريف الغير الأحوال المعلومة عنده بالنطق والخطاب ، ثم إن الناس مختلفون فى مراتب القدرة على التعبير عما فى الضمير ، فمنهم من يتعذر عليه إيراد الكلام المرتب المنتظم بل يكون مختلط الكلام مضطرب القول ، ومنهم من يتعذر عليه الترتيب من بعض الوجوه ، ومنهم من يكون قادراً على ضبط المعنى والتعبير عنه إلى

وَهَلْ أَتَاكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾

أقصى الغايات ، وكل من كانت هذه القدرة فى حقه أكمل كانت الآثار الصادرة عن النفس النطقية فى حقه أكمل ، وكل من كانت تلك القدرة فى حقه أقل كانت تلك الآثار أضعف . ولما بين الله تعالى كمال حال جوهر النفس النطقية التى لداود بقوله (وآتيناه الحكمة) أردفه ببيان كمال حاله فى النطق واللفظ والعبارة فقال وفصل الخطاب وهذا الترتيب فى غاية الجلالة ، ومن المفسرين من فسر ذلك بأن داود أول من قال فى كلامه أما بعد ، وأقول حقاً إن الذين يتبعون أمثال هذه الكلمات فقد حرموا الوقوف على معانى كلام الله تعالى حرماناً عظيما(١) والله أعلم ، وقول من قال المراد معرفة الأمور التى بها يفصل بين الخصوم وهو طلب البينة واليمين فبعيد أيضاً ، لأن فصل الخطاب عبارة عن كونه قادراً على التعبير عن كل ما يخطر بالبال ويحضر فى الخيال ، بحيث لا يختلط شىء بشىء ، وبحيث ينفصل كل مقام عن مقام ، وهذا معنى عام يتناول جميع الأقسام والله أعلم ، وههنا آخر الكلام فى الصفات العشرة التى ذكرها الله تعالى فى مدح داود عليه السلام .

قوله تعالى : ﴿ وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب ، إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط ، واهدنا إلى سواء الصراط ، إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة ، فقال أكفلنيها وعزنى فى الخطاب ، قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ، وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم ، وظن داود إنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب ، فغفرنا له

(١) يقصد المؤلف بعبارته هذه الذين فسروا إيتاء داود الحكمة بأنه أول من قال: أما بعد ، لبعدهم عن الفهم وعن الصواب ، وقد روى أن أول من قال أما بعد هو قس بن ساعدة الايادى الخطيب المشهور .

فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٢٥﴾

ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾

اعلم أن الله تعالى لما مدحه وأثنى عليه من الوجوه العشرة أردفه بذكر قصة ليبين بها أن الأحوال الواقعة فى هذه القصة لا يبين شىء منها كونه عليه السلام مستحقاً للثناء والمدح العظيم .

أما قوله تعالى (وهل أتاك نبأ الخصم) فهو نظير قوله تعالى (هل أتاك حديث موسى) وفائدة هذا الاستفهام التنبيه على جلالة القصة المستفهم عنها ، ليكون داعياً إلى الإصغاء لها والاعتبار بها ، وأقول للناس فى هذه القصة ثلاثة أقوال (أحدها) ذكر هذه القصة على وجه يدل على صدور الكبيرة عنه (وثانيها) دلالتها على الصغيرة (وثالثها) بحيث لا تدل على الكبيرة ولا على الصغيرة .

فأما القول الأول فحاصل كلامهم فيها : أن داود عشق امرأة أوريا ، فاحتال بالوجوه الكثيرة حتى قتل زوجها ثم تزوج بها فأرسل الله إليه ملكين فى صورة المتخاصمين فى واقعة شبيهة بواقعته ، وعرضا تلك الواقعة عليه . فحكم داود بحكم لزم منه اعترافه بكونه مذنباً ، ثم تنبه لذلك فاشتغل بالتوبة .

والذى أدين به وأذهب إليه أن ذلك باطل ويدل عليه وجوه (الأول) أن هذه الحكاية لو نسبت إلى أفسق الناس وأشدهم فجوراً لاستنكف منها والرجل الحشوى الخبيث الذى يقرر تلك القصة لو نسب إلى مثل هذا العمل لبالغ فى تنزيه نفسه وربما لعن من ينسبه إليها ، وإذا كان الأمر كذلك فكيف يليق بالعاقل نسبة المعصوم إليه (الثانى) أن حاصل القصة يرجع إلى أمرين إلى السعى فى قتل رجل مسلم بغير حق وإلى الطمع فى زوجته (أما الأول) فأمر منكر قال ﷺ « من سعى فى دم مسلم ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيس من رحمة الله » (وأما الثانى) فنكر عظيم قال صلى الله عليه وسلم « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » وإن أوريا لم يسلم من داود لا فى روحه ولا فى منكوحه (والثالث) أن الله تعالى وصف داود عليه السلام قبل ذكر هذه القصة بالصفات العشرة المذكورة ، ووصفه أيضاً بصفات كثيرة بعد ذكر هذه القصة ، وكل هذه الصفات تنافى كونه عليه السلام موصوفاً بهذا الفعل المنكر والعمل القبيح ، ولا بأس بإعادة هذه الصفات لأجل المبالغة فى البيان .

فنقول (أما الصفات الأولى) فهى أنه تعالى أمر محمداً ﷺ بأن يقتدى بداود فى المصابرة مع المكابدة ، ولو قلنا إن داود لم يصبر على مخالفة النفس بل سعى فى إراقة دم امرىء مسلم لغرض شهوته فكيف يليق بأحكم الحاكمين أن يأمر محمداً أفضل الرسل بأن يقتدى بداود فى الصبر على طاعة الله .

(وأما الصفة الثانية) فهى أنه وصفه بكونه عبداً له ، وقد بينا أن المقصود من هذا الوصف بيان كون ذلك الموصوف كاملا فى موقف العبودية تاماً فى القيام بأداء الطاعات والاحتراز عن المحظورات ، ولو قلنا إن داود عليه السلام اشتغل بتلك الأعمال الباطلة . فحينئذ ما كان داود كاملا

فى عبوديته لله تعالى بل كان كاملا فى طاعة الهوى والشهوة .

(الصفة الثالثة) هو قوله (ذا الأيد) أى ذا القوة ، ولا شك أن المراد منه القوة فى الدين ؛ لأن القوة فى غير الدين كانت موجودة فى ملوك الكفار ، ولا معنى للقوة فى الدين إلا القوة الكاملة على أداء الواجبات ، والاجتناب عن المحظورات ، وأى قوة لمن لم يملك نفسه عن القتل والرغبة فى زوجة المسلم ؟ .

(الصفة الرابعة) كونه أواباً كثير الرجوع إلى الله تعالى ، وكيف يليق هذا بمن يكون قلبه مشغوفاً بالقتل والفجور ؟ .

(الصفة الخامسة) قوله تعالى (إنا سخرنا الجبال معه) أفترى أنه سخرت له الجبال ليتخذه وسيلة إلى القتل والفجور ؟ .

(الصفة السادسة) قوله (والطير محشورة) ، وقيل إنه كان محرماً عليه صيد شىء من الطير وكيف يعقل أن يكون الطير آمناً منه ولا ينجو منه الرجل المسلم على روحه ومنكوحه ؟ .

(الصفة السابعة) قوله تعالى (وشددنا ملكه) ومحال أن يكون المراد أنه تعالى شدد ملكه بأسباب الدنيا ، بل المراد أنه تعالى شد ملكه بما يقوى الدين وأسباب سعادة الآخرة ، والمراد تشديد ملكه فى الدين والدنيا ومن لا يملك نفسه عن القتل والفجور كيف يليق به ذلك ؟ .

(الصفة الثامنة) قوله تعالى (وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) والحكمة اسم جامع لكل ما ينبغى علماً وعملا ، فكيف يجوز أن يقول الله تعالى إنا (آتيناه الحكمة وفصل الخطاب) مع إصراره على مايستنكف عنه الخبيث الشيطان من مزاحمة أخلص أصحابه فى الروح والمنكوح ، فهذه الصفات المذكورة قبل شرح تلك القصة دالة على براءة ساحته عن تلك الأكاذيب .

وأما الصفات المذكورة بعد ذكر القصة فهى عشرة (الأول) قوله (وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) وذكر هذا الكلام إنما يناسب لو دلت القصة المتقدمة على قوته فى طاعة الله ، أما لو كانت القصة المتقدمة دالة على سعيه فى القتل والفجور لم يكن قوله (وإن له عندنا لزلفى) لائقاً به (الثانى) قوله تعالى (ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض) وهذا يدل على كذب تلك القصة من وجوه (أحدها) أن الملك الكبير إذا حكى عن بعض عبيده أنه قصد دماء الناس وأموالهم وأزواجهم فبعد فراغه من شرح القصة على ملأ من الناس يقبح منه أن يقول عقيبه أيها العبد إنى فوضت إليك خلافتى ونيابتى ، وذلك لأن ذكر تلك القبائح والأفعال المنكرة يناسب الزجر والحجر ، فأما جعله نائباً وخليفة لنفسه فذلك البتة مما لا يليق (وثانيها) أنه ثبت فى أصول الفقه أن ذكر الحكم عقيب الوصف يدل على كون ذلك الحكم معللا بذلك الوصف ، فلما حكى الله تعالى عنه تلك الواقعة القبيحة ، ثم قال بعده (إنا جعلناك خليفة فى الأرض) أشعر هذا بأن الموجب لتفويض هذه الخلافة هو إتيانه بتلك الأفعال المنكرة ، ومعلوم أن هذا فاسد ، أما لو

ذكر تلك القصة على وجوه تدل على براءة ساحته عن المعاصي والذنوب وعلى شدة مصابرته على على طاعة الله تعالى فحينئذ يناسب أن يذكر عقيبه (إنا جعلناك خليفة فى الأرض) فثبت أن هذا الذى نختاره أولى (والثالث) وهو أنه لما كانت مقدمة الآية دالة على مدح داود عليه السلام وتعظيمه ومؤخرتها أيضاً دالة على ذلك ، فلو كانت الواسطة دالة على القبائح والمعائب لجرى مجرى أن يقال فلان عظيم الدرجة عالى المرتبة فى طاعة الله يقتل ويزنى ويسرق وقد جعله الله خليفة فى أرضه وصوب أحكامه ، وكما أن هذا الكلام مما لا يليق بالعاقل فكذا ههنا ، ومن المعلوم أن ذكر العشق والسعى فى القتل من أعظم أبواب العيوب (والرابع) وهو أن القائلين بهذا القول ذكروا فى هذه الرواية أن داود عليه السلام تمنى أن يحصل له فى الدين كما حصل للأنبياء المتقدمين من المنازل العالية مثل ما حصل للخليل من الإلقاء فى النار وحصل للذبيح من الذبح وحصل ليعقوب من الشدائد الموجبة لكثرة الثواب فأوحى الله إليه أنهم إنما وجدوا تلك الدرجات لأنهم لما ابتلوا صبروا فعند ذلك سأل داود عليه السلام الابتلاء ، فأوحى الله إليه أنك ستبتلى فى يوم كذا فبالغ فى الاحتراز ثم وقعت الواقعة ، فنقول أول حكايتهم يدل على أن الله تعالى يبتليه بالبلاء الذى يزيد فى منقبته ويكمل مراتب إخلاصه فالسعى فى قتل النفس بغير الحق والإفراط فى العشق كيف يليق بهذه الحالة ، ويثبت أن الحكاية التى ذكروها يناقض أولها آخرها (الخامس) أن داود عليه السلام قال (وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا) استثنى الذين آمنوا عن البغى ، فلو قلنا إنه كان موصوفاً بالبغى لزم أن يقال إنه حكم بعدم الإيمان على نفسه وذلك باطل (السادس) حضرت فى بعض المجالس وحضر فيه بعض أكابر الملوك وكان يريد أن يتعصب لتقرير ذلك القول الفاسد والقصة الخبيثة لسبب اقتضى ذلك ، فقلت له لا شك أن داود عليه كان من أكابر الأنبياء والرسل ، ولقد قال الله تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالته) ومن مدحه الله تعالى بمثل هذا المدح العظيم لم يجز لنا أن نبالغ فى الطعن فيه ، وأيضاً فبتقدير أنه ما كان نبياً فلا شك أنه كان مسلماً ، ولقد قال صلى الله عليه وسلم « لا تذكروا موتاكم إلا بخير » ثم على تقدير أنا لا نلتفت إلى شيء من هذه الدلائل إلا أنا نقول إن من المعلوم بالضرورة أن بتقدير أن تكون القصة التى ذكرتموها حقيقية صحيحة فان روايتها وذكرها لا يوجب شيئاً من الثواب ، لأن إشاعة الفاحشة إن لم توجب العقاب فلا أقل من أن لا توجب الثواب ، وأما بتقدير أن تكون هذه القصة باطلة فاسدة ، فان ذاكرها يستحق أعظم العقاب والواقعة التى هذا شأنها وصفتها ، فان صريح العقل يوجب السكوت عنها فثبت أن الحق ما ذهبنا إليه ، وأن شرح تلك القصة محرم محظور فلما سمع ذلك الملك هذا الكلام سكت . ولم يذكر شيئاً (السابع) أن ذكر هذه القصة ، وذكر قصة يوسف عليه السلام يقتضى إشاعة الفاحشة فوجب أن يكون محرماً لقوله تعالى (إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا) (الثامن) لو سعى داود فى قتل ذلك الرجل لدخل تحت قوله « من سعى

فى دم مسلم ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيس من رحمة الله » وأيضاً لو فعل ذلك لكان ظالماً فكان يدخل تحت قوله (ألا لعنة الله على الظالمين) (التاسع) عن سعيد بن المسيب أن على بن أبى طالب عليه السلام قال « من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين » وهو حد الفرية على الأنبياء ، ومما يقوى هذا أنهم لما قالوا إن المغيرة بن شعبة زنى وشهد ثلاثة من عدول الصحابة بذلك ، وأما الرابع فانه لم يقل بأنى رأيت ذلك العمل . يعنى فان عمر بن الخطاب كذب أولئك الثلاثة وجلد كل واحد منهم ثمانين جلدة لأجل أنهم قذفوه ، وإذا كان الحال فى واحد من آحاد الصحابة كذلك ، فكيف الحال مع داود عليه السلام مع أنه من من أكابر الأنبياء عليهم السلام (العاشر) روى أن بعضهم ذكر هذه القصة على مافى كتاب الله تعالى فقال لا ينبغى أن يزاد عليها ، وإن كانت الواقعة على ما ذكرت ، ثم إنه تعالى لم يذكرها لأجل أن يستر تلك الواقعة على داود عليه السلام ، فلا يجوز للعاقل أن يسعى فى هتك ذلك الستر بعد ألف سنة أو أقل أو أكثر فقال عمر (١) « سماعى هذا الكلام أحب إلى مما طلعت عليه الشمس » فثبت بهذه الوجوه التى ذكرناها أن القصة التى ذكروها فاسدة باطلة ، فان قال قائل إن كثيراً من أكابر المحدثين والمفسرين ذكروا هذه القصة ، فكيف الحال فيها ؟ فالجواب الحقيق أنه لما وقع التعارض بين الدلائل القاطعة وبين خبر واحد من أخبار الآحاد كان الرجوع إلى الدلائل القاطعة أولى ، وأيضاً فالأصل براءة الذمة ، وأيضاً فلما تعارض دليل التحريم والتحليل كان جانب التحريم أولى ، وأيضاً طريقة الاحتياط توجب ترجيح قولنا ، وأيضاً فنحن نعلم بالضرورة أن بتقدير وقوع هذه الواقعة لا يقول الله لنا يوم القيامة لم لم تسعوا فى تشهير هذه الواقعة ؟ وأما بتقدير كونها باطلة فان علينا فى ذكرها أعظم العقاب ، وأيضاً فقال عليه السلام « إذا علمت مثل الشمس فاشهد » وههنا لم يحصل العلم ولا الظن فى صحة هذه الحكاية ، بل الدلائل القاهرة التى ذكرناها قائمة فوجب أن لا تجوز الشهادة بها ، وأيضاً كل المفسرين لم يتفقوا على هذا القول بل الأكثرون المحققون والمحققون منهم يردونه ويحكمون عليه بالكذب والفساد ، وأيضاً إذا تعارضت أقوال المفسرين والمحدثين فيه تساقطت وبقى الرجوع إلى الدلائل التى ذكرناها فهذا تمام الكلام فى هذه القصة .

أما الاحتمال الثانى : وهو أن تحمل هذه القصة على وجه يوجب حصول الصغيرة ولا يوجب حصول الكبيرة ، فنقول فى كيفية هذه القصة على هذا التقدير وجوه : (الأول) أن هذه المرأة خطبها أوريا فأجابوه ثم خطبها داود فآثره أهلها ، فكان ذنبه أن خطب على خطبة أخيه المؤمن مع كثرة نسائه (الثانى) قالوا إنه وقع بصره عليها فمال قلبه إليها وليس له فى هذا ذنب البتة ، أما وقوع بصره عليها من غير قصد فذلك ليس بذنب ، وأما حصول الميل عقيب النظر فليس أيضاً ذنباً لأن هذا الميل ليس فى وسعه ، فلا يكون مكلفاً به بل لما اتفق أن قتل زوجها لم يتأذ تأذياً عظيما بسبب

(١) لم ينص فيما سبق على عمر هذا ولم يشر إليه ، والخبر يفيد أن ذلك البعض الذى حكى القول العاشر حكى القصة أمام شخص اسمه عمر فقال هذه الكلمة ولا ندرى أهو عمر بن الخطاب أم ابن عبد العزيز أم شخص غيرهما ولعله سقط بيان ذلك من الناسخ أو المطبعة الأميرية .

قتله لأجل أنه طمع أن يتزوج بتلك المرأة فحصلت الزلة بسبب هذا المعنى وهو أنه لم يشق عليه قتل ذلك الرجل (والثالث) أنه كان أهل زمان داود عليه السلام يسأل بعضهم بعضاً أن يطلق امرأته حتى يتزوجها وكانت عادتهم فى هذا المعنى مألوفة معروفة اوى أن الأنصار كانوا يساوون المهاجرين بهذا المعنى فاتفق أن عين داود عليه السلام وقعت على تلك المرأة فأحبها فسأله النزول عنها فاستحيا أن يرده ففعل وهى أم سليمان فقيل له هذا وإن كان جائزاً فى ظاهر الشريعة ، إلا أنه لايليق بك ، فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، فهذه وجوه ثلاثة لو حملنا هذه القصة على واحد منها لم يلزم فى حق داود عليه السلام إلا ترك الأفضل والأولى .

وأما الإحتمال الثالث : وهو أن هذه القصة على وجه لايلزم إلحاق الكبيرة والصغيرة بداود عليه السلام ، بل يوجب الحاق أعظم أنواع المدح والثناء به وهو أن نقول روى أن جماعة من الأعداء طمعوا فى أن يقتلوا نبى الله داود عليه السلام ، وكان له يوم يخلو فيه بنفسه ويشتغل بطاعة ربه ، فانتهزوا الفرصة فى ذلك اليوم وتسوروا المحراب ، فلما دخلوا عليه وجدوا عنده أقواماً يمنعونه منهم فخافوا فوضعوا كذباً ، فقالوا خصمان بغى بعضنا على بعض إلى آخر القصة ، وليس فى لفظ القرآن ما يمكن أن يحتج به فى إلحاق الذنب بداود إلا ألفاظ أربعة (أحدها) قوله (وظن داود أنما فتناه) ، (وثانيها) قوله تعالى (فاستغفر ربه) (وثالثها) قوله (وأناب) (ورابعها) قوله (فغفرنا له ذلك) ثم نقول ، وهذه الألفاظ لا يدل شىء منها على ماذكروه ، وتقريره من وجوه (الأول) أنهم لما دخلوا عليه لطلب قتله بهذا الطريق ، وعلم داود عليه السلام ذلك دعاه الغضب إلى أن يشتغل بالانتقام منهم ، إلا أنه مال إلى الصفح والتجاوز عنهم طلباً لمرضاة الله ، قال وكانت هذه الواقعة هى الفتنة لأنها جارية مجرى الابتلاء والامتحان ، ثم إنه استغفر ربه مما هم به من الإنتقام منهم وتاب عن ذلك الهم وأناب ، فغفر له ذلك القدر من الهم والعزم (والثانى) أنه وإن غلب على ظنه أنهم دخلوا عليه ليقتلوه ، إلا أنه ندم على ذلك الظن ، وقال لما لم تقم دلالة ولا أمارة على أن الأمر كذلك ، فبئسما علمت بهم حيث ظننت بهم هذا الظن الردىء . فكان هذا هو المراد من قوله (وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب) منه فغفر الله له ذلك (الثالث) أن دخولهم عليه كان فتنة لداود عليه السلام ، إلا أنه عليه السلام استغفر لذلك الداخل العازم على قتله ، كما قال فى حق محمد ﷺ (واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) فداود عليه السلام استغفر لهم وأناب ، أى رجع إلى الله تعالى فى طلب مغفرة ذلك الداخل القاصد للقتل ، وقوله (فغفرنا له ذلك) أى غفرنا له ذلك الذنب لأجل احترام داود ولتعظيمه ، كما قال بعض المفسرين فى قوله تعالى (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك) أن معناه أن الله تعالى يغفر لك ولأجلك ما تقدم من ذنب أمتك (الرابع) هب أنه تاب داود عليه السلام عن زلة صدرت منه ، لكن لا نسلم أن تلك الزلة وقعت بسبب المرأة ، فلم لايجوز أن يقال إن تلك الزلة إنما حصلت ، لأنه قضى لأحد الخصمين قبل أن يسمع كلام الخصم الثانى ، فإنه

لما قال (لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه) لحكم عليه بكونه ظالماً بمجرد دعوى الخصم بغير بينة ، لكون هذا الحكم مخالفاً للصواب ، فعند هذا اشتغل بالاستغفار والتوبة . إلا أن هذا من باب ترك الأفضل والأولى(١) فثبت بهذه البيانات أما إذا حملنا هذه الآيات على هذا الوجه ، فإنه لايلزم إسناد شيء من الذنوب إلى داود عليه السلام ، بل ذلك يوجب إسناد أعظم الطاعات إليه ، ثم نقول وحمل الآية عليه أولى لوجوه (الأول) أن الأصل فى حال المسلم البعد عن المناهى ، لاسيما وهو رجل من أكابر الأنبياء والرسل (والثانى) أنه أحوط (والثالث) أنه تعالى قال فى أول الآية لمحمد ﷺ (واصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود) فإن قوم محمد عليه السلام لما أظهروا السفاهة حيث قالوا (إنه ساحر كذاب) واستهزأوا به حيث قالوا (ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب) فقال تعالى فى أول الآية : اصبر يامحمد على سفاهتهم وتحمل وتحلم ولا تظهر الغضب واذكر عبدنا داود ، فهذا الذكر إنما يحسن إذا كان داود عليه السلام قد صبر على إيذائهم وتحمل سفاهتهم وحلم ولم يظهر الطيش والغضب ، وهذا المعنى إنما يحصل إذا حملنا الآية على ماذكرناه ، أما إذا حملناها على ما ذكروه صار الكلام متناقضاً فاسداً (والرابع) أن تلك الروايه إنما تتمشى إذا قلنا الخصمان كانا ملكين ، ولما كانا من الملائكة وما كان بينهما مخاصمة وما بغى أحدهما على الآخر كان قولهما خصمان بغى بعضنا على بعض كذباً ، فهذه الرواية لا تتم إلا بشيئين (أحدهما) إسناد الكذب إلى الملائكة (والثانى) أن يتوسل بإسناد الكذب إلى الملائكة إلى إسناد أفحش القبائح إلى رجل كبير من أكابر الأنبياء ، فأما إذا حملنا الآية على ما ذكرنا استغنينا عن إسناد الكذب إلى الملائكة ، وعن إسناد القبيح إلى الأنبياء ، فكان قولنا أولى ، فهذا ما عندنا فى هذا الباب ، والله أعلم بأسرار كلامه ، ونرجع الآن إلى تفسير الآيات . أما قوله(وهل أتاك نبأ الخصم) قال الواحدى : الخصم مصدر خصمته أخصمه خصما ، ثم يسمى به الإثنان والجمع ولا يثنى ولا يجمع ، يقال هما خصم وهم خصم ، كما يقال هما عدل وهم عدل ، والمعنى ذوا خصم وذوو خصم ، وأريد بالخصم ههنا الشخصان اللذان دخلا على داود عليه السلام . وقوله تعالى (إذ تسوروا المحراب) يقال تسورت السور تسوراً إذا علوته ، ومعنى (تسوروا المحراب) أى أتوه من سوره وهو أعلاه ، يقال تسور فلان الدار إذا أتاها من قبل سورها . وأما المحراب فالمراد منه البيت الذى كان داود يدخل فيه ويشتغل بطاعة ربه ، وسمى ذلك البيت بالمحراب لاشتماله على المحراب ، كما يسمى الشيء بأشرف أجزائه ، وههنا مسألة من علم أصول الفقه ، وهى أن أقل الجمع اثنان عند بعض الناس ، وهؤلاء تمسكوا بهذه الآية ، لأنه تعالى ذكر صيغة الجمع فى هذه الآيات فى

---

(١) أقول : لم لا تكون هذه القصة راجعة إلى قصة الغنم التى نفشت فى الزرع وجاء ذكرها فى سورة الأنبياء ، وقد ذكرت هناك بلفظ الغنم وهنا بلفظ النعاج وفتنة داود كانت بالاجتهاد فى الحكم والخطأ فيه وقد نص الله على أنه فهمها سليمان عليه السلام ، والقاعدة أن من اجتهد فى حكم وأخطأ فله أجر ، ومن أصاب فله أجران وكأنه عليه السلام لم يدرك هذه القاعدة أو لم يكن العمل عليها فى عهده ولهذا استغفر ربه والدلائل على ذلك كثيرة منها ظاهر الآية ولا داعى إلى التأويل بالمرأة أو غيرها ، ومنها قوله وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض والتعقيب بقوله تعالى (ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولاتتبع الهوى) .

أربعة مواضع (أحدها) قوله تعالى (إذ تسوروا المحراب) ، (وثانيها) قوله (إذ دخلوا) ، (وثالثها) قوله (منهم) ، (ورابعها) قوله (قالوا لا تخف) فهذه الألفاظ الأربعة كلها صيغ الجمع ، وهم كانوا اثنين بدليل أنهم قالوا خصمان ، قالوا فهذه الآية تدل على أن أقل الجمع اثنان (والجواب) لا يمتنع أن يكون كل واحد من الخصمين جمعاً كثيرين ، لأنا بينا أن الخصم إذا جعل اسماً فإنه لا يثنى ولا يجمع ، ثم قال تعالى (إذ دخلوا على داود) والفائدة فيه أنهم ربما تسوروا المحراب وما دخلوا عليه ، فلما قال (إذ دخلوا عليه) دل على أنهم بعد التسور دخلوا عليه ، قال الفراء : وقد يجاء بإذ مرتين ويكون معناهما كالواحد ، كقولك ضربتك إذ دخلت على إذ اجترأت ، مع أنه يكون وقت الدخول ووقت الاجتراء واحداً . ثم قال تعالى (ففزع منهم) والسبب أن داود عليه السلام لما رآهما قد دخلوا عليه لا من الطريق المعتاد . علم أنهم إنما دخلوا عليه لشر ، فلا جرم فزع منهم ، ثم قال تعالى (قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ خصمان خبر مبتدأ محذوف ، أي نحن خصمان .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ههنا قولان (الأول) أنهما كانا ملكين نزلا من السماء وأرادا تنبيه داود عليه السلام على قبح العمل الذي أقدم عليه (والثاني) أنهما كانا إنسانين دخلا عليه للشر والقتل ، فظنا أنهما يجدانه خالياً ، فلما رأيا عنده جماعة من الخدم اختلقا ذلك الكذب لدفع الشر . وأما المنكرون لكونهما ملكين فقد احتجوا عليه بأنهما لو كانا ملكين لكانا كاذبين في قولهما خصمان ، فإنه ليس بين الملائكة خصومة ، ولكانا كاذبين في قولهما (بغى بعضنا على بعض) ولكانا كاذبين في قولهما (إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة) فثبت أنهما لو كانا ملكين لكانا كاذبين والكذب على الملك غير جائز لقوله تعالى (لا يسبقونه بالقول) ولقوله (ويفعلون ما يؤمرون) أجاب الذاهبون إلى القول الأول عن هذا الكلام بأن قالوا إن الملكين إنما ذكرا هذا الكلام على سبيل ضرب المثل لا على سبيل التحقيق فلم يلزم الكذب ، وأجيب عن هذا الجواب بأن ما ذكرتم يقتضي العدول عن ظاهر اللفظ ، ومعلوم أنه على خلاف الأصل ، أما إذا حملنا الكلام على أن الخصمين كانا رجلين دخلا عليه لغرض الشر ثم وضعا هذا الحديث الباطل ، فحينئذ لزم إسناد الكذب إلى شخصين فاسقين فكان هذا أولى من القول الأول والله أعلم ، وأما القائلون بكونهما ملكين فقد احتجوا بوجوه (الأول) اتفاق أكثر المفسرين عليه (والثاني) أنه أرفع منزلة من أن يتسور عليه آحاد الرعية في حال تعبده فيجب أن يكون ذلك من الملائكة (الثالث) أن قوله تعالى (قالوا لا تخف) كالدلالة على كونهما ملكين لأن من هو من رعيته لا يكاد يقول له مثل ذلك مع رفعة منزلته (الرابع) أن قولهما (ولا تشطط) كالدلالة على كونهما ملكين لأن أحداً من رعيته لا يتجاسر أن يقول له لا تظلم ولا تتجاوز عن الحق . واعلم أن ضعف هذه الدلائل ظاهر ، ولا حاجة إلى الجواب ، والله أعلم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ (بغى بعضنا على بعض) أي تعدى وخرج عن الحد يقال بغى الجرح

إذا أفرط وجعه وانتهى إلى الغاية ، ويقال بغت المرأة إذا زنت ، لأن الزنا كبيرة منكرة ، قال تعالى (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء) ثم قال (فاحكم بيننا بالحق) معنى الحكم إحكام الأمر في إمضاء تكليف الله عليهما في الواقعة ، ومنه حكمة الدابة لأنها تمنع من الجماح ، ومنه بناء محكم إذا كان قوياً ، وقوله (بالحق) أي بالحكم الحق وهو الذي حكم الله به (ولا تشطط) يقال شطط الرجل إذا بعد ، ومنه قوله : شطت الدار إذا بعدت ، قال تعالى (لقد قلنا إذاً شططاً) أي قولا بعيداً عن الحق ، فقوله (ولا تشطط) أي لا تبعد في هذا الحكم عن الحق ، ثم قال (واهدنا إلى سواء الصراط) وسواء الصراط هو وسطه ، قال تعالى (فاطلع فرآه في سواء الجحيم) ووسط الشيء أفضله وأعدله ، قال تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً) وأقول إنهم عبروا عن المقصود الواحد بثلاث عبارات (أولها) قولهم فاحكم بالحق (وثانيها) قولهم (ولا تشطط) وهي نهي عن الباطل (وثالثها) قولهم (واهدنا إلى سواء الصراط) يعني يجب أن يكون سعيك في إيجاد هذا الحق . وفي الاحتراز عن هذا الباطل أن تردنا من الطريق الباطل إلى الطريق الحق ، وهذا مبالغة تامة في تقرير المطلوب ، واعلم أنهم لما أخبروا عن وقوع الخصومة على سبيل الإجمال أردفوه ببيان سبب تلك الخصومة على سبيل التفصيل ، فقال (إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال صاحب الكشاف (أخي) يدل من هذا أو خبر لقوله (إن) والمراد أخوة الدين أو أخوة الصداقة والألفة أو أخوة الشركة والخلطة ، لقوله تعالى (وإن كثيراً من الخلطاء) وكل واحدة من هذه الأخوات توجب الامتناع من الظلم والاعتداء .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال صاحب الكشاف قرىء (تسع وتسعون) بفتح التاء ونعجة بكسر النون ، وهذا من اختلاف اللغات نحو نطع ونطع ، ولقوة ولقوة وهي الأنثى من العقبان .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال الليث : النعجة الأنثى من الضأن والبقرة الوحشية والشاة الجبلية ، والجمع النعجات ، والعرب جرت عادتهم بجعل النعجة والظبية كناية عن المرأة .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قرأ عبد الله (تسع وتسعون نعجة أنثى) وهذا يكون لأجل التأكيد كقوله تعالى (وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد) ، ثم قال (أكفلنيها وعزني في الخطاب) قال صاحب الكشاف (أكفلنيها) حقيقته اجعلني أكفلها كما أكفل ما تحت يدي (وعزني) غلبني ، يقال عزه يعزه ، والمعنى جاءني بحجاج لم أقدر أن أورد عليه ما أورده به ، وقرىء وعازني من المعازة ، وهي المغالبة ، واعلم أن الذين قالوا إن هذين الخصمين كانا من الملائكة زعموا أن المقصود من ذكر النعاج التمثيل ، لأن داود كان تحته تسع وتسعون امرأة ولم يكن لأوريا إلا امرأة واحدة ، فذكرت الملائكة تلك الواقعة على سبيل الرمز والتمثيل .

ثم قال تعالى (قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه) أي سؤال إضافة نعجتك إلى نعاجه ، وروي أنه قال له إن رمت ذلك ضربنا منك هذا وهذا ، وأشار إلى الأنف والجبهة

فقال ياداود أنت أحق أن نضرب منك هذا وهذا . وأنت فعلت كيت وكيت . ثم نظر داود فلم ير أحداً فعرف الحال ، فان قيل كيف جازلداود أن يحكم على أحد الخصمين بمجرد قول خصمه ؟ قلنا ذكروا فيه وجوهاً (الأول) قال محمد بن اسحاق : لما فرغ الخصم الأول من كلامه نظر داود إلى الخصم الذى لم يتكلم وقال لئن صدق لقد ظلمته ، والحاصل أن هذا الحكم كان مشروطاً بشرط كونه صادقاً فى دعواه (والثانى) قال ابن الأنبارى : لما ادعى أحد الخصمين اعترف الثانى لحكم داود عليه السلام ولم يذكر الله تعالى ذلك الاعتراف لدلالة ظاهر الكلام عليه ، كما تقول أمرتك بالتجارة فكسبت تريد اتجرت فكسبت ، وقال تعالى (أن اضرب بعصاك البحر فانفلق) أى فضرب فانفلق ، والثالث أن يكون التقدير أن الخصم الذى هذا شأنه يكون قد ظلمك .

ثم قال تعالى (وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض) قال الليث خليط الرجل مخالطه ، وقال الزجاج : الخلطاء الشركاء ، فان قيل لم خص داود الخلطاء ببغى بعضهم على بعض مع أن غير الخلطاء قد يفعلون ذلك ، والجواب لاشك أن المخالطة توجب كثرة المنازعة والمخاصمة ، وذلك لأنهما إذا اختلطا اطلع كل واحد منهما على أحوال الآخر فكل مايملكه من الأشياء النفيسة إذا اطلع عليه عظمت رغبته فيه ، فيفضى ذلك إلى زيادة المخاصمة والمنازعة ، فلهذا السبب خص داود عليه السلام الخلطاء بزيادة البغى والعدوان ، ثم استثنى عن هذا الحكم الذين آمنوا وعملوا الصالحات لأن مخالطة هؤلاء لاتكون إلا لأجل الدين وطلب السعادات الروحانية الحقيقية ، فلا جرم مخالطتهم لاتوجب المنازعة ، وأما الذين تكون مخالطتهم لأجل حب الدنيا لابد وأن تصير مخالطتهم سبباً لمزيد البغى والعدوان ، واعلم أن هذا الاستثناء يدل على أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لا يبغى بعضهم على بعض ، فلو كان داود عليه السلام قد بغى وتعدى على ذلك الرجل لزم بحكم فتوى داود أن لا يكون هو من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ومعلوم أن ذلك باطل ، فثبت أن قول من يقول المراد من واقعة النعجة قصة داود قول باطل .

ثم قال تعالى (وقليل ماهم) واعلم أن الحكم بقلة أهل الخير كثير فى القرآن ، قال تعالى (وقليل من عبادى الشكور) وقال داود عليه السلام فى هذا الموضع (وقليل ماهم) وحكى تعالى عن إبليس أنه قال (ولا تجد أكثرهم شاكرين) وسبب القلة أن الدواعى إلى الدنيا كثيرة ، وهى الحواس الباطنة والظاهرة وهى عشرة والشهوة والغضب والقوى الطبيعية السبعة فالمجموع تسعة عشر واقفون على باب جهنم البدن ، وكلها تدعو إلى الخلق والدنيا واللذة الحسية ، وأما الداعى إلى الحق والدين فليس إلا العقل واستيلاء القوة الحسية والطبيعية على الخلق أكثر من القوة العقلية فيهم ، فلهذا السبب وقعت القلة فى جانب أهل الخير والكثرة فى جانب أهل الشر ، قال صاحب الكشاف وما فى قوله (وقليل ماهم) للابهام وفيه تعجب من قلتهم . قال وإذا أردت أن تتحقق فائدتها وموقعها فاطرحها من قول امرىء القيس : وحديث ما على قصره ـ وانظر هل بقى له معنى قط .

ثم قال تعالى (وظن داود أنما فتناه) قالوا معناه وعلم داود أنما فتناه أى امتحناه ، قالوا

والسبب الذى أوجب حمل لفظ الظن على العلم ههنا أن داود عليه السلام لما قضى بينهما نظر أحدهما إلى صاحبه فضحك ، ثم صعدا إلى السماء قبل وجهه ، فعلم داود أن الله ابتلاه بذلك فثبت أن داود علم ذلك وإنما جاز حمل لفظ الظن على العلم لأن العلم الاستدلالى يشبه الظن مشابهة عظيمة ، والمشابهة علة لجواز المجاز . وأقول هذا الكلام إنما يلزم إذا قلنا الخصمان كانا ملكين أما إذا لم نقل ذلك لا يلزمنا حمل الظن على العلم ، بل لقائل أن يقول إنه لما غلب على ظنه حصول الابتلاء من الله تعالى اشتغل بالاستغفار والإنابة .

أما قوله (فاستغفر ربه) أى سأل الغفران من ربه ، ثم ههنا وجهان إن قلنا بأنه قد صدرت زلة منه . حملنا هذا الاستغفار عليها ، وإن لم نقل به قلنا فيه وجوه (الاول) أن القوم لما دخلوا عليه قاصدين قتله ، وإنه كان سلطاناً شديد القهر عظيم القوة ، ثم إنه مع أنه مع القدرة الشديدة على الانتقام ومع حصول الفزع فى قلبه عفا عنهم ولم يقل لهم شيئاً قرب الأمر من أن يدخل فى قلبه شىء من العجب ، فاستغفر ربه عن تلك الحالة وأناب إلى الله ، واعترف بأن إقدامه على ذلك الخير ما كان إلا بتوفيق الله ، فغفر الله له وتجاوز عنه بسبب طريان ذلك الخاطر (الثانى) لعله هم بإيذاء القوم ، ثم قال إنه لم يدل دليل قاطع على أن هؤلاء قصدوا الشر فعفا عنهم ثم استغفر عن ذلك الهم (الثالث) لعل القوم تابوا إلى الله وطلبوا منه أن يستغفر الله لهم لأجل أن يقبل توبتهم فاستغفر وتضرع إلى الله ، فغفر الله ذنوبهم بسبب شفاعته ودعائه ، وكل هذه الوجوه محتملة ظاهرة ، والقرآن مملوء من أمثال هذه الوجوه وإذا كان اللفظ محتملا لما ذكرناه ولم يقم دليل قطعى ولا ظنى على التزام المنكرات التى يذكرونها ، فما الذى يحملنا على التزامها والقول بها ، والذى يؤكد أن الذى ذكرناه أقرب وأقوى أن يقال ختم الله هذه القصة بقوله (وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) ومثل هذه الخاتمة إنما تحسن فى حق من صدر منه عمل كثير فى الخدمة والطاعة ، وتحمل أنواعاً من الشدائد فى الموافقة والانقياد ، أما إذا كان المذكور السابق هو الإقدام على الجرم والذنب فإن مثل هذه الخاتمة لا تليق به . قال مالك بن دينار إذا كان يوم القيامة أتى بمنبر رفيع ويوضع فى الجنة ، ويقال ياداود مجدنى بذلك الصوت الحسن الرخيم الذى كنت تمجدنى به فى الدنيا والله أعلم . بقى ههنا مباحث : (فالأول) قرىء فتناه وفتناه على أن الألف ضمير الملكين (الثانى) المشهور أن الاستغفار إنما كان بسبب قصة النعجة والنعاج ، وقيل أيضاً إنما كان بسبب أنه حكم لأحد الخصمين قبل أن سمع كلام الثانى وذلك غير جائز (الثالث) قوله (خر راكعاً وأناب) يدل على حصول الركوع ، وأما السجود فقد ثبت بالأخبار وكذلك البكاء الشديد فى مدة أربعين يوماً ثبت بالأخبار (الرابع) أن مذهب الشافعى رضى الله عنه أن هذا الموضع ليس فيه سجدة التلاوة قال لأن توبة نبى فلا توجب سجدة التلاوة (الخامس) استشهد أبو حنيفة رضى الله عنه بهذه الآية فى سجود التلاوة على أن الركوع يقوم مقام السجود .

يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ
ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ
شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا
بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾
كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ، وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ، أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأوض أم نجعل المتقين كالفجار ، كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما تمم الكلام فى شرح القصة أردفها ببيان أنه تعالى فوض إلى داود خلافة الأرض ، وهذا من أقوى الدلائل على فساد القول المشهور فى تلك القصة ، لأن من البعيد جداً أن يوصف الرجل بكونه ساعياً فى سفك دماء المسلمين ، راغباً فى انتزاع أزواجهم منهم ثم يذكر عقيبه أن الله تعالى فوض خلافة الأرض إليه ، ثم نقول فى تفسير كونه خليفة وجهان (الأول) جعلناك تخلف من تقدمك من الأنبياء فى الدعاء إلى الله تعالى ، وفى سياسة الناس لأن خليفة الرجل من يخلفه ، وذلك إنما يعقل فى حق من يصح عليه الغيبة ، وذلك على الله محال (الثانى) إنا جعلناك مالكا للناس ونافذ الحكم فيهم فبهذا التأويل يسمى خليفة ، ومنه يقال خلفاء الله فى أرضه ، وحاصله أن خليفة الرجل يكون نافذ الحكم فى رعيته وحقيقة الخلافة ممتنعة فى حق الله ، فلما امتنعت الحقيقة جعلت اللفظة مفيدة اللزوم فى تلك الحقيقة وهو نفاذ الحكم .

ثم قال تعالى (فاحكم بين الناس بالحق) واعلم أن الإنسان خلق مدنياً بالطبع ، لأن الإنسان الواحد لا ينتظم مصالحه إلا عند وجود مدينة تامة حتى أن هذا يحرث ، وذلك يطحن ، وذلك يخبز ، وذلك ينسج ، وهذا يخيط ، وبالجملة فيكون كل واحدة منهم مشغولا بمهم ، وينتظم من

أعمال الجميع مصالح الجميع . فثبت أن الانسان مدنى بالطبع وعند اجتماعهم فى الموضع الواحد يحصل بينهم منازعات ومخاصمات ولابد من إنسان قادر قاهر يقطع تلك الخصومات وذلك هو السلطان الذى ينفذ حكمه على الكل فثبت أنه لا ينتظم مصالح الخلق إلا بسلطان قاهر سائس ، ثم إن ذلك السلطان القاهر السائس إن كان حكمه على وفق هواه ولطلب مصالح دنياه عظم ضرره على الخلق فانه يجعل الرعية فداء لنفسه ويتوسل بهم إلى تحصيل مقاصد نفسه ، وذلك يفضى إلى تخريب العالم ووقوع الهرج والمرج فى الخلق ، وذلك يفضى بالاخرة إلى هلاك ذلك الملك ، أما إذا كانت أحكام ذلك الملك مطابقة للشريعة الحقه الإلهية انتظمت مصالح العالم . واتسعت أبواب الخيرات على أحسن الوجوه . فهذا هو المراد من قولهم (فاحكم بين الناس بالحق) يعنى لابد من حاكم بين الناس بالحق فكن أنت ذلك الحاكم ثم قال (ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) الآية ، وتفسيره أن متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله ، والضلال عن سبيل الله يوجب سوء العذاب ، فينتج أن متابعة الهوى توجب سوء العذاب .

أما المقام الأول : وهو أن متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله فتقريره أن الهوى يدعو إلى الاستغراق فى اللذات الجسمانية ، والاستغراق فيها يمنع من الاشتغال بطلب السعادات الروحانية التى هى الباقيات الصالحات ، لأنهما حالتان متضادتان فبقدر ما يزداد أحدهما ينقص الآخر .

أما المقام الثانى : وهو أن الضلال عن سبيل الله يوجب سوء العذاب ، فالأمر فيه ظاهر لأن الإنسان إذا عظم ألفه بهذه الجسمانيات ونسى بالكلية أحواله الروحانيات ، فإذا مات فقد فارق المحبوب والمعشوق ، ودخل دياراً ليس له بأهل تلك الديار إلف وليس لعينه قوة مطالعة أنوار تلك الديار ، فكأنه فارق المحبوب ووصل إلى المكروه . فكان لا محالة فى أعظم العناء والبلاء ، فثبت أن متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله . وثبت أن الضلال عن سبيل الله يوجب العذاب ، وهذا بيان فى غاية الكمال .

ثم قال تعالى (بما نسوا يوم الحساب) يعنى أن السبب الأول لحصول ذلك الضلال هو نسيان يوم الحساب ، لأنه لو كان متذكراً ليوم الحساب لما أعرض عن إعداد الزاد ليوم المعاد ، ولما صار مستغرقاً فى هذه اللذات الفاسدة .

روى عن بعض خلفاء بنى مروان أنه قال لعمر بن عبد العزيز هل سمعت ما بلغنا أن الخليفة لايجرى عليه القلم ولا يكتب عليه معصية ؟ فقال ياأمير المؤمنين الخلفاء أفضل أم الأنبياء !؟ ثم تلا هذه الاية (إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) ثم قال تعالى (وما خلقنا السماء والأرض ومابينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار) ونظيره قوله تعالى (ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار) وقوله تعالى (ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ احتج الجبائى بهذه الآية على أنه تعالى لا يجوز أن يكون خالقاً لأعمال العباد قال لأنها مشتملة على الكفر والفسق وكلها أباطيل . فلما بين تعالى أنه (ما خلق السموات والأرض ومابينهما باطلا) دل هذا على أنه تعالى لم يخلق أعمال العباد . ومثله قوله تعالى (وماخلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق) وعند المجبرة أنه خلق الكافر لأجل أن يكفر والكفر باطل ، وقد خلق الباطل ، ثم أكد تعالى ذلك بأن قال (ذلك ظن الذين كفروا) أى كل من قال بهذا القول فهو كافر ، فهذا تصريح بأن مذهب المجبرة عين الكفر ، واحتج أصحابنا رحمهم الله بأن هذه الآية تدل على كونه تعالى خالقاً لأعمال العباد فقالوا هذه الآية تدل على كونه تعالى خالقاً لكل مابين السموات والأرض ، وأعمال العباد حاصلة بين السماء والأرض ، فوجب أن يكون الله تعالى خالقاً لها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ هذه الآية دالة على صحة القول بالحشر والنشر والقيامة ، وذلك لأنه تعالى خلق الخلق فى هذا العالم ، فإما أن يقال إنه خلقهم للاضرار أو للانفاع أولا للانفاع ولا للاضرار والأول باطل لأن ذلك لا يليق بالرحيم الكريم ، والثالث أيضاً باطل لأن هذه الحالة حاصلة حين كانوا معدومين ، فلم يبق إلا أن يقال إنه خلقهم للانفاع ، فنقول وذلك الإنفاع ، إما أن يكون فى حياة الدنيا أو فى حياة الآخرة ، والأول باطل لأن منافع الدنيا قليلة ومضارها كثيرة ، وتحمل المضار الكثيرة للمنفعة القليلة لا يليق بالحكمة ، ولما بطل هذا القسم ثبت القول بوجود حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيوية ، وذلك هو القول بالحشر والنشر والقيامة ، واعلم أن هذا الدليل يمكن تقريره من وجوه كثيرة ، وقد لخصناها فى أول سورة يونس بالاستقصاء ، فلا سبيل إلى التكرير فثبت بما ذكرنا أنه تعالى (ما خلق السماء والأرض وما بينهما باطلا) وإذا لم يكن خلقهما باطلا كان القول بالحشر والنشر لازماً ، وأن كل من أنكر القول بالحشر والنشر كان شاكا فى حكمة الله فى خلق السماء والأرض ، وهذا هو المراد من قوله (ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار) ولما بين الله تعالى على سبيل الإجمال أن إنكار الحشر والنشر يوجب الشك فى حكمة الله تعالى بين ذلك على سبيل التفصيل ، فقال (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار) وتقريره أنا نرى فى الدنيا من أطاع الله واحترز عن معصيته فى الفقر والزمانة وأنواع البلاء ، ونرى الكفرة والفساق فى الراحة والغبطة ، فلو لم يكن حشر ونشر ومعاد فحينئذ يكون حال المطيع أدون من حال العاصى ، وذلك لا يليق بحكمة الحكيم الرحيم ، وإذا كان ذلك قادحاً فى الحكمة ، ثبت أن إنكار الحشر والنشر يوجب إنكار حكمة الله .

ثم قال تعالى ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قالت المعتزلة دلت الآية على أنه تعالى إنما أنزل هذا القرآن لأجل الخير والرحمة والهداية ، وهذا يفيد أمرين (أحدهما) أن أفعال الله معللة برعاية المصالح (والثانى) أنه تعالى أراد الإيمان والخير والطاعة من الكل بخلاف قول من يقول إنه أراد الكفر من الكافر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى تقرير نظم هذه الآيات فنقول . لسائل أن يسأل فيقول إنه تعالى حكى فى أول السورة عن المستهزئين من الكفار ، أنهم بالغوا فى إنكار البعث والقيامة ، وقالوا (ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب) ولما حكى الله تعالى عنهم ذلك لم يذكر الجواب ، بل قال (اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود) ومعلوم أنه لا تعلق لذكر داود عليه السلام بأن القول بالقيامة حق ، ثم إنه تعالى أطنب فى شرح قصة داود ، ثم أتبعه بقوله (وما خلقنا السماء والأرض) ومعلوم أنه لا تعلق لمسألة إثبات حكمة الله بقصة داود ، ثم لما ذكر إثبات حكمة الله وفرع عليه إثبات أن القول بالحشر والنشر حق ، ذكر بعده أن القرآن كتاب شريف فاضل كثير النفع والخير ، ولا تعلق لهذا الفصل بالكلمات المتقدمة ، وإذا كان كذلك كانت هذه الفصول فصولا متباينة لا تعلق للبعض منها بالبعض ، فكيف يليق بهذا الموضع وصف القرآن بكونه كتاباً شريفاً فاضلا ؟ هذا تمام السؤال (والجواب) أن نقول : أن العقلاء قالوا من ابتلى بخصم جاهل مصر متعصب ، ورآه قد خاض فى ذلك التعصب والإصرار ، وجب عليه أن يقطع الكلام معه فى تلك المسألة ، لأنه كلما كان خوضه فى تقريره أكثر كانت نفرته عن القبول أشد ، فالطريق حينئذ أن يقطع الكلام معه فى تلك المسألة ، وأن يخوض فى كلام آخر أجنبى عن المسألة الأولى بالكلية ويطنب فى ذلك الكلام الأجنبى ، بحيث ينسى ذلك المتعصب تلك المسألة الأولى ، فإذا اشتغل خاطره بهذا الكلام الأجنبى ونسى المسألة الأولى ، فحينئذ يدرج فى أثناء الكلام فى هذا الفصل الأجنبى مقدمة مناسبة لذلك المطلوب الأول ، فإن ذلك المتعصب يسلم هذه المقدمة ، فإذا سلمها ، فحينئذ يتمسك بها فى إثبات المطلوب الأول ، وحينئذ يصير ذلك الخصم المتعصب منقطعاً مفحماً ، إذا عرفت هذا فنقول إن الكفار بلغوا فى إنكار الحشر والنشر والقيامة إلى حيث قالوا على سبيل الإستهزاء (ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب) فقال يا محمد اقطع الكلام معهم فى هذه المسألة ، واشرع فى كلام آخر أجنبى بالكلية عن هذه المسألة ، وهى قصة داود عليه السلام ، فإن من المعلوم أنه لا تعلق لهذه القصة بمسألة الحشر والنشر ، ثم إنه تعالى أطنب فى شرح تلك القصة ، ثم قال فى آخر القصة (ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق) وكل من سمع هذا قال نعم ما فعل حيث أمره بالحكم بالحق ، ثم كأنه تعالى قال : وأنا لا آمرك بالحق فقط ، بل أنا مع أنى رب العالمين لا أفعل إلا بالحق ولا أقضى بالباطل ، فههنا الخصم يقول نعم ما فعل حيث لم يقض إلا بالحق ، فعند هذا يقال لما سلمت أن حكم الله يجب أن يكون بالحق لا بالباطل ، لزمك أن تسلم صحة القول بالحشر والنشر ، لأنه لو لم يحصل ذلك لزم أن يكون الكافر راجحاً على المسلم فى إيصال الخيرات إليه ، وذلك ضد الحكمة وعين الباطل ، فبهذا الطريق اللطيف أورد الله تعالى الإلزام القاطع على منكرى الحشر والنشر إيراداً لا يمكنهم الخلاص عنه ، فصار ذلك الخصم الذى بلغ فى إنكار المعاد إلى حد الاستهزاء مفحما ملزماً بهذا

وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾

الطريق ، ولما ذكر الله تعالى هذه الطريقة الدقيقة فى الإلزام فى القرآن ، لا جرم وصف القرآن بالكمال والفضل ، فقال (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكروا أولوا الألباب) فإن من لم يتدبر ولم يتأمل ولم يساعده التوفيق الإلهى لم يقف على هذه الأسرار العجيبة المذكورة فى هذا القرآن العظيم ، حيث يراه فى ظاهر الحال مقروناً بسوء الترتيب ، وهو فى الحقيقة مشتمل على أكمل جهات الترتيب ، فهذا ما حضرنا فى تفسير هذه الآيات ، وبالله التوفيق .

قوله تعالى : ﴿ ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب ، إذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد ، فقال إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب ، ردوها على فطفق مسحاً بالسوق والأعناق ﴾ .

واعلم أن هذا هو القصة الثانية وقوله (نعم العبد) فيه مباحث :

﴿ الأول ﴾ نقول المخصوص بالمدح فى(نعم العبد) محذوف ، فقيل هو سليمان ، وقيل داود ، والأول أولى لأنه أقرب المذكورين ، ولأنه قال بعده (إنه أواب) ولا يجوز أن يكون المراد هو داود ، لأن وصفه بهذا المعنى قد تقدم فى الآية المتقدمة حيث قال (واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب) فلو قلنا لفظ الأواب ههنا أيضاً صفة داود لزم التكرار ، ولو قلنا إنه صفة لسليمان لزم كون الابن شبيهاً لأبيه فى صفات الكمال فى الفضيلة ، فكان هذا أولى .

﴿ البحث الثانى ﴾ أنه قال أولا (نعم العبد) ثم قال بعده (إنه أواب) وهذه الكلمة للتعليل، فهذا يدل على أنه إنما كان (نعم العبد)لأنه كان أواباً ، فيلزم أن كل من كان كثير الرجوع إلى الله تعالى فى أكثر الأوقات وفى أكثر المهمات كان موصوفاً بأنه (نعم العبد) وهذا هو الحق الذى لاشبهة فيه ، لأن كمال الإنسان فى أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به ، ورأس المعارف ورئيسها معرفة الله تعالى ، ورأس الطاعات ورئيسها الاعتراف بأنه لا يتم شىء من الخيرات إلا بإعانة الله تعالى ، ومن كان كذلك كان كثير الرجوع إلى الله تعالى فكان أواباً ، فثبت أن كل من كان أواباً وجب أن يكون (نعم العبد) .

أما قوله (إذ عرض عليه) ففيه وجوه (الأول) التقدير (نعم العبد) هو إذ كان من أعماله أنه فعل كذا (الثانى) أنه ابتداء كلام . والتقدير اذكر يا محمد إذ عرض عليه كذا وكذا ، والعشى

هو من حين العصر إلى آخر النهار عرض الخيل عليه لينظر إليها ويقف على كيفية أحوالها ، والصافنات الجياد الخيل وصفت بوصفين (أولهما) الصافنات ، قال صاحب الصحاح : الصافن الذي يصفن قدميه ، وفي الحديث « كنا إذا صلينا خلفه فرفع رأسه من الركوع قمنا صفونا » أي قمنا صافنين أقدامنا ، وأقول على كلا التقديرين فالصفون صفة دالة على فضيلة الفرس (والصفة الثانية) للخيل في هذه الآية الجياد ، قال المبرد : والجياد جمع جواد وهو الشديد الجرى ، كما أن الجواد من الناس هو السريع البذل ، فالمقصود وصفها بالفضيلة والكمال حالتي وقوفها وحركتها . أما حال وقوفها فوصفها بالصفون ، وأما حال حركتها فوصفها بالجودة ، يعني أنها إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقفها على أحسن الأشكال ، فإذا جرت كانت سراعاً في جريها ، فإذا طلبت لحقت ، وإذا طلبت لم تلحق ، ثم قال تعالى (قال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي) وفي تفسير هذه اللفظة وجوه (الأول) أن يضمن أحببت معنى فعل يتعدى بعن ، كأنه قيل أنبت حب الخير عن ذكر ربي (والثاني) أن أحببت بمعنى ألزمت ، والمعنى أني ألزمت حب الخيل عن ذكر ربي ، أي عن كتاب ربي وهو التوراة ، لأن ارتباط الخيل كما أنه في القرآن ممدوح فكذلك في التوراة ممدوح (والثالث) أن الإنسان قد يحب شيئاً لكنه يحب أن لا يحبه كالمريض الذي يشتهي مايزيد في مرضه ، والأب الذي يحب ولده الردىء ، وأما من أحب شيئاً ، وأحب أن يحبه كان ذلك غاية المحبة فقوله أحببت حب الخير بمعنى أحببت حبي لهذه الخيل .

ثم قال (عن ذكر ربي) بمعنى أن هذه المحبة الشديدة إنما حصلت عن ذكر الله وأمره لاعن الشهوة والهوى ، وهذا الوجه أظهر الوجوه .

ثم قال تعالى (حتى توارت) أقول الضمير في قوله (حتى توارت) ، وفي قوله (ردوها) يحتمل أن يكون كل واحد منهما عائداً إلى الشمس ، لأنه جرى ذكر ماله تعلق بها وهو العشى ويحتمل أن يكون كل واحد منهما عائداً إلى الصافنات ، ويحتمل أن يكون الأول متعلقاً بالشمس والثاني بالصافنات ، ويحتمل أن يكون بالعكس من ذلك ، فهذه احتمالات أربعة لامزيد عليها (فالأول) أن يعود الضميران معاً إلى الصافنات ، كأنه قال حتى توارت الصافنات بالحجاب ردوا الصافنات على ، والاحتمال (الثاني) أن يكون الضميران معاً عائدين إلى الشمس كأنه قال حتى توارت الشمس بالحجاب ردوا الشمس ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم لما اشتغل بالخيل فاتته صلاة العصر ، فسأل الله أن يرد الشمس فقوله (ردوها على) إشارة إلى طلب رد الشمس ، وهذا الاحتمال عندي بعيد والذي يدل عليه وجوه (الأول) أن الصافنات مذكورة تصريحاً ، والشمس غير مذكورة وعود الضمير إلى المذكور أولى من عوده إلى المقدر (الثاني) أنه قال (إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب) وظاهر هذا اللفظ يدل على أن سليمان عليه السلام كان يقول إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي . وكان يعيد هذه الكلمات إلى أن

توارت بالحجاب ، فلو قلنا المراد حتى توارت الصافنات بالحجاب كان معناه أنه حين وقع بصره عليها حال جريها كان يقول هذه الكلمة إلى أن غابت عن عينه وذلك مناسب ، ولو قلنا المراد حتى توارت الشمس بالحجاب كان معناه أنه كان يعيد عين هذه الكلمة من وقت العصر إلى وقت المغرب ، وهذا فى غاية البعد (الثالث) أنا لو حكمنا بعود الضمير فى قوله حتى توارت إلى الشمس وحملنا اللفظ على أنه ترك صلاة العصر كان هذا منافياً لقوله (أحببت حب الخير عن ذكر ربى) فان تلك المحبة لو كانت عن ذكر الله لما نسى الصلاة ولما ترك ذكر الله (الرابع) أنه بتقدير أنه عليه السلام بقى مشغولا بتلك الخيل حتى غربت الشمس وفاتت صلاة العصر ؟ ، فكان ذلك ذنباً عظيما وجرماً قوياً ، فالأليق بهذه الحالة التضرع والبكاء والمبالغة فى إظهار التوبة ، فأما أن يقول على سبيل التهور والعظمة لإله العالم ورب العالمين ، ردوها على بمثل هذه الكلمة العارية عن كل جهات الأدب عقيب ذلك الجرم العظيم ، فهذا لا يصدر عن أبعد الناس عن الخير ، فكيف يجوز إسناده إلى الرسول المطهر المكرم ! (الخامس) أن القادر على تحريك الأفلاك والكواكب هو الله تعالى فكان يجب أن يقول ردها على ولا يقول ردوها على ، فان قالوا إنما ذكر صيغة الجمع للتنبيه على تعظيم المخاطب فنقول قوله (ردوها) لفظ مشعر بأعظم أنواع الإهانة فكيف يليق بهذا اللفظ رعاية التعظيم (السادس) أن الشمس لو رجعت بعد الغروب لكان ذلك مشاهداً لكل أهل الدنيا ولو كان الأمر كذلك لتوفرت الدواعى على نقله وإظهاره ، وحيث لم يقل أحد ذلك علمنا فساده (السابع) أنه تعالى قال (إذ عرض بالعشى الصافنات الجياد) ثم قال (حتى توارت بالحجاب ، وعود الضمير إلى أقرب المذكورين أولى ، وأقرب المذكورين هو الصافنات الجياد ، وأما العشى فأبعدهما فكان عود ذلك الضمير إلى الصافنات أولى ، فثبت بما ذكرنا أن حمل قوله (حتى توارت بالحجاب) على توارى الشمس وأن حمل قوله (ردوها على) على أن المراد منه طلب أن يرد الله الشمس بعد غروبها كلام فى غاية البعد عن النظم .

ثم قال تعالى (فطفق مسحاً بالسوق والأعناق) أى فجعل سليمان عليه السلام يمسح سوقها وأعناقها ، قال الأكثرون معناه أنه مسح السيف بسوقها وأعناقها أى قطعها ، قالوا إنه عليه السلام لما فاتته صلاة العصر بسبب اشتغاله بالنظر إلى تلك الخيل استردها وعقر سوقها وأعناقها تقرباً إلى الله تعالى ، وعندى أن هذا أيضاً بعيد ، ويدل عليه وجوه (الأول) أنه لو كان معنى مسح السوق والأعناق قطعها لكان معنى قوله (وامسحوا برءوسكم وأرجلكم) قطعها ، وهذا مما لا يقوله عاقل بل لو قيل مسح رأسه بالسيف فربما فهم منه ضرب العنق ، أما إذا لم يذكر لفظ السيف لم يفهم البتة من المسح العقر والذبح (الثانى) القائلون بهذا القول جمعوا على سليمان عليه السلام أنواعا من الأفعال المذمومة (فأولها) ترك الصلاة (وثانيها) أنه استولى عليه الاشتغال بحب الدنيا إلى حيث نسى الصلاة ، وقال صلى الله عليه وسلم « حب الدنيا رأس كل خطيئة » (وثالثها)

أنه بعد الإتيان بهذا الذنب العظيم لم يشتغل بالتوبة والإنابة البتة (ورابعها) أنه خاطب رب العالمين بقوله (ردوها على) وهذه كلمة لايذكرها الرجل الحصيف إلا مع الخادم الخسيس ، (وخامسها) أنه أتبع هذه المعاصى بعقر الخيل فى سوقها وأعناقها ، وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه « نهى عن ذبح الحيوان إلا لمأكله » ، فهذه أنواع من الكبائر نسبوها إلى سليمان عليه السلام مع أن لفظ القرآن لم يدل على شيء منها (وسادسها) أن هذه القصص إنما ذكرها الله تعالى عقيب قوله (وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب) وأن الكفار لما بلغوا فى السفاهة إلى هذا الحد قال الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم اصبر يامحمد على سفاهتهم (واذكر عبدنا داود) وذكر قصة داود ، ثم ذكر عقيبها قصة سليمان ، وكان التقدير أنه تعالى قال لمحمد عليه السلام اصبر يامحمد على مايقولون واذكر عبدنا سليمان ، وهذا الكلام إنما يكون لائقاً لو قلنا إن سليمان عليه السلام أتى فى هذه القصة بالأعمال الفاضلة والأخلاق الحميدة ، وصبر على طاعة الله ، وأعرض عن الشهوات واللذات ، فأما لو كان المقصود من قصة سليمان عليه السلام فى هذا الموضع أنه أقدم على الكبائر العظيمة والذنوب الجسيمة لم يكن ذكر هذه القصة لائقاً بهذا الموضع ، فثبت أن كتاب الله تعالى ينادى على هذه الأقوال الفاسدة بالرد والإفساد والإبطال بل التفسير المطابق للحق لألفاظ القرآن والصواب أن نقول إن رباط الخيل كان مندوباً إليه فى دينهم كما أنه كذلك فى دين محمد ﷺ ثم إن سليمان عليه السلام احتاج إلى الغزو فجلس وأمر بإحضار الخيل وأمر بإجرائها وذكر أنى لا أحبها لأجل الدنيا ونصيب النفس ، وإنما أحبها لأمر الله وطلب تقوية دينه وهو المراد من قوله عن ذكر ربى ، ثم إنه عليه السلام أمر بإعدائها وتسييرها حتى توارت بالحجاب أى غابت عن بصره ، ثم أمر الرائضين بأن يردوا تلك الخيل إليه فلما عادت إليه طفق يمسح سوقها وأعناقها ، والغرض من ذلك المسح أمور (الأول) تشريفاً لها وإبانة لعزتها لكونها من أعظم الأعوان فى دفع العدو (الثانى) أنه أراد أن يظهر أنه فى ضبط السياسة والملك يتضع إلى حيث يباشر أكثر الأمور بنفسه (الثالث) أنه كان أعلم بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها ، فكان يمتحنها ويمسح سوقها وأعناقها حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض ، فهذا التفسير الذى ذكرناه ينطبق عليه لفظ القرآن انطباقاً مطابقاً موافقاً ، ولا يلزمنا نسبة شيء من تلك المنكرات والمحذورات ، وأقول أنا شديد التعجب من الناس كيف قبلوا هذه الوجوه السخيفة مع أن العقل والنقل يردها ، وليس لهم فى إثباتها شبهة فضلا عن حجة ، فإن قيل فالجمهور فسروا الآية بذلك الوجه ، فما قولك فيه ؟ فنقول لنا ههنا مقامان :

﴿ المقام الأول ﴾ أن ندعى أن لفظ الآية لا يدل على شيء من تلك الوجوه التى يذكرونها ، وقد ظهر والحمد لله أن الأمر كما ذكرناه ، وظهوره لا يرتاب العاقل فيه .

﴿ المقام الثانى ﴾ أن يقال هب أن لفظ الآية لايدل عليه إلا أنه كلام ذكره الناس ، فما قولك

وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى
وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ
تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ
مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ
لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾

فيه وجوابنا أن الدلالة الكثيرة قامت على عصمة الأنبياء عليهم السلام ، ولم يدل دليل على صحة هذه الحكايات ورواية الآحاد لا تصلح معارضة الدلائل القوية ، فكيف الحكايات عن أقوام لا يبالى بهم ولا يلتفت إلى أقوالهم ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب ، قال رب اغفرلى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب ، فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ، والشياطين كل بناء وغواص ، وآخرين مقرنين فى الاصفاد . هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب ، وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ .

اعلم أن هذه الآية شرح واقعة ثانية لسليمان عليه السلام واختلفوا فى المراد من قوله (ولقد فتنا سليمان) ولأهل الحشو والرواية فيه قول ، ولأهل العلم والتحقيق قول آخر ، أما قول أهل الحشو فذكروا فيه حكايات :

﴿ الأولى ﴾ قالوا إن سليمان بلغه خبر مدينة فى البحر فخرج إليها بجنوده تحمله الريح فأخذها وقتل ملكها ، وأخذ بنتاً له اسمها جرادة من أحسن الناس وجهاً فاصطفاها لنفسه وأسلمت فأحبها وكانت تبكى أبداً على أبيها فأمر سليمان الشيطان فمثل لها صورة أبيها فكستها مثل كسوته وكانت تذهب إلى تلك الصورة بكرة وعشياً مع جواريها يسجدن لها ، فأخبر آصف سليمان بذلك فكسر الصورة وعاقب المرأة ، ثم خرج وحده إلى فلاة وفرش الرماد فجلس عليه تائباً إلى الله تعالى ، وكانت له أم ولد يقال لها أمينة إذا دخل للطهارة أو لإصابة امرأة وضع خاتمه عندها وكان ملكه فى خاتمه فوضعه عندها يوماً ، فأتاها الشيطان صاحب البحر على صورة سليمان ، وقال يا أمينة خاتمى فتختم به وجلس على كرسى سليمان فأتى عليه الطير والجن والإنس ، وتغيرت هيئة سليمان فأتى أمينة لطلب الخاتم فأنكرته وطردته .فعرف أن الخطيئة قد أدركته فكان يدور على البيوت يتكفف وإذا قال

أنا سليمان حثوا عليه التراب وسبوه ، ثم أخذ يخدم السماكين ينقل لهم السمك فيعطونه كل يوم سمكتين فمكث على هذه الحالة أربعين يوماً عدد ما عبد الوثن فى بيته ، فانكر آصف وعظماء بنى إسرائيل حكم الشيطان وسأل آصف نساء سليمان ، فقلن ما يدع امرأة منا فى دمها ولا يغتسل من جنابة ، وقيل بل نفذ حكمه فى كل شىء إلا فيهن ، ثم طار الشيطان وقذف الخاتم فى البحر فابتلعته سمكة ووقعت السمكة فى يد سليمان فبقر بطنها فإذا هو بالخاتم فتختم به ووقع ساجداً لله ، ورجع إليه ملكه وأخذ ذلك الشيطان وأدخله فى صخرة وألقاها فى البحر .

﴿ والرواية الثانية ﴾ للحشوية أن تلك المرأة لما أقدمت على عبادة تلك الصورة افتتن سليمان وكان يسقط الخاتم من يده ولا يتماسك فيها ، فقال له آصف إنك لمفتون بذنبك فتب إلى الله .

﴿ والرواية الثالثة ﴾ لهم قالوا إن سليمان قال لبعض الشياطين كيف تفتنون الناس ؟ فقال أرنى خاتمك أخبرك فلما أعطاه اياه نبذه فى البحر فذهب ملكه وقعد هذا الشيطان على كرسيه ، ثم ذكر الحكاية إلى آخرها .

إذا عرفت هذه الروايات فهؤلاء قالوا المراد من قوله (ولقد فتنا سليمان) أن الله تعالى ابتلاه وقوله (وألقينا على كرسيه جسداً) هو جلوس ذلك الشيطان على كرسيه .

﴿ والرواية الرابعة ﴾ أنه كان سبب فتنته احتجابه عن الناس ثلاثة أيام فسلب ملكه وألقى على سريره شيطان عقوبة له .

واعلم أن أهل التحقيق استبعدوا هذا الكلام من وجوه (الأول) أن الشيطان لو قدر على أن يتشبه بالصورة والخلقة بالأنبياء ، فحينئذ لا يبقى اعتماد على شىء من الشرائع ، فلعل هؤلاء الذين رآهم الناس فى صورة محمد وعيسى وموسى عليهم السلام ماكانوا أولئك بل كانوا شياطين تشبهوا بهم فى الصورة لأجل الإغواء والإضلال ، ومعلوم أن ذلك يبطل الدين بالكلية (الثانى) أن الشيطان لو قدر على أن يعامل نبى الله سليمان بمثل هذه المعاملة لوجب أن يقدر على مثلها مع جميع العلماء والزهاد ، وحينئذ وجب أن يقتلهم وأن يمزق تصانيفهم وأن يخرب ديارهم ، ولما بطل ذلك فى حق آحاد العلماء فلأن يبطل مثله فى حق أكابر الأنبياء أولى (والثالث) كيف يليق بحكمة الله وإحسانه أن يسلط الشيطان على أزواج سليمان ؟ ولا شك أنه قبيح (الرابع) لو قلنا إن سليمان أذن لتلك المرأة فى عبادة تلك الصورة فهذا كفر منه ، وإن لم يأذن فيه البتة فالذنب على تلك المرأة ، فكيف يؤاخذ الله سليمان بفعل لم يصدر عنه ؟ فأما الوجوه التى ذكرها أهل التحقيق فى هذا الباب فأشياء : (الاول) أن فتنة سليمان أنه ولد له ابن فقالت الشياطين إن عاش صار مسلطاً علينا مثل أبيه فسبيلنا أن نقتله فعلم سليمان ذلك فكان يربيه فى السحاب فبينما هو مشتغل بمهماته إذ ألقى ذلك الولد ميتاً على كرسيه فتنبه على خطيئته فى أنه لم يتوكل فيه على الله فاستغفر ربه وأناب (الثانى) روى عن النبى ﷺ أنه قال « قال سليمان لأطوفن الليلة على سبعين امرأة كل واحدة تأتى بفارس يجاهد فى

سبيل الله ولم يقل إن شاء الله ، فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل فجىء به على كرسيه فوضع فى حجره ، فوالذى نفسى بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا كلهم فى سبيل الله فرساناً أجمعون » فذلك قوله (ولقد فتنا سليمان) (الثالث) قوله (ولقدفتنا سليمان) بسبب مرض شديد ألقاه الله عليه ، (وألقيناعلى كرسيه)منه (جسداً) وذلك لشدة المرض . والعرب تقول فى الضعيف إنه لحم على وضم وجسم بلا روح (ثم أناب) أى رجع إلى حال الصحة ، فاللفظ محتمل لهذه الوجوه ولا حاجة البتة إلى حمله على تلك الوجوه الركيكة (الرابع) أقول لا يبعد أيضاً أن يقال إنه ابتلاه الله تعالى بتسليط خوف أو توقع بلاء من بعض الجهات عليه ، وصار بسبب قوة ذلك الخوف كالجسد الضعيف الملقى على ذلك الكرسى ، ثم إنه أزال الله عنه ذلك الخوف ، وأعاده إلى ما كان عليه من القوة وطيب القلب .

أما قوله تعالى (قال رب اغفر لى) فاعلم أن الذين حملوا الكلام المتقدم على صدور الزلة منه تمسكوا بهذه الآية ، فإنه لولا تقدم الذنب لما طلب المغفرة ، ويمكن أن يجاب عنه بأن الإنسان لا ينفك البتة عن ترك الأفضل والأولى ، وحينئذ يحتاج إلى طلب المغفرة لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، ولأنهم أبداً فى مقام هضم النفس ، وإظهار الذلة والخضوع ، كما قال ﷺ « إنى لأستغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة » ولا يبعد أن يكون المراد من هذه الكلمة هذا المعنى والله أعلم .

ثم قال تعالى (وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى) دلت هذه الآية على أنه يجب تقديم مهم الدين على مهم الدنيا ، لأن سليمان طلب المغفرة أولا ثم بعده طلب المملكة ، وأيضاً الآية تدل على أن طلب المغفرة من الله تعالى سبب لانفتاح أبواب الخيرات فى الدنيا ، لأن سليمان طلب المغفرة أولا ثم توسل به إلى طلب المملكة ، ونوح عليه السلام هكذا فعل أيضاً لأنه تعالى حكى عنه أنه قال (فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ، يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويمددكم بأموال وبنين) وقال لمحمد ﷺ (وامر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقك) فإن قيل قوله عليه السلام (ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى) مشعر بالحسد ، والجواب عنه أن القائلين بأن الشيطان استولى على مملكته قالوا معنى قوله لا ينبغى لأحد من بعدى ، هو أن يعطيه الله ملكا لا تقدر الشياطين أن يقوموا مقامه البتة ، فأما المنكرون لذلك فقد أجابوا عنه من وجوه (الأول) أن الملك هو القدرة فكان المراد أقدرنى على أشياء لا يقدر عليها غيرى البتة ، ليصير اقتدارى عليها معجزة تدل على صحة نبوتى ورسالتى . والدليل على صحة هذا الكلام أنه تعالى قال (عقيبه فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب) فكون الريح جارياً بأمره قدرة عجيبة وملك عجيب ، ولا شك أنه معجزة دالة على نبوته فكان قوله (هب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى) هو هذا المعنى لأن شرط المعجزة أن لا يقدر غيره على معارضتها ، فقوله (لا ينبغى لأحد من بعدى) يعنى لا يقدر

أحد على معارضته (والوجه الثانى) فى الجواب أنه عليه السلام لما مرض ثم عاد إلى الصحة عرف أن خيرات الدنيا صائرة إلى الغير بإرث أو بسبب آخر ، فسأل ربه ملكا لا يمكن أن ينتقل منه إلى غيره ، وذلك الذى سأله بقوله (ملكا لا ينبغي لأحد من بعدى) أى ملكا لا يمكن أن ينتقل عنى إلى غيرى (الوجه الثالث) فى الجواب أن الاحتراز عن طيبات الدنيا مع القدرة عليها أشق من الاحتراز عنها حال عدم القدرة عليها ، فكأنه قال : يا إلهى أعطنى مملكة فائقة على ممالك البشر بالكلية ، حتى أحترز عنها مع القدرة عليها ليصير ثوابى أكمل وأفضل (الوجه الرابع) من الناس من يقول إن الاحتراز عن لذات الدنيا عسر صعب ، لأن هذه اللذات حاضرة وسعادات الآخرة نسيئة ، والنقد يصعب بيعه بالنسيئة ، فقال سليمان أعطنى يارب مملكة تكون أعظم الممالك الممكنة للبشر ، حتى أنى أبقى مع تلك القدرة الكاملة فى غاية الإحتراز عنها ليظهر للخلق أن حصول الدنيا لا يمنع من خدمة المولى (الوجه الخامس) أن من لم يقدر على الدنيا يبقى ملتفت القلب إليها فيظن أن فيها سعادات عظيمة وخيرات نافعة ، فقال سليمان يارب العزة أعطنى أعظم الممالك حتى يقف الناس على كمال حالها ، فحينئذ يظهر للعقل أنه ليس فيها فائدة وحينئذ يعرض القلب عنها ولا يلتفت إليها ، وأشتغل بالعبودية ساكن النفس غير مشغول القلب بعلائق الدنيا ، ثم قال (فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب) رخاء أى رخوة لينة وهى من الرخاوة والريح إذا كانت لينة لاتزعزع ولا تمتنع عليه كانت طيبة ، فان قيل أليس أنه تعالى قال فى آية أخرى (ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره) قلنا الجواب من وجهين (الأول) لا منافاة بين الآيتين فان المراد أن تلك الريح كانت فى قوة الرياح العاصفة إلا أنها لما جرت بأمره كانت لذيذة طيبة فكانت رخاء (والوجه الثانى) من الجواب أن تلك الريح كانت لينة مرة وعاصفة أخرى ولا منافاة بين الأمرين وقوله تعالى (حيث أصاب) أى قصد وأراد ، وحكى الأصمعى عن العرب أنهم يقولون أصاب الصواب فأخطأ الجواب . وعن رؤبة أن رجلين من أهل اللغة قصداه ليسألاه عن هذه الكلمة فخرج إليهما ، فقال أين تصيبان ؟ فقالا هذا مطلوبنا . وبالجملة فالمقصود أنه تعالى جعل الريح مسخرة له حتى صارت تجرى بأمره على وفق إرادته ، ثم قال والشياطين كل بناء وغواص ، قال صاحب الكشاف الشياطين عطف على الريح وكل بناء بدل من الشياطين وآخرين عطف على قوله (كل بناء) وهو بدل الكل من الكل كانوا يبنون له ماشاء من الأبنية ويغوصون له فيستخرجون اللؤلؤ ، وقوله (مقرنين) يقال قرنهم فى الحبال والتشديد للكثرة (والأصفاد) الأغلال واحدها صفد والصفد العطية أيضاً ، قال النابغة :

ولم أعرض أبيت اللعن بالصفد

فعلى هذا الصفد القيد فكل من شددته شداً وثيقاً فقد صفدته ، وكل من أعطيته عطاء جزيلا فقد أصفدته ، وههنا بحث ، وهو أن هذه الآيات دالة على أن الشياطين لها قوة عظيمة ، وبسبب تلك القوة قدروا على بناء الأبنية القوية التى لا يقدر عليها البشر ، وقدروا

وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ

على الغوص فى البحار ، واحتاج سليمان عليه السلام إلى قيدهم ، ولقائل أن يقول إن هذه الشياطين إما أن تكون أجسادهم كثيفة أو لطيفة ، فإن كان الأول وجب أن يراهم من كان صحيح الحاسة ، إذ لو جاز أن لا نراهم مع كثافة أجسادهم ، فليجز أن تكون بحضرتنا جبال عالية وأصوات هائلة ولا نراها ولا نسمعها ، وذلك دخول فى السفسطة ، وإن كان الثانى وهو أن أجسادهم ليست كثيفة ، بل لطيفة رقيقة ، فمثل هذا يمتنع أن يكون موصوفاً بالقوة الشديدة ، وأيضاً لزم أن تتفرق أجسادهم وأن تتمزق بسبب الرياح القوية وأن يموتوا فى الحال ، وذلك يمنع من وصفهم ببناء الأبنية القوية ، وأيضاً الجن والشياطين إن كانوا موصوفين بهذه القوة والشدة ، فلم لا يقتلون العلماء والزهاد فى زماننا ؟ ولم لا يخربون ديار الناس ؟ مع أن المسلمين مبالغون فى إظهار لعنهم وعداوتهم . وحيث لم يحس شىء من ذلك ، علمنا أن القول بإثبات الجن والشياطين ضعيف .

واعلم أن أصحابنا يجوزون أن تكون أجسامهم كثيفة مع أنا لا نراها ، وأيضاً لا يبعد أن يقال أجسامهم لطيفة بمعنى عدم اللون ، ولكنها صلبة بمعنى أنها لا تقبل التفرق والتمزق . وأما الجبائى فقد سلم أنها كانت كثيفة الأجسام ، وزعم أن الناس كانوا يشاهدونهم فى زمن سليمان ، ثم إنه لما توفى سليمان عليه السلام ، أمات الله أولئك الجن والشياطين ، وخلق نوعاً آخر من الجن والشياطين تكون أجسامهم فى غاية الرقة ، ولا يكون لهم شىء من القوة ، والموجود فى زماننا من الجن والشياطين ليس إلا من هذا الجنس .

ثم قال تعالى (هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب) وفيه قولان (الأول) قال ابن عباس رضى الله عنهما : أعط من شئت وامنع من شئت بغير حساب ، أى ليس عليك حرج فيما أعطيت وفيما أمسكت (الثانى) أن هذا فى أمر الشياطين خاصة ، والمعنى هؤلاء الشياطين المسخرون عطاؤنا فامنن على من شئت من الشياطين فحل عنه ، واحبس من شئت منهم فى العمل بغير حساب .

ولما ذكر الله تعالى ما أنعم به على سليمان فى الدنيا ، أردفه بإنعامه عليه فى الآخرة ، فقال (وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) وقد سبق تفسيره .

قوله تعالى : ﴿ واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب ، اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ، ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب ،

وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾

وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب ﴾ .

اعلم أن هذا هو القصة الثالثة من القصص المذكورة فى هذه السورة ، واعلم أن داود وسليمان كانا ممن أفاض الله عليه أصناف الآلاء والنعماء ، وأيوب كان ممن خصه الله تعالى بأنواع البلاء ، والمقصود من جميع هذه القصص الاعتبار . كأن الله تعالى قال : يا محمد اصبر على سفاهة قومك فإنه ما كان فى الدنيا أكثر نعمة ومالا وجاهاً من داود وسليمان عليهما السلام ، وما كان أكثر بلاء ومحنة من أيوب ، فتأمل فى أحوال هؤلاء لتعرف أن أحوال الدنيا لا تنتظم لأحد ، وأن العاقل لا بد له من الصبر على المكاره ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال صاحب الكشاف : أيوب عطف بيان ، وإذ بدل اشتمال منه (أنى مسنى) أى بأنى مسنى حكاية لكلامه الذى ناداه بسببه ، ولو لم يحك لقال بأنه مسه لأنه غائب ، وقرىء (بنصب) بضم النون وفتحها مع سكون الصاد وفتحها وضمها ، فالنصب والنصب ، كالرشد والرشد ، والعدم والعدم . والسقم والسقم ، والنصب على أصل المصدر ، والنصب تثقيل نصب ، والمعنى واحد ، وهو التعب والمشقة والعذاب والألم .

واعلم أنه كان قد حصل عنده نوعان من المكروه : الغم الشديد بسبب زوال الخيرات وحصول المكروهات ، والألم الشديد فى الجسم ولما حصل هذان النوعان لا جرم ، ذكر الله تعالى لفظين وهما النصب والعذاب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ للناس فى هذا الموضع قولان (الأول) أن الآلام والأسقام الحاصلة فى جسمه إنما حصلت بفعل الشيطان (الثانى) أنها إنما حصلت بفعل الله ، والعذاب المضاف فى هذه الآية إلى الشيطان هو عذاب الوسوسة ، وإلقاء الخواطر الفاسدة .

وأما القول الأول : فتقريره ما روى أن إبليس سأل ربه ، فقال هل فى عبيدك من لو سلطتنى عليه يمتنع منى ؟ فقال الله : نعم عبدى أيوب ، فجعل يأتيه بوساوسه وهو يرى إبليس عياناً ولا يلتفت إليه ، فقال يارب إنه قد امتنع على فسلطنى على ماله ، وكان يجيئه ويقول له : هلك من مالك كذا وكذا ، فيقول الله أعطى والله أخذ ، ثم يحمد الله ، فقال يارب إن أيوب لا يبالى بماله فسلطنى على ولده ، فجاء وزلزل الدار فهلك أولاده بالكلية ، فجاءه وأخبره به فلم يلتفت إليه ، فقال يارب لا يبالى بماله وولده فسلطنى على جسده ، فأذن فيه ، فنفخ فى جلد أيوب ، وحدثت أسقام عظيمة وآلام شديدة فيه ، فمكث فى ذلك البلاء سنين ، حتى صار بحيث استقذره أهل بلده ، فخرج إلى الصحراء وما كان يقرب منه أحد ، فجاء الشيطان إلى امرأته ، وقال لو أن زوجك استعان بى لخلصته من هذا البلاء ، فذكرت المرأة ذلك لزوجها ، فحلف بالله لئن عافاه الله ليجلدنها مائة جلدة ، وعند هذه الواقعة قال

(إنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب) فأجاب الله دعاءه . وأوحى إليه (أن اركض برجلك) فأظهر الله من تحت رجله عيناً باردة طيبة فاغتسل منها ، فأذهب الله عنه كل داء فى ظاهره وباطنه ، ورد عليه أهله وماله .

والقول الثانى : أن الشيطان لا قدرة له البتة على إيقاع الناس فى الأمراض والآلام ، والدليل عليه وجوه (الأول) أنا لو جوزنا حصول الموت والحياة والصحة والمرض من الشيطان ، فلعل الواحد منا إنما وجد الحياة بفعل الشيطان ، ولعل كل ما حصل عندنا من الخيرات والسعادات ، فقد حصل بفعل الشيطان ، وحينئذ لا يكون لنا سبيل إلى أن نعرف أن معطى الحياة والموت والصحة والسقم ، هو الله تعالى (الثانى) أن الشيطان لو قدر على ذلك فلم لا يسعى فى قتل الأنبياء والأولياء ، ولم لا يخرب دورهم ، ولم لا يقتل أولادهم (الثالث) أنه تعالى حكى عن الشيطان أنه قال (وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى) فصرح بأنه لا قدرة له فى حق البشر إلا على إلقاء الوساوس والخواطر الفاسدة ، وذلك يدل على قول من يقول إن الشيطان هو الذى ألقاه فى تلك الأمراض والآفات . فان قال قائل : لم لا يجوز أن يقال إن الفاعل لهذه الأحوال هو الله تعالى لكن على وفق التماس الشيطان ؟ قلنا فاذا كان لا بد من الاعتراف بأن خالق تلك الآلام والأسقام هو الله تعالى ، فأى فائدة فى جعل الشيطان واسطة فى ذلك ؟ بل الحق أن المراد من قوله (إنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب) أنه بسبب إلقاء الوساوس الفاسدة والخواطر الباطنة كان يلقيه فى أنواع العذاب والعناء ، ثم القائلون بهذا القول اختلفوا فى أن تلك الوساوس كيف كانت وذكروا فيه وجوهاً (الأول) أن علته كانت شديدة الألم . ثم طالت مدة تلك العلة واستقذره الناس ونفروا عن مجاورته ، ولم يبق له شىء من الأموال البتة . وامرأته كانت تخدم الناس وتحصل له قدر القوت ، ثم بلغت نفرة الناس عنه إلى أن منعوا امرأته من الدخول عليهم ومن الاشتغال بخدمتهم ، والشيطان كان يذكره النعم التى كانت والآفات التى حصلت ، وكان يحتال فى دفع تلك الوساوس ، فلما قويت تلك الوساوس فى قلبه خاف وتضرع إلى الله ، وقال (إنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب) لأنه كلما كانت تلك الخواطر أكثر كان ألم قلبه منها أشد . (الثانى) أنها لما طالت مدة المرض جاءه الشيطان وكان يقنطه من ربه ويزين له أن يجزع فخاف من تأكد خاطر القنوط فى قلبه فتضرع إلى الله تعالى وقال (إنى مسنى الشيطان) ، (الثالث) قيل إن الشيطان لما قال لامرأته لو أطاعنى زوجك أزلت عنه هذه الآفات فذكرت المرأة له ذلك ، فغلب على ظنه أن الشيطان طمع فى دينه فشق ذلك عليه فتضرع إلى الله تعالى وقال (إنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب) . (الرابع) روى عن النبى صلى الله عليه وسلم « أنه بقى أيوب فى البلاء ثمان عشرة سنة حتى رفضه القريب والبعيد إلا رجلين ، ثم قال أحدهما لصاحبه لقد أذنب أيوب ذنباً ما أتى به أحد من العالمين ، ولولاه ما وقع فى مثل هذا البلاء ، فذكروا ذلك

لأيوب عليه السلام ، فقال لا أدرى ماتقولان غير أن الله يعلم أنى كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله تعالى فأرجع إلى بيتى فأنفر عنهما كراهية أن يذكر الله تعالى إلا فى الحق » (الخامس) قيل إن امرأته كانت تخدم الناس فتأخذ منهم قدر القوت وتجىء به إلى أيوب ، فاتفق أنهم ما استخدموها البتة وطلب بعض النساء منها قطع إحدى ذؤابتيها على أن تعطيها قدر القوت ففعلت ، ثم فى اليوم الثانى ففعلت مثل ذلك فلم يبق لها ذؤابة . وكان أيوب عليه السلام إذا أراد أن يتحرك على فراشه تعلق بتلك الذؤابة ، فلما لم يجد الذؤابة وقعت الخواطر المؤذية فى قلبه واشتد غمه ، فعند ذلك قال (إنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب) ، (السادس) قال فى بعض الأيام يارب لقد علمت ما اجتمع على أمران إلا آثرت طاعتك ، ولما أعطيتنى المال كنت للأرامل قيماً ، ولابن السبيل معيناً ، ولليتامى أباً ! فنودى من غمامة ياأيوب ممن كان ذلك التوفيق ؟ فأخذ أيوب التراب ووضعه على رأسه ، وقال منك يارب ثم خاف من الخاطر الأول فقال (مسنى الشيطان بنصب وعذاب) وقد ذكروا أقوالا أخرى ، والله أعلم بحقيقة الحال . وسمعت بعض اليهود يقول إن لموسى بن عمران عليه السلام كتاباً مفرداً فى واقعة أيوب ، وحاصل ذلك الكتاب أن أيوب كان رجلا كثير الطاعة لله تعالى مواظباً على العبادة ، مبالغاً فى التعظيم لأمر الله تعالى والشفقة على خلق الله . ثم إنه وقع فى البلاء الشديد والعناء العظيم ، فهل كان ذلك لحكمة أم لا ؟ فان كان ذلك لحكمة فمن المعلوم أنه ما أتى بجرم فى الزمان السابق حتى يجعل ذلك العذاب فى مقابلة ذلك الجرم ، وإن كان ذلك لكثرة الثواب فالإله الحكيم الرحيم قادر على إيصال كل خير ومنفعة إليه من غير توسط تلك الآلام الطويلة والأسقام الكريهة . وحينئذ لا يبقى فى تلك الأمراض والآفات فائدة ، وهذه كلمات ظاهرة جلية وهى دالة على أن أفعال ذى الجلال منزهة عن التعليل بالمصالح والمفاسد ، والحق الصريح (أنه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لفظ الآية يدل على أن ذلك النصب والعذاب إنما حصل من الشيطان ثم ذلك العذاب على القول الأول عبارة عما حصل فى بدنه من الأمراض ، وعلى القول الثانى عبارة عن الأحزان الحاصلة فى قلبه بسبب إلقاء الوساوس ، وعلى التقديرين فيلزم إثبات الفعل للشيطان ، وأجاب أصحابنا رحمهم الله بأنا لا ننكر إثبات الفعل للشيطان لكنا نقول فعل العبد مخلوق لله تعالى على التفصيل المعلوم .

أما قوله تعالى (أركض برجلك) فالمعنى أنه لما شكى من الشيطان ، فكأنه سأل ربه أن يزيل عنه تلك البلية فأجابه الله إليه بأن قال له (أركض برجلك) والركض هو الدفع القوى بالرجل ، ومنه ركضك الفرس ، والتقدير قلنا له أركض برجلك ، قيل إنه ضرب برجله تلك الأرض فنبعت عين فقيل (هذا مغتسل بارد وشراب) أى هذا ماء تغتسل به فيبرأ باطنك ، وظاهر اللفظ يدل على أنه نبعت له عين واحدة من الماء اغتسل فيه وشرب منه . والمفسرون قالوا نبعت له

عينان فاغتسل من إحداهما وشرب من الأخرى ، فذهب الداء من ظاهره ومن باطنه بإذن الله ، وقيل ضرب برجله اليمنى فنبعت عين حارة فاغتسل منها ثم باليسرى فنبعت عين باردة فشرب منها

ثم قال تعالى (ووهبنا له أهله) فقد قيل هم عين أهله وزيادة مثلهم ، وقيل غيرهم مثلهم ، (والأول) أولى لأنه هو الظاهر فلا يجوز العدول عنه من غير ضرورة ، ثم اختلفوا فقال بعضهم معناه أزلنا عنهم السقم فعادوا أصحاء ، وقال بعضهم بل حضروا عنده بعد أن غابوا عنه واجتمعوا بعد أن تفرقوا . وقال بعضهم بل تمكن منهم وتمكنوا منه فيما يتصل بالعشرة وبالخدمة .

أما قوله (ومثلهم معهم) فالأقرب أنه تعالى متعه بصحته وبماله وقواه حتى كثر نسله وصار أهله ضعف ما كان وأضعاف ذلك ، وقال الحسن رحمه الله : المراد بهبة الأهل أنه تعالى أحياهم بعد أن هلكوا .

ثم قال (رحمة منا) أي إنما فعلنا كل هذه الأفعال على سبيل الفضل والرحمة ، لا على سبيل اللزوم .

ثم قال (وذكرى لأولى الألباب) يعني سلطنا البلاء عليه أولا فصبر ثم أزلنا عنه البلاء وأوصلناه إلى الآلاء والنعماء ، تنبيهاً لأولى الألباب على أن من صبر ظفر ، والمقصود منه التنبيه على ماوقع ابتداء الكلام به وهو قوله لمحمد (اصبر على مايقولون واذكر عبدنا داود) وقالت المعتزلة قوله تعالى (رحمة مناوذكرى لأولى الألباب) يعني إنما فعلناها لهذه الأغراض والمقاصد ، وذلك يدل على أن أفعال الله وأحكامه معللة بالأغراض والمصالح والكلام في هذا الباب قد مر غير مرة .

أما قوله تعالى (وخذ بيدك ضغثاً) فهو معطوف على اركض والضغث الحزمة الصغيرة من حشيش أو ريحان أو غير ذلك . واعلم أن هذا الكلام يدل على تقدم يمين منه ، وفي الخبر أنه حلف على أهله ، ثم اختلفوا في السبب الذي لأجله حلف عليها ، ويبعد ما قيل إنها رغبته في طاعة الشيطان ، ويبعد أيضاً ما روى أنها قطعت الذوائب عن رأسها لأن المضطر إلى الطعام يباح له ذلك بل الأقرب أنها خالفته في بعض المهمات ، وذلك أنها ذهبت في بعض المهمات فأبطأت فحلف في مرضه ليضربنها مائة إذا برىء ، ولما كانت حسنة الخدمة له لاجرم حلل الله يمينه بأهون شيء عليه وعليها ، وهذه الرخصة باقية ، وعن النبي ﷺ أنه أتى بمجذم خبث بأمة فقال « خذوا عثكالا فيه مائة شمراخ فاضربوه به ضربة » .

ثم قال تعالى (إنا وجدناه صابراً) فان قيل كيف وجده صابراً وقد شكى إليه ، والجواب من وجوه : (الأول) أنه شكى من الشيطان إليه وماشكى منه إلى أحد (الثاني) أن الألم حين كان على الجسد لم يذكر شيئاً فلما عظمت الوساوس خاف على القلب والدين فتضرع (الثالث) أن الشيطان عدو . والشكاية من العدو إلى الحبيب لا تقدح في الصبر ، ثم قال (نعم العبد إنه أواب)

وَٱذْكُرْ عِبَـٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾

وهذا يدل على أن تشريف نعم العبد ، إنما حصل لكونه أواباً ، وسمعت بعضهم قال لما نزل قوله تعالى (نعم العبد) فى حق سليمان عليه السلام تارة ، وفى حق أيوب عليه السلام أخرى عظم الغم فى قلوب أمة محمد ﷺ ، وقالوا إن قوله تعالى (نعم العبد) فى حق سليمان تشريف عظيم ، فإن احتجنا إلى اتفاق مملكة مثل مملكة سليمان حتى نجد هذا التشريف لم نقدر عليه ، وإن احتجنا إلى تحمل بلاء مثل أيوب لم نقدر عليه . فكيف السبيل إلى تحصيله . فأنزل الله تعالى قوله (نعم المولى ونعم النصير) والمراد أنك إن لم تكن (نعم العبد) فأنا (نعم المولى) وإن كان منك الفضول ، فمى الفضل ، وإن كان منك التقصير ، فمى الرحمة والتيسير .

قوله تعالى : ﴿واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار ، إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ، وإنهم عندنا لمن المصطفين الآخيار ، واذكر اسمعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار﴾ فى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ ابن كثير (عبدنا) على الواحد وهى قراءة ابن عباس ، ويقول إن قوله (عبدنا) تشريف عظيم ، فوجب أن يكون هذا التشريف مخصوصاً بأعظم الناس المذكورين فى هذه الاية وهو إبراهيم وقرأ الباقون (عبادنا) قالوا لأن غير إبراهيم من الأنبياء قد أجرى عليه هذا الوصف فجاء فى عيسى (إن هو إلا عبد أنعمنا عليه) وفى أيوب (نعم العبد) وفى نوح (إنه كان عبداً شكوراً) فمن قرأ عبدنا جعل ابراهيم وحده عطف بيان له ، ثم عطف ذريته على عبدنا وهى إسحق ويعقوب ، ومن قرأ عبادنا جعل ابراهيم واسحق ويعقوب عطف بيان لعبادنا .

﴿المسألة الثانية﴾ تقدير الآية كأنه تعالى قال (فاصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود) إلى أن قال (واذكر عبدنا إبراهيم) أى واذكر يا محمد صبر إبراهيم حين ألقى فى النار ، وصبر إسحق للذبح ، وصبر يعقوب حين فقد ولده وذهب بصره . ثم قال (أولى الأيدى والأبصار) ، واعلم أن اليد آلة لأكثر الأعمال والبصر آلة لأقوى الإدراكات ، فحسن التعبير عن العمل باليد وعن الإدراك بالبصر . إذا عرفت هذا فنقول النفس الناطقة الإنسانية لها قوتان عاملة وعالمة ، أما القوة العاملة فأشرف ما يصدر عنها طاعة الله ، وأما القوة العالمة فأشرف ما يصدر عنها معرفة

هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ
ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِندَهُمْ
قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا

الله ، وما سوى هذين القسمين من الأعمال والمعارف فكالعبث والباطل ، فقوله (أولى الأيدى والأبصار) إشارة إلى هاتين الحالتين .

قوله تعالى : ﴿ إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (بخالصة) قرىء بالتنوين والإضافة فمن نون كان التقدير (أخلصناهم) أى جعلناهم خالصين لنا بسبب خصلة خالصة لا شوب فيها وهى ذكرى الدار ، ومن قرأ بالإضافة فالمعنى بما خلص من ذكرى الدار ، يعنى أن ذكرى الدار قد تكون لله وقد تكون لغير الله ، فالمعنى إنا أخلصناهم بسبب ما خلص من هذا الذكر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى ذكرى الدار وجوه : (الاولى) المراد أنهم استغرقوا فى ذكرى الدار الآخرة وبلغوا فى هذا الذكر إلى حيث نسوا الدنيا (الثانى) المراد حصول الذكر الجليل الرفيع لهم فى الدار الآخرة (الثالث) المراد أنه تعالى أبقى لهم الذكر الجميل فى الدنيا وقبل دعاءهم فى قوله (واجعل لى لسان صدق فى الآخرين) .

ثم قال تعالى (وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار) أى المختارين من أبناء جنسهم والأخيار جمع خير أو خير على التخفيف كأموات فى جمع ميت أو ميت ، واحتج العلماء بهذه الآية فى إثبات عصمة الأنبياء قالوا لأنه تعالى حكم عليهم بكونهم أخياراً على الإطلاق ، وهذا يعم حصول الخيرية فى جميع الأفعال والصفات بدليل صحة الاستثناء وبدليل دفع الإجمال .

ثم قال (واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار) وهم قوم آخرون من الأنبياء تحملوا الشدائد فى دين الله ، وقد ذكرنا الكلام فى شرح هذه الأسماء وفى صفات هؤلاء الأنبياء فى سورة الأنبياء وفى سورة الأنعام ، فلا فائدة فى الإعادة ، وههنا آخر الكلام فى قصص الأنبياء فى هذه السورة .

قوله تعالى : ﴿ هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب ، جنات عدن مفتحة لهم الأبواب ، متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب ، وعندهم قاصرات الطرف أتراب ، هذا ما توعدون ليوم الحساب ،

لَرِزْقُنَا مَالَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾

﴿ إن هذا لرزقنا ماله من نفاد ﴾.

إعلم أن فى قوله (ذكر) وجهين (الأول) أنه تعالى إنما شرح ذكر أحوال هؤلاء الأنبياء عليهم السلام لأجل أن يصبر محمد عليه السلام على تحمل سفاهة قومه فلما تمم بيان هذا الطريق وأراد أن يذكر عقيبه طريقاً آخر يوجب الصبر على سفاهة الجهال ، وأراد أن يميز أحد البابين عن الآخر ، لاجرم قال (هذا ذكر) ، ثم شرع فى تقرير الباب الثانى فقال (وإن للمتقين) كما أن المصنف إذا تمم كلاماً قال هذا باب ، ثم شرع فى باب آخر ، وإذا فرغ الكاتب من فصل من كتابه وأراد الشروع فى آخر قال هذا وقد كان كيت وكيت ، والدليل عليه أنه لما أتم ذكر أهل الجنة وأراد أن يردفه بذكر أهل النار قال (هذا وإن للطاغين) (الوجه الثانى) فى التأويل ، أن المراد هذا شرف وذكر جميل لهؤلاء الأنبياء عليهم السلام يذكرون به أبداً ، والأول هو الصحيح .

أما قوله (وإن للمتقين لحسن مآب) .

فاعلم أنه تعالى لما حكى عن كفار قريش سفاهتهم على النبى ﷺ بأن وصفوه بأنه ساحر كذاب ، وقالوا له على سبيل الاستهزاء (ربنا عجل لنا قطنا) فعند هذا أمر محمداً بالصبر على تلك السفاهة ، وبين أن ذلك الصبر لازم من وجهين (الأول) أنه تعالى لما بين أن الأنبياء المتقدمين صبروا على المكاره والشدائد ، فيجب عليك أن تقتدى بهم فى هذا المعنى (الثانى) أنه تعالى بين فى هذه الآية أن من أطاع الله كان له من الثواب كذا وكذا ، ومن خالفه كان له من العقاب كذا وكذا ، وكل ذلك يوجب الصبر على تكاليف الله تعالى ، وهذا نظم حسن وترتيب لطيف .

أما قوله تعالى (وإن للمتقين لحسن مآب) المآب ، المرجع . واحتج القائلون بقدم الأرواح بهذه الآية ، وبكل آية تشتمل على لفظ الرجوع ووجه الاستدلال ، أن لفظ الرجوع إنما يصدق لو كانت هذه الأرواح موجودة قبل الأجساد ، وكانت فى حضرة جلال الله ثم تعلقت بالأبدان ، فعند انفصالها عن الابدان يسمى ذلك رجوعاً (وجوابه) أن هذا إن دل فإنما يدل على أن الأرواح كانت موجودة قبل الأبدان ، ولا يدل على قدم الأرواح .

ثم قال تعالى (جنات عدن) وهو بدل من قوله (لحسن مآب) ثم قال (مفتحة لهم الأبواب) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكروا فى تأويل هذا اللفظ وجوهاً (الأول) قال الفراء : معناه مفتحة لهم أبوابها ، والعرب تجعل الألف واللام خلفاً من الإضافة ، تقول العرب : مررت برجل حسن الوجه ، فالألف واللام فى الوجه بدل من الإضافة (والثانى) قال الزجاج : المعنى (مفتحة لهم الأبواب) منها (الثالث) قال صاحب الكشاف : (الأبواب) بدل من الضمير ، وتقديره مفتحة

هى الأبواب ، كقولك ضرب زيد اليد والرجل ، وهو من بدل الاشتمال .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرىء (جنات عدن) مفتحة بالرفع على تقدير أن يكون قوله (جنات عدن) مبتدأ ومفتحة خبره ، وكلاهما خبر مبتدأ محذوف . أى هو (جنات عدن مفتحة لهم) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اعلم أنه تعالى وصف من أحوال أهل الجنة فى هذه الآية أشياء (الأول) أحوال مساكنهم ، فقوله (جنات عدن) يدل على أمرين (أحدهما) كونها جنات وبساتين (والثانى) كونها دائمة آمنة من الانقضاء .

وفى قوله (مفتحة لهم الأبواب) وجوه (الأول) أن يكون المعنى أن الملائكة الموكلين بالجنان إذا رأوا صاحب الجنة فتحوا له أبوابها وحيوه بالسلام ، فيدخل كذلك محفوفاً بالملائكة على أعز حال وأجمل هيئة ، قال تعالى (حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين) ، (الثانى) أن تلك الأبواب كلما أرادوا انفتاحها انفتحت لهم ، وكلما أرادوا انغلاقها انغلقت لهم (الثالث) المراد من هذا الفتح ، وصف تلك المساكن بالسعة ، ومسافرة العيون فيها ، ومشاهدة الأحوال اللذيذة الطيبة .

ثم قال تعالى (متكئين فيها) يدعون فيها ، وفيه مباحث :

﴿ الأول ﴾ أنه تعالى ذكر فى هذه الآية كونهم متكئين فى الجنة ، وذكر فى سائر الآيات كيفية ذلك الاتكاء ، فقال فى آية (على الأرائك متكئون) وقال فى آية أخرى (متكئين على رفرف خضر) .

﴿ البحث الثانى ﴾ قوله (متكئين فيها) حال قدمت على العامل فيها وهو قوله (يدعون فيها) والمعنى يدعون فى الجنات (متكئين فيها) ثم قال(بفاكهة كثيرة وشراب) والمعنى بألوان الفاكهة وألوان الشراب ، والتقدير بفاكهة كثيرة وشراب كثير . والسبب فى ذكر هذا المعنى أن ديار العرب حارة قليلة الفواكه والأشربة ، فرغبهم الله تعالى فيه .

ولما بين تعالى أمر المسكن وأمر المأكول والمشروب ذكر عقيبه أمر المنكوح ، فقال (وعندهم قاصرات الطرف) وقد سبق تفسيره فى سورة والصافات ، وبالجملة فالمعنى (كونهن قاصرات الطرف) عن غيرهم مقصورات القلب على محبتهم ، وقوله (أتراب) أى على سن واحد ، ويحتمل كون الجوارى أتراباً . ويحتمل كونهن أتراباً للأزواج ، قال القفال : والسبب فى اعتبار هذه الصفة ، أنهن لما تشابهن فى الصفة والسن والحلية كان الميل إليهن على السوية ، وذلك يقتضى عدم الغيرة .

ثم قال تعالى (هذا ما توعدون ليوم الحساب) يعنى أن الله تعالى وعد المتقين بالثواب الموصوف بهذه الصفة ، ثم إنه تعالى أخبر عن دوام هذا الثواب فقال (إن هذا لرزقنا ماله من نفاد) .

هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾
هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ
مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ
أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا
ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾
أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ
﴿٦٤﴾

قوله تعالى : ﴿ هذا وإن للطاغين لشر مآب ، جهنم يصلونها فبئس المهاد ، هذا فليذوقوه حميم وغساق ، وآخر من شكله أزواج ، هذا فوج مقتحم معكم لا مرحباً بهم إنهم صالوا النار ، قالوا بل أنتم لا مرحباً بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار ، قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً فى النار ، وقالوا ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار ، أتخذناهم سخرياً أم زاغت عنهم الأبصار ، إن ذلك لحق تخاصم أهل النار ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما وصف ثواب المتقين ، وصف بعده عقاب الطاغين ، ليكون الوعيد مذكوراً عقيب الوعد ، والترهيب عقيب الترغيب .

واعلم أنه تعالى ذكر من أحوال أهل النار أنواعاً (فالأول) مرجعهم ومآبهم ، فقال (هذا وإن للطاغين لشر مآب) وهذا فى مقابلة قوله (وإن للمتقين لحسن مآب) فبين تعالى أن حال الطاغين مضاد لحال المتقين ، واختلفوا فى المراد بالطاغين ، فأكثر المفسرين حملوه على الكفار ، وقال الجبائى : إنه محمول على أصحاب الكبائر سواء كانوا كفاراً أو لم يكونوا كذلك ، واحتج الأولون بوجوه (الأول) أن قوله (لشر مآب) يقتضى أن يكون مآبهم شراً من مآب غيرهم ، وذلك لا يليق إلا بالكفار (الثانى) أنه تعالى حكى عنهم أنهم قالوا (أتخذناهم سخرياً) وذلك لا يليق إلا بالكفار ، لأن الفاسق لا يتخذ المؤمن سخرياً (الثالث) أنه اسم ذم ، والاسم المطلق محمول على الكامل ، والكامل فى الطغيان هو الكافر ، واحتج الجبائى على صحة قوله بقوله تعالى

(إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى) وهذا يدل على أن الوصف بالطغيان قد يحصل فى حق صاحب الكبيرة ، ولأن كل من تجاوز عن تكاليف الله تعالى وتعداها فقد طغى ، إذا عرفت هذا فنقول : قال ابن عباس رضى الله عنهما . المعنى أن الذين طغوا وكذبوا رسلى لهم شر مآب ، أى شر مرجع ومصير ، ثم قال (جهنم يصلونها) والمعنى أنه تعالى لما حكم بأن الطاغين لهم شر مآب فسره بقوله (جهنم يصلونها) ثم قال (فبئس المهاد) وهو كقوله (لهم من جهنم مهاد ، ومن فوقهم غواش) شبه الله ما تحتهم من النار بالمهاد الذى يفترشه النائم .

ثم قال تعالى (هذا فليذوقوه حميم وغساق) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فيه وجهان (الأول) أنه على التقديم والتأخير ، والتقدير هذا حميم وغساق فليذوقوه (الثانى) أن يكون التقدير جهنم يصلونها فبئس المهاد هذا فليذوقوه . ثم يبتدىء فيقول : حميم وغساق .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الغساق بالتخفيف والتشديد فيه وجوه (الأول) أنه الذى يغسق من صديد أهل النار ، يقال : غسقت العين إذا سال دمعها . وقال ابن عمر هو القيح الذى يسيل منهم يجتمع فيسقونه (الثانى) قيل الحميم يحرق بحره . والغساق يحرق ببرده ، وذكر الأزهرى : أن الغاسق البارد ، ولهذا قيل لليل غاسق لأنه أبرد من النهار (الثالث) أن الغساق المنتن حكى الزجاج لو قطرت منه قطرة فى المشرق لأنتنت أهل المغرب ، ولو قطرت منه قطرة فى المغرب لانتنت أهل المشرق (الرابع) قال كعب : الغساق عين فى جهنم يسيل إليها سم كل ذات حمة من عقرب وحية .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم غساق بتشديد السين حيث كان والباقون بالتخفيف . قال أبو على الفارسى الاختيار التخفيف لأنه إذا شدد لم يخل من أن يكون اسما أو صفة ، فان كان اسما فالأسماء لم تجىء على هذا الوزن إلا قليلا ، وإن كان صفة فقد أقيم مقام الموصوف والأصل أن لا يجوز ذلك .

ثم قال تعالى (وآخر من شكله أزواج) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ أبو عمر (وأخر) بضم الألف على جمع أخرى أى أصناف أخر من العذاب ، وهو قراءة مجاهد والباقون آخر على الواحد أى عذاب آخر ، أما على القراءة الأولى فقوله وأخر أى ومذوقات أخر من شكل هذا المذوق ، أى من مثله فى الشدة والفظاعة ، أزواج أى أجناس ، وأما على القراءة الثانية فالتقدير وعذاب أو مذوق آخر ، وأزواج صفة لآخر لأنه يجوز أن يكون ضروبا أو صفة للثلاثة وهم حميم وغساق وآخر من شكله . قال صاحب الكشاف : وقرىء من شكله بالكسر وهى لغة ، وأما الغنج فبالكسر لا غير .

واعلم أنه تعالى لما وصف مسكن الطاغين ومأكولهم حكى أحوالهم الذين كانوا أحباء لهم

فى الدنيا أولا ، ثم مع الذين كانوا أعداء لهم فى الدنيا ثانياً (أما الأول) فهو قوله (هذا فوج مقتحم معكم) واعلم أن هذا حكاية كلام رؤساء أهل النار يقوله بعضهم لبعض بدليل أن ماحكى بعد هذا من أقوال الأتباع وهو قوله (قالوا بل أنتم لامرحباً بكم أنتم قدمتموه لنا) ، وقيل إن قوله (هذا فوج مقتحم معكم) كلام الخزنة لرؤساء الكفرة فى أتباعهم ، وقوله (لامرحباً بهم إنهم صالوا النار) كلام الرؤساء ، وقوله (هذا فوج مقتحم معكم) أى هذا جمع كثيف قد اقتحم معكم النار كما كانوا قد اقتحموا معكم فى الجهل والضلال ، ومعنى اقتحم معكم النار أى دخل النار فى صحبتكم ، والاقتحام ركوب الشدة والدخول فيها ، والقحمة الشدة .

وقوله تعالى (لامرحباً بهم) دعاء منهم على أتباعهم ، يقول الرجل لمن يدعو له مرحباً أى أتيت رحباً فى البلاد لاضيقاً أو رحبت بلادك رحباً ، ثم يدخل عليه كلمة لا فى دعاء السوء ، وقوله (بهم) بيان للمدعو عليهم أنهم صالوا النار تعليل لاستيجابهم الدعاء عليهم ، ونظير هذه الآية قوله تعالى (كلما دخلت أمة لعنت أختها) قالوا أى الأتباع (بل أنتم لامرحباً بكم) يريدون أن الدعاء الذى دعوتم به علينا أيها الرؤساء أنتم أحق به ، وعللوا ذلك بقولهم (أنتم قدمتموه لنا) والضمير للعذاب أولصليهم ، فان قيل مامعنى تقديمهم العذاب لهم ؟ قلنا الذى أوجب التقديم هو عمل السوء قال تعالى (وذوقوا عذاب الحريق ، ذلك بما قدمت أيديكم) إلا أن الرؤساء لما كانوا هم السبب فيه بإغوائهم وكان العذاب جزاءهم عليه قيل أنتم قدمتموه لنا فجعل الرؤساء هم المقدمين وجعل الجزاء هو المقدم ، والضمير فى قوله (قدمتموه) كناية عن الطغيان الذى دل عليه قوله (وإن للطاغين لشر مآب) وقوله (فبئس القرار) أى بئس المستقر والمسكن جهنم ، ثم قالت الأتباع (ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً) أى مضاعفاً ومعناه ذا ضعف ونظيره قوله تعالى (ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً) وكذلك قوله تعالى (ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا آتهم ضعفين من العذاب) فإن قيل كل مقدار يفرض من العذاب فان كان بقدر الاستحقاق لم يكن مضاعفاً ، وإن كان زائداً عليه كان ظلماً وإنه لايجوز . قلنا المراد منه قوله عليه السلام « ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » والمعنى أنه يكون أحد القسمين عذاب الضلال ، والثانى عذاب الإضلال والله أعلم .

وههنا آخر شرح أحوال الكفار مع الذين كانوا أحباباً لهم فى الدنيا ، وأما شرح أحوالهم مع الذين كانوا أعداء لهم فى الدنيا فهو قوله (وقالوا مالنا لانرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار) يعنى أن الكفار إذا نظروا إلى جوانب جهنم فحينئذ يقولون (ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار) يعنون فقراء المسلمين الذين لا يؤبه بهم وسموهم من الأشرار ، إما بمعنى الأراذل الذين لاخير فيهم ولا جدوى ، أو لأنهم كانوا على خلاف دينهم فكانوا عندهم أشراراً ثم قالوا (اتخذناهم سخرياً) وفيه مسائل :

قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي (من الاشرار اتخذناهم) بوصل ألف (اتخذناهم) والباقون بفتحها على الاستفهام ، قال أبو عبيد وبالوصل يقرأ لأن الاستفهام متقدم في قوله (مالنا لانرى رجالا) ، ولأن المشركين لا يشكون في اتخاذهم المؤمنين في الدنيا سخرياً ، لأنه تعالى قد أخبر عنهم بذلك في قوله (فاتخذتموهم سخرياً حتى أنسوكم ذكرى) فكيف يحسن أن يستفهموا عن شيء علموه ؟ أجاب الفراء عنه بأن قال هذا من الاستفهام الذي معناه التعجيب والتوبيخ ، ومثل هذا الاستفهام جائز عن الشيء المعلوم ، أما وجه قول من ألحق الهمزة للاستفهام أنه لابد من المصير إليه ليعادل قوله (اتخذناهم) بأم في قوله (أم زاغت عنهم) فان قيل فما الجملة المعادلة لقوله (أم زاغت) على القراءة الأولى ؟ قلنا إنها محذوفة والمعنى المقصودون هم أم زاغت عنهم الابصار ،

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ نافع (سخرياً) بضم السين والباقون بكسرها ، وقيل هما بمعنى واحد وقيل بالكسر هو الهزء وبالضم هو التذليل والتسخير .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اختلفوا في نظم الآية على قولين بناء على القراءتين المذكورتين أما القراءة على سبيل الإخبار فالتقدير ما لنا لا نراهم حاضرين لأجل أنهم لحقارتهم تركوا ، أو لأجل أنهم زاغت عنهم الأبصار . ووقع التعبير عن حقارتهم بقولهم (اتخذناهم سخريا) وأما القراءة على سبيل الاستفهام ، فالتقدير لأجل أنا قد اتخذناهم سخريا وما كانوا كذلك فلم يدخلوا النار ، أم لأجل أنه زاغت عنهم الأبصار ، واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم هذه المناظرة قال إن ذلك الذي حكينا عنهم لحق لابد وأن يتكلموا به ، ثم بين أن الذي حكيناه عنهم ماهو ، فقال (تخاصم أهل النار) وإنما سمى الله تعالى تلك الكلمات تخاصماً لأن قول الرؤساء (لامرحباً بهم) وقول الأتباع (بل أنتم لا مرحباً بكم) من باب الخصومة .

قوله تعالى : ﴿ قل إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار ، رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار ، قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون ، ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون ، إن يوحى إلى إلا أنما أنا نذير مبين ﴾.

اعلم أنه تعالى لما حكى فى أول السورة أن محمدا ﷺ لما دعا الناس إلى أنه لا إله إلا إله واحد ،وإلى أنه رسول مبين من عند الله ، وإلى أن القول بالقيامة حق ، فأولئك الكفار أظهروا السفاهة وقالوا إنه ساحر كذاب واستهزؤا بقوله . ثم إنه تعالى ذكر قصص الأنبياء لوجهين (الأول) ليصير ذلك حاملا لمحمد ﷺ على التأسى بالأنبياء عليهم السلام فى الصبر على سفاهة القوم (والثانى) ليصير ذلك رادعا للكفار على الإصرار على الكفر والسفاهة وداعياً إلى قبول الإيمان ، ولما تمم الله تعالى ذلك الطريق أردفه بطريق آخر وهو شرح نعيم أهل الثواب وشرح عقاب أهل العقاب . فلما تمم الله تعالى هذه البيانات عاد إلى تقرير المطالب المذكورة فى أول السورة وهى تقرير التوحيد والنبوة والبعث ، فقال قل يامحمد إنما أنا منذر ولا بد من الإقرار بأنه ما من إله إلا الله الواحد القهار ، فان الترتيب الصحيح أن تذكر شبهات الخصوم أولا ويجاب عنها ثم تذكر عقيبها الدلائل الدالة على صحة المطلوب ، فكذا ههنا أجاب الله تعالى عن شبهتهم ونبه على فساد كلماتهم ، ثم ذكر عقيبه ما يدل على صحة هذه المطالب ، لأن إزالة مالا ينبغى مقدمة على إثبات ماينبغى ، وغسل اللوح من النقوش الفاسدة مقدم على كتب النقوش الصحيحة فيه ، ومن نظر فى هذا الترتيب اعترف بأن الكلام من أول السورة إلى آخرها قد جاء على أحسن وجوه الترتيب والنظم .

أما قوله (قل إنما أنا منذر) يعنى أبلغ أحوال عقاب من أنكر التوحيد والنبوة والمعاد ، وأحوال ثواب من أقر بها ، وكما بدأ فى أول السورة بأدلة التوحيد حيث حكى عنهم أنهم قالوا (أجعل الآلهة إلهاً واحداً) فكذلك بدأ ههنا بتقرير التوحيد فقال (وما من إله إلا الله الواحد القهار) وفى هذه الكلمة إشارة إلى الدليل الدال على كونه منزهاً عن الشريك والنظير ، وبيانه أن الذى يجعل شريكا له فى الإلهية ، إما أن يكون موجوداً قادراً على الإطلاق على التصرف فى العالم أولا يكون كذلك ، بل يكون جماداً عاجزاً (والأول) باطل لأنه لوكان شريكه قادراً على الإطلاق لم يكن هو قادراً قاهراً ، لأن بتقدير أن يريد هو شيئاً ويريد شريكه ضد ذلك الشىء لم يكن حصول أحد الأمرين أولى من الآخر ، فيفضى إلى اندفاع كل واحد منهما بالآخر ، وحينئذ لا يكون قادراً قاهراً بل كان عاجزاً ضعيفاً ، والعاجز لا يصلح للالهية ، فقوله (إلا الله الواحد القهار) إشارة إلى أن كونه قهاراً يدل على كونه واحداً (وأما الثانى) وهو أن يقال إن الذى جعل شريكا له لا يقدر على شىء البتة مثل هذه الأوثان ، فهذا أيضاً فاسد لأن صريح العقل يحكم بأن عبادة الإله القادر القاهر أولى من عبادة الجماد الذى لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً فقوله (وما من إله إلا الله الواحد القهار) يدل على هذه الدلائل ، واعلم أن كونه سبحانه قهاراً مشعر بالترهيب والتخويف ، فلما ذكر ذلك أردفه بما يدل على الرجاء والترغيب فقال (رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار) فكونه رباً مشعر بالتربية والإحسان والكرم والجود ، وكونه غفاراً مشعر بالترغيب ، وهذا الموجود هو الذى تجب عبادته ، لأنه هو الذى يخشى عقابه ويرجى فضله وثوابه .

ونذكر طريقة أخرى فى تفسير هذه الآيات ، فنقول إنه تعالى ذكر من صفاته فى هذا الموضع خمسة الواحد والقهار والرب والعزيز والغفار ، أما كونه واحداً فهو الذى وقع الخلاف فيه بين أهل الحق وبين المشركين واستدل تعالى على كونه واحداً بكونه قهاراً وقد بينا وجه هذه الدلالة إلا أن كونه قهاراً وإن دل على إثبات الوحدانية إلا أنه يوجب الخوف الشديد فأردفه تعالى بذكر صفات ثلاثة دالة على الرحمة والفضل والكرم (أولها) كونه رباً للسموات والأرض وما بينهما وهذا إنما تتم معرفته بالنظر فى آثار حكمة الله تعالى فى خلق السموات والأرض والعناصر الأربعة والمواليد الثلاثة ، وذلك بحر لا ساحل له فاذا تأملت فى آثار حكمته ورحمته فى خلق هذه الأشياء عرفت حينئذ تربيته للكل وذلك يفيد الرجاء العظيم (وثانيها) كونه عزيزاً والفائدة فى ذكره أن لقائل أن يقول هب أنه رب ومربى وكريم إلا أنه غير قادر على كل المقدورات ، فأجاب عنه بأنه عزيز أى قادر على كل الممكنات فهو يغلب الكل ولا يغلبه شىء (وثالثها) كونه غفاراً والفائدة فى ذكره أن لقائل أن يقول هب أنه رب ومحسن ولكنه يكون كذلك فى حق المطيعين المخلصين فى العبادة ، فأجاب عنه بأن من بقى على الكفر سبعين سنة ثم تاب فانى أزيل اسمه عن ديوان المذنبين وأستر عليه بفضلى ورحمتى جميع ذنوبه وأوصله إلى درجات الأبرار . واعلم أنه تعالى لما بين ذلك قال (قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون) وهذا النبأ العظيم يحتمل وجوهاً فيمكن أن يكون المراد أن القول بأن الإله واحد نبأ عظيم ، ويمكن أن يقال المراد أن القول بالنبوة نبأ عظيم ، ويمكن أن يقال المراد أن القول باثبات الحشر والنشر والقيامة نبأ عظيم ، وذلك لأن هذه المطالب الثلاثة كانت مذكورة فى أول السورة ولأجلها انجر الكلام إلى كل ما سبق ذكره ، ويمكن أيضاً أن يكون المراد كون القرآن معجزاً لأن هذا أيضاً قد تقدم ذكره فى قوله (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته) وهؤلاء الأقوام أعرضوا عنه على ما قال (قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون) واعلم أن قوله (أنتم عنه معرضون) ترغيب فى النظر والاستدلال ومنع من التقليد ، لأن هذه المطالب مطالب شريفة عالية ، فإن بتقدير أن يكون الإنسان فيها على الحق يفوز بأعظم أبواب السعادة ، وبتقدير أن يكون الإنسان فيها على الباطل وقع فى أعظم أبواب الشقاوة فكانت هذه المباحث أنباء عظيمة ومطالب عالية نهية ، وصريح العقل يوجب على الإنسان أن يأتى فيها بالاحتياط التام وأن لا يكتفى بالمساهلة والمسامحة .

أما قوله تعالى (ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون) فاعلم أنه تعالى رغب المكلفين فى الاحتياط فى هذه المسائل الأربعة ، وبالغ فى ذلك الترغيب من وجوه : (الأول) أن كل واحد منها نبأ عظيم ، والنبأ العظيم يجب الاحتياط فيه (الثانى) أن الملأ الأعلى اختصموا وأحسن ما قيل فيه أنه تعالى لما قال (إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إنى أعلم مالا تعلمون) والمعنى أنهم قالوا أى فائدة فى خلق

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ

البشر مع أنهم يشتغلون بقضاء الشهوة وهو المراد من قوله (من يفسد فيها) وبإمضاء الغضب وهو المراد من قوله (ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك) فقال الله سبحانه وتعالى (إنى أعلم ما لا تعلمون) وتقرير هذا الجواب والله أعلم ، أن يقال إن المخلوقات بحسب القسمة العقلية على أقسام أربعة : (أحدها) الذين حصل لهم العقل والحكمة ، ولم تحصل لهم النفس والشهوة وهم الملائكة فقط (ثانيها) الذين حصل لهم النفس والشهوة ، ولم يحصل لهم العلم والحكمة وهى البهائم (وثالثها) الأشياء الخالية عن القسمين ، وهى الجمادات وبقى فى التقسيم (قسم رابع) وهو الذى حصل فيه الأمران وهو الإنسان والمقصود من تخليق الإنسان ليس هو الجهل والتقليد والتكبر والتمرد فان كل ذلك صفات البهائم والسباع بل المقصود من تخليقه ظهور العلم والحكمة والطاعة ، فقوله (إنى أعلم مالا تعلمون) يعنى أن هذا النوع من المخلوقات ، وإن حصلت فيه الشهوة الداعية إلى الفساد والغضب الحامل له على سفك الدماء ، لكن حصل فيه العقل الذى يدعوه إلى المعرفة والمحبة والطاعة والخدمة ، وإذا ثبت أنه تعالى إنما أجاب الملائكة بهذا الجواب وجب على الإنسان أن يسعى فى تحصيل هذه الصفات ، وأن يجتهد فى اكتسابها ، وأن يحترز عن طريقة الجهل والتقليد والإصرار والتكبر ، وإذا كان كذلك فكل من وقف على كيفية هذه الواقعة صار وقوفه عليها داعياً له إلى الجد والاجتهاد فى اكتساب المعارف الحقة والأخلاق الفاضلة زاجراً له عن أضدادها ومقابلاتها ، فلهذا السبب ذكر الله تعالى هذا الكلام فى هذا المقام . فان قيل الملائكة لا يجوز أن يقال إنهم اختصموا بسبب قولهم (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) فان المخاصمة مع الله كفر ، قلنا لا شك أنه جرى هناك سؤال وجواب ، وذلك يشابه المخاصمة والمناظرة والمشابهة علة لجواز المجاز ، فلهذا السبب حسن إطلاق لفظ المخاصمة عليه ، ولما أمر الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم أن يذكر هذا الكلام على سبيل الرمز أمره أن يقول (إن يوحى إلى أنما أنا نذير مبين) يعنى أنا ماعرفت هذه المخاصمة إلا بالوحى ، وإنما أوحى الله إلى هذه القصة لأنذركم بها ولتصير هذه القصة حاملة لكم على الإخلاص فى الطاعة والاحتراز عن الجهل والتقليد .

قوله تعالى : ﴿ إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من طين ، فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين ،

لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾

قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى أستكبرت أم كنت من العالين . قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين . قال فاخرج منها فانك رجيم ، وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين ، قال رب فانظرنى إلى يوم يبعثون ، قال فانك من المنظرين ، إلى يوم الوقت المعلوم ، قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين ، قال فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾

إعلم أن المقصود من ذكر هذه القصة المنع من الحسد والكبر ، وذلك لأن إبليس ، إنما وقع فيما وقع فيه بسبب الحسد والكبر ، والكفار إنما نازعوا محمداً عليه السلام بسبب الحسد والكبر ، فالله تعالى ذكر هذه القصة ههنا ليصير سماعها زاجراً لهم عن هاتين الخصلتين المذمومتين والحاصل أنه تعالى رغب المكلفين فى النظر والاستدلال ، ومنعهم عن الإصرار والتقليد وذكر فى تقريره أموراً أربعة (أولها) أنه نبأ عظيم فيجب الاحتياط فيه (والثانى) أن قصة سؤال الملائكة عن الحكمة فى تخليق البشر يدل على أن الحكمة الأصلية فى تخليق آدم هو المعرفة والطاعة لا الجهل والتكبر (الثالث) أن إبليس إنما خاصم آدم عليه السلام لأجل الحسد والكبر فيجب على العاقل أن يحترز عنهما . فهذا هو وجه النظم فى هذه الآيات ، واعلم أن هذه القصة قد تقدم شرحها فى سور كثيرة ، فلا فائدة فى الإعادة إلا مالابد منه وفيها مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى قوله (إنى خالق بشراً من طين) سؤالات :

﴿ الأول ﴾ أن هذا النظم إنما يصح لو أمكن خلق البشر لا من الطين ، كما إذا قيل أنا متخذ سواراً من ذهب ، فهذا إنما يستقيم لو أمكن اتخاذه من الفضة .

﴿ الثانى ﴾ ذكر ههنا أنه خلق البشر من طين ، وفى سائر الآيات ذكر أنه خلقه من سائر الأشياء كقوله تعالى فى آدم إنه خلقه من تراب وكقوله (من صلصال من حمأ مسنون) وكقوله (خلق الإنسان من عجل) .

﴿ الثالث ﴾ أن هذه الآية تدل على أنه تعالى لما أخبر الملائكة بأنه خالق بشراً من طين . لم يقولوا شيئاً ، وفى الآية الأخرى وهى التى قال (إنى جاعل فى الأرض خليفة) بين أنهم أوردوا السؤال والجواب فبينهما تناقض ، والجواب عن الأول أن التقدير كأنه سبحانه وصف لهم أولا أن البشر شخص جامع للقوة البهيمية والسبعية والشيطانية والملكية ، فلما قال (إنى خالق بشراً من طين) فكأنه قال ذلك الشخص المستجمع لتلك الصفات ، إنما أخلقه من الطين . والجواب عن الثانى أن المادة البعيدة هو التراب ، وأقرب منه الطين ، وأقرب منه الحمأ المسنون ، وأقرب منه الصلصال فثبت أنه لا منافاة بين الكل ، والجواب عن الثالث أنه فى الآية المذكورة فى سورة البقرة بين لهم أنه يخلق فى الأرض خليفة ، وبالآية المذكورة ههنا بين أن ذلك الخليفة بشر مخلوق من الطين.

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال فاذا سويته ونفخت فيه من روحى وهذا يدل على أن تخليق البشر لا يتم إلا بأمرين التسوية أولا ، ثم نفخ الروح ثانياً ، وهذا حق لأن الإنسان مركب من جسد ونفس .

أما الجسد فإنه إنما يتولد من المنى ، والمنى إنما يتولد من دم الطمث وهو إنما يتولد من الأخلاط الأربعة ، وهى إنما تتولد من الأركان الأربعة ، ولا بد فى حصول هذه التسوية من رعاية مقدار مخصوص لكل واحد منها ، ومن رعاية كيفية امتزاجاتها وتركيباتها ، ومن رعاية المدة التى فى مثلها حصل ذلك المزاج الذى لأجله يحصل الاستعداد لقبول النفس الناطقة .

وأما النفس فإليها الإشارة بقوله (ونفخت فيه من روحى) ولما أضاف الروح إلى نفسه دل على أنه جوهر شريف علوى قدسى ، وذهبت الحلولية إلى أن كلمة من تدل على التبعيض ، وهذا يوهم أن الروح جزء من أجزاء الله تعالى ، وهذا فى غاية الفساد ، لأن كل ما له جزء وكل ، فهو مركب وممكن الوجود لذاته ومحدث .

وأما كيفية نفخ الروح ، فاعلم أن الأقرب أن جوهر النفس عبارة عن أجسام شفافة نورانية ، علوية العنصر ، قدسية الجوهر ، وهى تسرى فى البدن سريان الضوء فى الهواء ، وسريان النار فى الفحم ، فهذا القدر معلوم . أما كيفية ذلك النفخ فما لا يعلمه إلا الله تعالى .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الفاء فى قوله (فقعوا له ساجدين) تدل على أنه كما تم نفخ الروح فى الجسد توجه أمر الله عليهم بالسجود ، وأما أن المأمور بذلك السجود ملائكة الأرض ، أو دخل فيه ملائكة السموات مثل جبريل وميكائيل ، والروح الأعظم المذكور فى قوله (يوم يقوم الروح والملائكة صفاً) ففيه مباحث عميقة . وقال بعض الصوفية : الملائكة الذين أمروا بالسجود لآدم ، هم القوى النباتية والحيوانية الحسية والحركية ، فإنها فى بدن الإنسان خوادم النفس الناطقة ،

وإبليس الذى لم يسجد هو القوة الوهمية التى هى المنازعة لجوهر العقل . والكلام فيه طويل . وأما بقية المسائل وهى : كيفية سجود الملائكة لآدم ، وأن ذلك هل يدل على كونه أفضل من الملائكة أم لا ، وأن إبليس هل كان من الملائكة أم لا ، وأنه هل كان كافراً أصلياً أم لا . فكل ذلك تقدم فى سورة البقرة وغيرها .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ احتج من أثبت الأعضاء والجوارح لله تعالى بقوله تعالى (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى) فى إثبات يدين الله تعالى ، بأن قالوا ظاهر الآية يدل عليه . فوجب المصير إليه ، والآيات الكثيرة واردة على وفق هذه الآية ، فوجب القطع به .

واعلم أن الدلائل الدالة على نفى كونه تعالى جسما مركباً من الأجزاء والأعضاء . قد سبقت إلا أنا نذكر ههنا نكتاً جارية مجرى الإلزامات الظاهرة (فالأول) أن من قال إنه مركب من الأعضاء والأجزاء ، فإما أن يثبت الأعضاء التى ورد ذكرها فى القرآن ولا يزيد عليها ، وإما أن يزيد عليها ، فإن كان الأول لزمه إثبات صورة لا يمكن أن يزاد عليها فى القبح ، لأنه يلزمه إثبات وجه بحيث لا يوجد منه إلا مجرد رقعة الوجه لقوله (كل شىء هالك إلا وجهه) ويلزمه أن يثبت فى تلك الرقعة عيوناً كثيرة لقوله (تجرى بأعيننا) وأن يثبت جنبا واحداً لقوله تعالى (ياحسرتا على ما فرطت فى جنب الله) وأن يثبت على ذلك الجنب أيدى كثيرة لقوله تعالى (مما عملت أيدينا) وبتقدير أن يكون له يدان فإنه يجب أن يكون كلاهما على جانب واحد لقوله ﷺ « الحجر الأسود يمين الله فى الأرض » وأن يثبت له ساقاً واحداً لقوله تعالى (يوم يكشف عن ساق) فيكون الحاصل من هذه الصورة . مجرد رقعة الوجه ويكون عليها عيون كثيرة . وجنب واحد ويكون عليه أيد كثيرة وساق واحد ، ومعلوم أن هذه الصورة أقبح الصور ، ولو كان هذا عبداً لم يرغب أحد فى شرائه ، فكيف يقول العاقل إن رب العالمين موصوف بهذه الصورة .

وأما القسم الثانى : وهو أن لا يقتصر على الأعضاء المذكورة فى القرآن ، بل يزيد وينقص على وفق التأويلات ، فحينئذ يبطل مذهبه فى الحمل على مجرد الظواهر ، ولا بد له من قبول دلائل العقل .

﴿ الحجة الثانية ﴾ فى إبطال قولهم إنهم إذا أثبتوا الأعضاء لله تعالى ، فإن أثبتوا له عضو الرجل فهو رجل ، وإن أثبتوا له عضو النساء فهو أنثى ، وإن نفوهما فهو خصى أو عنين ، وتعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

﴿ الحجة الثالثة ﴾ أنه فى ذاته سبحانه وتعالى ، إما أن يكون جسما صلباً لا ينغمز البتة ، فيكون حجراً صلباً ، وإما أن يكون قابلا للانغماز ، فيكون ليناً قابلا للتفرق والتمزق . وتعالى الله عن ذلك

﴿ الحجة الرابعة ﴾ أنه إن كان بحيث لا يمكنه أن يتحرك عن مكانه ، كان كالزمن المقعد العاجز ، وإن كان بحيث يمكنه أن يتحرك عن مكانه ، كان محلا للتغيرات ، فدخل تحت قوله (لا أحب الآفلين) .

﴿ الحجة الخامسة ﴾ إن كان لا يأكل ولا يشرب ولا ينام ولا يتحرك كان كالميت ، وإن كان يفعل هذه الأشياء ، كان إنساناً كثير التهمة محتاجاً إلى الأكل والشرب والوقاع وذلك باطل.

﴿ الحجة السادسة ﴾ أنهم يقولون إنه ينزل كل ليلة من العرش إلى السماء الدنيا ، فنقول لهم حين نزوله : هل يبقى مدبراً للعرش ويبقى مدبراً للسماء الدنيا حين كان على العرش ، وحينئذ لا يبقى فى النزول فائدة ، وإن لم يبق مدبراً للعرش فعند نزوله يصير معزولا عن إلهية العرش والسموات .

﴿ الحجة السابعة ﴾ أنهم يقولون إنه تعالى أعظم من العرش ، وإن العرش لا نسبة لعظمته إلى عظمة الكرسى ، وعلى هذا الترتيب حتى ينتهى إلى السماء الدنيا ، فإذا كان كذلك كانت السماء الدنيا بالنسبة إلى عظمة الله كالذرة بالنسبة إلى البحر ، فإذا نزل فإما أن يقال إن الإله يصير صغيراً بحيث تسعه السماء الدنيا ، وإما أن يقال إن السماء الدنيا تصير أعظم من العرش ، وكل ذلك باطل.

﴿ الحجة الثامنة ﴾ ثبت أن العالم كرة ، فإن كان فوق بالنسبة إلى قوم كان تحت بالنسبة إلى قوم آخرين وذلك باطل ، وإن كان فوق بالنسبة إلى الكل ، فحينئذ يكون جسما محيطاً بهذا العالم من كل الجوانب . فيكون إله العالم على هذا القول فلكا من الأفلاك .

﴿ الحجة التاسعة ﴾ لما كانت الأرض كرة ، وكانت السموات كرات ، فكل ساعة تفرض الساعات فإنها تكون ثلث الليل فى حق أقوام معينين من سكان كرة العوارض ، فلو نزل من العرش فى ثلث الليل وجب أن يبقى أبداً نازلا عن العرش ، وأن لا يرجع إلى العرش البتة .

﴿ الحجة العاشرة ﴾ أنا إنما زيفنا إلهية الشمس والقمر لثلاثة أنواع من العيوب (أولها) كونه مؤلفاً من الأجزاء والأبعاض (وثانيها) كونه محدوداً متناهياً (وثالثها) كونه موصوفاً بالحركة والسكون والطلوع والغروب ، فإذا كان إله المشبهة مؤلفاً من الأعضاء والأجزاء كان مركباً ، فإذا كان على العرش كان محدوداً متناهياً ، وإن كان ينزل من العرش ويرجع إليه كان موصوفاً بالحركة والسكون ، فهذه الصفات الثلاثة إن كانت منافية للألهية وجب تنزيه الإله عنها بأسرها ، وذلك يبطل قول المشبهة ، وإن لم تكن منافية للألهية فحينئذ لا يقدر أحد على الطعن فى إلهية الشمس والقمر .

﴿ الحجة الحادية عشرة ﴾ قوله تعالى (قل هو الله أحد) ولفظ الأحد مبالغة فى الوحدة ، وذلك ينافى كونه مركباً من الأجزاء والأبعاض .

﴿ الحجة الثانية عشرة ﴾ قوله تعالى (والله الغنى وأنتم الفقراء) ولو كان مركباً من الأجزاء والأبعاض لكان محتاجاً إليها وذلك يمنع من كونه غنياً على الإطلاق ، فثبت بهذه الوجوه أن القول بإثبات الأعضاء والأجزاء لله محال ، ولما ثبت بالدلائل اليقينية وجوب تنزيه الله تعالى عن هذه الأعضاء ، فنقول ذكر العلماء فى لفظ اليد وجوهاً (الأول) أن اليد عبارة عن القدرة تقول العرب مالى بهذا الأمر من يد ، أى من قوة وطاقة ، قال تعالى (أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح) ،

(الثانى) اليد عبارة عن النعمة يقال أيادى فلان فى حق فلان ظاهرة والمراد النعم والمراد باليدين النعم الظاهرة والباطنة أو نعم الدين والدنيا (الثالث) أن لفظ اليد قد يزاد للتأكيد كقول القائل لمن جنى باللسان هذا ما كسبت يداك وكقوله تعالى (نشراً بين يدى رحمته) .

ولقائل أن يقول حمل اليد على القدرة ههنا غير جائز، ويدل عليه وجوه (الأول) أن ظاهر الآية يقتضى إثبات اليدين ، فلو كانت اليد عبارة عن القدرة لزم إثبات قدرتين لله وهو باطل (والثانى) أن الآية تقتضى أن كون آدم مخلوقاً باليدين يوجب فضيلته وكونه مسجوداً للملائكة ، فلو كانت اليد عبارة عن القدرة لكان آدم مخلوقا بالقدرة ، لكن جميع الأشياء مخلوقة بقدرة الله تعالى فكما أن آدم عليه السلام مخلوق بيد الله تعالى ، فكذلك إبليس مخلوق بيد الله تعالى ، وعلى تقدير أن تكون اليد عبارة عن القدرة ، لم تكن هذه العلة علة لكون آدم مسجوداً لإبليس أولى من أن يكون إبليس مسجوداً لآدم ، وحينئذ يختل نظم الآية ويبطل (الثالث) أنه جاء فى الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال « كلتا يديه يمين » ومعلوم أن هذا الوصف لا يليق بالقدرة .

(وأما التأويل الثانى) وهو حمل اليدين على النعمتين فهو أيضاً باطل لوجوه (الأول) أن نعم الله تعالى كثيرة كما قال (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) وظاهر الآية يدل على أن اليد لا تزيد على الإثنتين (الثانى) لو كانت اليد عبارة عن النعمة فنقول النعمة مخلوقة لله فحينئذ لايكون آدم مخلوقاً لله تعالى بل يكون مخلوقاً لبعض المخلوقات ، وذلك بأن يكون سبباً لمزيد النقصان أولى من أن يكون سبباً لمزيد الكمال (الثالث) لو كانت اليد عبارة عن النعمة لكان قوله (تبارك الذى بيده الملك) معناه تبارك الذى بنعمته الملك ولكان قوله « بيدك الخير » معناه بنعمتك الخير ولكان قوله (يداه مبسوطتان) معناه نعمتاه مبسوطتان ، ومعلوم أن كل ذلك فاسد .

(وأما التأويل الثالث) وهو قوله إن لفظ اليد قد يذكر زيادة لأجل التأكيد فنقول لفظ اليد قد يستعمل فى حق من يكون هذا العضو حاصلا له وفى حق من لا يكون هذا العضو حاصلا فى حقه (أما الاول) فكقولهم فى حق من جنى بلسانه هذا ما كسبت يداك والسبب فى هذا أن محل القدرة هو اليد فأطلق اسم اليد على القدرة ، وعلى هذا التقدير فيصير المراد من لفظ اليد القدرة ، وقد تقدم إبطال هذا الوجه (وأما الثانى) فكقوله (بين يدى عذاب شديد) وقوله (بين يدى الساعة) إلا أنا نقول هذا المجاز بهذا اللفظ مذكور والمجاز لا يقاس عليه ولا يكون مطرداً ، فلا جرم لا يجوز أن يقال إن هذا المعنى إنما حصل بيد العذاب وبيد الساعة ، ونحن نسلم أن قوله (لا تقدموا بين يدى الله ورسوله) قد يجوز أن يراد به التأكيد والصلة ، أما المذكور فى هذه الآية ليس هذا اللفظ بل قوله تعالى (خلقت بيدى) وإن كان القياس فى المجازات باطلا فقد سقط كلامكم بالكلية ، فهذا منتهى البحث فى هذا الباب .

والذى تلخص عندى فى هذا الباب أن السلطان العظيم لا يقدر على عمل شيء بيده إلا إذا كانت

غاية عنايته مصروفة إلى ذلك العمل ، فاذا كانت العناية الشديدة من لوازم العمل باليد أمكن جعله مجازاً عنه عند قيام الدلائل القاهرة . فهذا ما لخصناه فى هذا الباب ، والله أعلم .

أما قوله تعالى (استكبرت أم كنت من العالين) فالمعنى : استكبرت الآن أم كنت أبداً من المتكبرين العالين ، فأجاب إبليس بقوله (أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين) فالمعنى أنى لو كنت مساوياً له فى الشرف لكان يقبح أمرى بسجودى له فكيف وأنا خير منه ثم بين كونه خيراً منه بأن أصله من النار والنار أشرف من الطين ، فصح أن أصله خير من أصل آدم ومن كان أصله خيراً من أصله فهو خير منه فهذه مقدمات ثلاثة :

﴿ المقدمة الأولى ﴾ أن إبليس مخلوق من النار ، يدل عليه قوله تعالى حكاية عنه (خلقتنى من نار وخلقته من طين) وقوله تعالى (والجان خلقناه من قبل من نار السموم) .

﴿ المقدمة الثانية ﴾ أن النار أفضل من الطين ويدل عليه وجوه (الأول) أن الاجرام الفلكية أشرف من الأجرام العنصرية والنار أقرب العناصر من الفلك والأرض أبعدها عنه عنه فوجب كون النار أفضل من الأرض (الثانى) أن النار خليفة الشمس والقمر فى إضاءة هذا العالم عند غيبتهما والشمس والقمر أشرف من الأرض ، فخليفتهما فى الإضاءة أفضل من الأرض (الثالث) أن الكيفية الفاعلة الأصلية . إما الحرارة أو البرودة والحرارة أفضل من البرودة لأن الحرارة تناسب الحياة والبرودة تناسب الموت (الرابع) الأرض كثيفة والنار لطيفة واللطافة أشرف من الكثافة (الخامس) النار مشرقة والأرض مظلمة والنور خير من الظلمة (السادس) النار خفيفة تشبه الروح والأرض ثقيلة تشبه الجسد والروح أفضل من الجسد فالنار أفضل من الأرض ولذلك فإن الأطباء أطبقوا على أن العنصرين الثقيلين أعون على تركيب الأجساد وأن العنصرين الخفيفين أعون على تولد الأرواح (السابع) النار صاعدة والأرض هابطة والصاعد أفضل من الهابط (الثامن) أن أول بروج الفلك هو الحمل لأنه هو الذى يبدأ من نقطة الإستواء الشمالى ثم إن الحمل على طبيعة النار وأشرف أعضاء الحيوان والقلب والروح وهما على طبيعة النار وأخس أعضاء الحيوان هو العظم وهو بارد يابس أرضى (التاسع) أن الأجسام الأرضية كلما كانت أشد نورانية ومشابهة بالنار كانت أشرف وكلما كانت أكثر غبرة وكثافة وكدورة ومشابهة بالأرض كانت أخس ، مثاله الأجسام الشبيهة بالنار الذهب والياقوت والأحجار الصافية النورانية ومثاله أيضاً من الثياب الإبريسم وما يتخذ منه ، وأما أن كل ما كان أكثر أرضية وغبرة فهو أخس فالأمر ظاهر (العاشر) أن القوة الباصرة قوة فى غاية الشرف والجلالة ولا يتم عملها إلا بالشعاع وهو جسم شبيه بالنار (الحادى عشر) أن أشرف أجسام العالم الجسمانى هو الشمس ولا شك أنه شبيه بالنار فى صورته وطبيعته وأثره (الثانى عشر) أن النضج والهضم والحياة لا تتم إلا بالحرارة ولولا قوة الحرارة لما تم المزاج وتولدت المركبات (الثالث العاشر) أن أقوى العناصر

الأربعة فى قوة الفعل هو النار وأكملها فى قوة الإنفعال هو الأرض والفعل فضل من الإنفعال فالنار أفضل من الأرض . أما القائلون بتفضيل الأرض على النارفذكروا أيضاً وجوهاً (الأول) أن الأرض أمين مصلح فاذا أودعتها حبة ردتها إليك شجرة مثمرة والنارخائنة تفسد كل ما أسلمته إليها (الثانى) أن الحس البصرى أثنى على النار (١) فليستمع ما يقوله الحس اللمسى (الثالث) أن الأرض مستولية على النار فإنها تطفىء النار ، وأما النار فإنها لاتوثر فى الأرض الخالصة .

﴿ وأما المقدمة الثالثة ﴾ فهى أن من كان أصله خيراً من أصله فهو خير منه ، فاعلم أن هذه المقدمة كاذبة جداً وذلك لأن أصل الرماد النار وأصل البساتين النزهة والأشجار المثمرة هو الطين ومعلوم بالضرورة أن الأشجار المثمرة خير من الرماد ، وأيضاً فهب أن اعتبار هذه الجهة يوجب الفضيلة إلا أن هذا يمكن أن يصير معارضاً بجهة أخرى توجب الرجحان مثل إنسان نسيب عار عن كل الفضائل فإن نسبه يوجب رجحانه ، إلا أن الذى لا يكون نسيباً قد يكون كثير العلم والزهد فيكون هو أفضل من ذلك النسيب بدرجات لا حد لها ، فالمقدمة الكاذبة فى القياس الذى ذكره إبليس هو هذه المقدمة ، فإن قال قائل هب أن إبليس أخطأ فى هذا القياس لكن كيف لزمه الكفر من تلك المخالفة ؟ وبيان هذا السؤال من وجوه (الأول) أن قوله (اسجدوا) أمر والأمر لا يقتضي الوجوب بل الندب ومخالفة الندب لا توجب العصيان فضلا عن الكفر ، وأيضاً فالذين يقولون إن الأمر للوجوب فهم لا ينكرون كونه محتملا للندب احتمالا ظاهراً ومع قيام هذا الاحتمال الظاهر كيف يلزم العصيان فضلا عن الكفر (الثانى) هب أنه للوجوب إلا أن إبليس ما كان من الملائكة فأمر الملائكة بسجود آدم لا يدخل فيه إبليس (الثالث) هب أنه يتناوله إلا أن تخصيص العـــام بالقياس جائز فخصص نفسه عن عموم ذلك الأمر بالقياس (الرابع)هب أنه لم يسجدمع علمه بأنه كان مأموراً به إلا أن هذا القدر يوجب العصيان ولا يوجب الكفر فكيف لزمه الكفر (والجواب) هب أن صيغة الأمر لا تدل على الوجوب ولكن يجوز أن ينضم إليها من القرائن ما يدل على الوجوب ، وههنا حصلت تلك القرائن وهى قوله تعالى (أستكبرت أم كنت من العالين) فلما أتى إبليس بقياسه الفاسد دل ذلك على أنه إنما ذكر ذلك القياس ليتوسل به إلى القدح فى أمر الله وتكليفه وذلك يوجب الكفر . إذا عرفت هذا فنقول إن إبليس لما ذكر هذا القياس الفاسد قال تعالى (اخرج منها فإنك رجيم) .

واعلم أنه ثبت فى أصول الفقه أن ذكر الحكم عقيب الوصف المناسب يدل على كون ذلك الحكم معللا بذلك الوصف وههنا الحكم بكونه رجيما ورد عقيب ما حكى عنه أنه خصص النص بالقياس ، فهذا يدل على أن تخصيص النص بالقياس يوجب هذا الحكم ، وقوله(منها) أى من الجنة أو من السموات والرجيم المرجوم وفيه قولان :

(١) العبارة مصحفة لأن الحس البصرى فيما نعلم لم يثن على النار وإنما يتأذى به كما أن الحس اللمسى يحترق بالنار . ولعله نظر إلى المعنى من ناحية أخرى هى أن فضل النار لم يظهره إلا البصر واللمس وهما من طبيعة الأرض . فبسببهما بان فضل الأرض على النار .

﴿ الأول ﴾ أنه مجاز عن الطرد ، لأن الظاهر أن من طرد فقد يرمى بالحجارة وهو الرجم فلما كان الرجم من لوازم الطرد جعل الرجم كناية عن الطرد فإن قالوا الطرد هو اللعن فلو حملنا قوله (رجيم) على الطرد لكان قوله بعد ذلك (وإن عليك لعنتى) تكراراً والجواب من وجهين (الأول) انا نحمل الرجم على الطرد من الجنة أو من السموات ونحمل اللعن على الطرد من رحمة الله (والثانى) أنا نحمل الرجم على الطرد ونحمل قوله (وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين) على أن ذلك الطرد يمتد إلى آخر القيامة فيكون هذا فائدة زائدة ولا يكون تكريراً .

﴿ والقول الثانى ﴾ فى تفسير الرجيم أن نحمله على الحقيقة وهو كون الشياطين مرجومين بالشهب والله أعلم . فإن قيل كلمة إلى لإنتهاء الغاية فقوله (إلى يوم الدين) يقتضى انقطاع تلك اللعنة عند مجىء يوم الدين ، أجاب صاحب الكشاف بأن اللعنة باقية عليه فى الدنيا فاذا جاء يوم القيامة جعل مع اللعنة أنواع من العذاب تصير اللعنة مع حضورها منسية .

واعلم أن إبليس لما صار ملعوناً قال (فأنظرنى إلى يوم يبعثون) قيل إنما طلب الانظار إلى يوم يبعثون لأجل أن يتخلص من الموت لأنه إذا نظر إلى يوم البعث لم يمت قبل يوم البعث وعند مجىء يوم البعث لا يموت أيضاً فحينئذ يتخلص من الموت فقال تعالى (إنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم) ومعناه إنك من المنظرين إلى يوم يعلمه الله ولا يعلمه أحد سواه ، فقال إبليس (فبعزتك) وهو قسم بعزة الله وسلطانه (لأغوينهم أجمعين) فههنا أضاف الإغواء إلى نفسه وهو على مذهب القدر وقال مرة أخرى (رب بما أغويتنى) فأضاف الإغواء إلى الله على ما هو مذهب الجبر وهذا يدل على أنه متحير فى هذه المسألة .

وأما قوله (إلا عبادك منهم المخلصين) ففيه فوائد :

﴿ الفائدة الأولى ﴾ قيل غرض إبليس من ذكره هذا الاستثناء أن لا يقع فى كلامه الكذب لأنه لو لم يذكر هذا الاستثناء وادعى أنه يغوى الكل لكان يظهر كذبه حين يعجز عن إغواء عباد الله الصالحين ، فكأن إبليس قال إنما ذكرت هذا الإستثناء لئلا يقع الكذب فى هذا الكلام ، وعند هذا يقال إن الكذب شىء يستنكف منه إبليس فكيف يليق بالمسلم الإقدام عليه ؟ فإن قيل كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله (وما أرسلنا من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته) ؟ قلنا إن إبليس لم يقل إنى لم أقصد إغواء عباد الله الصالحين بل قال لأغوينهم وهو وإن كان يقصد الإغواء إلا أنه لا يغويهم .

﴿ الفائدة الثانية ﴾ هذه الآية تدل على أن إبليس لا يغوى عباد الله المخلصين ، وقال تعالى فى صفة يوسف (إنه من عبادنا المخلصين) فتحصل من مجموع هاتين الآيتين أن إبليس ما أغوى يوسف عليه السلام ، وذلك يدل على كذب الحشوية فيما ينسبون إلى يوسف عليه السلام من القبائح .

واعلم أن إبليس لما ذكر هذا الكلام قال الله تعالى (فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) وفيه مسائل :

قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ عاصم وحمزة (فالحق) بالرفع (والحق) بالنصب ، والباقون بالنصب فيهما . أما الرفع فتقديره فالحق قسمى . وأما النصب فعلى القسم ، أى فبالحق ، كقولك والله لأفعلن . وأما قوله (والحق أقول) انتصب قوله (والحق) بقوله (أقول) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (منك) أى من جنسك ، وهم الشياطين (وممن تبعك منهم) من ذرية آدم ، فإن قيل قوله (أجمعين) تأكيد لماذا ؟ قلنا : يحتمل أن يؤكد به الضمير فى منهم ، أو الكاف فى منك مع من تبعك ، ومعناه لأملأن جهنم من المتبوعين والتابعين لا أترك منهم أحداً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية فى مسألة أن الكل بقضاء الله من وجوه (الأول) أنه تعالى قال فى حق إبليس (اخرج منها فإنك رجيم ، وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين) فهذا إخبار من الله تعالى بأنه لا يؤمن ، فلو آمن لانقلب خبر الله الصدق كذباً وهو محال ، فكان صدور الإيمان منه محالا مع أنه أمر به (والثانى) أنه قال (فبعزتك لأغوينهم أجمعين) فالله تعالى علم منه أنه يغويهم ، وسمع منه هذه الدعوى ، وكان قادراً على منعه عن ذلك ، والقادر على المنع إذا لم يمنع كان راضياً به ، فإن قالوا لعل ذلك المنع مفسد ، قلنا هذا قول فاسد ، لأن ذلك المنع يخلص إبليس عن الإضلال ، ويخلص بنى آدم عن الضلال . وهذا عين المصلحة (الثالث) أنه تعالى أخبر أنه يملأ جهنم من الكفرة ، فلو لم يكفروا لزم الكذب والجهل فى حق الله تعالى (الرابع) أنه لو أراد أن لا يكفر الكافر لوجب أن يبقى الأنبياء والصالحين ، وأن يميت إبليس والشياطين ، وحيث قلب الأمر علمنا أنه فاسد (الخامس) أن تكليف أولئك الكفار بالإيمان ، يقتضى تكليفهم بالإيمان بهذه الآيات التى هى دالة على أنهم لا يؤمنون البتة ، وحينئذ يلزم أن يصيروا مكلفين بأن يؤمنوا بأنهم لا يؤمنون البتة ، وذلك تكليف بما لا يطاق . والله أعلم

قوله تعالى : ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ، إن هو إلا ذكر للعالمين ، ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ .

اعلم أن الله تعالى ختم هذه السورة بهذه الخاتمة الشريفة ، وذلك لأنه تعالى ذكر طرقاً كثيرة دالة على وجوب الاحتياط فى طلب الدين ، ثم قال عند الختم : هذا الذى أدعو الناس إليه يجب أن ينظر فى حال الداعى ، وفى حال الدعوة ليظهر أنه حق أو باطل . أما الداعى وهو أنا . فأنا لا أسألكم على هذه الدعوة أجراً ومالا ، ومن الظاهر أن الكذاب لا ينقطع طمعه عن طلب المال البتة ، وكان من الظاهر أنه ﷺ كان بعيداً عن الدنيا عديم الرغبة فيها . وأما كيفية الدعوة

فقال : وما أنا من المتكلفين والمفسرون ، ذكروا فيه وجوها ، والذى يغلب على الظن أن المراد أن هذا الذى أدعوكم إليه دين ليس يحتاج فى معرفة صحته إلى التكلفات الكثيرة ، بل هو دين يشهد صريح العقل بصحته ، فإنى أدعوكم إلى الإقرار بوجود الله (أولا) ثم أدعوكم (ثانياً) إلى تنزيهه وتقديسه عن كل ما لا يليق به ، يقوى ذلك قوله(ليس كمثله شىء) وأمثاله ، ثم أدعوكم (ثالثاً) إلى الإقرار بكونه موصوفاً بكمال العلم والقدرة والحكمة والرحمة ،ثم أدعوكم (رابعاً)إلى الإقرار بكونه منزهاً عن الشركاء والإضداد ، ثم أدعوكم(خامساً)إلى الإمتناع عن عبادة هذه الأوثان ، التى هى جمادات خسيسة ولا منفعة فى عبادتها ولا مضرة فى الإعراض عنها ، ثم أدعوكم(سادساً)إلى تعظيم الأرواح الطاهرة المقدسة ، وهم الملائكة والأنبياء .ثم أدعوكم (سابعاً) إلى الإقرار بالبعث والقيامة (ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى)ثم أدعوكم(ثامناً)إلى الإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة ، فهذه الأصول الثمانية ، هى الأصول القوية المعتبرة فى دين الله تعالى ، ودين محمد ﷺ وبدائه العقول ، وأوائل الأفكار شاهدة بصحة هذه الأصول الثمانيـة ، فثبت أنى لست من المتكلفين فى الشريعة التى أدعو الخلق إليها ، بل كل عقل سليم وطبع مستقيم ، فإنه يشهد بصحتها وجلالتها ، وبعدها عن الباطل والفساد وهو المراد من قوله (إن هو إلا ذكر للعالمين) ولما بين هذه المقدمات قال (ولتعلمن نبأه بعد حين) والمعنى أنكم إن أصررتم على الجهل والتقليد ، وأبيتم قبول هذه البيانات التى ذكرناها ، فستعلمون بعد حين أنكم كنتم مصيبين فى هذا الإعراض أو مخطئين ، وذكر مثل هذه الكلمة بعد تلك البيانات المتقدمة مما لامزيد عليه فى التخويف والترهيب ، والله أعلم .

قال المصنف رحمة الله عليه : تم تفسير هذه السورة يوم الخميس فى آخر الثلاثاء الثانى من شهر ذى القعدة سنة ثلاث وستمائة ، والحمد لله على آلائه ونعمائه . والصلاة على المطهرين من عباده فى أرضه وسمائه ، والمدح والثناء كما يليق بصفاته وأسمائه . والتعظيم التام لأنبيـائه وأوليائه ، وسلم تسليما كثيراً إلى يوم الدين .

سورة صٓ

مكيةٌ في قول الجميع[1]، وهي ستٌّ وثمانون آية. وقيل: ثمان وثمانون آية[2]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿صٓ﴾ قراءةُ العامة «صٓ» بجزم الدال على الوقف؛ لأنه حرفٌ من حروف الهجاء مثل: «الم» و«المر». وقرأ أبيّ بن كعب والحسن وابن أبي إسحاق ونصر بن عاصم: «صادِ» بكسر الدال بغير تنوين[3]. ولقراءته مذهبان: أحدهما: أنه من صادَى يُصادي إذا عارض، ومنه «فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى» [عبس:٦] أي: تعرَّض. والمصاداة المعارضة، ومنه الصَّدَى: وهو ما يُعارض الصوت في الأماكن الخالية.

فالمعنى: صادِ القرآنَ بعملك؛ أي: عارضه بعملك وقابله به، فاعمل بأوامره، وانتهِ عن نواهيه.

النحاس[4]: وهذا المذهب يُروى عن الحسن أنه فسَّر به قراءته رواية صحيحة عنه[5]، أن المعنى: أُتْله وتعرَّض لقراءته. والمذهب الآخرُ أن تكونَ الدالُ مكسورةً لالتقاء الساكنين. وقرأ عيسى بن عمر «صادَ» بفتح الدال[6] مثله: «قافَ» و«نونَ» بفتح

(١) تفسير البغوي ٤/ ٤٧، وزاد المسير ٧/ ٩٦.

(٢) ذكرهما السيوطي في الإتقان ١/ ٢١٤.

(٣) القراءات الشاذة ص١٢٩، والمحتسب ٢/ ٢٣٠.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٤٤٩.

(٥) في النسخ: وعنه، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس، وقول الحسن أخرجه الطبري ٢٠/ ٥.

(٦) القراءات الشاذة ص١٢٩، والمحتسب ٢/ ٢٣٠.

آخرها. وله في ذلك ثلاثةُ مذاهب: أحدهنَّ أن يكون بمعنى: اتْلُ صادَ[١]. والثاني: أن يكون فُتِحَ لالتقاء الساكنين، واختار الفتحَ للإتباع، ولأنه أخفُّ الحركات. والثالث: أن يكون منصوباً على القَسَم بغير حرف؛ كقولك: اللهَ لأفعلنَّ، وقيل: نُصب على الإغراء.

وقيل: معناه: صادَ محمدٌ قلوب الخَلْق واستمالها حتى آمنوا به[٢].

وقرأ ابن أبي إسحاق أيضاً: «صادٍ» بكسر الدال والتنوين على أن يكون مخفوضاً على حذف حرف القَسَم، وهذا بعيدٌ، وإن كان سيبويه قد أجاز مثلَه. ويجوز أن يكون مشبهاً بما لا يتمكن من الأصوات وغيرها[٣].

وقرأ هارونُ الأعور ومحمد بن السَّمَيْفَع: «صادُ» و«قافُ»[٤] [ق: ١] و«نونُ»[٥] [القلم: ١] بضمِّ آخرِهن؛ لأنه المعروفُ بالبناء في غالب الحال، نحو: منذُ وقط وقبلُ وبعدُ.

و«صَ» إذا جعلته اسماً للسورة لم ينصرف؛ كما أنك إذا سمَّيتَ مؤنثاً بمذكر لا ينصرف وإن قلَّتْ حروفه[٦].

وقال ابن عباس وجابر بن عبد الله وقد سُئلا عن «صَ» فقالا: لا ندري ما هي[٧]. وقال عكرمة: سأل نافعُ بن الأزرق ابنَ عباس عن «صَ» فقال: «صَ» كان بحراً بمكة، وكان عليه عرشُ الرحمن إذ لا ليل ولا نهار.

وقال سعيد بن جُبير: «صَ» بحر يُحيي اللهُ به الموتى بين النَّفختين[٨].

---

(١) قوله: صاد، ليس في (م).

(٢) زاد المسير ٧/ ٩٧.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥١.

(٤) القراءات الشاذة ص١٢٩ و١٤٤ ونسبها للحسن.

(٥) زاد المسير ٨/ ٣٢٦، وستأتي في موضعها.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٠.

(٧) أخرجه عبد بن حُميد كما في الدر المنثور ٥/ ٢٩٦.

(٨) أورد هذا الخبر والذي قبله الآلوسي في روح المعاني ٢٣/ ١٦١، ثم قال: الله أعلم بصحة هذين =

وقال الضحاك: معناه: صدق الله[١]. وعنه: أن «صَ» قسمٌ أقسم اللهُ به، وهو من أسمائه تعالى. وقاله السدي، ورُوي عن ابن عباس[٢]. وقال محمد بن كعب: هو مفتاحُ أسماء[٣] الله تعالى: صمدٌ، وصانعُ المصنوعات، وصادقُ الوعد.

وقال قتادة: هو اسمٌ من أسماء الرحمن. وعنه أنه اسمٌ من أسماء القرآن. وقال مجاهد: هو فاتحة السورة[٤].

وقيل: هو مما استأثر اللهُ تعالى بعلمه، وهو معنى القول الأوّل. وقد تقدَّم جميعُ هذا في «البقرة»[٥].

قوله تعالى: ﴿وَالْقُرْءَانِ﴾ خفض بواو القسم، والواو بدل من الباء[٦]؛ أقسم بالقرآن تنبيهاً على جلالة قدره؛ فإنَّ فيه بيانَ كل شيء، وشفاءً لما في الصدور، ومعجزةً للنبيِّ ﷺ.

﴿ذِى الذِّكْرِ﴾ خفض على النعت، وعلامة خفضه الياء، وهو اسم معتلٌّ، والأصل فيه: ذَوَي على فَعَل[٧].

قال ابن عباس: ومقاتل: معنى «ذِي الذِّكْرِ»: ذي البيان[٨]. الضحاك: ذي

= الخبرين. ونافع بن الأزرق من رؤوس الخوارج له أسئلة عن ابن عباس أخرج الطبراني بعضها في المعجم الكبير. لسان الميزان ٦/ ١٤٤ - ١٤٥ .

(١) أخرجه الطبري ٢٠/٧ .

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/٦ .

(٣) في النسخ الخطية: اسم، والمثبت من (م) .

(٤) هذه الأقوال في معاني القرآن للنحاس ٦/ ٧٣ .

(٥) ١/ ٢٣٧ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٠ .

(٧) المصدر السابق .

(٨) النكت والعيون ٥/ ٧٥، وزاد المسير ٧/ ٩٨ عن قتادة، وفيهما وفي تفسير الطبري ٢٠/ ٨، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٩١ أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: معناه: ذي الشرف .

الشرف[١]، أي: مَن آمنَ به كان شرفاً له في الدارين؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠] أي: شرفكم. وأيضاً القرآنُ شريفٌ في نفسه، لإعجازه واشتماله على ما لا يشتمل عليه غيره.

وقيل: «ذِي الذِّكْرِ» أي: فيه ذِكرُ ما يُحتاج إليه من أمر الدين. وقيل: «ذِي الذِّكْرِ» أي: فيه ذكرُ أسماء الله وتمجيده[٢]. وقيل: أي: ذي الموعظة والذِّكر.

وجوابُ القسم محذوفٌ. واختلف فيه على أوجه: فقيل جوابُ القسم «صَ»؛ لأن معناه: حقّ، فهي جواب لقوله: «وَالْقُرآنِ» كما تقول: حقّاً واللهِ، نزل واللهِ، وجب واللهِ؛ فيكون الوقفُ من هذا الوجه على قوله: «وَالْقُرآنِ ذِي الذِّكْرِ» حسَناً، وعلى «في عِزَّةٍ وَشِقَاق» تماماً؛ قاله ابن الأنباري[٣]. وحكى معناه الثعلبي عن الفراء[٤].

وقيل: الجواب ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ لأن «بل» نفيٌ لأمر سبقَ وإثباتٌ لغيره؛ قاله القتبيّ[٥]؛ فكأنه قال: «والقُرآنِ ذي الذِّكْرِ بَل الذين كَفَرُوا في عِزَّة وشِقاق» عن قَبول الحقّ وعداوة لمحمد ﷺ. أو «وَالْقُرْآنِ ذي الذِّكْرِ» ما الأمرُ كما يقولون من أنك ساحرٌ كذّاب؛ لأنهم يعرفونك بالصِّدق والأمانة، بل هم في تكبُّر عن قَبول الحقّ. وهو كقوله: ﴿قٓ . وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ . بَلْ عَجِبُوٓاْ﴾ [ق: ١-٢].

وقيل: الجواب «كَمْ أَهْلَكْنا» كأنه قال: والقرآنِ، لَكَمْ أهلكنا؛ فلما تأخَّرت «كَمْ» حُذفت اللام منها؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ ثم قال: «قَدْ أَفْلَحَ» أي: لقد

(١) هذا قول ابن عباس رضي الله عنهما كما ذكرنا في التعليق السابق، وفي المصادر أن الضحاك قال: معناه: ذي التذكير.

(٢) مجمع البيان ٢٣/٩٦ بنحوه.

(٣) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/٨٦٠ .

(٤) في معاني القرآن ٢/٣٩٦ .

(٥) في تأويل مشكل القرآن ص٤٠٨ بنحوه.

أفلحَ. قال المهدوي: وهذا مذهبُ الفراء[١].

ابن الأنباري[٢]: فمن هذا الوجه لا يتمّ الوقف على قوله: «في عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ».

وقال الأخفش[٣]: جواب القسم ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [ص:١٤] ونحو منه قوله تعالى: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:٩٧] وقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ﴾ [الطارق:١ و٤]. ابن الأنباري[٤]: وهذا قبيحٌ؛ لأن الكلامَ قد طال فيما بينهما وكَثُرت الآياتُ والقصص.

وقال الكسائي[٥]: جوابُ القسم قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ [ص:٦٤]. ابن الأنباري[٦]: وهذا أقبحُ من الأوّل؛ لأن الكلامَ أشدُّ طولاً فيما بين القسم وجوابِه.

وقيل: الجواب قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ [ص:٥٤]. وقال قتادة: الجوابُ محذوفٌ تقديره «وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ» لَتُبعثُنَّ، ونحوه.

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ﴾ أي: في تكبُّر وامتناع من قَبول الحق؛ كما قال جلّ وعزّ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ [البقرة:٢٠٦] والعِزَّة عند العرب: الغَلَبة والقَهْر. يقال: مَن عَزَّ بَزَّ[٧]؛ يعني: مَن غَلَب سَلَب. ومنه: ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ [ص:٢٣] أراد: غَلَبني.

وقال جرير:

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٣٩٧، وينظر زاد المسير ٧/ ٩٩ .

(٢) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٦٠ .

(٣) في معاني القرآن ٢// ٦٧٠ .

(٤) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٦٠ .

(٥) ذكره عنه البغوي في تفسيره ٤/ ٤٧، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٩٩ .

(٦) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٦١ .

(٧) ذكره الميداني في مجمع الأمثال ٢/ ٣٠٧، والزمخشري في المستقصى ٢/ ٣٥٧ .

يَعُزُّ على الطريق بِمَنْكِبيهِ كما ابتَرَكَ الخَلِيعُ على القِداحِ[(١)]

أراد: يغلب. ﴿وَشِقَاقٍ﴾ أي: في إظهارِ خلافٍ ومُباينة. وهو من الشَّق، كأنَّ هذا في شَقّ وذلك في شَقّ. وقد مضى في «البقرة» مستوفى[(٢)].

قوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: من قوم كانوا أمنعَ من هؤلاء. و«كم» لفظة التكثير ﴿فَنَادَوْا﴾ أي: بالاستغاثة والتوبة. والنِّداء رفع الصوت، ومنه الخبر: «أَلْقِه على بلالٍ، فإنه أَنْدى منك صوتاً»[(٣)] أي: أرفع.

﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ قال الحسن: نادَوْا بالتوبة وليس حين التوبة ولا حين ينفع العمل. النحاس[(٤)]: وهذا تفسيرٌ منه لقوله عز وجل: «ولات حين مَنَاصٍ» فأما إسرائيل فروى عن أبي إسحاق، عن التميمي، عن ابن عباس «ولاتَ حين مَنَاص» قال: ليس بحين نَزْوٍ ولا فِرار؛ قال: ضُبِط القومُ جميعاً[(٥)].

قال الكلبي: كانوا إذ قاتلوا فاضطُرُّوا قال بعضهم لبعض: مناص؛ أي: عليكم بالفِرار والهزيمة، فلما أتاهم العذابُ قالوا: مناص؛ فقال الله عز وجل: «ولاتَ حين مَنَاص».

قال القشيري: وعلى هذا فالتقدير: فنادَوا: مَناص، فحذف لدلالة بقيةِ الكلام عليه؛ أي: ليس الوقتُ وقتَ ما تُنادون به. وفي هذا نوع تحكُّم؛ إذْ يَبعُدُ أن يقال: كلُّ مَن هلك من القرون كانوا يقولون: مناص عند الاضطرار.

وقيل: المعنى «ولاتَ حين مَنَاص» أي: لا خلاص، وهو نصب بوقوع «لا» عليه. قال القشيري: وفيه نظر؛ لأنه لا معنى على هذا للواو في «ولاتَ حينَ مَنَاصٍ».

---

(١) ديوان جرير ١/٨٨.

(٢) ٢/٤١٩.

(٣) أخرجه أحمد (١٦٤٧٨)، وأبو داود (٤٩٩) من حديث عبد الله بن زيد ﷺ.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٤٥٠، وما قبله منه.

(٥) أخرجه الطبري ٢٠/١٣. والنَّزو: الوثوب. اللسان (نزو).

وقال الجُرجاني[1]: أي: فنادَوا حين لا مناص، أي: ساعةَ لا مَنْجى ولا فوت. فلما قدَّم «لا» وأخَّر «حين» اقتضى ذلك الواو، كما يقتضي الحال إذا جعل ابتداء وخبراً؛ مثل قولك: جاء زيد راكباً؛ فإذا جعلتَه مبتدأ وخبراً اقتضى الواو مثل: جاءني زيد وهو راكب فـ «حين» ظرف لقوله: «فَنَادَوْا». والمَناص بمعنى التأخّر والفرار والخَلاص؛ أي: نادَوا لطلب الخَلاص في وقتٍ لا يكون لهم فيه خلاص. قال الفرّاء:

أَمِنْ ذكر ليلى إذ نَأتكَ تَنُوصُ[2]

يقال: ناص عن قِرْنه يَنُوص نَوْصاً ومَناصاً، أي: فَرَّ وراغ. النحاس[3]: ويقال: ناص ينوص إذا تقدَّم.

قلت: فعلى هذا يكون من الأضداد، والنَّوْص الحمار الوحشيّ. واستناص، أي: تأخَّر؛ قاله الجوهري[4].

وتكلَّم النحويون في «ولاتَ حينَ» وفي الوقف عليه، وكثَّر فيه أبو عُبيد[5] القاسم ابن سلَّام في كتاب «القراءات» وكلُّ ما جاء به إلا يسيراً مردودٌ. فقال سيبويه[6]: «لات» مُشبَّهة بليس والاسم فيها مضمر؛ أي: ليست أحيانُنا حينَ مناص. وحكَى أن من العرب من يرفع بها فيقول: ولات حِينُ مناص. وحكَى أن الرفعَ قليلٌ، ويكون

(١) ذكره عنه السمين الحلبي في الدر المصون ٩/٣٥٦ .

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٩٧، ونقله المصنف عنه بواسطة الجوهري في الصحاح (نوص)، وما بعده منه، والبيت في ديوان امرئ القيس ص١٧٧ ، وفيه سلمى، بدل: ليلى. وعجزه: فتقصُرُ عنها خطوة أو تبوصُ.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٤٥٠ .

(٤) في الصحاح (نوص).

(٥) في (م): أبو عبيدة، وهو خطأ.

(٦) في الكتاب ١/ ٥٧ – ٥٨، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٥١، وما قبله وما بعده منه.

الخبرُ محذوفاً، كما كان الاسم محذوفاً في النصب؛ أي: ولات حينُ مناصٍ لنا. والوقفُ عليها عند سيبويه والفراء[١] «ولات» بالتاء، ثم تبتدئ «حينَ مَنَاص» وهو قولُ ابن كيسان والزجاج[٢]. قال أبو الحسن بن كيسان: والقول كما قال سيبويه؛ لأنه شبَّهها بليس، فكما يقال: ليست، يقال: لات. والوقوف عليها عند الكسائي بالهاء: ولاهْ. وهو قول المبرد محمد بن يزيد. وحكى عنه علي بن سليمان أن الحُجَّة في ذلك أنها [لا] دخلتْ عليها الهاء لتأنيث الكلمة، كما يقال: ثُمَّة ورُبَّة[٣].

وقال القشيري: وقد يقال: ثُمَّتْ بمعنى: ثُمَّ، ورُبَّتْ بمعنى: رُبَّ؛ فكأنهم زادوا في «لا» هاء، فقالوا: لاه، كما قالوا في ثُمَّ: ثُمَّهْ، عند الوصل صارت تاء.

وقال الثعلبي: وقال أهل اللغة: و«لاتَ حينَ» مفتوحتان كأنهما كلمة واحدة، وإنما هي «لا» زِيدتْ فيها التاء نحو: رُبَّ ورُبَّتْ، وثُمَّ وثُمَّتْ. قال أبو زُبيد الطائي:

طَلَبُوا صُلْحَنا ولَاتَ أَوَانٍ فأَجَبْنَا أَنْ لَيس حينَ بقَاءِ

وقال آخر:

تذكَّر حُبَّ ليلى لَاتَ حِينا وأمسى الشَّيْبُ قد قَطَعَ القَرينا[٤]

ومِن العرب من يخفض بها؛ وأنشد الفراء:

فَلَتَعْرِفَنَّ خَلَائقاً مَشْمُولَةً ولَتَنْدَمَنَّ ولَاتَ ساعةِ مَنْدَمِ[٥]

وكان الكسائي والفراء والخليل وسيبويه والأخفش[٦] يذهبون إلى أن «ولاتَ

(١) في معاني القرآن ٢/ ٣٩٨.

(٢) في معاني القرآن ٤/ ٣٢٠.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥١، وما بين حاصرتين منه.

(٤) البيتان في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٩٧ - ٣٩٨، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٣، والخزانة ٤/ ١٦٩، والبيت الثاني غير منسوب.

(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٩٧، والذي فيه قوله: ولات ساعةِ مندم. ثم قال الفراء: ولا أحفظ صدره. والبيت بتمامه في الخزانة ٤/ ١٧٤ وقوله: مشمولة، أي: مشؤومة، وأخلاق سوء، كما في الخزانة.

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٦٧٠.

حينَ» التاء منقطعة من حين، ويقولون: معناها: وليست. وكذلك هو في المصاحف الجُدُدِ والعُتُقِ بقطع التاء من حين. وإلى هذا كان يذهب أبو عُبيدة مَعْمَر بن المُثنَّى[(١)].

وقال أبو عُبيد القاسم بن سلّام: الوقفُ عندي على هذا الحرف «ولا»، والابتداء «تَحِينَ مَنَاص» فتكون التاء مع حين. وقال بعضهم: «لات» ثم يبتدئ فيقول: «حين مناص». قال المهدوي: وذكر أبو عُبيد أن التاء في المصحف متصلة بحين، وهو غلطٌ عند النحويين، وهو خلافُ قول المفسرين. ومن حُجَّة أبي عُبيد أن قال: إنَّا لم نجد العربَ تزيد هذه التاء إلا في حين وأوان والآن؛ وأنشد لأبي وَجْزَةَ السعديّ:

العاطفُون تَحِينَ مامِنْ عاطِف والمُطْعِمون زَمانَ أَيْنَ المُطْعِمُ[(٢)]

وأنشد لأبي زُبيد الطائي:

طلبوا صُلحنا ولا تَأوانٍ فأجبنا أنْ ليس حين بقاءِ[(٣)]

فأدخل التاء في أوان. قال أبو عُبيد: ومِن إدخالهم التاء في الآن حديثُ ابن عمر وسأله رجلٌ عن عثمان بن عفان ﷺ، فذكر مَناقِبَه ثم قال: اذهبْ بها تَلَانَ معك[(٤)]. وكذلك قول الشاعر:

نَوِّلِي قَبلَ نأي دَارِي جُمَانا وصِلِينا كما زَعَمْتِ تَلانا[(٥)]

قال أبو عُبيد: ثم مع هذا كلِّه إني تعمَّدت النظر في الذي يقال له: الإمام - مصحف عثمان - فوجدتُ التاءَ مُتَّصلة مع حين قد كُتبت: تحين.

---

(١) في مجاز القرآن ٢/١٧٦.

(٢) سلف ١/٤٧٨.

(٣) سلف قريباً. وينظر الكلام السالف في إعراب القرآن للنحاس ٣/٤٥١ - ٤٥٢، والمحرر الوجيز ٤/٤٩٢، والدر المصون ٩/٣٤٧ - ٣٤٩.

(٤) أخرجه أحمد (٥٧٧٢)، والبخاري (٣٦٩٨) بلفظ: اذهب بها الآن معك. وأورده بلفظ المصنف ابن الأثير في النهاية (تلن).

(٥) نسب في اللسان (تلن) لجميل بن معمر، ونسب في الخزانة ٤/١٧٩ لابن الأحمر.

قال أبو جعفر النحاس[١]: أما البيت الأول الذي أنشده لأبي وَجْزة فرواه العلماء باللغة على أربعة أوجه، كلُّها على خِلاف ما أنشده؛ وفي أحدها تقديران؛ رواه أبو العباس محمد بن يزيد:

العاطِفونَ ولاتَ ما مِن عاطِف

والرواية الثانية:

العاطِفونَ ولَاتَ حِينِ تَعاطُفٍ

والرواية الثالثة رواها ابن كَيْسان:

العاطِفونَةَ حِينَ ما مِن عاطِف

جعلها هاءً في الوقف وتاءً في الإدراج، وزعم أنها لِبَيان الحركة شُبِّهت بهاء التأنيث.

الرواية الرابعة:

العاطِفونهُ حِين ما مِن عاطِفٍ

وفي هذه الرواية تقديران؛ أحدهما - وهو مذهب إسماعيل بن إسحاق - أن الهاء في موضع نصب؛ كما تقول: الضاربون زيداً، فإذا كَنَيت قلت: الضاربوه. وأجاز سيبويه في الشعر: الضاربونهُ، فجاء إسماعيل بالبيت[٢] على مذهب سيبويه في إجازته مثلَه. والتقدير الآخر: العاطفونَهْ، على أن الهاء لِبَيان الحركة، كما تقول: مَرَّ بنا المُسلمونَهْ، في الوقف، ثم أُجريت في الوصل مُجراها في الوقف؛ كما قرأ أهلُ المدينة: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْۜ . هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ﴾[٣] [الحاقة: ٢٨-٢٩].

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٤٥٣ .

(٢) في (م): بالتأنيث، والمثبت من (د) و(ز)، وهو الموافق لإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٣، والكلام منه، والعبارة ساقطة في (ظ) و(ف).

(٣) قرأ حمزة بحذف الهاءين في الوصل، والباقون بإثباتها في الحالين. التيسير ص٢١٤ .

وأما البيت الثاني فلا حُجَّة له فيه؛ لأنه يُوقف عليه: ولاتَ أوان، غيرَ أن فيه شيئاً مُشكلاً؛ لأنه يُروى: ولات أوانٍ؛ بالخفض، وإنما يقع ما بعد لات مرفوعاً أو منصوباً. وإنْ كان قد رُوي عن عيسى بن عمر أنه قرأ: «ولاتِ حينِ مناص» [بكسر التاء من لات والنون من حين، فإن الثبت عنه أنه قرأ: «ولاتِ حينَ مناص»][1] فبني «لاتِ» على الكسر، ونصبَ «حينَ».

فأما: ولاتَ أوانٍ، ففيه تقديران؛ قال الأخفش[2]: فيه مُضمر، أي: ولات حين أوان. قال النحاس[3]: وهذا القول بيِّنُ الخطأ. والتقدير الآخر عن أبي إسحاق[4] قال: تقديره: ولات أوانِنا فحذف المضاف إليه فوجب ألا يعرب، وكسره لالتقاء الساكنين[5]. وأنشده محمد بن يزيد: ولات أوانٌ، بالرفع.

وأما البيت الثالث فبيتٌ مولّد لا يعرف قائله[6] ولا تَصِحُّ به حُجَّة. على أن محمد ابن يزيد رواه: كما زعمتِ الآن. وقال غيره: المعنى: كما زعمتِ أنتِ الآن. فأسقط الهمزةَ من أنت والنون.

وأما احتجاجُه بحديث ابن عمر، لما ذكَر للرجل مناقبَ عثمان فقال له: اذهَبْ بها تَلَانَ إلى أصحابك، فلا حُجَّةَ فيه؛ لأن المُحدّث إنما يروي هذا على المعنى. والدليلُ على هذا أن مجاهداً يروي عن ابن عمر هذا الحديثَ وقال فيه: اذهب فاجهد

(١) القراءات الشاذة ص١٣٩، وما بين حاصرتين من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٣، والكلام منه.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٦٧٠ .

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٤٥٤، وما قبله منه.

(٤) هو الزجاج، وقوله في معاني القرآن ٤/ ٣٢٠ - ٣٢١ .

(٥) يعني: لما حذف المضاف إليه عوض من المضاف إليه تنويناً، والنون كانت في التقدير ساكنة كسكون ذال «إذ»، فلما لقيها التنوين ساكناً كسرت النون لالتقاء الساكنين، كما كسرت الذال من «إذ» لالتقاء الساكنين. سر صناعة الإعراب ٢/ ٥٠٩ .

(٦) نسبه في اللسان (تلن) لجميل بن معمر، وفي الخزانة ٤/ ١٧٩ لابن الأحمر، وقد ذكرناه عند تخريج البيت.

جهدك[١]. ورواه آخر: اذهب بها الآن معك[٢].

وأما احتجاجُه بأنه وجدَها في الإمام «تَحِينَ». فلا حُجَّةَ فيه؛ لأن معنى الإمام أنه إمامُ المصاحف، فإنْ كان مُخالفاً لها فليس بإمام لها، وفي المصاحف كلِّها «ولاتَ» فلو لم يكن في هذا إلا هذا الاحتجاج لكان مُقنعاً. وجمعُ مناصٍ مناوص.

قوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ «أن» في موضع نصب، والمعنى: من أن جاءهم[٣]. قيل: هو مُتَّصل بقوله: ﴿فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ أي: في عِزَّة وشِقاق وعَجِبوا، وقوله: «كم أَهْلَكْنا» مُعترِض. وقيل: لا، بل هذا ابتداءُ كلام، أي: ومِن جَهْلهم أنهم أظهروا التعجُّبَ مِن أنْ جاءهم منذرٌ منهم.

﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ﴾ أي: يجيء بالكلام المُموَّه الذي يخدعُ به الناس؛ وقيل: يُفرِّق بسحره بين الوالد وولده والرجلِ وزوجته ﴿كَذَّابٌ﴾ أي: في دعوى النبوّة.

قوله تعالى: ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ مفعولان، أي: صيَّر الآلهةَ إلهاً واحداً. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ أي: عجيب. وقرأ السُّلمي: «عُجَّابٌ» بالتشديد[٤]. والعُجَاب والعُجَّاب والعَجَب سواء. وقد فرّق الخليل بين عَجِيب وعُجَاب فقال: العَجِيب العَجَب، والعُجَاب الذي قد تجاوز حدَّ العَجَب، والطويل الذي فيه طول، والطُّوال، الذي قد تجاوز حدَّ الطُّول[٥].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٠٤) من طريق سعد بن عبيدة، وابن حبان (٦٩٠٩) من طريق حبيب بن أبي مليكة كلاهما عن ابن عمر رضي الله عنهما. ولم نقف عليه من طريق مجاهد

(٢) أخرجه أحمد (٥٧٧٢)، والبخاري (٣٦٩٨).

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٤.

(٤) القراءات الشاذة ص١٢٩، والمحتسب ٢/ ٢٣٠.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٧٨ بنحوه.

وقال الجوهري(١): العَجِيب الأمرُ الذي يُتعجَّب منه، وكذلك العُجَاب بالضم، والعُجَّاب بالتشديد أكثرُ منه، وكذلك الأُعجوبة.

وقال مقاتل: «عُجَّابٌ» لغةُ أزد شنوءة(٢).

وروى سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال: مرض أبو طالب فجاءت قريش إليه، وجاء النبيُّ ﷺ، وعند رأس أبي طالب مجلسُ رجل، فقام أبو جهل كي يمنعَه، قال: وشكَوْه إلى أبي طالب، فقال: يا بنَ أخي ما تُريد من قومك؟ فقال: «يا عم، إنما أُريدُ منهم كلمةً تذلُّ لهم بها العربُ، وتُؤدِّي إليهم بها الجزيةَ العَجَمُ» فقال: وما هي؟ قال: «لا إله إلا الله» قال: فقالوا ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ قال: فنزل فيهم القرآن: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ . بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ حتى بلغ ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ خرَّجه الترمذي أيضاً بمعناه. وقال: هذا حديثٌ حسن صحيح(٣).

وقيل: لما أسلمَ عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه شقَّ على قريش إسلامُه فاجتمعوا إلى أبي طالب وقالوا: اقضِ بيننا وبين ابنِ أخيك. فأرسل أبو طالب إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا ابنَ أخي، هؤلاء قومُك يسألونك ذا السَّواء(٤)، فلا تَمِلْ كلَّ الميل على قومك. قال: «وماذا يسألونني»؟ قالوا: ارفضنا وارفض ذِكْرَ آلهتنا وندعك وإلهكَ. فقال النبيُّ ﷺ: «أتُعطونني كلمةً واحدةً وتَمْلِكون بها العربَ، وتَدينُ لكم بها العَجَم» فقال أبو جهل: لله أبوك، لَنُعطِيَنَّكَها وعشرَ أمثالها. فقال النبيُّ ﷺ: «قولوا: لا إله إلا لله»؟ فنفروا من ذلك وقاموا، فقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ فكيف يَسَعُ الخَلْقَ كلَّهم إلهٌ واحد. فأنزل اللهُ فيهم هذه الآياتِ إلى قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ [الآية: ١٢](٥).

(١) في الصحاح (عجب).

(٢) ذكره الآلوسي في روح المعاني ٢٣/ ١٦٦ .

(٣) سنن الترمذي (٣٢٣٢)، وليس في مطبوعه قوله: صحيح. وأخرجه أحمد (٢٠٠٨)، والواحدي في أسباب النزول ص٣٨ . وفي إسناده يحيى بن عمارة، أو ابن عباد، أو عباد، مجهول، تفرَّد بالرواية عنه الأعمش فيما قاله الذهبي في الميزان ٤/ ٣٩٩ .

(٤) في (م): يسألونك السواء.

(٥) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٣٨٧، والبغوي في تفسيره ص٤/ ٤٨ .

قوله تعالى: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴿٧﴾ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا﴾ «الملأ» الأشراف، والانطلاقُ الذَّهابُ بسرعة؛ أي: انطلق هؤلاء الكافرون من عند الرسول عليه الصلاة والسلام يقول بعضُهم لبعض: «أَن امْشُو» أي: امضُوا على ما كنتُم عليه، ولا تدخلوا في دينه ﴿وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾. وقيل: هو إشارة إلى مَشْيهم إلى أبي طالب في مرضه كما سبق.

وفي رواية محمد بن إسحاق أنهم أبو جهل بن هشام، وشيبةُ وعُتبة ابنا[1] ربيعة ابن عبد شمس، وأميّة بن خلف، والعاص بن وائل، وأبو مُعيط؛ جاؤوا إلى أبي طالب فقالوا: أنت سيدُنا وأنصفُنا في أنفسنا، فاكْفِنا أَمْرَ ابنِ أخيك وسُفهاءَ معه، فقد تركوا آلهتَنا وطَعَنوا في ديننا؛ فأرسل أبو طالب إلى النبيِّ ﷺ فقال له: إنَّ قومَك يدعونك إلى السَّواء والنَّصَفَة. فقال النبيُّ ﷺ: «إنما أدعوهم إلى كلمةٍ واحدة» فقال أبو جهل: وعشراً. قال: «تقولون: لا إله إلا اللهُ» فقاموا وقالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ الآيات[2].

«أَنِ امْشُوا»، «أن» في موضع نصب، والمعنى: بأن امشُوا. وقيل: «أن» بمعنى أي؛ أي: «وانْطَلَقَ المَلأُ منهم» أي: امشُوا؛ وهذا تفسيرُ انطلاقهم، لا أنهم تكلَّموا بهذا اللَّفظ.

وقيل: المعنى: انطلق الأشرافُ منهم فقالوا للعوامِّ: ﴿امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾ أي: على عبادةِ آلهتكم «إنَّ هذا» أي: هذا الذي جاء به محمد عليه الصلاة والسلام

---

(١) في (م): أبناء.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٤ - ٤٥٥، وينظر السيرة النبوية ١/ ٢٦٤ - ٢٦٥، وقصة ذهاب كفار قريش إلى أبي طالب سلفت قريباً.

﴿لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ أي: يُرادُ بأهلِ الأرض من زوالِ نعم قومٍ وغِيَر تنزِل بهم[1].

وقيل: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ كلمة تحذير؛ أي: إنما يُريد محمدٌ بما يقول الانقيادَ له لِيعلوَ علينا، ونكونَ له أتباعاً، فيتحكَّمَ فينا بما يُريد، فاحذروا أن تُطيعوه.

وقال مقاتل: إنَّ عمرَ لما أسلمَ وقَوِي به الإسلامُ شقَّ ذلك على قريش فقالوا: إنَّ إسلامَ عمر في قوّة الإسلام لَشيء يُراد[2].

قوله تعالى: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ قال ابن عباس والقُرظيّ وقتادة ومقاتل والكلبيّ والسُّديّ: يَعنون مِلَّةَ عيسى النصرانية، وهي آخرُ الملل. والنصارى يجعلون مع الله إلهاً. وقال مجاهد وقتادة أيضاً: يَعنون مِلَّة قريش. وقال الحسن: ماسَمعنا أنَّ هذا يكون في آخر الزمان. وقيل: أي: ماسمعنا من أهل الكتاب أن محمداً رسولٌ حقٌّ[3].

﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ أي: كذب وتخرُّص؛ عن ابن عباس وغيره[4]. يقال: خَلَقَ واختلق، أي: ابتدع. وخلقَ اللهُ عزّ وجلّ الخَلْق من هذا؛ أي: ابتدعَهم على غيرِ مثال[5].

قوله تعالى: ﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا﴾ هو استفهامُ إنكار، والذِّكر هاهنا القرآنُ؛ أنكروا اختصاصَه بالوَحْي من بينهم؛ فقال الله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي﴾ أي: من وحيي، وهو القرآن. أي: قد عَلِموا أنك لم تَزَلْ صَدُوقاً فيما بينهم، وإنما شكُّوا فيما أنزلتُه عليك هل هو من عندي أمْ لا.

﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ أي: إنما اغتَرُّوا بِطُول الإمهال، ولو ذاقوا عذابي على

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٥ . وقوله: غِيَر: في القاموس (غير): غِيَر الدهر: أحداثه المتغيرة.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٧٩ . وفيه:.. فقالوا: إن إسلام عمر فيه قوة للإسلام وشيء يُراد

(٣) هذه الأقوال في النكت والعيون ٥/ ٧٩، وتفسير البغوي ٤/ ٤٩، وأقوال ابن عباس ﷺ والقرظي والسدي ومجاهد وقتادة أخرجها الطبري ٢٠/ ٢٢ - ٢٣ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٥ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٥ .

الشِّرك لَزال عنهم الشَّكُّ، ولمَا قالوا ذلك؛ ولكن لا ينفع الإيمانُ حينئذ[١]. و«لَمَّا» بمعنى لم، وما زائدةٌ، كقوله: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ [المؤمنون: ٤٠] و﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٥].

قوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾ قيل: أمْ لهم هذا فيمنعوا محمداً عليه الصلاة والسلام مما أنعمَ اللهُ عز وجل به عليه من النبوة[٢]. و«أَمْ» قد تَرِدُ بمعنى التقريع إذا كان الكلام مُتَّصلاً بكلام قبلَه؛ كقوله تعالى: ﴿الٓمٓ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [السجدة: ١-٣].

وقد قيل: إن قوله: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ مُتَّصلٌ بقوله: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ فالمعنى: أنَّ الله عزَّ وجلَّ يُرسل مَن يشاء؛ لأنَّ خزائنَ السماوات والأرض له[٣]، ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: فإنْ ادَّعَوْا ذلك ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَـٰبِ﴾ أي: فَلْيصعدوا إلى السماوات، وليمنعوا الملائكةَ من إنزالِ الوحي على محمد. يقال: رَقِيَ يَرْقَى وارتقى، إذا صَعِدَ. ورَقَى يَرقي رَقْياً، مثل: رَمَى يرمي رَمْياً، من الرُّقْية[٤].

قال الربيع بن أنس: الأسبابُ أرقُّ من الشَّعر وأشدُّ من الحديد، ولكن لا تُرى. والسَّبب في اللغة: كل ما يُوصَل به إلى المَطلوب من حبلٍ أو غيره[٥].

وقيل: الأسباب: أبوابُ السماوات التي تنزلُ الملائكةُ منها؛ قاله مجاهد وقتادة. قال زهير:

ولَو رَامَ أسبابَ السماءِ بِسُلَّمِ[٦]

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ٢٦ بنحوه.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٥ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٨١ بنحوه.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٥ .

(٥) تفسير الطبري ٢٠/ ٢٨ ، وفيه: أدقّ، بدل: أرق.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٨٢ - ٨٣، والبيت سلف ٣/ ٩ ، وقول مجاهد وقتادة أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٧ .

وقيل: الأسبابُ السماواتُ نفسُها؛ أي: فيصعدوا سماءً سماءً. وقال السُّدي: «في الأسبابِ» في الفَضْل والدين. وقيل: أي: فَلْيعلوا في أسبابِ القوَّة إنْ ظنُّوا أنها مانعة. وهو معنى قول أبي عُبيدة[١]. وقيل: الأسبابُ الحبال؛ يعني: إنْ وجدوا حبلاً أو سبباً يصعدون فيه إلى السماء فَلْيرتقوا؛ وهذا أمرُ توبيخ وتعجيز[٢].

ثم وعدَ نبيَّه ﷺ النصرَ عليهم فقال: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ﴾ «ما» صِلةٌ، وتقديره: هم جند، فـ «جُنْدٌ» خبرُ ابتداء محذوف. ﴿مَهْزُومٌ﴾ أي: مقموعٌ ذليلٌ قد انقطعتْ حُجَّتهم لأنهم لا يَصلون إلى أن يقولوا: هذا لنا. ويقال: تهزَّمت القِربة، إذا انكسرت، وهزمتُ الجيش: كسرته[٣]. والكلام مرتبطٌ بما قبل، أي: ﴿بَلِ الذين كَفَرُوا في عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ وهم جندٌ من الأحزاب مهزومون، فلا تَغُمُّك عِزَّتُهم وشِقاقهم، فإني أهزمُ جمعَهم وأَسلُبُ عِزَّهم. وهذا تأنيسٌ للنبي ﷺ، وقد فُعِل بهم هذا في يوم بدر.

قال قتادة: وعدَ اللهُ أنه سَيهزمهم وهم بمكة، فجاء تأويلُها يومَ بَدْر[٤].

و«هنالك» إشارةٌ لِبدر، وهو موضعُ تحزُّبِهم لِقتال محمد ﷺ. وقيل: المرادُ بالأحزاب الذين أَتَوا المدينةَ وتحزَّبوا على النبيِّ ﷺ. وقد مضَى ذلك في «الأحزاب»[٥]. والأحزابُ الجندُ، كما يقال: جندٌ من قبائلَ شتَّى. وقيل: أراد بالأحزاب القُرونَ الماضية من الكُفَّار[٦]. أي: هؤلاء جندٌ على طريقةِ أولئك؛ كقوله تعالى: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾ [البقرة: ٢٤٩] أي: على ديني ومذهبي. وقال الفراء[٧]: المعنى: هم جندٌ مغلوب؛ أي: ممنوعٌ عن أن يَصعَدَ إلى السماء. وقال القتبي: يعني: أنهم جندٌ لهذه الآلهة مهزومٌ، فهم لا يقدرون على أن

(١) النكت والعيون ٥/ ٧٩.

(٢) تأويل مشكل القرآن ص٢٧٢ بنحوه.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٨٣.

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٩.

(٥) ١٧/ ٧٠ وما بعدها.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٤٩، وزاد المسير ٧/ ١٠٤ - ١٠٥.

(٧) في معاني القرآن ٢/ ٣٩٩، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٥٦.

يدَّعوا الشيء من آلهتم، ولا لأنفسهم شيئاً من خزائن رحمة الله، ولا مِن ملك السماوات والأرض[١].

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ ذكرها تعزيةً للنبي ﷺ وتسليةً له[٢]؛ أي: هؤلاء من قومك يا محمد جندٌ من الأحزاب المتقدِّمين الذين تحزَّبوا على أنبيائهم، وقد كانوا أقوى من هؤلاء فأُهلكوا.

وذكر الله تعالى القوم بلفظ التأنيث، واختلف أهلُ العربية في ذلك على قولين: أحدهما: أنه قد يجوز فيه التذكيرُ والتأنيث. الثاني: أنه مذكَّر اللفظ، لا يجوز تأنيثه، إلا أن يقع المعنى على العشيرة والقبيلة، فيغلبُ في اللفظ حكمُ المعنى المُضمَر تنبيهاً عليه؛ كقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ . فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ ولم يقل: ذكَرها؛ لأنه لما كان المُضمَرُ فيه مذكَّراً ذكَّره، وإنْ كان اللفظُ مُقتضياً للتأنيث[٣].

ووصف فرعون بأنه ذو الأوتاد. وقد اختُلف في تأويل ذلك؛ فقال ابن عباس: المعنى: ذو البِناء المُحكَم. وقال الضحاك: كان كثيرَ البُنيان، والبُنيان يُسمَّى أوتاداً. وعن ابن عباس أيضاً وقتادة وعطاء: أنه كانت له أوتادٌ وأرسان وملاعبُ يُلْعَب له عليها. وعن الضحاك أيضاً: ذو القوَّة والبَطْش. وقال الكلبي ومقاتل: كان يُعذِّب الناس بالأوتاد، وكان إذا غَضِبَ على أحدٍ مدَّه مُستلقياً بين أربعة أوتاد في الأرض، ويُرسل عليه العقاربَ والحيَّاتِ حتى يموت. وقيل: كان يشبح المُعذَّب بين أربع

(١) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص٢٧٣، والعبارة فيه:.. لأنهم لا يقدرون أن يدَّعوا لآلهتهم شيئاً من هذا، ولا لأنفسهم.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٤٩ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٨٠ .

سَوارٍ، كلٌّ طرف من أطرافه إلى سارية مضروب فيه وَتِد من حديد ويتركُه حتى يموت. وقيل: ذو الأوتاد، أي: ذو الجنود الكثيرة، فَسُمِّيت الجنودُ أوتاداً؛ لأنهم يُقوُّون أمرَه كما يُقوِّي الوَتِدُ البيت[١].

وقال ابن قتيبة: العربُ تقول: هم في عزٍّ ثابت الأوتاد، يُريدون: دائماً شديداً. وأصلُ هذا أن البيتَ من بيوت الشَّعر إنما يَثْبُتُ ويقوم بالأوتاد. قال الأسود بن يَعْفُر:

ولقد غَنَوْا فيها بأنعَمِ عِيْشَةٍ   في ظلِّ مُلْكٍ ثابت الأوتادِ[٢]

وواحدُ الأوتاد وَتِد، بالكسر، وبالفتح لغة. وقال الأصمعي: يقال: وَتِدٌ واتدٌ، كما يقال: شُغلٌ شاغل. وأنشد:

لاقَتْ على الماءِ جُذَيْلاً وَاتِدا   ولم يكن يُخْلِفُها المَوَاعِدا[٣]

قال: شبَّه الرجلَ بالجِذْل.

﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾ أي: الغيضة[٤]. وقد مضى ذِكْرُها في «الشعراء»[٥].

وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر: «لَيْكَةَ» بفتح اللام والتاء من غير همز. وهمز الباقون وكسروا التاء[٦]. وقد تقدَّم هذا.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ أي: هم الموصوفون بالقوّة والكَثْرة، كقولك: فلانٌ هو الرجل.

﴿إِن كُلٌّ﴾ بمعنى: ما كلٌّ ﴿إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ أي: فنزلَ بهم العذابُ لذلك التكذيب.

---

(١) هذه الأقوال في تفسير البغوي ٤/ ٤٩ - ٥٠، وزاد المسير ٧/ ١٠٥ - ١٠٦.

(٢) غريب القرآن ص٣٧٧. والبيت في المفضليات ص٢١٧

(٣) نسبه في اللسان (وتد) لأبي محمد الفقعسي، والكلام من الصحاح (وتد).

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ٣١ عن السدي.

(٥) ١٣/ ١٣٤.

(٦) السبعة ص٤٧٣، والتيسير ص١٦٦.

وأثبتَ يعقوبُ الياء في «عَذَابِي» و«عِقَابِي» في الحالين، وحذفَها الباقون في الحالين[١]. ونظيرُ هذه الآيةِ قولُه عز وجل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ . مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ [غافر: ٣٠-٣١] فسمَّى هذه الأُمَمَ أحزاباً.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ «يَنْظُرُ» بمعنى ينتظر؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾[٢] [الحديد: ١٣]. «هؤلاء» يعني كُفَّار مكة. «إلَّا صَيْحَةً واحدةً» أي: نفخة القيامة. أي: ما ينتظرون بعد ما أُصيبوا ببدر إلا صيحةَ القيامة. وقيل: ما ينتظرُ أحياؤهم الآن إلا الصيحةَ التي هي النَّفخة في الصُّور، كما قال تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ . فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾[٣] [يس: ٤٩-٥٠]، وهذا إخبارٌ عن قُرب القِيامة والموت. وقيل: أي: ما ينتظر كُفَّارُ آخر هذه الأمة المُتديِّنين بدين أولئك إلا صيحةً واحدة، وهي النَّفخة. وقال عبد الله بن عمرو: لم تكن صيحةٌ في السماء إلا بغضبٍ من الله عزَّ وجلَّ على أهل الأرض[٤].

﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ أي: من ترداد؛ عن ابن عباس. مجاهد: ما لها رجوع. قتادة: مالها من مثنوية. السدِّي: مالها من إفاقة[٥].

وقرأ حمزة والكسائي: «ما لها مِنْ فُواقٍ» بضم الفاء. الباقون بالفتح[٦]. الجوهري[٧]: والفَواق والفُواق ما بين الحَلْبتين من الوقت؛ لأنها تُحلَب، ثم تُترَك

---

(١) النشر ٢/ ١٨٢ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٧ .

(٣) تفسير الرازي ٢٦/ ١٨٢ بنحوه.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٧ . وفي مطبوعه: عبد الله بن عمر.

(٥) أخرج هذه الأقوال الطبري ٢٠/ ٣٤ - ٣٥، وقوله: ما لها من مثنوية، ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٥٠ عن الضحاك، ثم قال: أي: صَرْفٌ وردٌّ.

(٦) السبعة ص٥٥٢ ، والتيسير ص١٨٧ .

(٧) الصحاح (فوق).

سُويعة يرضَعها الفَصيل لِتَدِرَّ، ثم تُحلَب. يقال: ما أقام عنده إلا فُوَاقاً؛ وفي الحديث: «العِيادةُ قَدْر فُواق الناقة»[1]. وقوله تعالى: «مالها مِنْ فَوَاق» يقرأ بالفتح والضم، أي: مالها من نظرة وراحة وإفاقة. والفِيقة، بالكسر: اسمُ اللبن الذي يجتمع بين الحَلْبتين؛ صارت الواو ياءً لِكسر ما قَبْلَها؛ قال الأعشى يَصِفُ بقرةً:

حتى إذا فِيقَةٌ في ضَرعِها اجتمعتْ جاءتْ لِتُرضِع شِقَّ النَّفْسِ لو رَضَعا[2]

والجمع فِيق، ثم أفواق، مثل: شِبر وأشبار، ثم أفاويق. قال ابن هَمَّام السَّلُوليّ:

وذَمُّوا لنا الدنيا وهم يَرْضَعُونها أَفَاوِيقَ حتى ما يَدُرُّ لها ثُعْلُ[3]

والأفاويق أيضاً ما اجتمع في السحاب من ماء، فهو يمطر ساعةً بعد ساعة. وأفاقت الناقةُ إفاقةً، أي: اجتمعت الفِيقة في ضرعها؛ فهي مُفِيقٌ ومُفِيقَةٌ ـ عن أبي عمرو ـ والجمع مفاويق.

وقال الفرّاء وأبو عُبيدة وغيرهما: «مِنْ فَوَاقٍ» بفتح الفاء، أي: راحة لا يُفيقون فيها، كما يُفيق المريضُ والمَغْشيّ عليه. و«مِنْ فُواقٍ» بضم الفاء من انتظار[4]. وقد تقدَّم أنهما بمعنىً، وهو ما بين الحَلْبتين.

قلت: والمعنى المُراد أنها مُمتدَّة لا تقطيع فيها. وروى أبو هريرة قال: حدَّثنا رسول الله ﷺ ونحن في طائفة من أصحابه، الحديثَ، وفيه «يأمر اللهُ عزَّ وجلَّ إسرافيلَ بالنَّفخة الأُولى، فيقول: انفُخْ نَفْخةَ الفَزَع، فيفزَعُ أهلُ السماوات وأهلُ الأرض إلا مَن شاء الله، ويأمره فيمدُّها ويُديمها يُطوِّلها يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾» وذكر الحديث، خَرَّجه علي بن مَعْبد وغيرُه

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٩٢٢٢)، في إسناده مندل بن علي أبو عبد الله العنزي الكوفي، ضعَّفه أحمد كما في تهذيب التهذيب ٤/ ١٥٢، وأورد الحديث السيوطي في الجامع الصغير ٤/ ٣٩٦ (فيض القدير) ورمز لصحته.

(٢) ديوان الأعشى ص١٥٥ .

(٣) الكامل للمبرد ١/ ٧٧، وسمط اللآلئ ٣/ ٩٢٣ . والثُّعل: خِلْفٌ زائد صغير في أخلاف الناقة، وضرع الشاة، لا يدرّ. اللسان (ثعل).

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٤٠٠ ـ وليس فيه هذا التفريق ـ ومجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ١٧٩ .

كما ذكرناه في كتاب «التذكرة»[١].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ قال مجاهد: عذابَنا. وكذا قال قتادة: نصيبنا من العذاب. الحسن: نصيبنا من الجنة لِنتنعَّم به في الدنيا. وقاله سعيد بن جُبير[٢]. ومعروف في اللغة أن يقال للنصيب: قِطّ، وللكتاب المكتوب بالجائزة قطّ[٣]. قال الفراء[٤]: القِطُّ في كلام العرب: الحظُّ والنصيب. ومنه قيل للصكّ: قِطّ. وقال أبو عُبيدة والكسائي: القِطُّ الكتاب بالجوائز[٥]. والجمع القطوط؛ قال الأعشى:

ولا المَلِكُ النُّعمانُ يومَ لَقِيتُهُ بِغِبْطتهِ يُعطي القُطوطَ وَيَأْفِقُ[٦]

يعني كتب الجوائز. ويروى: بإمَّتِهِ، بدل: بغبطته، أي: بنعمته وحاله الجليلة، ويأفِق يصلحُ. ويقال: في جمع قِطّ أيضاً: قِطَطة، وفي القليل: أَقطّ وأقطاط. ذكره النحاس[٧].

وقال السدي: سألوا أن يُمَثِّلَ لهم منازلَهم من الجنةِ ليعلموا حقيقةَ ما يُوعَدون به. وقال إسماعيل بن أبي خالد: المعنى: عجِّل لنا أرزاقَنا[٨]. وقيل: معناه: عجِّل لنا ما يَكفينا؛ من قولهم: قَطْني؛ أي: يَكفيني. وقيل: إنهم قالوا ذلك استعجالاً

(١) ص١٧٣، والحديث أخرجه مطولاً إسحاق بن راهويه في مسنده (١٠)، والطبري ٢٠/ ٣٣، وهو حديث ضعيف، وسلف قسم منه ١٦/ ٢١٦ - ٢١٧ .

(٢) أخرج هذه الأقوال الطبري ٢٠/ ٣٧ - ٣٨ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٧ .

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٤٠٠ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٥١، وقول أبي عُبيدة في مجاز القرآن ٢/ ١٧٩ .

(٦) ديون الأعشى ص٢٦٩ . وفيه، بإمَّته، بدل: بنعمته. وذكره برواية المصنف ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٩٦ .

(٧) في إعراب القرآن ٣/ ٤٥٧ . وما قبله منه.

(٨) أخرجهما الطبري ٢٠/ ٣٨ - ٣٩ .

لِكُتبهم التي يُعطَوْنها بأيمانهم وشَمائلهم حين تُلي عليهم بذلك القرآن، وهو قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الحاقة: ١٩]، ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ [الانشقاق: ١٠]، وأصلُ القِطّ القَطُّ، وهو القَطع، ومنه: قَطَّ القلمَ؛ فالقِطُّ اسمٌ للقطعة من الشيء، كالقَسْمِ والقِسْم، فأُطلق على النصيب والكتاب والرِّزق لِقَطْعه عن غيره، إلا أنه في الكتاب أكثرُ استعمالاً وأقوى حقيقةً. قال أميةُ بن أبي الصَّلْت:

قَومٌ لهم ساحةُ العِراقِ وما يُجْبَى إليه والقِطُّ والقَلَمُ[(١)]

﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: قبلَ يومِ القيامة في الدنيا إنْ كان الأمرُ كما يقول محمد. وكلُّ هذا استهزاءٌ منهم.

قوله تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أمرَ نبيَّه ﷺ بالصبر لما استهزؤوا به. وهذه منسوخةٌ بآية السيف[(٢)].

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ لمَّا ذكر من أخبار الكفار وشِقاقهم وتقريعهم بإهلاك القُرون مِن قبلهم، أمَر نبيَّه عليه الصلاة والسلام بالصبر على أذاهم، وسلَّاه بكلِّ ما تقدَّم ذِكْره. ثم أخذ في ذكر داودَ وقصص الأنبياء؛ لِيتسلَّى بصبر مَن صَبَر منهم؛ ولِيعلمَ أن له في الآخرة أضعافَ ما أُعْطِيَهُ داودُ وغيره من الأنبياء.

وقيل: المعنى: اصبِرْ على قولهم، واذكُر لهم أقاصيصَ الأنبياء؛ لتكون برهاناً على صحة نبوَّتك.

«ذا الأيْدِ» ذا القوَّة في العبادة. وكان يصومُ يوماً ويُفطر يوماً، وذلك أشدُّ الصوم

(١) ديوان أمية بن أبي الصَّلت ص١٢٨، وروايته فيه:

قوم لهم ساحة العراق إذا ساروا جميعاً والقط والقلم

وذكره كرواية المصنف الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٨٣.

(٢) ذكره مكي في الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه ص٣٩١، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ١١٠.

وأفضلُه؛ وكان يُصلِّي نصفَ الليل، وكان لا يفرُّ إذا لاقى العدوّ[١]، وكان قويّاً في الدعاء إلى الله تعالى. وقوله: «عَبْدَنا» إظهاراً لِشَرَفِهِ بهذه الإضافة. ويقال: الأَيْد والآدُ، كما تقول: العيب والعاب[٢]. قال:

لـم يَـكُ يَـنْـآد فَـأَمْـسَـى انْـآدا[٣]

ومنه: رجلٌ أَيِّدٌ، أي: قويّ. وتأيَّدَ الشيء تقوَّى، قال الشاعر:

إذَا الـقَـوسُ وَتَّـرهَـا أَيِّـدٌ رَمَـى فَـأَصـابَ الـكُـلـى وَالـذُّرا[٤]

يقول: إذا الله وَتَّر القوس التي في السحاب رَمَى كُلى الإبل وأَسْنِمَتَها بالشحم. يعني من النبات الذي يكون من المطر.

﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ قال الضحاك: أي: توَّاب. وعن غيره: أنه كلَّما ذكَر ذَنْبه أو خطَر على باله استغفر منه؛ كما قال النبي ﷺ: «إني لأستغفرُ اللهَ في اليومِ والليلة مئة مرة»[٥]. ويقال: آبَ يؤوب، إذا رَجَع، كما قال:

وكـلُّ ذي غَـيْـبَـةٍ يـؤوبُ وغـائـبُ الـمـوت لايـؤوبُ[٦]

فكان داودُ رجَّاعاً إلى طاعة الله ورِضاه في كلِّ أمرٍ، فهو أهلٌ لأن يُقتدَى به.

---

(١) أخرج البخاري (١١٣١)، ومسلم (١١٥٩) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال له: «.. أحبُّ الصيام إلى الله صيامُ داود، وكان ينامُ نصفَ الليل، ويقوم ثُلثَه، وينام سُدسَه، ويصوم يوماً ويُفطر يوماً»، وفي رواية عند البخاري (٣٤١٩)، ومسلم (١١٥٩) (١٨٧): «.. ولا يَفِرُّ إذا لاقى». وهو في مسند أحمد (٦٤٧٧).

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٨.

(٣) الرجز للعجاج كما في إصلاح المنطق ص١٠٧، وقبله: مِن أن تبدَّلْتُ بآدي آدا. ولم نقف عليه في ديوانه.

(٤) في (م): الذُّوا، والبيت في مجالس ثعلب ص٤٤٧ والصحاح (أيد) والكلام منه.

(٥) أخرجه أحمد (١٧٨٤٨)، ومسلم (٢٧٠٢) من حديث الأغرّ المزني ﷺ، وأوله: «إنه لَيُغَانُ على قلبي..» وسلف ٢/ ١١٧.

(٦) قائله عَبيد بن الأبرص، وهو في ديوانه ص٢٦. والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٨.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ﴾ «يُسَبِّحْنَ» في موضع نصب على الحال(١). ذكر تعالى ما آتاه من البرهان والمُعجزة، وهو تسبيحُ الجبال معه. قال مقاتل: كان داودُ إذا ذكَر الله جلَّ وعزَّ ذكَرت الجبالُ معه، وكان يفقهُ تسبيحَ الجبال. وقال ابن عباس: «يُسَبِّحْنَ» يُصلِّين. وإنما يكون هذا معجزةً إذا رآه الناس وعَرَفوه. وقال محمد بن إسحاق: أُوتي داودُ من حُسن الصوت ما يكون له في الجبال دَويٌّ حَسَن، وما تصغَى لحسنه [الطير] وتُصوِّت معه، فهذا تسبيحُ الجبال والطير.

وقيل: سخَّرها اللهُ عز وجل لِتَسيرَ معه، فذلك تسبيحُها، لأنها دالَّةٌ على تنزيهِ الله عن شبه المخلوقين(٢). وقد مضَى القولُ في هذا في «سبأ»(٣) وفي «سبحان» عند قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الآية: ٤٤] وأنَّ ذلك تسبيحُ مَقَال على الصحيح من الأقوال. والله أعلم.

﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ الإشراقُ أيضاً ابيضاضُ الشمس بعد طُلوعها. يقال: شَرَقَت الشمسُ، إذا طَلَعت، وأَشرقَتْ، إذا أضاءت(٤). فكان داودُ يُسبِّح إثرَ صلاتهِ عند طُلوع الشمس وعند غُروبها.

الثانية: روي عن ابن عباس أنه قال: كنت أمرُّ بهذه الآية ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ ولا أدري ماهي، حتى حدَّثتني أُمُّ هانئ أن رسولَ الله ﷺ دخلَ عليها، فدعا بِوَضوء فتوضأ، ثم صلَّى صلاةَ الضُّحى، وقال: «يا أُمَّ هانئ، هذه صلاةُ الإشراق»(٥). وقال

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٨ .

(٢) المصدر السابق.

(٣) ١٧/ ٢٦٠ وما بعدها.

(٤) الصحاح (شرق) .

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٤/ ٤٠٦، والبغوي في تفسيره ٤/ ٥١ . وفي إسناده حجَّاج بن نُصير وأبو بكر الهذلي وكلاهما ضعيف. ميزان الاعتدال ١/ ٤٦٥ و ٤/ ٤٩٧، ومجمع الزوائد ٢/ ٢٣٨ و٧/ ٩٩ .

عكرمة: قال ابن عباس: كان في نفسي شيء من صلاة الضُّحى حتى وجدتُها في القرآن ﴿يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾[(١)]. قال عكرمة: وكان ابن عباس لا يُصلِّي صلاةَ الضُّحى، ثم صلَّاها بعد[(٢)].

وروي أن كعب الأحبار قال لابن عباس: إني أجِدُ في كُتُبِ اللهِ صلاةً بعدَ طُلوع الشمس هي صلاة الأوَّابين. فقال ابن عباس: وأنا أوجدك في القرآن ذلك في قصة داود ﴿يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾.

الثالثة: صلاةُ الضحى نافلةٌ مستحبة، وهي في الغَداة بإزاء العصر في العَشيّ، لا ينبغي أن تُصلّى حتى تبيضَّ الشمسُ طالعةً؛ ويرتفع كَدَرُها؛ وتُشرق بنورها؛ كما لا تُصلَّى العصر إذا اصفرَّتِ الشمس[(٣)]. وفي «صحيح» مسلم عن زيد بن أرْقَم، أن رسولَ الله ﷺ قال: «صلاةُ الأوَّابين حين تَرْمَضُ الفِصالُ»[(٤)].

الفِصال والفُصلان جمع فَصيل، وهو الذي يُفطَم من الرضاعة من الإبل. والرَّمضاء شِدَّةُ الحر في الأرض. وخصَّ الفِصال هنا بالذِّكر؛ لأنها هي التي تَرْمَض قبلَ انتهاء شدَّة الحرّ التي تَرْمَض به[(٥)] أمهاتُها لِقلَّة جَلَدها، وذلك يكون في الضُّحى أو بعده بقليل، وهو الوقتُ المتوسط بين طلوع الشمس وزوالها[(٦)].

قال[(٧)] القاضي أبو بكر بن العربي[(٨)]: ومن الناس من يُبادر بها قبلَ ذلك

(١) أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد كما في الدر المنثور ٥/ ٢٩٨.

(٢) أخرجه عبد بن حميد كما في الدر المنثور ٥/ ٢٩٨.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦١٣.

(٤) صحيح مسلم (٧٤٨)، وهو في مسند أحمد (١٩٢٧٠)، وفي هامش (ز) حاشية نصها: تَرْمَض بفتح التاء والميم، يقال: رَمِض يرمَض، كعلم يعلم، والرمضاء: الرَّمْل الذي اشتدت حرارته بالشمس، أي: حين تحترق أخفاف الفصال، وهي الصغار من أولاد الإبل، جمع فَصيل، من شدة حرّ الرمل، والأواب، المطيع، وقيل: الراجع إلى الطاعة. قاله النووي. اهـ [في شرح مسلم ٦/ ٣٠]

(٥) في (م): بها.

(٦) المفهم ٢/ ٣٥٩.

(٧) في (م) و(د) و(ظ): قاله.

(٨) في أحكام القرآن ٤/ ١٦١٣.

استعجالاً، لأجل شُغله فيخسر عملَه؛ لأنه يُصلِّيها في الوقت المَنْهي عنه، ويأتي بعملٍ هو عليه لا له.

الرابعة: روى الترمذي من حديث أنس بن مالك قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ صلَّى الضُّحى ثنتي عشرةَ ركعةً بنى اللهُ له قصراً مِن ذَهَبٍ في الجنة» قال: حديث غريب[١].

وفي «صحيح» مسلم: عن أبي ذرٍّ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «يُصبح على كلِّ سُلَامَى من أحدِكم صدقةٌ، فكلُّ تسبيحةٍ صدقةٌ، وكلُّ تهليلةٍ صدقةٌ، وكلُّ تكبيرةٍ صَدَقةٌ، وأمرٌ بالمعروف صدقةٌ، ونهيٌ عن المنكر صدقةٌ، ويُجزئ من ذلك ركعتان يَركَعهما من الضُّحى»[٢].

وفي الترمذي: عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ حافَظَ على شَفْعةِ الضُّحى غُفر له ذنوبُه وإنْ كانت مثلَ زَبَد البحر»[٣].

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: «أوصاني خليلي بثلاث لا أدعُهُنَّ حتى أموتَ: صومِ ثلاثةِ أيام من كلِّ شهر، وصلاةِ الضُّحى، ونومٍ على وتر» لفظ البخاري[٤]. وقال مسلم: «وركعتي الضحى»[٥]. وخرَّجه من حديث أبي الدرداء كما خرَّجه البخاري من حديث أبي هريرة[٦].

وهذا كلُّه يدلُّ على أنَّ أقلَّ الضحى ركعتان وأكثرَه ثنتا عشرة. والله أعلم.

وأصل السُّلامى - بضم السين - عظامُ الأصابع والأكُفّ والأرجل، ثم استُعمل في سائر عظام الجسد وَمفَاصله[٧].

---

(١) سنن الترمذي، وفي إسناده موسى بن فلان بن أنس بن مالك، ويقال: موسى بن حمزة. قال الحافظ ابن حجر في التقريب: مجهول.
(٢) صحيح مسلم (٧٢٠)، وأخرجه أحمد (٢١٤٧٥).
(٣) سنن الترمذي (٤٧٦)، وفي إسناده نهَّاس بن قَهْم، ضعفه الحافظ ابن حجر في التقريب.
(٤) رقم (١١٧٨).
(٥) رقم (٧٢١)، وهو في مسند أحمد (٧٦٧١).
(٦) صحيح مسلم (٧٢٢)، وهو في مسند أحمد (٢٧٤٨١).
(٧) المفهم ٢/ ٣٦٠ .

وروي من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسولَ الله ﷺ قال: «إنه خُلِقَ كلُّ إنسان من بني آدمَ على ستين وثلاث مئة مَفْصِل، فمن كبَّر اللهَ، وحَمِدَ اللهَ، وهلَّل اللهَ، وسبَّح الله، واستغفرَ اللهَ، وعَزَلَ حجراً عن طريق الناس أو شوكةً أو عظماً عن طريق الناس، وأَمَرَ بمعروف، أو نَهَى عن مُنكر عَدَدَ تلك الستين والثلاث مئة سُلامَى فإنه يمشي يومئذ وقد زَحْزحَ نفسَه عن النار» قال أبو تَوْبة: وربما قال: «يُمْسي» كذا خرجه مسلم[(١)].

وقوله: «ويُجزئ من ذلك ركعتان» أي: يكفي من هذه الصَّدَقات عن هذه الأعضاء ركعتان. وذلك أن الصلاةَ عملٌ بجميع أعضاء الجسد؛ فإذا صلَّى فقد قام كلُّ عضو بوظيفته التي عليه في الأصل. والله أعلم[(٢)].

قوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ معطوف على الجبال. قال الفراء[(٣)]: ولو قرئ: «والطَّيْرُ محشورةٌ» لجاز[(٤)]؛ لأنه لم يظهر الفعل.

قال ابن عباس: كان داودُ عليه السلام إذا سبَّح جاوبَتْه الجبال واجتمعت إليه الطيرُ فسبَّحتْ معه. فاجتماعها إليه حَشْرُها[(٥)]. فالمعنى: وسخَّرنا الطيرَ مجموعة إليه لِتُسبِّح الله معه. وقيل: أي: وسخَّرنا الريح لِتَحْشُرَ الطيورَ إليه لِتسبِّح معه، أو أَمرنا الملائكةَ تحشر الطيور.

---

(١) في صحيحه (١٠٠٧).

(٢) المفهم ٢/ ٣٦١.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٤٠١، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٥٩، وما قبله منه.

(٤) قرأ بها إبراهيم بن أبي عبلة كما في القراءات الشاذة ص١٢٩.

(٥) ذكره الفراء في معاني القرآن ٢/ ٤٠١، والطبري في تفسيره ٢٠/ ٤٥، ولم ينسباه لأحد.

﴿كُلٌّ لَّهُۥ﴾ أي: لداود ﴿أَوَّابٌ﴾ أي: مطيع؛ أي: تأتيه وتُسبِّحُ معه. وقيل: الهاء لله عزّ وجلّ.

قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ أي: قوَّيناه حتى ثَبَتَ. قيل: بالهيبة وإلقاء الرُّعب منه في القُلوب. وقيل: بِكَثْرة الجنود. وقيل: بالتأييد والنَّصر. وهذا اختيارُ ابن العربي[١]، فلا ينفع الجيشَ الكثيرَ التفافُه على غيرِ منصور وغير مُعانٍ.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان داودُ أشدَّ مُلوك الأرض سلطاناً. كان يحرسُ محرابَه كلَّ ليلة نَيِّفٌ وثلاثون ألف رجل، فإذا أصبح قيل: ارجعوا فقد رضي عنكم نبيُّ الله[٢].

والمُلْك عبارة عن كَثْرة المِلْك، فقد يكون للرجلِ مِلك ولكن لا يكون مَلِكاً حتى يكثرَ ذلك؛ فلو مَلَكَ الرجلُ داراً وامرأة لم يكن مَلِكاً حتى يكون له خادمٌ يَكفيه مؤنةَ التصرف في المنافع التي يفتقر إليها لضرورة[٣] الآدمية[٤]. وقد مضى هذا المعنى في «براءة»[٥] وحقيقةُ الملك في «النمل» مستوفًى.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: النبوَّة؛ قاله السدي. مجاهد: العَدْل. أبو العالية: العلم بكتاب الله تعالى. قتادة: السنة. شُريح: العلم والفقه.

﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ قال أبو عبد الرحمن السُّلَمي وقتادة: يعني: الفَصْلَ في القضاء. وهو قول ابن مسعود والحسن والكلبي ومقاتل. وقال ابن عباس: بيانُ الكلام. عليّ ابن أبي طالب: هو البيِّنة على المدَّعي واليمينُ على مَن أنكر. وقاله شُرَيح والشعبي

---

(١) في أحكام القرآن ٤/ ١٦١٤، وما بعده منه.

(٢) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٥١ مختصراً.

(٣) في (د) و(م): لضرورته، وفي (ز): لضروريّة، والمثبت من (ظ).

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦١٤.

(٥) ١٠/ ٢٥٠.

وقتادة أيضاً. وقال أبو موسى الأشعري والشعبي أيضاً: هو قوله: أما بعد، وهو أول مَن تكلَّم بها[(١)].

وقيل: «فَصْل الخِطاب» البيان الفاصلُ بين الحقّ والباطل. وقيل: هو الإيجازُ بجعل المعنى الكثير في اللَّفظِ القليل[(٢)]. والمعنى في هذه الأقوال متقاربٌ. وقولُ عليّ ﷺ يجمعه؛ لأن مدارَ الحُكم عليه في القضاء ما عدا قول أبي موسى.

الثانية: قال القاضي أبو بكر بن العربي[(٣)]: فأما علمُ القضاء فَلَعَمْرُ إلهِك إنه لَنوعٌ من العلم مجرد، وفصلٌ منه مؤكَّد، غير معرفة الأحكام والبصر بالحلال والحرام؛ ففي الحديث: «أقضاكم عليٌّ، وأعلمُكم بالحلال والحرام معاذُ بن جبل»[(٤)]. وقد يكون الرجلُ بصيراً بأحكام الأفعال، عارفاً بالحلال والحرام، ولا يقوم بفصل القضاء.

يُروَى أن عليَّ بن أبي طالب ﷺ قال: لما بعثني رسولُ الله ﷺ إلى اليمن حَفَرَ قومٌ زُبْيَةً للأسد، فوقع فيها الأسدُ وازدحم الناسُ على الزُّبية فوقع فيها رجلٌ وتعلَّق بآخر، وتعلَّق الآخَرُ بآخر، حتى صاروا أربعةً، فجرحهم الأسدُ فيها فَهَلكوا، وحمل القومُ السلاحَ وكاد يكون بينهم قتال؛ قال: فأتيتُهم فقلت: أتقتلون مئتي رجل من أجل أربعة أناس؟! تعالوا أَقْضِ بينَكم بقضاء؛ فإنْ رَضِيتموه فهو قضاء بينكم، وإنْ أَبيتُم رفعتُم ذلك إلى رسول الله ﷺ فهو أحقُّ بالقضاء. فجعل للأوّل رُبُعَ الدِّيَة، وجعل للثاني ثُلثَ الدِّيَة، وجعل للثالث نصفَ الدِّيَة، وجعل للرابع الدِّيَة، وجعل الدِّيَاتِ على من حَفَر الزُّبْيَةَ على قبائل الأربعة؛ فَسَخِطَ بعضُهم ورضي بعضهم، ثم قدموا

---

(١) هذه الأقوال في تفسير الطبري ٢٠/ ٤٨ - ٥١، والنكت والعيون ٥/ ٨٤، وتفسير البغوي ٤/ ٥٢.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦١٥.

(٣) في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦١٥ - ١٦١٦.

(٤) أخرجه ابن ماجه (١٥٤) من حديث أنس ﷺ مطولاً، ولفظه: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر،.. وأقضاهم عليّ.. وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل..» الحديث. وأخرجه أحمد (١٢٩٠٤)، والترمذي (٣٧٩١) دون ذكر علي ﷺ.

على رسول الله ﷺ فقصُّوا عليه القصة؛ فقال: «أنا أقضي بينكم» فقال قائل: إن عليّاً قد قضي بيننا. فأخبروه بما قضي عليّ، فقال رسولُ الله ﷺ: «القضاءُ كما قَضَى عليٌّ» في رواية: فأمضى رسولُ الله ﷺ قضاءَ عليّ[١].

وكذلك يُروَى في المعرفة بالقضاء أن أبا حنيفة جاء إليه رجلٌ فقال: إن ابن أبي ليلى ـ وكان قاضياً بالكوفة ـ جلد امرأةً مجنونة قالت لرجل: يا ابن الزانيين حدَّين في المسجد وهي قائمة. فقال: أخطأ من ستة أوجه.

قال ابن العربي[٢]: وهذا الذي قاله أبو حنيفة بالبديهة لا يُدركه أحدٌ بالروية إلا العلماء، فأما قضيةُ عليٍّ فلا يُدركها الشادي، ولا يلحقها بعد التمرُّن في الأحكام إلا العاكف المُتمادي. وتحقيقُها أن هؤلاء الأربعة مقتولون[٣] خطأً بالتدافع على الحُفرة من الحاضرين عليها، فلهم الدّيَات على مَن حَفَر[٤] على وجه الخطأ، بَيْد أن الأوّل مقتولٌ بالمُدافَعة قاتلُ ثلاثةٍ بالمُجاذَبة، فله الدِّيةُ بما قُتِل، وعليه ثلاثةُ أرباع الدية بالثلاثة الذين قتلهم. وأما الثاني فله ثلثُ الدِّيَة وعليه الثُّلثان بالاثنين اللذين قَتَلَهما بالمُجاذبة. وأما الثالث فله نصفُ الدِّية وعليه النصف؛ لأنه قتل واحداً بالمُجاذبة، فوقعت المحاصَّة، وغَرِمت العواقلُ هذا التقدير بعد القصاص[٥] الجاري فيه. وهذا من بديع الاستنباط.

وأما أبو حنيفة فإنه نَظَر إلى المعاني المتعلقة فرآها ستة: الأوّل: أن المجنون

(١) أخرجه أحمد (١٣١٠)، والبيهقي في السنن الكبرى ٨/ ١١١. وفي إسناده حنش بن المعتمر الكناني، قال البخاري: يتكلمون في حديثه، وقال النسائي: ليس بالقوي، وقال ابن حبان: لا يُحتج به، يتفرد عن علي بأشياء. ميزان الاعتدال ١/ ٦١٩.

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٦١٥ - ١٦١٦، وما قبله منه.

(٣) في النسخ الخطية: المقتولون، وفي (م): المقتولين، والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي.

(٤) في النسخ: حضر، والمثبت من أحكام القرآن.

(٥) في النسخ الخطية ونسخة من أحكام القرآن لابن العربي: القضاء، والمثبت من (م) وأحكام القرآن.

لا حدَّ عليه؛ لأن الجُنون يُسقِطُ التكليف. وهذا إذا كان القذفُ في حالة الجنون، وأما إذا كان يجنُّ مرةً ويُفيق أُخرى فإنه يُحَدُّ بالقذف في حالة إفاقته.

والثاني: قولها: يا ابن الزانيين، فجلدها حدَّين لكل أبٍ حدٌّ، فإنما خطَّأه أبو حنيفة [فيه بناءً][١] على مذهبه في أن حدَّ القذف يتداخل، لأنه عنده حقُّ اللهِ[٢] تعالى كحدِّ الخمر والزنى. وأما الشافعي ومالك فإنهما يَرَيان أن الحدَّ بالقذف حقٌّ للآدمي، فيتعدَّد بتعدُّد المقذوف.

الثالث: أنه جَلَد بغير مطالبة المقذوف، ولا تجوز إقامةُ حدّ القذف بإجماعٍ من الأمة إلا بعد المُطالبة بإقامته ممن يقول: إنه حق الله تعالى، ومن يقول: إنه حقُّ الآدمي. وبهذا المعنى وقع الاحتجاج لمن يرى أنه حقٌّ للآدميّ؛ إذْ لو كان حقاً لله لمَا توقّف على المطالبة كحدِّ الزِّنى.

الرابع: أنه والَى بين الحَدَّين، ومَن وجب عليه حدَّان لم يُوالَ بينهما، بل يُحَدُّ لأحدِهما ثم يُترَكُ حتى يندمِلَ الضرب، ثم يقام عليه الحدُّ الآخر.

الخامس: أنه حدَّها قائمةً، ولا تُحَدُّ المرأةُ إلا جالسةً مستورة؛ قال بعض الناس: في زنبيل.

السادس: أنه أقام الحدَّ في المسجد، ولا تُقام الحدود فيه إجماعاً. وفي القضاء[٣] في المسجد والتعزيز فيه خلافٌ.

قال القاضي: فهذا هو فصلُ الخِطاب وعلم القضاء الذي وقعت الإشارةُ إليه على أحد التأويلات في الحديث المرويّ «أقضاكم عليّ»[٤]. وأما مَن قال: إنه الإيجاز فذلك للعرب دون العَجَم، ولمحمد ﷺ دون العرب؛ وقد بيَّن هذا بقوله: «وأُوتيتُ

(١) ما بين حاصرتين من أحكام القرآن لابن العربي.
(٢) في أحكام لقرآن لابن العربي: حقٌّ لله.
(٣) في أحكام القرآن لابن العربي: القصاص.
(٤) سلف أول المسألة.

جوامعَ الكَلِم»[١].

وأما من قال: إنه قوله: أمَّا بعد؛ فكان النبيُّ ﷺ يقول في خُطبته: «أما بعد»[٢].

ويُروى أن أوّل من قالها في الجاهلية سحبان بن وائل، وهو أوّلُ من آمنَ بالبعث، وأوّل من توكّأ على عصا، وعُمِّر مئة وثمانين سنة. ولو صحَّ أن داود عليه السلام قالها، لم يكن ذلك منه بالعربية على هذا النَّظم، وإنما كان بلسانه. والله أعلم[٣].

قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾

فيه أربع وعشرون مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ «الخَصْمُ» يقع على الواحد والاثنين والجماعة[٤]؛ لأن أصلَه المصدر. قال الشاعر:

وَخَصْمٍ غضابٍ يَنْفُضُونَ لِحَاهُمُ ... كنفضِ البَرَاذينِ العِرابِ المَخَالِيا[٥]

(١) سلف ١٢/ ٢٩٥.

(٢) ثمة عدة أحاديث في أن النبي ﷺ كان يقول في خطبته: «أما بعد» منها حديث الكسوف، هو عند البخاري (٩٢٢)، ومسلم (٩٠٥). وقد ترجم له البخاري: باب من قال في الخطبة بعد الثناء: أما بعد. وترجم في موضع آخر من صحيحه (١٠٦١): باب: قول الإمام في خطبة الكسوف: أما بعد.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦١٧.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٩٤.

(٥) قائله الراعي النميري، وهو في ديوانه ص٢٩١.

النحاس[١]: ولا خلاف بين أهل التفسير أنه يُراد به هاهنا مَلَكان.

وقيل: «تَسَوَّرُوا» وإن كانا[٢] اثنين حملاً على الخَصْم، إذ كان بلفظ الجمع ومضارعاً له، مثل الرَّكْب والصَّحْب. تقديره للاثنين: ذوا خَصْم، وللجماعة: ذوو خَصْم.

ومعنى: «تَسَوَّرُوا المِحرابَ» أَتَوْه مِن أعلى سُوره. يقال: تسوَّر الحائطَ: تسلَّقه، والسُّور: حائطُ المدينة، وهو بغير همز، وكذلك السُّوَرُ جمع سورةٍ، مثل: بُسْرَة وبُسَر، وهي كلُّ منزلة من البناء. ومنه سورةُ القرآن؛ لأنها منزلةٌ بعد منزلةٍ مقطوعة عن الأخرى[٣]. وقد مضى في مقدّمة الكتاب بيانُ هذا[٤]. وقول النابغة:

ألم تَرَ أنَّ اللَّه أعطاكَ سُورَةً ... تَرَى كُلَّ مَلْكٍ دونها يتذبذب[٥]

يريد شرفاً ومنزلة. فأما السؤر بالهمز، فهو بقيةُ الطعام في الإناء. ابن العربي[٦]: والسُّؤر: الوليمة بالفارسي. وفي الحديث: أن النبيَّ ﷺ قال يومَ الأحزاب: «إنَّ جابراً قد صنع لكم سؤراً فحيَّ هلا بكم»[٧].

والمحراب هنا الغُرفة؛ لأنهم تسوَّروا عليه فيها؛ قاله يحيى بن سلام. وقال أبو عُبيدة[٨]: إنه صَدْر المَجْلس، ومنه محرابُ المسجد. وقد مضى القولُ فيه في غير موضع[٩].

---

(١) في معاني القرآن ٦/ ٩٤.

(٢) في (ظ): كانوا، وفي (م): كان.

(٣) الصحاح (سور).

(٤) ١/ ١٠٦.

(٥) ديوان النابغة ص١٨، وسلف ١/ ١٠٦.

(٦) في أحكام القرآن ٤/ ١٩١٨، وما قبله منه.

(٧) أخرجه البخاري (٤١٠٢)، ومسلم (٢٠٣٩) مطولاً من حديث جابر ﷺ، وأخرجه أحمد بنحوه مطولاً (١٥٠٢٨).

(٨) في مجاز القرآن ٢/ ١٨٠ بنحوه، ونقله المصنف عنه بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٨٥، وما قبله منه، وقول يحيى بن سلام فيه: إنه المسجد.

(٩) ٥/ ١٠٧ و١٣/ ٢٢٨.

﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ﴾ جاءت «إِذْ» مرتين؛ لأنهما فِعْلان. وزَعَم الفرّاء[1] أن إحداهما بمعنى لمَّا. وقول آخر أن تكون الثانيةُ مع ما بعدها تبييناً لما قبلَها.

قيل: إنهما كانا إنسيين؛ قاله النقَّاش. وقيل: مَلَكَين؛ قاله جماعة. وعيَّنهما جماعة، فقالوا: إنهما جبريلُ وميكائيل[2]. وقيل: مَلَكَين في صورةِ إنسيَّين بعثهما اللهُ إليه في يوم عبادته. فمنعهما الحرسُ الدخول، فتسوَّروا المحراب عليه، فما شعر وهو في الصلاة إلا وهما بين يدَيْه جالسين؛ وهو قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ أي: عَلَوْا ونزلُوا عليه من فوق المحراب؛ قاله سفيان الثوري وغيره[3].

وسببُ ذلك ما حكاه ابن عباس أن داود عليه السلام حدَّث نفسَه إن ابتُلي أن يعتصم. فقيل له: إنك ستُبتلى وتَعْلَمُ اليومَ الذي تُبتلَى فيه فَخُذْ حِذرك. فأخذ الزبور ودخل المحرابَ، ومنع من الدخول عليه، فبينا هو يقرأ الزبورَ إذ جاء طائرٌ كأحسن ما يكون من الطير، فجعل يَدرُج بين يديه. فهمَّ أن يتناولَه بيده، فاستدرج حتى وقعَ في كَوَّة المحراب، فدنا منه لِيأخُذَه فطار، فاطلع لِيُبصِرَه فأشرفَ على امرأة تغتسل، فلما رأته غطَّت جسدَها بشعرها. قال السدّي: فوقعت في قلبه.

قال ابن عباس: وكان زوجها غازياً في سبيل الله وهو أوريا بن حنان، فكتب داودُ إلى أمير الغُزاة أن يجعل زوجَها في حَمَلَةِ التابوت، وكان حَمَلَةُ التابوت إما أن يَفتح اللهُ عليهم أو يُقتلوا، فقدَّمه فيهم فقتل، فلما انقضت عِدَّتها خطبها داود، واشترطت عليه إن ولدتْ غلاماً أن يكون الخليفةَ بعده، وكتبت عليه بذلك كتاباً، وأشهدتْ عليه خمسين رجلاً من بني إسرائيل، فلم تستقرَّ نفسُه حتى ولدتْ سليمانَ وشَبَّ، وتسوَّر الملكان وكان من شأنهما ما قصَّ اللهُ في كتابه. ذكره الماوردي وغيره.

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٤٠١، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٥٩، وما قبله منه.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦١٩.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٥٣، وزاد المسير ٧/ ١١٥.

ولا يصح[١].

قال ابن العربي[٢]: وهو أمثلُ ما رُوي في ذلك.

قلت: ورواه مرفوعاً بمعناه الترمذيُّ الحكيم في «نوادر الأصول» عن يزيدَ الرَّقاشيِّ، سمع أنس بن مالك يقول: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ داودَ النبيَّ عليه السلام حين نظرَ إلى المرأة فهمَّ بها قطع على بني إسرائيل بَعْثاً، وأوصى صاحبَ البَعْث فقال: إذا حضر العدوُّ قَرِّب فلاناً، وسمَّاه، قال: فقرَّبه بين يدي التابوت. قال: وكان ذلك التابوتُ في ذلك الزمان يُستنصَر به، فمن قُدِّم بين يدي التابوت لم يرجعْ حتى يُقتلَ أو ينهزمَ عنه الجيش الذي يُقاتله، فقُدِّم، فَقُتِل زوجُ المرأة، ونزل المَلَكان على داود، فقصَّا عليه القصّة»[٣].

وقال سعيد عن قتادة: كتبَ إلى زوجها وذلك في حصار عَمَّان مدينة بلقاء أن يأخذوا بحلقة الباب، وفيه الموت الأحمر، فتقدَّم فقتل.

وقال الثعلبي[٤]: قال قومٌ من العلماء: إنما امتحنَ اللهُ داودَ بالخطيئة؛ لأنه تمنَّى يوماً على ربِّه منزلةَ إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وسأله أن يمتحنه نحوَ ما امتحنهم، ويُعطيه نحو ما أعطاهم. وكان داودُ قد قسمَ الدهرَ ثلاثةَ أيام، يومٌ يقضي فيه بين الناس، ويومٌ يخلو فيه بعبادة ربّه، ويومٌ يخلو فيه بنسائه وأشغاله.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٨٥ - ٨٦ ، وتفسير البغوي ٤/ ٥٢ ، وزاد المسير ٧/ ١١٥ . وينظر قول الحافظ ابن كثير الذي سنذكره في التعليق بعد التالي.

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٢٢ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٠/ ٧٤ ، وابن أبي حاتم والحكيم الترمذي في نوادر الأصول، فيما ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٣٠٠ وضعَّف إسناده. قال الحافظ ابن كثير في تفسيره ٧/ ٦٠: قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثاً لا يصح سنده؛ لأنه من رواية يزيد الرَّقَاشي عن أنس، ويزيد وإن كان من الصالحين لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة. اهـ .

(٤) في عرائس المجالس ص٢٨١ - ٢٨٣ ، والكلام إلى نهاية المسألة فيه، وفي تفسير البغوي ٤/ ٥٢ - ٥٣ بنحوه.

وكان يجد فيما يقرأ من الكتب فَضْلَ إبراهيم وإسحاق ويعقوب. فقال: يا رب، إنَّ الخيرَ كلَّه قد ذهب به آبائي؛ فأوحى الله تعالى إليه: إنهم ابتُلوا ببلايا لم يُبتَلَ بها غيرُهم فصبروا عليها؛ ابتُلي إبراهيمُ بنمروذ، وبالنار، وبذبح ابنه، وابتُلِيَ إسحاقُ بالذبح، وابتُلي يعقوبُ بالحزن على يوسف وذهاب بصره، ولم تُبتَلَ أنت بشيء من ذلك. فقال داود عليه السلام: فابتلني بمثل ما ابتليتهم، وأَعطني مثلَ ما أَعطيتَهم، فأوحى الله تعالى إليه: إنك مُبتلىً في شهر كذا في يوم الجمعة. فلما كان ذلك اليوم دخلَ محرابَه، وأغلق بابَه، وجعل يُصلِّي ويقرأ الزبور. فبينا هو كذلك إذ مثلَ له الشيطانُ في صورة حمامة من ذهب، فيها من كلّ لون حَسَن، فوقف بين رجليه، فمدَّ يدَه لِيأخُذَها فيدفعها لابنٍ له صغير، فطارتْ غيرَ بعيد، ولم تُؤيسه من نفسها، فامتدَّ إليها لِيأخُذَها فتنحَّت، فتبعها فطارتْ حتى وقعتْ في كَوَّة، فذهب لِيأخُذَها فطارت، ونظرُ داودَ يرتفع في إثرها ليبعثَ إليها من يأخذُها، فنظر امرأةً في بستان على شَطّ بركة تغتسل؛ قاله الكلبي.

وقال السُّدي(١): تغتسل عُريانة على سطحٍ لها؛ فرأى أجملَ النساء خَلْقاً، فأبصرت ظِلَّه فنفضتْ شعرَها فغطَّى بَدَنَها، فزاده إعجاباً بها. وكان زوجُها أوريا بن حنان في غزوة مع أيوب بن صوريا ابن أخت داود، فكتب داودُ إلى أيوبَ أن ابعثْ بأوريا إلى مكان كذا وكذا، وقَدِّمه قبلَ التابوت، وكان مَن قُدِّم قبل التابوت لا يَحِلُّ له أن يرجعَ وراءه حتى يفتحَ اللهُ عليه أو يستشهد. فقدَّمه ففتح له، فكتب إلى داود يُخبره بذلك.

قال الكلبي: وكان أوريا سيفَ الله في أرضه في زمان داود، وكان إذا ضربَ ضربةً وكبَّر كبَّر جبريلُ عن يمينه وميكائيلُ عن شماله، وكبَّرت ملائكةُ السماء بتكبيره حتى ينتهي ذلك إلى العرش، فتُكبِّر ملائكةُ العرش بتكبيره. قال: وكان سيوفُ الله ثلاثة؛ كالب بن يوفنا في زمن موسى، وأوريا في زمن داود، وحمزة بن عبد المطَّلب

(١) أخرجه الطبري ٢٠/٦٦ .

في زمن رسول الله ﷺ[١].

فلما كتب أيوبُ إلى داود يُخبره أن الله قد فتح على أوريا كتبَ داودُ إليه: أن ابعثه في بَعْثِ كذا وقدِّمه قبل التابوت؛ ففتح الله عليه، فقُتل في الثالثة شهيداً. فتزوَّج داودُ تلك المرأةَ حين انقضت عِدَّتها. فهي أُمُّ سليمان بن داود.

وقيل: سببُ امتحان داود عليه السلام أن نَفْسَه حدَّثته أنه يُطيق قطعَ يومٍ بغير مُقارفة شيء.

قال الحسن: إن داود جزَّأ الدهر أربعةَ أجزاء؛ جُزءاً لنسائه، وجُزءاً للعبادة، وجُزءاً لبني إسرائيل يُذاكرونه ويُذاكرهم ويبكونه ويبكيهم، ويوماً للقضاء. فتذاكروا هل يمرُّ على الإنسان يومٌ لا يُصيب فيه ذنباً؟ فأضمر داودُ أنه يُطيق ذلك؛ فأغلق البابَ على نفسه يومَ عبادته، وأمر ألا يدخل عليه أحد، وأكبَّ على قراءة الزبور، فوقعت حمامةٌ من ذهب بين يديه. وذكر نحو ما تقدَّم.

قال علماؤنا: وفي هذا دليل، وهي:

الثانية: على أنه ليس على الحاكم أن ينتصب للناس كلَّ يوم، وأنه ليس للإنسان أن يترك وطءَ نسائه وإن كان مشغولاً بالعبادة. وقد مضَى هذا المعنى في «النساء». وحَكَم كعبٌ بذلك في زمن عمرَ بمحضره رضي الله عنهما[٢]. وقد قال عليه الصلاة والسلام لعبد الله بن عمرو[٣]: «إنّ لِزوجِكَ عليك حقّاً» الحديث.

وقال الحسن أيضاً ومجاهد: إن داودَ عليه السلام قال لبني إسرائيلَ حين استُخلِفَ: والله لأعْدِلنَّ بينكم، ولم يَسْتَثْنِ فابتُلي بهذا.

وقال أبو بكر الورَّاق: كان داودُ كثيرَ العبادة فأُعجب بعمله، وقال: هل في

---

(١) الذي في الصحيح أن خالد بن الوليد ﷺ هو من سمَّاه رسول الله ﷺ سيفاً من سيوف الله. أخرجه البخاري (٣٧٥٧) من حديث أنس ﷺ، وأحمد (٤٣) من حديث أبي بكر ﷺ.

(٢) سلف ٦/ ٣٦ - ٣٧.

(٣) في (م) عمر، والحديث أرجه أحمد (٦٨٦٧)، والبخاري (١٩٧٥)، ومسلم (١١٥٩).

الأرض أحدٌ يعمل كعملي. فأتاه جبريل[(١)]؛ فقال: إنَّ الله تعالى يقول لك: أُعجِبْتَ بعبادتك، والعُجب يأكلُ العبادة كما تأكل النارُ الحَطَبَ، فإنْ أُعجبتَ ثانية وَكَلْتُكَ إلى نفسك. قال: يا رب، كِلْني إلى نفسي سنةً. قال: إنَّ ذلك لَكثير. قال: فشهراً. قال: إنَّ ذلك لكثير. قال: فيوماً. قال: إنَّ ذلك لَكثير. قال: يا ربِّ، فَكِلْني إلى نفسي ساعةً. قال: فشأنك بها. فوكل الأحراسَ، ولَبِسَ الصُّوفَ، ودخل المحرابَ، ووضع الزَّبور بين يديه؛ فبينما هو في عبادته إذ وقع الطائرُ بين يديه، فكان من أمرِ المرأة ما كان.

وقال سفيان الثوري: قال داود ذاتَ يوم: يا ربِّ، ما مِنْ يوم إلا ومِن آل داود لك فيه صائم، وما مِنْ ليلةٍ إلا ومِن آل داود لك فيها قائم. فأوحى الله إليه: يا داودُ، منك ذلك أو مني؟ وعِزَّتي لأَكِلَنَّك إلى نفسك. قال: يا رب، اعفُ عنِّي. قال: أَكِلُكَ إلى نفسك سنةً. قال: لا بِعزَّتك. قال: فشهراً. قال: لا بِعزَّتك. قال: فأُسبوعاً. قال: لا بِعزَّتك. قال: فيوماً. قال: لا بعزَّتك. قال: فساعة قال: لا بعزَّتك. قال: فلحظةً. فقال له الشيطان: وما قدرُ لحظة. قال: كِلْني إلى نفسي لحظةً. فَوَكَلَهُ اللهُ إلى نفسه لحظةً. وقيل له: هي في يوم كذا في وقت كذا. فلما جاء ذلك اليومُ جعله للعبادة، ووكل الأحراسَ حول مكانه. قيل: أربعة آلاف. وقيل: ثلاثين ألفاً، أو ثلاثة وثلاثين ألفاً. وخلا بعبادة ربِّه، ونشر الزبور بين يديه، فجاءت الحمامةُ فوقعت له، فكان من أمره في لحظته مع المرأة ما كان. وأرسلَ اللهُ عزّ وجلّ إليه المَلَكين بعد ولادة سليمان، وضَرَبا له المثل بالنِّعاج؛ فلما سمع المَثَلَ ذكَر خطيئته فخرَّ ساجداً أربعين ليلةً على ما يأتي.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ﴾ لأنهما أتياه ليلاً في غير وقت دخول الخصوم. وقيل: لِدخولهم عليه بغير إذنه. وقيل: لأنهم تسوَّروا عليه المحراب ولم يأتوه من الباب[(٢)].

---

(١) في النسخ: فأوحى الله إليه جبريل، والمثبت من عرائس المجالس ص٢٨٣، والكلام منه.

(٢) تفسير الطبري ٢٠/ ٥٤، وزاد المسير ٧/ ١١٨ بنحوه.

قال ابن العربي[١]: وكان محرابُ داودَ عليه السلام من الامتناع بالارتفاع، بحيث لا يَرتقي إليه آدميٌّ بحيلة إلا أن يُقيم إليه أياماً أو أشهراً بحسب طاقته، مع أعوانٍ يَكثُر عَدَدُهم، وآلاتٍ جمَّة مختلفة الأنواع. ولو قلنا: إنه يوصَل إليه من باب المحراب لما قال الله تعالى مُخبراً عن ذلك: ﴿تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ إذ لا يقال: تسوَّر المحرابَ والغُرفةَ لمن طلع إليها مِن دَرَجها، وجاءها مِن أسفلها إلا أن يكون ذلك مَجازاً؛ وإذا شاهدت الكَوَّة التي يقال: إنه دخل منها الخَصْمان علمت قطعاً أنهما مَلَكان؛ لأنها من العُلُوِّ بحيث لا يَنالها إلا عُلْويّ.

قال الثعلبي: وقد قيل: كان المُتسوِّران أخوين من بني إسرائيل لأب وأم. فلما قضى داوُد بينهما بقضية قال له مَلَك من الملائكة: فهلا قضيتَ بذلك على نفسكَ يا داود. قال الثعلبي: والأول أحسنُ؛ أنهما كانا مَلَكين نَبَّها داودَ على ما فَعَل.

قلت: وعلى هذا أكثرُ أهل التأويل. فإن قيل: كيف يجوز أن يقول الملكان: ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ وذلك كَذِبٌ، والملائكة عن مثله مُنزَّهون. فالجواب عنه أنه لابد في الكلام من تقدير؛ فكأنهما قالا: قَدِّرنا كأننا خَصْمان بَغَى بعضُنا على بعض فاحكُمْ بيننا بالحق، وعلى ذلك يُحمل قولُهما: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ لأن ذلك وإن كان بصورة الخبر فالمرادُ إيرادُه على طريق التقديرِ لينبّه داود على ما فعل؛ والله أعلم[٢].

الرابعة: إن قيل: لِم فَزِعَ داودُ وهو نبيٌّ، وقد قَوِيتْ نفسُه بالنبوّة، واطمأنَّتْ بالوحي، ووَثِقَتْ بما آتاه الله من المنزلة، وأظهر على يديه من الآيات، وكان من الشجاعة في غاية المكانة؟! قيل له: ذلك سبيل الأنبياء قبلَه، لم يأمنوا القتل والأذِية، ومنهما كان يخاف. ألا ترى إلى موسى وهارون عليهما السلام كيف قالا: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ [طه: ٤٥] فقال الله عز وجل: ﴿لَا تَخَافَآ﴾. وقالت الرُّسل

(١) في أحكام القرآن ٤/١٦١٩.
(٢) أحكام القرآن للكيا ٤/٣٦٠.

للوط: ﴿لَا تَخَفْ﴾ [هود: ٧٠] ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾ [هود: ٨١] وكذا قال الملكان هنا: «لَا تَخَفْ»[١].

قال محمد بن إسحاق: بعث اللهُ إليه مَلَكين يختصمان إليه وهو في محرابه مثلاً ضربه اللهُ له ولأوريا، فرآهما واقفين على رأسه؛ فقال: ما أدخلكما عليّ؟ قالا: ﴿لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ فجئناك لِتقضيَ بيننا.

الخامسة: قال ابن العربي[٢]: فإنْ قيل: كيف لم يأمُرْ بإخراجهما إذ قد علم مَطْلبهما، وهلَّا[٣] أدَّبهما وقد دخلا عليه بغير إذن؟ فالجواب عليه من أربعة أوجه:

الأوّل: أنّا لم نعلمْ كيفيةَ شَرْعه في الحجاب والإذن، فيكون الجوابُ بحسب تلك الأحكام، وقد كان ذلك في ابتداء شَرْعنا مُهملاً في هذه الأحكام، حتى أوضحها اللهُ تعالى بالبَيان.

الثاني: أنَّا لو نزَّلنا الجواب على أحكام الحجاب، لاحتملَ أن يكون الفزعُ الطارئ عليه أذهله عما كان يجبُ في ذلك له.

الثالث: أنه أراد أن يَستوفيَ كلامهما الذي دخلا له حتى يعلَمَ آخرَ الأمر منه، ويرى هل يَحتمِلُ التقحُّم فيه بغير إذن أمْ لا؟ وهل يقترِن بذلك عذرٌ لهما أن لا يكون لهما عذرٌ فيه؟ فكان من آخرِ الحال ما انكشف أنه بلاءٌ ومحنة، وَمَثَلٌ[٤] ضربه اللهُ في القصة، وأدبٌ وقع على دعوى العِصمة.

الرابع: أنه يحتملُ أن يكون في مسجد ولا إذنَ في المسجد لأحد إذ لا حَجْرَ فيه على أحد.

قلت: وقولٌ خامس ذكره القشيري؛ وهو أنهما قالا: لمَّا لم يَأذنْ لنا المُوكَّلون بالحجاب، توصَّلنا إلى الدخول بالتَّسُّور، وخفنا أن يتفاقمَ الأمرُ بيننا. فَقَبِلَ داودُ

---

(١) في أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٦١٩ بنحوه.
(٢) أحكام القرآن ٤/١٦١٩ - ١٦٢٠.
(٣) في النسخ الخطية: ولا، والمثبت من (م).
(٤) في النسخ الخطية: مثلاً، والمثبت من (م).

عُذْرَهم، وأَصغى إلى قولهم.

السادسة: قوله تعالى: «خَصْمانِ» إن قيل: كيف قال: «خَصْمانِ» وقبلَ هذا: «إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْراب» فقيل: لأن الاثنين جمع؛ قال الخليل: كما تقول: نحن فعلنا إذا كنتما اثنين. وقال الكسائي: جمع لما كان خبراً، فلما انقضى الخبرُ وجاءت المُخاطبة، خبَّر الاثنان عن أنفسهما فقالا: خَصْمان.

وقال الزجاج[1]: المعنى: نحن خَصْمان. وقال غيره: القولُ محذوف؛ أي: يقول خَصْمانِ بَغَى بعضُنا على بعض. قال الكسائي: ولو كان بغى بعضُهما على بعض لجاز.

الماوردي[2]: وكانا مَلَكين، ولم يكونا خَصْمين ولا باغيين، ولا يتأتَّى منهما كَذِب؛ وتقديرُ كلامهما ما تقول: إنْ أتاك خَصْمان قالا: بغى بعضُنا على بعض.

وقيل: أي: نحن فريقان من الخصوم بغَى بعضنا على بعض.

وعلى هذا يحتمل أن تكون الخُصومةُ بين اثنين ومع كلٍّ واحد جمع. ويحتملُ أن يكون لكلٍّ واحد من هذا الفريق خُصومةٌ مع واحد[3] من الفريق الآخر، فحضروا الخُصوماتِ، ولكن ابتدأ منهم اثنان، فعرفَ داودُ بذِكْر النكاح القصة. وأغنى ذلك عن التعرُّض للخُصومات الأُخَر.

والبَغْي التعدِّي والخُروج عن الواجب. يقال: بغى الجُرْح إذا أفرطَ وَجَعُه وترامَى إلى ما يَفحُشُ، ومنه: بَغَتِ المرأةُ إذا أَتَتِ الفاحشةَ.

السابعة: قوله تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ أي: لا تَجُرْ؛ قاله السُّدِّي[4]. وحكى أبو عبيد: شَطَطت عليه، وأشططتُ، أي: جُرت. وفي حديث تميم الداريّ:

---

(١) في معاني القرآن ٤/٣٢٦ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٥٩ - ٤٦٠ ، وما قبله وما بعده منه.

(٢) في النكت والعيون ٥/ ٨٦ .

(٣) في (م): كل واحد.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٨٦ .

إنكَ لشَاطِّي. أي: جائر عليَّ في الحُكم[١].

وقال قتادة: لا تَمِلْ. الأخفش: لا تُسرِف[٢]. وقيل: لا تُفرط. والمعنى متقارب.

والأصلُ فيه البُعد، من شَطَّتِ الدارُ، أي: بَعُدَتْ؛ شَطَّتِ الدار تَشِطُّ وتَشُطُّ شطّاً وشطوطاً: بَعُدَتْ. وأشطَّ في القضية، أي: جار، وأشطَّ في السَّوْم واشتط، أي: أبعد، وأشطُّوا في طلبي، أي: أمعنوا. قال أبو عمرو: الشَّطَطُ مجاوزةُ القَدْر في كلِّ شيء. وفي الحديث: لها مهرُ مِثْلِها لا وَكْسَ ولا شَطَط[٣]. أي: لا نُقصان ولا زيادة[٤]. وفي التنزيل: ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٤] أي: جوراً من القول وبُعداً عن الحق.

﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ أي: أَرشدنا إلى قَصْدِ السبيل.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ أي: قال المَلَك الذي تكلَّم عن أوريا «إِنَّ هذا أَخي» أي: على ديني، وأشار إلى المُدَّعى عليه. وقيل: أخي، أي: صاحبي[٥] «له تِسْعٌ وتِسعون نَعْجةً».

وقرأ الحسن: «تَسْعٌ وَتَسْعُونَ نَعْجَةً» بفتح التاء فيهما، وهي لغةٌ شاذة، وهي الصحيحة من قراءة الحسن؛ قاله النحاس[٦]. والعرب تَكْني عن المرأة بالنعجة والشاة؛ لِمَا هي عليه من السكون والمَعْجَزة وضَعْف الجانب. وقد يُكْنَى عنها بالبقرة

---

(١) الصحاح (شطط)، وقول أبي عبيد في غريب الحديث ٤/ ٣٠٨ ، وقول تميم الداري ﷺ ذكره أبو عبيد، وابن الأثير في النهاية (شطط). وقصته: أن رجلاً كلَّمه في كثرة العبادة، فقال: أرأيت إن كنتُ مؤمناً ضعيفاً وأنت مؤمن قويّ، إنك لشاطِّي حتى أحمل قوتك على ضعفي، فلا أستطيع فأنبتُّ.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٨٦ .

(٣) هذا قول ابن مسعود ﷺ في رجل تزوج امرأة لم يفرض لها ولم يدخل بها حتى مات. وسلف ٤/ ١٥٩ .

(٤) الصحاح (شطط).

(٥) النكت والعيون ٥/ ٨٧ .

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٤٦٠ ، وقراءة الحسن في القراءات الشاذة ص ١٣٠ ، والمحتسب ٢/ ٢٣١ .

والحِجر[(١)] والناقة؛ لأنَّ الكلَّ مَرْكوب. قال ابن عون:

أنــا أبــوهــنَّ ثــلاثٌ هُــنَّــهْ رابــعــةٌ فــي الــبــيــت صُــغْــرا هُــنَّــهْ
ونــعــجــتــي خــمــسـاً تُــوفِّــيــهــنَّــهْ أَلَا فــتــىً ســمــحٌ يُــغــذِّيــهــنَّــهْ
طَــيّ الــنَّــقَــا فــي الــجــوع يَــطْــوِيــهــنَّــهْ ويــلُ الــرَّغــيــفِ ويــلَــهُ مِــنْــهُــنَّــهْ[(٢)]

وقال عنترة:

يــا شــاةَ مــا قَــنَــصٍ لِــمــن حَــلَّــتْ لــه حَــرُمــتْ عــلــيَّ وَلــيــتَــهــا لــم تَــحْــرُمِ
فَبَعَثْتُ جاريتي فقلتُ لها اذْهَبي فتَجَسَّسِي أخبارَها لي واعْلَمي
قــالــت رأيْــتُ مِــن الأعــادي غِــرَّةً والــشّــاةُ مُــمْــكِــنَــةٌ لــمــن هــو مُــرْتَــمِ
فــكــأنَّــمــا الــتَــفَــتَــتْ بِــجــيــدِ جَــدايــةٍ رَشــأٍ مِــنَ الــغِــزْلانِ حُــرٌّ أَرْثَــمِ[(٣)]

وقال آخر:

فــرَمَــيْــتُ غَــفْــلَــةَ عَــيْــنِــهِ عــن شَــاتــهِ فــأَصَــبْــتُ حَــبَّــةَ قَــلْــبِــهــا وطِــحَــالَــهــا[(٤)]

وهذا من أحسنِ التعريض حيث كَنَى بالنِّعاج عن النساء. قال الحسين بن الفَضْل: هذا من المَلَكين تعريضٌ وتنبيهٌ كقولهم: ضربَ زيدٌ عَمراً، وما كان ضربٌ ولا نعاج على التحقيق، كأنه قال: نحن خَصْمان هذه حالُنا[(٥)]. قال أبو جعفر النحاس: وأحسنُ ما قيل في هذا: أنَّ المعنى: يقول خصمان بغَى بعضُنا على بعض، على جهة المسألة؛ كما تقول: رجلٌ يقول لامرأته كذا؛ ما يجب عليه؟[(٦)]

---

(١) في (د) و(ظ) و(م): والحجرة، والمثبت من (ز)، وهو الموافق لأحكام القرآن لابن العربي، والكلام منه ٤/ ١٦٢٠ ، والحِجْر: الأنثى من الخيل، اللسان (حجر).

(٢) أورد البيتان الأول والثاني الآلوسي في روح المعاني ٢٣/ ١٨٠ .

(٣) ديوان عنترة ص ٢٨ . الجداية: الغزال. والرشأ: الظبي إذا قوي ومشى مع أمه. القاموس (جدي) و(رشأ).

(٤) قائله الأعشى، وهو في ديوانه ص ٧٧ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٥٤ بنحوه.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٩٥ .

قلت: وقد تأوَّل المُزنيّ صاحبُ الشافعي هذه الآيةَ وقولَه ﷺ في حديث ابن شهاب الذي خرَّجه «الموطأ» وغيره: «هو لكَ يا عبدُ بن زَمْعَة[1]» على نحو هذا؛ قال المُزني: يحتمِل هذا الحديثُ عندي ـ والله أعلم ـ أن يكون النبيُّ ﷺ أجاب عن المسألة فأعلمهم بالحُكم أنَّ هذا يكون إذا ادَّعى صاحبُ فراش وصاحبُ زِنى، لا أنه قَبِلَ على عُتبة قولَ أخيه سعد، ولا على زَمْعَة قولَ ابنه: إنه ولدُ زنى، لأن كلَّ واحد منهما أخبرَ عن غيره. وقد أجمع المسلمون أنه لا يقبل إقرار أحدٍ على غيره. وقد ذكر الله سبحانه في كتابه مثلَ ذلك في قصة داود والملائكة؛ إذ دخلوا عليه فَفَزِعَ منهم، قالوا: لا تَخَفْ خَصْمان، ولم يكونوا خَصْمين، ولا كان لواحد منهم تسعٌ وتسعون نَعْجة، ولكنهم كلَّموه على المسألة لِيعرِفَ بها ما أرادوا تعريفَه. فيحتمِل أن يكون النبي ﷺ حكم في هذه القصة على المسألة، وإنْ لم يكن أحدٌ يُؤنسني على هذا التأويل في الحديث، فإنه عندي صحيح[2]. والله أعلم.

التاسعة: قال النحاس[3]: وفي قراءة ابن مسعود: «إنَّ هذا أخِي كان له تِسْعٌ وتسعونَ نعجةً أُنْثَى[4]» و«كان» هنا مثل قوله عزّ وجلّ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فأما قوله: «أنثى» فهو تأكيد، كما يقال: هو رجلٌ ذكرٌ، وهو تأكيد. وقيل: لمَّا كان يقال: هذه مئةُ نعجة وإنْ كان فيها من الذكور شيءٌ يسير، جاز أن يقال: أُنثى ليعلم أنه لا ذَكَرَ فيها. وفي التفسير: له تسع وتسعون امرأة.

قال ابن العربي[5]: إنْ كان جميعهن أحراراً فذلك شَرْعُه، وإن كنَّ إماءً فذلك شرعُنا. والظاهرُ أن شرع مَن تقدَّم قبلنا لم يكن محصوراً بعدد، وإنما الحصر في

---

(١) الموطأ ٢/ ٧٣٩ ، وأخرجه أحمد (٢٤٠٨٦)، والبخاري (٢٠٥٣) ومسلم (١٤٥٧) مطولاً، وفيه قصة.

(٢) التمهيد ٨/ ١٨٦ .

(٣) معاني القرآن ٦/ ٩٧ - ٩٨ .

(٤) القراءات الشاذة ص١٣٠ .

(٥) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٢٠ .

شريعة محمد ﷺ، لِضَعْفِ الأبدان وقلَّة الأعمار.

وقال القشيري: ويجوز أن يقال: لم يكن له هذا العدد بعينه، ولكن المقصود ضرب مثل، كما تقول: لو جئتني مئةَ مرة لم أقضِ حاجتَك، أي: مراراً كثيرة.

قال ابن العربي[١]: قال بعض المفسرين: لم يكن لداود مئة امرأة، وإنما ذكر التسعة والتسعين مثلاً؛ المعنى: هذا غنيٌّ عن الزوجة وأنا مُفتقِرٌ إليها. وهذا فاسدٌ من وجهين: أحدهما: أن العدول عن الظاهر بغير دليل لا معنى له، ولا دليل يدلُّ على أن شرعَ من قبلنا كان مقصوراً من النساءِ على ما في شرعنا. الثاني: أنه روى البخاري وغيره أن سليمانَ قال: «لأطوفنَّ الليلةَ على مئة امرأة تَلِدُ كلُّ امرأة غلاماً يُقاتل في سبيل الله، ونَسِيَ أن يقول: إن شاء الله»[٢]. وهذا نصٌّ.

العاشرة: قوله تعالى: ﴿وَلِيَ نَعۡجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ أي: امرأة واحدة: ﴿فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا﴾ أي: انزل لي عنها حتى أَكْفُلَها، وقال ابن عباس: أَعطنيها. وعنه: تحوَّل لي عنها. وقاله ابن مسعود. وقال أبو العالية: ضُمَّها إليَّ حتى أَكْفُلَها. وقال ابن كيسان: اجعلها كِفْلي ونصيبي، ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ﴾ أي: غلبني. قال الضحاك: إنْ تكلَّم كان أفصحَ مني، وإن حارب كان أبطشَ مني[٣].

يقال: عزّه يَعُزُّه ـ بضم العين في المستقبل ـ عَزّاً: غلبه. وفي المثل: مَنْ عَزَّ بَزَّ؛ أي: من غَلَبَ سَلَبَ. والاسمُ العِزَّة، وهي القوّة والغَلَبة[٤]. قال الشاعر:

قَطاةٌ عَزَّها شَرَكٌ فباتَتْ تُجاذِبُهُ وقد عَلِقَ الجَناحُ[٥]

---

(١) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٢١ .

(٢) صحيح البخاري (٥٢٤٢)، وأخرجه أحمد (٧٧١٥)، ومسلم (١٦٥٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) هذه الأقوال في المحرر الوجيز ٤/ ٥٠٠ ، والنكت والعيون ٥/ ٨٧ ، وتفسير البغوي ٤/ ٥٤ .

(٤) الصحاح (عزز). والمثل: من عزَّ بزَّ. سلف ١٨/ ١٢٥ .

(٥) اختلف في قائله، فقيل: مجنون ليلى، وقيل: نُصَيب بن رباح، وقيل: توبه بن الحُمَيِّر. ينظر ديوان مجنون ليلى ص ٩٠ ، وشعر نُصيب بن رباح ص٧٤ ، والكامل للمبرد ٢/ ٩٢٩ ، وشرح ديوان الحماسة البصرية ٣/ ١٥١ .

وقرأ عبدُ الله بن مسعود وعُبيد بن عُمير: «وعَازَّني في الخطَابِ»[(١)] أي: غالبني؛ من المُعَازَّة، وهي المغالبة؛ عازَّه، أي: غالبه.

قال ابن العربي[(٢)]: واختُلف في سبب الغَلَبة؛ فقيل: معناه: غلبني ببيانه. وقيل: غَلَبني بسلطانه؛ لأنه لمَّا سأله لم يستطِعْ خِلافَه.

كان ببلادنا أميرٌ يقال له: سير بن أبي بكر[(٣)]، فكلَّمته في أن يسأل لي رجلاً حاجة، فقال لي: أما علمتَ أنَّ طلبَ السلطان للحاجة غَصْبٌ لها. فقلت: أما إذا كان عَدْلاً فلا. فعجبتُ من عُجمته وحفظه لما تمثَّل به وفِطنته، كما عَجِبَ من جوابي له واستغربه.

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ قال النحاس[(٤)]: فيقال: إن هذه كانت خطيئةَ داود عليه السلام؛ لأنه قال: لقد ظَلمك من غير تثبُّت بينة، ولا إقرار من الخَصْم؛ هل كان هذا كذا أو لم يكن. فهذا قول. وسيأتي بيانُه في المسألة بعد هذا، وهو حسنٌ إن شاء الله تعالى.

قال أبو جعفر النحاس[(٥)]: فأما قولُ العلماء الذين لا يُدفَع قولُهم؛ منهم عبد الله ابن مسعود وابن عباس، فإنهم قالوا: ما زاد داودُ صلى الله على نبينا وعليه على أن قال للرجل: اِنزل لي عن امرأتك. قال أبو جعفر: فعاتبه اللهُ عزّ وجلّ على ذلك ونبَّهه عليه، وليس هذا بكبير من المعاصي، ومَن تخطَّى إلى غير هذا فإنما يأتي بما لا يصحُّ عن عالم، ويلحقه فيه إثمٌ عظيم. كذا قال في كتاب «إعراب القرآن».

وقال: في كتاب «معاني القرآن»[(٦)] له بمثله. قال ﷺ: قد جاءت أخبارٌ وقصصٌ في أمر داود عليه السلام وأوريا، وأكثرها لا يصحُ! ولا يتصل إسنادُه، ولا ينبغي أن

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥٠٠، ونسبها في القراءات الشاذة ص ١٣٠ لمسروق وأبي وائل والحسن.
(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٢١.
(٣) أحد أمراء السلطان يوسف بن تاشفين. نفح الطيب ٤/ ٣٧٣.
(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٤٦١.
(٥) المصدر السابق.
(٦) ٦/ ٩٨ - ١٠١ وما بين حاصرتين الآتي منه.

يُجترأ على مثلها إلا بعد المعرفة بصحتها. وأصحُّ ما روي في ذلك ما رواه مسروق عن عبد الله بن مسعود قال: ما زاد دواودُ عليه السلام على أن قال: «أكفِلْنِيها» أي: اِنزل لي عنها. وروى المِنهال عن سعيد بن جُبير [عن ابن عباس] قال: ما زاد داود ﷺ على أن قال: «أكْفِلْنِيها» أي: تحوَّل لي عنها وضُمَّها إليَّ(١).

قال أبو جعفر: فهذا أجلُّ ما رُوي في هذا، والمعنى عليه: أن داود عليه السلام سأل أُوريا أن يُطلِّق امرأته كما يسأل الرجلُ الرجلَ أن يَبيعه جاريتَه، فنبَّهه الله عز وجل على ذلك، وعاتبه لمَّا كان نبيّاً وكان له تسعٌ وتسعون أنكر عليه أن يتشاغل بالدنيا بالتزيُّد منها، فأما غير هذا فلا ينبغي الاجتراءُ عليه.

قال ابن العربي(٢): وأما قولهم: إنها لمَّا أَعجبته أمرَ بتقديم زوجها للقَتْل في سبيل الله، فهذا باطلٌ قطعاً؛ فإن داود ﷺ لم يكن لِيُريقَ دمَه في غَرَضِ نَفْسه، وإنما كان من الأمر أن داود قال لبعض أصحابه: اِنْزِلْ لي عن أهلك، وعَزَمَ عليه في ذلك، كما يطلبُ الرجلُ من الرجل الحاجة برغبةٍ صادقة؛ كانت في الأهل أو في المال. وقد قال سعدُ(٣) بن الربيع لعبد الرحمن بن عوف حين آخى رسولُ الله ﷺ بينهما: إنَّ لي زوجتين أَنزِلُ لك عن أحسنهما؛ فقال له: بارك الله لك في أهلك(٤). وما يجوز فِعلُه ابتداءً يجوز طَلَبُه، وليس في القرآن أن ذلك كان، ولا أنه تزوَّجها بعد زَوال عِصْمةِ الرجل عنها، ولا ولادتها لسليمان، فعمن يُروَى هذا ويُسنَد؟! وعلى مَن في نَقْله يُعتمَد، وليس يَأْثُره عن الثِّقات الأَثْبات أحدٌ.

أما أن في سورة «الأحزاب» نكتةً تدلُّ على أن داودَ قد صارت له المرأةُ زوجةً،

---

(١) أخرجهما الطبري ٢٠/٥٩ .

(٢) في أحكام القرآن ٤/١٦٢٤ -١٦٢٥ .

(٣) في (م) سعيد، وهو خطأ.

(٤) أخرجه أحمد (١٣١٢٣)، والبخاري (٣٧٨١) من حديث أنس ﷺ.

وذلك قوله: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۚ﴾ [الآية:٣٨] يعني في أحد الأقوال تزويج داود المرأة التي نظر إليها، كما تزوَّج النبي ﷺ زينبَ بنت جحش[١]؛ إلا أن تزويج زينب كان من غير سؤال للزوج في فِراق، بل أمره بالتمسُّك بزوجته، وكان تزويجُ داود للمرأة بسؤال زوجها فراقَها. فكانت هذه المَنْقَبة لمحمد ﷺ على داودَ مُضافةً إلى مَناقبه العَلِيَّة ﷺ.

ولكن قد قيل: إن معنى ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۚ﴾ تزويج الأنبياء بغير صَداق مَنْ وهبتْ نفسَها لهم من النساء بغير صَداق. وقيل: أراد بقوله: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۚ﴾ أن الأنبياءَ صلواتُ الله عليهم فُرِضَ لهم ما يمتثلونه في النكاح وغيره. وهذا أصحُّ الأقوال.

وقد روى المفسرون أن داود عليه السلام نكح مئةَ امرأة؛ وهذا نصُّ القرآن. وروي أن سليمانَ كانت له ثلاث مئة امرأة وسبع مئة جارية؛ وربُّك أعلم[٢].

وذكر الكيا الطبري في «أحكامه»[٣] في قول الله عز وجل: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ﴾ الآية: ذكر المُحققون الذين يَرون تنزيهَ الأنبياء عليهم السلام عن الكبائر أن داودَ عليه السلام كان قد أقدمَ على خِطبة امرأة قد خَطَبها غيرُه، يقال: هو أوريا؛ فمال القومُ إلى تزويجها من داودَ راغبين فيه، وزاهدين في الخاطب الأوّل، ولم يكن بذلك داود عليه السلام عارفاً، وقد كان يُمكنه أن يعرف ذلك فيعدل عن هذه الرغبة، وعن الخِطبة بها، فلم يفعل ذلك، من حيث أُعجِبَ بها إمَّا وصفاً أو مشاهدةً على غير تَعَمُّد؛ وقد كان لداود عليه السلام من النساء العَدَدُ الكثير، وذلك الخاطبُ لا امرأةَ له، فنبَّهه الله تعالى على ما فعل بما كان مِن تسوُّر المَلَكين، وما أورداه من التمثيل على وجه التعريض؛ لكي يَفهمَ من ذلك موقعَ العَتَب فيعدل عن

(١) سلف ١٤/١٨٩ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٦٢٥ .

(٣) ٤/٣٥٩ - ٣٦٠ .

هذه الطريقة، ويستغفر ربَّه من هذه الصغيرة.

الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ فيه الفتوى في النازلة بعد السماع من أحد الخَصْمين، وقبلَ أن يسمع من الآخر بظاهر هذا القول. قال ابن العربي[١]: وهذا مما لا يجوز عند أحد، ولا في مِلَّة من الملل، ولا يمكن ذلك للبشر. وإنما تقديرُ الكلام أن أحد الخَصْمين ادَّعى والآخر سلَّم في الدعوى، فوقعت بعد ذلك الفتوى. وقد قال النبي ﷺ: «إذا جلسَ إليك الخَصْمان فلا تَقْضِ لأحدِهما حتى تسمعَ من الآخر»[٢].

وقيل: إن داودَ عليه السلام لم يَقْضِ للآخر حتى اعترف صاحبه بذلك. وقيل تقديره: لقد ظَلَمك إنْ كان كذلك. والله أعلمُ بتعيين ما يمكن من هذه الوجوه.

قلت: ذكر هذين الوجهين القشيري والماورديّ[٣] وغيرهما. قال القشيري: وقوله: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ﴾ مِن غير أن يسمعَ كلامَ الخَصْم مُشكل؛ فيمكن أن يقال: إنما قال هذا بعد مُراجعة الخَصْم الآخر وبعد اعترافه. وقد رُوي هذا وإنْ لم تَثبُتْ روايتهُ، فهذا معلومٌ من قرائن الحال. أو أراد: لقد ظَلمك إنْ كان الأمرُ على ما تقول، فسكَّته بهذا وصبَّره إلى أن يسألَ خَصْمَه. قال: ويَحتمِلُ أن يقال: كان من شَرْعهم التعويلُ على قول المُدَّعي عند سُكوت المُدَّعى عليه إذا لم يظهر منه إنكارٌ بالقول.

وقال الحَليمي أبو عبد الله في كتاب «منهاج الدين»[٤] له: ومما جاء في شكر النعمة المنتظرة إذا حضرت، أو كانت خافيةً فظهرت السجودُ لله عزّ وجلّ. قال: والأصل في ذلك قوله عز وجل: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ إلى قوله: ﴿وَحُسْنَ

---

(١) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٢٥، وما قبله منه.

(٢) أخرجه أحمد (٨٨٢)، وأبو داود (٣٥٨٢)، والترمذي (١٣٣١) وقد قال النبي ﷺ ذلك لعليٍّ ﷺ لما بعثه قاضياً إلى اليمن.

(٣) في النكت والعيون ٥/ ٨٧ - ٨٨.

(٤) ٢/ ٥٥١ - ٥٥٢.

مَئَابٍ﴾، أخبر الله عزّ وجلّ عن داود عليه السلام: أنه سمع قولَ المُتظلِّم من الخَصْمين، ولم يُخبَر عنه أنه سأل الآخر، إنما حُكي أنه ظَلَمه، فكان ظاهرُ ذلك أنه رأى في المُتكلِّم مخائلَ الضَّعْف والهَضيمة، فحمل أمره على أنه مظلومٌ كما يقول، ودعاهُ ذلك إلى ألّا يسألَ الخَصْمَ؛ فقال له مستعجلاً: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ مع إمكان أنه لو سأله لكان يقول: كانت لي مئة نعجة ولاشيء لهذا، فسرق مني هذه النعجة، فلما وجدتُها عنده قلت له: ارْدُدْها، وما قلت له: أكفلنيها، وعلم أني مُرافعه إليك، فجرَّني قبل أن أجرَّه، وجاءك مُتظلِّماً مني[1] قبل أن أُحضره، لِتَظُنَّ أنه هو المُحِقُّ وأني أنا الظالم. ولما تكلَّم داود بما حملته العَجَلة عليه، عَلِمَ أن الله عزّ وجلّ خلّاه ونفسَه في ذلك الوقت، وهو الفتنةُ التي ذكرها[2]، وأن ذلك لم يكن إلا عن تقصير منه، فاستغفر ربَّه وخرَّ راكعاً لله تعالى شُكراً على أن عَصَمهُ، بأن اقتصر على تظليم المَشْكُوِّ، ولم يَزِدْهُ على ذلك شيئاً من انتهارٍ أو ضرب أو غيرهما، مما يَليق بمن تصوَّر في القلب أنه ظالم، فغفر اللهُ له، ثم أقبلَ عليه يُعاتبه؛ فقال: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص:٢٦] فَبانَ بما اقتصَّه[3] الله تعالى من هذه الموعظة التي توخّاه بها بعد المغفرة أن خطيئته إنما كانت التقصيرَ في الحكم، والمُبادرةَ إلى تظليم مَن لم يَثْبُتْ عنده ظُلمه. ثم جاء عن ابن عباس أنه قال: سجدَها داودُ شكراً، وسجدها النبيُّ ﷺ اتِّباعاً[4]، فثبت أن السجودَ للشُّكر سنةٌ متواترةٌ عن الأنبياء صلوات الله عليهم.

﴿بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ﴾ أي: بسؤاله نعجتَك؛ فأضاف المصدر إلى المفعول، وألقى الهاء من السؤال، وهو كقوله تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ [فصلت:٤٩] أي: مِن دعائه الخير.

---

(١) في (م): من.
(٢) في (د) و(م): ذكرناها، والمثبت موافق للمنهاج.
(٣) في (م): بما قصَّه.
(٤) أخرجه النسائي في المجتبى ٢/١٥٩ بلفظ: أن النبي ﷺ سجد في «صٓ» وقال: سجدها داود توبة، ونسجدها شكراً.

الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ﴾ يقال: خلِيط وخُلطاء، ولا يقال: طويل وطُولاء، لِثِقَل الحركة في الواو[١]. وفيه وجهان: أحدهما: أنهما الأصحاب. الثاني: أنهما الشُّرَكاء[٢].

قلت: إطلاقُ الخُلَطاء على الشُّرَكاء فيه بُعْد، وقد اختلف العلماءُ في صفة الخُلَطاء، فقال أكثر العلماء: هو أن يأتي كلُّ واحد بغنمه فيجمعها[٣] راعٍ واحدٌ والدَّلو والمَراح. وقال طاوس وعطاء: لا يكون الخُلطاء إلا الشُّركاء. وهذا خلاف الخبر؛ وهو قوله ﷺ: «لا يُجْمَع بين مُفْتَرِق ولا يُفَرَّق بين مُجتمع خشيةَ الصدقة، وما كان مِن خليطين فإنَّهما يتراجعان بينهما بالسَّوِيَّة»[٤]، ورُوي: فإنهما يترادَّان الفَضْل[٥]. ولا موضع لترادِّ الفَضْل بين الشُّركاء؛ فاعلمه.

وأحكامُ الخُلْطة مذكورةٌ في كتب الفقه. ومالك وأصحابه وجمعٌ من العلماء لا يرون [الصدقة][٦] على مَن ليس في حصَّته ما تجب فيه الزكاة. وقال الربيع واللَّيث وجمع من العلماء منهم الشافعي: إذا كان في جميعها ما تجب فيه الزكاة أُخذت منها الزكاة. قال مالك: وإن أخذ المُصَدِّق بهذا ترادُّوا بينهم للاختلاف في ذلك. وتكون كحكم حاكم اختلف فيه.

الرابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: يتعدَّى ويظلم. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ فإنهم لا يظلمون أحداً. ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ يعني الصالحين، أي: وقليل هم، فـ«ما» زائدة. وقيل: بمعنى: الذين، وتقديره: وقليلٌ الذين هم[٧]. وسمع

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٦١.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٨٨.

(٣) في (م): فيجمعهما.

(٤) أخرجه البخاري (١٤٥٠)، وسلف ٤/ ٣٩٩.

(٥) لم نقف على هذه الرواية، وذكره مالك في الموطأ ١/ ٢٦٣ من قوله.

(٦) ما بين حاصرتين زيادة ليست في النسخ.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٨٨.

عمرُ ﷺ رجلاً يقول في دعائه: اللهمَّ اجعلني من عبادك القليل. فقال له عمر: ما هذا الدعاء؟.فقال: أردتُ قولَ الله عزّ وجلّ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمۡۗ﴾ فقال عمر: كلُّ الناس أفقهُ منك يا عمر[١].

الخامسة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ أي: ابتليناه. و«ظَنَّ» معناه أيقن. قال أبو عمرو والفراء: ظنَّ بمعنى أيقن، إلا أن الفراء شرحه بأنه لا يجوز في المُعاين أن يكون الظن إلا بمعنى اليقين[٢]. والقراءة «فَتَنَّاهُ» بتشديد النون دون التاء. وقرأ عمر بن الخطاب ﷺ: «فتَّنَّاه» بتشديد التاء والنون على المبالغة، وقرأ قتادة وعُبيد بن عمير وابن السَّمَيْفَع: «فَتَنَاهُ» بتخفيفهما. ورواه علي بن نَصْر عن أبي عمرو، والمُراد به المَلَكان اللذان دخلا على داود عليه السلام[٣].

السادسة عشرة: قيل: لما قضَى داودُ بينهما في المسجد، نظر أحدُهما إلى صاحبه فضحك، فلم يَفْطُنْ داود؛ فأحبَّا أن يعرِفهما، فَصَعِدا إلى السماء حِيالَ وجهه، فعلم داودُ عليه السلام أن الله تعالى ابتلاه بذلك، ونبَّهه على ما ابتلاه.

قلت: وليس في القرآن ما يدلُّ على القضاء في المسجد إلا هذه الآية، وبها استدلَّ من قال بجواز القضاء في المسجد، ولو كان ذلك لا يجوز كما قال الشافعي لـمَا أقرَّهم داود على ذلك. ويقول: انصرفا إلى موضع القضاء. وكان النبيُّ ﷺ والخلفاء يقضُون في المسجد[٤]، وقد قال مالك: القضاء في المسجد من الأمر

(١) سلف ١٤/ ٢٧٧ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٦١ ، وينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٤٠٤ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٥٠١ ، والقراءتان في القراءات الشاذة ص ١٣٠ ، والمحتسب ٢/ ٢٣٢ .

(٤) ترجم البخاري قبل الحديث (٧١٦٥): باب من قضى ولا عَنَ في المسجد، ولا عن عمر عند منبر النبي ﷺ وقضى شريح والشعبي ويحيى بن يعمر في المسجد، وقضى مروان على زيد بن ثابت باليمين عند المنبر، وكان الحسن وزُرارة بن أوفى يقضيان في الرحبة خارجاً من المسجد. ثم ترجم بعده: باب: من حكم في المسجد حتى إذا أتى على حدٍّ أمر أن يخرج من المسجد فيُقامَ، وذكر حديث أبي هريرة ﷺ في الرجل الذي قال للنبي ﷺ: يا رسول الله، إني زنيت،... فلما شهد على نفسه أربعاً، قال: «أبِكَ جنون»؟! قال: لا، قال: «اذهبوا فارجموه».

القديم. يعني في أكثر الأمور. ولا بأس أن يَجلِسَ في رحبته؛ لِيصل إليه الضعيفُ والمُشرك والحائض، ولا يُقيم فيه الحدود؛ ولا بأس بخفيف الأدب. وقد قال أشهب: يقضي في منزله وأين أحبَّ[١].

السابعة عشرة: قال مالك رحمه الله: وكان الخلفاءُ يَقضُون بأنفسهم، وأوّل من استقضى معاوية[٢]. قال مالك: وينبغي للقُضاة مُشاورة العلماء. وقال عمر بن عبد العزيز: لا يستقضي حتى يكون عالماً بآثار مَن مضى، مستشيراً لذوي الرأي، حليماً نَزِهاً. قال: ويكون ورعاً. قال مالك: وينبغي أن يكون متيقظاً كثيرَ التحذُّر من الحِيل، وأن يكون عالماً بالشروط، عارفاً بما لا بُدَّ له منه من العربية؛ فإن الأحكامَ تختلف باختلاف العباراتِ والدعاوى والإقرارات والشهادات والشروط التي تتضمَّن حقوقَ المحكوم له. وينبغي له أن يقول قبلَ إنجاز الحكم للمطلوب: أبَقِيتْ لك حُجَّةٌ؟ فإن قال: لا، حَكَمَ عليه، ولا يقبل منه حُجَّةً بعد إنفاذ حكمه إلا أن يأتي بما له وجهٌ أو بيِّنة. وأحكامُ القضاء والقُضاة فيما لهم وعليهم مذكورةٌ في غير هذا الموضع.

الثامنة عشرة: قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ﴾ اختلف المفسرون في الذنب الذي استغفر منه على أقوال ستة:

الأوّل: أنه نَظَر إلى المرأة حتى شَبِعَ منها. قال سعيد بن جُبير: إنما كانت فتنته النَّظرة. قال أبو إسحاق[٣]: ولم يتعمَّدْ داودُ النظر إلى المرأة، لكنه عاودَ النظر إليها، فصارت الأُولى له والثانية عليه.

الثاني: أنه أغزى زوجَها في حَمَلَةِ التابوت.

الثالث: أنه نوى إنْ مات زوجُها أن يتزوَّجها.

الرابع: أن أوريا كان خطب تلك المرأةَ، فلما غاب خطَبها داودُ، فَزُوِّجت منه

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٦٢٦ بنحوه.

(٢) التمهيد ١١/٩٧ .

(٣) هو الثعلبي، وقوله في عرائس المجالس ص ٢٨٤، وقول سعيد بن جبير الذي قبله منه.

لجلالته، فاغتمَّ لذلك أوريا، فَعَتَبَ اللهُ على داود إذْ لم يتركها لخاطبها، وقد كان عنده تسعٌ وتسعون امرأة.

الخامس: أنه لم يَجزعْ على قتل أوريا، كما كان يجزع على من هَلَكَ من الجند، ثم تزوَّج امرأته، فعاتبه الله تعالى على ذلك؛ لأن ذنوبَ الأنبياء وإن صَغُرتْ فهي عظيمةٌ عند الله.

السادس: أنه حَكَم لأحد الخَصْمين قبلَ أن يسمعَ من الآخر.

قال القاضي ابن العربي[1]: أما قولُ مَن قال: إنه حَكَم لأحدِ الخَصْمين قبل أن يسمعَ من الآخر، فلا يجوز على الأنبياء، وكذلك تعريضُ زوجها للقتل. وأما من قال: إنه نَظَر إليها حتى شَبعَ، فلا يجوز ذلك عندي بحال؛ لأن طُموحَ النظر لا يَليق بالأولياء المتجرِّدين للعبادة، فكيف بالأنبياء الذين هم وسائطُ الله المُكاشَفون بالغيب.

وحكى السديّ عن عليّ بن أبي طالب ﷺ قال: لو سمعتُ رجلاً يذكر أن داود عليه السلام قارفَ من تلك المرأة محرَّماً لَجلدته ستين ومئة؛ لأن حدَّ الناسِ ثمانون وحدَّ الأنبياء ستون ومئة. ذكره الماوردي[2] والثعلبي أيضاً.

قال الثعلبي[3]: وقال الحارث الأعور[4] عن عليّ: مَن حدَّث بحديث داود على ما تَرويه القُصَّاص مُعتقِداً جلدته حدَّين؛ لِعظم ما ارتكب برمي مَن قد رَفَع اللهُ محلَّه، وارتضاه من خَلْقه رحمةً للعالمين، وحُجَّة للمجتهدين.

قال ابن العربي[5]: وهذا مما لم يَصِحَّ عن عليّ. فإن قيل: فما حُكمه عندكم؟

---

(١) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٢٦ -١٦٢٧ ، وما قبله منه بنحوه.

(٢) في النكت والعيون ٥/ ٨٩ .

(٣) عرائس المجالس ص ٢٨٤ .

(٤) هو الحارث بن عبد الله الهَمْداني، صاحب علي ﷺ، كذَّبه الشعبي في رأيه، ورُمي بالرفض، وفي حديثه ضعف. تقريب التهذيب ص ٨٦.

(٥) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٢٧ .

قلنا: أما مَن قال: إن نبيًّا زنى، فإنه يُقتل، وأما مَن نَسب إليه ما دون ذلك من النظر والمُلامسة، فقد اختلف الناس في ذلك؛ فإنْ صمَّم أحدٌ على ذلك فيه ونَسبه إليه قتلته، فإنه يُناقض التعزير المأمور به. فأما قولهم: إنه وقع بصرُه على امرأة تغتسل عُريانةً، فلما رأته أسبلتْ شعرَها فسترتْ جسدَها، فهذا لا حرجَ عليه فيه بإجماع من الأمة؛ لأن النظرةَ الأُولى تَكشِفُ المنظور إليه ولا يأثم الناظرُ بها، فأما النظرة الثانية فلا أصلَ لها[1].

وأما قولهم: إنه [نوى] إن مات زوجُها تزوَّجها فلا شيء فيه إذْ لم يُعرِّضْهُ للموت.
وأما قولهم: إنه خَطَب على خِطبة أوريا فباطلٌ يَردُّه القرآن والآثار التفسيرية كلُّها.

وقد روى أشهبُ عن مالك قال: بلغني أن تلك الحمامةَ أَتَتْ فوقعتْ قريباً من داود عليه السلام وهي مِن ذَهبٍ، فلما رآها أعجبته فقام لِيأخُذَها فكانت قُربَ يده، ثم صنع مثلَ ذلك مرتين، ثم طارت واتَّبعها ببصره فوقعتْ عينُه على تلك المرأة وهي تغتسل ولها شعرٌ طويل؛ فبلغني أنه أقام أربعين ليلة ساجداً حتى نبت العُشب من دموع عينيه.

قال ابن العربي[2]: وأما قولُ المفسرين: إن الطائرَ درج عنده فهمَّ بأخذه واتَّبعه فهذا لا يُناقض العبادة؛ لأنه مُباحٌ فِعْلُه، لاسيما وهو حلالٌ، وطلبُ الحلال فريضة، وإنما اتّبع الطيرَ لذاته لا لجماله، فإنه لا منفعةَ له فيه، وإنما ذِكْرهم لحسن الطائر خرقٌ[3]في الجهالة. أما أنه روي أنه كان طائراً من ذهب فاتَّبعه لِيأخُذَه؛ لأنه من فضل الله سبحانه وتعالى كما روي في الصحيح: «إنَّ أيوبَ عليه السلام كان يغتسلُ عُرياناً، فخرَّ عليه رِجْلٌ من جراد [من ذهب] فجعل يَحثي منه ويجعلُ في ثَوْبه؛ فقال الله تعالى له: «يا أيوبُ، ألم أكن أَغنيتُكَ؟» قال: «بلى يا رب، ولكنْ لا غِنى لي عن

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٢٤.
(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٢٤ و١٦٢٧، وما قبله وما بين حاصرتين السالف منه.
(٣) في أحكام القرآن: حذق.

بركتك»[١].

وقال القشيري: فهمَّ داودُ بأنْ يأخذَه لِيدفعه إلى ابن له صغير، فطار ووقع على كَوَّة البيت؛ وقاله الثعلبي أيضاً، وقد تقدّم[٢].

التاسعة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ أي: خرَّ ساجدًا، وقد يُعبَّر عن السجود بالركوع. قال الشاعر:

فخرَّ على وَجهِه راكِعاً وتابَ إلى الله مِنْ كُلِّ ذنب[٣]

قال ابن العربي[٤]: لا خلافَ بين العلماء أن المُرادَ بالركوع هاهنا السجود؛ فإن السجودَ هو المَيْل، والركوع هو الانحناء، وأحدُهما يدخل[٥] على الآخر، ولكنه قد يختصُّ كلُّ واحد بهيئته، ثم جاء هذا على تسمية أحدِهما بالآخر، فَسُمِّي السجود ركوعاً.

وقال المهدوي: وكان ركوعهم سجوداً. وقيل: بل كان سجودُهم ركوعاً. وقال مقاتل: فوقع من ركوعه ساجداً لله عزّ وجلّ. أي: لما أحسَّ بالأمر قام إلى الصلاة، ثم وقع من الركوع إلى السجود؛ لاشتمالهما جميعاً على الانحناء.

﴿وَأَنَابَ﴾ أي: تاب من خطيئته ورَجَعَ إلى الله.

وقال الحسين بن الفضل: سألني عبدُ الله بن طاهر ـ وهو الوالي ـ عن قولِ الله عز وجل: «وَخَرَّ رَاكعاً» فهل يقال للراكع: خَرَّ؟. قلت: لا. قال: فما معنى الآية؟ قلت: معناها: فخرَّ بعد أن كان راكعاً، أي: سَجَدَ[٦].

---

(١) أخرجه أحمد (٨١٥٩)، والبخاري (٣٣٩١) من حديث أبي هريرة ﷺ، وما بين حاصرتين منهما، وسلف ٤/ ٤٨٣ .

(٢) ١٥/ ١٦٧ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٨٩ .

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٢٧ .

(٥) في أحكام القرآن: يدلّ.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٥٧ ، وعبد الله بن طاهر: هو أبو العباس، الأمير العادل، حاكم خراسان وما وراء النهر، مات سنة (٢٣٠ هـ) السير ١٠/ ٦٨٤ .

الموفية عشرين: واختُلف في سجدة داودَ هل هي من عزائم السجودِ المأمور به في القرآن أم لا؟ فروى أبو سعيد الخُدري أن النبيَّ ﷺ قرأ على المنبر: «ص والقرآنِ ذِي الذِّكْر» فلما بلغَ السجدةَ نزلَ فسجدَ وسَجَدَ الناسُ معه، فلما كان يومٌ آخرُ قرأ بها فتَشَزَّنَ الناسُ للسجود، فقال رسولُ الله ﷺ: «إنها توبةُ نبيٍّ، ولكني رأيتُكم تَشَزَّنتم للسجود» ونزلَ وسجدَ. وهذا لفظ أبي داود(١).

وفي البخاري وغيره: عن ابن عباس أنه قال: «صَ» ليست من عزائم القرآن، وقد رأيتُ النبيَّ ﷺ يسجدُ فيها(٢).

وقد رُوي من طريق عن ابن مسعود أنه قال: «صَ» توبةُ نبيٍّ، ولا يُسجد فيها؛ وعن ابن عباس أنها توبةُ نبيٍّ ونبيُّكم ممن أُمِرَ أن يَقتديَ به(٣).

قال ابن العربي(٤): والذي عندي أنها ليست موضعَ سجود، ولكن النبيَّ ﷺ سجدَ فيها فسجدنا بالاقتداء به. ومعنى السجود أن داودَ سجدَ خاضعاً لِربِّه، مُعترفاً بذنبه، تائباً من خطيئته؛ فإذا سجدَ أحدٌ فيها فَلْيسجد بهذه النِّيَّة، فلعلَّ الله أن يغفرَ له بحرمة داودَ الذي اتَّبعه، وسواء قلنا: إن شَرْعَ من قبلنا شرعٌ لنا أم لا؟ فإن هذا أمرٌ مشروع في كلِّ أمة لكلِّ أحد. والله أعلم.

الحادية والعشرون: قال ابن خُوَيْز مَنْداد: قوله: «وخَرَّ راكِعاً وأَنَابَ» فيه دلالةٌ على أن السجودَ للشُّكر مُفرداً لا يجوز؛ لأنه ذَكر معه الركوع؛ وإنما الذي يجوز أن يأتي بركعتين شكراً، فأمَّا سجدةٌ مفردةٌ فلا؛ وذلك أن البِشاراتِ كانت تأتي رسولَ الله ﷺ والأئمة بعده، فلم يُنقَلْ عن أحدٍ منهم أنه سجد شُكراً، ولو كان ذلك مفعولاً لهم لَنُقِلَ نقلاً متظاهراً لحاجة العامة إلى جوازه وكونه قُربة.

---

(١) في السنن (١٤١٠). والتشزُّن: التأهُّب والتهيّؤ للشيء. النهاية (شزن).

(٢) صحيح البخاري (١٠٦٩)، وهو في مسند أحمد (٣٣٨٧).

(٣) أخرجهما البيهقي في السنن الكبرى ٢/ ٣١٩.

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٢٨، وما قبله منه.

قلت: وفي «سنن» ابن ماجه: عن عبد الله بن أبي أَوفَى أن رسولَ الله ﷺ صلَّى يومَ بُشِّرَ برأس أبي جهل ركعتين[١]. وخرَّج من حديث أبي بَكْرَةَ أن النبيَّ ﷺ كان إذا أتاه أمرٌ يَسُرُّه ـ أو يُسَرُّ به ـ خرَّ ساجداً شكراً لله[٢]. وهذا قول الإمام الشافعي وغيره.

الثانية والعشرون: روى الترمذي وغيره ـ واللفظ للغير ـ: أن رجلاً من الأنصار على عهدِ رسول الله ﷺ كان يُصلِّي من الليل يستتر بشجرة وهو يقرأ: «صٓ والقرآنِ ذِي الذِّكْرِ» فلما بلغ السجدةَ سجدَ وسجدت معه الشجرة، فسمعها وهي تقول: اللهمَّ أَعْظِمْ لي بهذه السجدة أجراً، وارزُقني بها شُكراً[٣].

قلت: خرَّج ابن ماجه في «سننه» عن ابن عباس قال: كنتُ عند النبيّ ﷺ، فأتاه رجلٌ فقال: إني رأيتُ البارحة فيما يرى النائم كأني أُصلِّي إلى أصل شجرة، فقرأت السجدةَ [فسجدتُ] فسجدتِ الشجرةُ لِسُجودي، فسمعتها تقول: اللهمَّ احطُطْ بها عني وِزْراً، واكتُبْ لي بها أجراً، واجعلها لي عندك ذُخراً. قال ابن عباس: فرأيتُ رسولَ الله ﷺ قرأ: «السجدة» فسجدَ، فسمعتُه يقول في سجوده مثلَ الذي أخبره الرجلُ عن قول الشجرة[٤].

ذكره الثعلبي عن أبي سعيد الخدري؛ قال: قلتُ: يا رسولَ الله، رأيتُني في النوم كأني تحت شجرة والشجرةُ تقرأ «صٓ» فلما بلغتِ السجدةَ سجدَتْ فيها، فسمعتُها

---

(١) سنن ابن ماجه (١٣٩١)، وفي إسناده سلمة بن رجاء عن الشعثاء، وسلمة قال فيه ابن عدي: حدَّث بأحاديث لا يتابع عليها، وعدَّ منها هذا الحديث. ميزان الاعتدال ٤/ ١٨٩ . والشعثاء ـ وهي بنت عبد الله، الأسدية الكوفية ـ قال الحافظ ابن حجر في التقريب ص ٦٦٦ : لا تُعرف.

(٢) سنن ابن ماجه (١٣٩٤)، وأخرجه أبو داود (٢٧٧٤)، والترمذي (١٥٧٨)، وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث بكار بن عبد العزيز، والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم، رَأَوْا سجدة الشكر.

(٣) سنن الترمذي (٥٧٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بنحوه، والكلام من أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٢٨ ، وينظر الحديث التالي.

(٤) سنن ابن ماجه (١٠٥٣)، وما بين حاصرتين منه.

تقول في سجودها: اللهمَّ اكتُبْ لي بها أجراً، وحُطَّ عني بها وزراً، وارزقني بها شُكراً، وتقبَّلها مني كما تقبَّلت من عبدك داودَ سجدتَه. فقال لي النبيّ ﷺ: «أَفَسجدْتَ أنت يا أبا سعيد» فقلت: لا والله يا رسولَ الله. فقال: «لقد كنتَ أحقَّ بالسُّجود من الشجرة» ثم قرأ النبيّ ﷺ «صَ» حتى بلغ السجدةَ فسجد، ثم قال مثلَ ما قالت الشجرة[1].

الثالثة والعشرون: قوله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ أي: فغفرنا له ذَنْبَه. قال ابن الأنباري[2]: «فغفرنا له ذلك» تامٌّ، ثم تبتدئ: «وإن له» وقال القشيري: ويجوز الوقف على «فغفرنا له» ثم تبتدئ «ذلك وإنَّ له» كقوله: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ﴾ [ص:٥٥] أي: الأمر ذلك.

وقال عطاء الخُراساني وغيره: إنَّ داودَ سجدَ أربعين يوماً حتى نبتَ المَرْعَى حولَ وجهه وغمر رأسَه، فَنُودي: أجائعٌ فَتُطعَم، وأعارٍ فَتُكْسَى؛ فنَحَبَ نحبةً هاج المَرْعى من حرِّ جوفه، فَغُفِر له وسُتِرَ[3] بها.فقال: يا رب، هذا ذنبي فيما بيني وبينك قد غَفَرْتَه، وكيف بفلان وكذا وكذا رجلاً من بني إسرائيل، تركت أولادهم أيتاماً، ونساءهم أرامل؟ قال: يا داود، لا يُجاوزني يومَ القيامة ظلمٌ، أُمَكِّنه منك ثم أَستوهِبُك منه بثواب الجنة. قال: يا ربِّ، هكذا تكون المغفرة الهَنيئة[4]. ثم قيل: يا داود، ارفَعْ رأسَك. فذهب لِيَرفَعَ رأسَه فإذا به قد نَشِبَ في الأرض، فأتاه جبريلُ فاقتلعه عن وجه الأرض كما يُقتلَع من الشجرة صَمْغها. رواه الوليد بن مسلم عن ابن جابر[5] عن عطاء.

قال الوليد: وأخبرني مُنير بن الزبير[6]، قال: فَلَزِقَ مواضعُ مساجده على الأرض

---

(١) عرائس المجالس ص ٢٨٧ .

(٢) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٦٢ .

(٣) في نوادر الأصول ص ١٨٨ (والكلام منه): وبُشِّر.

(٤) في (م): الهيِّنة، والمثبت موافق لنوادر الأصول.

(٥) هو عبد الرحمن بن يزيد بن جابر الأزدي، الشامي. تهذيب التهذيب ٢/ ٥٦٦ .

(٦) الشامي، أبو ذر الأزدي، قال ابن حبان: يأتي عن الثقات بالمعضلات، لا تحل الرواية عنه إلا على سبيل الاعتبار. تهذيب التهذيب ٤/ ١٦٤ .

من فَروة وجهه ما شاء الله. قال الوليد: قال ابن لهيعة: فكان يقول في سجوده: سبحانك هذا شرابي دموعي، وهذا طعامي في رماد بين يدي. وفي رواية: إنه سجدَ أربعين يوماً لا يرفع رأسَه إلا للصلاة المكتوبة، فبكى حتى نبتَ العُشْب من دموعه[1].

وروي مرفوعاً من حديث أبي هريرة عن النبيّ ﷺ: «إنَّ داودَ مَكَثَ أربعين ليلةً ساجداً حتى نبت العُشْبُ من دموعه على رأسه، وأكلتِ الأرضُ من جبينه وهو يقول في سجوده: يا ربِّ، داودُ زلَّ زلَّةً بَعُدَ بها ما بين المشرق والمغرب، ربِّ، إن لم ترحَمْ ضَعْفَ داود وتغفِرْ ذَنْبَه جعلت ذَنْبَه حديثاً في الخَلْق من بعده، فقال له جبريل بعد أربعين سنة: يا داود، إن اللهَ قد غَفَرَ لك الهَمَّ الذي هممتَ به»[2].

وقال وهب: إنَّ داودَ عليه السلام نُودي: إني قد غفرتُ لك. فلم يرفع رأسَه حتى جاءه جبريل فقال: لِمَ لا ترفع رأسَك وربُّك قد غَفَرَ لك؟ قال: يا رب، كيف وأنت لا تظلم أحداً. فقال الله لجبريل: اذهَبْ إلى داودَ فقل له يذهب إلى قبر أوريا فَيتحلَّل منه، فأنا أُسْمِعُه نداءَه[3]. فلبس داودُ المُسوحَ، وجلس عند قبر أوريا، ونادى: يا أوريا، فقال: لبيك، من هذا الذي قطعَ عليَّ لَذَّتي وأيقظني؟ فقال: أنا أخوك داودُ، أسألك أن تجعلني في حِلٍّ، فإني عرَّضتك للقتل؛ قال: عرَّضتني للجنة، فأنت في حِلّ.

وقال الحسن وغيره: كان داودُ عليه السلام بعد الخطيئة لا يُجالس إلا الخاطئين، ويقول: تعالوا إلى داود الخَطَّاء، ولا يشربُ شراباً إلا مزجَه بدموع عينيه. وكان يجعل خبزَ الشعير اليابس في قَصْعة، فلا يزال يبكي حتى يبتلَّ بدموعه، وكان

---

(١) هذه الأخبار من الإسرائيليات، وأوردها بنحوها الطبري ٢٠/ ٦٨ وما بعدها، والثعلبي في عرائس المجالس ص ٢٨٤ وما بعدها، والبغوي ٤/ ٥٥ وما بعدها. وسنذكر أقوال العلماء في ردّ هذه الأخبار ص٢٠٣-٢٠٤ من هذا الجزء، ينظر ثمة.

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٧٤ ، والثعلبي في عرائس المجالس ص ٢٨٤ ، والبغوي في تفسيره ٤/ ٥٥ ، من حديث أنس ﷺ، وسلف قسم منه ١٨/ ١٥٨ ، وهو حديث ضعيف، كما ذكرنا سابقاً.

(٣) في النسخ الخطية: نداءك.

يَذُرُّ عليه الرماد والملح فيأكل ويقول: هذا أكلُ الخاطئين. وكان قبل الخطيئة يقومُ نصف الليل ويصومُ نصفَ الدَّهر، ثم صام بعده الدهرَ كلَّه وقام الليل كلَّه. وقال: يا رب، اجعلْ خطيئتي في كفِّي، فصارت خطيئته منقوشةً في كفِّه. فكان لا يبسطُها لطعام ولا شرابٍ ولا شيء إلا رآها فأَبْكته، وإنْ كان ليُؤتى بالقَدَح ثُلثاه ماء، فإذا تناوله أبصرَ خطيئته فما يضعه عن شَفَته حتى يفيضَ من دموعه(١). وروى الوليد بن مسلم: حدَّثني أبو عمرو الأوزاعي أن رسول الله ﷺ قال: «إنما مثلُ عيني داودَ مثلُ القِرْبتين تَنْطُفان، ولقد خدَّد الدموع في وجه داود خديدَ الماء في الأرض»(٢).

قال الوليد: وحدَّثنا عثمانُ بن أبي العاتكة أنه كان من قول داود إذ هو خُلُوٌّ من الخطيئة شدَّة قوله في الخطَّائين أن كان يقول: اللهمَّ لا تغفِرْ للخطَّائين. ثم صار إلى أن يقول: اللهمَّ ربّ اغفر للخاطئين لكي تغفرَ لداود معهم؛ سبحان خالق النور. إلهي، خرجتُ أسأل أطباءَ عبادك أن يداووا خطيئتي فكلُّهم عليك يَدُلُّني. إلهي، أخطأتُ خطيئةً قد خِفتُ أن تجعل حصادَها عذابَك يومَ القيامة إنْ لم تغفرها؛ سبحان خالق النور. إلهي، إذا ذكرتُ خطيئتي ضاقت الأرضُ بِرَحْبها عليَّ، وإذا ذكرتُ رحمتَك ارتدَّ إليَّ روحي.

وفي الخبر: أن داودَ عليه السلام كان إذا علا المنبر رفع يمينه فاستقبلَ بها الناسَ لِيُريهم نَقْشَ خطيئته؛ فكان يُنادي: إلهي، إذا ذكرتُ خطيئتي ضاقت عليَّ الأرض بِرَحْبها، وإذا ذكرتُ رحمتك ارتدَّ إليَّ روحي؛ ربِّ اغفِرْ للخاطئين كي تغفر لداود معهم. وكان يقعدُ على سبعة أفرشة من اللِّيف محشوَّة بالرماد، فكانت تستنقع دموعه تحت رجليه حتى تَنْفذَ من الأفرشة كلِّها.

وكان إذا كان يومُ نَوْحه نادى مُناديه في الطُّرق والأسواق والأودية والشِّعاب وعلى رؤوس الجبال وأفواه الغيران: ألا إنَّ هذا يومُ نَوحِ داود، فمن أراد أن يبكيَ على ذنبه فليأتِ داودَ فيسعده؛ فيهبط السُّياح من الغيران والأودية، وترتجُّ الأصواتُ

(١) عرائس المجالس ص ٢٨٨.

(٢) أورده الحكيم في نوادره ص ١٨٨، والبغوي في تفسيره ٤/٥٨، وإسناده هكذا معضل.

حولَ منبره، والوحوش والسِّباع والطير عُكَّفٌ؛ وبنو إسرائيل حول منبره؛ فإذا أخذ في العَويل والنَّوح، وأثارت الحرقات منابعَ دموعه، صارت الجماعة ضجةً واحدة نوحاً وبكاء، حتى يموت حول منبره بَشَرٌ كثير في مثل ذلك اليوم(١).

ومات داود عليه السلام فيما قيل يوم السبت فجأة(٢). أتاه مَلَك الموت وهو يصعَدُ في محرابه وينزل؛ فقال: جئتُ لأقْبِضَ روحك. فقال: دعني حتى أنزلَ أو أرتقي. فقال: مالي إلى ذلك سبيل؛ نَفِدَت الأيامُ والشهور والسُّنون والآثار والأرزاق، فما أنت بمُؤثر بعدها أثراً. قال: فسجد داودُ على مَرْقاة من الدَّرج فقبضَ نفسَه على تلك الحال. وكان بينه وبين موسى عليهما السلام خمسُ مئة وتسعٌ وتسعون سنة. وقيل: تسع وسبعون.

وعاش مئةَ سنة، وأوصى إلى ابنه سليمان بالخلافة(٣).

الرابعة والعشرون: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ قال محمد بن كعب ومحمد بن قيس: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ قُربة بعد المغفرة. ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ قالا: والله، إن أوَّل من يشربُ الكأسَ يومَ القيامة داود(٤). وقال مجاهد عن عبد الله ابن عمر: الزُّلفى الدنوُّ من الله عز وجل يوم القيامة(٥).

وعن مجاهد: يُبعث داودُ يومَ القيامة وخطيئته منقوشةٌ في يده، فإذا رأى أهاويلَ يوم القيامة لم يجد منها محرزاً إلا أن يلجأ إلى رحمة الله تعالى. قال: ثم يرى خطيئته فيقلق، فيقال له: هاهنا؛ ثم يرى فيقلق، فيقال له: هاهنا، ثم يرى فيقلق، فيقال له:

(١) عرائس المجالس ص ٢٨٧ - ٢٨٨، ونوادر الأصول ص ١٨٨، وتفسير البغوي ٤/ ٥٨. وهذه الأخبار من الإسرائيليات، ينظر ما سنذكره في ردِّها ص٢٠٣-٢٠٤ من هذا الجزء.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٤٣٣ من قول ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) عرائس المجالس ص ٢٩٤.

(٤) عرائس المجالس ص ٢٨٧.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٦١.

هاهنا؛ فذلك قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ ذكره الترمذي الحكيم. قال: حدّثنا الفضل بن محمد، قال: حدّثنا عبد الملك بن الأصبغ قال: حدّثنا الوليد بن مسلم، قال: حدّثنا إبراهيم بن محمد الفزاري، عن عبد الملك بن أبي سليمان، عن مجاهد فذكره[١].

قال الترمذي: ولقد كنت أمُرُّ زماناً طويلاً بهذه الآيات فلا ينكشفُ لي المُراد والمعنى من قوله: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ [ص:١٦] والقِطّ الصحيفة في اللغة؛ وذلك أن رسولَ الله ﷺ تلا عليهم: «﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾» [الحاقة:١٩]: وقال لهم «إنكم سَتجدون هذا كلَّه في صَحائفكم تُعطَوْنَها بشمائلكم»[٢] قالوا: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ أي: صحيفتنا ﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾، قال الله تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ [ص:١٧]، فقصَّ قصةَ خطيئته إلى مُنتهاها، فكنت أقول: أمره بالصبر على ما قالوا، وأمره بذكر داود، فأي شيء أُريدَ من هذا الذِّكر؟ وكيف اتَّصل هذا بذاك؟ فلا أَقِفُ على شيء يسكن قلبي عليه، حتى هداني اللهُ له يوماً فأُلْهِمتُه؛ أن هؤلاء أنكروا قولَ أنهم يُعطَوْن كُتبهم بشمائلهم، فيها ذنوبهم وخطاياهم استهزاءً بأمر الله؛ وقالوا: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ فأوجعه ذلك من استهزائهم، فأمره بالصبر على مَقَالتهم، وأن يذكر عبدَه داودَ؛ سأل تعجيلَ خطيئته أن يراها منقوشةً في كفِّه، فنزل به ما نزل من أنه كان إذا رآها اضطرب وامتلأ القَدَح من دموعه، وكان إذا رآها بكى حتى تَنفُذَ سبعة أفرشة من اللِّيف مَحشوة بالرَّماد، فإنما سألها بعد المغفرة وبعد ضَمان تَبِعَة الخَصْم، وأن الله تبارك وتعالى اسمه يستوهبه منه، وهو حبيبه ووَلِيُّه وصَفِيُّه؛ فرؤية نَقْش الخطيئة بصورتها مع هذه المرتبة صَنعت به هكذا، فكيف كان يحلّ بأعداء الله وبِعُصاته من خَلْقه وأهل خِزْيه، لو عُجِّلت لهم صحائفهم فنظروا إلى صورة تلك الخطايا التي عملوها على الكفر والجُحود، وماذا يَحُلُّ بهم إذا نظروا إليها

(١) وأخرجه أبو نعيم في الحلية ٣/ ٢٩٧ من طريق صفوان بن صالح عن الوليد بن مسلم، به بنحوه.
(٢) لم نقف عليه.

في تلك الصحائف، وقد أخبر الله عنهم فقال: ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف:٤٩]، فداود صلوات الله عليه مع المغفرة والبُشرى والعطف لم يقم لرؤية صورتها. وقد روينا في الحديث: إذا رآها يومَ القيامة منقوشةً في كفِّه قَلِقَ حتى يقال له: هاهنا، ثم يرى فيقلق، ثم يقال له: هاهنا، ثم يرى فيقلق، حتى يقرب فيسكن(١).

قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ملَّكناك لِتأمُرَ بالمعروف وتنهى عن المنكر، فتخلُفَ مَن كان قبلكَ من الأنبياء والأئمة الصالحين(٢). وقد مضى في «البقرة»(٣) القولُ في الخليفة وأحكامه مستوفى، والحمد لله.

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالعدل. وهو أمرٌ على الوجوب وقد ارتبط هذا بما قبله، وذلك أن الذي عُوتب عليه داودُ طلبُه المرأةَ مِن زوجها وليس ذلك بعدل(٤). فقيل له بعد هذا: فاحكُمْ بين الناس بالعَدْل ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ أي: لا تَقْتدِ بهواك المُخالف لأمر الله ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: عن طريق الجنة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: يَحيدون عنها ويتركونها ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في النار ﴿بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: بما تركوا من سلوك طريق الله؛ فقوله: «نَسُوا» أي: تركوا الإيمان به، أو تركوا العملَ به فصاروا كالنَّاسين. ثم قيل: هذا لداود لمَّا

---

(١) سلف قريباً بنحوه من قول مجاهد.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٦١ .

(٣) ١/ ٣٩٥ وما بعدها.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٢٩ .

أكرمه الله بالنبوَّة. وقيل: بعد أن تاب عليه وغَفَر خطيئته.

الثالثة: الأصل في الأقضية قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾، وقوله: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة:٤٩]، وقوله تعالى: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء:١٠٥]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ الآية [المائدة:٨]. وقد تقدَّم الكلامُ فيه.

الرابعة: قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قال: إن ارتفع لك الخَصْمان فكان لك في أحدِهما هوىً، فلا تشتهِ في نفسك الحقَّ له لِيَفْلُجَ[1] على صاحبه، فإنْ فعلتَ محوتُ اسمك من نبوَّتي، ثم لا تكون خليفتي ولا أهلَ كرامتي[2].

فدلَّ هذا على بيان وجوب الحكم بالحقّ، وألّا يميلَ إلى أحد الخَصْمين لِقَرابةٍ أو رجاء نَفْع، أو سبب يقتضي المَيْل من صُحبة أو صداقة، أو غيرهما[3].

وقال ابن عباس: إنما ابتُلي سليمانُ بن داود عليهما السلام، لأنه تقدَّم إليه خَصْمان فَهَوِيَ أن يكون الحقُّ لأحدهما[4].

وقال عبد العزيز بن أبي روّاد: بلغني أن قاضياً كان في زمن بني إسرائيل بلغ من اجتهاده أن طلبَ إلى ربِّه أن يجعل بينه وبينه عَلَماً، إذا هو قضى بالحقّ عَرَفَ ذلك؛ وإذا هو قصَّر عَرَفَ ذلك، فقيل له: ادخل منزلك، ثم مُدَّ يدكَ في جدارك، ثم انظر حيث تبلغُ أصابعك من الجدار فاخطُطْ عندها خطّاً؛ فإذا أنت قمتَ من مجلس القضاء، فارجع إلى ذلك الخطّ فامدُدْ يدكَ إليه، فإنك متى ما كنتَ على الحقّ فإنك

(١) الفَلْج: الظَّفَر والفوز. القاموس (فلج).

(٢) أخرجه الحكيم الترمذي كما في الدر المنثور ٥/٣٠٦ .

(٣) أحكام القرآن للكيا ٣/ ٣٦١ .

(٤) نوادر الأصول ص١٨٧ بنحوه.

ستبلغه، وإن قصَّرت عن الحق قصَّر بك، فكان يغدو إلى القضاء وهو مجتهد، فكان لا يقضي إلا بحقّ، وإذا قام من مَجْلسه وفرغ لم يَذُقْ طعاماً ولا شراباً، ولم يُفْضِ إلى أهله بشيء من الأمور حتى يأتي ذلك الخطّ، فإذا بلغه حَمِدَ الله وأفضى إلى كلّ ما أحلَّ الله له من أهل أو مَطْعم أو مَشْرب. فلما كان ذاتَ يوم وهو في مجلس القضاء، أقبل إليه رجلان يُريدانه، فوقع في نفسه أنهما يُريدان أن يختصما إليه، وكان أحدُهما له صديقاً وخِدْناً، فتحرَّك قلبه عليه محبةَ أن يكون الحقُّ له فيقضيَ له، فلما أن تكلَّما دار الحقُّ على صاحبه فقضَى عليه، فلما قام من مَجْلسه ذهب إلى خطّه كما كان يذهب كلَّ يوم، فمدَّ يده إلى الخطّ فإذا الخطُّ قد ذهب وتشمَّر إلى السَّقف، وإذا هو لا يبلغه فخرَّ ساجداً وهو يقول: يا ربّ شيئاً لم أتعمَّدْه ولم أُرِده، فَبيِّنْه لي. فقيل له: أتحسبنَّ أن الله تعالى لم يطَّلع على خيانة قلبك، حيث أحببتَ أن يكون الحقُّ لِصديقك فتقضيَ[1] له به، قد أردته وأحببتَه، ولكن الله قد ردَّ الحقَّ إلى أهله وأنت كاره.

وعن ليث قال: تقدَّم إلى عمر بن الخطاب خَصْمان فأقامهما، ثم عادا فأقامهما، ثم عادا فَفَصَلَ بينهما، فقيل له في ذلك، فقال: تقدَّما إليَّ فَوَجَدتُ لأحدهما ما لم أجِدْ لصاحبه، فكَرِهتُ أن أفصل بينهما على ذلك، ثم عادا فَوَجَدتُ بعضَ ذلك له، ثم عادا وقد ذهب ذلك ففصلتُ بينهما[2].

وقال الشعبي: كان بين عمر وأُبَيٍّ خُصومةٌ، فتقاضيا إلى زيد بن ثابت، فلما دخلا عليه أشار لعمر إلى وسادته، فقال عمر: هذا أوَّلُ جَوْرك؛ أجلسني وإيَّاه مَجْلساً واحداً؛ فجلسا بين يديه[3].

الخامسة: هذه الآيةُ تمنعُ من حُكم الحاكم بعلمه؛ لأن الحُكَّام لو مُكِّنوا أن

(١) في (م): لتقضي.

(٢) ذكر هذا الخبر والذي قبله الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص ١٨٦ - ١٨٧ .

(٣) أخرجه ابن شبّه في تاريخ المدينة المنورة ٢/ ٧٥٥ .

يحكموا بعلمهم، لم يشأ أحدُهم إذا أراد أن يحفظَ وليَّه ويُهْلِكَ عدوَّه إلا ادَّعى عِلْمَه فيما حكم به. ونحو ذلك رُوي عن جماعة من الصحابة منهم أبو بكر؛ قال: لو رأيتُ رجلاً على حدٍّ من حدود الله، ما أخذْتُه حتى يشهدَ على ذلك غيري(١).

وروي أن امرأةً جاءت إلى عمرَ فقالت له: احكُمْ لي على فلان بكذا، فإنك تعلمُ ما لي عنده. فقال لها: إنْ أردتِ أن أشهدَ لك فنعم، وأما الحُكم فلا(٢). وفي «صحيح» مسلم: عن ابن عباس: أن رسولَ الله ﷺ قضَى بيمين وشاهِد(٣). ورُوي عن النبي ﷺ أنه اشترى فرساً فجحده البائع، فلم يَحكُمْ عليه بعلمه وقال: «مَنْ يَشْهَد لي» فقام خُزيمةُ فَشهِدَ فحكم. خرَّج الحديثَ أبو داود وغيره، وقد مضى في «البقرة»(٤).

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ أي: هَزْلاً ولَعِباً. أي: ما خلقناهما إلا لأمرٍ صحيح، وهو الدلالة على قُدرتنا. ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: حُسبان الذين كفروا أن الله خَلَقَهما باطلاً.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ ٱلنَّارِ﴾ ثم وبَّخهم فقال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ والميم صِلة تقديره: أنجعلُ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ١٤٤ من قول الزهري عن أبي بكر ﷺ.

(٢) لم نقف عليه، وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف ٦/٥٣٨ عن الضحاك قال: اختصم رجلان إلى عمر ابن الخطاب ادَّعيا شهادته، فقال لهما عمر: إن شئتما شَهِدتُ ولم أقضِ بينكما، وإن شئتما قضيت ولم أشهد.

(٣) صحيح مسلم (١٧١٢)، وأخرجه أحمد (٢٢٢٤).

(٤) ٤/ ٤٦٢، والحديث أخرجه أحمد (٢١٨٨٣)، وأبو داود (٣٦٠٧).

﴿ٱلْأَرْضِ﴾ فكان في هذا ردٌّ على المُرجئة؛ لأنهم يقولون: يجوز أن يكون المُفسد كالصالح أو أرفعَ درجةً منه. وبعده أيضاً: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ أي: أنجعل أصحابَ محمد عليه الصلاة والسلام كالكفار؛ قاله ابن عباس. وقيل: هو عامٌّ في المسلمين المتقين والفُجّار الكافرين، وهو أحسن، وهو ردٌّ على مُنكري البعث الذين جعلوا مصيرَ المُطيع والعاصي إلى شيء واحد(١).

قوله تعالى: ﴿كِتَـٰبٌ﴾ أي: هذا كتاب ﴿أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ﴾ يا محمد ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟﴾ أي: لِيتدبروا، فأُدغمت التاء في الدال. وفي هذا دليلٌ على وجوب معرفة معاني القرآن، ودليلٌ على أن الترتيلَ أفضلُ من الهَذِّ؛ إذ لا يَصِحُّ التدبُّر مع الهَذّ(٢)، على ما بيَّناه في كتاب «التذكار». وقال الحسن: تدبُّر آيات الله اتّباعُها(٣).

وقراءة العامة: «لِيَدَّبَّرُوا». وقرأ أبو جعفر وشيبة: «لِتَدَبَّرُوا» بتاء وتخفيف الدال(٤)، وهي قراءة عليّ ﷺ(٥)، والأصلُ: لِتَتَدبَّروا، فحذف إحدى التاءين تخفيفاً.

﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ أي: أصحابُ العقول، واحدُها لُبٌّ، وقد جمع على أَلُبّ، كما جمع بُؤسٌ على أبؤس، ونُعْم على أَنْعُم؛ قال أبو طالب:

قـلـبـي إلـيـه مُـشـرِفُ الأَلُـبِّ

وربما أظهروا التضعيف في ضرورة الشعر؛ قال الكُمَيت:

إلـيـكـم ذوِي آلِ الـنَّـبـيّ تَـطَـلَّـعَـتْ نَـوازِعُ مـن قـلـبـي ظِـمـاءٌ وَأَلْـبُـبُ(٦)

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٦٢ بنحوه دون قول ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥٠٣ بنحوه. والهذّ: سرعة القراءة. القاموس (هذذ).

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٦٠ .

(٤) قراءة أبي جعفر في النشر ٢/ ٣٦١ .

(٥) القراءات الشاذة ص١٣٠ .

(٦) لم نقف عليه في ديوانه، وهو في الصحاح (لبب). والكلام منه.

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣)﴾

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ لما ذكر داودَ ذكَرَ سليمان. و«أوَّابٌ» معناه مُطيع. ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾ يعني الخيل، جمع جواد للفرس إذا كان شديدَ الحُضْر[1]؛ كما يقال للإنسان: جواد، إذا كان كثيرَ العَطِيَّة غزيرَها؛ يقال: قومٌ أجواد وخيلٌ جِياد[2]، جاد الرجلِ بماله يجود جُوداً، فهو جواد، وقومٌ جُود مثال: قَذَال وقُذُل، وإنما سكنت الواو لأنها حرف عِلَّة، وأجواد وأجاوِد وجُوداء، وكذلك امرأةٌ جَوَاد، ونسوة جُود مثل: نَوارٍ ونُور، قال الشاعر:

صَنَاعٌ بإشْفاها حَصانٌ بِشَكْرِها جَوادٌ بِقُوتِ البَطْنِ والعِرْقُ زاخِرُ[3]

وتقول: سِرنا عُقْبةً جَوَاداً، وعُقْبتين جَوَادين، وعُقَباً جِياداً. وجاد الفرس، أي: صار رائعاً يجود جُودة - بالضم - فهو جَواد للذَّكر والأُنثى، من خيلٍ جِياد وأجياد وأجاويد.

وقيل: إنها الطِّوال الأعناق، مأخوذٌ من الجِيد وهو العُنق؛ لأن طُولَ الأعناق [في] الخيل من صفات فَرَاهتها[4].

وفي «الصَّافِنات» أيضاً وجهان: أحدهما أن صُفونها قيامُها. قال القتبي والفراء:

(١) الحُضر: ارتفاع الفرس في عَدْوه. القاموس (حضر).

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٦٢.

(٣) قائله أبو شهاب الهذلي، كما في الصحاح (جود) والكلام الذي قبله والذي بعده منه، وقوله: صَناع بإشفاها: قال ابن السكيت: امرأة صَناع: إذا كانت رقيقة اليدين تُسوِّي الأشافي وتَخرِزُ الدِّلاء وتفريها، وامرأة صَناع: حاذقة بالعمل. والإشْفى: المِثْقَب. والشُّكْر: الفرج. وقوله: العرق زاخر: أي: تجود بقُوتها عند الجوع وهيجان الدم والطبائع. اللسان (صنع) و(شفي) و(شكر) و(جود).

(٤) النكت والعيون ٥/ ٩٢.

الصافن في كلام العرب الواقفُ من الخيل أو غيرها[(١)]. ومنه ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ سرَّه أن يقومَ له الرجالُ صفوناً فَلْيتبَوَّأْ مَقْعَدَه من النار»[(٢)] أي: يُديمون له القيام؛ حكاه قُطرب أيضاً وأنشد قول النابغة:

لـنـا قُـبَّـةٌ مَـضْـروبـةٌ بِـفـنـائـهـا عِتاقُ المَهارى والجِيَاد الصَّوَافن[(٣)]

وهذا قول قتادة. الثاني: أن صُفونها رَفْعُ إحدى اليدين على طرف الحافر حتى يقومَ على ثلاث؛ كما قال الشاعر:

أَلِـفَ الـصُّـفـونَ فـمـا يَـزَالُ كَـأَنَّـهُ مِمَّا يقومُ على الثَّلاثِ كَسِيرا[(٤)]

وقال عمرو بن كُلْثوم:

تَـركْـنـا الـخـيـلَ عـاكِـفَـةً عـلـيـهِ مُـقَـلَّـدَةً أعِـنَّـتَـهَـا صُـفـونـا[(٥)]

وهذا قول مجاهد[(٦)]. قال الكلبي: غزا سليمانُ أهلَ دمشق ونَصِيبين فأصابَ منهم ألفَ فرس. وقال مقاتل: وَرِثَ سليمانُ من أبيه داودَ ألفَ فرس، وكان أبوه أصابها من العمالقة. وقال الحسن: بلغني أنها كانت خيلاً خرجتْ من البحر لها أجنحة[(٧)]. وقاله الضحاك. وأنها كانت خيلاً أُخرجت لسليمان من البحر منقوشة ذاتَ أجنحة.

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٤٠٥، وغريب القرآن للقتبي ص٣٧٩، وعبارة الفراء: وقد رأيت العرب تجعل الصافن القائمَ على ثلاث أو على غير ثلاث، وأشعارهم تدل على أنها القيام خاصة.

(٢) نقله المصنف بهذا اللفظ عن الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٩١، وما بعده منه. قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٤٢: لم أجده هكذا. اهـ وقال ابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٦٣٥: هذا حديث موضوع. اهـ. وأخرج الترمذي (٢٧٥٥) من حديث معاوية ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سرَّه أن يَتمثَّل له الرجال قياماً فَلْيتبوَّأ مقعده من النار».

(٣) ليس في ديوانه المطبوع، ونسبه له الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٩١، وأبو حيان في البحر ٧/ ٣٨٨.

(٤) لم نقف على قائله، وهو في النكت والعيون ٥/ ٩٢، ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ٣٣٠.

(٥) معلقة عمرو بن كلثوم بشرح ابن كيسان ص٦٠.

(٦) تفسير مجاهد ٢/ ٥٤٩، وأخرج الطبري ٢٠/ ٨٢.

(٧) تفسير البغوي ٤/ ٦٠، ومجمع البيان ٢٣/ ١١٣.

ابن زيد: أخرج الشيطانُ لسليمان الخيل من البحر من مُروج البحر، وكانت لها أجنحة. وكذلك قال عليٌّ ﷺ: كانت عشرين فرساً ذواتِ أجنحة. وقيل: كانت مئة فرس. وفي الخبر عن إبراهيم التيمي: أنها كانت عشرين ألفاً[١]، فالله أعلم.

﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ يعني بالخير الخيل، والعربُ تُسميها كذلك، وتُعاقِب بين الراء واللام؛ فتقول: انهملَتِ العين، وانهمرَتْ، وخَتلتُ وخَترتُ، إذا خَدَعْتَ[٢]. قال الفراء[٣]: الخيرُ في كلام العرب والخيلُ واحد. النحاس[٤]: في الحديث: «الخيلُ معقودٌ في نواصيها الخير إلى يوم القيامة»[٥] فكأنها سُمِّيت خيراً لهذا. وفي الحديث: لما وفد زيدُ الخيل على النبي ﷺ، قال له: «أنت زيدُ الخير»[٦] وهو زيدُ بن مُهَلهِل الشاعر.

وقيل: إنما سُمِّيت خيراً لما فيها من المنافع. وفي الخبر: إن الله تعالى عَرَضَ على آدم جميعَ الدوابِّ، وقيل له: اختر منها واحداً فاختار الفرس؛ فقيل له: اخترتَ عِزَّك؛ فصار اسمه الخير من هذا الوجه. وسُمِّي خيلاً؛ لأنها موسومةٌ بالعزّ. وسُمِّي فرساً لأنه يفترس مسافاتِ الجو افتراسَ الأسد وثباناً، ويقطعها كالالتهام بيديه على كل شيء خبطاً وتناولاً. وسمِّي عربيًّا لأنه جِيء به من بعد آدم لإسماعيل جزاءً عن رفع قواعد البيت، وإسماعيلُ عربيٌّ فصارت له نِحْلةً من الله؛ فسمِّي عربيًّا[٧].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٦٠، وزاد المسير ٧/ ١٢٨، ونسبا قول علي ﷺ لإبراهيم التيمي، وقولَ إبراهيم التيمي لعكرمة. قال أبو حيان في البحر ٧/ ٣٩٧: وقد اختلفوا في عدد هذه الخيل على أقوال متكاذبة سوَّدوا الورق بذكرها.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٦٠ بنحوه.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٤٠٥.

(٤) معاني القرآن ٦/ ١٠٩-١١٠، وقول الفراء الذي قبله منه.

(٥) أخرجه البخاري (٨٩٩)، ومسلم (٤٤٢)، وسلف ٣/ ٢٤١.

(٦) ذكره ابن حجر في الإصابة ٤/ ٦٨-٦٩، وذكر أن ابن شاهين رواه من طريق بشير مولى بني هاشم، وأخرجه ابن عدي في ترجمة بشير وضعَّفه. وسلف ٧/ ٢٩٨.

(٧) سلف ٥/ ٥١.

و«حُبَّ» مفعول في قول الفراء[١]. والمعنى: إني آثرتُ حُبَّ الخير. وغيره يُقدِّره مصدراً أُضيفَ إلى المفعول؛ أي: أحببت الخير حبًّا فألهاني عن ذِكْر ربي. وقيل: إن معنى «أَحْبَبْتُ» قعدتُ وتأخَّرتُ، من قولهم: أَحَبَّ البعيرُ، إذا برك وتأخَّر. وأحبَّ فلانٌ، أي: طأطأ رأسه. قال أبو زيد: يقال: بعير مُحِبٌّ، وقد أحبَّ إحباباً، وهو أن يُصيبه مرضٌ أو كَسْرٌ فلا يبرح مكانه حتى يبرأ أو يموت. وقال ثعلب: يقال أيضاً للبعير الحسير: مُحِبٌّ[٢]؛ فالمعنى: قعدتُ عن ذكر ربي. و«حُبَّ» على هذا مفعول له. وذكر أبو الفتح الهَمْداني في كتاب «التبيان»: أحببتُ بمعنى لَزِمت؛ من قوله:

مِثْلَ بعيرِ السَّوْءِ إذْ أَحَبَّا[٣]

﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ يعني الشمس، كناية عن غير مذكور؛ مثل قوله تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥] أي: على ظهر الأرض؛ وتقول العرب: هاجت باردةً، أي: هاجت الريحُ باردة. وقال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة: ٨٣] أي: بلغت النفس الحلقوم. وقال تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾ [المرسلات: ٣٢] ولم يتقدَّم للنار ذِكْر. وقال الزجاج[٤]: إنما يجوز الإضمارُ إذا جرى ذِكْر الشيء أو دليلُ الذكر، وقد جرى هاهنا الدليل، وهو قوله: «بِالعَشِيِّ». والعشيُّ ما بعد الزوال، والتواري الاستتارُ عن الأبصار، والحِجاب جبلٌ أخضرُ محيطٌ بالخلائق؛ قاله قتادة وكعب. وقيل: هو جبلُ قاف. وقيل: جبلٌ دون قاف. والحجابُ الليلُ؛ سُمِّي حجاباً لأنه يستُر ما فيه[٥].

---

(١) معاني القرآن ٢/ ٤٠٥، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٦٣.

(٢) الصحاح (حبب).

(٣) الكشاف ٣/ ٣٧٣. والرجز لأبي محمد الفقعسي كما في اللسان (حبب) وقبله: حُلْتُ عليه بالقفيل ضرباً. والقفيل: السوط.

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٣٣١.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٩٣ بنحوه، وينظر تفسير البغوي ٤/ ٦٠.

وقيل: «حتَّى تَوارَتْ» أي: الخيل في المسابقة. وذلك أن سليمانَ كان له ميدانٌ مستديرٌ يُسابق فيه بين الخيل، حتى توارى[١] عنه وتغيبَ عن عينه في المسابقة؛ لأن الشمس لم يَجْرِ لها ذِكْر.

وذكر النحاس أن سليمانَ عليه السلام كان في صلاة، فجيء إليه بخيل لِتُعرض عليه قد غُنمت فأشار بيده، لأنه كان يُصلِّي حتى توارت الخيل، وسترتها جُدر الاصطبلات، فلما فرغَ من صلاته قال: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا﴾ أي: فأقبل يمسحها مسحاً. وفي معناه قولان: أحدُهما أنه أقبل يمسحُ سُوقَها وأعناقها بيده إكراماً منه لها، ولِيرى أن الجليلَ لا يقبحُ أن يفعل مثلَ هذا بخيله. وقال قائلُ هذا القول: كيف يقتلها؟ وفي ذلك إفسادُ المال ومعاقبةُ مَنْ لا ذنبَ له. وقيل: المَسْح هاهنا هو القَطْع، أُذِن له في قَتْلها[٢].

قال الحسن والكلبي ومقاتل: صلَّى سليمانُ الصلاةَ الأُولى وقعد على كرسيه وهي تُعرَض عليه، وكانت ألفَ فرس؛ فَعُرِضَ عليه منها تسع مئة فتنبَّه لصلاة العصر، فإذا الشمسُ قد غربت وفاتت الصلاة، ولم يُعلَم بذلك هيبةً له، فاغتمَّ فقال: «رُدُّوها عليَّ» فَرُدَّت، فعقرها بالسيف قُربةً لله وبقي منها مئة، فما في أيدي الناس من الخيل العِتاق اليوم فهي من نَسْل تلك الخيل[٣].

وقال القشيري: وقيل: ما كان في ذلك الوقت صلاةُ الظهر ولا صلاة العصر، بل كانت الصلاة نافلةً فَشُغِلَ عنها. وكان سليمانُ عليه السلام رجلاً مَهيباً، فلم يُذكِّره أحدٌ ما نسي من الفرض أو النفل، وظنُّوا التأخُّر مباحاً[٤]، فتذكَّر سليمانُ تلك الصلاةَ الفائتة، وقال على سبيل التلهُّف: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ أي: عن الصلاة، وأمر بردِّ الأفراس إليه، وأمر بضرب عَراقيبها وأعناقها، ولم يكن ذلك

---

(١) في (م): توارت.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٦٣ .

(٣) قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥٠٤ : وهذا بعيد. وينظر النكت والعيون ٥/ ٩٤ .

(٤) زاد المسير ٧/ ١٢٩ بنحوه.

معاقبةً للأفراس؛ إذْ ذَبْح البهائم جائزٌ إذا كانت مأكولةً، بل عاقب نَفْسَه حتى لا تَشْغَلَه الخيلُ بعد ذلك عن الصلاة(١). ولعله عَرْقَبها لِيذبحها فحبسها بالعرقبة عن النِّفار، ثم ذبحها في الحال لِيتصدَّق بلحمها؛ أو لأن ذلك كان مباحاً في شرعه فأتلفها لمَّا شغلته عن ذكر الله، حتى يقطع عن نفسه ما يشغله عن الله، فأثنى اللهُ عليه بهذا، وبيَّن أنه أثابه بأن سخَّرَ له الريح، فكان يقطع عليها من المسافة في يومٍ ما يقطع مثلَه على الخيل في شهرين غُدوًّا ورَواحاً(٢).

وقد قيل: إن الهاء في قوله: «رُدُّوها عليَّ» للشمس لا للخيل. قال ابن عباس: سألت عليًّا عن هذه الآية فقال: ما بلغك فيها؟ فقلت: سمعتُ كعباً يقول: إن سليمان لما اشتغل بعرض الأفراس حتى توارت الشمسُ بالحجاب وفاتته الصلاةُ، قال: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ أي: آثرتُ حُبَّ الخير عن ذِكْرِ رَبِّي، الآية ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ يعني الأفراس، وكانت أربعَ عشرةَ؛ فضرب سُوقَها وأعناقَها بالسيف، وأن الله سلبه مُلكه أربعةَ عشرَ يوماً؛ لأنه ظلم الخيل. فقال علي بن أبي طالب: كذب كعب؛ لكن سليمان اشتغل بعرض الأفراس للجهاد حتى توارت؛ أي: غربت الشمسُ بالحجاب؛ فقال بأمر الله للملائكة المُوكَّلين بالشمس: «رُدُّوها» يعني الشمس، فَرَدُّوها حتى صلَّى العصر في وقتها، وأن أنبياءَ الله لا يَظْلِمون؛ لأنهم معصومون(٣).

قلت: الأكثر في التفسير أن التي توارت بالحجاب هي الشمس، وتركها لِدَلالة السامع عليها بما ذُكر مما يرتبط بها ويتعلَّق بذِكْرها، حسب ما تقدَّم بيانه. وكثيراً ما يُضمرون الشمس؛ قال لبيد:

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٩٤ بنحوه.

(٢) زاد المسير ٧/ ١٣٢ بنحوه.

(٣) مجمع البيان ٢٣/ ١١٣ . قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٦/ ٢٢٢ : أورد هذا الأثر جماعة ساكتين عليه جازمين بقولهم: «قال ابن عباس: قلت لعلي» وهذا لا يثبت عن ابن عباس ولا عن غيره، والثابت عن جمهور أهل العلم بالتفسير من الصحابة ومن بعدهم أن الضمير المؤنث في قوله: «ردوها» للخيل، والله أعلم.

حتى إذا أَلْقَتْ يَداً في كافِرٍ وأجَنَّ عَوْرَاتِ الثُّغورِ ظَلامُها[١]

والهاء في «رُدُّوها» للخيل. ومَسْحُها؛ قال الزهري وابن كيسان: كان يمسح سُوقَها وأعناقَها، ويكشف الغبارَ عنها حُبًّا لها[٢]. وقاله الحسن وقتادة وابن عباس[٣].

وفي الحديث أن النبيَّ ﷺ رُئيَ وهو يمسحُ فرسَه بردائه. وقال: «إني عُوتبتُ الليلةَ في الخيل»، خرّجه «الموطأ» عن يحيى بن سعيد مُرسلاً[٤]. وهو في غير «الموطأ» مسندٌ متصلٌ عن مالك عن يحيى بن سعيد عن أنس[٥]. وقد مضى في «الأنفال» قوله عليه الصلاة والسلام: «وامسحوا بنواصيها وأكْفالها»[٦].

وروى ابن وهب عن مالك أنه مسحَ أعناقَها وسُوقها بالسيوف[٧].

قلت: وقد استدلَّ الشِّبلي وغيره من الصوفية في تقطيع ثيابهم وتخريقها بفعل سليمان هذا. وهو استدلالٌ فاسد؛ لأنه لا يجوز أن يُنسب إلى نبيٍّ معصوم أن فَعَل الفساد. والمفسرون اختلفوا في معنى الآية؛ فمنهم من قال: مسحَ على أعناقها وسُوقها إكراماً لها وقال: أنتِ في سبيل الله؛ فهذا إصلاح. ومنهم من قال: عَرْقبها ثم ذبحها، وذَبْحُ الخيل وأكلُ لحمها جائز. وقد مضى في «النحل» بيانه[٨]. وعلى هذا فما فَعَل شيئاً عليه فيه جُناح.

---

(١) ديوان لبيد ص٣١٦ . قال شارحه: كافر: ليل ساتر. عورات الثغور: مواضع المخافة منها.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٦١ .

(٣) أخرج أقوالهم الطبري ٢٠/ ٨٦-٨٧ ، لكن قول الحسن وقتادة عنده وفي تفسير البغوي ٤/ ٦١ ، والنكت والعيون ٥/ ٩٣ أنه عقرها وضرب سوقها وأعناقها.

(٤) الموطأ ١/ ٤٦٨ .

(٥) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ٢٤/ ١٠٠ . وقال: وقد رُوي عن مالك مسنداً عن يحيى بن سعيد عن أنس، ولا يصح.

(٦) ١٠/ ٥٨ ، والحديث أخرجه أحمد (١٩٠٣٢) وهو ضعيف.

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٣٦ .

(٨) ١٢/ ٢٨١ وما بعدها.

فأما إفسادُ ثوب صحيح لا لغرض صحيح فإنه لا يجوز. ومن الجائز أن يكون في شريعة سليمان جوازُ ما فعل، ولا يكون في شرعنا.

وقد قيل: إنما فعل بالخيل ما فعل بإباحة الله جلّ وعزّ له ذلك. وقد قيل: إنَّ مَسْحه إيّاها: وَسَمَها بالكَيِّ وجَعَلَها في سبيل الله؛ فالله أعلم. وقد ضُعِّف هذا القول من حيث إن السُّوق ليست بمحلٍّ للوسم بحال[١].

وقد يقال للكيِّ على الساق: عِلاطٌ، وعلى العُنق وِثاق. والذي في «الصحاح» للجوهري[٢]: عَلَط البعيرَ عَلْطاً، كواه في عُنقه بسمة العِلاَط. والعِلاطان جانبا العُنق.

قلت: ومَن قال: إن الهاء في «رُدُّوها» ترجع للشمس، فذلك من معجزاته. وقد اتَّفق مثلُ ذلك لنبينا ﷺ؛ خرَّج الطحاوي في «مشكل الحديث» عن أسماء بنت عُمَيْس من طريقين أن النبي ﷺ كان يُوحَى إليه ورأسه في حِجْر عليّ، فلم يُصَلِّ العصر حتى غربت الشمس؛ فقال رسولُ الله ﷺ: «أصليتَ يا علي» قال: لا. فقال رسولُ الله ﷺ: «اللهمَّ إنه كان في طاعتك وطاعةِ رسولك فارْدُدْ عليه الشمس» قالت أسماء: فرأيتُها غربَتْ، ثم رأيتها بعد ما غربَتْ طلعَتْ على الجبال والأرض، وذلك بالصَّهْباء في خيبر. قال الطحاوي: وهذان الحديثان ثابتان، ورواتُهما ثِقات[٣].

قلت: وضعَّف أبو الفرج ابن الجوزي هذا الحديث[٤] فقال: وغلوُّ الرافضة في حُبِّ عليٍّ عليه السلام حملهم على أن وضعوا أحاديثَ كثيرةً في فضائله؛ منها أن

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٦٣٧ .

(٢) الصحاح (علط).

(٣) شرح مشكل الآثار (١٠٦٧) و(١٠٦٨)، وليس فيه قول الطحاوي: وهذان الحديثان ثابتان، ونقله المصنف عن الطحاوي بواسطة القاضي عياض في الشفا ١/٥٤٨-٥٤٩ وينظر التعليق التالي.

(٤) الموضوعات لابن الجوزي ١/٢٦٦ ، وقال: هذا حديث موضوع بلا شك... ونقل ابن عراق في تنزيه الشريعة ١/٣٧٩ عن الذهبي في تلخيص الموضوعات أن أسانيد هذا الحديث ساقطة ليست بصحيحة. وقال الحافظ ابن حجر في الفتح ٦/٢٢٢ : وقد أخطأ ابن الجوزي بإيراده له في «الموضوعات» وكذا ابن تيمية في كتاب «الرد على الروافض» في زعم وضعه، والله أعلم.

الشمسَ غابت ففاتَتْ علياً عليه السلام العصر فَرُدَّت له الشمس، وهذا من حيث النقلُ محال، ومن حيث المعنى، فإن الوقتَ قد فات وعَوْدُها طلوعٌ مُتجدِّد لا يردُّ الوقت.

ومن قال: إن الهاء ترجِعُ إلى الخيل، وأنها كانت تبعدُ عن عين سليمان في السباق، ففيه دليلٌ على المسابقة بالخيل، وهو أمرٌ مشروع. وقد مضى القولُ فيه في «يوسف»[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ قيل: فُتن سليمان بعد ما ملك عشرين سنة، وملك بعد الفتنة عشرين سنة؛ ذكر الزمخشري[(٢)].

و«فَتَنَّا» أي: ابتلينا وعاقبنا. وسببُ ذلك ما رواه سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال: اختصم إلى سليمان عليه السلام فريقان؛ أحدُهما من أهل جرادة امرأة سليمان؛ وكان يُحبها، فهوى أن يقع القضاءُ لهم، ثم قضى بينهما بالحق، فأصابه الذي أصابه عقوبةً لذلك الهوى.

وقال سعيد بن المسيَّب: إن سليمان عليه السلام احتجب عن الناس ثلاثةَ أيام لا يقضي بين أحد، ولا يُنصف مظلوماً من ظالم؛ فأوحى الله تعالى إليه: إني لم أستخلفك لِتحتجبَ عن عبادي، ولكن لِتقضيَ بينهم وتُنصف مظلومَهم[(٣)].

---

(١) ١١/ ٢٨١ وما بعدها.

(٢) الكشاف ٣/ ٣٣٤ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٩٤-٩٥ .

وقال شَهْر بن حَوْشَب ووهب بن مُنبِّه: إن سليمانَ عليه السلام سبى بنتَ ملكٍ غَزاهُ في البحر، في جزيرة من جزائر البحر يقال لها: صيدون. فأُلقيت عليه محبتُها وهي تُعرض عنه، لا تنظر إليه إلا شَزْراً، ولا تُكلمه إلا نَزْراً، وكان لا يرقأُ لها دمعٌ حزناً على أبيها، وكانت في غايةٍ من الجمال، ثم إنها سألته أن يصنعَ لها تِمثالاً على صورة أبيها حتى تنظرَ إليه، فأمر فَصُنِعَ لها، فعظَّمته وسجدَتْ له، وسجدت معها جواريها، وصار صنماً معبوداً في داره وهو لا يعلم، حتى مضت أربعون ليلة، وفشى خبره في بني إسرائيل، وعلم به سليمانُ فكسره، وحرقه ثم ذراه في البحر[١].

وقيل: إن سليمانَ لما أصاب ابنةَ ملك صيدون ـ واسمها جرادة، فيما ذكر الزمخشري[٢] ـ أُعجب بها، فعرض عليها الإسلام فأبَتْ، فخوَّفها فقالت: اقتلني ولا أُسلم، فتزوَّجها وهي مُشركة، فكانت تعبدُ صنماً لها من ياقوت أربعين يوماً في خُفية من سليمان؛ إلى أن أسلمتْ، فَعُوقِبَ سليمانُ بزوال مُلكه أربعين يوماً[٣].

وقال كعب الأحبار: إنه لمَّا ظلم الخيل بالقتل سُلب مُلكه.

وقال الحسن: إنه قارب بعضَ نسائه في شيء من حيض أو غيره[٤]. وقيل: إنه أُمِرَ ألاّ يتزوَّج امرأة إلا من بني إسرائيل، فتزوَّج امرأةً من غيرهم، فَعُوقب على ذلك؛ والله أعلم[٥].

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ قيل: شيطان في قول أكثرِ أهل التفسير؛ ألقى اللهُ شبهَ سليمان عليه السلام عليه، واسمه صخر بن عمير صاحب البحر، وهو

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٩٥ ، وتفسير البغوي ٤/ ٦١ .

(٢) الكشاف ٣/ ٣٧٤ .

(٣) عرائس المجالس ص٣٢٧ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٩٤ .

(٥) عرائس المجالس ص٣٢٧ . وهذه الأخبار من الإسرائيليات، وينظر ما سنذكره من الردّ عليها في آخر القصة.

الذي دلَّ سليمان على الماس حين أمر سليمان ببناء بيت المقدس[١]، فصوتت الحجارة لمَّا صُنعت بالحديد، فأخذوا الماس فجعلوا يقطعون به الحجارة والفصوص وغيرها ولا تصوت.

قال ابن عباس: كان مارداً لا يقوى عليه جميع الشياطين، ولم يزل يحتال حتى ظَفِرَ بخاتم سليمان بن داود، وكان سليمان لا يدخل الكَنيف بخاتمه، فجاء صخر في صورة سليمان حتى أخذ الخاتم من امرأةٍ من نساء سليمان أمِّ ولدٍ له يقال لها: الأمينة؛ قاله شَهْرٌ ووهب.

وقال ابن عباس وابن جبير: اسمها جرادة. فقام أربعين يوماً على مُلك سليمانَ وسليمانُ هارب، حتى ردَّ الله عليه الخاتم والمُلْك.

وقال سعيد بن المسيَّب: كان سليمان قد وضع خاتمه تحت فراشه، فأخذه الشيطان من تحته. وقال مجاهد: أخذه الشيطان من يدِ سليمان؛ لأن سليمان سأل الشيطان ـ وكان أسمه آصف ـ: كيف تُضِلُّون الناس؟ فقال له الشيطان: أعطني خاتمك حتى أُخبرك. فأعطاه خاتمه، فلما أخذ الشيطانُ الخاتم جلس على كرسيِّ سليمان، مُتَشبِّهاً بصورته، داخلاً عل نسائه، يقضي بغير الحقّ، ويأمر بغير الصواب.

واختلف في إصابته لنساء سليمان، فَحُكي عن ابن عباس ووهب بن منبّه: أنه كان يأتيهنّ في حيضهنّ[٢]. وقال مجاهد: مُنِعَ من إتيانهنَّ. وزال عن سليمانَ مُلكه، فخرج هارباً إلى ساحل البحر يتضيَّف الناس؛ ويحمل سموكَ الصيادين بالأجر، وإذا أخبر الناسَ أنه سليمان أكذبوه. قال قتادة[٣]: ثم إن سليمانَ بعد أن استنكر بنو إسرائيل حُكم الشيطان أخذ حُوتة من صياد. قيل: إنه استطعمها. وقال ابن عباس: أخذها أُجرةً في حمل حوت. وقيل: إن سليمان صادها، فلما شقَّ بطنها وجد خاتمه فيها،

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٧٤.

(٢) هذا من أقبح الإسرائيليات التي ذُكرت في قصة سيدنا سليمان عليه السلام، كما ذكر الألوسي في روح المعاني ٢٣/ ١٩٩، وقال: الله أكبر، هذا بهتان عظيم، وخطب جسيم.

(٣) كذا في (ز) و(ظ) و(م)، وفي (د): قاله قتادة، غير أن سياق الكلام في النكت والعيون ٥/ ٩٦-٩٧ (وعنه نقل المصنف) لا يدل أنه من كلام قتادة.

وذلك بعد أربعين يوماً من زوال مُلكه: وهي عدد الأيام التي عُبِدَ الصنم في داره، وإنما وجد الخاتم في بطن الحوت؛ لأن الشيطانَ الذي أخذه ألقاه في البحر[١].

وقال عليّ بن أبي طالب ﷺ: بينما سليمان على شاطئ البحر وهو يَعبثُ بخاتمه، إذ سقط منه في البحر، وكان مُلكه في خاتمه[٢].

وقال جابر بن عبد الله: قال النبي ﷺ: «كان نقشُ خاتم سليمان بن داود: لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله»[٣].

وحكى يحيى بن أبي عمرو السيباني[٤] أن سليمان وجد خاتمه بِعَسْقَلان، فمشى منها إلى بيت المقدس تواضعاً لله تعالى. قال ابن عباس وغيره: ثم إن سليمان لما ردَّ الله عليه مُلكه، أخذ صخراً الذي أخذ خاتمه، ونقر له صخرةً وأدخله فيها، وسدَّ عليه بأخرى وأوثقها بالحديد والرصاص، وختم عليها بخاتمه وألقاها في البحر؛ وقال: هذا مَحْبِسُكَ إلى يوم القيامة[٥].

وقال علي ﷺ: لما أخذ سليمانُ الخاتم، أقبلتْ إليه الشياطين والجن والإنس والطير والوحش والريح، وهرب الشيطانُ الذي خلف في أهله، فأتى جزيرةً في البحر، فبعث إليه الشياطينُ فقالوا: لا نقدر عليه، ولكنه يَرِد علينا في الجزيرة في كل سبعة أيام يوماً، ولا نقدِرُ عليه حتى يسكر. قال: فنزح سليمان ماءها، وجعل فيها خمراً، فجاء يومَ وُروده فإذا هو بالخمر، فقال: والله، إنك لشرابٌ طَيِّب إلا أنكِ

---

(١) النكت والعيون ٥/٩٦-٩٧ ، وهذه الأخبار من الإسرائيليات، وينظر ما سنذكره من الرد عليها آخر القصة.

(٢) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/٣١٦ .

(٣) أخرجه ابن عدي في الكامل ٤/١٣٦٨ ، وفي إسناده شيخ بن أبي خالد، قال ابن عدي: أحاديثه مناكير. وقال الذهبي في الميزان ٢/ ٢٨٦ : متهم بالوضع، وذكر هذا الحديث وعدَّه من أباطيله.

(٤) في النسخ: الشيباني، وهو خطأ، والمثبت من تقريب التهذيب والأنساب ٧/ ٢١٤ قال الحافظ ابن حجر: وهو أبو زرعة الحمصي، ثقة، روايته عن الصحابة مرسلة، مات سنة (١٤٨هـ) أو بعدها.

(٥) النكت والعيون ٥/٩٨ .

تُطيشين الحليم، وتُزيدين الجاهل جهلاً. ثم عَطِشَ عطشاً شديداً، ثم أتاها[١] فقال مثلَ مَقَالته، ثم شربها، فغلبت على عقله؛ فأرَوه الخاتم فقال: سمعاً وطاعة. فأتَوا به سليمانَ فأوثقه وبعث به إلى جبل، فذكروا أنه جبل الدخان، فقالوا: إنَّ الدخان الذي ترون من نَفَسه، والماء الذي يخرج من الجبل من بَوْله[٢].

وقال مجاهد: اسم ذلك الشيطان آصف. وقال السُّدي: اسمه حبقيق؛ فالله أعلم[٣].

وقد ضُعِّفَ هذا القول من حيث إن الشيطان لا يَتصوَّر بصورة الأنبياء، ثم من المُحال أن يلتبس على أهل مملكة سليمان الشيطانُ بسليمان حتى يظنُّوا أنهم مع نبيهم في حقّ، وهم مع الشيطان في باطل.

وقيل: إن الجسد وَلَدٌ وُلِدَ لسليمان، وأنه لما وُلد اجتمعت الشياطين؛ وقال بعضهم لبعض: إنْ عاش له ابن لم ننفكَّ مما نحن فيه من البلاء والسُّخرة، فتعالَوا نقتل ولده أو نُخبِّله. فعلم سليمانُ بذلك فأمر الريحَ حتى حملته إلى السَّحاب، وغدا ابنه في السحاب خوفاً من مَضَرَّة الشياطين، فعاقبه الله بخوفه من الشياطين، فلم يشعر إلا وقد وقع على كرسيه ميتاً. قال معناه الشعبي. فهو الجسد الذي قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾[٤].

وحكى النقاش وغيره: إنَّ أكثر ما وَطِئ سليمان جواريه طلباً للولد، فوُلد له نصفُ إنسان، فهو كان الجسد المُلقى على كرسيه جاءت به القابلة فألقته هناك[٥].

---

(١) في (م): أتاه.

(٢) هذا الكلام لا يُعوَّل عليه، ولا يخفى على القارئ بطلانه.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٩٧ ، وقول مجاهد أخرجه الطبري ٢٠/ ٨٩ ، والمشهور أن آصف اسم الرجل الذي عنده علم من الكتاب. كما قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٦/ ٤٥٩ .

(٤) عرائس المجالس ص٣٢٧-٣٢٨ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٩٦ . والعبارة فيه: إنه أكثر من وطء جواريه طلباً للولد... وسلف قريباً أن أكثر =

وفي «صحيح» البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «قال سليمانُ: لأَطُوفنَّ الليلةَ على تسعين امرأةً كلُّهن تأتي بفارس يُجاهد في سبيل الله؛ فقال له صاحبه: قل: إن شاء الله، فلم يَقُلْ: إنْ شاء الله، فطاف عليهنَّ جميعاً، فلم تحمل منهنَّ إلا امرأةٌ واحدةٌ جاءتْ بشِقِّ رجل، وايمُ الذي نفسُ محمد بيده، لو قال: إن شاء الله، لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون»[1].

وقيل: إن الجسد هو آصف بن برخيا الصدّيق كاتب سليمان، وذلك أن سليمان لما فُتِنَ سقط الخاتم من يده وكان فيه مُلكه، فأعاده إلى يده فسقط، فأيقن بالفتنة؛ فقال له آصف: إنك مفتون، ولذلك لا يتماسك في يدك، فَفِرَّ إلى الله تعالى تائباً من ذلك، وأنا أقومُ مقامك في عالمك إلى أن يتوب اللهُ عليك، ولك من حين فُتنت أربعةَ عشرَ يوماً. فَفرَّ سليمانُ هارباً إلى ربه، وأخذ آصف الخاتم فوضعه في يده فثبت، وكان عنده علمٌ من الكتاب. وقام آصفُ في ملك سليمان وعياله، يسير بسيره ويعمل بعمله، إلى أن رَجَعَ سليمان إلى منزله تائباً إلى الله تعالى، وردَّ الله عليه مُلكه؛ فأقام آصفُ في مَجْلسه، وجلس على كرسيه وأخذ الخاتم[2].

وقيل: إنَّ الجسد كان سليمانَ نَفْسَه؛ وذلك أنه مرض مرضاً شديداً حتى صار جسداً. وقد يُوصف به المريض المُضنى، فيقال: كالجسد المُلقى[3].

= المفسرين قالوا: الجسد الملقى شيطان، قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٦/ ٤٦١ : وهو المعتمد، والنقاش صاحب مناكير.

(١) صحيح البخاري (٦٦٣٩)، وصحيح مسلم (١٦٥٤)، وسلف ١٨/ ١٦٦ .

(٢) عرائس المجالس ص٣٢٧ .

(٣) هذه القصص التي ذكرها المفسرون في قصة سيدنا سليمان عليه السلام كلها من الإسرائيليات فيما قاله الحافظ ابن كثير في تفسيره ٧/ ٦٨-٦٩ وقد ذكر الكثير منها، وقال فيما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: الظاهر أنه إنما تلقاه ابن عباس ـ إن صح عنه ـ من أهل الكتاب، وفيهم طائفة لا يعتقدون نبوة سليمان عليه السلام، فالظاهر أنهم يكذبون عليه، ولهذا كان في السياق منكرات أشدُّها ذكر النساء.. وقد رويت هذه القصة مطولة عن جماعة من السلف.. وكلها متلقاة من قصص أهل الكتاب.

وذكر أبو حيان في البحر ٧/ ٣٩٧ أنها من وضع اليهود والزنادقة، وأنه لا يحل نقلها، ويجب براءة =

صفة كرسيّ سليمان ومُلكه

روي عن ابن عباس قال: كان سليمانُ يُوضع له ستُّ مئة كرسيّ، ثم يجيء أشراف الناس فيجلسون مما يَليه، ثم يأتي أشرافُ الجن فيجلسون مما يلي الإنس، ثم يدعو الطير فَتُظِلُّهم، ثم يدعو الريح فَتُقِلُّهم، وتسير بالغَداة الواحدة مسيرة شهر(١).

وقال وهب وكعب وغيرهما: إن سليمان عليه السلام لما مَلَك بعد أبيه، أمر باتِّخاذ كرسيٍّ لِيجلسَ عليه للقضاء، وأمر أن يُعمل بَديعاً مَهولاً بحيث إذا رآه مُبطِلٌ أو شاهدُ زور ارتدع وتهيَّب؛ فأمر أن يُعمل من أنياب الفيلة مُفصَّصة بالدُّرِّ والياقوت والزبرجد، وأن يُحَفَّ بنخيل الذهب؛ فَحُفَّ بأربع نَخَلات من ذهب، شماريخها الياقوت الأحمر والزُّمُرُّد الأخضر، على رأس نخلتين منهما طاووسان من ذهب، وعلى رأس نخلتين نسران من ذهب بعضها مقابلٌ لبعض، وجعلوا من جنبي الكرسيّ أسدين من ذهب، على رأس كل واحد منهما عمودٌ من الزُّمُرُّد الأخضر. وقد عقدوا على النخلات أشجارَ كروم من الذهب الأحمر؛ واتخذوا عناقيدَها من الياقوت الأحمر، بحيث أظلَّ عريش الكروم النخلَ والكرسي.

وكان سليمان عليه السلام إذا أراد صُعودَه وضع قدميه على الدرجة السُّفلى، فيستدير الكرسيّ كلُّه بما فيه دورانَ الرَّحى المُسرعة، وتنشر تلك النُّسور والطواويس أجنحتَها، ويبسط الأسدان أيديَهما، ويضربان الأرض بأذنابهما. وكذلك يُفعل في كل درجة يَصْعَدها سليمان، فإذا استوى بأعلاه أخذ النَّسران اللذان على النخلتين تاجَ سليمان فوضعاه على رأسه، ثم يستدير الكرسي بما فيه، ويدور معه النَّسران

= الأنبياء منها، وقال: لم يُبيِّن الله الفتنة ما هي ولا الجسد الذي ألقاه على كرسي سليمان، ويستحيل عقلاً وجود بعض ما ذكروه، كتمثل الشيطان بصورة نبي حتى يلتبس أمره عند الناس، ويعتقدون أن ذلك المتصور هو النبي، ولو أمكن وجود هذا لم يوثق بإرسال نبي، وإنما هذه مقالة مسترقة من زنادقة السوفسطائية، نسأل الله سلامة أذهاننا وعقولنا منها. قال الدكتور أبو شهبة في كتابه الإسرائيليات في التفسير ص٢٧٤ : وأيُّ مُلك أو نبوة يتوقف أمرهما على خاتم يدومان بدوامه، ويزولان بزواله.. وإذا كان خاتم سليمان عليه السلام بهذه المثابة، فكيف يُغفِل الله شأنَه في كتابه الشاهد على الكتب السماوية؟!!..

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ١١/٥٣٦ ، وفيه: ست مئة ألف كرسي.

والطاووسان والأسدان، مائلان برؤوسهما إلى سليمان، وينضحن عليه من أجوافهن المِسْك والعنبر، ثم تُناوله حمامةٌ من ذهب قائمةٌ على عمود من أعمدة الجواهر فوق الكرسي التوراة، فيفتحها سليمان عليه السلام ويقرؤُها على الناس ويدعوهم إلى فَصْل القضاء.

قالوا: ويجلس عظماءُ بني إسرائيل على كراسي الذهب المُفصَّصة بالجواهر، وهي ألفُ كرسيّ عن يمينه، ويجلس عظماءُ الجن على كراسي الفضة عن يساره، وهي ألفُ كرسيّ، ثم تحفُّ بهم الطير تُظِلُّهم، ويتقدَّم الناسُ لفصل القضاء. فإذا تقدَّمت الشهود للشهادات، دار الكرسيّ بما فيه وعليه دورانَ الرَّحى المُسرعة، ويبسط الأسدان أيديهما ويضربان الأرض بأذنابهما، وينشر النَّسران والطاووسان أجنحتهما، فتفزع الشهود فلا يشهدون إلا بالحق.

وقيل: إن الذي كان يدور بذلك الكرسيّ تِنِّين من ذهب، ذلك الكرسيُّ عليه، وهو عظيم مما عمله له صخر الجنيّ؛ فإذا أحسَّتْ بدورانه تلك النسور والأسد والطواويس التي في أسفل الكرسيّ إلى أعلاه دُرْن معه، فإذا وقفن وَقَفْن كلُّهن على رأس سليمان وهو جالس، ثم ينضحن جميعاً على رأسه ما في أجوافهنّ من المسك والعنبر. فلما توفي سليمانُ بعث بُختَنصَّر فأخذ الكرسيّ، فحمله إلى أنطاكية، فأراد أن يصعدَ إليه، ولم يكن له علم كيف يصعد إليه؛ فلما وضع رِجْلَه ضرب الأسدُ رِجْلَه فكسرها، وكان سليمان إذا صَعِدَ وضع قدميه جميعاً. ومات بُخْتَنصَّر، وحُمل الكرسيّ إلى بيت المقدس، فلم يستطع قطّ مَلِكٌ أن يجلسَ عليه، ولكن لم يدرِ أحدٌ عاقبة أمره، ولعله رُفع[1].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أي: رَجَعَ إلى الله وتاب. وقد تقدّم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي﴾ أي: اغفِرْ لي ذنبي ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ

---

(١) أورده ابن كثير في تفسيره ٧/ ٦٩-٧٠ وعزاه لابن أبي حاتم، وقال: هو غريب جداً.

﴿مِّنۢ بَعۡدِيٓ﴾ يقال: كيف أقدم سليمانُ على طلب الدنيا، مع ذَمِّها من الله تعالى، وبُغضه لها، وحقارتها لديه؟. فالجواب أن ذلك محمولٌ عند العلماء على أداء حقوق الله تعالى وسياسةِ مُلْكه[1]، وترتيب منازل خَلْقه، وإقامةِ حدوده، والمحافظة على رسومه، وتعظيم شعائره، وظُهور عبادته، ولُزوم طاعته، ونَظْم قانون الحُكم النافذ عليهم منه، وتحقيق الوعود في أنه يعلم ما لا يعلم أحدٌ من خلقه حَسَبَ ما صرَّح بذلك لملائكته فقال: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، وحُوشي سليمان عليه السلام أن يكون سؤاله طلباً لنفس الدنيا؛ لأنه هو والأنبياء أزهدُ خلق الله فيها، وإنما سأل مملكتها لله، كما سأل نوحٌ دمارَها وهلاكَها لله؛ فكانا محمودين مُجابين إلى ذلك، فأُجيب نوحٌ فأُهْلِكَ من عليها، وأُعطي سليمان المملكة.

وقد قيل: إن ذلك كان بأمرٍ من الله جلّ وعزّ على الصِّفة التي علم الله أنه لا يضبطه إلا هو وحده دون سائر عباده، أو أراد أن يقول: مُلكاً عظيماً فقال: ﴿لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓ﴾[2]، وهذا فيه نظر. والأوّل أصح.

ثم قال له: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾، قال الحسن: ما من أحد إلا ولله عليه تبعةٌ في نِعَمِهِ غيرَ سليمان بن داود عليه السلام، فإنه قال: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾ الآية[3].

قلت: وهذا يردُّ ما روي في الخبر: إنَّ آخرَ الأنبياء دخولاً[4] الجنةَ سليمانُ بن داود عليه السلام لمكان مُلكه في الدنيا. وفي بعض الأخبار: يدخل الجنةَ بعد الأنبياء بأربعين خريفاً؛ ذكره صاحب «القوت» وهو حديث لا أصل له؛ لأنه سبحانه إذا كان عطاؤه لا تبعةَ فيه؛ لأنه من طريق المِنَّة، فكيف يكون آخرَ الأنبياء دخولاً الجنة، وهو

(١) الكلام بمعناه في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٣٧ .

(٢) الكشاف ٣/ ٣٧٥ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٠٠ .

(٤) في (م): دخول.

سبحانه يقول: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾. وفي الصحيح: «لكلِّ نبيٍّ دعوةٌ مستجابة، فتعجَّلَ كلُّ نبيٍّ دعوته» الحديث[1]، وقد تقدَّم، فجعلَ له من قَبْلِ السؤال حاجةً مقْضيَّةً، فلذلك لم تكن عليه تَبِعة.

ومعنى قوله: ﴿لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ أي: أن يسأله. فكأنه سأل منعَ السؤال بعده، حتى لا يتعلَّق به أملُ أحد، ولم يسأل منع الإجابة. وقيل: إنَّ سُؤالَه مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعده؛ ليكون محلُّه وكرامته من الله ظاهراً في خلق السماوات والأرض؛ فإن الأنبياء عليهم السلام لهم تنافُسٌ في المحلّ عنده، فكلٌّ يُحِبُّ أن تكون له خُصوصيةٌ يستدلُّ بها على محلِّه عنده، ولهذا لما أخذ النبيُّ ﷺ العِفْريت الذي أراد أن يقطعَ عليه صلاته وأمكنه اللهُ منه، أراد رَبْطه، ثم تذكَّر قولَ أخيه سليمان: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ فردَّه خاسِئاً[2].

فلو أُعطي أحدٌ بعدَه مِثْلَه ذهبت الخُصوصية، فكأنه كَرِهَ ﷺ أن يُزاحمه في تلك الخُصوصية، بعد أن عَلِمَ أنه شيء هو الذي خُصَّ به من سخرة الشياطين، وأنه أُجيب إلى ألا يكون لأحدٍ بعده. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً﴾ أي: لَيِّنة مع قوَّتها وشِدَّتها حتى لا تضرَّ بأحد، وتحمله بعسكره وجنوده وموكبه. وكان موكبه فيما رُوي فرسخاً في فرسخ، مئة درجة بعضُها فوق بعض، كلُّ درجة صنفٌ من الناس، وهو في أعلى درجة مع جواريه وحَشَمه وخَدَمه؛ صلوات الله وسلامه عليه.

وذكر أبو نعيم الحافظ قال: حدّثنا أحمد بن جعفر، قال: حدّثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال حدّثنا أحمد بن محمد بن أيوب، قال: حدّثنا أبو بكر بن عياش، عن إدريس بن وهب بن مُنبِّه، قال: حدَّثني أبي قال: كان لسليمان بن داود عليه السلام ألفُ بيت أعلاه قواريرُ وأسفله حديد، فركب الريح يوماً فمرَّ بحَرَّاث،

---

(١) أخرجه أحمد (٧٧١٤)، ومسلم (١٩٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد (٧٩٦٩)، والبخاري (٤٦١)، ومسلم (٥٤١) من حديث أبي هريرة ﷺ، وسلف ٩/ ١٨٩ .

فنظر إليه الحرَّاث فقال: لقد أُوتي آلُ داود مُلكاً عظيماً، فحملت الريح كلامَه فألقته في أُذن سليمان، قال: فنزل حتى أتى الحرَّاث فقال: إني سمعتُ قولك، وإنما مشيتُ إليك لئلا تتمنَّى ما لا تَقدِرُ عليه؛ لَتَسبيحةٌ واحدة يقبلُها الله منك خيرٌ مما أُوتي آل داود. فقال الحرَّاث: أذهبَ اللهُ هَمَّك كما أذهبتَ هَمِّي[١].

قوله تعالى: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أي: أراد؛ قاله مجاهد[٢]. والعرب تقول: أصاب الصوابَ، وأخطأ الجواب. أي: أراد الصوابَ، وأخطأ الجواب؛ قاله ابن الأعرابي[٣]. وقال الشاعر:

أَصَابَ الكَلامَ فلم يَستَطِعْ ... فأخْطا الجوابَ لَدَى المفصلِ[٤]

وقيل: أصاب أراد بلغة حِمْير[٥]. وقال قتادة: هو بلسان هَجَر. وقيل: «حَيْثُ أَصَابَ» حيثما[٦] قصد، وهو مأخوذٌ من إصابة السَّهم الغرضَ المقصود[٧]. ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ أي: وسخَّرنا له الشياطين، وما سُخِّرت لأحدٍ قبلَه. «كُلَّ بَنَّاءٍ» بدل من الشياطين، أي: كل بنَّاء منهم، فهم يبنون له ما يشاء. قال:

إلاَّ سليمانَ إذ قال الإلهُ له ... قُمْ في البريَّةِ فاحْدُدْها عن الفَنَد

وَخَيِّسِ الجِنَّ إني قد أَذِنْتُ لهم ... يَبْنُونَ تَدْمُرَ بالصُّفَّاحِ والعَمَدِ[٨]

«وغَوَّاص» يعني: في البحر يستخرجون له الدُّرّ. فسليمانُ أوَّل من استُخرِجَ له اللؤلؤ من البحر[٩].

---

(١) حلية الأولياء ٤/ ٥٩ .
(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٩٧ .
(٣) ياقوتة الصراط ص٤٤٠ وينظر النكت والعيون ٥/ ٩٩ .
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٥٠٦ .
(٥) عرائس المجالس ص٢٩٥ .
(٦) في (م): حينما.
(٧) النكت والعيون ٥/ ٩٩ .
(٨) البيتان للنابغة الذبياني، وهما في ديوانه ص٣٣ ، وقد سلفا ١٧/ ٢٦٧ ، والبيت الأول سلف ١٢/ ٧ .
(٩) النكت والعيون ٣/ ٤٦١ .

﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾ أي: وسخَّرنا له مردةَ الشياطين حتى قرنهم في سلاسل الحديد وقيود الحديد؛ قاله قتادة. السُّدّي: الأغلال[1]. ابن عباس: في وثاق. ومنه قال الشاعر:

فآبُوا بالنِّهاب وبالسَّبايا وأُبنا بالملوك مُصَفَّدِينا[2]

قال يحيى بن سلاّم: ولم يكن يفعل ذلك إلا بكُفَّارهم، فإذا آمنوا أطلقهم ولم يُسخِّرهم[3].

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾ الإشارةُ بهذا إلى المُلك، أي: هذا الملك عطاؤنا، فأعْطِ مَن شئتَ أو امنع مَن شئتَ، لا حسابَ عليك؛ عن الحسن والضحاك وغيرهما[4].

قال الحسن: ما أنعم اللهُ على أحدٍ نعمةً إلا عليه فيها تبعة إلا سليمان عليه السلام؛ فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[5].

وقال قتادة: الإشارة في قوله تعالى: «هَذَا عَطَاؤُنَا» إلى ما أُعطيه من القوّة على الجماع، وكانت له ثلاث مئة امرأة وسبع مئة سُرِّيّة، وكان في ظهره ماء مئة رجل؛ رواه عكرمة عن ابن عباس[6]. ومعناه في البخاري[7]. وعلى هذا «فَامْنُنْ» من المنيّ؛ يقال: أمْنَى يُمني، ومَنَى يَمني لغتان، فإذا أمرتَ من أمنى قلت: أمْنِ؛ ويقال من

---

(١) أخرجهما الطبري ٢٠/ ٩٨-٩٩ .

(٢) قائله عمرو بن كلثوم، وهو في معلقته ص١٠٠ (بشرح ابن كيسان).

(٣) النكت والعيون ٥/ ٩٩ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ٩٩.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٩٩ ، وسلف ١٨/ ٢٠٦ .

(٦) أخرجه الطبري ٢٠/ ١٠٠ . قال أبو حيان في البحر ٧/ ٣٩٩ : ولعله لا يصح عن ابن عباس؛ لأنه لم يجرِ هنا ذكر النساء ولا ما أوتي من القدرة على ذلك.

(٧) يُشير إلى حديث: «قال سليمان: لأطوفن الليلة على تسعين امرأة.....» وهو في صحيح البخاري (٦٦٣٩)، وسلف ١٨/ ٢٠٣ .

مَنَى يَمْني في الأمر: امنِ، فإذا جئتَ بنون الفعل نون الخفيفة قلتَ: امْنِنْ. ومن ذهب به المِنّة قال: مَنَّ عليه؛ فإذا أخرجه مُخرجَ الأمر أبرزَ النونين؛ لأنه كان مضاعفاً فقال: امنُنْ. فَيُروى في الخبر أنه سخَّر له الشياطين، فمن شاء مَنَّ عليه بالعِتْق والتخلية، ومَنْ شاء أمْسكه؛ قاله قتادة والسُّدي[١]. وعلى ما روى عكرمةُ عن ابن عباس: أي: جامِعْ مَنْ شئتَ من نسائك، واترك جِماعَ مَنْ شئتَ منهنَّ لا حسابَ عليك[٢]. ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ أي: إنْ أنعمنا عليه في الدنيا فله عندنا في الآخرة قُربةٌ وحُسْنُ مَرْجع.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ أمرٌ للنبي ﷺ بالاقتداء بهم في الصبر على المَكاره. «أيُّوبَ» بدل.

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ وقرأ عيسى بن عمر: «إنّي» بكسر الهمزة، أي: قال. قال الفراء[٣]: وأجمعت القُرَّاء على أن قرؤوا: «بِنُصْبٍ» بضم النون والتخفيف. النحاس: وهذا غلطٌ وبعده مُناقضة وغلطٌ أيضاً؛ لأنه قال: أجمعت القُرَّاء على هذا، وحكى بعده أنهم ذكروا عن يزيدَ بن القعقاع أنه قرأ: «بِنَصَب» بفتح النون والصاد، فَغَلِطَ على أبي جعفر، وإنما قرأ أبو جعفر: «بِنُصُب» بضم النون والصاد[٤]؛ كذا حكاه أبو عُبيد وغيره، وهو مَرْوي عن الحسن[٥].

(١) أخرجه الطبري ٢٠/ ١٠٢ .

(٢) ذكره الطبري ٢٠/ ١٠٣ ولم ينسبه لأحد.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٤٠٥ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس ٣/ ٤٦٥ ، وما قبله منه، وقراءة عيسى ابن عمر في المحرر الوجيز أيضاً ٤/ ٥٠٧ .

(٤) النشر ٢/ ٣٦١ .

(٥) القراءات الشاذة ص١٣٠ .

فأما «بِنَصَب» فقراءة عاصم الجحدريّ ويعقوب الحضرميّ[(١)]. وقد رُويت هذه القراءة عن الحسن. وقد حكي «بِنَصْب» بفتح النون وسكون الصاد عن أبي جعفر. وهذا كلُّه عند أكثر النحويين بمعنى النَّصَبِ؛ فنُصْب ونَصَب كَحُزْن وحَزَن.

وقد يجوز أن يكون نُصْب جمع نَصَب كوَثَن ووُثْن. ويجوز أن يكون نُصْب بمعنى نُصُب حُذفت منه الضَّمة، فأما ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣] فقيل: إنه جمع نصاب. وقال أبو عُبيدة[(٢)] وغيره: النُّصْبُ الشرّ والبلاء. والنّصَب التَّعب والإعياء.

وقد قيل في معنى: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ أي: ما يلحقه من وسوسته لا غير. والله أعلم. ذكره النحاس[(٣)].

وقيل: إن النُّصْب ما أصابه في بدنه، والعذاب ما أصابه في ماله[(٤)]؛ وفيه بُعْد.

وقال المفسرون: إن أيوبَ كان رُوميًّا من البَثَنِيَّة[(٥)]، وكُنيته أبو عبد الله، في قول الواقدي؛ اصطفاه الله بالنبوّة، وآتاه جملةً عظيمةً من الثروة في أنواع الأموال والأولاد. وكان شاكراً لِأنعُم الله، مُواسياً لعباد الله، بَرّاً رحيماً. ولم يُؤمن به إلا ثلاثةُ نفر. وكان لإبليس موقفٌ من السماء السابعة في يوم من الأيام، فوقف به إبليس على عادته؛ فقال الله له، أو قيل له عنه: أَقَدَرْتَ من عبدي أيوبَ على شيء؟! فقال: يا رب، وكيف أقدِرُ منه على شيء، وقد ابتليتَهُ بالمال والعافية، فلو ابتليتَه بالبلاء والفقر ونزعْتَ منه ما أعطيتَه لحال عن حاله، ولَخرج عن طاعتك. قال الله: قد سلَّطتك على أهله وماله.

---

(١) النشر ٢/ ٣٦١.

(٢) في مجاز القرآن ٢/ ١٨٤.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٤٦٥.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٠١ عن السدي.

(٥) قال ابن إسحاق ـ كما في روح المعاني ٢٣/ ٢٠٥ ـ: الصحيح أنه كان من بني إسرائيل. والبَثَنِيَّة: ناحية من نواحي دمشق. معجم البلدان ١/ ٣٣٨.

فانحطَّ عدوُّ الله فجمع عفاريتَ الجن، فأعلمهم، وقال قائل منهم: أكون إعصاراً فيه نارٌ أُهلِكُ مالَه فكان؛ فجاء أيوبَ في صورة قَيِّم ماله فأعلمه بما جرى؛ فقال: الحمد لله، هو أعطاه وهو مَنَعه. ثم جاء قصرَه بأهله وولده، فاحتمل القصر من نواحيه حتى ألقاه على أهله وولده، ثم جاء إليه وأعلمه فألقى التراب على رأسه، وصَعِدَ إبليس إلى السماء، فسبقته توبةُ أيوب.

قال: يارب سلِّطني على بدنه. قال: قد سلَّطتك على بدنه إلا على لسانه وقلبه وبصره، فنفخ في جسده نفخة اشتعل [منها] فصار في جسده ثآليلُ، فحكَّها بأظفاره حتى دَمِيتْ، ثم بالفَخَّار حتى تساقط لحمه. وقال عند ذلك: «مَسَّنِيَ الشيطانُ». ولم يخلص إلى شيء من حشوة البطن؛ لأنه لا بقاءَ للنَّفْس إلا بها، فهو يأكل ويشرب، فمكث كذلك ثلاثَ سنين.

فلما غلبه أيوبُ اعترض لامرأته في هيئةٍ أعظمَ من هيئة بني آدم في القدر والجمال، وقال لها: أنا إلهُ الأرض، وأنا الذي صنعتُ بصاحبكِ ما صنعت، ولو سجدتِ لي سجدةً واحدة لَرَدَدْتُ عليه أهلَه[١] ومالَه وهم عندي. وعرض لها في بطن الوادي ذلك كلَّه في صورته؛ أي: أظهره لها، فأخبرت أيوبَ، فأقسم أن يضربها إنْ عافاه الله[٢].

وذكروا كلاماً طويلاً في [سبب بلائه و][٣] مراجعته لِرَبِّه وتبرُّمه من البلاء الذي نزل به، وأن النَّفر الثلاثةَ الذين آمنوا به نَهَوْهُ عن ذلك واعترضوا عليه؛ وقيل: استعان به مظلومٌ فلم ينصره، فابتُلي بسبب ذلك. وقيل: استضاف يوماً الناس فمنع فقيراً الدخولَ، فابتُلِيَ بذلك. وقيل: كان أيوبُ يغزو مَلِكاً، وكان له غنم في ولايته، فداهنه

---

(١) في النسخ الخطية: حاله، والمثبت من (م).

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ٣٣٤ وما بعدها عن وهب بن منبه، وما بين حاصرتين منه، وسلفت قصة أيوب عليه السلام ١٤/ ٢٥٦ وما بعدها، وذكرنا ثمة أن ما ورد من أخبار في مرضه المنفر كلها من الإسرائيليات، وسيذكر المصنف قريباً ردَّ ابن العربي على هذا الخبر.

(٣) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق، وقد أضافها محققو (م).

لأجلها بترك غزوه فابتُلي[(١)]. وقيل: كان الناس يتعدّون امرأته، ويقولون: نخشى العَدْوى، وكانوا يستقذرونها؛ فلهذا قال: «مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ».

وامرأته ليا بنت يعقوب. وكان أيوب في زمن يعقوب وكانت أمه ابنةَ لوط[(٢)]. وقيل: كانت زوجةُ أيوب رحمةَ بنت إفرائيم بن يوسف بن يعقوب عليهم السلام. ذكر القولين الطبري رحمه الله[(٣)].

قال ابن العربي: ما ذكره المفسرون من أن إبليسَ كان له مكان في السماء السابعة يوماً من العام فقولٌ باطل؛ لأنه أُهبط منها بلعنة وسخطٍ إلى الأرض، فكيف يرقَى إلى محلِّ الرِّضا، ويجول في مقامات الأنبياء، ويخترق السماواتِ العُلى، ويعلو إلى السماء السابعة إلى منازل الأنبياء، فَيقِفُ موقفَ الخليل؟! إن هذا لخطبٌ من الجهالة عظيم.

وأما قولهم: إن الله تعالى قال له: هل قدرتَ من عبدي أيوب على شي فباطلٌ قطعاً؛ لأن الله عز وجل لا يُكلِّم الكفار الذين هم من جند إبليس الملعون؛ فكيف يُكلِّم من تَوَلَّى إضلالَهم؟!.

وأما قولهم: إن الله قال: قد سلَّطتك على ماله وولده، فذلك مُمكن في القُدرة، ولكنه بعيدٌ في هذه القصة. وكذلك قولهم: إنه نفخَ في جسده حين سلَّطه عليه، فهو أبعدُ، والباري سبحانه قادرٌ على أن يخلقَ ذلك كلَّه من غير أن يكون للشيطان فيه كَسْبٌ حتى تَقَرَّ له ـ لعنةُ الله عليه ـ عينٌ بالتمكُّن من الأنبياء في أموالهم وأهليهم وأنفسهم.

وأما قولهم: إنه قال لزوجته: أنا إله الأرض، ولو تركتِ ذكرَ الله وسجدتِ أنتِ لي لَعافيته، فاعلموا، وإنكم لَتعلمون أنه لو عرضَ لأحدكم وبه ألمٌ، وقال هذا الكلام

(١) الكشاف ٣/ ٣٧٦ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ١٠١ .

(٣) التعريف والإعلام للسهيلي ص١٥٠ .

ما جاز عنده أن يكون إلهاً في الأرض، وأنه يسجد له، وأنه يُعافي من البلاء، فكيف أن تستريبَ زوجةُ نبيٍّ؟! ولو كانت زوجةَ سواديّ أو فَدْم[1] بربريّ ما ساغ ذلك عندها.

وأما تصويرُه الأموالَ والأهلَ في وادٍ للمرأة، فذلك ما لا يقدر عليه إبليسُ بحال، ولا هو في طريق السِّحر، فيقال: إنه من جنسه.

ولو تُصُوّر لَعلمت المرأة أنه سحرٌ كما نعلمه نحن، وهي فوقَنا في المعرفة بذلك؛ فإنه لم يخلُ زمان قطّ من السِّحرِ وحديثه وجَرْيه بين الناس وتصويره.

قال القاضي: والذي جَرَّأهم على ذلك وتذرَّعوا به إلى ذِكْر هذا قولُه تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ فلما رَأوْه وقد شكا مَسَّ الشيطان أضافوا إليه من رأيهم ما سبق من التفسير في هذه الأقوال.

وليس الأمرُ كما زعموا والأفعال كلُّها خيرها وشرها، في إيمانها وكفرها، طاعتها وعصيانها، خالقها هو الله لا شريكَ له في خلقه، ولا في خلق شيء غيرها، ولكن الشرَّ لا يُنسب إليه ذِكراً، وإن كان موجوداً منه خَلْقاً؛ أدباً أدَّبنا به، وتحميداً علَّمناه، وكان من ذِكْر محمد ﷺ لربه به قوله من جملته: «والخيرُ في يديكَ، والشرُّ ليس إليك»[2] على هذا المعنى. ومنه قول إبراهيم: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ وقال الفتى للكليم: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الكهف: ٦٣].

وأما قولهم: إنه استعان به مظلومٌ فلم ينصره، فمن لنا بصحة هذا القول. ولا يخلو أن يكون قادراً على نصره، فلا يحلّ لأحدٍ تركُه فيُلام على أنه عصى وهو مُنزَّه عن ذلك. أو كان عاجزاً فلا شيء عليه في ذلك، وكذلك قولهم: إنه منع فقيراً من الدخول؛ إن كان علم به فهو باطلٌ عليه، وإن لم يعلم به فلا شيء عليه فيه.

---

(١) الفَدْم من الناس: العَيِيُّ عن الحُجة والكلام مع ثقل ورخاوة وقلة فهم. اللسان (فدم).

(٢) أخرجه أحمد (٧٢٩)، ومسلم (٧٧١)، وسلف مطولاً ٩/ ١٤٠ .

وأما قولهم: إن داهن على غَنَمه الملكُ الكافر، فلا تقل: داهن، ولكن قل: دارَى. ودفعُ الكافر والظالم عن النفس أو المال بالمال جائز؛ نعم وبحسن الكلام.

قال ابن العربي القاضي أبو بكر ﷺ: ولم يصحَّ عن أيوب في أمره إلا ما أخبرنا الله عنه في كتابه في آيتين؛ الأولى قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾ [الأنبياء: ٨٣] والثانية في «صٓ» ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾.

وأما النبي ﷺ فلم يصحّ عنه أنه ذكره بحرف واحد إلا قوله: «بينا أيوبُ يغتسلُ إذ خَرَّ عليه رِجلٌ مِن جرادٍ من ذَهَب» الحديث(١).

وإذ لم يصحَّ عنه فيه قرآن ولا سُنة إلا ما ذكرناه، فمن الذي يُوصل السامع إلى أيوب خبره، أم على أيِّ لسان سمعه؟ والإسرائيليات مرفوضةٌ عند العلماء على البَتات؛ فأعرِضْ عن سُطورها بصرك، واصممْ عن سماعها أُذنيك، فإنها لا تُعطي فِكْرك إلا خيالاً، ولا تزيد فؤادَك إلا خبالاً.

وفي الصحيح ـ واللفظ للبخاري ـ أن ابن عباس قال: يا معشرَ المسلمين، تسألون أهلَ الكتاب وكتابكم الذي أُنزِلَ على نبيكم أحدثُ الأخبار بالله، تقرؤونه مَحْضاً لم يُشَبْ، وقد حدَّثكم أن أهل الكتاب قد بدَّلوا من كتب الله وغيَّروا وكتبوا بأيديهم الكتب؛ فقالوا: ﴿هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٧٩] ولا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم، فلا والله، ما رأينا رجلاً منهم يسألكم عن الذي أُنزل عليكم(٢). وقد أنكر النبي ﷺ في حديث «الموطأ» على عمر قراءتَه التوراة(٣).

قوله تعالى: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ الرَّكْض الدَّفع بالرجل. يقال: رَكَض الدابةَ ورَكَض ثوبه برجله. وقال المبرّد: الرَّكْض التحريك؛ ولهذا قال الأصمعي: يقال: رُكِضَت

---

(١) سلف ٤/ ٤٨٣ و١٥/ ١٨٢ .

(٢) صحيح البخاري (٧٥٢٣). وقوله: لم يُشَب، أي: لم يُخالطه غيره

(٣) أخرجه أحمد (١٥١٥٦) من حديث جابر رضي الله عنه، وفي إسناده مجالد بن سعيد، وهو ضعيف، كما في التقريب. ولم نقف عليه في الموطأ. .

الدابّة. ولا يقال: رَكَضَت هي؛ لأن الركضَ إنما هو تحريكُ راكبها رجليه ولا فعلَ لها في ذلك. وحكى سيبويه: رَكَضتُ الدابةَ، فركضتْ، مثل: جَبرتُ العظم فَجبَر، وحزنته فحزن؛ وفي الكلام إضمار: أي: قلنا له: «ارْكُضْ» قاله الكسائي[(١)]. وهذا لمَّا عافاه الله.

﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ أي: فَركَضَ فنبعتْ عينُ ماء فاغتسل به، فذهب الداءُ من ظاهره، ثم شرب منه فذهب الداءُ من باطنه.

وقال قتادة: هما عينان بأرض الشام في أرض يقال لها: الجابية، فاغتسل من إحداهما، فأذهب اللهُ تعالى ظاهرَ دائه، وشَرِبَ من الأُخرى، فأذهب الله تعالى باطنَ دائه. ونحوه عن الحسن[(٢)] ومقاتل؛ قال مقاتل: نَبعتْ عينٌ حارّة واغتسل فيها، فخرج صحيحاً، ثم نبعت عينٌ أُخرى فشرب منها ماءً عذباً. وقيل: أُمر بالرَّكض بالرجل لِيتناثرَ عنه كلُّ داء في جسده.

والمغتسَلُ الماء الذي يُغتسَل به؛ قاله القتبي[(٣)]. وقيل: إنه الموضع الذي يُغتسل فيه؛ قاله مقاتل[(٤)].

الجوهري[(٥)]: واغتسلت بالماء، والغَسُول: الماء الذي يُغتسَل به، وكذلك المُغتسَل، قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ والمُغتسل أيضاً: الذي يُغتسل فيه، والمَغْسِل والمَغْسَل بكسر السين وفتحها: مَغْسِل الموتى، والجمع المغاسل.

واختُلف كم بقي أيوبُ في البلاء؛ فقال ابن عباس: سبع سنين وسبعة أشهر

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٦٥ .
(٢) النكت والعيون ٥/ ١٠٢ ، وقول الحسن أخرجه الطبري ١٦/ ٣٦٤ مطولاً.
(٣) في غريب القرآن ص٣٨٠ .
(٤) النكت والعيون ٥/ ١٠٢ .
(٥) الصحاح (غسل).
(٦) ذكره الرازي في تفسيره ٢٢/ ٢٠٧ عن مقاتل.

وسبعة أيام وسبع ساعات[١]. وقال وهب بن منبِّه: أصاب أيوبَ البلاءُ سبعَ سنين، وتُرك يوسف في السجن سبع سنين، وعُذِّب بُخْتَنصَّر وحُوِّل في السباع سبع سنين. ذكره أبو نعيم[٢]. وقيل: عشر سنين. وقيل: ثمانَ عشرةَ سنة. رواه أنس مرفوعاً فيما ذكر الماوردي[٣].

قلت: وذكره ابن المبارك؛ أخبرنا يونس بن يزيد، عن عُقَيل عن ابن شهاب أن رسول الله ﷺ ذكر يوماً أيوب وما أصابه من البلاء، وذكر أن البلاء الذي أصابه كان به ثمانَ عشرةَ سنة[٤]. وذكر الحديث القشيري. وقيل: أربعين سنة.

قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ تقدّم في «الأنبياء» الكلامُ فيه[٥]. ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي: نعمة منا. ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: عبرةً لذوي العقول.

قوله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾

فيها سبع مسائل:

الأولى: كان أيوبُ حلف في مرضه أن يضربَ امرأته مئة جلدة؛ وفي سبب ذلك أربعة أقوال:

أحدها: ما حكاه ابن عباس أن إبليسَ لَقِيَها في صورة طبيب فدعته لمداواة أيوب؛ فقال: أُداويه على أنه إذا بَرِئ قال: أنتَ شفيتَني، لا أُريد جزاءً سواه. قالت: نعم، فأشارتْ على أيوب بذلك فحلف لَيضْرِبَنَّها. وقال: وَيْحَكِ ذلك الشيطان.

الثاني: ما حكاه سعيد بن المسيَّب، أنها جاءته بزيادة على ما كانت تأتيه من الخبز، فخاف خيانتَها فحلف لَيضْرِبَنَّها.

---

(١) في الحلية ٤/ ٥٣ .

(٢) في النكت والعيون ٥/ ١٠٢ . والحديث سلف تخريجه ١٤/ ٢٦٠ ، وذكرنا ثمة أن الحافظ ابن كثير قال: وهذا رَفْعُه غريب جداً، والأشبه أن يكون موقوفاً.

(٣) الزهد لابن المبارك (١٧٩) (زوائد نعيم)، وهو مرسل، وسلف مطولاً ١٤/ ٢٦٠ ينظر الكلام عليه ثمة .

(٤) ١٤/ ٢٦١ وما بعدها.

الثالث: ما حكاه يحيى بن سلاّم وغيره: أن الشيطان أغواها أن تحمل أيوبَ على أن يذبح سخلةً تقرُّباً إليه وأنه يبرأ؛ فذكرتْ ذلك له، فحلف لَيَضْرِبنَّها إنْ عُوفي مئةً[١].

و[الرابع] قيل: باعت ذوائبها برغيفين إذ لم تجد شيئاً تحمله إلى أيوب، وكان أيوبُ يتعلَّق بها إذا أراد القيام، فلهذا حلف لَيَضْرِبَنّها[٢]. فلما شفاه الله أمره أن يأخُذَ ضِغْثاً فيضرب به، فأخذ شماريخ قدر مئة، فضربها ضربةً واحدة. وقيل: الضِّغث قبضةُ حشيش مختلطة الرَّطب باليابس. وقال ابن عباس: إنه إثكال النخل الجامع بشماريخه[٣].

الثانية: تضمَّنت هذه الآيةُ جوازَ ضرب الرجل امرأته تأديباً. وذلك أن امرأة أيوبَ أخطأت فحلف لَيَضْرِبنَّها مئة، فأمره الله تعالى أن يضربها بعُثكول من عثاكيل النخل. وهذا لا يجوز في الحدود. إنما أمره الله بذلك لئلا يضرب امرأته فوقَ حدِّ الأدب. وذلك أنه ليس للزوج أن يضرب امرأته فوقَ حدِّ الأدب؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «واضْرِبُوهُنَّ ضرباً غير مُبَرِّح» على ما تقدَّم في «النساء» بيانه[٤].

الثالثة: واختلف العلماء في هذا الحكم هل هو عامٌّ أو خاصٌّ بأيوب وحده؛ فروي عن مجاهد أنه عام للناس. ذكره ابن العربي[٥].

وحُكي عن القشيري أن ذلك خاص بأيوب.

وحكى المهدوي عن عطاء بن أبي رباح أنه ذهب إلى أن ذلك حُكْمٌ باقٍ، وأنه إذا ضرب بمئة قضيب ونحوه ضربة واحدة بَرَّ. ورُوي نحوه عن الشافعي[٦]. ورُوي نحوه

---

(١) النكت والعيون ٥/١٠٣ .

(٢) ذكره ابن العربي بنحوه في أحكام القرآن ٤/ ١٦٣٩ ، وسلف ١٤/ ٢٥٩ .

(٣) النكت والعيون ٥/١٠٣ .

(٤) ٦/ ٢٨٦ ، والحديث أخرجه مسلم (١٢١٨) مطولاً جداً من حديث جابر ﷺ.

(٥) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٤٠ .

(٦) ذكره الكيا في أحكام القرآن ٤/ ٣٦١ . وقع في (د) و(ز): وروى نحوه عنه الشافعي، وفي (م): وروى نحوه الشافعي، والمثبت من (ظ).

عن النبي ﷺ في المُقْعَد الذي حملت منه الوليدة، وأَمَر أن يُضْرَبَ بعُثكول فيه مئة شمراخ ضربةً واحدة(١).

وقال القشيري: وقيل لعطاء: هل يُعمل بهذا اليوم؟ فقال: ما أُنزل القرآنُ إلا لِيُعْمَلَ به ويُتَّبع.

ابن العربي(٢): ورُوي عن عطاء أنها لأيوبَ خاصَّة. وكذلك روى أبو زيد عن ابن القاسم عن مالك: من حلف لَيضربنَّ عبدَه مئةً، فجمعها، فضربه بها ضربةً واحدة لم يبرَّ. قال بعض علمائنا: يريد مالك قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًاۚ﴾ أي: إن ذلك منسوخٌ بشريعتنا.

قال ابن المنذر(٣): وقد روينا عن عليٍّ أنه جلد الوليدَ بن عقبة بسوط له طرفان أربعين جلدة(٤). وأنكر مالك هذا وتلا قول الله عز وجل: ﴿فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٖۖ﴾ [النور: ٢] وهذا مذهبُ أصحاب الرأي. وقد احتجَّ الشافعي لقوله بحديث، وقد تُكلِّم في إسناده؛ والله أعلم.

قلت: الحديث الذي احتجَّ به الشافعي خرجه أبو داود في «سننه»(٥) قال: حدثنا أحمد بن سعيد الهَمْداني، قال: حدثنا ابن وهب، قال: أخبرني يونس عن ابن شهاب، قال: أخبرني أبو أُمامةَ بن سهل بن حُنَيْف أنه أخبره بعض أصحاب النبي ﷺ من الأنصار، أنه اشتكى رجلٌ منهم حتى أُضْنِي، فعاد جِلدةً على عظم، فدخلت عليه جاريةٌ لبعضهم فهش لها، فوقع عليها، فلما دخل عليه رجالُ قومه يَعودونه أخبرهم

(١) سيأتي قريباً بتمامه.
(٢) أحكام القرآن ٤/ ١٦٤٠ .
(٣) في الإشراف ٢/ ٢٨-٢٩ .
(٤) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٣٥٤٤) بهذا اللفظ، وأصله عند مسلم (١٧٠٧)، وليس فيه أنه جلده بسوط له طرفان.
(٥) الحديث (٤٤٧٢). وأخرجه أحمد (٢١٩٣٥)، والنسائي في الكبرى (٧٢٦٨) من حديث سعيد بن سعد ابن عبادة رضي الله عنهما.

بذلك وقال: استفتوا لي رسولَ الله ﷺ؛ فإني قد وقعتُ على جاريةٍ دَخلتْ عليَّ. فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، وقالوا: ما رأينا بأحد من الناس من الضُّرِّ مثلَ الذي هو به؛ لو حملناه إليك لَتفسَّخَتْ عِظامُه، ما هو إلا جلدٌ على عَظْم؛ فأمر رسولُ الله ﷺ أن يأخذوا له مئة شمراخ فيضربوه بها ضربةً واحدة.

قال الشافعي: إذا حلف لَيضربنَّ فلاناً مئة جلدة، أو ضرباً شديداً، ولم يقل: ضرباً شديداً، ولم ينوِ ذلك بقلبه يكفيه مثلُ هذا الضرب المذكور في الآية ولا يحنَث[(١)].

قال ابن المنذر[(٢)]: وإذا حلف الرجل: لَيضربنَّ عبده مئةً فضربه ضرباً خفيفاً، فهو بارٌّ عند الشافعي وأبي ثور وأصحاب الرأي. وقال مالك: ليس الضربُ إلا الضربَ الذي يُؤلم.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾ دليلٌ على أن الاستثناء في اليمين لا يرفع حُكماً إذا كان مُتراخياً. وقد مضى القول فيه في «المائدة»[(٣)] يقال: حَنِثَ في يمينه يَحنَثُ، إذا لم يَبَرَّ بها. وعند الكوفيين الواو مقحمة، أي: فاضرِبْ لا تحنَثْ.

الخامسة: قال ابن العربي[(٤)]: قوله تعالى: ﴿فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ يدلُّ على أحد وجهين: إما أن يكون أنه لم يكن في شرعهم كفارةٌ، وإنما كان البرّ والحِنْث. والثاني: أن يكون صَدَرَ منه نذرٌ لا يمين، وإذا كان النذر مُعيَّنًا فلا كفارةَ فيه عند مالك وأبي حنيفة. وقال الشافعي: في كل نذر كفارة.

قلت: قوله: إنه لم يكن في شرعهم كفارة ليس بصحيح؛ فإن أيوبَ عليه السلام لما بقي في البلاء ثمانَ عشرةَ سنة، كما في حديث ابن شهاب: قال له صاحباه: لقد أذنبتَ ذنباً ما أظنُّ أحداً بلغه. فقال أيوب ﷺ: ما أدري ما تقولان، غير أنَّ ربي عز

---

(١) الأم ٧/ ٧٣.

(٢) في الإشراف ١/ ٤٧٣.

(٣) ٨/ ١٥١.

(٤) في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٤٠.

وجل يعلم أني كنتُ أَمُرُّ على الرجلين يتزاعمان، فكلٌّ يحلف بالله، أو على النَّفر يتزاعمون، فأنقلب إلى أهلي، فأُكفِّر عن أيمانهم إرادةَ ألاّ يأثم أحدٌ يذكره، ولا يذكره إلا بحقّ فنادى ربَّه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ وذكر الحديث(١). فقد أفادك هذا الحديث أن الكفارة كانت من شرع أيوب، وأن من كفَّر عن غيره بغير إذْنه فقد قام بالواجب عنه وسقطت عنه الكفارة.

السادسة: استدلَّ بعض جُهَّال المتزهِّدة؛ وطَغَام المتصوّفة بقوله تعالى لأيوب: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ﴾ على جواز الرَّقْص.

قال أبو الفرج الجوزي(٢): وهذا احتجاجٌ بارد؛ لأنه لو كان أُمِرَ بضرب الرِّجل فرحاً كان لهم فيه شُبهة، وإنما أُمِرَ بضرب الرِّجل لِينبَعَ الماء.

قال ابن عَقيل: أين الدلالة في مُبتلًى أُمر عند كشف البلاء بأن يضرب برجله الأرض لِينبَعَ الماءُ إعجازاً من الرَّقص؟!، ولئن جاز أن يكون تحريكُ رِجْل قد أنحلها تحكُّم الهوامّ دلالة على جواز الرقص في الإسلام، جاز أن يُجعلَ قولُه سبحانه لموسى: ﴿ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ﴾ دلالةً على ضرب الجماد(٣) بالقُضبان! نعوذ بالله من التلاعب بالشَّرع.

وقد احتجَّ بعضُ قاصِريهم بأنَّ رسولَ الله ﷺ قال لعليّ: «أنت منّي وأنا منك» فحَجلَ، وقال لجعفر: «أشبهت خَلْقي وخُلُقي» فَحَجل، وقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا» فَحَجل(٤).

ومنهم من احتجَّ بأنَّ الحبشة زَفَنت والنبي ﷺ ينظر إليهم(٥). والجواب ـ أما

---

(١) سلف مطولاً ١٤/ ٢٦٠ ، ينظر الكلام عليه ثمة، وسلف مختصراً ص٢١٧ من هذا الجزء.

(٢) في تلبيس إبليس ص٢٤٩ .

(٣) في (د) و(ز): المخاد، وفي (م): المحاد، والمثبت من تلبيس إبليس.

(٤) أخرجه أحمد (٧٧٠) و(٨٥٧) من حديث علي ﷺ، وإسناده حسن دون ذكر الحجل، فقد تفرد بذكره هانئ بن هانئ، ومثله لا يحتمل تفرده.

(٥) أخرجه أحمد (٢٤٨٥٤)، وبنحوه البخاري (٤٥٤)، ومسلم (٨٩٢) من حديث عائشة رضي الله عنها.

الحَجْل فهو نوع من المشي يُفعَل عند الفرح، فأين هو والرقص؟!، وكذلك زَفْن الحبشة نوعٌ من المشي يُفعل عند اللِّقاء للحرب.

السابعة: قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ أي: على البلاء. ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي: توَّاب رجَّاع مُطيع. وسُئل سفيان عن عبدين ابتُلي أحدُهما فصبر، وأُنعم على الآخر فشكر؛ فقال: كلاهما سواء؛ لأن الله تعالى أثنى على عبدين، أحدهما صابر والآخر شاكر ثناءً واحداً؛ فقال في وصف أيوب: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ وقال في وصف سليمان: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[1] [ص: ٣٠].

قلت: وقد ردَّ هذا الكلامَ صاحبُ «القوت»[2] واستدلَّ بقصة أيوب في تفضيل الفقير على الغنيّ وذكر كلاماً كثيراً شيَّد به كلامَه، وقد ذكرناه في غير هذا الموضع من كتاب «منهج العباد ومَحجَّة السالكين والزُّهاد»، وخَفِيَ عليه أن أيوب عليه السلام كان أحدَ الأغنياء من الأنبياء قبل البلاء وبعده، وإنما ابتُلي بذهاب ماله وولده وعظيم الداء في جسده، وكذلك الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه صبروا على ما به امتُحِنوا وفُتِنوا. فأيوب عليه السلام دخل في البلاء على صفة، فخرج منه كما دخل فيه، وما تغيَّر منه حال ولا مقال، فقد اجتمع[3] مع أيوب في المعنى المقصود، وهو عدمُ التغيُّر الذي يفضل فيه بعض الناس بعضاً. وبهذا الاعتبار يكون الغنيُّ الشاكر والفقير الصابر سواء. وهو كما قال سفيان. والله أعلم.

وفي حديث ابن شهاب عن النبي ﷺ: «إنَّ أيوبَ خرج لِمَا كان يخرج إليه من حاجته فأوحى الله إليه: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ فاغتسل، فأعاد اللهُ لحمه وشعره وبَشَره على أحسن ما كان، ثم شَرِبَ، فأذهب الله كلَّ ما كان في جوفه من ألَمٍ أو ضَعْف، وأنزل اللهُ عليه ثوبين من السماء أبيضين فائتزر بأحدهما وارتدى بالآخر، ثم أقبل يمشي إلى منزله ورَاثَ[4] على امرأته، فأقبلتْ حتى لقيته، وهي لا تعرفه،

---

(١) ذكره أبو طالب المكي في قوت القلوب ١/ ٢٠٢ ونسبه لبعض القدماء.

(٢) ١/ ٢٠٢-٢٠٣ .

(٣) يعني سليمان عليه السلام.

(٤) أي: أبطأ. القاموس (ريث).

فسلَّمتْ عليه وقالت: أي يرحمك الله، هل رأيتَ هذا الرجل المُبتلَى؟ قال: من هو؟ قالت: نبيُّ الله أيوب، أما والله، ما رأيتُ أحداً قط أشبهَ به منك إذ كان صحيحاً. قال: فإني أيوبُ، وأخذ ضِغْثاً فضربها به».

فزعم ابن شهاب أن ذلك الضِّغْث كان ثُماماً[١]. وردَّ الله إليه أهله ومِثْلَهم معهم، فأقبلت سحابةٌ حتى سَجَلتْ في أَنْدَرِ[٢] قمحِهِ ذهباً حتى امتلأ، وأقبلت سحابةٌ أُخرى إلى أنْدَر شعيره وقطانيه[٣]، فسَجَلت فيه وَرِقاً حتى امتلأ[٤].

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ وقرأ ابن عباس: «عَبْدَنا» بإسناد صحيح؛ رواه ابن عُيَينة عن عمرو عن عطاء عنه[٥]، وهي قراءةُ مجاهد وحُميد وابن مُحَيْصن وابن كثير[٦]؛ فعلى هذه القراءة يكون «إبراهيم» بدلاً من «عبدنا» و﴿وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ عطف. والقراءة بالجمع أبين، وهي اختيار أبي عُبيد وأبي حاتم، ويكون «إبراهيم» وما بعده على البدل.

النحاس[٧]: وشرحُ هذا من العربية أنك إذا قلت: رأيتُ أصحابَنا زيداً وعمراً وخالداً، فزيد وعمرو وخالد بدل، وهم الأصحاب، وإذا قلت: رأيتُ صاحبنا زيداً

---

(١) الثُّمام: عشب من الفصيلة النجيلية. المعجم الوسيط (ثمم).

(٢) الأندر: البيدر. القاموس (ندر). وسجل الماءَ: صبَّه صبًّا متصلاً. المعجم الوسيط (سجل).

(٣) القطاني: الحبوب التي تدخر كالحِمَّص والعدس والباقلا.. معجم متن اللغة (قطن).

(٤) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٧٩) (زوائد نعيم)، وسلف قسم منه ١٤/ ٢٦٠ ، ينظر تتمة تخريجه ثمة.

(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ١١٤ .

(٦) السبعة ص٥٥٤ ، والتيسير ص١٨٨ .

(٧) إعراب القرآن ٣/ ٤٦٦ ، وينظر ما قبله فيه.

وعمراً وخالداً، فزيدٌ وحدَه بدل، وهو صاحبنا، وعمرو وخالد[١] عطف على صاحبنا وليسا بداخلين في المصاحبة إلا بدليلٍ غيرِ هذا، غير أنه قد علم أن قوله: ﴿وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ داخل في العبودية.

وقد استدلَّ بهذه الآية من قال: إن الذبيح إسحاق لا إسماعيل[٢]، وهو الصحيح[٣] على ما ذكرناه في كتاب «الإعلام بمولد النبي عليه السلام».

﴿أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ قال النحاس[٤]: أما «الأبْصَار» فمتفقٌ على تأويلها أنها البصائر في الدين والعلم. وأما «الأيدي» فمختلفٌ في تأويلها؛ فأهلُ التفسير يقولون: إنها القوّة في الدين. وقوم يقولون: «الأيدي» جمعُ يد، وهي النعمة؛ أي: هم أصحاب النِّعم؛ أي: الذين أنعم الله عز وجل عليهم. وقيل: هم أصحاب النِّعم والإحسان؛ لأنهم قد أحسنوا وقدَّموا خيراً. وهذا اختيارُ الطبري.

﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ أي: الذين اصطفاهم من الأدناس واختارهم لرسالته. ومُصطفَين جمع مصطفى، والأصلُ مصتفي، وقد مضى في «البقرة» عند قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ [الآية: ١٣٢] «والأخيار» جمع خَيِّر.

وقرأ الأعمش وعبد الوارث والحسن وعيسى الثقفي: «أُولي الأيدِ» بغير ياء في الوصل والوقف[٥] على معنى أُولي القوّة في طاعة الله. ويجوز أن يكون كمعنى قراءة الجماعة، وحُذفت الياء تخفيفاً[٦].

---

(١) في النسخ: وزيد وعمرو، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥٠٩، وقال: هذا ضعيف كله.

(٣) هذا رأي المصنف رحمه الله، والصواب أن الذبيح إسماعيل عليه السلام، وهو الصحيح المقطوع به فيما ذكره الحافظ ابن كثير وغيره، وسلفت هذه المسألة مطولة ١٨/ ٦١ وما بعدها، فينظر أقوال العلماء فيها ثمة.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٤٦٧ .

(٥) القراءات الشاذة ص١٣٠ ، والمحتسب ٢/ ٢٣٣ .

(٦) تفسير الطبري ٢٠/ ١١٦ بنحوه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾[١] قراءة العامة «بِخَالِصَةٍ» منونة، وهي اختيار أبي عُبيد وأبي حاتم. وقرأ نافع وشيبة وأبو جعفر وهشام عن ابن عامر: «بخالصةِ ذِكرى الدَّارِ» بالإضافة[٢]، فمن نوَّن خالصة فـ«ذِكْرَى الدَّار» بدل منها؛ التقدير: إنا أخلصناهم بأن يذكروا الدار الآخرة ويتأهَّبوا لها، ويرغبوا فيها ويُرَغِّبوا الناس فيها.

ويجوز أن يكون «خَالِصَةٍ» مصدراً لخلص و «ذِكْرَى» في موضع رفع بأنها فاعله، والمعنى: أخلصناهم بأن خلصتْ لهم ذكرى الدار؛ أي: تذكير الدار الآخرة.

ويجوز أن يكون «خالصة» مصدراً لأخلصَتْ، فحذفت الزيادة، فيكون «ذِكْرَى» على هذا في موضع نصب، التقدير: بأن أخلصوا ذكرى الدار.

والدار يجوز أن يُراد بها الدنيا؛ أي: ليتذكَّروا الدنيا ويزهَدوا فيها، ولتخلص لهم بالثناء الحسن عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا﴾ [مريم: ٥٠] ويجوز أن يراد بها الدار الآخرة وتذكير الخلق بها. ومن أضاف خالصة إلى الدار فهي مصدر بمعنى الإخلاص، والذكرى مفعول به أُضيف إليه المصدر؛ أي: بإخلاصهم ذكرى الدار. ويجوز أن يكون المصدر مضافاً إلى الفاعل والخالصة مصدر بمعنى الخلوص؛ أي: بأن خلصت لهم ذكرى الدار، وهي الدار الآخرة أو الدنيا على ما تقدّم[٣].

وقال ابن زيد: معنى أخلصناهم، أي: بذكر الآخرة؛ أي: يذكرون الآخرة ويرغبون فيها ويزهدون في الدنيا. وقال مجاهد: المعنى: إنا أخلصناهم بأن ذكرنا الجنة لهم[٤].

---

(١) هذه الآية قبل الآية السابقة لكن المصنف رحمه الله ذكر تفسيرها آخراً!

(٢) قراءة نافع وهشام عن ابن عامر في السبعة ص٥٥٤ ، والتيسير ص١٨٨ .

(٣) هذا الكلام بنحوه في الكشف عن وجوه القراءات السبع ٢/ ٢٣١-٢٣٢ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٠٩ .

(٤) أخرجهما بنحوهما الطبري ٢٠/ ١١٨ .

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ مضى ذكر اليسع في «الأنعام»[(١)] وذكر ذي الكفل في «الأنبياء»[(٢)].

﴿وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ أي: ممن اختير للنبوّة. ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ بمعنى هذا ذكر جميل في الدنيا وشرف يُذكَرون به في الدنيا أبداً.

﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ أي: لهم مع هذا الذِّكر الجميل في الدنيا حسنُ المَرْجع في القيامة. ثم بيّن ذلك بقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ والعَدْن في اللغة الإقامة؛ يقال: عَدَنَ بالمكان إذا أقام. وقال عبد الله بن عمرو[(٣)]: وجنة عَدْن قصر في الجنة له خمسةُ آلاف باب على كل باب خمسةُ آلاف خَيْرة[(٤)]، لا يدخله إلا نبيّ أو صِدِّيق أو شهيد.

﴿مُّفَتَّحَةً﴾ حال ﴿لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ رفعت الأبوابُ لأنه اسم ما لم يُسمَّ فاعله. قال الزجاج[(٥)]: أي: مفتحة لهم الأبواب منها. وقال الفرّاء: مفتحة لهم أبوابها. وأجاز الفرّاء[(٦)]: «مُفَتَّحَةً لهم الأبوابَ» بالنصب. قال الفرّاء: أي: مفتحة الأبوابِ، ثم جئت بالتنوين فنصبت. وأنشد هو وسيبويه:

---

(١) ٨/٤٤٨-٤٥٠.

(٢) ١٤/٢٦٣-٢٦٤.

(٣) في (د) و(ز) و(م): عمر، والمثبت من (ظ)، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/٤٦٨.

(٤) في (م): حِبَرة، وهو خطأ. والخيرة: يعني ذات خير، والجمع: خيرات، والمراد الحور العين. وسلف الخبر ١٢/٥٩-٦٠ والله أعلم بصحته.

(٥) في معاني القرآن ٤/٣٣٧.

(٦) في معاني القرآن ٢/٤٠٨، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس ٣/٤٦٨، والكلام منه.

ونـأخـذُ بـعـدهُ بِـذِنَـابِ عَـيْـشٍ أَجَـبَّ الـظَّـهْـرَ لـيـس لـه سَـنَـام[١]

وإنما قال: «مُفَتَّحَةً» ولم يقل: مفتوحة؛ لأنها تُفتح لهم بالأمر لا بالمس. قال الحسن: تُكلَّم: انفتحي فتنفتح، انغلقي فتنغلق[٢]. وقيل: تَفْتَحُ لهم الملائكةُ الأبواب.

قوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ هو حال قُدمت على العامل فيها، وهو قوله: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا﴾ أي: يَدْعُون في الجنات مُتكئين فيها[٣]. ﴿بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ﴾ أي: بألوان الفواكه ﴿وَشَرَابٖ﴾ أي: وشراب كثير، فحذف لدلالة الكلام عليه.

قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي: على أزواجهنَّ، لا ينظرن إلى غيرهم، وقد مضى في «الصافات»[٤]. ﴿أَتْرَابٌ﴾ أي: على سِنّ واحد، وميلاد امرأة واحدة، وقد تساوَيْن في الحُسن والشَّباب، بنات ثلاث وثلاثين سنة[٥]. قال ابن عباس: يُريد الآدميات[٦]. و«أَتْرَابٌ» جمع تِرْب، وهو نعت لقاصرات؛ لأن «قَاصِرَاتُ» نكرة وإن كان مضافاً إلى المعرفة. والدليل على ذلك أن الألف واللام يدخلانه كما قال:

مِن القاصِراتِ الطَّرْفِ لو دَبَّ مُحْوِلٌ مـن الـذَّرِّ فـوقَ الإتْـبِ مـنـهـا لأَثَّـرا[٧]

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: هذا الجزاءُ الذي وُعِدتم به.

---

(١) قائله النابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص١١٠ ، وفيه: ونُمسِك، بدل: ونأخذ، وسلف ١٠/ ١٢٩ ، وهو في الكتاب ١/ ١٩٦ .

(٢) تفسير الطبري ٢٠/ ١٢٢ .

(٣) تفسير الرازي ٢٦/ ٢١٩ .

(٤) في الصفحة ٣٣ من هذا الجزء.

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٠٦ عن يحيى بن سلام.

(٦) ذكره الآلوسي في روح المعاني ٢٣/ ٢١٤ .

(٧) قائله امرؤ القيس، وسلف ص٣٤ من هذا الجزء، وينظر شرحه ثمة، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٦٨ .

وقراءة العامة بالتاء، أي: ما تُوعدون أيها المؤمنون. وقرأ ابن كثير وابن محيصن وأبو عمرو ويعقوب بالياء على الخبر[١] ـ وهي قراءة السُّلَمي واختيار أبي عُبيد وأبي حاتم ـ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ فهو خبر. «لِيومِ الحسابِ» أي: في يوم الحساب، قال الأعشى:

المُهِينين ما لَهُمْ لِزمانِ السَّـ ـوءِ حتى إذا أفاقوا أفاقوا[٢]

أي: في زمان السوء.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ دليلٌ على أن نعيمَ الجنة دائمٌ لا ينقطع؛ كما قال: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٨] وقال: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت:٨].

قوله تعالى ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ لما ذَكَر ما للمتقين ذَكَر ما للطّاغين. قال الزجاج[٣]: «هذا» خبر ابتداء محذوف، أي: الأمرُ هذا، فيوقف على «هذا»، قال ابن الأنباري[٤]: «هذا» وقف حسن، ثم تبتدئ «وإنَّ لِلطَّاغينَ» وهم الذين كذّبوا الرُّسل. ﴿لَشَرَّ مَآبٍ﴾ أي: مُنقلَب يصيرون إليه. ثم بيّن ذلك بقوله: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي: بئس ما مهَّدوا لأنفسهم، أو بئس الفراش لهم. ومنه مَهْد الصبيّ. وقيل: فيه حذف، أي: بئس موضع المهاد. وقيل: أي: هذا الذي وصفتَ لهؤلاء المتقين، ثم قال: وإن للطاغين لَشرُّ مَرْجعٍ، فيوقف على «هذا» أيضاً.

---

(١) قراءة ابن كثير وأبي عمرو في السبعة ص٥٥٥، والتيسير ص١٨٨.

(٢) ديوان الأعشى ص٢٦٣.

(٣) في معاني القرآن ٤/٣٣٨.

(٤) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/٨٦٣.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ «هذا» في موضع رفع بالابتداء وخبره «حَمِيمٌ» على التقديم والتأخير؛ أي: هذا حميم وغسَّاق فليذوقوه. ولا يُوقَف على «فَلْيَذُوقُوهُ» ويجوز أن يكون «هذا» في موضع رفع بالابتداء و«فَلْيَذُوقُوهُ» في موضع الخبر، ودخلت الفاء للتنبيه الذي في «هذا» فيوقف على «فَلْيَذُوقُوهُ» ويرتفع «حَمِيمٌ» على تقدير: هذا حميم.

قال النحاس[1]: ويجوز أن يكون المعنى: الأمر هذا، وحميم وغسَّاق إذا لم تجعلهما خبراً، فَرفْعُهما على معنى: هو حميم وغسّاق. والفرّاء[2] يرفعهما بمعنى: منه حميم ومنه غسَّاق، وأنشدَ:

حتّى إذا ما أَضَاءَ الصُّبْحُ في غَلَسٍ ... وغُودِرَ البَقْلُ مَلْوِيٌّ ومَحْصُودُ[3]

وقال آخر:

لها مَتَاعٌ وأعْوانٌ غَدَوْنَ بِهِ ... قِتْبٌ وغَرْب إذا ما أُفْرِغَ انْسَحَقا[4]

ويجوز أن يكون «هَذَا» في موضع نصب بإضمار فعل يُفسِّره «فَلْيَذُوقُوهُ» كما تقول: زيداً اضربه. والنصب في هذا أولى[5]، فيوقف على «فَلْيَذُوقُوهُ» وتبتدئ «حَمِيمٌ وغَسَّاقٌ» على تقدير: الأمر حميم وغسَّاق[6].

وقراءةُ أهل المدينة وأهل البصرة وبعض الكوفيين بتخفيف السين في «وغَسَاق». وقرأ يحيى بن وثّاب والأعمش وحمزة والكسائي: «وغسَّاق» بالتشديد[7]، وهما لغتان

(١) في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٦٩ ، وينظر ما قبله فيه وفي مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٢٧ .

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٤١٠ .

(٣) وذكره الطبري في تفسيره ٢٠/ ١٢٦ دون نسبة.

(٤) قائله زهير، وهو في ديوانه ص٦٧ (برواية الشنتمري) وسلف ٥/ ٢١٠ قال شارحه الشنتمري. قوله: لها متاع، أي: لهذه الناقة التي يُستقى عليها، وقوله: قِتْب وغَرْبٌ تبيين للمتاع، والقِتْب: أداة السانية، والغرب: الدلو العظيمة.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٤٦٩-٤٧٠ .

(٦) تفسير الرازي ٢٦/ ٢٢١ بنحوه.

(٧) وقرأ بها عاصم في رواية حفص وخلف. السبعة ص٥٥٥ ، والتيسير ص١٨٨ ، والنشر ٢/ ٣٦١ .

بمعنى واحد في قول الأخفش[١]. وقيل: معناهما مختلف؛ فمن خفّف فهو اسمٌ مثل: عَذاب وجَواب وصوَاب، ومَن شدَّد قال: هو اسمُ فاعل نُقل إلى فعّال للمبالغة، نحو ضرّاب وقتّال، وهو فعّال من غَسَق يَغسِق، فهو غسّاق وغاسِق.

قال ابن عباس: هو الزمهرير يُخوّفهم ببرده. وقال مجاهد ومقاتل: هو الثلج البارد الذي قد انتهى برده. وقال غيرهما: إنه يحرق ببرده كما يحرق الحميم بحرِّه.

وقال عبد الله بن عمرو: هو قيحٌ غليظٌ لو وقع منه شيء بالمشرق لأنتن مَنْ في المغرب، ولو وقع منه شيء في المغرب لأنتنَ مَنْ في المشرق.

وقال قتادة: هو ما يسيل من فروج الزُّناة ومن نَتْن لحوم الكفرة وجلودهم من الصديد والقيح والنَّتْن[٢].

وقال محمد بن كعب: هو عُصارة أهل النار. وهذا القول أشبه باللغة؛ يقال: غَسَق الجرح يغسِق غسقاً إذا خرج منه ماء أصفر؛ قال الشاعر:

إذا ما تَذَكَّرْتُ الحياةَ وطِيبَها   إليَّ جَرَى دَمْعٌ من العين[٣] غاسِقُ

أي: بارد. ويقال: ليل غاسق؛ لأنه أبرد من النهار. وقال السدّي: الغسّاق الذي يسيل من أعينهم ودموعهم يُسقَوْنه مع الحميم[٤]. وقال ابن زيد: الحميم دموعُ أعينهم، يُجمع في حياض النار فيُسقَوْنه، والصديد الذي يخرج من جُلودهم. والاختيار على هذا «وغَسّاق» حتى يكون مثل سيّال[٥].

وقال كعب: الغسّاق عين في جهنم يسيل إليها سُمُّ كلِّ ذي حُمَةٍ من عقرب

---

(١) نقله المصنف عنه بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٠٧.

(٢) هذه الأقوال في تفسير الطبري ٢٠/ ١٢٨-١٣٢، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٧٠.

(٣) في (د) و(ز) و(ظ) و(م): الليل، والمثبت من (ف)، والبيت لعمران بن حِطّان، ذكره أبو بكر الأنباري في الأضداد ص٥.

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ١٢٨.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٦/ ١٢٩.

وحيةٍ[١]. وقيل: هو مأخوذٌ من الظُّلمة والسواد. والغَسَقُ أوّل ظُلمة الليل، وقد غَسَقَ الليلُ يغسِق، إذا أظلم[٢].

وفي الترمذي[٣] من حديث أبي سعيد الخدري عن النبيّ ﷺ قال: «لو أن دَلْواً من غَسَّاق يُهَرَاق في الدنيا لأنتنَ أهلُ الدنيا».

قلت: وهذا أشبه على الاشتقاق الأوّل كما بينا، إلا أنه يحتمل أن يكون الغسَّاق مع سيلانه أسودَ مُظلماً فيصحّ الاشتقاقان. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ قرأ أبو عمرو: «وَأُخَرُ» جمع أُخرى مثل الكبرى والكُبَر. الباقون: «وَآخَرُ» مفرد مذكر[٤]. وأنكر أبو عمرو «وَآخَرُ» لقوله تعالى: «أزواج» أي: لا يُخبر بواحد عن جماعة. وأنكر عاصم الجحدري: «وأُخَرُ» قال: ولو كانت «وَأُخَرُ» لكان: من شكلها.

وكلا الردَّين لا يلزم، والقراءتان صحيحتان.

«وآخَرُ» أي: وعذابٌ آخَرُ سوى الحميم والغسَّاق[٥]. «مِنْ شَكْلِهِ» قال قتادة: من نحوه. قال ابن مسعود: هو الزمهرير[٦].

وارتفع «وآخرُ» بالابتداء و«أَزْوَاجٌ» مبتدأ ثانٍ و«مِنْ شَكْلِهِ» خبره، والجملة خبر «آخر». ويجوز أن يكون «وآخر» مبتدأ والخبر مُضمَر دلَّ عليه «هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ» لأن فيه دليلاً على أنه لهم، فكأنه قال: ولهم آخر، ويكون «مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ» صفةً لآخر، فالمبتدأ متخصص بالصفة و«أَزْوَاجٌ» مرفوع بالظرف[٧].

---

(١) النكت والعيون ٥/١٠٦ .

(٢) الصحاح (غسق).

(٣) الحديث (٢٥٨٤).

(٤) السبعة ص٥٥٥ ، والتيسير ص١٨٨ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٦/ ١٣٠ .

(٦) أخرجهما الطبري ٢٠/ ١٣١-١٣٢ .

(٧) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٢٨ بنحوه.

ومن قرأ: «وَأُخَرُ» أراد: وأنواعٌ من العذاب أُخَرُ، ومن جمع ـ وهو يريد الزمهرير ـ فعلى أنه جعل الزمهرير أجناساً فجمع لاختلاف الأجناس. أو على أنه جعل لكل جزء منه زمهريراً، ثم جمع كما قالوا: شابَتْ مفارِقُه. أو على أنه جمع، لِمَا في الكلام من الدلالة على جواز الجمع؛ لأنه جعل الزمهرير الذي هو نهاية البرد بإزاء الجمع في قوله: «هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ»، والضمير في «شَكْلِهِ» يجوز أن يعود على الحميم أو الغسّاق. أو على معنى: «وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ» ما ذكرنا. ورفع «أُخَرُ» على قراءة الجمع بالابتداء، و«مِنْ شَكْلِهِ» صفةٌ له، وفيه ذِكْر يعود على المبتدأ، و«أَزْوَاجٌ» خبر المبتدأ. ولا يجوز أن يُحمل على تقدير: ولهم أُخَر. و«مِنْ شَكْلِهِ» صفة لأخر، و«أَزْوَاجٌ» مرتفعة بالظرف كما جاز في الإفراد؛ لأن الصفة لا ضمير فيها من حيث ارتفع «أَزْوَاجٌ» بالظرف، ولا ضمير في الظرف، والهاء في «شَكْله» لا تعود على أُخَر لأنه جمع، والضمير[١] مفرد؛ قاله أبو علي[٢]. و«أَزْوَاجٌ» أي: أصناف وألوان من العذاب. وقال يعقوب: الشَّكْل بالفتح: المِثل، وبالكسر: الدَّلّ[٣].

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ قال ابن عباس: هو أن القادة إذا دخلوا النار ثم دخل بعدهم الأتباع، قالت الخزنة للقادة: «هَذَا فَوْجٌ» يعني الأتباع، والفوج الجماعة، «مقْتَحِمٌ معَكُمْ» أي: دخل النار معكم؛ فقالت السادة: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ أي: لا اتَّسعت منازلهم في النار. والرُّحب السّعة[٤]، ومنه رحبة المسجد وغيره. وهو في مذهب الدعاء، فلذلك نصب؛ قال النابغة:

لا مَـرْحَـبـاً بِـغَـدٍ ولا أهْـلاً بِـهِ إنْ كـانَ تَـفْـرِيـقُ الأَحِـبَّـةِ فـي غَـدِ[٥].

(١) من قوله: بالظرف، ولا ضمير.. إلى هنا سقط من (م).

(٢) في الحجة ٦/ ٨٠، وينظر اللام السالف فيه وفي مشكل إعراب القرآن ٢/ ٨٠.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ١٣١. والدَّلُّ: غُنْج المرأة. الصحاح (دلل).

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٦٧.

(٥) ديوان النابغة الذبياني ص٣٨.

قال أبو عبيدة[(١)]: العرب تقول: لا مرحباً بك؛ أي: لا رَحُبَتْ عليك الأرض ولا اتَّسعت.

﴿إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ﴾ قيل: هو من قول القادة، أي: إنهم صالوا النار كما صَلَيناها. وقيل: هو من قول الملائكة متصل بقولهم: «هَذَا فَوْجٌ مقْتَحِمٌ معَكُمْ»، و« قَالُوا بَلْ أنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ» هو من قول الأتباع[(٢)].

وحكى النقَّاش أن الفوج الأوّل قادة المشركين ومطعموهم يوم بدر، والفوج الثاني أتباعهم ببدر[(٣)].

والظاهر من الآية أنها عامَّة في كل تابع ومتبوع.

﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ أي: دعوتمونا إلى العصيان ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ لنا ولكم. ﴿قَالُوا۟﴾ يعني الأتباع ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا﴾ قال الفراء: من سوّغ[(٤)] لنا هذا وسَنَّه. وقال غيره: مَن قدَّم لنا هذا العذابَ بدعائه إيَّانا إلى المعاصي ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ﴾ [أي: عذاباً بكفره][(٥)] وعذاباً بدعائه إيانا فصار ذلك ضعفاً.

وقال ابن مسعود: معنى عذاباً ضعفاً في النار الحيات والأفاعي[(٦)]. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾[(٧)] [الأعراف:٣٨].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟﴾ يعني أكابر المشركين ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ

(١) في مجاز القرآن ٢/ ١٨٦ .
(٢) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٤/ ٥١١ ، وتفسير الرازي ٢٦/ ٢٢٢ .
(٣) النكت والعيون ٥/ ١٠٨ .
(٤) في معاني القرآن للفراء ٢/ ٤١١ ، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٧٠ (والكلام منه): شرع.
(٥) ما بين حاصرتين من إعراب القرآن للنحاس.
(٦) تفسير البغوي ٤/ ٦٨ .
(٧) تفسير الرازي ٢٦/ ٢٢٢ .

ٱلْأَشْرَارِ﴾ قال ابن عباس: يريدون أصحابَ محمد ﷺ؛ يقول أبو جهل: أين بلال، أين صُهَيْب، أين عَمّار[١]. أولئك في الفردوس. واعجباً لأبي جهل! مسكين؛ أسلم ابنُه عكرمة، وابنته جُوَيرية، وأسلمتْ أُمُّه، وأسلم أخوه، وكفر هو؛ قال:

ونـوراً أضـاءَ الأرضَ شَـرْقـاً ومَـغْـربـاً ومـوضـعُ رِجلـي مِـنْـهُ أسْـوَدُ مُـظْـلِـمُ[٢]

﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾ قال مجاهد: أتَّخذناهم سخرياً في الدنيا فأخطأنا ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ فلم نعلم مكانَهم. قال الحسن: كل ذلك قد فعلوا؛ اتَّخذوهم سخرياً، وزاغت عنهم أبصارهم في الدنيا مَحْقَرةً لهم.

وقيل: معنى «أمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأبصَارُ» أي: أهم معنا في النار فلا نراهم[٣]؟. وكان ابن كثير والأعمش وأبو عمرو وحمزة والكسائي يقرؤون: «مِنَ الأَشْرَارِ اتَّخَذْنَاهُمْ» بحذف الألف في الوصل. وكان أبو جعفر وشيبة ونافع وعاصم وابن عامر يقرؤون: «أَتَّخَذْنَاهُمْ» بقطع الألف على الاستفهام[٤]، وسقطت ألف الوصل؛ لأنه قد استُغني عنها؛ فمن قرأ بحذف الألف لم يقف على «الأشْرَارِ» لأن «اتَّخَذْنَاهُمْ» حال. وقال النحاس[٥] والسجستاني: هو نعتٌ لرجال. قال ابن الأنباري[٦]: وهذا خطأ؛ لأن النعت لا يكون ماضياً ولا مستقبلاً. ومن قرأ: «أَتَّخذناهم» بقطع الألف وقف على «الأشْرَارِ».

قال الفراء[٧]: والاستفهام هنا بمعنى التوبيخ والتعجب، «أمْ زاغت عنهم الأبصار»؛ إذا قرأتَ بالاستفهام كانت أم للتسوية، وإذا قرأتَ بغير الاستفهام فهي بمعنى بل.

---

(١) أخرجه الطبري ٢٠/ ١٣٦ بنحوه من قول مجاهد.

(٢) قائله البحتري، وهو في ديوانه ٣/ ١٩٧٦ ، وفيه: وبدر، بدل: ونوراً.

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٠٩ .

(٤) السبعة ص٥٥٦ ، والتيسير ص١٨٨ ، والنشر ٢/ ٣٦٢ ، وقراءة ابن كثير المتواترة عنه بقطع الألف.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٤٧١ . وينظر ما قبله فيه.

(٦) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٦٤-٨٦٥ ، وما قبله منه.

(٧) في معاني القرآن ٢/ ٤١١ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس ٣/ ٤٧١ .

وقرأ أبو جعفر ونافع وشيبة والمفضَّل وهبيرة ويحيى والأعمش وحمزة والكسائي: «سُخْرِيّاً» بضم السين. الباقون بالكسر(١). قال أبو عبيدة(٢): من كسر جعله من الهُزْء، ومن ضم جعله من التسخير. وقد تقدم(٣).

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ «لَحَقٌّ» خبر إنَّ و«تَخَاصُمُ» خبر مبتدأ محذوف بمعنى: هو تخاصم. ويجوز أن يكون بدلاً من حق. ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر. ويجوز أن يكون بدلاً من ذلك على الموضع(٤). أي: إن تخاصم أهل النار في النار لحقٌّ. يعني قولهم: «لَا مَرْحَبًا بِكُمْ» الآية، وشبهه من قول أهل النار.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌۖ﴾ أي: مخوفٌ عقابَ الله لمن عصاه، وقد تقدّم. ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ﴾ أي: معبود. ﴿إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ الذي لا شريك له ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ بالرفع على النعت، وإن نصبت الأول نصبته. ويجوز رفع الأول ونصب ما بعده على المدح(٥). «والْعَزِيزُ» معناه المنيع الذي لا مثل له. «الغَفَّارُ» الستَّار لذنوب خَلْقه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ﴾ أي: وقل لهم يا محمد: «هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ» أي: ما أُنذركم به من الحساب والثواب والعقاب خبرٌ عظيم القدر، فلا ينبغي أن يُستخفَّ به.

---

(١) السبعة ص٥٥٦، والتيسير ص١٦٠، والنشر ٢/ ٣٢٩.

(٢) في مجاز القرآن ٢/ ١٨٧.

(٣) ١٥/ ٩٤.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٧١، ومشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٦٢٩.

(٥) وهذا يجوز في غير التلاوة، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٧٢.

قال معناه قتادة[(١)]. نظيره قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ . عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النبأ: ١-٢]. وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: يعني القرآن الذي أنبأتُكم[(٢)] به خبر جليل[(٣)]. وقيل: عظيم المنفعة ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ الملأ الأعلى هم الملائكة في قول ابن عباس والسّدي اختصموا في أمر آدم حين خُلق فـ ﴿قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠] وقال إبليس: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾[(٤)] [ص: ٧٦].

وفي هذا بيانٌ أن محمداً ﷺ أخبر عن قصة آدم وغيره، وذلك لا يُتصوَّر إلا بتأييد إلهي؛ فقد قامت المُعجزة على صِدقه، فما بالهم أعرضوا عن تدبُّر القرآن ليعرفوا صِدْقه؛ ولهذا وصل قوله بقوله: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ . أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾.

وقولٌ ثانٍ رواه أبو الأشهب عن الحسن قال: قال رسولُ الله ﷺ: «سألني ربي فقال: يا محمد، فِيم اختصم الملأ الأعلى، قلت: في الكفارات والدرجات قال: وما الكفارات، قلت: المشي على الأقدام إلى الجماعات، وإسباغ الوضوء في السَّبَرَات والتعقيب في المساجد بانتظار الصلاة بعد الصلاة قال: وما الدرجات؟ قلت: إفشاء السلام، وإطعام الطعام، والصلاةُ بالليل والناسُ نِيام»[(٥)] خرجه الترمذي بمعناه عن ابن عباس، وقال فيه: حديث غريب، وعن معاذ بن جبل أيضاً وقال: حديث حسن صحيح[(٦)]. وقد كتبناه بكماله في كتاب «الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»،

---

(١) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ١٥٤ .

(٢) في (د) و(م): أنبأكم.

(٣) أخرجه الطبري ٢٠/ ١٤٠-١٤١ عن مجاهد والسدي وشريح، وذكره عن ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة الطبرسي في مجمع البيان ٢٣/ ١٣١ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ١٤٢ بنحوه.

(٥) نقله المصنف من النكت والعيون ٥/ ١١٠ ، وهو هكذا مرسل، وينظر ما بعده. وأبو الأشهب: هو جعفر بن حيان العطاردي البصري، مات سنة (١٦٥هـ). تهذيب التهذيب ١/ ٣٠٣ . وقوله: السَّبَرات: جمع سَبْرة، وهي شدة البرد. النهاية (سبر).

(٦) سنن الترمذي (٣٢٣٤) و(٣٢٣٥)، والحديثان في مسند أحمد (٣٤٨٤) و(٢٢١٠٩). قال ابن الجوزي في العلل المتناهية ١/ ٣٤ : أصل هذا الحديث وطرقه مضطربة. وينظر تتمة تخريجه والكلام عليه في مسند أحمد.

وأوضحنا إشكاله والحمد لله.

وقد مضى في «يس» القولُ في المشي إلى المساجد، وأن الخُطَا تُكفِّر السيئات، وترفع الدرجات[١].

وقيل: الملأ الأعلى الملائكة، والضمير في «يَخْتَصِمُونَ» لفرقتين. يعني قول من قال منهم: الملائكة بنات الله، [ومن قال: آلهة تعبد]. وقيل: الملأ الأعلى هاهنا قريش؛ يعني اختصامهم فيما بينهم سِرّاً، فأطلع الله نبيَّه على ذلك[٢].

﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: إن يُوحى إليَّ إلا الإنذار، وقرأ أبو جعفر ابن القعقاع: «إلاَّ إنَّما» بكسر الهمزة[٣]؛ لأن الوحيَ قولٌ، كأنه قال: يقال لي: إنما أنت نذيرٌ مبين، ومَن فتحها جعلها في موضع رفع؛ لأنها اسمُ ما لم يُسمَّ فاعلُه. قال الفراء[٤]: كأنك قلت: ما يُوحَى إليَّ إلا الإنذار، النحاس[٥]: ويجوز أن تكون في موضع نصب بمعنى: إلا لأنما. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ «إِذْ» من صلة «يَخْتَصِمُونَ» المعنى: ما كان لي من علم بالملأ الأعلى حين يختصمون حين ﴿قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾.

وقيل: «إِذْ قال» بدل من «إِذْ يَخْتَصِمُونَ»[٦]، و«يَخْتَصِمُونَ» يتعلَّق بمحذوف؛ لأن

(١) ١٧/ ٤٢٠.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥١٣-٥١٤، وما بين حاصرتين منه بنحوه.

(٣) النشر ٢/ ٣٦٢.

(٤) معاني القرآن ٢/ ٤١٢.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٤٧٢.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٥١٤.

المعنى: ما كان لي من علم بكلام الملأ الأعلى وقتَ اختصامهم.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ «إذا» تردُّ الماضي إلى المستقبل؛ لأنها تُشبه حروفَ الشرط وجوابُها كجوابه[1]؛ أي: خلقته.

﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ أي: من الروح الذي أَمْلكه ولا يَمْلكه غيري. فهذا معنى الإضافة، وقد مضى هذا المعنى مجوَّداً في «النساء» في قوله في عيسى ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [الآية: ١٧١].

﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ﴾ نصب على الحال. وهذا سجودُ تحية لا سجودَ عبادة. وقد مضى في «البقرة»[2].

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ أي: امتثلوا الأمر وسجدوا له خضوعاً له وتعظيماً لله بتعظيمه ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ أَنِفَ من السجود له جهلاً بأنَّ السجودَ له طاعةٌ لله، والأَنَفَة من طاعة الله استكباراً كُفرٌ، ولذلك كان من الكافرين باستكباره عن أمر الله تعالى. وقد مضى الكلامُ في هذا في «البقرة» مستوفى[3].

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ﴾ أي: صرفك وصَدَّك ﴿أَن تَسْجُدَ﴾ أي: عن أنْ تسجد ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ أضاف خَلْقه إلى نفسه تكريماً له، وإن كان خالقَ كل شيء،

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٧٢ .

(٢) ١/ ٤٣٦ .

(٣) ١/ ٤٤١ .

وهذا كما أضاف إلى نفسه الرُّوح والبيت والناقة والمساجد؛ فخاطب الخلق[١] بما يعرفونه في تعاملهم، فإنَّ الرئيس من المخلوقين لا يُباشر شيئاً بيده إلا على سبيل الإعظام والتكرُّم، فَذِكْر اليد هنا بمعنى هذا.

قال مجاهد: اليد هاهنا بمعنى التأكيد[٢] والصلة؛ مجازه: لِمَا خلقتُ أنا، كقوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن:٢٧] أي: يبقى ربك. وقيل: التشبيه في اليد في خلق الله تعالى دليلٌ على أنه ليس بمعنى النعمة والقوة والقدرة؛ وإنما هما صِفتان من صفات ذاته تعالى. وقيل: أراد باليد القدرة[٣]، يقال: ما لي بهذا الأمر يدٌ. وما لي بالحِمْل الثقيل يَدَانِ. ويدلُّ عليه أن الخَلْقَ لا يقع إلا بالقدرة بالإجماع. وقال الشاعر:

تَحمَّلْتُ مِن عَفْرَاءَ[٤] ما ليس لي بِه ولا لـلـجِـبـالِ الـرّاسِـيـاتِ يَـدَانِ

وقيل: «لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ» لما خلقت بغير واسطة.

﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ أي: عن السجود ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ أي: المُتكبرين على ربِّك.

وقرأ محمد بن صالح، عن شِبْل، عن ابن كثير وأهل مكة: «بِيَدَيَّ اسْتَكْبَرْتَ» موصولة الألف على الخبر[٥]، وتكون أم منقطعة بمعنى: بل، مثل: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ» وشبهه. ومن استفهم: «أم» معادلة لهمزة الاستفهام، وهو تقرير وتوبيخ[٦]. أي: استكبرتَ بنفسك حين أبيتَ عن السجود لآدم، أم كنت من القوم الذين يتكبرون فتكبرت لهذا[٧].

---

(١) في (م): الناس.

(٢) في (م): التأكد.

(٣) مذهب السلف أن صفة اليد ثابتة لله سبحانه، فَنُثبت ما أثبته الله لنفسه من غير تكييف ولا تمثيل ولا تشبيه ولا تعطيل. وينظر الكلام السالف بمعناه في الأسماء والصفات ٢/ ١٢٧.

(٤) في النسخ الخطية: دلفاء، والمثبت من المصادر، والبيت لعروة بن حزام، وعفراء ابنة عمه. الخزانة ٣/ ٢١٥ و٣٧٨، والنكت والعيون ٥/ ١١١.

(٥) ذكرها ابن مجاهد في السبعة ص٥٥٦، وهي غير المشهورة عن ابن كثير.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٥١٥ بنحوه.

(٧) زاد المسير ٧/ ١٥٧.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ قال الفرّاء: من العرب من يقول: أنا أخيرُ منه وأشرُّ منه؛ وهذا هو الأصل إلا أنه حذف منه[1] لكثرة الاستعمال.

﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ فَضَّل النارَ على الطين، وهذا جهلٌ منه؛ لأن الجواهر متجانسةٌ، فقاسَ فأخطأ القياس. وقد مضى في «الأعراف» بيانه[2].

﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ يعني من الجنة ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ أي: مرجومٌ بالكواكب والشُّهب[3] ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ﴾ أي: طردي وإبعادي من رحمتي ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ تعريفٌ بإصراره على الكُفر؛ لأن اللَّعنَ منقطعٌ حينئذ، ثم بدخوله النار يظهر تحقيق اللعن، ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أراد الملعون ألا يموت، فلم يُجَبْ إلى ذلك، وَأُخِّر إلى الوقت المعلوم، وهو يوم يموت الخلقُ فيه، فَأُخِّر إليه تهاوناً به.

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لما طرده بسبب آدم حلفَ بِعزَّة الله أنه يُضِلُّ بني آدم بتزيين الشهوات وإدخال الشُّبَه عليهم، فمعنى: «لَأُغْوِيَنَّهُمْ»: لأستدعِيَنَّهم إلى المعاصي، وقد عَلِمَ أنه لا يَصِلُ إلا إلى الوسوسة، ولا يُفسد إلا مَن كان لا يصلحُ لو لم يوسوسه[4]؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ أي: الذين أخلصتَهم لعبادتك، وعَصَمتَهم مني. وقد مضى في «الحجر» بيانه[5].

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ هذه قراءة أهل الحرمين وأهل البصرة

---

(١) يعني: حُذفت منه الألف كما في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٧٣ . وسقطت لفظة «منه» من (م).

(٢) ٩/ ١٦٥ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٧٣ .

(٤) المصدر السابق.

(٥) ١٢/ ٢١٢ .

والكسائي. وقرأ ابن عباس ومجاهد وعاصم والأعمش وحمزة برفع الأول[١]. وأجاز الفرّاء[٢] فيه الخفض[٣]. ولا اختلاف في الثاني في أنه منصوبٌ بـ«أقول» ونُصِبَ الأوّل على الإغراء، أي: فاتَّبِعوا الحقَّ، واستمعوا الحق، والثاني: بإيقاع القول عليه. وقيل: هو بمعنى أُحِقُّ الحَقَّ، أي: أفعله[٤].

قال أبو علي[٥]: الحقّ الأوّل منصوبٌ بفعل مضمر، أي: يُحِقُّ اللهُ الحقَّ، أو على القسم وحُذف حرف الجر كما تقول: اللهِ لأفعلنَّ، ومجازه: قال: فبالحقِّ، وهو الله تعالى أقسم بنفسه. و«الحَقَّ أَقُولُ» جملة اعترضت بين القسم والمُقسم عليه، وهو توكيد القصة، وإذا جعل الحقّ منصوباً بإضمار فعل كان «لأملانّ» على إرادة القسم.

وقد أجاز الفرّاء[٦] وأبو عُبيد أن يكون الحق منصوباً بمعنى حقّاً «لَأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ» وذلك عند جماعة من النحويين خطأ؛ لا يجوز: زيداً لأضربنّ؛ لأن ما بعد اللام مقطوعٌ مما قبلها فلا يعمل فيه. والتقدير على قولهما: لأملأنَّ جهنم حقًّا. ومن رفع «الحقّ» رفعه بالابتداء؛ أي: فأنا الحقُّ، أو الحقُّ مني. رُويا جميعاً عن مجاهد. ويجوز أن يكون التقدير: هذا الحقُّ.

وقول ثالث على مذهب سيبويه والفراء أن معنى: فالحقّ لأملأن جهنم بمعنى: فالحق أن أملأ جهنم.

وفي الخفض قولان ـ وهي قراءة ابن السَّمَيْفَع وطلحة بن مُصَرِّف ـ: أحدهما أنه

---

(١) السبعة ص٥٥٧، والتيسير ص١٨٨، والنشر ٢/ ٣٦٢، وقراءة الأعمش وابن عباس رضي الله عنهما في القراءات الشاذة ص١٣٠.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٤١٣ بنحوه، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٧٤، وما قبله منه.

(٣) ذكر ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٣٠ أن عيسى بن عمر قرأ: فالحقِّ والحقِّ، بالجر فيهما. قال ابن خالويه: الصواب أن يخفض الثانية، لأن القسم يكون بالواو ولا يكون بالفاء.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٧٤.

(٥) في الحجة ٦/ ٨٧-٨٨.

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٤١٣، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٧٤، والكلام منه.

على حذف حرف القسم. هذا قول الفراء قال: كما يقول: اللهِ لأفعلنّ. وقد أجاز مثل هذا سيبويه وغلطه فيه أبو العباس ولم يُجز الخفض؛ لأن حروف الخفض لا تُضمر، والقول الآخر: أن تكون الفاء بدلاً من واو القسم؛ كما أنشدوا:

فَمِثْلِكِ حُبْلَى قد طَرَقْتُ ومُرْضِعٍ(١)

﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ﴾ أي: من نفسك وذريتك ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾ من بني آدم ﴿أَجْمَعِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: من جُعْل على تبليغ الوحي، وكنَى به عن غير مذكور. وقيل: هو راجع إلى قوله: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨].

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أي: لا أتكلّف ولا أتخرَّص ما لم أُؤمر به.

وروى مسروق، عن عبد الله بن مسعود قال: من سُئل عما لم يعلم فليقل: لا أعلم، ولا يتكلّف؛ فإن قوله: لا أعلم عِلمٌ، وقد قال الله عز وجل لنبيّه ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾(٢). وعن رسول الله ﷺ: «لِلْمُتَكلِّفِ ثلاثُ علامات: يُنازِع مَن فوقَه، ويَتَعاطى ما لا يُنال، ويقولُ ما لا يَعلم»(٣).

---

(١) الكلام في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٧٤ ، والبيت لامرئ القيس، وهو من معلقته ينظر شرح القصائد السبع للنحاس ١/ ١٢، وعجزه: فألهيتُها عن ذي تمائم مُحْوِل. ورواية الديوان ص١٢ : ومرضعاً، وهي كذلك في (د) و(ز) و(ظ)، بدل: ومرضع. ومُغيَل، بدل: مُحْوِل. والمُغيَل: المُرضَع وأمه حبلى. والمُحْوِل: الذي أتى عليه الحول، وينظر تحصيل عين الذهب للأعلم ص٢٩٩ . قال النحاس في شرح القصائد السبع: وخفض «فمثلِك» على معنى: رُبَّ مثلِك، والعربُ تبدل من «رُبَّ» الواو، وتُبدل من الواو الفاء لاشتراكهما في العطف.

(٢) بنحوه ضمن حديث طويل أخرجه أحمد (٤١٠٤)، والبخاري (٤٨٢٢)، ومسلم (٢٧٩٨)، ونقله المصنف عن النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٧٤ .

(٣) أخرجه الثعلبي. فيما ذكره الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٤٢ . من طريق محمد بن عون. . . وذكر إسناده إلى سلمة بن نفيل ﷺ مرفوعاً. ومحمد بن عون، قال النسائي: متروك، وقال البخاري: منكر الحديث. الميزان ٣/ ٦٧٦ ، وأخرجه أبو نعيم في الحلية ٤/ ٤٧ من قول وهب بن منبه، والبيهقي في شعب الإيمان (٥٠٦٤) من قول أرطاة بن المنذر.

وروى الدَّارَقُطْني من حديث نافع عن ابن عمر قال: خرج رسولُ الله ﷺ في بعض أسفاره، فسار ليلاً فمروا على رجل جالس عند مَقْرَاة له، فقال له عمر: يا صاحب المَقْرَاة، أَوَ لَغت السِّباع الليلة في مَقْرَاتك؟ فقال له النبي ﷺ: «يا صاحبَ المَقْرَاة، لا تُخبره، هذا مُتكلِّف، لها ما حملتْ في بطونها، ولنا ما بقي شرابٌ وطَهُور»[١].

وفي «الموطأ» عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب: أن عمر بن الخطاب خرج في ركب فيهم عمرو بن العاص حتى وَردوا حوضاً، فقال عمرو بن العاص: يا صاحب الحوض، هل تَرِدُ حوضَك السِّباع؟ فقال عمر: يا صاحب الحوض، لا تُخبرنا، فإنا نَرِدُ على السِّباع وتَرِدُ علينا[٢]. وقد مضى القول في المياه في سورة «الفرقان»[٣].

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ يعني القرآن ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ من الجن والإنس.

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ﴾ أي: نبأ الذِّكر ـ وهو القرآن ـ أنه حقٌّ «بعد حِين» قال قتادة: بعد الموت[٤]. وقاله الزجاج[٥]. وقال ابن عباس وعكرمة وابن زيد: يعني يوم القيامة[٦].

وقال الفراء[٧]: بعد الموت وقبله. أي: لتظهر لكم حقيقةُ ما أقول: «بعدَ حِين» أي: في المستأنف، أي: إذا أخذتكم سيوفُ المسلمين. قال السُّدي: وذلك يومَ بدر. وكان الحسن يقول: يابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين[٨].

(١) سنن الدارقطني (٣٤). والمقراة: الحوض الذي يجتمع فيه الماء. النهاية (قري).
(٢) الموطأ ١/ ٢٣-٢٤ .
(٣) ١٣/ ٤٥ .
(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ١٥١ .
(٥) في معاني القرآن ٤/ ٣٤٢ .
(٦) أخرجه الطبري ٢٠/ ١٥٢ عن ابن زيد.
(٧) في معاني القرآن ٢/ ٤١٣ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٧٤ .
(٨) النكت والعيون ٥/ ١١٢ ، وقول الحسن في تفسير الطبري ٢٠/ ١٥١ .

وسُئل عكرمة عمن حلف: لَيصنعنَّ كذا إلى حين. قال: إنَّ من الحين ما لا تُدركه كقوله تعالى: ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ﴾ ومنه ما تُدركه؛ كقوله تعالى: ﴿تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ﴾ من صِرام النخل إلى طُلوعه ستة أشهر. وقد مضى القولُ في هذا في «البقرة» و«إبراهيم»[1] والحمد لله.

(١) ١/ ٤٧٧ و ١٢/ ١٣٥ ، وقول عكرمة سلف ١٢/ ١٣٦ .

تفسير سورة ص

[وهى][(١)] مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ۝ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوْا وَّلاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝﴾.

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم فى أول سورة «البقرة» بما أغنى عن إعادته هاهنا.

وقوله: ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ أى: والقرآن المشتمل على ما فيه ذكر للعباد، ونفع لهم فى المعاش والمعاد.

قال الضحاك فى قوله: ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾، كقوله: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠] أى: تذكيركم. وكذا قال قتادة، واختاره ابن جرير.

وقال ابن عباس، وسعيد بن جبير، وإسماعيل بن أبى خالد، وابن عيينة، وأبو[(٢)] حصين، وأبوصالح، والسدى[(٣)]: ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾: ذى الشرف، أى: ذى الشأن والمكانة.

ولا منافاة بين القولين، فإنه كتاب شريف مشتمل على التذكير والإعذار والإنذار.

واختلفوا فى جواب هذا القسم، فقال بعضهم: هو قوله: ﴿إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [ص: ١٤]. وقيل قوله: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [ص: ٦٤]، حكاهما[(٤)] ابن جرير، وهذا الثانى فيه بعد كبير، وضعفه ابن جرير.

وقال قتادة: جوابه: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾، واختاره ابن جرير.

وقيل: جوابه ما تضمنه سياق السورة بكمالها، والله أعلم.

ثم حكى ابن جرير عن بعض أهل العلم[(٥)] أنه قال: جوابه «ص» بمعنى: صدق حق والقرآن ذى الذكر.

وقوله: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ أى: إن فى هذا القرآن لذكرًا لمن يتذكر، وعبرة لمن يعتبر. وإنما لم ينتفع به الكافرون لأنهم ﴿فِي عِزَّةٍ﴾ أى: استكبار عنه وحمية، ﴿وَشِقَاقٍ﴾ أى: مخالفة له ومعاندة ومفارقة.

ثم خوفهم ما أهلك به الأمم المكذبة قبلهم بسبب مخالفتهم للرسل وتكذيبهم الكتب المنزلة من

---

(١) زيادة من ت، س. (٢) فى أ: «ابن». (٣) فى ت: «وخلق غيرهما».
(٤) فى س: «رواهما». (٥) فى أ: «العربية».

السماء، فقال: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ أى: من أمة مكذبة، ﴿فَنَادَوْا﴾ أى[1]: حين جاءهم العذاب استغاثوا وجأروا إلى الله. وليس ذلك بمُجْدٍ عنهم شيئا. كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ [الأنبياء: ١٢] أى: يهربون، ﴿لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٣].

قال أبو داود الطيالسى: حدثنا شعبة، عن أبى إسحاق، عن التميمى قال: سألت ابن عباس عن قول الله: ﴿فَنَادَوْا وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾، قال: ليس بحين نداء، ولا نَزْو، ولا فرار[2].

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ليس بحين مغاث.

وقال شبيب بن بشر[3]، عن عكرمة، عن[4] ابن عباس: نادوا النداء حين لا ينفعهم، وأنشد:

تَذَكَّر ليلى لاتَ حين تذكّرِ[5]

وقال محمد بن كعب فى قوله: ﴿فَنَادَوْا وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾، يقول: نادوا بالتوحيد حين تولت الدنيا عنهم، واستناصوا للتوبة حين تولت الدنيا عنهم.

وقال قتادة: لما رأوا العذاب أرادوا التوبة فى غير حين النداء.

وقال مجاهد: ﴿فَنَادَوْا وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾، ليس بحين فرار ولا إجابة.

وقد روى نحو هذا عن عكرمة، وسعيد بن جبير، وأبى مالك، والضحاك، وزيد بن أسلم، والحسن، وقتادة.

وعن مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾، ولا نداء فى غير حين النداء.

وهذه الكلمة وهى «لات»، هى «لا» التى للنفى، زيدت معها «التاء»، كما تزاد فى «ثم»، فيقولون: «ثمت»، و«رب» فيقولون: «ربت». وهى مفصولة، والوقف عليها. ومنهم من حكى عن المصحف الإمام فيما ذكره [ابن جرير][6] أنها متصلة بحين: «ولا تحين مناص». والمشهور الأول. ثم قرأ الجمهور بنصب «حين»، تقديره: وليس الحين حين مناص. ومنهم من جوز النصب بها، وأنشد:

تَذَكَّر حُب ليلى لاتَ حينا وأَضْحَى الشَّيْبُ قد قَطَع القَرينا[7]

ومنهم من جوز الجر بها، وأنشد:

طَلَبُوا صُلْحَنَا ولاتَ أوانِ فأجَبْنَا أن ليس حينُ بقاءِ[8]

---

(١) فى ت: «إلى».
(٢) وقد رواه الطستى فى مسائل نافع بن الأزرق أنه سأل ابن عباس فذكره.
(٣) فى أ: «بشير». (٤) فى ت: «سئل».
(٥) البيت للأعشى، وعجزه: وقد تبت عنها والمناص بعيد.
(٦) ما بين المعقوفتين بياض فى س.
(٧) البيت فى تفسير الطبرى (٢٣/ ٧٧).
(٨) البيت لأبى زبيد الطائى، وهو فى تفسير الطبرى (٢٣/ ٧٧).

وأنشد بعضهم أيضا:

وَلاتَ سَاعةَ مَنْدَم

بخفض الساعة. وأهل اللغة يقولون: النوص: التأخر، والبوص: التقدم. ولهذا قال تعالى: ﴿وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أى: ليس الحين حين فرار ولا ذهاب.

﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ ﴿٧﴾ أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الأَحْزَابِ ﴿١١﴾ ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن المشركين فى تعجبهم من بعثة الرسول بشرا، كما قال تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٢]. وقال هاهنا: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أى: بشر مثلهم، ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ . أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ أى: أزعم أن المعبود واحد لا إله إلا هو؟! أنكر المشركون ذلك ـ قبحهم الله تعالى ـ وتعجبوا من ترك الشرك بالله، فإنهم كانوا قد تلقوا عن آبائهم عبادة الأوثان وأشربته قلوبهم، فلما دعاهم الرسول ﷺ إلى خلع ذلك من قلوبهم، وإفراد الله[1] بالوحدانية، أعظموا ذلك وتعجبوا وقالوا: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ . وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ﴾، وهم سادتهم وقادتهم ورؤساؤهم وكبراؤهم قائلين: ﴿ [أَنِ][2] امْشُوا﴾ أى: استمروا على دينكم ﴿وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾، ولا تستجيبوا لما يدعوكم إليه محمد من التوحيد.

وقوله: ﴿ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ . قال ابن جرير: إن هذا الذى يدعونا[3] إليه محمد من التوحيد لشىء يريد به الشرف عليكم، والاستعلاء، وأن يكون له منكم أتباع، ولسنا مجيبيه إليه.

ذكر سبب نزول هذه الآيات :

قال السدى: إن أناسا من قريش اجتمعوا، فيهم: أبو جهل بن هشام، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث، فى نفر من مشيخة قريش، فقال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى أبى طالب فلنكلمه فيه، فلينصفنا منه، فليكف عن شتم آلهتنا، وندعه وإلهه الذى يعبده؛ فإنا نخاف أن يموت هذا الشيخ، فيكون منا إليه شىء. فتعيرنا [به][4] العرب، يقولون:

(١) فى ت، س، أ: «الإله».
(٢) زيادة من أ.
(٣) فى ت: «يدعوا».
(٤) زيادة من ت، س، أ.

«تركوه حتى إذا مات عنه[١] تناولوه». فبعثوا رجلا منهم يقال له[٢]: «المطلب»، فاستأذن لهم على أبى طالب، فقال: هؤلاء مشيخة قومك وسراتهم يستأذنون عليك. قال: أدخلهم. فلما دخلوا عليه قالوا: يا أبا طالب، أنت كبيرنا وسيدنا، فأنصفنا من ابن أخيك، فمره فليكف عن شتم آلهتنا وندعه وإلهه. قال: فبعث إليه أبو طالب، فلما دخل عليه رسول الله ﷺ قال: يا ابن أخى، هؤلاء مشيخة قومك وسراتهم، وقد سألوك أن تكف عن شتم آلهتهم ويدعوك وإلهك. قال: «يا عم، أفلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم؟»، قال: وإلام تدعوهم؟ قال: «أدعوهم [إلى][٣] أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب، ويملكون بها العجم». فقال أبو جهل من بين القوم: ما هى وأبيك؟ لنعطينها[٤] وعشرة أمثالها. قال: تقولون: «لا إله إلا الله». فنفر وقال: سلنا غير هذا[٥]. قال: «لو جئتمونى بالشمس حتى تضعوها فى يدى، ما سألتكم غيرها». فقاموا من عنده غضابا، وقالوا: والله لنشتمنك وإلهك الذى أمرك[٦] بهذا. ﴿وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾.

رواه ابن أبى حاتم، وابن جرير، وزاد: فلما خرجوا دعا رسول الله ﷺ عمه إلى قول: «لا إله إلا الله»، فأبى وقال: بل على دين الأشياخ. ونزلت: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[القصص: ٥٦][٧].

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا أبو كريب وابن وكيع قالا: حدثنا أبو أسامة، حدثنا الأعمش، حدثنا عباد، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما مرض أبو طالب، دخل عليه رهط من قريش، فيهم أبو جهل، فقالوا: إن ابن أخيك يشتم آلهتنا، ويفعل ويفعل، ويقول ويقول، فلو بعثت إليه فنهيته؟ فبعث إليه، فجاء النبى ﷺ فدخل البيت، وبينهم وبين أبى طالب قدر مجلس رجل، قال: فخشى أبو جهل إن جلس إلى جنب أبى طالب أن يكون أرقّ له عليه. فوثب فجلس فى ذلك المجلس، ولم يجد رسول الله ﷺ مجلسا قرب عمه، فجلس عند الباب. فقال له أبو طالب: أى ابن أخى، ما بال قومك يشكونك، يزعمون أنك تشتم آلهتهم، وتقول وتقول؟ قال: وأكثروا عليه من القول، وتكلم رسول الله ﷺ فقال: «يا عم، إنى أريدهم على كلمة واحدة! يقولونها تدين لهم بها العرب، وتؤدى إليهم بها العجم الجزية»، ففزعوا لكلمته ولقوله، وقالوا[٨]: كلمة واحدة! نعم وأبيك عشرا، فقالوا: وما هى؟ وقال أبو طالب: وأى كلمة هى يا ابن أخى؟ فقال: «لا إله إلا الله»، فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم، وهم يقولون: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾، قال: ونزلت من[٩] هذا الموضع إلى قوله: ﴿لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ لفظ أبى كريب[١٠].

وهكذا رواه الإمام أحمد والنسائى، من حديث محمد بن عبد الله بن نُمَيْر، كلاهما عن أبى أسامة، عن الأعمش، عن عباد، غير منسوب، به نحوه[١١]، ورواه الترمذى، والنسائى، وابن أبى حاتم، وابن جرير أيضا، كلهم فى تفاسيرهم من حديث سفيان الثورى، عن الأعمش، عن يحيى بن عُمَارة

(١) فى أ: «عمه»، وكذا فى الطبرى.   (٢) فى ت، س، أ: «يدعى».   (٣) زيادة من أ.
(٤) فى ت، س، أ: «لنعطينكما».   (٥) فى ت، س، أ: «غيرها».   (٦) فى أ: «يأمرك».
(٧) تفسير الطبرى (٢٣/ ٨٠).
(٨) فى ت، س، أ: «فقال القوم».   (٩) فى أ: «فى».
(١٠) تفسير الطبرى (٢٣/ ٧٩).
(١١) المسند (١/ ٣٦٢) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٣٧).

الكوفى، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، فذكر نحوه. وقال الترمذى[(١)] :حسن[(٢)].

وقولهم: ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ﴾ أى: ما سمعنا بهذا الذى يدعونا إليه محمد من التوحيد فى الملة الآخرة.

قال مجاهد، وقتادة، وابن[(٣)] زيد: يعنون دين قريش.

وقال غيرهم: يعنون النصرانية، قاله محمد بن كعب، والسدى.

وقال العوفى، عن ابن عباس: ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ﴾، يعنى: النصرانية، قالوا: لو كان هذا القرآن حقا أخبرتنا به النصارى.

﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ ﴾: قال مجاهد، وقتادة: كذب، وقال ابن عباس: تخرص.

وقولهم: ﴿ أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ يعنى: أنهم يستبعدون تخصيصه بإنزال القرآن عليه من بينهم كلهم، كما قالوا فى الآية الأخرى: ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] قال الله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ [الزخرف: ٣٢]؛ ولهذا لما قالوا هذا الذى دل على جهلهم وقلة عقلهم، فى استبعادهم إنزال القرآن على الرسول من بينهم، قال الله تعالى: ﴿ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ أى: إنما يقولون هذا لأنهم ما ذاقوا إلى حين قولهم ذلك عذابَ الله ونقمته، سيعلمون غِبَّ ما قالوا، وما كذبوا به، يوم يُدَعّون إلى نار جهنم دَعًّا.

ثم قال مبينا أنه المتصرف فى ملكه، الفعال لما يشاء، الذى يعطى من يشاء ما يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، ويهدى من يشاء، ويضل من يشاء، وينزل الروح من أمره على من يشاء من عباده، ويختم على قلب من يشاء، فلا يهديه أحد من بعد الله، وإن العباد لا يملكون شيئا من الأمر، وليس إليهم من التصرف فى الملك ولا مثقال ذرة، وما يملكون من قطمير؛ ولهذا قال تعالى منكرا عليهم: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ أى: العزيز الذى لا يرام جنابه، الوهاب الذى يعطى ما يريد لمن يريد.

وهذه الآية شبيهة بقوله: ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا . أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا . فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ٥٣ ـ ٥٥]، وقوله: ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠٠]، وذلك بعد الحكاية عن الكفار أنهم أنكروا بعثة الرسول البشرى، وكما أخبر تعالى عن قوم صالح [عليه السلام][(٤)] حين قالوا: ﴿ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ . سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ﴾ [القمر: ٢٥، ٢٦].

---

(١) فى ت: «ورواه الترمذى وقال: حديث حسن».

(٢) سنن الترمذى برقم (٣٢٣٢) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٣٦) وتفسير الطبرى (٢٣/ ٧٩).

(٣) فى ت: «وأبو». (٤) زيادة من أ.

وقوله: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَاب﴾ أى: إن كان لهم ذلك فليصعدوا فى الأسباب.

قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، وغيرهم: يعنى طرق السماء.

وقال الضحاك: فليصعدوا إلى السماء السابعة.

ثم قال: ﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الأَحْزَاب ﴾ أى: هؤلاء الجند المكذبون الذين هم فى عزة وشقاق سيهزمون ويغلبون ويُكبَتُون، كما كبت الذين من قبلهم من الأحزاب المكذبين، وهذه كقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ . سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُر﴾وكان ذلك يوم بدر، ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ [القمر: ٤٤ـ ٤٦].

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ (١٢) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ أُوْلَئِكَ الأَحْزَابُ (١٣) إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (١٤) وَمَا يَنظُرُ هَؤُلاءِ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ (١٥) وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (١٦) اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء القرون الماضية، وما حل بهم من العذاب والنكال والنقمات فى مخالفة الرسل وتكذيب الأنبياء .وقد تقدمت قصصهم مبسوطة فى أماكن متعددة.

وقوله: ﴿ أُوْلَئِكَ الأَحْزَابُ ﴾ أى: كانوا أكثر منكم وأشد قوة،وأكثر أموالا وأولاداً، فما دافع[(١)] ذلك عنهم من عذاب الله من شىء، لما جاء أمر ربك[(٢)]؛ ولهذا قال: ﴿ إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَاب﴾ فجعل علة هلاكهم هو تكذيبهم بالرسل، فليحذر المخاطبون من ذلك أشد الحذر.

وقوله: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَؤُلاءِ[(٣)]إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾: قال مالك، عن زيد بن أسلم:أى ليس لها مَثْنَوية، أى: ما ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها، أى:قد اقتربت ودنت وأزفت، وهذه الصيحة هى نفخة الفزع التى يأمر الله إسرافيل أن يطولها، فلا يبقى أحد من أهل السموات والأرض إلا فزع،إلا من استثنى[(٤)] الله عز وجل.

وقوله: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَاب﴾ هذا إنكار من الله على المشركين فى دعائهم على أنفسهم بتعجيل العذاب، فإن القط هو الكتاب وقيل: هو الحظ والنصيب.

قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، والحسن، وغير واحد:سألوا تعجيل العذاب ـ زاد قتادة: كما قالوا: ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

---

(١) فى ت،أ: «دفع»، وفى س: «لما دفع».
(٢) فى أ: «الله».
(٣) فى أ: «وما ينظرون» وهو خطأ.
(٤) فى أ: «شاء».

وقيل: سألوا تعجيل نصيبهم من الجنة، إن كانت موجودة أن يلقوا[١] ذاك فى الدنيا. وإنما خرج هذا منهم مخرج الاستبعاد والتكذيب.

وقال ابن جرير: سألوا تعجيل ما يستحقونه من الخير أو الشر فى الدنيا، وهذا الذى قاله جيد، وعليه يدور كلام الضحاك، وإسماعيل بن أبى خالد، والله أعلم.

ولما كان هذا الكلام منهم على وجه الاستهزاء والاستبعاد، قال الله تعالى لرسوله ﷺ آمراً له بالصبر على أذاهم، ومبشراً له على صبره بالعاقبة والنصر[٢] والظفر.

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ (١٩) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ (٢٠)﴾ .

يذكر تعالى عن عبده ورسوله داود، عليه السلام: أنه كان ذا أيد، والأيد: القوة فى العلم والعمل.

قال [ابن عباس][٣] وابن زيد والسدى: الأيد: القوة، وقرأ ابن زيد: **﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾** [الذاريات: ٤٧].

وقال مجاهد: الأيد: القوة فى الطاعة .

وقال قتادة: أعطى داود [عليه السلام][٤] قوة فى العبادة، وفقها فى الإسلام، وقد ذكر لنا أنه، عليه السلام، كان يقوم ثلث الليل، ويصوم نصف الدهر.

وهذا ثابت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، وكان يصوم يوما ويفطر يوما، ولا يفر إذا لاقى»[٥]. وإنه كان أوابا، وهو الرجاع إلى الله عز وجل فى جميع أموره وشؤونه.

وقوله: **﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ﴾** أى: إنه تعالى سخر الجبال تسبح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار، كما قال تعالى: **﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾** [سبأ: ١٠]. وكذلك كانت الطير تسبح بتسبيحه، وترجع بترجيعه، إذا مر به الطير وهو سابح فى الهواء فسمعه وهو يترنم بقراءة الزبور، لا تستطيع الذهاب، بل تقف فى الهواء، وتسبح معه وتجيبه الجبال الشامخات، ترجع معه، وتسبح تبعا له.

قال[٦] ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا محمد بن بشر، عن مِسْعَر، عن عبد الكريم، عن

(١) فى أ: «يسلموا». (٢) فى أ: «والنصرة». (٣) زيادة من ت، س.
(٤) زيادة من ت، س، أ.
(٥) صحيح البخارى برقم (١١٣١) وصحيح مسلم برقم (١١٥٩).
(٦) فى ت: «وروى».

موسى بن أبى كثير[١]، عن ابن عباس [٢] أنه بلغه: أن أم هانئ ذكرت أن رسول الله ﷺ يوم فتح مكة صلى الضحى ثمانى ركعات، قال[٣] ابن عباس: قد ظننت أن لهذه الساعة صلاة، يقول الله تعالى: ﴿ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ﴾[٤].

ثم رواه من حديث سعيد بن أبى عروبة، عن أبى المتوكل، عن أيوب بن صفوان، عن مولاه عبدالله بن الحارث بن[٥] نوفل، أن ابن عباس كان لا يصلى الضحى، قال: فأدخلته على أم هانئ فقلت: أخبرى هذا ما أخبرتنى به. فقالت أم هانئ: دخل على رسول الله ﷺ يوم الفتح فى بيتى، ثم أمر بماء صب فى قصعة، ثم أمر بثوب، فأخذ بينى وبينه، فاغتسل ثم رش ناحية البيت، فصلى ثمان ركعات، وذلك من الضحى، قيامهن وركوعهن وسجودهن وجلوسهن سواء، قريب بعضهن من بعض، فخرج ابن عباس وهو يقول: لقد قرأت ما بين اللوحين ما عرفت صلاة الضحى إلا الآن: ﴿يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ﴾، وكنت أقول: أين صلاة الإشراق، وكان بعد يقول: صلاة الإشراق[٦].

ولهذا قال: ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ أى: محبوسة فى الهواء، ﴿كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ﴾ أى: مطيع يسبح تبعا له.

قال سعيد بن جبير، وقتادة، ومالك عن زيد بن أسلم، وابن زيد: ﴿كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ﴾ أى: مطيع.

[وقوله][٧]: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ أى: جعلنا له ملكا كاملا من جميع ما يحتاج إليه الملوك.

قال ابن أبى نجيح، عن مجاهد: كان أشد أهل الدنيا سلطاناً.

وقال السدى: كان يحرسه فى كل يوم أربعة آلاف.

وقال بعض السلف: بلغنى أنه كان حَرَسُه فى كل ليلة ثلاثة وثلاثين ألفاً، لا تدور عليهم النوبة إلى مثلها من العام القابل.

وقال غيره: أربعون ألفا مشتملون[٨] بالسلاح.

وقد ذكر[٩] ابن جرير، وابن أبى حاتم، من رواية عِلْباء بن أحمر، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس: أن نفرين من بنى إسرائيل استعدى أحدهما على الآخر إلى داود، عليه السلام، أنه اغتصبه بقراً، فأنكر الآخر، ولم يكن[١٠] للمدعى بينة، فأرجأ أمرهما، فلما كان الليل أمر داود، عليه السلام، فى المنام بقتل المدعى، فلما كان النهار طلبهما وأمر بقتل المدعى، فقال: يا نبى الله، علام تقتلنى وقد اغتصبنى هذا بقرى؟ فقال: إن الله عز وجل أمرنى بقتلك، فأنا قاتلك لا محالة. فقال: والله يا نبى

---

(١) فى ت: «بإسناده».
(٢) فى أ: «ابن عباس رضى الله عنهما».
(٣) فى ت: «فقال».
(٤) تفسير الطبرى (٢٣/ ٨٧).
(٥) فى أ: «عن».
(٦) تفسير الطبرى (٢٣/ ٨٧).
(٧) زيادة من ت، س، أ.
(٨) فى ت، س، أ: «مشتكون».
(٩) فى ت: «وروى».
(١٠) فى س: «تكن».

الله إن الله لم يأمرك بقتلى لأجل هذا الذى ادعيت عليه، وإنى لصادق فيما ادعيت، ولكنى كنت قد اغتلت أباه وقتلته، ولم يشعر بذلك أحد، فأمر به داود [عليه السلام][1] فقتل.

قال ابن عباس: فاشتدت هيبته فى بنى إسرائيل، وهو الذى يقول الله عز وجل: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾.

وقوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾ قال مجاهد: يعنى: الفهم والعقل والفطنة. وقال مرة: الحكمة والعدل. وقال مرة: الصواب.

وقال قتادة: كتاب الله واتباع ما فيه.

وقال السدى: ﴿الْحِكْمَةَ﴾: النبوة.

وقوله: ﴿وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ قال شريح القاضى، والشعبى: فصل الخطاب: الشهود والأيمان.

وقال قتادة: شاهدان على المدعى، أو يمين المدعى عليه، هو فصل الخطاب الذى فصل به الأنبياء والرسل ـ أو قال: المؤمنون والصالحون ـ وهو قضاء هذه الأمة إلى يوم القيامة، وكذا قال أبو عبدالرحمن السلمى.

وقال مجاهد، والسدى: هو إصابة القضاء وفهمه.

وقال مجاهد أيضا: هو الفصل فى الكلام وفى الحكم[2].

وهذا يشمل هذا كله، وهو المراد، واختاره ابن جرير.

وقال[3] ابن أبى حاتم: حدثنا عمر بن شبة النميرى، حدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثنى عبد العزيز ابن أبى ثابت، عن عبد الرحمن بن أبى الزناد، عن أبيه، عن بلال بن أبى بردة، عن أبيه[4]، عن أبى موسى، رضى الله عنه، قال: أول من قال: «أما بعد» داود ،عليه السلام، وهو فصل الخطاب.

وكذا قال الشعبى: فصل الخطاب: «أما بعد».

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥) ﴾.

---

(١) زيادة من س، ت، أ.
(٢) فى ت: «فى القضاء والحكم».
(٣) فى ت: « ورواه».
(٤) فى ت: «بإسناده».

قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، ولكن روى ابن أبى حاتم هنا حديثا لا يصح سنده؛ لأنه من رواية يزيد الرقاشى، عن أنس ـ ويزيد وإن كان من الصالحين ـ لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة، فالأولى أن[١] يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة وأن يرد علمها إلى الله عز وجل؛ فإن القرآن حق، وما تضمن فهو حق أيضا.

وقوله: ﴿ [إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ][٢] فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾، إنما كان ذلك لأنه كان فى محرابه، وهو أشرف مكان فى داره، وكان قد أمر ألا يدخل عليه أحد ذلك اليوم، فلم يشعر إلا بشخصين قد تَسَوَّرا عليه المحراب، أى: احتاطا به يسألانه عن شأنهما.

وقوله: ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ أى: غَلَبنى. يقال: عز يعز: إذا قهر وغلب.

وقوله: ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾: قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: أى اختبرناه.

وقوله: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا ﴾ أى: ساجدا ﴿وَأَنَابَ ﴾. ويحتمل أنه ركع أولا، ثم سجد بعد ذلك، وقد ذكر أنه استمر ساجداً أربعين صباحا، ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ﴾ أى: ما كان منه مما يقال فيه: إن حسنات الأبرار سيئات المقربين.

وقد اختلف الأئمة، رضى الله عنهم[٣]، فى سجدة «ص»، هل هى من عزائم السجود؟ على قولين، الجديد من مذهب الشافعى، رحمه الله، أنها ليست من عزائم السجود، بلى هى سجدة شكر. والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد حيث قال:

حدثنا إسماعيل ـ وهو ابن علية ـ عن أيوب، عن ابن عباس[٤] أنه قال فى السجود فى «ص»: ليست من عزائم السجود، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها.

ورواه البخارى، وأبو داود، والترمذى، والنسائى فى تفسيره، من حديث أيوب، به[٥]. وقال الترمذى: حسن[٦] صحيح.

وقال[٧] النسائى أيضا عند تفسير هذه الآية: أخبرني إبراهيم بن الحسن ـ هو المقسمى ـ حدثنا حجاج بن محمد، عن عمرو[٨] بن ذر، عن أبيه، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، رضى الله عنهما، أن النبى ﷺ سجد فى «ص»، وقال: «سجدها داود، عليه السلام، توبة، ونسجدها شكرا».

تفرد بروايته النسائى[٩]، ورجال إسناده كلهم ثقات، وقد أخبرنى شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزى قراءة عليه وأنا أسمع:

---

(١) فى ت: «أنه». (٢) زيادة من ت، أ.
(٣) فى أ: «رحمهم الله».
(٤) فى أ: «عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس»، وفى ت: «ما رواه الإمام أحمد بإسناده عن ابن عباس» زيادة من أ.
(٥) المسند (١/ ٣٦٠) وصحيح البخارى برقم (١٠٦٩) وسنن أبى داود برقم (١٤٠٩) وسنن الترمذى برقم (٥٧٧).
(٦) فى أ: «حديث حسن». (٧) فى ت: «وروى». (٨) فى أ: «عمر».
(٩) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٣٨).

أخبرنا أبو إسحاق المدرجى[(١)]، أخبرنا زاهر بن أبى طاهر الثقفى، أخبرنا زاهر بن طاهر الشحامى، أخبرنا أبو سعد الكَنْجَرُوذى، أخبرنا الحاكم أبو أحمد محمد بن محمد الحافظ، أخبرنا أبوالعباس السراج، حدثنا هارون بن عبد الله، حدثنا محمد بن يزيد بن خُنَيْس، عن الحسن بن محمد بن عبيد الله بن أبى يزيد قال: قال لى ابن جريج: يا حسن، حدثنى جدك عبيد الله[(٢)] بن أبى يزيد، عن ابن عباس قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، إنى رأيت فيما يرى النائم كأنى أصلى خلف شجرة، فقرأت السجدة، فسجدتُ فسجدت الشجرة لسجودى، فسمعتها تقول وهى ساجدة: اللهم، اكتب لى بها عندك أجرا، واجعلها لى عندك ذخرا، وضع عنى بها وزرا، واقبلها منى كما قبلتها من عبدك داود.

قال ابن عباس: فرأيت النبى ﷺ قام فقرأ السجدة، ثم سجد، فسمعته يقول وهو ساجد كما حكى الرجل عن كلام الشجرة[(٣)].

رواه الترمذى عن قتيبة، وابن ماجه عن أبى بكر بن خلاد، كلاهما عن محمد بن يزيد بن خنيس[(٤)]، نحوه. وقال الترمذى: غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه[(٥)].

وقال البخارى عند تفسيرها أيضا: حدثنا محمد بن عبد الله، حدثنا محمد بن عبيد الطنافسى، عن العوام قال: سألت مجاهدا عن سجدة «ص» فقال[(٦)]: سألت ابن عباس: من أين سجدت؟ فقال: أو ما تقرأ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ﴾[الأنعام: ٨٤]، ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ[(٧)] فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩]، فكان داود، عليه السلام، ممن[(٨)] أمر نبيكم ﷺ أن يقتدى به، فسجدها داود، عليه السلام، فسجدها رسول الله ﷺ[(٩)].

وقال[(١٠)] الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا يزيد بن زُرَيع، حدثنا حميد، حدثنا بكر ـ هو ابن عبد الله المزنى ـ أنه أخبره[(١١)]: أن أبا سعيد الخدرى[(١٢)] رأى رؤيا أنه يكتب «ص»، فلما بلغ إلى التى يسجد بها رأى الدواة والقلم وكل شىء بحضرته انقلب ساجدا، قال: فقصها على النبى ﷺ، فلم يزل يسجد بها بعد. تفرد به [الإمام][(١٣)] أحمد[(١٤)].

وقال[(١٥)] أبو داود: حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب، أخبرنى عمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبى هلال، عن عياض بن عبد الله بن سعد بن أبى سرح، عن أبى سعيد الخدرى، رضى

(١) فى أ: «أبو إسحاق بن المدرجى».
(٢) فى أ: «عبد الله».
(٣) رواه المزى فى تهذيب الكمال (٦/ ٣١٤).
(٤) فى أ: «يزيد بن حبيش».
(٥) سنن الترمذى برقم (٥٧٩) وسنن ابن ماجة برقم (١٠٥٣).
(٦) فى ت: «بإسناده إلى مجاهد قال».
(٧) فى ت، س، أ: «هداهم» وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه.
(٨) فى ت، س: «فيمن».
(٩) صحيح البخارى برقم (٤٨٠٧).
(١٠) فى ت: «وروى».
(١١) فى ت: «بإسناده».
(١٢) فى أ: «الخدرى رضى الله عنه».
(١٣) زيادة من أ.
(١٤) المسند (٣/ ٧٨).
(١٥) فى ت: «وروى».

الله عنه، قال: قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر «ص»، فلما بلغ السجدة نزل فسجد، وسجد الناس معه، فلما كان يوم آخر قرأها، فلما بلغ السجدة تَشزّن[١] الناس للسجود، فقال: «إنما هى توبة نبى، ولكنى رأيتكم تَشَزّنتُم». فنزل وسجد، وسجدوا.

تفرد به أبو داود[٢]، وإسناده على شرط الصحيح.

وقوله: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ أى: وإن له يوم القيامة لقربة يقربه الله عز وجل بها، وحسن مرجع، وهو الدرجات العاليات فى الجنة، لتوبته[٣] وعدله التام فى ملكه، كما جاء فى الصحيح: «المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يقسطون فى أهليهم وما ولوا»[٤].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا فضيل، عن عطية[٥]، عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلسا، إمام عادل[٦]. وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذابا، إمام جائر».

ورواه الترمذى من حديث فضيل ـ وهو ابن مرزوق الأغر ـ عن عطية، به[٧]. وقال: لا نعرفه مرفوعا إلا من هذا الوجه.

وقال[٨] ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا عبد الله بن أبى زياد، حدثنا سيار، حدثنا جعفر ابن سليمان: سمعت مالك بن دينار فى قوله: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾، قال: يقام داود يوم القيامة عند ساق العرش، ثم يقول: يا داود، مجدنى اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم الذى كنت تمجدنى به فى الدنيا. فيقول: وكيف وقد سلبته؟ فيقول: إنى أرده عليك اليوم. قال: فيرفع داود بصوت يستفرغ نعيم أهل الجنان.

﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦) ﴾.

هذه وصية من الله عز وجل لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى، ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيله[٩]. وقد توعد [الله][١٠] تعالى من ضل عن سبيله،

---

(١) فى ت: «تشدد».
(٢) سنن أبى داود برقم (١٤١٠).
(٣) فى ت، س: «لنبوته».
(٤) صحيح مسلم برقم (١٨٢٧) من حديث عبد الله بن عمرو رضى الله عنه.
(٥) فى ت: «وروى الترمذى». (٦) فى أ: «عدل».
(٧) المسند (٣/ ٢٢) وسنن الترمذى برقم (١٣٢٩).
(٨) فى ت: «وروى». (٩) فى أ: «سبيل الله». (١٠) زيادة من أ.

وتناسى يوم الحساب، بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد.

قال[١] ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا هشام بن خالد، حدثنا الوليد، حدثنا مروان بن جناح، حدثنى إبراهيم أبو زرعة ـ وكان قد قرأ الكتاب ـ أن الوليد بن عبد الملك قال له[٢]: أيحاسب الخليفة، فإنك قد قرأت الكتاب الأول، وقرأت القرآن وفقهت؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، أقول؟ قال: قل فى أمان. قلت: يا أمير المؤمنين، أنت أكرم على الله أو داود؟ إن الله ـ عز وجل ـ جمع له النبوة والخلافة، ثم توعده فى كتابه فقال: **﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ﴾** الآية.

وقال عكرمة: **﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾**، هذا من المقدم والمؤخر، لهم عذاب شديد يوم الحساب بما نسوا.

وقال السدى: لهم عذاب شديد بما تركوا أن يعملوا ليوم الحساب.

وهذا القول أمشى على ظاهر الآية، فالله أعلم.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٩)﴾.

يخبر تعالى أنه ما خلق الخلق عبثا، وإنما خلقهم ليعبدوه ويوحدوه، ثم يجمعهم[٣] ليوم الجمع، فيثيب المطيع ويعذب الكافر؛ ولهذا قال تعالى: **﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾** أى: الذين لا يرون بعثا ولا معادا، وإنما يعتقدون هذه الدار فقط، **﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾**، أى: ويل لهم يوم معادهم ونشورهم من النار المعدة لهم.

ثم بين تعالى أنه من عدله وحكمته لا يساوى بين المؤمن والكافر، فقال: **﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾** أى: لا نفعل ذلك، ولا يستوون عند الله، وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من دار أخرى، يثاب فيها هذا المطيع، ويعاقب[٤] فيها هذا الفاجر[٥]. وهذا الإرشاد يدل العقول السليمة والفطر المستقيمة على أنه لابد من معاد وجزاء، فإنا نرى الظالم الباغى يزداد ماله وولده ونعيمه ويموت كذلك، ونرى المطيع المظلوم يموت بكمده، فلابد فى حكمة الحكيم العليم العادل، الذى لا يظلم مثقال ذرة، من إنصاف هذا من هذا. وإذا لم يقع هذا فى هذه الدار، فتعين أن هناك داراً أخرى لهذا الجزاء والمواساة. ولما كان القرآن يرشد إلى المقاصد الصحيحة والمآخذ العقلية الصريحة، قال: **﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾** أى: ذوو العقول، وهى الألباب، جمع لب، وهو العقل.

---

(١) فى ت: «روى». (٢) فى ت: «لأبى ورعة». (٣) فى ت، س: «جمعهم».
(٤) فى ت: «ويعذب». (٥) فى س: «العاصى».

قال الحسن البصرى: والله ما تَدَبُّره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن [كله][١] ،ما يرى له القرآنُ فى خلق ولا عمل. رواه ابن أبى حاتم.

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣)﴾.

يقول تعالى مخبرا أنه وهب لداود سليمان، أى: نبيا، كما قال: **﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾** [النمل: ١٦] أى: فى النبوة، وإلا فقد كان له بنون غيره، فإنه قد كان عنده مائة امرأة حرائر.

وقوله: **﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾**، ثناء على سليمان، عليه السلام، بأنه كثير الطاعة والعبادة والإنابة إلى الله عز وجل.

قال[٢] ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا محمود بن خالد، حدثنا الوليد، حدثنا[٣] مكحول قال: لما وهب الله لداود سليمان، عليه[٤] السلام، قال له: يا بنى، ما أحسن؟ قال: سكينة الله وإيمان. قال: فما أقبح؟ قال: كفر بعد إيمان. قال: فما أحلى؟ قال: روح الله بين عباده. قال: فما أبرد؟ قال: عفو الله عن الناس، وعفو الناس بعضهم عن بعض. قال داود، عليه السلام: فأنت نبى.

وقوله: **﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾** أى: إذ عرض على سليمان فى حال مملكته وسلطانه الخيل الصافنات.

قال مجاهد: وهى التى تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة، والجياد: السراع. وكذا قال غير واحد من السلف.

وقال[٥] ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا مُؤَمَّل، حدثنا سفيان، عن أبيه سعيد بن مسروق، عن إبراهيم التيمى فى قوله: **﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾** قال: كانت عشرين فرسا ذات أجنحة. كذا رواه ابن جرير.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا ابن أبى زائدة، أخبرنى إسرائيل، عن سعيد بن مسروق[٦]، عن إبراهيم التيمى قال: كانت الخيل التى شغلت سليمان، عليه الصلاة والسلام، عشرين ألف فرس ،فعقرها. وهذا أشبه[٧]، والله أعلم.

وقال[٨] أبو داود: حدثنا محمد بن عوف، حدثنا سعيد بن أبى مريم، أخبرنا يحيى بن أيوب، حدثنى عُمَارة بن غَزِيَّة: أن محمد بن إبراهيم حدثه، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن[٩]، عن عائشة،

---

(١) زيادة من ت، س، أ. (٢) فى ت: «روى». (٣) فى ت: «بإسناده».
(٤) فى ت، س: «عليهما». (٥) فى ت: «روى». (٦) فى ت: «بإسناده».
(٧) فى أ: «الأشبه». (٨) فى ت: «وروى». (٩) فى ت: «بإسناده».

رضى الله عنها، قالت: قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك ـ أو خيبر ـ وفى سهوتها ستر، فهبت الريح، فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة ـ لُعَب ـ فقال: «ما هذا يا عائشة؟» قالت: بناتى. ورأى بينهن فرسا له[١] جناحان من رقاع، فقال: «ما هذا[٢] الذى أرى وسطهن؟». قالت: فرس. قال: «وما هذا الذى عليه؟». قالت: جناحان قال: «فرس له جناحان؟!» قالت: أما سمعت أن لسليمان خيلا لها أجنحة؟ قالت: فضحك حتى رأيت نواجذه ﷺ[٣].

وقوله: ﴿ فَقَالَ[٤] إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾، ذكر غير واحد من السلف والمفسرين أنه اشتغل بعرضها حتى فات وقت[٥] صلاة العصر، والذى يقطع به أنه لم يتركها عمدا بل نسيانا، كما شغل النبى ﷺ يوم الخندق عن صلاة العصر حتى صلاها بعد الغروب[٦]، وذلك ثابت فى الصحيحين من غير وجه، من ذلك عن جابر قال: جاء عمر، رضى الله عنه، يوم الخندق بعد ما غربت الشمس، فجعل يسب كفار قريش، ويقول: يا رسول الله، والله ما كدت أصلى العصر حتى كادت الشمس تغرب. فقال رسول الله ﷺ: «والله ما صليتها». فقال[٧]: فقمنا إلى بُطْحَان فتوضأ للصلاة وتوضأنا[٨] لها، فصلى العصر بعد ما غربت الشمس، ثم صلى بعدها المغرب[٩].

ويحتمل أنه كان[١٠] سائغا فى ملتهم تأخير الصلاة لعذر الغزو والقتال. والخيل تراد للقتال. وقد ادعى طائفة[١١] من العلماء أن هذا كان مشروعا فنسخ ذلك بصلاة الخوف، ومنهم من ذهب إلى ذلك فى حال المسايفة والمضايقة، حيث لا يمكن صلاة ولا ركوع ولا سجود، كما فعل الصحابة، رضى الله عنهم، فى فتح تستر، وهو منقول عن مكحول، والأوزاعى، وغيرهما. والأول أقرب؛ لأنه قال بعدها: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾.

قال الحسن البصرى. قال: لا، والله لا تشغلينى عن عبادة ربى آخر ما[١٢] عليك. ثم أمر بها فعقرت. وكذا قال قتادة.

وقال السدى: ضرب أعناقها وعراقيبها بالسيوف.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: جعل يمسح أعراف الخيل، وعراقيبها حبالها.

وهذا القول اختاره ابن جرير، قال: لأنه لم يكن ليعذب حيوانا بالعرقبة، ويهلك مالا من ماله بلا سبب سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها ولا ذنب لها. وهذا الذى رجح به ابن جرير فيه نظر؛ لأنه قد يكون فى شرعهم جواز مثل هذا، ولا سيما إذا كان غضبا لله عز وجل بسبب أنه

(١) فى أ: «لها». (٢) فى أ: «ما هذا يا عائشة».
(٣) سنن أبى داود برقم (٤٩٣٢).
(٤) فى ت، س: «قال». (٥) فى ت، أ: «عن وقت». (٦) فى أ: «المغرب».
(٧) فى ت: «قال». (٨) فى ت: «فتوضأنا».
(٩) صحيح البخارى برقم (٤١١٢) وصحيح مسلم برقم (٦٣١).
(١٠) فى أ: «ادعى هذا طائفة». (١١) فى س، أ: «أنه قد كان». (١٢) فى أ: «أحرَّ ما».

اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة؛ ولهذا لما خرج عنها لله تعالى[(١)] عوضه الله تعالى ما[(٢)] هو خير منها، وهى[(٣)] الريح التى تجرى بأمره رخاء حيث أصاب، غدوها شهر ورواحها شهر، فهذا أسرع وخير من الخيل[(٤)].

وقال[(٥)] الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا سليمان بن المغيرة، عن حميد بن هلال[(٦)]، عن أبى قتادة وأبى الدهماء ـ وكانا يكثران السفر نحو البيت ـ قالا: أتينا على رجل من أهل البادية، فقال البدوى: أخذ بيدى رسول الله ﷺ فجعل يعلمنى مما علمه الله تعالى، وقال: «إنك لا تدع شيئا اتقاء الله[(٧)] ـ عز وجل ـ إلا أعطاك الله خيرا منه»[(٨)].

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨) هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ (٤٠) ﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ أى: اختبرناه بأن سلبناه الملك مرة، ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾ : قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، وغيرهم: يعنى شيطانا. ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أى[(٩)]: رجع إلى ملكه وسلطانه وأبهته.

قال ابن جرير: وكان اسم ذلك الشيطان صخرا. قاله ابن عباس، وقتادة. وقيل: آصف. قاله مجاهد. وقيل: أصروا. قاله مجاهد أيضا. وقيل: حبقيق. قاله السدى. وقد ذكروا هذه القصة مبسوطة ومختصرة.

وقد قال سعيد بن أبى عَرُوبة، عن قتادة: قال أمر سليمان، عليه السلام، ببناء بيت المقدس، فقيل له: ابنه ولا يُسمَعُ فيه صوت حديد. فقال: فطلب ذلك فلم يقدر عليه. فقيل له: إن شيطانا فى البحر يقال له: «صخر» شبه المارد. قال: فطلبه وكانت عين فى البحر يَردُها فى كل سبعة أيام مرة، فنزح ماؤها وجعل فيها خَمْر، فجاء يوم ورْده فإذا هو بالخمر، فقال: إنك لشراب طيب، إلا أنك تصبين الحليم، وتزيدين الجاهل جهلا. ثم رجع حتى عطش عطشاً شديدا، ثم أتاها[(١٠)] فقال: إنك لشراب طيب، إلا أنك تصبين الحليم، وتزيدين الجاهل جهلا. ثم شربها حتى غلبت على عقله، قال: فأرى الخاتم، أو ختم به بين كتفيه فَذَلَّ. قال: وكان ملكه فى خاتمه، فأتى به سليمان فقال: إنه

---

(١) فى ت، س: «عز وجل». (٢) فى ت، س: «بما». (٣) فى ت، س، أ: «وهو».
(٤) وهذا هو الصواب، وانظر كلام القرطبى فى: الجامع لأحكام القرآن (١٥/ ١٩٥، ١٩٦).
(٥) فى ت: «وروى».
(٦) فى ت: «وروى الإمام أحمد بإسناده». (٧) فى أ: «لله».
(٨) المسند (٥/ ٧٨) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٩٦): «رجاله رجال الصحيح».
(٩) فى ت، س: «ثم». (١٠) فى أ: «أتاه».

قد أمرنا ببناء هذا البيت، وقيل لنا: لا يسمعن فيه صوت حديد. قال: فأتى ببيض الهدهد فجعل عليه زجاجة، فجاء الهدهد فدار حولها، فجعل يَرَى بيضه ولا يقدر عليه، فذهب فجاء بالماس فوضعه عليه، فقطعها به، حتى أفضى إلى بيضه. فأخذ الماس، فجعلوا يقطعون به الحجارة. وكان سليمان [عليه السلام](١) إذا أراد أن يدخل الخلاء ـ أو: الحمام ـ لم يدخل بخاتمه فانطلق يوما إلى الحمام، وذلك الشيطان صخر معه، وذلك عند مقارفة قارف فيه(٢) بعض نسائه. قال: فدخل الحمام وأعطى الشيطان خاتمه، فألقاه فى البحر، فالتقمته سمكة، ونُزِع مُلك سليمان منه، وألقى على الشيطان شَبَه سليمان. قال: فجاء فقعد على كرسيه وسريره، وسُلِّط على ملك سليمان كله غير نسائه. قال: فجعل يقضى بينهم، وجعلوا ينكرون منه أشياء، حتى قالوا: لقد فتن نبى الله. وكان فيهم رجل يشبهونه بعمر بن الخطاب فى القوة فقال: والله لأجربنه. قال: فقال: يا نبى(٣) الله ـ وهو لا يرى إلا أنه نبى الله ـ أحدنا تصيبه الجنابة فى الليلة الباردة، فيدع الغسل عمدا حتى تطلع الشمس، أترى(٤) عليه بأسا؟ فقال(٥): لا. قال: فبينا هو كذلك أربعين ليلة حتى وجد نبى الله خاتمه فى بطن سمكة، فأقبل فجعل لا يستقبله جنى ولا طير إلا سجد له، حتى انتهى إليهم، ﴿**وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا**﴾ ، قال: هو الشيطان صخر(٦).

وقال السدى: ﴿**وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ**﴾ أى: ابتلينا سليمان، ﴿**وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا**﴾ قال: جلس الشيطان على كرسيه أربعين يوما. قال: وكان لسليمان، عليه السلام، مائة امرأة، وكانت امرأة منهن يقال لها: «جرادة»، وهى آثر نسائه وآمَنَهُن عنده، وكان إذا أجنب أو أتى حاجة(٧) نزع خاتمه، ولم يأتمن(٨) عليه أحدا من الناس غيرها، فأعطاها يوما خاتمه ودخل الخلاء، فخرج الشيطان فى صورته، فقال: هاتى الخاتم. فأعطته، فجاء حتى جلس على مجلس سليمان، وخرج سليمان بعد ذلك فسألها أن تعطيه خاتمه، فقالت: ألم تأخذه قبل؟ قال: لا. وخرج مكانه تائها. قال: ومكث الشيطان يحكم بين الناس أربعين يوما، قال: فأنكر الناس أحكامه، فاجتمع قراء بنى إسرائيل وعلماؤهم، فجاؤوا حتى دخلوا على نسائه، فقالوا: إنا قد أنكرنا هذا، فإن كان سليمان فقد ذهب عقله وأنكرنا أحكامه. قال: فبكى النساء عند ذلك، قال: فأقبلوا يمشون حتى أتوا(٩)، فأحدقوا به ثم نشروا التوراة فقرؤوا. قال: فطار من بين أيديهم حتى وقع على شرفة، والخاتم معه. ثم طار حتى ذهب إلى البحر، فوقع الخاتم منه فى البحر، فابتلعه حوت من حيتان البحر. قال: وأقبل سليمان فى حاله التى كان فيها، حتى انتهى إلى صياد من صيادى(١٠) البحر، وهو جائع، وقد اشتد جوعه. فاستطعمهم من صيدهم، وقال: إنى أنا سليمان. فقام إليه بعضهم فضربه بعصا فشجَّه، فجعل يغسل دمه وهو على شاطئ البحر، فلام الصيادون صاحبهم الذى ضربه، فقالوا بئس ما صنعت حيث ضربته. قال: إنه

(١) زيادة من أ. (٢) فى ت: «فيها». (٣) فى أ: «أنبى».
(٤) فى ت: «ترى». (٥) فى ت، س: «قال».
(٦) تفسير الطبرى (٢٣/ ١٠١).
(٧) فى أ: «حاجته». (٨) فى ت: «يأمن». (٩) فى أ: «أتوه».
(١٠) فى ت، س، أ: «صيادين».

إنه زعم أنه سليمان. قال: فأعطوه سمكتين مما قد مذر عندهم، فلم يشغله ما كان به من الضرب حتى قام إلى شط البحر، فشق بطونهما، فجعل يغسل [دمه][١]، فوجد خاتمه في بطن إحداهما، فأخذه فلبسه، فرد الله عليه بهاءه وملكه، وجاءت الطير حتى حامت عليه فعرف القوم أنه سليمان، عليه السلام، فقام القوم يعتذرون مما صنعوا [به][٢]، فقال: ما أحمدكم على عذركم، ولا ألومكم على ما كان منكم، كان هذا الأمر لابد منه. قال: فجاء حتى أتى ملكه، وأرسل إلى الشيطان، فجيء به فأمر به فجعل في صندوق من حديد، ثم أطبق عليه، وقفل عليه بقفل، وختم عليه بخاتمه، ثم أمر به فألقى في البحر، فهو فيه حتى تقوم الساعة. وكان اسمه حبقيق. قال: وسخر[٣] له الريح، ولم تكن سخرت له قبل ذلك، وهو قوله: ﴿ **وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّاب**﴾[٤].

وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد قوله: ﴿**وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا**﴾ قال: شيطانا يقال له: آصف. فقال له سليمان: كيف تفتنون الناس؟ قال: أرني خاتمك أخبرك. فلما أعطاه إياه نبذه آصف في البحر، فساح سليمان وذهب ملكه، وقعد آصف على كرسيه، ومنعه الله نساء سليمان فلم يقربهن ـ ولم يقربنه وأنكرنه. قال: فكان سليمان يستطعم، فيقول: أتعرفوني؟ أطعموني، أنا سليمان. فيكذبونه، حتى أعطته امرأة يوما حوتا فجعل يطيب بطنه، فوجد خاتمه في بطنه، فرجع إليه ملكه، وفر آصف، فدخل البحر فارا.

وهذه كلها من الإسرائيليات، ومن أنكرها ما قال ابن أبي حاتم:

حدثنا على بن الحسين، حدثنا محمد بن العلاء وعثمان بن أبي شيبة وعلى بن محمد قالوا: حدثنا أبو معاوية، أخبرنا الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس [رضى الله عنهما][٥]: ﴿ **وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثم أناب** ﴾، قال: أراد سليمان أن يدخل الخلاء، فأعطى الجرادة خاتمه ـ وكانت الجرادة[٦] امرأته، وكانت أحب نسائه إليه ـ فجاء الشيطان في صورة سليمان، فقال لها: هاتي خاتمي. فأعطته إياه. فلما لبسه دانت له الإنس والجن[٧] والشياطين، فلما خرج سليمان من الخلاء قال لها: هاتي خاتمي. قالت: قد أعطيته سليمان. قال: أنا سليمان. قالت: كذبت، لست سليمان[٨]، فجعل لا يأتي أحداً فيقول له: «أنا سليمان»، إلا كذبه، حتى جعل[٩] الصبيان يرمونه بالحجارة. فلما رأى ذلك عَرَف أنه من أمر الله عز وجل. قال: وقام الشيطان يحكم بين الناس، فلما أراد الله أن يرد على سليمان سلطانه، ألقى في قلوب الناس إنكارَ ذلك الشيطان. قال: فأرسلوا إلى نساء سليمان فقالوا لهن: أتنكرن من سليمان شيئاً؟ قلن: نعم، إنه يأتينا ونحن حُيَّض، وما كان يأتينا قبل ذلك. فلما رأى الشيطان أنْ قد فُطن له[١٠]، ظن أن أمره قد انقطع، فكتبوا كتباً فيها سحر وكفر، فدفنوها تحت كرسي سليمان، ثم أثاروها وقرؤوها على الناس. وقالوا:

(١، ٢) زيادة من أ. (٣) في ت، أ: «وسخرت».
(٤) تفسير الطبري (٢٣/ ١٠١).
(٥) زيادة من أ. (٦) في ت: «جرادة». (٧) في أ: «والجن والطير».
(٨) في ت: «بسليمان». (٩) في أ: «جاء». (١٠) في ت: «أنه فطن له».

بهذا كان يظهر سليمان على الناس [ويغلبهم][١]. فأكفر الناس سليمان، عليه السلام، فلم يزالوا يكفرونه، وبعث ذلك الشيطانُ بالخاتم فطرحه فى البحر، فتلقته سمكة فأخذته. وكان سليمان يحمل على شط البحر بالأجر، فجاء رجل فاشترى سمكاً فيه تلك السمكة التى فى بطنها الخاتم، فدعا سليمان فقال: تحمل لى هذا السمك؟ فقال: نعم. قال: بكم؟ قال بسمكة من هذا السمك. قال: فحمل سليمان، عليه السلام، السمك، ثم انطلق به إلى منزله، فلما انتهى الرجل إلى بابه أعطاه تلك السمكة التى فى بطنها الخاتم، فأخذها سليمان فشق بطنها، فإذا الخاتم فى جوفها، فأخذه فلبسه. قال: فلما لبسه دانت له الجن والإنس والشياطين، وعاد إلى حاله، وهَرَب الشيطان حتى دخل جزيرة[٢] من جزائر البحر، فأرسل سليمان فى طلبه، وكان شيطاناً مريداً، فجعلوا يطلبونه ولا يقدرون عليه، حتى وجدوه يوماً نائماً، فجاؤوا فبنوا عليه بنياناً من رصاص، فاستيقظ فوثب فجعل لا يثيب فى مكان من البيت إلا انماط معه الرصاص، قال: فأخذوه فأوثقوه، وجاؤوا به إلى سليمان، فأمر به فنقر[٣] له تخت من رخام، ثم أدخل فى جوفه، ثم سد بالنحاس، ثم أمر به فطرح فى البحر، فذلك قوله: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾، قال: يعنى الشيطان الذى كان سلط عليه.

إسناده إلى ابن عباس قوى، ولكن الظاهر أنه إنما تلقاه ابن عباس ـ إن صح عنه ـ من أهل الكتاب، وفيهم طائفة لا يعتقدون نبوة سليمان، عليه السلام، فالظاهر أنهم يكذبون عليه؛ ولهذا كان فى السياق منكرات من أشدها ذكر النساء، فإن المشهور أن[٤] ذلك الجنى لم يسلط على نساء سليمان، بل عصمهن الله منه، تشريفاً وتكريماً لنبيه ﷺ، وقد رويت هذه القصة مطولة عن جماعة من السلف، كسعيد بن المسيب، وزيد بن أسلم، وجماعة آخرين، وكلها متُلقَّاة من قصص أهل الكتاب، والله أعلم بالصواب.

وقال يحيى بن أبى عمرو السيبانى: وجد سليمان خاتمه فى عسقلان، فمشى فى خرقة[٥] إلى بيت المقدس، تواضعاً لله عز وجل، رواه ابن أبى حاتم.

وقد روى ابن أبى حاتم عن كعب الأحبار فى صفة كرسى سليمان، عليه الصلاة والسلام، خبرا عجيبا، فقال: حدثنا أبى، رحمه الله، حدثنا أبو صالح كاتب الليث، أخبرنى أبو إسحاق المصرى، عن كعب الأحبار؛ أنه لما فرغ من حديث «إرم ذات العماد» قال له معاوية: يا أبا إسحاق، أخبرنى عن كرسى سليمان بن داود، وما كان عليه؛ ومن أى شىء هو؟ فقال: كان كرسى سليمان من أنياب الفيلة مُفَصّصاً بالدر والياقوت والزبرجد واللؤلؤ. وقد جُعل له درجة منها مُفَصّصة بالدر والياقوت والزبرجد، ثم أمر بالكرسى فحُفّ من جانبيه بالنخل، نخل من ذهب، شماريخها من ياقوت وزبرجد ولؤلؤ. وجعل على رؤوس النخل التى عن يمين الكرسى طواويس من ذهب، ثم جُعل على رؤوس النخل التى على يسار الكرسى نسور من ذهب مقابلة الطواويس، وجعل على يمين الدرجة الأولى

(١) زيادة من أ. (٢) فى ت: «الحق بجزيرة». (٣) فى ت: «فثقب».
(٤) فى أ: «فإن المشهور عن مجاهد وغير واحد من السلف أن».
(٥) فى أ: «بحرقة».

شجرتا صنوبر من ذهب، وعن يسارها أسَدَان من ذهب، وعلى رؤوس الأسدين عمودان من زبرجد، وجعل من جانبى الكرسى شجرتا كرم من ذهب، قد أظلتا الكرسى، وجعل عناقيدهما درا وياقوتا أحمر. ثم جعل فوق دَرَج الكرسى أسدان عظيمان من ذهب مجوفان محشوان مسكا وعنبرا. فإذا أراد سليمان أن يصعد على كرسيه استدار الأسدان ساعة، ثم يقعان[1] فينضحان ما فى أجوافهما من المسك والعنبر حول كرسى سليمان، عليه السلام، ثم يوضع منبران من ذهب، واحد لخليفته، والآخر لرئيس أحبار بنى إسرائيل ذلك الزمان. ثم يوضع أمام كرسيه سبعون منبرا من ذهب، يقعد عليها سبعون قاضيا من بنى إسرائيل وعلمائهم، وأهل الشرف منهم والطول، ومن خلف تلك المنابر كلها خمسة وثلاثون منبرا من ذهب، ليس عليها أحد، فإذا أراد أن يصعد على كرسيه وضع قدميه على الدرجة السفلى، فاستدار الكرسى كله بما فيه وما عليه، ويبسط الأسد يده اليمنى وينشر النسر جناحه الأيسر، ثم يصعد [سليمان][2] على الدرجة الثانية، فيبسط الأسد يده اليسرى، وينشر النسر جناحه الأيمن، فإذا استوى سليمان على الدرجة الثالثة وقعد على الكرسى، أخذ نسر من تلك النسور عظيم تاج سليمان فوضعه على رأسه، فإذا وضعه على رأسه استدار الكرسى بما فيه كما تدور الرحى المسرعة. فقال معاوية، رضى الله عنه: وما الذى يديره يا أبا إسحاق؟ قال: تنين من ذهب، ذلك الكرسى عليه وهو عظيم مما عمله صخر الجنى، فإذا أحست بدورانه تلك النسور والأُسْدُ والطواويس التى فى أسفل الكرسى دُرْنَ إلى أعلاه، فإذا وقف وقفن كلهن منكسات رؤوسهن على رأس سليمان [ابن داود][3] عليه[4] السلام وهو جالس، ثم ينضحن جميعاً ما فى أجوافهن من المسك والعنبر على رأس سليمان، عليه السلام. ثم تتناول حمامة من ذهب واقفة على عمود من جوهر، التوراةَ فتجعلها فى يده، فيقرؤها سليمان على الناس.

وذكر تمام الخبر[5]، وهو غريب جدا.

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾، قال بعضهم: معناه: لا ينبغى لأحد من بعدى، أى: لا يصلح لأحد أن يسلبنيه، كما كان من قضية[6] الجسد الذى ألقى على كرسيه، لا أنه يحجر على من بعده من الناس. والصحيح أنه سأل من الله ملكا لا يكون لأحد من بعده من البشر مثله، وهذا هو ظاهر السياق من الآية، وبه[7] وردت الأحاديث الصحيحة من طرق عن رسول الله ﷺ.

قال[8] البخارى عند تفسير هذه الآية: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا روح ومحمد بن جعفر، عن شعبة، عن محمد بن زياد[9]، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «إن عفريتا من الجن تَفَلَّتَ علىّ البارحة ـ أو كلمة نحوها ـ ليقطع على الصلاة، فأمكننى الله منه، وأردت أن أربطه إلى سارية من سوارى المسجد حتى تُصبحوا وتنظروا إليه كلكم، فذكرت قول أخى سليمان: **﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾**».

(١) فى ت: «يقفان».
(٢) زيادة من ت، أ.
(٣) زيادة من أ.
(٤) فى أ: «عليهما».
(٥) فى ت: «الحديث».
(٦) فى ت: «فى قصة»، وفى أ: «من قصة».
(٧) فى ت، س، أ: «وبذلك».
(٨) فى ت: «فروى».
(٩) فى ت: «بإسناده».

قال روح: فرده خاسئا[١].

وكذا رواه مسلم والنسائى، من حديث شعبة، به[٢].

وقال مسلم فى صحيحه: حدثنا محمد بن سلمة المُرَادى، حدثنا عبد الله بن وهب، عن معاوية ابن صالح، حدثنى ربيعة بن يَزيد، عن أبى إدريس الخولانى[٣]، عن أبى الدرداء قال: قام رسول الله ﷺ يصلى، فسمعناه يقول: «أعوذ بالله منك». ثم قال: «ألعنك بلعنة الله» ـ ثلاثا ـ وبسط يَدَه كأنه يتناول شيئا، فلما فرغ من الصلاة قلنا: يا رسول الله، قد سمعناك تقول فى الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله قبل ذلك، ورأيناك بسطت يدك؟ قال: «إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله فى وجهى، فقلت: أعوذ بالله منك ـ ثلاث مرات ـ ثم قلت: ألعنك بلعنة الله التامة. فلم يستأخر ثلاث مرات، ثم أردت أَخْذَه والله لولا دعوة أخينا سليمان، لأصبح موثقا يلعب به صبيان[٤] أهل المدينة»[٥].

وقال[٦] الإمام أحمد: حدثنا أبو أحمد، حدثنا ميسرة بن معبد، حدثنا أبو عبيد حاجب سليمان قال: رأيت عطاء بن يزيد الليثى قائما يصلى، فذهبت أمر بين يديه فردنى، ثم قال[٧]: حدثنى[٨] أبو سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قام يصلى[٩] صلاة الصبح وهو خلفه، فقرأ فالتبست عليه القراءة، فلما فرغ من صلاته قال: «لو رأيتمونى وإبليس، فأهويت بيدى، فما زلت أخنقه حتى وجدت بَرْدَ لعابه بين إصبعى هاتين ـ الإبهام والتى تليها ـ ولولا دعوة أخى سليمان لأصبح[١٠] مربوطا بسارية من سوارى المسجد، يتلاعب به صبيان المدينة، فمن استطاع منكم ألا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل».

وقد روى أبو داود منه: «من استطاع منكم ألا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل»، عن أحمد ابن أبى سُرَيج، عن أبى أحمد الزبيرى، به[١١].

وقال[١٢] الإمام أحمد: حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا إبراهيم بن محمد الفزارى، حدثنا الأوزاعى، حدثنى ربيعة بن يزيد[١٣]، عن عبد الله الديلمى قال: دخلت على عبد الله بن عمرو، وهو فى حائط له بالطائف يقال له: «الوهط»، وهو مُخَاصر فتى من قريش يُزَنّ بشُرْب الخمر، فقلت: بلغنى عنك حديث أنه «من شرب شربة خَمْر لم يقبل الله، عز وجل، له توبَةً أربعين صباحاً، وإن الشقى من شقى فى بطن أمه، وإنه من أتى بيت المقدس لا يَنْهَزه إلا الصلاة فيه، خرج

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٨٠٨).
(٢) صحيح مسلم برقم (٥٤١) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٤٠).
(٣) فى ت: «بإسناده».
(٤) فى ت، س، أ: «ولدان».
(٥) صحيح مسلم برقم (٥٤٢).
(٦) فى ت: «وروى».
(٧) فى ت: «بإسناده».
(٨) فى ت: «عن».
(٩) فى ت: «فصلى».
(١٠) فى ت: «أصبح».
(١١) المسند (٣/٨٣) وسنن أبى داود برقم (٦٩٩).
(١٢) فى ت: «وروى».
(١٣) فى ت: «بإسناده».

من خطيئته مثل يوم ولدته أمه، فلما سمع الفتى ذكر الخمر اجتذب يده من يده، ثم انطلق. فقال عبدالله بن عمرو [١]: إنى لا أحل لأحد أن يقول عَلَيّ ما لم أقل، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من شرب من الخمر شربة، لم تقبل له صلاة أربعين صباحا، فإن تاب تاب الله عليه، فإن[٢] عاد لم تقبل له صلاة أربعين صباحا، فإن تاب تاب الله عليه. فإن عاد ـ قال: فلا أدرى فى الثالثة أو الرابعة ـ فإن عاد كان حقا على الله أن يسقيه من رَدْغَة الخبال يوم القيامة». قال: وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله خلق خلقه فى ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من نوره يومئذ اهتدى، ومن أخطأه ضل، فلذلك[٣] أقول: جف القلم على علم الله عز وجل». وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن سليمان سأل الله تعالى ثلاثا، فأعطاه اثنتين، ونحن نرجو أن تكون لنا الثالثة: سأله حكما يصادف حكمه، فأعطاه إياه، وسأله ملكا لا ينبغى لأحد من بعده، فأعطاه إياه، وسأله أيّما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة فى هذا المسجد، خرج من خطيئته كيوم[٤] ولدته أمه، فنحن نرجو أن يكون الله تعالى[٥] قد أعطانا إياها»[٦].

وقد روى هذا الفصل الأخير من هذا الحديث النسائى وابن ماجه من طرق، عن عبد الله بن فيروز الديلمى، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن سليمان لما بنى بيت المقدس سأل ربه، عز وجل، خلالا ثلاثا. . .» وذكره[٧].

وقد روى من حديث رافع بن عمير، رضى الله عنه، بإسناد وسياق غريبين، فقال الطبرانى:

حدثنا محمد بن الحسن بن قُتَيْبة العسقلانى، حدثنا محمد بن أيوب بن سُوَيْد، حدثنى أبى، حدثنا إبراهيم بن أبى عَبْلَة، عن أبى الزاهرية[٨]، عن رافع بن عمير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عز وجل لداود، عليه السلام: ابن لى بيتاً فى الأرض. فبنى داود [٩] بيتاً لنفسه قبل البيت الذى أمر به، فأوحى الله إليه: يا داود، نصبت بيتك قبل بيتى؟ قال: يا رب، هكذا قضيت[١٠]، من ملك استأثر. ثم أخذ فى بناء المسجد، فلما تم السور سقط، ثلاثا، فشكا ذلك إلى الله عز وجل، فقال: يا داود[١١]، إنك لا تصلح أن تبنى لى بيتاً. قال: ولم يا رب؟ قال: لما جرى على يديك من الدماء. قال: يا رب، أو ما كان[١٢] ذلك فى هواك ومحبتك؟ قال: بلى، ولكنهم عبادى، وأنا أرحمهم. فشق ذلك عليه، فأوحى الله إليه: لا تحزن، فإنى سأقضى بناءه على يدى ابنك سليمان. فلما مات داود أخذ سليمان فى بنائه فلما تم قرب القرابين، وذبح الذبائح، وجمع بنى إسرائيل، فأوحى الله إليه: قد أرى سرورك ببنيان بيتى، فسلنى أعطك. قال: أسألك ثلاث خصال: حكما يصادف حكمك، وملكا لا ينبغى لأحد من بعدى، ومن أتى هذا البيت لا يريد إلا الصلاة فيه

(١) فى أ: «عمرو رضى الله عنهما». (٢) فى أ: «وإن». (٣) فى أ: «ولذلك».
(٤) فى ت، س، أ: «مثل يوم». (٥) فى ت، س، أ: «عز وجل».
(٦) المسند (٢/ ١٧٦).
(٧) سنن النسائى (٢/ ٤٣) وسنن ابن ماجة برقم (١٤٠٨).
(٨) فى ت: «وروى الطبرانى بإسناده». (٩) فى ت: «داود عليه السلام».
(١٠) فى ت، س، أ: «هكذا قلت فيما قضيت». (١١) فى ت، أ: «فأوحى الله إليه».
(١٢) فى ت، س، أ: «أو لم يكن».

خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه». قال رسول الله ﷺ: «أما ثنتان فقد أعطيهما، وأنا أرجو أن يكون قد أعطى الثالثة»[١].

وقال[٢] الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا عُمَر بن راشد اليمامى، حدثنا إياس بن سلمة ابن الأكوع، عن أبيه قال: ما سمعت رسول الله ﷺ دعا دعاءً إلا استفتحه بـ «سبحان الله ربى الأعلى العلى الوهاب»[٣].

وقد قال[٤] أبو عبيد: حدثنا على بن ثابت، عن جعفر بن بَرْقان، عن صالح بن مسمار قال: لما مات نبى الله داود أوحى الله إلى ابنه سليمان، عليهما[٥] السلام: أن سلنى حاجتك. قال: أسألك أن تجعل لى قلبا يخشاك، كما كان قلب أبى، وأن تجعل قلبى يحبك كما كان قلب أبى. فقال الله: أرسلت إلى عبدى وسألته[٦] حاجته، فكانت [حاجته][٧] أن أجعل قلبه يخشانى، وأن أجعل قلبه يحبنى. لأهَبَنّ له ملكا لا ينبغى لأحد من بعده. قال الله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾، والتى بعدها، قال: فأعطاه [الله][٨] ما أعطاه، وفى الآخرة لا حساب عليه.

هكذا أورده أبو القاسم ابن عساكر فى ترجمة سليمان، عليه السلام ، فى تاريخه[٩].

وروى عن بعض السلف أنه قال: بلغنى عن داود [عليه السلام][١٠] أنه قال: «إلهى، كن لسليمان كما كنت لى»: فأوحى الله إليه: أن قل لسليمان: يكون لى كما كنت لى، أكون له كما كنتُ لك.

وقوله: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾: قال الحسن البصرى، رحمه الله: لما عقر سليمان الخيل غضبا لله، عز وجل، عوضه الله ما هو خير منها وأسرع، الريح التى غدوها شهر ورواحها شهر.

وقوله: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أى: حيث أراد من البلاد.

وقوله: ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ أى: منهم من هو مستعمل فى الأبنية الهائلة من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات، إلى غير ذلك من الأعمال الشاقة التى لا يقدر عليها البشر، وطائفة غواصون فى البحار يستخرجون مما[١١] فيها من اللآلئ والجواهر والأشياء النفيسة التى لا توجد إلا فيها، ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ أى: موثوقون فى الأغلال والأكبال، ممن قد تَمَرّد وعصى وامتنع من العمل وأبى، أو قد أساء فى صنيعه واعتدى.

---

(١) المعجم الكبير (٥/ ٢٤) قال الهيثمى فى المجمع (٨/٤): «فيه محمد بن أيوب بن سويد الرملى وهو متهم بالوضع».

(٢) فى ت: «وروى».

(٣) المسند (٤/ ٥٤) قال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١٥٦): «فيه عمر بن راشد اليمامى وثقه غير واحد، وبقية رجاله رجال الصحيح».

(٤) فى ت: «وروى». (٥) فى ت، أ: «عليه». (٦) فى ت، س: «أسأله».

(٧) زيادة من ت، س. (٨) زيادة من أ.

(٩) تاريخ دمشق (٧/ ٥٦٩ «القسم المخطوط».

(١٠) زيادة من ت، س، أ. (١١) فى ت: «ما».

وقوله: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أى: هذا الذى أعطيناك من الملك التام والسلطان الكامل كما سألتنا، فأعط من شئت واحرم من شئت، لا حساب عليك، أى: مهما فعلتَ فهو جائز لك، احكم بما شئت فهو صواب.

وقد ثبت فى الصحيحين[١] أن رسول الله ﷺ لما خُيِّر بين أن يكون عبداً رسولا ـ وهو الذى يفعل ما يؤمر به، وإنما هو قاسم يقسم بين الناس ما أمره الله به ـ وبين أن يكون ملكا نبيا، يعطى من يشاء ويمنع من يشاء بلا حساب ولا جناح، اختار المنزلة الأولى بعد ما استشار جبريل، فقال له: تواضع. فاختار المنزلة الأولى؛ لأنها أرفع قدرا عند الله وأعلى منزلة فى المعاد. وإن كانت المنزلة الثانية وهى النبوة مع الملك عظيمة أيضا فى الدنيا وفى الآخرة؛ ولهذا لما ذكر تعالى ما أعطى سليمان فى الدنيا نبه على أنه ذو حظ عظيم عند الله يوم القيامة أيضا، فقال: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ أى: فى الدار الآخرة.

﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لأُوْلِي الأَلْبَابِ(٤٣) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ(٤٤) ﴾ .

يذكر تعالى عبده ورسوله أيوب، عليه السلام، وما كان ابتلاه تعالى به من الضر فى جسده وماله وولده، حتى لم يبق من جسده مَغْرز إبرة سليما سوى قلبه، ولم يبق له من حال الدنيا شىء يستعين به على مرضه وما هو فيه، غير أن زوجته حفظت وده لإيمانها بالله ورسوله، فكانت تخدم الناس بالأجرة[٢] وتطعمه، وتخدمه نحوا من ثمانى عشرة سنة. وقد كان قبل ذلك فى مال جزيل وأولاد وسعة طائلة من الدنيا، فَسُلبَ جميعَ ذلك، حتى آل به الحال إلى أن ألقى على مزبلة من مزابل البلدة هذه المدة بكمالها، ورفضه القريب والبعيد سوى زوجته، رضى الله عنها، فإنها كانت لا تفارقه صباحاً و[لا][٣] مساء إلا بسبب خدمة الناس، ثم تعود إليه قريباً. فلما طال المطال، واشتد الحال، وانتهى القدر المقدور، وتم الأجل المقدر، تضرع[٤] إلى رب العالمين وإله المرسلين، فقال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[الأنبياء: ٨٣]، وفى هذه الآية الكريمة قال: رَبِّ، إنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب، قيل: بنصب فى بدنى، وعذاب فى مالى وولدى. فعند ذلك استجاب له أرحم الراحمين، وأمره أن يقوم من مقامه، وأن يركض الأرض برجله. ففعل فأنبع الله عينا وأمره أن يغتسل منها، فأذهب جميع ما كان فى بدنه من الأذى[٥]. ثم أمره فضرب الأرض فى مكان آخر، فأنبع له عينا أخرى وأمره أن يشرب منها، فأذهبت ما كان فى باطنه[٦] من السوء، وتكاملت العافية ظاهرا وباطنا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾.

---

(١) فى أ: «الصحيح». (٢) فى أ: «بالأجر». (٣) زيادة من أ.
(٤) فى ت، س: «ضرع». (٥) فى ت، س: «ما كان به من الأذى». (٦) فى أ: «بباطنه».

قال[١] ابن جرير، وابن أبى حاتم جميعاً: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى نافع بن يزيد، عن عقيل، عن ابن شهاب[٢]، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن نبى الله أيوب، عليه السلام، لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد، إلا رجلين كانا من أخص إخوانه به، كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تعلم ـ والله ـ لقد أذنب أيوب ذنبا ما أذنبه أحد من العالمين. قال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: من ثمانى عشرة سنة لم يرحمه الله، فيكشفَ ما به[٣]. فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له. فقال أيوب: لا أدرى ما تقول، غير أن الله يعلم أنى كنت أمر على الرجلين يتنازعان، فيذكران الله، عز وجل، فأرجع إلى بيتى فأكفر عنهما، كراهية أن يذكرا الله إلا فى حق. قال: وكان[٤] يخرج إلى حاجته فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها، وأوحى الله تعالى إلى أيوب، عليه السلام، أن ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ ، فاستبطأته، فتلقته تنظر، فأقبل[٥] عليها قد أذهب الله ما به من البلاء، وهو على أحسن ما كان. فلما رأته قالت: أى بارك الله فيك، هل رأيت نبى الله هذا المبتلى. فوالله على ذلك، ما رأيت رجلا أشبه به منك إذ كان صحيحا. قال: فإنى[٦] أنا هو. قال: وكان له أندران، أندر للقمح وأندر للشعير، فبعث الله سحابتين، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض، وأفرغت الأخرى فى أندر الشعير حتى فاض. هذا لفظ ابن جرير رحمه الله[٧].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر، عن همام بن مُنَبِّه قال: هذا ما حدثنا[٨] أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما أيوب يغتسل عريانا، خَرَّ عليه جراد من ذهب، فجعل أيوب يحثو فى ثوبه، فناداه ربه[٩]: يا أيوب، ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى يا رب، ولكن لا غنى بى عن بركتك».

انفرد بإخراجه البخارى، من حديث عبد الرزاق، به[١٠].

ولهذا قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ، قال الحسن، وقتادة: أحياهم الله تعالى له بأعيانهم وزادهم مثلهم معهم.

وقوله: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ أى: به على صبره وثباته وإنابته وتواضعه واستكانته، ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أى: لذوى العقول، ليعلموا أن عاقبةَ الصبر الفرجُ والمخرجُ والراحة.

---

(١) فى ت: «روى». (٢) فى ت: «بسندهما». (٣) فى أ: «ما به من مرضه».
(٤) فى أ: «وكان أيوب». (٥) فى أ: «وأقبل». (٦) فى أ: «فقال إنى».
(٧) تفسير الطبرى (٢٣/١٠٧) ورواه البزار فى مسنده (٢٣٥٧) «كشف الأستار»، وأبو نعيم فى الحلية (٣/٣٧٤) من طريق سعيد ابن أبى مريم عن نافع بن يزيد به. قال البزار: «لا نعلم رواه عن الزهرى عن أنس إلا عقيل، ولا عنه إلا نافع، ورواه عن نافع غير واحد»، وقال الهيثمى فى المجمع (٨/٢٠٨): «رجال البزار رجال الصحيح».
(٨) فى ت: «وروى القارى». (٩) فى ت، س، أ: «ربه عز وجل».
(١٠) المسند (٢/٣١٤) وصحيح البخارى برقم (٢٧٨).

وقوله: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلا تَحْنَثْ﴾، وذلك أن أيوب، عليه السلام، كان قد غضب على زوجته، ووَجَد عليها فى أمر فعلته. قيل: [إنها][1] باعت ضفيرتها [2] بخبز فأطعمته إياه، فلامها على ذلك، وحلف إن شفاه الله ليضربنها مائة جلدة. وقيل: لغير ذلك من الأسباب. فلما شفاه الله وعافاه، ما كان جزاؤها مع هذه الخدمة التامة والرحمة والشفقة والإحسان أن تقابل بالضرب، فأفتاه الله، عز وجل، أن يأخذ ضغثاً ـ وهو: الشِّمراخ ـ فيه مائة قضيب فيضربها به ضربة واحدة، وقد برّت يمينه، وخرج من حنثه ووفى بنذره، وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأناب إليه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾، أثنى الله تعالى عليه ومدحه بأنه ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّاب﴾ أى: رَجَّاع منيب؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِب﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

وقد استدل كثير من الفقهاء بهذه الآية الكريمة على مسائل فى الإيمان وغيرها، وأخذوها[3] بمقتضاها، [ومنعت طائفة أخرى من الفقهاء من ذلك وقالوا: لم يثبت أن الكفارة كانت مشروعة فى شرع أيوب، عليه السلام، فلذلك رخص له فى ذلك، وقد أغنى الله هذه الأمة بالكفارة][4].

﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ (٤٧) وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الأَخْيَارِ (٤٨) هَذَا ذِكْرٌ ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن فضائل عباده المرسلين وأنبيائه العابدين: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ﴾ يعنى بذلك: العمل الصالح والعلم النافع والقوة فى العبادة والبصيرة النافذة.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿أُوْلِي الأَيْدِي﴾ يقول: أولى القوة، ﴿وَالأَبْصَارِ﴾ يقول: الفقه فى الدين.

وقال مجاهد: ﴿ أُوْلِي الأَيْدِي﴾، يعنى: القوة فى طاعة الله، ﴿وَالأَبْصَارِ﴾ يعنى: البصر[5] فى الحق.

وقال قتادة والسدى: أعطُوا قوة فى العبادة وبَصراً فى الدين.

[وقوله][6]: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ قال مجاهد: أى جعلناهم يعملون للآخرة ليس لهم هَمّ غيرها. وكذا قال السدى: ذكرهم للآخرة وعملهم لها.

وقال مالك بن دينار: نزع الله من قلوبهم حب الدنيا وذكرها، وأخلصهم بحب الآخرة وذكرها. وكذا قال عطاء الخراسانى.

(١) زيادة من ت، أ.
(٢) فى أ: «ضفيرتيها».
(٣) فى ت، س: «وأخذوا».
(٤) زيادة من ت، أ.
(٥) فى أ: «البصير».
(٦) زيادة من ت، س، أ.

وقال سعيد بن جُبَيْر: يعنى بالدار الجنة، يقول: أخلصناها لهم بذكرهم لها[١]، وقال فى رواية أخرى: ﴿ذِكْرَى الدَّارِ﴾: عقبى الدار.

وقال قتادة: كانوا يذكّرون الناس الدار الآخرة والعمل لها.

وقال ابن زيد: جعل لهم[٢] خاصةً أفضل شىء فى الدار الآخرة.

وقوله: ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ﴾ أى: لمن المختارين المجتبين الأخيار، فهم أخيار مختارون.

وقوله: ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الأَخْيَارِ﴾، قد تقدم الكلام على قصصهم وأخبارهم مستقصاة فى سورة «الأنبياء» بما أغنى عن إعادته هاهنا.

وقوله: ﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾ أى: هذا فصل فيه ذكر لمن يتذكر.

وقال السدى: يعنى القرآن.

﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩) جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الأَبْوَابُ (٥٠) مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (٥١) وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ (٥٢) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ (٥٣) إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ (٥٤) ﴾.

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين السعداء، أن لهم فى [الدار][٣] الآخرة ﴿لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ وهو: المرجع والمنقلب. ثم فسره بقوله: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ أى: جنات إقامة مفتحة لهم الأبواب.

والألف واللام هنا[٤] بمعنى الإضافة، كأنه يقول: «مفتحة لهم أبوابها» أى: إذا جاؤوها فتحت لهم أبوابها.

قال[٥] ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن ثواب الهَبَّارى، حدثنا عبد الله بن نُمَيْر، حدثنا عبد الله ابن مسلم ـ يعنى: ابن هرمز ـ عن ابن سابط[٦]، عن عبد الله بن عمرو [رضى الله عنهما][٧] قال: قال رسول الله ﷺ: «إن فى الجنة قصرا يقال له: «عدن»، حوله البروج والمروج، له خمسة آلاف باب، عند كل باب خمسة آلاف حبَرَة لا يدخله ـ أو: لا يسكنه ـ إلا نبى أو صديق أو شهيد أو إمام عدل»[٨].

وقد ورد فى [ذكر] [٩] أبواب الجنة الثمانية أحاديث كثيرة من وجوه عديدة.

وقوله: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا﴾: قيل: متربعين فيها على سرر[١٠] تحت الحجال، ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ

---

(١) فى ت: «أخلصناهم بذكرهم لها». (٢) فى ت: «لها». (٣) زيادة من س، أ.
(٤) فى ت: «هاهنا». (٥) فى ت: «روى». (٦) فى ت: «بإسناده».
(٧) زيادة من أ.
(٨) ورواه البزار فى مسنده برقم (١٥٩١) «كشف الأستار» من طريق محمد بن ثواب به، وقال الهيثمى فى المجمع (٥/ ١٩٦): «فيه عبد الله بن مسلم بن هرمز وهو ضعيف».
(٩) زيادة من ت، أ. (١٠) فى أ: «سرير».

كَثِيرَةٍ﴾ أى: مهما طلبوا وجدوا، وحضر كما أرادوا. ﴿وَشَرَابٍ﴾ أى: من أى أنواعه شاؤوا أتتهم به الخدام﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [الواقعة: ١٨].

﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾أى: عن غير أزواجهن، فلا يلتفتن إلى غير بعولتهن، ﴿أَتْرَابٌ﴾ أى: متساويات فى السن والعمر. هذا معنى قول ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، ومحمد بن كعب، والسّدّى.

﴿ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أى: هذا الذى ذكرنا من صفة الجنة التى(١) وعدها لعباده المتقين، التى(٢) يصيرون إليها بعد نشورهم وقيامهم من قبورهم وسلامتهم من النار.

ثم أخبر عن الجنة أنه لا فراغ لها ولا انقضاء ولا زوال ولا انتهاء، فقال: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾، كقوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]، وكقوله: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]، وكقوله: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت: ٨] أى: غير مقطوع، وكقوله: ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥] والآيات فى هذا كثيرة جدا.

﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦) هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨) هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١) وَقَالُوا مَا لَنَا لا نَرَىٰ رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ (٦٢) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ (٦٣) إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (٦٤) ﴾.

لما ذكر تعالى مآل السعداء، ثنّى بذكر حال الأشقياء ومرجعهم ومآبهم فى دار معادهم وحسابهم، فقال: ﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ ﴾ وهم: الخارجون عن طاعة الله، المخالفون لرسل الله، ﴿ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ أى: لسوء منقلب ومرجع. ثم فسره بقوله: ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ﴾ أى: يدخلونها فتغمرهم من جميع جوانبهم، ﴿ فَبِئْسَ الْمِهَادُ . هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ أما الحميم فهو: الحار الذى قد انتهى حره، وأما الغَسَّاق فهو: ضده، وهو البارد الذى لا يستطاع من شدة برده المؤلم؛ ولهذا قال: ﴿وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ أى: وأشياء من هذا القبيل، الشىء وضده يعاقبون بها.

قال(٣) الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لَهيعة، حدثنا درّاج، عن أبى الهيثم(٤)، عن أبى سعيد (٥) ،عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو أن دَلْواً من غَسَّاق يهراق فى الدنيا، لأنتن أهل الدنيا»(٦).

(١) فى ت، س، أ: «الجنة هى التى». (٢) فى أ: «الذين». (٣) فى ت: «روى».
(٤) فى ت: «بسنده». (٥) فى أ: «سعيد رضى الله عنه».
(٦) المسند (٣/٢٨).

ورواه الترمذى، عن سُوَيْد بن نصر، عن ابن المبارك، عن رِشْدين بن سعد، عن عمرو بن الحارث، عن درّاج، به. ثم قال: «لا نعرفه إلا من حديث رشدين»[١]. كذا قال: وقد تقدم من غير حديثه. ورواه ابن جرير، عن يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب، عن عمرو بن الحارث، به[٢].

وقال كعب الأحبار: غساق: عين فى جهنم، يسيل إليها حُمَة كل ذات حُمَة من حية وعقرب وغير ذلك، فيستنقع، فيؤتى بالآدمى فيغمس فيها غمسة واحدة، فيخرج وقد سقط جلده ولحمه عن العظام، ويتعلق جلده ولحمه فى كعبيه وعقبيه، ويُجَر لحمه كما يَجُر الرجل ثوبه. رواه ابن أبى حاتم.

وقال الحسن البصرى فى قوله: ﴿وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾: ألوان من العذاب.

وقال غيره: كالزمهرير، والسموم، وشرب الحميم، وأكل الزقوم، والصعود والهوى، إلى غير ذلك من الأشياء المختلفة والمتضادة[٣]، والجميع مما يعذبون به، ويهانون بسببه.

وقوله: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾، هذا إخبار عن قيل أهل النار بعضهم لبعض، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨]، يعنى بدل السلام يتلاعنون ويتكاذبون[٤]، ويكفر بعضهم ببعض، فتقول الطائفة التى تدخل قبل الأخرى، إذا أقبلت التى بعدها مع الخزنة من الزبانية: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ﴾ أى: داخل معكم، ﴿لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ [أى][٥]: لأنهم من أهل جهنم[٦]. ﴿قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ أى: فيقول لهم الداخلون: ﴿بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ أى: أنتم دعوتمونا إلى ما أفضى بنا إلى هذا المصير، ﴿فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ أى: فبئس المنزل والمستقر والمصير. ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾، كما قال عز وجل[٧]: ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨]، أى: لكل منكم عذاب بحسبه، ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لا نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ. أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ﴾، هذا إخبار عن الكفار فى النار أنهم يفقدون رجالا كانوا يعتقدون أنهم على الضلالة، وهم المؤمنون فى زعمهم، قالوا: ما لنا لا نراهم معنا فى النار؟

قال[٨] مجاهد: هذا قول أبى جهل، يقول: ما لى لا أرى بلالا وعمارا وصهيبا وفلانا وفلانا.

وهذا مثل ضرب، وإلا فكل الكفار هذا حالهم: يعتقدون أن المؤمنين يدخلون النار، فلما دخل الكفار النار افتقدوهم فلم يجدوهم، فقالوا: ﴿مَا لَنَا لا نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ. أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا﴾ أى: فى الدنيا[٩]، ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ﴾، يسلون أنفسهم بالمحال، يقولون: أو لعلهم

(١) سنن الترمذى برقم (٢٥٨٤).
(٢) تفسير الطبرى (٢٣/ ١١٤).
(٣) فى ت، س: «المتضاضة والمتخالفة».
(٤) فى ت: «ويتجاذبون».
(٥) زيادة من ت، س.
(٦) فى ت: «النار».
(٧) فى ت، س: «تعالى».
(٨) فى ت: «وقال».
(٩) فى أ: «دار الدنيا».

معنا فى جهنم، ولكن لم يقع بصرنا عليهم. فعند ذلك يعرفون أنهم في الدرجات العاليات[١]، وهو[٢] قوله: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ إلى قوله: ﴿[وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ. أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ][٣] ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٤ ـ ٤٩].

وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ أى: إن هذا الذى أخبرناك به يا محمد، من تخاصم أهل النار بعضهم فى بعض، ولعن بعضهم لبعض، لحق لا مرية فيه ولا شك.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾ .

يقول تعالى آمرا رسوله ﷺ[٤] أن يقول للكفار بالله المشركين به المكذبين لرسوله: إنما أنا منذر[٥] لست كما تزعمون، ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أى: هو[٦] وحده قد قهر كل شىء وغلبه. ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أى: هو مالك جميع ذلك ومتصرف فيه، ﴿الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ أى: غفار مع عزته وعظمته.

﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ أى: خبر عظيم وشأن بليغ، وهو إرسال الله إياى إليكم، ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ أى: غافلون.

قال مجاهد، وشريح القاضى، والسدى فى قوله: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ يعنى: القرآن.

وقوله: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أى: لولا الوحى من أين كنت أدرى باختلاف الملأ الأعلى؟ يعنى: فى شأن آدم وامتناع إبليس من السجود له، ومحاجته ربه فى تفضيله عليه.

فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم، حدثنا جهضم اليمامى، عن يحيى بن أبى كثير، عن زيد بن أبى سلام، عن أبى سلام، عن عبد الرحمن بن عائش، عن مالك بن يخامر، عن معاذ، رضى الله عنه، قال: احتبس علينا رسول الله ﷺ ذات غداة عن صلاة الصبح، حتى كدنا نتراءى قرن الشمس. فخرج رسول الله ﷺ سريعا، فَثُوِّب بالصلاة فصلى، وتَجَوّز فى صلاته، فلما سلم قال: «كما أنتم على مصافكم». ثم أقبل إلينا فقال: «إنى سأحدثكم ما حبسنى عنكم الغداة، إنى قمت من الليل فصليت ما قُدّر لى، فنعست فى صلاتى حتى استيقظت، فإذا أنا بربى[٧] فى أحسن صورة، فقال: يا محمد، أتدرى فيم يختصم الملأ الأعلى؟

---

(١) فى ت: «العلا».
(٢) فى أ: «وهى».
(٣) زيادة من ت، س.
(٤) فى س: «صلوات الله وسلامه عليه».
(٥) فى أ: «نذير مبين».
(٦) فى ت: «وهو».
(٧) فى ت، س، أ: «بربى عز وجل».

قلت: لا أدرى رب ـ أعادها ثلاثا ـ فرأيته وضع كفه بين كتفى، حتى وجدت برد أنامله بين صدرى، فتجلى لى كل شىء وعرفت، فقال: يا محمد، فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: فى الكفارات. قال: وما الكفارات؟ قلت[١]: نقل الأقدام إلى الجمعات[٢]، والجلوس[٣] فى المساجد بعد الصلوات، وإسباغ الوضوء عند الكريهات. قال: وما الدرجات؟ قلت: إطعام الطعام، ولين الكلام، والصلاة والناس نيام. قال: سل. قلت: اللهم، إنى أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وأن تغفر لى وترحمنى، وإذا أردت فتنة بقوم فتوفنى غير مفتون، وأسألك حبك وحب من يحبك، وحب عمل يقربنى إلى حبك». وقال رسول الله ﷺ: «إنها حق فادرسوها وتعلموها»[٤]، فهو حديث المنام المشهور، ومن جعله يقظة فقد غلط، وهو فى السنن من طرق.

وهذا الحديث بعينه قد رواه الترمذى من حديث «جهضم بن عبد الله اليمامى» به. وقال: «حسن صحيح»[٥] وليس هذا الاختصام هو الاختصام المذكور فى القرآن[٦] إن هذا قد فسر، وأما الاختصام الذى فى القرآن فقد فسر بعد هذا، وهو قوله تعالى:

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (٧٦) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٨٠) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥) ﴾.

هذه القصة ذكرها الله، تعالى، فى سورة «البقرة»، وفى أول «الأعراف»، وفى سورة «الحجر»، و[فى][٧] «سبحان»، و«الكهف»، وهاهنا. وهى أن الله، سبحانه، أعلم الملائكة قبل خلق آدم، عليه السلام، بأنه سيخلق بشرا من صلصال من حمأ مسنون، وتقدم إليهم بالأمر متى فرغ من خلقه وتسويته فليسجدوا له إكراما وإعظاما واحتراما، وامتثالا لأمر الله عز وجل. فامتثل الملائكة كلهم ذلك سوى إبليس، ولم يكن منهم جنسا؛ كان من الجن فخانه طبعه وجبلته أحوج ما كان إليه، فاستنكف[٨] عن السجود لآدم، وخاصم ربه عز وجل فيه، وادعى[٩] أنه خير من آدم؛ فإنه مخلوق

(١) فى أ: «قال». (٢) فى ت، أ: «الجماعات». (٣) فى ت، س، أ: «وجلوس».
(٤) المسند (٥/ ٢٤٣).
(٥) سنن الترمذى برقم (٣٢٣٥) وقال: «سألت محمد بن إسماعيل ـ يعنى: عن هذا الحديث ـ فقال: «حسن صحيح».
(٦) فى ت: «المذكور فى الآية الكريمة فى القرآن».
(٧) زيادة من ت. (٨) فى أ: «فاستأنف». (٩) فى ت: «فادعى».

من نار وآدم خلق من طين، والنار خير من الطين، فى زعمه. وقد أخطأ فى ذلك، وخالف أمر الله، وكفر بذلك، فأبعده الله وأرغم أنفه، وطرده عن[1] باب رحمته ومحل أنسه، وحضرة قدسه، وسماه «إبليس»، إعلاما له بأنه قد أبْلَس من الرحمة، وأنزله من السماء مذموما مدحورا إلى الأرض، فسأل الله النظرة إلى يوم البعث، فأنظره الحليم الذى لا يَعْجَل على من عصاه. فلما أمن الهلاك إلى يوم القيامة تمرد وطغى، وقال: ﴿لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ كما قال: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٦٢]، وهؤلاء هم المستثنون فى الآية الأخرى، وهى[2] قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ [الإسراء: ٦٥].

وقوله: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ. لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾: قرأ ذلك جماعة منهم مجاهد برفع «الحق» الأولى[3]، وفسره مجاهد بأن معناه: أنا الحق، والحق أقول. وفى رواية عنه: الحق منى، وأقول الحق.

وقرأ آخرون بنصبهما.

قال السدى: هو قسم أقسم الله به.

قلت: وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، وكقوله تعالى: ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٣].

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨) ﴾.

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: ما أسألكم على هذا البلاغ وهذا النصح أجرا تعطونيه من عرض الحياة الدنيا، ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أى: وما أزيد على ما أرسلنى الله به، ولا أبتغى زيادة عليه، بل ما أمرت به أديته لا أزيد عليه ولا أنقص منه، وإنما أبتغى بذلك وجه الله عز وجل والدار الآخرة.

قال سفيان الثورى، عن الأعمش ومنصور، عن أبى الضحى، عن مسروق قال: أتينا عبد الله بن مسعود قال: يأيها الناس، من علم شيئا فليقل به، ومن لا[4] يعلم فليقل: الله أعلم؛ فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: الله أعلم، فإن الله[5] قال لنبيكم ﷺ: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾. أخرجاه[6] من حديث الأعمش، به[7].

---

(١) فى أ: «لم». (٢) فى أ: «الله عز وجل». (٣) فى أ: «من».
(٤) فى أ: «وهو». (٥) فى أ: «الأول».
(٦) فى ت: «أخرجه البخارى ومسلم».
(٧) صحيح البخارى برقم (٤٨٠٩) وصحيح مسلم برقم (٢٧٩٨).

وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ يعنى: القرآن ذكر لجميع المكلفين من الإنس والجن، قاله ابن عباس. ورواه ابن أبى حاتم عن أبيه، عن أبى غسان مالك بن إسماعيل: حدثنا قيس، عن عطاء ابن السائب، عن سعيد بن جبير[١]، عن[٢] ابن عباس فى قوله: ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ قال: الجن والإنس.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، [وكقوله][٣]: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧].

وقوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ﴾ أى: خبره وصدقه ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ أى: عن قريب.

قال قتادة: بعد الموت. وقال عكرمة: يعنى يوم القيامة. ولا منافاة بين القولين؛ فإن من مات فقد[٤] دخل فى حكم القيامة.

وقال قتادة فى قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾: قال الحسن: يا بن آدم، عند الموت يأتيك الخبر اليقين.

آخر تفسير سورة «ص»، ولله الحمد والمنة

---

(١) فى ت: «بإسناده».
(٢) فى ت: «إلى».
(٣) زيادة من أ.
(٤) فى ت، س، أ: «قد».

٣٨ — سورة ص

(مكية وآياتها ثمان وثمانون آية)

بسم الله الرحمن الرحيم

صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ ٣٨ ص

بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ ٣٨ ص

﴿ سورة ص مكية وآياتها ثمان وثمانون آية ﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (ص) بالسكون على الوقف وقرىء بالكسر والفتح لالتقاء الساكنين
ويجوز أن يكون الفتح بإضمار حرف القسم فى موضع الجر كقولهم الله لأفعلين بالجر وأن يكون ذلك نصباً
بإضمار اذكر أو اقرأ الافتتاحاً كما مر فى فاتحة سورة البقرة وامتناع الصرف للتعريف والتأنيث لأنها علم للسورة
وقد صرفها من قرأ صاد بالتنوين على أنه اسم الكتاب أو التنزيل وقيل هو فى قراءة الكسر أمر من المصاداة
وهى المعارضة والمقابلة ومنها الصدى الذى ينعكس من الأجسام الصلبة بمقابلة الصوت ومعناه عارض
القرآن بعملك فاعمل بأوامره وانته عن نواهيه وتخلق بأخلاقه ثم إن جعل اسماً للحرف مسروداً على منهاج
التحدى أو الرمز إلى كلام مثل صدق الله أو صدق محمد كما نقل عن أكابر السلف أو اسماً للسورة خبراً
لمبتدأ محذوف أو نصباً على اضمار اذكر أو اقرأ أو أمراً من المصاداة فالواو فى قوله تعالى (والقرآن ذى •
الذكر) للقسم وإن جعل مقسماً به فهى للعطف عليه فإن أريد بالقرآن كله فالمغايرة بينهما حقيقية وإن
أريد عين السورة فهى اعتبارية كما فى قولك مررت بالرجل الكريم وبالنسمة المباركة وأياً ما كان ففى
التكرير مزيد تأكيد لمضمون الجملة المقسم عليها والذكر الشرف والنباهة كما فى قوله تعالى وإنه لذكر
لك ولقومك أو الذكرى والموعظة أو ذكر ما يحتاج إليه فى أمر الدين من الشرائع والأحكام وغيرها
من أقاصيص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأخبار الأمم الدارجة والوعد والوعيد وجواب القسم
على الوجه الأول والرابع والخامس محذوف هو ما ينبىء عنه التحدى والأمر والإقسام به من كون
المتحدى به معجزاً وكون المأمور به واجباً وكون المقسم به حقيقاً بالإعظام أى أقسم بالقرآن أو بصاد
وبه إنه لمعجز أو لواجب العمل به أو لحقيق بالإعظام وأما على الوجهين الباقيين فهو الكلام المرموز إليه
ونفس الجملة المذكورة قبل القسم فإن التسمية تنويه بشأن المسمى وتنبيه على عظم خطره أى إنه لصادق
والقرآن ذى الذكر أو هذه السورة عظيمة الشأن والقرآن الخ على طريقة قولهم هذا حاتم والله ولما كان
٢ كل واحد من هذه الأجوبة منبئاً عن انتفاء الريب عن مضمونه بالكلية إنباء بيناً كان قوله تعالى (بل
الذين كفروا فى عزة وشقاق) إضراباً عن ذلك كأنه قيل لا ريب فيه قطعاً وليس عدم إذعان الكفرة له
لشائبة ريب ما فيه بل هم فى استكبار وحمية شديدة وشقاق بعيد لله تعالى ولرسوله ولذلك لا يذعنون له

كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ ٣٨ ص

وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ ٣٨ ص

أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ ٣٨ ص

وقيل الجواب مادل عليه الجملة الإضرابية أى ما كفر به من كفر لخلل وجده فيه بل الذين كفروا الخ
٣ وقرىء فى غرة أى فى غفلة عما يجب عليهم التنبه له من مبادى الإيمان ودواعيه (كم أهلكنا من قبلهم من قرن) وعيد لهم على كفرهم واستكبارهم ببيان ما أصاب من قبلهم من المستكبرين وكم مفعول أهلكنا ومن قرن تمييز والمعنى وقرناً كثيراً أهلكنا من القرون الخالية (فنادوا) عند نزول بأسنا وحلول نقمتنا استغاثة وتوبة لينجوا من ذلك وقوله تعالى (ولات حين مناص) حال من ضمير نادوا أى نادوا واستغاثوا طلباً للنجاة والحال أن ليس الحين حين مناص أى فوت ونجاة من ناصه أى فاته لا من ناص بمعنى تأخر ولا هى المشبهة بليس زيدت عليها تاء التأنيث للتأكيد كما زيدت على رب وثم وخصت بنفى الأحيان ولم يبرز إلا أحد معموليها والأكثر حذف اسمها وقيل هى النافية للجنس زيدت عليها التاء وخصت بنفى الأحيان وحين مناص منصوب على أنه اسمها أى ولا حين مناص لهم أو بفعل مضمر أى ولا أرى حين مناص وقرىء بالرفع فهو على الأول اسمها والخبر محذوف أى وليس حين مناص حاصلا لهم وعلى الثانى مبتدأ محذوف الخبر أى ولا حين مناص كائن لهم وقرىء بالكسر كما فى قوله [طلبوا صلحنا ولات أوان ۞ فأجبنا أن لات حين بقاء] إما لأن لات تجر الأحيان كما أن لولا تجر الضمائر فى نحو قوله [لولاك هذا العام لم أحج] أو لأن أوان شبه بإذ فى قوله [نهيتك عن طلابك أم عمرو ۞ بعافية وأنت إذ صحيح] فى أنه زمان قطع منه المضاف إليه وعوض التنوين لأن أصله أوان صلح ثم حمل عليه حين مناص تنزيلا لقطع المضاف إليه من مناص إذ أصله حين مناصهم منزلة قطعه من حين لما بين المضافين من الاتحاد ثم بنى الحين لإضافته إلى غير متمكن وقرىء لات بالكسر كجير ويقف الكوفيون عليها بالهاء كالأسماء والبصريون بالتاء كالأفعال وما قيل من أن التاء مزيدة على حين لاتصالها به فى الإمام مما لا وجه له فإن خط المصحف خارج عن القياس
٤ (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم) حكاية لأباطيلهم المتفرعة على ما حكى من استكبارهم وشقاقهم أى عجبوا من أن جاءهم رسول من جنسهم بل أدون منهم فى الرياسة الدنيوية والمال على معنى أنهم عدوا ذلك أمراً عجيباً خارجاً عن احتمال الوقوع وأنكروه أشد الإنكار لا أنهم اعتقدوا وقوعه وتعجبوا منه (وقال الكافرون) وضع فيه الظاهر موضع الضمير غضباً عليهم وإيذاناً بأنه لا يتجاسر على مثل ما يقولونه إلا المتوغلون فى الكفر والفسوق (هذا ساحر) فيما يظهره من الخوارق (كذاب) فيما يسنده إلى الله
٥ تعالى من الإرسال والإنزال (أجعل الآلهة إلهاً واحداً) بأن نفى الألوهية عنهم وقصرها على واحد (إن هذا لشىء عجاب) بليغ فى العجب وذلك لأنه خلاف ما ألفوا عليه آباءهم الذين أجمعوا على ألوهيتهم

وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ ٣٨ ص

مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ ٣٨ ص

وواظبوا على عبادتهم كابراً عن كابر فإن هذا مدار كل ماياً تون وما يذرون من أمور دينهم هو التقليد والاعتياد فيعدون مايخالف ما اعتادوه عجيباً بل محالا وأما جعل مدار تعجبهم عدم وفاء علم الواحد وقدرته بالأشياء الكثيرة فلا وجه له لما أنهم لا يدعون أن لآلهتهم علماً وقدرة ومدخلا فى حدوث شىء من الأشياء حتى يلزم من نفى ألوهيتهم بقاء الآثار بلامؤثر وقرىء عجاب بالتشديد وهو أبلغ ككرام وكرام روى أنه لما أسلم عمر رضى الله عنه شق ذلك على قريش فاجتمع خمسة وعشرون من صناديدهم فأتوا أبا طالب فقالوا أنت شيخنا وكبيرنا وقد علمت مافعل هؤلاء السفهاء وقد جئناك لتقضى بيننا وبين ابن أخيك فاستحضر رسول الله ﷺ وقال يا ابن أخى هؤلاء قومك يسألونك السؤال فلا تمل كل الميل على قومك فقال ﷺ ماذا تسألوننى قالوا رفضنا وارفض ذكر آلهتنا وندعك وإلهك فقال ﷺ أرأيتم إن أعطيتكم ماسألتم أمعطى أنتم كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم قالوا نعم وعشراً فقال قولوا

٦ لا إله إلا الله فقاموا وقالوا ذلك (وانطلق الملأ منهم) أى وانطلق الأشراف من قريش عن مجلس أبى طالب بعد ما بكتهم رسول الله ﷺ بالجواب العتيد وشاهدوا تصلبه ﷺ فى الدين وعزيمته على أن يظهره على الدين كله ويئسوا مما كانوا يرجونه بتوسط أبى طالب من المصالحة على الوجه المذكور (أن امشوا) أى قائلين بعضهم لبعض على وجه النصيحة امشوا (واصبروا على آلهتكم) أى واثبتوا على عبادتها متحملين لما تسمعونه فى حقها من القدح وأن هى المفسرة لأن الانطلاق عن مجلس التقاول لايخلو عن القول وقيل المراد بالانطلاق الاندفاع فى القول وامشوا من مشت المرأة إذا كثرت ولادتها ومنه الماشية للتفاؤل أى اجتمعوا وكثروا وقرىء امشوا بغير أن على إضمار القول وقرىء يمشون أن اصبروا (إن هذا الشىء يراد) تعليل للأمر بالصبر أو لوجوب الامتثال به أى هذا الذى شاهدناه من محمد ﷺ من أمر التوحيد ونفى آلهتنا وإبطال أمرها لشىء يراد أى من جهته ﷺ إمضاؤه وتنفيذه لامحالة من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه لاقول يقال من طرف اللسان أو أمر يرجى فيه المسامحة بشفاعة أو امتنان فاقطعوا أطماعكم عن استنزاله من رأيه بوساطة أبى طالب وشفاعته وحسبكم أن لا تمنعوا من عبادة آلهتكم بالكلية فاصبروا عليها وتحملوا ما تسمعونه فى حقها من القدح وسوء القالة وقيل إن هذا الأمر لشىء يريده الله تعالى ويحكم بإمضائه وما أراد الله كونه فلا مرد له ولا ينفع فيه إلا الصبر وقيل إن هذا الأمر لشىء من نوائب الدهر يراد بنا فلا انفكاك لنا منه وقيل إن دينكم لشىء يراد أى يطلب ليؤخذ منكم وتغلبوا عليه وقيل إن هذا الذى يدعيه من التوحيد أو يقصده من الرياسة والترفع على العرب

٧ والعجم لشىء يتمنى ويريده كل أحد فتأمل فى هذه الأقاويل واختر منها مايساعده النظم الجليل (ماسمعنا بهذا) الذى يقوله (فى الملة الآخرة) أى الملة النصرانية التى هى آخر الملل فإنهم مثلثة أو فى الملة التى

أءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ ٣٨ ص

أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ ٣٨ ص

أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ ٣٨ ص

جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ ٣٨ ص

أدركنا عليها آباءنا ويجوز أن يكون الجار والمجرور حالا من هذا أى ماسمعنا بهذا من أهل الكتاب ولا
الكهان كائناً فى الملة المترقبة ولقد كذبوا فى ذلك أقبح كذب فإن حديث البعثة والتوحيد كان أشهر الأمور
٨ قبل الظهور (إن هذا) أى ماهذا (إلا اختلاق) أى كذب اختلقه (أأنزل عليه الذكر) أى القرآن
(من بيننا) ونحن رؤساء الناس وأشرافهم كقولهم لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم
ومرادهم إنكار كونه ذكراً منزلا من عند الله عز وجل كقولهم لوكان خيراً ماسبقونا إليه وأمثال هذه
المقالات الباطلة دليل على أن مناط تكذيبهم ليس إلا الحسد وقصر النظر على الحطام الدنيوى (بل هم
فى شك من ذكرى) أى من القرآن أو الوحى لميلهم إلى التقليد وإعراضهم عن النظر فى الأدلة المؤدية
إلى العلم بحقيته وليس فى عقيدتهم مايبتون به فهم مذبذبون بين الأوهام ينسبونه تارة إلى السحر وأخرى
إلى الاختلاق (بل لما يذوقوا عذاب) أى بل لم يذوقوا بعد عذابى فإذا ذاقوه تبين لهم حقيقة الحال وفى
لما دلالة على أن ذوقهم على شرف الوقوع والمعنى أنهم لا يصدقون به حتى يمسهم العذاب وقيل لم يذوقوا
٩ عذابى الموعود فى القرآن ولذلك شكوا فيه (أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب) بل أعندهم
خزائن رحمته تعالى يتصرفون فيها حسبما يشاءون حتى يصيبوا بها من شاءوا ويصرفوها عمن شاءوا
ويتحكموا فيها بمقتضى آرائهم فيتخيروا للنبوة بعض صناديدهم والمعنى أن النبوة عطية من الله عز وجل
يتفضل بها على من يشاء من عباده المصطفين لا مانع له فإنه العزيز أى الغالب الذى لا يغالب الوهاب
الذى له أن يهب كل مايشاء لكل من يشاء وفى إضافة اسم الرب المنبىء عن التربية والتبليغ إلى الكمال إلى
١٠ ضميره ﷺ من تشريفه واللطف به مالا يخفى وقوله تعالى (أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما)
ترشيح لما سبق أى بل ألهم ملك هذه العوالم العلوية والسفلية حتى يتكلموا فى الأمور الربانية ويتحكموا
فى التدابير الإلهية التى يستأثر بها رب العزة والكبرياء وقوله تعالى (فليرتقوا فى الأسباب) جواب شرط
محذوف أى إن كان لهم ماذكر من الملك فليصعدوا فى المعارج والمناهج التى يتوصل بها إلى العرش حتى
يستووا عليه ويدبروا أمر العالم وينزلوا الوحى إلى من يختارون ويستصوبون وفيه من التهكم بهم مالا
غاية وراءه والسبب فى الأصل هو الوصلة وقيل المراد بالأسباب السموات لأنها أسباب الحوادث
١١ السفلية وقيل أبوابها (جند ماهنالك مهزوم من الأحزاب) أى هم جند مامن الكفار المتحزبين على
الرسل مهزوم مكسور عما قريب فلا تبال بما يقولون ولا تكترث بما يهذون وما مزيدة للتقليل والتحقير

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ ٣٨ ص

وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ ٣٨ ص

إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ ٣٨ ص

نحو قولك أكلت شيئاً ما وقيل للتعظيم على الهزء وهنالك إشارة إلى حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل
ذلك القول العظيم وقوله تعالى (كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد) الخ استئناف مقرر ١٢
لمضمون ماقبله ببيان أحوال العتاة الطغاة الذين هؤلاء جند ما من جنودهم مافعلوا من التكذيب وفعل بهم من
العقاب وذو الأوتاد معناه ذو الملك الثابت أصله من ثبات البيت المطنب بأوتاد فاستعير لثبات الملك ورسوخ
السلطنة واستقامة الأمر قال الأسود بن يعفر [ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة * في ظل ملك ثابت الأوتاد]
أو ذو الجموع الكثيرة سموا بذلك لأن بعضهم يشد بعضاً كالوتد يشد البناء وقيل نصب أربع سوار وكان
يمد يدى المعذب ورجليه إليها ويضرب عليها أوتادا ويتركه حتى يموت وقيل كان يمده بين أربعة أوتاد
في الأرض ويرسل عليه العقارب والحيات وقيل كانت له أوتاد وحبال يلعب بها بين يديه (وثمود وقوم ١٣
لوط وأصحاب الأيكة) أصحاب الغيضة من قوم شعيب عليه السلام وقوله تعالى (أولئك الأحزاب)
إما بدل من الطوائف المذكورة كما أن ذلك الكتاب بدل من الم على أحد الوجوه وفيه فضل تأكيد وتنبيه
على أنهم الذين جعل الجند المهزوم منهم وقوله تعالى (إن كل إلا كذب الرسل) استئناف جىء به تقريراً ١٤
لتكذيبهم وبياناً لكيفيته وتمهيداً لما يعقبه أى ما كل أحد من آحاد أولئك الأحزاب أو ما كل حزب منهم
كذب الرسل لأن تكذيب واحد منهم تكذيب لهم جميعاً لاتفاق الكل على الحق وقيل ما كل حزب إلا كذب
رسوله على نهج مقابلة الجمع بالجمع وأياً ما كان فالاستثناء مفرغ من أعم العلل فى خبر المبتدأ أى ما كل أحد
منهم محكوماً عليه بحكم إلا محكوم عليه بأنه كذب الرسل وقيل ما كل واحد منهم مخبراً عنه بخبر إلا مخبر عنه
بأنه كذب الرسل وفى إسناد التكذيب إلى الطوائف المذكورة على وجه الإبهام أولا والإيذان بأن كلا
منهم حزب على حياله تحزب على رسوله ثانياً وتبيين كيفية تكذيبهم بالجملة الاستثنائية ثالثاً فنون من المبالغة
مسجلة عليهم باستحقاق أشد العذاب وأفظعه ولذلك رتب عليه قوله تعالى (فحق عقاب) أى ثبت ووقع
على كل منهم عقابى الذى كانت توجبه جناياتهم من أصناف العقوبات المفصلة فى مواقعها وإما بالمبتدأ
وقوله تعالى إن كل إلا كذب الرسل خبره بحذف العائد أى إن كل منهم الخ والجملة استئناف مقرر لما قبله
مؤكد لمضمونه مع ما فيه من بيان كيفية تكذيبهم والتنبيه على أنهم الذين جعل الجند المهزوم منهم كما
ذكر وقيل هو مبتدأ وخبر والمعنى أن الأحزاب الذين جعل الجند المهزوم منهم هم هم وأنهم الذين وجد
منهم التكذيب فتدبر وأما ما قيل من أنه خبر والمبتدأ قوله تعالى وعاد الخ أو قوله وقوم لوط الخ فمما يجب
تنزيه ساحة التنزيل عن أمثاله .

وَمَا يَنظُرُ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ ٣٨ ص

وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ٣٨ ص

ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ ٣٨ ص

١٥ (وما ينظر هؤلاء) شروع فى بيان عقاب كفار مكة إثر بيان عقاب أضرابهم من الأحزاب الذين أخبر فيما سبق بأنهم جند حقير منهم مهزوم عن قريب فإن ذلك مما يوجب انتظار السامع وترقبه إلى بيانه قطعاً وفى الإشارة اليهم بهؤلاء تحقير لشأنهم وتهوين لأمرهم وأما جعله إشارة إلى الأحزاب باعتبار حضورهم بحسب الذكر أو حضورهم فى علم الله عز وجل فليس فى حيز الاحتمال أصلا كيف لا والانتظار سواء كان حقيقة أو استهزاء إنما يتصور فى حق من لم يترتب على أعماله نتائجها بعد وبعد ما بين عقاب الأحزاب واستئصالهم بالمرة لم يبق مما أريد بيانه من عقوباتهم أمر منتظر وإنما الذين فى مرصد الانتظار كفار مكة حيث ارتكبوا من عظائم الجرائم وكبائر الجرائر الموجبة لأشد العقوبات مثل ما ارتكب الأحزاب أو أشد منه ولما يلاقوا بعد شيئاً من غوائلها أى وما ينتظر هؤلاء الكفرة الذين هم أمثال أولئك الطوائف المهلكة فى الكفر والتكذيب (إلا صيحة واحدة) هى النفخة الثانية لا بمعنى أن عقابهم نفسها بما فيها من الشدة والهول فإنها داهية يعم هولها جميع الأمم برها وفاجرها بل بمعنى أنه ليس بينهم وبين حلول ما أعدلهم من العقاب الفظيع إلاهى حيث أخرت عقوبتهم إلى الآخرة لما أن تعذبهم بالاستئصال حسبما يستحقونه والنبى ﷺ بين أظهرهم خارج عن السنة الإلهيه المبنية على الحكم الباهرة كما نطق به قوله تعالى وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وأما ما قيل من أنها النفخة الأولى فمما لا وجه له أصلا لما أنه لا يشاهد هو لها ولا يصعق بها إلا من كان حياً عند وقوعها وليس عقابهم الموعود واقعاً عقيبها ولا العذاب المطلق مؤخر إليها بل يحل بهم من حين موتهم (مالها من فواق) أى من توقف مقدار فواق وهو ما بين الحلبتين وقرىء بضم الفاء وهما لغتان وقوله تعالى
١٦ (وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب) حكاية لما قالوه عند سماعهم بتأخير عقابهم إلى الآخرة أى قالوا بطريق الاستهزاء والسخرية عجل لنا قطنا من العذاب الذى توعدنا به ولا تؤخره إلى يوم الحساب الذى مبدؤه الصيحة المذكورة والقط القطة من الشىء من قطه إذا قطعه ويقال لصحيفة الجائزة قط لأنها قطعة من القرطاس وقد فسر بها أى عجل لنا صحيفة أعمالنا لننظر فيها وقيل ذكر رسول الله ﷺ وعد الله تعالى المؤمنين الجنة فقالوا على سبيل الهزء به عجل لنا نصيبنا منها وتصدير دعائهم بالنداء
١٧ المذكور للإمعان فى الاستهزاء كأنهم يدعون ذلك بكمال الرغبة والابتهال (اصبر على ما يقولون) من أمثال هذه المقالات الباطلة (واذكر) لهم (عبدنا داود) أى قصته تهويلا لأمر المعصية فى أعينهم وتنبيهاً لهم على كمال قبح ما اجترءوا عليه من المعاصى فإنه ﷺ مع علو شأنه واختصاصه بعظائم النعم والكرامات لما ألم بصغيرة نزل عن منزلته ووبخته الملائكة بالتمثيل والتعريض حتى تفطن فاستغفر ربه وأناب ووجد منه ما يحكى من بكائه الدائب وغمه الواصب وندمه الدائم فما الظن بهؤلاء الكفرة الأذلين

إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ ٣٨ ص

وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ ٣٨ ص

وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ٣٨ ص

من كل ذليل المرتكبين لأكبر الكبائر المصرين على أعظم المعاصي أو تذكر قصته عليه الصلاة والسلام
وصن نفسك أن تزل فيما كلفت من مصابرتهم وتحمل أذيتهم كيلا يلقاك مالقيه من المعاتبة (ذا الأيد)
أى ذا القوة يقال فلان أيد وذو أيد وآد بمعنى وأيادكل شيء مايتقوى به (إنه أواب) رجاع إلى مرضاة الله
تعالى وهو تعليل لكونه ذا الأيد ودليل على أن المراد به القوة فى الدين فإنه عليه الصلاة والسلام كان
١٨ يصوم يوما ويفطر يوما ويقوم نصف الليل (إنا سخرنا الجبال معه) استئناف مسوق لتعليل قوته فى الدين
وأوابيته إلى مرضاته تعالى ومع متعلقة بالتسخير وإيثارها على اللام لما أشير إليه فى سورة الأنبياء من أن
تسخير الجبال له عليه الصلاة والسلام لم يكن بطريق تفويض التصرف الكلى فيها إليه عليه الصلاة والسلام
كتسخير الريح وغيرها لسليمان عليه السلام بل بطريق التبعية له عليه الصلاة والسلام والاقتداء به فى
عبادة الله تعالى وقيل متعلقة بما بعدها وهو أقرب بالنسبة إلى مافى سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام
(يسبحن) أى يقدسن الله عز وجل بصوت يتمثل له أو بخلق الله تعالى فيها الكلام أو بلسان الحال وقيل
يسرن معه من السباحة وهو حال من الجبال وضع موضع مسبحات للدلالة على تجدد التسبيح حالا بعد
حال واستئناف مبين لكيفية التسخير (بالعشى والإشراق) أى ووقت الإشراق وهو حين تشرق
أى تضىء ويصفو شعاعها وهو وقت الضحى وأماشروقها فطلوعها يقال شرقت الشمس ولما تشرق وعن
أم هانىء رضى الله عنها أنه عليه الصلاة والسلام صلى صلاة الضحى وقال هذه صلاة الإشراق وعن ابن
١٩ عباس رضى الله عنهما ماعرفت صلاة الضحى إلا بهذه الآية (والطير) عطف على الجبال (محشورة)
حال من الطير والعامل سخرنا أى وسخرنا الطير حال كونها محشورة عن ابن عباس رضى الله عنهما كان
إذا سبح جاوبته الجبال بالتسبيح واجتمعت إليه الطير فسبحت وذلك حشرها وقرىء والطير محشورة
بالرفع على الابتداء والخبرية (كل له أواب) استئناف مقرر لمضمون ماقبله مصرح بما فهم منه إجمالا
من تسبيح الطير أى كل واحد من الجبال والطير لأجل تسبيحه رجاع إلى التسبيح ووضع الأواب
موضع المسبح إما لأنها كانت ترجع التسبيح والمرجع رجاع لأنه يرجع إلى فعله رجوعا بعدرجوع وإما
لأن الأواب هو التواب الكثير الرجوع إلى الله تعالى ومن دأبه إكثار الذكر وإدامة التسبيح والتقديس
٢٠ وقيل الضمير لله عز وجل أى كل من داود والجبال والطير لله أواب أى مسبح مرجع للتسبيح (وشددنا
ملكه) قويناه بالهيبة والنصرة وكثرة الجنود وقرىء بالتشديد للمبالغة قيل كان يبيت حول محرابه
أربعون ألف مستلئم وقيل ادعى رجل على آخر بقرة وعجز عن إقامة البينة فأوحى الله تعالى إليه فى
المنام أن اقتل المدعى عليه فتأخر فأعيد الوحى فى اليقظة فأعلمه الرجل فقال إن الله تعالى لم يأخذنى

وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ ٣٨ ص

إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ ٣٨ ص

بهذا الذنب ولكن بأنى قتلت أبا هذا غيلة فقال الناس إن أذنب أحد ذنباً أظهره الله تعالى عليه فقتله فهابوه وعظمت هيبته فى القلوب (وآتيناه الحكمة) النبوة وكمال العلم وإتقان العمل وقيل الزبور وعلم الشرائع وقيل كل كلام وافق الحق فهو حكمة (وفصل الخطاب) أى فصل الخصام بتمييز الحق عن الباطل أو الكلام الملخص الذى ينبه المخاطب على المرام من غير التباس لما قد روعى فيه مظان الفصل والوصل والعطف والاستئناف والإظهار والإضمار والحذف والتكرار وإنما سمى به أما بعد لأنه يفصل المقصود عما سبق تمهيداً له كالحمد والصلاة وقيل هو الخطاب الفصل الذى ليس فيه إيجاز مخل ولا أطناب ممل كما
٢١ جاء فى نعت كلام النبوة فصل لا نزر ولا هذر (وهل أتاك نبأ الخصم) استفهام معناه التعجيب والتشويق إلى استماع ما فى حيزه لإيذانه بأنه من الأنباء البديعة التى حقها أن تشيع فيما بين كل حاضر وباد والخصم فى الأصل مصدر ولذلك يطلق على الواحد وما فوقه كالضيف ومعنى خصمان فريقان (إذ تسوروا المحراب) إذ تصعدوا سوره ونزلوا إليه والسور الحائط المرتفع ونظيره تسنمه إذا علا سنامه وتذراه إذا علا ذروته وإذ متعلقة بمحذوف أى نبأ تحاكم الخصم إذ تسوروا أو بالنبأ على أن المراد به الواقع فى عهد داود عليه السلام وأن إسناده الإتيان إليه على حذف مضاف أى قصة نبأ الخصم أو بالخصم لما فيه
٢٢ من معنى الخصومة لا بأتى لأن إتيانه الرسول ﷺ لم يكن حينئذ وقوله تعالى (إذ دخلوا على داود) بدل مما قبله أو ظرف لتسوروا (ففزع منهم) روى أنه تعالى بعث إليه ملكين فى صورة إنسانين قيل هما جبريل وميكائيل عليهما السلام فطلبا أن يدخلا عليه فوجداه فى يوم عبادته فمنعهما الحرس فتسورا عليه المحراب بمن معهما من الملائكة فلم يشعر إلا وهما بين يديه جالسان ففزع منهم لأنهم نزلوا عليه من فوق على خلاف العادة والحرس حوله فى غير يوم الحكومة والقضاء قال ابن عباس رضى الله عنهما إن داود عليه السلام جزأ زمانه أربعة أجزاء يوما للعبادة ويوما للقضاء ويوما للاشتغال بخاصة نفسه ويوما للوعظ والتذكير (قالوا) استئناف وقع جواباً عن سؤال نشأ من حكاية فزعه عليه الصلاة والسلام كأنه قيل فماذا قالت الملائكة عند مشاهدتهم لفزعه فقيل قالوا إزالة لفزعه (لا تخف خصمان) أى نحن فوجان متخاصمان على تسمية مصاحب الخصم خصما (بغى بعضنا على بعض) هو على الفرض وقصد التعرض فلا كذب فيه (فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط) أى لا تجر فى الحكومة وقرىء ولا تشطط أى لا تبعد عن الحق وقرىء ولا تشاطط وكلها من معنى الشطط وهو مجاوزة الحد وتخطى الحق (واهدنا إلى سواء الصراط) إلى وسط طريق الحق بزجر الباغى عما سلكه من طريق الجور وإرشاده إلى منهاج العدل .

إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ ٣٨ ص
قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ
بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ
رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾
٣٨ ص

٢٣ (إن هذا أخى) استئناف لبيان مافيه الخصومة أى أخى فى الدين أو فى الصحبة والتعرض لذلك تمهيد
لبيان كمال قبح مافعل به صاحبه (له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة) هى الأنثى من الضأن وقد يكنى
بها عن المرأة والكناية والتعريض أبلغ فى المقصود وقرىء تسع وتسعون بفتح التاء ونعجة بكسر النون
وقرىء ولى نعجة بسكون الياء (فقال أكفلنيها) أى ملكنيها وحقيقته اجعلنى أكفلها كما أكفل ماتحت
يدى وقيل اجعلها كفلى أى نصيبى (وعزنى فى الخطاب) أى غلبنى فى مخاطبته إياى محاجة بأن جاء بحجاج
لم أقدر على رده أو فى مغالبته إياى فى الخطبة يقال خطبت المرأة وخطبها هو فخاطبنى خطاباً أى غالبنى
فى الخطبة فغلبنى حيث زوجها دونى وقرىء وعازنى أى غالبنى وعزنى بتخفيف الزاى طالباً للخفة وهو
٢٤ تخفيف غريب كأنه قيس على ظلت ومست (قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه) جواب قسم
محذوف قصد به عليه الصلاة والسلام المبالغة فى إنكار فعل صاحبه وتهجين طمعه فى نعجة من ليس له
غيرها مع أن له قطيعاً منها ولعله عليه الصلاة والسلام قال ذلك بعد اعتراف صاحبه بما ادعاه عليه أو بناه
على تقدير صدق المدعى والسؤال مصدر مضاف إلى مفعوله وتعديته إلى مفعول آخر بإلى لتضمنه معنى
الإضافة والضم (وإن كثيراً من الخلطاء) أى الشركاء الذين خلطوا أموالهم (ليبغى) ليتعدى وقرىء
بفتح الياء على تقدير النون الخفيفة وحذفها وبحذف الياء اكتفاء بالكسرة (بعضهم على بعض) غير مراع
لحق الصحبة والشركة (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) منهم فإنهم يتحامون عن البغى والعدوان
(وقليل ماهم) أى وهم قليل وما مزيدة للإبهام والتعجب من قلتهم والجملة اعتراض (وظن داود أنما فتناه) •
الظن مستعار للعلم الاستدلالى لما بينهما من المشابهة الظاهرة أى علم بما جرى فى مجلس الحكومة وقيل لما
قضى بينهما نظر أحدهما إلى صاحبه فضحك ثم صعدا إلى السماء حيال وجهه فعلم عليه الصلاة والسلام أنه
تعالى ابتلاه وليس المعنى على تخصيص الفتنة به عليه الصلاة والسلام دون غيره بتوجيه القصر المستفاد
من كلمة إنما إلى المفعول بالقياس إلى مفعول آخر كما هو الاستعمال الشائع الوارد على توجيه القصر إلى
متعلقات الفعل وقيوده باعتبار النفى فيه والإثبات فيها كما فى مثل قولك إنما ضربت زيداً وإنما ضربته
تأديباً بل على تخصيص حاله عليه الصلاة والسلام بالفتنة بتوجيه القصر إلى نفس الفعل بالقياس إلى مايغايره
من الأفعال لكن لا باعتبار النفى والإثبات معاً فى خصوصية الفعل فإنه غير ممكن قطعاً بل باعتبار النفى فيما فيه
من معنى مطلق الفعل واعتبار الإثبات فيما يقارنه من المعنى المخصوص فإن كل فعل من الأفعال المخصوصة ينحل

عند التحقيق إلى معنى مطلق هو مدلول لفظ الفعل وإلى معنى مخصوص يقارنه ويقيده وهو أثره فى الحقيقة فإن معنى نصر مثلا فعل النصر يرشدك إلى ذلك قولهم معنى فلان يعطى ويمنع يفعل الإعطاء والمنع فورد القصر فى الحقيقة مايتعلق بالفعل باعتبار النفى فيه والإثبات فيما يتعلق به فالمعنى وعلم داود عليه السلام أنما فعلنا به الفتنة لاغير قيل ابتليناه بامرأة أوريا وقيل امتحناه بتلك الحكومة هل يتنبه بها لما قصد منها وإيثار طريق التمثيل لأنه أبلغ فى التوبيخ فإن التأمل فيه إذا أداه إلى الشعور بما هو الغرض كان أوقع فى نفسه وأعظم تأثيراً فى قلبه وأدعى إلى التنبه للخطأ مع ما فيه من مراعاة حرمته عليه الصلاة والسلام بترك المجاهرة والإشعار بأنه أمر يستحيى من التصريح به وتصويره بصورة التحاكم لإلجائه عليه الصلاة والسلام إلى التصريح بنسبة نفسه إلى الظلم وتنبيهه عليه الصلاة والسلام على أن أوريا بصدد الخصام (فاستغفر ربه) إثر ماعلم أن ماصدر عنه ذنب (وخر راكعاً) أى ساجداً على تسمية السجود ركوعا لأنه مبدؤه أوخر للسجود راكعاً أى مصلياً كأنه أحرم بركعتى الاستغفار (وأناب) أى رجع إلى الله تعالى بالتوبة. وأصل القصة أن داود عليه السلام رأى امرأة رجل يقال له أوريا فمال قلبه إليها فسأله أن يطلقها فاستحيى أن يرده ففعل فتزوجها وهى أم سليمان عليه السلام وكان ذلك جائزاً فى شريعته معتاداً فيما بين أمته غير مخل بالمروءة حيث كان يسأل بعضهم بعضاً أن ينزل له عن امرأته فيتزوجها إذا أعجبته وقد كان الأنصار فى صدر الإسلام يواسون المهاجرين بمثل ذلك من غير نكير خلا أنه عليه الصلاة والسلام لعظم منزلته وارتفاع مرتبته وعلو شأنه نبه بالتمثيل على أنه لم يكن ينبغى له أن يتعاطى مايتعاطاه آحاد أمته ويسأل رجلا ليس له إلا امرأة واحدة أن ينزل عنها فيتزوجها مع كثرة نسائه بل كان يجب عليه أن يغالب هواه ويقهر نفسه ويصبر على ماامتحن به وقيل لم يكن أوريا تزوجها بل كان خطبها ثم خطبها دواد عليه السلام فآثره عليه السلام أهلها فكان ذنبه عليه الصلاة والسلام أن خطب على خطبة أخيه المسلم هذا وأما مايذكر من أنه عليه الصلاة والسلام دخل ذات يوم محرابه وأغلق بابه وجعل يصلى ويقرأ الزبور فبينما هو كذلك إذ جاءه الشيطان فى صورة حمامة من ذهب فمد يده ليأخذها لابن صغير له فطارت فامتد إليها فطارت فوقعت فى كوة فتبعها فأبصر امرأة جميلة قد نقضت شعرها فغطى بدنها وهى امرأة أوريا وهو من غزاة البلقاء فكتب إلى أيوب بن صوريا وهو صاحب بعث البلقاء أن ابعث أوريا وقدمه على التابوت وكان من يتقدم على التابوت لايحل له أن يرجع حتى يفتح الله على يديه أو يستشهد ففتح الله تعالى على يده وسلم فأمر برده مرة أخرى وثالثة حتى قتل وأتاه خبر قتله فلم يحزن كما كان يحزن على الشهداء وتزوج امرأته فإفك مبتدع مكروه ومكر مخترع بئسما مكروه تمجه الأسماع وتنفر عنه الطباع ويل لمن ابتدعه وأشاعه وتباً لمن اخترعه وأذاعه ولذلك قال على رضى الله عنه من حدث بحديث داود عليه السلام على مايرويه القصاص جلدته مائة وستين وذلك حد الفرية على الأنبياء صلوات الله تعالى وسلامه عليهم هذا وقد قيل إن قوماً قصدوا أن يقتلوه عليه الصلاة والسلام فتسوروا المحراب ودخلوا عليه فوجدوا عنده أقواما فتصنعوا بهذا التحاكم فعلم عليه الصلاة والسلام غرضهم فهم بأن ينتقم منهم فظن أن ذلك ابتلاء له من الله عز وجل فاستغفر ربه مما هم به وأناب.

فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ ٣٨ ص

يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ٣٨ ص

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ ٣٨ ص

٢٥ (فغفرنا له ذلك) أى ما استغفر منه وروى أنه عليه الصلاة والسلام بقى ساجداً أربعين يوما وليلة لا يرفع رأسه إلا الصلاة مكتوبة أو لما لا بد منه ولا يرقأ دمعه حتى نبت منه العشب إلى رأسه ولم يشرب ماء إلا ثلثاه دمع وجهد نفسه راغباً إلى الله تعالى فى العفو عنه حتى كاد يهلك واشتغل بذلك عن الملك حتى وثب ابن له يقال له أيشا على ملكه ودعا إلى نفسه فاجتمع إليه أهل الزيغ من بنى إسرائيل فلما غفر له حاربه فهزمه (وإن له عندنا لزلفى) لقرابة وكرامة بعد المغفرة (وحسن مآب) حسن مرجع فى الجنة (ياداود

٢٦ إنا جعلناك خليفة فى الأرض) إما حكاية لما خوطب به عليه الصلاة والسلام مبينة لزلفاه عنده عز وجل وإما مقول قول مقدر هو معطوف على غفرنا أو حال من فاعله أى وقلنا له أو قائلين له ياداود الخ أى استخلفناك على الملك فيها والحكم فيما بين أهلها أو جعلناك خليفة ممن كان قبلك من الأنبياء القائمين بالحق وفيه دليل بين على أن حاله عليه الصلاة والسلام بعد التوبة كما كانت قبلها لم تتغير قط (فاحكم بين الناس بالحق) بحكم الله تعالى فإن الخلافة بكلا معنييه مقتضية له حتما (ولا تتبع الهوى) أى هوى النفس فى الحكومات وغيرها من أمور الدين والدنيا (فيضلك عن سبيل الله) بالنصب على أنه جواب النهى وقيل هو مجزوم بالعطف على النهى مفتوح لالتقاء الساكنين أى فيكون الهوى أو اتباعه سبباً لضلالك عن دلائله التى نصبها على الحق تكوينا وتشريعاً وقوله تعالى (إن الذين يضلون عن سبيل الله) تعليل لما قبله ببيان غائلته وإظهار سبيل الله فى موقع الإضمار لزيادة التقرير والإيذان بكمال شناعة الضلال عنه (لهم عذاب شديد) جملة من خبر ومبتدأ وقعت خبراً لأن أو الظرف خبر لأن وعذاب مرتفع على الفاعلية بما فيه من معنى الاستقرار (بما نسوا) بسبب نسيانهم وقوله تعالى (يوم الحساب) إما مفعول لنسوا فيكون تعليلا صريحاً لثبوت العذاب الشديد لهم بنسيان يوم الحساب بعد الإشعار بعلية ما يستتبعه ويستلزمه أعنى الضلال عن سبيل الله تعالى فإنه مستلزم لنسيان يوم الحساب بالمرة بل هذا فرد من أفراده أو ظرف لقوله تعالى لهم أى لهم عذاب شديد يوم القيامة بسبب نسيانهم الذى هو عبارة عن ضلالهم ومن ضرورته أن يكون مفعوله سبيل الله فيكون التعليل المصرح به حينئذ عين التعليل المشعر به بالذات غيره بالعنوان ومن لم يتنبه لهذا السر السرى قال بسبب نسيانهم وهو ضلالهم عن السبيل فإن تذكره يقتضى ملازمة الحق ومخالفة الهوى فتدبر (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا) كلام مستأنف مقرر لما قبله

٢٧

أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ ٣٨ ص

كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ٣٨ ص

من أمر البعث والحساب والجزاء أى وما خلقناهما وما بينهما من المخلوقات على هذا النظام البديع الذى تحار فى فهمه العقول خلقاً باطلا أى خالياً عن الغاية الجليلة والحكمة الباهرة بل منطوياً على الحق المبين والحكم البالغة حيث خلقنا من بين ماخلقنا نفوساً أودعناها العقل والتميز بين الحق والباطل والنافع والضار ومكناها من التصرفات العلمية والعملية فى استجلاب منافعها واستدفاع مضارها ونصبنا للحق دلائل آفاقية وأنفسية ومنحناها القدرة على الاستشهاد بها ثم لم نقتصر على ذلك المقدار من الألطاف بل أرسلنا إليها رسلا وأنزلنا عليها كتابا بينا فيها كل دقيق وجليل وأزحنا عللها بالكلية وعرضناها بالتكليف للمنافع العظيمة وأعددنا لها عاقبة وجزاء على حسب أعمالها (ذلك) إشارة إلى مانفى من خلق ماذكر باطلا (ظن الذين كفروا) أى مظنونهم فإن جحودهم بأمر البعث والجزاء الذى عليه يدور فلك تكوين العالم قول منهم ببطلان خلق ماذكر وخلوه عن الحكمة سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً (فويل للذين كفروا) مبتدأ وخبر والفاء لإفادة ترتب ثبوت الويل لهم على ظنهم الباطل كما أن وضع الموصول موضع ضميرهم للإشعار بما فى حيز الصلة بعلية كفرهم له ولا تنافى بينهما لأن ظنهم من باب كفرهم ومن فى قوله تعالى (من النار) تعليلية كما فى قوله تعالى فويل لهم مما كتبت أيديهم ونظائره مفيدة لعلية النار لثبوت الويل لهم صريحاً بعد الإشعار بعلية مايؤدى إليها من ظنهم وكفرهم أى فويل لهم

٢٨ بسبب النار المترتبة على ظنهم وكفرهم (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض) أم منقطعة وما فيها من بل للإضراب الانتقالى عن تقرير أمر البعث والحساب والجزاء بما مر من نفى خلق العالم خالياً عن الحكم والمصالح إلى تقريره وتحقيقه بما فى الهمزة من إنكار التسوية بين الفريقين ونفيها على أبلغ وجه وآكده أى بل أنجعل المؤمنين المصلحين كالكفرة المفسدين فى أقطار الأرض كما يقتضيه عدم البعث وما يترتب عليه من الجزاء لاستواء الفريقين فى التمتع بالحياة الدنيا بل الكفرة أوفر حظاً منها من المؤمنين لكن ذلك الجعل محال فتعين البعث والجزاء حتما لرفع الأولين إلى أعلى عليين ورد الآخرين إلى أسفل سافلين وقوله تعالى (أم نجعل المتقين كالفجار) إضراب وانتقال عن إثبات ماذكر بلزوم المحال الذى هو التسوية بين الفريقين المذكورين على الإطلاق إلى إثباته بلزوم ماهو أظهر منه استحالة وهو التسوية بين أتقياء المؤمنين وأشقياء الكفرة وحمل الفجار على فجرة المؤمنين مما لا يساعده المقام ويجوز أن يراد بهذين الفريقين عين الأولين ويكون التكرير باعتبار وصفين آخرين هما أدخل فى إنكار التسوية من الوصفين الأولين وقيل قال كفار قريش للمؤمنين إنا نعطى فى الآخرة من الخير ماتعطون

٢٩ فنزلت (كتاب) خبر مبتدأ محذوف هو عبارة عن القرآن أو السورة وقوله تعالى (أنزلناه إليك) صفته

وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) ٣٨ ص

إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) ٣٨ ص

فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) ٣٨ ص

وقوله تعالى (مبارك) خبر ثان للمبتدأ أوصفة لكتاب عندمن يجوز تأخير الوصف الصريح عن غير الصريح
وقرىء مباركا على أنه حال من مفعول أنزلنا ومعنى المبارك الكثير المنافع الدينية والدنيوية وقوله تعالى
(ليدبروا آياته) متعلق بأنزلناه أى أنزلناه ليتفكروا فى آياته التى من جملتها هذه الآيات المعربة عن أسرار
التكوين والتشريع فيعرفوا مايدبر ظاهرها من المعانى الفائقة والتأويلات اللائقة وقرىء ليتدبروا على
الأصل ولتدبروا على الخطاب أى أنت وعلماء أمتك بحذف إحدى التاءين (وليتذكر أولو الألباب) ٭
أى وليتعظ به ذوو العقول السليمة أو ليستحضروا ماهو كالمركوز فى عقولهم من فرط تمكنهم من معرفته
لما نصب عليه من الدلائل فإن الكتب الإلهية مبينة لما لا يعرف إلا بالشرع ومرشدة إلى مالا سبيل للعقل
٣٠ إليه (ووهبنا لداود سليمان نعم العبد) وقرىء نعم العبد أى سليمان كما ينبىء عنه تأخيره عن داود مع
كونه مفعولا صريحاً لوهبنا ولأن قوله تعالى (إنه أواب) أى رجاع إلى الله تعالى بالتوبة أو إلى التسبيح
٣١ مرجع له تعليل المدح وهو من حاله لما أن الضمير المجرور فى قوله تعالى (إذ عرض عليه) راجع إليه عليه
الصلاة والسلام قطعاً وإذ منصوب باذكر أى اذكر ماصدر عنه إذ عرض عليه (بالعشى) هو من الظهر
إلى آخر النهار (الصافنات) فإنه يشهد بأنه أواب وقيل ظرف لأواب وقيل لنعم وتأخير الصافنات عن
الظرفين لما مر مراراً من التشويق إلى المؤخر والصافن من الخيل الذى يقوم على طرف سنبك يد أو رجل
وهو من الصفات المحمودة فى الخيل لا يكاد يتفق إلا فى العراب الخلص وقيل هو الذى يجمع يديه
ويسويهما وأما الذى يقف على سنبكه فهو المنخيم (الجياد) جمع جواد وجود وهو الذى يسرع فى جريه
وقيل الذى يجود عند الركض وقيل وصفت بالصفون والجودة لبيان جمعها بين الوصفين المحمودين واقفة
وجارية أى إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة فى مواقفها وإذا جرت كانت سراعا خفافا فى جريها وقيل هو
جمع جيد روى أنه عليه الصلاة والسلام غزا أهل دمشق ونصيبين وأصاب ألف فرس وقيل أصابها أبوه من
العمالقة فورثها منه وقيل خرجت من البحر لها أجنحة فقعد يوما بعدما صلى الظهر على كرسيه فاستعرضها
فلم تزل تعرض عليه حتى غربت الشمس وغفل عن العصر أو عن ورد كان له من الذكر وقتئذ وتهيبوه فلم
يعلموه فاغتم لما فاته فاستردها فعقرها تقربا لله تعالى وبقى مائة فما فى أيدى الناس من الجياد فمن نسلها وقيل
٣٢ لما عقرها أبدله الله خيرا منها وهى الريح تجرى بأمره (فقال إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى) قاله عليه
الصلاة والسلام عند غروب الشمس اعترافا بما صدر عنه من الاشتغال بها عن الصلاة وندما عليه
وتمهيداً لما يعقبه من الأمر بردها وعقرها والتعقيب باعتبار أواخر العرض المستمر دون ابتدائه

رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ ٣٨ ص

وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ ٣٨ ص

والتأكيد للدلالة على أن اعترافه وندمه عن صميم القلب لا لتحقيق مضمون الخبر وأصل أحببت أن
يعدى بعلى لأنه بمعنى آثرت لكن لما أنيب مناب أنبت عدى تعديته وحب الخير مفعوله كأنه قيل أنبت
حب الخير عن ذكر ربى ووضعته موضعه وخير المال الكثير والمراد به الخيل التى شغلته عليه الصلاة
والسلام ويحتمل أنه سماها خيراً لتعلق الخير بها قال ﷺ الخير معقود بنواصى الخيل إلى يوم القيامة
وقرىء إنى (حتى توارت بالحجاب) متعلق بقوله أحببت باعتبار استمرار المحبة ودوامها حسب
استمرار العرض أى أنبت حب الخير عن ذكر ربى واستمر ذلك حتى توارت أى غربت الشمس
تشبيهاً لغروبها فى مغربها بتوارى المخبأة بحجابها وإضمارها من غير ذكر لدلالة العشى عليها وقيل الضمير
٣٣ للصافنات أى حتى توارت بحجاب الليل أى بظلامه (ردوها على) من تمام مقالة سليمان عليه السلام
ومرمى غرضه من تقديم ماقدمه ومن لم يتنبه له مع ظهوره توهم أنه متصل بمضمر هو جواب لمضمر
آخر كأن سائلا قال فماذا قال سليمان عليه السلام فقيل قال ردوها فتأمل والفاء فى قوله تعالى (فطفق
مسحاً) فصيحة مفصحة عن جملة قد حذفت ثقة بدلالة الحال عليها وإيذاناً بغاية سرعة الامتثال بالأمر
أى فردوها عليه فأخذ بمسح السيف مسحاً (بالسوق والأعناق) أى بسوقها وأعناقها يقطعها من قولهم
مسح علاوته أى ضرب عنقه وقيل جعل يمسح بيده أعناقها وسوقها حباً لها وإعجاباً بها وليس بذاك
وقرىء بالسؤق على همز الواو لضمتها كما فى أدؤر وقرىء بالسؤوق تنزيلا لضمة السين منزلة ضمة الواو
٣٤ وقرىء بالساق اكتفاء بالواحد عن الجمع لأمن الإلباس (ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً
ثم أناب) أظهر ماقيل فى فتنته عليه الصلاة والسلام ماروى مرفوعا أنه قال لأطوفن الليلة على سبعين
امرأة تأتى كل واحدة بفارس يجاهد فى سبيل الله تعالى ولم يقل إن شاء الله تعالى فطاف عليهن فلم تحمل
إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل والذى نفسى بيده لوقال إن شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرسانا
أجمعون وقيل ولد له ابن فاجتمعت الشياطين على قتله فعلم ذلك فكان يغذوه فى السحاب فما شعر به إلى
أن ألقى على كرسيه ميتاً فتنبه لخطئه حيث لم يتوكل على الله عز وعلا وقيل إنه غزا صيدون من الجزائر
فقتل ملكها وأصاب بنتاً له تسمى جرادة من أحسن الناس فاصطفاها لنفسه وأسلمت حبها وكان لايرقأ
دمعها جزعا على أبيها فأمر الشياطين فمثلوا لها صورته وكانت تغدو إليها وتروح مع ولائدها يسجدون لها
كعادتهن فى ملكه فأخبره آصف بذلك فكسر الصورة وعاقب المرأة ثم خرج وحده إلى فلاة وفرش له
الرماد فجلس عليه تائباً إلى الله تعالى باكياً متضرعا وكانت له أم ولد يقال لها أمينة إذا دخل للطهارة أو
لإصابة امرأة يعطيها خاتمه وكان ملكه فيه فأعطاها يوماً فتمثل لها بصورته شيطان اسمه صخر وأخذ
الخاتم فتختم به وجلس على كرسيه فاجتمع عليه الخلق ونفذ حكمه فى كل شىء إلا فى نسائه وغير سليمان

قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ ٣٨ ص

فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ ٣٨ ص

وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ ٣٨ ص

وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ ٣٨ ص

عن هيئته فأتى أمينة لطلب الخاتم فأنكرته وطردته فعرف أن الخطيئة قد أدركته فكان يدور على البيوت
يتكفف وإذا قال أنا سليمان حثوا عليه التراب وسبوه ثم عمد إلى السماكين ينقل لهم السمك فيعطونه
كل يوم سمكتين فمكث على ذلك أربعين صباحا عدد ما عبد الوثن فى بيته فأنكر آصف وعظماء بنى إسرائيل
حكم الشيطان ثم طار اللعين وقذف الخاتم فى البحر فابتلعته سمكة فوقعت فى يد سليمان فبقر بطنها فإذا
هو بالخاتم فتختم به وخر ساجداً وعاد إليه ملكه وجاب صخرة لصخر لجعله فيها وسد عليه بأخرى ثم
أوثقهما بالحديد والرصاص وقذفه فى البحر وعلى هذا فالجسد عبارة عن صخر سمى به وهو جسم لا روح
فيه لأنه تمثل بما لم يكن كذلك والخطيئة تغافله عليه الصلاة والسلام عن حال أهله لأن اتخاذ التماثيل لم يكن
٣٥ محظوراً حينئذ وسجود الصورة بغير علم منه لا يضره (قال) بدل من أناب وتفسير له (رب اغفر لى) أى
ماصدر عنى من الزلة (وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى) لا يتسهل له ولا يكون ليكون معجزة
لى مناسبة لحالى فإنه عليه الصلاة والسلام لما نشأ فى بيت الملك والنبوة وورثهما معاً استدعى من ربه
معجزة جامعة لحكمهما أولا ينبغى لأحد أن يسلبه منى بعد هذه السلبة أولا يصح لأحد من بعدى
لعظمته كقولك لفلان ماليس لأحد من الفضل والمال على إرادة وصف الملك بالعظمة لا أن لا يعطى
أحد مثله فيكون منافسة وقيل كان ملكا عظيما فخاف أن يعطى مثله أحد فلا يحافظ على حدود الله تعالى
وتقديم الاستغفار على الاستيهاب لمزيد اهتمامه بأمر الدين جرياً على سنن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام
والصالحين وكون ذلك أدخل فى الإجابة وقرىء لى بفتح الياء (إنك أنت الوهاب) تعليل للدعاء بالمغفرة
٣٦ والهبة معاً لا بالأخيرة فقط فإن المغفرة أيضاً من أحكام وصف الوهابية قطعاً (فسخرنا له الريح) أى
أى فذللناها لطاعته إجابة لدعوته فعاد أمره عليه الصلاة والسلام إلى ما كان عليه قبل الفتنة وقرىء
الرياح (تجرى بأمره) بيان لتسخيرها له (رخاء) أى لينة من الرخاوة طيبة لا تزعزع وقيل طيعة لا تمتنع
عليه كالمأمور المنقاد (حيث أصاب) أى حيث قصد وأراد حكى الأصمعى عن العرب أصاب الصواب
٣٧-٣٨ فأخطأ الجواب (والشياطين) عطف على الريح (كل بناء وغواص) بدل من الشياطين (وآخرين
مقرنين فى الأصفاد) عطف على كل بناء داخل فى حكم البدل كأنه عليه الصلاة والسلام فصل الشياطين
إلى عملة استعملهم فى الأعمال الشاقة من البناء والغوص ونحو ذلك وإلى مردة قرن بعضهم مع بعض فى
السلاسل لكفهم عن الشر والفساد ولعل أجسامهم شفافة فلا ترى صلبة فيمكن تقييدها ويقدرون على

هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ ٣٨ ص

وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ ٣٨ ص

وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٣٨ ص

الأعمال الصعبة وقد جوز أن يكون الإقران فى الأصفاد عبارة عن كفهم عن الشرور بطريق التمثيل والصفد القيد وسمى به العطاء لأنه يرتبط بالمنعم عليه وفرقوا بين فعليهما فقالوا صفده قيده وأصفده
٣٩ أعطاه على عكس وعد وأوعده وقوله تعالى (هذا) الخ إما حكاية لما خوطب به سليمان عليه السلام مبينة لعظم شأن ما أوتى من الملك وأنه مفوض إليه تفويضاً كلياً وإما مقول مقدر هو معطوف على سخرنا أو حال من فاعله كما مر فى خاتمة قصة داود عليه السلام أى وقلنا له أو قائلين له هـذا الأمر الذى أعطيناكه من الملك العظيم والبسطة والتسلط على مالم يسلط عليه غيرك (عطاؤنا) الخاص بك (فامنن أو أمسك) فأعط من شئت وامنع من شئت (بغير حساب) حال من المستكن فى الأمر أى غير محاسب على شىء منه وإمساكه لتفويض التصرف فيه إليك على الإطلاق أو من العطاء أى هذا عطاؤنا ملتبساً بغير حساب لغاية كثرته أو صلة له وما بينهما اعتراض على التقديرين وقيل الإشارة إلى تسخير الشياطين
٤٠ والمراد بالمن والإمساك الإطلاق والتقييد (وإن له عندنا لزلفى) فى الآخرة مع ماله من الملك العظيم فى الدنيا (وحسن مآب) هو الجنة قيل فتن سليمان عليه السلام بعد ماملك عشرين سنة وملك بعد الفتنة عشرين سنة وذكر الفقيه أبو حنيفة أحمد بن داود الدينورى فى تاريخه أن سليمان عليه السلام ورث ملك أبيه فى عصر كيخسرو بن سياوش وسار من الشام إلى العراق فبلغ خبره كيخسرو فهرب إلى خراسان فلم يلبث حتى هلك ثم سار سليمان عليه السلام إلى مرو ثم إلى بلاد الترك فوغل فيها ثم جاز بلاد الصين ثم عطف إلى أن وافى بلاد فارس فنزلها أياماً ثم عاد إلى الشام ثم أمر ببناء بيت المقدس فلما فرغ منه سار إلى تهامة ثم إلى صنعاء وكان من حديثه مع صاحبتها ما ذكر الله تعالى وغزا بلاد المغرب الأندلس
٤١ وطنجة وغيرهما والله تعالى أعلم (واذكر عبدنا أيوب) عطف على اذكر عبدنا داود وعدم تصدير قصة سليمان بهذا العنوان لكمال الاتصال بينه وبين داود عليهما السلام وأيوب هو ابن عيص بن إسحاق عليه السلام (إذ نادى ربه) بدل اشتمال من عبدنا وأيوب عطف بيان له (أنى) بأنى (مسنى الشيطان) بفتح ياء مسنى وقرىء بإسكانها وإسقاطها (بنصب) أى تعب وقرىء بفتح النون وبفتحتين وبضمتين للتثقيل (وعذاب) أى ألم ووصب يريد مرضه وما كان يقاسيه من فنون الشدائد وهو المراد بالضر فى قوله أنى مسنى الضر وهو حكاية لكلامه الذى ناداه به بعبارته وإلا لقيل إنه مسه الخ والإسناد إلى الشيطان إما لأنه تعالى مسه بذلك لما فعل بوسوسته كما قيل إنه أعجب بكثرة ماله أو استغاثه مظلوم فلم يغثه أو كانت مواشيه فى ناحية ملك كافر فداهنه ولم يغزه أو لامتحان صبره فيكون اعترافاً بالذنب أو

ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ ٣٨ ص

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ ٣٨ ص

وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ٣٨ ص

مراعاة للأدب أو لأنه وسوس إلى أتباعه حتى رفضوه وأخرجوه من ديارهم أو لأن المراد بالنصب
ماكان يوسوس به إليه فى مرضه من تعظيم مانزل به من البلاء والقنوط من الرحمة ويغريه على الكراهة
والجزع فالتجأ إلى الله تعالى فى أن يكفيه ذلك بكشف البلاء أو بالتوفيق لدفعه ورده بالصبر الجميل وليس
هذا تمام دعائه عليه الصلاة والسلام بل من جملته قوله وأنت أرحم الراحمين فاكتفى ههنا عن ذكره بمافى
٤٢ سورة الأنبياء كما ترك هناك ذكر الشيطان ثقة بما ذكر ههنا وقوله تعالى (اركض برجلك) الخ إما حكاية
لما قيل له أو مقول لقول مقدر معطوف على نادى أى فقلنا له اركض برجلك أى اضرب بها الأرض
وكذا قوله تعالى (هذا مغتسل بارد وشراب) فإنه أيضاً إما حكاية لما قيل له بعد امتثاله بالأمر ونبوع
الماء أو مقول لقول مقدر معطوف على مقدر ينساق إليه الكلام كأنه قيل فضربها فنبعت عين فقلنا له
هذا مغتسل تغتسل به وتشرب منه فيبرأ ظاهرك وباطنك وقيل نبعت عينان حارة للاغتسال وباردة
٤٣ للشرب ويأباه ظاهر النظم الكريم وقوله تعالى (ووهبنا له أهله) معطوف على مقدر مترتب على مقدر
آخر يقتضيه القول المقدر آنفاً كأنه قيل فاغتسل وشرب فكشفنا بذلك مابه من ضركما فى سورة الأنبياء
ووهبنا له أهله إما بإحيائهم بعد هلاكهم وهو المروى عن الحسن أو بجمعهم بعد تفرقهم كما قيل (ومثلهم
معهم) عطف على أهله فكان له من الأولاد ضعف ماكان له قبل (رحمة منا) أى لرحمة عظيمة عليه من
قبلنا (وذكرى لأولى الألباب) ولتذكيرهم بذلك ليصبروا على الشدائد كما صبر ويلجأوا إلى الله عز
٤٤ وجل فيما يحيق بهم كما لجأ ليفعل بهم مافعل به من حسن العاقبة (وخذ بيدك ضغثاً) معطوف على اركض
أو على وهبنا بتقدير قلنا أى وقلنا خذ بيدك الخ والأول أقرب لفظاً وهذا أنسب معنى فإن الحاجة إلى
هذا الأمر لا تمس إلا بعد الصحة فإن امرأته رحمة بنت إفرايم بن يوسف وقيل ليا بنت يعقوب وقيل
ماصر بنت ميشا بن يوسف عليه السلام ذهبت لحاجة فأبطأت فحلف إن برىء ليضربنها مائة ضربة فأمره
الله تعالى بأخذ الضغث والضغث الحزمة الصغيرة من الحشيش ونحوه وعن ابن عباس رضى الله عنهما
قبضة من الشجر وقال (فاضرب به) أى بذلك الضغث (ولا تحنث) فى يمينك فإن البر يتحقق به ولقد
شرع الله سبحانه هذه الرخصة رحمة عليه وعليها لحسن خدمتها إياه ورضاه عنها وهى باقية ويجب أن يصيب
المضروب كل واحد من المائة إما بأطرافها قائمة أو بأعراضها مبسوطة على هيئة الضرب (إنا وجدناه صابراً)
فيما أصابه فى النفس والأهل والمال وليس فى شكواه إلى الله تعالى إخلال بذلك فإنه لا يسمى جزعاً
كتمنى العافية وطلب الشفاء على أنه قال ذلك خيفة الفتنة فى الدين حيث كان الشيطان يوسوس إلى قومه

وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ ٣٨ ص

إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ ٣٨ ص

وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ ٣٨ ص

وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ ٣٨ ص

بأنه لو كان نبياً لما ابتلى بمثل ما ابتلى به وإرادة القوة على الطاعة فقد بلغ أمره إلى أن لم يبق منه إلا القلب
واللسان ويروى أنه عليه الصلاة والسلام قال فى مناجاته إلهى قد علمت أنه لم يخالف لسانى قلبى ولم يتبع
قلبى بصرى ولم يهبنى ماملكت يمينى ولم آكل إلا ومعى يتيم ولم أبت شبعان ولا كاسيا ومعى جائع
أو عريان فكشف الله تعالى عنه (نعم العبد) أى أيوب (إنه أواب) تعليل لمدحه أى رجاع إلى الله
٤٥ تعالى (واذكر عبدنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب) عطف بيان لعبادنا وقرىء عبدنا إما على أن إبراهيم
وحده لمزيد شرفه عطف بيان وقيل بدل وقيل نصب بإضمار أعنى والباقيان عطف على عبدنا وإما على
أن عبدنا اسم جنس وضع موضع الجمع (أولى الأيدى والأبصار) أولى القوة فى الطاعة والبصيرة فى
الدين أو أولى الأعمال الجليلة والعلوم الشريفة فعبر بالأيدى عن الأعمال لأن أكثرها تباشر بها
وبالأبصار عن المعارف لأنها أقوى مباديها وفيه تعريض بالجهلة البطالين أنهم كالزمنى والعماة وتوبيخ
على تركهم المجاهدة والتأمل مع تمكنهم منهما وقرىء أولى الأيد بطرح الياء والاكتفاء بالكسر وقرىء
٤٦ أولى الأيادى على جمع الجمع (إنا أخلصناهم بخالصة) تعليل لما وصفوا به من شرف العبودية وعلو
الرتبة فى العلم والعمل أى جعلناهم خالصين لنا بخصلة خالصة عظيمة الشأن كما ينبىء عنه التنكير التفخيمى
وقوله تعالى (ذكرى الدار) بيان للخالصة بعد إبهامها للتفخيم أى تذكر الدار الآخرة دائماً فإن خلوصهم
فى الطاعة بسبب تذكرهم لها وذلك لأن مطمح أنظارهم ومطرح أفكارهم فى كل ما يأتون وما يذرون
جوار الله عز وجل والفوز بلقائه ولا يتسنى ذلك إلا فى الآخرة وقيل أخلصناهم بتوفيقهم لها واللطف بهم
فى اختيارها ويعضد الأول قراءة من قرأ بخالصتهم وإطلاق الدار للإشعار بأنها الدار فى الحقيقة وإنما الدنيا
معبر وقرىء بإضافة خالصة إلى ذكرى أى بما خلص من ذكرى الدار على معنى أنهم لا يشوبون ذكراها بهم
آخر أصلا أو تذكيرهم الآخرة وترغيبهم فيها وتزهيدهم فى الدنيا كما هو شأن الأنبياء عليهم الصلاة
٤٧ والسلام وقيل ذكرى الدار الثناء الجميل فى الدنيا ولسان الصدق الذى ليس لغيرهم (وإنهم عندنا لمن
المصطفين الأخيار) لمن المختارين من أمثالهم المصطفين عليهم فى الخير والأخيار جمع خير كشر وأشرار
٤٨ وقيل جمع خير أو خير مخفف منه كأموات فى جمع ميت وميت (واذكر إسمعيل) فصل ذكره عن ذكر
أبيه وأخيه للإشعار بعراقته فى الصبر الذى هو المقصود بالتذكير (واليسع) هو ابن خطوب بن العجوز
استخلفه إلياس على بنى إسرائيل ثم استنبىء واللام فيه حرف تعريف دخل على يسع كما فى قول من

هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ ٣٨ ص

جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾ ٣٨ ص

مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ٣٨ ص

وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ ٣٨ ص

هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ ٣٨ ص

قال [رأيت الوليد بن اليزيد مباركا] وقرىء واليسع كأن أصله ليسع فيعل من اللسع دخل علية حرف
التعريف وقيل هو على القراءتين علم أعجمى دخل عليه اللام وقيل هو يوشع (وذا الكفل) هو ابن عم
يسع أو بشر بن أيوب واختلف فى نبوته ولقبه فقيل فر إليه مائة نبى من بنى إسرائيل من القتل فآواهم
وكفلهم وقيل كفل بعمل رجل صالح كان يصلى كل يوم مائة صلاة (وكل) أى وكلهم (من الأخيار)
المشهور بن بالخيرية (هذا) إشارة إلى ماتقدم من الآيات الناطقة بمحاسنهم (ذكر) أى شرف لهم وذكر
٤٩ جميل يذكرون به أبداً أونوع من الذكر الذى هو القرآن وباب منه مشتمل على أنباء الأنبياء عليهم السلام
وعن ابن عباس رضى الله عنهما هذا ذكر من مضى من الأنبياء وقوله تعالى (وإن للمتقين لحسن مآب)
شروع فى بيان أجرهم الجزيل فى الآجل بعد بيان ذكرهم الجميل فى العاجل وهو باب آخر من أبواب
التنزيل والمراد بالمتقين إما الجنس وهم داخلون فى الحكم دخولا أولياً وإما نفس المذكورين عبر عنهم
بذلك مدحا لهم بالتقوى التى هى الغاية القاصية من الكمال (جنات عدن) عطف بيان لحسن مآب عند
٥٠ من يجوز تخالفهما تعريفاً وتنكيراً فإن عدناً معرفة لقوله تعالى جنات عدن التى وعد الرحمن عباده أو بدل
منه أو نصب على المدح وقوله تعالى (مفتحة لهم الأبواب) حال من جنات عدن والعامل فيها مافى للمتقين
* من معنى الفعل والأبواب مرتفعة باسم المفعول والرابط بين الحال وصاحبها إما ضمير مقدر كما هو رأى
البصريين أى الأبواب منها أو الألف واللام القائمة مقامه كما هو رأى الكوفيين إذ الأصل أبوابها
وقرئتا مرفوعتين على الابتداء والخبر أو على أنهما خبران لمحذوف أى هى جنات عدن هى مفتحة
(متكئين فيها) حال من ضمير لهم والعامل فيها مفتحة وقوله تعالى (يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب)
٥١ استئناف لبيان حالهم فيها وقيل هو أيضاً حال مما ذكر أو من ضمير متكئين والاقتصار على دعاء الفاكهة
للإيذان بأن مطاعمهم لمحض التفكه والتلذذ دون التغذى فإنه لتحصيل بدل المتحلل ولا تحلل ثمة (وعندهم
٥٢ قاصرات الطرف) أى على أزواجهن لاينظرن إلى غيرهم (أتراب) لدات لهم فإن التحاب بين الأقران
أرسخ أو بعضهن لبعض لاعجوز فيهن ولا صبية واشتقاقه من التراب فإنه يمسهم فى وقت واحد (هذا
٥٣ ماتوعدون ليوم الحساب) أى لأجله فإن الحساب علة الوصول إلى الجزاء وقرىء بالياء ليوافق ماقبله

إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ ٣٨ ص

هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ ٣٨ ص

جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ ٣٨ ص

هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ ٣٨ ص

وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ ٣٨ ص

هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ ٣٨ ص

---

٥٤ والالتفات أليق بمقام الامتنان والتكريم (إن هذا) أي ماذكر من ألوان النعم والكرامات (لرزقنا)
٥٥ أعطيناكموه (ماله من نفاد) انقطاع أبداً (هذا) أي الأمر هذا أو هذا كما ذكر أو هذا ذكر وقوله
٥٦ تعالى (وإن للطاغين لشر مآب) شروع في بيان أضداد الفريق السابق (جهنم) إعرابه كما سلف (يصلونها)
أي يدخلونها حال من جهنم (فبئس المهاد) وهو المهد والمفرش مستعار من فراش النائم والمخصوص
٥٧ بالذم محذوف وهو جهنم لقوله تعالى لهم من جهنم مهاد (هذا فليذوقوه) أي ليذوقوا هذا فليذوقوه كقوله
تعالى وإياي فارهبون أو العذاب هذا فليذوقوه أو هذا مبتدأ خبره (حميم وغساق) ومابينهما اعتراض
وهو على الأولين خبر مبتدأ محذوف أي هو حميم والغساق مايغسق من صديد أهل النار من غسقت
العين إذا سال دمعها وقيل الحميم يحرق بحره والغساق يحرق ببرده وقيل لو قطرت منه قطرة في المشرق
لنتنت أهل المغرب ولو قطرت قطرة في المغرب لنتنت أهل المشرق وقيل الغساق عذاب لا يعلمه إلا الله
٥٨ تعالى وقرىء بتخفيف السين (وآخر من شكله) أي ومذوق آخر أو عذاب آخر من مثل هذا المذوق
أو العذاب في الشدة والفظاعة وقرىء وأخر أي ومذوقات أخر أو أنواع عذاب أخر وتوحيد ضمير
شكله بتأويل ماذكر أو الشراب الشامل للحميم والغساق أو هو راجع إلى الغساق (أزواج) أي أجناس
وهو خبر لآخر لأنه يجوز أن يكون ضروباً أو صفة له أو للثلاثة أو مرتفع بالجار والخبر محذوف مثل
٥٩ لهم (هذا فوج مقتحم معكم) حكاية مايقال من جهة الخزنة لرؤساء الطاغين إذا دخلوا النار واقتحمها
معهم فوج كانوا يتبعونهم في الكفر والضلالة والاقتحام الدخول في الشيء بشدة قال الراغب الاقتحام
توسط شدة مخيفة وقوله تعالى (لا مرحباً بهم) من إتمام كلام الخزنة بطريق الدعاء على الفوج أو صفة
للفوج أو حال منه أي مقول أو مقولا في حقهم لا مرحباً بهم أي لا أتوا مرحباً أو لا رحبت بهم الدار
مرحباً (إنهم صالوا النار) تعليل من جهة الخزنة لاستحقاقهم الدعاء عليهم أو وصفهم بما ذكر وقيل لا مرحباً
بهم إلى هنا كلام الرؤساء في حق أتباعهم عند خطاب الخزنة لهم باقتحام الفوج معهم تضجراً من مقارنتهم

قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ ٣٨ ص

قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَـٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ ٣٨ ص

وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ ٣٨ ص

أَتَّخَذْنَـٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٦٣﴾ ٣٨ ص

٦٠ وتنفروا من مصاحبتهم وقيل كل ذلك كلام الرؤساء بعضهم مع بعض فى حق الأتباع (قالوا) أى الأتباع عند سماعهم ماقيل فى حقهم ووجه خطابهم الرؤساء فى قولهم (بل أنتم لا مرحباً بكم) الخ على الوجهين الأخيرين ظاهر وأما على الوجه الأول فلعلهم إنما خاطبوهم مع أن الظاهر أن يقولوا بطريق الاعتذار إلى الخزنة بل هم لا مرحباً بهم الخ قصداً منهم إلى إظهار صدقهم بالمخاطبة مع الرؤساء والتحاكم إلى الخزنة طمعاً فى قضائهم بتخفيف عذابهم أو تضعيف عذاب خصمائهم أى بل أنتم أحق بما قيل لنا أو قلتم وقوله تعالى (أنتم قدمتموه لنا) تعليل لأحقيتهم بذلك أى أنتم قدمتم العذاب أو الصلى لنا وأوقعتمونا فيه بتقديم مايؤدى إليه من العقائد الزائغة والأعمال السيئة وتزيينها فى أعيننا وإغرائنا عليها لا أنا باشرناها من تلقاء
٦١ أنفسنا (فبئس القرار) أى فبئس المقر جهنم قصدوا بذمها تغليظ جناية الرؤساء عليهم (وقالوا) أى الأتباع أيضاً وتوسيطه بين كلاميهم لما بينهما من التباين البين ذاتاً وخطاباً أى قالوا معرضين عن خصومتهم متضرعين إلى الله تعالى (ربنا من قدم لنا هـذا فزده عذاباً ضعفاً فى النار) كقولهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار أى عذاباً مضاعفاً أى ذا ضعف وذلك بأن يزيد عليه مثله
٦٢ ويكون ضعفين كقوله ربنا آتهم ضعفين من العذاب أو قيل المراد بالضعف الحيات والأفاعى (وقالوا) أى الطاغون (مالنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار) يعنون فقراء المسلمين الذين كانوا يسترذلونهم
٦٣ ويسخرون منهم (أتخذناهم سخرياً) بهمزة استفهام سقطت لأجلها همزة الوصل والجملة استئناف لا محل لها من الإعراب قالوه إنكاراً على أنفسهم وتأنيباً لها فى الاستسخار منهم (أم زاغت عنهم الأبصار) متصل باتخذناهم على أن أم متصلة والمعنى أى الأمرين فعلنا بهم الاستسخار منهم أم الازدراء بهم وتحقيرهم وإن أبصارنا كانت تزيغ عنهم وتقتحمهم على معنى إنكار كل واحد من الفعلين على أنفسهم توبيخاً لها أو على أنها منقطعة والمعنى أتخذناهم سخرياً بل أزاغت عنهم أبصارنا كقولك أزيد عندك أم عندك عمرو على معنى توبيخ أنفسهم على الاستسخار ثم الإضراب والانتقال منه إلى التوبيخ على الازدراء والتحقير وقرىء اتخذناهم بغير همزة على أنه صفة أخرى لرجالا فقوله تعالى أم زاغت متصل بقوله مالنا لا نرى والمعنى مالنا لا نراهم فى النار أليسوا فيها فلذلك لا نراهم أم زاغت عنهم أبصارنا وهم فيها وقد جوز أن تكون الهمزة مقدرة على هذه القراءة وقرىء سخرياً بضم السين .

إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾ ٣٨ ص

قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ ٣٨ ص

رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ ٣٨ ص

قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ ٣٨ ص

أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ ٣٨ ص

مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ ٣٨ ص

---

٦٤ (إن ذلك) أى الذى حكى من أحوالهم (لحق) لا بد من وقوعه البتة وقوله تعالى (تخاصم أهل النار) خبر مبتدأ محذوف والجملة بيان لذلك وفى الإبهام أولا والتبيين ثانياً مزيد تقرير له وقيل بدل من محل ذلك وقيل بدل من حق أو عطف بيان له وقرىء بالنصب على أنه بدل من ذلك وما قيل من أنه صفة له فقد قيل عليه إن اسم الإشارة لا يوصف إلا بالمعرف باللام يقال بهذا الرجل ولا يقال بهذا غلام الرجل
٦٥ (قل) أمر لرسول الله ﷺ أن يقول للمشركين (إنما أنا منذر) من جهته تعالى أنذركم عذابه (وما من إله) فى الوجود (إلا الله الواحد) الذى لا يقبل الشركة والكثرة أصلا (القهار) لكل شىء سواه
٦٦ (رب السموات والأرض وما بينهما) من المخلوقات فكيف يتوهم أن يكون له شريك منها (العزيز) الذى لا يغلب فى أمر من أموره (الغفار) المبالغ فى المغفرة يغفر مايشاء لمن يشاء وفى هذه النعوت من تقرير التوحيد والوعد للموحدين والوعيد للمشركين مالا يخفى وتثنية مايشعر بالوعيد من وصفى القهر
٦٧ والعزة وتقديمهما على وصف المغفرة لتوفية مقام الإنذار حقه (قل) تكرير الأمر للإيذان بأن المقول أمر جليل له شأن خطير لابد من الاعتناء به أمراً وائتماراً (هو) أى ما أنبأتكم به من أنى منذر من جهته تعالى وأنه تعالى واحد لاشريك له وأنه متصف بما ذكر من الصفات الجليلة والأظهر أنه القرآن وما ذكر داخل فيه دخولا أولياً كما يشهد به آخر السورة الكريمة وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة
٦٨ (نبأ عظيم) وارد من جهته تعالى وقوله تعالى (أنتم عنه معرضون) استئناف ناع عليهم سوء صنيعهم به ببيان أنهم لا يقدرون قدره الجليل حيث يعرضون عنه مع عظمته وكونه موجباً للإقبال الكلى
٦٩ عليه وتلقيه بحسن القبول وقيل صفة أخرى لنبأ وقوله تعالى (ما كان لى من علم بالملأ الأعلى) الخ استئناف مسوق لتحقيق أنه نبأ عظيم وارد من جهته تعالى بذكر نبأ من أنبائه على التفصيل من غير سابقة معرفة به ولا مباشرة سبب من أسبابها المعتادة فإن ذلك حجة بينة دالة على أن ذلك بطريق الوحى من عند الله تعالى وأن سائر أنبائه أيضاً كذلك والملأ الأعلى هم الملائكة وآدم عليهم السلام وإبليس عليه اللعنة وقوله تعالى (إذ يختصمون) متعلق بمحذوف يقتضيه المقام إذ المراد نفى علمه عليه الصلاة والسلام بحالهم

إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ ٣٨ ص

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ ٣٨ ص

لا بذواتهم والتقدير ماكان لى فيما سبق علم مابوجه من الوجوه بحال الملأ الأعلى وقت اختصامهم وتقدير الـكلام كما اختاره الجمهور تحجير للواسع فإن علمه عليه الصلاة والسلام غير مقصور على ماجرى بينهم من الأقوال فقط بل عام لها وللأفعال أيضاً من سجود الملائكة واستكبار إبليس وكفره حسبما ينطق
٧٠ به الوحى فلابد من اعتبار العموم فى نفيه أيضاً لا محالة وقوله تعالى (إن يوحى إلى إلا أنما أنا نذير مبين) اعتراض وسط بين إجمال اختصامهم وتفصيله تقريراً لثبوت علمه عليه الصلاة والسلام وتعيينا لسببه إلا أن بيان انتفائه فيما سبق لما كان منبئاً عن ثبوته الآن ومن البين عدم ملابسته عليه الصلاة والسلام بشىء من مباديه المعهودة تعين أنه ليس إلا بطريق الوحى حتما فجعل ذلك أمراً مسلم الثبوت غنياً عن الإخبار به قصداً وجعل مصب الفائدة والمقصود إخبار ماهو داع إلى الوحى ومصحح له تحقيقاً لقوله تعالى إنما أنا منذر فى ضمن تحقيق علمه عليه الصلاة والسلام بقصة الملأ الأعلى فالقائم مقام الفاعل ليوحى إما ضمير عائد إلى الحال المقدر أو ما يعمه وغيره فالمعنى ما يوحى إلى حال الملأ الأعلى أو ما يوحى إلى ما يوحى من الأمور الغيبية التى من جملتها حالهم إلا لأنما أنا نذير مبين من جهته تعالى فإن كونه عليه الصلاة والسلام كذلك من دواعى الوحى إليه ومن موجباته حتما وأما أن القائم مقام الفاعل هو الجار والمجرور أو هو إنما أنا نذير مبين بلا تقدير الجار وأن المعنى مايوحى إلى إلا للإنذار أو ما يوحى إلى إلا أن أنذر وأبلغ ولا أفرط فى ذلك كما قيل فمع ما فيه من الاضطرار إلى التكلف فى توجيه قصر الوحى على كونه للإنذار فى الأول وقصره على الإنذار فى الثانى فلا يساعده سباق النظم الكريم وسياقه كيف لا والاعتراض حينئذ يكون أجنبياً مما توسط بينهما من إجمال الاختصام وتفصيله
٧١ فتأمل والله المرشد وقرىء إنما بالكسر على الحكاية وقوله تعالى (إذ قال ربك للملائكة) شروع فى تفصيل ما أجمل من الاختصام الذى هو ماجرى بينهم من التقاول وحيث كان تكليمه تعالى إياهم بواسطة الملك صح إسناد الاختصام إلى الملائكة وإذ بدل من إذ الأولى وليس من ضرورة البدلية دخولها على نفس الاختصام بل يكفى اشتمال ما فى حيزها عليه فإن القصة ناطقة بذلك تفصيلا والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام لتشريفه والإيذان بأن وحى هذا النبأ إليه تربية وتأييد له عليه الصلاة والسلام والكاف وارد باعتبار حال الآمر لكونه أدل على كونه وحياً منزلا من عنده تعالى كما فى قوله تعالى قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم الخ دون حال المأمور وإلا لقيل ربى لأنه داخل
• فى حيز الأمر (إنى خالق) أى فيما سيأتى وفيه ماليس فى صيغة المضارع من الدلالة على أنه تعالى فاعل
• له البتة من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه (بشراً) قيل أى جسما كثيفاً يلاقى ويباشر وقيل خلقاً بادى البشرة بلا صوف ولا شعر ولعل ماجرى عند وقوع المحكى ليس هذا الاسم الذى لم يخلق مسماه حينئذ فضلا عن تسميته به بل عبارة كاشفة عن حاله وإنما عبر عنه بهذا الاسم عند الحكاية (من طين) لم يتعرض

فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ ٣٨ ص
فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ ٣٨ ص
إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ٣٨ ص
قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ ٣٨ ص

٧٢ لأوصافه من التغير والاسوداد والمسنونية اكتفاء بما ذكر فى مواقع أخر (فإذا سويته) أى صورته بالصورة الإنسانية والخلقة البشرية أو سويت أجزاء بدنه بتعديل طبائعه (ونفخت فيه من روحى) النفخ إجراء الريح إلى تجويف جسم صالح لإمساكها والامتلاء بها وليس ثمة نفخ ولا منفوخ وإنما هو تمثيل لإفاضة مابه الحياة بالفعل على المادة القابلة لها أى فإذا كملت استعداده وأفضت عليه مايحيا به من الروح التى هى من أمرى (فقعوا له) أمر من وقع وفيه دليل على أن المأمور به ليس مجرد الانحناء كما
٧٣ قيل أى اسقطوا له (ساجدين) تحية له وتكريماً (فسجد الملائكة) أى فخلقه فسواه فنفخ فيه الروح فسجد له الملائكة (كلهم) بحيث لم يبق منهم أحد إلا سجد (أجمعون) أى بطريق المعية بحيث لم يتأخر فى ذلك أحد منهم عن أحد ولا اختصاص لإفادة هذا المعنى بالحالية بل يفيد التأكيد أيضاً وقيل أكد بتأكيدين مبالغة فى التعميم هذا وأما أن سجودهم هذا هل ترتب على ماحكى من الأمر التعليقى كما تقتضيه هذه الآية الكريمة والتى فى سورة الحجر فإن ظاهرهما يستدعى ترتبه عليه من غير أن يتوسط بينهما شىء غير مايفصح عنه الفاء الفصيحة من الخلق والتسوية ونفخ الروح أو على الأمر التنجيزى كما يقتضيه مافى سورة البقرة وما فى سورة الأعراف وما فى سورة بنى إسرائيل وما فى سورة الكهف ومافى سورة طه من الآيات الكريمة فقد مر تحقيقه بتوفيق الله عز وجل فى سورة البقرة وسورة الأعراف
٧٤ (إلا إبليس) استثناء متصل لما أنه كان جنياً مفرداً مغموراً بألوف من الملائكة موصوفاً بصفاتهم فغلبوا عليه ثم استثنى استثناء واحد منهم أو لأن الملائكة جنساً يتوالدون وهو منهم أو منقطع وقوله تعالى (استكبر) على الأول استئناف مبين لكيفية ترك السجود المفهوم من الاستثناء فإن تركه يحتمل أن يكون للتأمل والتروى وبه يتحقق أنه للإباء والاستكبار وعلى الثانى يجوز اتصاله بما قبله أى لكن إبليس استكبر (وكان من الكافرين) أى وصار منهم بمخالفته الأمر واستكباره عن الطاعة أو كان منهم
٧٥ فى علم الله تعالى عز وجل (قال يا إبليس مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى) أى خلقته بالذات من غير توسط أب وأم والتثنية لإبراز كمال الاعتناء بخلقه عليه الصلاة والسلام المستدعى لإجلاله وإعظامه قصداً إلى تأكيد الإنكار وتشديد التوبيخ (أستكبرت) بهمزة الإنكار وطرح همزة الوصل أى أتكبرت من غير استحقاق (أم كنت من العالين) المستحقين للتفوق وقيل أستكبرت الآن أم لم تزل منذ كنت من المستكبرين وقرىء بحذف همزة الاستفهام ثقة بدلالة أم عليها .

قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ ٣٨ ص

قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ ٣٨ ص

وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ ٣٨ ص

قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ ٣٨ ص

قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ ٣٨ ص

---

٧٦ وقوله تعالى (قال أنا خير منه) ادعاء منه لشيء مستلزم لمنعه من السجود على زعمه وإشعار بأنه لا يليق أن يسجد
الفاضل للمفضول كما يعرب عنه قوله لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون وقوله تعالى
(خلقتني من نار وخلقته من طين) تعليل لما ادعاه من فضله عليه عليه الصلاة والسلام ولقد أخطأ اللعين حيث
خص الفضل بما من جهة المادة والعنصر وزل عنه ما من جهة الفاعل كما أنبأ عنه قوله تعالى لما خلقت بيدى
وما من جهة الصورة كما نبه عليه قوله تعالى ونفخت فيه من روحي وما من جهة الغاية وهو ملاك الأمر
ولذلك أمر الملائكة بسجوده عليهم السلام حين ظهر لهم أنه أعلم منهم بما يدور عليه أمر الخلافة فى الأرض
٧٧ وأن له خواص ليست لغيره (قال فاخرج منها) الفاء لترتيب الأمر على ما ظهر من اللعين من المخالفة للأمر
الجليل وتعليلها بالأباطيل أى فاخرج من الجنة أو من زمرة الملائكة وهو المراد بالأمر بالهبوط لا
الهبوط من السماء كما قيل فإن وسوسته لآدم عليه السلام بعد هذا الطرد وقد بين كيفية وسوسته فى سورة
البقرة وقيل اخرج من الخلقة التى كنت فيها وانسلخ منها فإنه كان يفتخر بخلقته فغير الله خلقته فاسود
بعد ما كان أبيض وقبح بعد ما كان حسنا وأظلم بعد ما كان نورانيا وقوله تعالى (فإنك رجيم) تعليل
الأمر بالخروج أى مطرود من كل خير وكرامة فإن من يطرد يرجم بالحجارة أو شيطان يرجم بالشهب
٧٨ (وأن عليك لعنتي) أى إبعادى عن الرحمة وتقييدها بالإضافة مع إطلاقها فى قوله تعالى وأن عليك
اللعنة لما أن لعنة اللاعنين من الملائكة والثقلين أيضاً من جهته تعالى وأنهم يدعون عليه بلعنة الله تعالى
وإبعاده من الرحمة (إلى يوم الدين) أى يوم الجزاء والعقوبة وفيه إيذان بأن اللعنة مع كمال فظاعتها
ليست جزاء لجنايته بل هى أنموذج لما سيلقاه مستمراً إلى ذلك اليوم لكن لا على أنها تنقطع يومئذ كما يوهمه
ظاهر التوقيت بل على أنه سيلقى يومئذ من ألوان العذاب وأفانين العقاب ما ينسى عنده اللعنة وتصير
كالزائل ألا يرى إلى قوله تعالى فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين وقوله تعالى ويلعن بعضهم بعضاً
٧٩ (قال رب فأنظرني) أى أمهلني وأخرني والفاء متعلقة بمحذوف ينسحب عليه الكلام أى إذا جعلتني
رجيما فأمهلني ولا تمتني (إلى يوم يبعثون) أى آدم وذريته للجزاء بعد فنائهم وأراد بذلك أن يجد
٨٠ فسحة لإغوائهم ويأخذ منهم ثأره وينجو من الموت بالكلية إذ لا موت بعد يوم البعث (قال فإنك
من المنظرين) وورود الجواب بالجملة الاسمية مع التعرض لشمول ما سأله لآخرين على وجه يشعر

إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ ٣٨ ص

قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ٣٨ ص

إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ٣٨ ص

قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ ٣٨ ص

لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ ٣٨ ص

بكون السائل تبعاً لهم فى ذلك دليل واضح على أنه إخبار بالإنظار المقدر لهم أزلا لا إنشاء لإنظار
خاص به قد وقع إجابة لدعائه وأن استنظاره كان طلباً لتأخير الموت إذ به يتحقق كونه منهم لا
لتأخير العقوبة كما قيل فإن ذلك معلوم من إضافة اليوم إلى الدين أى إنك من جملة الذين أخرت آجالهم
٨١ أزلا حسبما تقتضيه حكمة التكوين (إلى يوم الوقت المعلوم) الذى قدره الله وعينه لفناء الخلائق وهو
وقت النفخة الأولى لا إلى وقت البعث الذى هو المسئول فالفاء ليست لربط نفس الإنظار بالاستنظار
بل لربط الإخبار المذكور به كما فى قول من قال [فإن ترحم فأنت لذاك أهل] فإنه لا إمكان لجعل الفاء
فيه لربط ماله تعالى من الأهلية القديمة للرحمة بوقوع الرحمة الحادثة بل هى لربط الإخبار بتلك الأهلية
للرحمة بوقوعها هذا وقد ترك التوقيت فى سورة الأعراف كما ترك النداء والفاء فى الاستنظار والإنظار
تعويلا على ماذكر ههنا وفى سورة الحجر وإن خطر ببالك أن كل وجه من وجوه النظم الكريم لا بد
أن يكون له مقام يقتضيه مغاير لمقام غيره وأن ما حكى من اللعين إنما صدر عنه مرة وكذا جوابه لم يقع إلا
دفعة فمقام الاستنظار والإنظار إن اقتضى أحد الوجوه المحكية فذلك الوجه هو المطابق لمقتضى الحال
والبالغ إلى رتبة البلاغة ودرجة الإعجاز وأما ما عداه من الوجوه فهو بمعزل من بلوغ طبقة البلاغة فضلا
٨٢ عن العروج إلى معارج الإعجاز فقد سلف تحقيقه فى سورة الأعراف بفضل الله تعالى وتوفيقه (قال
فبعزتك) الباء للقسم والفاء لترتيب مضمون الجملة على الإنظار ولا ينافيه قوله تعالى فبما أغويتنى وقوله
رب بما أغويتنى فإن إغواءه تعالى إياه أثر من آثار قدرته تعالى وعزته وحكم من أحكام قهره وسلطنته
فمآل الإقسام بهما واحد ولعل اللعين أقسم بهما جميعاً فحكى تارة قسمه بأحدهما وأخرى بالآخر أى
٨٣ فأقسم بعزتك (لأغوينهم أجمعين) أى ذرية آدم بتزيين المعاصى لهم (إلا عبادك منهم المخلصين) وهم
الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته وعصمهم من الغواية وقرىء المخلصين على صيغة الفاعل أى الذين أخلصوا
٨٤ قلوبهم وأعمالهم لله تعالى (قال) أى الله عز وجل (فالحق والحق أقول) برفع الأول على أنه مبتدأ
محذوف الخبر أو خبر محذوف المبتدأ ونصب الثانى على أنه مفعول لما بعده قدم عليه للقصر أى لا أقول
٨٥ إلا الحق والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها أى فالحق قسمى (لأملأن جهنم) على أن الحق إما اسمه تعالى

قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ ٣٨ ص

إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ ٣٨ ص

وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾ ٣٨ ص

أو نقيض الباطل عظمه الله تعالى بإقسامه به أو فأنا الحق أو فقولي الحق وقوله تعالى لأملأن جهنم الخ حينئذ جواب لقسم محذوف أى والله لأملأن الخ وقوله تعالى والحق أقول على كل تقدير اعتراض مقرر على الوجهين الأولين لمضمون الجملة القسمية وعلى الوجه الثالث لمضمون الجملة المتقدمة أعنى فقولي الحق وقرئا منصوبين على أن الأول مقسم به كقولك الله لأفعلن وجوابه لأملأن وما بينهما اعتراض وقرئا مجرورين على أن الأول مقسم به قد أضمر حرف قسمه كقولك الله لأفعلن والحق أقول على حكاية لفظ المقسم به على تقدير كونه نقيض الباطل ومعناه التأكيد والتشديد وقرىء بجر الأول على إضمار حرف القسم ونصب الثانى على المفعولية (منك) أى من جنسك من الشياطين (وممن تبعك) فى الغواية والإضلال (منهم) من ذرية آدم (أجمعين) تأكيد للكاف وما عطف عليه أى لأملأنها من المتبوعين والأتباع أجمعين كقوله تعالى لمن اتبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين وهذا القول هو المراد بقوله تعالى ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين وحيث كان مناط الحكم ههنا أتباع الشيطان اتضح أن مدار عدم المشيئة فى قوله تعالى ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها اتباع الكفرة للشيطان بسوء اختيارهم لا تحقق القول فليس فى ذلك شائبة الجبر فتدبر (قل ما أسألكم عليه) على القرآن أو على تبليغ ما يوحى

٨٦ إلى (من أجر) دنيوى (وما أنا من المتكلفين) أى المتصنعين بما ليسوا من أهله حتى أنتحل النبوة وأتقول القرآن (إن هو) أى ما هو (إلا ذكر) من الله عز وجل (للعالمين) أى للثقلين كافة (ولتعلمن نبأه) أى

٨٧،٨٨ ما أنبأ به من الوعد والوعيد وغيرهما أو صحة خبره وأنه الحق والصدق (بعد حين) بعد الموت أو يوم القيامة أو عند ظهور الإسلام وفشوه وقيل من بقى علم ذلك إذا ظهر أمره وعلا ومن مات علمه بعد الموت وفيه من التهديد ما لا يخفى * عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة ص كان له بوزن كل جبل سخره الله لداود عشر حسنات وعصم أن يصر على ذنب صغير أو كبير وقال أبو أمامة عصمه الله تعالى من كل ذنب صغير أو كبير والله أعلم .

سورة ص

ترتيبها ٣٨ — آياتها ٨٨

مكية كما روي عن ابن عباس وغيره، وقيل مدنية وليس بصحيح كما قال الداني؛ وهي ثمان وثمانون آية في الكوفي وست وثمانون في الحجازي والبصري والشامي وخمس وثمانون في عد أيوب بن المتوكل وحده، قيل ولم يقل أحد إن ﴿ص﴾ وحدها آية كما قيل في غيرها من الحروف في أوائل السور، وفيه بحث؛ وهي كالمتممة لما قبلها من حيث إنه ذكر فيها ما لم يذكر في تلك من الأنبياء عليهم السلام كداود وسليمان، ولما ذكر سبحانه فيما قبل عن الكفار أنهم قالوا ﴿لو أن عندنا ذكراً من الأولين لكنا عباد الله المخلصين﴾ [الصافات: ١٦٩] وأنهم كفروا بالذكر لما جاءهم بدأ عز وجل في هذه السورة بالقرآن ذي الذكر وفصل ما أجمل هناك من كفرهم وفي ذلك من المناسبة ما فيه، ومن دقق النظر لاح له مناسبات أخر والله تعالى الموفق.

بسم الله الرحمن الرحيم

صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ
مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا
لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى
ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ
﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى
ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ
﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾
وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ٱصْبِرْ
عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ص﴾ بالسكون على الوقف عند الجمهور، وقرأ أبي والحسن وابن أبي إسحاق وأبو السمال وابن أبي عبلة ونصر بن عاصم «صادِ» بكسر الدال؛ والظاهر أنه كسر لالتقاء الساكنين وهو حرف من حروف المعجم نحو ﴿ق﴾ و ﴿ن﴾.

وأخرج ابن جرير عن الحسن أنه أمر من صادى أي عارض، ومنه الصدى وهو ما يعارض الصوت الأول ويقابله بمثله في الأماكن الخالية والأجسام الصلبة العالية، والمعنى عارض القرآن بعملك أي اعمل بأوامره ونواهيه، وقال عبد الوهاب: أي اعرضه على عملك فانظر أين عملك من القرآن، وقيل هو أمر من صادى أي حادث، والمعنى حادث القرآن، وهو رواية عن الحسن أيضاً وله قرب من الأول. وقرأ عيسى ومحبوب عن أبي عمرو وفرقة «صادَ» بفتح الدال، وكذا قرؤوا قاف ونون بالفتح فيهما فقيل هو لالتقاء الساكنين أيضاً طلباً للخفة، وقيل هو حركة إعراب على أن «صاد» منصوب بفعل مضمر أي اذكر أو اقرأ صاد أو بفعل القسم بعد نزع الخافض لما فيه من معنى التعظيم المتعدي بنفسه نحو الله لأفعلن أو مجرور بإضمار حرف القسم، وهو ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث بناء على أنه علم السورة، وقد ذكر الشريف أنه إذا اشتهر مسمى بإطلاق لفظ عليه يلاحظ المسمى في ضمن ذلك اللفظ وأنه بهذا الاعتبار يصح اعتبار التأنيث في الاسم. وقرأ ابن أبي إسحاق في رواية «صادٍ» بالجر والتنوين، وذلك إما لأن الثلاثي الساكن الوسط يجوز صرفه بل قيل إنه الأرجح، وإما لاعتبار ذلك اسماً للقرآن كما هو أحد الاحتمالات فيه فلم يتحقق فيه العلتان فوجب صرفه، والقول بأن ذاك لكونه علماً لمعنى السورة لا للفظها فلا تأنيث فيه مع العلمية ليكون هناك علتان لا يخلو عن دغدغة. وقرأ ابن السميفع وهارون الأعور والحسن في رواية «صادُ» بضم الدال، وكأنه اعتبر اسماً للسورة وجعل خبر مبتدأ محذوف أي هذه صاد، ولهم في معناه غير متقيدين بقراءة الجمهور اختلاف كاضرابه من أوائل السور، فأخرج عبد بن حميد عن أبي صالح قال: سئل جابر بن عبد الله وابن عباس عن «ص» فقالا: ما ندري ما هو، وهو مذهب كثير في نظائره، وقال عكرمة: سئل نافع بن الأزرق عبد الله بن عباس عن «ص» فقال: ص كان بحراً بمكة وكان عليه عرش الرحمن إذ لا ليل ولا نهار.

وقال ابن جبير: هو بحر يحيي الله تعالى به الموتى بين النفختين، والله تعالى أعلم بصحة هذين الخبرين.

وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال ﴿ص﴾ صدق الله، وأخرج ابن مردويه عنه أنه قال ﴿ص﴾ يقول إني أنا الله الصادق، وقال محمد بن كعب القرظي: هو مفتاح أسماء الله تعالى صمد وصانع المصنوعات وصادق الوعد.

وقيل هو إشارة إلى صدود الكفار عن القرآن. وقيل حرف مسرود على منهاج التحدي، وجنح إليه غير واحد من أرباب التحقيق، وقيل اسم للسورة وإليه ذهب الخليل وسيبويه والأكثرون، وقيل اسم للقرآن وقيل غير ذلك باعتبار بعض القراءات كما سمعت عن قريب، ومن الغريب أن المعنى صاد محمد ﷺ قلوب الخلق واستمالها حتى آمنوا به، ولعل القائل به اعتبره فعلاً ماضياً مفتوح الآخر أو ساكنه للموقف، وأنا لا أقول به ولا أرتضيه وجهاً، وهو على بعض هذه الأوجه لا حظَّ له من الإعراب، وعلى بعضها يجوز أن يكون مقسماً به ومفعولاً لمضمر وخبر مبتدأ محذوف، وعلى بعضها يتعين كونه مقسماً به، وعلى بعض ما تقدم في القراءات يتأتى ما يتأتى مما لا يخفى عليك، وبالجملة إن لم يعتبر مقسماً به فالواو في قوله سبحانه ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ للقسم وإن اعتبر مقسماً به فهي للعطف عليه لكن إذا كان قسماً منصوباً على الحذف والإيصال يكون العطف عليه باعتبار المعنى والأصل، ثم المغايرة بينهما قد تكون حقيقية كما إذا أريد بالقرآن كله وبـ ﴿ص﴾ السورة أو بالعكس أو أريد بـ ﴿ص﴾ البحر الذي قيل به فيما مر وبالقرآن كله أو بالسورة، وقد تكون اعتبارية كما إذا أريد بكل السورة أو القرآن على ما قيل، ولا يخفى ما تقتضيه الجزالة الخالية عن التكلف.

وضعف جعل الواو للقسم أيضاً بناء على قول جمع أن توارد قسمين على مقسم عليه واحد ضعيف، والذكر كما أخرج ابن جرير عن ابن عباس الشرف ومنه قوله تعالى ﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾ [الزخرف: ٤٤] أو الذكرى

والموعظة للناس على ما روي عن قتادة والضحاك، أو ذكر ما يحتاج إليه في أمر الدين من الشرائع والأحكام وغيرها من أقاصيص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأخبار الأمم الدارجة والوعد والوعيد على ما قيل، وجواب القسم قيل مذكور فقال الكوفيون والزجاج هو قوله تعالى ﴿إن ذلك لحق تخاصم أهل النار﴾ [ص: ٦٤] وتعقبه الفراء بقوله: لا نجده مستقيماً لتأخر ذلك جداً عن القسم، وقال الأخفش: ﴿هو أن كل إلا كذب الرسل﴾ [ص: ١٤] وقال قوم: ﴿كم أهلكنا من قبلهم من قرن﴾ [الأنعام: ٦، ص: ٣] وحذفت اللام أي لكم لما طال الكلام كما حذفت من ﴿قد أفلح﴾ [الشمس: ٩] بعد قوله تعالى: ﴿والشمس﴾ [الشمس: ١٠] حكاه الفراء وثعلب، وتعقبه الطبرسي بأنه غلط لأن اللام لا تدخل على المفعول و ﴿كم﴾ مفعول.

وقال أبو حيان: إن هذه الأقوال يجب اطراحها، ونقل السمرقندي عن بعضهم أنه ﴿**بل الذين كفروا**﴾ الخ فإن ﴿**بل**﴾ لنفي ما قبله وإثبات ما بعده فمعناه ليس الذين كفروا إلا في عزة وشقاق.

وجوز أن يريد هذا القائل أن ﴿**بل**﴾ زائدة في الجواب أو ربط بها الجواب لتجريدها لمعنى الإثبات، وقيل هو صاد إذ معناه صدق الله تعالى أو صدق محمد ﷺ ونسب ذلك إلى الفراء وثعلب، وهو مبني على جواز تقدم جواب القسم واعتقاد أن ﴿**ص**﴾ تدل على ما ذكر، ومع هذا في كون ص نفسه هو الجواب خفاء، وقيل هو جملة هذه صاد على معنى السورة التي أعجزت العرب فكأنه: قيل هذه السورة التي أعجزت العرب والقرآن ذي الذكر وهذا كما تقول: هذا حاتم والله تريد هذا هو المشهور بالسخاء والله، وهو مبني على جواز التقدم أيضاً، وقيل هو محذوف فقدره الحوفي لقد جاءكم الحق ونحوه، وابن عطية ما الأمر كما تزعمون ونحوه، وقدره بعض المحققين ما كفر من كفر لخلل وجده ودل عليه بقوله تعالى ﴿**بل الذين**﴾ الخ، وآخر إنه لمعجز ودل عليه ما في ﴿**ص**﴾ من الدلالة على التحدي بناء على أنه اسم حرف من حروف المعجم ذكر على سبيل التحدي والتنبيه على الإعجاز أو ما في أقسم بص أو هذه ص من الدلالة على ذلك بناء على أنه اسم للسورة أو أنه لواجب العمل به دل عليه ﴿**ص**﴾ بناء على كونه أمراً من المصاداة، وقدره بعضهم غير ذلك، وفي البحر ينبغي أن يقدر هنا ما أثبت جواباً للقسم بالقرآن في قوله تعالى: ﴿يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين﴾ [يس: ١، ٣].

ويقوي هذا التقدير ذكر النذارة هنا في قوله تعالى ﴿**وعجبوا أن جاءهم منذر منهم**﴾ وهناك في قوله سبحانه: ﴿لتنذر قوماً﴾ [يس: ٦] فالرسالة تتضمن النذارة والبشارة، وجعل بل في قوله تعالى: ﴿**بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ**﴾ للانتقال من هذا القسم والمقسم عليه إلى ذكر حال تعزز الكفار ومشاقتهم في قبولهم رسالته ﷺ وامتثال ما جاء به وهي كذلك على كثير من الوجوه السابقة، وقد تجعل على بعضها للإضراب عن الجواب بأن يقال مثلاً: إنه لمعجز بل الذين كفروا في استكبار من الأذعان لإعجازه أو هذه السورة التي أعجزت العرب بل الذين كفروا لا يذعنون، وجعلها بعضهم للإضراب عما يفهم مما ذكر ونحوه من أن من كفر لم يكفر لخلل فيه فكأنه قيل: من كفر لم يكفر لخلل فيه بل كفر تكبراً عن اتباع الحق وعناداً، وهو أظهر من جعل ذلك اضراباً عن صريحه، وإن قدر نحو هذا المفهوم جواباً فالإضراب عنه قطعاً، وفي الكشف عد هذا الإضراب من قبيل الإضراب المعنوي على نحو زيد عفيف عالم بل قومه استخفوا به على الإضراب عما يلزم الأوصاف من التعظيم كما نقل عن بعضهم عدول عن الظاهر، ويمكن أن يكون الجواب الذي عنه الإضراب ما أنت بمقصر في تذكير الذين كفروا وإظهار الحق لهم، ويشعر به الآيات بعد وسبب النزول الآتي ذكره إن شاء الله تعالى فكأنه قيل ص والقرآن ذي الذكر ما أنت بمقصر في تذكير الذين كفروا وإظهار الحق لهم بل الذين كفروا مقصرون في اتباعك والاعتراف بالحق، ووجه دلالة ما في النظم

الجليل على قولنا بل الذين كفروا مقصرون الخ ظاهر، وهذه عدة احتمالات بين يديك وإليك أمر الاختيار والسلام عليك.

والمراد بالعزة ما يظهرونه من الاستكبار عن الحق لا العزة الحقيقية فإنها لله تعالى ولرسوله ﷺ وللمؤمنين، وأصل الشقاق المخالفة وكونك في شق غير شق صاحبك أو من شق العصا بينك وبينه، والمراد مخالفة الله تعالى ورسوله ﷺ، والتنكير للدلالة على شدتهما، والتعبير بفي على استغراقهم فيهما.

وقرأ حماد بن الزبرقان وسورة عن الكسائي وميمونة عن أبي جعفر والجحدري من طريق العقيلي في «غرة» بالغين المعجمة المكسورة والراء المهملة أي في غفلة عظيمة عما يجب عليهم من النظر فيه، ونقل عن ابن الأنباري أنه قال في كتاب الرد على من خالف الإمام: إنه قرأ بها رجل وقال: إنها أنسب بالشقاق وهو القتال بجد واجتهاد وهذه القراءة افتراء على الله تعالى اهـ وفيه ما فيه.

﴿**كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ**﴾ وعيد لهم على كفرهم واستكبارهم ببيان ما أصاب أضرابهم، و ﴿**كم**﴾ مفعول ﴿**أهلكنا**﴾ و ﴿**من قرن**﴾ تمييز، والمعنى قرناً كثيراً أهلكنا من القرون الخالية ﴿**فَنَادَوْا**﴾ عند نزول بأسنا وحلول نقمتنا استغاثة لينجوا من ذلك، وقال الحسن وقتادة: رفعوا أصواتهم بالتوبة حين عاينوا العذاب لينجوا منه ﴿**وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ**﴾ حال من ضمير ﴿**نادوا**﴾ والعائد مقدر وإن لم يلزم أي مناصهم ولات هي لا المشبهة بليس عند سيبويه زيدت عليها تاء التأنيث لتأكيد معناها وهو النفي لأن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى أو لأن التاء تكون للمبالغة كما في علامة أو لتأكيد شبهها بليس بجعلها على ثلاثة أحرف ساكنة الوسط، وقال الرضي: إنها لتأنيث الكلمة فتكون لتأكيد التأنيث واختصت بلزوم الأحيان ولا يتعين لفظ الحين إلا عند بعض وهو محجوج بسماع دخولها على مرادفه، وقول المتنبي:

لقد تصبرت حتى لات مصطبر ... والآن أقحم حتى لات مقتحم

وإن لم يهمنا أمره مخرج على ذلك بجعل المصطبر والمقتحم اسمي زمان أو القول بأنها داخلة فيه على لفظ حين مقدر بعدها؛ والتزموا حذف أحد الجزأين والغالب حذف المرفوع كما هنا على قراءة الجمهور أي ليس الحين حين مناص، ومذهب الأخفش أنها لا النافية للجنس العاملة عمل إن زيدت عليها التاء فحين مناص اسمها والخبر محذوف أي لهم، وقيل إنها لا النافية للفعل زيدت عليها التاء ولا عمل لها أصلاً فإن وليها مرفوع فمبتدأ حذف خبره أو منصوب كما هنا فبعدها فعل مقدر عامل فيه أي ولا ترى حين مناص، وقرأ أبو السمال «ولاتُ حينَ» بضم التاء ورفع النون فعلى ذهب سيبويه ﴿**حين**﴾ اسم ﴿**لات**﴾ والخبر محذوف أي ليس حين مناص حاصلاً لهم، وعلى القول الأخير مبتدأ خبره محذوف وكذا على مذهب الأخفش فإن من مذهبه كما في البحر أنه إذا ارتفع ما بعدها فعلى الابتداء أي فلا حين مناص كائن لهم. وقرأ عيسى بن عمر «ولاتِ حينِ» بكسر التاء مع النون كما في قول المنذر بن حرملة الطائي النصراني:

طلبوا صلحنا ولات أوان ... فأجبنا أن لات حين بقاء

وخرج ذلك إما على أن لات تجر الأحيان كما أن لولا تجر الضمائر كلولاك ولولاه عند سيبويه، وإما على إضمار من كأنه قيل: لات من حين مناص ولات من أوان صلح كما جروا بها مضمرة في قولهم على كم جذع بيتك أي من جذع في أصح القولين، وقولهم: ألا رجل جزاه الله خيراً. يريدون ألا من رجل، ويكون موضع من حين مناص رفعاً على أنه اسم لات بمعنى ليس كما تقول ليس من رجل قائماً، والخبر محذوف على قول سيبويه وعلى أنه مبتدأ

والخبر محذوف على قول غيره، وخرج الأخفش ولات أو أن على إضمار حين أي ولات حين أوان صلح فحذفت حين وأبقى أوان على جره، وقيل: إن أوان في البيت مبني على الكسر وهو مشبه بإذ في قول أبي ذؤيب:

نهيتك عن طلابك أم عمرو ... بعاقبة وأنت إذ صحيح

ووجه التشبيه أنه زمان قطع عنه المضاف إليه لأن الوصل أوان صلح وعوض التنوين فكسر لالتقاء الساكنين لكونه مبنياً مثله فهما شبهان في أنهما مبنيان مع وجود تنوين في آخرهما للعوض يوجب تحريك الآخر بالكسر وإن كان سبب البناء في أوان دون إذ شبه الغايات حيث جعل زماناً قطع عنه المضاف إليه وهو مراد وليس تنوين العوض مانعاً عن الإلحاق بها فإنها تبنى إذا لم يكن تنوين لأن علته الاحتياج إلى المحذوف كاحتياج الحرف إلى ما يتم به، وهذا المعنى قائم نوّن أو لم ينون فإن التنوين عوض لفظي لا معنوي فلا تنافي بين التعويض والبناء لكن اتفق أنهم لم يعوضوا التنوين إلا في حال إعرابها وكأن ذلك لئلا يتمحض للتعويض بل يكون فيها معنى التمكن أيضاً فلا منافاة، وثبت البناء فيما نحن فيه بدليل الكسر وكانت العلة التي في الغايات قائمة فأحيل البناء عليها، واتفق أنهم عوضوا التنوين هاهنا تشبيهاً بإذ في أنها لما قطعت عن الاضافة نونت أو توفية لحق اللفظ لما فات حق المعنى، وخرجت القراءة على حمل ﴿**مناص**﴾ على أوان في البيت تنزيلاً لما أضيف إليه الظرف وهو ﴿**حين**﴾ منزلة الظرف لأن المضاف والمضاف إليه كشيء واحد فقدرت ظرفيته وهو قد كان مضافاً إذا أصله مناصهم فقطع وصار كأنه ظرف مبني مقطوع عن الإضافة منون لقطعه ثم بني ما أضيف إليه وهو ﴿**حين**﴾ على الكسر لإضافته إلى ما هو مبني فرضاً وتقديراً وهو ﴿**مناص**﴾ المشابه لأوان. وأورد عليه أن ما ذكر من الحمل لم يؤثر في المحمول نفسه فكيف يؤثر فيما يضاف إليه على أن في تخريج الجر في البيت على ذلك ما فيه، والعجب كل العجب ممن يرتضيه، وضم التاء على قراءة أبي السمال وكسرها على قراءة عيسى للبناء، وروي عن عيسى «ولاتُ حينُ» بالضم «مناصَ» بالفتح، قال صاحب اللوامح: فإن صح ذلك فلعله بنى «حين» على الضم تشبيهاً بالغايات وبني ﴿**مناص**﴾ على الفتح مع ﴿**لات**﴾ وفي الكلام تقديم وتأخير أي ولات مناص حين لكن لا إنما تعمل في النكرات المتصلة بها دون المنفصلة عنها ولو بظرف، وقد يجوز أن يكون لذلك معنى لا أعرفه انتهى، وأهون من هذا فيما أرى كون ﴿**حين**﴾ معرباً مضافاً إلى ﴿**مناص**﴾ والفتح لمجاورة واو العطف في قوله تعالى ﴿**وعجبوا**﴾ نظير فتح الراء من غير في قوله:

لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت ... حمامة في غصون ذات إرقال

على قول والأغلب على الظن عدم صحة هذه القراءة. وقرأ عيسى أيضاً كقراءة الجمهور إلا أنه كسر تاء ﴿**لات**﴾ وعلم من هذه القراءات أن في تائها ثلاث لغات، واختلفوا في أمر الوقف عليها فقال سيبويه، والفراء وابن كيسان والزجاج: يوقف عليها بالتاء، وقال الكسائي والمبرد بالهاء، وقال أبو علي: ينبغي أن لا يكون خلاف في أن الوقف بالتاء لأن قلب التاء هاء مخصوص بالأسماء؛ وزعم قوم أن التاء ليست ملحقة بلا وإنما هي مزيدة في أول ما بعدها واختاره أبو عبيدة، وذكر أنه رأى في الإمام «ولا تحين مناص» برسم التاء مخلوطاً بأول حين، ولا يرد عليه أن خط المصحف خارج عن القياس الخطي إذ لم يقع في الإمام في محل آخر مرسوماً على خلاف ذلك حتى يقال ما هنا مخالف للقياس والأصل اعتباره إلا فيما خصه الدليل، ومن هنا قال السخاوي في شرح الرائية أنا أستحب الوقف على لا بعد ما شاهدته في مصحف عثمان رضي الله تعالى عنه، وقد سمعناهم يقولون: اذهب تلان وتحين بدون لا وهو كثير في النثر والنظم انتهى، ومنه قوله:

العاطفون تحين لا من عاطف ... والمطعمون زمان ما من مطعم

وكون أصله العاطفونه بها السكت فلما أثبتت في الدرج قلبت تاء مما لا يصغى إليه، نعم الأولى اعتبار التاء مع لا لشهرة حين دون تحين، وقال بعضهم: إن لات هي ليس بعينها وأصل ليس ليس بكسر الياء فابدلت ألفاً لتحركها بعد فتحة وأبدلت السين تاء كما في ست فإن أصله سدس، وقيل: إنها فعل ماض ولات بمعنى نقص وقل فاستعملت في النفي كقل وليس بالمعول عليه، والمناص المنجا والفوت يقال: ناصه ينوصه إذا فاته، وقال الفراء: النوص التأخر ناص عن قرنه ينوص نوصاً ومناصاً أي فر وزاغ، ويقال استناص طلب المناص قال حارثة بن بدر يصف فرساً له:

غمر الجراء إذا قصرت عنانه ... بيدي استناص ورام جري المسحل

وعلى المعنى الأول حمله بعضهم هنا وقال: المعنى نادوا واستغاثوا طلباً للنجاة والحال أن ليس الحين حين فوات ونجاة؛ وعن مجاهد تفسيره بالفرار، وأخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له: أخبرني عن قوله تعالى ﴿**ولات حين مناص**﴾ فقال: ليس بحين فرار وأنشد له قول الأعشى:

تذكرت ليلى لات حين تذكر ... وقد بنت عنها والمناص بعيد

وعن الكلبي أنه قال: كانوا إذا قاتلوا فاضطروا قال بعضهم لبعض: مناص أي عليكم بالفرار فلما أتاهم العذاب قالوا: مناص فقال الله تعالى ﴿**ولات حين مناص**﴾ قال القشيري: فعلى هذا يكون التقدير فنادوا مناص فحذف لدلالة ما بعده عليه أي ليس الوقت وقت ندائكم به، والظاهر أن الجملة على هذا التفسير حالية أي نادوا بالفرار وليس الوقت وقت فرار، وقال أبو حيان: في تقرير الحالية وهم لات حين مناص أي لهم، وقال الجرجاني: أي فنادوا حين لا مناص أي ساعة لا منجا ولا فوت فلما قدم لا وأخر حين اقتضى ذلك الواو كما يقتضي الحال إذا جعل مبتدأ وخبراً مثل جاء زيد راكباً ثم تقول جاء زيد وهو راكب فحين ظرف لقوله تعالى ﴿**فنادوا**﴾ انتهى.

وكون الأصل ما ذكر أن ﴿**حين**﴾ ظرف لنادوا دعوى أعجمية مخالفة لذوق الكلام العربي لا سيما ما هو أفصح الكلام ولا أدري ما الذي دعاه لذلك ﴿**وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ**﴾ حكاية لأباطيلهم المتفرعة على ما كان من استكبارهم وشقاقهم أي عجبوا من أن جاءهم رسول من جنسهم أي بشر أو من نوعهم وهم معروفون بالأمية فيكون المعنى رسول أمي، والمراد أنهم عدوا ذلك أمراً عجيباً خارجاً عن احتمال الوقوع وأنكروه أشد الإنكار لا أنهم اعتقدوا وقوعه وتعجبوا منه ﴿**وَقَالَ الْكَافِرُونَ**﴾ وضع فيه الظاهر موضع الضمير غضباً عليهم وذماً لهم وإيذاناً بأنه لا يتجاسر على مثل ما يقولون إلا المتوغلون في الكفر والفسوق ﴿**هَذَا سَاحِرٌ**﴾ فيما يظهره مما لا نستطيع له مثلاً ﴿**كَذَّابٌ**﴾ فيما يسنده إلى الله عز وجل من الإرسال والإنزال.

﴿**أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً**﴾ بأن نفي الألوهية عنها وقصرها على واحد فالجعل بمعنى التصيير وليس تصييراً في الخارج بل في القول والتسمية كما في قوله تعالى ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً﴾ [الزخرف: ١٩] وليس ذلك من باب إنكار وحدة الوجود في شيء ليقال إن الله سبحانه نعى على الكفرة ذلك الإنكار فتثبت الوحدة فإنه عليه الصلاة والسلام ما قال باتحاد آلهتهم معه عز وجل في الوجود ﴿**إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ**﴾ أي بليغ في العجب فإن فعالاً بناء مبالغة كرجل طوال وسراع، ووجه تعجبهم أنه خلاف ما ألفوا عليه آباءهم الذين أجمعوا على تعدد الآلهة وواظبوا على عبادتها وقد كان مدارهم في كل ما يأتون ويذرون التقليد فيعدون خلاف ما اعتادوه عجيباً بل محالاً، وقيل مدار تعجبهم زعمهم عدم وفاء علم الواحد وقدره بالأشياء الكثيرة وهو لا يتم إلا إن ادعوا لآلهتهم علماً

وقدرة، والظاهر أنهم لم يدعوهما لها ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله ﴾ [لقمان: ٢٥، الزمر: ٣٨].

وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه والسلمي وعيسى وابن مقسم «عُجَّابٌ» بشد الجيم وهو أبلغ من المخفف، وقال مقاتل ﴿عجاب ﴾ لغة أزد شنوءة، أخرج أحمد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد والترمذي وصححه والنسائي وابن جرير وغيرهم عن ابن عباس قال: لما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش فيهم أبو جهل فقالوا: إن ابن أخيك يشتم آلهتنا ويفعل ويقول ويقول فلو بعثت إليه فنهيته فبعث إليه فجاء النبي ﷺ فدخل البيت وبينهم وبين أبي طالب قدر مجلس فخشي أبو جهل إن جلس إلى أبي طالب أن يكون أرق عليه فوثب فجلس في ذلك المجلس فلم يجد رسول الله ﷺ مجلساً قرب عمه فجلس عند الباب فقال له أبو طالب: أي ابن أخي ما بال قومك يشكونك يزعمون أنك تشتم آلهتهم وتقول وتقول قال وأكثروا عليه من القول وتكلم رسول الله ﷺ فقال: يا عم إني أريدهم على كلمة واحدة يقولونها يدين لهم بها العرب وتؤدي إليهم بها العجم الجزية ففرحوا لكلمته ولقوله فقال القوم: ما هي؟ وأبيك لنعطينكها وعشراً قال: لا إله إلا الله فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم وهم يقولون: أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لَشيء عجاب. وفي رواية أنهم قالوا: سلنا غير هذا فقال عليه الصلاة والسلام «لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها» فغضبوا وقاموا غضاباً وقالوا والله لنشتمنك وإلهك الذي يأمرك بهذا.

﴿وَانْطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ ﴾ أي وانطلق الأشراف من قريش من مجلس أبي طالب بعد ما بكّتهم رسول الله ﷺ وشاهدوا تصلبه في الدين ويئسوا مما كانوا يرجونه منه عليه الصلاة والسلام بواسطة عمه وكان منهم أبو جهل والعاص ابن وائل والأسود بن المطلب بن عبد يغوث وعقبة بن أبي معيط.

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مجلز قال: قال رجل يوم بدر ما هم إلا النساء فقال رسول الله ﷺ: بل هم الملأ وتلا ﴿وانطلق الملأ منهم ﴾ ﴿أَنِ امْشُوا ﴾ الظاهر أنه أمر بالمشي بمعنى نقل الأقدام عن ذلك المجلس، و ﴿أن ﴾ مفسرة فقيل في الكلام محذوف وقع حالاً من الملأ أي انطلق الملأ يتحاورون والتفسير لذلك المحذوف وهو متضمن معنى القول دون لفظه، وقيل لا حاجة إلى اعتبار الحذف فإن الانطلاق عن مجلس التقاول يستلزم عادة تفاوض المنطلقين وتحاورهم بما جرى فيه وتضمن المفسر لمعنى القول أعم من كونه بطريق الدلالة وغيرها كالمقارنة ومثل ذلك كاف فيه، وقيل الانطلاق هنا الاندفاع في القول فهو متضمن لمعنى القول بطريق الدلالة، وإطلاق الانطلاق على ذلك الظاهر أنه مجاز مشهور نزل منزلة الحقيقة، وجوز أن يكون التجوز في الإسناد وأصله انطلقت ألسنتهم والمعنى شرعوا في التكلم بهذا القول، وقال بعضهم: المراد بامشوا سيروا على طريقتكم وداوموا على سيرتكم، وقيل هو من مشت المرأة إذا كثرت ولادتها ومنه الماشية وسميت بذلك لأنها من شأنها كثرة الولادة أو تفاؤلاً بذلك والمراد لازم معناه أي أكثروا واجتمعوا، وقيل هو دعاء بكثرة الماشية افتتحوا به كلامهم للتعظيم كما يقال اسلم أيها الأمير واختاروه من بين الأدعيه لعظم شأن الماشية عندهم. وتعقب بأنه خطأ لأن فعله مزيد يقال أمشى إذا كثرت ماشيته فكان يلزم قطع همزته والقراءة بخلافه مع أن إرادة هذا المعنى هنا في غاية البعد، وأياً ما كان فالبعض قال للبعض ذلك، وقيل قال الأشراف لأتباعهم وعوامهم، وقرىء «امشوا» بغير أن على إضمار القول دون إضمارها أي قائلين امشوا ﴿وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ ﴾ أي اثبتوا على عبادتها متحملين لما تسمعونه في حقها من القدح.

وقرأ ابن مسعود «وانطلق الملأ منهم يمشون أن اصبروا» فجملة «يمشون» حالية أو مستأنفة والكلام في «أن صبروا» كما في «أن امشوا» سواء تعلق بانطلق أو بما يليه ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴾ تعليل للأمر بالصبر أو لوجوب

الامتثال به، والإشارة إلى ما وقع وشاهدوه من أمر النبي ﷺ وتصلبه في أمر التوحيد ونفي الوهية آلهتهم أي إن هذا لشيء عظيم يراد من جهته ﷺ امضاؤه وتنفيذه لا محالة من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه لا قول يقال من طرف اللسان أوامر يرجى فيه المسامحة بشفاعة إنسان فاقطعوا أطماعكم عن استنزاله إلى إرادتكم واصبروا على عبادة آلهتكم، وقيل: إن هذا الأمر لشيء من نوائب الدهر يراد بنا فلا حيلة إلا تجرع مرارة الصبر، وقيل: إن هذا الذي يدعيه من أمر التوحيد أو يقصده من الرئاسة والترفع على العرب والعجم لشيء يتمنى أو يريده كل أحد ولكن لا يكون لكل ما يتمناه أو يريده فاصبروا، وقيل: إن هذا أي دينكم يطلب لينتزع منكم ويطرح أو يراد ابطاله، وقيل: الإشارة إلى الصبر المفهوم من ﴿اصبروا﴾ أي إن الصبر لشيء مطلوب لأنه محمود العاقبة.

وقال القفال: هذه كلمة تذكر للتهديد والتخويف، والمعنى أنه ليس غرضه من هذا القول تقرير الدين وإنما غرضه أن يستولي علينا فيحكم في أموالنا وأولادنا بما يريد فتأمل.

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ الذي يقوله **﴿فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾** قال ابن عباس ومجاهد ومحمد بن كعب ومقاتل أرادوا ملة النصارى، والتوصيف بالآخرة بحسب الاعتقاد لأنهم الذين لا يؤمنون بنبوة محمد ﷺ ومرادهم من قولهم ما سمعنا الخ إنا سمعنا خلافه وهو عدم التوحيد فإن النصارى كانوا يثلثون ويزعمون أنه الدين الذي جاء به عيسى عليه السلام وحاشاه، وعن مجاهد أيضاً وقتادة أرادوا ملة العرب ونحلتها التي أدركوا عليها آباءهم، وجوز أن يكون في الملة الآخرة حالاً من اسم الإشارة لا متعلقاً بسمعنا أي ما سمعنا بهذا الذي يدعونا إليه من التوحيد كائناً في الملة التي تكون آخر الزمان أرادوا أنهم لم يسمعوا من أهل الكتاب والكهان الذين كانوا يحدثونهم قبل بعثة النبي ﷺ بظهور نبي أن في دينه التوحيد ولقد كذبوا في ذلك فإن حديث إن النبي المبعوث آخر الزمان يكسر الأصنام ويدعو إلى توحيد الملك العلام كان أشهر الأمور قبل الظهور، وإن أرادوا على هذا المعنى إنا سمعنا خلاف ذلك فكذبهم أقبح **﴿إِنْ هَٰذَا﴾** أي ما هذا.

﴿إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ أي افتعال وافتراء من غير سبق مثل له **﴿أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾** أي القرآن **﴿مِنْ بَيْنِنَا﴾** ونحن رؤساء الناس وأشرافهم كقولهم ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ [الزخرف: ٣٢] ومرادهم إنكار كونه ذكراً منزلاً من عند الله تعالى كقولهم ﴿لو كان خيراً ما سبقونا إليه﴾ [الأحقاف: ١١] وأمثال هذه المقالات الباطلة دليل على أن مناط تكذيبهم ليس إلا الحسد وقصر النظر على الحطام الدنيوي **﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي﴾** من القرآن الذي أنزلته على رسولي المشحون بالتوحيد لميلهم إلى التقليد وإعراضهم عن الأدلة المؤدية إلى العلم بحقيته وليس في عقيدتهم ما يقطعون به فلذا تراهم ينسبونه إلى السحر تارة وإلى الاختلاق أخرى قيل للاضراب عن جميع ما قبله، وبل في قوله تعالى **﴿بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾** إضراب عن مجموع الكلامين السابقين حديث الحسد في قوله تعالى **﴿أأنزل﴾** الخ وحديث الشك في قوله تعالى **﴿بل هم في شك﴾** أي لم يذوقوا عذابي بعد فإذا ذاقوه زال عنهم ما بهم من الحسد والشك حينئذ يعني أنهم لا يصدقون إلا أن يمسهم العذاب فيضطروا إلى التصديق أو اضراب عن الإضراب قبله أي لم يذوقوا عذابي بعد فإذا ذاقوه زال شكهم واضطروا إلى التصديق بذكرى، والأول على ما في الكشف هو الوجه السديد وينطبق عليه ما بعد من الآيات، وقيل المعنى لم يذوقوا عذابي الموعود في القرآن ولذلك شكوا فيه وهو كما ترى، وفي التعبير بلما دلالة على أن ذوقهم العذاب على شرف الوقوع، وقوله تعالى:

﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ في مقابلة قوله سبحانه **﴿أأنزل﴾** الخ، ونظيره في رد نظيره

﴿أهم يقسمون رحمة ربك﴾ [الزخرف: ٣٢] وأم منقطعة مقدرة ببل والهمزة، والمراد بالعندية الملك والتصرف لا مجرد الحضور.

وتقديم الظرف لأنه محل الإنكار أي بل أيملكون خزائن رحمته تعالى ويتصرفون فيها حسبما يشاؤون حتى أنهم يصيبون بها من شاؤوا ويصرفونها عمن شاؤوا ويتحكمون فيها بمقتضى رأيهم فيتخيروا للنبوة بعض صناديدهم.

وإضافة الرب إلى ضميره ﷺ للتشريف واللطف به عليه الصلاة والسلام، والعزيز القاهر على خلقه، والوهاب الكثير المواهب المصيب بها مواقعها، وحديث العزة والقهر بناسب ما كانوا عليه من ترفعهم بالنبوة عنه ﷺ تجبراً.

والمبالغة في الوهاب من طريق الكمية تناسب قوله تعالى ﴿خزائن﴾ وتدل على حرمان لهم عظيم، وفي ذلك إدماج أن النبوة ليست عطاء واحداً بالحقيقة بل يتضمن عطايا جمة تفوت الحصر وهي من طريق الكيفية المشار إليها بإصابة المواقع للدلالة على أن مستحق العطاء ومحله من وهب ذلك وهو النبي ﷺ وفي الوصف المذكور أيضاً إشارة إلى أن النبوة موهبة ربانية، وقوله تعالى **﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾** ترشيح لما سبق أي بل لهم ملك هذه الأجرام العلوية والأجسام السفلية حتى يتكلموا في الأمور الربانية ويتحكموا في التدابير الإلهية التي يستأثر بها رب العزة والكبرياء، وقوله تعالى: **﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ﴾** جواب شرط محذوف أي إن كان لهم ما ذكر من الملك فليصعدوا في المعارج والمناهج الذي يتوصل بها إلى السماوات فليدبروها وليتصرفوا فيها فإنهم لا طريق لهم إلى تدبيرها والتصرف فيها إلا ذاك أو إن ادعوا ما ذكر من الملك فليصعدوا وليتصرفوا حتى يظن صدق دعواهم فإنه لا أمارة عندهم على صدقها فلا أقل من أن يجعلوا ذلك أمارة، وقال الزمخشري ومتابعوه: أي فليصعدوا في المعارج والطرق التي يتوصل بها إلى العرش حتى يستوا عليه ويدبروا أمر العالم وملكوت الله تعالى وينزلوا الوحي إلى من يختارون ويستصوبون، وهو مناسب للمقام بيد أن فيه دغدغة، وأياً ما كان ففي أمرهم بذلك تهكم بهم لا يخفى، والسبب في الأصل الوصلة من الحبل ونحوه.

وعن مجاهد الأسباب هنا أبواب السماوات، وقيل السماوات أنفسها لأن الله تعالى جعلها أسباباً عادية للحوادث السفلية **﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزومٌ مِنَ الأَحْزَابِ﴾** أي هم جند الخ، فجند خبر مبتدأ محذوف مقدر مقدماً كما هو الظاهر وما مزيدة قيل للتقليل والتحقير نحو أكلت شيئاً ما، وقيل للتعظيم والتكثير، واعترض بأنه لا يلائمه ﴿مهزوم﴾ وأجيب بأن الوصف بالعظمة والكثرة على سبيل الاستهزاء فهي بحسب اللفظ عظمة وكثرة وفي نفس الأمر ذلة وقلة، ورجح بأن الأكثر في كلامهم كونها للتعظيم نحو لأمر ما جدع قصير أنفه ـ لأمر ما يسود من يسود. وقول امرىء القيس:

وحديث الركب يوم هنا ... وحديث ما على قصره

مع أن الكلام لتسليته ﷺ وتبشيره بانهزامهم وذلك أكمل على هذا التقدير قيل إن التبشير بخذلان عدد حقير ربما أشعر بإهانة وتحقير:

ألم تر أن السيف ينقص قدره ... إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

وفيه نظر، و ﴿هنالك﴾ صفة ﴿جند﴾ أو ظرف ﴿مهزوم﴾ وهو إشارة إلى المكان البعيد وأريد به على قول المكان الذي تفاوضوا فيه مع الرسول ﷺ بتلك الكلمات السابقة وهو مكة وجعل ذلك إخباراً بالغيب عن هزيمتهم يوم الفتح، وقيل يوم بدر وروي ذلك عن مجاهد وقتادة، وأنت خبير بأن هنالك إذا كان إشارة إلى مكة ومتعلقاً بمهزوم لا

يتسنى هذا إلا إذا أريد من مكة ما يشمل بدراً، و ﴿مهزوم﴾ خبر بعد خبر، وأصل الهزم غمز الشيء اليابس حتى ينحطم كهزم الشن وهزم القثاء والبطيخ ومنه الهزيمة لأنه كما يعبر عنه بالحطم والكسر، والتعبير عما لم يقع باسم المفعول المؤذن بالوقوع على ما في بعض شروح الكشاف للإيذان بشدة قربه حتى كأنه محقق، و ﴿من الأحزاب﴾ صفة ﴿جند﴾ أي هم جند قليلون أذلاء أو كثيرون عظماء كائنون هنالك من الكفار المتحزبين على الرسل مكسورون عن قريب أو جند من الأحزاب مكسورون عن قريب في مكانهم الذي تكلموا فيه بما تكلموا فلا تبال بما يقولون ولا تكترث بما يهذون. وقال أبو البقاء ﴿جندٌ﴾ مبتدأ وما زائدة وهنالك نعت وكذا من الأحزاب ومهزوم خبر، وتعقبه أبو حيان بأن فيه بعد التفلتة عن الكلام الذي قبله، واعتبر الزمخشري الحصر أي ما هم إلا جند من المتحزبين مهزوم عن قريب لا يتجاوزون الجندية المذكورة إلى الأمور الربانية، وهو حسن إلا أنه اختلف في منشأ ذلك فقيل: إنه كان حق الجند أن يعرف لكونه معلوماً فنكر سوقاً للمعلوم مساق المجهول كأنه لا يعرف منهم إلا هذا القدر وهو أنهم جند بهذه الصفة.

وقال صاحب الكشف: إنه التفخيم المدلول عليه بالتنكير، وزيادة ما الدالة على الشيوع وغاية التعظيم لدلالتهما على اختصاص الوصف بالجندية من بين سائر الصفات كأنه لا وصف لهم غيرها، وفيه منع ظاهر، ويفهم كلام العلامة الثاني أنه اعتبار كون ﴿جند﴾ خبراً مقدماً لمبتدأ محذوف لأن المقام يقتضي الحصر فتدبر ولا تغفل.

وجعل الزمخشري ﴿هنالك﴾ الموضوع للإشارة إلى المكان البعيد مستعاراً للمرتبة من العلو والشرف على أنه إشارة إلى حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل ذلك القول العظيم كما في قولهم لمن انتدب لأمر ليس من أهله لست هنالك؛ وفيه إيماء إلى علة الذم؛ وجوز على هذا أن تكون ما نافية أي هم جند ليسوا حيث وضعوا أنفسهم.

وتعقب بأنه مما لم يقله أحد من أهل العربية ولا يليق بالمقام وفيه بحث، وجوز أن تكون ﴿هنالك﴾ إشارة إلى الزمان البعيد وهي كما قال ابن مالك قد يشار بها إليه نحو قوله تعالى: ﴿هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت﴾ [يونس: ٣٠] وتتعلق بمهزوم، والكلام اخبار بالغيب إما عن هزيمتهم يوم الفتح أو يوم بدر كما تقدم حكايته أو يوم الخندق ولا يخفى ما فيه، وقيل: إشارة إلى زمان الارتقاء في الأسباب أي هؤلاء القوم جند مهزوم إذا ارتقوا في الأسباب وليس بالمرضي، وقيل: ما اسم موصول مبتدأ وهنالك في موضع الصلة وجند خبر مقدم ومهزوم ومن الأحزاب صفتان وهما المقصودان بالإفادة وما هنالك إشارة إلى مكة، والمراد من الذين فيها المشركون والتعبير عنهم بما لأنهم كالأنعام بل هم أضل، وقيل الأصنام وعبدتها، وأمر التعبير بما عليه أظهر ويقال فيه نحو ما قاله أبو حيان في كلام أبي البقاء وزيادة لا تخفى.

وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ إلى آخره استئناف مقرر لمضمون ما قبله ببيان أحوال العتاة الطغاة مما فعلوا من التكذيب وفعل بهم من العقاب، و ﴿ذو الأوتاد﴾ صفة فرعون لا لجميع ما قبله وإلا لقيل ذوو الأوتاد، و﴿الأوتاد﴾ جمع وتد وهو معروف، وكسر التاء فيه أشهر من فتحها ويقال ودّ واتد كما يقال شغل شاغل قاله الأصمعي وأنشد:

لاقت على الماء جذيلاً واتدا ... ولم يكن يخلفها المواعدا

وقالوا: ود بإبدال التاء دالاً والإدغام ووت بإبدال الدال تاء، وفيه قلب الثاني للأول وهو قليل، وأصل إطلاق ذلك على البيت المطنب بأوتاده وهو لا يثبت بدونها كما قال الأعشى:

والبيت لا يبتنى إلا على عمد ... ولا عماد إذا لم ترس أوتاد

فقيل إنه شبه هنا فرعون في ثبات ملكه ورسوخ سلطنته ببيت ثابت أقيم عماده وثبتت أوتاده تشبيهاً مضمراً في النفس على طريق الاستعارة المكنية ووصف بذي الأوتاد على سبيل التخييل، فالمعنى كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون الثابت ملكه وسلطنته وقيل: شبه الملك الثابت من حيث الثبات والرسوخ بذي الأوتاد وهو البيت المطنب بأوتاده واستعير ذو الأوتاد له على سبيل الاستعارة التصريحية قيل وهو أظهر مما مر نهايته أنه وصف بذلك فرعون مبالغة لجعله عين ملكه، والمعنى على وصفه بثبات الملك ورسوخ السلطنة واستقامة الأمر.

وقال ابن مسعود وابن عباس في رواية عطية: الأوتاد الجنود يقوون ملكه كما يقوي الوتد الشيء أي وفرعون ذو الجنود فالاستعارة عليه تصريحية في الأوتاد، وقيل: هو مجاز مرسل للزوم الأوتاد للجند، وقيل المباني العظيمة الثابتة وفيه مجاز أيضاً، وقال ابن عباس في رواية أخرى وقتادة وعطاء: كانت له عليه اللعنة أوتاد وخشب يلعب له بها وعليها، وقيل: كان يشبح المعذب بين أربع سوار كل طرف من أطرافه إلى سارية ويضرب في كل وتداً من حديد ويتركه حتى يموت، وروي معناه عن الحسن ومجاهد وقيل: كان يمده بين أربعة أوتاد في الأرض ويرسل عليه العقارب والحيات، وقيل: يشده بأربعة أوتاد ثم يرفع صخرة فتلقى عليه فتشدخه.

وعلى هذه الأقوال الأربعة فالأوتاد ثابتة على حقيقتها ﴿**وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوط وَأَصْحَابُ الأيكَةِ**﴾ أصحاب الغيضة وهم الذين أرسل إليهم شعيب عليه السلام نسبوا إلى غيضة كانوا يسكنونها، وقيل الأيكة اسم بلد لهم ﴿**أُولَئك**﴾ المكذبون ﴿**الأَحْزَابُ**﴾ أي الكفار المتحزبون على الرسل عليهم السلام المهزومون؛ وهو مبتدأ وخبر ويفهم من ذلك أن الأحزاب الذين جعل الجند المهزوم منهم هم هم وأنهم الذين وجد منهم التكذيب لأن المبتدأ والخبر في مثله متعاكسان رأساً برأس لا لأن ﴿**أولئك**﴾ إشارة إلى الأحزاب أولاً والأحزاب ثانياً هم المكذبون، وقوله تعالى: ﴿**إنْ كُلٌّ إلاَّ كَذَّبَ الرُّسلَ**﴾ استئناف جيء به تقريراً لتكذيبهم على أبلغ وجه وتمهيداً لما يعقبه، فإن نافية ولا عمل لها لانتقاض النفي بالا، و ﴿**كل**﴾ مبتدأ والاستثناء مفرغ من أعم العام وهو الخبر أي ما كل حزب من الأحزاب محكوماً عليه بحكم إلا محكوماً عليه بأنه كذب الرسل أو مخبراً عنه بخير إلا مخبراً عنه بأنه كذب الرسل لأن الرسل يصدق كل منهم الكل وكلهم متفقون على الحق فتكذيب كل واحد منهم تكذيب لهم جميعاً، وجوز أن يكون من مقابلة الجمع بالجمع أي ما كلهم محكوماً عليه بحكم أو مخبراً عنه بشيء إلا محكوماً عليه أو إلا مخبراً عنه بأنه كذب رسوله، والحصر مبالغة كأن سائر أوصافهم بالنظر إلى ما أثبت لهم بمنزلة العدم فيدل على أنهم غالون في التكذيب، ويدل على غلوهم فيه أيضاً إعادته متعلقاً بالرسل وتنويع الجملتين إلى اسمية استثنائية وغيرها أعني قوله تعالى: ﴿**كذبت قبلهم**﴾ الخ، وجعل كل فرقة مكذبة للجميع على الوجه الأول، ويسجل ذلك عليهم استحقاقهم أشد العقاب ولذا رتب عليه قوله تعالى: ﴿**فَحَقَّ عقَاب**﴾ أي ثبت ووقع على كل منهم عقابي الذي كانت توجبه جناياتهم من أصناف العقوبات فأغرق قوم نوح وأهلك فرعون بالغرق وقوم هود بالريح وثمود بالصيحة وقوم لوط بالخسف وأصحاب الأيكة بعذاب الظلة. وجوز أن يكون ﴿**أولئك الأحزاب**﴾ بدلاً من الطوائف المذكورة والجملة بعد مستأنفة لما سمعت وأن يكون مبتدأ والجملة بعده خبر بحذف العائد أي إن كلاً منهم أو كلهم إلا كذب الرسل، والمجموع استئناف مقرر لما قبله مع ما فيه من بيان كيفية تكذيبهم وكلاهما خلاف الظاهر، وأما ما قيل من أنه خبر والمبتدأ قوله تعالى: ﴿**وعاد**﴾ الخ أو قوله تعالى: ﴿**وقوم لوط**﴾ الخ فمما يجب تنزيه ساحة التنزيل عن أمثاله.

﴿**وَمَا يَنْظُرُ هَؤلاء إلاَّ صَيحَةً وَاحدَةً مَا لَهَا منْ فَوَاق**﴾ شروع في بيان عقاب كفار مكة إثر بيان عقاب أضرابهم فإن الكلام السابق مما يوجب ترقب السامع بيانه، والنظر بمعنى الانتظار وعبر به مجازاً بجعل محقق الوقوع

كأنه أمر منتظر لهم، والإشارة بهؤلاء للتحقير، والمراد بالصيحة الواحدة النفخة الثانية، أي ما ينتظر هؤلاء الكفرة الحقيرون الذين هم أمثال أولئك الطوائف المهلكة في الكفر والتكذيب شيئاً إلا النفخة الثانية التي تقوم بها الساعة قاله قتادة وليس المراد أنها نفسها عقاب لهم لعمومها للبر والفاجر من جميع الأمم بل المراد أنه ليس بينهم وبين ما أعد لهم من العذاب إلا هي لتأخير عقوبتهم إلى الآخرة لما أن تعذيبهم بالاستئصال حسبما يستحقونه والنبي ﷺ موجود خارج عن السنة الإلهية المبنية على الحكم الباهرة كما نطق به قوله تعالى: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ [الأنفال: ٣٣] إذ المراد من ﴿وأنت فيهم﴾ وجوده عليه الصلاة والسلام لا مجاورته لهم كما توهم حتى يقال: لا دلالة في الآية على امتناع وقوعه بعد الهجرة لمخالفته للتفسير المشهور، وقيل المراد بالصيحة المذكورة النفخة الأول. وتعقب بأنه مما لا وجه له أصلاً لما أنه لا يشاهد هو لها ولا يصعق بها إلا من كان حياً عند وقوعها وليس عقابهم الموعود واقعاً عقيبها ولا العذاب المطلق مؤخراً إليها بل يحل بهم من حين موتهم.

وقيل: المراد صيحة يهلكون بها في الدنيا كما هلكت ثمود، ولا يخفى أن هذا تعذيب بالاستئصال وهو مما لا يقع كما سمعت فلا يكون منتظراً، وقال أبو حيان: الصيحة ما نالهم من قتل وأسر وغلبة كما تقول صاح بهم الدهر فهي مجاز عن الشر كما في قولهم ما ينتظرون إلا مثل صيحة الحبلى أي شراً يعاجلهم، وفيه بعد.

وجوز جعل هؤلاء إشارة إلى الأحزاب لما سبق ذكرهم مكرراً مؤكداً استحضرهم المخاطب في ذهنه فنزل الوجود الذهني منزلة الخارجي المحسوس وأشير إليهم بما يشار به للحاضر المشاهد، واحتمال التحقير قائم ولا ينبو عنه التعبير بأولئك لأن البعد في الواقع مع أنه قد يقصد به التحقير أيضاً والكلام بيان لما يصيرون إليه في الآخرة من العقاب بعد ما نزل بهم في الدنيا من العذاب، وجعلهم منتظرين له لأن ما أصابهم من عذاب الاستئصال ليس هو نتيجة ما جنوه من قبيح الأعمال إذ لا يعتد به بالنسبة إلى ما ثمت من الأهوال فهو تحذير لكفار قريش وتخويف لمن يساق له الحديث فلا وجه لما قاله أبو السعود من أن هذا ليس في حيز الاحتمال أصلاً لأن الانتظار سواء كان حقيقة أو استهزاء إنما يتصور في حق من لم يترتب على أعماله نتائجها بعد، وبعد ما بين عقاب الأحزاب واستئصالهم بالمرة لم يبق مما أريد بيانه من عقوباتهم أمر منتظر بخلاف كفار قريش حيث ارتكبوا ما ارتكبوا ولما يلاقوا بعد شيئاً قاله الخفاجي، ولا يخفى أن المنساق إلى الذهن هو الاحتمال الأول وهو المأثور عن السلف، والفواق الزمن الذي بين حلبتي الحالب ورضعتي الراضع ويقال للبن الذي يجتمع في الضرع بين الحلبتين فيقة ويجمع على أفواق وأفاويق جمع الجمع، والكلام على تقدير مضافين أي ما ينتظرون إلا صيحة واحدة مالها من توقف مقدار فواق أو على ذكر الملزوم الذي هو الفواق وإرادة اللازم الذي هو التوقف مقداره، وهو مجاز مشهور والمعنى أن الصيحة إذا جاء وقتها لم تستأخر هذا القدر من الزمان.

وعن ابن عباس ومجاهد وقتادة تفسيره بالرجوع والترداد، وهو مجاز أطلق فيه الملزوم وأريد اللازم فإن في الزمان بين الحلبتين يرجع اللبن إلى الضرع، والمعنى أنها صيحة واحدة فحسب لا تثنى ولا تردد فالجملة عليه صفة مؤكدة لوحدة الصيحة.

وقرأ السلمي وابن وثاب والأعمش وحمزة والكسائي وطلحة بضم الفاء فقيل هما بمعنى واحد وهو ما تقدم كقصاص الشعر وقصاصه، وقيل: المفتوح اسم مصدر من أفاق المريض إفاقة وفاقة إذا رجع إلى الصحة وإليه يرجع تفسير ابن زيد والسدي وأبي عبيدة والفراء له بالإفاقة والاستراحة، والمضموم اسم ساعة رجوع اللبن للضرع.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لنا قِطَّنا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَاب﴾ حكاية لما قالوه عند سماعهم بتأخير عقابهم إلى الآخرة أي قالوا بطريق الاستهزاء والسخرية ربنا عجل لنا قسطنا ونصيبنا من العذاب الذي توعدنا به ولا تؤخره إلى يوم

الحساب الذي مبدؤه الصيحة المذكورة، وتصدير دعائهم بالنداء المذكور للإمعان في الاستهزاء كأنهم يدعون ذلك بكمال الرغبة والابتهال والقائل على ما روي عن عطاء النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة وهو الذي قال الله تعالى فيه ﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾ [المعارج: ١] وأبو جهل على ما روي عن قتادة، وعلى القولين الباقون راضون فلذا جيء بضمير الجمع، والقط القطعة من الشيء من قطه إذا قطعه ويقال لصحيفة الجائزة قط لأنها قطعة من القرطاس، ومن ذلك قول الأعشى:

ولا الملك النعمان يوم لقيته ... بنعمته يعطي القطوط ويطلق

قيل وهو في ذلك أكثر استعمالاً وقد فسره بها هنا أبو العالية والكلبي أي عجل لنا صحيفة أعمالنا لننظر فيها وهي رواية عن الحسن، وجاء في رواية أخرى عنه أنهم أرادوا نصيبهم من الجنة، وروي هذا أيضاً عن قتادة وابن جبير، وذلك أنهم سمعوا رسول الله ﷺ يذكر وعد الله تعالى المؤمنين الجنة فقالوا على سبيل الهزء: عجل لنا نصيبنا منها لنتنعم به في الدنيا، قال السمرقندي: أقوى التفاسير أنهم سألوا أن يعجل لهم النعيم الذي كان يعده عليه الصلاة والسلام من آمن لقولهم ربنا ولو كان على ما يحمله أهل التأويل من سؤال العذاب أو الكتاب استهزاء لسألوا رسول الله ولم يسألوا ربهم، وفيه بحث يعلم مما مر آنفاً.

﴿**اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ**﴾ على ما يتجدد من أمثال هذه المقالات الباطلة المؤذية ﴿**وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاود**﴾ أي اذكر لهم قصته عليه السلام تعظيماً للمعصية في أعينهم وتنبيهاً لهم على كمال قبح ما اجترؤوا عليه فإنه عليه السلام مع علو شأنه وإيتائه النبوة والملك لما ألم بما هو خلاف الأولى ناله ما ألمه وأدام غمه وندمه فما الظن بهؤلاء الكفرة الأذلين الذين لم يزالوا على أكبر الكبائر مصرين أو اذكر قصته عليه السلام في نفسك وتحفظ من ارتكاب ما يوجب العتاب، وقيل إنه تعالى أمره عليه الصلاة والسلام أن يذكر قصص الأنبياء عليهم السلام الذين عرض لهم ما عرض فصبروا حتى فرج الله تعالى عنهم وأحسن عاقبتهم، ترغيباً له في الصبر وتسهيلاً لأمره عليه وإيذاناً ببلوغ ما يريده بذلك، وهو كما ترى، وقيل أمره بالصبر وذكر قصص الأنبياء ليكون ذلك برهاناً على صحة نبوته ﷺ، والذكر على هذا والأول لساني وعلى ما بينهما قلبي وهو مراد من فسر ﴿**اذكر**﴾ على ذلك بتذكر ﴿**ذَا الأَيْد**﴾ أي ذا القوة يقال فلان أيد وذو أيد وذو آد وأياد بمعنى وأياد كل شيء ما يتقوى به.

﴿**إِنَّهُ أَوَّابٌ**﴾ أي رجاع إلى الله تعالى وطاعته عزَّ وجلّ، وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ومجاهد أنهما قالا: الأواب المسبح، وعن عمرو بن شرحبيل أنه المسبح بلغة الحبشة، وأخرج الديلمي عن مجاهد قال: سألت ابن عمر عن الأواب فقال: سألت النبي ﷺ عنه فقال: هو الرجل يذكر ذنوبه في الخلاء فيستغفر الله تعالى، وهذا إن صح لا يعدل عنه، والجملة تعليل لكونه عليه السلام ذا الأيد وتدل بأي معنى كان الأواب فيها على أن المراد بالأيد القوة الدينية وهي القوة على العبادة كما قال مجاهد وقتادة والحسن وغيرهم إذ لا يحسن التعليل لو حملت القوة على القوة في الجسم، نعم قد كان عليه السلام قوي الجسم أيضاً إلا أن ذلك غير مراد هنا؛ وفي التعبير عنه بعبدنا ووصفه بذي الأيد والتعليل بما ذكر دلالة على كثرة عبادته ووفور طاعته.

وقد أخرج البخاري في تاريخه عن أبي الدرداء قال: كان النبي ﷺ إذا ذكر داود وحدث عنه قال: كان أعبد البشر، وأخرج الديلمي عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال:«قال رسول الله ﷺ لا ينبغي لأحد أن يقول إني أعبد من داود» وروي أنه كان يصوم يوماً ويفطر يوماً وكان يقوم نصف الليل وفي ذلك دلالة على قوته في العبادة لما في كل من الصيام والقيام المذكورين من ترك راحة تذكرها قريباً.

إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ
ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ
مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ
﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ
بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ
مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ
مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ
ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا
بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ
أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾

﴿**إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ**﴾ استئناف لبيان قصته عليه السلام، وجوز كونه لتعليل قوته في الدين وأوابيته إلى الله عزَّ وجلّ، ومع متعلقة بسخر، وإيثارها على اللام لأن تسخير الجبال له عليه السلام لم يكن بطريق تفويض التصرف الكلي فيها إليه كتسخير الريح وغيرها لسليمان عليه السلام بل بطريق الاقتداء به في عبادة الله تعالى.

وأخر الظرف المذكور عن ﴿**ٱلْجِبَالَ**﴾ وقدم في سورة [الأنبياء: ٧٩] فقيل: ﴿وسخرنا مع داود الجبال﴾ قال بعض الفضلاء: لذكر داود وسليمان ثمت فقدم مسارعة للتعيين ولا كذلك هنا، وجوز تعلقها بقوله تعالى: ﴿**يُسَبِّحْنَ**﴾ وهو أقرب بالنسبة إلى آية الأنبياء، وتسبيحهن تقديس بلسان قال لائق بهن نظير تسبيح الحصى المسموع في كف النبي ﷺ، وقيل: تقديس بلسان الحال وتقييده بالوقتين المذكورين بعد يأباه إذ لا اختصاص لتسبيحهن الحالي بهما وكذا لا اختصاص له بكونه معه، وقيل المعنى يسرن معه على أن يسبحن من السباحة، والجملة حال من ﴿**ٱلْجِبَالَ**﴾ والعدول عن مسبحات مع أن الأصل في الحال الإفراد للدلالة على تجدد التسبيح حالاً بعد حال نظير ما في قول الأعشى:

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة ... إلى ضوء نار في يفاع تحرق

وجوز أن تكون مستأنفة لبيان كيفية التسخير ومقابلتها بمحشورة هنا كالمعينة للحالية ﴿**بِٱلْعَشِىِّ**﴾ هو كما قال الراغب: من زوال الشمس إلى الصباح أي يسبحن بهذا الوقت وليس ذلك نصاً في استيعابه بالتسبيح ﴿**وَٱلْإِشْرَاقِ**﴾ أي وقت الإشراق، قال ثعلب: يقال شرقت الشمس إذا طلعت وأشرقت إذا أضاءت وصفت فوقت الإشراق وقت ارتفاعها عن الأفق الشرقي وصفاء شعاعها وهو الضحوة الصغرى وروي عن أم هانيء بنت أبي طالب أن النبي ﷺ صلاة الضحى وقال: هذه صلاة الإشراق. وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن عطاء الخراساني أن ابن عباس قال:

لم يزل في نفسي من صلاة الضحى شيء حتى قرأت هذه الآية ﴿**يسبحن بالعشي والإشراق**﴾ وفي رواية عنه أيضاً ما عرفت صلاة الضحى إلا بهذه الآية، ووجه فهم الحبر إياها من الآية أي كل تسبيح ورد في القرآن فهو عنده ما لم يرد به التعجب والتنزيه بمعنى الصلاة فحيث كانت صلاة لداود عليه السلام وقصت على طريق المدح علم منه مشروعيتها. وفي الكشف وجهه أن الآية دلت على تخصيصه عليه السلام ذينك الوقتين بالتسبيح وقد علم من الرواية أنه كان يصلي مسبحاً فيهما فحكى في القرآن ما كان عليه وإن لم يذكر كيفيته فيكون في الآية ذكر صلاة الضحى وهو المطلوب أو نقول إن تسبيح الجبال غير تسبيح داود عليه السلام لأن الأول مجاز فحمل تسبيح داود على المجاز أيضاً لأن المجاز أنسب اهـ.

وتعقب بأنه إذا علم من الرواية فكيف يقال إنه أخذه من الآية والتجوز ينبغي تقليله ما أمكن، وهذا بناء على أن ﴿**معه**﴾ متعلق بيسبحن حتى يكون هو عليه السلام مسبحاً أي مصلياً وإلا فتسبيح الجبال لا دلالة على الصلاة، ومع هذا ففيه حينئذ جمع بين معنيين مجازيين إلا أن يقال به، أو يجعل بمعنى يعظمن ويجعل تعظيم كل محمولاً على ما يناسبه، وبعد اللتيا والتي لا يخلو عن كدر، وارتضى الخفاجي الأول وأراه لا يخلو عن كدر أيضاً.

وقال الجلبي في ذلك: يجوز أن يقال: تخصيص هذين الوقتين بالذكر دل على اختصاصهما بمزيد شرف فيصلح ذلك الشرف سبباً لتعيينهما للصلاة والعبادة فإن لفضيلة الأزمنة والأمكنة أثراً في فضيلة ما يقع فيهما من العبادات، وهذا عندي أصفى مما تقدم، ويشعر به ما أخرجه الطبراني في الأوسط وابن مردويه عن ابن عباس قال: كنت أمر بهذه الآية ﴿**يسبحن بالعشي والإشراق**﴾ فما أدري ما هي حتى حدثتني أم هانىء أن رسول الله ﷺ صلى يوم فتح مكة صلاة الضحى ثمان ركعات فقال ابن عباس: قد ظننت أن لهذه الساعة صلاة لقوله تعالى: ﴿**يسبحن بالعشي والإشراق**﴾ هذا ولهم في صلاة الضحى كلام طويل والحق سنيتها وقد ورد فيها كما قال الشيخ ولي الدين ابن العراقي: أحاديث كثيرة صحيحة مشهورة حتى قال محمد بن جرير الطبري أنها بلغت مبلغ التواتر.

ومن ذلك حديث أم هانىء الذي في الصحيحين وزعم أن تلك الصلاة كانت صلاة شكر لذلك الفتح العظيم صادفت ذلك الوقت لا أنها عبادة مخصوصة فيه دون سبب أوانها كانت قضاء عما شغل ﷺ تلك الليلة من حزبه فيها خلاف ظاهر الخبر السابق عنها.

وكذا ما رواه أبو داود من طريق كريب عنها أنها قالت صلى عليه الصلاة والسلام سبحة الضحى، ومسلم في كتاب الطهارة من طريق أبي مرة عنها أيضاً ففيه ثم صلى ثماني ركعات سبحة الضحى وابن عبد البر في التمهيد من طريق عكرمة بن خالد أنها قالت: قدم رسول الله ﷺ مكة فصلى ثمان ركعات فقلت ما هذه الصلاة؟ قال: هذه صلاة الضحى، واحتج القائلون بالنفي بحديث عائشة إن كان رسول الله ﷺ ليدع العمل وهو يحب أن يعمل به خشية أن يعمل به الناس فيفرض عليهم وما سبح رسول الله ﷺ سبحة الضحى قط وإني لأسبحها، رواه البخاري ومسلم وأبو داود وأبو مالك، وحمله القائلون بالإثبات على نفي رؤيتها ذلك لما أنه روي عنها مسلم وأحمد وابن ماجة أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يصلي الضحى أربعاً ويزيد ما شاء الله تعالى، وقد شهد أيضاً بأنه عليه الصلاة والسلام كان يصليها على ما قال الحاكم أبو ذر الغفاري وأبو سعيد وزيد بن أرقم وأبو هريرة وبريدة الأسلمي وأبو الدرداء وعبد الله بن أبي أوفى وعتبان بن مالك وعتبة بن عبد السلمي ونعيم بن همام الغطفاني وأبو أمامة الباهلي وأم هانىء وأم سلمة، ومن القواعد المعروفة أن المثبت مقدم على النافي مع أن رواية الإثبات أكثر بكثير من رواية النفي وتأويلها أهون من تأويل تلك، وذكر الشافعية أنها أفضل التطوع بعد الرواتب لكن النووي في شرح المهذب قدم عليها صلاة التراويح فجعلها

في الفضل بين الرواتب والضحى والمذهب عنهم وجوبها عليه ﷺ وأن ذلك من خصوصياته عليه الصلاة والسلام، واحتج له بما أخرجه ابن العربي بسنده عن عكرمة عن ابن عباس قال: «قال رسول الله كتب على النحر ولم يكتب عليكم وأمرت بصلاة الضحى ولم تؤمروا بها» رواه الدارقطني أيضاً، وقال شيخ الحفاظ أبو الفضل بن حجر: إنه لم يثبت ذلك في خبر صحيح، وفي الأخبار ما يعكر على القول به، وذكر أن أقلها ركعتان لخبر البخاري عن أبي هريرة أنه عليه الصلاة والسلام أوصاه بهما وأن لا يدعهما، وأدنى كما لها أربع لما صح كان ﷺ يصلي الضحى أربعاً ويزيد ما شاء فست فثمان وأكثرها اثنتا عشرة ركعة لخبر ضعيف يعمل به في مثل ذلك، وذهب الكثير إلى أن الأكثر ثمان.

وذكروا أنها أفضل من اثنتي عشرة والعمل القليل قد يفضل الكثير فما يقتضيه أجرك على قدر نصبك أغلبي.

وصرح ابن حجر الهيثمي عليه الرحمة بالمغايرة بين صلاة الضحى وصلاة الإشراق قال: ومما لا يسن جماعة ركعتان عقب الإشراق بعد خروج وقت الكراهة وهي غير الضحى، وتقدم لك ما يفيد اتحادهما ويدل عليه غير ذلك من الأخبار، وصح إطلاق صلاة الأوابين على صلاة الضحى كإطلاقها على الصلاة المعروفة بعد المغرب، هذا وتمام الكلام فيها في كتب الفقه والحديث، ﴿وَالطَّيْرَ﴾ عطف على ﴿الجبال﴾ على ما هو الظاهر.

﴿مَحْشُورَةً﴾ حال من ﴿الطير﴾ والعامل سخرنا أي وسخرنا الطير حال كونها محشورة، عن ابن عباس كان عليه السلام إذا سبح جاوبته الجبال بالتسبيح واجتمعت إليه الطير فسبحت وذلك حشرها، ولم يؤت بالحال فعلاً مضارعاً كالحال السابقة ليدل على الحشر الدفعي الذي هو أدل على القدرة وذلك بتوسط مقابلته للفعل أو لأن الدفعية هي الأصل عند عدم القرينة على خلافها.

وقرأ ابن أبي عبلة والجحدري «والطيرُ محشورةٌ» برفعهما مبتدأ وخبراً، ولعل الجملة على ذلك حال من ضمير يسبحن ﴿كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ استئناف مقرر لمضمون ما قبله مصرح بما فهم منه إجمالاً من تسبيح الطير، واللام تعليلية، والضمير لداود أي كل واحد من الجبال والطير لأجل تسبيحه رجاع إلى التسبيح، ووضع الأواب موضع المسبح إما لأنها كانت ترجع التسبيح والمرجع رجاع لأنه يرجع إلى فعله رجوعاً بعد رجوع وإما لأن الأواب هو التواب الكثير الرجوع إلى الله تعالى كما هو المشهور ومن دأبه إكثار الذكر وإدامة التسبيح والتقديس، وقيل يجوز أن يكون المراد كل من الطير فالجملة للتصريح بما فهم، وكذا يجوز أن يراد كل من داود عليه السلام ومن الجبال والطير والضمير لله تعالى أي كل من داود والجبال والطير لله تعالى أواب أي مسبح مرجع للتسبيح ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ قويناه بالهيبة والنصرة وكثرة الجنود ومزيد النعمة، واقتصر بعضهم على الهيبة، والسدي على الجنود، وروى عنه ابن جرير والحاكم أنه كان يحرصه كل يوم وليلة أربعة آلاف.

وحكي أنه كان حول محرابه أربعون ألف مستلئم يحرسونه، وهذا في غاية البعد عادة مع عدم احتياج مثله عليه السلام إليه، وكذا القول الأول كما لا يخفى على منصف، وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: ادعى رجل من بني إسرائيل عند داود عليه السلام رجلاً ببقرة فجحده فسأل البينة فلم تكن بينة فقال لهما عليه السلام: قوما حتى انظر في أمركما فقاما من عنده فأتى داود في منامه فقيل له: اقتل الرجل المدعى عليه فقال: إن هذه رؤيا ولست أعجل فأتى الليلة الثانية فقيل له: اقتل الرجل فلم يفعل ثم أتى الليلة الثالثة فقيل له: اقتل الرجل أو تأتيك العقوبة من الله تعالى فأرسل عليه السلام إلى الرجل فقال: إن الله تعالى أمرني أن أقتلك فقال: تقتلني بغير بينة ولا ثبت قال نعم: والله لأنفذن أمر الله عزَّ وجلّ فيك فقال له الرجل لا تعجل علي حتى أخبرك إني والله ما أخذت بهذا

الذنب ولكنني كنت اغتلتُ والد هذا فقتلته فبذلك أخذت فأمر به داود عليه السلام فقتل فعظمت بذلك هيبته في بني إسرائيل وشد به ملكه.

وقرأ ابن أبي عبلة بشد الدال ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾ النبوة وكمال العلم وإتقان العمل، وقيل الزبور وعلم الشرائع، وقيل كل كلام وافق الحكمة فهو حكمة ﴿وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ أي فصل الخصام بتمييز الحق عن الباطل فالفصل بمعناه المصدري والخطاب الخصام لاشتماله عليه أو لأنه أحد أنواعه خص به لأنه المحتاج للفصل أو الكلام الذي يفصل بين الصحيح والفاسد، والحق والباطل، والصواب والخطأ وهو كلامه عليه السلام في القضايا والحكومات وتدابير الملك والمشورات، فالخطاب الكلام المخاطب به والفصل مصدر بمعنى اسم الفاعل أو الكلام الذي ينبه المخاطب على المقصود من غير التباس يراعى فيه مظان الفصل والوصل والعطف والاستئناف والإضمار والحذف والتكرار ونحوها فالخطاب بمعنى الكلام المخاطب به أيضاً والفصل مصدر إما بمعنى اسم الفاعل أي الفاصل المميز للمقصود عن غيره أو بمعنى اسم المفعول أي المقصود أي الذي فصل من بين أفراد الكلام بتخليصه ومراعاة ما سمعت فيه أو الذي فصل بعضه عن بعض ولم يجعل ملبساً مختلطاً.

وجوز أن يراد بفصل الخطاب الخطاب القصد الذي ليس فيه اختصار مخل ولا اشباع ممل كما جاء في وصف كلام نبينا ﷺ «لا نزر ولا هذر» فالخطاب بمعنى الكلام المخاطب به كما سلف والفصل إما بمعنى الفاصل لأن القصد أي المتوسط فاصل بين الطرفين وهما هنا المختصر المخل والمطنب الممل أو لأن الفصل والتمييز بين المقصود وغيره أظهر تحققاً في الكلام القصد لما في أحد الطرفين من الإخلال وفي الطرف الآخر من الإملال المفضي إلى إهمال بعض المقصود وإما بمعنى المفصول لأن الكلام المذكور مفصول مميز عند السامع على المخل والممل بسلامته عن الاخلال والاملال، والإضافة على الوجه الأول من إضافة المصدر إلى مفعوله وعلى ما عداه من إضافة الصفة لموصوفها، وما روي عن علي كرم الله تعالى وجهه والشعبي وحكاه الطبرسي عن الأكثرين من أن فصل الخطاب هو قوله: البينة على المدعي واليمين على المدعى عليه فقيل هو داخل في فصل الخطاب على الوجه الثاني فإن فيه الفصل بين المدعي والمدعى عليه وهو من الفصل بين الحق والباطل، وجاء في بعض الروايات هو إيجاب البينة على المدعي واليمين على المدعى عليه فلعله أريد أن فصل الخطاب على الوجه الأول أعني فصل الخصام كان بذاك وجعله نفسه على سبيل المبالغة، وما روي عن ابن عباس ومجاهد والسدي من أنه القضاء بين الناس والحق والإصابة والفهم فهو ليس شيئاً وراء ما ذكر أولاً، وأخرج ابن جرير عن الشعبي وابن أبي حاتم والديلمي عن أبي موسى الأشعري أن فصل الخطاب الذي أوتيه عليه السلام هو أما بعد، وذكر أبو موسى أنه عليه السلام أول من قال ذلك فقيل: هو داخل في فصل الخطاب وليس فصل الخطاب منحصراً فيه لأنه يفصل المقصود عما سيق مقدمة له من الحمد والصلاة أو من ذكر الله عزَّ وجلّ مطلقاً، وظاهره اعتبار فصل الخطاب بمعنى الكلام الذي ينبه المخاطب على المقصود إلى آخر ما مر، ويوهم صنيع بعضهم دخوله فيه باعتبار المعنى الثاني لفصل الخطاب ولا يتسنى ذلك، وحمل الخبر على الانحصار مما لا ينبغي إذ ليس في إيتاء هذا اللفظ كثير امتنان، ثم الظاهر أن المراد من أما بعد ما يؤدي مؤداه من الألفاظ لا نفس هذا اللفظ لأنه لفظ عربي وداود لم يكن من العرب ولا نبيهم بل ولا بينهم فالظاهر أنه لم يكن يتكلم بالعربية، والذي يترجح عندي أن المراد بفصل الخطاب فصل الخصام وهو يتوقف على مزيد علم وفهم وتفهيم وغير ذلك فإيتاؤه يتضمن إيتاء جميع ما يتوقف هو عليه وفيه من الامتنان ما فيه، ويلائمه أتم ملاءمة قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ﴾ استفهام يراد منه التعجب والتشويق إلى استماع ما في حيزه لإيذانه بأنه من الأنباء

البديعة التي حقها أن تشيع فيما بين كل حاضر وبادي، والجملة قيل عطف على ﴿إنا سخرنا﴾ من قبيل عطف القصة على القصة، وقيل: على اذكر.

والخصم في الأصل مصدر لخصمه بمعنى خاصمه أو غلبه ويراد منه المخاصم ويستعمل للمفرد والمذكر وفروعهما؛ وجاء للجمع هنا على ما قال جمع لظاهر ضمائره بعد وربما ثني وجمع على خصوم واخصام، وأصل المخاصمة على ما قال الراغب أن يتعلق كل واحد بخصم الآخر أي بجانبه أو أن يجذب كل واحد خصم الجوالق من جانب.

﴿إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ أي علوا سوره ونزلوا إليه فتفعل للعلو على أصله نحو تسنم الجمل أي علا سنامه وتذرّى الجبل علا ذروته، والسور الجدار المحيط بالمرتفع، والمحراب الغرفة وهي العلية ومحراب المسجد مأخوذ منه لانفصاله عما عداه أو لشرفة المنزل منزلة علوه قاله الخفاجي، وقال الراغب: محراب المسجد قيل: سمي بذلك لأنه موضع محاربة الشيطان والهوى، وقيل: لكون حق الإنسان فيه أن يكون حريباً من أشغال الدنيا ومن توزع الخاطر، وقيل: الأصل فيه أن محراب البيت صدر المجلس ثم لما اتخذت المساجد سمي صدره به، وقيل: بل المحراب أصله في المسجد وهو اسم خص به صدر المجلس فسمي صدر البيت محراباً تشبيهاً بمحراب المسجد وكأن هذا أصح انتهى، وصرح الجلال السيوطي أن المحاريب التي في المساجد بهيئتها المعروفة اليوم لم تكن في عهد النبي ﷺ وله رسالة في تحقيق ذلك، وإذا متعلقة بمحذوف مضاف إلى الخصم أي نبأ تحاكم الخصم إذ تسوروا أو بنبأ على أن المراد به الواقع في عهد داود عليه السلام، وإسناد الإتيان إليه على حذف مضاف أي قصة نبأ الخصم، وجوز تعلقها به بلا حذف على جعل إسناد الإتيان إليه مجازياً أو بالخصم وهو في الأصل مصدر والظرف قنوع يكفيه رائحة الفعل، وزعم الحوفي تعلقها بأتى ولا يكاد يصح لأن إتيان نبأ الخصم لم يكن وقت تسورهم المحراب ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ﴾ إذ هذه بدل من إذ الأولى بدل كل من كل بأن يجعل زمان التسور وزمان الدخول لقربهما بمنزلة المتحدين أو بدل اشتمال بأن يعتبر الامتداد أو ظرف لتسوروا ويعتبر امتداد وقته وإلا فالتسور ليس في وقت الدخول، ويجوز أن يراد بالدخول إرادته وفيه تكلف لأنه مع كونه مجازاً لا يتفرع عليه قوله تعالى: ﴿فَفَزِعَ مِنْهُم﴾ فيحتاج إلى تفريعه على التسور وهو أيضاً كما ترى، وجوز تعلقه باذكر مقدراً، والفزع انقباض ونفار يعتري الإنسان من الشيء المخيف. روي أن الله تعالى بعث إليه ملكين في صورة إنسانين قيل هما جبريل وميكائيل عليهما السلام فطلبا أن يدخلا عليه فوجداه في يوم عبادته فمنعهما الحرس فتسورا عليه المحراب فلم يشعر إلا وهما بين يديه جالسان، وكان عليه السلام كما روي عن ابن عباس جزأ زمانه أربعة أجزاء يوماً للعبادة ويوماً للقضاء ويوماً للاشتغال بخاصة نفسه ويوماً لجميع بني إسرائيل فيعظهم ويبكيهم، وسبب الفزع قيل: إنهم نزلوا من فوق الحائط وفي يوم الاحتجاب والحرس حوله لا يتركون من يريد الدخول عليه فخاف عليه السلام أن يؤذوه لا سيما على ما حكي أنه كان ليلاً، وقيل: إن الفزع من أجل أنه ظن أن أهل مملكته قد استهانوه حتى ترك بعضهم الاستئذان فيكون في الحقيقة فزعاً من فساد السيرة لا من الداخلين، وقال أبو الأحوص: فزع منهم لأنهما دخلا عليه وكل منهما آخذ برأس صاحبه، وقيل: فزع منهم لما رأى من تسورهم موضعاً مرتفعاً جداً لا يمكن أن يرتقى إليه بعد أشهر مع أعوان وكثرة عدد، والظاهر أن فزعه ليس إلا لتوقع الأذى لمخالفة المعتاد فلما رأوه وقد فزع ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ وهو استئناف وقع جواباً عن سؤال نشأ من حكاية فزعه عليه السلام كأنه قيل: فماذا قالوا عند مشاهدتهم فزعه؟ فقيل: قالوا له إزالة لفزعه لا تخف ﴿خَصْمَانِ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي نحن خصمان، والمراد هنا فوجان لا شخصان متخاصمان وقد تقدم

أن الخصم يشمل الكثير فيطابق ما مر من جميع الضمائر، ويؤيده على ما قيل قوله سبحانه: ﴿**بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ**﴾ فإن نحو هذا أكثر استعمالاً في قول الجماعة، وقراءة بعضهم ﴿**بغى بعضهم على بعض**﴾ أظهر في التأييد، ولا يمنع ذلك كون التحاكم إنما وقع بين اثنين لجواز أن يصحب كلاً منهما من يعاضده والعرف يطلق الخصم على المخاصم ومعاضده وإن لم يخاصم بالفعل، وجوز أن يكون المراد اثنين والضمائر المجموعة مراد بها التثنية فيتوافقان وأيد بقوله سبحانه ﴿**إن هذا أخي**﴾ وقيل: يجوز أن يقدر خصمان مبتدأ خبره محذوف أي فينا خصمان وهو كما ترى، والظاهر أن جملة ﴿**بغى**﴾ الخ في موضع الصفة لخصمان وأن جملة نحن خصمان الخ استئناف في موضع التعليل للنهي فهي موصولة بلا تخف، وجوز أن يكونوا قد قالوا لا تخف وسكتوا حتى سألوا ما أمركم؟ فقالوا: خصمان بغى إلخ أي جار بعضنا على بعض واستشكل قولهم هذا على القول بأنهم كانوا ملائكة بأنه إخبار عن أنفسهم بما لم يقع منهم وهو كذب والملائكة منزهون عنه. وأجيب بأنه إنما يكون كذباً لو كانوا قصدوا به الإخبار حقيقة أما لو كان فرضاً لأمر صوروه في أنفسهم لما أتوا على صورة البشر كما يذكر العالم إذا صور مسألة لأحد أو كان كناية وتعريضاً بما وقع من داود عليه السلام فلا، وقرأ أبو يزيد الجرار عن الكسائي «خِصمان» بكسر الخاء.

﴿**فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ**﴾ أي ولا تتجاوزه، وقرأ أبو رجاء وابن أبي عبلة وقتادة والحسن وأبو حيوة «ولا تشطط» من شط ثلاثياً أي ولا تبعد عن الحق، وقرأ قتادة أيضاً «تشطّ» مدغماً من أشط رباعياً، وقرأ زر «تشاطط» بضم التاء وبألف على وزن تفاعل مفكوكاً، وعنه أيضاً «تشطط» من شطط، والمراد في الجميع لا تجر في الحكومة وأرادوا بهذا الأمر والنهي إظهار الحرص على ظهور الحق والرضا به من غير ارتياب بأنه عليه السلام يحكم بالحق ولا يجوز في الحكم وأحد الخصمين قد يقول نحو ذلك للإيماء إلى أنه المحق وقد يقوله اتهاماً للحاكم وفيه حينئذٍ من الفظاظة ما فيه؛ وعلى ما ذكرنا أولاً فيه بعض فظاظة، وفي تحمل داود عليه السلام لذلك منهم دلالة على أنه يليق بالحاكم تحمل نحو ذلك من المتخاصمين لا سيما إذا كان ممن معه الحق فحال المرء وقت التخاصم لا يخفى.

والعجب من حاكم أو محكم أو من للخصوم نوع رجوع إليه كالمفتي كيف لا يقتدي بهذا النبي الأواب عليه الصلاة والسلام في ذلك بل يغضب كل الغضب لأدنى كلمة تصدر ولو فلتة من أحد الخصمين يتوهم منها الحط لقدره ولو فكر في نفسه لعلم أنه بالنسبة إلى هذا النبي الأواب لا يعدل والله العظيم متك ذباب، اللهم وفقنا لأحسن الأخلاق واعصمنا من الأغلاط ﴿**وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ**﴾ أي وسط طريق الحق بزجر الباغي عما سلكه من طريق الجور وإرشاده إلى منهاج العدل ﴿**إِنَّ هَذَا أَخِي**﴾ الخ استئناف لبيان ما فيه الخصومة، والمراد بالأخوة أخوة الدين أو أخوة الصداقة والإلفة أو أخوة الشركة والخلطة لقوله تعالى: ﴿**وإن كثيراً من الخلطاء**﴾ وكل واحد من هذه الأخوات يدلي بحق مانع من الاعتداء والظلم، وقيل: هي أخوة في النسب وكان المتحاكمان أخوين من بني إسرائيل لأب وأم، ولا يخفى أن المشهور أنهما كانا من الملائكة بل قيل لا خلاف في ذلك. و ﴿**أخي**﴾ بيان عند ابن عطية وبدل أو خبر لأن عند الزمخشري، ولعل المقصود بالإفادة على الثاني قوله تعالى: ﴿**لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ**﴾ وهي الأنثى من بقر الوحش ومن الضأن والشاء الجبلي وتستعار للمرأة كالشاة كثيراً نحو قول ابن عون:

أنا أبوهن ثلاث هنه ... رابعة في البيت صغراهنه
ونعجتي خمساً توفيهنه ... ألا فتى سمح يغذيهنه

وقول عنترة:

يا شاة ما قنص لمن حلت له ... حرمت عليَّ وليتها لم تحرم

وقول الأعشى:

فرميت غفلة عينه عن شاته　　　فأصبت حبة قلبها وطحالها

والظاهر إبقاؤها على حقيقتها هنا ويراد بها أنثى الضان، وجوز إرادة الامرأة، وسيأتي إن شاء تعالى ما يتعلق بذلك، وقرأ الحسن وزيد بن علي ﴿تسع وتسعون﴾ بفتح التاء فيهما، وكثر مجيء الفعل والفعل بمعنى واحد نحو السكر والسكر ولا يبعد ذلك في التسع لا سيما وقد جاور العشر، والحسن وابن هرمز «نِعْجَةً» بكسر النون وهي لغة لبعض بني تميم، وقرأ ابن مسعود «ولي نعجة أنثى» ووجه ذلك الرمخشري بأنه يقال امرأة أنثى للحسناء الجميلة والمعنى وصفها بالعراقة في لين الأنوثة وفتورها وذلك أملح لها وأزيد في تكسرها وتثنيها ألا ترى إلى وصفهم لها بالكسول والمكسال. وقوله:

فتور القيام قطيع الكلام　　　لغوب العشاء إذا لم تنم

وقول قيس بن الخطيم:

تنام عن كبر شأنها فإذا　　　قامت رويداً تكاد تنغرف

وفي الكلام عليه توفية حق القسمين أعني ما يرجع إلى الظالم وما يرجع إلى المظلوم كأنه قيل: إنه مع وفور استغنائه وشدة حاجتي ظلمني حقي، وهذا ظاهر إذا كانت النعجة مستعارة وإلا فالمناسب تأكيد الأنوثة بأنها كاملة فيها فيكون أدر وأحلب لما يطلب منها على أن فيه رمزاً إلى ما روي عنه ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ ملكنيها، وحقيقته اجعلني أكفلها كما أكفل ما تحت يدي، وقال ابن كيسان: اجعلها كفلي أي نصيبي، وعن ابن عباس وابن مسعود تحول لي عنها وهو بيان للمراد وألصق بوجه الاستعارة ﴿وَعَزَّنِي﴾ أي غلبني، وفي المثل من عز بزاي من غلب سلب وقال الشاعر:

قطاة عزها شرك فباتت　　　تجاذبه وقد علق الجناح

﴿فِي الْخِطَابِ﴾ أي مخاطبته إياي محاجة بأن جاء بحجاج لم أطق رده، وقال الضحاك: أي إن تكلم كان أفصح مني وإن حارب كان أبطش مني، وقال ابن عطية: كان أوجه مني وأقوى فإذا خاطبته كان كلامه أقوى من كلامي وقوته أعظم من قوتي، وقيل: أي غلبني في مغالبته إياي في الخطبة على أن الخطاب من خطبت المرأة وخطبها هو فخاطبني خطاباً أي غالبني في الخطبة فغلبني حيث زوجها دوني، وهو قول من يجعل النعجة مستعارة، وتعقبه صاحب الكشف فقال: حمل الخطاب على المغالبة في خطبة النساء لا يلائم فصاحة التنزيل لأن التمثيل قاصر عنه لنبو قوله: ﴿ولي نعجة﴾ عن ذلك أشد النبوة وكذا قوله: ﴿أكفلنيها﴾ إذ ينبغي على ذلك أن يخاطب به ولي المخطوبة إلا أن يجعل الأول مجازاً عما يؤول إليه الحال ظناً والشرط في حسنه تحقق الانتهاء كما في ﴿أعصر خمراً﴾ [يوسف: ٣٦] والثاني مجاز عن تركه الخطبة، ولا يخفى ما فيهما من التعقيد، ثم إنه لتصريحه ينافي الغرض من التمثيل وهو التنبيه على عظم ما كان منه عليه السلام وأنه أمر يستحي من كشفه مع الستر عليه والاحتفاظ بحرمته انتهى فتأمل.

وقرأ أبو حيوة وطلحة «وعزني» بتخفيف الزاي، قال أبو الفتح: حذفت إحدى الزائين تخفيفاً كما حذفت إحدى السينين في قول أبي زبيد:

أحسن به فهن إليه شوس

وروي كذلك عن عاصم.

وقرأ عبد الله وأبو وائل ومسروق والضحاك والحسن وعبيد بن عمير «وعازني» بألف بعد العين وتشديد الزاي أي وغالبني.

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ﴾ جواب قسم محذوف قصد به المبالغة في إنكار فعل ذي النعجات الكثيرة وتهجين طمعه، وليس هذا ابتداء من داود عليه السلام إثر فراغ المدعي من كلامه ولا فتياً بظاهر كلامه قبل ظهور الحال لديه فقيل: ذلك على تقدير ﴿لقد ظلمك﴾ إن كان ما تقول حقاً؛ وقيل ثم كلام محذوف أي فأقر المدعى عليه فقال ﴿لقد ظلمك﴾ الخ ولم يحك في القرآن اعتراف المدعى عليه لأنه معلوم من الشرائع كلها أنه لا يحكم الحاكم إلا بعد إجابة المدعى عليه، وجاء في رواية أنه عليه السلام لما سمع كلام الشاكي قال للآخر ما تقول فأقر فقال له: لترجعن إلى الحق أو لأكسرن الذي فيه عيناك، وقال للثاني: ﴿لقد ظلمك﴾ الخ فتبسما عند ذلك وذهبا ولم يرهما لحينه، وقيل: ذهبا نحو السماء بمرأى منه، وقال الحليمي: إنه عليه السلام رأى في المدعي مخايل الضعف والهضيمة فحمل أمره على أنه مظلوم كما يقول فدعاه ذلك إلى أن لا يسأل المدعى عليه فاستعجل بقوله: ﴿لقد ظلمك﴾ ولا يخفى أنه قول ضعيف لا يعول عليه لأن مخايل الصدق كثيراً ما تظهر على الكاذب والحيلة أكثر من أن تحصى قديماً وحديثاً؛ وفيما وقع من إخوة يوسف عليه السلام ولم يكونوا أنبياء على الأصح ما يزيل الاعتماد في هذا الباب، وبعض الجهلة ذهب إلى نحو هذا، وزعم أن ذنب داود عليه السلام ما كان إلا أنه صدق أحدهما على الآخر وظلمه قبل مسألته، والسؤال مصدر مضاف إلى مفعوله وتعديته إلى مفعول آخر بإلى لتضمنه معنى الإضافة كأنه قيل: ﴿لقد ظلمك﴾ بإضافة نعجتك إلى نعاجه على وجه السؤال والطلب أو لقد ظلمك بسؤال نعجتك مضافة إلى نعاجه ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ﴾ أي الشركاء الذين خلطوا أموالهم الواحد خليط وهي الخلطة وقد غلبت في الماشية وفي حكمها عند الفقهاء كلام ذكر بعضاً منه الزمخشري ﴿لَيَبْغِي﴾ ليتعدى ﴿بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ غير مراع حق الشركة والصحبة.

﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ منهم فإنهم يتحامون عن البغي والعدوان ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ أي وهم قليل جداً فقليل خبر مقدم و ﴿هم﴾ مبتدأ وما زائدة، وقد جاءت المبالغة في القلة من التنكير وزيادة ما الإبهامية ويتضمن ذلك التعجب فإن الشيء إذا بولغ فيه كان مظنة للتعجب منه فكأنه قيل: ما أقلهم، والجملة اعتراض تذييلي، وقرىء «لَيَبْغِي» بفتح الياء على تقدير حذف النون الخفيفة وأصله ليبغين كما قال طرفة بن العبد:

اضرب عنك الهموم طارقها ... ضربك بالسيف قونس الفرس

يريد اضربن، ويكون على تقدير قسم محذوف وذلك القسم وجوابه خبر لأن، وعلى قراءة الجمهور اللام هي الواقعة في خبر أن وجملة ﴿يبغي﴾ الخ هو الخبر، وقرىء «ليبغِ» بحذف الياء للتخفيف كما في قوله تعالى: ﴿والليل إذا يسر﴾ [الفجر: ٤] وقوله:

محمد تفد نفسك كل نفس ... إذا ما خفت من أمر تبالا

والظاهر أن قوله تعالى: ﴿وإن كثيراً من الخلطاء﴾ الخ من كلام داود عليه السلام تتمة لما ذكره أولاً وقد نظر فيه ما كان عليه التداعي كما هو ظاهر التعبير بالخلطاء فإنه غالب في الشركاء الذين خلطوا أموالهم في الماشية وجعل على وجه استعارة النعجة ابتداء تمثيل لم ينظر فيه إلى ما كان عليه التداعي كأنه قيل: وإن البغي أمر يوجد فيما

بين المتلابسين وخص الخلطاء لكثرته فيما بينهم فلا عجب مما شجر بينكم ويترتب عليه قصد الموعظة الحسنة والترغيب في إيثار عادة الخلطاء الذين حكم لهم بالقلة وأن يكره إليهم الظلم والاعتداء الذي عليه أكثرهم مع التأسف على حالهم وأن يسلي المظلوم عما جرى عليه من خليطه وأن له في أكثر الخلطاء أسوة أو كأنه قيل: إن هذا الأمر الذي جرى بينكما أيها الخليطان كثيراً ما يجري بين الخلطاء فينظر فيه إلى خصوص حالهما، قال في الكشف: والمحمل الأظهر هذا.

وعلى التقديرين هو تذييل يترتب عليه ما ذكر. ثم قال: ولعل الأظهر حمل الخلطاء على المتعارفين والمتضادين وأضرابهم ممن بينهم ملابسة شديدة وامتزاج على نحو:

إن الخليط أجدوا البين فانجردوا

والغلبة في الشركاء الذين خلطوا أموالهم في عرف الفقهاء فذكر الخلطاء لا ينافي ذكر الحلائل إذ لم ترد الخلطة اهـ. وأنت خبير بأن ذلك وإن لم يناف ذكر الحلائل لكن أولوية عدم إرادة الحلائل وإبقاء النعجة على معناها الحقيقي مما لا ينبغي أن ينتطح فيه كبشان ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ الظن مستعار للعلم الاستدلالي لما بينهما من المشابهة الظاهرة، وفي البحر لما كان الظن الغالب يقارب العلم استعير له، فالمعنى وعلم داود وأيقن بما جرى في مجلس الحكومة أن الله تعالى ابتلاه، وقيل لما قضى بينهما نظر أحدهما إلى صاحبه فضحك ثم صعدا إلى السماء حيال وجهه فعلم بذلك أنه تعالى ابتلاه، وجوز إبقاء الظن على حقيقته، وأنكر ابن عطية مجيء الظن[1] بعد العلم اليقيني وقال: لسنا نجده في كلام العرب وإنما هو توقيف بين معتقدين غلب أحدهما على الآخر وتوقعه العرب على العلم الذي ليس بواسطة الحواس فإنه اليقين التام ولكن يخلط الناس في هذا ويقولون: ظن بمعنى أيقن إلى آخر ما أطال، ويفهم منه أن إطلاق الظن على العلم الاستدلالي حقيقة والمشهور أنه مجاز، وظاهر ما بعد أنه هنا بمعنى العلم و ﴿أنما﴾ المفتوحة على ما حقق بعض الأجلة لا تدل على الحصر كالمكسورة، ومن قال بإفادتها إياه حملاً على المكسورة كالزمخشري لم يدع الاطراد فليس المقصود هاهنا قصر الفتنة عليه عليه السلام لأنه يقتضي انفصال الضمير، ولا قصر ما فعل به على الفعل لأن كل فعل ينحل إلى عام وخاص فمعنى ضربته فعلت ضربه على أن المعنى ما فعلنا به إلا الفتنة كما قال أبو السعود لأنه على ما قيل تعسف وإلغاز، ومن يدعي الاطراد يلتزم الثاني من القصرين المنفيين ويمنع كون ما ذكر تعسفاً وإلغازاً.

وقرأ عمر بن الخطاب وأبو رجاء والحسن بخلاف عنه «فَتَّنَّاهُ» بتشديد التاء والنون مبالغة، والضحاك «افتناه» كقوله على ما نقله الجوهري عن أبي عبيدة:

لئن فتنتني لهي بالأمس افتنت سعيداً فأمسى قد غوى كل مسلم

وقتادة وأبو عمرو في رواية «أنما فَتَنَاهُ» بضمير التثنية وهو راجع إلى الخصمين ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ﴾ إثر ما علم أن ما صدر عنه ذنب ﴿وَخَرَّ راكعاً﴾ أي ساجداً على أن الركوع مجاز عن السجود لأنه لإفضائه إليه جعل كالسبب ثم تجوز به عنه أو هو استعارة لمشابهته له في الانحناء والخضوع والعرب تقول نخلة راكعة ونخلة ساجدة، وقال الشاعر:

---

(١) قوله بعد العلم هكذا في خط المؤلف ولعله بمعنى العلم اهـ.

فخر على وجهه راكعاً ... وتاب إلى الله من كل ذنب

وقيل أي خر للسجود راكعاً أي مصلياً على أن الركوع بمعنى الصلاة لاشتهار التجوز به عنها، وتقدير متعلق لخر يدل عليه غلبة فحواه لأنه بمعنى سقط على الأرض كما في قوله تعالى: ﴿فخر عليهم السقف من فوقهم﴾ [النحل: ٢٦].

وقال الحسين بن الفضل: أي خر من ركوعه أي سجد بعد أن كان راكعاً، وظاهره إبقاء الركوع على حقيقته وجعل خر بمعنى سجد، والجمهور على ما قدمنا، واستشهد به أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه وأصحابه على أن الركوع يقوم مقام السجود في سجدة التلاوة وهو قول الخطابي من الشافعية ولا فرق في ذلك بين الصلاة وخارجها كما في البزازية وغيرها. وفي الكشف قالوا أي الحنفية: إن القياس يقتضي أن يقوم الركوع مقام السجود لأن الشارع جعله ركوعاً وتجوز بأحدهما عن الآخر لقيامه مقامه وإغنائه غناءه.

وأيدوه بأن السجود لم يؤمر به لعينه ولهذا لم يشرع قربة مقصودة بل للخضوع وهو حاصل بالركوع «فإن قلت»: إن سجدة داود عليه السلام كانت سجدة شكر والكلام في سجدة التلاوة قلت: لا عليَّ في ذلك لأني لم أستدل بفعل داود عليه السلام بل بجعل الشارع إياه مغنياً غناء السجود، ولأصحابنا يعني الشافعية أن يمنعوا أن علاقة المجاز ما ذكروه بل مطلق الميل عن الخضوع المشترك بينهما أو لأنه مقدمته كما قال الحسن: لا يكون ساجداً حتى يركع[1] أو خر مصلياً والمعتبر غاية الخضوع وليس في الركوع اهـ.

ولا يخفى أن المعروف من النبي ﷺ السجود ولم نقف في خبر على أنه عليه الصلاة والسلام ركع للتلاوة بدله ولو مرة وكذا أصحابه رضي الله تعالى عنهم، وليس أمر القياس المذكور بالقوى فالأحوط فعل الوارد لا غير بل قال بعض الشافعية: إن قول الأصحاب لا يقوم الركوع مقام السجدة ظاهر في جواز الركوع وهو بعيد والقياس حرمته، وعنى صاحب الكشف بما ذكر في السؤال من أن سجدة داود عليه السلام كانت سجدة شكر أنها كانت كذلك من نبينا ﷺ فقد أخرج النسائي وابن مردويه بسند جيد عن ابن عباس أن النبي ﷺ سجد في ﴿ص﴾ وقال: سجدها داود توبة ونسجدها شكراً أي على قبول توبة داود عليه السلام من خلاف الأولى بعلى شأنه وقد لقي عليه السلام على ذلك من القلق المزعج ما لم يلقه غيره كما ستعلمه إن شاء الله تعالى، وآدم عليه السلام وإن لقي أمراً عظيماً أيضاً لكنه كان مشوباً بالحزن على فراق الجنة فجوزي لذلك بأمر هذه الأمة بمعرفة قدره وأنه أنعم عليه نعمة تستوجب دوام الشكر إلى قيام الساعة، ولقصته على ما في بعض الروايات شبه لما وقع لنبينا ﷺ في قصة زينب المقتضي للعتب عليه بقوله تعالى: ﴿وتخفي في نفسك﴾ [الأحزاب: ٣٧] الآية فيكون ذكرها مذكراً له عليه الصلاة والسلام وما وقع وما آل الأمر إليه مما هو أرفع وأجل فكأن ذلك اقتضى دوام الشكر بإظهار السجود له، ولعل ذلك وجه تخصيص داود بذلك مع وقوع نظيره لغيره من الأنبياء عليهم السلام فتأمله، ولا تغفل عن كون السورة مكية على الصحيح وقصة زينب رضي الله تعالى عنها مدنية، وينحل الإشكال بالتزام كون السجود بعد القصة فلينقر، وهي عند الحنفية إحدى سجدات التلاوة الواجبة كما ذكر في الكتب الفقهية، ومن فسر ﴿خر راكعاً﴾ بخر للسجود مصلياً ذهب إلى أن ما وقع من داود عليه السلام صلاة مشتملة على السجود وكانت للاستغفار وقد جاء في شريعتنا مشروعية صلاة ركعتين

---

(١) قوله: أو خر مصلياً: هكذا في خط المؤلف، وانظر موقع هذه الجملة هنا.

عند التوبة لكن لم نقف في خبر على ما يشعر بحمل ما هنا على صلاة داود عليه السلام لذلك وإنما وقفنا على أنه سجد ﴿وَأَنَابَ﴾ أي رجع إلى الله تعالى بالتوبة ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ أي ما استغفرنا منه.

أخرج أحمد وعبد بن حميد عن يونس بن حبان أن داود عليه السلام بكى أربعين ليلة حتى نبت العشب حوله من دموعه ثم قال: يا رب قرح الجبين ورقأ الدمع وخطيئتي علي كما هي فنودي يا داود أجائع فتطعم؟ أم ظمآن فتسقى؟ أم مظلوم فينتصر لك؟ فنحب نحبة هاج ما هنالك من الخضرة فغفر له عند ذلك، وفي رواية عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن مجاهد أنه خر ساجداً أربعين ليلة حتى نبت من دموع عينيه من البقل ما غطى رأسه ثم قال الخ، وروي أنه لم يشرب ماء إلا وثلثاه من دمعه وجهد نفسه راغباً إلى الله تعالى في العفو عنه حتى كاد يهلك واشتغل بذلك عن الملك حتى وثب ابن له يقال له إيشا على ملكه ودعا إلى نفسه فاجتمع إليه أهل الزيغ من بني إسرائيل فلما غفر له حاربه فهزمه.

وأخرج أحمد عن ثابت أنه عليه السلام اتخذ سبع حشايا وحشاهن من الرماد حتى أنفذها دموعاً ولم يشرب شراباً إلا مزجه بدمع عينيه، وأخرج عن وهب أنه اعتزل النساء وبكى حتى رعش وخددت الدموع في وجهه، ولم ينقطع خوفه عليه السلام وقلقه بعد المغفرة، فقد أخرج أحمد والحكيم الترمذي وابن جرير عن عطاء الخراساني أن داود نقش خطيئته في كفه لكي لا ينساها وكان إذا رآها اضطربت يداه.

وأخرج أحمد وغيره عن ثابت عن صفوان وعبد بن حميد من طريق عطاء بن السائب عن أبي عبد الله الجدلي ما رفع داود رأسه إلى السماء بعد الخطيئة حتى مات ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى﴾ قربة بعد المغفرة.

﴿وَحُسْنَ مَآب﴾ وحسن مرجع في الجنة، وأخرج عبد بن حميد عن عبيد بن عمير أنه قال في الآية: يدنو من ربه سبحانه حتى يضع يده عليه، وهو إن صح من المتشابه. وأخرج أحمد في الزهد والحكيم الترمذي وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مالك بن دينار أنه قال فيها: يقام داود عليه السلام يوم القيامة عند ساق العرش ثم يقول الرب عزَّ وجلّ: يا داود مجدني اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم الذي كنت تمجدني به في الدنيا فيقول: يا رب كيف وقد سلبته؟ فيقول: إني راده عليك اليوم فيندفع بصوت يستغرق نعيم أهل الجنة.

وهذا واختلف في أصل قصته التي ترتب عليها ما ترتب فقيل: إنه عليه السلام رأى امرأة رجل يقال له أوريا من مؤمني قومه ـ وفي بعض الآثار أنه وزيره ـ فمال قلبه إليها فسأله أن يطلقها فاستحى أن يرده ففعل فتزوجها وهي أم سليمان وكان ذلك جائزاً في شريعته معتاداً فيما بين أمته غير مخل بالمروءة حيث كان يسأل بعضهم بعضاً أن ينزل له عن امرأته فيتزوجها إذا أعجبته، وقد كان الرجل من الأنصار في صدر الإسلام بعد الهجرة إذا كانت له زوجتان نزل عن إحداهما لمن اتخذه أخاً له من المهاجرين لكنه عليه السلام لعظم منزلته وارتفاع مرتبته وعلو شأنه نبه بالتمثيل على أنه لم يكن ينبغي له أن يتعاطى ما يتعاطاه آحاد أمته ويسأل رجلاً ليس له إلا امرأة واحدة أن ينزل عنها فيتزوجها مع كثرة نسائه بل كان يجب عليه أن يغالب ميله الطبيعي ويقهر نفسه ويصبر على ما امتحن به، وقيل إنه أضمر في نفسه إن قتل أوريا تزوج بها وإليه مال ابن حجر في تحفته.

وقيل لم يكن أوريا تزوجها بل كان خطبها ثم خطبها هو فآثره عليه السلام أهلها فكان ذنبه أن خطب على خطبة أخيه المؤمن، وفي بعض الآثار أنه فعل ذلك ولم يكن عالماً بخطبة أخيه فعوتب على ترك السؤال هل خطبها أحد أم لا؟ وقيل إنه كان في شريعته أن الرجل إذا مات وخلف امرأة فأولياؤه أحق بها إلا أن يرغبوا عن التزوج بها فلما قتل أوريا خطب امرأته ظاناً أن أولياءه رغبوا عنها فلما سمعوا منعتهم هيبته وجلالته أن يخطبوها.

وقيل إنه كان في عبادة فأتاه رجل وامرأة متحاكمين إليه فنظر إلى المرأة ليعرفها بعينها وهو نظر مباح فمالت نفسه ميلاً طبيعياً إليها فشغل عن بعض نوافله فعوتب لذلك، وقيل إنه لم يتثبت في الحكم وظلم المدعى عليه قبل سؤاله لما ناله من الفزع وكانت الخصومة بين المتخاصمين وكانا من الإنس على الحقيقة إما على ظاهر ما قص أو على جعل النعجة فيه كناية عن المرأة، ونقل هذا عن أبي مسلم، والمقبول من هذه الأقوال ما بعد من الإخلال بمنصب النبوة، وللقصاص كلام مشهور لا يكاد يصح لما فيه من مزيد الإخلال بمنصبه عليه السلام.

ولذا قال علي كرم الله تعالى وجهه على ما في بعض الكتب من حدث بحديث داود عليه السلام على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين وذلك حد الفرية على الأنبياء صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين، وهذا اجتهاد منه كرم الله تعالى وجهه، ووجه مضاعفة الحد على حد الأحرار أنهم عليهم السلام سادة السادة وهو وجه مستحسن إلا أن الزين العراقي ذكر أن الخبر نفسه لم يصح عن الأمير كرم الله تعالى وجهه، وقال أبو حيان: الذي نذهب إليه ما دل عليه ظاهر الآية من أن المتسورين المحراب كانوا من الإنس دخلوا عليه من غير المدخل وفي غير وقت جلوسه للحكم وأنه فزع منهم ظاناً أنهم يغتالونه إذ كان منفرداً في محرابه لعبادة ربه عزَّ وجلّ فلما اتضح له أنهم جاؤوا في حكومة وبرز منهم اثنان للتحاكم كما قص الله تعالى وأن داود عليه السلام ظن دخولهم عليه في ذلك الوقت ومن تلك الجهة ابتلاء من الله تعالى له أن يغتالوه فلم يقع ما كان ظنه فاستغفر من ذلك الظن حيث أخلف ولم يكن ليقع مظنونه وخر ساجداً ورجع إلى الله تعالى وأنه سبحانه غفر له ذلك الظن فإنه عزَّ وجل قال ﴿**فغفرنا له ذلك**﴾ ولم يتقدم سوى قوله تعالى: ﴿**وظن داود أنما فتناه**﴾ ونعلم قطعاً أن الأنبياء عليهم السلام معصومون من الخطايا لا يمكن وقوعهم في شيء منها ضرورة إنا لو جوزنا عليهم شيئاً من ذلك بطلت الشرائع ولم يوثق بشيء مما يذكرون أنه وحي من الله تعالى فما حكى الله تعالى في كتابه يمر على ما أراده الله تعالى وما حكى القصاص مما فيه نقص لمنصب الرسالة طرحناه، ونحن كما قال الشاعر:

ونؤثر حكم العقل في كل شبهة ... إذا آثر الأخبار جلاس قصاص

انتهى؛ ويقرب من هذا من وجه ما قيل إن قوماً قصدوا أن يقتلوه عليه السلام فتسوروا المحراب فوجدوا عنده أقواماً فتصنعوا بما قص الله تعالى من التحاكم فعلم غرضهم فقصد أن ينتقم منهم فظن أن ذلك ابتلاء من الله تعالى وامتحان له هل يغضب لنفسه أم لا فاستغفر ربه مما عزم عليه من الانتقام منهم وتأديبهم لحق نفسه لعدوله عن العفو الأليق به، وقيل: الاستغفار كان لمن هجم عليه وقوله تعالى: ﴿**فغفرنا له**﴾ على معنى فغفرنا لأجله، وهذا تعسف وإن وقع في بعض كتب الكلام، وعندي أن ترك الأخبار بالكلية في القصة مما لا يكاد يقبله المنصف، نعم لا يقبل منها ما فيه اخلال بمنصب النبوة ولا يقبل تأويلاً يندفع معه ذلك ولا بد من القول بأنه لم يكن منه عليه السلام إلا ترك ما هو الأولى بعلى شأنه والاستغفار منه وهو لا يخل بالعصمة.

﴿**يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ**﴾ إما حكاية لما خوطب به عليه السلام مبينة لزلفاه عنده عزَّ وجلّ وإما مقول لقول مقدر معطوف على ﴿**غفرنا**﴾ أو حال من فاعله أي وقلنا له أو قائلين له يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض أي استخلفناك على الملك فيها والحكم فيما بين أهلها أو جعلناك خليفة ممن قبلك من الأنبياء القائمين بالحق، وهو على الأول مثل فلان خليفة السلطان إذا كان منصوباً من قبله لتنفيذ ما يريده، وعلى الثاني من قبيل هذا الولد خليفة عن أبيه أي ساد مسده قائم بما كان يقوم به من غير اعتبار لحياة وموت وغيرهما، والأول أظهر والمنة به أعظم فهو عليه السلام خليفة الله تعالى بالمعنى الذي سمعت، قال ابن عطية: ولا يقال خليفة الله تعالى إلا لرسوله وأما

الخلفاء فكل واحد منهم خليفة من قبله، وما يجيء في الشعر من تسمية أحدهم خليفة الله فذلك تجوز كما قال قيس الرقيات:

خليفة الله في بريته جفت بذاك الأقلام والكتب

وقالت الصحابة لأبي بكر: خليفة رسول الله وبذلك كان يدعى إلى أن توفي فلما ولي عمر قالوا خليفة خليفة رسول الله فعدل عنه اختصاراً إلى أمير المؤمنين. وذهب الشيخ الأكبر محيي الدين قدس سره إلى أن الخليفة من الرسل من فوض إليه التشريع ولعله من جملة اصطلاحاته ولا مشاحة في الاصطلاح، واستدل بعضهم بالآية على احتياج الأرض إلى خليفة من الله عزَّ وجلّ وهو قول من أوجب على الله تعالى نصب الإمام لأنه من اللطف الواجب عليه سبحانه، والجماعة لا يقولون بذلك والإمامة عندهم من الفروع وإن ذكروها في كتب العقائد، وليس في الآية ما يلزم منه ذلك كما لا يخفى وتحقيق المطلب في محله ﴿**فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاس بالْحَقِّ**﴾ الذي شرعه الله تعالى لك فالحق خلاف الباطل وأل فيه للعهد، وجوز أن يراد به ما هو من أسمائه تعالى أي بحكم الحق أي الله عزَّ وجلّ للعلم بأن الذوات لا يكون محكوماً بها. وتعقب بأن مقابلته بالهوى تأبى ذلك، ولعل من يقول به يجعل المقابل المضاف المحذوف والمقابلة باعتبار أن حكم الله تعالى لا يكون إلا بالحق، وفرع الأمر بالحكم بالحق على ما تقدم لأن الاستخلاف بكلا المعنيين مقتض للحكم العدل لا سيما على المعنى الأول لظهور اقتضاء كونه عليه السلام خليفة له تعالى أن لا يخالف حكمه حكم من استخلفه بل يكون على وفق إرادته ورضاه.

وقيل المترتب مطلق الحكم لظهور ترتبه على كونه خليفة. وذكر الحق لأن به سداده، وقيل ترتب ذلك لأن الخلافة نعمة عظيمة شكرها العدل. وفي البحر أن هذا أمر بالديمومة وتنبيه لغيره ممن ولي أمور الناس أن يحكم بينهم بالحق وإلا فهو من حيث إنه معصوم لا يحكم إلا بالحق، وعلى نحو هذا يخرج النهي عندي في قوله سبحانه وتعالى: ﴿**وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى**﴾ فإن اتباع الهوى مما لا يكاد يقع من المعصوم. وظاهر السياق أن المراد ولا تتبع هوى النفس في الحكومات، وعمم بعضهم فقال: أي في الحكومات وغيرها من أمور الدين والدنيا.

وأيد بهذا النهي ما قيل إن ذنبه عليه السلام المبادرة إلى تصديق المدعي وتظليم الآخر قبل مساءلته لا الميل إلى امرأة أوريا فكأنه قيل ولا تتبع الهوى في الحكم كما اتبعته أولاً، وفيه أن اتباع الهوى وحكمه بغير ما شرع الله تعالى له غير مناسب لمقامه لا سيما وقد أخبر الله تعالى قبل الإخبار بمسألة المتحاكمين أنه أتاه الحكم وفصل الخطاب فليس هذا إلا إرشاداً لما يقتضيه منصب الخلافة وتنبيهاً لمن هو دونه عليه السلام، وأصل الهوى ميل النفس إلى الشهوة، ويقال للنفس المائلة إليها ويكون بمعنى المهوى كما في قوله:

هواي مع الركب اليمانين مصعد جنيب وجثماني بمكة موثق

وبه فسره هنا بعضهم فقال: أي لا تتبع ما تهوى الأنفس ﴿**فيضِلَّكَ عَنْ سَبيل الله**﴾ بالنصب على أنه جواب النهي، وقيل هو مجزوم بالعطف على النهي مفتوح لالتقاء الساكنين أي فيكون الهوى أو اتباعه سبباً لضلالك عن دلائله التي نصبها على الحق وهي أعم من الدلائل العقلية والنقلية، وصد ذلك عن الدلائل إما لعدم فهمها أو العمل بموجبها، وقوله تعالى: ﴿**إنَّ الَّذينَ يَضلُّونَ عَنْ سَبيل الله لَهُمْ عَذَابٌ شَديدٌ**﴾ تعليل لما قبله ببيان غائلته وإظهار سبيل الله في موضع الاضمار لزيادة التقرير والإيذان بكمال شناعة الضلال عنه، وخبر إن إما جملة ﴿**لهم عذاب**﴾ على أن ﴿**لهم**﴾ خبر مقدم وعذاب مبتدأ وأما الظرف وعذاب مرتفع على الفاعلية بما فيه من الاستقرار.

وقرأ ابن عباس والحسن بخلاف عنهما وأبو حيوة «يُضِلّونَ» بضم الياء قال أبو حيان: وهذه القراءة أعم لأنه لا

يضل إلا ضال في نفسه، وقراءة الجمهور أوضح لأن المراد بالموصول من أضلهم اتباع الهوى وهم بعد أن أضلهم صاروا ضالين.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا نَسُوا﴾ متعلق بالاستقرار والباء سببية وما مصدرية، وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ الحِسَابِ﴾ مفعول ﴿نسوا﴾ على ما هو الظاهر أي ثابت لهم ذلك العذاب بسبب نسيانهم وعدم ذكرهم يوم الحساب؛ وعليه يكون تعليلاً صريحاً لثبوت العذاب الشديد لهم بنسيان يوم الحساب بعد الاشعار بعلية ما يستتبعه ويستلزمه أعني الضلال عن سبيل الله تعالى فإنه مستلزم لنسيان يوم الحساب بالمرة بل هذا فرد من أفراده.

وأخرج ابن جرير عن عكرمة أن الكلام من التقديم والتأخير أي لهم يوم الحساب عذاب شديد بما نسوا فيكون يوم الحساب ظرفاً لقوله تعالى: ﴿لهم﴾ وجعل النسيان عليه مجازاً عن ضلالهم عن سبيل الله بعلاقة السببية ومن ضرورته جعل مفعول النسيان سبيل الله تعالى، وعليه يكون التعليل المصرح به عين التعليل المشعر به بالذات غيره بالعنوان فتدبر.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا باطلاً﴾ أي خلقاً باطلاً فهو منصوب على النيابة عن المفعول المطلق نحو كل هنيئاً أي أكلاً هنيئاً، والباطل ما لا حكمة فيه، وجوز كونه حالاً من فاعل ﴿خلقنا﴾ بتقدير مضاف أي ذوي باطل، والباطل اللعب والعبث أي ما خلقنا ذلك مبطلين لاعبين كقوله تعالى: ﴿وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين﴾ [الأنبياء: ١٦، الدخان: ٣٨] وجوز كونه حالاً من المفعول أيضاً بنحو هذا التأويل، وأياً ما كان فالكلام مستأنف مقرر لما قبله من أمر المعاد والحساب فإن خلق السماء والأرض وما بينهما من المخلوقات مشتملاً على الحكم الباهرة والأسرار البالغة والفوائد الجمة أقوى دليل على عظم القدرة وأنه لا يتعاصاها أمر المعاد والحساب فإن خلق ذلك كذلك مؤذن بأنه عزَّ وجلّ لا يترك الناس إذا ماتوا سدى بل يعيدهم ويحاسبهم ولعله الأولى.

وجوز كون الجملة في موضع الحال في فاعل ﴿نسوا﴾ جيء بها لتفظيع أمر النسيان كأنه قيل: بما نسوا يوم الحساب مع وجود ما يؤذن به وهو كما ترى، وجوز كون ﴿باطلاً﴾ مفعولاً ويفسر بخلاف الحق ويراد به متابعة الهوى كأنه قيل: ما خلقنا هذا العالم للباطل الذي هو متابعة الهوى بل للحق الذي هو مقتضي الدليل من التوحيد والتدرع بالشرع كقوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ [الذاريات: ٥٦] ولا يخفى بعده، وعليه تكون الجملة مستأنفة لتقرير أمر النهي عن اتباع الهوى، وقيل: تكون عطفاً على ما قبل بحسب المعنى كأنه قيل: لا تتبع الهوى لأنه يكون سبباً لضلالك ولأنه تعالى لم يخلق العالم لأجل متابعة الهوى بل خلقه للتوحيد والتمسك بالشرع فلا تغفل.

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى نفي من خلق ما ذكر باطلاً ﴿ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي مظنونهم ليصح الحمل أو يقدر مضاف أي ظن ذلك ظن الذين كفروا فإن إنكارهم المعاد والجزاء قول بأن خلق ما ذكر خال عن الحكمة وإنما هو عبث ولذا قال سبحانه: ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ [المؤمنون: ١١٥] أو فإن إنكارهم ذلك قول بنفي عظم القدرة وهو قول بنفي دليله وهو خلق ما ذكر مشتملاً على الحكم الباهرة والأسرار، وهذا بناء على الوجه الأول في بيان التقرير وهو كما ترى ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مبتدأ وخبر والفاء لإفادة ترتب ثبوت الويل لهم على ظنهم الباطل كما أن وضع الموصول موضع ضميرهم لإشعار ما في حيز الصلة بعلية كفرهم له، ولا تنافي بينهما لأن ظنهم من باب كفرهم فيتأكد أمر التعليل، و ﴿من﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنَ النَّارِ﴾ ابتدائية أو بيانية أو تعليلية كما في قوله تعالى: ﴿فويل لهم مما كتبت أيديهم﴾ [البقرة: ٧٩] ونظائره وتفيد على هذا علية النار لثبوت الويل لهم

صريحاً بعد الإشعار بعلية ما يؤدي إليها من ظنهم وكفرهم أي فويل لهم بسبب النار المترتبة على ظنهم وكفرهم، قيل والكلام عليه على تقدير مضاف أي من دخول النار ﴿**أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ**﴾ أم منقطعة وتقدر ببل والهمزة، والهمزة لإنكار التسوية بين الفريقين ونفيها على أبلغ وجه وآكده، وبل للإضراب الانتقالي من تقرير أمر البعث والحساب بما مر من نفي خلق العالم باطلاً إلى تقريره وتحقيقه بإنكار التسوية بين الفريقين أي بل أنجعل المؤمنين المصلحين كالكفرة المفسدين في الأرض التي جعلت مقراً لهم كما يقتضيه عدم البعث وما يترتب عليه من الجزاء لاستواء الفريقين في التمتع في الحياة الدنيا بل أكثر الكفرة أوفر حظاً منها من أكثر المؤمنين لكن ذلك الجعل محال مخالف للحكمة فتعين البعث والجزاء حتماً لرفع الأولين إلى أعلى عليين ورد الآخرين إلى أسفل سافلين كذا قالوا، وظاهره أن محالية جعل الفريقين سواء حكمة تقتضي تعين المعاد الجسماني، وفيه خفاء، والظاهر أن المعاد الروحاني يكفي لمقتضى الحكمة من إثابة الأولين وتعذيب الآخرين الدليل العقلي الذي تشير إليه الآية ظاهر في إثبات معاد لكن بعد ابطال التناسخ وهو كاف في الرد على كفرة العرب فإنهم لا يقولون بمعاد بالكلية ولم يخطر ببالهم التناسخ أصلاً، ولإثبات المعاد الجسماني طريق آخر مشهور بين المتكلمين، وجعل هذا الدليل العقلي طريقاً لإثباته يحتاج إلى تأمل فتأمل، وقوله تعالى:

﴿**أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ**﴾ اضراب وانتقال عن إثبات ما ذكر بلزوم المحال الذي هو التسوية بين الفريقين المذكورين على الإطلاق إلى إثباته بلزوم ما هو أظهر منه استحالة وهي التسوية بين أتقياء المؤمنين وأشقياء الكفرة، وحمل الفجار على فجرة المؤمنين مما لا يساعده المقام، ويجوز أن يراد بهذين الفريقين عين الأولين ويكون التكرير باعتبار وصفين آخرين هما أدخل في إنكار التسوية من الوصفين الأولين، وأياً ما كان فليس المراد من الجمعين في الموضعين أناساً بأعيانهم ولذا قال ابن عباس: الآية عامة في جميع المسلمين والكافرين.

وقيل: هي في قوم مخصوصين من مشركي قريش قالوا للمؤمنين إنا نعطي في الآخرة من الخير ما لا تعطون فنزلت، وأنت تعلم أن العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب، وفي رواية أخرى عن ابن عباس أخرجها ابن عساكر أنه قال: الذين آمنوا علي وحمزة وعبيدة بن الحارث رضي الله تعالى عنهم والمفسدين في الأرض عتبة والوليد بن عتبة وشيبة وهم الذين تبارزوا يوم بدر، ولعله أراد أنهم سبب النزول، وقوله تعالى: ﴿**كِتَابٌ**﴾ خبر مبتدأ محذوف هو عبارة عن القرآن أو السورة، ويجوز على الثاني تقديره مذكراً أي هو أو هذا وهو الأولى عند جمع رعاية للخبر وتقديره مؤنثاً رعاية للمرجع، وقوله تعالى: ﴿**أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ**﴾ صفته، وقوله سبحانه: ﴿**مُبَارَكٌ**﴾ أي كثير المنافع الدينية والدنيوية خبر ثان للمبتدأ أو صفة ﴿**كتاب**﴾ عند من يجوز تأخير الوصف الصريح عن غير الصريح. وقرىء «مباركاً» بالنصب على أنه حال من مفعول «أنزلنا» وهي حالا لازمة لأن البركة لا تفارقه جعلنا الله تعالى في بركاته ونفعنا بشريف آياته، وقوله عزَّ وجلّ: ﴿**لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ**﴾ متعلق بأنزلناه، وجوز أن يكون متعلقاً بمحذوف يدل عليه وأصله ليتدبروا بتاء بعد الياء آخر الحروف، وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه بهذا الأصل أي أنزلناه ليتفكروا في آياته التي من جملتها هذه الآية المعربة عن أسرار التكوين والتشريع فيعرفوا ما يدبر ويتبع ظاهرها من المعاني الفائقة والتأويلات اللائقة، وضمير الرفع لأولي الألباب على التنازع وأعمال الثاني أو للمؤمنين فقط أولهم وللمفسدين، وقرأ أبو جعفر «لتدبروا» بتاء الخطاب وتخفيف الدال وجاء كذلك عن عاصم والكسائي بخلاف عنهما، والأصل لتتدبروا بتاءين فحذفت إحداهما على الخلاف الذي فيها أهي تاء المضارعة أم التاء التي تليها، والخطاب للنبي ﷺ وعلماء أمته على التغليب أي لتدبر أنت وعلماء أمتك ﴿**وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾ أي وليتعظ به ذوو العقول الزاكية الخالصة من الشوائب أو ليستحضروا ما

هو كالمركوز في عقولهم لفرط تمكنهم من معرفته لما نصب عليه من الدلائل فإن إرسال الرسل وإنزال الكتب لبيان ما لا يعرف إلا من جهة الشرع كوجوب الصلوات الخمس والإرشاد إلى ما يستقل العقل بإدراكه كوجود الصانع القديم جل جلاله وعم نواله ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ وقرىء «نعم» على الأصل، والمخصوص بالمدح محذوف أي نعم العبد هو أي سليمان كما ينبيء عنه تأخيره عن داود مع كونه مفعولاً صريحاً لوهبنا ولأن قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي رجاع إلى الله تعالى بالتوبة كما يشعر به السياق أو إلى التسبيح مرجع له أو إلى مرضاته عزَّ وجلّ تعليل للمدح وهو من حاله لما أن الضمير المجرور في قوله سبحانه: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ﴾ يعود إليه عليه السلام قطعاً، وإذ منصوب باذكر، والمراد من ذكر الزمان ذكر ما وقع فيه أو ظرف لأواب أو لنعم والظرف قنوع لكن يرد على الوجهين أن التقييد يخل بكمال المدح فالأول أولى وهو كالاستشهاد على أنه أواب أي اذكر ما صدر عنه إذ عرض عليه ﴿بِالْعَشِيِّ﴾ الخ فإنه يشهد بذلك، والعشي على ما قال الراغب من زوال الشمس إلى الصباح، وقال بعض: منه إلى آخر النهار، والظرفان متعلقان بعرض، وقوله تعالى: ﴿الصَّافِنَاتُ﴾ نائب الفاعل وتأخيره عنهما لما مر غير مرة من التشويق إلى المؤخر، والصافن من الخيل الذي يرفع إحدى يديه أو رجليه ويقف على مقدم حافرها وأنشد الزجاج:

ألف الصفون فما يزال كأنه ... مما يقوم على الثلاث كثيرا

وقال أبو عبيدة: هو الذي يجمع يديه ويسويهما وأما الذي يقف على طرف الحافر فهو المتخيم، وعن التهذيب ومتن اللغة هو المخيم، وقال القتبي: الصافن الواقف في الخيل وغيرها، وفي الحديث «من سره أن يقوم الناس له صفونا فليتبوأ مقعده من النار» أي يديمون له القيام حكاه قطرب وأنشد للنابغة:

لنا قبة مضروبة بفنائها ... عتاق المهارى والجياد الصوافن

وقال الفراء: رأيت العرب على هذا وأشعارهم تدل على أنه القيام خاصة والمشهور في الصفون ما تقدم وهو من الصفات المحمودة في الخيل لا تكاد تتحقق إلا في العرب الخلص ﴿الْجِيَادُ﴾ جمع جواد للذكر والأنثى يقال جاد الفرس صار رائضاً يجود جودة بالضم وهو جواد ويجمع أيضاً على أجواد وأجاويد، وقال بعضهم: هو جمع جود كثوب وأثواب وفسر بالذي يسرع في مشيه، وقيل هو الذي يجود بالركض، وقيل: وصفت بالصفون والجودة لبيان جمعها بين الوصفين المحمودين واقفة وجارية أي إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقفها وإذا جرت كانت سراعاً خفافاً في جريها، والخيل تمدح بالسكون في الموقف كما تمدح بالسرعة في الجري، ومن ذلك قول مسلم بن الوليد:

وإذا احتبى قربوسه بعنانه ... علك الشكيم إلى انصراف الزائر

وقيل جيد ككيّس ضد الرديء ويجمع على جيادات وجيائد، وضعف بأنه لا فائدة في ذكره مع ﴿الصافنات﴾ حينئذٍ وبأنه يفوت عليه مدح الخيل باعتبار حاليها وكون الجياد أعم فذكره تعميم بعد تخصيص فيه نظر.

وفي البحر قيل الجياد الطوال الأعناق من الجيد وهو العنق، وأنا في شك من ثبوته، قال في القاموس: الجيد بالكسر العنق أو مقلده أو مقدمه جمعه أجياد وجيود وبالتحريك طولها أو دقتها مع طول وهو أجيد وهي جيداء وجيدانة جمعه جود اهـ، وراجعت غيره فلم أجد فيه زيادة على ذلك فلينقر، ويمكن أن يقال: إن الجياد جمع شاذ لأجيد أو جيداء أو جيدانة أو هو جمع لجيد بالتحريك كجمل وجمال ويراد بجيد أجيد أو نحوه نظير ما يراد بالخلق المخلوق والله تعالى أعلم، وأياً ما كان فالوصفان يوصف بهما المذكر والمؤنث من الخيل، والجمع بألف وتاء لا يخص المؤنث فلا حاجة بعد القول بأن ما عرض كان مشتملاً على ذكور الخيل وإناثها إلى القول بأن في الصافنات تغليب المؤنث على المذكر وأنه يجوز بقلة، وأريد بالجمع هنا الكثرة فعن الكلبي أن هذه الخيل كانت ألف فرس غزا

سليمان عليه السلام دمشق ونصيبين فأصابها. واستشكلت هذه الرواية بأن الغنائم لم تحل لغير نبينا ﷺ كما ورد في الحديث الصحيح. وأجيب بأنه يحتمل أن تكون فيئاً لا غنيمة، وعن مقاتل أنها ألف فرس ورثها من أبيه داود وكان عليه السلام قد أصابها من العمالقة وهم بنو عمليق بن عوص بن عاد بن أرم.

واستشكلت هذه زيادة على الأولى بأن الأنبياء عليهم السلام لا يورثون كما جاء في الحديث الذي رواه أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه محتجاً به في مسألة فدك والعوالي بمحضر الصحابة وهم الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم.

وأجيب بأن المراد بالإرث حيازة التصرف لا الملك، وعقرها تقرباً على ما في الأوجه في الآية بعد وجاء في بعض الروايات لا يقتضي الملك، وقال عوف: بلغني أنها كانت خيلاً ذات أجنحة أخرجت له من البحر لم تكن لأحد قبله ولا بعده، وروي كونها كذلك عن الحسن، وأخرج ابن جرير وغيره عن إبراهيم التيمي أنها كانت عشرين ألف فرس ذات أجنحة، وليس في هذا شيء سوى الاستبعاد، وإذا لم يلتفت إلى الأخبار في ذلك إذ ليس فيها خبر صحيح مرفوع أو ما في حكمه يعول عليه فيما أعلم فلنا أن نقول: هي خيل كانت له كالخيل التي تكون عند الملوك وصلت إليه بسبب من أسباب الملك فاستعرضها فلم تزل تعرض عليه حتى غربت الشمس، قيل وغفل عن صلاة العصر، وحكى هذا الطبرسي عن علي كرم الله وجهه وقتادة والسدي ثم قال: وفي روايات أصحابنا أنه فاته أول الوقت. وقال الجبائي: لم يفته الفرض وإنما فاته نفل كان يفعله آخر النهار.

فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ
وَٱلۡأَعۡنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدٗا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا
يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ
بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا
لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٤٠﴾ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ
هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا
فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿٤٤﴾ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي
ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٧﴾

﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الخَير عَنْ ذكْر رَبِّي﴾ قاله عليه السلام اعترافاً بما صدر عنه من الاشتغال وندماً عليه وتمهيداً لما يعقبه من الأمر بردها وعقرها على ما هو المشهور، والخير كثر استعماله في المال ومنه قوله تعالى: ﴿إن ترك خيراً﴾ [البقرة: ١٨٠] وقوله سبحانه: ﴿وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم يعلمه الله﴾ [البقرة: ٢٧٣] وقوله عزَّ وجلّ: ﴿وإنه لحب الخير لشديد﴾ [العاديات: ٨] وقال بعض العلماء: لا يقال للمال خير حتى يكون كثيراً ومن مكان طيب كما روي أن علياً كرم الله تعالى وجهه دخل على مولى له فقال: ألا أوصي يا أمير المؤمنين؟ قال، لا لأن الله تعالى يقول: ﴿إن ترك خيراً﴾ وليس لك مال كثير، وروي تفسيره بالمال هنا عن الضحاك وابن جبير، وقال أبو حيان: يراد بالخير الخيل والعرب تسمي الخيل الخير، وحكي ذلك عن قتادة والسدي، ولعل ذلك لتعلق الخير بها،

ففي الخبر «الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة» والأحباب على ما نقل عن الفراء مضمن معنى الإيثار وهو ملحق بالحقيقة لشهرته في ذلك، وظاهر كلام بعضهم أنه حقيقة فيه فهو مما يتعدى بعلى لكن عدي هنا بعن لتضمينه معنى الإنابة ﴿وحب الخير﴾ مفعول به أي آثرت حب الخير منيباً له عن ذكر ربي أو أنبت حب الخير عن ذكر ربي مؤثراً له.

وجوز كون ﴿حب﴾ منصوباً على المصدر التشبيهي ويكون مفعول ﴿أحببت﴾ محذوفاً أي أحببت الصافنات أو عرضها حباً مثل حب الخير منيباً لذلك عن ذكر ربي، وليس المراد بالخير عليه الخيل وذكر أبو الفتح الهمداني أن أحببت بمعنى لزمت من قوله:

ضرب بعير السوء إذ أحبا

واعترض بأن أحب بهذا المعنى غريب لم يرد إلا في هذا البيت وغرابة اللفظ تدل على اللكنة وكلام الله عزَّ وجلّ منزه عن ذلك، مع أن اللزوم لا يتعدى بعن إلا إذا ضمن معنى يتعدى به أو تجوز به عنه فلم يبق فائدة في العدول عن المعنى المشهور مع صحته أيضاً بالتضمين وجعل بعضهم الأحباب من أول الأمر بمعنى التقاعد والاحتباس وحب الخير مفعولاً لأجله أي تقاعدت واحتبست عن ذكر ربي لحب الخير. وتعقب بأن الذي يدل عليه السلام اللغويين أنه لزوم عن تعب أو مرض ونحوه فلا يناسب تقاعد النشاط والتلهي الذي كان عليه السلام فيه وقول بعض الأجلة: بعد التنزل عن جواز استعمال المقيد في المطلق لما كان لزوم المكان لمحبة الخيل على خلاف مرضاة الله تعالى جعلها من الأمراض التي تحتاج إلى التداوي بأضدادها ولذلك عقرها ففي ﴿أحببت﴾ استعارة تبعية لا يخفى حسنها ومناسبتها للمقام ليس بشيء لخفاء هذه الاستعارة نفسها وعدم ظهور قرينتها، وبالجملة ما ذكره أبو الفتح مما لا ينبغي أن يفتح له باب الاستحسان عند ذوي العرفان، وجوز حمل ﴿أحببت﴾ على ظاهره من غير اعتبار تضمينه ما يتعدى بعن وجعل عن متعلقة بمقدر كمعرضاً وبعيداً وهو حال من ضمير ﴿أحببت﴾، وجوز في عن كونها تعليلية وسيأتي إن شاء الله تعالى و﴿ذكر﴾ مضاف إلى مفعوله وجوز أن يكون مضافاً إلى فاعله. وقيل الإضافة على معنى اللام ولا يراد بالذكر المعنى المصدري بل يراد به الصلاة فمعنى عن ذكر ربي عن صلاة ربي التي شرعها وهو كما ترى.

وبعض من جعل عن للتعليل فسر ذلك الرب بكتابه عزَّ وجلّ وهو التوراة أي أحببت الخيل بسبب كتاب الله تعالى وهو التوراة فإن فيه مدح ارتباطها وروي ذلك عن أبي مسلم، وقرأ أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو «إني أحببتَ» بفتح الياء ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالحِجَاب﴾ متعلق بقوله تعالى: ﴿أحببت﴾ باعتبار استمرار المحبة ودوامها حسب استمرار العرض أي أنبت حب الخير عن ذكر ربي واستمر ذلك حتى غربت الشمس تشبيهاً لغروبها في مغربها بتواري المخباة بحجابها على طريق الاستعارة التبعية، ويجوز أن يكون هناك استعارة مكنية تخييلية وأياً ما كان فما أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن كعب، قال: الحجاب هو حجاب من ياقوت أخضر محيط بالخلائق منه اخضرت السماء، وما قيل إنه جبل دون قاف بسنة تغرب الشمس وراءه لا يخفى حاله، والناس في ثبوت جبل قاف بين مصدق ومكذب والقرافي يقول لا وجود له وإليه أميل وإن قال المثبتون ما قالوا، والباء للظرفية أو الاستعانة أو الملابسة، وعود الضمير إلى الشمس من غير ذكر لدلالة العشي عليها، والضمير المنصوب في قوله تعالى: ﴿رُدوهَا عَلَيَّ﴾ للصافنات على ما قال غير واحد.

وظاهر كلامهم أنه للصافنات المذكور في الآية، ولعلك تختار أنه للخيل الدال عليها الحال المشاهدة أو الخير في قوله: ﴿إنـي أحببت حب الخير﴾ لأن ردوها من تتمة مقالته عليه السلام والصافنات غير مذكورة في كلامه بل

في كلام الله تعالى لنبينا ﷺ، والكلام على ما قال الزمخشري على اضمار القول أي قال ردوها علي، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً كأنه قيل: فماذا قال سليمان؟ فقيل قال: ردوها، وتعقبه أبو حيان بأنه لا يحتاج إلى الإضمار إذ الجملة مندرجة تحت حكاية القول في قوله تعالى: ﴿فقال إني﴾ الخ؛ والفاء في قوله تعالى: ﴿فطفق مَسْحاً﴾ فصيحة مفصحة عن جملة قد حذفت ثقة بدلالة الحال عليها وإيذاناً بغاية سرعة الامتثال بالأمر كما في قوله تعالى ﴿قلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً﴾ أي فردوها عليه فطفق الخ وطفق من أفعال الشروع واسمها ضمير سليمان و ﴿مسحاً﴾ مفعول مطلق لفعل مقدر هو خبرها أي شرع يمسح مسحاً لا حال مؤول بماسحاً كما جوزه أبو البقاء إذ لا بد لطفق من الخبر وليس هذا مما يسد الحال فيه مسده، وقرأ زيد بن علي «مساحاً» على وزن قتال ﴿بالسُّوق وَالأَعْنَاق﴾ أي بسوقها وأعناقها على أن التعريف للعهد وإن أل قائمة مقام الضمير المضاف إليه، والباء متعلقة بالمسح على معنى شرع يمسح السيف بسوقها وأعناقها، وقال: جمع هي زائدة أي شرع يمسح سوقها وأعناقها بالسيف، ومسحته بالسيف كما قال الراغب: كناية عن الضرب.

وفي الكشاف يمسح السيف بسوقها وأعناقها يقطعها تقول مسح علاوته إذا ضرب عنقه ومسح المسفر الكتاب إذا قطع أطرافه بسيفه، وعن الحسن كسف عراقيبها وضرب أعناقها أراد بالكسف القطع ومنه الكسف في ألقاب الزحاف والعروض ومن قاله بالشين المعجمة فمصحّف، وكون المراد القطع قد دل عليه بعض الأخبار.

أخرج الطبراني في الأوسط والاسماعيلي في معجمه وابن مردويه بسند حسن عن أبيّ بن كعب عن النبي ﷺ أنه قال في قوله تعالى: ﴿فطفق مسحاً بالسوق والأعناق﴾ قطع سوقها وأعناقها بالسيف، وقد جعلها عليه السلام بذلك قرباناً لله تعالى وكان تقريب الخيل مشروعاً في دينه، ولعل كسف العراقيب ليتأتى ذبحها بسهولة، وقيل: إنه عليه السلام حبسها في سبيل الله تعالى وكان ذلك المسح الصادر منه وسما لها لتعرف أنها خيل محبوسة في سبيل الله تعالى وهو نظير مايفعل اليوم من الوسم بالنار ولا بأس به في شرعنا ما لم يكن في الوجه، ولعله عليه السلام رأى الوسم بالسيف أهون من الوسم بالنار فاختاره أو كان هو المعروف في تلك الأعصار بينهم، ويروى أنه عليه السلام لما فعل ذلك سخر له الريح كرامة له، وقيل: إنه عليه السلام أراد بذلك إتلافها حيث شغلته عن عبادة ربه عز وجل وصار تعلق قلبه بها سبباً لغفلته، واستدل بذلك الشبلي قدس سره على حل تحريق ثيابه بالنار حين شغلته عن ربه جل جلاله؛ وهذا قول باطل لا ينبغي أن يلتفت إليه وحاشا نبي الله أن يتلف مالاً محترماً لمجرد أنه شغل به عن عبادة وله سبيل لأن يخرجه عن ملكه مع نفع هو من أجل القرب إليه عزَّ وجلّ على أن تلك الخيل لم يكن عليه السلام اقتناها واستعرضها بطراً وافتخاراً معاذ الله تعالى من ذلك وإنما اقتناها للانتفاع بها في طاعة الله سبحانه واستعرضها للتطلع على أحوالها ليصلح من شأنها ما يحتاج إلى اصلاح وكل ذلك عبادة فغاية ما يلزم أنه عليه السلام نسي عبادة لشغله بعبادة أخرى فاستدلال الشبلي قدس سره غير صحيح، وقد نبه أيضاً على عدم صحته عبد الوهاب الشعراني من السادة الصوفية في كتابه اليواقيت والجواهر في عقائد الأكابر ولكن يحمل الآية على محمل آخر، وما ذكرناه في محملها وتفسيرها هو المشهور بين الجمهور ولهم فيها كلام غير ذلك فقيل ضمير ﴿ردوها﴾ للشمس والخطاب للملائكة عليهم السلام الموكلين بها، قالوا: طلب ردها لما فاته صلاة العصر لشغله بالخيل فردت له حتى صلى العصر، وروي هذا القول عن علي كرم الله تعالى وجهه كما قال الخفاجي والطبرسي. وتعقب ذلك الرازي بأن القادر على تحريك الأفلاك والكواكب هو الله تعالى فكان يجب أن يقول ردها عليّ دون ﴿ردوها﴾ بضمير الجمع. فإن قالوا: هو للتعظيم كما في ﴿رب ارجعون﴾ [المؤمنون: ٩٩] قلنا: لفظ ردوها مشعر بأعظم أنواع الإهانة فكيف يليق بهذا اللفظ رعاية

التعظيم؛ وأيضاً إن الشمس لو رجعت بعد الغروب لكان مشاهداً لكل أهل الدنيا ولو كان كذلك لتوفرت الدواعي على نقله وحيث لم ينقله أحد علم فساده.

والذي يقول برد الشمس لسليمان يقول هو كردها ليوشع وردها لنبينا ﷺ في حديث العير ويوم الخندق حين شغل عن صلاة العصر وردها لعلي كرم الله تعالى وجهه ورضي عنه بدعائه عليه الصلاة والسلام، فقد روي عن أسماء بنت عميس أن النبي ﷺ كان يوحى إليه ورأسه في حجر علي كرم الله تعالى وجهه فلم يصل العصر حتى غربت الشمس فقال رسول الله ﷺ: صليت يا علي؟ قال: لا فقال رسول الله ﷺ: اللهم إنه كان في طاعتك وطاعة رسولك فاردد عليه الشمس قالت أسماء: فرأيتها غربت ثم رأيتها طلعت بعد ما غربت ووقعت على الأرض وذلك بالصهباء في خيبر، وهذا الخبر في صحته خلاف فقد ذكره ابن الجوزي في الموضوعات، وقال: إنه موضوع بلا شك وفي سنده أحمد بن داود وهو متروك الحديث كذاب كما قاله الدارقطني، وقال ابن حبان: كان يضع الحديث، وقال ابن الجوزي: قد روى هذا الحديث ابن شاهين فذكره ثم قال: وهذا حديث باطل ومن تغفل واضعه أنه نظر إلى صورة فضيلة ولم يلمح عدم الفائدة فيها وأن صلاة العصر بغيبوبة الشمس تصير قضاء ورجوع الشمس لا يعيدها أداء انتهى. وقد أفرد ابن تيمية تصنيفاً في الرد على الروافض ذكر فيه الحديث بطرقه ورجاله وأنه موضوع، وقال الإمام أحمد: لا أصل له، وصححه الطحاوي والقاضي عياض، ورواه الطبراني في معجمه الكبير بإسناد حسن كما حكاه شيخ الإسلام ابن العراقي في شرح التقريب عن أسماء أيضاً لكن بلفظ آخر ورواه ابن مردويه عن أبي هريرة وكان أحمد بن صالح يقول: لا ينبغي لمن سبيله العلم التخلف عن حفظ حديث أسماء لأنه من علامات النبوة، وكذا اختلف في حديث الرد يوم الخندق فقيل ضعيف، وقيل: موضوع، وادعى العلامة ابن حجر الهيثمي صحته، وما في حديث العير وأظن أنهم اختلفوا في صحته أيضاً ليس صريحاً في الرد فإن لفظ الخبر أنه لما أسري بالنبي ﷺ وأخبر قومه بالرفقة والعلامة التي في العير قالوا: متى يجيء؟ قال: يوم الأربعاء فلما كان ذلك اليوم أشرفت قريش ينظرون وقد ولى النهار ولم يجيء فدعا رسول الله ﷺ فزيد له في النهار ساعة وحبست عليه الشمس والحبس غير الرد ولو كان هناك رد لأدركه قريش ولقالوا فيه ماقالوا في انشقاق القمر ولم ينقل، وقيل: كأن ذلك كان بركة في الزمان نحو ما يذكره الصوفية مما يعبرون عنه بنشر الزمان وإن لم يتعقله الكثير وكذا ما كان ليوشع عليه السلام فقد جاء في الحديث الصحيح لم تحبس الشمس على أحد إلا ليوشع بن نون والقصة مشهورة وهذا الحديث الصحيح عند الكل يعارض جميع ما تقدم، وتأويله بأن المراد لم تحبس على أحد من الأنبياء غيري إلا ليوشع أو بالتزام أن المتكلم غير داخل في عموم كلامه بعد تسليم قبوله لا ينفي معارضته خبر الرد لسليمان عليه السلام فإنه بظاهره يستدعي نفي الرد الذي هو أعظم من الحبس له عليه السلام.

وبالجملة القول برد الشمس لسليمان عليه السلام غير مسلم، وعدم قولي بذلك ليس لامتناع الرد في نفسه كما يزعمه الفلاسفة بل لعدم ثبوته عندي، والذوق السليم يأبى حمل الآية على ذلك لنحو ماقال الرازي ولغيره من تعقيب طلب الرد بقوله تعالى: ﴿فطفق﴾ الخ ثم ما قدمنا نقله من وقوع الصلاة بعد الرد قضاء هو ما ذهب إليه البعض.

وفي تحفة العلامة ابن حجر الهيثمي لو عادت الشمس بعد الغروب عاد الوقت كما ذكره ابن العماد، وقضية كلام الزركشي خلافه وأنه لو تأخر غروبها عن وقته المعتاد قدر غروبها عنده وخرج الوقت وإن كانت موجودة انتهى كلام الزركشي، وما ذكره آخراً بعيد وكذا أولاً فالأوجه كلام ابن العماد ولا يضركون عودها معجزة له ﷺ لأن

المعجزة نفس العود وأما بقاء الوقت بعودها فحكم الشرع ومن ثم لما عادت صلى علي كرم الله تعالى وجهه العصر أداء بل عودها لم يكن إلا لذلك انتهى.

ولا يحضرني الآن ما لأصحابنا الحنفية في ذلك بيد أني رأيت في حواشي تفسير البيضاوي لشهاب الدين الخفاجي وهو من أجلة الأصحاب ادعاء أن الظاهر أن الصلاة بعد الرد أداء ثم قال: وقد بحث الفقهاء فيه بحثاً طويلاً ليس هذا محله، وقيل ضمير ﴿**توارت**﴾ للخيل كضمير ﴿**ردوها**﴾ واختاره جمع فقيل الحجاب اصطبلاتها أي حتى دخلت اصطبلاتها، وقيل حتى توارت في المسابقة بما يحجبها عن النظر، وبعض من قال بإرجاع الضمير للخيل جعل عن للتعليل ولم يجعل المسح بالسوق والأعناق بالمعنى السابق فقالت طائفة: عرض على سليمان الخيل وهو في الصلاة فأشار إليهم إني في صلاة فأزالوها عنه حتى دخلت في الاصطبلات فقال لما فرغ من صلاته: ﴿**إني أحببت حب الخير**﴾ أي الذي لي عند الله تعالى في الآخرة بسبب ذكر ربي كأنه يقول فشغلني ذلك عن رؤية الخيل حتى دخلت اصطبلاتها ردوها علي فطفق يمسح أعرافها وسوقها محبة لها وتكريماً. وروي أن المسح كان لذلك عن ابن عباس والزهري وابن كيسان ورجحه الطبري، وقيل كان غسلاً بالماء ولا يخفى أن تطبيق هذه الطائفة الآية على ما يقولون ركيك جداً.

وقال الرازي: قال الأكثرون إنه عليه السلام فاته صلاة العصر بسبب اشتغاله بالنظر إلى الخيل فاستردها وعقر سوقها وأعناقها تقرباً إلى الله تعالى، وعندي أنه بعيد ويدل عليه وجوه، الأول أنه لو كان مسح السوق والأعناق قطعها لكان معنى قوله تعالى: ﴿وامسحوا برؤوسكم﴾ [المائدة: ٦] اقطعوها وهذا لا يقوله عاقل بل لو قيل مسح رأسه بالسيف فربما فهم منه ضرب العنق أما إذا لم يذكر لفظ السيف لم يفهم منه ذلك البتة، الثاني أن القائلين بهذا القول جمعوا على سليمان أنواعاً من الأفعال المذمومة، فأولها ترك الصلاة، وثانيها أنه استولى عليه الاشتغال بحب الدنيا إلى حيث نسي الصلاة، وقد قال عليه الصلاة والسلام «حب الدنيا رأس كل خطيئة» وثالثها أنه بعد الإتيان بهذا الذنب العظيم لم يشتغل بالتوبة والإنابة، ورابعها على القول برجوع ضمير ﴿**ردوها**﴾ إلى الشمس أنه خاطب رب العالمين بكلمة لا يذكرها الرجل الحصيف إلا مع الخادم الخسيس، وخامسها أنه اتبع هذه المعاصي بعقر الخيل سوقها وأعناقها وقد ورد النهي عن ذبح الحيوان إلا لأكله. فهذه أنواع من الكبائر نسبوها إلى سليمان عليه السلام مع أن لفظ القرآن لا يدل على شيء منها، وسادسها أن ذكر هذه القصة وكذا التي قبلها بعد أمره بالصبر على سفاهة الكفار يقتضي أن تكون مشتملة على الأعمال الفاضلة والأخلاق الحميدة والصبر على طاعة الله تعالى والإعراض عن الشهوات واللذات وأما اشتمالها على الإقدام على الكبائر العظيمة والذنوب الجسيمة فبمراحل عن مقتضى التعقيب فثبت أن كتاب الله تعالى ينادي على القول المذكور بالفساد. والصواب أن يقال: إن رباط الخيل كان مندوباً إليه في دينهم كما أنه كذلك في دين نبينا ﷺ ثم إن سليمان احتاج إلى الغزو فجلس وأمر بإحضار الخيل وأمر باجرائها وذكر إني لا أحبها لأجل الدنيا ونصيب النفس وإنما أحبها لأمر الله تعالى وتقوية دينه وهو المراد من قوله: ﴿**عن ذكر ربي**﴾ ثم أنه عليه السلام أمر بإعدائها وتسييرها حتى توارت بالحجاب أي غابت عن بصره ثم أمر الرائضين بأن يردوا تلك الخيل إليه فلما عادت إليه طفق يمسح سوقها وأعناقها والغرض من ذلك المسح أمور.

الأول تشريف لها وإبانة لعزتها لكونها من أعظم الأعوان في دفع العدو، والثاني أنه أراد أن يظهر أنه في ضبط السياسة والملك يتضع إلى حيث يباشر أكثر الأمور بنفسه، والثالث أنه كان أعلم بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها فكان يمتحنها ويمسح سوقها وأعناقها حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض، فهذا التفسير الذي ينطبق عليه لفظ

القرآن انطباقاً موافقاً، ولا يلزمنا نسبة شيء من تلك المنكرات والمحذورات إلى نبي من الأنبياء عليهم السلام، ثم قال: وأقول أنا شديد التعجب من الناس كيف قبلوا ما شاع من الوجوه السخيفة مع أن العقل والنقل يردانها وليس لهم في إثباتها شبهة فضلاً عن حجة ولفظ الآية لا يدل على شيء من تلك الوجوه التي يذكرها الجمهور كما قد ظهر ظهوراً لا يرتاب العاقل فيه، وبفرض الدلالة يقال إن الدلائل الكثيرة قامت على عصمة الأنبياء عليهم السلام ولم يدل دليل على صحة تلك الحكايات ورواية الآحاد لا تصلح معارضة للدلائل القوية فكيف الحكايات عن أقوام لا يبالى بهم ولا يلتفت إلى أقوالهم انتهى كلامه.

وكان عليه الرحمة قد اعترض القول برجوع ضمير ﴿**توارت**﴾ إلى الشمس دون الصافنات بأن الصافنات مذكورة بصريحها والشمس ليس كذلك وعود الضمير إلى المذكور أولى من عوده إلى المقدر، وأيضاً أنه ﴿**قال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب**﴾ وظاهره يدل على أنه كان يعيد ويكرر قوله إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي إلى أن توارت بالحجاب فإذا كانت المتوارية الشمس يلزم القول بأنه كرر ذلك من العصر إلى المغرب وهو بعيد، وإذا كانت الصافنات كان المعنى أنه حين وقع بصره عليها حال عرضها كان يقول ذلك إلى أن غابت عن عينه وذلك مناسب، وأيضاً القائلون بالعود إلى الشمس قائلون بتركه عليه السلام صلاة العصر ويأباه أني أحببت الخ لأن تلك المحبة لو كانت عن ذكر الله تعالى لما نسي الصلاة ولما ترك ذكر الله عزَّ وجلَّ، وأقول: ما عند الجمهور أولى بالقبول وما ذكره عليهم من الوجوه لا يلتفت إليه ولا يعول عليه. أما ما قاله من أنه لو كان مسح السوق والأعناق بمعنى القطع لكان امسحوا برؤوسكم أمراً بقطعها ففيه أن هذا إنما يتم لو قيل إن المسح كلما ذكر بمعنى القطع ولم يقل ولا يقال وإنما قالوا: إن المسح في الآية بمعنى القطع وقد قال بذلك رسول الله ﷺ كما جاء في خبر حسن وقد قدمناه لك عن الطبراني والاسماعيلي وابن مردويه وليس بعد قوله عليه الصلاة والسلام قول القائل، ويكفي مثل ذلك الخبر في مثل هذا المطلب إذ ليس فيه ما يخالف العقل أو نقلاً أقوى كما ستعرفه إن شاء الله تعالى.

وقد ذكر هذا المعنى للمسح الزمخشري أيضاً وهو من أجلة علماء هذا الشأن، وصح نقله عن جماعة من السلف، وقال الخفاجي: استعمال المسح بمعنى ضرب العنق استعارة وقعت في كلامهم قديماً، نعم احتياج ذلك للقرينة مما لا شبهة فيه، والقرينة عند من يدعيه هاهنا السياق وعود ضمير ﴿**توارت**﴾ على الشمس وهو كالمتعين كما سيتضح لك إن شاء الله تعالى.

وأما قوله: إنهم جمعوا على سليمان عليه السلام أنواعاً من الأفعال المذمومة ففرية من غير مرية. وقوله: أولها ترك الصلاة فيه أن الترك المذموم ما كان عن عمد وهم لا يقولون به وما يقولون به الترك نسياناً وهو ليس بمذموم إذ النسيان لا يدخل تحت التكليف على أن كون ما ترك فرضاً مما لم يجزم به الجميع، وقوله: ثانيها أنه استولى عليه الاشتغال بحب الدنيا إلى حيث ترك الصلاة، فيه أن ذلك اشتغال بخيل الجهاد وهو عبادة.

وقوله: ثالثها أنه بعد الإتيان بهذا الذنب العظيم لم يشتغل بالتوبة والإنابة، فيه أنا لا نسلم أنه عليه السلام ارتكب ذنباً حقيقة فضلاً عن كونه عظيماً، نعم ربما يقال: إنه عليه السلام لم يستحسن ذلك بمقامه فاتبعه التقرب بالخيل التي شغل بسببها وذلك يدل على التوبة دلالة قوية ولم يكن ليتعطل أمر الجهاد به فقد أوتي عليه السلام غير ذلك على أن كون ما ذكر كالاستشهاد على قوله تعالى: ﴿**إنه أواب**﴾ مشعر بتضمنه الأوبة وإن ذهبنا إلى تعلق ﴿**إذ عرض**﴾ بأواب يكاد لا يرد هذا الكلام رأساً.

وقوله: رابعها أنه خاطب ربه عزَّ وجلَّ بلفظ غير مناسب، فيه أنه إن ورد فإنما يرد على القول برجوع ضمير

﴿ردوها﴾ إلى الشمس ونحن لا نقول به فلا يلزمنا الجواب عنه، والذي نقوله: إن الضمير للخيل والخطاب لخدمته ومع هذا لم يقل تلك الكلمة تهوراً وتجبراً كما يتوهم، وقوله: خامسها أنه اتبع هذه المعاصي بعقر الخيل وقد ورد النهي الخ، فيه أنه عليه السلام لم يفعل معصية ليقال اتبع هذه المعاصي وأن الخيل عقرت قرباناً وكان تقريبها مشروعاً في دينه فهو طاعة، ومن مجموع ما ذكرنا يعلم ما في قوله سادسها الخ على أنه قد تقدم لك وجه ربط هذه القصص بما قبلها وهو لا يتوقف على التزام ما قاله في هذه القصة وما زعمه من أنه الصواب ففيه إرجاع ضمير توارت إلى الخيل، ولا يخفى على ذي ذوق سليم وطبع مستقيم إن تواري الخيل بالحجاب عبارة ركيكة يجل عنها الكتاب المتين، وفيه أيضاً أنه لا يكاد ينساق إلى الذهن متعلق ﴿حتى توارت﴾ الذي أشار إليه في تقرير ما زعم صوابيته وتعلقه على ما يشير إليه كلامه المنقول آخراً مما يستبعد جداً فإن الظاهر أن قوله: ﴿حتى توارت بالحجاب﴾ من المحكي كالذي قبله والذي بعده لا من الحكاية، وأيضاً كون الرد للمسح الذي ذكره خلاف ما جاء في الخبر الحسن وهو في نفسه بعيد، والأغراض التي ذكرها فيه لا يخفى حالها، ودعواه أن هذا التفسير هو الذي ينطبق عليه القرآن مما لا يتم لها دليل ولعل الدليل على عدم الانطباق ظاهر.

وقوله: أنا شديد التعجب من الناس الخ أقول فيه: أنا تعجبي منه أشد من تعجبه من الناس حيث خفي عليه حسن الوجه الذي استحسنه الجمهور ولم يطلع على ما ورد فيه من الأخبار الحسان وظن أن القول به مناف للقول بعصمة الأنبياء عليهم السلام حتى قال ما قال ورشق على الجمهور النبال، وقوله في ترجيح رجوع ضمير ﴿توارت﴾ إلى ﴿الصافنات﴾ على رجوعه إلى الشمس أنها مذكورة بصريحها دون الشمس ليس بشيء فإن رجوعه إلى الشمس يجعل الكلام ركيكاً فلا ينبغي ارتكابه لمجرد أن فيه رجوع الضمير إلى مذكور صريحاً على أن في كونه راجعاً إلى الصافنات المذكورة صريحاً بحثاً، ولا يرد على الجمهور لزوم تخالف الضمائر في المرجع وهو تفكيك لأن التخالف مع القرينة لا ضير فيه، وأعجب مما ذكر زعمه أنه يلزم على ما قال الجمهور أن سليمان عليه السلام كرر قوله: ﴿إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي﴾ من العصر إلى المغرب فإن الجمهور ما حاموا حول ما يلزم منه ذلك أصلاً إذ لم يقل أحد منهم بأن حتى متعلقة بقال كما زعم هو بل هي عندهم متعلقة بأحببت على المعنى الذي أسلفناه، ومن أنصف لا يرتضي أيضاً القول بأنه عليه السلام كرر ذلك القول إلى أن غابت الخيل عن عينه كما قال به هذا الإمام، ويرد على قوله القائلون بالعود إلى الشمس قائلون بتركه عليه السلام صلاة العصر ويأباه ﴿إني أحببت﴾ الخ. لأن تلك المحبة لو كانت عن ذكر الله تعالى لما نسي الصلاة أن الجمهور لا يقولون بأن على للتعليل والإباء المذكور على تقدير تسليمه لا يتسنى إلا على ذلك وما يقولونه وقد أسلفناه لك بمراحل عنه.

وبالجملة قد اختلت أقوال هذا الإمام في هذا المقام ولم ينصف مع الجمهور وهم أعرف منه بالمأثور، نعم ما ذكره في الآية وجه ممكن فيها على بعد إذا قطع النظر عن الاخبار وما جاء عن السلف من الآثار، وقد ذكر نحوه عبد الوهاب الشعراني في كتابه اليواقيت والجواهر وهو في الحقيقة والله تعالى أعلم من كلام الشيخ الأكبر محيي الدين قدس سره وقد خالف الجمهور كالإمام، قال في الباب المائة والعشرين من الفتوحات ليس للمفسرين الذين جعلوا التواري للشمس دليل فإن الشمس ليس لها هنا ذكر ولا للصلاة التي يزعمون ومساق الآية لا يدل على ما قالوه بوجه ظاهر البتة، وأما استرواحهم فيما فسروه بقوله تعالى: ﴿ولقد فتنا سليمان﴾ فالمراد بتلك الفتنة إنما هو الاختبار بالخيل هل يحبها عن ذكر ربه تعالى لها أو يحبها لعينها فأخبر عليه السلام عن نفسه أنه أحبها عن ذكر ربه سبحانه إياها لا لحسنها وكمالها وحاجته إليها إلى آخر ما قال، وقد كان قدس سره معاصراً للإمام وكتب إليه رسالة يرغبه فيها بسلوك

طريقة القوم ولم يجتمعا، وغالب الظن أنه لم يأخذ أحدهما من الآخر ما قال في الآية بل لم يسمعه وعلم كل منهما لا ينكر والشيخ بحر لا يدرك قعره، وما ذكره في الاسترواح مما لم أقف عليه لأحد من المفسرين والله تعالى أعلم. وقرأ ابن كثير «بالسؤق» بهمزة ساكنة قال أبو علي: وهي ضعيفة لكن وجهها في القياس أن الضمة لما كانت تلي الواو قدر أنها عليها كما يفعلون بالواو المضمومة حيث يبدلونها همزة، ووجهها من القياس أن إباحية النميري كان يهمز كل واو ساكنة قبلها ضمة وكان ينشد:

أحب الوافدين إليَّ موسى

وقال أبو حيان: ليست ضعيفة لأن الساق فيه الهمزة فوزنه فعل بسكون العين فجاءت هذه القراءة على هذه اللغة. وتعقب بأن همز الساق إبدال على غير القياس إذ لا شبهة في كونه أجوف فلا بد من التوجيه بما تقدم. وقرأ ابن محيصن «بالسؤوق» بهمزة مضمومة بعدها واو ساكنة بوزن الفسوق، ورواها بكار عن قنبل وهو جمع ساق أيضاً. وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما «بالساق» مفرداً اكتفى به عن الجمع لأمن اللبس **﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّه جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾** أظهر ما قيل في فتنته عليه السلام أنه قال: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تأتي كل واحدة بفارس يجاهد في سبيل الله تعالى ولم يقل إن شاء الله فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة وجاءت بشق رجل وقد روى ذلك الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة مرفوعاً وفيه «فوالذي نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا فرساناً» لكن الذي في صحيح البخاري أربعين بدل سبعين وأن الملك قال له: قل إن شاء الله فلم يقل وغايته ترك الأولى فليس بذنب وإن عده هو عليه السلام ذنباً، فالمراد بالجسد ذلك الشق الذي ولد له، ومعنى إلقائه على كرسيه وضع القابلة له عليه ليراه.

وروى الإمامية عن أبي عبد الله رضي الله تعالى عنه أنه ولد لسليمان ابن فقالت الجن والشياطين: إن عاش له ولد لنلقين منه ما لقينا من أبيه من البلاء فأشفق عليه السلام منهم فجعله وظئره في السحاب من حيث لا يعلمون فلم يشعر إلا وقد ألقي على كرسيه ميتاً تنبيهاً على أن الحذر لا ينجي من القدر وعوتب على تركه التوكل اللائق بالخواص من ترك مباشرة الأسباب، وروي ذلك عن الشعبي أيضاً، ورواه بعضهم عن أبي هريرة على وجه لا يشك في وضعه إلا من يشك في عصمة الأنبياء عليهم السلام، وأنا في صحة هذا الخبر لست على يقين بل ظاهر الآية أن تسخير الريح بعد الفتنة وهو ظاهر في عدم صحة الخبر لأن الوضع في السحاب يقتضي ذلك.

وأخرج عبد بن حميد والحكيم الترمذي من طريق علي بن زيد عن سعيد بن المسيب أن سليمان عليه السلام احتجب عن الناس ثلاثة أيام فأوحى الله تعالى إليه أن يا سليمان احتجبت عن الناس ثلاثة أيام فلم تنظر في أمور عبادي ولم تنصف مظلوماً من ظالم وكان ملكه في خاتمه وكان إذا دخل الحمام وضع خاتمه تحت فراشه فجاء الشيطان فأخذه فأقبل الناس على الشيطان فقال سليمان: يا أيها الناس أنا سليمان نبي الله تعالى فدفعوه فساح أربعين يوماً فأتى أهل سفينة فأعطوه حوتاً فشقها فإذا هو بالخاتم فيها فتختم به ثم جاء فأخذ بناصيته فقال عند ذلك: **﴿رب هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي﴾**.

وأخرج النسائي وابن جرير وابن أبي حاتم قال ابن حجر والسيوطي بسند قوي عن ابن عباس أراد سليمان عليه السلام أن يدخل الخلاء فأعطى لجرادة خاتمه وكانت امرأته وكانت أحب نسائه إليه فجاء الشيطان في صورة سليمان فقال لها: هاتي خاتمي فأعطته فلما لبسه دانت الإنس والجن والشياطين فلما خرج سليمان قال لها: هاتي خاتمي قالت: قد أعطيته سليمان قال أنا سليمان قالت كذبت لست سليمان فجعل لا يأتي أحداً فيقول له أنا سليمان إلا كذبه حتى

جعل الصبيان يرمونه بالحجارة فلما رأى ذلك عرف أنه من أمر الله تعالى وقام الشيطان يحكم بين الناس فلما أراد الله تعالى أن يرد عليه سلطانه ألقى في قلوب الناس إنكار ذلك الشيطان فأرسلوا إلى نساء سليمان فقالوا: أتنكرن من سليمان شيئاً؟ قلن: نعم إنه يأتينا ونحن حيض وما كان يأتينا قبل ذلك فلما رأى الشيطان أنه قد فطن له ظن أن أمره قد انقطع فأمر الشياطين فكتبوا كتباً فيها سحر ومكر فدفنوها تحت كرسي سليمان ثم أثاروها وقرؤوها على الناس وقالوا: بهذا كان يظهر سليمان على الناس ويغلبهم فاكفر الناس سليمان وبعث ذلك الشيطان بالخاتم فطرحه في البحر فتلقته سمكة فأخذته وكان عليه السلام يعمل على شط البحر بالأجر فجاء رجل فاشترى سمكاً فيه تلك السمكة، فدعا سليمان فحمل معه السمك إلى باب داره فأعطاه تلك السمكة فشق بطنها فإذا الخاتم فيه فأخذه فلبسه فدانت له الإنس والجن والشياطين وعاد إلى حاله وهرب الشيطان إلى جزيرة في البحر فأرسل في طلبه وكان مريداً فلم يقدروا عليه حتى وجدوه نائماً فبنوا عليه بنياناً من رصاص فاستيقظ فأوثقوه وجاؤوا به إلى سليمان فأمر فنقر له صندوق من رخام فأدخل في جوفه ثم سد بالنحاس ثم أمر به فطرح في البحر. وذكر في سبب ذلك أنه عليه السلام كان قد غزا صيدون في الجزائر فقتل ملكها وأصاب ابنته وهي جرادة المذكورة فأحبها وكان لا يرقأ دمعها جزعاً على أبيها فأمر الشياطين فمثلوا لها صورته وكان ذلك جائزاً في شريعته وكانت تغدو إليها وتروح مع ولائدها يسجدن لها كعادتهن في ملكه فأخبره آصف فكسر الصورة وضرب المرأة فعوتب بذلك حيث تغافل عن حال أهله. واختلف في اسم ذلك الشيطان فعن السدي أنه حبقيق؛ وعن الأكثرين أنه صخر وهو المشهور، وإنما قال سبحانه: ﴿**جسداً**﴾ لأنه إنما تمثل بصورة غيره وهو سليمان عليه السلام وتلك الصورة المتمثلة ليس فيها روح صاحبها الحقيقي وإنما حل في قالبها ذلك الشيطان فلذا سميت جسداً وعبارة القاموس صريحة في أن الجسد يطلق على الجني.

وقال أبو حيان وغيره: إن هذه المقالة من أوضاع اليهود وزنادقة السوفسطائية ولا ينبغي لعاقل أن يعتقد صحة ما فيها، وكيف يجوز تمثل الشيطان بصورة نبي حتى يلتبس أمره عند الناس ويعتقدوا أن ذلك المتصور هو النبي، ولو أمكن وجود هذا لم يوثق بإرسال نبي نسأل الله تعالى سلامة ديننا وعقولنا ومن أقبح ما فيها زعم تسلط الشيطان على نساء نبيه حتى وطئهن وهن حيض الله أكبر هذا بهتان عظيم وخطب جسيم ونسبة الخبر إلى ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لا تسلم صحتها، وكذا لا تسلم دعوى قوة سنده إليه وإن قال بها من سمعت.

وجاء عن ابن عباس برواية عبد الرزاق وابن المنذر ما هو ظاهر في أن ذلك من أخبار كعب ومعلوم أن كعباً يرويه عن كتب اليهود وهي لا يوثق بها على أن اشعار ما يأتي بأن تسخير الشياطين بعد الفتنة يأبى صحة هذه المقالة كما لا يخفى، ثم إن أمر خاتم سليمان عليه السلام في غاية الشهرة بين الخواص والعوام ويستبعد جداً أن يكون الله تعالى قد ربط ما أعطى نبيه عليه السلام من الملك بذلك الخاتم وعندي أنه لو كان في ذلك الخاتم السر الذي يقولون لذكره الله عزَّ وجلّ في كتابه والله تعالى أعلم بحقيقة الحال.

وقال قوم: مرض سليمان عليه السلام مرضاً كالإغماء حتى صار على كرسيه كأنه جسد بلا روح وقد شاع قولهم في الضعيف: لحم على وضم وجسد بلا روح فالجسد الملقى على الكرسي هو عليه السلام نفسه.

وروي ذلك عن أبي مسلم وقال في قوله تعالى: ﴿**ثم أناب**﴾ أي رجع إلى الصحة ﴿**وجعل جسداً**﴾ حالاً من مفعول ألقينا المحذوف كأنه قيل ولقد فتنا سليمان أي ابتليناه وأمرضناه وألقيناه على كرسيه ضعيفاً كأنه جسد بلا روح ثم رجع إلى صحته، ولا يخفى سقمه، والحق ما ذكر أولاً في الحديث المرفوع، وعطف ﴿**أناب**﴾ بثم وكان الظاهر الفاء كما في قوله تعالى: ﴿**واستغفر ربه**﴾ قيل إشارة إلى استمرار إنابته وامتدادها فإن الممتد يعطف بها نظراً

لأواخره بخلاف الاستغفار فإنه ينبغي المسارعة إليه ولا امتداد في وقته، وقيل: إن العطف بثم هنا لما أنه عليه السلام لم يعلم الداعي إلى الإنابة عقيب وقوعه وهذا بخلاف ما كان في قصة داود عليه السلام فإن العطف هناك على ظن الفتنة واللائق به أن لا يؤخر الاستغفار عنه، وقيل: العطف بها هنا لما أن بين زمان الإنابة وأول زمان ما وقع منه عليه السلام من ترك الاستثناء مدة طويلة وهي مدة الحمل وليس بين زمان استغفار داود عليه السلام وأول زمان ما وقع منه كذلك ﴿قَالَ﴾ بدل من ﴿أناب﴾ وتفسير له على ما في إرشاد العقل السليم وهو الظاهر. ويمكن أن يكون استئنافاً بيانياً نشأ من حكاية ما تقدم كأنه قيل فهل كان له حال لا يضر معه مسح الخيل سوقها وأعناقها وهل كان بحيث تقتضي الحكمة فتنته؟ فأجيب بما أجيب وحاصله نعم كان له حال لا يضر معه المسح وكان بحيث تقتضي الحكمة فتنته فقد دعا بملك عظيم فوهب له، ويمكن أن يقرر الاستئناف على وجه آخر، وكذا يمكن أن يكون استئنافاً نحوياً لحكاية شيء من أحواله عليه السلام فتأمل ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ ما لم أستحسن صدوره عني.

﴿وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ أي لا يصح لأحد غيري لعظمته فبعد هنا نظير ما في قوله تعالى: ﴿فمن يهديه من بعد الله﴾ [الجاثية: ٢٣] أي غير الله تعالى، وهو أعم من أن يكون الغير في عصره، والمراد وصف الملك بالعظمة على سبيل الكناية كقولك لفلان ما ليس لأحد من الفضل والمال وربما كان في الناس أمثاله تريد أن له من ذلك شيئاً عظيماً لا أن لا يعطى أحد مثله ليكون منافسة، وما أخرج عبد بن حميد والبخاري ومسلم والنسائي والحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن عفريتاً جعل يتفلت علي البارحة ليقطع علي صلاتي وإن الله تعالى أمكنني منه فلقد هممت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا فتنظروا إليه كلكم فذكرت قول أخي سليمان ﴿رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي﴾ فرده الله تعالى خاسئاً» لا ينافي ذلك لأنه عليه الصلاة والسلام أراد كمال رعاية دعوة أخيه سليمان عليه السلام بترك شيء تضمنه ذلك الملك العظيم وإلا فالملك العظيم ليس مجرد ربط عفريت إلى سارية بل هو سائر ما تضمنه قوله تعالى الآتي ﴿فسخرنا له الريح﴾ الخ، وقيل: إن عدم المنافاة لأن الكناية تجامع إرادة الحقيقة كما تجامع إرادة عدمها، ولعله إنما طلب عليه السلام ذلك ليكون علامة على قبول سؤاله المغفرة وجبر قلب عما فاته بترك الاستثناء أو ليتوصل به إلى تكثير طاعته لله عزَّ وجلّ ونعمة الدنيا الصالحة للعبد الصالح فلا إشكال في طلب الملك في هذا المقام إذا قلنا بما يقتضيه ظاهر النظم الجليل من صدور الطلبين معاً.

وقال الزمخشري: كان سليمان عليه السلام ناشئاً في بيت الملك والنبوة ووارثاً لهما فأراد أن يطلب من ربه عزَّ وجلّ معجزة فطلب على حسب إلفه ملكاً زائداً على الممالك زيادة خارقة للعادة بالغة حد الإعجاز ليكون ذلك دليلاً على نبوته قاهراً للمبعوث إليهم ولن تكون معجزة حتى تخرق العادات فذلك معنى ﴿لا ينبغي لأحد من بعدي﴾ فقوله من بعدي بمعنى من دوني وغيري كما في الوجه السابق، وحسن طلب ذلك معجزة مع قطع النظر عن الإلف أنه عليه السلام كان زمن الجبارين وتفاخرهم بالملك ومعجزة كل نبي من جنس ما اشتهر في عصره، ألا ترى أنه لما اشتهر السحر وغلب في عهد الكليم عليه السلام جاءهم بما يتلقف ما أتوا به. ولما اشتهر الطب في عهد المسيح عليه السلام جاءهم بإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، ولما اشتهر في عهد خاتم الرسل ﷺ الفصاحة أتاهم بكلام لم يقدروا على أقصر فصل من فصوله. واعترض بأن اللائق بطلب المعجزة أن يكون في ابتداء النبوة وظاهر النظم الجليل أن هذا الطلب كان بعد الفتنة والإنابة كيف لا وقوله تعالى: ﴿قال﴾ الخ بدل من ﴿أناب﴾ وتفسير له والفتنة لم تكن في الابتداء كما يشعر به النظم. وأجيب بأنا لا نسلم أن اللائق بطلب المعجزة كونها في ابتداء النبوة وإن سلم فليس

في الآية ما ينافي وقوعه، وكذا وقوع الفتنة في ابتدائها لا سيما إن قلنا: إن قوله تعالى ﴿**قال رب اغفر لي**﴾ الخ ليس تفسيراً لأناب. وأجيب على القول بأن الفتنة كانت سلب الملك بأن رجوعه بعد كالابتداء.

وذكر بعض الذاهبين إلى ذلك أنه عليه السلام أقام في ملكه قبل هذه الفتنة عشرين سنة وأقام بعدها عشرين سنة أيضاً وقالوا في هذه الآية: إن مصب الدعاء الوصف فمعنى الآية هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد غيري ممن هو في عصري بأن يسلبه مني كهذه السلبة.

وروي هذا المعنى عن عطاء بن أبي رباح وقتادة، وحاصله الدعاء بعدم سلب ملكه عنه في حياته، ويفهم مما في سياق التفريع إجابة سؤاله عليه السلام وأن ما وهب له لا يسلب عنه بعد. وجوز أن يكون هذا دعاء بعدم السلب وإن لم يتقدم سلب ودوام نعمة الله عزَّ وجلّ مما يحسن الدعاء به والآثار ملأى من ذلك فهذا الوجه لا يتعين بناؤه على تفسير الفتنة بسلب الملك على ما حكي سابقاً.

وقال الجبائي: إنه عليه السلام طلب ملكاً لا يكون لغيره أبداً ولم يطلب ذلك إلا بعد الإذن فإن الأنبياء عليهم السلام لا يطلبون إلا ما يؤذن لهم في طلبه وجائز أن يكون الله تعالى قد أعلمه أنه إن سأل ذلك كان أصلح له في الدين وأعلمه أن لا صلاح لغيره فيه وهو نظير قول القائل: اللهم اجعلني أكثر أهل زماني مالاً إذا علمت أن ذلك أصلح لي فإنه حسن لا ينسب قائله إلى شح اهـ. قيل ويجوز أن يكون معنى الآية عليه هب لي ملكاً ينبغي لي حكمة ولا ينبغي حكمة لأحد غيري وأراد بذلك طلب أن يكون عليه السلام متأهلاً لنعم الله عزَّ وجلّ وهو كما ترى. وقيل غير ذلك، ومن أعجب ما رأيت ما قاله السيد المرتضى: إنه يجوز أن يكون إنما سأل ملك الآخرة وثواب الجنة ويكون معنى قوله: ﴿**لا ينبغي لأحد من بعدي**﴾ لا يستحقه بعد وصوله إليه من حيث لا يصح أن يعمل ما يستحق به ذلك لانقطاع التكليف، ولا يخفى أنه مما لا يرتضيه الذوق والتفريع الآتي آبٍ عنه كل الإباء، واستدل بعضهم بالآية على بعض الأقوال المذكورة فيها على تكفير من ادعى استخدام الجن وطاعتهم له وأيد ذلك بالحديث السابق، والحق أن استخدام الجن الثابت لسليمان عليه السلام لم يكن بواسطة أسماء ورياضات بل هو تسخير إلهي من غير واسطة شيء وكان أيضاً على وجه أتم وهو مع ذلك بعض الملك الذي استوهبه فالمختص على تقدير إفادة الآية الاختصاص مجموع ما تضمنه قوله تعالى: ﴿**فسخرنا**﴾ الخ فالظاهر عدم اكفاء من يدعي استخدام شيء من الجن، ونحن قد شاهدنا مراراً من يدعي ذلك وشاهدنا آثار صدق دعواه على وجه لا ينكره إلا سوفسطائي أو مكابر.

ومن الاتفاقيات الغريبة أني اجتمعت يوم تفسيري لهذه الآية برجل موصلي يدعي ذلك وامتحنته بما يصدق دعواه في محفل عظيم ففعل وأتى بالعجب العجاب، وكانت الأدلة على نفي احتمال الشعبذة ونحوها ظاهرة لذوي الألباب إلا أن لي إشكالاً في هذا المقام وهو أن الخادم الجني قد يحضر الشيء الكثيف من نحو صندوق مقفل بين جمع في حجرة أغلقت أبوابها وسدت منافذها ولم يشعر به أحد، ووجه الإشكال أن الجني لطيف فكيف ستر الكثيف فلم ير في الطريق وكيف أخرجه من الصندوق وأدخله الحجرة وقد سددت المنافذ، وتلطف الكثيف ثم تكثفه بعد مما لا يقبله إلا كثيف أو سخيف، ومثل ذلك كون الإحضار المذكور على نحو احضار عرش بلقيس بالإعدام والايجاد كما يقوله الشيخ الأكبر أو بوجه آخر كما يقول غيره، ولعل الشرع أيضاً يأبى هذا، وسرعة المرور إن نفعت ففي عدم الرؤية في الطريق، وقصارى ما يقال لعل للجني سحراً أو نحوه سلب به الإحساس فتصرف بالصندوق ومنافذ الحجرة حسبما أراد وأتى بالكثيف يحمله ولم يشعر به أحد من الناس فإن تم هذا فبها وإلا فالأمر مشكل، وظاهر جعل

جملة ﴿قال رب اغفر لي ﴾ تفسيراً للإنابة يقتضي أن الاستغفار مقصود لذاته لا وسيلة للاستيهاب، وفي كون الاستيهاب مقصوداً لذاته أيضاً احتمالان.

وتقديم الاستغفار على تقدير كونهما مقصودين بالذات لمزيد اهتمامه بأمر الدين وقد يجعل مع هذا وسيلة للاستيهاب المقصود أيضاً فإن افتتاح الدعاء بنحو ذلك أرجى للإجابة، وجوز على بعد بعد التزام الاستئناف في الجملة كون الاستيهاب هو المقصود لذاته والاستغفار وسيلة له، وسيجيء إن شاء الله تعالى ما قيل في الاستئناس له.

وقرىء «من بَعْدِي» بفتح الياء وحكى القراءة به في لي، وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ تعليل للدعاء بالمغفرة والهبة معاً لا للدعاء بالأخيرة فقط فإن المغفرة أيضاً من أحكام وصف الوهابية قطعاً، ومن جوز كون الاستيهاب هو المقصود استأنس له بهذا التعليل ظناً منه أنه للدعاء بالأخيرة فقط وكذا بعدم التعرض لإجابة الدعاء بالأولى فإن الظاهر أن قوله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ ﴾ إلى آخره تفريع على طلبه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده ولو كان الاستغفار مقصوداً أيضاً لقيل فغفرنا له وسخرنا له الريح الخ. وأجيب بأنه يجوز أن يقال: إن المغفرة لمن استغفر لا سيما الأنبياء عليهم السلام لما كانت أمراً معلوماً بخلاف هبة ملك لمن استوهب لم يصرح بها واكتفى بدلالة ما ذكر في حيز الفاء مع ما في الآية بعد على ذلك، وتقوى هذه الدلالة على تقدير أن يكون طلب الملك علامة على قبول استغفاره وإجابة دعائه فتأمل، والتسخير التذليل أي فذللناها لطاعته إجابة لدعوته، وقيل أدمنا تذليلها كما كان وقرأ الحسن وأبو رجاء وقتادة وأبو جعفر «الرياح» بالجمع قيل: وهو أوفق لما شاع من أن الريح تستعمل في الشر والرياح في الخير، وقد علمت أن ذلك ليس بمطرد، وقوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِه ﴾ بيان لتسخيرها له عليه السلام أو حال أي جارية بأمره ﴿رُخَاءً ﴾ أي لينة من الرخاوة لا تحرك لشدتها. واستشكل هذا بأنه ينافي قوله تعالى: ﴿ولسليمان الريح عاصفة ﴾ [الأنبياء: ٨١] لوصفها ثمت بالشدة وهنا باللين.

وأجيب بأنها كانت في أصل الخلقة شديدة لكنها صارت لسليمان لينة سهلة أو أنها تشتد عند الحمل وتلين عند السير فوصفت باعتبار حالين أو أنها شديدة في نفسها فإذا أراد سليمان عليه السلام لينها لانت على ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿بأمره ﴾ أو أنها تلين وتعصف باقتضاء الحال، وقال ابن عباس والحسن والضحاك: رخاء مطيعة لا تخالف إرادته كالمأمور المنقاد، فالمراد بلينها انقيادها له وهو لا ينافي عصفها، واللين يكون بمعنى الإطاعة وكذا الصلابة تكون بمعنى العصيان ﴿حَيْثُ أَصَابَ ﴾ أي قصد وأراد كما روي عن ابن عباس والضحاك وقتادة، وحكي الزجاج عن العرب أصاب الصواب فأخطأ الجواب، وعن رؤبة أن رجلين من أهل اللغة قصداه ليسألاه عن هذه الكلمة فخرج إليهما فقال: أي تصيبان؟ فقالا: هذه طلبتنا ورجعا ويقال أصاب الله تعالى بك خيراً، وأنشد الثعلبي:

أصاب الكلام فلم يستطع ... فأخطا الجواب لدى المعضل

وعن قتادة أن أصاب بمعنى أراد لغة هجر وقيل لغة حمير، وجوز أن يكون أصاب من صاب يصوب بمعنى نزل، والهمزة للتعدية أي حيث أنزل جنوده. وحيث متعلقة بسخرنا أو بتجري ﴿وَالشَّيَاطِينَ ﴾ عطف على الريح ﴿كُلَّ بَنَّاء وَغَوَّاص ﴾ بدل من ﴿الشياطين ﴾ وهو بدل كل من كل أن أريد المعهودون المسخرون أو أريد من له قوة البناء والغوص والتمكن منهما أو بدل بعض إن لم يرد ذلك فيقدر ضمير أي منهم والغوص لاستخراج الحلية وهو عليه السلام على ما قيل أول من استخرج الدر ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ ﴾ عطف على ﴿كل ﴾ لا على ﴿الشياطين ﴾ لأنهم منهم إلا أن يراد العهد ولا على ما أضيف إليه ﴿كل ﴾ لأنه لا يحسن فيه إلا الإضافة إلى مفرد منكر أو جمع معرف، والأصفاد جمع صفد وهو القيد في المشهور، وقيل الجامعة أعني الغل الذي يجمع اليدين إلى

العنق قيل وهو الأنسب بمقرنين لأن التقرين بها غالباً ويسمى به العطاء لأنه ارتباط للمنعم عليه ومنه قول علي كرم الله تعالى وجهه: من برَّك فقد أسرك ومن جفاك فقد أطلقك؛ وقول القائل: غل يداً مطلقها وفك رقبة معتقها، وقال أبو تمام:

همـمـي مـعـلـقـة عـلـيـك رقـابـهـا ... مـغـلـولـة إن الـعـطـاء إسـار

وتبعه المتنبي في قوله:

وقـيـدت نـفـسـي فـي ذراك مـحـبـة ... ومـن وجـد الإحـسـان قـيـداً تـقـيـدا

وفرقوا بين فعليهما فقالوا: صفده قيده وأصفده أعطاه عكس وعده وأوعده. ولهم في ذلك كلام طويل قال فيه الخفاجي ما قال ثم قال: والتحقيق عندي أن هاهنا مادتين في كل منهما ضار ونافع وقليل اللفظ وكثيره وقد ورد في إحداهما الضار بلفظ مقدم والنافع بلفظ كثير مؤخر وفي الأخرى عكسه ووجهه في الأول أنه أمر واقع لأنه وضع للقيد ثم أطلق على العطاء لأنه يقيد صاحبه وعبر بالأقل في القيد لضيقه المناسب لقلة حروفه وبالأكثر في العطاء لأنه من شأن الكرم. وقدم الأول لأنه أصل أخف وعكس ذلك في وعد وأوعد فعبر في النافع بالأقل وقدم وأخر الضار وكثر حروفه لأنه مستقبل غير واقع والخير الموعود به يحمد سرعة انجازه وقلة مدة وقوعه فإن أهنا البر عاجله وهذا يناسب قلة حروفه وفي الوعيد يحمد تأخيره لحسن الخلف والعفو عنه فناسب كثرة حروفه ثم قال: وهذا تحقيق في غاية الحسن وما عداه وهم فارغ فأعرفه والمراد بهؤلاء المقرنين المردة فتفيد الآية تفصيل الشياطين إلى عملة استعملهم عليه السلام في الأعمال الشاقة كالبناء والغوص ومردة قرن بعضهم ببعض بالجوامع ليكفوا عن الشر، وظاهره أن هناك تقييداً وهو مشكل لأن الشياطين إما أجسام نارية لطيفة قابلة للتشكل، وإما أرواح خبيثة مجردة، وأياً ما كان لا يمكن تقييدها ولا إمساك القيد لها. وأجيب باختيار الأول وهو الصحيح.

والأصفاد غير ما هو المعروف بل هي أصفاد يتأتى بها تقييد اللطيف على وجه يمنعه عن التصرف، والأمر من أوله خارق للعادة، وقيل: إن لطافة أجسامهم بمعنى شفافتها لا تأبى الصلابة كما في الزجاج والفلك عند الفلاسفة فيمكن أن تكون أجسامهم شفافة وصلبة فلا تُرى لشفافتها ويتأتى تقييدها لصلابتها، وأنكر بعضهم الصلابة لتحقق نفوذ الشياطين فيما لا يمكن نفوذ الصلب فيه وأنهم لا يدركون باللمس والصلب يدرك به.

وقيل: لا مانع من أنه عليه السلام يقيدهم بشكل صلب فيقيدهم حينئذ بالأصفاد والشيطان إذا ظهر متشكلاً بشكل قد يتقيد به ولا يمكنه التشكل بغيره ولا العود إلى ما كان، وقد نص الشيخ الأكبر محيي الدين قدس سره أن نظر الإنسان يقيد الشيطان بالشكل الذي يراه فيه فمتى رأى الإنسان شيطاناً بشكل ولم يصرف نظره عنه بالكلية لم يستطع الشيطان الخفاء عنه ولا التشكل بشكل آخر إلى أن يجد فرصة صرف النظر عنه ولو برمشة عين.

وزعم الجبائي أن الشيطان كان كثيف الجسم في زمن سليمان عليه السلام ويشاهده الناس ثم لما توفي عليه السلام أمات الله عزَّ وجلّ ذلك الجن وخلق نوعاً آخر لطيف الجسم بحيث لا يرى ولا يقوى على الأعمال الشاقة، وهذا لا يقبل أصلاً إلا برواية صحيحة وأنى هي، وقيل: الأقرب أن المراد تمثيل كفهم عن الشرور بالإقران في الصفد وليس هناك قيد ولا تقييد حقيقة ﴿**هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ إما حكاية لما خوطب به سليمان عليه السلام مبينة لعظم شأن ما أوتي من الملك وأنه مفوض إليه تفويضاً كلياً، وإما مقول لقول مقدر هو معطوف على ﴿**سخرنا**﴾ أو حال من فاعله أي وقلنا أو قائلين له هذا الخ والإشارة إلى ما أعطاه مما تقدم أي هذا الذي أعطيناكه من الملك العظيم والبسطة والتسليط على ما لم يسلط عليه غيرك عطاؤنا الخاص بك فأعط من شئت وامنع من شئت غير محاسب على شيء من الأمرين ولا مسؤول عنه في الآخرة لتفويض التصرف فيه إليك على الإطلاق، فبغير حساب

حال من المستكن في الأمر والفاء جزائية و ﴿هذا عطاؤنا﴾ مبتدأ وخبر، والإخبار مفيد لما أشرنا إليه من اعتبار الخصوص أي عطاؤنا الخاص بك أو يقال: إن ذكره ليس للإخبار به بل ليترتب عليه ما بعده كقوله:

هـذه دارهـم وأنـت مـشـوق ... مـا بـقـاء الـدمـوع فـي الآمـاق

وجوز أن يكون ﴿بغير حساب﴾ حالاً من العطاء نحو ﴿هذا بعلي شيخاً﴾ [هود: ٧٢] أي هذا عطاؤنا متلبساً بغير حساب عليه في الآخرة أو هذا عطاؤنا كثيراً جداً لا يعد ولا يحسب لغاية كثرته، وأن يكون صلة العطاء واعتبره بعضهم قيداً له لتتم الفائدة ولا يحتاج لاعتبار ما تقدم، وعلى التقديرين ما في البين اعتراض فلا يضر الفصل به، والفاء اعتراضية وجاء اقتران الاعتراض بها كما جاء بالواو كقوله:

واعـلـم فـعـلـم الـمـرء يـنـفـعـه ... أن سـوف يـأتـي كـل مـا قـدرا

وقيل: الإشارة إلى تسخير الشياطين، والمراد بالمن والإمساك إطلاقهم وإبقاؤهم في الأصفاد، والمن قد يكون بمعنى الإطلاق كما في قوله تعالى: ﴿فإما منا بعد وإما فداء﴾ [محمد: ٤] والأولى في قوله تعالى: ﴿بغير حساب﴾ حينئذ كونه حالاً من المستكن في الأمر، وهذا القول رواه ابن جرير. وابن أبي حاتم عن ابن عباس، وما روي عنه من أنه إشارة إلى ما وهب له عليه السلام من النساء والقدرة على جماعهن لا يكاد يصح إذ لم يجر لذلك ذكر في الآية، وإلى الأول ذهب الجمهور وهو الأظهر، وقرأ ابن مسعود «هذا فامنن أو امسك عطاؤنا بغير حساب» ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ لقربه وكرامة مع ما له من الملك العظيم فهو إشارة إلى أن ملكه لا يضره ولا ينقصه شيئاً من مقامه.

﴿وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ حسن مرجع في الجنة وهو عطف على ﴿زلفى﴾ وقرأ الحسن وابن أبي عبلة «وحسنُ» بالرفع هي أنه مبتدأ خبره محذوف أي له، والوقف عندهما على ﴿لزلفى﴾ هذا وأمر سليمان عليه السلام من أعظم الأمور وكان مع ما آتاه الله تعالى من الملك العظيم يعمل الخوص بيده ويأكل خبز الشعير ويطعم بني إسرائيل الحوارى أخرجه أحمد في الزهد عن عطاء، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: «قال رسول الله ﷺ ما رفع سليمان عليه السلام طرفه إلى السماء تخشعاً» حيث أعطاه الله تعالى ما أعطاه وكان في عصره من ملوك الفرس كيخسرو فقد ذكر الفقيه أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري في تاريخه أنه عليه السلام ورث ملك أبيه في عصر كيخسرو بن سباوش وسار من الشام إلى العراق فبلغ خبره كيخسرو فهرب إلى خراسان فلم يلبث حتى هلك ثم سار سليمان إلى مرو ثم إلى بلاد الترك فوغل فيها ثم جاوز بلاد الصين ثم عطف إلى أن وافى بلاد فارس فنزلها أياماً ثم عاد إلى الشام ثم أمر ببناء بيت المقدس فلما فرغ سار إلى تهامة ثم إلى صنعاء وكان من حديثه مع صاحبتها ما ذكره الله تعالى وغزا بلاد المغرب الأندلس وطنجة وغيرهما ثم انطوى البساط وضرب له بين عساكر الموتى الفسطاط فسبحان الملك الدائم الذي لا يزول ملكه ولا ينقضي سلطانه.

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ قال ابن إسحاق: الصحيح أنه كان من بني إسرائيل ولم يصح في نسبه شيء غير أن اسم أبيه أموص، وقال ابن جرير: هو أيوب بن أموص بن روم بن عيص بن إسحاق عليه السلام، وحكى ابن عساكر أن أمه بنت لوط وأن أباه ممن آمن بإبراهيم فعلى هذا كان عليه السلام قبل موسى، وقال ابن جرير: كان بعد شعيب، وقال ابن أبي خيثمة: كان بعد سليمان، وقوله تعالى: ﴿واذكر﴾ الخ عطف على ﴿اذكر عبدنا داود﴾ [ص: ١٧] وعدم تصدير قصة سليمان عليه السلام بهذا العنوان لكمال الاتصال بينه وبين داود عليهما السلام، و ﴿أيوب﴾ عطف بيان لعبدنا أو بدل منه بدل كل من كل، وقوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ﴾ بدل اشتمال منه أو من ﴿أيوب﴾ ﴿أنّي﴾ أي بأني.

وقرأ عيسى بكسر همزة «إني» ﴿مسَّني الشَّيْطَانُ﴾ وقرىء بإسكان ياء «مسني» وبإسقاطها ﴿بِنُصْب﴾ بضم النون وسكون الصاد التعب كالنصب بفتحتين، وقيل: هو جمع نصب كوثن ووثن، وقرأ أبو جعفر وشيبة وأبو عمارة عن حفص والجعفي عن أبي بكر و أبو معاذ عن نافع بضمتين وهي لغة، ولا مانع من كون الضمة الثانية عارضة للاتباع، وربما يقال: إن في ذلك رمزاً إلى ثقل تعبه وشدته، وقرأ زيد بن علي والحسن والسدي وابن أبي عبلة ويعقوب والجحدري بفتحتين وهي لغة أيضاً كالرشد والرشد، وقرأ أبو حيوة ويعقوب في رواية وهبيرة عن حفص بفتح النون وسكون الصاد، قال الزمخشري: على أصل المصدر، ونص ابن عطية على أن ذلك لغة أيضاً قال بعد ذكر القراءات: وذلك كله بمعنى واحد وهو المشقة وكثيراً ما يستعمل النصب في مشقة الإعياء.

وفرق بعض الناس بين هذه الألفاظ والصواب أنها لغات بمعنى من قولهم أنصبني الأمر إذا شق علي انتهى. والتنوين للتفخيم وكذا في قوله تعالى: و﴿عذاب﴾ وأراد به الألم وهو المراد بالضر في قوله: ﴿أني مسني الضر﴾ [الأنبياء: ٨٣].

وقيل: النصب والضر في الجسد والعذاب في الأهل والمال، وهذا حكاية لكلامه عليه السلام الذي نادى به ربه عزَّ وجلّ بعبارته وإلا لقيل إنه مسه الخ بالغيبة، وإسناد المس إلى الشيطان قيل على ظاهره وذلك أنه عليه اللعنة سمع ثناء الملائكة عليهم السلام على أيوب عليه السلام فحسده وسأل الله تعالى أن يسلطه على جسده وماله وولده ففعل عزَّ وجلّ ابتلاء له، والقصة مشهورة.

وفي بعض الآثار أن الماس له شيطان يقال له مسوط، وأنكر الزمخشري ذلك فقال: لا يجوز أن يسلط الله تعالى الشيطان على أنبياء عليهم السلام ليقضي من اتعابهم وتعذيبهم وطره، ولو قدر على ذلك لم يدع صالحاً إلا وقد نكبه وأهلكه، وقد تكرر في القرآن أنه لا سلطان له إلا الوسوسة فحسب، وجعل إسناد المس إليه هنا مجازاً فقال لما كانت وسوسته إليه وطاعته له فيما وسوس سبباً فيما مسه الله تعالى من النصب والعذاب نسبه إليه، وقد راعى عليه السلام الأدب في ذلك حيث لم ينسبه إلى الله سبحانه في دعائه مع أنه جل وعلا فاعله ولا يقدر عليه إلا هو، وهذه الوسوسة قيل وسوسته إليه عليه السلام أن يسأل الله تعالى البلاء ليمتحن ويجرب صبره على ما يصيبه كما قال شرف الدين عمر ابن الفارض.

وبما شئت في هواك اختبرني ... فاختياري ما كان فيه رضاكا

وسؤاله البلاء دون العافية ذنب بالنسبة لمقامه عليه لا حقيقة، والمقصود من ندائه بذلك الاعتراف بالذنب. وقيل إن رجلاً استغاثه على ظالم فوسوس إليه الشيطان بترك إغاثته فلم يغثه فمسه الله تعالى بسبب ذلك بما مسه.

وقيل: كانت مواشيه في ناحية ملك كافر فداهنه ولم يغزه وسوسة من الشيطان فعاتبه الله تعالى بالبلاء، وقيل وسوس إليه فأعجب بكثرة ماله وولده فابتلاه الله تعالى لذلك وكل هذه الأقوال عندي متضمنة ما لا يليق بمنصب الأنبياء عليهم السلام. وذهب جمع إلى أن النصب والعذاب ليسا ما كانا له من المرض والألم أو المرض وذهاب الأهل والمال بل أمر أن عرضاً له وهو مريض فاقد الأهل والمال فقيل هما ما كانا له من وسوسة الشيطان إليه في مرضه من عظم البلاء والقنوط من الرحمة والإغراء على الجزع كان الشيطان يوسوس إليه بذلك هو يجاهده في دفع ذلك حتى تعب وتألم على ما هو فيه من البلاء فنادى ربه يستصرفه عنه ويستعينه عليه ﴿أني مسني الشيطان بنصب وعذاب﴾ وقيل كانا من وسوسة الشيطان إلى غيره فقيل: إن الشيطان تعرض لامرأته بصورة طبيب فقالت له: إن هاهنا

مبتلى فهل ذلك أن تداويه فقال: نعم بشرط أن يقول: إذا شفيته أنت شفيتني فمالت لذلك وعرضت كلامه لأيوب عليه السلام فعرف أنه الشيطان وكان عليه ذلك أشد مما هو فيه ﴿**فنادى ربه أني مسني**﴾ الخ، وقيل: إن الشيطان طلب منها أن تذبح لغير الله تعالى إذا عالجه وبرأ فمالت لذلك فعظم عليه عليه السلام الأمر فنادى، وقيل: إنه كان يعوده ثلاثة من المؤمنين فارتد أحدهم فسأل عنه فقيل له: ألقى إليه الشيطان أن الله تعالى لا يبتلي الأنبياء والصالحين فتألم من ذلك جداً فقال ما قال وفي رواية مر به نفر من بني إسرائيل فقال بعضهم لبعض: ما أصابه هذا إلا بذنب أصابه وهذا نوع من وسوسة الشيطان فعظم عليه ذلك فقال ما قال، والإسناد على جميع ما ذكر باعتبار الوسوسة، وقيل غير ذلك والله تعالى أعلم. وقوله سبحانه: ﴿**اركض برجلك**﴾ إما حكاية لما قبل له أو مقول لقول مقدر معطوف على ﴿**نادى**﴾ أي فقلنا له اركض برجلك أي اضرب بها وكذا قوله تعالى: ﴿**هذا مغتسل بارد وشراب**﴾ فإنه أيضاً إما حكاية لما قيل له بعد امتثاله بالأمر ونبوع الماء أو مقول لقول مقدر معطوف على مقدر ينساق إليه الكلام كأنه قيل: فضربها فنبعت عين فقلنا له هذا مغتسل تغتسل به وتشرب منه فيبرأ ظاهرك وباطنك، فالمغتسل اسم مفعول على الحذف والإيصال وكذا الشراب، وعن مقاتل أن المغتسل اسم مكان أي هذا مكان تغتسل فيه وليس بشيء، وظاهر الآية اتحاد المخبر عنه بمغتسل وشراب، وقيل: إنه عليه السلام ضرب برجله اليمنى فنبعت عين حارة فاغتسل منها وبرجله اليسرى فنبعت باردة فسرب منها، وقال الحسن: ركض برجله فنبعت عين فاغتسل منها ثم مشى نحواً من أربعين ذراعاً ثم ركض برجله فنبعت أخرى فشرب منها، ولعله عنى بالأولى عيناً حارة، وظاهر النظم عدم التعدد.

و ﴿**بارد**﴾ على ذلك صفة ﴿**شراب**﴾ مع أنه مقدم عليه صفة ﴿**مغتسل**﴾ وكون هذا إشارة إلى جنس النابع أو يقدر وهذا بارد الخ تكلف لا يخرج ذلك عن الضعف، وقيل أمر بالركض بالرجل ليتناثر عنه كل داء بجسده.

وكان ذلك على ما روي عن قتادة والحسن ومقاتل بأرض الجابية من الشام، وفي الكلام حذف أيضاً أي فاغتسل وشرب فكشفنا بذلك ما به من ضر ﴿**وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ**﴾ بإحيائهم بعد هلاكهم على ما روي عن الحسن.

وروى الطبرسي عن أبي عبد الله رضي الله تعالى عنه أن الله تعالى أحيا له أهله الذين كانوا ماتوا قبل البلية وأهله الذين ماتوا وهو في البلية، وفي البحر الجمهور على أنه تعالى أحيا له من مات من أهله وعافى المرضى وجمع عليه من تشتت منهم، وقيل وإليه أميل وهبه من كان حياً منهم وعافاه من الأسقام وأرغد لهم العيش فتناسلوا حتى بلغ عددهم من مضى ﴿**وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ**﴾ فكان له ضعف ما كان، والظاهر أن هذه الهبة كانت في الدنيا، وزعم بعض أن هذا وعد وتكون تلك الهبة في الآخرة ﴿**رحمة منا**﴾ أي لرحمة عظيمة عليه من قبلنا.

﴿**وذكرى لأولي الألباب**﴾ وتذكيراً لهم بذلك ليصبروا على الشدائد كما صبر ويلجؤوا إلى الله تعالى فيما يصيبهم كما لجأ ليفعل سبحانه بهم فافعل به من حسن العاقبة. روي عن قتادة أنه عليه السلام ابتلي سبع سنين وأشهراً وألقي على كناسة بني إسرائيل تختلف الدواب في جسده فصبر ففرج الله تعالى عنه وأعظم له الأجر وأحسن، وعن ابن عباس أنه صار ما بين قدميه إلى قرنه قرحة واحدة وألقي على الرماد حتى بدا حجاب قلبه فكانت امرأته تسعى إليه فقالت له يوماً: أما ترى يا أيوب قد نزل بي والله من الجهد والفاقة ما إن بعت قروني برغيف فأطعمتك فادع الله تعالى أن يشفيك ويريحك فقال: ويحك كنا في النعيم سبعين عاماً فاصبري حتى نكون في الضر سبعين عاماً فكان في البلاء سبع سنين ودعا فجاء جبريل عليه السلام فأخذ بيده ثم قال: قم فقام عن مكانه وقال: ﴿**اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب**﴾ فاغتسل وشرب فبرأ وألبسه الله تعالى حلة من الجنة فتنحى فجلس في ناحية وجاءت امرأته فلم تعرفه فقالت: يا عبد الله أين المبتلى الذي كان هاهنا؟ لعل الكلاب ذهبت به أو الذئاب وجعلت تكلمه ساعة فقال: ويحك

أنا أيوب قد رد الله تعالى علي جسدي ورد الله تعالى عليه ماله وولده ومثلهم معهم وأمطر عليه جراداً من ذهب فجعل يأخذ الجراد بيده ويجعله في ثوب وينشر كساءه فيجعل فيه فأوحى الله تعالى إليه يا أيوب أما شبعت؟ قال: يا رب من الذي يشبع من فضلك ورحمتك، وفي البحر روى أنس عن النبي ﷺ «أن أيوب بقي في محنته ثماني عشرة سنة يتساقط لحمه حتى مله العالم ولم يصبر عليه إلا امرأته» وعظم بلائه عليه السلام مما شاع وذاع ولم يختلف فيه اثنان لكن في بلوع أمره إلى أن ألقي على كناسة ونحو ذلك فيه خلاف قال الطبرسي: قال أهل التحقيق أنه لا يجوز أن يكون بصفة يستقذره الناس عليها لأن في ذلك تنفيراً فأما الفقر والمرض وذهاب الأهل فيجوز أن يمتحنه الله تعالى بذلك.

وفي هداية المريد للقاني أنه يجوز على الأنبياء عليهم السلام كل عرض بشري ليس محرماً ولا مكروهاً ولا مباحاً مزرياً ولا مزمناً ولا مما تعافه الأنفس ولا مما يؤدي إلى النفرة ثم قال بعد ورقتين، واحترزنا بقولنا ولا مزمناً ولا مما تعافه الأنفس عما كان كذلك كالإقعاد والبرص والجذام والعمى والجنون، وأما الإغماء فقال النووي لا شك في جوازه عليهم لأنه مرض بخلاف الجنون فإنه نقص، وقيد أبو حامد الإغماء بغير الطويل وجزم به البلقيني، قال السبكي: وليس كإغماء غيرهم لأنه إنما يستر حواسهم الظاهرة دون قلوبهم لأنها معصومة من النوم الأخف، قال: ويمتنع عليهم الجنون وإن قل لأنه نقص ويلحق به العمى ولم يعمَ نبي قط، وما ذكر عن شعيب من كونه كان ضريراً لم يثبت، وأما يعقوب فحصلت له غشاوة وزالت اهـ.

وفرق بعضهم في عروض ذلك بين أن يكون بعد التبليغ وحصول الغرض من النبوة فيجوز وبين أن يكون قبل فلا يجوز، ولعلك تختار القول بحفظهم بما تعافه النفوس ويؤدي إلى الاستقدار والنفرة مطلقاً وحينئذٍ فلا بد من القول بأن ما ابتلي به أيوب عليه السلام لم يصل إلى حد الاستقذار والنفرة كما يشعر به ما روي عن قتادة ونقله القصاص في كتبهم، وذكر بعضهم أن داءه كان الجدري ولا أعتقد صحة ذلك والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً﴾ عطف على ﴿اركض﴾ أو على ﴿وهبنا﴾ بتقدير قلنا خذ بيدك الخ، والأول أقرب لفظاً وهذا أنسب معنى فإن الحاجة إلى هذا الأمر لا تمس إلا بعد الصحة واعتدال الوقت فإن امرأته رحمة بنت إفرائيم أو مشيا بن يوسف أو ليا بنت يعقوب أو ماخير بنت ميشا بن يوسف على اختلاف الروايات.

ولا يخفى لطف ﴿رحمة منا﴾ على الرواية الأولى ذهبت لحاجة فأبطأت أو بلغت أيوب عن الشيطان أن يقول كلمة محذورة فيبرأ وأشارت عليه بذلك فقالت له إلى متى هذا البلاء كلمة واحدة ثم استغفر ربك فيغفر لك أو جاءته بزيادة على ما كانت تأتي به من الخبز فظن أنها ارتكبت في ذلك محرماً فحلف ليضربنها إن برىء مائة ضربة فأمره الله تعالى بأخذ الضغث وهو الحزمة الصغيرة من حشيش أو ريحان أو قضبان، وقيل: القبضة الكبيرة من القضبان، ومنه ضغث على إبالة والإبالة الحزمة من الحطب والضغث القبضة من الحطب أيضاً عليها، ومنه قول الشاعر:

وأسفل مني نهدة قد ربطتها ... وألقيت ضغثاً من خلى متطيب

وقال ابن عباس هنا: الضغث عثكال النخل، وقال مجاهد: الاثل وهو نبت له شوك، وقال الضحاك: حزمة من الحشيش مختلفة، وقال الأخفش: الشجر الرطب، وعن سعيد بن المسيب أنه عليه السلام لما أمر أخذ ضغثاً من ثمام فيه مائة عود، وقال قتادة هو عود فيه تسعة وتسعون عوداً والأصل تمام المائة فإن كان هذا معتبراً في مفهوم الضغث ولا أظن فذاك وإلا فالكلام على إرادة المائة فكأنه قيل: خذ بيدك ضغثاً فيه مائة عود ﴿فَاضْرِبْ به﴾ أي بذلك الضغث ﴿وَلا تَحْنَثْ﴾ بيمينك فإن البر يتحقق به ولقد شرع الله تعالى ذلك رحمة عليه وعليها لحسن خدمتها إياه ورضاه

عنها وهي رخصة باقية في الحدود في شريعتنا وفي غيرها أيضاً لكن غير الحدود يعلم منها بالطريق الأولى فقد أخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف قال حملت وليدة في بني ساعدة من زنا فقيل لها: ممن حملك؟ قالت: من فلان المقعد فسئل المقعد فقال: صدقت فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال: خذوا عثكولاً فيه مائة شمراخ فاضربوه به ضربة واحدة ففعلوا، وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن محمد بن عبد الرحمن عن ثوبان أن رجلاً أصاب فاحشة على عهد رسول الله ﷺ وهو مريض على شفا موت فأخبر أهله بما صنع فأمر النبي ﷺ بقنو فيه مائة شمراخ فضرب به ضربة واحدة، وأخرج الطبراني عن سهل بن سعد أن النبي عليه الصلاة والسلام أتى بشيخ قد ظهرت عروقه قد زنى بامرأة فضربه بضغث فيه مائة شمراخ ضربة واحدة، ولا دلالة في هذه الأخبار على عموم الحكم من يطيق الجلد المتعارف لكن القائل ببقاء حكم الآية قائل بالعموم لكن شرطوا في ذلك أن يصيب المضروب كل واحدة من المائة إما بأطرافها قائمة أو بأعراضها مبسوطة على هيئة الضرب.

وقال الخفاجي: إنهم شرطوا فيه الإيلام أما مع عدمه بالكلية فلا فلو ضرب بسوط واحد له شعبتان خمسين مرة من حلف على ضربه مائة بر إذا تألم فإن لم يتألم لا يبر ولو ضربه مائة لأن الضرب وضع لفعل مؤلم بالبدن بآلة التأديب، وقيل: يحنث بكل حال كما فصل في شروح الهداية وغيرها انتهى.

وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس لا يجوز ذلك لأحد بعد أيوب إلا الأنبياء عليهم السلام، وفي أحكام القرآن العظيم للجلال السيوطي عن مجاهد قال: كانت هذه لأيوب خاصة، وقال الكيا: ذهب الشافعي وأبو حنيفة وزفر إلى أن من فعل ذلك فقد بر في يمينه، وخالف مالك ورآه خاصاً بأيوب عليه السلام، وقال بعضهم: إن الحكم كان عاماً ثم نسخ والصحيح بقاء الحكم، واستدل بالآية على أن للزوج ضرب زوجته وأن يحلف ولا يستثني وعلى أن الاستثناء شرطه الاتصال إذ لو لم يشترط لأمره سبحانه وتعالى بالاستثناء ولم يحتج إلى الضرب بالضغث.

واستدل عطار بها على مسألة أخرج فأخرج سعيد بن منصور بسند صحيح عنه أن رجلاً قال له: إني حلفت أن لا أكسو امرأتي درعاً حتى تقف بعرفة فقال: احملها على حمار ثم اذهب فقف بها بعرفة فقال: إنما عنيت يوم عرفة فقال عطاء: أيوب حين حلف ليجلدن امرأته مائة جلدة أنوى أن يضربها بالضغث إنما أمره الله تعالى أن يأخذ ضغثاً فيضربها به ثم قال: إنما القرآن عبر إنما القرآن عبر. وللبحث في ذلك مجال، وكثير من الناس استدل بها على جواز الحيل وجعلها أصلاً لصحتها، وعندي أن كل حيلة أوجبت إبطال حكمة شرعية لا تقبل كحيلة سقوط الزكاة وحيلة سقوط الاستبراء وهذا كالتوسط في المسألة فإن من العلماء من يجوز الحيلة مطلقاً ومنهم من لا يجوزها مطلقاً، وقد أطال الكلام في ذلك العلامة ابن تيمية ﴿**إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً**﴾ فيما أصابه في النفس والأهل والمال.

وقد كان عليه السلام يقول كلما أصابته مصيبة: اللهم أنت أخذت وأنت أعطيت ويحمد الله عزَّ وجلّ، ولا يخل بذلك شكواه إلى الله تعالى من الشيطان لأن الصبر عدم الجزع ولا جزع فيما ذكر كتمني العافية وطلب الشفاء مع أنه قال ذلك على ما قيل خيفة الفتنة في الدين كما سمعت فيما تقدم، ويروى أنه قال في مناجاته: الهي قد علمت أنه لم يخالف لساني قلبي ولم يتبع قلبي بصري ولم يلهني ما ملكت يميني ولم آكل إلا ومعي يتيم ولم أبت شبعان ولا كاسياً ومعي جائع أو عريان فكشف الله تعالى عنه ﴿**نِعْمَ الْعَبْدُ**﴾ أي أيوب ﴿**إِنَّهُ أَوَّابٌ**﴾ تعليل لمدحه وتقدم معنى الأواب ﴿**وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ**﴾ الثلاثة عطف بيان لعبادنا أو بدل منه.

وقيل: نصب بإضمار أعني، وقرأ ابن عباس وابن كثير وأهل مكة «عبدنا» بالإفراد فإبراهيم وحده بدل أو عطف بيان أو مفعول أعني، وخص بعنوان العبودية لمزيد شرفه، وما بعده عطف على «عبدنا» وجوز أن يكون المراد بعبدنا

عبادنا وضعاً للجنس موضع الجمع فتتحد القراءتان ﴿أُولي الأَيدي وَالأَبْصَار﴾ أولي القوة في الطاعة والبصيرة في الدين على أن الأيدي مجاز مرسل عن القوة، والأبصار جمع بصر بمعنى بصيرة وهو مجاز أيضاً لكنه مشهور فيه أو أولي الأعمال الجليلة والعلوم الشريفة على أن ذكر الأيدي من ذكر السبب وإرادة المسبب، والأبصار بمعنى البصائر مجاز عما يتفرع عليها من العلوم كالأول أيضاً، وفي ذلك على الوجهين تعريض بالجهلة البطالين أنهم كفاقدي الأيدي والأبصار وتوبيخ على تركهم المجاهدة والتأمل مع تمكنهم منهما، وقيل: الأيدي النعم أي أولى التي أسداها الله تعالى إليهم من النبوة والمكانة أو أولى النعم والإحسانات على الناس بإرشادهم وتعليمهم إياهم، وفيه ما فيه. وقرىء «الأيادي» على جمع الجمع كاوطف واواطف، وقرأ عبد الله والحسن وعيسى والأعمش «الأيد» بغير ياء فقيل يراد الأيدي بالياء وحذفت اجتزاء بالكسرة عنها، ولما كانت أل تعاقب التنوين حذفت الياء معها كما حذفت مع التنوين حكاه أبو حيان ثم قال: وهذا تخريج لا يسوغ لأن حذف هذه الياء مع وجود أل ذكره سيبويه في الضرائر، وقيل: الأيد القوة في طاعة الله تعالى نظير ما تقدم، وقال الزمخشري بعد تعليل الحذف بالاكتفاء بالكسرة وتفسيره بالأيد من التأييد قلق غير متمكن وعلل بأن فيه فوات المقابلة وفوات النكتة البيانية فلا تغفل ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَة﴾ تعليل لما وصفوا به، والباء للسببية وخالصة اسم فاعل وتنوينها للتفخيم، وقوله تعالى: ﴿ذِكْرَى الدَّار﴾ بيان لها بعد ابهامها للتفخيم، وجوز أن يكون خبراً عن ضميرها المقدر أي هي ذكرى الدار، وأياً ما كان فذكرى مصدر مضاف لمفعوله وتعريف الدار للعهد أي الدار الآخرة، وفيه إشعار بأنها الدار في الحقيقة وإنما الدنيا مجاز أي جعلناهم خالصين لنا سبب خصلة خالصة جليلة الشأن لا شوب فيها هي تذكرهم دائماً الدار الآخرة فإن خلوصهم في الطاعة بسبب تذكرهم إياها وذلك لأن مطمح أنظارهم ومطرح أفكارهم في كل ما يأتون ويذرون جوار الله عزَّ وجلّ والفوز بلقائه ولا يتسنى ذلك إلا في الآخرة.

وقيل أخلصناهم بتوفيقهم لها واللطف بهم في اختيارها والباء كما في الوجه الأول للسببية والكلام نحو قولك: أكرمته بالعلم أي بسبب أنه عالم أكرمته أو أكرمته بسبب أنك جعلته عالماً، وقد يتخيل في الثاني أنه صلة، ويعضد الوجه الأول قراءة الأعمش وطلحة «بخالصتهم».

وأخرج ابن المنذر عن الضحاك أن ذكرى الدار تذكيرهم الناس الآخرة وترغيبهم إياهم فيها وتزهيدهم[1] إياهم فيها على وجه خالص من الحظوظ النفسانية كما هو شأن الأنبياء عليهم السلام، وقيل المراد بالدار الدار الدنيا وبذكراها الثناء الجميل ولسان الصدق الذي ليس لغيرهم. وحكي ذلك عن الجبائي. وأبي مسلم وذكره ابن عطية احتمالاً، وحاصل الآية عليه كما قال الطبرسي إنا خصصناهم بالذكر الجميل في الأعقاب.

وقرأ أبو جعفر وشيبة والأعرج ونافع وهشام بإضافة «خالصة» إلى «ذكرى» للبيان أي بما خلص من ذكرى الدار على معنى أنهم لا يشوبون ذكراها بهم آخر أصلاً أو على غير ذلك من المعاني، وجوز على هذه القراءة أن تكون «خالصة» مصدراً كالعاقبة والكاذبة مضافاً إلى الفاعل أي أخلصناهم بأن خلصت لهم ذكرى الدار. وظاهر كلام أبي حيان أن احتمال المصدرية ممكن في القراءة الأولى أيضاً لكنه قال: الأظهر أن تكون اسم فاعل ﴿وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ﴾ أي المختارين من بين أبناء جنسهم، وفيه إعلال معروف.

وعندنا يجوز فيه أن يكون من صلة الخبر وأن يكون من صلة محذوف دل عليه ﴿لمن المصطفين﴾ أي

---

(١) وتزهيدهم اياهم فيها كذا في خط المؤلف رحمه الله وعبارة الكشاف تذكيرهم الناس الآخرة وترغيبهم فيها وتزهيدهم في الدنيا.

وأنهم مصطفون عندنا، ولم يجوزوا أن يكون من صلة ﴿المصطفين﴾ المذكور لأن أل فيه موصولة ومصطفين صلة وما في حيز الصلة لا يتقدم معموله على الموصول لئلا يلزم تقدم الصلة على الموصول، واعترض بأنا لا نسلم أن أل فيه موصولة إذ لم يرد منه الحدوث ولو سلم فالمتقدم ظرف وهو يتوسع فيه ما لا يتوسع في غيره، والظاهر أن الجملة عطف على ما قبلها، وتأكيدها لمزيد الاعتناء بكونهم عندهم تعالى من المصطفين من الناس ﴿الأخيار﴾ الفاضلين عليهم في الخير وهو جمع خير مقابل شر الذي هو أفعل تفضيل في الأصل، وكان قياس أفعل التفضيل أن لا يجمع على أفعال لكنه للزوم تخفيفه حتى أنه لا يقال أخير إلا شذوذاً أو في ضرورة جعل كأنه بنية أصلية؛ وقيل جمع خير المشدد أو خير المخفف منه كأموات في جمع ميت بالتشديد أو ميت بالتخفيف.

وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكۡرٞۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ
عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ﴿٥١﴾ ۞وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ
أَتۡرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ
مَـَٔابٖ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ ﴿٥٨﴾
هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئۡسَ
ٱلۡقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ عَذَابٗا ضِعۡفٗا فِي ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ
ٱلۡأَشۡرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠
مُنذِرٞۖ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ
عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمۡ عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ ﴿٦٨﴾

﴿وَاذْكُرْ إسماعيلَ﴾ فَصَل ذِكره عن ذكر أبيه وأخيه اعتناء بشأنه من حيث إنه لا يشرك العرب فيه غيرهم أو للإشعار بعراقته في الصبر الذي هو المقصود بالذكر ﴿وَالْيَسَعَ﴾ قال ابن جرير هو ابن أخطوب بن العجوز، وذكر أنه استخلفه إلياس على بني إسرائيل ثم استنبىء، واللام فيه زائدة لازمة لمقارنتها للوضع، ولا ينافي كونه غير عربي فإنها قد لزمت في بعض الأعلام الأعجمية كالإسكندر فقد لحن التبريزي من قال إسكندر مجرداً له منها، والأولى عندي أنه إذا كان اسماً أعجمياً وأل فيه مقارنة للوضع أن لا يقال بزيادتها فيها، وقيل هو اسم عربي منقول من يسع مضارع وسع حكاه الجلال السيوطي في الإتقان. وفي القاموس يسع كيضع اسم أعجمي أدخل عليه أل ولا تدخل على نظائره كيزيد.

وقرأ حمزة والكسائي «والليسع» بلامين والتشديد كان أصله ليسع بوزن فيعل من اللسع دخل عليه أل تشبيهاً بالمنقول الذي تدخله للمح أصله، وجزم بعضهم بأنه على هذه القراءة أيضاً علم أعجمي دخل عليه اللام.

﴿وَذَا الْكفل﴾ قيل هو ابن أيوب، وعن وهب أن الله تعالى بعث بعد أيوب شرف ابن أيوب نبياً وسماه ذا الكفل وأمره بالدعاء إلى توحيده وكان مقيماً بالشام عمره حتى مات وعمره خمس وسبعون سنة.

وفي العجائب للكرماني قيل هو إلياس، وقيل هو يوشع بن نون، وقيل هو نبي اسمه ذو الكفل، وقيل كان رجلاً

صالحاً تكفل بأمور فوفى بها، وقيل هو زكريا من قوله تعالى: ﴿وكفلها زكريا﴾ [آل عمران: ٣٧] اه، وقال ابن عساكر: هو نبي تكفل الله تعالى له في عمله بضعف عمل غيره من الأنبياء، وقيل لم يكن نبياً وأن اليسع استخلفه فتكفل له أن يصوم النهار ويقوم الليل، وقيل أن يصلي كل يوم مائة ركعة، وقيل: كان رجلاً من الصالحين كان في زمانه أربعمائة نبي من بني إسرائيل فقتلهم ملك جبار إلا مائة منهم فروا من القتل فآواهم وأخفاهم وقام بمؤونتهم فسماه الله تعالى ذا الكفل، وقيل هو اليسع وأن له اسمين ويأباه ظاهر النظم ﴿وَكُلٌّ﴾ أي وكلهم ﴿مِنَ الأَخْيَارِ﴾ المشهورين بالخيرية ﴿هَذا﴾ إشارة إلى ما تقدم من الآيات الناطقة بمحاسنهم ﴿ذِكْرٌ﴾ أي شرف لهم وشاع الذكر بهذا المعنى لأن الشرف يلزمه الشهرة والذكر بين الناس فتجوز به عنه بعلاقة اللزوم، والمراد في ذكر قصصهم وتنويه الله تعالى بهم شرف عظيم لهم أو المعنى هذا المذكور من الآيات نوع من الذكر الذي هو القرآن، وذكر ذلك للانتقال من نوع من الكلام إلى آخر كما يقول الجاحظ في كتبه: فهذا باب ثم شرع في باب آخر ويقول الكاتب إذا فرغ من فصل من كتابه وأراد الشروع في آخر: هذا وكان كيت وكيت، ويحذف على ما قيل الخبر في مثل ذلك كثيراً وعليه ﴿هذا وإن للطاغين لشر مآب﴾ [ص: ٥٥] وستسمع إن شاء الله تعالى الكلام فيه فلا يقال: إنه لا فائدة فيه لأنه معلوم أنه من القرآن، وقال ابن عباس: هذا ذكر من مضى من الأنبياء عليهم السلام، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ أي مرجع شروع في بيان أجرهم الجزيل في الآجل بعد بيان ذكرهم الجميل في العاجل، والمراد بالمتقين إما الجنس وهم داخلون فيه دخولاً أولياً وإما نفس المذكورين عبر عنهم بذلك مدحاً لهم بالتقوى التي هي الغاية القصوى في الكمال، والجملة فيما أرى عطف على الجملة قبلها كأنه قيل: هذا شرف لهم في الدنيا وأن لهم ولأضرابهم أو إن لهم في الآخرة لحسن مآب أو هي من قبيل عطف القصة على القصة، وقال الشهاب الخفاجي عليه الرحمة: هي حالية ولم يبين صاحب الحال، ويبعد أن يكون ﴿ذكراً﴾ لأنه نكرة متقدمة وأن يكون ﴿هذا﴾ لأنه مبتدأ ومع ذلك في المعنى على تقدير الحالية خفاء، وقال بعض أجلة المعاصرين: إنه أراد أن الكلام على معنى والحال كذا أي الأمر والشأن كذا ولم يرد أن الجملة حال بالمعنى المعروف الذي يقتضي ذا حال وعاملاً في الحال إلى غير ذلك وادعى أن الأمر كذلك في كل جملة يقال إنها حال وليس فيها ضمير يعود على ما قبلها نحو جاء زيد والشمس طالعة وقال: إنه الذي ينبغي أن يعول عليه وإن لم يذكره النحويون اه، والحال لا يخفى على ذي تمييز، وإضافة ﴿حسن﴾ إلى ﴿مآب﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف إما بتأويل مآب ذي حسن أو حسن وإما بدونه قصداً للمبالغة.

وقوله تعالى: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ بدل اشتمال، وجوز أن يكون نصباً على المدح، وجعله الزمخشري عطف بيان لحسن مآب، وعدن قيل من الأعلام الغالبة غلبة تقديرية ولزوم الإضافة فيها أو تعريفها باللام أغلبي كما صرح به ابن مالك في التسهيل، وجنات عدن كمدينة طيبة لا كإنسان زيد فإنه قبيح، وقيل العلم مجموع ﴿جنات عدن﴾ وهو أيضاً من غير الغالب لأن المراد من الإضافة التي تعوضها العلم بالغلبة إضافة تفيده تعريفاً، وعلى القولين هو معين فيصلح للبيان لكن تعقب ذلك أبو حيان بأن للنحويين في عطف البيان مذهبين، أحدهما أن ذلك لا يكون إلا في المعارف فلا يكون عطف البيان إلا تابعاً لمعرفة وهو مذهب البصريين، والثاني أنه يجوز أن يكون في النكرات فيكون عطف البيان تابعاً لنكرة كما تكون المعرفة فيه تابعة لمعرفة وهذا مذهب الكوفيين وتبعهم الفارسي؛ وأما تخالفهما في التنكير والتعريف فلم يذهب إليه أحد سوى الزمخشري كما قد صرح به ابن مالك في التسهيل فهو بناء للأمر على مذهبه.

وذهب آخرون أن عدنا مصدر عدن بمكان كذا استقر، ومنه المعدن لمستقر الجواهر ولا علمية ولا نقل هناك

ومعنى ﴿**جنات عدن**﴾ جنات استقرار وثبات فإن كان عطف بيان فهو على مذهب الكوفيين والفارسي.

ومن الغريب ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس قال: سألت كعباً عن قوله تعالى: ﴿**جنات عدن**﴾ فقال: جنات كروم وأعناب بالسريانية، وفي تفسير ابن جرير أنه بالرومية، وقوله تعالى:

﴿**مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ**﴾ إما صفة لجنات عدن وإليه ذهب ابن إسحاق وتبعه ابن عطية أو حال من ضميرها المستتر في خبر إن والعامل فيه الاستقرار المقدر أو نفس الظرف لتضمنه معناه ونيابته عنه وإليه ذهب الزمخشري ومختصرو كلامه أو حال من ضميرها المحذوف مع العامل لدلالة المعنى عليه والتقدير يريد خلوها مفتحة وإليه ذهب الحوفي، و ﴿**الأبواب**﴾ نائب فاعل ﴿**مفتحة**﴾ عند الجمهور والرابط العائد على الجنات محذوف تقديره الأبواب منها، واكتفى الكوفيون عن ذلك بأل لقيامها مقام الضمير فكأنه قيل: مفتحة لهم أبوابها، وذهب أبو علي إلى أن نائب فاعل ﴿**مفتحة**﴾ ضمير الجنات والأبواب بدل منه بدل اشتمال كما هو ظاهر كلام الزمخشري، ولا يصح أن يكون بدل بعض من كل لأن أبواب الجنات ليست بعضاً من الجنات على ما قال أبو حيان. وقرأ زيد بن علي وعبد الله بن رفيع وأبو حيوة «جناتُ عدنٍ مفتحةٌ» برفعهما على أنهما خبران لمحذوف أي هو أي المآب جنات عدن مفتحة لهم أبوابه أو هو جنات عدن هي مفتحة لهم أبوابها أو على أنهما مبتدأ وخبر.

ووجه ارتباط الجملة بما قبلها أنها مفسرة لحسن المآب لأن محصلها جنات أبوابها فتحت إكراماً لها أو هي معترضة.

وقوله تعالى: ﴿**مُتَّكِئِينَ فِيهَا**﴾ وقوله سبحانه: ﴿**يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ**﴾ قيل حالان من ضمير ﴿**لهم**﴾ وهما حالان مقدران لأن الاتكاء وما بعده ليس في حال تفتيح الأبواب بل بعده، وقيل: الأول حال مقدرة من الضمير المذكور والثاني حال من ضمير متكئين، وجوز جعلهما حالين من المتقين، ولا يصح إلا أن قلنا بأن الفاصل ليس بأجنبي والظاهر أنه أجنبي، وقال بعض الأجلة: الأظهر أن ﴿**متكئين**﴾ حال من ضمير ﴿**يدعون**﴾ قدم رعاية للفاصلة ويدعون استئناف لبيان حالهم كأنه قيل ما حالهم بعد دخولها؟ فقيل: يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب متكئين فيها، والاقتصار على الفاكهة للإيذان بأن مطاعمهم لمحض التفكه والتلذذ دون التغذي فإنه لتحصيل بدل ولا تحلل ثمت ولما كانت الفاكهة تتنوع وصفها سبحانه بالكثرة وكثرتها باختلاف أنواعها وكثرة كل نوع منها، ولما كان الشراب نوعاً واحداً وهو الخمر أفرد، وقيل: وصفت الفاكهة بالكثرة ولم يوصف الشراب للإيذان بأنه يكون على الشراب نقل كثير سواء تعددت أنواعه أم اتحدت، ويمكن أن يقال والله تعالى أعلم: التقدير وشراب كثير لكن حذف كثير لدلالة ما قبل ورعاية للفاصلة.

﴿**وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ**﴾ أي على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم أو قاصرات طرف أزواجهن عليهن فلا ينظرون إلى غيرهن لشدة حسنهن، وتمام الكلام قد مر وحلا ﴿**أَتْرَابٌ**﴾ أي لدات على سن واحدة تشبيهاً في التساوي والتماثل بالترائب التي هي ضلوع الصدر أو لسقوطهن معاً على الأرض حين الولادة ومسهن ترابها فكأن الترب بمعنى المتارب كالمثل بمعنى المماثل، والظاهر أن هذا الوصف بينهن فيكون في ذلك إشارة إلى محبة بعضهن لبعض وتصادقهن فيما بينهن فإن النساء الأتراب يتحاببن ويتصادقن وفي ذلك راحة عظيمة لأزواجهن كما أن في تباغض الضرائر نصباً عظيماً وخطباً جسيماً لهم، وقد جرب ذلك وصح نسأل الله تعالى العفو والعافية.

وقيل: إن ذلك بينهن وبين أزواجهن أي إن أسنانهن كأسنانهم ليحصل كمال التحاب، ورجح بأن اهتمام الرجل بحصول المحبة بينه وبين زوجته أشد من اهتمامه بحصولها بين زوجاته، وفيه توقف، ثم إن الوصف الأول على

المعنى الأول متكفل بالدلالة على محبتهن لأزواجهن وعلى المعنى الثاني متكفل بالدلالة على محبة أزواجهن لهن وإذا حصلت المحبة من طرف فالغالب حصولها من الطرف الآخر، وقد قيل: من القلب إلى القلب سبيل والأمر في الشاهد أن كون الزوجات أصغر من الأزواج أحب لهم لا التساوي، واختار بعضهم كون ذلك بينهن وبين أزواجهن، ويلزم منه مساواة بعضهن لبعض وهذا إذا كان المراد بقوله تعالى: ﴿**وعندهم**﴾ الخ وعند كل واحد منهم ولو كان المراد وعند مجموعهم وكان الجمع موزعاً بأن يكون لكل واحد واحد من أهل الجنة واحدة واحدة من قاصرات الطرف الأتراب كان اعتبار كون الوصف بينهن وبين الأزواج كالمتعين لكن هذا الفرض خلاف ما نطقت به الأخبار سواء قلنا بما روي عن ابن عباس من أن الآية في الآدميات أو قلنا بما قاله صاحب الفينان من أنها في الحور، وقيل بناء على ما هو الظاهر في الوصف أن التساوي في الأعمار بين الحور وبين نساء الجنة فالآية فيهما ﴿**هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ**﴾ أي لأجل يوم الحساب فإن ما وعدوه لأجل طاعتهم وأعمالهم الصالحة وهي تظهر بالحساب فجعل كأنه علة لتوقف إنجاز الوعد فالنسبة لليوم والحساب مجازية، وجوز أن تكون اللام بمعنى بعد كما في كتب لخمس خلون من جمادى الآخرة مثلاً وهو أقل مؤونة.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو «يوعدون» بياء الغيبة وعلى قراءة الجمهور بتاء الخطاب فيه التفات ﴿**إِنَّ هَٰذَا**﴾ أي ما ذكر من ألوان النعم والكرامات ﴿**لَرِزْقُنَا**﴾ أعطيناكموه ﴿**مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ**﴾ انقطاع أبداً ﴿**هَٰذَا**﴾ قال الزجاج: أي الأمر هذا على أنه خبر مبتدأ محذوف، وقال أبو علي: أي هذا للمؤمنين على أنه مبتدأ خبره محذوف وقدره بعضهم كما ذكر.

وجوز أبو البقاء احتمال كونه مبتدأ محذوف الخبر واحتمال كونه خبراً محذوف المبتدأ، وجوز بعضهم كونه فاعل فعل محذوف أي مضى هذا وكونه مفعولاً لفعل محذوف أي خذ هذا، وجوز أيضاً كونها اسم فعل بمعنى خذ وذا مفعوله من غير تقدير ورسمه متصلاً يبعده والتقدير أسهل منه، وقوله تعالى: ﴿**وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ**﴾ عطف على ما قبله، ولزوم عطف الخبر على الإنشاء على بعض الاحتمالات جوابه سهل، وأشار الخفاجي إلى الحالية هنا أيضاً ولعل أمرها على بعض الأقوال المذكورة هين، والطاغون هنا الكفار كما يدل عليه كلام ابن عباس حيث قال: أي الذين طغوا عليّ وكذبوا رسلي، وقال الجبائي: أصحاب الكبائر كفاراً كانوا أو لم يكونوا، وإضافة ﴿**شر**﴾ إلى ﴿**مآب**﴾ كإضافة ﴿**حسن**﴾ إليه فيما تقدم، وظاهر المقابلة يقتضي أن يقال: لقبح مآب هنا أو لخير مآب فيما مضى لكنه مثله لا يلتفت إليه إذا تقابلت المعاني لأنه من تكلف الصنعة البديعية كما صرح به المرزوقي في شرح الحماسة كذا قيل، وقيل إنه من الاحتباك وأصله إن للمتقين لخير مآب وحسن مآب وإن للطاغين لقبح مآب وشر مآب واستحسنه الخفاجي وفيه نوع بعد، وقوله تعالى:

﴿**جَهَنَّمَ**﴾ يعلم إعرابه مما سلف؛ وقوله سبحانه: ﴿**يَصْلَوْنَهَا**﴾ أي يدخلونها ويقاسون حرها حال من جهنم نفسها أو من الضمير المستتر في خبر أن الراجع لشر مآب المراد به هي والحال مقدرة ﴿**فَبِئْسَ الْمِهَادُ**﴾ أي هي يعني جهنم فالمخصوص بالذم محذوف، والمهاد كالفراش لفظاً ومعنى وقد استعير مما يفترشه النائم، والمهد كالمهاد وقد يخص بمقر الطفل ﴿**هَٰذَا**﴾ خبر مبتدأ محذوف أي العذاب هذا، وقوله تعالى: ﴿**فَلْيَذُوقُوهُ**﴾ جملة مرتبة على الجملة قبلها فهي بمنزلة جزاء شرط محذوف، وقوله تعالى: ﴿**حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ**﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هو حميم وغساق وذا قد يشاربه للمتعدد أو مبتدأ محذوف الخبر أي منه حميم ومنه غساق كما في قوله:

حتى إذا ما أضاء الصبح في غلس ... وغودر البقل ملويٌّ ومحصود

أي منه ملويّ ومنه محصود أو ﴿**هذا**﴾ مبتدأ خبره ﴿**حميم**﴾ وجملة ﴿**فليذوقوه**﴾ معترضة كقولك زيد

فافهم رجل صالح أو هذا مبتدأ أخبره ﴿فليذوقوه﴾ على مذهب الأخفش في إجازته زيد فاضربه مستدلاً بقوله:

وقائلة خولان فانكح فتاتهم

أو ﴿هذا﴾ في محل نصب بفعل مضمر يفسره ﴿فليذوقوه﴾ أي ليذوقوا هذا فليذوقوه، ولعلك تختار القول بأن ﴿هذا﴾ مبتدأ وحميم خبره وما في البين اعتراض وقد قدمه في الكشاف والفاء تفسيرية تعقيبية وتشعر بأن لهم إذاقة بعد إذاقة، وفي حميم وغساق على هذين الوجهين الاحتمالان المذكوران أولاً والحميم الماء الشديد الحرارة.

والغساق بالتشديد كما قرأ به ابن أبي إسحاق وقتادة وابن وثاب وطلحة وحمزة والكسائي وحفص والفضل وابن سعدان وهارون عن أبي عمرو، وبالتخفيف كما قرأ به باقي السبعة اسم لما يجري من صديد أهل النار كما روي عن عطاء وقتادة وابن زيد، وعن السدي ما يسيل من دموعهم. وأخرج ابن جرير عن كعب أنه عين في جهنم تسيل إليها حمة كل ذي حمة من حية وعقرب وغيرهما يغمس فيها الكافر فيتساقط جلده ولحمه وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس أنه الزمهرير، وقيل: هو مشدداً ومخففاً وصف من غسق كضرب وسمع بمعنى سال يقال غسقت العين إذا سال دمعها فيكون على ما في البحر صفة حذف موصوفها أي ومذوق غساق ويراد به سائل من جلود أهل النار مثلاً، والوصفية في المشدد أظهر لأن فعالاً بالتشديد قليل في الأسماء، ومنه الغياد ذكر البوم والخطار دهن يتخذ من الزيت والعقار ما يتداوى به من النبات، ومن الغريب ما قاله الجواليقي والواسطي أن الغساق هو البارد المنتن بلسان الترك والحق أنه عربي نعم النتونة وصف له في الواقع وليست مأخوذة في المفهوم، فقد أخرج أحمد والترمذي وابن حبان وجماعة وصححه الحاكم عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ «لو أن دلواً من غساق يهراق في الدنيا لأنتن أهل الدنيا» وقيل الغساق عذاب لا يعلمه إلا الله عزَّ وجلّ ويبعده هذا الخبر ﴿وَآخَرُ﴾ أي ومذوق آخر وفسره ابن مسعود كما رواه عنه جمع بالزمهرير أو وعذاب آخر.

وقرأ الحسن ومجاهد والجحدري وابن جبير وعيسى وأبو عمرو و «أُخَر» على الجمع أي ومذوقات أو أنواع عذاب أخر ﴿مِنْ شَكْله﴾ أي من مثل هذا المذوق أو العذاب في الشدة والفظاعة، وتوحيد الضمير دون تثنيته نظراً للحميم والغساق على أنه لما ذكر أو للشراب الشامل للحميم والغساق أو للغساق. وقرأ مجاهد «شِكْله» بكسر الشين وهي لغة فيه كمثل وإذا كان بمعنى الغنج فهو بالكسر لا غير ﴿أَزْوَاجٌ﴾ أي أجناس و ﴿آخر﴾ على القراءتين يحتمل أن يكون خبر مبتدأ محذوف أي وهذا مذوق أو عذاب آخر أو هذه مذوقات أو أنواع عذاب أخر، والجملة معطوفة على هذا حميم، وإن شئت فقدر هو أو هي واعطف الجملة على هو حميم، وأن يكون مبتدأ خبره محذوف أي ومنه مذوق أو عذاب آخر أو ومنه مذوقات أو أنواع عذاب أخر والعطف على منه حميم وجوز أن يقدر الخبر لهم أي ولهم مذوق أو عذاب آخر أو ولهم مذوقات أو أنواع عذاب أخر والعطف على ﴿هذا فليذوقوه﴾ ومن شكله وأزواج في جميع ذلك صفتان لآخر أو اخر و ﴿آخر﴾ وإن كان مفرداً في اللفظ فهو جمع وصادق على متعدد في المعنى.

ويحتمل أن يكون آخر أو أخر مبتدأ و ﴿من شكله﴾ صفته و ﴿أزواج﴾ خبر والجواب عن عدم المطابقة على قراءة الافراد ما سمعت، وأن يكون ذلك عطفاً على حميم عطف المفرد على المفرد ومن شكله صفته وأزواج صفة للثلاثة المتعاطفة، وجوز أن يكون آخر مبتدأ ومن شكله خبره وأزواج فاعل الظرف، وأن يكون الأول مبتدأ ومن شكله خبر مقدم وأزواج مبتدأ والجملة خبر المبتدأ الأول أعني آخر، وصح الابتداء به لأنه من باب ضعيف عاذ بقرملة فالمبتدأ في الحقيقة الموصوف المحذوف أي نوع آخر أو مذوق آخر، وقيل لأنه جيء به للتفصيل، ومما ذكروا من المسوغات أن تكون النكرة للتفصيل نحو الناس رجلان رجل أكرمته ورجل أهنته وبحث فيه ابن هشام في المغني،

وجعلوا ضمير شكله على الوجهين عائداً على آخر وهما لا يكادان يتسنيان على القراءة بالجمع فتدبر ولا تغفل، ﴿هَذَا فَوْجٌ﴾ جمع كثير من أتباعكم في الضلال.

﴿مُقْتَحِمٌ﴾ راكب الشدة داخل فيها أو متوسط شدة مخيفة ﴿مَعَكُمْ﴾ والمراد هذا فوج داخل معكم النار مقاس فيها ما تقاسونه، وهذا حكاية ما تقوله ملائكة العذاب لرؤساء الضلال عند دخول النار تقريعاً لهم فهو بتقدير فيقال لهم عند الدخول هذا الخ.

وفي الكشاف واستظهره أبو حيان أنه حكاية كلام الطاغين بعضهم مع بعض يخاطب بعضهم بعضاً في شأن أتباعهم يقول هذا فوج مقتحم معكم، والظرف متعلق بمقتحم، وجوز فيه أن يكون نعتاً ثانياً لفوج أو حالاً منه لأنه قد وصف أو من الضمير المستتر فيه، ومنع أبو البقاء جواز كونه ظرفاً قائلاً: إنه يلزم عليه فساد المعنى وتبعه الكواشي وصاحب الأنوار. وتعقبه صاحب الكشف بأنه إن كان الفساد لإنبائه عن تزاحمهم في الدخول وليس المعنى على المزاحمة بين الفريقين الأتباع والمتبوعين لأنهم بعد الدخول يقولون ذلك لا عند المزاحمة فغير لازم لأن الاقتحام لا ينبيء عن التزاحم ولا هو لازم له وإنما مثل ضربت معه زيداً ينبيء عن المشاركة في الضرب والمقارنة فكذلك اقتحام المتبوعين النار مع الأتباع ينبيء عن المشاركة في ركوب كل من الطائفتين قحمة النار ومقاساة شدتها في زمان متقارب عرفاً، ولو قيل هذا فوج معكم مقتحمون لم يفد أن المخاطبين أيضاً كذلك وفسد المعنى المقصود، والعجب ممن جوز أن يكون حالاً من ضمير ﴿مقتحم﴾ ولم يجوز أن يكون ظرفاً وإن كان بغير ذلك فليفد أولاً ثم ليعترض انتهى، وقال بعضهم: إن وجه فساد الظرفية دون الحالية أنه ليس المراد أنهم اقتحموا في الصحبة ودخلوا فيها بل اقتحموا في النار مصاحبين لكم ومقارنين إياكم، وهو كلام فاسد لا محصل له لأن مدلول مع المعبر عنه بالصحبة معناه الاجتماع في التلبس بمدلول متعلقها فيفيد اشتراك الطائفتين في الاقتحام لا في الصبحة كما توهمه ولا يدل على اتحاد زمانيهما كما صرح به في المغني، ولو سلم فهو لتقاربه عد متحداً كما أشير في عبارة الكشف إليه فالحق أنه لا فساد، وقوله تعالى: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ دعاء من المتبوعين على أتباعهم سواء كان قائل ما تقدم الملائكة عليهم السلام أو بعض الرؤساء لبعض أو صفة لفوج أو حال منه لوصفه أو من ضميره، وأياً ما كان يؤول بمقول لهم لا مرحباً لأنه دعاء فهو إنشاء لا يوصف به، وكذا لا يكون حالاً بدون تأويل، والمعنى على استحقاقهم أن يقال لهم ذلك لا أنهم قيل لهم ذلك بالفعل، وهو على الوصفية والحالية من كلام الملائكة عليهم السلام إن كانوا هم القائلين أو من كلام بعض الرؤساء، وجوز كونه ابتداء كلام منهم و ﴿مرحباً﴾ من الرحب بضم الراء وهو السعة ومنه الرحبة للفضاء الواسع وهو مفعول به لفعل واجب الإضمار و ﴿بهم﴾ بيان للمدعو عليهم، وتكون الباء للبيان كاللام في نحو سقياً له، وكون اللام دون الباء كذلك دعوى من غير دليل أي ما أتوا بهم رحباً وسعة، وقيل: الباء للتعدية فمجرورها مفعول ثان لأتوا وهو مبني على زعم أن اللام لا تكون للبيان، وكفى بكلام الزمخشري وأبي حيان دليلاً على خلافه، ويقال: مرحباً بك على معنى رحبت بلادك رحباً كما يقال على معنى أتيت رحباً من البلاد لا ضيقاً؛ ويفهم من كلام بعضهم جواز أن يكون ﴿مرحباً﴾ مفعولاً مطلقاً لمحذوف أي لا رحبت بهم الدار مرحباً، والجمهور على الأول، وأياً ما كان فالمراد بذلك مثبتاً الدعاء بالخير ومنفياً الدعاء بالسوء.

﴿إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ﴾ تعليل من جهة الملائكة لاستحقاقهم الدعاء عليهم أو وصفهم بما ذكر أو تعليل من الرؤساء لذلك، والكلام عليه يتضمن الإشارة إلى عدم انتفاعهم بهم كأنه قيل: إنهم داخلون النار بأعمالهم مثلنا فأي نفع لنا منهم فلا مرحباً بهم ﴿قَالُوا﴾ أي الأتباع وهم الفوج المقتحم للرؤساء.

﴿**بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ**﴾ أي بل أنتم أحق بما قيل لنا أو بما قلتم لنا، ولعلهم إنما خاطبوهم بذلك على تقدير كون القائل الملائكة الخزنة عليهم السلام مع أن الظاهر أن يقولوا بطريق الاعتذار إلى أولئك القائلين بل هم لا مرحباً بهم قصداً منهم إلى إظهار صدقهم بالمخاصمة مع الرؤساء والتحاكم إلى الخزنة طمعاً في قضائهم بتخفيف عذابهم أو تضعيف عذاب خصمائهم.

وفي البحر خاطبوهم لتكون المواجهة لمن كانوا لا يقدرون على مواجهتهم في الدنيا بقبيح أشفى لصدورهم حيث تسببوا في كفرهم وأنكى للرؤساء، وهذا أيضاً بتأويل القول بناء على أن الإنشاء لا يكون خبراً أي بل أنتم مقول فيكم أي أحق أن يقال فيكم لا مرحباً بكم ﴿**أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا**﴾ تعليل لأحقيتهم بذلك، وضمير الغيبة في ﴿**قدمتموه**﴾ للعذاب لفهمه مما قبله أو للمصدر الذي تضمنه ﴿**قالوا**﴾ وهو الصلى أي أنتم قدمتم العذاب أو الصلى ودخول النار لنا باغوائنا وإغرائنا على ما قدمنا من العقائد الزائغة والأعمال السيئة لا أنا باشرناها من تلقاء أنفسنا.

وفي الكلام مجازان عقليان، الأول إسناد التقديم إلى الرؤساء لأنهم السبب فيه بإغوائهم، والثاني إيقاعه على العذاب أو الصلى مع أنه ليس المقدم بل المقدم عمل السوء الذي هو سبب له، وقيل: أطلق الضمير الذي هو عبارة عن العذاب أو الصلى المسبب عن العمل على العمل مجازاً لغوياً، وقيل: لا حاجة إلى ارتكاب المجاز فيه فتقديم العذاب أو الصلى بتأخير الرحمة منهم ﴿**فَبِئْسَ الْقَرَارُ**﴾ أي فبئس المقر جهنم، وهو من كلام الأتباع وكأنهم قصدوا بذلك التشفي والإنكاء وإن ذلك المقر مشترك، وقيل: قصدوا بالذم المذكور تغليظ جناية الرؤساء عليهم ﴿**قَالُوا**﴾ أي الأتباع أيضاً، وقول ابن السائب: القائل جميع أهل النار خلاف الظاهر جداً فلا يصار إليه، وتوسيط الفعل بين كلاميهم لما بينهما من التباين ذاتاً وخطاباً أي قالوا معرضين عن خصومة رؤسائهم متضرعين إلى الله عزَّ وجلّ ﴿**رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ**﴾ أي مضاعفاً ومعناه ذا ضعف أي مثل وهو أن يزيد على عذابه مثله فيصير بتلك الزيادة مثلين لعذاب غيره، ويطلق الضعف على الزيادة المطلقة.

وقال ابن مسعود هنا: الضعف حيات وعقارب، والظاهر من بعض عباراتهم أن ﴿**من**﴾ موصولة، ونص الخفاجي على أنها شرطية. وفي البحر ﴿**من قدم**﴾ هم الرؤساء، وقال الضحاك: هو إبليس وقابيل، وهو أنسب بخلاف الظاهر المحكي عن ابن السائب ﴿**وَقَالُوا**﴾ الضمير للطاغين عند جمع أي قال الطاغون بعضهم لبعض على سبيل التعجب والتحسر ﴿**مَا لَنَا لا نَرَى رِجَالاً كُنَّا**﴾ في الدنيا ﴿**نَعُدُّهُمْ مِنَ الأَشْرارِ**﴾ أي الأراذل الذين لا خير فيهم ولا جدوى يعنون بذلك فقراء المؤمنين وكانوا يسترذلونهم ويسخرون منهم لفقرهم ومخالفتهم إياهم في الدين، وقيل: الضمير لصناديد قريش كأبي جهل وأمية بن خلف وأصحاب القليب، والرجال عمار وصهيب وسلمان وخباب وبلال وأضرابهم رضي الله تعالى عنهم بناء على ما روي عن مجاهد من أن الآية نزلت فيهم، واستضعفه صاحب الكشف وسبب النزول لا يكون دليلاً على الخصوص، واستظهر بعضهم أن الضمير للاتباع لأنه فيما قبل يعني قوله تعالى: ﴿**قالوا بل أنتم**﴾ الخ لهم أيضاً، وكانوا أيضاً يسخرون من فقراء المؤمنين تبعاً لرؤسائهم، وأياً ما كان فجملة ﴿**كنا**﴾ الخ صفة ﴿**رجالاً**﴾.

وقوله تعالى: ﴿**أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيّاً**﴾ بهمزة استفهام سقطت لأجلها همزة الوصل كما قرأ بذلك الحجازيان وابن عامر وعاصم وأبو جعفر والأعرج والحسن وقتادة استئناف لا محل له من الإعراب قالوه حيث لم يروهم معهم إنكاراً على أنفسهم وتأنيباً لها في الاستسخار منهم، وقوله تعالى: ﴿**أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ**﴾ متصل بقوله تعالى: ﴿**ما لنا لا نرى**﴾ الخ، وأم فيه متصلة وتقدم ما فيه معنى الهمزة يغني عن تقدمها على ما يقتضيه كلام الزمخشري،

والمعنى ما لنا لا نراهم في النار أليسوا فيها فلذلك لا نراهم بل أزاغت عنهم أبصارنا فلا نراهم وهم فيها أو بقوله تعالى: ﴿**اتخذناهم**﴾ الخ، وأم فيه إما متصلة أيضاً، والمقابلة باعتبار اللازم، والمعنى أن الأمرين فعلنا بهم الاستسخار منهم أم الازدراء بهم وتحقيرهم وإن أبصارنا تعلو عنهم وتقتحمهم على معنى إنكار الأمرين جميعاً على أنفسهم، وعن الحسن كل ذلك قد فعلوا اتخذوهم سخرياً وزاغت عنهم أبصارهم محقرة لهم، وإما منقطعة كأنهم أضربوا عن إنكار الاستسخار وأنكروا على أنفسهم أشد منه وهو أنهم جعلوهم محقرين لا ينظر إليهم بوجه، وفي ﴿**زاغت**﴾ دون أزغنا مبالغة عظيمة كأن العين بنفسها تمجهم لقبح منظرهم وأين هذا من السخر فقد يكون المسخور منه محبوباً مكرماً. وجوز أن يكون معنى أم زاغت على الانقطاع بل زاغت أبصارنا وكلت أفهامنا حتى خفي عنا مكانهم وأنهم على الحق المبين. وقرأ النحويان وحمزة «اتخذناهم» بغير همزة فجوز أن تكون مقدرة لدلالة أم عليها فتتحد القراءتان، وأن لا تكون كذلك ويكون الكلام أخباراً فقال ابن الأنباري: الجملة حال أي وقد اتخذناهم، وجوز كونها مستأنفة لبيان ما قبلها. وقال الزمخشري وجماعة: صفة ثانية لرجالاً و ﴿**أم زاغت**﴾ متصل بقوله تعالى: ﴿**ما لنا لا نرى**﴾ الخ كما سمعت أولاً.

وجوز أن تكون أم فيه منقطعة كأنهم أضربوا عما قبل وأنكروا على أنفسهم ما هو أشد منه أو أضربوا عن ذلك إلى بيان أن ما وقع منهم في حقهم كان لزيغ أبصارهم وكلال أفهامهم عن إدراك أنهم على الحق بسبب رثاثة حالهم، وقرأ عبد الله وأصحابه ومجاهد والضحاك وأبو جعفر وشيبة والأعرج ونافع وحمزة والكسائي «سُخْرِياً» بضم السين ومعناه على ما في البحر من السخرة والاستخدام، ومعنى سخرياً بالكسر على المشهور من السخر وهو الهزء وهو معنى ما حكي عن أبي عمرو قال: ما كان من مثل العبودية فسخري بالضم وما كان من مثل الهزء فسخري بالكسر، وقيل: هو بالكسر من التسخير ﴿**إِنَّ ذَلِكَ**﴾ أي الذي حكي عنهم ﴿**لَحَقٌّ**﴾ لا بد أن يتكلموا به فالمراد من حقيته تحققه في المستقبل.

وقوله تعالى: ﴿**تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ**﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هو تخاصم، والجملة بيان لذلك، وفي الإبهام أولاً والتبيين ثانياً مزيد تقرير له، وقال ابن عطية: بدل من حق والمبدل منه ليس في حكم السقوط حقيقة، وقيل بدل من محل اسم إن، والمراد بالتخاصم التقاول، وجوز إرادة ظاهرة فإن قول الرؤساء ﴿**لا مرحباً بهم**﴾ وقول الأتباع ﴿**بل أنتم لا مرحباً بكم**﴾ من باب الخصومة فسمي التفاوض كله تخاصماً لاشتماله عليه، قيل وهذا ظاهر أن التقاول بين المتبوعين والأتباع أما لو جعل الكل من كلام الخزنة فلا، ولو جعل ﴿**لا مرحباً**﴾ من كلام الرؤساء و ﴿**هذا فوج**﴾ من كلام الخزنة فيصح أن يجعل تخاصماً مجازاً. وقرأ ابن أبي عبلة «تخاصمَ» بالنصب فهو بدل من ذلك.

وقال الزمخشري: صفة له، وتعقب بأن وصف اسم الإشارة وإن جاز أن يكون بغير المشتق إلا أنه يلزم أن يكون معرفاً بأل كما ذكره في المفصل من غير نقل خلاف فيه فبينه وبين ما يستدعيه القول بالوصفية تناقض مع ما في ذلك من الفصل الممتنع أو القبيح. وأجاب صاحب الكشف بأن القياس يقتضي التجويز لأن اسم الإشارة يحتاج إلى رافع لإبهامه دال على ذات معينة سواء كان فيه اختصاص بحقيقة أخرى أو بحقائق أولاً، وهذا القدر لا يخرج الاسم عن الدلالة على حقيقة الذات المعينة التي يصح بها أن يكون وصفاً لاسم الإشارة، وأما الاستعمال فمعارض بأصل الاستعمال في الصفة فكما أن الجمهور حملوا على الصفة في نحو هذا الرجل مع احتمال البدل والبيان كذلك الزمخشري حمل على الوصف مع احتمال البدل لأنه التفت لفت المعنى، ولا يناقض ما في المفصل لأنه ذكر ذلك في باب النداء خاصة على تقدير عدم استقلال اسم الإشارة ولأن حال الاستقلال أقل لم يتعرض له، وقد بين في

موضعه أنه في النداء خاصة يمتنع وصف اسم الإشارة إذا لم يستقل بالمضاف إلى المعرف باللام على أنه كثيراً ما يخالف في أحد الكتابين الكشاف والمفصل الآخر، والاشكال بأنه يلزم الفصل غير قادح فإنه يجوز لا سيما على تقدير استقلال اسم الإشارة اهـ. ولا يخلو عن شيء.

وقرأ ابن السميفع «تَخَاصَمَ» فعلاً ماضياً «أهلُ» بالرفع على أنه فاعل له ﴿قُلْ﴾ يا محمد لمشركي مكة ﴿إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ﴾ أنذرتكم عذاب الله تعالى للمشركين، والكلام رد لقولهم هذا ساحر كذاب فإن الإنذار ينافي السحر والكذب.

وقد يقال: المراد إنما أنا رسول منذر لا ساحر كذاب، وفيه من الحسن ما فيه فإن كل واحد من وصفي الرسالة والإنذار ينافي كل واحد من وصفي السحر والكذب لكن منافاة الرسالة للسحر أظهر وبينهما طباق فكذلك الإنذار للكذب، وضم إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلهٍ إِلاَّ اللَّهُ﴾ لإفادة أن له ﷺ صفة الدعوة إلى توحيده عزَّ وجلّ أيضاً فالأمران مستقلان بالإفادة.

و ﴿مِن﴾ زائدة للتأكيد أي ما إله أصلاً إلا الله ﴿الْوَاحِدُ﴾ أي الذي لا يحتمل الكثرة في ذاته بحسب الجزئيات بأن يكون له سبحانه ماهية كلية ولا بحسب الأجزاء ﴿الْقَهَّارُ﴾ لكل شيء.

﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الموجودات منه سبحانه خلقها وإليه تدبير جميع أمورها ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي يغلب ولا يغلب في أمر من أموره جل شأنه فتندرج في ذلك المعاقبة ﴿الْغَفَّارُ﴾ المبالغ في المغفرة يغفر ما يشاء لمن يشاء تقرير للتوحيد، أما الوصف الأول فظاهر في ذلك غير محتاج للبيان، وأما القهار لكل شيء فلأنه لو كان إله غيره سبحانه لم يكن قهاراً له ضرورة أنه لا يكون حينئذ لها بل ربما يلزم أن يكون مقهوراً وذلك مناف للألوهية تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وأما ﴿رب السماوات﴾ الخ فلأنه لو أمكن غيره معه تعالى شأنه جاء دليل التمانع المشار إليه بقوله سبحانه: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ [الأنبياء: ٢٢] فلم تتكون السماوات والأرض وما بينهما، وقيل: لأن معنى ﴿رب السماوات﴾ الخ رب كل موجود فيدخل فيه كل ما سواه فلا يكون إلهاً، وأما العزيز فلأنه يقتضي أن يغلب غيره ولا يغلب ومع الشركة لا يتم ذلك.

وأما الغفار فلأنه يقتضي أن يغفر ما يشاء لمن يشاء فربما شاء مغفرة لأحد وشاء لآخر منه العقاب فإن حصل مراده فالآخر ليس بإله وإن حصل مراد الآخر ولم يحصل مراده لم يكن هو إلهاً تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وما قيل في برهان التمانع سؤالاً وجواباً يقال هنا، وفي هذه الأوصاف من الدلالة على الوعد والوعيد ما لا يخفى، وللاقتصار على وصف الانذار صريحاً فيما تقدم قدم وصف القهار على وصف الغفار هنا، وجوز أن يكون المقصود هو تحقيق الإنذار وجيء بالثاني تتميماً له وإيضاحاً لما فيه من الإجمال أي قل لهم ما أنا إلا منذر لكم بما أعلم وإنما أنذرتكم عقوبة من هذه صفته فإن مثله حقيق بأن يخاف عقابه كما هو حقيق بأن يرجى ثوابه، والوجه الأول أوفق لمقتضى المقام لأن التعقيب بتلك الصفات في الدلالة على أن الدعوة إلى التوحيد مقصودة بالذات بمكان لا ينكر ولأن هذا بالنسبة إلى ما مر من صدر السورة إلى هنا بمنزلة أن يقول المستدل بعد تمام تقريره فالحاصل فالأولى أن يكون على وزان المبسوط وفيه قوله تعالى: ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً﴾ [ص: ٥] فافهم.

﴿قُلْ﴾ تكرير الأمر للإيذان بأن المقول أمر جليل له شأن خطير لا بد من الاعتناء به أمراً وائتماراً ﴿هُوَ﴾ أي ما أنبأتكم به من كوني رسولاً منذراً وأن الله تعالى واحداً لا شريك له ﴿نَبأٌ عَظِيمٌ﴾ خبر ذو فائدة عظيمة جداً لا ريب فيه أصلاً ﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ متمادون في الإعراض عنه لتمادي غفلتكم، وهذه الجملة صفة ثانية لنبأ والكلام بجملته تحسير لهم وتنبيه على مكان الخطأ وإظهار لغاية الرأفة والعطف الذي يقتضيه مقام الدعوة. واستظهر بعض الأجلة أن

﴿هو﴾ للقرآن كما روي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة، واستشهد بآخر السورة وقال: إنه يدخل ما ذكر دخولاً أولياً، واختار كون هذه الجملة استئنافاً ناعياً عليهم سوء حالهم بالنسبة إليه وأنهم لا يقدرون قدره الجليل مع غاية عظمته الموجبة للإقبال عليه وتلقيه بحسن القبول؛ وكأن الكلام عليه ناظر إلى ما فيه أول السورة من قوله تعالى: ﴿والقرآن ذي الذكر بل الذين كفروا في عزة وشقاق﴾ [ص: ١، ٢] جيء به ليستدل على أنه وارد من جهته تعالى بما يشير إليه قوله تعالى:

مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي
خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ
أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ
أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ
رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ
﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾
قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا
مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾

﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ الخ حيث تضمن ذكر نبأ من أنبائه على التفصيل من غير سابقة معرفة به ولا مباشرة سبب من أسبابها المعتادة كالنظر في الكتب الإلهية والسماع من الكتابين وهو حجة بينة دالة على أنه بطريق الوحي من عند الله تعالى وأن سائر أنبائه أيضاً كذلك؛ وهو على ما قلنا تذكير لإثبات النبوة بذكر مختصر منه تمهيداً لإرشاد الطريق وتذكيراً للباقي وتسلقاً منه إلى استماع ما ذكره لطف للمدعوين وتنويه للداعي، وعدم التعرض لنحو ذلك في أمر التوحيد لظهور أدلته مع كونه ذكر شيء منها غضاً طرياً وهو ما أشارت إليه الصفات المذكورة آنفاً، فلا يقال: إن التعرض لإثبات النبوة دون التوحيد دليل على أن المقصود بالإفادة هو النبوة وأن الثاني جيء به تتميماً لذلك.

وأنت تعلم أن النبوة وكون القرآن وحياً من عند الله تعالى مثلا زمان متى ثبت أحدهما ثبت الآخر، لكن يرجح جعل الآية في النبوة وإثباتها القرب وتصدير هذه الآية بنحو ما صدرت به الآية المتضمنة دعوى النبوة قبلها من قوله تعالى (قل) فإن سلم لك هذا المرجح فذاك وإلا فلا تعدل عما روي عن ابن عباس ومن معه، وعن الحسن أن ذلك يوم القيامة كما في قوله تعالى: ﴿عم يتساءلون عن النبأ العظيم﴾ [النبأ: ١، ٢] وقيل: ما تقدم من أنباء الأنبياء عليهم السلام، وقيل: تخاصم أهل النار، وعدي العلم بالباء نظراً إلى معنى الإحاطة، والملأ الجماعة الأشراف لأنهم يملؤون العيون رواء والنفوس جلالة وبهاء وهو اسم جمع ولذا وصف بالمفرد أعني ﴿الأعلى﴾ والمراد به عند ملأ الملائكة وآدم عليهم السلام وإبليس عليه اللعنة وكانوا في السماء فالعلو حسي وكان التقاول بينهم على ما ستعلمه إن شاء الله، وإذ متعلقة بمحذوف يقتضيه المقام إذ المراد نفي علمه عليه الصلاة والسلام بحالهم لا بذواتهم، والتقدير ما كان لي فيما سبق علم ما بوجه من الوجوه بحال الملأ إلا على وقت اختصامهم، وهو أولى من تقدير الكلام كما ذهب إليه الجمهور أي ما كان لي علم بكلام الملأ إلا على وقت اختصامهم لأن علمه ﷺ غير مقصور على ما جرى بينهم من

الأقوال فقط بل عام لها وللأفعال أيضاً من سجود الملائكة عليهم السلام وإباء إبليس واستكباره حسبما ينطق به الوحي فالأولى اعتبار العموم في نفيه أيضاً، وقيل: إذ بدل اشتمال من ﴿الملأ﴾ أو ظرف لعلم وفيه بحث والاختصام فيما يشير إليه سبحانه بقوله عزَّ وجلّ ﴿إذ قال ربك﴾ الخ، والتعبير بيختصمون المضارع لأنه أمر غريب فأتى به لاستحضاره حكاية للحال، وضمير الجمع للملأ. وحكى أبو حيان كونه لقريش واستبعده وكأن في ﴿يختصمون﴾ حينئذ التفاتاً من الخطاب في ﴿أنتم عنه معرضون﴾ إلى الغيبة والاختصام في شأن رسالته ﷺ أو في شأن القرآن أو شأن المعاد وفيه عدول عن المأثور وارتكاب لما لا يكاد يفهم من الآية من غير داع إلى ذلك ومع هذا لا يقبله الذوق السليم، وقوله تعالى: ﴿إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلا إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ اعتراض وسط بين إجمال اختصامهم وتفصيله تقريراً لثبوت علمه عليه الصلاة والسلام وتعييناً لسببه إلا أن بيان انتفائه فيما سبق لما كان منبئاً عن ثبوته الآن، ومن البين عدم ملابسته ﷺ بشيء من مبادئه المعهودة تعين أنه ليس إلا بطريق الوحي حتماً فجعل ذلك أمراً مسلم الثبوت غنياً عن الإخبار به قصداً وجعل مصب الفائدة إخباره بما هو داع إلى الوحي ومصحح له، فالقائم مقام الفاعل ليوحى إما ضمير عائد إلى الحال المقدر كما أشير إليه سابقاً أو ما يعمه وغيره، فالمعنى ما يوحى إلي حال الملأ الأعلى أو ما يوحى إلى الذي يوحى من الأمور الغيبية التي من جملتها حالهم لأمر من الأمور إلا لأني نذير مبين من جهته تعالى فإن كونه عليه الصلاة والسلام كذلك من دواعي الوحي إليه ومصححاته، وجوز كون الضمير القائم مقام الفاعل عائداً إلى المصدر المفهوم من ﴿يوحى﴾ أي ما يفعل الإيحاء إلى بحال الملأ الأعلى أو بشيء من الأمور الغيبية التي من جملتها حالهم لأمر من الأمور إلا لأني الخ.

وجوز أيضاً كون الجار والمجرور نائب الفاعل ﴿وإنما﴾ على تقدير اللام، قال في الكشف: ومعنى الحصر أنه ﷺ لم يوح إليه لأمر إلا لأنه نذير مبين وأي مبين كقولك: لم تستقض يا فلان إلا لأنك عالم عامل مرشد. وجوز الزمخشري أن يكون بعد حذف اللام مقاماً مقام الفاعل، ومعنى الحصر أني لم أومر إلا بهذا الأمر وحده وليس إلى غير ذلك لأنه الأمر الذي يشتمل على كل الأوامر إما تضمناً وإما التزاماً أو لم أومر إلا بإنذاركم لا بهدايتكم وصدكم عن العناد فإن ذلك ليس إليَّ، وما ذكر أولاً أوفق بحال الاعتراض كما لا يخفى على من ليس أجنبياً عن إدراك اللطائف. وقرأ أبو جعفر ﴿إنما﴾ بالكسر على الحكاية أي ما يوحى إلي إلا هذه الجملة وإيحاؤها إليه أمره عليه الصلاة والسلام أن يقولها وحاصل معنى الحصر قريب مما ذكر آنفاً، وجوز أن يراد لم أومر إلا بأن أقول لكم هذا القول دون أن أقول أعلم الغيب بدون وحي مثلاً فتدبر ولا تغفل.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ الخ شروع في تفصيل ما أجمل من الاختصام الذي هو ما جرى بينهم من التقاول فهو بدل من ﴿إذ يختصمون﴾ بدل كل من كل، وجوز كونه بدل بعض، وصح إسناد الاختصام إلى الملائكة مع أن التقاول كان بينهم وبين الله تعالى كما يدل عليه ﴿إذ قال ربك﴾ الخ لأن تكليمه تعالى إياهم كل بواسطة الملك فمعنى المقاولة بين الملأ الأعلى مقاولة ملك من الملائكة مع سائر الملائكة عليهم السلام في شأن الاستخلاف ومع إبليس في شأن السجود ومع آدم في قوله: ﴿أنبئهم بأسمائهم﴾ [البقرة: ٣٣] ومعنى كون المقاولة بين الملائكة وآدم وإبليس وجودها فيما بينهم في الجملة ولا يلزم الجمع بين الحقيقة والمجاز في الإسناد فالكل حقيقة لأن الملأ الأعلى شامل للملك المتوسط وهو المقاول بالحقيقة وهو عزَّ وجلّ مقاول بالمجاز، ولا تقل المخاصم ليكون الأمر بالعكس، وما يقال: إن قوله تعالى: ﴿إذ قال ربك﴾ يقتضي بأن يكون مقاولته تعالى إياهم بلا واسطة فهو ممنوع لأنه إبدال زمان قصة عن زمان التفاوض فيها، والغرض أن تعلم القصة لا مطابقة كل جزء جزء لكل جزء جزء فذلك غير لازم ولا مراد، ثم فيه فائدة جليلة وهي أن مقاولة الملك إياهم أو إياهما عن الله تعالى فهم مقاولوه

تعالى أيضاً، وأريد هذا المعنى من هذا إلا يراد لا من اللفظ ليلزم الجمع المذكور آنفاً، وجعل الله عزَّ وجلّ من الملأ الأعلى بأن يراد به ما عدا البشر ليكون الاختصام قائماً به تعالى وبهم على معنى أنه سبحانه في مقابلتهم يخاصمونه ويخاصمهم مع ما فيه من إيهام الجهة له عزَّ وجلّ ينبو المقام عنه نبواً ظاهراً، ولم يذكر سبحانه جواب الملائكة عليهم السلام لتتم المقاولة اختصاراً بما كرر مراراً ولهذا لم يقل جل شأنه إني خالق خلقاً من صفته كيت وكيت جاعل إياه خليفة.

وروعي هذا النسق هاهنا لنكتة سرية وهي أن يجعل مصب الغرض من القصة حديث إبليس ليلائم ما كان فيه أهل مكة وأنه بامتناعه عن امتثال أمر واحد جرى عليه ما جرى فكيف يكون حالهم وهم مغمورون في المعاصي؛ وفيه أنه أول من سن العصيان فهو إمامهم وقائدهم إلى النار، وذكر حديث سجود الملائكة وطي مقاولتهم في شأن الاستخلاف ليفرق بين المقاولتين وأن السؤال قبل الأمر ليس مثله بعده فإن الثاني يلزمه التواني، ثم فيه حديث تكريم آدم عليه السلام ضمناً دلالة على أن المعلم والناصح يعظم وأنه شرع منه تعالى قديم، وكان على أهل مكة أن يعاملوا النبي ﷺ معاملة الملائكة لآدم لا معاملة إبليس له قاله صاحب الكشف وهو حسن بيد أن ما علل به الاختصار من تكرار ذلك مراراً لا يتم إلا إذا كان ذلك في سورة مكية نزلت قبل هذه السورة، وقد علل بعضهم ترك الذكر بالاكتفاء بما في البقرة، وفيه أن نزولها متأخر عن نزول هذه السورة لأنها مدنية وهذه مكية فلا يصح الاكتفاء إحالة عليها قبل نزولها، وكون المراد اكتفاء السامعين للقرآن بعد ذلك لا يخفى حاله، ولعل القصة كانت معلومة سماعاً منه ﷺ وكان عالمها بها بواسطة الوحي وإن لم تكن إذ ذاك نازلة قرآناً فاختصرت هاهنا لما ذكر في الكشف اكتفاء بذلك، وقال فيه أيضاً: وذلك أن تقول التقاول بين الملائكة وآدم عليهم السلام حيث قال: ﴿انبئوني بأسماء هؤلاء﴾ [البقرة: ٣١] تبكيتاً لهم بما نسبوا إليه من قولهم ﴿أتجعل﴾ [البقرة: ٣٠] فيها وبينه وبين إبليس إما لأنه داخل في الإنكار والتبكيت بل هو أشدهم في ذلك لكن غلب الله تعالى الملائكة لأنه أخس من أن يقرن مع هؤلاء مفرداً في الذكر أو لأنه أمر بالسجود لمعلمه فامتنع وأسمعه ما اسمع.

وقوله تعالى: ﴿**وإذ قال ربك**﴾ الخ للإتيان بطرف مشتمل على قصة المقاولة وتصوير أصلها فلم يلزم منه أن يكون الرب جل شأنه من المقاولين وإن كان بينه سبحانه وبينهم تقاول قد حكاه الله تعالى، وهذا أقل تكلفاً مما فيه دعوى أن تكليمه تعالى كان بواسطة الملك إذ للمانع أن يمنع التوسط على أصلنا وعلى أصل المعتزلة أيضاً لا سيما إذا جعل المبكتون الملائكة كلهم، وعلى الوجهين ظهر فائدة إبدال ﴿**إذ قال ربك**﴾ من ﴿**إذ يختصمون**﴾ على وجه بين، والاعتراض بأنه لو كان بدلاً لكان الظاهر إذ قال ربي لقوله: ﴿**ما كان لي من علم**﴾ فليس المقام مما يقتضي الالتفات غير قادح فإنه على أسلوب قوله تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم الذي جعل لكم الأرض﴾ [الزخرف: ٩، ١٠] فالخطاب بلكم نظراً إلى أنه من قول الله تعالى تمم قولهم وذنبه كذلك هاهنا هو من قول الله تعالى لتتميم قول النبي ﷺ وهذا على نحو ما يقول مخاطبك: جاءني الأمير فتقول الذي أكرمك وحباك أو يقول رأيت الأمير يوم الجمعة فتقول: يوم خلع عليك الخلعة الفلانية، ومنه علم أنه ليس من الالتفات في شيء وأن هذا الإبدال على هذا الأسلوب لمزيد الحسن انتهى، وجوز أن يقول: إن ﴿**إذ**﴾ قوله تعالى: ﴿**إذ قال ربك**﴾ ظرف ليختصمون، والمراد بالملأ الأعلى الملائكة وباختصامهم قولهم للّه تعالى ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾ [البقرة: ٣٠] في مقابلة قوله تعالى: ﴿إني جاعل في الأرض﴾ [البقرة: ٣٠] إلى غير ذلك، ولا يتوقف صحة إرادة ذلك على جعل الله تعالى من الملأ ولا على أنه سبحانه كلمهم بواسطة ملك ولا تقدم

تفصيل الاختصام مطلقاً بل يكفي ذكره بعد النزول سواء ذكر قرآناً أم لا، ويرجح تفسير الملأ بما ذكر على تفسيره بما يعم آدم عليه السلام أن ذاك على ما سمعت يستدعي القول بأن آدم كان في السماء وهو ظاهر في أنه عليه السلام خلق في السماء أو رفع إليها بعد خلقه في الأرض وكلا الأمرين لا يسلمهما كثير من الناس، وقد نقل ابن القيم في كتابه مفتاح دار السعادة عن جمع أن آدم عليه السلام إنما خلق في الأرض وأن الجنة التي أسكنها بعد أن جرى ما جرى كانت فيها أيضاً وأتى بأدلة كثيرة قوية على ذلك ولم يجب عن شيء منها فتدبر. وذهب بعضهم إلى أن الملأ الأعلى الملائكة وأن اختصامهم كان في الدرجات والكفارات، فقد أخرج الترمذي وصححه والطبراني وغيرهما من معاذ بن جبل قال: «احتبس عنا رسول الله ﷺ ذات غداة من صلاة الصبح حتى كدنا نتراءى عين الشمس فخرج سريعاً فثوب بالصلاة فصلى رسول الله ﷺ فلما سلم دعا بصوته فقال: على مصافكم ثم التفت إلينا ثم قال: أما إني أحدثكم بما حبسني عنكم الغداة إني قمت الليلة فقمت وصليت ما قدر لي ونعست في صلاتي حتى استثقلت فإذا أنا بربي تبارك وتعالى في أحسن صورة فقال: يا محمد قلت: لبيك ربي قال: فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت لا أدري فوضع كفه بين كتفي فوجدت برد أنامله بين ثديي فتجلى لي كل شيء وعرفته فقال: يا محمد قلت: لبيك قال: فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: في الدرجات والكفارات فقال: ما الدرجات؟ فقلت: إطعام الطعام وإفشاء السلام والصلاة بالليل والناس نيام قال: صدقت فما الكفارات؟ قلت اسباغ الوضوء في المكاره وانتظار الصلاة بعد الصلاة ونقل الاقدام إلى الجماعات قال: صدقت سل يا محمد فقلت: اللهم إني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين وأن تغفر لي وترحمني وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون اللهم إني أسألك حبك وحب من أحبك وحب عمل يقربني إلى حبك قال النبي ﷺ: تعلموهن وادرسوهن فإنهن حق» ومعنى اختصامهم في ذلك على ما في البحر اختلافهم في قدر ثوابه، ولا يخفى أن حمل الاختصام في الآية على ما ذكر بمراحل عن السياق فإنه مما لم يعرفه أهل الكتاب فلا يسلمه المشركون له عليه الصلاة والسلام أصلاً، نعم هو اختصام آخر لا تعلق له بالمقام، وجعل هؤلاء ـ إذ ـ في ﴿**إذ قال**﴾ منصوباً باذكر مقدراً، وكذا كل من قال: إن الاختصام ليس في شأن آدم عليه السلام يجعله كذلك. والشهاب الخفاجي قال: الأظهر أي مطلقاً تعلق إذ باذكر المقدر على ما عهد في مثله ليبقى ﴿**إذ يختصمون**﴾ على عمومه ولئلا يفصل بين البدل والمبدل منه وليشمل ما في الحديث الصحيح من اختصامهم في الكفارات والدرجات ولئلا يحتاج إلى توجيه العدول عن ربي إلى ﴿**ربك**﴾ انتهى، وفيه شيء لا يخفى.

ومن غريب ما قيل في اختصامهم ما حكاه الكرماني في عجائبه أنه عبارة عن مناظرتهم بينهم في استنباط العلوم كمناظرة أهل العلم في الأرض، ويرد به على من يزعم أن جميع علومهم بالفعل، والمعروف عن السلف أنه المقاولة في شأن عليه السلام والرد به حاصل أيضاً، والمراد بالملائكة في ﴿**إذ قال ربك للملائكة**﴾ ما يعم إبليس لأنه إذا ذاك كان مغموراً فيهم، ولعل التعبير بهم دون الضمير الراجع إلى الملأ الأعلى على القول بالاتحاد لشيوع تعلق القول بهم بين أهل الكتاب بهذا العنوان أو لشهرة المقابلة بين الملك والبشر فيلطف جداً قوله سبحانه ﴿**إذ قال ربك للملائكة**﴾ ﴿**إنّي خَالقٌ بَشَراً من طين**﴾ وقيل: عبر بذلك إظهاراً للاستغراق في المقول له، والمراد إني خالق فيما سيأتي، وفي التعبير بما ذكر ما ليس في التعبير بصيغة المضارع من الدلالة على أنه تعالى فاعل البتة من غير صارف، والبشر الجسم الكثيف يلاقي ويباشر أو بادي البشرة ظاهر الجلد غير مستور بشعر أو وبر أو صوف، والمراد به آدم عليه السلام؛ وذكر هنا خلقه من طين وفي آل عمران خلقه من تراب وفي الحجر من صلصال من حمأ مسنون وفي الأنبياء من عجل ولا منافاة غاية ما في الباب أنه ذكر في بعض المادة القريبة وفي بعض المادة البعيدة، ثم إن ما جرى عند

وقوع المحكي ليس اسم البشر الذي لم يخلق مسماه حينئذ فضلاً عن تسميته به بل عبارة كاشفة عن حاله وإنما عبر عنه بهذا الاسم عند الحكاية.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ أي صورته بالصورة الإنسانية والخلقة البشرية أو سويت أجزاء بدنه بتعديل طبائعه ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ تمثيل لإفاضة ما به الحياة بالفعل على المادة القابلة لها فليس ثمت نفخ ولا منفوخ أي فإذا أكملت استعداده وأفضت عليه ما يحيا به من الروح الطاهرة التي هي أمري ﴿فَقَعُوا لَهُ﴾ أمر من وقع، وفيه دليل على أن المأمور به ليس مجرد الانحناء كما قيل: أي فاسقطوا له ﴿سَاجِدِينَ﴾ تحية له وتكريماً ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي فخلقه فسواه فنفخ فيه الروح فسجد له الملائكة ﴿كُلُّهُمْ﴾ بحيث لم يبق أحد منهم إلا سجد ﴿أَجْمَعُونَ﴾ أي بطريق المعية بحيث لم يتأخر أحد منهم عن أحد فكل للإحاطة وأجمع للاجتماع، ولا اختصاص لإفادته ذلك بالحالية خلافاً لبعضهم، وتحقيقه على ما في الكشف أن الاشتقاق الواضح يرشد إلى أن فيه معنى الجمع والضم والأصل في الإطلاق الخطابي التنزيل على أكمل أحوال الشيء ولا خفاء في أن الجمع في وقت واحد أكمل أصنافه لكن لما شاع استعماله تأكيداً أقيم مقام كل في إفادة الإحاطة من غير نظر إلى الكمال فإذا فهمت الإحاطة بلفظ آخر لم يكن بد من ملاحظة الأصل صوناً للكلام عن الإلغاء ولو سلم فكل تأكيد الشمول بإخراجه عن الظهور إلى النصوص، و ﴿أجمعون﴾ تأكيد ذلك التأكيد فيفيد أتم أنواع الإحاطة وهو الإحاطة في وقت واحد، واستخراج هذه الفائدة من جعله كإقامة المظهر مقام المضمر لا يلوح وجهه، والنقض بقوله سبحانه: ﴿لأغوينهم أجمعين﴾ [الحجر: ٣٩، ص: ٨٢] منشؤه عدم تصور وجه الدلالة، وظاهر هذه الآية وآية الحجر أن سجودهم مترتب على ما حكي من الأمر التعليقي وكثير من الآيات الكريمة كالتي في البقرة والأعراف وغيرهما ظاهرة في أنه مترتب على الأمر التنجيزي وقد مر تحقيق ذلك فليراجع.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ استثناء متصل لما أنه وإن كان جنياً معدود في زمرة الملائكة موصوف بصفاتهم لا يقوم ولا يقعد إلا معهم فشملته الملائكة تغليباً ثم استثني استثناء واحد منهم أو لأن من الملائكة جنساً يتوالدون وهو منهم أو هو استثناء منقطع، وقوله تعالى: ﴿اسْتَكْبَرَ﴾ على الأول استئناف مبين لكيفية ترك السجود المفهوم من الاستثناء فإن تركه يحتمل أن يكون للتأمل والتروي وبه يتحقق أنه للإباء والاستكبار وعلى الثاني يجوز اتصاله بما قبله أي لكن إبليس استكبر وتعظم ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي وصار منهم باستكباره وتعاظمه على أمر الله تعالى، وترك الفاء المؤذنة بالسببية إحالة على فطنة السامع أو لظهور المراد.

وكون التعاظم على أمره عزَّ وجلّ لا سيما الشفاهي موجباً للكفر مما لا ينبغي أن يشك فيه على أن هذا الاستكبار كان متضمناً استقباح الأمر وعده جوراً، ويجوز أن يكون المعنى وكان من الكافرين في علم الله تعالى لعلمه عزَّ وجلّ أنه سيعصيه ويصدر عنه ما يصدر باختياره وخبث طويته واستعداده ﴿قَالَ﴾ عزَّ وجلّ على سبيل الإنكار والتوبيخ ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ﴾ أي من السجود ﴿لِمَا خَلَقْتُ﴾ أي للذي خلقته على أن ما موصولة والعائد محذوف، واستدل به على جواز إطلاق ﴿ما﴾ على آحاد من يعقل ومن لم يجز قال: إن ﴿ما﴾ مصدرية ويراد بالمصدر المفعول أي أن تسجد لمخلوق ﴿بِيَدَيَّ﴾ وهذا عند بعض أهل التأويل من الخلف تمثيل لكونه عليه السلام معتنى بخلقه فإن من شأن المعتنى به أن يعمل باليدين، ومن آثار ذلك خلقه من غير توسط أب وأم وكونه جسماً صغيراً انطوى فيه العالم الأكبر وكونه أهلاً لأن يفاض عليه ما لا يفاض على غيره إلى غير ذلك من مزايا الآدمية. وعند بعض آخر منهم اليد بمعنى القدرة والتثنية للتأكيد الدال على مزيد قدرته تعالى لأنها ترد لمجرد التكرير نحو ﴿ثم ارجع البصر كرتين﴾ [الملك: ٤] فأريد به لازمة وهو التأكيد وذلك لأن الله تعالى في خلقه أفعالاً مختلفة من جعله طيناً مخمراً

ثم جسماً ذا لحم وعظم ثم نفخ الروح فيه وإعطائه قوة العلم والعمل ونحو ذلك مما هو دال على مزيد قدرة خالق القوى والقدر، وجوز أن يكون ذلك لاختلاف فعل آدم فقد يصدر منه أفعال ملكية كأنها من آثار اليمين وقد يصدر منه أفعال حيوانية كأنها من آثار الشمال وكلتا يديه سبحانه يمين. وعند بعض اليد بمعنى النعمة والتثنية إما لنحو ما مر وإما على إرادة نعمة الدنيا ونعمة الآخرة.

والسلف يقولون: اليد مفردة وغير مفردة ثابتة لله عزَّ وجلّ على المعنى اللائق به سبحانه ولا يقولون في مثل هذا الموضع إنها بمعنى القدرة أو النعمة، وظاهر الأخبار أن للمخلوق بها مزية على غيره، فقد ثبت في الصحيح أنه سبحانه قال في جواب الملائكة: اجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة وعزتي وجلالي لا أجعل من خلقته بيدي كمن قلت له كن فكان.

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ في العظمة والبيهقي عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: خلق الله تعالى أربعاً بيده: العرش وجنات عدن والقلم وآدم ثم قال لكل شيء كن فكان، وجاء في غير ما خبر أنه تعالى كتب التوراة بيده، وفي حديث محاجة آدم وموسى عليهما السلام ما يدل على أن المخلوقية بها وصف تعظيم حيث قال له موسى: أنت آدم الذي خلقك الله تعالى بيده، وكذلك في حديث الشفاعة أن أهل الموقف يأتون آدم ويقولون له: أنت آدم أبو الناس خلقك الله تعالى بيده، ويعلم من ذلك أن ترتيب الإنكار في ﴿**ما منعك أن تسجد**﴾ على خلق الله تعالى إياه بيديه لتأكيد الإنكار وتشديد التوبيخ كأنه قيل: ما منعك أن تعظم بالسجود من هو أهل للتعظيم للعناية الربانية التي حفت إيجاده.

وزعم الزمخشري أن ﴿**خلقت بيدي**﴾ من باب رأيته بعيني فبيدي لتأكيد أنه مخلوق لا شك فيه وحيث إنّ إبليس ترك السجود لآدم عليه السلام لشبهة أنه سجود لمخلوق وانضم إلى ذلك أنه مخلوق من طين وأنه هو مخلوق من نار وزل عنه أن الله سبحانه حين أمر من هو أجل منه وأقرب عباده إليه زلفى وهم الملائكة امتثلوا ولم يلتفتوا إلى التفاوت بين الساجد والمسجود له تعظيماً لأمر ربهم وإجلالاً لخطابه ذكر له ما يتشبث به من الشبهة وأخرج له الكلام مخرج القول بالموجب مع التنبيه على مزلة القدم فكأنه قيل له ما منعك من السجود لشيء هو كما تقول مخلوق خلقته بيدي لا شك في كونه مخلوقاً امتثالاً لأمري وإعظاماً لخطابي كما فعلت الملائكة ولا يخفى أن المقام ناب عما ذكره أشد النبو، وجعل ذلك من باب رأيت بعيني لا يفيد إلا تأكيد المخلوقية، وإخراج الكلام مخرج القول بالموجب مما لا يكاد يقبل فإن سياق القول بالموجب أن يسلم له ثم ينكر عليه لا أن يقدم الإنكار أصلاً ويؤتى به كالرمز بل كالألغاز، وأيضاً الأخبار الصحيحة ظاهرة في أن ذاك وصف تعظيم لا كما زعمه، وأيضاً جعل سجود الملائكة لآدم راجعاً إلى محض الامتثال من غير نظر إلى تكريم آدم عليه السلام مردود بما سلم في عدة مواضع أنه سجود تكريم كيف وهو يقابل ﴿**أتجعل فيها**﴾ وكذلك تعليمه إياهم فليلحظ. فيه جانب الآمر تعالى شأنه وجانب المسجود له عليه الصلاة والسلام توفية للحقين وكأنه قال ما قال وأخرج الآية على وجه لم يخطر ببال إبليس حذراً من خرم مذهبه ولا عليه أن يسلم دلالة الآية على التكريم ويخصه بوجه وحينئذ لا تدل على الأفضلية مطلقاً حتى يلزم خرم مذهبه، ولعمري إنّ هذا الرجل عق أباه آدم عليه السلام في هذا المبحث من كشافه حيث أورد فيه مثالاً لما قرره في الآية جعل فيه سقاط الحشم مثالاً لآدم عليه السلام وبر عدو الله تعالى إبليس حيث أقام له عذره وصوب اعتقاده أنه أفضل من آدم لكونه من نار وآدم من طين وإنما غلطه من جهة أخرى وهو أنه لم يقس نفسه على الملائكة إذ سجدوا له على علمهم أنه بالنسبة إليهم محطوط الرتبة ساقط المنزلة وكم له من عثرة لا يقال لصاحبها لعا مع الأنبياء صلوات الله تعالى وسلامه عليهم في هذا المقام، نسأل الله تعالى أن يعصمنا من مهاوي الهوى ويثبت لنا الأقدام، وقرىء «بيدِي»

بكسر الدال كمصرخي و «بيدي» على التوحيد ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ بهمزة الإنكار وطرح همزة الوصل أي أتكبرت من غير استحقاق ﴿أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ أو كنت مستحقاً للعلو فائقاً فيه، وقيل المعنى أحدث لك الاستكبار أم لم تزل منذ كنت من المستكبرين فالتقابل على الأول باعتبار الاستحقاق وعدمه وعلى الثاني باعتبار الحدوث والقدم ولذا قيل ﴿كنت من العالين﴾ دون أنت من العالين، وقيل إن العالين صنف من الملائكة يقال لهم المهيمون مستغرقون بملاحظة جمال الله تعالى وجلاله لا يعلم أحدهم أن الله تعالى خلق غيره لم يؤمروا بالسجود لآدم عليه السلام أو هم ملائكة السماء ولم يؤمروا بالسجود وإنما المأمور ملائكة الأرض فالمعنى أتركت السجود استكباراً أم تركته لكونك ممن لم يؤمر به ولا يخفى ما فيه، وأم في كل ذلك متصلة ونقل ابن عطية عن كثير من النحويين أنها لا تكون كذلك إذا اختلف الفعلان نحو أضربت زيداً أم قتلته.

وتعقبه أبو حيان بأنه مذهب غير صحيح وأن سيبويه صرح بخلافه. وقرأت فرقة منهم ابن كثير فيما قيل ﴿استكبرت﴾ بصلة الألف وهي قراءة أهل مكة وليست في مشهور ابن كثير فاحتمل أن تكون همزة الاستفهام قد حذفت لدلالة أم عليها كقوله:

بسبع رمينا الجمر أم بثمان

واحتمل أن يكون الكلام إخباراً وأم منقطعة والمعنى بل أنت من العالين والمراد استخفافه سبحانه به ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ قيل هو جواب عن الاستفهام الأخير يؤدي مؤدى أنه كذلك أي هو من العالين على الوجه الأول وأنه ليس من الاستكبار سابقاً ولاحقاً في شيء على الوجه الثاني ويجري مجرى التعليل كونه فائقاً إلا أنه لما لم يكن وافياً بالمقصود لأنه مجرد دعوى أوثر بيانه بما يفيد ذلك وزيادة وهو قوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ أما الأول فظاهر وأما الثاني فلأنه ذكر النوعين تنبيهاً على أن المماثلة كافية فضلاً عن الأفضلية ولهذا أبهم وفصل وقابل وآثر ﴿خلقتني﴾ و ﴿خلقته﴾ دون أنا من نار وهو من طين ليدل على أن المماثلة في المخلوقية مانعة فكيف إذا انضم إليها خيرية المادة، وفيه تنبيه على أن الآمر كان أولى أن يستنكف فإنه أعني السجود حق الآمر، واستلطفه صاحب الكشف ثم قال: ومنه يعلم أن جواب إبليس من الأسلوب الأحمق. وجعل غير واحد قوله ﴿أنا خير منه﴾ جواباً أولاً وبالذات عن الاستفهام بقوله تعالى: ﴿ما منعك أن تسجد﴾ بادعاء شيء مستلزم للمانع من السجود على زعمه، وقوله: ﴿خلقتني﴾ الخ تعليلاً لدعوى الخيرية.

وأياً ما كان فقد أخطأ اللعين إذ لا مماثلة في المخلوقية فمخلوقية آدم عليه السلام باليدين ولا كذلك مخلوقيته وأمر خيرية المادة على العكس في النظر الدقيق ومع هذا الفضل غير منحصر بما كان من جهتها بل يكون من جهة الصورة والغاية أيضاً وفضل آدم عليه السلام في ذلك لا يخفى، وكأن خطاه لظهوره لم يتعرض لبيانه بل جعل جوابه طرده وذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا﴾ والفاء لترتيب الأمر على ما ظهر من اللعين من المخالفة للأمر الجليل وتعليلها بأظهر الأباطيل أي فاخرج من الجنة، والإضمار قبل ذكرها لشهرة كونه من سكانها.

وعن ابن عباس أنه كان في عدن لا في جنة الخلد ثم إنه يكفي في صحة الأمر كونه ممن اتخذ الجنة وطناً ومسكناً ولا تتوقف على كونه فيها بالفعل وقت الخطاب كما هو شائع في المحاورات يقول من يخاصم صاحبه في السوق أو غيره في دار: اخرج من الدار مع أنه وقت المخاصمة ليس فيها بالفعل وهذا إن قيل: إن المحاورة لم تكن في الجنة، وقيل: منها أي من زمرة الملائكة المعززين وهو المراد بالهبوط لا الهبوط من السماء كما قيل فإن وسوسته لآدم عليه السلام كانت بعد هذا الطرد وكانت على ما روي عن الحس بطريق النداء من باب الجنة على أن كثيراً من

العلماء أنكروا الهبوط من السماء بالكلية، بناء على أن الجنة التي أسكنها آدم عليه السلام كانت في الأرض، وقيل: اخرج من الخلقة التي أنت فيها وانسلخ منها والأمر للتكوين، وكان عليه اللعنة يفتخر بخلقته فغير الله تعالى خلقته فاسود بعد ما كان أبيض وقبح بعد ما كان حسناً وأظلم بعد ما كان نورانياً.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ تعليل للأمر بالخروج أي مطرود من كل خير وكرامة فالرجم كناية عن الطرد لأن المطرود يرجم بالحجارة أو شيطان يرجم بالشهب كذا قالوا، وقد يقال: المراد برجيم ذليل فإن الرجم يستدعي الذلة، وهو أبعد من توهم التكرار مع الجملة بعد من الوجه الأول وأوفق لما في [الأعراف: ١٣] من قوله تعالى: ﴿فاخرج إنك من الصاغرين﴾ ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾ أي إبعادي عن الرحمة، وفي [الحج: ٣٥] ﴿اللعنة﴾ فإن كانت أل فيه للعهد أو عوضاً عن الضمير المضاف إليه فعدم الفرق بين ما هناك وما هنا ظاهر وإن أريد كل لعنة فذاك لما أن لعنة اللاعنين من الملائكة والثقلين أيضاً من جهته تعالى فهم يدعون عليه بلعنة الله تعالى وإبعاده من رحمته ﴿إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ يوم الجزاء والعقوبة، وفيه إيذان بأن اللعنة مع كمال فظاعتها ليست كافية في جزاء جنايته بل هي أنموذج مما سيلقاه مستمرة إلى ذلك اليوم، لكن لا على أنها تنقطع يومئذ كما يوهمه ظاهر التوقيت ونسب القول به إلى بعض الصوفية بل على أنه سيلقى يومئذ من ألوان العذاب وأفانين العقاب ما تنسى عنده اللعنة وتصير كالزائل ألا يرى إلى قوله تعالى: ﴿فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين﴾ [الأعراف: ٤٤] وقوله تعالى: ﴿ويلعن بعضكم بعضاً﴾ [العنكبوت: ٢٥] ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي﴾ أي أمهلني وأخرني، والفاء متعلقة بمحذوف ينحسب عليه الكلام كأنه قال: إذا جعلتني رجيماً فأمهلني ولا تمتني ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي آدم وذريته للجزاء بعد الموت وهو وقت النفخة الثانية، وأراد اللعين بذلك أن يجد فسحة من إغوائهم ويأخذ منهم ثأره وينجو من الموت لأنه لا يكون بعد البعث وكان أمر البعث معروفاً بين الملائكة فسمعه منهم فقال ما قال، ويمكن أن يكون قد عرفه عقلاً حيث عرف ببعض الأمارات أو بطريق آخر من طرق المعرفة أن أفراد هذا الجنس لا تخلو من وقوع ظلم بينها وأن الدار ليست دار قرار بل لا بد من الموت فيها وأن الحكمة تقتضي الجزاء.

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ ورود الجواب بالجملة الاسمية مع التعرض لشمول ما سأله الآخرين على وجه يشعر بأن السائل تبع لهم في ذلك صريح في أنه إخبار بالإنظار المقدر لهم أزلاً لا إنشاء لإنظار خاص به قد وقع إجابة لدعائه وأن استنظاره كان طلباً لتأخير الموت إذ به يتحقق كونه منهم لا لتأخير العقوبة كما قيل فإن ذلك معلوم من إضافة اليوم إلى الدين أي إنك من جملة الذين أخرت آجالهم أزلاً حسبما تقتضيه حكمة التكوين ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ الذي قدرته وعينته لفناء الخلائق وهو وقت النفخة الأولى لا إلى وقت البعث الذي هو المسؤول فالفاء ليست لربط نفس الأنظار بالاستنظار بل لربط الإخبار المؤكد به كما في قوله تعالى: ﴿إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل﴾ [يوسف: ٧٧] وقول الشافعي:

فإن ترحم فأنت لذلك أهل

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ﴾ قسم بسلطان الله عزَّ وجلّ وقهره وهو كما يكون بالذات يكون بالصفة فالباء للقسم على ما عليه الأكثرون والفاء لترتيب مضمون الجملة على الأنظار أي فاقسم بعزتك ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي أفراد هذا النوع بتزيين المعاصي لهم ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ وهم الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته وعصمهم عن الغواية. وقرىء «المُخْلِصِين» على صيغة الفاعل أي الذين أخلصوا قلوبهم أو أعمالهم لله تعالى.

﴿قَالَ﴾ أي الله عزَّ وجلّ ﴿فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ برفع الأول على أنه مبتدأ محذوف الخبر أو خبر محذوف

المبتدأ ونصب الثاني على أنه مفعول لما بعده قدم عليه للقصر أي لا أقول إلا الحق، والفاء لترتيب مضمون ما بعدها على ما قبلها أي فالحق قسمي ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ على أن الحق إما اسمه تعالى أو نقيض الباطل عظمه الله تعالى بإقسامه به، ورجح بحديث إعادة الاسم معرفة أو فأنا الحق أو فقولي الحق، وقوله تعالى: ﴿لأملان﴾ الخ حينئذ جواب لقسم محذوف أي والله لأملان الخ، وقوله تعالى: ﴿والحق أقول﴾ على تقدير اعتراض مقرر على الوجهين الأولين لمضمون الجملة القسمية وعلى الوجه الثالث لمضمون الجملة المتقدمة أعني فقولي الحق.

وقول ﴿فالحق﴾ مبتدأ خبره ﴿لأملان﴾ لأن المعنى أن املأ ليس بشيء أصلاً. وقرأ الجمهور «فالحقّ والحَقّ» بنصبهما وخرج على أن الثاني مفعول مقدم كما تقدم والأول مقسم به حذف منه حرف القسم فانتصب كما في بيت الكتاب:

إن علـيـك الله أن تـبـايـعـا ... تـؤخـذ كـرهـاً أو تـجـيء طـائـعـا

وقولك: الله لأفعلن وجوابه ﴿لأملأن﴾ وما بينهما اعتراض وقيل هو منصوب على الإغراء أي فالزموا الحق و ﴿لأملأن﴾ جواب قسم محذوف، وقال الفراء: هو على معنى قولك حقاً لآتينك ووجود أل وطرحها سواء أي لأملأن جهنم حقاً فهو عنده نصب على أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة، ولا يخفى أن هذا المصدر لا يجوز تقديمه عند جمهور النحاة وأنه مخصوص بالجملة التي جزآها معرفتان جامدان جموداً محضاً. وقال صاحب البسيط: وقد يجوز أن يكون الخبر نكرة والمبتدأ يكون ضميراً نحو هو زيد معروفاً وهو الحق بينا وأنا الأمير مفتخراً ويكون ظاهراً نحو زيد أبوك عطوفاً وأخوك زيد معروفاً اهـ فكأن الفراء لا يشترط في ذلك ما يشترطون.

وقرأ ابن عباس ومجاهد والأعمش بالرفع فيهما، وخرج رفع الأول على ما مر ورفع الثاني على أنه مبتدأ والجملة بعده خبر والرابط محذوف أي أقوله كقراءة ابن عامر ﴿وكل وعد الله الحسنى﴾ [النساء: ٩٥] وقول أبي النجم:

قـد أصـبـحـت أم الـخـيـار تـدعـي ... عـلـيَّ ذنـبـاً كـلـه لـم أصـنـع

برفع كل ليتأتى السلب الكلي المقصود للشاعر، وقرأ الحسن وعيسى وعبد الرحمن بن أبي حماد عن أبي بكر بجرهما، وخرج على أن الأول مجرور بواو القسم محذوفة أي فوالحق، والثاني مجرور بالعطف عليه كما تقول: والله والله لأقومن، و ﴿أقول﴾ اعتراض بين القسم وجوابه، وجعله الزمخشري مفعولاً مقدماً لأقول والجر على حكاية لفظ المقسم به قال: ومعناه التوكيد والتشديد وإفادته ذلك زيادة على ما يفيده أصل الاعتراض لأن العدول عما يقتضيه من الإعراب إلى الحكاية لما كان لاستبقاء الصورة الأولى دل على أنها من العناية في شأنها بمكان وهذا جار في كل حكاية من دون فعل قول وما يقوم مقامه فيدل فيما نحن فيه على فضل عناية بشأن القسم ويفيد التشديد والتوكيد. وقرىء بجر الأول على اضمار حرف القسم ونصب الثاني على المفعولية ﴿مِنكَ﴾ أي من جنسك من الشياطين ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾ في الغواية والضلالة ﴿مِنْهُمْ﴾ من ذرية آدم عليه السلام ﴿أَجْمَعِينَ﴾ توكيد للضمير في ﴿منك﴾ والضمير المجرور بمن الثانية، والمعنى لأملأن جهنم من المتبوعين والتابعين أجمعين لا أترك منهم أحداً أو توكيد للتابعين فحسب والمعنى لأملأنها من الشياطين وممن تبعهم من جميع الناس لا تفاوت في ذلك بين ناس وناس بعد وجود الأتباع منهم من أولاد الأنبياء وغيرهم، وتأكيد التابعين دون المتبوعين لما أن حال التابعين إذا بلغ إلى أن اتصل إلى أولاد الأنبياء فما بال المتبوعين. وقال صاحب الكشف: صاحب هذا القول اعتبر القرب وأن الكلام بين الحق تعالى شأنه وبين الملعون في شأن التابعين فأكد ما هو المقصود وترك توكيد الآخر للاكتفاء. هذا واعلم أن هذه القصة قد ذكرت في عدة سور وقد ترك في بعضها بعض ما ذكر في البعض الآخر للإيجاز ثقة ما ذكر في ذلك وقد يكون

فيها في موضعين مثلاً لفظان متحدان مآلاً مختلفان لفظاً رعاية للتفنن، وقد يحمل الاختلاف على تعدد الصدور فيقال مثلاً: إن اللعين أقسم مرة بالعزة فحكى ذلك في سورة ﴿ص﴾ بقوله تعالى: ﴿**قال فبعزتك**﴾ وأخرى بإغواء الله تعالى الذي هو أثر من آثار قدرته وعزته عزَّ وجلّ وحكم من أحكام سلطانه فحكى ذلك في سورة [الأعراف: ١٦] بقوله تعالى: ﴿قال فبما أغويتني﴾ وقد يحمل الاختلاف على اختلاف المقامات كترك الفاء من قوله ﴿**أنظرني إلى يوم يبعثون**﴾ ومن قوله تعالى: ﴿**إنك من المنظرين**﴾ في [الأعراف: ١٤، ١٥] مع ذكرها فيهما في ﴿**ص**﴾ والذي يجب اعتباره في نقل الكلام إنما هو أصل معناه ونفس مدلوله الذي يفيده وأما كيفية إفادته له فليس مما يجب مراعاته عند النقل البتة بل قد تراعى وقد لا تراعى حسب اقتضاء المقام، ولا يقدح في أصل الكلام تجريده عنها بل قد تراعى عند نقله كيفيات وخصوصيات لم يراعها المتلكم أصلاً حيث إنّ مقام الحكاية اقتضتها وهي ملاك الأمر ولا يخل ذلك بكون المنقول أصل المعنى كما قد حققه صدر المفتين أبو السعود وأطال الكلام فيه فليراجع ﴿**قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ**﴾ أي على القرآن كما روي عن ابن عباس أو على تبليغ ما يوحى إلي أو على الدعاء إلى الله تعالى على ما قيل ﴿**مِنْ أَجْرٍ**﴾ أي أجراً دنيوياً جل أو قل ﴿**وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ**﴾ من الذين يتصنعون ويتحلون بما ليسوا من أهله وما عرفتموني قط متصنعاً ولا مدعياً ما ليس عندي حتى انتحل النبوة وأتقول القرآن فأمره ﷺ أن يقول لهم عن نفسه هذه المقالة ليس لإعلامهم بالمضمون بل للاستشهاد بما عرفوه منه عليه الصلاة والسلام وللتذكير بما علموه وفي ذلك ذم التكلف.

وأخرج ابن عدي عن أبي برزة قال: «قال رسول الله ﷺ ألا أنبئكم بأهل الجنة؟ قلنا: بلى يا رسول الله قال: هم الرحماء بينهم قال: ألا أنبئكم بأهل النار؟ قلنا: بلى قال: هم الآيسون القانطون الكذابون المتكلفون» وعلامة المتكلف كما أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن ابن المنذر ثلاث أن ينازل من فوقه ويتعاطى ما لا ينال ويقول ما لا يعلم، وفي الصحيحين أن ابن مسعود قال: أيها الناس من علم منكم علماً فليقل به ومن لم يعلم فليقل الله تعالى أعلم قال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿**قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين**﴾ ﴿**إِنْ هُوَ**﴾ أي ما هو أي القرآن ﴿**إِلاَّ ذِكْرٌ**﴾ جليل الشأن من الله تعالى. ﴿**لِلْعَالَمِينَ**﴾ للثقلين كافة ﴿**وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ**﴾ أي ما أنبأ به من الوعد والوعيد وغيرهما أو خبره الذي يقال فيه في نفس الأمر وهو أنه الحق والصدق ﴿**بَعْدَ حِينٍ**﴾ قال ابن عباس وعكرمة وابن زيد: يعني يوم القيامة، وقال قتادة: والفراء والزجاج: بعد الموت، وكان الحسن يقول: يا ابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين، وفسر نبؤه بالوعد والوعيد الكائنين في الدنيا، والمراد لتعلمن ذلك بتحققه إذا أخذتكم سيوف المسلمين وذلك يوم بدر وأشار إلى هذا السدي، وأياً ما كان ففي الآية من التهديد ما لا يخفى.

هذا وَممَّا قَالَهُ بَعْضُ السَّادَة الصُّوفيَّة في بعَض الآيات قالوا في قوله تعالى: ﴿**إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق والطير محشورة كل له أواب**﴾ أنه ظاهر في أن الجماد والحيوان الذي هو عند أهل الحجاب غير ناطق حي دراك له علم بالله عزَّ وجلّ، ونقل الشعراني عن شيخه على الخواص قدس سره القول بتكليف البهائم من حيث لا يشعر المحجوبون، وجوز أن يكون نذيرها من ذواتها وأن يكون خارجاً عنها من جنسها، وقال: ما سميت بهائم إلا لكون أمر كلامها وأحوالها قد أبهم على غالب الخلق لا لأن الأمر مبهم عليها نفسها. وحكي عنه أنه كان يعامل كل جماد في الوجود معاملة الحي ويقول: إنه يفهم الخطاب ويتألم كما يتألم الحيوان.

وقيل: في قوله تعالى: ﴿**وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾ إشارة إلى أن النفوس مجبولة على الظلم وسائر الصفات الذميمة وإلى أن الذين تزكت أنفسهم قليل

جداً بالنسبة إلى الآخرين ﴿**يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض**﴾ نقل الشعراني أن خلافته عليه السلام وكذا خلافة آدم كانت في عالم الصور وعالم الأنفس المدبرة لها دون العالم النوراني فإن لكل شخص من أهله مقاماً معلوماً عينه له ربه سبحانه، وللشيخ الأكبر قدس سره كلام طويل في الخلافة، ويحكى عن بعض الزنادقة أن الخليفة لا يكتب عليه خطيئة ولا هو داخل في ربقة التكليف لأن مرتبته مرتبة مستخلفة وهو كفر صراح، وفرق العلماء بين الخليفة والملك.

أخرج الثعلبي من طريق العوام بن حوشب قال: حدثني رجل من قومي شهد عمر رضي الله تعالى عنه أنه سأل طلحة والزبير وكعباً وسلمان رضي الله تعالى عنهم ما الخليفة من الملك؟ فقال طلحة والزبير: ما ندري فقال سلمان: الخليفة الذي يعدل في الرعية ويقسم بينهم بالسوية ويشفق عليهم شفقة الرجل على أهله ويقضي بكتاب الله تعالى فقال كعب: ما كنت أحسب أحداً يعرف الخليفة من الملك غيري فقوله تعالى: ﴿**فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى**﴾ كالتفسير لهذه الخلافة وفيه إشارة إلى ذم الهوى، وفي بعض الآثار ما عبد إله في الأرض أبغض على الله تعالى من الهوى فهو أعظم الأصنام.

وقوله تعالى: ﴿**فطفق مسحاً بالسوق والأعناق**﴾ فيه إشارة بناء على المشهور في القصة إلى أن كل محبوب سوى الله تعالى إذا حجبك عن الله تعالى لحظة يلزمك أن تعالجه بسيف نفي لا إله إلا الله وقد سمعت استدلال الشبلي بذلك على تخريق ثيابه وما قيل فيه قال: ﴿**رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي**﴾ لم يقصد بذلك السؤال إلا ما يوجب مزيد القرب إليه عزَّ وجلّ وليس فيه ما يخل بكماله عليه السلام وإلا لعوتب عليه، وقد تقدم الكلام في ذلك ومنه يعلم كذب ما في الجواهر والدرر نقلاً عن الخواص قال: بلغنا أن النملة التي كلمت سليمان عليه السلام قالت: يا نبي الله أعطني الأمان وأنا أنصحك بشيء ما أظنك تعلمه فأعطاها الأمان فأسرت إليه في أذنه وقالت: إني أشم من قولك ﴿**هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي**﴾ رائحة الحسد فتغير سليمان واغير لونه ثم قالت له: قد تركت الأدب مع الله تعالى من وجوه، منها عدم خروجك من شح النفس الذي نهاك الله تعالى عنه إلى حضرة الكرم الذي أمرك الله تعالى به، ومنها مبالغتك في السؤال بأن لا يكون ذلك العطاء لأحد من عبيد سيدك من بعدك فحجرت على الحق تعالى بأن لا يعطي أحداً بعد موتك ما أعطاه كل ذلك لمبالغتك في شدة الحرص، ومنها طلبك أن يكون ملك سيدك لك وحدك تقول هب لي وغاب عنك أنك عبد له لا يصح أن تملك معه شيئاً مع أن فرحك بالعطاء لا يكون إلا مع شهود ملكك له وكفى بذلك جهلاً ثم قالت له: يا سليمان وماذا ملكك الذي سألته أن يعطيكه فقال: خاتمي قالت: اف لملك يحويه خاتم انتهى، ويدل على كذب ما بلغه وجوه أيضاً لا تخفى على الخواص والعجب من أنها خفيت على الخواص، وقوله تعالى: ﴿**يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي**﴾ يشير إلى فضل آدم عليه السلام وأنه أكمل المظاهر، واليد أن عندهم إشارة إلى صفتي اللطف والقهر وكل الصفات ترجع إليهما، ولا شك عندنا في أنه أفضل من الملائكة عليهم السلام. وذكر الشعراني أنه سأل الخواص عن مسألة التفضيل الذي أشرنا إليه فقال: الذي ذهب إليه جماعة من الصوفية أن التفاضل إنما يصح بين الأجناس المشتركة كما يقال أفضل الجواهر الياقوت وأفضل الثياب الحلة وأما إذا اختلفت الأجناس فلا تفاضل فلا يقال أيما أفضل الياقوت أم الحلة؟ ثم قال: والذي نذهب إليه أن الأرواح جميعها لا يصح فيها تفاضل إلا بطريق الأخبار عن الله تعالى فمن أخبره الحق تعالى بذلك فهو الذي حصل له العلم التام وقد تنوعت الأرواح إلى ثلاثة أنواع. أرواح تدبر أجساداً نورية وهم الملأ الأعلى. وأرواح تدبر أجساداً نارية وهم الجن وأرواح تدبر أجساداً ترابية وهم البشر، فالأرواح جميعها ملائكة

حقيقة واحدة وجنس واحد فمن فاضل من غير علم إلهي فليس عنده تحقيق فإنّا لو نظرنا التفاضل من حيث النشأة مطلقاً قال العقل بتفضيل الملائكة ولو نظرنا إلى كمال النشأة وجمعيتها حكمنا بتفضيل البشر، ومن أين لنا ركون إلى ترجيح جانب على آخر مع أن الملك جزء من الإنسان من حيث روحه لأن الأرواح ملائكة فالكل من الجزء والجزء من الكل، ولا يقال أيما أفضل جزء الإنسان أو كله فافهم انتهى، والكلام في أمر التفضيل طويل محله كتب الكلام ثم أن حظ العارف من القصص المذكورة في هذه السورة الجليلة لا يخفى إلا على ذوي الأبصار الكليلة نسأل الله تعالى أن يوفقنا لفهم كتابه بحرمة سيد أنبيائه وأحبابه ﷺ وشرف وعظم وكرم.